اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة

المؤرخ العربى

تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الثامن المجلد الأول مارس ٢٠٠٠

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الثامن – المجلد الأول

مارس ٢٠٠٠

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المـؤرخ العـربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثامن – المجلد الأول – مارس ٢٠٠٠

فى هذا العدد

- **المحاولات العربية لفتح القسطنطينية فى العصر الأموى .**

د. صلاح حسن العاوور

- **التاريخ السياسى لمدينة أستجة الأندلسية منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الدولة الأموية .** د. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا
- **وزراء العصر العباسى الأول .** د . فايزة إسماعيل أكبر
- **القبالات فى المغرب والأندلس .** د. صلاح أحمد عبد خليفة
- **ابن ظفر الصقلى وجهوده العلمية .** د. على محمد سعيد الزهرانى
- **السياسة الأمنية للسلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الأول .**

د. نورة عبد الله بادياب

- **التنافس الدولى فى الخليج .** د. عمر بن صالح بن سليمان العمرى
- **العلماء والأئمة فى عمان .** د. سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمى
- **نقشان كتابيان يؤرخان لعمارة دار الحميدية بمكة المكرمة .**

د. عادل بن محمد نور غباشى

- **علماء الأندلس ودورهم فى التصدى للقوى الأسبانية المسيحية فى عصر الطوائف .** د. سحر السيد عبد العزيز سالم
- **الغرب الأوروبى و حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية .**

د. سعيد بن سعد سفر الغامدى

- **المعاهدة التركية الأمريكية عام ١٨٣٠م .**

د. عبد العليم على أبو هيكل

- **علی الغاياتی ودوره فی الحركة الوطنية .**

د. حسن أحمد يوسف نصار

- **الحماية الأجنبية فی المغرب الأقصی .** د. تركی عجلان الحارثی
- **الفكر السياسی عند الأمير عبد القادر الجزائری .**

د. إسماعيل زروخی

- **الصحوة العربية فی القرن العشرين .** د. مدحت محمد عبد النعيم

كلمة الافتتاح :

***وللتأريخ تاريخ

من حقنا أن نتساءل ، ونحن نقدم هذا العدد الثامن من مجلة (المؤرخ العربى) للقراء : من هو المؤرخ ؟ وما هى الصفات والمؤهلات التى يجب أن تتوافر لفـــرد حتى يكون مؤرخا ؟ وما أبعاد الإطار العام الذى يتحرك داخله المشـــتغل بالتـــاريخ ليكون ناجحا فى عمله ؟

هل المؤرخ هو الراوى الذى يحكى ما توافر له من حوادث سواء رآها بنفسه أو سمع بها ؟ أم أنه المحدث الذى يروى الحوادث ويحدد سير الأشـــخاص الذيـــن تناقلوا الرواية ، وسردوا الحكاية ؟ وهل كل من حصل على إجـــازة علميـــة فـــى التاريخ - مهما تكن درجتها يعتبر مؤرخا ؟

التساؤل ضرورى ، والإجابة صعبة ، ولكنها غير مستعصية ، خاصـــة فـــى أيامنا التى نرى التارخ وقد غدا أشبه ببحر لجى كبير ، يخوض فيه الخائضون علـــى غير علم بطبيعته وأبعاده ، فيفسدون صفحته النقية ويعكرون مياهه الصافية . أجـــل، لقد غدا التاريخ - للأسف - مطية ، يستعين بها أصحـــاب المصـــالح فـــى تحقيـــق مكاسب شخصية ، أو تبرير سياسة خاطئة ، أو إرضاء لسلطة حاكمة .

ها هو مخرج روائى يعرض رواية يختار لها اسما تاريخيا جذابا ، ويحشـــوها بتفاصيل وصور وأقوال ينسبها إلى التاريخ ، والتاريخ برئ منـــــها دون أن يعنيـــه إفساد التاريخ بقدر ما يعنيه الكسب المادى والشهرة التى يحققها لنفســـه فـــى عـــالم العبث والفن .

وها هم بعض السياسة ورجال الإعلام ، يريد أحدهم أن يروج لرأى معيـــن ، أو يبرر سياسة خاطئة أو ينشر مذهبا هداما ، فينسب إلى التاريخ ما ليـــس فيـــه ،

ويفسر الأمور تفسيرا بعيدا عن الحقيقة والواقع ، وربما ابتكر قصة من وحى خياله وألبسها زيا تاريخيا ، ودسها على التاريخ دسا ... كل ذلك ليبرر وجهة نظره ، بعيدا عن قواعد الأخلاق وأمانة الكلمة وصدق الأحكام .

ونقول لهؤلاء وأمثالهم ، إن التاريخ علم ، له منهجه وأهدافه ، وطابعه المميز . إنه علم يتطلب ممن يشتغل به ، أو يخوض فى جنباته أن يتحلى بصفات جوهرية ، منها الأمانة والصدق ، والقدرة على الالتقاط والتعليل من جهة ، والاستنباط والمقارنة من جهة أخرى ، والعمل على ربط الحاضر بالماضى ، لأن التاريخ يوصف بأنه قصة الإنسان على ظهر الأرض ، وهى قصة متصلة الحلقات، اليوم نبع من أمس ، وغدا ينبع من اليوم ... وهكذا .

ولا نعنى بهذا الربط إلباس الحاضر ثوب الماضى ، فلكل عصر طبيعته ، وأجواؤه ، وخصائصه التى ترتبط بنظرة الناس إلى الحياة . ومع أن الإنسان هو الإنسان ، بتكوينه الذهنى وبنائه الجسدى والعضوى ، وأحاسيسه ومشاعره النفسية... ، إلا أن نظرة الإنسان إلى الحياة تختلف من عصر لآخر . وبعبارة أخرى فإن الإنسان فى العصور الوسطى أطل على الحياة من زاوية غير تلك التى أطل منها إنسان العصور القديمة أو الحديثة على الحياة ، الأمر الذى لا بد وأن يترك بصماته فى صورة التاريخ وتكييفه وتشكيله فى كل عصر من عصوره . وتتجمع كافة هذه الاعتبارات لتكوين ما يمكن أن نسميه « الحاسة التاريخية » وصدق المشاعر ، والقدرة على المقارنة والاستنتاج والتعليل ، فى ضوء الظروف المحيطة بالإنسان والزمان والمكان ... مع تنقية النفس من الميول والأهواء الشخصية ، والالتزام بالعدالة فى تقييم العقائد المذهبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ...

والواقع إن المؤرخ فى مباشرته عملية « التأريخ » يجد نفسه أكثر ارتباطا بالماضى منه بالحاضر . إن ما يجرى حاليا ومستقبلا أكثر صلة بالعلوم السياسية

منه بعلم التاريخ . التاريخ فى حقيقته نظرة إلى الماضى ، إلى أيام ولت وسنين أدبرت وعصور انقضت ، ولم يبق منها جميعا إلا الأثر والذكرى . وهذا الإطار الزمنى للتاريخ يجعل مهمة المؤرخ صعبة ، لأنه يستعرض أعمالا انقضيت ، ويتعرض لأناس فارقوا الحياة ، ولم يعد لهم وجود ليدافعوا عن أنفسهم ويبرروا تصرفاتهم ، ويفسروا وجهات نظرهم ، ويوضحوا أهدافهم وسياستهم وغاياتهم . ثم إن هناك حقيقة كبرى لا ينبغى أن تفوتنا ، هى أن التاريخ يرتبط دائما بعنصر غائب لا يدرك حقيقته إلا الله عز وجل . نحن نؤرخ لحوادث قام بها أفراد قد نرى صورهم وأشكالهم ، ونقرأ أقوالهم ونسمع عن أفعالهم ، ولكننا لا نعرف شيئا عما كانت تكنه قلوبهم وتفيض به صدورهم ، وتدبره عقولهم وتحس به نفوسهم . وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى الظن وربما الخيال . وهذا الظن قد يكون صحيحا أو غير صحيح . فإذا رجعنا إلى المصادر المعاصرة لتلك الحوادث والمزامنة للأشخاص المؤرخ لهم ، فإن علينا التثبت من شخصية صاحب المصدر والتأكد من سلامة وصحة المادة التى يقدمها إلينا ، والتى علينا أن نرجع إليها ونحاول الاسترشاد بها . علينا أن نعى حقيقة ما كتبه السابقون ، فقد يكون فيه السليم وغير السليم . علينا أن نقارن بين مختلف الروايات فقد يكون منها المقبول وغير المقبول. علينا أن نقوم بما يمكن أن نسميه « عملية غربلة » لما تحويه هذه الروايات لنستخلص السمين ونستبعد الغث . علينا أن نؤمن بأن من خلفوا لنا هذا التراث بشر، يحبون مثلما يحب البشر ، ويكرهون مثلما يكره البشر ، وأن لهم ميولهم وأغراضهم وأهواءهم ، وهذه كلها قد تؤدى ببعضهم - فى حالات خاصة - إلى الانحراف ، إرضاء لميولهم ونزعاتهم ونزواتهم ومصالحهم ...

وهنا يأتى دور المؤرخ ليبدأ من حيث ينبغى أن يبدأ ، ونقطة البداية هنا هى الإحاطة بشخصية صاحب المصدر الذى يستمد منه المؤرخ معلوماته : أخلاقه ، حظه من الأمانة ، ميوله وعقائده ، ومآربه وتطلعاته وطموحاته . فإذا ثبت له أن

صاحب المصدر موثوق به ، استعان به وبروايته . أما إذا تشكك فى أخلاقه وسـلوكه ، فعليه أن يكون حذرا عند الاقتراب منه ، وله أن يستبعده ويسقطه من حسابه .

ولدينا أمثلة واضحة فى علم الحديث النبوى ، وهو العلم الذى تفرع عنه علـم التاريخ عند المسلمين . ذلك أن علماء الحديث عندما رأوا أن بعض الأحاديث دخـل عليها الزيف ، قاموا بعملية (غربلة) واسعة وتحروا عن شخصية كل فـرد مـن المسندين الذين أسندت إليهم الأحاديث ، حتى استخلصوا (الصحيـح) واسـتبعدوا غير الصحيح ، وهو الضعيف أو الخفيف أو المدسوس . فهذا حديث رفـض « لأن من رواته فلان ، وكان كذابا مجاهرا بالفسق » ، وهذا حديث آخر قالوا فيـه « إن من رواته فلان .. ولا يجوز الاعتداد به » . وهذا حديث ثالث قالوا فيه « إن مـن رواته فلان .. وحديثه منكر وغير محفوظ » . وصدق الله العلى العظيم إذ يقـول : { يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحـوا على ما فعلتم نادمين } .

* * *

وإذا كان مطلوبا من المؤرخ الاعتماد على المقارنـة ، والالـتزام بـالحكم الصادق الأمين ، والحرص على التعبير الصحيح فى كتابة التـاريخ ؛ فـإن ثمـة مشكلة تواجهنا فى الحكم على ما يسمونه (التاريخ المعاصر) . ذلك أننا ذكرنا أنـه من المفروض فى المؤرخ أن يلتزم بالأمانة والدقة فيما يتعلق بـالعصور السـابقة والسنين الخالية . ولكن ماذا يكون الوضع بالنسبة لموقف المـؤرخ مـن الأحـداث القائمة حوله أو التى يعاصرها ويعيش بين جوانبها ويتأثر بما فيـها مـن نزعـات وتيارات قد تكون متلاطمة ؟ من الممكن فى بعض الحالات أن يجد المؤرخ نفسـه غير راض عن تصرفات حاكم مستبد ، أو حكومة متسلطة ، أو جماعة منحرفـة ، فهل يمكن للمؤرخ فى ظل هذه الأوضاع أن يقول كلمة بشـجاعة معرضـا نفسـه

لعقوبة قد لا يقوى على احتمالها ، ومضحيا بلقمة العيش التى يتحكم فيـــها ســـادته الحكام ؟

إن كثيرين فى التاريخ المعاصر « يرقصون للقرد فى دولتـــه » علـــى قـــول المقريزى ، فيسجدون لكل متسلط معبرين عن ولائهم ، مهللين لحســـن سياســـته ، مشيدين بعظيم إنجازاته ... وليس هذا هو التأريخ .

ومن ناحية أخرى ، فإن علينا أن نتذكر ما سبق أن أشرنا إليه مـــن أن لكـــل حاكم ، ولكل نظام ، ولكل عهد ، أنصاره وخصومه ، ومحبيه وكارهيه ، ومؤيديـــه ومعارضيه . الفريق الأول - وهم الأنصار والمؤيدون ومعظمهم غالبا من جماعـــة المنتفعين والمستفيدين ، والفريق الثانى ومعظمهم من المضارين أو غير المســـتفيدين أو المتطلعين إلى ما لم يتمكنوا من الوصول إليه . ويقف الفريقـــان فـــى مواجهـــة صريحة أحدهما أمام الآخر . فإذا امتدح المؤرخ فردا أو انتقد عملا أو تصرفا لأحد الفريقين ، برز له الفريق الآخر ليكيل له الذم والهجاء .

ومن جهة أخرى ، فإن الوثائق المدونة التى تشكل مصدرا هاما من مصـــادر المعرفة بمجرى الأمور فى الفترة المعاصرة ، تحوى الكثير من خبايا السياسة التـــى لا يجوز الكشف عنها فى حينها . ولذا فإن الكثير من الحكومات تتحفظ على هـــذه الوثائق فى أرشيفات وزارات الخارجية ولا تسمح بالإطلاع عليها إلا بعـــد مـــرور فترة زمنية معينة ، أربعين عاما فأكثر . فكيف يتسنى لمؤرخ العصـــر الحديـــث ، المعاصر لأحداث اليوم أن يدون تاريخا لا يعتمد على مثل هذا المصدر من مصـــادر البحث التاريخى ؟

لعله من الأصح والأسلم ألا تدخل الفترة المعاصرة التى نعايشها فـــى نطـــاق عمل المؤرخ ، ونرى أنه من الأصوب ارتباطها بدائرة العلـــوم السياســـية . إنـــها ستصبح فى عداد التاريخ فى يوم من الأيام - بعد نصف قرن تقريبا - وعندئذ يكون صانعو أحداث هذه الفترة والمرتبطين بها بين مؤيدين ومعـــارضين ، قـــد فـــارقوا

الحياة أو فارقوا أماكنهم ، وضعفت قواهم ، وانحل نفوذهم ، مما يجعـل سـلطانهم على التاريخ والمؤرخين قليل الأثر على حرية الرأى والتعبير .

* * *

وبعد ، فهذه خواطر وافتراضات ، تدور حول علم التاريخ وعملية التـأريخ . ومرة أخرى نقول إن التاريخ علم واسـع الأفـق ، ومدرسـة تفيـض بـالخبرات والتجارب الإنسانية ، فعلينا أن لا نترك الباب مفتوحا أمام من لا يمتلكون القـدرات للخوض فيه دون إلمام بمنهجه وأدواته وأهدافه . ورحم الله الكافيجى - من علمـاء القرن التاسع عشر الهجرى ، الخامس عشر للميلاد ، إذ يقول :

(إن من جملة العلوم النافعة فى المبدأ والمعاد ، وما بينهما ، علم التـاريخ ، الذى فوائده وغرائبه لا تعد ولا تحصى . وهو بحر الدرر والمرجـان ، لا يحيـط بمنافعه نطاق التحديد والتبيان ...) .

وللتأريخ تاريخ ...

أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور

رؤية مصر لجيرانها فى الشرق الأدنى

من واقع النصوص المصرية القديمة

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(*)

تعددت ملامح النظرة المصرية الذاتية عن نفسها خاصة ما يتعلق برؤيتها عن ذاتها واسم شعبها ومدى الإلمام بجغرافية المناطق المجاورة لها وتوصيفها وبالمثل الرؤية المصرية عن جيرانها عبر تاريخها الطويل منذ الألف الثالث قبل الميلاد إلى العصر الهيلينستى ، ونظرة تلك الشعوب إلى مصر ذاتها مما سنتعرض له فى هذا البحث التالى لمزيد من الدراسة والتحليل .

أولاً : النظرة المصرية عن ذاتها

من الملامح المرتبطة بمصر وموقعها الجغرافى ذلك التضاد بين اللون الأخضر (حرفياً اللون الأسود فى اللغة المصرية Kmt كمت) الدال على الأرض الزراعية ، مقابل اللون الأحمر (حرفيا Dsrt دشرت فى اللغة المصرية) المرتبط بالأرض الصحراوية[1] ، وانعكاس ذلك التضاد على المفهوم الدال على الحياة أو الموت ، وبالمثل على مفهوم الاستقرار والديمومة Order فى مقابل الفناء والفوضى Disorder . وتردد صدى هذه الظاهرة فى نصوص ومناظر العديد من مقابر الأفراد وخاصة فى الدولة الحديثة وذلك ضمن ما يسمى مناظر الحياة اليومية التى يبدو فيها صاحب المقبرة وهو يصطاد الأسماك أو يطعن برمحه فرس النهر أو يقتنص الحيوانات أو الطيور الجارحة فى فيافى الصحراء من جهة ، أو وهو ينازل الأعداء من جهة أخرى ، وذلك تعبيراً عن

(*) أستاذ الحضارة المصرية والشرق الأدنى القديم المساعد بقسم الآثار المصرية ، كلية الآثار – جامعة القاهرة . معار حالياً للتدريس بقسم التاريخ ، كلية الآداب – جامعة الكويت .

القدرة على السيطرة على مناطق الفوضى والضرب على أيدى الخارجين عن مفهوم المركزية والنظام ، مما يؤدى إلى بسط النفوذ المصرى على المكان وقاطنيه من بشر وحيوان من جهة أخرى .

وحفظت لنا النصوص المصرية القديمة التصور المصرى عن نشأة الخلق على يد آلهة مصرية ، وعن سيادة مصر الحاضرية ولغتها على شعوب العالم القديم المعروفة آنذاك . وحفظ لنا نص دينى التصور المصرى عن خلق العالم على يد أوزوريس ، إذ جاء فيه :

« ما أن صار (أوزوريس) ملكا حتى رفع الشعب المصرى من حالته البائسة البربرية ، وجعل أبناءه يعرفون ثمرات الأرض ، ومنحهم قوانين ، وعلمهم أن يحترموا الآلهة ، بعد ذلك زرع الأرض كلها لينشر فيها الحضارة »[٢] .

كما تضمنت قصيدة عن طيبة وإلهها آمون من أوائل الأسرة التاسعة عشر المفهوم المصرى القديم عن سيادة مصر العالمية وإلهها آمون :

« كل إقليم يرهبك وسكانه خاضعون ... واسمك سام عظيم ، والفرات والبحر فى وجل منك . وسلطانك ذو وطأة على الأرض ، وفى الجزر التى فى وسط البحر ... وسكان بونت يأتون إليك ، وأرض الإله تصبح خضراء لأجلك حبا فيك ، ويحملون لك الروائح العطرية لتجعل معبدك فى عيد بالروائح الزكية »[٣] .

وتوضح النصوص المصرية بالمثل النظرة الخارقة عن حاكم مصر وقدراته، وأن الحياة والموت ملكا له ، يعطى الصحة لمن يشاء وتأتمر الطبيعة بامره :

« خضع فيضان النيل لفرعون بنفس الطريقة التى يخضع له بها ماء السماء فى مملكة الحيثيين النائية . وكف الثلج عن السقوط فى الجبال السورية لكى يسمح لمبعوث رمسيس الثانى بأن يمر »[٤] .

ومن جهة أخرى فإن نصوص « ون آمون » تظهر اعتراف أهل الشرق الأدنى القديم بعالمية آمون حيث ورد على لسان أمير بيبلوس نفسه أن .

« آمون خلق كل البلاد بعد أن أنشأ أرض مصر من قبل » ، وفـــى إشــارة «ون آمون» لأمير جبيل من أن « البحر ملك لآمون ، وأن لبنان التى تقــول أنها ملك لك إنما هى ملك لآمون ... آمون سيد لنـــا ومـــا أنـت إلا خــادم لآمون»(٥).

كذلك عكست لنا تعاليم الحكيم « آنى » من الأســرة الحاديــة والعشــرين أو الثانية والعشرين(٦) سيادة مصر الثقافية ، وانتشار اللغة المصرية القديمة فـــى كـل البلاد الأجنبية ، وأن *« العبيد قد تعلموا اللغة المصريـــة ، وكذلـك السـوريون وكـل الأجانب»*(٧) وقد تردد صدى ذلك فى النص الأدبى للمدعو « سنوهى » من الدولـــة الوسطى فى رحلة هروبه من مصر ، إذ وجد أميراً هناك يعرف المصرية وتحـادث معه ، مما خفف عنه بعض عنائه ، ثم تعلم لغة القوم وصار منـــهم : « أن حـــالك معى سيكون حسنا ، لأنك ستسمع هنا كلام (لغة) مصـــر »(٨) . كذلـك توضـــح قصة الأمير المسحور » « أقدار الأمير الثلاثة » سيادة اللغة المصرية فى الشـــرق الأدنى القديم فعندما وصل الأمير إلى سوريا فى طريقه إلى بلاد النهرين تقابل مـــع أمرائها فتحدث معهم بدون الحاجة إلى وسيط (مترجم)(٩) . كما أن « ون آمـون » عندما وصلت به رحلته إلى جزيرة لارسا (آلاشيا) (قبرص) سأل جماعة مــــن الحاشية التى كانت تحيط بالملكة الحاكمة عليهم عمن يعرف اللغة المصريـــة مــن بينهم ، وأجابـــه أحدهـــم عن إلمامه بها(١٠) . وعكست النصـــوص المصريـــة المباهاة بأن *«الحكمة آتت مـــن مصر لتصل إلى هذه المملكة (بيبلوس) حيث أعيـش (ون آمون)»*(١١) .

وحرصت النصوص المصرية أحياناً على الإشارة إلى الحنيـــن إلـــى أرض الوطن والمعاناة من شعور الغربة مثلما عكسته لنا نصوص رحلة « ون آمـــون » عندما حيل بينه وبين إكمال مهمته فى إحضار الأخشاب اللازمة لآمون والسفر بـــها بحراً إلى مصر :

« وذهبت إلى ساحل البحر حيث كان الخشب محزوماً ، ولمحت إحدى عشرة سفينة تقترب من البحر وهى من متاع زاكا ، وقد أتت بالأمر : خذوه سجينا ولا تسمحوا لسفينة له أن تذهب إلى أرض مصر . وعندئذ قعدت وبكيت ثم أتى كاتب خطابات الأمير وقال لى : ماذا يؤلمك ؟ » فقلت له : « لا ريب أنك ترى الطيور التى تذهب إلى مصر للمرة الثانية [لطول بقاء ون آمون لما يقرب من العام الكامل فى لبنان] . انظر إليها ! أنها تذهب إلى البرك الباردة ، ولكن متى سأترك هنا ؟ لا شك أنك ترى هؤلاء الذين أتوا ثانية ليأخذونى سجيناً »(١٢) .

وظهر مثل هذا الشعور من قبل فى النص الأدبى سنوهى من عصر الدولة الوسطى عندما بلغ به المشيب مبلغه ورغب فى العودة إلى مصر ليدفن فى أرضها(١٣) .

ثانيا : المفهوم المصرى عن جغرافية الأراضى الأجنبية

حفظت لنا بعض النصوص المصرية القديمة جانبا من الملامح الجغرافية للبلاد الأجنبية سواء الأفريقية أو الآسيوية التى كان لمصر اتصالات بها سواء كان بعض أهلها قد ترددوا على مصر أم أن المصريين ترددوا على تلك البلاد (خريطة ١) . وتناولت الموضوعات الجغرافية فى النصوص المصرية الإشارة إلى أسماء الشعوب الخارجية ومدنها الرئيسية ومنتجاتها المشهورة كزيوت قبرص وخيتا (الأناضول) وسنجار ونبيذ سوريا وتينها وشهرة بعض مدنها بالجعة وتطعيم الخشب ، وشهرة السودان بالذهب والعاج والأبنوس وريش النعام والحيوانات البرية(١٤) .

وقد ورد وصف جغرافى بديع فى نص سنوهى الأدبى لمنطقة تدعى « يا » فى بلاد الشام أثناء رحلة هروبه من مصر ، إذا جاء فى هذا النص :

« كانت أرضا جميلة تسمى « يا » ، وكان فيها التين والكروم ، ونبيذها أكثر من مائها. شهدها غزير ، وزيتونها كثير ، وكل الفاكهة على أشجارها. وكان فيها الشعير والقمح ، وماشية يخطئها العد من كل نوع»(١٥).

كذلك تلقى نصوص قصة « الأمير المسحور » الضوء على أن « السفر من مصر إلى بلاد النهرين كان ميسورا ، وما على المسافر إلا أن يمتطى عربته ، ويأكل مما يصادفه من صيد الصحراء ، ويتخذ وجهته إلى هدفه فيصل إليه »[١٦] .

إضافة إلى ذلك فقد تضمنت نصوص قصة الملاح الغريق (نجاة الملاح) من عصر الدولة الوسطى التى جرت أحداثها فى البحر الأحمر إشارة إلى جزيرة مسحورة خالية من البشر أسمتها النصوص المصرية « جزيرة الروح » - ربما كانت جزيرة الزبرجد أو إلى الجنوب منها عند مدخل البحر الأحمر[١٧] - توفر بها كل شيء جميل وأن حاكمها ثعبان هائل الحجم ، هو أمير بلاد البخور . وربما نجد هنا إشارة إلى الموقع الجغرافى الشهير بإنتاجه للبخور ، نعنى بلاد بونت[١١٨] :

« ألقتنى موجة على جزيرة أمضيت بها ثلاثة أيام فى دغل لا أنيس لى فيه ولا معين ، ثم أخذت طريقى فى أرضها أبحث عن شيء أضعه فى فمى ، فوجدت تينا وعنبا وكثيرا من الخضر بأنواعه المختلفة ، وكذا جميزا وخيارا، وأسماكا وطيورا فطعمت وشربت »[١٩] .

وتمدنا نصوص قصة الأخوين أو ما تعرف أحيانا باسم بردية أوربينى من عصر الدولة الحديثة بوصف جغرافى عن لبنان :

« ... ثم نادى الأخ الأصغر أخاه من الجانب الآخر (من البحيرة المليئة بالتماسيح) قائلا : « أمكث هنا حتى ينبلج الصباح ... وسنحتكم إلى الشمس معا عند شروقها ، وسيسلم المبطل للمحق (أى سينتصر الحق) ، لأنى لن أكون معك بعد ، ولن أعيش فى مكان أنت فيه وسأتخذ لى فى وادى الأرز (لبنان) مقاما لى»[٢٠] .

وفى المساجلة للظابط ، مربى أفراس الملك « حورى » مع الكاتب امنمؤبى من الدولة الحديثة فى مدى الإلمام بالمعلومات الجغرافية والإحاطة بطبيعة مناطق بلاد الشام ورد ما يلى :

« ألم تطأ طريق « مجر » [ربما جزء من لبنان] حيث السماء مظلمة نهارا ويغزر فيها نمو العليق (؟) والبلوط وأشجار الأرز التى تناهض السماء ؟ وهناك أسود أكثر من الفهود والضباع ويحيط بها البدو من كل جانب . أرجوك ... دعنى أخبرك عن برت . أنك تنفر من تسلقها وتفضل عبور نهرها ... وسترى ما يكون عليه الإنسان لأجل أن يصير ماهرا ، وذلك حينما تحمل عربتك على كتفك ... وتستيقظ عند ساعة الرحيل فى ... ليل . وأنت وحدك تسرج الحصان ، والأخ لا يأتى لأخيه والهاربون(؟) قد أتوا إلى المعسكر ، وحل قيد الجواد ... قد نهبت بالليل وسرقت ملابسك. وسائسك قد استيقظ بالليل وعرف ما قد ارتكبوه ، فأخذ ما بقى . وانضم إلى صف الخونة واختلط بقبائل البدو وغير نفسه إلى آسيوى»[٢١] .

وفى جزء آخر يتهكم « حورى » على زميله متحديا إياه فى معلوماته الجغرافية ومدى إلمامه بظروف البلاد الأجنبية التى يتعين عليه أن يجوس خلالها فى عمله ، بسؤاله عن ميناء سمير اسوسو ، وعلى أى جانب منها تقع مدينة حلب، وما أهمية مجراها ؟ »[٢٢] . كما عكست النصوص المصرية أحيانا نقدا وصفيا لجغرافية بعض المناطق الأجنبية ، مثلما نعلم عن وصف منطقة تدعى « كنكانو » أقام بها أحد المصريين :

إنى أقيم فى « كنكانو » وليس لدى كافة الضروريات ... إنى أتطلع سنويا إلى الطريق الصاعد (المؤدى إلى) فلسطين ، وأرقد تحت شجرة لا تحمل ثمارا (!) صالحة للأكل ، فثمارها قد أختفت رغم أنها لم تنضج بعد ومع شروق الشمس يملأ البعوض المكان وعند الظهيرة الحشرات . ونبابة الخيل تلدغ وتمتص (الدم) من العروق ... »[٢٣] .

وحفظت لنا نصوص « ون آمون » ما يدل على وجود خطوط ملاحية مشتركة بين « زاكار بعل » Zakar Baal أمير جبيل ومصر فى عهد «سمندس» (نيسو – بانب – جد) من الأسرة الحادية والعشرين :

« وهكذا تكلم (الى ون آمون) وقلت له : « ولكنها سفينة مصرية ونواتيـها مصريون يسيحون لسمندس ، وليس له ملاحون سوريون » . فقـال لـى : «ولكن يوجد فى ثغرى عشرون سفينة مشتركة مع سمندس وفى صيدا التـى مررت بها سائحا أيضا خمسون مركبا مشتركا مع « وركت ايـل » وهـى تسافر إلى بيته »[٢٤] .

وقد حفظت لنا نفس نصوص « ون آمـــون » وصفـا لأرض « لارسـا » المرجح ارتباطها جغرافيا مع جزيرة قبرص الحالية وعن سيادة العدالة بها ، عندمـا ساقت الرياح سفينته إليها مطرودا من ميناء جبيل ، وكاد أهـل المكـان أن يقتلـوه وتساؤله عما إذا كان هناك من بينهم من يعلم المصرية القديمة لينقـل عنـه إلـى ملكتهم :

« قل لسيدتى : لقد سمعت أنه يقال من أول طيبة حتى إلى مكان آمـون إن الظلم يفعل فى كل مدينة ، ولكن الحق يفعل فى أرض لارسا . والآن كذلـك يفعل الظلم كل يوم هنا . فقالت لى : ولكن ما الذى تعنيه بما تقول ؟ فقلـت لها : « إذا كان البحر قد هاج وساقتنى الريح إلى الأرض التـى تسـكنيها ، فإنك لن تسمحى لهم أن يقبضوا على ليذبحونى مع العلم بأنى رسول آمـون فتدبرى الأمر جيدا . إنى فرد سيجرى البحث عنه باستمرار »[٢٥] .

ثالثا : النظرة الإيجابية لمصر إلى جيرانها فى الشرق الأدنى القديم

تعددت ملامح العلاقات الإيجابية المصرية مع جيرانها عبر تاريخـها القديـم منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وحفظت لنا النصوص – الملكية منها والخاصـة – وكذلك بعض الإشارات فى النصوص الأدبية ، ملامح تلك العلاقات التـى يتضـح منها وصول العديد من الأجانب إلى مصر للمتاجرة مع أهلها أو بحثا عن الاستقرار (رحلة ابشا)[٢٦] وفى مرحلة تالية وصول وفد من الجنبتيو (اليمن) فـى عـهد تحوتمس الثالث حاملين هداياهم من البخور[٢٧] . وبالمثل كما نعلم حتى من مرحلـة

تالية فى العصر البطلمى (زيد ايل) [٢٨] . أو طلبا للعون فى ضائقـــة اقتصاديـة مثلما نعلم من مناظر المجاعة لبدو آسيويين على جدار الطريق الصاعد لمجموعـة وناس الهرمية فى سقارة[٢٩] أو فيما حفظته لنا المصادر اللاهوتية عن قدوم يوسـف عليه السلام وأهله إلى مراعى الدلتا فى فترة الانتقال الثانى أو ما يعرف اصطلاحـا باسم عصر الهكسوس[٣٠] . تؤكد النصوص المصرية أن هؤلاء الأجـانب قدمـوا لطلب « نسيم الحياة » من حاكم مصر أو للعمل السلمى داخل مساكن ومعابد مصـر القديمة كما نعلم من نصوص بردية بروكلين رقم ٣٥٠١٤٤٦ وبردية بـولاق ١٨ من الدولة الوسطى[٣١] . وخلال أواخر عصر الدولة الحديثة وفترة الانتقال الثـالث وجدت فى مصر جاليات أجنبية الأصل نالت العديد من المزايا والحقوق ، وتولـى بعض أفرادها مناصب إدارية وسياسية وعسكرية ، مثلما نعلم على سبيل المثال عن «دودو» فى بلاط آخناتون من الأسرة الثامنة عشر و « أرسو » الآسيوى من أوائـل الأسرة العشرين ، وعن نشاط شعوب البحر ومشـاركتهم عسـكريا فـى الجيـش المصرى من بعد[٣٢] . ولعل ما عرف اصطلاحا باسم الـزواج الدبلوماسـى دعـم وجهة النظر السليمة فى العلاقات الدولية القديمة بين مصر وجاراتها و أقدم مثـال على ذلك ما نعرفه عن وصول أميرة آسيوية إلى بـلاط سـاحورع مـن الأسـرة الخامسة ربما لتزف إليه وفقا لما يذهب إليه بعض الباحثين وذلك ضمـن منـاظر عودة أسطوله وهى المناظر المنقوشة على جدران معبده الجنائزى فى سـقارة[٣٣] . وحفظت لنا النصوص المصرية بالمثل زواج « رمسيس الثـانى » مـن الأميريـة الحيثية، وعن مدى سعادة الشعبين لمثل هذا الزواج وكونهما أصبحا « قلبا واحـدا مثل الأخوة ، وأنه لا توجد ضغينة لأحدهما تجاه الآخر »[٣٤] .

وعكست نصيحة سنوهى للحاكم الآسيوى النظرة المصرية إلى البلاد الأجنبية المسالمة لمصر وحكامها خلال أوائل الألف الثانى قبل الميلاد :

« أرسل إليه [إلى حاكم مصر] ، دعه يعرف اسمك ،ولا تنطقـن بألفـاظ ضد جلالته وهو لا يفوته أن يقدم خيرا إلى أرض ستكون مسالمة له »[٣٥].

وحوالى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد اكتسبت العلاقات المصرية البابلية طابع الصداقة الشخصية . وتمخضت تلك الصداقة عن مصاهرة البيتين الحاكمين أكثر من مرة ، من أشهرها زواج امنحتب الثالث بابنة الملك «كاردونياش» وطمعه فيما بعد فى الزواج من بنت أخيها كادشمان خاربى (أو كادشمان انليل) مع ضنه فى الوقت نفسه بتزويج الملك البابلى إحدى بناته أو إحدى أميرات بيته الفرعونى قائلا : *« لم يسبق من قديم الأزل أن أعطيت أميرة مصرية إلى أى إنسان »*[٣٦] .

وعكست الخطابات التى أرسلها ملوك آسيا إلى أمنحتب الثالث والرابع الحرص على مخاطبة الحكام الميتانيين لحكام مصر بلفظ « أخ » دلالة على المساواة فى المكانة السياسية والعلاقات الاجتماعية المميزة واعتياد كل منهم أن يسأل عن الآخر فى رسائله عن أهله وداره وخيوله وأتباعه[٣٧] . إضافة إلى ذلك فقد زخرت تلك الخطابات بالطلبات البالغة القيمة حيث « الذهب فى مصر تراب على الطريق . يجب أن ترسل لى كمية كبيرة من الذهب كما فعل أبوك » . ويقول ملك بابل :

« لا يجب أن يعهد أخى إلى موظف بالذهب الذى يرسله لى ... بل يجب أن يرى أخى بعينه أن الذهب قد عبئ وختم وسافر لأن الذهب الذى أرسله أخى والذى عباه وختمه موظف من عند أخى كان من نوع ردئ »[٣٨] .

ولقد تسامح المصريون مع ديانات أصدقائهم ، ولم ير أمنحتب الثالث بأسا فى أن يتقبل فى قصره تمثالين صغيرين للمعبودين العراقيين شمس واشتار ، أرسلهما الملك الميتانى مع ابنته عروس أمنحتب لتستعين ببركتهما على إقرار حبها فى قلبه فضلا عن ٣١٧ من النساء والخدم[٣٩] . أو أن يتقبل أمنحتب الثالث معونة عشتار التى أرسلت على عجل من نينوى للمساهمة فى علاجه ومداواة آلامه[٣٠] .

وضمن أنشودة آتون أوضحت النظرة المصرية عن مفهومها للخلق وللمساواة بين مصر والأجانب المحيطين بها :

حينما كنت وحيدا (لا شيء غيرك) خلقت الناس وجميع الماشية والغـزلان وجميع ما على الأرض مما يمشي على رجليه . وما في عليين ممـا يطـير بأجنحته ، وفي الأقطار العالية سوريا وكوش وأرض مصر .

وأنك تصنع كل إنسان في موضعه ... والألسنة في الكلام مختلفـة وكذلـك تختلف أشكالهم وجلودهم ، لأنك تخلق الأجانب مختلفين ... أنت تخلق النيل في العالم السفلي وتأتي به كما تشاء ... وجميع الأقطار العالميـة القاصيـة تخلق حياتها أيضا .

ويوجد نيل في السماء للأجانب ولأجل غزلان كل الهضاب ... أمـا النيـل (الأصلي) فإنه يأتي من العالم السفلي لمصر »[٤١] .

وتردد صدى لمثل تلك الأفكار في أنشودة أخرى لآمون[٤٢] .

رابعا : النظرة السلبية المصرية إلى جيرانها في الشرق الأدنى القديم

من المعلوم أن مصر خلال الألف الثالث قبل البـلاد كـانت لـها علاقاتـها الرئيسية مع كل من آسيا والنوبة وأحيانا مع ليبيا وبلاد بونت . وعلى العكس مـن ذلك نجد الإشارات معدومة تجاه علاقاتها مع بلاد الرافديـن . ولا تفيدنـا كثـيرا المصادر النصية من بلاد الرافدين في هذا الصدد برغم علمنا بوجود العديـد مـن الإشارات النصية الدالة على نشاطات لها مع ما أسمته النصوص السومرية القديمـة دلمون (البحرين) وماجان (عمان أو سهل مكران الإيراني) وملوخا (السـند) ، أو في تأكيدات حكامها على امتداد نفوذهم من البحر الأسفل (الخليج العربي) إلـى البحر الأعلى (البحر المتوسط) ، وعلى سبيل المثال في نصوص لوجال زاجـيري وسرجون الأكدي وحفيده نارام سين[٤٣] ، وانعدام أي إشارات محتملة لها مع بـلاد الرافدين فيما عدا التخريج الخاطئ عن ارتباط ملوخا مع مصـر فـي التفسـيرات القديمة[٤٤] . واستمر الوضع كذلك إلى منتصف الألف الثاني قبـل الميـلاد حينمـا بدأت مرحلة التصادم العسكري ، ثم التصالح السياسي بعد ذلك ودعمـه بـالزواج الدبلوماسي بين كل من حضارة وادي النيل وبلاد النهرين .

وعكست النصوص المصرية بأنماطها المتعددة - الدينية منها والأدبية أو التاريخية - ملامح من الرؤية المصرية السلبية لمصر عن جيرانها فى النوبة وآسيا من الألف الثالث قبل الميلاد وما تلاه وقد حفظت لنا النصوص الدينية المعروفة اصطلاحا باسم « متون الأهرام » النظرة المصرية إلى الأجانب مثلما عكسه النص التالى :

« الحمد لله يا (عين حور) ... الناس يخافونك ، والشعوب الأجنبية تسقط أمامك على وجوهها ، وتسعة الأقواس[٤٥] تحنى رءوسها لك من جراء نبحك بأيتها الساحرة ، وإنك تستعبدين (للملك فلان) قلوب البلاد الأجنبية الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية كلها جميعا »[٤٦] .

كما ورد ضمن الأناشيد الملكية صفة السيادة الملكية على الأجانب ومن أمثلة ذلك ما فى قصائد المديح للملك سنوسرت الثالث ، الأنشودة الرابعة : *« لقد جاء إلينا ، ووطأ بقدمه الممالك الأجنبية ، فضرب على يد الإنو الذين لم يعرفوا الخوف منه »*[٤٧] وفى قصيدة انتصارات تحوتمس الثالث ورد ما يلى :

« عظمتك جميع البلاد الأجنبية ، جميعهم فى قبضتك ، وإنى بنفسى أمد يدى واصطادهم لك ... واربط الأسرى من التروجادويت بعشرات الألوف والألوف وأهل الشمال بمئات الألوف . أنى جاعل أعداءك يسقطون تحت نعليك قتلاً ... الثائرين ... »[٤٨] .

وتكرر مثل ذلك أيضا للملك « رعمسيس الثانى » من عصر الأسرة التاسعة عشر[٤٩] . وعكست تعاليم « خيتى بن دواف » إلى ابنه بيبى ، المؤرخة فيما بين أواخر الدولة القديمة والأسرة الثانية عشر[٥٠] ، محاولة النيل من المهن المعروفة آنذاك فى مصر وتعظيم مهن الكاتب والكتابة فأشار إلى وظيفة « حامل البريد » ومساوئها مما يستنبط منه نظرة المصرى آنذاك إلى البلاد الأجنبية فيما يلى :

« وحامل البريد عندما يسافر إلى بلد أجنبى يوصى بأملاكـــه لأولاده خوفـا من الأسود والآسيويين ، وهو يعلم ذلك وهو فى مصر ، وعندما يعود إلـــى بيته يكون تعسا لأن المشى قد حطمه وقطعه إربا »[٥١] .

وهذه النظرة المتعالية على الأجانب انعكست صورتها فى نبوءات العرافيـــن الذين تنبأوا بحلول المصائب بمصر وبأن : *« أسرارنا (مصـــر) ستـقع فـــى أيـدى الجهلاء والبرابرة وسيبرعون فى فنون مصر السفلى »*[٥٢] .

ومثل تلك النظرة المتعالية على الأجانب تردد صداها فى عصر الأغريـــق : *«يا أيها الإغريق ، ما أنتم سوى أطفال !»*[٥٣] . وحفظت نصوص فترة الانتقـــال الأول ضمن نصائح « خيتى » لابنه « مريكـــارع » بعـض الإشـارات السـلبية عـن الآسيويين وطباعهم الغير سوية حتى أنهم لا يستقرون فى مكان واحد ، ولذا فــــهم يهاجمون من الخلف » :

انظر إلى الآسيوى اللعين (البدوى) ، أن الأمور سيئة فى بـــلاده ، فمـاؤه آسن ، وطرقاته وعرة ، لذلك فهو دائم الترحال ، لا يستقر فى مكان واحـد ، وإنما ظل يشاغب منذ عهد حور ، لا يَغلِب ولا يُغلَب ، لا يهتم بأمره ، فـــهو ليس إلا بدويا منبوذا على الشاطئ ، لا يغير إلا على الموطن المنعـزل ، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان . أقــم الحصـــون فـــى تخومـك الشرقية، وابن مدنا وعمرها بالسكان »[٥٤] .

وتكرر مثل ذلك فى تعاليم الملك أمنمحات إلى ابنه سنوسرت حيث ورد مــــا يلى :

لقد قهرت أهل واوات وأسرت قوم الماتو (المجاى) ، وجعلت الآســـيويين يمشون (يفرون) كالكلاب ... »[٥٥] . وضمن نـــص ســنوهى وردت إشارة إلى وصف أرض فلسطين بأنها ملك للملك المصـــرى : « *والآن فلتأمر جلالتك أن يحضر " مكى " من " كدمى " و " خنتواش " مـــن بــلاد "*

خنتكش ، و" منوس " من أرض " الفنخو " وهم أمراء مشهورون قد نموا على حبك غير أنهم منسيون ، وفلسطين ملكك »[٥٦] . كذلك تضمن نص سنوهى إشارة واضحة إلى أنه : *« ليس هناك بدوى يحالف رجلا من الدلتا »* .

مما يدل دلالة واضحة على التفوق الحضارى والنظرة المتعالية . وفى نظرة سنوهى إلى المستقبل والخوف من الموت بعيدا عن أرض مصر عكست نصوصه فرحته بالرد الملكي الذى جاء فيه : *« وعلى ذلك لن تموت فى الخارج ، ولن يدفنك الأسيويون ، ولن توضع فى جلد غنم عندما يصنع لك قبرك »*[٥٧] .

وانعكست تلك النظرة الفوقية ضد الأجانب فى نص سنوهى بالرغم من تلك المكانة الاجتماعية التى وصل إليها فى أرض الغربة وكيف أنه عندما عاد إلى مصر وصف كيف أخذوه إلى بيت أحد الأمراء وأعدوا له حماما ، وكيف عطروه وألبسوه فاخر الثياب ، وأن الخدم كانوا رهن إشارة إصبعه :

« وجعلوا السنين تغادر جسمى ، وانسلخت عنى وسرحوا شعرى ، وألقوا إلى الصحراء بحمل من القاذورات ، وألقوا بملابسى إلى ساكنى الصحراء ، وألبسونى أفخر الثياب ، وعطرونى بأحسن أنواع العطور ، ونمت على سرير، وتركت الرمال لمن هم فيها ، وزيت الخشب لم يلطخ نفسه به»[٥٨].

وضمن نصوص الحوار لمساجلة الكاتب أمنموبى وحورى من الدولة الحديثة عن جغرافية بلاد الشام ورد ما يلى :

« انظر أن هناك(؟) مضيقا قد حفه بالمخاطر البدو الذين يكمنون تحت الأشجار ، بعضهم يبلغ أربع أذرع أو خمسا من الأنف إلى أخمص القدم ، وجوههم متوحشة وقلوبهم غليظة ولا يصغون إلى الملاطفة »[٥٩] .

وأشارت النصوص المصرية دائما حال تناولها أرض كوش بـإطلاق صفة الخاسئة hsi أو الشريرة عليها ، وعكست دائما نظرة عدائية ضدها[٦٠] .

ولعل مثل تلك النظرة العدائية ارتبطت فى الذاكرة المصرية بما كان يفعله الأجانب بمصر وأهلها حينما تسنح لهم الفرصة للتسلل السلمى إلى داخل أرضها نتيجة لخلل داخلى وضعف لحكومتها المركزية مثلما كان الحال خلال عصر الانتقال الأول[٦١] أو من خلال تداخلات عسكرية خلال فترة الانتقال الثانى على سبيل المثال ، وأخيرا خلال عصر الرعامسة حينما حاولت مجموعات شعوبية نتيجة لانهيار الحضارة المينوية دخول مصر عنوة من حدودها الشمالية الشرقية والغربية أو من سواحلها الشمالية . وقد انعكست جهود مصر وملوكها لمحاولة درء تلك الأخطار فى بعض الإشارات النصية لعل من أشهرها ما ورد ضمن نصوص بردية نفرتى [٦٢] ، محاولة حاكمها تشييد خط دفاعى على الأقاليم الشرقية من دلتا نهر النيل عرفت باسم « أسوار الحاكم » من أجل « ألا يسمح للآسيويين بالدخول إلى مصر لدرجة دفعتهم إلى الاستجداء من أجل السماح لقطيعهم بالقدوم للحصول على الشراب[٦٣] . وفى مرحلة تالية ما بين ثارو (القنطرة حاليا) ورفح على تخوم فلسطين على طول الخط الساحلى لشبه جزيرة سيناء ، وفى ارتباط مع ما يعرف اصطلاحا باسم « طرق حورس » [٦٤] ، وعلى حدودها الغربية ما بين وادى النطرون ومرسى مطروح ، أو إلى الجنوب حول سمنه وقمة على نهر النيل[٦٥] .

وضمن تقرير لأحد وزراء أمنحتب الثالث من الدولة الحديثة عن الحدود وتنظيم دخول الأجانب إلى مصر ورد به إشارة إلى ما يلى :

« وضعت قوات فى الطريق لمطاردة الأجانب وردهم على أعقابهم إلى بلادهم . وتحيط تلك القوات بنصف المملكة لمراقبة تنقلات البدو الرحل .

وفعلت نفس الشيء على ضفاف النيل ومصباته فى الدلتا فيغلقها الجنود فى وجه كل واحد ما عدا رجال البحرية الملكية »[٦٦] .

خامسا : الرؤية المعاكسة للأجانب عن مصر وأهلها

حفظت لنا بعض المصادر النصية إشارات إيجابية أحيانا وسلبية أحيانا أخرى لجيران مصر فى مناطق الشرق الأدنى القديم عبر تاريخها القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد وما تلا . ولعل من أهم ما حفظته لنا تلك النصوص شهرة مصر بطبها وأطبائها[٦٧] .

من ذلك أن الملك الحيثى موتالو طلب من معاصره البابلى أن يوفد إليه طبيبا وساحرا . وكان قد طلب نفس الطلب من مصر أيضا فأرسلت إليه تمثالا لمعبودها رب الشفاء خونسو ومعه كاهن ملازم له[٦٨] . وتردد صدى ذلك فى المصادر اليونانية حيث ورد فى النص الأدبى الشهير لهومير فى الأوديسا أن أرض مصر بها من الأعشاب الشافية لكل دواء وأن كل إنسان بها طبيب ، وأنهم على علم بمداواة كل علة ، وأنها « بلد الأطباء أحكم أهل العالم »[٦٩] . كما أن هيرودوت فى كتابه الثانى أكد على أن : *« ممارسة الطب فى مصر كان يغلب عليها التخصص ، وأن لكل علة طبيب : أطباء للعيون والأسنان والباطنة والأمراض الخافية »*[٧٠] . كما أوضح بالمثل أن المدارس الطبية فى مصر كانت فى منتهى الشهرة والسمعة الطيبة ، كما أن رجال الطب كان لهم صيت ذائع ، وأن الملوك والأمراء والعظماء فى البلاد الأخرى كانوا يستدعونهم لعلاجهم[٧١] .

وتردد صدى شهرة مصر فى مجال العرافة أيضا ، حيث استفسر ملك قبرص أثناء عصر العمارنة عن عراف مصر كان يعرف كيفية الحصول على أجوبة من النسور وأنه متخصص فى ممارسته »[٧٢] . وتردد صدى لمثل ذلك فى كتابات هيرودوت عن مصر : *« وهم أول العرافين ، وعنهم نقلت العرافة إلى بلاد اليونان »*[٧٣] . وظل الأجانب – حتى عندما اضطرب حبل الأمن بين الأموريين والكنعانيين فى الشام خلال عهد الفرعون إخناتون وتأثر المتاجر البابلية بالفوضى فى أرض كنعان – يأملون فى مصر وحاكمها سرعة الاستجابة لنجدتهم ومساندتهم

حيث لم يجد الملك البابلى غير الفرعون المصرى يستصرخه لتأمين تجارته : *«كنعان أرضك ... وأمراؤها مواليك»*(٧٤) .

وعلى العكس من ذلك فقد حفظت لنا بعض النصوص الأدبية نظرة عدائية باتجاه مصر وأهلها مثلما جاء فى قصة « الأمير المسحور » اتضحت عندما تمكن الأمير المسحور (المحكوم عليه من القدر) من تحقيق شرط الوصول طائرا إلى شرفة ابنة حاكم بلاد النهرين المرتفعة عن الأرض بستة وخمسين ذراعا ، وبالتالى كان من حقه أن يتزوج منها :

« فسألهم الرئيس ابن من فى الرؤساء هو ؟ فقال له أنه ابن ضابط أتى طريدا من أرض مصر فارا من وجه زوج والده » . ولكن رئيس بلاد النهرين استشاط غضبا وقال : « هل أعطى ابنتى إلى طريد مصر ؟ دعه يبتعد من هنا ثانية » . فأتوا ليخبروه قائلين « ارجع إلى المكان الذى أتيت منه ؟ »(٧٥) .

وبالمثل انعكس ذلك فى الرد على طلب « ون آمون » من أمير جبيل بتزويده بالخشب اللازم لآمون :

« إذا كان حاكم مصر سيد أملاكى وكنت أنا خادمه أيضا لم يكن لزاما عليه أن يرسل فضة ولا ذهبا حينما تقول « نفذ أوامر آمون » . على أنها لم تكن هدية ملك التى أعطوها والدى. وأنا لذلك لست خادمك ، ولا خادم من أرسلك »(٧٦) .

وعلى هذا يتضح من خلال النظر فى النصوص الأدبية فى حضارة مصر القديمة مدى التنوع فيما احتوته من معلومات عن البلدان المجاورة لمصر والصفات المرتبطة بأهلها ، واختلاف تلك النظرة المصرية باختلاف العلاقات المصرية معها سلبا أم إيجابا . كما عكست تلك النصوص المصرية أحيانا ألفاظا قاسية وصفات سيئة لحقت بتلك الشعوب وارتبطت بطبيعة العلاقة بين الطرفين ومدى تأثير القوة السياسية والعسكرية المصرية عليها .

خريطة رقم (١)

مناطق الشرق الأدنى القديم

الهوامش

(1) Gardiner, A.Egypt of Pharaohs, Oxford University Press, 1961, p.27.

(٢) بوزنر (جورج) وآخرون ، معجم الحضارة المصرية ، ترجمة أمين سلامة ، ومراجعة د. سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص٤٧.

(٣) حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة ، الجزء الثانى : فى الدراما والشعر وفنونه ، الطبعة الثانية ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩٠ ص ١٣٢ .

(٤) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٥) مهران (محمد بيومى) ، مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الرابع : الحضارة المصرية القديمة ، الجزء الأول : الآداب والعلوم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : ١٩٨٩ ، ص ١٣٦ .

(٦) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧) حسن (سليم) الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة . الجزء الأول : فى القصص والحكم والتأملات والرسائل ، الطبعة الثانية ، دار أخبار اليوم بالقاهرة ، ١٩٩٠م ، ص ١١١ ، ص٢٤١ .

(٨) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١١١ ، مهران (محمد بيومى) المرجع السابق، ص ٤٦ ، توفيق (سيد) معالم تاريخ وحضارة مصر القديمة ، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٧ ، ص ٢٣٥ .

Wilson J. « Egyptian Myth and Tales : The Story of Sinuhe », ANET I, Princeton University Press:1975, p.7.

(9) Wilson, J. « Egyptian Myth and Tales : The Journey of Wen – Amen to Phoenicia, » ANET I, Princeton University Press : 1972, p.24.

(١٠) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ١١١ ، توفيق (سيد) المرجع السابق ، ص ٣٧٢ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ص ١٣٤ ؛

Gardiner A. Op.Cit., pp. 312 – 13 .

(١١) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٣ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ .Wilson, J.Op. Cit p.20

(١٢) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ١٧٩ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، .Wilson, J.Op. Cit p.23

(١٣) توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(١٤) صالح (عبد العزيز) ، « التربية الثقافية ، تاريخ الحضارة المصرية : العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٨٦ .

(١٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ٤٨ ، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٩٩ ؛ فالبيل (دومينيك) ، الناس والحياة فى مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجاتى ومراجعة د. زكية طبوزادة ، كتاب الفكر رقم ١٤ ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٩م ، ص ١٢٥ ، Wilson, J. Op. Cit., p.7

(١٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ١١١ ، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٧٣ .

(١٧) فخرى (أحمد) ، « الأدب المصرى » ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٩٠ – ٣٩١ .

(١٨) توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠-٢٤١ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١١٠-١١١ .

(١٩) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٢٠) حسن (سليم) المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٧٧ . مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٢٣ .

Wilson, J. « Egyptian Myths and Tales : The Story of Two Brothers, » ANET I, Princeton University Press, 1972, p. 15 .

(٢١) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٤٠٧-٤٠٨ ، صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٢٢) صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٢٠٥

(٢٣) فالبيل (دومينيك) ، المرجع السابق ص ١٢٥ .

(٢٤) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٣٠.

Wilson, J. Journey of Wen – Amun, p. 19 ; Gardiner, A. Op. Cit., 309.

(٢٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ ، Wilson, J. Op. Cit., p. 24

(26) Saleh, A. « Arabia and the Arabs in Ancient Egyptian Records, » Journal of the Faculty of Archaeology, Cairo University, Special Issue Cairo : 1978. P. 74 .

(27) Saleh, A. « The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South Arabian Geb(b)anitae of the Classical Writers, » BIFAO 72 (1972), pp. 245 – 62.

مهران (محمد بيومى) «دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة» مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٢٨) شاهين (علاء الدين) ، تاريخ الخليج والجزيرة العربية القديمة ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٩٧، ص ٢١٤ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٢٩) عن مناظر البدو الأسيويين على طريق وناس الصاعد فى مجموعة الهرمية فى سقارة راجع : توفيق (سيد) ، المرجع لسابق ص ١٢٦ ؛

Smith W.S. The Art and Architecture of Ancient Egypt, p. 133 , Fig. 126.

(٣٠) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح السابع والأربعون ، آيات : ١ - ٥ دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط ١٩٩٤ .

(31) Posner, G. « Les Asiatiques en Egypte, » Syrie 34 (1957), pp. 145 – 53, Kemp, B. et al.,, Ancient Egypt: A Social History, Oxford University Press : 1983, P. 155.

(32) Gardienr, A. op.cit., p.281.

فالبيل (دومينيك) ، المرجع السابق ، ص ٣٩

(٣٣) فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص١٠٨ ، ص ١٢٣ .

(34) Gardiner,A. Op. Cit., p.266.

(٣٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٠١ ، فخرى (أحمد) ، الأدب المصرى ، ص ٣٨٦ .

(٣٦) صالح (عبد العزيز) ، الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : العـــراق ، القــاهرة ١٩٩٠ ، ص ٥٥٩ – ٥٦٠ ؛ توفيق (سيد) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٣٧) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، صالح (عبد العزيـــز)، المرجع السابق ، ص ٥٦٣ .

(٣٨) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٣٩) صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ص ٥٦٣ .

(40) Gardiner, A. Op. Cit., p. 266 .

(٤١) حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم ، الجزء الثانى : فى الدارما والشـــعر ، ص ١١٩ – ١٢٠ ، مهران (محمد بيومـــى) ، المرجـــع الســـابق ، ص ١٦٣ – ١٦٤ ؛ فخرى (أحمد) ، المرجع السابق ، ص ٤١٨ – ٤١٩ .

(٤٢) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤٣) البدر (سليمان سعدون) ، الخيج العربى فى الألفين الثانى والأول قبـــل الميـــلاد ، الكويت ١٩٧٨ ، ص ٣٣ ؛ شاهين (علاء الدين) ، المرجع السابق ص ١٥ .

(٤٤) وينهايم (ليو) ، بلاد ما بين النهرين ، ترجمة سعدى فيضى عبد الـــرازق ، بغـداد ١٩٨٦، ص ٧٨، صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٤٦١ ، ص ٤٨١.

(٤٥) شاهين (علاء الدين) ، « الرمزية التاريخيـــة للأقـــواس التســـعة فـــى المصـــادر المصرية وحتى نهاية الدولة الحديثة » ، المؤرخ المصرى ، قســـم التـــاريخ ، كليـــة الآداب – جامعة القاهرة ، العدد الثامن (يناير ١٩٩٢) ، ص ٣٥ – ٦٤ .

(٤٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٤٧) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ ، مهران (محمد بيومـــى) ، المرجـــع السابق ، ص١٩١ .

(٤٨) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

(٤٩) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(٥٠) فخرى (أحمد) ، المرجع السابق ، ص ٤٣٧ .

(٥١) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥ ، حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة ، الجزء الأول : فى القصص والحكم والتأملات ، ص ٢٢٤ .

(٥٢) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ص ٣٧ .

(٥٣) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ص ٣٨ .

(٥٤) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق، ص ٣١١، Gardiner, A. Op. Cit p.37

(٥٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣ .

(٥٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص٥٣ .

(٥٧) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ص ٥٢ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٠٤ ، فخرى (أحمد) ، المرجع السابق ص ٣٨٨ .

(٥٨) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٥٩) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص٤٠٩ .

(60) Gardiner, A. op.cit., p. 37, p.180 .

(61) Shaheen, A . « A Possible Syncronization of EB IV Ceramic ware in Syro – Palestinian and Egyptian Sites»,

مجلة كلية الآثار – جامعة القاهرة العدد الخامس (١٩٩١) ، ص ١٠٧ – ١١١ .

(٦٢) راجع شاهين (علاء الدين) ، « التحركات البشرية على حدود مصر الفرعونية إلى نهاية العصر البرونزى الحديث : الدلائل على وجودها ودوافعها » ، مجلة كلية الآداب بقنا ، جامعة جنوب الوادى ، العدد الخامس ، الجزء الثانى (١٩٩٥) ، ص ٣٢٥ - ٣٥٢ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(63) Wilson J. « Egyptain Prophecies, Songs and Poems, » ANET I, Princeton University Press : 1972, p. 257.

فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، ص ٢١٣ ، توفيق (سيد) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ، فالبيل (دومينيك) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٦٤) راجع : شاهين (علاء الدين) ، « المسح الأثرى والحفائر فى سيناء خلال القرن العشرين : الهدف والمضمون » مجلة إبداع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، العدد الثالث (مارس ١٩٩٥م) ص ٣٨ - ٤٥ .

(65) Gardiner, A. Op. Cit, p.135, p. 270; BAR III,#580,#586.

(٦٦) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(67) Gardiner, A. Op. Cit., p.266.

(٦٨) شاهين (علاء الدين) ، « السياحة العلاجية فى مصر الفرعونية » مجلة كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، العدد السادس عشر (يونيو ١٩٩٤م) ص١١-١٧.

(٦٩) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(70) Strouhal, E. Life of the Ancient Egyptians, University of Oklahoma Press : 1992, p. 243,

مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(٧١) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٨١ .

(٧٢) وبنهايم (ليو) ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣-٢٦٤ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(٧٣) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(٧٤) صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٥٦٠ .

(٧٥) حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة ، الجزء الأول ص ١١٤، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٧٣-٣٧٤ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٤١ .

(٧٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٧٦، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٨٤ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٣١ ،

Gardiner, A. Op. Cit. P.309.

حجــر رشــيد

قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

.القسم الأول : قصة الكشف عن الحجر

ومراحل نقله داخل مصر وخارجها

في منتصف شهر يوليو عام ١٩٩٩ تم ٢٠٠ (مائتا) سنة بالضبط علي كشف حجر رشيد فقد عثرت فرقة من جنود الحملة الفرنسية بقيادة الضابط بوشار (Francois Xavier Bouchard) علي هذا الحجر مثبتا في جدار مبني قديم في اطلال قلعة تعرف حاليا باسم قلعة " قايتباي " وموقعها في قرية "برج رشيد " التي تبعد عن وسط مدينة رشيد بحوالي سبعة كيلومترات ، وقد اطلق عليها الفرنسيون " قلعة سان جوليان " علي اسم احد ضباط الحملة الذين قتلوا اثناء المعارك في مصر وذلك عندما كانت هذه الفرقة تقوم بازالة هذا الجدار لتحصين المكان ضد الهجوم المنتظر من الاتراك والانجليز .

وتقع هذه القلعة علي لسان من الارض علي الشاطئ الغربي للنيل والمؤكد ان هذا الموقع لم يكن هو المكان الأصلي للحجر الذي يرجع للعصر البطلمي(عام ١٩٦ قبل الميلاد تاريخ الحجر) لان المنطقة كانت لا شك مغطاه بمياه البحر في العصر البطلمي (Quirke 1988 , p. 3) ونتيجة لارساب الطمي خلال القرون التي تلت العصر البطلمي تكوّن هذا اللسان الذي انشئ عليه المبني الذي يرجع للعصر الاسلامي وقد عثر علي آثار قديمة أخري كثيرة في منطقة رشيد استخدمت كمادة بناء في منشآتها من بينها آثار فرعونية تبين من دراستها انها نقلت من مدينة سايس القديمة (صا الحجر الحالية عند كفر الزيات) التي كانت تزخر بكثير

(*) أستاذ التاريخ القديم والآثار كلية الأداب - جامعة إسكندرية .

من الآثار الفرعونية عندما كانت عاصمة لمصر في المرحلة الأخيرة من العصر الفرعوني المسماه" العصر الصاوي "(نسبة الي صا الحجر) والذي امتد ما بين الاعوام ٦٧٢ - ٥٢٥ قبل الميلاد ، وعلي هذا رجح العلماء ان يكون حجر رشيد قد اقيم اصلا في معبد مدينة " سايس " هذه فقد وردت في نصوص الحجر جملة تدل علي ان هذا الحجر ونسخ أخري من نصوصه وزعت علي معابد مصر .

وحجر رشيد(شكل ١) هو كتلة من البازلت ويبلغ ارتفاعه ١١٨ سم وعرضه ٧٧ سم وسمكه ٣٠ سم ووزنه ٧٦٢كجم ويندرج تحت ما يعرف في علم الآثار المصرية بـ " اللوحات التذكارية " وقد دونت عليه ثلاثة نصوص هي النص الهيروغليفي في جزئه العلوي وقد ضاع جزء كبير منه يبلغ حوالي ثلثه بسبب كسر الحجر (شكل ٢) ويبلغ عدد السطور الباقية ١٤ سطراً (شكل ٦) وكان في الأصل لا يقل عن ٢٠ سطرا ولكن من مقارنة الرسوم في أعلي اللوحات (الأحجار) المشابهة لحجر رشيد يتضح أن الجزء العلوي المفقود كان اغلبه رسوم تمثل الملك أمام الآلهة وفوقهم قرص الشمس المجنح .

ثم النص الديموطيقي في القسم الأوسط وهو أكمل النصوص الثلاثة ولم يفقد منه غير جزء بسيط في ركنه الايمن العلوي ،ويبلغ عدد سطوره ٣٢ سطرا واخيرا النص اليوناني ، وقد ضاع جزء من نهايته في الركن السفلي الايمن من الحجر ويبلغ عدد سطوره ٥٤ سطرا .

والحجر مسجل عليه مرسوم او قرار اصدره الكهنة المصريون الذين اجتمعوا في معبد الاله بتاح في مدينة منف في العام التاسع من حكم الملك

البطلمي للاحتفال بذكري توليه الملك بطلميوس الخامس (المعادلة لسنة ١٩٦ ق.م) للإحتفال بالذكري الأولي لتنصيبه فرعونا علي مصر ويعيد ميلاده في نفس الوقت وتكريمه بسبب ماقدمه للمعابد المصرية من اعفاءات من الضرائب والالتزامات وذلك باقامة تمثال ومقصورة له في كل معابد مصر وتسجيل هذا القرار علي لوحة واقامتها بجوار التمثال والمقصورة .

وبمجرد كشف الضابط الفرنسي بوشار وزملائه للحجر والاطلاع علي النص اليوناني الذي جاء في آخره عبارة افصحت عن مضمون نصوص الحجر وهي "يدون هذا المرسوم علي لوحة بالحروف المقدسة والحروف الوطنية وبخط الايونيين" (الذي تبين فيما بعد انها الهيروغليفية والديموطيقية ثم اليونانية التي كانت معروفة لهم) - ادرك الضابط بوشار وزملاؤه الاهمية الكبيرة للحجر فارسلوا تقريرا عن الحجر الي الجنرال مينو الذي كان القائد المباشر لفرقة بوشار والذي كان مرابطا في مدينة الاسكندرية في ذلك الوقت فامر مينو الضابط بوشار بارسال الحجر الي منزله في الاسكندرية واعتبره من املاكه الخاصة , Budge 1921) (p.1 وقد تمكن مينو من الحصول علي ترجمة للجزء الأخير من النص اليوناني للتأكد من حقيقة العبارة المذكورة (Andrews 1987 , p. 9).

وعندما علم نابليون بالموضوع أمر بنقل الحجر الي القاهرة فوصل اليها في منتصف اغسطس ١٧٩٩ ، وكان نابليون قد اصدر قبل ذلك بقليل قرار انشاء المجمع المصري Institut d'Egypte الذي ضم ١٦٧ عالما وباحثا في مختلف فروع المعرفة (هارتليبن ١٩٩١ ، جـ ٩) فوضع الحجر في مبني هذا المجمع حيث

تمكن اثنان من هؤلاء العلماء هما Remi Raige , Joseph Marcel من التعرف علي النص الديموطيقي بانه مدون بكتابة هي علامات مختصرة من العلامات الهيروغليفية التي في القسم العلوي من الحجر , Andrews 1987) (p. 10 ، وفي سبتمبر ١٧٩٩ نشرت اول المعلومات عن الحجر في جريدة (الحملة الفرنسية) المسماه "Courtier d'Egypte" , Andrews) (1987 , p. 9 ثم امر نابليون بعمل نسخ من الحجر قام بها اثنان من المتخصصين في الطباعة هما : Marcel & Grallard والطريقة التي اتبعاها هي تغطية نقوش الحجر بالحبر ثم بسط ورق عليه وتمرير اسطوانة من المطاط عليه (Andrews , 1987 , p. 10) و ارسلت النسخ الي العلماء ذوي الخبرة العريضة في اوروبا ومن بينهم العالم الفرنسي Dutheil الذي تمكن من قراءة النص اليوناني في احدي هذه النسخ التي حملها الجنرال الفرنسي Dagua الي فرنسا عام ١٨٠١ . (Budge 1929 , p. 1)

وفي عام ١٨٠١ عندما لاح الخطر الانجليزي لغزو مدينة القاهرة هاجر العلماء الفرنسيون الي الاسكندرية وحملوا معهم حجر رشيد الذي اعيد الي منزل الجنرال مينو وظل هناك حتي عقدت المعاهدة بين الفرنسيين والانجليز في ١٨٠٢ التي نصت علي رحيل الفرنسيين عن مصر وتسليم الآثار المصرية التي بحوزتهم الي الانجليز وكان من بينها حجر رشيد ولكن الجنرال مينو امتنع عن تسليم الحجر فقد اعتبره ملكا خاصا له غير ان أحد الضباط الفرنسيين تمكن من تسليم الحجر خفية الي الانجليز الذي نقلوه الي انجلترا فنقل الي ميناء بورتسموث في فبراير

١٨٠٢ ومنها الي لندن حيث تم ايداعه في مقر جمعية "دارسي الآثار" بلندن حيث تمكن ستيفن واتسون Stephen Watson عالم اللغات الكلاسيكية بالجمعية من قراءة النص اليوناني في ابريل من تلك السنة (Quirke 1988 , p. 20) وفي هذه الجمعية تم عمل نسخ جصية من نقوش الحجر ارسلت الي جامعات لندن وكامبردج وادنبره ودبلن كما عملت نسخ من النص اليوناني بمفرده ارسلت الي الجمعيات والمكتبات والاكاديميات في اوروبا . وفي أواخر عام ١٨٠٢ نقل الحجر الي المتحف البريطاني حيث ظل به حتي اليوم. (Andrews 1987 , p. 11)

جهود العلماء في حل رموز حجر رشيد قبل شامبيليون

اولا : معلومات الباحثين عن الكتابة الهيروغليفية قبل حل رموز حجر شيد :

تسود بين بعض الدارسين في الوقت الحاضر معلومات غير صحيحة بان شامبليون كان اول من قرأ اسمي بطلميوس وكليوباترة علي حجر رشيد والحقيقة ان اسم كليوباترا لم يرد علي حجر رشيد وانما ورد اسم بطليموس فقط ، كما ان شمبليون لم يكن اول من قرأ اسم بطلميوس علي هذا الحجر بل سبقه الي ذلك علماء آخرون وان كانوا قد اخفقوا في متابعة قراءة باقي نقوش الحجر ولعل القارئ يتساءل عن سبب هذه الاخفاق وفي المقابل عن سبب نجاح شمبليون رغم ان هؤلاء العلماء كانوا اصحاب باع طويل وخبرة عريضة في تخصصهم والسبب ان هؤلاء العلماء اعتنقوا فكرة عن الكتابة الهيروغليفية كانت السبب في اخفاقهم بينما تخلص شامبليون من هذه الفكرة ربما بسبب عبقريته هذه ، وهذه الفكرة هي

اعتقادهم بان الكتابة الهيروغليفية تتكون من علامات رمزية Symbolic اي ان العلامة الواحدة تدل علي معني باكمله فقد تعبر عن كلمة او جملة طويلة ، وهذه الفكرة انحدرت اليهم من الكتاب الاوائل ، فمن ذلك ان المؤرخ ديودور الصقلي في القرن الأول قبل الميلاد اشار الي رمزية العلامات الهيروغليفية بقوله " ان الصقر يرمز الي كل شئ يحدث بسرعة لانه اسرع الطيور) Andrews 1987, p. 7) وفي القرن الثاني او الثالث الميلادي كرر كليمنت السكندري هذه الفكرة عن رمزية الكتابة الهيروغليفية واضاف اليها ان العلامات الهيروغليفية لها معاني خفية او سرية (Ibid)

وانتقلت فكرة الرمزية الي الكاتب حورابولو Horapollo الذي الف كتابا اسماه " الهيروغليفية " Hieroglyphika تم تجميعه في القرنين الرابع والخامس الميلاديين فمثلا من بين ما جاء في كتابه وصفه لصورة النسر في الكتابة الهيروغليفية اذ يقول ان شكل النسر اذا كان رابضا يدل علي الام لانه لا يوجد ذكر بين هذا النوع من الطيور ، وإذا كان طائرا دلت صورته علي " حدود معركة " لانه يحلق حول حدود المعارك انتظارا لجثث القتلي (Davies 1988 , p. 47)

وهذه الفكرة اي الاعتقاد في رمزية الكتابة الهيروغليفية استمرت في كتابات الباحثين حتي القرن السابع عشر الميلادي فقد ترجم العالم اللغوي اثناسيوس كرشر(Athnasius Kircher(1602 - 80 اسم الملك " ابريس " Apries(أحد فراعنة الاسرة السادسة والعشرين الصاوية) بجملة طويلة هي

"امتيازات اوزير المقدس والتي للحصول عليها تكبل الجن بالسلاسل ويتم الحصول ايضا علي منافع النيل" (Davies1988,. p. 48) وبالطبع فان هذ التفسير الذي يمتد لجملة كاملة يغلب عليه الطابع الخرافي لا يعبر عن اسم الملك ابريس باي حال ، فقد كان لهذا الملك اسمان احدهما هو " حع - ايب - ع " اي الذي يسر قلب رع " والثاني هو " واح - ايب - رع " بمعني " تعاطف قلب رع " .

هذه الفكرة عن رمزية الكتابة الهيروغليفية انتقلت عبر العصور حتي اعتنقها العلماء الذين حاولوا حل رموز حجر رشيد قبل شامبليون وكانت سببا في عدم نجاحهم في ذلك . ولكن رغم اخفاق هؤلاء العلماء ، فالحق يقال انهم مهدوا الطريق بمحاولاتهم حل رموز الحجر امام شامبليون . ذلك ان العالم اثناسيوس كرشر المذكور رغم اعتقاده الخاطئ في رمزية الكتابة الهيروغليفية فانه ساهم في تمهيد الطريق امام شمبليون بتعمقه في دراسة اللغة القبطية وتأليفه كتابا في قواعدها ومفرداتها مما كان فيما بعد عنصرا جوهريا في حل رموز الهيروغليفية ، فمن المعروف ان من اسباب نجاح شمبليون في حل رموز حجر رشيد هو اتقانه للغة القبطية لانها المرحلة الأخيرة للغة المصرية القديمة التي كتبت بالهيروغليفية والديموطيقية علي حجر رشيد .

ثم توالت مساهمات العلماء خلال القرن الثامن عشر في محاولة فهم الكتابة الهيروغليفية ومنهم ج. ج.بارثلمي J.J Barthelemy (١٧١٦ - ١٧٩٥) الذي اعلن ان الحلقات المستطيلة (التي عرفت فيما بعد باسم الخراطيش

التي يكتب في داخلها اسماء الفراعنة) هي اسماء ملوك , Quirke 1988) p. 4) وكانت هذه الحقيقة كما هو معروف سببا في نجاح العلماء قبل شامبليون في قراءة خراطيش او اسماء ملوك البطالمة الواردة علي حجر رشيد وغيره من آثار العصر البطلمي .

ثانيا : جهود العلماء قبل شمبليون في قراءة نقوش الحجر :

كانت أول دراسة لحجر رشيد هي دراسة العالم الفرنسي سلفستر دي ساسي في اواخر عام ١٨٠٢ تلتها دراسة العالم السويدي Johan Akerblad في نفس السنة وقد اتجه هذان العالمان الي النص الديموطيقي في محاولة لقراءته أولا لعدة أسباب هي :

١. انه أكمل من النص الهيروغليفي.

٢. انه توجد في بدايات سطوره (السطران ٥ ، ٦) اسماء ملوك وملكات وكهنة يونان ، ولما كان النص الديموطيقي كاملا تقريبا فانه يمكن تتبع مايقابل هذه الاسماء اليونانية في هذا النص .

٣. اعتقاد العلماء في ذلك الوقت ان النص الديموطيقي مكتوب بحروف ابجدية (وان كان قد ثبت خطأ ذلك فيما بعد) بينما النص الهيروغليفي مكتوب بعلامات رمزية (وقد ثبت خطأ ذلك أيضا). (Quirke 1988 , p. 4)

ومن المقارنة (op.cit. p. 50) بين اسماء الاشخاص في كل من النص

الديموطيقي والنص اليوناني نجح دي ساسي في التعرف علي اسماء " بطليموس والاسكندر " في النص الديموطيقي وقد سار اكربلاد علي نفس المنهج وتعرف علي اسماء " ارسنوي " و " برينكي" (من اسماء ملكات البطالمة) ثم استخرج من النص الديموطيقي ٢٩ علامة قال انها حروف ابجدية وان لم يكن ذلك صحيحا تماما لان ذلك ينطبق علي نصفها فقط ، وبذلك توصل اكربلاد الي حقيقة هامة هي ان بين العلامات الديموطيقية علامات صوتية Phonetic (العلامة الصوتية تشبه حروف الهجاء عندنا) وبهذه النتيجة توصل الي قراءة بعض الكلمات مثل " مصري " " معبد " ، " يحب" وكذلك بعض الضمائر مثل ضمير الغائب المفعول himوضمير الملكية his وقد استعان في التوصل الي هذه النتيجة بمقارنة هذه الكلمات الديموطيقية بما يناظرها في اللغة القبطية فكان بذلك اول من استعان باللغة القبطية في التعرف علي الكلمات المصرية القديمة (الديموطيقية) وهي الطريقة التي استخدمها شامبليون فيما بعد وساعدته الي حد كبير في حل رموز الكتابة الهيروغليفية .

وقد دفع ذلك النجاح بأكربلاد الي الاعتقاد بان جميع العلامات الديموطيقية هي علامات صوتية وهنا وجه الخطأ وهو يعادل نفس الخطأ الذي وقع فيه الكتاب الذين سبقوه باعتقادهم ان العلامات الهيروغليفية كلها علامات رمزية لان الكتابة الديموطيقية شأنها شأن الهيروغليفية كما سيتضح فيما بعد تجمع بين العلامات الرمزية والعلامات الصوتية .ولذلك توقف اكربلاد عن التقدم أكثر من ذلك .

وبعد محاولات اكربلاد بأثني عشر عاما وبالتحديد في عام ١٨١٤ جاءت محاولات العالم الانجليزي توماس يونج Thomas Young الذي بدأ ايضا بالنص الديموطيقي وتوصل الي حقيقتين هامتين تبينت صحتهما فيما بعد وهما :

أ- ان علامات النص الديموطيقي بعضها علامات صوتية وبعضها علامات رمزية (Quirke 1988 . p. 4).

ب - توجد علاقة بين اشكال العلامات الديموطيقية والعلامات الهيروغليفية (ثبت فيما بعد ان العلامات الديموطيقية هي اختصار للعلامات الهيروغليفية مرورا بالعلامات الهيراطيقية)

وقد تمكن يونج من قراءة خرطوش الملك بطلميوس في كل من النص الديموطيقي والنص الهيروغليفي ، (شكل ٣) وكانت تلك أول خطوة نحو التعرف علي العلامات الهيروغليفية وتوصل لذلك بالمقارنة بين الاسم في كل من النصوص الثلاثة علي حجر رشيد كما يلي :

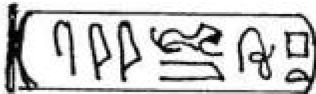
اسم بطليموس باليونانية ΠΤΟΛΕΜΑΙΟΣ

اسم بطليموس بالديموطيقية

(يقرأ من اليمين بين جانبي (ب ت و ل م ي س

خرطوش غير كامل

الاسم بالهيروغليفية داخل خرطوش كامل



وبذلك توصل يونج الي قراءة خمسة حروف هيروغليفية قراءة صحيحة وهي حروف الباء الثقيلة والتاء والميم والياء والسين

(Quirke 1488, p. 4)

وقد ساعد يونج علي التوصل الي هذه النتيجة ان اسم بطلميوس كتب علي حجر شيد بالحروف الابجدية الهيروغليفية وكانت هذه الطريقة هي التي اتبعها الكهنة المصريون في كتابة الاسماء الاجنبية في العصر البطلمي ،(وفي عصر الرومان فيما بعد) مثل اسماء ملوك وملكات البطالمة واباطرة الرومان وربما كان الكهنة المصريون قد تأثروا في ذلك بالابجدية اليونانية التي سوف يستخدمونها في أواخر العصر البطلمي او بداية الروماني في كتابة اللغة المصرية القديمة بدلا من العلامات الديموطيقية فيما عرف فيما بعد بالابجدية القبطية .

بعد ذلك وسع يونج دراساته خارج نطاق حجر شيد فدرس النصوص الهيروغليفية التي نشرت في كتاب وصف مصر (كان الفرنسيون قد بدأوا في نشر هذا الكتاب في عام ١٨٠٩) ، كما درس البرديات الجنازية الموجودة في المتحف البريطاني فلاحظ ان اسماء الاناث تأتي في آخرها علامتان هما ثبت فيما بعد أن العلامة العليا هي تاء التأنيث وان العلامة السفلي هي " شكل بيضة" وهي علامة زائدة علي نطق الكلمة كان المصريون يستخدمونها للدلالة علي الإناث فيما يعرف بين علامات الكتابة الهيروغليفية باسم " المخصصات "Deter- minatives") ومن مقارنة الكتابات علي البرديات تعرف يونج علي الكتابة

الهيراطيقية (وهي خط مختصر من الهيروغليفية كان يستخدمه الكهنة في الكتابة علي البردي) وبمقارنتها بكل من الكتابتين الهيروغليفية والديموطيقية توصل الي حقيقة هامة هي ان الكتابة المصرية القديمة تطورت من العلامات الهيروغليفية الي العلامات الهيراطيقية الاكثر اختصارا ثم الي العلامات الديموطيقية المختصرة كثيرا ، وبذلك صادف يونج الكثير من النجاح ولكن لم يتقدم أكثر من ذلك لسببين : اولهما انه كان لا يزال يعتقد مثل العلماء قبله ان العلامات الهيروغليفية هي في الاساس علامات رمزية Symbolic وانه لا يوجد بينها علامات صوتية فيما عدا الحروف الابجدية التي كتبت بها اسماء ملوك البطالمة واباطرة الرومان والسبب الثاني في عدم تقدم يونج هو عدم المامه الماما كافيا باللغة القبطية التي كانت خير معين لشمبليون في التوصل الي كشفه العظيم .

وآخر المحاولات في قراءة الكتابة الهيروغليفية وان كانت خارج حجر رشيد هي محاولات الرحالة الانجليزي W.J Bankes ففي عام ١٨١٩ تمكن هذا الرحالة من نقل مسلة صغيرة مع قاعدتها من معبد ايزيس بجزيرة فيلة جنوب اسوان الي انجلترا حيث اقامها في منزله في دورست Dorset وقد نحت علي قاعدة هذه المسلة نص اغريقي به اسماء بطلميوس وكليوباترا بينما نحت علي المسلة نفسها نص هيروغليفي به خرطوشان استنتج بانكس من النص اليوناني انهما نفس اسمي بطلميوس وكليوباترا ولاحظ ان اسم بطلميوس علي المسلة يتفق تماما مع نفس الاسم في النص الهيروغليفي علي حجر شيد الذي كان يونج قد توصل الي قراءته ، وقد طبع باكس نسخا من نقوش المسلة وقاعدتها ووزعها علي العلماء وارفق بها استنتاجاته وكانت اعمال بانكس بداية لما قام به شامبليون فيما بعد .

ثالثا : طريقة شامليون في حل رموز حجر رشيد :

مما سبق يتين ان شامبليون لم يبدأ من فراغ في حل رموز حجر رشيد كما هو الشائع ، بل سبقته جهود علماء توصلت الي نتائج استفاد منها شمبليون واهمها ان الكتابة الهيروغليفية بها علامات صوتية هي الحروف الابجدية التي كتبت بها الاسماء الاجنبية مثل اسماء ملوك البطالمة ومنها التوصل الي نطق الحروف في اسماء بطلميوس وكليوباترة . ومنها ان معرفة اللغة القبطية تساعد علي التعرف علي الكتابات المصرية الأخري كالهيروغليفية والديموطيقية .

والحقيقة ان شامبليون عندما بدأ يعكف علي دراسة حجر رشيد كان متأثرا بفكرة الخاصية الرمزية المطلقة Symbolic للكتابة الهيروغليفية التي كانت سببا في اخفاق من سبقوه وظل هذا الاعتقاد يلازمه حتي١٨٢١ (Gordon 1971, p. 43) ولم ينجح في حل رموز الهيروغليفية الا بعد ان تخلص من هذا القيد اي نبذ فكرة الخاصية الرمزية المطلقة لعلامات الكتابة الهيروغليفية فقد تجلت عبقريته في ادراكه ان الخاصية الصوتية للعلامات الهيروغليفية لا تقتصر علي الحروف[(١)] الابجدية ولكنها تمتد لتشمل عدداً كبيرا من العلامات ، وان الكتابة الهيروغليفية تشمل الي جانب هذه العلامات الصوتية علامات رمزية وقد ساعد علي نجاحه

---

(١) يلاحظ اننا في استخدامنا للمصطلحات اللغوية نفرق بين المصطلح " حروف " والمصطلح " علامات " فالحروف نقصد بها الحروف الابجدية التي تنطق بصوت واحد في الكلمة مثل الحروف العربية والحروف الانجليزية وغيرها ، أما مصطلح " علامات " فنقصد به جميع اشكال الكتابة الهيروغليفية الأخري التي سيأتي تفصيلها وشرحها فيما بعد .

الكبير اعتماده علي المقارنة بين اللغة القبطية التي كان يتقنها وبين نطق العلامات الهيروغليفية (المصرية القديمة) التي توصل اليها غير انه قبل أن يتوصل شامبليون الي انجازه الكبير تمكن من قراءة بعض الاسماء اليونانية والرومانية باتباع الطريقة التي توصل اليها من سبقوه وهي المقارنة بين حروف هذه الاسماء في النصوص اليونانية والديموطيقية والهيروغليفية سواء علي حجر شيد او علي غيره من الآثار فتمكن من قراءة اسماء الاسكندر والقاب قيصر واوتوكراتور واسماء الاباطرة الرومان تيبريوس ودوميسيان وتراجان وانطونينوس (Gordon 1971,p. 43) وبالإضافة لذلك تمكن شمبليون من قراءة علامات كانت تضاف داخل خرطوش الملك بطلميوس علي حجر رشيد بعد اسمه (في السطور ٦ و ١٢ و ١٤) وهي : (شكل ٤ و شكل ٦)

بطلميوس

فبدأ بتتبع ورود اسم بطلميوس في النص اليوناني بادئا من آخر النص للتعرف علي الأسم الهيروغليفي المقابل للاسم اليوناني (لأن النص الهيروغليفي كامل في آخره) فلاحظ ان اسم بطلميوس الوارد في سطر ٤٩ من النص اليوناني يتبعه عبارة ترجمتها اليونانية هي :" العائش ابديا محبوب بتاح " ووجد ان هذا الاسم يقابله في النص الهيروغليفي (سطر١٢) خرطوش به اسم بطلميوس وبعده العلامات المذكورة داخل الخطوش ، وتكررنفس التطابق في السطر ٣٧ من النص اليوناني مع السطر ٦ من النص الهيروغليفي وعندئذ استنتج شمبليون ان

العلامات الهيروغليفية [hieroglyphs] معناها" العائش ابديا محبوب بتاح "(وتقرأ الآن " ع ن خ / ج ت / م ر ي / ب ت ح) وعندما رجع شمبليون الي اللغة القبطية وجد ان كلمة عاش او حياة هي (وتقرأ " ا و ن خ ") في القبطية فاستنتج أن العلامة [hieroglyph] تقرأ " أ و ن خ " ولكن العلامات التالية وهي [hieroglyph] بمعني "ابديا" لم يجد ما يقابلها في اللغة القبطية ، ولكنه لاحظ ان علامة [hieroglyph] هي حرف التاء الهيروغليفي (التي سبق ان توصل يونج الي التعرف علي أنها تاء التأنيث) وعندما بدأ شمبليون ببحث عما يقابل العلامة [hieroglyph] التي تكررت كثيرا علي حجر رشيد وجد انها تبدأ بكلمة يقابلها في النص اليوناني كلمة معناها " يسمي " او يقال له " وعندما رجع الي اللغة القبطية وجد ان كلمة " يقال له " هي [hieroglyph] (وتقرأ " ج و ") فاستنتج ان العلامة [hieroglyph] تقرأ "ج" وتوصل بذلك الي ان الكلمة [hieroglyph] تقرأ "ج ت" وان معناها "ابديا أو الي الأبد" (كما جاء في النص اليوناني) ثم انتقل شمبليون الي العلامات الأخري وهي [hieroglyphs] والتي يقابلها في النص اليوناني " محبوب بتاح " وكان شمبليون يعرف ان العلامة [hieroglyph] تقرأ باء ثقيلة في كل من اسمي بطلميوس وكليوباتره وان العلامة [hieroglyph] تقرأ " تاء " وتوصل من ذلك الي ان قراءة الكلمة هي " ب ت ..." واستنتج من كل ذلك ان الحرف الأخير من الكلمة وهو [hieroglyph] يقرأ "ح" لتكمل كلمة " پ ت ح " اي" بتاح" وعلي ذلك فان العلامات التالية لهذه الكلمة وهي [hieroglyphs] هي الكلمة الهيوغليفية التي تقابلها كلمة " محبوب " في النص اليوناني وعندما رجع الي

اللغة القبطية وجد ان كلمة " يحب" هي MEPE (وتقرأ " م ي ر ي ") ولما كان شمبليون يعرف من قراءة خرطوش بطلميوس ان العلامتين ββ هما حرف الياء فاستنتج من ذلك ان العلامة تقرأ " م ر " وان معناها " محبوب " وهكذا توصل شمبليون الي قراءة العبارة التي معناها " محبوب بتاح " في خرطوش بطلميوس ، غير أن الأهم والأخطر من ذلك انه اكتشف حقيقة ذات أهمية كبيرة في حل رموز الهيروغليفية وهي ان علامة التي تقرأ " م ر "ليست علامة ابجدية مثل العلامات الأخري التي سبق ان قرأها في خراطيش ملوك البطالمة والرومان لانها تنطق بصوتين هما الميم والراء (شكل ٤) فخرج من ذلك بنتيجة هامة جدا وهي ان الكتابة الهيروغليفية تحتوي الي جانب الحروف الابجدية علي علامات صوتية مقطعية اي تنطق بأكثر من صوت واحد وكان لذلك فضل كبير في تقدمه في حل رموز الكتابة الهيروغليفية .

وعند هذا الحد ارسل شمبليون نتائج قراءاته للهيروغليفية في خطابه المشهور سنة ١٨٢٢ الذي عنوانه " Lettre á M. Dacier relative á l'alphabet des hieroglyphes Phonétiques " وهوموجه الي امين اكاديمية العلوم والفنون عن ابجدية الحروف الهيروغليفية الصوتية التي كان يستخدمها المصريون في تدوين القاب واسماء الحكام اليونان والرومان علي جدران آثارهم (هارتلين ١٩٩١ ، ص ١٦).

غي ان شمبليون عندما اتجه بعد ذلك لقراءة الاسماء الهيروغليفية للفراعنة

المكتوبة داخل خراطيش لاحظ انها كتبت بعلامات تختلف عن العلامات التي كتبت بها اسماء ملوك البطالمة واباطرة الرومان لان هذه الأخيرة كما ذكرنا مكتوبة بالحروف الابجدية (فيما عدا المقطع "م ر" والذي لا يدخل في هذه الاسماء وهو مقطع صوتي ثنائي كما تبين فيما سبق)

وكان اول اسماء الفراعنة التي اتجه اليها هو خرطوش الملك رمسيس الذي حصل عليه من بين النقوش التي وصلته من معبد ابي سمبل (شكل ٥) . وقد كتب اسم رمسيس علي جدران هذا المعبد في ابسط اشكاله وهي

فهو يعرف من علامات هذا الخرطوش العلامة الأخيرة فقط وهي حرف السين في اسم بطلميوس الوارد علي حجر رشيد .. غير انه لاحظ ان العلامة الأولي تشبه شكل الشمس ، ولما كان يعرف ان اسم الشمس في اللغة القبطية هو PH ويقرأ " ري " فقد استطاع بذلك قراءة العلامات في أول الخرطوش وفي آخره وهي (" ري " ؟ س س ") وفي الحال قفز الي ذهنه اسم الملك رمسيس المذكور في تاريخ الكاهن المصري مانيتون (الذي دوّن تاريخا لمصر الفرعونية باللغة اليونانية في عصر الملك بطلميوس الثاني وفيه قسم تاريخ مصر الفرعونية الي ٣٠ اسرة ورد فيها اسم الملك رمسيس بالصيغة Ramesses ضمن ملوك الاسرة التاسعة عشرة).

وعلي هذا استنتج شامبليون ان العلامة التي في الوسط وهي هي حرف الميم (وهي نتيجة غير صحيحة تماما لأن هذه العلامة مقطعية تقرأ الآن " م س") ثم لاحظ شمبليون ان هاتين العلامتين وردتا في النص الهيروغليفي علي حجر

رشيد (في النصف الأول من السطر العاشر)(شكل ٦) وعندما طابق مايقابل هذه الكلمة في النص اليوناني وجد ان الكلمة اليونانية التي تقابلها هي Genethlia بمعني " يوم ميلاد " (السطر رقم ٤٦) وهنا قفزت الي ذهنه الكلمة القبطية | C | ꟽ (وتقرأ م ي س ي) بمعني يلد او ميلاد(Vycich 1983 , p. 170) وبذلك توصل الي قراءة هذه العلامة الهيروغليفية بأنها " م س " وعرف انها علامة مقطعية . وأخذ شمبليون يتتبع العلامات الهيروغليفية علي حجر رشيد ويقارنها بما يقابلها في النص اليوناني وتوصل من ذلك الي ان الكتابة الهيروغليفية تتكون من ثلاثة انواع من العلامات هي:

(أ) علامات صوتية Phonogram منها ماهي وحيدة الصوت (وهي الحروف الابجدية) وثنائية الصوت مثل علامة "م س " وثلاثية الصوت مثل علامة " ع ن خ " ويطلق الآن علي العلامات الثنائية والثلاثية مصطلح " مقطع ثنائي biliteral syllable ومقطع ثلاثي triliteral syllable .

(ب) علامات رمزية Symbolic وهي تدل علي كلمة بأكملها اما بنفس الشكل الذي تمثله (تدل) علامة الشمس ⊙ التي تنطق " رع " فهي تعني الشمس نفسها وفي هذه الحالة تسمي علامات تصويرية Pictogram أو تفيد معني مرتبط بشكل الشمس مثل كلمة " يوم " او " نهار "(هرو) وفي هذه الحالة تسمي رمز معني ideogram (يجمع بعض الباحثين بين العلامة التصويرية ورمز المعني تحت مصطلح واحد هو رمز كلمة (logogram)

(ج) علامات تحدد معاني الكلمات وتأتي في آخر هذه الكلمات ويطلق

عليها اسم المخصصات determinative مثل استخدام علامة الشمس في كلمة "رك" بمعني " زمن" ففي هذه الكلمة لا تقرأ العلامة "رع" او " هـ ر و " بل ليس لها قراءة اطلاقا وانما تأتي في آخر كلمة " ر ك " لتحدد معناها بأنه زمن وليس معني آخر .

كما توصل شامبليون الي أن رموز المعاني ideograms يمكن ان تستخدم كعلامات صوتية اي تفقد معناها ومدلولها الأصلي وتصبح مجرد قيمة صوتية ومثال ذلك علامة التي تنطق" پ ر" اي بصوتين (مقطع ثنائي) والتي تمثل فناء منزل وتستخدم للدلالة علي المنزل فانها يمكن ان تفقد المدلول الأصلي لشكلها وتصبح مجرد قيمة صوتية اذا دخلت في كلمة مثل كلمة " پ ر ت " بمعني " فصل الشتاء "وتكتب هكذا وبذلك تحولت العلامة الي مجرد مقطع صوتي ثنائي ولم يعد لها علاقة بالمنزل (١)

---

(١) لتوضيح كيف استخدم المصريون القدماء العلامة الواحدة في الأنواع المختلفة للعلامات الهيروغليفية (علامة تصويرية - رمز معني - علامة صوتية -مخصص) نأخذ كمثال علي ذلك علامة العين (مع تبسيط كتابة العلامات) فهذه العلامة تقرأ " إر" اذا كتبت بمفردها ويكون معناها " عين " وهي بذلك علامة تصويرية Pictogram اي ان شكلها يدل علي معناها ، ولكن اذا استخدمت في معني مرتبط بالعين مثل كلمة اري " بمعني" يقرأ " او "يتلو (تعويذة)" اصبحت بذلك رمز معني ideogram ثم اذا استخدمت في كلمة مثل كلمة التي تقرأ "إ ر ت ت " بمعني " لبن حليب" فقدت صلتها بمعناها الاصلي (عين) او المعاني المرتبطة بها (يقرأ) وصارت علامة صوتية Phonogram تقرأ في نطاق كلمة " ا ر ت ت" التي لا علاقة لها بالعين ، ويمكن ايضا ان تستخدم علامة العين لتحديد معني كلمة مثل كلمة "يري" وتقرأ " م ا" (Faulkner 1972 , p. 100) وهي تطق العلامة التي تعني " يري" ويقتصر دور علامة العين لتحديد معني الكلمة بالفعل " يري" لان كلمة " م ا " لها معني

وقد اعلن شامبليون هذه النتائج في عام ١٨٢٤ في كتابه المشهور "المختصر في نظام الكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين "

Préc. is du systéme hiéroglyphique des anciens Egyptiens

وبعد ذلك قام شمبليون برحلة الي مصر بين عامي ١٨٢٨ - ١٨٢٩ زار خلالها الاثار الفرعونية في مختلف اقاليم مصر واهمها الجيزة وسقارة وبني حسن والأقصر وكوم امبو وابو سمبل حيث جمع كثيرا من النصوص الهيروغليفية (هارتلين ١٩٩١ ، ص ٣٨٩)

ومات شمبليون في عام ١٨٣٢ وعمره لا يتعدي الثانية والاربعين ، ولكن اخاه الأكبر جاك جوزيف شمبليون فيجاك قام بنشر مؤلفاته في اللغة المصرية القديمة ما بين الأعوام ١٨٤١ - ١٨٤٣ ، وهي" قواعد اللغة المصرية القديمة"

Grammaire Egyptienne"

"والمعجم المصري للكتابة الهيروغليفية"

Dictionnaire égyptien en écriture hiéroglyphique

= أهو" وعل" (Ibid)وفي هذه الحالة يرسم رأس وعل بعدها لبحدد معناها بانها " وعل" وتسمي علامة العين وعلامة رأس الوعل بالمخصص determinative لانها تخصص أو تحدد معني كلمة " م ا " إما " يري" اذا كان المخصص " عين " او " وعل" اذا كان المخصص رأس وعل .

ورغم هذه النتائج المؤقتة التي توصل اليها شمبليون في حل رموز الهيروغليفية الا انه من العجيب ان العلماء ظلوا يتشككون في هذه النتائج الي ان تم في عام ١٨٦٦ كشف حجر مكتوب بنفس الكتابات المدونة علي حجر رشيد وهي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ودون عليه مرسوم للكهنة المصريين المجتمعين في مدينة كانوب (ابي قير شرق الاسكندرية) لتكريم الملك بطلميوس الثالث جد الملك بطلميوس الخامس ونصوصه تشبه من حيث مضمونها واسلوبها نصوص حجر رشيد الي حد كبير ويطلق عليه الباحثون " مرسوم كانوب " وقد عثر علي هذا الحجر العالم الألماني لبسيوس في مدينة تانيس (صان الحجر بالقرب من المنزلة في شرق الدلتا) (Encyclopaedia 1998 , p. 442) ويرجع تاريخ مرسوم كانوب الي عام ٢٣٨ قبل الميلاد اي يسبق حجر رشيد بحوالي اربعين عاما وعندئذ آمن العلماء بالنتائج التي توصل اليها شمبليون وساروا قدما في دراسة اللغة المصرية القديمة علي الأسس التي وضعها حتي اصبحت هذه اللغة اليوم كتابا مفتوحا امام علماء المصريات .

رابعا : زيادة تأكيد صحة قراءات نصوص حجر رشيد :

لم يكن العثور علي حجر كانوب عام ١٨٦٦ هو وحده الذي أكد قراءة شمبليون لنصوص حجر رشيد بل انه في السنوات التالية اكتشفت اجزاء من نسخ أخري من حجر رشيد (وبالتحديد من مرسوم منف المدون علي حجر رشيد) وترجع كلها الي عهد بطلميوس الخامس . ففي عام ١٨٩٨ كشف في قرية نقراش بالقرب

من دمنهور (وهي موقع مستوطنة يونانية عرفت باسم نقراطيس) كشف في ذلك العام عن بقايا نسخة أخري من حجر رشيد وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري بالقاهرة تحت رقم ٥٥٧٦ (Budge 1929,p.2) والنص عليها مؤرخ بالسنة التاسعة ايضا من جكم بطلميوس الخامس والنص الهيروغليفي مطابق لنص حجر رشيد الي حد كبير مما مكن العلماء من التعرف علي جزء كبير من النص الهيروغليفي المفقود علي حجر رشيد ، كما كشف ايضا عن نقشين محفورين علي جدار معبد ايزيس في جزيرة فيلة (الان جزيرة ايجلكاالتي نقل اليها المعبد) .

وكان شمبليون أول من اكتشف وجود هذ النقش اثناء زيارته لجزيرة فيله عام ١٨٢٨ ووصفه في كتابه " ملاحظات وصفية لآثار مصر والنوبة (Champollion , I.F., Notices descriptives des monuments de E'gypte et de la Nubie , 1844) الذي نشر بعد وفاته ، والنص الآخر مؤرخ بالسنة ٢١ من حكم الملك بطلميوس الخامس ايضا ، كما عثر علي نسخة من النص الأخير اي المؤرخ بالسنة ٢١ مسجلا علي لوحة (حجر) وجدت في دندره بها بقايا نص هيروغليفي يتكون من ١٣ سطرا (سليم حسن ١٩٦٠ ، جـ١٦ ، ص ١٦٤)

هذا غير اجزاء من نسخ أخري وجدت في أماكن متفرقة احداها وجدت في جزيرة الفنتين (جزيرة أسوان الحالية) مؤرخة بالسنة التاسعة أيضا واخري في"اصفون" (ارمنت) مؤرخة بالسنة ٢٣ ، واغلب هذه النسخ مدون عليها النصان الهيروغليفي والديموطيقي فقط . (Quirke 1988, p. 9)

ولم يرد النص اليوناني الا علي كسرة من حجر الجرانيت وجدت في جزيرة الفنتين (سليم حسن ١٩٦٠ ج١٦ ، ص ١٦٤) وفيما عدا نسخة نقراطيس التي يطابق نصها الهيروغليفي نص حجر رشيد تقريبا فان بعض النسخ الأخري تختلف نصوصها عن نص حجر رشيد بعض الشئ وخاصة في ذكر مناسبة احتفال الكهنة فبينما جاء علي حجر رشيد ان مناسبة احتفال الكهنة هي الاحتفال بالذكري الاولي لتتويج الملك بطلميوس الخامس فرعونا علي مصر وتمجيدا لانتصاره علي اعدائه في ليوكوبوليس ، فان هذه المناسبة في النقش المؤرخ بالسنة ١٩ علي معبد ايزيس في فيلة هي انتصار الملك علي ثوار طيبة (سليم حسن ١٩٦٨، ص ١٦٣) وفي النقش المؤرخ بالسنة ٢١ علي نفس المعبد وعلي لوحة دندره وكذلك في النقش المؤرخ بالسنة ٢٣ علي لوحة اصفون فان هذه المناسبة هي الاحتفال بعيد أحد الحيوانات المقدسة .

ويمكن اجمال تواريخ واماكن اجتماعات الكهنة في عصر بطلميوس الخامس والنسخ المدونة عليها المراسيم الكهنوتية الصادرة في هذه الاجتماعات والتي يعتبر بعضها نسخا من نصوص حجر رشيد والبعض الآخر نسخا من نصوص أخري مشابهة له كما يلي :

تاريخ اجتماع الكهنة (صدور المرسوم)	مكان الاجتماع	الغرض منه	النسخ المدونة عليها المرسوم
(أ) السنة التاسعة (من حكم بطلميوس الخامس)	منف	(١) الاحتفال بذكري تتويج بطلميوس الخامس فرعونا (٢) الانتصار علي ثوار ليكوبوليس	١- حجر رشيد ٢- نسخة نقراطيس ٣- نسخة جزيرة الفنتين
(ب) السنة ١٩	الاسكندرية	الانتصار علي ثوار طيبة	(١) نقش محفورعلي جدار معبد ايزيس في جزيرة فيلة
(ج) السنة ٢١	منف	الاحتفال بعيد العجل ابيس	١- نقش علي جدار معبد ايزيس في فيلة ٢- نقش علي لوحة في دندره
(د) السنة ٢٣	منف	الاحتفال بعيد العجل منيفس	لوحة اصفون

محتويات نقش حجر رشيد :

كما قلنا فيما سبق فان نقش حجر رشيد هو نسخة من مرسوم أصدره مجمع الكهنة المصريين المنعقد في مدينة منف للاحتفال بالذكري الأولي لتتويج الملك بطلميوس الخامس ابيفانس فرعونا علي مصر طبقا للتقاليد المصرية ، وكان ذلك التتويج قد أجري لأول مرة في السنة السابقة لسنة هذا الاحتفال اي في السنة الثامنة من حكم الملك ، والنقش مؤرخ في النص اليوناني باليوم الرابع من شهر كسانديكوس (ابريل) مع معادلته باليوم الثامن عشر من شهر أمشيرمن السنة التاسعة من حكم بطلميوس الخامس ، والنص الديموطيقي مؤرخ بنفس الشهر اليوناني وبنفس التقويم المصري اي في اليوم الثامن عشر من الشهر الثاني من فصل الشتاء (شهر امشير) من السنة التاسعة وقد اضاف النص اليوناني الي التأريخ المذكور تأريخا طبقا للتقاليد اليونانية وهو اتخاذ سني كهنوت الكهنة والكاهنات المكلفين بخدمة عبادة آباء واجداد بطلميوس الخامس اساسا لهذا التأريخ.

والغالب أن الصيغة الاصلية للمرسوم وضعت أولا بالنص الديموطيقي ثم ترجمت الي النصين الهيروغليفي واليوناني والقسم الأول من النقش (بنصوصه الثلاثة) تشغلها قائمة بالقاب بطلميوس الخامس واوصاف ونعوت تمجد الملك وتقواه نحو الآلهة وعطفه علي المصريين وفي القسم الثاني يعدد الكهنة الاحسانات التي اسبغها الملك علي الكهنة وغيرهم من الرعايا المصريين والتي

تمكن تلخيصها كما يلي :

١- هبات مالية من الحبوب للمعابد

٢- هبات من الاوقاف للمعابد.

٣- الغاء نصف الضرائب المستحقة للحكومة علي المعابد

٤- التجاوز عن الديون المستحقة للحكومة علي الشعب .

٥-الافراج عن السجناء الذين وهنت عزيمتهم(ربما من طول مدة السجن)

٦- الغاء تسخير الملاحين (البحارة) من المصريين

٧- تخفيف الرسوم التي كان يدفعها المرشحون لوظائف الكهنوت

٨- تخفيض الضرائب المستحقة الدفع من المعابد للحكومة .

٩- تعزيز الخدمة الدينية للمعابد

١٠ - العفو عن الثوار الذين سبق السماح لهم بالعودة الي مصر والاقامة فيها .

١١- ارسال الفرق الحربية بالبحر والبر ضد اعداء مصر .

١٢ - حصار واسقاط مدينة شكان (Lycopolis) في وسط الدلتا

١٣ - التجاوز عن الديون المستحقة علي الكهنة للملك

١٤- تخفيض ضريبة الكتان الملكي .

١٥ - تخفيض ضريبة الحبوب علي الأراضي .

١٦- ترميم معابد العجل ابيس والعجل منيفس ومعابد الحيوانات المقدسة الأخري

١٧- اعادة بناء المقاصير المهدمة والمباني الدينية وامدادها بالهبات الوقفية .

واعترافا من الكهنة بالجميل نحو الملك لكل هذه الاحسانات (في نظرهم) فقد قرر المجلس العام للكهنة المصريين المنعقد في "منف" زيادة احتفالات التشريف والتكريم لبطلميوس في المعابد باتخاذ الاجراءات التالية .

١- عمل تماثيل للملك بوصفه " حامي مصر " واقامة تمثال في كل معبد في مصر لكي يتعبد له الكهنة والشعب .

٢- عمل تماثيل (من الذهب) ووضعها في مقاصير ذهبية تقام الي جانب مقاصير الآلهة وتحمل معها في المواكب .

٣- تمييز مقصورة بطلميوس (عن المقاصير الاخري)بان بوضع فوقها عشرة تيجان مزدوجة من الذهب .

٤- الاحتفال بيومي ميلاد وتتويج بطلميوس وهما اليوم السابع عشر واليوم الثلاثين من شهر مسري كعيدين الي الأبد .

٥- اعتبار الأيام الخمسة الأولي من شهر توت اعيادا خاصة بتكريم الملك الي الأبد ، تقدم فيها القرابين للمعابد ويلبس فيها الشعب كله الاكاليل .

٦- اضافة لقب جديد الي القاب الكهنة هو " كهنة الاله الظاهر (ابيفانس) الذي طيباته كاملة " وان يحفر هذا اللقب علي الختم الخاص بكل كاهن من كهنة الملك وان يوضع هذا الختم علي كل وثيقة كهنوتية .

٧- السماح للجنود بان يستعيروا من المعابد القاصير بما فيها من تماثيل لبطلميوس وان يأخذوها الي ثكناتهم ويحملوها في مواكب الاحتفالات .

٨- ان تنقش نسخ من هذا المرسوم علي لوحات من الحجر الصلب (كتل من حجر البازلت) بكتابة كلام الإله (الهيروغليفية) وبكتابة الوثائق (الديموطيقية)[1] وبكتابة الايونيين (اليونانية) وان تقام اللوحات المدون عليها نسخ من هذا المرسوم في معابد الدرجات الاولي والثانية والثالثة الي جانب تمثال بطلميوس الاله العائش ابديا .

المغزي التاريخي والسياسي لنصوص حجر رشيد

لم يكن مرسوم الكهنة المدون علي حجر رشيد سوي حلقة في سلسلة من المراسيم امتدت ما بين عصر بطلميوس الثالث والذي صدر في عهده المرسوم المعروف بمرسوم كانوب في عام ٢٣٨ قبل الميلاد مرورا بالمرسوم المسجل علي حجر رشيد والذي صدر في السنة التاسعة من عهد حفيده بطلميوس الخامس في سنة ١٩٦ ق.م وانتهاء بالمرسوم الصادر في السنة ٢٣ من حكمه.

وهناك تباين واضح بين المرسومين فبينما عقد اجتماع الكهنة الذين اصدروا مرسوم كانوب بالقرب من الاسكندرية مركز السلطة والحضارة اليونانية الاجنبية

---

(١) اختلفت هذه التسمية في النصين الهيروغليفي والديموطيقي عنها في النص اليوناني فبينما اطلق عليها النصان المذكوران " كتابة الوثائق " فان النص اليوناني يسميها " الكتابة الوطنية " اي الديموطيقية .

فان إجتماع الكهنة الذين اصدروا مرسوم منف عقد في عقر دار حضارة مصر الوطنية وتحت رعاية الاله بتاح الاله المصري وهذا التغير يعكس التطور الكبير الذي حدث خلال الاربعين عاما التي تفصل بين تواريخ المرسومين .ففي وقت صدور مرسوم كانوب كانت الدولة البطلمية في عصر بطلميوس الثالث في اوج قوتها في الداخل وفي اقصي اتساعها في الخارج واصبحت لعاصمتها الاسكندرية السيادة علي منطقة شرق البحر المتوسط، ولكن في عصر بطلميوس الخامس تغيرت الصورة بعد انتصار المصريين في عصر بطلميوس الرابع في معركة رفح في عام ٢١٧ ق.م وبعد تجنيدهم علي نطاق واسع في الجيش البطلمي وبعد ان نقل بطلميوس الرابع بلاطه مؤقتا من الاسكندرية الي منف العاصمة القديمة للفراعنة (لاخفاء استعداداته الحربية عن رسل الملك السليوكي عدوه اللدود كما يري بعض الباحثين) (Quirke 1988 , p. 7) .

ولكن سارت الامور علي غير ما يشتهي ملوك البطالمة فقد سرت الروح الوطنية في المصريين وانتشر التمرد ضد الحاكم البطلمي الاجنبي وامتد الي مصر كلها وعند موت بطلميوس الرابع سنة ٢٠٥ق.م انسلخ الجزء الجنوبي من مصر عن الحكم البطلمي كما انسلخت منطقة وسط وشرق الدلتا وتركزت الثورة في المنطقة الممتدة من سمنود نحو الجنوب وهي المعروفة في النصوص البطلمية بالمقاطعة البوصيرية ومركزها هو المسمي" ليكوبوليس" في النص اليوناني و " شكان " في النص الديموطيقي .

ولكن بطلميوس الخامس قام عام ١٩٧ ق.م ، بعد ان تمكن من تدعيم جيشه ، قام بشن حملة ضد ليكوبوليس واستولي الجيش البطلمي علي المدينة في هجوم خاطف وقبض علي الثوار ، وفي السنة التالية وهي السنة التاسعة من حكم الملك و كان الملك في سن الرابعة عشرة (١٩٦ ق.م) اقيم احتفال بالذكري الاولي لتتويجه في مدينة منف علي الطريقة الفرعونية وذلك لمزيد من اضفاء الشرعية علي حكم الملك لمصر في نظر المصريين لتعزيز موقفه في مواجهة الثوار وتضمن ذلك الاحتفال نشر عبادة الملك البطلمي في معابد مصر واقامة تمثال له ومقصورة في كل من هذه المعابد واقامة لوحة الي جانبها يدون عليها المرسوم الكهنوتي الصادر بإنشاء هذه العبادة بالاضافة الي الجوانب الاخري التي يحتوي عليها هذا المرسوم بالكتابات الثلاثة الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وقد استمر اصدار هذه المراسيم بعد ذلك خلال السنوات التالية من حكم بطلميوس الخامس مما يدل علي ان هذه السياسة جاءت بنتائج في صالح الحكم البطلمي فقد تمكن الملك من اخماد الثورة في الجنوب التي كانت طيبة مركزها واستولي علي هذه المدينة في السنة التاسعة عشرة من حكمه (عام ١٨٦ ق.م). وقد سجل المرسوم الذي اصدره الكهنة هذا الانتصارفي النقش المحفور علي جدران معبد ايزيس في جزيرة فيلة[١] كما سبق القول .

---

(١) نقل هذا المعبد الي جزيرة ابجيلكا القريبة من جزيرة فيلة والاكثر ارتفاعا منها ضمن خطة إنقاذ اثار النوبة في الستينات .

القسم الثاني

الدراسة التحليلية المقارنة لنصوص حجر رشيد الثلاثة

ملاحظة :

رغم انه امكن للعلماء استكمال الجزء المفقود من النص الهيروغليفي (الذي يبلغ ثلث النص تقريبا) من النسخ الاخري لمرسوم حجر رشيد كما ذكرنا سابقا ، الا اننا سنقتصر هنا علي دراسة النص الهيروغليفي المدون علي حجر رشيد فقط (السطر الاول من هذا النص يقابل السطر ١٦ من النص الديموطيقي والسطر ٢٧ من النص اليوناني) التزاما منّا ببداية حجر رشيد نفسه وخاصة أنّ النص الديموطيقي علي الحجر وهو شبه كامل يكاد يطابق النص الهيروغليفي في القراءة والمعني (كما تبين من النسخ الاخيرة في مرسوم حجر رشيد) مما يعطي فكرة واضحة عن مضمون الجزء المفقود من النص الهيروغليفي

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	السطور العليا من النص
(س١) في عصر الشاب (٣) الذي ورث الملكية من	(س١)(١) السنة التاسعة (من شهر) اكساندكيوس (٢) اليوم الرابع الموافق شهر أهل مصر	

(١) (س١) هي اختصار كلمة " سطر " والرقم يدل علي رقم هذا السطر .

(٢) هو اسم الشهر المقدوني الذي كتب في سياق النص اليوناني (سطر٥) ΞΑΝΔΙΚΟΥ وسوف نلتزم في كتابة الكلمات اليونانية كما وردت في النص بالضبط) ، وقد كتب في النص الديموطيقي محرفا الي النطق المصري" ق س ن ت ق س "

و المقصود بعبارة " شهر اهل مصر " (أ ب د / ن / ر م ت / ك م ت) هو شهر امشير فهو المعادل لشهر كساندكيوس هنا كما جاء في النص اليوناني (س٥)

(٣) يلاحظ ان نظام التأريخ اليوناني يختلف عن النظام المصري فبينما يبدأ النظام المصري بذكر التاريخ منسوبا الي الفرعون الحاكم (طبقا للنظام الفرعوني) فان النظام اليوناني يبدأ بالقاب الملك وصفاته ثم يذكر التاريخ منسوبا الي كهنة الملك (سطر ٤ من النص اليوناني) ولذلك لم يتطابق النصان الديموطيقي واليوناني في هذا الجزء من الحجر علي عكس ما سيحدث من تطابقهما في الاجزاء التالية .

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	(الشهر) الثاني من فصل الشتاء اليوم الثامن عشر (في عهد)	والده رب التيجان (٤) عظيم المجد الذي ثبت مصر التّقي نحو الآلهة (س٢) المنتصر علي اعدائه الذي اصلح الحياة المتحضرة للبشرية
	الفرعون (٥)(ح س ص)(٦) الشاب الذي ظهر كفرعون (ح س ص) علي	سيد الاعيادالثلاثينية (٧) وهو مثل هيفايستوس (٨) العظيم

(٤) هذه ترجمة في النص اليوناني للقب المصري " ن ب / خ ع و " وسوف تري ان الالقاب المصرية ترجمت الي معانيها في النص اليوناني كما ترجمت الالقاب اليونانية الي معانيها في النص الديموطيقي مما سهل التعرف علي مدلول هذه الالقاب .

(٥) استخدم النص الديموطيقي لقب الفرعون (ب ر / ع ا) للدلالة علي الملك البطلمي الذي تشبه بالفراعنة بينما استخدم النص اليوناني لقب الملك (باسيليوس)

(٦) (ح س ص) هو اختصار لصيغة التمنيات المألوفة في النصوص المصرية القديمة " ع ن خ - و ج ا - س ن ب " وترجمتها " (له) الحياة والسلامة والصحة " وهذه الصيغة تلازم كلمة فرعون في النص الديموطيقي تمشيا مع النصوص المصرية القديمة والعبارة تكتب مختصرة في النصوص الهيروغليفية هكذا ☥𓅱𓋴

(٧) هذه العبارة لها اهمية كبيرة لانها حلت مشكلة أمام علماء المصريات وهي مدة احتفال الفراعنة بذكري جلوسهم علي العرش فقد ذكر اسم هذا الاحتفال في النصوص الهيروغليفية " ح ب - س د " أي " عيد الذنب " لان الفرعون كان يلبس اثناء هذا الاحتفال جلد حيوان له ذنب ولم يذكر المصريون اي معلومات عن هذا الاحتفال فجاءت عبارة " الاعياد الثلاثينية " علي حجر رشيد لتوضيح ان هذا الاحتفال كان يقام في الأصل في ذكري مرور ثلاثين سنة علي اعتلاء الفرعون العرش ، ولو ان ذلك كان نظريا فقط لان بعض الفراعنة احتفلوا بهذا العيد عدة مرات اثناء حكمهم ولم يتقيدوا بمدة الثلاثين سنة وكان الهدف من هذا الاحتفال الفرعوني تجديد شباب الملك ليكون قادرا علي استمراره في حكم البلاد .

(٨) هيفايستوس : هو الاله اليوناني المقابل للإله " بتاح " المصري الذي اجري الاحتفال بذكري تنصيب بطلميوس فرعونا في معبده في منف ولكن النص اليوناني لم يلتزم بذكر اسم " هيفايستوس " بدلا من اسم بتاح في السطور التالية اذ ذكر اسم بتاح محرفا الي النطق اليوناني " ف ث ا " ΦΘΑ السطور ٤ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من النص اليوناني) .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	عرش والده سيد الصلين (١٠) الذي قوته عظيمة الذي ثبت مصر وجعلها جميلة الذي قلبه محسن نحو الالهة الذي يقف في وجه اعدائه الذي جمّل حياة الناس ست سنوات عيد حب - سـ(د) (١٣)	(س٣) مثل الشمس (٩) الملك العظيم لمصر العليا والسفلي نسل الالهين فيلوباتور(١١) الذي وافق عليه هيفايستوس ، الذي منحته الشمس النصر الصورة الحية لزيوس(١٢) ابن الشمس بطلميوس (س٤) العائش ابديا

(٩) ترجم النص اليوناني كلمة " رع" الواردة في النص الديموطيقي (والهيروغليفي في السطور التالية) الي معناها وهو الشمس (Helios باليونانية) وكان ذلك من العوامل التي ساعدت شمبليون علي حل رموز حجر رشيد كما ذكرنا .

(١٠) الصلين " تثنية " صل " وتطلق علي حية الكوبرا المقدسة والمفروض ان يكون هذا اللقب هو اللقب المعروف بـ " نبتي" اي " الربتين " وهو من الالقاب الخمسة للفرعون وترسم في الهيروغليفية بشكل رخمة (انثي النسر) التي ترمز الي ربة الجنوب وبجوارها صل واحد الذي يرمز الي ربة الشمال ، ولكن في العصر البطلمي حل رسم الكوبرا (الصل) محل الرخمة واصبح رمزا للجنوب ولذلك كان يرسم صلان متجاوران فوق رأس احدهما تاج الشمال وفوق رأس الآخر تاج الجنوب .

(١١) ترجم النص الديموطيقي هذا اللقب الي " م ر - إت " كما سنذكر بعد .

(١٢) زيوس هوالاله اليوناني المعادل للاله أمون المصري .

(١٣) هذه العبارة اي " حب - سد " أو " عيد سد " هي التي ذكرنا ان النص اليوناني الذي جاء فيه لقب " سيد الاعياد الثلاثينية " قد حل مشكلة التعرف علي هذا العيد .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
	مثل عيد بتاح تاتنن(١٥)	محبوب بتاح (١٤)
	(س٢) الفرعون (١٦)(ح س ص) مثل رع فرعون (ح س ص) المناطق العليا والسفلي ابن الالهين المحبين لوالدهما (١٩) الذي اختاره " بتاح " والذي منحه رع	في السنة التاسعة (١٧) من كهنوت ايتوس Aitos بن ايتوس (١٨) في (خدمة ، الاسكندر والالهين " سوترس" والالهين " ادلفوي " والالهين ايوارجتاي "

(١٤) ذكر هنا اسم الاله بتاح باسمه المصري المحور الي النطق اليوناني " ف ث ا " وليس باسم الاله هيفابستوس " المعادل اليوناني للاله بتاح المصري كما ذكرنا في السطر الثالث .

(١٥) كلمة تاتنن معناها الارض المرفوعة ، وقد اطلقت علي اله كان يعبد في مدينة منف قبل الاله بتاح ويعني اسمه الارض التي تم اكتسابها من مستنقعات منف وتحويلها الي أرض زراعية وعندما عبد الاله بتاح في منف اندمج فيه الاله تاتنن وصار يمثل صفة الخلق في بتاح

(١٦) كلمة الفرعون (بر - عا) في النص الديموطيقي يقابلها كلمة (الملك) Baselios في النص اليوناني .

(١٧) تأخر ذكر التاريخ في النص اليوناني عنه في النص اليوناني للسبب الذي ذكرناه فيما سبق .

(١٨) هذا الكاهن الذي ارخ النص اليوناني بسنوات كهانته وكذلك الكاهنات اللاتي سيأتي اسماهن هم القائمون علي خدمة عبادة الاسكندر وملوك وملكات البطالمة وكانوا ينظمون في نظام اغريقي خالص .

(١٩) هذه ترجمة مصرية للقب اليوناني " فيلوباتورز " (بطلميوس الرابع وزوجته) والد بطلميوس الخامس وتقرأ " م ر - ا ت و "

السطور العليا من النص الهيروغليفي 11	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
	النصر ، الصورة الحية لامون ابن الشمس بطلميوس (٢١) العائش ابديا محبوب بتاح الاله الظاهر (٢٤) الذي طيباته كاملة (٢٢) اب بطلميوس وارسنوي الالهان المحبان لوالديهما حينما كان	والالهين فيلوباتورز (٢٠) والاله (س٥) ابيفانس ابوخارستوس (٢٢) وعندما كانت (كاهنة) اثلوفوروس (٢٣) الخاصة ببرينيكي ابوراجيتس هي "پرها" ابنة فيلينوس (٢٥) وعندما كانت (كاهنة)

(٢٠) المعروف ان هذه الالقاب اليونانية هي لكل من بطلميوس الاول وزوجته (سوترس) وبطلميوس الثاني وزوجته (ادلفوي) وبطلميوس الثالث وزوجته (ابوارتاي) وبطلميوس الرابع وزوجته (فيلوباتورز) وهم اباء وجداد بطلميوس الخامس (ابيفانس) وسوف يرد في النص الديموطيقي ترجمة لهذه الالقاب .

(٢١) كتب اسم بطلميوس في النص الديموطيقي دائما داخل خرطوش مختصر ( ) ولكن اختلف هجاء الاسم بين خرطوش وآخر ففي الحالة لتي نحن بصددها كتب هكذا (ب ت ل و م ي س)

(٢٢) هذا اللقب Eucharistos يلازم اسم بطلميوس في النص اليوناني ومعناه " صاحب الحسنات " ويعادله في النص الديموطيقي " ث ا ي - ف / م د - ن ف ر ت " اي الذي طيباته كاملة . وفي النص الهيروغليفي (كما سيأتي بعد) " ن ب - ن ف ر و " اي " سيد الطيبات " .

(٢٣) Athlophoros ستَرد ترجمتها في النص الديموطيقي بمعني " حاملة هدية النصر " وكانت الكاهنة الخاصة بعبادة الملكة برنيكي زوجة بطلميوس الثالث ابوراجتيس

(٢٤) هذا اللقب ويقرأ في الديموطيقية " ن ث ر - ب ر " يعني الاله المشرق والظاهر هو الترجمة الديموطيقية للقب اليوناني Epiphanes.

(٢٥)"پرها" ابنة فيلينوس Phirlios هي كاهنة athlophoros الخاصة بعبادة الملكة برنيكي زوجة بطلميوس الثالث ، وقد ترجم هذا اللقب في النص الديموطيقي الي " ف ا ي / ش ب / پ ا / ت ن ي " اي " حاملة هدية النصر "

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــــي
الجسنترس (٢٧) والالهان المنقذان (٢٨) (س٣) والالهـان الاخـوان (٢٩) والالهـان المحـسنان (٣٠) والالهان المحبـان لوالدهمـا (٣١) والفرعون (ح س ص) بطلميوس الاله الظاهر الذي فضـائله كـاملة	كانيفوروس (٢٦)الخاصة بارسنوي فيلادلفوس هي اريا ابنة ديوجينيس (٢٦) وعندما كانت كاهنة ارسنوي فيلوباتور هي اريني ابنة بطلميوس في شهر كساندیكوس اليوم الرابع الموافق اليوم الثامن عشر من شهر امشير المصري (٣٢)

(٢٦) اريا Areia ابنة Diogencs هي كاهنة Canephoros الخاصة بعبادة ارسنوي زوجة بطلميوس الثاني ، وقد ترجم هذا اللقب في النص الديوطيقي الي " ف ا ي / ث ن / ن ب و " اي " حاملة السلة الذهبية "

(٢٧) هذه هي صيغة اسم الاسكندر في النص الديوطيقي وقد كتب داخل خرطوش مختصر (آ ل ج س ن ت ر س)

(٢٨) ترجم لقب Soteres في النص اليـوناني الي " ن ت ر و / ن ت ي / ن ح م /" في النص الديوطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو " الالهان المنقذان " ، وفي بعض الاحيان استبدلت بكلمة " ن ح م " كلمة " ن ج " وتحمل نفس المعني اي " المنقذ "

(٢٩) ترجم لقب Adelphoi في النص اليـوناني الي (ن ت ر و / س ن و) في النص الديوطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو (الالهان) الأخوان .

(٣٠) ترجم لقب Euergetai في النص اليـــوناني الي" ن ث ر و / م ن خ و " في النص الديوطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو (الالهان) المحسنان .

(٣١) ترجم لقب Philopatores في النص اليـوناني الي (ن ث ر و / م ر - ا ت . و) في النص الديوطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو (الالهان) المحبان لوالدهما)

(٣٢) يلاحظ الاختلاف في ذكر الشهر بين النصين الديوطيقي واليوناني فبينما ورد الشهر في النص الديوطيقي بالنسبة لترتيبه في الفصل الذي يقع فيه (الشهر الثاني من فصل الشتاء) (س١) وهي الطريقة الفرعونية المألوفة في ذكر الشهور ، فقد ذكر في النص اليوناني باسمه امشير MEXEIP وذلك رغم ان اسماء الشهور (التي ظلت باقية في الشهور القبطية) كانت معروفة في العصر البطلمي .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــــي
(٣٣) اياتوس (٣٤) ابن اياتوس حـــينمـــا كـــانت"برا" ابنة تيليشبس(٣٥) تحمل هدية النصر (٣٦) أمام برنيجا (٣٧) المحسنة وحينما كانت اريا ابنة تياجنس (٣٨) حاملة السلة الذهبية أمام ارسنوي محبة اخيها (٣٩) وعندمـا كـانت هرانا (٤٠) ابنة بطلميوس كاهنة ارسنوي محبة والدها	

(٣٣) هذه ترجمة للقب ايوخارستوس كما سبق القول (هامش ٢ سطر ٥ من النص اليوناني)

(٣٤) " ا ي ا ت و س " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Aitos

(٣٥)" ب ر ا " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Pyrrha " و" ب ي ل ي ن س " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Philios.

(٣٦) سبق ان ذكرنا ان هذه ترجمة ديموطيقية للقب اليوناني Athlophoros

(٣٧) (ب ر ن ي ج ا) هي الصيغة الديموطيقية لاسم الملكة برنيكي ، وقد كتبت داخل خرطوش ناقص( )

(٣٨) " ا ر ي ا " و " ت ي ا ج ن س " هما الصيغتان الديموطيقيتان للاسمين اليونانيين Diogenes , Areia .

(٣٩) كتبت هذه العبارة في النص الديموطيقي بالصيغة التالية (ا ر س ي ن ا) ت ا / م ر - س ن " ارستوي محبة الاخ "

(٤٠) " هـ ر ا ن ا " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Irene

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	(س٤) في هذا اليوم قرر كبار الكهنة وكهنة التنبوءات (٤١) الكهنة الذين يدخلون الي قدس الاقداس لالباس (تماثيل) الآلهة (٤٢) وكتبة الاسفار المقدسة وكتبة بيت الحياة (٤٣) والكهنة الاخرون الذين اتوا من معابد مصر (٤٤) (س٥) الي منف	س٦) مرسوم : ان رؤساء الكهنة والكهنة المعبرون عن نبوءات الالهة (٤١) وهؤلاء الذين يدخلون المحراب (س٧) لالباس تماثيل الالهة(٤٢) وحملة المراوح والكتبة المقدسين وكل الكهنة الآخرين الذين اتوا من المعابد في كل البلاد (٤٤) الي الملك في منف .

(٤١) اختلفت تسمية هؤلاء الكهنة في كل من النصين الديموطيقي واليوناني فبينما اطلق النص اليوناني عليهم Prophetai اي " المعبرون عن نبوءات الآلهة " فقد اطلق النص الديموطيقي عليهم " ن ا / ح م - ن ث ر و " اي " خدمة الآلهة " .

(٤٢) من أهم الطقوس التي تجري في المعابد المصرية كان طقس الباس تماثيل الالهة في قدس الاقداس وتقليدهم الشارات الالهية ، وكان يقوم بذلك طائفة متميزة من الكهنة في صباح كل يوم .

(٤٣) بيت الحياة " ب ر - ع ن خ " هي ما يقابل عندنا دار الحكمة او المجمع العلمي ، ومقرها في المعابد (وفي بعض الاحيان اطلقت علي المدارس العليا " ومقرها المعابد ايضا ، وقد عرفت منها " مدرسة للحياة " في كل من منف وابيدوس والعمارنة .

(٤٤) كان الكهنة المصريون في كافة انحاء البلاد يرسلون في مناسبات معينة (هي هنا مناسبة عيد تتويج الملك البطلمي) مندوبين عنهم لعقد مؤتمر عام يتخذ قرارات تنفذها كل المعابد في مصر ، ومؤتمر منف التي سجلت قراراته علي حجر رشيد ومن قبله مؤتمر " كانوب " الذي عقد في عصر بطلميوس الثالث (عام ٢٣٨ ق.م) من امثلة هذه المؤتمرات .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	في عيد تسلم الوظيفة السامية (٤٥) (بواسطة) الفرعون (ح س ص) بطلميوس العائش ابديا محبوب بتاح الاله الظاهر الذي طيباته كاملة من والده	من أجل عيد تسلم (س ٨) بطلميوس الملكية العائش ابديا محبوب بتاح الاله ابيفانس "إيوخارستوس "(الملكية) التي ورثها عن والده
	لقد اجتمعوا (الكهنة) في معبد منف وقالوا جميعا " منذ ان حدث ان الفرعون (ح س ص) بطلميوس العائش ابديا	لقد اجتمعوا الكهنة) في المعبد في منف في هذا اليوم وقالوا (س٩) كان الملك بطلميوس العائش ابديا
	الاله الظاهر (ابن الفرعون (ح س ص) بطلميوس (س٦) " والفرعون " (ح س ص) ارسنوي (٤٦)	الاله ابيفانس ابوخارستوس الذي انحدر من الملك بطلميوس والملكة ارسنوي الالهين فيلوباتورز كان

(٤٥) المقصود بالوظيفة السامية هي الملكية البطلمية التي ورثها بطلميوس عن والده . وقد وردت بهذا المعنى في النص الهيروغليفي (سطر ١٠) اذ عبر النص عن هذه الوظيفة السامية بكلمة " ن س ي ت " بمعنى " مَلَكِيـة " وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في هامش (٣) سطر ١٠ حيث وردت هذه الكلمة .

(٤٦) من الغريب اطلاق لقب " فرعون " (پر - عا) على الملكة ارسنوي زوجة بطلميوس الرابع ، وهذا أمر لم يكن مألوفا في مصر الفرعونية بالنسبة لزوجات الفراعنة (فيما عدا الملكة حتشبسوت التي كانت تحكم فعلا) وقد الحقت بهذا اللقب عبارة التمني " (له) الحياة والسعادة والصحة " التي الحقت باسم بطلميوس .

ترجمة النص اليونانـــــي	ترجمة النص الديموطيقي	
محسنا بوسائل شتي بالنسبة للمعابد (س ١٠) ولهؤلاء الذين فيها ولهؤلاء الذين يعيشون تحت رعايته حاكما كإله انحدر من اله والهة مثل حورس (٤٨) بن ايزيس واوزوريس حامي والده اوزوريس فبالنسبة للآلهة (س ١١) بوصفه يميل للاحسان قد اهدي دخلا من المال وغلة للمعابد	والالهين المحبين لوالدهما (قد قدم) حسابات كثيرة لمعابد مصر (٤٧) وكل اولئك الذين تحت حكمه كفرعون (ح س ص) ولكونه الها ابن اله والهة ولكونه شبيه الاله حور(٤٨) ابن ايزيس واوزير الذي حمي والده اوزير والذي قلبه محسن نحو الالهة الذي اعطي فضة كثيرة وغلة كثيرة لمعابد مصر	السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

(٤٧) استعملت كلمة " كمت " هنا كاسم لمصر وهو الاسم الذي استخدم في سائر النص الديموطيقي (والهيروغليفي كما سيأتي بعد) وهو الاسم الشائع لمصر في النصوص المصرية القديمة ومعناه " السمراء " اي الارض السمراء نسبة الي لون طمي النيل الذي يغطيها ولشيوع هذه الكلمة وارتباطها بظاهرة طبيعية دائمة في البيئة المصرية فقد استمرت في اللغة القبطية KHME بنفس نطقها تقريبا (كيمي)

(٤٨) الاله حورس ورمزه الصقر كان يعتبر في مصر الفرعونية اول السلالة الملكية التي حكمت مصر وبذلك كان الفراعنة يحملون اسمه ويكتبون اسماءهم داخل شكل مستطيل يرمز الي واجهة القصر الملكي ويربض فوقه شكل صقر ويعرف هذا اللقب باللقب الحوري بين علماء المصريات نسبة الي الاله " حور" أو " حورس " .

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــــي
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	(س٧) (وانفق مصاريف) كثيرة لينشر (حرفيا ليوجد) السلام في مصر ولتوطيد مركز المعابد فقد منح الهبات للفرق الحربية التي تحت امرته جميعها	وتحمل مصاريف كثيرة ليجعل مصر في رخاء (س ١٢) ولتدعيم المعابد وكان كريما مع كل فرقه الحربية (٤٩)
	والضرائب والجزية المفروضة في مصر بعضها خفضه وبعضها الغاه تماما لكي يجعل الجيش (٤٩) وكل الناس جميعهم سعداء في عهده (س٨) كفرعون (ح س ص)	وبالنسبة للدخول والضرائب التي كانت قائمة في مصر فقد الغي بعضها تماما وخفض الاخري لكي يكون الناس (المصريون) وجميع الآخرين (الجنسيات الأخري) في سعادة

(٤٩) المقصود بالطبع هو الفرق الحربية المصرية في جيش البطالمة التي بدأ تجنيدها في عصر الملك بطلميوس الرابع والد ابيفانس وتمكن الجنود المصريون من الانتصار علي جيش الملك السلبوكي (حاكم الشام اليوناني) في موقعة رفح في عام ٢١٧ ق.م) بينما انهزمت الفرق اليونانية مما كان له اثره في بعث الروح القومية في نفوس المصريين من ناحية وفي تنازل ملوك البطالمة عن تعسفهم وتعصبهم ضد المصريين وتقربهم اليهم من ناحية أخري وكان من نتيجة هذا التقارب تتويج بطلميوس الرابع فرعونا في منف (ابراهيم نصحي ، ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ١٩) وسار علي منواله ابنه بطلميوس الخامس .

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانــــي
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	والضرائب الخاصة بالفرعون (ح س ص) المفروضة علي كل سكان مصر (٥٠) وهؤلاء الذين تحت سلطته كفرعون (ح س ص) وهي كثيرة فقد الغاها .	تحت حكمه (س ١٣) والديون المستحقة للتاج علي هؤلاء الذين في مصر والذين في سائر دولته وعددها كبير فقد الغاها
	والناس الذين كانوا مسجونين والذين كانت ضدهم اتهامات منذ مدة فقد اطلق سراحهم وقد امر فيما يخص الدخل المقدس للالهة والفضة والغلال التي كانت تقدم (س٩) الي معابدهم (معابد الكهنة) سنويا (٥١)	والمقبوض عليهم والمحبوسين في السجون (س ١٤) والمتهمين منذ مدة طويلة فقد اعفاهم من التهم الموجهة اليهم وقد امر بالنسبة لدخول المعابد والهبات السنوية التي تمنح لها من الغلال والمال (س ١٥)

(٥٠) التعبير الديموطيقي "ر م ت و / ن ت ي/ ن / ك م ت " اي الناس الذين في مصر

(٥١) في النص اليوناني استخدمت كلمة ΣΥΝΤΑΞΕΙΣ (Syntaxis) للدلالة علي الاعانة التي تقدمها الدولة نقدا او عينا للمعابد لمعاونتها علي استمرار اداء الطقوس الدينية للآلهة ولما كانت لا توجد كلمة في اللغة المصرية تفيد هذا المعني فقد كتبت هذه الكلمة في النص الديموطيقي بلفظها اليوناني مع بعض التحوير في الحروف كما يلي "س ن ت ج س ي"

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	والانصبة التي تؤول للآلهة من حقول الكروم والحدائق وسائر الممتلكات كلها التي من عهد والده ان تظل في حوزتهم (٥٢) وقد أمر بخصوص مايدفعه الكهنة الا يدفعوا ضريبتهم نظير خدمتهم	والانصبة المخصصة للالهة من كل من حقول الكروم والحدائق ومن الاملاك الأخري الخاصة بالألهة في عصر والده (أمر) ان تظل كما هي (٥٢) (س ١٦) وقد امر بالنسبة للكهنة الا يدفعوا أكثر مما كان مقررا عليهم

(٥٢) اطلق النص اليوناني علي هذه الانصبة ΑΠΟΜΟΙΡΑ (ابو مويرا) بينما اطلق عليها النص الديموطيقي المترجم هنا " د ن ي و / ن ت ي / خ ب ر / ن / ن ت ر و / ن ن ، / ا ح و / ا د ل ي / ن ا / ا ح و / ت ج ي " وكانت الابومريرا هذه في الاصل ضريبة تجبيها المعابد المصرية في العصر الفرعوني من زارعي الكروم والفاكهة وكانت تبلغ سدس المحصول وكان دخلها يكّون جانبا كبيرا من موارد هذه المعابد ولكن طلميوس الثاني جعل جبايتها من حق الدولة البطلمية فكانت تورد الي مخازن الدولة ، ثم يقوم الملك البطلمي بتقديم جزء منها للمعابد كهبة منه تحت قسمي الصرف منها علي عبادة الملكة ارسنوي (اخته وزوجته) وذلك تمشيا مع سياسته في اخضاع المعابد لسيطرته ، وبمرور الوقت وزيادة عدد افراد اسرة البطالمة الذين تجري لهم طقوس العبادة من ناحية ولرغبة بطلميوس الرابع في استرضاء الكهنة المصريين من ناحية أخري فقد زاد هذا الملك من انصبة المعابد من هذه الضريبة ، ويبدو انه كان من حق بطلميوس الخامس انقاص هذه الضريبة ولكنه ابقاها كما كانت في عهد والده مما استلزم شكر الكهنة المصريين كما جاء في النصين المذكورين (ابراهيم نصحي ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ٦٥ - ٦٠)

ترجمة النص اليونانـــــي	ترجمة النص الديموطيقي	
من ضـريبـة التنصيب (في سلك الكهنوت) في السنة الأولي من حكم والده (٥٣) وقـد اعـفي اعـضـاء الطوائف الكهنوتيـة من الابحـار سنويا الي الاسكندرية وأمـر بابقــاف الخـدمــة فــي الاسطــول (بالسخرة)(٥٦)	ككهنة أكثر من المقدار الذي كانوا يدفعـونه حتي السنة الأولي من عهد والده (٥٣) (س١٠) وقـد اعـفي الناس الذين كـانوا يشغلون وظائف في المعبد من الرحلة النهـرية التي كـانوا يقومون بها الي مدينة الاسكندرية (٥٤) سنويا (٥٥) كما امر بعدم تسخير البحارة (٥٦)	السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

(٥٣) تدل هذه العبارة علي ان بطلميوس الخامس رفع قيمة هذه الضريبة في بداية عهده ثم أعادها الي ما كانت عليه في عهد والده بطلميوس الرابع .

(٥٤) هكذا كتب اسم الاسكندرية في النص الديوطيقي ويقرأ " ب ا ع (ا ل ج س ا ن ت ر س) وقد كتب اسم الاسكندر في خرطوش غير كامل شأن خرطوش بطلميوس .

(٥٥) كان يفرض علي الكهنة المصريين السفر سنويا بطريق النيل الي الاسكندرية لتجديد الولاء للملك البطلمي .

(٥٦) المقصود عدم تسخير عمال المعابد في الخدمة في الاسطول ، فقد كان هؤلاء العمال مصدر دخل للمعابد التابعين لها اذ كانت المعابد تؤجر بعضهم للمشتغلين بالتجارة والصناعة وتستخدم البعض الآخر في مصانعها ومزارعها .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
وقد تنازل عن ٣/٢ الكتان الملكي (٥٧) الذي كان يورد لبيت الفرعون (ح س ص) من المعابد وكل الاشياء التي كانت قد اهملت منذ زمن طويل (س ١١) قد وضعت في موضعها (الصحيح)	وبالنسبة للضرائب علي نسيج الكتان الملكي (٥٧) التي تدفعها المعابد للتاج فقد خفضها بمقدار الثلثين (س١٨) وكل ما كان قد أهمل في الزمن الماضي اعيد تنظيمه
فقد وجه كل الإهتمام بان يؤدي (الانسان) ما كان يجب ان يؤديه للالهة بطريقة صحيحة ولذلك جعل الحق للانسان في العدالة كما فعل تحوت (٥٨) المزدوج العظمة	مع الاهتمام بان تدفع الضرائب التقليدية للآلهة كما يجب (س١٩) وكذلك فانه وزع العدالة علي الجميع كما فعل هرمس (٥٨) عظيم العظمة

(٥٧) هو المكان المعروف في النصوص البطلمية بـ Byssus وهو نوع من الكتان الناعم الفاخر وقد ورد في سياق النص اليوناني بالصيغة BYΣΣINΩN وتقابله في النص الديموطيقي "ش س / ن س و و " أي " الكتان الملكي " لانه كان احتكارا ملكيا . وقد عبر النص الديموطيقي عن ذلك الاحتكار بعبارة " و ن - ن ا و / ا و = و / ا ر = و / پ ا (پ ر - ع) (ع و س) ن ا / ر پ ي و " وترجمتها " الذي كان يورد لبيت الفرعون (ح س ص) من المعابد " وكانت المعابد فقط هي التي لها حق صناعته وعليها توريده للتاج .

(٥٨) الواضح من النص اليوناني ان الاله هرمس هو المعادل اليوناني للاله " تحوت " اله العلم والحكمة المصري . ولكن في مواضع اخري من النص اليوناني ذكر الاله تحوت باسمه محرفا الي النطق اليوناني بالصيغة Thowth (سطر ٥)

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
وكذلك أمر فيما يخص العائدين الي بلادهم من الجنود المحـاربين وباقي الناس الذين كانوا في الجانب الآخر خـلال الاضطرابات التي حدثت في مـصـر (٥٩) (س١٢) ان يعـودوا الـــي مـســاكنهـم وان تبـقــي املاكهم لهم	وقد امر ايضا بان الذين عادوا من طائفة المحاربين وغيرهم ممن ضلوا السـبيل في ولائهم (سطر ٢٠) زمن الاضطرابات (٥٩) يجب ان يعودوا الي املاكهم القديمة
ولقد كرس عنايتـه لتوجيـه الجنود المشاه والفرسان والسفن ضد كل من يأتي عن طريق البر والبحر	وقد جهـز القـوات من الفرسـان والمشاة والسـفن لارسالها ضـد هؤلاء الذين هاجموا مصر برا وبحرا (٦٠)(سطر ٢١)
لمهاجمة مصر (٦٠) قد انفق من	منفقـا مصـاريف كبيـرة من المال

(٥٩) هذه اشارة الي السنوات التي تلت عام ٢٠٥ ق.م عندما قامت ثورة في المنطقة الممتدة من قفط شمالا الي اسوان جنوبا بزعامة مصريين أولهم " حور – ون – نفر " (كان اسمه يقرأ خطأ حور ام اخت " حرّلها بعض الباحثين الي النطق اليوناني حورماخيس) ثم منذ عام ١٩٩ ق.م بزعامة " عنخ – ون – نفر " (وكان اسمه يقرأ خطأ فيما مضي عنـخ – ما – خت) (Quirke 1988 , p. 23)

(٦٠) لا شك ان هذه اشارة الي تحصين مصر ضد هجوم عدوه الملك السلبوكي الحاكم اليوناني لسوريا ، وقد عمل ابيفانس علي ازالة هذه العداوة فيما بعد بزواجه من الملكة كليوباترة (الأولي) ابنة انطيوخوس الملك السلبوكي عام ١٩٤ ق.م (Quirke , 1988 , p. 7) اي بعد مرسوم حجر رشيد بعامين .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	
والغلال لكي تصبح المعابد وكل مَنْ في البلاد في أمان	أجل ذلك مصاريف باهظة من الفضة والغلال ليجعل المعابد والناس الذين في مصر يصبحون في طمأنينة	السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر
وعندما وصل الملك الي ليكوبوليس(٦١) (س٢٢) في المقاطعة البوصيرية وهي التي كان الثوار قد احتلوها وحصنوها (وملأوها) بمخزون كبير من الاسلحة وكل المعدات الأخري لمقاومة الحصار	وقد زحف علي قلعة شكان (٦١) التي حصنها العدو بكل وسيلة وبداخلها اسلحة كثيرة وكل معدات الحرب	
ولما كان أمر العصيان طويلا (س٢٣) من الرجال الكفرة المتجمعين فيها الذين الحقوا ضررا بالغا بالمعابد	وقد حاصر القلعة المذكورة بجدار حول محيطها لحصار الاعداء، الذين بداخلها والذين كانوا قد ارتكبوا	

(٦١) اختلف اسم هذه القلعة في النصين فبينما يسميها النص الديموطيقي " ت ا / ر س ت / ش ك ا ن " اي " قلعة شكان " لا يذكر النص اليوناني اسمها بل ينسبها الي المدينة التي تقع فيها وهي مدينة Lycopolis في المقاطعة البوصيرية ومكانها اليوم المنطقة المتاخمة لمدينة سمنود جنوبا غرب فرع دمياط وكانت مقرا لعبادة الاله اوزير ، وقد اشتق اسمها اليوناني Busiris من اسمه ، ومن هذا الاسم اليوناني جاء اسم قرية " ابي صير " الحالية التي تقع في نطاق هذه المقاطعة

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	جرائم عظيمة نحو مصر فقد تجاهلوا طريق واجبهم نحو الفرعون (ح س ص) وطريق واجبهم نحو الآلهة (س ١٤)	وسكان مصر وبعد ان عسكروا امامها (س ٢٤) فقد احاطها باكوام التراب وبالخنادق والاسوار المحكمة
	وقد سد القنوات التي تحمل المياه للقلعة المذكورة (٦٢) ولم يعرف فراعنة سابقون فعلوا المثل وقد انفق فضة كثيرة عليه (على الحصار) وعين جيشا من المشاه والفرسان عند مصبات القنوات لمراقبتها وحراستها	ولما كان النيل مرتفعا ارتفاعا عظيما في السنة الثامنة (من حكم بطلميوس) وكاد يغرق (س ٢٥) السهول ، فقد منعه وذلك بسده عند نقط عديدة عند فتحات الترع (٦٢) وتد انفق علي ذلك مبلغا من المال ليس بالقليل وعين الفرسان والمشاه لحراستها
	بسبب فيضان مياه النيل (٦٣) التي كانت مرتفعه في السنة	

(٦٢) من الواضح ان المياه المتدفقة من فيضان النيل المرتفع في تلك السنة (وهي السنة السابقة لسنة تسجيل النقش) احاطت بمنطقة الثوار فكانت بمثابة حصن لهم يعوق هجوم قوات ابيفانس فقام بسد الترع والقنوات التي تحمل المياه الي منطقتهم مما أدي الي هبوط مستوي الحياة حولها وسهل الهجوم عليها .

(٦٣) استخدم النص الديموطيقي كلمة " ج ب ا " للتعبير عن فيضان النيل التي يري بعض الباحثين انها الاصل في كلمة Aegyptus اليونانية (عبد العزيز صالح ١٩٦٢ ، ص ١١) ولكن النص اليوناني استخدم عبارة " كان النيل مرتفعا ارتفاعا عظيما " وقد وردت =

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــــي
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	الثـــامنة في القنوات (س ١٥) المذكـورة التي كـانت تمد بالميـاه منطقة شاسعة وكانت عميقة جدا وقد استولي الفرعون (ح س ص) علي القلعة المذكورة بالقوة في زمن قصـيـر وسـيطر علي الاعـداء الذين كانوا بالداخل واجري مذبحة بينهم مـثلمـا فـعل ع (٦٤) وحـور بن ايزيس مع اولئك الذين كـــانوا معادين لهم في الاماكن المذكورة .	(س ٢٦) وفي وقت قصير استولي علي المدينة بهـجـوم خـاطف وقـضي علي الرجـال الكفـرة مـثل هرمس (٦٤) وحـــــورس بن ايـزيـس واوزوريس عندما اخضعوا الرجال في نفس الاماكن فيما مضي

=كلمة النيل في سـياق النـص بالصيغـــة NEIλOY وهي من كلمة Nilus اليونانية ، وقد استخدم اليونان هذه الكلمة رغم انها ليست يونانية او مصرية وانما سامية الأصل تقابلها في اللغة العبرية كلمـة " ن هـ ل " بمعي " نهر " وكـان العبرانيون يطلقون التسمية " نهل مصرايم " علي نيل مصر.

(٦٤) يلاحظ اختلاف اسم الاله في النص الديموطيقي الذي ذكر اسم الاله " رع " بينما ذكر النص اليوناني اسم الاله " هرمس " وهو المعادل للاله تحوت المصري كما سبق القول ولعل السبب في ذكر الاله تحوت هو رواج قصة من قصص اوزوريس في العصر البطلمي مؤداها ان اتباع الاله اوزير الذين قادهم الالهان حورس وتحوت قد هزموا اعوان الاله " ست " اله الشر بجوار المدينة المسماه في العصر اليوناني " هرموبولس پارفا " (علي اسم الاله هرمس) (Quirke 1988 , p. 23) في المقاطعة الخامسـة عشرة في شرق الدلتا (قرية تل بلله الحالية الي الشمال الشرقي من سمنود شرق فرع دمياط) وهي قريبة من المقاطعة البوصيرية مقر الثورة ، ولعل السبب في ذلك هو الارتباط بين الاله اوزير الذي دارت حوله هذه القصة وبين المقاطعة البوصيرية التي كانت مقرا لعبادته ، وكانت في الوقت نفسه ملجأ للثوار الذين انتصر عليهم بطلميوس .

ملاحظة

في الجزء التالي من نصوص حجر رشيد يبدأ النص الهيروغليفي في الظهور ، ولما كان هذا النص هو الذي اعتمد عليه شامبليون اساسا في حل رموز الهيروغليفية فسوف نضيف الي ترجمته قراءة نصوصه وسوف نرمز لهذه القراءة بالحرف " ق" والي الترجمة بالحرف " ت " وسوف نستخدم في اثبات هذه القراءة الحروف العربية المفردة بدلا من الحروف اللاتينية المتبعة في اثبات قراءة العلامات الهيروغليفية بين المتخصصين في علم المصريات وذلك لكي يتمشي اتجاه القراءة مع اتجاه العلامات الهيروغليفية لانه من اليمين الي اليسار (مثل الحروف العربية) ولتيسير الامر لمن يريد مطابقة هذه القراءة علي النص الهيروغليفي نفسه المنشور في آخر هذا البحث(شكل ٦) . ثم تمشيا مع هذا التيسير فقد فصلنا بين كل كلمة واخري بشرطة مائلة وان كان ذلك غير متبع في علم المصريات ولكنه متبع في الدراسات العربية الجنوبية (في النصوص السبئية - الحميرية ومايشبهها)

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
(س١)	(س١٦) والاعداء	(س٢٧) وهؤلاء
ق. ... ا س ك / ج د ب / م ش ع/ (١)	الذين جمعوا	الذين قادوا
ت. بالنسبة لهؤلاء الذين جمعوا الجنود	جيشا وقادوه	الثوار في عهد
ق. و ن . س ن / م/ ت پ .	لترويع الاقاليم	والده وسببوا
ت. وكانوا علي رأسهم	ولإبناء المعابد	الاضطراب
ق. .س ن / س د م ن .س ن /	متنكرين	للبلاد واساءوا
ت. مزعجين		للمعابد عندما
ق. (ت) ش و /ن ك ن .س ن		
ت. الاقاليم وضارين		
ق. ا د ب و - ح ر(٢)..		
ت. شواطئ حورس..(٣).		
	لطريق الفرعون	جاء الي منف
	(ح س ص)	للدفاع عن
	ولوالده) فان	(ارث) والده

(١) نتيجة لكسر الحجر تبدو المعلومات مبتورة وسوف نرمز للعبارات الناقصة بالنقط ....

(٢) " ا د ب و / ح ر " او شواطئ حورس هي كناية عن " مصر " في نصوص العصر المتأخر ، وكلمة شواطئ هنا تعني شاطئ النيل (Gauthier 1975 , I , p. 127)

(٣) نتيجة لضياع العبارات في نهاية السطر الأول وبداية السطر الثاني لم يتم الحديث عن ثورة المصريين ويبدأ موضوع جديد هو الغاء الملك للضرائب التي تدفعها المعابد .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(س٢٨) وعن مملكته فقد عاقبهم جميعا عندما حضر احتفال تنصيبه ملكا	الالهة انعمت عليه بالسيادة عليهم في منف خلال حفل تنصيبه مركزه السامي الذي ورثه عن والده فقد ذبحهم علي الوتد (٤)	
ولقد الغي ايضا (س٢٩) ضرائب التاج المأخوذة من المعابد حتي السنة الثامنة والتي تعد كميات صغيرة	(س١٧) لقد الغي الضرائب المستحقة للفرعون (ح س ص) التي فرضت علي المعابد حتي السنة التاسعة والتي تبلغ كميات كبيرة	ق.. .... (س٢)،ن ن / ح م . ف /ر/ ت. ....لقد الغاها جلالته

(٤) كلمة " وتد " بالديموطيقية هي " ب ا خ ت " وربما هو ما يعرف " بالخازوق " فقد كان المصريون في العصر الفرعوني يعدمون بهذه الطريقة من يرتكب اشنع جريمة عندهم وهي سرقة المقابر ، ويبدو ان الملك البطلمي اعتبر الثورة عليه جريمة مساوية لجريمة سرقة المقابر فاطلق عليهم " الكفار " واعدمهم بنفس الطريقة .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	من الفضة والحبوب	من الحبوب والمال
ق. ت ا/م ي ن ت / ا ر و / م / د ر ت. وكذلك الكتان ق. ب ج / ... / ر د ي ت /ر/ ت. البديع الذي يقدم الي ق. پ ر- ن س و / و ن /خ ر/ ج س ت. القصر الملكي من ق. و - پ ر و / ح ن ع / ش ث ا ت. المعابد بالاضافة الي ق. م ن ي / ت ر ت. البقية المفروضة علي النسيج	وكذلك تنازل عن قيمة الكتان الملكي الذي فرض علي المعابد لبيت مال الفرعون (ح س ص) وكذلك ماتبقي في ذمتها وكان يجب ان تدفعه حتي وقتنا هذا	وكذلك الغرامات المفروضة لعدم التسديد للتاج من قماش الكتان الملكي byssos (س٣٠)وكذلك الرسوم المستحقة مقابل ما أجري من تحقيقات بسبب التأخير عن التوريد خلال نفس المدة

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	وامر كذلك بالغاء ضريبة ارادب(٥) القمح التي كانت تجبي علي كل اورورا (٦) من الاراضي الخاصة بضيعة المعبد (س١٨) وايضا ضرائب النبيذ عن كل اورورا من أرض الكروم الخاصة بضياع المعبد	وقد اعفي المعابد ايضا من ضريبة الاردب (٥) المستقة علي كل اورورا(٦) من اراضي المعابد وايضا اردب من ضريبة مزارع الكروم (س٣١) بواقع جرة نتبيذ عن كل اورورا
ق. (ن)/س ن/ن ف ر ي/ت ر... ت. لهم حـــتي...	ولقد قدم احسانات كثيرة	وبلنسبة لابيس Apis ومنيفس

(٥) الكلمة في النص اليوناني هي artaba اي " اردب " وفي النص الديموطيقي " ردب " وهي قريبة من الكلمة الحالية " اردب ".

(٦) الارورا : مقياس مساحة يوناني معادل ٣/٢ فدان ، وقد وردت الكلمة في النص الديموطيقي " أ ر ل ي "

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(العجول المقدسة) فقد منحها هبات كثيرة وكذلك الحيوانات الأخري المقدسة في مصر اكثر مما منحه الملوك الذين سبقوه	للعجل ابيس والعجل منيفس (٧) والحيوانات الأخري المقدسة في مصر أكثر مما عمله سابقوه	ق- ...(س٣) ع و ي /ن ث ر/ن ب/ ت- ...الحيوانات المقدسة كلها ق- خ و / م / هـ ا و / ر / ا ر .س ن ت- زيادة علي ما عمل لها ق- / ا ن / ت پ ي و - ع ت- بواسطة الاسلاف
	وكان قلبه في كل وقت مهتما بأحوالها وقدم كل ما يلزم لدفنها بسخاء واحترام (س١٩) واحضر ماتحتاج اليه معابدها في	ق- ا ب .ف / ع ق / ح ر / س خ ر و ت- وقلبه راض عن شئونهم ق- . س ن /م/ ا ت/ ن ب / ر د ي ت ت- في كل وقت لقد اعطي ق- .ن . ف/ خ ت / ن ب ت- كل شئ ق- چ ع ر.س ن /ر/ ع ب/ ج ت.س ن ت- (لقد) رغبوا (ان تكون) دفناتهم

(٧) العجل ابيس كانت منف هي مقر عبادته بينما العجل منيفس Mnevis (والكلمة محورة من الكلمة المصرية " من - ور ") كانت هليوبوليس هي مقر عبادته .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(س٣٢) مع استمرار تقدير ما يناسب كل اله فقد صرف بسخاء وفخامة علي ما يتطلب دفنها وما كان يقدم لمعابدها من اضاحي وما كان يجري من احتفالات وكل الشعائر الأخري المتبعة (س٣٣) وابقي امجاد المعابد وامجاد مصر حسب القوانين وزخرف معبد	الأعياد الكبيرة حيث تقدم أمامها القرابين المحروقة وسائر ماهو لازم لها ، أما التكريم اللازم للمعابد والتكريم الآخر بمصر فانه جعلها تبقي كما هي علي حسب القانون . ومنح ذهبا وفضة	ق. و ر . ت و / ج س ر . ت. عظيمة ومقدسة ق. ت و / ا ث . ن . ف / س خ ن / ت. لقد استوعب ما حدث ق. م . س ن / ا و(٨) ت. لهم في ق. ح و ت و - ن ث ر [س ن] ت. معابدهم

(٨) دون كاتب النص (المصري القديم) حرف الواو خطأ بدلا من حرف الميم فالمفروض انها " إم" بمعني " في " .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
ابيس Apieion	وغـلالا كـثـيـرة	ق. (س٤)... ح ج / و ا ح ي / و ر و
بالزخارف الثمينة	واشياء أخري لمعبد	ت. .. فـضـة وحـبـوب كـثـيـرة
وامـده بالذهب	ابيس واكـمـل هذا	ق. / ح ن ع / خ ت / ن ب / م ي /
والفضة (س٣٤)	الاجراء الجديد بما	ت. مع كـل شئ بكـثــرتـهـم
والاحجار الكريمة	جعله عـمـلا غـاية	ق. ع ش (ا) . س ن / ر / ح و ت /
بكميات ليست	في الجـمـــال	ت. (حرفيا مثل كثرتهم) الي المعبد
بالقليلة واسس	(س٢٠) وامـــر	ق. س خ ن / ن ت ي / ح ب / ع ن ج
معابد ومقاصير	باقـامـة مـعـابد	ت. المقـر (الخـاص) بابيس الحي(٩)

(٩) " ابيس الحي " (ح ب / ع ن خ) هو العجل الذي كان يعتبر التجسد الدنيوي للاله بتاح اله معبد منف حيث يجري الاحتفال بعيد تنصيب بطلميوس الخامس فرعونا وهو العيد المعروف عند المصريين القدماء " بعيد سد " كما ذكرنا ويختلف " ابيس الحي " " اي ابيس الدنيوي عن ابيس الأخروي الذي كان يسمي " اوزير - ابيس " (بالهيروغليفية " " اوسر - حب " ويطلق علي العجل بعد موته وتقديسه في العالم الآخر وهو الاله الذي حرف اليونان اسمه الي " سيرابيس " ولكنهم عبدوه في شكل آدمي . ورغم تمجيد البطالمة لهذه الالهة الحيوانية تقربا منهم للمصريين فان كتّاب اليونان كانوا يسخرون من هذه العبادات الحيوانية . والحقيقة ان المصريين في عصور مجدهم في عصر الفراعنة العظام لم يكونوا يعبدون الحيوانات بالطريقة المبتذلة التي عبدوها بها في عصورهم المتأخرة عندما نزلت بهم ضربات الاحتلال الاجنبي ابتداء من الغزو الاشوري ، فالفارسي فاليوناني فقد تسببت هذه الضربات في اهتزاز ثقتهم بانفسهم وداخلهم الخوف والقلق فالتجأوا للقوي السحرية يلتمسون فيها الامن والامان واعتقدوا ان هذه القوي السحرية تتجسد في الحيوانات من عجول وقطط وغيرها ولذلك عبدوها لذاتها بينما في عصور مجدهم كانوا يعتبرون هذه الحيوانات تجسيدا لصفات الاله الأكبر وهو الاله رع الذي كان احتفال عيد سد يجري تحت حمايته وليس تحت حماية العجل ابيس .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
ومذابح كما رمم ما يحتاج منها لترميم وجعله في حالة حسنة ايضا	ومقاصير وموائد قرابين (مذابح) من جديد للآلهة	ق. س خ ك ر/ا ن/ح م.ف/م/ ك ا ت ت. وتجميله بواسطة جلالته بعمل (زخرف) ق. م ن خ ت / ن / م ا / ن ف ر . و ي ت. بديع جديد وجميل جدا ق. س ش س/ م ا ع / س خ ع ت. وجعل يظهر فيه ق. . ن . ف/ ح ب / ع ن خ ت. ابيس الحي ق. ر.س / ع س ق(١٠) / ن . ف ت. واكمل له ق. ح و ت و - ن ث ر / ج م و ت ت. المعابد والمقاصير ق. خ ا و / م / م ا ... ت. والمذابح من جديد...
وذلك بروح اله محسن في الشئون الخاصة	وامر بإقامة أخري كما كانت عليه من قبل (اي	

(١٠) اخطأ الكاتب المصري القديم في كتابته حرف السين بدلا من الراء (في وسط الكلمة) فالكلمة يجب ان تكون " ع ر ق " بمعني أكمل او استكمل ولبس " ع س ق "

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	ترميمها) في حين جعل قلبه نحو الآلهة بمثابة اله محسن وسأل عن أمجاد المعابد لكي تجدد في زمن حكمه كفرعون (ح س ص) علي حسب ما يليق بها .	بالدين (س٣٥) وقد حقق أكثر الشئون تكريما للمعابد وجددها خلال مدة حكمه كما يليق (بها)
ق.. (س٥) ا س و ي/ن ن /د ي ت/ن ف ت. وفي مقابل ذلك اعطته ق. ن ت ر و / ن ث ر و ت / ق ن و ت. الآلهة والآلهات النصر ق. ن خ ت / ع ن خ / و ج ا/س ن ب ت. والقوة والحياة والرخاء والصحة	وكمكافأة علي ذلك فإن الالهة منحته الشجاعة والنصر والقوة والعافية	وفي مقابل ذلك منحته الآلهة الصحة والنصر والقوة
ق. / ح ن ع / خ ت / ن ب / ن ف ر ت. مع كل شئ بديع ق. ر - ا و .س ن / إ و/ ت. في امتدادهم وان	وكل الأشياء الأخري (س٢١) الطيبة وان يبقي سلطانه ثابتا له	و(كل) الاشياء الطيبة الاخري (س٣٦)وثبتت ملكه له

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
ولاولاده الـــي الابد .	ولاولاده الـــي الأبد	ق- ا يا ت(١١).ف /و ر ت/ ج د.ت و ت- وظيـفـتـه العظيـمـة تدعـمت ق- خ ر.ن /ح ن ع /خ ر د و.ف/ج ت ت- معه ومع اولاده (اطفاله)الي الابد
ومـــع الحـــظ الحسن قـــرر كـهنة جـمـيع المعابد في كل ارجاء البلاد	ومع الحظ السعيد لقد حلت في قلب كـهنة كل المعابد في مصر	ق- ح ن ع /س ح ن/ن ف ر/ ع ق . س ت- مع حظ حسن دخلت (حرفيا دخل) ق- / م / ا ب / ن / و ع ب و / ن و ت- الي قلب الكهنة الخـــاصين ق- ا ت ر ت ي / ش م ع / م ح و ت- بمعابد مصر العليا والسفلي ق- م ي (١٢) ع ش (أ). س ن.... ت- بدرجـــة كـــبـــيـــرة.....

(١١) بعض الكلمات الهيروغليفية تأتي فيها الألف المفتوحة (أ) بعد الألف المكسورة (إ) مباشرة وعلي هذا يجب ان تقرأ " إأت" ولكن علماء المصريات اصطلحوا علي نطق الألف المفتوحة ياء تسهيلا لنطق الكلمة فتنطق " إيات " ويبدو ان المصريين القدماء كانوا ييسرون نطق الالف سواء المفتوحة اوا لمكسورة بتحويلها الي ياء في النطق ، بدليل ان كلمة والد او أب التي تكتب في الهيروغليفية " إت " تنطق " ي و ت " في اللغة القبطية (OT) والمعروف ان اللغة القبطية هي المرحلة الأخيرة من اللغة المصرية القديمة .

(١٢) المفروض قراءة هذه الكلمة " م إ " اي الف مكسورة كما هو المتبع في استخدام الحروف اللاتينية ولكن تسهيلا لنطق الكلمة استخدمنا حرف الياء بدلا من الالف المكسورة وعلي ذلك تنطق الكلمة " م ي " .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. (س٦)....[س خ] پ [ر] . س ن ت. لقد انجبهم ق. ح ن ع / ن ث ر و / ت. مع الالهين	الامجاد الخاصة بالفرعون (ح س ص) بطلميوس العائش ابديا الاله الظاهر الذي طيباته كاملة في المعابد (س٢٢) وتلك الاعمال التي عملها الالهان اللذان يحبان والدهما وهما اللذان انجباه والتي عملها الالهان المحسنان . اللذان انجبا مَنْ انجبه و اللذان ينتميان للالهين الاخوين اللذان انجبا هؤلاء الذين انجبوهم وهؤلاء اللذان ينتميان الي	زيادة التكريم الحالي (س٣٧) للعائش ابديا الملك بطلميوس محبوب بتاح الاله ابيفانس ابوخارستوس وتكريم اجداده الالهة (س٣٨) ابوارجتاي وتكريم الالهين " ادلفوي" وتكريم

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ن ج ر (١٣) / ج ن ف و / ن/	الالـــهـــين	الالـــهـــين
ت. المـنـقــــــذيـن وكـل	المنقذين(١٣)	سـوترس (١٣)
ق. ت و ت . س ن / م ت و / . ت و		
ت. الاجـــــــــداد		
ق. س ع ح ع / خ ن ت ي / ن /	اباء آبائه فلتتزايد	واقـامـة تمثـال
ت. ولاقــــامـــــة تمثــــال	(تلك الأعمـال ،	للعـائش ابديا
ق. ن س و / ب ي (١٤) ت ي/	التي عـملهــا	الملك بطلميوس
ت. لملك مـصـر العليـا والسـفلي	اسـلافـه الملوك	ابيفانس (١٥)
ق. (ب ت و ل م ي س) /	ويجب ان يقـام	
ت. بطـلـمـــيـــوس	تمثال للفرعون (ح	
ق. ع ن خ / ج ت / م ر ي	س ص)	
ت. عـــاش للابد مـــحـــبـــوب	بطلميوس العائش	
ق. ب ت ح / ن ث ر / ب ر(١٥)	ابديا الاله الظاهر	
ت. بتـــــاح الالـه الـظـاهـر	(١٥)	

(١٣) سبق توضيح الترجمة الديموطيقية لالقاب ملوك وملكات البطالمة ، ومنها لقب سوترس الذي ترجم في الديموطيقية الي نترو / ن ح م بينما ترجم اللقب هنا في النص الهيروغليفي الي " ن ث ر و / ن ج و " والترجمتان مترادفتان وتعنيان الالهين المنقذين " او " الحاميين" .

(١٤) الياء الأولي في هذه الكلمة اصلها الف مكسورة .

(١٥) في النص الهيروغليفي يرد لقب " ن ث ر / ب ر " هنا لاول مرة وهو نفس التعبير المستخدم في النص الديموطيقي بمعني الاله المشرق او الظاهر (ابيفانس في اليونانية)

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
يوخارستوس	الذي طيباته	ق. ن ب / ن ف ر و / ك ا - ت و /
كما في كل	كاملة (س١٣)	ت. سيد الطيبات الذي سيكون
معبد في ابرز	التي تجعله يسمي	ق. ر ن . ف (ب ت و ل م ي س)
مكان فيه	بطلميوس	ت. اسمه بطلميوس
(س٣٩) وأن	حامي مصر بمعني	ق. ن ج /ب ا ق ت (١٦)/وح ع .ف
يطلق عليه	بطلميوس الذي	ت. حامي مصر ومعناه
(التمثال)	يدافع عن مصر	ق. پ و (ب ت و ل م ي س)
بطلميوس		ت. بطلميوس
حامي مصر		ق. ن [خ ت / ك م ت ..
		ت. الذي يحمي مصر ...
ويقام بجانبه	(ويقام تمثاله)	
تمثال للاله	الي جانب تمثال اله	
الرئيسي للمعبد	المدينة يقدم سيف	
وفي يده	النصر (١٧) له	
السلاح الذي		

(١٦) " ب ا ق ت " اسم متأخر لمصر ورد في نصوص العصر البطلمي ،، Gauthier (1975 , II , p. 6) وتنفس الكلمة معناها " عين الاله المقدسة " وربما جاء اطلاقها علي مصر نتيجة لهذا التشبيه .

(١٧) هو السيف المعقوف المسمي في اللغة المصرية " خ پ ش " وفي الرسوم الفرعونية تظهر الاله أمون (أو غيره) يسلم هذا السيف للملك ليذبح به اعداءه .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	في المعبد (١٨) وفي كل معبد (آخر) في ابرز مكان علي حسب الطراز المصري	يؤدي للنصر (١٧) الذي يجب ان يصنع علي الطراز (المصري)
ق. (س ٧) ... م / ر و – پ ر / ن ب ت. وفي كل المعابد ق. ح ر / ر ن . ف / ش م س ت. المذكورة يخدم ق. خ ن ت ي/ ا ب ن / س ب / ٣ ت. التماثيل هذه ثلاث ق. م – خ ر (ن) / هـ ر و / ت. في اليوم	وعلي الكهنة ان يؤدوا للتماثيل ثلاث صلوات يوميا	(س٤٠) وعلي الكهنة ان يقوموا امامها باداء الخدمة الدينية لهذه التماثيل ثلاث مات يوميا

(١٨) المقصود معبد الاله بتاح في منف حيث تم الاحتفال بذكري تنصيب الملك البطلمي فرعونا وكان طقس تسليم الاله السيف للفرعون من أهم طقوس الاحتفال بذكري هذا التنصيب الذي عرف في مصر " بعيد سد " او العيد الثلاثيني ، كما جاء في النص اليوناني .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
وان يضعوا امامها ادوات العبادة وان يؤدوا الشعائر المعتادة التي تؤدي للآلهة الأخري في كل ارجاء البلاد	في المعبد (منف) وفي كل معبد (س٢٤) وعليهم ان يضعوا امامهم (التماثيل) الادوات المقدسة وان يؤدوا لها باقي الأشياء (الطقوس) كما يجب ، مثل تلك التي يعملونها للآلهة الأخري في الأعياد والمواكب في الأيام المذكورة	ق. ح ن ع / ا ر / ا ر د ي ت / ت. وتقدم ق. د ب ح و / م - ب ا ح . س ن / ت. ادوات عبادة امامهم ق. ا ر ت . س ن / ت ب-ر د/ ن ب ت. ويعملون (الكهنة) كل التنظيمات ق. ت و ت / ن - ك ا . س ن / ت. لتماثيل ارواحهم(١٩) ق. م ي / ا ر / ن / ن ت ر و / ت. مثلما يعملون للآلهة ق. س ب ا ت و / م / ح ب و ت. المحلية (٢٠) في الاحتفالات ق. ت ب / ت ر و / ت. طبقا للتقاويم

(١٩) المقصود تماثيل الملك البطلمي في كل معابد مصر فقد كان اجتماع الكهنة في منف يضم مندوبين عن كهنة كل معابد مصر وكان التمثال في العقيدة المصرية القديمة يعتبر ملجأ أو مستقرا لروح الشخص الذي يمثله ولذلك يسمي " بتمثال الروح (الكا)

(٢٠) كان لكل مقاطعة من مقاطعات مصر اله محلي خاص بها الي جانب الاله الأكبر وهو هنا الاله بتاح اله مدينة منف حيث اجري الاحتفال بذكري تنصيب الملك البطلمي فرعونا.

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(س٤١) وان يقام للملك بطلميوس الاله ابيفانس ايوخاريستوس المنحدر من الملك بطلميوس والملكة ارسنوي الالهين فيلوباتورز	وعليهم ان يعرضوا التمثال المقدس للفرعون (ح س ص) بطلميوس الاله الظاهر الذي طيباته كاملة ابن بطلميوس والملكة (ح س ص) ارسنوي (٢١) الالهين المحبين لابيهما .	ق·· ح ن ع / هـ ر و / ن / خ ع ت· وفي ايام المواكب ق·· ح ن ع / ا ي / هـ ر و / م ت· وفي الايام ق· ر ن . ف / م ت و . ت و / ت· المذكورة وعليهم ق· م س / س خ م / ن / ن س و / ت· تشكيل تمثال لملك الوجهين القبلي ق· ب ي ت ي/ب ت و(ل) [م ي س] ... ت· والبحري بطلميوس ..
تمثال (٢٢) ومقصورة ذهبية في كل (س٤٢)المعابد	(س ٢٥ (التمثال) في مقصورة ذهبية في المعبد وفي كل	ق· (س٨) .... ش ب س / م / ت· (مقصورة) فخمة من ق· ج ع م / م ح / م / ع ا ت / ن ب / ت· السام (٢٣) مطعمة بكل حجر كريم

(٢١) كتب اسم ارسنوي في النص الديموطيقي داخل خرطوش غير كامل بالصيغة (ا ر س ي ن ا)

(٢٢) كانت هذه التماثيل تصنع من الخشب وتطلى بالذهب وكذلك المقاصير .

(٢٣) السام (ج ع م) هو مخلوط من الذهب والفضة المسمى في اللغات الاجنبية Electrum

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
علي ان يوضع في محاريب المعابد مع مقاصير (الالهة الاخري .	معبد يجب ان يوضع في قدس الاقداس مع المقاصير الأخري المصنوعة من الذهب (٢٤)	ق. ن / م / ع / م / ر و - پ ر/ن ب ت. في جميع المعابد ق. ح ر / ر ن . ف / ح ت ب / م / ت. التي باسمه تستقر في ق. ب و / ج س ر / ح ن ع /ك ا ر و ت. الهيكل مع مقاصير ق. ن و / ن ث ر و /س ب ا ت ي و ت. الالهة المحلية
واثناء الاعياد الكبري التي تسير فيها مواكب مقاصير (الالهة) (٢٤) وعليهم (الكهنة) ان يحملوا ايضا مقصورة الاله ابيفانس ايوخارستوس	عندما تقام الاعياد الهامة التي تظهر فيها الآلهة يجب ان تظهر فيها مقصورة الاله الظاهر ذو الطيبات الكاملة	ق. ا ر / ا ر ف / خ پ ر / ح ب و / ت. عندما تجري الاحتفالات ق. و ر و / ب ر / ن ث ر / م / ت. العظيمة التي يخرج فيها الاله من ق. ق ب ح . ف / ش پ س ت. معبده الجليل

(٢٤) هذه التماثيل للالهة الأخري كانت تصنع ايضا من الخشب المطلي بالذهب ليسهل حملها في المواكب.

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(س٤٣) ولكي	ولاجل أن تعرف	ق- ر- س ا / ب ر . ف / ا م . س ن
يسهل تميزها	المقصورة اليوم	ت- وخارج بيته (المعبد) بينهم
الان والي الابد	وفي المستقبل	ق- م ت و . ت و / س خ ع /ك ا ر /
(٢٥) يجب ان	(٢٥) يجب أن	ت- انهم يجعلون اشراق المقصورة
يركّب فوقها	يوضع عليها	ق- ش ب س /ن/ ن ث ر/پ ر/ ن ب
عشرة تيجان	عشرة تيجان من	ت- الجليلة للاله الظاهر سيد
ذهبية للملك	الذهب يثبت علي	ق- ن ف ر و / ح ن ع .س ن / ر /
يعلوها صل	كل منها صل	ت- الطيبات معهم لكي
(٢٦) لكل تاج	(٢٦) كما هو	ق- ر د ي ت / س ي ا / ت و /
مثل كل	متبع (س٢٦)	ت- يجعلوا معرفة
التيجان	عادة في التيجان	ق- ك ا ر .ت ن / م/هـ ر و/[پ ن]
	الذهبية	ت- المقصورة هذه من هذا اليوم
		ق- ر / [ح ن ت ي ...
		ت- للابد ...
	فوق هذه المقصورة	ق- ....(س ٩) س ح ن] / ن ب /
	في مكان الصلال	ت- ..... كل تاج

(٢٥) اي لكي تميز المقصورة التي بها تمثال الملك عن المقاصير التي بها تماثيل الالهة الأخري اثناء سير المواكب في كل عيد

(٢٦) الصل هو ثعبان الكوبرا المقدس الذي كان تمثاله الخشبي يثبت في مقدمة تيجان الفراعنة وكان المصريين يعتقدون ان الصل ينفث السم في وجوه أعدائهم .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ح ر - ت ب / ك ا ر / ث ن / ت. كل [تاج] فوق المقصورة هذه ق. م - ا س و .ن /و ر ت ت /و ن ت. في مكان الصل الذي يكون ق. ح ر - ت ب / ك ا ر و / ا و / ت. فوق المقاصير (الأخري) ق. س خ م ت ي (٢٧)/ ت. والتاج المزدوج ق. م - ح ر- ا ب / ا ر و / ت. في وسطهم	التي فوق بقية المقاصير وان يكون التاج المزدوج (س خ م ت ي) (٢٧) في وسط التيجان الأخري	(س٤٤) التي تحليها الصلال فوق المقاصير الأخري وان يكون في وسطها التاج المسمي "پ س خ ن ت " (٢٧)
ق. ج ر - ن ت ي / پ س د / ت. لان قد ظهر ق. ح م . ن / ا م . ف / ت. جلالته فيه	لان الفرعون (ح س ص) يتجلي ظهوره فيها	الذي لبسه الملك عندما
ق. م / ح و ت - ك ا - ب ت ح ت. في معبد روح بتاح (٢٨)	في معبد منف عندما تؤدي له	دخل المعبد في منف لكي

(٢٧) كلمة " س خ م ت ي " الواردة في النصين الهيروغليفي والديموطيقي معناها الحرفي " القرنان " وتطلق علي التاج المزدوج الذي يتكون من تاج الوجه القبلي (الابيض) وتاج الوجه البحري (الاحمر) . ولكن النص الاغريقي اختصر الكلمة الي Pskhent

(٢٨) سبقت الاشارة الي ان هذا هو اسم معبد منف الذي كان الاله بتاح معبوده الرئيسي وان هذا الاسم هو الاصل في كلمة ايجبترس اليونانية .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. م / خ ت / ا ر . ن . ف ت. عـغـدمـا اجـري لـه ق. ا ر / ن ب / ن / پ س - ن س و ت. كل طقس لاجل المقـام الملكي ق. ر / ح و ت - ن ت ر / خ ف ت / ت. في المعـبـد عندمـا ق. ش س ب/ن.ف/ا ي ات. ف(٢٩) ت. تقلد(تسلم) وظيـفـتـه ق. و ر ت ت. العـظيـمـة	الطقوس المعتادة التي تجري عند تقلده الوظيـفـة السامية	(س٤٥) يؤدي ماهو معتاد لتنصيبه ملكا (حرفيا لتقلد الملكية)
ق. م ت و .ت و /ر د ي ت /م /ج س ت. وكان عليهم ان يضعوا في الجزء ق. ح ر ي / ن / خ ب ت (٣٠) ت. العلوي من التـاج	وعليهم (الكهنة) ان يثبتوا فوق التاج (٣٠) الذي الي الخارج من	وسوف يوضع فـوق المربع (٣٠) حـول التيجان في

(٢٩) هذه الكلمة استبدلنا اليا، بالالف المكسورة لتسهيل نطق الكلمة كما سبقت الاشارة لذلك .

(٣٠) كلمة التاج (ح ب ت) في النص الهيروغليفي تقابلها كلمة " أ ت ف " في النص الديموطيقي وهو نوع من التيجان الفرعونية ، ولكن النص اليوناني استخدم كلمة TETPAΓΩNOY التي تحمل معني " مربع " (Tetragonos) ربما لعدم وجود كلمة يونانية تعبر عن الشكل الحقيقي لهذا التاج الذي يتكون من تاج الوجه القبلي وعلي جانبيه ريشتان وفوق قمته قرص الشمس وتستقر قاعدته علي قرنين أفقيين .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق- / ن ت ي / م / ر و ت / ح ب و ت- الذي خارج (غير) هذه ق- ا ب ن / م - ع ك ا / [ن]/ ت- التيجان ق- س خ م ت ي / [ب] ن.. ت- ان التاج المزدوج هنا ...	التيجان في مقدمة (س٢٧) التاج الذهبي المذكور (الخاص بالملك)	مواجهة التاج المذكور
ق- ... (س ١٠) . . . . . . م ح ت- ... البردي ق- ق ع ح . س / ا ي ا ب ي / ت- على ركنه الايمن ق- و ح ع . ف / پ و / ن ب ت ي / ت- وهو يرمز للربتين ق- س ح ج / ت ا و ي / ت- اللتين تنيران الارضين	(عبارة عن) نبات بردي ونبات لوتس وعليهم ان يثبتوا صلا (٣١) فوق سلة واسفلها نبات لوتس الي اليمين فوق الركن الواقع عند قمة المقصورة الذهبية وعليهم ان يضعوا صلا بسلة اسفلها فوق نبات	الرموز الذهبية للوجهين (القبلي والبحري) لكي (س٤٦) ترمز الي ارتباطها بالملك الذي يجعل الوجهين القبلي والبحري

(٣١) المفروض أن تثبت الرخمة رمز الوجه القبلي وليس الصل الذي جاء في النص انه ثبت مع نبات البردي رمز الوجه البحري وقد سبق القول انه في العصر المتأخر استخدم الصل عوضا عن الرخمة في الرسوم التي تشير الي الوجه القبلي .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	البردي الي اليسار لترمز الي الفرعون (ح س ص) الذي يضئ مصر العليا والسفلي	يتجليان
ق. ج ر - ن ت ي / و ن / ا ب د-٤ ت. منذ الشهر الرابع ق. ش م و / ع ر ك ي ت. من فصل الصيف(٣٢) اليوم الاخير ق. هـ ر و / م س(٣٣) . ن ث ر / ت. وهو يوم ميلاد الاله	ولما كان اليوم الاخير من الشهر الرابع من فصل الصيف (٣٢) الذي يحتفلون فيه (س٢٨) بعيد ميلاد (٣٣) الفرعون (ح س ص)	ولما كان اليوم الثلاثون من شهر مسري (٣٢) هو اليوم الذي يحتفل فيه بعيد ميلاد (٣٣) الملك

(٣٢) الشهر الرابع من فصل الصيف هو شهر مسري كما جاء في النص اليوناني ΜΕΣΟΡΗΕ

(٣٣) هذه الكلمة هي التي اعتمد عليها شمبليون في قراءة خرطوش رمسيس الثاني كما سبق القول بعد ان تعرف علي قراءة العلامة الهيروغليفية علي حجر رشيد والتي استخلص معناها من الكلمة اليونانية المقابلة لها وهي ΓΕΝΕΘΛΙΑ (Genethlia) والتي استفاد من اللغة القبطية في معرفة قراءتها Mici وكلها تعني مولد او ميلاد .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
	وقد ثبت كعيد احتفال تجري الاحتفال به دائما في المعابد	ق. ن ف ر / ع ن خ / چ ت / ت. الطيب له الحياة الي الابد ق. چ د . ت ا / م / ح ب / خ ع / م ت. الذي ثبت في عيد يشرق في ق. / ا د ب و / ح ر ت. شواطئ حورس (١/٣٣)
كذلك لما كان اليوم ....(٣٤) هو اليوم الذي (س٤٧) ورث فيه	كذلك كان الحال في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني من فصل الشتاء (٣٤) وهو الذي كان يقام	ق. خ ر - ح ا ت / م ي ت ت / ا ر و ت. وفعلا بالمثل ق. ن / ا ب د . چ / ا خ ت / س و ت. الشهر الثاني من فصل الفيضان (٤) ق. ١٧ / ار . ن ف / ت. اليوم السابع عشر عندما اجري له

(١/٣٣) سبق ان ذكرنا ان " ا د ب ... / ح ر " اي " شواطئ حورس " اسم متأخر لمصر .

(٣٤) يظهر التناقض في تاريخ تتويج الملك بين النصين الهيروغليفي والديموطيقي بينما اختفي التاريخ من النص اليوناني بسبب كسر الحجر فالنص الهيروغليفي يحدد شهر بابه كذكري لهذا التتويج (الشهر الثاني من فصل الفيضان) بينما يحدد النص الديموطيقي شهر امشير لذلك (الشهر الثاني من فصل الشتاء) ولو ان هذا التاريخ الاخير (شهر امشير) اقرب الي الحقيقة لانه الشهر الذي اجتمع فيه الكهنة للاحتفال بهذه الذكري كما جاء في السطر الأول من النص الديموطيقي ، والسطر السادس من النص اليوناني الا ان العلماء فضلوا شهر بابه اعتمادا علي وروده في نسخة نقراطيس (Quirke 1988 , p. 24)

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ا ر و / ن و / خ ع - س ن و ت. الطقس الخاص بالظهور الملكي ق. م / س ش پ . ن . ف / ت. عندما تسلم ق. ن س ي ت (٣٥) / م - ع ت. الملكية من ق. ا ت . ف ت. والده	فيه الاحتفال له بتسليم الوظيفة السامية (٣٥)	الملكية (٣٥) عن والده
ق. ا س / ا ر ف / م / خ ت / ت. انظر ان بداية كل الاشياء ق. ا خ و [و ر و]...... ت. الطيبة العظيمة......	وكان فعلا بداية بداية المنافع	فانهما (اليومين) يكرّمان بتسميتهما

(٣٥) في هذه الفقرة المشتركة بين كل من النص الهيروغليفي ولنص الديموطيقي والنص اليوناني يتضح مغزي عبارة " الوظيفة السامية " التي وردت في السطور السابقة من النص الهيروغليفي " إ ي ا ت . ف / و ر ت " (سطر ٩) وترددت في النص الديموطيقي " ت ا / إ ي ا ت . ف / ح ر ي " وهو نفس المعني (الوظيفة السامية) ولكن النص الهيروغليفي افصح عنها في الموضع المشار اليه (س ١٠) بانها " ن س ي ت " ومعناها" المَلَكية " وبذلك اتفق المعني في النص الهيروغليفي مع معناها في النص اليوناني حيث وردت الاشارة الي هذه الوظيفة في سياق النص بالصيغة BAΣIΛEIAN اي المَلَكية (البطلمية) التي ورثها ابيفانس عن والده فيلوباتور او بعبارة أخري عيد تتويجه ملكا .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(كاعياد) في المعابد وهما بحق مناسبتان لبركات عظيمة للجميع		
فسوف يحتفل بهما كأعياد ومواكب في المعابد في كل ارجاء مصر (س٤٨) كل شهر	التي تعم على كل الناس اي يوم ميلاد الفرعون (ح س ص) عاش ابديا ويوم تسلمه الوظيفة السامية - وهذان اليومان بهما يوم ١٧ ويوم ٣٠ (من كل شهر) يجب ان يحتفل بها كعيدين في كل معابد مصر (٣٦)	ق. ...(س ١١) م ن خ ت / ا و ت. ..... والجليل ق. م ي / ا ر . ت و / هـ ر و و / ت. الذي جعل من الايام ق. ا ب ن / س و / ١٧ / ع ر ق ي ت. هذه اليوم السابع عشر واليوم الاخير ق. ا ب د / ن ب / م / ح ب / م ت. من كل شهر اعيادا في ق. ج س و - ب ر و / ن و ت. المعابد الخاصة ق. ب ا ق ت (٣٦)/ ا و/آو / س ن ت. بمصر كلها (على امتدادها)

(٣٦) سبقت الاشارة الى استخدام كلمة " باقت" في العصر المتأخر كإسم لمصر ولكن من الغريب ان الكلمة لم تستخدم في النص الديموطيقي المقابل له بل استخدمت الكلمة الشائعة " ك م ت "

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. م ت و . ت و / و ا ح / ت. فـ ـمـ ـتـ ـقـدم ق. ع خ / س ج ر / و د ن و ت. القرابين المحروقة والسوائل (المقدسة) ق. ح ن ع / ا ر / خ ت / ن ب ت. مع عـ ـمـل كل شئ ق. ت و ت / ن / ا ر/ م / ت. يناسب عـ ـمله في ق. ح ب و / م / ح ب / ا پ ن ت. الاعياد في هذه الاعياد ق. ت پ /أ ب د / ن ب ت. (في) اول كل شهر	ويقدموا فيها (الكهنة) القرابين المحروقة والسائلة والاشياء الاخري المعتاد عملها في الاعياد الأخري في هذين العيدين كل شهر	وان تقدم فيها الاضاحي وقرابين السوائل وكل الاشياء المعتادة كما هو الحال في الاعياد الأخري
ق. خ ت / ن ب / ا ر . ت و / م ت. وكل شئ يقدم في ق. ح ب و / ا پ ن / س ش م ت. الاعياد هذه (يجب ان) يخصص ق. ا و / س / ن ب / ا ر / ت. لكل رجل يقوم	وما يقدم من قرابين يجب ان يخصص للناس الذين يخدمون في المعابد (٣٧)	وان تعطي القرابين التي تم تقديمها لهؤلاء الذين قاموا باداء

(٣٧) هذه اشارة الي النظام المتبع في تقديم القرابين للمعابد وهو ان هذه القرابين بعد اداء طقوس تقديمها علي موائد القرابين لالهة المعبد كانت تعاد للكهنة كأجر علي ادائهم هذه الطقوس .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
الطقوس عليها	ويجب ان يحتفلوا	ق. و ن و ت . س ن /م / ح و ت -
(٣٧)(س٤٩)	بعيد وموكب في	ت. بالخدمة في المعيد(٣٧)
في المعابد	المعابد في مصر	ق. ن ث ر / [م] ت و . [ت و...
ويجب ان يقام	قاطبة للفرعون	ت. (ولخدمة) تماثيل...
عيد وموكب	(ح س ص)	ق... (س ١٢)([ب ت]و ل م ي س
للملك العائش	بطلميوس العائش	ت... بطلميوس
ابديا محبوب	ابديا الاله الظاهر	ق. ع ن خ / ج ت [م ر] ي /
بتاح بطلميوس	الذي طيباته كاملة	ت. عاش ابديا محبوب
الاله ابيفانس	كل عام	ق. ب ت ح / ن ث ر / ب ر / ن ب
ايوخارستوس		ت. بتاح الاله الظاهر سيد
كل عام في		ق. ن ف ر و / ت پ / ر ن پ ت
المعابد في كل		ت. الطيبات في بداية السنة
ارجاء البلاد		
(س٥٠) من	في اليوم الأول من	ش ا ع / م / ت پ ي /
اليوم الاول	الشهر الأول من	ابتداء من الشهر الاول
لشهر توت	فصل الفيضان	آ خ ت / س و /
(٣٨) لمدة	(٣٨) لمدة خمسة	من فصل الفيضان (٣٨) اليوم

(٣٨) هنا هو اليوم الأول من السنة المصرية ، وقد عبر عنه في النصين الهيروغليفي والديموطيقي بالطريقة المصرية الشائعة وهي نسبة الشهر الي ترتيبه في الفصل (الشهر الأول من فصل الفيضان اول فصول السنة المصرية) بينما ذكر الشهر باسمه في النص اليوناني وهو شهر توت وقد كتب بهذا الشكل ΘΩΥΘ (Thouth)-

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. واع / ن ف ر ي ت / ر / هـ ر و / ت. الأول لمدة ايام ق. د ي و / م ح / ر/ ج ا ج ا . س ن ت. خمسة والاكاليل فوق رؤوسهم ق. س ح ب / خ ا و ي / ت. محتفلين في مذابح المعابد ق. س ق ر / د ن و / ح ن ع / ت. مقدمين قرابين السوائل مع ق. خ ت / ن ب / ت و ت / ت. كل شئ مناسب ق. ن / ا ر ت ي / ت. عمله	أيام يلبسون خلالها الاكاليل ويقدمون القرابين المحروقة والسائلة والاشياء الأخري اللائقة	خمسة أيام وخلالها يرتدون الاكاليل ويقدمون الاضاحي وقرابين السوائل وكل الاشياء المناسبة
و ع ب و / ن و /ج س و - ب ر و ان كهنة المعابد م/ر و-ب ر/ن ب/ح ر/ن.ف من كل معبد من (المعابد) المذكورة	ان الكهنة الذين في معابد مصر وفي كل معبد	وسوف يطلق علي الكهنة في كل معبد

= ويبدو ان الكهنة المصريين فضلوا الطريقة المصرية القديمة في كتابة الشهور غم ان اسما ها الواردة في النص اليوناني (توت) بابه (سطر ٢٨) مسري (س ٤٦) كانت قد انتشرت قبل العصر البطلمي ، وقد استحدث الكهنة عيدا خاصا للملك بطلميوس الخامس يبدأ باول ايام السنة ويستمر لمدة خمسة أيام .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
كهنة الاله ابيفانس ايوخارستوس (٣٩) بالاضافة الي الاسماء الأخري للالهة الذين يؤدون لهم الخدمة الدينية ويجب ان يسجل في الوثائق الرسمية	يجب ان يطلق عليهم كهنة الاله الظاهر الذي طيباته كاملة بالاضافة الي الالقاب الكهنوتية الأخري ويجب ان يكتب هذا اللقب في الوثائق الرسمية من اي نوع ويجب ان تسجل وظيفة كاهن الاله الظاهر الذي طيباته كاملة (٣٩)	ق. ك ا . ت و . س ن / ت. يجب ان يطلق عليهم ق. ح م / ن ث ر / ب ر / ت. خدمة (حرفيا: خادم) الاله الظاهر ق. ن ب / ن ف ر و / م - هـ ر و / ت. سيد الطيبات بالاضافة الي ق. ا ي ا و ت / و ع ب و . ن . س ن / ت. وظائفهم الكهنوتية ق. ا م ي / س / پ ح ر/ ت. ويجب ان تسجل (تكتب) ق. ...(س ١٣) ا ي ا ت /و ع ب/ ن/ ت. .. وظيفة كاهن ق. ن ث ر / پ ر / ن ب / ن ف ر و / ت. الاله الظاهر سيد الطيبات(٣٩)

(٣٩) ترجمنا لقب Eucharestos اليوناني عدة ترجمات طبقا لمعناه في النص الهيروغليفي " نب - نفرو" بمعني " سيد الطيبات ، والنص الديموطيقي " الذي طيباته كاملة " (ت ا ي . ف / م ح - ن ف ر)

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(س٥٢) وينقش (اللقب) علي الأختام التي تحملها كهنته (كهنة الملك)	بان تحفر علي اختامهم	ق. ح ر/خ ت م /ا ر ي (كشط في الحجر) ت. علي الاختام الخاصة (بهم) ق. ج ر ت . س ن / ت. وعلي اصابعهم
ويسمح للافراد العادين بالاحتفال بالعيد واقامة المقاصير المذكورة سابقا (الخاصة بعبادة بطلميوس) وان يحتفظوا بها في منازلهم	وينبغي السماح كذلك للافراد العادين لمن اراد منهم ان يظهر صورة المقصورة الذهبية للاله الظاهر الذي طيباته كاملة فيجعلونها توضع في منازلهم	ق. ا س / ا ر ف / س و / ت. وايضا بالنسبة لهؤلاء ق. ع و ي / و ن ن ي و / ن ت ي / ت. الذين لديهم تكون ق. ا ي ا ب / س ع ح / م ي ت ت / ت. الرغبة في اقامة نظير ق. ك ا ر / ت ن / ن / ن ت ر / ت. للمقصورة هذه الخاصة بالاله ق. ب ر / ن ب / ن ف ر و / ت. الظاهر سيد الطيبات ق. ر / ر د ي ت / و ن ن . س ت. ويضعونها ق. م / ب ر . س ن / ت. في منازلهم

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. م ت و . س ن / ا ر / ت. ويقـومـون بعـمـل ق. ح ب و / ح ع و / ا ب ن / ت. الاعـبـاد وهذه المواكب	وان يقيموا الاعياد والمواكب المذكورة	وان يـؤدوا الطقـوس المعتـادة في الأعياد
ق. ت پ / ا پ د / ت پ / ر ن پ ن / ت. في بداية الشهر وبداية السنة ق. ر / ر د ي ت / س ي ا . ت و / ت. ليكن معلوما ق. و ن ن / ا م ي و / ت. لهؤلاء الذين في ق. ت ا - م ر ت / ح ر / مصر (٤٠)	في كل سنة وبذلك يكون معلوما لهؤلاء الذين في (س٣٢) مصر	كل شهر (س٥٣) وكل سنة لكي يكون معلوما (للجميع) مدى تبجيل وتكريم هؤلاء الذين في مصر
......(س١٤) ج س ر / .... ويخلدوا	ان يمجدوا الاله الظاهر الذي	للاله ابيفانس ابوخارستوس

(٤٠) هنا اسم آخر لمصر وهو " ت ا - م ر ت " اي الأرض الطيبة ومازالت هذه الكلمة باقية في الريف المصري في كلمة " دميرة " وتطلق علي الأرض الخصبة بعد تغطيتها بطمي الفيضان وتهيئتها للزراعة .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
الملك طبقا للقانون (ولقد تقرر نقش هذا المرسوم علي لوحة (س٥٤) من الحجر الصلب بالحروف المقدسة (الهيروغليفية) والوطنية (الديوطيقية) واليونانية (٤٤) وان تقام في كل	طيباته كاملة كما هو متبع عمله انهم (الكهنة) يجب ان يكتبوا هذا المرسوم علي لوحة من الحجر الصلب بخط كلمات الاله(٤٢) وبخط الوثائق(٤٣) وبخط الايونيين (او اليونانيين) (٤٤) وان تقام	ق. س خ ا و ي / پ ن / ح ر / ع ح ع ي / ت. المرسوم هذا علي لوحة ق. ن ت ي / ع ا ت / ر و ج / م / س خ ت. من الحجر الصلب بخط ق. ن / م د و - ن ث ر / ت. كلمات الاله (٤١) ق. س خ / ن / ش ع ي / ت. وبخط الوثائق (الديموطيقي) ق. س خ ا ي / ن / ح ا و / ن ب و(٤٤) ت. وبخط اليونانيين ق. ر د ي ت / ع ح ع . ق / م / ت. وان تقام (اللوحة) في

(٤١) هذه التسمية للكتابة الهيروغليفية " س خ / ن / م د و - ن ث ر " في النص الهيروغليفي و" س خ / م د - ن ث ر " في النص الديموطيقي ومعناها " خط كلام الاله " هي الاصل في التسمية اليونانية Hieroglyphs " اي النقش المقدس "

(٤٣) هذه التسمية وهي في النص الديموطيقي س خ - ش ع ت " اي بخط الوثائق هي تسمية الخط الديموطيقي (في النص الهيروغليفي تختلف قليلا حيث كتبت " س خ / ن / ش ع ي ") بينما كتبت الكلمة المقابلة في النص اليوناني egchorios

ΕΓΧΩΡΙΟΙΣ بمعني (الخط) الوطني "

(٤٤) كلمة ح ا و - ن ب و "كانت تطلق في النصوص الهيروغليفية عامة علي سكان جزر البحر المتوسط وقد خصصت هنا كاسم للايونيين او لليونانيين كما تدل علي ذلك =

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
معبد من معابد الدرجات الأولي والثانية والثالثة (٤٥) بجوار تمثال الملك عاش ابديا	(اللوحة) في معابد الدرجة الاولي والدرجة الثانية والدرجة الثالثة (٤٥) بجوار التمثال المقدس للفرعون (ح س ص) عاش ابديا	ق. ج س و - ب ر و /م / ر و - ب ر و ت. في الهياكل في المعابد ق. ن ب / ح ر / ر ن . ف / ت. كلها المذكورة ق. م / م ح - و ا ع / م ح - س ن و / ت. من الدرجة الاولي والدرجة الثانية ق. م ح - خ م ت (٤٥) / ر - ج س / ت. والدجة الثالثة بجوار

=كتابتها في النص الديموطيقي وهي كلمة س خ / و ي ن ن . فمن الواضح ان كلمة و ي ن نٌ" قريبة من كلمة " ايوني" او " يوناني" اما في النص اليوناني فقد كتبت الكلمة المقابلة ΕΛΛΗΝΙΚΟΙΣ اي هلليني .

(٤٥) لم يذكر الباحثون المتخصصون في الآثار اليونانية الرومانية اساس تقسيم المعابد المصرية الي ثلاث درجات (ابراهيم نصحي ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ٣٨ ، ٤١) و في اتصال شفوي بالاستاذ الدكتور لطفي عبد الوهاب استاذ الحضارة اليونانية الرومانية بآداب الاسكندرية افادني بان كبار المتخصصين في التاريخ البطلمي من العلماء الاجانب ايضا مثل Otto ، Bevan لم يتوصلوا الي اساس هذا التقسيم ولكنه يرجع ان هذا الاساس (في رايه) هو حق حماية المعبد اللاجئين في فالمعابد التي تعتبر مساحتها كلها ملجأ لهؤلاء اللاجئين هي معابد الدرجة الأولي والمعابد التي لا يسمح بالالتجاء اليها الا في منتصف مساحة الحرم الخاص بها هي معابد الدرجة الثانية والمعابد التي ليس من حقها السماح بالالتجاء اليها هي معابد الدرجة الثالثة . غير انني اري من جانبي ان اساس هذا التقسيم هو موقع المعبد وبالتالي حجمه واهميته . فالمعابد التي في المدن الكبري والتي لا شك انها أكبر المعابد واكثر المعابد اهمية هي معابد الدرجة الأولي والمعابد التي في المدن =

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الابموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. خ ن ت ي / ن/ن س و/ب ي ت ي		
ت. تمثال ملك الوجهين القبلي والبحري		
ق. (ب ت ل م ي س		
ت. بـطـلـمـــــــيــــــوس		
ق. ع ن خ / چ ت / م ر ي(٤٦)		
ت. عـــاش ابديا مـــحـــبـــوب		
ق. پ ت ح)/ ن ت ر / ب ر		
ت. بـتــــــاح الالــه الــظــاهــر		
ق. ن ب / ن ف ر و /		
ت. ســـيـــد الـطـيـــبـــات		

= الأصغر حجما (التي يمكن أن تعادل المراكز في وقتنا الحاضر) هي معابد الدرجة الثانية والمعابد التي في القري وهي لا شك اصغر المعابد هي معابد الدرجة الثالثة وفي رأيي ان النص علي معابد الدرجات الاولي والثانية والثالثة هدفه التأكيد علي ان اقامة تماثيل الملك واللوحات المسجل عليها المرسوم قد شملت معابد المدن والمراكز والقري اي جميع معابد مصر .

(٤٦) اضيف نعت " عاش ابديا محبوب بتاح " داخل خرطوش بطلميوس (شكل ٤) (وكذلك في سطر ١٢) وقد ساعد ذلك شمبليون علي قراءة العلامة الصوتية " م ر " وتوصل الي ان الهيروغليفية تضم علامات صوتية مقطعية كما ذكرنا سابقا .

المصادر والمراجع

استخدمنا في كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع في المؤلفات الاوروبية والامريكية باسم Harvard References System وذلك لتميزه علي النظام التقليدي السائد في المؤلفات العربية بمرونته وعدم اهدار وقت وجهد القارئ في تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف علي المراجع .

المراجع العربية :

- ابراهيم نصحي ١٩٦٠ : د. ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، جـ ١ ، جـ ٢ ، الطبعة الثانية
- سليم حسن ١٩٥٩ : سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ ١٥ ، القاهرة .
- سليم حسن ١٩٦٠ : سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ ١٦ ، القاهرة
- عبد الحليم نور الدين ١٩٩٨ : د/ عبد الحليم نور الدين ، اللغة المصرية القديمة ، الطبعة الثانية ، القاهرة .
- عبد العزيز صالح ١٩٦٢ " د. عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الاول ، القاهرة .
- هارتلبن ١٩٩١ : هارتليبن ، هـ ، شمبليون في مصر ، الرسائل والمذكرات ، ترجمة عماد عدلي ومراجعة د/ طاهر عبد الحليم ، القاهرة .

(٢) المراجع الاجنبيـــة

- Andrews 1987 : Andrews , Carol , the Rosetta Stone , London

- Budge 1929 : Budge , E.A. Wallis , The Rosetta Stone . London .

- Davies 1987 : Davies , W.V., Egyptian Hieroglyphs , London .

-Encyclopaedia 1999 : Encyclopaedia of the Archaeology of Ancient Egypt , ed. Kathryn A. Bard , London .

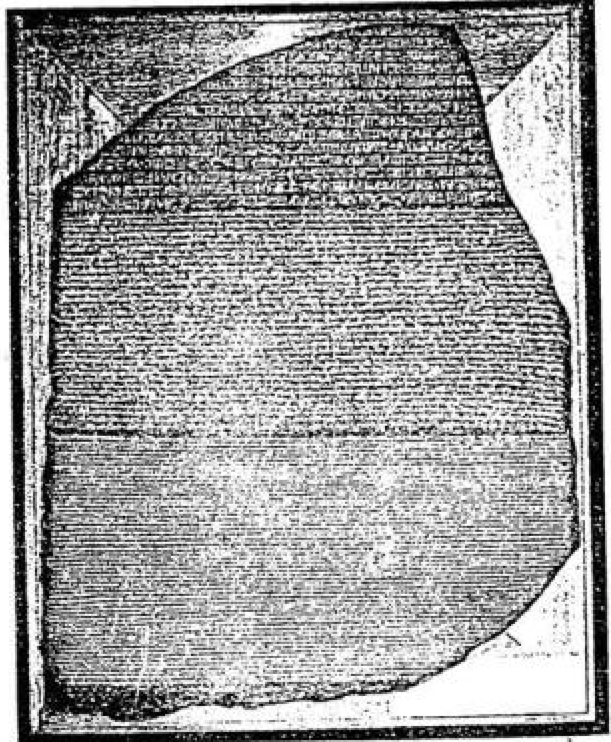
- Faulkner 1972 : Faulkner , Raymand , O.; Aconcise dictionary of Middle Egyptian , Oxford .

-Gauthier 1975 : Gauthier , H., Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hieroglyphique Onsbruck .

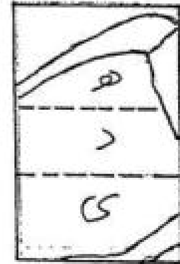
- Gordon 1971 : Gordon , Cyrus.H., Forgotten Scripts , The story of their decipherment, Harmondsworth.

- Quirke 1988 : Quirke , Stepher & Carol Andrews; The Rosetta stone , London.

- Vycichl 1983 : Vycichl , Werner; Dictionnaire Etymologique de la langue Copte , Leuven.



(شكل ١) حجر رشيد بنصوصه الثلاثة الهيروغليفي (العلوي) والديموطيقي (الاوسط) واليوناني (الاسفل)



(شكل ٢) الحجم الاصلي لحجر رشيد (المستطيل) قبل كسر الحجر . وقد وضح داخله الحجم الحالي للحجر ، وقد ضاع من النص الهيروغليفي (هـ) جزء كبير من ثلاث جهات وضاع من النص الديوطيقي (د) جزء صغير في الركن الايمن العلوي للنص ولذلك يعتبر اكمل النصوص الثلاثة بينما ضاع من النص اليوناني (ي) جزء في ركنه الايمن السفلي

(شكل ٣ وشكل ٤) الاسم " بطلميوس " علي حجر رشيد داخل خرطوشين (بنفس الشكل والحجم كما هما علي الحجر) في صيغتين احداهما الصيغة المختصرة (شكل ٣) اي الاسم فقط والثانية (شكل ٤) نفس الصيغة ولكنها متبوعة بوصف " عاش ابديا " (ع ن خ / چت) محبوب بتاح (م ر ي / ب ت ح) وقد تمكن شمبليون من قراءة هذه الاوصاف واستخلص منها بالمقارنة باللغة القبطية ان الكتابة الهيروغليفية تحتوي علي علامات صوتية مقطعية (علامة " م ر ")

(شكل ٥) اسم الملك رمسيس الثاني المحفور علي واجهة معبد ابي سمبل الذي استخدمه شمبليون في قراءة علامتي ☉ " رع " و 𓄟 " م س " بالمقارنة بما يقابل معاني هذه العلامات في النص اليوناني وما يقابل نطقها في اللغة القبطية



(شكل ٦) تفصيل النص الهيروغليفي على حجر رشيد (راجع قراءة النص سطرا سطرا في الصفحات من ٥١-٨٤)

البارثينـون

د. محمود إبراهيم السعدني(*)

تقديم تمهيدى :

كان لليونان القديم ، فيما قبل الميلاد ، حضارة زاهرة ، تـأرجحت - ككل مناطق التحضر القديمة فى العالم القديم - ما بين القوة والضعف ... وكـان علـى قمة السبق وحجم الإنجاز ونوعية العطاء الحضارى اليونانى القديـم ، مـا قدمتـه جزيرة كريت المينوية[١] ، ثم ما شهدته أراضى ومراكـز السـيادة الميكينيـة[٢] ، وبخاصة فى البلوبونيز ، حتى عام ١١٥٠ - ١١٠٠ ق. م ، حينما أبتليت اليونـان بالغزو الدورى الرهيب ، مخلفاً وراءه دماراً كثيراً ، وسكوناً طويلاً ، وحذراً شـديداً وقلقاً شاملاً من أهالى البلاد الأصليين تجاه العنصر الوافد إليه الجديـد ، المنتصـر بقوة معدن الحديد[٣] ، حتى أضطر علماء التاريخ والآثار تسمية الفترة الواقعة مـن ١١٠٠ - ٩٠٠ ق. م بالعصور المظلمة (Dark Ages)[٤] .

ومع ذلك ، جاءت المفاجأة الحضارية اليونانية الكلاسيكية بتـدرج ملحـوظ وبطىء على المستوى المادى ، ولكن ، وعلى النقيض تمامـاً ، بقفـزات تحضـر عملاقة على المستوى الفكرى والثقافى الإنسانى . وكان نظام المدينـة - الدولـة (Pólis - Krátos) كياناً أمثل لنمو خصائص التميز السياسية للفرد اليونانى القديـم ، بالرغم مما كان فى ذلك من أنانية وفرض الخصوصية الذاتية للمواطنيـن ، داخـل أطر محلية ، على حساب الروح القومية اليونانية ، كأمة (Éthnos) ، وهى التـى لم تظهر ككيان له قيمته العظمى ، إلا فى حروب اليونان مع الفرس فـى جولتيـن اثنتين عامى ٤٩٠ ، ٤٨٠ / ٤٧٩ ق. م... وكانت أثينا خلالهما ، هى رائدة العمل العام والكفاح المسلح ضد العدو المشترك لكل اليونانيين جميعـاً ، علـى اختـلاف أقاليمهم وانتماءاتهم الحزبية ، وظل هيرودوت يحلم بكيان يونانى واحد ويردد آراء،

(*) كلية الآداب - جامعة حلوان .

لم تخرج عن كونها طموحات مثقف ، رآها هو - بحسه القومى ، واجبة النفاذ والتطبيق ، ولكن هيهات لهذه الروح المنتصرة أن تدوم بسبب الخلافات الأيدلوجية والتوجهات السياسية المختلفة والمتناقضة ، تناقضا جادا ، بين قطبى تلك السياسة فى أثينا وإسبرطة ، وهى التى أفرزت - فى نهاية القرن نفسه (القرن الخامس ق.م) - تلك الحرب الضروس بينهما ، المعروفة باسم الحروب البلوبونيزية (٤٢٧ - ٤٠٤ ق. م) ، فأنهكت قواهما ودمرت اقتصادهما ، وخربت خزائنهما ، وفتحت الباب أمام السيادة المقدونية على كل اليونان تقريبا ، بعد ذلك بحوالى خمسين عاما أخرى ، وكأن فرحة الانتصار المروع على الفرس ، وسيادة العنصر الآثينى ، وزعامة أثينا على كل العالم اليونانى ، لم تدم لأكثر من (٥٠) عاما فقط ... ومع ذلك ، **فقد كانت فترة إنجاز غير مسبوق فى تاريخ الأمم والشعوب القديمة : سياسيا ، وعلميا ، وفنيا** (أدبا وفنا) . إننا أمام الفترة الزمنية المشهورة فى التاريخ الآثينى باسم « العصر الذهبى » ، وبخاصة الانطلاقة الأولى ، التى ظلت فى أذهان اليونان جميعا ، عبر العصور اللاحقة تذكارا خالدا ، يقسمون به ويحلفون الأيمان المغلظة برموزه ، مثل قولهم :« ! mà tò ierò brakhá » أى « **أقسم بالصخرة المقدسة** » كناية عن الأكروبوليس والبارثينون ، وكل تاريخ تلك البقعة الزاهرة ، سياسيا ، ودينيا ، وفنيا (وكفاحا وحلنيا ضد الغزاة) ... **فما السر إذن** ، لكل تلك الروح المتفاخرة بالماضى المجيد ، وكيف كان حال البارثينون فى ذاك العصر ؟ **وما هى** مظاهر العظمة والجمال فى بناء ذاك المعبد العظيم ؟

هذه هى محاور بحثنا الذى بين أيدينا لعلنا نوفق ، فى الرد على أسئلتها ، بمنطق سليم ، ويقين علمى .

البارثينون ، أو معبد الربة أثينا (Athena) ، فوق أكروبوليس مدينة أثينا (Athenai) ، كان فى العصر الذهبى الكلاسيكى ، كعبة لليونان جميعها ، ورمزا للقوة الآثينية ، ورخائها ، وإيمانها .

وبالحق أوجزت العالمة أليســون بــيرفورد (A. Burford) هــذا المعنــى الضارى لذاك البناء المعمارى ، فقالت :

« The Parthenon's function was twofold. If served both as an architectural master-piece dominating the Athenian Acropolis, and as a shelter for the cult-statue of Athena Parthenos, a monument to Athenian power, prosperity, and piety »(٥).

وهكذا يمكننا أن نفهم الوظيفة الثنائية الهدف للبارثينون – كما أدركها البعــض – على أنها هى :

أولاً بناء معمارى متميز فى عصره .

ثانياً : مأوى آمن لتمثال الإلهة المعبودة ، والربة الحاميــة للمدينــة ، وهــى «أثينا العذراء» (Athená Parthénos) .

ولكن البارثينون ، (فى نهاية المطاف ، للأثينيين علــى وجــه الخصــوص ولصاحب فكرة المشروع ، القائد السياسى البارع بيريكليس " Periklés ") لم يكــن مجرد بناء فريد جميل ، على البقعة المقدسة فى تاريخهم الطويــل ، الأكروبوليــس وبتكلفة عالية فى زمانه(٦) ، وبتسجيل فنى رائع لأساطيره وحياته وآلهته ، بل كــان <u>رمزاً لحضارة وسجلاً لانتصار شعب قوى وعنيد ، ولإيمان أمة بآلهتها ، وبقوتــها الذاتية ، ولاعتزازها بقادتها وزعمائها</u> . ولكن ماذا يقول اليونانيون أنفسهم ، اليــوم عن هذا الأثر الهام والقابع فوق أعلى ربوة طبيعية فى وسط أثينا القديمة ؟ إنهم يقولــون مايلى ، كتقييم معاصر لأثر قديم :

« Τὸ τελειότερο δημιούργημα τῆς ἑλληνικῆς ἀρχιτεκτονικῆς εἶναι ἀναμφισβήτητα ὁ Παρθενῶν, ὁ ναός τῆς Ἀθηνᾶς Παρθένου, πού οἰκοδομήθηκε ἀπό τὸ 447 ὥς τὸ 432 π. Χ. ἐπάνω στήν ἀθηναϊκή Ἀκρόπολη. Μνημεῖο θρησκευτικό ἀλλὰ συνάμα μεγαλειώδης ἔκφραση τῆς πολιτικῆς ἀκμῆς τῆς Ἀθήνας,...., ὁρατή παρουσία τοῦ κλασσικοῦ πνεύματος ».......(7)

بمعنى (بترجمة حرفية) :

بمعنى (بترجمة حرفية) : « إن البارثينون هو ، بلا جدال ، أكمل بناء للعمارة اليونانية ، وهو معبد الربة أثينا العذراء ، الذى تم بناؤه منذ عام ٤٤٧ وحتى ٤٣٢ ق. م ، فوق الأكربوليس الأثينى ، إنه هو بناء ذو وظيفة دينية ، ولكنه، فى الوقت نفسه ، تعبير فخم عن أثينا فى قمتها السياسية ، بناء يرتفع فوق التل المقدس ، كوجود محسوس للروح الكلاسيكية .. » .

ولعل أوضح رد فعل أثينى معاصر من الرأى العام ، لمجرد انتشار بعض الإشاعات حول مخاطر إنهيار الصخرة المقدسة وما عليها من آثار ، جاء فى تقرير ، أو بمعنى صحفى أدق تحقيق ، مطول بقلم السيد د. بانايوتوبولو ، فى العدد الأسبوعى للجريدة الرسمية اليمينية « كاثيميرنى » (Kathemeriré) ، ليومى الأحد والاثنين ١٤ - ١٥ أغسطس عام ١٩٨٣ ، مؤكداً للكافة فى مانشيت كبير : « آثار تل الأكروبوليس لا تتعرض لأى خطر مباشر » ، وكانت معظم الجرائد اليومية الأثينية قد كتبت ، فى تلك الأيام عن مخاطر جمة يتعرض لها التل المقدس وبخاصة من ارتفاع منسوب المياه الجوفية ، فوق الأكروبوليس ، وكذلك بسبب نشاط الأمطار وكثافتها . ويسجل هذا الصحفى الحس القومى اليونانى ، والاثينى بوجه خاص ، تجاه « التل المقدس : Hieró Brákho) ، لأنهم يدركون إدراكا عظيما أن مصيرهم مرتبط إرتباطا شديدا بمصير مدينتهم ، وكيف أن كبار السن منهم يعرفون تماما فضل الأكروبوليس وآثاره فى ألا تمتحن مدينتهم بقصف جوى عنيف - كما حدث لمدن أوروبية أخرى - إبان الحرب العالمية الثانية ، ولهذا كله، ودون الدخول فى تفاصيل نوعية الأخطار ، تقرر تشكيل لجنة من رئيس هيئة الآثار آنذاك ، البروفيسور يورغوس ميلوناس (G. Mylonás)، على رأسها ، وعضوية آخرين من هيئة البحوث الجيوفيزيقية وكذلك الأرصاد ، فضلا عن المدير العام لمتحف وآثار الأوكربوليس السيد يورغوس ذونتاس (G. Dontas) لمزيد من الاطمئنان واليقين ، مع لجان الترميم الخاصة بالموقع ، على أن تعرض أعمالها وتعرضها خلال أسبوعين على الناس . وكان القائمون على هذا الأمر قد حددوا

حوالى (٢٢) موقعاً تحتاج إلى تدخل سريع ومباشر فى أجـزاء التـل المختلفـة ، وبخاصة فى اتجاه الشمال والجنوب منه (انظر شكل ١/) .

وهكذا ، فنحن أمام (فى رأى اليونانيين المحدثين (٧/أ) ، علمـاء التـاريخ والآثار ، وهم بذلك لا يختلفون عن بقية الأجانب الأوربيين فى تقديرهم لقيمة هـذا الأثر) شهادة متعددة الوجوه ، تجمع على أن البارثينون ، معبد الربة أثينـا (منـذ منتصف القرن الخامس ق. م تقريباً) هو :

١ – بناء دينى الوظيفة (θρησκευτικόν)

٢ – وهو أكمل بناء معمارياً (τὸ τελειότερον)

٣ – وقمة فى التطور السياسى (τῆς πολιτικῆς ἀκμῆς)

ولكنه ، فى الختام ، هـو تجسـيد حـى (ὁρατή παρουσία) لـروح العصر الكلاسيكى الأثينى آنذاك .

ولهذه الأسباب جميعاً أفردنا هذا البحث لعلنا نوضح جوانـب عديـدة لـهذا الموضوع ، ولعلنا نجحنا فى ترتيبنا لأولوية جزئيات تلك الدراسة ، فـى تسلسـل تأريخى لتطور الأحداث على مسرح العمليات فى إقليم أتيكى القديم : حيـث بدأنـا بالأسطورة ، وعشنا مع تفاصيل خيالية خلدتها ذاكرة السنين لأولئك الأقوام فى أثينـا القديمة عبر مئات السنين ، قبل بناء البارثينون نفسه . ثم مررنا على عبادة الربـة أثينا نفسها ، فى الموقع نفسه ، متطرقين ، من وقـت لآخـر ، لتطـور الأحـداث التاريخية فى تلك الفترة الهامة من تاريخ مدينة أثينا كزعيمة للعالم الهيللينى آنـذاك ، وأخيراً ، انتبهنا إلى إبراز الجوانب الفنية ، سواء المعمارية أو النحتية (التشـكيلية) فى البارثينون .

أولاً : بين الأسطورة والآثار :

يتفق معظم المؤرخين ، وعلى رأسهم العلامة أرنولدتوينبى (A. Toynbee) بأن البداية الحقيقية للعنصر اليونانى الهيللينى الخالص ، تؤرخ بالقرن الحادى عشـر

ق. م ، أى مع مقدم الغزو الدورى فقط وليس قبل ذلك ، ومن هنا نـدرك إصـرار الأساتذة والعلماء اليونان على تلك البداية (وكأنهم لا علاقة لهم بما كان قبل ذلـك من مراحل حضارية زاهرة فى كريت أو فى الجزر أو حتى داخل البلوبونيز ، إبان العصر الميكينى حوالى من ١٦٠٠ حتـى ١١٠٠ق. م) ، فيطلقـون علـى تلـك الهجرات الغازية العنيفة - كما ذكرنا من قبـل - المعروفـة باسـم « الدوريين Dorieis » عنوانا ، يجسد فهمهم وإحساسهم ، وانتماءهم المؤكد للعنصر الأوروبـى، هو « بداية تاريخنا » ، « وهو الشيء نفسه الذى يؤكده أرنولد توينبى قائلا :

« The Hellenic Civilization lasted for about seventeen centuries from the eleventh century B. C., to the seventh of the Chrisitan Era»[٨].

ويبدو ، على الأرجح ، أن المشكلة لابد أن تفسر علـى هـذا النحـو مـن الاستنتاج ، وتلك الشهادات القوية من علماء أجلاء ، من ناحية ، وفى ضوء الأدلـة الأثرية والأدبية المتاحة ، حتى الآن ، من ناحية أخرى ، وجميعها تؤكد أن تـراث العصر الكلاسيكى اليونانى ليس له تاريخ مؤكد أبعد من أقدم دليـل لدينـا ، وهـو المادة الأدبية الخالدة لشاعر الخلود / هوميروس ، وأشعار هيسيود من بعـده ، وإن كان هناك بعض مظاهر الاستمرار الحضارى ، مـن العصـر الميكينـى ، طيلـة القرنين الثانى عشر والحادى عشر ق. م ، وخاصة بعض العادات الاجتماعية فـى الملبس وطقوس الدفن[٩] ، وهذا أمر طبيعى .

ويعترف العلامة أنطونـى أنـدروز (A. Andrewes) بـأن الدوريين ، والقادمين الجدد الآخرين ، كان لهم سمتهم الخاص المميـز عـن بقيـة العناصر اليونانية ، ولا سيما فى لهجاتهم واحتفالاتهم الدينية المشتركة وكذلك فـى نظامـهم الإدارى والسياسى القبلى الملحوظ[١٠] .

وهنا نتوقف قليلا لتفسير تلـك الأسـطورة القائلـة بعـودة آل هـيراكليس (Heraklidae) وكأنها ليست سوى محالة لتقنين اسـتيلاء الدوريين واغتصابـهم لأراضى اليونان ، من خلال دعوى دينية تحقيقا لمشيئة إلهية : « أن اهبطوا البلـد

الأم ، وألا تمسوا حياة الملك الأثيني كودروس (Kódros) بسوء ، فتحققوا النصر! »[١١] ، ولكن الأقدار تشاء بأن يقاتل هذا الملك بشرف ويدافع عن أثينا ، محتمياً بالأكروبوليس ، ويموت فى سبيل كرامة وطنه ، ويخرج أبناؤه متزعمين حركة الهجرة إلى الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، ويقيمون المدن الأيونية فيها .

وإذ كان علامة آخر هو فنلى (M. I. Finley) قد قدر العصور المظلمة اليونانية (Skoteinés Aiõnes) : Dark Ages بأربعة قرون ، إلا أنه يقرر بأن ظهور معدن الحديد مع الدوريين هو الذى يؤرخ لبداية ميلاد المجتمع اليونانى[١٢] . وكذلك يرفض ، رفضاً قاطعاً تلك التسمية المضللة لها ، بالعصور المظلمة (فى وجود ملاحم بهذا القدر من السمو اللغوى وحبكة الصياغة ، ووضوح الصورة الإنسانية الراقية للكيان الآدمى) إلا إذا كانت تعنى فقط جهلنا نحن بما كان يجرى آنذاك[١٣]! .

وإذا كانت الإلياذة والأوديسيا ، بوجه عام ، يوجد بهما العديد من المتناقضات الملحوظة (Remarkable Paradoxes) – كما أسماها فنلى[١٤] – إلا أن بهما مادة تاريخية يقينية حول المجتمع الذى صورانه وفكر أناسه الذى جاء فيهما . هذا وإن كان تأريخ هاتين الملحمتين الطويلتين (الإلياذة حوالى(١٦) ألف بيت ، والأوديسيا(١٢) ألف) ،، فى نظر البعض ، لا يخرج عن الفترة فيما بين نهاية القرن (٩) ومطلع القرن (٧) ق. م[١٥] . وهاهو أوديسيوس نفسه يعترف – (مخاطباً الشاعر ديمودوكوس) – مما يعنى اعترافاً صريحاً من شاعرنا الأصلى هوميروس – قائلاً : « ذلك لأنك تنشد بالحق المصير الواقعى للآخيين ، وكأنك أنت نفسك كنت حاضراً أو قد سمعت ذلك من شاعر آخر[١٦] » .

وهكذا نكون أمام عنصرين هامين من مصادر تكوين هذين العملين الخالدين، لهوميروس(؟!) ، وهما :

١ – الخيال : فيما لم يكن الشاعر معايشاً له ولا يعرف عنه شيئاً .

٢ – الرواية السماعية : عن آخرين .

ولذلك ، نجد أنفسنا أمام واقع محدود للغاية لدور مدينة أثينا والأكروبوليس ، فيما رواه هوميروس فى الإلياذة والأوديسيا ، ولا يجد المؤرخ نفسه إلا وجهاً لوجه أمام التراث الشعبى الشفاهى وحكايات الفولكلور اللاحقة .

ولقد جاء ذكر أثينا (Athenai) فى الإلياذة ، ضمن أسماء المدن اليونانية الأخرى المشاركة فى الحرب الطروادية ، أى فى كتالوج الحلفاء ، ولكن بطريقة غامضة ، وغير كافية ، وفى إشارات متقطعة الأوصال مع شخصيات أكثر غموضاً ، وأقل شهرة ، فمثلاً :

(أ) ارتبطت الإشارة الأولى باريختيوس[١٨] (Erechtheus) :

" ὅν ποτ' Ἀθήνη θρέψε Διός θυγάτηρ "

بمعنى : « الذى أرضعته أثينا ، بنت زيوس ، يوماً ».

وهنا نحس إزدياد الغموض غموضاً بتفسير أسطورى آخر ، وكأن الشاعر قد فسر الماء بعد الجهد بالماء !!!

(ب) وجعل هوميروس ثمة علاقة بين أياكس(Aiax) ، البطل الآخر المغوار ، وجزيرته سلاميس وبين الآثينيين[١٩] ، بالرغم من قوة المشاركة الآثينية بأسطول من السفن يتراوح ما بين ٤٠ – ٥٠ سفينة ، ولا يحتاج الأمر إلى تزكية بحرية من سلاميس وبطلها .

(جـ) أما الغموض الأكبر فى الدور الآثينى ، آنذاك (نهايات القرن ١٣ ق.م ، إبان قيام تلك الحرب فى أواخر مراحل الحضارة الميكينية) فقد ظهر فى التناقض الرهيب بين إشارة الإلياذة السابقة بأن إريختيوس هو الذى يقيم فى معبد أثينا :

" κάδ δ᾽ ἐν Ἀθήνης εἴσεν, ἑῷ ἐν πίονι νηῷ (٢٠)

بينما أخبرتا الأوديسيا بأن أثينا (الربة) هى التى تقيم فى قصر اريخثيوس :

" .... καὶ εὐρυάγυιαν Ἀθήνην, δῦνε
δ᾽ Ἐρεχθῆος πυκινὸν δόμον. "(21)

ولما كنا لسنا بمتخصصين فى الأدب اليونانى القديم ، ولا نملك أدواتــه الآن ولا يهمنا من الموضوع كله سوى ذلك الغموض والإبهام الواضح لــدى شــاعرنا هوميروس ، حتى وصل الأمر إلى حد التناقض المعرفـــى (فــى الغــالب ، هنــا السماعى)، حول أثينا الربة ومعبدها ، فوق الأكربوليس ، ومن تستضيف معها مــن آلهة أخرى ، فإننا لن نخوض فى تفاصيل الأساطير المتعلقة بكل تلك الشــخصيات ، الواردة فى الإلياذة والأوديسيا ، ويكفينا قول واحد من أهم الباحثين فى هذا المجــال وهو هوبر (Hopper) ، الذى أكد على تلك الملاحظة بالآتى :

«... Athens receives relatively little attention in the Homeric poems» (٢٢).

ولكن القرون تمر ، وتتشكل الوحدة الثقافية اليونانية نسبياً ، ويزودنا هيســيود فى عملية العظيمين « الأعمال والأيام » ، والثيوجونيا (أنساب الآلهة) بتفــاصيل كثيرة وحكايات أكثر ترابطاً ، ومنها نعرف أن اتصال الربة أثينا بأخرين لــم يكــن وقفاً على الملك (؟!) إريخثيوس ، بل تعداه إلى بوســيدون (Poseidon) ، حتــى فوق الأكروبوليس نفسه ، ولكن فى جهة الغرب منه ، حيث كانت تقيم أثنتــان (أو أربعة) من فتيات الأسر الأرستقراطية الأثينية للقيام بطقوس دينية غريبــة (؟!!) للإلهة أثينا فى عيدها ، ويذكرهن الشــاعر أريســتوفانيس[٢٣] ، كذلــك الجغرافــى المؤرخ بأوسانياس (Pausanias) فى وصفه عن الأكروبوليس[٢٤] ، حيــث تمــت الإشارة إليهن باســم أريفــورى) (Arrephoroi) أو ربمــا (Arretophoroi) ،

بمعنى « حاملات الأشياء السرية » . وكانت أثنتان منهن يقمن بحياكة ثوب تمثـــال الإلهة ، المعروف باسم البيبلوس (Peplos)[٢٥] .

وتجدر الإشارة إلى أن الربة أثينـــا (Ἀθηνά , Ἀθήνη) دخلــت بقوة فى صراعات (حفاظاً على استقلال إقليمها وسيادة مدينتها أثينا)، ومن بينـــها – كما ذكرنا مع بوسيدون – وكذلك هيفايســـتوس (He phaistos) وحتــى مــع العمالقة، وعلى أرسهم التيتان باللاس (pallas)[٢٦].

وهنا يثار سؤال منطقى ، وما هى مظاهر قوة هذه الربـــة علــى الآخريــن وتفوقها وسر بقائها خالدة ومقدسة فوق الأكروبوليس ، الصخرة المقدسة ؟!!! .

بداية ، يصرح هوبر ، فى دراسته الآنفة الذكر[٢٦] ، قائلا :

« In the Iliad and Odyssey, Athena is a power to be reckoned with , neither contemptible like Aphrodite, nor yet childish like Artemis ».

إذن ، كانت أشهر صورة للربة أثينا ، الملحمية (كما وصلتنا فـــى ملحمتــى الإلياذة والأوديسيا) هى كشخصية معتدلة المزاج ومتزنة ، ليست مثل أفرديتى تثير الإزدراء والاحتقار بسبب نذلاتها الإخلاقية ، ولا هى مثل أرتميس ، فى مشـــاعرها وأفعالها الطفولية ، هنا ومنذ تلك البدايات الأولى لتشـــكيل الوجـــدان الأســـطورى (العقائدى اليونانى القديم) ، نتعرف على أحد أهم ملامح ومفاتيح شخصية الربة أثينا وأحد أسرار قوتها ، وهو اتزانها العقلى . ومن ثم ، كان طبيعياً أن يكون الاتســـاق قائمًا ومستمراً ، ووارداً فى تفاصيل أخرى أسطورية تخص تلـــك الربـــة : مثلمـــا الحال ، فى اختيار البومة طائراً مقدساً لها ، حتى سميت باسم جلاوكيـس Glaukis، بمعنى صاحبة النظرات (الثاقبة) كالبومـــة[٢٧] ، (انظـــر لوحـــة (٥) للعمـــلات

الأثينية) وكذلك مولدها من رأس أبيها زيوس ، دلالة على العقل والتعقــل وإعمــال الذهن بوجه عام (انظر لوحة (٥) شكل a, b) .

وكما ارتبطت الربة أثينا بظهورها متخفية على هيئة طائر البومة (كما حـدث فى الأوديسيا) ، كانت هناك سوابق لمثل هذا الاتجاه ، هى أقدم بكثير مــن تــأريخ تكوين الأوديسيا (بالقرنين ٩ - ٨ ق.م) ، وترجع إلى العصريــن والحضــارتين الأشهر فى كريت (المينوية) وموكيناى الآخية ، ومن ثم يتبادر - بــالحق - إلــى الذهن سؤال :

وهل ما عرفناه عند الربة أثينا هو امتداد لتراث الأجداد الأقدم ؟

وبكلمات أخرى ، هل خصائص الربة أثينا ، فى ظاهرة التخفــى والظــهور على هيئة أخرى - غير إلهية(٢٨) - ليست حكراً عليها ،، وكان لها بدايات أقــدم منها فى العبادة المينوية الكريتية وكذلك الميكينية ؟

لقد كشفت الدراسات الحديثة فى نصوص الكتابة الخطية الثانية (Linear B) عن اسم الربة أثينا مقروناً بصفة محددة ،ـــ حيث يقول هذا النص (أو السطر) :

« a – ta - na Po-ti-ni-ja »(٢٩).

بمعنى : (الربة) أثينا السيدة (أو) الرئيسة ، وهــو المعــادل للقبــها فــى اليونان القديم باسم Πότνι Ἀθηναίη ، بالمعنى نفسه ، وإن كان ذلك يجعلنــا نستدعى ربة أخرى ، أقدم بالضرورة من أثينا وهى إلهة الثعابين ، تلك التى كــانت ثعابين منزلية οἰκουροί ὄφεις والتى ، ربمــا ، كانت الصورة المتخفيــة (فوق أكروبوليس أثينا) للملك المؤله إريختيوس ، وليس هذا ببعيد أو بمســتبعد أن يتم الربط بين ذاك الأقدم من العصر الميكينى ، على تلك الصخرة المقدسة الواحـدة، وبين الإلهة الأحدث ، نسبياً ، وهى الربة أثينا ، التــى ازدهـرت ، فــى العصـر

الكلاسيكى على أرض العاصمة الميكينية نفسها ، حيث تم الكشف عن معبد لـــها ، كان قد تداخل مع آثار القصر الميكينى الأقدم .

والمفاجأة الأثرية الأخرى هى الكشف عن آثار لجدران قصر ميكينـــى فـوق الأكروبوليس الأثينى ، وذلك فـــى الأرض أو الســاحة الواقعـة بيـن البـارثينون الكلاسيكى وبين الإرختيون ، وهو الموقع المعروف لدى الأثريين باســم مكتشــفه « Doerpfeld Foundation » ، وكذلك الكشف عن بوابة ميكينية ، وسلالم موصلـة لها ، فى الجزء الشمالى من الأكروبوليس . هذا فضلاً عن اكتشاف جـدار آخـر ، بمواصفات أحجار البناء فى ميكينى نفســها والمعروفـة باسـم « Cyclopean or Pelasgic Walls » – فى الناحية الجنوبيــة من الموقع نفسه ، أى من الأكروبوليس ، وكذلك بقايا قليلة لجدار ميكينى على يمين المدخل الحالـــى للموقع الأثـــرى (tà propýlaia) (لوحة (٦) /ب) ، تقريباً فى مواجهة المدخل الغربى للبارثينون.

ولكن الاكتشاف الأخطر لوجود آثار ميكينية فى المنطقـة ، وازدهـار أثينـا نسبياً ، إبان العصر الميكينى (١٦٠٠ – ١١٠٠ ق. م) هو العثور علـــى مقـبرة أميرة أثينية ، فى الجانب الشمالى من تـل أريوبـاجوس (Areopagus) – شـمال غرب الأكروبوليس على هيئة ربوة صخرية صعبة الصعود حتى اليــوم[٣٠] (؟!)– حيث وجدت مقابر أخرى ميكينية ، مـــن النــوع المعــروف باسـم «Chamber Tombs»، وفيها أسلحة ، ورقائق ذهبية ، وآنية . أما معثورات مقبرة الأميرة فكـان أهم أثر فيها هو علبة زينة فخمة (Pyxis) مصنوعة من العاج ، عليها زخـارف لأشكال غزلان وجريفن (Griffin) ، ممـا يؤكـد الصناعـة والفـن الميكينـى الأصيل[٣١] ، (انظر لوحة(٤) حيث تشاهد الأصل بغطائه المستدير ، ومحفور عليـه الموضوع نفسه ، ويؤرخ بالقرن ١٤ ق. م) .

كما لا حظ علماء الآثار ظهور ظاهرة غريبة فجأة فى بعض الأماكن ، مـن اليونان القديمة ، واختفائها تماماً فى أماكن أخرى ، ألا وهى عبادة الأبطال (Hero – Cults) وكان العلامة نيكولاس كولدستريم (31/a) (N. Coldstream) قد رصـد

الدليل الأثرى عليها ووجد ذلك فى الفترة الزمنية فيما بيـن (٧٥٠) و (٧٠٠)ق.م، أى فى النصف الثانى من القرن الثامن ق. م ، حيث أشار إلى وجود اهتمام مفـاجئ من اليونانيين – فى بعض الأماكن دون غيره – بتقديم قرابين للأموات ، فوق مقابر قديمة للغاية تسبق أحياء ذاك الزمان بما لا يقل عن (٥) قرون ؟!!! فلمـاذا إذن ؟ وما هو تفسير ذلك ؟

وهنا يقدم لنا هذا العلامة الكبير تفسيراً مقنعاً ، ومبدعاً كما وصفـه علامـة آخر هو سنودجراس (31/b) (Snodgrass) ، كالتالى :

بداية، لا يجب الحديث عن أى شئ يمكـن أن يسـمى باستمرار العنصـر السكانى الواحد ، بل على العكس تماماً ، فإن أى إدعاء حول وجـود أيـة علاقـة وراثية بين من كانوا يسكنون اليونان قديماً ، قبل الغزو الدورى ، ومن جاءوا معـهم أو بعدهم ، هو مجرد إدعاء كاذب وزائف . لقد أقدم الجدد على عبـادة الأمـوات الأقدم ، فى ذاك الوقت بالذات ، لأن المجتمع اليونانى ، آنذاك ، كان قـد قـرر أن يحدد نصيب المشاركة السياسية فى بنائه ، وتحديد مسئوليه على أساس حجم الـثروة أو الممتلكات من الأراضى ، كمعيار أول مضمون للمواطنة اليونانية ، ومن ثم كـان طبيعياً وعاملاً مساعداً – على قدر كبير من الأهمية – لا يجاد وسيلة أو رابطـة أو أية علاقة من نوع ما ، بين مواطنى القرن(٨) ق. م والسكان الأقدم ، أهل البـلاد الأصليين ، أصحاب الأراضى الحقيقيين ، الذين كانت مقـابرهم الضخمـة ، مـن عصر الأبطال ، مزارات فى عصرهم .

وإذا أردنا نحن كذلك أن نضيف شيئاً فى الاتجاه ذاته ، يمكننا أن نقـول لقـد دخل الدوريون اليونـان فاتحين منتصرين ، بالآلاف على عـدة أفـواج، ولمـدة زمنية طويلة ، وأصبحـوا أسياداً بحق الفتح ، وبفضل معدن الحديد ، إلا أنهم ظلـوا قروناً عدة بعيدين عن الاندماج مع الأهالى والسكان الأصليين ، والذين كانوا كذلـك فى مرحلة ترقب وحـذر وإشفاق على مستقبلهم ومصـيرهم المجـهول ، حتـى بدأت الثلوج تذوب ، بفعل الزمن وتحت ضغط الحاجات اليومية الضروريـة لكـلا

الطرفين. هنا بدأ المجتمع اليوناني الجديد (الخليط) فى وضع ضوابط جديدة لمستقبله الجديد ، حينما (فى منتصف القرن ٨ ق . م) ارتضوا أن يكون معيار الأفضلية ، فى الممارسة السياسية ، قائماً على ما يملكه الفرد من أراضى . عندئذ لجأ السكان الجدد (وبخاصة أحفاد القادمين مع الغزو الدورى ، أى بعد عام ١١٠٠ ق . م) إلى حيلة بارعة ، وهى إظهار التعظيم والإجلال ، حتى درجة التقديس والعبادة ، لمقابر الأبطال القدامى ، لإيجاد نوع من الرابطة الاجتماعية توثق بينهم وبين تلك الرموز الأقدم ، صاحبة الأرض الفعلية والأمجاد الحقيقية . وحقاً صدق وصف سنودجراس(31/C) لهذا الإجراء على أنه كان « rustic propaganda – practices » ، وهو ما يمكن أن نسميه بلغة اليوم : « مكر الفلاحين »، وتظاهرهم بسلوكيات لتمرير مصالحهم بسلام ، أى مجرد « فك مجالس » .

ولقد جاءت المادة الأثرية المكتشفة فى المواقع المختلفة فى اليونان مؤكدة ومدعمة لهذا التفسير السابق ، حيث لوحظ الآتى :

(أ) جاء توزيع أماكن تلك العبادة (الأبطال) موافقا تماما مع مناطق كانت فيها – من قبل – مقابر ضخمة من عصر الأبطال (الميكينى) ولكنها فى القرن الثامن ق . م كانت قد اختفت ، فاحيا ذكراها السكان الجدد لهدف محدد ، ومن ثم كان كل ما هو مجهول ، آنذاك ، كان له واجب التبجيل : « Omne ignotum pro magnifico » .

(ب) تغيب هذه العبادة للأبطال (فى القرن الثامن ق.م) – كما لاحظ ذلك أيضا سنودجراس – فى أقاليم مثل كريت ولاكونيا وتساليا ، (وجميعها بها مناطق زراعية شاسعة) حيث لا حاجة للفلاحين الأحرار ، والمعتمدين على أنفسهم ، والوارثين لأجدادهم ، لمثل هذا السلوك أو الإدعاء والخداع الاجتماعى .

وهكذا جاءت الربة أثينا ، فى وقت ما فى أواخر العصـــر الميكينـــى (؟!!) ، إلى مدينة أثينا ، واستطاعت بطريقـــة مـــا ، ولأســـباب لا نعرفـــها ولا يمكـــن أن نخمنها(؟!!) ، أن تدخل إلى قصر إريختيوس الميكينى ، وتتواجد جنبًا إلى جنب مـــع المعبودات الميكينية الأخرى ، فوق هضبة الأكروبوليس . ورويدًا رويدًا بدأت هـــذه الربة فى كسب احترام المجتمع الأثينى ، الذى أعلاها مكانة ورفعها فوق بقية آلهـــة المكان .

ثانيًا : بين المعبد والتمثال (قصة الإلهة أثينا) :

يلفت نظر الدارس لموقع الأكروبوليس ، فى أثينا القديمة ، ثلاثة أشياء:

الأول : هى تلك البقايا الأقدم الأثرية ، من العصر الميكينى (وهو ما سبق الحديـــث عنه) .

الثانى : هو المعبد القائم ، فعلاً إلى يومنا هذا .

الثالث : وهو تمثال الإلهة المعبودة نفسها ، الربة أثينا ،الذى لا أثر له اليـــوم علـــى الإطلاق ، إلا فى الإشارات الأدبية والتاريخية لبعض الكتاب الكلاسيكيين .

ولكن من بين ما عُرِفَ لـــدى الأثريـــين ، فـــوق الأكروبوليـــس ، باســـم « Doerpfeld Foundation » (خلافًا للجـــدران الميكينيـــة والبوابـــة ومقـــبرة الأميرة الأثينية) كانت هناك آثار جـــدران لمعبد قـــديم صغيـــر ، يقـــع بيـــن البارثينون ومعبد الإريختيون، وهو المعبد الشهير ، فى المصادر ، على أنه «المعبد القديم : ὁ ἀρχαῖος νεώς » ، حيث التمثال الأقـــدم، الخشـــبى المصنوع من شـــجر الزيتـــون ، للربـــة أثينـــا ، المعـــروف ، أيضـــًا فـــى المصـــادر ، على أنـــه « التمثـــال القـــديم : τὸ ἀρχαῖον ἄγαλμα ».

ومن المرجَّح ، فى ضوء اعتبارات فنية خاصة وتأريخية ، أن هـــذا التمثـــال القديم ، الخشبى ، لأثينا ، كان تمثالاً جالسًا ، من ناحية ، وليس ، كتمثـــال فيديـــاس

الشهير من بعد ذلك ، واقفًا ، وحاملاً درعًا ورمحًا ، ولابسًا خوذة ، أى كربة حامية ، ومن بين هذه الاعتبارات ما يلى :

١ - يُؤرَّخ المعبد بأوائل القرن السادس ق. م ، ومنْ ثَمَّ يخضع للروح العامة الفنية السائدة لتلك الفترة ، فى العالم اليونانى ، بوجه عام ، والمجتمع الأثينى على وجه الخصوص .

٢ - شيوع نحت وعمل تماثيل الرجال ، أى الكوروى (Kouroi) ، من الأحجار، واقفة، بينما تتجسد ، فى الغالب ، أشكال النساء جالسة ، ولا سيما لو كانت لشخصيات تعبدية ، دينية(٣٢) .

٣ - وجود علاقة بين الربة أثينا ، اللاحقة ، والربة نيكى (Νίκη)- إلهة النصر - السابقة فيما يخص منافسات أعياد الباناثينايا الفنية وكذلك الرياضية ، كما حدث بالفعل ، على أيام حكم ثيموستوكليس (٥٢٨ - ٤٦٢ ق.م) عندما أصدر مرسومًا - تم الكشف عنه فى البلوبونيز (فى تريزينيا) - جَمَعَ فيه بين الربة أثينا والربة نيكى ، حينما كان الشعار « νῦν ὑπὲρ πάντων ἀγών » بمعنى (فَلْيَكُن) الآن ، التنافس لصالح الجميع » .

ومنْ ثَمَّ ، لا نتوقع ،حينئذ ، أن يكون تمثال الربة أثينا منذ حوالى منتصف القرن ٦ ق.م وحتى نهايته (وبالضرورة حتى فيما قبل عام ٤٩٠ ق. م)، كإلهة حامية (πρόμαχος) ، بل ربما ، فقط ، كما تُصوِّرها العملات الأثينية المبكرة لسيدة راعية لسباقات الاحتفالات السنوية أو كل (٤) سنوات فى أثينا .

ويبدو أنه كان هناك بناء لمعبد ما ، فى الفترة فيما بين ٤٩٠ و ٤٨٠ ق.م فى الجزء الجنوبى من الصخرة المقدسة للأكروبوليس ، إلا أن الغزو الفارسى لأثينا

فى ٤٨٠ ق.م ووصولهم إليها ، جعل الآثينيين يهـربون إلـى سـفنهم حـاملين معهـم ، على الأرجـح ، تمثـال الربـة أثينـا الخشـبى (τὸ ξόανον) . ومنذ تلك اللحظة ، لا يدرى أحد مصيره ، بعد أن عاد الآثينيـون إلـى مدينتهـم عقب انتصارهم المدوى على الفرس ، فى سلاميس . ولكنه أيضًا ، بعـد أن كـان الفرس قد أحرقوا ودمروا معظم آثار الصخرة المقدسة كما وصفها لنـا هـيرودوت بأسى شديد(٣٤) . وظل الحال على ما هو عليه أمدًا طويلاً وأشلاء الاكروبوليـس متناثرة على سطحه وجنباته ، حتى جاءت لحظة الوفاء بالعهد الذى قطعة الآثينيـون على أنفسهم عشية انتصارهم ، ببناء معبد وإقامة تمثال للربة الحامية أثينـا ، مـع منتصف القرن (٥) ق. م . وها هو نقش ، عثر عليه ضمـن آثـار الأكروبوليـس المبعثرة ، كدليل على بداية الوفاء بالنذور لإلهة المكان ، يقول :

« φαρθένε ἐν ἀκρόπολει Τελεσῖνος
ἄγαλμα ἀνέθεκεν
Κέτιος hοῖ χαίροσα διδοίες ἄλο ἀναθὲναι »

بمعنى : « يا أيتها العذراء ، فوق الأكروبوليس ، إن تيليسينوس الكيتى(٣٥)، قد أهداك تمثالاً ، آملاً أن تمنحيه (خيراتك) بحبور ولسوف يهديك تمثالاً آخر » .

ومن هنا ندرك سيادة الربة أثينا على أمور الديانة والعبـادة فـوق الصخـرة المقدسة ، وامتداد تلك الهيمنة الإيمانية لها خـارج حـدود مدينـة أثينـا نفسـها ، وانتشارها فى كل إقليم أتيكى ، وذلك بشهادة المؤرخ والجغرافى باوسانياس(٣٦) .

وهنا ، أيضًا ، يمكننا أن نعود إلى سابق سؤالنا عن مظاهر ومـبررات تلـك السيادة الدينية ، التى منحها لها المواطن الآثينى القديم ، على الأقـل ، فيمـا بعـد النصر على الفرس ٤٧٩ق. م ، وإن كان الأمر لا بد وأن يرجع - كمـا سـبق أن ذكرنا - إلى جذور أسطورية أيضًا .

وتؤكد السيدة إدنا هوكـر (Edna M. Hooker) فـى مقالـة صغـيرة لها(٣٧)، على أن سيادة الربة أثينا جاءت من قيامها ، فى المقـام الأول والأقـدم ، بدور حامية للطفل المقدس (الإلهى) ، متمثلاً فى رعايتـها هـى – كمـا تقـول الأسطورة – لابن الإله هيفايستوس ، وهو إريخثونيوس(٣٨) ، ويبدو أن شيوع تلك الأسطورة كان عظيمًا ، والإيمان بها قويًا ، إبان القرن (٥) ق.م ، بدليـل المـادة الأثرية الكثيرة التى تصور على الآنية الآثينية وغيرها ذلك الموضوع بتكرار كبير، كأحد الموضوعات المحببة إلى قلوب الرسامين فى ذلك الوقت(٣٩) .

وإذا كانت أسطورة أو ، بالأحرى ،الأساطير الخاصة بتربية وتنشئة بعـض الآلهة ، أمثال ديونيسوس(٤٠) (Dionysos) وزيوس(٤١) (Zeus) تروى أنـها قد تمت فى السر على أيدى بعض المربين خوفًا من أعدائهما ، فـإن الربـة أثينـا نفسها ، قد ظهرت فى بعض تلك الأساطير ، كمربية وحامية لكثير مـن الأبطـال الصغار وفى ظروف مشابهة ، ولكن ارتباطها وصلتها بمدينة أثينا ، والأكروبوليس على وجه التحديد ، كانت لصيقة جدًا ، وكانت مظاهر وجودها وعلامات ألوهيتـها أى الـ (Tokens)، المصاحبة لأولئك الأطفال تتمثل فى :

(أ) شال ، يلف به الطفل ، وعليه تطريز وحياكة تمثل شكل الـ آيجيـس(٤٢) : «Aegis » ، صديرية لصدر الربة برأس الجورجونا(٤٣) فى وسطها .

(ب) ميدالية على شكل ثعبانين .

(جـ) إكليل من أوراق شجرة الزيتون المقدسة للربة .

ويبدو أن كاهنة الربة أثينا كانت حريصة كل الحرص ، علـى أن يعـرض على النساء ، حديثى الولادة ، ذلك الشعار الرسمى ، والعلامة المقدسة لـها وهـى الـ أيجيس (Aegis) ، وهى هى نفسها تلـك الأشـياء التـى حملتـها طفلتـان صغيرتان من الأكروبوليس (ضمن شعائر وطقوس احتفال الربـة) ، المدعوتـان أرفورى (كما ذكرنا من قبل فى هامش ٢٥) مثلما جـاء بغمـوض شـديد عنـد

باوسانياس(٤٤) من بعد ذلك بقرون طويلة ، حينما أصبح مثل ذاك الطقس – في القرن الثاني الميلادى – أثرًا بعد عين (؟!!!) .

ولما كنا لسنا من هواة الإغراق في الحواديت والروايات والأساطير ، كما فعل بعض الدارسين الذين أجهدوا أنفسهم – دون طائل – في روايات الماضى السحيق الغامضة ، فإننا – على النقيض – نميل إلى تحليل وترجيح هوكر(٤٥) الذى قدمته لتعبير « τὴν δρόσον » ، على أنه ، على الأرجح ، (حيث لا يمكننا أن نكون على يقين) لا يخرج عن تلك العلامات والشارات الرسمية للربة أثينا ويجسد حرص كهنوتها على أن ترتبط باستمرار ، وفى كل عام ، بالطفل الملكى القادم ، أى بولى العهد الحاكم على المدينة ، وأن تكون هى صاحبة الفضل (كما كانت فى الماضى البعيد) فى تربيته وتنشئته . وهنا نلمس المغزى السياسى ، البعيد النظر ، لسيادة الربة أثينا ، فوق الأكروبوليس ، والذى أكدته الأساطير ، منذ بداية حضورها إلى تلك الصخرة المقدسة وارتباطها بالطفل إريختونيوس ، وهنا أيضًا نتأكد من ذكاء المعالجة ، والحرص على الاستمرار ، من كهنوت واع وفاهم لقواعد اللعبة السياسية فى أثينا القديمة ، وهو وضع تعكسه عبارة أرسطو نفسه ، التى تقول : « إنها قلعة (ويقصد الأكروبوليس) تناسب حكم الأقلية ، وحكم الرجل الواحد ، وأرض ممهدة للديموقراطية(٤٦) » مما يزيدنا يقينًا حول الدور السياسى المؤثر والفعال لساكنى تلك القلعة من الأحياء أو الآلهة . وهكذا أمكننا أن ندرك – بسهولة ويسر وفق ظروف ومتطلبات ذاك العصر – مدى الأهمية السياسية فى تنشئة ولى العهد القادم وتربيته فى أحضان الربة الحامية والكهنوت الملتزم الحامل لكل عناصر الحماية الإلهية والطبيعية :

(أ) فوق ربوة مقدسة قوية بطبيعتها الصخرية .

(ب) وفى أحضان ربة عذراء تستنفر كل أدوات الدفاع وعناصر البطولة الذكورية: الدرع، والرمح، فضلاً عن قوة أسطورية لها عمق الماضى وخيالات التراث الإيمانى، متمثلة فى رأس الميدوسا القاتلة ، ناهيك عن الثعابين الفتاكة.

(جـ) وفى كنف بنات عذراوات ، من الطبقة الارستقراطية ، يشرفن على راحتـه وتثقيفه ورعايته حتى يصل إلى مرحلة الرجولة .

فهل كان هذا الدور ، فى مكان العبادة الرسمية ، أقل من مثيله فـى حماية ورعاية الملك الحاكم نفسه ؟!!! كلا ، فالنشاطان حيويان ، ولا يمكن الاستغناء عـن أحدهما دون الأخر ، حتى يضمن الحاكم ، وكذلك المجتمع الأثينـى كلـه ، نقـل السلطة، فى المستقبل ، دون انقطاع ، وبطريقة سلسة دون اهتزاز ، ومن ثم يضمن الجميع الاستقرار اللازم لكل نجاح فى أى مجال من مجالات الحياة .

ولعل فى حماية ورعاية الربة أثينا للأطفال الذكور ، حكام المستقبل (منـذ نعومة أظفارهم وفطامهم وحتى بلوغهم سن الرشد ، ما يفسـر وصفـها بصفـة « بـاللاس » (Pallas) ، والمـأخوذة ، بـالضرورة ، مـن لفظـة «بـاللاكس » (Pallax)(٤٧) ، وهو ما عرفته هوكر(٤٨) بأنـه (Indeterminate of Sex) جريـا وراء التشـبه بمـا كـان يفعلـه ، فـى أساطيرهم ، ديونيسـوس ، وأخيليوس وثيسيوس ، حينما لبسوا الزى النسـائى ، كالبنـات وذلـك لدواعـى الأمن والسلامة الذاتية ، إبان مرحلة شبابهم ، ففعلـت هـى العكـس ، وتشـبهت بالشباب ، فى قوتهم وأدوات تسليحهم ، وكانت الأسطورة الخاصة بـها حريصـة على هذا الملمح ، منذ البداية ، فجعلتها ، مثلاً ، تولد من أبيهـا مباشرة ، وفقـط ، وليسـت كأية ولادة طبيعية !!! ومن ثـم كـانت (ἀθήλη) ، أى ليسـت بالمعنى المعتاد ، وفضلت حيـاة المغامرات الحربية ، ونبـذت الـزواج ، وظلت عذراء (παρθένος) .

ثالثًا : بين النحت والنحاتين :

إنه لمن أشد الأمور غرابة فى موضوع بناء البارثينون أننا لا نعرف تفـاصيل محددة عن هذا العمل العملاق (بمعيار زمانه ، ومعيار إمكانات أثينـا الشـحيحة) من مصادر معاصرة لتلك الفترة .

والحقيقة أنه لدينا (٣) ثلاثة مصادر قديمة أساسية ، تحكى لنا طرفًا من موضوع بناء البارثينون .

أولها : (وأكثرها مصداقية ومباشرة ومعاصرة) ، عبارة عن نقش ، به فجوات كثيرة عن إحدى سنوات البناء وتكاليفها ، والمشرفين عليها[٥٠] .

ويلاحظ على هذا النقش ما يلى :

(أ) يبدأ بتحديد العام[٥١] (زمن الإنفاق) .

(ب) يذكر ، بعدها مباشرة أسماء الخمسة مشرفين (epistatai) المعينين لمتابعة تنفيذ الأعمال المحددة من قبل المهندسين والنحاتين .

(جـ) تم تقديم مساعدات مالية كبيرة من خزائن وصناديق معابد مثل مبلغ : ٩٥,٨٢٢ دراخمة من خزائن الربة أثينا ، وكذلك مبلغ (غير معروف) دراخمة من خزائن الرب هيفايستوس ، من منطقة لاوريون (Laureion) حيث مناجم الفضة . هذا فضلاً عن مساعدة بمبلغ ٤٢,٦٧٥دراخمة و(٥) (خمس أوبولات) من الخزانة العامة الهيللينية، المعروفة باسم (Hellenotamiai) .

(د) ضرورة ذكر سكرتارية كل خزينة فى عامها هذا ، باسم المسئول عنها ، مثلما الحال فى النقش السابق الذكر ، حيث ورد اسمان لشخصين هما : لاكياديس (Lakiades) ، عن خزائن أثينا ، وكذلك إرجوفيلوس (Ergophilos) عن الخزانة الهيللينية العامة .

وثانيها : وصف حى للأعمال القائمة فى عهد بيريكليس ، صاحب الفضل فى إنجاز مشروع وبناء البارثينون ، وعلاقة هذا الحاكم النشط الطموح لأثينا ، آنذاك ، بالمهندسين والفنانين (النحاتين) ، وذلك عند بلوتارخوس ، الذى لم يعطنا، للأسف ، تفاصيل دقيقة عن المشروع[٥٢] .

وثالثها : إشارة محددة من فيتروفيوس[٥٣] (Vitruvius) إلى نقش حجرى، على البارثينون ، منسوب إلى كل من إكتينوس (Iktinos) وكاربيون (Karpion) ، دون توضيح شاف إلى مسئولية كل منهما فى إنجاز المشروع المعمارى العملاق[٥٤] .

هذا وإن كانت رواية الجغرافى المدقق باوسانياس[٥٥] (Pausanias) (من القرن الثانى الميلادى) هى أكمل وأوضح سرد لأدوار كل من المهندسين والنحاتين، وبخاصة فيدياس .

وتجمع المصادر والدراسات الحديثة[٥٦] على أن إنجاز ذاك المشروع مر بعده مراحل ، ولم يكتمل إلا بعد مرور خمسة عشر عامًا من تاريخ البداية الفعلية فى إعادة بناء وإعمار الأكروبوليس ، عام ٤٤٧/٦ق. م وهذه المراحل يمكن إيجازها فى عدة نقاط كالتالى :

١ - أخذ موافقة الجمعية الشعبية الآثينية (البولى) كخطوة أولى لإقرار المشروع والإلتزام بالتعهدات الواردة معه من تمويل وإشراف .

٢ - تحديد مهندس وكبير نحاتى المشروع ، باستحضار كل من فيدياس ، من عمله فى تمثال الرب زيوس فى أولمبيا ، وكذلك إكتينوس ، من عمله فى معبد الرب أبو للون ، فى إقليم باساى (Bassai) فى محافظة أركاديا بوسط البلوبونيز ، والذى اختار مهندسًا من آثينا ، فى الغالب ، هو كالليكراتيس ، كرفيق عمل تنفيذى .

٣ - ضرورة تحديد مسافة ومساحة الإنشاء للمعبد الجديد ، والاستفادة القصوى من امتدادات الأساسيات القديمة للمعبد الأقدم فوق الموقع : سطح واسع ضخم بمساحة ٧٣ × ٢٢٠ قدمًا ، ومواقع لإنشاء جدار خارجى من الأعمدة (بيريستيليو Peristelio) تعداده ٦ × ١٦ عموداً ، كما كان قائمًا ، وتحوير

ذلك إلى سطح ١٠٢ × ٢٢٩ قدمًا ، وعمل السور الخارجي الدائرى من عمد (Colonnade) أو البريستيليو ، كما ذكرنا من قبل) ليتكون من ٨ × ١٧ عموداً (انظر / لوحة a,b/v) .

٤ – أما مراحل العمل والتنفيذ نفسه ، عامًا بعام ، وخطوات الإنجاز ، فيمكن إيجازها كالتالى :

المرحلة الأولى : وضع الأساسات :

السنة الأولى (٤٤٧/٤٤٦ ق.م) : تم دفع أجور قاطعى الأحجار ، والحمالين والفنيين ومساعديهم .

السنة الثانية : (٤٤٦ / ٤٤٥) : تم قطع الرخام من هضبة بنديلى Pendeli ونقله إلى الأكروبوليس .

السنة الثالثة : (٤٤٥ / ٤٤٤) : تحديد مكان قدس الأقداس (Cella) وجدرانه السفلى وحوائطه العليا .

المرحلة الثانية : الارتفاع بالمبنى فوق مسطحه :

السنة الرابعة : (٤٤٤ / ٤٤٣) : تم شراء العروق والكمرات الخشبية الضخمة ، والتى تتحمل رفع كتل حجرية وصلت ، بعض أوزانها ، إلى (١٥) طنًا . وهنا يلاحظ إعادة استخدام بعض أبدان الأعمدة الأقدم ، السليمة ، والمتبقية فى الموقع نفسه ، من المعبد الأقدم للربة أثينا .

السنة الخامسة : (٤٤٣ / ٤٤٢) : استمرار العمل فى رفع الكتل الحجرية وبناء الجدران الداخلية .

السنة السادسة : (٤٤٢ / ٤٤١) : بداية العمل فى الأعمدة ، وتحديد مواقعها .

السنة السابعة : (٤٤١ / ٤٤٠) : استمرار العمل .

السنة الثامنة : (٤٤٠ / ٤٣٩) : تم دفع أجور عمال اليومية ، وإقامة أبــواب المعبد فى أماكنها .

السنة التاسعة : (٤٣٩ / ٤٣٨) : تم شراء العاج اللازم لتمثال الإلهــة أثينــا ، وتم دفع أجور حرفــى الســباك والمعــادن الذهبية والفضية كما تم الاتفاق على الأعمــال الخشبية لبقية الأبواب وكذلك الأسقف الخفية. وكذلك تم الاتفاق علــى مقاولــة الأعمــال الحجرية وتجهيز أجزاء الأعمـــدة وتســوية أسطحها .

السنة العاشرة : (٤٣٨ / ٤٣٧) : تمت إقامة ورفع تمثال الربة أثينا فى مكانـــه من المعبد كاملاً ، فى ضوء شـــراء كميــة كبيرة من الذهب ، مما يؤكد الانتـــهاء مــن عمل قاعدة التمثال وكذلك داخـــل المعبــد . ولكن كانت الأفاريز لا تزال علـــى الأرض ولم يتم رفعها إلى أماكنها .

المرحلة الثالثة : استكمال نحت الأفاريز :

وكانت الهيئة المشرفة الخماسية قد دفعت ، بالفعل أجور عمال المحاجر لقطع كتل الرخام اللازم لنحت لوحات الإفريز الرئيسى ، فى واجهتى المعبـــد الشــرقية والغربية ، ولكل مراحل حملها ونقلها ورفعها حتى أعلى تل الأكروبوليس .

الحادية عشرة : (٤٣٧ / ٤٣٦) : تم شراء كمية أكبر من العاج،وعمل عربات نقل بعجلات خشبية وذلك خصيصًا لنقل الكتل الحجرية الضخمة إلى حيث أماكن رفعها في مواضعها المحددة لها في البناء الرئيسي، ويبدو أن هذه العربات تم بيعها للمشرفين (epistatai) على بناء مدخل البارثينون ، المعروفة باسم «τὰ προπύλαια» ، والتي كان العمل قد بدأ فيها في ذاك التوقيت .

السنة الثانية عشرة (٤٣٥/٤٣٦) : تم شراء زوج من أدوات الرفع (ويبدو أنهما كانا مستعملين) كما استمرت عمليات قطع الأحجار ، ونقلها ، وظلت أعمال النحت وعمل التماثيل مستمرة .

السنة الثالثة عشرة (٤٣٤/٤٣٥) : استمر العمل في كل المجالات ، دون إنجاز محدد .

السنة الرابعة عشرة (٤٣٣/٤٣٤) : استمرار أعمال قطع الأحجار والرخام ، من محاجرها ، وحملها ونقلها إلى موقع العمل ، ورفعها إلى التل ، فضلاً عن استكمال أعمال النحت وعمل لوحات التريجليف (τὰ τρίγλυφα) .

السنة الخامسة عشرة (٤٣٢/٤٣٣) تم الانتهاء من كل أعمال النحت ، وتم وضعها في أماكنها ، وتم تزيينها ، بالذهب والألوان الأخرى ، وبخاصة شعور التماثيل ورؤوسها ، وبعض ملامحها وملابسها .

ولنا بعد ذلك التفصيل الكامل لإنجاز كل عام ، أن نشير إلى بعض الملاحظات العامة والأخبار المتفرقة التى وصلتنا من خلال بعض المصادر المبعثرة، والتى تؤرخ فى الغالب ، لسنوات طويلة لاحقة .

١ - كان عدد عمال المحاجر ، فى بنديلى (Penteli) ، لقطع كتل الرخام المطلوب ، بالمقاسات المحددة ، لا يزيد ، فى أى وقت عن خمسين (٥٠) ولا يقل عن (٣٠) ثلاثين .

٢ - تم التغلب على مشكلة انزال الكتل الرخامية ، سليمة دون أذى ، من أعلى الجبل وحتى السهل ، بعمل ممر ممهد ، تحمل من خلاله تلك الكتل ، على عدة مراحل ، وذلك فوق زلاقات خشبية (Rollers or sledges) .

٣ - كانت عمليات نقل كتل الرخام الضخمة تتم بواسطة أعداد كبيرة من البغال والبقر ، وبخاصة خلال شهرى يوليو وأغسطس (لأنهما أقل شهور العام رطوبة) ، طبقًا لمصادر لاحقة من القرن (٤) ق. م ، من إقليم إليوسيس[٥٧].

٤ - كان العمال الذين يعملون فى الموقع ، فوق الأكروبوليس فى بناء البارثينون ، ينقسمون إلى (٣) ثلاث مجموعات :

الأولى : عمال المحاجر .

الثانية : الحمالين والسائقين .

الثالثة : الفنيين والفنانين .

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يوجد ذكر لأى من هؤلاء فى سجلات المشروعات ، فلم نعرف كم كان عدد هؤلاء ، ولا ماذا كانت أجور كل واحد منهم .

ولكنه ، مع ذلك (وفى ضوء مصادر أخرى وثيقة الصلة) يمكننا إيجاد بعض الإجابات المحتملة لبعض الأسئلة ، كما عرفنا من قبل .

٥ – لقد كانت فئة الحجارين الفنيين واحدة من أهم جماعات العمل الدائبة في المشروع ، وليس ببعيد أن يكون سقراط (كنحات أثينى مقيم) واحد منهم ، ضمن مجموعة صغيرة من هؤلاء النحاتين المهرة الذين عملوا في كل مكان من البناء العظيم . وليس أدل على ذلك من ذكر وثائق الإرختيون وحولياته[٥٨] (٤٠٨/٤٠٧ ق. م) ، من أن جماعة من (٤) إلى (٥) نحاتين كانت تقوم وحدها، في آن واحد وفى كل الجوانب ، بعمل التجويفات الطويلة للأعمدة (Flutes)[٥٩] (انظر لوحة a(v)) .

أما أشهر وأهم أعمال النحت والتماثيل في البارثينون فهى كالتالى :

(أ) تمثال الربة أثينا (Athena) العذراء (Parthenos) :

لقد ظل الارتباط وثيقًا بين المعبد وتمثاله طيلة قرون عديدة ، بعد منتصف القرن الخامس ق. م ، حتى أن أحدهما كان يذكر فينصرف الذهن سريعًا ، وبالحق، إلى الآخر ، ومن هنا جاء تخليد مكانة فيدياس (Pheidias) النحات الذى أخرج هذا التمثال (الذهبى – العاجى) إلى النور ، عام ٤٣٨/٤٣٧ ق. م[٦٠] .

هذا ، (وبالرغم من عدم معرفتنا لمصدر معلومات بلوتارخوس حول حقيقة هذا الخبر) فإن الإشارة التالية تؤكد على المكانة العالية والمسئولية الكاملة الشاملة لكل الأعمال النحتية وصناعة التماثيل واللوحات الجدارية داخل وخارج البارثينون من قبل فيدياس ، وفق الاتفاق المبرم بينه وبين القائد والحاكم الأثينى بيريكليس (Perikles) . وهذه الشهادة تقول :

« لقد تمت مناقشة كل الأعمال (التشكيلية) معه ، وكان فيدياس هو المشرف العام له ، بالرغم من وجود مهندسين عظام وفنانين لهذه الأعمال»[٦١] .

وإنه لمن المؤكد ، في ضوء إتساق الخطوط التشكيلية فى تماثيل البارثينون ، أن التعاون والتشاور والالتزام بمنهج واحد في النحت ، كان هو الروح السائدة بين

فيدياس والمهندسين والنحاتين الآخرين ، ولا سيما كـــاليكراتيس (Kallikrates) وإكتينوس (Iktinos) علمًا بأننا لا ندرى يقينًا عما إذا كان فيديـــاس قـــد شـــارك بالفعل فى نحت الأعمال التشكيلية الأخرى داخل البارثينون.

وكذلك فإنه من اللافت للنظر لأى باحث أن كل الأعمال النحتية والزخرفيـــة فى البارثينون (خلافًا لأقرب مثال فى الزمان والشكل وهو معبد زيوس فى أولمبيـــا) جاءت لتكرس عبادة وتقديس وحماية الربة أثينا على الأكروبوليس فى أثينا .

أما عن التمثال نفسه ، الشهير بلقب (Khrysoelephantinon agalma)

فجاءت أوصافه فى المصادر اللاحقة كما يلى :

١ – كان ارتفاعه (٤٠) قدمًا ، أى حوالى عشرة أمتار (؟!!!)[٦٢] .

٢ – وكان جسم التمثال نفسه عبارة عن قلب (Core) من قطعة خشب كبـــيرة ، فضلاً عن تشكيل معدنى ، وفخار ، وجبس (وذلك للصق المكونات) ، وفـوق كل ذلك طبقة خارجية من الذهب ، لتزين الزى والملبس ، بينما كـــان العـــاج لتزين ما ظهر من جلد التمثال وبشرته .

٣ – كانت طبقة الذهب قابلة للإزالة[٦٣] ، وإعداد التركيب كما كانت من قبل .

٤ – النماذج الموجودة للتمثال ، حتى الآن ، هى تلك التـــى تمـــت عقـــب ترميـــم الأصول الأقدم ، وبخاصة بعد إصلاح الزى وتقليده فى قوالـــب أصليـــة مـــن الفخار ، كتلك التى تم العثور عليها للإله زيوس فى أولمبيا مؤخرًا .

٥ – التمثال يقف وقفه تقليدية لتماثيل العصر الأرخايكى (archaic) ، بصـــورة أكثر رسمية عما عداها من التماثيل لتلك الفترة (انظـــر لوحـــة ١) ، نـــاظرًا أمامه ، لابسًا على رأسه خوذة حربية مرصعة ومزخرفة ببذخ ، وعلى صـــدره (فوق القميص الأصلى ، الـــ « بيبلوس » (Peplos) ، درقة الأيجيـــس[٦٤]

(Aegis) ، المستقرة على صدر الربة أثينا وفـــى وســـطها رأس ميدوســـا[٦٥] . (Medusa)

٦ – يوجد ثعبان كبير[٦٦] ، يقف على ذيله ورأسه فـــى مواجهـــة النـــاظر ، فـــى المساحة بين ساق الربة الأيسر والدرع الذى تمسكه بيدها اليسرى .

٧ – ويوجد موضوع أسطورى ، وهو مولد باندورا فى حضـــور الآلهـــة ، فـــوق مقدمة القاعدة ، كما عرفناه من نسخ مقلدة للأصل ، ولكـــن تـــؤرخ بـــالعصر الإمبراطورى الرومانى .

٨ – كما تم نحت موضوع الصراع (الحرب) بين اليونان والأمازونات[٦٧] ، نحتـــاً بارزاً ، على واجهة الدرع ، بينما تم رسم حرب الإلهة مع العمالقـــة ، علـــى سطح الدرع الداخلى ، وهو أحد ثلاثة موضوعات الأكـــثر شـــهرة للمعـــارك الأســـطورية ، ونقصـــد ذلـــك المعـــــروف باســـم « جيجانتوماخيـــا » . (gigantomachia)

(ب) الميتوبات[٦٨] (**Metopes**) :

١ – عدد هذه الألواح التشكيلية ، إجمالاً ، هو ٩٢ لوحة ، وذلـــك فـــى الواجهـــة الخارجية للمعبد ، فى الجهات الأربع ، وجميعها تم نحتـــها بطريقـــة النحـــت البارز ، كما تم تلوينها ، وكانت ، فى حجمها ، تساوى حوالى ثلثـــى الحجـــم الطبيعى لأشخاصها وموضوعاتها .

٢ – كانت أرضيات الألوان المستخدمة ، لهذه الميتوبات ، الأحمر أو الأزرق ، مـــع علاقات لها للتثبيت على الجدار ، مصنوعة من معدن البرونز .

٣ – لا تزال ميتوبات الجهة الشرقية والغربية فى أماكنـــها ، حتـــى الآن ، بينمـــا تعرضت اللوحـــات الأخـــرى للســـرقة ، أو الدمـــار ، أو التشـــوية لأســـباب عديـــدة[٦٩].

٤ – تمثل مجموعات الأشكال المنحوتة ، فى الغالب ، صراعًا ومواجـهات : ففـى الواجهة الشرقية ، هناك بالتأكيد ، صراع بين الآلهة والعمالقـة ، بينمـا فـى الواجهة الغربية ، يوجد على الأرجح ، صراع بين اليونانيين والأمازونات .

٥ – من بين القطع الباقية ، فى أقصى الطرف للواجهة الغربية ، لوحة (ميتـوب) بدون رؤوس (انظر لوحة ١٠ ، شكل / a) لسيدتين ، إحداهما جالسة علـى صخرة ، والأخرى واقفة أمامها ، وفى الغالب هما شخصيتان لإلـهتين علـى درجة عالية من الجمال ، تظهر من رقة وفخامة ملبسهما .

٦ – أمـا ميتوبـات الواجهـة الجنوبيـة فـهى تصـور حـروب الكنتـورات (Centauromachies) .

٧ – يتضح تصوير الحركة ، فى لوحات البارثينون ، (وقياسًا على شبيهاتها فـى معبد زيوس بأولمبيا ، بأسلوب أكثر تعقيدًا ، وأكثر تفصيلاً فى طيات العبـاءة اليونانية الفضفاضة الكبيرة .

(جـ) البديمنت(٧٠) (أو / الأيتوما : Aetoma) :

وكان الجغرافى المؤرخ باوسانياس قد سجل لنـا موضوعـات الواجـهتين ، الشرقية والغربية (ta aetomata) ، ولولا ذلك ما أستطاع الدارسـون التكـهن بتفسير بقايا تلك اللواحات .

١ – فى الواجهة الشرقية ، تم تصوير مولد الربة أثينا ، وهى الرواية التى حكى لنـا أطرافها الشاعر هيسيود ، كما صورتها لنا رسومات على آنية وألواح من قبـل بناء البارثينون نفسه (قارن / لوحة (٥) ، شكل (a) و (b) .

٢ – وحول شخصية الفرد الممدد على الأرض (انظـر لوحـة ١١/ شـكل / a) اختلف الأثريون : فاعتبره البعض ثيسيون ، والبعض الآخر هيراكليس ، بينمـا

هناك شبه إجماع على أنه ديونيسوس(٧١) (Dionysos) ، إلـــه الشــراب والخمر واللذة والمجون .

٣ – ومن أروع منحوتات هذا الجمالون الشرقى ، تمثالان لسيدتين : (بــدون رأس) إحداهما جالسة ، والأخرى ممددة مرتكن على الأولـــى الجالســة ، ويرجــح الأثريون أنهما الربة أفروديتى (Aphrodite) وأمها ديونـــى (Dione) ، يرتديان زيًا ثريًا جدًا ، ويعكسان حيوية أنثوية لجمال طاغ (انظر لوحــة ١٠ شكل / b) .

٤ – ولكن بقايا الواجهة الغربية فقد أصابها الدمار أكثر مما لحق بمثيلاتها الشـرقية، ومع ذلك فإننا نعرف الكثير عن موضوعات تلك اللوحات ، من مصدرين .

(أ) باوسانياس ووصفه لصراع أثينا مع بوسيدون حول السيادة علـــى أرض إقلم أتيكى (Attike) .

(ب) ما قام به الرسام جاك كارى (Jacques Carrey) قبـل (١٠) أو (١٥) عامًا من وقوع الانفجار فــوق الأكروبوليــس عــام ١٦٨٧م ، وحفظــه لأماكنها وموضوعاتها فوق البارثينون .

٥ – تتمركز شخصيتا الإلهتين : الربة أثينا والإله بوسيدون ، فى وسط الجمــالون ، بحجم أكبر من كل ما عداهما ، وبينهما شجرة الزيتــون (الشــجرة المقدســة ومظهر إعجاز أثينا) ، وربما ومعها الثعبان ، وكذلك تمثال صغير للربة نيكــى (Nike) ، إلهة النصر(٧٢) .

نتائج البحث

أولاً : كان للصخرة المقدسة (الأكروبوليس) تاريخ أقدم ، واعتبار قديم لدى الأثينيين ، (فيما قبل العصر الكلاسيكى) يرجع إلى العصر الميكينى، حوالى عام ١٤٠٠ق.م .

ثانيًا : التراث الأثينى بخاصة ، واليونانى بعامة ، يخلد وجود الربة أثينا ، فى رسومات وأساطير ، يرجع تاريخها إلى ما قبل العصر الكلاسيكى نفسه ، أى قبل بناء البارثينون ، كأعظم صورة من صور تكريم الأثينيين لها فى تاريخهم القديم .

ثالثًا : استطاعت الأساطير فك طلسم وجود الربة أثينا ، فوق الأكروبوليس ، جنبًا إلى جنب مع الآلهة الأقدم ، مثل إرخثيوس ، فألحقت بها رموزه المقدسة ، وأصبحت هى وحدها ، الحامية للمدينة وقلعتها ، والحارسة لكل السلطة الحاكمة فيها ، على ربوتها التاريخية .

رابعًا : بناء البارثينون ، فى أفخم وأكمل وأروع صورة (بالرغم من تكلفته الكبيرة وطول مدة البناء) جاء تكريمًا للربة أثينا ، وإعلاء لمكانة أثينا والأثينيين السياسية الرائدة بين بقية اليونانيين .

خامسًا : قدرة الفنان الأثينى : المهندس والنحات ، على التعامل،بدقة متناهية وتمكن ملحوظ ، مع الأحجار الصلبة ، للتعبير عن طراوة الجسد الآدمى ، وحيويته، وتوظيف الشكل المعمارى فى أفضل صورة .

سادسًا : تمكن الإيمان بالآلهة فى قلوب اليونانيين ، على الأقل حتى ذاك النصف الثانى من القرن (٥) ق.م ، وتكريس كل تلك الميزانيات وحجم الأعمال ، على مدى (١٥) عامًا ، وإيمان القيادة السياسية بأهمية المشروع ، والإصرار على إنجازه .

سابعًا : التمكن الفنى العظيم من أدوات النحت وخاماته: الخشب، والعاج، والذهب ، بين أيدى بعض الفنانين الموهوبين وشهرتهم فى كل أرجاء اليونان .

لـوحـــة (١)



Photograph by courtesy of the Royal Ontario Museum, Toronto

THE 'GOLDEN IMAGE' OF ATHENA

Reconstruction of the chryselephantine statue by Pheidias in its setting in the Parthenon

(See J. W. Graham, 'Acropolis and Parthenos', pp. 82–83)

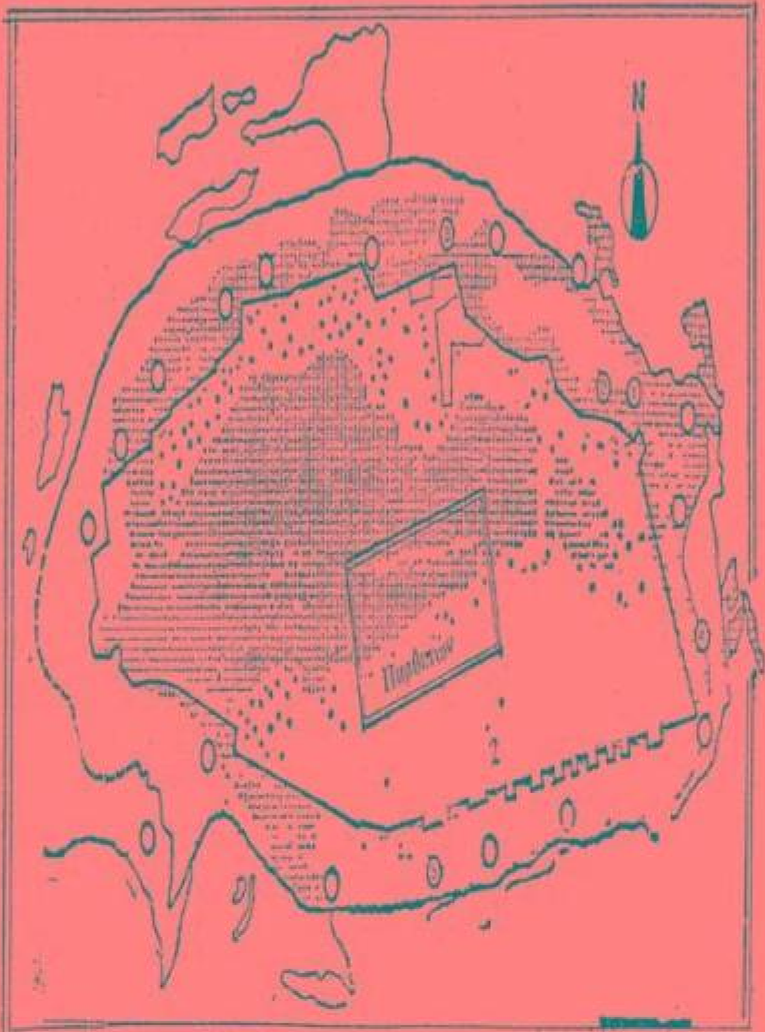
ماكيت تخيلي لتمثال الربة أثينا – على أساس النماذج الرومانية اللاحقة – على قاعدته وبصحبة كل رموزه المقدسة ، داخل قاعته قدس الأقداس (Cella) ، حيث يرتفع السقف دورين / أو / مرة ونصف تقريبًا . والصورة منقولة عن متحف أونتاريو الملكى – تورنتو – كندا . لاحظ التاج، ذا الخيول الثلاثة، والدرع وتمثال الربة نيكى المجنحة ، إلهة النصر ، واقفة فى الكف الأيمن للربة أثينا .

لوحة (٢)



محاولة رسم دقيقة للغاية لملامح التمثال السابق ، مع إبراز تفاصيل كثيرة لمكونات التمثال المقدس (e parthenos) .

لوحة (٢)



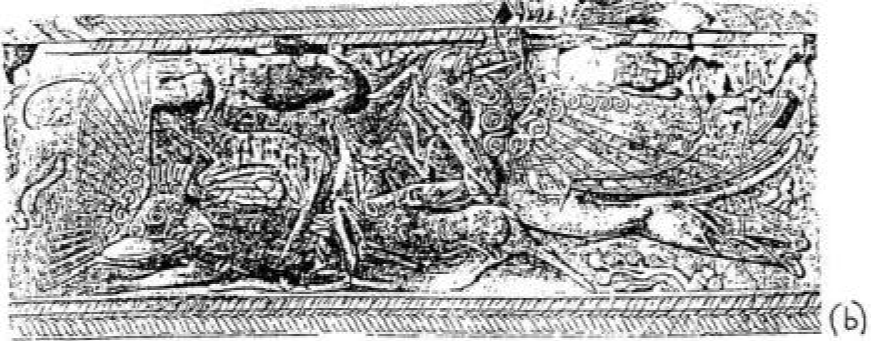
خريطة منشورة في دورية نقابة المهندسين المدنيين اليونانيين ، عدد / إبريل - مايو ١٩٨١ ، مشفوعة بدراسة للمهندس أ. موتوكروسو حول «أعمال التقوية لصخرة الأكروبوليس في أثينا» ، حيث تتضح مناطق التدعيم في الشمال والوسط الملحق بالنصف الشمالي من البارثينون نفسه ، كما في اللوحة أمامنا ، مما يوضح اهتمام يونانيي اليوم بكل رموز تراثهم العريق .

لوحة (٤)



(a)

Ivory pyxis (cosmetic-box) carved from a cross-section of a tusk (*above*) from a tomb at Athens of the fourteenth century B.C. A development of the decoration (*below*) shows a lively scene of winged griffins hunting deer. Crouched near the top rim are two small lions, seen from above



(b)

(a) ، (b) صندوق الزينة العاجى (Pyxis) المكتشف فى مقبرة ميكينية فوق أكروبوليس أثينا ، مع لوحة تفصيلية للموضوع الزخرفى للطائر الأسطورة الـ Griffin، أحد أهم الرموز الملكيــة الميكينية . مؤرخ بالقرن (١٤) ق.م .

لـوحـــة (٥)



(a) مولد أثينا ، من رأس أبيهاز زيوس ، فى حضور هرميس / أو / هيفايستوس ، الذى يحمـــل المطرقة بيده اليسرى ، كما صورها هنا فى حافة الأناء الصغير ، بينما يمسكها بيده اليمنى فـــى شكل (b) أسفل .

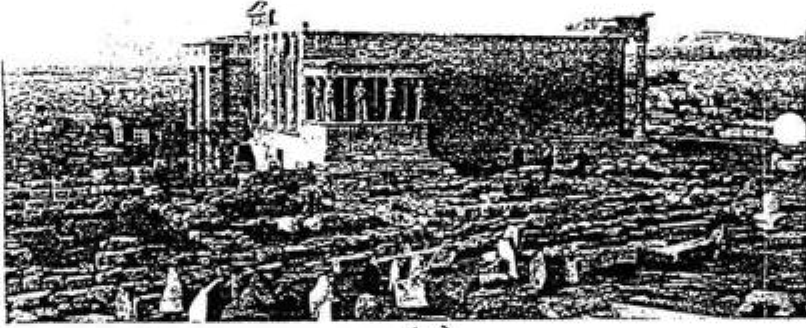


(b) الموضوع نفسه ، مع وجود الحورية إليثيا ، (الكريتية ؟!!!!) مما يرجح الأصـــل الـدورى لهذه الأسطورة ، وتم نقلها إلى أثينا وأولمبيا ، حيث تم الكشف عن هذا التصوير فوق لـــوح برونزى ، من القرن (٧) ق. م .



(c) أشكال لعملة أثينية ، عليها رأس أثينا ، بصورة تقليدية ، وعلى الوجه الآخـــر ، لإحداهـــا ، البومة ، الطائر المقدس للربة .

لـوحــــة (٦)



(a)

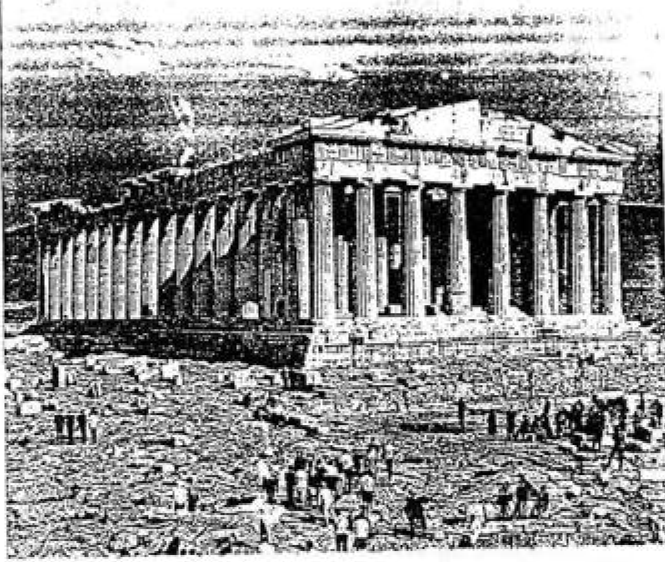


(b)

(a) الإرخثيون ، من الجهة الجنوبية حيث مقصورة الفتيــات العــذراوات (Korai) حــاملات السقف، الشهيرات باسم : الكارياتيديس (Kariatydes) .

(b) معبد البارثينون ، كما يرى من الجهة الشمالية الغربية ، والجدار الأقدم ، في الواجهة هنا في الصورة ، الحائط الميكيني (١٦٠٠- ١٢٠٠ ق.م) .

لــوحـــة (٧)

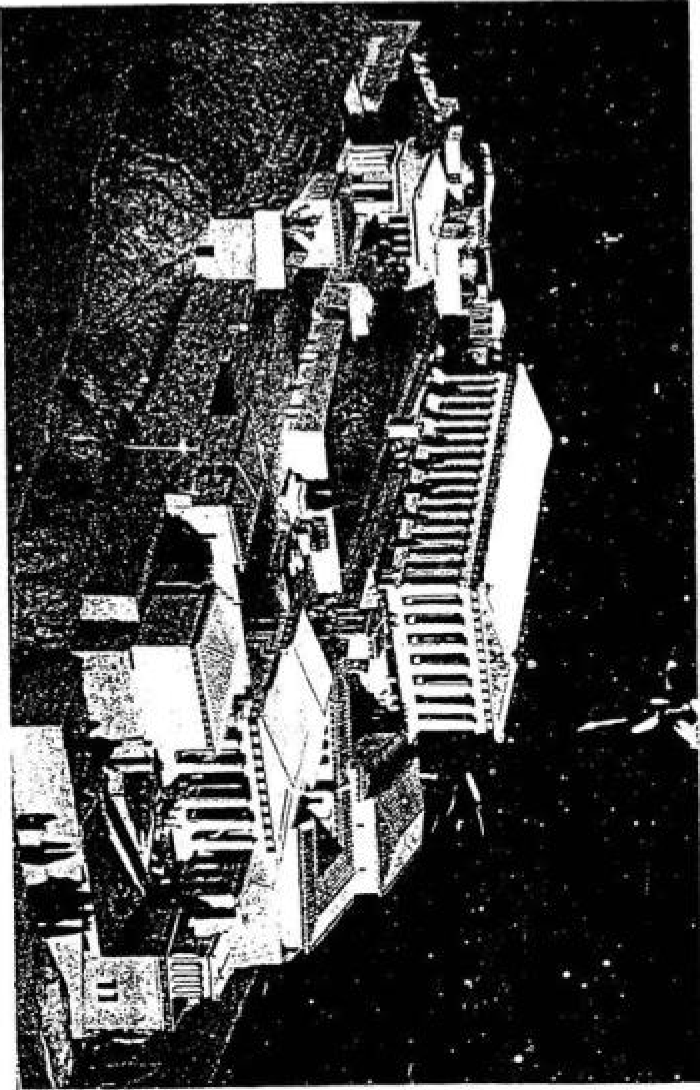


(a) البارثينون ، كما يبدو على حاله الآن ، فى التسعينات من هذا القرن العشرين ، من الواجهة الشمالية الغربية . وهى الأكثر بقاءً وحفاظاً على الشكل الأصلى للمعبد المقدس على الأكروبوليس .



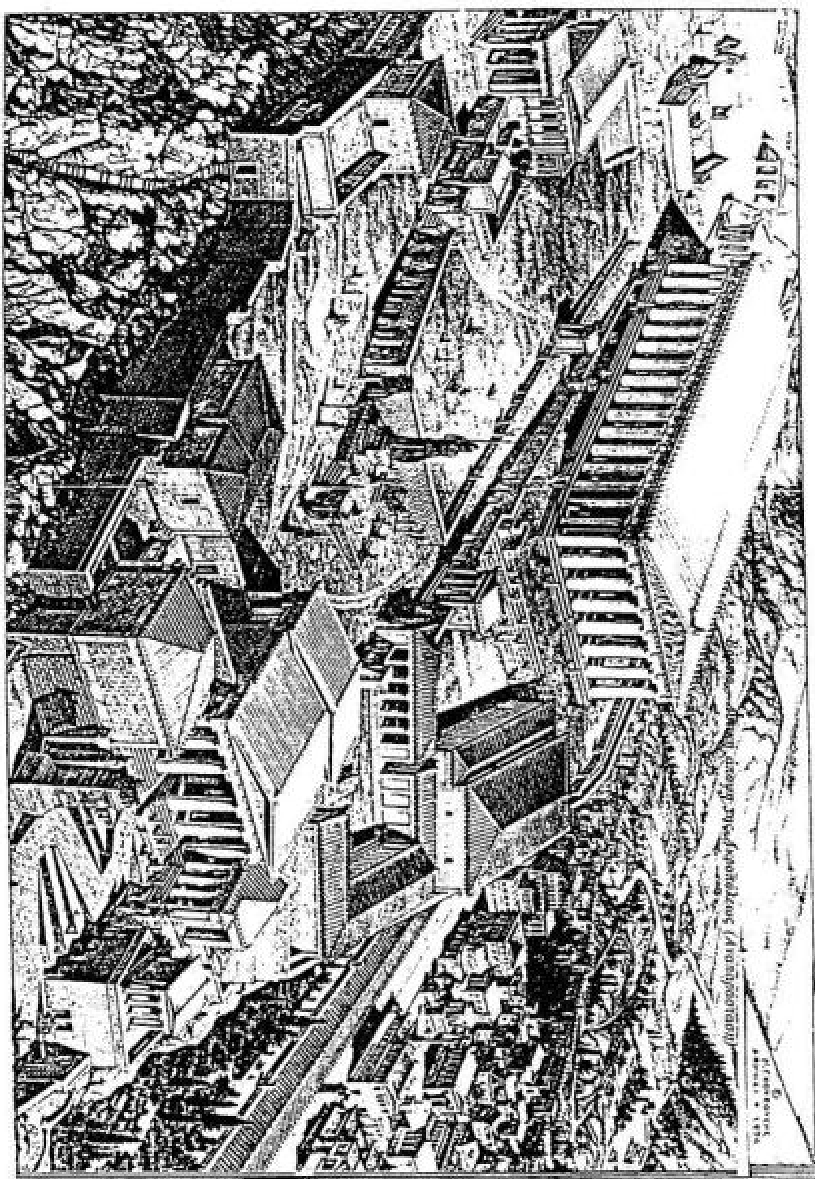
(b) الواجهة الشرقية للبارثينون ، كما تبدو أثناء عمليات الترميم (التنظيف والتثبيت) فى الســبعينات . (كاميرا المؤلف) . لاحظ مكوينات العمود الدورى ، وفتحات التثبيت للميتوبات أعلى التيجان .

لـوحــــة (٨)



(ماكيت كامل صغير لكل آثار ومبانى الأكروبوليس ، داخل السور العلوى على)

قمة الصخرة المقدسة .



لـــوحـــة (٩)

صورة إعادة تكوين تخيلي لكل آثار الصخرة المقدسة « الأكروبوليس » مـــن الجهـــة الشـــمالية الغربية ، بقلم / جوفوسيس / أثينا ١٩٧٤م .

لوحة (١٠)





ب



(ج)

لــوحـــة (١١)



(a)

الأيتوما (الجمالون) الغربى ، كما يمكن أن يبدو فى الأصل القديم :

(أ) إستناداً إلى بعض القطع النحتية الباقية حتى يومنا هذا .

(ب) واعتماداً على الوصف الشامل عن باوسانياس .

(جـ) محاولات الفنانين الرومان (اعتماداً على النصوص اللاتينية وكذلك النســخ المقلــدة عــن الأصول) لإحياء التراث الكلاسيكى .



(b)



(c)

لوحة ١٢



أشهر وأهم أجزاء النظم اليونانية الكلاسيكية فى أعمدة العمارة

١ – أكروتيريو	(akrotério)	١٢ – ستاجونا	(Stagona)
٢ – سيمى	(Simé)	١٣– إبستيليو	(Epistylio)
٣ – هيدروروى	(Hydrorróe)	١٤ – أباكاس	('Abacas)
٧ – تريجليفوس	(Triglyfos)	١٥ – إخينوس	(Ekhinos)
٨ – ميتوبى	(Metōpe)	١٦ – إمانتيس	(Imántes)
٩ – زوأوفوروس	(Zooföros)	١٧ – كورموس	(Kormós)
٢٠ – كيوناس	(Kionas)	١٨ – باسى	(Básē)

لاحظ الحرص على الإشارة إلى الأجزاء المعمارية بالأرقام نفسها كما فى الأصل اليونانى القديم.

الهوامش

(١) فى دراسة شاملة لكل الجوانب الحضارية فى كريت القديمة ، ولا سيما الجانب السكانى وقضية أصل السكان الأول لأرض تلك الجزيرة فى الألف الثالثة ق. م ، وتفاصيل نظرية إيفانس (Evans) حول ترجيح هجرة مصريين إلى هناك وتأسيس تلك الحضارة استناداً لبعض المتشابهات بين الحضارتين ، فى مصر وكريت آنذاك ، والرد الكامل على تلك النظرية وتفنيد بنودها ، بل ورفضها جملة وتفصيلاً ، راجع كتابنا : تاريخ الحضارة الهيللينية (سلسلة قراءات فى التاريخ القديم (١)) الرياض، دار الخريجى للنشر والتوزيع ١٩٩٧ ، ص ص ٥٩ - ٨٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٩١ - ١٢٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ١٢٧ - ١٣٨ .

(٤) راجع مثلاً :

(a)Snodgrass, A. M., The Dark Ages of Greece, Edinburgh 1971.
(b)Desborough, R. A. The Greek Dark Ages, London – Bonn 1972.

(5) « The Builders of the Parthenon », Greece and Rome, Vol.X (1963), p. 23 .

(6)Ibid., pp. 29 –34

حيث تم تقدير حجم العمالة الماهرة من النحاتين ، بحوالى ١٥ - ٢٠ رجلاً ، لمدة (٣٠) يوماً فى العام ، وعلى مدى (١٥) عاماً تقريباً (من ٤٤٧ / ٤٤٦ إلى ٤٣٣/ ٤٣٢ ق. م.) وأن هؤلاء كانوا قد تقاضوا مبلغاً إجمالياً (لاستكمال نحت الإفريز) Pediment حوالى ١٦,٣٩٢ درلخمة فى العام الواحد . أما إجمالى عدد العمال العاملين فى كل المشروع ، ولكل الأعمال ، فيمكن أن يكون حوالى ١٠٠٠ (ألف) رجل ، وكان الأجر اليومى ، للنحات، لا يزيد عما كان فى بناء الإرختيون ، وهو حوالى ١,٥ - ٢ دراخمة. وكان هذا مبلغاً كبيراً ، بمعيار عصره ، حتى أن، بلوتارخوس يحتفظ لنا بحكاية طريفة عن أحد الحمالين للأحجار ، كان قد ترك ليستريح ، ولكنه رفض ذلك ، واستمر يهرول إلى جانب فريق عمله ، وكأنه يشجعهم فى صعود التل ، ولذلك قرر الأثينيون ، منذ تلك اللحظة ، أن يقدم له الطعام فى الموقع على نفقة المدينة (راجع /Plut., Cato The elder, 5:8) .

(7)I. E. E., Vol. III.2, Athens 1972, p.
فى واحد من أكبر وأفخم سلاسل التاريخ بأيدى يونانية ، فى السنوات الأخيرة، خرج إلى النور أجود عمل – على أغلى ورق وبأحدث تكنولوجيات إخراج الكتب والموسوعات العلمية وبأقلام أكبر علماء اليونان فى التاريخ والآثار – وهو موسوعة « تاريخ الأمة اليونانية » Historia tou Hellenikou Ethmous فى اثنى عشر جزءا ، ومن أكبر دور النشر اليونانية، وهى شركة متخصصة فى نشر الأعمال التاريخية

(٧/أ) ولعل أوضح رد فعل اثينى معاصر ، لمجرد انتشار بعض الإشاعات حول مخاطر انهيار الصخرة المقدسة وما عليها من آثار ، جاء فى تقرير ، أو بمعنى صحفى أدق تحقيق ، مطول بقلم السيد / ب. باناپوتوبولو ، فى العدد الأسبوعى للجريدة الرسمية اليمينية « كاثيميرينى » Kathemerine ، ليومى الأحد والاثنين ١٤ – ١٥ أوغسطس عام ١٩٨٣ ، مؤكدا للكافة فى مانشيت كبير : « آثار تل الأكروبوليس لا تتعرض لأى خطر مباشر » ، وكانت معظم الجرائد اليومية الأثينية قد كتبت فى تلك الأيام ، عن مخاطر جمة يتعرض لها التل المقدس ، وبخاصة من ارتفاع منسوب المياه الجوفية، فوق الأكروبوليس ، وكذلك بسبب نشاط الأمطار وكثافتها ، ويسجل هذا الصحفى الحس القومى اليونانى ، والأثينى بوجه خاص ، تجاه « التل المقدس : Hiero Brakho ، لأنهم يدركون إدراكا عظيما أن مصيرهم مرتبط ارتباطا شديدا بمصير مدينتهم ، وكيف أن كبار السن منهم يعرفون تماما فضل الأكربوليس وآثاره فى ألا تمتحن مدينتهم بقصف جوى عنيف – كما حدث لمدن أوربية أخرى – إبان الحرب العالمية الثانية ، ولهذا كله ، ودون الدخول فى تفاصيل نوعية الأخطار ، تقرر تشكيل لجنة – من رئيس هيئة الآثار آنذاك ،البروفيسور يورغوس ميلوناس (G.Mylonas) ، على رأسها ، وعضوية آخرين من هيئة البحوث الجيوفيزيقية وكذلك الأرصاد ، فضلا عن المدير العام لمتحف وآثار الأوكربوليس السيد يورغوس ذونتاس (Dontas) لمزيد من الاطمئنان واليقين ، مع لجان الترميم الخاصة بالموقع ، على أن تعرض أعمالها وتقررها خلال أسبوعين على الناس ، وكان القائمون على هذا الأمر قد

حددوا حوالى (٢٢) موقعًا تحتاج إلى تدخل سريع ومباشر فى أجزاء التل المختلفـة، وبخاصة فى اتجاه الشمال والجنوب منه .

(8) The Greeks and Their Heritages, Oxford 1981, p. 25.
(9) Andrewes, A., Greek Society, (Pelican Books), England 1967, (Rep. 1975, 77, 79) P. 36.
(10) Ibid., P. 37.
(11) Ibid., PP. 32, 41.

ويؤكد بيرن (Burn) فى كتابه The Pelican History of Greece, Penguin Books 1965, [Rep. 79, p. 57.] على أن كل القصة بعودة أبناء هيراكليس ، مـــا هى إلا اختراع لعمل مصالحة بين إدعاء الملوك الدوريين بأنـــهم أحفـــاد هـــيراكليس وبين الحقيقة القائلة – كما تؤكد الروايات المحلية – بأن هيراكليس كان معروفًا ولـــه أنشطة وأعمال مشهورة فى جنوب اليونان إبان العصر الآخى (الميكينى) .

(12) The Ancient Greeks (Pelican Books), England 1963, (Rep. with revisions 1971, 75, 77) P. 16.
(13) Ibid., P. 28.
(14) Ibid.
(15) Ibid., P. 25.
(16) Homeros, Ody. VIII: 489-491.
(17) Iliad., II: 546-556.

(١٨) جاء فى قاموس أكسفورد الكلاسيكى تحت اسم هذا العلم [(O. C. D.) Oxford, 2nd edition 1970, Rep. 72, PP. 405-406: s. v. Eraechtheus] بأنه هو ملك أسطورى لأثينا ، كانت الربة أثينا (Athena) قد أرضعته ، وغالبًا ما يتـــم الخلـــط بينه وبين اريختونيوس ، ولكن الأسطورة الرئيسية الخاصة بهذه الشخصية هى فـــى بناته الثلاث أو الأربع وعلى وجه التحديد ابنته ختونيا (Khthonia) التى ضحـــى بها أبوها لتحقيق النصر على الغازى لإقليم أتيكى ، ابن بوسيدون ، كما أمره بذلـــك وهى دلفى .

(19) Iliad., II: 558.
(20) Iliad., II: 556.
(21) Odyssey, VII: 80-81.
(22) Hopper, R. J., «Athena and the early Acropolis », Greece and Rome, Vol. X (1963), Supplement, p. 2.
(23) Lysistrata, 640-647.

(24) Periegeseis, I: 27, 3.
(25) Hopper , Op. Cit., p. 4.
وفى تاريخ الموسوعة اليونانية الحديثة (I. E. E., P. 257) ، جاءنا أن الاسمين هما لشئ واحد ، وهى الاحتفال الأثينى للربة أثينا ، والذى حافظ (خلافًا للاحتفالات الباناثينيا والديونيسيا) على المضمون الدينى له ، ذات ليلة من أيام صيف شهرى يونيو ويوليو ، لنقل المتاع السرى للربة ، على أيدى طفلتين صغيرتين ، منحدرتين من أصل أثينى عريق ، وأن تتراوح أعمارهن فيما بين (٧) إلى (١١) سنة ، حتى يقمن بطقوس دينية تستلزم الطهر والبراءة ، وإلا تفسد تلك الطقوس (؟!!) .

(٢٦) ويذهب البعض إلى أن الربة أثينا حصلت على لقبها « أثينا بالاس » ، من انتصارها عليه ، أو من اللفظة اليونانية القديمة « Pallax » ، التى تعنى «عذراء » . راجع / O. C. D., Op. Cit., s. v. « Pallas, » 2, p. 772. حيث نجد رأيًا يخالف ذلك الرأى الأول ، ويميل إلى الاشتقاق اللغوى من معنى « الشابة أو العذراء » الذى كان فى الأصل ، عبارة عن اسم صديقة للربة قتلتها خطًا ، ومن ثم حملت اسمها لتخليدها (؟!!) .

(٢٧) وهناك رأى آخر يؤكد على زرقة العينين كقاسم مشترك بين البومة والربة أثينا ، وليس على شكل البومة نفسه ، راجع / هوبر
Hopper, Op. Cit., p. 6.

(٢٨) مثلما حدث ، فى الاوديسيا (Ody. I: 306-18) عندما تخفت الربة أثينا فى شخصية منتيس (Mentes) الضيف الصديق لأسرة أوديسيوس ، وقابلت ابنه تليماخوس (Telemachus) ، الذى دعاه (وبالأحرى / دعاها) إلى منزله (أو/ قصره) ليقدم له واجب الضيافة ، آنذاك ، وقد جاءعلى لسانه ذكره لمظهرين اثنين كانا معروفين ، بين الأسر الارستقراطية لمثل تلك الضيافة ، وهما : إقامة طيبة لمدة من الوقت ، وكذلك تقديم هدية قيمة للضيف .

(29) Hopper, Op. Cit., p. 6.

(٣٠) هذا بالرغم من إعداد الممر الصاعد للتل ، الآن ، بطريقة آمنة نسبيا ، إلا أن طبيعة الصخر الملساء ، وكثرة الاحتكاك والسير عليه من السياح ، جعله أكثر خطورة للزائرين للموقع . راجع / لخرائط ممتازة للموقع :

Rossiter, S. – Flower, J. Blue Guide Greece, Ernest Benn Limited, London and Jonbridge, 4th edition 1981, pp. 100-104.

(31) CF. Higgins, R. Minoan and Mycenaean Art, Thames and Hudson, London 1967, Rep. 1974, Fig. 160-161.

(31/a) Journal of Hellenic Studies, 95 (1976), pp. 8-17 & CF. Snodgrass, A. M., Archaeology and the Rise of the Greek State, (an inaugural lecture) Cambridge Univ. Press, Cambridge 1977, pp. 30-31.

(31/b) Ibid.

(31/c) Ibid.

(32) CF., Richter, G. A Hand book of Greek Art, (Translated into Modern Greek by K. G. Korre) London 1959, by Paidon press Ltd., Athens 1974, pp. 61-62, for kouroi & pp. 65, 70 for seated Figures.

(33) CF., the O. C. D., Op. Cit., p. 1053, s. v. Themistocles, Also see, e. g., Burn, A. R., The Pelican History of Greece, 1965, (Rep. with revisions 1978, 79), pp. 159-196.

(34) Herod., V: 77.3 & VIII: 144.

(٣٥) لا نعرف أصلاً لغويًا لهذه الصفة (بعد أن أعيانا البحث في القواميس اليونانية المتخصصة) ، كما لا يمكننا التكهن ، إن جاز لنا ذلك ، بموقع جغرافي ، بهذا الاسم ، على خريطة اليونان القديمة ؟!!!! وليس هناك احتمال ثالث لمعنى مثل تلك الصفة ، فإما أنها ترجع إلى العنصر السكاني ، وإما إلى المكان نفسه الذي ينتمي إليه الشخص المذكور ، كما كان شائعًا في وثائق أوراق البردي ، من بعد ذلك ، وكذلك النقوش في الـ « stelae » ، قارن مثلاً ، من الفترة نفسها (حوالي ٤٤٠ ق. م.) نقشًا على حجر كريم لخاتم كتب عليه : « Dexamenos epoie chios » بمعنى : « ديكسامينوس من خيوس ، صنع هذا » راجع مثلاً :

Boardman, J., Greek Art, (New Revised edition), London. 1987, p. 157, fig. 162.

(36) Paus., I: 26-7.

(37) « The Goddess of the Golden Image », Greece and Rome, vol. X (1963), pp. 17-22.

(٣٨) تحكى الأسطورة ، كما جاءت عند كل من أبوللودوروس (Apollod., III: 14-6) وكذلك باوسانياس (Paus., I: 18-2.) بأن الإله هيفايستوس أنجب ولدًا من الإلهة الأرض « Ge » فأخفته عن العيون ووضعته في صندوق ، وأحضرته إلى

الأكروبوليس وعهدت به إلى بنات ملك أثينا ، كيكروبـــس (Kekrops) - فـي العهد الأسطورى الأول لنشأة المدينة ؟!!! - محــذرة إيــاهن بــألا يفتحـن ذلـك الصندوق أبدًا . ولكنهن ، مع ذلك ، (بدافع الفضول الأنثـوى الطبيعـى) فتحـن الصندوق ، وراعهن ما رأينه بداخله من طفل رضيع ، هـو إريختونيـوس ، فـى حماية ثعبانين اثنين ، فهرب الجميع ، ولكن أثينا تقدمت إليه وحملته ، وربتـه فـى محرابها ، حتى صار وأصبح إريخونيوس ملكًا على أثينا . وعندئذ رد لـها الديـن وأقام لها تمثالاً خشبيًا على الأكروبوليس ، وأرسى قواعـد الاحتفـال البانـاثينى ، وشارك فيها بنفسه بعربته ذات الأربع خيول (التى هى من اختراعـه هـو ؟!!!) وعندما مات ، تم دفنه فى المحراب نفسه الذىكانت أثينا قد ربته بداخله .

(39) CF., e. g. Athens Acropolis Museum, Nr. 433 (or. J. H. S., XIV, pl. 10 & Kerenyi, Gods of the Greeks, p. 127. & I. E. E., III. 2., Athens 1972, p. 346.

حيث لوحة جنائزية من القرن (٦) ق. م. ، تصور بنات كيكروبـس يرقصـون وفى أيديهم إريختونيوس كطفل صغير يرقص معهم(من متحف الاكروبوليس) .

(40) Applod., III: 4.3.

(41) Ibid., I: 1.6. & Paus., IV: 33.1. An Intermediate Greek – English Lexicon, (Liddellend Scott), 7th ed., Oxf. 1968., p. 19.

(٤٢) الأيجيس (Aegis) كان فى الأصل عبارة عن عباءة أو درع للإله زيـوس (كمـا جاء فى أقدم إشارة له فى الإلياذة : Iliad, V: 738 ff. من جلد الماعز ، على وجـه الخصوص ، وكانت تتغطى به تماثيل الربة أثينـا ، علـى أكتافـها وصدرهـا ، وتتوسطه رأس الجورجونا أو ميدوسا ، وينتهى بأهداب على هيئة رأس الثعـابين ، ولمزيد من التفاصيل ، راجع / هيرودوت

Horodotus, IV: 189.

(٤٣) عن أسطورة الجورجونا أو الميدوسا (Medusa) ، راجع / The O. C. D., Op. D., Op. Cit., p. 472, « Gorgo » نحن ، هنا ، ننطق هذا الاسـم وفـق مسـماه باليونانى الحديث الأشهر .

(44) Paus., I: 27-4.

(45) Hooker, Op. Cit., p. 19.

(46) Finley, M. I., The Ancient Greeks, (Penguin Books), England 1963, (Rep. 1977), pp. 160-161.

(47) Liddle – Scott, Op. Cit., p. 388., وكذلك راجع / هامش (٢٥)

(48) Hooker, E., Op. Cit., p. 20.

(49) Apollod., III: 4,3,13.

(50) Burford, A., Op. Cit., p. 24.

أما النقش نفسه ، فهو منشور ومترجم فى Inscriptiones Graecae, I. 2, Nr. 372.

(٥١) وهو هنا ، للأسف ، غالب وغير واضح على الحجر ، ولم يتم التعــــرف عليـــه أو تحديده ، بالضبط .

(52) Plutarchus, Pericles: 12 ff., see (e. g. Plutarch: The Lives of the Noble Grecians and Romans, Translated by John Dryden the Modern Library, New York, U. S. A. 1970, 1st Published and revised by A. H. Clough, 1864, pp. 182-212).

وهنا يعطينا بلوتارخوس تفصيلا لعلاقة بيريكليس المتينة بالنحات فيديـــاس وثقتـــه الشديدة فيه ، وقيام أحد المواطنين ، أحد اعمال فيدياس ، باتهامــــه بتبديـــد أمـــوال مشروع البارثينون ، وتقديمه للمحاكمة ، مما تسبب (وكذلك من جراء تصرفــــات أسباسيا زوجة بيريكليس) فى توجيه اللوم وإثارة الشكوك حـــول نزاهـــة الرجـــل الأول فى أثينا ، بيريكليس نفسه ، وكذلك يفصل بلوتارخوس فـــى علاقـــة القـــائد الأثينى بحكام إسبرطة اللاكيديمونيين ، ولكنه يشير إلى أن حقيقة تلـــك التفـــاصيل غير مؤكدة .

(53) CF., e. g. The O. C. D., Op. Cit., p.

(54) Vitruvius, <u>De</u> Architectura, <u>VII</u>: praef. 3.

(55) Paus, <u>V</u>: 11.9.; <u>VIII</u>: 41.9.

(٥٦) يعرض العلامة الإنجليزى الأثرى الشهير جون بوردمان (J. Boardman) فـــى كتابه القديم الجديد (حيث يتم إعادة نشره كل حين لبساطته وإحاطته بموضوعـــه ، منذ عام ١٩٦٤ وحتى الآن ، وبفضل تنقيحه وإضافاته الأثرية المستمرة تمشيا مـــع نتاج الحفائر الأحدث) للبدايات السياسية المشجعة ، منذ منتصف القـــرن ٥ ق. م. ، حينما تم نقل خزائن الاتحاد الكونفدرالى بزعامة أثينا ، إلى أثينا نفســـها فـــى عـــام ٤٥٤ ق. م. ، ومن ثم تمكن بيريكليس من تنفيذ مشروعه العملاق بـــتزين المدينـــة

وإقامة المشروعات الدينية والمدنية (بين معابد ومبانى عامة) بالقدر اللائق لتلك الزعامة . راجع /

Greek Art (New Revised edition, World of Art, Thames and Hudson) Great Britain 1964, (Rep. 73, 85, 87), London, pp. 114-121.

(57) I. G., II. 1675.

(58) I. G., I. 373 f.

(٥٩) هي تلك الثنيات المحززة في بدن العمود اليوناني والتي تميزه دائما بوجودها.

(٦٠) هناك رأى أحدث ومخالف تماما ويستند على شهادة المصادر القديمة ، وهو للسيدة العالمة جيزيلا ريختر (Gisela Richter) صاحبة أشهر مرجع عن الفن اليوناني، حتى الآن ، وهو A Handbook of Greek Art, (Paidon Press Ltd.), London 1959. في ترجمته اليونانية بأثينا : Arkhaia Ellenike Tekhne, (Instituton tou Bibliou Athenai 1974. P. 34. (حيث يجمع الخبر التأريخي الجديد (فيما بين عام ٤٢١ وحتى ٤١٥ ق. م) بين تمثال الإله ايفايستوس وكذلك أثينا ليؤكد أنهما لم يرتفعا فى مكانهما من معبديهما قبل ذلك التوقيت ، راجع / Cicero, De Natura Deorum, 1.30 & I. G. 2,370, 371.

(61) Robertson, M. 'The Sculptures of the Parthenon ', Greece and Rome, X (1963), P. 47.

(٦٢) ذلك لأن ارتفاع أعمدة البارثينون نفسه ، الحاملة للسقف ، لم تصل أطوالها إلى هذا الحد ، وعليه فربما كان فى الأمر مبالغة على الأرجح .

(٦٣) لقد تم ذلك بالفعل مرتان :

المرة الأولى : بعد وقت قصير من إتمام عمل تمثال ، وبسبب كثرة الشائعات وتوجيه الاتهام فعلا ضد فيدياس بالاختلاس من الذهب المشترى لاستكمال زينة العمل المقدس للربة أثينا ، وذلك بهدف إعادة وزن تلك الرقائق الذهبية والتثبت من الواقعة .

المرة الثانية : بعد حوالى قرن ونصف ، عندما أمر بذلك الدكتاتور الأثينى المدعو لاخاريس (Lachares) لكى يدفع مرتبات جنوده ، وحاصره

ديمتريوس واستولى على أثينا فى عام ٢٩٥ ق. م راجع . O. C. D. P.575.

(٦٤) راجع هامش (٤٢) و(٤٣) مما سبق .

(٦٥) الهامش نفسه .

(٦٦) كان الثعبان – كما ذكرنا من قبل – هو التجسيد الملكى للإله الأقدم فى موقع الأكروبوليس ، إريختونيوس ، وظل كذلك طيلة قرون حتى جاءت الربة أثينا واستطاع كهنتها المزج بينه ، كرمز ملكى أقدم للحاكم المحلى ، وبين الربة القادمة فى أسطورة خالدة لتبرز الدور الجديد لها ، مع الإبقاء على ذلك الرمز الأقدم ، الذى ارتبط بمثل تلك الأرواح الأرضية على شاكلة ثعبانية .

(67) O. C. D., op. Cit., p. 50.
وهن محاربات (Amazones) من الفتيات اللاتى يسكن على حدود العالم المأهول القديم ، يختلطن بالرجال ، فى مواسم معينة وعندما ينجبن يقتلن أطفالهن الذكور ، ويستبقين البنات ، حتى إذا كبرن ، قطعن ثديهن الأيمن حتى لا يرضعن ، ومن ثم جاء اسمهن (a + mazos) ، بمعنى : اللاتى ليس لهم حلمة للرضاعة / وكان أول ذكر لهن عند هوميروس ، فى الإلياذة ، بالكتاب السادس .

(٦٨) وهى الأجزاء المستطيلة الصغيرة ، الحجرية ، التى تقع بين تريجليفين (Triglyphs) ، أعلى العتب (وفوق الأعمدة) وأسفل السقف المثلث (Aetoma)، للمعبد . وهى هنا جمع ، ومفردها ميتوبى (Metope) بمعنى : واجهة .

(٦٩) ومن بين هذه الأسباب ، مثلا ، وقوع انفجار على الأكروبوليس عام ١٦٨٧م ، مما عرض حوالى ٩ ميتويات كاملة للتلف التام ، وبالتالى فإن موضوعاتها لا يمكن اليقين حولها ، وإن كان هنا ترجيح قوى بأنها تناولت حياة إريختيوس .

(٧٠) هى الجزء المعمارى ، المثلث الشكل فى الواجهة والظهر للمبعد ، حيث ينحصر فيما بين السقف والميتويات والتريجليف ، أما التسمية اليونانية (الأيتوما) ، فمن المحتمل ، أن تكون مشتقة من لفظة (aetos) ، أى / الصقر ، حيث يتفق اللفظان فى علو مكانهما ، وسيادتهما على مادونهما من أشياء . إن هو المعروف فى مصطلحات العمارة ، عندنا ، باسم « الجمالون ».

(71) Robertson, op. Cit., p. 51.

(٧٢) هذا الموضوع ، بالضبط ، ظهر فى رسومات الآنية الأتيكية ، التى تـؤرخ بـالقرن الرابع ق. م ، مما يؤكد وجوده ، فوق البارثينون ، بهذا الشكل الأصلى . ويبقـى أن نذكر ، بكل أسف ، أن كثيرًا من القطع النحتية لهذا الجمالون توجد الآن معروضـة فى متحف لندن ، وبعضها فى اثنيا .

راجع / British Museum, An Historical Guide to the Sculptures of the parthenon (1962) وهو عبارة عن سجل كامل لكل القطـع النحتيـة التشـكيلية اليونانية ، من البارثينون ، مع عرض تاريخى لهذه التماثيل وكذلك راجـع / N. Yalouris-F. Kenett, Classical Greece: The Sculpures of the Parthenon, London 1960. وفيه لوحات صور جيدة / وبخاصة تلك القطـع فـى المتحـف البريطانى بلندن .

قبرص في المصادر المصرية القديمة

د. محمد السيد عبد الحميد(*)

قام البحر المتوسط بدور كبير فى تشكيل تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم ، فعلى سواحله نمت وترعرعت مدنيات العالم القديم ، وكان لتقاربها فى أكثر من موقع وكثرة الجزر التى تنتشر فى أرجائه الدافع الأكبر فى الاتصال بين شعوبه واحتكاكهم وأن يرتبطوا ببعضهم البعض ولحضارتهم أن تتداخل وتمتزج ومن ثم تصبح مراكز لوحدات حضارية إن لم تكن متجانسة تماما فى كثير من مناطقها فعلى أقل تقدير متكاملة[١] .

وكما هيأ موقع مصر الجغرافى لها أن تلعب دورا فعالا على مدى تاريخها الطويل فى التأثير على حضارات غيرها من شعوب المنطقة ؛ فإن هذا الكلام ينسحب بدوره على قبرص[٢] ، كجزيرة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط لها دورها ، وأهميتها الجغرافية بسبب موقعها الممتاز الذى يتوسط القارات الثلاث آسيا وأفريقية وأوروبا مما جعلها همزة الوصل الحضارى بين بلدان الشرق الأدنى القديم والغرب ، فضلا عن كونها من أكبر موانيه البحرية[٣] .

وباستثناء السلاسل الجبلية المحيطة بها فإن السهول الخصبة الصالحة للزراعة - التى ساهمت فى اتصال سكان قبرص ببعضهم البعض منذ أقدم العصور - تشكل الجزء الأكبر من طبيعة الجزيرة[٤] .

ومعنى هذا أن النشاط السكانى فى الجزيرة تركز فى البداية فى المناطق الداخلية . وبالإضافة إلى ذلك فإن توافر الموارد المعدنية (النحاس) فى مناطقها الداخلية واكتشافه بها مع بداية القرن السادس عشر ق. م. أدى إلى تحول الاهتمام إلى المناطق الساحلية وخاصة فى مدينتى انكومى Enkomi وكيتيون Kition (شكل ١)

(*) مدرس التاريخ القديم - كلية الآداب - قنا - جامعة جنوب الوادى .

مما شجعها على الاتصال بعالمها الداخلى المتمثل فى مناطق بحر إيجة وبلاد اليونان الداخلية من جهة والعالم الخارجى المحيط بها وخاصة مناطق الشرق الأدنى القديم ومصر من جهة أخرى[٥] ، مما أسهم بطريقة فعالة فى إثبات الكرونولوجيا الصحيحة للآثار القبرصية عن طريق الكرونولوجيا المصرية التى باتت تحدد كرونولوجيا الحضارات الأخرى ببلاد اليونان وكثير من بلدان أوروبا والشرق[٦] وبناءا على ذلك أمكن تحديد الحضارة القبرصية القديمة بثلاثة عصور متعاقبة :

العصر القبرصى المبكر	E. C.	(٣٠٠٠ - ١٨٠٠ ق. م.)
		(٢٣٠٠ - ١٩٠٠ ق. م.)
العصر القبرصى المتوسط	M.C	(١٩٠٠ - ١٦٠٠ ق. م.)
العصر القبرصى الأخير	L.C.	(١٦٠٠ - ١٠٥٠ ق. م.)

وهذه العصور الثلاثة تكاد توافق على وجه التقريب عصور الدولة القديمة فالوسطى فالحديثة المصرية[٧] .

ومما سبق يتضح لنا أن قبرص كانت تشغل مكانة مرموقة بين المجتمعات القديمة فى عالم البحر المتوسط ، الأمر الذى هيأ لها الفرصة للقيام بدور فعال فى تاريخ المنطقة[٨] .

لقد أدت أعمال الحفائر والتنقيبات الأثرية المتواصلة فى المواقع الأثرية المختلفة داخل الجزيرة إلى الكشف عن آثار عديدة تدل على وجود علاقات متبادلة بين قبرص وجيرانها فى الشرق الأدنى ومصر خلال عصر البرونز المتأخر ١٦٠٠ - ١٠٥٠ ق. م الذى - يتزامن مع فترة الاستيطان المينوى والموكينى فى

قبرص - بزغت فيه بوادر ثقافية قبرصية جديدة ومراكز حضارية جديدة أهمها إنكومي ، كيتيون ، مورفو - تومبا توسكورو ، فريسي، توباربا في لابيثوس ، مواقع التعدين في نقوسيا ، وأثينوا وتيكي وآغيوس سوزومينوس وأبليكي وماثياتيس[٩] .

وقد يسرت طبيعة الملاحة في البحر المتوسط سبل الاتصال المبكر لقبرص بحضارات الشرق الأدنى القديم والعكس ... ، وأصدق صورة لذلك رحلة « ون آمون »[١٠] عبر طريق الشرق (شكل ٢) الذى يعد أكثر أمنا وخاصة بالنسبة للسفن الصغيرة ، ومن أنسب الطرق البحرية فى العصور القديمة[١١] .

ويرجح أن الحاجة الاقتصادية قد عجلت التعاون فيما بين مراكز الحضارة القديمة فى الشرق الأدنى . وربما كان لتوافر النحاس فى الجزيرة وحاجة مصر إليه هى التى دفعتها إلى الملاحة البحرية والتجارة البعيدة المدى التى كانت عناصرها الأساسية موجودة منذ الألف الثانى ق. م ونظرا لأن مصر الأقوى والأرفع حضارة ، بالإضافة إلى كونها أكثر اكتفاءا ذاتيا من قبرص منذ أقدم عصورها ؛ لذا يرجح أن القبارصة كانوا هم البادئين فى الاتصال بمصر ، ومن ثم يبدو لنا أن العلاقات المصرية القبرصية كانت على غرار العلاقات المصرية - الكريتية ذات صبغة تجارية[١٢] .

الواقع أن تحديدا زمنيا لبداية تاريخ العلاقات المصرية القبرصية أمر صعب الجزم به ، وبخاصة فى عصرى الدولة القديمة والوسطى ؛ نظرا لأن وثائق كلا العهدين لم تشر إلى هذه الجزيرة . وعلى الرغم من غياب الدليل الوثائقى القاطع إلا أنه يرجح قيام علاقات أو صلات من نوع ما مباشرة أو غير مباشرة فى تلك العصور ، وكانت غالبا ما تتم عن طريق الساحل السورى خاصة مدينة « أوجاريت »[١٣] .

ومع ذلك ، فإنه يمكن ترجيح تأريخها بالقرن الخامس عشر ق. م. ويستدل على ذلك بالآثار المصرية التى عثر عليها فى الجزيرة من (حلى وخزف وجعارين) ويرجع تاريخها إلى النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة ، أظهرها تلك الخواتم والجعارين التى عثر عليها فى المناطق التالية :

(أ) Dhima عثر فيها على خاتم نقش عليه اسم الملك تحوتمس الثالث[١٤] .

(ب) انكومى عثر فيها على جعارين منقوش عليها اسم الملك أمنحتب الثالث وزوجته الملكة تى وأمنحتب الرابع ورمسيس الثانى والثالث[١٥] .

(جـ) انكومى عثر فيها على خاتم فضى للملك أمنحتب الرابع بالإضافة إلى خواتم برونزية صدرية ، جعارين ، لؤلؤ بشكل جعران ، ضفدعة ، أوانى من الألباستر والزجاج والفيانس ، وبيض النعام ، ولوحة من العاج بيضاوية الشكل عليها نقش بارز يمثل زنجى[١٦] .

وفى عصر إخناتون أصبحت قبرص حاضرة مملكة ميسينية على علاقة بمصر . ويحتمل أنها لعبت دوراً بارزاً فى تقدم التجارة الموكينية . ويستدل على ذلك بالآثار التى تتمثل فى كسرات الفخار القبرصى الذى عثر عليها فى العمارنة[١٧] يرجح أن تاريخها يرجع إلى العصر الميكينى الثالث(أ)[١٨] . وقد عثر على آثار عديدة فى « أبو غراب » (ثلاث جرار ركابية) « وريفة » (جرتان ركابيتان كرويتان) أحدهما من مقبرة « باسر Pasar » يرجح أنها قبرصية ويرجع تاريخها إلى العصر الميكينى الثالث الانتقالى (أ) و (ب) - وفى أبيدوس عثر على جرار قبرصية يرجع تاريخها إلى العصر الثالث (ب)[١٩] .

ومما يعضد ذلك ما ذكره : هول H.R. Hall من أن القبارصة من أنكومى قد مثلوا فى الوفود الإيجية (كفتيو والجزر التى فى وسط البحر) التى قدمت إلى مصر فى عهد إخناتون[٢٠] .

وقد أسفرت التحريات الأثرية فى كيتيون عن العثور على الآثار التالية:

١ - صولجان خزفى منقوش عليه اسم الملك « حور محب » .

٢ - إناء للخمر منقوش عليه اسم الملك « سيتى الأول » .

٣ - تمثال صغير للمعبود بس يرجع تاريخه إلى القرن الحادى عشر ق. م.

٤ - معبد للمعبود « بس » يرجع تارخه إلى عام ١٢٠٠ ق.م يشبه النماذج المصرية لبناء المعابد[٢١] .

وأخيراً يذكر « هيرودوت » فى كتابه الثالث (فقره ٣٩) أن الملك «أمازيس»عندما أدرك قوة فارس وملكها « قورش » وشدته ، مقدراً عواقب نشاطه الخطير، سارع إلى إخضاع قبرص وكان ذلك فى عام ٥٧٠ق.م.[٢٢].

وقد أدت وثائق الشرق الأدنى القديم دوراً مهماً فى التعريف بهذه الجزيرة خلال عصر البرونز المتأخر على الرغم من عدم الاتفاق فيما بينها فى ذكرها باسم موحد ، ولقد جرت محاولات عديدة لتحديد هوية الإشارات الواردة إلى هذه الجزيرة فى مصادر هذه الفترة . فالوثائق المصرية ووثائق الشرق الأدنى المعاصرة لها - تردد اسم ألاشيا (Alashia)[٢٣] ، « ألاسا » (Alasa) ، « إيرس ، يرس » (Yeres) أو « إسى ، آسى ، إيزى » (Asy) « وكفتيو » (Keftieu) و « كتيم » (Kitim) و « كابتار » (Kaptar) .

والجدير بالذكر انه قد ثار جدل طويل بين المؤرخين حول هوية هذه البلدان وأين تقع ؟ وما مدى صلتها بقبرص ؟ وهل هى جزيرة بالفعل أم أراضى قارية تقع فى آسيا ؟ وأيها قبرص ؟ والواقع أن عصر الدولة الحديثة فى مصر والعالم الخارجى كان عصر لإتصال الشعوب بعضها ببعض ، وفيه شهدت مصر حركة هجرة غير عادية منها وإليها ، لم تشهدها من قبل فاستخدموا الأجانب بكثرة ؛ ومن ثم أصبحت الأسماء الأجنبية متداولة على ألسنة العامة[٢٤] . وقد تعددت الأمثلة التى

وردت بها تلك الأسماء ومن أهمها - والتى تخص موضوعنا - « ألاشــيا » وقــد ظهر فى شكلين :

الاسم وهو « ألاشيا » A-la-si-ia[٢٥] 𒀀𒆷𒅆𒅀 و « ألاســيا » A-la-si-ia وهى الصورة التى عرفت فى النصوص المسمارية كما وردت فى رسـائل العمارنة. أما « ألاســيا » A-la-sa أو « إيرس » فــهو المقابل المصرى الهيروغليفى لها . وهاتــان الصورتان همــــا مجـــرد شكلين لنفس الاسم[٢٦] . وأقدم ذكر لهــذه الأســماء ورد فى النصوص المصريــة جــاء فى الشكل (P3 – a - la – sa) فى حســاب أرض ، يرجــع تاريخه إلى عهد الملكة « حتشبسوت »[٢٧] .

وقد ذكرت كأحد المدن التى تقع فى مجاورات حلب والفــرات ، فــى نــص يرجع تاريخه إلى عهد الملك تحتمس الثالث .

ويرجح أن هذا الاسم كان يطلق على بلاد مهمـــة تقيـم علاقــات سياســية واقتصادية مع مصر وبلدان الشرق الأدنى القديم[٢٨] . ورغم ذكرهـــا فــى عــهد حتشبسوت إلا أن[٢٩] البعض يميل إلى القول بأن العلاقات المصرية الألاشية كــانت قد بدأت منذ عصر تحتمس الثالث .

وفى عهد إخناتون تغيرت الأمور عنها فى عهد تحتمس الثالث ففى رســـائل العمارنة وردت سبع أشارت إلى مملكة تسمى « ألاشــيا » (EA-33-39)[٣٠]. وفيــها يخاطب ملكها - الذى لم يذكر اسمه - الملــك المصـــرى ، والــذى يرجــح أنــه «إخناتون». هذا بالإضافة إلى رسالة (EA 40) من رئيس وزراء ألاشيا إلى نظـيره المصرى[٣١] .

وقد ورد هذا الاسم فى هذه الرسائل بالأشــكال التاليــة : ألاشــيا A-La-ši-ia (شــكل٣) كمــا فــى الرســائل (٢/٢٣ ؛ ١/٣٤ ، ٣٩، ٢/٣٥ ، ٣٠ ، ٣٨ /٢ ، ٣/٤٠؛ ٥٢/١١٤) والشكل A-La-si-ia ألاسيا كما فى الرسالة(٢/٣٧)[٣٢].

ويلاحظ فى هذه الرسائل أن ملك ألاشيا يخـــاطب الفرعــون مخاطبــة الأخ لأخيه، ففى الرسالة(٣٣) نقرأ تهنئة ملك الآشيا لأمنحتب الرابع بإرتقائه العــــرش ، وينتهز هذه الفرصة ليعرض على فرعون تبادل الرسائل بين الجانبين وقــد أرســل ملكها مائتى « تلنت » من النحاس (التلنت وزنة ٥٧ رطلا)[٣٣] (شكل ٤) .

ويستمر الملك الألاشى فى المخاطبة الودية لفرعون مصر «أمنحتب الرابــع» ففى الرسالة(٣٤) نقرأ : « هكذا تكلم ملك ألاشيا إلى ملك مصر ، أخى أعلم أننـــى على ما يرام وأن أرضى على ما يرام ... وقد أرســلت إليــك مائــة تلنــت مــن النحاس... »[٣٤] .

وفى الرسالة (٣٥) يعتذر الملك الألاشى لفرعون عن صغر حجم رســالة النحاس التى بعث بها إلى مصر (والتى تبلغ خمسمائة تلنت) . فقــد حــل الوبــاء ببلاده ودمرها ، وأمتد إلى قصره فقتل ابنه أيضا ، وفى خطابه يلقى الملك الألاشــى تبعه ما حدث على المعبود الأكبر نرجال[٣٥] ، وجعله مسؤولا عن موت كثير مـــن المدنيين والمشتغلين بصهر المعادن حيث يقول : « قتلت يد نرجال كل الناس فـــى بلدى ، ولهذا لم يعد هناك من يستطيع إنتاج النحاس » ويعتذر فى نفس الخطـــاب عن احتجازه المبعوث المصرى ثلاث سنوات فى بلاده ، ويخـــبره أيضـــا أن يــد نرجال ما زالت مستمرة فى الضغط على بلده ، بل إنها قد طالت قصره حيث قتلت ابنه[٣٦] .

وفى موضع آخر من نفس الخطاب يطلب الملك الألاشى من فرعون الفضـــة « فليرسل أخى الفضة التى سألتك عنها فى كميات كبيرة ... »[٣٧] . كما أنــه كتــب لفرعون فى موضع آخر من نفس الخطاب يرجوه ألا يعقد تحالفا مع ملك «خـــاتى» أو ملك « شنعار » (سنجر)[٣٨] . غير أنه لم يذكر السبب لذلك[٣٩] . وفـــى نفــس الخطاب نجد أن الملك الألاشى يطلب من فرعون أن يرسل إلى ألاشيا متـــاع أحــد رعاياه وكان قد مات فى مصر لصالح ابنه وأرملته[٤٠] . ويرجع البعــض أن هــذا

الطلب ربما يمثل نوعا من المساومات الدبلوماسية الخاصة التي تعد إرهاصا بمولد القانون الدولى الخاص ، وربما نمت على التنظيم الرفيع للعلاقات الدولية فى ذلك العصر[٤١] . وفى الرسالة(٣٦) نقرأ أن ملك ألاشيا كتب إلى الفرعون يخبره بأنه أرسل إليه قوالب النحاس المنتج من بلده (والآن) أرسلت لأخى ٨ تالنت من النحاس والمتبقى سبع تالنت من أصل ثلاثين تالنت من النحاس) . وبالرغم من أن الرسالة ناقصة إلا أن المتبقى منها يشير إلى غنى ألاشيا بالنحاس[٤٢] .

وفى الرسالة (٣٧) استمر ملك ألاشيا يتودد إلى الملك المصرى ويخاطبه (بأخى) وتتضمن هذه الرسالة إقرار من الملك الألاشى بإستلامه الفضة والخيول من فرعون وعودة رسوله[٤٣] . وفى الرسالة (٣٨) يبدو أن ملك مصر أخذ يتشكك فى إخلاص ملك ألاشيا فاتهمه بأنه يقوم بالتآمر على مصر مع قراصنة من بلاد اللوكى Lukki[٤٤] ، ولذلك كتب إليه ملك ألاشيا مبرئا نفسه من تلك التهمه وينفى مسئولية بلاده عن الخسائر التى تعرضت لها السفن المصرية ، مشيرا إلى أن بلاد اللوكى يغيرون سنويا على أراضى ألاشيا نفسها وينهبون مدنها ، وهم مسئولون عن هذه الخسائر وليس البحارة التابعون له[٤٥] . ومما يؤكد ذلك أنه فى الرسالة (٣٩) يتوسل لفرعون ويرجو إعادة رسله من التجار[٤٦] .

هذا بالإضافة إلى الخطاب(٤٠) الذى يعد من الخطابات الهامة إذ أرسله رئيس الوزراء الألاشى إلى نظيره المصرى يطلب إليه تبادل السلع ، وكذلك يرجوه أن يطلق سراح سفنه وبعض الناس التابعين لملك ألاشيا ويعتقد البعض أن هؤلاء هم أعوان بلاد لوكى الذين أتهم الفرعون ملك ألاشيا بالتواطؤ معهم على مصر[٤٧].

وذكرت ألاشيا - أيضا - فى الخطاب (١١٤) الموجه من (ريبادى) Rib-Addi حاكم بيبلوس (جبيل) إلى إخناتون فى إشارة فحواها أنه جهز لسفر شخص يدعى « أمنامشا » Amanmasa إلى « ألاشيا » أرضاء لفرعون[٤٨].

وفى عصر الرعامسة ذكرت ألاشيا : فى النصوص المصرية فـــى الشــكل التالى :

إيرس أويرس Yeres (٤٩) .

ويلاحظ على هذا الاسم أن أول ظهور له كان فى عصر (الأسرة التاســعة عشر) حيث يذكر فى قائمة على قاعدة تمثال « أبو الهول » يرجع تاريخــها إلــى عهد الملك « سيتى الأول » عثر عليها فى معبده الجنائزى بالقرنة نقش عليــها مــا يأتى :

« (١ - ٩) قائمة الأقواس التسعة ، (١٠) بلاد خيتا ، (١١) بلاد نــهرين ، (١٢) إرسا (١٣) عكا ، (١٤) سميرا ... »(٥٠) .

ويذكر « وينرايت » أنه فى مستهل إحدى قوائم الأسرى التى ترجع إلى عــهد الملك سيتى الأول وبعد ذكر بعض البلاد الأجنبية وخاصة « مجدو Megiddo » نجـد المتن مهشما ويحتمل أن الاسم المهشم الذى يلى « مجدو » وقبـل « حمتـو » أنــه «ألاسا» (٥١) .

وقد ورد هذا الاسم - ايضا - فى قائمة أخرى (للأسرى) ترجع إلى عـــهد الملك رمسيس الثانى « منقوشة على حائط معبد « سرة » فى النوبة(٥٢) مرتبة علــى النحو التالى :

(١) نهارين (أعالى الفرات) (٢) خيتا (الحيثيين) (٣)

ارسIrs (ألاشيــا = قبرص) ، بدلا من أرش irrh (الألاخ) (٤) (بلاد مــا بيــن النهرين) (٥) محطم (٦) كفتيو (٧) ق ... (على الأرجح قرقميــش) (٨)توينــب (٩) قادش (١٠) أوجاريت (١١) كدن ، أما بقية القائمة فمحطمة(٥٣) .

وذكرت أيضا فى عهد هذا الملك فى نص واحد مـــع (إســى) . (ألاسـا) «خيتا» « سنجار » « كفتيو » وفى النصوص المتــأخرة للأســرة التاســعة عشــرة

إشارات متعددة إلى منتجات « إرسا » حيث تذكر بردية « انستاسى » « أن زيت » فيدى (Fidi) و « انبو » (Inbu) قد احضروا من « إرسا » (ألاسا) مع زيوت « خيتا » و « سنجارا » وأرض « آمور » و « تيخس »[٥٤] وفى موضع آخر ذكرت أن أبناء « ألاسا »[٥٥] قد احضروا زيت « أيوبا » (Iupa) وذكرت بغا « ألاسا » مع خيول « سنجارا» و« خيتا »[٥٦] [٥٧] .

ويذكر « ماسبيرو » أن هذا الزيت غير معروف لكن (ربما يكون الزفت ، القار) ، أما « أنبو » فيرى فيه « دى . روجيه » العنب بينما يرجح « ماسبيرو » أنه نوع من أنواع النبيذ[٥٨] .

وفى عهد رمسيس الثالث تعرضت إيرس [٥٩]، لهجمات شعوب البحر . ففى نقش السنة الثامنة من حكمه على جدران معبد مدينة هابو نقرأ :

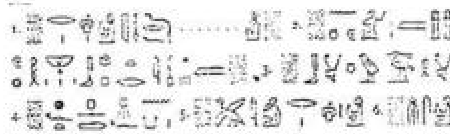
« أما أهل الممالك الأجنبية فقد تآمروا فى جزرهم وقد خربت الأراضى وشتتت فى ساحة الوغى فى وقت واحد ، ولم تكن هناك أرض يمكن أن تقف أمام أسلحتهم من بلاد « خاتى » و « قودى » و« كركميش » ويرث » (إزراوا « كليكيا») « ويرس » (ألاشيا - قبرص) ولكنهم سحقوا فى وقت واحد ... »[٦٠] .

وقد ورد ذكرها - أيضا - فى نقش بالشكل التالى :



ويرجع تاريخه إلى عهد الأسرة العشرين[٦١] . وهذا اسم « يرس » أو « إرس » IRS الذى وجده المؤرخون بألاشيا وطابقوه بقبرص[٦٢] . ذكر مرة أخرى على لوحة من الحجر الجيرى - فى مجموعة فرايبورج

(Freiburg) فـي بـادن (Baden) التـي نفـذت بأسـلوب الأسـرة التاسـعة عشرة بالشكل التـالي :



ونكرت « ألاشيا » قصة « ون آمـون » مبعوث حريحور Hrihor إلى فينيقية للحصول على ألواح خشبية من لبنـان لقـارب الاحتفالات الخاص بالإلـه مـون ، وبعد عـدد مـن النكبـات التـي صادفتـه وصول « ون آمون » إلى ألاشيا حيث لجأ مبعوث حريحور إلى أميرة « ألاشـيا» « حاتيبـا » أو « حتـب » Heteb[١٣] ملكـة قبرص ويقول ون آمون :

« عندما أتى الصباح ، استدعى معيته ووقف فى وسطهم ، وقال « لماذا جئتم وراءه » ؟ فقالوا له : جئنا وراء السفن المعصوفة التى ترسلها إلـى مصـر مـع خصومنا لكنه قال لهم « لا يمكننى القبض على رسول آمون فى داخـل أرضـى . فدعونى أبعده وطاردوه لتقضوا عليه » . وحملنى ، وأبعدنى من هناك عند مينـاء البحر . وألقت بى الرياح على أرض « ألاشيا Alashiya . وخرج الذين فى المدينـة ضدى ليقتلونى ، لكنى اخترقت طريقى بينهم إلى المكان الذى توجـد فيـه حتـب Heteb، أميرة المدينة ، فقابلتها حينما كانت تخرج من إحدى منازلها لتدخـل مـنزلا آخرا لها . ومن ثم قدمت لها التحية، وقلت للناس الذين كانوا بالقرب : « أليس ثمـة واحد بينكم يفهم لغة مصر . فقال أحدهم : « إننى أفهم ، وعلى ذلك قلت له : « بلـغ سيدتى إننى سمعت حتى طيبة ، فى المكان الذى يقيم فيه آمون أن الظلم يرتكب فـى كل مدينة ، لكن العدالة تقام فى ارض ألاشيا ذلك فإن المظالم تكتب كل موجة هنـا : « فقالت لماذا ، ما الذى تعنيه بقولك ؟ » فقلت لـها : « إذا كـان البحـر هائجـا والرياح تدفعنى على الأرض حيث تقيمين ، فلا يجب أن تسمحى لهم بقتلى ، لأننـى

رسول آمون . أنظرى - أما فيما يختص بى ، فسيبحثون عنى كل الوقت! أما فيما يختص ببحارة أمير بيبلوس الذين مالوا إلى القتل ، فلسوف لا يجد سيدها عشرة من بحارتك ، ليقتلهم أيضا » ولهذا أرسلت تدعو لقومها ووقفوا (هناك) ، وقالت لى : « امض الليل » .

وعند هذه النقطة تتوقف البردية . ولا نعرف نتيجة ما حدث . ولكن لما كانت القصة قد رويت فى ضمير المخاطب فيرجح أن «ون آمون » عاد إلى مصر ليروى قصته سالما أو ناجحا فى مهمته إلى حد ما[٦٤] ويفهم من النص أن «ون آمون» ذهب إلى ألاشيا ورأى الحياة فيها وأن الناس فيها يمثلون شعبا واحد تحكمهم أميرة ، ويفسر البعض ذلك باستمرار النظام الأمومى الذى ظلت له آثار باقية فى ملاحم هوميروس وفى أنظمة دويلات المدن الإغريقية وكذا الشرقية . ومن ثم يبدو الأمر عاديا فى قبرص أبان القرن الثانى عشر ق. م أن تحكمهم امرأة[٦٥] .

ومما سبق يتضح أن رسائل العمارنة فى مجملها تحمل طابع الود وذات لهجة دبلوماسية تنم على حرص الملك الآلاشى على أن تكون علاقاته طيبة مع مصر ، وكسب ود الفرعون المصرى ، وعدم معاداته . لذلك نجده دائما يخاطبه بلقب أخى « أنت أخى » . ومن ثم فإن الود والصداقة كانا هما طابع العلاقات بين مصر وألاشيا فى زمن إخناتون . ومما يدل على ذلك الاعتذار الرقيق الذى أرسله ملك ألاشيا إلىإخناتون يعتذر فيه عن عدم تهنئته بعيد تنصيبه وأنه يرجوه ألا يأخذ ذلك عليه وألا يكون سببا فى تكدير صفو العلاقات الطيبة التى بينهما ، وأرسل إليه رسولا يحمل الهدايا الجمة وطلب إليه أن يغدق عليه من خيرات بلاده[٦٦] .

وبلغت رغبة ملك الاشيا فى صداقة مصر أنه حذر فرعون من الدخول فى أية معاهدة مع مملكة « خيتا » أو « بابل » . ونستشف تلك العلاقات الوثيقة بين

البلدين من تلك التلميحات العابرة الواردة فى الخطاب والتى تدل دلالة واضحة على ما كان بين البلدين من روابط وثيقة من الناحيتين السياسية والاجتماعية .

وعلى الصعيد التجارى فإن الخطابات من (٣٣ - ٣٦ ، ٤٠) تدل بما لا يدع مجالا للشك أنه كانت هناك علاقة تجارية بين البلدين تدعمها معاهدات تجارية، إذ كانت مصر تستورد النحاس من ألاشيا وتتلقى فى مقابلها مجموعة مختلفة من السلع أهمها الفضة التى كانت معدومة فى ألاشيا ، والأبنوس وآنية الزيت (٣٦ - ٣٧) . وتعد نصوص بوغاز كوى أكبر شاهد على إنتاج النحاس من قبرص كما تعد ألاشيا مركزا للسفن (رسائل العمارنة ١٣/٣٦(؟) - ١٧/٣٩ - ١٧/٤٠)[٦٧] .

وهكذا يتضح لنا أن بلاد ألاشيا كانت المصدر الرئيسى للنحاس فى عالم البحر المتوسط وكانت تبعث بكميات كبيرة منه إلى مصر . وقد أوضحت الرسائل أنها أرسلت مرة (٢٠٠ تلنت ١٦/٣٣) وأخرى ١٠٠ تلنت (١٨/٣٤) وثالثة ٥٠٠ تلنت (١٠/٣٥) ورابعة ٨ تلنت (٥/٣٦)[٦٨].

ومن ثم يمكن تحديد طبيعة العلاقة بين مصر وألاشيا فى تلك الفترة بأنها ذات صبغة تجارية[٦٩] ، وأن النحاس كان على رأس قائمة البضائع المتبادلة . وأهمية هذا تكمن فى ترجيح اعتبار ألاشيا مصدرا رئيسيا للنحاس وبالتالى ترجيح مطابقتها بقبرص التى كانت تعتبر موطنا للنحاس فى العالم القديم[٧٠] .

والجدير بالذكر أنه قد ثار جدل كبير بين المؤرخين وتعدت آرائهم حول إذا ما كانت كلمة « ألاشيا » التى وردت فى نصوص الدولة الحديثة السابقة هو الاسم الذى أطلقه المصريون على جزيرة قبرص أم لا ؟ . والجدل ليس حديثا بل تمتد جذوره إلى ما قبل عام ١٩٠٠ حول تحديد موقع ألاشيا ، فقد رأى كل من ماسبيرو (١٨٨٨) وأ. فيديمان (١٨٩٠) وم. ميللر (١٨٩٣) أن أصل موقع ألاشيا فى

سوريا على مقربة من مصب نهر الأورنت على طول الساحل ، ويقول « ميللـــر » أنها تمتد حتى البلدة التى تقع جنوب النهر فى حين أن ماسبيرو يرى أنها تمتد حتـى سفوح جبال الأمانوس فى شمال النهر(٧١) . غير أن « ميللر » حـــاول فـى عـام (١٨٩٥) أن يبين أن ألاشيا كانت شكلا آخر لاسم « إسى Asy » الذى أقره على أنـه قبرص ، أى أن «ميللر» يحول « ألاشيا » من الوطن الأم إلـــى قــبرص ودعــم نظريته بناء على إنتاج وتصدير النحاس وسياسة الحياد التى أتبعها الملك الألاشـــى بين المصريين والحيثيين والتى ركن إليها فى اعتبار ألاشيا جزيرة - أو تقـــع فــى جزيرة مثل قبرص - أكثر من أن يكون مكانا فى الوطن الأم(٧٢) .

وقد أكد « كوندر » هذا الاتجاه فى كون ألاشيا جزيرة وعضد ذلك بمطابقتـــها مع الاسم أليشه وجزائر أليشة التوراتية (سفر التكوين ٤/١٠ حزقيـــال ٢٧ / ٧) المصحوبة بكلمة إيبى) التى ترجمت بوجـــه عـــام جـــزر أو جزائر . وقد ظهرت فى محيط يونانى كما ورد فى التوراة « وبنـــو يـــاوان ألشـــيه وترشيش وكتيم ودودانيم » ، ومن النص فإن ألاشيا تبدو على وجـــه التـــأكيد أنـــها ضمن مجموعة تتألف أساسا من أراضى وجزر يونانية ، ومن ثم فإن أليشـــه هـــى ألاشيا التى تشير إلى قبرص(٧٣) ، وفى عام ٩٥ / ١٨٩٦ أقر « Jensen » بأن ألاشيا هى قبرص معتمدا فى ذلك على النقش الموجود فى « تاماسوس Tamasos » والـــذى يطابق الاسم «الاسيوتاس .Αλασιοτας مع الاسم « أبوللو » غـــيران « Jensen » نفسة يقر عدم استبعاد احتمال الأصل الأجنبى(٧٤) .

وقد عارض هذا الاتجاه بشدة « وينرايت Wainwright » واعتمـــد فـــى تقييـــم معلوماته على عدة أدلة :

١ - صناعة وتعدين النحاس فى سوريا .

٢ - العلاقات السياسية بين هذه الأراضى كما تظهر فى حوليات تحوتمـــس الثـــالث وخطابات تل العمارنة .

٣ - معادلة ألاشيا مع إليشا التوراتية .

أولا : يذكر وينرايت أن عنصر النحاس ليس عاملا حاسما لمطابقة ألاشيا مع قبرص ، وفوق ذلك فهو يرى أن ألاشيا ليست قبرص بل هى بلدة فى شمال سوريا ويستند إلى أن الجانب الصخرى من هذه الأراضى مغطى بطبقة من النحاس ، وإنه إذا كان النحاس كثير الوجود فى قبرص فسيكون أيضا كثير الوجود على امتداد القارة حسب المعلومات الجيولوجية - جبال امانوس - أو المنطقة الشمالية لسلاسل هذه الجبال . كما أن معدن النحاس الخام موجود بكثرة فى آسيا الصغرى وفى شمال سوريا ، بالتحديد فى منطقة حلب[٧٥] . كما أن مناجم النحاس القديمة توجد فى شمال لبنان وليست بعيدة عن جب (Arba) المجاور لكفتيو[٧٦] و(Riha) فى الرحلة من حلب إلى جبل (Ala)[٧٧] . ويعضد نظريته بأن ألاشيا أراضى قارية ، ولم تكن فى يوم من الأيام جزيرة كما أدعى « ميللر » وأن فكرة الحياد التى استند إليها فى تدعيم رأيه فى كون ألاشيا جزيرة يمكن الرد عليها بان ملك تلك البلدة لم يكن هو الحاكم الوحيد الذى كان يؤمن بمكانه مصر ، إذ أن كثيرا من الأمراء التابعين له لم يبدو رغبة فى التمرد على السلطة بل ظلوا موالين للحكام ، ومن ثم فمن الطبيعى أن يكون موقع هذه البلدة فى الوطن الأم أكثر من كونه فى جزيرة[٧٨] بالإضافة إلى أن كلمة [illegible] أيى) التوراتية تشير على حد سواء إلى حدود السواحل ، ولا تتضمن بالضرورة جزيرة .

إذن فليست هناك ضرورة فى أن نقول فى « أليشة » سوى أنها بلد ضمن الوطن الأم أو الأجزاء الرئيسية من البلاد - الواقعة فى شمال سوريا وآسيا الصغرى - كما أنه ليس هناك داع لأن نضفى عليها صبغة يونانية بوجه خاص ، أما بخصوص النص التوراتى (سفر التكوين (١٠ / ٤) فقد طابق بين ياوان وأيونيا وترشيش بطرسوس . أما « كتيم » فقد طابقها بقبرص ، غير أنه لم يوافق على مطابقة « دودانيم » برودس بل ذكر بأنه لو أمكن القول بأن دودانيم - الاسم المعروف جيدا فى المصادر المصرية - هى دانوناDanuna(شعب فى شمال سوريا)، فإنه من غير المقبول اعتبار أليشه جزيرة يونانية بسبب جوارها للحدود اليونانية ،

ويخلص « وينرايت » إلى أن موضوع أليشة بالتحديد هو ألاشيا ، على الساحل بجوار دانونا (شمال سوريا) بالقرب من كيليكيا (طرسوس) وقبرص (كتيم) . ومن ثم فإن الاسم الأخير يضعف أى احتمال فى النظرية التى تقول أن اليشة هى قبرص، وذلك لأن الاسم « كتيم » فى الغالب يوضع فى الاعتبار على أنه يشير إلى تلك الجزيرة[٧٩] .

ويؤكد «وينرايت» نظريته ذات الاتجاه السورى فى تفسير كلمة ألاشيا بإضافة جزئية أخرى ولكنها دينية وتتمثل فى العنوان Ἀλασιώτας. الموجود على نقش « تاماسوس » . وأسماء الأماكن القبرصية الخالية مثل (Alassos, Ailasyka Arsos) التى استخدمها البعض دليلا على أن قبرص هى ألاشيا - فإن « وينرايت » لا يعلق أهمية على ذلك ، ويرى أن هذا اللقب يتضمن أن حامله هو إله ألاسى Alas ، غير أنه لم يكن من أصل تاماسوس ولكنه صدر من « ألاسى » إلى هناك ، وأنه اضطر إلى الإبقاء على هويته فى الصراع من أجل البقاء مع المنافسة المحلية وذلك عن طريق إضافة اسم الأسرة . ويرجح أن تلك كانت عادة سائدة بالنسبة للآلهة المستوردة . وأما بالنسبة لأسماء الأماكن فعلى الرغم من أهميتها الكبيرة ، فإن هذه الأسماء تشبه « ألاشيا » ولا تقتصر على « قبرص » ولكنها فى أماكن أخرى مجاورة مثل أرسوس على الساحل الشمالى من سوريا[٨٠] .

ولكن محاولة « وينرايت وتقييمه لهذه المعلومات فى تحديد موقع «ألاشيا» لم تلق قبولا لدى قطاع عريض من العلماء وعلى رأسهم «فيركوتيه» عام (١٩٥٦) الذى يرى أن قبرص تسمى فى النصوص المصرية « ايزى إسى Isy » أو « ايرزا/ إرسا Yrsa » و « ألازيا / الاسيا Alasia »[٨١] .

وفى دراسة له عام (١٩٣١) ذكر « سايس Sayce » أن « كابتار » التى ظهرت فى معبد « كوم أمبو » (K-p-t-a-r-a) ضمن قائمة جغرافية ترجع إلى عهد « سرجون الأكدى » ٢٧٠٠ ق. م جاء فى نهايتها أن التجارة البابلية كانت تمتد إلى

أرض القصدير (و) كابتار هى الأراضى التى تقع خلف البحر العلوى (البحر المتوسط) ، وترجم التعبير « kuki » المصاحب لها على أنه الرصاص وعليه فإن « كابتار » تكون إما قبرص أو جزء من الساحل جنوب شرق آسيا الصغرى .

وبالإضافة إلى ذلك يرى أن هناك فرقا بين « كابتار » « وكفتى » يتمثل فى اللاحقة (ar) التى يفسرها على أنها تعنى جزيرة أو شيئا مشابها، ومن ثم يخلص إلى أن اسم « كابتار » بقبرص أو بآسيا وليس بكريت[٨٢] .

وقد خرج علينا فريق من العلماء برأى مخالف تماما لما جرت عليه العادة من اختلافات بين المؤرخين حول اسم جزيرة قبرص فى الآثار المصرية - مؤداه أن « كفتيو »[٨٣] التى وردت فى وثائق الدولة الحديثة هو الاسم الذى أطلقه المصريون على جزيرة قبرص ، ويرجع ذلك إلى ما قبل عام ١٩٠٠ ورأى « بيرش S. Birch » وتبعه « روجيه G.de Rouge » عام (١٨٥٧) أنها قبرص ، أو أنها كانت تقع فى قبرص نظرا للتشابه بين كفتيو مع الاسم كفتور أو كافتور التوراتية وعضدوا ذلك ببعض الأشياء الميكينية التى كان يجلبها سفراء الكفتيو وقرب قبرص من مصر[٨٤] . وتبعهم « شتيندورف Steindorff » فى عام (١٨٩٢) الذى قرر أن كفتيو يمكن البحث عنها فى مكان ما فى قبرص[٨٥]، ثم «بروجش» عام (١٨٩٨) الذى رأى أن كفتيو هى قبرص[٨٦] .

وفى مقالة له نشرت عام (١٩٧٣) ثم أعقبها بكتابه تحت عنوان كافتور / كفتيو عام (١٩٨٦) نهج « سترانج J. Strang »[٨٧] منهج السابقين عليه رأى العودة للأخذ بالاقتراح القديم عن قبرص - والذى يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر - بدلا من كريت . ويضيف قائلا أن تلك الجزيرة (قبرص) تفى بمعظم شروط المطابقة الأساسية مع كفتيو / كافتور وقد أورد أدلة عديدة ليعضد بها نظريته منها:

(أ) أنها تقع فى الغرب وفقا للنصوص المصرية .

(ب) أنها جزيرة أو أرض ساحلية فى البحر من وجهة النظر المصرية والأسيوية .

(جـ) أنها قريبة تماما من الأراضى الآسيوية الأم (وفقا لنص سرجون) .

(د) أنها أكبر بلدة تنتج النحاس وتصدره لمنطقة شرق البحر المتوسط فى أواخـــر عصر البرونز بالإضافة إلى كونها مستقرا لإله التعدين .

(هـ) دخول قبرص العصر البرونزى ٢٣٠٠ ق. م وهو الوقت الذى ذكـرت فيـه كفتيو / كافتور لأول مرة . وتختفى من الأفق الجغرافى فـــى نهايــة عصــر البرونز / لما تداعت تجارة النحاس بسبب الهجرة الكبيرة مـــن اليونـــان إلـــى قبرص . وقد عثر على اسم حديث للجزيرة كما أن اسم الجزيرة قبل الوجـــود اليونانى لم يكن متيقنا منه ، ومع ذلك أشار إلى هذا الاسم فـــى الخطيــة (B) (Ku – pi – ri-jo) من كنوسوس .

ويخلص « سترانج » مما سبق أن ما ذكرته النصوص المصرية لـــهذا الاسم هو لجزيرة قبرص وموقعها ، أو ربما لجزر قريبة منها . وبالتالى ليس هنـــاك مـــا يستدعى الإشارة إلى كريت بينما يرجح أن اسم « ألاشيا » هو اسم السهل الشـــرقى فقط ، أو ربما يمكن البحث عنه فى مكان آخر فى قبرص[٨٨] .

ونستخلص مما سبق أن بحوث (برش وروجيـــه شـــتيندورف وبروجـــش وسترانج) أوصلتهم إلى نتيجة مؤداها ان الكفتيو ـــى جزيـــرة قـــبرص . وهـــذا الفرض لا أساس له من الصحة لعدة أسباب :

(أ) أن ظهور هذه الكلمة فى مفردات اللغة المصرية حوالى نهاية الألف الثالثـة أو فى بداية الألف الثانية ق.م مواكبا تماما لظهور الفخار المينوى فى مصر .

(ب) أن اختفاء هذه الكلمة – أيضا من مفردات اللغة المصرية جاء مواكبا – أيضا – لاختفاء السيطرة البحرية الكريتية .

(جـ) أن تصاوير الكفتيو المسجلة على جدران مقابر أشراف الأسرة الثامنة عشـرة بطيبة تشبه إلى حد كبير رسوم الايجيين على جدارن مقابر كنوسوس فى تلـك

الفترة وأن أغلب سماتهم كلون البشرة وطريقة تصفيف الشعر وعـدم وجـود اللحية، وكذلك نوعا الزى والأحذية - تدل بما لا يدع مجال للشك أنهم ايجيين.

(د) أن أغلب الأشياء التى جلبها الكفتيو سواء المحمولة أو الموضوعـة أمامـهم إيجيية أو مينوية .

(هـ) أن كفتيو هى كفتور أو كافتور التوراتية ومن ثم فالمعادلة كفتـور = كريـت رغم اختفاء حرف ® من النطق المصرى - التى تشير إلى الساحل الجنوبـى من آسيا الصغرى (جزر بحر إيجة وكريت) .

(و) تميزها عن الجزر التى فى وسط البحر وقبرص .

(ز) أنها تقع فى الغرب من البلاد الآسيوية .

ومن ثم فإن كفتيو هى كريت وليست قبرص كما أن هذه المحاولة لـم تلـق قبولا لدى العديد من المؤرخين(٨٩) .

وفى ستينات هذا القرن ومن خلال الحفائر والتنقيبات الأثرية الحديثـة التـى أجريت فى جزيرة قبرص قدمت لنا العديد من الأدلة التى تشير بقوة إلـى وجـوب المطابقة ألاشيا = قبرص وإقرارها(٩٠) وما يعضد تلك المطابقة ما ذكرته نصـوص الشرق الأدنى المعاصرة التالية :

١ - النصوص الحيثية (بوغاز كوى) ذكرت :

- أن النحاس كان يستورد من جبل « تجاتا » فى ألاشيا .

- وقوع ألاشيا تحت النفوذ الحيثى فى القرن الثـالث عشـر ق.م (مـا ذكـره توتهاليا الرابع) .

- اتخاذ ألاشيا كمكان لنفى المبعدين السياسيين (مثلما نفى قتله « تود خاليـاش » إليها وكذلك نفى « خاتوشيليش الثالث » خصومه إليها) .

- غزو « مادواتاش » – ألاشيا واستيلائه على أسرى منها – أحد أتباع الملك « أرنوانداش الثالث » (١٢٤٥ – ١٢٢٠) ق.م ومطالبة الأخير له بإعادة الأسرى إليه[٩١] .

- انتصار الحيثيين على الألاشيين بحريا وحرق سنفهم فى البحر .

٢ – نصوص « مارى » ورد بها إشارات تفيد بتصدير النحاس إليها من ألاشيا حوالى ٢٠٠٠ ق. م[٩٢] لاستخدامه فى تشييدات قصر مارى .

٣ – نصوص « الألاخ » من القرن الثامن عشر ق.م ورد بها ذكر ألاشيا .

٤ – نصوص « أوجاريت » ورد بها عدة إشارات عن ألاشيا تبين لنا تفاصيل العلاقات بين الجانبين أهمها :

- رسالة من ملك أوجاريت إلى ملك ألاشيا تحوى شكوى من أعمال القرصنة فى أراضى الأول التى لا تحصى بالحماية .

- رسالة من أحد كبار رجال البلاط الألاشى المدعو « أشوارا Eshuwora » إلى ملك أوجاريت تحوى التأكيد على شكوك الأخير فى أحد رعاياه .

- ذكر سفن ألاشيا .

- العثور على فخار قبرصى ، يرجع تاريخه إلى العصر القبرصى المتوسط الثانى .

- وثيقة تتناول بعض الأشخاص الذين فروا من الاشيا إلىالمملكة الحيثية.

- لوحة أوجاريتية يستدل منها على وجود أسرى حرب من ألاشيا فى خدمة عائلة أوجاريتية .

- وثيقة حكم مدون ربما أنطوى على نوع من العقاب يعلم منه أن الملكة الأم لاوجايت قد أخذت أخويين لملك أجاريت إلى ألاشيا للقسم أمام الربة عشتار بأنهما لن يطلبا شيئا فى المستقبل من أخيهما ملك أوجاريت أو ابنه[٩٣] .

كل هذه النصوص ترجح مطابقة ألاشيا بقبرص . هـذا بالإضافة إلى أن الحفائر والتنقيبات الأثرية الحديثة التي أجريت في الجزيرة قدمت لنا العديد من الأدلة التي تعضد من ذلك الاتجاه ناهيك عن وفرة إنتاج النحاس في قبرص أهمها :

(أ) العثور على قوالب لصب المعدن منقوش عليها أحرف من أبجدية قبرو - ميسينية .

(ب) العثور على أدلة متعلقة باستخراج المعدن في عصر البرونز في عدد من المواقع .

(جـ) اكتشاف الخام والخبث في حفائر موقع مدينة[٩٤] يرجع تاريخها إلى عصر البرونز المتأخر يرجح أنها ألاشيا ذاتها .

(د) الكشف عن حطام سفينة غارقة تحت الماء يرجع تاريخها إلى عصر البرونز في رأس جيليدونيا Cap Gelidoniya[٩٥] على الشاطئ الجنوبي لتركيا ، وكانت تحمل كمية كبيرة من قوالب (أو سبائك) النحاس حوالي أربعين سبيكة يرجح أنها جاءت من قبرص وبعضها يحمل علامة صاهر المعدن القبرو - ميسيني .

(هـ) العثور على السبائك القبرصية ذات الأضلاع المقوسة من الداخل وذات أطراف (زوائد) أربع ليسهل حملها (استخدامها) والوجه الأسفل للسبيكة به لسان صلب يشبه دفة السفينة مخصص للوصل في قاعدة . والواقع أن هذا الطراز من السبائك يعتبر طرازا خاصا بقبرص، وكان يصدر إلى بلدان الشرق الأدنى .

(و) أرجعت التنقيبات والحفائر الحديثة تاريخ بداية المناجم وصناعة النحاس في الجزيرة إلى أواسط الألف الثالث ق.م[٩٦] . وكافة الأدلة السابقة تؤيد أن قبرص كانت تستخرج وتنتج النحاس بوفرة ، ومن ثم فإن هذا يدعونا إلى مطابقتها كمصدر هام للنحاس . وقد ثبتت تلك المطابقة - فيما يرى « ألبرايت

كمصدر هام للنحاس . وقد ثبتت تلك المطابقة - فيما يرى « ألبرايت » بـالدليل في تقرير « ون آمون »[٩٧] .

ومن الأدلة التي تعضد الرأي السابق ما جاء في الخطاب رقم (٣٥) مـن أن نقص كمية النحاس ترجع إلى المعبود (نرجال) الذي قضـى علـى كثـير مـن الرجال، ويبدو أن ذكر (نرجال) البابلي هنا يعني أن ألاشيا كانت تمارس التجـارة مع بابل منذ زمن بعيد جدا وأنهما كانا على معرفة ببعض ، فقد عثر بها على أختـام بابلية تشهد على وجود تجار فيها وفدوا إليها من أرض الجزيرة . وإذا كان ذلك قـد حدث ، فإن ألاشيا تكون أبعد بلد في الغرب باستثناء بعـض النواحـي فـي آسـيا الصغرى أتخذ من اللغة البابلية لغة للمخاطبات الدبلوماسية في العلاقات الدولية[٩٨].

- ويرجع « كلود . ف. شيفر » أن المعبود « نرجال » المنتمي إلـى جميـع أرباب بابل ، والذي يمثل بمظهر إله محارب ، كان يماثل « الرب ذا السبيكة » فـي الجزيرة وهو يمثل حامي المعدنيين ، والذين يبحثون عن الصخور المحتوية علـى النحاس في جبال الجزيرة ، والمشتغلين بصهر المعادن والقبرصيين الذيـن كـانوا يستخرجون منها وينتجون السبائك . وهو أحد الأرباب التي قدمتها شعوب الشـمال وشعوب البحر ، وكان يصور بمظهر إله محارب مسـلح[٩٩] . كمـا كـان يمـاثل المعبود « رشف » الذي كان يقدس في مدينة أوجاريت وكان يصور بمظـهر إلـه محارب . ويخلص « شيفر » إلى أنه طالما أن « نرجال » في بابل « ورشف » فـي سوريا وأوجاريت يمثلان بمظهر إله محارب - أيضا - كالمعبود ذي السبيكة فـي قبرص فإن هناك صلة بينهما ، ومن ثم فليس غريبا أن يكون معبودا ساميا مصـدره الشرق الأدنى . وربما يكون الرب ذو السبيكة هو الرب « أبو للو كرياتاس = أبـو للو ذو القرون » الذي كان يسمى أيضا «أبو للو الألسيوي»[١٠٠] ، أي المنتمي إلـى مدينة ألاشيا ، حيث كان يعبد في قبرص أولا . ومن أنكوفي انتشرت عبادة أبوللـو كرياتاس إلى مدن أخرى بالجزيرة مع لقبه الجديد (الألسيوي) وأن الرب (نرجـال)

ما هو إلا أبوللو كرياتاس فى ألاشيا ، كما أن رشف المعبود الفينيقى ، كان مناظرا (لأبوللو الألسيوى) كما جاء فى نقش « تاماسوس »[١٠١] . وعلى الرغم من أن « كاتلنج » قد أسهم بشكل فعال فى إلقاء الضوء على كل الأدلة السابقة ، والتى تدعم من المعادلة ألاشيا = قبرص ، إلا أنه يقول أن هذه المطابقة مفتقرة إلى الدليل ، وحتى تتوافر أدلة أخرى جديدة[١٠٢] . ويرى « عبد المعطى سمرة » أنه فى ظل ما توفر من دليل حتى الآن ، تعتبر المطابقة قبرص = ألاشيا كما عرفت فى نصوص الشرق الأدنى مطابقة مرجحة . صحيح أنها لا تصل إلى حد اليقين ولكنها لا تبتعد عن حدود الترجيح المقبول الذى يأخذ به جمهرة الباحثين فى الوقت الراهن . ويدعمها بقوة الآثار المصرية التى اغفلها « كاتلنج » - وعثر عليها فى قبرص[١٠٣]. ويذكر « م . برنال » أنه على الرغم من الجدل الذى أثاره الاسم « إيرس » أنه ربما يكون اسم لجزيرة قبرص[١٠٤] ويبدو أن هذا الفرض مغرى لأن نطابق ألاشيا بقبرص ، أو كونها مدينة فى قبرص . ومما يعضد ذلك الفرض الاختلاط بين الثقافات الشرقية والإغريقية فى ألاشيا المدينة أو الجزيرة الذى يعد السمة المميزة لقبرص منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا[١٠٥] ونخلص من كل هذا أن قبرص هى بعينها ألاشيا التى ذكرتها رسائل العمارنة ، وكل هذا يدل دلالة قاطعة على الصلة الوثيقة بين قبرص وبلدان الشرق الأدنى وتقارب أفكار شعوبها .

وقد اختلف المؤرخون حول إذا ما كان هذا الاسم يقصد به الجزيرة كلها أو قسم منها أو يقصد به مدينة بعينها . فالبعض يرى أن هذا الاسم يقصد به جزيرة قبرص كلها ، ويعتمدون فى ذلك على ما جاء فى نقش فينيقى أن شبه الجزيرة حملت هذا الاسم « ألاشيا » حتى القرن السابع ق.م وربما إلى ما بعد ذلك التاريخ . ويرى آخرون عكس ذلك وأن هذا الاسم قد أطلق على قسم منها كان الأقوى وكانت له السيادة على مناجم النحاس والمعادن الأخرى ومن ثم عمم هذا الاسم على الجزيرة بأكملها . بينما يرى فريق ثالث أن هذا الاسم قد يكون اسما لمدينة فى الجزيرة ، ومن ثم يرجح أنها كانت أكبر وأهم مدينة ، وأن هذه المدينة كانت

العاصمة لدولة ممتدة ربما سميت مملكة ألاشيا ، حيث كان ملوكها على قدم المساواة مع ملوك الشرق الأدنى آنذاك[١٠٦] . بل أفترض البعض أن هذا الاسم (ألاشيا) يقصد به مدينة أنكومى كما يفترض أحيانا أن الاسم يخص بلدة « كالوبسيدا Kalopsidha » شرق جزيرة قبرص[١٠٧] ، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن «ألاشيا» كانت تابعة لمصر منذ عصر تحتمس الثالث ، واستمرت كذلك حتى عهد إخناتون ، إذ نراها فى هذه الفترة متحررة من الحكم المصرى[١٠٨] .

ولكن « جلوتز G. Glotz » يرى - غير ذلك - أن ألاشيا لم تكن خاضعة أو تابعة لمصر ، ويعلل ذلك بأن الوفود الألاشية كانت مثل نظيرتها الكريتية تعامل بما لا يوحى بأنها وفود من ولاية تابعة لمصر جاءت لتؤدى فروض الطاعة والولاء أو لدفع الجزية للفرعون المصرى[١٠٩] .

أما الاسم « إسى » ، « آسى » ، « ايزى » (𓇋𓋴𓇋𓇋) Sy فقد رددته النصوص المصرية مرات عديدة وأقدم إشارة ترجع إلى عهد الملك « تحوتمس الثالث » على اللوحة الشعرية التى أمر بإقامتها فى معبد الكرنك . وفيها يخاطب « آمون رع » رب الكرنك ابنه تحوتمس قائلا :

١ - « ... لقد حضرت : لأجعلك تتمكن من أن تطأ الأرض الغربية فى «كفيتو» و « إسى » تحت سلطانك ولأجعلهم يشاهدون جلالتك مثل الثور الصغير ثابت القلب ، جاد لا تمكن مهاجمته ... »[١١٠] .

وقد ذكرت جزية « إسى » فى متن الحملة التاسعة لـ «تحوتمس الثالث» على بلدة « نجس » فى السنة الرابعة والثلاثون من حكمه حيث نقرأ :

٢ - « جزية (إسى) فى هذه السنة : مائة وثمانية قوالب من النحاس النقى وسبيكة من النحاس زنتها ألفان وأربعون دبنا ، وكذلك خمسة قوالب قصدير وألف ومائتا قطعة من القصدير وعشرة ومائة دبن من اللازورد وسن فيل واحد ، وقطعتان من خشب « ثاجو » ...[١١١] .

وقد ذكرت جزية « إسى » – أيضا – فى متن الحملة الثالثة عشرة فى السنة الثامنة والثلاثون إلى بلدة « يونجس » من أعمال سوريا – من حكم تحوتمس الثالث حيث نقرأ :

٣ – « الجزيرة التى يحملها أمير « إسى قالب نحاس من بلاده وجواد واحد»[١١٢] .

وقد ورد ذكر جزيرة « إسى » كذلك فى متن الحملة الرابعة عشرة لـ « تحوتمس الثالث » فى السنة التاسعة والثلاثين حيث نقرأ :

٤ – « جزيرة أمير » إسى « سنا فيلين وأربعون قالب من النحاس وقالب من ... القصدير ... »[١١٣] .

وفى عصر الرعامسة تبدلت طبيعة المصادر الكتابية التى تشير إلى «إسى» عما كانت عليه فى عهد « تحوتمس الثالث » فأصبح ذكرها فى قوائم جغرافية هو الصفة الغالبة فى هذا العصر[١١٤] .

وأول ظهور لها فى هذا العصر يرجع إلى عهد الملك « سيتى الأول » فى آثاره فى معبد الكرنك فقد ذكرتها قوائمه ثلاث مرات على النحو التالى :

٥ – « بابخ Pabekh » « تخس Tikhsi » « إسى Asy » « طنب Tunip »[١١٥] .

٦ – بابخ Pabek ، إسى Asy ، مانوس Mannus[١١٦] .

٧ – « قادش Qadesh » ، « بابخ Pabekh » ، « قدنا Qedna » ، « إسى Asy » ، « مانوس Mannus »[١١٧] .

وذكرت « إسى – أيضا – فى قوائم ترجع إلى عهد « رمسيس الثانى » فعلى الجدران الأمامى من معبد أبيدوس – نقوش تمثل سلسلة من الأقوام الأسرى – صور الـ « إسى » فى قائمة الشعوب الشمالية[١١٨] حيث نقرأ:

٨ - التجنو (ليبيا) - نهارين (ميتانى) - سنجار (بلاد النهرين) الحيثين - الكفتى - إسى (إزى) شات - إشر - بدجتى - شو « الأقوام التسعة»[١١٩] .

وقد ذكرت « إسى » مع « ألاسا » فى نقش واحد على قائمة يرجع تاريخها إلى « رمسيس الثانى » على النحو التالى :

٩ - « جبل (مفكت) . (إسى) (ألاسا) خيتا . سنجار. كفيتو[١٢٠] .

مما سبق يتضح لنا أن « إسى » ذكرت فى النصوص المصرية تسع مرات وفى عهود كل من « تحوتمس الثالث » و « سيتى الأول » و« رمسيس الثانى » أى شملت عصر الدولة الحديثة . ففى النص الأول قورنت « إسى » بـ « كفيتو » ووصفت على أنها بلد غربى ، ويرجح أن هذه القصيدة وضعت فى آسيا وأن كاتبها حين كان يحدد مواقع البلدان المهزومة كان يذكرها وفقا لموقعها بالنسبة لآسيا - المكان الموجود فيه الكاتب حين أنشد القصيدة - فـ « إسى » هنا بلد غربى أى إلى الغرب من المكان الذى سجلت فيه اللوحة ، وهى فى هذا النص تقع بعد « كفيتو ».

وفى النصوص (٢ ، ٣ ، ٤) علمنا أن « إسى » كانت ترسل جزيتها(؟) إلى مصر وكانت تتضمن النحاس (سبائك وقوالب) والقصدير واللازورد والعاج « سن الفيل » والخشب (ثاجو) والخيول . وفى النصوص (٥ ، ٦ ، ٧) قرنت « إسى » ببلدان تقع فى البر الرئيسى لآسيا وهى « بابخ » و « قدنا » و« طنب » وقادش » و « مانوس » و « تخس » . وفى النصوص (٨ ، ٩) نجد مجموعة أخرى من الجيران « نهارين « سنجار » « خيتا » « كفيتو » والملاحظ هنا أن « إسى » على غرار «ألاسيا» كانت ضمن دول شعوب أقصى الشمال ، وتبين القوائم عددا من الأسماء التى تشيع بين كلا البلدين - « إسى » و « ألاسا » مثل نهارين ، خيتا ، سنجار ، تخس . ويتضح من جوار تلك البلدان استنتاج قرب « إسى » و « ألاسا » الشديد من بعضها .

والواقع أن القارئ لقائمة الأسماء في النص التاسع يجد أن أسماء البلدان التى ذكرت فيها مرتبة جغرافيا فهناك أسماء فى الغرب ، الشمال الغربى والشمال الشرقى والشرق . يهمنا فى هذا المقام الأسماء التى تقع فى الغرب والشمال الغربى البعيد وتمثلها هنا « الكفيتو » و « إسى » ، وهذا الجمع بين « كفيتو » و« إسى » ظهر من قبل فى نصب الكرنك الشاعرى حيث وضعهما ضمن الأراضى الغربية . ويرجح أن ذكر « إسى » مع اسماء أخرى ربما كان استمرارا للتقليد القديم الباقى من أيام « تحوتمس الثالث » أو أن هذه البلاد أخذت تنتهج سياسة المودة مع مصر، وترسل هداياها لتؤكد صداقتها لها[١٢١] .

والملاحظ أن الكثير مما قيل أن « ألاشيا » يرمز تماما إلى « إسى » وخاصة إنتاجهما للنحاس . وما يميز « إسى » عن « ألاشيا » هو أنها كانت تقدم لمصر القصدير واللازورد والعاج والشب والخيول ، مما حدا بالبعض إلى القول بأنها كانت ضمن البلاد الخاضعة لمصر وقتئذ نظرا لقوتها البرية والبحرية . ويعللون ذلك بأن أمير « إسى » كان يخشى بأس «تحوتمس الثالث» وأصبح خاضعا لإرادته . هذا إلى أن الأسطول المصرى جعل جزر الشمال تخشى بأسه ، وأصبح سلطانه ممتدا على شرق البحر المتوسط حتى بحر إيجه ، مما جعل قائده « جحوتى مس » يعد الجزر التى فى وسط البحر من الممتلكات التى كانت تحت سلطانه ، إذ كان يلقب بحاكم الأقطار الشمالية[١٢٢].

وقد اعتبرت « إسى » – لفترة من الوقت – قبرص أو جزء من قبرص مما أدى إلى إثارة الجدل والاختلاف حول « إسى » وهويتها وأين تقع ؟ . وعلى الرغم من أن علماء المصريات قد اعتمدوا المطابقة بين « إسى » وقبرص وسلموا بها[١٢٣] . إلا أنهم وجدوا معارضة شديدة من « وينرايت » الذى كتب مقالة طويلة حاول أن يبرهن فيها على عدم صحة هذه المطابقة . وقد اعتمد « وينرايت » فى بحثه على تقييمه للمعلومات المتاحة عن موضوع « إسى » من حيث إنتاج النحاس فى « إسى » و إنتاج قبرص منه فى العصور القديمة ، والتداخل بين أرض

الثامنة عشرة « إسى » والأراضى البطليموسية 

جزيرة سب [hieroglyphs] جزيرة " سينباى » . ويطلق على هذين المكانين جزر كما توجد لهما علاقة مباشرة مع قبرص أو أن تكون بغير شك أسماء بطليموسية لقبرص . إلا أنها لا يمكن أن تظهر لها علاقة باسم الأسرة الثامنة عشرة « إسى » التى يشترك معها الاسم الأول فقط فى رمز واحد وتشترك مع الثانى فى رمزين . وحتى ذلك لن يدلل على أن « إسى » القديمة كان يقصد بها قبرص ، لأن قبرص على عهد البطالمة كانت مشهورة بالنحاس - وعلى ذلك الأساس فقط - ربما كان الكتبة البطالمة يعتبرون بكل بساطة ، مثلما فعل علماء الآثار المحدثون، أن اسم أرض كانت تنتج على عهد الأسرة الثامنة عشرة كميات كبيرة من النحاس كما كانت تنتج « إسى » لابد أنها ، فى تلك الأيام العتيقة كانت اسم الأرض التى كانوا يعرفونها بشهرتها للنحاس أى قبرص ، و لو كانت تلك هى الحالة عند ترجمة الأصل الأغريقى أو الديموطيقى إلى الهيروغليفية لكانوا استخدموا هذا الاسم بدلا من قبرص بصورة طبيعية[١٢٤] .

واعتمد « وينرايت » فى تعضيد نظريته بعدم مطابقة « إسى » لقبرص على تقييمه للمعلومات المتاحة عن العطايا التى كانت تقدمها لمصر برفضه أن « إسى » كانت تنتج العاج ، لعدم قبوله الاعتقاد بوجود فيله بأى عدد من الأعداد فى قبرص فى وقت متأخر جدا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ق.م هذا بالإضافة إلى أن الرصاص ليس من منتجات قبرص ولم يثبت بعد وجوده فى الجزيرة . كما أن الرصاص يعتبر دائما من المعادن الغير مألوفة فى النقوش المصريين . كذلك يرى أن « إسى » لا يطلق عليها لفظ جزيرة ، ويستند فى ذلك إلى أن المصريين أنفسهم لم يتحدثوا عن «إسى» على إنها جزيرة[١٢٥] . ويضيف « وينرايت » أن موقع «إسى» بالنسبة لجيرانها فى القوائم يجعلها أقرب إلى مجموعة الدول الغربية ، ومن ثم فإنها تقع إلى ناحية الشمال ، على عكس « ألاسا » التى كانت تقع إلى جوار

أربعة من الجيران فى ناحية الجنوب ، مما جعلها تنتمى بصلة قرابة كاملة مع سوريا على عكس « إسى » التى تمت بصلة خفيفة إلى سوريا كما تتصل أيضا بصلة جزئية مع آسيا الصغرى[١٢٦] . ويخلص « وينرايت » إلى أن المطابقة إسى = قبرص غير كاملة ، وجعلها تتبع الوطن الأم (سوريا) فى موضع على مقربة من مصب نهر « أورونت » العاصى حديثا[١٢٧] .

وفى عام ١٩٤٦ ذهب « بوسير M. H. Bossert » فى تحديده لمكان« إسى » فى حدود « ليديا الكلاسيكية » على الساحل الغربى من آسيا الصغرى وهذا يعنى أنها تقع على حدود بحر إيجة فى مواجهة كريت تقريبا[١٢٨] .

ويرى « هلك W. Helk » أن « إسى » ليس هو المكان كما كان يعتقد مرارا أنه قبرص ولكنه مكان يقع فى جنوب غرب الأناضول[١٢٩] . وتـود : « م. دروار » على ذلك بقولها أن أى محاولة لوضع « إسى » أو « ألاشيا » على الشاطئ الشمالى لسوريا تواجهة صعوبات كبرى ، لأسباب كثيرة من بنيها أن الخريطة السياسية لهذه المنطقة قد شغلت بالفعل تماما بدول المدن المزدهرة ، ومن الصعب أن نعثر على مكان على امتداد الشاطئ لمملكة هامة أخرى[١٣٠] .

ومن ثم فإن وضع « إسى » بعد « كفتيو » كما جاء فى النص الأول هو تسلسل منطقى وطبيعى . وهذا الجمع بين « إسى » و « كفتيو » فى نصب الكرنك الشاعرى ظهر فيما بعد فى نص من عصر «رمسيس الثانى» (النص التاسع) حيث وضعهما ضمن الأراضى الغربية . ومن ثم فإذا كانت المعادلة كفتيو = كريت فإن إسى هى قبرص أو جزء من قبرص[١٣١] .

ويدعم لوى - أ. كريستوف مطابقة إسى بقبرص مما استخلصه من لوحة انتصارات « تحوتمس الثالث » من أن المصريين فى تحديدهم للاتجاه فى آسيا اعتبروا أن الشمال الشرقى هو الشمال الذى نعرفه الآن ، وأنه (أى المصرى) لما كان يعتبر زاهى واللبطانى واقعتين فى شمال مصر ، فمن المنطقى أن يعتبر «

إسى » و « كفتيو » من بلدان الغرب ، ومن ثم فإن الغرب فى تلك اللوحة يبدأ فى سوريا الشمالية ، وربما أن « كفتيو » مقرونة بـ « إسى » ، بل قبل هذه الجزيرة فإن كلا من البلدين متجاورتين(١٣٢) .

وبالغرم من ذلك فإن « كريستوف » يشير فى موضع آخر إلى أن تلك المطابقة ليست مؤكدة تأكيدا تاما(١٣٣) . أما بخصوص تقديم « إسى » الجزية لمصر وتفسير ذلك بأنها كانت خاضعة لمصر آنذاك ، فقد أكد على تلك الفرضية العالم الأثرى القبرصى « قاسواكارابورغى » بقوله « أن قبرص وجدت نفسها مضطرة أمام قيام مصر بدور فعال فى المنطقة أن تدفع ضريبة من نوع ما لفراعنة مصر(١٣٤) . فى حين يرفض فريق آخر هذا الرأى ويرون أن العلاقات المصرية القبرصية كانت حميمة بحيث لا تسمح بتداول مثل هذا الرأى ، وأن الوفود القبرصية قدمت إلى مصر مثل نظيرتها الكريتية لتعقد صفقات لتبادل المنتجات والمصنوعات ، ويعللون ذلك بأن قبرص فى هذه الفترة كانت قوة بحرية واقتصادية، وساعدها على ذلك ما توافر لها من ثروات وبخاصة مناجم النحاس(١٣٥) .

والملاحظ فى النص التاسع ذكر « إسى » مع « ألاسا » فى نص واحد مما دفع إلى الاعتقاد بان الاسمين كان ينطبقان على منطقتين مختلفتين من قبرص(١٣٦). وتدعم « م . دروار » ذلك بقولها أن قبرص فى الألف الأول ق. م لم تكن جزيرة موحدة ولكن كانت مقسمة إلى عدة ممالك مستقلة ، وبناء على ذلك ترجح أن «ألاشيا» و« وأسى » قبل ذلك التاريخ كانتا مملكتين قبرصيتين من ممالك عصر البرونز ، وكانت لكل منهما علاقاتها المباشرة بدول البر الرئيسى(١٣٧) .

وقد اقترح البعض أن « إسى » هى الشكل الأول لـ « ألاشيا » ويدللون على ذلك بما جاء فى نقوش ميت رهينة . ويرى « م. برنال » أن «إسى» ربما تدل على « إنكومى » أو إحدى المدن الرئيسية فى قبرص(١٣٨) .

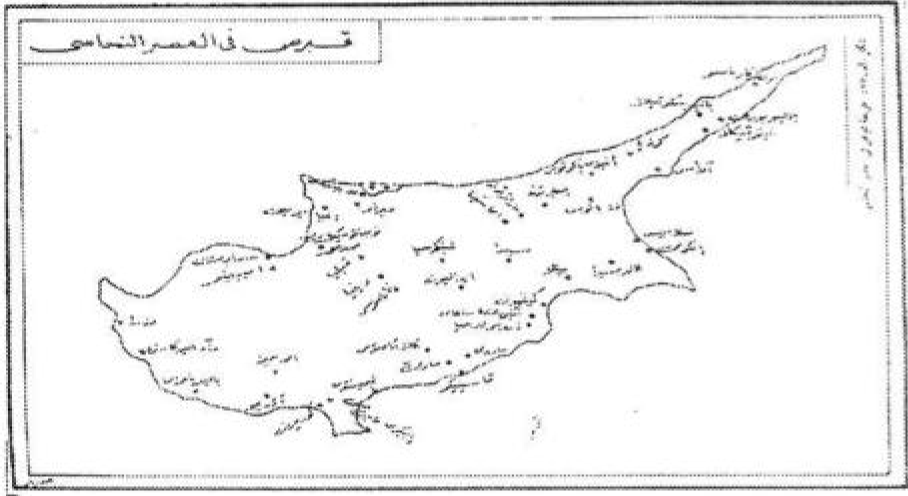
وعلى الرغم من كل هذا الجدل الذى أثير حول هوية الإشارات الواردة إلى قبرص فى النصوص المصرية ووثائق الشرق الأدنى القديم ، فإن أهم ما تبقى من ثمار هذا الجدل تلك الصورة من صور الفكر الأثرى فى سعيه إلى الحقيقة من خلال المنهج العلمى السليم المعتمد على دراسة الوثائق واستقرائها ، فضلا عما قدمه هذا الجدل من إسهام فى جلاء بعض الحقائق المتعلقة بقبرص فى المصادر المصرية .

وبعد كل ما ذكرناه آنفا يمكن القول :

(أ) استبعاد المطابقة كفيتو = قبرص ؛ لأن المصادر الأثرية المختلفة، والمصادر النصية الأدبية أثبتت أن كفتيو التى وردت فى النصوص المصرية هى الاسم الذى أطلقه المصريون على جزيرة كريت .

(ب) كذلك استبعاد مطابقة « كابتار » و« كتيم » بقبرص لعدم كفاية الأدلة .

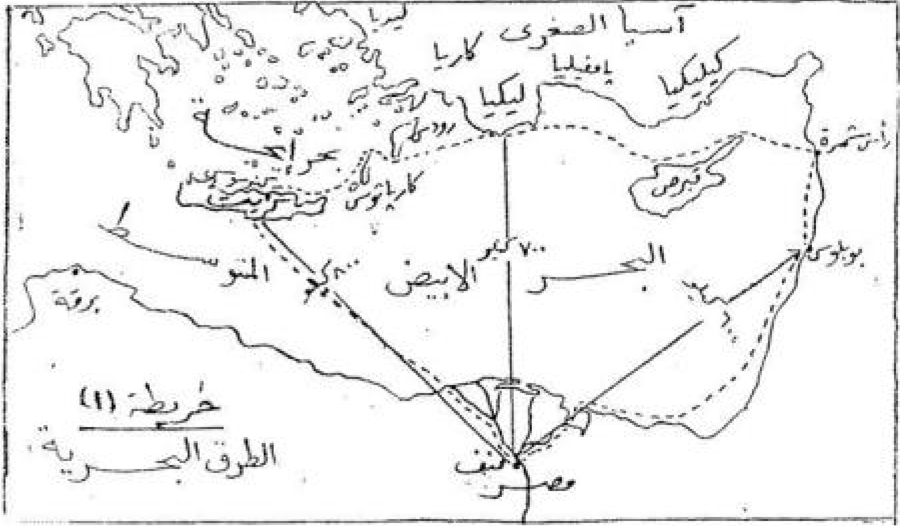
(جـ) من الأرجح أن تنطبق على جزيرة قبرص التسمية التى وردت فى محفوظات العمارنة « ألاشيا » ، والتسمية المصرية القديمة « إيرس » أو « يرس » ، أما « إسى » فتعتبر هى أيضا قبرص أو جزء من قبرص . كما أن ذكر « ألاشيا » مع « إسى » فى نص واحد يحمل على الاعتقاد أن الاسمين ينطبقان على منطقتين مختلفتين من قبرص .



شكل (١)

خريطة لقبرص فى العصر النحاسى عن :

أحمد عثمان ، تاريخ قبرص.



شكل (٢)

خريطة للطرق البحرية بين مصر والعالم الإيجي عن : فركوتيه، قدماء المصريين والإغريق .

الرسالة	السطر	ألاشيا A-La- si- ia	ألاسيا A-La-si-ia
٣٣	٢	X	
٣٤	٣٩,١	X	
٣٥	٣٠,٢	X	
٣٦			
٣٧	٢		X
٣٨	٢	X	
٣٩	٣	X	
٤٠	٣	X	
١١٤	٥٢	X	

شكل (٣)

الرسالة	السطر	الكمية (بالتالنت)	Mercer, AT., I. P.
٣٣	١٦	٢٠٠ تالنت	191
٣٤	١٨	١٠٠ تالنت	193
٣٥	١٠	٥٠٠ تالنت	195
٣٦	٥	٨ تالنت	199

شكل (٤)



شكل (٥)

تمثال للرب ذا السبيكة محفوظ فى متحف قبرص عن أحمد عثمان، تاريخ قبرص.

الهوامش

(١) رؤوف عباس ، مصر وعالم البحر المتوسط ، ط١ القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥ ؛ ر. أ. س مكلستر ، نظرة عامة فى ثقافات البحر المتوسط (تاريخ العالم ، المجلد الأول) ، القاهرة د. ت . ، ص ٦١٩ ؛ لطفى عبد الوهاب ؛ اليونان مقدمة فى التاريخ الحضارى ، الإسكندرية ١٩٩٦ ، ص ٢٦ - ٢٩ .

(٢) تعد جزيرة قبرص من أكبر جزر الحوض الشرقى للبحر المتوسط إذ تبلغ مساحتها الإجمالية حوالى ٩٢٥١كم٢ طولها بين طرفيها الشرقى والغربى ٢٢٥ كم وعرضها ٩٦ كم وأهميتها ترجع إلى أنها كانت مطمعا لملوك المنطقة المحيطة بها ومن ثم مصدر للتنازع بين الشرق والغرب طوال تاريخها وهو ما يمثل الطابع التاريخى العام لها ، أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ٢٣ .

(٣) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص ٢٣ ، سليمان بو جمعه ، شعوب البحر وعلاقتهم بمصر ١٣٠٠ - ١١٥٠ ق.م دراسة تاريخية (رسالة ماجستير - غير منشورة) كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٩٢ ص ٢٤ .

(٤) سليمان بو جمعه ، المرجع السابق ، ص ٤٩ « كانت الزراعة تشكل القاعدة الأساسية فى حياة المجتمع القبرصى حيث السهول الخصبة ، على عكس طبيعة بلاد اليونان الصخرية الجبلية ، راجع : لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ٣٥ - ٣٨ ؛ محمود السعدنى ، الحضارة الهللينية منذ أقدم العصور حتى نهاية القرن السابع الميلادى ، جـ١ ، القاهرة ١٩٩١ ؛ ص ٦٥ .

(٥) سليمان بو جمعه ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(6) H.Kantor, The Aegean and the orient in the second millennium B. C., Bloomington Indian 1947, p. 17; M. R. Bell, preliminary Report on the mycenaean Pottery From Dier El-Medina (1979 – 1980), ASAE, Lxviii (1980), p. 143; E. J. Bickerman, chronology of the Ancient World. Revised Edition Thomas and Hudson 1980, P. 62F.

والكرونولوجيا Chronology علم تحديد تواريخ الحوادث ، أو علم حساب التواريخ .

(7) R. S. Merrillees, the Cypriot Bronze Age pottery Found in Egypt, SMA (xviii), Lund 1968, p. xvii; H. W. Catling, Cyprus in the middle Bronze Age, CAHll3, Chapter iv, p. 165.

(8) N.G.L.Hammond, A History of Greece to 322 B. C., 2 nd, Oxford, P. 32.

(٩) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(١٠) عن قصة « ون أمون » راجع : ج-بريتشارد ، نصوص الشرق الأدنى القديم ، ج١ ، ترجمة وتعليق عبد الحميد زايد ومراجعة محمد جمال الدين مختار ، سلسلة المائة كتاب (٩) ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٠١ وما بعدها .

(11) V Schachermeyr, « Agypten Und Krerta «, AFO, XVI (1952 – 53), P81-82.

وراجع أيضا : عبد القادر خليل ، علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٦٧، وقد عدد«فيركوتيه» محطات هذا الطريق من كريت إلى مصر بادئا بـ « كاسوس » (Kasos) و«كرباثوس» (Karpathos) حتى « رودس » وساحل الأناضول ثم يتجه إلى قبرص ثم الساحل السورى والفلسطينى ويسير بحذائه حتى مصر والعكس . فيركوتيه ، قدماء المصريين والإغريق ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٢٢ .

(١٢) جمال حمدان ، شخصية مصر (دراسة فى عبقرية المكان) المجلد الأول القاهرة ١٩٨١م ، ص ٤٣٠ ؛ ألن جاردنر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥٦ ، ٦١ ؛ ج. ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤١ ؛ رالف لنتون ، شجرة الحضارة جـ٢ ، ترجمة أحمد فخرى ، القاهرة د. ت. ص ٤٩٥ .

(١٣) رأس شمر حاليا مدينة ساحلية تقع فى مواجهة انكومى ، وقد عثر فيها على عدد كبير من الألواح التى تتضمن رسائل موجهه إلى ملوك آخرين ، ووثائق قضائية

واقتصادية ، وقصائد أدبية ودينية ومعظمها مكتوب باللغة الأكدية عبد اللطيـــف أحمــد علي ، التاريخ اليوناني ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٧٧٥ - ٧٧٦ .

(14) LA VI 1453 .

(15) R. H. Hall Catalogue of Egytian Scarabs In BM, London 1913, p. 276.

وانظر : عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، جـ١ (مصر والعـــراق) ط٣ ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٢٢٣ ؛ جون ويلسون ، الحضارة المصريـــة ، ترجمـة أحمـد الفخرى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٠٨ - ٣١٠ ، أحمد عتمان ، المرجع الســابق ، ص ٣٠ .

(16) LA. VI, p. 1453.

(17) RH. Hall, « Egypt and External World in the time of Akhenaten ». JEA, 7 (1921), p. 49 – 50 .

(١٨) يرجح « بترى » و « ستابنجز » أن أصول هذه الكسرات قبرصية راجع :

F. Petrie, Tell El amarna, London, 1981, PI.XXVI, 11 – 15, XXV1.126 – 29; F. H. Stubbings, Myanaean Pottery from the Levant, Cambridge, 1951, p. 91 – 92.

(19) Stubbings, Op. Cit., pp. 95, 98; F. Petrie, Gizeh and Rifeh, London, 1907, P. 23, PI.XXV1.1

ولمزيد من التفاصيل عن الفخارى القبرصى المكتشف فى مصر ، والأبحاث الأثريــــة التى تناولته : انظر

R. S. Merrillees, Op. Cit.

(20) Hall, Op – Cit., P. 50.

عن كفتيو و « سكان الجزر التى فى وسط البحر » راجع : محمـــــد الســيد عبـد الحميد ، العلاقات المصرية اليونانية فى الدولة الحديثة (رسالة دكتوراه غير منشــورة) آداب الزقازيق ، ١٩٩٩م .

---

(٢١) أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٣٠ ، ٤٣ ، محمود السعدنى ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ . ولمزيد من التفاصيل عن الآثار المصرية المكتشفة فى قبرص والأبحاث الأثرية التى تناولتها انظر :

PM. VII2, pp. 403 – 404.

(22) LA VI 1453.

(٢٣) ورد ذكر ألاشيا فى مصادر الشرق الأدنى الأخرى فقد ذكرتها المصادر الحيثية التى عثر عليها فى « بو غاز كوى » ، ونصوص « رأس شمره » ، ومحفوظات« مارى » ، ونصوص « الالاخ » ، ونصوص « أوجاريت » راجع :
M. S. Drower, Syria C. 1550 – 1400 B.C. in CAH Vol. II3 Part I, Chapter X section VI : The Amarna Age, P. 491 – 493; H.W Catling, Cyprus And Her neighbours in The Middel Bronze Age CAHII3 part I, Section X, p.201 – 203.

(٢٤) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص٢٠٤ ، ٢١٢ .

(25) G. Maspero, « Le Pays D'Alasia », Rec. De Trov-x (1888) p. 209.

(26) G.A. Wainwright, Alashia = Alasa; And Asy. Klio xiv (1915) Leipzig, P.4; S Mercer, The Tell E Amarna Tablets, Vol. II, Toronto 1939, p. 827; A. H. Gardiner AEo.; I Oxford 1947, p. 131.

(27) L. A. VI, p.1452; And see : S. R. K. Glanville, The Letters of AAHMOSE of Peniati, JEA, 14 (1928), p. 311.

(28) Urk IV, 790. Nr.213, 719 Nr.236.

(29) H.W. Cating , Op. Cit., P. 202 .

(٣٠) ليلى عطا الله ، الأضواء التىتلقيها كتب العمارنة على تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، (رسالة ماجستير – غير منشورة) كلية الآداب جامعة الإسكندرية ص ٨٢.

(٣١) رسال العمارنة مكتوبة كلها على ألواح صغيرة من الطين المحروق بالخط المسمارى البابلى ومجموعها لا يتجاوز الثلاثمائة والستين وتعتبر من أهم المصادر التاريخية التى توضح لنا ما كانت عليه الحالة السياسية فى بلاد سورية وفلسطين وبابل وآشور وميتانى وخيتا أواخر أيام أمنحتب الثالث ثم إخناتون وتوضح لنا الصلة التى كانت بين هذه البلاد ومصر وتوضح لنا أساليب المراسلات الدولية فى ذلك

العهد . (أحمد فخرى ، مصر الفرعونية، ط٥ القاهرة ١٩٨١ ، ص ٣١٩ – ٣٢٠ ؛ سليم حسن ، مصر القديمة ، ط٥ القاهرة ، ص٣٤٦ – ٣٥٠) .

(32) S. Mercer, The Tell El Amarna Tablets, Vol.II Toronto 1939, p. 827.

(33) Ibid., p. 827 .

(34) Mercer, op. Cit., I. P. 191 .

(35) Ibid., P. 193 .

(٣٦) ينتمى هذا المعبود إلى مجمع أرباب بابل ، سيد الجبال وسيد مملكة الموتى الذى يعتقد أنه يحدث الكوارث الطبيعية والحروب كما كان يقدس من أجل اكتساب الصحة والخصب ، برستيد ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى ، ترجمة حسن كمال ط٢ ، الألف كتاب الثانى (٢٩٨) القاهرة ١٩٩٧ ص ٢٢١ .

(37) Mercer, Op. Cit., I. P. 194 – 197.

(38) Mercer, Op. Cit., I. P195.

(39) A. H. Gardiner, AEO, I, P. 209.

(٤٠) عن أسباب ذلك راجع : M. S. Drower, CSH, II, 2, p. 491 – 492.

سيرسيل ألدريد ، إخناتون ، ترجمة أحمد زهير أمين ، مراجعة محمود ماهر سلسلة الألف كتاب الثانية (١٠٠) القاهرة ١٩٩٢ ص ٥٦ .

(41) Mercer, Op.Cit., I. P. 195 and see; Catling, CAH, II, 2 P. 203

سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص ٥٧ ، برستيد ، تاريخ مصر ص ٢٢١ .

(٤٢) عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(43) Mercer, Op. Cit., J.P. 199.

(44) Ibid., pp. 200 – 201 .

(٤٥) أراضى « لوكا » على الساحل الليكى (جنوب آسيا الصغرى) وهم من شعوب البحر التى هاجمت مصر فى عهد رمسيس الثانى وولده مرنبتاح : محمد بيومى مهران ، مصر والعالم الخارجى فى عصر رمسيس الثالث ، (رسالة دكتوراه – غير منشورة) كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٦٩ . ص ١٨١ ، ١٨٢ .

Mercer, Op. Cit., p. 202 .

(46) Mercer, Op. Cit., p. 201; Drower, Op. Cit., I. P. 491 – 492, Catling. Op. Cit., P. 202 .

سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٥ ، ص ٦٣٨ .

(47) Mercer, Op. Cit., p.203.

(٤٨) سليم حسن ، المرجع السابق ص ٦٣٨ وانظر : Mercer, Op. Cit., P. 205 .

(49) Mercer, Op. Cit., P 393.

(50) C. R. Lepsius, Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien, Vol. 5, Geneve 1972, III, 131a, A. H. Gardiner, AEO., I, 131,

(٥١) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٦ ، ص ٤٥ ، وعن النص انظر :

L D. III, 131a; Brugsch, Geographische Inschriften, II, p. XIII, p.40 .

(52) Wainwringht, Op. Cit., p. 10, 34.

(٥٣) سليم حسن ، المرجع نفسه ، ص ٣٤٧ .

(54) Vercoutter, Op. Cit., p. 89; LD., III. 175 g.

(55) Maspero, Rec, de Trav., X., 1888, p. 209; Wainwright, Klio Xiv (1915), p. 35.

(56) Papyrus Anstasi IV, p1. 15, 1. 2-4.

(57) Wainwright, Op. Cit., p. 34. .

(58) Papyrus Anstasi IV, p1.17, 1.7 – 9.

(59) Maspero, Op. Cit. P.210.

(60) J. G. Ggreene, Fouilles Executees A Thebes Dans L'anee 1855, paris 1855 PL.II.16, 17.

(٦١) سليم حسن ، مصر ، جـ٧ ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٢٩٣ .

(62) LD, III, 229 C12.

ترجمها أرمان (حقل قبرص) ؟

إرمان ، هـ . رانكه ، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، القاهرة د. ت ص ٥٩٦ حاشية (١) .

(63) Mercer, Op. Cit., II. P. 827; W. F. Edjerton, J. A. Wilson, Historical Records Of Ramses, Chicago 1935, P. 53; A. H. Gardinar, AEO., I. 131.

(64) A wiedemann, « Stela at Freiburg in baden « proce. SBA, X111 (1890), p. 31.

(٦٥) البردية حاليا بمتحف موسكو ، عثر عليها فى الحيبة بمصر الوسطى ، ويرجع تاريخها إلى بداية الأسرة الحادية والعشرين (القرن الحادى عشر ق. م.) . ولمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع انظر : ج. بريتشارد ، نصوص الشرق

الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم ، جـ١ ، ترجمة وتعليق عبد الحميد زايد ومراجعة محمد جمال الدين مختار ، ص ١٠١ . ألن جاردنر ، مصر الفراعنة ، ص ٣٣٦ – ٣٤٣ .

and see : BAR., IV, 557 – 591.

(٦٦) برتيشارد ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٦٧) كان نظام الحكم في آلاسيا مثل كل الأنظمة الشرقية ملكيا استبداديا ، ويأتي على قمته الملك ، وكان البلاط الملكي هو مركز الحياة السياسية والاقتصادية بل الإدارية والدينية والعسكرية والواقع أن هذا النظام كان هو الصورة في العالم الموكيني . أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٨ .

(68) Catling, Op. Cit., pp. 202, 203; M. S. Drower, Op. Cit., pp. 490, 491.

(69) Mercer, Op. Cit., II, p. 827 – 828 ، سليم حسن ، مصر القديمة ، ج٥ ، ص ٦٣٧ ، ٦٣٨ .

(70) Ibid., p. 827.

(71) Ibid., p. 827.

(72) M. S. Drower, Op. Cit., 490.

(73) A. Maspero, Rec. de Trav.X (1888), P. 210; A. Wiedman, Stela at Freiburg in Baden « Proce SBA XIII (1890), P. 31; And see : Wainwright, Op. Cit., P. 4.

(74) M. Muller, Asien Und Europa , Leipzig1893, p.261, 394-395, Map at end of book; And see : Wainwright, Op. Cit., p.4.

(75) Wainwright, Op. Cit., p.7.

(76) P. Jensen, Asien und Europa nach altagyptischen Denkmalern, ZA. X. 1895/6, p. 380 And see : Wainwright, Op. Cit., p.4.

(77) Wainwright, op. Cit., PP. 2, 5, map at p.2.

(٧٨) عن الكفتيو بالتفصيل انظر : محمد السيد عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(79) Wainwright, Op. Cit., p.2.

(80) Ibid., p. 5.

(81) Ibid., pp. 7, 8.

ذكر « هـ . ر . هول » أن مطابقة الاشيا مع قبرص غير مجدية (H. R. Hall, JEA., 7 (1921) , P. 47) ثم عدل عن هذا الوضع وذكر أن الاشيا تطابق قبرص واستند فى ذلك على تقرير « ون آمون » ونصوص بوغازكوى .

H.R.Hall « The keftians, Philistines and other peoples of the levant » in : CAH, Vol. II.

(82) Wainwright, Op. Cit., P. 6 – 7 .

(83) J. Vercoutter, L'Egypte., p. 394.

(84) A. H. Sayce : « The Home of the Keftiu », JHS, LI (1931), Notes, p. 286 – 287.

(٨٥) عن كفتيو فى النصوص المصرية ومطابقتها بكريت واختلافات المؤرخين حولها انظر :

محمد السيد ، العلاقات المصرية اليونانية ، ص ١٧٧ ، وما بعدها ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(86) Hall, Oldest Civilization of Greece, P. 164.

(87) G. A. Wainwright « The keftiu People of the Egyptian Monuments », LAAA, VI 1913, pp. 24 – 5.

(88) Vercoutter, L'Egypt, p.33.

(89) « A new preoposal for the Identity of keftiue / caphtor » A preliminary account, GM 8 (1973), p. 47 – 51.

(90) J. Strange, op. Cit., p. 50 –51 .

(٩١) لمزيد من التفاصيل عن الاتجاه الكريتى لكفتيو انظر :

H. R. Hall « Keftiu », in Essays in Aegean Arch. Presented To sir Evans, Oxford. 1927, p. 31 – 41; J. Vercoutter, L'Egypte et le Monde Egeen prehellenique (IFAO) BiB d' Etude, t.XX11, le Caire, 1956.

(٩٢) سليم حسن ، مصر القديمة ، ج٥ ، ص ٦٣٨ ، س . الدريد ، إخناتون ، ترجمة أحمد زهير ، الألف كتاب الثانية (١٠٠) ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٥٦.

(93) H. W. Catling, Cyprus in the late Bronze Age – In : CAH II3, Pa. Chapter XXII(b), Sec. 1X. pp.202.

---

(94) See. G. Dossin, Les Archives Economique du palais de Mari, in Syria, 20 (1917), p. 111; H. W. Catling, in CAH 113 part, Section x. Cyprus and her neighbours in the Middle Bronze Age, p. 174.

(95) H. W. Catling, CAH II3, part 2 A , chapter XXII(b), pp. 202 – 204; M-S. Drower, Op. Cit., 490.

(٩٦) وهى تقع فى بلدة أنكومى قرب سلاميس Salamis بقبرص على الشاطئ الشرقى من الجزيرة فى مواجهة أوجاريت . سليمان بو جمعة ، شعوب البحر ، ص ٥٣.

(٩٧) هذا الكشف منشور فى :

G. F. Bass, Cap Gelidoniya, A. B.ronze Age Shepwreck, Philadelphia, 1967.

(98) C. F. A. Scheaffer, Les peuples de la Mer et leurs Sanctuaires a Enkomi – Alasia, College de France, Paris, 1972, p. 506 et pls. I – III.

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(99) Mercer, Op. Cit., II. P. 827.

(١٠٠) ر. أ. س. مكلستر ، نظرة عامة فى ثقافات البحر المتوسط الأولى ، المجلد الأول من تاريخ العالم ، ص ٦٤٢ ؛ وعلى الرغم من عدم العثور على أى استخدامات للخط المسمارى لدى هؤلاء الناس إلا أننا نعرف استخدام الخط المسمارى فى ألاشيا (فى رسائل العمارنة) .

And see : G. A. Wainwright, Op. Cit., P.9.

(١٠١) عثر الأثرى الفرنسى « كلود . ف . شيفر » فى حفرياته بقبرص عام ١٩٦٣ على تمثال برونزى لهذا المعبود وهو محفوظ حاليا فى متحف نيقوسيا يبلغ ارتفاعه ٣٥ سم مغطى بزنجار ذى لون أخضر فاتح ويمثل إلها بهيئة بشرية ، رأسه مغطى بقلنسوة ذات قرنين ، ويمسك المعبود بيده المرتفعة إلى أعلى بحربة رأسها على هيئة ورقة الغار ، كما كان يمسك بيده اليسرى الممتدة إلى الأمام بترس صغير لاتقاء حراب أو سهام أعدائه ، ويضع المعبود قدميه على سبيكة من النحاس ، ذات هيئة قبرصية مميزة وهو يجسد الخصوبة بالمفهوم الشائع فى الشرق (شكل ٥) .

See, Scheaffer, Op. Cit., P. 5-6, PL. I-II.

(١٠٢) أبوللو ذو القرون ، وفد إلى قبرص مع الآخيين القادمين من اركاديا في القرن الثالث عشر ق. م. ، أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ص ٤٩ .

(103) Schaeffer, Op. Cit., pp. 9 – 10 .

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

(104) Catling, CAH. II3, Part,I, p.167, Part 2A, Map 7, p. 194; Id., Sec-x, p. 205 .

(١٠٥) عبد المعطى سمرة ، المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(١٠٦) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤ حاشية (٣) .

(١٠٧) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص٤٨ .

(١٠٨) أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٤ .

(109) Catling , Op. Cit., 201 – 202.

(١١٠) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٥ ، ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ ؛ جـ . هـ. برسيد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسى ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٢٢١ .

(111) G. glotz, The Aegean Civlization, 1928, pp. 207 – 208.

(١١٢) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ ٤ ، ص ٥١٣ . وعن النص المصرى راجع:
Urk., IV, p. 615, 11, 11, 12;p. 616, 11. 12.

(١١٣) سليم حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٤٢ ، وعن النص المصرى راجع :
Urk., IV, p. 707:15-16.

يذكر « سليم حسن » أنه فى متن الحملة العاشرة على بلاد النهرين فى السنة الخامسة والثلاثين من حكم تحوتمس الثالث » وعند ذكر جزية البلاد الأسيوية الأخرى نجد المتن مهشما ، ويحتمل أنه قياسا على ما سبق فى المتون الأخرى – يشير إلى « إسى » و « خيتا » « ... ... آنية من الذهب ... ... خشب ثاجو وكل الخضر الجميلة من هذه البلاد » المرجع نفسه ، ص ٤٤٢ .

(١١٤) سليم حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٤٧ . وعن النص المصرى راجع :
Urk., IV, p. 719 : 12-13.

(١١٥) سليم حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٤٩ ، وعن النص المصرى راجع : Urk., IV, p. 724 : 9-13. وفى متن الحملة السادسة عشـرة والأخـيرة علـى قـادش وحلفائها فى العام ٤٢ من حكمه ذكرت جزية بلاد آسيوية أخرى يحتمل « سـليم حسن » أنها « إسى » و « خيتا » حيث نقرأ :

« الجزية التى أحضرها أمير ... فى هذه السنة ... فضة ... وكذلك أطبـاق ورؤس ثيران زنتها ٣٤١ دبنا وقدتان ، وثلاثة وثلاثون قدتا من اللازورد الحقيقى وعصـا جميلة من خشب « تاجو » ... قالب نحاس منها (من مناجم هذه الجهـة) ... »

المرجع نفسه ، ص ٤٥٢ .

(116) J.Vercoutter, L'Egypt et Le Mond Egeen, IFAO, BiB. D'etude, T-XXII, Le Cairo, 1956, p. 86.

(117) LD., III.. 131a.

(118) Wainwright, Op. Cit., p. 34.

(119) LD., 111, 129 .

(١٢٠) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٦ ، ص ٠٧٣ – ١٧٣ .

(121) Vercoutter, Op. Cit., p. 87.

وعن النص راجع : A. Mariette, Abyds II, Paris 1880, p. L2a.

(122) Wainwright, Op. Cit., p. 34, M. Muller, Egyptological Researches, 11, p. 90 – 92.

(123) Catling, Op. Cit., p.203., Vercoutter, L'Egypt., p. 87, 88.

أحمد فخرى تاريخ مصر الفرعونية ، ط ٥ ، القاهرة ١٩٨١ ، ص٣٤٢ .

(١٢٤) سليم حسن ، مصر القديمة جـ٦ ، ص ٤٤١ – ٤٤٢ ؛ عبـد الحميـد زايـد ، مصر الخالدة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٥٤٦ ؛ برستيد ، تاريخ مصر ، ص ٢٠١.

(125) Miiller, Op. Cit., P. 91 Id., Asien und Europa., map at end of Book.

(126) Wainwright, Op. Cit.,P. 14 , 15 .

(127) Ibid., P. 17 , 18.

يذكر « أ. لوكاس » فى معرض حديثه عن الرصاص أنه ليس هناك ما يـدل علـى وجود هذا الخام فى قبرص ، ويرى أن « إسى » هذه ليست قبرص بل إقليـم علـى

الساحل الشمالى لسوريا . أ. لوكاس ، المواد والصناعات عند قدمـــاء المصريـيــن ، ترجمة زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٨٦ .

(128) Wainwright, Op. Cit., p. 19 , 20.
(129) Ibid., p. 31 .
(130) L. A. Christophe, Notes Geographiques a propos des compagnes de thoutmosis III, Rev. d'Egypte VI (1951), p. 112 nots (2), see : MUIR'S Atlas of Ancient and Classical History, London 1986, Map. 2

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٤٠٥ .

(131) LA. VI, p. 1452.
(132) M. Drower, Syria C. 1550 – 1400 B. C. in : CAH II3, part I. chapter x. p. 491.
(133) Catling, Op. Cit., p.201; BAR., II, p. 264 (659 /16).

برستيد ، تاريخ مصر ، ط٢ ص ٢١ .

(134) L. A. Christophe, Op. Cit., P. 107, 110, 112.
(135) Ibid., p. 110 Note 7.

(١٣٦) محمود السعدنى ، تاريخ الحضارة الهللينية ، جــ١ ، القاهرة ١٩٩٠ ص ١٧٥.

(137) G. Glotz, The Aegean Civilization, I ed, London, 1925, pp. 207 – 208.

أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٥ ، عبد المعطى سمره ، المرجع الســابق ، ص ٢٥٤ .

(138) Catling, Op. Cit., p. 203.
(139) Drower, Op. Cit., p. 491.

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٤١٣ .

(١٤٠) أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٤ .

قبرص بين السيادة المصرية

والأشورية القديمة

د. محمد علي سعد الله(*)

تقع جزيرة قبرص فى شرق حوض البحر المتوسط ، حوالى ٤٠ ميل (٦٤ كيلو مترًا) جنوبى تركيا ، ٦٠ ميل غرب الساحل السورى (حوالى ١٠٠ كم من أقرب نقطة عند رأس الشمرة) ، ٢٥٠ ميل (٤٠٠كم) شمالى نيل الدلتا ، وتمتد الجزيرة من رأس (Arnauti) فى الغرب إلى رأس اندرياس فى الشرق (Andreas) ، والجزيرة فريدة من ناحية الشكل بسبب وجود سلسلة من الجبال ، جزء منها يعد من أعظم المنحنيات المتجهة من آسيا نحو جزيرة كريت ، بقاياه جبال كيرنيا Kyrenia الموجودة فى شمال قبرص ، وفى الجنوب سلسلة جبال طرودس (Troodos) ، والأرض السهلية مفتوحة على البحر من الشرق والغرب فيما يعرف بسهل مزوريًا (Mesaoria)[1] ، وتمتاز الجزيرة بوفرة ما فيها من الأحجار الثمينة والمعادن وخاصة النحاس ، كما اشتهرت بثروتها الزراعية من الحبوب والكروم وشجر الزيتون ، وكذلك تنتشر بها الغابات التى جعلت بعض السكان يتجهون نحو تصنيع السفن .

وقد اتجه بعض سكان قبرص إلى صناعة الخزف والأوانى الفخارية[2] ، وكان لموقعها المتميز فى شرق البحر المتوسط ، بجانب ثرواتها المعدنية والزراعية ، أثر فى اهتمام الدول القديمة وبخاصة الدول القوية المطلة على البحر المتوسط ببسط سيادتها على هذا الجزء من العالم القديم ومن هذه الدول مصر وخاتى وآشور والمدن الفينيقية ، وهو ما تؤكده النصوص والأدلة الأثرية القديمة .

(*) أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم المساعد - كلية الآداب بنها - جامعة الزقازيق .

والواقع أنه كانت لمصر علاقات قديمة بسكان جزر البحر المتوسط بمعنى أن هذا البحر لم يكن يمثل عائقًا يفصل بين المصريين وسكان هذه الجزر منذ أقدم الأزمنة وخاصة منذ عصر الدولة القديمة وهو ما تدعمه الأدلة الأثرية[٣] ، وبعد محنة الهكسوس ، عاد الاهتمام بالجانب الشرقى من البحر المتوسط وضرورة السيطرة على مداخل التجارة ، ومداخل الهجرات التى يمكن أن تهدد الأمن المصرى ، وهذا ما تؤكده النصوص المصرية بالنسبة لقبرص على وجه الخصوص خلال هذه الفترة التى اصطلح على تسميتها بعصر البرونز الأخير فى قبرص (١٥٥٠ - ١٠٥٠ ق.م)(٤) ، من ذلك أن « تحوتمس الثالث » (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م) قاد على الأقل ست عشرة حملة عسكرية إلى آسيا فى خلال عشرين عامًا تقريبًا ، وكانت بعض هذه الحملات للقضاء على مشاكل تهدد الأمبراطورية المصرية التى جعل حدودها من (أقاصى النوبة جنوبًا) إلى أقاصى آسيا شمالاً ، كما كانت بعض تلك الحملات لإظهار قوة مصر وسيطرتها على أنحاء إمبراطوريتها ، وسجلت هذه الحملات الجزية الواردة إلى مصر من بلاد عديدة منها قبرص[٥] ، حيث جاء فى نص الفرعون « تحوتمس الثالث » عن حملته التاسعة التى تمت فى العام الرابع والثلاثين من حكمه ما يلى :



Ỉ nw n (w) wr (w) Isy n rnpt ṯ n

bỉ 3 ḏbt 108 $\frac{1}{2}$

b Ỉ 3 stfw dbn 2040

dḥty ḏbt 5

dḥty nws 1200

ḫ s b d dbn 110

3 b nḏht 1

ṯ 3 gw m 3 wt 2

الترجمة العربية للنص :

هدايا حاكم قبرص فى هذا العام (العام الرابع والثلاثين) :

مائة وثمانية ونصف قالب من النحاس .

نحاس خام : ٢٠٤٠ دبناً (الدبن = ٩١ جرام) .

(وحمولة) خمس قوارب قصدير ، وألف ومائتا قطعة من القصدير ومائة وعشرة دبن من الفيروز (اللازورد) وناب (سن فيل) واحد ، وقطعتان من خشب ثاجو .

كذلك تضمنت حوليات «تحوتمس الثالث » فى العام الثامن والثلاثين (الحملة الثالثة عشرة) ما يفيد قيام قبرص بإرسال جزيتها باعتبارها ضمن البلاد الخاضعة لمصر التى كان اسطولها يسيطر على شرق البحر المتوسط فى المنطقة الممتدة حتى بحر ايجة .

وتكرر نفس الأمر فى الحملة الرابعة عشرة فى السنة التاسعة والثلاثين من حكم تحوتمس الثالث، وكذلك فى الحملة الخامسة عشرة فى العام الأربعين من حكمه حيث سجلت جزية قبرص (أسى Isy) التى تضمنت النحاس وعدداً من الخيول (فرسين)[٧] .

وقد حوت لوحة أنشودة النصر للملك « تحوتمس الثالث » التى عثر عليها فى معبد الكرنك وهى حاليًا موجودة فى المتحف المصرى بالقاهرة رقم (34010):

« ...... لا يوجد متمردون إنهم يأتون حاملين الجزية فوق ظهورهم ، ينحنون لجلالتك ، إنى جعلت الطغاة المعتدين الذين يقتربون منك ضعفاء وقلوبهم تحترق وأجسامهم ترتعش ، جعلتهم تحت قدميك ...... » .

لقد سحقت تحت سيطرتك الأراضى الغربية والشرقية كفيتو (كريت) ، « اسى Isy (قبرص) ...... »[٨] .

كذلك يبدو من المؤكد استمرار خضوع « اسى » (قبرص) للنفوذ المصرى فى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، حيث استمر ورود الاسم فى القوائم الجغرافية مع ملوك مصر : الفرعون سيتى الأول (١٣٠٦ - ١٢٩٠ ق. م) ، والفرعون

رمسيس الثانى (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق. م)[٩] ، ومع بداية القرن الثانى عشـر ق. م اجتاحتها شعوب البحر[١٠] ، وهو ما عبرت عنه نصـوص الفرعـون « رمسـيس الثالث » فى العام الثامن من حكمه حوالى عام ١١١٨ ق. م ، حيث تصدى لخطـر هذه العناصر التى جاءت من البحر ومن الأراضى الساحلية وقضت علـى الدولـة المينوية (Minoen) فى كريت ، كما قضت على الامبراطورية الحيثية .

« ...... فى العام الثامن من حكم جلالة (رمسيس الثالث) تآمرت الشـعوب الأجنبية فى جزرها وأزالت بلادا وشردت الحرب (أهلها) ، ولم تستطع دولـة أن تقف أمامهم ابتداء من خاتى (الامبراطورية الحيثية) وقدى (شاطئ قيليقية وشمال سوريا) وقرقميش ، وأرزاوا (بالقرب من قيليقية) وإسى (قبرص) ....»[١١].

وتشير الأدلة الأثرية إلى ازدياد النفوذ الحضـارى الفينيقـى وخاصـة فـى الجوانب الاقتصادية خلال القرنين التاسع والثـامن ق. م (٨٥٠ – ٧٥٠ ق. م) ، وعندئذ نمت العلاقات التجارية بين مدن صور وصيدا وغيرهما فى فينيقية وعلـى الجانب القبرصى مدن « كيتون » ، وأيداليون ، وانكومى ، وتماسوس ، ولابيثـوس ، ولارناكا وغيرها ، (خريطة رقم ١) ولا بد من القول أن العناصر الفينيقية لـم تنفرد وحدها بالجزيرة ، وإنما شاركتها عناصر اليونان التى انتشرت على سـواحل آسيا الصغرى واستقرت أيضا فى الجزيرة . فى حيـن قـامت جزيـرة «رودس » بدور الوسيط الأساسى بين قبرص واليونان[١٣] (خريطة رقم ٢) .

ثم كان أن انتقلت السيادة على قبرص إلى دولة آشور ، وذلك فى الفترة التـى عرفت اصطلاحا باسم العصر الأشورى الحديث ، وخاصـة بيـن سـنتى ٧٥٠ – ٦١٢ ق. م[١٤] ، وفى تلك الفترة اتجهت سياسـة الامبراطوريـة الأشـورية إلـى السيطرة على الطرق التجارية والحربية والوصول غربا إلـى شـاطئ المتوسـط ومحاولة الحلول محل الامبراطورية المصرية القديمة التى بلغت دور الشـيخوخة ، ويمكن تتبع ذلك من خلال نصوص الملك الأشورى « سرجون الثـانى » (٧٢١ –

٧٠٥ ق.م) الذى تحدث فيها بفخر عن انتصاراته واستيلائه على السامرة عاصمة العبرانيين الشمالية التى صمدت أمام حصار الأشوريين خلال عهد سلفه « شلما نصر الخامس » ، ولكنها انهارت أمام سرجون فى العام الأول من حكمه عام ٧٢١ ق.م ، وبذلك قضى على (مملكة) إسرائيل ونهب أشدود ، وذكر بفخر تبعية حكام جزيرة قبرص له :

« ... أخضع (سرجون الثانى) الملوك السبعة لبلاد أسى « قبرص » (إيادنانا) الذى يسكن فى جزيرة فى البحر (على مسافة) سبعة أيام إن مكانها بعيد جدًا ، لم يذكرها أحد من أسلافه الملكيين منذ الأيام البعيدة جدًا ...... »[١٥] .

ويتضح من النص السابق أن الجزيرة كان يسودها نظام أقرب إلى دويلات المدن بسبب وجود عدد من الحكام للجزيرة بلغ عددهم سبعة كما أشار النص ، ويبدو أن الجزيرة اضطرت للخضوع إلى الأشوريين بعد أن نجحوا فى اخضاع المدن الفينيقية ومنها مدينة صور التى أشارت النقوش التى عثر عليها فى الجزيرة على ما يدل على أن صور كانت لها مستعمرة فى قبرص أو أن دويلة قبرصية كانت خاضعة لصور ويحتمل أن هذه الدويلة كانت كيتيون[١٦].

كذلك ذكرت نصوص سينا خريب (سنحريب) . (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) التعاطف الذى كان موجوداً بين قبرص وبعض المدن الفينيقية ، حيث يشير النص :

« ...... لولى Luli ملك صيدا كان خائفًا من محاربتى ، وفر إلى مدينة قبرص (إيادنانا) وهى جزيرة فى وسط البحر واتخذها ملجأ ، ولكن حتى فى هذه الأرض قابل الموت بسبب تأثير الرعب من أسلحة سيدى (الإله) آشور أنا عينت أيثث بعل (على صيدا) على العرش الملكى وفرضت عليه الجزية ......[١٧] » .

والنص إشارة واضحة لاستمرار سيادة آشور على قبرص ومحاولات الخروج عن سيطرة آشور من جانب صيدًا وأيضًا جزيرة قبرص التي سبق وأعلنت الولاء لحكام آشور حتى لا تتصدى للنشاط التجارى القبرصى بينهم وبين سوريا ومصر وبلاد الأناضول(١٨) .

وقد ترك الملك الأشورى « أسرحدون » (٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م) في نصوصه قائمة بأسماء الحكام التابعين له ومن بينهم حكام قبرص :

« ...... كل ملوك الجزر التى تتوسط البحر ، من مدينة إيادنانا (قبرص)، حتى أيضا تارسيسى Tarsisi (كونسوس حسب رأى Luckenbill) انحنوا تحت قدمى وأخذت منهم جزية كبيرة » .

والنص يشير إلى خضوع جزيرة قبرص للسيطرة الأشورية فى عهد الملك « أسرحدون » كما تتحدث نصوص أخرى عن استدعاء ملوك (حكام) بلاد عديدة ، وعشرة ملوك من قبرص (إيادنانا) التى تتوسط البحر ، للذهاب إلى عاصمته « نينوى » للمشاركة فى بناء قصره(١٩) ، وقد يعنى هذا أيضا من جانب الملك الأشورى «أسرحدون » من دعوته لهذا العدد الكبير من الملوك والحكام البالغ عددهم اثنين وعشرين ملكا بما فيهم حكام قبرص ، الشروع فى تأسيس حصن جديد للملك الأشورى فى العاصمة « نينوى » ما يؤكد إحكام قبضته على الطرق التجارية الممتدة من الساحل الفينيقى حتى جزيرة قبرص صاحبة الموقع البحرى الهام . ذلك أن سيطرة آشور على تلك الطرق يعنى فقدان مصر شريانا هاما فى طرق التجارة العالمية فى تلك الفترة(٢٠) .

وقد استمرت السيادة الأشورية على قبرص فى عهد الملك الأشورى « أشوربانيبال » (٦٦٨ - ٦٣٣ ق. م) الذى أشار فى نصوصه إلى حكامها التابعين لأشور فى عهده ، وعندما إنهارت بعد ذلك الإمبراطورية الأشورية ودمرت عاصمتها حوالى ٦١٢ ق. م نعمت قبرص بالاستقلال .

على أن هذه الفترة كانت محدودة ، إذ عادت قبرص من جديد تحت السـيادة المصرية فى نهاية الأسرة السادسة والعشرين حينما استطاع الفرعـون « أحمس الثانى » حوالى عام ٥٦٨ق. م السيطرة على الجزيرة ذات الموقـع الاستيراتيجى بالإضافة للأهمية الاقتصادية (٢١) .

وحوالى عام ٥٢٥ق. م وقعت مصر فريسة فى أيدى الفرس ، فانتقلت سيادة الجزيرة إلى الفرس الاخمينيين حتى عام ٣٣٣ق. م ، ثم تعـاقب السـيادة عليـها الإسكندر الأكبر وخلفائه من الملوك البطالمة حتى عام ٥٨ق. م .

خاتمة البحث

يتضح من هذه الدراسة أن للموقع الجغرافى المتميز لجزيرة قبرص فى شرق حوض البحر المتوسط بجانب ثرواتها المعدنية والزراعية أثر فى اهتمام الدول القديمة وبخاصة الدول القوية المطلة على البحر المتوسط ومنها مصر وخاتى وآشور بالسيطرة عليها لما فى ذلك من فوائد اقتصادية وعسكرية .

تركز الاهتمام المصرى بجزر بحر ايجه وشرق البحر المتوسط فى بداية الأسرات الفرعونية وحتى نهاية عصر الدولة الوسطى على تغليب علاقات الود مع تلك الجزر واتخاذ الصلات التجارية معها سبيلاً إلى التأثير الحضارى فيها ، وبعد انتهاء الاحتلال الهكسوسى وبدء عصر الدولة الحديثة ، عادت مصر إلى الاهتمام بالجزء الشرقى من البحر المتوسط ، وضرورة السيطرة على مداخل الهجرات التى يمكن أن تهدد الأمن المصرى . كذلك الحرص والسيطرة على المواقع الاستراتيجية الهامة التى تتحكم فى التاريخ السياسى والتجارى لدول البحر المتوسط .

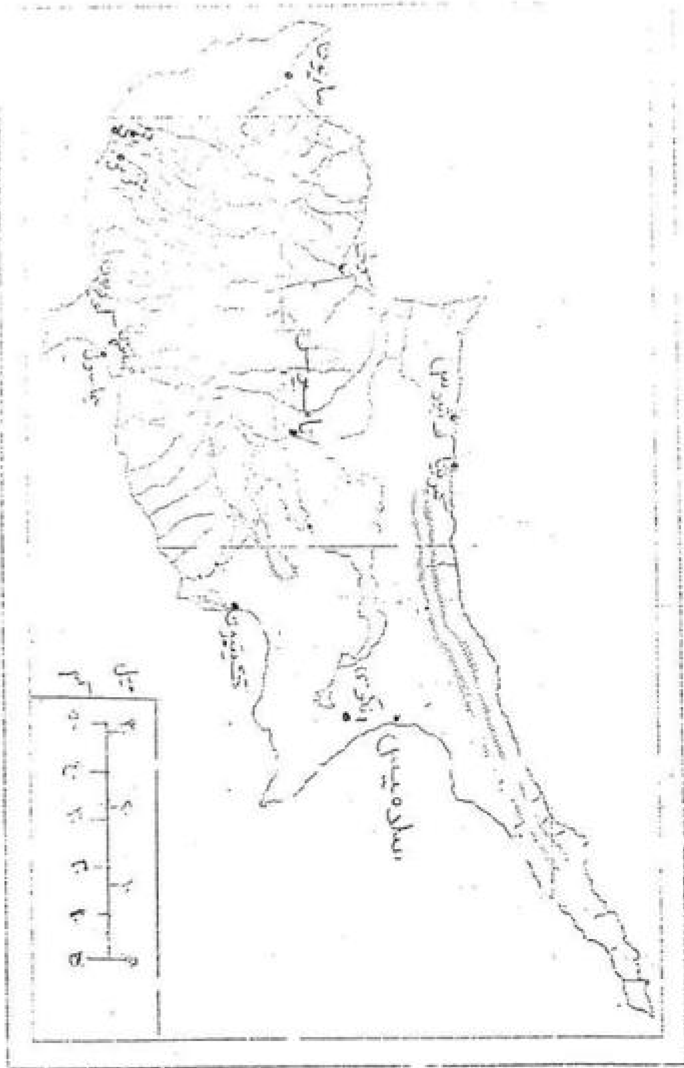
وقد سجلت النصوص الأثرية لملوك عصر الدولة الحديثة سيادة مصر على جزيرة قبرص ، وحرص حكامها على التودد وضمان رضاء ملوك مصر عليهم وذلك باستمرار تقديم الجزية ، وهو ما عبرت عنه نصوص تلك الفترة .

كذلك مثلت قبرص مركزًا تجاريًا أو سوقًا للشرق الأدنى القديم استفادت منه المدن الفينيقية وشاركتها العناصر اليونانية التى كانت قد استقرت فى الجزيرة ، وقامت جزيرة رودس بدور الوسيط الأساسى بينها وبين اليونان .

وحينما دخلت مصر مرحلة من مراحل الضعف بعد انتهاء عصر الدولة الحديثة ، انتقلت السيادة على قبرص إلى دولة آشور التى عبرت نصوصها عن هذه السيطرة ، والتى يفهم منها أن الجزيرة كانت مقسمة إلى دويلات لكل منها حاكمها الذى حرص على تقديم فروض الولاء للدولة الأشورية .

كذلك دلت النصوص الأشورية على ما يؤكد إحكام أشور سـيطرتها علـى الطرق التجارية الممتدة من الساحل الفينيقى وحتى جزيرة قبرص ، وحرمان مصـر من موقع استراتيجى واقتصادى هام فى الفترة من ٧٥٠ - ٦١٢ق. م .

ونظرًا لأهمية قبرص السياسية والاقتصاديـة والعسـكرية قـام الفرعـون المصرى « أحمس الثانى » (الأسرة السادسة والعشرين) بإعادة السيطرة عليـها من جديد . وعندما فقدت مصر استقلالها على أيدى الفرس ، انتقلت سيادة الجزيـرة إلى الفرس ، ثم تناوبت السيادة عليها القوى الجديدة التى ظـهرت علـى مسـرح التاريخ .



(خريطة رقم ١) أهم المدن القديمة فى قبرص



(خريطة رقم ٢) قبرص وشرق البحر المتوسط

نقلاً عن : Blegen, C.W. CAH, Vol. II, P.2, P.183

حواشي البحث

(1) Goult, Herman, The New Encyclopaedia Britannica Vol. 5, P. 402.

(٢) جـ . كونتنو : الحضارة الفينقية ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة طه حسين ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ١٠٥ .

(٣) راجع للباحث الأقواس التسعة من خلال مقابر الأسرة الثامنة عشرة فى مصر القديمة، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية المجلد ٣٨ ، ١٩٩٠ .

عن العلاقات بين مصر وسكان جزر بحر ايجه والكلمة المصرية « حاونبوت » ، ووجود الأوانى الحجرية وغيرها من الأدلة الأثرية فى كريت ، والطرق التجارية من مصر إلى سوريا ومنها إلى قبرص وكريت وغيرها من جزر البحر المتوسط ، راجع .

Vercoutter, T, The Near East, London, 1967, P. 367.

(٤) عصر البرونز الأخير فى قبرص ينقسم إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى من ١٥٥٠ – ١٤٠٠ق. م ، والثانية من ١٤٠٠ – ١٢٠٠ق.م، والثالثة من ١٢٠٠ – ١٠٥٠ق. م انظر :

Catling, H. W., Cyprus in the late Bronze Age, CAH, Vol. II, P. 2, P. 188.

(٥) بعض هذه الجزى كانت جزى حقيقية من بلاد مهزومة ، وبعضها هدايا من حكام بلاد بعيدة تطلب ود الفرعون تحوتمس الثالث الذى يسيطر بأسطوله القوى على موانى فينيقية وفلسطين وجزر البحر المتوسط ، انظر :

Wilson, J., The Asiatic Campaigns of Thut – mose III, ANET, P. 238.

(6) Urk, IV, PP. 707-708.

(7) Urk, IV, P. 719, ARE, II, PP. 210-212.

(8) Wilson, J., The Hymn of Victory of Thut – mose III, ANET, PP. 373-374.

(9) Wilson, J., Lists of Asiatic Campaigns under the Egyptian Empire, ANET, 242;

وكذا Catling, H. W, Op. Cit, P. 203 – 242, Ibid, P. 204.

(10) The Hittite Archives, JEA, Vol. 25, 1939, PP. 148-150.

Redford, D., Egypt, Canaan, and Isreal, in Ancient Times, Cairo, 1995, P. 253.

Wainwright, G. A, Some Sea – Peoples and Others in Hill, G. F., A History of Cyprus, 1., CAH, 1940, P. 44.

Roberts, J. M, History of the World, New York, 1993, P. 86.

(11) Wilson, J., The War Against the Peoples of the Sea, ANET, P. 262.

كما ورد اسم « الأشيا Alashiya » فى رحلة ون آمون ، راجع :

Wilson, J., The Journey of Wen – Amon to Phoenicia, ANET, PP. 25-29;

تم قبول أن «اسى » هى قبرص ، وفى عام ١٨٩٥ «ماكس مولر Max Müller » حاول توضيح أن أليسا (الأشيا) كانت شكلا آخر لنفس الكلمة ، وآلاشيا هى أيضا قبرص ، راجع :

Wainwright, G. A., Alashia = Alasa, and Asy, Klio, Leipzig, 1915, P. 2.

(١٢) خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م الابجيون وصلوا إلى الجزيرة فى البداية كتجار ، ولكن فى نهاية هذه الفترة كمستوطنين .

كما يوجد اتصال بين فينيقيا وقبرص من القرن الثالث عشر وما بعده ، وهناك اسطورة الأميرة «اليسا » التى فرت من صور إلى قبرص فى طريقها إلى قرطاجة فى القرن التاسع ق. م ، انظر .

Harden, D, The Phoenicians, New York, 1971, PP. 52-60.

Baramki, D., The Phoenicians, P. 59.

جـ . كونتنو :المرجع السابق ، ص١٠٤ .

(13) Bickham Sweet – Escott, The New Encyclopaedia Britannica Vol. 5, P. 406.

(14) Ibid, 406.

(15) Oppenheim, L., Babylonian and Assyrian Historical Texts, ANET, 284.

(١٦) محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٥٩ .

وكذا : Baramki, D., Op. Cit, P. 32.

خضوع حكام قبرص للملك الأشورى « سرجون الثانى » جعله يقيم لوحة لتسجيل الحدث فى عاصمته «دار شاروكين » (خورسباد) وكذلك فى كيتيون واللوحة موجودة حاليا فى متحف برلين ، وفيها تتم الإشارة إلى قبرص باسم « يا أتانانا Yatnana وقد سمح حكام الجزيرة بحفر صورة سرجون الثانى ورموز آشور على اللوحة ، راجع :

The New Encyclopaedia Britannica, P. 406.

(17) Oppenheim, L., Op. Cit., P. 288; Smith, S., Sennacherib and Esarhaddon, CAH, Vol. III, P. 72.

(١٨) « لولى » وصف كحاكم لمدينتى صيدا وصور ، وصف بالنشاط والتصدى للحكم الأشورى ، تحالف مع مصر ويهوذا ، فى عام ٧٠١ ق. م اجبره «سنحريب » على الفرار إلى قبرص ، انظر :

Harden, D., Op. Cit., P. 49.

(19) Oppenheim, L., Op. Cit., pp. 290-291.

(20) Smith, S., Op. Cit., p. 84.

(21) Gardiner, A., Egypt of the Pharohs, London, 1974, p. 362.

مرويات عمر بن شبه فى تاريخ الطبرى

بين سنتى ٥٩ ، ٦٥هـ

د. عبد العزيز عبد الله السلومى (*)

من الواضح أن تاريخنا الإسلامى الذى دون عبر الأجيال المتتابعة يعطينا صورة عملية ووجه كامل لأحداث تاريخ هذه الأمة . وقد تم نقل وجمع وتدوين هذا التاريخ بطرق شتى من أهمها أسلوب المحدثين فى الإسناد ويقوم هذا المنهج على الاستقراء والتجرد فى معرفة أى قضية أو حدث من خلال التعرف على حقيقة الرواية بدراسة أسانيدها وكان الإمام الطبرى رحمه الله أحد أعلام هذا المنهج فى مؤلفاته وبخاصة كتابه « تاريخ الرسل والملوك » ، حيث اعتمد فى رواياته التاريخية على عدد كبير من مشايخه المحدثين والإخباريين وغيرهم أمثال سيف بن عمر ، والمدائنى وعوانه بن الحكم ، وأبى مخنف ، والواقدى ، وابن الكلبى ، وعمر بن شبه ، وغيرهم ممن تباينوا فى الدقة والاتجاه والأسلوب وحتى فى كيفية الرواية . ولم يشترط الطبرى صحة كل ما رواه فى كتابه وإنما أورد الروايات وأسندها إلى رواتها تاركا الحكم فيها للقارئ ، ويتفق هذا مع ما قاله فى مقدمة كتابه : « فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا[1] » ، وهكذا فإن الأمر يحتاج إلى تحقيق ودراسة وتمحيص فى الأسانيد ورواتها ، والروايات ومتنها مع مقارنتها

(*) أستاذ الحضارة والنظم الإسلامية المساعد - كلية الشريعة جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

بما ورد في المصادر الأخرى ، وهذا ما حدث بالفعل حيث عني عدد لا بأس به من الباحثين في كل من جامعتي أم القرى بمكة المكرمة والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بدراسة مرويات العديد من شيوخ الطبري خلال فترة معينة من التاريخ عبر رسائل علمية مهمة في التاريخ والدراسات التاريخية والحضارية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري[٢] ، مرويات جوانه بن الحكم والواقدي[٣] ، ومرويات سيف ابن عمر[٤] ، ومرويات عمر بن شبه[٥] ، وغيرها من المرويات التي اتفقت جميعها في الطريقة والمنهج وقد اخترنا أن نضيف إلى تلك الدراسات هذه الدراسة وموضوعها مرويات عمر ابن شبه في تاريخ الطبري خلال سنتي ٥٩ — ٦٥هـ دراسة مقارنة وعددها اثنان وعشرون رواية .

وفي دراستي لهذه الفترة امتداداً واتصالاً لما سبق فقمت بجمع مرويات عمر ابن شبه برواياتها وأسانيدها ، وأجريت دراسة لرجالات السند حيث استقيت الحكم عليهم من خلال ما كتبه عنهم علماء الجرح والتعديل ، صحة أو ضعفاً كل بحسبه، ولهذا يتضح للباحث مستوى سند الرواية .

كذلك عملت عند دراسة الرواية على مقارنتها بما وردت في المصادر الأخرى سواء من خلال تتبع السند أو مقارنة المتن ، حرصت قدر جهدي على تبيان الفروق بينها من خلال كتب التاريخ والتراجم التي رجعت إليها ، كما عملت على الترجمة المختصرة للأعلام غير المشهورين الذين وردوا في النص ، وقمت بتوضيح معاني الكلمات أو المصطلحات أو الأماكن المهمة وشرح معانيها وتحديد أماكنها ، وذلك بالاعتماد على المصادر المتباينة .
وحيث أن علمي هذا البحث وهما : محمد بن جرير الطبري ، وعمر بن شبه ،

قد تمت دراستهما دراسة مستوفية عبر كثير من المصادر القديمة والحديثة فإنني آثرت في ذلك عدم التكرار أو حتى الاختصار .

أما من حيث ترتيب الروايات فقد أوردتها وفق ترتيبها كما ذكرها الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك من غير تقديم ولا تأخير حتى لا يكون هناك تداخل في بعض الروايات أو في تاريخ حدوثها .

الرواية الأولى : ٥ / ٣٢٨

١ — حدثني عمر ، قال : حدثنا علي ، عن إسحاق بن خليد ، عن خليد بن عجلان مولى عباد : مات معاوية ويزيد بحوارين[٦] ، وكانوا كتبوا إليه حين مرض ، فأقبل وقد دفن ، فأتى قبره فصلى عليه ، ودعا له ثم أتى منزله ، فقال :

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا : لك الويل ماذا في كتابكم ؟ ... قالوا : الخليفة أمس مثبتا وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر[٧] من أركانها انقطعا
من لا تزل نفسه توفى على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا

رجال السند :

- أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني الأخباري : قال عنه يحيى بن معين : ثقة ثقة ثقة ، وقال ابن عدي : « ليس بالقوي الحديث » وقال الطبري : « كان عالما بأيام الناس صدوقا في ذلك » وقال الذهبي : العلامة الحافظ الصادق الإخباري » وقال أيضا : « صدوق » ولد سنة ١٣٢هـ وتوفي سنة ٢٢٤هـ[٨] .

- إسحاق بن خليد : مولى سعيد بن العاص القرشي ، قال عنه البخارى : شـــيخ ، وذكره ابن حبان فى الثقات[٩] .

- خليد بن عجلان مولى عباد : لم أقف على ترجمته .

دراسة الرواية(١) :

لهذه الرواية عدة وجوه ، اتفقت جميعها من ناحية المضمون ، وأن اختلفــت فى تطابق النص ، فقد ذكرها ابن عبد البر[١٠] بسنده بقوله : روى محمد بن عبـد الله ابن الحكم[١١] ، قال : سمعت الشافعى ، يقول : لما ثقل معاوية كان يزيد غائبا فكتـب إليه بحاله ، فلما أتاه الرسول أنشأ يقول : وذكر الأبيات الواردة فـــى الروايـــة مـــع اختلاف فى بعض الكلمات ، فقد اتفقت الأبيات الثلاث الأولى مع أبيات النـــص وأن اختلف فى بعض كلماتها ، كما ذكر الشافعى أن البيتين الأخيرين للأعشى[١٢] .

أما صاحب العقد الفريد[١٣] ، فقد أوردها بسنده إلى الهيثم بن عدى[١٤] ، بقوله: أخرج إلى يزيد بريدا بكتاب يستقدمه ويستحثه ، فخرج مسرعا . فتلقاه يزيد فـأخبره بموت معاوية ، فقال يزيد الأبيات المذكورة . وأورد قول محمد بن عبــد الحكــم : قال الشافعى : سرق هذين البيتين من الأعشى .

أما ابن سعد فقد أورد رواية على بن محمد المدائنى هذه من طريق آخر بسند حسن عن سليمان بن أيوب وذكر مطولا أحداث وفـــاة معاويـــة رضـــى الله عنـــه والأبيات التى قيلت فى ذلك ، حيث أوردها ثمانية أبيات مـــع تقديـــم وتـــأخير فـــى بعضها[١٥] .

كما أورد ابن الأثير[١٦] هذه الرواية غير مسندة بقوله : وقيـــل : لمـــا اشـــتد مرضه — أى مرض معاوية — كان ولده يزيد بحوارين ، فكتبوا إليه يحثونه علـــى المجئ ليدركه فقال يزيد شعرا وذكر الأبيات .

أثبتت النصوص بعد يزيد عن أبيه معاوية عند وفاته ، وإنشاده تلك الأبيات عند تلقى نبأ مرضه ، وحثه على الحضور إلى دمشق ، وكذا ما ذكره عمر ابن شبه فى روايته للنص أن يزيد بن معاوية قد أقبل بعد دفن أبيه وإنشاده للشعر فى منزله بعد أن أتى قبر أبيه وصلى عليه .

أما صاحب الاستيعاب(١٧) ، فذكر أن معاوية قد أفاق حين وصل ابنه يزيد وأوصى إليه بقوله : يا بنى إنى صحبت رسول الله ﷺ ، فخرج لحاجة فاتبعته بإداوة ، فكسانى أحد ثوبيه الذى كان على جلده فخبأته لهذا اليوم ، وأخذ رسول الله ﷺ من أظفاره وشعره ذات يوم ، فأخذته وخبأته لهذا اليوم ، فإذا أنامت ، فاجعل ذلك القميص دون كفنى مما يلى جلدى ، وخذ ذلك الشعر والأظافر فاجعله فى فمى، وعلى عينى ، ومواضع السجود منى ، فإن نفع شئ فذاك وإلا فإن الله غفور رحيم .

كذلك أورد ابن كثير(١٨) هذه الوصية بسنده فى آخر خطبة لمعاوية، حيث ذكرها بقوله : وقد ورد من غير وجه أنه أوحى إليه أن يكفن فى ثوب رسول الله ﷺ الذى كساه إياه ، وكان مدخرا عنده لهذا اليوم ، وأن يجعل ما عنده من شعره وقلامة أظفاره فى فمه وأنفه وعينيه وأذنيه .

الرواية الثانية : ٥ / ٣٥٩

٢ — ذكر عمر بن شبة ، عن هارون بن مسلم ، عن على بن صالح ، عنه قال : لما جاء كتاب يزيد إلى عبيد الله بن زياد(١٩) ، انتخب من أهل البصرة خمسمائة ، فيهم عبد الله بن الحارث بن نوفل(٢٠) ، وشريك بن الأعور(٢١) — وكان شيعة لعلى فكان أول من سقط بالناس شريك ، فيقال : إنه تساقط غموة ومعه ناس ثم سقط عبد الله بن الحارث وسقط معه ناس ، ورجوا أن يلوى عليهم عبيد الله ويسبقه الحسين إلى الكوفة ، فجعل لا يلتفت إلى من سقط ،

ويمضى حتى ورد القادسية[٣٢] وسقط مهران مولاه ، فقال: أيا مهران ، على هذه الحال ، إن أمسكت عنك حتى تنظر إلى القصر فلك مائة ألف ، قال : لا ، والله ما استطيع فنزل عبيد الله فأخرج ثيابا مقطعة من مقطعات اليمن ، ثم اعتجر[٣٣] بمعجرة يمانية ، فركب بغلته ، ثم انحدر راجلا وحده ، فجعل يمر بالمحارس فكلما نظروا إليه لم يشكوا أنه الحسين ، فيقولون : مرحبا بك يابن رسول الله ﷺ ! وجعل لا يكلمهم ، وخرج إليه الناس من دورهم وبيوتهم ، وسمع بهم النعمان بن بشير[٣٤] فغلق عليه وعلى خاصته ، وانتهى عبيد الله وهو لا يشك أنه الحسين ومعه الخلق يضجون ، فكلمه النعمان ، فقال : أنشدك الله إلا تنحيت عنى ما أنا بمسلم إليك أمانتى ، ومالى فى قتلك من أرب ، فجعل لا يكلمه . ثم إنه دنا وتدلى الآخر بين شرفتين ، فجعل يكلمه فقال : افتح لا فتحت ، فقد طال ليلك ، فسمعها إنسان خلفه ، فتكفى إلى القوم ، فقال : أى قوم ، ابن مرجانه ، والذى لا إله غيره فقالوا : ويحك إنما هو الحسين ، ففتح له النعمان ، فدخل ، وضربوا الباب فى وجوه الناس ، فانفضوا ، وأصبح فجلس على المنبر فقال : أيها الناس إنى لأعلم أنه قد سار معى ، وأظهر الطاعة لى من هو عدو للحسين حين ظن أن الحسين قد دخل البلد وغلب عليه ، والله ما عرفت منكم أحدا ، ثم نزل وأخبر أن مسلم بن عقيل[٣٥] قدم قبله بليلة ، وأنه بناحية الكوفة ، فدعا مولى لبنى تميم فأعطاه مالا ، وقال : انتحل هذا الأمر ، وأعنهم بالمال ، واقصد لهانئ[٣٦] ومسلم وأنزل عليه ، فجاء هانئا فأخبره أنه شيعة ، وأن معه مالا ، وقدم شريك بن الأعور شاكيا ، فقال لهانئ : مر مسلما يكن عندى ، فإن عبيد الله يعودنى، وقال شريك لمسلم : أرأيتك إن أمكنتك من عبيد الله أضاربه أنت بالسيف ؟ قال : نعم والله .

وجاء عبيد الله شريكا يعوده في منزل هانئ — وقد قال شريك لمسلم : إذا سمعتني أقول : اسقوني ماء فأخرج عليه فأضربه — وجلس عبيد الله على فراش شريك ، وقام على رأسه مهران ، فقال : اسقوني ماء ، فخرجت جارية بقدح ، فرأت مسلما ، فزالت ، فقال شريك : اسقوني ماء ، ثم قال الثالثة : ويلكم تحموني الماء اسقونيه ولو كانت فيه نفسي ، ففطن مهران فغمز عبيد الله ، فوثب ، فقال شريك : أيها الأمير ، إني أريد أن أوصي إليك، قال : أعود إليك ، فجعل مهران يطرد به ، وقال : أراد والله قتلك ، قال : وكيف مع إكرامي شريكا وفي بيت هانئ ويد أبي عنده يد فرجع فأرسل إلى أسماء بن خارجة[٢٧] ومحمد بن الأشعث[٢٨] فقال : ائتياني بهانئ ، فقالا له : إنه لا يأتي إلا بالأمان ، قال : وما له وللأمان ! وهل أحدث حدثا! انطلقا فإن لم يأتي إلا بالأمان فأمناه ، فأتياه فدعواه ، فقال : إنه إن أخذني قتلني . فلم يزالا به حتى جاءا به وعبيد الله يخطب يوم الجمعة ، فجلس في المسجد ، وقد رجل هانئ غديرتيه[٢٩] ، فلما صلى عبيد الله ، قال : يا هانئ ، فتبعه ، ودخل فسلم ، فقال عبيد الله : يا هانئ ، أما تعلم أن أبي قدم هذا البلد فلم يترك أحدا من هذه الشيعة إلا قتله غير أبيك وغير حجر[٣٠] ، وكان ابن حجر ما قد علمت ، ثم لم يزل يحسن صحبتك ، ثم كتب إلى أمير الكوفة : إن حاجتي قبلك هانئ ؟ قال : نعم ، قال : فكان جزائي أن خبأت في بيتك رجلا ليقتلني ! قال : ما فعلت ، فأخرج التميمي الذي كان عينا عليهم ، فلما رآه هانئ علم أن قد أخبره الخبر ، فقال : أيها الأمير ، قد كان الذي بلغك ، ولن أضيع يدك عني ، فأنت آمن وأهلك فسر حيث شئت ، فكبا عبيد الله عندها ، ومهران قائم على رأسه في يده معكزة[٣١] ، فقال : وأذلاه ! هذا العبد الحائك يؤمنك في سلطانك! فقال : خذه ، فطرح المعكزه، وأخذ بضفيرتي هانئ ، ثم أقنع بوجهه ، ثم أخذ عبيد الله المعكزة فضرب بها وجه هانئ ، وندر الزج ، فارتز في الجدار ، ثم ضرب وجهه حتى كسر أنفه وجبينه ، وسمع الناس الهيعة وبلغ الخبر مذحج ، فأقبلوا ،

فاطافوا بالدار ، وأمر عبيد الله بهانئ فألقى فى بيت ، وصيح المذحجيون ، وأمر عبيد الله مهران أن يدخل عليه شريحًا[٣٢] ، فخرج ، فأدخله عليه ، ودخلت الشرط معه ، فقال : يا شريح ، قد ترى ما يصنع بى قال : أراك حيًا ، قال : وحى أنا مع ما ترى ! أخبر قومى أنهم إن انصرفوا قتلنى ، فخرج إلى عبيد الله فقال : قد رأيته حيًا ، ورأيت أثرًا سيئًا ، قال : وتنكر أن يعاقب الوالى رعيته ! أخرج إلى هؤلاء فأخبرهم ، فخرج ، وأمر عبيد الله الرجل فخرج معه ، فقال لهم شريح : ما هذه الرعة السيئة ! الرجل حى ، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه ، فانصرفوا ولا تحلوا بأنفسكم ولا بصاحبكم فانصرفوا .

رجال السند :

- هارون بن مسلم بصرى ، من السابعة مستور ، وذكره ابن حبان فى الثقات[٣٣].
- على بن صالح بن حى الهمدانى أبو محمد : ثقة عابد من السابعة ، مات ١٥١هـ وقيل بعدها ، وثقه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين[٣٤] .

دراسة الرواية(٢) :

تقاربت رواية ابن الأثير[٣٥] التى أوردها بدون سند مع رواية عمر بن شبه هذه فى أحداث الجزء الأول من الرواية ، وان اختلف فى أسماء من خرج مع عبيد ابن زياد حيث ذكر ابن الأثير ، أن مسلم بن عمرو الباهلى[٣٦] كان ممن خرج مع ابن زياد ، وفى رواية ابن شبه ، أن عبيد الله بن الحارث بن نوفل ، كان ممن أنتخبه ابن زياد للخروج معه إلى الكوفة ، وأفاض فى تفاصيل دخوله ، مع إيجاز ابن زياد لأهل الكوفة ، والتى أفردها ابن الأثير .

ويروى المسعودى وابن كثير بدون سند[٣٧] ، أن يزيد بن معاوية ولى عبيد الله بن زياد ، إمرة الكوفة وحثه على قتل مسلم بن عقيل أو نفيه ، وكيف استقبله والى الكوفة ، النعمان بن بشير ظانا منه أنه الحسين بن على .

وأوردت كثير من المصادر الوسيلة التى لجأ إليها عبيد الله بن زيـــاد ، فـــى تقصى ومعرفة مكان مسلم بن عقيل ، فقد أوردها الحافظ ابن حجـــر(٣٨) بسنده : وقال عمار بن معاوية الدهنى(٣٩) ، قلت لأبى جعفر محمد بن على ابن الحسين(٤٠) ، حدثنى عن مقتل الحسين حتى كأنى حضرته ، فذكر فى روايته الطريقة التى لجـــأ إليها ابن زياد لمعرفة مكان مسلم بن عقيل .

كما اتفقت رواية ابن الأثير وابن كثيـــر(٤١) ، مع روايـــة عمر بن شـــبه ، من حيث الإطـــالة وتفصيل الأحداث ، دون الإخلال بـــالمعنى العـــام للروايـــة ، خاصة فى ذكر ما أقـــدم عليـــه عبيد الله بن زياد مع هـــانئ بن عروة المـــرادى ، إلا أن تلك الأحداث جاءت موجزة من طريق ابن حبان(٤٢) حيث قال : وأخبر عبيـــد الله بن زياد ، أن مسلم بن عقيل فى دار هانئ بن عروة المـــرادى ، فدعـــا هانئـــا وسأله فأقر به ، فهشم عبيد الله وجه هانئ ، بقضيب كان فى يده حتى تركـــه وبـــه رمق ، ثم أورد القصة كاملة مع اختلاف فى الطريقة التى تم القبض فيها على مسلم ابن عقيل وقتله .

كذلك أشـــار الدينورى إلى هذه القصة بقوله : « ... أن ابن هانئ خـــرج إلى عبيد الله بن زيـــاد ، ومعه عصاه وكان أعرج ، ثم دخل على ابن زيـــاد فقـــال له : يا هانئ أما كانت يد زياد عندك بيضاء ؟ قـــال : بلى ، قال ويدى ؟ قـــال : بلى فقال هانئ : قد كانت لكم عندى يد بيضاء ، وقد أمنتك على نفســـك ومـــالك ، فتناول العصا التى كانت بيد هانئ فضرب بها وجهه حتـــى كســـرها ، ثـــم قدمـــه فضرب عنقه ...(٤٣) » .

الرواية الثالثة : ٥ / ٤٧١ — ٤٧٣

٣ — حدثنى عمر ، قال : حدثنى على بن محمد ، قال : حدثنا مسلمة بن محـــارب ابن سلم بن زياد ، قال : وفد سلم بن زياد(٤٤) ، على يزيد بن معاويـــة وهـــو

ابن أربع وعشرين سنة ، فقال له يزيد : يا أبا حــرب ، أوليك عمل أخويـك: عبد الرحمن وعباد[٤٥] ؟ فقال : ما أحب أمير المؤمنيــن ، فــولاه خراســان وسجستان ، فوجه سلم ، الحارث بن معاوية الحارثي جد عيسى بــن شـبيب من الشام إلى خراسان ، وقدم سلم البصرة ، فتجهز وسار إلـــى خراســان ، فأخذ الحارث بن قيس بن الهيثم السلمي فحبسه ، وضرب ابنه شبيبًا وأقامــه فى سراويل ، ووجه أخاه يزيد بن زياد إلى سجستان .

فكتب عبيد الله بن زياد إلى عباد أخيه — وكان له صديقًا — يخــبره بولايــة سلم ، فقسم عباد ما فى بيت المال فى عبيده ، وفضل فضل فنادى مناديه : مـن أراد سلفًا فليأخذ ، فأسلف كل من أتاه ، وخرج عباد عن سجستان ، فلما كان بجيرفت[٤٦] بلغه مكان سلم — وكان بينهما جبل — فعدل عنه ، فذهب لعباد تلــك الليلــة ألــف مملوك ، أقل ما مع أحدهم عشرة آلاف قال : فأخذ عباد على فارس ، ثم قدم علــى يزيد ، فقال له يزيد : أين المال ؟ قال كنت صاحب ثغر ، فقسمت ما أصبـت بيـن الناس . قال : ولما شخص سلم إلى خراسان شخص معه عمـــران بــن الفصيـل البرجمى[٤٧] ، وعبد الله بن خازم السلمى[٤٨] ، وطلحة بـــن عبـد الله بــن خلـف الخزاعى[٤٩] ، والمهلب بن أبى صفره[٥٠] ، وحنظلة بن عراده[٥١] ، وأبـــو حزابـه الوليد بن نهيك[٥٢] أحد بنى ربيعة بن حنظلة ، ويحى بن يعمر العدوانى[٥٣] حليــف هذيل ، وخلق كثير من فرسان البصرة وأشرافهم ، فقدم سلم بن زياد بكتاب يزيــد ابن معاوية إلى عبيد الله بن زياد بنخبة ألفى رجل ينتخبهم — وقال غيره : بل نخبـة ستة آلاف — قال : فكان سلم ينتخب الوجوه والفرسان .

ورغب قوم فى الجهاد فطلبوا إليه أن يخرجهم ، فكان أول من أخرجه ســلم حنظلة بن عراده ، فقال له عبيد الله بن زياد : دعه لى ، قال : هو بينــى وبينـك ، فإن اختارك فهو لك ، وإن اختارنى فهو لى ، قال : فاختار سلمًا ، وكـــان النــاس يكلمون سلمًا ويطلبون إليه أن يكتبهم معه ، وكان صله بن أشيم العــدوى[٥٤] يــأتى

الديوان فيقول له الكاتب : يا أبا الصهباء ، ألا أثبت أسمك ، فإنه وجه فيـــه جـــهاد وفضل ؟ فيقول له : استخير الله وانظر ، فلم يزل يدافع حتى فرغ من أمر النـــاس ، فقالت له امرأته معاذه ابنة عبد الله العدوية[٥٥] : ألا تكتب نفسـك ؟ قـــال : حتـى انظر ، ثم صلى واستخار الله ، قال : فرأى فى منامه آتيا أتاه ، فقال لــه : أخـرج فإنك تربح وتفلح وتنجح ، فأتى الكاتب فقال له : أثبتنى ، قال : قـد فرغنـــا ولــن أدعك ، فأثبته وابنه ، فخرج سلم فصيره سلم مع يزيد بن زياد فسار إلى سجستان .

قال : وخرج سلم وأخرج معه أم محمد ابنة عبد الله بن عثمـــان بــن أبــى العاص الثقفى ، وهى أول امرأة من العرب قطع بها النهر .

رجال السند :

- على بن محمد المدائنى : سبقت ترجمته فى سند رقم ١ .
- مسلمة بن محارب بن سلم بن زياد ، كوفى روى عن أبيه . أن معاوية كتب إلـى زياد سمعت النبى ﷺ يقول : أن العجم أو العدو لا ينصرونى على قـوم ، روى عن ابن جريج ، وروى أبو الحسن المدائنى عنه. ذكره ابن حبان فى الثقات[٥٦] .

دراسة الرواية(٣) :

أورد خليفة بن خياط[٥٧] مختصرًا أن سلم ابن زياد غزا خوارزم فى أحـــداث عام ٦٢هـــ .

فيما أورد ابن كثير وابن الأثير[٥٨] أن ولاية سلم بن زياد فى أحـــداث عـــام ٦١هــ فقد يكون تولى سلم بن زياد خراسان نهاية ٦١هـــــ وقيامـــه بغـزو بـــلاد خوارزم جاء فى أوائل عام ٦٢هـــ ، وعليه فليس هنـــاك اختلاف فى ذكر عـــامى ٦١ ، ٦٢ . فقد وافق ابن الأثير عمر ابن شبه فى عرضه للنص وتفصيل الأحـــداث منذ ولاه يزيد بن معاوية لخراسان وانتخابه للوجوه التى خرجت معه من البصـــرة ، بينما أوجز ابن كثير تلك الأحداث بصورة أكثر اختصاراً .

أما ابن عساكر وابن عبد ربه(٥٩) فقد أوردا نصيحة يزيد بن معاوية لسلم حين ولاه خراسان فقال له : إن أباك كفى أخاه عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً فلا تتكلن على عذر منى ، وقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك فإن الظن إذا أخلف منك أخلف فيك ، وأنت فى أدنى حظك فأبلغ أقصاه ، وقد أتعبك أبوك فلا ترح نفسك ، واذكر فى يومك أحاديث غدك .

فى حين أبرز صاحب كتاب الفتوح(٦٠) الدور الذى قام به عبيد الله بن زياد تجاه من خرج على سلم بن زياد إلى خراسان وبين سر العداوة التى بينه وبين أخيه سلم بن زياد .

وقد جاء اسم سلم بن زياد عند ابن الجوزى(٦١) سالم بن زياد وأما الذهبى(٦٢) فقد ذكره سالم بن أحور .

وقد اتفقت المصادر السابقة على خروج زوج سلم بن زياد ، أم محمد ابنة عبد الله بن عثمان بن أبى العاص الثقفية معه وهى أول امرأة من العرب قطع بها النهر إلى جانب ذكر غنائم المسلمين والتى بلغت نيف وعشرين ألف، كما ذكر ابن الأثير أن سلم كان يأخذ الرأس والدابة والمتاع بنصف الثمن .

كما أوردها الطبرى من طريق المدائنى بسنده عن شيخ ، من خزاعة وذكرها مختصرة(٦٣) .

الرواية الرابعة : ٥ / ٤٩٩

٤ – حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ، عن هشام بن الوليد المخزومى ، أن الزهرى كتب لجده أسنان الخلفاء ، فكان فيما كتب من ذلك: مات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين ، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر فى قول بعضهم ، ويقال : ثمانية أشهر .

رجال السند :

– محمد بن يحيى بن على بن عبد الحميد بن عبيد بن غسان بن يسار الكنانى أبو غسان المدنى ، شيخ ثقة من العاشرة ، لم يصب السليمانى فى تضعيفه . ذكره ابن حبان فى الثقات(٦٤) .

- هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى . ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال وهو الذى ضرب سعيد بن المسيب بالسياط ، ليس بثقة ولا مأمون ولا تحل الرواية عنه لما مر لسعيد[٦٥] .

- محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى ، الفقيه الحافظ ، متفق على جلالته وإتقانه من رؤوس الطبقة الرابعة ، توفى سنة ١٢٥هـ وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين[٦٦] .

دراسة الرواية(٤) :

اختلفت المصادر فى تحديد فترة خلافة يزيد بن معاوية ، وعمره عند الوفاة ، حيث ذكر خليفة بن خياط[٦٧] ، أنه مات يزيد بن معاوية بحوارين من بلاد حمص ، وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ليلة البدر فى شهر ربيع الأول ، ومات وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، وقالوا : ابن بضع وأربعين سنة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر واثنين وعشرين يومًا.

كما ذكر المحقق ابن كثير[٦٨] : أنه مات لأربع عشرة ليلة من ربيع الأول سنة أربع وستين ، وهو ابن خمس أو ثمان وثلاثين سنة ، فكانت ولايته ثلاث سنين وستة أو ثمانية أشهر .

كما أرخ ابن الجوزى[٦٩] وفاته بقوله : توفى لأربع عشر خلت من ربيع الأول من هذه السنة (أربع وستون) بقرية من قرى حمص يقال لها حوارين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وقيل تسع وثلاثين ، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر وقال الواقدى : وثمانية أشهر إلا ثمان ليال .

وقد ذكر ابن الأثير[٧٠] فى حوادث سنة أربع وستين وفاة يزيد بن معاوية بقوله : وفى هذه السنة توفى يزيد بن معاوية بحوارين من أرض الشام لأربع عشر

خلت من شهر ربيع الأول ، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة فى قول بعضهم ، وقيـــل : تسع وثلاثين ، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر .

كما أن الطبرى أورد رواية بسند مجهول عن أحمد بن ثابت عمن حدثـه ... « أن يزيد بن معاوية توفى لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وكـــانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمان ليال »[٧١] .

ثم إنه أورد رواية عن هشام بن محمد الكلبى شذ فيها عن بقية المؤرخين مـن أن ولاية يزيد بن معاوية كانت سنتين وثمانية أشهر ... وأنه توفـى سـنة ثـلاث وستين وهو ابن خمس وثلاثين سنة[٧٢] . إلا أن هذه الرواية لا تصمد مع ما ســبق إيراده من روايات كلها أجمعت على أن مدة خلافته ثلاث ســنين وبضعـة أشـهر تفاوتت بين الستة إلى ثمانية .

الرواية الخامسة : ٥ / ٥٠٣

٥ — حدثنى عمر ، عن على بن محمد ، قال : لما استخلف معاوية بن يزيد وجمـع عمال أبيه ، وبويع له بدمشق ، هلك بها بعد أربعين يومًا من ولايته ، ويكنـى أبا عبد الرحمن ، وهو أبو ليلى ، وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم ابن عتبة بـن ربيعه ، وتوفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يومًا .

رجال السند(٥) :

– على بن محمد المدائنى : سبق ترجمته . (سند رقم ١) .

دراسة الرواية :

أورد ابن شبه هذه الرواية من رواية المدائنى الذى رواها من دون ذكر لسنده كما تعددت الروايات فى مدة خلافة معاوية بن يزيد ، وعمره حين وفاته ، فقد أورد خليفة بن خياط[٧٣] ، قوله : « استخلف ابنه معاوية بن يزيد بـــن معاويـــة ، فـأقر

عمال أبيه ولم يول أحدًا ، ولم يزل مريضًا حتى مات وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، ويقال : عشرين سنة » . ولم يذكر شيئًا عن مدة خلافته .

أما ابن قتيبة[٧٤] فذكر أنه « لما مات يزيد بن معاوية ، استخلف ابنه معاوية، وهو يومئذ ابن ثماني عشرة سنة ، فلبث واليًا شهرين وليالي محجوبًا لا يرى ، ثم خرج بعد ذلك ، قال : فجمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إني نظرت بعدكم فيما صار إلي من أمركم ، وقلدته من ولايتكم فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي ، فاختاروا مني إحدى خصلتين : إما أن أخرج منها ، واستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعًا، وإما تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها.

قال : فلم يلبثوا بعدها إلا أيامًا حتى طعن ، فدخلوا عليه ، فقالوا له : استخلف على الناس من تراه لهم رضا ، فقال لهم : عند الموت تريدون ذلك؟ لا والله لا أتزورها ، ما سعدت بحلاوتها ، فكيف اشقى بمرارتها ، ثم هلك ولم يستخلف أحدًا » .

أما ابن كثير[٧٥] فقد أورد عدة أقوال في ذلك ، فمن قوله : بويع له بعد موت أبيه وكان ولي عهده من بعده في رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين ، وكان رجلاً صالحًا ناسكًا ، ولم تطل مدته ، وقيل : إنه مكث في الملك أربعين يومًا ، وقيل عشرين يومًا ، وقيل شهرين ، وقيل شهرًا ونصف الشهر ، وقيل ثلاثة أشهر وعشرين يومًا ، وقيل أربعة أشهر .

ثم مات معاوية بن يزيد عن إحدى وعشرين وقيل ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يومًا ، وقيل تسع عشرة سنة ، وقيل عشرون سنة ، وقيل ثلاث وعشرون سنة ، وقيل : إنما عاش ثماني عشرة سنة ، وقيل تسع عشرة سنة، وقيل عشرون ، وقيل خمس وعشرون كما أورد الذهبي في حوادث سنة ٦٤هـ[٧٦] ، قوله : « ولما هلك يزيد بويع بعده ابنه معاوية بن يزيد ، فبقي في الخلافة أربعين

يومًا ، وقيل شهرين ، أو أكثر متمرضا ، والضحاك بن قيس يصلى بالناس ، فلما احتضر قيل له : ألا تستخلف ؟ فأبى وقال : ما أصبت من حلاوتها ، فلم أتحمل مرارتها ! وكان لم يغير أحدا من عمال أبيه.

وكان شابًا صالحًا ، أبيض جميلاً وسيمًا ، عاش إحدى وعشرين سنة».

كما أن الطبرى أشار فى بعض رواياته أنه لم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر حتى مات(٧٧) .

الرواية السادسة : ٥ / ٥٠٤

٦ – حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنى موسى بن إسماعيل ، قال : حدثنا حماد ابن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن ، قال : كتب الضحاك بن قيس(٧٨) إلى قيس بن الهيثم(٧٩) حين مات يزيد بن معاوية : سلام عليك ، أما بعد ، فإن يزيد بن معاوية قد مات ، وأنتم إخواننا ، فلا تسبقونا بشئ حتى نختار لأنفسنا .

رجال السند :

– موسى بن إسماعيل المنقرى ، مولاهم أبو سلمة التبوذكى البصرى، ثقة ثبت من صغار التاسعة ، توفى سنة ١٢٣هـ(٨٠) .

– حماد بن سلمة بن دينار البصرى أبو سلمة مولى تميم : ثقة ، عابد ، من كبار الثامنة ، أثبت الناس فى ثابت ، تغير حفظه فى آخره ، توفى ١٦٧هـ(٨١) .

– على بن زيد بن جدعان أبو الحسن القرشى التميمى البصرى الأعمى ، ليس بالقوى ، لا يحتج بحديثه ، كان يتشيع ، توفى سنة ١٣١هـ(٨٢) .

- الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى أبو سعيد مولى الأنصار ، وأمه خيره مولاة أم سلمه ، ثقة فقيه فاضل مشهور ، كان يرسل كثيرًا ويدلس ، وهو رأس أهل الطبقة الثالثة ، توفى سنة ١١٠هـ وقد قارب التسعين(٨٣) .

دراسة الرواية(٦) :

جاءت هذه الرواية مسندة من عدة وجوه ، وأن اتفق بعضها فى الإسناد إلى الحسن كما جاءت فى رواية عمر بن شبه ، التى خلت من حديث رسول الله ﷺ ، والذى تصدر الرواية عند الإمام أحمد ابن حنبل(٨٤) ، بقوله :

حدثنا عبد الله حدثنى أبى(٨٥) ثنا عفان(٨٦) ثنا حماد بن سلمه قال أخبرنا على ابن زيد عن الحسن أن الضحاك بن قيس ، كتب إلى الهيثم حين مات يزيد بن معاوية ، سلام عليك أما بعد فإنى سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : إن بين يدى الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم ، فتنًا كقطع الدخان يموت فيها قلب الرجل ، كما يموت بدنه ، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا ، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا ، يبيع أقوام خلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا ، وان يزيد بن معاوية قد مات وأنتم إخواننا وأشقاؤنا فلا تسبقونا حتى نختار لأنفسنا .

وقد وردت هذه الرواية مسندة عند ابن كثير ، وابن الأثير والذهبى(٨٧) .

كما اتفق البلاذرى(٨٨) مع ابن شبه فى النص ، مسندًا من طريق بسام الحمال عن حماد بن سلمه بسنده ، ثم ذكر الرواية كما وردت عند ابن شبه هنا .

الرواية السابعة : ٥ / ٥٠٤

٧ - حدثنى عمر ، قال : حدثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب قال : حدثنا محمد بن أبى عيينة ، قال : حدثنى شهرك ، قال : شهدت عبيد الله بن زياد حين مات يزيد بن معاوية قام خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل

البصرة أتسبوني ، فوالله لتجدن مهاجر والـــدى ومولـــدى فيكـــم ، وداري ، ولقـــد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ولقـــد أحصـــى اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفا ، وما أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفـــا ، ولقد أحصى اليـــوم مائـــة وأربعين ألفـــاً ، وما تركت لكـــم ذا ظنه أخافـــه عليكم إلا وهو في سجنكم هذا .

وإن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف أهل الشـــام وأنتـــم اليوم أكثر الناس عدداً ، وأعرضه فناء ، وأغناه عن النـــاس ، وأوســـعه بـــلاداً ، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، فأنا أول راض من رضيتمـــوه وتابع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن كرهتم ذلك كنتم على جديلتكم حتى تعطوا حاجتكم، فما بكم إلى أحد من أهـــل البلدان حاجة ، ما يستغنى الناس عنكم فقامت خطباء أهل البصرة فقالوا : قد ســـمعنا مقالتك أيها الأمير ، وأنا والله ما نعلم أحدا أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك ، فقال : لا حاجة لي في ذلك فاختاروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتـــى كـــرروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلمـــا أبو بسط يده فبايعوه ، ثم انصرفوا بعد البيعة وهـــم يقولون : لا يظن ابن مرجـــانه أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة ، كذب والله ! ثـــم وثبوا عليه .

رجال السند :

- زهير بن حرب بن شداد الحرشي أو خيثمة النسائي ، ثقة ثبـــت ، أحـــد أعـــلام الحديث من العاشرة . روى عنه مسلم أكثر من ألف حديث . مات سنة ٢٣٤هـــ وهو ابن أربع وسبعين(٨٩) .

- وهب بن جرير بن حازم البصري ثقة حافظ من التاسعة روى له الجماعة، مـــات سنة ٢٠٦هـ(٩٠) .

- محمد بن أبى عيينة بن المهلب البصرى ، ليس من أهل العلم الذى يرجع إلى روايته[٩١] .

- شهرك : لم أقف على ترجمته .

دراسة الرواية(٧) :

وردت خطبة عبيد الله بن زياد ، فى بعض المصادر بإسناد يوافق إسناد ابن شبه ، فقد أوردها البلاذرى[٩٢] بسنده قال : حدثنى أحمد بن إبراهيم[٩٣] حدثنا وهب ابن جرير ، حدثنا محمد بن أبى عيينة ، حدثنى شهرك ، قال : شهدت عبيد الله بن زياد حين جاء موت يزيد بن معاوية ، فقام خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أهل البصرة ... » ثم ذكر نص الخطبة كاملاً ، مع اختلاف فى بعض ألفاظها .

كما جاءت هذه الخطبة فى رواية لابن الأثير[٩٤] ، وابن الجوزى[٩٥] غير مسنده ، وعرضا خطبة عبيد الله بن زياد ، كاملة مع اختلاف فى بعض ألفاظها .

وفى رواية للذهبى[٩٦] ، بسنده : وقال سعيد بن زيد الأزدى[٩٧] : قال عبيد الله لأهل البصرة : اختاروا لأنفسكم ، قالوا نختارك ، فبايعوه وقالوا: أخرج لنا إخواننا، وكان قد ملأ السجون من الخوارج ، فقال : لا تفعلوا فإنهم يفسدون عليكم فأبوا عليه فأخرجهم ، فجعلوا يبايعونه ، فما تتام أخرهم حتى أغلظوا له ، ثم خرجوا فى ناحية بنى تميم .

كما يروى عن جرير بن حازم[٩٨] ، عن عمه ، أنهم خرجوا ، فجعلوا يمسحون أيديهم بجدار باب الإمارة ، ويقولون : هذه بيعة ابن مرجانه، واجترأ عليه الناس ، حتى نهبوا خيله من مربطه .

الرواية الثامنة : ٥ / ٥٠٥

٨ - حدثني عمر ، قال زهير : قال : حدثنا وهب ، قال . وحدثنا الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير ، أن شقيق بن ثور[٩٩] ومالك بن مسمع[١٠٠] وحضين[١٠١] ابن المنذر أتوا عبيد الله ليلاً وهو في دار الإمارة ، فبلغ ذلك رجلاً من الحي من بني سدوس ، قال : فانطلقت فلزمت دار الإمارة ، فلبثوا معه حتى مضى عليه الليل ، ثم خرجوا ومعهم بغل موقر مالاً ، قال : فأتيت حضيناً فقلت : مر لي من هذا المال بشئ - قال : وعلى المال مولى له يقال له : أيوب[١٠٢] - فقال : يا أيوب ، أعطه مائة درهم ، قلت: أما مائة درهم والله لا أقبلها ، فسكت عني ساعة ، وسار هنيهة ، فأقبلت عليه فقلت : مر لي من هذا المال بشئ ، فقال : يا أيوب ، أعطه مائتي درهم ، قلت : لا أقبل والله مائتين ، ثم أمر بثلثمائة ثم أربعمائة ، فلما انتهينا إلى الطفاوه[١٠٣] قلت : مر لي بشئ ، قال : أرأيت إن لم أفعل ما أنت صانع ؟ قلت : أنطلق والله حتى إذا توسطت دور الحي وضعت إصبعي في أذني ، ثم صرخت بأعلى صوتي : يا معشر بكر بن وائل هذا شقيق بن ثور وحضين بن المنذر ومالك بن المسمع ، قد انطلقوا إلى ابن زياد ، فاختلفوا في دمائكم ، قال : ماله فعل الله به وفعل ! ويلك أعطه خمسمائة درهم ، قال: فأخذتها ثم صبحت غاديًا على مالك - قال وهب : فلم أحفظ ما أمر له به مالك - قال : ثم رأيت حضيناً فدخلت عليه ، فقال : ما صنع ابن عمك ؟ فأخبرته وقلت : أعطني من هذا المال ، فقال : أنا قد أخذنا هذا المال ونجونا به ، فلن نخشى من الناس شيئًا ، فلم يعطني شيئًا .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبق ترجمته في سند رقم (٧) وهو ثقة .

- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .

- الأسود بن شيبان السدوس البصرى ، ثقة عابد من السادسة ، توفى سنة ٦٠هـ[١٠٤] ، صالح الحديث .

- خالد بن سمير السدوسى البصرى : صدوق يهم قليلاً ، من الثالثة[١٠٥] .

دراسة الرواية(٨) :

أورد البلاذرى هذه الرواية موجزة بعض الشئ عن رواية ابن شبه ، مع اختلاف فى بعض رجال السند بقوله : حدثنى أحمد بن إبراهيم[١٠٦] ، وخلف ابن سالم[١٠٧] قالا : حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا الأسود بن شيبان عن خالد ابن سمير ، أن شقيق بن ثور ومالك بن مسمع وحضين بن المنذر ، أتو ابن زياد وهو فى دار الإمارة ليلاً ، قبل أن يتحول إلى مسعود بن عمرو ، فأقاموا عنده عامة ليله ، ثم خرجوا ومعهم بغلاً موقر مالاً ، فقال رجل من بنى سدوس : خوفتهم بأن أنادى إن فلانًا وفلانا قد اجتمعوا فى دمائكم ، فأعطوه خمسمائة درهم .
وإسناد البلاذرى هنا إسناد حسن .

الرواية التاسعة : ٥ / ٥١٠ - ٥١١

٩ - قال أبو جعفر وأما عمر فحدثنى قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنا أبى ، عن الزبير بن الخريت ، عن أبى لبيد الجهضمى ، عن الحارث بن قيس ، قال : عرض نفسه - يعنى عبيد الله بن زياد - على ، فقال : أما والله إنى لأعرف سوء رأى كان فى قومك ، قال : فوقفت له ، فأردفت على بغلتى - وذلك ليلاً - فأخذت على بنى سليم ، فقال من هؤلاء ؟ قلت بنو سليم ، قال : سلمنا إن شاء الله ، ثم مررنا ببنى ناجيه وهم جلوس ومعهم السلاح - وكان الناس يتحارسون إذ ذاك فى مجالسهم - فقالوا : من هذا ؟ قلت : الحارث ابن قيس ، قالوا : امضى

راشـدا ، فلمـا مضينا قال رجل منهم : هذا والله ابن مرجانه خلفه ، فرمـاه بسهم ، فوضعه فى كور عمامته ، فقال : يا أبا محمد ، من هؤلاء ؟ قـال : الذين كنت تزعم أنهم من قريش ، هؤلاء بنى ناجيه ، قال : نجونـا إن شـاء الله ، ثم قال : يا حارث ، إنك قد أحسنت وأجملت ، فهل أنـت صـانع مـا أشـير عليك ؟ قد علمت منزلة مسعود بن عمرو فى قومه وشـرفه وسـنه وطاعة قومه له فهل لك أن تذهب بى إليه فأكون فـى داره ، فـهى وسـط الأزد، فإنك إن لم تفعل صدع عليك أمر قومك ، قلت : نعم ، فانطلقت به فما شعر مسعود بشئ حتى دخلنا عليه وهو جالس ليلتئذ يوقد بقضيب على لبنـة ، وهو يعالج خفيه قد خلع أحدهما وبقى الأخر ، فلما نظر فى وجوهنا عرفنـا وقال : إنه كان يتعوذ من طوارق السـوء ، فقلت له : أفتخرجه بعدما دخـل عليك بيتك ! قال : فأمره فدخـل بيت عبـد الغافر بن مسـعود - وامـرأة عبد الغافر يومئذ خيرة بنت خفاف بن عمرو - قال : ثم ركب مسعود مـن ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه ، فطافوا فى الأزد ومجالسهم ، فقالوا : إن ابن زياد قد فقد وأنا لا نأمن أن تلطخوا به ، فأصبحوا فى السلاح ، وفقـد الناس ابن زياد فقالوا : أين توجـه ؟ فقالوا : ما هو إلا فى الأزد ! .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .
- وهب بن جرير بن حازم ، سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .
- جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شجاع الأزدى البصرى ، أبـو النضـر ، توفى سنة ١٦٩هـ ، ثقة لكن فى حديثه عن قتادة ضعف ، له أوهام إذا حـدث من حفظه ، من السادسة ، لم يحدث بعد اختلاطه[١٠٨] .
- الحارث بن قيس بن صهبان بن جهضم بن فهم[١٠٩] .

- الزبير بن الخريت البصرى : ثقة من الخامسة ، له فى مسلم حديث واحد ، قال العجلى : تابعى[١١٠] ثقة .

- أبو لبيد الجهضمى هو لمازه بن زبار الأزدى الجهضمى البصرى : صدوق ناصبى من الثالثة ، صالح الحديث ، أثنى عليه أحمد بن حنبل ، ذكره ابن سعد فى الطبقة الثانية من أهل البصرة ، ذكره ابن حبان فى الثقات[١١١] . وقال ابن معين قد رأى حماد بن زيد أبا لبيد ، وأبو لبيد رأى عليا .

دراسة الرواية(٩) :

أورد البلاذرى[١١٢] ، والذهبى[١١٣] هذه الرواية بإسناد وافق إسناد ابن شبه وإن كان فى رواية البلاذرى إبراهيم الدورقى[١١٤] ، وبدأ الذهبى إسناده بابن الخريت وساق كلا منهما الرواية نفسها .

أما ابن الأثير[١١٥] فقد ذكر الرواية موافقة لرواية ابن شبه من دون إسناد .

كما أوردها ابن الجوزى[١١٦] أيضا بدون إسناد بقوله : وقدم مسلمة بن ذؤيب فدعا الناس إلى بيعة ابن الزبير ، فمالوا إليه وتركوا ابن زياد ، فكان فى بيت المال يومئذ تسعة عشر ألف ألف ، ففرق ابن زياد بعضها فى بنى أمية وحمل الباقى معه ، وخرج فى الليل يتخفى ، فعرفه رجل فضربه بسهم فوقع فى عمامته وأفلت ، فطلبوه فمات وانتهبوا ما وجدوا له فطلب الناس من ثار عليهم . كما يتفق البلاذرى[١١٧] مع ابن شبه ، فى الجزء الآخر من النص ويذكر فيه نفس الإسناد ، بقوله : وحدثنى أبو خيثمه وأحمد بن إبراهيم قالا : حدثنا وهب بن جرير بن حازم ، حدثنى أبى عن الزبير بن خريت عن أبى لبيد عن الحارث بن قيس ، قال : قال لى ابن زياد : إنك قد أحسنت وأجملت فهل أنت صانع ما أشير به عليك ؟ قد عرفت منزلة مسعود بن عمرو وشرفه وسنه وطاعة قومه له ... إلخ .

أما خليفة بن خياط[١١٨] ، فيذكر المدة التى أقامها ابن زياد عند مسعود بن عمرو بقوله : فرفع ابن زياد العطاء ، وشاور أخوته وأهل بيته فى قتال من عصاه وخالفه ، فأشاروا عليه بالكف عن ذلك ، فتنحى وصار إلى مسعود فى جمادى الآخرة سنة أربع وستين ، وأقام عنده أكثر من شهرين ، وإنما صار إلى الدار فى شعبان ، ويقال : أقام ابن زياد عند مسعود أربعين يوما ، ويقال : أقام عنده ثلاثة أشهر فانتهبت دار الإمارة .

ويذكر ابن أعثم[١١٩] هذه الرواية بقوله : فأرسل عبيد الله بن زياد إلى هؤلاء القوم فجمعهم إليه ثم أمر بهم فحبسهم ، ثم خرج فى جوف الليل فى جماعة من خاصة حتى صار إلى دار مسعود بن عمرو الأزدى وهو شيخ الأزد بالبصرة ، فاستجار به عبيد الله بن زياد ، فأجاره وأجار من كان معه.

الرواية العاشرة : ٥ / ٥١١ – ٥١٢

١٠ – حدثنى عمر ، قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنا الأسود بن شيبان ، عن عبد الله بن جرير المازنى ، قال : بعث إلى شقيق بن ثور[١٣٠] فقال لى : إنه قد بلغنى أن ابن منجوف[١٣١] هذا وابن مسمع[١٣٢] يدلجان[١٣٣] بالليل إلى دار مسعود ليردا ابن زياد إلى الدار ليصلوا بين هذين الغارين ، فيهريقوا دماءكم ويعزوا أنفسهم ، ولقد هممت أن أبعث إلى ابن منجوف فأشده وثاقا ، وأخرجه عنى ، فاذهب إلى مسعود فاقرأ عليه السلام منى ، وقل له : إن ابن منجوف وابن مسمع يفعلان كذا وكذا ، فأخرج هذين الرجلين عنك . قال : وكان معه عبيد الله[١٣٤] وعبد الله ابنا زياد . قال : فدخلت على مسعود وابنا زياد عنده : أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فقلت : السلام عليك أبا قيس ، قال : وعليك السلام ، قلت : بعثنى إليك شقيق بن ثور يقرأ عليك السلام ويقول لك : إنه بلغنى ، فرد الكلام بعينه إلى « فأخرجهما عنك » ، قال

مسعود: والله فعلت ذاك ، فقال عبيد الله : كيف أباثور – ونسي كنيته ، إنما كان يكنى أبا الفضل – فقال أخوه عبد الله : إنا والله لا نخرج عنكم ، قد أجر تمونا ، وعقدتم لنا ذمتكم ، فلا نخرج حتى نقتل بين أظهركم ، فيكون عارا عليكم إلى يوم القيامة .

رجال السند :

– زهير بن حرب : سبقت ترجمته في سند رقم (٧) وهو ثقة .

– الأسود بن شيبان : سبقت ترجمته في سند رقم (٨) وهو ثقة .

– عبد الله بن جرير المازني بن عبد الله البجلي : جاء في تقريب التهذيب ، وعبيد الله بن جرير بن عبد الله البجلي ، مقبول ، من الثالثة .

– روى عن أبيه روى عنه يزيد ابن أبي زياد[١٣٥] .

دراسة الرواية(١٠) :

يروى خليفة بن خياط[١٣٦] ، التحالف الذي تم في دار مسعود بن عمرو مما يوافق رواية ابن شبه بقوله : فانطلق مالك بن مسمع وسويد بن منجوف إلى مسعود ابن عمرو ليحالفوه ويردا ابن زياد إلى دار الإمارة ، وقال ابن زياد لعباد بن زياد : أكد بينهم الحلف .

فكتبوا كتابا بينهم ، وختمه مسعود بخاتمه ، وكتب لمالك بن مسمع كتابا وختمه بخاتمه ، ودفع الكتابين إلى ذراع بن أبي هارون بن ذراع النميري ، فوضعهما على يده ، ثم قالوا لابن زياد : انطلق حتى نردك إلى دار الإمارة . فقال لهم ابن زياد : انطلقوا فمسعود عليكم ، فإن ظفرتم رأيتم حينئذ رأيكم .

الرواية الحادية عشر : ٥ / ٥٢١

١١ - قال أبو جعفر محمد بن جرير : وأما عمر ، فإنه حدثني في أمر خروج عبيد الله إلى الشام ، قال : حدثني زهير ، قال : حدثنا وهب بن جرير بن حازم ، قال : حدثنا الزبير بن الخريت ، قال : بعث مسعود مع ابن زياد مائة من الأزد ، عليهم قرة بن عمرو بن قيس[١٣٧] ، حتى قدموا به الشام .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته في سند رقم (٧) وهو ثقة .

- وهب بن جرير بن حازم : سبقت ترجمته في سند رقم (٩) وهو ثقة .

- الزبير بن الخريت : سبقت ترجمته في سند رقم (٩) وهو ثقة .

دراسة الرواية(١١) :

أورد البلاذري[١٣٨] نص الرواية بإسناده الذي وافق إسناد ابن شبه ، وأن كان في إسناده زيادة بقوله : حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير عن أبيه ... قال : بعث مسعود مع ابن زياد مائة عليهم فروه بن عمر[١٣٩] حتى قدموا به الشام . فذكره باسم فروة بن عمرو .

كما ذكر ابن أعثم[١٣٠] هذه الرواية بقوله : واتقى عبيد الله بن زياد أن يعلم بمكانه ، فأقبل على مسعود بن عمرو فقال له : إنك قد أجرتني وأجرت أصحابي هؤلاء وأنا خائف على نفسي من أهل البصرة ، وأنا أريد منك أن تتم إحسانك وأن تخلصني كيف شئت وأنى شئت ، فقال له مسعود بن عمرو : أفعل ذلك إن شاء الله ! فقد كان لأبيك على حق واجب . قال : ثم دعى بثلاثين رجلا من أصحابه وأمرهم أن يخفروا عبيد الله بن زياد حتى يلحقوه بالشام قال : فخرج

عبيد الله بن زياد فى جوف الليل مع جماعة من خاصته وغلمانه وحشمه ومعه هؤلاء الثلاثون رجلا .

كما روى ابن الأثير[١٣١] الرواية بدون إسناد . وقد ترأس الأزد قرة بن عمرو ابن قيس .

كما ذكرها الذهبى[١٣٢] بسنده قال : وقال الزبير بن الخريت ، عن أبى لبيد[١٣٣]، إن مسعودا جهز مع عبيد الله بن زياد مائة من الأزد ، فأقدموه الشام .

الرواية الثانية عشرة : ٥ / ٥٥٢ ـ ٥٢٣

١٢ – وحدثنى عمر ، قال : حدثنا أبو عاصم النبيل ، عن عمرو بن الزبير وخلاد ابن يزيد الباهلى والوليد بن هشام ، عن عمه ، عن أبيه ، عن عمرو بن هبيرة ، عن يساف بن شريح اليشكرى ، قال : وحدثنيه على بن محمد ، قال – قد اختلفوا فزاد بعضهم على بعض – إن ابن زياد خرج من البصرة ، فقال ذات ليلة : إنه قد ثقل على ركوب الإبل ، فوطئوا لى على ذى حافر ، قال : فألقيت له قطيفة على حمار ، فركبه وإن رجليه لتكاد أن تخدان فى الأرض ، قال اليشكرى : فإنه ليسير أمامى إذ سكت سكته فأطالها، فقلت فى نفسى : هذا عبيد الله أمير العراق أمسى نائم الساعة على حمار ، لو قد سقط منه أعنته ، ثم قلت: والله لئن كان نائما لأنغصن عليه نومه ، فدنوت منه ، فقلت : أنائم أنت ؟ قال : لا ، قلت : فما أسكتك ؟ قال : كنت أحدث نفسى ، قلت : أفلا أحدثك ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : هات ، فوالله ما أراك تكيس ولا تصيب ، قال : قلت : كنت تقول : ليتنى لم أقتل الحسين، قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتنى لم أكن قتلت من قتلت ، قال : وماذا؟ قلت : كنت تقول : ليتنى لم أكن بنيت البيضاء ، قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتنى لم أكن استعملت الدهاقين ، قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتنى كنت أسخى

مما كنت ، قال : فقال : والله ما نطقت بصواب ، ولا سكت عن خطأ، أما الحسين فإنه سار إلى يريد قتلي ، فاخترت قتله على أن يقتلني ، وأما البيضاء فإني أشتريتها من عبد الله بن عثمان الثقفي[١٣٤]، وأرسل يزيد بألف فأنفقتها عليها ، فإن بقيت فلأهلي ، وإن هلكت لم آس عليها مما لم أعنف فيه، وأما استعمال الدهاقين فإن عبد الرحمن بن أبي بكره[١٣٥] وزاذان فروخ[١٣٦] وقعا في عند معاوية حتى ذكرا قشور الأرز ، فبلغا بخراج العراق مائة ألف ألف ، فخيرني معاوية بين الضمان والعزل ، فكرهت العزل ، فكنت إذا استعملت الرجل من العرب فكسر الخراج ، فتقدمت إليه أو أغريت صدور قومه ، أو أغريت عشيرته أضررت بهم ، وإن تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين[١٣٧] أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأهون في المطالبة منكم ، مع أني قد جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحدا .

وأما قولك في السخاء ، فوالله ما كان لي مال فأجود به عليكم ، ولو شئت لأخذت بعض مالكم فخصصت به بعضكم دون بعض ، فيقولون : ما أسخاه ! ولكني عممتكم ، وكان عندي أنفع لكم . وأما قولك : ليتني لم أكن قتلت من قتلت ، فما عملت بعد كلمة الإخلاص عملا هو أقرب إلى الله عندي من قتلي من قتلت من الخوارج ، ولكني سأخبرك بما حدثت به نفسي ، قلت: ليتني قاتلت أهل البصرة ، فإنهم بايعوني طائعين غير مكرهين ، وأيم الله لقد حرصت على ذلك ، ولكن بني زياد أتوني فقالوا : إني إذا قاتلتهم فظهروا عليك لم يبقوا منا أحدا ، وإن تركتهم تغيب الرجل منا عند أخواله وأصهاره، فرفقت لهم فلم أقاتل . وكنت أقول : ليتني كنت أخرج أهل السجن فضربت أعناقهم ، فأما إذ فاتت هاتان فليتني كنت أقدم الشام ولم يبرموا أمرا .

قال بعضهم : فقدم الشام ولم يبرموا أمرا ، فكأنما كانوا معه صبيانا ، وقال بعضهم : قدم الشام وقد أبرموا ، فنقض ما أبرموا إلى رأيه .

رجال السند :

- أبو عاصم النبيل هو الضحاك بن مخلد الشيباني البصري : أجمعوا على توثيقه ، مات بالبصرة ٢١٢هـ أو بعدها ، كان فقيها ، ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من الفقهاء والمحدثين من أهل البصرة ، كان يحيى بن معين يوثقه ، قال أحمد ابن صالح : هو ثقة وله فقه ، وهو كثير الحديث[١٣٨] .

- عمرو بن الزبير البصري : ترجم له البخاري وسكت عنه في التاريخ الكبير (٣٣٢/٦) ، وذكره ابن حبان في الثقات (٢٢٠/٧) .

- خلاد بن يزيد الباهلي البصري المعروف بالأرقط ، صدوق جليل من التاسعة هو شيخ ، قال عنه أبو زيد عمر بن شبه : كان من الجبال الرواسي نبلا[١٣٩] .

- الوليد بن هشام القحذمي البصري أبو عبد الرحمن ، ثقة ، ذكره ابن حبان في الطبقة الثالثة من الثقات ، من أهل البصرة[١٤٠] .

- عمرو بن هبيرة : الصواب عمر بن هبيرة ابن معاوية بن سكين : الأمير أبو المثنى الفزاري ، أمير العراقين ، والد أميرها يزيد ، كان ينوب ليزيد بن عبد الملك فعزله هشام ، جمعت له العراق سنة ١٠٣هـ ، عزل بخالد القسري[١٤١] .

- يساف بن شريح اليشكري : ذكره ابن الأثير باسم مسافر بن شريح اليشكري ولم أجد له ترجمة في كتب الرجال بهذين الاسمين . انظر الكامل (٣٢٣/٣) .

دراسة الرواية(١٢) :

أورد البلاذري[١٤٢] نص هذه الرواية مسندة عن أبي الحسن المدائني عن عامر بن حفص[١٤٣] ، قال : ... خرج ابن زياد من البصرة هاربا إلى الشام في قوم وفواله ، فقال ذات ليلة : إنه قد ثقل على ركوب الإبل فوطئوا لي على ذات حافر ، فألقيت له قطيفة على حمار فركبه وإن رجليه لتخدان في الأرض ، فقال

بعض من كان معه ورآه قد سكت سكتة طويلة : هذا عبيد الله بن زياد أمير العـراق بالأمس نائمًا .

ثم أورد الرواية كاملة كما رواها ابن شبه .

كما يذكر ابن أعثم[١٤٤] بدون إسناد روايته التى توافق رواية عمر بن شبه فـى المعنى مع الإيجاز وأن اختلفت فى ألفاظها .

ويروى ابن الأثير[١٤٥] روايته أيضًا إسناداً فكان فيما روى قوله : ... فبينما هـو يسير ذات ليلة قال : قد ثقل على ركوب الإبل فوطئوا لى على ذى حافر فجعلوا لـه قطيفة على حمار فركبه ثم سار وسكت طويلاً ، قال مسافر بن شريح اليشـكرى : فقلت فى نفسى لئن كان نائمًا لأوقظن عليه نومه فقلت : أنائم أنت ؟قال : لا كنـت أحدث نفسى ... ويستمر ابن الأثير فى روايته التى وافقت رواية ابن شبه .

الرواية الثالثة عشر : ٥/٥٢٧ - ٥٢٨

١٣ - قال أبو جعفر : وأما عمر بن شبه ، فإنه حدثنى فى أمر عبد الملك بن عبـد الله بن عامر بن كريز وأمر ببه ومسعود وقتله ، وأمر عمر بن عبيد الله غير ما قال هشام عن عوانه[١٤٦] والذى حدثنى عمر بن شبه فى ذلك أنـه قـال: حدثنى على ابن محمد عن أبى مقرن عبيد الله الدهنى ، قال : لما بايع النـاس ببه[١٤٧] ولى ببه شرطته هميان بن عدى[١٤٨] ، وقدم على ببه بعـض أهـل المدينة ، وأمر هميان بن عدى بإنزاله قريباً منه ، فأتى هميان داراً للفيـل[١٤٩] مولى زياد التى فى بنى سليم وهم بتفريغها لينزلها إياه ، وقـد كـان هـرب وأقفل أبوابه ،فمنعت بنو سليم هميان حتى قاتلوه ، واستصرخوا عبد الملـك بن عبد الله بن عامر بن كريز ، فأرسل بخاريته ومواليه فى السـلاح حتـى طردوا هميان ومنعوه الدار ، وغدا عبد الملك من الغد إلى در الإمارة ليسـلم على ببه ، فلقيه على الباب رجل من بنى قيس بن ثعلبه ، فقال : أنت المعيـن

علينا بالأمس ! فرفع يده فلطمه ، فضرب قوم من البخارية يد القيسى فأطارها ، ويقال : بل سلم القيسى ، وغضب ابن عامر فرجع ، وغضبت له مضر فاجتمعت وأتت بكر بن وائل أشيم بن شقيق بن ثور[١٥٠] فاستصرخوه، فاقبل ومعه مالك بن مسمع[١٥١] حتى صعد المنبر فقال : أى مضرى وجدتموه فأسلبوه وزعم بنو مسمع أن مالكاً جاء يومئذ متفضلاً فى غير سلاح ليرد أشيم عن رأيه .

ثم انصرفت بكر وقد تحاجزوا هم والمضريه ، واغتنمت الأزد ذلك ، فحالفوا بكراً وأقبلوا مع مسعود إلى المسجد الجامع ، وفزعت تميم إلى الأحنف[١٥٢] ، فعقد عمامته على قناه ودفعها إلى سلمة بن ذؤيب الرياحى[١٥٣] ، فأقبل بين يديه الأساوره حتى دخل المسجد ومسعود يخطب ، فاستنزلوه فقتلوه ، وزعمت الأزد أن الأزارقة قتلوه ، فكانت الفتنة ، وسفر بينهم عمر بن عبيد الله بن معمر[١٥٤] وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام[١٥٥] حتى رضيت الأزد من مسعود بعشر ديات ، ولزم عبد الله بن الحارث بيته ، وكان يتدين ، وقال : ما كنت لأصلح الناس بفساد نفسى .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .
- أبو مقرن عبيد الله الدهنى : تولى شرطة واسط أيام أبى جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ حينما خرج إبراهيم بن محمد بالبصرة وما حولها[١٥٦] .

دراسة الرواية(١٣) :

ورد فى بعض المصادر أن أهل البصرة بايعوا عبد الله بن الحارث بن نوفل، بعد خروج عبيد الله بن زياد عن البصرة ، واختلاف الناس بينهم ، فيذكر ابن سعد[١٥٧] ، قوله : وتداعت القبائل والعشائر وأجمعوا أمرهم فولوا عبد الله بن

الحارث بن نوفل صلاتهم وفيئهم وكتبوا بذلك إلى عبد الله بن الزبير إنا قد رضينا به فاقره عبد الله بن الزبير على البصرة .

كما يروى البغدادى(١٥٨) : أنه لما كان أيام مسعود بن عمرو وخرج عبيد الله ابن زياد عن البصرة ، واختلف الناس بينهم أجمعوا أمرهم فولوا عبد الله بن الحارث بن نوفل صلاتهم وفيئهم وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير ، فأقره على البصرة ولم يزل عاملاً عليها سنة ثم عزله .

كذلك يذكر ابن الأثير(١٥٩) وعلل ذلك بقوله : « أنه هو الذى اتفق عليه أهل البصرة عند موت يزيد بن معاوية ، حتى يتفق الناس على أمام ، وإنما فعلوا ذلك لأن أباه من بنى هاشم وأمه من بنى أمية ، فقالوا : من ولى الأمر رضى به » .

هذا وقد وافق ابن حجر(١٦٠) هذه الروايات . أما رواية البلاذرى(١٦١) ، والتى وافقت رواية ابن شبه بسنده حيث ذكر : قال أبو الحسن المدائنى : جعل ببه على شرطته هميان بن عدى ... إلخ القصة ، ويذكر الرواية كاملة كما أوردها ابن شبه فيوردها بسند حسن من رواية أبو عبيدة(١٦٢) حدثنى زهير بن هنيد(١٦٣) عن عمرو ابن عيسى(١٦٤) ، قال : كان مالك ابن مسمع فى المسجد فبينما هو قاعد ، وفى الحلقة رجل من ولد عبد الله بن عامر بن كريز إذ نازع القرشى مالكاً فاغلظ له القرشى ، فلطم رجل من بكر القرشى فتهايج من ثم مضر وربيعه ، وكثرتهم ربيعه ممن فى المسجد ، فنادى رجل يآل تميم ، فوثب قوم من بنى ضبه على رماح حرس المسجد وترستهم ، ثم شدوا على الربعيين فهزموهم ، وبلغ ذلك أشيم بن شقيق بن ثور وهو يومئذ رئيس بكر بن وائل ، فأقبل إلى المسجد فقال : لا يجدن ربعى مضرياً إلا قتله ، فبلغ ذلك مالك بن مسمع فأقبل متفضلاً فسكن الناس حتى كف بعضهم عن بعض ، وسأل مالك أن يجدد الحلف بين الأزد وربيعه(١٦٥) .

وذكر الطبرى رواية عن أصحابه من دون أن يسميهم قال : « ... فلما أمروا ببه على البصرة ولى شرطته هميان بن عدى السدوسى »(١٦٦) .

الرواية الرابعة عشر : ٥/ ٥٢٨

١٤ - قال أبو الحسن : فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير فكتب إلى أنس بن مالك يأمره بالصلاة بالناس ، فصلى بهم أربعين يوماً .

رجال السند :

- أبو الحسن على بن محمد المدائنى : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .

دراسة الرواية (١٤) :

لم يحدد خليفة بن خياط(١٦٧) ، المدة التى صلى بها أنس بن مالك فى البصرة حيث ذكر أن عبد الله بن الزبير كتب إلى أنس بن مالك أن يصلى بالناس وكذا ابن كثير(١٦٨) .

أما بقية المصادر الأخرى فإنها تتفق مع ما أورده الطبرى من رواية ابن شبه فيروى ابن عساكر والذهبى(١٦٩) روايتهما بسنده أن أنس بن مالك صلى بالناس أربعين يوماً .

كما ذكر ابن الأثير(١٧٠) نص الرواية بدون إسناد وحدد المدة التى صلى بها أنس بن مالك بالناس أربعين يوماً .

ويوافق البلاذرى(١٧١) سند ونص رواية ابن شبه فيذكر روايته مسندة إلى المدائنى وأن ابن الزبير كتب إلى أنس بن مالك يسأله أن يصلى بهم فصلى بهم أربعين يوماً .

الرواية الخامسة عشر : ٥ / ٥٢٨ .

١٥ - حدثنى عمر قال : حدثنا على بن محمد ، قال : كتب ابن الزبير إلى عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى(١٧٢) بعهده على البصرة ، ووجه به إليه ، فوافقه

وهو متوجه يريد العمرة ، فكتب إلى عبيد الله [١٧٣] يأمره أن يصلى بالناس ، فصلى بهم حتى قدم عمر .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .

دراسة الرواية (١٥) :

روى البلاذرى[١٧٤] هذه الرواية ، كما جاءت عند ابن شبه موافقة لها فى النص والإسناد .

كما رواها ابن الأثير[١٧٥] بدون إسناد موافقة لرواية ابن شبه .

أيضاً ذكر ابن عساكر[١٧٦] وابن حجر[١٧٧] ، أن عبد الله بن الزبير كتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى بولايته ، وقد جاء اسم عمر بن عبيد الله عند ابن عساكر ، عمرو بن عبيد الله بن معمر التيمى .

الرواية السادسة عشر : ٥/ ٥٢٨ .

١٦ - حدثنى عمر ، قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنى أبى ، قال : سمعت محمد بن الزبير ، قال : كان الناس اصطلحوا على عبد الله بن الحارث الهاشمى[١٧٨] ، فولى أمرهم أربعة أشهر ، وخرج نافع بن الأزرق إلى الأهواز[١٧٩] ، فقال الناس لعبد الله : إن الناس قد أكل بعضهم بعضاً ، تؤخذ المراة من الطريق فلا يمنعها أحد حتى تفضح ، قال : فتريدون ماذا ؟ قالوا تضع سيفك ، وتشد على الناس ، قال : ما كنت لأصلحهم بفساد نفسى ، يا غلام ، ناولنى نعلى ، فانتعل ثم لحق بأهله ، وأمر الناس عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى[١٨٠] ، قال أبى ، عن الصعب ابن زيد[١٨١] إن الجارف وقع وعبد الله على البصرة ، فماتت أمه فى

الجارف ، فما وجدوا لها من يحملها حتى استأجروا لها أربعـــة إعــلاج[١٨٢] فحملوها إلى حفرتها ، وهو الأمير يومئذ .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم(٧) وهو ثقة .
- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .
- جرير بن حازم : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .
- محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمر بن درهم الأسدى مولاهم أبو أحمد الزبيرى الكوفى ، ثقة ثبت من التاسعة ، إلا أنه قد يخطئ فى الحديث الثورى ، مات سنة ثلاث ومائتين ، قال عنه العجلى : أبو أحمد كوفى ثقة وكان يتشيع[١٨٣] .

دراسة الرواية(١٦) :

اختلفت المصادر فى تحديد المدة التى تولى فيها عبد الله بن الحارث الهاشمى إمرة البصرة ، فقد أورد ابن سعد[١٨٤] بسنده عن محمد بـن عمـر[١٨٥] ، أن ابـن الزبير أقر عبد الله بن الحارث على البصرة فلم يزل عاملاً عليها سنة ثم عزلـــه ، كما وافقه البغدادى[١٨٦] فى تحديد مدة الولاية على البصرة ، ثم يروى الخبر مـــرة ثانية مسنداً إلى يعقوب بن سفيان[١٨٧] دون أن يحدد مدة ولاية عبد الله بن الحارث.

كما يذكر ابن عساكر[١٨٨] بسنده عن خليفة بن خياط : إن ابن الزبير أقر عبد الله بن الحارث الهاشمى على البصرة أشهراً ثم عزله .

ويروى ابن الأثير[١٨٩] وصاحب العقد الثمين[١٩٠] بدون إسناد ، أن عبـــد الله ابن الحارث بن نوفل تولى أمره البصرة ولم يحددا مدة الولاية .

ويوافق ابن شبه فى تحديد مدة ولاية ببه للبصرة ، كلاً من ابـن الجـوزى ، والبلاذرى[١٩١] الذى وافق ابن شبه فى روايته بإسناده عـــن أحمـد بـن إبراهيـم

الدورقى[١٩٢] ثم يذكر الإسناد الذى ذكره ابن شبه ، وإن عمد البلاذرى إلى تقسيم النص إلى جزئين ذكر فيهم ما رواه ابن شبه فى هذه الرواية .

الرواية السابعة عشر : ٥/٥٢٩ .

١٧ - حدثنى عمر ، قال : حدثنى على بن محمد ، عن القافلانى ، عن يزيد ابن عبد الله بن الشخير ، قال : قلت لعبد الله بن الحارث بن نوفل[١٩٣] ، رأيتك زمان استعملت علينا أصبت من المال ، وأتقيت الدم ، فقال : إن تبعة المال أهون من تبعة الدم .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .
- القافلانى : أبو الربيع سليمان بن محمد أبو سليمان القافلانى ، كان سليمان يبيع السفن بالبصرة ، سئل عنه ابن معين فقال : ليس بشىء[١٩٤] .
- يزيد ابن عبد الله بن الشخير أبو العلاء العامرى ، البصرى ، أحد الأئمة ، ثقة من الثانية ، مات سنة ١١١هـ أو قبلها ، كان مولده فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فوهم من زعم أن له رؤيا ، له أحاديث صالحة[١٩٥] .

دراسة الرواية(١٧) :

من خلال البحث فى كتب التاريخ التى رجعت إليها لم أعثر على رواية بهذا المعنى ، كما بحثت فى كتب التراجم التى ترجمت لعبد الله بن الحارث بن نوفل فلم أعثر على إشارة بهذا النص .

الرواية الثامنة عشر : ٥ / ٥٤٥ .

١٨ - حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنا على بن محمد ، قال : أخبرنا مسلمة بن محارب ، قال : بحث سلم بن زياد[١٩٦] بما أصاب من هدايا سمر قند

وخوارزم إلى يزيد بن معاوية مع عبد الله بن خازم[197] ، وأقام سلم والياً على خراسان حتى مات يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، فبلغ سلماً موته، وأتاه مقتل يزيد بن زياد فى سجستان وأسر أبى عبيدة بن زياد ، وكتم الخبر سلم ، فقال ابن عرادة[198] :

يا أيها الملك المغلق بابه ... حدثت أمور شأنهن عظيم

قتلى بجنزه والذين بكابل ... ويزيد أعلن شأنه المكتوم

أبنى أميه إن آخر ملككم ... جسد بحوارين ثم مقيم

طرقت منيته وعند وساده ... كوب وزق راعف مرثوم

ومرنة تبكى على نشوانه ... بالصنج تقعد تارة وتقوم

قال مسلمة : فلما ظهر شعر ابن عرادة أظهر سلم موت يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة ، فبايعوه ، ثم مكثوا بذلك شهرين ، ثم نكثوا به .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .

- مسلمة بن محارب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٣) .

دراسة الرواية (١٨) :

ذكرت المصادر هذه الرواية بدون إسناد ، فيروى صاحب كتاب الفتوح[199] هذه الرواية والتى تتفق فى معناها مع ابن شبه .

كما يذكرها ابن الجوزى[200] فى أحداث سنة ٦٤هـ ، وإن لم يورد الأبيات التى أوردها ابن شبه فى نصه هذا .

ويروى ابن الأثير[٢٠١] فى أحداث سنة ٦٤هـ بيعة أهل خراسان لسلم بن زياد واختلافهم بعد بيعتهم كما يروى شعر حنظلة بن قيس لهذه الواقعة .

أما الذهبى[٢٠٢] فيروى هذه القصة فى أحداث سنة ٦٥هـ خبر سلم بن زياد وبيعة أهل خراسان له ، وخروجه من خراسان بعد اختلافهم عليه ، كما أنه لم يورد شعر حنظلة بن قيس .

الرواية التاسعة عشر : ٥ / ٦١٢

١٩ – حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنى وهب ابن جرير ، قال : حدثنى أبى ، عن المصعب بن زيد أن الجارف وقع وعبيد الله بن عبيد الله بن معمر[٢٠٣] على البصرة ، فماتت أمه فى الجارف ، فما وجدوا لها من يحملها حتى استأجروا لها أربعة علوج فحملوها إلى حفرتها وهو الأمير يومئذ .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) .
- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) .
- جرير بن حازم : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) .
- المصعب بن زيد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٦) .

دراسة الرواية (١٩) :

سبق جزء من هذه الرواية فى سند رقم (١٦) وقد أشرت فى دراسة الرواية السابقة أن البلاذرى[٢٠٤] قسم روايته التى وافقت رواية ابن أشبه إلى قسمين ، فكان القسم الثانى منها والذى جاء مستقلاً هو ما يتعلق بنص هذه الرواية .

وقد اختلفت المصادر فى السنة التى وقع فيها الجارف ، حيث ذكره ابن الجوزى[٢٠٥] فى أحداث سنة ٦٤هـ ، كما يرويها ضمن حوادث سنة ٦٥ هـ كلا من ابن الأثير وابن كثير وصاحب النجوم الزاهرة[٢٠٦] .

أما الذهبى[٢٠٧] فيسجله فى حوادث سنة ٦٩هـ وهذا هو المشهور ، فى تعليق لابن كثير على هذه السنوات المتفاوتة[٢٠٨] وأن جاءت عند الطبرى فى حوادث سنة ٦٥هـ .

أما هذه الروايات فقد اتفقت جميعها أن أم عبيد الله بن عبيد الله بن معمر ماتت فى هذا الجارف وأنه كان الأمير على البصرة وقتئذ فلم يجد من يحملها واستأجر لها أربعة أنفس .

الرواية العشرون : ٥/٦١٣

حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير قال : حدثنا أبى ، عن محمد بن الزبير أن عبيد الله بن عبيد الله بن معمر[٢٠٩] بعث أخاه عثمان بن عبيد الله إلى نافع بن الأزرق[٢١٠] فى جيش فلقيه بدولاب[٢١١] ، فقتل عثمان وهزم جيشه .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) .
- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) .
- جرير بن حازم : سبقت ترجمته فى سنة رقم (٩) .
- محمد بن الزبير : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٦) .

دراسة الرواية (٢٠) :

يذكر ابن الأثير وابن الجوزي[٢١٢] هذا النص بدون سند في حوادث سنة ٦٥هـ ، ففي رواية ابن الأثير قوله قيل : إن عثمان بن عبيد الله بن معمر قاتل الخوارج ، ونافع بن الأزرق قبل مسلم فقتل عثمان ، وانهزم أصحابه بعد أن قتل من الخوارج خلق كثير .

ولم يذكر ابن الجوزي في روايته عن مقتل عثمان ، وإنما أفاد عن مقتل نافع بن الأزرق .

كما جاء ذكر هذا الخبر عند الكوفي في : كتاب الفتوح[٢١٣] وهي تعليق على قتل عثمان أخو عبيد الله بن الماحوز ، وأيضاً كتاب الدينوري والأغاني في ترجمة ابن الماحوز ، أشار مؤلف الكتاب أن الماحوز كانت له معركة مع عثمان بن عبيد الله بن معمر ، قتل فيها عثمان[٢١٤] .

الرواية الواحدة والعشرون : ٥/ ٦١٣

قال عمر : قال زهير : قال وهب : وحدثنا محمد بن أبي عيينه ، عن سبره ابن نخف أن ابن معمر عبيد الله[٢١٥] بعث أخاه عثمان[٢١٦] إلى ابن الأزرق[٢١٧] ، فهزم جنده وقتل ، قال وهب : فحدثنا أبي أن أهل البصرة بعثوا جيشاً عليهم حارثة ابن بدر[٢١٨] ، فلقيهم ، فقال لأصحابه :

كرنبوا ودولبوا[٢١٩] وحيث شئتم فاذهبوا

رجال السند :

- زهير بن حرب ، سبق ترجمته في سند رقم (٧) .
- وهب بن جرير ، سبق ترجمته في سند رقم (٩) .
- محمد بن أبي عيينه : سبقت ترجمته في سند رقم (٧) .

- سبره بن نخف : ويقال سمره بن نخف ويقال سمره بن يحيى ، اختلفوا في اسمه واسم أبيه . حيث ذكره أبو الأحوص عن سماك عن سمره بن يحيى وفي الثقات سبره ابن نخف كذلك على بن صالح وقد يكون أبو الأحوص : أخطأ في اسم أبيه وأصاب في اسمه وعكس على بن صالح خطأ في اسم الرجل وأصاب في اسم أبيه فيكون الصواب : سمرة بن نخف[٢٢٠] .

دراسة الرواية(٢١) :

أورد ابن خياط من دون إسناد قصة تولية أهل البصرة لحارثة بن بدر الغداني لتولى قيادة الجيش بعد قتل قائدهم على يد الخوارج[٢٢١] .

الرواية الثانية والعشرون : ٥ / ٦١٣

حدثنا عمر ، قال : حدثنا زهير ، قال : حدثنا وهب ، قال : حدثنا أبي ومحمد بن أبي عيينه قالاً : حدثنا معاوية بن قرة ، قال : خرجنا مع ابن عبيس[٢٢٢] فلقيناهم ، فقتل ابن الأزرق[٢٢٣] وابنان أو ثلاثة للماحوز[٢٢٤] ، وقتل ابن عبيس .

رجال السند :

- زهير بن حرب سبق ترجمته في سند رقم(٧) وهو ثقة .
- وهب بن جرير سبق ترجمته في سند رقم (٩) وهو ثقة .
- جرير بن حازم سبق ترجمته في سند رقم (٩) وهو ثقة .
- محمد بن أبي عيينة سبق ترجمته في سند رقم (٧) .
- معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني ، أبو إياس البصري ، ثقة عالم ، من الثالثة ، مات سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهو ابن ست وسبعين سنة ، له أحاديث، ذكره ابن حبان في الثقات[٢٢٥] .

دراسة الرواية(٢٢) :

ذكر الدينورى من دون إسناد قصة مقتل مسلم بن عبيس على يد الخوارج فى مكان يسمى الدولاب ، ولم يورد مقتل ابن الأزرق هنا ، لكنه أشار فيما بعد أن ابن الأزرق قتل على يد المهلب بن أبى صفرة[٢٢٦] .

وأوردها ابن خياط من رواية معاوية بن قرة المزنى بقوله : « خرجنا مع ابن عبيس نحواً من عشرين ألفاً ... إلخ القصة حيث ذكر مقتل ابن الأزرق ، وابن عبيس[٢٢٧] .

الهوامش

(١) تاريخ الطبري ٨/١

(٢) د. يحيى بن إبراهيم علي اليحيى .

(٣) د. عبد العزيز بن سليمان السلومي .

(٤) د. خالد محمد الغيث .

(٥) أ. خالد يماني .

(٦) حوارين : بالضم وتشديد الواو ، من قرى حلب معروفة ، بها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ . ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٣١٥/٢

(٧) أغبر : ذكرها ابن الأثير بعين مهملة ساكنة . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (٢٦١/٣) .

(٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد (٥٥/١٢) . الذهبي ، ميزان الاعتدال (١٥٣/٣) . المغني في الضعفاء (٤٥٤/٢) . ابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان (٢٥٣/٤) .

(٩) البخاري ، التاريخ الكبير (٣٨٥/١/١) . الرازي ، الجرح والتعديل (٢١٩/٢) . ابن حبان ، الثقات (٤٧/٦) .

(١٠) ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣٩٩/٣) .

(١١) محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث ، أبو عبد الله بن المصري الفقيه، من فقهاء مصر من أصحاب مالك ، وثقه النسائي وابن أبي حاتم ، ت ٢٦٨هـ . ابن حجر تهذيب التهذيب (١٦٩/٥) .

(١٢) وإليه أشار أيضًا ابن كثير — رحمه الله — وكذا ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٥٩/١٦) . البداية والنهاية (١٤٤/٨) .

(١٣) أحمد بن محمد بن عبد ربه (٣٧٣/٤) .

(١٤) الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن بن زيد الطائي الكوفي . ت ٢٠٧هـ ، قال البخاري : سكتوا عنه ، وقال النسائي وغيره : متروك الحديث . الرازي ، الجرح والتعديل (٨٥/٩) . الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٠٣/١٠) .

(١٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، الطبقة الرابعة ، تحقيق د. عبد العزيز السلومي (١٥١/١-١٥٣) .

(١٦) الكامل (٢٦١/٣) .

(١٧) ابن عبد البر النمرى (٣٩٩/٣ — ٤٠٠) . وانظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى — الطبقة الرابعة من الصحابة الذين أسلموا بعد فتح مكة (١٤٦/١ ، ١٤٧) .

(١٨) الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية (١٤٤/٨ ، ١٤٦) .

(١٩) عبيد الله بن زياد أبو حفص : أمير العراق ، ولى البصرة سنة ٥٥هـ ، وولى خراسان ، أول عربى قطع جيحون . انظر الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٤٥/٣) . ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب (٧٩/١) .

(٢٠) عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث الهاشمى : أبو محمد المدنى ، أمير البصرة ، له رؤية ولأبيه وجده صحبه ، أجمعوا على ثقته ، مات سنة تسع وسبعين، ويقال أربع وثمانين ابن حجر العسقلانى ، تقريب التهذيب (٢٩٩) .

(٢١) شريك بن الأعور الحارثى من أتباع على ﷺ شارك فى معركة صفين وتولى اصطخر وكرمان . انظر الطبرى ، تاريخ (٣٠١/٤ ، ٣٢١/٥ ، ٣٦١) .

(٢٢) القادسية : تبعد عن الكوفة بأربعة عشر فرسخاً ، من أهم المعارك التى انتصر فيها المسلمون على الفرس فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ . ياقوت الحموى ، معجم البلدان (٢٩١/٤) .

(٢٣) الإعتجار : لف العمامة دون التلحى ومنه حديث « أن الرسول ﷺ دخل مكة يوم الفتح معتجرًا بعمامة سوداء . بمعنى أنه لفها على رأسه ولم يتلح بها ، والمعجر والمعاجر ضرب من ثياب اليمن . ابن منظور ، لسان العرب (٢٨١/٥) .

(٢٤) النعمان بن بشير الأنصارى الخزرجى : له ولأبويه صحبه ، سكن الشام ، ثم ولى إمرة الكوفة ، ثم قتل بحمص سنة خمس وستين ، وله أربع وستون سنه ، وهو أول مولود من الأنصار ولد بالمدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٥٣/٦) ، ابن حجر ، تقريب التهذيب(٥٦٣) .

(٢٥) مسلم بن عقيل بن أبى طالب الهاشمى ، عن عمرو بن شعيب قال : أخبرنى من سمع أبا هريرة يقول : ما رأيت من ولد عبد المطلب أشبه بالنبى ﷺ من مسلم بن عقيل وهو الذى كتب إلى الحسين بن على يخبره ببيعه اثنى عشر ألفًا من أهل الكوفة ويأمره بالقدوم لها . البخارى ، التاريخ الكبير (٢٦٦/٧) . الطبرى ، تاريخ (٣٤٨/٥) .

(٢٦) هانئ بن حميد عروة بن الفضفاض المرادى : مخضرم سكن الكوفة ، وكان من خواص على ﷺ . ابن حجر ، الإصابة (٦١٦/٣) .

(٢٧) أسماء بن خارجة ابن حصن بن حذيفة بن بدر الأمير أبو حسان . الفزارى الكوفى من كبار الأشراف ، قال خليفة بن خياط : مات أسماء سنة ست وستين ، ولخارجة صحبة يسيرة ولا رواية له وكان جوادا ممدحا . البداية والنهاية (٩/٤٥) . والذهبى ، سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٥) .

(٢٨) محمد بن الأشعث بن قيس أبو القاسم الكوفى ، مقبول ، من الثانية ، ووهم من ذكره فى الصحابة ، مات سنة سبع وستين ، فى قتال المختار مع مصعب بن الزبير . ابن حجر العسقلانى ، تقريب التهذيب (٤٦٩) . الإصابة فى تمييز الصحابة (٣/٥٠٩) .

(٢٩) الغديرتان : الذوابتان التى تسقطان على الصدر ، وفى صفته ﷺ : « قدم مكة وله أربع غدائر هى الذوائب واحدتها غديرة » . انظر ابن منظور ، لسان العرب .

(٣٠) حجر بن عدى بن ربيعه بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث بن كندى : كان جاهليا إسلاميا ، شهد القادسية ، قيل هو حجيه بن عدى وإلا فمجهول ، من الثالثة حجية ، بوزن عليه ، ابن عدى الكندى ، صدوق يخطئ من الثالثة . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٦/٢١٧) ، ابن حجر ، تقريب التهذيب(١٥٤) .

(٣١) سعكزه : ومنه العكازه وهى عصا فى أسفلها زج يتوكأ عليها الرجل . انظر ابن منظور ، لسان العرب (٥/٣٠٥٦) .

(٣٢) شريح بن الحارث بن قيس الكوفى النخعى : القاضى ، أبو أميه ، مخضرم ، ثقة ، وقيل له صحبة ، مات قبل الثمانين أو بعدها ، يقال : حكم سبعين سنة ، قاض المصريين .

انظر الحافظ جمال الدين المزى ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ١٢/٤٣٥ . ابن حجر ، تهذيب التقريب (٢٩٥) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٤/١٠٠) . ابن العماد ، شذرات (١/٨٥) .

(٣٣) الرازى ، الجرح والتعديل (٩/٩٤) . البغدادى ، تاريخ بغداد (١٤/٢٣) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٦٩) .

(٣٤) الرازى ، الجرح والتعديل (٦/١٩٠) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣/١٣٢) . ابن حجر تقريب التهذيب (٤٠٢) .

(٣٥) الكامل (٣/٢٦٨) .

(٣٦) مسلم بن عمرو الباهلى : كان من أتباع مصعب بن الزبير وخرج معه فى السنة التى قتل فيها مصعب إلا أن مسلم جرح فى تلك المعركة سنة ٧٢هـ .

انظر البسوى ، المعرفة والتاريخ ٣/٣٣١. الذهبى / تاريخ الإسلام (٣/١١٠) .

(٣٧) المسعودى ، مروج الذهب (٣/٦٦ ، ٦٧) . فى البداية والنهاية (٨/١٥٥) .

(٣٨) ابن حجر ، الإصابة (١/٣٣٣ — ٣٣٤) .

(٣٩) عمار بن معاوية الذهبى البجلى ودهن قبيلة من بجيله ، من أهل الكوفة ، كنيته أبو معاوية روى عن أبى الطفيل ، ربما أخطأ ، وكان راويا لسعيد بن جبير ، روى عنه سفيان بن عيينة ، وسفيان الثورى ، مات سنة ١٣٣هـ . انظر ابن حبان ، الثقات (٥/٢٦٨) . ابن حجر ، تهذيب (٧/٤٠٦) .

(٤٠) أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ، روى عن جابر بن عبد الله وروى عن أبيه وجديه الحسن والحسين ، كان ثقة كثير الحديث فقيها فاضلا ، توفى سنة ١١٤هـ على الصحيح ، روى له حديث العائد فى هبته ... إلخ . انظر ابن حبان ، الثقات (٥/٣٤٨) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٩/٣٥٠) .

(٤١) الكامل (٣/٢٧٠ ، ٢٧١) . البداية والنهاية (٨/١٥٥) .

(٤٢) محمد بن حبان ، الثقات (٢/٣٠٧) .

(٤٣) ابن قتيبة الدينورى ، الإمامة والسياسة (٢/٥) .

(٤٤) سلم بن زياد بن أبيه : أمير . كنيته أبو حرب . ولاه يزيد خراسان عام ٦٠هـ ، غزا سمرقند ، ذكره ابن حبان فى الثقات (٤/٣٢٤) ، وانظر أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى (٧/٨٧) .

(٤٥) عبد الرحمن بن زياد بن أبى سفيان : ذكره ابن حبان فى الثقات (٥/٨٣) ، وقال ابن حجر مقبول من الرابعة ، بقى إلى أيام الحجاج . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣/٣٦٢) . - عباد ابن زياد بن أبى سفيان ، يكنى أبا حرب ، ولاه معاوية سجستان عام ٥٣هـ ، مات سنة ١٠٠هـ . كان يوم مرج راهط مع مروان ، له حديث فى المسح على الخفين يرويه مالك . انظر ابن حبان ، الثقات (٧/١٥٨) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣/٦٤) . الذهبى ، تاريخ الإسلام (٣٩٦، ٣٩٧) .

(٤٦) جيرفت : بالكسر ثم السكون ، وفتح الراء ، وسكون الفاء ، وتاء فوقها نقطتان : مدينة بكرمان من أعيان مدنها ، فتحت فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، ينسب إليها جماعة من العلماء منهم أبو الحسن أحمد بن عمر بن إسحاق الجيرفتى ، وبها ناس من الأزد والمهالبة منهم محمد بن هارون النسابه . وانظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان (٢/١٩٨) .

(٤٧) عمران بن الفصيل بفاء ومهملة ابن عائذ التميمي أبو خالد له صحبة واستعمله عثمان ﷺ على سجستان سنة ٢٩هـ . قال أبو موسى أورده الحافظ أبو زكريا بن منده يعني مستدركًا على جده ، ذكره ابن ياسين الحافظ فيمن ورد هراة من الصحابة بسنده ، وتعقب ابن الأثير كلام ابن ياسين ، فجاء أنه ذكره استطرادًا في ترجمة الهياج وأنه ذكره في الجملة ولم يصرح بأنه ورد هراة . الطبري ، تاريخ (٢٦٥/٤)، ابن حجر ، الإصابة (٢٨/٣) .

(٤٨) عبد الله بن خازم السلمي ، أبو صالح البصري ، أمير خراسان ، يقال له صحبة ورواية . ولي خراسان عشر سنين ، ثم ثار به أهل خراسان فقتلوه سنة ٧١هـ وحمل رأسه إلى عبد الملك بن مروان . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٢٨/٣) .

(٤٩) طلحة بن عبد الله بن خلف بن أسعد بن عامر الخزاعي : المعروف بطلحة الطلحات أبو المطرف البصري ، أصالاً جواد ، أمير سجستان من الثالثة ، لم يثبت أن أبا داود روى له. ابن حجر ، تقريب التهذيب (٢٨٢) .

(٥٠) المهلب بن أبي صفرة ، أبو سعيد ، قائد الكتائب ، أدرك عمر ولم يرو عنه ، غزا الهند سنة ٤٤هـ ، وولي الجزيرة لابن الزبير ، حارب الخوارج ، ولي خراسان ومات بمرو الروذ سنة ٨٣هـ في خلافة عبد الملك بن مروان . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٢٩/١). الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٣٨٣/٤) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣٢٩/١٠) .

(٥١) حنظلة بن عرادة : لم أقف له على ترجمة .

(٥٢) أبو حزابة الوليد بن نهيك : الوليد بن حنيفة من بني ربيعه بن حنظلة من تميم ، من شعراء الدولة الأموية ، سكن البصرة وعمل في الديوان ، خرج مع ابن الأشعث على عبد الملك ، كان راجزًا ، فصيحًا ، هجاءًا . الأصفهاني ، الأغاني (١٥٨/٦) .

(٥٣) يحيى بن يعمر ، أبو سليمان العدواني / قاضي مرو أيام قتيبة بن مسلم ، أول من نقط المصحف ، قال خليفة : توفي قبل الـ ٩٠ ، يكنى أبا عدي ، ثقة ، فصيح من الثالثة ، نفاه الحجاج إلى مرو فقبله قتيبة بن مسلم ، قضى في أكبر مدن خراسان ، اكثر روايته عن التابعين . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٣٦٨/٧) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٩٢/٦) . الذهبي ، تاريخ (٥٠٢) .

(٥٤) صله بن أشيم العدوي : من كبار تابعي أهل البصرة ، كنيته أبو الصهباء ، كان ذا فضل وعبادة وزهد ، زوج معاذة العدوية ، روى حديث واحد عن ابن عباس . مات شهيدًا . ابن كثير ، البداية (١٧/٩) . الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٤٩٧/٣) .

(٥٥) معاذة ابنة عبد الله العدوية أم الصهباء البصرية ، ثقة من الثالثة ، ذكرها ابن حبان في الثقات وقال : كانت من العابدات . روت عن عائشة رضى الله عنها ، وثقها ابن معين وأرخها ابن الجوزى فى سنة ٨٣هـ . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٤٨٣/٨). تهذيب التهذيب (٦١٥/٦) . الذهبى ، تاريخ الإسلام (١٩٨) .

(٥٦) البخارى ، التاريخ الكبير (٣٨٧/٧) ، الرازى ، الجرح والتعديل (٢٦٦/٨) ، ابن حبان ، الثقات (٤٩٠/٧) .

(٥٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٣٥) .

(٥٨) البداية (٢١٣/٨) . الكامل (٣٠٤/٣) .

(٥٩) تاريخ دمشق (٢٣٧/٦) . العقد الفريد (١٣/١) .

(٦٠) ابن أعثم الكوفى .

(٦١) المنتظم (٣٤٧/٥) .

(٦٢) تاريخ الإسلام (٢٢) .

(٦٣) تاريخ الطبرى (٤٧٣/٥) .

(٦٤) الرازى ، الجرح والتعديل (١٢٣/٨) . ابن حبان ، الثقات (٧٤/٩) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥١٣) .

(٦٥) الرازى ، الجرح والتعديل (٥٢/٩) . ابن حجر ، تعجيل المنفعة (٤٣١) .

(٦٦) الرازى ، الجرح والتعديل (٧١/٨) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٠٦) .

(٦٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٥) .

(٦٨) فى البداية والنهاية (٢٢٨/٨ ، ٢٢٩) .

(٦٩) المنتظم (٣٤/٦) .

(٧٠) الكامل (٣١٦/٣ ، ٣١٧) .

(٧١) الطبرى ، تاريخ (٤٩٩/٥) .

(٧٢) المصدر السابق (٤٩٩/٥) .

(٧٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٥) .

(٧٤) الإمامة والسياسة (١٠/٢) .

(٧٥) فى البداية والنهاية (٢٤٠/٨ ، ٢٤١) .

(٧٦) تاريخ الإسلام (ص٣٦) .

(٧٧) تاريخ الطبرى (٥٠٣/٥) .

(٧٨) الضحاك بن قيس ابن خالد الفهرى القرشى ، شهد صفين وفتح دمشق ، قتل بمرج راهط ، مختلف فى صحبته ، ولد قبل وفاة الرسول ﷺ بسبع سنين أو نحوها ، كان على شرطة معاوية ، واستعمله على الكوفة من سنة ٥٣- ٥٧هـ وكان مع يزيد وابنه معاوية إلى أن ماتا . انظر ابن كثير ، البداية والنهاية (٢٤٦/٨) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٥٦٩/٢) . ابن الأثير ، أسد الغابة (٤٩/٣) .

(٧٩) قيس ابن الهيثم السلمى ، وقيل السامى بالمهملة ، جد عبد القاهر بن السرى ، ذكره البخارى فى الوحدان من الصحابة ، وذكر غيره أنه من التابعين . ابن حجر ، الإصابة (٢٦٢/٣) . محمد بن سلام الحمصى ، طبقات فحول الشعراء (٤٨٢/١) .

(٨٠) الرازى ، الجرح والتعديل (١٣٦/٨) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٤٩) .

(٨١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٧) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (١٧٨) .

(٨٢) الرازى ، الجرح والتعديل (١٨٦/٦) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣/ ١٢٧) .

(٨٣) الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (ص١٦٠) .

(٨٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤٥٣/٣) .

(٨٥) عبد الله بن أحمد بن حنبل : أبو عبد الرحمن ، محدث بغداد ، روى عن أبيه شيئًا كثيرًا من أهمه المسند والزهد ، كان ثقة ثبت روى له النسائى ت عام ٢٩٠هـ وعمره سبع وسبعين سنة . انظر عنه ، الرازى ، الجرح والتعديل (٧/٥) ، البغدادى ، تاريخ بغداد (٣٧٥/٩) . ابن الجوزى ، المنتظم (٣٩/٦) .

(٨٦) عفان بن مسلم بن عبد الله الصفار ، أبو عثمان البصرى ، قال العجلى : ثقة ثبت ، صاحب سنة ، متفق على توثيقه ، أخرج له الجماعة . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٤٧/٤ — ١٤٩) .

(٨٧) البداية (٢٤٧/٨) . أسد الغابة (٥٠/٣) . سير أعلام النبلاء (٢٤٢/٣) .

(٨٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف (٣٥٠/١/٤) .

(٨٩) البغدادى ، تاريخ بغداد (٤٨٢/٨) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٢١٧) .

(٩٠) البخارى ، التاريخ الكبير (١٦٩/٨) . ابن حبان ، الثقات (٢٢٨/٩) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٨٥) . وتهذيب التهذيب (١٠٣/٦) .

(٩١) الرازى ، الجرح والتعديل (٤٢/٨) . ابن حبان ، الثقات (٤١٨/٧) .

(٩٢) أنساب الأشراف (٤١٨/١/٤) .

(٩٣) أحمد بن إبراهيم بن كثير العبدى ، مولى عبد القيس أبو عبد الله البغدادى الدورقــــى، ١٦٨ — ٢٤٦هــ ، من العلماء البارزين فى علم الحديث ، روى عنه الإمام مسلم ، وابن ماجـــة — وثقه صالح بن محمد المعروف بحزره . متفق عليه . قال عنه ابن أبى حاتم صـــدوق ، ثقة حافظ ، من العاشرة . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٧٧) .

د. محمد جاسم المشهدانى ، موارد البلاذرى عن الأسرة الأموية فـــى أنســاب الأشــراف (٥٢٨/٢) .

(٩٤) الكامل (٣٢٠) .

(٩٥) المنتظم (٢٤/٦) .

(٩٦) تاريخ الإسلام (٣٦) .

(٩٧) سعيد بن يزيد بن مسلمة الأزدى ثم الطاحن ، أبو مسلمة البصرى القصير ، ثقة من الرابعة . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٢٤٢) .

(٩٨) جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شجاع الأزدى البصرى ، يكنـــى أبـــا النضـــر ، ت ١٦٩هــ ، ثقة لكن فى حديثه عن قتاده ضعف ، وله أوهام إذا حدث مـــن حفظـــه، مـــن السادسة ، اختلط فى آخره . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٧٨/٧) . ابن حجر ، تقريـــب التهذيب (١٣٨) .

(٩٩) شقيق بن ثور بن عفير السدوسى ، أبو الفضل البصرى : صدوق ، مخضرم ، مات ســـنة أربع وستين .

ابن حجر العسقلانى ، تقريب التهذيب (٢٦٨) . الرازى ، الجرح والتعديل (٣٧٢/٤) .

(١٠٠) مالك بن مسمع بن غسان البصرى : كان شديد الاجتهاد فى العبادة والزهادة ، كان ســـيد ربيعه ، مات سنة ٧٣هــ أو ٧٤هــ . ابن كثير ، البداية (٣٥٣/٨) . ابن حجر ، الإصابة (٤٨٥/٣) .

(١٠١) حضين بن المنذر بن الحارث الرقاشى ، أبو ساسان ، وهو لقب وكنيته أبو محمد ، كـــان من أمراء على بصفين ، وهو ثقة ، من الثانية ، مات على رأس المائة ، ابـــن حجـــر ، تقريب التهذيب (١٧١) .

(١٠٢) أيوب بن حمران مولى عبيد الله بن زياد ، كان رسول عبيد الله إلى معاوية فـــى حياتـــه وإلى يزيد بنت معاوية ، أرسله عبيد الله إلى الشام ليأتيه بخبر يزيد ، فقـــدم وأســـر إليـــه بموت يزيد بن معاوية . ابن عساكر (٢٠٦/٣) .

(١٠٣) الطفاوة : حي من قيس عيلان . انظر ابن منظور ، لسان العرب (٢٦٨٤/٥) .

(١٠٤) الرازى ، الجرح والتعديل (٢٩٣/٢) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (ص١١١) .

(١٠٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٥٣/٧) ، ابن حجر ، تقريب التهذيب(ص١٨٨) .

(١٠٦) أحمد بن إبراهيم الدورقى : سبقت ترجمته ضمن دراسة رقم (٧) ، وهو ثقة .

(١٠٧) خلف بن سالم أبو محمد المخرمى البغدادى ، المهلبى مولاهم ، السندى ، ثقة حافظ ، من العاشرة ، صنف المسند ، عابوا عليه التشيع ، أشاد به ابن سعد ، قال عنه ابن معين : صدوق ، ليس به بأس ، وكان أحمد لا يشك فى صدقه ، وثقه أبو حاتم والرازى والنسائى ، (ت ٢٣١هـ) . ابن حجر ، تقريب التهذيب(١٩٤) . المشهدانى ، موارد البلاذرى (٤٨٠/٢) .

(١٠٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٧٨/٧) . ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب (٢٧٠/١) .

(١٠٩) لم أقف له على ترجمة .

(١١٠) الرازى ، الجرح والتعديل (٥٨١/٣) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٨٥/٢) .

(١١١) الرازى ، الجرح والتعديل (١٨٢/٧) . ابن حبان ، الثقات (٣٤٥/٥) . ابن حجر، تقريب التهذيب (٤٦٤) . الذهبى ، تاريخ الإسلام (٥٣٨) .

(١١٢) أنساب الأشراف (٤٢٠/١/٤) .

(١١٣) تاريخ الإسلام (٣٧) .

(١١٤) سبق ترجمته فى دراسة السند رقم (٧) وهو ثقة .

(١١٥) الكامل (٣٢١/٣) .

(١١٦) المنتظم (٢٥/٦) .

(١١٧) أنساب الأشراف (٤٢١/١/٤) .

(١١٨) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٨) .

(١١٩) الفتوح (٣٠٦/٥) .

(١٢٠) سبقت ترجمته ضمن الرواية رقم (٨) وهو صدوق .

(١٢١) سويد بن منجوف السدوسى من أهل البصرة ترجم له الرازى وسكت عنه وذكره ابن حبان فى الثقات . الرازى ، والجرح والتعديل (٢٣٤/٤) . الثقات (٣٢٣/٤) .

(١٢٢) سبقت ترجمته ضمن الرواية رقم (٨) .

(١٢٣) الدلجة سير السحر والدلجة بالفتح سير الليل كله ومعنى يدلجان بالليل يسيران من آخر الليل أو فى أى ساعة من أول الليل إلى آخره . ابن منظور ، لسان العرب (١٤٠٧/٣) .

(١٢٤) عبيد الله بن زياد سبقت ترجمته فى سند رقم (٢) .

وعبد الله بن زياد : هو عباد بن زياد سبقت ترجمته فى سند رقم (٣) .

(١٢٥) الرازى ، الجرح والتعديل (٢٤/٥) . ابن حجر . تقريب التهذيب (٣٧٠) .

(١٢٦) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٨) .

(١٢٧) قرة بن عمرو بن قيس : لم أقف له على ترجمة .

(١٢٨) أنساب الأشراف (٤٢٢/١/٤) .

(١٢٩) ورد عند الطبرى : قرة بن عمرو بن قيس .

(١٣٠) الفتوح (٣٠٨/٥) .

(١٣١) الكامل (٣٢٣/٣) .

(١٣٢) تاريخ الإسلام (٣٧) .

(١٣٣) الزبير بن الخريت وأبو لبيد الجهضمى : سبقت ترجمتهما فى سند رقم (٩) .

(١٣٤) عبد الله بن عثمان الثقفى : مجهول من الثالثة . ابن حجر . تقريب التهذيب (ص٣١٣) .

(١٣٥) عبد الرحمن بن أبى بكره : وهو نفيع بن الحارث الثقفى البصرى ، يكنى أبا بحر ، ثقة كبير القدر ، مقرئاً عالمًا ، كان جواداً ، أول مولود ولد فى الإسلام بالبصرة ، توفى سنة ست وتسعين .

ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٩٠/٧) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٣١٩/٤ ، ٤١١) .
ابن حجر . تهذيب التهذيب (١٤٨/٦) .

(١٣٦) زاذان فروخ : أبو عمرو الكندى ، مولاهم البزار الضرير ، أحد العلماء الكبار ، ولد فى حياة النبى ﷺ ، وكان ثقة ، صادقاً ، مات سنة ٨٢هـ .

الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٢٨٠/٤) . ابن كثير ، البداية والنهاية (٥٠/٩) .

(١٣٧) الدهاقين : بضم الدال وكسرها : هو زعيم فلاح العجم ورئيس الأقاليم فى بلادهم — معرب من دهخان بالفارسية . الأصفهانى ، الأغانى (٣٥٥/١٣) .

(١٣٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٩٥/٧) . ابن عساكر ، تاريخ دمشق (٢٧/٧) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣٢٥/٢) .

(١٣٩) الرازى ، الجرح والتعديل (٣٦٧/٣) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٦٥٧/١) . ابن حجر . تقريب التهذيب (١٩٧) .

(١٤٠) الرازى ، الجرح والتعديل (٢٠/٩) . ابن حبان ، الثقات (٥٥٥/٧) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣٤٩/٤) . ابن حجر . لسان الميزان (٢٢٨/٦) .

(١٤١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٦٢/٤)

(١٤٢) أنساب الأشراف (٤١٠/١/٤ ، ٤١١) .

(١٤٣) عامر بن حفص ، لقبه أبو اليقظان ، كان عالمًا بالأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه ، ت سنة ١٩٠هـ ، له جملة كتب فى الأخبار والأنساب . ابن النديم ، الفهرست (١٣٨) . د. بدرى محمد فهد ، شيخ الإخباريين أبو الحسن المدائنى(١٦٦) .

(١٤٤) الفتوح (٣٠٨/٥ ، ٣٠٩) .

(١٤٥) الكامل (٣٢٣/٣ ، ٣٢٤) .

(١٤٦) انظر رواية هشام عن عوانه فى تاريخ الطبرى (٥٢٤/٥) .

(١٤٧) هو عبد الله بن الحارث بن نوفل ، أبو محمد القرشى الهاشمى ولقبه ببه ، أقره ابن الزبير على البصرة سنة ثم عزله لأبيه وجده صحبه ، حنكة النبى ﷺ ، قال العجلى : مدنى تابعى ثقة ، أخرج له الجماعة . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٤/٥) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٢٩/٣) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١١٩/٣) .

(١٤٨) هميان بن عدى السدوسى كان من الولاة فى عهد الدولة الأموية ، ثم وجهه الحجاج فى مسلحة إلى كرمان ليمد عامل سجستان والسند ولكنه عصى الأوامر فوجه الحجاج بن الأشعث فى محاربته فهزمه وأقام بموضعه . انظر الطبرى ، تاريخ (٣٢٩/٦) .

(١٤٩) الفيل مولى زياد ترجم له البخارى وقال هو مولى زياد بن سميه روى عنه محمد بن الزبير الحنظلى ، وسكت البخارى عنه فى التاريخ الكبير (١٤٠/٧) وذكره الرازى فى الجرح والتعديل (٩٠/٧) .

(١٥٠) أشيم بن شقيق بن ثور : من أتباع على رضى الله عنه وشيعته والمحاربين إلى جانبه الطبرى ، تاريخ (٥١٥/٥ ، ٥٢٠) .

(١٥١) مالك بن مسمع : سبقت ترجمته فى سند رقم (٨) .

(١٥٢) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمى السعدى ، أبو بحر ، اسمه الضحاك ، وقيل صخر ، مخضرم ثقة ، قيل مات سنة سبع وستين وقيل اثنتين وسبعين ، أسلم فى حياة النبى ﷺ ولم يره ، يضرب بحلمه المثل ، قال العجلى : هو بصرى تابعى ثقة ، كان سيد قومه ، جواداً صحالحًا . ابن كثير ، البداية (٣٣١/٨) ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٩٣/٧) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٢٣/١) .

(١٥٣) سلمه بن ذويب بن عبد الله بن محكم بن زيد بن رياح بن يربوع بن حنظلة الرياحي هو الذي جمع الناس في البصرة ودعاهم إلى اللحاق بعبد الله بن الزبير - العائذ بالحرم - وحاول الأحنف - صخر بن قيس - منعه وصده ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً مما جعل الناس يقعدون عن عبيد الله بن زياد . الطبري ، تاريخ (٥٠٧/٥ ، ٥٠٨) .

(١٥٤) عمر بن عبيد الله بن معمر : الأمير ، من أشراف قريش ، كان جواداً ، شجاعًا له فتوحات مشهودة ، ولي البصرة لابن الزبير ، ولي أمره فارس ، روى عن العراقيين وذكره ابن حبان في الثقات (١٧٧/٧) .

وانظر ابن كثير ، البداية (٤٩/٩) . الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٧٢/٤) .

(١٥٥) عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، أبو محمد المدني ، له رؤية، وكان من كبار ثقات التابعين ، مات سنة ثلاث وأربعين ، قال الدارقطني مدني جليل يحتج به ، كان ممن أمره عثمان بن عفان أن يكتب المصاحف مع زيد بن ثابت وسعيد ابن العاص وعبد الله بن الزبير ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣٥٠/٣) .

(١٥٦) تاريخ الطبري (٦٣٦/٧) .

(١٥٧) الطبقات الكبرى (١٠٠/٧) .

(١٥٨) تاريخ بغداد (٢١١/١) .

(١٥٩) أسد الغابة (٢٠٧/٣) .

(١٦٠) الإصابة (٥٨/٣) .

(١٦١) أنساب الأشراف (٤٠٥/١/٤ ، ٤٠٧) .

(١٦٢) أبو عبيدة . معمر بن المثنى التيمي ، صاحب التصانيف ، أخباري صدوق ، رمي برأى الخوارج ، من السابعة ، ت ٢٠٨هـ أو بعد قارب المائة . قال الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي أو جماعي أعلم بجميع العلوم من ابن عبيدة . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٤١) . الذهبي ، ميزان الاعتدال (١٥٥/٤) .

(١٦٣) زهير بن هنيد العدوي أبو الذيال البصري ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وأبي زرعة العراقي في ذيل الكاشف (١١١) ، ابن حبان ، الثقات (٣٣٨/٦) . البخاري ، التاريخ الكبير (٣٩٢/١/٢) .

(١٦٤) عمر بن عيسى بن سويد العدوى البصرى وثقه أحمد والنسائى والعجلى وذكـــره ابــن حبان فى الثقات (٢٢٦/٧) . البخارى ، التاريخ الكبـــير (٣٥٨/٢/٣) . ابــن حجــر ، تهذيب التهذيب (٨٧/٨) .

(١٦٥) وقد أورد هذه الرواية الطبرى بهذا السند وبتفصيل أكثر فى تاريخ الأمم (٥١٤/٥) .

(١٦٦) الطبرى ، تاريخ (٥١٣/٥) .

(١٦٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٩) .

(١٦٨) البداية (٢٤٢/٨) .

(١٦٩) تاريخ دمشق (١٥١/٣) . سير أعلام النبلاء (٤٠٢/٣) .

(١٧٠) الكامل (٣٢٥/٣) .

(١٧١) أنساب الأشراف (٤٠٧/١/٤) .

(١٧٢) عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى . سبقت ترجمته ضمن الرواية (١٣) .

(١٧٣) هو عبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمى القرشى ، قال ابن المثنى حدثنا معاذ حدثنا ابن عون عن محمد : أن أول من رفع يديه فى الجمعة عبيد الله بن عبيد الله بـــن معمـــر ، وأول من أحدث فى الوصية برأيه ...

انظر البخارى ، التاريخ الكبير (٣٩٩/٥) .

(١٧٤) أنساب الأشراف (٤٠٧/١/٤) .

(١٧٥) الكامل (٣٢٥/٣) .

(١٧٦) تاريخ دمشق (١٥١/٣) .

(١٧٧) تعجيل المنفعة (٢٩٩) .

(١٧٨) عبد الله بن الحارث الهاشمى : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٣) .

(١٧٩) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى البكرى الوائلى الحرورى أبو راشـــد ، رأس الأزارقـــة وإليه نسبتهم ، كان جباراً فتاكاً قاتله المهلب بن أبى صفرة ولقى الأهوال فـــى حربـــه ، قتل يوم (دولاب) ت ٦٥هـــ . الأصفهانى ، الأغانى (٨١/١) .

(١٨٠) عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٣) .

(١٨١) الصعب بن زيد : روى جرير خمس روايات عن صعب بن زيد وهو مجـــهول ، أكـــد الذهبى روايته عنه ، بينت أوضاع البصرة بعد هروب ابن زياد عنها ووقـــوع مـــرض

الطاعون فيها . البلاذرى ، أنساب الأشراف (٤٢٦/١/٤) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣١٥/٢) . الرازى ، الجرح والتعديل (٤٥٠/٤) .

(١٨٢) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم . ابن منظور ، لسان العرب (٣٠٦٥/٥) . الأصفهانى ، الأغانى (١٠٧/١٣) .

(١٨٣) البغدادى ، تاريخ بغداد (٤٠٥/٥) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٥٩٥/٣) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٤٨٧) .

(١٨٤) الطبقات الكبرى (٢٥/٥) .

(١٨٥) محمد بن عمر الواقدى صاحب التصانيف والمغاز ، قال عنه البخارى سكتوا عنه، وقال النسائى ليس بثقة ، وقال عنه الذهبى أحد أوعية العلم على ضعفه المتفق عليه ، توفى سنة ٢٠٧هـ . انظر البخارى ، التاريخ الكبير (١٧٨/١) . ابن سعد ، الطبقات (٣٣٤/٧) . البغدادى ، تاريخ بغداد (٣/٣) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٩) .

(١٨٦) تاريخ بغداد (٢١٢/١) .

(١٨٧) يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسى أبو يوسف ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : مات سنة إحدى وثمانين ومائتين ، وكان ممن جمع وصنف وأكثر مع الورع والنسك والصلابة فى السنة . الثقات (٢٨٧/٩) .

(١٨٨) تاريخ دمشق (١٥١/٣) .

(١٨٩) الكامل (٣٢٥/٣) .

(١٩٠) الفاسى ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (١٢٨/٥) .

(١٩١) المنتظم (٢٥/٦) . أنساب الأشراف (٤٢٦/١/٤) .

(١٩٢) أحمد بن إبراهيم الدورقى : سبقت ترجمته ضمن دراسة الرواية رقم (٧) وهو ثقة.

(١٩٣) عبد الله بن الحارث بن نوفل : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٣) .

(١٩٤) أبو أحمد عبد الله بن عدى الجرجانى ت٣٦٥هـ ، الكامل فى الضعفاء (١١١١/٣). السمعانى ، الأنساب (٣٠٩/١٠) . ابن حجر ، لسان الميزان (١٠٣/٧) .

(١٩٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٥٥/٧) . الرازى ، الجرح والتعديل (٢٧٤/٩) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٦٠٢) .

(١٩٦) سلم بن زياد : سبقت ترجمته فى سند رقم (٣) .

(١٩٧) عبد الله بن خازم بن أسماء بن الصلت البصرى ، أمير خراسان ، يقـــال لــه صحبــة ورواية ، قتل سنة ٧٢هــ بعد قتل عبد الله بن الزبير ، أول ما ولـــى خراســان سـنة ٦٤هــ بعد موت يزيد بن معاوة وابنه معاوية .

ابن كثير ، البداية والنهاية (٣٣٠/٨) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٢٨/٣) .

(١٩٨) ابن عراده : هو حنظلة بن قيس بن عراده التميمى .

(١٩٩) ابن أعثم الكوفى (٣٠٩/٥) .

(٢٠٠) المنتظم (٢٨/٦) .

(٢٠١) الكامل (٣٣٠/٣) .

(٢٠٢) تاريخ الإسلام (٤٤) .

(٢٠٣) عبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمى ، سبقت ترجمته ضمن الرواية رقم (١٥) .

(٢٠٤) أنساب الأشراف (٤٢٧/١/٤) .

(٢٠٥) المنتظم (٢٥/٦) .

(٢٠٦) الكامل (٣٥٦/٣) . البداية (٢٦٥/٨) .

يوسف بن تغرى بردى الاتابكى : النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة (١٦٨/١).

(٢٠٧) تاريخ الإسلام (٦١ — ٦٦/٨٠) .

(٢٠٨) البداية والنهاية (٢٦٥/٨) .

(٢٠٩) عبيد الله بن عبيد الله بن معمر : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٥) .

(٢١٠) نافع بن الأزرق : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٦) .

(٢١١) دولاب : بفتح أوله ، وآخره باء موحدة ، وهى قرية من قرى الأهـــواز بينــها وبيــن الأهواز أربعة فراسخ ، كان بها وقعة أهل البصرة . وأميرهم مسلم بن عبيس بن كريــز وبين الخوارج ، قتل فيها نافع بن الأزرق . ياقوت ، معجم البلدان (٤٨٥/٢) .

(٢١٢) المنتظم (٤٠/٦) . الكامل (٣٥١/٣) .

(٢١٣) ابن أعثم الكوفى (١٦/٦) .

(٢١٤) الدينورى ، الأخبار الطوال (٢٧٣) . أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى (١٥٣/٦).

(٢١٥) سبقت ترجمته فى سند رقم (١٥) .

(٢١٦) سبق معنا ضمن سند رقم (٢٠) .

(٢١٧) سبق معنا ضمن سند رقم (١٦) .

(٢١٨) حارثة بن بدر بن حصين التميمي الغداني : تابعي من أهل البصرة ، لــه أخبــار فــي الفتوح ، أمر على قتال الخوارج في العراق فهزموه ، حارب في زمن علــي ﷺ ، لــه أخبار مع زياد وغيره في دولة معاوية وولده ، توفي بنيسابور ودفن فيها .

ابن عساكر ، تاريخ دمشق (٤٣٣/٣) . الأصفهاني ، الأغاني (١٥٥/٦) .

(٢١٩) كرنبوا : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، ثم فتح النون ، وباء موحدة ، وألف : موضع فــي نواحي الأهواز كانت به وقعة بين الخوارج وأهل البصرة بعد وقعــة دولاب . انظــر ياقوت ، معجم البلدان (٤٥٧/٤) .

(٢٢٠) البخاري ، التاريخ الكبير (١٧٨/٢/٢) . الرازي ، الجرح والتعديل (١٥٥/٤ ، ٢٩٥) .

(٢٢١) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٦) .

(٢٢٢) مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعه ، خليفة عبد الله بن الحارث بن نوفــل ، أيــام ابــن الزبير ، كان فارسًا شجاعًا دينًا ، وكان أميرًا على جيش أهل البصــرة ، مــات سـنة ٦٥هــ الأصفهاني ، الأغاني (١٥٢/٦) .

(٢٢٣) نافع بن الأزرق : سبق ترجمته في سند رقم (١٦) .

(٢٢٤) الماحوز : هو عبد الله بن بشير بن الماحوز الســليطي الــيربوعي التميمــي : رئيس الأزارقة في الأهواز وما حولها ، كانت له معركة مع عثمان بن عبيد الله بن معمــر ، قتل فيها عثمان ، ومعارك مع المهلب ، قتل في نهايتها ابن الماحوز .

ابن أعثم الكوفي ، الفتوح (٢٢/٦) . الأصفهاني ، الأغاني (١٥٣/٦) .

(٢٢٥) ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٢١/٧) . الرازي ، الجرح والتعديل (٣٨٧/٨) . ابــن حبان ، الثقات (٤١٢/٥) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٤٨٤/٥) .

(٢٢٦) انظر الأخبار الطوال (٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥) .

(٢٢٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٧) وعن مقتل ابــن الأزرق وابنــا مــاحوز انظــر تــاريخ خليفة(٢٥٦) .

قائمة المصادر والمرجع

ابن أعثم (ت ٣١٤هـ) : أبو محمد بن أعثم الكوفى :

- الفتوح ، الطبعة الأولى – دائرة المعارف العثمانية بالهند عام ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) : عز الدين أبو الحسن على بن أبو الكرم محمد بن عبد الكريم الشيبانى :

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق : محمد إبراهيم البنا وآخرون ، ط . دار الشعب المصرية .

- الكامل فى التاريخ ، طبعة دار الفكر – بيروت ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى :

- المسند ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م دار الفكر ، بيروت .

البخارى (ت ٢٥٦هـ : أبو عبيد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم :

- التاريخ الكبير ، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ١٤٠٧هـ .

البسوى (ت ٢٧٧هـ) : يعقوب بن سفيان البسوى .

- المعرفة والتاريخ ، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ، ط مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية عام ١٤٠١هـ .

البغدادى (ت ٤٦٣هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب :

- تاريخ بغداد ، ط دار الكتاب العربى ، بيروت .

البلاذرى (ت٢٧٩تقريبا) : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى .

- أنساب الأشراف ، تحقيق د. أحسان عباس ، النشـــرات الإســلامية ، المطبعــة الكاثوليكية ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م .

- فتوح البلدان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، ط مكتبة النهضة المصرية .

بدرى : د. بدرى محمد فهد

- شيخ الأخباريين أبو الحسن المدائنى ، مطبعة القضاء ، النجف ، العراق .

ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ) : يوسف بن تغرى بردى

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ط المؤسسة المصرية للتــأليف عــام ١٩٦٣م .

ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى ، دائرة المعــارف العثمانيــة، حيدر آباد - الهند عام ١٣٥٧هـ .

ابن حبان (ت ٣٥٤هـ) : محمد بن حبان بن أحمد التميمى

- الثقات ، طبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند عام ١٣٩٣هـ .

ابن حجر (ت٨٥٢هـ) : الإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى :

- الإصابة فى تمييز الصحابة ، ومعه الاستيعاب ، تحقيق : طه محمد الزينـــى، ط الأولى ١٣٩٧هـ - القاهرة .

- تقريب التهذيب ، تحقيق : محمد عواد ، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ ، دار الرشـيد ، سوريا .

- تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة ، مصورة عن دار المحاسن بالقــاهرة عام ١٣٨٦هـ .

- تهذيب التهذيب ، مصورة عن الطبعة الأولى الهندية عام ١٣٢٥هـ بحيدر آباد .
- لسان الميزان ، الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ، مؤسسة الأعلمي بيروت .

الحمصي : محمد بن سلام الحمصي

- طبقات فحول الشعراء ، تحقيق د. محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة.

ابن خياط (ت ٢٤٠هـ) : أبو عمر خليفة بن خياط العصفري

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، ط دار العلم ومؤسسة الرسالة ببيروت ، ط الثانية ١٣٩٧هـ .

الدار قطني (ت ١٣٨٥ هـ) : علي بن عمر الدار قطني

- الضعفاء والمتروكين ، تحقيق : موفق بن عبد الله بن عبد القادر ، ط مكتبة المعارف ، الرياض ، ط الأولى عام ١٤٠٤هـ .

الدينوري (ت ٢٨٢هـ) : أبو حنيفة أحمد بن داود .

- الأخبار الطوال ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، وجمال الدين الشيال ، ط المغني ببغداد ، الطبعة الثانية .

الذهبي (ت ٧٤٨هـ) : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام ، تحقيق : د. عمر عبد السلام ، طبعة السعادة بمصر عام ١٣٦٧هـ .
- دول الإسلام ، تحقيق فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم ، ط الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٧٤م .
- سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وحسين الأسد ، طبعة مؤسسة الرسالة ، ط الثانية ١٤٠٢هـ .

- المغنى فى الضعفاء ، تحقيق : د . نور الدين عتر .

- ميزان الإعتدال ، تحقيق : محمد على البجاوى ، ط دار المعرفة بيروت ، مصورة عن الطبعة الأولى .

الرازى (ت ٣٢٧هـ): عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن أدريس التميمى

- الجرح والتعديل ، ط مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، ط الأولى .

ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) : محمد بن سعد بن منيع الكاتب

- الطبقات الكبرى ، طبعة بيروت المصورة عن الطبعة المصرية .

- الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك ، تحقيق د. عبد العزيز بن عبد الله السلومى ، ط الأولى ، مكتبة الصديق بالطائف ١٤١٦هـ .

ابن شبه (ت ٢٦٢هـ) : أبو زيد عمر بن شبه النميرى البصرى

- تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، ط الأصفهانى بجده عام ١٣٩٣هـ .

الطبرى (ت٣١٠هـ) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى

- تاريخ الطبرى المسمى بتاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، ط دار المعارف بمصر ، ط الثانية .

ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ومعه كتاب الإصابة ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٣٢٨هـ .

ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ) : احمد بن محمد الأندلسى

- العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة عام ١٣٨٥هـ بالقاهرة .

ابن عساكر (ت٥٧١هـ) : الحافظ أبو القاسم على بن الحسن

- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق / نشاط غزاوى ، مطبعة دار الفكر بدمشق .

العقيلى : أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد

- الضعفاء الكبير ، تحقيق د. عبد المعطى أمين قلعجى ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت .

ابن العماد (ت١٠٨٩هـ) : أبو فلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط دار المسيرة ببيروت عام ١٣٩٩هـ .

أبو الفرج الأصفهانى (ت٣٥٦هـ) : على بن الحسن بن محمد القرشى

- الأغانى ، تحقيق الأستاذ على مهنا ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

الفاسى (ت٨٣٢هـ) : تقى الدين محمد بن أحمد الحسن الفاسى المكى

- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق : فؤاد السيد ، طبعة القاهرة ١٣٨٥هـ .

ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى

- الإمامة والسياسية « منسوب إليه » تحقيق / طه محمد الزينى ، ط القاهرة ، مؤسسة الحلبى .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى .

- البداية والنهاية ، تحقيق : مجموعة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - دار الريان للتراث بالقاهرة .

المزى : الحافظ جمال الدين المزى

- تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، تحقيق د. بشار عـــواد ، ط الثانيـــة مؤسســـة الرسالة ١٤١٣هـــ - ١٩٩٢م.

المسعودى (ت ٣٤٥هـــ) : أبو الحسن على بن الحسين بن على

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين ، ط دار الفكر بـيروت عام ١٣٩٣هـــ ط الخامسة .

المشهدانى : د. محمد جاسم المشهدانى

- موارد البلاذرى عن الأسرة الأموية فى أنساب الأشراف ، طبعة مكتبة الطـــالب الجامعى بمكة المكرمة .

ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد

- لسان العرب ، تحقيق / عبد الله على الكبير وآخرون ، ط دار المعارف بمصر .

ابن النديم : محمد بن إسحاق بن النديم البغدادى

- الفهرست ، طبعة دار المعرفة بيروت عام ١٣٩٨هـــ - ١٩٧٨م .

ياقوت (ت ٦٢٦هـــ) : ابن عبد الله الحموى الرومى

- معجم البلدان ، طبعة صادر بيروت عام ١٤٠٤هـــ .

خطط الراشدين في البحر المتوسط

د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري(*)

غدت الدولة الإسلامية بعد امتدادها في عصر الخلفاء الراشدين إلى مصر والشام تحكم مناطق مطلة على البحر الأبيض المتوسط ، تعد من أكثر الأماكن المطلة عليه أهمية ، وبالتالي فإنها اضطرت لعمل خطط خاصة بأملاكها وقواتها ورعاياها في المنطقة وكانت هذه الدولة في بداية أمرها وخصوصا في عصر عمر رضي الله عنه لا ترغب في خوض غمار البحر واضطرت للتخطيط فيما يتعلق بأملاكها الساحلية عن طريق الدفاع والقوات البرية ، إلا أن هذه السياسة والخطط تعرضت للتغيير وخصوصا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك بعد تزايد الخطر البحري الرومي ، والهجوم المتكرر على المدن الساحلية في مصر والشام ، مما اضطر معه عثمان رضي الله عنه وبمساعدة قيادات الدولة الإسلامية للعمل على إيجاد قوات بحرية رادعة تقف في وجه بحرية الروم بل وتهددها في عقر دارها . وعملت دور الصناعة في مصر والشام على تجهيز الأساطيل الإسلامية وما تستلزمه من احتياجات في خطة منتظمة استفاد فيها المسلمون من الأقباط في مصر والنصارى في الشام ، الذين لم يترددوا في تقديم خبراتهم للجيوش الإسلامية في ميدان التجهيز والملاحة ، في مقابل التسامح والبذل الذي قام به المسلمون في تلك المناطق ، حيث شعر أولئك بالأمان في العمل مع المسلمين لأنفسهم ولبلدانهم وشعوبها . وقد أعدت الجيوش الإسلامية في البحر في فترة وجيزة، وأبدى المسلمون تطوعهم للتجنيد في الجهاد البحري كما كانوا في البر ، وجاهدوا بحرا في مواقع مختلفة ، حيث تمكنوا من فتح قبرص وأرواد ونزلوا في رودس وهددوا سواحل اوربا وأصبحت لهم السيطرة البحرية ، وخصوصا بعد موقعة ذات الصواري . واستبسل عدد من الصحابة والتابعين في تلك التحركات

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك – كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض .

البحرية ، التى شارك فيها النساء مع الرجال ، والتى رعتها الدولة الإسلامية ، وهكذا فإن المسلمين فى عصر الراشدين خططوا للجهاد فى البحر كما فعلوا فى البر .

والمصادر المختلفة فى التاريخ الإسلامى تتحدث عن تلك الروايات التى نستشهد بها فى الحديث عن تلك الخطط والإنجازات ، فى مراحلها وتغيراتها المختلفة ، كما أن مصادر التاريخ البيزنطى تتحدث عن نفس الموضوعات بما يخدم الباحث فيها ، ويمكننا أن نقول باختصار إن المسلمين ترددوا فى التخطيط والغزو البحرى فى البحر المتوسط فى خلافة عمر نظرا لظروف واقعية كان يدركها عمر أكثر من غيره ، تتعلق بالقدرات والاستعداد . وحينما زالت هذه الظروف فى خلافة عثمان غير الخطة . وغزا المسلمون البحر وأصبح لهم قواعدهم وتجهيزاتهم الخاصة ، وصرف عثمان عليها الكثير من بيت مال المسلمين ، ساعده على ذلك القواد وعامة المسلمين بما لديهم من قناعات مؤصلة فى الجهاد البحرى وشرعيته وأهميته، ونجح عثمان رضى الله عنه وجيشه فى قهر الروم فى البحر فى وقت قهرهم المسلمون فى البر . وهكذا فإن المسلمين فى عهد الراشدين ببساطتهم وواقعيتهم خططوا فأنجزوا وعملوا فاعجزوا واجتهدوا فقادوا ونزلوا البحر وانتصروا فيه وسادوا فى سواحل البحر المتوسط كما سادوا فى سواحله الشرقية والجنوبية .

عصر الراشدين

يعد العصر النبوى بداية التأسيس لدولة الإسلام وإقامة المجتمع المسلم فى بقعة من ارض الله ، وكانت البداية الواقعية لهذا المجتمع وتأسيس كيانه المستقل من الهجرة النبوية وتكوين قاعدته فى المدينة المنورة فمنذ ذلك اليوم وكيان الدولة الإسلامية قائم يسوسه الرسول ﷺ .

كانت البداية بسيطة لا تتجاوز المدينة المنورة بل لا تكاد تسيطر عليها جميعا وأخذ نور الله يتم فى المدينة ، وأخذت دولة الإسلام تمتد خارجها تدريجيا بالجهاد والسلم حتى صارت معظم بلاد العرب خاضعة لرسول الله ﷺ وخصوصا بعد فتح مكة حيث دخل الناس فى دين الله أفواجا(١) ، لقد كان عصر النبوة المبارك ودولته القائمة بقيادة الرسول ﷺ مقدمة لعصر الراشدين ، كما أن الرسول ﷺ قرن بين العصرين(٢) .

ولذلك فإن عصر الراشدين يعد أميز العصور الإسلامية على الإطلاق بعد عهد النبى ﷺ وقد أجمعت الأمة على ذلك خلال العصور المختلفة ، وبالتالى فإن أحداثه لها أهميتها الخاصة فى التشريع والقياس والتاريخ(٣) .

ويبتدأ عصر الراشدين ببيعة ابى بكر الصديق رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة النبوية(٤). وينتهى باستشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة أربعين للهجرة النبوية(٥) .

وقد انشغل المسلمون فى اول خلافة أبى بكر بالقضاء على المرتدين فى بلاد العرب وإخماد الفتن التى آثاروها وإعادة الوحدة لبلاد العرب تحت راية الإسلام(٦)، كما كانت بداية الفتوح فى خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – ضد فارس والروم.

فكان لهذا العصر سماته المميزة ، حيث خاض المسلمون جهادا قويا ضد المجاورين لبلاد العرب من المجوس فى فارس ، والروم وأتباعهم فى الشام ومصر وكان جزء من هذا الصراع مع نصارى العراق والشام ، وخصوصا من وقف منهم مع الفرس أو الروم .

وقد نتج عن هذا الجهاد امتداد الإسلام إلى أماكن جديدة وتضاعف رقعة الأراضى المحكومة من قبل الراشدين وخصوصا فى عهد عمر – رضى الله عنه – ومن جاء بعده ، وتبع ذلك تعدد الشعوب واللغات ، والاختلاط بحضارات ونظم كانت سائدة فى العديد من الأقاليم التى تم ضمها للدولة الإسلامية ، كما أن الراشدين أطلعوا على تلك النظم وعرفوا الأساليب المدنية والعسكرية المختلفة التى كانت سائدة فيها من دواوين وبريد ودور أموال وضرب للعملات ، وتنظيمات إدارية وعسكرية ، وغير ذلك مما يصعب حصره ، فأفادوا مما رأوه لا يعارض جوهر الإسلام وقواعد العدل فيه ، وبالتالى فإن هذا العصر تميز بالانفتاح على الحضارات القديمة السائدة فى المناطق التى سيطر عليها المسلمون ومع هذا الانفتاح فإن المسلمين بقوا على ثوابتهم ، بل ونشروها فى المجتمعات المفتوحة ، ولم يجمدوا على ما يقبل التغيير والتحسين فحسنوها إلى الأفضل ، فنمت الدولة والمجتمع ، وتطورت أساليبهم الإدارية والعسكرية لتستوعب النمو فى رقعة الدولة والزيادة فى الرعية، والتغير فى الظروف فكانوا عامل نمو وانضباط لمجتمع جديد.

وعندما حدثت الفتنة الكبرى فى أخره أدت إلى استشهاد أمير المؤمنين عثمان ابن عفان – رضى الله عنه – ، وما تلى ذلك من أحداث امتدت طيلة خلافة على ابن أبى طالب – رضى الله عنه – لكنها لم تمنع المسلمين من سد ثغورهم أمام الروم وغيرهم فى البر والبحر[٧] .

البحر المتوسط الموقع والأهمية :

يعرف هذا البحر عند العلماء العرب ببحر الشام أو بحر المغرب أو بحر الروم[٨] ويكسب أهميته من عدة أمور منها ما يرتبط به من أنشطة بشرية مختلفة

وعلاقات دولية متعددة ، وما يرتبط بذلك من خصائص اجتماعية واقتصادية وحضارية متنوعة[٩] ، ومن هذا المنطق فإن البحر المتوسط يعد أهم البحار في العالم منذ القدم ، حيث تقع عليه أقدم الحضارات فى مصر والشام وجنوب أوربا وغرب بلاد الأناضول ، وقد تميز هذا البحر بامتداده الواسع من الشرق إلى الغرب، وباستيعاب عدد من المدن التجارية ذات الحضارة المميزة عبر التاريخ مثل الإسكندرية ومدن الشام الساحلية وبعض المدن الأوربية الهامة وعلى رأسها القسطنطينية ، كما تقع فى هذا البحر العديد من الجزر والمدن المأهولة ذات النشاط البشرى الاقتصادى والعلمى والحضارى المختلف ، التى لها تأثير على مجريات الأحداث فى العالم عبر العصور هذا فضلا عن انتعاش الزراعة والتجارة على جوانبه المختلفة وبالتالى فإن أهمية هذا البحر واضحة جلية عبر العصور[١٠] ، وتبرز الأهمية لهذا البحر كلما زاد الصراع بين الحضارات الواقعة على جوانبه المختلفة[١١] ، أو نشبت المعارك والحروب فيما بينها ، ويمكننا أن نعتبر هذا البحر تاريخيا أنشط البحار ، وما تسميته بالبحر المتوسط إلا لتوسطه الفريد بين القارات والحضارات ، يقول عنه ابن خلدون : (ويسمى البحر الرومى والبحر الشامى نسبة إلى أهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومى وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله)[١٢] .

وكانت القوافل عبر العصور تربط البحر المتوسط بالتجار فى بلاد العرب وفارس وغيرها ، وقد راودت بعض الحكام فكرة ربطه ببحر القلزم (الأحمر) عن طريق قناة مائية وكان من هؤلاء هارون الرشيد ، الذى فكر فى هذه القناة (التى حفرت بعد ذلك بعشرات القرون وسميت قناة السويس) فمنعه من ذلك بعض مستشاريه بقوله : « كان يختطف الروم الناس من الحرم وتدخل مراكبهم إلى الحجاز »[١٣] .

وقد ورد عند المفسرين للقرآن الكريم ما يؤيد هذه التسمية فقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾[١٤] أنه البحر المتوسط : « إن هذه البحر بركة يعنى بحر الروم وسط الأرض والأنهار كلها تصب فيه والبحر الكبير يصب فيه »[١٥] .

العرب والبحرية :

قبل الدخول فى الحديث عن البحرية فى عصر الراشدين لابد من معرفة الأوضاع التى كانت عليها بلاد العرب فيما يتعلق بالبحرية سواء قبل الإسلام مباشرة أم قبل عصر الراشدين خلال العصر النبوى ، حتى يتبين لنا المستوى الذى كان عليه العرب والمسلمون قبل عصر الراشدين فى هذا المجال . تحيط البحار ببلاد العرب من جهاتها الثلاث ، وبالتالى فقد كانوا على صلة بالبحر قبل الإسلام ، إلا أن الحكم على العرب بشكل عام فى المعرفة البحرية سلبا أو إيجابا يعد بعيدا عن الواقع ، ولذلك فإنه لابد من التفريق بين الأقاليم المختلفة من بلاد العرب فى مستوى المعرفة بالبحر وفنونه .

ففى مناطق الخليج فى الشرق نجد أن أهل البحرين وعمان على دراية بالبحر منذ العصور القديمة[١٦] ، حيث كانت لهم صلات بحرية قوية ببلاد فارس فى الناحية الأخرى من الخليج ، وكذلك ببلاد الهند وما وراءها ثم تأتى اليمن فى المقام الثانى بحكم موقعها الجغرافى وعلاقاتها بالحبشة وامتداد تلك العلاقة إلى الشرق ببلاد الهند وما وراتها[١٧] .

أما أهل الصحراء فى وسط الجزيرة فكانوا عديمى الخبرة بالبحر وركوبه ومختلف أموره ، بحكم موقعهم وعدم حاجتهم لتلك المعرفة .

وأما أهل الحجاز وتهامة فقد كانت لهم معرفة محدودة بالبحر ، حيث كانت لديهم بعض الموانئ القريبة من المدن ، والتى كان أهلها يركبون البحر ويتصلون

بالعمل فيه على نطاق ضيق مثل ميناء الشعيبة قرب مكة المكرمة ، الذى كانت تمر به بعض سفن الروم ، المتوجهة إلى الحبشة ، حيث ذكر تحطم إحدى هـذه السـفن بالقرب من الشعيبة(١٨) ، قبل البعثة النبوية بقرابة خمس سـنوات ، وكـانت هـذه السفينة تحمل الأخشاب وبعض مواد البناء التى اشتراها أهل مكة فكانت عونا لـهم فى بناء الكعبة(١٩) .

كذلك تدل الأخبار المتفرقة على أن الذين هاجروا من أصحاب النبى ﷺ إلـى الحبشة – ركبوا البحر إما من بعض المواقع فى تهامة (السـاحل الحجـازى) أو من سواحل اليمن(٢٠) ، حيث كان لليمن نشاط بحرى مع الحبشة ومع الـهند ، فـى عصور مختلفة قبل الإسلام(٢١) .

كما كان من أحكام الإحرام بالحج والعمرة تحريم الصيد البرى وإباحة صيد البحر مما يدل على معرفتهم بالبحر والصيد ويقول الشاعر طرفة بن العبد(٢٢) .

كـأن حدرج المالكية غدوة — خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن — يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزموها بها — كما قسم الترب المفايد باليد(٢٣)

ولا شك أن الشاعر العربى عمرو بن هند(٢٤) كان مبالغا حينما قال :

ملأنا البـر حتى ضاق عنا — وموج البحر نملؤه سفينا(٢٥)

وهو وإن كان مبالغا فى ذلك إلا أن فيه دليل على الوجود البحرى ومعرفـة العرب للسفن قبيل الإسلام بل وتمييزهم بين أسمائهم وأنواعها .

وينقل ابن خلدون من مهارة العرب البحرية مقارنة بغـيرهم وقبـل امتـداد الإسلام واستفادتهم من خبرة غيرهم فيقول : « أن العرب لبداوتهم لم يكونوا مـهرة

فى ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته »[٢٦] .

ولا شك فى أن معظم ما نسب للعرب من تقدم فى علوم البحار يعود للعصور الإسلامية ، حيث أن معلوماتهم فى هذا الجانب قبل الإسلام تعد محدودة مقارنة بغيرهم من الأمم الأخرى وبما حصلوا عليه بعد الإسلام واحتكاكهم بالأمم الأخرى . واهتمامهم بهذا الجانب .

المعرفة البحرية فى العصر النبوى :

نزل القرآن على رسول الله ﷺ للناس كافة ، وجاءهم بعلوم الدين والدنيا وقد ورد الحديث عن البحر فى القرآن الكريم فى اثنين وأربعين موضعا مشيرا إلى فوائده وأهميته فى النقل والاتصال وما فيه من سفن يقول تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾١٦٤ البقرة .

ويقول تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾ ٣٢ إبراهيم .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ ٦٥ الحج .

كما قال تعالى : ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ ٢٤ الرحمن .

كما تحدث الكتاب العزيز عن منافع البحار المختلفة فى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ١٤ النحل .

ويقول تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ١٢ فاطر .

كما قال تعالى : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ١٢ الجاثية .

كذلك أشار القرآن الكريم إلى الملاحة فيه وما يحتاج البحار من الأهتداء والدلالة على الطريق بقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ ٩٧ الأنعام .

ويقول تعالى : ﴿ ومن آياته الجوارى فى البحر كالإعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور * أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾ ٣٤ الشورى .

وأشار إلى الرياح وأهميتها فى الملاحة وأنها من رحمة الله لأهل البحر فى قوله تعالى : ﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أئلة مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ ٦٣ النمل .

وأشار إلى الموج وظلمات البحر فى قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ ٤٠ النور .

كما تحدث القرآن عن إفساد الناس فى البحر كإفسادهم فى البر وذلك فى سورة الروم (وهذا البحث يتعلق ببحر الروم) أو بحر الشام يقول تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ٤١ الروم .

التوجيه النبوى وأثره فى خطط المسلمين البحرية :

كان الرسول ﷺ يتحدث لأصحابه باستمرار عن ما ستناله هذه الأمـــة مـن فتوح وما ستسيطر عليه من مواقع مختلفة ، وكان بهذا يوجه أنظارهم لهذا الأمـــر بل ويدعوهم بطريقة مباشرة وغير مباشر للمشاركة فيما سيحصل من فتح بحـــرى وغيره ، وفى تصورى أن هذا وإن كان إخبارا بالغيب لا ينطق به الرســـول مـن عنده ، إن هو إلا وحى يوحى إلا أنه كان ذا أثر بالغ فى التخطيط لغـــزو البحـــر ، ومنه ما يتعلق بالبحر المتوسط الذى ورد على لســـان رســول الله ﷺ بالاسـم أو الإشارة تسمية وصدقه واقع الأحداث ، ومن أشهر ذلك ما رواه البخارى فى (بـــاب ما قيل فى قتال الروم) عن أم حرام أنها سمعت النبى ﷺ يقول : (أول جيش مـــن أمتى يغزون البحر قد أوجبوا قالت ام حرام قلت يا رسول الله أنا فيهم قال أنت فيـــهم ثم قال النبى ﷺ أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فقلت أنا فيـــهم يا رسول الله قال لا)[٢٧] .

ولا شك فى أن هذا الحديث كان دافعا للصحابة للغزو فى البحر والتخطيط لـه سواء غزو الروم عامة من البحر أو غزو القسطنطينية خاصة ، وهى أهم قواعـــد الروم على البحر المتوسط ، وهذا الحديث من معجزات رسول الله ﷺ[٢٨] .

وقد وردت ألفاظ فى تسمية البحر المتوسط بتسمية أخرى منها قوله : (أنـاس من أمتى عرضوا على يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة)[٢٩] .

وقد استلفتت هذه الرواية وغيرها نظر البخارى فوضع بابا فى صحيحه سـماه (باب ركوب البحر) . كما وضع مسلم فى صحيحه بناءا على هذه الروايـــة بابـا سماه (باب فضل الغزو فى البحر)[٣٠] .

وقد ذكر ابن المبارك فى كتابه الجهاد أن رســـول الله ﷺ قـال : « إنكـم ستجندون أجنادا وتكون لكم ذمة وخراج وسيكون لكم على ســـيف البحـــر مدائـن

وقصور فمن أدرك ذلك فاستطاع أن يحبس نفسه فى مدينة من تلك المدائن أو قصر من تلك القصور حتى يموت فليفعل » . وقال : « ومن نزل منزلا يخيف فيه المشركين ويخيفونه حتى يدركه الموت كتب به كأجر ساجد لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة وأجر قائم لا يقعد إلى يوم القيامة وأجر صائم لا يفطر »(٣١) .

كما أن رسول الله ﷺ قال : «من لم يدرك الغزو معى فعليه بغزو البحر»(٣٢) .

ولم يقتصر الحديث النبوى على ركوب البحر للجهاد والغزو فقط بل ورد ما يدل على طلب التجارة فى البحر من خلال بعض الأحاديث مما دفع البخارى لوضع باب في صحيحه وضع له عنوانا سماه (باب التجارة فى البحر)(٣٣) .

كما وضع بابا سماه (باب ما يستخرج من البحر)(٣٤) .

خطط الراشدين فى البحر المتوسط

عهد أبى بكر الصديق :

كان عصر ابى بكر الصديق قصيرا جدا مقارنة ببعض الخلفاء الراشـــدين ، وقد انشغل رضى الله عنه بقتال المرتدين من العرب ، وما أن فرغ منهم حتى وجـه أجناد المسلمين للقتال ضد فارس والروم فى وقت واحد ، وكـانت معظـم جـهوده موجهة للقتال البرى . ومع أنه – رضى الله عنه – خطط لفتح الشام بما لها مـن سواحل على البحر المتوسط إلا أن تلك الخطط لم تتم فى فترة خلافته ، حيث كـان المسلمون والروم يعدون لمعركة اليرموك الحاسمة التى غيرت مجرى الأحداث فـى بلاد الشام بما فيها المواقع الساحلية ، ولا تظهر لنا الروايات أخبارا تذكر عن نشـاط للمسلمين فى بحر الشام (المتوسط) خلال فترة ابى بكر لبقائـهم فـى الأطـراف الجنوبية من الشام وعدم وصولهم للساحل خلال خلافة أبى بكر – رضى الله عنـه – ونكاد نجزم إن الموقف البحرى للمسلمين لم يتغير عن ما كانت عليه العرب فـى الجاهلية وزمن النبى ﷺ .

عهد عمر بن الخطاب :

امتدت الدولة الإسلامية فى أيام عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إلـى أصقاع مختلفة من بلاد الشام ومصر ، ومن ذلك شواطئ البحر المتوسط الشـرقية المرتبطة ببلاد الشام ، وشواطئ مصر الشمالية ، وبالتالى كـان مضطـرا للعمـل والتخطيط فى البحر المتوسط – على شواطئه فى مصر والشـام – حيـث اهتـم بتحصين الموانئ والسواحل .

والحديث العملى عن خطط المسلمين لركوب البحر مجاهدين يبدأ مع عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – سواء منها ما يتعلق ببحر الروم أم بالبحار والخلجـان الأخرى التى كانت تدخل فى نطاق الدولة الإسلامية أيام عمر بن الخطاب ، فتذكـر

الروايات وقائع مختلفة أدت لوقوع جماعات من المسلمين في أخطار ومهالك بحرية. وهذا يعنى ابتداء وجود تخطيط لهذا الأمر ، وممارسة بحرية من قبل أمراء عمر حيث قام بعضهم بالعبور من عمان إلى السند فقد روى البلاذرى قال : ولى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عثمان بن أبى العاص الثقفى[٣٥] البحرين وعمان سنة خمس عشرة فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى تانه بالهند[٣٦] . فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك فكتب إليه عمر يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود وإنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم[٣٧] .

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب بعث سنة عشرين للهجرة النبوية علقمة بن مجزز[٣٨] ، في أناس إلى الحبشة يقاربون الثلاثمائة رداً على إحدى غاراتهم البحرية[٣٩] ، فأصيبوا فى البحر[٤٠] .

ولا شك فى أن هذه الحوادث وغيرها جعلت عمر يتردد فى حمل المسلمين على ركوب البحر ، ولعله كان على قناعة بأنهم لم يستعدوا بعد ، ولم يكسبوا الخبرة اللازمة لهذا الأمر ، وبالتالى فهم غير مؤهلين لذلك ، ليس على الدوام ، بل فى تلك الأيام التى حاول فيها معاوية بن أبى سفيان أميره على الشام إقناعه بهذا ، فقد نقل المؤرخون ما دار بين عمر ومعاوية من مراسلات حيث (ألح معاوية على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى غزو البحر) .

وكان لهذا الطلب دوره فى دراسة عمر للموضوع والتخطيط له واستشارته أهل الرأى من أمرائه ، الذين عايشوا المواقع البحرية وعرفوا أخبارها وما يدور فيها . وكان من هؤلاء أميره فى مصر عمرو بن العاص فكتب إليه : (صف لى البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه ...) . فكتب إليه عمرو إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق[٤١] .

ولا شك فى أن جواب عمرو لعمر كان له تأثيره فى اتخاذ قرار مرحلى حاسم حيث أن عمر لما قرأ الرسالة كتب إلى معاوية : (لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا)[٤٢] .

وكان لقرار عمر ما يتبعه من خطط تنفيذية سلبا أو أيجابا ، حيث كتب لأمرائه منع ركوب البحر ، وتؤكد الروايات التزام معاوية وغيره من أمراء المناطق الواقعة على بحر الروم بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٤٣] ، ولم يجرؤ أحد منهم على مخالفته مع أن بعضهم خاض مغامرات بحرية قبل الأمر ، منهم عرفجة بن هرثمة[٤٤] ، وقصته أن العلاء بن الحضرمى عامل عمر على البحرين وجهه فى البحر فعبره إلى أرض فارس سنة اربع عشرة للهجرة[٤٥] ففتح جزيرة مما يلى فارس . فأنكر عمر ذلك لأنه لم يستأذنه وقال غررت المسلمين وعاقبه بطرده من البحرين وأمره أن يلحق بالكوفة[٤٦] .

وعلى كل فإن عمر رغم تردده فى ركوب البحر إلا أنه سعى بكل جهده لحماية الثغور البحرية وخطط لهذا الأمر واجتهد رأيه فى تعيين الأمراء وتحصين الثغور وتجنيد السواحل[٤٧] .

وكان المسلمون ينظرون نظرة خاصة لمن مات مرابطا فى الثغور البحرية كالإسكندرية وغيرها[٤٨] . ولذلك فإن عمرو بن العاص جعل قسما كبيرا من جيشه مرابطا بالساحل بعد فتح الإسكندرية الثانى[٤٩] . وكان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة (غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية)[٥٠] . كما كان كثير من المتطوعة يحرص على المرابطة فى الثغور البحرية أكثر من غيرها[٥١] .

وكان لهذا التصرف ما يبرره فقد حرص الروم على التغلب على بعض السواحل فى بلاد الشام آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان –رضى الله عنهما[٥٢].

ولا شك فى أن هناك ترابطا بين الثغور البحرية فى الشام والثغور فى مصر بل إن البعض يشير إلى أن مما شجع المسلمين على حرب الروم فى الإسكندرية زمن عمر وإصرارهم على فتحها ، فتح قيسارية فى الشام(٥٣) .

ومن هنا يمكننا القول : أن عهد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – كان يعتمد فى خططه فى البحر المتوسط على مدافعة الروم وتحصين المواقع الإسلامية عليه ، ولذا عين أمراء محددين لسواحل الشام مسؤولين عن الدفاع عنها ، أثناء زيارته للشام فى السنة السابعة عشر للهجرة(٥٤) .

ومن الملفت للنظر أن ترتيبات عمر لأمراء الساحل فى الشام جاءت بعد رسالة معاوية التى يطلب الأذن له فى الغزو فى البحر(٥٥) .

ومن ناحية أخرى فإن الصحابة عرفوا التجارة بالبحر وذهبت بعض أموالهم فيه زمن النبى ﷺ(٥٦) ، كما مارسوا ذلك زمن أبى بكر الصديق ، وكان من سياسة عمر – رضى الله عنه – إتاحة الفرصة لتجار المسلمين للتبادل مع تجار البحر الآخرين فى البحر المتوسط ، حيث ثبت أن بعض الصحابة كانوا يتعاطون التجارة فيه زمن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فقد أورد ابن عساكر رواية قال فيها : « كان أصحاب نبى الله يتجرون فى بحر الشام إلى الروم منهم طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد »(٥٧) .

كذلك أشتهر عن عمر – رضى الله عنه – أنه أول من حمل الطعام فى السفن(٥٨) .

ولا شك فى أن نظام العشور ، الذى يتم التعامل به مع التجار الذين يمرون ببلاد المسلمين كان له نصيب من التطبيق مع تجار البحر المتوسط الذين كانوا يعبرون بلاد الإسلام ، حتى أن بعض القاطنين بنواحى فلسطين من الروم والنبط يصلون إلى المدينة للتجارة زمن عمر – رضى الله عنه –(٥٩) .

وكان الروم يعاملون تجار المسلمين بمثل هذا النظام .

ومن هنا يمكننا القول إن عمر لم يخطط للأساطيل الإسلامية التى أسست بعد عصره - رضى الله عنه - فى الوقت الذى لم يتجاهل المصالح الأمنية لشواطئ المسلمين على البحر المتوسط .

عهد عثمان :

عند الحديث عن خلافة عثمان - رضى الله عنه - لابد من التأكيد على أنه سار على طريقة عمر فى تحصين الثغور وحمايتها وتجنيدها ، (لما استخلف عثمان بن عفان - رضى الله عنه - كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل)[٦٠] .

وينبغى التأكيد على أن عثمان لم يكن وحده المخطط ، بل كان معه عدد كبير من الصحابة ممن تدربوا على يد رسول الله ﷺ ، وممن تولى المسئوليات المختلفة فى عهد عمر بن الخطاب وفى عهد أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - وقد تلقى كثير منهم أحاديث فى فضل غزو البحر ، فقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : غزوة فى البحر أحب إلى من قنطار متقبلا[٦١] .

بل أن هناك روايات عن بعض الصحابة تدل على تفضيلهم للشهادة فى البحر وأنه بأجر شهيدين ، وأن من فاته الغزو مع النبى ﷺ - فعليه الغزو فى البحر لعظم أجره[٦٢] .

وكان من أشد أمراء عثمان - رضى الله عنه - حماسة لركوب البحر معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنهما -[٦٣] الذى سبقت له عدة محاولات لإقناع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بركوب البحر فلم ينجح فى ذلك فلما استقرت الأمور لعثمان بن عفان - رضى الله عنه - كتب إليه مكررا المحاولة (يستأذنه فى غزوة قبرص ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها فكتب إليه أن قد شهدت

ما رد عليك عمر – رحمه الله – حين استأمرته فى غزو البحر)[٦٤] ، وكان رد عثمان فى بداية الأمر هو إتباع سياسة عمر فى المنع من ركوب البحر المتوسط والجهاد فيه رغم محاولات معاوية المتكررة . لكن معاوية لم ييأس وكرر الأمر سنة سبع وعشرين طالبا الأذن من عثمان ، وهذا يعنى محاولة إعادة النظر فى الخطة التى سار عليها عمر وألزم عثمان بها نفسه فى صدر خلافته . ولا شك فى أن عثمان بحث الأمر مع بعض مستشاريه قبل أن يغير رأيه ويكتب لمعاوية ردا على رسالته: « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فأركبه مأذونا لك وإلا فلا »[٦٥] .

ومن المؤكد أن عثمان حينما أصر على ركوب معاوية البحر بأهله كان يريد التأكد والتأكيد على سلامة جند المسلمين من الخطر الطبيعى الناتج عن الجهل بالإبحار . أما الخطر الناتج عن الجهاد والقتال ففى نظر عثمان وغيره من الصحابة أمر مقبول ولا يمكن التهرب منه . (فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة وحمل امرأته)[٦٦] .

كان عثمان حريصا على أن من يغزو فى البحر يكون مختارا لذلك غير مجبر عليه ، ولذلك أكد على معاوية فى كتابه (لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم فمن أختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ، ففعل)[٦٧] .

ولا شك فى أن تخطيط عثمان شمل الرجال والعدة والقواعد ، كما تم تنفيذ العديد من الأنشطة المرتبطة بما خطط له فى البحر المتوسط .

التجنيد البحرى :

على أن توجه عثمان – رضى الله عنه – للنشاط البحرى كان يتطلب جند معدين لهذا الأمر كما تطلب عدة خاصة من سفن الحرب ، وما يرتبط بكل ذلك من آلات وعدد . ولا شك ان الغزو فى البحر كان من أهداف المجاهدين المسلمين منذ سمعوا الرسول ﷺ يخبر بغزو المسلمين فى البحر ويرغب فيه ، وبالتالى كان جمع

الجند للغزو فى البحر فى عصر الراشدين ميسرا نظرا لأنهم شبوا على يد رسول الله ﷺ وتشبعوا بتعاليمه ، فضلا عن أنهم لمسوا أمثلة للنشاط البحرى فى البلاد التى فتحوها بعد ذلك وبخاصة فى مصر والشام . لذلك نرى بعض رجال الحديث بل معظمهم يفردون فى كتبهم أبوابا خاصة لغزو البحر وثواب الجهاد فيه فعند البخارى (باب ركوب البحر)[٦٨] ، وعند مسلم (باب فضل الغزو فى البحر)[٦٩]، كما تحدث ابن مبارك، فى كتاب الجهاد بإسهاب عن الغزو فى البحر وفضل الشهادة فيه[٧٠] . كذلك أورد أبو داود من الأحاديث فى هذا الجانب[٧١] ، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « « خمس من قبض فى شئ منهن فهو شهيد القتيل فى سبيل الله شهيد والغريق فى سبيل الله عز وجل ... الحديث »[٧٢] ، فسر ابن مبارك هذا الحديث على أن الغريق مرتبط بالجهاد البحرى .

وقد اعتمد التجنيد البحرى فى زمن عثمان على مبدأ التطوع وعدم إكراه الناس عليه وذلك وفقاً لرسالة عثمان وشرطه على معاوية حينما أذن له بالغزو فى البحر (لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فأحمله وأعنه)[٧٣] .

وتدل النصوص على مشاركة النساء فى ركوب البحر بمصاحبة المجاهدين فيه (وكان الناس يغزون بنسائهم فى المراكب)[٧٤] ولهن دور فى المساعدة والإعداد لما يحتاجه المجاهدون من طعام أو شراب أو دواء وكن بالطبع بمصاحبة أزواجهن أو محارمهن[٧٥] ، مستترات عن الرجال . وقد بحث الفقهاء هذه القضية فرأى بعضهم جواز ركوبهن فى السفن الكبيرة التى لا يضطر الرجال فيها للإطلاع على عورات النساء ولا شك فى أن ركوب النساء السفن زمن الراشدين هو المستند للفقهاء فى بحث القضية[٧٦] .

ولعل مما شجع الجند على ركوب البحر زمن عثمان – رضى الله عنه – وجود عدد كبير من الصحابة ممن تطوع للجهاد فى البحر فى سبيل الله ، من

هؤلاء أبو أيوب الأنصارى – رضى الله عنه – وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وأم حرام بنت ملحان ، وغيرهم من أصحاب النبى ﷺ[٧٧] .

وكانوا من أحرص الناس على توفير الأمن لراكب البحر فقد اورد من صحب أبا أيوب الأنصارى فى غزوة بحرية أنه قال : « صعدت به على سطح أجلح[٧٨] فنزل . وقال : كدت أن أبيت الليلة ولا ذمة لى » كما ورد عن النبى ﷺ أنه قال : « من بات على إنجار[٧٩] فوقع منه فمات برئت منه الذمة ومن ركب البحر حين يرتج يعنى يغتلم[٨٠] فهلك برئت منه الذمة »[٨١] .

التجهيزات البحرية :

لا شك فى أن المسلمين حينما ركبوا البحر فى بدايات عصر عثمان كانوا من أقل الناس خبرة به إذ أنهم لم يكونوا بمستوى الروم ولا قريبين منهم فى الخبرة لكن دخول أقوام كثيرة من أهل الشام ومصر فى الإسلام زمن عمر وعثمان – رضى الله عنهما – ، أكسب المسلمين خبراء بحريين ذوى مكانة عالمية ، كما أن هؤلاء بدخولهم فى الإسلام كانوا من أهل الحماسة له ، لأن دخولهم جاء عن قناعة تامة ، ولم يجبر أحد منهم على ذلك . وقد استفاد المسلمون من غير المسلمين فيما يتعلق بالإعداد البحرى وصناعة السفن وما يتعلق بها من الحرف المختلفة ولعل تسامح المسلمين مع من لم يكونوا على دينهم كان سببا فى مثل هذا التعاون[٨٢] ، وقد اشتهرت بلاد الشام ومصر بوجود دور لصناعة السفن فيها قبل الإسلام ، وبعد فتح تلك البلاد أصبحت تلك الدور بكامل عددها تحت سيطرة الدولة الإسلامية وخصوصا ما كان ملكا لدولة الروم على أن المسلمين لم يكونوا على خبرة فى التعامل معها فى بداية الأمر وبالتالى اضطروا لاستخدام غيرهم مقابل أجر فى الغالب ، حيث كان الكثير من سكان مصر والشام يقبلون العمل مع المسلمين طلبا للرزق أو غير ذلك . هذا إلى أن القبط فى مصر رغبوا فى مساعدة المسلمين ضد الروم عن طواعية فى أكثر من موضع[٨٣] . ولدينا من الشواهد ما يدل

على تعاونهم مع المسلمين وأنهم كانوا يعملون فى سفن المسلمين أثنـــــاء معركـــة ذات الصوارى[٨٤]، كما تؤكـــد المصـــادر مشـــاركة المـوالـــى فـــى غـــزوة ذات الصوارى[٨٥] بل إن بعض المصادر تشير إلى أنه كانت لهـــم مراكـــب خاصـــة شاركت المسلمين فى المعركة[٨٦] وبالتالى فمن المرجح أنهم شاركوا فـــى صناعـــة السفن وما يلزم البحرية الإسلامية فى مصر من تجهيزات زمن الخليفة عثمان بـــن عفان – رضى الله عنه – .

وقد سيطر المسلمون على أماكن عديدة على سواحل الشـام ومصـــر كـــانت مؤهلة لبناء السفن وتجهيز الأساطيل ، كما أن المواد اللازمة لصناعة السفن وعلـــى رأسها الأخشاب والمعادن كانت تتوفر فى جبال الشام ، وفى الأطـــراف الشـمالية منها وفى مناطق مصر المختلفة[٨٧] ، بل إن البعض يرجـــع أســـباب معركـــة ذات الصوارى إلى محاولة البيزنطيين منع المسلمين من الوصول إلى مناطق الأخشـــاب الصالحة لصناعة السفن على سواحل الأناضول[٨٨] .

ومع توفر المواد الخام والخبرة اللازمة كان من المنطقى توجـــه المســلمين لإعداد ما يحتاجونه بأنفسهم لتنمية أساطيلهم ، ويرى البعض أنه : (نتيجـــة لـــهذه الانتصارات تقدم العرب إلى شواطئ البحر المتوسط حيث طوروا قوتهم البحريـــة وشنوا هجوما على قلب الإمبراطورية البيزنطية)[٨٩] . ويقول آخر : « لـــم تبـدأ البحرية البيزنطية حقا إلا فى عهد هرقل فإن قوة العرب البحريـــة الناميـــة كـــانت تستلزم إجراء مضادا ، كما أن المغيرين على الإمبراطورية بلغوا من الكثرة حـــدا جعل السفر البرى من الصعوبة حيث كان من المستحسن فيما نرجح اللجـــوء إلـــى الطرق البحرية المحروسة بالجند »[٩٠] ، وقد اشتهرت مواقع معينة بتصنيع الســـفن أيام عثمان – رضى الله عنه – هى بمثابة قواعد بحرية قائمة بذاتها ، كما كان يتـم التنسيق بينها عند الحاجة لذلك .

القواعد البحرية

الإسكندرية :

هى مدينة قديمة من أهم مدن العالم القديم والحديث ، لها مكانتها التجارية والسياسية والعسكرية عبر العصور ، عريقة فى بناء السفن وتجهيزها منذ أقدم العصور وفيها من الإمكانات وعند أهاها من الخبرة ما جعلها من أهم مدن العالم فى تصنيع السفن قبل الفتح الإسلامى وبعده[٩١] . ولا شك فى أن المسلمين استفادوا مما فيها من التجهيزات السابقة بعد السيطرة عليها ، ولعل خروج الأسطول المسلم منها قبيل موقعة ذات الصوارى مما يبرهن على أهميتها ، وعلى التجهيزات القائمة فيها للأسطول الإسلامى فى بداية عهده فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه . كما أن قيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح أمير مصر من قبل عثمان – رضى الله عنه – لها أكبر شهادة على دور الإسكندرية وأهلها فى الإعداد للأسطول المسلم وكانت الإسكندرية تتعرض باستمرار لهجمات من الروم خلال عصر عمر وعثمان رضى الله عنهما . فى محاولة لاستعادتها[٩٢] مما يدل على أهميتها الكبرى فى رسم السياسة الحربية للروم فى تلك الفترة ، وعلى مكانة هذه المدينة فى الخطط البحرية فى البحر المتوسط لدى كل الأطراف .

ويكثر الحديث عن دور صناعة السفن فى الإسكندرية فى العصور الإسلامية اللاحقة لعصر الراشدين عموما إلا أن النصوص لا تسعفنا فيما يرتبط بعصر الراشدين ، وإن كان من المؤكد قيام هذه الدار بدورها ونشاطها قبل وبعد عصر الراشدين ، واستمرارها فى عصر الراشدين من باب أولى .

طرابلس الشام :

تعد طرابلس الشام من أهم الموانئ البحرية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط . وكانت من أقربها إلى دمشق وحمص قاعدتى الشام فى عصر الخلفاء

الراشدين ، كما كانت طرابلس مركزا بحريا هاما للأساطيل الرومية ، إعدادا وتجهيزا ومعسكرا . ولذلك تمسكوا بها أكثر من غيرها[٩٣] . وقد حرص المسلمون على فتحها منذ أيام عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لكن الفتح لم يتم إلا سنة ٢٥هـ في بداية خلافة عثمان بن عفان – رضى الله عنه –[٩٤] . ومنذ تلك الفترة وطرابلس تحتل مكانتها الخاصة فى الإعداد للقوى الإسلامية البحرية فى عصر الراشدين وما بعده .

وكان لطرابلس نشاط فى بناء السفن وتجهيزها فى زمن عثمان بن عفان ، حيث أن أميره على الشام معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – كان يتابع ذلك عن كثب[٩٥] ، وكان لطرابلس دورها فى معركة (ذات الصوارى) حيث خرج منها عدد كبير من السفن التى شاركت فى هذه المعركة[٩٦] .

عسقلان :

مدينة ساحلية هامة على بحر الروم[٩٧] ، وهى من أهم مدن الشام فى زمن الفتح وكانت مركزا بحريا هاما حاول الروم المحافظة عليها أطول فترة ممكنة ، حتى تمكن المسلمون من فتحها سنة ٢٣هـ على يد معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – فى آخر خلافة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه[٩٨] .

ولأهميتها فإنها تسمى(عروس الشام)[٩٩]،كان عبد الله بن عمر يسميها (ذروة سنام الشام)[١٠٠] . ومنذ فتحها دخلت عسقلان فى عداد القواعد البحرية الإسلامية فى عصر الراشدين وما تلاه ، ولعل قربها من مصر جعلها من أكبر مراكز التنسيق والاتصال بين أساطيل الشام وأساطيل مصر عبر العصور الإسلامية .

عكا :

مدينة ساحلية فى فلسطين تعد من أهم موانئ بحر الروم[١٠١] ، ومن أهم مدن فلسطين[١٠٢] ، وتعد ميناء لبيت المقدس ، بها قوات بحرية رومية عبر العصور .

تمكن شرحبيل بن حسنة – رضى الله عنه – من فتحها فى خلافة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه[١٠٣] ، كما أهتم بها المسلمون فى زمن عثمان وجعلوها قاعدة عسكرية ونقل إليها معاوية بن أبى سفيان فى خلافة عثمان عددا كبيرا من صناع السفن ، وجهزها بالأخشاب من لبنان ، وجعلها أهم مراكز صناعة السفن فى الشام فى خلافة عثمان – رضى الله عنه[١٠٤]– وقد ركب معاوية البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة فى أول غزوة بحرية لقبرص[١٠٥] .

وهناك مراكز بحرية أخرى اشتهرت زمن عثمان ، كانت على ساحل بحر الروم منها بيروت وصور ، وكان بها بعض المرابطة من أصحاب النبى ﷺ منهم سلمان الفارسى – رضى الله عنه – وغيره من الصحابة[١٠٦] ، كما كان فى بعضها دور لصناعة السفن .

ومن خلال استعراض هذه القواعد البحرية ، نلاحظ أنه كانت فى آخر عهد عثمان بن عفان – رضى الله عنه – قواعد بحرية ذات أهمية كبرى فى الموقع والتجهيزات فى مصر والشام ، وكانت كافية للدفاع عن السواحل الإسلامية فى مصر والشام ، كما استعدت تلك القواعد بأساطيل بحرية أصبحت سفنها كافية للحفاظ على سواحل المسلمين والقيام بفتوح جديدة فى البحر المتوسط[١٠٧] .

النشاط العسكرى البحرى :

اعتمدت الدولة الإسلامية حتى آخر خلافة عمر – رضى الله عنه – على سياسة الدفاع عن مواقعها وثغورها فى البحر المتوسط ، وكان معاوية – رضى الله عنه – يحاول إقناع عمر بالمبادرة بالهجوم عن طريق البحر إلا أنه لم ينجح فى ذلك ، وما أن حصل معاوية على الأذن من عثمان بركوب البحر حتى كانت الأنشطة البحرية العسكرية المختلفة التى احتاجت إلى تخطيط وتنفيذ ومنها :

فتح قبرص (٢٨هـ - ٦٤٩م) :

هى جزيرة بحرية قبالة ساحل الشام ، وتعد من أهم جزر بحر الروم وكانت من قواعد الأسطول البيزنطى التى تهدد الشام باستمرار[١٠٨] ، وقد اهتم معاوية لفتحها منذ أيام عمر - رضى الله عنه[١٠٩] - إلا أن الخليفة منعه من ذلك ، حتى إذا أذن له عثمان - رضى الله عنه - بذلك ، خرج سنة ٢٨هـ[١١٠] من عكا ومعه أهله ، وعدد من الصحابة[١١١] . منهم عبادة بن الصامت الذى خرج بزوجته أم حرام فى هذه الغزوة فاستشهدت خلالها[١١٢] .

وقد انتهت هذه الغزوة بفتح الجزيرة عنوة ، مما اضطر أهلها لمصالحة المسلمين على جزية يدفعونها ، وعلى شرط إطلاع المسلمين على أخبار الروم[١١٣]. وهذا الشرط كان بلا شك يخدم القوات الإسلامية فى البحر المتوسط فالمعلومات من أهم أسس التخطيط والممارسة العسكرية ، وبالتالى فإن هذا الشرط يعد رافدا للخطط الإسلامية فى البحر المتوسط فى مرحلة من المراحل .

على أن أهل قبرص أخلوا بشروطهم وبالتالى تكرر غزو المسلمين للجزيرة سنة ٣٣هـ ، وأدبوا أهلها الذين ساعدوا الروم ، وأقاموا فيها حامية إسلامية من ١٢ ألف مقاتل[١١٤] ، وهذا يعنى تغيير الخطة فيما يتعلق بقبرص وذلك بتحويلها إلى قاعدة بحرية إسلامية ، بدلا من الاكتفاء بكونها مجرد حليفة بناء على المعاهدة السابقة ، كذلك يعد هذا تغييرا فى خطط المسلمين فى هذه الجزيرة بعد أن اتضحت أهميتها .

ولتعدد معاهدات المسلمين مع أهل قبرص عبر العصور ، واختلاف الشروط معهم فإن الفقهاء المسلمين بحثوا موضوعها بدقة[١١٥] ، نظرا لأن الفقهاء هم الذين يصدرون الأحكام فى التعامل مع الأراضى المفتوحة وفقا لوضعها الشرعى .

فتح جزيرة أرواد :

أرواد جزيرة صغيرة تبعد عن الساحل السورى حاليا عشرات الكيلومترات ، وكانت فى عصر عثمان – رضى الله عنه – مدينة مزدهرة ، وتشكل خطرا على المسلمين لأنها ذات موقع بحرى هام[١١٦] يمكن أن يستغله الروم لضرب المسلمين على سواحل الشام ، وقد استولى عليها المسلمون بقيادة معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – عند عودتهم من قبرص سنة ٢٨هـ ، كما تشير إلى ذلك المصادر البيزنطية[١١٧] .

ولعل ترك معاوية لهذه الجزيرة حتى عودته من قبرص يعنى تخطيطا عسكريا بحريا رائعا ، إذ أن الاستيلاء على قبرص وراء أرواد يعد فى الوقت نفسه حصارا لأرواد ومنعا للإمدادات عنها وتمهيدا لفتحها ، كما أن المسلمين باستيلائهم على هذه الجزيرة كسبوا موقعا عسكريا بحريا جديدا فى الوقت الذى زالت منه أقدام عدوهم .

وتتحدث المصادر العربية بإسهاب عن فتح أرواد سنة ٥٤هـ[١١٨] فى خلافة معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – ولعل ذلك يعنى استيلاء الروم عليها مرة أخرى وإعادة فتحها ، كما حصل فى العديد من المواقع ، وبالتالى فإن فتحها على ما يبدو كان ذيلا لفتح قبرص ولذلك لم تشر له المصادر العربية .

الهجوم على رودس وكريت (٦٥٤م) :

رودس جزيرة هامة فى بحر الروم[١١٩] ، وتعد من قواعد الروم البحرية الهامة فى الصراع المبكر على البحر المتوسط[١٢٠] . وكذلك الحال بالنسبة لكريت .

وقد قوى الأسطول الإسلامى وبلغ أوج نشاطه فى آخر خلافة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – فأصبح يهدد سواحل أوروبا الجنوبية ، والجزر المقابلة

لإيطاليا ، خصوصاً قبيل وبعد معركة ذات الصوارى التى انتصر فيها المسلمون على الإمبراطور البيزنطى . وقد ثبت أن معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – قد نزل برودس فى زمن عثمان – رضى الله تعالى عنه – ومعه بعض الصحابة – رضى الله عنهم[١٢١] – وتؤكد المصادر البيزنطية هذا الهجوم[١٢٢] ، إلا أن فتح هذه الجزيرة والاستقرار بها كان سنة ٥٣هـ فى أثناء خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه[١٢٣] ، كما جرى إعادة فتحها سنة ٥٩هـ[١٢٤] .

موقعة ذات الصوارى(٥٣١-٦٥٥م) :

وقعت هذه المعركة البحرية سنة ٣١هـ وشارك فيها[١٢٥] الأسطول الإسلامى الشامى والأسطول المصرى ، حيث التقوا بأسطول الروم الذى يقوده الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بن هرقل بنفسه وسط البحر المتوسط[١٢٦] ، وكانت وجهته سواحل مصر ، إلا أنه فوجئ بتحرك الأساطيل الإسلامية من قواعدها البحرية فى الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان ، ومن قواعدها البحرية فى الإسكندرية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح[١٢٧] ، مما يدل على التخطيط والتنسيق التام بين هذه القواعد البحرية وقوادها[١٢٨] ، كما يدل على تحرى أخبار العدو ومتابعته والإعداد له والتخطيط المسبق . وقد شارك فى هذه المعركة بعض الصحابة – رضى الله عنهم[١٢٩] – وعندما دارت المعركة قبالة سواحل الأناضول[١٣٠] ، شهدت تنسيقاً بين سفن المسلمين رائعاً وتخطيطاً حربياً وحماسة فى القتال فائقة حتى نصر الله المسلمين على الروم نصراً مؤزراً . وكان فى سفن المسلمين بحارة من غير المسلمين ، من أقباط مصر ونصارى الشام[١٣١] ، إلا أنه لم يكن لهم دور فى القتال وإنما كانوا ملاحى السفن وخبرائها .

وتعد هذه المعركة من أشهر المعارك البحرية عبر التاريخ ، فهى أول معركة بحرية كبرى يخوضها المسلمون وينتصرون فيها انتصاراً حاسماً غير مجرى الأحداث فى البحر المتوسط حتى اعتبرها بعض المؤرخين البيزنطيين نظيراً

لانتصار المسلمين البرى فى اليرموك[١٣٢] ، وأرجع أرشيبالد انتصار المسلمين فى المعركة إلى أنه (جاء لخطط غير عادية إذ ربطوا سفنهم بعضها ببعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم)[١٣٣] .

والواقع أن انتصار المسلمين فى ذات الصوارى كان دافعاً لمزيد من التجديد والتغيير فى الخطط البحرية للمسلمين ، الذين أصبحوا أسياد البحر المتوسط بعد تلك المعركة بعد أن كانوا يعتمدون على السياسة الدفاعية فيه[١٣٤] ، كذلك كان لهذه المعركة تأثيرها على مستقبل المسلمين فى البحر المتوسط ، وإن كان هذا قد تأخر قليلاً بسبب مقتل عثمان – رضى الله عنه – ، وما حدث بعد ذلك من اضطراب ، إلا أن معاوية نفسه بعد استقرار الأمور له بالخلافة عاد ليستغل نتائج معركة ذات الصوارى[١٣٥] .

تهديد القسطنطينية :

أما القسطنطينية فقد كان التخطيط لفتحها من أهم أهداف المسلمين منذ أن بشرهم الرسول ﷺ بفتحها أكثر من مرة[١٣٦] ، ومنها قوله : لتفتحن القسطنطينية على يد رجل فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش)[١٣٧] ، كما قال ﷺ: « أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم »[١٣٨] .

وفى ضوء ذلك يرجح البعض حرص المسلمين على إنشاء الأساطيل لتحقيق هذا الهدف ، وقد قام المسلمون بنشاط بحرى متكرر فى زمن عثمان كان بعضه موجه ضد القسطنطينية عاصمة الروم وما حولها من سفن بحرية[١٣٩،١٤٠] .

وتذهب بعض المصادر إلى تأكيد وصول أساطيل المسلمين فى زمن عثمان – رضى الله عنه – إلى سواحل الأندلس[١٤١] ، وتهديدها لأوربا فى إطار خطة بحرية من المسلمين للالتفاف على القسطنطينية من الشرق والغرب . يقول الطبرى : « وسرح العبدين على الجند ورماهما بالرجال وسرحهما إلى الأندلس وأمرهما وعبد الله بن سعد بالاجتماع على الأجل »[١٤٢] .

قواد البحر زمن عثمان

معاوية بن أبى سفيان :

يعد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أهم قواد البحر والمخططين له زمن عثمان بن عفان ، وهو صاحب المحاولات فى إقناع عمر ثم عثمان من بعده فى ركوب البحر[١٤٣] . كان يغزو بنفسه ويصطحب معه أهله ، وتؤكد المصادر أنه أول من ركب البحر من أمراء المسلمين وقادتهم فى خلافة عثمان – رضى الله عنه[١٤٤] – ، بالتالى فإن معاوية يعد أكثر المخططين لغزو البحر المتوسط فى زمن الخلفاء الراشدين[١٤٥] ، وقد سار على نفس الخطط التى وضعت زمن عثمان حينما أصبح خليفة للمسلمين .

عبد الله بن سعد بن أبى السرح :

كان قائدا عسكريا وسياسيا لمصر فى خلافة عمر وعثمان بن عفان ، وهو من المجاهدين الفاتحين فى البر ، قاد سفن المسلمين فى ذات الصوارى ، وتعرض للخطر أكثر من مرة .

عبد الله بن قيس الجاسى :

كان أحد القواد المشهورين فى الشام التابعين لمعاوية بن أبى سفيان زمن عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وقد عينه عثمان قائدا للأساطيل البحرية فى سواحل الشام ، فكانت له غزوات استطلاعية متعددة ، إذا غامر بنفسه فى جزر البحر المتوسط فى أكثر من خمسين غزوة بحرية حتى صارت الروم تخشاه استشهد وهو متنكر فى أحد تلك الاستطلاعات البحرية[١٤٦] .

فضالة بن عبيد الأنصارى :

صحابى جليل شهد أحد وما بعدها مع النبى ﷺ[١٤٧] ، كما شهد فتوح الشام فى زمن أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – ، وأصبح من قضاة الشام فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وبها توفى فى خلافة معاوية[١٤٨] .

بسر بن أرطاة :

كان من قضاة الشام فى خلافة عمر ، وكذلك فى خلافة عثمان[١٤٩] جاهد فى العديد من المعارك البرية والبحرية[١٥٠] ، حتى أصبح من أشهر قواد البحر خصوصاً فى خلافة معاوية[١٥١] ، وقد توفى سنة ٥٣هـ[١٥٢] .

واثلة بن الأسقع الكنانى :

من نبلاء الصحابة له أحاديث فى كتب الصحاح[١٥٣] ، من مجاهدى المسلمين فى بلاد الشام فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه – شهد فتح معاوية لقبرص وغيرها .

عبد الله بن بشر المازنى :

صحابى جليل بايع النبى ﷺ[١٥٤] شارك فى فتوح الشام ، وغزو البحر فى زمن عثمان[١٥٥] ، توفى بحمص[١٥٦] ، فى خلافة الوليد بن عبد الملك[١٥٧].

شداد بن أوس بن ثابت الأنصارى :

صحابى جليل شهد بعض الغزوات مع النبى ﷺ[١٥٨] ، كما شهد الفتوح فى زمن أبى بكر وعمر– رضى الله عنهما[١٥٩] – ، وشهد بعض الغزوات البحرية مع معاوية بن أبى سفيان فى زمن عثمان بن عفان – رضى الله عنه[١٦٠] – ، اشتهر بالعلم واثنى عليه كثير من الصحابة[١٦١] ، أصبح من القواد المشهورين فى خلافة معاوية توفى سنة ٥٣هـ فى الشام بدمشق[١٦٢] ، وقيل بعد ذلك[١٦٣] بفلسطين[١٦٤].

جبير بن نفير الحضرمى :

كان جاهلياً ، فأسلم فى خلافة أبى بكر[١٦٥] ، وعد من أكابر التابعين[١٦٦] شارك فى الجهاد فى زمانه وزمن عمر رضى الله عنهما – غزا البحر فى زمن

عثمان – رضى الله عنه – وعد من القادة[١٦٧] ، توفى فى حمص[١٦٨] زمن عبد الملك بن مروان سنة ٨٠هـ[١٦٩] .

عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن عبد القيس الفهريين :

نسبت لهما الروايات قيادتهما لحملات بحرية فى خلافة عثمان رضى الله عنه تجاه الأندلس ، وأن هدف تلك الحملة كما صرح به عثمان رضى الله عنه هو الالتفاف على القسطنطينية وفتحها من الخلف[١٧٠] ، وتحتاج هذه الروايات إلى مزيد من الدراسة والتروى ، والنظر الفاحص فيها .

عهد على بن أبى طالب :

انشغل على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنزاع مع معاوية رضى الله عنه مما منعه من السيطرة على الشام ، وبالتالى لم يكن بيده التخطيط أو التنفيذ لأى نشاط بحرى فى المتوسط من سواحل الشام . أما مصر فقد كانت فترة انضمامها لعلى رضى الله عنه قصيرة جداً إذ انشغل أمراؤه بأحداث داخلية كثيرة منعتهم من أى نشاط بحرى على سواحلها الشمالية ، ويبدو أن المسلمين استمروا فى السيطرة البحرية فى المتوسط فى خلافة على عن طريق أمراء مصر والشام فى تلك الفترة وكانوا فى الغالب مرتبطين بمعاوية الذى بذل جهده لحماية الثغور البرية والبحرية التى تقع تحت سيطرته فى تلك الفترة .

المعاهدات فى البحر المتوسط :

تعد معاهدة المسلمين مع أهل قبرص أشهر المعاهدات فى البحر المتوسط زمن الخلفاء الراشدين . ذلك أنه بعد استيلاء المسلمين على الجزيرة « أذعن أهلها فصالحهم على سبعة آلاف ومائتى دينار يؤدونها فى كل عام ، وصالحهم الروم على مثل ذلك ، فهم يؤدون خراجين . واشترطوا أن لا يمنعهم المسلمون أداء الصلح مع إلى الروم واشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من أرادهم من

ورائهم وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم فكـــان المســـلمون إذا ركبــوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرس ولم ينصروا عليهم »[١٧١] .

ويتضح من شروط هذه المعاهدة أن المسلمين لم يطلبوا مـــن أهـــل قـــبرص التدخل العسكرى لصالح المسلمين عند الحاجة ، وإنما طلبوا منهم عــــدم مســـاعدة الأعداء ، وهذا يعنى الوقوف على الحياد فى الجانب العسكرى أما جانب المعلومات والاستخبارات فإنه بموجب هذه المعاهدة يلتزم أهـــل قـــبرص بـــإمداد المســـلمين بالمعلومات عن أعدائهم ، وعن تحركاتهم المختلفة . وقد وافق المسلمون على دفـــع أهل قبرص الأموال للروم ولم يمانعوا فى ذلك ، وبالتالى فإن المفترض فـــى أهـــل قبرص أن يكونوا قد أرضوا الروم بالمال ، والمسلمين بالمـــال والمعلومـــات ، وأن يؤمنوا بلادهم فى هذه الحالة من الطرفين ، وهذه المعاهدة عقـــدت ســـنة ٢٨هــــ واستمرت فترة من الوقت ، إلا أن أهل قبرص على ما يبدو لــــم يوفـــوا بشـــروط المعاهدة للمسلمين .

« فلما كان سنة اثنتين وثلاثين أعانوا الروم على الغزاة فى البحر بمراكـــب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين فى خمسمائة مركب ففتح قـــبرص عنوة فقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم »[١٧٢] .

ولا شك فى أن استمرار المسلمين فى معاهداتهم مع أهل قبرص بعد تأديبـــهم كان جزءا من خطة عامة تجاه قبرص وغيرها من الجزر البحرية فى المتوسط .

أثر خطط الراشدين على من بعدهم :

لا شك فى أن التحركات البحرية وما سبقها من تخطيط فى خلافة عثمـــان – رضى الله عنه – كان لها دور فى الأحداث التى جرت بعد ذلك وخصوصــــا فـــى عصر بنى أمية ، حيث أن الإعدادات الحربية البحرية وقواعدها المختلفة آلت لدولـة بنى أمية ، فقام الخليفة معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – بالسير على نفـــس

الخطط السابقة ، خصوصا أنه كان من صانعي تلك الخطط . ولذلك استمر في دعم الأساطيل البحرية وتجهيزها بالعتاد والرجال ، كما استمر في فرض السيطرة البحرية ، بتحركات الأساطيل البحرية وفتوحها المختلفة في جزر البحر المتوسط . وتبعه في ذلك بقية خلفاء بني أمية ، حتى هددوا القسطنطينية نفسها واستولوا على عدد من الجزر البحرية فيما لا يتسع المجال لذكره في هذا البحث ، كما أنهم نظروا نظرة خاصة لتطبيق المعاهدة التي عقدت مع أهل قبرص وشارك العلماء في النظر في هذه المعاهدة وتطبيقها طوال عصر بني أمية والعصور اللاحقة(١٧٣) .

كما أن ما تم من تحقيق تفوق للمسلمين في البحر المتوسط زمن عثمان بنيت عليه الدول الإسلامية المطلة على المتوسط مكانتها العسكرية في ذلك البحر ، حيث استفادت من تلك الإنجازات ، وتحركت لمد نفوذها في مناطق جديدة في صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس وغيرها حتى صارت السيطرة البحرية في المتوسط طيلة العصور الوسطى للبحرية الإسلامية في مصر والشام عبر الدول المختلفة .

* * *

وبعد ، فإنه من خلال هذا البحث يتبين أن ما تم في زمن الراشدين من نشاط بحري لم يكن امتداداً تاريخياً لما كان عليه الوضع قبل الإسلام حيث أن هذه المرحلة تعد جهاداً مركزاً ومخططاً مع قوى بحرية مختلفة في مناطق جديدة تمكن المسلمون من السيطرة عليها وتوجيهها لتحقيق أهداف وغايات الدولة الإسلامية ، وحماية مواقعها الجديدة . وقد تفاوتت جهود الراشدين في هذا الأمر حيث نرى تركيز عمر – رضي الله عنه –على التحصين والدفاع عن ثغور المسلمين في البحر المتوسط وشحنها بالمقاتلة باستمرار ، أما عثمان فمع السير على خطة عمر – رضي الله عنهما – إلا أنه خطا خطوة جديدة ببناء الأساطيل الإسلامية في عدد من القواعد البحرية في بلاد الشام ومصر ، كما بادر بالهجوم على مواقع الروم في البحر المتوسط واستولى على بعض الجزر وهدد مواقع أخرى في بلاد الروم ،

منها جزر متصلة بأوربا اتصالا مباشرا ، كما يتضح دور معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن سعد وغيرهم من القواد في الجهود المبذولة لتقوية الأسطول الإسلامى أيام عثمان بن عفان – رضى الله عنه – ، وأما خلافة على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فقد شغل فيها عن بحر الروم ومنع من الوصول إليه ، وذلك بمنعه من مد نفوذه إلى الشام ، وسلخ مصر ، فى وقت مبكر من خلافته ، وبالتالى فإنه لم تتضح له خطة معينة فى البحر المتوسط بسبب الظروف التى سادت فترة خلافته .

• • •

الهوامش

(١) انظر البخارى (فتح البارى) جـ١٦ /١٣٤ .

(٢) ابن ماجه ، سننه ، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين جـ١/١٧ .

ورواه الإمام أحمد فى مسند الشاميين ، باب حديث العرباض بن سارية جـ٤/١٢٦ .

(٣) ابن ماجه ، سننه ، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين جـ١ / ١٥ .

(٤) خليفة بن خياط ، تاريخه ص ٩٤ .

(٥) خليفة بن خياط ، تاريخه ص ١٩٨ .

(٦) انظر : الكلاعى الأندلسى (حروب الردة) تحقيق أحمد غنيم .

(٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٢٤ .

(٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٢١ ، ٣٤٥ .

(٩) للتوسع حول الموضوع انظر : فرنان برديل ، البحر المتوسط المجال والتاريخ ، ترجمة يوسف شلب الشام ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٠م .

(١٠) أرشيبالد ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص١٦ .

(١١) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٧٢ .

(١٢) المقدمة ص ٢٥٢ .

(١٣) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، جـ٩ / ٢٨٩ . السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، جـ٢ / ٢٨٦ .

(١٤) سورة الطور : الآية ٦ .

(١٥) ابن كثير ، تفسيره ، جـ٤ /٤٧٧ ، القرطبى ، تفسيره ، جـ١٩/٢٣١ .

(١٦) سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٥٦ .

(١٧) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ص ٢٦٦ ، أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ٢٢ .

(١٨) الشعيبة : قرية على شاطئ البحر الأحمر مقابل مكة المكرمة ، وهى ميناؤها منذ القدم وقبل أن تعرف جدة فى العصور المتأخرة . وقد زرتها بنفسى وتبعد عن مكة

قرابة ١٠٠ كيلو متر إلى الغرب على طريق الليث (انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان جـ٣ /٣٥١)

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية، جـ١/١٩٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٢ /٤٤ .
ابن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، جـ١/١٤٦ ، الصالحى الشامى ، سبل الهدى والرشاد ، جـ٢/٢٢٨ .

(٢٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٢١٥ ، السهيلى ، الروض الأنف ، جـ٢ / ٢٥٠ ، وانظر جواد على ، جـ٧/٢٥٩

(٢١) انظر : سعاد ماهر ، البحرية الإسلامية ، ص ٦٠ .

(٢٢) شاعر جاهلى فحل هجاء يخشاه الناس ، من أصحاب المعلقات المشهورين ، ولد بالبحرين ، وتنقل بينها وبين العراق ونجد ، قتل بسبب شعره . انظر : يحيى الخشاب (طرفة بن العبد حياته وشعره) ١٩٩٧ ، وانظر : الانبارى ، شرح المعلقات السبع ، ص ١١٥ .

(٢٣) الأنبارى ، شرح المعلقات القصائد السبع ، ص ٣٥ ، الألوسى ، بلوغ الأرب جـ٣/٣٦٥ . جواد على ، المفصل ، جـ٧/٢٥١ . المالكية ، والعدولية : من أنواع السفن المعروفة عند العرب (المصدرين السابقين).

(٢٤) هو عمرو بن هند ، ويسمى عمرو بن منذر بن ماء السماء أحد ملوك العرب فى الحيرة قبل الإسلام من بنى تغلب . (يحيى شامى ، طرفة بن العبد والأنبارى ، شرح القصائد السبع ص ٤٢٦ .

(٢٥) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٣ /٢٠٩ . الزبيدى ، تاج العروس جـ٩/٢٣٦ .
الأنبارى ، شرح المعلقات السبع ، ص ٤٢٦ . وانظر إلى مزيد من الشواهد الشعرية: أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ٢٤ .

(٢٦) المقدمة ، ص٢٥٣ .

(٢٧) البخارى ، صحيحه ، جـ٣/١٠٦٩ .

(٢٨) (البخارى باب من زار قوما فقال عندهم) . جـ٥ /٢٣١٦ .

(٢٩) البخارى ، (باب فضل من يصرع فى سبيل الله فمات فهو منهم) جـ٢/١٠٣٠ .

(٣٠) مسلم ، صحيحه جـ٣/١٥١٨ .

(٣١) عبد الله بن المبارك ، كتاب الجهاد جـ١ /١٤٤ .

(٣٢) ابن مبارك ، كتاب الجهاد جـ١/١٥٤ .

(٣٣) صحيح البخارى ، جـ٢/٧٢٧ .

(٣٤) صحيحه ، جـ٢/٥٤٤ .

(٣٥) هو عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله بن همام الثقفى أبو عبد الله نزيل البصرة أسلم فى وفد ثقيف فاستعمله النبى ﷺ على الطائف ، خطبهم بعد وفاة النبى ﷺ ومنعهم من الردة ، وأقره أبو بكر ثم عمر ثم استعمله عمر على عمان والبحرين سنة خمس عشرة ، ثم سكن البصرة حتى مات بها فى خلافة معاوية سنة خمسين ، وقيل سنة إحدى وخمسين . (ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤/٤٥١ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٥/٥٠٨) .

(٣٦) تانة ، من قرى الهند القريبة من بمباى (سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ص٦٢) .

(٣٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ٢ /٤٢٠ .

(٣٨) هو علقمة بن مجزز بن الأعور الكنانى ، صحابى جليل ، كان يؤمره رسول الله ﷺ اشتهر بجهاده فى بلاد الشام زمن أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – توفى سنة ثلاث وعشرين للهجرة النبوية ، (الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٤٤٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧/١٤٣ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤ /٥٥٩) .

٣٩) البكرى ، معجم ما استعجم ، جـ٢ /٦٣٢ .

(٤٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥١٧ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤ /٥٥٩ ، عبد الرزاق ، المصنف جـ٥/٢٨٤ .

(٤١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ /٢٨٥ .

(٤٢) الطبرى ، تاريخه جـ٢ /٦٠٠ .

(٤٣) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٤٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٥٣ .

وعرفجة بن هرثمة صحابى جليل كان من قواد الفتح أيام أبى بكر وعمر لـه نكاية شديدة فى العدو شارك فى القضاء على المرتدين واشـتهر بفتحه للموصل وما جاورها (ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤/٤٨٥) .

(٤٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٤/٣٦٢ .

(٤٦) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢/٢٢٧ .

(٤٧) عبد الله بن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١/١٤٤ .

(٤٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٣ .

(٤٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٧ .

(٥٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٧ .

(٥١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣/١٤٦ .

(٥٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ٢/١٣٣ .

(٥٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٤ .

(٥٤) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٤٩١ .

(٥٥) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠٢ .

(٥٦) انظر : الطبرانى ، كتاب الدعاء ، ص ٢١ .

(٥٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ٢٥/٥٧ .

وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من العشرة المبشرين بالجنة من أصحاب النبى ﷺ .

(٥٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٣ /٢٨٢ .

(٥٩) انظر : القاسم بن سلام ، الأموال ، ص ٦٤١ .

(٦٠) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٤ .

(٦١) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١/١٥٧ .

(٦٢) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١/١٥٤ .

(٦٣) انظر : السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

(٦٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٦٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٦٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٦٧) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٦٠١ .

(٦٨) صحيحه ، جـ٣ / ١٠٦٠ .

(٦٩) صحيحه ، جـ١٥١٨/٣ .

(٧٠) كتاب الجهاد ، جـ١٥٥/١ .

(٧١) سنن أبى داود ، جـ٦/٣

(٧٢) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١٥٤/١ .

(٧٣) الطبرى ، تاريخه ، جـ٦٠١/٢ .

(٧٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١٦٩/١ .

(٧٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩٧/٣ .

(٧٦) فتح البارى ، جـ٧٨/١١ – ٧٦ .

(٧٧) انظر: البخارى ، صحيحه ١٠٦٠/٣ ، الأدب المفرد ، أبو داود ، سننه ، جـ٦/٣، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢٢٧/٢.

(٧٨) السطح الذى لا جدار له ، وكل ما لا جدار له من هودج أو سفينه أو غير ذلك : (انظر : لسان العرب ، جـ٤٢٥/٢) .

(٧٩) إنجار : يقصد به السطح ، ويقصد به مرساة السفينة ، كما يأتى بمعنى سطح السفينة (ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٩٤/٥) .

(٨٠) (الإغتلام) الارتفاع ومجاوزة الحد المعهود ، ولعل المقصود به شدة اضطراب البحر وعلو موجه (انظر : الجزرى ، النهاية فى غريب الأثر ، جـ٣٨٢/٣) .

(٨١) البخارى ، الأدب المفرد ، ص ٤٠٨ .

(٨٢) انظر : أرشيبالد ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٨٨ .

(٨٣) انظر : المقريزى ، الخطط ، جـ١٦٦/١ .

(٨٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١٨/٣ .

(٨٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ٢٧٢/٥٢ .

(٨٦) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٢٠

(٨٧) انظر : نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص ٣٧٠ — ٣٨٢ .

(٨٨) ارشيبالد ، القوى البحرية والتجارية فى حوض المتوسط ، ٩٢ ، السيد عبد العزيز سالم والسيد الباز العرينى ، البحرية الإسلامية جـ١/٦ .

(٨٩) رتشارد أ. ساليفان ، ورثة الإمبراطورية الرومانية ص ٧٠ .

(٩٠) ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١٧٦ .

(٩١) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ٣٤١ .

(٩٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ / ١٦٧ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ص٧٧ ، نخبة من الباحثين ، تاريخ البحرية المصرية ، ص٢٨١ ، السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية ، ص ١٤١ .

(٩٣) تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ٨٩ .

(٩٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٣ ، عمر تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص٩٢ .

(٩٥) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص٣٥٧ .

(٩٦) تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ١٠١ .

(٩٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٦٢ .

(٩٨) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥٨٨ ، وانظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٤٨ .

(٩٩) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤/١٢٢ .

(١٠٠) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢/١٢٢ .

(١٠١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٦٢ .

(١٠٢) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/١٤٨ .

(١٠٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٣ .

(١٠٤) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٨ .

(١٠٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(١٠٦) انظر الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ١/٥٥ ، جـ٢ /١٨٨ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٥٢٥ .

(١٠٧) انظر : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص ٢٦ .

(١٠٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤/٣٠٥ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٦٥ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٣٢ ، العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ص٨٠.

(١٠٩) العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ .

(١١٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠٠ .

(١١١) لمعرفة بعض أسماء الصحابة الذين شهدوا هذه الغزوة مع معاوية – رضى الله عنهم – انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١٥٧ ، الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠٠ .

(١١٢) البخارى ، صحيحه ، جـ٣/١٠٣٠ ، ١٠٦٠ ، مسلم ، صحيحه ، جـ٣/١٥١٨ ، أبو داود ، سننه ، جـ٣/٦ ، ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١ / ١٥٧ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ ، ابن حجر ، فتح البارى ، جـ١١/٧٨-٧٦.

(١١٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ ، الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٦٠٢ .

(١١٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ ، الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٦٠٢ .

(١١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(١١٦) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٨٧ .

(١١٧) نخبة من الأساتذة ، البحرية المصرية ، ص ٢٨٤ ، العدوى ، الأمويون البيزنطيون ، ص٨٩ .

(١١٨) الطبرى ، تاريخه ، جـ٣ /٢٤١ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٢٢٨ .

(١١٩) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٢٢٨ ، البكرى ، معجم ما استعجم جـ٢/٦٨٣ .

(١٢٠) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٣/٧٨ .

(١٢١) ابن المبارك ، الجهاد ، جـ١/١٥٥ .

(١٢٢) انظر : نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص ٢٨٥ ، السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص١٤٢ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٩١.

(١٢٣) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢٣٨/٣ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٢٣٧ .

(١٢٤) خليفة بن خياط ، تاريخه ، جـ٢٢٧/٢ ، ٢٢٩ .

(١٢٥) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ /٦٢٠ .

(١٢٦) الطبرى ، تاريخه ، جـ٦٢٠/٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٣١٢/٧ .

(١٢٧) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ /٣٤ .

(١٢٨) انظر : العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٦ .

(١٢٩) ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ /١٣٧ .

(١٣٠) يرجح البعض أن المعركة كانت بسبب محاولة السيطرة على أماكن الأخشاب الصالحة لصناعة السفن (انظر : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية جـ٦/١) .

(١٣١) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١٨/٣ .

(١٣٢) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص ٢٨٨ .

(١٣٣) القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، ص ٩٢ .

(١٣٤) سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٨٤ .

(١٣٥) السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

(١٣٦) الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٤ /٣٠٣

(١٣٧) الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٣٣٥/٤

(١٣٨) البخارى ، صحيحه ، جـ١٠٦٩/٣ .

(١٣٩) كان من أمراء أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – فى حرب المرتدين (الطبرى ، تاريخه ، جـ٢٦٦/٢) .

(١٤٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ ، ٦٠١ .

(١٤١) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥٩٧ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧/١٥٢ .

(١٤٢) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥٩٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧/١٥٢ .

(١٤٣) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٧٣ .

(١٤٤) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠١ .

(١٤٥) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٧٤ .

(١٤٦) كان من أمراء أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - فى حرب المرتدين (الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٢٦٦) .

(١٤٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨/٧٨ ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، جـ٢/١٧ .

(١٤٨) ابن سعد ، الطبقات ، ٧/٤٠١ .

(١٤٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨/١٤٥ .

(١٥٠) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ /١١٤ .

(١٥١) الطبرى ، تاريخه ، جـ٣/٢٠٧ ، خليفة بن خياط ، تاريخه ، جـ٢/٢١٨ .

(١٥٢) ابن زبر الربعى ، مولد العلماء ووفياتهم ، جـ١/١٥٥ .

(١٥٣) الذهبى ، تذكرة الحفاظ ، جـ١/٤٥ .

(١٥٤) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ٦/٢٤ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٧/٢٢٢.

(١٥٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ .

(١٥٦) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥/٥٠ .

(١٥٧) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، جـ٢/٢٢٥

(١٥٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨/٧٨ .

(١٥٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٢ / ٣٥٥ .

(١٦٠) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ ص ١٥٩ .

(١٦١) ابن حجر ، الإصابة ، جـ٣ /٣١٩ .

(١٦٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٧ /٤٠١ .

(١٦٣) ابن حبان ، مشاهير علماء الأمصار ، ١/٥٠ .

(١٦٤) ابن زبر الربعي ، مولد العلماء ووفياتهم ، جـ١/١٦٢ .

(١٦٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٧/٤٤٠ .

(١٦٦) الذهبي ، المعين في طبقات المحدثين ، جـ٢/٣٢

(١٦٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، جـ ص ١٥٩ .

(١٦٨) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، جـ١/٥٢ .

(١٦٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٧/٤٤٠ .

(١٧٠) الطبري ، تاريخه ، جـ٢/٥٩٨.

(١٧١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ .

(١٧٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ ، وانظر : الطبري ، تاريخه ، جـ٢/٦٢٠.

(١٧٣) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ) .

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى (د. ت .)

- الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٥ .

أرشيبالد : ر. لويس

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة شفيق غربال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

الألوسى : محمود شكرى

- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، ط٣ القاهرة ، ١٣٤٢هـ .

الأنبارى : أبو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ)

- شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

البخارى : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (١٩٤ - ٢٥٦هـ)

- صحيح البخارى ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ .

- الأدب المفرد ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط٣ ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ١٤٠٩هـ .

بردويل : فرنان

- البحر المتوسط فى المجال والتاريخ ، ترجمة يوسف شلب الشام ، ترجمة وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٩٠ .

البكرى : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى (ت ٤٦٧هـ)
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٣هـ .
البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧١هـ) .
- فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ١٣٩٨هـ .
تدمرى : عمر عبد السلام
- تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور (عصر الصراع العربى البيزنطى والحروب الصليبية) مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٨هـ .
الترمذى : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩هـ)
- الجامع الصحيح (سنن الترمذى) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت لبنان (ب . ت) .
ابن حبان : محمد بن أحمد التميمى البستى (ت ٣٥٤هـ)
- صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٤هـ .
- مشاهير علماء الأمصار ، تحقيق على محمد البجاوى ، دار الجيل ، بيروت ١٤١٢هـ .
ابن حجر : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ)
- الإصابة فى تمييز الصحابة ط ١ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٨هـ .
ابن حنبل : الإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ)
- المسند ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة (د. ت) .
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، (ت ٨٠٨هـ)
- المقدمة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٩١هـ .
خليفة بن خياط : بن أبى هبيرة الليثى العصفرى (١٦٠ - ٢٤٠هـ)
- التاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ط٢ ، دار طيبة ، الرياض ١٤٠٢هـ .

ابن الجزرى : المبارك بن محمد بن عبد الكريم ، أبو السعادات (٦٠٦هـ) .
- النهاية فى غريب الأثر ، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطباخى ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) .

أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستانى
- سنن أبى داود ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) .

الذهبى : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٨٣٧هـ)
- سير أعلام النبلاء ، ط١ ، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ، ١٤٠٥هـ .

رنسيمان : ستيفن
- الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، راجعه زكى على ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٣م .

ابن زبر الربعى : محمد بن عبد الله بن احمد
-تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، تحقيق عبد الله أحمد الحمد ، دار العاصمة ، الرياض ، ١٤١٠هـ .

الزبيدى : محب الدين محمد مرتضى الحسينى (ت ١٢٠٥هـ)
-تاج العروس من جواهر القاموس ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ .

سالم : السيد عبد العزيز ، وأحمد مختار العبادى .
- تاريخ البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، الجزء الأول البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، مؤسسة شباب الإسكندرية ، ١٩٧٩م .

ساليفان : رتشارد أ. ساليفان
- ورثة الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة جوزيف نسيم ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٥م .

ابن سعد : محمد بن منيع الهاشمى ، مولاهم - كاتب الواقدى - (ت ٢٣٠هـ)
- الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت (ب.ت)

السهيلى : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله

- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، تعليق طه عبد الرؤوف سعد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨م .

السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ)

- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٧١م .

شامى : يحيى

- طرفة بن العبد (حياته وشعره) ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٧م .

ابن شبه : أبو زيد عمر بن شبة النميرى البصرى (ت ٢٦٤هـ)

- تاريخ المدينة ، ط١ ، تحقيق محمود شلتوت ، نشر السيد حبيب ، المدينة المنورة ١٣٩٣م .

الصالحى الشامى : محمد بن يوسف (ت ٩٤٢هـ)

- سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد ، تحقيق مجموعة من العلماء ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٤٠٤م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

- تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧م .
- جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير الطبرى) ، دار الفكر ، بيروت لبنان ١٤٠٥م .

عبد الرزاق : أبو بكر بن همام الصنعانى .

- المصنف ، تحقيق حبيب عبد الرحمن الأعظمى ، المكتب الإسلامى ، بيروت ١٤٠٣م .

عبد العليم : أنور

- الملاحة البحرية وعلوم البحار عند العرب ، عالم المعرفة ، الكويت ١٣٩٩م .

العدوى : إبراهيم أحمد

- الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية) ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ١٣٧٢هـ .

العرينى : السيد الباز

- الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٢م .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن (٤٩٩- ٥٧١هـ)

- تاريخ دمشق ، مركز التراث ، الأردن ، عمان ١٤١٩هـ .
- تاريخ دمشق ، تراجم النساء ، تحقيق سكينة الشهابى ، ط١ ، دمشق ١٩٨٢م .

على : جواد

- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٨م .

ابن فهد : عمر بن محمد (ت ٨٨٥هـ)

- إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم شلتوت ، مركز البحث العلمى ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٤هـ .

القرطبى : محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح

- الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق أحمد عبد العليم البردونى ، ط٢ ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٤١١هـ .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ)

- البداية والنهاية ، ط٣ ، مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٨م .
- تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠١هـ .

النسائى : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على (٢١٤ -٣٠٣هـ)

- السنن الكبرى ، تحقيق عبد الغفار البندارى وسيد حسن ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١١هـ .

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ـ ٧٣٣هـ)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، دار الكتب الوطنية ، القاهرة (ب. ت).

ابن ماجه : الحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (٢٠٧ ـ ٢٧٥هـ)

- سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار الفكر ، بيروت (د. ت) .

ماهر : سعاد .

- البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧م.

ابن المبارك : عبد الله أبو عبد الرحمن الحنظلى مولاهم (ت ١٨١هـ)

- كتاب الجهاد ، تحقيق ، نزيه حماد ، الدار التونسية ، تونس ١٩٧٢م .

مجموعة من العلماء :

- المعجم الوسيط ، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، طبعته المكتبة الإسلامية ، استانبول (د.ت) .

مسلم : الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى (ت ٢٦١هـ)

- الجامع الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، (د.ت) .

المقريزى : أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ)

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بـ (الخطط المقريزية) ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .

- الجامع الصحيح (صحيح مسلم) ، دار الآفاق ، بيروت (د.ت) .

ابن منظور : محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١هـ)

- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .

نخبة من الأساتذة : المتخصصين بجامعة الإسكندرية .

- تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، الإسكندرية ١٩٧٣م .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك المعافرى (٢١٣هـ)

- السيرة النبوية ، تعليق طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة شقرون ، القاهرة (د. ت).

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ)

- معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت لبنان (د. ت)

اليعقوبى : أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٢هـ)

- تاريخ اليعقوبى ، دار صادر بيروت ١٣٧٩هـ .

المحاولات العربية لفتح القسطنطينية

فى العصر الأموى

د. صلاح حسن العاوور(*)

يمثل ظهور الإسلام نقلة حاسمة فى تاريخ العرب ، إذ حقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل منهم أمة قوية موحدة مرهوبة الجانب ، تغلبت فى عصر الفتوحات زمن الخليفتين الراشدين أبى بكر وعمر على أمم عريقة فى الحضارة ، لها نظمها الإدارية والاقتصادية المنظمة . وأحس العرب بعد أن فتحوا بلادا تطل على البحر المتوسط بضرورة اصطناع سياسة بحرية لمواجهة غارات الروم البحرية ، أصحاب السيطرة البحرية على هذا البحر . ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب يرهب البحر ويخشاه أو يشفق على المسلمين من ركوبه ، كما يزعم البعض ، ولكنه كان بعيد النظر ، سديد الرأى فالعرب كانوا حديثى عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط . والعدو الذى يواجهونه هم الروم أو البيزنطيون خصم عنيد متمرس فى شؤونه وثقافته ستدرب على ركوبه وخوض مياهه[1] . وكان أن أدرك الخليفة عمر أن العرب فى ذلك الدور المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم فى البحر لقلة خبراتهم البحرية[2] .

وقد علل ابن خلدون سبب امتناع العرب فى أوائل العصر الإسلامى من ركوب البحر بقوله[3] : (والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا فى أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والفرنجة لممارستهم أحواله ومزاياهم فى التغلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النوتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت

(*) مدير مركز خان يونس – جامعة القدس المفتوحة .

ممارساتهم البحر وثقافته استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه فأنشأوا فيه السفن والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس) .

ومن أمثلة القصص والروايات التي نسبت إلى عمر بن الخطاب والتي يفهم منها كراهيته لركوب البحر وتخوفه منه ، ما هو سائد عند جمهور مؤرخي المسلمين من أن العرب لم يكونوا محبين لركوب البحر في يوم من الأيام . وهذا قول خاطئ إذا ما أخذ على إطلاقه .

والواقع أن عمر كان بما جبل عليه من روية يستهدى المنطق السليم وهو يكبح جماح قواده عن الغزوات التي قد يبدو له فيها ولو نذر يسير من مخاطرة بأرواح المسلمين . ولم يكن سلوكه هذا مقصوراً على الحروب البحرية فحسب ، بل كان كذلك بالنسبة للحروب البرية ، فقد عارض أيضًا من قبل ما عرضه عليه عمرو بن العاص من فتح مصر رغم أن طريق الغزو كان برًا . فعمر من حرصه على سلامة المسلمين كان يخشى أن يتسع نطاق الغزو إلى حدود لا يمكنه الدفاع عنها . وجريًا على السياسة الحميدة التي أنتهجها المسلمون وهي الشورى في أمور الدولة العليا ، فقد رأى عمر أن يعرف آراء قادة المسلمين في طلب معاوية غزو قبرص ، وهي غزوة بحرية ، وفيها من المخاطرة ما يستوجب الدرس والروية ، خاصة أنه لم يكن لدى العرب في ذلك الوقت عدد كاف من السفن ينازلون به الأسطول البيزنطي إذا التقوا به[4] .

وكان الصراع شديدا بين الدولة الإسلامية الفتية والإمبراطورية البيزنطية العتيدة ، وخاصة عقب فتح الشام ومصر ، فجهز البيزنطيون في سنة ٢٥هـ — ٦٤٥م حملة بحرية من ثلاثمائة سفينة بأمر الإمبراطور قسطنطنين بن هرقل

« كونستانز الثانى » فى سرية تامة ، واستطاعوا استرجاع ثغر الإسكندرية بقيادة ما نويل .. وكانت مصر آنذاك تحت إمرة مندوب عمرو بن العاص وهو عبد الله ابن سعد أبى سرح . ولكن سرعان ما جهز عمرو عقب عودته للبلاد حملة برية استعاد بها الإسكندرية من أيدى البيزنطيين .

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان فى الواقع مؤسس البحرية الإسلامية إذ فطن إلى أهمية الأسطول البحرى لحماية الثغور ورد هجوم البيزنطيين من البحر[٥] .

وكان أول من قام بغارة بحرية من شواطئ شبه الجزيرة هو عثمان بن العاص الثقفى والى البحرين ، فقد أبحر من عمان فى غارة جريئة على ساحل الهند « تانة » بالقرب من بمباى ، كما اتجه أخوه إلى خور « الديبل » عند مصب نهر السند ، ولما رجع جيش عثمان الثقفى من تانة كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بذلك ، فكتب إليه عمر : (يا أخا ثقيف حملت دودا على عود ، وأنى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم)[٦] . وأراد العلاء بن الحضرمى خليفته فى ولاية البحرين أن يظهر جرأته وأقدامه فعبر إلى فارس وتوغل فيها بعيدا حتى اصطخر فارس ، وكان ذلك بتحريض من أهل ولايته فجمع لذلك اثنتا عشر ألفا من المسلمين وركب البحر . وعلى الرغم من أن المسلمين عادوا إلى البصرة محملين بالغنائم إلا أن الحملة باءت بالفشل وفقد المسلمون سفنهم التى عبروا بها الخليج إلى فارس . فلما علم الخليفة بأمر تلك الحملة غضب على العلاء غضبا شديدا لأنه قام بها دون إذن منه لذا قرر عزله[٧] .

طلب معاوية بن أبى سفيان إلى عمر بن الخطاب وألح فى أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا لقربها منه ، إذ كان يشغل وقتئذ ولاية الشام ، طلب عمر إلى والى مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، على اعتبار أن مصر من الأمم التى مارست ركوب البحر وعرفت فنونه كما عرفت أخطاره ومخاوفه منذ العهد الفرعونى ، فكتب عمرو يقول : (يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقا

كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء ، أن ركد أحزن القلــوب وإن ثــار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة هم فيه كدود على عــود إن مــال غرق وإن نجا برق)[٨] . فلما جاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية يمنعـــه مــن ركوب البحر قائلاً : (لا والذى بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبـــدًا . إنــا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شئ على الأرض ، يستأذن الله فى كل يــوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فكيف أحمــل الجنــود فــى هــذا الكــافر المستصعب . وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم فإياك أن تعرض وقد تقدمــت إليك وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك)[٩] .

وعلى الرغم من سياسة الحذر والحيطة التى انتهجها عمر فى ركوبه البحـــر الأبيض المتوسط فإنه لم يتوان عن تسيير حملة بحرية فى البحـــر الأحمـــر ضــد الأحباش ردا على هجماتهم على السواحل الغربية[١٠] .

ففى سنة ٢٠هـــ / ٦٤١م أرسل عمر علقمة بن مجزر فى حملة بحرية عــبر البحر الأحمر إلى الحبشة ليذب عن المسلمين ويدفع عنهم هجمات علـــى الشــاطئ الحبشى وقد استبسل المسلمون فى الحرب .

ولكن هذه الحملة منيت بخسارة جسيمة وغرقت السفن كلها ، وبســبب هــذه الكوارث المتتابعة صمم الخليفة ألا يقوم بأى عمل بحرى قــائلا : (لا يســألنى الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبدا)[١١] .

ومع ذلك فقــد بدأت الملاحة النهرية للمســلمين فى عهد عمـــر ، فالخليفــة أمر عمرو ببناء سفن لتحمل الغلال ومحصولات أخرى إلى المدينة قــائلا : (إن الله قــد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطــعام وقــد ألقى فى روعـــى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتــح الله عليــهم مصـــر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يســيل فى البحـــر

فهو أسهل لما يزيد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد)[١٣] .

ولما تلكأ عمرو فى تنفيذ ما أمر به الخليفة رد عليه عمر قائلاً : (إلى العاص بن العاص فقد بلغنى كتابك ... وأيم الله لتفعلن ... أو لأبعثن من يفعل ذلك)[١٣] .

ويقال إنما دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من قبط مصر فعافاه عمرو من الضرائب مكافأة له ، فشق قناة ملاحية طولها ٦٩ ميلاً تصل بين النيل والبحر الأحمر ، وسميت خليج أمير المؤمنين ، وحينما اجتاحت المجاعة شبه الجزيرة العربية لعبت هذه القناة دوراً هامًا فى نقل القمح من مصر إلى الجزيرة العربية فقد أفرغت عشرون سفينة محملة بمنتجات مصر حمولتها فى ميناء الجار قرب المدينة المنورة ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه حاضرًا مرحبًا بهذه السفن عند وصولها[١٤] .

ولكن حين أراد عمرو بن العاص أن يجعل الإسكندرية حاضرة مصر كتب عمر يقول له : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف . فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم براحلتى حين أقدم إليكم قدمت .

ولعل فى ذكر البحر والفلك التى تجرى فيه بما ينفع الناس فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ما يشعر بأن من العرب من كانوا يعرفون ركوب البحر .

فقد ورد القرآن الكريم ٢٨ آية عن الفلك والبحر والملاحة منها فى سورة النحل ما يؤدى معنى الصيد واستخراج اللؤلؤ ونقل التجارة والركاب : { وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون }[١٥] .

ومنها ما يتعلق بالملاحة الفلكية مثلما جاء فى قولـــه تعـــالى : { وعلامـــات وبالنجم هم يهتدون }[١٦] .

وفى سورة الأنعام : { وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات الــبر والبحر }[١٧] .

كما صور القرآن حال المسافرين فى بحر مضطرب لجى فى ســـورة النـــور فى قوله تعالى : { أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج مـــن فوقـــه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله لـــه نورا فما له من نور }[١٨] .

وقوله تعالى : { مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان }[١٩] .

وقوله سبحانه وتعالى : { ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا مـــن فضله أنه كان بكم رحيما }[٢٠] .

فهذه الآيات الكريمة تشير فيما تشير إليه إلى تسخير البحر وتذليله وجريـــان الفلك فيه بطلب فضل الله كالربح بالتجارة واستيراد محصـــولات الأمـــم الأخـــرى وغير ذلك من المصالح الدينية والدنيوية ، وهذا كله يتطلب السفر وركوب البحر .

وكذلك جاء ذكر البحر وركوبه فى الأحاديث النبوية فى سبيل نشـــر الدعـــوة الإسلامية ، فقد روى الجاحظ بن السنى عن الحسين بن على رضى الله عنه عـــن الرسول ﷺ فيما يذكره راكب البحر إلى الجهاد جهاد الكفار قال : { أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا بسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيـــم وما قدروا الله الحق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويـــات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشكرون }[٢١] .

سياسة معاوية البحرية :

يرجع الفضل الأعظم فى إنشاء الأسطول العربى الإسلامى إلى معاوية بن أبى سفيان ، عامل الشام فى خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، الذى فطن إلى أهمية الأساطيل فى الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن الساحل فقد تعرض للكثير من المتاعب فى فتح بعض تلك المدن كقيسارية وطرابلس وعسقلان . أما قيسارية فقد عجز عمرو بن العاص عن فتحها ، إذ كانت تتلقى الإمدادات من البحر ، فتولى معاوية فتحها قسرا فى شوال ١٩هـ — ٦٤٠م بعد أن كان قد يأس من ذلك .

وأما طرابلس فقد استعصت على المسلمين فى ولاية يزيد بن أبى سفيان لمناعتها ووثاقة تحصيناتها ، وكان فتحها يستلزم حصارا بريا وبحريا قد يطول أمده كما حدث فى حصار قيسارية الذى دام ما يقرب من سبع سنوات من جمادى الأولى سنة ١٣هـ إلى شوال سنة ٢٠هـ فاضطر يزيد إلى إرجاء فتح طرابلس حتى تتوفر لديه الإمكانيات[٣٣] . أما عسقلان فقد فتحها صلحا بعد كيد ، وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة . فلما توفى يزيد بن أبى سفيان فى طاعون عمواس آلت ولاية الشام إلى أخيه معاوية الذى كان يشاركه فى فتوحه لمدن الساحل .

أطل المسلمون على مياه البحر المتوسط من شواطئ طويلة ، تمتد من طرسوس شمالا إلى برقة جنوبا ، وتواجه فى هذه المياه أعداء ألداء ، دأبوا على الإغارة على هذه الشواطئ الإسلامية وقض مضاجعهم بها .

أدرك معاوية بثاقب نظره المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين فى حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان وكان بقاء الدولة المنتصرة رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحر وما له من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع معاوية إلى أبعاد مخالب البيزنطيين

التى كانت تتحفز لتتشب مرة أخرى فى شواطئ الشام ، وعمد إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايته والتى كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسديد ضرباتها حيثما تشاء إلى أرض المسلمين[٣٣] .

وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام الحجر الأساسى فى صرح العمليات البحرية الأموية فيما بعد ، وفاتحة المجد البحرى الإسلامى على الإطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحرى الذى رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص مبينا له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطى على سلامة مدن الشام ، إذ جاء فى خطابه : (يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص) ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالبا السماح له بغزو هذه الجزيرة فرفض عمر طلبه[٣٤] .

ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينه تماما عن أى خطر يلوح فى الأفق مهددا ولايته وأرض الإسلام . فكتب إلى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية ، إذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث فى شئ منها حدث من قبل العدو ، سربوا إليها الإمداد . فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهيأة لإقامة الجند الإسلامى ، وتمكنه من الدفاع عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا لسلامتها[٣٥] .

وامتثل معاوية لما أمره به عمر ، فحصن الثغور الإسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها طوال فصل الصيف ، ويتولون حراستها فى المناظر والأبراج والمناور ، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ . وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات التى ترابط فيها

حاميات مرابطة تنقسم كل منها إلى عرافات أى مجموعات وكل عرافة تتألف من مائة رجل. وكانت هذه التحصينات مزودة فى أعلاها بمواقيد يشعلها الحراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الأعداء منه ليلاً[٣٦] .

وبهذا حصن معاوية المدن الساحلية وزودها بالقوات المحاربة ، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحرًا إلى أى مكان يشاء . ووضع لهذه المدن نظامًا عرف بالرباط وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءًا مرتبطًا أشد الارتباط بالجهاد . حيث اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين دائمًا على إعزاز الإسلام ونصرته .

فأصبحت الرباط حصونًا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ، وملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق التى يدهمها العدو . وقد خصص حاميات فى الرباط لإنذار الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى مياه الإقليمية . فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرج للمراقبة . ثم لم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات[٣٧] .

ولما قويت شوكة المسلمين بعد ذلك وتوسعت فتوحاتهم وزادت خبرتهم بالبحر وفنونه كتب معاوية إلى عثمان يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص .

ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها ، فرد عليه ينهاه عن ذلك كما نهاه عمر بن الخطاب من قبل ، ويأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل .

وفى بداية خلافة عثمان تغلب البيزنطيون على بعض سواحل الشام ، فقصد لهم معاوية حتى افتتحها ، ثم رمها وشحنها بالمقاتلة ، ومنحهم القطائع[٢٨] .

فتح قبرص سنة ٢٨هـ :

وفى سنة ٢٧هـ أعاد معاوية طلبه موضحًا أهمية البحر مهونًا ركوبه فأذن له عثمان وأوصاه : (فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونًا لك وإلا فلا ، ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه)[٢٩] . وقد نفذ معاوية أمر الخليفة وحمل معه امرأته فأخته بنت قرظة وجماعة من الصحابة فيهم أبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وفضالة بن عبيد الأنصارى ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت الذى حمل معه زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية . وأعدت السفن لنقل القوة العربية على ساحل عكا ، وهناك أقام معاوية بعض الوقت رمم خلاله تحصينات عكا وصور ، ثم أبحرت الحملة إلى قبرص فى ربيع سنة ٢٨هـ ، وكانت هذه الحملة أول غزو للمسلمين فى البحر ، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها . وما كادت السفن العربية ترسو إلى ساحلها حتى أذعن أهل قبرص بالطاعة للمسلمين ، وبعث حاكمها يطلب الصلح، فصالحه معاوية على جزية سنوية يؤديها له أهلها ، واشترط عليهم أن يلتزموا موقفًا حياديًا فى الصراع العربى البيزنطى ، وأن يبلغوا المسلمين بسير عدوهم من البيزنطيين .

فلما كانت سنة ٣٢هـ أعان أهل قبرص البيزنطيين على الغزو فى البحر بسفن قدموها لهم فغزاهم معاوية فى سنة ٣٣هـ فى خمسمائة سفينة ، وافتتح قبرص فى هذه المرة عنوة ، ثم أقرهم على صلحهم[٣٠] .

وعاد معاوية إلى الشام منتصرًا ، مدونًا أول سطر فى سجل النشاط البحرى الإسلامى وحقق فوزًا باهرًا فى ميدان جديد ، رفع به من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما اتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، واظهر أنهم فى سبيل عزة

الإسلام وأرضه يذللون سائر العقبات . كذلك برهن معاوية بانتصاره علـــى أهـــالى قبرص أن سياسته البحرية قامت على أسس وطيدة لا بد أن يؤتى أكلها ، حيث كـان خضوع قبرص لمطالب معاوية بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

وهكذا بدأ نشاط بحرى إسلامى اتسم بطابع الغارات سنويا ، صيفـــا وشـــتاءا «الصوائف والشواتى » على الجزر البيزنطية ، التى يخشى خطرها ، أو التى قـــد ينبعث منها ضرر يحيط بأرض الإسلام . وأثبت المسلمون فى هذه المرحلة المبكـرة من تاريخهم البحرى فهما جيدا لطبيعة الجزر البيزنطيـــة فـــى البحـــر المتوســط الشرقى، إذا رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به مـــن مراكـــز اســتراتيجية هامة، ولشل حركات البيزنطيين البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولذا سارت الغارات الإسلامية على هذه الجـــزر وفـــق خطـــوات منظمـــة مرسومة تهدف أولا إلى تأمين سلامة البلاد الإسلامية من الجزر القريبـــة مباشـــرة من أراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عـــدد مـــن المضايق البحرية لسد الطريق فى وجه الأساطيل البيزنطية . وأظهر أمراء البحـــار المسلمون فى سبيل تنفيذ هذه الأهداف من المهارة والجلد ما رفعهم إلـــى مصـــاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

وقد استرعى نظر المسلمين أثناء إغارتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعـــى أرواد بالقرب من ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس وكـــان أهلـــها يحـــترفون القرصنة . وكان أن عقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيـــرة بالاستيلاء عليها وأعد حملة لمهاجمتها سنة ٢٩هـــ أى فى العام التالى لعودته مـــن جزيرة قبـــرص بعد إغارته الأولى عليهـــا . واســـتطاع المســـلمون أن يـــنزلوا بأرض الجزيرة ، ولكن رفض الأهالى الإذعان لهم والتسليم ، واعتصمـــوا بقلعـــة

الجزيرة . وهكذا عاد المسلمون إلى دمشق مصممين على تأديب أهالى هذه الجزيرة فى العام التالى .

وفى العام التالى هاجم المسلمون جزيـــرة أرواد بقـــوة كبـيرة ، وأحرقـــوا العاصمة وقلعتها ، وألزموا جميع أهاليها بإخلاء الجزيرة تماما جزاءا على عنـــادهم الذى تجلى فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة . ولم يكن فى هذا التصرف الـــذى اتخذه المسلمون شئ من التعسف ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهمهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ، ووسائلهم التى اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم . فكان أهـــالى أرواد يتجنبون دائما الهزائم القاصمة ، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه حتى يزول الخطر المحيق بهم ، ولذا قضى المسلمون نهائيا على هذه الجزيرة ومنعتـــها ، وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ، ولا سيما بعد أن كشفوا القناع عـــن نواياهم فى وضوح وجلاء[٣١] .

إعادة فتح قبرص عام ٣٣هـــ / ٦٥٣ — ٦٥٤م :

وفى عام ٣٣هـــ / ٦٥٣م قام المسلمون بـــهجوم ثـــان علـــى قـــبرص لأن القبارصة لم يرعوا شروط الصلح التى فرضها معاوية ، وكانت تهمتهم أنهم أعاروا الإمبراطور سفنا ، فخرج إليهم أسطول إسلامى يتكون من خمسمائة ســـفينة تحـت إمرة أبى الأعور ، ولكن السكان عندما سمعوا بهذا النبأ اعتصموا بالتلال ، وبقـــى أبو الأعور أربعين يوما فى كونستانتيا حتى أذعن له الأهالى ووعدهم أن يؤمنـــــهم على حياتهم ، وعاد إلى سوريا ومعه الغنائم الوفيرة بعد أن ترك وراءه قـــوة مـــن أثنى عشر ألـــف رجل فى مدينة شيدت لهم خصيصا وثبت شروط الجزيـــة التـــى فرضت عليهم فى المرة الأولى وقد شيد المساجد فى هذه الجزيرة[٣٢] .

فتح رودس سنة ٣٣هـــ / ٦٥٣ — ٦٥٤م :

وفى سنة ٣٣هـــ / ٦٥٣ — ٦٥٤م اتجه الأسطول الإسلامى نحو رودس أهم جزر بحر إيجه ، وأعلاها مكانة فى الدولة البيزنطية من حيث نشاطها البحـــرى ،

وحركة صناعة السفن بها . فهذه الجزيرة أول حلقة فى سلسلة أرخبيل بحر إيجة من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد أثنى عشر ميلا تقريبا من الساحل لآسيا الصغرى . وأهلها هذا الموقع لأن تكون خطرا جاثما على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية .

وكانت هذه الحملة تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدى ، الذى استطاع أن يستولى على الجزيرة عنوة ، وأسس المسلمون فيها رباطا لهم يدافعون منه عن الشام ، وأمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة ، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها وبلغ من اهتمامه بحماية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائما ، ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدة طويلة ليبقى على بأس الحامية وقوتها . وآثر معاوية أن يحيط المسلمين فى رودس بالجو الإسلامى الدينى ، ويعلى راية الإسلام بين سائر أهاليها ، فأرسل إليها فقيها يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن ويفقههم فى الدين .

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية فى وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين . وعمل على تحقيق ذلك بالاستيلاء على جزيرة إقريطش (كريت) ، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماما على بحر إيجه ، الذى يشبه طرفه الجنوبى فوهة قربة تمتد اقريطش عبرها بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلا ، وتقسم الجزيرة هذه الفتحة إلى مدخلين تتحكم فى كل منهما . وأرسل معاوية جنادة الذى استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لمهاجمة الشام. على أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها[٣٣] .

ونستطيع القول أن هذه الحملات دعمت سيادة العرب على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط . فقد أدرك الإمبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة أن الأسطول الإسلامى صار قوة عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن دولة الروم لن تستطيع بعد الآن إخراج العرب من الديار التى حلوا بها على شاطئ هذا البحر ، فصرفوا النظر نهائيًا عن فكرة استرداد البلاد التى كانت تابعة لهم من يد العرب ، وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع .

معركة ذات الصوارى ٣٤هـ / ٦٥٥م :

كان النجاح البحرى الذى حققه المسلمون فى قبرص ورودس وكريت وأرواد حافزًا شجع معاوية بن أبى سفيان على توسيع خططه البحرية لتأمين أرض الدولة الإسلامية وإزاحة أى شبح بيزنطى يحتمل أن يهدد أمنها .

فاتجه نظره إلى القسطنطينية المحرك الذى يدير شؤون الدفاع البحرى عن الجزر البيزنطية فى البحر المتوسط فهى الرأس المدبر للتنظيم البحرى للدولة البيزنطية .

وأدرك المسلمون ألا استقرار لفتوحاتهم إلا بالاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وإدخالها فى حظيرة الإسلام ، كما تم لهم من قبل الاستيلاء على المدائن عاصمة الدولة الفارسية .

وانقسمت الإدارة البيزنطية البحرية إلى قسمين لكل منهما اختصاصاته ، ومظاهر تعاونه مع بعضها البعض بما يكفل صد أى عدوان يقع على أراضى الدولة البيزنطية . فكان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للإدارة البحرية البيزنطية، الأولى أساطيل تابعة للأقاليم والمقاطعات التى تنتظمها الدولة البيزنطية، والثانية أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها .

وكان التعاون بين الأسطولين البيزنطيين إبان غارات معاوية البحرية غير وثيق لفساد الأحوال فى العاصمة البيزنطية ، وامتلائها بالمؤامرات والدسائس ولكن ما كاد الإمبراطور قنسطانز الثانى ينفرد بالعرش ويبلغ سن الرشد ، حتى عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحرى[٣٤] ، فعمل على بث روح الحياة والنشاط فى أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات ، استعداداً لمناهضة حركات معاوية المقبلة .

وكان معاوية على رأس القوات البرية المتجهة إلى مدينة قيصرية فى قبادوقيا فى آسيا الصغرى . أما الأسطول الإسلامى المكون من سفن شامية ومصرية فكان بقيادة عبد الله بن أبى السرح الذى ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا عند فوينكس حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطى على رأسه الإمبراطور نفسه يهدف صد تقدمه .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطى على أن قنسطانز الثانى صمم على وضع حد لاتساع الفتوحات الإسلامية وكسر شوكتها نهائيًا ، على حين دلت المجهودات التى بذلها معاوية فى إعداد أساطيله على صدق عزيمة المسلمين فى الجهاد أرض الإسلام ، وإظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية فى هذه المرحلة المبكرة من دخولها فى حظيرة الإسلام[٣٥] .

والتقى الجمعان فى البحر وكانت الرياح غير ملائمة فقضى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح ، وأخذا يستعدان فيها ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله على حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالنواقيس . وفى صبيحة اليوم التالى دارت المعركة .

وقد هال المسلمين منظر البحر الذى امتلأ سفنا بيزنطية . ويروى الطبرى رواية على لسان مالك بن أوس بن الحدثان أحد رجال المسلمين قال[٣٦] : (كنت معهم فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا

فأرسينا ساعة ، وأرسوا قريبًا منا ، وسكنت الريح عنا فقلنا : الأمن بيننا وبينكم . قالوا : ذلك لكم ولنا منكم ، ثم قلنا : إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر . قال : فنخروا نخرة واحدة ، وقالوا : الماء فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم فقاتلنا أشد القتال ، ووثب الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن ويتواجئون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما) .

وهكذا اشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم فى معركة عنيفة ، بعد أن ربط المسلمون سفنهم بعضهًا إلى بعض وحولوا المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية وقام عبد الله بن سعد بصف المسلمين على نواحى السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ، ويأمرهم بالصبر والثبات فكان القتال شديدًا ، وقتل من الجانبين أعداداً هائلة وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين ، ولم ينج من الروم إلا من تمكن من الهرب[٣٧] .

(وأقام عبد الله بذات الصوارى أياما بعد هزيمة القوم ، ثم أقبل راجعًا)[٣٨].

وبهذا الانتصار الرائع ثبتت للمسلمين السيطرة على حوض البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين ، ويعتبر هذا الانتصار حدًا فاصلاً فى تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية فى مهدها، ولو أنه وفق فى ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقى على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين[٣٩] .

غير أن معاوية لم يفد من هذا النصر الذى أحرزه فى متابعة الغزو البحرى ، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥هـ ، ومناوءة على بن أى طالب من أجل الظفر بالخلافة عن مواجهة البيزنطيين ، أما هؤلاء فقد اغتنموا ذلك لتدعيم جبهتهم ، ثم وجهوا هجوما عاتيا على سواحل الشام فى سنة ٤٩هـ . ويبدو أن

البيزنطيين سببوا بهذا الهجوم خسائر كبيرة للمسلمين حملت معاوية على إقامة دار لصناعة الأسطول في عكا ، لتنتج له سفنا بدلاً من الاعتماد على دار صناعة مصر وحدها ، فأمر بجمع الصناع والنجارين فجمعوا .ورتبهم على السواحل ، وظلت عكا دار الصناعة في الشام إلى أن نقلت في زمن بني مروان إلى صور[٤٠].

ومنذ أن أسست دار الصناعة بعكا حتى أخذ المسلمون يشكلون خطرًا متزايدًا على البيزنطيين ، فقد استعمل معاوية على البحر القائد العربي عبد الله بن قيس الذي غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة .

والجدير بالذكر أن هذه الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا ، والسبب الذي دعا المسلمين إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى أن المسلمين كانوا يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن ، مثل خشب البلوط الصلد اللازم لصناعة الصواري والقرايا والأقواس ، وخشب التنوب الكليكي الذي ينمو في آسيا الصغرى ، والعرعر الشبيه بشجر الأرز، ونستدل على هذا الرأي بأن كلمة ذات الصواري لم تطلق نسبة إلى كثرة صواري السفن ، كما يزعم فريق من المؤرخين المسلمين[٤١] ، ولكن نسبة إلى موضع بهذا الاسم استنتاجًا من قول الطبري[٤٢] : (فركب في مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري ، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة) ، وقوله أيضًا : (وأقام عبد الله بذات الصواري أياما بعد هزيمة القوم) ، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصواري .

ومن هذا الوقت لم تتعرض قوة المسلمين لأي تهديد خطير وأصبحت مصر والشام في مأمن من هجمات الروم ولو أن بعض المدن الساحلية ما فتئت تتعرض لغارات فردية لم يكن لها تأثير على الوضع العام للمسلمين .

محاولات الأمويين فتح القسطنطينية

المحاولة الأولى لفتح القسطنطينية (٥٤ – ٦٠هـ / ٦٧٣ – ٦٧٩م) :

لم ينتهز معاوية فرصة النصر فى معركة ذات الصوارى ويهاجم القسطنطينية لأن أسطول المسلمين منى بخسائر لا يستهان بها ، ولذلك نبذ فكرة حملة القسطنطينية ذاك العام ، وفى ساعة النصر الحيوية قتل الخليفة عثمان ، وصاحب ذلك قلاقل داخلية ورأى معاوية أنه من الأفضل عقد هدنة مع الامبراطور قنسطانز الثانى سنة ٣٨هـ / ٦٥٩م وتعهد فيها معاوية بأن يدفع مائة ألف دينار . ولكن سرعان ما رفض المسلمون دفع هذه الإتاوة بعد ذلك ، مما أدى إلى فتح الطريق أمام حملات جديدة أمكن للقوة البحرية الإسلامية أن تلعب دورها فيها[٤٣] .

والواقع أن فتح القسطنطينية كان هدفًا ترنو إليه أفئدة المسلمين ، إذ كانت هذه المدينة حاضرة البحر المتوسط الكبرى ومركزًا للتجارة وسوقًا ودارًا للمقاصة لجزء كبير من العالم المتحضر ، وقد بشر الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية وأخبر أن الله سبحانه وتعالى سيغفر الذنوب جميعًا لجنود أول جيش يحاصرها ويفتحها ، فقال ﷺ : (أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم)[٤٤] .

وأراد معاوية بن أبى سفيان أن يضرب ضربة قوية يقسم بها ظهر الامبراطورية البيزنطية وذلك بالاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية وخيل إليه أن سقوط العاصمة سيجعل الإمبراطورية كلها تخر له كما خرت من قبل إمبراطورية الفرس بعد سقوط عاصمتها المدائن . ولم يكن ثمة ما يتوقع معاوية من أجله الفشل فقد اختبر المسلمون قوة بيزنطة فى الميادين المختلفة وجمع الخليفة المعلومات الكافية عن تحصينات المدينة ومواطن الضعف فيها وأعد لهذا الأمر الجليل عدته .

وكان أن وجه معاوية عنايته إلى الأسطول فأكثر من دور صناعة السفن فى الشواطئ السورية والمصرية فتضاعف إنتاج السفن وبلغ عددها فى أيامه ألفًا

وسبعمائة سفينة ذوات أحجام مختلفة وبعد أن تم تجهيز الجيش أخذ يشن على الروم حربا شعواء رتب فيها الشواتى والصوائف حتى لا يترك للبيزنطيين فترة من الزمن يريحون فيها جندهم وتيسيرا لذلك الصدام المستمر نقل ميدان تجهيز الجند من الجابية إلى معسكر دابق القريب من الحدود .

ومهد معاوية للحروب التى خاضتها قواته البحرية والبرية حول القسطنطينية نفسها فيما بين عامى ٥٤ — ٦٠هـ بحملات استطلاعية برية وبحرية متتابعة بقصد دراسة الطرق المؤدية إلى الحاضرة البيزنطية .

ففى سنة ٤٩هـ أرسل حملة برية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عوف ثم أردف به ابنه يزيد بعد ما أصاب المسلمين جوع ومرض شديد وقد اشرك فى هذه الحملة تحت قيادة يزيد بن معاوية كبار الصحابة مثل ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبا أيوب الأنصارى .

فأوغلت الحملة فى بلاد الروم حتى بلغ المسلمون القسطنطينية واشتبكوا مع البيزنطيين فى قتال عنيف وتفانى المسلمون فى القتال ، واستشهد من أبناء الصحابة عبد العزيز بن زرارة الكلابى فلما بلغ خبر استشهاده معاوية قال : والله هلك فتى العرب[٤٥] . وفى هذه الواقعة توفى أبو أيوب الأنصارى وهو يحاصر القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها ، وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه إلى الشام فى نفس العام .

لقد أصبح قبر أبى أيوب الأنصارى مثار قصص وأشعار تدعو المسلمين لمعاودة الحصار وفتح القسطنطينية حتى لا يبقى البطل أبو أيوب وحيدا فى مدفنه بتلك البقاع[٤٦] .

فمعاوية منذ أن كان واليا كان يحلم بفتح القسطنطينية ولما تولى منصب الخلافة أراد أن يضع هذا الحلم موضع التحقيق لذلك بدأ بالعمل من حيث انتهى قبل عشرة سنوات حين اضطر لعقد صلح مع البيزنطيين ، وكما رأينا فقد احتل العرب

آنذاك قبرص ورودس وكيوس خلال الفترة الأولى من معاركهم البحرية مع بيزنطة، وبعد أن تسلم معاوية الخلافة أكمل احتلال هذه السلسلة من الجزر الموصلة إلى القسطنطينية باحتلال جزيرة كزيكوس « أرواد » التى تقع بجوار العاصمة البيزنطية مباشرة . وهكذا أصبح للعرب قاعدة للانقضاض على القسطنطينية لا يفصلها عن الهدف إلا مسافة قصيرة . وقبل أن يوجه معاوية الضربة القاضية لبيزنطة ، احتل قسم من أسطوله أزمير وذلك سنة ٥٣هـ / ٦٧٢م كما احتل قسم آخر من هذا الأسطول شواطئ ليسيا وكيليكيا[٤٧] .

واتخذ المسلمون أرواد مقرًا لإدارة حملتهم على القسطنطينية . فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هيدومون التى تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين رأس كيكليبيوس الواقعة بالقرب من باب الذهب . واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر إبريل إلى سبتمبر تتخلله مناوشات بين أساطيل وجنود المسلمين والبيزنطيين من الصباح إلى المساء ، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام .

واستطاعت المدينة أن تصمد أمام الحصار طيلة هذا الوقت لأن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع ملأ خزائنها بالمؤن والعتاد ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير . على أن المسلمين أظهروا من المثابرة والجد ما أثار قلق سكان القسطنطينية . إذ فى شهر سبتمبر عادت السفن والجند الإسلامى إلى مقرها بجزيرة كزيكوس تقضى بها فصل الشتاء وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة . وبمطلع الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالجند لحصار القسطنطينية برًا وبحرًا على النحو السالف ، وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والإرهاق . وقد اقتصرت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين

على الربيع والصيف فقط طيلة السنوات السبع التي استغرقتها عملية حصار القسطنطينية في هذه المرة .

وكان البيزنطيون قد جهزوا سفنا مزودة بآلات خاصة تقذف نوعًا من النار لا يطفئها الماء ، وإنما يزيدها اشتعالاً ، واستطاعوا أن يحرقوا كثيرًا من السفن الإسلامية بهذا السلاح الجديد . على أن هذا السلاح لم يثن المسلمين عن عزمهم ، ولم يفت في عضدهم ، أو يبعث في نفوسهم القنوط ، إذ تابعوا الحصار كلما تهيأت لهم العوامل الطبيعية من اعتدال المناخ أثناء الربيع والصيف .

وساهم كثير من القادة الأمويين في إدارة عمليات هذا الحصار ، فخلف القائد عبد الرحمن بن خالد شخصية أخرى كبيرة ، وهو سفيان بن عوف واشترك ولي العهد يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية كذلك ، حتى أن هذه الشخصيات الهامة ألهبت روح الجند الإسلامي حماسة ، وشجعته على متابعة النضال طيلة السنوات السبع . ولكن في نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبي سفيان دنو أجله ، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية(٤٨).

ومن ثم دخل معاوية في مفاوضات مع الدولة البيزنطية تمهيدًا لسحب قواته المحاصرة للقسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام .

وكانت الدولة البيزنطية تتلهف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية ، إذ أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا ، من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاء وفطنة . وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه . ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة . وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة برًا وبحرًا أمام القسطنطينية تلم شملها للعودة إلى الشام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة(٤٩) .

ونستطيع أن نجمل الأسباب التى أدت إلى فشل المسلمين فى فتح القسطنطينية فى عهد معاوية بن أبى سفيان إلى :

استخدام المدافعين عن القسطنطينية النار الإغريقية ذلك السلاح البحرى المرعب الذى لا ينطفئ بملامسته الماء ، فأوقع أضرار جسيمة بسفن الأسطول الإسلامى .

وتحصينات المدينة الطبيعية لا يتيسر التغلب عليها ، وأيضًا الأسوار البرية التى أقيمت فى القرن الخامس الميلادى ، وتكونت من جدار داخلى وآخر خارجى أقوى ما عرف فى الأزمنة الغابرة ، وكانت الأسوار الداخلية على بعد بضع ياردات خلف الأسوار الأمامية ، وأعلى منها حتى يمكن قذف النار الإغريقية من أربع مستويات مختلفة على المحاصرين .

أما أسوار البحر ، فكانت أقل مناعة لعزلتها ، ولكن الأسطول البيزنطى كان يحميها ، ولو أن هذا الأسطول لم يكن متفوقًا على الأسطول الإسلامى إلا أنه كان رابضًا فى مأمن فى القرن الذهبى تحميه السلسلة العظيمة التى مدت عبر المدخل ، لذا لم يقدم المهاجمون على مهاجمة واجهة المدينة من جهة البحر حيث يكونون عرضة من هجوم مضاد من المراكب البيزنطية التى يمكن إرسالها من القرن الذهبى .

إن القسطنطينية لم تكن فى موقع مكشوف بل كان يحميها بحر الأرخبيل وجزائره وخلجانه ، هذا من ناحية ومن ناحية الأخرى حماها بحر مرمرة ومن بعده البحر الأسود . هذا فى حين كانت مراكز القوة العربية البحرية فى مصر وسورية وإفريقية مكشوفة(٥٠) .

هذا بالإضافة إلى أن أسوار القسطنطينية المنيعة وما فوقها من أبراج دأب الروم على حفظها وصيانتها .

وحملات المسلمين فقدت بشكل شبه دائم عنصر المفاجأة ، فسكان شمال بلاد الشام مع أجزاء كبيرة من الجنوب كانوا يدينون بنفس العقيدة التى كانت تدين بها بيزنطة لذلك كانت بيزنطة تعرف دائمًا وبشكل مسبق أخبار الحملات وغاياتها وما لها وما عليها وكانت بيزنطة تملك من المقدرة ما يمكنها من الاستعداد التام قبل وصول الخطر بوقت كاف .

يضاف إلى ذلك ضعف الخطط الإسلامية التى رسمت لفتحها حيث أن المسلمين صرفوا معظم جهدهم من الجهة الآسيوية وكان عليهم أن يقوموا بعزل القسطنطينية من الجهة الأوروبية حتى يمنع عنها العون الأوروبى ، كما فعل آل عثمان فيما بعد.

وقابل هذا الضعف فى الخطط الإسلامية استبسال الروم فى الدفاع عن مدينتهم لأنهم اعتقدوا أن الأمر أصبح بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت فما بعد ذلك الخطر الداهم الذى يكاد ينتزع قلب دولتهم شئ يلهب الحماس ويزيد الحمية خاصة بعد أن وجدوا أنفسهم أمام عدو يعمل لنشر عقيدة تغاير عقيدتهم وليس وراءهم من يستطيع أن يحمى العقيدة المسيحية آنذاك فاتخذت الحرب فى نظرهم صبغة دينية فاستبسلوا فى الدفاع .

هذا كله فضلاً عن عوامل طبيعية ، منها هبوب رياح عاتية على الأسطول الإسلامى أثناء سيره بالقرب من سواحل آسيا الصغرى دمرت عددًا كبيرًا من سفنه وتفشى المرض فى المسلمين المرابطين فى بلاد لم يألفوا الإقامة فى مثل مناخها البارد .

وكان البيزنطيون يملكون ما يلزم لصناعة الأساطيل من أخشاب وحديد وغير ذلك ، واستطاعوا أن يحولوا دون حصول المسلمين على ما يلزمهم منها . لذا جددوا أسطولهم باستمرار .

المحاولة الثانية لفتح القسطنطينية (٩٨ – ٩٩هـ / ٧١٧ – ٧١٨م) :

وبدأ التأهب للحصار الثانى منذ بداية عهد الوليد بن عبد الملك ، الذى تـابع سياسة تقوية الأسطول الإسلامى وعمل على تنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية وخلق مناخ طيب للعمليات الحربية ضد الإمبراطورية البيزنطية ، واتخذ من منطقة الثغور بآسيا الصغرى مجالاً لتدريبات قواته ، كما أنه اهتم بالصوائف والشواتى البحرية ليقض مضجع الروم البيزنطيين ويمهد للهجوم الكبير على القسطنطينية[٥١] .

وجعل الوليد هدف تحركاته الحربية الأولى الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية فحاصر مدينة طوانة – مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور والذى تسلكه الجيوش الإسلامية فى طريقها لمهاجمة القسطنطينية وتمكن من فتحها بعد عامين من الحصار الشديد .

واستمر المسلمون فى شن غاراتهم على مدن آسيا الصغرى فنشروا الذعر والخوف فى صفوف الجيش البيزنطى واستولوا على معاقل هامة بالقرب من البسفور .

ولكن هذه الحملات لم تكن إلا حملات استطلاعية تمهد للزحف الأكبر على القسطنطينية .

وكان أن بدأ المسلمون فى تجهيز جيش عظيم لفتح القسطنطينية بقيادة مسلمة ابن عبد الملك فعلمت بيزنطة بذلك فأوفد الإمبراطور أنسطاس سفارة إلى دمشق لتتباحث مع الدولة الإسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكنه زود السفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضى التجسس على مدى استعداد المسلمين الحربى ، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية . وكان رئيس هذه السفارة

رجلاً حصيفًا يدعى دانيال حاكم مدينة سينوب ، ومن الشـخصيات الكـبرى التـى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره .

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شـاهدت عظمـة المسـلمين فـى عاصمتهم ، ونشاط الخليفة فى أعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية ، فعـادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطى صدق عزيمة المسـلمين علـى الجـهاد ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة ، ونفذ أنسطاس تعليمـات السفارة ، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فـرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، ثم ملأ خزائن الإمبراطورية بكميـات هائلة من القمح وغيره من الحاجات التى يتطلبها المدافعون عن المدينـة ، واهتـم كذلك بتجديد أسوار المدينة ووضع وسائل الدفاع عليها[٥٢] .

ولكن وفاة الوليد أدت إلى إرجاء إنفاذ الحملة إلى مقصدها .

فلما تولى سليمان الخلافة أخذ يجهز الجيوش للسير إلى القسطنطينية ومـهد لذلك بغزوه بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزارى علـى بـلاد الـروم فـى سـنة ٩٧هـ[٥٣] .

وفى العام التالى حشد سليمان قوات كثيفة برية وبحرية وزودها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح لحرب طويلة الأمد بقيادة أخيه مسـلمة وأمـره بـأن يتوجه إلى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره .

وترك الخليفة سليمان عاصمته وأقام فى دابق بالقرب من حلب ليكون أقـرب إلى ميدان القتال . (فلما نزل دابق أعطى الله عهدًا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية)[٥٤] .

ولما توغل مسلمة فى آسيا الصغرى هابه الروم فاتصل به قائد أرمنى اسـمه ليو الأيسورى كان يتطلع للوصول إلى العرش الامبراطورى فاتفق ليو مع مسـلمة

على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية وما كاد يصل إلى القسطنطينية حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدهم من كل أقواتهم وتوج إمبراطورا على القسطنطينية باسم ليو الثالث الأيسورى فى مارس سنة ٩٨هـ / ٧١٧م .

نصب مسلمة المنجنيق وضرب القسطنطينية بعنف وشدد الضغط عليها وحفر حول معسكره حفيرا عميقا وانتسف المزارع القريبة ومنع الأقوات من التسرب إلى داخل القسطنطينية .

أما الأسطول فقد رابطت قطعه حول المدينة بقيادة سليمان بن معاذ الأنطاكى وتمكن هذا الأسطول الذى بلغ ١٨٠٠ سفينة من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود ولكن عاصفة عاتية حطمت عددا كبيرا من السفن وسلط البيزنطيون نيرانهم اليونانية على الأسطول الإسلامى .

ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعناد محاصرة المدينة وشدد الضغط عليها ، (وعمل بيوتا من خشب ، فشتا فيها ، وزرع الناس ... وأكلوا من الزرع فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهرا لأهلها معه وجوه أهل الشام)[٥٥] .

وبرهن المسلمون بهذا الثبات طوال الشتاء القارس أنهم أولو بأس وعزم صادق فى الجهاد ، وأنهم حريصون على رفع راية الإسلام فى كل مكان .

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك من الشام ومصر .

واستخدم المسلمون النفط ، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية فى حصار القسطنطينية وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام .

ولكن ما أن حل الشتاء ببرده وثلجه حتى هلك عدد كبير من الجند المسلمين ونفقت معظم الخيول والدواب ، وعدمت الأقوات ، ومات قائد الأسطول الإسلامى

سليمان الانطاكى مما أدى إلى اضطراب فى صفوف البحرية الإسلامية ، وأصاب المسلمين قحط وضنك شديد حتى أكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق ، وكل شئ غير التراب وسليمان مقيم بدابق[٥٦] .

توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك – رحمه الله – والجيش الإسلامى محاصرا القسطنطينية وتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز بعده الذى رأى أنه يجب أن يكون هناك فترة هدوء واستقرار لتدعيم الصرح الإسلامى وتنظيم الدولة وتأمين حدودها فأرسل إلى مسلمة فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨م بعد حصار دام سنة كاملة يطلب منه العودة بجيشه وأسطوله إلى الشام ، ووجه إليه خيلا عتاقا وطعاما كثيرا، وحث الناس على معونتهم[٥٧] .

وهكذا عادت الجيوش الإسلامية إلى قواعدها بعد أن أدت رسالتها فى إعزاز دولة الإسلام ، وحملت عاصمة البيزنطيين وأباطرتها على التخلى عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة فى استعادة سالف أراضيهم التى دخلت فى رقعة الإسلام .

* * *

وقد صرفت أحداث الحصار الأموى للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقية ، واعتبروا حماية هذا الإقليم فى المرتبة الثانية بالقياس عن الدفاع عن عاصمتهم . وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية ، حيث جعلوا من شمال إفريقية ركنا هاما من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد وأثبت العرب المسلمون للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قبضة البحرية الإسلامية وضرباتها الشديدة .

وترك الخلفاء الأمويون بحملاتهم المتكررة على القسطنطينية سجلا حافلا بجهودهم فى نصرة الإسلام ، وحافزا جعل خلفاءهم من الدولة الإسلامية يتطلعون للاستيلاء على هذه العاصمة . وظلت رسالتهم ماثلة حتى حققها شعب إسلامى فتى،

هم الأتراك العثمانيون بعد انقضاء سبعة قرون تقريبًا على الحملة الأموية الكـــبرى زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

فشرف الله تعالى هذه المدينة بالفتح الإسلامى سنة ١٤٥٣م على يــــد القـــائد العثمانى البطل محمد الثانى « الفاتح » لتصبح فيما بعد عاصمة للدولة الإســـلامية العثمانية المترامية الأطراف .

مراجع البحث

(١) العبادى ، د. أحمد مختار ، ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ٢جـ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية سنة ١٩٧١م ، جـ٢ ص١٤ – ١٥

(٢) العبادى : جـ٢ ص١٥

(٣) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : المقدمة ٢جـ ، تحقيق د. على عبد الواحد ، القاهرة ، جـ٢ ص٦٢٨

(٤) ماهر د. سعاد : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، وزارة الثقافة المصرية، نشر دار الكتاب العربى ، القاهرة سنة ١٩٦٧م ، ص٦٤ .

(٥) عبد العليم ، د. أنور : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، مجلة عالم المعرفة ، إصدار المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت عد ١٣ ، يناير ١٩٧٩م ، ٩١

(٦) البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) : فتوح البلدان ، القاهرة سنة ١٩٣٢م ، ص٣٧

(٧) البلاذرى : ص٤٦٤

(٨) المقريزى ، تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، ٢جـ ، طبعة بولاق القاهرة سنة ١٢٧٠هـ ، جـ٢ ص١٩٠

(٩) المقريزى ، جـ٢ ص١٩٠

(١٠) ماهر : ص٥٦

(١١) المقريزى ، جـ٢ ص١٩٠

(١٢) ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤هـ) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة سنة ١٩١١م ، ص١٦٣

(١٣) ابن عبد الحكم : ص١٦٥

(١٤) اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب (ت ٢٨٤هـ) : تاريخ اليعقوبى ، ٢جـ ، دار صادر بيروت لبنان (د. ت) ، جـ٢ ص١٧٧

(١٥) سورة النحل : الآية ١٤

(١٦) سورة النحل : الآية ١٦

(١٧) سورة الأنعام : الآية ٩٧

(١٨) سورة النور : الآية ٤٠

(١٩) سورة الرحمن : الآية ١٩ - ٢٢

(٢٠) سورة الإسراء : الآية ٦٦

(٢١) رواه .

(٢٢) سالم ، د. السيد عبد العزيز : طرابلس الشام فى التاريخ ، الإسكندرية ، سنة ١٩٦٧م ، ص٣٢

(٢٣) العدوى ، د. إبراهيم أحمد : الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية) ، الدار القومية للطباعة والنشر ط٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٣م ، ص٨١

(٢٤) الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، ١١ج : ط٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٧م ، جـ٤ ص٢٥٨

(٢٥) البلاذرى : ص١٣٤

(٢٦) العبادى : جـ١ ص١٦

(٢٧) العدوى : ص٨٣ - ٨٤

(٢٨) البلاذرى : ص١٥٠

(٢٩) الطبرى : جـ٤ ص٢٦٠

(٣٠) البلاذرى : ص١٨١

(٣١) العدوى : ص٩٤ - ٩٦

(٣٢) البلاذرى : ص١٥٣

(٣٣) البلاذرى : ص٢٢٤

(٣٤) العدوى : ص١٠١

(٣٥) العدوى : ص١٠٣

(٣٦) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٠

(٣٧) ابن عبد الحكم : ص٢٥٥ - ٢٥٨

(٣٨) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٢

(٣٩) عثمان ، فتحى : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ٣جـ ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٧م ، جـ٢ ص٣٣٨

(٤٠) العبادى : جـ٢ ص١٩

(٤١) انظر ابن عبد الحكم : ص٩٠ ، والكندى : الولاة ، ص١٣ ، والمقريزى : جـ٣ ص١٦٥، وابن تغى : جـ١ ص٨٠

(٤٢) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٠

(٤٣) اليعقوبى : جـ٢ ص٢٥٨

(٤٤) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ، باب ٩٣

(٤٥) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، بيروت سنة ١٩٦٥م ، جـ٣ ص٤٥٩

(٤٦) شلبى ، د. أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ٢ ص١١٥

(٤٧) عاقل ، د. نبيه : الإمبراطورية البيزنطية ، دمشق سنة ١٩٧٠م ، ص١١٤ – ١١٥

(٤٨) العدوى : ص١٧٣ – ١٧٤ .

(٤٩) العدوى : ص١٧٥

(٥٠) أرشيبالد ، د. لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ – ١١٠٠م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ، ص٢١ – ٢٢

(٥١) عواد ، د. محمد أحمد : الجيش والأسطول الإسلامى فى العصر الأموى ، ط١ ، الأدبية للطباعة والنشر ، الخليل سنة ١٩٩٤م ، ص٢٧١

(٥٢) العدوى : ص٢١٥

(٥٣) ابن الأثير : جـ٥ ص٥٣١

(٥٤) الطبرى : جـ٦ ص٥٣١

(٥٥) الطبرى : جـ٦ ص٥٣٠

(٥٦) الطبرى : جـ٦ ص٥٣١

(٥٧) الطبرى : جـ٦ ص٥٥٣

التاريخ السياسى لمدينة أستجة الأندلسية

منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الدولة الأموية

د. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا(*)

تقـديم :

أقبل المؤرخون المحدثون على الكتابة فى التاريخ المحلــى لمـدن الأندلــس وأولوه جانبًا كبيرًا من عنايتهم ، دفعهم إلى ذلك – لاسيما الأسبان منهم – شـعورهم بالتفاخر بهذه المدن التى ينتمون إليها ، وكذلك إعجابهم الشديد – خاصة مؤرخــى العرب – بتاريخ هذه المدن فى العصر الإسلامى وحرصهم علــى إبـراز أمجـاد إسلامية تكمن فى هذا التاريخ . ولقد لفت نظرى الدور الهام الــذى لعبتــه مدينــة أستجة الأندلسية منذ الفتح الإسلامى حتى نهايــة عصــر الدولــة الأمويــة علــى الصعيدين السياسى والحضارى . ومع ذلك فلم يوجــه المؤرخــون لــهذه المدينــة العظيمة ما تستحقه من اهتمام ، فلم يفردوا لها بحثًا قائمًا بذاته ، وكل ما كتب عنــها لا يعدو نتفًا متفرقة فى ثنايا الحديث عن تاريخ الأندلس العــام . وهــى كتابــات لا تتناسب مع الدور الهام الذى لعبته أستجة فى تاريخ وحضــارة الأندلــس . ولــهذا خصصت هذا البحث لدراسة تاريخها السياسى خلال تلك الحقبــة المشــار إليــها . وتجدر الإشارة إلى أنه جرت العادة عند الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بــالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التى هى قواعدها ، رغم ما يسببه ذلك مــن أخطاء واضحة لأن الكورة فى الأندلس – كما سنرى – كانت تضم أكثر من مدينــة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة .

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية .

١ – الموقع الجغرافى للكورة والمدينة والأسماء التى سميت بها :

تعتبر كورة أستجة فى قول[١] ، أو إستجة فى قول آخر[٢] ، من أشهر كور الأندلس[٣] ، وتقع مدينة أستجة مركز الكورة على مسافة ٣٠ ميلاً جنوب غربى قرطبة[٤] ، وفى منتصف الطريق على وجه التقريب بين قرطبة وإشبيلية ، وتبلغ المسافة ما بين حصن شنت ياله أحد حصون قرطبة إلى أستجة غربًا خمسة عشر ميلاً[٥] ؛ كما أن المسافة بينها وبين مرشانة تصل إلى عشرين ميلاً ، وبينها وبين قرمونة خمسة وأربعين ميلاً[٦] ، وتتصل أحوازها بأحواز كورة رية من ناحيتها الشمالية الغربية[٧] . ومدينة أستجة من بناء الرومان ، أقيمت على الضفة اليسرى لنهر شنيل Genil أحد روافد الوادى الكبير[٨] ، وتطل علىالرصيف الأعظم الذى شيده الرومان بشبه جزيرة أيبريا Via Augusta[٩] ، وهو الطريق الذى عرف عند العرب بالمحجة العظمى ، وتقع المدينة فى وادى شديد الحرارة ، ولذلك أطلق عليها اسم « مقلاة إسبانيا » El Sarten de Espana[١٠] .

ولقد أطلق مؤسسوها الرومان عليها اسم أستجى Astigi[١١] . وأغلب الظن أنها أنشئت فى عصر يوليوس قيصر . ويدعم هذا التخريج أنه كان كما يذكر الرازى من البناة العظام الذين تنسب إليهم اعمال معمارية وإنشاءات عمرانية جليلة، فهو الذى أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس ، وزعموا أنه « وجه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها وسماها باسمه وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك »[١٢] ، وهو الذى أمر بإنشاء الرصيف الأعظم الذى كان يخترق موسطة الأندلس إلى جنوبها ، وهو الرصيف الذى كانت أستجة تطل عليه[١٣] ، وأخيرا فإن إحدى الأقضية الأربعة لولاية باطقة Baetica الرومانية فى شبه الجزيرة الأيبيرية – والتى أصبحت مقر أسقفية أستجة القوطية – كانت مستعمرة رومانية تنسب إليه وتسمى Julia Augusta Firma[١٤] ، أى « بصمة يوليوس قيصر » .

وتشير بعض النصوص العربية إلى أن مدينة أستجة قبل الفتـــح الإســلامى كانت بلدًا فى غاية الحصانة والمنعة ، إذ كان يطوقها سور مزدوج ، فـــابن حيـان يذكر أن سورها المحيط بها قد عقد بسورين أحدهما صخر أبيض والثـــانى صخـــر أحمر بأجمل صنعة وأحكم بناء ، وردم وسوى ، ووضع فى مواضع الشرفات مـــن المرمر صور بنى آدم من كل الجهات تواجه القاصد نحوها فلا يشك النـــاظر أنـــها رجال وقوف »[١٥] . وكان ينفتح فى هذا السور عدة أبواب ، احتفظ لنـــا الحمـــيرى بأسماء بعضها فى العصر الإسلامى ، منها باب القنطرة فى الجانب الشرقى المطـــل على نهر شنيل ، وباب أشونة الذى ينفتح فى الركن الجنوبى للسور ، وبـــاب رزق فى الجهة الغربية ، وباب السويقة فى القطاع الشمالى من السور[١٦] ، ولعله ســـمى بذلك لوجود سوق صغير بجواره . ويذكر أحد الدارسين أن من أبواب أستجة أيضـًا باب رضى ، غير أنه لا يعرف من هو هذا الرضى[١٧] . ولعل هذا الباب هو بـــاب رزق الذى ذكره الحميرى . ويبدو أن الرومان والقوط أمهروا أستجة بكثـــير مـــن المنشآت المعمارية ، غير أن أغلبها اندثر وعاثت بها حوادث الأزمان ، فـــالحميرى يذكر « وباستجة آثار كثيرة ورسوم تحت الأرض موجودة »[١٨] . ومع ذلـــك فقد تبقت بعض هذه الآثار حتى العصر الإسلامى مثل سورها المنيع ، وكنائســـها[١٩] ، وأديرتها العديدة[٢٠] ، وقنطرة نهر شنيل[٢١] .

وتجدر الإشـــارة إلى أن عامة الأندلس كانوا ينطقون اسم المدينة تارة أسـّجة (بفتح الهمزة وتشديد السين)[٢٢] . وإســـجة (بكســـر الـــهمزة والســـين) تـــارة أخرى[٢٣]. والصواب كما يذكر ابن هشام اللخمى أستجة (بفتح الـــهمزة وســـكون السين وكسر التاء المثناة بعدها وفتح الجيم)[٢٤] . ويلاحـــظ أن التســـمية العربيـــة الصحيحة لاسم المدينة توافق اسمها القديم الذى أطلقه عليـــها الرومـــان (أســـتجى Astigi) . فى حين أن الرسم الإسبانى الحالى لاسم المدينة Ecija يطـــابق نطـــق العامة فى العصر الإسلامى[٢٥] . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلـــى تـــأثير الألفـــاظ

الأعجمية التى دخلت لغة العامة فى الأندلس عن طريق جيرانهم أصحاب اللغتين القشتالية والبربرية[٢٦] . ومن المرجح أن كلاً الرسمين كان متداولاً على ألسنة الخاصة حتى أواخر العصر الإسلامى فى الأندلس . ويؤيد ذلك أن ابن حيان وابن الخطيب استعملاهما فى كتاباتهما عن المدينة ، فتارة يذكرانها أستجة ، وتارة أخرى يرسمانها أسجة[٢٧] . ومعنى اسم أستجة عند سكان شبه الجزيرة الأيبيرية « جمعت الفوائد »[٢٨] . ولعل مرجع ذلك ثراؤها وتنوع مصادر ثروتها الاقتصادية وكثرة مرافقها[٢٩] ، أو لأنها جمعت فوائد البر والبحر ، فقد كانت واسعة العمران منفسحة البطحاء ، كما أنها كانت تطل على نهر شنيل[٣٠] ، الذى كان صالحًا للملاحة فىقسمه الواقع أسفلها[٣١].

ونستدل من النصوص القليلة الواردة فى المصادر العربية وتتعلق بتاريخها السابق على الفتح الإسلامى ، أن أهلها كانوا يميلون دائمًا إلى إثارة الشغب والإنحراف عن الحكام وشق عصا الطاعة وإعلان العصيان والثورة عليهم . ويبدو أن هذا الاتجاه لم يكن قاصرًا على تاريخها القديم ، بل استمر سمة واضحة فى تاريخها الإسلامى ولذلك وصف الحميرى أهلها بقوله « لم يزل أهلها فى جاهلية وإسلام على انحراف وخروج عن الطاعة »[٣٢] .

٢ – الفتح الإسلامى لأستجة :

تتفق الروايات التاريخية على أن لذريق Rodrigo ملك إسبانيا كان مشغولاً بإخماد ثورة قام بها البشكنس Vascos سكان نبرة فى أقصى شمال البلاد[٣٣] . فى الوقت الذى عبرت فيه قوى المسلمين الزقاق ونزلت فى شعبان ٩٢هـ / يونيو ٧١١م ، بقيادة طارق بن زياد بالساحل الجنوبى لشبه الجزيرة الأيبيرية عند جبل كالبى الذى عرف منذ ذلك الحين بجبل طارق Gibraltar[٣٤] ، وتمكنت من السيطرة على حصن قرطاجنة الذى يقع بسفحه[٣٥] ، والجزيرة الخضراء التى اتخذها طارق بن زياد قاعدة عسكرية لحماية جنده فى حالة الانسحاب[٣٦] . ولما

بلغت لذريق هذه الأخبار ترك نبرة وبادر بالزحف جنوبا إلى قرطبة ، وحشد قوات كثيفة العدد ومعدات هائلة لملاقاة المسلمين ، ودارت بين الجيشين معركة ضارية على وادى لكة Guadalete من كورة شذونة استغرقت ثمانية أيام (٢٨ رمضان – ٥ شوال ٩٢هـ / ٢٦ يوليو ٧١١م) وانتهت بانتصار حاسم للمسلمين ، بعد أن مزقوا شمل جيش القوط ، واختفى لذريق من أرض المعركة ، وفرت جموع كثيرة من قواته ولاذت بمدينة أستجة[٣٧] . عندئذ تقدم طارق واستولى على معسكر لذريق وغنم غنائم كثيرة يصعب تقديرها ، فجمعها وأخرج خمس بيت المال ، ثم قسم الباقى على جنده ، فامتلأت بها أيديهم[٣٨] ، فلما بلغ أهل العدوة المغربية خبر هذا الانتصار وسعة المغانم تدفقت جموعهم إلى الأندلس « وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق »[٣٩] .

تضخم جيش طارق بمن انضم إليه من المجاهدين والمغامرين العرب والبربر من أهل العدوة المغربية ، وتقدم إلى مضيق الجزيرة ، ثم تحرك إلى مدينة أستجة[٤٠] . ولعل طارق استخدم الجادة الرومانية القديمة التى كانت تخرج من قادش وتمر بإشبيلية واستجة ثم قرطبة وهذا يفسر سرعة وصوله إلى أستجة على ظهور الخيل التى غنمها من القوط بعد انتصاره عليهم فى وادى لكة[٤١] . ومما يؤيد هذا التخريج أن اجتياز مضيق الجزيرة كان يشكل فى حد ذاته خطرا كبيرا على قوات المسلمين ، كما أن أستجة كانت تقع على مسافة ١٦٠كم من مخرج هذا المضيق[٤٢] . ويبدو أن السبب السريع وراء تحرك المسلمين السريع نحو أستجة ، أنها أصبحت تؤلف مركز مقاومة القوط الأول بعد هزيمتهم فى وادى لكة ، فقد بلغ طارق بن زياد عن طريق العيون والجواسيس أن عددا عظيما من فلول القوط قد تحصن فيها ، فخشى أن تصبح أستجة مركزا للمقاومة القوطية ويستفحل أمرهم ويحاولون رد قواته مما يعرض جيشه للخطر ويعرقل تقدم مسيرته الظافرة .

التحمت قوات المسلمين مع حشود القوط التى تجمعت فى أستجة ، دارت معركة عنيفة أبلى فيها القوط بلاء حسناً وتفانوا فى قتال المسلمين وصد هجماتهم ، وتمكنوا فى بداية الأمر من تمزيق صفوفهم ، والفتك بأجنادهم ، ويعلق الرازى على شراسة هذا القتال وكثرة ما تكبده المسلمون فيه من خسائر فادحة فى الأرواح بقوله « ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربًا مثلها »[٤٣] ، وربما يرجع السبب فى استبسال القوط فى القتال وعظم مقاومتهم إلى أنهم كانوا يعلمون أن هذه المعركة من المعارك الحاسمة التى يمكن أن يتقرر على نتيجتها مصير شبه الجزيرة كلها ، وهذا ما دفعهم إلى الاستماتة فى المقاومة والصمود ، وحول معركة أستجة إلى موقعة حاسمة فى تاريخ الفتح الإسلامى للأندلس ، وتعذر على المسلمين أن يحرزوا فيها نصرًا سهلاً[٤٤] . ويبدو أن طارق أعاد تنظيم قواته وحمل على أهل أستجة والقوط حملة قوية زحزحتهم عن مواقعهم ، فدارت عليهم الدائرة ، وانسحبوا من ساحة المعركة إلى داخل مدينتهم وتحصنوا بأسوارها المنيعة أملاً فى النجاة من بطش المسلمين ، وتنكيلهم برجالهم ، فأقام طارق على حصارهم مدة[٤٥] .

وكان غرور صاحب مدينة أستجة وسوء تدبيره وعدم حرصه على توفير الحماية الكافية لأمنه وسلامته أثناء حصار المسلمين لمدينته ، وراء إذعان أهلها لطارق ونزولهم على أمره . فقد ورد فى بعض المصادر العربية أن صاحب أستجة خرج بمفرده إلى نهر شنيل لقضاء بعض حاجاته والاغتسال ، واتفق أن طارق بن زياد أتى لنفس الحاجة ، فوثب عليه طارق وكان لا يعرفه ، فصرعه وقاده إلى معسكره أسيرًا ، فبقى أهل أستجة بلا أمير ، حتى صالح طارق أميرهم وأطلق سراحه مقابل تسليم المدينة والدخول فى طاعة المسلمين وأداء الجزية لهم[٤٦] . وربما كانت هذه الرواية إحدى القصص الخيالية التى يعمد بعض المؤرخين إلى دسها بين سطور مصنفاتهم تشويقًا للقارئ ، وما أكثر هذه الروايات الخيالية التى ملأت صفحات تاريخ الفتح الإسلامى للأندلس ، وأعتقد أن أهل أستجة هم الذين

التمسوا الصلح من طارق والاستسلام مقابل الحصول على الأمان لأرواحهم وأموالهم . ولقد دخل المسلمون أستجة صلحاً ، وتم ذلك عن طريق عهد يعتبر أول عهد عقد بين المسلمين والمغلوبين فى إسبانيا .

ويذكر بعض المؤرخين المحدثين أن طارق احتاج لمساعدة يليان فى قتال أهل أستجة ، فلم يتردد الأخير فى ذلك وخف إليه مسرعاً[٤٧] . ويبدو أن الأمر اختلط على هؤلاء ففهموا أن مجئ يليان إلى طارق وهو فى أستجة إنما كان بهدف المساعدة فى فتحها ، بينما كان يليان كما ذكر الرازى فى الجزيرة الخضراء عندما فتح طارق أستجة ، ولم يأت إلى أستجة إلا بعد فتحها[٤٨] . وتجدر الإشارة إلى أن سافدرا يسوق خبرًا غريبًا لا يستند فيه على أى مصدر موثوق به ، فقد ذكر أن تدمير Teodomiro صاحب مدينة تدمير وأحد كبار رجال لذريق دخل فى طاعة المسلمين عند نزولهم إسبانيا دون أن يعتنق الإسلام وتعاون معهم ، وقاد جماعة من المسلمين سارت لفتح أستجة[٤٩] . والأرجح أن تدمير الذى كان ينوب عن لذريق فى حكم البلاد أثناء غيابه فى غزو البشكنس ، شارك معه فى معركة وادى لكة ، ولما وقعت الهزيمة على القوط وفر لذريق من أرض المعركة ، كر تدمير عائدا إلى قاعدته بشرق الأندلس لحمايتها من أى هجوم قد يشنه المسلمون ، وظل بها يرقب الأحداث إلى أن توجه إليه عبد العزيز بن موسى فى عام ٩٥هـ / ٧١٤م ، فسلمه بلده صلحا ودخل فى طاعته[٥٠] .

وهكذا فرق المسلمون بقايا قوات القوط ، واستولوا على مدينة أستجة الحصينة مركز المقاومة القوطية العتيدة ، فهبت رياح النصر على المسلمين وانفتحت أمامهم أبواب إسبانيا ، ويغلب على الظن أن عسكر المسلمين أصابهم الإعياء والإرهاق الشديد بعد هذه المعركة ، لاسيما وأنهم كانوا يواصلون المعارك مع فلول القوط وحامياتهم فى مدن الأندلس ولم ينالوا القدر الكافى للراحة منذ نزولهم أرض إسبانيا . ولعل ذلك كان سببا فى نزول طارق على عين ماء من نهر

شنيل على مسافة أربعة أميال من أستجة طلبا للراحة والاستعداد للخطوة التاليـــة ، فسميت العين عين طارق[٥١] . ولقد التبس الأمر على المستشرق الإسـبانى بـدرو شالميتا فاعتقد خطأ أن طارق بن زياد نزل فى هذا المكان قبـل الاسـتيلاء علـى أستجة ، وظل به شهرا أو أكثر حتى ظفر بصاحبها وأسره[٥٢] .

ولعل نزول المسلمين عند عين طارق بأستجة طلبا للراحة أوعز إلى القــوط أنهم باقون فى بلادهم بعد أن غنموا كل هذه الغنائم وتعمقوا فــى سـيطرتهم علـى جنوب الأندلس وأنهم لن يمتثلوا طريف بن مالك فى حملته على جزيرة طريـف[٥٣]، وأنهم ينوون مواصلة الزحف للاستيلاء على بقية بلادهم ، « فسـقط فـى أيديـهم وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ، وصعد ذوو القــوة منـهم إلـى دار مملكتـهم طليطلة »[٥٤] . وأدرك يليان أن الظروف أصبحت مهيأة أمام المسلمين للاســتيلاء على معظم قواعد الأندلس التى أخلاها أهلها وفروا عنها إلى المعاقل وإلى طليطلـة، كما يبدو أنه قد شعر بخطورة تجمع رؤساء القوط فى عاصمتهم طليطلة . ولذلــك قدم يليان على طارق من الجزيرة الخضراء حيث كان يقيم منذ فتحها[٥٥] ، وشـجعه على الاستمرار فى الفتح ، ونصحه بأن يوزع كتائب من جيشه فى بعـوث جانبيـة يعاونون أدلاء من رجال يليان لفتح أقاليم الجنــوب والموسـطة ، ويمضـى هـو بالجيـش الرئيسى إلى طليطلة ليفتحها قبل أن يلتف القــوط حـول زعيـم جديـد ويحكمون الدفاع عنها ، فيصعب الأمر على طارق بعد ذلك[٥٦] .

ولا نشك فى أن طارق كان يخطط لفتــح مدينـة قرطبـة قـاعدة جنـوب الأندلس[٥٧] ، إلا أنه امتثل لنصيحة يليان ووضع على الفور خطة القتـال ، فـاتخذ من أستجة قاعدة لانطلاق قواته لفتح بلاد الأندلس ، وتوزيع فـرق مـن عسـاكره منها، فبعث مغيث الرومى إلى قرطبة ، وبعث فرقة أخرى إلـى مالقـة ، وأرسـل فرقة ثالثة إلى إلبيرة ، وسار هو بمعظم قواته من استجة إلى طليطلة – عبر كـورة جيان Jaen – ونجح فى دخولها والاستيلاء عليها[٥٨] . ومما لا شك فيه أن طــارق

ترك حامية كبيرة العدد من جنده فى استجة لحفظها ، نظرا لأهميتها ، وخشية أن ينقلب أهلها ضد الفاتحين الجدد ، أو أن تهاجمها قوة من القوط وتتحصن بها وتتخذها قاعدة لمقاومة المسلمين من جديد ، لاسيما بعد رحيل معظم القوات الإسلامية عنها لفتح بقية أقاليم الأندلس .

٣ - الوضع الإدارى لكورة أستجة :

استكمل موسى بن نصير ومن بعده ابنه عبد العزيز بن موسى فتح بلاد الأندلس[٥٩] .

واهتم ولاة الأندلس بعد موسى بن نصير بتنظيم البلاد إداريا ، فاعتمدوا التقسيم الإدارى القديم الذى كان قائما منذ العصر الرومانى ، مع بعض التعديل الذى استلزمته الظروف السياسية الجديدة وما اضطروا إلى اقتباسه من التنظيمات الإدارية بالمشرق الإسلامى . وكانت أستجة وفقا للتقسيم الإدارى الرومانى الذى عرف بتقسيم قسطنطين فى القسم السادس وقاعدته إشبيلية[٦٠] ، وكان هذا التقسيم يقضى بتجزئة إسبانيا إلى ستة أقسام كل قسم منها يتبعه عدد من المدن التى يتبعها بدورها عدة أقاليم[٦١] . كما كانت أستجة وفق التقسيم الكنسى لإسبانيا زمن القوط مركزا لأسقفية أستجة التابعة لمطرانية باطقة وقاعدتها إشبيلية ، وكان هذا التقسيم الكنسى -هو نفسه التقسيم الإدارى[٦٢] . وظل هذا الوضع قائما حتى الفتح الإسلامى، فأخذ الفاتحون هذا التقسيم وأسبغوا عليه طابعا إداريا ، ثم أدخلوا عليه بعض التعديلات التى اقتضتها ظروف الدولة الجديدة .

ففى أعقاب الفتح اعتبر المسلمون الأندلس كله - كما كان فى النظام القديم - مدنا ذات أحواز تابعة للولايات الكبيرة[٦٣] . ورغم ظهور مصطلح الكورة[٦٤] ، لأول مرة فى الأندلس فى عام ١٢٥هـ/٧٥٢م[٦٥] ، وتقسيم جنوب الأندلس إلى كور مجندة ، واعتراف يوسف الفهرى بهذا الوضع القائم حين تقلد إمارة البلاد فى

عام ١٢٩ - ١٣٨هـ ، فإنه - الفهرى - عندما أعاد تنظيم الأندلس إداريا ، قسم البلاد إلى ولايات كما كانت فى التقسيم الرومانى مع إدخال بعض التعديلات على حدودها ، فأصبحت ولاية الأندلس وهى ولاية باطلقة القديمة تقع بين نهر وادى يانة والبحر المتوسط ، وكانت أستجة من أشهر قواعد هذه الولاية[٦٦] . واستلزمت الأحوال السياسية للدولة الأموية فى الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل بأن يكتفى المسلمون بوحدات إدارية صغيرة بدلا من الأقسام الرومانية الكبيرة ، فقسموا البلاد إلى كور يتبع كل منها عدد من المدن ، وتتبع كل مدينة أقاليمها وقراها وحصونها[٦٧] . وقد عمم نظام الكور على جميع نواحى الأندلس عدا نواحى الثغور، فقد ظلت حتى نهاية الخلافة الأموية مدنا عسكرية ذات أحواز . وساهمت هذه الوحدات الإدارية الصغيرة فى تبسيط السلم الإدارى ، مما ساعد على ضبط الأمن وربط المال[٦٨] .

وفى ظل هذا التقسيم الإدارى الإسلامى أصبحت أستجة كورة عظيمة من كور الأندلس الغربية[٦٩] ، فقد كانت تشتمل على أقاليم وأراضى واسعة[٧٠] ، حددها الحميرى بخمسة أقاليم[٧١] . ولقد طرأ على حدود كورة أستجة بعض التغيير فى العصر الإسلامى . ولعل سبب ذلك يرجع إلى التعديلات الإدارية التى أدخلها بعض الحكام على التقسيم الإدارى لعدد من كور الأندلس ، لاسيما تلك الكور التى كانت تشتمل على مدن عظيمة وأقاليم كبيرة مثل أستجة . فبعض الجغرافيين يذكرون أن إقليم تاكرنا Takurna كان يدخل ضمن حدود كورة أستجة[٧٢] . ويذكر الرازى أن مدينة رندة Ronda كانت تابعة لإقلم تاكرنا من كورة أستجة[٧٣] . وتجدر الإشارة إلى أن مدينة تاكرنا كانت تشتمل على قسمين كبيرين ، الأول منهما يعرف باسم إقليم السهل ، وقد عرف بذلك لقربه من أستجة ، أما القسم الآخر فكان يعرف باسم إقليم الجبل لقربه من جبال تاكرنا[٧٤] . ومن المرجح أن تاكرنا كانت جزءا هاما من كورة أستجة منذ الفتح الإسلامى للأندلس حتى السنوات الأولى من عصر

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣هـ) . وبعد ذلك ، وفى أثناء عصر الأمير محمد نفسه ، فيبدو أنها انفصلت عنها ويؤيد ذلك ما ذكره ابن حيان عن عدد الفرسان المستنفرين من كور الأندلس المختلفة لغزو جليقية فى عام ٢٥١هـ/٩٧٦م، فقد ساهمت أستجة بألف ومائتى فارس ، فى حين استنفر من تاكرنا مائتين وتسعة وتسعين فارسا(٧٥) ، ولو أن تاكرنا كانت تابعة لأستجة حينئذ لما ذكرها ابن حيان كوحدة إدارية منفصلة تساهم بهذا العدد من الفرسان . ويقدم ابن حيان دليلا جوهريا على صحة ما ذهبنا إليه من أن تاكرنا انفصلت إداريا عن أستجة وأصبحت كورة مستقلة قائمة بذاتها منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، فكلما تعرض للحديث عنها فى السفر الخاص بعصر عبد الرحمن بن محمد – الناصر – من كتابه المقتبس يصفها بالكورة ، كذلك كان يميز حاكم كورة أستجة عن حاكم كورة تاكرنا ، وذلك فى سجل الولايات والعزل الذى كان يذيل به تأريخه لكل عام من سنى حكم الناصر(٧٦) . وأضيف إلى ما سبق أن ذكرته أن الحميرى يذكر أن مدينة تاكرنا كانت تنسب إليها الكورة – كورة تاكرنا – وذلك بعد أن كان قد ذكر أن إقليم تاكرنا كان مضافا إلى أستجة ، فلا يعقل أن يقصد كورة أستجة بالطبع(٧٧) . وتجدر الإشارة إلى أن عبد الرحمن بن محمد أنشأ حصنا يعرف بالمدينة بالقرب من لماية ، ليضيق به على المنتزين فى قلعة ببشتر ، وأصبحت لماية والحصن الجديد تابعين لكورة تاكرنا(٧٨) .

وكان حصن أشونة Osuna أحد أقاليم كورة أستجة ، وكان حصنا عظيما عامرا بالسكان ، وكان يقع على مقربة من أستجة من جهة الجنوب(٧٩) . ولا يبعد عنها إلا بنحو ١٤ ميلا(٨٠) ، وتبلغ المسافة من أشونة إلى مدينة بلشانة عشرين ميلا(٨١) ، غير أن تبعية أشونة لكورة أستجة كانت تتغير من وقت إلى آخر ، ويبدو أنها انفصلت عنها منذ بداية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى وأصبحت كورة قائمة بذاتها شأنها شأن تاكرنا وبالذات منذ عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م ، عندما

خرج الأمير عبد الرحمن بن محمد من قرطبة ليتفقد أحوال البلاد ويستطلع أمر رعاياه القائمين على الطاعة . فقصد تاكرنا و « وصل نظره فيها بالنظر فى كورة أشونة وما يليها»[٨٢]، ويؤكد ابن حيان استقلال أشونة إداريا عن أستجة وذلك عندما ذكر اسم واليها منفصلا عن اسم والى كورة أستجة[٨٣] . ولقد أضيف إلى أشونة بعض المدن والحصون بعد أن أصبحت كورة مستقلة بذاتها ، فالإدريسى يصف إقليم أشونة بعد حديثه عن أستجة بقوله « وفيه حصون عامرة كالمدن منها لورة وأشونة . وهو إقليم صغير »[٨٤] كذلك يشير الحجارى إلى أن أشونة كانت كورة قائمة بذاتها[٨٥] .

ويتضح من إحدى روايات ابن بشكوال أن كل من أستجة وتاكرنا وأشونة كانت وحدات إدارية قائمة بذاتها ، فيذكر أن المنصور محمد بن أبى عامر قلد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن المشاط قضاء عدة كور مثل أستجة ، وأشونة ، وتاكرنا وقرمونة ، ومورور ، جمعهن له ، ثم صرفه عنهن بعد ذلك[٨٦] .

ومن أقاليم كورة استجة أيضا وفقا لما ذكره ابن الفرضى إقليم أشبرة Espera ، وكان هذا الإقليم يضم عدة قرى من بينها قرية تعرف باسم بلاط أبى العجنس . ولعلها عرفت بذلك نسبة إلى أبى العجنس الزاهد الأستجى لأنها كانت موطنه[٨٧] .

وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخ الإسبانى المستشرق دون خواكين بالبيه يرى أننا لا نستطيع أن نخلط بين إقليم أشبرة الذى ذكره ابن الفرضى ، وحصن أشبرة الذى يقع على مقربة من حصن أركش Arcos de la Frontera ، لأنه – أشبرة – سيصبح فى هذه الحالة تابعا لكورة شذونة التى تتبعها أركش بالفعل[٨٨] . وواضح أن الأمر التبس على المستشرق الإسبانى الكبير ، فالنص الذى اعتمد عليه وهو لابن حيان لا يؤدى إلى هذا التخريج ، فلقد فهم دون خواكين بالبيه أن حصن أشبرة يقع بالقرب من أركش التابعة لكورة شذونة ، بينما يذكر ابن حيان فى سياق حديثه

عن غزوة الأمير عبد الرحمن بن محمد بالصائفة فى عام ٣٠١هـ/٩١٣م التى تجول فيها على كور الموسطة والجنوب الخارجة على طاعته ، أن الأمير عبد الرحمن بعد أن نازل حصن أركش ودخل حصن شلبر أكمل « النظر فى شد كورة شذونة » ، وبعد ذلك بنى حصن أشبرة ليضيق به على حصن أقوط ، القريب من ببشتر قاعدة الثائر عمر بن حفصون وابنه سليمان من بعده(٨٩) . ولما كانت أستجة تمثل الحصن الشمالى الغربى لببشتر قبل افتتاحها ، ففى تصورى أن الأمير عبد الرحمن بن محمد جعل هذا الحصن الذى شيده حديثا تابعا لكورة أستجة . وهذا يوافق ما ذكره ابن الفرضى الأستجي . كذلك أمدنا ياقوت الحموى بنص على جانب كبير من الأهمية يؤيد رواية ابن الفرضى ذكر فيه أن أشبورة - بضم الهمزة وسكون الشين - ناحية بالأندلس من أعمال أستجة(٩٠) .

ومن الجدير بالذكر أن نص ابن حيان المشار إليه سابقا ، يتضمن ما يشير إلى أن الأمير عبد الرحمن بن محمد عندما شيد حصن أشبرة على حصن أقوط ، قلد جميل بن عقبة البلوى واليا عليه ، و« صير معه فيه عدة كثيفة من الفرسان والبربر الطنجيين والرجالة الملحقين والعدة التامة من الأطعمة والأسلحة »(٩١) .

وغم أن ابن الفرضى قد أمدنا برواية قيمة تتعلق بطبوغرافية كورة أستجة ، إلا أنه عاد وأوقعنا فى حيرة من أمرنا عندما ذكر أن أحد أهالى أستجة « توفى بضيعته بأستجة من إقليم طليطلة ودفن بها » ، وكانت وفاته فى عام ٣٥٤هـ(٩٢)، وسبب حيرتنا أننا لا نعلم فيما ورد فى كتب الجغرافية الأندلسية موضعا باسم طليطلة غير مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط التى تبعد عن أستجة بمسافة بعيدة . ولعل هذه الحيرة هى التى دفعت خواكين باليه إلى وضع علامة استفهام بعد إشارته لرواية ابن الفرضى السابقة دون تعليق(٩٣) . كما أن اسم مدينة طلياطة وهى أقرب فى حروفها إلى اسم طليطلة الذى ذكره ابن الفرضى تبعد بمسافة كبيرة عن استجة ، كما أنها تتبع كورة إشبيلية(٩٤) .

ومع ذلك فإننى أميل إلى الأخذ برواية ابن الفرضى عن وجود ناحيـــة باســم طليطلة ضمن حدود كورة أستجة ، يدفعنى إلى ذلك عدة اعتبارات :

١ – جرت العادة فى الأندلس على إطلاق اسم أحد الأعلام الجغرافية علـــى عـدة مواضع فى أماكن مختلفة والأمثلة على ذلك كثيرة[٩٥] .

٢ – أن ابن الفرضى كان يتمتع بملكة الكتابة فى الجغرافية ووصف البلدان ، فقــد كان يزمع – كما ذكر فى مقدمة كتابه – تأليف معجم للتراجم على البلدان[٩٦] . فلا يعقل والأمر كذلك ألا يميز بين طليطلة وبين أقاليم كورة أستجة .

٣ – أن ابن الفرضى كان من أهالى أستجة ، كما كان قاضيا لها فى دولة الخليفـــة محمد المهدى الأولى عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[٩٧] ، كما كان معاصرا لصـــاحب الترجمة الذى توفى فى إقليم طليطلة عام ٣٥٤هـ .

ومن نواحى أستجة أيضًا بلاط أبى عطاء الذى كان ينسب إلى أبـــى عطـــاء الأستجى زعيم القبائل العربية القيسية بها[٩٨] . وكذلك كانت قرية مقريانة من قـــرى أستجة المشهورة[٩٩] . ولقد كانت بعض أقاليم أستجة التى تحدثنـــا عنـــها متصلـــة بأعمال قرطبة[١٠٠] . وربما كان قرب كورة أستجة من قرطبة ، واتصال أقاليمـــهما فيما بينهما ، سببًا وراء اعتقاد بعض الجغرافيين بأن كورة أستجة نفسها كانت مـــن أعمال قرطبة ، فالحجارى يذكر أن مملكة قرطبة كانت تضم أحد عشرة كورة مـــن بينها كورة أستجة[١٠١] .

وتعددت عناصر السكان فى أستجة فى العصر الإسلامى ، فقد استقرت فيـــها أغلب العناصر السكانية والأجناس التى شكلت خريطة الأندلس البشرية من عـــرب وبربر ومولدين وموالى ومستعربين . وكانت الأزد ، والأنصار ، وخولان ، وبنـــى مراد والكنديين من أهم القبائل اليمينة العربية التى استقرت فى أستجة[١٠٢] ، ومـــن أشهر القبائل العربية القيسية التى استوطنت أستجة نصر ، وباهلة ، وبنـــى مـــرة ،

وسليم ، وتميم ، وبعض بنى أمية[١٠٣] . وقد نزل هؤلاء العرب فى أخصب مناطق كورة أستجة وأطيبها خاصة الفحوص الخضراء لوادى شنيل . أما البربر فقد استوطنوا أستجة ونزل بعضهم كقبيلة هوارة بجوار العرب فى المناطق الخصبة[١٠٤] ، ونزل بنو عبد الوهاب الصنهاجيين وقبيلة مصمودة بأشونة[١٠٥] ، كما استقر عدد كبير من البربر فى مرتفعات تاكرنا مثل بنى الخليع من قبيلة مديونة[١٠٦] . وكانت أستجة مركزا رئيسيا للمولدين ، وكان معظمهم يسكن فى بوادى أستجة مختلطين مع بقية عناصر السكان بها كما يذكر ابن الفرضى[١٠٧] . وكان يسكن أستجة جماعات كبيرة من المستعربين الذين آمنهم المسلمون على دينهم وأموالهم وأبقوا لهم كنائسهم وأديرتهم .

٤ - التاريخ السياسى لأستجة :

(أ) عصر الولاة (٩٥ - ١٣٨هـ/٧١٤ - ٧٥٦م) :

لعبت القبائل العربية والبربرية التى استقرت فى كورة أستجة دورا هاما ومؤثرا فى تاريخ الأندلس خلال عصر الولاة ، فقد شاركت فى حدثين هامين وحاسمين من أحداث هذا العصر وأعنى بهما الصراع على الزعامة السياسية بين العرب القيسية واليمنية فى الأندلس ، والمساهمة فى مساندة الأمير عبد الرحمن بن معاوية فى صراعه ضد يوسف الفهرى والى الأندلس حتى ظفره بالإمارة فى عام ١٣٨هـ/٧٥٦م ، والجدير بالملاحظة أن دور عرب وبربر أستجة فى هذين الحدثين كان قاصرا على المشاركة الفعالة فى الحرب بالعتاد والجند فحسب ، علما بأن معظم المعارك التى خاضتها القيسية ، وعبد الرحمن الداخل لم تمس كورة أستجة .

قلد حنظلة بن صفوان صاحب أفريقية أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ولاية الأندلس فى عام ١٢٥هـ/٧٤٣م[١٠٨] ، لكى يضع حدا للفتنة المحتدمة بين

أهل الأندلس البلديين وعرب الشام الطارئين ، وفى أول عهده توسم فيه أهل الأندلس خيرا ، فقد أمر بإطلاق سراح أسرى العرب البلديين والبربر الذين قدمهم ثعلبة بن سلامة العاملى الوالى قبله إلى مصارة قرطبة ليبيعهم كعبيد فى سوق النخاسة ، فأطلقوا على جنده الذين اصطحبهم معه من أفريقية عسكر العافية[١٠٩] . واجتمع على أبى الخطار أهل الشام والعرب البلديين ، ودانت له الأندلس بالطاعة بعد أن وحد كلمة المسلمين بعد الفرقة ، واجتث جذور الفتنة بما اتخذه من إجراءات حاسمة، فاستقامت حال الناس فى البلاد واطمأنوا إلى معاشهم[١١٠] . غير أن أبا الخطار لم يلبث أن انحرف عن طريق الإصلاح عندما تعصب لقومه اليمنية ومال إليهم واعتزل القيسية ، وأساء إلى الصميل بن حاتم الكلابى زعيم القيسية[١١١] ، إساءة بالغة ، ولعل الخصومة القائمة بين الرجلين ترجع إلى النفرة القديمة بين القيسية واليمنية ، بالإضافة إلى ما ذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن الصميل كان يفوق الأمير بالنجدة والسخاء ، فاغتم أبو الخطار به وأراد كسره[١١٢] . وانتهز فرصة قدوم الصميل إليه يشكوه غبنا لحق بأحد القيسية كان أبو الخطار قد جار عليه فى حكم له ، فتعمد أبو الخطار إهانته وأمر رجاله بسبه ولكزه ، فخرج من القصر غاضبا دون أن يقيم عمامته واتجه رأسا إلى داره بعدوة النهر قبلى قرطبة ، وقد قر عزمه على إثارة قومه على اليمنية ، فدعا خيار قومه ، وشكا إليهم ما لقيه عند أبى الخطار ، وبحث معهم السبيل التى يستطيعون بها أن يغسلوا هذه الإهانة ويدركوا ثأرهم من اليمنية[١١٣] .

ويتضح من الروايات أن سلطان الصميل على قومه بلغ مبلغا عظيما ، وكانوا يطيعونه فى كل ما يأمرهم به ، فقد أجابوه إلى دعوته للثأر من اليمنية والعمل على عزل أبى الخطار من ولاية الأندلس ، وقالوا له « نحن تبع لك »[١١٤]. ولقد أحكم الصميل التدبير لتنفيذ مخططه ، فلم يمانع فى أن يتعامل مع منافسيه من القبائل القيسية الأخرى فى سبيل تحقيق أهدافه ، فذهب إلى استجة يسترضى أبا

العطاء القيسى زعيم قبيلة غطفان بها ويسأله النصـــرة . ولعلـه أدرك أهميـة أن يتعاون مع أبى العطاء الأستجى ؛ فقد كان يناظره فى الرياسة ويحسده على زعامـة القيسية بعد رحيل كبار ساداتهم عن الأندلس ، بالإضافة إلى عظم مكانته بين قومـه فى أستجة تلك المكانة التى تجعلهم يأتمرون بأمره ويرجحون كفة الحـــزب الـذى يناصرونه . فأراد الصميل ألا يوسع هوة الخلاف بينهما بتجاوزه له وعدم التعـاون معه كما أشار عليه بعض أصحابه ، خوفا من أن ينقلب قيسية أسـتجة ويشـعلونها حربا عليه ويعضدون جانب أبى الخطار ويفسدون تدبير الصميل ، ولقد عبر أحـد أنصار الصميل عن هذا الرأى بقوله « الرأى أنك تأتى أبا عطاء وتشد أمـرك بـه فإنه تحركه الحمية وينصرك ، وإن تركته مال إلى أبى الخطار وأعانه عليك ليبلـغ فيك ما يريد »(١١٥) .

عاهد أبو العطاء الأستجى الصميل على قتـال أبـى الخطـار وأمـر أهلـه وأصحابه فى أستجة بنصرته ، وسار الصميل مـع جنـد أسـتجة نحـو مـورور للاستعانة ببعض القبائل اليمنية المناوئة لأبى الخطار ، فتحالفوا مع ثوابة بن سـلامة الجذامى من جند فلسطين على حربه على أن يكون له أمر الأندلس ، فوافقهم علـى ذلك لإنحرافه عن أبى الخطار لعزله إياه عن إشبيلية ، وأجابتهم كذلك قبـائل لخـم وجذام فى شذونة وإشبيلية ولبلة وباجة ، وهكذا « تساربت المضريـــة إلـى أبـى العطاء والصميل فاستغلظ أمرهم »(١١٦) . ولما علم أبـــو الخطـار بذلـك خـرج لمحاربتهم ، والتقى الجمعان بالقرب من وادى لكة ، فهزمهم ثوابة وأسـره وقتـل أكثر عسكره ، ثم دخل ثوابة قصر الإمارة بقرطبة وأبو الخطار معه يرسـف فـى قيوده ، وتولى إمارة الأندلس بتدبير الصميل فى عام ١٢٧هـ/٧٤٥م(١١٧) . وبعـد أن استتب الأمر لثوابة فى قرطبة انصرف عنه سادات العرب إلى منازلـهم عـدا الصميل الذى علت منزلته فى السيادة بقرطبة ، وأصبح الأمر كله له ، وانصـرف أبو العطاء القيسى مع قواته من قرطبة عائدين إلى موطنهم أسـتجة(١١٨) . وهكـذا

ساهم عرب أستجة مساهمة فعالة فى حسم الصراع لصالح حزب الصميل ، لتعلو بذلك كلمة القيسية فى الأندلس ويكون لهم السلطان الفعلى فى البلاد .

ومن المرجح أن الصميل ظل على علاقته الطيبة بقيسية أستجة خلال عصرى ثوابة بن سلامة العاملى ويوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى تولى الأندلس بعده فى ربيع الآخر ١٢٩هـ/٧٤٧م[١١٩] . ويؤيد هذا التخريج مشاركتهم هم وغيرهم من القيسية تحت قيادته ويوسف الفهرى فى معركة شقندة فى عام ١٣٠هـ/٧٤٨م ، عند تجدد الصراع بين القيسية واليمنية بسبب تطلع أبى الخطار - الذى فر من أسر ثوابة بن سلامة - إلى السلطان من جديد ، وفى هذه المعركة التى لم « يك بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جلادا ولا أصبر رجالا »[١٢٠] ، انهزمت اليمنية ، وقتل منهم خلق كثير ، وهرب أبو الخطار ثم قتل حين ظفر به[١٢١] ، كما أسرت القيسية عددا كبيرا من اليمنية فأمر الصميل بقتل سبعين رجلا منهم ، وتشفع أبو العطاء الأستجى لبقيتهم ، فأمر الصميل بعد أن هدده أبو العطاء بالانقلاب عليه « برفع السيف وأمن الناس على يدى أبى عطاء بعد بلاء طويل »[١٢٢] . وهكذا يتضح أنه رغم مشاركة أستجة فى هذا الصراع المحتدم بين العصبيتين اليمنية والقيسية ، ورغم تعصبهم لقيسيتهم ، إلا أن زعيمهم أبا العطاء رفض أسلوب التشفى والوحشية الذى مارسه الصميل بإقدامه على قتل الأسرى ، وساهم أبو العطاء فى حقن دماء إخوانه فى العروبة ، فقد كان يخاف من هذه الفتنة العظمى على بوار الإسلام فى الأندلس[١٢٣] . كما يتبين عظم مكانة أبى العطاء بين القبائل القيسية فى الأندلس ، وخشية الصميل من سطوته هو وعرب أستجة ، رغم أنه كان يعتبر الحاكم الفعلى للأندلس والمحرك الرئيسى لأحداثها .

وتجدر الإشارة إلى أن عرب أستجة لم يشاركوا فى بقية أحداث عصر الولاة خاصة مساندة الصميل زعيم القيسية الذى حاصره اليمنية فى سرقسطة رغم استنجاده بهم ، بسبب وفاة أبى عطاء القيسى ، وعدم وجود زعيم كفء يخلفه فى

رئاستهم ، ويعلق المؤرخ المجهول على ذلك بقوله « وكانت غطفان تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، ولم يكن لهم رأس يجمعهم كان قد هلك رأسهم أبو عطاء »[١٢٤] .

وينفرد ابن القوطية بخبر يشير إلى تعضيد بربر كورة أستجة لعبد الرحمن ابن معاوية عند عبوره إلى الأندلس فى ربيع الأول عام ١٣٨هـ/٧٥٦م ، فيذكر أنه عندما وصل إلى بنى الخليع نبأ دخوله الأندلس ووصوله إلى كورة رية ، خرجوا إليه فى قوة من أربعمائة فارس ليكونوا فى طليعة قواته فاشتد بهم ساعده[١٢٥] . ولعل ولاء بنى الخليع للخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ/٧٢٠ - ٧٢٤م) كان وراء إسراعهم بمساندة الأمير الأموى الذى كان يسعى لإحياء دولة بنى أمية فى الأندلس . كما يبدو أن مساندة بربر تاكرنا وغيرهم من القبائل البربرية الموالية لبنى أمية كانت عاملا هاما فى انتصاره على الفهرى وظفره بولاية الأندلس[١٢٦] .

(ب) عصر الإمارة الأموية :

واجه الأمير عبد الرحمن بن معاوية كثيرا من الثورات الداخلية والأخطار الخارجية التى كانت تتهدد دولته الناشئة ، ويتمثل ذلك فى بعض الثورات التى قام بها البربر والعرب القيسية واليمنية على السواء . وكانت أستجة من بين المناطق التى خرجت عليه عند قيام حيوة بن ملامس الحضرمى الإشبيلى بالثورة فى عام ١٤٤هـ/٧٦١م ، بسبب الهزيمة القاسية التى أنزلها الأمير عبد الرحمن الداخل بالثائر عبد الغفار اليحصبى زعيم اليمنية بغرب الأندلس ومقتل ثلاثين ألفا من الثوار[١٢٧] . ثار حيوة بن ملامس وخلع طاعة الأمير عبد الرحمن الداخل رغم الصداقة التى كانت بينهما[١٢٨] وتغلب على إشبيلية وأستجة وكثيرا من نواحى غرب الأندلس ، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره[١٢٩] .

ومن المرجح أن حيوة بن ملامس استولى على أستجة أملا فى أن يتقوى بمن فيها من عرب يحصب ليساندوه على الثأر لهزيمة زعيمهم القاسية ومقتل إخوانهم

اليمنية . ومن الأسباب التى دفعته إلى الاستيلاء عليها أيضًا - فى تصورى - موقعها الاستراتيجى المتميز على مقربة من قرطبة وحصانة أسوارها التى تيسر لمن يتحكم فيها مغاورة قرطبة ومهاجمتها والاستيلاء عليها والقضاء على عبد الرحمن الداخل . وأيا ما كان الأمر فقد توجه عبد الرحمن لمقابلة حشود حيوة بن ملامس ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة دامت بضعة أيام ، استماتت حيوة ورجاله خلالها فى القتال وتصدوا بضراوة شديدة لهجمات قوات عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن واصل هجماته بعنف حتى تحقق له النصر فى القتال وانهزم حيوة وأصحابه ، ففر إلى ناحية فريش الواقعة شمالى قرطبة(١٣٠) ، وأرسل إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان ، فأمنه(١٣١) .

وفى عام ١٧٨هـ/٧٩٤م ، اندلعت فتنة خطيرة فى تاكرنا عندما أعلن سكانها البربر الثورة على الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (١٧٣-١٨٠هـ) ونبذوا الطاعة ، ثم هاجموا الإقليم واستباحوه وعاثوا فيه فساداً وقطعوا الطريق وهددوا أمن المنطقة وقتلوا وسبوا عدداً كبيرًا من أهلها(١٣٢) ، فأراد الأمير هشام الرضا أن يقضى على هذه الفتنة دون أن يستخدم القوة لردع هؤلاء المتمردين ، فابن عذارى يذكر أنه أعذر إليهم ، فأبوا الانصياع إليه(١٣٣) ، ولعل مناعة حصونهم ووعورة مسالكها كانت وراء تماديهم فى التمرد ، وإصرارهم على الثورة. ومن المرجح أن الأمير هشام ساءه أن يمعن هؤلاء الثوار فى عنادهم وتمردهم ، ولم يسعه إلا كبح جماحهم وإخماد ثورتهم والحيلولة دون معاودتهم الثورة مرة أخرى فى هذه المنطقة وتطهيرها منهم بتغريبهم عنها . فالرواية تذكر أنه سير جيشا كثيفا بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فهاجم الثوار وأخمد ثورتهم دون رأفة وأباد جموعهم قتلا وأسرا ، وخرب نواحيهم وضياعهم ، ولاذت فلولهم الباقية بمدينتى طلبيرة(١٣٤) ، وترجيلة(١٣٥) ، فدخلوا فى غمار قبائلها البربرية وبقيت تاكرنا خرابا طوال سبع سنوات(١٣٦) .

وفى عام ١٨٣هـ/٧٩٩م ، كانت أستجة مسرحا لفصل جديد من فصول الصراع بين الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وعمه سليمان بن عبد الرحمن الداخل الذى لم ييأس رغم هزائمة المتكررة من محاولة دخول قرطبة والسيطرة على الحكم . فبعد عبوره من العدوة المغربية فى عام ١٨٢هـ/٧٩٨م ، زحف إلى قرطبة فى حشود هائلة من البربر فى شوال من نفس العام ، فتصدى له الأمير الحكم على مقربة منها فى موضع يسمى فنجيط وأنزل به هزيمة نكراء ، ولى سليمان على إثرها الأدبار ، وتتبع الحكم فلول قواته فاعتصم بالأوعار والجبال ومع ذلك لم تفت هذا الهزيمة فى عضده ، فقد أعاد تنظيم قواته البربرية وزحف بها إلى أستجة فى صفر ١٨٣هـ ، فسار إليه الحكم والتقى الفريقان بالقرب من أستجة ، ودارت بينهما معارك ضارية استمرت عدة أيام ، وانتهت بهزيمة سليمان للمرة الثانية وفر مع أصحابه إلى ماردة Merida يستعد فيها لكرة أخرى(١٣٧) .

وفى اعتقادى أن سليمان بن عبد الرحمن خرج إلى أستجة لحصانتها ولإعجابه الشديد بموقعها الفريد بالقرب من قرطبة . ويبدو أنه كان ينوى اتخاذها قاعدة ينطلق منها نحو الحاضرة . غير أن الأمير الحكم بن هشام لم يمهله كثيرا حتى يستولى عليها ويشتد بها أمره وباغته بهجوم ساحق انتهى بهزيمة مخزية ألحقها بقوته .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) عادت تاكرنا إلى الثورة من جديد ، ولعل قبضة الأمير الحكم الربضى القوية على البلاد وسرعة مباغتته الثوار فى عقر دارهم ، جعلت أهالى تاكرنا التى عمروها بعد سنوات من تخريبها على أيدى قوات هشام الرضا ، يلوذون بالطاعة . ومن المرجح أن انشغال الأمير عبد الرحمن الأوسط عند توليه الإمارة فى قمع الثورات المحلية الخطيرة التى اندلعت فى بداية عهده ، ومواجهة غارات النصارى فى

الشمال ، بالإضافة إلى طبيعة هؤلاء البربر الثائرة التى جعلتهم يجنحون دائما إلى الثورة والخروج عن الطاعة محتمين بمعاقلهم الحصينة ، كل هذه الأسباب دفعت أحد زعماء البربر ويدعى طوريل إلى الثورة على الأمير عبد الرحمن الأوسط فى عام ٢١١هـ/٨٢٦م ، فوجه إليه الأمير قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم على رأس جيش كثيف ، فظفر به وأخمد ثورته[١٣٨] . غير أن بربر تاكرنا ما لبثوا أن عاودوا الثورة على الحكومة المركزية فى أواخر عهد عبد الرحمن الأوسط (فى عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م) فجرد إليهم جيشا ضخما قاتلهم وألحق بهم الهزيمة[١٣٩] .

وتجدر الإشارة إلى أن أستجة تعرضت لإحدى الكوارث الطبيعية فى يناير عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م وتتمثل فى سيلين خطيرين اجتاحا مجرى نهر الوادى الكبير ورافده وادى شنيل اعتبرا من أمهات السيول التى تعرضت لها البلاد ، فطغى النهر مدة ، وخرب حنيتين من حنايا قنطرة أستجة ، ودمر السدود وأبطل عددا من أرحائها المقامة عليه[١٤٠] . ومن المرجح أن الأمير عبد الرحمن الأوسط اهتم بترميم هذه القنطرة ، فقد نشطت فى عهده فنون البناء والتعمير ، وإليه ينسب تأسيس مدينة مرسية وتوسيع جامع قرطبة والمسجد الجامع بإشبيلية ، واهتم بإقامة الجسور والقناطر[١٤١] .

ويبدو أن أستجة نعمت بالهدوء والاستقرار فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، فلم يرد فى المصادر ما يشير إلى اندلاع فتن أو قيام ثورات فيه مما يؤكد تمسك أهلها بطاعة الأمير الجديد . ويؤيد هذا التخريج أنها ساهمت مثل غيرها من كور الموسطة بألف ومائتى فارس وهو عدد لا بأس به من الأجناد والمطوعة الذين استنفرهم الأمير للصائفة التى جردها بقيادة ابنه عبد الرحمن والوليد بن عبد الرحمن الوزير صاحب المدينة إلى جليقية فى عام ٢٥١هـ/٨٦٥م[١٤٢] . ولقد أولاها الأمير محمد اهتمامه ، فأصلح مسجدها الجامع ، واهتم بأمر القضاء فيها[١٤٣] .

(جـ) أستجة إبان ثورة عمر بن حفصون :

يذكر الرازى أن السياسة التعسفية التى انتهجها ولاة الأمير محمد بن عبد الرحمن مع أهالى كور الموسطة والجنوب – رية والجزيرة وتاكرنا – أدت إلى ظهور الخلاف فيها ، فاستهان أهلها بالأمير واجترأوا على رجاله وسارعوا إلى معصيته ، فكانت ثورتهم هذه مقدمة لثورة عمر بن حفصون(١٤٤) ، التى اندلعت فى قلعة ببشتر بكورة رية فى عام ٢٦٧هـ/٨٨٠م(١٤٥) ، وطال أمدها بحيث « طمت على جميع فتن الأندلس بعمومها وامتداد أيامها ، ورفع أهل الشر رؤوسهم نحوها»(١٤٦). ولقد تأثرت استجة بشدة بثورة عمر بن حفصون ، فقد تأرجحت خلالها بين الثورة على حكومة قرطبة والإذعان والطاعة لها ، فكلما استولى عليها عمر بن حفصون سارع الأمير عبد الله بن محمد باستردادها نظرًا لخطورة موقعها وأهميته الاستراتيجية . فقد كان ابن حفصون يتخذها قاعدة عسكرية وحصنًا أماميًا ينطلق منه للإغارة على قرطبة ، وظلت هكذا حتى فتحها الأمير عبد الرحمن بن محمد وهدم أسوارها وأعادها إلى حظيرة الحكومة المركزية .

وفى أعقاب وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣هـ/٨٨٦م) تمكن الثائر عمر بن حفصون فى عهد خلفه الأمير المنذر (٢٧٣-٢٧٥هـ) من توسيع نفوذه بالاستيلاء على الحصون المجاورة فى كورتى رية والجزيرة وتاكرنا ، كما دخلت فى طاعته عدة حصون بدون قتال ، فقد افتتن أهلها من المولدين والمستعربين بدعواه إلى الأخذ بثأرهم وتحريرهم من عبودية العرب(١٤٧) . « فكان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره ، فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه»(١٤٨) . وبعد أن تظاهر بالطاعة للأميرعبد الله عدة شهور ، عاد ونكث عهده فى عام ٢٧٥هـ/٨٨٨م ، وأغار على كورة رية والكور المجاورة لها ، وأضرم البلاد سعيرًا وقطع السبيل ، وأخرج قائده حفص بن المرة وكان شديد المراس والتمرد فى خيل كثيفة للإغارة على أستجة وأشونة ، كما شملت غارته هذه نواحى

قرطبة حتى هم أهلها بالجلاء عنها ، وضجوا إلى الأمير مما أصابهم من جـــوره ، فأخرج الأمير عبد الله قائده عبد الملك بن مسلمة الباجى فى جيش كثيف ، فـــالتقى مع قوات ابن حفصون فى موضع من كورة أستجة بين حيزهـــا وحـــيز أشـــونة ، فدارت الدائرة على القوات الحكومية ، وقتل قائدها(١٤٩) .

ولقد ترتب على معركة أستجة تعاظم قوة ابن حفصون ، واستفحال وخطـــورة دعوته ، كما أسفر انتصاره على القوات الحكومية عن إعلان هدفه الحقيقـــى وهـــو منابذة الأمير والسعى لهدم سلطانه . ومن نتائج هذا الانتصار أيضًا تطلـــع نفـــوس الناس إلى الفتنة وتفاقم العلاقات بين العرب من جهة والمولدين والمســـتعربين مـــن جهة ثانية ، فظهرت بينهم النعرات والسخائم العصبية فى كل جهة من جهات الـــبلاد وتسافكوا الدماء ودانوا بالاستباحة ، وتحزبت المسالمة مع المولدين والمســـتعربين « فصار جميعهم إلبا على العرب قائمين بدعوة عمر بـــن حفصـــون »(١٥٠) . التـــى أصحبت دعوة صارخة للشعوبية .

ولقد اكتوت أستجة بنيران هذه الفتنة ، فقد استنتجنا من بعض النصـــوص أن المولدين ثاروا على العرب فى أستجة ووقع بينهم قتال شديد ، انتهى بهزيمة العـــرب وقتل منهم عدد كبير . كما اتضح لنا أن هذه الفتنة دفعت بعض عرب أستجة إلـــى الفرار منها أمام عداء المولدين الشديد لهم . فابن الفرضى يذكـــر أن جـــده نصـــر الأزدى قتل فى الفتنة التى كانت بين المولدين والعرب بأستجة ، مما دفع أسرته إلى الرحيل عنها والانتقال إلى موضع آخر(١٥١) ، كما خرج تميم بن علاء بن عـــاصم التميمى (توفى قبل عام ٣٠٠هـــ) من أستجة زمن الفتنة ، ونزل بقرية بريشة مـــن قرى شذونة(١٥٢) . ولعل النكبات التى حلت بكثير من أفاضل العرب وخيارهم إمـــا بالقتل أو التشريد فى هذه الفتنة ، هو ما دفع البعض إلى أن يطلق قولا صار مثـــلا شعبيا يصور أوضاع العرب فى أستجة ، فقالوا : « أستجة البغى مذكـــورة باللعنـــة والخزى ، يذهب خيارها ويبقى شرارها »(١٥٣) .

وفى عام ٢٧٦هـ/٨٨٩م استعاد الأمير عبد الله بن محمد عدة حصون من كورة رية كانت تدين بالطاعة لعمر بن حفصون ، وشحنها بالمقاتلة ، ثم غزا حصن ببشتر ، فأفسد ما حوله من غلات وثمار ، وعاد بعدها إلى قرطبة . ويبدو أن هذه الغزوة لم تفت فى عضد الثائر ، فقد استغل عمر بن حفصون عودة الأمير إلى قرطبة وخرج فى جيشه إلى ناحية أستجة ، فتحالف مع بنى الخليع بتاكرنا ، واستولى على حصون أشونة ، فانتهز أهل أستجة على ما يبدو فرصة وجوده فى كورتهم وأعلنوا العصيان والخروج عن طاعة الأمير عبد الله والانضواء إلى عمر ابن حفصون ، ثم إنهم لم يترددوا بعد ذلك فى دعوة عمر بن حفصون إليهم وأدخلوه مدينتهم[١٥٤] . انزعج الأمير عبد الله من استيلاء عمر بن حفصون على أستجة وغيرها من الحصون ، وجرد إليه جيشاً بقيادة عمه المنذر بن عبد الرحمن الأوسط ، فبادر عمر بن حفصون بالاعتذار عما فعله ، واختلق الأعذار لما اقترفه، وسأل الأمير تجديد الأمان له وأن يوليه على ما تحت يده ، وأرسل إليه ذلك كله مع رجلين من قريش كان أصابهما بأستجة فوافق الأمير على ذلك وولاه على رية دون بقية الحصون الأخرى[١٥٥] .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : هل رجع ابن حفصون عن أستجة أم ظل متمسكاً بها ؟! ، يرى الأستاذ محمد عبد الله عنان اجتهاداً دون الاستناد على مصدر معلوم أن جيش المنذر بن عبد الرحمن رد عمر بن حفصون عن أستجة[١٥٦] . والواقع أن رواية ابن حيان السابقة لم تشر إلى وضعية أستجة بعدما استأمن عمر ابن حفصون الأمير عبد الله . غير أنه من المرجح أن أستجة ظلت تابعة لسلطان ابن حفصون ، بل أعتقد أنه اتخذها قاعدة عسكرية لعملياته الحربية ، وكان ينطلق منها للإغارة على قرطبة وتضييق الخناق عليها وترويع أهلها . ويؤيد هذا التخريج نص لابن حيان نقله عن الرازى فى أحداث عام ٢٧٨هـ/٨٩١م ، ذكر فيه أن عمر بن حفصون تجرأ على إفساد مضرب الأمير عبد الله الذى أبرزه فى شقندة -

الربض القبلى من قرطبة – تمهيدًا لغزوه ، فقال « فبلغ من جرأة اللعين عمر بن حفصون أن أسرى من مدينة أستجة عمله ليلاً حتى وقف بفج المائدة المطل على باب قرطبة بقبليها وأرسل أصحابه لإفساد مضرب الأمير عبد الله »(١٥٧) . وفى موضع آخر يقول ابن حيان نقلاً عن معاوية بن هشام الشبينسى تعليقًا على هذا الحدث « ركب – عمر – إلى قرطبة فى سرية ثقيلة خرج بها من حاضرته مدينة أستجة وهم يومئذ فى طاعته ...»(١٥٨) . وتجدر الإشارة إلى أن عمر بن حفصون عمل على تحصين أستجة وتقويتها ، كما شحنها بصنوف كثيرة من آلات الحرب والقتال(١٥٩) .

جد الأمير عبد الله فى الخروج إلى قتال عمر بن حفصون فى عام ٢٧٨هـ/٨٩١م ، بعد أن اشتدت شوكته واستفحل واضطهد الرعية بأقاليم قرطبة عندما كان يغير عليهم من حصن بلاى Poley « فيتصل صيحة الروع منه بالمدينة وأرباضها ، ويفزع أهلها فى كل حين فيلحق بالسلطان الغضاضة حتى صير حضرته كطرف من أطراف الثغر »(١٦٠) . واشتبكت قوات قرطبة مع قوات عمر من جنده ، واضطر إلى الاحتماء بحصن بلاى والامتناع بداخله مع بعض رجاله الذين ما لبثوا أن خرجوا من الحصن فارين على وجوههم وكان فى طليعة هؤلاء الفارين أتباعه من أهل أستجة ، فلم يجد ابن حفصون مفرًا بعد انفضاضهم من حوله سوى الفرار إلى ببشتر وترك حصن بلاى ، فاستولت عليه القوات القرطبية وضبطته(١٦١) . وعلى إثر ذلك زحف الأمير عبد الله وقواته إلى مدينة أستجة قاعدة ابن حفصون وكان قد لاذ بها معظم الفارين من حصن بلاى ، فنازلهم بالقتال ، فامتنعوا داخل أسوارها ، فحاصرهم حصاراً شديدًا ولم يتردد فى قذفهم بالمنجنيق وتدمير تحصينات المدينة ، فلما أشرفوا على الهلاك سألوه الأمان على أن يعودوا إلى طاعته ، وأبرزوا أطفالهم ونساءهم بأعلى الأسوار ، فأجابهم الأمير وأمنهم

بعدما أخذ رهائن من وجوههم ، وأقام على المدينة عاملاً من قبله ، ثم مضى إلى ببشتر وأرشذونة فاستعادها ، ومنها قفل عائدًا إلى قرطبة[١٦٢] .

وهكذا استطاع الأمير عبد الله أن يحد من شوكة عمر بن حفصون وأن يضع حدًا مؤقتًا لطغيانه ، وأن يعيد الأمن والأمان لأهل قرطبة بالاستيلاء على حصن بلاى ومدينة أستجة . وكان فتح أستجة حدثًا عظيمًا أثار قرائح الشعراء فقرحت نظمًا حسنًا ، ومن القصائد الحسنة فى فتح أستجة ووصف النصر الباهر الذى أحرزه الأمير عبد الله قصيدة لأحمد بن محمد بن عبد ربه أولها[١٦٣] :

هو الفتح منظومًا على أثره الفتح وما فيهما عهد ولا فيهما صلح

سوى أن صفحًا كان من بعد قدرة وأحسن مقرون إلى قدرة صفح

سل السيف والرمح الردينى عنهما فتسمع ما ينبى به السيف والرمح

ومن المرجح أن طاعة بعض أهالى أستجة لم تكن خالصة للأمير عبد الله ، وأنهم اضطروا إلى الإذعان له كما رأينا ليتخلصوا من حصاره الشديد لمدينتهم . كما يبدو أن عصبيتهم المولدة كانت أقوى من ولائهم لحكومة قرطبة ، يؤكد ذلك أن رجالهم الذين انضموا إلى الجيش النظامى وشاركوا فى بعض غزواته إلى إشبيلية وقرمونة فى عام ٢٨٢هـ/٨٩٥م ، هربوا من صفوف الجندية إلى أحد الثوار المولدين المنتزين على الأمير عبد الله ، فابن حيان يذكر أن ابن سالم الأستجى هرب فى عدة من رجال أستجة إلى الخبيث طالب بن مولود أثناء قتاله له على حصن منت فيقى ، وقد تأثر جيش الإمارة تأثرًا شديدًا لفرارهم ، إلا أن أحمد بن هاشم قائد الجيش أعاد تنظيم قواته وهاجم بها الثائر فى حصن آخر من حصونه وهو حصن أقوط ، وهزمه وقتل من رجاله - ومنهم أهل أستجة الفارين إليه - سبعين رجلاً ، فطلب الثائر الأمان فأمنه قائد الجيش بعد أن توثق منه[١٦٤] .

ومع ذلك فقد ظلت أستجة فى حوزة الأمير عبد الله منذ أن افتتحها فى عـــام ٢٧٨هـ حتى عام ٢٨٤هـ (٨٩١ - ٨٩٧م) . فقد استغل عمـــر بـــن حفصـــون انشغال عسكر الإمارة بقيادة أبان بن الأمير عبد الله فى قتال ابن خصيـــب المولـــد الثائر بحصن منت ميور Montemayor من كورة لبلة Niebla(١٦٥) ، فـــى ربيـــع الأول ٢٨٤هـ/مايو ٨٩٧م ، وجمع جموعه وزحف على أستجة واســـتولى عليـــها للمرة الثانية فى نفس العام . فأدرك الأمير عبد الله خطورة سقوط أستجة فى يد ابـــن حفصون فى الوقت الذى غابت قواته عن قرطبة الحاضرة فأرسل كتابـــا يســـتعجل عودة قواته بسبب أستجة ، فقفل العسكر(١٦٦) . وتذكر الرواية أن القوات الحكوميـــة التى عادت من لبلة بسبب الاستيلاء على أستجة ، لـــم تمكـــث بقرطبـــة إلا أيامـــا تجهزت خلالها لغزو ابن حفصون فى الغزوة المعروفة بالجزيرة(١٦٧) ، ومع ذلك لم تغزو أستجة .

ومن المرجح أن ابن حفصون أحكم سيطرته على أستجة ، فلم يستطع الأمـــير منازلته بها كما أنها استعادت مكانتها كقاعدة عسكرية منيعة لابن حفصون ، كـــان يخرج للإغارة منها على قرطبة(١٦٨) . ورغم الهزيمة القاسية التى منى بـــها ابـــن حفصون أمام جيش الإمارة بقيادة أحمد بن أبى عبدة فى (إستبة) الواقعة جنوبـــى أستجة فى عام ٢٨٩هـ/٩٠٢م ، وكان ابن حفصون يهدف إلى القضاء على القوات الحكومية عند أستجة ، ثم مهاجمة قرطبة والاستيلاء عليها(١٦٩) ، فلم تستطع القوات الحكومية استرجاع استجة وظلت تحت سلطان ابن حفصون بقية عهد الأمير عبـــد الله . ولعل بقاء أستجة فى حوزة المولدين فترة طويلة خلال ثورة ابن حفصـــون ، ما دفع العوام إلى إطلاق بعض الأمثال الشعبية التى تعبر عن هجائهم وتحقيرهم لها ولأهلها ، وقالوا : « ذكرت المدن ، قامت أستجة تجن »(١٧٠) أى تزهـــو وتختـــال بالثورة على حكومة قرطبة .

وبعد وفاة الأمير عبد الله فى ربيع الأول ٣٠٠هـ/٩١٢م ، تولى حفيده عبد الرحمن بن محمد إمارة الأندلس . وفى مستهل ولايته عمد إلى إخماد نيران الفتن واستنزال أهل العصيان المنتزين فى معظم أنحاء البلاد . وكانت أستجة كما رأينا شوكة فى جنب الحكومة المركزية لقربها من قرطبة ، كما كان أهلها يميلون دائمًا إلى الشقاق والنفاق ، وطالما خرجوا على طاعة أمير البلاد ، ولذلك فقد ركز لها عبد الرحمن بن محمد منذ توليه الإمارة معظم طاقته ، فجرد إليها حملة كثيفة بقيادة الحاجب بدر بن أحمد فى جمادى الأولى ٣٠٠هـ/٩١٢م ، وأمده بالقائد أحمد بن محمد بن حدير فى قوة من الحشم ، فحاصر الجيشان أستجة ، فلما عاين أهلها ضخامة الجند أدركوا صعوبة المقاومة وأن الأمير جاد فى استنزالهم ، ولذلك أعلنوا طاعتهم وطلبوا الأمان ، فأمنهم الحاجب بدر بن أحمد ودخل مدينتهم فى ١١ من جمادى الأولى ٣٠٠هـ/ ٩١٢م[١٧١] .

وأعتقد أن الأمير عبد الرحمن بن محمد أراد أن يضمن ولاء أهل أستجة وعدم خروجهم عن الطاعة . يتضح ذلك من سياسة الترهيب والترغيب التى اتبعها معهم ، فقد أمضى أمانهم وصفح عن جرائمهم ونظر فى مصالحهم ، كما ألحق فرسانهم وحماتهم فى ديوان العطاء وأقطعهم القطائع الواسعة ، ومن جهة أخرى فقد أمر بهدم أسوارها وتسويتها بالأرض ، وهدم قنطرة نهرها ليعزلها عن بقية المناطق الثائرة وتصبح بذلك عاجزة عن التمرد والعصيان ، وترك فيها القائد أحمد ابن محمد بن حدير فى قوة من جنده لحفظ الأمن بها ، واستعمل عليها حمدون بن بسيل ، « فسكنت الحال بها ، وتوطدت الطاعة فيها »[١٧٢] . وكان لفتح أستجة أهمية كبيرة للأمير عبد الرحمن بن محمد ؛ فقد كانت مقدمة الفتوحات لأهم المدن الخارجة عن الطاعة ، « وتوالت فتوح الجهات بعدها ، فكانت كسلك القلادة انقطع فهوت درره تترى » ، ولذلك فقد أرسل الأمير عبد الرحمن بن محمد كتب الفتح بشأنها إلى الآفاق ، ونظم الشعراء فى فتحها قصائد كثيرة ، ومنهم عبد الله بن

يحيى بن إدريس ، وأحمد بن محمد بن عبد ربه وغيرهما[١٧٣] ، ومن شعر ابن عبد ربه في فتحها[١٧٤] :

ألا إنه فتـــح يقـــر لـــه الفتـــح   فأولـــه ســعد وآخـره نجـــح

سرى القاعد الميمــون خيـر ســرية   تقـدمهـا نصـــر وتابعهـا فتـح

ألــم تــر أروى بإسـتجـــة العـدا   فلقـــوا عــذابا كان موعده الصبــح

ومبالغة في الاحتراز من انتقاض أستجة والمناطق المجاورة لها على طاعته، أمر الأمير عبد الرحمن بن محمد قائد الحشم سعيد بن عبــد الــوارث فــي عــام ٣٠١هـ/٩١٣م ، بأن يتجول بعسكره ما بين أستجة وتاكرنا[١٧٥] . ولعــل الأمــير كان يرغب في أن يجعل من هؤلاء الجند فرقة طوارئ تكون على أهبة الاســتعداد لمواجهة أي تمرد قد يحدث في أستجة ، وتساعد حاميتها على سحقه فور وقوعه .

(د) أستجة في عصر الخلافة الأموية :

تمكن الأمير عبد الرحمن بن محمد الذي تلقب بالناصر لدين الله في عام ٣١٦هــــ / ٩٢٨م ، من القضاء على الفتن والثورات وســحق المتمرديــن ، وأعــاد للبــلاد وحدتــها ويتضح من الروايات أن جهوده في هذا الصدد حققت نجاحا باهرا ، فظلت أســتجة علــى طاعة الأمويين ، ولم تخرج عن الطاعة مرة أخرى[١٧٦] . ويذكر ابن حيان أن الخليفة عبــد الرحمن الناصر مر عليها في عام ٣١٦هـ/٩٢٨م. في طريقه لضبط ببشتر التي كــان قد فتحها في عام ٣١٥هـ/٩٢٧م. ولعله قصدها - أستجة - في طريقه لينظر فــي أحوال أهلها ، ويستوثق من طاعتهم. ويبدو أنه لم يتوقف بها طويلا ، فقد خرج من قرطبــة في النصف من المحرم ووصل إلى ببشتر بعد ٥ أيام (٢٠من المحرم)[١٧٧] . مما يؤكــد استتباب الأمور بها وتمسكها بطاعته . ولقد أولى الخليفة الناصر عنايته الشــديدة بأهــالي أستجة ، فقد أدى لأهلها الكثير من الخدمات وأعمال البر فأمر ببنيان ســقاية مــاء لشرب أهلها ، فتم ذلك على يد واليها أمية بن محمد بن شهيد في المحرم من عــام

٣١٨هـ/٩٣٠م[١٧٨] . وتجدر الإشارة إلى أن ابن حيان احتفظ لنا بأسماء بعض ولاة أستجة فى عهد الخليفة الناصر[١٧٩] .

ظلت أستجة تنعم بالهدوء والاستقرار فى عصرى الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) ، وابنه الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ) ، ولم تقع بها حوادث ذات أهمية ، وكل ما وصلنا عنها خلال هذه الفترة لا يعدو مشاركة وجوه رجالها فى المناسبات الدينية وحفلات الاستقبال التى كان يقيمها الخلفاء للشخصيات الهامة ، ويستدعون لحضورها بياض وأعلام رجال الكورة . ففى عام ٣٦٠هـ / ٩٧٢م ، استدعى الخليفة المستنصر وجوه وأعلام الكور لمشاهدة دخول يحيى بن على بن حمدون وبنى خزر الزناتيين القادمين برأس زيرى بن مناد الصنهاجى ورؤوس أعيانه[١٨٠] ، فجاء وجوه أهل أستجة وشهدوا هذا الحفل . وكانت هذه الاحتفالات مناسبة لكى يتفقد الخليفة المستنصر أحوال هذه الكور والاطمئنان على سير ولاتهم ، فابن حيان يذكر أن الخليفة استمع من « كبيرهم وصغيرهم ما ذكروه مما استخبرهم عنه من سير عمالهم ، فكافأ المشكور منهم سعيه ، وقارض المذموم منهم بسيئة »[١٨١] . ولم يكتف الخليفة المستنصر بسؤال وجوه أهل الكور الذين يحضرون احتفالاته بقرطبة عن أحوال بلدانهم فحسب ، وإنما كان يرسل مبعوثين من كبار رجال الدولة إلى هذه البلاد للقيام بهذه المهمة ، ففى عام ٣٦٢هـ/٩٧٤م، بعث عبد الملك بن المنذر بن سعيد صاحب الرد بقرطبة إلى الكور الغربية ومنها أستجة « لمطالعة رعاياها وتعرف أحوالهم ، والكشف عن سير أعمالهم فيه »[١٨٢]. ويبدو أن أهالى أستجة استغلوا فرصة وجودهم فى حضرة الخليفة أو قدوم هذه البعثات الرسمية إلى بلدهم للسؤال عن أحوالهم ، ورفعوا إلى الخليفة الحكم المستنصر شكواهم من سوء معاملة القاضى أصبغ بن قاسم الأستجى لهم ، فعزله عنهم . وربما تبين للخليفة بعد ذلك أن القاضى لم يكن بهذا السوء الذى صوره له أهالى أستجة ، وأن سبب شكواهم منه شدته وصرامته فى أحكامه ، فقد كان زاهدا

ورعا ، فلم يلبث أن أعاده إلى منصبه . ولم « يزل يلي صلاتهم وأحكام قضائهم إلى أن توفي وكلهم يسئ الثناء عليه والقول فيه »(١٨٣) .

كذلك استدعى الخليفة الحكم المستنصر بياض الرعية من أهل كور الأندلس للحضور إلى قرطبة لحضور حفل استقبال القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى(١٨٤) ، بعد عودته ظافرا من المغرب فى عام ٣٦٤هـ/٩٧٦م ، فحضر وجوه أهل أستجة هذا الاحتفال ، وبعدها انطلقوا عائدين إلى بلدهم وظلوا يتحدثون مع غيرهم عن فخامة هذا الحفل وجلالة يومه(١٨٥) .

وكان أهالى أستجة يشاركون مثل غيرهم من أهل الأندلس فى الحملات التى كان يجردها الخليفة الحكم المستنصر لحرب الممالك المسيحية فى شمال إسبانيا ، ففى عام ٣٦٤هـ/٩٧٦م ، خرج صاحب الشرطة الوسطى إلى كور الغرب لاستنفار أهلها للتطوع فى جيش الصائفة التى يجردها الخليفة إلى نصارى جليقية الذين أغاروا فى هذا الوقت على أهل الثغور الشرقية فأجابوه(١٨٦) .

ولقد اهتمت السيدة صبح البشكنسية أم الخليفة هشام المؤيد ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر بأهل أستجة ، فأقاما الكثير من أعمال البر والخير بأستجة . ففى عام ٣٦٧هـ/٩٧٨م ، أمرت السيدة صبح صاحب الشرطة وقاضى كورة أستجة أحمد بن عبد الله بن موسى ببناء سقاية بأستجة ، فتم البناء فى ربيع الآخر من نفس العام(١٨٧) . كما أمر ابن أبى عامر ببناء قنطرة على نهر شنيل بأستجة ، وأنفق عليها أموالا عظيمة ، فعمت بها منفعة أهل أستجة ، حيث سهلت لهم هذه القنطرة الطرق والشعاب الصعبة ، واعتبر ابن عذارى بناء هذه القنطرة من أعمال البر والتقوى التى تقدم المنصور بها إلى الله زلفى(١٨٨) .

(هـ) أستجة فى زمن الفتنة :

لم يمر وقت طويل حتى تحولت الثورة التى قام بها الأمويون بزعامة محمد بن هشام بن عبد الجبار على العامريين فى ١٦ جمادى الآخر ٣٩٩هـ / ١٥

فبراير ١٠٠٩م إلى فتنة دموية رهيبة . ولقد فجرت هذه الفتنة الأوضـــاع الداخليـــة فى الأندلس وأحيت الأحقاد الدفينة بين عناصر المجتمع الأندلسي الذى انقسم إلـــى ثلاث طوائف متناحرة فيما بينها ، الطائفة الأندلسية والطائفـــة البربريـــة (الـــبربر الطارئين منذ عصرى الحكم المستنصر والمنصور العامرى) والطائفة الصقلبيـــة ، ونتج عن الصراع بينهم وقوع البلاد فريسة للفتن والاضطرابات والتفتت السياسى ، مما أدى إلى انهيار الخلافة وانتزاع السلطة من الأمويـــين وانتقالـــها إلـــى بعـــض الأسرات العربية والبربرية والعناصر الصقلبيـــة أيضـــا فيمـــا عـــرف بدويـــلات الطوائف(١٨٩) . ويعلق الأمير عبد الله الزيرى على أحوال الأندلس إبان هذه الفتنـــة بقوله : « فلما تمت الدولة العامرية ، وبقى الناس لا إمام لـــهم ، ثـــار كـــل قـــائد بمدينته، وتحصن فى حصنه بعد تقدمه النظر لنفسه ، واتخاذه العساكر ، وادخـــاره الأموال ، فتنافسوا على الدنيا وطمع كل واحد فى الآخر »(١٩٠) .

ولقد تأثرت أستجة مثل معظم مدن الأندلس بأحداث هذه الفتنة ، فعقب نجـــاح الثوار فى الإطاحة بالعامريين ، تقلد محمد بن هشام الخلافة وتلقب بالمهدى ودانـــت له البلاد ، وكانت أستجة حينئذ على طاعة المهدى وتخضع لسلطانه ومن مظـــاهر ذلك ، قيامه بتعيين قياداتها الإدارية والقضائية ، فالحجارى يذكر أن الخليفة المـــهدى قلد ابن الفرضى قضاء مدينة أستجة(١٩١) .

ورغم أن المصادر المتاحة لدينا لم تأت على ذكر أستجة خلال أشد ســـنوات الفتنة ضراوة ودموية وهى الفترة الممتدة من فشل انقلاب الرشـــيد علـــى الخليفـــة المهدى فى شوال ٣٩٩هـ/يونيو ١٠٠٩م إلى دخول البربر مع ســـليمان المســـتعين قرطبة للمرة الثانية فى شوال ٤٠٣هـــ / إبريل ١٠١٣م(١٩٢) . إلا أننا نـــرى أنـــها قاست مثل غيرها من كور الجنوب والموسطة من ويلات هذا الصراع العنيف بيـــن الأندلسيين والبربر ، فقد اجتاح البربر فى إحدى غزواتهم التخريبية عقب رحيلـــهم عن مدينة الزهراء فى شعبان ٤٠١هـــ/إبريل ١٠١١م ، مدنا قريبـــة مـــن أســـتجة

وتمتد أحوازها بأحواز أستجة مثل جيان ، ومالقة ، وقبرة[١٩٣] . كما خربوا أحواز قرطبة نفسها ، وكانت هذه الأحواز تختلط بأحواز قبرة وأستجة . فلا يعقل والأمر كذلك ألا تتعرض أستجة لمثل ما تعرضت له جاراتها ، خاصة وأنها كانت كثيرة الثمار والبساتين ، ولها أعمال كثيرة تزيد على ألف قرية[١٩٤] ، في وقت كان البربر يعانون فيه من قلة الأقوات والميرة . ويؤيد وجهة نظرنا هذه أن ابن الأبار يعلق على هذه الغزوة بقوله « وسليمان أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس ، ورجاله ومن معهم من البربر ينهبون ، ويقتلون ، ويقفرون المدائن والقرى بالسيف ، وينهبون كل ما يجدون من الأموال »[١٩٥] . كذلك يذكر ابن الخطيب أن البربر بعد استيلائهم على الزهراء في ٤٠١هـ/١٠١١م ، خربوا كور الأندلس الجنوبية واتصل التخريب بأحواز قرطبة[١٩٦] . كذلك يؤكد هذا التخريج أن أهالي أستجة لم يأمنوا على أنفسهم خلال هذه الفتنة ، ولذلك سارعوا بوضع بلدهم تحت حماية أبي عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة الذي أعلن الاستقلال بها عن حكومة قرطبة في عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م[١٩٧] . وكان هذا الزعيم قد ضبط قرمونة وجمع رجالها ، ورتب جنودها ، وأحسن إلى أهلها ونشر العدل فيهم ، فعمرت قرمونة وجهاتها وحاشى البربر حوزتها ولم يهاجموها من أجله ، ولذلك طمع أهالي أستجة أن يشملهم بحمايته ، فألقوا بأمورهم إليه وبايعوه « فأمنت بأمنه وكثر خيرها بيمنه »[١٩٨] .

وتجدر الإشارة إلى أن أستجة ظلت تابعة لبني برزال أصحاب قرمونة[١٩٩]، ثم انتقلت تبعيتها إلى باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة منذ عام ٤٣٩هـ/١٠٤٩م[٢٠٠] . وهكذا منذ عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م ، فقدت أستجة مكانتها المتميزة كولاية كبرى منذ الفتح الإسلامي لها وطيلة عصر الدولة الأموية ، وأصبحت مجرد مدينة تابعة تبحث عن الأمن والحماية في ظل التبعية لأمير من أمراء الطوائف . والواقع أن تاريخ أستجة في عصر الطوائف يكتنفه بعض الغموض ، فلا توجد سوى إشارات قليلة عنها في هذا العصر ، وربما كان فقدانها لأهميتها السياسية وراء قلة هذه الإشارات .

ملحق

أسماء بعض ولاة أستجة فى عصر الدولة الأموية

م	اســـم الوالـــى	اســم الأمير أو الخليفة الذى تولى فى عهده	مـــدة ولايتـــه
١	حمدون بن بسيل	الأمير عبد الرحمن بن محمد(١)	٣٠٠هـ -
٢	أمية بن محمد بن شهيد	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٢)	٣١٧ - ربيـــع الأخر ٣١٨هـ
٣	مالك بن محمد الزجالى	الخليفة عبـــد الرحمـــن الناصر(٣)	ربيـــع الأخـــر ٣١٨هـ-٣١٩هـ
٤	سعيد بن أبى القاسم	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٤)	٣١٩ - ٣٢٢هـ
٥	عمر بن أحمد	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٥)	٣٢٢ - ٣٢٣هـ
٦	يحيى بن محمد	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٦)	٣٢٣ - ٣٢٤هـ
٧	عبيد الله بن موسى	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٧)	٣٢٤ - ٣٢٦هـ
٨	طرفة بن عبد الرحمن	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٨)	٣٢٦ - ٣٢٨هـ
٩	محمد بن طرفة	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٩)	٣٢٨ - ٣٢٩هـ
١٠	سليمان بن أيوب	الخليفة عبدالرحمن الناصر(١٠)	٣٢٩هـ -

(١) - (١٠) ابن حيان ، المقتبس ، شـــالميتا ، ص٧٤ ، ٢٥٣ ، ٢٨٤ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٩١ ، ٣٢٩ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٢ ،

Una cronica Anonima, p. 65; Levi – Provncal, Inscriptions Arabes, P. 36, Meouak (M.) Deux Familles d'Origine affranchip au service de L'Etat hispano-Umayyade, Les Banu Durri et Banu Tarafa, R. Anaquel Vol. II, Madrid, 1991, P. 188.

يتضح من دراسة هذا الملحق الحقائق التالية :

(١) أن حمدون بن بسيل كان أول وال لأستجة لأمير الجماعة عبد الرحمن بن محمد ، بعدما كانت تتأرجح بين الطاعة والعصيان خلال ثورة ابن حفصون .

(٢) أن مدة ولاية معظم هؤلاء الحكام كانت لا تتجاوز العام الواحد . وكانت هذه هي سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى دأب علىتغيير حكام الولايات وإبدالهم .

(٣) أن مدة بعض ولاة أستجة تجاوزت العام ، فقد ظل كل من سعيد بن أبى القاسم ، وعبيد الله بن موسى ، وطرفة بن عبد الرحمن مدة تراوحت ما بين ٣ – ٤ أعوام .

(٤) تعاقب على ولاية أستجة بعض ولاة من بيت واحد ، فقد تولى محمد بن طرفة ولاية أستجة بعد عزل أبيه طرفة بن عبد الرحمن عنها .

الهوامش

(١) ابن هشام اللخمى ، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، تحقيق خوسيه بيريث لاثارو ، مدريد ١٩٩٠ ، م٢ ، ص٢٤٨ ؛ ابن حيان ، المقتبس ، نشر بدرو شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ ، ص٥٤ – ٥٦ ، مجهول ، فتح الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، مدريد ١٩٩٤ ، ص٢٠ . ولقد رسمها بعض المؤرخين بكسر الهمزة والتاء وفتح الجيم « إستجة » (راجع : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة – بيروت ١٩٨٢ ، ص٣٥ ؛ مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة، بيروت ١٩٨١، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨ ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربى ببيروت ، ١٩٧٨ ، م١ ، ص١٧٤ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، م١ ، ص٢٦٠ ، ٤٠٩.

(٢) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، جـ٢ ، ص٢٩٥ . ويذكر ابن الشباط أن إستجة بكسر الهمزة ويقال بفتحها (ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، مدريد ، ١٩٧١ ، ص١٧٣) ؛ ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف،ط٣، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، جـ١ ، ص١٠٤ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، ط٣ ، دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ ، جـ٢ ، ص٥١ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، جـ١ ، ص١٠١ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، نشره ليفى بروفنسال ، ط٢ ، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨ ، ص١٤ ،

Joaquin Vallve, la division territorial de la Espana Musulmana, Madrid, 1986, p. 331.

(٣) الإصطخرى ، المسالك والممالك ، نشر دى غويه ، ليدن ، ١٩٢٧ ، ص٤١ – ٤٢ ، المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشر دى غويه ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص٢٢٤ ؛

Levi Provencal, L'Espagne Musulmane au Xe Siecle, Paris 1932, p. 117.

(٤) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ الرشاطى وابن الخراط ، الأندلس فى كتاب اقتباس الأنوار وفى اختصار اقتباس الأنوار ، تحقيق إميليو مولينا وبوسك فيلا ، مدريد ، ١٩٩٠ ، ص١٠١ . ويذكر الإدريسى (صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، نشر دوزى ودى غويه ، ليدن ، ١٨٩٤ ، ص٢٠٥) أنها تقع على بعد ٣٥ ميلا من قرطبة .

Levi Provencal, la description de l'Espagne d'Ahmed Al-Razi, R. Al-Andalus, Vol. XVII, Madrid 1953, p. 99.

(٥) الإدريسى ، نفس المصدر ، ص٢٠٥.

(٦) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ، ١٥٨ . وقرمونة Carmona مدينة أندلسية قديمة البناء ، يحدها من الشرق قرطبة ، ومن الغرب إشبيلية ، وهى على سفح جبل يحيط بها سور من الحجارة قديم البناء ، وقربها فحص عريض يضم عدداً كبيراً من القرى ، وبها حمامات ودار صناعة ، وهى الآن مركز إدارى فى مقاطعة إشبيلية (عن وصفها راجع : ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٢ ، الرشاطى ، نفس المصدر ، ص١٨١ ؛ الحميرى ، نفسه ، ص١٥٨ – ١٥٩) .

(٧) ابن غالب ، فرحة الأنفس، ص٢٩٥؛ Joaquin Vallve, Op. Cit., p. 331. ورية Rayya من أعظم حواضر الأندلس ، وهى تتصل بأحواز الجزيرة الخضراء ، وتقع فى قبلى قرطبة ، وهى كثيرة الخيرات ، ومدنها كثيرة ، وحصونها حامية ، ومن مدنها أرشذونة ، وكانت حاضرتها وقاعدة كورتها ، ومالقة وهى مدينة أولية تطل على البحر المتوسط (عن وصفها راجع : ابن غالب، نفس المصدر ، ص ٢٩٤ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس، ص٧٩).

(٨) ابن غالب ، نفسه ، ص٢٩٥ ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٧٤ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص١٤١ ؛ تسيبولد ، إستجة ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية ، نشر إبراهيم زكى خورشيد وزميلاه ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ، م٣ ، ص٢٣٥ . ونهر شنيل هو نهر غرناطة الكبير ، تكون من ذوبان الثلوج بجبالها ، وهو أحد روافد الوادى الكبير ، ومساحة مجراه خمسون فرسخا ، وقد ورد عند بعض الجغرافيين باسم سنجل وسنجيل ، ويقول ابن الشباط إنه سأل بعض أهل الأندلس عن اسمه ، فلم يعرفوا الاسم الأول (سنجل) وعرفوا الثانى ، وقالوا عنه شنيل . ويقال فى تفسير شنيل إنها مركبة من الشين وتعنى عند أهل المغرب (الألف) ، ومن لفظ (نيل) نهر مصر ، فمعنى شنيل إذن ألف نيل كما يذكر ابن الخطيب (ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ الزهرى ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، نشر بمجلة الدراسات الشرقية ، دمشق ١٩٦٨ ، ص١٦٧؛ ابن الكردبوس ، نفس المصدر ، ص١٧٣ ؛ المقرى نقلا عن ابن الخطيب ، نفح الطيب ، م١ ، ص١٤٨ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 99, 101.

(٩) يقصد بالرصيف عند أهل الأندلس الطريق الرومانى القديم ، ولقد عمموا هذا المصطلح على كل طريق معبد مرصوف . ولقد كان بأيبيريا طريق قديم يعرف بطريق هرقل Via Herculea كان يربط أربونة بقرطاجنة ، فأوصله الإمبراطور الرومانى أوغسطس بطريق آخر يمتد من شاطبة مارا بجنجالة إلى قسطلونة ، ومنها إلى قرطبة ، وكان الرصيف الرومانى يتفرع عند قرطبة إلى فرعين أحدهما على الضفة اليمنى والآخر على الضفة اليسرى من نهر بيطى (الوادى الكبير) ، ثم يمتد هذا الطريق من قرطبة إلى أستجة ومنها إلى إشبيلية وينتهى عند قادش Cadiz . ولقد استخدم المسلمون هذه الجادة الرومانية عند الفتح ، ولكنهم بعد ذلك أهملوا بعض أجزاء منها ، وأجروا تعديلات تتفق مع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، فأهملوا الطريق المؤدى إلى قادس ، واستبدلوه بطريق يمتد من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء، وقد كان هذا الطريق أيضا طريقا رومانيا قديما، كان يربط قرطبة بقرطاجنة الجزيرة.

وتجدر الإشارة إلى أن قرطبة كانت ملتقى شبكة الاتصالات بين إقليم باطقة الرومـــانى وما يليه جنوبًا (عن الرصيف الرومانى وشبكة الطرق القديمة فـــى أيبريـــا انظـــر : حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيـــن فـــى الأندلـــس ، ط٢ ، القـــاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٢٨٧ – ٢٨٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فـــى الأندلـــس ، الإسكندرية ١٩٨٤ ، جـ١ ، ص١٦٤ – ١٦٥ ؛

Torres Balbas, la via Augusta, y el Arrecife Musulman, R. Al-Andalus, Vol. XXIV, Madrid, 1959, pp. 441-448.

(١٠) تسيبولد ، إستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(١١) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلـــس ، ص١٤١ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٤ ؛ تسيبولد ، إستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(١٢) المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٤٨١.

(١٣) المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٠٣.

(١٤) تسيبولد ، أستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(١٥) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٦ ، الحمـــيرى ، صفـــة جزيـــرة الأندلـــس ، ص١٤ – ١٥ ؛

Joaquin Vallve, la division territorial, p. 332.

(١٦) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥.

(١٧) التهامى الراجى الهاشمى ، الأبواب فى الأندلس ، مجلة المناهل ، الرباط ، المغـــرب ، ١٩٧٨ ، العدد الثالث عشر ، ص٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠.

(١٨) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥.

(١٩) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٦ ، ويذكـــر الحمـــيرى (نفـــس المصـــدر ، ص١٥) أن كنيسة أستجة الكبرى كانت تقع بجوار مسجدها الجامع .

(٢٠) من بين هذه الأديرة كما يذكر صاحب تقويم قرطبة ذلك الدير الذى يقع فى شـــمالها ودفن به قرشين . ولعله أحد كبار الرهبان بأستجة .

Dozy, le Calendrier de cordoue de L'annee961, Leiden1873, p.106.

(٢١) ابن حيان ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكى ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص٥.

(٢٢) ابن هشام اللخمى ، المدخل إلى تقويم اللسان ، م٢ ، ص٢٤٨.

(٢٣) الزجالى ، أمثال العوام فى الأندلس ، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة ، فاس، ١٩٧٥ ، ق٢ ، ص٢١٨.

(٢٤) ابن هشام اللخمى ، نفس المصدر ، م٢ ، ص٢٤٨ . وقد ورد الاسم عند الدكتور عبد العزيز الأهوانى (ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، م٣ ، جـ١ ، القاهرة ١٩٥٧، ص١٤٢) «أستجة» بتشديد الجيم ، وفى كل من مخطوطتى الكتاب بدون تشديد الجيم (ابن هشام اللخمى ، نفسه ، م٢ ، ص٢٤٨ ، هـ٥٨) .

(٢٥) الزجالى ، أمثال العوام ، ق٢ ، ٢١٨.

(٢٦) الأهوانى ، نفس المرجع ، ص١٣٧.

(٢٧) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٢١٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ق٢ ، ص٨٨ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، نشر وتحقيق لويس مولينا ، مدريد ، ١٩٨٣ ، جـ١ ، ص٦٩.

(٢٨) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٦ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٤.

(٢٩) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٦.

(٣٠) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص٤١ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، جـ١، ص٦٩.

(٣١) تسيبولد ، أستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(٣٢) الحميرى ، نفس المصدر ، ص١٤.

(٣٣) أخبار مجموعة ، ص١٧ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص١٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٣١ ، ٢٥٥ . ويرجح سافدرا أن تكون هذه الثورة مفتعلة وتمت بتدبير من أعداء الملك « يليان وحزب غيطشة » لشغل أنظاره عن عمليات نزول القوات الإسلامية بإسبانيا (حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص٧٠ ، هـ٣ ؛ أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط١ ، الإسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص٣٠ ؛

Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1882, p. 65.

(٣٤) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ن ص١٢ ، ٤٦ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٩ ؛ أحمد مختار العبادى ، نفس المرجع ، ص١٩ – ٢٢ . وكان هذا الجبل يسمى قديمًا Mans Calpe وهو اسم فينيقى معناه مغارة أو تجويف ، ولعل المقصود بها تلك المغارة الكبيرة التى يشتمل عليها ، وتسمى اليوم بمغارة سان ميجل، وفى العصر الإسلامى سمى هذا الجبل بأسماء متعددة مثل الصخرة ، وجبل طارق ، ثم جبل الفتح على عهد عبد المؤمن بن على الموحدى ، غير أن اسم طارق غلب عليه آخر الأمر ، فصار يعرف به (مجهول ، فتح الأندلس ، ص١٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص٤٦ ، هـ١٢ ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد زينهم محمد ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص٢٩٦ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص١٥٩ – ١٦٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢) .

(٣٥) قرطاجنة Cartagena تقع عند سفح جبل طارق ، وهى مدينة قديمة أولية وبها آثار كثيرة ، وتعرف بقرطاجنة الجزيرة تمييزًا لها عن قرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير ، وبمرسى قرطاجنة الجزيرة نهر يعرف بوادى الرمل يصب فى البحر المتوسط (الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥١) .

(٣٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص١٢٨ ؛ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٣٥ ؛ أخبار مجموعة ،

ص١٧؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص ١٧ – ١٨ ؛ حسين مؤنس، فجر الأندلس ، ص٦٩ ؛

Chalmeta (p.), Invasion -e- Islamizacion, Madrid 1994, p. 131.

والجزيرة الخضراء Algeciras أو جزيرة أم حكيم تقع على مقربة من جبل طارق في أقصى جنوب الأندلس ، وهي شرق من شذونة ، وتواجه مدينة سبتة على الساحل المغربي ، ومرساها أيسر الموانئ الأندلسية للجواز إلى المغرب ، وللخضراء سور حجارة عظيمة البناء ، وكانت في العصر الإسلامي مدينة وفيرة الخيرات (عن وصفها راجع ، ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٤ ، الحميري ؛ صفة جزيرة الأندلس ، ص٧٣ – ٧٥ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 97-98.).

(٣٧) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص١٣٩ ؛ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٣٥ ؛ أخبار مجموعة ، ص١٨ ؛ مجهول ، فتح الأندلس، ص١٩ – ٢٠ ؛ الزهري ، كتاب الجغرافية ، ص٢١٤ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص٤٨ ؛ المقري ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٣١ – ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ – ٢٥٩ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٧٠ – ٧٥ . وعن هذه الوقعة وتحديد مكانها التي دارت فيه من كورة شذونة راجع: أحمد مختار العبادي ، دراسات ، ص٢٩ – ٣٥ ؛ عبد الواحد ذنون طه ، نظرة عصرية لعملية عبور مضيق جبل طارق ومعركة كورة شذونة ، الموصل ، ١٩٨٧ ، ص١٧ ؛

Saavedra, Op. Cit., pp. 68-69, Chalmeta, Op. Cit., pp. 134-137.

وشذونة Sidona كورة جليلة القدر تتصل بأحواز كورة مورور ، ولها أقاليم كثيرة ، ومن مدنها قادس ، وشريش وهي حاضرة الكورة ، وعمل شذونة خمسون ميلا في مثلها ، وهي من الكور المجندة ، نزلها جند فلسطين من العرب ، وقد لجأ إليها أهل الأندلس في عام ١٣٦هـ عندما قحطت البلاد (وعن وصفها راجع : ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، م٣ ، ص ٣٢٩ ؛ الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٠٠-١٠١ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 96-97.

(٣٨) فتح الأندلس ، ص٢٠ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص٤٨.

(٣٩) المقرى نقلا عن الرازى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٥٩ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٢٧٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الإسكندرية ١٩٨٤ ، ص١٦١ ؛

Chalmeta, Ibid., p. 137.

(٤٠) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٣٥ ؛ أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٨ ؛

Chalmeta, Ibid., pp. 138, 144.

وتجدر الإشارة إلى أن كل من الرازى وصاحب فتح الأندلس ذكر أن طارقا توجه إلى شذونة بعد الانتصار فى وادى لكة ، ثم افتتح عدة مدن فى غرب الأندلس مثل مورور ، وقرمونة ، وإشبيلية وذلك قبل أن يتجه نحو أستجة ويفتحها (فتح الأندلس ، ص٢٠ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٣٦٠ ولا شك أن فى ذلك خلط لأحداث حملتى طارق بن زياد وموسى ابن نصير ، لأننا سوف نرى أن موسى يتولى افتتاح هذه المدن الأخيرة عقب جوازه إلى الأندلس فى العام التالى (٩٣هـ) لاستكمال فتح الأندلس والجيوب الجانبية .

(٤١) يذكر الرازى أن المسلمين ركبوا جميعا خيل القوط ، حتى أنه لم يبق فيهم راجل ، وفضلت عنهم الخيل (المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦١) .

(٤٢) إسماعيل الأمين ، العرب لم يغزوا الأندلس ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ١٩٩١ ، ص٣٠.

(٤٣) أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٨ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠.

(٤٤) Chalmeta, Invasion e Islamizacion, p. 146.

(٤٥) يحدد المؤرخ المجهول صاحب فتح الأندلس ، مدة الحصار بشهر (فتح الأندلس ، ص ٢٠ ؛ تسيبولد ، أستجة ، م٣ ، ص٢٣٥) فى حين حددها ابن الشباط بعدة أشهر (ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص١٤١) .

(٤٦) فتح الأندلس ، ص٢٠ ؛ ابن الكردبوس برواية ابن أبى الفياض ، تاريخ الأندلس ، ص١٤١ ، ١٧٣ ، المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٨٢ ؛ شاكر مصطفى ، الأندلس فى التاريخ ، دمشق ١٩٩٠ ، ص٢٢ ؛

Alvarez de Morales (C.), Aproximacion a la Figura de Ibn Abi-L-Fayyad y su historia, Cuadernos de Historia del Islam, No. 9, Granada, 1978, p. 44, Chalmeta, Op. Cit., p. 148.

(٤٧) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٧٦.

(٤٨) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٩.

(٤٩) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص١١٢ – ١١٣

Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, pp. 88-89.

(٥٠) العذرى ، ترصيع الأخبار ، نشر عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٠ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٤ ؛

Guichard, Al-Andalus, Estructura Antropolgica de un Sociedad Islamica en Occidente, Barcelona 1976, p. 343; Alvarez de Moralez, Op. Cit., pp. 45-46.

(٥١) أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص١٤٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ .

(٥٢) Chalmeta, Op. Cit., p. 147.

(٥٣) عندما بعث موسى بن نصير مولاه أبا زرعة طريف بن مالك على رأس حملة استطلاعية لغزو جنوب الأندلس فى رمضان (٩١هـ) نزل بالجزيرة التى نسبت إليه فيما بعد (جزيرة طريف) ثم نهض منها وأغار على الجزيرة الخضراء ، فأصاب

بها سبيا كثيرا ومالا جسيما ، ثم رجع سالما إلى العدوة المغربية (أخبار مجموعة ، ص١٦ – ١٧ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص١٦ ؛ المقرى برواية ابن حيان ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٢٩) .

(٥٤) أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٩ – ١٠ ؛ المقرى ، نقلا عن الرازى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ ؛ Chalmeta, Ibid, p. 147.

(٥٥) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٠ .

(٥٦) يذكر الرازى أن يليان قال لطارق بن زياد « قد فضضت جيش القوم ، ودوخت حاميتهم ، وصيرت الرعب فى قلوبهم ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى ، ففرق جيوشك فى البلدان بينهم ، واعمد أنت إلى طليطلة بمعظمهم ، واشغل القوم عن النظر فى أمرهم ، والاجتماع إلى أولى رأيهم » (المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص١٦٢ ؛ Saavedra, Op. Cit., p. 76; Chalmeta, Ibid, p. 148.

(٥٧) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، جـ١ ، ص٢١.

(٥٨) أخبار مجموعة ، ص١٩ – ٢٠ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٢٢ – ٢٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ – ١٢٣ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٠ – ١١ ؛ ابن الخطيب ،الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠١ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ – ٢٦٤ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٧٨ ؛ أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ،الإسكندرية بدون تاريخ ، ص٧٣ ؛ إسماعيل الأمين ، العرب لم يغزوا الأندلس ، ص٣٣ ؛ شاكر مصطفى ، الأندلس فى التاريخ ، ص٢٢؛ Saavedra, Op. Cit., p. 78; Chalmeta, Ibid, pp. 149-153.

وتجدر الإشارة إلى أن د. مؤنس (نفس المرجع ، ص٧٧) يرى أن المسلمين لم يفتحوا مالقة وإلبيرة إلا فى ولاية عبد العزيز بن موسى ، أما هذه الجيوش التى وجهها طارق من أستجة فلا تعدو مجرد سرايا صغيرة إلى هذه النواحى لمجرد الاستطلاع . ولعل د. مؤنس اعتمد فى ذلك على رواية معاوية بن هشام الذى ذكر

نفس هذا الرأى (ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠١ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٧٥) .

(٥٩) عبر موسى بن نصير المجاز إلى الأندلس على رأس جيش كبير من العرب فى عام ٩٣هـ/٧١٢م ، وافتتح عددا من المدن الهامة فى غرب الأندلس مثل شذونة وقرمونة ، وإشبيلية ، وماردة ، وغيرها ، وبعد عودته إلى المشرق استكمل ابنه عبد العزيز فتح جنوب غرب الأندلس وبعض مناطق من شرق الأندلس مثل تدمير (ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٣٥ - ٣٩ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٢٤ - ٢٨؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٢٤ - ٣٢ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٩ - ٢٨٠) .

(٦٠) البكرى ، جغرافية الأندلس وأوربا ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٦٤ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٤٢.

(٦١) العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص٢٠ ؛ البكرى ، جغرافية الأندلس وأوربا ، ص٥٩ - ٦٤.

(٦٢) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٧٠.

(٦٣) يتضح ذلك من إشارات أوائل الجغرافيين العرب مثل ابن خرداذبة ، واليعقوبى ، والهمدانى ، والاصطخرى ، والمقدسى (حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص٥٧٥ - ٥٧٦) .

(٦٤) لم يكن مصطلح الكورة فى بلاد الإسلام محددا بالشكل الذى نتصوره كإقليم أو مديرية بالمفهوم الحديث ، وأدق تعريف للكورة هو قول ياقوت الحموى ، « والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها » (معجم البلدان ، م١ ، ص٣٦ - ٣٧) ويتفق ابن الشباط مع ياقوت فى تعريفه للكورة فيقول عنها « وهى عبارة عن الصقع والناحية » (ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص١٧١) وعلى هذا فالكورة تقسيم إدارى له زمام واسع يشتمل على عدة مدن وأقاليم وقرى وأجزاء - مساحات الأرض المخصصة للرعى -

وحصون (ياقوت ، نفسه ، م٢ ، ص١٣٢ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٧٧ – ٥٧٨) .

(٦٥) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٤٤ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠٣.

(٦٦) محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ع١ ، ق١ ، ص١٣٢

(٦٧) أكد ذلك ابن حوقل (صورة الأرض ، طبعة ليدن ١٩٣٨ ، ص١١٦) فقد ذكر عن الأندلس « وفيها مدن يزيد بعضها على بعض فى المحل والجباية والارتفاع والولاة والقضاة والمخلفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة » .

وقد أحصى ليفى بروفنسال سبعا وعشرين كورة فى الأندلس غير الثغور .

Levi Provencal, L'Espagne Musulmane, pp. 116-117.

(٦٨) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٥٤ – ٥٥٥.

(٦٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص٢٢٤ ؛ ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص١٠٠.

(٧٠) ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٧٤.

(٧١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ،

Joaquin Vallve, la division Territorial, p. 332.

(٧٢) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ ابن الخراط ، اختصار اقتباس الأنوار ، ص١٢٨ ؛ الحميرى ، نفس المصدر ، ص٦٢.

(٧٣) الحميرى ، نفسه ، ص٧٩،

Levi Provencal, la description p. 99.

(٧٤) ابن الخراط ، نفس المصدر ، ص١٢٨.

(٧٥) ابن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٢٧٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٠٩ ؛

Levi Provencal, l'Espagne Musulmane, au Xe, p. 134.

(٧٦) ابن حيان ، المقتبس ، شـالميتا ، ص١٨١ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٨٥ ، ٣١٥ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٨٣ ، ١٩٤.

(٧٧) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص٦٢ . وقد وصف ابـن سـعيد (المغـرب، جـ١ ، ص٣٣٠) تاكرنا بأنها قصبة (قاعدة) كورة تاكرنا .

(٧٨) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٩٤.

(٧٩) الرشاطى ، الأندلس فى اقتباس الأنوار ، ص١٥ ؛ الإدريسى ، نزهـة المشـتاق ، ص٢٠٦ ؛ ياقوت الحموى ، معجـم البلـدان ، م١ ، ص٢٠٢ ؛ وتقـدر المصـادر العربية المسافة بينهما بمسيرة نصف يوم .

(٨٠) بالقياس إلى معلومة أوردها الحميرى أن مسافة ١١٠ ميلا تعادل مسيرة أربعة أيـام (نفس المصدر ، ص٢٣ ، مادة إصطبة) فإن مسيرة نصف يوم تقدر بحوالـى ١٤ ميلا تقريبا .

(٨١) الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٠٦.

(٨٢) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص١٨١.

(٨٣) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٣٥٥ ، ٣٩١ ، ٤٨٩.

(٨٤) الإدريسى ، نفس المصدر ، ص١٧٤.

(٨٥) ابـن سـعيد ، المغـرب ، جـ١ ، ص٣١٧ . ويـرى د. مؤنـس (الجغرافيـة والجغرافيين، ص١٥٩) أن بهذه الرواية بعض التجاوز ، فإن أشونة لم تكن كـورة ، وإنما كانت مدينة كبيرة فحسب .

(٨٦) ابن بشكوال ، الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القـاهرة ، ١٩٦٦، ق١ ، رقم ٦٧٨ ، ص٣٠٧.

(٨٧) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القـاهرة ، ١٩٦٦ ، ق١ ، رقم ٩١٢ ، ص٣٠٨.

(٨٨) Joaquin Vallve, la division territorial, p. 332.

(٨٩) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٨٨.

(٩٠) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٩٥ . وتجدر الإشارة إلى وجود إقليم يسمى الأشبورة وكان تابعا لطليطلة (ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٨٩) ؛ كما وجدت قرية تسمى أشبرة ، من قرى سرقسطة (ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة ، نشر عزت العطار ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ١، رقم ٨٠٢ ، ص٢٩٥) .

(٩١) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٨٨.

(٩٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٣٩٠ ، ص١٢٥.

(٩٣) Joaquin Vallve, la division territorial, p. 332.

(٩٤) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٢٨.

(٩٥) هناك شنتبرية الشرق وشنتبرية الغرب ، أيضا هناك حصن من حصون سرقسطة يعرف بحصن المرية (ابن حيان ، المقتبس ، ص٣٦٠ - ٣٦١) وهو يماثل اسم ثغر المرية الذى مصره عبد الرحمن الناصر على الساحل الجنوبى الشرقى من الأندلس ، وهناك قرطاجنة الجزيرة ، وقرطاجنة الخلفاء، بل إن هناك موضعين باسم واحد داخل حدود الكورة الواحدة مثل طرجيلة الشيخ وطرجيلة الثانية فى كورة جيان (المقتبس ، ص٣٥٨) وإقليم الفحص فى كل من طليطلة وإشبيلية (ابن غالب ، نفسه ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٣) ، ومرسانة بكورة إشبيلية ، ومرسانة أحد حصون المرية (الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٨١) . والأمثلة كثيرة .

(٩٦) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، ص١ ؛ حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيين ، ص٩٩ .

(٩٧) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص١٠٤.

(٩٨) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٨.

(٩٩) الخشنى ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، نشر ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا ، مدريد ، ١٩٩٢ ، ص٣٣٦.

(١٠٠) ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٧٤.

(١٠١) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص٤٥٥ – ٤٥٦ . ويذكر المقرى (نفح الطيب ، م١ ، ص٥٤١) « وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة » .

(١٠٢) الخشنى ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص ٢٣ ؛ ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، تراجم ١٤ ، ٩٩ ، ٤٦٣ ، ٨٢٨ ، ٩٢٦ ؛ العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص٥ ؛ الحميدى ، جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، رقم ٢٨٢ ، ص١٥٥ ؛ ابن بشكوال، الصلة ، تراجم ٥١٣ ، ٥٨٠ ، ٨٩٢ ؛ ابن الآبار ، التكملة لكتاب الصلة ، جـ١ ، رقم ١٠٠٤ ، ص٣٦٨ – ٣٦٩ ؛ مصطفى أبو ضيف ،القبائل العربية فى الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ ، ص ٤٥٤ ، ٤٧٠ ؛

Guichard, Al-Andalus, p. 343.

(١٠٣) الخشنى ، نفس المصدر ، ص٤٠ ، ٧٥ ، ٢٢٠ ؛ ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، تراجم ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٥١ ، ٣٠٦ ، ٦٥١ ، ١٠٩٤ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٥ ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٢ ، ص٢٠٧ ، ٢٦٩ – ٢٧٠ ؛ ابن بشكوال ، الصلة ، ق ١ ، رقم ١٤١٠ ، ص٦٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١.

(١٠٤) الخشنى ، نفسه ، ص٢٣٤ ؛ ابن الفرضى ، نفس المصدر ، ق١ ، رقم ٧٧٨ ، ص٢٥٧.

(١٠٥) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٥٠٠ – ٥٠٢ ؛

Guichard, Al-Andalus, pp. 369-370.

(١٠٦) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٤٨ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٥٠٠ ؛

Guichard, Al-Andalus, p. 388.

(١٠٧) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٩٩٧ ، ص٣٣٩.

(١٠٨) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٤٥٧.

(١٠٩) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٤٨ – ٤٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٣ – ٣٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص١٦١.

(١١٠) أمر أبو الخطار بتغريب رؤساء الفتنة عن الأندلس ، ومنهم سلفه ثعلبة بن سلامة العاملى ، فخرجوا عن الأندلس ، وآمن ابنى عبد الملك بن قطن والى الأندلس الأسبق الذى كان قتله سببًا مباشرًا فى اندلاع الصراع بين البلديين والشاميين ، كما فرق جند الشام عن قرطبة وأنزلهم فى كور الأندلس ، ليقضى على عوامل الاضطراب بها ، « وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة ، وبقى البلديون والبربر على غنائمهم لم ينتقصهم شيئًا » (ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٤٣ – ٤٤ ؛ أخبار مجموعة ، ص٤٩؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٥٨ – ٦٠ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠٢ – ١٠٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، نفس المرجع ، ص١٦١) .

(١١١) كان جده شمر من أشراف عرب الكوفة ، ثم لحق بالشام فأقام فيها ، وعند خروج كلثوم بن عياض القشيرى غازيًا إلى المغرب ، خرج معه الصميل مع بعض أشراف الشام ، ثم دخل الأندلس فى طالعة بلج بن بشر ، وكان الصميل شجاعًا ، نجدًا ، جوادًا ، كريمًا ، إلا أنه كان أميًا ، وكانت له فى قلب الدول وتدبير الحروب أخبارًا مشهورة ، وتوفى فى سجن الأمير عبد الرحمن بن معاوية فى عام ١٤٢هـ (عن الصميل بن حاتم راجع : ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٥٩٤ ، ص١٩٨ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٤ ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ ، جـ١ ، ص٦٧ – ٦٨ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤) .

(١١٢) أخبار مجموعة ، ص٥٧ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤.

(١١٣) أخبار مجموعة ، ص٥٧ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩٠ – ٢٩١ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٢٦٤ ؛ عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس، ع١ ، ق١ ، ص١٢٧ ؛ مصطفى أبو ضيف ، القبائل العربية ، ص١٠٠.

(١١٤) إخبار مجموعة ، ص٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ ابن عـــذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤.

(١١٥) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ المقــرى ، نفح الطيب ، م٣ ، ص٢٣ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٢٦٥.

(١١٦) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٢.

(١١٧) أخبار مجموعة ، ص٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ ابن عـــذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤ – ٣٥ ؛ المقرى ، نفــح الطيــب ، م٣ ، ص٢٣ – ٢٤ ؛ حسين مؤنس ، نفسه ، ص٢٢٦.

Guichard, Al-Andalus, p. 347.

(١١٨) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٣.

(١١٩) تولى يوسف الفهرى ولاية الأندلس بتقديم الصميل بن حاتم له ، وكان الأندلســيون طلبوا منه أن ينظر لهم في وال يوليه عليهم بعد وفاة ثوابة بـــن ســلامة ، نظـراً لانشغال الخليفةمروان بن محمد آخر الأمويين بالمشرق عنهم وبعده عنـــهم (ابــن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٦ ؛ المقرى نقلاً عن الرازى ، نفح الطيــب ، م٣ ، ص٢٥) .

(١٢٠) المقرى برواية ابن حيان ، نفح الطيب ، م٣ ، ص٢٥ ؛ عنان ، المرجع الســابق ، ع١ ، ق١ ، ص١٣١ ؛

Aguado Bleye, Manual de la historia de Espana, Madrid, 1947, t. I, pp. 400-401.

(١٢١) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦١ ؛ ابن عذارى، البيان ، جـــ٢ ، ص٣٦ – ٣٧ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م٣ ، ص٢٦ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٧ .

(١٢٢) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٦١ . ويذكر صاحب فتح الأندلس (ص٦٨) أن أبــا العطاء تشفع فى الأسرى ، غير أن الصميل رفض وقال له « بــهذا عــزك وعــز قومك » ، فقام إليه مرة أخرى بعد قتل بعض الأسرى ، وهدده بأنه إن لـــم يكــف عن مواصلة قتل الأسرى ليدعون دعوة شامية ضد الصميل، فوافق على شــفاعته .

غير أن ابن عذارى يرى أن الصميل ضرب أعناق الأسرى جميعًا (البيان ، جـ٢ ، ص٣٧) .

(١٢٣) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٤٩.

(١٢٤) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٤ – ٦٥.

(١٢٥) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٧٧ . وينكر المؤرخ المجهول أن عبد الرحمن بن معاوية هو الذى كاتب الأجناد العرب والبربر يدعوهم إلى مساندته (أخبار مجموعة ، ص٢٧٧ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٦٨٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص١٨٧) .

(١٢٦) شارك بعض موالى عبد الرحمن بن معاوية من البربر فى هذه المعركة وأبلوا فيها بلاء حسنًا وكان على رأسهم عاصم العريان الذى كان قائدًا لرجالته ، وإبراهيم بن شجرة الأورى قائد فرسان البربر فى موقعة المصارة (ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٥٠ ؛ مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٨١) .

(١٢٧) لمزيد من التفاصيل عن ثورة عبد الغفار اليحصبى بإشبيلية ومحاولته الاستيلاء على قرطبة راجع : ابن القوطية ، نفسه ، ص٥٢ – ٥٤ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٥٠ – ٥١ ؛ عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس، ع١ ، ق١ ، ص١١٠؛ Levi Provencal, Historia de Espana Musulmana, Madrid, 1957, p. 74.

ورغم المبالغة فى عدد قتلى اليمنية فى هذه المعركة فإن ذلك يدل على عظم هذه الثورة وخطورتها . ولقد كانت هاتان الثورتان حلقة من حلقات الصراع الذى احتدم بين الأمير عبد الرحمن الداخل وبين العناصر اليمنية فى غرب الأندلس ، لأنهم لم يتمكنوا من السيطرة على البلاد من خلاله كما كانوا يخططون بمؤازرتهم له للإحاطة بالصميل ويوسف الفهرى ، كما ساءهم أن يوقفهم عن الانتقام من القيسية والتشفى منهم ، واعتبروا موقفه هذا تعصبًا لمضريته (مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٨٣ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٦٨٦) .

(١٢٨) كان حيوة بن ملامس من جند حمص الذين نزلوا بإشبيلية ، وكان فى طليعة الذين ناصروا الأمير عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس (ابن القوطية ، نفسه ، ص٤٨) وارتبط معه بصداقة وطيدة ، وكانت له عند الأمير منزلة عالية ، فالحميدى يذكر أن الداخل نظم أبياتاً شعرية امتدح فيها خلق حيوة وجوده ووفائه منها :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها إذا غاب عنها حيوة بن ملامس

أخو السيف يقرى الضيف حقاً يراهما عليه ، وينفى الضيم عن كل يائس

(الحميدى ، جذوة المقتبس ، رقم ٣٨٩ ، ص١٩٨ ؛ ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ١ ، ص٣٦ – ٣٧) ويذكر الرازى أن حيوة بن ملامس روى للأمير عبد الرحمن بن معاوية عن حنش الصنعانى التابعى أن ملك بنى أمية لا يزال إلى خروج الدجال ، فأقطعه الأمير قطيعة معروفة (ابن الآبار، التكملة ، جـ١ ، رقم ٧٥٦ ، ص٢٨٢.

(١٢٩) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٥١.

(١٣٠) تقع قريش شمال غربى قرطبة ، وتتصل أحوازها بأحواز فحص البلوط ، وكانت تشتهر بأشجار القسطل ومعادن الرخام والحديد ، ولها عدة أقاليم منها لواتة ، والمرج وموالى موسى ، والسند ، وقسطنطينة ، وهى مدينة أولية من بناء الرومان ، وقد اندثرت قريش اليوم ولم يبق فى بقعتها سوى حصن قديم يسمى قلعة الحديد Castilla del Hierro (عن وصفها راجع: ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٤٣) .

(١٣١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٥١ ؛ عنان ، دولة الإسلام ، ع١ ، ق١، ص١٦١ ؛ مصطفى أبو ضيف ، القبائل العربية ، ص١٥٢ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين ، التاريخ السياسى لمدينة إشبيلية فى العصر الأموى، الإسكندرية ، ١٩٨٧ ، ص٤٣ ؛ وتجدر الإشارة إلى أن حيوة بن ملامس وعبد الغفار اليحصبى سيعاودان الثورة على الأمير عبد الرحمن الداخل مرة أخرى فى

إشبيلية عام ١٥٤هـ ، ولكنه سيهزمهم ويقتل منهم ستة آلاف رجل (العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص١٠١) ؛

Bosch Vila (Jacinto), Historia de Sevilla, Sevilla 1984, pp. 39-40.

(١٣٢) ابن الأثير ، الكامل ، م٥ ، ص٩٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٦٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، تحقيق أحمد كمال زكى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، جـ٢٣ ، ص٣٥٧ ؛ عنان ، نفسه ، ع١ ، ق١ ، ص٢٢٧.

(١٣٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٦٤.

(١٣٤) تقع طلبيرة Talavera على مسافة سبعين ميلاً من طليطلة ، وهى مدينة قديمة أزلية تطل على نهر تاجة ، وكانت أقصى ثغور المسلمين ، ولذلك كانت تتوجه منها الجيوش الإسلامية إلى قشتالة وجليقية ، وتعتبر قلعتها من أرفع قلاع المسلمين حصانة (عن وصفها راجع : الإدريسى ، المصدر السابق ، ص١٨٧ ؛ الحميرى ، نفس المصدر ، ص١٢٧ – ١٢٨) .

(١٣٥) ترجيلة أو ترجالة Trujilo مدينة كالحصن كما يذكر الجغرافيون ، وهى من أعمال كورة ماردة ، وبينها وبين قرطبة مسيرة ستة أيام للراكب ، وكانت يغلب على أهلها التلصص والخداع ، وقد استولى عليها النصارى فى عام ٦٣٠هـ (عن وصفها راجع : ابن غالب ، نفسه ، ص٢٩٠ ؛ الإدريسى ، نفسه ، ص١٨٧ ؛ الحميرى ، نفسه ، ص٦٣) .

(١٣٦) ابن الأثير ، الكامل ، م٥ ، ص٩٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٦٤ ؛ النويرى ، نفسه ، جـ٢٣ ، ص٣٥٧ – ٣٥٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢١٥ – ٢١٦ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين، ثورات البربر فى الأندلس فى عصر الإمارة الأموية ، الإسكندرية ١٩٩٣ ، ص ٢٩ – ٣٠ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 94; Guichard, Al-Andalus, p. 372.

(١٣٧) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٧٠ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٣، ص٣٦٢ ؛ ويذكر الأستاذ عنان (المرجع السابق ، ع١ ، ق١ ، ص٢٣٣) نقلاً عن القطعة المفقودة من المقتبس لابن حيان الخاصة بعصرى الحكم الربضى وابنه

إمارتي محمد بن عبد الرحمن وابنه المنذر ، أحد أبحاث كتاب « دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس » ، ليبيا – تونس ، ١٩٨٤ ، ص١٢٥؛

Levi Provencal, Historia, p. 235; Joaquin Vallve, Ibid., p. 148.

(١٥٠) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٥١ ؛ أمين توفيق الطيبي ، عمر بن حفصون ، ص١٢٧.

(١٥١) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ق٢ ، رقم ١٦٢٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ ق١ ، رقم ٣٠٦ ، ص٩٩.

(١٥٢) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ق٢ ، رقم ١٦٢٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ ق١ ، رقم ٣٠٦ ، ص٩٩.

(١٥٣) ابن حبيب (عبد الملك) ، كتاب التأريخ ، نشر خورجي آجوادي ، مدريد، ١٩٩١ ، ص١٥٢ ؛ الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١١٤ ؛

Avila (Maria Luisa), la sociedad Hispanomusulmana Al Final del Califato, Madrid, 1985, pp. 80-81, nota 3.

(١٥٤) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٥٤ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٢٢ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، جـ١ ، ص١٥٤ ؛ عنان ، المرجع السابق ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤ ؛ محمد عيسى الحريري ، حركات المولدين ، ص٦٤ – ٦٥.

(١٥٥) ابن حيان ، المقتبس ، أنطونية ، ص٥٤ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٣١.

(١٥٦) عنان ، نفسه ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤.

(١٥٧) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٤.

(١٥٨) ابن حيان ، نفس المصدر ، ص١٠٢ – ١٠٣ ؛ محمد عيسى الحريري ، حركات المولدين ، ص٦٨.

(١٥٩) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٣٢.

(١٦٠) ابن حيان ، نفسه ، ص١٠٢ ؛ وحصن بلاى من أمنع حصـــون قـبرة Cabra ، وكان يقع على بعد خمسين كم جنوب غرب قرطبة ، وقد أفرط ابن حفصـــون فــى تقويته وتحصينه وجعله مركزًا للسيطرة على كورة قبرة كلها ، وتقوم فى موضـــع بلاى اليوم قرية صغيرة تعرف باسم Aguilar de la Frontera (انظـر : ابــن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٥٥٦ ، تعليق رقم ٣٨٠ ؛ عنان ، دولة الإسـلام ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 236.

(١٦١) لمزيد من التفاصيل عن معركة بلاى راجع : ابــن عــذارى ، البيــان ، جــ٢، ص١٢٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الخطيــب ، أعمــال الأعلام ، ق٢ ، ص٣١ ، ٣٥ ؛ إبراهيم القادرى بوتشيش ، أثر الإقطاع فى تــاريخ الأندلس السياسى ، الرباط ، ١٩٩٢ ، ص٢٧٥

(١٦٢) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٦ – ٩٧ ؛ ابن عــذارى ، البيــان ، جــ٢ ، ص١٢٣ – ١٢٤.

ولقد حدد ابن الخطيب تاريخ معركتى بلاى وأستجة بعام ٢٧٧هــ (أعمال الأعـلام ، ق٢ ، ص٣٦) ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٦١ ؛ عنــان ، نفس المرجع ، ص٣٢٥ ؛

Joaquin Vallve, De nuevo sobre Bobastro, p. 149.

(١٦٣) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٧.

(١٦٤) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص١١١ – ١١٢ . وكــان طــالب ابــن مولود صنيعة للإمام عبد الله ، وكان قد بنى حصنى أقوط وجبل الحجــارة، فقلــده الأمير عبد الله ولايتهما (العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص١١٤) .

(١٦٥) لبلة تعرف بالحمراء ، وهى مدينة قديمة تقع فى غرب الأندلس على مقربـــة مــن إشبيلية وبينها وبين المحيط الأطلنطى ستة أميال ، وكانت تجمع بين خيرات الــبر والبحر ، وبها ثمانية أقاليم ، ولها سور منيع عقد على أربعة تمـــاثيل ، وانفــردت بهذه البنية من بين سائر المدن (عن وصفها راجع : العذرى ، نفســه ، ص ١١٠

إمارتي محمد بن عبد الرحمن وابنه المنذر ، أحد أبحاث كتاب « دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس » ، ليبيا – تونس ، ١٩٨٤ ، ص١٢٥؛

Levi Provencal, Historia, p. 235; Joaquin Vallve, Ibid., p. 148.

(١٥٠) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٥١ ؛ أمين توفيق الطيبي ، عمر بن حفصون ، ص١٢٧.

(١٥١) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ق٢ ، رقم ١٦٢٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ ق١ ، رقم ٣٠٦ ، ص٩٩.

(١٥٢) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ق٢ ، رقم ١٦٢٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ ق١ ، رقم ٣٠٦ ، ص٩٩.

(١٥٣) ابن حبيب (عبد الملك) ، كتاب التأريخ ، نشر خورجي آجوادي ، مدريد، ١٩٩١ ، ص١٥٢ ؛ الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١١٤ ؛

Avila (Maria Luisa), la sociedad Hispanomusulmana Al Final del Califato, Madrid, 1985, pp. 80-81, nota 3.

(١٥٤) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٥٤ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٢٢ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، جـ١ ، ص١٥٤ ؛ عنان ، المرجع السابق ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤ ؛ محمد عيسى الحريري ، حركات المولدين ، ص٦٤ – ٦٥.

(١٥٥) ابن حيان ، المقتبس ، أنطونية ، ص٥٤ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٣١.

(١٥٦) عنان ، نفسه ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤.

(١٥٧) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٤.

(١٥٨) ابن حيان ، نفس المصدر ، ص١٠٢ – ١٠٣ ؛ محمد عيسى الحريري ، حركات المولدين ، ص٦٨.

(١٥٩) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٣٢.

(١٦٠) ابن حيان ، نفسه ، ص١٠٢ ؛ وحصن بلاى من أمنع حصون قبرة Cabra ، وكان يقع على بعد خمسين كم جنوب غرب قرطبة ، وقد أفرط ابن حفصون في تقويته وتحصينه وجعله مركزًا للسيطرة على كورة قبرة كلها ، وتقوم في موضع بلاى اليوم قرية صغيرة تعرف باسم Aguilar de la Frontera (انظر : ابن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٥٥٦ ، تعليق رقم ٣٨٠ ؛ عنان ، دولة الإسلام ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 236.

(١٦١) لمزيد من التفاصيل عن معركة بلاى راجع : ابن عذارى ، البيان ، جـ٢، ص١٢٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٣١ ، ٣٥ ؛ إبراهيم القادرى بوتشيش ، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسى ، الرباط ، ١٩٩٢ ، ص٢٧٥

(١٦٢) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٦ - ٩٧ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٢٣ - ١٢٤.

ولقد حدد ابن الخطيب تاريخ معركتى بلاى وأستجة بعام ٢٧٧هـ (أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٣٦) ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٦١ ؛ عنان ، نفس المرجع ، ص٣٢٥ ؛

Joaquin Vallve, De nuevo sobre Bobastro, p. 149.

(١٦٣) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٧.

(١٦٤) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص١١١ - ١١٢ . وكان طالب ابن مولود صنيعة للإمام عبد الله ، وكان قد بنى حصنى أقوط وجبل الحجارة، فقلده الأمير عبد الله ولايتهما (العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص١١٤) .

(١٦٥) لبلة تعرف بالحمراء ، وهى مدينة قديمة تقع فى غرب الأندلس على مقربة من إشبيلية وبينها وبين المحيط الأطلنطى ستة أميال ، وكانت تجمع بين خيرات البر والبحر ، وبها ثمانية أقاليم ، ولها سور منيع عقد على أربعة تماثيل ، وانفردت بهذه البنية من بين سائر المدن (عن وصفها راجع : العذرى ، نفسه ، ص ١١٠

- ١١١ ؛ ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩١ - ٢٩٢ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 91-92; Castro (F. R.), Niëbla Musulmana, Huelba, 1993, pp. 83-97.

(١٦٦) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص١١٩ - ١٢٠ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٣٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٦٢ ؛ بوتشيش ، أثر الإقطاع ، ص٢٧٥ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 238; Castro, Niebla Musulmana, pp. 47-196.

(١٦٧) ابن حيان ، نفسه ، ص١٢٠.

(١٦٨) ابن حيان ، نفسه ، ص١٣٩.

(١٦٩) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص١٢٠ ؛ عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ع١ ، ق١ ، ص٣٣٧.

(١٧٠) الزجالى ، أمثال العوام ، ق٢ ، رقم ٩٦٣ ، ص٢١٨

(١٧١) إبن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٤ - ٥٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٠ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 263.

(١٧٢) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٤ - ٥٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٠ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ؛

Anonimo, Una Cronica anonima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir, Granada-Madrid, 1950, p. 34; Avila (M. L.), Op. Cit., pp. 80-81.

(١٧٣) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٥ - ٥٦ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٠ ؛ عنان ، ع١ ، ق٢ ، ص٣٧٥ ؛ حسين مؤنس ، موسوعة تاريخ الأندلس ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، جـ١ ، ص٢٧٣.

(١٧٤) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥.

(١٧٥) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٧٧.

(١٧٦) تذكر ماريا لويسا آبلا أن أستجة لم تعد تلعب دوراً مهمًا فى تاريخ الأندلس (Avila (M. L.), La Sociedad Hispanomusulmana, p. 81) . ولعلها تقصد تاريخ الأندلس السياسى ، فسوف نرى أنها رغم فقدانها لأهميتها السياسية بقية عصر الخلافة إلا أنها سوف تسهم بدور عظيم فى حضارة البلاد خلال نفس هذه الحقبة ..

(١٧٧) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٢١٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٩٦ ؛ مؤنس ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص٣٠٨ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 274.

(١٧٨) Levi – Provencal, Inscriptions Arabes, d' Espagne, Paris, 1931, p. 36.

(١٧٩) انظر الملحق بأسماء ولاة أستجة فى آخر البحث .

(١٨٠) يحيى بن على بن حمدون الجذامى بن الأندلسى ، كان جده الأكبر عبد الحميد هو الداخل إلى الأندلس من الشام واستقر بالبيرة . أما جده حمدون فقد دخل فى خدمة الفواطم بالمغرب ، وازداد أبوه على بن حمدون حظوة عندهم وشيد لهم مدينة المسيلة بالجزائر وتولاها ابنه جعفر من بعده ، وتحالف هو ويحيى مع بنى خزر أمراء زناتة الموالين لبنى أمية ، على حرب زيرى بن مناد الصنهاجى ، فقاتلوه وانتصروا عليه وحزوا رأسه ، بعدها خاطب جعفر بن على الخليفة الحكم المستنصر معتصمًا بدعوته ، فأذن له بالعبور إلى الأندلس ، ثم لحق به أخوه يحيى ، فأقاما مكرمين عند الحكم المستنصر، إلى أن سعى بهما إليه ، فسجنهما فى الزهراء فتشفع لهما عبد الملك بن منذر بن سعيد ، فعفا عنهما ، وأعادهما إلى سابق حالهما (عن يحيى بن على بن حمدون راجع : ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٤١ ، ٥٦ – ٥٧ ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ١ ، ص٣٠٥ – ٣٠٨ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٢٤٢ – ٢٤٣ ؛ مجهول ، مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ص٥ – ٨ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 389.

(١٨١) ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٥٦ – ٥٧ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 389.

(١٨٢) ابن حيان ، نفس المصدر ، ص١٠٠.

(١٨٣) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٢٥٥ ، ص٨٠.

(١٨٤) كان من كبار موالى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأبرز شخصيات الموالى فى عصره وعصر ولده الخليفة الحكم المستنصر ، وتولى قيادة جيش الثغر ، وأعاد بناء مدينة سالم بأمر الخليفة الناصر فى عام ٣٢٥هـ/٩٤٦م ، ولعب غالب الناصرى دوراً هامًا فى القضاء على ثورة الحسن بن كنون الإدريسى ضد النفوذ الأموى فى المغرب فى عام ٣٦٣هـ/٩٧٤م ، وعند عودته إلى الأندلس حمل معه الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ، فعقد الخليفة المستنصر هذا الاستقبال له (عن غالب الناصرى راجع : ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص١١٦ – ١٤٤ ، ١٥١ – ١٧٨ ، ١٨٢ – ١٩٤ ، ٢٠٠ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١١٣ – ١١٤ ، ٢٤٦ – ٢٤٨ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين ، فارس الأندلس غالب الناصرى ودوره فى حوادث المغرب والأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م٣٧ ، ١٩٨٩ ، ص١١ – ٥٠) .

(١٨٥) ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٢٠٠ – ٢٠١.

(١٨٦) ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٢١٦.

(١٨٧) Levi – Provencal, Inscriptions Arabes, p. 37, Espagne Musulmane au Xe p. 93.

(١٨٨) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٢٨٨ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٨٨ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٤٠٩.

(١٨٩) إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا ، الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، نوقشت بآداب الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص٤١٠؛

Wasserstein (David) The Rise and Fall of the Party-Kings, Princeton, New Jersey, 1985, p. 62.

(١٩٠) الأمير عبد الله الزيرى ، كتاب التبيان ، تحقيق أمين توفيق الطيبى ، منشورات عكاز ، الرباط ، ١٩٩٥ ، ص٥٨.

(١٩١) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص١٠٤.

(١٩٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث الدامية راجع : إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا ، المرجع السابق ، ص١٧٦ – ٢٧١ والمصادر والمراجع المذكورة هناك.

(١٩٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص١٠٢ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس، ص٥٩.

(١٩٤) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، ص٦٩.

(١٩٥) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٧ ؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة ، نفسه ، ص٢٥٢ – ٢٥٣ ؛

Wasserstein, The Rise and Fall of the Party-Kings, p. 66; Scales (P.), The Fall of the Caliphate of Cordoba, Leiden, New York 1994, p. 79.

(١٩٦) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٢٦ ؛

Levi - Provencal, Historia, p. 470.

(١٩٧) ينتسب بنو برزال إلى قبيلة زناتة البربرية ، وكانوا ينزلون بالمغرب فى منطقة الزاب حول مدينة المسيلة ، وصاروا شيعًا لبنى على بن حمدون الأندلسى ،وانتقلوا إلى الأندس بواسطة جعفر بن على بن حمدون للخدمة فى جيش الخليفة الحكم المستنصر . ولقد لعبوا دوراً هامًا فى انتقال الخلافة لابنه هشام المؤيد ، ثم صاروا بطانة للمنصور العامرى وأولاده من بعده ، وشاركوا كغيرهم من القبائل البربرية الوافدة حديثًا إلى الأندلس فى أحداث الفتنة ، واستقرت شعبة منهم فى جيان ، أما غالبيتهم فقد استقلوا بقرمونة (عن بنى برزال راجع : ابن حزم ، جمهرة أنساب

العرب ، ص٤٩٨ ؛ ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٤٤ ، ٥٦ ، ١٩١ – ١٩٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٢٤٢ – ٢٤٣ ، ٢٦٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ ، م٧ ، ص١١٢.

Idris (H. R.), Les Birzalides de Carmona, R. Al-Andalus, vol. XXX, Fasc I, Madrid, 1965, pp. 49-52.

(١٩٨) ولقد بايعته أيضًا أشونة والمدور لنفس السبب الذى بايعته أستجة من أجله (ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص٢٦٨ ، ٣١١ – ٣١٢ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٧٢ ؛ محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص١٤٩ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين ، دولة بنى برزال ، قرمونة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص٥٦ – ٥٧ ؛

Idris, Op. Cit., pp. 50-52; Viguera (M. J.), Los Reinos de Taifas, Al-Andalus en el Siglo XI, Espasa Calpe, Madrid, 1994, p. 50; Scales The Fall of the Caliphate of Cordoba, p. 178.

(١٩٩) بعد وفاة أبى عبد الله البرزالى فى عام ٤٣٤هـ ، بايعت أستجة وغيرها لابنه المستظهر عزيز بن محمد « فسار فيها بسيرة أبيه وزاد فى إحسانه لهم » (البيان ، جـ٣ ، ص٣١٢) .

(٢٠٠) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص٢٣٠ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٦٤ ؛

Wasserstein, Op. Cit., p. 129.

ولعل اضطراب أحوال المستظهر البرزالى عندما بدأ المعتضد بن عباد (٤٣٩ – ٤٦٤هـ) فى مضايقته وإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه، كان وراء قيام صاحب غرناطة باستقطاع أستجة من أملاك البرزالى ، وبسط سلطانه عليها .

مصادر ومراجع البحث

(أ) المصادر العربية :

(١) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، التكملة لكتاب الصلة ، نشر عزت العطار ، مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ، ١٩٥٦م.

(٢) ــــــــــــ ، الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥م.

(٣) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨هـ/١١٨٣م ، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

(٤) البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٨ م.

(٥) ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد) ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م ، الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م.

(٦) ابن حبيب (عبد الملك) ت ٢٣٨هـ/٨٥٢م ، كتاب التأريخ ، نشر خورخى آجوادى ، مدريد ، ١٩٩١م.

(٧) ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م ، فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة، ١٩٧٤م.

(٨) ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد) ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ، جمهرة أنساب العرب ، نشر عبد السلام هارون ، ط٥ ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٩) الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م جذوة المقتبس فى أخبار علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

(١٠) الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٠٥هـ أو ٧٠٩هـ/١٣٠٦م ، ١٣٠٩م ، صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر بروفنسال ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨م.

(١١) ابن حوقل (أبو القاسم) ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، صورة الأرض، ليدن ، ١٩٣٨م.

(١٢) ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين) ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م ، المقتبس فى تأريخ رجال الأندلس، نشره ملشور أنطونية ، باريس ، ١٩٣٧م.

(١٣) ــــــــــــ ، المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، نشره د. عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٥م.

(١٤) ــــــــــــ ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د. محمود على مكى ، بيروت ، ١٩٧٣م.

(١٥) ــــــــــــ ، المقتبس ، نشر بدرو شالميتا ، مدريد ، ١٩٧٩م.

(١٦) الخشنى (أبو عبد الله محمد بن الحارث) ت ٣٦١هـ/٩٧٢م ، قضاة قرطبة ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨٢م.

(١٧) ـــــــــــــــ ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، دراسة وتحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا مدريد ، ١٩٩٢م.

(١٨) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، ق٢ ، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤م.

(١٩) ـــــــــــــــ ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى القاهرة ، ١٩٧٣م.

(٢٠) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ المغرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبنانى ، مكتبة المدرسة ، بيروت ، ١٩٨٣م.

(٢١) الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد) ت ٥٤٨هـ/١١٥٥م ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر دوزى ودى غويه ، ليدن ، ١٨٩٤م.

(٢٢) الرشاطى (أبو محمد) ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م ، وابن الخراط الإشبيلى، ت ٥٨١هـ/١١٨٦م ، الأندلس فى كتاب اقتباس الأنوار وفى اختصار اقتباس الأنوار ، تحقيق إميليو وبوسك فيلا ، مدريد ، ١٩٩٠م.

(٢٣) الزجالى (أبو يحيى عبيد الله بن محمد) ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م ، أمثال العوام فى الأندلس ، تحقيق محمد بن شريفة ، فاس ، ١٩٧٥م.

(٢٤) الزهرى (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر) عاش فى ق٦هـ/ ق١٢م ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، نشر بمجلة الدراسات الشرقية بدمشق، ١٩٦٨م.

(٢٥) الزيرى (الأمير عبد الله) كان حيًا ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ، مذكرات الأمير عبد الله الزيرى ، تحقيق د. أمين توفيق الطيبى ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ١٩٩٥م.

(٢٦) ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، ط٣ ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٨م.

(٢٧) الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم) ت ٣٤٦هـ/٩٥٨م ، المسالك والممالك، نشر دى غويه ، ليدن ، ١٩٢٧م.

(٢٨) ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) كان حيًا ٧١٢هـ/١٣١٢م ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م.

(٢٩) العذرى (أحمد بن عمر بن أنس) ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥م.

(٣٠) ابن غالب (محمد بن أيوب) عاش فى ق٦هـ/ق١٢م ، فرحة الأنفس، نشر د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جـ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

(٣١) ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد) ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

(٣٢) ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر) ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت، ١٩٨٢م.

(٣٣) ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك) عاش فى ق٦هـ/ق١٣م ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مدريد ، ١٩٧١م.

(٣٤) المراكشى (عبد الواحد بن على) ت ٦٦٩هـ/١٢٧٠م ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد زينهم محمد ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

(٣٥) المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى) ت ٣٧٨هـ/٩٨٨م ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق دى غويه ، ليدن ، ١٩٠٦م.

(٣٦) المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد) ت١٠٤١هـ/١٦٣١م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ م.

(٣٧) مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨١م.

(٣٨) مجهول ، مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤م.

(٣٩) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، مدريد ، ١٩٨٣م.

(٤٠) مجهول ، فتح الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، مدريد ، ١٩٩٤م.

(٤١) النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢هـ/١٣٣١ ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠م.

(٤٢) ابن هشام اللخمى (أبو عبد الله محمد بـــن أحمـــد) ت ٥٧٧هـــ/١١٨١م، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، دراســة وتحقيــق خوســيه بــيريث لاثارو، مدريد ، ١٩٩٠م.

(٤٣) الونشريشى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد) ت ٩١٤هـــ/١٥٠٨م ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغــرب ، نشر وزارة الأوقاف المغربية ، الرباط ١٩٨١م.

(٤٤) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) ، ت ٦٢٦هــ/١٢٢٩م ، معجــم البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٩٧٨

(ب) المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة :

(١) بوتشيش (دكتور إبراهيم القادرى) ، أثر الإقطاع فى تاريخ الأندلس السياســى من منتصف القرن الثالث الهجرى حتى ظهور الخلافة ، منشــورات عكــاظ ، الرباط ، ١٩٩٢م.

(٢) تسيبولد ، أستجة ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية ، نشر إبراهيــم خورشــيد وزميلاه ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٣) حسين (دكتور حمدى عبد المنعم محمد) ، التاريخ السياسى لمدينة إشبيلية فــى العصر الأموى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٨م.

(٤) ـــــــــــــ ، فارس الأندلس غالب النــاصرى ودوره فــى حــوادث المغرب والأندلـــس ، مجلــة كليــة الآداب ، جامعــة الإســكندرية ، م٣٧ ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م.

(٥) ـــــــــــــ ، دولة بنى برزال ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

(٦) ـــــــــــــ ، ثورات البربر فى عصر الإمارة الأموية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٩٣م.

(٧) الحريرى (دكتور محمد عيسى) ، حركات المولدين فى الجنوب الأندلسى فى عصر الإمارة الأموية بالأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٥م.

(٨) سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م.

(٩) ـــــــــــــ ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٤م.

(١٠) أبو ضيف (دكتور مصطفى) ، القبائل العربية فى الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ .

(١١) طه (دكتور عبد الواحد ذنون) ، نظرة عصرية لعملية عبور مضيق جبل طارق ومعركة كورة شذونة ، الموصل ، ١٩٨٧م.

(١٢) الطيبى (دكتور أمين توفيق) ، عمر بن حفصون ، نشأته ثورته فى إمارتى محمد بن عبد الرحمن وابنه المنذر ، أحد أبحاث كتاب « دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس » ، ليبيا – تونس ، ١٩٨٤م.

(١٣) العبادى (دكتور أحمد مختار) ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ، ١٩٦٨م.

(١٤) ـــــــــــــــ ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، نشر مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .

(١٥) عنان (محمد عبد الله) ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

(١٦) ـــــــــــــــ ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

(١٧) أبو العلا (دكتور إبراهيم عبد المنعم سلامة) ، الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بآداب الإسكندرية ، ١٩٩٣م.

(١٨) مصطفى (دكتور شاكر) ، الأندلس فى التاريخ ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٩٠م.

(١٩) مؤنس (دكتور حسين) ، فجر الأندلس ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

(٢٠) ـــــــــــــــ ، الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ط٢ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٦م.

(٢١) ـــــــــــــــ ، موسوعة تاريخ الأندلس ، فكر وتاريخ وحضارة وتراث ، ط١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

(٢٢) الأمين (دكتور إسماعيل) ، العرب لم يغزوا الأندلس ، رياض الريس للكتب والنشر لندن ، ١٩٩١م.

(٢٣) الهاشمى (التهامى الراجى) ، الأبواب فى الأندلس ، مجلة المناهل ، عدد ١٣ ، الرباط ، ١٩٧٨م.

(٢٤) الأهوانى (دكتور عبد العزيز) ، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمـــى فى لحن العامة ، مجلة معهد المصطلحات العربية ، م١ ، جـ١ ، القـاهرة ، ١٩٥٧م.

المراجع الأوربية الحديثة :

1- Aguado Bleye (P.), Manual de la Historia de Espana, t. 1, Madrid, 1947.

2-Alvarez de Morales (C.), Aproximacion a la figura de Ibn Abi –L-Fayyad y su Historia, Cuadernos de Historia del Islam, No. 9, Granada, 1978.

3- Anonimo, Una Cronica anonima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir, ed. Levi - Provencal, Gacria Gomez, Granada - Madrid, 1950.

4- Avila (Maria Luisa), la Sociedad Hispanomusulmana Al Final del Califato, Madrid, 1985.

5- Bosch Vila (Jacinto), Historia de Sevilla, La Sevilla Islamica, Sevilla, 1984.

6- Castro (Fatima Roldan), Niebla Musulmana, Siglos VIII – XIII, Huelba, 1993.

7- Chalmeta (Pedro), Invasion E Islamization, ed. Mapfre, Madrid, 1944.

8- Dozy (R.), Le Calendrier de cordoue de l'annee 961, Leiden 1873.

9- Guichard, (Pierre), Al-Andalus, Estructura Antropolgica de un Sociedad Islamica en Occidente, Barcelona 1976.

10- Idris (H. R.), Les Birzalides de Carmona, R. Al-Andalus, vol. XXX, Fasc I, Granada Madrid, 1965.

11- Levi - Provencal, Inscription Arabes, d' Espagne, Paris, 1931.

12- --------------, L'Espagne Musulmane au Xe Siecle, Paris 1932.

13- --------------, la description de l'Espagne d'Ahmed Al-Razi, R. Al-Andalus, Vol. XVII, Madrid 1953.

14- --------------, Historia de Espana Musulmana, ed Romon Menendez Pidal, Madrid, 1957.

15- Meouak (M.), Deux Familles d'Origine affranchip au service de L'Etat hispano-Umayyade, Les Banu Durri et Banu Tarafa, R. Anaquel Vol. II, Madrid, 1991.

16- Saavedra, Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1882.

17- Scales (Peter), The Fall of the Caliphate of Cordoba, Leiden, New York 1994.

18- Torres Balbas, La Via Augusto, y el Arrecife musulman, R. Al-Andalus, vol. XXIV, Madrid, 1959.

19- Vallve, (Joaquin), De nuevo sobre Bobastro, R. Al-Andalus, vol. XXX, Madrid 1965.

20- ------------, la division territorial de la Espana Musulmana, Madrid, 1980.

21- Viguara (Maria Jesus), Los Reinos de Taifas, Al-Andalus en el Siglo XI, ed Espasa Calpe, Madrid, 1994.

22- Wasserstein (David), The Rise and Fall of the Party-Kings, Princeten, New Jersy, 1985.

وزراء العصر العباسى الأول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ

د. فايزة إسماعيل أكبر(*)

مقـــــدمة :

ليس المقصود من هذه الدراسة تعريف القارئ بماهية منصب الـــوزارة ، أو إعطاء القارئ ترجمة عن حياة وزراء هذا العصر، فقد ألفت فى هـــذا الموضـــوع العديد من الكتب والبحوث المتأنية ، وإنما الهدف الذى قصدنــــاه مـــن وراء هـــذه الدراسة هو إلقاء الضوء على الدور الذى لعبه أشهر وزراء هذا العصر فى مختلـف الجوانب العامة مما أحدث تغييرًا فى أوضاع المجتمع الإسلامى ؛ سواءً سياسيًا ، أم اقتصاديًا ، أم إداريًا ، أم اجتماعيًا .

ونظام الوزارة واحد من النظم السياسية الهامة فى الإسلام ، بل هو أهم النظم السياسية بعد الخلافة ، إلا أن منصب الوزارة - كمؤسسة مستقلة لـــها صلاحيـات معينة - لم يعرف إلا فى العصر العباسى . وفى ذلك يقول ابن طباطبا « الـــوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس . فأما قبل ذلك فلم تكـــن مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشـــية ، فإذا حدث أمر استشار بذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منـــهم يجـــرى مجـــرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزيـــر « وزيـــرًا » ، وكان قبل ذلك يسمى « كاتبا أو مشيرا »(١) .

فكلمة « وزير » كانت تعنى عند العرب فى صـــدر الإســـلام « المـــوازر أو المعين » ، ولم يتعد هذا الاصطلاح المشاورة والموازرة بالرأى والعمل .

(*) أستاذ مشارك - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز - جدة .

وعندما أصبحت الخلافة ملكًا في بني أمية احتاج خلفاؤهم إلى من يستشيرونهم في أمور الدولة ويستعينون بهم في أمور القبائل والعصائب ، واصطناع الأحزاب منهم فاختاروا بعض البارزين من ذوي الرأي والسياسة ليقوموا بمثل هذا العمل ، فكان هؤلاء يقومون بمهام المعاونين والمستشارين والكتاب ، لأن الوزارة كمنصب أو رتبة سياسية لم يكن قد تقرر أمرها بعد بصورة رسمية حتى أن بني أمية كانوا ينكرون أن يطلق على كتابهم ومعاونيهم لقب « وزير » ، وفي ذلك يقول المسعودي : كانت ملوك بني أمية تتكو أن يخاطب كاتبًا لها بالوزارة وتقول : الوزير مشتق من الوزارة . والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة[٢] ولا يستثني من هذا إلا زياد بن أبيه ؛ إذ لقبه بعض الناس « بالوزير » في عهد معاوية بن أبي سفيان[٣] .

ويظهر من هذا أن العباسيين هم الذين عرفوا المعنى السياسي للوزارة وإن لم تظهر أهميتها في أوائل هذا العصر أيضًا . فقد عرف أبو سلمة الخلال أحد أركان الدعوة العباسية باسم وزير آل محمد إلا أنه لم يتمتع بصلاحيات أو سلطات كاملة في جميع الدواوين ، كما أنه لم يظهر للوزارة أبهتها ورونقها في عهد أبي جعفر المنصور .

وباستقرار نظام الخلافة وتطور النظم الإدارية تطورت سلطة الوزير في تصريف شئون الحكم ، ولم تكن صلاحيات من تولوا هذا المنصب محدودة ، بل كانت تتوقف على مدى سلطة الخليفة من قوة وضعف ، فبعض الوزراء تمتع بصلاحيات وسلطات إدارية واسعة وبعضهم لم يعط إلا سلطات محدودة حتى إن الماوردي صنف الوزارة صنفين رئيسين :

أولهما : وزارة التفويض الذي يمارس فيها الوزير صلاحيات الخليفة كاملة في الإدارة فيما عدا ثلاثة أمور ، هي حق تعيين ولي العهد ، أو عزل الخليفة، أو عزل من عينه الخليفة .

الثانى : وزارة التنفيذ ، وتأتى فى مرتبة تالية لوزارة التفويض وتقتصر فيها سلطات الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة وقراراته(٤) .

ونظرًا لأهمية منصب وزير التفويض فإن هناك شروطًا يجب توافرها فيمن يلى هذا المنصب ، وهى غير معتبرة فيمن يلى منصب وزارة التنفيذ وهى :

- الحرية .
- الإسلام .
- العلم بالأحكام الشرعية .
- المعرفة بأمرى الحرب والخراج .

ولا أدل على أن منصب الوزارة يعد من أهم مناصب الدولة بعد منصب الخلافة ، من أن أصحاب هذا المنصب شاركوا الخليفة فى صنع القرار السياسى وتركوا بصمات واضحة فى النواحى السياسية ، والإدارية والاقتصادية ، والاجتماعية والفكرية . كما استغل بعضهم هذه الرتبة لأغراض معينة ولعل أشهر من استغل هذه المرتبة لأغراض سياسية خاصة هو أبو سلمة الخلال ؛ أول الوزراء العباسيين من حيث الترتيب الزمنى .

(أ) نشاط أبى سلمة الخلال السياسى قبل تسلم بنى العباس السلطة :

قاد أبو سلمة الخلال الدعوة للعباسيين فى الأعوام الخمسة الأخيرة قبل تسلم بنى العباس السلطة ، وهو أول من تلقب بالوزارة فى العصر العباسى . كان فارسى الأصل ، واسمه : حفص بن سليمان الهمذانى الخلال مولى بن الحارث بن كعب من العراق(٥) ، وقد اتفق أغلب المؤرخين القدامى على أنه كان من مياسير أهل الكوفة ، وكان يعمل بالصيرفة . أما تلقيبه بالخلال – نسبة إلى الخل – فربما

يعـود إلى أن منزله بالكوفة كان فى حارة الخلالين[٦] . تعرف أبـو سـلمة علـى الدعوة العباسية عن طريق « بكير بن ماهان » ، رئيس الدعاة بالكوفـة ، وأهمـهم على الإطلاق ، نظرًا لطول المدة التى قضاها فى رئاسة الدعوة ، وإخلاصـه لـها وتفانيه فى خدمتها[٧] .

ولعل أول عمل جدى قام به أبو سلمة فى خدمة الدعوى العباسية هو تكليفـه من قبل بكير بن ماهان بالذهاب إلى خراسان ليهيئ أنصار وشيعة العباسيين هنـاك ليوم الثورة المرتقب ، وقد طلب منه أن يأمر الشيعة بتسويد الثياب ، وأعطاه ثلاثـة رايات سود ؛ واحدة لمن بمرو من الشيعة ، والأخرى لمن بجرجـان ؛ وأن يبعـث بالثالثة إلى ما وراء النهر . واستطاع أبو سلمة أن يؤدى عمله بكفاءة عاليـة ، وأن يبث دعاته ورسله . وكانت مدة إقامته فى خراسان أربعة أشهر رجع بعدهـا إلـى الكوفة ، فكان بذلك أول من أدخل الرايات السود إلى خراسان وعمل علـى نشـر الدعوة بها[٨] .

وبعد وفاة بكير بن ماهان سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م تسلم أبو سلمة قيادة الدعـوة بناء على توصية ابن ماهان[٩] . واتخذ من الكوفة مركزًا له كما فعل ابن ماهان من قبل ، وذلك لوقوعها فى منتصف الطريق بين الحميمة فـى الأردن مقـر إبراهيـم الإمام وبين خراسان . وأخبر إبراهيم الإمام شيعته بخراسان أنه عيـن أبـا سـلمة الخلال كبيرًا للدعاة بالكوفة ، وأمرهم بطاعته[١٠]. وقد عمل أبو سلمة فـى خدمـة الدعوة العباسية بكل إتقان وإخلاص ، وبذل أموالاً طائلة من أجل إظهارها ، وذلـك فى أكثر مراحلها حرجًا . وكثيرًا ما كان يتردد على خراسان مشرفًا على أمورهـا هناك مصطحبًا معه أبا مسلم الخراسانى .

وهكذا استمر أبو سلمة داعيًا مخلصًا لإبراهيم الإمام فى الكوفة حتـى وقـع الأخير فى يد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذى أمر بقتله فى حران .

وفى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة العباسية لعب أبو سلمة دوراً سياسيًا مهمًا وبارزًا ، فما أن انتصرت الجيوش الخراسانية فى خراسان ودخلت العراق حتى أرسل أبو سلمة إلى محمد بن خالد بن عبد الله القسرى أن يعلن الدعوة بالكوفة مظهرًا السواد شعار العباسيين .

وكان أن مضى محمد بن خالد إلى قصر الإمارة فدخله ، ودعا الناس إلى البيعة للرضا من آل محمد ، بعد أن هرب صاحب الشرطة الموالى للأمويين إلى واسط ملتحقًا بابن هبيرة والى الأمويين على العراق[١١] . وبعد ذلك طلب أبو سلمة من الحسن بن قحطبة قائد القوات الخراسانية أن يدخل الكوفة ، فدخلها يوم الجمعة ١٠ محرم ١٣٢هـ/٣٠ أغسطس ٧٤٩م . وأقبل الحسن إلى أبى سلمة وسلم إليه الرئاسة ، وخاطبه باسم « وزير آل محمد » وبايعه أهل خراسان وأهل الكوفة ، وأضحى بذلك صاحب السلطة الفعلية والممثل الشرعى لآل محمد . ثم خطب أبو سلمة وهنأ القواد والجنود من أهل خراسان بالنصر وأعلن الإمامة الهاشمية دون أن يسمى الخليفة بالاسم[١٢] .

(ب) دور أبو سلمة السياسى والإدارى بعد ظهور الدعوة العباسية بالعراق :

وبعد هذا الانتصار الذى حققه أبو سلمة فى الكوفة وتسلمه جميع السلطات الفعلية بوصفه الممثل الشرعى لآل محمد ، رحل إلى حمام أعين على بعد ثلاثة فراسخ من الكوفة وعسكر بها . ومن هناك أخذ بتنفيذ سلطاته ومسئولياته ، فبدأ بتأسيس الدواوين وتعيين العمال عليها ، ووجه القواد إلى النواحى ليقاتلوا فلول الجيوش الأموية بها[١٣] . وفرق العمال فى البلدان ليضبطوا أمورها .

أما فيما يتعلق ببيت المال والخزائن فقد حمل ما فيها إلى المعسكر وأخرج اعطيات الجند منها . وأنفذ عمال الخراج إلى الأقاليم فجبا الخراج[١٤].

ومن معسكره بحمام « أعين » أخذ أبو سلمة يصدر الأوامر ويراسل أبا مسلم الخراسانى فى مستجدات الأمور ، ويدير شئون الثورة باسم الدعوة للإمام القائم من بنى العباس دون أن يسمى الخليفة[١٥] .

حاول أبو سلمة وللمرة الثانية أن يلعب دوراً سياسيًا بـارزًا وخطـيرًا علـى مسرح الأحداث . فكما كان له دوره الذى لا يستهان به فى قلب الحكـم الأمـوى، أراد كذلك قلب الحكم العباسى إلى علوى فى أشد أوقات تـاريخ الدعـوة العباسـية حرجًا . فعندما وصل أبو العباس وآل بيته إلى الكوفة فى صفـر سـنة ١٣٢هـ سبتمبر ٧٤٩م ، لم يستقبلهم أبو سلمة وأبقاهم خارج المدينة منكرًا قدومهم بقولـه : (خاطروا بأنفسهم وعجلوا) وكتم أمرهم عن جميع القواد ، ورفض أن يدفـع لـهم نفقات الانتقال[١٦] .

ويتفق أغلب مؤرخينا الثقاة على انحراف أبى سلمة فـى هـذه الفـترة عـن العباسيين ، ورغبته فى استغلال الدعوة لصالح العلويين ، فاليعقوبى يرى أن سـبب إخفاء أبى سلمة العباس وآل بيته (أنه دبر أن يصير الأمر إلى آل أبى طـالب)[١٧]، بينما يرى المسعودى أن أبا سلمة حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام أضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية لآل أبى طالب ، (لأنه خاف انتقاص الأمر وفسـاده عليه)[١٨] . أما الجهشيارى فيذكر (أنه لما صح عند أبى سلمة موت إبراهيم الإمام لقى رجالاً من شيعة علىّ فناظرهم على نقل الأمر إلى ولد علىّ)[١٩] ، أى أنه لمـا درس أحوال بنى العباس لم يجد فيهم من يصلح أن يتولى إمامة المسـلمين ، كمـا أشار الطبرى ، ومؤلف كتاب أخبار الدولة العباسية إلى أن تنكر أبى سـلمة لأبـى العباس وأهل بيته وتضيقيه عليهم[٢٠] .

على أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل ، إذ لم ترض تلك الأطراف قبـول دعوة أبى سلمة الخلال ، وبذلك وقع أبو سلمة ضحية سوء تقديـره ، وعـدم بعـد نظره .

وكان أبو سلمة الخلال فى تلك الأثناء يتغيب عن أبى العباس وأهـل بيتـه، وكان كلما أرسل إليه أبو العباس ليسأله عن موعد ظهورهم يطلب منـه الـتريث ، ويخبره بأن الوقت لم يحن بعد . وبقوا على هذه الحالة أربعين يومًا. وكذلـك كـان

من خراسان لينفذوا عملية القتل في رجب سنة ١٣٢هـ فبراير ٧٥٠م ، وأعلن رسميًا أن الخوارج اغتالته[٣٠] ، وقد كان للمنافسة بين العملاقين أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال دور كبير في التعجيل بالتخلص من الخلال[٣١] .

وهكذا قتل أول من وقع عليه لقب الوزارة في الدولة العباسية ، ولم تغفر له سابقته في الدعوة وإسهاماته من الناحية السياسية في قلب حكم الدولة الأموية ، وإسهاماته الجليلة في خدمة الدعوة العباسية ، حيث أنفق كثيرًا من أمواله الخاصة على رجالها[٣٢] إلا أن هذه الجهود والخدمات لم تشفع له عند أبي العباس .

اختلف المؤرخون على من احتل منصب الوزارة بعد أبي سلمة الخلال، فقيل أن أبا الجهم بن عطية الباهلي هو الذي تسلم مسئوليات الوزير دون اتخاذ اللقب[٣٣]، وكان المهيمن على الجيش خلال تولي أبي سلمة الوزارة . وبعد مقتل أبي سلمة أصبح من المقربين من الخليفة ، وبمثابة حاجبه ومستشاره[٣٤] . وبذلك يكون قد جمع بين السيطرة على الجيش والسيطرة على الإدارة دون أن ينال لقبًا معينًا ، أو مرتبة سياسية أو إدارية معينة .

وقد بقي أبو الجهم رجلاً موثوقًا به ومقربًا من الخليفة أبي العباس مدة خلافته، فهو الذي أخرج أبا العباس من موضعه الذي أخفاه فيه أبو سلمة ، وقام بأمره حتى بويع ، ولكنه لم ينل تلك الثقة من قبل أبي جعفر المنصور ، فقد اتهمه أبو جعفر بأنه جاسوس لأبي مسلم الخراساني ، وأنه يكاتبه بأخباره فتخلص منه بالسم[٣٥] .

على أن بعض المؤرخين يرون بأن أبا العباس بعد مقتل أبي سلمة استوزر خالد بن برمك وزارة تنفيذ . غير أنه رفض أن يسمى « وزيرًا » ، لأنه شؤم على صاحبه[٣٦] ، قد خلف أبا سلمة في جميع مهامه ومسئولياته بالإضافة إلى إشرافه

على ديوان الجند ، وديوان الخراج والغنائم ، وفى الواقع أن إشراف خالد على الشئون المالية يرجع إلى ما قبل تولى أبى العباس الخلافة ، فقد تقلد خالد خراج ما يفتحه جيش قحطبة بن شيب الطائى من البلاد . كما أشرف على الغنائم وتوزيعها بين الجند ، وعرف عنه أنه كان عادلاً فى توزيعها ، فأرضى بذلك جميع أهل خراسان حتى وصفه الجهشيارى « بأن ما من أحد من أهل خراسان إلا وكان عليه يد ومنة ، لأنه قسط الخراج فاحسن فيه إلى أهله »(٣٧) ، ويبدو أن أبا العباس أراد الاستفادة من خبرة خالد فى الشئون المالية ، إضافة إلى خبرة قومه فى الناحية الإدارية، فأقره على ما كان تحت يده من الغنائم ، ثم قلده ديوان الخراج وديوان الجند . وظل خالد شخصًا موثوقًا به عند الخليفة يستشيره فى الأمور العظيمة ويعمل بنصائحه وبتدبيره(٣٨) .

فلما ولى أبو جعفر المنصور الخلافة أبقى خالدًا فى منصبه مدة فكان خير سند له فى تثبيت دعائم حكمه ، وفى إخماد الفتن والثورات(٣٩) . كما كانت له جهود بارزة فى الإصلاح الإدارى ، فهو أول من ثبت الدواوين فى دفاتر بعد أن كانت تثبت فى صحف(٤٠) . وكان أول من سمى المستسمحين الذين يدخلون على الوزير لطلب العفو والسماح « بالزوار » ، وكانوا قبل ذلك يسمون بالسؤال ، لأنه كان يستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف(٤١) .

ويبدو أن لخالد بن برمك دورًا سياسيًا مهمًا فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدى ابن المنصور .

إلا أن أبا جعفر عزل خالدًا من جميع مهامه وقلد أبا أيوب سليمان بن مخلد الموريانى وزارته . وولى خالد ولاية فارس لمدة سنتين ، ثم عزله عنها بسبب وشاية أبى أيوب الموريانى . فصادر أبو جعفر أملاكه وألزمه بدفع ثلاثة ملايين درهم(٤٢) . ثم عفا عنه بعد ذلك وولاه الموصل سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م وظل خالد

واليًا عليها ، حتى توفى المنصور ، فأبقاه المهدى عليها ، وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م فى أوائل خلافة المهدى(٤٣) .

أبو أيوب سليمان بن مخلد الموريانى :

يبدو أن أبا جعفر المنصور استفاد من تجربة أخيه أبى العباس مع وزيره أبى سلمة الخلال ، فعمد إلى اتباع سياسة إدارية صارمة نجحت فى تحديد سلطات وزرائه . فبعد أن تخلص من أبى الجهم بن عطية ، وأبعد خالد بن برمك ، تردد المنصور فى اتخاذ وزير ، خوفًا من تضخم نفوذه . وكان معظم وزراء المنصور فى أعمالهم أقرب إلى الكتاب والمساعدين الإداريين منهم إلى الوزراء .

وفى ذلك يقول صاحب الفخرى « فلم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، وكانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق »(٤٤) .

ولعل أبرز من ظهر على مسرح الأحداث من وزراء المنصور هو أبو أيوب الموريانى ، وهو فارسى الأصل من موريان من قرى الأهواز . وكان ذا خبرة إدارية بشئون العراق ، كما كان ضليعًا فى الكيمياء ، والطب والفلك، والرياضيات، والسحر ، ولكنه لم يكن متمكنًا فى الفقه والشريعة الإسلامية(٤٥) .

وترجع مقدرة أبى أيوب الإدارية وخبرته بالشئون المالية إلى أواخر العهد الأموى ، فقد عمل كاتبًا لأمير الأهواز سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة(٤٦) . كما كان مستخدمًا فى الديوان فى ولاية يوسف بن عمر ، على العراق فى عهد هشام بن عبد الملك(٤٧) .

أما عن كيفية اتصاله بالعباسيين ، فقد حدث ذلك عندما كان أبو أيوب كاتبًا لسليمان بن حبيب بن المهلب . عندما قلد سليمان هذا أبا جعفر كورة ايذج بين

خوزستان وأصبهان ، كان على أبى جعفر أن يرسل بعض الأموال إليـه ، إلا أنـه احتجزها لنفسه فقبض عليه سليمان وأمر بضربه، فخلصه أبو أيوب منه وكان ذلك بداية اتصال أبى أيوب بالمنصور(٤٨) .

وعندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة رأى أن ينتفع بخبرة الموريانى الطويلة بشئون العراق الإدارية والمالية ، وفى نفس الوقت مكافئته على ما أسداه إليه من معروف ، فاستدعاه ، وأسند إليه بعض الأعمال . فكان أول عمل إدارى لأبى أيوب فى خلافة المنصور هو النيابة عن عبد الملك بن حميد ، كاتب المنصور، فى حال غيابه عن مجلس الخليفة . وحدث أن مرض عبد الملك بداء النقرس فلزم داره وقام أبو أيوب بالعمل نيابة عنه ، وقد وفق فى أدائه ، مما زاد منزلته عند المنصور ، حتى قلده وزارته ، والإشراف على الدواوين وتدبير شئون الدولة(٤٩) . ومما يدل على علو منزلته عند المنصور أنه عين جميع أهله وأقربائه فى المناصب الإدارية(٥٠) .

ونفى جواتياين صفات الوزارة وما يترتب عليها من صلاحيات عن أبى أيوب على الرغم من إبرازه حجم قوة مركزه بقوله : « ونستطيع أن نبرز قوة مركز أبى أيوب لو عرفنا حشد الموظفين الذين حشدهم المنصور ليحلوا محله فى المهام التى كان يشغلها بعد عزله »(٥١) ، مستندًا فى ذلك على رواية الجهشيارى بأن المنصور بعد عزل أبى أيوب عين ثلاثة مكانه ليقوموا بعمله، أحدهم للخاتم ، والثانى لشئون الخلافة العامة والمراسلات الخاصة ، والثالث لإدارة ضياعه(٥٢) . وحصر جواتياين بذلك عمل أبى أيوب الأساسى فى تقديم الخدمات الشخصية للخليفة وتشمل :

- مصاحبة الخليفة فى المناسبات العامة .

- العمل كمستشار خاص له .

- النظر فى البريد الخلافى، والإشراف على الإنشاء .

- النظر فى ضياع الخليفة الخاصة[٥٣] .

والحقيقة أن الجهشيارى أطلق لقب وزير على أبى أيوب فى عدة مناسبات[٥٤]، ولم يحصر سلطاته فى المهام التى حددها جواتياين ، إذ ذكر فى عدة مواضع الصلاحيات الوزارية التى منحها المنصور لأبى أيوب مثل تقليده للدواوين مع الوزارة . واستطاع أن ينال حظوة كبرى عند المنصور ، وأن يكون له نفوذ فى الدولة حتى أنه عين جميع أقربائه فى المراكز الإدارية، إضافة إلى جباية الخراج[٥٥] ، كما كان يشارك المنصور فى اتخاذ القرارات السياسية ومنها :

القضاء على أعداء أبى جعفر ، فهو الذى طمأن أبا مسلم الخراسانى عندما أراد المنصور أن يتخلص منه ، حتى يتمكن من القبض عليه . كما كان له دور إيجابى فى القضاء على عبد الجبار الأزدى والى خراسان ، وفى العفو عن سفيان ابن معاوية قاتل عبد الله بن المقفع[٥٦] .

وهكذا نرى أن أبا أيوب لم يكن كاتبًا أو مستشارًا خاصًا لدى المنصور ، وإنما كان نفوذه وسلطاته أكبر من ذلك بكثير ، حتى أصبح مهابًا عند الخاصة من أهل بيت الخلافة وعند العامة ، فهم يلجئون إليه لقضاء حوائجهم ، وإذا بدرت منهم بادرة يلتمسون العفو من المنصور على يديه .

استمرت علاقة المورياني بالمنصور وثيقة جدًا إلى أن بدأت سموم الوشاية تعمل عمليا فى نفس المنصور ، وبدأ المنصور يشك فى إخلاص المورياني ، وفائه له نتيجة لسعاية الربيع بن يونس حاجب المنصور وأبان بن صدقة كاتب أبى أيوب ، وكان فى نفسهما شيء منه . فقد نجح الاثنان فى إبلاغ أبى جعفر عن أدق تفاصيل تحركات المورياني وأقربائه الذين عينهم فى المناصب لجمع الثروات الضخمة وابتزازهم للأموال .

ويبد أن الموريانى استغل واردات الدولة المالية من جباية وخراج والنظر فى ضياع وممتلكات الخليفة الخاصة لصالحه الخاص ، ومن ذلك :

- احتكاره لرخص المواد الغذائية فى سواد الكوفة والبصرة طمعًا فى الربح(٥٧) .

- أخذه مبلغ ثلاثمائة درهم لإصلاح ضيعة ابن الخليفة (صالح المسكين) بالقرب من الأهواز فأخذ المال ولم يصلحها(٥٨) .

- المتاجرة باسمه، ومركزه، ومن ذلك بيع اسمه لصاحب ضيعة من الأهواز بمبلغ من المال، يقدر بمائة ألف درهم فى كل سنة، وذلك حتى يرهبه العمال والناس فلا يعتدون على ضيعته(٥٩) .

- مشاركته هو وأخوه خالد فى الأرباح مع العمال الذين يعينهم على الجباية، حتى قيل بأن الأموال التى كانت تجمع من جباية الأهواز كان يذهب نصفها لبيت المال والآخر يذهب إلى بيت مال خالد شقيق أبى أيوب(٦٠) .

وعندما تحقق للمنصور سوء تصرفات وزيره وأعوانه وابتزازهم للأموال ، أمر بعزل الموريانى عن الوزارة ، كما عزل جميع أقربائه وسجنهم وصادر أموالهم وضيق عليهم سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م . وبقى الموريانى فى السجن حتى مات فى السنة التالية سنة ١٥٤هـ/٧٧١م .

وبعد عزل أبى أيوب قلد أبو جعفر الفضل بن سليمان الطوسى الخاتم ، وقلد أبان بن صدقة ديوان الرسائل ، وقلد صاعدًا مولاه النظر فى ضياعه وممتلكاته الخاصة ، كما ولى ديوان خراج البصرة ونواحيها عمارة بن حمزة، وديوان خراج الكوفة وأرضها عمرو بن كيلغ(٦١) .

وهكذا يبدو أن توليه أبى أيوب الموريانى الوزارة كانت تجربة أبطلها المنصور بعد ذلك ، إذ أنه لم يعين أحدًا مكانه ، واستمر كعادته يمارس السيطرة المباشرة على شئون دولته .

أشهر وزراء مرحلة الاستقرار وأثرهم على النواحى الاقتصادية والسياسية :

١ - أبو عبيد الله معاوية بن يسار وأثره على النواحى الاقتصادية :

عرف عهد المهدى بأنه بداية عهد الاستقرار والازدهار للدولة العباسية، لأن والد المنصور ترك له دولة آمنة مستقرة مليئة خزائنها بالأموال[٦٢] . ففى عهده نمت المؤسسات الإدارية ورسخ النظام الوزارى ، فازدهرت نتيجة لذلك الحياة الإدارية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وبدأ منصب الوزارة يتخذ معالمه وتتسع صلاحيات الوزراء . وقد منح المهدى الوزراء سلطات واسعة واعتمد عليهم بشكل كبير ، وكان يتم تعيينهم وفقًا لكفاءتهم الإدارية والكتابية .

ومن أشهر وزراء المهدى أبو عبيد الله معاوية بن يسار الأشعرى الطبرانى ، وهو جد محمد بن عبد الوهاب الكاتب[٦٣] ، أصله من فلسطين ، حيث خدمت أسرته الإدارة الأموية ، وكان والده كاتبًا لقائد جند الأردن فى طبرية .

ومن هنا جاءت نسبة الطبرانى إلى أبى عبيد الله[٦٤] .

واختار المنصور أبا عبيد الله بن يسار لتربية ابنه المهدى ، وأن يكون كاتبًا له ، يقول صاحب الفخرى « أن المنصور كان قد عزم على أن يستوزره ، ولكنه آثر به ابنه المهدى وأوصاه بأن يمتثل لمشورته »[٦٥] .

إن اختيار المنصور أبا عبيد الله معاوية بن يسار لتربية ابنه وولى عهده « المهدى » يرجع إلى خبرة أبى عبيد الله وأسرته فى الشئون الإدارية . وكذلك إلى علمه وحسن تصرفه ، فقد نال أبو عبيد الله فى صغره نصيبًا كبيرًا من العلوم المختلفة ، مما كان له أثره فى حسن تصرفه وإبداعه فى تنظيم الشئون الإدارية والمعاملات الاقتصادية . لازم أبو عبيد الله مولاه المهدى طيلة فترة ولايته للعهد ، فقد رافقه فى حملته على خراسان سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ، وأقام معه فى الرى مدة طويلة عمل أثنائها على تدبير شئونه الإدارية والمالية بكل حرية وكفاءة[٦٦] . كذلك

استعان به المنصور فى أخذ البيعة للمهدى من عيسى بن موسى ، وفى كتابته نص تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد للمهدى[٦٧] .

وبعد وفاة المنصور أخذ أبو عبيد الله البيعة العامة من الناس فى بغداد للمهدى . فكان طبيعيًا أن يقلده المهدى وزارته ودواوينه سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م نظير كفاءته وإخلاصه[٦٨] . ويعد أبا عبيد الله من أكثر وزراء العصر العباسى إنجازاً من الناحية المالية . فكان على عكس سلفه أبى أيوب الموريانى ، شديد الحرص على بيت المال ، يشير على المهدى بالاقتصاد فى النفقة ، وعدم الإسراف[٦٩] . كما كان عفيفًا يحب الخير ويحض عليه ، ويعطف على المحتاجين إلا أنه يؤخذ عليه أنه كان شديد التكبر والتيه[٧٠] .

وعلى الرغم من قصر مدة وزارة أبى عبيد الله إلا أنه أنجز عدة إصلاحات إدارية ومالية لم يعمل بها من قبل ، واحتذى بها من جاء من بعده، يقول عنه ابن طباطبا « أنه كان مقدمًا فى صناعته فاخترع أموراً » . فمن هذه الأمور إصلاحاته الإدارية والمالية والتى منها أنه[٧١] :

- رتب ديوان الخراج وقرر قواعده .
- أول من صنف كتابًا فى الخراج وتبعه آخرون بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج .
- نظم جباية الأموال .
- نقل الخراج من المساحة إلى المقاسمة .

وقد تم وضع نظام المقاسمة سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م ، وكان الخراج يؤخذ بالنقد وعلى مساحة الأرض ، زرعت أم لم تزرع . فرأى أبو عبيد الله أن تطور الظروف يستلزم إجراء تعديل هذا النظام . لأن إهمال الولاة الأمويين كان قد أدى إلى خراب السواد وتدهور الزراعة ، فأشار على المهدى بنظام المقاسمة[٧٢] . الذى يقوم على جعل أرض الخراج من المساحة على الجريب إلى المقاسمة على الإنتاج، وكان على النحو التالى :

« النصف على الأراضى التى تسقى سيحاً[٧٣] والثلث على الأراضى التى تسقى بالدوالى ، والربع على تلك التى تسقى بالدواليب.. ولا شيء عليهم سوى ذلك»[٧٤] . أما خراج الكروم والنخيل والشجر فإنه بقى على النظام القديم ، ولكنه روعى فيه القرب من الأسواق والموانئ ، إضافة إلى جودة الحاصل أو رداءته ، فقلل بذلك من عسف الجباة[٧٥] .

ومن ضمن سياسة أبى عبيد الله معاوية بن يسار المالية اهتمامه بتحسين وإصلاح الأراضى الزراعية ، لما للعلاقة الوثيقة بين الزراعة وواردات الخراج وغيره من الضرائب الأخرى . وقد أشار الوزير على الخليفة المهدى بأن تكون نفقات الإرواء من إنشاء شبكات الإرواء والتصريف وبناء السدود ، وعمل القناطر وسد الشقوق وحفر الأنهار وتقوية الضفاف، من بيت المال[٧٦]. ويبدو أن هذا النظام لم يستمر طويلا ، فعندما أمر المهدى بحفر نهر الصلة وإحياء ما على ضفتيه من الأراضى وجعل نفقتها صلة لأهل الحرمين فإن نفقات حفر هذا النهر دفعت من بيت مال المسلمين ، إلا أن المهدى بعد ذلك أمر بمضاعفة الضريبة المفروضة على المزارعين المستفيدين من حفر هذا النهر لمدة خمسين سنة تعويضا لبيت المال عن تلك النفقات[٧٧] .

وكما كانت إسهامات أبو عبيد الله معاوية بن يسار إسهامات عظيمة فى خدمة الاقتصاد الإسلامى كذلك كانت كفاءته الإدارية والكتابية . فقد كان المهدى يستعين به أثناء جلوسه للمظالم ، ويشاوره فى تعيين ولاة الأقاليم . وكان يخصه بكتابة الرسائل المهمة الصادرة عنه ، فهو الذى كتب إلى الأقاليم نيابة عن المهدى كتاب تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد إلى موسى الهادى ، وكذلك فعل عندما أخذت البيعة لهارون وليا ثانيا للعهد[٧٨] . وهو الذى قام بتحرير كتاب يأمر فيه عمال الخراج برفع العذاب عن أهل الخراج الذين كانوا يعذبون بصنوف العذاب من السباع والزنابير عندما لا يستطيعون إيفاء ما عليهم من أموال وطالب عمال الخراج بأن يعاملوهم معاملة الغرماء[٧٩] .

ظل أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، مقربًا من المهدى ومحط ثقته، إلا أن شدة تكبره وتخطيه حدود سلطاته ، وتدخله فى أمور لا تعنيه نفرت منه الخليفة ، وأصبح عرضة للمنافسين له والوشاة ، ومن لهم مصلحة فى إبعاده عن منصبه . وكان الربيع بن يونس من أشد هؤلاء المنافسين لأبى عبيد الله ، ولم يجد الربيع سبيلاً إلى طعن أبى عبيد الله فى شخصه ، وذلك لكفاءته وتقدمه فى صناعته وورعه ، وتقواه ، ولكنه وجد السبيل إلى ذلك فى اتهام أحد أبنائه بالزندقة ، واقتنع المهدى بذلك ، فأمر المهدى بقتله وكان ذلك سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م(٨٠) .

وبعد هذه الحادثة صرف المهدى أبا عبيد الله عن وزارته ، مكتفيًا بجعله على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م فقلده الربيع بن يونس(٨١) . وما زال أبو عبيد الله يؤدى عمله فى بلاط الخليفة بكل أمانة وإخلاص إلى أن طلب المهدى من الربيع أن يحجبه عنه استحياءً منه بسبب إقدامه على قتل ولده . فانقطع بداره ، واضمحل أمره ولم يطل العمر به إذ توفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م(٨٢) .

٢ - يعقوب بن داود وسياسة المصالحة مع العلويين :

هو يعقوب بن داود بن عمرو بن عثمان بن طهمان ، مولى بنى سليم(٨٣) ، فارسى الأصل ، نشأ فى بيئة اشتغل أفرادها بالكتابة ، فقد خدم والده وأعمامه الأمويين ، واشتغلوا كتابًا فى الديوان فى خراسان حتى ولاية نصر بن سيار . وعرف بشغفه بالأدب وصنوف العلم(٨٤) . وبعد قيام الدولة العباسية لم يطمع أفراد هذه الأسرة فى خدمة بنى العباس ، لاتصالهم ببنى أمية وعدم ثقة العباسيين بهم . فتقربوا من آل الحسن واعتنقوا المذهب الزيدى وطالبوا بالخلافة لمحمد بن عبد الله بن الحسن « النفس الزكية » طمعًا فى أن يكون لهم دولة يعيشون فى كنفها . وكان يعقوب هذا يجول فى البلاد منفردًا تارة ، وأحيانًا أخرى مع إبراهيم بن عبد الله فى طلب البيعة لمحمد النفس الزكية . فلما قتل محمد وأخوه إبراهيم وفشلت ثورتهما على يد المنصور سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م توارى يعقوب وأخوته . فطلبهم

المنصور حتى ظفر بهم وحبس يعقوب فى السجن طوال عهد المنصور لأكثر من عشر سنوات[٨٥] . وعندما تولى المهدى الخلافة أمر بإطلاق سراحه من السجن بعد أن عفى عن أغلب السجناء السياسيين[٨٦] .

أما عن كيفية اتصال يعقوب بالخليفة المهدى وحصوله على ثقته ، ومن ثم اختياره وزيرا له ، فقد أرجعتها المصادر إلى أسباب سياسية ، وهى ميول يعقوب العلوية ، وقربه من الشيعة ومعرفته بهم ، ولكنها تختلف فى تفسير ذلك[٨٧] ، ولكن مهما يكن من اختلاف تفسيرات المؤرخين حول كيفية وصول يعقوب بن داود إلى الخليفة المهدى ، فإن جميعها تدل على أن تقريب يعقوب كان له هدف سياسى محدد وهو السعاية بآل على .

وبذلك حظى يعقوب برضى الخليفة فأعطاه لقبا فريدا من نوعه هو « الأخ فى الله » وخط ذلك فى خطاباته ومراسلاته الرسمية التى كانت تحفظ ضمن أوراق الخلافة ، وأخرج توقيعات تثبت فى الدواوين وأسبغ عليه مبلغ مائة ألف درهم[٨٨] .

واستطاع يعقوب فى وقت قصير أن يحوز على ثقة الخليفة فكان يدخل عليه وقتما يشاء ، ويقدم له النصائح فى أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزاب ، وفكاك الأسرى والمحبوسين والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعففين[٨٩] .

ولا شك فى أن تلقيب المهدى « يعقوب بن داود » بلقب «الأخ فى الله» له مغزاه السياسى، فقد أراد المهدى أن يستغل ظروف يعقوب واتصالاته بالعلويين ، ليكسب جانبهم ويرصد تحركاتهم وأنشطتهم، وليأتس العلويين بحكمه من جهة ثانية.

ولتسهيل مهمة يعقوب فى سياسة المصالحة مع العلويين منحه المهدى سنة ١٦١هـ/٧٧٨م سلطات سياسية كبيرة ، مثل حق تعيين أمناء له فى جميع الولايات، ومنح هؤلاء الأمناء سلطة على الولاة أنفسهم « فكان لا ينفذ للمهدى كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك»[٩٠].

ولم يزل أمر يعقوب يرتفع ويعلو عند المهدى حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة ، أى أنه وزره وزارة تفويض ، وأصدر مرسومًا رسميًا بذلك سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م ، فازدادت منزلة يعقوب علوًا ، حتى أخذ يقرب الزيدية وأتى بهم من كل ناحية ، وولاهم مناصب الدولة ليس فى العراق وحدها وإنما فى جميع الولايات(٩١) .

على أن سياسة المصالحة هذه لم تأت بالنتائج المرجوة منها ، وذلك لأمور منها :

أولاً : لأن الخلافات بين العلويين والعباسيين كانت عميقة جدًا ، فالعلويون لم يستسيغوا سياسة المصالحة كما أنهم لم يثقوا بيعقوب ، واعتبروه شخصًا انتهازيًا ، ولم يسلم عيسى بن زيد نفسه رغم التأكيدات والجوائز والضمانات التى حصل عليها من الخليفة عن طريق المهدى(٩٢) .

ثانيـاً : أثارت الصلاحيات الكبيرة التى منحها يعقوب لأمناء وموظفى الزيدية عداء أصحاب البريد وولاة الولايات ، فأخذوا يوغرون صدر المهدى على يعقوب ، معللين ذلك بأن ميله للعلويين هو الذى جعله يمنحهم تلك الصلاحيات(٩٣) .

وبذلك بدأت علاقة المهدى تتبدل تجاه يعقوب شيئًا فشيئًا ، ووجد حساده الفرصة سانحة للتخلص منه خاصة عندما أطلق يعقوب سراح أحد العلويين الذين عهد بهم المهدى لديه ، وهربه(٩٤) . فأمر المهدى بسجن يعقوب وطرد جميع أمنائه، فظل فى السجن حتى وفاة المهدى والهادى ، وأطلق سراحه الرشيد بعد أن شفع له يحيى بن خالد البرمكى ، فاخرج من السجن بعد أن ذهب بصره وعمى فطلب أن يجاور فى مكة ، وأقام بها حتى توفى هناك سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م . وكانت وزارته للمهدى حوالى خمس سنوات(٩٥) .

وكان يعقوب ينتقد إسراف المهدى ، وتبذيره للأموال ، وكان كثيرًا ما يشير عليه بالاقتصاد فى النفقات ، وحفظ الأموال ، ولا يتورع عن وصف عمله صراحة بالسرف قائلاً له فى أحد المواقف التى استشاره فيها : « هذا يا أمير المؤمنين السرف » .

كما أنه كان ينتقد بعض تصرفاته وجلوسه فى مجالس الغناء واللهو وإنفاقه ٥٠ مليون درهم من بيت مال المسلمين على بناء منتزه . وبلغ من ضيقه أن طلب منه إعفاءه من منصبه قائلاً : « ليس على هذا استوزرتنى ، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصلوات الخمس فى المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ ، وتسمع السماع[٩٦] . وقد اتهم المهدى بصرف وتبذير جميع الأموال التى ادخرها والده المنصور فى خزينة الدولة ، وتقدر بتسعمائة وخمسين مليونًا من الدراهم[٩٧] .

البرامكة وزراء الرشيد :

وفى عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) توضحت أعمال الوزارة وتحددت صلاحيات الوزير ، وصارت الدواوين تسجل وتراقب ، ولها أصحاب متخصصون وفروع منسقة . ولعل من أبرز العناصر التى ساهمت فى تنظيم الوزارة والدواوين أسرة آل برمك ، التى لعبت دوراً خطيرًا فى هذه الحقبة من الزمن . فلقد هيمن على الوزارة يحيى بن خالد البرمكى وأولاده، واستأثروا بالنفوذ والسلطان . ولقد كان لهذه الأسرة أثر واضح وفعال فى المجتمع الإسلامى ، مما يستوجب منا أن نلقى الضوء على نشاطها فى عصر بنى العباس .

تؤكد الروايات المختلفة على أن أصول البرامكة يرجع إلى الفرس ، وأن هذه الأسرة كانت لها وجاهة قبل دخولها الإسلام .

ويقال أنهم اعتنقوا الإسلام على المذهب الشيعى فى عصر الدولة الأموية بعد أن فتح المسلمون أواسط آسيا ، وأن برمك أسلم زمن عبد الملك بن مروان وكان رجلاً عالمًا بالطب والتنجيم[٩٨] .

وأول من اتصل من البرامكة بالعباسيين هو خالد بن برمك جد هذه الأسرة الذى لعب دوراً مهمًا فى النواحي الإدارية فى عهد كل من السفاح ، وأبى جعفر المنصور ، وشىء من خلافة المهدى ، حتى توفى سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م « كما سبق وأن أشرت إلى ذلك » ، أما أشهر شخصية فى أسرة البرامكة فكانت شخصية يحيى ابن خالد ، الذى عرف بمهارته وحسن إدارته لشئون الدولة قبل أن يتولى وزارة هارون الرشيد . ذلك أنه حاز على ثقة المنصور فولاه سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م على « أذربيجان » ، و«أرمينية» قائلاً له : « أردتك لأمر من الأمور واخترتك لثغر من الثغور »[٩٩] فبقى واليًا عليها حتى وفاة المنصور .

وقد ازدادت منزلة يحيى شرفًا فى عهد الخليفة المهدى ، عندما عهد إليه بتربية ابنه هارون ، فقام بأداء هذه الرسالة خير قيام ، ثم أسند إليه المهدى الإشراف على دواوين هارون ، وجعله كاتبًا له بعد أن ولى المهدى ابنه الرشيد ولاية المغرب من الأنبار إلى إفريقيا سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م[١٠٠] . وقد استمر يحيى فى إخلاصه لهارون طيلة فترة حكم أبيه المهدى ، وخلافة أخيه الهادى ، الذى أراد خلعه من ولاية الحكم ، وجعلها لابنه جعفر من بعده .

وحرص يحيى البرمكى دومًا على حث هارون على التمسك بحقه فى ولاية العهد ، وعدم الاستجابة لرغبة الهادى[١٠١] ، وظل يسانده حتى وصل إلى سدة الخلافة ، مزوداً إياه بالخبرات التى كانت تنقصه . ذلك أن هارون ولى الخلافة وهو فى مقتبل العمر ، تعوزه الكفاءة والخبرة فى إدارة الشئون العامة[١٠٢] .

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك عوامل أسرية وعاطفية ربطت هارون بيحيى وأسرته ، فقد رضع هارون من زوج يحيى ، فأصبح أولاد يحيى أخوته فى الرضاعة ، كما تربى وتهذب على يدى يحيى ، الذى كان يسهر على خدمته وراحته ، معرضًا حياته للخطر ، فنزل بذلك يحيى من نفس هارون منزلة عظيمة ، حتى أنه كان يناديه بـ (يا أبت) . وقد عبر عن حفظه للجميل الذى أسداه له يحيى - حين ثبته على التمسك بحقه إلى أن وصل واعتلى كرسى

الخلافة - بقوله عندما بويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م : (يا أبت أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته إليك فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنني غير ناظر معك فى شئ)[١٠٣] .

إذا فلا غرو بعد ذلك وعجب فى أن يسلم هارون عنان الأمور فى الدولة ليحيى وأسرته حتى قيل إن هارون سلم لهم خاتم الدولة ، فتداولوه بينهم بين سنة ١٧٣ إلى ١٨٠هـ[١٠٤] وبذلك أصبحت ليحيى سلطة تكاد تكون مطلقة ، فكانت له إدارة الدواوين كلها مع الوزارة[١٠٥] . وكان يحيى أول أمير من الوزراء حمل لقب وكانت الكتب التى تنفذ من ديوان الخراج باسمه ، ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة[١٠٦] ، وهى بدعة استنها الرشيد تجعل الوزير بمثابة النائب عن الخليفة .

وقد ساعد يحيى فى إدارة شئون الدولة ، ولداه الفضل وجعفر ، مدة سبعة عشر عاما من ١٧٠هـ-١٨٧هـ/٧٨٦م-٨٠٣م وقد باشروا فى هذه المدة جميع النواحى الإدارية ، والعسكرية ، والمالية ، والعلمية ، والأدبية[١٠٧] حتى أن الفضل كان يلقب « بالوزير الصغير » فى حين لقب جعفر « بالسلطان »[١٠٨] . وبذلك هيمن يحيى وأبناؤه على دولة الرشيد وحياته فى بداية عهده ، حتى أنهم كانوا يقيمون معه فى قصر الخلد[١٠٩] . لهذا فإن جميع الأمور التى كانت تجرى باسم الرشيد فى بداية عهده طبعت بطابع البرامكة ، فهم الذين يديرون أمور الدولة ، وهم الذين يحلون المشاكل وهم الذين يتصدون للأعمال ، فى حين أن الرشيد حرر نفسه من جميع هذه المسئوليات الإدارية ، وتسلم قيادة الجيوش لمحاربة البيزنطيين.

وبينما كان اهتمام الرشيد منصبا على تأمين الحدود الشمالية مع البيزنطيين ، كان يحيى يشرف على الأمور الداخلية ، ويستقل تدريجيا عن الخليفة فى الرأى ، ويختار بنفسه معاونيه فى الإدارة ، ويهيمن على كتاب الدواوين ، ويراقب أعمالهم فى الدواوين المركزية[١١٠] ، حتى قيل (إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد

خمسة وعشرين رئيسًا من بين صاحب سيف وصاحب قلم[١١١] . أما ولاة الأقاليم فكان يعينهم بعد أن يكتفي ظاهريًا باتباع رأى الخليفة)[١١٢] .

من ذلك أنه عين ابنه الفضل سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م على ولاية المشرق ، وهى الجهات الواقعة غربى إيران « منطقة الجبال ، طبرستان ، أرمينية توسى وأذربيجان » ، لأن الأوضاع لم تكن مستقرة بها ، خاصة بعدما التجأ إليها يحيى ابن عبد الله العلوى الذى فر من موقعة فخ سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م وقام بثورته فى بلاد الديلم فى بحر قزوين سنة ١٧٥هـ/٧٩١م[١١٣] . وقد نجح الفضل بعد فترة قصيرة فى إخماد نيران هذه الثورة باللين ، ودون سفك دماء ، بعدما أقنع يحيى بقبول الصلح ، وكتب له الرشيد أمانًا بشهادة القضاة والفقهاء . وكان أن سلم يحيى نفسه ، وحمله الفضل إلى الرشيد . فازدادت بذلك منزلة الفضل علوًا لدى الرشيد الذى أكرمه أشد إكرام ، وأجزل له العطاء[١١٤] .

وفى سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م أضيفت خراسان إلى ولاية الفضل من أجل تجنيد قوات جديدة ، إلا أنه لم يذهب إليها حتى سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م[١١٥] . وقد استطاع الفضل خلال فترة ولايته القصيرة على المشرق أن يقوم بأداء مهمته خير قيام. وبفضل جهوده وسياسته الحكيمة وصلاته الواسعة نجح فى إقناع أمراء المنطقة المحليين ، وجماعة الدهاقين ، فى أعداد الجند المطلوبين . فكون جيشًا عظيمًا قوامه ٥٠,٠٠٠ ألف جندى أطلق عليه اسم «العباسية» ، أرسل منهم عشرين ألفًا إلى بغداد وأبقى الباقين فى خراسان[١١٦]. ويبدو أن الفضل أراد أن يجعل من العشرين ألف جندى الذين أرسلهم إلى بغداد جيشًا خاصًا به وبأسرته يحميهم ويأتمر بأمرهم ، ويقف فى وجه الفئة الأخرى من الجند ، وهم الأبناء الذين كانوا معروفين بعدائهم لسياسات البرامكة[١١٧] .

والواقع إن الفضل أولى اهتمامًا بالغًا لمنطقة خراسان والمشرق أثناء ولايته عليها ، فهو بالإضافة إلى تكوينه جيش العباسية زاد رواتب الجند وبنى مساجد ورباطات كثيرة ، وحفر قناة بلخ ، وأمر بهدم معبد النوبهار ، فلم يقدر عليه لإحكام

بنائه فهدم منه جزءاً بنى عليه مسجدًا . وأرسل حملة بمساعدة الدهاقين لفتح بلاد كابل فافتحها ، وغنم منها غنائم كثيرة . وقاد حملة ضد مملكة أشروسنة . ومما يدل على عظم مكانة الفضل فى خراسان أنه استطاع أن يعلن ولاية العهد لمحمد ابن الرشيد ، ويلقبه بالأمين ، ويأخذ البيعة له من الخراسانين ، قبل أن يتمكن الرشيد من فعل ذلك فى بغداد[١١٨] . وهذا يعنى أن إعلان ولاية العهد للأمين تمت فى المناطق الشرقية أولاً بفضل تدبير الفضل ، ومن ثم أعلنت البيعة فى بغداد والمناطق الأخرى رسميًا رغم معارضة الكثير من الهاشميين .

وبهذا يتضح الدور السياسى والإدارى الجاد الذى مارسه الفضل فى البلاط العباسى . وقد يرجع ذلك لطبيعته الجدية فقد أثر عنه أنه كان لا يشرب النبيذ ، وكان يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى لما شربته[١١٩] .

كذلك عهد يحيى لابنه جعفر بولايات عدة ، ولكنه لم يذهب بنفسه إلى هذه الولايات ، وإنما كان يرسل إليها من ينوب عنه . ففى سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م ، ولى جعفر على المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية بما فيها مصر ، فلم يذهب إليها وولاها من قبله عمر بن مهران كاتب الخيزران[١٢٠] .

وفى سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م ولى على خراسان فانتدب محمد بن الحسن بن قحطبة لينوب عنه فيها[١٢١] . وفى نفس السنة أرسل جعفر إلى الشام لتهدئة العصبية القبلية التى هاجت بين أهلها ، وتفاقم أمرها ، فاستطاع جعفر أن يضع حدًا للاضطرابات فسكنت الفتنة ، بعد أن أدب المتمردين ونزع السلاح من القبائل وأعاد الأمن إلى المنطقة[١٢٢] .

ويبدو أن هذه هى المرة الوحيدة التى أدى فيها جعفر مهمة خارج مدينة السلام . فقد اقتصر عمل جعفر على ملازمة الرشيد ومنادمته لسماحة أخلاقه، فكان لا يفارقه أبدًا . وقد عبر جعفر للرشيد عن حزنه العميق لبعده عنه فترة ذهابه إلى الشام لتهدئة الأوضاع فيها[١٢٣] . ولعل إيثار الرشيد له وثقته به جعلته أكثر

البرامكة نفوذاً ذلك أن الرشيد أشركه معه فى كثير من المهام الخاصة ، والتى تعد من واجبات الخليفة الرئيسية ، كالنظر فى المظالم ، والإشراف على البريد ودور الضرب وصك العملة ، والطرز فى جميع المناطق ، بل أكثر من ذلك ظهر اسم جعفر مكتوبًا على كل القطع النقدية فى المشرق والمغرب[١٢٤] .

كذلك عهد الرشيد إليه بتربية وتأديب ابنه عبد الله المأمون ، كما عهد من قبل بتربية ابنه محمد الأمين إلى الفضل . فتمكن بذلك جعفر من الحصول على الوصاية على المأمون ، وأشار على الرشيد بتوليته العهد بعد أخيه الأمين ، وكان له دور فى تثبيت حق المأمون وكتابة العهد وتعليقه فى جوف الكعبة[١٢٥] .

وهكذا يبدو أن ظرف ، وفصاحة ، وذكاء وتأدب جعفر ، وسهولة أخلاقه جعلته أكثر حظًا عند الرشيد من بقية إخوته ، وأكثر إدلالاً . وقد أبدى والده يحيى للرشيد مخاوفه من الصلة الشخصية التى كانت تجمع بينه وبين ابنه جعفر قائلاً له « يا أمير المؤمنين ، أنى أكره مداخل جعفر ، ولست آمن من أن ترجع العاقبة على فى ذلك منك ، فلو أعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحب إلى ، وآمن عليه عندى »[١٢٦] .

ولكن منادمة جعفر للرشيد فى مجالسه ، وبقاءه فى بغداد بالقرب منه لم تمنعه من أداء الأعمال الموكولة إليه على خير وجه . وقد عرف عن جعفر أنه كان فصيحًا بليغًا لبقًا عالمًا بالآداب ، والتاريخ والفقه ، لأن أباه كان قد ضمه إلى القاضى أبى يوسف الحنفى ليعلمه ويفقهه[١٢٧]. وقد ذكر عنه أنه فصل فى يوم واحد ، عندما كان يجلس للمظالم مع الرشيد ، فى ألف قضية خاصة ، ووقع عليها، ولم يخرج فى شئ منها عن أحكام الفقه ، ولم تكن أى واحدة منها ضد العدالة[١٢٨].

على أن أهم ما يميز سياسة يحيى وأبنائه هى سياستهم المالية ، فقد اتسمت هذه السياسة بدقة شديدة لا تنظر إلا فى مصالح الخزينة المركزية التى امتلأت بثروات ضخمة لا تقدر بثمن . ولعل أكبر دليل على نجاح سياستهم المالية فى ملأ

خزينة الدولة بالأموال الطائلة هي قائمة الخراج التي أوردها الجهشياري في كتابه الوزراء[١٢٩] .

ذلك أن البرامكة اتبعوا أساليب صارمة في جمع الضرائب لتعويض ما لحق بالخزينة من خسائر أيام خلافة المهدي ، وإن كانت الضرائب في أحيان كثيرة تجمع بطريقة تعسفية غير شرعية . ففي بداية وزارة يحيى فرضت ضريبة العشور الإسلامية على معتنقي الإسلام في السواد ، إضافة إلى ما كانوا يدفعونه بناء على نظام المقاسمة الذي عمل به في أيام المهدي . ولما كان ذلك يعني عقوبة على اعتناق الإسلام فإنه سرعان ما أبطل[١٣٠] . ومن أساليبهم المتشددة في جمع الضرائب أنهم كانوا يطالبون الناس بدفع الضريبة كاملة مع جميع المتأخرات « البقايا » ، فتولى مطالبتهم في دار السلام عبد الله بن الهيثم بن سام ، الذي لم يتوان عن استخدام القوة التي تصل أحيانًا إلى التعذيب ، وذلك لإجبارهم على دفع الضرائب أو البقايا ، كما عينوا من أجل ذلك في جميع الولايات موظفين للقيام بهذه المهمة[١٣١] . ففي اليمن مثلاً أقام حماد البربري فيها ثلاث عشرة سنة ، وسام أهلها سوء العذاب حتى صاح قوم منهم بالرشيد وهو بمكة : اعزل عنا حماداً البربري ، إن كنت تقدر . فامتنع الرشيد عن عزله في البداية ، ولكنه ما لبث أن عزله بعد ذلك . والظاهر أن عزله تم بعد القضاء على البرامكة[١٣٢] .

وفي الموصل استطاع يحيى بن سعيد الحرشي تحصيل جميع المتأخرات إلى جانب الضرائب التي فرضت على الدواجن والماشية ، فبلغت ستة ملايين درهم[١٣٣] . وفي أذربيجان التي تم إعفاء أهلها من دفع الضريبة على أراضيهم تشجيعًا لهم للاستيطان في المناطق الحدودية صاروا يطالبون من قبل عمال البرامكة بدفع هذه الضريبة[١٣٤] . وطالت هذه الإجراءات المشددة شمال أفريقية فلم ينج أهلها من صرامة البرامكة وموظفيهم . ومن أجل ضمان ولاء أفريقية ، عين البرامكة هرثمة بن أعين حاكمًا عليها . وكان هرثمة من أهم الشخصيات العسكرية التي ترتبط برباط وثيق مع البرامكة ، وجعلوا تحت قيادته

عدداً من جند العباسية ، الذين كان الفضل بن يحيى قد جندهم من الشرق ، فوصلها سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م وعمل على تهدئة الأوضاع بها[١٣٥] . فلما بلغ طرابلس أعطى جندهم أرزاقهم الفائتة وآمنهم وعمل مثل ذلك فى القيروان التى وصلها سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م وبعد أن استقرت الأوضاع فى أفريقية رجع هرثمة إلى العراق سنة ١٨١هـ/٧٩٧م فاستخلفه جعفر بن يحيى البرمكى على الحرس[١٣٦] .

وقد اضطربت الأوضاع فى أفريقية بعد عودة هرثمة ، ووجدت حكومة بغداد صعوبة فى الاحتفاظ بها ، وحكمها حكمًا مباشرًا بسبب المنافسات بين القوات المجندة من البربر والعرب فى المنطقة ، والقوات الخراسانية من جهة وتوسعات إدريس بن عبد الله العلوى الذى أراد فرض سلطانه على المغرب كله من جهة أخرى[١٣٧] فقرر الرشيد – ووزراؤه البرامكة بعد مشاورة هرثمة بن أعين – إبقاء جند العباسية الذين تركهم هرثمة هناك بصورة دائمة ، وتعيين إبراهيم بن الأغلب واليًا عليهم ، والاعتراف به أميرًا مستقلاً استقلالاً ذاتيًا ، على شرط أن تستغنى ولاية أفريقية عن المعونة المالية التى كانت تدفع من مصر ، وتقدر بحوالى مائة ألف دينار سنويًا ، وأن يدفع مقابل ذلك أربعين ألف دينار سنويًا إلى خزينة الدولة فى بغداد[١٣٨] . وكان هذا الإجراء بدون شك كسبًا جديدًا لخزينة الدولة .

وبينما انتهج البرامكة سياسة شديدة فى جمع الضرائب فى كافة أنحاء الدولة فى عهد الرشيد ، نراهم يتعاطفون مع أهل المشرق ، خاصة فى جمع الضرائب . فالفضل بن يحيى لكى ينجح فى تجنيد القوات العسكرية التى عرفت باسم «العباسية» زاد فى أعطيات الجند والقادة ، ووصل الكتاب بعشرة آلاف درهم . ولكنه عندما وجد أن هذه العطاءات التى بذلها للجند والقواد والكتاب غير كافية عمل على إحراق دفاتر البقايا ، أى عمل على إلغاء متأخرات الضرائب كلها ، وإلى إحراق السجلات حتى لا يُطالبوا بهذه المتأخرات بعد ذلك[١٣٩] .

وهكذا أدت سياسة البرامكة المالية المميزة إلى امتلاء خزينة الدولة بالأموال، مما رفع من شأنهم فى نظر الرشيد . وكما عمل البرامكة على ملئ خزينة الدولة

عملوا أيضًا على ملئ خزينة الرشيد الخاصة ، وذلك عن طريق مصادرة الأراضي المهجورة التي تركها أصحابها بسبب عبء الضرائب ، والأراضي التي مات عنها أصحابها بدون ورثة ، وأراضي بني أمية ، حتى ممتلكات بعض أفراد العائلة العباسية التي مات عنها أصحابها صادروها وأضافوها إلى خزائن الرشيد وعائلته (١٤٠) .

وإلى جانب ذلك خص البرامكة أنفسهم بثروات هائلة ، ولم يحرموا أنفسهم ولا أصحابهم من هذا النشاط لابتزاز الأموال ، فهم يمتلكون أحسن البقاع ، وأجمل الأبنية ، وهذا جعفر يعمر قصرًا في بغداد أنفق عليه أموالاً طائلة تقدر بعشرين مليون درهم (١٤١) . وذكر أنه كانت لديه بركة في داره أخفى فيها أربعة آلاف دينار، وزن كل دينار مائة دينار ودينار (١٤٢) . وكان للبرامكة ممتلكات وأراض كثيرة في البصرة ، وقيل إنهم كانوا لا يتورعون عن إبدال قنوات المياه لتنظيف بعض الأراضي السبخة العائدة لهم دون التفكير في الأذى الذي يصيب الأراضي الأخرى (١٤٣) . وقد بلغت واردات البرامكة السنوية من الأموال ثلاثين مليونًا وستمائة وستين ألف دينار غير ضياعهم ودورهم (١٤٤) . وعن طريق هذه الثروات الضخمة التي حصلوا عليها استطاعوا أن يكونوا علاقات ممتازة مع الخاصة والعامة ، وذوي الحاجات عن طريق الهبات والأعطيات التي كانوا يعطونها بسخاء، حتى كثر على أبوابهم أصحاب الحاجات وتغنى بهم الشعراء . والظاهر أن علاقاتهم الجيدة مع الخاصة والعامة هي التي حدت من انتقادات الجماهير لهم ولأعمالهم .

وهكذا ظلت أسرة البرامكة تدير أمور الدولة وتحتل المنزلة العظيمة لدى الرشيد لمدة سبعة عشر عامًا ، وإن تفاوتت هذه المنزلة في هذه المدة ، حتى حصل الانقلاب الخطير في سياسة الرشيد تجاههم، فأمر بقتل جعفر في صفر سنة ١٨٧هـ/فبراير ٨٠٣م وسجن يحيى والفضل ، وقبض على أموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق (١٤٥) . وعلى الرغم من أننا لا نعرف تفاصيل الوضع الذي أدى

إلى هذا الانقلاب ، لأن الرشيد نفسه تكتم فى إظهار ذلك ، فأفسح بذلك المجال أمام الرواة والمؤرخين ومن تعرض لتاريخ هذه الأسرة بأن يؤولوها تأويلات وصور مختلفة .

وقد أتهم البرامكة بأن لهم ميولاً علوية ، فهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحة الرشيد . وهى تهمة عند العباسيين أشد من تهمة الزندقة التى أودت بحياة ابن وزير المهدى . ذلك أن هذه التهمة تشكل خطرًا جسيمًا على سلامة الدولة . وقد استغلت حادثة إطلاق جعفر البرمكى سراح الثائر يحيى بن عبد الله العلوى أسوأ استغلال من قبل أعداء البرامكة . وهناك عدد من الروايات التى تحاول إثبات انحياز البرامكة إلى العلويين وأنهم يفضلون أن يعتلى عرش الخلافة واحد منهم(١٤٦) وهى روايات يصعب على الباحث المدقق تصديقها ، لأن البرامكة لم يكونوا لينالوا تلك المنزلة الرفيعة التى حصلوا عليها فى عهد الرشيد لو تولى أحد العلويين عرش الخلافة .

ويمكن القول بأن موقف البرامكة المتميز بالمرونة والعطف تجاه العلويين كان يتماشى تمامًا مع المناخ الفكرى والسياسى فى أواخر عهد الرشيد ، والذى كان يمثله حلقات المثقفين ويشجعه البرامكة ، بعقدهم الندوات والاجتماعات لسماع الآراء والمناقشات الفكرية المختلفة . ذلك المناخ الذى تميز بالتسامح والمرونة تجاه العلويين(١٤٧) .

ونحن فى الحقيقة لسنا بصدد ذكر الأسباب التى أدت إلى نكبة البرامكة والتى لم يخلُ من ذكرها كتاب من كتب التاريخ .

وقد تولى أمور بلاط الرشيد - بعد نكبة البرامكة - الفضل بن الربيع ، الذى حاول قدر المستطاع أن ينال مركزًا أو حظوة مثل ما ناله البرامكة ، ولكن دون جدوى فهو لم يكن على مستوى البرامكة فى الكرم ، ولا فى ذكائهم ، أو سعة نفوذهم ولا حسن تدبيرهم(١٤٨) . ولا شك فى أن القضاء على هذه الأسرة كان

خسارة على الدولة العباسية وخاصة من ناحية النظم الإدارية. فقد أورد المؤرخـون روايات عديدة عن الفراغ الذى تركه البرامكة بعد القضاء عليهم .

وقد ندم الرشيد على إيقاعه بالبرامكة لما رآه من إهمال عماله وموظفيه الذين لم يستطيعوا سد ما تركه البرامكة من فراغ فى جميع مناحى الدولة وأثر عنه قولـه (لا آمن الله من أغرانى بقتل البرامكة ، ما رأيت رخاء بعدهم، ولا وجدت لـذة ولا راحة)[١٤٩] . وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء نيتهم لأعادهم إلـى مناصبهم وإلى مكانتهم التى كانوا عليها . وكان يقول (حملونـا علـى نصحائنـا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا عنـا شيئًا)[١٥٠] .

وقد شغل الفضل بن الربيع المكانة الأولى فى بـلاط الرشـيد بعـد اختفـاء البرامكة عن المسرح السياسى . وبعد موت الرشيد أصبح مـن أبـرز شـخصيات حزب الأمين فى الفتنة التى حدثت بينه وبين أخيه المأمون ، وعينه الأمين وزيـرًا له .

وزارة الفضل بن سهل وأثرها فى تأسيس خلافة المأمون :

لم ينته دور البرامكة بنكبتهم وإنما تركوا فى الإدراة ربائبهم وصنائعهم وهـم آل سهل ، وهى أسرة فارسية تنسب إلى بلدة سرخس فـى خراسـان[١٥١] . وكـان سهل بن زادا نفروخ – أب هذه الأسرة – من أبناء ملوك فارس المجوس، أسلم فـى أيام الرشيد ، واتصل بيحيى البرمكى وعمل قهرمانا له ، وكان ذلك بدايـة اتصـال آل سهل بالبرامكة[١٥٢] . ثم أحضر سهل ابنيه الفضل والحسن وقدمـهما للبرامكـة وعرفهما بيحيى بن خالد ، الذى أعجب بالفضل وذكائه وطموحه وعمـق فهمـه ، خاصة عندما نقل له كتابًا من الفارسية التى كان يتقنها إلى العربية ، وطلب منـه أن يعتنق الإسلام حتى يستطيع أن يدخله فى خدمته . فوافق الفضل وأسلم علـى يـد المأمون سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م . ومن ذلك الوقت أصبـح أبنـاء سـهل ملازميـن

للبرامكة يعملون فى خدمتهم ويأخذون عنهم أمور السياسة والإدارة ، حتى نكب البرامكة ، فلزم الفضل المأمون وعمل كاتبًا ومستشارًا له[١٥٣] .

وقد اتصف الفضل بن سهل بالذكاء وشدة الطموح فاسترعاه اتزان المأمون وتعقله ونجابته فتوقع له الخلافة ، فلازمه من أجل ذلك فى حياة أبيه. وبعد وفاة الرشيد لعب دورًا سياسيًا فى ضم الخلافة إليه ، لأنه كان يعلم تمامًا بأنه لن يكون له شأن وأسرته وحزبه ، إذا آلت الخلافة إلى أخيه الأمين .

وأكبر دليل على شدة طموح الفضل وإصراره على ضم الخلافة إلى المأمون هو تحريضه للمأمون على الذهاب إلى خراسان فى معية والده الرشيد سنة ١٩٢هـ/٨٠٨م لمواجهة ثورة رافع بن الليث . محذرًا إياه عن البقاء فى بغداد مع أخيه الأمين ، لأنه كان يعلم أن الرشيد مريض وقد يوافيه الأجل وهو فى طريقه إلى خراسان ، فيخلعه الأمين من ولاية العهد[١٥٤] . وقد أثبتت الأحداث بعد نظر الفضل بن سهل ؛ إذ لم يمض وقت طويل حتى توفى الرشيد فى الطريق ، ودفن فى مدينة طوس سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م[١٥٥] ، وبدأت بوادر النزاع تظهر بين الأخوين الأمين والمأمون . وكان الرشيد قبل خروجه إلى خراسان قد استخلف على بغداد ابنه الأمين ، وجعل معه يحيى بن سليم يدبر أموره، فاصطحب معه إسماعيل بن صبيح ، وأيوب بن أبى سمير والفضل بن الربيع ، وجعل الفضل بن سهل على كتابة المأمون والقائم على أموره[١٥٦] . وبعد أن وصل الرشيد إلى طوس وقبل وفاته بثلاثة وعشرين يومًا أرسل ابنه المأمون إلى مرو ، ومعه قسم من الجند لمحاربة رافع بن الليث ، بينما بقى هو ووزيره الفضل بن الربيع وبقية الجيش والأموال فى طوس . وعندما أحس بدنو أجله أوصى أن يسير بقية الجيش إلى المأمون لمساعدته .

ولم ينفذ الفضل بن الربيع ولا قادة الجيش وصية الرشيد ، بل غادروا طوس إلى بغداد لاحقين بالخليفة الجديدة الأمين . وقد تذرع الفضل بحجة أنه لا يدع ملكًا حاضرًا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره[١٥٧] . فلما علم المأمون بذلك غضب

وجمع من معه من قواد أبيه وشاورهم فأشاروا عليه بقتالهم وردهم إليه . وخالفهم الفضل بن سهل ، وقال للمأمون : بعدم استخدام القوة وإرسال وفد إلى الفضل بن الربيع يذكره بالبيعة ويطالبه بالوفاء لوصية أبيه[١٥٨] .

وبذلك بدأ يظهر دور الفضل بن سهل على أنه المحرك الأساسى للفتنة التى وقعت بعد ذلك بين الأخوين الأمين والمأمون ، حتى أن بعض المؤرخين يرجعون جميع ما حدث من أحداث فى تلك الفترة إلى الفضل ، ويغيبون دور المأمون تمامًا[١٥٩] والحقيقة أن المأمون كان موفقًا بوجود الفضل بن سهل وأخيه الحسن فى خدمته ، وهم الذين تدربوا على يد البرامكة . وكما وقف يحيى البرمكى خلف الرشيد حينما أراد أخوه الهادى خلعه من ولاية العهد ، وقف الفضل بن سهل خلف المأمون وسانده وأزره فى ساعات ضعفه حاثًا له على التمسك بحقه فى ولايته مطمئنًا له بقوله : (فكيف بك وأنت نازل فى أخوالك ، وبيعتك فى أعناقهم . اصبر وأنا أضمن لك الخلافة)[١٦٠] .

وقد عرف له المأمون فضله ومنحه سلطات واسعة لإدارة أموره المالية والحربية في هذه الفترة المبكرة والحرجة من أمارته على خراسان ، فأقدم الفضل على خفض نسبة الضرائب فى المنطقة إلى الربع مما كان له أكبر الأثر فى ولاء الأهالى والتفافهم حول المأمون بقولهم : (ابن اختنا وابن عم نبينا)[١٦١] . ونتيجة لهذه السياسة المالية المتسامحة ، وبما كان لآل سهل من صلات مميزة مع أمراء المنطقة ، استطاع الفضل أن يجند عددًا كبيرًا من الجند الخراسانيين وأن يُبرز على الساحة قادة جدد من أبناء المنطقة ، أمثال طاهر بن الحسين ، الذى قاد قوات المأمون لمحاربة بغداد فيما بعد .

وتظهر الروايات المتعددة براعة الفضل ودهائه وحسن إدارته فى تثبيت مركز المأمون أمام مكائد أخيه الأمين الذى عزم على خلعه . ففى سنة ١٩٥هـ/٨١٠م عندما خلع الأمين المأمون من ولاية العهد ونهى عن الدعاء له

على المنابر ، رد الفضل بن سهل على هذا الإجراء بأن أطلق على المأمون لقب « إمام » توطيدًا لسلطته بإضفاء صفة دينية عليه .

وبعد ذلك حشد الفضل بن سهل الجيوش الكبيرة من أهالي خراسان الذين توافدوا من كل صوب وحدب ، وجعل على قيادتهم طاهر بن الحسين ، بعد حصوله على امتيازات عديدة ، وسارت الجيوش متجهة إلى الري[١٦٢] . ومن ناحيته أشرف الفضل بن الربيع على تجهيز وإعداد جيش الأمين ، وجعل على قيادته عليًا بن عيسى بن ماهان - أحد أبرز رؤساء الأبناء - بعد أن عقد له على كور الجبل كلها نهاوند ، وهمذان ، وقم ، وأصفهان[١٦٣] . وقد بالغ الفضل بن الربيع في تجهيز الجيش بالعدة والسلاح ، وأعطى الجند مالاً عظيمًا ، كما أجزل العطاء لقائده على بن عيسى فأعطاه مائتي ألف دينار ، وأعطى ولده خمسين ألف دينار[١٦٤] .

وقد أثار تعيين على بن عيسى بن ماهان على قيادة الجيش الموجه لمحاربة المأمون الغضب الشديد في نفوس الخراسانيين ، لأنهم لم ينسوا ظلمه وسوء معاملته لهم عندما كان واليًا على خراسان في عهد الرشيد، فأصروا على محاربته والاستماتة في قتاله . وقيل إن للفضل بن سهل يدًا في تعيين على بن عيسى بن ماهان إذ أوعز إلى أحد عيونه وجواسيسه في بغداد بأن يزين للفضل بن الربيع تعيين على بن عيسى على قيادة الجيش ، لأن هذا التعيين سوف يثير أهالي خراسان ضده لبغضهم وكرههم له[١٦٥] .

زحف على بن عيسى بجيشه البالغ أربعين ألفًا ، وقيل خمسين ألفًا من الأبناء والأعراب إلى الري ، حيث التقى بجيش طاهر[١٦٦] . وقد بدأ تفوق جيش الأمين واضطراب بعض ملوك خراسان في تلك الفترة مما أثار أمام المأمون موقفًا صعبًا حتى أنه فكر جديًا في الهرب واللجوء إلى ملك الترك والتخلي عن الخلافة ، لولا مساندة الفضل بن سهل الذي أشار عليه أن يمنح بعض هؤلاء الملوك الاستقلال الذاتي ، وأن يتنازل لبعضهم عن الجزية ، وأن يتودد للبعض الآخر بالهدايا والتحف .

كما نصحه بالتريث فإن نجحت خططه مع الثائرين عليه من ملوك المنطقة وانتصرت قواته على قوات أخيه فذلك الذى يأمل وإلا فليلتجئ إلى ملك الترك(١٦٧).

وكان لهذه النصائح وقعها فى قلب المأمون ، ونجحت خطط الفضل بن سهل، فهدأت ثائرة الملوك العجم ، وانتصرت قواته على قوات أخيه فى الرى انتصاراً ساحقًا ، وقتل على بن عيسى ، وتراجع جيشه إلى بغداد فى حالة سيئة ، فلما وصلت رسل طاهر إلى الفضل بن سهل تخبره بالنصر دخل على المأمون وسلم عليه بالخلافة ولقبه بأمير المؤمنين(١٦٨) .

وبعد مقتل على بن عيسى بن ماهان أرسل الأمين جيشًا آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى يقدر بحوالى عشرين ألفًا من الأبناء(١٦٩) . كما أدرك المأمون المصاعب التى يواجهها طاهر فأرسل له فرقة قوية من جند العباسية بقيادة هرثمة بن أعين الذى كان أحد قواد الرشيد(١٧٠) . فتقابل الفريقان فى همذان واقتتلوا، ولم يزل يقاتل حتى قتل(١٧١) .

وعندما بلغ المأمون ، خبر هزيمة عبد الرحمن بن جبلة ومقتله ، رفع من منزلة الفضل بن سهل ، وجعله مسئولاً أمامه عن الإدارة المدنية والعسكرية لكل المنطقة الممتدة من همذان إلى التبت ، ومن الخليج إلى بحر الديلم (بحر قزوين)، ولقبه «ذو الرئاستين » أى رئاسة الحرب ورئاسة التدبير ، وجعل عمالته ثلاثة ملايين درهم فى السنة . وكان ذلك فى رجب سنة ١٩٥هـ/٨١٠م وهو التاريخ الذى أصبح فيه الفضل بن سهل وزيراً رسميًا للمأمون ، كما أطلق عليه لقب « الأمير » ، فى حين ولى أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج(١٧٢) .

ثم تابع الأمين بعد ذلك إرسال الجيوش لمنع طاهر بن الحسين من الزحف إلى بغداد فوجه أحمد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فى عشرين ألف رجل من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين آخرين من الأبناء(١٧٣) . ثم اتبع ذلك بمحاولة أخرى يائسة لإنقاذ جيشه من الهزائم المتتالية بأن عين عبد الملك

ابن صالح على الشام والجزيرة يستعين بجنودها ، ولكن هـذه المحـاولات ذهبت سدى ، ولم تواجه جيوش طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين - وهما فى تقدمـهما نحو العراق - مقاومة تذكر وحاصرا بغداد حصاراً شديدًا وضيقًا على أهلها الذيـن قاوموا الحصار لعدة أشهر ، ومن بينهم الأبناء الذين كانوا يدافعون عـن مدينتـهم بضراوة لشعورهم بأنهم يخوضون معركتهم الأخيرة . وعندما شـعر الفضـل بـن الربيع بضعف موقف الأمين هرب تاركًا خليفته يلقى مصيره وحده . وفـى ذلـك يقول المسعودى (واستتر الفضل لما تبين من اختلال أمر محمد ووهاء أمـره فقـام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح)[١٧٤] .

ولكن يبدو أن طاهر وهرثمة لم يكونا متفاهمين حتى فـى فـترة الحصـار الشديدة . فهرثمة كان يريد نوعًا من التفاهم مع أهالى بغداد المحـاصرين ، بينمـا كان طاهر معارضًا هذه السياسة . والواقع أن الأمين عندما أحس بسوء التفاهم هـذا حاول استغلاله لصالحه ، فأرسل إلى هرثمة بطلب الأمان ، فأجابه هرثمة إلى ذلـك وأقسم له أن يقاتل دونه إن أراد المأمون التخلص منه بقتله . على أن الأميـن لـم ينجح فى الوصول إلى معسكر هرثمة ، إذ غرق قاربه فى النهر وقتل على يد جنود طاهر ، واجتز رأسه ، وأبلغ بذلك المأمون الذى أصبح خليفة دون منازع[١٧٥] .

وفى هذه الأثناء وجه المأمون ؛ بإيعاز من الفضل بن سهل ، الحسن بن سهل إلى بغداد لينوب عنه ، بعد أن عينه واليًا على ما افتتحه طاهر من كور الجبـال ، والعراق ، وفارس ، والأهواز ، وكذلك الحجاز واليمن . وبينما أبعـد طـاهر بـن الحسين إلى الجزيرة الفراتية بحجة قمع ثورة نصر بن شبث العقيلـى ، كمـا أمـر هرثمة بن أعين بالتوجه إلى خراسان[١٧٦] . وعمل فى الوقت نفسـه علـى إبقـاء المأمون فى مرو ، وقطع الأخبار عنه ، وعاقب من حاول إخباره بما يجـرى فـى بغداد ليصرف الأمور حسب سياسته المخطط لها[١٧٧] .

على أن تعيين الحسن بن سهل على العـراق لقـى معارضـة شـديدة مـن العراقيين عامة ، وأهل بغداد خاصة بما فيهم الأبناء ، الذيـن أدركـوا أن تعييـن

الحسن بن سهل واليا ونائبا عن المأمون في بغداد معناه القضاء على نفوذهم وسلطاتهم ، ومكانتهم ، التي ظلوا متمتعين بها لسنوات عديدة . كذلك أثار بقاء المأمون في مرو واتخاذها عاصمة له ووقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل غضب الهاشميين في العراق من عباسيين وعلويين ، فعمت الفتن والاضطرابات في أغلب مناطق الدولة العباسية . وأدى موقف الأبناء العدائي وأهالي بغداد من الحسن بن سهل وجيشه إلى إرغامه على ترك بغداد وسحب قواته منها[١٧٨] . كما أدى غياب المأمون عن بغداد عاصمة آبائه وأجداده ، وعدم وجود سلطة قوية بها إلى قيام ثورات علوية بجوار الكوفة وفي مكة واليمن[١٧٩] .

ومن أجل إرضاء العلويين أغرى الفضل بن سهل ، المأمون بتولية أحد العلويين وليا للعهد من بعده ، فوقع اختياره على على بن موسى الكاظم ولقبه « بعلى الرضا » ، كما أمر الجند بأن يتركوا لبس السواد ويلبسوا الثياب الخضر[١٨٠]. إلا أن هذه الخطوة الجزئية لم تقنع خصوم المأمون من العلويين ، وأدت في النهاية إلى ازدياد الاضطرابات في بغداد . وأخيرا تنبه المأمون لسياسة الفضل بن سهل كما تنبه من قبل والده الرشيد لسياسة البرامكة ، وأدرك أن ثورة أهالي بغداد ونقمة أهل بيته عليه ومبايعتهم لعمه إبراهيم بن المهدي ما هي إلا بسبب قبوله رأى الفضل بالبقاء في مرو ، والابتعاد عن مقر حكم العباسيين ببغداد ، وتعيين على الرضا وليًا لعهده . فاتخذ أجرأ خطوة في حياته ؛ إذ قرر الرحيل والانتقال إلى بغداد وأخذ على الرضا معه ، وكان ذلك سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م . وفي طريق العودة تخلص المأمون من وزيره الفضل بن سهل ، ومن ولي عهده على الرضا[١٨١] .

وصل المأمون إلى بغداد بعد سنتين من خروجه من مرو فوصلها عام ٢٠٤هـ/٨١٩م . وبعد وصوله بمدة وجيزة تخلص من كل ما يشير إلى تحوله إلى المذهب الشيعي ، فرجع إلى لبس السواد شعار العباسيين وطرح عنه لباس الخضرة، إلا أنه تمسك بلقب الإمام الذى ظل الخلفاء العباسيون اللاحقون يتمسكون به[١٨٢] .

وبعد أن تخلص المأمون من الفضل بن سهل استوزر أخاه الحسن بن سهل ولقبه بذى الكفايتين استرضاء لعائلة آل سهل ، وإبعاد شبهة قتل الفضل عنه . وتزوج « بوران » ابنة « الحسن » فى عرس حافل سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م[١٨٣] .

وقد أنفق الحسن على زواج ابنته من المأمون مبالغ عظيمة ، يذكر أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فى كل رقعة مكتوب فيها عطية ، دار أوضيعة ، أو جارية ، أو فرس ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم .

وفرش للمأمون حصيرًا منسوجًا بالذهب ، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة . كما نثرت جدة العروس على المأمون ألف درة كانت فى صينية ذهب، وأشعل بين يديه شمعة عنبر ، وزنها مائة رطل. وكان مبلغ ما أنفقه الحسن على هذا العرس خمسين مليون درهم[١٨٤] . إلا أن الحسن لم يلبث أن مرض بعلة تسمى « السوداء » سببها حزنه وجزعه على موت أخيه، ولزم منزله[١٨٥] .

والواقع أن سياسة آل سهل مثلت انقلابًا على التقاليد العباسية وإدخال كل ما هو فارسى إلى البلاط العباسى . من ذلك أن الفضل بن سهل تشبه بوزراء الأكاسرة ، فكان يجلس على كرسى مجنح ، ويحمل فيه حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت يوضع الكرسى ، وينزل عنه فيمشى ويحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم الفضل ويعود فيقعد عليه[١٨٦] . كذلك تبع تعيين على الرضا وليًا للعهد طرح لبس السواد رمز العباسيين ، ولبس الخضرة لون لباس كسرى والمجوس .

وبعد مرض الحسن بن سهل استخدم المأمون غيره من الوزراء ، من أهمهم أحمد بن أبى خالد أحد قادة الأبناء الذين قاوموا سياسة آل سهل فى العراق ، مع إخلاصهم ووفائهم للمأمون[١٨٧] .

وقد ظل أحمد فى خدمة المأمون حتى وفاته عام ٢١١هـ/٨٢٦م، ولكنه رفض أن يعين رسميًا فى منصب وزير أو كاتب[١٨٨] . ويبدو أن تعيين المأمون

لهذا الرجل فى هذا المنصب الحساس كان له مغزاه السياسى ، وهو المصالحة والتفاهم مع طبقة الأبناء الذين كونوا شريحة مهمة فى طبقات المجتمع العراقى .

أشهر وزراء نهاية العصر العباسى الأول :

استخدم المعتصم عدداً من الوزراء من بينهم الفضل بن مروان الذى كان نصرانيًا من أهل البردان[١٨٩] ، إلا أنه وصف بأنه كان عاميًا لا علم عنده ولا معرفة ، ردئ السيرة جاهلاً بالأمور ، قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الملوك[١٩٠] . ويرجع السبب فى تعيين المعتصم له فى منصب الوزارة أنه كان كاتبه قبل توليه الخلافة ، وأنه قام بأمر البيعة له فى بغداد ، وضبط الأمور فيها حتى عاد المعتصم ، الذى كان يرافق المأمون فى غزوته الأخيرة لبلاد الروم التى توفى فيها. وعلى الرغم من صفة الجهل التى اتصف بها الفضل بن مروان إلا أنه تمكن من السيطرة على أمور الخلافة واحتل منزلة عظيمة لدى المعتصم ، ومنح سلطات.وصلاحيات واسعة[١٩١] . ولكن المعتصم ما لبث أن عزله من منصبه فى رجب سنة ٢٢١هـ/ يوليو ٨٣٦م بعدما تبين له جهله وتحكمه فى الإدارة وبيت المال . فأمر بحبسه وصادر أمواله ثم أعفاه ، فأخذ الفضل ينتقل فى البلاد مدة من الزمن حتى مات أيام المستعين سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م[١٩٢] .

وبعد أن عزل المعتصم الفضل بن مروان استعان بالتجار فى إدارة شئون الدولة خاصة المالية منها ، وذلك لما لهم من قوة اقتصادية فعين محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات أحد أغنى تجار بغداد وزيرًا له[١٩٣]. وقد عرف بابن الزيات، لأن جده أبان كان يجلب الزيت من موطنه إلى بغداد ليتاجر فيه، وأصله من جيل[١٩٤] . وكان والده تاجرًا موسرًا فنشأ ابنه فى رغد من العيش فاتجه لدراسة العلوم والآداب ، ونال من ذلك حظًا عظيمًا ساعده على القيام بأعباء الوزارة خير قيام طيلة عهد المعتصم وابنه الواثق .

ومن أعماله المالية أثناء وزارته إلغاء ضريبة العشر على السفن الواردة من وإلى موانئ الخليج[١٩٥] ، عبر المحيط الهندى من شرق أفريقية ، وجنوب آسيا

وجنوبها الشرقي والشرق الأقصى . ويبدو أن هذا التدبير كان بالدرجة الأولى في مصلحة الأغنياء والتجار أمثال ابن الزيات نفسه ، لأنه لم يؤد إلى خفض الأسعار ، ولم يستفد منه عامة الشعب والفقراء ، لأنها كانت تتاجر بالسلع الكمالية .

وبعد وفاة الواثق استوزره المتوكل ، واستمر ابن الزيات في خدمة المتوكل أربعين يومًا ، نكبه بعدها وصادر أمواله وعذبه حتى مات في سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م ، بعد أن ظل في منصب الوزارة اثنتي عشرة سنة[١٩٦] . ويعد ابن الزيات - رغم عيوبه التي تميزت بالقسوة وعدم الرحمة وعدم محبة الناس له لقسوته في جمع الضرائب - آخر وزراء العصر العباسي الأول الأفاضل ، العلماء ، وكان الوزير الوحيد الذى وزر وزارة واحدة لم يقطعها صوف أو عزل لثلاثة خلفاء متتابعين[١٩٧] .

* * *

وهكذا نرى من خلال هذه الدراسة الدور الهام الذى لعبه وزراء هذا العصر على مسرح الأحداث فى الفترة الممتدة من سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م إلى سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م . وخير دليل على ذلك الدور الذى لعبه البرامكة وزراء الرشيد ، حتى ارتفع شأنهم وتولوا مناصب الدولة وعلا سلطانهم فلم يعد يحتملهم الخليفة ، مما حدا به إلى نكبتهم فى النهاية .

كذلك الدور الذى لعبه بنو سهل فى التأثير على المأمون حتى استطاعوا أن يحققوا آمال الشعوبيين والشيعة بتحويل الخلافة إلى آل على رضى الله عنه ، وكيف أدى ذلك إلى بيعة على الرضا بولاية العهد، وانتهاء الأمر بمقتل الفضل بن سهل وعلى الرضا .

كل هذا يبرز أهمية الدور الذى لعبه وزراء العصر العباسى فى سياسة بنى العباس ، وأثر ذلك كله على المجتمع الإسلامى .

الهوامش

(١) ابن طباطبا ، فخر الدين بن محمد بن علی ، الفخری فی الآداب السلطانية ، بيروت ، دار بيروت ١٣٨٥هـ ، ص١٥٣ .

(٢) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، بيروت ، دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨١ ، ص٣١٠ .

(٣) الكروى ، نظام الوزارة ، ص٢٤ .

(٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت ، ص٢٥ - ٣٣ .

(٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، د. ت ، جـ٢ ، ص١٩٥ .

(٦) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٩٦ .

(٧) كان أبو سلمة صهراً لبكير بن ماهان ، فهو زوج ابنته ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، جـ٤، ص١٦٠ .

(٨) مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدورى ، بيروت، دار الطليعة ١٩٧١ ، ص٢٤٥ .

(٩) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٦٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٤ .

(١٠) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت، دار سويدان ، د. ت ، جـ٧ ، ص٣٢٩ .

(١١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٤٠٠ ، مؤلف

مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٦٧ – ٣٦٨ . البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٣ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤١٧ .

(١٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص٤٠٠ ، مؤلف مجهول ، تاريخ الدولة العباسية، ص٣٧٤ – ٣٧٥ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٣ ، الطبرى تاريخ ، جـ٧ ، ص٤١٨ .

(١٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤١٨ – ٤١٩ .

(١٤) مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٧٦ .

(١٥) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصطفى ألبانى الحلبى ، د. ت ، ص٨٤ .

(١٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٢٣ – ٤٣٠ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٥ .

(١٧) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، بيروت ، دار صادر ، د. ت ، جـ٢ ، ص٣٤٩ .

(١٨) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، جـ٣ ، ص٢٦٨ .

(١٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٦ .

(٢٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٢٤ – ٤٣٠ ، مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٤٠٤ .

(٢١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٤ .

(٢٢) محمد أحمد برانق ، الوزراء العباسيون ، القاهرة ، المطبعة النموذجية ، جـ١ ، ص٨٢ .

(٢٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٥ ، اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢، ص٣٥٠ .

(٢٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٧ .

(٢٥) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٥ - ٨٦ .

(٢٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨١ .

(٢٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٧ - ٨٩ .

(٢٨) صالح أحمد العلى ، معالم بغداد الإدارية والعمرانية ، ط١ ، بغداد ، دار الشئون الثقافية العامة ، ١٩٨٨ ، ص١٢٩ .

(٢٩) ابن قتيبة الدينورى ، الإمامة والسياسة ، تحقيق طه محمد الزينى ، بيروت ، دار المعرفة ، د. ت ، جـ٢ ، ص١٢٠ ، أبو حنيفة الدينورى ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د. ت ، ص٣٧٠ .

(٣٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٥ .

(٣١) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٨٤ .

(٣٢)المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٨٤ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٤ .

(٣٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٧١ ، الوزراء ، ص١٣٦ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٦ .

(٣٤) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٣٦١ .

(٣٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٢٥٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٣٦ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٦ ، يذكر المسعودى بأن المنصور استوزر ابن عطية الباهلى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٩٨ .

(٣٦) المسعودى ، التنبيه والأشراف ، ص٣١٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢١٩ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٦ .

(٣٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٧ .

(٣٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٥ .

(٣٩) حسن أحمد محمود ، وآخرون ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط٥، القاهرة ، دار الفكر العربى ، د. ت ، ص١٠٥ .

(٤٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٩ .

(٤١) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٧ .

(٤٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٣ .

(٤٣) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥١

(٤٤) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٧٤ .

(٤٥) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ .

(٤٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٧٦ .

(٤٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٣٢٥ .

(٤٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٩ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٩٨ .

(٤٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ .

(٥٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ٩٧ .

(٥١) س. د. جواتياين ، دراسات فى التاريخ والنظم الإسلامية ، تعريب د. عطية القوصى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ١٩٨٠ ، ص٨٩ - ٩٠ .

(٥٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٤ .

(٥٣) س. د. جواتياين ، دراسات فى التاريخ والنظم الإسلامية ، ص٩٠ .

(٥٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٨ .

(٥٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٣٤٦ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ ، ١١٧ .

(٥٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٠٧ ، ١١٢ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، ط٢ ، بيروت دار الكتاب العربى ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، جـ٤ ، ص٣٥٣ ، ٣٦٧ .

(٥٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١١٧ .

(٥٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١١٨ .

(٥٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١١٨ .

(٦٠) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٣٢٦ .

(٦١) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٤ .

(٦٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٨ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ .

(٦٣) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ .

(٦٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٦ .

(٦٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ .

(٦٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٧ .

(٦٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٦ - ١٢٧ .

(٦٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ١٤١ .

(٦٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ١٥٨ .

(٧٠) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ - ١٨٣ .

(٧١) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ .

(٧٢) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ .

(٧٣) السيح : السقى بدون كلفة ولا مشقة من ماء السماء . والسيح الماء الجارى انظر ابن منظور ، لسان العرب، بيروت ، دار بيروت ، د. ت ، جـ٢ ، ص٤٩٢ .

(٧٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت ، ص١٨٩ ، ضيف الله يحيى الزهرانى ، موارد بيت المال فى الدولة العباسية ، ط١ ، مكة ، الفيصلية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الكتاب الأول ، ص٢٤٧ .

(٧٥) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٨٩ - ١٩٠ ، ابن طباطبا ، الفخـرى ، ص١٨٢ .

(٧٦) قدامه بن جعفر ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، فرانكفورت ، منشـورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م ، ص٢٠١ ، ضيف الله الزهرانى ، موارد بيت المال ، ص٢٤٠ - ٢٤١ .

(٧٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٢٨٩ - ٢٩٠ ، ضيف الله الزهرانى ، مـوارد بيت المال ، ص٢٤١ .

(٧٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٤٥ .

(٧٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٤٢ - ١٤٣ .

(٨٠) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٣ .

(٨١) الجهشيارى ، ص١٥٦ .

(٨٢) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ ، ابن طباطبـا ، الفخـرى ، ص١٨٤ .

(٨٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٧ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٥ .

(٨٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٤ - ١٥٥، الجهشـيارى ، الـوزراء ، ص١٥٥ .

(٨٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٥ .

(٨٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٧ .

(٨٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٥ ، الجهشيارى ، الـوزراء ، ص١٥٥ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٤ .

(٨٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٩، ١٥٦ ، الجهشـيارى ، الـوزراء ، ص١٥٥ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥، ص٥٢ .

(٨٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٩ ، ابن الأثير، الكامل ، جـ٥ ، ص٥٢.

(٩٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٣٦ .

(٩١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٦ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٦ ، ١٥٨ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٦٦ .

(٩٢) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ط٢ ، بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٧ ، ص١٥٦ .

(٩٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٦ .

(٩٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٧ ، ١٥٩، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٦٠ - ١٦١ .

(٩٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٦٠ ، ١٦٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٦١ .

(٩٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٧ ، ١٦٠ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٩ - ١٦٠ .

(٩٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٨ .

(٩٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٣٠٨ ، أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسي والفاطمي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٠ ، ص٨٢ .

(٩٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٦ .

(١٠٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٨٦ .

(١٠١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٠٨ ، ابن طباطبا الفخرى ، ص١٩٨ .

(١٠٢) س. د. جواتياين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ص٩٧ .

(١٠٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص ٢٣٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٧.

(١٠٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص ٢٣٥ ، ٢٦٥ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٩ ، ٢٠٧ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٠٥ .

(١٠٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص ٢٣٥ .

(١٠٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٨ .

(١٠٧) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٩٨ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ط٣ ، مكة ، المكتبة التجارية ، ١٤١٤ - ١٩٩٤ ، جـ١ ، ص١٩ .

(١٠٨) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٠٥ ، ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١ ، ص٢٥٢ .

(١٠٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٨٩ ، صالح أحمد العلى ، معالم بغداد الإدارية والعمرانية ، ص٣٧ - ٣٨ .

(١١٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٩٨ .

(١١١) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١ ، ص١٩ .

(١١٢) فاروق عمر ، الجذور التاريخية للوزارة العباسية ، ط١ ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص١١٢ .

(١١٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٤١ .

(١١٤) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٠٨ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٤٢، ٢٤٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩٠ .

(١١٥) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٠٧ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٥، ٢٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٩٦ .

(١١٦) يذكر الطبرى أن عدد الجند بلغ ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف جندى وهو بلا شك عدد مبالغ فيه ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٧ .

(١١٧) الأبناء هم أحفاد الخراسانيين الذين أتوا مع الجيش القادم من خراسان عند قيام الدولة العباسية .

(١١٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٤٠ – ٢٤١ .

(١١٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩٤ .

(١٢٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩٠ .

(١٢١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٦٦ .

(١٢٢) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١٠ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٦٢– ٢٦٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل، جـ٥ ، ص١٠٣ .

(١٢٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٦٣ ، ٢٦٥ .

(١٢٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٠٤ .

(١٢٥) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢١١ ، عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ... ط٣ ، بيروت دار الطليعة ، ص١٢٧ .

(١٢٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٢٥ ، عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٢٦ .

(١٢٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٢٩ .

(١٢٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٠٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٢٩ .

(١٢٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٨١ ، ٢٨٨ .

(١٣٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٣٦ .

(١٣١) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١٥ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٧٢ .

(١٣٢) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١٢ – ٤١٣ .

(١٣٣) الأزدى ، تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيبه ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص٢٨٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٠٣ .

(١٣٤) M. A. Shaban, Islamic history, Cambridge Univ. Press 1976, Vol. II, p. 33-34.

(١٣٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٦ .

(١٣٦) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٩٦ ، ١٠٣ .

(١٣٧) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٩٥ ، ١٠٤ .

(١٣٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٠٤ .

(١٣٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩١ .

(١٤٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٣٧ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٩، ١٥٦ ، ١٦٣ .

M. A. Shaban, Islamic history, Vol. II, p. 36.

(١٤١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٩١ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١، ص٣٤٤ ، الدميرى ، كمال الدين ، حياة الحيوان ، بيروت ، دار الفكر ، د. ت ، جـ٢ ، ص١٢٨ .

(١٤٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٤١ .

(١٤٣) فاروق عمر ، الجذور التاريخية للوزراء ، ص١٢١ .

(١٤٤) توفيق سلطان اليوزبكى ، الوزارة نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٧٠/١٣٧٠ ، ص٧٦ .

(١٤٥) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٢١ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٧٨، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٧٧ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٣٤ – ٢٣٥ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢١٠ .

(١٤٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٤٣ .

(١٤٧) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٧٧ ، فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٧ ، الطبعة الأولى ، ص١٣٠-١٣٢ .

(١٤٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٣٧ .

(١٤٩) الأربلى (عبد الرحمن سنبط قنتو) خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، القاهرة ، ١٨٨٥ ، ص١٠٧ .

(١٥٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٥٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٢٨ .

(١٥١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٢٠ ، جـ٤ ، ص٤١ .

(١٥٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٩ - ٣٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى، ص٢٢١.

(١٥٣) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٣١ .

(١٥٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٣٨ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٦٦ .

(١٥٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٤٤ .

(١٥٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٦٦ .

(١٥٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٥ .

(١٥٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٥ - ١٣٦ .

(١٥٩) د. عبد المنعم ماجد ، العصر العباسي الأول ، ط٣ ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٤ ، جـ١ ، ص٢٩٤ .

(١٦٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٧٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٦ .

(١٦١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٧ .

(١٦٢) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٨٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤١ .

(٢٦٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٨٩ .

(١٦٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٠ .

(١٦٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٣ .

(١٦٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩١ ، ٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل، جـ٥، ص١٤٣ ، ابن الوردى ، زين العابدين بن مظفر ، تاريخ ابن الوردى ، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، جـ١ ، ص٢٠١.

(١٦٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٠٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٠ .

(١٦٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٥ ، ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، جـ١ ، ص٢٠٢ .

(١٦٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٦ .

(١٧٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٤ .

(١٧١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤١٤ .

(١٧٢) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٢٤ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٣٠٥ - ٣٠٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٥٠ .

(١٧٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٢٣ .

(١٧٤) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٨ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٣٢ .

(١٧٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٨٠ ، ٤٨٨ ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٦٣ ، ١٦٥ .

(١٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٧٢ .

(١٧٧) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢١٨ .

(١٧٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٤٣ - ٥٤٤ ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٨ .

(١٧٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٢٨ ، ٥٤٠ .

(١٨٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٥٤ .

(١٨١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٦٥ ، ٥٦٨ ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٩ .

(١٨٢) ابن طيفور ، أبى الفضل أحمد بن طاهر ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٣٨٨ - ١٩٦٨ ، ص٢ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨، ص٥٧٥ .

(١٨٣) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص١١٣ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٢٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٨٧ .

(١٨٤) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص١١٤ - ١١٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٨٧ - ٢٨٩ ، الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، جـ١ ، ص٢٨١ .

(١٨٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٢٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٢٣ .

(١٨٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٣١٦ .

(١٨٧) ترجع أصول عائلة أبى خالد إلى مرو الروذ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٣٠ .

(١٨٨) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص١١٨ - ١١٩ .

(١٨٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٥ .

(١٩٠) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٣٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٥ .

(١٩١) الطبرى ، تاريخ ، جـ١ ، ص٢٠ – ٢١ .

(١٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٢٧ .

(١٩٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص٢٠ ، ١٦٠ – ١٦١ .

(١٩٤) جبل قرية جنوبى بغداد ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٠٢ .

(١٩٥) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٨٣ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص١٥٠ .

(١٩٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص٢٠ ، ١٥٨ – ١٥٩ .

(١٩٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص٢٠ .

القَبَالات في المغرب والأندلس

القرن (٣ – ٦ هـ/ ٩ – ١٢ م)

أصولها التشريعية وتداعياتها التاريخية

د / صلاح أحمد عبد خليفة(*)

التعريف بالقَبَالات :

القَبَالة بالفتح كلمة عربية بمعنى الكفالة أو الضمان والإلتزام[١] وهي مصدر وإسم للفعل قَبل أي كَفِل وضَمِن فيُقال قَبِل تَقَبل قَبَالة أو تقبل العامل تقبيلاً أو قَبَالة[٢]، وجمعها قَبَالات[٣] ، وإسم المشتغل بالقبالات مُتَقَبِّل وهو من التزم ضمان أو كفالة عملاً أو ديناً وغير ذلك[٤] .

وقال الزمخشري " كل من تقبل بشئ وكتب عليه بذلك فالكاتب الذي يكتب القَبَالة بالفتح والعمل قِبَالة بالكسر لأنه صناعته»[٥] .

ولم يأتنا في المعاجم العربية سوى ذلك عن هذه الكلمة ومعناها ، إلا أن الكلمة كانت شائعة الاستعمال لدى المؤلفين العرب من الفقهاء والمؤرخين باشتقاقاتها المختلفة ، فاستعملت للدلالة على نظام التقبيل ، فقيل " قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار أو قبالة مبتولة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار[٦] " .

كما أطلقت على قيمة القبالة من النقود سواء كانت ذهباً أو فضة فيقال " لا يبرئ المتقبل فلان من شئ القبالة المذكورة حلول نجم.. [٧] أو أن المتقبل فلان " دفع القبالة متطوع»[٨] « أو تدفع كل شهر أو كل عام عند انقضائه »[٩]. " وإن توالت الأمطار ومنعته الزراعة فيوضع عنه من القبالة ما يقع من الشهور "[١٠] وهكذا .

كما جاء في المصادر من اشتقاقات الكلمة غير المُتَقَبِّل كلمة المُقَبَّل[١١] أي الطرف الثاني في القبالة وهو الشخص المالك للعين المراد تقبيله .

(*) كلية الآداب – جامعة المنيا.

أما عن معانى الكلمة غير الكفالة والضمان والإلتزام فقد جاءت كثيراً بمعنى الكراء فيقال " تقبيل فلان ... قبالة " وإن شئت قلت اكترى فلان .. كراء وكتب ذلك كثيراً فى العقود والوثائق الخاصة بالقبالات فى المغرب والأندلس بالنسبة للأراضى والدور والحمامات والحوانيت وغيرها[١٢] .

وعندما بَدأ فى تقبيل الضرائب الغير مشروعة صارت الكلمة تُطلق بدل كلمة ضريبة فبدلاً من أن يقال مثلاً ضريبة اللهو (قيل « قبالة اللهو » أى أن القبالة صارت مرادفة للضريبة)[١٣] .

وبمرور الوقت ومع الاستغراق فى استعمال نظام التقبيل استعملت كلمة القبالة للدلالة على كل الضرائب غير المشروعة . وفى هذه الحالة كانت تأتى دائماً فى صيغة الجمع فيقال مثلاً " أسقط القبالات "[١٤] " هذه القبالات التى فيها الجور على المسلمين "[١٥] . " وقبالات ما تؤدى على كل ما يباع فى الأسواق "[١٦] ، وشرط عليه أن « يقطع (١٧) القبالات » وهكذا. ويبدو أن استعمال حكومات دول المغرب أهل الذمة فى جباية هذه القبالات دفعت دوزى[١٨] لاستخراج معنى آخر للقبالة وهو العهد أو الصلح أو الذمة فجعل (أهل القبالة) ترادف (أهل الذمة) .

ويجب أن نشير أخيراً إلى أن البعض حاول إرجاع الكلمة واستعمالها إلى أصول غير العربية مثل الأنجلوسكسونية التى أخذتها عن اللاتينية القديمة أو الإيطالية أو الأسبانية القديمة » ولكن دوزى وزميله دحضا كل تلك المحاولات مدخلين الكلمة فى قاموسيهما عن الكلمات الأسبانية والبرتغالية ذات الأصل العربى[١٩] .

الأصول التشريعية للقبالات :

يشير البعض إلى أن نظام القبالات نظام قديم عملت به شعوب العالم القديم من قرطاجنيين ويونانيين ورومان[٢٠] .

وكانت هذه الأمم كثيراً ما ضمنت الخراج وفرس[٢١] لمجموعة من الأهالى أو بعض أفراد المجتمع ذوى الجاه واليسار والغنى والثروة ، أو حتى للجباة

العاملين فى الحكومة ، وكان هؤلاء يعجلون الأموال لخزينة الدولة ثم يجمعونها بعد ذلك بما يتيسر لهم من وسائل بدون تدخل الحكومة[٢٢] .

وتدل مواقف الرسول ﷺ أذاء هذا النظام على وجوده عند العرب ومن التعاملات الفردية بين أفراد المجتمع العربى قبل الإسلام وخاصة فى الأراضى الزراعية .

فقد ورد عنه ﷺ قال « إياكم والقبالات فإنها صغار وفضلها رباً »[٢٣] وروى عنه ﷺ أنه نهى عن القبالات فجاء على لسان نافع بن خديج قوله « نهانا الرسول ﷺ« عن أمر كان لنا نافعا وأمر رسول الله ﷺ على الرأس والعين ، نهانا أن نتقبل الأرض ببعض خرجها »[٢٤] أى ما يفهم منه أن الرسول ﷺ نهى عن القبالات وكره التعامل بها للصحابة .

وربما من يقرأ ما ورد عن بعض الصحابة فى هذا الأمر يتأكد من ذلك أى نهى الرسول عن القبالات .. إذ ورد عن عبد الله بن عباس قوله «القبالات حرام»[٢٥] وعن عبد الله بن عمر قوله « القبالات ربا »[٢٦] . ولكن لو أمعنا النظر فى أحاديث رسول الله وما روى عنه وكذلك أقوال الصحابة ثم ربطناها بمناسباتها التى قيلت فيها لعرفنا وجه الحقيقة فى القبالات ، ولوجدنا أن الرسول ﷺ وصحابته لم يقصدوا القبالات عامة وإنما حرم الرسول ﷺ ونهى صحابته عن القبالات الفاسدة لما فيها من الضرر لطرفى القبالة ، وتأسى به صحابته والتابعين فى هذا الأمر ، مما ساعد على ارساء الأصول التشريعية لنظام القبالات فى الإسلام .

فالرسول عندما نهى عن القبالات لم يكن يقصد إلا القبالات الفاسدة التى شاعت بين الناس فى الجاهلية وفى زمانه ﷺ حيث ظلم فيها المتقبلون لأن أرباب الأراضى كانوا يشترطون الشروط الفاسدة ويتخيرون من الأرض المكترية أو المقبلة أحسنها تكون خالصة لهم عندما ينضج المحصول ويستثنون من الأرض أماكن يظنون أنها أكثر إفادة من باقى الأرض فعندما سأل الرسول ﷺ الصحابة ما

كانوا يفعلون بمحاقلهم قال أحدهم وهو رافع بن خديج « نؤاجرها على الربيع[٢٧] وعلى الأوسق من التمر والشعير قال ﷺ لا تفعلوا ، أَزْرِعوها أو إِزْرِعوها أو أمسكوها » قال رافع سمعاً وطاعة[٢٨] وروى عن نافع أيضاً قال « حدثنى عماى أنهم كانوا يكرون الأرض على عهد النبى ﷺ بما ينبت على الأربعاء أو شئ يستثنيه صاحب الأرض فنهى النبى ﷺ عن ذلك[٢٩] ويفسر الإستثناء من الأرض حديث أخر روى عن رافع بن خديج أيضاً قال « كنا أكثر الأنصار حقلاً فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما خرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا عن ذلك أى الرسول ﷺ[٣٠] وفى لفظ أخر لهذه الرواية التى تفصل الاستثناء فى الكراء والقبالة « كنا أكثر أهل الأرض مزدرعاً كنا نكرى الأرض بالناحية منها تسمى لسيد الأرض قال : فربما يصاب ذلك وتسلم الأرض وربما تصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا »[٣١] ، أى من جانب الرسول ﷺ ولم يكن الاستثناء فقط فى الأرض البيضاء وإنما كان ذلك فى المزارع وكرائها فيروى « أن الناس كانوا يؤاجرون المزارع على عهد الرسول ﷺ على المَاذِيانَات[٣٢] وإقبال الجداول[٣٣] وأشياء من الزرع فيهلك هذا ويسلم هذا أو يسلم هذا ويهلك هذا ولم يكن للناس كرى إلا هذا فلذلك زُجر عنه»[٣٤] أى زجرهم الرسول عن هذه المؤاجرات .

وفى رواية أخرى « أن الناس كانوا يكرون المزارع فى زمان النبى ﷺ بالمَاذِيانَات وما يسقى الربيع وشئ من التبن فكره الرسول ﷺ كرى المزارع بهذا ونهى عنه »[٣٥] .

والمتأمل لما نهى عنه الرسول ﷺ من القبالات والأكرية يرى أنها لصالح الطرفين ، إذ هى قبالات فاسدة والأرض فيها تقبلت أو المزارع كريت على شئ مجهول لا يعلم له رأس ولا ذنب كما يقولون وهو على هذا الحال يفضى إلى الغرر والجهالة . وفى النهاية يؤدى إلى النزاع والتخاصم والشجار بين الطرفين كما جاء فى حديث سعد بن أبى وقاص الذى قال « إن أصحاب المزارع فى زمن الرسول

ﷺ كانوا يكرون مزارعهم بما يكون على السواقى وما سعد الماء مما حول النبت ، فجاءوا رسول الله ﷺ فاختصموا فى بعض ذلك فنهاهم أن يكروا بذلك[٣٦] .

أما ما فيه خير للمسلمين فأقره الرسول ﷺ فى الأكرية والقبالات ، فقد أقر ﷺ كراء الأرض وقبالتها بالشئ المضمون كالذهب والفضة فقد جاء فى حديث سعد ابن أبى وقاص أن النبى ﷺ عندما نهى المتخاصمين عن الكراء بالإستثناء قال لهم « أكروا بالذهب والفضة»[٣٧] ورافع بن خديج الذى روى معظم الأحاديث الواردة بشأن قبالة الأرض فى عهد الرسول قال بعدما ذكر نهى رسول الله ﷺ عن القبالات الفاسدة « أما الشئ المعلوم المضمون فلا بأس به»[٣٨] ، وعندما سئل رافع ابن خديج بعدما أخبر عن نهى رسول ﷺ عن قبالة الاستثناء فكيف هى بالدينار والدرهم ؟ قال : ليس بها بأس بالدرهم والدينار[٣٩] وقد علق صاحب الفتح[٤٠] أن نافع قال ذلك ربما باجتهاده أو بالتنصيص ، على جوازه أو علم أن النهى عن كراء الأرض وقبالتها ليس على إطلاقه بل إذا كان بالشئ مجهول ونحو ذلك فاستنبط جواز كراء الأرض بالذهب والفضة ، وينقل – أى صاحب الفتح–[٤١] أن الصحابة أجمعوا على جواز كراء الأرض بالذهب والفضة واتفاق فقهاء الأمصار عليه .

ومما سبق يفهم أن الصحابة اتضحت لديهم الصورة الصحيحة التى يجب أن تكون عليها القبالات فى الأرض ، فلا بد أن تكون الأرض المتقبلة من الأرض البيضاء التى لا زرع فيها ولا أشجار مثمره ، لأن مثل تلك الأشياء تدخل تحت أنظمة إسلامية أخرى فى المعاملات مثل المزارعة والمساقاه ، كما يجب أن تتقبل الأرض بشئ معلوم مضمون ، لا بشئ مجهول أو بشئ مما تخرجه الأرض المتقبلة(٤٢ – ٤٤) .

ويروى عن ابن عباس قال : « إن أفضل ما أنتم صانعون أن تستأجروا الأرض البيضاء من السنة إلى السنة (٤٥ – ٤٦) » .

وعبد الله بن عباس نفسه جاءه رجل فقال له أتقبل منك الأبله[٤٧] بمائة ألف، فضربه ابن عباس مائة وصلبه حيا[٤٨] . فابن عباس – الذى عرفنا سلفا – أنه قال

« القبالات حرام » لم يكن إذا يقصد كل القبالات بل قال بكراء الأرض من السنة إلى السنة ويعاقب رجلاً عقاباً شديداً أراد أن يتقبل منه ضيعته على نهر الأُبلة بمائة ألف دينار لأنه طلب منه قبالة فاسدة شرحها لنا أبو عبيد فى كتابه الأموال(٤٩) قائلاً « معنى هذه القبالة المنهى عنها أن يتقبل الرجل النخل والشجر والزرع النابت قبل أن يستحصد ويدرك وهو مفسر فى حديث روى عن سعيد بن جبير عن الرجل يأتى القرية فيتقبلها وفيها النخل والشجر والزرع والعلوج فقال « لا يتقبلها فإنه لا خير فيها « قال أبو عبيد(٥٠) . إنما أصل كراهة هذا أنه بيع ثمر لم يبد صلاحه ولم يخلق بشئ معلوم وقد علق ابن قيم(٥١) على ذلك بقوله « وهذا الذى ذهب إليه أبو عبيد هو المعروف عند الأئمة الأربعة وجعلوا كراء الشجر بمنزلة بيع الثمر قبل أن يبدو صلاحه .

ومع أن الأصل فى إجازة الشجر بالدرهم والدينار لا يدخلها ربا ، كما يقول ابن القيم(٥٢) فإن الفقهاء الأربعة منعوها ليس من أجل موضوع الربا بل الواضح من حديث ابن عباس أن الطالب للقباله لم يطلب منه إجارة الشجر بل يتقبل القرية بما فيها ويدفع له مالاً معلوماً ، فهذه هى القبالات المحرمة التى اتفق عليها الصحابة لا التى فعلها عمر بن الخطاب وأقره عليه جميع الصحابة، وهذا يفسر لنا أيضاً ما سبق وأن أشرنا إليه من قول ابن عمر أن القبالات ربا، فالمقصود بالربا هنا أن الرجل يستأجر الضيعة بكل ما فيها من زرع وشجر وعلوج وما فيها من بيوت وحوانيت وغير ذلك ، فذلك يتضمن أنواعاً من المحذور ورغم ذلك فعله بعض الناس وسموه كراء(٥٣) .

إلى هذا الحد تحرى الصحابة والتابعون صحة القبالات فلم يكن هناك سوى مخالفات فردية حرص الفقهاء على تلافيها ، ماستطاعوا إلى ذلك سبيلاً حتى كان الملك لبنى أمية الذين قلبوا الخلافة وبساطتها إلى ملك عضود حرص على الأبهة وإظهار هيبة السلطان ، ولذا حرصوا على جمع الأموال بشتى الطرق فهبط مستوى الإدارة المالية للدولة من الناحية الشرعية ، فلم تعد تتحرك وفق القرآن

والسنة وهدى الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام ، ووقعت التجاوزات المالية والمخالفات الصريحة سواء كان ذلك فى موارد بيت المال مثل الغنائم والجزية والخراج والعشور أو النفقات التى زادت من أجل مظاهر الترف والأبهة المحدثة ، وقد نال نظام القبالة حيزا من المخالفات حيث قفزت من المخالفات الفردية إلى تجاوزات تحت سمع وبصر الدولة ، ونذكر فى ذلك رسالة أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة تصور ما نال أهلها من شدة وبلاء وجور من أحكام وسنن خبيثة سنتها عليهم عمال السوء ويأمره « بأن يعدل ويحسن فى جباية الخراج ولا يحمل الخراج أجور الضرابين ولا مذيبى الفضة ولا يأخذ هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا دراهم النكاح أى خراج البغايا »[٥٤] ورغم إصلاحات الخليفة عمر بن عبد العزيز المالية إلا أن الأمور عادت لمسارها الغير عادى من القبالات كما سنرى واستمر فى عهد بنى العباس ووصل الأمر غايته بقبالة وتضمين الخراج بل تضمين خطط الدولة مثل القضاء والحسبة والشرطة كذلك[٥٥] .

وصار هناك متقبلون محترفون لما يتقبل من الخلافة ولنأخذ مثلا تضمين الخراج حيث لجأت الخلافة إلى هذا النظام من أجل ضمان إيرادات الخراج لسد النفقات المتزايدة فعهدت به لمتقبلين أو ملتزمين كانوا يسددون قيمة الخراج على ناحية أو إقليم لخزينة الدولة مقدما ، ليقوم المتقبل بتحصيل هذا المبلغ من الإقليم بعد ذلك .

وإلى هذا الحد يمكن أن تكون القبالة صحيحة إذا التزم المتقبل بجباية ما دفعه لخزينة الدولة ولكن الواقع كان غير ذلك فلم يكن المتقبل يتوقع إلا الربح الوفير ويحرص على مصلحته أكثر من إهتمامه بدافعى الخراج وخاصة الجشعين من ذوى السلطة فى الدولة كأن يكونوا عمالا للخراج أو ولاة أقاليم والذين تنافسوا على تقبل الخراج فيذكر أنهم تزايدوا فى تقبل ضياع الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢م) فتقبلها ابن المثنى فروخ فزاد عليه متقبل أخر

يعرف بحسان النبطى ألف ألف درهم (مليون) فسلمت إليه الضياع[٥٦] . وشاع هذا النظام فى العصر العباسى شيوعاً كبيراً ورغم أن الخلفاء كانوا يشترطون على المتقبلين عدم العسف والجور وجمع الخراج بالحسنى ، أو يأتى عرض ذلك من المتقبلين أنفسهم مثلما رفع شخص يدعى محفوظ بن سليمان أن يضمن خراج مصر عن أخره بغير عصا ولا سوط ، فولاه الرشيد الخراج[٥٧] ، إلا أن ذلك لم يحدث وحدثت تعديلات كثيرة على دافعى الخراج من جانب المتقبلين ، ولذا كره الفقهاء تقبيل الأراضى الخراجية وعدم جوازها وذلك لأن المتقبل يجب أن يكون أميناً يستوفى ما وجب ويؤدى ما حصل فهو إذا يؤدى الأمانة فلا يضمن نقصاناً ولا يملك زيادة[٥٨] .

ولذا نجد القاضى أبا يوسف فى كتابه الخراج - الذى وضعه رداً على أسئلة من الخليفة هارون الرشيد - ينهى عن تقبيل الخراج لما فيه من ضرر شديد على أهل الخراج وخزينة الدولة وذلك لأن المتقبلين يحملونهم « ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم لما يجحف بهم ... وفى ذلك خراب البلاد وهلاك الرعية »[٥٩] والمتقبل لا يبالى بذلك من أجل « صلاح أمره فى قبالته»[٦٠] ومن ثم صار يجمع أكثر مما تقبل بكثير حتى وإن كان ذلك « بشدة على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج»[٦١] .

ثم اقترح على الخليفة إن جاء أهل إقليم ومعهم رجل منهم موسر يستطيع تحمل خراج الإقليم وضمانه وقالوا هم : هذا أخف علينا ، نظر من ذلك فإن كان فيه صلاحاً لأهل الإقليم ضمن وأشهد عليه ، ولكن لا بد من إخضاعه تحت إشراف الدولة عن طريق أمير من قبل الخليفة يثق بدينه وأمانته ويجرى عليه الرزق من بيت المال ، فيمنعه من الظلم والتعدى[٦٢] .

والحقيقة وجدنا لما اقترحه القاضى أبو يوسف صدى فى حادثة تقبل سيسر بخراسان التى رضى أهلها بتقبل محمد بن العباس لها بعد أن يعطوه رقبتها ويكونوا

معه مزارعين له فيها نظير أن يكفيهم الصعاليك ويعزهم فى أماكنهم بالحماية ، فقبلها له المأمون وأمره بتقويتهم ومعونتهم على عمارتها[٦٣] .

وفيما عدا ذلك لم يردعن تنظيم القبالات والتشدد فى مراقبة المتقبلين شيئاً وسارت القبالات فى طريقها دون مراقبة للمتقبلين ، ولم يستفد الخلفاء من نصائح الفقهاء لأن همهم الأكبر الحفاظ علي موارد الدولة المالية بغض النظر عما يحدث للرعية ، ومن ثم سار التقبيل أساسياً فى جباية الخراج فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى وبعده والدلائل كثيرة على ذلك منها ما يذكره ابن خردانبه[٦٤] من أن الفضل بن مروان تقبل الأهواز بتسعة وأربعين مليوناً من الدراهم وتقبل آل طاهر خراسان وضمنوا توريد ٤٤ مليون درهم لخزينة الدولة[٦٥] ، كما تؤكد وثائق وأوراق البردى العربية شيوع هذا النظام من الجباية بمصر[٦٦] بالإضافة إلى ما ذكره المقريزى[٦٧] عن تقبيل الخراج قبل نظام الأقطاع فى عصره .

وهكذا فتح الباب لجشع المتقبلين وضاعت صرخات القضاة والفقهاء أمثال أبى يوسف أدراج الرياح رغم ما أظهروه من فساد المتقبلين الذى لا يرضاه الله الذى نهى عن الفساد فقال «لا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها» وقال أيضاً : «إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد »[٦٨]. والخلاصة التى نخرج بها من هذه الإطلالة على نظام القبالات بعد عصر الخلفاء الراشدين أن هذا النظام تعرض لظروف قلبته رأساً على عقب ، فلم تعد هناك المخالفات الفردية التى كانت أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وإنما اتسعت مفاسده تحت سمع وبصر الخلافة ومن هذا صار النظام فى واد والتشريع فى واد أخر ومن ثم صار إصلاحه مهمة ثقيلة وعبأ ينوء به كاهل الفقهاء خصوصاً مع إقرار الخلفاء بهذا النظام . فماذا كان عليه حال القبالات فى المغرب والأندلس وماذا كان موقف الفقهاء من هذا النظام ؟

- القبالات فى المغرب والأندلس :

عرفت بلاد المغرب والأندلس نظام القبالات منذ زمن مبكر لارتباطها بالخلافة الأموية التى طبقت كما علمنا نظام تضمين أراضى الخراج من أجل

ضمان موارد بيت المال . ولكن نظراً للظروف السياسية وتقلباتها في المغرب والأندلس ، تعرض نظام القبالات في الأراضي لمستجدات لم تكن موجودة في المشرق ، وذلك راجع في الحقيقة لإختلاف وضعية أراضي المغرب والأندلس عن أراضي المشرق ، وخصوصاً أراضيالسواد في العراق التي ارتبطت بها كل الأخبار الواردة عن القبالات[٦٩] ولم يعد نظام القبالات مقصوراً على تقبل الأراضي الزراعية سواء على المستوى العام – وأقصد بين الدولة والمتقبلين – أو الأفراد بل تقبلت الضرائب المفروضة على الرعية وبالذات الضرائب غير الشرعية حتى لاحظنا في النهاية أن كلمة قبالة صارت مرادفة للضريبة غير الشرعية[٧٠] ولذا صار لزاماً علينا الإشارة أولاً إلى وضعية الأراضي في المغرب والأندلس ، والأسباب التي أدت إلى فرض ضرائب جديدة على الرعية ، لإن ذلك سيساعدنا على وضع تصور عام وشامل لنظام القبالات في المغرب والأندلس .

أما بالنسبة لأوضاع الأراضي في العدوتين ، فقد تعرض لها بالبحث عدد من المحدثين[٧١] دون أن يصلوا إلى نتيجة محددة بشأنها أو تحديد ماهيتها : هل كانت أراضي خراج عنوية أو خراج مصالحة أو أرض عشرية. وذلك في الحقيقة راجع إلى استغلاق الأمر على المؤرخين والفقهاء القدامى والمعاصرين أنفسهم لهذه الفترات أو القريبين منها[٧٢] بحيث صارت أحكامهم متضاربة في هذا الأمر مما أدى إلى البلبلة بين المحدثين .

ومن هنا لا يسعنا التعويل على الواقع التاريخي الذي أثبت أن أراضي العدوتين لم يكن لها حكم السواد بالعراق أو بلاد الشام ، وإنما كانت أقرب في أوضاعها بأراضي مصر ، فوجدت هناك الأراضي المفتوحة عنوة والثانية المفتوحة صلحاً والثالثة التي أسلم عليها أصحابها[٧٣] أي هناك الأراضي الخراجية العنوية والصلحية وأراضي العشر . ويثبت الواقع التاريخي أيضاً أن هذه الأوضاع الثلاثه لم تستمر طويلاً نتيجة لتغير الأحداث والظروف السياسية وبالذات في الأراضي الخراجية . التي وصل خراجها بانتظام إلى عاصمة الخلافة في المشرق (دمشق) حتى قامت الفتن والثورات البربرية أواخر العصر الأموي ، وبدا أمام

الخلفاء بإمكانية ضياع هذا المورد المالى ، وبالتالى التأثير على النفقات التى تزايدت فى هذه الفترة نتيجة الفتن والثورات فى كل النواحى ، فحرصوا خلال هذا الجو المشحون على الاحتفاظ بخراج الأرض فتساهلوا مع الرعية بالمعاملة التى جعلت معظم مالكى رقاب الأرض يشعرون بأنهم مالكوها ، ولم تبد الخلافة أو من يمثلها فى المغرب أية محاولة لممارسة حقوق الدولة بالنسبة لهذه الأراضى[٧٤] ومع مرور الأيام وتبدل الأحوال السياسية صارت هذه الأراضى أملاك خاصة توارثها الخلف عن السلف وصارت لهم حرية البيع والشراء وممارسة كافة أنواع المعاملات الخاصة بالأرض ، مما يعنى فى النهاية شيوع الملكية الخاصة وغلبتها على الأراضى فى المغرب . ولكن ليس معنى ذلك اختفاء أراضى الخراج نهائياً من المغرب ، فقد تكررت كثيراً كلمة الخراج وجبايته فى المصادر[٧٥] . وقيام الدول المتعاقبة فى المغرب بمحاولات لإصلاح النظام الجبائى فى المغرب يدل على وجود بقايا لأراضى الخراج[٧٦] على الأقل حتى عصر الموحدين[٧٧] مما يعنى لدينا وجود أراضى تملكها الدولة وعملت على تنظيمها والعناية بها لاستخدام مواردها فى النفقات على مصالحها المختلفة بجانب الموارد الأخرى مثل أراضى العشر التى استمرت هى الأخرى فى المغرب[٧٨] .

وفى الأندلس بقيت أراضى العشر[٧٩] كما هو الحال فى المغرب أما الأراضى الخراجية سواء كانت المغنومة أو المصالح عليها ، فتعرضت لتغيرات أدت إلى تقلصات ثم تلاشيها وذلك نتيجة لإقطاعات الجند المتكررة كثيراً من جانب خلفاء بنى أمية[٨٠] ، ومن ثم صارت أملاكاً خاصة متوارثة[٨١] .

والخلاصة أن الأراضى فى العدوتين غلبت عليها الملكيات الخاصة سواء كانت كبيرة أو صغيرة . وبمرور الوقت أفرز لنا هذا نوعية من الأراضى لها أهمية فى دراستنا هذه . وهى أراضى الأحباس التى هى فى الأساس قطع استجزأت من الأراضى الخاصة كهبات وصدقات أوقف ريعها على الدور العامة

والفقراء والمرضى ، وغير ذلك . وقد ظلت هذه الأراضى طيلة العصور الوسطى يحافظ عليها ولاة الأمر من أجل أهدافها السامية[٨٢].

ويبدو أن هذا الوضع للأراضى فى المغرب كان أحد الأسباب الرئيسية التى دفعت الحكام لفرض ضرائب غير شرعية على الرعية لسد العجز الناتج عن قلة أراضى الخراج وما يجبى من أراضى العشر والزكاة فكثرت أنواع هذه الضرائب وتعددت مسمياتها مثل المراصد واللوازم والمغارم أو الفرائض والعشور أو حتى الخراج[٨٣] ، إلا أن اسم القبالات أو القبالة كان أظهرها وأكثرها استخداماً حتى صار شيئاً فشيئاً علماً على كل هذه الضرائب وثبت ذلك تماماً فى العصر المرابطى حيث دخلت كل هذه الضرائب فى إطار التقبيل من أجل أن تضمن الدولة دخل ثابت لا تتكلف الكثير فى جبايته[٨٤] .

وعلى أساس ما سبق يمكننا دراسة القبالات فى المغرب والأندلس مقسمين إياها إلى قسمين رئيسين :

أولاً : القبالات العامة . ثانياً : القبالات الخاصة .

أولاً : القبالات العامة :

تلك التى كانت من قبل الدولة أو من يمثلها من ديوان الخراج أو ديوان القضاء إلى أفراد يستطيعون القيام بمؤونتها المالية ، بحيث يكون كفيلاً بتحصيل أموالها بنفسه بعد أن يدفع قيمتها لخزينة الدولة ، فيستفيد الحكام من تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله . كانت هذه القبالات العامة تتم وفق مراسيم ونظم متبعة طبقتها الحكومات من أجل إكسابها الصبغة الشرعية . وقد أمدنا كتاب الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام لابن سهل الجيانى[٨٥] بمعلومات قيمة ترسم لنا نفس الصورة التى وجدناها فى مراسيم تقبيل أراضى فى مصر فى العصر الفاطمى وقبله ذكرها المقريزى فى كتابه الخطط[٨٦] فالموضوع

واحد فى كلا القطرين وإن اختلفت المسميات بعض الشيئ وكذلك الأشياء المتقبلة حيث صارت فى الأندلس غير مقصورة على الأراضى الخراجية وأموالها .

ونظراً لاختلاف صيرورة الأراضى فى كلا البلدين من حيث الوضع التشريعى ، وجدنا أن الأرض العامة بمصر أو أراضى الخراج كثيرة ، ولذا ظل النظر فيها لديوان الخراج(٨٧) ، بينما فى الأندلس كانت الأراضى الخراجية نادرة أو غير موجودة فحلت محلها كما علمنا أراضى عامة أخرى تمثلت فى أراضى الأحباس التى أوكل النظر فيها لديوان القضاء ،(٨٨) أى صار الإشراف عليها من قبل القاضى وأعوانه كصاحب الأحباس .

ولا خلاف فى ذلك بينهما حيث أشرف على الأولى جهة إدارية مالية هدفها حفظ أموال الدولة وعلى الثانية جهة دينية مالية لها أيضاً نفس الهدف ولكن الأموال ليست للدولة بل للمحبس عليهم أو سبل الحبس الأخرى ، فعلى كليهما تحمل مسئولية هذه الأموال .

ومثلما كان يجلس متولى الخراج بمصر فى مسجد عمرو بن العاص ثم جامع أحمد بن طولون ثم القصر الفاطمى حيث انتقل إليه مكان جلوسه بعد ذلك ، وظل يمارس نشاطه هناك حتى نهاية الدولة الفاطمية(٨٩) فإن القاضى فى الأندلس كان يجلس فى مسجد قرطبة الجامع أو حتى داره فى الوقت الذى تنتهى فيه أملاك الأحباس فى الأندلس من أراض ودور وحوانيت وغيرها للقبالات . وينقل ابن سهل عن الفقيه ابن العطار الوثائقى أنه شاهد القاضى وكيف كان يزاول عمله فى قبالة الدور والحوانيت والفنادق المحبسة على المساجد وغيرها . فكان يعقد جلسة عامة لذلك كل عام فى ذى الحجة بعد عيد الأضحى بثمانية أيام(٩٠) ويجمع حوله الراغبين فى القبالات من القادرين وغيرهم(٩١) بعد أن سمعوا الدلال ينادى عليها فى الأماكن العامة والأسواق(٩٢) .

وكما يحدث بمصر عند متولى الخراج من مزايدات علــى تقبـل الأراضـى بالذات فإن تلك المزايدات كانت تحدث عند القاضى فى الأندلس بمجــرد أن يعلـن الدلال عن تقبل الأرض أو الدار ويعلن عن قيمة القبالة وربما لترغيب الناس أكـثر فى الإقبال على المزايدة كان الدلال يعلــن مواصفــات الأرض والــدور وغيرهـا وميزاتها . وقد يكون ذلك بتوجيه من القاضى حتى لا يكون هناك شبهة تغريـــر أو غش كأن يقول مثلاً إن « من يتقبل الجنة الفلانية يبلغ الأثمـــان العظيمــة » وفــى أخرى « لو حصل من هذا الثلث أو الربع لكان حسناً »[٩٣] أو أن البعض كان يـأتى جلسة القاضى وهو يقصد تقبل ملك أو عيناً محدداً لعلمه بميزاته ، فمنيـــة العجـب مثلاً جنوب قرطبة تغالى الناس فيها لقربها من المدينة وخصوبة أرضها وعظيم مـا يتمنون من وراء الاهتمام بها[٩٤] .

وعندما تنتهى جلسة القاضى ويعرف كل شخص قبالتـــة مــن أرض أو دور يُكتب عقد بين المتقبل وبين متولى أمر الأحباس والناظر فيها يعرف أيضـــاً باسـم القبالة ، توضح فيه الشروط الصحيحة فـــى القبالــة وتحديـد مكانـــها وحدودهـا ومواصفاتها ، وكذلك قيمة القبالة ومدتها التى كره الفقهاء على ما سنعلم[٩٥] طـــول مدتها حتى لا تندرس الأملاك المحبسة بمرور الزمن .

على أية حال نستطيع من خلال المعلومات والأخبـــار الــواردة عــن هــذه القبالات العامة أن نصنفها إلى :

١ - قبالات أراضى الخراج .

٢ - قبالات الأحباس .

٣ - قبالات ضرائب التجارات والصنائع .

١ - قبالات أراضى الخراج :

ذكرنا من قبل أن أراضى الخراج كانت قليلة ببلاد المغرب واختفت من بــلاد الأندلس بمرور الأيام ولذا سنكتفى هنا بالحديث عن بلاد المغرب وتقبــل أراضيــها ولا شك فى أن نظام التضمين طبق فى المغرب منذ زمن مبكر بإعتبار تلك البـــلاد

مناطق تابعة للخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية اللتين أقرتا هذا النظام وعملتا به لضمان تدفق الأموال على خزينة الدول كما أسلفنا .

وإذا كنا فى الفترة الأولى نعدم الأدلة الكافية على شيوع نظام قبالة الأراضى الخراجية فى المغرب ، فإنه ورد إلينا خبر عن طريق المصادر المشرقية الفقهية تؤكد شيوع نظام القبالة فى المغرب ، وذلك عن طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم القاضى الأفريقى ، الذى قال لعبد الله بن عمر (رض) أنا نتقبل الأرض فنصيب من ثمارها ، فقال له ابن عمر : ذلك الربا العجلان(٩٦) وبغض النظر عن صحة القبالة من عدمها فإن ذلك يثبت أن أهل أفريقية عرفوا نظام القبالة منذ زمن مبكر(٩٧) .

ذلك أن نظام الضمان أو القبالات فى الأراضى كان شائعاً لدى الفاطميين ، حيث تخبرنا سيرة الأستاذ جوذر أن المبالغ الكبيرة التى كان يحصل عليها المتقبلون من كور المغرب المختلفة تسببت فى تكالب المتقبلين على ضمان الأقاليم ، عارضين الأموال الكبيرة ، فلما تطاول المتقبلون من العمال إلى الزيادة على جعفر ابن على فى عمله بالمسيلة كتب الاستاذ جوذر بذلك رقعة إلى المعز لدين الله يقول فيها « يا مولاى ... هذا بلد كثر القول فيه وتطاول المتقبلون إليه فالواجب عقده على من طلبه ولا يذهب مال مولانا خسارة»(٩٨) ويفيدنا ابن حوقل(٩٩) أن إقليم برقة كان العمل فى أراضيه بنظام القبالة والضمان ، رغم نفيه هذا النظام عن بقية بلاد المغرب(١٠٠) .

ولا شك فى أن الفاطميين تركوا هذا النظام لخلفائهم من الزيريين فى بلاد المغرب لضمان خراج البلاد الذى كان يصلهم وهم فى القاهرة بانتظام(١٠١) ، وساروا هم أنفسهم على ذات النظام فى أراضى مصر كما يخبرنا المقريزى(١٠٢) .

٢ - قبالات الأحباس :

تكونت مادتها مما يجود به الخيرون من أراض زراعية(١٠٣) ودور(١٠٤) وحمامات(١٠٥) وفنادق(١٠٦) وأرحاء(١٠٧) وحوانيت(١٠٨) وأفران(١٠٩) تكون حبسا على ما يحدده رب الحبس ، سواء كان ذلك للإنفاق على إصلاح الدور العامة كالمساجد

وترميمها ، أو فداء الأسرى من المسلمين ، أو الانفاق على الكتاتيب ومعلميها أو على طلبة العلم من الفقراء ، أو الأربطة والحصون فى مناطق الثغور أو الانفاق من ريعها لإطعام الفقراء والمساكين أو العناية بالمرضى من فقراء المسلمين . وكان هذا التحبيس يثبت فى وثيقة(١١٠) يسجل فيها اسم المحبس والمحبس عليهم واسم مادة الحبس ، مع تحديد دقيق لمكانه فى المدينة أو أرباضها ، وبيان حدوده من الجهات الأربع محددة مدة الحبس ، وفى النهاية يذكر شهود الحبس .

وكان النظر فى هذه الأحباس فى البداية للقاضى ، ثم بعد ذلك – نظراً لكثرة الأحباس وخصوصاً فى الأندلس – خصص لها وظيفة مستقلة عرف متوليها بصاحب الأحباس أو ناظر الأحباس . وما لبث هو الآخر أن زادت مشاغله وكثرت أعماله فصار هناك من يختص بحبس الخواص وآخر بحبس العوام (١١١) بل إن من كثر حبسه الخواص كان يعين للإشراف على أحباسه صاحب أحباس لاعمل له سواها(١١٢) . وكان كل هؤلاء يعملون تحت نظر القاضى وإشرافه(١١٣) وشاغلهم الأول المحافظة على الأملاك المحبسة من الدرس والعدم أو الإزالة حتى لو اقتضى منه التنسيق والاتصال بأرباب الخطط الأخرى كالمحتسب مثلاً(١١٤) .

وكانوا يديرون هذه الأحباس حسبما يرون من مصلحة أربابها أو المحبس عليهم فى إطار ما اشترط المحبس . ومن ضمن طرق الاستفادة بهذه الأحباس لصالح المحبس عليهم كان نظام القبالة الذى نحن بصدده ، فقد كان يعلن عن هذه الأشياء المحبسة كل عام فيأتى إليها الفقراء والأغنياء لقبالتها. ويبدو أن الإقبال عليها كان ضعيفا ، ولذا اجتهد القضاة فى استمالة متقبليها حتى يتشجعوا على قبالتها(١١٥) ، ومن ثم يتمكن المحبس عليه من العيش فى سلام ، لأن تلك الأشياء المحبسة كانت المورد الوحيد لمعيشتهم ، وحتى يتمكن الناظرون فى الحبس من فداء الأسرى وتمويل المرابطين وإصلاح المساجد وعلاج المرضى . ومن أجل المحافظة على سير الأمور بانضباط كان ناظر الحبس يجتمع دورياً مع الكتاب والجباة للأموال من المتقبلين أو غيرهم والشهود لتقويم ريع هذه الأحباس ، سواء ما كان يجبى منها شهرياً أو سنوياً

ومعرفة المنصرف منها على المرتبات ووجوه الصرف على المحبس عليهم قبل ذلك ، وتحديد المتبقى من المبلغ الكلى[١١٦] والحفاظ عليه خوفا من العقوبة التى كان ينالها صاحب الأحباس إذا أهمل أو فرط فى أموال الحبس[١١٧] .

بقى أن نذكر أن هذه الأحباس كانت طيلة العصر الإسلامى فى المغرب والأندلس وحرصت الدول المتعاقبة عليها وزيادتها من أجل أداء رسالتها السامية . وقد ذكرت لنا كتب الوثائق والسجلات نماذج عديدة لقبالة هذه الأحباس[١١٨] موضحة كنهها ، كما وصفنا سابقا . وقد بقى لنا عند ابن سهل مثال تطبيقى لأملاك ودور وأفران وحمامات قبلت فى مدينة قرطبة. وكذلك تقبيل عدد من الجنات من جهاتها المختلفة ، فقبلت بعض الجنان فى جهاتها الغربية وجهاتها الشرقية ، وكان أشهرها جنان منطقة الرملة وجهاتها الجنوبية « القبلية » وأشهرها منية العجب[١١٩].

٣ – قبالات الضرائب :

عرفنا فيما سبق كثرة الضرائب المفروضة على التجارات ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، وتعدد مسمياتها فى بلاد المغرب والأندلس ، وعلمنا أن تلك الضرائب قد تقبلت حتى صارت كلمة القبالة تعنى فى النهاية. ضريبة غير شرعية. وضريبة التجارة التى أقرها الإسلام كانت العشور وهى تفرض على التجارات الصادرة والواردة إلى البلدان الإسلامية والتى يمكن أن نشبهها بالضرائب الجمركية. ولم تكن هذه الضرائب فى عهد الرسول ﷺ ولا على عهد خليفته أبى بكر ، وذلك لأن الدولة كانت فى دور النشأة والتكوين . ولكنها وضعت فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب الذى امتدت الفتوحات الإسلامية فى عهده شرقا وغربا ، فاتسع سلطان المسلمين وضمت الدولة ذميين ، قاموا بالأعمال التجارية داخليا وخارجيا ، واستفادوا من مرافق الدولة وخدماتها ، وجنوا من وراء ذلك الأرباح الطائلة . هذا إلى إن امتداد حدود الدولة الإسلامية أدى إلى كثرة الداخلين

إليها من رعايا الدول المجاورة للتجارة ، وهم الذين إطلق عليهم فى الفقة الإسلامى إسم « الحربيون وأهل الهدنة »[١٢٠] .

ومن المنطقى أن تستفيد الدولة وتنتفع بجزء مما يجنيه هؤلاء التجار ، ومقابل الأمان والاستفادة من مرافق الدولة الإسلامية وخدماتها . ومن هنا اجتهد الخليفة عمر بن الخطاب فى وضع عشور التجارة على هؤلاء التجار ، ولم يكره أحد من الصحابة ذلك فصار إجماعا[١٢١] . ويذكر أن السبب المباشر فى فرض عشور التجارة هذه ما كتبه أبو موسى الأشعرى إلى الخليفة عمر من أن تجار المسلمين إذا أتوا أرض الحرب يأخذون منهم العشر ، فكتب إليه الخليفة أن يأخذ من الحربين كما يؤخذ من المسلمين ، وزاد على ذلك ، أن يأخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر ، وليس فيما دون المائتين من الدراهم[١٢٢] وكانت هذه العشور تؤخذ مرة فى السنة نقدا أو عينا[١٢٣] ولا تؤخذ من غير مال التجارة الذى يجب أن يبلغ النصاب . وكان يعطى لدافعها براءة أو حجة بأدائها حتى لا يعشر ثانية[١٢٤] وصار الأمر على هذا الحال من التجارة الداخلية والخارجية حتى استجدت ضرائب أخرى موازية للعشور ، بل إن العشور خرجت عن مسارها الصحيح فأخذت أكثر من مرة فى السنة ، وزيد فى نصابها وأخذت على تجارات محرمة مثل الخمر والخنازير . ويبدو أن ذلك هو الذى دفع العادل عمر بن عبد العزيز إلى تصحيح هذه الأوضاع فأمر بأن تلغى كل الضرائب الإضافية التى اختلطت أمرها بالعشور تحت مسميات مختلفة مثل الفائدة والمائدة[١٢٥] ولكن شدد على أكثرها شيوعا ، وهو المكس ، وقال عنه بأنه ليس بالمكس ولكنه البخس . وأمر بتدمير مراكز جبايتها أو بيوتها[١٢٦] متبعا فى ذلك سنة الرسول ﷺ حيث كانت هذه المكوس موجودة قبل الإسلام ، إذ كان عمال الدول يأخذونها من التجار عند الانتقال من بلد لأخر أو مدينة لأخرى . وكان جامعها يعرف باسم المكاس أو العاشر وقد ذكر ذلك أبو عبيد فى كتابه الأموال[١٢٧] قائلا « كان المكس له أصل فى الجاهلية يفعله ملوك العرب والعجم جميعا فكانت سنتهم أنه يأخذوا عشر أموالهم إذا مروا بها عليهم » فأبطل الرسول ﷺ وذم المكاس

أو العاشر وحرض على قتله[١٢٨] ولكن بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز عـادت هذه الضرائب مرة أخرى نظراً للحاجة الملحة إلى الأموال ، وانتشرت فـى العـالم الإسلامى بمعرفة الخلافتين الأموية والعباسية .

وفى المغرب والأندلس صارت تلك الضرائب الإضافية من الموارد الأساسـية لخزينة الدولة ، بل لقد شددت دول المغرب والأندلس فى جبايتها مقـداراً وتكـراراً فى العام الواحد وأساءوا إلى الناس فى جبايتها عن طريق المتقبلين الذين أسند إليـهم جباية هذه الضرائب من أجل ضمان إمتلاء خزينة الدولة وقد وجدت هذه القبـالات فى عهد الأغالبة . وظلت حتى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م أى عنـد ظـهور الدعـوة الفاطمية فلما بلغ خبرها إبراهيم الثانى الأغلبى ذعر منها فأظهر التوبة والندم علـى ما فرط منه ، وكف عن الظلم ، وأراد أن يستميل قلـوب العامـة ، وأن يرضـى الخاصة من أجل صرف الجميع عن إجابة الداعى الفاطمى « فأسرع برد المظـالم وأسقط القبالات وأمر بأخذ العشر حبا »[١٢٩] وإذا كان هوبكنز Hopkins[١٣٠] أمكنـه تصديق ابن حوقل الذى جاب المغرب من أقصاه إلى أدناه على حد قوله ، فـى أن بلاد المغرب فى زمن الفاطميين لم تعرف نظام القبالة وأن جميعـها كـانت تعمـل بنظام الأمانة فى جباية الأموال[١٣١] فإننا لا نستطيع قبول ذلك مع ما تجمع لدينا مـن معلومات تفيد بوجود نظام القبالات على الأرضين والضرائب قبل الفاطميين وأثنـاء عهدهم القصير بالمغرب ، خصوصاً وأن هذا النظـام كـان شـائعاً فـى البلـدان الإسلامية شرقاً وغرباً ، وأخذ الفاطميون به فى المغـرب ومصـر بعـد انتقالـهم إليها[١٣٢] وابن حوقل[١٣٣] نفسه يؤكد « أن برقة قد تقبلت » وهـذا أبـو عبـد الله الشيعى داعيـة الفاطميـن ومقيم دولتهم فى المغرب عندما أتت إليه الأمـوال من طبنة نقدا أمر أن تفرق علـى أصحابه ، وقال لمن أتاه بمال الخراج « هـذا مال لاخير فيه ولا قبالة ولا خـراج على المسلمين فى أموالـهم »[١٣٤] وربمـا يكون ذلك دعاية يتكسب بها مودة الناس وقلوبهم ولكن الخبر يؤكـد وجـود نظـام القبالات .

ويحكي أن الفقيه الزاهد المعروف بالسدرى[١٣٥] دخل على عبيد الله المهدى ، وكان عنده أحد خدمه المعروف بالبغدادى ، فقال للسدرى « إن أمير المؤمنين كثير العفو ، فقال له السدرى أتكذب عليه في وجهه ؟ فرد عبيد الله كيف كذب ياشيخ ؟ قال : سماك بأمير المؤمنين ولو كنت أمير المؤمنين ما أمرت بسبب السلف وأظهرت الخمر والقبالات والمراصد ومنالة السد « فأمر عبيد الله بضرب عنقه[١٣٦] ويروى لنا المالكى في رياضة[١٣٧] أن أخوين من الأندلس وردا إلى المهدية تاجرين ، ومع أحدهما نوع من البسط يعرف باسم الليود غالى الثمن لم يستطع هذا الأندلس أن يدفع قبالتها « فأودع السجن حتى « يقبل » أخير فمن الأدلة على شيوع القبالات فى عصر الفاطميين إنكار الثائر أبى يزيد مجلد بن كيداد من جملة ما أنكره على الفاطميين فرضهم القبالات على الناس ، ففى حواره مع المنصور (٢٣٣ - ٣٤١هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢م) الذى قبض عليه وسأله عن سبب خروجه قال أبو يزيد: كان أبو القاسم - يعنى والد المنصور - كريما ، حوله قوم سوء هجنوة فسأله المنصور بماذا ؟ فقال بعد أن استحثه المنصور : هذه القبالات التى فيها الجور على المسلمين ، فقمت منكراً لذلك ، أريد إصلاح أمور الناس قال المنصور فهل علمت أن ذلك عن رأى أمير المؤمنين وأمره ؟ فقال لا أعلم إلا أنهم قد فعلوا؟![١٣٨] ولا شك فى أن الزيريين الذين خلفوا الفاطميين فى المغرب حرصوا على جباية مثل هذه الضرائب الإضافية بذات الطريق ، وسلكوا وسائل مستحدثة لعدم إفلات التجار من دفع هذه الضرائب . من ذلك مثلاً نجد المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ/١٠٦٣-١١٠٨م) عندما أعاد بناء أسوار القيروان، وليقينه بأهمية المدينة تجارياً، رأى الإستفادة من الصادر منها والوارد إليها بأقصى حد ممكن ، فقام سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م بربط القيروان بضاحيتها صبرة بحائطين متوازيين تاركاً بينهما حيزاً صغيراً كالفصيل . ومن ثم صار لا سبيل لتاجر أو وراد كى يدخل المدينة إلا هذا الفصيل ولا يمر به إلا بعد دفع المكس بمدينة صبرة[١٣٩] .

أما ملوك زناته فى المغرب الأقصى فبعد أن تبدلت أحوالهم ولم يعد يأتيهم المدد من الأندلس وبعد أن ظهر المرابطون على مسرح الأحداث السياسية والذى أثر عليهم تأثيراً بالغاً فى الناحية الإقتصادية وبعد أن كانوا المتحكمين فى طرق

التجارة بين الجنوب والشمال والشرق وجنوا من وراء ذلك أموالاً طائلة ، نازعهم المرابطون فى هذا الأمر وانتزعوا منهم فى النهاية هذه الموارد الضخمة فاضطربت حياتهم الاقتصادية[١٤٠] واشتد الغلاء وتبدل الرخاء بالشدة وعدمت الأقوات ، مما أدى بالزناتين إلى اتخاذ إجراءات شديدة وقاسية للحصول على الأموال من استعمال القوة مع التجار والسطو على المنازل . وفرضوا على الناس المغارم والمكوس الجائرة فى تجاراتهم ، مما أدى إلى أن يتطلع الناس إلى من يخلصهم من هذا البلاء والشقاء ، فوجدوا ضالتهم المنشودة فى المرابطين . فلما دخل عبد الله بن ياسين سجلماسة سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م « أحرق الدور التى كانت تباع فيها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية »[١٤١] وأصلحوا من أحوالها[١٤٢] .

أما على الجانب الآخر أى فى الأندلس ، فقد ضربت على الرعية غير الضرائب الشرعية من زكاة وعشر وجزية على المعاهدين ضرائب غير شرعية كفانا مؤنة البحث فيها بروفنسال[١٤٣] من المعاون والمغارم وغيرها ويكفى أن نؤكد دراسته هذه بالقول بأنها فرضت منذ زمن مبكر استنادا إلى ما ذكره ابن الخطيب[١٤٤] من أن الحكم الربضى (١٨٠ – ٢٠٦هـ/ ٧٩٦– ٨٢٢م) فرض على الناس المعاون والمغارم بل سوغ لأحد المعاهدين افتراضها على المسلمين . وقد تقبلت هذه الضرائب جميعا وخصوصا ما كان يفرض منها على المبيعات فى الأسواق[١٤٥] ويتأكد هذا بما أورده ابن حوقل[١٤٦] ، من أن سكة دار ضربه – أى الناصر لدين الله (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ / ٩١٢ – ٩٦١م) – على الدنانير والدراهم فى كل سنة مائة ألف دينار . هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده وجواليه ، وما يقبض من الأموال الوافرة على المراكب الوارده إليهم والصادرة عنهم والرسوم على البيوع فى الأسواق « ويؤكد بروفنسال[١٤٧] أن قبالة مثل هذه الضرائب قد أضرت بالرعية لجشع المتقبلين الذين حرصوا على أموالهم بطريقة واضحة وزادوا عند جمعها كثيرا بل تغالوا فى ذلك .

ولا شك في أن ملوك الطوائف أكثروا من فرض الضرائب على الرعية لاحتياجهم الشديد للأموال من أجل تلبية أطماعهم في التوسع على حساب إخوانهم من الملوك المجاورين ، أو تلبية نفقات مظاهر الترف الذى انغمسوا فيه ، وأخيراً من أجل أداء الجزية المضروبة عليهم من جانب الفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة[١٤٨] . وتعددت مسميات هذه الضرائب من معاون ومكوس ومغارم[١٤٩] فاختصت احدى هذه المغارم باسم مغارم الإقطاع[١٥٠] وكانت هناك ضريبة أخرى تسمى بالقطيع تؤدى كل شهر على الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس وعلى كل خلية شيئاً ما[١٥١]. وينبأنا الأمير عبد الله أخر ملوك بنى زيرى بغرناطة (٤٦٥ - ٤٨٣هـ / ١٠٧٣ - ١٠٩٠م) أن الرعية جأرت بالشكوى ليوسف بن تاشفين من كثرة هذه الضرائب وسوء جبايتها[١٥٢]. ولا ريب كذلك في أن ملوك الطوائف قبلوا هذه الضرائب لضمان وصولها إليهم . ويذكر في ذلك أن يوسف بن تاشفين عندما ساءت علاقته بملوك الطوائف ونوى إسقاطهم ألزم المعتمد ابن عباد ملك إشبيلية (٤٦١ - ٤٨٤ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٩١م) - في سبيل إصلاحه - الرباط والمجاهدة ، وأن « يقطع القبالات في بلاده »[١٥٣] هذا بالإضافة إلى قبالات الأسواق إذا يقول ابن حزم[١٥٤] أنهم « فرضوا قبالات ما تؤدى على كل ما يباع في الأسواق » وفسر ذلك في موضوع أخر وأسماها بالجزية ، كناية عن ظلم هؤلاء للرعية والجزية هي التي يأخذها المتقبلون من المسلمين فيما يباع في أسواقهم على الصابون والملح والدقيق والزيت والجبن وعلى سائر السلع[١٥٥] .

ولم يكتف ملوك الطوائف بتقبيل الضرائب غير الشرعية ، بل اتجهوا من أجل الحاجة الملحة للأموال لتقبيل خطط الدولة وأهم المرافق بها ، كدور السكة التى ضربت لكل منهم سكته الخاصة به وقد أورد لنا ابن بسام[١٥٦] أن دار السكة بالمرية قد تقبلت وأن متقبلها كان يدعى أحمد القيسى .

وقد إستفادت دول المغرب والأندلس من نظام التقبيل فاحتفظوا بخزائنهم ملأى ولبوا مطالبهم المعيشية كملوك بل تعدوها إلى الترف الفاحش وأرضوا أنفسهم

فى ذلك . على أنهم بالمقابل أسخطوا الرعية التى لم يعملوا لـــها حسـابا . وزادوا سخطهم بأسنادهم - فى أحيان كثيرة - قبالة هذه الضرائب إلى متقبلين مـن أهـل الذمة من النصارى واليهود ، مثل قوس بن انتيان فى عهد الحكم الربضـى(١٥٧) أو ذلك اليهودى الذى تقبل السوق فى إحدى القرى بأفريقية واحتكر صناعة الخبز فـى هذه القرية فلا يعمل فها أحد الخبز سواه(١٥٨) .

وهذه النقطة بالذات ربما تفسر لنا ما أثبته المستشرق دوزى فى معجمـه(١٥٩) أن من معانى الكلمة العهد أو الذمة فيقال أهل القبالة فهم أهـل الذمـة أى صارتـا مترادفتين . وربما يزيد ذلك تأكيدا أنه بعد إنقلاب السياسة الجبائية إلى الأسوأ فـى الدور الثانى من حكم المرابطين للمغرب والأندلس استعملوا النصارى فـى جبايـة القبالات كما ذكر صاحب الحلل الموشية(١٦٠) .

هكذا جاءت دولة المرابطين ووجدت فى المغرب والأندلس القبالات معمـول بها بما فيها من ظلم للرعية . ولأن سياستها المالية خصوصا فى ميـدان الجبايـة قامت على أساس متين من الناحية الدينية طبقا للشرع(١٦١) فى ميدان الأموال ، فإنها قضت على تلك التجاوزات الجبائية والضرائب الزائدة ، التى فرضتها الدول قبلـها ، فيذكر أن عبد الله بن ياسين كان يأمر أصحابه بالصلاة والزكاة وأداء العشر ، ونظم المناطق التى صارت فى قبضة المرابطين ، وأمر أتباعه بأخذ الزكاة والعشر فقـط من أهلها مثلما ذكرنا سلفا. وعندما افتتح مدينة سجلماسـة أحـرق دور الخمـور ، ووضع المكوس ، وأسقط المغارم ومحا ما أوجب الكتاب والسـنة « محـوة »(١٦٢) وقد استمرت هذه السياسة الجبائية الشرعية فى عهد يوسف بن تاشـفين ، إذ منـع المكوس ولم يرض بما هو خارج عن الشرع(١٦٣) ، ولم يأخذ سوى الزكاة والعشـر والصدقات ، مما أدى فى النهاية إلى تنشيط الحركة التجارية وانخفـاض الأسـعار وإستقرار الأمن الاقتصادى والرخاء المادى ، بحيث صارت أيامـه « أيام دعـة ورفاهية ورخاء ، فلم يعد هناك رسم مكس ولا معونة ولا خـراج فـى باديـة ولا حاضرة »(١٦٤) « ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية »(١٦٥) ولا قبـالات ،

بعد أن رفعها استجابة لنداء الرعية ، وخصوصا فى الأندلس[١٦٦] . ورغم أن ابن أبى زرع عمم تلك الأقوال فى السياسة الجبائية وتأثيرها الحسن على أحوال الناس فى دولة المرابطين بصفة عامة[١٦٧] ، إلا أن المصادر الأخرى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن ذلك انطبق فقط على الفترة الأولى - فترة التكوين والتوسع لدولة المرابطين - أما بعد عهد يوسف بن تاشفين ، فقد تغيرت الأوضاع بسبب اتساع مساحة الدولة ، وتضاعف جيوشها ، وثقل مسئولياتها ، واتساع نطاق الجهاد ، بحيث لم تعد تلك الموارد الشرعية المتواضعة تكفى لمواجهة الأعباء الكبيرة . ومن هنا لجأ المرابطون إلى فرض المعاون على الرعية التى ربما تكون شرعية حتى هذا الوقت ، ولكن شيئا فشيئا ومع مرور الأيام اتسع نطاق هذه المعاون وزادت قيمتها وتعددت أسماؤها[١٦٨] بحيث صارت عبئا ثقيلا على الرعية الذين لمسوا حرص المرابطين على جباية مثل هذه الضرائب وفرضها على كل شئ[١٦٩] ، وفى أى مكان ، فى الموانئ والمراسى[١٧٠] والأسواق ، حتى على دخول المدن[١٧١] والمرافق العامة مثل القناطر[١٧٢] وزاد من وطأتها على الرعية أن المرابطين استعملوا فى جمع هذه المغارم النصارى الذين أطلق عليهم صاحب الحلل[١٧٣] « الروم » من أجل إحكام جمعها وزاد الطين بلة حرص المرابطين الشديد على جمع هذه الأموال معجلة دون انتظار جبايتها فأعادوا نظام القبالة الذى سرى مسرى النار فى الهشيم ، فصار كل شئ متقبلا فى عهدهم ، ويصور لنا الإدريسى[١٧٤] ذلك بقوله « وأهل مراكش يأكلون الجراد ، ويباع منه بها كل يوم الثلاثون حملا فما دونها وفوقها بقبالة عليه . وكانت أكثر الصنع بمدينة مراكش متقبلة ، عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل . وكانت القبالة على كل شئ يباع دق أو جل ، كل شئ على قدرة ».

ويذكر ابن عبدون أن هذا النظام كان عاما وشاملا ، وليس فى العاصمة أو المغرب فقط ، بل شمل الأندلس كذلك . ويعطينا تفاصيل أكثر عن هذا النظام وجشع المتقبلين ، فالقبالات لم تكن فى الأسواق الكبرى فقط ، بل كانت فى السويقات والرحاب ، إذا كان يؤخذ على كل شئ يباع فيها مكس حدد هو قيمته لمن

تقبل تلك الأماكن[١٧٥] ، حتى البيع فى الدور الذى لجأ إليه فقراء الناس من أجل التعيش أخذ عليه قبالة سواء كان زيتا أو طعاما[١٧٦] ؛ وهو ما يفهم منه أن المتقبلين لهذه الأسواق والمراكز التجارية الأخرى لم يتركوا شيئا يباع صغيرا أو كبيرا إلا أخذوا عليه قبالة حتى وصلوا إلى بيوت الفقراء وفرضوا عليهم القبالات . بل أكثر من هذا أدى بهم الجشع إلى أن يأخذوا على الوارد إلى الأسواق القبالة مرتين ، من الجلابين مرة ومن المشترين مرة أخرى فالضحية التى يأتى بها الجلابون من الريف والبادية كان يؤخذ عليها قبل دخول المدينة قبالة ، وعندما كان يتم بيعها يؤخذ عليها قبالة أخرى من مشتريها وهو ما حذر منه ابن عبدون[١٧٧] .

ومن أجل هذا كانت القبالات مصدرا للغنى الفاحش السريع ، فلجأ إليها من طمع فى ذلك ، وقد كانت الفرصة متاحة حتى ولو بدأ الفرد بتقبل سلعة غذائية واحدة أو سويقة أو صنعة واحدة ثم يتسع فى قبالاته التى ربما شملت سوقا كاملا أو قرية كاملة . وتخبرنا إحدى نوازل الونشريسى[١٧٨] ، أن شخصا تقبل القرسطون[١٧٩] فى السوق بسبعين دينارا فقط فاغتنى من ذلك ثم ما لبث أن وسع قبالته فشملت سوق الخضر ومعه أشياء أخرى بأربعمائة دينار وجمع من ذلك أموالا كثيرة عدت فى نظر زوجته التى لم يدخل بها وأخيها وأمها أموالا حراما ، ورفعوا بذلك إلى الفقهاء يشتكون من هذا المسلك ويريدون فسخ عقد الزواج .

وبناء على ما سبق يمكننا القول أن نظام القبالات بعد يوسف بن تاشفين صار العمود الفقرى للسياسة الجبائية فى عهد المرابطين ، وتمسك به حكامهم من أجل ضمان تدفق الأموال على خزينة الدولة لسد حاجاتها الضرورية وغير الضرورية « الكمالية « ، وأن هذا النظام تغيرت ملامحه تماما بعد أن اتسع نطاقه والتوت دروبه وتعددت مساربه بفضل جشع المتقبلين ، وإغضاء الحكام طرفهم عن ذلك ، مما أدى فى النهاية إلى ظلم بين للرعية التى أثقل المرابطون وجباتهم من المتقبلين كاهلها بمبتدعات هذا النظام التى حرص أذيال المرابطين من الثوار على تطبيقها كلية بل والزيادة فيها وهذا ابن مردنيش[١٨٠] ربيب هذا الجو الذى أنهمك فى ميدان

البطالة واللهو والجأه الخروج عن الجماعة والأنفراد بنفسه فى شرق الأندلس إلى الاحتماء بالنصارى (صاحب برشلونة وملك قشتاله) كان يدفع لهما فى السنة الواحدة خمسين ألف مثقالا مرابطيا[١٨١] وكون جيشا من مرتزقة النصارى ، وبنى لهم منازل وحانات للخمور ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة[١٨٢] ، فمن أين كان يأتى بأموال لكل ذلك ؟ يقول ابن الخطيب[١٨٣] « إنه أجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم » ووجد ضالته المنشودة — من أجل تحقيق سياسته الخاطئة ومسلكه المشين — فى نظام القبالة بعد أن وضع الضرائب والمغارم والمكوس على كل شئ قبلها لمتقبلين قساة مفترين[١٨٤] . ولم تنج من الضرائب حفلات الأعراس والملاهى ، حتى قال ابن الخطيب[١٨٥] « فكانت قبالاتها غريبة ». ومن طريف ما يحكى فى ذلك أن رجلا من أهل شاطبة صودرت ضويعته بها فر أثناء غزو ابن مردنيش لها إلى مدينة مرسية واضطرته الظروف أن يعمل عند الناس فى البنيان بها . وبينما هو يسير يوما فى السوق إذا به يرى قوما من أهل بلده وقرابته ، ففوح بهم وعزم عليهم بالمبيت عنده ، فرضوا وذهب هو واشترى لحما وشرابا إكراما لهم ، وعمل ذلك وأكلوا وضربوا دفا . فلما كان الصباح إذا به يسمع نقرا عنيفا على الباب فسأل من أنت ؟ قال أنا الطرقون — الذى بيده قبالة اللهو — وأنتم ضربتم البارحة الدف ، فأعطنا حق العرس الذى عملت . فقلت والله ما كانت لى عروس، فأخذت وسجنت حتى أفتديت[١٨٦] . ولا شك أن وصول الأمر إلى هذا الحد من الظلم والقسوة قد ساعد الموحدين كثيرا فى إنجاح دعوتهم وقيام دولتهم ، إذ أنكر هؤلاء المصامدة خلاصهم مثل هذه الأشياء إنكارا شديدا حيث أن دعوتهم رفعت منذ بدايتها شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن ثم استغلوا هذه المناكير[١٨٧] التى سادت أرجاء دولة المرابطين أو مابقى من دولة صنهاجة فى المغربين الأوسط والأدنى ، وأبدوا سخطهم عليها وإنكارهم لها . وكان من بينها الضرائب والمكوس وقبالاتها التى كانت من أظهر الأشياء التى جذبوا بها قلوب العامة وغيرها ضد حكام صنهاجه فى المغرب والأندلس ، والذين وجدوا من ناحيتهم فى هؤلاء — المصامدة من الجور الواقع عليهم ، وخصوصا التعديات فى

الضرائب وجبايتها . وقد وضح هذا منذ بداية الدعوة على يد مهدى الموحدين محمد بن عبد الله بن تومرت الذى بدأ مشوار دعوته كمحتسب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فعندما كان فى أكرسيف قصده العامة وشكوا إليه أن وزير يحيى بن فانو قتل له نعامة فأغرمهم بها ألف مثقال ، فذهب من فوره إلى يحيى وأعلمه بذلك ، فأمر يحيى بدوره الوزير بغرم ما أخذ من الناس من المظالم ، ونودى فى المكان كله من له مظلمة من الوزير فله النصفة ، ولا غرامة فى النعامة بعد ذلك[١٨٨] .

وعندما جاء المهدى ومن معه ليعبروا وادى أم الربيع ، منعوا حتى يعطوا المكس ، فصاح عليهم المهدى قائلا « وأى سبيل للمسلمين وأنتم تقطعونها وهذا غير جائز فى الشرع »[١٨٩] .

وما أن ظهرت الدعوة الموحدية حتى بدأت ألسنة دعاتهم تلهج بنقض الموحدين ما ابتدعه الحكام فى المغرب والأندلس من أنواع القبالات ، كدعاية لمسلكهم الرشيد ومسلك هؤلاء الحكام المشين ، حتى الكتب التى كان يرسلها حكامهم بعد ذلك إلى الكور والمدن للولاة والخاصة والعامة ، كان لابد فيها من ذكر مآثرهم فى القضاء على تلك المآثم والبدع فى الضرائب من أجل إثبات مصداقيتهم أمام الناس . ومن ذلك رسالة بعث بها عبد المؤمن بن على (٥٢٤ - ٥٨٨ هـ / ١١٣٠- ١١٦٣م) إلى جميع الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة فى الأندلس (١٦ ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ) قال فيها « وكان مما بعثنا - وفقكم الله تعالى - على تنبيهكم وأذكاركم وإيقاظكم للنظر فى تلك المصالح وإشعاركم ما ألفيناه ، بحضرة مراكش - حرسها الله - من بعض تلك الأنواع مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع، كنوع القبالة وما يجرى مجراها من وجوب الإزالة والإحالة ، فانكرنا ما كان نكيرا وأزلنا بعون الله ما كان محذورا بالشرع محظورا »[١٩٠] وذلك بعد أن ذم المرابطين وسلوكهم فى جباية الضرائب وإنكاره لما كانوا يفعلونه بقوله : « ولقد ذكر لنا فيما ذكر من تلك المظالم المستغرقة للآثام الموبقة لأهلها حين يقرع سن النادم النادم .. يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط إيلاغا فى الانتهاء بكثرتها وإمحاشا ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغارا للصدور وإيحاشا . وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل

أصلحكم الله تعالى عن هذه الأمثال والأشياء .... وقد ذكر لنا فـــى أمـــر المغـــارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ما رأينا أنه أعظـــم الكبـــائر جرمـــا وإنكا فإنا لله وإنا إليه راجعون »(١٩١) ويهدد فى الرسالة نفسها من يحـــاول فـــرض مثل هذه الأشياء على الرعية قائلا « ولئن نقل إلينا والله الشاهد – أن نوعا من هـــذه الأنواع المحرمة أو صنفا من تلك الأصناف المظلمة يتولاه أحد هنالك من البشـــر أو يأمر بشئ من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبنه بمحو أثره عقابا يبقى أثره عظة لمـــن أتعظ وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ »(١٩٢) .

وفى رسالة أخرى إلى أهل قسنطينة (سنة ٥٤٧ هـــ / ١١٥٢ م) يحدثـــهم عن فتح بجاية ومحاولته إقامة الشرع وقطع أثار الظلمة وإجراء الأمور كلها علـــى المنهج الشرعى ، ويذكر لهم ما كان بتلك النواحى من مكوس وقبالات قائلا « وقـــد كان بهذه الأصقاع من آثار أهل الاختلاف والابتداع مـــا علمتـــوه مـــن القبـــالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع »(١٩٣) ويفخر بأن تلك الضرائب قد قطعـــت تماما بفضل الموحدين قائلا « ولما من الله على أهل البلد بما من به مـــن التسـليم والتأمين .. انقطعت عنهم أسباب الظلم بانقطاع أهله وسدت عنهم أبـــواب البـــاطل كثرة وقلة ، فلا يطلبون إلا ما توجبه السنة وتطلبه ، ولا يلزمون – ومعـــاذ الله – مكسا ولا مغرما ولا قبالة »(١٩٤) .

ويبدو أن مساعى الموحدين فى هذا المجال كانت جادة حقيقة بحيـــث أشـــاد المؤرخون والرحالة بمسلكهم فى ذلك . يذكر الإدريسى تعقيبا على شيوع القبـــالات فى العصر المرابطى :

« فلما ولى المصاميد – يقصد الموحدين – وصار الأمـــر إليـــهم ، قطعـــوا القبالات بكل وجه ، وأراحوا منها ، واستحلوا قتل المتقبلين لـــها ، ولا تذكـــر الآن القبالة ذكرا فى شئ من بلاد المصامدة »(١٩٥) .

ثانيا : القبالات الخاصة :

نقصد بها تلك التى كانت تعقد بين أفراد المجتمع على ما يمتلك أحدهما مـــن أملاك ويتقبلها منه الآخر . وأحيانا – ترد هذه القبالات فى المصـــادر وخصوصـــا الفقهية بمعنى الكراء(١٩٦) . شملت هذه القبالات ، الأراضـــى الزراعيـــة ، والـــدور

والفنادق والحمامات والجنان والملاحات والأرحـــاء والأفـــران ومعـــاصر الزيـــت ومضارب الطوب والحوانيت وغيرها .

ووجود هذه القبالات فى المغرب والأندلس قديم بدليل مــــا ورد عــن عبــد الرحمن بن زياد الإفريقى وقبالة الأرض الزراعية[١٩٧] ، كما أن وثائق ابن العطـــار القرطبى التى احتوت نماذج عديدة من وثائق وعقود لهذه القبالات تؤكد شيوع هـــذه المعاملة الإسلامية فى عصر بنى أمية[١٩٨] ويؤكد كتاب ابن مغيث الطليطلـــى فـــى علم الشروط استمرارها فى المغرب والأندلس فى عصر ملوك الطوائف والعـــدوة المغربية[١٩٩] ، كما تثبت فتاوى ابن رشد[٢٠٠] ووثائق المراكشـــى[٢٠١] ، واحتســاب ابن عبدون[٢٠٢] على المتقبلين ، وفتاوى الونشريســـى[٢٠٣] ، أنـــها صــارت مــن المعاملات الإسلامية الأساسية فى المغرب والأندلـس خـلال عصـر المرابطيـن والموحدين[٢٠٤] .

وكان من عادة المسلمين التوثيق فى المعاملات الإسلامية ، وتحـــرى الدقــة المتناهية فيما يثبت فى الوثائق . ولذا لجأوا إلى الفقهاء الموثقين لكتابة وثيقة القبالــة لمعرفة ما لهم وما عليهم فى القبالة . وقد حفظت لنا كتب الوثائق والسجلات العديـد من النماذج لهذه الوثائق[٢٠٥] مما ساعدنا كثيرا فى معرفة أشـــكال هـــذه القبـــالات الخاصة وأنواعها والشروط التى يجب توافرها فى القبالة الصحيحة ، علـــى سـنة المسلمين فى قبالاتهم .

ومن خلال تلك الوثائق علمنا أن العقد يكون شاملا مواصفات العين المتقبلـــة كاملة . فبعد معاينة العين أو الملك من المتقبل يحدد للموثق موقع العين ليثبته فـــى العقد ، كأن يكون خارج المدينة فيحدده فى أى ناحية أو ربـــض ، أو كـــان داخــل المدينة فبأى حومة أو درب[٢٠٦] . ثم بعد ذلك تثبت حـــدود العيـــن مـــن الجـــهات الأربع، ويحدد اسم مالكها إذا كانت أملاك خاصة ، ثم يؤتى على مكونـــات العيـــن بالمساحة أولا وما تحويه هذه المساحة من إشغالات . فالدور بما فيها مـــن منـــازل وحجرات وأشجار وآبار[٢٠٧] ، والفنادق بما فيها من منافع وحقوق ومرافق داخلـــة فيه وخارجة عنه[٢٠٨] ، والحمامات وما تحويه من حقوق ومنافع ومرافـــق داخلـــة

وخارجة ومصاطب ورخام وبنيان وقدور ، وبئر سانية وصهريجه وسقائفه المعدة للزبل ومجارى مياهه وغيرها[٢٠٩] ، والجنان بقاعاتها وبنيانها ودارها المعدة للسكنى ، والبئر والصهريج والجزءالتابع لها من سواد الأرض[٢١٠] ، والملاحات بأحواضها التى يكون فيها مرافق الملاحة سواء كانت أقبية أو سواقى ، وبئر الملاحة إن كان هناك بئر[٢١١] ، والأرحاء التى يحدد موقعها على النهر الفلانى ثم ما تشمله من سد النهر وأحجارها ومنافعها وأسرتها وبيتها وقنواتها ومحط وارداتها[٢١٢] ، والأفران بما لها من حقوق ومنافع من قبو ومصاطب وآلات وموضع حطب[٢١٣] ومعاصر الزيت بمنافعها ومرافقها وقصاريها وأحواضها وبركتها[٢١٤] ، ومضارب الطوب بجميع حقوقها ومنافعها[٢١٥] والحوانيت التى يحدد مكانها فى سوق العطارين أو السعافين أو غير ذلك ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها ومصطبتها وألواح غلقها[٢١٦] وهكذا . ثم تحدد مدة القبالة فى العقد على ما يتفق الطرفان كأن تكون سنة أو سنتين أو أكثر ، مبينة بدايتها بشهر كذا من سنة كذا ، ونهايتها كذلك[٢١٧] ويكتب بعد ذلك المبالغ المتفق عليه لقبالة العين بالدينار أو الدراهم ، وكيف ستؤدى هل بالشهر أو بالسنة أو بالشهرين أو الثلاثة أو الأربع أو النصف سنة أو السنة حسب طبيعة العين المقبلة أو ظروف المتقبل ، ورضى صاحب العين[٢١٨] وإذا تم الاتفاق على المدة ومبلغ القبالة لابراءة للمتقبل فى التخلص من أدائها على الوجه الذى اتفقا عليه[٢١٩] وإذا أدى المتقبل جزءا من القبالة مقدما أو حتى دفعها جملة واحدة وبالذات فى العين المضمونة[٢٢٠] يوضح ذلك فى العقد وإذا كانت القبالة من النوع الذى يتعرض للجوائح يمكن للمتقبل دفع القبالة تطوعا منه[٢٢١] ، كل هذه الأمور تبين فى عقود القبالات .

ليس معنى ذلك أن كل الناس ذهبوا إلى الموثقين وعقدوا القبالات كتابة ، بل منهم من اتفق مشافهة دون كتابة وثيقة أو كتب وثيقة ، ونسى أن يسجل بها كل محتويات الشئ المقبل . ومن هنا حدثت بعض المشاكل من القبالات ورفعت إلى الفقهاء من أجل الإفتاء فيها وتبين وجه الحق ليعرف كل ذى حق حقه فى القبالة ، وهذا يجرنا إلى موضوع غاية فى الأهمية لهذا البحث ألا وهو موقف الفقهاء من القبالات بصفة عامة .

الفقهاء والقبالات :

عرفنا أن الرسول ﷺ كان أول من أصلح من هذا النظام وبين للناس فى زمانه حلال القبالات من حرامها . ولكن نظام التقبيل بدأ بعده يخرج قليلاً عن إطار الشرع الإسلامى عن طريق المخالفات الفردية التى سهل حلها من جانب الصحابة والفقهاء من التابعين ، بعد تبيانها للناس . ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير ، لتمسكهم بهدى رسول ﷺ وما أن إتسع نظام التقبيل بعد تغير أحوال المسلمين وانقلاب الخلافة إلى ملك متوارث واحتياج الحكام إلى الأموال احتياجاً شديداً - كما علمنا - حتى ثقلت مهمة الفقهاء بعد أن خرج نظام القبالات عن مساره الصحيح وتبدلت أحواله تحت سمع وبصر الحكام . ومن أجل الإصلاح قصد الفقهاء فى البداية الخلفاء وأولى الأمر بتوجيهاتهم فى صورة نصائح تبين وجه الحقيقة فى هذا الموضوع وقد جسد لنا موقف الفقهاء القاضى أبو يوسف(٢٢٢) الذى أخذ على عاتقه مهمة تصحيح المسار فى نظام التقبيل فبين للخليفة هارون الرشيد ما كان يفعله المتقبلون فى أهل الخراج من حيث زيادته وطريقة جبايته الفظة وسوء المعاملة ، وحذر الخليفة من مغبة هذا الأمر وأن ذلك سوف يفضى إلى خراب الأرضين وإنكسار الخراج ، وأعلنها صراحة أمام الخليفة كراهيته للتقبيل ليس من أجل النظام نفسه وإنما لأنه لا يأمن المتقبل ، فأوصى أن يتقبل المتقبل خراج ناحية من النواحى ترضى أهل الخراج أنفسهم ، وأن يسير المتقبل فى الجباية سيرة حسنة ، وأن يكون صادقاً وأميناً لا يأخذ أكثر مما دفع ، ومن أجل تحقيق ذلك يعين معه أمير يراقبه ويدفع لهذا الأمير من بيت المال ، حتى لا يتوطأ مع المتقبل ، لوحاد هذا المتقبل عن جادة الصواب ، فيمنع به الظلم عن الرعية ولا يحملوا ما لا طاقة لهم به .

ولا يعلم هل طبق هارون الرشيد ما نصح به قاضيه أم لا ولكن واقـــع الأحداث فى دولة بنى العباس يثبت أن تلك النصائح صارت سامية وصفحات ناصعة فى كتاب الخراج لأبى يوسف ، يقتضى بها الفقهاء ويدرسونها للاقتداء بها عند الحاجة والضرورة ، أما النظام نفسه فسار فى طريقه ولـــم يقتصـــر على الخراج فقط ولكن شمل خططاً هامة فىالإدارة(٢٢٣) .

وإذا كان هذا الموضوع قد تمخض عن موقف أولى الأمـــر ، بغـض الطرف عن التجاوزات الشرعية وتجاهلهم نصائح الفقهاء ، فماذا كان موقـف فقهاء المغرب والأندلس من هذا النظام ؟

اتجه فقهاء المغرب والأندلس فى محاربة الأهواء والبدع نحو الالـــتزام بما جاء به القرآن والسنة كنصوص ثابتة ، مطبقين فى السنة ما روى عـــن الإمام مالك بن أنس إمام المدينة الذى لم يحفظ لأحد من أهل العلم بـــالمغرب الإسلامى مثلما حفظ له بعد أن أخذت البلاد بمذهبه . وصار موطـــأ الإمـــام وعلمه الذى دونه علماء وفقهاء المغرب والأندلس الأوائل الذين تتلمذوا علـــى يد الإمام وسمعوا منه مباشرة(٢٢٤) ، أساس الفتوى والتطبيق فى المجتمع .

بالنسبة للقبالات فقد كان موقف فقهاء المغرب والأندلس بصفة عامـــة موقفاً صلباً فى تطبيق أحكام الشرع على مذهب الإمـــام مـــالك ، وأسـفرت جهودهم فى نهاية الأمر عن حمل المجتمع على السير بمنهج وشرع قويم فـــى نظام القبالات على المستوين العام والخاص .

الفقهاء والقبالات العامة :

يمكننا معالجة موقف الفقهاء من القبالات العامة على محورين :

الأول : بيان الفقهاء وجه الحق فيها والمحافظة على الشرع من خـــلال حفظ حق طرفى القبالة ، وذلك بالنسبة لقبالات الأحباس .

الثانى : الاحتساب على المتقبلين فى الضرائب :

أما بالنسبة للمحور الأول ، فقد نجح الفقهاء فى مهمتهم الشرعية أيما نجاح ، وساعدتهم الظروف فى ذلك حيث كان لهم الحق فى نظر الأراضى المحبسة بالمغرب والأندلس ، وذلك عن طريق القاضى ومعاونيه الفقهاء ثم فى وجهة نظر صاحب الأحباس ، وكان فقيها أيضاً[٢٢٥] لذا أفتوا وطبقوا فى الحياة العملية دون تدخل من الحكام وأولى الأمر فى ذلك . وزادهم حرصاً على تطبيق أحكام الشرع أن تلك الأحباس كانت متصلة بفقراء المسلمين ومساكينهم ومرضاهم وأماكن عبادتهم ، لذا نجدهم يحافظون عليها من جور أولى الأمر[٢٢٦] ، ومن متقبليها الذين طمعوا فيها لطول مكثهم فى قبالتها . وكانت هذه النقطة مثار جدل وخلاف بين الفقهاء فى المغرب والأندلس بسبب اختلاف ما نقله الرواة المغاربة والأندلسيين عن الإمام مالك فى أملاك الأحباس ، وبالذات إذا كانت القبالة لأقوام بأعيانهم ، ولكن الجميع أقر فى النهاية بأن قبالتها لا تجوز إلا لعامين أو نحوها ، وهذا ما نقله ابن القاسم عن مالك[٢٢٧] . وتأكد ذلك بما نقله أشهب عن مالك من أنه لا تجوز قبالة أقوام باعيانهم لمدة طويلة ، كأن تكون عشرين عاماً أو خمس وعشرين عاماً[٢٢٨] والهدف من وراء ذلك حرص الفقهاء على المحبس عليهم من الفقراء والمساكين ، لأنه ربما يموت خلال المدة الطويلة بعضهم فتنتقض القبالة بذلك ولا يحصل ابنه على شئ حتى تنتهى مدة القبالة . أما فى المدة القصيرة فيكون فى إمكانهم إدخال الابن فى هذه الأحباس[٢٢٩] ولذا نقص الفقهاء فى فتاويهم كراء أملاك الأحباس للمدة الطويلة . وأمامنا أمثلة تطبيقية على ذلك فقد أفتى ابن سهل عندما سئل فى إشبيلية من جماعة من أهل بطليوس عن أرض محبسة على نساء كانت فى أيديهن، اكروها لجماعة على خمسين عاماً، وغرسها المكترون فلما مضى من الكراء ثمانى سنوات قامت النساء

بطلب فسخ الكراء ، فأجاب بنقض الكراء وفسخه لطول المدة وخروجها عن المعروف[٢٣٠] . كذلك أفتى ابن القطان فى جنة بجهة الزهراء شرقى قرطبة تقبلت لثلاثة عشر عاماً بفسخ القبالة لطول المدة[٢٣١] .

وقد استحسن الفقهاء كذلك فى الأحباس المخصصة للمساجد والمرضى والمساكين قصر المدة ، كأن تكون أربع سنوات لا أكثر ، وذلك خوفاً من أن تندرس لطول مكثها فى أيدى متقبليها[٢٣٢] . ورأى أهل البصر بالزراعة وأمورها أن هذه المدة أقصىما يبقى الزبل فى الأرض من عمل المتقبل[٢٣٣]. كذلك حرص البعض الأخر من أهل الاحتياط أن لا تقبل تلك الأراضى لمن يجاورهم مخافة أن يتحيف عليها[٢٣٤] ، ولا من ذى قدرة خوفاً من ضمها إلى أملاكه[٢٣٥]. وقد جرى العمل على ذلك فى الأندلس اقتداء بعمل أهل قرطبة فى ذلك[٢٣٦] .

ومن ناحية أخرى نجد القائمين على هذه الأملاك المحبسة من القضاة ومعاونيهم حريصين على ألا يتركوها دون استغلال ، مما يفقدها فائدتها بالنسبة للمحبس عليهم ، لذا إما يسلموها للمحبس عليهم ولهم حرية التصرف إما بزراعتها أو تقبيلها[٢٣٧]، وإما إنهم تساهلوا فى كثير من الأحيان مع متقبليها دون تفريط فى حقوق المحبس عليهم مثلما كان يحدث بقرطبة التى اعتاد قضاتها الإحسان إلى متقبلى أملاك الأحباس سواء كانت أراضى ودور وحوانيت أو غير ذلك[٢٣٨]؛ وبالذات إذا اشتكوا وضيعة أو جائحة من جراء الجيوش المحاربة أو حشرات الأرض أو توالى القحط أو غير ذلك . فكانوا يسقطون عنهم أقساط ونسباً من القبالة حسب إجتهادهم وظروف العين المتقبل، حتى صار ذلك كالشرط من متقبلى أملاك الأحباس بقرطبة ، فعندما كانوا يقيموا حجتهم فيما نزل بهم يسقط عنهم مثلما حدث فى عهد القاضى ابن بشر الذى أسقط عن متقبلى جنات الأحباس فى الجهة الشرقية من قرطبة

الثلث ، وذلك بسبب جائحة الخشخاش وامتناع السناية ، واسقط على متقبلي الجنات الغربية من قرطبة الربع بسبب جائحة القنليات والخشخاش[٢٣٩]. وهكذا، تجنبا لمشكلة ترك المتقبلين لهذه الجنات ، كره بعض الفقهاء ذلك عندما شاورهم القاضي ابن الصفار عارضاً عليهم قضية إسقاط جزء من قبالة المتقبلين لأراضي وأملاك الأحباس في قرطبة وقالوا « بكثرة ما أسقط عليهم » وقال أحدهم « ولست أتقلد أن يوهب لهم للاستيلاف إلا من نصف العشر إلى العشر وهذا أقصى ما خبرته في عمري وأدركته في سني »[٢٤٠].

ويبدو أن حرص قضاة قرطبة على تقبيل هذه الأملاك ومعرفتهم بمصلحة المحبس عليهم جعلهم يتساهلون بأقصى ما يستطيعون حتى في ضوابط القبالات الصحيحة شرعاً ، وذلك من أجل تشجيع الناس على التنافس في قبالتها .

وقد دفع ذلك بعض الفقهاء مثل ابن دحون القرطبي[٢٤١] إلى القول في صراحة أنها « أمور محدثة وأن هذه القبالات مع هذه الأحوال فاسد وغرر ولا يجوز » وينصح ابن الصفار القاضي المستشير بفسخ ما بقى من مدة القبالة . ويبدو أن تساهل قضاة قرطبة والقائمين على الأحباس مع المتقبلين ومحاولة استئلاف قلوبهم قد أثار حفيظته غيرة على الحق ، وبالذات لأنهم عينوا مشرفين لمعاينة الجوائح النازلة في أملاك الأحباس ، فقال للقاضي « واحمل الناس على ما كان عليه السلف في أثبات حوائجهم ، فليس يأتي آخر هذه الأمة بخير ما كان عليه أولها »[٢٤٢] . ولكن القضاة والقائمين على الأحباس ساروا في طريقهم مجتهدين في تقبيل أملاك الأحباس على العادة الجارية عندهم ، مستشهدين بمن سبقهم من القضاة وإحسانهم إلى متقبلي جنات الأحباس ، وذلك لما يرونه من رغبة الناس في قبالتها[٢٤٣] ونصح الفقيه ابن الشقاق[٢٤٤] القاضي المستشير ابن الصغار بقوله « ينبغي

أن تسلك فيهم سبيل من تقدمك من الرفق بـــهم والإحسـان إليـهم ، وعلــى المعهود فيك فإن ذلك من النظر فى الأحباس ، وبذلك ترتفع قبالاتها ويتنـافس فيها »[٢٤٥] وشجعه الفقيه ابن سلمون المسيلى القرطبى[٢٤٦] بفتواه التى تقـر الاجتهاد فى مثل تلك المسائل قائلاً « إنها مسألة إجتهاد من جـانب القضـاة والرأى لا يجوز نقضها »[٢٤٧] .

أما بقية الأملاك المحبسة من دور وحمامات . فقد سعى فيـها فقهاء قرطبة بذات السبيل ، فحطوا عنهم من القبالات عند تعـذر عمـارة الـدور لمكروه نزل بالبلد أو الدار ، خاصة وقد رجع الحط إلى نظر القاضى الـذى كان يحدد مقداره وقيمته ، ومعه الناظر فى الأحباس ، مثلما كان يحدث مـع متقبلى الحمامات الذين شكوا يوماً إلى القاضى عبد الرحمن بن محمـد بـن فطيس[٢٤٨] قلة الموردة - أى الواردين عليـهم - وتعـذر الحـرق لتوالـى الأمطار . فشاور القاضى من حضر من الفقهاء وأهل العلم ، وبعدهـا قـرر إسقاط القبالة عن متقبلى الحمامات شهراً واحداً[٢٤٩] ، وذلك حتى لا تنفسـخ القبالة وتظل هذه الحمامات دون متقبلين مما يضر بـالمحبس عليـهم مـن الفقراء والمساكين أو حتى دور العبادة .

الثانى : الاحتساب على متقبلى الضرائب :

وقف الفقهاء فى المغرب والأندلس بما لهم من مكانة علميـة ودينيـة واجتماعية أمام الحكام فى سبيل الضرائب الزائدة التى أشرنا إليها قبل ذلـك، بل منهم من شهر ذلك فى وجه الحكام وبالذات إذا استعان بهم النـاس فـى سبيل رفع الظلم عنهم . فهذا حفص بن عمر الجـزرى[٢٥٠] قصـده النـاس ليتوسط عند الحاكم الأغلبى (أبو العباس عبـد الله بـن إبراهيـم الأغلبـى (٢٨٩- ٢٩٠هـ /٩٠٢- ٩٠٣م) ليسقط عنهم تلك الضريبة الثقيلـة التـى فرضها على كل زوج من الحيوانـات يحـرث ، وكـان مقدارهـا ثمانيـة

دنانير[٢٥١] ، والتى ضاق بها الناس ذرعاً فأخذ حفص الناس ودخل على أبى العباس وقال له « أيها الأمير اتق الله الذى إليه مصيرك وأرحم شبابك هذا ، وأحذر على وجهك الجميل النار ، وخفف عن الناس ، وأسقط عنهم ما وضعت على الأزواج من هذه الدنانير » . فأبى وقال : « لا أحط شيئاً » . فاجتمع حفص بالناس وصلوا ودعوا عليه فمات[٢٥٢] . وكانت هذه الضرائب من نقاط الضعف فى دولة بنى الأغلب بأفريقية استغلها أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين وتظاهر هو نفسه بالتعفف عن مثل هذه الأموال وجمعها[٢٥٣]. ولكن ما هى إلا سنوات حتى عادت السيرة فى فرض هذه الضرائب الزائدة من قبل الفاطميين ، بل زادوها عما كانت ، وتدخل الفقهاء من أجل محوها . ويكفينا أن نتذكر هنا موقف الزاهد الفقيه السدرى الذى واجه عبيد الله المهدى ونفى عنه إمراة المؤمنين بسبب هذه الضرائب وسب السلف[٢٥٤] . كما ضرب الفقهاء المثل للعامة بعدم المبادرة فى تأدية هذه الضرائب والمكوس ، فنجد إسماعيل بن رباح الجزرى[٢٥٥] الذى أراد مرة أن يشترى دابة من القيروان فقيل له « أنهم يأخذون ربع درهم على الباب » فرجع وقال « والله لا أشترى من هنا وليس بى ما ذكرتم ولكن يقال فلان أعطى حق الباب فيرون أنه حلال »[٢٥٦] .

كذلك شاعت هذه الضرائب الزائدة عند الزيريين ملوك زناته بالمغرب، وملوك الطوائف فى الأندلس ، فاستغاثت الرعية فى كل هذه المناطق بالمرابطين لما علموا أنهم لا يأخذون سوى العشر والزكاة والصدقات فقط . ووسطوا فى استغاثتهم هذه الفقهاء الذين أفتوا بعدم صلاحية هؤلاء الحكام – على الأقل فى الأندلس – [٢٥٧] لما يرتكبون فى حق الرعية. ولكن تلك السيرة الحسنة فى الجباية لم تدم طويلاً وترسم أمراء المرابطين سيرة من سبقهم فى فرض ضرائب زائدة كثيرة ، تعددت أسماؤها توسعوا

فى تقبيل هذه الضرائب والمكوس حتى صار كل شئ فى دولة المرابطين مقبلاً[٢٥٨] . وكان أن أنبرى الفقهاء - بعد تفشى هذا النظام وعدم قدرتهم على تغييره ورد الأمور إلى نصابها - للإصلاح من نظام القبالات ، وجعله شرعياً ، وذلك عن طريق الاحتساب أو الأمر فيه بالمعروف والنهى عن المنكر فى تحصيل الأموال التى يسددها المتقبلون لخزينة الدولة ، والتى كانوا يجمعونها من الناس بالشدة وسوء المعاملة والتحايل والزيادة . وقد جسد لنا ابن عبدون موقف الفقهاء من المتقبلين وجشعهم ، فاحتسب أولاً على الذين يتعاملون مباشرة مع الناس مثل صاحب الباب الذى يأخذ منهم رسم الباب فقد جرت عادته أن يغلق الأبواب مبكراً ويأخذ من الناس أكثر من الواجب . وكانت عندهم الرغبة الشديدة فى الزيادة والشطط وإبتدعوا من أجل ذلك أبواباً من الظلم وتسببوا فى أكل أموال الناس بالباطل . والعجيب أن ابن عبدون يقول « يجب أن يحد للبواب ما يأخذ ممن يدخل عليه » وكان الأولى نهيه عن قطع رسم الباب نهائياً[٢٥٩] .

أما القباض وأعوانهم من العاملين مع المتقبلين فقد وصفوا بأنهم «لصوص عارفون بوجوه المكر والشر» ولذا يجب ألا يقبضوا من الناس إلا « بميزان العدل وصنوج الحق وكيل القسط » فلا زيادة ولا حيف ، كما يجب أن يأخذوا بالحسنى وأن لا يهينوا أحداً ولا يتعدوا على أحد[٢٦٠] .

أما المتقبل نفسه الذى تعرض لنقد المجتمع ونبذه قبل الفقهاء فقد شن عليه ابن عبدون[٢٦١] حملة تدل على سوء سيرة المتقبلين فى ذلك العصر وتدنى مكانتهم الاجتماعية بسبب إقبالهم على هذا العمل الذى يدفع بصاحبه إلى المفاسد وطلب الحرام . فوصمه بكل نقيصة وقال عنه « هو شر خلق الله وهو بمنزلة الزنبور الذى خلق للضرر لا للنفع فهو يجرى ويسعى لضرر المسلمين أبداً . ويفتح أبواب الضرر عليهم ويغلق أبواب الخير والنفع عنهم ،

ملعون من الله ومن الناس أجمعين »(٢٦٢) وأنه « لا ذمة له ولا ديـــن »(٢٦٣) وأنه « هو الملعون بحق »(٢٦٤) وقد أنزله بمنزلة الشـــرطى المنبـــوذ وقـــال «يجب ألا يترك أحد من المتقبلين .... بزى كبار الناس ولازى رجل خير بل يجب أن يمقتوا ويهجروا ولا يسلم عليهم ... ويجب أن تكون لـــهم علامـــة يعرفون بها على سبيل الخزى لهم »(٢٦٥) كما أدخلـــهم فـــى زمـــرة حـــزب الشيطان الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكـــر الله « أولئـــك حـــزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون »(٢٦٦) ومـــا ذلـــك إلا لجشـــع المتقبلين وتعديهم على حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل بادعائـــهم أن مـــا يأخذونه للسلطان(٢٦٧) . والواضح أن الحكام غضوا الطـــرف عمـــا يفعلـــه المتقبلون بالناس وتركوا لهم الحبل على الغارب ، أو تركوا أمرهـــم للوزيـــر صاحب المدينة . ويبدو أنه كان يحدث تفاهم بين الطرفين ليكون المتقبل حـــراً فى جباية أمواله بطريقته ، ولذا قال ابن عبدون(٢٦٨) « يجب أن يحد لـــه مـــا يؤخذ ولا يترك ذلك لاختياره هو أو حتى يصطلح عليه مع الوزيـــر ، إلا أن يكون ذلك بحكم القاضى » . ولذا ينصح ابن عبدون القاضى(٢٦٩) أن يحد لـــه فإذا أخذ مكس الرحاب فلا يأخذ على الفقير إلا نصف مد بالكيل ، ومن حمـــل الدقيق نصف رطل بالكيل ، ويكون على المائة ربع من الفحم شئ معلـــوم لا يتجاوزه(٢٧٠) ، وفى السوق حبة على الكبش . ويجب ألا يأخذ قبالة ممن يبيـــع فى داره طعاماً أو زيتاً لأن السلطان أخذ أعشار أثمانها من قبل(٢٧١) وحـــذر من يشترى أضحية أن يدفع عليها قبالة لأنها قد أخذت مـــن الجلابيـــن(٢٧٢) . ويبدو أن المتقبلين اشتطوا فى أخذ قبالات البهائم والدواب ، لـــذا قـــال ابـــن عبدون « يجب أن يكون ما يغرم فى القبالة على الدابة والبهيمة معلوماً لئـــلا يزاد فى ذلك كل وقت(٢٧٣) ».

ولكى ينضبط عمل المتقبل ويرفع الظلم والحيف عن الرعيـــة لجشـــع المتقبلين ، نصح ابن عبدون القاضى « أن يستحلفه - أى المتقبل - ويحد لـــه ما يصنع فى تصرفه ولا يتركه يتحكم فى أموال الناس باختياره أو ما يـــراه صواب من أجل منفعته الخاصة[٢٧٤] . وإذا اخطأ وعرف خطـــأه يغلـــظ لـــه القاضى القول والتوبيخ[٢٧٥] » . ويرتب له الوزير بحضرته أى القاضى مـــا يأخذ من الأشياء قبالة معلومة ولا يزيد عليها ولا ينقص ، ومتى تعدى ذلـــك أدب وسجن ونكل[٢٧٦] . ويجب أن يعين عليه من يرقبه ويتفقد أمره فى كـــل وقت من أجل أموال الناس ولا يترك أمره مهملاً أبداً »[٢٧٧] . وأخيراً ينصـــح ابن عبدون أن يعمل زمام أى دفتر بين يدى القاضى ويرفع هذا الزمام بمـــا فيه من قبالات إلى السلطان ويعرض عليه ، ثم ينقـــح مـــن قبـــل الســـلطان والقاضى . ويجب أن يرفق القاضى بالمسلمين فى ذلك . فإذا تم الاتفاق علـــى ما تقبل وانحسرت الأشياء المتقبلة فى هذا الزمام ، تكون عند المشرف منـــه نسخة وعند القاضى أخرى وعند المتقبل أخرى ، لا يزاد فيـــها . ويراقـــب المتقبل من خلال هذا الزمام وتتابع سيرته فى تطبيقه[٢٧٨] .

ولكن أمر المتقبل فى العصر المرابطى لم تقومه تلك النصـــائح ، ولا أثرت فيه توعية الناس ، وذلك لما تمتع به المتقبل من حرية ، فصار يفعـــل ما يشاء ويجمع الأموال أضعافاً مضاعفة ظلماً وعدواناً . ولذلك احتاج الأمـــر إلى فقهاء يغيرون المنكر بالقوة ويطبقون شرع الله على مثل هـــؤلاء بـــذات الطريقة . وكان أن وجد أهل المغرب والأندلس الخلاص من هؤلاء المتقبليـــن للضرائب أو المتقبلين العموميين عند المصامدة أو الموحدين الذيـــن - كمـــا علمنا آنفاً - ألغوا كل تلك القبالات من العدوتين . ولكى يمحوا تماماً أثر هـــذا النظام استحلوا قتل المتقبلين العموميين .

الفقهاء والقبالات الخاصة :

سارت القبالات بين الأفراد فى المجتمع المغربى والأندلسى فى مسارها الشرعى الصحيح بعكس القبالات العامة ، وذلك بفضل جهود الفقهاء وقد ساعدهم فى ذلك لجوء الناس إليهم سائلين مستفسرين فى مثل تلك المعاملات الإسلامية التى تحروا فيها الحلال . وكذلك حاجة هؤلاء إلى الفقهاء للتوثيق وكتابة العقود الخاصة بالقبالات . ومن حسن الحظ أن الفقهاء المفتين كان أغلبهم من كتاب الوثائق والشروط[٢٧٩] ، ومن ثم أبانوا للخاصة والعامة من خلال هذا العمل المزدوج الحلال والحرام فى القبالات ، وما تصح به القبالة وما يفسدها . ولم نجد فيما نجد بين أيدينا من وثائق تخص القبالات وثيقة واحدة تخلو من العبارات التالية « قابلة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار » قبالة مبتولة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار أو « أن هذه القبالة على سنة المسلمين فى قبالاتهم » أو « سنة المسلمين فى قبالتهم الجائزة بينهم»[٢٨٠] مما يدل على تطبيق دقيق لسنة الرسول ﷺ فى القبالات ، حيث نهى عن الشروط المجحفة بالمتقبل أو المالك أو التى فيها ضرر أو غرر لأحد الأطراف . ونهى عن الاستثناء من العين المتقبل لصالح أحد الطرفين أو أن يختار صاحب العين – وبالذات الأرض – أماكن معينة عند القبالة يخص بها نفسه دون المتقبل[٢٨١] .

رغم ذلك فإن أمر القبالات لم يخلو من أخطاء أدت إلى منازعات ومشاكل بين طرفى القبالة ، استدعت الاستبيان والاستفسار من الفقهاء من أجل تطبيقها صحيحة وإزالة محل الخلاف بين الطرفين ، والذى كان مبعثه فى أغلب الأحيان الجهل بأحكام الشرع فى المعاملات بصفة عامة .

على كل حال جاء فى كتب الفقه بالإضافة إلى كتب الوثائق والسجلات ما ساعدنا كثيراً على تتبع جهود الفقهاء لحل مشاكل القبالات بين الناس وجعلها مطابقة للشرع .

وقد اختلفت هذه المسائل باختلاف العين المتقبل حيث كان لكل عين مشاكله الخاصة به ، ففى الجنات أو الجنان ، لإنها كانت تضم الأراضى البيضاء والأشجار المثمرة ومكونات أخرى من البيوت المعدة للسكنى والآبار واختلاف مساحات الأرض البيضاء المغروسة بالأشجار المثمرة . كثرت مشاكلها واستغلق أمرها على الخواص والعوام ، وخلطوا بالذات بين القبالة والمساقاة، مثل ذلك الذى اكترى جنانا بثلاثين ديناراً ، وفى الجنان شجرتان وعنب وأرض بيضاء ، والشجر أكثره غلة من البياض ، وسموا ذلك بينهما قبالة .

ولكنه بعد أن تقاضى الثلاثين ديناراً أحس بمكروه ذلك العمل ورفع إلى ابن لبابه الفقيه يستفسر عن ذلك ، فأفتاه بأن ذلك لا يجوز فيه الكراء ، وإنما يصح فيه المساقاة . وإن كان الأمر تم بينهما فالواجب قبالة الأرض البيضاء وكيل الثمرة إن كانت يبست . وإن كان أكلها رطبة فيعاملوا فيها معاملة المساقاة(٢٨٢) . كذلك أظهر الفقهاء أنه لايجوز لمتقبل الجنان اشتراط الثمرة إلا أن يكون تبعاً لها الثلث فأقل . وضربوا الأمثلة على ذلك لتفسيرها فجمعوا ثمن قبالة الجنة بيضاء من غير الثمرة ، مع ثمن الشجر على المتوسط كما حدث قبل ذلك ، وثمن مجهود المتقبل فى العام من المؤنة حتى تباع ، ويسقط ثمن هذا المجهود من ثمن ثمرة الشجر . عندئذ تكون القبالة صحيحة وجائزة فيقولون كم تساوى قبالة هذه الجنة البيضاء من غير ثمرة قيل ستين (مثقالا) ثم يقال كم تساوى ثمرة شجرها على المتوسط على ما عرف فيما مضى ؟ قيل أربعين مثقالا ثم يسئل أهل البصر بالزراعة كم يساوى سقى المتقبل لها فى العام ومؤنته فيها إلى أن تباع قيل : عشرة مثاقيل ، فتسقط العشرة من الأربعين ثمن الثمرة ، وتبقى ثلاثون تضيفها إلى الستين التى هى قبالة الأرض البيضاء فتكون تسعين ، فتكون الثلاثين عندئذ

هى الثلث وتكون القبلة جائزة وصحيحة(٢٨٣) وإن كان ذلك أزيد من الثلث لم يجز أن يتقبل السواد مع الأرض ، وتدخل الأشجار حينئذ فى حكم المساقاة والأرض فى حكم القبالة بالنقد(٢٨٤) .

كذلك أوضح الفقهاء أنه لا يجوز اشتراط النقد فى قبالة الجنان التى تسقى بالآبار ، إلا أن تكون هذه الآبار مأمونة لا ينضب ماؤها فى أى وقت من أوقات السنة(٢٨٥) ويجوز للمتقبل قبالة الجنان بآبارها دون آلة إذا كان ذلك برضى المتقبل ، على أن يأخذ آلته عند انقضاء القبالة(٢٨٦) . وأن تهورت البئر أثناء القبالة فالواجب على صاحب الجنان إصلاحها ، فإن أبى يصلحها المتقبل ويخصم ذلك من قيمة القبالة ، ولكن بشرط أن ينفق كراء سنة بلا مزيد عليها(٢٨٧) . وإذا كانت البئر تغور مياها ويؤثر ذلك على المتقبل، فإنه يسقط من القبالة قيمة المدة التى تغور فيها مياه البئر ، لما يحدث ذلك من تأثير ضار على الزرع(٢٨٨) . وكذلك إن توالت الأمطار ومنعته من الزراعة والانتفاع بقاع هذه الجنان فيوضع عنه من القبالة على قدر نفاق الشهور وكسادها(٢٨٩) . ومن طريف ما يحكى فى قبالات الجنان أن رجلين تقبلا جنانا مشتركين وغرسا فيها ، وأباح أحدهما للآخر أن يغرس فى أطراف الأحواض والشجر ، ففعل الثانى وغرس بصلا ، فلما بلغت القلع ندم الآخر وأراد أن يدخل معه فيما غرس ، فقصدا الفقهاء للفتوى فأجيبا : ليس له فى ذلك سبيل فلا يأخذ من البصل ولكن له أن يمنعه من الغرس فيما بعد أو أن يستقل بشئ(٢٩٠) .

أما عن الأرجاء أو الطواحين ،، فقد أجمع الفقهاء على أن تكون سليمة قائمة تعمل مستوفية الآلة عند قبالتها ، وأن تكون على الأنهار المأمونة ولا تخرب أسدادها ولا قنواتها(٢٩١) ، وإن يقبلها المتقبل بهذا الشكل ، سليمة طاحنة . وجميع ما ينفق فى إصلاحها على المقبل . ولا يجوز أن يشترط على المتقبل فى ذلك إلا ما كان يسيرا ، مثل إصلاح المغازل والحديد

والأمشاط . ولا يتعدى الإصلاح الدرهمين أو الثلاثة(٢٩٢) . وأجمع الفقهاء أيضاً على أن الأرحى إذا لم تكن مأمونة من نقصان الماء بسبب القحط أو زيادته لكثرة الأمطار أو خراب سدها بسبب السيل ، فإنه لا يجوز اشتراط النقد فيها ، إلا أن يتطوع المتقبل بذلك . ويحق له عندئذ القيام على صاحب الرحى عند حدوث ما يمنع الطحن من نقصان الماء وزيادته ، ويحط عنه القبالة التى توقفت فيها الأرحى عن الطحن(٢٩٣) . ومن ناحية المقبل لا يجوز له أن يشترط إسقاط القيام من جانب المتقبل بزيادة الماء أو نقصانه . وإذا حدث هذا فلا بد من فسخ القبالة(٢٩٤) . وقد أنكر ابن حبيب ما أحدثه أهل الأندلس من الاستثناء فى القبالات قائلاً : والذى أحدث أهل الأندلس فى اكراء الأرجاء أن يقول المكرى إنما أكريتك البيت وقناة الرحى ، ولا أكريك سانية ولا مطاحن ولا شئ من الأداة ، فتلك مغرة واحتيال(٢٩٥) . ولكن أجاز – وغيره – أن يتقبل الشخص منصب الرحى ، ويقيم هو الآلة كلها من ماله، ويرجع بيت الرحى عند انقضاء القبالة إلى المقبل فارغاً ، وإن كان لصاحبها فيها آلة ودخلت فى القبالة تكتب فى الوثيقة وتوصف(٢٩٦) . أما عن مدة قبالة الأرحاء فقد نقل المراكشى(٢٩٧) ، أن الرحى المأمونة لا بأس باكترائها وتقبلها المدة الطويلة ، ما عدا تلك التى تطحن فى فترة معلومة والتى لا تجوز قبالتها إلا فى وقت استقامتها للطحن ، حيث يعلم أن ماءها لا ينقطع عنها ولا يتبدل حالها .

واشتد انتقاد الفقهاء فى الأندلس على بعض فقهاء طليطلة الذين كانوا يعقدون قبالات غير جائزة بالتحايل ، حتى يبرءوا المقبل من كل شئ ، فيشترطون على المتقبل ضمان جميع ما لزمه حتى ولو كان فيه غرر ويعفوا ربها من القيام بإصلاح أى شئ يفسد . فقال الفقهاء بأن ذلك لا يجوز ، وغرر كبير لا يدرى مبلغه(٢٨٩) .

وأمامنا بعض الأمثلة التطبيقية عن تطبيق الشرع وحماية الطرفين من الظلم والتعدى ، سواء كان ذلك عن قصد أو عن جهل بأمور المعاملات . من ذلك مثلاً ما عرض على فقهاء قرطبة ، من أن الفقيه محمد بن دحون عقد وثيقة فى قبالة رحى تتعذر شتاء وتستقيم صيفاً ، فأجابوا بأن القبالة فى هذه الحالة لا تجوز لأن الرحى غير مأمونة(٢٩٩) . وسئل ابن رشد عن المتقبلين للأرحى إذا قل الواردون للطحن ، فهل يحط ذلك من القبالة أم لا ؟ فأجاب إذ حدث ذلك لجهد أصاب المكان وما شابه ذلك كان ذلك عيباً فيما تقبل ، فيكون عندئذ مخيراً بين أن يتمسك بقبالته أو ردها . فإن سكت لا تسقط عنه القبالة التى لا تسقط إلا بجلاء أهل ذلك الموضع وتصير الرحى معطلة لا تطحن بسبب الفتن(٣٠٠) .

وأخيراً يجب أن نذكر أن فقهاء المغرب والأندلس أجازوا للناس قبالة الأرحاء بالطعام الموصوف ، أو الدقيق الموصوف ، كأن يقول الموثق بعد اتفاق الطرفين على ذلك « وكذا مدياً شطرها قمح أحمر ريون فاخر ممتلئ طيب غاية الطيب وشطرها شعير أبيض يابس فاخر ممتلئ نقى طيب غاية الطيب يكيل كذا يؤديها المتقبل فلان على تنجيم كذا ، الخ(٣٠١) .

وأظهروا للناس فى قبالات الفنادق أن القبالات تحط عن المتقبلين للفنادق فى أحوال الفتنة وجلاء الناس وقلة الواردين على الفنادق(٣٠٢) وفى حالة سير الأمور بطبيعتها نجد الناس يختلفون على أشياء بسيطة مثل زبل الحيوان المستخرج من الفندق . ويبدو أنه كان مهماً فى عمليات الزراعة ، ولذا نجد أكثر الناس يشترطون تسلمه محدداً بكيل(٣٠٣) . ولذا وجب على الفقهاء تبين وجه الحق فيه وأفتوا بأنه شئ مجهولاً وإذا اشترط المقبل ذلك فسخ الكراء بين الطرفين(٣٠٤) إلا أن يتطوع به المتقبل بعد العقد ، عندئذ لا بد له من الوفاء بالتزامه على أساس أن التطوع فى المجهولات لازم له(٣٠٥) .

وفى قبالة الأفران ، ومن أجل أن تكون قبالتها صحيحة ، يجب أن يكون الفرن طابخاً(٣٠٦) فإذا انهدم من بنيانه ما يضر بالقبالة لم يجبر المتقبل على بنائه ،

ويقع ذلك على رب الفرن ، وإن رفض وتمادى يغرم القبالة وتفسخ[٣٠٧] . ونفس الشئ إذا انهدم القبو أو بعضه ، يلزم صاحب الفرن بإصلاحه[٣٠٨] . ويحط الكراء عن المتقبل إذا عم البلد الغلاء أو الجوع وهرب الناس، ولم يعد يطبخ في الفرن أحد . وبهذا جرى العمل في الأندلس[٣٠٩] . وأخيراً في العلاقة بين صاحب الفرن والمتقبل أجاز الفقهاء أن يشترط صاحب الفرن على المتقبل أن يطبخ في الفرن بدون أجرة يدفعها[٣١٠] .

أما الحوانيت فأبانوا فيها – مثل العيون الأخرى – شروط صحة القبالة ، وأجازوا لمن يتقبلها أن يقبلها بدوره لشخص آخر . ولكن شرطوا ألا يضر ذلك بالعين لأنه ربما قبلها لشخص غير ثقة يضر بحيطانها[٣١١] . فإذا تقبل قصار حانوتا وأراد أن يقبله لنجار ، وكانت صناعة النجارة أضر بالحانوت من صناعة القصار، عندئذ لصاحب الحانوت أن يفسخ عقد الكراء[٣١٢] ، ومن المشاكل التي عرضت على الفقهاء بخصوص قبالة الحوانيت ما عرض على ابن رشد من أن المكترى إذا ضعفت تجارته لضعف الناس وقلة التجارة والمعاملة لضعف أحوالهم هل يحط ذلك من القبالة أم لا؟ فأفتى بأن ذلك ليس بجائحة تحط من القبالة[٣١٣] .

وأجاز الفقهاء النقد في قبالة معاصر الزيت ، على أن يحدد تحديدا دقيقا ويوصف وصفا تاما مع تحديد أمد القبالة بأجل معلوم[٣١٤] .

وفي الملاحات التي كثر حديث الفقهاء عنها أجازوا قبالتها بالنقد والعين ، وبالذات من الملح ، وذلك لأن الملح لا يخرج منها وإنما يتولد بجلب المياه إلى الأحواض وتركه للشمس[٣١٥] . وقد اشترط بعض الفقهاء أن يكون شرب الملاحة مأمونا لكي تصح القبالة[٣١٦] . وقد نقل صاحب العقد المنظم[٣١٧] أن قبالة الملاحة تجوز بكل ما يؤكل ويشرب . وأفتى ابن رشد أن قبالة الملاحة تجوز بالدنانير والدراهم والعروض نقدا إلى أجل جائز ، لا اعتراض فيه وعليه ، فإن قبالة الملاحة عند الفقهاء تجوز بالفضة والذهب والعروض والسلع[٣١٨] . ويجب أن نذكر هنا أن فقهاء الأندلس أفتوا بذلك بناء على ما جاء في العتبية حتى أن ابن

العطار[٣١٩] ، قال :« لولا الرواية فى العتبية لكان القياس ألا تجوز »« وذلك على الرغم مما رواه ابن زياد عن مالك أنه قال « اكره أن يعطى الرجل للرجل ملاحته مع النصف أو الثلث أو الربع أو بعض ما يخرج منها »[٣٢٠] ولا تفسير سوى تمسك أهل المغرب والأندلس بالعتبية واعتمادهم عليها فى الغالب .

وفى قبالة الحمامات التى احتسب فيها ابن عبدون[٣٢١] على المتقبل إذا كانت ملكاً للسلطان وصارت متقبلة ، ونصح الذين يتقبلونها من المتقبلين العموميين - مثل غيرها من الحوانيت والأرحاء أو القوارب - أن يجروا الحكم فيها على ما توجبه السنة ، ولا يقبل زيادة يفرضها عليه المتقبل العمومى، ويتمسك بقبالته حتى تنتهى مدتها ، ويحمل القاضى مسئولية ذلك أن حدث ، كما ينصح متقبلى الحمامات من النساء[٣٢٢] بالا يجلسن للتقبيل ، لأن المكان موضع تمنع وزنى . ونهى تماماً عن أن يتقبلن فنادق التجار والغرباء ويجلسن فيه لأن ذلك عين الزنا[٣٢٣] ، ونجد الفقهاء بعد توضيح شروط صحة القبالة بكتابة الوثيقة ، يجيزون لرب الحمام أن يشترط على المتقبل أن يؤدى إليه كل يوم جمعة فى مدة القبالة كذا بيضة من بيض الدجاج السالم الطرى ، وأن يدخل هو وأهله الحمام المذكور كل يوم جمعة مثلاً أو أحد ، فى مدة القبالة . وعلى المتقبل إعداد الحمام لهم وكل ما يحتاجونه[٣٢٤] ، وأفتى ابن حبيب بجواز ذلك لأنه شئ ليس بالمجهول طالما عرف المتقبل ذلك ، وعرف أولاد صاحب الحمام وأهل بيته فى قلتهم وكثرتهم[٣٢٥] . وقد قال الفقهاء بأحقية متقبل الحمام فى أن يتقبل أيضاً موضوع قعوده فى الحمام المسمى بالطفال، والذى يباع فيه أشياء يستعملها الواردون على الحمام وهو موضع حفظ ثيابهم . كذلك ويوجد فيه موضع قعود المتقبل وكراسى وأشياء أخرى فيها منافع للواردين على الحمام للاحتفاظ بحاجاتهم[٣٢٦] .

أما قبالة الدور فقد كثرت مشاكلها لكثرة مرافق الدور والأشياء التابعة لها ، مثل الأشجار والعرصات وحجرات المرحاض والآبار . لذا وجب على الفقهاء توضيح أمور الشرع ووضع الأمور فى نصابها وتبين وجه الحق فيما يظهر من

مسائل فى مثل هذه الأشياء . فإذا كان فى الدار شجرة أو شجرات يجوز لرب الدار اشتراطها ، وأن تكون ثمرتها له طوال مدة القبالة[٣٢٧] وإذا لم يكن هناك شروط خاصة بحجرة المرحاض فتنظيفها وكنسها على رب الدار [٣٢٨] . ولكن يجوز له اشتراط ذلك على المتقبل ، خصوصا إذا كانت هذه الحجرة فارغة عند بداية القبالة[٣٢٩] . وروى بعضهم أن تنقية حجرة المرحاض على المتقبل إلا أن تكون فى دور الفنادق فإنها تكون على أربابها[٣٣٠] .

وإذا تقبل الشخص الدار على أنها سليمة وانهدم فيها ما أضر به فيكون على صاحبها إصلاحه ، ولكن إذا لم يضر وكان ما انهدم بسيطا فعلى المتقبل إصلاحه . ولا يحط ذلك من القبالة ولكن يجوز له فسخ القبالة ، وأن شاء أصلحه واستمر فى قبالته[٣٣١] .

أما عن الآبار داخل الدور فلا تنفسخ القبالة لذهاب ماء البئر ونضوبه كلية ، بل تسقط عن المتقبل من القبالة ما يقع فيها على الشهور التى ذهب فيها الماء على قدر نفاق الشهور وكسادها . ويلزم المتقبل ما بقى من مدة القبالة ، إلا أن يكون قد تفاسخا قبل ذلك[٣٣٢] .

وإذا اشترط رب الدار على المتقبل أن لا يعمل فيها نارا لقدره وخبزه وعمل المتقبل ذلك فاحترقت الدار أو جزء فيها ، فهو ضامن لذلك وعليه إصلاحها . وأما إذا تشارطا فى ذلك وعمل فيها المتقبل واحترقت فلا ضمان عليه[٣٣٣] ، هذا وقد أجاز الفقهاء القبالة للنصارى واليهود ، وذلك إذا لم يعمل فيها ما يضر المجتمع الإسلامى ، كعمل وبيع الخمور أو إظهار دعارة وفسق ، كالزمر وضرب الطنابير، أو حتى تغيير لهدف القبالة وهو السكنى إلى تخصيصها للعبادة كأن تحول الدار إلى كنيسة لها ناقوس[٣٣٤] .

هذا جانب من مجهودات الفقهاء من أجل خدمة الشرع أولا والمجتمع بعد ذلك ، حاولوا فيها بكل الطرق من اتباع واجتهاد وتصحيح وتبيين وتطبيق ووضع حلول لمشاكل الناس فى القبالات أن يعيدوها – أى القبالات – إلى سيرتها الأولى

وأصولها فى عهد الرسول ﷺ وأصحابه . يتضح من خلال العرض السابق لموقف الفقهاء من القبالات سواء كانت العامة أو الخاصة أن مجهوداتهم هذه قد أثمرت بالنسبة للقبالات الخاصة ، وسهل لهم ذلك أنهم كانوا القدوة والمثل الذى لجأ إليه الناس من أجل تحرى الحلال فى معاملاتهم ، فوجدوا العون على تطبيق الشرع وإقامته ، وكانت النتيجة قبالات تنفذ بين الأفراد على أسس من الدين متينة . لهذا استمرت فى المغرب والأندلس كمعاملة إسلامية يعمل بها الناس ويحرسها الفقهاء .

أما القبالات العامة فقد بذلوا فى سبيل تصحيح مسارها وتسخيرها لخدمة الناس جهوداً كبيرة ، ونجحوا فيما كانوا يتصرفون فيه نتصد قبالات أملاك الأحباس . ولكن الضرائب احتاجت إلى وقت طويل ومجهود متواصل لإصلاحها ، خصوصاً مع وجود الحماية والعون من الحكام الذين كانوا عطشى للأموال – كما أوضحنا من قبل – ففرضوا الضرائب المتعددة . ولضمان وصولها إلى خزائنهم قبلوها وجمعوها تعجيلاً من المتقبلين ، وتركوا لهم جمعها كما يشاءون دون رقابة أو حساب ، فاستفحل أمرهم وأرهقوا الرعية كما رأينا . ولم يوقفهم كما رصدنا تظلم تاجر أو صانع أو أوامر وتعليمات حاكم أو نصح واحتساب فقيه،حتى جاء الموحدون وأخذوا على عاتقهم تغيير المنكر بالقوة،وأفلحوا فى قبالات الضرائب وتتبعوا المتقبلين واستحلوا قتلهم، فلم يعد لهم ولا لقبالاتهم أثر فى المغرب والأندلس.

خاتمة

إن قضاء الموحدين على المتقبلين وإلغائهم نظام القبالات العمومية ، لا يعنـى أن هذا النظام الجبائى قد استبعدته النظم السياسية للـــدول الإســلامية التــى تلت الموحدين فى حكم المغرب والأندلس ، وإنما ظل هذا النظام تحت مسميات أخـرى ، فوجدنا الاسم القديم وهو المكاس ثم الملتزم وهو مرادف المتقبل . كمـــا ورد اسـم قبالة وقبالات لا لتدل على النظام بل على أنـــها ضريبـــة مـــن جملـــة الضرائـــب الموجودة آنذاك ، مثلما وردت فى العصـــر المرينـــى عنـــد ابـــن أبـــى زرع[٣٣٥] والعمرى[٣٣٦] الذى ذكر أن السلطان المرينى أبا سعيد (٧١٠ - ٧٣٢هـ / ١٣١٠ - ١٣٣١م) أحل قبالة عامة تسمى الضمان محل جميع الضرائب البلديـــة ، أى أن اسم المتقبل والقبالات توارت وطغى عليها أسماء أخرى اســتعمل لـــذات النظــام ، فوجدنا بدل المتقبل المكاس الذى جزم هوبكنز[٣٣٧] بأنه فى القرن السابع الـــهجرى / الثالث عشر الميلادى لا يعنى سوى ملتزم المكوس . فى حين استعمال الالتزام بــدلا من القبالات لدلالة على ضمان المال لخزينة الدولة .

ومن ناحية أخرى نجد أن نظام الالتزام تأرجح بين التطبيق والإلغاء ، وذلـــك حسبما يتراءى للحكام صلاحيته من عدمها . فنجد مثلا السلطان المرينى أبا الحســن (٧٣٢ - ٧٤٩هـــ / ١٣٣١ - ١٣٤٨ م) يروى عنه ابن مرزوق[٣٣٨] أنـــه قــام بإلغاء نظام الالتزام فى تحصيل جبايتها . ومن هنا امتدت أيديهم وكثرت عاديتـــهم وظلمهم فإذا زجروا اعتلوا بالالتزام « فاستقبح السلطان الفعل والاسم فألغى اللقـــب والنظام وأسند إليهم الجباية عن طريق الأمانة » .

وما لبث أن عاد هذا النظام . ويبدو أنه اقتصر على جباية أموال الضرائـــب فى المدن الكبرى ذات المكانة التجارية كفاس ومراكش ، فيذكر بروفنســـال[٣٣٩] أن حصيلة هذه الضرائب كانت فى ازدياد ، ويجبى منها مبالغ طائلة ، لأنه كان يعـــهد بجبايتها بطبيعة الحال إلى من يتقدم بأكبر عطاء ، فكان أمرها لا يخلو من الوقـــوع فى الحيف . وينقل عن ابن فضل الله أن ارتفاعا فى حصيلتها حدث فـــى منتصـف

القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى بلغ مقداره ١٥٠ ألف دينار فى فاس ومراكش . وصل إلى ٨٥٦ ألف دينار لمدينة مراكش فقط .

على أية حال فإن تمسك حكام المغرب باستخدام نظام الالتزام فى الجباية ليدل على تراجع مكانته ، فلم تعد كما كانت فى عصر المرابطين مثلاً . كما أن قلة المعلومات الواردة عن هذا النظام تؤكد أن دوره صار ثانوياً فى النظام المالى ببلاد المغرب فى فترة ما بعد المرابطين .

أما فى الأندلس فيذهب بعض المحدثين[٣٤٠] باستمرار العمل بنظام القبالات بعد عصر الموحدين ، حيث يقولون أنه كان فى العصر النصرى ضرائب معينة تعطى إلتزاماً لمن يسمى بالمتقبل ويسمى هذا الالتزام قبالة .

الواقع إنه رغم كثرة الضرائب وتنوعها خلال العصر النصرى[٣٤١] إلا أنه لم يرد نص يؤكد ما قاله المحدثون ، وإنما جل الاعتماد عندهم على دخول الكلمة إلى الإسبانية والبرتغالية مما يدل على استمرار العمل بنظام القبالات فيما بعد عصر الموحدين[٣٤٢] . ورغم وجاهة هذا الاجتهاد إلا أن انتقال الكلمة إلى الإسبانية لا يعنى تواصل العمل بهذا النظام فى الأندلس ، خصوصاً أن الكلمة والنظام نفسه شقاً طريقهما إلى لغات أخرى وبلدان أوربية غير إسبانيا والبرتغال . فإذا كانت الكلمة انتقلت إلى الإسبانية والبرتغالية بمنطوقها العربى Alcabala[٣٤٣] فقد انتقلت إلى الإيطالية برسم Cabella أو Caballa[٣٤٤] وإلى الفرنسية على شكل la Gabella[٣٤٥] بل إن محاولة البعض إيجاد أصل إنجلوسكسونى لكلمة القبالة يعنى لدينا انتقال هذا اللفظ العربى من أوربا إلى إنجلترا . ألا يعنى هذا فى النهاية أن الكلمة والنظام نفسه وصلا إلى أوربا وإنجلترا[٣٤٦] بوسائل أخرى غير انتقالهما عبر بقاء العمل بهما فى الأندلس . ونرجح أن ذلك تم من خلال الصلات السياسية والعلاقات التجارية بين المغرب والأندلس من ناحية وأوربا من ناحية أخرى خلال الفترة من القرن الثالث إلى السادس الهجرى / التاسع إلى الثانى عشر الميلادى وهى نفس الفترة التى شاع فيها نظام القبالات فى المغرب والأندلس .

ومن المفارقات العجيبة أن هذا النظام ما كاد يخبو ويتراجع دوره فى النظـــام المالى فى المغرب والأندلس منذ أواخر القرن السادس الـــهجرى / الثـــانى عشـــر الميلادى إلا وبدأ ازدهاره فى أوربا وبالذات فى فرنسا التى تعرض بها لإصلاحـات كثيرة[٣٤٧] وكانت نهاية هذا النظام على يد نابليون الذى تقول عنه دكتـــورة زينـــب عصمت راشد[٣٤٨] « كان من أحسن وأفضل آثار نابليون على فرنسا ، ما أوجد من نظام دقيق فى جمع الضرائب تجعل القائمين عليها وعلى تحصيلـــها مـــن رجـــال الحكومة مسئولين أمامه مسئولية تامة مباشرة » .

الهوامش

(١) راجع : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى : لسان العرب ، مجلد ١١ دار صادر ، بيروت ، سنه١٩٥٦ . ص ٥٤٤ .

(٢) نفسه . (٣) نفسه .

(٤) بطرس البستانى : محيط المحيط ، قاموس مطول للغة العربية ، مكتبة لبنان، بيروت سنه١٩٨٣ . ص٧١٣ .

(٥) نفسه . (٦) راجع الملحق أخر البحث .

(٧) راجع مثلا : عبد الله بن عبد الواحد الفهرى : السفر الثامن من المسائل والوثائق المجموعة من كتب الفقهاء ، مخطوط مدرسة الدراسات العربية ، بمدريد ، رقم ١١ ، ورقة ٧٦ أ ، ٨٥ب محمد بن أحمد الأموى المعروف بابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات ، تحقيق شالميتا وكورينطى مدريد سنه١٩٨٣ ص ١٩٣ وغيرها ، أحمد بن مغيث الطليطلى : المقنع فى علم الشروط ، تحقيق ف - خ سادابا ، مدريد سنه ١٩٩٤ ص ٢٢١ وعبد الواحد المراكشى : وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق د/حسين مؤنس ، القاهرة سنه١٩٩٧ ، ص٤٣٧ .

(٨) الفهرى : المصدر السابق ورقة ١٧٨ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٢ ، ص٢٢٦ ، المراكشى : المصدر السابق ص٤٤١ .

(٩) الفهرى : المصدر السابق ص٨٥ أ ، ٨٥ ب ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٩ ، ص٢٠١ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، المراكشى : المصدر السابق ص٤٥٩، ٤٦٠ ، ٤٦١ .

(١٠) الفهرى : المصدر السابق ورقة ٧٨ب ، المراكشى : المصدر السابق ص٤٤٢ ، ٤٤٣.

(١١) راجع : ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، ٢٢٢، ٢٢٦ ، المراكشى المصدر السابق ، ص٤٥٩ ، ٤٦١ .

(١٢) راجع مثلا : الفهرى : المصدر السابق ورقة ٧٢ ب ، ٧٤ ب ، ٧٥ أ وغيرها ، ابن العطار : المصدر السابق ، ص١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١، المراكشى : المصدر السابق ص٤٣٦ .

(١٣) راجع ابن الخطيب السلمانى : الإحاطة بأخبار غرناطة ، مجلد ٢ تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة سنه١٩٧٤ ،ص١٢٥ .

(١٤) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ١ ، تحقيق ج . س . كولان ، أ. بروفنسال ، بيروت سنه ١٩٨٣ ، ط٣ ، ص١٣١ .

(١٥) الداعى إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار تحقيق محمد اليعلاوى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه١٩٨٥ ط١ ص٤٤٧ .

(١٦) ابن حزم الأندلسى : الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة سنه١٩٦٠ ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ .

(١٧) الأمير عبد الله بن بلقين الزيرى : مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطه ، المسماة التبيان ، تحقيق ليفى بروفنسال ، مصر بدون ص١٦٩ .

(١٨) Dozy . R: Supplement aux Diccionnores Arabes Tome 2. Beuroute 1963 P.305

(١٩) Dozy et W.H.Engelman : Glassaire des mots Espagnoles et Portugais derives de L'arabe. Beirut. 1974 PP. 74-5

(٢٠) يعقوب ارتين : الأحكام المرعية في شان الأراضي المصرية ، تعريب سعيد عمون ، ط بولاق سنه١٣٠٦هـ ص٤٥ هامش .
(٢١) ورد خبر يستنتج منه وجود هذا النظام عند الفرس قبل الإسلام وبالذات فى جباية الخراج راجعه عند : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري : فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، عمر انيس الطباع ، بيروت سنه١٩٨٧ ، ص٦٥٠ - ٦٥١ .
(٢٢) يعقوب ارتين : المرجع السابق .
(٢٣) راجع ابن منظور : لسان العرب ،م١١ ص٥٤٤ .
(٢٤) انظر . أحمد بن شعيب النسائي : سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ، جـ٧ ، دار الحديث ، القاهرة سنة١٩٨٧ ص٣٥ .
(٢٥) راجع أبو عبيد القاسم بن سلام : كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة سنة ١٩٦٨ ط ١ ص١٠٠ ، محمد بن أبى بكر بن سعد بن حريز الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، جـ١ ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، بيروت سنة ١٩٩٥ ط١ ، ص٩٦ .
(٢٦) نفس مصادر الحاشية السابقة .
(٢٧) هو النهر الصغير ينبت حوله الأعشاب يستفيد بها صاحب الأرض من غير تعب وجمعه اربعاء .
(٢٨) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى : متن البخارى ، بحاشية السندى ، القاهرة ، بدون ، جـ٢ ، ص٤٨ - ٤٩ ، أحمد بن على بن حجر العسقلاني : فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، ج٥ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، وعبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار الفكر ، القاهرة ، بدون ص٢٢ .
(٢٩) البخارى : المصدر السابق ص٤٩ ، العسقلاني : المصدر السابق ص٢٥ ، محمد بن على الشوكاني : نيل الأوطار ، شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار ، جـ٥، القاهرة ، بدون ، ص٢٧٥ .
(٣٠) الشوكاني : نيل الأوطار ، جـ٥ ص٢٧٥ ، راجع كذلك بالفاظ مختلفة البخارى : المصدر السابق ص٤٧ ، العسقلاني : فتح البارى ، جـ٥ ص١٥ .
(٣١) البخارى : المصدر السابق ص٤٦ ، العسقلاني : المصدر السابق ، ص٩ . الشوكاني : المصدر السابق ص٢٧٥
(٣٢) الماذيانات هى ماينبت على حافة النهر ومسايل المياه ، وهى تطلق فى الأصل على مسايل المياه وسمى بها ما ينبت عليها وكانت الكلمة مستعمله فى اقليم السواد قبل افتتاحه راجع ، الشوكاني : المصدر السابق ص٢٧٦
(٣٣) اى أوائل وبدايات السواقى اى الأنهار الصغيرة راجع : المصدر السابق .
(٣٤) المصدر السابق ص٢٧٥ (٣٥) نفسه .
(٣٦) رواه البخارى وأحمد وابن ماجة وأبو داود ، راجع الشوكاني المصدر السابق ص٢٧٥
(٣٧) نيل الأوطار ، جـ٥ ، ص٢٧٩ ، فتح البارى ، جـ٥ ، ص٢٥ .
(٣٨) رواه مسلم وأبو داود والنسائي ، راجع الشوكاني : المصدر السابق ص٢٧٥
(٣٩) البخارى : المصدر السابق ص٤٩ .
(٤٠) العسقلاني : أفتح ، جـ٥ ، ص٢٦ . (٤١) نفسه .
(٤٢) البخارى : المصدر السابق ، العسقلاني : المصدر السابق ص٢٥ .
(٤٣) العسقلاني : المصدر السابق ص٢٦ .
(٤٤) وذلك رغم مافيها من شجر ونخيل فجعلها تابعة للارض البيضاء وأخذ الاجرة عليها ويبدو أنها كانت أقل من الثلث الذى اشترطه الفقهاء بعد ذلك لتصح القبالة ، فقد اجتهد

سيدنا عمر فى ذلك ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة وتلقوها بالتسليم والاقرار . راجع أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية ، زاد المعاد فى هدى خير العباد ، جـ٥ ، تحقيق ، شعيب الأرنووط ، عبد القادر الأرنووط بيروت سنة١٩٨٧ ، ط ١٥ ص٨٢٨ .

(٤٥) البخارى : المصدر السابق .

(٤٦) أبو عبيد : كتاب الأموال ، ص٩٩ ، ابن قيم : أحكام أهل الذمة جـ١ ، ص٩٥ .

(٤٧) الأبلة : مدينه قديمة بالعراق تقع بالقرب من البصرة على شاطئ شهر دجلـه الغربى وبعد افتتاحها أمر سيدنا عمر بن الخطاب بحفر نهرها فصار شمالها وعمرها المسلمون فصارت حسنه الديار واسعة العمارة ، مليئة بالبساتين وعامرة بمياسير الناس حتى عدت من جنات الدنيا . راجع : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الأول ، بيروت سنة١٩٩٥ ط٢ ص٧٦-٧٨ ، الحميرى : الروض امعطار فى خبر الأقطار . تحقيق احسان عباس ، بيروت سنه١٩٨٤ ط٢ ، ص ٨ - ٩ .

(٤٨) أبو عبيد : كتاب الأموال ص٩٩ - ١٠٠ ، ابن قيم : المصدر السابق ص٩٦

(٤٩) ص١٠٠ .

(٥٠) نفسه .

(٥١) أحكام أهل الذمة جـ١ ص٩٦ .

(٥٢) المصدر السابق ص٩٨ .

(٥٣) نفسه .

(٥٤) أبو عبيد : الأموال ص٦٥ - ٦٦ .

(٥٥) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ١ ، مراجعه حسين مونس ، القاهرة سنة١٩٦٨ ، ص٢٣٤ .

(٥٦) محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، القاهرة سنة ١٩٧٧ ، ط٤ ، ص٢٦٩ .

(٥٧) تقى الدين أحمد بن على المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، جـ١ ، دار صادر ، بيروت بدون ص٣٠٩ الريس : الخراج والنظم المالية ص٥٠٧ .

(٥٨) وربما أن ذلك إستجابة لما قاله ابن عباس " اياكم والقبالات فإنها صغار وفضلها ربا وفسر ابن منظور ذلك بان يتقبل الشخص بخراج أو جباية أكثر من أعطى فذلك الفضل ربا ، راجع لسان العرب م ١١ ص٥٤٤ .

(٥٩) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضى : كتاب الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة سنة ١٣٤٦هـ ، ص١٢٦ .

(٦٠) نفسه .

(٦١) نفسه .

(٦٢) المصدر السابق ص١٢٦ - ١٢٧ .

(٦٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٣٦ .

(٦٤) عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبه : المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، بدون ص٤٢ - ٤٣ .

(٦٥) الريس : المرجع السابق ص٥٠٨ .

(٦٦) حيث ورد أسماء بعض المتقبلين مثل مزاحم بن اسحاق ، راجع ادوارد جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، السفر الثانى ترجمة حسن ابراهيم حسن ، مراجعه عبد الحميد حسن ، القاهرة سنة ١٩٩٤ ط٢ لوحه رقم ٨،٩ ص٥٦ . كما ورد لفظ المتقبل مرات مثل " متقبل البقط والمقبوض " لوحة رقم ٤ ص٣٧ " المتقبل بطوخ " ص٣٩ .

(٦٧) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ص٨٥ .

(٦٨) هذا ما استشهد به القاضي أبو يوسف من القرآن على فساد المتقبلين راجع : كتاب الخراج ص١٢٦ .

(٦٩) راجع أبو عبيد : الأموال ص٩٩ وما بعدها ، أبو يوسف : الخراج ص١٢٥ وما بعدها ، ابن قيم : احكام ،جـ١ ، ص٩٤ وما بعدها وغيرها

(٧٠) راجع ما سيأتي ص١٧ وما بعدها .

(٧١) راجع : حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة سنة ١٩٥٩ ، ص٦١٤ وما بعدها ؛ حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة بدون ص١٧٦- ١٧٨ ، الحبيب الجنحاني : دراسات فى التاريخ الإقتصادى والاجتماعى للمغرب الإسلامي ، بيروت سنة ١٩٨٦ ، ط ٢ ص١٠٧ وما بعدها. عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى في المغرب الإسلامى فى خلال القرن السادس الهجرى ، بيروت ، القاهرة سنة١٩٨٣ ص١٢٩ وما بعدها . راجع كذلك رسالتنا : عامة قرطبة منذ بداية الفتنه حتى نهاية عهد المرابطين ص١٣٨ وما بعدها ،؛

P. Glucharel : Al Andalus. Estructura Anteropolegica de una Socidad Eslamica en accidente. Barcelona. 1976. P317 FF .

(٧٢) راجع اراء كل من المالكي وابن عذارى عن أفريقية وابن مزين وابن حزم عن الأندلس عند مؤنس : فجر الأندلس ص٦١٤ . راجع كذلك رسالتنا : عامة قرطبة ص١٣٨ وما بعدها .

(٧٣) راجع فى هذا الموضوع : ج.ق.ب هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب فى القرون الوسطى ، ترجمة أمين توفيق الطيبى ، ليبيا - تونس سنة ١٩٨٠ ، ص ٧٤ وما بعدها . ، الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ص١١٦ وما بعدها ، أما عن الأندلس فتثبت الأحداث أن جنوب الاندلس قد فتح عنوة راجع رسالتنا : عامة قرطبة ص١٣٨ - ١٣٩ ، وأن الطريق الذى سار فيه موسى بن نصير عند فتح الأندلس أسلم كثير من اهل مدنه ومجتمعاته على يد موسى وساروا مواليه راجع رسالتنا : موالى بن أمية فى الاندلس ص٩١ هامش ٤ . فى حين صولح أهل منطقة أوريوله أو تدمير على يد عبد العزيز بن موسى - راجع : مجهول أخبار مجموعه في فتح الأندلس وذكر أمرائـهم رحمهم الله والحروب الواقعه بينهم ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، بيروت سنه١٩٨١م ص٢٢ ، الضبى : بغيه الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، القاهرة سنه١٩٦٧ ، ص٢٧٤ .

(٧٤) هوبكنز : المرجع السابق ص٧٥ .

(٧٥) راجع : ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص١٣١ ،١٤٢ ، ١٧٣ عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد زينهم عزب ، القاهرة سنة١٩٩٤ ص٢١٣ - ٢١٤ . ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينه فاس ، الرباط سنة١٩٧٣ ص١٦٧ ، أحمد بن عبد الوهاب النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٢٤ ، تحقيق حسين نصار ، عبد العزيز الاهوانى ، القاهرة سنة١٩٨٣ ص١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ، ١٧٧

(٧٦) من ذلك ما عمله عبيد الله المهدى عندما حل بالمغرب ولم يعجبه النظام الجبائى الموجود فأمر بتعديل الأرض لوضع الخراج عليها ، راجع محمد بن الحارث الخشنى : طبقات علماء أفريقية ، تحقيق محمد زينهم عزب ، القاهرة سنه١٩٩٣ ، ص٤٢ ، ابن عذارى : البيان ، جـ١ ص١٧٣ .

(٧٧) فيذكر لنا المراكشي عن أبي يعقوب يوسف الموحدى وجوده وكان الذى يسهل عليه بذل الأموال مع ما جبل عليه من ذلك سعه الخراج وكثره الوجوه التى يتحصل منها الأموال

. ثم يتحدث عن جهات المغرب المختلفة وما يجبى من الخراج ، راجع : المعجب ، ص٢١٣ - ٢١٤ .

(٧٨) راجع : النويري : نهاية الأرب جـ٢٤ ، ص١٢٦ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ابن أبى زرع : المصدر السابق ص١٣٧ .

(٧٩) الأمير عبد الله : التبيان ، ص١٢٠ ، ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، القاهرة ، بدون ، ص١٠٤ وابن الخطيب السلمانى : إعمال الاعلام أو تاريخ أسبانيا الإسلامية ، تحقيق بروفنسال ، بيروت سنة١٩٥٦ ص ٢٤ (٨٠) راجع : عامة قرطبة ص١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .

(٨١) راجع : محمد بن حارث الخشنى : أخبار الفقهاء والمحدثين ، تحقيق ماريا لويسا ، ولويس مولينا ، مدريد سنة١٩٩٢ ص٢٨٨ .

(٨٢) عن الأحباس في المغرب راجع اشارة ابن عذارى : البيان ،جـ١ ص١٨٨ ، أما عن الأحباس في الأندلس فقد وردت الينا معلومات وافية وعالجها البعض فى ابحاث خاصة بها مثل كمال السيد أبو مصطفى : الأحباس في الأندلس ، ضمن بحوث فى تاريخ وحضارة الأندلس فى العصر الاسلامى ، الأسكندرية سنة١٩٩٣ ص١٥٧ وما بعدها . ومحمد عبد الوهاب خلاف : خطة الأحباس فى الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، العدد ٥٣ سنة ١٩٩٢ وما بعدها .

(٨٣) للمزيد عن هذه الضرائب راجع هويكنز : المرجع السابق ص ٨٩ وما بعدها .

(٨٤) الادريسى : نزهه المشتاق فى اختراق الافاق ، المجلد الأول القاهرة سنة ١٩٩٤ ، ص٢٣٦ ، ابن عبدون الأشبيلى : رسالته فى الحسبة ضمن ثلاث رسائل من أداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص٣٠ ، ٣١ ، ابن عذارى : المصدر السابق ص١٣١ وغيرها .

(٨٥) قام بتحقيقه وحصل به علي درجة الدكتوراه من جامعه كمبلوتنسى بمدريد سنة ١٩٧٣ ، نصوح نجار وقد وردت المعلومات التى تخص مراسم القبالات والتقبيل فى موضوعيين أحدهما حدده لنا محمد عبد الوهاب خلاف بورقة ٣١١ من المخطوط الذى يملكه والموضوع الآخر ورد فى الرسالة التى حققت الكتاب فى المجلد الثالث ، السفر الرابع ، الباب الثالث والعشرين المسألة رقم ٧٦٥ وقد عالج هذه المسألة قبل ذلك .

Thami. El Azemmori : les Nawzel de Ibn Sahl. secion relative AlEhtesab en Hespris Tumide. vol 1973 P 25. F.F.

ثم الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف ضمن وثائق في شئون الحسبة فى الأندلس مستخرجة من مخطوط الاحكام لابن سهل ، القاهرة سنة١٩٨٥ ص٦٢ وما بعدها .

(٨٦) المعروف بالخطط المقريزية ص٨١ وما بعدها .

(٨٧) المقريزى : المصدر السابق ص٨٢ .

(٨٨) راجع ابن سهل : مسألة ٧٦٥ ، خلاف المرجع السابق ص٦٣ .

El Azemmori : les Nawzel P 25.

(٨٩) المقريزى : المصدر السابق .

(٩٠) ابن سهل : الاعلام بنوازل الأحكام أو الأحكام الكبرى ورقة ٣١١ نقلا عن خلاف : المرجع السابق .

(٩١) حيث كان يقبل فقراء الناس ومحاويجهم لقبالة أرض ودور الأحباس لرخص قبالتها راجع ابن سهل : الاعلام تحقيق نصوح مسألة ٧٦٥ ، خلاف : وثائق فى شئون الحسبة ص٧٦ ،

ElAzemmori : Ibid P 29

(٩٢) ابن سهل : المصدر السابق ، خلاف : المرجع السابق ص٧٠
El : Azemmori : Ibid P 27 .

(٩٣) نفس مصادر الحاشية السابقة .

(٩٤) ابن سهل : المصدر السابق ، خلاف : المرجع السابق ص٨٠
El Azemmori : Ibid P 30 .

(٩٥) راجع ما سيأتي ص٢٧ - ٢٨ .

(٩٦) انظر أبو عبيد : كتاب الأموال ص٩٩ ، ابن قيم ومناقشته القيمة لهذا الحديث في : أحكام أهل الذمة جـ١ ، ص٩٥ وما بعدها .

(٩٧) إذ كان عبد الرحمن هذا أول مولود للمسلمين بافريقية وتوفى ما بين سنتي ١٥٦ - ١٦٢هـ على إختلاف المصادر فى ذلك . راجع ترجمته كاملة عند أبي بكر عبد الله بن محمد المالكى : كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء أفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، جـ١ ، تحقيق بشير البكوش مراجعه محمد العروسى المطوى ، بيروت سنة ١٩٩٤ ، ط٢ ص١٥٢ وما بعدها . ومصادر ترجمته الأخرى فى هوامش هذه الصفحات .

(٩٨) طبع الكتاب بالقاهرة سنة١٩٥٤ راجع ص١٢٩ ، ١٤٠ .

(٩٩) صورة الأرض ص٩٤ .

(١٠٠) نفسه .

(١٠١) يذكر فى سبيل المحافظة على أموال بلاد المغرب أن المعز لدين الله أوصى بلقين بن زيرى أن لا يرفع المغرم عن الرعية . راجع ابن الخطيب ، إعمال أو تاريخ اسبانيا ص٢٢٨ .

(١٠٢) المصدر السابق ص٨٥ .

(١٠٣) سواء كانت ضياعا لزراعة المحاصيل أو جنات للفاكهة راجع : وثيقة جنات الأحباس بقرطبة عند ابن سهل : الأعلام تحقيق نصوح مسألة ٧٦٥ ، خلاف : المرجع السابق
El Azemmori : Ibid P 30

(١٠٤) ابن سهل : المصدر السابق ، ابن العطار : كتاب الوثائق ص٢٣٤، خلاف : المرجع السابق ص٦٧ ، ٩٦
El Azemmori : Ibid P 27 – 28

(١٠٥) ابن سهل : المصدر السابق ، ابن العطار : المصدر السابق ، خلاف المرجع السابق ص٦٨
El Azemmori : Ibid P28

(١٠٦) ابن سلمون الكنانى : العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من العقود والأحكام ، المطبعة البهية ، مصر ، بدون ص٢٨٦ .

(١٠٧) أبو محمد هارون بن أحمد الشاطبى : الدر الموضوعة فى المسائل المجموعة ، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد رقم ٢١٥٧٣ ، ورقة ٦٥ أ ، ابن العطار : المصدر السابق .

(١٠٨) الشاطبى : المصدر السابق ، ابن العطار : المصدر السابق .

(١٠٩) ابن العطار : المصدر السابق .

(١١٠) راجع نماذج من هذه الوثائق عند ابن العطار : المصدر السابق ص٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٥ ، ٦٢٢ .

(١١١) عن هذا الموضوع راجع ، خلاف : خطة الأحباس ص١٩٢ وما بعدها .

(١١٢) نفسه .

(١١٣) نفسه .

(١١٤) الجرسيفى : رسالته فى الحسبة ، ضمن ثلاث رسائل فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق بروفنسال ، القاهرة سنة١٩٩٥ ، ص١٢٤ .

(١١٥) ابن سهل : المصدر السابق .

١١) أحمد بن يحيى الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب جـ٧ تحقيق مجموعه من الفقهاء بإشراف د/محمد حجي ، بيروت سنة ١٩٨١ ، ص٣٠٢ .
١١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، القسم الثاني ، القاهرة سنة١٩٦٦ ص٩٤ .
١١) الفهري : المصدر السابق ورقة ٨٤ أ ، ب ، الشاطبي : المصدر السابق ورقة ٦٥ أ ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٨٢ - ١٨٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٤ .
١١) راجع وثيقة نازلة جنات الأحباس بقرطبة عند ابن سهل : المصدر السابق ، خلاف المرجع السابق ص٦٤ ، ٨٠ El Azemmori : Ibid P26
١٢) أى أهل بلاد الحرب من التجار راجع ابن قيم : أحكام ، جـ١ ، ص١٢٤ وما بعدها .
١٢) ابن قيم : المصدر السابق ص١٢٤ .
١٢) أبو عبيد : الأموال ص٧٠٨ .
١٢) ولا تؤخذ عينا إذا فرض وسمح لهم بالدخول بالخمر والخنزير راجع ابن قيم : المصدر السابق ص١٣٠ .
١٢) ابن قيم : المصدر السابق ص١٢٣ .
١٢) راجع : ابن قيم : المصدر ص١٢٥ ، قطب محمد إبراهيم : السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز ، القاهرة سنة١٩٨٨ ، ص١١٢ .
١٢) أبو عبيد : المصدر السابق ص٧٠٤ ، ابن قيم : المصدر السابق .
١٢) المصدر السابق ، راجع كذلك ابن قيم : المصدر السابق .
١٢) أبو عبيد : المصدر السابق ص٧٠٥ ، ابن قيم : المصدر السابق .
١٢) ابن عذارى : البيان ، جـ١ ص١٣١ ، راجع كذلك ، ابن الخطيب السليماني : إعمال الإعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الاسلام أو تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، تحقيق العبادي والكتاني الدار البيضاء سنة١٩٦٤ ، ص٣٤ . هويكنز : النظم الاسلامية ص٩٥ ، عبد العزيز الثعالبي : تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الاغلبية ، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد ادريس ، مراجعة حمادي الساحلي ، بيروت سنة١٩٨٧ ص٢٥٢ ، محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، التاريخ السياسي (١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠-٩٠٩م) تعريب المنجي الصيادي ، مراجعة حمادي الساحلي ، بيروت سنة ١٩٩٥ ، ط٢ ، ص٣٥٩ .
١٣) المرجع السابق ص١١٤ .   (١٣١) راجع صورة الأرض ص٩٤ .
١٣) المقريزي : الخطط ، جـ١ ص٨٥ .   (١٣٣) المصدر السابق .
١٣) ابن عذارى : المصدر السابق ص١٤١ - ١٤٢ .
١٣) وهو أبو عبد الله محمد عبد الله السدري ، عرف بالخير والصلاح والعبادة و جهاد ضد بني عبيد مشهود ومعروف راجع ترجمته ، المالكي : رياض النفوس ، جـ٢ ، ص١٦٦ وما بعدها .
١٣) المالكي : المصدر السابق ص١٧٣.   (١٣٧) المصدر السابق ص٤٤٥ .
١٣) الداعي إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ص٤٤٦ - ٤٤٧ .
١٣) راجع أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . تحقيق دي سلان ، الجزائر سنة ١٩١١ ، ص٢٥ .
١٤) للمزيد عن هذا الموضوع راجع د/حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة سنة١٩٩٦ ط٢ ص٨٠ - ٨٢ ، الجنحاني : دراسات ص٩٤ ، ٩٧،٩٦ .

(١٤١) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ، جـ٢ ص١٢٨ .
(١٤٢) عبد الرحمن بن خلدون : تاريخه المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مجلد ٦ ، بيروت ، لبنان سنة١٩٩٢ ، ط ١ ص٢١٧ .
(١٤٣)
Live Provençal : España Musulmana Hasta La caida del califato de córdoba (711 – 1031 J.c.) Traduccion Por E.G. Gomez en Historia de España. Dirigida Por. R.M.Pidal. Tercera parte ,Instituciones y cultura. Madrid 1950 PP 20 – 21 .

(١٤٤) إعمال الإعلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ص١٥ .
(١٤٥) Provencal : Ibid P 22
(١٤٦) صورة الأرض ص١٠٤ . (١٤٧) OP . Cit
(١٤٨) راجع الأمير عبد الله : التبيان ص٦٩ – ٧٠ ، ١٠١ ، ١٢٤ – ١٢٥ .
(١٤٩) راجع ابن خلدون : المقدمة ص٣٨٨ ؛ جـ٦ ص٢٢١ ، الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٢٠ .
(١٥٠) الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٠٩ .
(١٥١) ابن حزم الأندلسى : الرد على ابن النغزيلة ص١٧٦ .
(١٥٢) الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٠٩ ، ١٢٠ .
(١٥٣) المصدر السابق ص١٦٩ .
(١٥٤) المصدر السابق ص١٧٦ – ١٧٧ . راجع كذلك .
Pedro Chalmeta El Señor del Zoco en España Edad media y moderna. Madrid 1973. p219
(١٥٥) ابن حزم : المصدر السابق ص١٧٧ .
(١٥٦) ابن بسام الشنترينى : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، دار الثقافة ، بيروت سنة١٩٧٩ ص٦٦١ .
(١٥٧) ابن الخطيب : إعمال أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ص١٥ .
(١٥٨) المالكى : رياض النفوس ، جـ٢ ص٢٧٣ . (١٥٩) Supplement. T2. P 305
(١٦٠) مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، الدار البيضاء سنة١٩٧٩ ، ص٨٤ .
(١٦١) مجهول : نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط سنة١٩٣٤ ص٥٢ .
(١٦٢) راجع ما سبق ص ١٩ .
(١٦٣) ابن أبى دينار القيروانى : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس تحقيق محمد الشمام ، تونس سنة١٩٦٧ ، ط٢ ، ص١٠٧ .
(١٦٤) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص٣٧ . (١٦٥) المصدر السابق ص٩٤ .
(١٦٦) راجع الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٢٠ .
(١٦٧) المصدر السابق ص٩٤ .
(١٦٨) فصارت هناك المكوس والمغارم واللوازم والوظائف السلطانية بمعنى الضرائب العامة أو التعتيب الخاص ببناء الأسوار ، كل ذلك نتيجة الأزمة المالية الخانقة راجع عز الدين موسى : النشاط الاقتصادى ص١٦٦ – ١٦٧ .
(١٦٩) الأدريسى : نزهة المشتاق م ١ ص٢٣٥ ، الحميرى : الروض المعطار ص٥٤١ .

(١٧٠) أبو بكر بن على الصنهاجي المكنى بالبيذق : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط سنة١٩٧١ ،ص٢٦ .
(١٧١) ابن عبدون : رسالته ص٣٣ .
(١٧٢) يفهم ذلك من أن الخليفة الموحدى أبي يعقوب يوسف حرص على تسبيل الطرق وتأمين الناس ومن أعمالة في ذلك أنه بنى جسرا على وادى إشبيلية وأحكم صنعته لعبور الناس والعساكر وجعلها سبيلا للمسلمين ولم يفرض عليها قبالة : راجع ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة أو تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، تحقيق عبد الهادى التازى ، بيروت سنة١٩٨٧ ط٣ ص١٦٦ ، ٣٧٢ وهو ما كان يفعلة المرابطون وحدث أن أرادوا أخذ المكس من مهدى الموحدين عندما أراد عبور وادى أم الربيع راجع البيذق : المصدر السابق .
(١٧٣) مجهول : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، ص٨٤-٨٥ .
(١٧٤) المصدر السابق . (١٧٥) رسالته ص٣٠ .
(١٧٦) المصدر السابق ص٣١ . (١٧٧) نفسه .
(١٧٨) الونشريسى : المعيار ، جـ٣ ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ .
(١٧٩) نعتقد أنه تقبل الضريبة المفروضة على الوزانين فى السوق ، لأن الكلمة فى العربية قرسطون أو قلسطون تعنى الميزان أو القبان ، والميزان بالذات للدراهم راجع : Dozy Supplement T 2 P 335
(١٨٠) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد مردنيش ، ولد ٥١٨ بطرطوشة واختلف المؤرخون فى أصلة هل هو من العرب أو غيرهم وإن كان الدكتور مؤنس يجزم بأصله الأسبانى وأنه دخل فى ولاء الجذاميين وأن صفات ابن مردنيش وسلوكه تؤكد ذلك وقد كان والده متوليا لأفراغه من قبل المرابطين وعمه عبد الله بن محمد صهر ابن عياض أحد أمراء شرق الأندلس ومن خلال هذه العلاقة وصل ابن مردنيش إلى إمارة شرق الأندلس عن أصله وسيرته راجع ابن الخطيب : الإحاطة بأخبار غرناطة م٢، ص١٢١ وما بعدها ، ابن الخطيب : إعمال الأعلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٦٠ وما بعدها ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ٢ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة سنة١٩٨٥ ط٢ ص٢٣٢-٢٣٣ وهامش رقم ١ ص٢٣٢ . راجع كذلك ابن صاحب الصلاة : المصدر السابق ص٦٥ وما بعدها ، ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الثالث ، عصر المرابطين والموحدين القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، القاهرة سنة١٩٩٠ ط٢ ، ص٣٦٥ وما بعدها ، مراجع عقيلة الغناى : قيام دولة الموحدين ، بنغازى سنة١٩٨٨ ، ص١١٧ وما بعدها ؛ هشام أبو رميلة : علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدولة الإسلامية فى الأندلس عمان سنة١٩٨٤ ص١٠٧ وما بعدها
Codera . F: Decadencia y Desaparicion de los Almoravides en España. Zoragoza. 1899 P 111 FF.

(١٨١) ابن الخطيب : الإحاطة م٢ ، ص١٢٤ .
(١٨٢) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ابن الخطيب : إعمال الأعلام أو تاريخ إسبانيا ص٢٦١
(١٨٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، م٢ ، ص١٢٤ .
(١٨٤) المصدر السابق ص١٢٤ - ١٢٥ . (١٨٥) المصدر السابق ص١٢٤ .
(١٨٦) المصدر السابق ص١٢٤ - ١٢٥ .
(١٨٧) هذا اللفظ استعمله المراكشي ليدلل به على كثرة المفاسد وعوامل الضعف التى بدات

في الظهور بعد يوسف بن تاشفين في دولة المرابطين مما أدى في النهاية إلى سقوطها على يد الموحدين راجع المراكشي : المعجب ص١٥٤ .

(١٨٨) البيذق : أخبار المهدي ص٢٢ . (١٨٩) المصدر السابق ص٢٦ .

(١٩٠) ابن القطان المراكشي : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان تحقيق د/ محمود علي مكي ، بيروت ص٢٠٢ -٢٠٣ .

(١٩١) ابن القطان : المصدر السابق ص١٩٣ . (١٩٢) المصدر السابق ص١٩٤ .

(١٩٣) ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، رباط الفتح سنه١٩٤١ ص٢١

(١٩٤) المصدر السابق ص٢٢ . (١٩٥) راجع الحميري : الروض المعطار ص٥٤١ .

(١٩٦) راجع مثلا ترادف الكلمتين عند الفهري : السفر الثامن ، ٧٢ ب ، ٧٣ ب ، ٧٤ ب ، ٧٥ أ ، وغيرها كثير ، أبو محمد هارون الشاطبي : الدر الموضوعة في المسائل المجموعة ص١٦٤ أ ، ١٦٥ أ وغيرها ، ابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات ص١٩٣ ، ص٢٠١ وغيرهما ، ابن مغيث : المقنع في علم الشروط ص٢٢١ ، ٢٢٧ وغيرها : عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ص٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ وغيرها كثير .

(١٩٧) راجع ما سبق ص ١٤ .

(١٩٨) المصدر السابق الذكر . (١٩٩) المصدر السابق الذكر .

(٢٠٠) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي : فتاوى ابن رشد ، ثلاث مجلدات تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، بيروت سنة١٩٨٧ ، الطبعة الأولى .

(٢٠١) المصدر سابق الذكر . (٢٠٢) راجع رسالته في الحسبة ص٣٠ وما بعدها .

(٢٠٣) المسماه : المعيار المغرب في ذكر فتاوى علماء إفريقية الأندلس والمغرب سابقة الذكر

(٢٠٤) نقول الموحدين هنا لان الموحدين لم يتدخلوا في مثل هذه القبالات الخاصة لأنها بين أفراد المجتمع الذين لهم حرية التصرف في أموالهم ، كما أن هذه القبالات صحيحة شرعا ولا تقبل سوى تدخل الفقهاء ومشايخ العصر لتوضيح صحيحها من سقيمها .

(٢٠٥) راجع الملحق اخر البحث .

(٢٠٦) راجع الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٤ ب ، ٧٥ ب ، ٧٧ أ ، ٨٤ أ ٨٥ الخ ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠١ إلخ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ إلخ ، المراكشي : وثائق ص٤٤١ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ إلخ .

(٢٠٧) وذلك مما يجوز إشتراطة كتابة في الوثيقة راجع : ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٩ ، ٢٣١ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(٢٠٨) الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٤ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٤ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٣ .

(٢٠٩) راجع الفهري : المصدر السابق ص٧٦ أ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٦ .

(٢١٠) الفهري : المصدر السابق ص٧٧ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٥ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٤١ .

(٢١١) الفهري : المصدر السابق ص١٨٥ أ ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٩ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٩ .

(٢١٢) الفهري : المصدر السابق ص٨٥ ب ، ابن العطار : المصدر السابق ص٢٠١ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١، المراكشي : المصدر السابق ص٤٦١ .

(٢١٣) ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٣ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٩ .
(٢١٤) الفهري : المصدر السابق ص٨٤ أ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٩ .
(٢١٥) الفهري : المصدر السابق ص٨٤ أ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٧ .
(٢١٦) المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٤ .
(٢١٧) راجع الفهري : المصدر السابق ص٧٤ أ ، ٧٦ أ ، ٧٧ ب ، ٨٤ أ إلخ ، ابن العطار المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٧ - ٤٣٩ - ٤٤١ - ٤٦٧ إلخ .
(٢١٨) راجع مصادر الحاشية السابقة .
(٢١٩) الفهري : المصدر السابق ص٧٦ أ ، ص٨٥ ب ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٦ ، ٤٦١ وغيرهما .
(٢٢٠) كما هو الحال في الدور راجع الفهري : المصدر السابق ص١٩٢ - ١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٨ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٢٥ ، ص٤٢٦
(٢٢١) راجع مثلا ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٢ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٤٥ .
(٢٢٢) راجع : كتاب الخراج ص١٢٦-١٢٧ . (٢٢٣) راجع ما سبق ص ٧ .
(٢٢٤) مثل ابن القاسم وعبد الملك بن حبيب شارح الموطأ ومؤلف الواضحة ومحمد بن أحمد العتبي مؤلف العتبية أو المستخرجة ويحيى بن يحيى الليثي وغيرهم كثيرين .
(٢٢٥) راجع ما سبق ص ١٤ - ١٦
(٢٢٦) إذ استغل البعض ما وصلوا إليه من جاه وسلطان فجاروا على تلك الأحباس مثل ابن السقاء القرطبي الذي أثرى على حساب أراضي الأحباس بقرطبة وغيرها راجع ابن سهل : الأعلام ، جـ٢ ص٣ مسأله ٥٩٨ ، محمد عبد الوهاب خلاف : وثيقة في اغتصاب ابن السقاء قيم دولة ابن جهور لأموال بيت مال المسلمين في قرطبة مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلس مجلة أوراق ، العدد ٥ ، ٦ مدريد سنة١٩٨٢ - ١٩٨٣ ص٩٩ وما بعدها .
(٢٢٧) الفهري :المصدر السابق ورقة ٨٤ب ، أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي : الأحكام ، تحقيق الصادق الحلوي ، بيروت سنة١٩٩٢ ص٢٥٩ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٤ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٨ .
(٢٢٨) الفهري : المصدر السابق ، المالقي : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق .
(٢٢٩) نفس مصادر الحاشية رقم ٢٢٧ .
(٢٣٠) ابن سهل : الإعلام ورقة ٣١١ نقلا عن خلاف ، الونشريسي : المعيار جـ٧ ص٤٣٧ .
(٢٣١) ابن سهل : المصدر السابق .
(٢٣٢) الفهري : المصدر السابق ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٤ ، المالقي : المصدر السابق ص٢٥٩ ، ٢٦٠ ، المراكشي : المصدر السابق .
(٢٣٣) نفس مصادر الحاشية السابقة .
(٢٣٤) الفهري : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق .
(٢٣٥) المراكشي : المصدر السابق .
(٢٣٦) راجع الفهري : المصدر السابق ، المالقي : المصدر السابق ، ابن مغيث : المصدر السابق .
(٢٣٧) راجع الفهري : المصدر السابق ص٨٤ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٤ ، المراكشي المصدر السابق ص٤٥٧ .
(٢٣٨) راجع عن هذا ما سبق ص ١٥ - ١٦ .

(٢٣٩) نوازل ابن سهل جـ٣ س ٤ب ٢٣ مسأله ٧٦٥ ، خلاف : وثائق في شئون الحسبة ص٦٤
ElAzemmori : Ibid P.27
(٢٤٠) قال بذلك الفقيه الحسن بن أيوب المعروف بابن الحداد المتوفى سنة٤٢٥هـ ابن سهل : المصدر السابق ، خلاف : المصدر السابق ص٦٧ ، نصوح نجار : المرجع السابق
El Azemmori : Ibid .P.27
(٢٤١) وهو عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموى من الفقهاء الحافظين للرأى على مذهب الإمام مالك عارفا بالشروط مشاورا توفي سنة٤٣١ راجع ابن بشكوال : الصلـه ، القسم الأول ، القاهرة سنة١٩٦٦ ص٢٦٧ .
(٢٤٢) ابن سهل : المصدر السابق مسألة ٧٦٥ ،خلاف المرجع السابق ص٧١
El Azemmori : Ibid.P27
El Azemmori : P.28
(٢٤٣) خلاف المرجع السابق ص٧٣ ،
(٢٤٤) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن الشقاق وصف بأنه أحفظ أهل زمانه للمسائل كان يعقد الوثائق وحاز الرئاسة في الشورى والفتيا تولى القضاء فى بعض الكور ونال الوزارة توفى سنة٤٢٦هـ راجع ابن بشكوال : الصلة القسم الأول ص٢٦٦ - ٢٦٧ .
(٢٤٥) ابن سهل : المصدر السابق خلاف : المرجع السابق .
(٢٤٦) أصله من عدوة المغرب تولى الشورى بقرطبة وكان لا يحسن سوى المسائل وتوفى بقرطبة سنة٤٣١ راجع ابن بشكوال : الصلة ق٢ ، ص١٤٦ .
(٢٤٧) ابن سهل : المصدر السابق ،خلاف المرجع السابق ص٧٦ .
(٢٤٨) يكنى ابا المطرف تولى القضاء مقرونا بولاية الصلاة والخطبة ثم الوزارة لمدة قصيرة وقد كان صلبا فى أحكامه من أجل الحق ونصره المظلوم توفى سنة٤٠٢هـ راجع ترجمته عند ابن بشكوال : كتاب الصلة القسم الأول ص٣٠٩ - ٣١٣ ، الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، القاهرة سنة١٩٦٧ ص٣٥٦ وللمزيد راجع : رسالتنا : موالى بنى أمية ص١٠٤ هامش ٦ .
(٢٤٩) ابن سهل : المصدر السابق مسألة ٧٦٥ ، خلاف : المرجع السابق ص٧٣ .
(٢٥٠) كان رجلا صالحا فاضلا عاصر الأمير الأغلبى عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢١٠هـ) وكان له إجابات وكرامات راجع ترجمته المالكى : رياض النفوس ،جـ١ ، ص٣٣١ - ٣٣٢ .
(٢٥١) المالكى : المصدر السابق ص٣٣٢ .
(٢٥٢) راجع المالكى : المصدر السابق ، راجع كذلك النويرى : نهاية الأرب جـ٢٤ ، ص١٠٦ - ١٠٧ ويذكر ابن الأثير أنه فرض على كل فدان ثمانية عشر دينارا كل سنه فضاق الناس لذلك وشكا بعضهم لبعض راجع : الكامل فى التاريخ ، المجلد الخامس ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، بيروت سنه ١٩٩٥ جـ١ ، ص٤٣٣ .
(٢٥٣) راجع ما سبق ص١٨ - ١٩ .
(٢٥٤) المالكى : رياض جـ٢ ، ص١٧٣ .
(٢٥٥) كان رجلا فاضلا مستجاب الدعوة مغيرا للمنكر أصله من جزيرة شريك ثم سكن القيروان وتوفى غريقا سنه ٢١٢هـ وله فضائل ومناقب كثيرة ، راجع ترجمته المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٣٣٣ وما بعدها .
(٢٥٦) المصدر السابق ص٣٣٧ .
(٢٥٧) راجع ما سبق ص ٢١ - ٢٢ .
(٢٥٨) راجع ما سبق ص٢٢ - ٢٣ .
(٢٥٩) ابن عبدون رسالة ص٣٣ .
(٢٦٠) راجع المصدر السابق ص٧ .
(٢٦١) راجع ما سبق ص٢٣ .
(٢٦٢) ابن عبدون : المصدر السابق ص٣٠ .
(٢٦٣) ابن عبدون : المصدر السابق ص٣١

(٢٦٤) نفسه .
(٢٦٥) المصدر السابق صـ٥١ .
(٢٦٦) نفسه
(٢٦٧) المصدر السابق صـ٣١ .
(٢٦٨) المصدر السابق صـ٣٠ .
(٢٦٩) نفسه
(٢٧٠) نفسه .
(٢٧١) المصدر السابق صـ٣١ .
(٢٧٢) نفسه .
(٢٧٣) نفسه .
(٢٧٤) المصدر السابق صـ٣٠ .
(٢٧٥) نفسه .
(٢٧٦) نفسه .
(٢٧٧) المصدر السابق صـ٣١ .
(٢٧٨) المصدر السابق صـ٣١-٣٢ ، P.Chalmeta:El Señor del zoco p220
(٢٧٩) أمثال يحيى بن يحيى الليثي وابن حبيب وسحنون وابن مزين ومحمد ابن لبابه وقاسم بن محمد ويحيى بن أيوب وأحمد بن سعيد الهندي ومحمد بن أحمد العطار والوتد وابن الملون وابن أبي زمنين وغيرهم وابن مغيث الذي أمدنا بهذه المعلومة راجع : كتاب المقنع في علم الشروط صـ٧ .
(٢٨٠) راجع الملحق .
(٢٨١) راجع ما سبق ص٣ – ٤ .
(٢٨٢) راجع الونشريسي : المعيار م٨ صـ٢٦٧ .
(٢٨٣) الفهري : السفر الثامن ورقة ١٧٨أ – ب ، ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٧٧ ، المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين صـ٤٤٢ .
(٢٨٤) ابن مغيث : المصدر السابق .
(٢٨٥) راجع الفهري : المصدر السابق صـ٧٨ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢٦ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٤١ .
(٢٨٦) الفهري : المصدر السابق ، ابن مغيث : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٤٢ .
(٢٨٧) نفس مصادر الحاشية السابقة .
(٢٨٨) الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٨ب ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٤٢ .
(٢٨٩) الفهري : المصدر السابق ، المراكشي: المصدر السابق صـ٤٤٢-٤٤٣
(٢٩٠) أبو هارون الشاطبي : الدر الموضوعة ورقة ١٦٥ أ .
(٢٩١) الفهري : المصدر السابق ورقة ٨٦ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢١ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٢ .
(٢٩٢) ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢٢ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٤ .
(٢٩٣) الفهري : المصدر السابق ورقة ٨٦أ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٢ .
(٢٩٤) نفس مصادر الحاشيه السابقة .
(٢٩٥) راجع الفهري : ورقة ٨٦ ب ، المراكشي : صـ٤٦٣ .
(٢٩٦) المراكشي : صـ٤٦٥ .
(٢٩٧) المصدر السابق صـ٤٦٢ .
(٢٩٨) ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢٣
(٢٩٩) الونشريسي : المصدر السابق صـ٢٨٧ .
(٣٠٠) راجع : فتاوى ابن رشد ، السفر الثالث صـ١٢٨٢-١٢٨٣ ، الونشريسي : المصدر السابق صـ٢٨٧-٢٨٨ ، راجع كذلك : الفهري : المصدر السابق ورقة ٨٨ أ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٧ ، ابن سلمون الكناني : العقد المنظم صـ٢٨٤
(٣٠١) الفهري : المصدر السابق ، ورقة ١٨٨ ، الرشاطي : المصدر السابق ، ورقة ٦٦أ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٧ – ٤٦٨ .

(٣٠٢) ابن رشد : المصدر السابق ، الونشريسي : المصدر السابق .
(٣٠٣) راجع الفهري : ورقة ١٧٥أ ، ابن مغيث : صـ٢٣٢ ، المراكشي : ٤٣٤
(٣٠٤) نفس مصادر الحاشية السابقة . (٣٠٥) ابن مغيث : المصدر السابق .
(٣٠٦) المراكشي : صـ٤٤٠ . (٣٠٧) ابن مغيث صـ٢٣٤ .
(٣٠٨) نفسه . (٣٠٩) نفسه .
(٣١٠) نفسه . (٣١١) ابن مغيث صـ٢٣٣ .
(٣١٢) المراكشي صـ٤٣١ .
(٣١٣) ابن رشد : المصدر السابق صـ١٢٨٤ ، ابن سلمون الكناني : العقد المنظم صـ٢٨٤
(٣١٤) الفهري : المصدر السابق ورقة ٨٤ أ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٥٩ .
(٣١٥) ابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات صـ٢٠٠ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٠ ، ابن سلمون : المصدر السابق صـ٢٨٢ .
(٣١٦) المراكشي : المصدر السابق . (٣١٧) ابن سلمون : المصدر السابق .
(٣١٨) ابن العطار : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق .
(٣١٩) المصدر السابق . (٣٢٠) ابن سلمون : المصدر السابق ص٢٨٣
(٣٢١) رسالته ص٣١ .
(٣٢٢) وهو ما يدل على مشاركه النساء في التقبيل بما يؤل إليهن من أملاك وأموال ، راجع أيضا : المالقي : الأحكام ص١١٦ — ١١٧ .
(٣٢٣) رسالته ص٤٩ .
(٣٢٤) راجع الفهري : المصدر السابق ورقة ١٧٦ أ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٧ .
(٣٢٥) المراكشي : المصدر السابق ورقة ٧٦ب ، المراكشي : المصدر السابق .
(٣٢٦) راجع الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٦ب ، المراكشي : المصدر السابق .
(٣٢٧) راجع ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٩٩ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٢٦ .
(٣٢٨) ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق ص٢٢٩ .
(٣٢٩) ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٩ .
(٣٣٠) راجع ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٠ ، المراكشي : المصدر السابق .
(٣٣١) انظر تفاصيل ذلك عند ابن مغيث : المصدر السابق ص٣٢٠ .
(٣٣٢) راجع هذا الباب ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٠ .
(٣٣٣) ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٠ .
(٣٣٤) للمزيد راجع المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٢ — ٤٣٣ .
(٣٣٥) الأنيس المطرب ص٣٧٥ .
(٣٣٦) راجع بروفنسال : سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ص٨٢ .
(٣٣٧) النظم الإسلامية ص١١٥ .
(٣٣٨) Ibn Marzuq : El Musnad, Hechos Memorables De Abu –L-Hasan, sultan de los Beni Merines, Estudio, Trudacción, Anotacion, indices, Anotados por María. J. Viguera, Madrid 1977, P234 .
راجع كذلك محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، الكويت سنه١٩٨٧ ط٢ ، ص٢٧٩ .
(٣٣٩) نفس المرجع السابق .
(٣٤٠) راجع أحمد محمد الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر ، الإسكندرية ١٩٩٧ ص٢٦٩ .

(٢٤١) راجع : الطوخي : المرجع السابق صـ٢٦٢ وما بعدها .
Rachel Arié : España Musulmana . siglos . (VIII- XV) en Historia de España . dirigida por . M.T . de Lara , Madrid 1993 P78 - 9 - , Miguel Cruz Hernandez : El Islam de Al Andalus,Historia y Estructura de su realidad social, Madrid . 1992 P300
(٢٤٢) الطوخي : المرجع السابق صـ٢٦٩، بروفنسال : المرجع السابق .
(٢٤٣) راجع : Dozy et Engelman : Glassaire P75
(٢٤٤) Op .Cit
(٢٤٥) بروفنسال : المرجع السابق Dozy - Engelman : Ibid . P75 . ومن الجدير بالذكر هنا أن الكلمة انتقلت إلى فرنسا واستعلمت في البداية كما كانت العالم الاسلامي أي على الضرائب المتنوعة ثم اقتصرت بعد ذلك على ضريبة عرفت بضريبة عرفت بضريبة الملح ، راجع د/ زينب عصمت راشد : تاريخ أوربا الحديث (القرن التاسع عشر) القاهرة بدون جـ٣٤ هامش ١
(٢٤٦) Dozy – Engelman : Ibid P75
(٢٤٧) بروفنسال : المرجع السابق ، زينب عصمت راشد : المرجع السابق صـ٣٤ وما بعدها .
(٢٤٨) المرجع السابق صـ٣٦ .

ملحق

قبالة مقضب القصب •

تقبل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع مقضب القصب الذي بحاضرة كذا

بموضع كذا وحدوده كذا بجميع حقوقه ومرافقه قبالة صحيحة بلا

شرط ولا ثنيا ولا خيار ليعمل فيه كل عام كذا أو كذا كوسه بمقدار عرفاه

وتواصفاه مدة خمسة أشهر أولها شهر كذا من سنة كذا بكذا أو كذا

فإن كان فيه للكراء قلت يدفع المتقبل جميعها وافية كسبه معلمه

إلى المتقبل فلان وقبضه المتقبل فلان على الصفة المذكورة وأبرأه منها

ونزل المتقبل في المقضب المذكور وصار بيده ليتصرف فيه أمرا كتبه الله له

وعلى المقبل فلان تصريف المتقبل فلان في عمل القصب المذكور من

الكوب وإن لم يدفع قلت وعلى أيضا المقبل فلان تصريف المتقبل فلان

في العمل الكراء منه دون شيء يلزمه في حين انقضاء شهر عام سنة

المسلمين في قبالاتهم مراجع أدركتهم شهدهم

• - الفهري : السفر الثامن ورقة ٨٤ أ

وثيقة قبالة جنان ••

تقبّل فلانٌ بن فلان من فلان بن فلانٍ ''''' جميع الجنّة ، وإن شئت قلتَ الجنان على المجاز ، ثمّ ، تقول : التي بموضع كذا وحدّها ''''' كذا ، بقاعتها وبنيانها وبئر سانيتها وصهريجها وسوادها كلّه '''' ، // إذ هو تبع لبياضها ، قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار ، عرفا قدرها ومبلغها ، لأربعة أعوام أوّلها شهر كذا (من عام كذا) ، بكذا وكذا يؤدّي المتقبّل (فلان) عند انقضاء كلّ عام منها ما ينوبه ، وذلك كذا وكذا ، بعد أن تواصفا ما يبرز في هذه الجنّة (المذكورة) '''' وعلما أنّ ثمرة كلّ عام '''' من الأعوام ، المذكورة من ثمرات الجنّة المذكورة تطيب قبل انقضائها ، ونزل المتقبّل فلان في الجنّة المذكورة لأوّل قبالته ، وآلة بئر السانية تامّة ، وليس على المتقبّل '''' فلان من إقامة ذلك شيء إلاّ ما خفّ مثل المشط أو المغزل أو شحم ، وعلى فلان صاحب الجنان '''' ما عظمت مؤنته ، ولها في قبالتها هذه سنّة المسلمين '''' في قبالتهم الجائزة بينهم . شهد على إشهاد فلان المقبّل والمتقبّل فلان '''' على ، أنفسهما ، وتمضي إلى التأريخ . وتقول : هذا الكتاب نسختان .

فإن قدّم المتقبّل شيئا من القبالة '''' وجعله لآخر سنة من المدّة المذكورة قلتَ بعد قولك وكذا : وقدّم المتقبّل فلان من القبالة المذكورة '''' ما وجب منها لآخر سنة من المدّة المذكورة ، وقبض المقبّل فلان ذلك منه ، ونجّم عليه باقي القبالة على كلّ عام '''' كذا أو أوّل كلّ شهر '''' كذا ، وتمضي إلى التأريخ .

•• - ابن مغيث : المقنع ص ٢٢٥ - ٢٢٦

وثيقة قبالة رحى •

تقبّل فلان بن فلان الفلانيّ من فلان بن فلان الفلانيّ ⁽⁽⁽⁽ ، وإن شئتَ قلتَ : اكترى فلان بن فلان ا من فلان ا جميع الرحى السانية أو الرحيين السانيتين ⁽⁽⁽⁽ التي أو اللتين في بيت واحد على سدّ واحد على نهر كذا بموضع كذا ، وحدّها كذا ، بحقوقها وسدّها وأحجارها ومنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها ، وآلتها وأسرّتها (وبنيانها) ⁽⁽⁽⁽ ومنصبها وقنواتها ومحطّ واردتها ، قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولاخيار ، عرفا قدرها ومبلغها ، لعام واحد أوّله كذا ، بكذا وكذا منجّمة ⁽⁽⁽⁽ على المتقبّل فلان على قدر شهور العام المذكور يؤدّي عند انقضاء كلّ نجم منها ، وانقضاؤه بانقضاء شهر كذا ⁽⁽⁽⁽ ، ما ينوبه من القبالة المذكورة ، وذلك كذا وكذا ، ولا براءة للمتقبّل فلان من شيء من القبالة المذكورة بحلول نجم وانصرام غيره إلاّ بإقرار المقبّل ⁽⁽⁽⁽ بالقبض منه أو بيّنة عادلة ⁽⁽⁽⁽ تقوم له على الأداء ، وهو مصدَّق في الاقتضاء دون يمين تلزمه في دعوى القضاء ، ونزل المتقبّل ا فلان ا في الرحى المذكورة وصارت بيده طاحنة قائمة تامّة الآلة ليستوفي أمد قبالته ، ولهما في ذلك سنّة المسلمين في قبالاتهم ومراجع أدراكهم ⁽⁽⁽⁽ . شهد على إشهاد المقبّل فلان والمتقبّل فلان على أنفسهما ، وتمضي إلى التأريخ .

• - ابن مغيث : المصدر السابق صـــ ٢٢١

وثيقة قبالة أحباس ••

تقبّل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع (الأملاك) ⁽⁽⁽⁽ المحبّسة عليه التي : بموضع كذا ، بحقوقها ومنافعها ، لثلاثة أعوام أوّلها كذا . ا بكذا وكذا ا ، قبالة صحيحة بلا شرط ولاثنيا ولا خيار ، عرفا قدره ومبلغها ، وتبني على ما تقدّم وتمضي إلى التأريخ .

•• - ابن مغيث : المصدر السابق صـــ ٢٢٤

قبالة معاصر الزيتون بالزيت

تقبل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع معصرة زيت الماء أو اليد التي بقرية كذا من إقليم كذا من عمل موضع كذا وحدودها كذا بمنافعها ومرافقها وقصاريها

وأحواضها وبركتها وحقوقها كلها الداخلة فيها والخارجة عنها قبالة صحيحة عرفا قدرها ومبلغها بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار لعام أوله كذا أو لكذا وكذا عاما أولها كذا بكذا وكذا ربعا من زيت الكارمت أخضر صاف نقي علب طيب غاية الطيب زيت الزيتون اللجين أو من زيت اليد الأخضر الطرى الطيب الغاية في الطيب أو من الزيت المطبوخ الصافى الطيب الغاية في الطيب يؤدى المتقبل جميعها إلى المقبل فلان في أول شهر كذا أو عند انقضاء المدة المذكورة أو يؤدى أول كل شهر منها كذا وكذا كما يذكر في تنجيم الذهب والفضة ثم تقول: ونزل فيها قائمة الآلة طاحنة وتبنى [٨٤ ب] على ما تقدم وتجوز قبالة المعاصر بالزيت الموصوف إلى أجل. ●

● - المراكشي : وثائق صـ٤٥٨ -- ٤٥٩

قبالة الملّاحة●●

تقبل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع الاحواض التي بملّاحة قرية كذا من عمل كذا وحدود جميع الأحواض كذا بمنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها وافنيتها وسواقيها ونصيبها من شرب بئر هذه الملّاحة بعد معرفتهما بقدر ما تعاقدا فيه القبالة [المذكورة] ومعرفة الشرب (؟) ، قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار كذا وكذا شهرا أولها [شهر] كذا ، او لعام اوله كذا ، بكذا وكذا دينار دراهم ، فإن كان دفعها المتقبل ذكرت ذلك ، وإن كانت منجّمة او تدفع قبالة كل شهر او كل عام عند انقضائه ذكرت ذلك ، ثم قلت « وفلان مصدّق في الاقتضاء دون يمين تلزمه في دعوى القضاء ، ونزل المتقبل فلان في الأحواض المحدودة وصارت بيده » ، فإن كانت القبالة بملح قلت « بكذا وكذا مديا من ملح ابيض حرش طيب ، وهو الغليظ ، او دقيق أبيض نقي طيب غاية [الطيب] بكيل كذا يدفعه المتقبل فلان الى المتقبل فلان عند انقضاء امد القبالة » ، ثم تكمل الوثيقة على ما تقدم .

●● - ابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات صـ١٩٩

المصـــادر والمراجـــــع

أولاً :- المصـــــادر

- **ابن الأبار** (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنســـى ت ٦٥٨ هـــ / ١١١٩م)
كتاب الحلة السيراء جزءان تحقيـق د/ حسـين مؤنـس . القـاهرة ســـنه ١٩٦١ط ـــ١.
- **ابن أبى دينار** (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى) ت ١١١٠/ هـــــ / ١٦٩٨ م) : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس - تحقيق محمد الشـــمام ، تونس ســـنه ١٩٦٧ طــ٢ .
- **ابن أبى زرع** (أبو الحسن على بن عبد الله كان حيا ٧٢٦ هـــ / ١٣٣٥م)
: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب . ومدينة فـــاس ، الرباط سنه ١٩٧٣ .
- **ابن الأثير** (أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبــد الكريــم بــن عبـد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ت ٦٣٠ هـــ /١٢٣٢م)
: الكامل فى التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقـــاق ، دار الكتـــب العلميـــة ، بيروت سنه ١٩٩٥ طــ٢ .
- **ابن بســـام** (أبو الحسن على بن بسام الشنترينى ت٥٤٢ هـــ / ١١٤٧م)
: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القســم الاول ، دار الثقافـــة، بـــيروت ســـــه ١٩٧٩.
- **ابن بشكوال** (أبو القاسم خلف عبد الملك بن مسعود الأنصارى ت ٥٨٧هــــ / ١١٨٣م)
: كتاب الصلة ، قسمان ، المكتبة الأندلســـية ، ٤ الـــدار المصريـــه للتـــأليف والترجمة ، القاهرة ســـه ١٩٦٦ .
- **ابن بلقين** (الأمير عبد الله بن بلقين الزيرى آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة)
: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى (٤٦٩ - ٤٨٣هــــ) المســماة كتاب التبيان ، نشر وتحقيق ليفى بروفنسال سلســـلة ذخـائر العـــرب ١٨ ، مصر بدون .
- **ابن حزم** (الإمام أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حـــزم ت ٤٥٦هــــ/ ١٠٦٣ م)
: الرد على ابن النغريله اليهودى ورسائل أخرى ، تحقيق د/ إحسان عبـــاس ، دار العروبة ، القاهرة سنه ١٩٦٠م
- **ابن حوقل** (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى ت ٣٨٠ هـــ / ٩٩٠م)
: صورة الأرض ، دار الكتاب الاسلامى ، القاهرة ، بدون .

- **ابن خرداذبة** (عبيد الله بن عبد الله المعروف ، بـــابن خرداذبـــه ت حوالـــى ٣٠٠ هـــ / ٩١٢
: كتاب المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بيروت ، بدون .
- **ابن الخطيب** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علـــى بـــن أحمـــد السليماني ت ٧٧٦هـــ / ١٣٧٤م)
: كتاب إعمال الإعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملـــوك الإســـلام أو تـــاريخ اسبانيا الاسلامية ، تحقيـــق ليفـــى بروفنســـال ، دار المكشـــوف ، بـــيروت سنه ١٩٥٦ .
- ....: كتاب إعمال الإعلام أو تاريخ المغرب العربى فى العصر الوســـيط تحقيق أحمد مختار العبادى ، ومحمد الكتانى ، الدار البيضاء سنه ١٩٦٤ .
- ....: الإحاطة بأخبار غرناطة ، المجلد الثانى . تحقيـــق محمـــد عبـــد الله عنان مكتبة الخانجي ، القاهرة سنه ١٩٧٤ م .
- **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد بنى جابر بن ابراهيـــم بـــن محمـــد بـــن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ت ٨٠٦ هـــ / ١٤٠٦م)
. كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر فى أيام العرب والعجـــم والـــبربر ومـــن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، أجزاء دار الكتب العلميـــة ، بـــيروت ١٩٩٢طـــ١
-**ابن رشد** (أبو الوليد محمد بن أحمـــد بـــن أحمـــد بـــن رشـــد القرطبـــى ت ٥٢٠هـــ ١١٢٩م)
: فتاوى ابن رشد ، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور المختار بن الطـــاهر التليلـــى ، ثلاث مجلدات ، دار الغرب الإسلامى بيروت سنه ١٩٨٧ ط١ .
- **ابن سلمون** (أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن سلمون الكنانى)
: كتاب العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم مـــن العقـــود والأحكـــام ، بهامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون المالكى المطبعة البهيـــه : مصـــر ١٣٠٢هـــ
- **ابن سهل** (أبو الأصبغ عيسى بن سهل بـــن عبـــد الله الاســـدى الجيـــانى ت ٤٨٦هـــ / ١٠٩٣م)
: كتاب الأحكام الكبرى المسماة " الإعلام بنـــوازل الأحكـــام " تحقيـــق نقـــدى ودراسة نصوح نجار ، دكتوارة جامعة كمبلوتنسى مدريد ١٩٧٣ سنه ،غـــير منشورة .
- **ابن صاحب الصلاة** (أبو مروان عبد الملك بن محمد بن محمد بـــن ابراهيـــم الباجى ت ٥٩٤هـــ / ١١٩٨م)
: تاريخ المن بالإمامة أو تاريخ بلاد المغرب والأندلس فى عـــهد الموحديـــن ، تحقيق عبد الهادى التازى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٨٧ ط٣

- **ابن عبدون** (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبى)
: رسالته فى القضاء والحسبة ، ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة سنه ١٩٥٥ .
- **ابن عذارى**(أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي ت٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م .
: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزءان الأول والثانى ، تحقيق ، ليعى روفنسال وج . س . كولان دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣ط٣ .
- **ابن العطار** (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن عبيد الله الأموى ت ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩م)
: كتاب الوثائق والسجلات ، تحقيق بدروشالميتا وف - كورينطى ، معهد الموتقين المجريطى ، المعهد الإسبانى العربى للثقافة ، مدريد سنة ١٩٨٣.
- **ابن الفرضى** (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) .
: تاريخ علماء الأندلس ، المكتبة الأندلسية ،٢،الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة. سنه ١٩٦٦ .
- **ابن القطان** (أبو محمد حسن بن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى، منتصف السابع الهجرى) .
:نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق محمود على مكى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٩٠ط ١ .
- **ابن قيم الجوزيه** (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى المشهور بابن قيم ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠ م)
: زاد المعاد فى هدى خير العباد ، الجزء الخامس ، تحقيق شعيب اللأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، بيروت سنه ١٩٨٧ .
- .... : أحكام أهل الذمة ، الجزء الاول ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، الأسكندرية ، بيروت سنه ١٩٩٥ ط١ .
- **ابن مغيث** (أحمد بن مغيث الطليطلى ت ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م)
: المقنع فى علم الشروط ، تحقيق وتقديم . فرانسيسكو سادابا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربى ، مدريد سنة ١٩٩٤ .
- **ابن منظور**(جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ت ٧١١هـ / ١٣١١م)
: لسان العرب المجلد ١١ ، دار صادر ، بيروت سنة ١٩٥٦ .
- **أبو عبيد** (الحافظ الحجة أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م)
: كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة سنه ١٩٦٨ ،ط١

- **أبو يوسف** (أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضى فـــى عصـــر الرشـيد)
كتاب الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة سنه١٣٤٦هـ .
- **إدريـس** (الداعى إدريس عماد الدين ت ٨٧٢ هـ / ١٤٨٨م)
: تاريخ الخلفاء الفاطمين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ، تحقيق محمد اليعلاوى ، دار الغرب الاسلامى بيروت سنه ١٩٨٥ ط١
- **الإدريسى** (محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسى . مـــن أهل القرن السادس)
: نزهة المشتاق فى إختراق الأفاق ، مجلدان ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤ هـ .
- **البخـارى** (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م
: متن البخارى بحاشية السندى ، دار إحياء الكتب العربية بدون .
- **البكـرى** (أبوعبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمـــد بـن أيـوب بـن مصعب البكرى ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م)
: المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دي سلان الجزائـــر،سـنة ١٩١١م
- **البلاذرى** (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)
: فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، عمر أنيس الطباع ، بيروت سنه ١٩٨٧ م
- **البيذق** (أبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيذق كان حيا منتصف القـــرن السادس الهجرى)
: أخبـار المـهدى بـن تومـرت وبدايـة دولـة الموحـدن ، تحقيـــق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط سنه ١٩٧١ .
- **الجرسيفى** (عمر بن عثمان الجرسيفى)
: رسالته فى الحسبة ، ضمن ثلاث رسائل فـــى آداب الحسـبة والمحتسـب تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة سنه ١٩٥٥ .
- **الجوذرى** : (أبو على منصور العزيزى الجوذرى)
: سيرة الأستاذ جوذر ، القاهرة سنه ١٩٥٤ .
- **الحميرى** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الصنـــهاجى ، عـــاش فى القرن السابع البحرى / الثالث عشر الميلادى)
: الروض المعطار فى خبر الأقطـــار ، تحقيـق إحسـان عبـاس بـيروت ١٩٨٤ط٢ .
- **الخشـنى** (أبـو عبـد الله محمـد بـن حـارث بـن أسـد القـيروانى ت ٣٦١هـ/ ٩٧١ م)

: أخبار الفقهاء والمحدثين ، دراسة وتحقيق ماريا - ل - أبيلا ولويس مولينا ، المجلس الأعلى للابحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربى ، مدريد سنة ١٩٩٢ .

- ....: طبقات علماء أفريقية ، تقديم وتحقيق محمد زينهم عزب ، مكتبة مدبولى ، القاهرة سنه ١٩٩٣ ط ١ .

- **الشاطبى** (أبو محمد هارون بن أحمد الشاطبى)
: الدر الموضوعة فى المسائل المجموعة ، مخطوط ، المكتبة الوطنية مدريد رقم ٢١٥٧٣ .

- **الشوكانى** (قاضى القضاة محمد بن على بن محمد بن محمد عبد الله الشوكانى الصنعانى ت ١٢٥٥هـ / ١٨٣٤م)
: نيل الأوطار بشرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ، المجلد الخامس ، مكتبة دار التراث ، القاهرة بدون .

- **الضبى** (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى ت ٥٩٩هـ /١٠٢٣م)
: بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، المكتبة الأندلسية ، دار الكاتب العربى ، القاهرة سنه ١٩٦٧ .

- **العسقلانى** (أحمد بن على بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)
: فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، المجلد الخامس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار الفكر ، بدون .

- **الفهرى** (الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد الفهرى ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩ م)
: السفر الثامن من المسائل والوثائق المجموعة من كتب الفقهاء ابن أبى زمنين وابن العطار وابن الهندى وموسى بن أحمد ، مخطوط مدرسة الدراسات العربية مدريد رقم ٠١١

- **المالقى** (أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبى المالقى ت ٤٩٧هـ / ١١٠٣ م)
: الأحكام ، تقديم وتحقيق الصادق الحلوى ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت سنه ١٩٩٢ ط ١

- **المالكى** (ابو بكر عبد الله بن محمد المالكى المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)
: كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية و زهادهم ونساكهم وسيرمن أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، جزءان تحقيق بشير البكوش ، محمد العمروسى المطوى دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٩٤ ط ٢ .

- **مجهول** : الحلل الموشية فى ذكـر الأخبـار المراكشـية ، الـدار البيضـاء سنه ١٩٧٩ .
- **مجهول** : نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسـطى ، تحقيـق ليفـى بروفنسال ، الرباط سنه ١٩٣٤ .
- **مجهول** : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكـر أمرائـها - رحمـهم الله - والحروب الواقعة بينهم ، حققه وقدم له ووضع فهارسـه إبراهيـم الابيـارى ، القاهرة ، بيروت سنة ١٩٨١ طـ ١
- **المراكشى** (محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على الراكشى ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م)
: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تقديم وتحقيق محمد زينـهم عـزب ، دار الفرجانى ، القاهرة سنه ١٩٩٤ .
- ....: وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق حسين مؤنس ، مكتـبة الثقافـة الدينية ، القاهرة سنه ١٩٩٧ طـ ١ .
- **المقريزى** (تقى الدين ابى العباس أحمـد علـى المقريـزى ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤١م)
: كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المسمى بالخطط المقريزيـه ، الجزء الاول ، دار صادر بيروت ، بدون .
- **النسائى** (أحمد بن شعيب النسائى ت ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م)
: سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الديـن السـيوطى الجـزء السـابع ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٨٧ م .
- **النويرى**(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى ت٧٣٢ هـ/١٣٣٦ م)
: نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء ٢٤ ، تحقيق حسين نصار ، مراجعـة عبد العزيز الأهوانى ، القاهرة سنه ١٩٨٣ م .
- **الونشريسى** (أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحـد بنـى علـى ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م
: المعيار المغرب والجامع المغرب فى فتـاوى علمـاء أفريقيـة والأندلـس والمغرب . أجزاء ، تحقيق مجموعة من الفقهاء تحت إشـراف الدكتـور / محمد حجى دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه١٩٨١ م.

ثانيـا : المراجـع

- **أحمد محمد الطوخى** (دكتور) : مظاهر الحضارة فى الأندلـس فـى عصـر بنى الاحمر ، الاسكندريه سنه ١٩٩٧م .
- **بروفنسال (ليفى)** : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها، ترجمـة محمد عبد الهادى شعيره ، مراجعة عبد الحميـد العبـادى ، والقـاهرة سـنه ١٩٥١ .

: مجموع رسائل موحديه من إنشاء كتاب الدولة المؤمنيـــة ، مطبوعــات معــهد العلوم العليا المغربية ، رباط الفتح سنه ١٩٤١ .

- **جروهمان (أدوارد)** : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية الســفر الثـانى ترجمة حسن ابراهيم حسن ، مراجعة عبد الحميد حسن ، **القاهرة ١٩٩٤ طـ ٢ .**
- **جورجى زيدان** : تــاريخ التمــدن الإسـلامى ، الجـزء الأول ، مراجعــة دكتــور حسين مؤنس ، القاهرة سنه ١٩٨٦ .
- **الحبيب الجنحانى (دكتور)** : دراسات فى التاريخ الاقتصادى و الاجتماعى للمغـرب الإسلامى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٨٦ .
- **حسن أحمد محمود (دكتور)** : قيام دولة المرابطين ، صفحة مشـــرقة مــن تــاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى ، القاهرة سنه ١٩٩٦ طـ ٢ .
- **حسين مؤنس (دكتور)** : فجر الأندلس ، دراسة فى تاريخ الأندلس منذ الفتح حتــى قيام الإمارة الأموية ٧١١ - ٧٥٦ م القاهرة سنه ١٩٥٩ .
- ....: فتح العرب للمغرب ، مكتبه الثقافه الدينية ، القاهرة بدون .
- **زينب عصمت راشد (دكتور)** : تاريخ أوربا فى العصر الحديــث ، القــرن التاســع عشر، دار الفكر العربى القاهرة بدون .
- **صلاح أحمد عيد (دكتور)** : موالى بنى أمية فى الأندلس وأثرهم فى الحياة السياسـية والاقتصادية والاجتماعية ١٣٨ - ٣٦٦ هـ / ٧٥٦ -٩٧٦ م ، ماجستير آداب المنيا سنه ١٩٩١ ، غير منشورة
- ....: عامة قرطبة منذ بداية الفتنة حتى نهاية عهد المرابطين ٣٩٩ - ٥٤٣هـــ / ١٠٠٩ - ١١٤٨م ، دكتوراه آداب المنيا سنه ١٩٩٦ غير منشوره .
- **عبد العزيز الثعالبى** : تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامى إلـــى نهايــة الدولــة الأغلبية جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس مراجعـــة حمــادى الســاحلى ، بيروت سنة ١٩٨٧ .
- **عز الدين أحمد موسى (دكتور)** : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى خـــلال القرن السادس الهجرى ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ١٩٨٣ طـ ١ .
- **قطب محمد ابراهيم** : السياسة المالية لعمــر بـن عبـد العزيـز ، القـاهرة سـنه ١٩٨٨ م .
- **كمال السيد أبو مصطفى (دكتور)** : الأحباس فى الأندلس ضمن بحوث فى تـــاريخ وحضارة الأندلس فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية سنه ١٩٩٣ م .
- **محمد ضياء الدين الريس (دكتور)** : الخراج والنظم الماليــه للدولــة الاســلامية ، القاهرة سنه ١٩٧٧ ، طـ ٤ .
- **محمد الطالبى** : الدولة الأغلبية ، التــاريخ السياســى ١٨٤ - ٢٩٦ هــ / ٨٠٠ - ٩٠٩م . تعريب المنجى الصيادى ، مراجعة حمادى الساحلى دار الغرب الاســلامى سنه ١٩٩٥ طـ ٢ .

- **محمد عبد الوهاب خلاف** (دكتور) : وثائق فى شـــئون الحسـبة فـــى الأندلــس مستخرجه من مخطوط الأحكام لابن سهل ، مراجعة د / محمــود علـــى مكـــى م . مصطفى كامل إسماعيل . القاهرة سنه ١٩٨٥ طـ ١ .
- ....: وثيقة فى إغتصاب أبن السقاء قيم دوله ابن جهور لأمـــوال بيـت مـــال المسلمين مستخرجة من مخطوط الاحكام الكبرى للقاضى أبى الاصبـــغ عيســـى بـــن سهل الأسدى الأندلسى . مجلة أوراق . العدد الخـــامس والســـادس مدريـــة ١٩٨٢ - ١٩٨٣ .
- ....: خطة الأحباس فى الأندلس ، مجلة كلية الأداب ، جامعة القاهرة العـــدد ٥٣ لسنه ١٩٩٢ ، الخاص بالحضارة الأندلسية .
- **محمد عبد الله عنان** : دولة الإسلام فى الاندلس ، العصر الثالث ، عصر المرابطيـــن والموحدين في المغرب والاندلس ، القسم الاول ، عصر المرابطين وبدايـــة الدولـــة الموحدية ، القاهرة سنه ١٩٩٠ طــ ٢ .
- **محمد عيسى الحريرى** (دكتور) : تاريخ المغرب الإسلامى والأندلس فى العصـــــر المرينى . دار القلم ، الكويت سنه ١٩٨٧ طــ ٢ .
- **مراجع عقيله الغناى** (دكتور) : قيام دولة الموحدين ، بنغازى سنه ١٩٨٨
- **هشام سليم أبو رميله** (دكتور) : علاقات الموحدين بالمـــالك النصرانيـــة والدولـــة الاسلامية فى الأندلس ، عمان الأردن سنه ١٩٨٤ طـــ١
- **هوبكنز (ج - ف - ب)** "دكتور" : النظم الاسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ، نقله عن الانجليزية دكتور أمين توفيق الطيبى ، ليبيا ، تونس سنه ١٩٨٠ م .
- **يعقوب أرتين** : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية ، تعريب سعيد عمـــون ، المطبعه الاميرية بولاق سنه ١٣٠٦ هــ .
- **Chalmeta (pedro)** : El señor del zoco en España , Edad Media Y Moderna instituto Hispano- Arabe de cultura Madrid 1973 .
- **Codera (D. Francisco)**: Decadencia y Desaparicion de los Almoravidés en España , Zaragoza . 1899 .
- **Dozy (R) :** supplement aux Dicionares Arabes tome 2 , Beuroute 1963 .
- **Dozy et Engelman (w- H)** : Glassaire des mots Espagnols et Porugais . derives l' Arabe . Beirute 1974
- **El Azemmori (Thami)** : Les Nawzel de Ibn sahl section Relative Al Ehtsab , in Hespris tomada , vol xiv 1973 .
- **Guichard (pierre) :** Al Andalus,Esturctura Antropologica de una sociedad Islamica en accidente , Barcelona , 1973
- **Hernandez (Miguel Cruz) :** El Eslam de Al Andalus ,

Historia y Estructura de su realidad social, Madrid , 1992
- **Ibn Marzuq :** El mus nad,Hechos memorables de Abu l-Hasan ., sultan de los Beni Marians , Estudio , Traduccion , Anotacion , Indices, Anotados , por Maria . j . Viguera . Madrid 1977 .
- **Provençal (live) :** España Musulmana Hasta la Caida del califato de Córdoba (711 – 1031j . c) Traduccion Por E.G Gomez en Historia de España , Dirigida por R.M Pidal . Tercera parte , instituciones y cultura . Madrid 1950
- **Rachel Arié :** España Musulmana siglos VIII- XV vol III en Historia la Espana , dirigida por Manuel Tunón de Lara , Madrid , 1993 .

ابن ظفر الصقلي ومكانته العلمية

د. علي محمد سعيد الزهراني(*)

يتطلب البحث في مجال الحياة العملية لشخص ما من أعلام الحضارة الإسلامية جهدا خاصا وبحثا مضنيا في بطون الكتب ، وخاصة كتب السير والتراجم والأعلام. ومع ذلك فان هذا النوع من الدراسات ممتع وشيق لان البحث في تاريخ العلوم عند المسلمين يدخل على النفس الاعتزاز بمآثر أولئك العلماء الأفذاذ الذين أبدعوا في كل مجال وأصبحوا مشاعل تنير الطريق للبشرية جمعاء. هذا فضلا عما في هذا النوع من الدراسات من شحذ للهمم لإبراز دور المسلمين في النهوض بمستوى الحضارة البشرية مما عاد بالنفع على مختلف الأمم والشعوب .

وفي هذه الدراسة نتعرض لأحد أولئك الأعلام الكبار الذين كان لهم أكبر الأثر في تاريخ الحضارة الإسلامية بما قدمه من مؤلفات عظام ، في شتى المجالات ونقصد بهذا العلم ابن ظفر الصقلي[١] وهو عالم طويل الباع ، متنوع الثقافة ، ومع ذلك فانه لم يحظ بانتباه الباحثين – فيما أعلم – اللهم إلا ببعض البحوث عن منهجه في التفسير ، ومن ذلك كتابه " سلوان المطاع في عدوان الأتباع)[٢] .

وقد بدأت هذه الدراسة بالحديث المختصر عن العصر الذي عاش فيه ابن ظفر الصقلي من الناحيتين السياسية والعلمية ، وأعقبت ذلك بالحديث عن اسمه وكنيته ولقبه ومولده ونشأته .

ثم تحدثت بعد ذلك عن رحلاته وتنوع مصادر ثقافته . وأعقبت ذلك بالحديث عن صفاته وثناء العلماء عليه . وبعد ذلك كان الحديث عن تلاميذه ومذهبه .

(*) أستاذ مساعد ورئيس قسم الحضارة والنظم الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة .

وعندما انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن مؤلفاته أوضحت ما هو موجود منها وما هو مفقود ، مع ذكر نماذج من بعضها ليتعرف القارىء على بعض ما تتضمنه تلك المؤلفات .

وأخيرا ذكرت بعضا من شعر ابن ظفر الصقلى ، ثم ختمت هذه الدراسة بالحديث عن وفاته ، فقائمة المصادر والمراجع .

الحالة السياسية فى عهده :

عاش ابن ظفر الصقلى فيما بين سنتيى ٤٩٧هـ/١١٠٣م - ٥٦٥هـ/١١٩٦م . وقد ولد فى صقلية حسب قول أكثر المترجمين له - كما سيتضح ذلك لاحقا - وكانت صقلية فى هذه الفترة خاضعة للنورمان [٣] ، الذين استطاعوا إخراج المسلمين منها بعد فترة من الصراع والفوضى .

وكانت بداية حكم النورمان الفعلى لجزيرة صقلية فى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، حيث بسط الملك روجر النورمندى نفوذه على جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع من بقى من المسلمين [٤] .

أما عن دولة الخلافة (الدولة العباسية) فقد كانت عندئذ فى حالة ضعف مكن السلاطين السلاجقة[٥] من السيطرة على خلفائها ، بل وصل بهم الأمر بعد أن أصبحوا أكبر قوة عسكرية فى المشرق الإسلامى إلى أسر خليفة عباسى [٦] وخلع آخر [٧]، وخضعت لهم البلاد واتسعت رقعة دولتهم إلى أن توفى السلطان مسعود[٨]، و بوفاته لم تقم لهم قائمة بعد ذلك .

وقد حاول الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله[٩] أن يعيد مركز الخليفة وهيبته، ونجح بتأييد ومساعدة وزيره عون الدين يحيى بن هبيره [١٠]والتفاف العامة حوله، فى حكم العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان ومن حد تكريت إلى عبادان[١١].

وكان ذلك فى الفترة التى ضعف سلطان الدولة الفاطمية ، المتمركزة فى مصر ، حيث تمكن الأيوبيون من إسقاطها[١٢] .

أما فى المغرب الإسلامى فقد تمكن الموحدون من إسقاط دولة المرابطين سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧ م [١٣] .

ولم يسلم العالم الإسلامى فى تلك الفترة من الحروب والمناوشات مع الإفرنج، حيث كان الإفرنج يستغلون فترات الصراع والانقسام فى العالم الإسلامى فيغيرون عليه . وقد تركزت هجمات الإفرنج على بلاد الشام والأندلس وإفريقية ، حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدينة المهدية[١٤] سنة ٥٣٤هـ / ١١٤٨ م.[١٥] وكان ذلك السقوط سببا من أسباب خروج ابن ظفر الصقلى منها إلى الأندلس كما سيأتى بيانه لاحقا.

أما عن الحياة العلمية فى عصره :

وقد سبق أن ذكرنا أن ابن ظفر ولد سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣م. فى صقلية التى كانت عندئذ خاضعة للحكم النورمندى . وهنا نلاحظ أن الحضارة الإسلامية ظلت نشطة فى جزيرة صقلية ، تحت حكم النورمان ، كما استمرت اللغة العربية تشارك غيرها من اللغات كاليونانية واللاتينية فى الحياة اليومية ، وفى الدراسات العلمية ، حتى أن بلاط حكام صقلية النورمان كان يعج بالمتكلمين بالعربية ، من علماء ووزراء وخاصة وغيرهم . بل زاد الأمر على ذلك أن بعض الحكام النورمان كانوا يتكلمون العربية ويصدرون بها مراسيمهم[١٦] .

بل لقد اختص البلاط النورمندى بعضا من مشاهير العلماء المسلمين فى محاولات شتى[١٧] . وكانت الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الازدهار والاتساع . ففى المغرب والأندلس اهتم المرابطون والموحدون بالعلم والعلماء ، وشجعوا كل ما من شأنه رفعة العلم وأهله . يقول المراكشى عن على بن يوسف [١٨]. " اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما "[١٩] .

أما مؤسس دولة الموحدين ابن تومرت[٢٠] ، فقد كان من أعيان علماء عصره، وهو القائل عن العلم " أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكسب ، وانفس ما

يدخر ، وأحسن ما يعمل به : العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وانفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » (٢١) .

هذا بينما كان السلاجقة فى الشرق قد أدركوا أن العلم هو سياج الدولة وعمادها ، وان العلماء هم مشاعل الحضارة ورواد الأمة ، فعملوا على تشجيع العلوم ، وبنوا المدارس والخوانق والربط لطلاب العلم ، وأكرموا العلماء ، وأحسنوا وفادتهم(٢٢) .

ولهذا فقد كانت قصور السلاطين ومجالسهم عامرة بعلماء الدين والشعراء والأدباء ورواد العلم والمعرفة (٢٣) كما حرص سلاطين السلاجقة على ارتباط الحكماء والأطباء بهم ، وانقطاعهم إلى قصورهم(٢٤) .

أما الفاطميون فقد اتخذوا من قصورهم مجالس للعلماء ، وأكثروا من تنظيم الدروس لإقناع الناس بدعوتهم ، وشرح قواعد مذهبهم وبنوا دور العلم ، وشيدوا المكتبات ، ليجعلوا من القاهرة وهى عاصمة دولتهم ، مركزا علميا ينافس عاصمة الخلافة العباسية فى بغداد(٢٥) .

اسمه ونسبه وكنيته ومولده :

ترجم لابن ظفر الصقلى عدد كبير من المؤرخين ، وكتاب السير ، والمعاجم ، حيث كان نشاطه الفكرى ، وتنقلاته بين أقطار الدولة الإسلامية شرقا ، وغربا محل اهتمام الرحالة ، واللغويين ، والنحاة ، والفلاسفة ، وجميع المهتمين بأدب المراسم ، والمواعظ ، والوصايا ، والحكم ، والأمثال .

وقد ذكر المترجمون له أن اسمه : محمد بن أبى محمد ، وقيل : اسم أبيه محمد وقيل : عبد الله بن محمد بن ظفر . ويكنى بأبى عبد الله ، وأبى جعفر ، وأبى هاشم ، ويلقب بحجة الدين ، وحجة الإسلام وبرهان الدين (٢٦).

رحلاته وتنوع مصادر ثقافته :

مال ابن ظفر منذ سنى عمره الأولى إلى حب الأسفار ولقاء العلماء والشيوخ، فكان لكثرة أسفاره فى البلدان أثره الواضح على تنوع مصادر ثقافته ، حيث تنوعت مناهلها ، وبدا ذلك واضحا فى كثرة مؤلفاته وتعدد موضوعاتها .

وكانت الرحلة فى طلب العلم فى ذلك العصر هى الدافع الأول لكثرة الأسفار، فيترك الطالب بلدته بعد أن يحصل ما لدى علمائها ، ويتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة فى انحاء العالم الإسلامى ، ويكابد مشاق السفر وأخطاره ، وربما قطع الواحد منهم آلاف الأميال لمجرد قراءة كتاب واحد ، أو لسماع حديث واحد(٢٧) .

ويقرر ابن خلدون فى مقدمته أهمية الرحلة فى طلب العلم ، وانه لابد منها لاكتساب الفوائد ، والكمال بلقاء الشيوخ ، فيقول : (الرحلة فى طلب العلم ، ولقاء المشيخة ، مزيد كمال فى التعليم)(٢٨) .

وكان ابن ظفر الصقلى أحد أبناء صقلية الإسلامية ، الذين جالوا فى البلدان طلباً للعلم ، وقد تحدثت المصادر عن أسفاره ورحلاته ، فذكرت انه سافر إلى مكة المكرمة ، وبها بدأ تعليمه ، إذ يذكر ابن خلكان أن نشأته كانت بمكة (٢٩) وبها بدأ تعليمه(٣٠) ثم بعد ذلك رحل ابن ظفر إلى مصر ، وفيها كان اللقاء بعلمائها وشيوخها، وعلى رأسهم العلامة أبو الطاهر السلفى(٣١) . الذى كان مقصد الكثير ممن وفدوا على مصر ، حيث كانت المدرسة المسماة باسمه ، مركزاً ثقافياً لتبادل الأفكار والمعلومات ، وللسماع ومنح الإجازات ، ولابد أن يكون ابن ظفر قد استفاد من اللقاء بأبى الطاهر وان يكون أحد العلماء الذين ترددوا على مدرسته أثناء فترة إقامته بمصر ، ومن هؤلاء العلماء المشهورين الذين التقى بهم فى مصر ، أبو بكر الطرطوشى(٣٢) . المعروف بابن رندقة ، وقد التقى به ابن ظفر بالإسكندرية . وقد استفاد ابن ظفر من كتابات وتعليقات الطرطوشى فى كتابه (سراج الملوك) ، وانتفع بها ونقل منها فى كتابه (سلوان المطاع) .

ولا نستطيع أن نحدد الفترة الزمنية التى قضاها ابن ظفر فى مصر ، حيث سكتت المصادر عن ذلك ، فلم تشر إلى تاريخ دخوله مصر ، أو خروجه منها ، وانما ذكرت انه سافر من مصر إلى المغرب، وأقام بالمهدية ، إلى أن استولى عليها الإفرنج النورمان من المسلمين سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م(٣٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان إقامة ابن ظفر الصقلى فى المغرب ليست محـــددة تحديدا دقيقا فى المصادر وكل ما أكدته المصادر انه خرج من المغرب بعد ســقوط المهدية وكان قد جاوز منتصف العقد الخامس من عمره ، وبالتــالي فــان تكوينــه الثقافى قد اكتمل ، وأصبح له شخصيته الثقافية التى تمكنه من التأليف وتجعل لـــه شهرة واسعة عند القادة والحكام وفى أوساط المثقفين وطلبة العلم . ولكن ذلــك لــم يكن على الدوام فى المغرب فسقوط المهدية ، جعله يخرج كما خــرج غــيره مــن العلماء وطلاب العلم منها .

وكان أن توجه ابن ظفر إلى الأندلس[٣٤] التى كانت زاخرة بالعلماء والأدبــاء فكان اللقاء بها مع الشيوخ الأفذاذ ، حيث استفاد ابن ظفر منهم وأفاد .

ومن أشهر أولئك الذين التقى بهم ابن ظفر فى الأندلس ، ابــن العربــى[٣٥] ، وهو أحد علماء القراءات والتفسير وقد استفاد ابن ظفر من علمه ونقل عنـــه كمـا نص على ذلك ابن ظفر فى كتابه (ينبوع الحياة)[٣٦]وهو كتاب فى التفسير ، والــذى يظهر لنا انه على الرغم من قصر المدة التى مكثها ابن ظفر فى الأندلس قبل وفــاة ابن العربى فان اللقاءات بينهما كانت مثمرة بدليل ما تضمنه كتاب (ينبوع الحيــاة) من نقولات مباشرة عن ابن العربى[٣٧] .

كذلك التقى ابن ظفر فى الأندلس بعالمها ، ابن الدباغ[٣٨]واستمع إليه ، وأخــذ منه ، وخاصة فى المجال الذى برز فيه ابن الدباغ ، حيث كان عالما بـــالحديث ، وأسماء الرجال وأزمانهم وثقاتهم وضعفائهم ، وأعمارهم وآثارهم[٣٩] .

وفى الأندلس التقى ابن ظفر بعلامة الأندلس فى الحديث والفقه والأدب ، ابـن مسرة القرطبى[٤٠]، وأخذ عنه ، واستفاد منه[٤١] .

وهكذا أضاف ابن ظفر إلى علمه وثقافته شيئا من ثقافة علماء أهل الأندلــس، وخاصة أولئك المشاهير فى فنون شتى ، ولا أظن أن ابن ظفر اقتصر فـــى لقائــه بعلماء الأندلس على ما أشرنا إليه آنفاً ، وإنما أولئك هــم الذيــن أشــارت إليــهم المصادر ، وقد تكون سكتت عن آخرين ، ولم تتعرض لهم .

وبعد الأندلس ، عاد ابن ظفر إلى مسقط رأسه (صقلية) وفيها زاول نشاطه الفكرى فى البحث والدروس والتأليف ، حيث أخرج بعض مؤلفاته بها مثل (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) وكتاب (أساليب الغاية فى أحكام آيه)[٤٢] ، وهذا ما سوف نفصل الحديث عند حديثنا عن مؤلفاته لاحقاً .

ولم يستقر الحال بابن ظفر فى بلده صقلية ، فتركها ورحل إلى الشرق ، حيث استقر فترة من الزمن فى بغداد ، ثم غادرها إلى دمشق [٤٣]، وقد انفرد الفاسى فى العقد الثمين بذكر خبر دخوله إلى بغداد ودمشق ولم يذكر ذلك أحد غيره ممن ترجم لابن ظفر [٤٤] .

ثم بعد ذلك كله وجد ابن ظفر بغيته فى حلب ، حيث استقر بها فترة من الزمن[٤٥] ، أخرج فيها بعض مؤلفاته ، وأهمها كتابه فى تفسير القران الكريم (ينبوع الحياة) [٤٦]والذى سنتحدث عنه لاحقاً .

ولعل أهم ما يميز إقامة ابن ظفر فى حلب ، انه اتخذ من مدرسة ابن أبى عصرون[٤٧] مقرّا له للتدريس ، واللقاء بالشيوخ وطلاب العلم[٤٨] فكان نتيجة ذلك أن أخرج بعض مؤلفاته ، بحلب كما سبق وان أشرنا إلى ذلك آنفاً .

وقد تأثر ابن ظفر ، كما تأثر غيره من العلماء والشيوخ وطلاب العلم ، بالفتنة التى حدثت فى حلب بين أهل السنة والشيعة[٤٩] . ونهبت كتبه فيما نهب ، وفقد بذلك بعضاً من مؤلفاته ، فآثر الرحيل من حلب واتجه إلى حماه وفيها ظل بقية حياته ، حيث أجرى له فيها راتب حكومى ، فعاش عيشة الزهاد فقيراً ، ومع ضيق الحال فقد كتب بقية مؤلفاته بها[٥٠] .

صفاته وثناء العلماء عليه :

وبناءاً على نشأة ابن ظفر ، ورحلاته ، ومؤلفاته الكثيرة فى شتى المجالات ، ولقائه بالعلماء والشيوخ وطلاب العلم ، أثنت عليه المصادر ووصفته بالزهد والورع ، والتقلل من متاع الدنيا ، وأشادت بذكائه وسرعة بديهته ، وتحمله للمشاق

فى سبيل العلم ، كما تحدثت عن صلاحه وتقواه ، ومكانته لدى طلاب العلم ومدى إقبالهم عليه فى أى مكان يحل فيه ، ولم تذكره بسوء فلم تطعن فى دينه ، ولم تقدح فى عدالته ، فهذا أسامه بن منقذ التقى به ونقل عنه ووصفه بأنه : (كان من خيار المسلمين فى دينه وعلمه)[٥١] أما العماد الأصفهانى فقد قال عنه : (كان إمام وقته فى التفسير والأدب)[٥٢] ووصفه ياقوت بـ(النحوى اللغوى الأديب)[٥٣] . وقال عنه القفطى انه : (يلقب بالحجة)[٥٤] ، وذكر ابن خلكان انه ينعت (بحجة الدين) وانه (أحد الأدباء الفضلاء)[٥٥] ، أما الذهبى فقد وصفه بـ (العلامة البارع ، حجة الدين)[٥٦] وقال عنه الصفدى انه (أحد الأدباء الفضلاء)[٥٧] .

ووصفه الفاسى بأنه (مشهور بالعلم والخير والعبادة)[٥٨] . وانه اشتهر بتذكيره للناس فى المساجد حيث كان يلقى فيهم الخطب والمواعظ[٥٩] أما ابن حجر فقد وصفه بـ (الأديب المشهور)[٦٠] . أما السيوطى فقد ذكر انه كان : (صالحاً ورعاً زاهداً مشتغلاً بما يعنيه)[٦١] .

تلاميذه :

لابد أن يكون لابن ظفر الصقلى تلاميذ كثيرون ، وذلك لكثرة أسفاره فى البلدان ، فمنهم من أخذ عنه وانتفع بعلمه بطريقة مباشرة عن طريق اللقاء به والدرس عليه ، أو بطريقة غير مباشرة عبر مؤلفاته. والمصادر لم تذكر كثيراً عن تلاميذه ، ولعل ذلك يعود إلى عدم وصوله إلى شهرة أقرانه الذين عاشوا فى عصره كأبى الطاهر السلفى ، وابن أبى عصرون . ومع ذلك فان ما سنذكره من تلاميذه ليدل دلالة واضحة على مكانته المرموقة ، كما أننا سنشير لاحقاً عند حديثنا عن مؤلفاته إلي العلماء الذين استفادوا من مؤلفاته ونقلوا عنها ، وهذا بدوره يؤكد لنا مدى المكانة العلمية المرموقة لابن ظفر الصقلى .

فمن تلاميذه :

(١) أبو المواهب ، الإمام الحافظ الحسن بن هبة الله بن محفوظ ، الربعى التغلبى ، من الملازمين للحافظ ابن عساكر ، رحل فى البلدان وجمع معجم شيوخه

فى ستة عشر جزءاً ، ومن مؤلفاته (فضائل الصحابة) و (عوالي ابــن عيينــه) و(فضائل القدس) و(رباعيات التابعين) . وقد التقى بابن ظفر بحماه، وسمع منـــه وتوفى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م[٦٢] .

(٢) القاضى أبو المحاسن عمر بن على القرشى ، الزبيرى الدمشقى ، وهــو فقيه حافظ ، له رحلة فى البلدان لطلب العلم ، التقى بابن ظفر الصقلى وسمع منـــه وأخذ عنه ، وتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م[٦٣] .

(٣) أبو البركات محمد بن على بن محمد الانصارى الشافعى ، تولى القضـاء بأسيوط زيادة على عشرين سنة ، وبحماه مده ثمان سنين ، ألــف كتابـاً سماه : (عيون الأخبار وغرر الحكايات والأشعار) وجمع أربعين حديثا عن أربعين شـيخاً فى أربعين مدينة ، وخرج معجم النساء [٦٤] .

التقى بابن ظفر وسمع منه ، وقرأ عليه وبتلاوة منه مباشرة سنة ٥٦٥ هـــ / ١١٦٩ م، كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع)[٦٥] . وكانت وفاته سـنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م[٦٦] .

(٤) القاضى الأمين ، شرف الدين ، عز القضاه ، أبو الرضـــا محمــد بــن سليمان بن الحسن ، وقد ذكر فى مقدمة كتاب (سلوان المطاع) انه ممـــن التقــى بابن ظفر وأخذ عنه كتاب (سلوان المطاع) [٦٧].

(٥) الحسن بن عبد الرحيم بن أحمد بن مجــون ، الشــريف ، أبــو محمــد القناوى، المالكى ، اشتهر بحسن الخط وجماله ، فكتب كثيراً من كتــب الأدب مــن بينها كتاب ابن ظفر ، (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) [٦٨].

(٦) ابن قدامه ، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدســى ، ولد بجماعيل من أرض فلسطين سنة ٥٤١هـ / ١١٥٦ م وسافر فى البلدان لطلــب العلم ولقاء الشيوخ[٦٩] . فالتقى بابن ظفر وسمع منه [٧٠].

وهو صاحب كتاب (المغنى) وكتاب (الكافى) و (المقنــع) و (روضــة الناظر) وتوفى سنة ٦٢٠ هــ / ١٢٢٣ م[٧١] .

هؤلاء هم بعض تلاميذ ابن ظفر ، وليسوا جميعهم لان شخصية علمية بحجـم ابن ظفر الصقلى لابد وان يكون له تلاميذ وأتباع كثيرون ، ولكن المصادر لم تشـر إليهم . أو أنها أشارت إلى أكثرهم ، ولكن فيما اطلعت عليه من مصادر لــم أجــد غير هؤلاء .

مذهبه :

ابن ظفر الصقلى مالكى المذهب ، حيث ورد اسمه ضمن الجزء الثالث فــى أوزاع المسالك لتعريف أصحاب مالك ، أما أبو الحسن القطيعى فــى ذيــل تــاريخ بغداد ، فقد ذكر انه درس الفقه الشافعي . ويذكر الفاسى انه جمــع بيــن الأمريــن وبالتالي تنتفى المعارضة[٧٢] .

ولعل الذى يؤكد ذلك انه يعرض فى كتابــه (ينبــوع الحيــاة) آراء الإمــام الشافعي وأقواله جنباً إلى جنب مع آراء الإمام مالك فى تفســيره ، وخاصــة عنــد حديثه عن آيات الأحكام [٧٣] .

مؤلفاته :

يحتل ابن ظفر الصقلى موقعاً مرموقاً بين أقرانه من العلماء والشيوخ وذلــك يرجع إلى علمه وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته وتنوعها حيث شملت كثيراً من الفنون فى التفسير والتوحيد والفقه واللغة والأدب والوعظ والتذكير وغير ذلك مــن فنــون التأليف .

وقبل أن نستعرض مؤلفات ابن ظفر الصقلى فانه يجدر بنا أن نشير إلى مــا ذكر من وصف لمؤلفاته عند من ترجم له :

فقد قال العماد الأصفهاني عـــن مؤلفاتـــه : (ولــه التصـــانيف الحســـنة ، والمجموعات المدونة) .[٧٤]

وقال عنه أيضاً : (كان شخصاً عزيزاً وقد برز فى العلـــوم علـــى علمـــاء عصره تبريزاً) .[٧٥]

وامتدح القفطى مؤلفات ابن ظفر قائلاً : (وصنف التصانيف الجميلـــة فـــى أنواع الآداب) .[٧٦]

كما وصف ابن خلكان مؤلفاتـــه بأنـــها : (تصـــانيف ممتعـــة)[٧٧] . كمـــا قال:(بأنها تواليف ظريفة مليحة)[٧٨] .

وفيما يلى قائمة بمؤلفات ابن ظفر التى أشارت إليها المصادر والمراجع .

١ - كتاب فى تفسير القرآن الكريم عرف باسم (ينبوع الحياة) وقد ذكرته جميـــع مصادر ترجمته[٧٩]، قال عنه القفطى ممتدحاً : (وفسر القرآن تفســيرا جميـــلا فى مصنف سماه (الينبوع)[٨٠] أما ابن حجر فقد قال عن (ينبوع الحياة) بعد أن نسبه إلى مؤلفه ابن ظفر : (وأورد فيه أحاديث فيها تحريف وزيادة فكأنـــه يذكر من حفظه)[٨١].

وقد قام أحد الباحثين فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بدراسة منهج ابن ظفر فى التفسير من خلال كتابة (الينبوع) . كما أشرنا إلـــى ذلـــك ســـابقاً .[٨٢] والكتاب يتكون من عدة أجزاء خطية متفرقة فى خزانات الكتب فى دول العالم[٨٣].

كما انه يوجد من هذا الكتاب أجزاء متفرقة بالمكتبة الأصفية بالـــهند وذلـــك تحت رقم (٤٩١) تفسير[٨٤].

أما عن أهم مميزات تفسير ابن ظفر[٨٥] فهى كثيرة منها انه يجمع الكلام عـــن القراءات فى المقطع الذى يريد تفسيره فى مكان واحد قبل أن يشرع فى التفســـير،

مع نسبة كل قراءة إلى راويها ، وتوجيه بعضها إذا دعت الضرورة إلى ذلـــك ، وهذه الميزة قل من يشاركه فيها .

كما أن ابن ظفر فى تفسيره قد أهتم بالتفسير بالمأثور وأكثر منـــه ، وقدمــه على غيره ، واستخدمه للكشف عن معانى المفردات وتوضيح الآيات .

ومن مميزات هذا الكتاب أيضاً انه اشتمل على الكثير من الأحاديث النبويـــة حيث يعتمد عليها عند تقديم قول على قول .

واشتمل الكتاب أيضاً على عرض بعض علـــوم القـــرآن كأســباب الـــنزول والناسخ والمنسوخ ، والمكى والمدنى ، واعتنى ابن ظفر فى كتابه بآيات الأحكـــام ، وذكر ما يستنبط منها ، وبيان أدلتها من الكتاب والسنة ، وذكر أقوال الفقـــهاء فـــى ذلك وأدلتهم .

كما اهتم باللغة فذكر معانى المفردات واستعمالاتها ، مستدلاً على ذلك بـأقوال علماء اللغة وبالشواهد الشعرية . كما انه يذكر بعض الأوجه الإعرابية التى لابـــد منها لبيان معانى الآية .

وابن ظفر فى كتابه الينبوع نجد انه يعزو الأقوال إلى أصحابها . سواء فـــى مجال التفسير أو الحديث ، أو الفقه ، أو الأحكام ، أو القصص والأخبار .

وكتاب بأهمية كتاب ابن ظفر لابد وان يكون له تأثير فى العلماء مـــن بعــده حيث ينقلون منه ويعتمدون عليه ، وسوف نورد هنا مثـــالين لذلـــك ، فنجـــد أن الزركشى(٨٦) فى كتابه : (البرهان فى علوم القرآن) ينقل عن ابن ظفر من كتابـــه: (الينبوع) .

كما أن ابن حجر العسقلانى قد أكثر من النقل من كتاب ابن ظفر ، وضمـــن ذلك كتابه (العجاب فى بيان الأسباب) (٨٧) .

٢- كتاب أساليب الغاية فى أحكام آية[٨٨] ، وهو كتاب مفقود أشارت إليه أغلب مصادر ترجمته ، وتحدثت عنه مؤلفاته فى كتابه (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) قائلا عنه : (وهو كتاب ضمنته أحد عشر أسلوبا تفضى بسالكها إلى العلم بالظاهر المستنبط من قول الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق)[٨٩] .

٣- كتاب (إكسير كيمياء التفسير)[٩٠] . وهو كتاب مفقود لا نعرف عنه إلا اسمه من خلال ما ذكرته بعض مصادر ترجمته .

٤- (فوائد الوحى الموجز إلى فرائد الوحى المعجز)[٩١] ، وهو كتاب مفقود، وقد أشار إليه مؤلفه فى كتابه (ينبوع الحياة) فى التفسير ، ويتبين من ذلك انه كتاب قد ذكر فيه كلاماً عن أسماء الله وصفاته حيث نجد أن ابن ظفر عند تفسيره لقول الله تعالي (وربك الغنى ذو الرحمة)[٩٢] قال : (وذو الرحمة : اسم من أسمائه الحسنى وكذلك ذو الجلال ، ذو الفضل ، و ذو المعارج ، و ذو الطول ، و ذو العرش ، ولم يختلف عربيان فى أن الأذواء أسماء . وقد بينت هذا فى الكتاب المسمى : (فوائد الوحى)[٩٣] .

كما ذكر فى موضع آخر من تفسيره اختلاف العلماء فى لفظ الجلالة : هل هو مشتق أم لا ؟ . ثم قال : (وقد بينت هذا وغيره فى الوحى الموجز)[٩٤] .

٥- كتاب (البرهانية فى شرح الأسماء الحسنى)[٩٥] وهو كتاب مفقود .

٦- (أرجوزة فى الفرائض والولاء)[٩٦] . وهى مفقودة أيضاً .

٧- (الجنة فى اعتقاد أهل السنة)[٩٧] . وهو كتاب مفقود .

٨- (التشحين فى أصول الدين)[٩٨] . وهو مفقود .

٩- (الخوذ الواقية والعوذ الراقية) وهو كتاب فى الوعظ والإرشاد[٩٩] وهو مفقود.

١٠ - (العادات) وهو كتاب فى الاعتقاد[١٠٠] . وهو مفقود .

١١- (كشف الكشف فى نقض الكتاب المسمى بالكشف)[١٠١] . مفقود أيضاً .

١٢- (مالك الأذكار فى مسالك الأفكار)[١٠٢] .

١٣- (المنشىء فى الفقه) على مذهب الإمام مالك رحمه الله[١٠٣] . وهو مفقود .

١٤- (نصائح الذكرى)[١٠٤] وهو كتاب فى الوعظ وقد نقل عنه القرطبى[١٠٥] فى كتابه (التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة). ومن ذلك قوله فى باب (ما جاء أن الميت يحضر الشيطان عند موته ، وجلساؤه فى الدنيا وما يخاف من سوء الخاتمة). فقال : (حكى ابن ظفر فى كتاب النصائح له قال : يونس ابن عبيد رحمه الله تعالي بزازاً ، وكان لا يبيع فى طرفى النهار ، ولا فى يوم غيم ، فأخذ يوماً ميزانه فرضه بين حجرين فقيل له : هلا أعطيته الصانع فأصلح فساده؟ فقال : لو علمت فيه فساداً لم أبقيت من مالي قوت ليلة . قيل له : فلم كسرته ؟ قال حضرت الساعة رجلاً احتضر . فقلت له : قل لا اله إلا الله . فامتعض . فألححت عليه . فقال : أدع الله لى . فقلت : أفما يمنعك إلا من قولها ؟ فقال : نعم. قلت : وما كان عملك به ؟ قال : ما أخذت ولا أعطيت به إلا حقاً فى علمى ، غير انى كنت أقيم المدة لا أفتقده ولا أختبره . فكان يونس بعد ذلك يشترط على من يبايعه أن يأتى بميزان ويزن بيده وإلا لم يبايعه)[١٠٦] .

وقد ذكر المقريزى فى كتابه المقفى أن لابن ظفر إلى جانب كتاب (نصائح الذكرى) كتاب آخر باسم (رياض الذكرى)[١٠٧] .

١٥- (الإشارة إلى علم العبارة)[١٠٨] . وهو كتاب فى تعبير الرؤيا ، حيث ذكر ذلك مؤلفه فى تفسيره (ينبوع الحياة) وذلك عند تفسيره لقول الله تعالي : (يا صاحبى السجن أما أحد كما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان)[١٠٩] . حيث تكلم عن الرؤيا وأورد

حديثاً عن تعبير النبى ﷺ لرؤيا المرأة التى أتت تسأله عن رؤياهـا[١١٠] . ثـم قال بعد ذلك : (وقد أحسنت الكلام على هذا الحديث وغيره مـن الأحـاديث النبوية فى علم التعبير وأفعمت بذلك كتاباً صغير الحجم عظيم الجد على طـالب هذا العلم فسميته الإشارة إلى علم العبارة)[١١١] .

١٦- (أعلام النبوة) وهو كتاب مفقود[١١٢] .

١٧- (الأنباء عن الكتاب المسمى بالإحياء)[١١٣] . وهو مفقود .

١٨- (معاتبة الجرىء على معاقبة البرىء)[١١٤] . وهو مفقود .

١٩- (ملح اللغة) وهو كتاب فيما اتفق لفظـه واختلـف معنـاه علـى حـروف المعجم[١١٥] . وهو كتاب مفقود أيضاً .

٢٠ - (القواعد والبيان) فـى النحـو[١١٦] وهـو كتـاب مختصـر كمـا ذكـر المقريزى[١١٧] وهو كتاب مفقود .

٢١- الاستنباط المعنوى[١١٨] وهو كتاب مفقود .

٢٢- الاشتراك اللغوى[١١٩] . وهو كتاب مفقود .

٢٣ - وقد ذكرت بعض المصادر أن الكتابين السابقين إنما هما كتاب واحـد[١٢٠] . وذلك على خلاف ما ذكرته بعض المصادر الأخرى التى ترجمت لابن ظفـر الصقلى ، والتى عدتهما كتابين منفصلين .

٢٤- (بيان الصور فى الميقات) وهو كتاب مرتب على عشرين بابا يسـتعان بـه على معرفة الأوقات بالآلة[١٢١] . وهو مقدمة فى الميقات أوله (أما بعد: حمـداً لله لا يحاط بمعلوماته .....)[١٢٢] . وهو كتاب مفقود .

٢٥- (بيان القدر بين سنه وشهور ومنازل وقمر) وهو مختصر على عشرين بابـاً فى علم الميقات[١٢٣] وهو كتاب مفقود .

٢٦- (مثنى الاستئناف للمعونة والإشراف) وقد ذكره مؤلفه فى كتابه (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع)[١٢٤] ، وهو كتاب مفقود ،

٢٧- (الجود الواصب) وهو كتاب انفراد بذكره المقريزى ولم أجده عند غيره[١٢٥] .

٢٨- (الحاشية على درة الغواص) للحريرى[١٢٦] . وقد ذكر حاجى خليفة فى (كشف الظنون)[١٢٧] ، أن هذه الحاشية هى ضمن مجموعة حواش ، حاشية لأبى محمد عبد الله ابن برى[١٢٨] . وحاشية لابن ظفر الصقلى ، وأخرى لعبد الله ابن أحمد النحوى ، المعروف بابن الخشاب[١٢٩] .

وفيما يتعلق بحواشى ابن برى وابن ظفر على درة الغواص فقد قام بتحقيقها وإخراجها الدكتور أحمد طه سلطان فى عام ١٤١١هـ/١٩٩٠م[١٣٠] .

وكتاب (درة الغواص فى أوهام الخواص) من الكتب التى لها مكانة كبيرة عند العلماء والكتاب والأدباء ، إذ يعالج أخطاء وأوهام شاعت على السنة الخاصة من العلماء والشعراء ،

وقد طارت شهرة هذا الكتاب فى الآفاق ، وولع به كل غيور يتمنى أن تبقى اللغة العربية قوية نقية ، كما كان العرب الخلّص يتكلمون بها فى قلب الجزيرة وبواديها فى عصرى الجاهلية وصدر الإسلام . وبعد أن اتسعت دائرة الإسلام فسحت اللغة العربية صدرها لاستعمال الكلمات المولّده التى شاعت على ألسنة الكتاب والشعراء وضمت إلى معجمها الأصلى الألفاظ الأعجمية المعربة التى عربها العرب وحولوها عن ألفاظ العجم لتصبح ألفاظاً عربية ،

وقد أدرك ابن ظفر كل ذلك فسلك فى حواشيه على درة الغواص المسلك الموافق لقانون اللغة ، فصوب كثيراً مما خطأه الحريرى ، والتمس لذلك التصويب وجهاً مما جاء فى القرآن الكريم ، أو وردت به القراءة القرآنية ، أو نطقت به

الأحاديث النبوية ، أو مما انشده الفصحاء من شعراء العربيـــة ، أو مـــن اســـتعمال العلماء الموثوق فى روايتهم ، أو مما ورد فى بعض اللغات واللهجات التى تكلمـــت بها القبائل العربية[١٣١] .

وتلك الحواشى على (درة الغواص) والتى حاشية ابن ظفر إحداها ، كـــانت قد ساهمت بقدر كبير فى تذليل الكثير من العقبات أمام الكتاب والعلماء المشـــتغلين باللغة . ذلك أن تلك الحواشى ذات قيمة علمية نظرا لكثرة شواهدها وتصحيح نسبة بعض الأبيات إلى قائليها .

كذلك مما يعزز قيمة تلك الحواشى على (درة الغواص) أن حواشـــى ابـــن برى وابن ظفر هى الأصل الذى اعتمد عليه الشهاب الخفاجى[١٣٢] . فـــى تـــأليف كتابه : (شرح درة الغواص فى أوهام الخواص) فقيمة هذا الكتاب الحقيقية تكمـــن فيما نقله الخفاجى من حواشى ابن برى وابن ظفر على درة الغواص .

ذلك أن الخفاجى لم يقتبس من الحواشى فحسب ، بل ضمن شرحه الحواشـــى بأكملها ، واستفاد من آراء برى وابن ظفر ومن تعليقاتهما على كلام الحريرى إفـــادة كبيرة[١٣٣] .

ويجدر بنا هنا ونحن نتكلم عن ابن ظفر وجهوده العلمية أن نشير إلى أمثلـــة من حواشيه على درة الغواص . فمن ذلك حاشية على قول المؤلف : (وعلى آلـــه) حيث قال ابن ظفر : (قوله وعلى آله ، مرغوب عنه ، لان الإضمار يرد الكلم إلى أصولهن كثيرا ، وأصل آل : أهل ، بدليل قولك فى تصغيره أهيل ، والوجـــه أن تقول: وعلى أهله ، إلا أن تظهر فتقول وعلى آل محمد[١٣٤] .

ومن ذلك حاشية على قول الحريـــرى : (يقولـــون : إذا أصبحـــوا ســـهرنا البارحة وسرينا البارحة والمختار ....) حيث قال ابن ظفر : (أكثر ما فى هـــذا

إذا سلم قيل انه عدول عن المختار إلى الجائز فلا يسمى غلطاً ، وإلا فانه تحكم لا شاهد علية[١٣٥] .

ومن ذلك أيضا حاشية على نص الحريرى بعد قول الله تعالي : (وفتحت أبوابها)[١٣٦] ،من أن هذه الواو تسمى واو الثمانية .

حيث قال ابن ظفر : (ما ذكره فى الواو من قوله (وفتحت أبوابها) منقول، ولكنه غير ظاهر الوجه ، لأنه لا عدد فيه نصياً ولا استنباطاً ، وهذه الواو هى الحالية كواو قولك : خرجت ودخل فلان ، أى فى حال دخوله ، والمراد انهم جاؤوها وهى مفتحة الأبواب فدخلوها ولم ينتظروا أن تفتح لهم ، وذلك لكرامتهم وأما وفد النار فانهم وقفوا على النار عندما جاؤوها حتى فتحت أبوابها إهانة لهم ، وليبغتوا بمشاهدة عذابها[١٣٧] .

٢٩ - (شرح المقامات الحريرية)[١٣٨] وتذكر المصادر أن ابن ظفر قد شرح المقامات فى شرحين أحدهما مختصر والآخر مطول[١٣٩] .

(وشرح المقامات الحريرية) تسميه بعض المصادر (التنقيب على ما فى المقامات من الغريب)[١٤٠] . وهذه التسمية هى التى وردت فى النسخة الخطية منه الموجودة بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى تحت رقم(٤٦٩) أدب ورقم(٤٧٠) أدب وهى مصورة عن الزاوية الحمزاوية بالمغرب والتى تحمل رقم(٤٦) وعن دار الكتب المصرية برقم (٧٤٤١ أدب).

كما أن من هذا الكتاب وبهذا الاسم نسخه خطية فى خزانة ابن يوسف العمومية بمراكش تحت رقم (٢) مجاميع (٦٢) وتقع فى إحدى وتسعين ورقة وعدد اسطر الصفحة الواحدة فيها سبعة وثلاثون سطرا ومن (شرح المقامات) لابن ظفر الصقلى نسخ خطية بالمكتبة الأصفية بالهند تحت رقم (٤١ ، ١٤٦) وأيضا بجاريت ١٢٥١ رقم (١)[١٤١] . وقد ذكر القفطى انه رأى كتاب (شرح المقامات)

لمؤلفه ابن ظفر وانه كان فيه بعض التصحيف ، حيث قال (ورأيت له شرح المقامات ، وقد صنفها لأهل المغرب وقد نقل ألفاظها من نسخة سقيمة فصحف وشرح التصحيف)[١٤٢] ثم أن ابن ظفر كان يعلم ذلك ويعتذر من ذلك التصحيف إذ يقول القفطي : (وسمعت انه كان يعتذر من ذلك إذا قيل له : ويقول هو أمر أحدثه العجلة وبعد الدار)[١٤٣] .

وابن ظفر الصقلي يذكر في بداية شرحه للمقامات أن الذى أخبره بها أبو الطاهر السلفى عن مؤلفها الحريرى[١٤٤] . لكن ابن خلكان يرى عدم صحة هذا القول فيذكر أن أبا الطاهر السلفى رأى الحريرى فى جامع البصرة وحوله حلقة من الناس يأخذون عنه المقامات . فسأل السلفى عن الحريرى فقيل له: أن هذا قد وضع شيئا من الأكاذيب ، وهو يملى على الناس فتكتبه ولم يعرج عليه[١٤٥] .

٣٠ – (خير البشر بخير البشر)[١٤٦] . وهو كتاب يتحدث فيه مؤلفه عن التبشير بظهور النبى محمد ﷺ استنادا إلى التوراة والإنجيل والي أقوال أحبار اليهود ، وكهان العرب .

وهذا الكتاب مطبوع طبعة حجرية قديمة فى القاهرة مؤرخة بنسبة ١٢٨٠ هـ. ومنه نسخ مخطوطة في الاسكوريال برقم (١٥٢١) وفى باريس برقم (١٩٥٩) وفى القاهرة برقم ٧/ ٥٢٠) ورقم (٥/ ١٧٤).

ومنه نسخة مختصرة بعنوان (المختصر فى خبر سيد البشر) وهذه النسخة فى الموصل برقم (١٠٦ و ٩٠ و ٦)[١٤٧] . وهى تكون من اختصار المؤلف ابن ظفر أو أن احدا قام باختصار الكتاب المذكور .

٣١ – أنباء نجباء الأبناء)[١٤٨] وقد أشار إليه مؤلفه ابن ظفر فى كتابه (سلوان المطاع) حيث قال عنه : (وهو كتاب انتظمت فيه درر أنباء نجباء الأبناء فأود عنه صبره منها ما عز مطلبه وبهرت حكمته وحسن أدبه)[١٤٩] .

والكتاب تسـميه بعض المصـادر (درر الغرر فى أنبـاء نجباء الأبنـاء) وقـد تختلف التسـمية ، فى نسـخة المخطوطـة مـن نسـخة إلـى أخـرى فنسـخته فى الاسكوريال عنوانها (الغرر والدرر فى نجباء الأولاد) وهى تحمـل الرقم (١٥٢١/٢) و(١٧٠٢/٢)[١٥٠] .

والكتاب منه نسخ خطية كثيرة فى مكتبات العالم ومنها باريس برقـم (٢١٢، ٢١٣، ٦٠٣٢)، وليبزج برقم (٦٦٤)، وما نستر برقم (٦٧٠)[١٥١] .

ومن هذا الكتاب نسخة خطية مختصرة عنوانـها (درر الغـرر فـى أبنـاء الأبناء) وهى محفوظة فى برلين تحت رقـم (٩٥٠٦ ، ٩٥٠٧)، وفـى المتحـف البريطانى تحت رقم (١١٣٩)[١٥٢] .

وهناك نشره قديمة للكتاب باعتناء مصطفى محمد القبـانى ، صـادرة عـن مطبعة التقدم بمصر[١٥٣].

ومما جاء فى مقدمة هذا الكتاب قول المؤلف :[١٥٤] . « فهذا كتاب أودعتـه من أنباء نجباء الأبناء ، وما هو كشررة من ضرام[١٥٥] بل كقطرة من رهـام[١٥٦]. لأنى قصدت به تلقيح همة غلام ، وتنقيح فطنة كهام .[١٥٧] إلا أنى لجنيت قارئيـه من هذا النوع الذه وأطيبه وأحليته أسره وأعجبه ، مضربا فى الغالب عما سجع بـه الحمام هاتفا وهمع به[١٥٨] . الغمام واكفا .[١٥٩] لأن النفوس طلعة إلـى الفـائق العجيب مولعة بالرائق الغريب ذى المتناول والقريب» .

والكتاب فى مجمله يميل إلى القصص الأدبى مـع أسلوب بلاغـى جيـد ويستشهد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة كما يتضمـن بعـض الحكم والأمثال من أقوال العرب .

والكتاب بدأه مؤلفه بذكر الحديث عن الرسول ﷺ ثم قسمه بعد ذلـك إلـى أربعة أقسام وقد ورد ذكر ذلك فى مقدمة المؤلف حيث قال[١٦٠] . افتتحتـه بذكـر

سيدنا المصطفى ﷺ للتيمن بذكره والتشرف بالإيماء إلى شرف قدره ، ثم صنفت بأثر ذلك ما عمدت لذكره أربعة أصناف وهى غرر عوالي[١٦١] ، ثم نخب توالي ثم نكت كرائم ثم فقر خواتم ، فالصنف الأول فى ذكر عشرة ممن كرمهم الله بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصنف الثانى فى ذكر رجال من ذريات الصحابة رضى الله عنهم ، وغيرهم والصنف الثالث فى ذكر ممن اتسم بالعبادة واشتهر بالزهادة والصنف الرابع فى ذكر رجال سادوا فى عصر الجاهلية من العرب ورجال من ملوك فارس .

ومما نجده فى هذا الكتاب أن مؤلفه يعمد فى نهاية ذكره لخبر ما إلى تفسير الألفاظ اللغوية الغريبة التى اشتمل عليها الخبر وذلك تحت عنوان (تفسير ألفاظ لغوية اشتمل عليها هذا الخبر)[١٦٢] .

٣٢ - (سلوان المطاع فى عدوان الاتباع) وهو كتاب ذكرته جميع مصادر ترجمته[١٦٣] . واختلفت فيما بينها فى اسم عنوانه فمثلا نجد أن عنوانه فى هدية العارفين: (سلوان المطاع فى عدوان الطباع فى قوانين الحكمة ونوادر أخبار السلاطين)[١٦٤] . كما أن الذى قام بترجمة إلى اللغة الفارسية أجرى عليه تبديلا بتقديم وتأخير وإضافة وسماه: (رياض الملوك فى رياضات السلوك) وفى ذلك يقول حاجى خليفة : (وقد ترجمه جماعة وفى ترجمته بالفارسية ... تصرف صاحبه بتقديم بعض الحكايات وتأخيرها[١٦٥] .

ومع هذا الاختلاف فى عنوان الكتاب إلا أن أكثرها يقررا ن تسمية (سلوان المطاع فى عدوان الإتباع) هى التسمية الحقيقية للكتاب .

والكتاب طبع ثلاث مرات طبعات قديمة ، الطبعة الأولى كانت فى القاهرة سنه ١٢٧٨ هـ والثانية فى تونس ١٢٧٩ هـ ، والثالثة فى بيروت سنه ١٣٠٠هـ[١٦٦] .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدد من اللغات الأوربية فقد نقله ميخائيل امارى صاحب كتاب (تاريخ مسلمى صقلية) إلى اللغة الإيطالية ونشره سنه ١٢٦٨هـ/١٨١٥م وسنه ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م . ثم ترجم إلى الإنجليزية ونشر بلندن سنه ١٢٦٨هـ/١٨٥١م . كما ترجم الكتاب إلى اللغة التركية حيث قام بترجمته قره خليل أفندى زاده المتوفى سنه ١١٦٨هـ/١٧٥٤م . وطبعت هذه الترجمة فى إستانبول سنه ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م .(١٦٧) . وكتاب (سلوان المطاع) قال عنه العماد الإصفهانى : « طالعته فوجدته كتابا مفيدا مشتملا على حسن معنى ولفظ وذكر تنبيه ووعظ » .(١٦٨) وقد أهداه مؤلفه إلى أحد القادة المسلمين فى صقلية سنه ٥٥٤هـ/١١٥٩م . حيث قال ابن ظفر : (فان مما أفضى بى إليه اضطراب الاغتراب وانتياب الاكتئاب ، أن أظفرنى الله سبحانه وتعالي وله الحمد بمؤاخاة مقيل عثرات السادة السراة ، وممل أنفس الحسدة حسرات سيد السادة وقائد القادة أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم على بن علوى القرشى(١٦٩) . بارك الله فيما الهمه كسبه وكان وليه وحسبه ... ولما كانت الهدايا تزرع الحب وتضاعفه وتعضد الشكر وتساعفه أحببت أن أهدى إليه هدية فائقة رائقة لتكون عنده نافقة وبقدره لائقة فلم أجد لذلك إلا العلم الذى شغفه حبا والحكمة التى لم يزل بها صبا ، والأدب الذى استوعبه مولودا وكسبا واستعمره حليا وقلبا ....)(١٧٠) .

وابن ظفر يقول عن كتابه هذا انه كتاب (عمدت فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها ، ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها فتوسعت بالتعبير بألفاظى عنها والتخبير بعلمى لها والتفنن بقوى فطنتى فيها ، توسعا لا يحظره شرع ولا ينبو عنه سمع ، حتى إذا عادت أهلتها بدورا رائعة ... نفثت فى صدرها أرواح الأخلاق الزكية وكسوت جسومها حلل الآداب الملوكية ، وتوجت رؤوسها تيجان الهمم الأبية وقلدت عواتقها سيوف المكايد الحربية ، وصدرتها بأى من التنزيل المحكم وأحاديث عن المصطفى ﷺ إلى ما يلى ذلك

من منثور الحكم وموزونها وأبكـــار الآداب وعيونـــها فـــبرزت روضـــة للقلـــوب والأسماع ورياضة للعقول والطباع[١٧١] .

ومن خلال هـــذا العرض الموجز لبعض ما جـــاء فى مقـــدمة ابـــن ظفـــر فانـــه تتضح معالـــم هذا الكتاب ومضامينه وسبب تسميته بســـلوان المطـــاع فـــى عدوان الاتباع ، ذلك أن ابن ظفر أراد بإهـــدائه هـــذا الكتاب إلـــى ذلـــك القـــائد العربى أن يسليه عما هو فيه من ضيق بسبب استيلاء النورمان على صقلية بعـــد أن كانت بلدا إسلاميا عامرا[١٧٢] ولذا نجد أن ابن ظفر يعرف (السلوان) الـــوارد فى كتابه قائلا : (والسلوان جمع سلوانه ، وهى خرزة تزعـــم العـــرب أن المـــاء المصبوب عليها إذا شربه المحب سلا : قال الراجز :

لو أشرب السلوان ما سليت　　　مابى غنى عنكم وان غنيت[١٧٣]

ومن هذا المنطلق نجد أن ابن ظفر قد ضمن كتابه هذا خمس سلوانات عبـــارة عن خمسة خصال وتلك السلوانات أولاها فى التفويض والثانية فى التأسى والثالثـــة فى الصبر والرابعة فى الرضا والخامسة فى الزهد .

وبنظرة سريعة على هذه السلوانات نجد أن سلوانة التفويض قد بدأها بشرح معنى التفويض فى الأمور مستشهدا بقوله تعالي :

(فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)[١٧٤] . وقولى تعـــالي " وعسي أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)[١٧٥] . ثم أكد علـــى أهمية الاستخارة فى صرف البلاء واللطف فى مكروه القضاء .

ثم بين حقيقة التفويض بقوله : (واعلم رحمك الله واياى أن حقيقة التفويض هو التسليم لأحكام الحكيم وهو الذى دل عليه مصطفاه محمد ﷺ بقوله تعالي :

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتـــب الله لنـــا هـــو مولانـــا وعلـــى الله فليتوكـــل المؤمنون ﴾[١٧٦] . وأس التفويض والباعث عليه إنما هو اعتقاد انه لا يكـــون مـــن

الخير ولا من الشر إلا ما أراد الله تعالي كونه ولا يصح التفويض ممن لم يعتقد ذلك ويتدين به)[١٧٧] .

وابن ظفر يدلل عل تلك المفاهيم فى التفويض بقصص وعبر من التاريخ ، وكذلك بحكايات رمزية على ألسنة الحيوانات لترسخ تلك المفاهيم التى أرادها[١٧٨] .

أما السلوانة الثانية وهى التأسى فقد بدأها بذكر عدد من الآيات القرآنية ذات الدلالة على التأسى وذكر أن التأسى مما أدب الله به رسول الله ﷺ بل مما افترضه الله عليه ، وأضاف ابن ظفر قائلا: (ومعنى التأسى عند الأئمة أن تنظر إلى أسى غيرك ، أى حزنه وانه مثل أساك ، أى مثل حزنك فتصبر، والأسى هو الحزن ولا يعجبنى هذا وهو عندى مأخوذ من قولهم أسوت الجرح والجريح أى دوايته والأسى هو عندى الطبيب المداوى فكأن معنى التأسى والتداوى بالصبر والأسوة اسم من هذا ، والتأسى تفعل ولو كان على ما ذهبوا إليه لكان معنى التأسى التحزن تقول : أسيت أى حزنت وتأسيت أى تحزنت) .[١٧٩]

ولتثبيت معنى التأسى ذكر المؤلف إلى جانب الآيات من القرآن الكريم بعضاً من الأحاديث النبوية والأشعار والأمثال والحكايات الواقعية والخيالية[١٨٠] .

أما فيما يتعلق بالسلوانة الثالثة فهى تلك المتعلقة بالصبر الذى هو ثمرة التأسى وقد بدأها بذكر قوله تعالي مخاطبا نبيه ﷺ : « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون »[١٨١] .

ثم ذكر بعد ذلك خبر غدر رؤساء قريش بالرسول ﷺ وذلك فى اجتماعهم بدار الندوة ثم تبع ذلك بذكر المنثور والمنظوم من الحكم فى الصبر[١٨٢].

أما السلوانه الرابعة فهى سلوانة الرضا ، وقد بدأها بالقرآن الكريم مستشهدا بقولة تعالي : (فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون)[١٨٣] وذلك للدلالة على من سخط من قسمة الله وتقديره وحكمته وتدبيره.

ثم بين ذلك أن من لم يرض سيحرم من الفضائل وقد استشهد على ذلك بقول الله تعالي : (ولو أنهم رضوا ما أتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله أنا إلى الله راغبون)[١٨٤] .

واستطرد المؤلف في ذكر فضائل الرضا وذلك بذكر أحاديث نبوية ونظم ونثر من أقوال الحكماء ثم ذكر قصصا واقعية وأخرى خيالية في ذات المعنى .[١٨٥]

ويختم ابن ظفر كتابه بذكر السلوانة الخامسة وهي سلوانة الزهد وقد بدأها بالقرآن الكريم حيث استشهد بقوله تعالي : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه)[١٨٦] .

ثم ذكر بعد ذلك خبرا نبويا في الزهد ثم ما قيل في الزهد من حكم نثرا كان أو نظما ثم أشار إلى بعض القصص الواقعة والخيالة التي تؤيد ما ذهب اليه من مدح الزهد والزهاد[١٨٧] .

والي جانب الخصال الخمس المذكورة فانه يوجد في كتاب (سلوان المطاع) كثيرا من الأقوال والحكم حول سلوك الملوك وعلاقتهم بوزرائهم ورعيتهم في يحض الملوك على العدل والرفق بالرعية ، والتحلي بالحزم والاحتراس من العدو واجتناب الحرص والشره المفضيان إلى البغي واحترام العهود والمواثيق ، والحفاظ على أركان الشريعة .

كما ذكر ابن ظفر أن الوزير يقوم بدور أساسي في نجاح سياسة الملك أو فشلها ولذلك يجب أن يكون متصفا بالدهاء والحزم وسداد الرأي، والحكمة والعلم بالديانات واللغات والتبحر في العلوم والخبرة في المكايد .

أما الرعية فذكر انه ينبغي معاملتها برفق والتودد إليها بالعدل وأمن السبل وإنصاف المظلوم[١٨٨] . وقد اقتبس المصنفون في الأخلاق والسياسة والتاريخ كثيرا من كتاب ابن ظفر (سلوان المطاع) فقد نقل عنه أبو حمو موسى بن

يوسف.[١٨٩] ثلاث قصص هى أطول ما ورد فى (سلوان المطاع) من الحكايات وضمنها كتابه (واسطة السلوك فى سياسة الملوك) .[١٩٠]

كما نقل عنه سبط ابن الجوزى[١٩١] معظم ما جاء فى (السلوان) من آيات قرآنية وأحاديث وحكم وقصص وضمنها كتابه (كنز الملوك فى كيفية السلوك)[١٩٢] بل أن كتاب سبط ابن الجوزى المذكور لا يعدو أن يكون إعادة لسلوان المطاع لابن ظفر الصقلى مع بعض تغييرات وزيادات ضيئلة[١٩٣] . كما انه قسم الكتاب على نفس تقسيم ابن ظفر الصقلى فى سلواناته الخمس · وهذا المؤرخ يحيى بن خلدون .[١٩٤] قد ضمن كتابه (بغية الرواد فى إخبار ملوك بنى عبد الواد) بعض القصص الواردة – فى سلوان المطاع ·

وبعد هذا العرض الموجز لملامح كتاب (سلوان المطاع) لابن ظفر الصقلى فإنه يتأكد للمطلع عليه أنه كتاب فى نصائح الملوك له قيمة عالية إذ انه يحتوى على مبادىء عامه فى السياسة والأخلاق والآداب تصلح أن تكون مرجعا لكافة المهتمين بهذا الجانب · ويبدو أن هذا النوع من التأليف قد شغل بال كثير من العلماء والأدباء والمفكرين ذلك أن ابن ظفر قد سبق إلى هذا النوع من التأليف ثم تلاه آخرون فألفوا فى ذات الاتجاه .[١٩٥] وابن ظفر فى كتابه (سلوان المطاع) اعتمد على تجاربه الشخصية وعلى كتب الأدب والوصايا والمواعظ والتاريخ ، وتلك فى مجملها شكلت ما يحتويه كتاب ابن ظفر (سلوان المطاع)[١٩٦] .

وبعد هذا العرض لمؤلفات ابن ظفر الصقلى يتأكد لنا أنه كان صاحب باع كبير فى معارف شتى · لذلك لقى قبولا كبيرا عند طلاب العلم وخاصة بعد أن استقر فى حماه حيث (صادف فيها قبولا) كما أشار إلى ذلك ياقوت .[١٩٧] و(أمه الطلبة بها)[١٩٨] · وكان (شخصا عزيزا قد برز فى العلوم على علماء ، عصره تبريزا)[١٩٩] · ولتنوع مؤلفات ابن ظفر نجد أن القفطى قد استجاز روايتها من ولد ابن ظفر حيث يقول : (وأدركت ولده بحلب فى حاضرها يعلم الصبيان ، هو أكسد من باقل ، لا ينقل عنه من أهلها ناقل ، واستجزت منه رواية كتب أبيه

التى رواها عنه ، وكتب لى ذلك بخطه ، وهو عندى ثم مات رحمه الله فى حدود سنة ستمائة بعدها بقليل)[٢٠٠] .

وهذا التنوع فى معارف ابن ظفر جعلت المصادر أحيانا مع المفسرين ومرة أخرى مع اللغويين والنحويين وثالثة مع الأدباء ، إلا أن السيوطى يذكر انه كان « أعلم باللغة من النحو »[٢٠١] ، ولعل الذى يؤيد ما ذكرته المصادر من أن أبا اليمن زيد بن الحسن الكندى[٢٠٢] . قال : « أحلت برزق لى على ديوان حماه ، فسرت لأجل ذلك فلما حللتها جمع الجماعة بينى وبين الحجة (أى ابن ظفر الصقلى) .

وجرت بيننا مناظرة فى النحو واللغة ، فأوردت عليه مسائل فى النحو لم يمش فيها . وكان حاله فى اللغة تقريبا . فلما كاد المجلس أن يتقوض قال الحجة : الشيخ تاج الدين أخبر منى بالنحو ، وأنا أخبر باللغة منه . فقلت : الأول مسلم ، والثانى ممنوع، وقمنا عن المجلس »[٢٠٣] .

شعره :

أجمعت مصادر ترجمة ابن ظفر الصقلى على أنه كان يقول الشعر ولكن شعره لم يتجاوز المقطوعات الصغيرة، وهو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر ، ولا يخرج شعره عن موضوعات الوعظ والزهد، والصبر والتضرع إلى الله، والأخلاق الحميدة .

وشعر ابن ظفر الصقلى هو أحد ميادين إبداعاته ونشاطه الفكرى وقد تناثرت أشعاره فى كثير من مؤلفاته بل لا يكاد يخلو منها مؤلف واحد، كما ذكرت بعض المصادر نماذج من أشعاره[٢٠٤] .

ومن تلك النماذج قوله فى شخص عزيز عليه : .[٢٠٥]

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم ... بأنك محمول وأنت مقيم

ألا أن شخصا فى فؤادى محله ... واشتاقه شخص على كريم

ومن أقواله فى الزهد والتفويض : .[٢٠٦]

أيــا من يعول فى المشكلات ... على مــا رآه ومــا دبـــره
إذا أستشكل الأمر فابرأ بـه ... إلى من يــرى منــه مالــم تره
تكن بين عطف يقيك الخطوب ... ولطــف يهون مــا قـــدره
إذا كنت تجهل عقبى الأمـور ... ومالـــك حـــول ولا مقــدره
فلم ذا العنى وعلام الأســى ... ومـــم الحذار وفيما الشـــره

ومن شعره فى الصبر قوله : .[٢٠٧]

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه ... ويعرف عند الصبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطبـــاره ... فقد قل فيما يرتجيه نصيبـــه

ومن شعره فى التوكل قوله : .[٢٠٨]

ببســـم الله يفتتـــح العليـــم ... وبالرحمن يعتصـــم الحليـــم
وكيف يلومنى فى حسن ظنـــى ... بربى لائــم وهـــو الرحيـم

ومن شعره فى الرضا قوله[٢٠٩] :

يا مفرعى فيما يجــىء ... وراحمى فيما مضــــى
عندى لما تقضيـــه ما ... يرضيك من حســن الرضا
ومن القطيعة استعيـــذ ... مصـــــرحا ومعـــرضا

ومن نصائحه الشعرية أيضا قوله : .[٢١٠]

دنياك دار غـــرور ... ومتعـــــه مستعـــارة
ودار لبس وكســـب ... ومغنــم وتجـــــاره
ورأس مالـك نفــس ... فأحذر عليها الخســارة
ولا تبعهــا بالأكـــل ... وطيب عيـــش وشــاره
فإن مـلك سليـــمان ... لا يفـــى بشـــراره

أما فيما يتعلق بخاتمة ابن ظفر فقد كانت فى مدينه حماه ، حيث قضى فيها أخر أيام حياته بعد أن استقر به المقام فيها على فقر وعوز لا يتفق والمكانة العلمية التى اشتهر بها . وقد بلغت به الحاجة انه زوج ابنته فى حماه بغير كفء ، وان ذلك الرجل سافر بها وباعها فى بعض البلدان(٢١١) . وقد أجرى له راتب من ديوان حماه ولكنه كان دون الكفاف(٢١٢). ويؤكد هذه الحالة التى كان عليها ابن ظفر فى حماه ما ذكره . القفطى من « أن نور الدين محمود بن زنكى(٢١٣) . قد خوطب فى تقرير رزق له يستعين به على إفادة العلم بحماه ، فاقتضت مكارمه أن يطلق له فى كل شهر سبعين قرطاساً. عليها سبع دراهم فضة فى كل شهر .(٢١٤) وهذا يعد قليلا فى حق شخصية علمية كبيرة كشخصية ابن ظفر الصقلى هذا مع افتراضنا بصحة ما ذكره القفطى .

وتوفى العلامة ابن ظفر الصقلى فى مدينة حماه على خلاف فى تاريخ الوفاة بين المصادر التى ترجمت له إلا أن أغلبها قد حددت تاريخ وفاته بسنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م(٢١٥) . وبعضها ذكر أنها كانت سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م . أو سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م(٢١٦) . أو سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م(٢١٧) .

الهوامش

(١) نسبة إلى جزيرة صقلية ، وهى تقع فى حوض البحر المتوسط ، وهى أكبر جزر ذلك البحر ، وتقع إلى الجنوب من إيطاليا. وتتميز بموقع استراتيجى ٠ وقد حاول المسلمون فتحها منذ سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م، ولم تنجح تلك المحاولات إلا فى عهد دولة الأغالبة سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م ، وعلى يد القائد أسد بن الفرات والذى تمكن من فتح جزيرة صقلية ٠ واستمر حكم المسلمين لها إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ؛ الزهرانى ، على بن محمد، الحياة العلمية فى صقلية الإسلامية إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، معهد البحوث العلمية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٧١ هـ / ١٩٩٦ م، ص ٣١ ٠

(٢) قدم الباحث صالح بن عبد الرحمن الفايز رسالة ماجستير بعنوان (ابن ظفر الصقلى ومنهجه فى التفسير من خلال كتابه الينبوع) وذلك فى الجامعة الإسلامية بالمدينة سنة ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

أما الباحث محمد أحمد دمج فقد اعتنى بكتابه (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) ونشرته مؤسسة عز الدين ببيروت سنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م.

(٣) النورمان : هم من بلاد اسكندناوه ، وخاصة السويد والنرويج واشتق أسم إقليم نورمانديا منهم ، وهو الإقليم الذى يقع فى غرب فرنسا حيث استقروا ، وقد نبذوا الوثنية ، واعتنقوا الديانة المسيحية ٠ ومعنى اسمهم : رجال الشمال ٠ أى انهم جاءوا من أقاصى أوروبا الشمالية ٠ مارتينو ، ماريو مورينو ، المسلمون فى صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٩٨ م، ص ١٧ ٠

(٤) ابن الأثير ، عزالدين على بن محمد الشيبانى ، الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ج١٠ ، ص ١٨٧ - ١٨٩ ٠

(٥) يرجع السلاجقة فى أصولهم إلى مجموعة من القبائل التركية التىعرفت باسم " الغز" دفعتهم الظروف الاقتصادية والسياسية فى أواسط آسيا وبلاد المشرق إلى التنقل بحثا عن أسباب العيش الرغيد ، واستقروا فى إقليمى ما وراء النهر

وخراسان ٠ وعرفوا بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم سلجوق الذى أسلم واعتنق المذهب السنى ٠ عسيرى ، مريزن سعيد ، الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، مكتبة الطالب الجامعى مكة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص٠٧٦

(٦) هو المسترشد بالله الفضل ابن احمد ٠ تولى الخلافة سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م، وتوفى سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م٠ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٦ ٠

(٧) هو الراشد بالله بن المسترشد بالله (أبو جعفر منصور) تولى الخلافة سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م ، وتوفى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م٠ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٤٠ - ٤١ ٠

(٨) أبو الفتح المسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ٠ أصبح سلطاناً سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م، كان منهمكاً باللعب واللهو ، توفى سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م٠ ابن كثير ، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشى ، البداية والنهاية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، جـ ١٢ ، ص ١٣٠ ٠

(٩) هو أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله بن القائم بأمر الله٠ بويع بالخلافة سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م، وقد عظم سلطانه واشتدت شوكته ، وكان حليماً شجاعاً ، توفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١١٦٠ م٠ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٤١ ٠

(١٠) أبو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة ، كان عالماً باللغة والأدب والحديث ٠ من مؤلفاته " الإفصاح وشرح معانى الصحاح " وكتاب " العبادات فى الفقه على مذهب الإمام أحمد " ، توفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م ٠ ابن خلكان ، شمس الدين أحمد ابن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، د٠ ت، جـ٦ ، ص ٢٣٠ ٠

(١١) مريزن عسيرى ، الحياة العلمية فى العراق ، ص ٩٥ - ٩٦ ٠

(١٢) كان ذلك على يد صلاح الدين الأيوبى الذى ثبت أقدامه فى مصر ، وأزال المخالفين له ، وأضعف أمر الخليفة الفاطمى العاضد ٠

وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش . ثم قطع صلاح الدين الخطبة للعاضد ، وخطب للخليفة العباسي المستضيء . وبموت العاضد سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، انتهت الدولة الفاطمية . ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(١٣) وكان ذلك سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م، حين تمكن عبد المؤمن بن على التومرى من محاصرة مراكش وقتل آخر ملوك المرابطين ، إسحاق بن على بن يوسف بن تاشفين . ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٧٦ ، ١٨٧ .

(١٤) المهدية : مدينة بافريقية ، اختطها المهدى الفاطمي فنسبت إليه ، بينها وبين القيروان مرحلتان .

الحموى ، ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان ، دار صادر بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م. ج٥ ص ٢٩٩ .

(١٥) كان سقوط المهدية فى عهد آخر أمراء بنى زيرى الحسن بن على بن يحى بن تميم الزيرى ، وذلك أن روجر النورمندى حاصر مدينة المهدية ودك أسوارها وحاميتها إلى أن استسلمت ، وفر حاكمها وكثير من أهلها ، ودخلها بدون مقاومة ، واستمرت كذلك إلى أن استردها عبد المؤمن صاحب مراكش سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م.

ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ص١٢٥ ، ص ٢٤١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ .

(١٦) كرد، محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة . ١٣٦٥ / ١٩٤٦ م، ج١، ص ٢٨٥ .

(١٧) نذكر من هؤلاء على سبيل المثال ، الشريف الإدريسى صاحب كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) - الذى عاش فى بلاط الملك النورمندى روجر الثانى وتحت رعايته . وصنع له خريطة كروية للأرض من الفضة . وقد أطلق عليه اسم " استرابون العرب " حميده ، عبد الرحمن ، أعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ م. ص ٣١٨ .

(١٨) السلطان أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين البربرى ، ملك المرابطين توج سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م. كان شجاعا عالما مجاهدا عادلا ورعا صالحا ، توفى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م. الذهبى شمس الدين محمد بن أحمد ، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م. ج٢٠ ، ص ١٢٤ .

(١٩) المراكشى ، عبد الواحد ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، اعتناء محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ ، ص ١٧١ .

(٢٠) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربرى المصمودى ، المدعى انه علوى حسنى . كان شجاعا مهيبا ، غاويا فى الرياسة والظهور ، فصيحا فى العربية والبربرية . توفى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م.

الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٣٩ .

(٢١) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ١٨ .

(٢٢) مريزن عسيرى ،الحياة العلمية فى العراق ، ص ١٧٣ .

(٢٣) الحموى ، ياقوت بن عبد الله ، معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، د.ت. ج٨ ص ٥٤ .

(٢٤) البيهقى ، أبو الحسن على بن زيد، تاريخ حكماء الإسلام ، اعتناء وتحقيق محمد كرد على ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق طبعة مصورة عن الطبعة الأولى ،١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م، ص٧ .

(٢٥) حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٣٨٧هـ /١٩٦٧ م، ج٤ ، ص ٤٢٠ .

(٢٦) الحموى ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص٤٨ . القفطى ، على بن يوسف ، أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الفكر العربى ج٣، ص٧٤ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٤، ص٣٩٥ . الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٥٢٢ . الصفدى ، صلاح الدين خليل بن ايبك ، الوافى بالوفيات ، اعتناء مجموعة من الباحثين ، دار فرانز شتايز ، فيسبادن ، (١٣٩٢/ ١٩٧٢م) ج١، ص ١٤١ . الفاسى تقى الدين أحمد بن محمد الحسنى ،

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق ، فـؤاد سـيد ، القـاهرة ، (١٣٩٢ / ١٩٧٢ م) ج٢ ، ص ٣٤٤ . ابن حجر ، أحمد بن على العسقلانى ، لسان الميزان ، بيروت ، دار الفكر ، (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) ج٥ ، ص ٤٢٠ . الـداوودى ، محمد بن على بن أحمد ، طبقات المفسرين ، تحقيق ، على محمد عمـر ، مكتبـة وهبة ، القاهرة ، (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ج٢، ص١٦٧ .

(٢٧) منير الدين أحمد ، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائـهم حتـى القرن الخامس الهجرى ، ترجمـة ، سـامى الصقـار ، الريـاض ، دار المريـخ (١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م.) ص ٦٥ .

(٢٨) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ص ٥٤١ . ومن الأجدر بنا أن نضيف هنا انه نظرا لأهمية الرحلات العلمية فـى تاريخ المسلمين التعليمى ، فلقد صنف فيها عدد من العلماء ، كالخطيب البغـدادى ، المتوفى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م. والذى كتب كتابا سماه : (الرحلـة فـى طلـب الحديث) والكتاب مطبوع عدة طبعات ، ونشرته عدد من دور النشر ، وكذلك أبـو العباس أحمد بن محمد بن مفرح النباتى الأندلـس ، المتوفـى سـنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩م. الذى ألف كتابا سماه : (الرحلة) العسيرى ، مريـزن سـعيد، الحيـاة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٤٨ .

(٢٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٣٠) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ص٤٢٠ .

(٣١) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٤٢٠ ، وأبو الطاهر هو : العلامة المحـدث الحافظ أحمد بن محمد الأصبهانى السلفى : نسبة إلى جده إبراهيـم سـلفه ، ولـد بأصبهان على خلاف بين سنتى ٤٧٢ - ٤٧٦ هـ / ١٠٧٩ - ١٠٨٣ م.
من علماء الحديث والفقه واللغة ، لم يكن فى آخر عمره فى عصره مثلـه . ألـف (معجم السفر) الذى يشتمل على أكثر من ألفى شيخ . توفى بعد أن عمر مائة سـنة أو زيادة وذلك سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م. ابـن خلكـان ، وفيـات الأعيـان ، ج١ ص١٠٥ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ص ٥ .

(٣٢) أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن سليمان القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي، فقيه مالكي ، ومحدث ، ومفسر وأديب ، رحل إلى الكثير من البلدان وسكن الشام مده واستقر في الإسكندرية وقام بالتدريس وقصده الطلاب من كل مكان من أشهر مؤلفاته (الكتاب الكبير في مسائل الخلاف) وكتاب (شرح رسالة الشيخ ابن أبي زيد) كانت ولادته سنة ٤٥١ / ١٠٤٩ م. ووفاته سنه ٥٢٠ / ١١٢٦ م بالإسكندرية . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٢٦٢ ، ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ج٥، ص ٢٣١ .

(٣٣) السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن ، بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر القاهرة ج١ ص ١٤٢ . الداوودى ، طبقات المفسرين ،ج ٢ ص ١٦٧ .

(٣٤) الفاسي ، العقد الثمين ج٢ ص ٣٤٦ : الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ص ٢٤٧ .

(٣٥) ابن العربى : محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى ، من أهل إشبيلية . إمام علامة، حافظ ، قرأ القرآن وتعلم القراءات والتفسير والفقه والأصول من مؤلفاته ، أحكام القرآن وغير ذلك . توفى سنه ٥٤٣ / ١١٤٨ م. ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن على المدنى الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تحقيق وتعليق، محمد الأحمدى أبو النور دار التراث للطبع والنشر . القاهرة ١٩٧٢ م. ج٢ ص ٢٥٢ . السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن ، طبقات المفسرين ، مراجعة لجنة من العلماء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣ / ١٩٨٣ ص ٩٠ .

(٣٦) ابن ظفر الصقلى ينبوع الحياة ، مخطوط ، رقم ٥٠٦ تفسير ، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، ج١ ورقة ٢٢٠ .

(٣٧) الفاسى ، العقيد الثمين ، ج٢، ص ٣٤٦ ، الداوودى ، طبقـات المفسـرين ، ج٢ ، ص ٢٤٧ .

(٣٨) أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر اللخمـي ، المعـروف بـابن الدباغ ، هو أحد الأئمة المهرة المتقنين ولى خطابة مرسية من قضاء دانية ، كـان سمحا مؤثرا نزه النفس ، توفى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١ م.
ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك ، الصلة ، الـدار المصريـة للتـأليف والترجمة ، مطابع سجل العرب ، ج٢ ص ٦٨٢ .
الضبى ، أحمد بن يحيى بن أحمد ، بغية الملتمس فى رجال أهـل الأندلـس ، دار الكتاب العربى، ١٩٦٨ ص ٤٩١ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص٢٢٠.

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، ج٢ ، ص ٦٨٣ .

(٤٠) أبو مروان عبد الملك بن مسرة بن فرج بن خلف اليحصبى ، من أهل قرطبة ومـن مفاخرها وأعلامها جمع الله له الحديث ، والفقه والأدب ، والخط الحسن والفضـل والدين والورع ، وكان على منهاج السلف توفى فى سـنة ٥٥٢ / ١١٥٧ م. ابـن بشكوال ، الصلة ، ج٢ ، ص ٣٦٦ .

(٤١) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٦ ، الداوودى ، طبقـات المفسـرين ، ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٤٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٥ .

(٤٣) ذكر ذلك الفاسى نقلا عن القطيعى فى (ذيل تاريخه لبغداد) وعن القطب الحلبـى فى تاريخ مصر .

(٤٤) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ .

(٤٥) السيوطى ، بغية الوعاه ، ج١، ص ١٤٢ .

(٤٦) الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص ١٦٧ .

(٤٧) ابن أبى عصرون هو : شيخ الشافعية ، وقاضى القضاة ، وعالم أهل الشام شـرف الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن على بن أبى عصـرون التميمى الموصلى . ولد سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٩٨ م. كان من الصـالحين والعلمـاء

العاملين . بنى له الملك نور الدين محمود بن زنكى المدارس فى حلب وحماه وحمص وبعلبك • وبنى لنفسه مدرستين بدمشق وحلب • ومن أهم مؤلفاته : (صفوة المذهب على نهاية المطلب) وكتاب (الانتصار) وكتاب (المرشد) وغيرها. توفى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩م . وعن ابن عصرون ومدرسته انظر : ابن أبى جراده ، كمال الدين عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، دار الكتاب العربى ، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م) جـ٢ ، ص ٤٧٦ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ج٣ ص ٥٣ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ص ١٢٥ ، السبكى تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن على ، طبقات الشافعية الكبرى ، بيروت ج٤ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، النعيمى ، عبد القادر بن محمد الدمشقى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر وتحقيق جعفر الحسنى ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ج١ ، ص ٣٩٨ • جوده ، صادق أحمد داود، المدارس العصرونية فى بلاد الشام ، بيروت مؤسسة الرسالة (١٤٠٦ - ١٩٨٦) ص ١٧ ، ١٦٢ •

(٤٨) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٤٨ ، السيوطى ، بغية الوعاه ، ج١ ، ص١٤٢ •

(٤٩) ابن أبى جراده ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج٢ ، ص٤٨٦ - ٤٨٧ •

(٥٠) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣، ص٧٥ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ج١ ، ص ١٤١

(٥١) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٣٣ •

(٥٢) العماد الأصفهانى ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى ، جريدة القصر وخريدة العصر ، قسم شعراء الشام • تحقيق شكرى فيصل المطبعة الهاشمية ، دمشق، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ م• ص ٤٩ •

(٥٣) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ •

(٥٤) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ •

(٥٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٥ •

(٥٦) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٢ •

(٥٧) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٥٨) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٤ .

(٥٩) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٦ .

(٦٠) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥، ص ٤٢٠ .

(٦١) السيوطى ، بغية الوعاة ، ج١ ، ص ١٤٢ .

(٦٢) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١ ، ص ٢٦٤ ، ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٣٧٢ .

(٦٣) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢١ ، ص ١٠٥ ، الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢، ص ٣٤٤ .

(٦٤) الصفدى ، الوافى بالوفيات، ج٤،ص١٧١ .

(٦٥) ابن ظفر، سلوان المطاع، المطبعة التونسية ، ١٢٧٩ هـ ، ص٢ .

(٦٦) الصفدى، الوافى بالوفيات، ج٤، ص١٧١ .

(٦٧) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص٢ .

(٦٨) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١٢، ص ٦٧ .

(٦٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٩ .

(٧٠) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٣٧٢ .

(٧١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٩٩ .

(٧٢) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٩٧ .

(٧٣) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ٢٨ .

(٧٤) العماد ، الخريده ، قسم الشام ، ج٣ ، ص ٤٩ .

(٧٥) العماد ، الخريده ، قسم الشام ، ج٣ ، ص ٦٠ .

(٧٦) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ .

(٧٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .

(٧٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٦ .

(٧٩) من ذلك على سبيل المثال : ياقوت ، معجم الادباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ ، القفطي ، أنباه الرواه ، ج٤،ص٧٤ ٠ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٣٦٩ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ص ٢٠٢٥ ٠

(٨٠) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣، ص٧٤ ٠

(٨١) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٤٢٠ ٠

(٨٢) وكانت تلك الدراسة للباحث صالح بن عبد الرحمن الفايز ، وهى عبارة عن رسالة ماجستير عنوانها : (ابن ظفر الصقلى ومنهجه فى التفسير من خلال كتابه الينبوع) وذلك فى العام ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م٠

(٨٣) الفايز ، صالح عبد الرحمن ، ابن ظفر الصقلى ومنهجه فى التفسير ، ص ٧١ ٠

(٨٤) بروكلمان ، كارل ، تاريخ الأدب العربى ، نقلة إلى العربية السيد يعقوب بكر ، وراجعة رمضان عبد التواب ، القاهرة ، دار المعارف ، ج ٦ ، ص١٦٣ ٠

(٨٥) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ٢٧٦ .

(٨٦) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي ، رحل فى طلب العلم ، كان فقيها ، أصوليا ، أديبا ، فاضلا ، توفى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م . السيوطى ، حسن المحاضره فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م٠ ج١ ، ص ٤٣٧: ابن العماد أبو الفلاح عبد الحى الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ، دار الفكر د٠ت٠ ج٦ ، ص ٣٣٥ ٠

(٨٧) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ٢٧٤ ٠

(٨٨) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤١ ، السيوطى ، بغية الوعاة ، ج١ ، ص ١٤٢ ٠ بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ، ص ١٦٣ ٠

(٨٩) سورة المائدة آية رقم ٦. وانظر أيضا ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٦ ٠

(٩٠) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ ، الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص ١٦٨ ٠

(٩١) الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص ٢٤٦ ٠

(٩٢) سورة الأنعام آية رقم ١٣٣ .

(٩٣) ابن ظفر ، ينبوع الحياة، مخطوط ، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، ج٢ ، ورقة (٩٢).

(٩٤) ابن ظفر ، ينبوع الحياة ، ج٥ ، ورقة ١١١ ، الفايز ، ابن ظفر ومنهجه في التفسير، ص٥٧ .

(٩٥) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ، المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت ، دار الغرب الإسلامى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ج٧ ، ص ١٥٩ ، الداوودى، طبقات المفسرين ج٢، ص٢٤٧ .

(٩٦) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ج١، ص١٤٢ ، السيوطى ، بغية الوعاه ، ج١، ص١٣٢ .

(٩٧) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ص١٤٢ ، الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢، ص ٢٤٧ .

(٩٨) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ ، الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ص ٢٤٧ .

(٩٩) الوافى بالوفيات ، ج١، ص١٤٣، الداوودى ، طبقات المفسرين، ج٢، ص٢٤٧ .

(١٠٠) الداوودى، طبقات المفسرين، ج٢، ص٢٤٧ ، وقد سماه المقريزى كتاب (المعادات) انظر المقفى الكبير . ج٧، ص١٥٩ .

(١٠١) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ .

(١٠٢) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ، ص١٤٢ .

(١٠٣) الداوودى ، طبقات المفسرين ،ج٢ ، ص٢٤٦ .

(١٠٤) الصفدى ، الوافى بالوفيات، ج١،ص١٤٢ .

(١٠٥) القرطبى : هو محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الانصارى الخزرجى الأندلسى، أبو عبدالله ، من كبار المفسرين، من مؤلفاته : (الجامع لأحكام القرآن) و (الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) و (التذكار فى أفضل الأذكار) . توفى سنة ٦٧١ / ١٢٧٣ م . المقرى ، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق ، يوسف الشيخ محمد البقاعي ، بـــيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ م٠ ج٢، ص ٤١٣ ٠ الزركلي ، الأعلام ،ج٥ ، ٣٢٢ ٠

(١٠٦) القرطبي ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري ، التذكرة في أحـوال الموتى وأمور الآخرة ٠ خرج أحاديثه أبو سفيان محمود بن منصور البسطويســي ، المدينة المنورة ، دار البخاري للنشر والتوزيـــع ١٤١٧ / ١٩٩٧ م٠ ج١ ص ٧٠- ٧١ ٠

(١٠٧) المقريزي ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ ٠

(١٠٨) الصفدي ،الوافي بالوفيات ، ج١، ص١٤٣ ، الداوودي ، طبقات المفســرين ، ج٢، ص ٢٤٧ ٠

(١٠٩) سورة يوسف : الآية رقم ٤١ .

(١١٠) مضمون هذا الحديث أورده ابن ظفر في ينبـــوع الحيـــاة ، ج٣ ورقـــة ١٨ ب ٠ وبالرجوع إلى كتب الحديث لم أجد ما يقاربه إلا ما ذكره الدرامي في باب الرؤيـــا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والتي ذكرت قصة المرأة التي كانت تـــأتي إلى الرسول ﷺ ليعبر لها رؤياها المتكررة ٠ انظر الدرامـــي، أبـــو محمـــد عبد الرحمن بن الفضل ، السنن ، عناية محمد احمد وهمان ، نشـــر دار إحيـــاء الســـنة النبوية ، ج٢، ص ١٣١ ٠

(١١١) ابن ظفر ، ينبوع الحياة ، ج٣ ، ورقة ١٨ ب ٠

(١١٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج١، ص١٢٦ ٠ البغدادي ، إسماعيل باشا ، هديـــه العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفيـــن ، بـــيروت ، دار الكتـــب العلميـــة ، ١٤١٣ / ١٩٩٢ م، ج٦ ، ص ٩٦ ٠ أماري ميخائيل ، المكتبة العربية الصقليـــة ، لبيسك ١٨٥٧م٠ طبعة بالأوفست في مكتبة المثنى ببغداد ص ٧٠٠ ٠

(١١٣) المقريزي ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ ٠

(١١٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، المقريزي ، المقفى ، ص ١٥٩.

(١١٥) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ ، كحاله ، عمـــر رضـــا ، معجـــم المؤلفين ، بيروت دار إحياء التراث العربي ، ١٣٧٦ / ١٩٥٧ م ج ١ ، ص ٢٤١.

(١١٦) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص١٤٢ ، كحالة ، معجم المؤلفين ، ج١٠ ، ص٢٤١ .

(١١٧) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ .

(١١٨) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص١٤٢ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ١٠١ .

(١١٩) الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص١٧١ ، الزركلى ، الأعلام ، ج٦، ص٢٣١ .

(١٢٠) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ١٠١ .

(١٢١) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١، ص ٢٦١ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج٦، ص ٩٥ .

(١٢٢) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(١٢٣) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(١٢٤) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، تحقيق محمد دمج ، ص ١٦ .

(١٢٥) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ .

(١٢٦) أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى ، منسوب إلى صناعة الحرير أو بيعه ، ولد بالمشان بالقرب من البصرة ، كان أديبا فاضلا فصيحا ، قرأ العربية على ابى الحسن بن فضال المجاشعى ، والفقه على أبى إسحاق الشيرازى من مؤلفاته (المقامات) المشهورة . توفى سنه ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م.
القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٢٣ ، السيوطى ، بغية الوعاه ، ج٢، ص ٢٥٧.

(١٢٧) كشف الظنون ، ج١ ، ص ٧٤١ .

(١٢٨) ابن برى : هو العلامة أبو محمد عبد الله بن برى بن عبد الجبار المقدسى النحوى، أمام وقته فى النحو كان مقصد الطلاب من الآفاق وعالما باللغة وشواهدها. من مؤلفاته (جواب المسائل العشر) و (حواش على الصحاح) توفى سنه ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م. الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢١ ، ص ١٣٦ .

(١٢٩) ابن الخشاب هو : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد البغدادى ، العالم المشهور في الأدب والنحو والتفسير والحديث ويضرب به المثل فى العربية وقد شرح كتاب (الجمل) لعبد القاهر الجرجانى ، وشرح (اللمع) لابن جنى . توفى سنه ٥٦٧ هـ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣، ص١٠٢ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٣ .

(١٣٠) الكتاب طبعة مطبعة الأمانة بالقاهرة سنه ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م.

(١٣١) حواشى ابن برى وابن ظفر على درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى ، دراسة وتحقيق ، أحمد طه سلطان القاهرة، مطبعة الأمانة ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م . ص ٤ .

(١٣٢) الشهاب الخفاجى هو : أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين المصرى ، قاضى، ولد ونشأ بمصر ، تولى القضاء فى مصر . له مؤلفات كثيرة منها (شفاء العليل) و (نسيم الرياض) و (ديوان الأدب) توفى سنه ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م. الزركلى ، الإعلام ، ج١ ص ٢٣٨ .

(١٣٣) حاشية ابن برى وابن ظفر على درة الغواص ، ص ٥ .

(١٣٤) حاشية ابن برى وابن ظفر على درة الغواص ، ص ٤ .

(١٣٥) الحاشية على درة الغواص ، ص٢٣ .

(١٣٦) سورة الزمر آية رقم ٣٧ .

(١٣٧) الحاشية على درة الغواص ، ص ٤٤ .

(١٣٨) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٧٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٦ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ .

(١٣٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٦ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١، ص ١٤٢ .

(١٤٠) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩ ، السيوطى ، بغية الوعاه ، ج١، ص ١٤٣، الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص ١٧٢ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٧٨٨ .

(١٤١) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٥، ص ١٤٧ .

(١٤٢) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٧٥ .

(١٤٣) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣، ص ٧٥ .

(١٤٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٦ .

(١٤٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ٣٩٦ .

(١٤٦) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ٣٩٦، الذهبى ، سير إعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٢ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ص ٧٢٧ .

(١٤٧) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٦، ص ١٦٢ .

(١٤٨) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩، الصفدى، الوافى بالوفيات ، ج١، ص ١٤١، طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ، ج١ ، ص ٢١٥ .

(١٤٩) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١١٧ .

(١٥٠) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ، ص ١٦٢ .

(١٥١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ، ص ١٦٢ .

(١٥٢) المرجع السابق ، ج٦، ص ١٦٢ .

(١٥٣) المرجع السابق ، ج٦، ص ١٦٢ .

(١٥٤) ابن ظفر ، ابناء نجباء الابناء ، اعتناء مصطفى القبانى ، د.ت. ص ٥- ٦ .

(١٥٥) الضرام: دقاق الحطب الذى يسرع اشتعال النار فيه ومنه قولهم : ضرمت النار وتضرمت ، واضطرمت وقيل: الضرام من الحطب كل مالم يكن له جمر . ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٢، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(١٥٦) الرهام : جمع الرهمة بالكسر: أى المطر الضعيف الدائم الصغير القطر . يقال : أرهمت السماء إرهاما: أى امطرت ، وأرهمت السحابة : أى اتت بالرهام . ابن منظور ، المصدر السابق ج١٢، ص ٢٥٧ .

(١٥٧) كهام: كهم الرجل وكهم يكهم كهامة ، فهم كهام وكهيم ، وتكهم : بطؤ عن النصرة والحرب ورجل كهام : ثقيل مسن ، وسيف كهام : أى لا يقطع ، ولسان كهيم : أى كليل عن البلاغة . ابن منظور ، المصدر السابق ج١٢، ص ٥٢٩ .

(١٥٨) همع: همع الدمع والماء ونحوهما ، أي سال • المصدر السابق ج٨، ص ٣٧٥ •

(١٥٩) الغمام : جمع غمامة ، أي السحاب ويقال سحاب أغم ، أي لا فرجه فيه • ووكفا من قولهم : وكف الدمع والماء وكفاووكيفا ووكوفا : إذا كانت تسيل قليلا قليلا • المصدر السابق ، ج١٢، ص ١٤٤ و ج ٩ ،ص ٣٦٢ •

(١٦٠) ابن ظفر ، أنباء نجباء الأنباء ، ص ٦ •

(١٦١) غرة الشيء: أوله وأكرمه ، ويقال : غرة قومه : أي سيدهم • كما يقال : فلان غرة من غرر قومه • أي شريف من أشرافهم • ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥، ص ١٥ –١٦ •

(١٦٢) ابن ظفر ، أبناء نجباء الأبناء ، ص ٤٨ ، ص٥٠ ، ص ٥١ ، ص ٦٥ •

(١٦٣) من ذلك : ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤١، الأدنه وى ، أحمد بن محمد ، طبقات المفسرين ، تحقيق سليمان بن صالح الخزى ،المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم ١٤١٧هـ/١٩٩٧م . ص١٨٨

(١٦٤) البغدادى ، هدية العارفين ، ج٦ ،ص ٩٤ – ٩٥ •

(١٦٥) كشف الظنون ، ج٢، ص ٩٩٨ •

(١٦٦) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٦، ص ١٦١ •

(١٦٧) بروكلمان ، المرجع السابق ، ج٦، ص ١٦١ – ١٦٢ •

(١٦٨) العماد ، الخريده ، فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٠٥ •

(١٦٩) لم اعترى له على ترجمه • كما أن هذا التاريخ لم تكن فيه صقلية تحت حكم المسلمين إذ أنها سقطت فى أيدى النورمان ولا وجود لقادة مسلمين فيها ، إلا إذا كان أميرا اسميا فقط ، وتحت رعاية الحكام النورمنديين •

(١٧٠) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١١٤ ، ١١٦ •

(١٧١) ابن ظفر ، المصدر السابق ، ص ١١٧ •

(١٧٢) الدورى ، تقى الدين عارف ، سقوط صقلية فى يد النورمان ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد الثامن ، ١٩٨٤ م• ص ٣٤٣ •

(١٧٣) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١١٧ ، أما عن معنى السلوان كما ورد فى معاجم اللغة فقد ذكر الفيروز ابادى أن : السلوان بالضم : العسل ، كالسلوى ، ومنه خرزة تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ويسقاها الإنسان فتسليه أو هو دواء يسقاه الحزين فيفرحه ، القاموس المحيط ، ج٤، ص ٣٤٦ .

(١٧٤) سورة النساء آية رقم ١٩ .

(١٧٥) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

(١٧٦) سورة التوبة آية رقم ٥١ .

(١٧٧) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(١٧٨) ومن تلك القصص قصة مؤمن آل فرعون التى وردت فى صورة غافر والصراع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، وبين الأمين والمأمون . وغير ذلك من الأحداث التى أراد منها المؤلف دعم آرائه وأفكاره فيما يتعلق بسلوانه التفويض .

(١٧٩) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٦٣– ١٦٥ .

(١٨٠) من ذلك ذكره لما روى عن النبى ﷺ من انه قال: (انظروا إلى ما هو اسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فأنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) . ومن كلام المؤلف عن هذا الحديث قوله : أنه أمر لمن كان فى نعمة دقيقة ، بان ينظر إلى من هو فى نعمة أدق منها . وأمر لمن كان فى بلاء ، أن ينظر لمن كان فى بلاء اشد من بلائه .. ثم قال : وإنما كان هذا الخبر بليغا فى باب التأسى ، ص ١٦٦– ١٦٧ .

(١٨١) سورة النحل آية رقم ١٢٧ .

(١٨٢) سلوان المطاع ، ص ٢٠٣ .

(١٨٣) سورة التوبة آية ٨٥ .

(١٨٤) سورة التوبة آية ٥٩ .

(١٨٥) سلوان المطاع ص ٢٤٥ .

(١٨٦) سورة طه آية ١٣١ .

(١٨٧) سلوان المطاع ، ٢٨٣ ٠

(١٨٨) عبد الحميد حاجيات ، نظرية بن ظفر الصقلي في أخلاق الملوك ، مجلة أوراق ، عدد ٤-٥-٦ ، ص ٥٠ ٠

(١٨٩) أبو حمو موسى (الثانى) بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحى بن يغمرا سن بن زيان ٠ مجدد الدولة (العبد الوادية) فى تلمسان ٠ وكان ملوك بنى حفص قد أعانوه على استرداد ملكه من بنى مرين ٠ توفى مقتولا فى معركة ضد ابنه عبد الرحمن وذلك سنه ٧٩١هـ /١٣٨٩ م٠ كحالة ، معجم المؤلفين ، ج١٣،ص ٥٠ -٥١ ، الزركلى ، الإعلام ، ج١٧، ص ٣٣١ - ٣٣٢ ٠

(١٩٠) عبد الحميد حاجيات ، بن ظفر ونظريته في اخلاق الملوك ، مقال ، ص ٥٠ ٠

(١٩١) أبو المظفر شمس الدين يوسف ابن قزاوغلى بن عبد الله ٠ ابن بنت الأمام عبد الرحمن ابن الجوزى ، عالم واعظ ، مؤرخ ، من مؤلفاته الكثيرة (الانتصار لائمة الأمصار) و(ايثار "الإنصاف فى مسائل الخلاف) و(معادن الابريز) وغير ذلك توفى سنه ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م٠ الذهبى ، سير إعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٦، ٢٩٧ ٠

(١٩٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الشروق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م٠ ، ص ٣٥ ٠

(١٩٣) كتاب (كنز الملوك) لسبط ابن الجوزى ٠ موجز فى السياسة على منوال كتابه الأخر (جوهرة الزمان) وله تسمية أخرى بعنوان (مختصر جوهرة الزمان) ٠ وقد طبع الكتاب بعناية غوسطا فيتسم وزود بمقدمات وتعليقات وذلك سنه ١٩٧٠ م٠ فى السويد ٠ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، مقدمة المحقق، ص ٣٥ ٠

(١٩٤) أبو زكريا يحيى بن محمد بن محمد بن الحسين بن خلدون الحضرمى ، المغربى ، ولد بتونس، وسكن فاس ، وقتل بتلمسان ٠ كان كاتبا للإنشاء فى دولة بنى عبد الواد ٠ ومن مؤلفاته كتاب (أيام أبى حمو الشامخة الاطواد) فى جزءين وقد كانت وفاته سنه ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م٠ كحالة ، معجم المؤلفين ج ١٣ ، ص ٢٢٨ ، الزركلى ، الإعلام ، ج٧، ص ٣٣٢ ٠

(١٩٥) ومن ذلك فى العصر الإسلامى نجد أن هذا النوع الأدبى قد ازدهر بعد نقل وترجمة بعض الآداب الفارسية إلى اللغة العربية مثل (كليلة ودمنه) و(الأدب الكبير) لابن المقفع ، وكتاب (سير ملوك العجم) لابن المقفع أيضا ٠ وكذلك من خلال كتابات الجاحظ فى (التاج) و (المحاسن والأضداد) ٠ وفى العصر العباسى ظهر هذا النوع من التأليف ومن أمثلة ذلك كتاب (إحسان المحاسن) (لأبى حسن الرخجى) وكتاب (الإشارة إلى أدب الوزارة) للمرادى ٠ وكتاب (سراج الملوك) للطرطوشي ٠ وكتاب (الشهب اللامعة فى السياسة النافعة) لابن رضوان ٠وكتاب (آداب السياسة بالعدل) للمبارك الخازندار البدرى ٠ ابن ظفر سلوان المطاع ، ص ٥٧ ٠

(١٩٦) على أن أهم المصادر التى اعتمد عليها ابن ظفر فى كتابه (سلوان المطاع) هى (كتاب تاريخ غرر السير) للثعالبى ٠ و(تاريخ الطبرى) و (تاريخ بغداد) ومؤلفات المسعودى (مروج الذهب ، وأخبار الزمان ، والتنبيه) ومؤلفات الماوردى (أدب الدنيا والدين ، وتسهيل النظر ، والأحكام السلطانية) واعتمد كذلك على بعض مؤلفات الغزالي ومنها (أحياء علوم الدين ، والتبر المسبوك) وكتب مسكويه (تهذيب الأخلاق ، والحكمة الخالدة) ٠ وكتاب (التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ) ٠ واعتمد كذلك على كتاب (السياسة) لابن حزم ٠ وهذه ليست كل مصادر ابن ظفر فى (السلوان) وإنما هى أمثلة عليها ٠ ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ٧٥ –٧٦ ٠

(١٩٧) معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ ٠

(١٩٨) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ ٠

(١٩٩) العماد الأصفهانى ، الخريده ، فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٠٥ ٠

(٢٠٠) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ ٠

(٢٠١) بغية الوعاه ، ج١، ص ١٤٣ ٠

(٢٠٢) أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندى ، الملقب ، تاج الدين، البغدادى المولد والمنشأ ، الدمشقى الدار والوفاه ٠ نحوى اديب ، أوحد عصره فى

فنون الآداب وعلو السماع • له كتاب مشيخة على حرف المعجم • أخذ عن مجموعة من الشيوخ ومنهم ابن الخشاب وأبو منصور الجو اليقى • توفى سنه ٦١٠هـ / ١٢١٣ م• ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .

(٢٠٣) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣، ص ٧٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٤ • ، ص ٣٩٦ •

(٢٠٤) على سبيل المثال ما نجده عند العماد الإصفهانى فى (الخريدة) وعند القفطى فى (أنباه الرواه) وعند ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) والصفدى فى (الوافى بالوفيات)•

(٢٠٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٦ •

(٢٠٦) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٢٨ •

(٢٠٧) ابن ظفر ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ •

(٢٠٨) السيوطى ، بغية الوعاة ، ج٢، ص ١٤٣ •

(٢٠٩) ابن ظفر ، سلوان المطاع، ص ٢٤٩ •

(٢١٠) ابن ظفر ،المصدر السابق ، ٢٨٩ •

(٢١١) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ،ص ٧٤ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٧ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١، ص ١٤٢ .

(٢١٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ •

(٢١٣) هو الملك العادل نور الدين محمد بن زنكى بن آقستقر ، صاحب الشام ، كان ملكا عادلا ، مجاهدا ، بنى المدارس فى بلاد الإسلام • واشتهر بأعمال البر ، وتوفى سنه ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م• الذهبى ، سير إعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٣١ •

(٢١٤) أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٧٥ –٧٦ ، وهنا أنقل تعليق القفطى على هذه الحالة – وان كنت أرى فيها نوعا من التحامل – حيث قال : (وهذا غاية ما يكون من الخسة ، وأهل حماه قوم لا يعرفون كرما ، ويعدون البذل مغرما ، فبقى فى غمرات الفقر شطر عمره)

(٢١٥) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٧ ، الذهبي ، سير إعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٣ ، الصفدى ، الوفيات ، ج١ ، ص ١٤١ ، الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٩٦ ٠

(٢١٦) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣، ص ٧٤ ، الفاسى ، العقد الثمين نقلا عن القطيعى فى ذيل تاريخ بغداد ٠ ج٢ ، ص ٣٩٦ ٠

(٢١٧) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٤٢١ ٠

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر المخطوطة :

ابن ظفر الصقلي ، حجة الدين محمد بن أبى محمد ، ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م . ينبوع الحياة ، مكة المكرمة ، معهد البحوث العلمية ، جامعة أم القرى ، الجزء الأول رقم (٥٠٦) تفسير .

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة :

- ابن أبى جراده ، كمال الدين عمر بن أحمد ، ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
- ابن الأثير عز الدين على بن محمد الشيبانى ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، الكامل فى التاريخ ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك ، ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ، الصلة ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة مطابع سجل العرب ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٦م .
- ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .
- ابن حجر ، الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى ، ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م . لسان الميزان ، بيروت ، درا الفكر ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٧٨م .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م . المقدمة ، بيروت دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الرابعة ، د. ت .

- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، ت٦٨١هـ/١٢٨٢م ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

- ابن ظفر ، حجة الدين محمد بن أبى محمد الصقلى ، ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م .

(أ) سلوان المطاع في عدوان الأتباع ، تحقيق محمد أحمد دمج ، بيروت ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م . وطبعة أخرى باعتناء أبو أحمد بن عبد المجيد ، نشر أسعد طرابزونى الحسينى ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م . وطبعة تونس المؤرخة سنة ١٢٧٩هـ .

(ب) حاشية ابن ظفر على درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ، تحقيق أحمد طه سلطان، القاهرة ، مطبعة الأمانة ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

(جـ) أنباء نجباء الأبناء ، بيروت ، دار الآفاق ، د. ت .

(د) خير البشر بخير البشر، القاهرة ، د. أ. ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

- ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، ت ١٠٨٩هـ/١٧٧٥م ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، دار الفكر ، ط١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى المدني ، ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م . الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة دار التراث ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

- ابن كثير ، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م ، البداية والنهاية ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١هـ/١٣١١م ، لسان لعرب بيروت ، دار صادر ، د. ت .

- ابن منقذ ، أبو المظفر مجد الدين أسامة بن مرشد الشيزرى ، الاعتبار ، تحقيق قاسم السامرائى ، الرياض ، دار الأصالة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- الأدنة وى ، احمد بن محمد ، من علماء القرن الحادي عشر الهجري ، تحقيق سليمان بن صالح الخزى ، المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

- البيهقى ، أبو الحسن على بن زيد ، ت ٥٦٥هـ/١١٧٠م . تاريخ حكماء الإسلام ، اعتناء محمد كرد على ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

- حاجى خليفة ، مصطفى بن عبد الله ، ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م . كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، اعتناء محمد شرف الدين ورفعت بيلكه ، استانبول ١٣٦٠-١٣٦٢هـ / ١٩٤١-١٩٤٣م .

- الحموي ، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي ، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م . معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م . معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، د. ت .

- الدارمى ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام ، ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م ، السنن ، اعتناء محمد أحمد دهمان ، دار إحياء السنة ، د. ت .

- الداودى ، شمس الدين محمد بن على بن أحمد ـ ت ٩٤٥هـ/١٥٣٨م . طبقات المفسرين، تحقيق على محمد عمر ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

- الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى ، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥هـ حياة الحيوان القاهرة ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م .

- الذهبي ، الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، بيروت ، دار الرسالة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- سبط ابن الجوزى ، يوسف بن قزاوغلى ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦هـ ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، القاهرة ، دار الشروق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- السبكى ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علـى ، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م . طبقات الشافعية الكبرى ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة ، د.ت.

- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م .

(أ) طبقات المفسرين ، مراجعة لجنة من العلماء ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(ب) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م .

- الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م الوافي بالوفيات، اعتناء مجموعة من الباحثين ، ألمانيا ، دار فرانز شتايز بفيسبادن ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره ، ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، د. م. دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

- طاش كبرى زاده ، أحمد مصطفى ، ت ٩٦٨هـ/١٥٦٠م . مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم ، مراجعة وتحقيق كامل بكرى و عبد الوهاب أبو النور ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة د. ت .

- العماد الأصفهاني ، أبو عبد الله محمد بن محمد صفي الدين ، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، دمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

- الفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب ، ت ٨١٧هـ/١٤١٤هـ ، القاموس المحيط ، بيروت ، المؤسسة العربية ، دار الجبل للطباعة والنشر د. ت .

- القرطبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن فرج الأنصاري ، ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م ، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، خرج أحاديثه أبو سفيان محمود بن منصور البسطويسي ، المدينة المنورة ، دار البخاري للنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م . عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، القاهرة ، مطبعة المعاهد . د. ت .

- القفطى ، الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف ، ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الفكر ، بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- المراكشي ، عبد الواحد بن على ، ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، اعتناء محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي ، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٤٩م .

- المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- النعيمى ، عبد القادر بن محمد ، ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م . الـدارس فـي تـاريخ المدارس ، تحقيـق جعفـر الحسـنى ، القـاهرة ، مكتبـة الثقافـة الدينيـة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

ثالثا : المراجع العربية الحديثة :

- بروكلمان ، كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .
- البغدادى ، إسماعيل باشا ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عـن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- جوده ، صادق أحمد داوود ، المدارس العصرونية في بلاد الشـام ، بـيروت ، مؤسسة الرسالة ، دار عمار ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، القاهرة ، مكتبة النهضة الحديثـة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .
- الدوري ، تقى الدين عارف الدوري ، سقوط صقلية وانتـهاء السـيادة العربيـة عليها ، مقال ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد الثامن ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- الزركلى ، خير الدين الزركلى ، الأعلام ، القاهرة ، بيروت ، دار العلم للملاييـن ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- الزهرانى ، على بن محمد ، الحياة العلمية في صقليـة الإسـلامية مـن سـنة ٢١٢هـ/٤٨٤هـ ، مكة المكرمة ، مطبوعات معهد البحوث العلمية بجامعـة أم القرى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
- عبد الرحمن حميده ، أعـلام الجغرافييـن العـرب ، دمشـق ، دار الفكـر ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- عبد الحميد حاجيات ، نظرية ابن ظفر في أخلاق الملوك من خلال كتابه سلوان المطاع ، مقال بمجلة أوراق ، العدد ٤- ٥- ٦ ، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد .

- العسيري ، مريزن سعيد ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

- مارتينو ، ماريو مورينو ،المسلمون في صقلية ، بيروت ، منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

- منير الدين ، أحمد ، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري ، مستقاة من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ترجمة سامي الصقار ، الرياض ، دار المريخ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- ميخائيل اماري ، المكتبة العربية الصقلية ، طبعته بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة ليبسك ، ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م .

السياسة الأمنية للسلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الأول وأثرها على التقدم الاقتصادى لبلاده

دراسة تحليلية

د. نورة عبد الله بادياب(*)

مرت دولة سلاجقة الروم كغيرها من الدول بمراحل عديدة خلال تاريخها ابتداء من مرحلة التأسيس والبناء (٤٧٤ – ٦٠٧هـ/١٠٨١ – ١٢١٠م) مروراً بمرحلة النضج والازدهار (٦٠٧ – ٦٣٤هـ/١٢١٠ – ١٢٣٧م) وانتهاء بمرحلة الضعف والانهيار (٦٣٤ – ٧٠٠هـ/١٢٣٧ – ١٣٠٣م) .

ومهما يمكن أن يكتب أو يقال عن صعوبة مرحلة التأسيس والبناء ، إلا أن دور النضج والازدهار كان الدور الأكثر عطاء ، وهو الدور الذى ترك بصماته الواضحة فى تاريخ تلك المنطقة ، فلا غرو أن يطلق على ذلك الدور اسم « العصر الذهبى »(١) .

ولقد لعب السلطان علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ – ٦٣٤هـ/١٢١٩ – ١٢٣٦م) الذى كان ألمع وأكثر سلاطين سلاجقة الروم تميزًا – دوراً بارزًا فى ذلك العصر حتى استحق لقبى السلطان العظيم ، وسلطان العالم(٢). فالسياسة الأمنية التى اتبعها بمنطق سليم وصارم بهدف حفظ أمن السلطنة وتنمية الحياة الاقتصادية فيها ، جعلت اسمه يخلد فى التاريخ كأعظم رجل سياسة عرفته آسيا الصغرى فى العصور الوسطى (القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى) وهو عصر نهوض الاقتصاد ونمو العلاقات التجارية .

وقد اتبع علاء الدين كيقباد فى سبيل تنفيذ هذه السياسة كل الوسائل الممكنة الدبلوماسية ، والحربية ، واستطاع إحراز الكثير من النجاحات فى الميادين الخارجية والداخلية مما كان له أثره فى ازدهار الوضع الاقتصادى لبلاده .

(*) جامعة الملك عبد العزيز – جدة .

ففى الميدان الخارجى وعلى الحدود الغربية لم تشكل إمبراطورية نيقية البيزنطية[٣] خطرًا حقيقيًا أو تهديدًا مباشرًا لسلاجقة الروم بل على العكس كانت تشكل ترسًا ضد الصليبيين اللاتينين الذين كانوا يعدون الأعداء الغربيين للروم البيزنطيين بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م[٤] .

واستمر التقارب والوفاق بين سلاجقة الروم وإمارة نيقية البيزنطية طوال عهد كيكاوس الأول وأخيه كيقباد الأول ، بل زاد هذا التقارب بين الطرفين عند مجئ الغزو المغولى لآسيا الصغرى[٥] .

وهكذا لم يكن هناك خطر يذكر من جهة الحدود الغربية مما وافق خطط السلطان كيقباد الأول الذى كان يرغب فى استمرار رفاهية وأمان شعبه على الحدود الغربية وعدم رغبته فى أن تعيش فى اضطراب[٦] .

أما بالنسبة للحدود الأخرى لدولته فقد كانت سلطنة سلاجقة الروم بحكم موقعها الجغرافى ممرًا لكثير من الطرق التجارية العالمية ، فضلاً عن تملك سلاجقة الروم لكثير من المراكز الهامة الواقعة على الطرق التجارية الكبيرة ، لذا كان من الطبيعى أن يبذل علاء الدين كيقباد من الجهود ما يحقق به الإشراف على تجارة العبور وذلك بتأمين هذه الطرق وبالتكفل بدفع كل ما يمكن أن يعرض لها من خطر .

وبناء عليه انطلقت السياسة الأمنية وفق خطوات صائبة منذ توليه العرش وارتكزت على أساس حماية سواحل بلاده أولاً باعتبار أن المنافذ البحرية التى اكتسبها سلاجقة الروم هى موانئ مهمة تخدم تجارة العبور من ناحيتى الشمال والجنوب ، فضلاً عن حرصه الكبير واهتمامه البالغ بحماية طرق التجارة البرية ومحطاتها وهو ما دفعه إلى الاتجاه بعزيمة نحو شرق بلاده (الحدود الشرقية لدولته) .

قام علاء الدين كيقباد بمجرد جلوسه على العرش ، وبتوجيه من بعض أمرائه ، بفتح حصن كالونوروس وقلعة آلاره على الساحل الجنوبى لبلاده والتى

كان من الممكن أن تكون محور ارتكاز للقبارصة والفرنج الآخرين ، وغير اسمها إلى العلائية (العلايا) . وأنشأ فيها ترسانة بحرية لخدمة أسطوله ولحماية أنطالية[٧] . وتم بذلك تأمين الساحل الجنوبي لبلاده .

كذلك هيأ فتح علائية وتأمين أنطالية الطريق لإقامة علاقات تجارية عن طريق البحر مع قبرص وسورية ومصر[٨] . ووصل إلى الأراضي السلجوقية. التي أصبحت تمثل عصب تجارة العبور في القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ، التجار البروفانسيون والبنادقة والمصريون الذين كانوا يمارسون تلك التجارة بين سينوب وقونية وقبرص والإسكندرية والجزيرة ويحملون مختلف البضائع من الشعير والصوف والجلود والحرير والخام المشغول بل وحتى المجوهرات والفراء والرقيق وغيرها من البضائع الثمينة[٩] . وزاد كيقباد الأول من عظم أهمية الطرق التي تمر عبر أراضي دولته بتأسيس نوع من نظام تأمين الدولة وفرض ضرائب جمركية معقولة[١٠].

وقد تابع علاء الدين كيقباد الأول اتخاذ التدابير الفعالة الهادفة لحماية طرق التجارة الدولية (العبور) فقام بعد فتح علائية وفي الفترة بين ٦٢٣ - ٦٢٥هـ بعدة حملات عسكرية لإعادة الأمن والاستقرار لبعض المناطق التي تعرض فيها التجار لبعض عمليات القرصنة .

ويذكر المؤلفون في هذا الشأن أن ثلاثة من رعايا السلاجقة دخلوا على خيمة السلطان علاء الدين كيقباد أثناء تواجده في قيسارية يشكو أحدهم من مشكلة قرصنة تعرض لها من جانب الروم والقبجاق عبر الخزر سرقوا فيها كل أمواله التي أضاع حياته من أجلها ثم جاء شخص آخر يشكو من اضطراب أمن الطرق المتجهة والقادمة من حلب وخاصة عند عبورها ولاية تكفور(*) بلاد

(*) تكفور : لقب عام يقصد به كل من جلس على عرش مملكة أرمينية الصغرى ، مثلما لقب إمبراطورية الدولة البيزنطية بالأشكري ، وملك الحبشة بالحطي والنجاشي . ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص٥٥ ، مطبعة العاصمة ، مصر، ١٣٢١هـ . وسعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٣٩ ، بيروت ، ١٩٧٧م .

سيس(*) ليفون(*) الأرمنى(١١) . Lifon حيث سرق الكفار أمواله. وأخيرا جاء شخص ثالث من أهالى انطالية يتحدث عن سرقة الفرنج لسفينته التجارية وفيها أمواله وأموال أصدقائه وقاموا بأسرهم(١٢) . فأثارت هذه الحكايات مشاعر السلطان وأمر بتطييب قلوبهم بسرعة وصرف أموالا لهم من خزائنه(١٣) . وأمر رجاله بالتحقيق حول هذه الوقائع وتقديم التعويضات للمتضررين ، ثم التفت جهة أمرائه قائلا : (الروم إن لم تغز غزت) ، وهو مثله المشهور ، وأضاف قائلا « نحن مسؤولون عن إعاشة هذه الشعوب فى أمن وسلام »(١٤) .

وهكذا أذن علاء الدين كيقباد للقوة العسكرية بالتدخل لحل تلك المشاكل، فأرسل حملة بقيادة الأمير حسام الدين جوبان(*) إلى القرم على رأس قوة بحرية تحوى العديد من السفن وبالتحديد صوب سغداق وذلك فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، وتمكن الجيش السلجوقى من احتلالها فى سنة ٦٢٥هـ(١٥) . وكان التجار الذين شكوا إلى السلطان مع الأمير ، فاستعاد جميع ما نهب من أموالهم ومتاعهم ورده إليهم(١٦) . ومد الأمير نفوذه إلى الداخل واستطاع فرض سيطرته على ممالك القبجاق والإمارات الروسية(١٧) . وفرض عليهم الجزية والخراج وأنشأ السلاجقة جامعا هناك ، وعينوا قاضيا وخطيبا ومؤذنا للجامع ومجموعة من الحراس(١٨) . ثم ركبوا السفن المحملة بالغنائم وعادوا إلى سينوب وقسطمونى(١٩) .

(*) سيس : هى عاصمة أرمينية الصغرى . سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٣٩ .

(*) ليفون : أحد الألقاب التى اختارها المسلمون لملك أرمينية الصغرى وكذلك ابن لاون وهو تحريف للفظ ليون أو ليو أول ملوك أرمينية الصغرى . سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٣٩ .

(*) حسام الدين جوبان : أمير قسطمونى ، وزعيم التركمان الأوج الذين اشتهروا بالبسالة وشدة المراس وكان مشهورا بذكائه وبطولته وكثرة أتباعه وجنده .
Osman Turan: Selcuklulan Zamaninda, p. 358.

وكان يلزم القيام بحملة ضد الأرمن فى قليقية لوقوع هجمات علـــى التجــار والقوافل القادمة من الجنوب وفقدان الطريق لأمنه وأمانه . والمعــروف أن قليقيــة كانت تشكل خطرا شديدا على المسلمين نظرا لطبيعتها الجغرافية الوعرة إذ يصعب غزوها عن طريق بلاد الشام[٢٠] . كما كان فى مقدور القوى المعادية التى تسـيطر على قليقية شن الغارات على أعمال حلب والعودة عبر بوابات قليقيــة والتحصـن بمعاقلها الجبلية . وذلك مثل ما حدث فى عهد علاء الدين كيقباد من اعتـداء علـى التجار القادمين من حلب عبر أراضى قليقية . فقام علاء الدين بجمع جنـوده فـى قيصرية استعدادا لحملة ضد الأرمن واستخدم التركمان الذين تجمعوا بأعداد كبـيرة على الحدود . واتجه الجيش السلجوقى إلى قليقية . بقيادة الأميرين مبــارز الديـن جاولى الجاشنكير(*) والأمير كومنانوس موزد الرومى[٢١] .

وقرر الاثنان الاستيلاء على كل القلاع التى تصادفهما فـى طريقـهما إلـى أرمينية ورفع أعلام السلطنة عليها . ووصلوا بعد فترة وجيزة إلى أقوى وأحصـن القلاع وهى شينشن Cincin فأمر الجاشنكير جاولى الجنود بفرض الحصار علـى هذه القلعة الشهيرة ، مما اضطر الأهالى إلى طلب المساعدة والعـون مـن ليـون الأرمنى ، وأرسل ليون رسالة مؤثرة إلى الفرنج يطلب فيها العون، ويشـعل فيـها الغيرة والتعصب المسيحى فأرسلوا له من الجند والمدد مـا لا يحصـى . وتقـابل الجيش الأرمنى مع الجيش الإسلامى ، وثبت المسلمون وأطلقوا رماحـهم ونبالـهم على الأعداء الكفرة ، وقتلوا وأسروا منهم الكثير ، وهرب ليفون ونفر ممن معـه ، وغنم غنائمهم المسلمون . فما كان من أهالى القلعة بعد هذه الهزيمة إلا أن أرسـلوا أحد رهبانهم يطلب الصلح ، فأجابه إليه الأمير الجاشنكير مبارز الديـن ، وعقـدت معاهدة أمان ، أخلى بموجبها الأرمن القلعة ورحلوا . ورفعت أعلام السلطنة علـى

(*) الجاشنكير : الأمير الذى يقوم بتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفـا من أن يدس عليه فيه سم . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشـا ، جـ٥ ، ص٤٦٠

أبراج القلعة ، وبعثت البشائر للسلطان . وطلب قواد الحملـــة الإمـــدادات والمـؤن لمواصلة الفتوحات فى أرمينية مما أوقع الرعب فى قلوب الأرمن الذين بعثوا إلـــى الأمراء بطلب الصلح مقابل دفع الجزية ضعفين ، وإمداد جيـــش المســلمين بـــألف وخمسمائة من الجند المشاة للمشاركة فى الحرب والقتال ، وضرب اســـم الســـلطان علاء الدين كيقباد الأول على العملات النقدية التى تسك[٢٢] .

وبعث الأمراء رسالة ثانية إلى السلطان يبلغونه أمر العرض الجديد وكانوا قد أتموا فتح كل القلاع الأرمينية . فقام السلطان بإرسال فرمان ورسالة تتضمن الشـكر لملك الأمراء والأمير كومنا نوس على جهودهم كما كتب عهد أمان عفى فيه عـــن اخطاء ليون . وطلب منه أولاً تقديم كل التعويضات للتجار الذين اغتصبت أموالـــهم من طرف اغنياء ورجال شعب القلاع التى تمكن قواد كيقباد من فتحها مع الزيـــادة ودفع الجزية مضاعفة[٢٣] . كما أمر أن يسلم أمر هذه الولاية وما فيها من قلاع إلـى أحد أمرائه وهو الأمير قمر الديـــن وأن يعـــود الأمـــراء مبـــارز الديـــن جـــاولى وكومنانوس إلى مقر السلطنة لشرح مجريات الحرب ، كما أمر أن يعود الجند إلـــى أوطانهم للراحة[٢٤] .

وفى الوقت الذى كان فيه ملك الأمراء حسام الدين جوبان يقوم بفتح ســـغداق ومبارز الدين جاولى وكومنانوس بفتح أرمينيا . كان واحدًا من أقدم عبيد الســـلطنة وهو الأمير مبارز الدين أرتقش حاكم أنطالية يتخذ طريقه نحو الســـاحل الجنوبـــى وتمكن من فتح ما يقرب من أربعين قلعة . وعلى الرغم من أنه لاقى مقاومة شـديدة من الفرنج إلا أنه تمكن من هزيمتهم خاصة عندما زادت حدة المعركة ، ثم أجـبرهم على إخلاء القلاع ، فهرب معظمهم فى جنح الليل واضطر بقية أهـــالى القـــلاع أن يطلبوا الأمان عندما شعروا بعجزهم[٢٥] وبعد أن أكمل مبارز الدين ارتقش السيطرة على الساحل أرسل إلى السلطان بأخبار هذه الفتوحات وطلـــب منـــه الســـماح للقيـــام بحملة على جزر الفرنج (قبرص) . ولكن السلطان لم يجبه إلـــى طلبـــه ، واكتفى بتوجيه الأوامر إلى ارتقش لإعادة دفع وسداد كل حقوق التجار بل وزيادتـــها

ثم عودة الجند إلى بلادهم . وعاد مبارز الدين ارتقش إلى قيصرية ليعـــرض علـــى السلطان أعمال الفتوحات التى قام بها ، ولاقى من إكرام السلطان الشئ الكثير[٢٦] .

وهكذا استطاع علاء الدين كيقباد خلال حملاته العســكرية أن يحقــق عــدة أهداف خدمت النواحى الاقتصادية لدولته .

أولها : حماية منافذ الدولة البحرية وتأمينها مـــن النـــاحيتين الجنوبيـــة والشـــمالية بتأسيس ميناء علائية على البحر المتوسط ، وبالاستيلاء على سغداق علـــى ساحل البحر الأسود . مما أدى إلى تزايد كثافة وحركـــة الســـفن التجاريـــة المحملة بالبضائع المختلفة وتشجيعها على الإبحار والرسو فى تلك الموانـــئ بأمان . بما فيها سفن الدول المسيحية مـــن بنادقـــة وبروفنســـايين وحتـــى اللاتين[٢٧] .

ثانيها : تأمين التجار على أرواحهم وأموالهم بتأديب الدول التى كان أفرادهـــا مـــن روم وأرمن يمارسون القرصنة ، وإجبارهم على تعويـــض التجـــار الذيـــن سرقت بضائعهم وسفنهم ، بل إننا نجد كيقباد يؤسس نوعا من نظام تـــأمين الدولة أو الضمان الحكومى الذى لم تعرف تفاصيله ، وذلك عن طريق دفـع تعويضات من خزينة الدولة للتجار الذين يتضررون مـــن فقـدان وضيـــاع بضاعتهم وأموالهم ويتعرضون لهجمات القراصنة والأشـــقياء[٢٨] . فـــأمن التجار واستمروا فى ممارسة نشاطهم التجـــارى عـــبر أراضـــى الدولـــة السلجوقية الآمنة بشكل ملحوظ فى عهده وأصبحت المدن السلجوقية ملتقـــى لنشاط أولئك التجار على اختلاف جنسياتهم ، ومراكز لتصريف بضائعهم .

ثالثها : تأمين مصادر الجزية ، حيث أنه من المعروف أن الجزيـــة كـــانت تمثـــل مصدرا من المصادر المالية لدولة سلاجقة الـــروم الإســـلامية[٢٩] . لذلـــك حرص كيقباد على تحصيلها وقد أجبرت السيطرة السلجوقية على المنـــاطق والقلاع التى فتحت خلال عمليات التأديب ، حكام تلك المناطق على إبـــداء

مظاهر الخضوع والتبعية ليس فقط بسك اسم السلطان على العملة ، أو بتقديم المساعدات العسكرية ، وإنما أيضا بتأدية الجزية بل ومضاعفتها أيضا . ويظهر ذلك واضحا عندما سمع كيقباد بعصيان أمير العلايا وخيانته وسعيه لتسليم القلعة للفرنج القبارصة ، « فغضب السلطان غضبا شديدا وجمع معيته ، ووصل إلى علائية خلال شهر . وبعد التحقق من الأخبار التى وصلت له تبين بالفعل أن حاكم القلعة كان ظالما وخائنا حيث شهد عليه الأئمة والحفاظ وشرحوا مقاصده السيئة . فأصدر السلطان كيقباد الأوامر بتوقيع أقصى العقوبة به وبالذين يقومون بنفس الخيانة ، والتى تنص على تقطيع جسده وتعليقه على أبراج القلعة . فلما بلغت أخبار هذه العقوبة الرادعة مسامع ملوك وأمراء الساحل ، قاموا بجمع الجزية والخراج طواعية وأرسلوها لأعتاب السلطان »[٣٠] . كما كانت طرابيزون وإمبراطورية نيقية البيزنطيتان تدفعان الجزية لسلاجقة الروم ، وكانت المبالغ الكبيرة التى التزم إمبراطور طرابيزون بدفعها لدولة السلاجقة قد زادت من قوة وثراء دولة سلاجقة الروم وظل أباطرة طرابيزون يدفعون الجزية لسلاجقة الروم حتى الغزو المغولى سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م .

سياسة علاء الدين كيقباد نحو المناطق الشرقية وأثرها على النواحى الاقتصادية لدولته :

أولى سلاجقة الروم منذ بداية حكمهم اهتماما بالمناطق التى تقع شرقى دولتهم، وازداد هذا الاهتمام فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى . وأما عن الأسباب التى دفعتهم إلى التوجه نحو الشرق فيبدو أنها غامضة إلى الحد الذى دفع بالمؤرخ الفرنسى كلود كاهن أن يطرح التساؤلات الآتية :

١ - « هل كان الأمر يتعلق بإرادة توسعية طبيعية دفعتها للاستفادة من تشرذم الدول المنافسة لها كما هو شأن كل دولة قوية ؟ » .

٢ - « لقد قاموا بتوحيد شرق آسيا الصغرى لصالحهم ، فهل كـــانوا يريـــدون أن يضيفوا إليه كل الدول التى يقطن بها جزء من الســـكان الأتـــراك أم كـــانوا يريدون إبطال الدسائس التى يمكن أن تحاك بداخلها ؟ » .

٣ - « هل كانوا يعتقدون بأنه كلما اتسع نطاق دورهم العازل أمكنهم القضاء علـــى الهجمات المتوقعة بشكل أفضل ؟ »(٣١) .

ومع أخذ كل التساؤلات التى طرحها كلود كاهن فى الاعتبار ، إلا أنه يبـــدو أنه أغفل طرح التساؤل الأكثر أهمية والتساؤل الذى يدور حـــول احتمـــال وجـــود أطماع اقتصادية لدى سلاجقة الروم فى توجهاتهم نحو الشرق ، وعلى الأخص فـــى عهد السلطان علاء الدين كيقباد الأول الذى كان يمثـــل ذروة التقـــدم الاقتصـــادى لسلاجقة الروم .

وبما أن المراكز التجارية لسلاجقة الروم والتى كانت تخدم تجـــارة العبـــور خلال حكم كيقباد الأول كانت تقع شرقى طريق انطالية - سينوب(٣٢) ، فإنـــه مـــن المرجح أن كيقباد الأول فى سياسته الشرقية كان يهدف إلى إيجاد طوق أمنى يحمـــى الطريق التجارى وما يقع عليه من محطات ومدن تجارية . ولكى ندرك مدى أهميـــة العامل الاقتصادى فى توجيه سياسة كيقباد نحو الشرق ، كان لا بد من إلقاء الضـــوء على الأهمية الاقتصادية التى تمتعت بها المدن الواقعة على الحدود الشرقية لدولتـــه سواء كانت تلك المدن تتبع سلاجقة الروم أو تتبع غيرها من الدول المجاورة .

وهنا كان لا بد من الاكتفاء بعدد المراكز الإدارية الأساسـية التـــى كـــانت موجودة فى يد سلاجقة الروم عندما اعتلى كيقباد الأول العرش . وذلك لعدم وجـــود خرائط تشير إلى كل تفصيلات الحدود والتى يمكن مقارنتها بالخرائط العصريـــة . وكانت المراكز الإدراية الهامة تشمل قونية ، هرقلة ، نيكده ، آقســـرا ، قيســـارية ،

البستين ، ملطية ، سيواس ، طوقات ، أماسية ، سينوب ، قسطموني ، قير شهر ، أنقرة ، آقشهر ، اسبرطه ، انطالية(*) .

ولقد شكلت معظم المدن السلجوقية فى آسيا الصغرى مراكز تجارية هامة وحيوية خدمت الحركة التجارية الداخلية ، وحركة تجارة المرور ، خاصة تلك المدن التى كانت تقع فى النواحى الشرقية للدولة ، مثل سيواس ، قيسارية ، ملطية وآقسر ، وغيرها .

كذلك ارتبطت تلك المدن السلجوقية مع غيرها من المدن التجارية الشرقية الواقعة فى منطقتى الجزيرة والشام . ومن المعروف أن تلك المدن الشرقية سواء ما كان منها فى آسيا الصغرى أو فى الجزيرة أو فى الشام عرفت بشهرتها الاقتصادية وغمرت بالأسواق التجارية إما لوقوعها على الطرق التجارية ، أو لوفرتها الاقتصادية من الناحيتين الزراعية والصناعية . ويعتبر هذا تفسيرا منطقيا لسياسة الاهتمام والحرص الشديدين اللذين أولاهما السلطان كيقباد لكل من : سيواس ، أرزنجان ، أرزن الروم ، خلاط ، آمد ، بل وحتى حلب .

وفى ضوء ذلك يمكن القول أن السياسة الشرقية لعلاء الدين كيقباد الأول كانت تدور فى المقام الأول حول حماية طرق تجارة العبور أو المرور التى شكلت المدن الشرقية جزءا مهما منها .

أما بالنسبة لسيواس التى كانت تمثل قصبة التجارة السلجوقية فقد لعبت دورا هاما فى تنمية الاقتصاد السلجوقى ، حيث كانت مركزا تجاريا حيويا تتفرع منه الطرق الداخلية نحو أماسية وتوقات ، وآقسراى وقيسارية ، وقونية العاصمة ، ومنها إلى أنطالية وعلائية على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وهو طريق التجار البروفانسيون والبنادقة والمصريون . هذا علاوة على الارتباط الذى كان بين سيواس وتجار القرم عن طريق موانئ سينوب وسامسون . فقد قامت فى

(*) انظر مواقع هذه المدن على خريطة رقم (١) .

عصر علاء الدين كيقباد الأول (فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى) « حركة تبادل تجارى كبرى بين السكان المسلمين فى آسيا الصغرى وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين من جهة ، وبين سكان جنوب روسيا (القفجاق) من جهة أخرى . وكان تجار بلاد الروس والموصل يتقابلون عادة فى سيواس بأعداد كبيرة تكفى لتشكيل قوافل ، يمضون بها صوب البحر الأسود عبر إقليم سلاطين سلاجقة الروم عن طريق سينوب وسامسون ويعبرون البحر ليصلوا إلى جنوب بلاد الروس[٣٣] .

وكانت مدن سلاجقة الروم فى ذلك الوقت ترتبط بالشرق الأقصى بواسطة الطرق المارة من فارس وتبريز[٣٤] . وكان أشهر تلك الطرق طريق يربط بين تبريز قاعدة إقليم أذربيجان وأهم مدنه التجارية وبين قونية ، ويبدأ من تبريز فى اتجاه الشمال الغربى إلى مدينتى أرزن الروم وأرزنجان اللتين كانتا تقومان بحراسة هذا الطريق الهام من جهة الشرق[٣٥] . ومنها إلى الغرب حتى سيواس ، ومنها فى اتجاه الجنوب الغربى إلى مدينة قيسارية ، ومنها إلى الغرب مع ميل للجنوب إلى قونية العاصمة . ويستخدم هذا الطريق فى نقل منتجات الشرق كالتوابل ، والبخور ، وسكر الهند ، وخزف الصين ولآلى الخليج العربى إلى بلاد سلاجقة الروم ، كما كان هناك طريقين آخرين يتجهان نحو سيواس أحدهما من بلاد الجزيرة ، والآخر من بلاد الشام ، وهو الطريق الذى يرتاده التجار السوريون[٣٦] ، ويربط بين حلب وقيسارية وهو الذى أعطى أهمية وحيوية كبيرة لمنطقة الإسكندرونة[٣٧] وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية حلب فى تلك الفترة حيث كانت المركز التجارى المتوسط بين الشرق والغرب، وأصبحت فى العصور الوسطى تحتل أعظم مدخل للتجارة الشرقية[٣٨] . وكانت البضائع التى تأتى من البلاد الشمالية عن طريق موانئ سينوب وسامسون وطرابيزون توزع على مدن سواحل البحر المتوسط وحلب ومنها إلى بقية العالم الإسلامى[٣٩] . وأهم هذه البضائع تتمثل فى الفراء والرقيق[٤٠]. كما شكل الصابون سلعة تجارية هامة كانت تصدر من حلب إلى

سلاجقة الروم هذا عدا عن كونها سوقا مهما لحجر الشب(*) الذى كان يصدر إليها من سيواس(٤١) . وما يهمنا فى الموضوع أن حلب كانت أكثر الممالك الأيوبية الشامية فى ذلك الوقت تأثرا بمجاورة دولة سلاجقة الروم ، نظرا لوقوعها فى شمال الشام ومجاورتها لها ، فضلا عن تداخل الثغور الشامية والجزرية بين المملكتين حيث كان بعضها يتبع مملكة حلب وبعضها الآخر يتبع دولة سلاجقة الروم . وتظهر أهمية المناطق الشرقية فى احتوائها أيضا على الثروات المنجمية التى اهتم سلاجقة الروم بتنميتها واستغلالها منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى فى أرجاء الدولة ، مثل الحديد والنحاس والفحم وحجر الشب ، وكانت معظم هذه المواد الخام تتوافر فى المناجم الواقعة فى المناطق الشرقية من الدولة فحجر الشب كان يتوافر فى المناطق الواقعة حول سيواس ، واشتهرت ديار بكر بمناجم النحاس. كما تجدر الإشارة إلى سلعة اقتصادية أخرى اشتهرت بها المناطق الشرقية ألا وهى السمك المجفف الذى اشتهرت به بحيرة خلاط وأرجيش وهو من أهم الصادرات إلى بلاد الروم ومنها إلى الشواطئ الشمالية على البحر الأسود .

وهنا نود أن نشير إلى أنه على الرغم من أن سلاجقة الروم أصبحوا فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر بلدا مصدرا ، إلا أن استيراداتهم ظلت تزيد على صادراتهم(٤٢) . وإذا ألقينا نظرة على مستوى البضائع التى كان سلاجقة الروم يستوردونها من البلدان الشرقية وأهميتها فى تلك الفترة لأمكننا أن نضيف عاملا آخر من عوامل اهتمام السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد بتأمين المناطق الشرقية وإنعاش طرق التجارة التى تمر عبرها ، فلم يقتصر سلاجقة الروم على استيراد القطن من مصر وإنما كانت حماة وحلب تقومان أيضا بتصدير القطن الجيد

(*) الشب : يعتبر حجر الشب من المعادن الهامة التى تنتجها سلطنة سلاجقة الروم . وكان هذا الحجر يستخدم على نطاق واسع فى صناعات العصور الوسطى كالأدوية والصباغة ودباغة الجلود . وأشهر محاجره فى آسيا الصغرى ، فى آقسراى ، وسيواس ، والوباد ، وقراحصار وكوتاهيه .

لسلاجقة الروم ، أما الأنواع الأجود منه والممتازة فتأتى من أرمينيـــة الصغـرى ، وتصدر إليهم بغداد الصوف الناعم الخفيف الجيد الصنع والذى يستعمله الســلاجقة لعمائم سلاطينهم ووزرائهم ، ويأتيهم من بغداد أيضا المسك وأعواد الند والعنــبر ، أما الحرير الممتاز والباهظ الثمن فيأتى من الصين ، ويأتيهم السجاد من بلاد فــارس وخاصة من شيراز وبلاد ما وراء النهر ، أما الأحجار الكريمة التــى شــغف بــها السلطان ورجال بلاطه فتأتى من آسيا الوسطى . وتقــدم لــهم جورجيــا الخيــول الأصيلة ، ويأتى الفراء بكميات كبيرة من روسيا[٤٣] .

وإذا رجعنا إلى الخريطة(*) يتضح لنا أن الحد الشرقى لدولة سلاجقة الـــروم عندما تولى كيقباد العرش كان يقوم على الفرات الأعلى حيث تقع مدينــة ملطيــة (التى كانت تمثل قاعدة الثغور الجزرية) ، أهم مدن الولايات الشرقية، التـــى تقــع شمال الجبل الدائر[٤٤] شرقى الفرات حيث تلتقى سلسلة جبال بنطـــس مــع جبــال طوروس الأرمنية[٤٥] .

وكانت تلك التضاريس الجبلية المحيطة بالحدود الشرقية لســلاجقة الروم أحد العوامل النى دفعت سلاجقة الروم لمحاولة التوسع عــبر جبالهـــم فــى الســهول الزراعية الخصبة لشمال الشام وديار بكر[٤٦] . وقــد أغرى خصب تلك الأراضـــى السلطان علاء الدين كيقباد الأول للتقدم نحوها بقصد اســتغلالها وتهيئتــها لتكــون أماكن مناسبة لتوطين التركمان[٤٧] ، إذ أنه أدرك ضرورة الاهتمام بقضية توطيـــن تلك الجماعات التركمانية والاستفادة منها فى زراعة تلك المناطق وتنميــة قدراتــها الاقتصادية ، وجذب التركمان للعيش فيها بقصد الحد من خطــر انســياحها داخــل الأراضى السلجوقية ، وحماية الطرق التجارية ومناطق الزراعة الغنية من أعمالــها التخريبية . وكأن كيقباد استشف ما قد يحدث من اضطرابـــات علــى يــد أولئــك التركمان من جهة الشرق خلال حياته وبعــد مماتــه مثلمــا فعــل الخوارزميــون

(*) انظر خرطية رقم (١ ، ٢) .

والتركمان الإيوانية وغيرهم من أعمال السلب والنهب وتخريب طرق التجارة ومحطاتها وما فعله التركمان أتباع البابا إسحاق من حركة وعصيان وتمرد وتخريب لأراضى سلاجقة الروم بعد وفاته(٤٨) . فضلا عما سيحدث على يد أبناء تلك العشائر التركمانية من تغييرات سياسية لخريطة آسيا الصغرى .

وبناء عليه يمكن القول أن قضية توطين التركمان الذين كانوا يندفعون من الحدود الشرقية إلى داخل الأراضى السلجوقية فى آسيا الصغرى ، كانت هدفا وغاية من أهم أهداف وغايات السلطان كيقباد فى توجيه سياسته نحو الشرق ، وهو ما سيتضح خلال صفحات البحث .

كما كان اهتمام سلاجقة الروم بالجهات الشرقية نابعا من إدراكهم لأهمية ميله نهر الفرات الذى يخرج من أراضيهم ويمتد حتى يصب فى خليج فارس سواء من ناحية نقاء وصحة مياهه ، أم من ناحية صلاحية استخدامه كوسيلة طيبة للنقل والمواصلات(٤٩) .

ومن البديهى أن يكون السلطان علاء الدين كيقباد قد أدرك أهمية نهر الفرات الاقتصادية والاستراتيجية ، فحرص كل الحرص على تحقيق نوع من الرقابة والإشراف على المدن والمحطات التجارية التى تقع عليه أو بالقرب منه بحكم أنها مواقع هامة تخدم تجارة العبور التى تهم سلاجقة الروم ، إضافة إلى أنها تمثل أسواق تجارية لها ثقلها الاقتصادى بما تمتعت به من موارد زراعية وصناعية وهذا يضيف سببا آخر لاهتمام علاء الدين كيقباد وحرصه على أمن كل من أرزنجان ، أرزن الروم ، بل وحتى حلب فى الشام ، فكلها من المدن التى منحها الفرات أهمية استراتيجية واقتصادية لا تخفى علىأحد .

ولعل فى استعراض امتداد نهر الفرات ومواقع هذه المدن منه ، ما يعزز القول بأهمية الفرات فى خدمة تجارة العبور . كما يؤيد القول بأن الفرات أعطى لتلك المدن بالفعل أهمية اقتصادية كبرى حيث منحها الخصب والرخاء ووفرة

المزروعات ، كما منحها أهمية استراتيجية بجعلها محطات ليس فقط للطرق التجارية البرية ، وإنما أيضا على الطريق النهرى للفرات والذى يصل إلى بلاد سلاجقة الروم .

فمدينة أرزن الروم التى تعتبر آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق[٥٠] ، بها منبع الفرات الذى ينبع من شرقيها وشماليها[٥١] . ثم يقطع نهر الفرات بلاد الروم ويمر بالقرب من ملطية (بينها وبينه ميل) ، ثم يجرى ما بين ملطية وسميساط[*] (وهى على غرب الفرات) فيعطف إلى جهة الجنوب ويمر بسميساط ويحمل من هناك السفن والأطواف إلى بغداد[٥٢] ثم يعطف بأخذ إلى الجنوب حتى يصل إلى بالس ويمر بنصيبين والرقة والرحبة وهيت والأنبار ويأخذ منه نهر عيسى الذى ينتهى إلى مدينة السلام (بغداد) ثم يمر حتى يصب فى دجلة ، وأكثر ماء الفرات يصب فى البطائح ، ثم يمر حتى يقع فى خليج أيلة فى بحر الهند (البحر الفارسى)[٥٣] . وهكذا يمكن الاستدلال على أن نهر الفرات كان طريقا حيويا من طرق المواصلات بين الشرق الأقصى وبلاد سلاجقة الروم .

أما أرزنجان فتقع غربى أرزن الروم (بين سيواس وأرزن الروم) فى ضفة الفرات اليمنى حيث تجرى مياهه خلفها[٥٤] . والطريق التى بين أرزن الروم وأرزنجان كلها مروج ومراعى[٥٥] ، ويتوافر فيها معدن النحاس ، وهى ذات هواء طيب[٥٦] .

ويمر الفرات أيضا فى عمل حلب من حد ملطية إلى أن يتجاوز الرقة – كما أوضحنا – وهو إذا انتهى إلى الشام ودخل فى أرضها تصب فيه أنهار متعددة من أعمال حلب منها النهر الأزرق وهو دون الدرب على حد بلاد الروم من الشام[٥٧] ، وكان مدخلا لبلاد سلاجقة الروم استغله الكامل فى الدخول لغزو سلاجقة الروم سنة

(*) سميساط : من بلاد الشام ، وهى على الفرات وفى الغرب عن قلعة الروم وفى الشمال عن حصن منصور وماؤها من الفرات ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٦٧.

٦٣٢هـ[٥٨] ، كما استخدم علاء الدين كيقباد نهر الفرات للعبور بزوارقه وجنوده إلى الضفة اليمنى لبسط نفوذه حتى أواسط امتداد نهر الفرات[٥٩] كما سيتضح لاحقا ، مما يؤكد أهمية الفرات فى المواصلات وتأثير ذلك على أمن دولة سلاجقة الروم السياسى والاقتصادى . كما يجب ألا نغفل حقيقة هامة وهى أن سلاجقة الروم كبقية الشعوب التركية – حتى وقتنا الحاضر – يعلقون أهمية كبرى على نوعية مياه الشرب التى يستعملونها . وكانت هذه المهمة معقدة وصعبة خاصة فى فترات الجفاف ، لصعوبة نقل الماء من الفرات والمشاكل المعقدة المتعلقة به . فعندما سقط عز الدين كيكاوس الأول فى قيرشهر(*) اضطر رئيس السقاة لجلب مياه الشرب من الفرات على الرغم من طول المسافة التى تبلغ حوالى ١٥٠ ميلا[٦٠] . مما يؤكد القول بأن نهر الفرات قد لعب دورا هاما لدى سلاجقة الروم من ناحية كونه أيضا منبعا مائيا لأفضل مياه صحية للشرب ، كغيره من أنهار آسيا الصغرى وينابيعها[٦١] التى انتشرت فى عصر السلاجقة انتشارا ملحوظا . لذلك كان من الطبيعى أن يولى السلطان كيقباد اهتماما كبيرا للمحافظة على سلامة وأمن واستقرار المنطقة التى ينبع منها نهر الفرات ، وكذلك أمن المناطق التى يجرى خلالها ويخترقها لما لذلك من أهمية فى خدمة النواحى الاقتصادية والاستراتيجية لبلاده .

ولا بد أن نذكر هنا عاملا آخر يعتبر من أهم العوامل التى وجهت كيقباد للاهتمام بتأمين الحدود الشرقية لبلاده . ألا وهو التهديد المغولى القادم من الشرق . إذ أن المغول بتماديهم فى الهجوم على دول الجوار مثل القبجاق والكرج كانوا قد أوقعوا الفزع والرعب فى البلاد السلجوقية والعراق والجزيرة وحتى فى بلاد الشام.

(*) قير شهر : مدينة كبيرة ذات مبانى جميلة تقع على بعد ثمانين ميلا غرب قيصرية وكانت ذات شأن .

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin: Nuzhat AL-Qulub, p.10.

وأخذت تلوح فى الأفق مخاطر الدمار الذى ألحقته هجمات المغــول بالديــار التــى اجتاحوها[٦٢] .

لذلك ركز علاء الدين كيقباد اهتمامه صوب الشرق الذى يهدد دولته بخطــر مرعب ، فأنشأ كأول تدبير أمنى أسوار وقلعة سيواس وقونيــة وذلــك فــى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[٦٣] .

ولقد أفلح علاء الدين كيقباد بتحصينه لسيواس وغيرها من المــدن الشــرقية لبلاده ، إذ حدث ما كان متوقعا من جهة الشرق . فقد مثلت سنة ٦٢٩هـــ/١٢٣٣م نقطة فاصلة فى تاريخ آسيا الصغرى ، أو بالأحرى فــى تــاريخ ســلاجقة الــروم ومستقبلهم ، حيث حدث أن تقدمت الفرق العسكرية المغوليــة برئاســة شــرماغون نويين[*] نحو سيواس وقتل الكثير من البشر وأسر الكثير منهم أيضـــا ، كمــا قــام بتخريب العديد من المناطق حتى وصولا إلى منطقة (ابن راحت) القريبــة مــن سيواس . إلا أنهم بعد هذا الهجوم عادوا مسرعين . وقام السلطان علاء الدين كيقباد بعد علمه بحوادث التخريب والفوضى التى قام بها جحافل المغول باتخاذ مجموعــة من الإجراءات الرامية إلى زيادة تحصين الحدود الشرقية لدولته مثل القيــام ببنــاء وتحصين المزيد من القلاع لمواجهة هذا الهجوم المحتمل . وقد أدرك المغول مــدى قوة هذا السلطان وشهرته مع الأيام وأرسلوا له مبعوثا من طرفهم هو السفير شــمس الدين عمر القزوينى ، وأراد المغول بذلك أن يصدقوا على ســلطنة عــلاء الديــن بإرسال سفيرهم ، كما أراد ضمنا أن يدخلوه تحت تبعيتهم[٦٤] . وشمل كيقباد السـفير بيالغ الرعاية وأحاطه بمظاهر التكريم وأخذ يعد الهدايا لإرساله للمغول، واســتطاع علاء الدين كيقباد بهذا التصرف الحكيم أن يجنب بلاده خطورة بالغة شهدتها العهود التالية بعد وفاته .

(*) نويان ونويين : هو اللقب الذى يعنى فى لغة المغــول كبــار الشــخصيات وأقــارب السلاطين والحكام .

انظر خليل أدهم : قيصرية شهرى ، ص٥٧ .

وقد زادت هذه الحادثة من إصرار علاء الدين كيقباد الأول على الاهتمام بالمناطق الشرقية وتحصينها وإعمارها وحشد الجموع التركمانية المقاتلة فيها وكان هدفه تهيئة تلك المناطق اقتصاديا وعسكريا حتى تستطيع مقاومة الأخطار التى قد تتعرض إليها حتى لا تتأثر بالتالى طرق تجارة العبور الشرقية ويحفظ علاء الدين كيقباد الشريان الرئيسى لاقتصاد دولته من مخاطر الاضطراب وعدم الاستقرار .

ملامح السياسة الشرقية للسلطان علاء الدين كيقباد الأول :

كانت سياسة السلطان علاء الدين كيقباد الأول الشرقية تقوم على أساس تحقيق المصلحة العامة ، مما يعنى أنه طالما كانت تلك المناطق تنعم بالاستقرار السياسى الذى ستنعكس آثاره بطبيعة الحال على تحقيق الأمن الاقتصادى ، فإن كيقباد لم يكن يحرك ساكنا ، سواء كانت تلك المناطق تابعة للأيوبيين كحلب ، خلاط ، أو لبنى منكوجك(*) كأرزنجان ، أو للأراتقة كآمد ، أو لأبناء عمومته كأرزن الروم . أما عندما كانت تلوح فى الأفق بوادر النزاع والاضطراب السياسى الذى ستنعكس آثاره السلبية على أمن الطرق والمحطات التجارية مثل ما حدث من نزاع بين الأيوبيين ، والتجاء للخوارزمين ، فإنه كان يقوم بتسيير جيوشه فى سبيل إعادة الأمن والاستقرار للمنطقة . وبمقارنة ودراسة التحركات العسكرية لعلاء الدين كيقباد الأول نحو الشرق يتضح أنها كانت تمتاز عن تحركات بقية أسلافه من سلاجقة الروم فى أنها لم تتم فى سرعة أو تهور ، وإنما كانت تحركات متأنية ومدروسة فكان كيقباد الأول يختلف فى سياسته تلك عن أخيه كيكاوس الأول الذى اتسمت سياسته الشرقية بالتسرع وعدم الحكمة ، مما أدى إلى فشل حملته على حلب واضطراره إلى الفرار . ويعلق المؤرخ ابن الأثير على فراره قائلا : « وإنما فعل هذه لأنه صبى غر لا معرفة له بالحرب »(٦٥) .

---

* بنومنكوجوك : من التركمان الذين استقروا وكونوا إمارات خاصة بهم فى غربى الفرات حيث فتحوا ارزبجان وكماخ وديوركى وقره حصار .

وكشفت كذلك سياسة كيكاوس الأول تجاه الشرق عن عدم إدراكـــه للخطـــر الصليبى الذى كان يحيط بالدولة الأيوبية ، فهو لم يتعاون معها ، بل كـــان عـــامل تهديد للنفوذ الأيوبى فى شمال الشام ، الأمر الذى شغل جزءا كبـيرا مـــن القـــوات الأيوبية للتصدى لخطر سلاجقة الروم . ولقـــد دفـــع ســـوء تصرفـــه ذاك بعـــض المؤرخين إلى إتهامه بالقسوة والظلم بل والخيانة أيضا فيقول عنه أبو شـــامه وابـــن تغرى بردى : « إنه كان جبارا ، ظالما ، سفاكا للدماء » ولما عاد إلى بلـــده مـــن كسرة الأشراف له بحلب أتهم خوفا من أمراء دولته بأنهم قصروا فى قتال الحلبييـــن فسلق بعضهم فى القدور ، وجعل آخرين فى بيت فأحرقهم فأخذه الله بغتـــه فمـــات فجأة سكران ، وقيل ابتلى فى بدنه فتقطع »[٦٦]. بل أتهمه أبو شامه بأنه « هو الـــذى أطمع الفرنج فى دمياط »[٦٧] ، بينما أشاد معظم المؤرخين بشخصية عـــلاء الديـــن كيقباد وامتدحوه ، قال سبط بن الجوزى : « كان عاقلا شجاعا مقداما جوادا ، وهـــو الذى كسر الخوارزمى وكسر الكامل واستولى على بلاد الشرق »[٦٨] .

وقال عنه ابن العبرى : « كان السلطان علاء الدين كيقباد ممتازا بين ملـــوك زمانه بمنظره المخيف وذكائه المفرط وشخصه النقى المـــنزه عـــن كـــل الأهـــواء الرديئة خلافا لملوك العرب المعتادين الانغماس فيها . وكان المجرمون يهابونه جـــدا إذ كان صارما فى أحكامه وقد أخضع لسلطانه مدنا واصقاعا عديدة »[٦٩] . كما قال عنه ابن بيبى : « استطاع علاء الدين كيقباد، بعون من الله تعالى أن يحول سـلطنته إلى العلو والرقى حيث حقق الانتصارات الحربية وأنشأ القلاع العظيمـــة والأبـــراج العالية»[٧٠] .

وقال عنه الذهبى : « كان شجاعا ، مهيبا ، وقورا ، سعيدا ، هزم خـــوارزم شاه واستولى على عدة مدائن » و« كان فيه عدل وإنصاف فى الجملة »[٧١] . كمـــا قال القرمانى : « كان ملكا مهابا وقورا يحب الغزو »[٧٢] . ويضيف أبو شامة وابن تغرى بـــردى : «كان عادلا منصفا مـــهيبا مـــا وقـــف لـــه مظلـــوم إلا وكشـــف ظلامته»[٧٣].

وقد كان لتلك الصفات العالية من العدل والأنصاف والقوة والشجاعة والذكاء والبعد عن الأهواء وحب الغزو آثارها الواضحة على القرارات التى اتخذها والأعمال التى قام بها ، سواء كانت تلك الأعمال تتعلق بسياساته الخارجية أم الداخلية ، بما فيها قراراته تجاه النواحى الشرقية لبلاده .

١ – سياسته نحو آمد(*) :

لا تخفى أهمية آمد فى كونها محطة تجارية بالغة الأهمية تقع على الطريق التجارى الموصل بين الشام وأرمينية وسلاجقة الروم[٧٤] . وكان أهلها يتاجرون مع جهات كثيرة شملت الشام والعراق والجزيرة والموصل وبلاد سلاجقة الروم وأرمينية وفارس (أذربيجان) والجهات الشمالية المتطرفة القريبة من بلاد الخزر، كما شملت مصر أيضا[٧٥] . كما كان لآمد أهمية اقتصادية كبرى ففيها تتوافر مناجم النحاس خاصة فى أرغن Ergani شمال غرب آمد ، والتى كانت تعمل وتنتج فى عهد السلاجقة[٧٦] . ولم يتدخل علاء الدين كيقباد الأول فى شئون آمد أو غيرها من الممالك الشرقية حتى سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م . فبعد أن اتم فتح علائية سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ، وتمكن من التخلص من أمرائه الطامعين فى السيطرة والحكم فى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م ، وقام بتأديب الأرمن فى قليقيه وغيرهم من الأمم المسيحية على السواحل ، بقى بقونية يصيف بها تاره وبقيسارية تارة أخرى ، ويشتى بانطالية وعلائية[٧٧] .

فلما كانت سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م أثارت الخلافات بين الأيوبيين ، وهجمات الخوارزميين والتركمان ، خوف كيقباد الأول على أمن وسلامة النواحى الشرقية وخاصة آمد التى كانت تتمع بأهمية اقتصادية كبيرة . إذ لا يخفى ما فعله الخوارزميون فى نفس السنة ٦٢٣هـ عندما حاصروا خلاط وهى مفتاح البلاد

---

* آمد : من مدن ديار بكر على غربى دجلة كثيرة الشجر والزرع ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٨٧ .

السلجوقية ، من سوء سيرة ونهبهم البلاد وما فيهم من الفساد مدوا أيديهم في النــهب وسبي الحريم وقتلوا من أهل خلاط قتلى كثــيرة ، وهــو مــا ينفــي القــول بــأن الخوارزميين كانوا درعا يقي هجمات المغول لأنهم أضعفوا البــلاد ونــهبوها[٧٨] . وفي نفس سنة ٦٢٣هـــ قام التركمان الأيوانية بقطع الطريق في الجهات الشــرقية بالقرب من تبريز ، وأخذوا من تجار أهلها شيئا كثيرا[٧٩] . ثم حدث أن دب الــنزاع بين المعظم الأيوبي صاحب دمشق وبين أخيه الكامل صاحب مصــــر ، واســتنجد المعظم خلال هذا النزاع بالخوارزمية ، بينما اســتنجد الكــامل بفردريــك الثــاني (الصليبي) . وانضم إلى جانب المعظم والخوارزمية صاحب آمــد الملــك مســعود الأرتقي الذي كان يطيع الأشرف الأيوبي صاحب الجزيرة ، ثم أطاع جلال الديــــن خوارزمشاه ، واتفق معه على قتال الملك الأشرف الأيوبي الذي كان بينــــه وبيــن علاء الدين كيقباد مصادقة . فأرسل إليه الأشرف يحركه على بلاد صاحب آمــــد ، فوجدها علاء الدين كيقباد فرصة سانحة للتحرك وحماية أمن تلك المناطق .

وبدراسة التحركات العسكرية لعلاء الدين كيقباد تجاه آمد وديار بكر نجد أنــها لم تتم في سرعة وتهور وإنما كانت سياسة مدروسة ومتأنية ومسببة. فلــم يتســرع كيقباد بإرسال حملة عسكرية لتأديب صاحب آمد الأرتقي قبل أخذ موافقــــة الملــك الكامل الأيوبي ملك مصر .

بل يبادر بإرسال سفــــارة إلى الكــــامل فـــي مصـــر بهديــة جليلــة فـــي نفس سنة ٦٢٣هـــ[٨٠] حرصا منه على اســتمرار حســن العلاقـــات مـــع الأيوبييـــن والاتحاد معهم ضد الغزاة، ثم سار علاء الدين كيقبـــاد بنفســه إلـــى ملطيــه وســير الأمير ابن مبارز الدين جــاولي وأســد الديــن كنداصطبــل (إيــاس المجنــون) إلى بلاد صاحب آمد للاستيلاء على بعض قلاعـــها منــها شمشــكازاد[*]

(*) شمشكازاد : قلعة ومدينة في بلاد الجزيرة بين آمد وخلاط . ياقوت الحموي : معجــم البلدان ، جـــ٥ ، ص٢٩٤.

والكختا(*) ، وكان هذان الموقعان من المواقع الهامة لاحتوائهما على مناجم النحاس الذى يستخدم فى العديد من الصناعات الهامة ، فحاصروهما ، وتم استدعاء عمال المناجم قبل الاستيلاء عليهما[٨١] ، حفاظا على حياتهم . وتمكن الأمير مبارز الدين جاولى من الاستيلاء عليهما بالأمان بعد محاصرة شديدة[٨٢] . ويبدو أن استيلاء قوات علاء الدين كيقباد على هذين المصدرين المهمين لإنتاج خام النحاس كان سببا فى مسارعة الملك مسعود الارتقى إلى مراسلة الملك الأشرف الأيوبى ومصالحته للعمل على إقناع كيقباد بإعادتهما للارتقة . فأرسل الأشرف إلى السلطان كيقباد يطلب منه العودة وترك بلاد مسعود ، فغضب السلطان وقال لرسول الأشرف : « قل لصاحبك لم أكن نائبا للأشرف يأمرنى وينهانى »[٨٣] . ولما عاد الرسول إلى الأشرف ، أنجد الملك الأشرف الملك مسعود بعشرة آلاف وحاول مواجهة جيش كيقباد ، لكن الهزيمة لحقت به وأسر مقدم جيشه ، وتابع جيش كيقباد تقدمه وفتح حصن منصور(*) أيضا الذى كان على مقربة من الفرات[٨٤] ، مما أضطر الملك مسعود الأرتقى أن يرسل رسولا إلى السلطان كيقباد معه هدايا جليلة ، يطلب الصلح والصفح عما مضى ، ويلتزم أموالا يؤديها فى كل سنة ويخطب له فى جميع بلاده، فأجابه كيقباد إلى طلبه وترك ما بقى من بلاده فى يده . وقال لرسول مسعود: « إذا كان قد وقع ضرر لكم من طرفنا ، فإن هذا المأخذ راجع إلى جهل وخطأ الملك مسعود . وطالما أنه قد جاء يقدم اعتذاره فنحن أيضا بطريق العفو والصفح ونتغاضى عن قصور وأخطائه »[٨٥] . وهذا يثبت أن السلطان علاء الدين كيقباد فى سياسته نحو الشرق ، لم يكن يطمع فى الاستيلاء وتوسيع نفوذه بقدر ما كان يهدف إلى إعادة الأمن والاستقرار والحيوية الاقتصادية للمنطقة وكان تحرك

(*) قلعة الكختا : هى من بلاد الجزيرة ، وهى قلعة عالية البناء ولها بساتين ونهر وبينها وبين ملطية يومين . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٦٣ .

(*) حصن منصور : من ثغور الجزيرة هو وملطية ويحاذى الفرات حدة الجنوبى وينحدر النهر الأزرق إلى شمال غرب حصن منصور / كى لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٥٥ .

كيقباد نحو تلك الحصون يوحى بإدراكه لأهميـــة تلـك الحصـون مـن الناحيـة الاقتصادية فحصنى كختا وشمشكازاد من المناطق الغنية بمناجم النحاس ، والنحـاس من المواد الخام الهامة فى صناعة الأوانى النحاسية وسك العملة النحاســية لذلـك رفض كيقباد تسليمهما عندما طلب الأشرف ذلك . أما حصن منصور فكـــان يقـع شمالى النهر الأزرق وجنوبى الفرات بين ملطية وسميساط[٨٦] . فـــهو إذا محطـة مهمة تصل بين ملطية وسميساط الواقعتين على نهر الفرات ، ممـا يجعلـه يلعـب دورا فى الطريق التجارى بين ديار بكر والشام وسلطنة سلاجقة الروم ، وباسـتيلاء كيقباد عليها يكون قد حقق نوعا من الاستقرار للطريق التجارى الموصل إلى بــلاد الشام عن طريق الفرات .

٢ – سياسته نحو أرزنجان :

سبق أن أوضحنا أن أرزنجان من المدن الاقتصادية الهامة على نهر الفـرات وهى من المدن التى حرص كيقباد على استمرار أمنــها واسـتقرارها ، واسـتطاع كيقباد بمساعدة الأشرف الأيوبى بسط نفوذه على الضفة اليمنى وحتى أواسط امتـداد نهر الفرات مخترقا بذلك التحصينات التى أقامها دواد شاه ليصل إلى أرزنجـان[٨٧] . وكانت أرزنجان بيد فخر الدين بهرامشاه من بنى منكوجك لمدة ستين ســنة بذلـوا الطاعة خلالها لسلاطين الروم من السلجوقية وتقربوا إليهم بالمصاهرة . ولما مـات فخر الدين ملك ابنه علاء الدين داود ، الذى كان عالما فى النجوم والحكمة والطـب، ولكنه كان غافلا فى تدبير الملك وجاهلا فيه[٨٨] . فقبض على كثير من أمراء دولته وصادر أموالهـم وأملاكهم ، بل تمادى فى التشدد معهم حتى وصل به الأمر إلـــى حد إصدار أوامره بحبسهم أو بإعدامهم مما أضطر بعضهم إلى الهروب من وطنـه خوفا من الموت ، واتجهوا إلى سلطان سلاجقة الروم كيقباد الأول وشكوا له ســوء أفعال علاء الدين فأكرمهم السلطان ، وبعث سفيره إلى علاء الديــن داود شـــاه يطلب إطلاق سراح بقية الأمراء وإعادة أموالهم وأملاكهم ، فتـردد علاء الديـــن

داود فى البداية ولكنه ما لبث أن أطلق سراحهم بعد ما هدده سفير السلطان بلهجة جافة[٨٩] .

وقدم أولئك الأمراء على السلطان كيقباد فأكرمهم وأقطع كل واحد منهم إقطاعًا من الأراضى الزراعية المثمرة . ولما بلغ ذلك علاء الدين داود شاه أدرك خطورة الوضع بزيادة نفوذ أمرائه وتماديهم . فأسرع بالذهاب إلى السلطان ومعه مجموعة كبيرة من الهدايا القيمة فأكرمه السلطان وقرره على ملكه بارزنجان وسيره إليه ومعه الكثير من الهدايا والأموال[٩٠] .

لما وصل علاء الدين داود شاه إلى أرزنجان حرضه قرناء السوء على الاستنجاد بالملك الأشرف الأيوبى وجلال الدين خوارزمشاه وركن الدين جهانشاه صاحب ارزن الروم ، ضد السلطان السلجوقى كيقباد فلما بلغ ذلك إلى السلطان كيقباد غضب غضبًا شديدًا ، وأرسل سرًا الأمراء والجنود إلى حدود قاعة كماخ وارزنجان ، بينما سار هو بنفسه بجيش ضخم عن طريق سيواس إلى ارزنجان وتمت السيطرة على القلاع بسرعة حسب أوامر السلطان ، حتى لا يستطيع علاء الدين داود شاه اللجوء إليها والتحصن بها . ووضع كيقباد الجنود أمام أبواب القلاع لحراستها ولم يقدر علاء الدين داود شاه على مقابلته ولم ينجده من أولئك الملوك فأضطر إلى طلب العفو من السلطان ، فصفح عنه السلطان كيقباد وأقطعة إقطاعا من الأرض فى منطقة آقشهر بالقرب من قونية يطلق عليها الآن اسم الغين Ilgin ، وأرسله هو وحاشيته ورجاله سويا إلى آقشهر[٩١] . ودخل كيقباد ارزنجان وتمت تصفية الوضع فيها ، وسلم أمرها إلى ابنه غياث الدين كيخسرو الثانى ، وعين مبارز الدين أرطقش أتابكا له[٩٢] .

وقد أتضح من خلال مجريات أحداث فتح ارزنجان أن السلطان علاء الدين كيقباد لم يكن يهدف من جراء توجهه إلى ارزنجان تحقيق أى نوع من أنواع التوسع العسكرى أو فرض القوة ، وإنما كان يهدف إلى إعادة الأمن والاستقرار

التى كانت تنعم به سابقا ، قبل تولى علاء الدين داود الذى أساء معاملته لكبار الأمراء وقتلهم ومصادرة أملاكهم مما أدى إلى انتشار الاضطراب . فلما تقدم علاء الدين داود شاه ملك ارزنجان بالاعتذار للسلطان كيقباد الأول ، عفى عنه السلطان وأقره على بلاده . كما أن تسيير كيقباد لجيوشه لم يكن نتيجة تهور أو تسرع أو وليد لحظة غضب ، وإنما كان تحركا مدروسا ومسببا فقد كان السبب عظيما والخطر ملوحا ، وذلك حينما استخف ملك ارزنجان بتعهده الذى عقده مع السلطان كيقباد ، وحاول أن ينفض تبعيته وينضم إلى الخوارزميين[٩٣] الذين عاثوا فى البلاد التى دخلوها فسادا وتخريبا ، مما أضطر كيقباد إلى التحرك عسكريا للقضاء على ذلك الخطر ، والحفاظ على أمن المنطقة وحيويتها .

٣ – ارزن الروم :

أدرك السلطان علاء الدين كيقباد أهمية أرزن الروم الاستراتيجية والاقتصادية لسلاجقة الروم لذلك ظل ثابتا على نفس السياسة التى اتبعها تجاه مدن الشرق فلم يحاول التدخل فى شئون أرزن الروم إلا عندما اتجه صاحبها لمساعدة جلال الدين خوارزمشاه للاستيلاء على خلاط والتى كانت للملك الأشرف ملك دمشق. وهنا لاح الخطر وكان يتوجب على كيقباد سرعة التدخل عسكريا لإنقاذها، فخلاط هى مفتاح بلاد الروم[٩٤] . لكنه أدرك أنه لن يستطيع مواجهة جيش جلال الدين الخوارزمى وحيدا ، خاصة بعد وصول الأخبار إليه بما فعله ذلك الجيش بخلاط وتمكنه من الاستيلاء عليها فى سنة ٦٢٧هـ[٩٥] . وكان لا بد له من أن ينسق مع الأيوبيين لإشتراكهم معه فى التعرض لهذا الخطر . فألح فى طلب مساعدة الكامل الأيوبى وأخيه الأشرف، ويصور ابن الأثير حرص كيقباد وشدة الحاحه بقوله : «وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين ، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق ، فحضر عنده ، ورسل علاء الدين إليهما

متتابعة ، يحث الأشرف على المجئ إليه والاجتماع به ، حتى قيل أنه فى يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدين خمسة رسل »[٩٦] .

وقد أثبت كيقباد أنه كان حريصًا على المصلحة العامة ونشر الأمن فى جميع المناطق الشرقية سواء كانت تابعة له أم للأيوبيين الذين تداخلت حدودهم مع حدوده فى منطقة الجزيرة ، فعندما أحس كيقباد أن الخوارزميين يسببون اضطرابًا شاملاً فى اقتصاد منطقة الجزيرة بما يقترفونه من أعمال الفساد والتخريب للطرق التجارية سارع بالتحالف مع الأيوبيين ، وقدم عساكره ونفسه لإنقاذ البلاد ، موضحًا عدم وجود أى أطماع له فى المنطقة فبعد أن سقطت خلاط فى يد الخوارزميين أرسل كيقباد سفارتين أحدهما إلى الأشرف الأيوبى والأخرى إلى أخيه الكامل تضمنت السفارة الأولى التى أرسلها للأشرف قوله : « والآن فبلادى وأموالى بحكمك فتصل بالعساكر إلى قرشهر وتتجرد وحدك وتصل إلى عندى بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك ونصل أنا وأنت إلى العسكر بالعساكر ، فوالله لا قنعت لك بخلاط بل بجميع البلاد »[٩٧] . وأرسل السفارة الثانية إلى الكامل الأيوبى يخبره فيها، بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى ارزنجان وعشرة آلاف إلى ملطية وقال له: « وأنا حيث تأمر ، فطاب قلب السلطان بذلك ، فكان مهتمًا لأمر الخوارزمى»[٩٨] .

ويتضح من خلال ذلك حرص كيقباد على التحالف مع الأيوبيين فى وقت عصفت بالمسلمين القوى الغازية من صليبيين ومغول ، فى الوقت الذى انساحت فيه جماعات التركمان الخوارزمية يخربون وينهبون مدن الجزيرة الغنية الخصبة والتى تداخلت حدودها مع حدود سلاجقة الروم والأيوبيين .

وقد استطاع كيقباد بحكمته وحسن سياسته أن يحقق المصلحة العامة التى كان يرمى إليها فنجح فى أيامه الأولى فى إقامة علاقات ود مع السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى ، وأخذ السفراء يغدون ويروحون لتقوية تلك الصداقة ، إلا أن

هجوم الأخير على خلاط التى كانت تحت حكم الأشرف الأيوبى حليف كيقباد . وتكوين علاقة بين الخوارزمى وبين جهانشاه أمير أرزن الروم الذى ساعده فى حصار خلاط قد أوجد الشكوك لدى كيقباد بخصوص سياسة جلال الدين ، فأرسل إليه أحد سفرائه وهو التون آبا وبصحبته العديد من الهدايا من أجل أن يصرف النظر عن احتلال خلاط ، إلا أنه لم يستجب لطلب كيقباد ودخلت جماعاته خلاط ونهبوها وخربوها وقتلوا الكثير من أهلها ، مما أضطر كيقباد والذى كان حريصا على أمن خلاط ، أن يتحد مع الأيوبيين لدرء الخطر الخوارزمى ، وتمكنوا من هزيمته فى رمضان سنة ٦٢٧هـ/ اغسطس ١٢٣٠م فى مكان يعرف بياسى جمن (من أعمال أرزنجان)[٩٩] .

وبعد هزيمة جلال الدين الخوارزمى أسر صاحب أرزن الروم ، وأحضر عند ابن عمه علاء الدين كيقباد ، فأخذه وقصد أرزن الروم ، فسلمها صاحبها إليه هى وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها . وكان حرص علاء الدين كيقباد على أمن أرزن الروم ، انطلاقا من حرصه على حماية الطريق التجارى لسلاجقة الروم، فكانت أرزن الروم تحمى حدود سلاجقة الروم كما أنها كانت من المناطق الغنية بمراعيها ومواشيها التى تصدر إلى فارس عن طريق تبريز .

وقد فرض اضطراب أحوال التجارة على يد الخوارزميين الذين احتلوا خلاط وعاثوا فيها فسادا ، وكذلك إغارة التركمان الأيوانية على الطرق ، ضرورة تحرك كيقباد . فقد حدث أن انتهز التركمان الأيوانية فرصة انشغال الخوارزمية واخذوا ينهبون أذربيجان ، ويقطعون الطريق ، وبلغ من طمعهم أنهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز ، وأخذوا من تجار أهلها شيئا كثيرا ، ومن جملة ذلك قطعان الماشية التى أشتراها تجار أرزن الروم وقصدوا بها تبريز ، فلقيهم الأيوانية قبل

وصولهم إلى تبريز ، فأخذوا جميع ما معهم ، ومن جملته عشرون ألف رأس من الغنم[١٠٠] . وهو عدد كبير يدل على كثرة قطعان الماشية التى كانت تصدر من أرزن الروم إلى تبريز ، ومدى اتساع تلك التجارة بين البلدين .

ولم يقتصر النجاح الذى حققته سياسة كيقباد على إلحاق الهزيمة بالخوارزميين وإخضاع أرزن الروم ، بل لقد حققت تلك السياسة نتائج بعيدة الأثر وعظيمة الفائدة ، وتمثلت فى استمالة جماعات الخوارزميين الفارة بعد هزيمة جلال الدين ، من تتبع المغول . والعمل على توطينهم وتثبيتهم فى قائمة جنده ، واستخدامهم فى استرداد بعض المناطق فى أرمينية والاستيلاء على خلاط . ونجح بذلك فى اتقاء خطرهم وشرهم ، وإبعادهم عن أملاكه ، والحد من انسياحهم داخل الأراضى السلجوقية .

كما اعتقد كيقباد أنه يمكنه تحقيق عملية رابحة لدعم الدفاع عن الأراضى الشاسعة التى يحلتها عن طريق توطين الخوارزميين فيها واستغلالهم فى إعادة إحياء تلك الأراضى التى كانت قد خربت من جراء هجمات التتار والخوارزمية أنفسهم[١٠١] .

٤ – خلاط :

خاف كيقباد على خلاط خاصة عندما بلغه تعرض المملكة الأرمنية لغارات المغول المتكررة وانتهاز بعض القوات الخوارزمية الفرصة لتقوم بالتخريب وأعمال النهب وقطع الطريق[١٠٢] . كما استشعر كيقباد من السلطان الكامل بعد استيلائه على آمد والتطلع إلى بلاده ، فبادر إلى فرض سيطرته عليها[١٠٣] . وانتهز رجوع الكامل إلى مصر وانشغال الأشرف بملاهيه[١٠٤] ، فأرسل الأمير كمال الدين كاميار الذى تمكن من الاستيلاء على خلاط سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م[١٠٥] ، كما

استولى على بعض القلاع المحيطة بها ، وشرع فـــى عمارتـــها بعـــد أن خربـــها الخوارزميون والتتار ، وأعاد إليها الأهالى الفلاحين الذين هربـــوا ، ووزع عليـــهم البذور والأسمدة والمواشى والغلال ، وأعفاهم من قسم من الضرائب كمـــا أصلـــح قلاعها وحصونها ، ومصادر مياهها . وعاشت هذه النواحى حالة مـــن الاســـتقرار والرفاهية وتوسعت الحركة التجارية ، فقام قسم من التركمان بـــالتوطن فـــى تلـــك النواحى[١٠٦] . ولما اقطعها لأحد أمرائه العقلاء الشجعان ذوى الخبرة وهو ســـنان الدين قايماز أمره باستمالة الخوارزميين الذين يفدون إلى تلك البـــلاد . واســـتطاع قايماز استمالة أميرهم قيرخان واقنعه بطاعة السلطان والدخول فى خدمته فأكرمـــهم ورتب لهم جميع لوازمهم ، وأقطع ارزنجان لقيرخان وعاشوا فى نواحـــى أخـــلاط وارزنجان وانتظمت أحوالهم[١٠٧] . وحقق كيقباد بذلك هدفا من أهداف توجهه إلـــى الشرق ، ألا وهو توطين التركمان للحد من خطرهم والاستفادة منـــهم فـــى إحيـــاء الأراضى الزراعية .

وحدث أن بدأت فى تلك الفترة المنافسة بين كيقباد والكامل الأيوبـــى حـــول منطقة الجزيرة خاصة بعد أن استولى الكامل على آمد وحصن كيفا واخضع حكـــام الجزيرة له سنة٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، فأصبح للعاهلين حدود مشتركة أخذ يعمل كـــل واحد منهما على تعديلها لصالحه .

ويبدو أن الكامل فى اتجاهه نحو الجزيرة كان يهدف إلـــى الســـيطرة عليـــها وعلى بلاد الشام وانتزاعهما من اقربائه الأيوبيين ويمنحهم بدلا عنها بلاد ســـلاجقة الروم التى كان يخطط للاستيلاء عليها[١٠٨] . فخرج مع أخيه الأشرف فـــى ســـنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م نحو بلاد الروم ، وطلب خروج العزيز صاحب حلب لمؤازرتهم،

إلا أن كيقباد سارع بمراسلة العزيز[١٠٩] واقناعه بعدم الخروج بنفسه خوفاً على حلب من دخولها فى خضم النزاع ، وهى من المدن التى حرص كيقباد على المحافظة على استمرار أمنها وسلامتها لدورها المهم فى تجارة المنطقة .

وعلى الرغم من نجاح الكامل فى عبور الفرات إلى بلاد سلاجقة الروم عن طريق خرتبرت « حصن زياد » إلا أنه فشل فى التوغل داخل البلاد بسبب وعورة المنطقة من جهة واستعداد جيش كيقباد من جهة أخرى ، مما أدى إلى ارتداد الجيش الأيوبى . واستخدم كيقباد الفرات أيضاً للعبور إلى الضفة الشرقية التى كانت تقوم عليها شحنة لحراستها[١١٠] ، فعبره هو وجنوده بالزوارق من ناحية ملطية ووصل إلى خرتبرت (حصن زياد) وكان يريد تأديب صاحبها الذى أرشد الكامل الأيوبى للدخول إلى بلاده عن طريق خرتبرت[١١١] فأحتل المدينة وطلب أهلها الأمان[١١٢] .

بل لقد حاول كيقباد الاستيلاء على الرها وحران سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م منتهزاً عودة الكامل إلى بلاده من غير طائل ، وتقاعد ملوك بنى أيوب عنه . وإنما اهتم كيقباد بهما لما تتمتعان به من أهمية اقتصادية حيث تقعان على أطراف الفرات الشمالية حيث تلتقى طرق المواصلات التى تربط بلاد الشام بالجزيرة والعراق وآسيا الصغرى . لكن الكامل تمكن من استعادتهما سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م[١١٣] .

والذى يهمنا هو أن هذه المحاولات من قبل كيقباد تدل بوضوح على حرصه الشديد على منطقة الفرات وإدراكه لأهميته كطريق حيوى للمواصلات بين بلاده وبقية بلدان الجزيرة والشام .

كما استمر اهتمامه بأمن منطقة حلب حتى آخر أيام حياته ، فقام وكف غارات التركمان عن حلب فى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م وأرسل إلى زعماء حلب

يتعهد بحماية الملك الصغير الناصر يوسف ويعرض عليهم مساعدته ونصره ومنع من يقصده أو يتعرض لبلاده بأذى أو فساد[١١٤] .

وعندما جمع قنغز (أمير من أمراء التركمان) جمعًا كثيرًا من التركمان بعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب ، « وعاث فى البلاد وأطراف حلب من ناحية قورس ، ونهب ضياعًا متعددة ، وكان يغار ويدخل إلى بلاد الروم ، فخرج إليه عسكر حلب فكسرهم ونهبهم فتخوف المقدمون بحلب أن يكون ذلك بأمر سلطان الروم ، فسيروا إليه رسولاً فى معناه فأنكر ذلك وأمره برد ما أخذه من بلد حلب فرد بعضه ، وانكف عن العبث والفساد »[١١٥] .

وهكذا استطاع كيقباد بحسن سياسته التى اتبعها فى جذب وتوطين الجماعات التركمانية ، أن يحقق نوعًا من السيطرة عليهم وتسييرهم حسب أوامره ، فكف غاراتهم ، واستخدمهم فى إحياء الأراضى الزراعية الخصبة التى سبق لهم أن خربوها مما عاد بالنفع على الحياة الزراعية ومنتجاتها التى انعشت الحياة الاقتصادية كما استطاع بإيثاره سياسة تحقيق المصلحة العامة ونشر الأمن والاستقرار فى جميع المناطق ومحاولته تجنب سياسة الاستيلاء والتوسع العسكرى أن يكسب ثقة وود حكام وملوك الشام والجزيرة ، فبادر الأشرف صاحب دمشق وأهالى حلب وكاتبوا السلطان صاحب الروم ليكون معهم عندما تنكروا للكامل ، وطلبوا مساعدته لمنعه من بلاد الشام ، وانضمت كلمة ملوك الشام على مخالفة الملك الكامل ، واخذوا يعتمدون على السلطان السلجوقى فى مواقفهم ضد السلطان الكامل[١١٦] . ولو كان علاء الدين كيقباد يطمع فى الاستيلاء على مدن الجزيرة والشام بغرض ضمها لبلاده كما فعل الكامل لما انتظمت كلمة ملوكها وإمرائها على الانضمام إليه والتحالف معه .

سياسة علاء الدين كيقباد الأمنية الداخلية وأثرها فى إنعاش اقتصاد بلاده :

لم يقتصر اهتمام علاء الدين كيقباد فى سبيل تحقيق الأمن الاقتصادى لدولته على الاهتمام بتأمين طرق التجارة الخارجية ، وإنما نراه يوجه اهتماماته أيضًا نحو تحقيق الأمن الداخلى لبلاده . فقد آمن كيقباد بوجوب اتباع سياسة أمنية داخلية تكفل تنمية مقدرات الدولة وثرواتها الداخلية . فأنشأ لحماية التجارة الداخلية سلسلة عظيمة من الخانات تقدم كل أنواع الخدمات المجانية للقوافل التجارية التى تمر عبر أراضى الدولة(١١٧) .

وبلغ من حرص كيقباد على أمن تلك الخانات ، وسلامة القوافل التى تأوى إليها ، أنه لم يقتصر على حراسة تلك القوافل عن طريق جعلها فى خفارة قوات مسلحة ، أو إيجاد نقاط للأمن على طول تلك الطرق ، ولكننا نجده يحرص على بناء تلك الخانات بطريقة تجعلها شبيهة بالقلاع ومزودة بكل وسائل الدفاع اتقاء لإنقضاضات التركمان البدو المفاجئة(١١٨) .

ومن أهم الخانات التى انشئت فى عهد كيقباد الأول خان السلطان الذى كان من أعظم الخانات شهرة وأكثرها روعة وهو يقع على طريق قونيه آقسراى بمدخله الفخم وزخارفه الجميلة ، وخدماته التجارية والاجتماعية والثقافية . وهناك أيضًا خان ارطقوش وقادن وسعد الدين وكلها أنشئت فى عهد كيقباد ولنفس الأغراض(١١٩) .

استثمار أموال الأمراء فى إنشاء الأسوار وتحصين المدن :

لما اعتلى علاء الدين كيقباد العرش ، كان المغول يجتاحون آسيا الصغرى ، فقام بإجراء الاحتياطات الأمنية الداخلية اللازمة لمواجهة هذا الخطر القادم من الشرق . وأصدر أوامره على الفور لامرائه بإنشاء قلاع وأسوار المدن الشرقية

وسيواس وقيسارية وارزنجان . وكان علاء الدين كيقباد يهدف من بنـاء الأسـوار والقلاع وتحصين المدن إلى تحقيق هدفين مهمين :

أولهما : حفظ الأمن والاستقرار لتلك المدن بما يكفل سلامة أرواح الناس وحفـظ أموالهم من الاعتداءات الخارجية كالغزو المغولي القادم من الشـرق ، أو من الغارات وأعمال النهب والسلب التي كان يقوم بـه التركمـان بيـن الحين والآخر .

وثانيهما : استحداث سياسة جديدة تهدف إلى الحد من نفوذ أمراء دولتـه الأغنيـاء المبذرين المتسلطين ، الذين كانوا يهددون اقتصـاد الدولـة بتبذيرهـم الأموال في إقامة الحفلات وإنفاق الأموال في قنوات لا ترجـع بالفـائدة على الدولة ، فضلاً عن أن هذه الثروات قد جعلت للأمراء مكانة ربمـا زادت أحياناً على مكانة السلطان كما شجعتهم على المعارضة ومحاولـة فرض إرادتهم وسيطرتهم على الأمور .

ولما تولى علاء الدين كيقباد الحكم وجد أمراء أقوياء يتمتعون بنفوذ سياسـي واقتصادي واضح ، وقد تجمعت لدى الأمراء الكبار أمثال الأمير سيف الدين أيبـك والأمير مبارز الدين بهرامشاه أمير المجلس ، والأمير زين الدين بشاره ، والأمـير بهاء الدين قوطلوغا ، عدة عوامل شجعتهم على الخروج عن طاعـة السـلطان ، والسير نحو طريق السيطرة والتحكم في أمور السلطنة ، وكان مـن ضمـن تلـك العوامل طول المدة التي عاشوها في خدمة الدولة ، وتضخـم ثرواتـهم الماليـة ، ووجود دعم وتأييد وتعاطف من أفراد الشعب نتيجة كرمـهم واغداقـهم عليـهم . ووصل الأمر إلى أنه في الوقت الذي كان يصرف في مطبخ السلطان عدد ثلاثيـن رأساً من الماشية لعموم السرايا والشعب والعبيد ، كان الأمير سـيف الديـن ايبـك الجاشنكير يذبح كل يوم عدد ثمانين من الماشية في مقر إقامته(١٢٠) .

وقد أدرك كيقباد بثاقب نظره خطورة الوضع وخاف من استفحاله ، فقـــرر أن يستفيد من أموال أولئك الأمراء ويستثمرها بما يعود على الدولة بالخير والرفاهيـــة ، وتحقيق الاكتفاء الذاتى فأصدر فور توليه العرش الأوامر إلى مائة وأربعيـــن مــن أمرائه ببناء مائة وأربعين برجا فوق سور العاصمة قونية ، وبهذا الشكل أصبحـــت قونية كاملة التحصين فى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م(١٢١) . كما أنفقوا جزءًا كبيرًا مـــن أموالهم على إنشاء المنازل والقصور فى قونية(١٢٢) .

كذلك أمر السلطان كيقباد الأمراء بأن يبنوا فى علائية على ســــاحل البحـــر المتوسط أبراجًا على غرار قلاع قونية فبنوها وساهموا كذلك فى بناء ترسانة ميناء علائية وتحصيناتها المتعددة . كما بنوا فيها العديد من المنازل والقصور(١٢٣) .

حاول كيقباد أن يقدم على فكرة السيطرة والحكم المطلق للدولة ، بعـد إتمـام فتح علائية وكان الهدف من وراء ذلك الحد من نفوذ أمرائه وكبار رجال دولتـــه ، فكانت له إرادة لا تتزعزع فى إبقاء الأمراء على ولائهم لــــه . وحـدث أن أشـار عليهم بتعمير أسوار سيواس بنفس طريقتهم فى إنشاء أســـوار المـدن الأخـرى ، ليستنفذ بذلك ما بقى من أموالهم ، لكن يبدو أن الأمراء لم يستطيعوا تحمل ذلـــك ، وقاموا بتدبير مؤامرة ضد السلطان . ووشى أحدهم إلى السلطان بذلك الخطر ، فمـا كان من السلطان إلا أن أمر بقتل المتآمرين جميعهم . وقد تم ذلك فى قيسارية فـــى يوم الاثنين ٤ جماد الأول ٦٢٠هـ/١٢٢٣م . كما عزل بقيتهم وعين مماليكه فـــى مناصبهم ، « فساد الأمن والرفاهية فى البلاد فى عهده وانعدم الظلم ، فلم يبـــق أى شخص يظلم الضعفاء أو الفقراء »(١٢٤) .

ومما يؤكد حرص السلطان على عدم ضياع أموال أولئك الأمراء ومحاولـــة الاستفادة منها لتنمية الأحوال الاقتصادية لبلاده ما قاله ابن بيبى : « أنه على أثـــر التخلص من الأمراء أرسل النواب إلى منازلهم حيث قاموا بمصادرة كـــل أموالـــهم

وثرواتهم ، ثم وضع الشمع والأختام عليها ، وخصصوا لها حراسة لأجل الحفاظ عليها »[١٢٥] . ويتابع ابن بيبى : « وبعد إعفاء علاء الدين كيقباد عن أقارب وأهالى الأمراء امتلأت خزائن الدولة بالنقود والمجوهرات الثمينة وفتحت المدن والقلاع الواقعة على الحدود وأطراف الدولة »[١٢٦] .

واستمرت سياسة كيقباد فى الاستفادة من أموال بقية الأمراء فى عمليات الأعمار والإنشاء فى البلاد المفتوحة أيضًا ، من ذلك إرساله الأمراء إلى خلاط للمساهمة فى إعادة أعمارها بعد أن خربها الخوارزميون ، وقام بتوجيه الأمراء لتأمين مادة الجبس نظرًا لحاجة المنطقة لها فى إصلاح وترميم القلاع التى تعرضت للتخريب فقام الأمراء بتأمين الجبس من مناطق « عادل جواز » ، وأقام كل أمير على نفقته الخاصة فرنًا كبيرًا لبدء العمل . وتم بناء ألف فرن خلال عدة أيام وقامت الجمال والحمير بنقل الجبس إلى الأماكن التى تحتاج للإصلاح ، وتمت عملية الأعمار بنجاح كبير . ووزع الأمراء الأراضى الزراعية ، والبذور والمواشى على الأهالى، واعفوا المزارعين من الضرائب ، مما كان له أثره فى عودة الكثير من أهالى البلاد المهجرين إلى بلادهم . ولم تمض فترة قصيرة حتى نال الجميع مرادهم من الأمن والهدوء وإعمار البلاد ، وتشجعت بقية القلاع المحيطة بخلاط على الدخول فى معية السلطان كيقباد[١٢٧] .

وهكذا استطاع كيقباد بانتهاجه لتلك السياسة المستنيرة الذكية والصارمة أن يبعد بلاده عن خضم الأزمات السياسية ، فالبلاد فى حالة نهوض اقتصادى ولا تحتمل وجود أزمات داخلية ، وإنما هى بحاجة لهدوء سياسى لتحقيق ما كان يصبو إليه من تقدم اقتصادى وعمرانى .

وكان أن نجحت سياسته فى اجتذاب أموال الأمراء واستثمارها فى تنمية الدخل القومى للدولة والاستفادة منها فى تحصين المدن ، وتعبئة الجيوش ، وإنشاء

القلاع والترسانات على الحدود الساحلية والداخلية ، وإعادة أعمار البلاد وإقامة المنشآت الفخمة من مساجد ومدارس ونزل وغيرها .

وإذا كان المؤرخ ابن العبرى ينتقد سياسة كيقباد مع أمرائه ويصفه بالقسوة والشدة فى معاملة أمرائه(١٢٨) ، إلا أنه ما يلبث أن يستحسن سياسته تلك بقوله : « وكانت الدولة السلجوقية قبله محلولة بسبب الخلف الواقع بين أولاد قلج أرسلان فلما وليها علاء الدين أعاد جدتها وجدد ناموسها وألقى الله هيبته فى قلوب الخلق فأطاعوه واتسع ملكه جدًا »(١٢٩) ، كما قال : « وكان المجرمون يهابونه جدًا ، إذ كان صارمًا فى أحكامه وقد أخضع لسلطانه مدنًا واصقاعًا عديدة »(١٣٠) .

ويعلق المؤرخ عثمان توران على سياسة كيقباد نحو أمرائه بقوله : « ونتيجة للصراع الذى دام بين كيقباد والأمراء بشأن النفوذ والسيطرة ، فقد كان أمرًا معلومًا أن يقوم أحد الأطراف بأبعاد الطرف الآخر .. وقد فاز وكسب الجولة السلطان الشاب صاحب الذكاء والقدرة والإرادة .. ولم تتعرض الدولة للضعف خلال هذا الصراع ، بل كانت هذه الفترة من الفترات الزاهرة فى إدارة الدولة »(١٣١) .

وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك نجاح السياسة الأمنية التى اتبعها كيقباد لتحقيق الأمن والاستقرار الداخلى لبلاده ، مما ساعده على تحقيق حلمه فى جعل بلاده من أعظم الدول المتقدمة اقتصاديًا فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

* * *

وبعد ، فإنه يتضح من خلال البحث أن السلطان علاء الدين كيقباد الأول أدرك منذ بداية توليه عرش سلاجقة الروم أن الاستقرار الاقتصادى هو أهم عامل فى بقاء دولته ، وظل تحقيق الأمن الاقتصادى لبلاده هاجسه طوال فترة حكمه . لذلك اتبع سياسة أمنية خارجية وداخلية ارتكزت على عدة أسس وخطوات صائبة

أتت ثمارها فى تحقيق التقدم الاقتصادى الذى شهدته دولته فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

وكان تأمين تجارة العبور التى اعتبرت عصب الاقتصاد السلجوقى أهم الأهداف التى حققتها تلك السياسة وقد اتبع كيقباد فى سبيل تنفيذها الخطوات التالية:

١ – حماية المنافذ البحرية لسواحل بلاده الشمالية والجنوبية باعتبارها مراكز مهمة خدمت تجارة السلاجقة وذلك عن طريق إرسال حملات عسكرية لاستحداث موانئ وترسانات جديدة لحماية الساحل الجنوبى (علائية) والساحل الشمالى (حملة صغداق) ولتأديب المعتدين من القراصنة والدول التى تأويهم .

٢ – عقد اتفاقيات تجارية مع تجار دول البحر المتوسط المشتغلين بتجارة العبور تضمنت فقرة تتعلق بتأمين أولئك التجار فى البر والبحر ، وتعويضهم أموالهم التى فقدوها بإجبار المعتدين على دفعها أو مضاعفتها، بل ودفعها من خزينة الدولة بما يشبه نظام التأمين أو الضمان الحكومى فى الوقت الحاضر .

٣ – توفير الأمن للمناطق الشرقية التى تعتبر الشريان الرئيسى لتجارة العبور والتى تربط بين شرق العالم الإسلامى وغربه ، وذلك بإتباع سياسة تحقيق المصلحة العامة .

٤ – المحافظة على الأهمية الاقتصادية لنهر الفرات لكونه منبعًا مائيًا وطريقًا حيويًا، وذلك بحماية المدن والمحطات الواقعة عليه أو بالقرب منه ، سواء فى آسيا الصغرى ، أو فى الجزيرة ، أو فى شمال الشام ، ما دامت تلك المدن تلعب دوراً فى تجارة العبور . فكانت خطوة أمنية هامة حفظت التوازن الاقتصادى فى المنطقة من التخلخل والاضطراب .

٥ – إنشاء النزل الآمنة على طول طرق القوافل التجارية الداخلية بقصد حماية التجار وبضائعهم ، وتنشيط حركة العبور .

ولم يكن إنشاء النزل الخطوة الوحيدة التى اتخذها كيقباد لتحقيق الأمن للطـرق الداخلية إذ أدرك كيقباد أهمية المحافظة على الأمن الداخلى لبلاده كخطـــوة هامـــة لتحقيق الازدهار الاقتصادى لبلاده ، فرأى أهمية القضـــــاء علـــى أيـــة بـــوادر أو محاولات قد تصدر بغرض المعارضة الداخلية من قبل أمرائـــه الأقويـــاء والذيـــن شجعتهم ثرواتهم الضخمة على التآمر ضد السلطان ، مما شكل خطرًا كبيرًا علـــى الاستقرار الداخلى للدولة . فوجه بضرورة استثمار أمـــوال كبـــار رجـــال الدولـــة لمساعدة حكومته فى بناء الجيش والترسانات ، وبناء الأسوار وتحصيـــن المـــدن ، وغيرها من المنشآت الهامة ، والمساعدة فى استصلاح الأراضى الزراعية .

وهكذا تمكن كيقباد أن يتخذ خطوات أمنية اقتصادية بالغة الأهمية تدل علـــى عقلية مستنيرة ، وكأنى به رجل من رجالات السياســـة والاقتصـــاد فـــى الوقـــت الحاضر، فأدرك أهمية توجيه القطاع الخاص فى تنمية موارد الدولـــة والنـــهوض باقتصادياتها بل وسد العجز فى ميزانياتها .

كذلك ظهرت حنكة كيقباد السياسية فى التعامل مع قضية جوهرية وهامـــة ، ألا وهى قضية توطين التركمان التى أثبتت الأحداث خطورتها على سياسة سـلاجقة الروم . ونجح فى احتوائهم بقصد الحد من خطـــر اندفاعـــهم وانســياحهم داخـــل الأراضى السلجوقية . وذلك بالعمل على توطينهم والاســتفادة منـــهم فـــى إعمـــار الأراضى الزراعية خاصة على الحدود الشرقية المشهورة بخصوبتها وكأن كيقبـــاد قد استشف ما سيحدث على يد أولئك التركمان من تغيير لخريطة آســيا الصغـــرى على يد أبناء العشائر التركمانية الذين كونوا الإمارات العشر فـــى القـــرن التـــالى (القرن الرابع عشر الميلادى) .

هذا بالإضافة إلى حرص كيقباد على تـــأمين مصـــادر الجزيـــة والاهتمـــام بتحصيلها وتأديب من رفض تأديتها لكونها مصدراً هامًا من مصادر دخـــل الدولـــة السلجوقية .

الهوامش

(١) عثمان توران : الأناضول فى عهد السلاجقة والإمارات التركمانية ، ترجمة د. علـــى محمد الغامدى ، ص٢١.

(٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٨٦ ، ابن العبرى : تاريخ مختصـــر الـــدول ، ص٢٥٠.

(٣) إمارة نيقية البيزنطية إحدى الممالك البيزنطية التى قامت فى آســـيا الصغـــرى بعـــد سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين كما قامت إمارة بيزنطية فى طرابيزون وأخرى فـــى ابيروس .

(٤) عن سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين سنة ١٢٠٤م ، انظـــر فلـــهار دويـــن – فتـــح القسطنطينية ، ترجمة حسن حبشى .

(5) C. Cahen: Pre ottoman Turkey; p. 275.

(6) Herbet Jansky: Selcuklu sultanlarinadan Birinci Alaeddin Kekubadin Emniyet politikasi p.119.

(٧) انظر للباحثة (الفتح الإسلامى لحصن كالونوروس وتحويله لميناء علائية الإســلامى) بحث منشور فى مجلة المؤرخ المصرى العدد ٢١ ، يناير ١٩٩٩م .

(8) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri Ve Anadoluda Islamiyt in yayilisi, Istanbul, p.171.

(٩) ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص٣١٠ .

Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(10) Islam Tarihi Kultur Ve Medeniyeti, Vol. 1, p. 17, Istanbul, 1988.

(١١) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ أ .

(١٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٩ .

(١٣) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ أ .

(١٤) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٩ .

(١٥) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب ، انظر المزيد عن فتح سغداق : ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٢٠ – ١٢٨ .

(١٦) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(17) Islam Ansiclopedies, cilt 6, Meb, Istanbul, 1977, p. 649.

(١٨) ابن بيبى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(18) Islam Ansiclopedies, cilt 6, p. 649. Meb, Istanbul, 1977.

(٢٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٢٣٩ .

(٢١) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٢٨ ، ١٢٩ . المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب ، ويذكر المولوى أن كومننوس موزد الرومى كان حما السلطان غياث الدين كيخسرو .

(٢٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣٠ .

(٢٣) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣٠ .

المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(٢٤) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣٠ .

(٢٥) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣١ .

(٢٦) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣١ .

المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(27) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri., P. 171.

(٢٨) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٢٠ .

(٢٩) محمد فؤاد كوبريلّى : قيام الدولة العثمانية ، ص٩١ ، ٩٢ .

(٣٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٦٤ .

(٣١) كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشيخ ، ط١ ، ص٢٣٣ ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

(31) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri., P. 171.

(٣٣) ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصـــــور الوســطى ، ص٣٠٥ ، ٣٠٦.

(32) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(٣٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أناضول .

(٣٦) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ص٩٤ ، ١٥٢ .

(37) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(٣٨) كامل الغزى : تاريخ حلب ، جـ١ ، ص١٤٥ .

(39) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(٤٠) ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص ٣٠٦

(٤١) C. Cahen: Pre ottoman Turkey; p. 161.

(٤٢) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٢٧ .

(٤٣) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٢٨ .

(٤٤) ابن سعيد : كتاب الجغرافية ، ص١٧١

(٤٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أناضول .

(٤٦) نيكيتا ايليسيف : الشرق الإسلامى فى العصر الوسيط ، ترجمة منصور أبو الحســن ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص٤٨٦

(٤٧) تجمعت أكثر تلك العشائر التركمانية بصورة رئيسية فى منطقة الحدود بين ســـلطنة سلاجقة الروم وجيرانها فى شرق وجنوبى شرقى آسيا الصغرى حيث وجدوا تلـــك المنطقة مناسبة لمعيشتهم الرعوية . Claud Cahen: Op. Cit. P. 145.

(٤٨) بابا إسحاق : هو شيخ حركة البابائية الشهير وهو تركمانى الأصل ، أعلن بالاتفـــاق مع مريديه راية العصيان على غياث الدين كيخسرو الثـــانى (٦٣٤ - ٦٤٤هـــ/ ١٢٣٦ - ١٢٤١م) سلطان سلاجقة الروم فى عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م ، أنضم إليـــه

الكثير من التركمان الذين كانوا يقطنون مناطق الحدود فى دولـة سلاجقة الـروم انظر عن حركة البابائية ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص٢٢٧ - ٢٣١ .

(٤٩) لم يغفل الجغرافيون والمؤرخون الحديث عن أهمية نهر الفرات فعن فضل الفـرات وصحة مياهه يقول ابن العديم : (كل ماء فى نهر فطير إلا ماء فرات فإنه حمـير لكثرة اختلاط الأهوية به وتكسير المهدزاسات له وهذه المههدزاسات عملت لتكسير حدة المياه ، قلت وإلى زمننا هذا نختار ماء الفرات للخلفاء على ماء دجلة) . ابـن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، م١ ، مخطوط مطبوع بـالتصوير ، ص٣٦٩. وروى أن أربعة أنهار من الجنة : النيل والفرات وسيحان وجيحـان . وروى عـن على رضى الله عنه ، أنه قال : (يا أهل الكوفة ، إن نـهركم هـذا يصـب إليـه ميزابان من الجنة) وروى عن جعفر بن محمد الصادق أنه شـرب مـن الفـرات فحمد الله وقال : ما أعظم بركته ، لو علم الناس ما فيه من البركة لضربـوا علـى حافتيه القباب ولولا ما يدخله من الخطائين ما اغتمس فيـه ذو حاجـة إلا بـرأ). القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٤٢١ (دار صادر : بـيروت) . وعـن أهمية نهر الفرات كطريق حيوى ومهم لنقل البضائع بين شرق العـالم الإسلامى وغربه يقول الدمشقى : « يسمى الفرات أحد الرافدين يعنون دجلة معه وسميا بذلك لأنهما تجريان فى جانبى بغداد . دجلة من الشرق والفرات مـن الغـرب . فتـأتى المراكب إلى بغداد فى دجلة من الصين فما بعده ومن اليمامة فما بعدها ومن الـهند والزنج وما بعدها . وتأتى الأكلاك أيضا إلى بغـداد فـى الفـرات مـن أرمينيـة وأذربيجان فما بعده ومن الروم والشام ومن المغرب ومصر وما بعدها .

انظر نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص٩٣ .

(٥٠) ابن سعيد المغربى : كتاب الجغرافية ، ص١٨٧ .

(٥١) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٣٨٥ .

(٥٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص١٧٤ . ابن العديم : بغية الطلب فـى تـاريخ حلب ، م١ ، ص٦٣٤ . القزوينى : آثار البلاد ، ص٤٩٤ .

(٥٣) المسعودى : التنبيه والأشراف ، ص٥٢ – ابـــن العديـــم : بغيـــة الطلـــب ، م١ ، ص٦٣٥ – الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص٩٣ ، ٩٤ .

(٥٤) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣١ ،

Hamd Allah Mustawfi; Nuzhat AL-Qulub geographical part, London, 1915, p. 90.

(٥٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٣٨٥ .

(٥٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٥٠ .

(٥٧) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ٣ ، ص٣٦٤ – المقدســـى : أحســـن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص٢٠ .

(٥٨) انظر ص٢٧ من البحث .

(٥٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨١ ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٤ .

(٦٠) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٠٩ .

(٦١) يصف القزوينى بلاد الروم « بلاد واسعة من أنزه النواحى وأخصبها وأكثرها خـيرا وعجائب ذكرت فى مواضعها .. مياهها من أعذب المياه وأخفها ، وهواؤها أصـــح الأهوية وأطيبها » آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٥٣٠ .

وتوضح تمارا رايس ، ص١٢ أنه كان لاهتمام السلاجقة بمياه الشـــرب والأمـــور الطبية أثر كبير فى الاستفادة من ينابيع المياه وأنه كان للســـلاجقة حمامـــات فـــى منطقة قير شهر مما يدل على وجود ينابيع بها . لكن يبدو أن الجفاف عندما يصيـب هذه الينابيع يضطر السقاة لجلب المياه من الفرات الذى يمثل منبعـــا مائيـــا دائمـــا لسلاجقة الروم .

(٦٢) خليل أدهم : قيصرية شهرى ، ص٥٧ .

(63) Herbet Jansky: Selcuklu sultanlarinadan Birinci Alaeddin Keykubadin Emniyet politikasi p.120.

(٦٤) خليل أدهم : قيصرية شهرى ، ص٦٠ .

(٦٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ، ص٣٤٩ .

(٦٦) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين ، ص٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤م/ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ ، دار الثقافة ، القاهرة .

(٦٧) أبو شامة : تراجم رجال القرنين ، ص٢٩٨ .

(٦٨) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، جـ٨ ، ص٧٠٣ ، ط١ ، حيدر أباد ، الهند ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م / ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٠ .

(٦٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨٣ .

(٧٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص٣١ .

(٧١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص٢٤ ، ط٨ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

(٧٢) القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، ص٢٩٤ .

(٧٣) أبو شامة : تراجم رجال القرنين ، ص٢٨٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٤ ، ص٢٨٧ .

(74) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri Ve Anaddua, p.172.

(٧٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ، ص١٠١ / ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١٠ ، ص٤٤ / ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، جـ٢ ، ص٣٧٩

(٧٦) C. Cahen: Pre ottoman Turkey; p. 16.

(٧٧) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٨ ب .

(٧٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٠ .

(٧٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٢ .

(٨٠) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٢١ ، ط٢ ، تصحيح محمد مصطفى زيادة .

(٨١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٠ .

(٨٢) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(٨٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص١٩٠ – ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٥ ، ص٣٥٨ .

(٨٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ١٥٥ .

(٨٥) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٢٣ / المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٨ ب .

(٨٦) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٦٩ .

(87) The Encyclopaedia of Islam, vol. IV, p. 817.

(٨٨) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٣ / المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٩٧ ب .

(٨٩) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٣ .

(٩٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٤ .

(٩١) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٥٠ .

(٩٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٥٠ .

(٩٣) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٨ .

(94) The Encyclopaedia of Islam, vol. IV, p. 817.

(٩٥) يصف ابن الأثير تملك الخوارزميين لخلاط وما فعلوه بقوله : « وخربوا خلاط ، وأكثروا القتل فيها ومن سلم هرب فى البلاد ، وسبوا الحريم ، واسترقوا الأولاد ، وباعوا الجميع » ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٠ .

(٩٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٩١ .

(٩٧) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ، ص٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٩٨) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٢٣٨.

(٩٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٩١ – ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٩ .

Osman Turan: Selcuk Devri Vakfiyeleri, Altun Aba, Belleten, XL, Ankara, 1947, p.198.

(١٠٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ، ص٤٦٢ .

(١٠١) نيكيتا ايليسيف : الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى ، ص٤٨٨ .

(١٠٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٨٦ ، ١٨٧ .

(١٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٧ .

(١٠٤) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(١٠٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٨ . ويذكره المقريزى سنة ٦٣١هـ ، السلوك : جـ١ ، ص٢٤٢ .

(106) Islam Ansiklopedesi, 6 cilt, Meb, Istanbul, 1977.

(١٠٧) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٨١ أ .

(١٠٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٣٢٤ .

(١٠٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٦ .

(١١٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٥٤ .

(١١١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٨ ، ٨٠ .

(١١٢) إبن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨١

(١١٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص٢٢٠ / سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٦٩٤ . كانت حران تقع فى وسط المنعطف الكبير بالجانب الغربى لنهر الفرات ، وهى محطة كبرى على الطريق المؤدى من الموصل إلى حلب ، وكان لها دور تجارى بالنظر إلى عدد التجار الحرانيين الذين كانوا يوجدون فى

بغداد وسوريا ، بل وحتى فى عدن والصين . كلود كاهن : الشرق والغرب زمـن الحروب الصليبية ، ص٢٤٩ .

(١١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص١٣١ .

(١١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص١٣٠ .

(١١٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص١٣٠ .

(117) S. Vryonis: The decline of medieval hellenismin Asia minor and the process of Islamzation from the eleventh through the fifteenth century, p. 221-222 – Islam Ansikliop, idisi 6 cilt, Meb, p. 659. Istanbul, 1977.

للمزيد عن الخانات التى أنشئت فى آسيا الصغرى فى عهد سلاجقة الـروم ومـا تقدمه من خدمات انظر :

Osman Turan, Selcuk kervan Saraylari, Belleten 37, Aukara, 1946.

(١١٨) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ص٨٧ .

(١١٩) للمزيد عن أوصاف وخدمات هذه الخانات انظر أوقطاى أصلان آبا : فنون الـترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد عيسى (اسطمبول ، مركز الأبحاث والتاريخ والفنـون والثقافة الإسلامية ، ١٩٨٧م) . نورة بادياب : قونية عاصمة سـلطنة سـلاجقة الروم ، رسالة دكتوراه ، لـم تنشـر ، جامعـة أم القـرى ، مكـة المكرمـة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

(١٢٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٢ .

(121) Anonim: p. 29. / Osman Turan, Selcuklular Zamaninda Turkiyes p.339.

(122) Anonim: p. 29.

(123) Anonim: p. 29.

(124) Anonim: p. 30.

(١٢٥) إبن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٣ .

(١٢٦) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٧ .

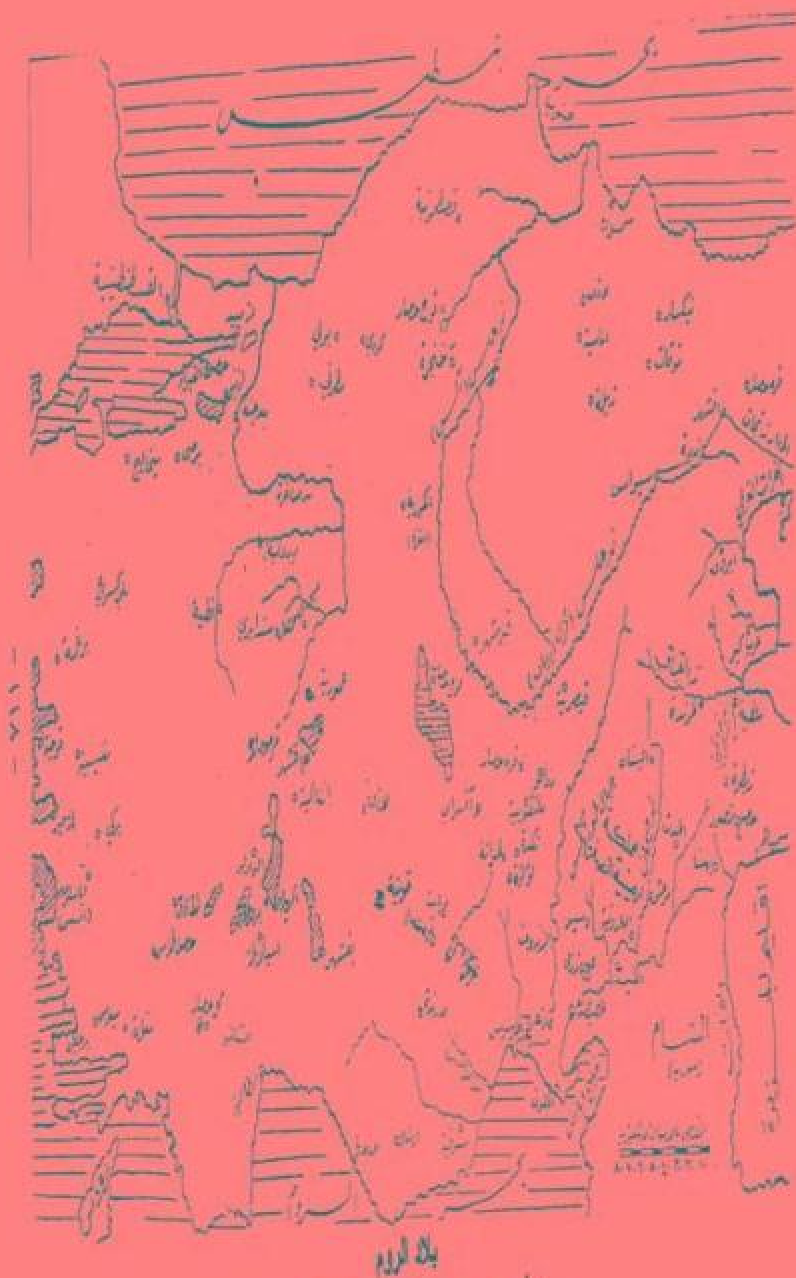
(١٢٧) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٨٦ ، ١٨٧ .

(١٢٨) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٠ .

(١٢٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٠ .

(١٣٠) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨٣ .

(131) Osman Turan: Selcuklular Zamaninda Turkiye, p.342.



بلاد الروم

نقلا عن كي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية

خريطة رقم (٢)



إقليم الجزيرة وأذربيجان مع أقاليم الحدود الشمالية الغربية

خريطة توضيح غزوة الحمدانيين والتنازع بين حدود ... الروم الشرقية وبلاد الجزيرة وفارس والعراق

خريطة رقم (٣)



مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

١ - ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٢ - الأدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى المعروف بالشريف الادريسى ، ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

٣ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

٤ - ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م

٥ - تمارارايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الداقوقى ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٨م .

٦ - ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاو على التركى الشهير بسبط ابن الجوزى ، ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، جـ ٨ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد ، الهند ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

٧ – ج. م. هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

٨ – حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠م .

٩ – ابن حجر العسقلانى (ت ٥٨٢هـ) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت ، (د. ت) .

١٠ – الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى ، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان ، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

١١ – ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة مولى أمير المؤمنين ، ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) : المسالك والممالك ، طبعة ليدن ، ١٨٨٩م.

١٢ – دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوى وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس ، طبعة دار الفكر ، ١٩٣٣م .

١٣ – الدمشقى (شمس الدين أبى عبد الله محمد أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى شيخ الربوة) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، دون تاريخ ، دون مكان نشر .

١٤ – الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز ، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء ، الطبعة الثامنة ، مؤسسة الرسالة: بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

١٥ – ابن سعيد المغربى (أبو الحسن على بن موسى المغربى ، ت ٦٨٥هـ/٨٢٦م) : كتاب الجغرافية ، تحقيق إسماعيل العربى ، بيروت، ١٩٧٠م .

١٦ - أبو شامة : (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، ت ٦٥٥هـ) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤م .

١٧ - ابن العبرى (أبو الفرج جمال الدين غريغوس الملطى، ت٦٨٣هـ/١٢٨٦م):

- تاريخ الزمان ، ترجمة الأب إسحاق أرمله ، دار المشرق : بيروت ، ١٩٨٦م .

- تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الأولى ، (د. ت) .

١٨ - ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، نشر فؤاد سزكين ، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، فرانكفورت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٩ - زبدة الحلب فى تاريخ الحلب ، تحقيق سامى الدهان ، المعهد الفرنسى بدمشق للدراسات العربية .

٢٠ - على محمد الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، الطبعة الأولى ، مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٢١ - أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) : تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٢٦٧هـ/١٨٤٠م - المختصر فى أخبار النشر ، بيروت ، بدون تاريخ.

٢٢ - ابن فضل الله العمرى (القاضى شهاب الدين ، ت ٧٤٩هـ/١٣٥٠م): التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ، مصر ، ١٣١٢هـ .

٢٣ - ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .

٢٤ - القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى ، ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م) : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، المكتب التجارى للطباعة والنشر ، بيروت ، (د. ت) .

٢٥ - القزوينى : (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت (د. ت) .

٢٦ - القلقشندى (أبو العباس بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢م .

٢٧ - كامل حسين محمد مصطفى الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ، حلب ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م .

٢٨ - كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشيخ ، الطبعة الأولى ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٢٩ - كى لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٣٠ - محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربى ، (د. ت) .

٣١ - المقريزى (أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة.

٣٢ - المولوى (أحمد بن لطف الله المولوى الشهير منجم باشى ، كان حيا سنة ١١٣٦هـ) : صحائف الأخبار فى وقائع الإعصار ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باسطمبول ، رقم ١/١٢٤٥

٣٣ - ابن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف عاش فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى) : التاريخ المنصورى (تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان) ، تحقيق أبو العيددودو ، دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٣٤ - نيكيتا ايليسيف : الشرق الإسلامى فى العصر الوسيط ، ترجمة منصور أبو الحسن ، دار الكتاب الحديث ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٣٥ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٤ ، وجـ٥ ، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكتب ١٩٧٧م.

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

١ - إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات سلجوقيه ، قسطنطينة ، ١٣٠٩هـ .

٢ - ابن بيبى (الحسين بن محمد بن على المنشئ الجعفرى ، ت ٦٨٠هـ/١٢٨١م) : مختصر سلجوقنامة ، منشور فى تواريخ آل سلجوق ، نشرة هوتسما فى سلسلة .

Recueil de textes relatifs a L,histoire des Seldjoucides, vol, IV, Leide, 1902.

٣ - خليل أدهم : قيصرية شهرى (مبانى إسلامية وكتابة لرى تاريخ عثمانى انجى كلياتى ، العدد ٥ ، اسطمبول ، ١٣٣٤هـ) .

٤ - مؤلف مجهول : تاريخ آل سلجوق ، نشرة فريدون نافز أوزلك باسم Anonim فى سلسلة .

Anadolu Sedcuklulari Devleti Tanihi III Ankara, 1952.

٥ – المستوفى القزوينى (حمد الله ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) : نزهة القلوب ، ترجمة الجزء الجغرافى (لسترانج G. Lestrange) بعنوان :

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin Nuzhat AL-Qulub.

(The Geographical part), London, 1915.

6- Cahen, Claud: pre ottoman Turkey (translated from the french by J. Jone Williams) Sidawick, Jackson, London.

7- Cambridge history of Islam, vol. l. Cambridge, 1970.

8- Cetin, Osman: Selcuklu Mussesleri Ve Anadolude Islamiyetin Yayilisi, Marifet Yayinlari, Istanbul.

9- The Encyclopaedia of Islam, volume IV, leiden, E. J. Brill, 1978.

10- Islam Ansiclopedies, cilt 6, Istanbul, 1977.

11- Islam Tarih Kultur Ve Medeniyeti, Vol. 1. Istanbul, 1988.

12- Jansky, Herbet: Selcuklu sultanlarinadan Birinci Alaeddin Kekubadin Emniyet politikasi, Istanbul.

13- Turan, Osman:

- Altun Aba ve vakfiyesi, Belleten, XL, Ankara, 1947.
- Mubarizeddin Er-Tokus ve vakfiyesi (Selcuk Devrivak Fiyesi, Belleten, XL, Ankara, 1947).
- Selcuklular Zamaninda Turkiye, Istanbul, 1980.

14- Vryonis, Seperos, Jr: The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the process of Islamization of from the eleventh through the fifteenth century, London, 1971.

التنافس الدولي فى الخليج
منذ بداياته إلى فرض الحماية البريطانية

د. عمر بن صالم بن سليمان العمرو(*)

المبحث الأول

الخليج فى العصر الحديث

من المعروف أن تاريخ العالم الإسلامى فى العصر الحديث ارتبط كثيراً بتاريخ ومصير الدولة العثمانية : الدولة التى حملت لواء الدفاع عن الأراضى الإسلامية ومقدساتها فترة طويلة من الزمن ، وبخاصة بعد أن نال سلاطينها شرف لقب الخلافة الإسلامية .

ونتيجة لذلك يمكن القول أن تاريخ العالم الإسلامى فى العصر الحديث والمعاصر مر بحقبتين تاريخيتين رئيسيتين :

الأولى منهما تبدأ مع بدايات العصر الحديث ، وبالذات مع قيام الدولة العثمانية ، مرورا بضمها لمعظم بقاع العالم الإسلامى ، ومن ثم حملها لواء الدفاع عن ممتلكات الدولة الإسلامية . وتنتهى تلك الفترة بانتهاء الحرب العالمية الأولى التى دخلتها الدولة العثمانية وهى تئن بالعديد من الويلات والمشكلات الداخلية والخارجية التى جعلت العالم ينظر إليها على أنها الرجل المريض . تلك الحرب التى كانت ، فيما يبدو ، مسمارا مهما وأخيرا دق فى نعش الدولة العثمانية التى سقطت بعد ذلك بقليل لتقسم تركتها بين الدول الاستعمارية التى خرجت منتصرة فى هذه الحرب العظمى .

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك - كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وتبدأ الفترة الثانية : بقيام عدد كبير من الدول والكيانات السياسية فى بلـــدان العالم الإسلامى على أنقاض تلك الدولة من جانب ، وفى ظلال الزخم الاســتعمارى الهادر آنذاك من جانب آخر .

ولعل من المسلم به تاريخيا وجغرافيا أن منطقة الخليج فى العصــر الحديـث تمثل ركنا من أركان العالم الإسلامى الكبير ، وبالتالى فإن ذلك يفترض أن يدخلــها فى نطاق تاريخ الدولة العثمانية بمراحلها التاريخية المختلفة ، خاصة خلال الفــترة الذهبية لتلك الدولة الكبرى ، التى انتظم تحت لوائها معظم بقـــاع وشـعوب العـالم الإسلامى فى آسيا وأفريقية وأوربا .

وبالرغم من كل ذلك إلا أن المتتبع لتاريخ الخليج وبلدانـــه يلحـظ أن هـذه المسلمات التاريخية وإن كانت قد انطبقت على تاريخ كثـير مـن منـاطق العـالم الإسلامى ، فإنها لم تنطبق بتلك الدقة على تاريخ الخليج ، وذلك لارتبـــاط تـاريخ الخليج وبلدانه بعدد من الموضوعات والسمات والأحداث التى جعلت مـن التـاريخ للخليج وبلدانه نمطا يختلف فى مساره عن ذلك النمـط التـاريخى لبلـدان العـالم الإسلامى فى العصر الحديث . وتأتى تلك القضايـــا والأحـداث تحـت محوريـن رئيسيين .

المحور الأول : طبيعة التكوين والتطورات السياسية التى شهدتها دول الخليـج فى تلك المرحلة .

والمحور الثانى : هو أحداث التنافس الاســتعمارى بيـن الـدول الأوربيـة للسيطرة على منطقة الخليج ، تلك المحاولات والأحداث المتعاقبة التى جرت الدولـة العثمانية إلى عدد من المحاولات العسكرية تصحبها جهود سياسية لإثبات الوجـــود فى المنطقة . وكان من أواخرها التحركات العثمانية أمام النفـــوذ البريطـانى فـى أواخر القرن التاسع عشر والتى انتهت أخيرا ، وبكل أســف ، بـالإقرار بـالتفوق البريطانى فى المنطقة ، ذلك التفوق الذى كانت بوادره قد ظهرت قبل ذلـــك بمـدة

طويلة منذ أن استطاعت بريطانيا التى اســتخدمت أسـلوب العصـا والجـزر أو الترغيب والترهيب مع دول المنطقة ، أن تدخل دول المنطقة العربية الواحـدة تلـو الأخرى تحت مظلة الحماية (أو الاستعمار) البريطاني ، والذى استمر إلى مطلـع الستينات من القرن العشرين حين فضلت بريطانيا سياسة الانسحاب التدريجى مـن المنطقة ، خاصة وقد اطمأنت ، فيما يبدو ، إلى ضمان استمرار ورعاية مصالحـها الباقية فى الخليج بانتقال مقاليد الأمور فى المنطقة لغيرها من القوى الكبرى ، وهـى الولايات المتحدة الأمريكية .

ولذلك فلعل من المناسب لدراسة تاريخ التنافس الدولى فى الخليج أن نتتبع فى البداية التطورات السياسية لبعض بلدان المنطقة لمعرفة الأرضيـة التـى تحـرك الاستعمار وجال فيها ، لننتقل بعد ذلك إلى المحاور الأخرى من الدراسـة والتـى تهدف إلى تتبع جذور ذلك التنافس الاستعمارى الأوربى وتطـوره فـى الخليـج ، وموقف الدولة العثمانية من تلك التحركات الاستعمارية الأوربية فى المنطقة ، بـدءاً بالغزو البرتغالى ، ومروراً بالغزو الهولندى ، والغزو الفرنسى . ثم ننتقل بعد ذلـك إلى محور آخر فى هذه الدراسة ، نتتبع من خلاله تطورات الغزو البريطـانى فـى الخليج ، لنعرف ، وبشكل مجمل ، كيف سارت بريطانيا فى تحركاتها وتنافسها مـع الدول الأوربية الأخرى ، أو مع بلدان المنطقة ، إلى أن نصل بعد ذلك إلى المحـور الأخير فى هذه الدراسة ، وهو المحور الذى سوف يسـاعدنا فـى معرفـة وتتبـع العوامل المختلفة التى من خلالـها اسـتطاعت بريطانيـا ، فـى نهايـة السـباق الاستعمارى، أن تتفوق بل وتسيطر تماما على تلك الأوضاع الاستعمارية الملتهبـة ، خاصة بعد أن استطاعت بريطانيا بأساليبها المتعددة أن تفرض علـى دول الخليـج الواحدة تلو الأخرى ما عرف بمعاهدة الحماية ، أو بالأحرى ما يمكـن أن يسـمى بمعاهدات (الاستعمار المشروط) على نحو ما سيأتى بيانه فى المباحث الآتية مـن هذه الدراسة بإذن الله تعالى .

المبحث الثانى

ملامح التاريخ السياسى لبلدان الخليج

وفى هذا المبحث سنحاول أن نتتبع بعض ملامح التطورات السياسية فى بلدان الخليج العربية منذ بداية حركة الاستعمار الأوربى فى المنطقة إلى أن خضعت هذه البلدان للحماية البريطانية . والهدف من هذا العرض التاريخى ليس الدراسة التفصيلية لتاريخ هذه التطورات السياسية فى المنطقة ، فهذه لها مواقعها الأخرى من الدراسات التاريخية المتخصصة ، وإنما الهدف من ذلك هو تكوين خلفية تاريخية أو تصور شامل للأوضاع الداخلية فى بلدان الخليج وتطوراتها السياسية لتعين الباحث على بسط أوضح للصورة العامة لبلدان المنطقة أمام القارئ، كى يسهل عليه تتبع المحاور الرئيسية الأخرى فى هذه الدراسة ، أى المحاور أو المباحث التى تتصل بتطورات التنافس الاستعمارى فى منطقة الخليج منذ بداياته إلى فرض الحماية البريطانية على بلدانه .

أولاً : تاريخ عمان :

كانت عمان فى القرن الخامس عشر الميلادى تحكم من قبل الملوك النبهانيين، ثم تولى الحكم فيها أسرة اليعاربة التى برزت فى الساحة بوصول البرتغاليين إلى الخليج ومقاومة العمانيين لها . فبعد سلسلة من الحروب الأهلية استقر رأى العمانيين فى عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م على تولية ناصر بن مرشد اليعربى إماماً لعمان . وما أن استقرت الأمور له حتى أعلن الحرب على البرتغاليين ، حيث قاد عدداً من الحملات الناجحة إلا أنه لم يكمل المسيرة ، حيث انتقل إلى رحمة الله فى عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م ، قبل مدة قصيرة من قطف الثمرة وتحقيق الغاية[٣] .

ولم يأت عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م ، أى بعد حوالى سنة من وفاة ناصر بن مرشد إلا وقد طرد البرتغاليون من البلاد بفضل الحملات المتوالية التى قادها سلطان بن سيف ابن عم ناصر وخليفته فى الحكم[٤] .

ومنذ ذلك الحين انطلقت عمان فى حركة كبيرة لتطوير ودعم قوتها البحرية والتجارية . وتعاقب على الحكم فى عمان كل من بلعرب بن سلطان بن سيف الذى تولى فى أعقاب وفاة والده عام ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م ، والذى دخل فى حرب أهلية مع أخيه سيف فتوفى منتحراً عام ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م ، فحل أخوه سيف مكانه فى الحكم منذ ذلك الحين إلى عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م(٥) . وفى عهد الإمام سيف بلغت قوة عمان البحرية ذروتها واستطاع العمانيون نتيجة لذلك أن يضموا بعض السواحل الشرقية فى أفريقية لتشكل بذلك النواة للدولة العمانية الكبرى(٦) .

وفى الوقت الذى كانت فيه عمان تتقدم وتتقوى وتتسع فإن هناك عوامل أخرى بدأت تعصف بالحكم اليعربى ، حيث دخل اليعاربة فى خلافات وحروب أهلية أدت إلى انقضاء حكمهم وقيام حكم عمانى آخر من قبل أسرة البوسعيديين(٧) . وكانت انطلاقة هذه الأسرة التى تحكم عمان إلى يومنا الحاضر قد بدأت على يد الإمام أحمد بن سعيد الذى حكم البلاد منذ عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م وظل فى الحكم إلى وفاته عام ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م(٨) ، لتدخل البلاد مرة أخرى فى صراع داخلى حول السلطة لم تستقر الأمور فيه إلا عام هـ ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م بتولى سعيد بن سلطان الذى استطاع أن يعيد للبلاد استقرارها ونفوذها ، والذى ظل يحكم البلاد قرابة نصف قرن وبالتحديد إلى وفاته عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م(٩) . ففى عهد السيد سعيد : « اتسعت رقعة الممالك العمانية ، وضمت فيما ضمته زنجبار ، وأجزاء أخرى فى شرقى أفريقية والساحل الجنوبى لفارس ، وقد حققت تجارة عمان فى شرق إفريقية ازدهارا ملحوظا كما تحولت عمان إلى سوق دولية ، ومنطقة تجارة حرة ، تقصدها السفن لنقل السلع والمنتجات منها إلى مناطق الخليج الأخرى»(١٠) .

وفى الوقت الذى كانت الدولة العمانية قد بلغت أوج مجدها فإن بوادر التدهور كانت تسرى فى داخل عمان ، حيث تضافرت عدة عوامل مختلفة أدت إلى ذلك ، مثل الخلافات العائلية ، والتدخلات الخارجية ، مما وضع على كاهل السيد

سعيد أعباء مالية كبيرة زادت من حالة التدهور فى البلاد ، ودفعت بالسيد سعيد إلى محاولة كسب صداقة بريطانيا التى كانت سيدة الموقف فى المحيط الهندى[١١] ، والتى بدأ نفوذها فى عمان وفى غيرها من مناطق الخليج يزداد شيئاً فشيئاً ، خاصة وقد استفحلت الخلافات الأسرية فى عمان بعد وفاة السيد سعيد ، فانقسمت الدولة العمانية فى عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٢م إلى شقين أسيوى تحت زعامة ابنه ثوينى وأفريقى تحت زعامة أبنه ماجد .

ولم يهنأ ثوينى بحكم البلاد كثيراً إذ تعرضت البلاد لموجة من الاضطرابات السياسية نتيجة للخلافات الأسرية وللتدخلات الخارجية بجانب أحد أطراف النزاع ، وتوفى ثوينى نتيجة لذلك إذ اغتيل عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م من قبل ابنه سالم الذى دخل هو الآخر فى صراع مع عزان بن قيس الذى قتل هو أيضاً على يد تركى بن سعيد الذى تولى السلطة منذ عام ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١م إلى وفاته عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م ، حيث خلفه ابنه فيصل فاستمر فى الحكم إلى وفاته عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م[١٢] .

وفى عهد فيصل دخلت عمان فى اتفاقية الحماية مع بريطانيا فى شعبان من عام ١٣٠٨هـ / مارس ١٨٩١م ، وهى المعاهدة التى قيدت عمان فى علاقاتها الخارجية ، حيث « تحتم على السلطان وورثته وخلفائه ألا يتصرفوا بالتنازل أو الرهن أو البيع أو السماح باحتلال أى من أقاليم مسقط أو عمان أو توابعها .. إلا للحكومة البريطانية »[١٣] .

ثانياً : مشيخات الساحل العمانى :

يعتمد أساس التشكيل السياسى فى الساحل العمانى على حلفين قبليين كبيرين هما : حلف القواسم فى القسم الشمالى ، وحلف بنى ياس فى القسم الجنوبى من المنطقة العربية المطلة على الساحل الغربى من الخليج والتى تعرف الآن بدولة الإمارات العربية المتحدة .

ويرجع أساس تلك التحالفات التى أفرزت هذه المجموعة من التشكيلات السياسية فى منطقة الساحل العمانى إلى عدد من العوامل هى باختصار : التحالفات العربية التى هبت وتناصرت لمقاومة الغزو البرتغالى فى المنطقة . ثم انهيار ذلك الوجود الذى خلف فراغا سياسيا نتج عن عدم وجود قوى كبرى فى المنطقة ، خاصة مع انهيار دولة اليعاربة ، واغتيال نادر شاه ، وعدم جدية الدولة العثمانية فى السيطرة على المنطقة .

وأمام هذه العوامل ونتيجة لتلك التحالفات برز إلى الساحة عدد من التشكيلات السياسية التى اختص كل فريق منها بقسم معين من هذه المنطقة التى مرت بعدة أسماء اصطلاحية ، حيث عرفت مثلا بمشيخات الساحل العمانى ، نسبة إلى موقعها الجغرافى ، كما عرفت كذلك بمشيخات الساحل المتصالح ، لمعاهدات التصالح التى عقدت فيما بينها تحت إشراف السلطات البريطانية فى الخليج .

وتتكون هذه المشيخات أو الإمارات من سبع إمارات هى : أبو ظبى ، دبى ، والشارقة ، ورأس الخيمة ، وأم القوين ، وعجمان ، والفجيرة ، وقد شكلت تلك المشيخات أو الإمارات فى الساحل الشرقى للخليج المعروف بالساحل العمانى ، أو ساحل المشيخات المتصالحة والتى توحدت فيما بينها سياسيا وإداريا بعد استقلالها لتشكل ما يعرف حاليا بالإمارات العربية المتحدة .

ويبدو أن الظروف الدولية المتشابهة قادت هذه المشيخات العربية إلى الوحدة الحالية ، إلا أن تحقيق ذلك لم يكن أمرا يسيرا ، حيث مر بعدد من المراحل التاريخية . وكانت المرحلة الأولى قد بدأت ، على ما يبدو ، عندما واجهت تلك المشيخات ظروفا سياسية متشابة إلى حد كبير فى علاقاتها المشتركة مع الدولة صاحبة النفوذ الأقوى فى المنطقة ؛ وهى بريطانيا . ويأتى على رأس تلك الظروف تعرض تلك القوى إلى الضغوط البريطانية المتتالية والتى أجبرت هذه الوحدات

السياسية العربية فى الخليج إلى الدخول الواحدة تلو الأخرى فى فلك النفوذ ، ومن ثم فى إطار الحماية البريطانية .

وكانت نقطة التحول الكبرى بالنسبة لمشيخات الساحل العمانى فى تاريخ علاقاتها مع بريطانيا قد بدأت فى مطلع القرن التاسع عشر حين وجهت بريطانيا حملتين بحريتين كان الهدف منهما القضاء على قوة القواسم فى رأس الخيمة القوة التى تأثرت كثيراً بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فجاهدت ضد الوجود البريطانى فى الخليج ، وبلغت تلك الحملات ذروتها فى نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر حين قامت بريطانيا ، بحجة ضرب ما أسمته بالقرصنة ، بتوجيه ما يعرف بالحملة البريطانية الثالثة على القواسم ، وهى الحملة البحرية التى نتج عنها ضرب وإحراق وتدمير رأس الخيمة فى بادرة أشبه ما تكون بتوجيه إنذار غير مباشر للغالبية الباقية من القوى العربية الأخرى فى المنطقة لتبادر واحدة تلو الأخرى فى الدخول بما يعرف بمعاهدة السلام العامة مع بريطانيا فى عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م[١٤] .

وتطورت تلك العلاقات حين أشرفت بريطانيا على عقد معاهدات مشتركة بين تلك المشيخات بالدخول فى معاهدات تصالح بحرى فيما بينها تحت إشراف المقيم البريطانى ، بدأت بمعاهدة عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م ، [١٥] ثم تطورت هذه المعاهدة إلى معاهدات صلح بحرى لمدة أطول بلغت عشر سنوات . وفى عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م جددت المعاهدة بمعاهدة الصلح البحرى الدائم والتى جاءت لتؤكد على بنود المعاهدات السابقة التى تعطى لبريطانيا الحق فى الإشراف على العلاقات التعاهدية والمرجعية عند الخلافات بين مشيخات الساحل المتصالح ، ثم تلا ذلك عقد عدد من المعاهدات المتشابهة بين بريطانيا وبعض تلك المشيخات مثل معاهدات التلغراف وما سمى بمكافحة تجارة الرقيق وتسليم الغاصة ، وغير ذلك من المعاهدات التى فى مجملها تصب فى مصلحة الوجود البريطانى وتزيد من

عوامل تفوقه على منافسيه فى المنطقة . وتوجت بريطانيا معاهداتها مع مشـــيخات الساحل العمانى المتصالح فى مطلع العقد الأخير من القرن التاسع عشر حين قادتـها الواحدة تلو الأخرى لتوقيع معاهدات الحماية البريطانية فى شـــعبان ١٣٠٩هـــ / مارس ١٨٩٢م . [١٦]وهى المعاهدات التـــى أعطـــت بريطانيـــا حـــق الإشـــراف والسيطرة المطلقة على الشئون الداخلية والسياسة والعلاقات الخارجيـــة للمشـــيخات الموقعة عليها ، والتى ظلت بريطانيا بموجبها تدير هذه الشؤون إلى أن بدأت هـــذه الدول تنال استقلالها فى الستينات من القرن العشرين أى بعد حوالى ســـبعين عامـــا من الاستعمار البريطانى المغلف بطابع الحماية .

ثالثا : تاريخ الكويت :

كانت الكويت تسمى القرين ، والقرين تصغير قرن ، والقـــرن هـــو التـــل أو الأرض العالية . والكويت تصغير كوت والكوت هو القلعـــة أو الحصـــن . ومـــن المتفق عليه تاريخيا أن القرين أو الكويت خضعت لنفوذ بنى خالد منذ أن انـــتزعوا السلطة فى شرق الجزيرة العربية من العثمانيين فى عهد براك بن حميد الذى تولـــى زعامة بنى خالد ما بين ١٠٨٠ - ١٠٩٣هـــ / ١٦٦٩ - ١٦٨٢م . وفى ظل الأمن الخالدى ، نشأت الكويت ونمت ، بعد أن بنى فيها براك بن غرير كويتـــه ، الـــذى اتخذه مصيفا[١٧] . كما طغى اسم الكويت منذ ذلك الحين على الاسم السابق للمنطقة. وتزامنت نشأة الكويت ونموها مع حركة نمو عدد من المدن الأخرى فـــى الخليـــج كانت هى الأخرى نواة لدول قامت فيما بعد .

ويعزو الدكتور أبو حاكمة ، فى دراسة تاريخية عن الكويت ، نمـــو الكويـــت وازدهارها إلى ثلاثة عوامل مشتركة لخصها بقوله : « أما العـــامل الأول : فـــهو ضعف الفرس والأتراك ، وانعدام نفوذ كل من الدولتين فى الخليج مما أتاح الفرصة للمدن الصغيرة النامية أن تتطور دون خوف من خطر قوة أكبر منها ، قد تتدخـــل

فى شئونها الداخلية وتفرض عليها سلطانها ، وبذلك تحد من حريتها فى الحركة والكسب والنمو .

أما العامل الثانى : فهو وقوع الكويت فى منطقة النفوذ الخالدى فى شرق الجزيرة العربية ، وقد رأينا حرص بنى خالد على استتباب الأمن والسلام فى المنطقة حتى تزدهر التجارة . وازدهار التجارة كان بالطبع الركن الأساسى لنهضة الكويت وتقدمها ... وأما العامل الثالث : فهو النشاط التجارى الملحوظ للشركات التجارية الأوربية ، ونقل البضائع بحراً عن طريق الخليج وبراً بالطريق الصحراوى . وليس هناك أدنى ريب فى أن الكويت قد استفادت فائدة كبيرة من المساهمة فى هذه التجارة وقد بدا أثر ذلك واضحاً فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . »(١٨) .

وعلى العموم فقد ظلت الكويت تحت سلطة بنى خالد منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الثامن عشر حين بدأ الضعف والخلاف والنزاع على السلطة يدب فى عضد بنى خالد فخفت بذلك قبضتهم على القبائل والمدن الخاضعة لهم(١٩) . وكان انسلاخ الكويت عن سلطتهم قد تم فى ١١٦٥هـ / ١٧٥٢م حين اختار سكان الكويت صباح الجابر من العتوب « وفق الطريقة العربية العشائرية من لدن أهل الكويت لتصريف شؤون المدينة والفصل فيما قد يقع بين سكانها من خلافات»(٢٠) .

الكويت تحت حكم آل صباح :

ينسب آل صباح إلى صباح الجابر أول حكام الكويت من العتوب ، والعتوب ينسبون إلى قبيلة عنزة إحدى القبائل الكبرى فى الجزيرة العربية ، وأطلق عليهم اسم العتوب لأنهم عتبوا ، أى ارتحلوا من مساكنهم فى الهدار قرب وادى الدواسر فى داخل الجزيرة العربية إلى مناطق الخليج . ومن العتوب كذلك آل خليفة حكام البحرين وغيرهم من الأسر المعروفة مثل الجلاهمة(٢١) . كما نسب إليهم بعض أفخاذ أخرى من القبائل العربية التى تحالفت معهم وتصاهرت فشكلت ما يعرف

تاريخيا بالعتوب[٢٢] . ولذلك يقول عنهم ابن سند في تاريخه : « بنو عتبة ولهم في عنزة نسب . والذى يظهر أنهم متباينو النسب لم تجمعهم فى شجرة أم ولا أب ولكن تقاربوا فنسب بعضهم إلى بعض »[٢٣] .

وكانت هجرة العتوب من الهدار فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادى ، ويعود السبب فى ذلك إلى السعى فى طلب الرزق ، وإلى الخلافات التى حدثت بينهم وبين الدواسر فآثروا الهجرة على البقاء . وكانت سواحل قطر هى المنطقة الأولى التى استقر فيها العتوب ، حيث أقاموا ما يقرب من ثلاثين عاما فى ظل قبيلة آل مسلم التى خاضعة هى الأخرى لنفوذ بنى خالد . وللتنافس الاقتصادى والسياسى مع آل مسلم اضطر العتوب إلى الهجرة شمالا إلى البصرة ثم إلى القرين حيث استقروا هناك منذ مطلع القرن الثامن عشر لتزايد نفوذهم تدريجيا خاصة مع ضعف بنى خالد .

وكان الاتفاق بين العتوب (آل خليفة ، وآل الصباح ، والجلاهمة) على أن يمتهنوا حرفة التجارة والزراعة وتقسم الأرباح فيما بينهم على أن يقوم فرع آل الصباح بأعمال الحكومة وفرع الجلاهمة بأعمال البحر فيما تسند التجارة لفرع آل الخليفة[٢٤] . ولذلك اختار العتوب صباح بن جابر حاكما عليهم عام ١١٦٥هـ / ١٧٥٢م . ويبدو أن ذلك يمثل الانطلاقة الحقيقة لتأسيس مشيخة آل صباح ، لا سيما وأن عبد الله بن صباح تسلم الزعامة خلفا لأبيه بعد وفاته فى عام ١١٧٥هـ / ١٧٦٢م ، مما أدى إلى هجرة الفرعين العتبيين الآخرين – آل خليفة وآل جلاهمة – إلى سواحل قطر مرة أخرى بحثا عن مصادر دخل أفضل وتحقيق مكاسب سياسية جديدة ، حيث تمكن فرع آل خليفة من تأسيس مشيختهم أو دولتهم على الساحل القطرى من الخليج حتى انتقلوا منه إلى البحرين الجزر فيما بعد ، ومن جهة أخرى فإن ذلك التطور فى العلاقات بين الأطراف الثلاثة ، جاء إيذانا غير مباشر لآل

صباح بالانفراد فى حكم الكويت التى استمرت تحت حكم أسرة آل صباح بدون انقطاع ، منذ ذلك الحين إلى يومنا الحاضر[٢٥] ، إذ تعاقب على الحكم فى الكويت منذ ذلك الوقت إلى يومنا الحاضر ثلاثة عشر حاكما جميعهم من أسرة آل صباح ، إلا أن ستة منهم حكموا قبل فرض الحماية البريطانية وهم : صباح الأول ، وحكم من ١١٦٦-١١٧٨هـ/١٧٥٢-١٧٦٤م ، ثم عبد الله الأول بن صباح ، وحكم من ١١٧٨-١٢٣٠هـ/١٧٦٤-١٨١٥م ، ثم جابر الأول بن عبد الله وحكم من ١٢٣٠-١٢٧٦هـ/١٨١٥-١٨٥٩م ، ثم صباح الثانى بن جابر وحكم من ١٢٧٦-١٢٨٣هـ/١٨٥٩-١٨٦٦م ثم عبد الله الثانى بن صباح وحكم من ١٢٨٣-١٣١٠هـ/١٨٦٦-١٨٩٢م ثم أخوه محمد بن صباح وحكم من ١٣١٠-١٣١٤هـ/١٨٩٢-١٨٩٦م . وبتلا الحاكم السادس سابع الحكام من آل صباح وهو أخوه مبارك بن صباح الذى حكم فى الفترة ما بين ١٣١٤-١٣٣٣هـ/ ١٨٩٦ - ١٩١٥م[٢٦] .

وخلال فترة حكم هؤلاء الحكام السبعة مرت الكويت بعدد من الأحداث السياسية ، والمعاهدات والعلاقات الخارجية التى يطول الحديث عنها ، والتى لا يتسع المقام للدخول فى تفصيلاتها ، وما يهمنا منها هو أن الكويت فى عام ١٣١٦هـ / يناير من عام ١٨٩٩م أى فى عهد الحاكم السابع من أسرة آل صباح وهو الشيخ مبارك الصباح دخلت فى معاهدة الحماية مع بريطانيا ، وهى المعاهدة التى أعطت بريطانيا رسميا الحق المطلق فى الإشراف على الشؤون الداخلية والخارجية للكويت[٢٧] ، وذلك على غرار من سبقها من الدول الخليجية الأخرى. وقد ظلت بريطانيا فى الكويت على ذلك الحال إلى أن نالت الكويت استقلالها فى الستينات من القرن العشرين[٢٨] .

رابعًا : البحرين فى عهد آل خليفة :

سبق الحديث بأن آل خليفة كانوا أحد الفروع الثلاثة الرئيسية للعتوب الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى الخليج وشكلوا تحالفاً فيما بينهم ، الأمر الذى أدى إلى تأسيس مشيخة العتوب فى القرين (الكويت) تحت زعامة صباح الجابر عام ١١٦٥هـ / ١٧٥٢م .

وينتمى آل خليفة إلى قبيلة عنزة وينسبون إلى خليفة بن محمد الذى كانت له زعامتهم فى بداية نزولهم القرين . وفى عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م توفى خليفة فانتقلت الزعامة إلى ابنه محمد الذى كان صغير السن آنذاك فعاش فى كنف عمه الشيخ صباح بن جابر ، وزوّجه ابنته مريم التى أنجبت له ابنه خليفة بن محمد آل خليفة . وفى عهد محمد بن خليفة هاجر آل خليفة من الكويت إلى الزبارة على إثر خلافاتهم السياسية مع فرع الصباح ، والعداء مع كعب ، كما كان للعوامل الاقتصادية أثر فى دفعهم إلى الهجرة واختيار الزبارة بالذات بحثاً عن مصادر دخل أفضل ، بالقرب من مغاصات اللؤلؤ . وفى عهد محمد بن خليفة ازدادت الأسرة نفوذا والمدينة اتساعاً ونمواً ، واستمر محمد فى زعامته إلى أن توفى عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م ، حيث خلفه ابنه الأكبر خليفة بن محمد . وفى عهد خليفة تضافرت عدد من العوامل الداخلية والخارجية مثل ، استقرار الأوضاع فيها ، وخراب البصرة ، ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، واضمحلال قوة بنى خالد، وغير ذلك من العوامل التى زادت من تقدم الزبارة وتطورها ، وفى الوقت نفسه أدت هذه التطورات إلى نشوب بعض الخلافات بين آل خليفة وجيرانهم فى المنطقة.

وحين توفى الشيخ خليفة فى رحلته للحج عام ١١٩٧هـ/١٧٨٣م كان أخوه أحمد بن محمد آل خليفة الذى بويع فى الإمارة من بعده قد نجح فى ضم البحرين (الجزر) إلى الزبارة لتتشكل بذلك دولة آل خليفة من الزبارة وما حولها من البر

المعروف (بقطر) ، إضافة إلى البحرين الجزيرة وما جاورها من جزر . وفى عهد الشيخ أحمد (الفاتح) بلغت الزبارة عصرها الذهبى ، وتوافد عليها رجال العلم والأدب ، وقصدها رجال المال والتجارة ، كما بلغت البحرين (الجزر) حالة من النشاط التجارى ، إذ سرعان ما أصبح للمهاجرين العرب أسطول تجارى ، وقاموا بعمليات نقل البضائع بين موانئ الخليج المختلفة . وقد فضل الشيخ أحمد الإقامة فى الزبارة واكتفى برحلة صيفية كل عام إلى الجزر . واستمر على ذلك إلى حين وفاته عام ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م حيث خلفه ابنه الشيخ سلمان الذى اتسم بالعدل والحزم ، فأحبته الرعية ، ودانت له القبائل . وقد انتقل بعائلته وحاشيته للإقامة فى البحرين - الجزيرة - منذ عام ١٢١٢هـ/١٧٩٧م لينتقل بذلك مركز الثقل فى الدولة إلى الجزر البحرينية على حساب البر القطرى[٢٩] .

وفى عهد الشيخ سلمان تعرضت البحرين لبعض الضغوط الخارجية ، خاصة من مسقط وبريطانيا ، واضطر البحرينيون - كغيرهم من بعض مشيخات الخليج الأخرى - إلى توقيع معاهدة السلام العامة مع بريطانيا فى ربيع الثانى من عام ١٢٣٥هـ/فبراير ١٨٢٠م ، وهى المعاهدة التى وضعت أسس الهيمنة البريطانية على المنطقة ، حين أعطت بريطانيا حق التفتيش والإشراف على السفن الخليجية ، ومتابعة المخالفين منهم بالقوة[٣٠] . وقد استمر الشيخ سلمان فى الحكم رسمياً إلى أن توفى عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م ، حيث خلفه الشيخ عبد الله بن أحمد الذى آلت إليه أمور الزعامة منذ أواخر عهد أخيه ، والذى استطاع أن يواصل حكم البلاد وسط عدد من الصعاب تمثلت فى محاولات أبناء أخيه انتزاع السلطة من يده ، كما تعرضت البلاد فى عهده لمحاولات جديدة من كل من مسقط وفارس ومحمد على باشا حاكم مصر - لبسط السيطرة على البحرين وفق مخططه الرامى لتكوين دولة كبرى ، وقد اضطر الشيخ عبد الله إلى الدخول فى اتفاقية مع محمد على رغم التحذيرات البريطانية له ، مما كلفه حكمه بعد ذلك حيث سعى البريطانيون إلى تنحيته عن الحكم واستبداله بشيخ آخر من آل خليفة ، وعن ذلك تقول المصادر

البريطانية : « إننا نعتبر أنفسنا بعيدين عن ود واحترام شيخ البحرين وسنكون سعداء بسماعنا أن جزيرته فى حوزة شيخ آخر تربطه علاقة ودية معنا »(٣١) .

ووجدت بريطانيا فرصتها فى الخلاف الذى نشأ بين الشيخ عبد الله وبين محمد بن خليفة فقامت باصلاء ناره لتحقيق هدفين : الأول: إسقاط الشيخ عبد الله . والثانى : إضعاف البحرين وبالتالى إتاحة الفرصة لبريطانيا لمزيد من التدخل فى شؤون البحرين وفرض مزيد من التعهدات . وبناءً على ذلك وقفت بريطانيا إلى جانب محمد بن خليفة فى نزاعه مع الشيخ عبد الله الذى اضطر بعد عدد من المعارك مع خصمه إلى مغادرة البلاد وبالتالى انفرد الشيخ محمد بن خليفة بالسلطة منذ عام ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢م . ومع ذلك فإن الشيخ عبد الله لم ييأس واستمر فى محاولاته استعادة السلطة ، ورغم وفاته عام ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م فإن النزاع استمر على السلطة بين الشيخ محمد وبين أبناء الشيخ عبد الله ، ولم يتوقف إلا عام ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣م وبوساطة من الحاكم السعودى الإمام فيصل بن تركى(٣٢) .

ونتيجة لتدخل عدد من الأطراف فى شؤون البحرين مثل بريطانيا ، والدولة العثمانية ، وفارس عادت الصراعات السياسية إلى الساحة فى البحرين من جديد ، وأسفر عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م عن تطورات من أبرزها دخول البحرين فى اتفاقية مع بريطانيا أعطتها مزيد من حق التدخل فى شؤون البحرين ووضعت النواة لاتفاقيات الحماية فيما بعد ، وانسلاخ قطر عن البحرين ، والصراع على السلطة بين الأخوين محمد بن خليفة وعلى بن خليفة ، ذلك الصراع الذى أدى إلى مقتل الأخير عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م . وكان أن تدخلت بريطانيا مباشرة فى العام نفسه ، فقامت بنفى عدد من زعماء البحرين وعلى رأسهم الشيخ محمد بن خليفة ومن ثم العمل على تنصيب الشيخ عيسى بن على حاكماً على البحرين(٣٣) .

وخلال عهد الشيخ عيسى بن على الذى استمر إلى عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م استطاعت بريطانيا أن تطلق يدها فى شؤون البحرين ، خاصة بعد أن نجحت فى

توقيع معاهدتى الحماية البريطانية عام ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م وعام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م[٣٤] . وهى على غرار معاهدات الاستعمار المبطن بستار الحماية التى وقعتها بريطانيا مع غالبية بلدان الخليج فى تلك الفترة ، والتى أعطت بريطانيا منذ ذلك الحين حق الهيمنة والإشراف الكامل على الشؤون الداخلية والخارجية لدولة البحرين التى لم تتحرر من قيودها إلا فى الستينات من القرن العشرين حين نالت استقلالها وفق سياسة بريطانيا العامة فى الخليج[٣٥] .

خامسًا : تاريخ قطر :

كانت الأراضى القطرية ، كما مر بنا عند الحديث عن تاريخ العتوب فى الكويت وفى البحرين ، هى المقر الذى استقر فيه العتوب قبل انطلاقهم للكويت ، كما كانت الأراضى التى استقر فيها آل خليفة فى بداية تأسيس دولتهم بعد ذلك . وكانت السواحل القطرية كذلك هى المراكز التى انطلق منها آل خليفة اضم الجزر البحرينية إلى دولتهم تلك . وظلت الحواضر القطرية تحت سيادة آل خليفة لتشكل جزءاً مهماً وكبيراً من دولتهم حتى بعد استقرارهم فى جزر البحرين ونقل مقر الحكم إليها ، حيث عيَّنَ آل خليفة آلَ ثانى حكاماً لهم فى قطر .

وترجع أسرة آل ثانى حكام قطر إلى فرع من قبيلة الوهبة ، والتى هى فى الأصل من تميم ، وقد هاجر آل ثانى من بلدة اشيقر فى أقليم الوشم بنجد إلى الأراضىْ القطرية فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى ، واستقروا فى البداية فى الرويس ، ثم فى الزبارة ، وانتهى بهم المقام فى الدوحة حيث انتقلت إليهم زعامتها فى منتصف القرن تقريباً . ويرجع وصولهم لتلك المكانة إلى مركزهم المالى الذى نجم عن اشتغالهم بتجارة اللؤلؤ ، من تحركاتهم السياسية التى اكتسبوها من عملهم وكلاء لآل سعود فى جمع الزكاة من بعض القبائل هناك ، ثم عملهم حكاماً على قطر من قبل آل خليفة[٣٦] .

واستمر آل ثانى يحكمون قطر باسم آل خليفة متحينين الفرصة للاستقلال بحكم المنطقة وتأسيس إمارة خاصة بهم ، خاصة مع تنامى مركزهم الاجتماعى والسياسى فى المنطقة فى ظل انشغال آل خليفة عن السواحل القطرية وشؤونها على إثر الخلافات الداخلية فيما بين زعماء أسرة آل خليفة فى البحرين .

ونتيجة لتلك الزعامة المتنامية وتطلع آل ثانى إلى الانسلاخ بقطر عن البحرين، شهد عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م والعام الذى يليه بعض الأحداث السياسية التى عجلت بذلك وحسمت الأمر لصالح آل ثانى . فمع اشتداد حدة النزاع ، وبعد أن ظلت ترقب الوضع لفترة أزهق خلالها الكثير من الدماء بين المسلمين ، تدخلت بريطانيا وفرضت على الفريقين عدداً من الاتفاقيات والمعاهدات التى عقدت عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م ، ومن أبرزها الاتفاقية بين قطر وبريطانيا ، والاتفاقية بين البحرين وقطر[٣٧] ، وكان من نتائج تلك الاتفاقيات إعطاء قطر الصفة الرسمية للانسلاخ عن البحرين واعتبارها دولة منفردة منذ ذلك الحين[٣٨] .

وظل الشيخ محمد بن ثانى الذى وقع الاتفاقيات المذكورة والذى أنشأ الدولة الجديدة لقطر حاكماً على الدولة إلى قبيل وفاته بسنتين ، وبالتحديد إلى عام١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م ، حيث خلفه فى الحكم ابنه الشيخ جاسم ، الذى يقول عنه الدكتور عبد العزيز المنصور فى أحد الدراسات التاريخية التخصصية عن قطر : بأنه يمثل «روح الصلابة فى الإصرار على تحقيق خلق إمارة قطر أمام الصراعات الدولية والمحلية ، فتاريخه هو فى الحقيقة تاريخ قطر من خلال تاريخ شعبها وقبائلها والقوى المؤيدة لها »[٣٩] .

وقد استمر الشيخ جاسم فى حكم قطر ، بالرغم من تقدمه فى السن ، إلى وفاته عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م ، حيث خلفه فى الحكم ابنه الشيخ عبد الله الذى يبدو أنه لم يكن على درجة حزم والده إذ استطاعت بريطانيا فى عهده أن تحقق ما لم تصل إليه من نفوذ فى عهد والده[٤٠] . وفى عهد الشيخ عبد الله بن جاسم

اضطرت قطر إلى الدخول فى معاهدة الحماية البريطانية فـــى عــام ١٩١٦م[٤١] ، وهى على غرار معاهدات الحماية التى كانت بريطانيا قد فرضتها على بقية بلـــدان الخليج العربية ، وبمعنى آخر فقد كانت هى المعاهدة التى أطلقت يد بريطانيـــا فـــى استعمار قطر من خلال السيطرة على الشؤون القطرية الداخلية والخارجية متظللـــة بستار الحماية ، التى استمرت إلى السبعينات من القرن التاسع عشر ، حيـــن نـــالت قطر استقلالها على غرار ما جرى آنذاك فى بلدان الخليج الأخرى[٤٢] .

المبحث الثالث

تطورات التنافس الدولى فى الخليج

بعد التعريف على مجمل تاريخ الأوضاع السياسية وتطوراتها فى بلدان الخليج فى العصر الحديث والمعاصر حتى فرض الحماية البريطانية عليها ، سنتتبع بالدراسة فى هذا المبحث جذور التنافس الدولى فى الخليج وتطوراته منذ بداياته إلى أن استطاعت بريطانيا أن تعلن تفوقها من خلال فرضها معاهدات الحماية مع بلدان الخليج العربية .

وحرصاً من الباحث على التسلسل والحصر التاريخى للموضوع ، قدر الإمكان ، فسوف نتبع فى هذه الدراسة تتبع المحاولات الاستعمارية الأوربية مرتبة بحسب تدرجها التاريخى ، بدءً بالغزو البرتغالى ، ومروراً بالغزو الهولندى ، والفرنسى ، ثم انتهاء بالغزو البريطانى فى مراحله الأولى ، مع الإشارة إلى أن تداخل الأحداث وترابطها قد يستدعى كسر هذه القاعدة من حيث التدرج التاريخى أو الالتزام الموضوعى ، خاصة حينما يكون الحديث عن بعض المواقف العثمانية من تلك المحاولات الاستعمارية الأوربية للخليج ، أو حينما يكون الحديث عن بعض المحاولات أو المواقف الأوربية من الغزوات والمحاولات الاستعمارية المنافسة لها .

البرتغاليون والخليج :

بالرغم من أن عدداً من المصادر والدراسات الأوربية تشير إلى أن البرتغاليين استهدفوا من رحلة فاسكو دى جاما ، ومن غيرها من الرحلات البرتغالية المتشابهة التى جاءت قبلها أو جاءت بعدها ، الإسهام فى حركة الكشوف الجغرافية، التى يدعون بأنها تمثل حركة علمية تهدف إلى إثراء الإنسانية بالمزيد

من المعلومات عن العالم الذى نعيش فيه[٤٣] ، إلا أن الأحداث والشواهد التاريخية التى أعقبت تلك التحركات تدل على غير ذلك ، وتثبت أن البرتغاليين استهدفوا من تحركاتهم هذه غايات أبعد من ذلك الهدف الظاهرى . ذلك أنه يبدو أن تحركاتهم خارج أوربا وصوب الشرق كانت بداية لمرحلة جديدة فيما يعرف باسم ذيول الحروب الصليبية ، حيث وضعت تلك التحركات البرتغالية المسار الجديد لتلك الانطلاقة الاستعمارية الصليبية الأوربية الموجهة ضد العالم الإسلامى آنذاك ، والتى انتهت بتكبيل بلدان العالم بقيود الاستعمار عبر مرحلتين من مراحل الاستعمار ، سميت الأولى الاستعمار القديم ، وهى المرحلة التى برزت فيها البرتغال كواحدة من أعتى قواها الأوربية ، وسميت الثانية بمرحلة الاستعمار الجديد التى برزت فيها قوى أوربية أخرى كان لها نصيب الأسد من أوطان العالم الإسلامى العريض .

ومن خلال الشواهد التاريخية فإن الأهداف البرتغالية ، فى مرحلة الاستعمار القديم ، يمكن إيجازها بعدد من الأهداف المحصورة بين الأهداف الصليبية ، والاستعمارية السياسية ، والاقتصادية .

أما الأهداف الصليبية فقد برزت حين اعتبر البرتغاليون أنفسهم جنوداً للصليب فى محاربة المسلمين ، والتنسيق فى ذلك بينهم وبين نصارى الحبشة ، والدعوة لنشر التنصير فى أراض جديدة ، وإصرارهم على تثبيت شارة الصليب فى سائر المبانى التى يقيمونها أو يستولون عليها ، والتماسهم من البابا أن يسميهم سادة الفتح لبلاد الكفار (المسلمين) ، وقيامهم بالتمثيل بمن يقع فى أيديهم من أسرى المسلمين برسم شارة الصليب على أجسادهم ، وجدع أنوفهم ، وبقر بطون الحوامل ... إلى غير

ذلك من الأعمال التى تدل فى مجملها على تطرف الروح الصليبية التى كانت توجه تلك التحركات البرتغالية فى ذلك الوقت[٤٤] .

كذلك برزت الأهداف الاستعمارية السياسية من خلال بعض التطبيقات العملية التى تدل على تخطيط البرتغاليين للاستقرار الطويل فى المناطق التى توجهوا إليها ، مثل إنشاء القواعد والقلاع الحربية فيها ، وإنشاء منصب نائب الملك فى الهند عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م فى خطوة مهمة لتأسيس امبراطورية برتغالية استعمارية فى آسيا وأفريقية[٤٥] .

أما الأهداف الاقتصادية فتتضح من حرص البرتغاليين على ضرب المسلمين، بالسعى لإيجاد طرق تجارية جديدة تغنيهم عن الطرق التجارية التقليدية بين الشرق والغرب والتى كانت تقع تحت سلطة المسلمين ، كذلك حرصهم على الإفادة من موارد الشرق ، خاصة تجارة التوابل التى كانت تمثل التجارة الرائجة فى ذلك الوقت[٤٦] .

وقد نجح البرتغاليون فى تحقيق كثير من أهدافهم تلك ، خاصة حينما توجوا تحركاتهم بعبور طريق رأس الرجاء الصالح لينفتح الطريق أمامهم للوصول إلى أطراف العالم الإسلامى فى الشرق بعيداً عن قلب العالم الإسلامى ودفاعاته . وعلى تلك الأسس كانت تحركات البرتغاليين فى الخليج خطوة مرحلية مهمة فى حركتهم الاستعمارية الكبرى فى مشرق العالم الإسلامى . متنقلين من مكان إلى آخر .

وقد اعتبر نجاح البرتغاليين فى السيطرة على هرمز عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م نقلة مهمة فى تاريخ الغزو البرتغالى للمنطقة ، نظراً لأهميتها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية[٤٧] ، حيث اتخذها البرتغاليون مقراً لإدارة شؤونهم فى الخليج وقاعدة للانطلاق إلى مناطق الخليج الأخرى[٤٨] التى بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرى أمام الزحف البرتغالى الذى لم يتوقف إلا عام ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ،

حين تحتّمت المواجهة بينهم وبين العثمانيين لتدخل المنطقة فـــى مرحلـــة تاريخيـــة جديدة من مراحل الصراع الدولي في الخليج[٤٩] .

العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج :

كانت دولة سلاطين المماليك قد حملت لواء الدفاع عن بلاد العالم الإســلامى فى بعض مناطق التحركات البرتغالية فى العالم الإسلامى ، لا ســيما فـــى منطقـــة البحر الأحمر . وقد أدت تلك الوقفات المملوكية دوراً فاعلاً فى صـــد المحـــاولات البرتغالية للوصول إلى المناطق الواقعة بالقرب مـــن المقدســـات الإسلامية فـــى الحجاز، ولذلك كان لسقوط دولة المماليك عام ٩٢٣هـــ / ١٥١٧م أصداءٌ بعيدة فـــى شتى أنحاء العالم الإسلامى تخوفاً من وقوع المسلمين فريسة فى أيدى النصـــارى . ويبدو أن تلك المخاوف سرعان ما تبددت حينما فرض العثمـــانيون أنفســـهم علـــى الساحة قوة رئيسة لحمل لواء الدفاع عن أراضى المسلمين ومقدساتهم ؛ بل وحمـــل لواء الجهاد إلى داخل أوربا الصليبية ليصل الإسلام وممتلكاته إلى أراض جديدة لـــم تكن ضمن ممتلكات المسلمين من قبل[٥٠] .

ففى شرق العالم الإسلامى كان سقوط دولة المماليك تكليفاً وإذاناً للعثمـــانيين أن يواصلوا دور المماليك وأن يتولوا أمر الدفاع عن مقدسات المسلمين وأراضيـــهم، خاصة وقد دانت لهم بلاد الشام ومصر والحجاز وبعض مناطق اليمـــن . وكـــانت المواجهة بين الطرفين قد تمت فى البداية فى مناطق البحر الأحمر ، إلا أن طبيعـــة الصراع واستراتيجياته الحربية تطلبت أن لا يتوقف العثمانيون عند ذلك الحد ، بـــل إن المصلحة كانت تقتضى متابعة فلولهم شرقاً . وهكذا كانت المواجهة الحقيقية بيـــن العثمانيين والبرتغاليين فى الخليج قد حدثت عام ٩٤٥هـــــ/١٥٣٨م حينمـــا جـــهز السلطان العثمانى أسطولاً ضخماً بقيادة سليمان باشـــا حـــاكم مصـــر الـــذى تـــابع البرتغاليين فى البحر الأحمر ثم تعقبهم فى الخليج إلـــى أن وصـــل بـــالقرب مـــن مسقط[٥١] .

وشهدت الساحة بعد ذلك مرحلة كر وفر بين العثمانيين والبرتغاليين ، لم تحسم فيها الغلبة لأى منهما ، وإن كان من ثمارها تعطيل المد البرتغالى إلى شمال الخليج وحصره فى نطاق قواعد ومناطق محدودة من الخليج ، وإعلان كثير من الحكام المحليين فى الخليج ولاءهم للسلطان العثمانى الذى خلع عليهم لقب سنجق بك(٥٢) .

وبمعنى آخر فإن تلك التحركات العثمانية فى الخليج وإن لم تكن حاسمة فى مسألة الصراع العثمانى البرتغالى إلا أنها كانت تمثل المسمار الأول فى نعش الوجود البرتغالى فى الخليج الذى بدأ يتضاءل بعد ذلك شيئاً فشيئاً، خاصة بعد حالة الوهن التى أصابت البرتغاليين بعد أن خضعت البرتغال لأسبانيا عام ١٥٨٠م(٥٣).

وقد استمرت حالة الضعف البرتغالى تتزايد يوماً بعد يوم إلى أن انتهى الوجود البرتغالى فى الخليج بسقوط قاعدتهم فى هرمز عام ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م على إثر التحالف الإنجليزى الصفوى(٥٤) ، الأمر الذى أدى إلى تغير مراكز القوى وأدخل المنطقة مرحلة تاريخية جديدة من مراحل التنافس الدولى فى الخليج زاد من حدتها دخول أطراف أخرى جديدة مثل الهولنديين والفرنسيين الذين خاضوا مرحلة صراع على السيادة ضد الإنجليز .

الهولنديون والخليج :

لم يتح تخلص الإنجليز من البرتغاليين الفرصة لهم بالانفراد على الساحة فى الخليج ، ففى الوقت الذى كانت البوادر تشير إلى نهاية البرتغاليين فإنها من جانب آخر كانت تعلن عن قدوم قوة أوربية عاتية ، وكان الهولندوين هم هذه القوة الذين دلفوا إلى ساحة الصراع بكل قوة .

فبعد انتهاء السيطرة الأسبانية على هولندا عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م اتجه الهولنديون لتطوير بلادهم لتكون دولة بحرية وتجارية كبرى(٥٥) . وكان من ذلك

تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية The Dutch East India Company عام ١٠١٠هـ/١٦٠٢م . وطبقاً لقانون التجارة الهولندى فإن التجارة الهولندية فى الشرق كانت مقصورة على تلك الشركة التى أصبحت المنافس الرئيسى للبرتغاليين فى تجارة التوابل فى الشرق[٥٦] . وعن طريق شركة الهند الشرقية الهولندية انطلق الهولنديون فى الخليج حيث أنشأوا محطة تجارية فى بندر عباس عام ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥م ليدخلوا فى مرحلة تنافس مع الإنجليز الذين كانوا قد دخلوا إليها حديثاً[٥٧] .

وعلى الرغم من حدة التنافس الهولندى الإنجليزى فى بندر عباس إلا أن المركز الهولندى كان أكثر فعالية ونجاحاً من المركز الإنجليزى ، مما أعطى الهولنديين فرصة فى التوسع فى تجارة التوابل من الشرق الأقصى فى الوقت الذى لم تحقق الشركة الإنجليزية فيه نجاحاً مماثلاً[٥٨] . وتعزو المصادر الإنجليزية تلك النجاحات الهولندية فى الشرق عموماً وفى الخليج خاصة إلى استخدام الهولنديين أسلوب الترغيب والترهيب . وهكذا دفع الهولنديون رشوة لاستمالة السلطات المحلية، ودفعوا أعلى الأثمان لشراء السلع الفارسية فى محاولة لسحب البساط من تحت أقدام الإنجليز . وفى الوقت نفسه استخدم الهولنديون أسلوب القوة لفرض بعض الشروط التجارية من جانب آخر مما اضطر الشاه إلى الموافقة على شروطهم التى كان من أبرزها رخصة شراء الحرير فى أى جزء من فارس مع تصديره معفياً من الجمارك[٥٩] . وقد ساعدهم فى تطبيق تلك السياسات الدعم القوى من الحكومة الهولندية على عكس الحكومة الإنجليزية التى يبدو أنها تركت الشركة الإنجليزية تعتمد على نفسها فى تلك المرحلة[٦٠] .

ونتيجة للتفوق الهولندى فى فارس اضطر الإنجليز إلى مغادرة بندر عباس والرحيل إلى البصرة ، ولم يأت عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م إلا وكان النفوذ الهولندى فى الخليج قد بلغ أعلى درجاته . وتوج الهولنديون موقفهم بطرد البرتغاليين من مسقط عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م ، وبانتصاراتهم على الساحة الأوربية فى حروبهم

مع الإنجليز عام ١٠٦٣هـ / ١٩٥٣م ، مما أصاب التجارة الإنجليزية في الخليج بشلل شبه تام جعلهم يفكرون في البحث عن مؤطئ قدم آخر بعيداً عن الهولنديين .

وعلى العموم لم يتمكن الإنجليز من النهوض من تلك الصدمة والتخلص من حالة الضعف أمام الهولنديين إلا بقدوم الفرنسيين إلى الساحة ليعود بذلك التوازن النسبي مرة أخرى بين الدول الأوربية سواء في أوربا أم خارجها ، وليدخل الخليج مرحلة تاريخية أخرى جديدة من مراحل التنافس الأوربي للسيطرة على ذلك الإقليم(٦١) .

ومع تزايد الصراع الحربي بين فرنسا من جهة وهولندا وأسبانيا من جهة أخرى وفقدان الفريق الأخير قطعاً عديدة من أساطيله التي دمرها الفرنسيون ، اضطر الهولنديون إلى الارتماء في أحضان الإنجليز وعقدوا معهم معاهدة سلام في عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م لتوحيد الجهود أمام الفرنسيين(٦٢) . ولم يأت عام ١١٠١هـ/١٦٨٨م إلا وقد أصبحت المصالح الهولندية في أوربا خاضعة للمصالح الإنجليزية ، وبدأ الهولنديون بذلك يفقدون مراكز نفوذهم في الخليج تدريجياً لصالح شركة الهند الشرقية الإنجليزية(٦٣) . واعتبرت الزيارة التي قام بها الشاه لمقر الوكالة الإنجليزية في أصفهان عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م تتويجاً محلياً وإقراراً بالتفوق الإنجليزي على الهولنديين(٦٤) ، لا سيما بعد أن فشل الهولنديون في إقناع الشاه بالقيام بزيارة مماثلة لمقر وكالتهم في بندر عباس ، بل زاد الطين بلة حين أمر بإيقاف العمل في بناء القلعة الهولندية التي كانت تحت الإنشاء آنذاك(٦٥).

وهكذا فقد تكاثرت الصعاب على الهولنديين بعد ذلك ، وبدأوا ينزحون تدريجياً عن المنطقة ويركزون وجودهم في جزيرة خارج خاصة ، فنجحوا في عقد اتفاقية استئجار لها مع حاكم ميناء ريق ، وبنوا قلعة فيها استعداد لمرحلة طويلة من الإقامة فيها . وشرع الهولنديون بعد ذلك في نقل معظم نشاطاتهم ووكالاتهم في

الخليج إلى الجزيرة ، ووضعوا خططاً طويلة المدى لمسخ هوية الجزيرة العربية وتركيبتها السكانية بالعمل على توطين عدد من العوائل الصينية فيها(٦٦) . وبالرغم من كل ذلك إلا أن الهولنديين اضطروا فى النهاية إلى مغادرة الجزيرة والخليج نهائياً فى عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ، والتوجه إلى مناطق شرق آسيا لعجزهم عن الوقوف أمام تحركات السلطات المحلية ، وضعفهم أمام النفوذ الإنجليزى المتزايد فى المنطقة ، خاصة وأن المردود الاقتصادى من تلك النشاطات الهولندية فى خارج لم يكن ليغطى النفقات التى أنفقت على تأمين الاستقرار(٦٧) وباضمحلال الوجود الهولندى وقبله البرتغالى انحصر التنافس الأوربى فى الخليج بين القوتين الكبريين فرنسا وإنجلترا ، فدخلتا فى مرحلة صراع كانت الغلبة فى النهاية للإنجليز على نحو ما سيأتى تفصيله لاحقاً .

الفرنسيون والخليج :

عند مقارنة فرنسا بالدول الاستعمارية الأوربية الأخرى كالبرتغال وإنجلترا وهولندا فإننا نجدها قد تأخرت نسبياً فى إقامة علاقات مع الشرق عامة والخليج خاصة . ذلك أن المحاولات الفرنسية الأولى لم تفلح فى إقامة شركة تجارية للشرق على غرار الشركتين الإنجليزية والهولندية(٦٨) ، ولذلك ظل النشاط الفرنسى فى الخليج والمحيط الهندى فى بداياته محصوراً فى بعض المناورات الشخصية المنبعثة من روح التنصير ، وإن كانت لا تخلو من بعض الأهداف السياسية(٦٩) .

وفى عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م تأسست شركة الهند الشرقية الفرنسية بناءاً على مرسوم أصدره لويس الرابع عشر استجابة لنصيحة وزير ماليته كولبرت(٧٠) . ومن خلال هذه الشركة انطلق الفرنسيون فى نشاطاتهم

الرسمية فى الشرق . وكانت مدغشقر المحطة الرئيسية الأولى للفرنسيين فى تحركاتهم تلك ، حيث اتخذوها قاعدة بعد أن غيروا اسمها إلى دوفين . ومن هناك أرسل الفرنسيون بعثات إلى فارس حصلوا من خلالها على بعض الحقوق التجارية ، مثل التصريح بافتتاح وكالة فرنسية فى بندر عباس عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م وحق الإعفاء من الرسوم التجارية لمدة ثلاث سنوات(٧١) . وبالرغم من ذلك فقد ظل النشاط الفرنسى محدوداً ، ويصف أحد التقارير حالة الفرنسيين فى بندر عباس آنذاك بقوله : « الفرنسيون فى هذا الميناء كشأنهم فى كل مكان أخر ليس لهم عمل يعملونه ، ولولا ما يحصل عليه مترجمهم هناك من ربح من تجارة الهند لما استطاعوا تدبير قوتهم..(٧٢)» .

وكان من أسباب ضعف الفرنسيين الموقف الأوربى الموحد ضدهم داخل أوربا ؛ وما تم من حلف بين هولندا وإنجلترا مما أدى إلى تدهور الأوضاع الفرنسية ليس فى أوربا فحسب بل وفى مناطق وجودها خارج أوربا مثل الخليج ، لدرجة أنهم اضطروا إلى إغلاق وكالتهم فى بندر عباس عام ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م(٧٣) .

واستمر نشاط الفرنسيين محدوداً إلى أن أعيد افتتاح الوكالة الفرنسية فى بندر عباس فى عهد نادر شاه عام ١١٤٨هـ / ١٧٣٥م حينما استطاعت فرنسا أن تسترد أنفاسها ، وأن تحيى نشاطاتها التجارية عقب الخسائر التى لحقت بها . ورغم الامتيازات التى أعطيت للفرنسيين فى بندر عباس إلا أن نشاطهم كان محدوداً . ويعود السبب فى ذلك إلى تحالف الهولنديين والإنجليز ضدهم خوفاً من منافستهم فى المنطقة(٧٤) .

وبعد أن استقرت أحوال الفرنسيين فى بندر عباس بدأوا فى مد نشاطهم إلى غيرها من مناطق الخليج ، فافتتحوا وكالة تجارية فى البصرة تزامناً مع افتتاح قنصليتهم فيها عام ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م[٧٥] . ويبدو أن الوضع فى البصرة لم يكن أحسن حالاً منه فى بندر عباس لدرجة أن المقيم الفرنسى فى البصرة قد اضطر لترك وظيفته فى الميناء حين تأخرت مخصصاته المالية عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م ، ولم يتم تعيين مقيم بدلاً عنه إلا فى عام ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م[٧٦] . وفى تلك الفترة كان التنافس الأوربى فى الخليج على أشده ، حيث بلغ حد الصراع الحربى بين تلك الدول . وكان ذلك انعكاساً لحالة التنافس بين هذه الدول داخل أوربا نفسها فلم تكن حرب السنوات السبع مثلاً والتى اشتعلت بين فرنسا وإنجلترا عام ١١٧٠هـ / ١٧٥٦م قاصرة على ساحات القتال فى أوربا بل توسعت لتشمل ممتلكات ومناطق نفوذ البلدان خارج أوربا بما فى ذلك منطقة الخليج[٧٧] .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى بندر عباس عام ١١٧٣هـ / ١٧٥٩م حينما قامت أربع قطع من الأسطول الفرنسى متسترة بالأعلام الهولندية بالهجوم على الوكالة الإنجليزية فى بندر عباس وأجبرتها على الاستسلام بموجب معاهدة وقعت بين الطرفين[٧٨] ، مما اضطر الإنجليز إلى نقل وكالتهم إلى البصرة فى العام نفسه[٧٩] . وكان خروج فرنسا خاسرة فى حرب السنوات السبع يعنى قلب الموازين مرة أخرى لصالح بريطانيا . حيث تنازلت فرنسا بموجب اتفاقيات الصلح عن سائر ممتلكاتها فى الهند لصالح بريطانيا .

وبعد أن استقرت الأحوال فى فرنسا وأفاقت من صدمتها عادت من جديد للعمل على استرداد ما فقدته من ممتلكات ، وأخذوا يعدون العدة

ويضعون الخطط لزحزحة الإنجليز عن تلك الممتلكات والحلول مكانهم . وكانت الخطة الفرنسية ترمى إلى استرداد مناطقهم فى الهند باعتبارها مفتاح الشرق ولب كنوزه . وجرت الخطة على البدء فى المناطق التى تعتبر مفتاحاً للهند(٨٠) .

وكانت الخطوات العملية لذلك قد بدأت بالعمل الجدى على إقامة العلاقات الفرنسية العمانية ، وكانت التحركات الفرنسية تتم عن طريق قنصلها فى بغداد ووكلائها فى جزر المورشيوس(٨١) . ولحرص الفرنسيين على توطيد العلاقات مع مسقط فقد بادروا إلى تقديم اعتذارهم لعمان حينما ساءت العلاقة بين الطرفين عام ١١٩٥هـ / ١٧٨١م إثر حادثة احتجاز السفينة الفرنسية فى مسقط(٨٢) .

وهكذا سار الفرنسيون فى محاولاتهم لإرساء قواعدهم فى الخليج تدريجياً وبأساليب هادئة كى لا تثير منافسيهم الإنجليز. وفاز الفرنسيون عام ١١٩٩هـ / ١٧٨٥م بعقد اتفاقية تجارية مع مسقط أتاحت للفرنسيين فتح وكالة تجارية لهم فيها(٨٣) فى الوقت الذى رفض السلطان العمانى طلباً إنجليزياً مماثلاً . ويفسر بعض المؤرخين قبول سلطان مسقط عقد الاتفاقية وفتح الوكالة بأن المردود التجارى المتوقع سيكون لصالح عمان حيث اشترط أن يكون امتياز نقل البضاع بين الخليج والمستعمرات الفرنسية مقصوراً على السفن العمانية(٨٤) .

ومع ازدياد التنافس الدولى بين بريطانيا وفرنسا ونشوب حرب جديدة بينهما عام ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م زادت فرنسا من تعلقها بالخليج ونظرت إليه نظرة جديدة باعتباره قاعدة مهمة فى حالة قيامها بحملة على الهند ؛ الدرة البريطانية فى الشرق . وفى الوقت الذى أرسلت بعثة إلى فارس لاكتشاف

المزيد عن الطرق إلى الهند قامت فرنسا بإنشاء قنصلية لـــها فـــى مســقط ، وعينت للمنصب بوشمان وهو أحد الجغرافيين الذين كانوا علىاطلاع بالعـالم العربى وبالطرق إلى الهند . وجاء فى التعليمات إليه :

« إن قنصلية مسقط إنما أنشئت للتجسس على حركة الإنجليز فى الـهند بدراسة الأحوال الداخلية فى هذه البلاد ، وكذلك دراسة الطرق التى يمكـن أن يستخدمها غزو فرنسى للشرق»(٨٥) .

ويبدو أن بوشمان فشل فى مهمته حينما عجز عن الوصول إلى مسقط. ويعود السبب فى ذلك إلى مروره بالأستانة لاستئذان العثمـــانيين فـــى أمــر تعيينه(٨٦) ، ومن ثم تأخره فى الوصول إلى مسقط قبـــل الحملـــة الفرنســية النابليونية على مصر والتى أدت إلى ردود فعل العالم العربـــى والإســلامى ضد فرنسا والفرنسيين ألقت بظلالها على تحركـــات بوشـــمان(٨٧) ، وكـــان أقصى ما تمكن بوشمان من تحقيقه هو الفرار من حلب إلى مصر(٨٨) . أمـــا عن الخطوة الفرنسية باستطلاع الطرق إلى الهند عبر فارس فلم تسفر هـــى الأخرى عن نتائج إيجابية تذكر عدا بعض التوصيات التى قدمها أفراد البعثـة إلى الحكومة الفرنسية ، مثل توصيتهم باستخدام السفن الفرنسية لنقل البضـــائع فى الخليج ، والتوصية بنقل الممثل الفرنسى من بغداد إلى البصرة للإشــراف على العمليات التجارية فى الخليج عن قرب ، والتوصية بتجنب تنفيـــذ أيـــة عمليات حربية فى جزيرة خارج لعزلتها(٨٩) .

وهكذا يمكن القول باختصار أن تلك التحركات الفرنسية فـــى الشــرق عامة وفى الخليج خاصة لم يكتب لها الثبات ولا النجـــاح . ولعـــل الســبب الرئيسى فى ذلك يعود فى المقام الأول إلـــى التحركـــات الإنجليزيـــة ضـــد الفرنسيين فى الشرق والتى كان لها دور ليس فى إفشـــال تلـــك التحركـــات

الفرنسية فى الخليج فحسب بل وفى تثبيت الأقدام الإنجليزية فى الخليج على نحو ما سيأتى تفصيله لاحقاً .

بريطانيا والخليج :

ارتبط تاريخ العالم الإسلامى فى العصر الحديث فى كثير من المواقع بالوجود البريطانى ، حيث شكل الغزو البريطانى لبلدان العالم الإسلامى ، بصوره المختلفة ، الكثير من الأحداث والتغيرات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والتى تركت ، فى مجملها ، بالتضافر مع عوامل أخرى داخلية وخارجية ، أثراً بارزاً على تاريخ كثير من بلدان العالم الإسلامى فى العصر الحديث ، بل ربما كان ذلك الأثر ظاهراً على الهوية الإسلامية والعربية لهذه البلدان ، الأمر الذى قادهم فى أخر المطاف إلى أن يصبحوا أمة ممزقة مهانة ، تقبع فى ذيل الأمم بعد أن كانوا فى يوم من الأيام هم قادة الركب فى العالم .

وتعتبر منطقة الخليج أولى مناطق العالم العربى ، فى جسم الأمة الإسلامية ، التى عملت بريطانيا على إخضاعها . وقد تنوعت وتطورت المصالح البريطانية فى الخليج يوماً بعد آخر ، مما جعلها تصر على البقاء فى المنطقة أطول مدة ممكنة ، وتستميت فى سبيل ذلك ، إلى أن اضطرت فى النهاية أن تغلب مصلحة الانسحاب على مصلحة البقاء ، ومن ثم فلا غرابة أيضاً إن كانت منطقة الخليج هىآخر منطقة فى البلدان العربية انفرج عنها هذا الكابوس ولو ظاهرياً .

وعلى العموم فإن التحركات الإنجليزية الاستعمارية تعود إلى وقت مبكر فى العصر الحديث ، وبالتحديد إلى عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م حينما حققت إنجلترا انتصاراً حربياً على الأسطول الأسبانى فى معركة الأرمادا

التى حققت للإنجليز قدراً كبيراً من الأمن القومى لينطلقوا بعد ذلك فى مرحلة المغامرات والنشاط البحرى والتجارى شرقاً وغرباً[٩٠] .

وكانت التحركات البريطانية فى الشرق خلال تلك المرحلة قد بدأت على شكل تحركات شخصية يقوم بها بعض التجار فى مناطق الهند ، ويبدو أن تلك الخطوات كانت عديمة الفائدة ، إذ لم تؤد إلى نتائج تذكر فى تثبيت النفوذ الإنجليزى إلا فى مطلع القرن السابع عشر ، أى بعد تأسيس الشركة الإنجليزية الشرقية[٩١] .

ففى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠م توج الإنجليز خطواتهم فى الشرق بتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية بموجب مرسوم ملكى من الملكة اليزابيث Elizabeth كان عبارة عن وثيقة رسمية تمنح الشركة الحق المطلق فى احتكار التعامل التجارى فى الشرق للشركة باسم The Governor & Company of Merchants of London Trading to The East Indies[٩٢] « رئيس وأعضاء شركة لندن للتجار المتاجرين فى جزر الهند الشرقية » . وهى ما عرف اصطلاحا باسم « شركة الهند الشرقية الإنجليزية »[٩٣] . ومنذ ذلك الحين انطلقت الشركة تحت حماية أسطولها الخاص بها ودخلت فى تنافس محموم فى الشرق مع من سبقها أو من لحقها من الدول الأوربية الأخرى المنافسة ، لترعى المصالح البريطانية فى تلك المناطق بمختلف مستوياتها الاقتصادية والسياسية ، وتنوع ميادينها فى آسيا بحيث أصبحت هى الممثل والراعى الرسمى لمصالح بريطانيا خلال قرنين ونصف ، أى خلال القرنين السابع والثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر .

وكانت الهند هى الميدان الأول للتنافس الإنجليزى البرتغالى فى الشرق ويبدو أن بداية النهاية للبرتغاليين قد بدأت حين استطاع الإنجليز أن يمكنوا

لأنفسهم وأن يضعوا لهم موطئ قدم قوية فيها ، خاصة حينما نجحوا في تأسيس وكالة لهم في سورات عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م[٩٤] . ومن سورات في الهند انطلقت التحركات الإنجليزية في الخليج بحثاً عن الأسواق والموارد الاقتصادية . وبدأت العلاقات الرسمية بين الشركة وحكومة فارس عام ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م حينما أصدر الشاه فرماناً أعطى الإنجليز ، ممثلين بالشركة ، الحق بتأسيس وكالة لهم في جاسك[٩٥] ، ثم في أصفهان وشيراز عام ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م ، ومنذ ذلك الحين أخذ الإنجليز يعملون على تثبيت أقدامهم في المنطقة ، ودخلوا في سبيل ذلك في صراع مع القوى الأوربية الأخرى التي سبقتهم إلى المنطقة ، مثل البرتغاليين والهولنديين ، والقوى التي لحقتهم فيها مثل الفرنسيين ، وقد سبق الحديث عن جزء من أحداث تلك المرحلة عند الحديث عن أوضاع البرتغاليين والهولنديين في الخليج . كما دخل الإنجليز في الوقت نفسه في صراع آخر مع القوى المحلية في الخليج بشقيه الفارسي والعربي . ولم ينته القرن التاسع عشر إلا وقد استطاع الإنجليز أن يتفوقوا على جميع تلك القوى الدولية منها والمحلية وأن يكونوا أصحاب السيادة في الخليج لا سيما وقد نجحوا في إجبار القوى المحلية الواحدة تلو الأخرى على توقيع معاهدات الحماية مع بريطانيا ، تلك المعاهدات التي سميت من جانب آخر بالمعاهدات المانعة لأنها أقفلت المنطقة أمام القوى الدولية الأخرى وحصرت السيادة فيها للبريطانيين وحدهم .

المبحث الرابع

السيطرة البريطانية على الخليج

أولاً : دوافع السيطرة وعوامل النجاح فى فرضها :

لم يكن التفوق البريطانى فى الخليج وليد الصدفة أو نابعاً من فـــراغ ، بل أن ذلك كان ثمرة للتخطيط وللعمل المتواصل من البريطانيين لتحقيق تلـك الغاية ، وقد ساعدهم لبلوغ أهدافهم عدد من الأمور التى تراوحت مــا بيــن عوامل كانت دافعة للبريطانيين على الإصرار والمضى قدماً فى سبيل تحقيـق أهدافهم ، أو عوامل أخرى يسرت لهم التفوق على تلك القوى ومن ثم تحقيـق السيطرة على الخليج .

· وكان من أبرز تلك العوامل : تنوع المصالح البريطانية فـــى الخليـج وتجددها ، وتفوق القوة البحرية لبريطانيا مع اســـتخدام أسـلوب الـترغيب والترهيب ، وحسن وضبط التنظيم الإدارى البريطانى فى الخليج ، وضعـف الجبهة الداخلية وتنازعها مع استخدام سياسة فــرق تسـد ، وفشـل الـدول الاستعمارية الأخرى ، ضعف الدولة العثمانية فى الخليج ، ثم أخـيراً نجـاح بريطانيا فى سياسة التحالفات وعقد المعاهدات .

وسنعرض فيما يلى لهذه العوامل وأثرها فى نجاح بريطانيا فى تحقيـق أهدافها فى السيطرة على منطقة الخليج .

١ - تنوع المصالح البريطانية وتجددها فى الخليج :

كان تنوع وتجدد المصالح البريطانية فى الخليج عـــاملاً مــهماً مــن العوامل التى دفعت بريطانيا فى التوجه إلى الخليج ومـــن ثـم دفعتــها إلــى الإصرار على تحقيق التفوق والاستقرار فيه لفـــترة طويلــة لرعايــة تلـك

المصالح المتنوعة والمتجددة . وقد تركزت المصالح البريطانية فـــى البدايـــة بجانبين :

الجانب الأول : جانب اقتصادى يتمثل فى رغبة البريطانيين الإفادة مـن أسواق منطقة الخليج وما حولها فى تسويق المنتجات التى كان البريطـــانيون يتاجرون بها ، أو استغلال ما فى منطقة الخليـــج مـــن مقـدرات ومـوارد اقتصادية فى ذلك الوقت ، والتى يأتى فى طليعتها اللؤلؤ والحرير .

وكان الجانب الثانى فى ذلك الوقت هو الجانب الأمنـــى الاسـتراتيجى والذى يتمثل فى حرص بريطانيا على حماية الهند وهى درة التاج البريطـــانى فى الشرق ، وذلك باتخاذ الخليج خطا دفاعيا متقدما للدفاع عن ممتلكاتها فـــى الهند ؛ أى اعتبار الخليج الخط الذى يجب أن تتكسر عنده أية محاولة دوليـــة منافسة للوصول إلى الهند درة المستعمرات البريطانية .

وعلى مدى القرن التاسع عشر تضاعفت أهمية هذين العاملين السـابقين وأضيف إليهما عامل آخر لا يقل عنهما أهمية ، وهو الموقـــع الاسـتراتيجى المهم للخليج بالنسبة للمصالح البريطانية المتجددة فى تلك الفترة ، وبخاصـــة حين أصبح الخليج بسواحله حلقة مهمة وخيارا عمليا وحيـــدا فـــى السلسـلة التلغرافية ؛ الذى تستطيع بريطانيا من خلاله أن تصل مستعمراتها فى الشـرق بالوطن الأم بريطانيا بشبكة من الاتصالات التلغرافية التى نشطت بريطانيـــا فى مدها آنذاك ، فعمدت إلى عقد عدد من المعاهدات الخاصـــة بـالتلغراف وحماية منشآته مع عدد من دول المنطقة . وبالإضافة إلى ذلك فقـــد ازدادت أهمية الخليج للبريطانيين قبيل نهاية القرن مع تطور وسائل النقل البحرى بعد استخدام السفن البخارية فى النقل .

وأمام هذه المتغيرات والمستجدات ولمواكبة التطورات كانت التحركات البريطانية متجددة فى محاولة واضحة منهم لاستغلال موانئ الخليج وبعض الجزر الخليجية مستودعات ومحطات لتزويد السفن البخارية بالفحم ، كما أصرت بريطانيا على التمسك فى موقفها المتفوق فى الخليج ، وعقدت معاهدات جديدة تحقق تلك المصالح وتضمن تسييرها ، مثل اتفاقيات التلغراف واتفاقيات الحماية وغيرها .

وفى القرن العشرين أضيف إلى تلك العوامل السابقة عوامل أخرى جديدة ضاعفت من إصرار بريطانيا على التمسك بزمام الأمور فى الخليج ، والرفض القاطع لمحاولات التدخل الدولية من جديد ، والوقوف بحزم أمام تلك المحاولات الدولية باتخاذ أى موطئ قدم فى الخليج ، وكان على رأس تلك العوامل الجديدة العامل الاقتصادى باكتشاف النفط وانتاجه فى الخليج ، والعامل الاسترتيجى حين أصبح الخليج منطقة ترانزيت مهمة فى طرق المواصلات الجوية بين الشرق والغرب ، وأمام تلك العوامل المتجددة والمتنوعة لم يكن مستغربا أن تصر بريطانيا على البقاء فى الخليج أطول فترة ممكنة وأن يكون الخليج آخر المناطق العربية التى نزح عنها الاستعمار البريطانى ولو ظاهرياً .

ثانياً : فشل الدول الاستعمارية الأخرى :

قيل فى الأمثال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » . وسبق القول أن دولاً أوربية استعمارية أخرى نافست بريطانيا فى محاولات السيطرة على المنطقة ، مثل البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، ورأينا أن الفشل فى الاستقرار فى المنطقة واستعمارها كان ملازماً لتلك الدول الأوربية ، مقارنة بالنجاح الذى حققه البريطانيون فيما بعد .

ويبدو أن فشل تلك الدول الاستعمارية فى سياساتها فى الخليج كان عاملاً مهماً فى تحقيق التفوق البريطانى فى الخليج ، حيث كانت فائدة بريطانيا فى هذا الجانب مزدوجة ؛ فمن ناحية كان فشل الدول الأوربية الأخرى فى السيطرة والاستقرار فى الخليج قد أتاح فرصة أكبر لبريطانيا لتواصل سياستها المرسومة والراسخة فى السيطرة على المنطقة .

ومن جانب آخر فإن سياسة العنف والبطش التى صاحبت تحركات بعض تلك الدول فى المنطقة قد ولد لدى القوى والشعوب المحلية شعوراً بالكراهية والنفوذ ضد الدول الأوربية الأخرى ، وهذا بدوره جعل الفرصة متاحة أمام بريطانيا للدخول فى أحلاف واتفاقيات مع القوى المحلية ، ليس رغبةً فى البريطانيين بقدر ما كانت محاولة منهم للتخلص من حالات الجور والظلم التى تعرضوا لها من تلك الدول الأوربية الأخرى .

وعلى صعيد آخر فى مجال التنافس الأوربى وحركات الصراع بين هذه الدول ، يبدو أن آثار الصراع فى الميدان الأوربى بين هذه الدول قد انعكست على سير الأوضاع العامة فى المستعمرات الأوربية خارجها . فالصراع الحربى بين فرنسا وهولندا وأسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر كان يصب فى مصلحة بريطانيا التى استطاعت أن تعيد توازنها فى الخليج بعد أن أصبحت المصالح الهولندية فى أوربا خاضعة للمصالح الإنجليزية ، مما جعل الهولنديين يفقدون مراكزهم فى الخليج تدريجياً لصالح الإنجليز .

وكذلك فإن خروج بريطانيا منتصرة فى حرب السنوات السبع مع فرنسا (١٧٥٦ - ١٧٦٣م) مثلاً ، كان له دور فى تفوق بريطانيا فى المشرق ، حيث تنازلت فرنسا بموجب معاهدات الصلح الموقعة فى باريس عن جميع ممتلكاتها فى شبه الجزيرة الهندية(٩٦) .

وهذا بدوره زاد من قوة البريطانيين فى الخليج ، حيث خلا الميدان لهم تدريجيا لإحكام قبضتهم عليه نتيجة لضعف القوى الأوربية الأخرى المنافسة لهم ، وهكذا فإن أى تفوق للبريطانيين فى أوربا كانت آثاره تظهر سريعا على مسرح الأحداث فى المناطق التى كانت تتنافس عليها القوى الأوربية خارج أوربا .

ثالثا : قوة بريطانيا البحرية :

اعتمدت بريطانيا فى تحركاتها الاستعمارية عامة على قوتها البحرية ، ولذلك كانت مستعمراتها إما مناطق بحرية أو شواطئ قريبة من البحار . وعن ذلك يقول بسمارك ؛ أحد القادة الألمان : « إن لبريطانيا جيشا لو أرسلت إليه الشرطة الألمانية لاعتقلته ، هذا فى الوقت الذى كانت بريطانيا تسيطر بأساطيلها على العالم »[٩٧] .

ويبدو أن الخليج لم يكن بمعزل عن هذا التميز والنهج الحربى البريطانى بحكم طبيعته الجغرافية ، حيث كان لبريطانيا منذ أن اتجهت إلى الخليج فيلق بحرى دائم فى الخليج . وكان آمر هذا الفيلق مسئولا عن الدفاع عن المصالح البريطانية فى الخليج وما حوله بشكل أو آخر عن طريق المقيم البريطانى فى الخليج أمام حكومة الهند البريطانية وبالتالى أمام الأسطول الهندى البريطانى ، أو أمام الأسطول الملكى البريطانى وبالتالى أمام الحكومة المركزية فى لندن[٩٨] .

ومن خلال استعراض مسيرة الصراع فى الخليج سواء بين القوى الاستعمارية نفسها أو بين هذه القوى والقوى المحلية ، يمكن القول بأن المصالح والنفوذ البريطانيين كانا يمثلان انعكاسا واضحا لمدى القوة البحرية البريطانية فى الخليج سلبا وإيجابا ، وأن البحرية البريطانية كان لها دور فى

ترجيح النفوذ البريطاني في الخليج في كثير من الأحداث ، وبالتالي فقد كان لها الكلمة الفصل في فرض النفوذ البريطاني في الخليج حين اضطرت القوى المحلية إلى الرضوخ للضغوط البريطانية وتوقيع معاهدات الحماية معها في ظل تواجد القوة البحرية البريطانية وضغوطها(٩٩) .

رابعاً : التنظيم الإداري البريطاني في الخليج :

كان للتنظيم الإداري لأجهزة الحكم والسياسة البريطانية في منطقة الخليج دور مهم في متابعة التخطيط والتنفيذ لتسيير السياسات البريطانية الرامية إلى تحقيق المصالح البريطانية في الخليج وبالتالي النجاح في فرض هيمنتهم على المنطقة .

وكان على رأس الهرم الإداري البريطاني في حكم هذه المنطقة نيابة عن الحكومة البريطانية في لندن أو في الهند ما يعرف اصطلاحاً باسم «المقيم البريطاني» أو « المعتمد البريطاني » الذي كان يدير الشؤون البريطانية من خلال ما يعرف اصطلاحاً باسم « المقيمية البريطانية » التي اتخذت من بوشهر على الساحل الفارسي للخليج موقعاً لها منذ عام ١٧٦٣م وظلت في موقعها إلى أن انتقلت إلى البحرين في عام ١٩٤٧م(١٠٠) .

ونظراً للمهام الإدارية والسياسية التي اضطلع بها المقيم ، فقد أطلق عليه بعض المؤرخين (الملك المتوج في الخليج) دلالة على ما كان يتمتع به من مركز سياسي وحربي وإداري كبير(١٠١) . وقد توزع وتغير ارتباط المقيم البريطاني إدارياً بالجهات الرسمية البريطانية بين فترة وأخرى ، تبعاً للتطورات الاستعمارية البريطانية ، وصدى أيضاً لتغير المصالح البريطانية سواء في الهند أو في الخليج ، ففي فترات ارتبط المقيم البريطاني في الخليج بالأجهزة البريطانية في الهند ، وفي أحيان أخرى بالحكومة المركزية في لندن ، متنقلاً بين عدد من أجهزتها المختلفة ، مثل وزارة الخارجية ، ووزارة المستعمرات ، ووزارة الهند وغيرها .

أما من الناحية العسكرية فقد تنوعت علاقة المقيم بين الأسطول البريطانى فى الهند والأسطول البريطانى فى لندن . كما كـانت ، فـى الوقـت نفسـه ، للمقيـم البريطانى علاقات وارتباطات رسمية ، وتعاون وتنسـيق مسـتمر مـع الأجـهزة البريطانية الرسمية المشابهة فى طهران ، وبغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقـاهرة . إضافة إلى ذلك فقد كان للمقيم ارتباط بالأجهزة البريطانية المحليـة المنتشـرة فـى بلدان الخليج ، وتتلخص هذه الرابطة ، فى قيام المقيم بالإشراف المباشر علـى إدارة هذه المكاتب البريطانية فى بلدان الخليج حيث كان يتبع للمقيم عدد مـن الأجـهزة والوكالات البريطانية أو الوطنية التى انتشرت فى بلدان الخليج المختلفة والتى كانت تخضع لإشراف المقيم المباشر وإدارته وتكمل المهام الملقاة على عاتقه فـى هـذه البلدان كجزء مهم من مسؤوليته الكبرى والأعم ، وهى القيام على رعاية المصـالح البريطانية المتنوعة والمتجددة فى المنطقة[١٠٢] .

خامسا : ضعف الجبهة الداخلية وتنازعها :

من خلال ما سبق الحديث عنه فى المبحث الثانى مـن هـذا البحـث عـن تطورات التاريخ السياسى لبلدان الخليج خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادى يلحظ بأن التنازع والصراع بين البلدان بعضها بعضا ، أو الـنزاع بيـن القيـادات داخل البلد الواحد كان سمة ظاهرة من سمات تاريخ المنطقة . كما لوحظ كذلك بـأن الصراع الداخلى كان سببا رئيسيا فى الجبهة الداخلية وتفتتـها فـى وجـه القـوى الاستعمارية ، وعلى رأسها الاستعمار البريطانى الذى حقق من وراء ذلك خطـوات واسعة للتمكين لنفسه فى الخليج .

ومما يبدو من تتبع تاريخ الوجود البريطانى وتحركاته فى المنطقة أن الساسـة البريطانيين أفادوا من هذه الظاهرة فائدة كبيرة ووظفوها فى سبيل تمكين أقدامـهم فى منطقة الخليج وزادوا فى إسعار نارها عن طريق سياسة « فرق تسـد » التـى

أجادوا رسم خططها وأحسنوا تنفيذ خيوطها بين القوى المحلية على مختلف مستوياتها .

وسنكتفى هنا بإيراد بعض الأمثلة التى توضح أثر هذا العامل ودوره فى تمكين البريطانيين من التسلل إلى المنطقة ومن ثم ترسيخ أقدامهم فيها وفرض هيمنتهم عليها بعد ضرب القوى المحلية بعضها ببعض أو استغلال الخلافات فيما بينها بالوقوف إلى جانب طرف ضد الآخر فى سبيل ضمان تحقيق المصالح البريطانية فى المنطقة .

فمن الأمثلة على ذلك وقوف السلطة فى عمان إلى جانب البريطانيين فى حملاتهم ضد رأس الخيمة منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى أن ضربت رأس الخيمة ووقعت معاهدة السلام العامة عام ١٨٢٠م . وكان الدافع وراء ذلك الموقف العمانى الرغبة فى كسب ود البريطانيين للوقوف إلى جانبهم فى صراعهم مع بلدان الساحل العمانى ، وفى تطلعاتهم للسيطرة على البحرين[١٠٣] . وتكررت المواقف العمانية الناتجة عن الصراع بين القوى المحلية أكثر من مرة خلال القرن التاسع عشر . وكان أبرز الأمثلة فى ذلك استغلال بريطانيا الصراع بين أبناء السلطان سعيد بعد وفاته عام ١٨٥٦م فى التعجيل بفصل أجزاء الدولة إلى شطرين : أفريقى مكون من زنجبار وما حولها ، وآسيوى مكون من البلد الأم عمان فى الخليج[١٠٤].

ومن الشواهد الأخرى لهذا العامل الأثر السلبى الذى خلفه الصراع بين بعض القوى المحلية فى البحرين من أسرة آل خليفة ، ذلك النزاع الذى كان سبباً رئيسياً فى ضعف الجبهة الداخلية وسقوطها فى قبضة البريطانيين بإعلان التدخل والوقوف إلى جانب الشيخ على بن خليفة ومن بعده الشيخ عيسى بن على . وكان من أبرز الآثار لذلك أن اضطر حكام البحرين إلى توقيع عدة معاهدات مع بريطانيا مثل معاهدة ١٨٦١م ومعاهدة ١٨٦٨م، ومعاهدة ١٨٨٠م، ومعاهدة الحماية فى عام ١٨٩٢م والتى رسخت النفوذ البريطانى فى البحرين وجعلت له اليد المطلقة فيه[١٠٥].

وعلى النهج نفسه استغلت بريطانيا الصراع بين آل خليفة في البحرين وآل ثاني حكامهم في قطر في التعجيل بسلخ قطر من البحرين وإقراره رسمياً بسياسة فرض الأمر الواقع بعد توقيع معاهدة عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م مع شيخ قطر[١٠٦].

كما رأينا من خلال ما سبق من مباحث أن العامل نفسه كان واحداً من الأسباب الرئيسية التي أضعفت موقف شيخ الكويت ودفعت به إلى توقيع معاهدة الحماية مع بريطانيا عام ١٨٩٩م ، وهكذا كان هذا العامل أشبه ما يكون بالثغرة التي نفذت بريطانيا من خلالها إلى داخل البلدان الخليجية .

سادساً : ضعف مواقف الدولة العثمانية :

بالرغم من ما مر سابقاً من مواقف إيجابية مبكرة للدولة العثمانية في الوقوف في وجه الغزو البرتغالي في منطقة البحر الأحمر والخليج ، فإن المتتبع لمواقف الدولة العثمانية بعد ذلك يلحظ ضعف الإعداد الحربي عند الدولة العثمانية وترددها في اتخاذ القرارات وعدم الحزم في التنفيذ .

ومن أبرز ما يلحظ في ذلك : ضعف الأسطول العثماني في منطقة الخليج ؛ المنطقة البحرية التي يعتمد من يريد السيطرة عليها على تواجد فيلق بحري بشكل دائم ، وهو ما لم يكن يتوفر للعثمانيين الذين كانوا يعتمدون في تحركاتهم الحربية في الشرق على القوة البرية أكثر من اعتمادهم على الأساطيل البحرية .

كذلك يلحظ على العثمانيين أن غالبية قراراتهم وتحركاتهم في الخليج كانت نابعة من اجتهادات شخصية من بعض القادة والولاة في المنطقة ، أكثر من كونها قرارات نابعة من السلطات العليا ، ولعل مما زاد الأمر سوءاً أن تلك الاجتهادات كانت كثيراً ما تجابه بالرفض والقبول من السلطات العليا في الدولة خوفاً من تصادمها مع المصالح العثمانية الأخرى خاصة في أوربا[١٠٧] .

وكان مما يزيد هذه المواقف سلبية وضعفاً ما كان يجري على العكس من ذلك في الجانب البريطاني حيث كان البريطانيون في الخليج ، وكما سبق الحديث

عن ذلك ، قد تفوقوا فى إعداد القوة البحرية ، كما كـــان رجالاتـــهم فـــى الخليـــج يتحركون وفق مبادئ وسياسات ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص . وكان يؤازر ذلــك كله حزم فى تطبيق القرارات باستخدام ما يناسب كل ذلك من أساليب « الـــترغيب والترهيب » التى مكنتهم فى النهاية من تحقيـــق تفوقـــهم فـــى المنطقـــة بفـــرض المعاهدات ذات الأهداف المتنوعة والتى وصلت ذروتها بفرض معاهدات الحمايـــة على بلدان المنطقة الواحدة تلو الأخرى .

سابعاً : سياسة عقد التحالفات والمعاهدات :

كانت سياسة عقد التحالفات من العوامل المهمة التى مكنت بريطانيا من تقويـــة نفوذها وضرب بعض القوى ببعضها . وكانت أولى التحالفات الإنجليزية قد تمـــت فى وقت مبكر من مراحل الوجود الإنجليزى فى الخليـــج ، وبـــالتحديد فـــى عـــام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م . ففى ذلك العام كان الإنجليز قد دخلوا فى تحالف حربى مـــع فارس لتوحيد القوى ضد البرتغاليين . ويمكن القول أن ذلك التحـــالف كـــان بدايـــة النهاية للوجود البرتغالى فى الخليج ، حيث نجـــح هـــذا التحـــالف فـــى حصـــار البرتغاليين وضربهم فى هرمز وإجبارهم على الخروج منها .

وعلى الخط السياسى نفسه ولتحقيق أهداف مشابهة فى التحالف مـــع القـــوى المحلية أمام القوى الأوربية الأخرى المنافسة استطاع البريطانيون عقد اتفاق بينـــهم وبين حاكم مسقط عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م . وجاء فى الاتفاق المكون من ســـبعة بنود العمل على توثيق العلاقات بين البلدان وعدم السماح للفرنســـيين والـــهولنديين بإقامة مراكز تجارية لهم فى عمان وتوابعها طالما أن الحرب قائمـــة بينـــهم وبيـــن الإنجليز ، وفصـــل الطبيب الفرنسى من خدمة إمام مسقط ، ومنع السفن الفرنســـية من الإقامة فى المرفأ الذى تتواجد به السفن الإنجليزية . إضافة إلى النـــص علـــى وقوف حاكم عمان إلى جانب بريطانيا فى حالة نشوب حرب بينها وبين فرنسا فـــى المياه الإقليمية العمانية .

ويبدو أن سياسة عقد الأحلاف والمعاهدات قد أدت نتيجة ملموسة فى سبيل التفوق البريطانى فى الخليج ، ولذلك فقد سارت بريطانيا فى هذه السياسة قدماً خلال الفترات اللاحقة وعقدت العديد من المعاهدات والاتفاقيات مع القوى المحلية .

وكانت تلك المعاهدات قد تحولت تدريجياً فى صورتها وأسلوب عقدها من تحالف وتعاهد بن طرفين بينهما شيء من التوازن وتبادل المنافع النسبيين إلى اتفاقيات ، فى غالبها تعلن عن تفوق الطرف البريطانى وإملاء شروط منه على الطرف الآخر الذى كان يشعر بشيء من الغبن والدونية عند توقيع الاتفاق الذى كان هو الخيار الوحيد أمامه فى كثير من الظروف .

ومن أجل ذلك فقد استخدمت بريطانيا فى سبيل عقد المعاهدات ما كان الموقف يتطلبه من أساليب « فرق تسد » ومن أساليب « الترغيب والترهيب » وغير ذلك من أساليب فرض الأمر الواقع إلى أن استطاعت فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى أن تلزم القوى المحلية أن تتهافت إلى توقيع معاهدات الحماية الواحدة تلو الأخرى تلك المعاهدات التى بموجبها استظلت دول المنطقة تحت مظلة الحماية البريطانية فى كثير من شؤونها الداخلية وفى كامل سياساتها الخارجية والتى قطعت فى الوقت نفسه الطريق أمام أى قوة أخرى فى محاولات اتخاذ أى موطئ قدم لها فى الخليج .

ثانياً : فرض الحماية البريطانية :

بالرغم من أن القاطرة البريطانية كانت مسبوقة بغيرها من قاطرات الاستعمار الأوربية عند بداية السباق بين الدول الاستعمارية فى الخليج ، إلا أن هذه القاطرة استطاعت أن تغير من موقعها تدريجيًا ، إلى أن أصبحت فى المقدمة بعد حوالى قرنين من بداية السباق الاستعمارى ، وبالتحديد فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر . ولولا بعض المحاولات اليائسة من الدولة العثمانية أو من فرنسا أو ألمانيا فى تلك الفترة لأمكن القول أن هذه القاطرة البريطانية كادت تكون القاطرة

الوحيدة فى ساحة السباق الاستعمارى فى الخليج ، خاصة بعد أن نجح الساسة البريطانيون ، وبعد مراحل طويلة من التنافس والصراع المتنوع مع القوى الخارجية والقوى الإقليمية والقوى المحلية ، فى فرض عدد من المعاهدات ، توجتها بمعاهدات الحماية البريطانية ، مع بلدان الخليج العربية الواحدة تلو الأخرى ، وهى المعاهدات التى مكنت بريطانيا من أن تفرض سيطرتها التامة على هذه البلدات تحت ستار الحماية البريطانية .

وكانت جذور التجربة الأولية لمعاهدات الحماية البريطانية فى الخليج ، وكما سبق الحديث عن شىء من ذلك فى مباحث هذه الدراسة ، قد انطلقت وطبقت فى البحرين، حينما نجحت بريطانيا فى عقد معاهدة مع الشيخ عيسى بن على حاكم البحرين عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م ، وهى معاهدة تتضمن مجموعة من التعهدات من قبل حاكم البحرين أو من يخلفه « بالامتناع عن الدخول فى أية مفاوضات أو عقد أية معاهدات من أى نوع كانت مع أية حكومة أو دولة عدا بريطانيا ، وعدم السماح لأية حكومة – عدا بريطانيا – بإقامة علاقات دبلوماسية أو قنصلية أو إعطاء تصريح بإنشاء مستودعات لتخزين الفحم فى الأراضى البحرينية إلا بعد موافقة من الحكومة البريطانية [١٠٨] .

ويبدو أن نجاح البريطانيين فى فرض تلك المعاهدة والنتائج الملموسة التى حصل البريطانيون عليها من خلال تلك المعاهدة ، رغم تركيزها على قضية المستودعات للفحم ، قد شجع الساسة البريطانيين على تعميم التجربة السابقة وبالتالى فرض معاهدات الحماية البريطانية بشكل أوضح وأعمق وأعم مع عدد من بلدان الخليج بعد ذلك بحوالى عشر سنوات . ورغم ذلك فإن بريطانيا ، وعلى ما يبدو ، رأت عدم الاستعجال فى فرض معاهدات الحماية وفضلت إدخال هذا النهج الجديد من معاهدات الحماية فى تجربة قبل تعميمها على بقية البلدان الخليجية . ولذا فقد اكتفت فى أول الأمر بعقد معاهدة الحماية البريطانية التى وقعت على هذا النهج

الجديد فى الخليج مع سلطان عمان فى التاسع من شعبان ١٣٠٨هـ / العشرين من مارس ١٨٩١م(١٠٩) .

وبعد عام كامل تقريباً من هذه المعاهدة ، وكما يبدو من سير الأحداث ، رأت الحكومة البريطانية فعالية هذه المعاهدة ومناسبة تعميم التجربة الجديدة فى عدد من المشيخات الخليجية الأخرى . وكانت مشيخات الساحل العمانى المتصالح والبحرين هى المناطق الجديدة المستهدفة للدخول فى هذه المعاهدات الجديدة . حيث وقع شيوخ كل من أبو ظبى ودبى وعجمان والشارقة ورأس الخيمة على التوالى على معاهدات الحماية مع تالبوت ؛ المقيم البريطانى فى الخليج خلال الفترة من ٦- ٩ شعبان ١٣٠٩هـ / ٥ - ٨ مارس ١٨٩٢م . وقد أطلقت هذه المعاهدة يد بريطانيا فى تسيير شؤون هذه المشيخات الداخلية والخارجية ، حيث تعهد الشيوخ باسم أنفسهم ومن يرثهم أو يخلفهم « ألا يوقعوا أية اتفاقية أو يدخلوا فى أية علاقة بدولة أجنبية سوى بريطانيا العظمى ،وألا يسمحوا لوكيل دولة أجنبية أخرى بالبقاء فى أراضيهم دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية ، وألا يمنحوا أى جزء من أراضيهم سواء عن طريق البيع أو الإيجار أو الرهن أو التنازل أو غير ذلك لاحتلال أية دولة أجنبية باستثناء بريطانيا العظمى »(١١٠) .

ومن الساحل المتصالح توجه تالبوت إلى البحرين مباشرة حيث تمكن بعد أسبوع من توقيع معاهدة الحماية البريطانية مع الشيخ عيسى بن على حاكم البحرين فى الرابع عشر من شعبان ١٣٠٩هـ / ١٣ مارس ١٨٩٢م ، وبموجب هذه المعاهدة استطاعت بريطانيا التصدى لجميع المحاولات الفارسية والعثمانية المتكررة للتدخل فى شؤون البحرين ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد ، فمع تزايد المصالح البريطانية فى المنطقة لم تتورع بريطانيا كذلك عن إدارة كثير من الشؤون المحلية فى البحرين ، ومن أجل ذلك عينت مستشاراً بريطانياً فى البحرين منذ عام ١٩٢٦م ، كما أتخذت من البحرين قاعدة لإدارة شؤونها فى المنطقة منذ

عام ١٩٤٧م حينما قررت نقل المقيمية البريطانية من بوشهر على الساحل الفارسي للخليج إلى البحرين[١١١] .

وعلى غرار المعاهدات السابقة قامت بريطانيا وقبيل نهاية القرن التاسع عشر بضم الكويت إلى هذه السلسلة من البلدان الواقعة تحت الحماية البريطانية . ويبدو أن الظروف التى كانت تجرى فى الكويت كانت دافعة وميسرة ، فى آن واحد ، لبريطانيا فى التعجيل بعقد هذه المعاهدة ، حيث كانت الكويت فى تلك الفترة مسرحا لصراع محلى بين آل صباح أنفسهم ، كما كانت الكويت تمثل نقطة نهاية لمنطقة تنافس دولى كبير بين عدد من القوى الكبرى آنذاك ، مثل ألمانيا وفرنسا وروسيا والدولة العثمانية ، خاصة فى ظل التفكير فى مد خط سكة حديد بغداد إلى الكويت ، وفى ظل تلك الظروف قامت بريطانيا باستغلال الظروف لصالحها وتوقيع معاهدة الحماية مع الشيخ مبارك الصباح فى رمضان من عام ١٣١٦هـ / يناير ١٨٩٩م[١١٢] . وهى معاهدة مشابهة تماما لمعاهدات الحماية البريطانية التى كانت بريطانيا قد عقدتها مع بلدان الخليج الأخرى قبل ذلك بحوالى عشر سنوات وذلك وفقا لأهداف بريطانيا وسياستها العامة فى الخليج الرامية للسيطرة على بلدان الخليج ، ومنع القوى الدولية الأخرى من اتخاذ موطئ قدم فيه باعتباره الخط أو النقطة الأولى التى يجب أن تتكسر عندها أية محاولات دولية للوصول إلى الهند درة التاج البريطانى فى المشرق .

ويوضح الدكتور أحمد أبو حاكمه ظروف عقد هذه المعاهدة بقوله : « يجب أن نقرر هنا أن الظروف السياسية الدولية هى التى أملت على بريطانيا أن توقع اتفاقية ٢٣ يناير لعام ١٨٩٩مع الشيخ مبارك ، وماتلاها من اتفاقيات . ففى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حصل تقارب كبير بين روسيا وفرنسا ، مما أفقد بريطانيا سيادتها البحرية على البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك حصل تقارب كبير أيضا بين القيصر ولهلم ، قيصر المانيا والسلطان عبد الحميد ، وبدا واضحا أن

بريطانيا إذا أرادت أن تحتفظ بسيطرتها على الخليج العربى لابـد مـن أن تغلـق موانيه فى وجه أساطيل الدول الغربية الثلاث المذكورة ، ولن يكون ذلك بدون عقـد اتفاقيات مع الحكام المحليين على شاطئ الخليج العربى ، أى أن بريطانيـا قـامت بعقد تلك الاتفاقيات مع بلدان الخليج العربى حرصاً على مصلحة الإمبراطورية أولاً وقبل كل شىء »[١١٣] .

ورغـم عقد اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت فإن بريطانيا كانت تمـرر ما ترى فيه مصلحة لها أو على أقل تقدير مـا لايتعـارض مـع مصالحـها مـن الاتفاقيات الكويتية مع بعض الأطراف والقوى الخارجية . ولذلك ففى الوقت الـذى منعت فيه بريطانيا الكويت فى عام ١٩٣٦م من عقد اتفاقية مع العراق لمـد الميـاه من شط العرب خوفاً من وقوع الكويت تحت التأثير العراقى[١١٤] فإنها لم تمـانع ، مثلاً خلال فترة سريان المعاهدة من دخول الكويت فى بعض العلاقات والمعـاهدات السياسية أو التجارية التى لم تكن تؤثر على تلك المصالح البريطانية . ومن ذلـك ، مثلا ، معاهدات النفط المتتالية مع عدد من الشركات العالمية المختلفة التـى بـدأت منذ عام ١٩٤٦م ، وكذلك وقعت الكويت معاهدة دفاع مشترك مع المملكة العربيـة السعودية عام ١٩٤٧م ، كما دخلت الحكومة الكويتية بعد ذلك فى عدد من الاتفاقات والنشاطات الدولية الأخرى التى استندت على جهود جامعة الدول العربية وميثاقـها والتى قادتها فى النهاية إلى الاستقلال[١١٥] .

وكانت قطر هى المحطة الأخيرة التى توقف عندها قطار معاهدات الحمايـة أو الاستعمار البريطانى فى الخليج ، حيث دخل الطرفان البريطانى والقطرى فـى هذه المعاهدة فى محرم عام ١٣٣٥هـ / نوفمبر ١٩١٦م[١١٦] .

وبتوقيع المعاهدة مع قطر على نسق هذه المعاهدات ؛ أى معاهدات الحمايـة البريطانية السابقة مع عمان ومشيخات الساحل والبحرين والكويت أكملت بريطانيـا مسلسل هيمنتها وسيطرتها على منطقـة الخليـج ، خاصـة وقـد خلـت السـاحة

للبريطانيين من المنافسين لهم هناك ، بعد الانسحاب التدريجى للمنافسين الأوربيين الذين حاولوا يائسين منافسة بريطانيا آنذاك مثل فرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتى ، وبانتهاء المواقف العثمانية والوجود العثمانى ؛ ليس فى منطقة الخليج فحسب ، بل باضمحلال الوجود العثمانى على مختلف الساحات بسقوط الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية على أنقاضها والتى حصرت نفوذها وقوتها فى الحدود الجغرافية لتركيا الحالية ، واقتسام أراضيها بين بعض القوى العالمية وبالذات فرنسا وبريطانيا التى حظيت من ذلك بنصيب وافر فى شمال الخليج حين فرضت سيطرتها الاستعمارية على العراق ، لتكمل بذلك هيمنتها التامة على منطقة الخليج من جنوبها إلى شمالها بعد مراحل من الصراع والتنافس الاستعمارى الطويل . ولتستمر بريطانيا بعد ذلك ضاربة أطنابها فى منطقة الخليج مستظلة بظلال معاهدات الحماية منذ عقدها إلى مطلع الستينات من القرن العشرين ، حين بدأت بلدان المنطقة وشعوبها تتطلع لنيل استقلالها والمناداة بالانسحاب البريطانى الذى أصبح وجوده يعتمد كثيراً على مظلة الحماية العسكرية ، فكانت بريطانيا أمام خيارين « إما التوسع فى الوجود العسكرى أو الانسحاب »[١١٧] ، وحيث أن الوجود العسكرى كان يكهل عاتق الحكومة البريطانية فى ظل سياسة « تخفيض نفقات الدفاع وذلك لمواجهة خططها الاقتصادية الداخلية وفى أوربا »[١١٨] .

وفى ظل تلك المتغيرات الجديدة فضل البريطانيون اتخاذ قرار الانسحاب من الخليج وفق سياستهم الجديدة فى الخليج « وهى تغيير الأسلوب القديم ، بانسحاب نقوات البريطانية ، وإنهاء المعاهدات التى لم تعد مناسبة للعصر ، ثم المحافظة على مصالح بريطانيا الاقتصادية ، بعقد معاهدات صداقة فى الإمارات على أسس تلائم روح العصر »[١١٩] . ولتبادر بلدان الخليج بعد ذلك إلى إعلان استقلالها الواحدة تلو الأخرى ولتدخل المنطقة وبلدانها فى حقبة تاريخية جديدة هى حقبة المحاولات الوحدوية التى كانت قد جرت عبر مراحل متدرجة بدأت فى ظل الحماية البريطانية وبدأت ثمارها تتضح عند قرار الانسحاب البريطانى .

وبالرغم من تلك العلاقات التعاهدية بين بريطانيا وبين تلك المشيخات ، وبين تلك المشيخات بعضها ببعض إلا أن الوحدة فيما بينها ظلت غائبة خاصة وأن بريطانيا كانت تغذى عوامل الفرقة وفق مبادئ « فرق تسد » ، حيث كانت «النزاعات المحلية والقبلية والإقليمية تعمق فيما بين العرب مما سهل على الاستعمار مهمة استغلالها والسيطرة عليها لصالحها »[١٢٠] . ولذلك فإن بعض المحاولات الوحدوية المتكررة من قبل بعض أبناء الإمارات لوضع اتحاد فيدرالي منذ الثلاثينات من القرن العشرين إلى الستينات من القرن نفسه لم يكتب لها النجاح، لعدة أسباب ، منها الأسباب الاقتصادية ، مثل قلة الموارد ، ومنها الأسباب السياسية، مثل الموقف البريطاني ، حيث إن بريطانيا صاحبة النفوذ القوى فى المنطقة كانت تعارض « جميع الصيغ الاتحادية من هذا القبيل لما يتسبب من تهديد لوجودها فى المنطقة ، ولم تشهد الإمارات العربية أى محاولات وحدوية باستثناء الاتحاد الفيدرالى الذى تم بين الشارقة والفجيرة عام ١٩٦٠ ، ولكنه لم يستمر سوى بضعة أشهر »[١٢١] .

وجاءت بوادر الانسحاب البريطانى من الخليج بعد ذلك لتحرك المحاولات الوحدوية الخليجية من جديد ولتدفع بها خطوات إلى الأمام ، وبدأت تلك المحاولات الجديدة بالتحالف الثنائى بين دبى وأبو ظبى فى الثامن عشر من شهر فبراير من عام ١٩٦٨م ، ثم تلاشى ذلك التحالف مباشرة حين جرت محاولات الاتحاد التساعى الذى ضم قطر والبحرين إضافة إلى إمارات الساحل السبع .

وكان مصير هذا التحالف الفشل لعدة أسباب أبرزها : غموض اتفاقية الاتحاد خاصة حول الاختصاصات التى تدخل فى نطاقه ، والتمثيل فى المجلس الوطنى الاستشارى ، ونظام التصويت فى المجلس الأعلى ، ومسألة التفرغ للمناصب الوزارية ، والخلاف حول العاصمة الاتحادية ، ونظام القوات المسلحة ، والخلافات

حول تبعية اختصاص المواصلات لكل إمارة ، ثم أخيراً الخلاف حول المساهمة فى ميزانية الاتحاد .

ونتيجة لتلك الخلافات وعدم الوصول إلى اتفاق بين هذه الدول فقد اتجهت قطر والبحرين إلى الاستقلال عن الاتحاد المقترح . ومن جانب أخر فإن قرار الانسحاب البريطانى قد قاد الدول السبع الباقية إلى الجدية فى مباحثاتها الاتحادية والإصرار بالخروج بالاتحاد إلى النور رغم انسحاب قطر والبحرين .

وهكذا وبعد عدة اجتماعات أعلن ستة من حكام الإمارات السبع هم حكام : أبو ظبى ، ودبى ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القرين ، والفجيرة قيام اتحاد سداسى فيما بينهم وتشكيل دولة باسم « الإمارات العربية المتحدة » وذلك فى الثامن عشر من يوليو عام ١٩٧١م . وجرى الاتفاق فى الوقت نفسه على اختيار الشيخ زايد آل نهيان حاكم أبو ظبى رئيساً للدولة لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ، واختيار أبو ظبى عاصمة مؤقتة للدولة كما جرى الاتفاق على أن يكون التصويت على قرارات الاتحاد بالأغلبية بشرط أن يكون ضمنها صوتا أبو ظبى ودبى ... الخ . ووفق ذلك تم بالفعل إعلان قيام الدولة والعمل بدستورها المؤقت اعتباراً من الثانى من ديسمبر عام ١٩٧١م . ولم تمض عدة أيام على ذلك حتى بادرت رأس الخيمة إلى الانضمام إلى الاتحاد فى الثالث والعشرين من الشهر نفسه وليتحول اتحاد الإمارات العربية إلى اتحاد سباعى ،[١٢٢] ولتبقى بقية دول الخليج العربية الأخرى على وضعها السياسى المنفرد ، ذلك الوضع الذى جعل كل منها يشعر بنوع من العزلة المصحوبة بالضعف فى مواجهة الرياح العاتية والقوية القادمة من الساحل الشرقى للخليج وبالتحديد من إيران الدولة القوية فى المنطقة ، وما تزامن مع ذلك من رياح أخرى وهى الرياح القادمة من شمال الخليج وبالتحديد من العراق التى اتخذت بعض الخطوات السياسية والعسكرية التى أججت الموقف وزادته تعقيداً ، حتى كادت هذه المتغيرات أن تعصف بأمن المنطقة وتهدد بعض دولها بالزوال .

ونتيجة لهذه الظروف والمتغيرات ، ولتشابه بلدان الخليج العربية فـــى كثـــير من الظروف والتطورات السياسية والتغــيرات الاجتماعيـــة والاقتصاديـــة ، التـــى ظهرت بعض ملامحها من خلال التاريخ المشترك ، الذى حاولت هذه الدراسة تتبـع مساراته عبر العصر الحديث والمعاصر ، لم يكن من المستغرب أن تســـعى هـــذه الدول الخليجية بالإضافة إلى المملكة العربية السعودية الشقيقة الكبرى لبلدان الخليـج العربية ، والتى هى الأخرى تتشابه فـــى كثــير مـــن تلـــك الظـــروف والثوابـــت والمتغيرات مع بقية بلدان الخليج العربية التى تناولت هذه الورقة تاريخها ، أقول لـــم يكن مستغرباً أن تسعى هذه الدول مجتمعة إلى محاولة التقارب فيما بينـــها ، ذلـــك التقارب الذى تجسد مؤخراً فى اتفاق هذه الدول وبالتحديد في عـــام ١٤٠١هـــ / ١٩٨١م على الانضواء تحت مظلة وحدوية هى مظلة « مجلـــس التعـــاون لـــدول الخليج العربية»[١٢٣] والذى بتأسيسه دخلت بلدان الخليج فى مرحلة تاريخية جديـــدة لاتزال ملامحها تحتاج إلى مزيد من الدراسات التاريخية التى لم يأت أوانها بعـــد ، والذى قد تعتبر مثل هذه الدراسة التى بين أيدينا أساساً مهماً قد تبنى عليه مثل هـــذه الدراسات المنتظرة فى المستقبل ، والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل .

الخاتمة والنتائج :

من خلال هذه الدراسة عن تاريخ التنافس الاستعمارى فى الخليـــج وبلدانـــه العربية فى العصر الحديث يمكن التوصل إلى عدد من الحقائق التاريخية الآتية :

١ - يلحظ تشابه الظروف والتطورات السياسية فى غالبية بلدان المنطقة فى العصر الحديـــث إلى حد كبير ، من حيث التزامن فى حركة تأسيس المشيخـــات أو الإمارات العربية الحاكمة فى بلدان الخليج .

٢ - تشابه الأنظمة الحاكمة فى الخليج باعتمادهـــا علـــى نظـــم الحكـــم الأســـرى المتوارث. ومن الملاحظ كذلك أن حكم هذه الأسر قد استمر لفترات طويلـــة ، أى أنه امتد منذ أن بدأت حركة تأسيسها فى القرن السابع عشر الميلادى إلـــى

يومنا الحاضر ، وذلك بالرغم مما اعترى هذه البلدان من غزو استعمارى خارجي ومن صراع إقليمى ، وبالرغم مما جرى فيها من تقلبات سياسية واجتماعية واقتصادية متعددة ، وبالرغم مما ساد غالبية بلدان العالم العربى الأخرى من تغيير جذرى فى أنظمة الحكم على إثر الموجة الثورية العارمة التى انتشرت فى كثير من بلدان العالم العربى فى أعقاب حركة الاستقلال الذى نالته الدول العربية والذى تزامن مع موجة الحركات الثورية فى العالم .

٣ - تشابه تاريخ بلدان الخليج العربية ، من حيث كثرة النزاعات والصراعات الداخلية بين أفراد الأسر الحاكمة فيها ، الأمر الذى أضعف هذه الدول ، فكان لذلك أثر كبير فى وقوع هذه البلدان فريسة سهلة تحت التسلط الاستعمارى .

٤ - تشابه تاريخ بلدان الخليج ، وذلك من حيث التطورات السياسية فى كثير من جوانب علاقاتها الخارجية بين بعضها البعض ، أو بينها وبين الدول الأخرى ذات المصالح فى المنطقة .

٥ - تشابه تاريخ بلدان الخليج ، وذلك من حيث تزامن تعرضها للغزو الخارجى بدءا بالغزو البرتغالى ، وانتهاء بوقوعها فى النهاية فريسة للسيطرة البريطانية، بل نزيد على ذلك بوقوعها فى الوقت الحاضر تحت تأثير النفوذ الأمريكى الذى يبدو أنه حل محل البريطانيين فى المنطقة .

٦ - وأخيرا يلحظ من خلال هذه الدراسة تشابه التطورات السياسية فى تاريخ بلدان الخليج العربية ، وذلك من حيث تزامنها فى حركات نيل الاستقلال من نير الاستعمار البريطانى وتزامنها فى الحصول عليه .

الهوامش

(١) سورة البقرة ، آية ١٢٠ .

(٢) سليمان بن أحمد بن أيوب ، المعجم الكبير ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ١٤٠٤/ ١٩٨٣م ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٣) للمزيد عن حياة الإمام ناصر بن مرشد انظر : حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ص ٢٦٢ - ٢٨٤ .

(٤) للمزيد عن جهاد العمانيين ضد الغزو البرتغالى وانتصارات الإمام سلطان بن سيف انظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٨٤ - ٢٩٠ ، وانظر : سالم ابن حمود السيابى ، عمان عبر التاريخ ، أربعة أجزاء ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص٢٣٣ - ٢٣٨ .

(٥) للمزيد انظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٩٣ - ٢٩٦ .

(٦) وزارة الإعلام والثقافة فى سلطنة عمان ، عمان وتاريخها البحرى ، مسقط ١٩٧٩م ، ص ٦٤ - ٧٠ وانظر : , Ahmed Hamoud Almaamiry
Oman And East Africa 3rd ed , New Delhi, 5891, p. 61 - 64 .

(٧) للمزيد عن أحداث تلك الفترة وما حدث فيها من صراعات انظر : ابن رزيق، الفتح المبين ، ص ٣٢٠ - ٣٤٧ ، وانظر : السيابى ، عمان عبر التاريخ ، ج ٤ ، ص٨٢ - ١١٠ .

(٨) انظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٣٥٠ - ٣٨٧ .

(٩) نال تاريخ السيد سعيد مكانة عالية بين الدراسات التاريخية العمانية نظراً لدوره وجهوده فى مسار التاريخ العمانى بشقيها العمانى والأفريقى ، وللاطلاع على بعض الدراسات التى خصصت عن تاريخ السيد سعيد انظر : الكتاب الخاص بحياة السيد سعيد من تأليف حميد بن محمد بن رزيق ، سيرة

السيد الهمام سعيد بن سلطان ابن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى اليمنى الأزدى ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م . ومن الدراسات الأجنبية انظر : رودلف سعيد روت ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ - ١٨٥٦ ، ترجمة عبد المجيد القيسى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ١٩٨٣م . وانظر : فينزور ، تاريخ السيد سعيد سلطان عمان ، ترجمة الدكتور محمود فاضل ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ١٩٨٨م .

(١٠) اف سى ولكنسون ، عمان تاريخاً وعلماء ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، الطبعة الثانية ١٩٨٠، ص ١٩ .

(١١) عن علاقة عمان ببريطانيا فى عهد السيد سعيد انظر : سمير محمد على أبو ياسين ، العلاقات العمانية البريطانية ١٧٩٨ - ١٨٥٦ ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، البصرة ١٩٨١م .

(١٢) تلا فيصلاً ابنه تيمور الذى استمر فى الحكم إلى أن تنازل لولده سعيد بن تيمور فى عام ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م . وفى عهد فيصل وابنه سعيد كادت عمان أن تنقسم إلى بلدين حين اضطر فيصل فى عام ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠م إلى توقيع اتفاقية السيب مع بعض المنازعين للسلطة من عمان الداخلية بحيث تكون سلطنة مسقط على الساحل تحت حكمه ، وإمامة عمان فى الداخل تحت حكم الإمام محمد بن عبد الله الخليل . إلا أن ابنه سعيداً تدارك الوضع فيما بعد وبمعونة من بريطانيا وأعاد توحيد البلاد تحت حكمه عام ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م . وبالرغم من جهود تيمور فى إعادة الوحدة للبلاد وتزايد الدخل المادى للبلاد على إثر تصدير النفط إلا أنه لم يوجه اهتماماً كافياً « بترقية أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مما اضطر بعض المخلصين بالتعاون مع ولده قابوس إلى أبعاد السلطان سعيد عن الحكم وتولى ولده

قابوس فى علم ١٣٩٠هـ /١٩٧٩م ، والذى أخذ يعمل بسرعة على ترقية أحوال البلاد فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية » . للمزيد انظر : إسماعيل ياغى ، ومحمد شاكر ، تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ٨٩٧- ١٤٠٠هـ ، الجزء الأول ، الجناح الآسيوى ، ص ٥٣ .

(١٣) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج٢ ، ص٨٢٢ ، وللاطلاع على النص العربى لمعاهدة الحماية البريطانية مع عمان انظر : ملحق رقم (٤) ص ٩٦٢ ، ٩٦٣ .

(١٤) للمزيد عن معاهدة السلام العامة وظروف عقدها ونصوصها انظر :
I. O. R, L-P & S20 C248, Precis Of Correspondence Regarding Affairs Of the Persian Gulf .
وانظر : لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج ٢ ، ص ١٠٢٢ - ١٠٢٧ .

(١٥) للمزيد عن معاهدة ١٨٣٥ م وظروف عقدها انظر : لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج٢ ، ص ١٠٥٥ - ١٠٦٧ . وانظر : عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٢٤١-٢٥٦ ، ٤٢٩ -٤٣١.

(١٦) للمزيد عن معاهدات الحماية البريطانية مع مشيخات الساحل العمانى انظر : لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج٢ ، ص١١١٧ - ١١٢١ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ .

(١٧) أحمد مصطفى أبو حاكمه ، تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠ - ١٩٦٥م ، ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٤ م ، ص١٧ - ٢١ .

(١٨) المرجع السابق ، ص٤١ .

(١٩) عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، تعليق عبد العزيز الرشيد ، ص ٢٠ .

(٢٠) أبو حاكمه ، تاريخ الكويت ، ص ٢٧ .

(٢١) عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، ص ٣١ .

(٢٢) عبد الله آل خليفة وعلى أبا حسين ، من تاريخ العتوب في القرن الثامن عشر، بحث مقدم إلى مؤتمر البحرين عبر التاريخ ١٩٨٣م ، المجموعة الأولى ، ص ١٤ .

(٢٣) عثمان بن سند ، سبائك العسجد فى أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ، بومباى ١٣١٥هـ ، ١٨ .

(٢٤) عمر العمرى ، التطور السياسى ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٧١ .

(٢٦) خلف مباركاً ابنه جابر الثانى من ١٣٣٣ - ١٣٣٥هـ / ١٩١٥ - ١٩١٧م، ثم تلاه أخوه سالم بن مبارك وحكم من ١٣٣٥ - ١٣٤٠هـ / ١٩١٧ - ١٩٢١ م ، وتلاه أحمد بن جابر الثانى من ١٣٤٠ - ١٣٦٩هـ / ١٩٢١ - ١٩٥٠م ، ثم عبد الله الثالث بن سالم من ١٣٦٩ - ١٣٨٥هـ / ١٩٥٠ - ١٩٦٥م ، وتلاه أخوه صباح الثالث بن سالم من ١٣٨٥ - ١٣٩٨هـ / ١٩٦٥ - إلى آخر يوم فى عام ١٩٧٧م حيث خلفه الحاكم الحالى الشيخ جابر الثالث بن أحمد منذ عام ١٣٩٨هـ / بداية عام ١٩٧٨م .

للمزيد عن تاريخ الكويت بعد مبارك الصباح انظر : أبو حاكمه ، تاريخ الكويت ، ص ٣٤١ - ٣٧٥ .

(٢٧) للمزيد عن معاهدة الحماية البريطانية مع الكويت انظر : ميمونة الخليفة الصباح ، الكويت فى ظل الحماية البريطانية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٢٠ - ٢٧ .

(٢٨) منذ عام ١٩٦٠م ضاعفت الحكومة الكويتية من ممارسة سلطاتها وحقوقها تمهيداً لاستقلالها ، ومن ذلك إقرار بريطانيا لها بممارسة الحقوق القضائية على الكويتيين وعلى المقيمين الأجانب على حد سواء حيث كانت القضايا التى تتعلق بالرعايا الأجانب قبل ذلك تحال إلى محكمة تابعة للمعتمد

البريطاني ، كما أصدرت قانون النقد الكويتي وافتتحت الحكومة الكويتية كذلك عدداً من القنصليات أو البيوت التابعة لها في البلدان العربية ، كما أنشأت تلك الدول ممثليات رسمية لها في الكويت وفي يونيو من العام نفسه ومع تزايد المطالبة بالاستقلال وإلغاء معاهدة ١٨٩٩م وافقت الحكومة البريطانية على ذلك ، ودخل الطرفان بمفاوضات أنهت تلك المعاهدة واستبدلتها بمعاهدة جديدة من أبرز ما فيها « أن تستمر العلاقات بين البلدين مشوبة بروح الصداقة ، وأن لا يؤثر إلغاء اتفاقية ١٨٩٩ على استعداد حكومة صاحبة الجلالة البريطانية مساعدة حكومة الكويت إذا طلبت هذه المساعدة ... » وقد عرفت هذه المعاهدة بمعاهدة « المساعدة » التي اعتبرت بداية لاستقلال الكويت ، حيث اتجه الكويتيون بعد ذلك إلى استكمال التنظيمات الداخلية ، وتشكل مجلس تأسيسي وضع دستور الدولة ، وحولت الإدارات الحكومية إلى وزارات «وصدر الدستور الكويتي في نوفمبر ١٩٦٢ حيث نص على أن الكويت دولة عربية مستقلة كاملة السيادة وشعبها جزء من الأمة العربية ودينها الإسلام ولغتها الرسمية العربية والحكم وراثي في ذرية الشيخ مبارك». ومنذ ذلك الوقت عملت الحكومة الكويتية على السير في البلاد وفق تلك المبادئ ودخلت الكويت في حركة تنموية كبيرة جعلتها في مصاف الدول الحديثة، وفي الوقت نفسه دخلت الكويت في علاقات صداقة وتعاون مع عدد من الدول العربية والإسلامية والأجنبية ، كما وقعت في الوقت نفسه في خلافات سياسية معظمها حدودية مع جاراتها ، وبالذات في عدد من المشكلات مع العراق ، تلك الأزمات التي بلغت ذروتها عام ١٩٩٠م لتتسبب في الأزمة العراقية الكويتية التي عرفت بأزمة الخليج التي يبدو أنها قد أعادت الاستعمار المغلف إلى المنطقة من جديد حين أدخلت المنطقة بمرحلة تاريخية جديدة مكنت للقوى الكبرى وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية من فرض كامل هيمنتها على بلدان المنطقة .

وللمزيد عن المعاهدات الكويتية والنصوص المقتبسة : انظر : عبد الرحمن يوسف بن حارب ، الخليج العربى والتطورات السياسية ١٩١٤ - ١٩٧١ ، دار الثقافة العربية ، الشارقة (د. ت) ، ص ٣٣ - ٥٣ .

(٢٩) انظر تفصيلات تاريخ آل خليفة فى الكويت وهجرتهم إلى الزبارة وضمهم جزر البحرين فى : عمر العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ص ٥٧-٧٤.

(٣٠) للاطلاع على النص العربى للمعاهدة انظر : عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، ص ٤٢٥ - ٤٢٧ .

(31) (P. R. O.), F . O . 371 , 17825 . Historical Memorandom On Bahrain .

(٣٢) انظر التفصيلات فى عمر العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ص ١٥٧ - ١٨١ .

(٣٣) انظر التفصيلات فى المرجع السابق ، ص ١٨٢ - ٢٣٠ .

(٣٤) للاطلاع على ظروف عقد معاهدة الحماية مع البحرين ونصوص المعاهدة انظر :

(P. R. O.), F. O. 371, 17825. Historical Memorandom On Bahrain

وانظر : (I. O. R) L - P & S20c 241, Precls Of Bahrain Affairs .

(٣٥) عند وفاة الشيخ عيسى بن على عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م خلفه على الحكم فى البحرين ابنه الشيخ حمد الذى استمر إلى وفاته عام ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م ، وخلال عهده بدأت البحرين بإنتاج وتصدير النفط بكميات تجارية ، وكان لذلك آثاره الكبيرة على نواحى الحياة وبالذات الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، كما شهد عهده بداية التحولات السياسية فى المنطقة بتنامى قوة ونفوذ الولايات المتحدة الأمريكية على حساب بريطانيا ، ومن ذلك حصول أمريكا على حق استخدام البحرين قاعدة لقيادة أسطولها فى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية . وفى عام ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م توفى الشيخ حمد فخلفه على الحكم ابنه الشيخ سلمان الذى أبعد المستشار البريطانى من

البحرين عام ١٣٧٧هـ وبدأ يتطلع إلى استقلال البلاد ، ولكن ذلك لم يتم إلا في عهد خلفه الشيخ عيسى بن سلمان الذى تولى الحكم فى أعقاب وفاة أبيه عام ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، فاتخذ عدداً من الخطوات العملية الدولية لإقناع بريطانيا بترك البلاد ونيل الاستقلال ، وتم للبحرين ذلك عام ١٣٩١هـ / ١٩٧١م على إثر استفتاء قامت به الأمم المتحدة لتنطلق البحرين بعد ذلك إلى مجال أرحب فى البناء الداخلى وفى العلاقات السياسية والنشاط الدولى . وقد استمر الشيخ على رأس الحكم إلى أن وافته المنية فى أواخر عام ١٤١٩هـ ليتسلم الحكم من بعده ابنه وولى عهده الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة الذى يعمل على مواصلة دور والده فى قيادة البلاد فى خطوات التنمية الشاملة على مختلف الأصعدة .

للمزيد عن تاريخ البحرين خلال هذه الفترة انظر : أمل إبراهيم الزيانى ، البحرين بين الاستقلال السياسى والانطلاق الدولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٢٦٣ - ٢٧١ .

وانظر : حسن موسى ، البحرين بين النضال الوطنى والديموقراطى ١٩٢٠ - ١٩٨١م ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، ص٢٨- ٣٧ .

(٣٦) انظر تفصيلات ذلك فى : عمر العمرى ، التطور السياسى ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣٧) للمزيد انظر : Historical . 17825 , F. O. 371 ,(P. R. O) Memorandom On Bahrain . وانظر : وثائق التاريخ القطرى (٢) من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩م ، إعداد قسم الوثائق بمكتب الأمير ، الدوحة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص٩ - ١١ .

(٣٨) انظر تفصيلات ذلك فى : عمر العمرى ، التطور السياسى ، ص ٢١٤ - ٢٢٦ .

(٣٩) عبد العزيز المنصور ، التطور السياسى لقطر فى الفترة ١٨٦٨ - ١٩١٦م، منشورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٠هـ ، ص٢٥ .

(٤٠) يصف الدكتور عبد العزيز المنصور ، وهو أحد المتخصصين فى تاريخ قطر عهد الشيخ عبد الله بقوله : « كان الشيخ عبد الله معروفاً بعلاقاته الطيبة مع بريطانيا وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة طوال الحرب العالمية الأولى ، ولقد منح بعد انتهاء الحرب وساماً بريطانياً ... ولعل أهم الأحداث التى شهدتها قطر فى عهد الشيخ عبد الله والتى كان لها أبلغ الأثر فى التطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى للإمارة هو اكتشاف النفط الذى نقل قطر من عهد إلى عهد بينهما بون شاسع . وبشكل عام يمكننا القول بأن الشيخ عبد الله بدأ حكمه والمجتمع القطرى يعيش حياته التقليدية القائمة أساساً على الغوص وحياة البادية ، وانتهى حكمه وقد وضعت قطر قدميها على عتبات عهد جديد عهد النفط بكل آثاره العميقة » . انظر عبد العزيز المنصور التطور السياسى لقطر ١٩١٦ - ١٩٤٩، منشورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٩٧٩م ، ص ١٢ .

(٤١) للمزيد انظر : وثائق التاريخ القطرى (٢) من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ هـ - ١٩٤٩م ، إعداد قسم الوثائق بمكتب الأمير ، ص ١٦ - ١٩ .

(٤٢) استمر الشيخ عبد الله فى الحكم إلى عام ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م حينما اعتلت صحته فتنازل لابنه على الذى حدثت فى عهده زيادة هائلة فى البترول نتج عنها ارتفاع فى مستوى المعيشة وزيادة فى العمران .وظل الشيخ على حاكماً إلى عام ١٣٨٠هـ ، حينما اضطر للتنازل عن الحكم لابنه أحمد ، كما عين الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى ولياً للعهد ونائباً للحاكم الجديد . وفى عام ١٣٩١هـ أعلن استقلال قطر عن الحماية البريطانية ، كما دخل الاثنان فى تنافس على السلطة انتهى بانفراد الشيخ خليفة بالسلطة وتولى الحكم فى عام ١٣٩٢هـ واستمر الشيخ حمد فى الحكم إلى عام ١٤١٦هـ حينما قام عليه

ابنه الشيخ خليفة بن حمد بحركة اضطر فيها الشيخ حمد إلى مغادرة البلاد وتولى بموجبها ابنه مقاليد السلطة وحكم البلاد حيث لازال كذلك .

للمزيد انظر : إسماعيل ياغى ومحمود شاكر ، تاريخ العالم الإسلامى ، ج١ ، ص٦٢ .

(٤٣) عبد العزيز محمد الشناوى ، المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرقى الجزيرة العربية ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية ، قطر ١٩٧٦م ، ج٢ ، ص٦١٥ .

(٤٤) أحمد العنانى ، البرتغاليون فى البحرين وما حولها خلال القرنين السادس والسابع عشر ، البحرين ١٩٨٣م ، المجموعة ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٤٥) عبد العزيز الشناوى ، المراحل الأولى ، ص ٦١٦ .

(46) Donald Hawley, Trucial States , London 1970, pp. 68 - 71 .

(٤٧) عن هرمز وأهميتها والوجود البرتغالى انظر : إبراهيم بشمى ، مملكة هرمز القناعة الذهبية ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الأيام ، البحرين ، ص ٢٨ - ٣٤ .

(٤٨) أحمد بوشرب ، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية فى كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر البحرين عبر التاريخ ، البحرين ١٩٨٣ م ، المجموعة الأولى ، ص ١٢١ .

(49) Donald Hawley , The Trucial States , p. 73 .

(٥٠) للمزيد عن جهاد المماليك ضد البرتغاليين انظر : نوال حمزه الصيرفى ، النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ١٠٢ - ١١١ .

(51) Donald Hawley , The Trucial States, p. 73 .

(٥٢) صالح أوزبران ، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون فـــي الخليـــج العربـــي ، ترجمة وتعليق عبد الجبار ناجي ، منشورات مركز دراسات الخليج العربـــي ، البصرة ١٩٧٩م ، ص٥٢ ، ٥٣ .

(٥٣) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص١٨ - ٢٢ .

(٥٤) فالح حنظل ، العرب والبرتغال فـــي التـــاريخ ٩٣ - ١١٣٤هـــ / ٧١١ - ١٧٢٠م ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبـــي ١٤١٨ هـــ / ١٩٩٧ م ، ص٤٨٩ - ٤٩٧ .

(٥٥) حسن أحمد إبراهيم ، المطامع الأوربية في الخليج من مطلع القرن الســـادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من البحوث المقدمـــة إلـــى مؤتمـــر دراسات شرق الجزيرة العربية ، قطر ١٩٧٦م . ج٢ ، ص٨٩٥ .

(56) B. J. Slot, The Dutch East India Company, From Collection Papers Submitted to Bahrain Through The Ages Conference, Bahrian 1983, Part 1, p. 252.

(٥٧) حسن إبراهيم ، المطامع الأوربية ... ، ص ٨٩٥ .

(58) Donald Hawley, The Trucial States, p. 76.

(٥٩) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص٦٩ .

(60) Donald Hawley, The Trucial States , p. 76.

(61) Arnold Wilson, The Persian Gulf, London 1959, p. 164.

(62) Arnold Wilson, The Persian Gulf, pp.167-168.

(٦٣) مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولـــي فـــي الخليـــج ١٦٢٢ - ١٧٦٣، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٦٤) المرجع السابق ، ص١٧٨ ، ١٧٩ .

(٦٥) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص١١٤ .

(٦٦) مصطفى النجار ومحمد وصفي أبو مغلي ، جزيرة خارج من جزر الخليـــج العربي، منشورات مركز دراسات الخليج ، البصرة ١٩٨٣م ، ص ١٥-٣٨.

(٦٧) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ج١ ، ص٢٤٥ .

وانظر : مصطفى النجار ، ومحمد أبو مغلي ، جزيرة خارج ، ص٤٢ .

(٦٨) صالح محمد العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج ١٧٩٨ – ١٨١٠م ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٩م ، ص٣٥ .

(٦٩) مصطفى الخطيب ، التنافس الدولي ، ص ٢٤٤ .

(٧٠) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص٨٠ .

(٧١) صالح العابد ، موقف بريطانيا ، ص٣٦ .

(٧٢) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص١١٩ .

(٧٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٢١٩ .

(٧٤) مصطفى الخطيب ، التنافس الدولي ، ص٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٧٥) مارتنفيل اوتركوسيه ، النشاط الفرنسي في البصرة ١٧٣٩ – ١٧٤٥ ، ترجمة مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ١٩٨٠م ، ص ١٠ – ١٦ . وقد كان مارتنفيل هذا هو أول قنصل في البصرة ، وكان يشرف عليها مع بندر عباس التي لم يكن يعالج أمورها بصورة مباشرة حيث كان يستدعي الإبحار بينهما حوالي خمسة عشر يوماً . انظر : مارتنفيل ، ص٤١ .

(٧٦) مصطفى الخطيب ، التنافس الدولي ، ص ٢٥٧ .

(٧٧) قدري قلعجي ، الخليج العربي ، بيروت ١٩٦٥م ، ص٣٨٩ .

(٧٨) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص١٦٨ – ١٧٨ .

(٧٩) قدري قلعجي ، الخليج العربي ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٨٠) المرجع السابق ، ص٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٨١) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص٢٤٦ .

(٨٢) صالح العابد ، موقف بريطانيا ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٨٣) قدري قلعجي ، الخليج العربي ، ص٣٩١ .

(٨٤) صلاح العقاد ، الاستعمار في الخليج الفارسي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٦م ، ص٣٢ .

(٨٥) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص٦٢ ، ٦٣ .

(٨٦) جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقية ١٧٤١ - ١٨٦١، مكتبة القاهرة الحديثة ، ص ١٠٧ .

(٨٧) جون كيلي ، بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومي والثقافة ، عمان ١٩٧٩م ، ج١ ، ص٩٤ .

(٨٨) العقاد ، الاستعمار ، ص٣٥ .

(٨٩) المرجع السابق نفسه .

(٩٠) لوريمر ، دليل الخليج ، التاريخي ، ج١ ، ٢٣ .

(91) Hurewitz, J. C., The Middle East & North Africa In World Politics, A Documanary Record, Vol. 1, European Expnsion 1535-1914, London 1975, p. 5.

(92) Kaye, John William, The Administration of the East India Company, London 1853, pp. 109-111.

(٩٣) لوريمر ، دليل الخليج ، التاريخي ، ج١ ، ص٢٣ .

وانظر : مصطفى الخطيب ، التنافس الدولي ، ص١٣٢ .

(٩٤) لوريمر ، دليل الخليج ، التاريخي ، ج٣، ص١٢٦٩ ، ١٢٧٠ .

(95) Tuson, Penlop, The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979, p. 173.

(٩٦) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ٣٥ ، ٦٣ .

(٩٧) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي ١٨٩٩ - ١٩٤٧ ، دار المريخ ، الرياض ١٤٠٢هـ ، ص٥٧ .

(٩٨) عمر العمري ، التطور السياسي للبحرين ، ص٢٧٤ .

(٩٩) للمزيد عن الدور الحربي للبحريةالبريطانية فيصراع القوى في الخليج انظر:

Omer Al-Omery, The Resident in the Gulf : British Power in Transition.

(100) Penelope Tuson The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979, p. 1,2.

(١٠١) عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم ، حكومة الـــهند البريطانيـــة والإدارة فـــى الخليج العربى ١٨٥٨– ١٩٤٧م ، دار المريخ الرياض ، ص١٣٥ .

(١٠٢) للمزيد عن التنظيمات الإدارية فى الخليج انظر بعض الدراســات الخاصــة بذلك مثل : عبد العزيز عبد الغنى إبراهيـــم ، حكومـــة الـــهند البريطانيــة والإدارة فى الخليج العربى . وانظر دراسة للباحث :

Omer Al-Omery, The Resident in the Gulf : British Power in Transition 1858-1872, Ph.D Thesis, Department of History, University of Essex, May 1989.

وانظر كذلك دراسة أخرى للباحث بعنوان ، كتابـــات المبعوثيـــن الأجـــانب مصدراً لتاريخ الخليج دراسة فى النموذج البريطانى مـــن خـــلال ســـجلات المقيم البريطانى فى الخليج ، الرياض ١٤١٧هـــ .

(١٠٣) للمزيد عن الصراع بين عمان والبحرين والموقف البريطانى منه انظـــر : عمر العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ص٧٧ – ١٠٥ .

(١٠٤) عن انفصال زنجبار وعمان ودور بريطانيا فى ذلك انظـــر : بـــدر الديـــن عباس الخصوصى ، دراسات فـــى تـــاريخ الخليـــج العربـــى ، ج٢ ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٨هــ / ١٩٨٨م ، ص١٥ – ٣٤ .

(١٠٥) للمزيد عن هذا الموضوع وعن المعاهدات بين بريطانيا والبحرين وظـــروف عقدها انظر : عمر العمرى ، التطور السياسى للبحريـــن ، ص٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٩١ ، ٣١٧

(١٠٦) عن انسلاخ قطر عن البحرين ودور بريطانيا فى ذلـــك انظـــر : المرجـــع السابق ، ص٢١٤ – ٢٣١ .

(١٠٧) للمزيد عن الموقف العثمانى فى الخليج انظر : عمـــر العمـــرى ، التطـــور السياسى ، ص٢٧٣ – ٢٧٧ .

(١٠٨) للمزيد عن هذه المعاهدة وظروف عقدها انظر : المرجع السابق ، ص ٢٨١ - ٣٩٤ .

(١٠٩) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج٢ ، ص٨٢٢ ، وللاطلاع على النص العربى لمعاهدة الحماية البريطانية مع عمان انظر : لوريمر ، جـ٢ ، ملحق رقم (٤) ص ٩٦٢ ، ٩٦٣ .

(١١٠) المصدر السابق ، ج٢ ، ص١١٢٠ ، وللاطلاع على النص العربى لمعاهدة الحماية البريطانية مع عمان انظر : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ملحق رقم (٨) ص ١١٩٣ ، ١١٩٤ .

(١١١) للمزيد عن الوضع فى البحرين فى ظل الحماية البريطانية انظر : أمل الزيانى ، البحرين بين الاستقلال السياسى والانطلاق الدولى ، ص ٧٩ - ١٠٦ .

(١١٢) للمزيد عن معاهدة الحماية البريطانية مع الكويت انظر : أحمد أبو حاكمه ، تاريخ الكويت ، الملحق رقم ٤ ، المعاهدات والمقاولات البحارية فيما بين حاكم الكويت والدولة البهية القيصرية ، ص٤٠٨ .

(١١٣) المرجع السابق ، ص٣٢٠ .

(١١٤) ميمونة الخليفة الصباح ، الكويت فى ظل الحماية البريطانية ، ص٣١٥ - ٣٢٥ .

(١١٥) عبد الرحمن يوسف بن حارب ، الخليج العربى والتطورات السياسية ، ص٣٣ ، ٥٣ .

(١١٦) للاطلاع على كامل النص العربى والنص الإنجليزى لمعاهدة الحماية مع قطر انظر : وثائق التاريخ القطرى (٢) من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩م ، إعداد قسم الوثائق بمكتب الأمير ، الدوحة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص١٢ - ١٧ ، ٢٢١ - ٢٢٧ .

(١١٧) أمل الزياني ، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي ، ص١٩٤ .

(١١٨) المرجع السابق ، ص١٩٣ .

(١١٩) المرجع السابق ، ص١٩٥ .

(١٢٠) محمد حسن العيدروس ، دولة الإمارات العربية المتحدة من الاستعمار إلى الاستقلال ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٩هـ ، ص٢١٠ .

(١٢١) المرجع السابق ، ص٢١٢ .

(١٢٢) المرجع السابق ، ص٢١٥ - ٢٢٥، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(١٢٣) للمزيد عن تاريخ المجلس وظروف تأسيسه انظر : عبد الله بشارة ، مجلس التعاون : أهدافه ، ظروف نشأته ومستقبله ، الرياض ١٩٨٩م ، ص١-١٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : مصادر ومراجع باللغة العربية :

- إبراهيم بشمي ، مملكة هرمز .. الفقاعة الذهبية ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الأيام، البحرين (د . ت) .
- أحمد مصطفى أبو حاكمه ، تاريخ الكويت الحديث ١١٦٣ - ١٣٨٥هـ / ١٧٥٠- ١٩٦٥م ، الطبعة الأولى ، ذات السلاسل الكويت .
- أحمد بوشرب ، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية فى كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر البحرين عبر التاريخ ، البحرين ١٩٨٣م .
- أحمد العنانى ، البرتغاليون فى البحرين وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، البحرين ١٩٨٣م ، المجموعة ١ .
- إسماعيل ياغى ، ومحمد ياغى ، ومحمد شاكر ، تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ٨٩٧ - ١٤٠٠هـ ، الجزء الأول ، الجناح الأسيوى .
- أمل إبراهيم الزيانى ، البحرين بين الاستقلال السياسى والانطلاق الدولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- اف سي ولكنسون ، عمان تاريخاً وعلماء ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .
- بدر الدين عباس الخصوصى ، دراسات فى تاريخ الخليج العربى ، ج٢ ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

- حسن أحمد إبراهيم ، المطامع الأوربية فى الخليج من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية ، قطر ١٩٧٦م .

- حسن موسى ، البحرين بين النضال الوطنى والديموقراطى ١٩٢٠ - ١٩٨١م ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

- حميد بن محمد رزيق ، سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان ابن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى اليمنى الأزدى ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- ج . ج . لوريمر ، دليل الخليج ، ترجمة قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر ، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر ، مطابع على بن على ، الدوحة (ب . ت) .

- جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد فى عمان وشرق أفريقية ١٧٤١ - ١٨٦١، مكتبة القاهرة الحديثة .

- جون كيلى ، بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومى والثقافة ، عمان ١٩٧٩م .

- رودلف سعيد روث ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١- ١٨٥٦ ، ترجمة عبد المجيد القيسى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ١٩٨٣م .

- سالم بن حمود السيابي ، عمان عبر التاريخ ، أربعة أجزاء ، منشــــورات وزارة التراث القومي ، سلطنة عمان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- سليمان بن أحمد بن أيوب ، المعجم الكبير ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصــل ١٤٠٤ / ١٩٨٣ .
- سمير محمد على ابوياسين ، العلاقات العمانيــة البريطانيــة ١٧٩٨ - ١٨٥٦، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ١٩٨١م .
- صالح اوزبران ، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربي ، ترجمة وتعليق عبد الجبار ناجي ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ١٩٧٩م .
- صالح محمد العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي فى الخليــج ١٧٩٨ - ١٨١٠م ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٩م .
- صلاح العقاد ، الاستعمار فى الخليج الفارسي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعــة الأولى ، القاهرة ١٩٥٦م .
- صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربي ، مكتبة الأنجلــو المصريــة القاهرة ١٩٧٤م .
- عبد الرحمن يوسف بن حارب ، الخليج العربي والتطورات السياســية ١٩١٤ - ١٩٧١ ، دار الثقافة العربية ، الشارقة (د. ت.) .
- عبد العزيز المنصور ، التطور السياسي لقطــر فى الفــترة ١٨٦٨ - ١٩١٦م ، منشورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٠هـ .
- عبد العزيز المنصور ، التطور السياسي لقطر ١٩١٦ - ١٩٤٩ ، منشــورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٩٧٩م .

- عبد العزيز محمد الشناوى ، المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرقى الجزيرة العربية ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية ، قطر ١٩٧٦م .

- عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم ، السلام البريطانى فى الخليج العربى ١٨٩٩ - ١٩٤٧ ، دار المريخ ، الرياضى ١٤٠٢هـ .

- عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم ، حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى ١٨٥٨ - ١٩٤٧م ، دار المريخ الرياض .

- عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، وضع حواشيه وأشرف عليه يعقوب عبد العزيز الرشيد ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (ب. ت.) .

- عبد الله بشاره ، مجلس التعاون ؛ أهدافه ، ظروف نشأته ومستقبله ، الرياض ١٩٨٩م .

- عبد الله آل خليفة وعلى أبا حسين ، من تاريخ العتوب فى القرن الثامن عشر ، بحث مقدم إلى مؤتمر البحرين عبر التاريخ ١٩٨٣م ، المجموعة الأولى .

- عثمان بن سند ، سبائك العسجد فى أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ، بومباى ١٣١٥هـ .

- عمر بن صالح العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ١٢١٥ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٠٠-١٨٩٢م ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الفكر بيروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

- عمر بن صالح العمرى ، أوراق المبعوثين الأجانب مصدرا لتاريخ دراسة فى النموذج البريطانى من خلال سجلات المقيم البريطانى فى الخليج ، الرياض ١٤١٧هـ .
- فالح حنظل ، العرب والبرتغال فى التاريخ ٩٣-١١٣٤هـ/٧١١-١٧٢٠م ، منشورات المجمع الثقافى ،، أبو ظبى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- فينزور ، تاريخ السيد سعيد سلطان عمان ، ترجمة الدكتور محمود فاضل، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ١٩٨٨م .
- قسم الوثائق بمكتب الأمير ، وثائق التاريخ القطرى (٢) من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩ ، الدوحة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- مارتنفيل اوتركوسيه ، النشاط الفرنسي فى البصرة ١٧٣٩ - ١٧٤٥ ، ترجمة مركز دراسات الخليج العربى ، البصرة ١٩٨٠م .
- محمد حسن العيدروس ، دولة الإمارات العربية المتحدة من الاستعمار إلى الاستقلال ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٩هـ .
- مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولى فى الخليج ١٦٢٢ - ١٧٦٣ ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- مصطفى النجار ومحمد وصفى أبو مغلى ، جزيرة خارج من جزر الخليج العربى ، منشورات مركز دراسات الخليج ، البصرة ١٩٨٣م .
- ميمونة الخليفة الصباح ، الكويت فى ظل الحماية البريطانية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- نوال حمزة الصيرفى ، النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- وزارة الإعلام والثقافة فى سلطنة عمان ، عمان وتاريخها البحـــرى ، مســقط ١٩٧٩م .

مصادر ومراجع باللغة الإنجليزية :

- (P. R. O) , F . O . 371 , 17825 . Historical Memorandom On Bahrain.

- (I. O. R) L - P & S20c 241, Precls Of Bahrain Affairs .

- (I. O. R), L - P& S20 C248, Precis Of Correspondence Regarding Affairs Of the Persian Gulf .

- Arnold Wilson , The Persian Gulf , London 1959 .

- Ahmed Hamoud Almaamiry , Oman And East Africa 3rd ed , New Delhi, 1985.

- B . J . Slot , The Dutch East India Company , From Collection Papers Submitted to Bahrain Through The Ages Conference , Bahrian 1983, Part 1 .

- Donald Hawley, The Trucial States , London 1970 .

- Hurewitz, J. C. , The Middle East & North Africa In World Politics , A Documanary record, Vol. 1, European Expnsion 1535-1914, London 1975.

- Kaye, John William, The Administration of the East India Company, London 1853.

- Omer Al-Omery, The Resident in the Gulf : British Power in Transition 1858-1872, Ph.D Thesis, Department of History, University of Essex, May 1989.

- Penelope Tuson, The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979.

- Tuson, Penlop, The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979.

العلماء والأئمة فى عمان

أضواء على بعض مظاهر الحياة السياسية

فى العصور الحديثة

د. سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي(*)

المقدمة

يسلط هذا البحث الضوء على بعض مظاهر الحياة السياسية فى عمان فى التاريخ الحديث اعتبارا من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر للهجرة، الموافق القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين للميلاد ، وبخاصة دور العلماء فى الحياة السياسية وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة من حيث دور العلماء فى تنصيب الإمام أو خلعه ، أو فى معارضته إن بلغ حد الخلع أو تخطى واجباته ، أو علاقتهم بالسلطان أو الملك .

لقد قام علماء عمان بهذا الدور فى الحياة السياسية باعتبارهم جزء من أهل «الحل والعقد » الذين لهم الحق فى تنصيب الحاكم ومراقبته ، بوصفهم أهل الشورى ولهم مكانة كبيرة فى المجتمع الإسلامى ، وأنهم قدوة أهل زمانهم ، يتحلون بالحكمة والزهد والعفة والتواضع والقدوة الحسنة .

ذلك أن العصر الحديث اعتبارا من مطلع القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد شهد مجموعة من الأئمة العمانية — بعد أن كانت الإمامة قد اختفت طيلة ثلاثة قرون ونصف القرن . وبجانب هؤلاء الأئمة وجد علماء أفذاذ قادوا المسيرة الفكرية والسياسية فى المجتمع العمانى ، وشهدت عمان بهم أزدهارا حضاريا كبيرا ، لمسنا جانبا منه خصوصا فى فترة دولة اليعاربة

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد – كلية الآداب جامعة السلطان قابوس .

(١٠٣٤هـ/١٦٢٤م – ١١٦٢هـ/١٧٤٩م) الذين نجحوا فى تحرير عمان من وطأة الاستعمار البرتغالى ، كما شهدت عمان أيضًا نهضة كبيرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر للميلاد أبان عهد السيد سعيد بن سلطان البوسعيدى (١٢١٩هـ/١٨٠٤م – ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) .

وتتمحور هذه الدراسة حول الإمامة فى عمان وتطورها التاريخى ، ثم تركز على دور العلماء فى الحياة السياسية وذلك من خلال العناصر التالية :

١ – الإمامة والخلافة .

٢ – أهل الحل والعقد .

٣ – الإمامة فى عمان .

٤ – علاقة العلماء بالأئمة .

أولاً : الإمامة والخلافة :

إن موضوع الإمامة والخلافة القصد منه حفظ الدين وسياسة الدنيا ، أى وظيفة دنيوية وأخروية ، يقول الماوردى (ت : ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) فى كتابه المشهور « الأحكام السلطانية » إن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع »[1] .

ويقصد الماوردى من ذلك أن مكانة الإمام أو الخليفة ومبايعته على أنه رئيس للمسلمين ينظر فى أمور دنياهم ويرعى إدارة زمانهم وحفظ الدين وتطبيقه ، ومنزلة هذا الإمام من المسلمين من الناحية الدنيوية كمنزلة النبى محمد ﷺ منهم ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق تنفيذ شرائع الدين بإقامة الحدود ومعاقبة المنحرفين عن الجادة ، كما أن الإمام يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية .

إن انتخاب الإمام أو الخليفة واجب على الأمة وهى على الكفاية . والمسلمون متفقون على وجوبها ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا الخوارج[٢] الذين يرون أن انتخاب الإمام جائز وليس بواجب ، ووافق رأيهم بعض مشايخ المعتزلة . ويتفق رأى الأباضية مع مذاهب أهل السنة الأربعة فى وجوب اختيار الإمام وفرضيته . ويتجلى ذلك على لسان كثير من علماء الأباضية وكتبهم الفقهية ، وهذا الشيخ خميس بن سعيد بن على الشقصى يذكر فى كتابه « المنهج »[٣] أن اختيار الأمام فرض من فرائض الله فيقول : « الإمامة فرض من فرائض الله وواجب من واجباته وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط على الباقين »[٤] .

ويستدل العلماء على فرضية الإمامة بالقرآن والسنة الشريفة وإجماع المسلمين ، إما بالقرآن الكريم وإما بالسنة الشريفة ففى القرآن الكريم يقول الله تعالى : « اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[٥] وإلى قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفكم فى الأرض »[٦] وإلى قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق »[٧] . وهناك نصوص قرآنية أخرى مما لم نورده تشير إلى اختيار الإمام وهو لا محالة كما فهمه الصحابة وطبقوه .

أما الاستدلال من السنة الشريفة فلقول الرسول الكريم : « اطيعوا ولاة أموركم »[٨] وقال : « ولا تعصى إمامًا عادلاً »[٩] « من أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى »[١٠] « من مات وليس عليه إمام فميتته ميته جاهلية »[١١] « ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[١٢] « لا يزال هذا الدين قائمًا حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش »[١٣] .

أما الاستدلال بالإجماع فهو فعل المهاجرين والأنصار فى اختيارهم الخلفاء الراشدين ، وكفاح المسلمين فى تثبيت خلفاء بنى أمية وبنى العباس يؤكد هذه الشرعية[١٤] .

ولذا اجمع علماء الأمة الإسلامية على وجوب الإمامة ولكنهم اختلفوا فيمـــن أولى بها . والأصل فى الخلافة عند المسلمين راجعة إلى اختيار أهل الحل والعقــد الذين هم العلماء والرؤساء ووجوه الناس .

ومكانة الإمام عظيمة بين المسلمين حيث أنـــه لا يمكــن أن تطبــق أحكــام الشريعة بدونه ، فهذا الشيخ أحمد الكندى يذكر أهمية هذا الدور وينســـب للعلامــة موسى بن على بن عزرة الأزكوى السامى[١٥] قولاً جاء فيه « لا يجهز جيــش ولا تعقد راية ولا يؤمن خائف ولا يقام حد ولا يحكم بحكم غير مجتمع عليه إلا بإمـــام وهى عند القدرة عليها والإمكان الإمامة منها[١٦] . ويقول الشيخ أبو المؤثر الصلــت ابن خميس « وإن من دين الله الإمامة وهى حق الله واجبة علـــى عبـاده لإقامــة الحدود وإنصاف المظلوم والحكم بين الناس »[١٧] ويقول الصائغى[١٨] « إن الإمامــة فريضـــة والعقد فيها وسيلة[١٩] وفى قول آخر « أن الإمامة سنة ، قبــل أن يثبــت العقد ، فإن ثبت العقد كانت فريضة[٢٠] .

والإمامة عند الأباضية فرض من فرائض الله الواجبة على العباد وهى فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ويقوم بـــها أهــل الحــل والعقــد المتواجدين مع الإمام المتوفى أو إن لمسوا من أنفسهم القدرة فى مكان ما صالحـــا وهم مخولون فى اختيار الإمام ويشترط أن لا يقل عددهم عن ستة رجال[٢١] .

من هذه النصوص وغيرها مما لم نذكره نفهم أن على الأمــــة فــرض فـــى اختيار الإمام لكى يدير أمور الدولة ويسوسها ويمنع الظلم ويفصل بين المتخـاصمين ويدفع المضار ، وعلى حد قول ابن خلــدون (ت: ٨٠٨هـــــ/١٤٠٥م) « جلــب المصالح الدنيوية ودفع المضار »[٢٢] إلى آخر المهام الموكولة علـــى كـاهل هــذا الإمام . ونستجلى من الأباضية كلام الشيخ أبى المؤثــر الخروصـــى (ت : أوائــل القرن ٤هــ) « وإن من دين الله الإمامة وهى حق الله واجب على عبـــاده لإقامـــة الحدود ، وإنصاف المظلوم والحكم بالعدل بين الناس عامة . فإذا ظهر المســـلمون

اجتمع فى الأرض فقهاؤها وأهل الفضل منـــهم ، واجتـــهدوا لله فـــى النصيحـــة ، واختاروا رجلاً طاعته لله لا لطاعتهم(٢٣) .

وكلمة الإمام والخليفة والأمير ، هى فى الواقع ألفاظ مترادفة تعنى الحـــاكم ، وإن كانت فى القرون التالية لعصر الرسالة أخذت مفهومًا جديدًا . وكان الأصل هـو الأمير ، فقد وردت على لسان أهل السقيفة « منا أمير ومنكم أمير أو نحن الأمـــواء وأنتم الوزراء » ولذلك تلقب بعض الخلفاء بلقب أمير المؤمنين . والكلمات الثـــلاث لها مدلولاتها فلتراجع فى ذلك قواميس اللغة وموسوعاتها ، كما اتخذ بعض الخلفـــاء من بنى أمية وبنى العباس ألقابًا بجـــانب أســـمائهم كالنـــاصر والقـــائم والمـــهدى والهادى... إلخ .

ويختار أهل الحل والعقد خليفة من المسلمين إذا توفرت فيه صفـــات الخليفـــة وهى العلم والعدالة والكفاية والحرية وسلامة الحواس والأعضاء والنسب القرشى .

وقد اختلفت المذاهب الإسلامية فى صفة العلم ومقـــداره وشـــرط القرشـــية ، حيث اكتفت بعض المذاهب بأن يكون الخليفة عالمًا بشئون الدين والأحكـــام بينمـــا اشترطت البعض بالعالم المجتهد كما جاء على لسان ابن خلدون « ولا يكتفى مـــن العلم إلا أن يكون مجتهدًا لأن التقليد نقص والإمامة تستدعى الكمال فى الأوصـــاف والأحوال »(٢٤) ، ويقول عبد القاهر البغدادى (ت : ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) « وأقل ما يكفيه منه أن يبلغ فيه مبلغ المجتهدين فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام »(٢٥) .

والحقيقة أن هذا الشرط يصعب تحقيقه ولذلك لم تأخذ الأمة بهذا الشرط فـــى اختيار خلفائهم من بنى أمية أو من أتى بعدهم . ومن أنصار هذا الرأى العلامة ابـن حزم الأندلسى الذى يرى أن هذا الشرط من المستحبات ، فقال : « ثم يســـتحب أن يكون عالمًا بما يخصه من أمور الدين من العبادات والسياســـة والأحكـــام مؤديًـــا للفرائض كلها لا يخل بشئ منها مجتنبًا لجميع الكبائر سرًا وجهرًا ... »(٢٦) .

أما الشرط الثانى الذى اختلف فيه فهو النسب القرشى ، إذ اجتمعت الأمة على هذا الشرط إلا الخوارج والأباضية الذين يرون أنه يجوز اختيار الخليفة من قريش أو غيرهم إن توفرت فى الخليفة الشروط المناسبة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تخلص أهل السنة من هذا الشرط حينما فقدت قريش القدرة والشوكة . فهذا ابن خلدون يقول : « ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التى يقوى بها على أمره لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية » ويقول : « وبما أن الغلبة والنفوذ كانتا لقريش بعد وفاة الرسول (ص) فمن الضرورى أن تكون الخلافة فيهم وقتئذ»[٢٧] . ويضيف الأباضية شروط ثانوية مهمة أوجزها الشيخ الكندى فى أنه يجب على الإمام أن يكون عادلاً ، حكيمًا، شجاعًا ، شريفًا ، قادراً على نشر العدالة بين الناس والسهر على حقوقهم ومصالحهم ، وأن يحكمهم بالعدل التام حسب الشريعة الدينية ، ولا ينبغى للإمام أن يكون حسوداً ولا مقعدًا ولا كذابًا ، ولا مخلفًا، ولا حقوداً ، ولا بخيلاً ، وعجولاً ، ولا مبذراً ، لاغداراً ، ولا مكاراً[٢٨] .

ولا يعنى هذا أن الأباضية يرفضون الإمام من قريش إنما يؤكدون أن الأفضلية يجب أن يكون من قريش ، فإن تعذر فمن غيره . ويقول الشيخ أحمد الكندى نقلاً من كتاب التمهيد لبعض الأباضية قال : يجب أن يكون على أوصاف منها : أن يكون قرشيًا من الصميم لقول النبى ﷺ : الأئمة من قريش ، وليس من صفاته أن يكون معصومًا ، ولا عالمًا بالغيب ، ولا أفرس الأمة وأشجعهم ، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط ، دون غيرهم من قريش »[٢٩] ، ولعله يشير إلى رأى الشيعة الذين يحصرون الخليفة فى بنى هاشم من سلالة فاطمة وعلى (رضى الله عنهما) .

ثانيًا : أهل الحل والعقد :

تنعقد الإمامة بأمرين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، والآخر بعهد من الإمام (ولاية عهد) . ويقول البقلانى (ت : ٤٠٣هـ/١٠١٢م) فى هذا الصياغ « ويصير الإمام إمامًا بعقد من يعقد له لإمامته من أفاضل المسلمين الذين هم أهل

الحل والعقد والمؤتمنون فى هذا الشأن »[٣٠] . وأهل الحل والعقد هم العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يعقد عليهم الرأى والمشورة ويتيسر اجتماعهم فى مركز الحكم . فهؤلاء يتمتعون بالسلطة الشرعية على الأمة وهم باختيارهم لشخص وتنصيبه إماما يتخلون عن سلطتهم الشرعية ويفوضونها إليه .

واشترط الماوردى عدة شروط فى أهلية أهل الحل والعقد وهى العدالة والعلم وصاحب رأى وحكمة[٣١] . وقد اختلف فى عدد أهل الحل والعقد الذين تنعقد بهم الإمامة . فقيل تنعقد بواحد إذا كان من أهل الاجتهاد[٣٢] ، وقيل تنعقد باثنين من أهل الورع والاجتهاد[٣٣] ، وقيل تنعقد بستة من أهل الصلاح والمشورة وأهل الرأى[٣٤] . وهنالك طائفة من المسلمين يرون بعدد غير محدد وأنها تنعقد بواسطة علماء الأمة[٣٥] . أما الأباضية فيشترطون فى أهل الحل والعقد أن لا يقلون عن خمسة رجال من خيار الأمة معتمدين على حصر الخليفة عمر بن الخطاب فى أهل الشورى الستة[٣٦] ولكن أيضا يجيزون بواحد . يقول السيد الفقيه مهنا البوسعيدى « وثبتت الإمامة بغير عقد إذا وقع التراضى به من الخاصة من أهل العلم ، والحل والعقد ، فإذا خرج رجل وحده وبذل نفسه لله وأنكر المنكر ، فله أن يجبر أهل الفساد والمعاصى على الرجوع إلى الحق ويقاتلهم على ذلك »[٣٧] .

والعلماء الذين هم جزء من أهل الحل والعقد ، وهم قدوة الأمة ، خصهم الله عز وجل بميزات فقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات »[٣٨] وقال : « وما يستوى الأحياء ولا الأموات »[٣٩] . وقال المفسرون أن المقصود بالأحياء فى الآية هم العلماء أو العقلاء والأموات هم الجهال[٤٠] . وقال الرسول الكريم ﷺ فى حقهم « إن العالم يستغفر له من فى السموات والأرض والحيتان فى جوف الأرض ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، لأن العلماء ورثة الأنبياء ومصابيح الهدى وأمناء الله على وحيه ما لم يركنوا إلى الدنيا »[٤١] .

واتباع العلماء واجب ، لأن الله تعالى جعلهم حجة فى الأرض بينه وبين عباده ، فقال تعالى : « فأسلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[٤٢] ، وقال : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[٤٣] ، وهناك نصوص كثيرة ترفع من مكانة العالم . وفى المقابل قال رسول الله فيهم : « هلاك أمتى من رجلين ، عالم فاجر ، وجاهل متعبد » وقال : « أشر الناس العلماء إذا فسدوا » وروى عن رسول الله ﷺ من طريق أنس بن مالك أنه قال : « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل نجوم السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم يوشك أن تضل الهُداة »[٤٤] .

هؤلاء هم العلماء الذين يستقيم بهم الدين والدنيا ، ويعتمد عليهم فى اختيار الأئمة ومراقبتهم عن الزلل والطغيان وظلم الرعية والإنفراد فى الرأى. وسار الأباضية على هذا المنهاج فى تقديم علمائهم وتبوأوا مكانة عظيمة فى نفوس الأمة حيث وجوب الاحترام والتوقير والطاعة . ونص المشرع الأباضى على مراقبة الإمام الضعيف فيقول : « لا يقبض (الإمام) مالاً ، ولا يأمر بإنفاقه ، ولا يولى واليًا ولا يأمره بذلك ، ولا يخرج جيشًا ، ولا يأمر بذلك ولا يحكم بحكم ولا يأمر بذلك ، إلا بمشورة المسلمين أهل العلم والورع »[٤٥] ، ولهذا يرى علماء الأباضية أن « الشورى على الإمام فرض، فإن تركها كفر ، عالمًا كان أم ضعيفًا[٤٦] .

وقد تتبعنا علاقة العلماء بالأئمة ودورهم فى الحياة السياسية منذ قيام الإمامة الأباضية الأولى فى عام ١٣٢هـ/٧٤٨م وحتى أوائل القرن العشرين فوجدنا أن أهم ما قاموا به فى الحياة السياسية يتلخص فى النقاط التالية :

١ — اختيار الأئمة وتنصيبهم وفق قواعد الدين .

٢ — مراقبة سير الإمام ومعارضته إن حاد عن الجادة .

٣ - خلع الأئمة وعزلهم إن وجب ذلك .

٤ – القيام بشؤون القضاء والفتاوى والتدريس والخطب أيام الجمع والأعياد وفي المناسبات الأخرى مثل : الزواج والنوازل والكوارث ... إلخ .

٥ – قيادة الجيوش للذود عن الدين والوطن وحوزة الإسلام ومنجزات الوطن.

٦ – قبول توبة الإئمة أن اقترفوا ذنبا لا يصل حد العصيان أو الكبيرة .

وأصبحت من التقاليد المتبعة والمراسيم المتخذة عند الأباضية أن لا تتم أية بيعة دون وجود علماء مجتهدين يتولوا أمر البيعة للإمام المنتخب ، ويقوم أبرزهم بذلك[٤٧] . والأمثلة كثيرة على ما استعرضناه من الواقع التاريخي العماني ، فهذا العلامة خميس بن سعيد الشقصي قد رشح الإمام ناصر بن مرشد اليعربي في عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م ، وهم الذي نصبه إماما بعد الموافقة على ترشيحه من جملة العلماء ، قيل أنهم بلغوا زهاء أربعين عالما ، بالإضافة إلى أعيان الرستاق وأشرافها . كما أن الشيخ قاد للإمام ناصر الجيوش ضد البرتغاليين ، وفي الوقت نفسه كان رئيسا للقضاء ومفتيا عاما ، وفوق ذلك خصص وقتا للتصنيف وترك عدة مؤلفات من ضمنها كتاب « منهج الطالبين » في أكثر من عشرين مجلدا ، فضلا عن الجلوس للتدريس . والشئ الذي يجب ملاحظته أن علماء عمان يرون أنه لا يجوز عزل الإمام أو خلعه إلا إذا أخل الإمام بواجباته الشرعية تجاه ربه وأمته ووطنه ، أو إذا أصابه العجز أو الكبر الشديد ولم يستطع تسيير إدارة إمامته ، يقول الشيخ أحمد الكندي في هذا الصدد « ليس للإمام أن يخلع نفسه بغير حدث ، ولا للرعية أن تخلع إمامها بغير حدث وإنما ذلك منهم بغي وخطأ »[٤٨] ، وفي هذه الحالة يقوم العلماء برده عن ذلك « فإن تاب رجع إلى إمامته وولايته معهم . فإن أصر ولم يتب من حدثه ذلك كان للمسلمين عزله ، فإن كره أن يتوب ولا يعتزل ، حل لهم دمه وجهاده »[٤٩] . كما أنهم يجيزون العيش مع مخالفيهم من الحكام وكذلك يجيزون الحاكم العادل من سلاطينهم ويقول الشيخ معمر : « إمام المسلمين سواء جاء بطريقه الشورى او بغيره ، إذا كان عادلا تجب طاعته والخروج عنه

فسق . وإذا جار ، جاز البقاء تحت حكمه ولا يطاع فى معصية وجاز الخروج عنه(٥٠) .

ثالثًا : الإمامة فى عمان :

بدأ العمانيون فى تنصيب أئمتهم وفق رأى الأباضية فى الإمامة اعتباراً من عام ١٣٢هـ/ ٧٤٨م ، وذلك حينما انتخبوا الإمام الجلندى بن مسعود بن جيفر بن الجلندى . وسار هذا الإمام فى العمانيين سيرة حسنة ، ولكن إمامته لم تدم أكثر من سنتين وبضعة أشهر ، حيث قضى على هذه الإمامة القائد العباسى خازم بن خزيمة التميمى عام ١٣٤هـ/٧٥١م(٥١) . وكان الخليفة العباسى أبو العباس أرسل خازم إلى جزيرة « ابن كاوان » للقضاء على ثورة الخوارج الصفرية بها بزعامة شيبان ابن عبد العزيز اليشكرى ، الذى هرب بعد هزيمته إلى عمان ، حيث تصادم مع جيش الإمام وانتهى الأمر بقتله . وبعد فترة من الوقت قدم خازم لاحقًا اليشكرى ، فوجده قد قتل ، فتفاوض خازم مع الإمام الجلندى حول الخضوع وإعلان الولاء للخليفة العباسى . ولكن المفاوضات تعثرت وانتهت بالتصادم وقتل الإمام الجلندى فى معركة جلفار الثانية ، وأصبحت عمان ولاية عباسية(٥٢) .

وكان ان اختفى منصب الإمامة فى عمان قرابة ثلاثة وأربعين عامًا ، حيث حكم راشد بن النظر بن جعفر بن سعيد الجلندى ، بالإشتراك مع ابن عمه محمد بن الزائدة بن جعفر بن سعيد الجلندى كولاة لبنى العباس . وبعد هزيمة راشد بن النظر فى معركة المجازة عام ١٧٧هـ/٧٩٣م على يد علماء الأباضية بقيادة محمد بن المعلى الكندى ومؤيديهم ، نجح العلماء برئاسة العلامة موسى بن أبى جابر الأزكوى (ت : ١٨٠هـ/٧٩٧م) ، وبشير بن المنذر السامى (ت : ١٧٨هـ/٧٩٥م) فى تنصيب محمد بن عبد الله بن أبى عفان إمامًا فى عام ١٧٧هـ/٧٩٣م ، ومن ثم قامت الإمامة الثانية التى استمرت حتى ٢٨٠هـ/٨٩٣م(٥٣) .

وسبب زوال الإمامة الأباضية الثانية هو الشقاق الذى حدث بين العمانيين على إثر خلع العلامة موسى بن موسى بن على بن عزرة (ت : ٢٧٨هـ/٨٩١م) للإمام الصلت بن مالك من إمامته فى عام ٢٧٣هـ/٨٨٦م لكبر سنه ، وقيل لضعف بصره وسمعه ، ومعاناته من ألم المفاصل ، ورفض مؤيدوه هذا العزل الذى انتهى بقتل العلامة موسى بن موسى ، فاستعان انصاره بالخليفة العباسى المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق (٢٧٩هـ/٨٩١م - ٢٨٩هـ/٩٠١م) الذى أناط هذه المهمة إلى واليه على البحرين (الإحساء) محمد بن نور لنصرة هؤلاء الموتورين ، ونجح الوالى محمد فى القضاء على إمامة عزان بن تميم الخروصى الذى تسبب فى قتل الشيخ موسى بن موسى[٥٤] .

وهكذا استعادت الإمامة مكانتها بعد سنتين ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه : الإمامة الأباضية الثالثة ، وذلك عندما نجح أهل نزوى فى قتل واليهم أبا أحمد البحيرة ،وانتخاب محمد بن الحسن الخروصى[٥٥] إماما لنزوى . ولكن هذه الإمامة لم تكن بنفس القوة التى كانت لسابقتيها لكونها لم تفرض سلطتها على كل مكان ، بل شاركها ولاة العباسيين (بنى سامة : ٢٨٠هـ - ٣١٧هـ ، وبنى وجيه : ٣١٧هـ - ٣٥٥هـ) فضلا عن القرامطة الذين تدخلوا فى شئون عمان على فترات مختلفة[٥٦] .

وقد تلاشت الإمامة الأباضية الثالثة عام ٣٤٢هـ/٩٥٣م بعد موت الإمام راشد بن الوليد الكندى ، على الرغم من أن ثمة علماء قديرين ظهروا فى هذه الفترة ، أمثال العلامة أبو عبد الله محمد بن روح بن عربى الكندى ، وأخيه مخلد ابن روح ، والعلامة الكبير ذائع الصيت أبو سعيد محمد بن سعيد الكدمى ، والعلامة أبو إبراهيم محمد بن سعيد الأزكوى ، والشيخ عبد الله بن محمد بن أبى المؤثر ، والعلامة الأصولى أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة السليمى ، والعلامة أبو الحسن على البسوى وغيرهم[٥٧] .

انقطعت الإمامة مدة ٦٥سنة حتى قامت عام ٤٠٧هـ/١٠١٦م حينما نصب الإمام الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك ، واستمرت هذه الإمامة التى يمكن أن نطلق عليها الإمامة الأباضيه الرابعة حتى عام ٥٧٩هـ/١١٨٣. ويبدو لى أنه فى بداية القرن ٦هـ/١٢م كانت هنالك إمامتين : الأولى فى نزوى ، والثانية فى الرستاق ، لذا أفضل أن أطلق على هذه الإمامة اسم «الإمامة المزدوجة »[٥٨] .

ومن علماء الإمامة الرابعة البارزين العلاقة القاضى محمد بن إبراهيم ابن سليمان الكندى صاحب كتاب بيان الشرع فى ٧٢ مجلداً[٥٩] والذى يقول الشيخ سيف ابن حمود البطاشى فى حقه : « إن العلماء الذين جاءوا بعد تأليف بيان الشرع كلهم عيال عليه يستمدون منه ويعترفون بفضله »[٦٠] .

والشيخ القاضى أبو الحسن بن على بن نصر الهجار ، والشيخ الفقيه أبو على الحسن بن أحمد بن محمد بن عثمان النزوى ، والشيخ محمد بن موسى بن سليمان الكندى صاحب كتاب الكفاية[٦١] ، والشيخ أحمد بن عبد الله بن موسى بن سليمان الكندى صاحب كتاب « المصنف »[٦٢] ، والشيخ أبو على الحسن بن سعيد بن قريش النزوى الذى عاصر الإمام الخليل بن شاذان الخروصى (٤٠٧هـ/١٠١٦م - ٤٢٥هـ/١٠٣٣م) والشيخ محمد بن خالد ، والعلامة الفقيه النسابة أبو المنذر سلمة بن مسلم العوتبى[٦٣] ، وغيرهم كثيرون لا يسعنا ذكرهم ، لكن على ما يبدو أن الحياة الفكرية انتعشت فى هذه الإمامة لكثرة توافر من العلماء[٦٤] ، والتصنيفات التى تركوها .

وبعد عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، أى بعد انتهاء الإمامة الرابعة (المزدوجة) ، لم نجد للأئمة أى ذكر حتى عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م . وهذه الفترة هى فترة دولة بنى نبهان الأولى التى أطيح بها عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م . وبلغت سنوات حكم النباهنة فى حكمهم الأول ٣٢٥سنة تقريبًا . ومن أهم الأحداث التى تعرضت لها عمان خلال هذه الفترة انفصال السواحل العمانية من تبعية السلطان النبهانى إلى سلطة الملك الهرمزى فى عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م . ولم يتمكن العمانيون من استعادة هذه

السواحل إلا عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م حينما طرد العمانيون البرتغاليين من مسقط فى عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربى ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م – ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م)[٦٥].

وفى عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م تم إحياء الإمامة ، وهى التى يمكن أن نطلق عليها الإمامة الأباضية الخامسة ، حيث انتخب العمانيون عدداً من الأئمة :

١ – الإمام الحوارى بن مالك (٨٠٩هـ/١٤٠٦م – ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) .

٢ – الإمام مالك بن الحوارى (٨٣٢هـ/١٤٢٨م – ٨٣٨هـ/١٤٣٤م) .

٣ – الإمام أبو الحسن محمد بن خميس (٨٣٨هـ/١٤٣٤م – ٨٤٦هـ/١٤٤٢م).

وبموت الإمام أبى الحسن هذا انقطعت الإمامة حتى عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م حين نجح العلامة الفقية محمد بن سليمان الناعبى فى تنصيب الإمام عمر بن الخطاب الخروصى إمامًا لعمان ، ثم من بعده عدد من الأئمة ، ولكن قبل نهاية القرن حدث انقطاع آخر للإمامة استمر عشر سنوات، وذلك حينما نجح سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى فى استعادة السلطة وطرد الإمام ، لكن هذا السلطان أطيح بهً عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م حينما انتخب محمد بن إسماعيل الحاضرى إمامًا ، ومن بعده ابنه بركات بن محمد فى عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م ، وتنتهى هذه الإمامة باستيلاء السلطان سلطان بن محسن بن سليمان النبهانى على نزوى عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م ، وهو الذى نجح فى أن يكون لنفسه ثم لورثته ملكًا . وعرفت دولته بالدولة النبهانية الثانية، واستمرت حتى عام ١٠٢٦هـ/١٦ – ١٦١٧م حينما نجح الشيخ ناصر بن ناصر بن قطن الهلالى فى طرد السلطان نبهان بن فلاح بن محسن بن سليمان النبهانى من عاصمته « ينقل » والاستيلاء عليها . ولكن الشيخ ناصر لم يتملك عمان بل تفرقت المدن العمانية فى أيدى رؤساء القبائل والولاة السابقين والأعيان ، فساد الظلم ، وانعدم الاستقرار الأمنى والسياسى والاجتماعى ، وبغت القبائل على بعضها البعض[٦٦] .

وبعد ثماني سنوات من ذلك اجتمع أولو الفكر والرأى والمشورة بزعامة الشيخ خميس بن سعيد الشقصى ونصبوا حفيد سلطان الرستاق الأمير ناصر بن مرشد بن مالك بن أبى العرب اليعربى إمامًا ، وذلك فى عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤ ، وهو أول أئمة دولة اليعاربة التى حكمت عمان لمدة أكثر من ١٢٩سنة .

تعاقب على دولة اليعاربة أحد عشر إمامًا ، كلهم من اليعاربة عدا الشيخ محمد بن ناصر بن عامر الغافرى الذى كان على كرسى الإمامة بين عامى ١١٣٧هـ/١٧٢٤م و ١١٤٠هـ/١٧٢٨م . ولكن دولة اليعاربة انهارت عام ١١٦٢هـ/١٧٤٩م(٦٧) وانتقل منصب الإمامة إلى أسرة آل بو سعيد عام ١١٦٢هـ/١٧٤٩م .

وكان نصيب أسرة آل بو سعيد من الأئمة ثلاثة أئمة ، هم :

١ – الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البورسعيدى (١١٦٢/١٧٤٩ – ١١٩٨/١٧٨٣) .

٢ – الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد (١١٩٨/١٧٨٣ – ١٢٢٥/١٨١٠) .

٣ – الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس (١٢٨٥/١٨٦٨ – ١٢٨٧/١٨٧١).

وفى عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م نجح العلماء ورؤساء القبائل بقيادة الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمى فى إحياء الإمامة ، وتم انتخاب سالم بن راشد بن سليمان الخروصى إمامًا فى مدينة تنوف واستمرت إمامة القرن العشرين حتى منتصف الخمسينات من هذا القرن(٦٨) .

* * *

وبعد هذا العرض لتطور منصب الإمامة التى كانت تختفى تارة ، وتظهر فى أكثر الأحيان ، نجد أن عدد الأئمة المشهورين بلغ ٦٤ إمامًا ، وكان من نصيب العصور الحديثة ٢٧ إمامًا ، منهم : ١٠ أئمة من اليعاربة ، وثلاثة من آل بو سعيد،

وواحد من بنى غافر ، والبقية من القبائل الأخرى ومن بنى خروص ، وقد صاحب هؤلاء الأئمة جملة من العلماء اجتهدوا فى إقامة العدل وانصاف الناس وتسيير إدارة الدولة والحفاظ على منصب الإمامة. وهم يمثلون مجلسًا تشريعيًا عبر عصور الإمامة الأباضية لعمان ، أو على حد قول الدكتور غباش « ويستخلص بوضوح من التاريخ العمانى أن العلماء ، أهل الحل والعقد ، ضمير المجتمع وممثليه ، لعبوا دورًا مركزيًا فى تخليد نظام الإمامة . وفضلاً عن دورهم كمرشدين روحيين للمجتمع وكقضاة وكحراس لتطبيق مبدأ الشورى والعدالة الاجتماعية إلى غير ذلك يعود إليهم . وكانوا الأمناء المتميزين على ثقافة بلادهم السياسية من خلال أعمالهم النظرية والفقهية والتاريخية »[٦٩] .

رابعًا : علاقة العلماء بالأئمة :

وفى مطلع القرن ٩هـ/١٥م تم إحياء الإمامة الأباضية بعد انقطاعها منذ عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م . وبرز فى النصف الأول للقرن الخامس عشر للميلاد جملة من العلماء ، قاموا بدور بارز فى الحياة السياسية فى عمان ، سواء على مستوى الأئمة أو سلاطين بنى نبهان ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر[٧٠] :

١ — الشيخ سليمان بن راشد بن صقر العدوى .

٢ — الشيخ سليمان بن أحمد بن مفرج بن أحمد (ت : ٨٦٩هـ/١٤٦٤م)[٧١] .

٣ — الشيخ مفرج بن أحمد بن مفرج بن أحمد .

٤ — الشيخ أحمد بن مفرج بن أحمد بن مفرج بن أحمد[٧٢] .

٥ — الشيخ ورد بن أحمد بن مفرج بن أحمد بن مفرج بن أحمد (ت : ٨٧٤هـ).

٦ — الشيخ صالح بن محمد .

٧ — الشيخ صالح بن وضاح بن محمد المنحى (ت : ٨٧٥هـ/١٤٧٠م) .

٨ — سلالة آل مداد الذين امتد عطاؤهم فى العلم والعمل إلى وقت طويل .

وقد نال الشيخ ورد بن أحمد شهرة كبيرة بين علماء عمان ، شأنه شأن أبيه أحمد بن مفرج الذى رشحه العلماء فى خلافة والده فى رئاسة القضاة والعلماء . وكان الشيخ ورد من جملة العلماء الذين استفتاهم السلطان سليمان بن مظفر بن سليمان (ت : ٨٧١هـ/١٤٦٦م) فى إقامة صلاة الجمعة بمدينة نزوى ، فلم يروا إجازة ذلك[٧٣] . وقد خلف الشيخ ورد فى رئاسة القضاء الشيخ محمد بن سليمان بن أحمد .

والحقيقة فإن قوة العلماء واجتهادهم فى تنصيب الأئمة إذا لم تكن مدعومة من قوة سياسية وعسكرية كما يطلق عليها ابن خلدون فى نظريته « العصبية» أو القبلية ، فلا يمكن أن تستقيم الإمامة أو تستمر . ومن استقرائنا للتاريخ يمكن أن ندلل على صحة ذلك بوقائع تاريخية ، فهذا الإمام الجلندى ابن مسعود توفرت فيه الدعامة العصبية حيث أنه من نسل بيت ملكى ، ولهذا فقد ألتف معه الازد والناس تبع لهم . وكذلك كان فى أئمة اليعاربة ، فقد اختير ناصر بن مرشد على أساس أنه من أحفاد سلطان الرستاق الذى داومت أسرته على إمارة الرستاق وتملكتها منذ قرون . ويعود فشل إمامة عزان بن قيس إلى تقاعس القبائل عن نصرته حيث تحامل على القبائل وتشدد معهم ، وما كان يمكن أن تقوم إمامة القرن العشرين لولا تعهد القبائل ودعم أنصارها من العلماء .

أما العلماء الذين قاموا بدور مشهور فى الحياة السياسية ، تداولته كتب التأريخ والفقة والأدب فى الفترة التى نعالجها ، وهى من القرن الخامس عشر للميلاد وحتى القرن العشرين أى حوالى ستة قرون فهم :

١ – الشيخ محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج (ت : أواخر القرن : ١٥م) .

هذا العلامة من بيت علم وفضل ، وقد سبق أن أشرنا إلى والده وأخوته وأبناء أخوته وعمومته قبل قليل ، وهو من كبار العلماء ، وآلت إليه رئاسة العلماء فى الربع الأخير من القرن ٩هـ/١٥م حيث نصب لهذا الغرض بعد وفاة الشيخ

ورد بن أحمد فى عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ، يقول السالمى : « إنه فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة يوم الخميس عند غروب الشمس لخمس ليالى مضين من المحرم نصب محمد بن سليمان بن أحمد للحكم بين الناس[٧٤]. وقد اختير الشيخ محمد لهذه الوظيفة ، وهى بمنزلة قاضى القضاة ورئاسة العلماء بعد ثمانية أيام من موت العلامة ورد بن أحمد الذى كان على رأس هذا المنصب الكبير[٧٥] . وهذا يعنى أن دور العلماء كان جلى سواء فى عهد الأئمة أو الملوك والسلاطين .

ويتجلى دور الشيخ محمد فى الحياة السياسية فى قيامه بانتخاب الإمام عمر ابن الخطاب الخروصى (٨٨٥هـ/١٤٨٠م – ٨٩٤هـ/١٤٨٨م) ، والمصادقة على مصادرة أموال بنى نبهان عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م . كما يتجلى فى حرص الشيخ محمد على منصب الإمامة ، والحفاظ عليها والكفاح من أجل استمرارها حتى أنه تولى بنفسه هذا المنصب عدة مرات ، وذلك اعتباراً من عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م، فقد نصب نفسه إمامًا بعد موت الإمام عمر بن الخطاب على سبيل الإنابة حتى يتمكن العلماء من اختيار إمام . وفور تنصيب الإمام عمر الشريف تنحى الشيخ محمد مكتفيًا بمنصبه كقاضى القضاة .

ولم يلبث الشيخ محمد بن سليمان أن عاد لمنصب الإمام على سبيل الإنابة بعد اعتزال الإمام الشريف ، وبعد انتخاب الإمام أحمد بن عمر بن محمد الربخى اعتزل الشيخ للمرة الثانية . ثم عاد لهذا المنصب للمرة الثالثة بعد موت الإمام أبى الحسن بن عبد السلام . ولكن الأحوال فى هذه المرة لم تكن فى صالحه حيث نجح السلطان سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى – الملك والشاعر المشهور – فى القضاء على قوة الإمام ، وأغلب الظن أن الشيخ محمد مات أو قتل أو توارى عن الأنظار لقلة المؤيدين له . حيث أن المصادر التاريخية وغيرها لزمت الصمت ولم تذكر كيف كانت نهايته[٧٦] .

هذا هو الدور الذى قام به العلامة محمد بن سليمان فى الحياة السياسية فى عمان خلال الربع الأخير من القرن ٩هـ/١٥م ، فقد حرص على المحافظة على

نظام الإمامة ، واجتهد فى حث العلماء على التمسك بنظامها وهى تحتضر تحت ضربات النباهنة ورأيناه يتبوأ منصب الإمامة على سبيل الإنابة أكثر من مرة ريثما يجتمع أهل الحل والعقد من العلماء وأهل الصلاح والمشورة والرأى في اختيار مرشح لهذا المنصب وهو على رأسهم ، ولم يستبد برئاسة الإمامة دون مشورة من علماء عصره وأهل الرأى .

٢ – أحمد بن مداد بن عبد الله (ت : النصف الثانى من ق : ١٠هـ / ١٦م) .

كان العلامة أحمد بن مداد من بيت علم وحظت أسرته بمكانة كبيرة خلال قرن ونصف ، فقد كان والده العلامة مداد بن عبد الله بن مداد من جملة العلماء الذين عقدوا البيعة للإمام محمد بن إسماعيل (٩٠٦هـ/١٥٠٠م / ٩٤٢هـ/١٥٣٥م) ، كما يعتبر أخوه عبد الله بن مداد من أكابر علماء النصف الأول من القرن ١٠هـ/١٦م[٧٧] .

ويرز دور الشيخ أحمد فى معارضته للإمام محمد بن إسماعيل وابنه الإمام بركات بن محمد (٩٤٢هـ/١٥٣٥م – ٩٦٤هـ/١٥٥٧م) ، حيث يرى أن إمامتهما غير ثابتة ، وأنهما سلكا بالإمامة سلوكًا مخالفًا للسلف ، وفى نظره أنهما انتزعا الإمامة من مستحقيها وأنه يتبرأ منهما ومن إمامتهما . يقول الأزكوى فى الكشف : « كان الفقيه أحمد بن مداد يتبرأ من الإمام محمد بن إسماعيل وولده بركات بن محمد . وذلك أن الشيخ أحمد كان يستنكر ما قام به الإمام محمد من جبايته الزكاة من رعيته بالجبر من غير حماية لهم ... »[٧٨] .

وبعض العلماء المعاصرين للشيخ أحمد كالعلامة عبد الله بن عمر بن زياد الشقصى قاضى الإمام بركات بن محمد يعذرون الإمام محمد وابنه بركات ويحتجون له بحجج[٧٩] . ويعلق الشيخ عبد الله السالمى على رأى الشيخ أحمد وتحامله الشديد على الإمامين فيقول : « أنه ليس لغيره أن يقلده فى البراءة من

محمد بن إسماعيل وإنما ذلك خاص بمن صح عنده علم الحدث وتوب الإمام منه فلم يتب وأصر على فعله »[٨٠] .

ولكن على مايبدو أن الشيخ أحمد لم يقبل حجج المدافعين عن سلوك الإمامين وطريقهم فى تحصيل الزكاة والضرائب الأخرى ، حيث تعتمد فلسفته على أن هذه المسألة ليست بموضع رأى ولا اجتهاد ، وأخذت القضية مسارا سياسيا حيث عمد الشيخ أحمد على خلع الإمام بركات وتنصيب إمام آخر هو عمر بن قاسم الفضيلى إماما بدلا منه ، يقول الأزكوى على لسان الشيخ أحمد: « ... إجازة الإمام للإمام العدل الولى عمر بن قاسم الفضيلى أيده الله ونصره وإبطال إمامة بركات بن محمد المشهور فى السيرة ، فأعينونا عليه واشهدوا بالحق والصدق ولو على أنفسكم»[٨١].

والقضية فى رأينا ، التى تشدد فيها الشيخ أحمد أن الإمامين محمد وبركات كانا يواجهان ضغوطا خارجة لتحصيل هذه المبالغ لدفع الضرر الذى هو أكبر ، حيث أن السواحل العمانية تحت يد البرتغاليين الذين يفرضون الضرائب الباهظة على المواطنين ، وكذلك كان ملوك بنى جبر فى منطقة الإحساء لهم هيمنة على عمان وكانوا يحصلون الخراج من عمان . ولهذا كان الإمام يساعد العمانيين فى محنتهم ويدفع لهؤلاء الخراج لكف ضرر هؤلاء وهؤلاء .

وأخذت القضية تزداد تعقيدا حيث أن المعارضين من العلماء لأراء الشيخ أحمد وكذلك المعارضين للسلطان سلطان بن محسن بن سليمان النبهانى الذى أطاع بإمامة بركات بن محمد ، قاموا بانتخاب أئمة آخرين ، وأصبح هناك أكثر من إمام على الساحة السياسية . وهكذا فشل هؤلاء الأئمة كما فشل العلماء فى اتخاذ موقف موحد لمواجهة عدوهم المشترك وهو السلطان النبهانى . وانتهى الأمر بانتزاع السلطان النبهانى مدينة نزوى منهم، وأصبحت عمان خلال الستينات والسبعينات من القرن ١٠هـ مسرحا لنزاعات ، مما أدى إلى اختفاء دور الأئمة ، وتشتت العلماء فى البلدان . ولم يجتمع شملهم على رأى واحد لنحو ٧٠ سنة قادمة .

٣ – خميس بن سعيد الشقصى (ت : النصف الثانى من ق: ١١هـ/١٧م) .

الشيخ خميس بن سعيد بن على من أهالى الرستاق ، آلت إليه رئاسة العلماء، كان قدوة زمانه ، له كلمة مسموعة مع الرعية والأمراء . وقد رأى بأم عينيه الأهوال والفتن والتشتت بين العمانيين والتى أعقبت انهيار دولة بنى نبهان الثانية (١٥٥٧/٩٦٤ – ١٦١٧/١٠٢٦) واختلال الأمن وافتراق الأمة العمانية فضلاً عن وجود الاستعمار البرتغالى المسيطر على السواحل . فتشاور الشيخ خميس مع أقرانه من العلماء فى توحيد عمان بعد أن افترقت مدنها بين رؤساء القبائل وأعيانها السياسيين . وقرروا إعادة الإمامة لأنها تجمع الوحدة الوطنية وتصهر الضغن القبلية . وقد ساعد هؤلاء العلماء فى تحقيق هدفهم موت سلطان الرستاق السلطان مالك بن أبى العرب بن سلطان اليعربى ، واختلاف بنيوه وأهل الرستاق حول من يخلفه . فأستغل الشيخ خميس الموقف الحرج ومكانته بين الجميع . فاجتمع مع أهالى الرستاق والأمراء ، وكان ممن حضر الاجتماع من العلماء الشيخ صالح بن سعيد الزاملى المعولى(٨٢) ، والشيخ مسعود بن رمضان بن محمد النبهانى(٨٣) ، ومحمد بن عمر بن أحمد بن مداد ، وغيرهم من العلماء الذين قدر عددهم الشيخ السالمى بما يربو على الأربعين عالمًا(٨٤) .

وقد رشح الشيخ خميس لمنصب خلافة السلطان الراحل حفيده الأمير : الشاب المؤمن ناصر بن مرشد بن مالك بن أبى العرب اليعربى ، ذلك ليس بصفته وريثًا للسلطان الراحل ، ولكن ليكون إمامًا لعمان كافة ، وأناط إليه مهمة توحيد عمان وتطهير أرضها من دنس المستعمرين البرتغاليين .

وكان الإمام ناصر بن مرشد ربيبًا للشيخ خميس الشقصى ، حيث أن الشيخ تزوج أم ناصر حينما ترملت ، وتربى الإمام ناصر فى كنف الشيخ خميس والذى بذل الجهد فى نصرته ودعمه وحض الناس لدعمه ، كما كان الشيخ خميس خير معين للإمام فقد قاد له الجيوش ، وهو الذى أرغم البرتغاليين على توقيع معاهدة الصلح معه . وكانت بنودها واضحة أنها فى جانب العمانيين(٨٥) .

ولا نعدو الحقيقة حينما نقول أن الشيخ خميس هو المؤسس الحقيقي لدولة اليعاربة ، وذلك بفضل تفانيه في خدمتها وما قام به من أعمال مخلصة جليلة : فهو قاضي القضاة ، وهو المدرس ، وهو المفتى ، وهو المؤلف الذى ترك لنا مؤلفات تنبئ عن مكانته العلمية ومقامه المرموق علما وسياسة وقيادة. وعبر عن مكانة الشيخ خميس محقق كتابه « منهج الطالبين وبلاغ الراغبين » الشيخ سالم بن حمد الحارثي حيث قال : « صاحب السيف والقلم، ذى الهمة والهمم ، البحر الزاخر الذى يقال فى حقه : كم ترك الأول للآخر »[٨٦] .

٤ – عدى بن سليمان بن راشد بن حسن الذهلى (ت : ١١٣٤هـ/١٧٢٢م) .

هو من علماء الرستاق المشهورين ، ومن آلت إليه رئاسة العلماء فى عمان فى عهده . كان الشيخ عدى من الذين عقدوا البيعة للإمام سلطان بن سيف بن سلطان (١١٢٣هـ/١٧١١م – ١١٣١هـ/١٧١٨م) . وكان معه جملة من العلماء نذكر منهم[٨٧] : ناصر بن خميس بن على الحمراشدى ، وخلف بن سنان بن خلفان الغافرى ، وناصر بن سليمان بن مداد الناعبى ، وسليمان بن محمد بن ربيعة المربوعى ، و خلف بن محمد بن الشيخ خميس بن سعيد الشقصى ، وكان العلماء برئاسة الشيخ عدى وهو الذى عقد البيعة للإمام سلطان بن سيف بن سلطان[٨٨] .

ويبرز دور هذا العالم فى الحياة السياسية فى الصراع الذى نشب على إثر موت الإمام سلطان بن سيف عام ١١٣١هـ/١٧١٨م حيث تدخل الشيخ عدى بجانب العلماء وبعض أسرة اليعاربة رافضا مبايعة سيف بن سلطان الذى لم يتجاوز ١٢ ربيعا ورفض طلب وجوه القبائل الذين يطالبون بتنصيب سيف فى مكان أبيه ويقول الشيخ الأزكوى – الذى عاصر هذه الأحداث – عن الخلاف الواقع حول اختيار سيف إماما خلفا للإمام الراحل ، وتدخل الشيخ عدى بن سليمان بدهائه وحنكته لتفريق العوام ووجوه القبائل من مزاحمتهم لحصن الرستاق : « فاختلف عند ذلك اليعاربة ورؤساء القبائل الذين فى قلوبهم العصبية والحمية ، وأرادوا أن يكون مكانه ولده سيف وهو صغير لم يراهق ، وأراد أهل العلم وبنت

الإمام سيف ابن سلطان « السيدة سعادة » أن تكون الإمامة لزوجها مهنا بن سلطان (بن ماجد اليعربي)»...[٨٩] .

هذا الصراع كاد يؤدى إلى تصادم بين مؤيد ومعارض فى هذه البيعة ، وقيل إن بعضهم أشهر السلاح واستعد للقتال . وكان الشيخ عدى إلى جانب عمة سيف السيدة سعادة ضد المطالبين بتنصيب سيف ، ورأى الشيخ عدى أن الأمر سيؤدى إلى ما لا تحمد عقباه ، فعمل حيلة لتسكين المعارضين ، ولكى يفرق الجمع خوفا من الفتنة . ذلك أنه قام وأحضر الطفل سيف أمام الحشود وناداهم بقوله « هذا سيف أمامكم » بفتح الألف ، يعنى « قدامكم » ، ولعله كان يستهدف بذلك إقناع القوم بأن سيف حقًا طفل لا يملك أمره فكيف يملك أمر غيره[٩٠] .

وعلى ما يبدو أن هذه الحشود فهمت من قول الشيخ عدى أن سيفًا إمامًا بكسر الألف . فعند ذلك نادوا سيف بالإمامة وضربت المدافع إظهاراً وإشهاراً لذلك الحدث العظيم . ولم يستطع الشيخ ولا غيره منعهم حينئذ ، ونجحت الحيلة التى استخدمها الشيخ عدى فى ذلك ، إذ تفرق القوم إلى أوطانهم . وبعد فترة قصيرة عقد الشيخ عدى بن سليمان البيعة لمهنا بن سلطان بن ماجد بن مبارك بن بلعرب اليعربى ، وتنصيبه إمامًا لعمان[٩١] .

وبهذه البيعة بدأت الصراعات على السلطة ، حيث أعتبر أهل الرستاق ومؤيديهم أن الشيخ عدى قد خدعهم ولهذا طالبوا بخلع مهنًا ، وانتهى الأمر لصالحهم ، حيث خلع الإمام مهنا ، ثم قتلوه ، ثم أن الشيخ عدى قبل توبة الوصى على سيف وهو يعرب بن الإمام بلعرب بن الإمام سلطان من جميع الأفعال التى ارتكبها بما فى ذلك قتل الإمام مهنا . وبعد التوبة وقبولها نصب يعرب إمامًا . فثارت الضغائن وأنتشر أصحاب الأهواء والمطامع يثيرون الاضطرابات ، ولكن لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل امتد إلى حروب أهلية وتدخلت قوى أجنبية لصالح هذا الإمام أو ذلك ، وقتل فيها جمع كبير من العمانيين وعلى رأسهم الشيخ القاضى عدى بن سليمان نفسه ومعه القاضى سليمان بن خلفان ، وسحبهما أهل الرستاق مقتولين فى أحياء المدينة فى يوم عرفة من عام ١١٣٤هـ/ أكتوبر ١٧٢١م وفقدت عمان أربعة أئمة شهداء تحت ظلال السيوف قتلاً وصبراً[٩٢] .

٥ – ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد (ت : الثلاثينات من ق : ١٨ م).

الشيخ ناصر من بيت علم وفضل ، وقد تبوأت أسرته مكانة علميـــة ، وقـد أشرنا إلى هذا البيت حينما ذكرنا الشيخ أحمد بن مداد بن أحمد فى القرن الســـادس عشر للميلاد ، وأمتد عطاء هذه الأسرة إلى القرن الثامن عشر للميلاد.

وقد مر بنا ذكر هذا العالم الذى اشترك فى بيعة الإمام سلطان بن سيف عـــام ١١٢٣هـ/١٧١١م . وكان الشيخ ناصر قد عقد البيعة لشيخ محمـــد بـن نــاصر الغافرى كإمام دفـــاع وقـد حـاول ، الآخـر الاسـتعفاء مـن ذلـك فـى عـام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م ، لكن الشيخ ناصر بن سليمان – قاضى نزوى ، والشيخ عبـد الله بن محمد بن بشير بن مداد – والى نزوى – أصرا على اختيار الشيخ محمـــد الغافرى فى هذا المنصب ، وذلك لمكانة الشيخ الغـــافرى السياســية بيـن القبـائل ولبراعته العسكرية ، وكان لا يزال الغافرى يخوض حربا مع الشـيخ خلـف بـن مبارك الهنائى ، وكان رأى العلماء أن الشيخ خلف هذا باغ على العمـانيين وعلـى الشيخ الغافرى الذى كان وصيا على سيف بعد موت الإمام يعرب بن بلعـرب بـن سلطان عام ١١٣٥هـ/١٧٢٣م ، ولهذا فإن الغافرى مؤهل لهذا المنصب القيـــادى وليس الدينى[٩٣] .

على أية حال قبل الشيخ الغافرى المنصب وقام بواجبه كإمـــام بدعـم مـن العلماء وصد هجمات الهناوية لمدة أربع سنوات عجاف عانى منها المواطن العمانى معاناة شاقة حتى لقى الإمام محمد الغافرى حتفه هو وغريمه الشيخ خلف الـــهنائى فى معركة واحدة بصحار عام ١١٤٠هـ/١٧٢٨م ، وقد عقـد المـؤرخ السـيابى مقارنة بين الإمام محمد بن ناصر الغافرى وبين الصحابى الجليل خالد بن الوليد بـن المغيرة حيث أن كلاهما لم يهزم فى معاركه التى خاضها ، ويـروى عـن الإمـام محمد الغافرى أنه قال وهو بصحار بعد أن انسحب مناصروه عنـــه : « إن هـذه الساعة ليست لنا ولا لهم إلا ما شاء الله»[٩٤] . وكان بالفعل انتصارا للفريقين .

ولكي يطفئ الشيخ ناصر بن سليمان نار الفتنة التى أصابت العمانيين منذ عشر سنوات ويحد من سفك الدماء ، عقد البيعة بالإمامة لسيف بن سلطان وهو فى هذا الوقت قد بلغ من العمر ما يؤهله أن يكون إمامًا حيث كان له ولاية من ولاية أبيه . وكان ذلك فى ١٠ شعبان ١١٤٠هـ/ ٢٣ مارس ١٧٢٨م ، وقيل إن العلماء قد بايعوا سيف تقية[٩٥] . ويعلل الشيخ السالمى موقف الشيخ ناصر فى تنصيبه سيف إمامًا بقوله : « وإنما قدموه إمامًا لتقدم ولايته بسبب ولاية أبيه ، فإن أباه كان إمام المسلمين ، وكانت ولايته على رعيته واجبة ، وأطفاله تبع له فى ذلك حتى يبلغوا ويحدثوا حدثًا يخرجهم من الولاية عند المسلمين . وقيل إن البالغ منهم يكون فى الوقوف حتى يعلم منه حال يوالى عليه أو يعادى عليه ، فتمسك القاضى (ناصر بن سليمان) بأول القولين نظرًا منه للأمة وطلبًا للسداد ومحاولة لجمع الشمل »[٩٦] .

وبهذا العمل والاجتهاد أطفأ الشيخ ناصر بن سليمان نار الشقاق ولو لمدة قصيرة حيث ثارت الفتنة من جديد بعد أربع سنوات[٩٧] .

٦ – الشيخ سعيد بن بشير بن محمد الصبحى (ت : ١١٥٠هـ/١٧٣٧م).

الشيخ سعيد الصبحى من علماء النصف الأول من القرن ١٢هـ/١٨م ، شارك الشيخ سعيد فى أحداث هذه الفترة ، وتوضح رسالته التى ذكرها السالمى[٩٨] أنه لم يحضر عقد إمام الإمام سلطان بن سيف عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ، ولكنه ألزم نفسه بطاعة الإمام سلطان ، باعتبار أن إمامته ثابتة بلا كراهية ولا تقية من الجميع .

والشيخ سعيد الصبحى له فتاوى كثيرة فى كتب الفقة نقلها كثيرون عنه وقد جمعت فى مجلدين كبيرين ، جمعهما الشيخ سالم بن حمد الحارثى ابقاه الله تعالى ، وقد كان الشيخ سعيد الصبحى ضريرًا[٩٩] .

وكان الشيخ الصبحي أول من نادى بأن شرب القهوة العربيـــة حــلال ، ولا يرى فيها التحريم كما كان معروفاً في عصره . وتلقــى الشــيخ ســعيد الصبحــي اعتراضات كثيرة على فتواه ، حتى جاء بعد نصف قرن من الزمان من يؤيد رأيــه وهو السيد مهنا بن خلفان البوسعيدى (ت : ١٢٥٠هـ/١٨٣٢م) والشيخ أبو نبــهان جاعد بن خميس الخروصي (ت : ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م) حيث انتشر شرب القــهوة خلال القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً حتى أصبحت من مظاهر الكـــرم العربــي وعاداته .

أثار الشيخ سعيد الصبحي قضية سهلة وصعبة في الوقت نفسه ودخل بها فــي معترك الحياة السياسية ، حيث آلت إليــه رئاسة العلماء بعد وفاة الشيخ ناصر بـــن سليمان . وكان ذلــك عندمــا طلــب الإمــام سـيف بــن ســلطان بــن سـيف (١١٤٠هـ/١٧٢٨م - ١١٤٥هـ/١٧٣٢م) زيادة مخصصاته الشهرية من الشــيخ سعيد الصبحي . وكان الشيخ سالم بن راشد البهلوى - والى نزوى - ووكيل مــال الدولة يؤيدان الإمام سيف في طلب الزيادة . ولكن الشيخ الصبحــي رفــض هــذه الزيادة ، وحجته في ذلك أن هذه المخصصات فرضت منذ أيام الإمام نــاصر بــن مرشد (١٠٣٤هـ/١٦٢٤م - ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م) - منذ مائــة عــام وعشــرة أعوام - ولا يجوز زيادتها . فاحتج الإمام سيف على ذلك ، وأدعى أن العلماء قــد وافقوا على زيادة مخصصات الإمام محمد بن ناصر الغافرى (١١٣٧هـــ/١٧٢٤م - ١١٤٠هـ/١٧٢٨م) ، والتي كانت أكثر من مخصصاته الحالية ، وأنه يكفيه مــا كان للإمام محمد الغافرى(١٠٠) .

وقد استعرض الشيخ سالم بن حمود السيابى هذه القضيــة التــي أدت إلــى القطيعة بين الإمام سيف وعلمائه . وتوصل أن أمــر « المعــاش منــوط بنظــر المسؤولين في الدولة من خيار المسلمين الذين إليهم الحل والعقد منذ عـــهد الإمــام الجلندى (١٣٢هـ/٧٤٨م - ١٣٤هـ/٧٥١م) ، عملا بتقدير الخليفة عمــر بــن الخطاب رضى الله عنه لأن الإمام بمنزلة الأجير في بيت المسلمين ليس لــه أكــثر

عن حاجته الخاصة »[١٠١] ، وانتهى الشيخ السيابى إلى القول : « أما أمر المعاش فيختلف باختلاف الأوقات غلاء ورخصًا كما قرره فى نفقة من لا يملك أمره ونفقة المرأة على زوجها ، ونفقة الأولاد على أبيهم ، وأن ذلك موكول إلى نظر الحاكم الشرعى ، فيجارى فيه حالة الوقت ، فإن الأحوال تتحول من حال إلى آخر »[١٠٢].

ويتضح من هذا السياق أن السيابى كأنه أراد بقوله أن الشيخ الصبحى لم يقدر الأمور وأحوالها ولم يراع المتغيرات ، فهو فى حكم المجتهد المخطئ ولهذا أثار قضية أدت إلى تنافر الإمام من العلماء .

وكان أن تغيرت أحوال الإمام سيف بعد أن رفض طلبه ، وغضب على العلماء ، ورأوا منه أنه غير السيرة والسلوك ، ولم يستجب لهم ولم يعرهم أى اهتمام ، كما أنه لم يقربهم فى مجلسه ، وكان ذلك سبب تغير العلماء على الإمام سيف ، ومن ثم قرروا خلع الإمام سيف من الإمامة لأسباب ، منها : أنه انحرف عن سلوك وأخلاق المنصب ، وأنهم غير راضين بسيرته ومعاملته للعلماء والرعية. فاقتضى الحال عزله وتنصيب ابن عمه بلعرب بن حمير بن الإمام سلطان بن سيف وذلك سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م[١٠٣] .

وهكذا قام صراع بين الإمامين : المخلوع والمنصب ، مما استدعى الأمر الاستعانة بقوى أجنبية من السند وبلاد فارس كالزدجال والبلوش والفرس من قبل الإمام المخلوع سيف بن سلطان . ولكن هذه القوى جرت وبالاً على عمان ، ولم تنصر الإمام المستغيث بها ، إنما عملت السلب والنهب والاغتصاب والأسر فى العمانيين ، وقد بيعت كرائم العمانيين وفتياتهم فى أسواق النخاسة فى شيراز والمدن الهامة فى إيران ، وذلك خلال أعوام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م و ١١٥١هـ/١٧٣٨[١٠٤].

ولكى يلم العمانيون الشمل حقنًا للدماء تنازل الإمام بلعرب عن الإمامة ، لما رآه من الفظائع التى ارتكبها الجيش الفارسى فى العمانيين ، لصالح الإمام المخلوع سيف بن سلطان ، مما خفف من الأضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وعادت القوى الأجنبية إلى أوطانها ، وظل هذا الوضع لمدة أربع سنوات فى هدوء وسكينة .

وبعد شئ من الاستقرار قام العلماء بتصيب إماما جديدا حيث أنهم لم يرضوا بحكم الإمام سيف الذى خلعوه منذ عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢ ، وأن الإمام بلعرب بن حمير قد خلع نفسه دون مشاورة العلماء وأنه اكتفى بالمصالحة مع ابن عمه الإمام سيف(١٠٥) .

أما أحوال عالمنا الشيخ سعيد بن بشير الصبحى صاحب الترجمة، فلم يمهله القدر ليرى المصائب التى آلت إليها عمان ، إذ مات فى بداية عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م قبل وصول حملات الفرس على عمان . وهكذا لم يقدر الشيخ أحوال عمان وطلبات الإمام سيف وذلك حرصا منه على أن لا يبتدع نظاما جديدا يكون قاعدة لمن يأتى من بعده ، كما فعل فى تحليل شرب القهوة.

٧ – حبيب بن سالم أمبو سعيدى (ت : النصف الثانى من ق ١٣هـ/١٨م) .

كان الشيخ حبيب بن سالم بن سعيد ضريرا ، وقد عوضه الله بقلب حافظ نبيه ، وآلت إليه رئاسة العلماء والقضاء فى نزوى بعد الشيخ الصبحى ، وعليه تدور أمور الدولة ، وكان من العلماء المعاصرين له الشيخ سالم بن راشد البهلوى – والى نزوى – والشيخ الفقية راشد بن سعيد الجهضمى ، والشيخ محمد بن ناصر الحراصى والشيخ محمد بن عامر الكندى والشيخ محمد بن خلف بن محمد بن خميس الشقصى والشيخ سالم بن خميس بن عمر العبرى (ت : ١١٦٠هـ/١٧٤٧) والشيخ ناصر بن خميس بن على الحمراشدى والشيخ الفقية محمد بن راشد بن عامر المعولى (ت :

١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) مؤلف كتاب قصص وأخبار فى جرت عمان وكتاب « المهذب فى عين الأدب » وكتاب « التهذيب » .

وقد علمنا أن الفرس قد عاثوا فساداً فى عمان وأن الإمام سيف قد مات عام ١١٥٦هـ/١٧٤٣م حسرة وحزنًا كما أن الإمام سلطان بن مرشد استشهد هو أيضًا فى نفس العام ، واستمر والى صحار الشيخ أحمد بن سعيد البوسعيدى يصارع الفرس حتى نجح فى إخراجهم من عمان عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م ، وصارت منطقة الباطنة بما فيها مسقط والرستاق خاضعة لأحمد بن سعيد ، بينما نجح بلعرب بن حمير أن يقنع العلماء فى نزوى فى تنصيبه إمامًا ثانيًا فى عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م حيث سبقت له بيعة ولكنه تنازل عنها عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م ، كما أشرنا سابقًا ، وابتعد عن موطن الصراع الفارسى العمانى معتكفًا فى وادى بنى غافر .

ويبدو أن العلماء اقتنعوا بحجته وأنه لم يحدث حدثًا يخرجه عن الولاية فجددت له البيعة فى يوم ٢٠ ربيع الآخر ١١٥٧هـ/مايو ١٧٤٤م(١٠٦) .

ويتشكك الشيخ السالمى فى بيعة بلعرب الثانية ، ولكن هذا التشكك يمكن أن يزول حينما نجد فى كتاب تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمة - تحقيق عبد المجيد القيسى - ما يؤكد وقوع البيعة ، حيث يذكر أن البيعة كانت فى يوم ٢٠ ربيع الآخر ١١٥٧هـ/ مايو ١٧٤٤م(١٠٧) .

قام الإمام بلعرب بن حمير بعد تنصيبه إمامًا بمصادرة أموال الإمام سيف بن سلطان وأدخلها فى بيت المال ، وقد عارضه فى ذلك

شيوخ بنى خروص كالشيخ محمد بن خميس بن مبارك الخروصي والشيخ سعيد بن محمد بن راشد الخروصي[١٠٨] ، ولكن لم تجد هذه المعارضة القبول ، بل نجد أن الشيخ حبيب بن سالم وعلماء نزوى يؤيدون المصادرة رافضين شفاعة واعتراض مشايخ بنى خروص[١٠٩].

لم يلبث أن استبد الإمام بلعرب بالرأى ، ولم يلتفت لنصائح العلماء ، وذهب إلى ابعد من ذلك حيث أودع بعضهم السجن بمن فيهم الشيخ حبيب بن سالم ، والشيخ محمد بن سالم بن صالح الندابى ، وهلك بعض العلماء فى سجنه كالشيخ نجاد بن سالم عام ١١٦٠هـ/١٧٤٧م والشيخ عامر بن سليمان الريامى ، ولهذا رأى العلماء أن بلعرب باغ غير كفء لا يستحق الاستمرار فى إمامته ، ولذلك قرروا خلعه ، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ حبيب بن سالم – الذى كتب وثيقة الخلع– ومعه جملة من العلماء وكان ذلك فى عام ١١٦١هـ/١٧٤٨م[١١٠] .

ولم يصغ الإمام بلعرب لهذا الخلع ، واعتبر أنه لا أهمية له ، وظل على هذا الحال لمدة عام بأكمله حتى نجح بنو غافر فى إخراجه من نزوى إلى الظاهرة حيث تم القبض عليه هناك من قبل مؤيدى الشيخ أحمد بن سعيد البوسعيدى وأودع السجن ، وتفرق عنه حراسه حفاظا على أرواحهم[١١١] ، ثم أطلق صراحه ، واتخذ فلج البيزيلى مكانا لإقامته .

وبعد ذلك اجتمع العلماء بالرستاق برئاسة الشيخ حبيب بن سالم أمبو سعيدى ، والشيخ محمد بن راشد المعولى وغيرهم من العلماء

وقرروا عقد البيعة لأحمد بن سعيد إماما لعمان وذلك فى ليلة الأثنين ٢٣ من جمادى الآخر ١١٦٢هـ/١٠ يوليو ١٧٤٩[١١٢] .

٨ - جاعد بن خميس بن مبارك الخروصى (١١٤٧/١٧٣٥ - ١٢٣٧/١٨٢١) .

الشيخ أبو نبهان جاعد بن خميس من بيت علم ورئاسة ، فقد حظيت أسرته بمكانة اجتماعية مرموقة ، وبلغ الشيخ جاعد مكانة عالية بين أقرانه وعرف بالرئيس[١١٣] . وكان أحد أخوته من العلماء الذين عارضوا الإمام بلعرب بن حمير فى مصادرة أموال الإمام سيف فى عام ١١٦٠هـ/١٧٤٧م وهو الشيخ محمد بن خميس بن مبارك الخروصى[١١٤] .

ونبغ الشيخ أبو نبهان جاعد بن خميس فى عدة علوم ، وله مؤلفات كثيرة فى الفقة واللغة العربية والأدب كما كان يقرض الشعر[١١٥] .

عارض الشيخ أبو نبهان جاعد الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد (١١٩٨هـ/١٧٨٣م - ١٢٢٥هـ/١٨١٠) ، ومنعه من تنفيذ حكم الشرع فى قضية حدثت فى مدينة نزوى عام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م ، مؤيدا أهل نزوى شاهرا عصى الطاعة للإمام ، ومن هنا تنافر معه وحدث شقاق بينهما استمر مدة طويلة ، وطالت ذريته . ويبدو أن الشيخ أبا نبهان لم ير صحة بيعة الإمام أحمد بن سعيد ولا بيعة ابنه الإمام سعيد . فقد طعن هو وابنه ناصر بن جاعد فى صحة إمامتهما . وكانت وجهة نظرهما فى ذلك أن البيعة كانت على غير مشورة من المسلمين ،

ولأنه كان عقدا مشكلا لأنه كان بعد التغلب على ملكهم (أى ملك اليعاربة) ولأن الشيخ حبيب والشيخ محمد بن عامر ليسا ممن يلزم المسلمين عقده(١١٦) .

ونحن لو تتبعنا القضية نجد أن رأى الشيخ جاعد بن خميس فى إمامة الإمام أحمد وإمامة ابنه سعيد بن أحمد قد جانب الصواب ، لأن الشيخ سعيد بن أحمد الكندى – معلم الشيخ جاعد – هو الذى خاطب الإمام أحمد بالإمامة . وكان الشيخ سعيد الكندى قدوة أهل زمانه فى الورع والعلم وتشد إليه الركاب طلبا لعلمه فى نزوى ، ويؤكد هذا الرأى الشيخ نور الدين السالمى(١١٧) . كما أن الشيخ راشد بن سعيد الجهضمى – وهو من جملة العلماء الذين خلعوا الإمام بلعرب بن حمير فى عام ١١٦١هـ/١٧٤٨م – قد افتى بثبوت إمامة الإمام أحمد بن سعيد ، فقد وردت هذه الفتوى في مخطوطة « المنثور فى العلم المنشور » للشيخ عبد الله بن سعيد بن عبد الله المسكرى وجاء فى الفتوى :

« سئل رحمه الله (الفقيه العالم النزيه راشد بن سعيد الجهضمى السمدى) عن الإمام أحمد بن سعيد أهو ثابت الإمامة ويجوز تسليم الزكاة إليه وإلى عماله والمسير عنده لحرب من أراد حربه من المسلمين ؟ قال : إنى لم أحضر العقدة لمن ذكرت ، ولكن أشتهر معنا عن طريق السماع بتواتر الأخبار أن المشايخ أهل الرستاق ومن قدر الله من أهل نزوى وإزكى ، أقاموا هذا الشخص المذكور إماما لهم ولكافة المسلمين بعد أن استتابوه على شروط شرطوها عليه ، والتوبة مقبولة

إذا أتت على جميع أفعال التائب من المعاصي على الوجه الثابت في دين الله وصدقها التائب بقول وفعل . والعقدة إذا وقعت من أهلها على الوجه الثابت في دين الله فهي ثابتة على من حضر أو غاب وليس لحاضر أن يرجع ولا غائب أن يختار . والإمام إذا أثبتت إمامته بإجماع المسلمين واجبة طاعته ولازمة نصرته وتسليم الزكاة إليه وإلى عماله وحرمت عداوته ما استقام على طاعة الله ورسوله وعمل بكتاب الله ، والله أعلم »[١١٨] .

جاءت فتوى الشيخ راشد بن سعيد الجهضمي واضحة جلية ولهذا لم يلتفت إلى طعن الشيخ أبي نبهان جاعد بن خميس وابنه ناصر بن جاعد خصوصا أن الشيخ راشد الجهضمي معاصرا للأحداث ومشارا فيها وربما منعه مانع عن المشاركة في العقدة ، ولأن الشيخ ابا نبهان كان حينئذ صغيرا عندما عقدت البيعة ، فهو من مواليد عام ١١٤٧هـ/١٧٣٥ وتمت البيعة في ١١٦٢هـ/١٧٤٩م أي أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، بينما ابنه ناصر من مواليد ١١٩٢هـ/١٧٧٨م ، أي ولد بعد ثلاثين سنة من البيعة ، والراجح أن الشيخ جاعد وابنه ناصر كانا على خلاف مع الإمام سعيد بن الإمام أحمد قبل الإمامة وبعدها ، مما جعل الشيخ أبا نبهان يتحامل على الإمام أحمد وابنه الإمام سعيد وجر الأخير عليه جيوشا لمحاربته . ونضيف إلى ذلك أن الإمام سعيد كان غير مرغوب من قبل القبائل الغافرية حيث كان يميل إلى الهناوية ، وأنه كان على خلاف مع أخوته خصوصا السيدان سيف وسلطان أبناء الإمام أحمد . وكان الشيخ أبو نبهان مدعوما من الأخوين[١١٩] .

وقد نسب إلى الشيخ أبى نبهان جاعد أنه اشترك فى اجتماع بالرستاق برئاسة ابناء الإمام أحمد لعزل الإمام سعيد وتنصيب السيد قيس بن الإمام حاكم صحار إمامًا . وكان هذا الاجتماع بعد موت السيد حمد بن الإمام سعيدعام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢ ، وكان على رأس العلماء المشاركين بهذا الاجتماع الشيخ ناصر بن محمد بن خلف بن محمد بن خميس بن سعيد الشقصى[١٢٠] . كما أشار ابن رزيق لهذا الاجتماع وذكر أن الإمام سعيد بعد أن قدم للمجتمعين أصول الضيافة دعاهم للخروج من الرستاق ، وهددهم إن لم يستجيبوا لأوامره مما أدى إلى فشل هذا الاجتماع[١٢١] .

وكان لأبناء الإمام أحمد محاولة أخرى فى مدينة نخل فاجتمعوا بواليها الشيخ محمد بن سليمان بن عدى اليعربى ، ولكن لم يكتب لهذا الاجتماع النجاح أيضًا[١٢٢] .

وعلى أية حال ، انتهى الأمر بأبناء الإمام أحمد بأن جلسوا للمصالحة فى مدينة بركاء وتقاسموا السلطة فى عمان على أن يحكم الإمام سعيد الرستاق وتوابعها ، وأن يظل السيد قيس بن الإمام أحمد حاكمًا لصحار ، بينما يحكم السيد سلطان مسقط والمناطق الداخلية من عمان ، وبقية الأخوة تبع لهم[١٢٣] .

ولم تنته العداوة بين الشيخ أبى نبهان جاعد بن خميس والإمام سعيد، فقد استمرت الحروب بينه وبين الإمام سعيد ثم من بعده أخيه طالب بن الإمام الذى حكم الرستاق فى عام ١٢٣٦/١٧٢٠م حتى توسط السيد سعيد بن سلطان بينهما ، وأكرم السيد سعيد ابنه ناصر الذى عينه

قاضيا فى زنجبار وبهذا اسدل الستار عن هذا الخصام الذى دام أكثر من ربع قرن .

٩ – سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلى (١٨١١/١٢٢٦ – ١٨٧١/١٢٨٧) .

الشيخ سعيد بن خلفان علامة كبير ومصنف بارع ، قاد علماء عمان بعد وفاة العلامة جاعد بن خميس ، وهو أحد رجال الإمام عزان بن قيس (١٨٦٨/١٢٨٥ – ١٨٧١/١٢٨٧) ، لقبه العلماء بالمحقق ، وكانت له مصنفات كثيرة ، وفتاوى منتشرة فى كتب الفقه ، جمع بعضها الشيخ محمد بن خميس السيفى فى كتاب «تمهيد قواعد الدين»[١٢٤] .

وللشيخ سعيد محاولات فى إعادة الإمامة فى القرن ١٣هـ/١٩م ، ومن هذه المحاولات أنه فى عام ١٨٤٦/١٢٦٢ دعاه السيد حمود بن عزان بن قيس بن الإمام أحمد حاكم الرستاق (١٨٣٢ – ١٨٥٠م) وسلمه حصون الرستاق وصحار والخابورة وغيرها . وأناط إليه هذه المدن لكى يدير شئونها وفق الشريعة والقصد فى الظاهر إحياء الإمامة[١٢٥] .

وكان السيد حمود بن عزان – فى الحقيقة – يرمى من عمله هذا أن يحظى بكرسى الإمامة فى الرستاق ولكنه يحتاج إلى دعم العلماء له، لهذا قرر الاعتزال من إمارته فى الرستاق تاركا الشيخ سعيد الخليلى ومن معه من العلماء يديرون شئون الإمامة ريثما يتفقوا على إمام منتخب .

ولهذا اجتهد الشيخ سعيد الخليلي وبدأ يكاتب أخوانه من علماء عمان يدعوهم إلى الحضور لأجل التشاور لأجل إعادة الإمامة(١٢٦) .

وكان أهم العلماء الذين تعقد عليهم الراية ومن الذين يعدون من أهل الحل والعقد والمشورة هم : الشيخ حمد بن خميس السعيدي والشيخ جميل بن خميس السعدي(١٢٧) ، والشيخ خميس بن جاعد بن خميس الخروصي ، والشيخ سلطان بن محمد البطاشي والعلامة خميس بن راشد ابن سعيد العبري (ت :١٢٧١هـ/١٨٥٨م) ، والسيد الزاهد سيف بن محمد بن عبد الله البوسعيدي والشيخ علي بن ناصر بن محمد بن حمير النبهاني الريامي (ت : ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧)(١٢٩) .

اجتمع هؤلاء العلماء وقرروا ترشيح السيد الزاهد سيف بن محمد البوسعيدي ، ولكنه اعتذر ، فرشحوا الشيخ خميس بن جاعد الخروصي ولكنه أيضا اعتذر عن قبول منصب الإمامة . وبعد ذلك تقدم الشيخ سيف بن مالك بن الإمام سيف بن سلطان اليعربي لترشيخ نفسه له ، ولكن يبدو أن الشيخ سعيد الخليلي والعلماء رفضوا ترشيحه ، لأنه – من وجهة نظرهم – لم يكن كفئا لها ، ثم اجتمعوا مرة ثانية ، واشاروا بالإمامة للسيد حمود بن عزان والذى اشترط عليهم أمورا لم يقدروا على الوفاء بها على حد قول الشيخ نور الدين السالمي(١٣٠) ، وأعادوا الاقتراح بتولى الإمامة إليه مرة ثانية ، لكن السيد حمود رفض، واعتزل الاجتماع خوفا أن يجبروه على ذلك ، وفى النهاية فشل مسعاهم(١٣١) .

ونستشف من نصيحة الشيخ خميس بن راشد العبرى إلى الشيخ سعيد الخليلي وسلطان البطاشي أنه غير راض بإحياء الإمامة فى هذا

الوقت ، وأن الشيخ خرج من الاجتماع ، ويقول الشيخ إبراهيم بن سعيد العبرى « وعاصر العلامة الشيخ المحقق سعيد بن خلفان الخليلى رضى الله عنه وطلبه للحضور معه ومع من اجتمع لديه من علماء المسلمين وفضلائهم ببلد الرستاق عند اجتماعهم وعزمهم على تقديم السيد حمود بن عزان بن قيس إماما لهم وللمسلمين ، فوافقهم أولا ثم انخزل عنهم ولم يقبل الإمامة وسار عنهم إلى صحار فتفرقوا على غير فائدة»(١٣٢).

وقد أورد الشيخ السالمى ملخصا عن هذه النصحة التى تعبر عن وجهة نظر الشيخ العبرى إذ يقول : « فى هذه الأيام الناصر معدوم لأنى أرى القائمين بالمساجد المريض والأعرج والسقيم والعمى والجابن عن الحرب ، وأخبركم عن السادة الذين نسلهم من أولاد (الإمام) أحمد بن سعيد (بن أحمد البوسعيدى) قلوبهم مطمئنة بالحصون فى أيديهم»(١٣٣) .

فالشيخ خميس لا يرى إحياء الإمامة فى عمان خلال هذه الفترة ، وكانت عمان فى عز مجدها فلسلطانها السيد سعيد بن سلطان جمع فى حكمه بين عمان وشرق أفريقية . ويعلل الشيخ خميس بأن قيام الإمامة يحتاج إلى دعم مادى ومعنوى وقوة تكافح من أجلها ، وهم يفتقرون إلى هذه القوة . وتابع الشيخ نصيحته الصادقة موجها حديثة إلى الشيخ سعيد والشيخ سلطان البطاشى فيقول : « وأنتما عملتما التعزيز والقيود وأخذ الزكاة ، وقد كان الذى بيده الأمر أقوى عشيرة .. وأمراء القبائل معهم رغبة ورهبة » .

والحقيقة أن النصيحة طويلة تدعو إلى عدم تنصيب الإمامة في الوقت الحاضر ويشير الشيخ خميس إلى السيد سعيد بن سلطان – سيد عمان – والسيد حمود بن عزان – حاكم الرستاق – بالخير والصلاح بقوله : « إلى أن ظهر الملك سعيد بن سلطان والسيد حمود بن عزان فعملا في الرعية بميزان البصيرة وإصلاح الفريقين » .

وفي النهاية حذر الشيخ خميس بن راشد العبري الشيخ الخليلي وزميله الشيخ البطاشي بقوله : « وإنهم (يقصد بذلك حكام آل بو سعيد) سيعزلون رؤسكما نساؤهم والخدم قبل أولادهم ونسل أجدادهم ... لأن كلا منهم يطلب الملك لنفسه دون غيره . والنفس أسلم لها مسكنها في الخيام والفيافي والقفار عن سكن الحصون التي لم تحرز بالأمناء ولا تكافح عنها الأمراء والأولياء »(١٣٤) .

وعلى أية حال فإن هذه المحاولة فشلت رغم أن الشيخ سعيد بذل جهداً كبيراً واضطر السيد حمود – الذي دعا العلماء لأحياء الإمامة – في النهاية إلى طردهم من حصونهم بعد أن تركها في أيديهم سنتين . ولهذا أفصح الشيخ خميس عن الهدف الذي يرمي إليه السيد حمود هو أن يكشف السيد خلل هؤلاء العلماء مع الناس حتى يكثر عليهم الموشي والحساد(١٣٥) .

والمحاولة الثانية للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي لإعادة الإمامة كانت في عام ١٢٨٥هـ/١٧٦٨م ، حينما اتحد كل من الشيخ صالح بن علي بن ناصر الحارثي ، زعيم الهناوية والسيد عزان بن قيس بن عزان حاكم الرستاق . أي حنما اتحدت أرادة السلطة السياسية والعلماء

بطلب قبلى نجحت أهدافهم وتحققت أمانيهم . وقد قرر الشيخ صالح والسيد عزان أن يجردوا السلطان سالم بن ثوينى (١٨٦٦م – ١٨٦٨م) من سلطته . فقاد الشيخ سعيد الخليلى الثورة وانضم إليهم العلامة محمد بن سليم الغاربى السعدى ، وكانت النتيجة هى استيلاؤهم على السلطة وتنصيب السيد عزان بن قيس بن عزان إماما على عمان . ولكن هذه الإمامة لم تمكث أكثر من سنتين وذلك لتشدد العلماء فى إدارة البلاد مما اضطر القبائل الغافرية وبعض الهناوية الانسحاب من دعم الإمام والوقوف أمام هذا التشدد ووازرت السيد تركى بن سعيد ، وانتهى الأمر بقتل الإمام . ومن ثم قتل الشيخ سعيد عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م ، وأسدل الستار على الإمامة فى القرن التاسع عشر للميلاد [١٣٦] .

١٠ – الشيخ عبد الله بن حميد السالمى (١٢٨٦/١٨٦٩ – ١٣٣٢/١٩١٤) .

علامة ، وفقيه وشاعر ومصنف ، كان ضريرا منذ صباه ، لقب بنور الدين ، التحق الشيخ السالمى بمدرسة الشيخ صالح بن على بن ناصر الحارثى (١٢٥٠/١٨٣٤ – ١٣١٤/١٨٩٦) بمدينة القابل بالشرقية بعد أن هاجر إليها من مسقط رأسه بلدة الحوقين إحدى قرى ولاية الرستاق فى عام ١٣٠٨/١٨٩٠[١٣٧] .

واستوطن الشيخ عبد الله الشرقية ، وتزعم رئاسة العلماء فى عمان خلال العشرين السنة الأولى من القرن الرابع عشر للهجرة ، فصار علامة زمانه وفريد أوانه بدون منازع ، ومرجعا للناس فى

الفتوى والأحكام ، ووفد إليه كل راغب علم من شتى بلاد عمان وأصبح له تلاميذ وأتباع ومدرسة كبيرة . له مؤلفات كثيرة في الفقه والحديث والسير والتاريخ ، ومن أبرز كتبه في التاريخ كتابه « تحفة الأعيان » - الذى نعتمد عليه فى بحثنا هذا[١٣٨] .

نظر الشيخ السالمى إلى مشاكل عصره السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية ، وفكر فى الحلول لهذه المشاكل خصوصًا الصراعات القبلية وانعدام الصلة بين الحاكم والمحكوم . وفوق هذا وذلك تدخل العنصر الأجنبى فى عمان ، والذى كبل السلطان فيصل بن تركى بن سعيد (١٣٠٥/١٨٨٨ - ١٣٣١/١٩١٢) باتفاقيات ومعاهدات تقيد حركته أمام أوضاع عمان واقتصادها . وكان الشيخ السالمى يهدف إلى إعادة الإمامة وانتخاب إمام قادر على أن يحل هذه المشاكل وينشر العدل والأمن فى عمان ، ويخفف من وطأة الهيمنة الأجنبية .

بدأ الشيخ السالمي بعرض أفكاره على السلطان فيصل ، حيث قابله في مسقط أثناء سفره لإداء مناسك الحج وعودته عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م . وشرح الشيخ أفكاره والغاية من ذلك : لم شمل القبائل وتوحيدها واستتباب الأمن ووضع حد للصراعات القبلية والمشاكل الاقتصادية . وفى النهاية اقترح على السلطان فيصل أن يتولى منصب الإمامة . ولكن السلطان فيصل لم يأخذ هذه الأفكار بمحمل الجد ، ووعده بالتفكير فى هذا الموضوع ، وأنه سيرسل له الجواب مع وزيره سليمان ابن سويلم بن سالمين حين يزور الشرقية عام

١٣٢٥هـ/١٩٠٧م . لكن الوزير سليمان حين قام بالزيارة إلى الشرقية، وقابل الشيخ عيسى بن صالح بن على الحارثى - الذى خلف والده فى زعامة الهناوية - لم يتطرق إلى موضوع الإمامة ، كما أنه لم يقابل الشيخ السالمى ، بل اكتفى بما حققه من تحسين العلاقة بين السلطان فيصل والشيخ عيسى بن صالح الحارثى ، والذى زاد الطين بله أن هذا الوزير لقى حتفه وتم اغتياله عند مروره فى وادى العق أثناء عودته من الشرقية فى ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م ، وكان رد فعل السلطان فيصل هو تشدده على العمانيين فقد غضب لمقتل وزيره سليمان بن سويلم بواسطة السيابيين وأخذ يعد حملاته العسكرية لتأديبهم(١٣٩) .

فكر الشيخ السالمى - بعد ذلك - فى القيام بجولة سياحية فى شمال أفريقية وارسل رسائله إلى علماء الأباضية هناك يخبرهم بما عزم عليه . وكان يهدف من هذه الجولة جمع التبرعات المالية لإعادة الإمامة، حيث ورد ذلك فى خطبته لعيد الفطر المبارك من عام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، إذ أعلن أنه سيقوم بأداء مناسك الحج . ولكن الشيخ عيسى بن صالح الحارثى ومن معه من العلماء رفضوا السماح له بالقيام بهذه الجولة ، وربما فهموا مغزاها واحتجوا عليه بأنهم فى حاجة إليه وإلى علمه . وحاول عبثا إقناعهم واستعان ببعض الفقهاء ومؤيديه لإقناع الشيخ عيسى ولكن كل المحاولات لم تنجح . ويبدو أن الشيخ عيسى أصبح لا يؤيد عودة الإمامة بعد أن تحسنت علاقته بالسلطان على يد الوزير سليمان كما مر ذكره(١٤٠) .

ولكى ينسى مرارة ذلك قام بزيارة فى داخلية عمان يستطلع فيها قابلية أفكاره مع زعماء القبائل وانصاره من العلماء ، وخلال هذه الجولة وجد الشيخ السالمى التأييد والدعم من الشيخ حمير بن ناصر بن سليمان النبهانى الريامى – زعيم الغافرية ورئيس الجبل الأخضر – كذلك وجد التأييد من بعض الهناوية : العبريين وبنى هناه المعادين للسلطان فيصل ، واتفق الشيخ السالمى مع هؤلاء على القيام بهذا الأمر بعد سنة من ذلك حيث يحتاج الأمر إلى التشاور[١٤١] .

وفى عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م حضر الشيخ السالمى ومؤيدوه من العلماء والأنصار من الشرقية إلى مدينة تنوف حيث مقر الشيخ حمير ابن ناصر النبهانى حسب الاتفاق السابق ، وقيل أن الشيخ السالمى صحبه من العلماء ما يربو عن ٧٠ عالما . وبعد التشاور على مدى ثلاثة أيام اقتضى الرأى عقد البيعة للشيخ سالم بن راشد بن سليمان الخروصى ، وكان تلميذا للشيخ السالمى وصهرا له ، وأنه مستوف شروط الإمامة[١٤٢] وأنه من قبيلة بنى خروص التى معظم أئمة عمان منها .

وافق الجميع على بيعته ، وتم ذلك ، وبهذا تحققت طموحات السالمى وتم إحياء الإمامة بعد انقطاع دام أكثر من ٤٤ عاما ، واستمرت هذه الإمامة فى داخلية عمان حتى أواخر الخمسينات من القرن العشرين . ولكن لم يشهد الشيخ السالمى أدوار تطور هذه الإمامة فقد توفى بعد سنة من تنصيب الإمام سالم[١٤٣] .

هذا هو الدور الذى قام به الشيخ السالمى فى الحياة السياسية ، وكان بجانبه علماء فطاحل أسهموا معه فى إحياء الإمامة ، ونذكر منهم العلامة عامر بن خميس المالكى (١٨٦٣/١٢٨٠ - ١٩٢٧/١٣٤٦)، والشيخ أبو زيد عبد الله بن محمد الريامى (١٨٨٣/١٣٠١ - ١٩٤٤/١٣٦٤) ، والشيخ محمد بن سالم بن زاهر الرقيشى (١٨٨٤/١٣٠٢ - ١٩٦٧/١٣٨٧) ، والشيخ الجليل ماجد بن خميس بن راشد العبرى (١٨٣٦/١٢٥٢ - ١٩٢٧/١٣٤٦م) وغيرهم[١٤٤] .

* * *

هكذا حرص علماء عمان - فى فترة البحث - على المحافظة على أركان الدولة الإسلامية ودعمها وتكريس نظام الإمامة وحماية الدين وأهله ، وتحملوا فى سبيل ذلك المشاق والصعاب دون كلل ، حتى أن بعضهم لقى حتفه من أجل المحافظة على أركان الدولة . وإذا كان الباحث قد استعرض جهود عشرة علماء خلال هذه الفترة فإن هذا لا يعنى أن هذا الدور اقتصر على هؤلاء العلماء العشرة إطلاقا ، وإنما وراء هؤلاء العلماء جمع غفير من العلماء .

ومما يؤكد أن العلماء - فى فترة الدراسة - كانوا يرون بصفة عامة أنه بالإضافة إلى انشغالهم بالعلم ، فإن عليهم دورا فى الحياة السياسية ، بل واجبا عليهم أن يوفوه حقه ، فبالإضافة إلى هذا الدور السياسى الذى استعرضناه فى هذا البحث ، فقد ترك هؤلاء العلماء جملة من المصنفات ، لا تزال مرجعا لكل طالب علم فى شتى الفنون العلمية، الأدبية .

ولا يعنى هذا أن كافة العلماء كانوا منشغلين بالحياة السياسية فى مجتمعهم ، فقد رأينا من العلماء من ثابر من أجل إحياء رسم الإمامة ، والوحدة الوطنية فى ظل حكم إسلامى وشورى وفق إطار الشريعة الإسلامية الغراء ، فى حين وجدنا من العلماء من تشدد فى اتباع الشرع ونصوصه الحرفية دون أن يقيم مشاكل المجتمع ومقتضياته السياسية والإدارية ، ولم ينظر إلى ما يثيره من معارضة أو بطلان إمامه وما سيترتب على ذلك من فتن ومصائب .

ففى القرن الخامس عشر للميلاد وجدنا الشيخ محمد بن سليمان يكافح من أجل بقاء الإمامة ويدعم الإئمة ، ويحافظ على كيانها ووحدتها، بينما نجد فى القرن التالى أن الشيخ أحمد بن مداد يعارض الأئمة ويقدح فى سلوكهم ولا يبالى بما يثيره من معارضات . ولهذا أيده بعض الناس وانتخب إمامين فى وقت واحد لتحقيق أهدافه ، وكانت النتيجة – كما ذكرنا – أن فقدت الإمامة رسمها وانفض الناس نحو حكومة ملكية استغل مؤسسها أوراق العلماء وتداخلهم واختلافهم ، وفاز بنو نبهان بالاستيلاء على نزوى ، وتبعهم الناس الذين يبحثون عن الأمن والأمان فى المجتمع العمانى .

هذا بينما نجح العلامة خميس بن سعيد الشقصى فى عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م فى توحيد كلمة أهل الحد والعقد وجرهم إلى انتخاب ناصر بن مرشد اليعربى إمامًا لعمان ، فالتفت قبائل عمان وعلماؤها حول هذا الإمام ونصرته ، بينما شهد القرن ١٨م جملة من العلماء اختلف دورهم بين التشدد فى تنفيذ الأحكام الدينية وبين اتخاذ الوسطية

والاعتدال دون الاهتمام بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العمانى . وبالتالى عصفت بعمان موجة من التشدد والفتن والاضطراب ذهبت فى نهايتها بدولة اليعاربة (١٦٢٤م – ١٧٤٩م) ، وأتت هذه الأوضاع بأسرة آل بوسعيد حينما نجح مؤسسها أن يحرر عمان من الاحتلال الفارسى . وكاد الأمر يعود إلى اضطرابه فى نهاية القرن حينما ثار أهل نزوى وأيدهم الشيخ أبو نبهان جاعد بن خميس الخروصى حول عدم تطبيق حكم القصاص فى نزوى على بعض الفتوة، ثم امتد إلى معارضة الإمام سعيد بن الإمام أحمد ومحاولة عزله أو خلعه . وانتهى الأمر إلى حكمة ابن الإمام الذى نقل عاصمة والده من الرستاق إلى مسقط ليدير البلاد من هناك بحكمة وليونه بعيدا عن تشدد والده والعلماء المعارضين له .

وأفرز القرن التاسع عشر أحد العلماء البارزين حول إحياء الإمامة فى اربعينات ذلك القرن . ولكن محاولاته فشلت فى جر العلماء إلى رأيه ، فتقاعسوا عن نصرته لأمور رأوها وأسباب غير مواتيه لتحقيق الهدف . ولكن حينما اتفقت الإرادة السياسية مع أغراض العلماء وهدفهم المنشود ، نجح فى إحياء الإمامة فى نهاية الستينات ، ولكن تلك الإمامة انهارت بسرعة حيث اتصفت بأن العلماء فشلوا فى إدارة شئونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فضاقت الرعية بهم وتهاون الناس عن نصرتهم ، وفى النهاية زالت الإمامة بقتل الإمام وقتل مديرها الشيخ سعيد الخليلى مسموما فى قلعة الجلالى .

واستهل القرن العشرين للميلاد بصراع بين القبائل وسلطانها ، بسبب الظروف الاقتصادية والصراعات القبلية والنفوذ الأجنبي وهيمنته على السلطان . وقام الشيخ نور الدين السالمي بتضيق فجوة الصراعات وتقريب وجهات النظر بين الحاكم والمحكوم ، ولكنه فشل في أن ينال ثقة السلطان . ولكنه نجح أن يجمع حوله ٧٠ عالما وزعيمي القبائل العمانية الشيخين حمير بن ناصر النبهاني والشيخ عيس بن صالح الحارثي . وبالتالي تم إحياء الإمامة في ١٩١٣م فاستمرت لمدة ٤٥ عاما حتى تلاشت ، بعد أن سحبت القبائل تأيدها للإمام .

هوامش الدراسة

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية . ص : ٥ .

(٢) انظر فى ذلك ابن حزم . الفصل جـ١ ، البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر . أصول الدين . الجرجانى ، شرح المواقف . جـ٨ .

(٣) الشيخ خميس الشقصى من علماء القرن السابع عشر ومن المؤيدين للإمامة ناصر بن مرشد (١٦٢٤ - ١٦٤٩) انظر أخباره فى : دليل أعلام عمان ؛ ابن رزيق ، الفتح المبين : ٢٦٢ .

(٤) الشقصى ، خميس بن سعيد . منهج الطالبين وبلاغ الراغبين . جـ٨ ص : ٤٢ ؛ انظر أيضًا الكندى ، أحمد . المصنف : ١٠ : ٢٣ .

(٥) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٦) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٧) سورة ص : الآية ٣٨ .

(٨) الحارثى ، مالك بن سلطان . نظرية الإمامة عند الأباضية : ٥ .

(٩) الكندى ، أحمد بن عبد الله . المصنف : ١٠ : ٢٣ .

(١٠) مختصر صحيح مسلم : رقم الحديث : ١٠٦١ : ٢٧٧ .

(١١) صحيح مسلم : جـ١٢ : ص : ٢٤١ .

(١٢) صحيح مسلم : جـ٦ : ص : ٢٢ .

(١٣) صحيح مسلم :جـ٦ : ص : ٣ - ٤ .

(١٤) انظر : العمشاوى ، محمد سعيد . الخلافة الإسلامية . الصمد ، حمد محمد . نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين ؛ عطوان ، حسين . الفقهاء والخلافة فى العصر الأموى .

(١٥) الشيخ موسى بن على بن عزرة (٧٩٢/١٧٧ - ٨٤٨/٢٣٤) انظر أخبـــاره دليل أعلام عمان: ١٥٥ - ١٥٦ ؛ البطاشى ، إتحاف الأعيان: ١ :١٨٢-١٩٠

(١٦) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٤

(١٧) الخروصى ، أبو المؤثر . الأحداث والصفات : ٦٠

(١٨) الشيخ سالم بن سعيد الصائغى من علماء عمان فى النصف الثانى من القـــرن الثامن عشر للميلاد .

(١٩) الصائغى ، سالم بن سعيد ، كنز الأديب وسلافة البيب . مخطوطة .

(٢٠) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٢٧

(٢١) الشقصى ، المرجع السابق . جـ٨ : ص : ٤٢

(٢٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد . المقدمة . ص : ٢١١

(٢٣) الخروصى ، أبو المؤثر الصلت بن خميس . الأحداث والصفات : ٦٠ -٦١

(٢٤) ابن خلدون . تاريخ . جـ١ : ص : ١٩٣

(٢٥) البغدادى ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر . أصول الدين . ص : ٢٧٧

(٢٦) ابن حزم . أبو محمد على بن أحمد الظاهرى . الفصل . جـ٤ ، ص :١٦٦

(٢٧) ابن خلدون . تاريخ . جـ١ : ص : ١٩٤ - ١٩٦

(٢٨) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٦٥ - ٦٦ ؛ انظر أيضا الحضرمى . أبـــو إسحق بن قيس . مختصر الخصال .

(٢٩) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٧٨ - ٧٩

(٣٠) البقلانى ، أبو بكر محمد بن الطيب . التمهيد فى الرد الملحدة .. إلــخ . ص : ١٦٤ وما بعدها .

(٣١) الماوردى ، المرجع السابق : ص : ٣ - ٤

(٣٢) الأشعرى ، مقالات الإسلاميين . ص : ٤٦٠ ، البقلانى ، المرجع السابق . ص : ١٦٤ ؛ البغدادى ، المرجع السابق . ص : ٢٨٠

(٣٣) الأيجى ، المواقف : ٤٠٠ ؛ القلقشندى . مآثر الأناقة : جـ١ : ٤٣

(٣٤) الماوردى ، المرجع السابق : ٤٠

(٣٥) الماوردى ، المرجع السابق : ٧ ؛ ابن حزم . الفصل : ٤ : ١٦٧

(٣٦) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ١٠٠ - ١٠١ ، غباش ، حسين عبيد . عمان : الديمقراطية الإسلامية (١٥٠٠ - ١٩٧٠) ص : ٧٣

(٣٧) البوسعيدى ، مهنا بن خلفان . كتاب لباب الآثار : ٦ : ٣٤٦

(٣٨) سورة المجادلة : الآية ١١

(٣٩) سورة فاطر : الآية ٢٣

(٤٠) القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن : ٧ : ٢١٧

(٤١) انظر الشقصى ، المرجع السابق جـ١ : ٤٠

(٤٢) سورة النحل : الآية ١٦

(٤٣) سورة الزمر : الآية ٩

(٤٤) الأجرى . أخلاق العلماء : ٢٩

(٤٥) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٨٠

(٤٦) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٨١

(٤٧) هاشم ، مهدى طالب . الحركة الأباضية فى المشرق العربى : ٢٩٤

(٤٨) الكندى ، المرجع السابق : ١٠١٠ : ٢٢٩

(٤٩) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٢١٥

(٥٠) معمر ، على بن يحيى . الأباضية بين الفرق الإسلامية ٢ : ١٩٧

(٥١) الأزكوى ، كشف الغمة : ٣٩ – ٤٠

(٥٢) السالمى . تحفة الأعيان : ١ : ٩٦ ؛ هاشم ، حركة الأباضية فى المشرق .

(٥٣) المعولى محمد بن راشد ، قصص وأخبار جرت فى عمان : ٦٤ – ٦٦

(٥٤) ابن رزيق ، حميد بن محمد . الفتح المبين : ٢٣٦ – ٢٣٧

(٥٥) الأزكوى ، كشف اللغمة : ٥٧

(٥٦) الأزكوى ، كشف اللغمة : ٥٨ ؛ السيابى ، عمان عبر التاريخ : ٢ : ١٩٩ – ٢٠٠ ؛ مايلز ، الخليج : ١١٤ – ١٤٢

(٥٧) البطاشى ، سيف بن حمود . إتحاف الأعيان : ١ : ٢٠٢ – ٣٠٠ ، الحارثى، سالم بن حمد ، العقود الفضية : ٢٥٦ – ٢٥٨

(٥٨) الأزكوى ، كشف اللغمة : ٦٩ – ٧٠ ؛ السالمى ، تحفة الأعيان : ١ : ٢٩٥ وما بعدها .

(٥٩) دليل أعلام عمان : ١٤٣ ، البطاشى ، إتحاف الأعيان : ١ : ٢٣٦

(٦٠) البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٣٦

(٦١) البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٥٢

(٦٢) دليل أعلام عمان : ٢٨ ، البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٥٣

(٦٣) دليل أعلام عمان : ٨٢ ، البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٧٣

(٦٤) انظر حول ذلك ابن مداد: ٢٢ – ٢٣؛ الحارثى . العقود الفضية: ٢٧٧–٢٧٨

(٦٥) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٠ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ١ : ٣٢٣ – ٣٢٤ ؛ الحارثى ، عبد الله . بنو نبهان .

(٦٦) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٠ ؛ ابن قيصر ، سيرة ناصر بن مرشد ؛ ابن رزيق ، الفتح المبين : ٢٢١

(٦٧) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٠ ؛ ابن قيصر ، سيرة ناصر بن مرشد ؛ ابن رزيق ، الفتح المبين ؛ السيار ، عائشة . دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا ؛ عوض ، عبد العزيز . دراسات فى تاريخ الخليج : ٢ : ٦١ وما بعدها .

(٦٨) السالمى ، محمد . نهضة عمان . لاندن . عمان منذ ١٨٥٦ مصيرا ومسيرا . شهداد . إبراهيم محمد إبراهيم . الصراع الداخلى فى عمان خلال القرن العشرين .

al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid and Imamate Revival in oman 1331/1913-1338/1920.(thesis, Ph. D. Unpublished, University of Leeds, 1994.

(٦٩) غباش ، حسين عبيد . عمان : الديمقراطية الإسلامية (١٥٠٠ – ١٩٧٠). ط.١ : بيروت : ١٩٩٧ : ٣٤٧ .

(٧٠) انظر البطاشى عن علماء هذه الفترة : المرجع السابق : ٢ : ٥ – ٩ .

(٧١) البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ٦ – ٧ ؛ دليل أعلام عمان : ١٤٦ .

(٧٢) الشيخ أحمد كان من أكابر علماء عصره وممن تصدر للفتوى والقضاء والمقدم فى رياسة العلماء آنذاك ولا غرابة أن نرى كتاب منهاج العدل وهو فى ٣ مجلدات يحتوى فتاوى هذا العالم ، فهو قاضى السلطان سليمان بن مظفر بن سليمان بن مظفر بن نبهان النبهانى (ت : ٨٧١هـ/١٤٦٦م) انظر البطاشى : المرجع السابق : ٢ : ٧ – ١٢ .

(٧٣) ابن مداد : ٥٤ ؛ البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ١٩ وما بعدها ؛ دليل أعلام عمان : ١٦٩ .

(٧٤) السالمى ، عبد الله . تحفة الأعيان : ١ : ٢٧٠ .

(٧٥) السالمى ، عبد الله . تحفة الأعيان : ١ : ٢٧٠ .

(٧٦) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٢٠ ؛ المعولــى ، قصــص وأخبــار : ٨٤ ؛ البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ١٣ .

(٧٧) البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ٧٦ ؛ دليل أعلام عمان : ٢٩ .

(٧٨) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٥ وما بعدها .

(٧٩) البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ٧٥ ، ١٩٧ وما بعدها .

(٨٠) السالمى ، تحفة الأعيان : ١ : ٣٨٤ .

(٨١) الأزكوى ، المرجع السابق : ٨٠ . انظر أيضا البطاشى ، المرجع الســابق : ٢ : ٧٧ ، السالمى ، تحفة الأعيان : ١ : ٣٨٤ – ٣٨٥ .

(٨٢) السالمى ، تحفة الأعيان : ٢ : ٣ ؛ دليل أعلام عمان : ٩٥ .

(٨٣) السالمى ، تحفة الأعيان : ٢ : ٣ ؛ دليل أعلام عمان : ١٥٢ .

(٨٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٣ .

(٨٥) انظر أخبار الشيخ خميس فى : ابن قيصر ، سيرة الإمام ناصر بن مرشــد ؛ الأزكوى ، كشف الغمة : صفحــات مختلفــة ؛ الســالمى ، اللمعــة : ٢٥ ؛ السيابى، إسعاف الأعيان : ٢٤ ؛ دليل أعلام عمان : ٥٩ .

(٨٦) الشقصى ، خميس بن سعيد . منهج الطالبين : ١ : المقدمة : ٥ – ٨ .

(٨٧) يذكر الشيخ السالمى فى التحفة : ٢ : ١١٠ – ١١١ أنه حصل على رســالة قد بعثها سعيد بن بشير الصبحى لإخوانه يذكر فيها العلماء الذين عقدوا البيعــة الإمام سلطان بن سيف .

(٨٨) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٦٩ .

(٨٩) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٦٩ .

(٩٠) ابن رزيق . الفتح المبين : ٣٠١ .

(٩١) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٧٠ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٠١ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١١٤ - ٥

(٩٢) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٧٦ ؛ المعولى ، قصص وأخبار : ١٣٦ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٠١ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١١٨

(٩٣) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٩٠ ؛ المعولى ، قصص وأخبار : ١٥٤ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٢٠ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٣٤

(٩٤) السيابى ، عمان عبر التاريخ ٢ : ٨٦

(٩٥) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٩٥ ؛ المعولى ، قصص وأخبار : ١٥٥ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٠

(٩٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٠

(٩٧) ابن رزيق ، المرجع السابق : ٢٢٦

(٩٨) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١١٠ - ١١١

(٩٩) انظر الصبحي ، سعيد بن بشير . الجامع الكبير . تحقيق سالم بن حمد الحارثى مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة ١٩٨٦

(١٠٠) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٢

(١٠١) السيابى ، عمان عبر التاريخ : ٤ : ٨٩

(١٠٢) السيابى ، عمان عبر التاريخ : ٤ : ٩١

(١٠٣) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٤

(١٠٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٤ - ١٤٧

(١٠٥) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٨

(١٠٦) الأزكوى ، المقتبس : ١٤٩

(١٠٧) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٠

(١٠٨) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦١

(٢٠٩) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦١ - ١٦٣

(١١٠) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٦ - ١٧٠

(١١١) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٦ - ١٧٠

(١١٢) البطاشى ، سيف بن حمود ، الطالع السعيد نبذ من تاريخ الإمام أحمد بن سعيد : ١١٤

(١١٣) الحارثى ، عبد الله بن سالم . أضواء : ٣١ - ٣٣ ؛ دليل أعلام عمان : ٤٦ ؛ الهاشمى ، سعيد بن محمد . أبو نبهان جاعد بن خميس الخروصى (ثقافته : شيوخه وتلاميذه) .

(١١٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦١

(١١٥) الخصيبى ، محمد بن راشد . شقائق النعمان : ١ : ١٣٩ - ١٤٨ ؛ الهاشمى ، المرجع السابق ؛

(١١٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٩

(١١٧) نفسه : ٢ : ١٧٨

(١١٨) المسكرى ، عبد الله بن سعيد . المنثور فى علم المنشور . ورقة ٩

(١١٩) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٨٨

(١٢٠) الأزكوى ، المقتبس . ١٦٣

(١٢١) ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٩٢ ، السيابى ، المرجع السابق : ٤ :١٨٥

(١٢٢) ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٩٢

(١٢٣) السيابى ، المرجع السابق : ٤ : ١٨٤ - ١٨٥

(١٢٤) انظر عن أحوال الشيخ سعيد ، المنتدى الأدبى ، قراءات فى فكر الخليلى : ٣٢ ، ٩٠ ـ ٩٥ ، ١١١ ـ ٢٠٩ ؛ الحارثى ، عبد الله . أضواء ٤٦ ـ٤٤٨؛ دليل أعلام عمان : ٧٩

(١٢٥) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٨ ، ابن رزيق ، المرجع السابق:٥٤٨

(١٢٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٨

(١٢٧) الشيخ جميل بن خميس مؤلف كتاب « قاموس الشريعة » فى ٩٢ مجلدًا ويعتبر من أكبر الكتب العمانية في الفقة الأباضية . طبع منه حتى الآن ١٩ مجلدًا .

(١٢٨) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٨ - ٢١٩ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٥٤٨ - ٥٤٩

(١٢٩) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٩

(١٣٠) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٩

(١٣١) العبرى ، إبراهيم بن سعيد . تبصرة المعتبرين فى تاريخ العبريين . مخطوطة ورقة ١٤٠

(١٣٢) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢٠

(١٣٣) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢١

(١٣٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢٣

(١٣٥) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢٧ وما بعدها .

(١٣٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٧٨ - ٢٨٣

(١٣٧) انظر سيرة الشيخ السالمى فى كتاب ابنه محمد بن عبد الله السالمى ، نهضة الأعيان : ٩٩ - ١٢٦

(١٣٨) دليل أعلام عمان : ١١٢ - ١١٣ ؛ الحارثى ، أضواء ٧٨ - ٨٢ ؛ المنتدى الأدبى ، قراءات فى فكر السالمى : ٤٤ - ٦٣ ، ٩٢ - ١١٤

(١٣٩) الحارثى ، محمد . نهضة الأعيان : ١٣٦ - ١٣٧

(١٤٠) al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid

(١٤١) السالمى . محمد . نهضة الأعيان : ١٢٨ - ١٢٩

(١٤٢) السالمى . محمد . نهضة الأعيان : ١٦٧ - ١٦٨

(١٤٣) السالمى . محمد . نهضة الأعيان : ١٣٠ - ١٣٩ ،

al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid

(١٤٤) انظر سيرة هؤلاء العلماء فى : السالمى . محمد . نهضة الأعيان فى صفحات مختلفة ، دليل أعلام عمان : حسب تسلسل الأسماء .

المصادر والمراجع

- ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد . الفصل فى الملـــل والأهــواء والنحــل . ط. ٣ ، بيروت : ١٩٨٨

- ابن خلدون ، عبد الله بن محمد . مقدمة ابن خلدون . دار الجيل . بيروت ؟

- ------- ، تاريخ ابن خلدون . دار إحياء التراث العربى . بيروت ؟

- ابن رزيق ، حميد بن محمد . الشعاع الشائع باللمعان . مسقط : ١٩٧٨

- ----------- ، الفتح المبين فى سيرة البوسعيديين . مسقط : ١٩٨٤

- ابن قيصر ، عبد الله بن خلفان . سيرة الإمام ناصر بن مرشد . وزارة التراث القومى.

- ابن مداد . عبد الله . سيرة ابن مداد . وزارة التراث القومى ، العــــدد : ٥٦ . يوليــو : ١٩٨٤

- الآجرى ، أخلاق العلماء .

- الأزكوى ، سرحان بن سعيد . كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة . تحقيق أحمد عبيدلــى. دلمون للنشر . قبرص : ١٩٨٥

- ----------- ، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمــة . تحقيق عبد المجيد القيسى . ط : ٢ ، مسقط : ١٩٨٦م .

- الأشعرى ، أبو الحسن على بن إسماعيل . مقالات الإسلاميين واختلاف المصليــن . ط: ٣ ، ١٩٨٠

- اطفيش ، محمد بن يوسف . شرح كتاب النيل وشفاء العليل . جـ : ١٤ . مســـقط : ١٩٨٩

- الإيجى : أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد . المواقف فى علم الكلام . عالم الكتــب ، بيروت : ؟

- البطاشى ، سيف بن حمود . إتحاف الأعيان . ٢جـ ، مســـقط : جــ١ : ١٩٩٢ ، جــ٢ : ١٩٩٤

- ------------ ، الطالع السعيد نبذ من تاريخ الإمام أحمد بن سعيد . مسقط : ١٩٩٧

- البغدادى ، أبو المنصور عبد القاهر بن طاهر . أصول الدين . ط. ١ استنبول : ١٩٢٨

- البقلانى ، أبو بكر محمد بن الطيب . التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة . القاهرة : ١٩٤٧

- البوسعيدى ، مهنا بن خلفان . كتاب لباب الآثار . مسقط : ١٩٨٥

- الجرجانى ، على بن محمد . شرح المواقف . ط. ١ القاهرة : ١٩٠٧

- الحارثى ، سالم حمد . العمود الفضية . مسقط : ١٩٨٣

- الحارثى ، عبد الله بن سالم . أضواء على بعض أعلام عمان قديمًا وحديثًا . مسقط : ١٩٩٤م

- الحارثى ، مالك بن سلطان . نظرية الإمامة عند الأباضية . ط. ١ . مسقط : ١٩٩١

- الحضرمى ، أبو إسحاق بن قيس . مختصر الخصال . مسقط : ١٩٨٣

- حلمى ، مصطفى (د) . نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى . دار الدعوة ، الإسكندرية.

- الخروصى ، أبو المؤثر الصلت بن خميس . كتاب الأحداث والصفات . تحقيق جاسم ياسين محمد الدرويش . ط. ١ مسقط : ١٩٩٦

- الخصيبى ، محمد بن راشد . شقائق النعمان على سموط الجمان فى أسماء شعراء عمان . ٣جـ . ط. ١ ، مسقط : ١٩٨٤

- خليفات ، عوض محمد . الأصول التاريخية للفرقة الأباضية . مسقط ١٩٨٨

- -------------- ، نشأة الحركة الأباضية . عمان ١٩٧٨

- الخطيب ، عبد الكريم . الخلافة والإمامة . ط. بيروت : ١٩٧٥

- درويش ، مديحة أحمد (د) . سلطنة عمان فى القرنين ١٨ و ١٩ . ط.١ ، جدة : ١٩٨٢

- دليل أعلام عمان . جامعة السلطان قابوس . ط.١ مسقط : ١٩٩١

- الرفاعي ، أنور ، الإسلام فى حضارته ونظمه . ط: ٣ ، دار الفكر ، دمشق : ١٩٨٦

- الزركلى ، خير الدين . الأعلام . ط.٦ بيروت : ١٩٨٤

- السيابى ، سالم بن حمود . إسعاف الأعيان فى أنساب أهل عمان . دمشق : ١٩٦٥

- ------------ ، عمان عبر التاريخ . ٤ مجلدات ، وزارة التراث القومى ، مسقط.

- ------------ ، العنوان . دمشق ، ١٩٦٥

- السالمي ، عبد الله بن حميد . تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان . مسقط : ١٩٨١

- ------------ ، اللمعة المرضية من أشعة الأباضيــة . وزراة الــتراث القومــى ، ١٩٨١

- السالمى ، محمد بن عبد الله . نهضة الأعيان بحرية أهل عمان .

- السعدى ، جميل بن خميس . قاموس الشريعة . مسقط : ١٩٨٣

- السيار ، عائشة على . دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا . ط. ١ . بيروت : ؟

- الشقصى ، خميس بن سعيد . منهج الطالبين وبلاغ الراغبين . تحقيق سالم بـــن حمــد الحارثى . ط: ١ ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط : ١٩٧٩م .

- الشمرى ، عبد الله محمد . الفهرست المفيد فـــى تراجــم أعــلام الخليــج . الخــبر : ١٤١٣هـ

- شمس الدين . الشيخ محمد مهدى . نظام الحكم وإدارة فى الإســلام . ط. ٢ بــيروت : ١٩٩١

- شهدات ، إبراهيم محمد (د) . الصراع الداخلى فى عمان خلال القـــرن العشــرين . ط.١ الدوحة : ١٩٨٩

- الصبحى ، سعيد بن بشير . الجامع الكبير .

- الصمد ، محمد بن حمد . نظام الحكم فى عــهد الخلفــاء الراشــدين . ط.١ بــيروت : ١٩٩٤

- عبد الرازق ، على . الإسلام وأصول الحكم . نقد وتحقيق د. ممدوح حقى . بيروت:؟

- العبرى ، إبراهيم بن سعيد . تبصرة المعتبرين فى تاريخ العبريين . مخطوطة .

- عطوان ، حسين . الفقهاء والخلافة فى العصر الأموى . ط. ١ بيروت : ١٩٩١

- العمشاوى ، محمد سعيد . الخلافة الإسلامية . ط. ١ ، القاهرة : ١٩٩٢

- عوض ، عبد العزيز (د) . دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث . بيروت ١٩٩١

- غباش ، حسين عبيد غانم (د) . عمان : الديمقراطية الإسلامية : ١٥٠٠ – ١٩٧٠ ترجمة د. انطوان حمصى . ط. ١ بيروت : ١٩٩٧

- الفارسى ، ناصر بن منصور . نزوى عبر الأيام . نادى نزوى . ط: ١ ، ١٩٩٤م

- قاسم ، جمال زكريا . الخليج العربى . ٤ مجلدات ، طبع فى سنوات مختلفة .

- ----------- ، دولة بوسعيد فى عمان وشرقى أفريقيا . القاهرة .

- القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ، الجامع لأحكام القرآن . جـ٧ ، ط. ١ دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٨٨

- القشيرى ، الإمام مسلم بن الحجاج . صحيح مسلم . بيروت : ؟

- ----------- ، مختصر صحيح مسلم . شرح ومراجعة : سعيد اللحام بيروت : ١٩٩١

- القلقشندى ، أحمد بن محمد . مآثر الإنافة فى معالم الخلافة . تحقيق : عبد الستار فراج. عالم الكتب . بيروت : ؟

- الكندى ، أحمد بن عبد الله . المصنف . جـ:١٠ مسقط : ١٩٨٣

- الكندى ، محمد بن إبراهيم . بيان الشرع . جـ : ٤ مسقط : ١٩٨٤

- كيلى ، جون . بريطانيا والخليج الفارسى ١٧٩٥ – ١٨٧٠ ، مجلدين (مترجم) .

- لاندن ، روبرت جيران . عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا مصيرا . وزارة التراث القومى .

- لويمر ، ج . ج . دليل الخليج . ١٤ مجلدا (مترجم) .

- مايلز ، س.ب . الخليج بلدانه وقبائله . (مترجم) .

- الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد . الإحكام السلطانية . بيروت : ١٩٧٨

- مجهول المؤلف . تاريخ أهل عمان . تحقيق سعيد عاشور .

- المسكرى ، عبد الله بن سعيد . المنثور فى العلم المنشور . مخطوطة : بمكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدى .

- معمر ، على يحيى . الأباضية بين الفرق الإسلامية . مسقط : ١٩٨٦

- المعولى ، أبو سليمان محمد بن عامر . قصص وأخبار جرت فى عمان .

- المنتدى الأدبى . قراءات فى فكر السالمى (حصاد ندوة عن السالمى) . مسقط : ١٩٩٢

- ------------ ، قراءات فى فكر الخليلى (حصاد ندوة عن الخليلى) . مسقط : ١٩٩٤

- هاشم، مهدى طالب . الحركة الأباضية فى المشرق العربى . ط. ١ بغداد : ١٩٨١

al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid and Imamate Revival in Oman 1331/1913-1338/1920, (thesis, Ph. D. Unpublished, University of Leeds, 1994.

- الهاشمى ، سعيد بن محمد . أبو نبهان بن خميس الخروصى : ثقافته : شيوخه وتلاميذه. بحث قدم إلى ندوة إحياء ذكرى أبى نبهان : ١٤ - ١٦ ديسمبر ١٩٩٦ . المنتدى الأدبى السيب .

- وزارة الإعلام . عمان فى التاريخ . لندن : ١٩٩٥

- وزارة التراث القومى . حصاد ندوة الدراسات العمانية : نوفمبر ١٩٨٠ . ١٠جـ .

- يوسف ، محمد خير رمضان . تتمة الأعلام للزركلى . ٢جـ ، ط. ١ بيروت ١٩٩٨

الملاحـق

(أ) قائمة بأسماء العلماء مع الأئمة :

القرن الخامس عشر

١ – الشيخ محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج اليحمدى الازدى

الإمام عمر بن الخطاب ابن محمد الخروصى (١٤٨٠/٨٨٥ – ١٤٨٠/٨٩٤)

القرن السادس عشر

٢ – الشيخ أحمد بن مداد بن عبد الله بن مداد الناعبى

الإمام محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٠٠/٩٠٦ – ١٥٣٥/٩٤٢)

الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٣٥/٩٤٢ – ١٥٥٦/٩٦٤)

القرن السابع عشر

٣ – الشيخ الفقيه العلامة خميس بن سعيد بن على الشقصى

الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى (١٦٢٤/١٠٣٤ – ١٦٤٩/١٠٥٩)

القرن الثامن عشر

٤ – الشيخ عدى بن سليمان بن راشد بن حسن الذهلى (ت : ١١٣٤هـ/١٧٢٢م)

الإمام سلطان بن سيف بن سلطان اليعربى (١٧١١/١١٢٣ – ١٧١٨/١١٣١)

الإمام مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربى (١٧١٨/١١٣١ – ١٧٢١/١١٣٤)

٥ – الشيخ ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد الناعبى

الإمام محمد بن ناصر بن عامر الغافرى (١٧٢٤/١١٣٧ – ١٧٢٨/١١٤٠)

الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٧٢٨/١١٤٠ – ١٧٣٢/١١٤٥)

٦ – الشيخ سعيد بن بشير بن محمد الصبحى (ت : ١١٥٠هـ/١٧٣٧م)

الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٧٢٨/١١٤٠ – ١٧٣٢/١١٤٥)

٧ - الشيخ حبيب بن سالم بن سعيد بن محمد أمبوسعيدى

الإمام بلعرب بن حمير بن سلطان اليعربى (١١٥٨/١٧٤٥ - ١١٦٢/١٧٤٩)

الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدى (١١٢٣/١٧٤٩ - ١١٩٨/١٧٨٢)

٨ - الشيخ جاعد بن خميس بن مبارك الخروصى (١١٤٧/١٧٣٥ - ١٢٣٧/١٨٢١)

الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدى (١١٢٣/١٧٤٩ - ١١٩٨/١٧٨٢)

الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى (١١٩٨/١٧٨٢ - ١٢٢٥/١٨١٠)

القرن التاسع عشر

٩ - الشيخ سعيد بن خلفان بن أحمد بن صالح الخليلى(١٢٢٦/١٨١١ - ١٢٨٧/١٨٧١)

الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس بن الإمام(١٢٨٥/١٨٦٨ - ١٢٨٧/١٨٧١)

القرن العشرين

١٠ - الشيخ عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى (١٢٨٦/١٨٦٩ - ١٣٣٢/١٩١٤)

الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصى (١٣٣١/١٩١٣ - ١٣٣٨/١٩٢٠)

(ب) أئمة عمان خلال العصور الحديثة :

١ - الإمام عمر بن الخطاب بن محمد الخروصي (١٤٨٠/٨٨٥ - ١٤٨٠/٨٩٤)

٢ - الإمام محمد بن سليمان بن محمد بن مفرج (١٤٨٠/٨٩٤ - ؟)

٣ - الإمام عمر بن الشريف (؟ - ؟)

٤ - الإمام أحمد بن محمد الربخى (؟ - ؟)

٥ - الإمام أبو الحسن بن عبد السلام (؟ - ؟)

٦ - الإمام محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٠٠/٩٠٦ - ١٥٣٥/٩٤٢)

٧ - الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٣٥/٩٤٢ - ١٥٥٦/٩٦٤)

٨ - الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الله القرن المنحى (١٥٥٩/٩٦٧ - ؟)

٩ - الإمام عمر بن قاسم الفضيلى (؟ - ؟)

١٠ - الإمام عامر بن راشد بن محمد بن سعيد (١٥٦٨/٩٧٦ - ؟)

١١ - الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى (١٦٢٤/١٠٣٤ - ١٦٤٩/١٠٥٩)

١٢ - الإمام سلطان بن سيف بن مالك اليعربى (١٦٤٩/١٠٥٩ - ١٦٨٠/١٠٩١)

١٣ - الإمام بلعرب بن سلطان بن يوسف اليعربى (١٦٨٠/١٠٩١ - ١٦٩٢/١١٠٤)

١٤ - الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٦٩٢/١١٠٤ - ١٧١١/١١٢٣)

١٥ - الإمام سلطان بن سيف بن سلطان اليعربى (١٧١١/١١٢٣ - ١٧١٨/١١٣١)

١٦ - الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٧١٨/١١٣١ - أكثر من مرة)

١٧ - الإمام مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربى (١٧١٨/١١٣١ - ١٧٢١/١١٣٤)

١٨ - الإمام يعرب بن بلعرب بن سلطان بن سيف (١٧٢١/١١٣٤ - سنة واحدة)

١٩ - الإمام محمد بن ناصر بن عامر الغافرى (١٧٢٤/١١٣٧ - ١٧٢٨/١١٤٠)

٢٠ - الإمام سلطان بن مرشد بن عدى اليعربى (١٧٤١/١١٥٤ - ١٧٤٤/١١٥٦)

٢١ - الإمام بلعرب بن حمير بن سلطان اليعربى (١٧٤٥/١١٥٨ - ١٧٤٩/١١٦٢)

٢٢ – الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدى (١١٢٣/١٧٤٩ – ١١٩٨/١٧٨٢)

٢٣ – الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى (١١٩٨/١٧٨٢ – ١٢٢٥/١٨١٠)

٢٤ – الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس (١٢٨٥/١٨٦٨ – ١٢٨٧/١٨٧١)

٢٥ – الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصى (١٣٣١/١٩١٣ – ١٣٣٨/١٩٢٠)

٢٦ – الإمام محمد عبد الله بن سعيد الخليلى (١٣٣٨/١٩٢٠ – ١٣٧٣/١٩٥١)

٢٧ – الإمام غالب بن على بن هلال الهنائى (١٣٧٣/١٩٥٣ – ١٣٧٥/١٩٥٥)

نقشان كتابيان يؤرخان لعمارة

دار الحميدية بمكة المكرمة

د. عادل بن محمد نور غباشي(*)

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة نقشين كتابيين يؤرخان لعمارة دار « الحميدية » التي اتخذها الوالي العثماني مقرا للولاية في البلد الحرام منذ عام ١٣٠٢ هـ ، وتدور هذه الدراسة حول ثلاثة محاور ، اختص الأول منها ببيان تاريخ بناء الدار وسبب تسميتها بالحميدة وصفة بنائها وأهمية موقعها بين أحياء البلد الحرام . وتناول المحور الثاني النقشين الكتابيين موضوع الدراسة من حيث التعريف بهما وقراءتهما، وبيان صيغة كل منهما والملحوظات الفنية . أما المحور الثالث فعالج التعريف بالأسماء والألقاب الواردة في النقشين ، وخلصت الدراسة إلى عد هذه الدار أحد الدور المهمة في البلد الحرام باعتبارها مقرا للولاية حيث لم تبن دار للولاية بمكة قبلها ، مما يكشف عن عناية العثمانيين بتطوير مركز الوالي في الحجاز .

أولا : تاريخ البناء وأهمية الموقع :

بناء على مقررات مؤتمر لندن في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م . أرغم محمد علي باشا على الخروج من الجزيرة العربية والشام والاكتفاء بحكم مصر ، فاستعاد العثمانيون قوتهم في الحجاز[١] ، وأخذوا في تثبيت دعائم حكمهم بنقل مقر حكم والي الحجاز إلى مكة المكرمة[٢] ، وقاموا باستئجار مبنى لهم فيها ليكون مقرا للحكم[٣] ، مما يظهر أهمية بناء دار لهذه الوظيفة تكون بديلا عن استئجار أخرى ، ربما كانت غير ملائمة لتحقيق وظيفتها .

(*) أستاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الإسلامية – جامعة أم القرى .

وتعددت الروايات فى تاريخ بناء دار الحكم (الحميدية) ، حيث تذكر إحداهـا أنها من بناء والى الحجاز عثمان نورى باشا دون تحديد سنة لذلـك[٤] ، وورد فـى أخرى أنها « أنشئت فى أول عـهد السـلطان عبد الحميـد الثـانى[٥] »، سـنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م[٦] ، وكذا فى مطلع القرن الرابع عشر للهجرة[٧] ، وفـى سـنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م[٨] ، ونظراً لورود هذا التاريخ فى النقشين موضـوع الدراسـة (اللوحتان رقما ١ ، ٢) أرقاماً (١٣٠٢هـ) وتاريخاً بحساب الجمل ، نرجـح أن يكون ذلك التاريخ هو تاريخ إتمام البناء . وقد جاء التاريخ بحساب الجمل كما يلى:

النقش الأول الشطر الثانى من السطر الثالث :

٣٤٠ ٩٠ ٦٦ ٤٩٤ ٣١٢ = ١٣٠٢

نصر من الله وفتح قريب

النقش الثانى بعد السطر الثالث بعد كلمة أرخ :

٧٨ ٧١ ٩٠ ١٣٢ ٦٤٧ ١٣٣ ١٥١ = ١٣٠٢

أرخ المجد ونادى فى العلا أدخلوها بسلام آمنين

أما عن تاريخ بدء أعمال البناء فيرجح أنها بدأت بعد تعيين نورى باشا واليـاً على الحجاز فى شهر جمادى الآخرة أو رجب أو شعبان عام ١٢٩٩هـ/ ٩ إبريـل أو مايو أو يونيو ١٨٨٢م ؛ لتعدد روايات المؤرخين فـى الإشـادة بجـهوده فـى بنائها[١٠] ، وورود اسمه فى النقشين ، منشـئاً ومشـيداً لـهذه الـدار (اللوحتـان رقما١،٢)، وبعد بنائها استخدمت مقراً للوالى وأقسـام الدوائـر الحكوميـة وإدارة التحريرات وإدارة الحرم الشريف ، علاوة على اسـتخدامها مقـراً لإقامـة فرقـة العساكر النظامية[١١] ، وأطلق عليها اسم (دار الحميدية) نسبة للسلطان عبد الحميد الثانى[١٢] (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ/١٨٧٦ - ١٩٠٩م) .

وبعد أن يسر الله للملك عبد العزيز ضم مكة إلى حكمه عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م اجتمع فى بهو هذه الدار بعلماء البلد الحرام والمجاورين ، وألقى فيهم خطاباً بين فيه عظمة دين الإسلام وواقع حال أهله[١٣] ، ثم استخدمت مجمعاً للدوائر الحكومية فكان منها الشرطة ، المحكمة المستعجلة ، كاتب عدل ، مجلس الشورى ، الأحوال المدنية ، مديرية المعارف ، مديرية الأوقاف ، مكتبة وزارة الخارجية[١٤] ، واستمرت فى أداء وظيفتها إلى أن تم إزالة بنائها ؛ للإفادة من أرضها فى توسعة المسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م[١٥] .

وفيما يخص صفة بنائها فلم نعثر - حتى الآن ١٤١٩هـ/١٩٩٩م على حد علمنا - على مخطط للمسقط الأفقى لهذه الدار . وبناءً على تحديد أبعاد محيطها الخارجى فى خارطة مصلحة المساحة المصرية التى أعدت عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م ، يمكن القول بأن دار الحميدية أخذت شكلاً مستطيلاً طوله ٥٧م وعرضه ٢١م (شكل رقم ٢) ، ووصفها بعض المؤرخين بأنها مكونة من طابقين[١٦] ، متسمة بضخامة بنائها[١٧] .

ومن خلال صفة أبعاد محيطها كما سبق بيانه (شكل رقم ٢) وصورها الفوتوغرافية ، اللوحات ٣ ، ٤ ، ٥) يمكن التعرف على بعض ملامح بنائها كما يلى :

١ - تتكون الدار من طابقين كما سبق بيان ذلك فى رواية تاريخية .

٢ - لما كانت الأبعاد الخارجية للمبنى على شكل مستطيل وكان ارتفاعه طابقين ، فقد أثر ذلك على تصميم الواجهات ، فأخذ كل منها شكلاً مستطيلاً ، حددت ملامحه بأفاريز رأسية وأفقية نتج عنها تحديد مواقع النوافذ والأبواب ، فكان ذلك من أهم الأساليب فى كسر ملل الإحساس بالأفقية .

٣ - استخدم الخشب فى عمل النوافذ ذات القلاب ، لدخول الضوء والهواء عند الحاجة .

٤ – استخدم العقد المدبب لتحلية مدخل الدار ، وكرر ذلك فى نافذة كبيرة فى الـدور العلوى تقع فوق المدخل مباشرة ، مما جعل العناصر المعمارية وحدة تزيد مـن تناسق وانسجام الواجهات .

٥ – أفاد المعمار من الفراغات المحيطة بموقع الدار : فعمد إلى فتح النوافـــذ فـى الواجهات الأربع ، مما أضفى على المبنى جمالاً ، وسهل حركة مرور الـــهواء من الجهات الأربع لتبريد المبنى وتكييفه بما يتفق مـــع منـاخ مكـة المتسـم بالحرارة فى معظم فصول السنة .

٦ – تم تجصيص المبنى خارجياً مما يجعلنا نرجح تنفيذ ذلك داخلياً .

٧ – استخدمت الزخارف المجسمة على شكل عنصـــر كأســى فــوق الأركـــان ، وأنصاف أعمدة وتيجان تحف بالنوافذ ، وجامة تتفرع منها فروع نباتية فـــوق النوافذ ، وأفاريز أفقية متدرجة تفصل بين الطابق الأرضى والعلــوى وكذلــك بين دروة السطح والطابق العلوى ، ولا يظهر من اللوحات مادة الزخرفـة ، إلا أننا نرجح أن تكون من الجص .

أما عن أهمية موقع الدار ، فيظهر من وقوعها فى أجيـــاد بمقـــابل الضلـــع الجنوبى للمسجد الحرام ، وبالتحديد أمام باب هانئ (شكل رقم ٢) ، حيث كان يقع أمام هذة الدار من جهة المسجد الحرام دار فخمة تحول بين دار الحكومة (الحميدية) والمسجد الحرام ، وتمنع موظفى الولاية من رؤية الكعبة المشرفة ، وبالبحث عنـــها وجد أنها بنيت بغير حق فى موضع كان يشغله مسجد صغير ، فأرضى الوالى أهـل الدار وأمر بهدمها[١٨] . وفيما يلى استعرض لبيان مميزات موقع دار الحميدية فـــى أجياد :

١ – يعد حى (أجياد) من أجمل أحياء مكة المكرمة : لاشتماله على تلال جبليـــة مشرفة على المسجد الحرام ، وتميزه بسعة طرقه وكثرة بيوتـــه المتطـــورة ،

التى كان يسكنها – غالبا – موظفو الولاية من الأتراك وفى مقدمتهم الوالى[١٩]، مما ترتب عليه سهولة انتقال الموظفين من بيوتهم إلى مقر عملهم فى دار الحكومة (الحميدية) .

٢ – تميز موقع دار (الحميدية) فى (أجياد) بقربه من مواقع الثكنات العسكرية ، وقلعة أجياد ، ومخيمات العساكر ، وميدان الاستعراض العسكرى ، وعدد من المصالح الحكومية[٢٠] ، ومقر إقامة الشريف أمير مكة فى (الغزة)[٢١] ، مما سهل عملية الإشراف عى العساكر والاتصال بأمير مكة فى وقت قصير .

٣ – جاء موقع الدار على أهم شوارع مكة فى ذلك العصر ، حيث كان يبدأ من منطقة الشيخ محمود وحارة الباب مارا بباب العمرة والتكية المصرية وشارع المسعى والقشاشية وسوق الليل إلى ناحية مكة من جهة المعلاه[٢٢] ، (شكل رقم ١) ، وهذا يعنى سهولة الوصول إلى (الحميدية) من معظم أحياء مكة المكرمة ، علاوة على أن ذلك ربما لفت قاصدى بيت الله الحرام إلى رؤيتها ، فأعطى الحكومة واجهة إعلامية فى ذلك العصر .

٤ – كانت أرض الدار فضاء ملك الدولة[٢٣] ، مما وفر ثمنها ، وجاء متفقا مع ضعف الموارد المالية التى كانت تعانى منها الدولة فى ذلك الوقت[٢٤] .

ثانيا : التعريف بالنقشين وقراءتهما[٢٥] :

النقش الأول :

الموقع : كان النقش مثبتا فوق الباب الشرقى لدار (الحميدية)[٢٦] ، وهو محفوظ حاليا بمتحف آثار الحرم المكى الشريف .

مادته : رخام .

أبعاده: ٤١,٥سم × ٤١,٥ سم

عدد أسطره: ثلاثة أسطر انقسم كل منها إلى خرطوشين مستطيلين حليت أركانـــــها بأشكال ربع دائرية .

خطـــــه : ثلث نفذ بطريقة الحفر البارز .

مضمونه : تأسيسى .

تاريخـــه : ١٣٠٢هـــ .

لوحـــــة : ١

نصـــــه :

١ – دار حوت بسعد[٢٧] سلطاننا	عبد الحميد كل حسن وطيب
٢ – أشادها بحــــــى أم القـــرى	عثمان وإلينا بشكل عجيب
٣ – بشرى لنا قد جاء تاريخهـــا	نصر من الله وفتح قريب
	١٣٠٢[٢٨] ف

النقش الثانى :

الموقـــــع : كان النقش مثبتاً فوق الباب الغربى لـــدار (الحميديـــة)[٢٩] ، وهـــو محفوظ حالياً بمتحف آثار الحرم المكى الشريف .

مادتـــــــه : رخام .

أبعـــــــاده : ٤١,٥سم × ٤١,٥ سم .

عدد أسطره : ثلاثة أسطر انقسم كل منها إلى خرطوشين مستطيلين حليت أركانـــــها بأشكال ربع دائرية .

خطـــــه : ثلث نفذ بطريقة الحفر البارز .

مضمونه : تأسيسى .

تاريخــــه : ١٣٠٢هــ .

لوحــــة : ٢

نصــــه :

١ – دار سلطان الورى عبد الحميد بدت[٣٠] كالبدر فى البيت الأمين

٢ – شادهــا عثمــان والبنــا الذى توج الأحكام بالعدل المبين

٣ – أرخ المجد ونادى فى العــلا ادخلوها بسلام آمنين

١٣٠٢ حرره فخرى[٣١]

وبناءا على ما سبق جاء تاريخ بناء الدار فى صورة أبيات شعرية حوت مدح المنشئ والمنشأة ويظهر من أبيات النقش الأول أنها بلغت مبلغا عاليا مـــن الحســن والجمال ، فالشاعر لم يكتف بوصف الدار بالحسن بل جعلها تحويه كله . وفى لفـظ الاحتواء ما يوحى بأن الجمال صفة متمكنة منها ، ويتأيد هذا بجعلها تحتوى « كـل » حسن وطيب ، ولفظ « كل » من ألفاظ العموم والشمول فالدار بما احتــوت مـن مظاهر الجمال بدت وكأنها استأثرت بكل شكل من أشكال الحسن والطيب .

وفى وصف بنائها بأنه عجيب ، ما ينبئ عن تفردها فى الحسن والجمال بيـن مثيلاتها من الدور . وقد رأى فى هذا البناء رمزا للبشرى بالخير والنصر وهو مـا عبر عنه فى البيت الأخير بالاقتباس القرآنى ﴿ نصر من الله وفتح قريـــب ﴾[٣٢] ، وهو ما يسمى بالاقتباس فى علم البديع ، وقد وفق الشاعر توفيقا عظيما فـــى هـذا الاقتباس ؛ لاتفاق مضمونه مع حساب الجمل الذى ورد فيه تاريخ البناء كمـــا بينـا ذلك سابقا .

أما النقش الثانى فيبدو أكثر إتقانا فى الصنعة من الأول ، والشاعر لم يكتــف فى أبياته بذكر الحسن والجمال وإنما شبهها بالبدر . وهو رمز الوضـــاءة والرفعــة

والشهرة ، ثم أثنى على بانيها بعدله الذى شبهه بالتاج فوق هامة الأحكام (تـوج الأحكام بالعدل المبين) والتاج أيضا رمز الجمال والرفعة . ونرى فى وصف هذا السلطان بأنه يؤرخ المجد أى يبدأ المجد بحكمه ، وينادى فى العلا وهى ما علا وسما من مآثر وأمجاد ، ما يبين أنه سلطان رفيع المنزلة عالى الشرف فى رأى كاتب الأبيات وتضمن الشطر الأخير من البيت الثالث اقتباسا قرآنيا ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾[٣٣] ، وقد وفق الشاعر فى ذلك لاستكمال تاريخ حساب الجمل كما سبق بيانه ، ودلالتها التى تنبئ عن رضا الشاعر بعهد السلطان لما رآه من مظاهر خير وأمان .

وتأتى الصيغة الشعرية فى هذين النقشين التأسيسيين امتدادا لأعمال سابقة ولاحقة فى البلد الحرام[٣٤] .

أما الملحوظات الفنية فنتتبعها كما يلى :

يظهر أن الذى خط النقشين شخص واحد جاء توقيعه على النقش الأول فى السطر الثالث مجاورا للتاريخ بحرف « ف » ، وفى النقش الثانى فى السطر الثالث مجاورا للتاريخ باسم « فخرى » ، ويزكى ذلك وقوع النقشين على مبنى واحد ، جاء النقش الأول فوق الباب الشرقى للدار والآخر فوق الباب الغربى للدار ، وتأريخ النقشين بزمن واحد وهو عام (١٣٠٢ هـ) ، علاوة على اتفاقهما من حيث الإخراج الفنى بما يلى :

١ - استخدم الخط الثلث[٣٥] فى كتابه النقشين بأسلوب واحد .

٢ - إحاطة كل من النقشين بإطار مستطيل ، لم تظهر أطرافه كاملة لتغطيتها بإطار جصى عمل حديثا ، لتثبيت النقش على جدار متحف آثار الحرم المكى الشريف، وتم تقسيم كل من النقشين إلى خراطيش بكل منها شطر من بيت شعرى ، وقد فصل بينها بخطوط مستقيمة تتقابل فى منطقة زخرفية هندسية

منتهية بأشكال أرباع دوائر يتوسطها وردة ثمانيـــة البتـــلات وفـــي الجوانـــب والأركان أنصاف الشكل الهندسي والوردات .

٣ – اتفق النقشان من حيث استخدام الألوان ، فجاءت الكتابة باللون الأبيض علـــى أرضية خضراء فاتحة اللون ، أما إطارات الأسطر وزخرفتها فجاءت بيضاء.

٤ – لم ترد الهمزات فوق أحرف كلمات النقشين ، ويظهر ذلك فى النقش الأول فـــى كلمتى « اشادها » و « أم » فى السطر الثانى ، وفى النقش الثانى فى كلمـــة « الأمين » فى السطر الأول ، وكلمة « الأحكام » فى السطر الثانى ، وكلمـــة « أرخ » فى السطر الثالث .

٥ – لم ترد نقطتا حرف الياء المنتهية فى كلمات النقشين . ويظهر ذلك فى النقـــش الأول فى كلمة « بحى » فى السطر الثانى ، وفى النقش الثانى فى كلمة «فـى» فى السطر الأول ، وكلمة « الذى » فى السطر الثانى ، وكلمة « فـــى » فـــى السطر الثالث .

٦ – وردت حركات الإعراب على النقشين ، مما يسهل قراءة كل منـــهما لمـــن لا يتقن العربية ، خاصة وأن موضع النقشين كـــان علـــى مبنـــى (الحميديـــة) المجاور للمسجد الحرام والذى يســـتقبل المسلمين علـــى اختـــلاف لغاتـــهم وأجناسهم.

٧ – اتفق النقشان من حيث جودة وإتقان الخط الذى جاء بدرجة واضحـــة دقيقـــة ، خاصة من حيث النسب الجمالية للحروف وتناسق أحجام الكلمات ، كما يظـــهر أن الخطاط باستخدامه الخط الثلث فى كتابة النقشين لم يخرج عن المألوف فـــى مكة المكرمة ، التى شاع فيها هذا النوع من الخطوط فى العصـــر العثمـــانى ، سواء فى كتابة اللوحات التأسيســـية[٣٦] أم فـــــى نسيـــج كســـوة الكعبـــة المشرفة[٣٧] .

ثالثا : الأسماء والألقاب الواردة فى النقشين :

- عبد الحميد :

هو السلطان عبد الحميد الثانى بن عبد المجيد الأول بن محمود الثانى ينتهى نسبه إلى أرطغرل بن سليمان شاه جد سلاطين آل عثمان[٣٨] ، وقد ولد السلطان عبد الحميد الثانى فى عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م[٣٩] ، وتولى الخلافة فى ١١ - ٨ - ١٢٩٣هـ/٣١ - ٨ - ١٨٧٦م ، واستمر بها إلى أن تم خلعه فى ٧-٤-١٣٢٧هـ/٢٧ - ٤ - ١٩٠٩م[٤٠] ، وتوفى عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م[٤١] . وكان عمره عند تسلمه السلطة٣٤ عاما ، والدولة العثمانية محفوفة بالمخاطر الجسام والثورات مشتعلة فى بلاد الروم ، ولقد جابه السلطان عبد الحميد مصاعب كثيرة فى دولته الكبيرة حيث بلغت ديونها أكثر من ٢٥٢ مليون ليرة عثمانية . وفى عهده وقعت الحرب مع روسيا عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م رغم بذله جهودا كبيرة بغية تفاديها ، إلا أنها أسفرت عن خسائر فادحة للدولة والأمة ، فأوشك الروس على احتلال استانبول، وراح ضحية ذلك خلق كثير ، وفقدت الدولة مساحات كبيرة من الأراضى[٤٢] .

واشتهر عن هذا السلطان موقفه الإسلامى العظيم برفض إعطاء فلسطين لليهود لتأسيس وطن قومى ، رغم الإغراءات المالية التى قدمت له . ومن العبارات المنسوبة إليه فى هذا الشأن قوله : « انصحوا هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية فى هذا الموضوع ، إنى لا أستطيع أن اتخلى عن شبر واحد من الأرض ، فهى ليست ملك يمينى ، بل ملك شعبى لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذا مزقت إمبراطوريتى يوما فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون على من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتى . وهذا أمر لا يكون ، أنى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة[٤٣] » . كما ينسب لهذا السلطان

العديد من المشروعات الحضارية ، منها إنشاء المدارس فى كثير من الولايات ، وعمل خطوط السكك الحديدية من دمشق إلى المدينة المنورة[٤٤] ، وتمت فى عهده العديد من الأعمال المعمارية فى الحجاز ، منها أعمال تجديد معمارية فى المسجد الحرام[٤٥] ، والمسجد النبوى الشريف[٤٦] ، وبناء دار الضيافة عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م لاستقبال فقراء الزوار فى البلد الحرام[٤٧] ، علاوة على الأعمال التى قام بها والى الحجاز عثمان نورى باشا . كما سنتحدث عنها لاحقا .

- عثمان :

هو عثمان نورى باشا عين واليا على الحجاز من قبل الدولة العثمانية فى شهر جمادى الآخرة أو رجب أو شعبان عام ١٢٩٩هـ[٤٨] / إبريل أو مايو أو يونيه ١٨٨٢م ، وكان قبل ولايته قومندان[٤٩] ، العساكر العثمانية فى الطائف[٥٠] ، ثم رقى إلى رتبة وزير عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م[٥١] .

وقد اتصف بالذكاء والحكمة والشهامة[٥٢] ، والفضل والإقدام وفعل الخير فى كل ما ينفع البلاد والعباد[٥٣] ، ومما جاء عنه أنه « أنبل الولاة الذين عرفتهم مكة وأحزمهم ، ومن محبى الإصلاح[٥٤] » وأورد محمد على مغربى صفة عدل هذا الوالى شعرا بما يلى[٥٥] :

أجرى الحكومة فى وادى الحجاز بما قدما تحلى به الفاروق واتشحا
وقام بالقسط بين القوم مجتهدا وعن طريق الهدى والحق ما جنحا
فأصبح العدل منشورا بهمته وأصبح الظلم مخذولا مطرحا

وهذه الصفات النبيلة جعلته يقف لأمير مكة الشريف عون الرفيق باشا[٥٦] ، من أخذ أموال فرضها باسم « المكوس » على الأعراب والحجاج ، ورفض تدخل الأمير فى الإشراف على أعمال لجنة عين زبيدة لجمع التبرعات والصرف منها على إصلاح مرافق المياه فى البلد الحرام ، فاحتد الصراع بينهما ، فاستمال الأمير

جماعة من أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ورفعوا شكوى كيدية إلى السلطان عبد الحميد الثانى فصدر أمره عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧ بنقل الوالى إلى اليمن[٥٧] ، وفيها واجه الكثير من أهل الخير والشر ، وأخلص فى عمله فوصف بالعدل والإصلاح والتواضع والزهد وحب الخير فلقبوه « بالفقيه » ؛ ونظرا لمحاربته للرشوة والظلم ، قدمت فيه شكاوى كيدية أدت إلى صدور أمر السلطان عبد الحميد الثانى بنقله إلى مكة المكرمة للمرة الثانية عام ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م ثم عاد إلى اليمن[٥٨] بناء على شكاوى كيدية أيضا ، فعلق إبراهيم رفعت على ذلك بقوله : «كان خليقا بأمير المؤمنين أن يتبين فى قول الشريف كما أمر الله إليه فى كتابه وأن لا يحكم على متهم إلا بعد استجوابه واستماع قوله[٥٩] » .

ومما يظهر اهتمام الوالى بالحجاز وتقديمه كل ما ينفع البلد الحرام تتبع أعماله فى إصلاح المرافق وبناء المنشآت التى يعود نفعها على المسلمين فى البلد الحرام ، فشملت أعمال الترميم والإصلاح ، ترميم القنوات لإيصال مياه العيون إلى مكة المكرمة ، وترميم موارد المياه داخل البلد الحرام وخارجه[٦٠] ، وفى المسجد الحرام عمل على إزالة بناء قبة السقاية وقبة الفراشين ليسهل على المسلمين رؤية الكعبة المشرفة من جهة الرواق الشرقى ، والإفادة من موضعها فى تهيئة المكان للمصلين والطائفين[٦١] ، كما قام ببناء مدرسة صغيرة مجاورة للمنارة الواقعة عند باب علىّ عرفت باسم « موقت خانة » ووضعت فيها الساعات الموقوفة لمواقيت المسجد الحرام ، وأعاد بناء مقام الحنبلى ، وأصلح محراب مقام الحنفى[٦٢] ، وأعاد بناء قلعة هندى[٦٣] ، وعمر قلعة أجياد[٦٤] ، ، وأصلح طريق الصعود إلى غار جبل ثور بمكة[٦٥] . أما أعمال البناء فشملت إنشاء دار المطبعة بمكة المشرفة ، وقد جهزها بالآلات اللازمة ، فاستخدمت للطبع باللغتين العربية والتركية ، وبناء دار (الحميدية) موضوع هذا البحث ، وثكنة عسكرية لتكون مقرا للجنود ، ودارا للبريد والتلغراف[٦٦] ، ومركز شرطة فى الصفا عرف باسم « كركول الصفا » و«كركون الصفا» و « قراغول الصفا » ، ومستشفى وبازان (صهريج ماء)

الخيف بمنى[٦٧] ، وحديقة بجرول لتكون منتزها لأهل مكة وعامة المسلمين[٦٨] ، وعمل على إيصال مياه عين الوزيرية إلى جدة[٦٩] ، وبنى سور ينبع[٧٠] .

- فخرى :

ود توقيع اسمه صريحا على النقش رقم (٢) ورمز له بحرف (ف) على النقش رقم (١) ، ولم ترد ترجمته ضمن قائمة أسماء الخطاطين التى أوردها الكردى[٧١] ، وبذا فإن النقشين أضافا توقيع خطاط عمل فى البلد الحرام فى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ؛ مما يعنى إضافة اسمه إلى القائمة المشار إليها .

ويظهر من تاريخ النقشين فى عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م ، أن هذا الخطاط كان معاصرا لكبار الخطاطين فى الحجاز ومنهم[٧٢] .

١ - الشيخ فرج بن سليمان بن على غزاوى المتوفى سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م تقريبا.

٢ - الشيخ سلميان بن فرج غزاوى من مواليد سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م تقريبا ، والمدرس للخط بمدرسة الفلاح منذ عام ١٣٣٠هـ/١٩١١م .

٣ - محمد أفضل هروى الذى كتب البسملة وأسماء الخلفاء الأربعة على باب على بالمسجد الحرام سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م ، وله وكتابات على مسجد الشيخ رحمت الله الملاصق للمدرسة الصولتية بمكة المكرمة عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م وكذلك أعمال فنية أخرى فى عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م[٧٣] .

وحيث إن دار (الحميدية) احتلت مكانة مهمة لمجاورتها للمسجد الحرام ووظيفتها وأعطى للخطاط فخرى فرصة الكتابة عليها ؛ فمن المرجح أن ذلك يشير إلى مدى الأهمية الكبيرة التى احتلها هذا الخطاط بين أقرانه فى ذلك العصر ، علاوة على أن ورود الحرف الأول « ف » رمزا لاسمه فى النقش الأول ، ينم عن مدى ثقة الخطاط فى عمله وشهرته وذياع صيته بين الناس .

-أم القـــرى :

اسم من أسماء مكة ورد فى قوله تعالى : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾[٧٤]، وترجع هذه التسمية إلى أربعة أقوال[٧٥] :

أولا : أن الأرض دحيت من تحتها لأنها أقدم الأرض .

ثانيا : أنها قبلة يؤمها جميع الأمة .

ثالثا : أنها أعظم القرى شأنا .

رابعا : أن فيها بيت الله تعالى . ولما جرت العادة أن بلد الملك وبيته مقدمـــا علـــى جميع الأماكن ، سمى أما لأن الأم متقدمة .

البيت الأمين :

لم ترد هذه الصيغة ضمن أسماء مكة المكرمة ، ووردت باسم «البلد الأميـن» و« البيت العتيق »[٧٦] ، ويظهر من النص أن المقصود « بالبيت الأمين » مكة .

أما الألقاب الوادة فى النقشين فهى « سلطان[٧٧] » و « والى »[٧٨] ، وهمـــا من الألقاب المعروفة التى شاع استخدامها فى العصر العثمـــانى[٧٩] ، وورد لقـب مركب « سلطان الورى » ، ويظهر منه التعظيم للسلطان ، لأن الورى لها معـــان عديدة ، ومما يتفق منها مع سياق النقش ومدح السلطان أن الورى يعنـــى الخلـق ، فتقول العرب : ما أدرى أى الورى هو أى أى الخلق هو ، قال ذو الرمة :

وكائن ذعرنا من مهاة ورامح   بلاد الورى ليست له ببلاد[٨٠]

وقد سبق أن نعت السلطان عبد الحميد الأول « بسلطان البسيطة والـــورى » فى نقش كتابى لعمارة مبنى بئر زمزم بمكة المكرمة سنة ١٢٠١هــ/١٧٨٦م[٨١] .

الخاتمة

١ - اتضح من النقشين أن تاريخ بناء دار الحميدية يرجع إلى عام ١٣٠٢هـ ، مما رجح بعض الروايات التاريخية على البعض الآخر ، وعليه أمكن الترجيح بأن يكون ذلك تاريخ تمام البناء . أما تاريخ بدء العمل فرجحت الدراسة أن يكون بعد تعيين عثمان نورى باشا واليا على الحجاز فى شهر جمادى الآخرة أو رجب أو شعبان عام ١٢٩٩هـ/ إبريل أو مايو أو يونيه ١٨٨٢م .

٢ - تم تأكيد تاريخ البناء فى النقشين بذكره أرقاما (١٣٠٢هـ) وبحساب الجمل.

٣ - تعد دار الحميدية أول دار بنيت بمكة المكرمة لتكون مقرا لحكم والى الحجاز فى العصر العثمانى .

٤ - أكدت الدراسة على أداء الدار لوظيفتها بعد بنائها إلى أن تمت إزالتها للإفادة من أرضها فى توسعة المسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م .

٥ - حوى النقشان وصفا بليغا لحسن جمال الدار، وظهر ذلك واضحا فى لوحاتها الفوتوغرافية ، التى كشفت عن عناية المعمار بإخراج الواجهات فى شكل لوحة زخرفية .

٦ - حالف التوفيق - بمشيئة الله - اختيار موقع الدار ، فجاءت مجاورة للمسجد الحرام ، فى أجمل أحياء مكة ، وعلى أهم شوارعها لارتباطه بسكن الموظفين وباقى أحياء البلد الحرام .

٧ - ظهر من قراءة النقشين وتتبع أسلوب الخط ، أنهما كتبا بخط الثلث بأسلوب رفيع المستوى وفق موازين الخط ، وورد توقيع الخطاط باسم « فخرى » فى النقش الثانى ورمز إلى اسمه بأول حرف من اسمه « ف » فى النقش الأول ، مما يشير إلى مدى ثقته فى عمله وشهرته بين الناس ، وحيث أننا لم نعثر على ترجمته فى قائمة أسماء الخطاطين فى الحجاز ، فإن النقشين أضافا اسما جديدا إلى القائمة .

٨ - جاء اهتمام والى الحجاز عثمان نورى باشا ببناء دار الحميدية ضمن سلسلة أعمال البناء والإصلاح التى قام بها فى البلد الحرام .



١ - جبل حباري .
٢ - جبل الثنية .
٣ - مقبرة السموة .
٤ - مقبرة المعلاة .
٥ - طريق عرفات .
٦ - مسجد الجن .
٧ - زقاق المعلاة .
٨ - بركة الشام .
٩ - بركة المصري .
١٠ - ميدان الحلقة .
١١ - شعب عامر .

١٢ - السليمانية .
١٣ - الغزة .
١٤ - جبل هندي .
١٥ - الفلق .
١٦ - ميدان القرارة .
١٧ - القرارة .
١٨ - عمارة قايتباي .
١٩ - القشاشية .
٢٠ - شعب علي .
٢١ - سوق الليل .
٢٢ - النقا .

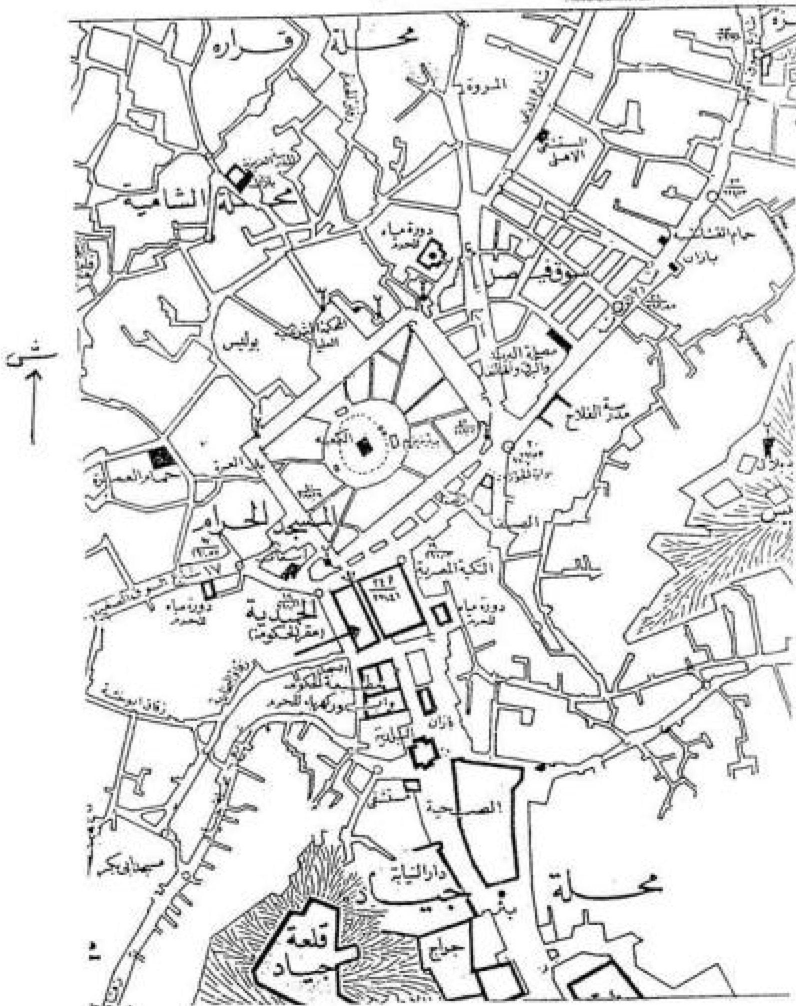
٢٣ - زقاق شعب عامر .
٢٤ - زقاق الحجر .
٢٥ - زقاق الغزة .
٢٦ - سوق الليل .
٢٧ - جبل قبيس .
٢٨ - الصفا .
٢٩ - ميدان أجياد .
٣٠ - أجياد .
٣١ - حراتب .
٣٢ - جبل أجياد .
٢٣ - تكية السنوسي .

٢٤ - قلعة أجياد .
٣٥ - زقاق بحرف سيل أجياد .
٣٦ - المسفلة .
٣٧ - السوق الصغير .
٣٨ - الشبيكة .
٣٩ - مقبرة الشبيكة .
٤٠ - الشامية .
٤١ - جرول .
٤٢ - جبل الحفاير .
٤٣ - جبل السودان .

شكل رقم (١)

خارطة مكة المكرمة ويظهر بها الطريق الرئيسي من حارة الباب إلى المعلاة

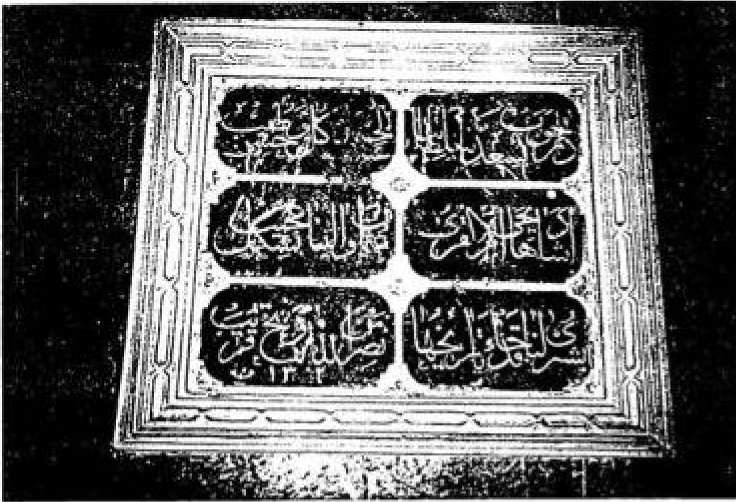
عن غباشي ، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة



شكل رقم (٢)

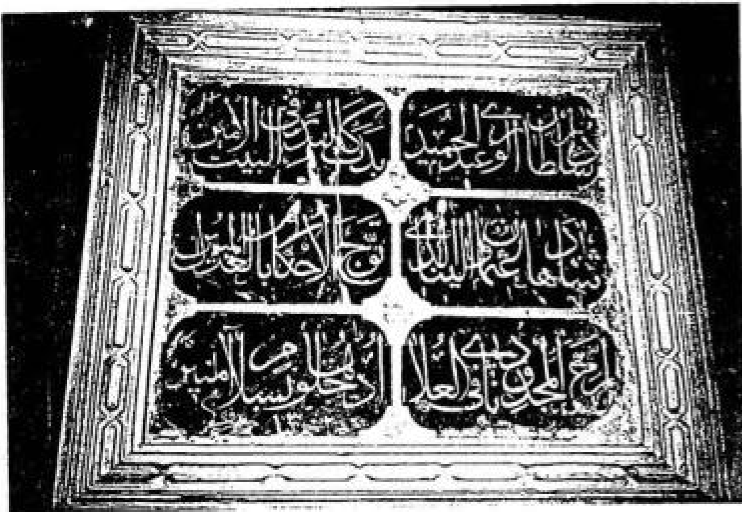
موقـــع دار الحمـــيديـــة عـــن خـــارطـــة مصلحـــة المساحة المصرية

(١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) مقياس الرسم $\frac{١}{٥٠٠٠}$



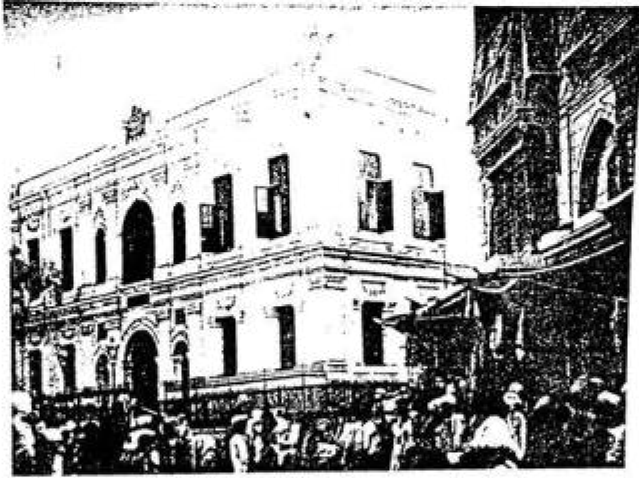
لوحة رقم (١)

نقش رقم (١) كان مثبتاً فوق الباب الشرقي لدار الحميدية وهو محفوظ حالياً بمتحف آثار الحرم المكي الشريف .



لوحة رقم (٢)

نقش رقم (٢) كان مثبتاً فوق الباب الغربي لدار الحميدية وهو محفوظ حالياً بمتحف آثار الحرم المكي الشريف .



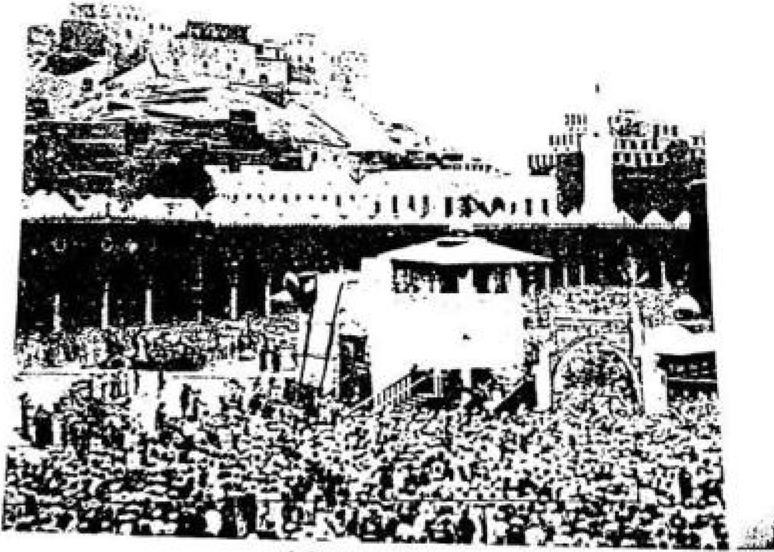
لوحة رقم (٣)

مبنى الحميدية من الجهة الشمالية الشرقية عن انجلو بيشي ، مكة المكرمة منذ مائة عام .



لوحة رقم (٤)

مبنى الحميدية من الجهة الجنـوبية عن انجلوبيشي ، مكة المكرمة منذ مائة عام .



لوحة رقم (٥)

مبنى الحميدية يطل على الرواق الجنوبي للمسجد الحرام .

عن وليام فيسي ، المملكة العربية السعودية في عيون أوائل المصورين

الهوامش

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ (بيروت: دار النفائس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٤٦٣ – ٤٧٦ ، الروقى عايض بن خزام ، حروب محمد على فى الشام وأثرها فى شبه الجزيرة العربية ، ط٢ (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية ، ١٤١٩هـ ، ص ٤٢٥- ٤٦٤ .

(٢) السباعى ، أحمد ، تأريخ مكة ، ط٦ (مكة المكرمة : مطبوعات نادى مكة الثقافى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٥٦٣ .

(٣) رفيع ، محمد عمر ، مكة فى القرن الرابع عشر الهجرى ، ط١ (مكة المكرمة : منشورات نادى مكة الثقافى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ٢٣٣ .

(٤) صادق ، محمد باشا ، دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج ، ط١ (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المعزية ، ١٣١٣هـ) ص ٦٥ ، رفعت ، إبراهيم ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (د. ن. د. ت) جـ١ ص ١٧٩ ، الكردى ، محمد طاهر ، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ط١ ، (مكة المكرمة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢ م) ، جـ٦ ص ٣٣٧ .

(٥) رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣ .

(٦) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ، ط٢ (مكة المكرمة : المطبعة الميرية) ص ١٢٩، البتنونى ، محمد لبيب ، الرحلة الحجازية ، ط٣ (الطائف : مكتبة المعارف ، د. ت) ص ٥٧ ، غازى الهندى ، عبد الله بن محمد ، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام (مكة المكرمة ، مخطوط مصور بمكتبة الحرم المكى الشريف رقم ١٢٣٩، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤١) جـ٣ ص ٢١٦ .

(٧) السباعى ، تأريخ مكة ، ص ٥٩٤ .

(٨) المكى ، محمد أمين ، خلفاى عظام عثمانية حظرتنك حرمين شريفيندكى آثار مبرورة ومشكورة هما يونلرندن « الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين » . ترجمة من التركية إلى العربية غير منشورة للدكتور سعد الدين عثمان أونال (الطبعة العثمانية ١٣١٨هـ) ، ص ٨ من الترجمة ، مغربى ، محمد على ، أعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية ، ط١ (القاهرة : مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) جـ٣ ص ١٢٩ .

(٩) انظر ترجمته فى الأسماء والألقاب الواردة فى هذا البحث .

(١٠) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ ، صادق ، دليل الحج ، ص ٦٥ ، البتنونى ، الرحلة ص ٥٧ ، رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٧٩ ، الكردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧ ، السباعى ، تاريخ مكة ، ص ٥٩٤ ، رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣ ، مغربى ، أعلام ، جـ٣ ص ١٢٩ .

(١١) المكى ، خلفاى عظام ، ص ٨ ، ٩ من الترجمة

(١٢) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ ، غازى الهندى ، إفادة الأنام جـ٣ ص ٢١٦ ، الكردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧ ، رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣.

(١٣) صحيفة أم القرى ، عدد رقم ١ الجمعة ١٥/٥/١٤٤٣هـ .

(١٤) مقابلة فى علم ١٤١٩هـ/١٩٩٩م مع الأستاذ حامد بن حسن مطاوع رئيس تحرير صحيفة الندوة سابقا والكاتب المعروف فله خالص الشكر والتقدير .

(١٥) المملكة العربية السعودية ، الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي الحرمان الشريفان التوسعة والخدمات خلال مائة عام ، ط١ (جدة : دار عكاظ للطباعة والنشر ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٣٨ .

(١٦) المكى ، خلفاى عظام ، ص ٨ من الترجمة .

(١٧) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ ، غازى الهندى ، إفادة الإنام جـ٣ ص ٢١٦ – ٢١٧.

(١٨) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ – ١٤٠ ، غازى الهندى ، إفادة الإنام جـ٣ ص ٢١٦ –٢١٧ .

(١٩) البتنونى ، الرحلة ص ٣٨ ، رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٧٩ .

(٢٠) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٧٩ – ١٨٢ .

(٢١) صادق ، دليل الحج ، ص ٥٨ .

(٢٢) صادق ، دليل الحج ، ص ٥٨ ، البتنونى ، الرحلة ، ص٣٩ .

(٢٣) المكى ، خلفاى عظام ، ص ٨ ، ٩ من الترجمة .

(٢٤) سبق بناء دار (الحميدية) ضعف موارد الدولة العثمانية وكثرة ديونها التى كان من أسبابها الحرب مع روسيا ، انظر : المحامى ، تاريخ ، ص ٦٢٧ – ٦٢٨ ، ٦٦٠ ، عبد الحميد الثانى ، السلطان ، مذكراتى السياسية ١٨٩١ – ١٩٠٨م ، ط٣ (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص ١١ – ١٢ .

(٢٥) قرأ هذين النقشين إبراهيم رفعت عام ١٣١٨هـ /١٩٠٠م دون تصورهما أو تقديم دراسة عنهما ، وورد خطأ فى قراءته وسقطت بعض الكلمات من القراءة كما سنبين ذلك خلال قراءتنا للنقشين . وأشار إلى وجود نقشين آخرين بدار «الحميدية» أحدهما على الباب الجنوبى المتوسط نصه « دائرت حكومت سنية » ، والآخر على الباب الجنوبى الجانبى نصه :« دائرة فرقة عسكرية » ، ولم نعثر عليهما . رفعت ، مرآة ، جـ١ ص١٧٩ – ١٨٠ .

(٢٦) رفعت ، مرآة ، جـ١ ، ص ١٧٩ .

(٢٧) قرأها إبراهيم رفعت « لسعد » والصواب ما أثبتناه ، انظـــر : رفعـت ، مـرآة ، جـ١ ص ١٨٠ .

(٢٨) لم يرد التاريخ وحرف « ف » فى قراءة إبراهيم رفعت ، انظـــر رفعــت ، مــرآة جـ١ ص١٨٠ .

(٢٩) رفعت مرآة ، جـ١ ، ص١٨٠ .

(٣٠) أضاف إبراهيم رفعت كلمة « قد » قبل كلمة بدت فى السطر الأول ، والصواب مـا أثبتناه. رفعت ، مرآة ، جـ١ ، ص١٨٠ .

(٣١) لم يرد التاريخ وعبارة « حرره فخرى » فى قراءة إبراهيم رفعت والصواب مـــا أثبتناه . انظر : رفعت ، مرآة ، جـ١ ، ص ١٨٠ .

(٣٢) من آية رقم « ١٣ » سورة الصف .

(٣٣) من آية رقم « ٤٦ » سورة الحجر .

(٣٤) عن النقوش التأسيسية التى وردت فى صيغة أبيات شعرية فى البلد الحرام انظـــر : غباشى ، عادل بن محمد نور ، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمـــة والمشــاعر المقدسة فى العصر العثمانى دراسة حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكـة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤١٠هــــ) ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥١٣ ، الحــارثى ، ناصر بن على ، محمد أفضل هروى وأعماله الفنية بمكة المكرمــــة فــى أواخــر العصر العثمانى (مجلة العصور ، المجلد السادس، الجزء الثــانى ، ١٩٩١م) ص ٣٣٠ .

(٣٥) الخط الثلث : خط متطور عن خط النسخ وسمى بذلك ، لأنه فى حجم يساوى ثلــث خط النسخ الكبير الذى كان يكتب به على الطومار ، وهو الدرج أى الملف المتخــذ من البردى أو الورق وكان يتكون من عشرين جزءا يلصق بعضـــها ببعــض فــى وضع أفقى ثم يلف على هيئة أسطوانة ، وكان سدس الدرج يسمى الطومار ، وكــان

يكتب عليه بخط نسخي كبير عرف بخط الطومار ومنه تولد الخط الثلث ، وقد لعب خط النسخ (المحقق) والثلث دورا بارزا على العمائر والمخطوطات العثمانية . انظر : مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني (مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م) ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣٦) الحارثي ، ناصر بن علي ، أعمال الخشب المعمارية في الحجاز في العصر العثماني ، دراسة فنية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، الفعر ، محمد فهد عبد الله ، الكتابات والنقوش في الحجاز في العصر المملوكي والعثماني ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ٣٣٦ ، ٣٧١ ، ٤٢٠ .

(٣٧) مؤذن ، عبد العزيز عبيد الرحمن ، كسوة الكعبة وطرزها الفنية منذ العصر العثماني ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٠ - ١٤٠١هـ) جـ١ ص ٣٦٦ ، ٣٦٨ .

(٣٨) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ص ٧٧٧ ، ٧٧٨ .

(٣٩) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ٣٦ ، عبد الحميد الثاني ، مذكراتي ، ص١١.

(٤٠) محمد فريد ، تاريخ ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٧٠٨ ، عبد الحميد الثاني ، مذكراتي ، ص ١١ ، ١٥ .

(٤١) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي ، ص ١٥ .

(٤٢) محمد فريد ، تاريخ ، ص ٦٢٧ - ٦٧٦ .

(٤٣) عبد الحميد الثاني ، مذكراتي ، ص ١١ ، ١٢ ، ٣٧ ، الشناوي ، عبد العزيز محمد ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠ م ، جـ٢ ص ٩٨٨ - ٩٩١ ، ١٠٦٥ - ١١٢١ ، حسون ،

علـى ، تـاريخ الدولـة العثمانيـة ، ط١ (دمشـق : المكتـب الإسـلامى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص ١٧١ – ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٧ .

(٤٤) حسون ، تاريخ ص ٢٠٤ – ٢٠٦ .

(٤٥) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٨ – ١٣٠ ، المكى ، خلفـاى عظـام ، ص ١ –١٤ من الترجمة .

(٤٦) الشهرى ، محمد هزاع ، المسجد النبوى فى العصر العثمانى ، دراسـة معماريـة حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكـة المكرمـة : جامعـة أم القـرى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤٧) غباشى ، عادل بن محمد نور ، دار الضيافة بمكة المكرمة فى عصر السلطان عبـد الحميد الثانى دراسة تاريخية أثرية (مجلة جامعة أم القرى ، السنة الثامنة ، العـدد العاشر ١٤١٥هـ) ص ٢١٣ – ٢١٧ .

(٤٨) سالنامة ، الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٣٩ ، كردى ، التاريخ القويـم ، جـ٦ ص ٣٣٦ ، مغربى أعلام ، جـ٣ ص ١١٢ .

(٤٩) بعد إجراء التنظيمات فى الدولة العثمانية أصبح قـادة أقسـام المشـاة ووحداتـهم المختلفة يتألفون من عدة أورطات (وحـدات) يرأسـهم الرئيـس الأول (بـاش قومندان) . انظر : شوكت محمود ، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانيـة منـذ بداية تشكيل الجيش (دار طلاسى للدراسات والترجمة والنشر ١٩٨٨م) ص ٤٤.

(٥٠) كردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٦ .

(٥١) سالنامة ، الحجاز سنة ١٣٠٣هـ، ص ١٣٩ .

(٥٢) رفعت ، مرآة ، جـ١ ، ص ١٩٧ .

(٥٣) كردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٦ – ٣٣٧ .

(٥٤) رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣ .

(٥٥) مغربي ، أعلام ، جـ٣ ص ١١٧ .

(٥٦) تولى إمارة مكة المكرمة في ١٢٩٩/١١/٢٤ وبقي بها إلى أن توفي في جمادى الأول عام ١٣٢٣هـ . ابن سرور ، الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله ، جدول أمراء مكة المكرمة منذ فتحها إلى الوقت الحاضر ، ط١ (مكة المكرمة : مطبعة النهضة الحديثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ص ٤٥ .

(٥٧) رفعت، مرآة ، جـ١ ص ١٩٧ ، كردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٥٨) الواسعي ، عبد الواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ط٤ (صنعاء : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ٢٦٦ – ٢٦٩ .

(٥٩) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٩٧ .

(٦٠) غباشي ، المنشآت ، ص ٢٣٤ – ٢٤٠ ، ٢٧٧ – ٢٧٩ ، ٣٠٦ .

(٦١) المكي ، خلفاى ، جـ٣ ص ١٢١ .

(٦٢) .

(٦٣) عجيمي ، هشام بن علي وعادل بن محمد نور غباشي ، قلعتا لعلع وهندي بمكة المكرمة دراسة تاريخية أثرية (مجلة العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الأول ١٩٩٣م) ص ٢١٣ .

(٦٤) المكي ، خلفاى عظام ، ص ١٠ من الترجمة ، مغربي ، أعلام ، جـ٣ ص ١٢٩.

(٦٥) كردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧ .

(٦٦) رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣ .

(٦٧) مغربى ، أعلام ، جـ٣ ص ١٢١ ، ١٢٩ .

(٦٨) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص١٩٧ .

(٦٩) غباشى ، عادل بن محمد نور ، إيصال مياه عين الوزيرية إلى مدينة جدة فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة (بحث تحت الطبع – بمشيئة الله – بمجلة كلية الآثار جامعة القاهرة) ص ٤ ، ٥ من الطباعة الأولى .

(٧٠) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٩٧ .

(٧١) الكردى ، محمد طاهر ، تاريخ الخط العربى وآدابه ، ط١ (المطبعة التجارية الحديثة بالسكاكينى ، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) ص ٢١١ – ٢٦٥ .

(٧٢) الكردى ، تاريخ الخط ، ص ٢٥٣ ، ٣٧٢ .

(٧٣) الحارثى ، محمد أفضل هروى ، ص ٣١٩ – ٣٢٤ .

(٧٤) من آية رقم (٦٢) سورة الأنعام .

(٧٥) الفاسى ، أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على ، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام (بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية ، د. ت) جـ١ ص ٤٨ ، ٤٩ الخوارزمى ، محمد بن إسحاق ، إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق ، تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبى ، ط١ (مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م) جـ١ ص ٧٢ ، محب الدين الطبرى، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر ، القرى لقاصد أم القرى ، ط٣ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ٦٥١ .

(٧٦) الفاسى ، شفاء جـ١ ص ٤٨ – ٥٣ ، الخوارزمى ، إثارة ، جـ١ ص٧١ – ٧٤، محب الدين الطبرى ، القرى ، ص ٦٥٠ – ٦٥١ ، عوض الله السيد أحمد أبو

الفضل ، مكة فى عصر ما قبل الإسلام ، ط٢ (الرياض : مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ٣٣ – ٣٦ .

(٧٧) ورد فى اللغة من السلاطة بمعنى القهر ، ومن هنا أطلق على الوالى ، وقد ورد اللفظ فى آيات قرآنية عديدة بمعنى الحجة والبرهان ، ثم أطلق عل عظماء الدولة ، وأصبح لقبا عاما بعد أن تغلب الملوك بالشرق على الخلفاء ، ثم صار يطلق على الولاة المستقلين تمييزا لهم عن غيرهم من غير المستقلين ، وفى العصرين المملوكى والعثمانى أصبح هذا اللقب يطلق على رئيس الدولة سابقا لاسمه . انظر: الباشا حسن ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط١ (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨م) ص ٣٢٣ – ٣٢٩ .

(٧٨) أطلق على أمير القطر وحاكمه ، وعرف الوالى منذ صدر الإسلام واستمر نظام استخدام الولاة فى جميع العصور الإسلامية . انظر : الباشا ، حسن ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م) جـ٣ ص ١٣٠٨ – ١٣٠٩ .

(٧٩) غباشى ، المنشآت ، ص ٥١٨ ، ٥١٩ ، شوكت ، التشكيلات ، ص ٤٨ ، ٤٩.

(٨٠) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، ط١ (بيروت: دار صادر ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) جـ١٥ ، ص ٣٩٠ .

(٨١) غباشى ، المنشآت ، ص ٥١٣ .

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - ابن سرور ، الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله ، جدول أمراء مكة المكرمة منذ فتحها إلى الوقت الحاضر ، ط١ (مكة المكرمة : مطبعة النهضة الحديثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) .

٣ - ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، ط١ (بيروت دار صادر ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) .

٤ - أنجلو بيشى ، مكة المكرمة منذ مائة عامة (لندن : دار ايميل للنشر ، د. ت)

٥ - الباشا ، حسن ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط١ (القاهرة: دار النهضة العربية ، ١٩٧٨م) .

٦ - ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م) .

٧ - البتنونى ، محمد لبيب ، الرحلة الحجازية ، ط٣ (الطائف : مكتبة المعارف ، د. ت) .

٨ - الحارثى ، ناصر بن على ، أعمال الخشب المعمارية فى الحجاز فى العصر العثمانى « دراسة فنية حضارية » ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) .

٩ - ، محمد أفضل هروى وأعماله الفنية بمكة المكرمة فى أواخر العصر العثمانى • مجلة العصور ، المجلد السادس ، الجزء الثانى ،١٩٩١م).

١٠ - حسون ، على ، تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ (دمشق : المكتب الإسلامى ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .

١١ - الخوارزمى ، محمد بن إسحاق ، إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق ، تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبى ، ط١ (مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) .

١٢ - رفعت ، إبراهيم ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحــج ومشــاعره الدينية (د. ن. د. ت) .
١٣ - رفيع ، محمد عمر ، مكة فى القرن الرابع عشــر الـهجرى ، ط١ (مكــة المكرمة : منشورات نادى مكة الثقافى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
١٤ - الروقى ، عايض بن خزام ، حروب محمد على فى الشام وأثرها فــى شـبه الجزيرة العربية ، ط٢ (مكة المكرمة : جامعة أم القــرى) معــهد البحــوث العلمية ، ١٤١٩هـ) .
١٥ - سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ط٢(مكة المكرمة : المطبعة الميرية) .
١٦ - السباعى ، أحمد ، تاريخ مكة ط٦ (مكة المكرمة : مطبوعات نــادى مكــة الثقافى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) .
١٧ - الشناوى ، عبد العزيز محمد ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليــها ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠م) .
١٨ - الشهرى ، محمد هزاع ، المسجد النبوى فى العصر العثمانى دراسة معمارية حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القــرى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) .
١٩ - شوكت ، محمود ، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشــكيل الجيش العثمانى حتى سنة ١٨٢٥م ، ترجمه عن اللغة التركية يوســف خيســة ومحمود عامر ط١ (دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ١٩٨٨م) .
٢٠ - صادق ، محمد باشا ، دليــل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فــج، ط١ (مصر : المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المعزية ، ١٣١٣هـ).
٢٢ - عبد الحميد الثانى ، السلطان ، مذكراتــى السياســية « ١٨٩١ - ١٩٠٨م » ط٣ (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

٢٣ - عجيمى ، هشام بن على وعادل بن محمد نور غباشى ، قلعتا لعلع وهندى بمكة المكرمة دراسة تاريخية أثرية (مجلة العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الأول ، ١٩٩٣م) .

٢٤ - عوض الله ، السيد أحمد أبو الفضل ، مكة فى عصر ما قبل الإسلام ، ط٢ (الرياض : مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠١هـ/١٩٨١) .

٢٥ - غازى الهندى ، عبد الله بن محمد ، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام (مكة المكرمة ، مخطوط مصور بمكتبة الحرم المكى الشريف رقم ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢) .

٢٦ - غباشى ، عادل بن محمد نور ، إيصال مياه عين الوزيرية إلى مدينة جدة فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة (بحث تحت الطبع - بمشيئة الله - بمجلة كلية الآثار جامعة القاهرة) .

٢٧ - ------------ ، دار الضيافة بمكة المكرمة فى عصر السلطان عبد الحميد الثانى دراسة تاريخية أثرية (مجلة جامعة أم القرى ، السنة الثامنة ، العدد العاشر ، ١٤١٥هـ) .

٢٨ - ------------ ، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة فى العصر العثمانى دراسة حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، ١٤١٠هـ) .

٢٩ - الفاسى ، أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية ، د. ت) .

٣٠ - الفعر ، محمد فهد عبد الله ، الكتابات والنقوش فى الحجاز فى العصر العثمانى دراسة فنية حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) .

٣١ - فيسي ، وليام وجيليان غرانت ، المملكة العربية السعودية في عيون أوائل المصورين ، ط٢ (الرياض : التراث ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) .

٣٢ - الكردى ، محمد طاهر ، تاريخ الخط العربى وآدابه ، ط١ (المطبعة التجارية الحديثة بالسكاكيني ، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) .

٣٣ - ـــــــــــــــــــ ، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ط١ (مكة المكرمة : مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

٣٤ - المحامى ، محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ (بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) .

٣٥ - محب الدين الطبرى ، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر ، القرى لقاصد أم القرى ، ط٣ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) .

٣٦ - مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى العصر العثمانى (مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م) .

٣٧ - مغربى ، محمد على ، أعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية ، ط١ (القاهرة : مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) .

٣٨ - المكى ، محمد أمين ، خلفاى عظام عثمانية حظرتلك حرمين شريفيندكى آثار مبرورة ومشكورة هما يونلرندن « الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين » ترجمة غير منشورة من اللغة التركية للدكتور سعد الدين عثمان أونال (الطبعة العثمانية ١٣١٨هـ) .

٣٩ - المملكة العربية السعودية ، الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوى ، الحرمان الشريفان التوسعة والخدمات خلال مائة عام، ط١ (جدة : دار عكاظ للطباعة والنشر ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) .

٤٠ - مؤذن ، عبد العزيز عبيد الرحمن ، كسوة الكعبة وطرزها الفنية منذ العصر العثماني ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٠هـ - ١٤٠١هـ) .

٤١ - الواسعي ، عبد الواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ط٤ (صنعاء : الدار اليمينة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) .

٤٢ - مقابلة في عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م مع الأستاذ حامد بن حسن مطاوع رئيس تحرير صحيفة الندوة سابقًا والكاتب المعروف فله خالص الشكر والتقدير .

٤٣ - سبق لي أن قمت بتصوير النقشين موضوع الدراسة عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ولم أتمكن من أخذ أبعادهما ، وقد تيسر لزميلي الدكتور ناصر بن علي الحارثي الإطلاع على النقشين عام ١٤١٨هـ وأمدني بأبعادهما فله خالص الشكر والتقدير .

علماء الأندلس ودورهم في التصدي للقوى الأسبانية المسيحية في عصر الطوائف

أ. د. سحر السيد عبد العزيز سالم(*)

مقدمة :

تعددت الدراسات التاريخية التي تصدت لتحليل وتعليل أسباب انـــهيار دولـــة الإسلام في الأندلس . وتجمع أغلب المدارس التاريخية علـــى أن تعـــدد العنـــاصر السكانية التي تكون منها المجتمع الأندلسي ، وتنافرها ، كان من أهم وأبـــرز هـــذه العوامل ، فمن عرب قيسيه ويمنية ، إلى بربر ، ومـــن صقالبـــة ومولديـــن إلـــى مستعربين ويهود . وكانت هذه العناصر السكانية متنازعة متصارعة ، تميـــل إلـــى التكتل في بؤرات عمرانية خاصة بها[١] . وقد ساعد على ذلك ، الطبيعة الجغرافيـــة لأسبانيا ، فالسلاسل الجبلية التي تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال الشـــرقي إلى الجنوب الغربي ، قسمت البلاد في حقيقة الأمر إلى مناطق شبه مستقلة تفصـــل بينها الحواجز التي كان من الصعب على الحكومات المركزية في الأندلس اجتيازهـا مما ساعد على تشجيع النزعات الانفصالية[٢] .

هذا إلى جانب سوء سياسة حكام الدولة الأموية في الأندلس وتخبطها وعـــدم ثباتها على مبدأ واحد إزاء العناصر السكانية المختلفة . ولتوضيح ذلـــك يمكننـــا أن نقسم عصر الدولة الأموية إلى مرحلتين أساسيتين من حيث سياسة حكامها ،وتبـــدأ المرحلة الأولى منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢هـــ) وحتـــى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـــ) ، وهي المرحلة التي الـــتزم فيـــها أمراء بني أمية سياسة التعصب والتحيز للعنصر العربي علـــى حســـاب الأجنـــاس الأخرى مما أدى إلى تذمر العناصر السكانية غير العربيـــة كـــالبربر والمولديـــن ،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

فاندلعت ثوراتهم بداية من ثورة البربر فى رندة فى عهد الأمير هشام الرضـا[٣] ، وثورة مولدى طليطلة فى سنة ١٨١هـ فى عهد الأمير الحكم الربضـى (١٨٠ - ٢٠٦هـ)[٤] .

وقد تأججت نيران هذه الثورات فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسـط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)[٥] ، عندما تحالف المولدون مع البربر ، غير أن هذه الفتن لم تنجـح فى تهديد كيان الدولة الأموية بداية من عهد الأمير محمـد (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) حيث تمزقت الوحدة الأندلسية ، واقتصر سلطان بنى أمية على قرطبة . وقد تغيرت هذه السياسة الأموية باعتلاء عبد الرحمن الناصر الحكم (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ، فبعد قضائه على الثورات والمنتزين وإعلانه الخلافة سنة ٣١٦هـ ونجاحه فى لـم شمل الأندلس ، بدأ سياسة جديدة قوامها إضعاف العصبية العربية فى جيشه أى أنـه مال إلى اتخاذ سياسة جديدة تختلف عن سياسة المرحلة السابقة ، وأتصور أنه كـان يرغب بذلك فى إزالة الحواجز النفسية التى تكونت لدى العناصر السكانية الأندلسـية غير العربية ، فكان إن استكثر من عنصر جديد فى جيشه وهـو الصقالبـة ، ثـم استكمل المنصور محمد بن أبى عامر المضى فى هذه السياسة عندما اعتمد علـى عنصرى الصقالبة والبربر ونظم الجيش بأن قسمه إلى فرق تتمثل القبائل فـى كـل منها ، رغبة منه فى إزالة العصبية العرقية ، ولكن ذلك آثار الأحقاد فـى نفـوس العرب فتفجرت براكين غضبهم فى عهد ابنه عبد الرحمن شنجول ،وكان ذلك سـببا فى اندلاع الفتنة وقيام الحرب الأهلية ومن ثم انهيار وسقوط الخلافة الأمويـة فـى الأندلس وانفراط عقدها وقيام عصر دويلات الطوائف[٦] .

أما ثالث عوامل انهيار دولة الإسلام فى الأندلس فهو فى اعتقادى أهـم هـذه العوامل وأخطرها على الإطلاق ،ويتمثل فى استعانة المسلمين المتحاربين بـالعدو الأسبانى فى الشمال ، على بعضهم البعض . ومن المعروف إن حركة الاسـترداد المسيحى الأسبانى La Recon Quista بدأت فى الظهور بوضوح منذ عصر الـولاة

(٩٧ -١٣٨٠هـ) ، وبدأت سياسة الأسبان فى محاربة المسلمين ، تتخذ كل الأساليب مشروعة كانت أو غير مشروعة ، وأخذت هذه السياسة تتلون وتتشكل طبقاً للمصالح الأسبانية ، فإذا كانت مصلحة حركة الاسترداد فى التحالف مع عنصر أندلسى مسلم ضد آخر ، مضى الأسبان فى هذا الطريق حتى النهاية ، وكان مسلمو الأندلس فى استعانتهم على بعضهم البعض بالأسبان ، يتغافلون عن إدراك أبعاد المخطط الأسبانى الحقيقية.

وتجسدت هذه السياسة الأسبانية بجلاء فى عصر الدولة الأموية حين استعان الثوار المولدون والبربر بالأسبان على أمراء الدولة الأموية والحكومة المركزية فى قرطبة أمثال عمر بن حفصون وابن مروان الجليقى وسعدون السرنباقى[٧] . وازداد الأسبان مضيا فى سياستهم تلك عندما وجدوها قد أثمرت ثمارها من إضعاف كيان المسلمين وتفتيته ، فوجدناهم ينتهزون فرصة قيام الحرب الأهلية واندلاع الفتنة[٨] وانهيار الخلافة الأموية ليتدخلوا بقواتهم العسكرية لمساندة الأطراف الأندلسية المتطاحنة على بعضها البعض طمعاً فى مزيد من الضعف للمسلمين .

وكان المسلمون فى سبيل الحصول على تلك المعونة العسكرية الأسبانية يتنازلون عن الأراضى والمدن الإسلامية تباعاً للأسبان .

وتزايد تدخل الممالك الأسبانية المسيحية فى السياسة الأندلسية فى عصر ملوك الطوائف عندما أخذت كل دويلة من دويلات الطوائف تستعين على جارتها المسلمة بالمساعدات الأسبانية . ولعل مأساة سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون فى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، رغم كل ما قدمه ملكها السابق المأمون بن ذى النون للملك الفونسو السادس خير مثال على ذلك[٩] . كما سجل الهجوم النورمندى على مدينة بربشتر فى سنة ٤٥٦هـ وعيثهم فى المدينة فساداً ، وذبحهم وأسرهم أهلها ، بداية لهوان المسلمين وزوال هيبتهم فى شبه القارة الأيبيرية ثم جاء سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون ليسطر

البداية الفعلية والحقيقية لضياع الإسلام فى الأندلس . وكانت طليطلة هى الضحية الأولى بين دويلات الطوائف وممالكها ، لخلافات حكام هذه الدويلات واستعانة ملوكها بالأسبان ، فقد قامت هذه الدويلات على أسس عنصرية وعرقية ، وكانت الحروب بينها ، وبذ ل الإتاوات لملوك أسبانيا المسيحية استرضاء لهم ولمعونتهم العسكرية ، هى السمة الوحيدة المشتركة فى السياسة الخارجية لدويلات الطوائف .

وتشير المصادر إلى أن الصدمة زلزلت نفوس بعض ملوك الطوائف المسلمين فى أعقاب سقوط طليطلة ، ويأتى على رأسهم المتوكل عمر بن الأفطس ملك بطليوس وغرب الأندلس ، وكذلك المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، فقد شعرا بالأخطار الأسبانية التى باتت تهدد مملكتيهما خاصة وأن الفونسو السادس ملك قشتالة وليون بدأ يرسل إليهما برسائل التهديد والوعيد ، وبدأت نذر الشر تقترب من بقية دويلات الطوائف فكان إن بدأ المتوكل عمر بن الأفطس بالدعوة لوحدة المسلمين فى الأندلس وتناسى الخلافات مستخدما بعض وزرائه من الأدباء والكتاب فى الدعوة للم الشمل ، كما أخذ يستغيث بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين فى المغرب فى ذلك الوقت . كذلك قام المعتمد بن عباد بالاستنجاد بالمرابطين وذهب بنفسه إلى يوسف بن تاشفين طالبا منه المعونة العسكرية المرابطية لمواجهة الأخطار الأسبانية ، فكان العبور المرابطى إلى الأندلس فى العام التالى لسقوط طليطلة ، وتعاونت الجيوش الأندلسية مع الجيوش المرابطية لتحقق مجتمعة انتصارا إسلاميا كبيرا فى موقعة الزلاقة الأولى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م .

تقييم للبيئة العلمية فى الأندلس فى عصر دويلات الطوائف :

ما نريد أن نطرحه فى هذا البحث يتمحور ويتمركز حول فكرة أساسية وهى دور علماء الأندلس فى عصر الطوائف إزاء هذه الأوضاع السياسية المتردية للمسلمين فى الأندلس ومدى مشاركتهم فى هذه الأحداث الخطيرة وموقفهم من

الصراعات السياسية بين الدويلات الإسلامية المختلفة واستعانة المسلمين بعضهم على بعض بالقوى الأسبانية المسيحية .

ونتساءل من خلال هذا البحث ، هل أدى علماء الأندلس الدور المنوط بهم كحملة أقلام نزيهة ، وكأمناء على مصلحة الدين والأمة . وهل كان هؤلاء العلماء على مستوى المسئولية المطلوبة منهم كرجال علم ودين ؟

وفى البداية ، لابد من تحديد أنواع العلماء ، والعلوم التى كانت شائعة فى الأندلس فى عصر الطوائف ، فهذه العلوم تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أولهما : العلوم الدينية ... وتشمل الفقه والحديث والتفسير والقراءات .

ثانيهما : العلوم اللسانية ... مثل العلوم اللغوية والنحوية والأدب والشعر والتاريخ العام .

وثالثهما : العلوم الدنيوية ... كالفلك والرياضة والطب والجغرافية والهندسة وعلوم النبات والزراعة(١٠) .

ونلاحظ أنه كان لبعض الفقراء على وجه الخصوص ومن بعدهم الشعراء والأدباء والمؤرخين ، دور بارز فى إدارة دفة الأحداث فى هذه الحقبة التاريخية . وبوجه عام فإننا نقسم العلماء سواء كانوا فقهاء أو أدباء أو مؤرخين أو شعراء فى أى عصر من العصور ، إلى نوعين ، النوع الأول منهم ، يكرس كل فنونه وطاقاته لخدمة نفسه وذاته ودنياه(١١) . والنوع الآخر وهو ما يعنينا فى هذا البحث هو الذى يكرس علمه وإبداعاته لخدمة قضايا أخلاقية ومبادئ عليا سامية .

وإذا ما أردنا تقييم نسبة كل نوع إلى الآخر فى عصر الطوائف ، لوجدنا بطبيعة الحال إن النوع الثانى الذى يقضى حياته متبحراً فى العلم من أجل خدمة قضية أخلاقية أو مبدأ سامى مترفعاً عن أى منصب يقربه من ذوى المال والسلطان والجاه ، متحرراً بفكره من أغلال السلطة ، كان أقل عدداً بكثير إذا ما قورن

بهؤلاء العلماء الذين استغلوا علمهم وأخضعوه وطوعـوه لطموحاتـهم مـن أجـل الوصول إلى ما يصبون إليه ، ومن أجل تحقيق مصالحهم الشخصية ومن ذلك علـى سبيل المثال ، فئة الشعراء المنافقين الذين ظهروا فى عصر الطوائف ومن هـؤلاء شاعر امتدح حديقة رؤوس القتلى التى أقامها المعتضد بن عباد ملك إشبيلية للقتلـى من أعدائه قائلا :

جلاء للعين مبهجة للنفـــوس   حدائق اطلعت ثمر الـرؤوس[١٢]

وأيضا تلك الأبيات الشعرية التى وصف بها الشاعر أبو بكر الدانى ما كـان يدفعه ويؤديه المعتمد بن عباد من إتاوة وجزية لالفونسو السادس ملك قشتالة وليـون بقوله :

فىنصرة الدين لا أعدمت نصرته   تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع[١٣]

وقد عرف شعراء أمثال ابن شرف القيروانى وأبو عبد الله الحداد بأنهم مـن تلك النوعية التى تتخذ من الشعر والأدب وسيلة للوصول إلى ما يرجونه من منـازل عالية[١٤] .

وفيما يتعلق بالنوع الأخير من علماء الأندلس ، الذى اهتم بقضايا مجتمعـه ، وكرس علمه وقدراته الإبداعية لخدمة مصلحة أمته ودينه ، والذى كان كما سـبق وإن أشرنا يمثله قلة قليلة من الفقهاء ويليهم عدد من الشعراء ، فإنهم جديرون بـأن نفرد لدورهم . هذه الدراسة المستقلة ، إكبارا لهذا الدور العظيم وإجلالا لهم نظـير ما تحملوه من صعاب ومشاكل هددت حياتهم فى كثير من الأحيان وأن كانت هـذه الجهود التى قام بها هؤلاء العلماء لم تسفر فى نهاية الأمر عن إنقاذ دولة الإسـلام فى الأندلس ، فقد أنهار الكيان الإسلامى والحضارة الإسلامية فى أسبانيا بعد ثمانيـة قرون من عمر الزمان ، ولكن شرف المحاولة التى قام بها هؤلاء العلماء لجديـرة بأن نتوقف أمامها وقفة قصيرة لإلقاء الضوء عليها كتجربة إنسانية شريفة فى هـذه اللحظات الحرجة من تاريخ الإسلام فى الأندلس .

اتخذت مقاومة هؤلاء العلماء الأندلسيين لخطر القوى المسيحية الأسبانية ثلاثة صور تدرجت فى أهميتها وقوتها وفى مدى إيجابيتها وفاعليتها ، أما الصورة الأولى فتمثلت فى قيام طائفة من علماء الأندلس بنقد سياسة ملوك الطوائف نقداً شديداً ، أثار غضب هؤلاء الملوك فى كثير من الأحيان مما هدد حياة هذه الطائفة من العلماء ، ثم تطورت الأمور ، وتخطت المقاومة مجرد النقد السياسى ، عندما جند بعض العلماء الأندلسيين أنفسهم وحياتهم للتجوال فى جميع أنحاء الأندلس لوعظ الناس وحث الحكام على تناسى خلافاتهم ولم شمل المسلمين ، فكانت هذه هى الصورة الثانية من صور المقاومة التى أبداها علماء الأندلس تجاه الخطر الأسبانى وفيما يتعلق بالصورة الثالثة أو الأخيرة من صور هذه المقاومة فتتمثل فى جهاد بعض العلماء بالنفس والروح فى سبيل قضية الدين والأمة الإسلامية بالمشاركة فى المعارك الحربية ضد الأسبان واستشهاد بعضهم فى هذه المعارك .

١ – الصورة الأولى من صور مقاومة علماء الأندلس للخطر الأسبانى وتتمثل فى النقد السياسى لملوك الطوائف :

كان لفقهاء الأندلس فى عصر الطوائف دور رائد وبارز فى نقد الأوضاع السياسية آنذاك ، ولعلنا نجد اسم الفقيه الشاعر أبو حفص عمر بن الحسين الهوزنى يتصدر قائمة أسماء فقهاء هذا العصر من حيث انصهاره فى قضايا أمته الأندلسية ودينه ، ولكفاحه الأدبى ، وتكريسه قلمه لخدمة الأهداف الأخلاقية السامية .

لقد آمن الفقيه أبو حفص عمر الهوزنى بأن من يحمل القلم فهو يحمل أمانة مقدسة لابد من الحفاظ عليها . وكان جديراً بحمل هذه الأمانة إلى أقصى الحدود ، فقد انتهت به شجاعته الأدبية فى نقد الأوضاع السياسية الإسلامية المتردية آنذاك إلى أن يدفع حياته ثمناً لهذه الأمانة والشجاعة .

فقيهنا أبو حفص عمر بن الحسين الهوزنى ، فقيه ، ومحدث وشاعر وأديب(١٥) ، ذكره ابن بسام فى الذخيرة ، والحجارى فى المسهب ، ولد فى عام

٣٩٢هـ ، ورحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج فى عام ٤٤٤هـ ، وزار مصر وسمع بالحجاز ، كتاب صحيح البخارى ، وعنه أخذه أهل الأندلس ، وعندما رجع من رحلته المشرقية استقر بإشبيلية وسكنها وخدم ملكها المعتضد بن عباد .

وقد فضل الهوزنى مصلحة أمته على مصلحته الشخصية ، فكان لا يكف عن نقد سياسة المعتضد بن عباد الذى عرف بقسوته وحروبه مع جيرانه من الملوك والأمراء المسلمين وميله لابتلاع الممالك الإسلامية الصغيرة المجاورة له ، فكان الهوزنى يصرح بما يعتمل فى نفسه من ألم إزاء تطاحنه مع جيرانه المسلمين وتقاتله معهم ، وقد فاضت آلامه عندما رأى الجنود الفرنج من النورمنديين يتغلبون على مدينة برشتر فى ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ويكتسحون تلك المدينة المسلمة وينكلون بأهلها ، فخاطبه برسالة ينتقد فيها أحوال ملوك المسلمين ومنهم المعتضد نفسه ، ويحضه فيها على الجهاد وقد بعث له بهذه الرسالة من مدينة مرسية ومنها قوله :

أعباد جل الرزء والقوم هجع ... على حالة ما مثلها يتوقع

فلق كتابى من فراغك ساعة ... وإن طال فالموصوف للطول موضع

إذا لم أبث الداء رب شكاية ... أضعت وأهل للملام المضيع[١٧]

كما وصله بنثر فيه قوله « ما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها ولا أرجأ الدليل من أناط الأمور بأربابها ، ولرب أمل بين أثناء المحاذير مدمج ومحبوب فى طى المكاره مدرج ، فانتهز فرصتها فقد بان من غيرك العجز وطبق مفاصلها فقد أمكنك الحز ولا غرو أن يستمطر الغمام فى الجدب ويستصحب الحسام فى الحرب ... »[١٨] .

وله أيضاً :

صرح الشر فلا يستقل ... إن نهلتم جاءكم بعد عل

بدء صعق الأرض رش وطل ... ورياح ثم غيم أبل

خفضـــوا فالداء رزء أجـــل واغمــدوا سيفا عليكـــم يســـل

وقد ضاق المعتضد بن عباد ملك إشبيلية ذرعا بهذا الفقيه من جــراء تدخلــه المستمر فى السياسة ، ومطالبته له بما ليس بالهين ، فهذا الفقيه كان غيــورا علــى مصالح دينه وأمته ، آمن بضروورة تبليغ الرسالة لذويها ، لكن هذه المبادئ ، وهــذه القيم ، إن حمدها له جمهور الشعب ، فإن المعتضد بن عباد لــم يحمدهــا لــه لأن سياسته كانت تتجه وتميل إلى مهادنة الأسبان إلى درجــة تقديــم الإتــاوات وبــذل الأموال استرضاء لهم ، ولهذا فقد قرر المعتضد إخراس هذا اللسان وكسر هذا القلم الأمين إلى الأبد فاستدعاه إلى قصره بإشبيلية وقام بقتله بنفسه فى يوم الجمعــــة ١١ ربيع أول سنة ٤٦٥هـ ودفنه فى قصره بثيابه وقلنسوته وهال عليــه الــتراب دون غسل ولا صلاة(١٩) .

ومما سبق يتبين لنا ، إن شجاعة هذا الفقيه وحرصه على قضايا دينه وأمتـه ، وأن آراءه الثورية ودعوته ملكه إلى لم الشمل ، ونقده لسياسته المتحالفة مع الأعـداء ضد جيرانه المسلمين ، كانت السبب وراء إنهاء حياته بــهذه الصــورة المأســاوية ومقتله(٢٠) .

ولم تنته قضية أبى حفص عمر الهوزنى عند هذا الحد ، فقد نشأ ولـــده أبــو القاسم وبداخله الرغبة فى الثأر لمقتل أبيه من بنى عباد ، ولهذا فقد كان ســببا مــن اسباب محاربته دولة المعتمد عباد بن المعتضد قاتل أبيه ، فكان أبو القاسم الــهوزنى ممن حرضوا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على إزالـــة ملــك هــذه الأســرة العبادية(٢١) .

كذلك كان للفقيه المحدث الشاعر أبى محمد عبد الله بن فـــرج بــن غزلــون اليحصبى المعروف بأبى العسال الطليطلى دور كبــير فــى نقــد سياســة ملــوك الطوائف، وقد عرف ابن العسال الطليطلى بــالزهد واشــتهر بالكرامــات وإقامــة الدعوات(٢٢) ، كما كان من اشهر مفسرى القرآن الكريم فى عصره إلى جانب ذيوع

صيته كشاعر مجيد ، وكان يميل إلى الابتعاد عن أصحاب السلطان وكثيراً ما كان يلزم بيته منكباً على علمه(٢٣) .

وكان ابن العسال ممن تأثروا وتألموا لمأساة بربشتر ، وانشد فيها قصيدة عبر فيها عن آلامه وأحزانه وانتقد ملوك الطوائف فى أبياتها ومنها :

ولقد رمانا المشركون باسهم — لم تخط لكن شانها الأصحاء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها — لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها — فى كل يوم غارة شعواء
ماتت قلوب المسلمين برعبهم — فحماتنا فى حربهم جبناء
كم موضع غنموه لم يرحم به — طفل ولا شيخ ولا عذراء(٢٤)

وهو صاحب الشعر الشهير بعد سقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون :

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم — فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وارى — ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا — كيف الحياة مع الحيات فى سفط(٢٥)
من جادر الشر لا يأمن بوائقه — كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وقد رحل ابن العسال إلى غرناطة بعد سقط طليطلة وعاش بها حتى وفاته فى سنة ٤٧٨هـ وقد نيف على الثمانين عاماً(٢٦) .

كذلك تبرز أسماء أخرى لبعض الفقهاء الأندلسيين الذين فقدوا حياتهم أيضاً على أيدى أصحاب السلطان ، ثمناً لجرأتهم وشجاعتهم الأدبية ، ونقدهم لسياسة

ملوكهم آنذاك ، منهم الفقيه الشهير محمد بن جهور بن محمد من أسرة أبـي عبـدة التى أفردت لها منذ عامين دراسة خاصة .

ولد محمد بن جهور بن أبى عبدة سنة ٣٩١هـ ، وكان فقيها مجيدا ، يقـرأ القرآن ويجوده ويحفظه ، وقد انتهت حياته معتقلا فى سجن مدينة شلطيش من قبـل المعتمد بن عباد فى سنة ٤٦٢هـ(٢٧) .

كذلك يبرز اسم الفقيه عمر ابن حيان بن خلف بن حيـان القرطبـى ، ابـن المؤرخ الكبير ، ابن حيان ، الذى انتهت حياته بالقتل على يد المأمون الفتـح بـن محمد بن عباد فى مدينة المدور فى سنة ٤٧٤هـ الذى مثل بجثته ابشع تمثيـل(٢٨) ، لفصاحته ويقظته ودوره البارز فى نقد الأوضاع السياسية فى ذلك العصر مثل والده المؤرخ العظيم الذى سنشير فى الصفحات التالية ، إلى دوره الكبير فى هذا المجـال عند حديثنا عن دور مؤرخى الأندلس فى النقد السياسى .

وإذا ما انتقلنا بالحديث عن فقهاء الأندلس إلى الحديث عن شعراءها ودورهـم فى نقد الأوضاع الإسلامية المتردية فى عصر الطوائف فإننا نطالع اسـم الشـاعر الأديب أبا القاسم خلف بن فرج الالبيرى المعروف بالسميسر الـذى وصـف فـى المصادر الأندلسية بأنه كان باقعة عصره وأعجوبة زمانه ودهره ، اختص فى شعر القدح والهجاء ، وقد هجا ملوك غرناطة مما هدد حياته بالخطر فهرب إلى المعتصم ابن صمادح بالمرية ، ورغم ذلك فإن ابن صمادح لم يسلم من هجائـه(٢٩) . ومـن نماذج شعره الذى انتقد من خلاله سياسة ملوك الطوائف بالأندلس قوله :

نـاد الملوك وقل لهم　　　مـاذا الذى أحدثتـم

أسلمتـم الإسلام فى　　　أسـر العـدا وقعدتم

وجب القيـام عليكم　　　إذ بالنصـارى قمتم

لا تنكروا شق العصا　　　فعصا النبى شققتـم

وقال :

رجـــوناكــم فمـــا انصفتمونا   وأملناكـــم فخذلتمونـــــا

سنصبر والزمان لـــه انقلاب   وأنتـــم بالإشارة تفهمونـــا

وقال فى الأمير عبد الله ابن بلقين ، أمير غرناطة فى عصر الطوائـف وقـد رآه يحصن نفسه من جيرانه المسلمين .

يبنى على نفســه سفاهـــا   كأنـــه دودة الحريـــر(٣٠)

ولعل أشهر أبيات شعرية ، هى تلك التى قيلت فى نقد وهجاء ملوك الطوائـف وسياساتهم ، استهانة بهم واستخفافا بدورهم السياسى ما ذكـره الشـاعر الأندلســى الشهير ، أبو الحسن بن رشيق القيروانى ، الذى انتقد بشدة الصراعات بين ملـــوك الطوائف بقوله :

مما يزهدنى فى أرض أندلس   أسمـــاء معتضد فيها ومعتمد(٣١)

ألقاب مملكة فى غير مواضعها   كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

أما الشاعر والأديب محمد بن أحمد بن أسحق بن طاهر ، فقد كان من أكـــثر الشعراء الذين انتقدوا القادر بن ذى النون ، ملك طليطلة وقد فرح لمقتله ، وأرســل يخاطب أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف فى هذه المناسبة بقوله :

أيهـــا الأحيـــف مهـــلا   فلقـــد جئـــت عويصـــا

إذ قتلـــت الملـــك يحى   وتقمصـــــت القميصـــا

رب يـــوم فيـــه تجـــزى   لـــم تجـــد عنـــه محيصا(٣٢)

وفيا يتعلق بمؤرخى الأندلس يتصدر اسم المؤرخ الكبير ابـــن حيـــان قائمـــة مؤرخى الأندلس الذين تصدوا بالنقد العنيف ، لملوك الطوائـــف ، وحملـــوا علـــى

سياساتهم التى أغرقت رعاياهم فى بحور من الدماء بددت قوة وهيبة الإسلام فى أسبانيا .

ويعتبر ابن حيان بحق « صاحب وحامل لواء التاريخ الأندلسى » على حد وصف تلميذه أبو على الجيانى(٣٣) .

ولد ابن حيان فى سنة ٣٧٧هـ فى عهد الخليفة الأموى هشام المؤيد بن الحكم المستنصر فى قرطبة ، ووالده هو خلف بن حسين بن حيان ، أحد كتاب المنصور ابن أبى عامر(٣٤) ، وقد صحب المنصور فى غزواته الشهيرة .

أما حيان ، الجد الأول لمؤرخنا الكبير ، قد كان مولى للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الداخل(٣٥) ، ولهذا فقد ارتبطت أسرة بن حيان لصلة ولاء بالأسرة الحاكمة المروانية ، ولهذا السبب أيضا فقد نشأ المؤرخ الكبير ابن حيان ، على دراية كبيرة ببواطن السياسة ودخائل الأمور ، كما كان على علم بأحوال الممالك الأسبانية المسيحية .

وقد تقلد ابن حيان منصب « صاحب الشرطة » الذى يعد من المناصب العالية فى الأندلس ، وهو يقارب منصب الوزير أو الحاجب ، ولكنه رفض أن يتقلد غيره من المناصب السياسية ليتفرغ لكتابة التاريخ ، وتوفى ابن حيان فى عصر الطوائف فى سنة ٤٦٩هـ(٣٦) .

لقد أمضى ابن حيان حياته يدافع عن فكرة سياسية هامة وهى الاعتداد بالجماعة ، أو الوحدة الأندلسية(٣٧) ، التى اكتملت فى اعتقاده فى ظل خلافة بنى أمية ، ثم أطاحت بها الفتنة البربرية إلى الأبد .

ولم يكل ابن حيان ، أو يمل فى لحظة ، عن الدفاع عن فكرة ضرورة وحدة الأندلس ولم شمل المسلمين ، ولهذا فقد وصف الثوار والمنفصلين عن الدولة الأموية فى عصر الأمراء محمد والمنذر وعبد الله (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ) بأبشع

الصفات ، ولا سيما الثائر عمر ابن حفصون ، كذلك كان يشعر بمرارة عميقة لانفصام عرى الوحدة الأندلسية فى عصر ملوك الطوائف . ومن هذا المنطلق ، نجد أن ابن حيان قد دافع فى كتاباته عن الخلافة الأموية وأكثر من انتقاده لملوك الطوائف ، فقد كان يرى فى الخلافة ، العاصم الوحيد للأندلس من التفكك والانهيار. وربما كان اعتداده الشديد بالجماعة وبوحدة الأندلس التى جاهد الأمويون دائما للحفاظ عليها ، هو الذى جعل ابن حيان ينفر كل النفور من ملوك الطوائف الذين مزقوا تراث الخلافة ولم يحسن أحد منهم الحفاظ على ما فى يده ، بل أدى تفريطهم فى الأمانة وتناحرهم وتحالفهم مع أعدائهم على بعضهم البعض ، إلى تضييع الأمة الأندلسية كلها فى النهاية .

ولعل هذا الدفاع المستميت من قبل ابن حيان عن الخلافة الأموية ، دفع الكثيرون إلى الظن ، بأن صلة الولاء التى ربطت بين أجداد ابن حيان ، وبين عبد الرحمن الداخل ، هى السبب وراء النزعة الأموية لدى ابن حيان ، ولكن ابن حيان الذى أمضى عمره كله فى عصر ملوك الطوائف بعد انقضاء حكم المروانيين ، لم يكن ليستفيد على الإطلاق من الإشادة بمآثر هذه الدولة المروانية المندثرة اللهم إلا إذا كان دفاعه يكمن وراءه إيمان عميق بقضية كبيرة وهدف سام ألا وهو الدفاع عن وحدة الأندلس ضد تهور وضعف ملوك الطوائف(٣٨) .

ويعد ما كتبه ابن حيان عن محنة مدينة بربشتر التى اقتحمها النورمان فى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ، فيه إجمال لرأى ابن حيان فى ملوك الطوائف جميعهم ، ومن ينافقهم من زملائه من العلماء وهو من أقوى نماذج النقد السياسى فى تاريخ الأندلس الإسلامى على الإطلاق فهو يقول :

« طرق الناعى بها قرطبتنا فجأة من صدر شهر رمضان من العام ، فصك الأسماع وإطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير للكل شغلا تسكع الناس فى التحدث به والتساؤل عنه والتصور لحلول مثله ، إذا لم يفارقوا فيها

عاداتهم من استبعاد الوحل ، والاعتزاز بالأمل ، والإسناد إلى أمراء الفتنة الـهمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل : يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسـون عليهم وضوح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين منهم هم كـالملح ، فيـهم الأمراء والفقهاء ، قل ما تتنافر إشكالهم : بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يـردؤون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذه لا كفايـة له ، ولا تخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادا عـن الجماعة وجريا إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكـد الله عليهم فى التبيين لهم ، قد أصبحوا بين كل من حلوائهم خابط فى أهوائـهم ، وبيـن مستشعر مخافتهم ، آخذ بالفتنة فى صرفهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم ، فما أقول فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها ؟ هل هى إلا مشفية على بوارهـا واستئصالها ؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء إن لم يكن عندهـم لـهذه الحادثة النكراء فى بربشتر إلا الفزع إلى حفر الخنادق ، وتعلية الأسـوار ، وشـد الأركان وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة السواء مـن إلقائـهم بأيديـهم إليهم: أمور قبيحات الصور مؤذنات الصدور بإعجاز تحل الغير :

أمور لو تدبرها حكيم أذن لنهى وهيب ما استطاعا

وقد أفشينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلقة ، طالمـا حذر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره ، ولأشد مما أفشينا عنـد أولى الألباب ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بـالتواصل والألفـة وأصبحنا من أستشعار ذلك والتمادى عليه على شفا جرف يـؤدى إلـى الهلكـة لا محالة ... »[٣٩] .

كذلك تعد الأخبار التى أوردها ابن حيان عن منذر بن يحى صاحب سرقسطة نموذجا قويا من نماذج كتاباته فى النقد السياسى فى تلك الحقبة ، فهو يصف انقـلاب منذر على الخليفة هشام المؤيد ، رمز الوحدة الأندلسية ، وتحالفه مع ملوك الأسـبان

بقوله « وأما عذره فالنار برأس اليفاع ، من أفحشه صنعه بهشام المخلوع ، مولى نعمته ومعلي رتبته وباعثه إلى الثغر لنصرته ، فانقلب ناصرا لعدوه وغزاه في عقر داره وأنزله عن سريره وأسلمه لحتفه ، وباع دماء عشيرته أهل قرطبة مجانا باطلا بلا ثمن من البرابرة ، على غير عذر ولا ضرورة وعاد بمثلها لمحمد بن سليمان أثيره عندما استجار به فى نكبته فقتله وهو ضيفه ... وكان لأول ولايته قد ساس عظماء الإفرنج وهاداهم حوطا للثغر وأهله وتأنيا للجماعة حتى تثوب لأهل الإسلام يناهضون بها عدوهم وكان رؤساء الجلالقة يومئذ ريمند الجليقى وشانجة القشتلى ، فسلك معهما سبيل الاسترضاء والموافقة والاستخذاء ، فحفظت أطرافه وكفت المعرة عن عمله ... وبلغ من استمالة الحاجب منذر لهذين الطاغيتين أن أجريا تصاهرهما على يديه ، وكتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقطة فى حفل من أهل الملتين فقرفت الألسنة منذرا لسعيه فى نظم سلك الطاغيتين لما فيه من سوء العاقبة . وقد قيل أن رأى منذر كان فى ذلك أحصف ، من رأى من قدح فيه ، وقرف لنظره فى شأن وقته ، وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته ، فآثر من الموادعة ما ستر به العورة وشراه بغليظ الكلفة واختدع به عظيمي الجلالقة ريمند وشانجة المحدثين أنفسهما يومئذ بمناهضة أهل الأندلس ... »[٤٠] .

وقد اختار ابن حيان الإقامة فى قرطبة ، عاصمة الخلافة الأموية القديمة فى ظل الجهاورة ، الذين كانوا فى اعتقاده أقل أمراء الطوائف سوءا ، فضلا عن أن قرطبة كانت لم تفقد بعد مكانتها الروحية بين مدن الأندلس ، فحافظت على وضعيتها العلمية والثقافية ، ولكن طبيعة ابن حيان من اعتزازه بنفسه واحترامه لقلمه وكبريائه ، أدت إلى تكدير صفو العلاقات بينه وبين بنى جهور ، فقد تعرض ابن حيان لأبى الوليد بن جهور بنقد لاذع ، مما عرضه لغضب ولده عبد الملك الذى كاد أن يفتك بابن حيان لولا شفاعة والده أبى الوليد له .

وقد تحول ابن حيان بسبب نقده الشديد لسياسة ملوك الطوائف إلى « بطل شعبى » على حد تعبير المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور محمود على مكى فى نظر

الأمة الأندلسية ، تحف به هالة من الإكبار والإجلال ، فلم يقدم أحـــد مـــن ملـــوك الطوائف لذلك ، على التعرض له بأى سوء[٤١] .

ولعل صفات ابن حيان وميله إلى نقد ذوى السلطان تغليبا للمصلحـــة العليـــا كانت السبب وراء الصداقة التى ربطته بالفقيه والمؤرخ أبى القاسم سوار بن أحمـــد ابن سوار القرطبى ، الذى كان يحرص بدوره على الابتعاد عـــن ذوى الســـلطان ، ويتعفف عن منافقة ملوك الطوائف طمعا فى جاه ومركز ، واكتفى باهتمامه بعلمـــه ودراساته[٤٢] .

كذلك جمعت أواصر الصداقة بين مؤرخنا ابن حيان وبين المؤرخ والفيلسوف والفقيه الشهير أبى محمد بن حزم لاتفاق كليهما فى الرأى حـــول سياســـة ملـــوك الطوائف .

وقد وصف ابن حيان صديقه ابن حزم بأنه كان حامل فنون الحديـــث والفقـــه والجدل والنسب[٤٣] . مع التعمق فى كثير من العلوم القديمة من المنطق والفلســـفة ، كما أكد على تشيعه لأمراء بنى أمية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والأندلس وانحرافـــه عن سواهم[٤٤] . ولعل هذا الولاء للأمويين وخلافتهم كان من أهم العوامـــل التـــى قربت بين هذين المؤرخين .

وكان ابن حزم من أكثر الناقدين لسياسة حكام الأندلس فى عصـــرى الفتنـــة والطوائف فقد وصف الأحوال السياسية فى بداية عصر الطوائف بقوله « فضيحـــة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها : أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلـــهم يتسمى بإمرة المؤمنين ويخطب لهم فى زمن واحد وهم : خلف الحصرى بإشـــبيلية على أن هشام بن الحكم ، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة ومحمد بن إدريـــس ابن على بن حمود بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن على بن حمود ببشتر[٤٥] .

كذلك انتقد ابن حزم الفقهاء والعلماء الذين هرعوا لخدمة ملوك الطوائف غير عابئين بسياساتهم المشينة طمعا فى منصب وجاه وهو فى ذلك يقول فى إحدى رسائله :

« وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة ، وملابسه الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى ... وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب الله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد ... فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذم جميعهم ، فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعة »[٤٦] .

ومن النحاة الذين لم يكتفوا بالتعمق فى دراساتهم اللغوية وإنما آمنوا بقضية أمتهم ودينهم فى ذلك العصر ، يبرز اسم أبو الحسن على بن محمد بن السيد النحوى ، البطليوسى ، من غرب الأندلس الذى كان معروفا بالخيطيال ، وهو أخو العلامة الكبير أبى محمد ابن السيد .

ويذكر ابن بشكوال إن حياته انتهت لذلك فى السجن بأحد معتقلات القائد ابن عكاشة فى قلعة رباح فى سنة ٤٨٠هـ[٤٧] .

٢ - الصورة الثانية من صور مقاومة علماء الأندلس للخطر الأسبانى وتتمثل فى دعوتهم للم الشمل والوحدة الإسلامية فى عصر الطوائف :

يبرز اسم الفقيه القاضى العلامة أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد المعروف بالباجى كأحد أكبر الدعاة إلى ضرورة وحتمية توحيد الصف الإسلامى

والتضامن وجمع كلمة المسلمين بالأندلس لمواجهة مد حركة الاسترداد المسيحى الأسبانى فى عصر الطوائف .

وقد أثار المؤرخ الدكتور عبد الرحمن الحجى قضية للمناقشة فى كتابة «التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة» حول أهمية دور هذا الفقيه الكبير فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس[٤٨] .

وأبو الوليد الباجى ، فقيه كبير ، وشهير ، ولد ببطليوس فى النصف الثانى من ذى القعدة من سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، ونشأ بها ، وتولى التدريس والقضاء فى كثير من بلاد المشرق الإسلامى ، وله العديد من المصنفات والأشعار التى جمعها ولده أبو القاسم . وتعد مناقشاته لابن حزم فى جزيرة ميورقة من أشهر أعماله ، كما أنه أقام فى سرقسطة عدة سنوات أثناء حكم المقتدر أحمد بن هود ، هذا إلى جانب توليه الرد على رسالة راهب فرنسى فند فيها مزاعمه ودعاه إلى اعتناق الإسلام[٤٩] .

وقد قام الباجى بدعوته هذه لوحدة الأندلس فى بادئ الأمر من تلقاء نفسه ، ودون إيعاز من أى سلطة رسمية ، وكان ذلك فى أعقاب عودته من رحلته إلى المشرق الإسلامى التى استغرقت ثلاثة عشر عاما (منذ عام ٤٢٦هـ حتى عام ٤٤٠هـ)[٥٠]، فقد وجد ملوك الطوائف بعد عودته أحزابا مفترقة متقاتلة ، ومتناحرة فأخذ يتنقل بينهم يعظهم[٥١] ويدعوهم للم الشمل ومدافعة العدو المشرك . وهم يجلونه فى الظاهر ويستبردون نزعته فى الباطن ويستثقلونه على حد تعبير ابن بسام[٥٢] .

ولعل نشاطه وحماسته كانا سببا دعا المتوكل عمر بن الأفطس ملك بطليوس، أن يعهد إليه رسميا بالقيام بهذه الدعوة بعد أن أحس بجهوده المستميتة لجمع شمل المسلمين فى شبه القارة الايبيرية أمام الموجة الأسبانية الشرسة التى باتت تهدد كيان الممالك الإسلامية كلها آنذاك[٥٣] .

أما الفقيه والشاعر الكبير أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمـــرى ، الذى كان لمولده فى سنة ٣٦٨هـــ فى قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ونشأته بـــها ، فى بيت أدب وعلم حيث كان والده أحد الشعراء البارعين والمشهورين فى الترســل الأدب ، أكبر الأثر فى إتقانه علوم السنة والقراءات، حتـــى حــاز لقــب « حــافظ المغرب » وقد وصف فى المصادر بأنه كان ناصرا للسنة ولكنه كـــان فـــى نفــس الوقت مستقلا فى فكره بعيدا عن الجمود ، مجددا فى الفقه والحديث مجتـــهدا فـــى استنباط المسائل الفقهية والأحكام ، يمحص آراء الأئمة ويستدل لرأيه بالسنة ويقارع الحجة بالحجة(٥٤) . وقد تولى أبو عمر عبد البر النمرى ، قضاء كل من الأشـــبونة وشنترين فى عهد المظفر بن الأفطس ، ولهذا فقد انتقل من قرطبـــة إلـــى غـــرب الأندلس ، وأخذ يتجول فى مدنها ، ثم توجه بعد ذلك إلى شرق الأندلس وتردد مـــا بين بلنسيه ودانيه وشاطبة داعيا إلى التوحيد ونبذ الفرقة .

ولأبى عمر بن عبد البر رسالة فى ذكر الجهاد واستنفار أهالى البلاد لمقاومـة العدو بعد نكبة مدينة بربشتر فى ٤٥٦هـــ أوردها ابن بسام فى الذخيرة(٥٥) .

أما القاضى الفقيه ، والعالم ابو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأســدى ، الذى كان يعد من جلة الفقهاء ، وكبار العلماء بالأندلس فقد كان حافظا للرأى مـــهتما بالمسائل ، متبصرا بالأحكام والنوازل كما أنه تولى الشورى والصــــلاة بقرطبـــة ، والقضاء بالعدوة وغرناطة فكان أيضا من أبرز من دعا أهـــل الأندلـــس وملوكـــهم للتوحد أمام الخطر الأسبانى .

ويرجع القاضى أبو الأصبغ بأصله إلى وادى عبد الله من أعمال حيان وقـــد ولد فى سنة ٤٣١هـــ ،وتوفى فى الخامس من محرم من ســـنة ٤٨٦هـــــ . وقــد استخدمه الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس كرســـول لـــه لـــدى أمـــير المرابطين يوسف بن تاشفين عندما استقر بسبتة برسم عبور البحر من أجل الجـــهاد فى الأندلس لإنقاذها من مصيرها المحتوم .

وقد حث ابن سهل الأمير المرابطى بالإسراع بالجهاد فقد كان ابن سهل يؤمن بأنه فى حكم ملوك الطوائف الضعاف المتناحرين ، والمتحالفين مع ملوك أسبانيا ، هلاك للإسلام فى الأندلس ، لذلك فقد أخذ يتقرب ليوسف بن تاشفين ويدفعه لإنهاء حكم الطوائف ولكن ابن تاشفين سرعان ما انقلب عليه وتخوف منه وشك فى ولائه، لأنه انقلب على أسياده من بنى زيرى ، فأبعده عنه(٥٦) . ومن الجدير بالذكر أن كل من المؤرخ ابن حيان وابن حزم قد تخطيا فى كتاباتها مرحلة النقد السياسى لملوك الطوائف إلى مرحلة الدعوة للم الشمل والتوحد ويتضح ذلك من خلال تحليلاتهما للأوضاع السياسية آنذاك(٥٧) .

٣ – الصورة الثالثة من صور مقاومة علماء الأندلس للخطر الأسبانى وتتمثل فى الجهاد بالنفس والمشاركة فى المعارك الحربية :

لم يكتف بعض العلماء الأندلسيين بالصورتين السابقتين لمقاومة العدو الأسبانى وحماية الأمة الإسلامية فتطور دورهم إلى ما هو أكثر إيجابية وفاعلية وهو المشاركة بالجهاد بالنفس فى المعارك الحربية ضد القوى الأسبانية .

ولم تكن هذه الظاهرة هى وليدة عصر الطوائف ، إذ كان من المألوف أن نقرأ بين سطور المصادر أسماء علماء وفقهاء مرابطين ومجاهدين شاركوا فى الجهاد فى الأندلس ضد القوى الأسبانية فى العصور الإسلامية السابقة ، ومن هؤلاء على سبيل المثال ، الفقيه محمد بن أبى الحسام طاهر القيسى الذى عرف بالشهيد لاستشهاده فى إحدى المعارك ضد الأسبان ، وكان قد شهد فتح مدينتى قلمرية وسمورة مع المنصور محمد ابن أبى عامر ، كما أنه أمضى حياته مرابطا فى مدينة طلبيرة وتوفى شهيدا فى سنة ٣٧٩هـ(٥٨) .

كذلك نطالع اسم الفقيه الزاهد موسى بن عبد الرحمن الذى توفى فى سنة ٣٧٨هـ ووصفه ابن بشكوال بأنه كان من أشهر المجاهدين فى طليطلة(٥٩) . واسم الفقيه المجاهد أبو بكر محمد بن سعدون التميمى الجزيرى المتعبد الذى اختار

المرابطة والجهاد فى بلاد المغرب وقد ذكر المقرى أنــــه غــزا غــزوات عديــدة وتعرض للجهاد وحرص عليه أيضا وتوفى فى عام ٣٤٤هــ(٦٠) . أمـــا فتـــح بـــن إبراهيم الأموى المعروف بابن القشارى الطليطلى فقد وصفه ابن بشكوال بانه كـــان شيخا صالحا كثير الصلاة والصدقة والجهاد وقد توفى فى سنة ٤٣٠هــ . كما أشار ابن بشكوال إلى الأديب العالم العابد المتقشف محمد بن عبد السلام الذى جاهد فـــى عصرى الخلافة والفتنة وفقد فى وقعة قتيش فى سنة ٤٠٠ هــ مع الأديـــب أبـــى عثمان القزاز(٦١) ، والقاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بـــابن الـــبريلى التطيلى ، قاضى تطيلة الذى حج بالمشرق فى سنة ٣٨١هــ ودرس علـــى علمـــاء مصر وعرف بالعلم والصلاح والجهاد بثغرة وتوفى فى سنة ٤٠٠هــ(٦٢) .

وفيما يتعلق بعصر الطوائف موضوع البحث فنطالع اسم الأديب هشام ابـــن إبراهيم التميمى ، الذى شاور بالأحكام فى طليطلة وعرف بالشـــجاعة فـــى ميـــدان القتال والفروسية ، واستشهد مجاهدا فى سنة ٤١٩هــ فى عصر الفتنـــة وبدايـــات الطوائف(٦٣) ، وكذلك سميه هشام بن محمد بن سليمان القيسى الطليطلى الذى كـــان من تلاميذ الشيخ أبى عمران الفاسى بالقيروان ، وكان معروفا عنه حبه لجهاد العدو والمرابطة فى الثغور وتوفى فى عام ٤٢٠هــ فى بداية عصر الطوائف(٦٤) .

أما أبو القاسم ثابت بن محمد بن وهب بن عباس الأموى ، الذى كـــان فقيـــها أشبيليا (ولد فى إشبيلية فى سنة ٣٣٨هــ) ، درس بقرطبة وروى بها عـــن أبـــى عيسى الليثى وابن القوطية ، كما اشتهر بحفظه الأخبار والتواريخ ، فقد وصف بـــأن كان من أهل الطهارة والعفاف والثقة والجهاد فى سبيل الله ، وتوفى فى مدينته فـــى عام ٤٢٦هــ(٦٥) .

كذلك نطالع اسم الفقيه خلف بن أحمد بن خلف الأنصارى الذى كـــان عالمـــا من طليطلة فى المسائل والأحكام ، وقد رفض خلف بن أحمد تولى قضاء مدينتـــه ، وارتحل إلى المشرق ، وأوقف من خيله ما يجاهد عليها فى سبيل الله ، وهـــو مـــن

أساتذة أبى الوليد الباجى بث فيه حبه للجهاد وضـــرورة التمســك بعــرى الوحــدة الإسلامية . وتوفى هذا العالم فى أول عصر الطوائف ، بعد سنة ٤٢٠هـ(٦٦) .

أما النحوى محمد بن يوسف بن محمد الأموى القرطبى المعروف بأنه كــان من أهل الضبط والإتقان ، وله تصيب وافر فى علوم اللغة العربية والحساب ، فقــد ترك قرطبة فى زمن الفتنة واستوطن الثغور مجاهدا فى سبيل الله ثــم عــاد إلــى قرطبة بعد استقرار الأمور بها(٦٧) وتوف فى سنة ٤٢٩هـ وممن استــوطن الثغــور أيضا ورابط بها وجاهد ، الفقيه الزاهد عبد الله بن سعيد بن لباج الأموى الشــنتجيالى الذى جاور مكة لمدة أربعين عاما ثم عاد للأندلس فى عـــام ٤٣٠هـــ ، واســتقر بالثغر الجوفى فى غرب الأندلس بنية جهاد العدو والمرابطة ، ورابط بـــالفعل فــى بطليوس ومرجيق وشلب ورباط الريحانة من أعمالها حيث كان له فـــرس يســميه مرزوق يقاتل به بنية الشهادة ، كما كان يروى الحديث بتلك الجهات ، وقــد توفــى عام ٤٣٦هـ ودفن بقرطبة(٦٨) ، وكذلك الفقيه الزاهد المحدث أبو الربيع سليمان بــن إبراهيم بن هلال القيسى ، الطليطلى ، الذى فرق جميع ماله ولزم الثغــور وتوفــى بحصن غرماج(٦٩) .

ومن علماء الأندلس الذين شاركوا فى موقعة الزلاقـــة الشــهيرة فــى ســنة ٤٧٩هـ واستشهدوا فيها ، الفقيه الزاهد ، والشاعر أحمد بـــن محمــد بــن فــرج الأنصارى المعروف بابن رميلة القرطبى ، الذى كـــان كثــير الصدقــة ، وفعــل المعروف ، وقد استشهد فى الزلاقة بعد أن استمات فى القتال ، غير مدبر على حــد وصف ابن بشكوال(٧٠) .

كذلك استشهد فى معركة الزلاقة المفكر والفيلسوف أبو رافع الفضل بن الفقيه الكبير أبو محمد بن حزم الظاهرى ، فقد تشرب من والده مبادئ العمل على الوحــدة الإسلامية والتضامن ، وجاهد فى معركة الزلاقة تحت قيــادة المعتمــد بــن عبــاد واستشهد(٧١) بها فى عام ٤٧٩هـ ، ومن العلماء الذين شاركوا فـــى وقعــة قتنــدة

واستشهدوا بها الفقيه محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكريا المعروف بابن الفراء الذى كان قاضيا لمدينة المرية ومن ابرز علماء عصره وانتهت حياته شهيدا فى هذه الموقعة فى سنة ٥١٤هـ(٧٢) .

ومن شهداء قتندة أيضا الفقيه الشهير حسين بن محمد بن فيرة بن حيون بن سكرة الصدفى ، الذى كان من أهل سرقسطة وسكن مرسية . وكان الصدفى من تلاميذ أبى الوليد الباجى ، آمن بأفكاره وتشرب مبادئه ، ورحل إلى المشرق فى سنة ٤٨١هـ ، وتتلمذ هناك على كبار الأئمة والفقهاء فى مصر والعراق ثم عاد للأندلس فى سنة ٤٩٠هـ وقصد مرسية ودرس بجامعها مصنفات الحديث والخط ، كما استقضى بها ، وتوفى الصدفى شهيدا فى موقعة قتندة وكان يومها فى الستين من العمر(٧٣) .

كذلك نرصد اسم العالم الفقيه أحمد بن محمد بن عمر الزاهد الذى أمضى حياته ملازما لثغور المسلمين ، مجاهدا صواما قواما وقد عاصر المأمون بن ذى النون وتوفى فى سنة ٤٥٠هـ(٧٤) .

الخاتمة

لقد كان للدور الكبير الذى قام به هؤلاء العلماء الذين تعرضنا لسيرتهم أثناء البحث أثر كبير فى إفاقة ملوك الطوائف المتناحرين من غفوتهم ، خاصة فى أعقاب سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، فتناسى هؤلاء الملوك المسلمين خلافاتهم للحظة قصيرة من عمر الزمان وتعاونوا مع المرابطين لمواجهة حركة الاسترداد الأسبانى المسيحى فى موقعة الزلاقة .

إن هؤلاء العلماء الأندلسيين الذين أرخنا لهم فى هذا البحث من فقهاء ومؤرخين وشعراء وأدباء ، رغم قلة عددهم بالنسبة لعدد العلماء فى الأندلس آنذاك ، تميزوا فى تصورى ببعد نظر سياسى كبير ، وضمير حى ، ووازع أخلاقى ، وشجاعة كبيرة وعمق فكرى ، جعلهم يفضلون مصلحة أمتهم ودينهم على مصالحهم الشخصية ، فخاضوا طريقا كان صعبا ووعرا ، وهو نقد ملوكهم ودعوة الشعب الأندلسى المسلم للتوحد ثم الجهاد بأنفسهم فى نهاية الأمر .

لقد أدرك هؤلاء العلماء أنهم أمام حركة صليبية أوروبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وليس مجرد حرب مع عدو أسبانى مجاور لهم ، ويؤكد ذلك أن الفونسو السادس ملك قشتالة وليون الذى استولى على طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، قام باستنفار أمراء أوروبا وملوكها عندما علم بقدوم المرابطين من بلاد المغرب لنجدة ملوك الطوائف فى أعقاب سقوط طليطلة .

ويذكر الحميرى أنه قد اجتمع له قبيل موقعة الزلاقة مباشرة فى سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م من الجلالقة والفرنجة ما لا يحصى عدده[٧٥] . وتبالغ مدونة لوزيتانو المسيحية فى ذكر من توافد من الممالك والإمارات الأوروبية على الفونسو السادس لا سيما من الفرنجة من فرنسا ومن بلاد الألب كما تؤكد المدونة العامة الأولى Primera Cronica General de Espania ، على انضمام قوات كبيرة من الفرنسيين ومن روما إلى قوات الفونسو السادس . وقد شارك القسس والرهبان

الأسبان والأوروبيين فى هذه الموقعة ضد ملوك الطوائف والمرابطين ، رافعين الصلبان وناشرين الأناجيل أسوة بما سيفعله الصليبيون فى المشرق الإسلامى بعد ذلك بعشرة سنوات ، كذلك توافدت على الفونسو السادس فى أعقاب هزيمته فى الزلاقة على يد ملوك الطوائف والمرابطين ، قوات أوروبية لنجدته ، من ليموزين وبواتو ونوماندى بصحبة ريمون دى سان جيل كونت تولوز الذى سيشارك فى الحملة الصليبية الأولى فيما بعد بنحو عشرة أعوام ، وتؤكد المدونة العامة الأولى أن ريمون دى سان جيل قد حصل على مباركة من البابا أوربان الثانى لمشاركته فى هذه-الحملة لانجاد الملك القشتالى ، وأن ريمون دى سان جيل كانت تربطه صلة مصاهرة بالملك الفونسو السادس[٧٦] .

إن هذه القلة القليلة من علماء الأندلس التى أدركت مدى أبعاد المخطط الأسبانى فى ذلك الوقت وخطورته بعد حصوله على التأييد والدعم المعنوى والعسكرى من البابوية وملوك أوروبا ، تبينت أن المسلمين أمام خطر أسبانى ، أوروبى ، صليبى ، فى حقيقة الأمر فلم تتهاون أو تتقاعس عن أداء دورها ورغم ضياع الإسلام فى الأندلس فى نهاية الأمر ، بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ، إلا إننا نقدر ، ونحمد لهؤلاء العلماء إخلاصهم لدورهم كحملة أمناء للعلم ، ومحاولتهم الشريفة لإنقاذ أمتهم ودينهم .

الهوامش

(١) غلب العنصر العربى على قرطبة فى عصر الدولة الأموية بينما غلب المولدون على أشبيلية وطليطلة ، كما تمركزوا مع البربر فى غرب الأندلس ، أما الجنوب ولا سيما غرناطة ومالقة فكان معظم سكانه من البربر (السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ص ٣٦٤) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ وارجع كذلك إلى Munes (H), Essai sur La chute du Califat Umayyade de Cordoue en 1009, Le Caire, 1948, p. 169.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، طبعة بيروت ١٩٥٠، جـ٢ ، ص ٩٦ .

(٤) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، مدريد ، ١٩٢٦ ، ص ٤٦ – ٤٨ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٥) من الأمثلة على ذلك تحالف الثائر المولد ، سليمان بن مرتين المعروف بقعنب مع الثائر البربرى محمود بن عبد الجبار المصمودى وأخته جميلة فى ماردة ضد الأمير عبد الرحمن الأوسط . (لمزيد من التفاصيل راجع سحر عبد العزيز سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ١٩٨٩، جـ١ ، ص ٢٣٤ وما يليها) .

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٢٦٧ وما يليها .

(٧) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى (سحر سالم ، تاريخ بطليوس ، جـ١ ، ص ٢٣٧ ، وما يليها) .

(٨) من ذلك استعانة واضح الفتى بقومس برشلونة ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنجول الذى يسميه العرب ارمقند فى مقابل تنازله لهم عن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط واستباحوا المدينة ، وأهلها عند دخولهم فيها . (أرجع إلى ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص ٩٤) .

Levi Provencal Historie de l'Espagne musulmane, Leiden,1950,T, II, p. 313.

(٩) راجع أحداث سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون رغم تحالفه مع حاكمها القادر بن ذى النون ومع جده المأمون من قبله ، الذى آواه ، وأجاره

أثناء حرب الفونسو السادس مع أخيه فى (ليفى بوفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٨) .

(١٠) سعد إسماعيل شلبى ، البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر (عصر ملوك الطوائف ، طبعة القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٤٥) .

(١١) إحسان عباس ، وداد القاضى ، دراسات فى الأدب الأندلسى ، طبعة الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص٩ وما يليها .

(١٢) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى المرجع السابق ، ص ١٧ .

(١٣) نفسه ، ص ١٧ – سعد إسماعيل شلبى ، البيئة الأندلسية ، ص٥٦.

(١٤) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(١٥) المقرى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، مجلد٢ ، ص ٩٣، ٩٤ .

(١٦) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، طبعة ١٩٦٤ ، جـ١ ، ص ٢٣٤ ، سعد إسماعيل شلبى ، البيئة الأندلسية ، ص ٢٨٣ .

(١٧) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١٩) نفسه ، وراجع ما ذكره ابن بشكوال فى الصلة ، طبعة تراثنا ، ١٩٦٦ ، جـ٢ ، ص ٤٠٢ ، ترجمة ٨٦٥ .

(٢٠) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص ٢٣٥ ، سعد إسماعيل شلبى ، المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(٢١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤، وكان ولده أبو القاسم الحسن الهوزنى خال القاضى أبو بكر العربى (المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨) .

(٢٢) ابن سعيد ، المغرب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص ٢١ .

(٢٣) ابن شكوال ، الصلة ، جـ١ ، ص ٢٨٥ ترجمة ٦٢٩ .

(٢٤) الحميرى ، الروض المعطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٩٠ .

(٢٥) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٣٥٢ ، وراجع ابن سعيد ، المغرب ، طبعة ١٩٨٠ ، جـ٢ ، ص ٢١ .

(٢٦) المصدر السابق ص ٢١ ، وارجع كذلك إلى المقرى ، جـ١ ، ص ٥١٤ .

• سحر عبد العزيز سالم ، بنو أبى عبدة ، وزراء وقادة الدولة الأموية فى الأندلس ، أحد أبحاث مجموعة « بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإسلامية» الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، جـ١ ، ص ١ - ٥٦ .

(٢٧) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٨٠ ، ترجمة ١٢٧٨ - الضبى بغية الملتمس ،ص ٥١ ، ترجمة ٢٥ .

(٢٨) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٠٣ ترجمة ٨٦٨ . ويذكر ابن بشكوال ترجمة للفقيه الكبير قاضى الجماعة محمد بن أحمد بن خلف المعروف بابن الحاج الذى ولد فى سنة ٤٥٨ ، وكان من جلة الفقهاء وكبار العلماء والمحدثين والنحويين، الذى قتل ظلما بالمسجد الجامع بقرطبة وهو ساجد سنة ٥٢٩هـ وإن لم يحدد سبب مقتله (المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٨ ، ترجمة ١٢٧٨) .

(٢٩) ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د. إحسان عباس ، طبعة بيروت ، ١٩٧٨ ، القسم لأول ، المجلد الثانى ، ص ٨٨٦ - إحسان عباس ، وداد القاضى ، دراسات فى الأدب الأندلسى ، ص ١٩ .

(٣٠) ابن بسام ، الذخيرة ، المصدر السابق ، ص ٨٨٦ وما يليها .

(٣١) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، جـ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٣٢) أهتم هذا الأديب بالنظم أكثر من اهتمامه بالنثر ، وتوفى سنة ٥٠٨هـ (الضبى ، بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس ، ١٩٦٧) .

(٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ١ ص ١٥٣ ، ترجمة ٣٤٥ - محمود على مكى فى تحقيقه لكتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس لابن حيان ، طبعة بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٠٤ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٣٤٥ - على أدهم ، بعض مؤرخى الإسلام ، طبعة القاهرة بدون تاريخ ، ص ٦٥ وما يليها .

(٣٥) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ١ ، ص ١٥٣ ترجمة ٣٤٥ .

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن حياة ابن حيان ، أرجع إلى محمود على مكى فى تحقيقه لكتاب المقتبس لابن حيان ، ص ٤٠ وما يليها .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ١١٥ - على أدهم ، بعض مؤرخى الإسلام ، ص ٦٥ وما يليها .

(٣٨) محمود على مكى فى تحقيقه للمصدر السابق (المقتبس لابن حيان) ص ١١٦ .

(٣٩) ابن عذارى، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ١٩٥٠ ، جـ٣ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤٠) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م١ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤١) راجع ما ذكره د. محمود على مكى فى تحقيقه لمقتبس ابن حيان ، ص ٤٥ - ٤٦ ويذكر الدكتور مكى أن ذلك لم يمنع ابن حيان من التغاضى عن مبادئه هذه فى بعض المناسبات القليلة ، من ذلك إهدائه تاريخه الكبير إلى المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، رغم أنه كان قد وصف مساوئ أسلافه ومفاسد حكمهم ، ثم هنأ المعتمد ابن عباد بفتح قرطبة وظهوره على المأمون بن ذى النون الذى سبق أن أهداه تاريخه وطرزه باسمه . كذلك قام بمدح الوزير ابن السقاء ، وزير أبى الوليد ابن جهور وهو ما أثار ابن بسام على ابن حيان فنقده فى كتابه الذخيرة على موقفه هذا نقدا لاذعا (أرجع لمحمود على مكى فى تحقيقه لكتاب المقتبس ، ص ٤٨ - ٥٠) .

(٤٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٢٣ - محمود على مكى فى تحقيقه للمقتبس ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٤٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م١ ، ص ١٦٧ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٤٥) ابن حزم ، نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، تحقيق د. شوقي ضيف ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥١ ، ٨٣ - ٨٤ .

(٤٦) ابن حزم ، رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، ضمن مجموعة رسائل ابن حزم بعنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى » تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٢ - ١٧٤ .

(٤٧) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٢٢ ، ترجمة ٩٠٣ .

(٤٨) أرجع إلى عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى منذ الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٣٣٦ وما يليها .

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن أبى الوليد الباجى أرجع إلى ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ص ٩٤ - ابن خاقان ، قلائد العقيان القاهرة ، ١٣٢٠ ، ص ١٩٦ - ابن الأبار ، التكملة ، جـ١ ، ص ٣٩١ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢٧٢ .

(٥٠) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ، جـ٢ ، ٤٠٨ ، ترجمة ٢٧٥ - النباهى المالقى ، تاريخ قضاة الأندلس ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٩٥ - المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٥١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، وارجع كذلك إلى القاضى عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بيروت ، ١٣٨٤/١٩٦٥ ، ٣ - ٤ /٨٠٨ .

(٥٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٢ ، م١ ، ص ٩٥ - ٩٦ .

(٥٣) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى سحر سالم ، تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ٣٤٠ وما يليها .

(٥٤) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب ابن عمر بن عبد البر النمرى ، التمهيد لما فى الموطأ فى المعانى والأسانيد ، تحقيق د. مصطفى العلوى ، الرباط ، ١٩٦٧ ، جـ١ .

(٥٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص ١٧٣ – سحر سالم ، تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ص ٣٥ .

(٥٦) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٣٨ ، ترجمة ٩٤٢ – وأرجع كذلك إلى النباهي ، المرقبة العليا ، ص٩٦ .

(٥٧) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى عبد الرحمن الحجى ، تاريخ الأندلس ، ص ٣٤٦ .

(٥٨) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ٨٤ ، ترجمة ١٥٤ .

(٥٩) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٦٠٨ ، ترجمة ١٣٣٠ .

(٦٠) المقرى ، نفح الطيب ، طبعة بيروت ، ١٩٦٨ ، تحقيق د. إحسان عباس ، مجلد ٢ ، ص ١٣٩ .

(٦١) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٨٨ ، ترجمة١٠٥٤ .

(٦٢) المصدر السابق ، ـ٢ ، ص ٤٨٨، ترجمة ١٠٥٥ .

(٦٣) نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٨ ، ترجمة ١٤٢٢ .

(٦٤) نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٩ ، ترجمة ١٤٢٦ .

(٦٥) نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٢ ، ترجمة ٢٨٦ .

(٦٦) نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٨ترجمة ٣٧٨ .

(٦٧) نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٢١ ، ترجمة ١١٣٧ .

(٦٨) نفسه ، جـ١ ، ص ٢٧٢ ، ترجمة ٥٩٨ .

(٦٩) نفسه ، جـ١ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ ، ترجمة ٤٥٠.

(٧٠) نفسه ، جـ١ ، ص ٦٨ ، ترجمة ١٤٤ .

(٧١) لمزيد من التفاصيل عن شخصية أبى رافع الفضل بن حزم وجهاده ، ارجع إلى سعد إسماعيل شلبى ، البيئة الأندلسية ، ص ٤٨ – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ١٣ .

(٧٢) ابن بشكوال ، جـ٢ ، ص ٥٧٢ ، ترجمة ١٢٦١ .

(٧٣) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٤٤ ، ترجمة ٣٣٠ .

(٧٤) نفسه ، جـ١ ، ص ٥٩ ، ترجمة ١٢١ .

(٧٥) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص٨٨ .

(76) Francisco Henrique Florez, Espana Sagrada t, XIV, Madrid, Chronicon Luisitanum, p.405, Aera 1125.

حيث ورد فى هذه المدونة النص التالى الذى يؤكد وفود فرنسيين وأوربيين مـــن بـــلاد الألب لمساندة الفونسو السادس فى موقعة الزلاقة .

« Ubi unanimities convenerunt cum rege nostro christiani a partibus Alpes, multique Francorum in adjutorium ci affuerunt ».

أرجع كذلك إلى :

Primera Cronica General de Espana, editada por Ramon Menendez Pidal, Madrid, 1977, T. II, 557, 520, 521.

الغرب الأوروبى و حركة الإصلاح
فى الدولة العثمانية

أ.د. سعيد بن سعد سفر الغامدي(*)

١ - بداية حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية وموقف أعضاء الهيئة الإسلامية منها :

بلغت الدولة العثمانية فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى أوج عظمتها وقوتها ، وعقدت لها الزعامة على العالم الإسلامى السنى ، منذ أن استطاع السلطان سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٧هـ/١٥١٢ - ١٥٢٠م) أن يهزم الشاه إسماعيل الصفوى ، شاه إيران ، وحامى المذهب الشيعى ، ثم استطاع السلطان سليم أن يحقق انتصاره أيضاً على الدولة المملوكية فى الشام ومصر . وتأكدت زعامة العثمانيين للعالم الإسلامى بدخول إقليم الحجاز سلمياً ضمن السيادة العثمانية، وتشرف سلاطين الدولة العثمانية بخدمة وحماية الحرمين الشريفين .

لكن بدأت - منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين - بوادر الضعف المبكر تدب فى الدولة العثمانية . وقد تبين ذلك من خلال المعاهدات التى عقدتها الدولة مع بعض الدول الأوربية ؛ حيث تنازلت فيها الدولة العثمانية عن كثير من مظاهر قوتها ، التى كانت تتعامل من خلالها مع تلك الدول .

ومنذ القرن التاسع عشر ازداد ضعف الدولة العثمانية ، وازدادت تبعاً لذلك أطماع الدول الأوربية فى ممتلكاتها ، وعرفت عندها الدولة العثمانية - فى الدوائر السياسية الأوربية - بالرجل المريض . وكان أن سارعت دول أوربا إلى السيطرة على هذا الجزء أو ذاك من ممتلكات الدولة العثمانية . ولم يقارب القرن التاسع عشر على الانتهاء إلا وقد خسرت الدولة معظم ممتلكاتها فى شرق أوربا ، وشمال إفريقية ، ولم يبق لها فى تلك البلاد إلا مجرد الاسم .

(*) أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض .

ونظراً لعوامل ومظاهر الضعف السالفة ، أحست الدولة العثمانية منذ القرن السابع عشر بحاجتها إلى الإصلاح ، وظلت هذه الفكرة تشغل أذهان بعض السلاطين والمفكرين ورجال السياسة فى الدولة ، منذ عهد كل من السلطانيين عثمان الثانى (١٠٢٨ - ١٠٣٢هـ/١٦١٨ - ١٦٢٢م) ومراد الرابع (١٠٣٣ - ١٠٥٠هـ/١٦٢٣ - ١٦٤٠م) .

وكانت حركة الإصلاح فى ذلك العهد تنبع من واقع حركة التاريخ العثمانى ، وفى إطار الثقافة العثمانية الإسلامية ، وبتشخيص السبب فى ضعف الدولة وجد أنه الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية كاملة فى كافة مناحى الحياة . وهذا ما تضمنته اللائحتان الإصلاحيتان اللتان تقدم بهما المفكر العثمانى « قوجى بك » إلى كل من السلطان مراد الرابع ، والسلطان إبراهيم الأول عام ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م.

وعندما أدرك السلطان مراد الرابع أن الدولة العثمانية تعانى من الانهيار ، أخذ فى إجراء بعض الإصلاحات الحربية البسيطة بغية وقفه ، وقرن ذلك بإجراءات إدارية بمساعدة قاضى عسكر الأناضول .

وفى نهاية ذلك القرن تبنت أسرة كوبريلى بعض الإصلاحات ، كان من بينها نظام جديد خاص بتحسين أحوال الرعايا ، بيد أن هذا الإصلاح لم يتضح ، ولم تظهر له آثار ذات شأن[١] .

وكانت حاجة الجيش إلى الإصلاح أهم مالفت انتباه هؤلاء السلاطين ولذا كان من الطبيعى أن يتجه الإصلاح إلى الجيش ، فالحكم العثمانى فى طبيعته حكم عسكرى، والجيش هو الذى يحكم ، إلى جانب وظيفته الأصلية فى الحرب . وانعكست هذه الصورة فى الهزائم المتلاحقة التى نزلت بالدولة العثمانية فى ذلك القرن مما تطلب الإسراع بإصلاح الجيش قبل غيره من إدارات الدولة[٢] .

وكان السلطان أورخان بن عثمان هو أول من كون هذا الجيش الانكشارى ووضع له نظاماً صيغ فى أربع عشرة مادة ، تضمنت النظام الداخلى للجيش ، وتنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض ، كما نصت على الطاعة والمطلقة والانقياد التام لأولى الأمر[٣] .

ويتبين من قانون أورخان ، أن نشأة الانكشارية كانت عسكرية دينية ، وقد عنى معظم السلاطين العثمانيين بالجيش ، وقادوه إلى معارك النصر والظفر وفتحوا به بلاد شرق أوربا ، حتى كان عهد السلطان محمد الثالث (١٠٠٤ - ١٠١٢هـ/١٥٩٥ - ١٦٠٣م) الذى سمح لبعض العناصر المختلفة مثل الفلاحين والحرفيين بالانخراط فى سلك الانكشارية ، بعد أن كان ذلك محظوراً عليهم من قبل .

وسرعان ما أخذ الفساد يتسرب إلى الجيش تدريجياً ، بعد أن أصبح الباب مفتوحاً أمام العناصر الأخرى للانتظام فى سلك الإنكشارية . وكانت النتيجة أن تضاعفت الأعداد المنتمية إلى وجاقات الإنكشارية ، وتضاءل ارتباطهم بثكناتهم ، كما أصبح قسم كبير منهم لا يذهب إلى الثكنات إلا لتسلم مرتباتهم ، وأهمل الأفراد واجباتهم فى الحرب ، بل أصبحوا يعتدون على السكان ويعيثون فى الأماكن التى يمرون بها فساداً ، وإذا ما نشبت الحرب لا يثبت منهم أحد ، بل يلوذ الجميع بالفرار[٤] .

ومن العوامل التى ساعدت الانكشارية فى تماديهم فى أعمال الفساد والخراب، تولى سلاطين ضعاف لا يستطيعون السيطرة عليهم والضرب على أيدى المفسدين ، كذلك أدى توقف الفتوحات العثمانية فى شرق أوروبا ووقوفها موقف المدافع عن نفسه فقط ، أدى ذلك إلى فراغ الجيش ، ولم يعد له مجال يستنفذ فيه طاقته فلجأ معظمهم إلى السلب والنهب والفساد. وأصبح الجيش العثمانى الانكشارى

فى القرون الثلاثة الأخيرة عامل فساد ، بعد أن كان عامل إصلاح ، وأداة هدم وتخريب بعد أن كان عنصر بناء .

أما الإصلاح الإدارى : فكان فى مقدمة السلاطين الذين اهتموا به السلطان مراد الرابع والسلطان أحمد الثالث (١١١٥ - ١١٤٣هـ/١٧٠٣ - ١٧٣٠م) ويرى بعض المؤرخين أن الأخير أول سلطان اتخذ الخطوة الأولى نحو محاكاة الحضارة الغربية ، والاستفادة من المبادئ الملائمة فيها وساعده فى ذلك الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذى تولى منصب الصدارة العظمى فى الفترة (١١٣١ - ١١٤٣هـ/١٧٨١ - ١٧٣٠م) .

وقد أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا الوزير العثمانى سعيد جلبى سفيراً للدولة العثمانية فى باريس عام ١١٣٤هـ/١٧٢١م وكلفه بان يدرس عناصر المدنية الغربية التى يمكن تطبيقها فى الدولة العثمانية ، ولا تتعارض مع تعاليم الشريعة الإسلامية .

وعند عودة هذا السفير إلى أستانبول - بعد أن أدى المهمة التى كلف بها فى باريس - أوصى بإنشاء المطبعة فى الدولة العثمانية . غير أن بعض القضاة والعلماء عارضوه فى ذلك ؛ وكان الدافع وراء تلك المعارضة هو الخوف على المصحف من التحريف . غير أن شيخ الإسلام عبد الله أفندى اقتنع بضرورة إصدار فتوى تجيز طباعة الكتب العلمية والتاريخية والقواميس ، واستثنت الفتوى عدم طباعة القرآن الكريم والكتب الشرعية ، وصدر فرمان سلطانى بذلك فى ١٢ شعبان عام ١١٤٠هـ/٥ يوليه عام ١٧٢٧م .

وقد أخرجت المطبعة سنة ١١٤٣هـ/١٧٢٩م أول كتاب باللغة التركية وهو ترجمة لمعجم الصحاح للجوهرى ، باسم (كتاب معجم وانقولى) ، ثم صدرت بعد ذلك مجموعة من الكتب فى العلم والمعرفة والخرائط(٥) .

كذلك نشطت حركة الإصلاح الإدارى والعسكرى فى عهد السلطان محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ/١٧٣٠ - ١٧٥٤م) ، حيث أدرك هذا السلطان أهمية إعداد عساكر مدربة كخطوة أولى نحو الإصلاح ، ومهد لهذا العمل بنشر رسالة «أصول الحكم فى نظام الأمم» ، كما أمر بترجمة بعض الكتب التى تتحدث عن فنون الحرب والقتال من اللغات الأجنبية وخاصة من الإيطالية ، وشجع السلطان المضى فى مشروع الطباعة ، فأنشأ داراً لها ، وصرح للقائمين بالعمل فيها على نشر الكتب التاريخية والجغرافية ، وأمر بسبك الحروف اللازمة للطباعة ، وصب القوالب الضرورية لها ، وهكذا سار السلطان محمود الأول بالإصلاح الحربى والإدارى والثقافى فى نفس الوقت[٦] .

وحمل السلطان مصطفى الثالث (١١٧١ - ١١٨٧هـ/١٧٥٧ - ١٧٧٤م) أفكار محمود الأول الإصلاحية ، ولكن الحروب المتوالية لم تمكنه من نشر حركة الإصلاح على نطاق واسع . وقد أرسل السلطان أحمد رسمى باشا فى سفارة إلى فينا ؛ لدراسة أحوال أوربا وإعداد تقرير بذلك . وفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٥٩م أعاد فتح المهندسخانه ، أى (مدرسة الهندسة) سراً ، وقد استفاد هذا السلطان من مشورة البارون دى توت De Tott الذى وصل إلى استانبول سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م[٧] .

وكان مصطفى الثالث يكثر من دعوة السفراء الأوروبيين إلى حفلات فى عاصمته ، ويتحدث معهم فيها عن أفكاره الإصلاحية . وفى أحد الاجتماعات فى حضرة وزراء الدولة ، وباشوات الايالات ، وكبار العلماء صرح بأن فرنسا قد تعهدت له بإمداد الدولة العثمانية بعدد كبير من السفن الحربية ، لإنشاء أسطول جديد ، ودلل ذلك على تصميمه وقوة إرادته[٨] . وافتتح سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م (مهندسخانة بحرى همايون) أى كلية الهندسة البحرية الهمايونية ، وأراد أن يفتح قناة السويس ، كما أراد ربط نهر صالاريا عن طريق بحيرة صابانجه بخليج

إزميت ، ولكنه لم يوفق ، وأسس منشأة فى مكة لضمان وفـــرة الميـاه[٩] . وقـام مصطفى الثالث بإكمال ما بدأه محمود الأول ، من حيث إعداد العســاكر المدربــة ورتب لذلك الجداول واللوائح .

وأهتم السلطان عبد الحميد الأول (١١٨٧ - ١٢٠٣هـــ/١٧٧٤ - ١٧٨٩م) بتقوية المدفعية والإكثار منها ، وتنظيم العساكر المدربة ، ولكنه لم يستطع أن ينفــذ برنامجه الإصلاحى فى هذا الشأن ، فقد عارضه ضباط الانكشارية ، كما أن أفــراد العساكر أنفسهم لم يمكنهم أن يميزوا بين الخير والشر ، فأوقف ترتيــب العســاكر المدربة ؛ خوفا من الفتنة .

ولما أرسلت الحكومة الفرنسية الجنرال لافييت لمعاونة السلطان فى إصلاحــه الحربى ، كلفه عبد الحميد الأول بالإشراف على تنظيم كلية الهندســة العســكرية ؛ لكى تزود تلاميذها بخبرة كافية فى علم التحصينات . وتم افتتــاح الكليــة ، وكــان يدخلها الطالب من سن ٨ إلى ١٢ سنة ، وبعد ثمانى سنوات من الدراسة والتدريــب كان يمنح المتخرجون منهم لقب مهندس ، ونشطت حركة الترجمة للمؤلفات التـــى تتصل بالهندسة ، والهجوم والدفاع والفنون الحربية والرياضية . وكان مـــن بينــها دائرة المعارف الفرنسية ، وكـــانت بالمكتبــة أيضــا كتــب باللغــة الإنجليزيــة ، استحضرت إليها من إنجلترا ، وقام بالتدريس فى الكلية مدرســـون مـــن إنجلــترا وفرنسا وبعض الدول الأوربية .

ولكن إصلاح الشئون العسكرية ما كان يمكـــن أن يتـم بــإصلاح المدفعيــة والبحرية وحدهما ، بل كان لابد من إصلاح أحوال سائر أسلحة الجيش ، ولا ســيما فرق المشاة أيضا ، على أساس التعليم العسكرى وفقا للأصول التى كان قد توصــل إليها الأوربيون ، غير أن ذلك اصطدم بعقبات كثيرة من جراء أوضاع الإنكشــارية المعارضة للتعليم العسكرى ، وكل جديد ؛ خوفا من الاستغناء عن خدماتهم إذا مـــا تم للسلطان تكوين الفرق العسكرية الجديدة ، وكان شعارهم فى إنكـــار ومعارضــة

النظام الجديد قولهم : « إن ولى الله الحاج بكتاش قد بارك جماعة الإنكشارية - عند تأسيسها - ودعا لها بالنصر الدائم »[١٠] . إذ كانوا يزعمون أن بركة ذلك الولي ودعائه يغنيها عن كل تعليم ، ولهذا السبب توقف إصلاح الجيش .

أما الإصلاحات العسكرية والإدارية في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ - ١٢٢٢هـ/١٧٨٩ - ١٨٠٧م) ، فقد قطعت شوطاً بعيد المدى ، لكن نظراً لكثرة العراقيل التي وضعت أمامها لم تأت ثمارها إلا في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي .

واصطدام أمر إصلاح الجيش بمعارضة شديدة على الرغم من شدة الحاجة إليه ، واستنفذ جهود رجال الدولة مدة تزيد على نصف قرن ، كما تعرضت سائر الإصلاحات إلى معارضة أشد من ذلك بكثير ، مما تطلب جهوداً أضنى ومدة أطول .

وقد أعلن السلطان سليم النظم والإصلاحات المسماه بـ « النظام الجديد » في سنة ١٢٠٧ - ١٢٠٨هـ/١٧٩٢ - ١٧٩٣م . واعتمد على الضباط والخبراء والمدربين والأوربيين والفرنسيين في المدارس الحربية التي أنشأها .

وأرسلت الحكومة العثمانية إلى فرنسا في خريف ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م قائمة تحتوى على أسماء مجموعة من الضباط والفنيين للاستعانة بهم ، فاستجابت الحكومة الفرنسية في سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م لطلب السلطان ، وأرسلت إليه السفير الجنرال أوبرت Aubert Dubeyet ومعه مجموعة من الخبراء العسكريين[١١] ، وهدية من المدافع المتحركة على جرارات ؛ لكى تقوم الدولة العثمانية بتجربتها ، وصنع مثيل لها إذا ما اقتنعوا بجدارتها[١٢] .

ويعتبر السلطان سليم الثالث أكثر سلاطين آل عثمان تفتحاً ، ولم يكن ضيق الأفق كأبيه مصطفى الثالث . ونظر إلى الانكشارية على أنهم سبب معظم الكوارث التي حلت بالدولة العثمانية .

ولم يكتف السلطان سليم ورجاله بإنشاء الجيش الجديد في عاصمة الدولة العثمانية وحدها ، بل سعى وراء تعميم هذا النظام شيئا فشيئا ، وشجع الولاة أيضا على الأخذ بهذه النظام على أساس التعليم العسكري الجديد . ويقدر معظم المؤرخين أن مجموع أفراد جيش النظام الجديد بلغ في عهده (٦٠,٠٠٠) جندي . ويرى المؤرخ الأستاذ أنور ضياء كارال أن « النظام الجديد » : بمفهومه الضيق يعني إنشاء جيش مدرب على النظام الأوربي . وأما بمفهومه الواسع فيعني محاولة التخلص من الإنكشارية والحد من نفوذ العلماء وإجراء الإصلاحات في العلوم والفنون والزراعة والتجارة على النظم الأوربية ، واقتباس حضارة الغرب التي تقدم بفضلها[١٣] .

كذلك وضع السلطان سليم نظاما سماه « نظام السلطان سليم الثالث » ، وبين فيه الخطوات التي ينبغي إتباعها لإصلاح الجيش[١٤] .

ولكن أعداء النظام الجديد أخذوا يبثون الفتن وينشرون الإشاعات ، فاضطر السلطان سليم إلى إصدار فرمان في غرة ربيع الأول سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٥م يؤكد في أغلب مواده أنه متمسك بالشريعة الإسلامية ، وأنه محب للعلم والصوفية ، وذلك ليقضي على الفتن ، ولينفي الشائعات التي نادت بأن النظام الجديد تشبه بنظم الكفرة، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وقد بدأ السلطان فرمانه بأن دافع عن النظام الجديد ، ووصفه بأنه فكرة حسنة ، رغم قلة عدد جنوده ووعد بأن يزيد من عدده في بعض مناطق البلقان مستقبلا ، ثم أشار إلى أنه متمسك بتعاليم الشريعة الإسلامية ، وإلى أنه يأمر بقراءة الفقه الشريف في المساجد كأجداده ، ثم أنه يطلب الدعوات الصالحة دوما من المشايخ ومن المتصوفة ، وينعم على الفقراء لاستجلاب دعواتهم الطيبة[١٥] .

وقد عارض الانكشارية ، ومن انضم إليهم من العلماء وطلبة العلم والمتصوفة النظام الجديد . واستفتوا شيخ الإسلام محمد عطا الله في عدم جواز

الأخذ بأنظمة الدول الكافرة ، فأفتاهم بعدم جواز ذلك ، كما أفتاهم بجواز خلع السلطان سليم من الحكم بناءاً على طلبهم . ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى إعدام السلطان سليم .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة لم يقفوا جميعاً موقف المعارض من حركة الإصلاح العثماني ، سواء كان ذلك الإصلاح في النواحي العسكرية ، أو في النواحي الإدارية والثقافية ، فكان لديهم من الوعي الديني ما يجعلهم يؤيدون أي إصلاح لا يتعارض مع تعليم الشريعة الإسلامية السمحة ، إذا كان الدين الإسلامي لا يمنع من الأخذ بأسباب القوة والعزة والمنعة لمواجهة عدو الله وعدو المسلمين ، بل على العكس من ذلك ، فالإسلام حث المسلمين على الاستعداد ما استطاعوا لمواجهة عدو الله وعدوهم .

وكان أن اقتصرت المعارضة على فئة قليلة من العلماء وشيوخ الإسلام وطلبة العلم ، أغلبهم من المتصوفة الذين غالوا في دينهم ، حتى خرجوا عنه ، وكفروا به ، ونسبوا إلى الدين ما ليس فيه ، وأعرضوا عن كثير مما فيه ، وتظاهروا بالزهد والتقوى حتى يجتمع الناس حولهم ، وهم في الحقيقة أبعد الناس عن الإسلام وتعاليمه ، يسعون في غير وعي لجمع المال من أي مكان وبأية طريقة، حتى ولو اضطروا إلى الإفتاء بغير ما أنزل الله ، أو الكذب على رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام . فكان لكثير من المتصوفة والدراويش - بمختلف طرقهم - دور كبير في أضعاف الخلافة العثمانية الإسلامية ، وإسقاطها في النهاية، كما لهم دور كبير أيضا في نشر الجهل بين الناس ، ووضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ ؛ كي يؤيدوا فتاواهم وحججهم الكاذبة . ونشروا الخرافات ، والإشراك بالله مثل التعلق بالأولياء ، وزيارة قبورهم إلى درجة عبادة هذه القبور ، وهؤلاء الأولياء ، وأصبحوا يدعونهم من دون الله ، ويطلبون منهم قضاء حوائجهم ومطالبهم .

ومن المؤسف حقاً أن هذه الأمور الشركية ، التى نشرها كثير من المتصوفة فى أنحاء الدولة العثمانية ، لا يزال كثير منها باقٍ إلى اليوم فى كثير من البلاد التى حكمتها الدولة العثمانية ، فنرى ونسمع الآن فى كثير من البلاد الإسلامية ، رفع القبور وتزيينها وزخرفتها وزيارتها من قبل الرجال والنساء والطواف حولها ، وسؤال أهل القبور قضاء حوائجهم ، ورفع مظالمهم ، وشفاء مرضاهم . كذلك نرى تقديس بعض الصالحين إلى درجة لا يرقى إليها الأنبياء ، مثل إدعاء علم الغيب ، وبالمقابل نرى إلصاق التهم والافتراءات بالأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وبالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

ومما هو جدير بالذكر والاهتمام والتركيز ، أن الفئة التى عارضت الإصلاح فى مختلف نواحيه أغلبهم من المتصوفة ، الذين شوهوا سمعة وسيرة أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية بانتسابهم إليها . وهم فى الحقيقة أبعد الناس عنها حتى أصبحنا نرى الكثير من المؤلفات - من المؤرخين والكتاب - تصف الهيئة الإسلامية بأنها ألعوبة فى أيدى السلاطين والقادة ، وأنهم كيفوا الدين حسب الرغبات والشهوات ، وأصدروا هذا الحكم المطلق على جميع أعضاء الهيئة الإسلامية دون تمييز ، ولم يحاولوا تتبع آراء ومعتقدات الفئة المعارضة ، وهذا أمر خاطئ ؛ فالتخصيص فى الحكم أولى من التعميم فى هذا المجال .

٢ - موقف العلماء والمفكرين من حركة الإصلاح فى عهد السلطان محمود الثانى والسلطان عبد المجيد :

أهتم السلطان محمود الثانى (١٢٢٣ - ١٢٥٥هـ / ١٨٠٨ - ١٨٣٩م) بأمر القضاء على الإنكشارية أشد الاهتمام ، حتى نجح فى التخلص منهم عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م .

كذلك شرع السلطان محمود فى تنظيم الجيش الجديد وفق النظم الأوربية وساعده فى ذلك خليل باشا وزير الحربية ، الذى كان يردد على السلطان محمود قوله : « إن لم نتمثل بأوربا ، فأننا سنعود القهقرى إلى آسيا»[١٦] .

واستمر السلطان فى الاستعانة بالخبراء الأوربيين ، فى إنشاء المصانع الحربية ، والمدارس العسكرية ، وأهتم بزيادة عدد جنود الجيش الجديد ، وإلغاء استعمال الأسلحة القديمة والاستعانة بالأسلحة الأوربية الحديثة[١٧] . ويذكر الضابط الشهير جون مولتكه الذى اشترك فى تدريب الجيش العثمانى فى هذه الفترة ، أن الإصلاحات كانت ذات طابع شكلى محض[١٨] .

ولكن خان الحظ السلطان محمود الثانى ، فقد قضى على جيشه القديم قبل أن يكون جيشاً جديداً متكاملاً - كما يذكر ذلك بعض المؤرخين - وربما نلتمس له العذر فى ذلك ؛ فالإنكشارية كانت تثير القلاقل والفتن كلما أعد أى سلطان بعض الفرق على النظام العسكرى الجديد ، وكانت شرور الانكشارية فى هذه الفترة قد بلغت مدى بعيداً .

وشرع السلطان محمود الثانى فى الإصلاح الإدارى والقضائى والتعليمى والزراعى والتجارى[١٩] ، ولكن حركة الإصلاح لم تكن تسير فى نفس المستوى الذى سار فيه الإصلاح الحربى . ومن هنا نتساءل عن فائدة وضع أحدث الأسلحة فى أيدى أفراد افتقدوا الروح المعنوية أو فهم أهداف الدولة ؟ كما نتساءل أيضاً عما يحققه جيش تم تدريبه وتسليحه وتثقيفه ، ولكن ظل يستند إلى جهاز إدارى بطىء التطور ؟

والذى لا شك فيه أن التطور الاجتماعى والثقافى والإدارى على يدى محمود الثانى لم يكن بالقدر الذى يضمن نجاح الإصلاح الحربى .

إن الدليل القاطع على ضعف إصلاحه الحربى ، هو اضطراره للاعتماد على روسيا . واعتماد السلطان على روسيا كان السبب المباشر للنفور الشديد من حركته

الإصلاحية بصفة عامة ، ومن الإصلاح الحربى على الأخص ، ومن ثم تضاعف يأس الناس وقنوطهم .

ولا شك فى أن محمود الثانى كان سئ الحظ ، وأن إصلاحاته ظلت موضع شك كبير ، وأن ظروفاً كثيرة وقفت ضده ، ويمكن القول بأن هزيمة الجيش العثمانى الجديد فى معركة نصيبين سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م كان معناها الخاتمة المفجعة للإصلاح الحربى .

إن حركة الإصلاح لم تحدث نتيجة الاتصال بالغرب ، ولكن لمحاربة الغرب بنفس أسلحته ، وكان الوصول لمستوى الغرب الحربى ، يستلزم الوصول لمستواه الاقتصادى والعلمى والمالى ، وتحقيق هذا كله يستلزم مستوى الغرب فى الوعى والإدارة .

ومن الأعمال التى قام بها محمود الثانى فى إطار الإصلاح استعادة سيطرة الحكومة فى الولايات . وقد صمم على أن تكون سلطته فعلية فى جميع الولايات كما هو الحال فى العاصمة ، فحارب أصحاب العصبيات ، وأصحاب الحقوق المكتسبة من المتنفذين ، وصمم على إخضاع العناصر المتمردة من الولاة وأرباب الاقطاعات ، وأخذ بسياسة تقوية قبضة الدولة على الولايات ، وإصلاح الحكم المركزى فى العاصمة والولايات ، وبالرغم من الهزائم المتلاحقة التى حلت بالدولة فى عهده ، سواء فى حربه مع اليونان ، أم فى حروبه الخاسرة مع تابعه القوى فى مصر محمد على الذى تمكن من احتلال بلاد الشام، وفكر فى الزحف على استانبول لخلعة، فقد استطاع محمود إنهاء عهد المغامرين من أصحاب العصبيات، وإنشاء الحكومة القوية فى الولايات العربية التى تهيمن عليها العاصمة تماماً ، كولايات بلاد الشام ، بعد جلاء القوات المصرية عنها سنة ١٠٥٦هـ/١٨٤٠م ، وبغداد بعد عزل آخر الباشوات المماليك داود باشا حوالى ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، وطرابلس الغرب بعد عزل الأسرة القرامنلية فى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م .

أما فى مجال التعليم : فكان يوجد - حتى ذلك الوقت - مدرستان : الأولى المدرسة البحرية ، والثانية مدرسة الهندسة العسكرية ، اللتان أقيمتا فى سنة ١١٨٧ - ١٢٠٨هـ/١٧٧٣ - ١٧٩٣م ، وفى عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م . وكان أن صدر فرمان يعلن أن التعليم الابتدائى للشعب هو مسئولية الدولة ، وكان هذا يعنى رفع يد الهيئة الإسلامية عن الإشراف على التعليم .

ومع ذلك فإن هذا القرار لم يكن له أى تأثير مباشر ؛ إذ استمرت المدارس الابتدائية تحت سلطة وإشراف شيخ الإسلام ، وظل مرسوم ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م عديم التأثير ، حتى ظهر الإصلاح فى المدارس الابتدائية ، وأقيمت مدارس جديدة، وعين وزير للتعليم للمرة الأولى فى الدولة العثمانية . وكانت هذه المدارس تدعى « المدارس الرشدية » و مهمتها تقديم نموذج من التعليم المتقدم على مدارس «الصبيان» للتأهيل للدخول إلى مختلف مدارس الجيش والبحرية والطب ووظائف الدولة . وكان إنشاؤها أصلا بغرض سد الفراغ الموجود فى مؤسسات التعليم العالى ومؤسسات التعليم الابتدائى . وفى عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م اتخذ السلطان خطوات ثورية ، بإرسال بعثات للدراسة فى مختلف بلدان العالم ، ويبدو أن السلطان كان يريد أن ينافس تابعه محمد على والى مصر ،الذى بدوره يرسل البعثات إلى فرنسا . وفى عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م أرسل محمود الثانى بعثة مكونة من ١٥٠ طالبا للدراسة فى المعاهد العسكرية والبحرية فى مختلف بلدان غرب أوربا بالرغم من احتياجات الهيئات الدينية[٢٠] .

وفى عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م افتتح السلطان مدرسة الطب فى استانبول ، قبل شهر واحد فقط من افتتاح محمد على باشا لمدرسة الطب فى مستشفى أبو زعبل فى القاهرة . وكان الغرض من مستشفى استانبول تدريب الأطباء للعمل مع الجيش الجديد ، كما تم تدريب أطباء لمعالجة المدنيين فى المؤسسات العادية ، مثل القسم الطبى فى السليمانية ، وكانت مدرسة الطب تتضمن قسما إعداديا ، يعطى تعليما

علمانياً ابتدائياً وثانوياً لأول مرة فى الدولة العثمانية . وفى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م انتقلت المدرسة إلى غلطة سراى ، وكان التعليم يعطى بالتركية وبالفرنسية ، كما كان معظم الأساتذة من المدرسين الغربيين(٢١) .

وخلال الفترة ١٢٤٧ - ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣١ - ١٨٣٤م افتتحت مدرستان عسكريتان : الأولى كانت المدرسة الموسيقية ، ووظيفتها أن تقدم البواقين والطبالين للجيش الجديد ، وكانت المدرسة الأخرى التى افتتحت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م هى « مدرسة العلوم العسكرية » وهنا لعب الأجانب - وخاصة الفرنسيون - دوراً رئيسياً فيها ، وفى كلية الطب حيث كان يوجد فيها قسم تحضيرى للطلاب .

وفى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م بدأ السلطان يخطط لإحداث مدارس ابتدائية وثانوية للأغراض المدنية ، ولكن التقدم كان بطيئاً فى هذا المجال . فقد أنشأت مدرسة جديدة وهى « مدرسة التعليم القضائى » فى مسجد السلطان أحمد . وما لبثت هذه المدرسة أن انقسمت إلى « مدرسة التعليم القضائى » و « مدرسة العلوم الأدبية » ، وانتقلت مدرسة العلوم الأدبية إلى جامع السليمانية ، ووضعت تحت إشراف وزير التعليم الجديد . وظل برنامجها تقليدياً ، ولكنه تضمن تعليماً بالفرنسية ومواد أخرى حديثة . وكان الهدف من إنشائها ، تدريب موظفى الحكومة والتراجمة . والواقع أن هذه المدارس قد مثلث رحيل السيطرة الدينية على التعليم . وتوجيهه توجيهاً علمانياً فى مناهج الدراسة ، وأول خطوة فى إقامة نظام فى المدارس الابتدائية والثانوية والعليا على الطراز الأوربى .

وفى نفس العام افتتح السلطان محمود الثانى المبنى الجديد لكلية الطب فى غلطه سراى ، وخلال الافتتاح ، قال السلطان : « سوف تدرسون (يقصد الطلبة) علم الطب ... ليس هدفى من تعليمكم باللغة الفرنسية أن أعلمكم هذه اللغة بل لتعليمكم الطب . وتدريجياً حتى نستطيع تعلمه بلغتنا ... اعملوا على تحصيل المعارف الطبية من أساتذتكم ، وناضلوا بإطراد لتحصلوا عليها باللغة التركية

ونشرها بلغتنا»(٢٢) . ويلاحظ أن السلطان لفت الانتباه بشدة إلى دور اللغات الأوربية ووقوفها عقبة فى سبيل تقدم البلاد ونهضتها ، فقد كان عدد المسلمين العثمانيين الحاصلين على معرفة كافية باللغات الأوربية لا يزال قليلاً جداً ، ومعظمهم قتلوا فى مذبحة عام ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ، فالمدرسون والمرشدون ، وحتى الضباط الفنيين فى الجيش كانوا أوربيين ، وكانت مصطلحاتهم وإرشاداتهم وأوامرهم تمر فى مراحل الترجمة ، ولفترة كان لابد من اللجوء إلى المترجمين النصارى . ولكن كانت هناك عدة عوائق تمنعهم من الاستمرار فى المهنة ؛ ولذا فقد كانت هناك حاجة ملحة إلى مسلمين على معرفة باللغات الأوروبية ، ليعلموا وليدرسوا علوم الغرب ، وليترجموا الكتب الأجنبية إلى التركية ، وأيضاً لإيجاد معاجم بالتركية تحتوى على المرادفات العلمية والفنية للمصطلحات المستوردة من الغرب(٢٣) .

وفى هذا المجال لعب شخصان دورين هامين : الأول هو محمد عطا الله ، وعرف باسم شانى زاده (١١٨٣ - ١٢٤٢هـ/١٧٦٩ - ١٨٢٦م) ، تلقى تعليمه على يد أحد العلماء ، وكان يوصف بأنه « دائرة معارف » . وفى عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م طلب إليه السلطان إصدار كتاب فى علم التشريح ، وجاء كتابه « مرآة الأبدان فى تشريح أجزاء الإنسان » ليثير اهتماماً كبيراً فى أوربا ، إذ إنه احتوى على عدد كبير من الصور ، وكان نشر صور الجسم البشرى يتناقض مع تقاليد العثمانيين المسلمين ، ولكن هذا الرجل تجاهل الانتقادات . وفى عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م عين مؤرخاً رسمياً للدولة ، إلا إنه نفى بعد القضاء على الانكشارية ، بسبب ما أشيع عن علاقته بجماعة البكتاشية ، ومع ذلك فلم يكن رجعياً ؛ وكان عمله الأساسى ترجمة الكتب الطبية الايطالية والنمسوية ، وقد ألحق بها مقالات تفسيرية عن الفلسفة ، وترجمة نمساوية عن التلقيح(٢٤) .

وأما الشخص الثانى الذى عمل فى حقل العلوم الحديثة والمصطلحات الفنية فكان إسحاق افندى (١١٨٨ - ١٢٥٠هـ/١٧٧٤ - ١٨٣٤م) ، وكان بلقانياً من أصل يهودى تحول إلى الإسلام ، وكان على معرفة باللغات الفرنسية ، اللاتينية ، العبرانية ، التركية ، الفارسية ، والعربية ، ولعل أعظم أعماله كانت أربعة مجلدات شاملة للرياضيات والفيزياء التى أعطت الطلاب العثمانيين لأول مرة بعض المعرفة عن هذه العلوم ، وكشانى زاده كان عليه إيجاد مصطلحات باللغة التركية للعلوم الحديثة ، هذه المصطلحات جعلته مع شانى زاده أعظم من أوجد مصطلحات فى الدولة العثمانية فى العصر الحديث(٢٥) .

أما موقف أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة من معظم إصلاحات السلطان محمود الثانى - وفى مقدمتها القضاء على الانكشارية - فقد كان موقف المؤيد . وتزعم هذا التأييد الشيخ زاده عبد الوهاب ، ومحمد طاهر ، ومصطفى قاسم ، والملا محمد أسعد ، ومصطفى بهجت ، وغيرهم . وقام هؤلاء العلماء بنشر التوعية لخطوات محمود الثانى الإصلاحية بين أفراد الشعب(٢٦) .

وإلى جانب العلماء قام الكتاب المؤرخون الذين استخدمهم محمود الثانى لنشر الدعاية ، بإظهار الانكشارية على أنهم مسلمون سيئون منتهكون للشريعة الإسلامية، واتهموهم بتمزيق القرآن الكريم خلال ثورتهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل اتهموا جماعة البكتاشية بشرب الخمر فى شهر رمضان المبارك وإهمال الصلاة ، ورفض الخلفاء باستثناء على ، ويبدو أن غرضهم كان لإثبات التهمة بأنهم شيعة ، واتهامهم بالتآمر على الدولة . وبعد أن قام الانكشارية بالتمرد فى مدينة القدس عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م ، قام حليم أفندى وهو أستاذ فى الشريعة الإسلامية ، وعضو كبير فى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، بمهاجمة الانكشارية فى محاضرة له أمام كبار الموظفين فى استانبول(٢٧) . لذلك لم يظهر العلماء أية معارضة فى القضاء على الإنكشارية ، بل أيدوا السلطان محمود الثانى بكل قوة ، كما أيدوه فى القضاء على الدراويش والطرق البكتاشية .

ومن الأعمال التى نفذها السلطان محمود الثانى وكان لـها أثـر كبـير فـى الإدارة، حضور جلسات الديوان الهمايونى بانتظام بدلاً من إنابة الصدر الأعظم فـى الحضور ، كما قام بتحسين أوضاع الموظفين المدنيين ، ورفـع مستواهم فـى التخصص والإخلاص ، وحول المركز السابق لأغا الإنكشـارية - قـرب مسجد السليمانية - إلى شيخ الإسلام ، الذى حصل للمرة الأولى على مكتب وإدارة ترتبط به ، وكان إعطاء شيخ الإسلام هذه الاختصاصات أول خطوة نحو إظهار العلمـاء كطبقة متميزة عن بقية أفراد المجتمع .

وكان معظم إصلاحات وتغييرات السلطان محمود الثانى - كما ذكرت ذلـك من قبل - تحظى بدعم العلماء واهتماماتهم .

على أن السلطان محمود الثانى اشتط فى محاكاة الغرب وتقليدهم إلـى أبعد درجة ممكنة ، يتضح ذلك فى مجموعة القوانين الصادرة عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م المتعلقة بالجيش ، إذ نصت بعض موادها على أن بدلات الجند يجب أن تتألف مـن سترة وسروال على الطراز الأوربى . وقبل عشرين عاماً من ذلك التاريخ حـاول السلطان سليم الثالث إلباس جنوده اللباس الأوربى ، ولكن هذه المحاولـة أدت إلـى ثورة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ، ثم عزله ، ومنذ الفترة الأولى للتاريخ العثمـانى ، كـان اللباس وما يوضع على الرأس هو الذى يحدد دين الرجل ومرتبتـه الاجتماعيـة . وكان للمسلمين لباس خاص بهم يميزهم عن أهل الذمة الذين منعوا من ارتداء مثله. ولذا ولم يكن من السهل إقناع عامة المسلمين والجند العثمـانيين بـارتداء ألبسـة مشابهة للباس الكفار . وفى عام ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م عرض على السـلطان نـوع جديد من غطاء الرأس يسمى « الطربوش » ، وقد أمر الجند بلباسه بـالرغم مـن المعارضة الشعبية له ، وقد خشى بعض العلماء إن هم رفضوا الاقتباس الجديـد أن ينزل السلطان بهم ضربات جديدة . لذلك فإنهم لم يؤيدون الابتكار الجديد فحسـب ، بل أخذوا على عاتقهم تفسير شرعيته للشعب[٢٨] .

وفى عام ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م أمر السلطان العلماء بلبس الطربوش الأحمر ، الذى كان إلزاميا لجميع موظفى الحكومة والجند ، والذى ارتداه هو بنفسه ، وعندما عارض شيخ الإسلام محمد طاهر هذا الإجراء مصرا على أن يظل العلماء طبقة متميزة فى المجتمع العثمانى ، عزله السلطان ، ولكن الحرب مع روسيا عطلت إتمام هذا المشروع ، وبعد انتهاء الحرب فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م عاد محمود الثانى لتنفيذ مشاريعه وفى تلك المرة امتد إصلاح اللباس إلى المدنيين فصدر مرسوم مفصل ، يحدد الأزياء التى ترتدى لمختلف الموظفين وفى شتى المناسبات(٢٩) .

وفى نفس الوقت بدأت تظهر الكراسى والطاولات الأوربية ، إلى جانب الأريكة والوسادة . كما تبنى العثمانيون عادات أوربية أخرى ، فقد بدأ السلطان يستقبل الدبلوماسيين الأجانب حسب الأسلوب الأوربى بدلا من الطريقة العثمانية ، ويستقبل ضيوفه ويتحدث معهم ، وأبعد من ذلك أظهر السلطان محمود الثانى احتراما كبيرا للسيدات النصرانيات(٣٠) .

ومنذ عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م اعتاد السلطان محمود الثانى أن يرسل صوره إلى كل من شيخ الإسلام والعلماء وكبار موظفى الدولة والحكام الأجانب كتعبير عن عطفه واحترامه لهم . ومع ذلك ففى عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م عندما وضعت صور السلطان فى مختلف الثكنات ومكاتب الحكومة ، قام كثير من الناس - وخاصة العلماء - بالاعتراض ؛ بحجة أنها قد تعطى انطباعا للشعب بتقديس صاحبها ، لكن محمود الثانى لم يعبأ بهذه الاعتراضات وسار قدما فى إدخال ما يراه مناسبا من الاقتباسات الغربية ، بل أمر أن تؤدى التحية لصوره كما تؤدى لشخصه ، وأمر بتوزيع نيشان افتخار على الذين ساعدوه فى حركة الاقتباس من الغرب . وهو الذى ابتدع نظام افتخار ، وقسمه إلى أربع طبقات : الأولى منها تتكون من ميدالية ذهبية عليها كلمتا نيشان افتخار ، وأمر بعمل شارات مميزة لكبار الموظفين ، وألغى كثيرا من التقاليد والاحتفالات العثمانية المتعارف عليها ، واكتفى بالنظم الأوربية الحديثة متناسيا تاريخ دولته الطويل(٣١) .

تولى السلطان عبد المجيد الأول الحكم في الفترة (١٢٥٥ – ١٢٧٨هـ/١٨٣٩ – ١٨٦١م) ، وسار على نهج السلطان محمود الثاني في الإصلاحات وكان زعماء رجال الإصلاح في عهده ، مصطفى رشيد باشا ، ومحمد أمين عالي باشا ، وفؤاد باشا .

واستهل عبد المجيد حكمه ، بإصدار مرسوم كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، وقرئ في حفل رسمي كبير في قصر « كلخانة » ، ولذلك عرف بهذا الاسم ، وقرأه في ميدان كلخانه علناً مصطفى رشيد باشا في يوم ٢٦ شعبان ١٢٥٥هـ/٣ نوفمبر ١٨٣٩م في حضور السلطان عبد المجيد والوزراء والعلماء وكبار موظفي الدولة ، وبطريركي الأرمن والروم، وحاخام اليهود ، والسفراء الأجانب ، وجمهور كبير من الناس[٣٢] .

المرسوم المذكور باسمه الأصلي التركي « كلخانه خط همايوني » أو«كلخانه خط شريفي» ، وقد أعد نصه مصطفى رشيد بتكليف من السلطان عبد المجيد بعد عرضه عليه ، وجمع صبح يوم الإعلان مجلس الوزراء بغرض إعطائه صورة رسمية قانونية ، وأصدر قراراً رسمياً ، يقر بأن عهد التنظيمات يبدأ اعتباراً من إعلان الخط الهمايوني ، فقرأه على الحضور والسلطان بينهم يستمع من مقصورته.

ويتضمن الخط المذكور ست نقاط أساسية : تتضمن احترام تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، والمحافظة على حقوق الناس ، وأعراضهم ، وأموالهم ، وتأسيس جيش قوي للدفاع عن الدولة ، تكون مرتباته من الضرائب التي تفرض بالتساوي على الناس كل حسب دخله ، ونص الفرمان على مسألة التجنيد وتوزيعه على الولايات بنسب متساوية[٣٣] .

على أن المأخذ الكبير الذي يؤخذ على فرمان كلخانه ، هو المساواة بين المسلمين والنصارى واليهود في الحقوق على الدولة ، وليس في الواجبات الملقاه على عواتقهم ، مما جعل غير المسلمين يتمتعون بامتيازات أكبر من المسلمين في

الوظائف الكبرى فى الدولة ، والإعفاء من التجنيد والضرائب ، وهذا يـدل دلالـة واضحة على مدى النفوذ الأوربى فى الدولة العثمانية ، وقد بلغ هذا النفوذ قمته فـى مرسوم التنظيمات الخيرية الـذى أصدره السلطان عبد المجيد فـى سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م(٣٤) .

وبعد أن انتهت حرب القرم التى وقعت اتفاقية الصلح فيها فـى ٢٣ جمادى الأولى ١٢٧٢هـ/٣٠ مارس ١٨٥٦م فى باريس ، أصدر السلطان عبـد المجيد فرمان الإصلاح فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢هـ/١٨ فبراير ١٨٥٦م ؛ وذلك بسبب إلحاح الدول الأوربية عليه لإصلاح أحوال رعاياهـا مـن النصـارى ، ولا يختلف فحوى هذا الفرمان كثيرا عن الفرمان السابق شرحه ؛ فقد الـتزم السـلطان بتنفيذ المبادئ التى أعلن عنها فى مرسوم كلخانه ، غير أن هذه المبادئ التى أعلـن عنها فى مرسوم التنظيمات لم تطبق بحذافيرها ، فبقيت التفرقـة بيـن المسـلمين والنصارى ، وكان ذلك فى الخدمة العسكرية ، والوظائف الإداريـة ، والقضائيـة التى كانت لا تزال مقصورة على المسلمين ، وهذا ما جعل الطوائـف النصرانيـة التى تعتبرها الدولة العثمانية من رعاياها ، تزيد من ارتباطها بالدول الأجنبية التـى حصلت على حق حمايتها فى العهود السابقة ، والتى تقدم لها العون من آن لآخـر ، فى صورة إنشاء مدارس تنشر لغاتها وثقافاتها ، ومستشفيات ، وكنـائس وأديـرة ، ونواد ، وإرساليات تنصيرية ، وجمعيات سرية خيرية فى ظاهرها(٣٥) .

ونتج عن ذلك زرع الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، ولم تفلح التنظيمات فـى تحقيق الأهداف التى وضعت من أجلها ، ويرجع ذلك إلى النظام السياسـى الـذى قامت عليه الدولة العثمانية ، وهو نظام دكتاتورى وعسكرى فى آن واحـد ، أى أن الطبقة الحاكمة كانت ممثلة فى شخص السلطان ، وهو صاحب السلطة الأولى فـى الدولة ، وفى الجيش القابض على زمام الأمور فى البلاد ، فكل ما يتعـارض مـع مصلحة أى من هذين الطرفين لا يتم تنفيذه ويموت فى مهده .

ويذكر بعض المؤرخين أن أجهزة الحكم والإدارة العثمانية لم تتأقلم مع التنظيمات الجديدة ، رغم ما بذله الإصلاح فى الدولة من إخلاص ، ومرد ذلك إلى مئات من الأعوام التى ظل فيها جهاز الحكم جامداً متمسكاً بالأنظمة القديمة فليس من السهولة بمكان أن تغير تلك الأنظمة فى الحكم والإدارة فى بضع سنين ، ويلخص الدكتور عبد العزيز عوض عوائق الإصلاح فى عاملين : عامل داخلى : ويتمثل فى تمسك العناصر المحافظة فى الدولة العثمانية بالأنظمة السابقة ، والمصاعب المالية التى حالت دون التوسع فى المشاريع الإصلاحية ، كما تمثل بعدم رغبة بعض السلاطين فى السير بالإصلاح إلى غايته الطبيعية فى إقرار العلاقة بين الدولة ورعاياها على أساس جديد ، قوامه اشتراك الشعب وهيمنته على أمور الدولة . أما العامل الخارجي : فهو استمرار ثورات الشعوب النصرانية فى البلقان ، وبعض الأقاليم الأخرى ، واستمرار الضغط الأجنبى الأوربى على الدولة وولاتها ، الأمر الذى صرفها عن التفكير فى الأمور الإصلاحية إلى الدفاع عن ولاياتها المهددة بالاحتلال الأجنبى[٣٦] .

ولم يكن لأعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة مواقف معارضة تذكر ، بسبب انضمام بعض الأعضاء إلى السلاطين ومجاراتهم ، إما خوفاً من بطشهم ، وإما لاقتناعهم بالتغييرات الجديدة .

على أن هذا لا يعنى عدم وجود آية معارضة من قبل العلماء وطلبة العلم لتصرفات بعض السلاطين المسايرة للدول الأجنبية ، إلا أن هذه المعارضة ضاعت وخبت أثناء الحروب الطويلة والمريرة التى خاضتها الدولة العثمانية مع دول أوربا النصرانية .

٣ – موقف أعضاء الهيئة الإسلامية من حركة الإصلاح فى عهد السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثانى :

أصدر السلطان عبد العزيز (١٢٧٨ – ١٢٩٣هـ/١٨٦١ – ١٨٧٦م) فى السابع من جمادى الأولى ١٢٨١هـ/ الثامن من نوفمبر سنة ١٨٦٤م قانوناً خاصاً بالولايات لإحكام السيطرة عليها ، وإشراك المواطنين فى تدبير مصالحهم العامة والتخفيف من حدة الحكم المطلق ، الذى نشأ من الإدارة المركزية ، وقد كان هذا القانون مقتبساً من النظم الإدارية الفرنسية(٣٧) .

وقد اشترك فى وضع هذا القانون « كجه جى زاده محمد » و « فؤاد باشا » و « مدحت باشا » ، وقام الأخير بتطبيقه فى ولاية الطونة ، عندما أسند إليه حكمها سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م . وحقق نتائج مثمرة تستحق الإشادة بها .

وقد عمل هذا النظام على إصلاح أحوال الولايات من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتأكيد خضوعها للحكومة المركزية فى استانبول ، ومن أهم أهدافه العمل على تقدم البلاد وإعمارها ، وإسعاد الأهالى وإصلاح شأنهم واشتراكهم فى إدارة أمور البلاد بالتعاون مع السلطات الحاكمة ، بالإضافة إلى ضبط الواردات والمصروفات ، وكذلك ربط الإدارة الفرعية فى الولاية بمقر الوالى، وربط ولايات الدولة العثمانية بالحكومة المركزية فى استانبول(٣٨) .

أنشىء نظام الحكم فى ولاية الطونة عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م لأول مرة ، وعلى نجاح تجربته ، وتعميماً لتطبيقه على الدولة العثمانية ، فقد قسمت الدولة من الناحية الإدارية – بعده بسنة – إلى سبع وعشرين ولاية ، ثم نشر عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م (نظام الحكم العام لإدارة الولايات)(٣٩) .

وصيغ هذا النظام فى ثمان وسبعين مادة ، ومادة مخصوصة(٤٠) مقسمة على أبواب وفصول ، ويرأس الولاية « الوالى » ، وهو خاضع مباشرة للباب العالى ، وقسمت الولاية إلى صناجق ، (أى ألوية) ، ويحكم الصنجق متصرف ، وقسم كل صنجق إلى أقضية (جمع قضاء) ، ويحكم القضاء قائمقام ، ويعتبر نائبا عن المتصرف ، كما قسم كل قضاء إلى مديريات ، ويحكم المديرية مدير(٤١) .

وفى ٢٩ شوال سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٢م صدر « نظام إدارة الولايات العمومية » ، وجاء فى (١٢٩) مائة وتسع وعشرين مادة ، ومادة مخصوصة ، ولكن عدل هذا النظام بموجب المادة « ١٠٨ » من القانون الأساسى الذى أعلن عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ، ويهدف هذا القانون إلى تعيين وظائف المأمورين(٤٢) ، ومجالس الإدارات والبلديات وإدارة النواحى .

وهكذا فإن هذا النظام الذى ربط ولايات الدولة العثمانية بالحكومة المركزية فى أستانبول ، قد أفرط فى المركزية وغالى فيها كثيراً ؛ حيث قيد الجهاز الإدارى فى الولاية بتعليمات الدولة العثمانية ، وأوامرها حتى فى أتفه الأمور وأقلها شأنا ، لا سيما وأن تعليمات الدولة تستغرق وقتاً طويلاً حتى تصل إلى الوالى ؛ بسبب تأخر وسائل المواصلات ، إن هذا القانون فى الواقع لم يأت بجديد فى مجال التقسيم الإدارى للولاية ، وإنما هو مجرد تغيير فى تقسيم الولايات ، فضمت ولايات أخرى وشكلت ولايات جديدة .

وقد وضع قانون الولايات كرد فعل لضعف الدولة العثمانية ، وخشية السلطة المركزية من خروج الولايات عن طاعتها ، ولذا جاء مشدداً لقبضة الدولة عليها .

إلا أن أحوال الدولة العثمانية ساءت فى عهد السلطان عبد العزيز إلى درجة كبيرة ، واضطربت شئونها الاجتماعية أسوأ اضطراب ، وعانى الشعب أشد المعاناة من سوء سيرة الولاة ، الذين كانوا يجبون الضرائب بالسوط دون رحمة أو هوادة ، وتراكمت الديون على الدولة العثمانية ، فارتفعت من خمس وعشرين مليون ليرة إنجليزية فى عهد السلطان عبد المجيد إلى مائتين وخمسين مليون ليرة فى عهد السلطان عبد العزيز ، بسبب إسراف الأخير فى الإنفاق على البذخ والملذات والاحتفالات والمعارض ، فى الوقت الذى لم يكن يصرف فيه على الجيش والأسطول وبقية مرافق الدولة سوى ٧% من مجموعها الضخم واستمرت أوضاع الدولة العثمانية تسير من سيئ إلى أسوأ حتى كان عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م

حيث أعلنت الدولة العثمانية عجزها عن سداد الديون المتراكمة عليها مما أدى إلى إنشاء دائرة الديون العمومية تحت مراقبة هيئة دولية ، وما ترتب على إنشائها من إطلاق أيدى الأجانب فى شئون البلاد[٤٣] . لهذا السبب ، ولأسباب أخرى دعا شيخ الإسلام الشيخ حسن خير الله أفندى العلماء والوزراء والقادة العسكريين ، وقرروا خلع السلطان عبد العزيز من الحكم .

ويمكن تقسيم اتجاه حركة الإصلاح فى القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى إلى ثلاثة أقسام هى :

القسم الأول : اتجاه الانغماس فى الغرب :

رأى أصحاب هذا الاتجاه أن الحل الأمثل لإصلاح أوضاع الدولة العثمانية المتدهورة ، إنشاء حكومة حديثة على نمط الحكومات الأوربية واقتباس النظم والأساليب فى الحكم ، والإدارة ، والثقافة والاجتماع إلى الحد الذى يحقق إنشاء هذه الحكومة الحديثة ، دون النظر لماضى الدولة العثمانية المسلمة وما كانت عليه[٤٤] .

وكان من أشهر المنادين بهذا الاتجاه فى الدولة العثمانية فؤاد باشا[٤٥] (١٢٣١ – ١٢٨٦هـ/١٨١٥ – ١٨٦٩م) الذى تولى الصدارة العظمى فى عهد السلطان عبد العزيز عم السلطان عبد الحميد الثانى ، وهو من الجيل الذى أعده الوزير رشيد باشا[٤٦] ليتولى دفع عجلة الاقتباس من الغرب فى الدولة العثمانية .

تبنى فؤاد باشا فكرة الإصلاح على الأسس الغربية ، واستبعد المفاهيم الإسلامية التى قامت عليها الدولة العثمانية كوسيلة للإصلاح ، مؤكدا : « ما كان صالحا للدولة فى عصورها الماضية لم يعد صالحا لحالتها الحاضرة » .

ويرى فؤاد باشا أن الدولة العثمانية محكوم عليها بالموت لا محالة ، إن لم تتمثل خطى التطور الغربى ، فتكون ماليتها على غرار مالية إنجلترا ، ومعارفها كمعارف فرنسا ، ونظمها العسكرية مقتبسة من روسيا[٤٧] .

وقد أسرف فؤاد باشا فى ثقته بصداقة كل من إنجلترا وفرنسا ، وأهمية هذه الصداقة فى حل مشكلات الدولة العثمانية ، حتى إنه فضل أن تخسر الدولة أى جزء من أراضيها على أن لا تخسر صداقة إنجلترا حيث يقول : « إنه خير لنا أن نخسر عدة ولايات من ان نرى إنجلترا مهملة إيانا ومعرضة عن صداقتنا »(٤٨) . ويقول فؤاد باشا عن فرنسا : « إن أفضل طريقة للمحافظة على صداقة هذه الأمة الفرنساوية ، هى مجاراتها فى أفكارها وعمل ما يقع موقع القبول والرضا فى عينها»(٤٩) .

القسم الثانى : الاتجاه التوفيقى فى الإصلاح :

نادى أصحاب هذا الاتجاه بفكرة التدرج فى الأخذ عن الغرب ، فى مجال الإدارة والسياسة والثقافة والفكر ، وكل ما جاءت به الثورة الفرنسية ، أو نادى به مفكروها من حقوق سياسية واجتماعية للأفراد والجماعات .

وقد أكد أصحاب هذا الاتجاه ، أن ما ينادون باقتباسه عن الغرب من نظم ديمقراطية ، أو فى مجال حرية الأفراد والجماعات ليس غريباً عن مفاهيم المجتمع الإسلامى ، ولا عن ثقافته ، بل إن له فى الشريعة الإسلامية ، وتقاليد نظام الحكم فى الإسلام سنداً وأساساً ، فالنظام البرلمانى الديمقراطى فى بريطانيا وفرنسا هو نفسه نظام الشورى فى الإسلام ، وهكذا .. (٥٠) .

وكان من بين الداعين إلى هذا الاتجاه المفكر العثمانى ضياء باشا (١٢٤١ – ١٢٩٨هـ/ ١٨٢٥ – ١٨٨٠م) وهو من الشعراء والأدباء الأتراك البارزين فى عهد التنظيمات العثمانية وما بعدها ، عمل وهو فى السابعة عشرة من عمره موظفاً فى أمانة الصدارة العظمى ، وفى عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م ، عينه رشيد باشا فى الأمانة العامة للقصر السلطانى ، وعين متصرفاً على قبرص ، وقد كان عضواً بارزاً فى جمعية تركيا الفتاة (العثمانيون الجدد) ، وفى عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م هرب إلى أوربا ، وقام بترجمة بعض الكتب من الفرنسية إلى التركية ، ثم عاد إلى

استانبول فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، واشترك فى صياغة مشروع القانون الأساسى (الدستور) (٥١) .

عبر ضياء باشا عن آرائه وأفكاره الإصلاحية من خلال رسالة لـه أسماها (رؤيا) كتبها أثناء إقامته فى لندن ، وكان خلالها يحاور السلطان عبد العزيز حول ما يجب أن تكون عليه الدولة من نظام ديمقراطى ، مطالبا بتشكيل جمعية وطنية ونظام دستورى ، مؤكدا أن هذا هو عين نظام الشورى الذى أقره الإسلام ونادى به(٥٢)،وطالب بإيجاد تقارب إسلامى نصرانى من خلال مجلس مبعوثان منتخب(٥٣).

وقدساير ضياء باشا فى هذا المنهج التوفيقى نامق كمال (١٢٥٦ – ١٣٠٦هـ/١٨٤٠م – ١٨٨٨م) الملقب بشاعر الحرية وعضو جمعية تركيا الفتاة . عين عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م فى قلم الترجمة ، وكتب فى جريدة (تصوير أفكار) التى كان يصدرها الكاتب التركى « شناسى » ثم تولى إدارة الجريدة بعد سفر صاحبها إلى أوربا ، حيث اشترك فى إدارة جريدة (حريت) فى لندن عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م إلى أن سمح له بالعودة إلى استانبول ، فأصدر مسرحية « الوطن » التى أثارت عليه نقمة السلطان عبد الحميد الثانى ، باعتبار أن مفهوم الوطن بالشكل الذى عرضه نامق كمال فى مسرحيته ، والذى يعنى أرضا معينة لأمة معينة كان غريبا عن مفهوم العثمانيين الذين لا يعرفون سوى دار الإسلام وطنا لهم ، ودار الحرب وطنا لأعدائهم . فرأى السلطان أن فى هذا المفهوم الجديد خطورة كبيرة على وحدة الدولة العثمانية المكونة من العديد من الأقوام والجنسيات(٥٤) .

نادى نامق كمال بتطبيق أساليب ونظم الحياة الغربية فى الدولة العثمانية وركز على ضرورة تبنى الحكم النيابى على النمط الأوربى ، مؤكدا أن الحكم الإسلامى فى بداية أمره كان ، يشترك فى تشكيله ممثلو الأمة (أهل الحل والعقد)، فالشورى إذن كما يقول : « ليست بدعة إذ إنها مقرة فى أصول ديننا »(٥٥) .

وعلى الرغم من ليبرالية نامق كمال فإنه ظل مخلصاً للمبادئ والأفكار الإسلامية ، داعياً إلى أن تستمر الدولة العثمانية فى تمسكها بقوانينها ومعتقداتها التى تشكل أساس حضارتها ، إلى جانب ما تكتسبه من نظم وأساليب غربية ، هذا وقد انتقد رجال التنظيمات ، لتطرفهم فى الدعوة إلى صبغ مؤسسات الدولة بصبغة غربية كاملة ، وفشلهم فى حماية وتأمين التراث الإسلامى[٥٦] .

دعا نامق كمال إلى اتحاد العثمانيين واتفاق المسلمين ، ودعم فكرة الجامعة الإسلامية ؛ باعتبارها وسيلة هامة لحل مشكلات الدولة العثمانية والمسلمين كافة ، كما أبرز دور الدولة العثمانية فى سياسة الجامعة الإسلامية والعوامل التى هيأتها لهذا الدور ، فهى موطن الخلافة الإسلامية ، وذات موقع جغرافى بين العالمين الغربى والشرقى ، ومستودع الإمكانات المادية والبشرية[٥٧] .

القسم الثالث : اتجاه الأصالة الإسلامية :

رأى أصحاب هذا الاتجاه أن تستلهم الدولة وسيلة إصلاحها من تراثها الإسلامى ، ونظمها العثمانية الشرقية إبان عصور قوتها وازدهارها ورأى هذا الفريق من العلماء والمفكرين والسياسيين ، أن فساد الأنظمة العثمانية ، وما نتج عنها من تدهور فى كافة نواحى حياة الدولة ، لا يرجع إلى علة فى النظم نفسها ، وإنما إلى سوء تطبيقها وبداية التراجع عنه ، وأنه إذا أحسن التطبيق صلحت أحوال الدولة[٥٨] .

وقد رأى دعاة الجامعة الإسلامية فى استانبول ، والمنادون بمبدأ الأصالة العثمانية ، أن الدولة خدعت ، إذا أقبلت على مدينة الغرب وانسلخت عن شرقيتها ؛ مما أفضى بها إلى التقهقر والانهزام ، ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه ، أن الدولة العثمانية بدأت كحكومة شرقية إسلامية قوية ، وانتهت بفعل التنظيمات إلى حكومة غربية ضعيفة ، وينظر أصحاب اتجاه الأصالة العثمانية إلى هذه التنظيمات ، وما تلاها من إصلاحات ، على أنها خديعة من جانب الدولة الأوربية ، عملت من

خلالها على تجريد الدولة العثمانية من عناصر قوتها الحقيقية المتمثلة بقوانينها الإسلامية ، وإحلال القوانين الغربية محلها وبصورة تدريجية ، حتى أفضى بها الأمر إلى أن سلخت الدولة العثمانية كليا عن إسلامها ، وفقدت هويتها المتميزة ، وخلعت عنها رداء السلطنة العثمانية ، ثم الخلافة الإسلامية ، وأعلنت عن هويتها العلمانية . وقد بنى هذا الاتجاه موقفهم فى معاداتهم للاقتباس من الغرب ، على أساس أن الدولة العثمانية بجغرافيتها وتاريخها وتركيبة شعبها ، تختلف كل الاختلاف عن تاريخ أوربا وطبيعتها الجغرافية والبشرية ، وأن الدولة العثمانية يجب أن يصاغ لها من الأنظمة والقوانين ما يتناسب مع طبيعتها الشرقية الإسلامية التى تختلف كل الاختلاف عن العالم الغربى(٥٩) .

وكان على رأس أصحاب هذا الاتجاه المفكر العثمانى أحمد جودت ، وهو من كبار علماء الأتراك وعظماء رجال السياسة ، وهو من أسرة عرفت بالجلادة ، أصلها من قرق كليسا ، ثم استوطنت لوفجه (جنوب بلقنا) منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادى ، وحارب أحد أجداده بطرس الأكبر ، واشتغل أحد أجداده بالإفتاء ، وقد حج أبوه وجده إلى مكة ، وولد أحمد جودت عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ، وتعلم مبادئ العلوم الإسلامية فى مسقط رأسه ، ولكن سرعان ما اجتذبته استانبول التى كانت مركز النشاط العقلى عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ، ودأب على الدرس وشغف بعلم الكلام والفلسفة والأدب الغربى والرياضيات وطبقات الأرض ، كما حذق الفارسية ، وحصل بعد ذلك بمدة قصيرة على إجازة مكنته من القيام بالتدريس فى أحد مساجد العاصمة العثمانية ، وما أن أتم شرح ديوان صائب ، حتى استطاع أن يدخل فى سلك التدريس بمصلحة المعارف ، كما استطاع أن ينال منصب ناظر جامعة المدارس المتوسطة .

واشترك فى البعثة المشهورة إلى بخارست عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م ، وبعد عودته كتب هو وفؤاد باشا أساس النحو فى اللغة التركية ، وترجمها إلى الألمانية عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م ، وصحب فؤادا فى رحلة قصيرة إلى مصر ، وفى عام

١٢٧٠هـ/١٨٥٣م – أى خلال حرب القرم – كلفه السلطان عبد المجيد كتابة تاريخ عام للأتراك من صلح كوجك قينارجه إلى إبادة الإنكشارية عام ١٨٢٦م، واستطاع أن يقدم للسلطان فى العام التالى المجلدات الثلاثة الأولى ، فكافأه السلطان بتعيينه مؤرخاً للدولة ، كما كافأه على مصنفه الثانى « المعاملات الإسلامية » الذى ظهر بعد ذلك بعامين بعنوان « النص الثابت »، والذى قوبل عند ظهوره بالإعجاب الشديد . وعين عضواً فى هيئة العلماء التى كانت تقوم فى ذلك الوقت بتنقيح القانون المدنى ، كما أقامه ناظراً على لجنة الأملاك ، ولازمه التوفيق فأخذ يتدرج فى المناصب العالية ، نخص بالذكر منها منصب الوزارة الذى ضحى من أجله بلقب مؤرخ الدولة عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م ، ومنصب رئيس المجلس الذى كانت وظيفته تنقيح القانون المدنى عام ١٢٨٤هـ، ذلك المجلس الذى ازداد نشاطه بتوليه رياسته . وقد ولى حكم حلب وبروسة ومرعش ويانيه على التعاقب ، وأصبح بعد ذلك والياً على الشام مرتين ، ثم ناظراً للمعارف ثلاث مرات ، ثم ناظراً للحقانية مرتين ، والداخلية والتجارة مرة ، ثم وكيلاً للمجلس المخصوص . وخير عمل قام به كان أثناء نظارته للمعارف إذ أدخل الروح العصرية فى المدارس(٦٠) .

وبعد أن اعتزل مناصب الحكومة ، قضى بقية حياته الطويلة موفور الصحة والنشاط شغوفاً بالقراءة ، التى كان يقضى فيها جل وقته ، وتدلنا مؤلفات أبنائه وبناته على أنه كان أباً رحيماً ، وقضى نحبه بعد مرض لم يمهله طويلاً فى بيته الريفى فى بيك على شاطئ البسفور ليلة الخامس والعشرين من مايو سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م .

وإلى جانب مصنفه القواعد العثمانية الذى ظل ينشر كاملاً وملخصاً فى طبعات منقحة ، مصنفان لغويان آخران هما « معيار سداد » و« آداب سداد » ، وهما مقدمتان فى الأسلوب الأدبى ، وكان يجيد اللغة العربية والفارسية قراءة وكتابة كاللغة التركية ، وقد بقى القليل من أشعارها ، وهى تمتاز بالبساطة وإن كانت أقرب إلى الصناعة منها إلى الشاعرية على الرغم من خلوها من الأخطاء .

وقد تم طبعه أثناء نظارته الثانية للحقانية (١٢٩٣ – ١٢٩٤هـ/١٨٧٦ – ١٨٧٧م) أكبر عمل قضائي في عصره وهو القانون المدني التركي ، واشتهر أحمد جودت بصفة خاصة بالتاريخ ، ففي أواخر عهد السلطان عبد العزيز وعندما لهجت الأفواه جميعاً بالثناء عليه اتحف أحمد جودت الشعب العثماني بألمع درة في عالم المصنفات الشرقية ، ألا وهي « قصص الأنبياء وتاريخ الخلفاء » ، وهو مصنف ختمه بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ولكن المصنف الذي خلد اسمه في عالم التأليف ، وهو كتابه في تاريخ تركيا المسمي « وقائع الدولة العلية » الذي تناول فيه الحوادث من عام ١١٨٨ – ١٢٤١هـ/١٧٧٤ – ١٨٢٥م ، ويقع في اثني عشر مجلداً ، طبعت الطبعة الأولى منه في القسطنطينية عام ١٢٧١ – ١٣٠١ هـ، وتكرر طبعه فيما بعد ، كما ظهرت الطبعة الأخيرة منقحة تنقيحاً سياسياً، ولم يعتمد أحمد جودت في تاريخه هذا على الوثائق الرسمية فحسب ، بل اعتمد كذلك على مؤرخي الدولة أمثال واصف وأنوري وأديب ونوري وبرتو وعاصم وشاني زاده ، كما اعتمد في بعض المناسبات على المؤرخ العربي الكبير عبد الرحمن الجبرتي وغيره[٦١] .

وبالرغم من أنه كان يكتب في عصر سيطرت فيه فرنسا على نصف القارة الأوربية ، فإنه لم يرجع إلى أي مصدر فرنسي سوى مذكرات نابليون ، وكان أحمد جودت مستقلاً في الرأي إلى حد أن سرده للحوادث كان يتسم بطابع عبقريته الفذة وعقله الناضج ، وأثناء حكم عبد المجيد وعبد العزيز تمكن أحمد من الرجوع إلى المحفوظات الرسمية ، كما نستطيع القول بأنه رتب الحوادث ترتيباً زمنياً ، وأنه مزج الحروب والأحداث الداخلية في مهارة فائقة استطاع بها أن يحافظ على هذا الترتيب الزمني ، وسار في المجلدات الخمسة الأوائل على طريقة المؤرخين القدماء فكان أسلوبه خطابياً فخماً ، ثم تنحى عن هذا الأسلوب فجأة في أوائل المجلد السادس فتوخى البساطة التي بدأ الكتاب يتوخونها في هذا العصر[٦٢] .

وكان أحمد جودت باشا مقتنعاً تمام الاقتناع بفائدة دراسة التاريخ فى التربية ، فهو يحذر مواطنيه دائماً من فساد الإدارة عند الشرقيين ، كما كان يوجه اهتمامه إلى عهود التقدم مهما تضاءلت ، يستعرضها فى إيجاز بليغ ويجعل منها وسيلة لإنهاض وطنه ، يظهر هذا بصفة خاصة فى أفكاره القيمة التى وردت كثيراً فى المجلدات الخمسة الأولى ، ولعل أكثر ما كان يضجره هذا الانتقال الفجائى من الركود التام إلى النشاط العجيب ، الذى كان يتمثل جلياً فى القرون الماضية ، وليس هناك شخص تأخذه الحماسة لانتصارات العلم أكثر من أحمد جودت باشا ، كما أنه يفيض وطنية عندما يشيد بما قامت به الدولة العثمانية من الفتوحات التى أفادت بها الحضارة ، كالفصل بين السلطات الحربية والمدنية الذى تم فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وتركيز الإدارة وإصلاح العملة ، أما فى ميدان السياسة الخارجية فلم يكن هناك شئ أحب إلى نفسه سوى أن يرى الدولة العثمانية تتحالف مع النمسا على روسيا؛ لأن هاتين الدولتين – وكلتاهما من الجنس الذى تمتزج فيه الدماء الصقلبية بغيرها – ليس أمامهما سوى الاتفاق بدل التنابذ إذا أرادتا أن توجها طغيان فكرة الجامعة الصقلبية[٦٣] .

ونذكر كذلك من مصنفات أحمد جودت باشا بصفة خاصة :بيان العنوان ، ومعلومات نافعة ، وتقويم الأدوار ، ثم إتمامه لترجمة ابن خلدون إلى التركية[٦٤] .

وقد فهم أحمد جودت الإسلام ، على أنه نظام حيوى شامل ينظم حياة الأفراد والجماعات والدول ، وأن الحاكم المسلم يجب أن يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية ، وأكد أحمد جودت أن الدين الإسلامى هو سر وحدة المسلمين ومصدر قوتهم ، وما تسرب الضعف إلى جسم الأمة الإسلامية إلا حين أخذت تستبدل الوطنية والقومية بدلاً من الفكرة الإسلامية .

وأكد أحمد جودت أن العثمانيين مدينون أكثر من غيرهم للإسلام باعتباره البوابة التى دخلوا منها التاريخ ، فهو أساس دولتهم وحضارتهم ، وإليه يرجع كل ما يفخر به العثمانيون ، ومن هذا المنطلق يقارن جودت باشا بين الأمة العثمانية

الشرقية ، وأمم الغرب النصرانية . ففي أوربا أنشئت الدول على أساس قومي ، وحلت عندهم الفكرة الوطنية محل الدين . ونمت دولهم الحديثة على هذا الأساس المادي الصرف ، والفكر الضيق المحدود ، الذي عمل على تقسيم الأمة الواحدة وتفتيتها إلى مجموعة من الشعوب . أما الدولة العثمانية فهي تختلف عن أمم الغرب ودوله في كافة النواحي ، فليس هناك إذن ما يمكن أن تستفيده الدولة العثمانية من نظم أوربا وأساليبها في الحياة[٦٥] .

وقد اهتم أحمد جودت كثيراً بأحوال الدولة العثمانية ، ودرس أوضاعها ، وشخص أمراضها ، وعمل جاهداً في ظل حكم السلطان عبد الحميد الثاني لإصلاح أحوال الدولة ، وإيجاد الحلول لمشاكلها . فرأى أن الدولة العثمانية بحكم تاريخها واتساع جغرافيتها وعراقة الأسرة العثمانية الحاكمة فيها ، وما أصبح لها من دراية بالحكم وخبرة بالقيادة ، وباعتبار الدولة موطن السلطنة ومستقر الخلافة ، كل ذلك مما يؤهلها لزعامة العالم الإسلامي وحمايته من الأخطار التي تهدده من كل جانب في ظل سياسة الجامعة الإسلامية .

كما بين أهمية الوحدة بين أجزاء الدولة العثمانية ، وخاصة ولاياتها الشرقية، ودعا إلى عدم التفريط بأي جزء منها ، ووقف موقفاً مناوئاً من الاقتراح الذي تقدم به سعيد حليم باشا - كان وقتها وزيراً للداخلية - والذي يقضي بإعطاء بريطانيا جزيرة قبرص وكريت ، وإعطاء فرنسا مصر لضمان وقوف الدولتين إلى جانب الدولة العثمانية في حربها مع روسيا عام ١٨٧٧م ، والمحافظة على ممتلكاتها في الروملي (أوربا الشرقية) ، فرد جودت باشا على هذا الاقتراح قائلاً : « كيف نعطي مصر البلد المسلم وباب الحرمين الشريفين وركيزة الإسلام المهمة في إفريقيا بدلاً من بلغاريا التي أكثر شعبها من النصارى[٦٦] . وأكد جودت باشا ضرورة أن يمتد هذا الاهتمام ليشمل كافة المسلمين في مختلف أنحاء المعمورة لتبصيرهم بأمور دينهم ، وبيان أهمية الوحدة ، والائتلاف بينهم ، وأنها من

مستلزمات دينهم الذى يوجب عليها التضامن والتكافل ، وتحذيرهم من مغبة التنابذ والتشتت والاختلاف(٦٧) .

وقد اتخذ جودت باشا من التنظيمات العثمانية ورجالاتها موقفاً معادياً واتهمهم بأنهم فى سياستهم التى اتبعوها كانوا منفذين لرغبات الدول الغربية ، خاضعين لنفوذ سفاراتها ، وأن حرصهم على إرضاء تلك الدول كان أكثر من حرصهم على مصالح الدولة العثمانية ، التى أغرقوها بالديون ، وأوقعوها فى حبائل المصالح الأجنبية . أما التنظيمات التى أوجدوها فى الدولة العثمانية فلم ينتج عنها سوى التمسك بالقشور من الثقافة الغربية ، وتقليد المظاهر والانصراف عن الاستفادة من جوهرها المتمثل بالصنائع والفنون ، هذا إلى جانب ما جرته هذه التنظيمات على الدولة من مخاطر حين أعلنت المساواة المطلقة بين عناصر الدولة ، بغض النظر عن الدين ، مما أتاح الفرصة لغير أبناء دينها لتتولى المناصب الهامة وتوجيه سياستها الخارجية ومراكزها العسكرية ، مما ألحق بالدولة أفدح الأضرار(٦٨) .

ولم يضع جودت باشا ثقته بأية دولة أوربية يمكن أن تعمل على مساعدة الدولة العثمانية ، فهذه الدول مجتمعة تعمل على إضعاف الدولة العثمانية ، وإثارة المشاكل العديدة لها فى الخارج وفى الداخل . فإنجلترا ، رغم تظاهرها بمساعدة الدولة ، كانت تعمل على إضعاف قوتها عن طريق إثارة الأرمن ضدها ، أما روسيا فهى دائمة السعى للثأر من الدولة العثمانية بعد هزيمتها لها فى حرب القرم عام ١٨٥٤م ، وأطماع النمسا بادية فى منطقتى البوسنة والهرسك ، مما دفعها إلى تأييد المتمردين فيها ضد الدولة العثمانية(٦٩) .

الهوامش

(١) محمد عبد اللطيف البحرواى : حركة الإصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ – ١٨٣٩م ، ص ٩٣ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤/ ١٩١٤م) القاهرة ١٩٨١م ، ص ٢١٢ – ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ٧٢ – ٧٣ ، بيروت ١٩٦٠م .

(٣) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص ٣٩١ ، الأستانة ١٣١١هـ .

(٤) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١ ، ص ١٠٤ – ١٠٧ ، ترجمة عبد القادر الدنا ، بيروت ١٣٠٨هـ .

(٥) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١١ ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٦) أحمد جودت : المصدر نفسه ، جـ١١ ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٧) البارون دى توت اختارته الحكومة الفرنسية – رغم أصله الهنغارى – للسفر إلى استانبول بصحبة السفير الفرنسى ، فى وقت كانت الحرب الروسية العثمانية على أشدها ، وقد بذل دى توت جهوداً لمساعدة السلطان العثمانى فى أعمال تحصين البوسفور وإصلاح المدفعية والبحرية ... ولدى عودته إلى باريس قدم إلى حكومته تقريراً عن حالة الدولة العثمانية السياسية ضمنه آراءه التى تتلخص فى : أن الدولة العثمانية آيلة إلى الانهيار القريب ، وأن تدخل فرنسا الدبلوماسى لنجاتها لا يجدى فتيلاً ، وأن الاستيلاء على مصر يخدم المصالح الفرنسية ، ويجعل من الميسور على فرنسا إيجاد الصلات الوثيقة مع الهند ، ويسهل إنشاء قناة تصل بين البحر الأحمر ونهر النيل عند فرع دمياط ، كما قام البارون دى توت بزيارة مصر فى رحلة تفتيشية كانت الحكومة الفرنسية قد كلفته بالقيام بها ، ووقف بنفسه على طغيان الأمراء المماليك وفرضهم الضرائب الفادحة ، وقدم البارون بهذا تقريراً إلى الحكومة الفرنسية . (طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر . الجامعة اللبنانية ، كلية الحقوق ١٩٦٢م ، ص ٢٣ ، ٢٤) .

(٨) عبد اللطيف البحراوى : المرجع السابق ص ٩٥ .

(٩) دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس . مادة مصطفى الثالث ، المجلد التاسع ص ٩٠ ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م استانبول .

(١٠) أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ص ٢٧١ - ٢٧٣ ، استانبول ١٨٨٢م ، نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، ص ١١٢ - ١١٣ ، استانبول ١٩٣٨م .

(١١) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ٦ ، ص ٣١١ - ٣١٦ .

(١٢) إبراهيم حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ص ١٧٩ - ١٨٠ ، مصر ١٣٢٣هـ .

(13) Enver Ziya Karal : Osmanli Tarihi. Cilt 5, s – 62. Angel; P. 53, Ankara 1970.

(١٤) للإطلاع على محتوياته انظر : بيان نظام سلطان سليم الثالث : مخطوطة تركية فى جامعة الملك سعود ، برقم ٤٩٠ ، ومصورة من مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، ص١ - ١٠ .

(١٥) نظام دولت عثمانية : مخطوطة تركية سبق ذكرها ، ص ١٠ - ٤٠ .

(16) Yilmaz Oztum : Turkiye. Tarihl, Cilt II – Kitap 12. S,169.

(١٧) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ٧ ، ط٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(١٨) بوّل إيمبر : عثمانلى إيمبراطور لغنك تجددى ، ترجمة حسن فرهاد ، ومعلم أنتره من الإنجليزية إلى اللغة التركية ، ص ١١٢ - ١١٣ ، استانبول ١٩٢٣م .

(١٩) انكه لهارد : دولت عثمانية نك تاريخ إصلاحاتى ، ترجمة على رشاد، ص ١٨ ، استانبول ١٩٢٦م .

(٢٠) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية (١٧٨٩ - ١٨٣٩م) ص ١٤١ ، رسالة ماجستير ، جامعة بيروت ، كلية الحقوق ١٩٧٥م .

(٢١) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

(٢٢) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : المرجع نفسه ، ص ١٤٣ ، رشيد ثريا : أدبيات جديدة وقراءات أدبية ، جـ١ ، ص ١١٨ - ١٢١ ، طبعة جلال ساهر ومحمد فؤاد ، الآستانة ١٩٢٨م .

(٢٣) شمس الدين سامي : قاموس تركي ، ص ٤٩١ ، استانبول ١٣١٧هـ .

(٢٤) رشيد ثريا : أدبيات جديدة وقراءات أدبية ، جـ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٥) إسماعيل حبيب : تورك تجدد أدبياتى ، ص ٦٨٢ الأستانة ١٩٢٥م .

(٢٦) عبد الوهاب القيسي : حركة الإصلاح وتأثيرها في العراق ١٨٣٩ - ١٨٧٧م ، ص ٣٩ - ٤٣ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٦١م ، مطبعة العاني ، بغداد ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

(٢٧) إسماعيل حبيب : تورك تجدد أدبياتى ، ص ٦٨٢ ، الأستانة ١٩٢٥م .

(٢٨) عبد الرؤف محيى الدين سنو : المرجع السابق ، ص ١٥١ ، رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ١٨١ ، مطبعة إستانبول (بدون تاريخ) .

(٢٩) أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ، ص ٢٥٣

- محمد ثريا : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص ٣٥٧

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ١٣١ ، الأستانة ١٢٨٥هـ .

(٣٠) عبد الرؤوف سنو : المرجع السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ص ٢٦٧ .

(٣١) بجوى : تاريخ ، ص ٤١١ .

- أحمد رفعت : روضة العزيزية ص ١٦٧ ، الأستانة ١٢٨٢هـ .

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ص ٨١ ، الأستانة ١٢٧١هـ .

- أحمد رفيق : كدنلر سلطنى ، جـ١ ، ص ٧٨ ، الأستانة ١٣٢٢هـ .

(٣٢) عزرا سمويل ساسون : مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقى العثمانية ص ١٢١ - ١٢٧ ، مطبعة جرجى غرزوزى بالإسكندرية ، سنة ١٩١٠م .

(٣٣) انظر تفصيل مرسوم كلخانه فى دائرة المعارف التركية . ميدان لاروس ، مادة Sulhane .

(٣٤) مجهول : عصر السلطان عبد الحميد وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦ - ١٩٠٩م ، جـ١ ، ص ١٧٠ . صدر فى سلسلة أجزاء متتابعة المكتبة الهاشمية ، دمشق الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .

(٣٥) انظر نص الفرمان فى :
- أحمد مدحت : اس انقلاب ، ص ٢٨٣ - ٢٩٣ ، استانبول ١٢٩٤هـ ، وزارة العدل التركية خط همايون وقانون أساسى (تركى وعربى) ط٣ ، القسطنطينية طبع فى مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٧هـ .
- دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص ٤٩٩ - ٤٥١ .
- عبد العزيز الشناوى وزميله : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ص ١٤ - ١٦ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م .
(٣٦) عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية فى ولاية سورية ، ١٨٦٤ - ١٩١٤م ، ص ٢٥ - ٣٧ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .
(٣٧) سليمان البستانى : عبرى وذكرى . أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، ص ١١ - ١٢ .
(٣٨) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٣٩- ١٤٠ ، نشرها ابنه يوسف كمال بك حتاتة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٨م ، مطبعة هندية بالموسكى بمصر . (بدون تاريخ).
(٣٩) دائرة المعارف التركية . ميدان لاروس . الطبعة الأولى ١٩٧٣م استانبول ، جـ١ ، مادة السلطان عبد العزيز ، ص ٢٦ .
(٤٠) هذه العبارة عبارة قانونية وتعنى فى الغالب ، أن محتوى هذا النظام ٧٨ مادة ، ثم ختم بمادة أخرى خاصة تحدد تاريخ سريان مفعول هذا النظام المعد ، أو تاريخ سريان مفعول المادة المؤقتة الموضوعة لاعتبارات خاصة .
(٤١) انكه لهارد : تركيا وتنظيمات ، دولت عثمانية نك تاريخ إصلاحاتى . ترجمة على رشاد ، ص ١٦٩ ، استانبول ١٣٢٨هـ .
(٤٢) المأمورين : أى الموظفين .
(٤٣) إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات عثمانية ، ص ٧١ - ٨٢ ، الأستانة ١٣٠٧هـ .
- سليم فارس : كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب ص ٣٢٠ - ٣٢٥ ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجوائب ، بالأستانة ١٢٩٨هـ .

(٤٤) أبو الثريا سامي : وساوس السلطان عبد الحميد ، ص ١٤٠ - ١٤٣ ، مطبعة العهد - بغداد ١٣٥١هـ/١٩٢٢م .

(٤٥) فؤاد باشا ، صدر أعظم ، ومن كبار رجال الدولة العثمانية ، تولى منصب الصدارة العظمى فى عهد السلطان عبد العزيز ، ورغم دراسته الطبية والعسكرية، فقد التحق بعد تخرجه بدائرة الترجمة بالباب العالى ، وكلف بمهمة إعادة الهدوء إلى لبنان على اثر فتنة عام ١٨٦٠م . وقد لفت إليه الأنظار بكفاءته فى إيقاف الفتنة وإعادة الأمن والهدوء إلى المنطقة ، تولى الصدارة مرتين ، وتوفى عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م فى مدينة نيس - جنوب فرنسا - حيث كان يعانى من مرض القلب (مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ١٣٤ ، وصديق الدملوجى : مدحت باشا ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، مطبعة الزمان ، بغداد ١٩٥٢م) .

(٤٦) رشيد باشا ، تولى الصدارة فى عهد السلطان عبد الحميد ، وكان الأخير خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذى وجد فى الغرب ومدنيته مثله الأعلى وفلسفته . وقد أعد رشيد باشا الجيل التالى له من الوزراء ،ورجال الدولة عن طريق إرسالهم فى بعثات تعليمية وتدريبية إلى العواصم الأوربية ، وبمساعدته أسهم هؤلاء فى دفع عجلة التغريب التى بدأها هو .

(٤٧) فؤاد باشا : وصية فؤاد باشا السياسية . تعريب جميل معلوف . ص ٢٩ ، مطبعة المناظر ، سان باولو ١٩٠٨م .

(٤٨) ،(٤٩) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٥٠) أحمد فهد بركات الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ص ٣٩ ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م - ١٤٠٤هـ .

- أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص٢٢٠ - ٢٢٥ ، ترجمة : صالح أحمد العلى ، منشورا مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٠م .

(٥١) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ١٣٤ .

(٥٢) حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص٤٠٤ ، القاهرة ١٩٥١م .

(٥٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٢٦ .

(٥٤) عثمان نورى : عبد الحميد ثانى ودور سلطنتى . ص ٢٢٥ – ٢٣٠ ، استانبول ١٣٢٧هـ .

(٥٥) ،(٥٦)،(٥٧) أحمد فهد بركات الشوابكة : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٥٨) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١ ، ص ٧٥ .

– أحمد صائب :عبد الحميد أوائل سلطنتى ، ص ٣٢٠ – ٣٢٧ ، ط٢ ، إستانبول ١٣٢٦هـ .

(٥٩) الماواتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض ، ص ١٢٢ ، ترجمة : راسم رشدى ، القاهرة ١٩٥٠م .

(٦٠) ماجدة صلاح مخلوف : معروضات أحمد جودت باشا ، دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية ، ص ١٤٥ ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لقسم اللغات الشرقية، كلية الآداب ، جامعة عين شمس عام ١٩٨٣م ، القاهرة .

(٦١) ماجدة مخلوف : المرجع السابق ، ص ١٣٩ ، ١٤١ .

(٦٢) المرجع السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٦٣) المرجع السابق : ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٦٤) جمال الدين وأحمد جودت : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى . القسطنطينية ١٣١٤هـ.

- إسماعيل حقى : كتاب الترك فى القرن الرابع عشر ١٣٠٨هـ .

(٦٥) أحمد فهد بركات الشوابكة : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٦٦) أحمد فهد بركات الشوابكة : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٦٧) ماجدة صلاح مخلوف : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٦٨) ماجدة صلاح مخلوف : المرجع السابق ، ص ١١١ ، ١٤١ .

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ١٠٩ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

- أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١ ، ترجمة عبد القادر الدنا ، بيروت ١٣٠٨هـ .
- أحمد فهد بركات الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ .
- إبراهيم حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، مصر ١٣٢٣هـ .
- أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ترجمة : صالح أحمد العلى ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٠م .
- إسماعيل حقى : كتاب الترك فى القرن الرابع عشر ١٣٠٨هـ .
- الماواتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض ، ترجمة : راسم رشدى ، القاهرة ١٩٥٠م .
- أبو الثريا سامى : وساوس السلطان عبد الحميد ، مطبعة العهد - بغداد ١٣٥١هـ/١٩٢٢م .
- حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١م
- ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٠م .
- سليم فارس : كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجوائب ، بالأستانة ١٢٩٨هـ .
- سليمان البستانى : عبرى وذكرى . أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، القاهرة ١٩٠٨م .
- صديق الدملوجي : مدحت باشا ، مطبعة الزمان ، بغداد ١٩٥٢م .
- طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر . الجامعة اللبنانية ، كلية الحقوق ١٩٦٢م .

- عبد العزيز الشناوى وزميله : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م .
- عزرا سمويل ساسون : مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقى العثمانية ، مطبعة جرجى غرزوزى بالإسكندرية ، سنة ١٩١٠م .
- عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية فى ولاية سورية ، ١٨٦٤ - ١٩١٤م ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .
- فؤاد باشا : وصية فؤاد باشا السياسية . تعريب جميل معلوف . مطبعة المناظر ، سان باولو ١٩٠٨م .
- مجهول : عصر السلطان عبد الحميد وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦ - ١٩٠٩م ، جـ١ ، صدر فى سلسلة أجزاء متتابعة المكتبة الهاشمية ، دمشق الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .
- محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الإصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ - ١٨٣٩م ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ / ١٩١٤م) القاهرة ١٩٨١م .
- مذكرات مدحت باشا : نشرها ابنه يوسف كمال بك حتاتة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٨م ، مطبعة هندية بالموسكي بمصر . (بدون تاريخ) .
- وزارة العدل التركية : خط همايون وقانون أساسى (تركى وعربى) الطبعة الثالثة ، القسطنطينية ، مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٧هـ .

ثانيا : المصادر والمراجع التركية :

- أحمد صائب :عبد الحميد أوائل سلطنتى ، ط٢ ، إستانبول ١٣٢٦هـ .
- أحمد رفيق : كدنلر سلطنتى ، جـ١ ، الأستانة ١٣٢٢هـ .
- أحمد مدحت : اس انقلاب ، استانبول ١٢٩٤هـ .
- أحمد رفعت : روضة العزيزية ، الأستانة ١٢٨٢هـ .

- أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ، استانبول ١٨٨٢م ،
- انكه لهارد : دولت عثمانية نك تاريخ إصلاحاتى . ترجمة على رشاد ، استانبول ١٩٢٦هـ .
- إسماعيل حبيب : تورك تجدد أدبياتى ، الأستانة ١٩٢٥م .
- إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات عثمانية ، الأستانة ١٣٠٧هـ .
- بول إيمبر : عثمانلى إيمبراطور لغنك تجددى ، ترجمة حسن فرهاد ، ومعلم أنثره من الإنجليزية إلى اللغة التركية ، استانبول ١٩٢٣م .
- جمال الدين وأحمد جودت : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى . القسطنطينية ١٣١٤هـ .
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، مطبعة إستانبول (بدون تاريخ) .
- رشيد ثريا : أدبيات جديدة وقراءات أدبية ، جـ١ ، طبعة جلال ساهر ومحمد فؤاد ، الأستانة ١٩٢٨م .
- عثمان نورى : عبد الحميد ثانى ودور سلطنتى . استانبول ١٣٢٧هـ .
- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، الأستانة ١٢٧١هـ .
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانلى ، جـ٢ ، الأستانة ١٣١١هـ .
- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، الأستانة ١٢٨٥هـ .
- نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، استانبول ١٩٣٨م .
Enver Ziya Karal : Osmanli Tarihi. Cilt 5. Ankara 1970.

ثالثاً : المخطوطات والقواميس ودوائر المعارف والمجلات :

- بيان نظام سلطان سليم الثالث : مخطوطة تركية فى جامعة الملك سعود ، برقم ٤٩٠ ، ومصورة من مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة .
- شمس الدين سامى : قاموس تركى ، استانبول ١٣١٧هـ .
- دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس . المجلد التاسع ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م استانبول .

- عبد الوهاب القيسى : حركة الإصلاح وتأثيرها فى العــراق ١٨٣٩ - ١٨٧٧م ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد - كانون الثانى ١٩٦١م ، مطبعـــة العــانى ، بغداد ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

رابعا : رسائل الماجستير والدكتوراه :

- ماجدة صلاح مخلوف : معروضات أحمد جودت باشا ، دراسة وتحقيق وترجمــة إلى العربية ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لقسم اللغات الشــرقية ، كليــة الآداب ، جامعة عين شمس عام ١٩٨٣م ، القاهرة .

- عبد الرؤوف محيى الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولــة العثمانية (١٧٨٩ - ١٨٣٩م) ص ١٤١ ، رسالة ماجســتير ، جامعــة بــيروت العربية - كلية الآداب ، بيروت ، ١٩٧٥م .

المعاهدة التركية الأمريكية

عام ١٨٣٠م

« دراسة وثائقية »

د. عبد العليم على أبو هيكل (*)

فى الوقت الذى بلغ الصراع والتنافس الاستعمارى أشده بين بريطانيا وفرنسا لغرس نفوذهما فى الشرق ، فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت لتوها من حرب الاستقلال بتوقيع صلح باريس عام ١٧٨٣م وبدأت من جانبها خطوات حثيثة لدعم بنيانها على كافة المستويات الداخلية والخارجية ، خاصة فى المجالات السياسية والاقتصادية .

وفى تلك الأثناء كان الشرق الأوسط الذى تبسط الدولة العثمانية سيادتها على معظم أجزائه ، يبدو فى صورتين متناقضتين أمام مخيلة الكثير من الأمريكيين ، فهو من ناحية الميدان الفسيح والموقع الاستراتيجى الهام المتحكم فى طرق التجارة العالمية بحريا وبريا على حد سواء ، أما سكانه من الناحية الأخرى فهم أقوام تهيمن عليهم وعلى أنماط حياتهم المعيشية أنواع من الأساطير والخيال والخرافات المتواترة ، ويقضى شيوخهم وقادتهم وأثرياؤهم جل وقتهم فى اللهو والبذخ(١) .

وقد بدا هذا التضارب واضحا عند النظر إلى طبيعة الدولة العثمانية وما كانت تبثه البعثات الأمريكية من تقارير متضاربة عنها ، كبعثة « بومباى » التى صبت جل اهتماماتها على تردى الأوضاع الداخلية بالولايات العثمانية(٢)، بينما

(*) كلية الآداب - جامعة القاهرة .

كانت القنصلية الأمريكية فى «لشبونة » دائمة الثناء على محاولات الدولة التصدى لضغوط القوى الأوربية عليها[٣] .

هكذا بدت منطقة الشرق الأوسط والإمبراطورية العثمانية أمام الكثير من الأمريكيين عالمًا غير آمن خاصة مع الأنباء المتواترة عن كثرة الصدام العسكرى والتنافس الاستعمارى حول الطرق المائية والبرية المؤدية إليه[٤] وانتشار عمليات القرصنة فى مياه البحر المتوسط والتصادم بين أسبانيا والمغرب بشكل خاص[٥] .

وكان أن تمخض عن هذا التباين فى الرؤية عن ازدواجية أمريكية فى كيفية التعامل مع الدولة العثمانية على النحو التالى :

الأول : التوجه الرسمى من قبل السلطات الأمريكية .

الثانى : الجهود الفردية التى قام بها المغامرون والتجار .

أما الأول فبدأ بمحاولات لجس نبض العاصمة العثمانية فى إمكانية إقامة علاقات تجارية معها ، والاستفسار عن الكيفية المناسبة ، والخطوات المطلوب اتباعها فى هذا الصدد ، عندما شكل « المؤتمر القارى الأمريكى – الكونجرس Continental Congress ، عام ١٧٨٤م لجنة ثلاثية برئاسة توماس جيفرسون Thomas Jefferson ومعه جون آدامز John Adams وبنيامين فرانكلين Benjamen Franklin لإجراء اتصالات مع السلطان العثمانى[٦] .

وقد بعث جون آدامز برسالة إلى السلطات العثمانية فى فبراير ١٧٨٦م عن طريق وزير الخارجية الفرنسية « فيرنيس – Vergennes» يتمنى فيها الكونجرس إقامة علاقات تجارية وسياسية نشطة بين تركيا والولايات الأمريكية ، واغتنام الرغبة المشتركة لدعم وتقوية تطلعاتهم نحو (التحديث) واستغلال الإمكانيات المتاحة فيهما كى تصبح الأرض الأمريكية ميدانًا رحبًا لتسويق المنتجات التركية ، وتصبح الإمبراطورية العثمانية فى ذات الوقت سوقًا للسلع الأمريكية[٧] .

لم تكن الاستجابة التركية بذات الحماس الذى أبدتـه السـلطات الأمريكيـة ، عندما جاء رد الطرف الأول محملاً بالعديد من الأسباب التى تدعو إلى التأنى فـى اتخاذ خطوة كهذه بين البلدين ، خاصة فى ذلك الوقت عام ١٧٨٦م ، لمـا يخشـاه الصدر الأعظم من ازدياد المتاعب الدولية مع القوى المعادية ، والتى تجد الخطـى بحثًا عن الذرائع للضغط على الدولة ، مع استمرار المصادمـات العسـكرية التـى سوف تتعرض معها التجارة للخطر . واقترح الأتـراك تـرك منـافذهم التجاريـة مفتوحة لمن أراد الإقدام على المتاجرة داخل بلدانهم ، دون أدنى مسـئولية منـهم ، وحتى لا تثار الدول المعنية خاصة روسيا وإنجلترا(٨) .

أما التوجه الثانى الذى قاده المغامرون والتجار ، فكان أكثر جـرأة وإقدامًـا لأمرين أساسيين :

الأول : روح المغامرة والرغبة فى الانتقام من الإنجليز والفرنسيين والأسبان علـى حد سواء ، نتيجة للمعاناة والضغوط التى تعرضوا لها بصفة عامة خـلال حرب الاستقلال(٩) .

الثانى : التعويض عن الخسائر التى أصابت التجار منهم بصفة خاصة مع القوانيـن المقيدة لحركة التجارة التى أصدرتها السلطات البريطانية ، كقانون السـكر عام ١٧٦٤م ، وضرائب التصدير على السلع الأوربية التى تشـحن إلـى المستعمرات من بريطانيا والتى ارتفعت من ٢,٥% إلى ٥% ، إضافة إلى سخاء السلطات البريطانية فى منح كبار الملاك المؤيدين لها المزيد مـن الأراضى مكافأة لهم(١٠) .

وكان أبرز هؤلاء التجار « وليم بركنز – William Lee Perkins » وهـو من تجار الأقمشة والمواد الغذائية بمدينة بوسطن Boston الذين أصيبـوا بخسـائر متتالية خلال السبعينات من القرن ١٨ فى الفترة من عام ١٧٧٢ حتى ١٧٨٠م على النحو التالى :

العـــــام	الدخل التقــريبى بالدولار
١٧٧٢م	١٨٠٠٠ دولار
١٧٧٤م	١٣٢٥٠ دولار
١٧٧٦م	٩٧٤٠ دولار
١٧٧٨م	٨٣٢٠ دولار
١٧٨٠م	٨١٥٠ دولار[١١]

كذلك قدرت خسائر سبعة عشر تاجرًا بمدينة يوركتون York Town الواقعة عند مصب نهر يوركYork عام ١٧٨١م بما يقرب من مليونين من الدولارات[١٢].

وفى أواخر عام ١٧٨٣م قام « بركنز » بمحاولة شـخصية فحصـل علـى موافقة للمسئولين الأتراك على تأسيس وكالة تجارية له بمدينـة أزمـير لاسـتيراد الملابس التركية المعروفة باسم « سمرنا – Smyrna » (أى أزمير) وعرضـها فى الأسواق الأمريكية فى ذات الوقت الذى كان الأفيـون يسـتورد مـن كـانتون Canton يباع فى الأناضول والروميللى دون عقبات من قبل المسئولين الأتراك[١٣]. وعلى الجانب الآخر فضلت جماعة من المغامرين التأنى فى الوصول إلى عقـر دار الدولة العثمانية بهدف اختبار الأوضاع على طرق التجارة عبر الهند وموقف القـوى المتنافسة من حوله .

وفى منتصف عام ١٧٩٢م عبرت السفينة التجارية « بوسطن » المسافة بيـن مدراس Madras وبومباى Bombay وعلى متنها عدد من جنود البحرية Mariner وبعض من أبناء الشمال الأمريكى Yankee ، واعتقد قائدها أنه قـد وصـل إلـى ساحل الملبار Malabar Coast عندما استقرت سفينتهم عند ميناء «ظفـار » فـى العاشر من يوليو . وبإرشاد من عرب المنطقة تمكن الأمريكيون من الوصول إلـى

مطرح بالقرب من مسقط فى عشر من أغسطس ، وبعدها قفلت السفينة عائدة مرة أخرى إلى الهند[١٤] .

وكان أن سرى نوع من الطمأنينة عند المغامرين فأتبعوا خطواتهم الاستكشافية المذكورة بأخرى أكثر جرأة كما مارسوا بعض النشاط التجارى لجس نبض القوى المعنية محليا ودوليا بالقرب من مناطق السيادة العثمانية ، فأبحرت السفينة (ساليم – Salem) وهى فارغة إلى مسقط فى صيف ١٧٩٥م ، وحين عودتها كان على متنها عدة أطنان من البن واللبان العمانى والسجاد الفارسى والتمور المجففة المحببة لدى الأمريكيين[١٥] .

وبعد عامين فقط – أى فى ١٧٩٧م – بدأ النشاط التجارى للمغامرين فى الاتساع ، فأضحت القافلة البحرية الأمريكية مكونة من ثلاث سفن بانضمام « ستارز Stars » و « سترايبس Stripes » إلى « ساليم » وعلى متنهن كميات كبيرة لم تحدد من الفراء والموز . وعندما وصلت إلى مسقط فى أواخر ذلك العام كانت قد أضيفت إلى الحمولة أطنان من الأقمشة والمنتجات الهندية التى حملتها من كلكتا Calcutta[١٦] .

على أن نشاط المغامرين الأمريكيين أثار بعض التوجس والمخاوف لدى شركة الهند الشرقية بما قدرته من مخاطر يمكن أن تكون مقدمة لنشاط تجارى أوسع ومزاحمة أمريكية يمكن أن يتمخض عنها ضرر بالغ على مصالح الشركة[١٧]، فى الوقت الذى أضحت فيه فرنسا بحملتها على مصر والشام فى أواخر التسعينات فى أواخر القرن الثامن عشر هى العدو المشترك لكل من إنجلترا والأتراك . وإذا كانت الأولى لم تشأ فتح جبهة جديدة لصدام مع الولايات الأمريكية، خاصة وأنها ما زالت قريبة العهد من الصلح الموقع بينهما فى باريس عام ١٧٨٣م ، وتصدت للحملة الفرنسية كحلقة من حلقات الصراع بين الطرفين ، فإن الدولة العثمانية تطلعت من جانبها للحصول على المزيد من المؤيدين لها لمواجهة الضغوط المتتالية عليها من معظم الدول الأوربية[١٨] .

لهذه الأسباب بادر الباب العالى إلى إحياء الاتصالات الدبلوماسية بينه وبين اللجنة التى شكلها الكونجرس من قبل ، فبعث برسالة إلى جون آدامز[١٩] ذكره فيها بما اتفق عليه منذ ما يزيد على العشر سنوات، وأشار إلى إمكانية تنشيط العلاقات بين البلدين بشكل فعال ومؤثر ، خاصة وأن الدولة العلية تشهد نشاطًا إصلاحيًا واسع النطاق وعلى كافة الأصعدة العسكرية والاقتصادية والتعليمية[٢٠] .

وكان أن اغتنم آدامز الفرصة وسارع بإصدار قرار فى بداية عام ١٧٩٩م كلف فيه وليم سميث – William Smith الوزير المفوض فى لشبونة ، وهو من كارولينا الجنوبية – South Carolina القيام بمسئولية التعامل مع الصدر الأعظم محملاً بكل الصلاحيات فى إجراء المفاوضات ، وعرض وجهة النظر الأمريكية من أجل توقيع معاهدة صداقة وتجارة بين البلدين[٢١] .

وقد بلغ عدد الرسائل المتبادلة بين الطرفين خلال الفترة من عام ١٧٩٩ حتى عام ١٨٠٤م ما يزيد على الأربع عشرة رسالة دار محور المناقشات خلالها حول ما يمكن الحصول عليه من امتيازات متبادلة مثل الإعفاءات الجمركية والضرائب والرسوم التجارية وحجم السلع المتبادلة[٢٢] . أما موضوع الصداقة فقد أضحى مفهومًا غير محدد المعالم فى طبيعته وحدوده وكيفية تطبيقه ، فعلى حين كان الطموح التركى منصبًا على حتمية شمولية العلاقات ، بدءًا من التحالف العسكرى بكل صوره فى التصنيع والإمداد والدفاع إذا استدعى الأمر[٢٣] ، كان الجانب الأمريكى – نظرًا لتشابك علاقاته الخارجية وعدم استقرار أوضاعه الإقليمية – يرى حسر نوعية الصداقة عند « المفهوم السياسى والتأييد المناسب » بما لايتعارض أو يتصادم مع طبيعة تطور وتبدل الأحداث والعلاقات الدولية[٢٤] .

وهكذا لم تسفر هذه الاتصالات عن نتيجة حاسمة ، وتوقفت موضوعات المناقشة عند عرض وجهات النظر السابقة . وبالرغم من ذلك ، بدأ النشاط التجارى الأمريكى الرسمى يطرق أبواب الولايات العثمانية على سبيل الاختبار – كما يعتقد – عندما دفعت السفينة الحربية جورج واشنطن George Washington

إلى العمل بالبحر المتوسط رافعة العلم الأمريكى ، وتحـت قيـادة القبطـان وليـم بونبريدج William Boinbridge بعد مغادرتها ميناء بوسطن فـى التاسـع مـن نوفمبر عام ١٨٠٠م متوجهة صوب ميناء الجزائر ، وهناك سلم (الباى) الجزيـة السنوية المقررة على ولايته إلى القبطان كى يسلمها إلى البـاب العـالى ، وصعـد برفقته عدد من المسافرين العرب اقترب عددهم من الثلاثين فـردا وسـبعة عشـر وطنا من الأسلحة الصغيرة والذخيرة[٢٥] .

وقد اعتبرت هذه الرحلة (الحربية التجارية) بمثابة مغـامرة لجـس نبـض الموقف بالبحر المتوسط المضطرب بـالأحداث ، لانتشـار القرصنـة والمعـارك البحرية بين إنجلترا وفرنسا ، إلا أن النجاح الذى أصابته (واشنطن) بوصولها دون متاعب إلى استانبول شجع السلطات الأمريكية على اتخاذ خطـوة أخـرى باتجـاه تنشيط الاتصالات مع الدولة العثمانية ، فقررت فى منتصف عـام ١٨٠٢م تعيـين أول قنصل مقيم لها فى استانبول هو وليم ستيوارت – William Stewart[٢٦] ومعه بدأت حركة نشطة للسفن التجارية بين البلدين على حد سواء ، فى الفترة مـا بيـن أعوام ١٨٠٢ و١٨٠٨م ، تبعا للبيان التالى بالنسبة للسفن التركية المتوجهـة إلـى ميناء بوسطن[٢٧] :

العـام	العـدد	الحمولة بالطـن	السلع الأساسية المصدرة
١٨٠٢م	٣	٢١٠	زيت الزيتـون ، الفسـتق ، السجائر التركية ، السجاجيد
١٨٠٣م	٤	٢٦٥	
١٨٠٤م	٣	٢٣٧	
١٨٠٥م	٦	٣٨٥	
١٨٠٦م	٧	٣٩٤	
١٨٠٧م	٦	٣٦٠	
١٨٠٨م	٤	٢٧٠	

وفى المقابل كانت هناك عام ١٨٠٨م ما لا يقل عن الأربع والعشرين سفينة تجارية أمريكية تجوب الطريق التجارى البحرى بين أزمير وبوسطن عبر البحر المتوسط ، بعد أن كان العدد فى بداية عام ١٨٠٢م لا يزيد على أربع سفن فقط ، مما جعل الأناضول والروميللى سوقًا جيدًا للسلع الأمريكية كالكيروسين ، والقطن ، والأسلحة الصغيرة والذخيرة(٢٨) ، وأضحت أزمير بوجه خاص مركزًا لعديد من التجار الأمريكيين الذين زاد عدد مؤسساتهم على سبعة عشر ، تتجر بذات السلع المذكورة ، وكانت مؤسسة « ودماس – أوفلى Woodmas-Offely » هى الأولى فى هذا النشاط ، إذ بلغ رأسمالها عام ١٨٠٨م ما يزيد على ٢٧٠٠٠ قرش ، بل أضحى ديفيد أوفلى ممثلاً للقنصل الأمريكى لدى السلطان التركى فى حال غيابه(٢٩)، وساعده فى هذه المهمة وليم بركتز الذى امتلك مؤسسة لتجارة الملابس الجاهزة والأقطان بذات المدينة(٣٠) .

وبالرغم من استمرار النشاط التجارى الأمريكى داخل معظم المدن التركية ، إلا أن التجارة الخارجية بين البلدين إضافة إلى الاتصالات الدبلوماسية توقفت تمامًا نتيجة للحرب التجارية التى نشبت بين بريطانيا وفرنسا حول السواحل الأوربية ومستعمراتها أيضًا . ولم تعد هناك فرصة للسفن الأمريكية كى تمارس نشاطها بأمان مع الدولة العثمانية ، مما جعل الموقف بالبحر المتوسط سببًا رئيسيًا دفع الرئيس « جيفرسون » إلى استصدار قانون يحظر التجارة الخارجية بأكملها(٣١) ، وكان ذلك فى الوقت الذى رأى الأمريكيون أن الدفاع عن البحرية وحماية الأسطول أضحت قضية جوهرية تجب ما عداها ، وبالتالى كان سماح الكونجرس بدعم السفن الحربية السريعة بالبحر المتوسط بما يزيد على الست عشرة سفينة خلال فترة الحظر التى امتدت من عام ١٨٠٩ حتى ١٨١٥م(٣٢) .

ومع انتهاء فترة الحظر ثم بداية رئاسة جيمس مونرو عام ١٨١٧م الذى أدار فى الوقت نفسه علاقة بلاده الخارجية ، عاودت الولايات المتحدة الاتصال مرة أخرى بالدولة العثمانية برسالة إلى الباب العالى فى شهر مارس ١٨١٨م ، حثه فيها

على المضى قدما فى إجراءات توقيع معاهدة صداقة وتجارة بين البلدين ، لمواكبة التطورات الجديدة عالميا بالاستقرار النسبى أوربيا عقب انتهاء الحرب النابليونية ، وداخل الولايات الأمريكية ذاتها بما يمكن أن يعود على الدولتين بمنافع جمة ، ولمواجهة ضغوط بعض القوى العظمى عليهما[٣٣] .

على أن الرد التركى جاء مخيبا للآمال إذ أوضح حاجة الدولة الماسة فى ذلك الوقت (عام ١٨١٨م) إلى المساعدات العاجلة ماليا وعسكريا وفنيا وبشكل مباشر أكثر من حاجتها إلى توقيع معاهدة يتطلب تنفيذها زمنا طويلا . وإذا كانت هناك ضرورة ملحة لبحث بنود المعاهدة ، فإن الأستانة بحاجة أيضا إلى ما لا يقل عن مليون قرش تستطيع به مع موارد أخرى تلبية مطالبها الإصلاحية ، وبالتالى توقيع معاهدة على أسس متينة وقوية[٣٤] .

ويبدو أن الخارجية الأمريكية – على ما يبدو – استشعرت نوعا من الاستغلال فى الرد التركى ، مما يفسر معه السبب الرئيسى لتوقف الاتصالات بينهما مرة أخرى الذى دعمته سياسة العزلة التى أعلن مبادئها الرئيس مونرو عام ١٨٢٣م . وجاء ذلك من منطلق فكرتين إحداهما (الاستعمار) بمعنى التأكيد بوجوب توقف أوربا عمن إقامة مستعمرات جديدة ، والأخرى (اللاتدخل) للعمل على الحد من التدخل الأوربى فى شؤون العالم الجديد[٣٥] . وهذا التوقف بأسبابه المالية والسياسية أصاب التجار بضرر بالغ ، الأمر الذى دفعهم لأخذ زمام المبادرة هذه المرة فى إعادة إحياء الاتصالات لتنشيط التجارة ووضع أسس متينة لها من خلال معاهدة ملزمة للطرفين .

وقبل عشر سنوات تقريبا من هذا الإعلان وفى عام ١٨١٤م وقعت اتفاقية غنت Treaty of Ghent التى أنهت القتال مع الانجليز . وعقبها شهدت الولايات المتحدة نشاطا اقتصاديا ملموسا رأسيا وأفقيا فى العديد من المحصولات النقدية كالفراء وقصب السكر والتبغ والقطن الذى أدخلت عليه أنواع محسنة ذات التيلة الطويلة ، إضافة إلى اختراع الحلج فضلا عن امتداد زراعته باتجاه الغرب إلى نهر

المسيسبى والأباما ، مما أدى إلى وفرة إنتاجه وتصنيعه[٣٦] . وعلى شاكلته انتشوت زراعة التبغ وعملت ولايات كنتاكى وتيس على تحسين ووفرة فى إنتاج أصنافه مما أعجز قدرات الأفراد الذاتية على التعامل الاقتصادى معه أو مع مثيله من المحصولات النقدية ، وهذا فسح الطريق لقيام الشركات الاحتكارية « كشركة التبغ الأمريكية » بواشنطن عام ١٨١٧م وشركة غرب المسيسبى لغزل القطن عام ١٨١٩م وشركة جبل روكى للفراء عام ١٨٢٢م[٣٧] .

ومع اتساع نطاق أنشطة مثل هذه الشركات الاحتكارية اختل ميزان التنافس التجارىّ لصالحها على حساب صغار التجار فى ميدان أضحى المكان فيه للأقوى اقتصاديا ، مع عدم توافر الأمن فى معظم ربوع الولايات الأمريكية نتيجة لاستمرارية العداء والتنافس بين الشمال والجنوب ، والتصارع فى السباق والملكية باتجاه الغرب ، فضلا عن استمرار مقاومة السكان الأصليين[٣٨] .

وقد عبر الكثير من التجار عن تردى أوضاعهم من خلال عشرات الرسائل التى بعثوا بها إلى مجلس الولايات الأمريكية . وكان منهم على سبيل المثال ريتشارد هاريسون Richard Harison أحد تجار القطن بفيلادلفيا Philadelphia وقد تراوحت خسائره السنوية ما بين ٣٠ إلى ٤٥% سنويا ، من جراء سياسة العزلة التى تتبعها الإدارة فى جانب، واحتكار النشاط الاقتصادى من قبل الشركات الكبرى التى استأثرت بمعظم ثمار حركة التوسع نحو الغرب فى كافة المجالات ، مما أحكم من حوله وأمثاله حلقة الحصار فى كافة الاتجاهات[٣٩] .

كذلك طالبت الرسائل بفتح بعض النوافذ أمام هؤلاء التجار المتضررين مما يدفعهم إلى التوجه نحو ميادين رحبة بعيدة عن القارة الأوربية أو مناطق تغلغل قواها الكبرى فى أفريقية وآسيا ومناطق الساحل الشرقى لأفريقية وساحل عمان والدولة العثمانية (تبعا لما تأتى به الأخبار المتواترة من هذه الجهات)[٤٠] .

وبالإضافة إلى مثل هذه الرسالة بعث « أوفلى » إلى الخارجية الأمريكية يقترح عليها إمكانية تحمل التجار تبعات كسر طوق العزلة مهما كانت التحديات –

على حد تعبير ما جاء فى رسالته – مع تحمل التجار مسئولية تنشيط الاتصالات ومتطلباته المالية إذا كانت هذه الأخيرة هى العقبة التى تحول دون توقيع المعاهدة المنشودة ، وبادر بإعلان تشكيل لجنة برئاسته ضمت « لوثر برادش Luther Bradish » و « وليم كرين William Crane » وأبدت الاستعداد لتقديم مبلغ قدره ٢٠,٠٠٠ دولار إلى الحكومة العثمانية فى عام ١٨٢٨م[٤١] .

وفى الوقت الذى كانت الإدارة الأمريكية تطبق (عزلتها) بشكل كامل فى الميدان السياسى ، إلا أنها من ناحية أخرى تجاهلت ما يجرى من أنشطة تجارية خارجية يمارسها بعض الأفراد من التجار و (اليانكى) فضلا عن النشاط التبشيرى ، خاصة مع تولى الرئيس « جاكسون » زمام السلطة عام ١٨٢٨م والذى كان يغض الطرف عن مثل هذه الخطوات لتخطى حاجز العزلة التجارية والفكرية بفعل توجهاته العامة وكونه مزارعا وتاجرا فى المقام الأول[٤٢] .

كانت الإدارة الأمريكية قد مهدت الطريق لمثل هذه الأنشطة (غير الرسمية) عندما أصدر وزير الدولة بالخارجية (هنرى كلاى – Henry Clay) قرارا فى منتصف عام ١٨٢٦م باعتماد مجموعة من الشباب كانت تعمل كضباط صف بالبحرية الأمريكية ويتحدثون اللغات الشرقية بطلاقة ، لتعيينهم بأربع قنصليات جديدة تقرر افتتاحها فى بداية عام ١٨٢٧م بالشمال الأفريقى فى كل من تونس ، طرابلس ، الجزائر ، وطنجة ، وإلحاقهم بدورات تدريبية مكثفة لدراسة كل ما يتعلق بالأوضاع التركية والعربية مع التركيز على إجادة لغتيهما بشكل كامل[٤٣] .

وأمام هذه التفاعلات أصدرت الخارجية الأمريكية قرارا بتعيين ديفيد أوفلى قنصلا لها بأزمير على أن تكون مهمته الأساسية العمل بجدية ونشاط لتوقيع معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية[٤٤] وأمام النكسات التى أخذت تحل بالدولة العثمانية فإنها بادرت بالاتصال بالولايات المتحدة الأمريكية للبدء فى إجراءات توقيع المعاهدة المنشودة بينهما . ولكن حاقت الهزيمة بالبحرية العثمانية والأسطول المصرى أمام القوات المتحالفة الإنجليزية والفرنسية والروسية فى معركة نوارين – Navarino

على الساحل اليونانى فى العشرين من أكتوبر ١٨٢٧م . وقالت المصادر التركية عن هذه الهزيمة أنها كانت نذير سيئ للدولة العلية على كافة المستويات[٤٥] وعليها اتخاذ خطوات جدية من أجل خلق نوع من التوازن فى علاقات الدولة الخارجية أمام هذه الضغوط ، خاصة من قبل إنجلترا وفرنسا وروسيا على وجه الخصوص[٤٦] .

وكان أن بعث الصدر الأعظم برسالة إلى الخارجية الأمريكية شرح فيها ما تعرضت له قوات الدولة والبحرية المصرية من خسائر فى نوارين ، مؤكدا أن هذا التحالف الغربى الجديد خاصة بين إنجلترا وفرنسا (أعداء الأمس) والغد والذى ليس له مثيل على حد قول الرسالة ، سوف يكون وبالا على النشاط البحرى بكل صوره التجارية والحربية إذا ظل محتفظا بكيانه ، وستكون الخسارة من نصيب الجميع ومنهم الدولة العلية ، وسدا منيعا أمام رغبات الإصلاح والتقدم[٤٧] .

وفى بداية عام ١٨٢٨م عقد اجتماع ضم رجالات الدولة الكبار استعرض فيه المستشارون بالحربية والداخلية خطورة ما تمر به الدولة وما تتعرض له من نكسات خلال مسيرتها الإصلاحية التجديدية العسكرية ، بعد القضاء على مراكز القوة القديمة (الانكشارية)[٤٨] ، والحاجة الملحة وبشكل سريع عاجل إلى قوة أكبر كبديل حديث ، لمواجهة التحالفات الجديدة ، مما يتطلب حتمية إقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، باعتبارها قوة ناشئة استطاعت إلحاق الهزيمة بالإنجليز منذ فترة ليست بالبعيدة ، وبما يخلق « التحالف » معها من توازن وقدرة على المجابهة والاستفادة من خبرات أبنائها فى العمل بالسفن تجارة وقتالا[٤٩] .

وفى ضوء هذه التطوارت نستطيع تفسير تلاقى المطالب التركية والأمريكية عندما قررت الأخيرة تعيين « شارلز راين – Charles Rhin » مندوبا عنها لمناقشة بنود المعاهدة المقترحة ، فاستمرت المراسلات مع مستشارى الصدر الأعظم لمدة تجاوزت العام ، وبلغ عدد الرسائل المتبادلة إثنتا عشرة رسالة ، ضمت مناقشة القضايا العسكرية والتجارية المطروحة والتفسيرات المتعلقة بها[٥٠]

حتى تم التوقيع على المعاهدة فى السابع من مايو عام ١٨٣٠م . وكانت فى مجمل بنودها وملحقاتها تصب باتجاه منح الولايات المتحدة العديد من الامتيازات التى حصلت عليها من قبل بعض الدول الأوربية داخل الأناضول والروميللى والولايات التابعة للدولة ، مثل حرية المرور التجارى عبر المضايق التركية ، حيث جاء فى مادتها السادسة طبقا لتقرير راين أن للسفن التجارية وما شابهها والتى تحمل العلم الأمريكي مطلق الحرية فى المرور جيئة وذهابا عبر المضايق ، ومن البحر الأسود وإليه ، سواء أكانت محملة بالبضائع أو بالأفراد ، وفارغة على حد سواء(٥١) كذلك منحت المعاهدة حق القنصليات الأمريكية فى حماية رعاياها بفضل ما سوف يوفره لها السلطان من مساعدات وتسهيلات ، وما تعهدت به الدولة من إعطاء الأمريكيين جميع الحقوق المتعلقة بالحج والبعثات المماثلة لرعايا الدول الأجنبية الأخرى ، سواء القائم منها حينئذ أو التى ستمنح فى المستقبل ، بما يترتب عليها من حقوق وما ينشأ عنها من واجبات كامتلاك السفن وحرية التجارة والعلاقات بين الأفراد ودية او غير ودية ، وبما لا يتعارض مع القوانين الأمريكية(٥٢) .

ومن ناحية أخرى تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية : تقديم مساعدة مالية عاجلة فور التصديق على المعاهدة قيمتها ١٥٠,٠٠٠ دولار ، مع اتخاذ الخطوات التنفيذية لبدء بناء البوارج والسفن الحربية والطرادات التى تتطلبها البحرية العثمانية، بعد الموافقة على هذه الطلبات من قبل مجلس الشيوخ الأمريكى ، بحيث يبدأ البناء فى أحواض السفن الأمريكية ثم ترسل مع قطع الغيار والمعدات إلى الموانئ التركية كى يكتمل البناء فى أحواض السفن بها ، حتى يكون هذا الإجراء الأخير بمثابة فرصة متاحة للتدريب واكتساب الخبرة للأتراك(٥٣) .

وقبيل التصديق على المعاهدة فى أكتوبر ١٨٣١م شهدت العلاقات التركية الأمريكية انطلاقة بشتى المجالات السياسية والتجارية والعسكرية والثقافية . ففى المجال السياسى أسرعت الولايات المتحدة بافتتاح قنصلية لها باستانبول فى مارس ١٨٣١م ، وعينت فى الخامس عشر من إبريل ١٨٣١م قائما بالأعمال « ديفيد

بورتر David Porter » وبالرغم من أفكاره التحررية – كما وصفه المسئولون – وإيمانه بضرورة فتح آفاق النشاط التجارى دون قيود(٥٤) ، إلا أن مسئولياته وتوجيهاته لم تكن تتم إلا بمشاركة وموافقة وزير الدولة دانيال وبستر Daniel Webster نظرًا لحساسية الموقف الأمريكى المتعاطف وقتئذ مع التطلعات القومية والحركات الثورية لولايات البلقان والأرمن ، وبقية العرقيات الأخرى ، سواء فى آسيا وأفريقية كالعرب مثلاً ، مما يعنى انسجامًا إلى حد كبير مع ذات الموقف الروسى وهو العدو التقليدى للدولة والذى جعل طبيعة النشاط بمضيقى البسفور والدردنيل على قمة اهتماماته الخارجية(٥٥) .

وكانت التجارة هدفًا جوهريًا من أهداف عقد المعاهدة بين الطرفين مما شجع على المبادرة بدفع إحدى السفن لعبور مضيق البسفور والدردنيل ليكون ذلك بمثابة للنوايا الروسية وتقدير مدى حساسية الأوضاع المتشابكة بين القوى المعنوة .

وفى أواخر يناير من عام ١٨٣٠م أقلعت من ميناء بوسطن سفينة الشحن « كاليوميت – Calumet وعلى متنها ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جالون من شراب الرم – وهو شراب مسكر من إنتاج نيوانجلند – بهدف الوصول إلى روسيا وفارس عبر المضايق التركية ، إلا أن السلطات الأخيرة لم تتعرض لها وكان السبب فى الموافقة على العبور هو « الرغبة فى إظهار حسن النوايا ومدى ما يقدمه الباب العالى من منافع للأصدقاء من الأمريكيين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر »(٥٦) .

وعقب المعاهدة أضحت الولايات العثمانية سوقًا جيدًا للمنتجات الأمريكية خاصة القطن ، والأسلحة الصغيرة والمنتجات البترولية والملابس بكل أنواعها . أما السلع التركية التى أخذت فى الظهور فى الأسواق الأمريكية فأتت على رأسها السجائر. والمنسوجات الحريرية والسجاجيد والفستق ، كما شهدت حركة التجارة بين البلدين نموًا مطردًا منذ بداية الثلاثينات حتى عام ١٨٤٥م على النحو التالى(٥٧):

العــــام	قيمة السلع المتبادلة بالدولار الأمريكى
١٨٣٢م	٧٠٠,٠٠٠
١٨٣٤م	٩٦٠,٢٠٠
١٨٣٦م	١,٠٥٠,٠٠٠
١٨٣٨م	١,٠٣٠,٦٠٠
١٨٤٠م	١,٠٨٠,٥٥٠
١٨٤٢م	١,٢٧٠,٦٠٠
١٨٤٤م	١,١٢٠,١٠٠

أما آثار المعاهدة عسكريا فقد أوصى سكرتير الخارجية الأمريكية « مـــارتن فان بيتر Martin Van Buter » تعيين أحد الخبراء ليكون مشرفا ومســئولا عـن إعادة تنظيم البحرية العثمانيةعلى أسس حديثة تستطيع بموجبها الدفاع عـن نفسـها وتتلاءم مع طبيعة النشاط المماثل والمكثف بالبحر المتوسط والمضـــايق والبحـار الأخرى المطلة عليها ، وبالفعل أصدر الرئيس جاكسون – Jackson قرارا يقضـى بتعيين المهندس البحرى « هنرى إكفورد Henry Eckford » فى هــذا المنصـب بمســاعدة خبير آخر هو وليم براون هدسون William Brawn Hadgson وقــد بادر الخبيران قبيل تسلمهما العمل باستانبول بالتخطيط وبناء طـراد حربى أطلـق عليه اسم (الولايات المتحدة) تبلغ حمولته ١,٠٠٠ طن ومزود بســت وعشـرين مدفعا ليكون بمثابة رسم للصداقة وتعميق للعلاقات العسكرية بين البلدين(٥٨) .

وكان أن أعد إكفورد فور وصوله تقريرا شاملا قدمه إلى الباب العالى شـرح فيه بإسهاب ما تتعرض له البحرية العثمانية من مشاكل ومنافسة لقوتـــها البحريـة بالقياس مع ما تمتلكه بقية الدول الأخرى كروسيا وإنجلترا ، بل وحتى مـن بعـض ولاتها كمحمد على باشا نفسه . وأكد أن نقطة الضعف الرئيسية فى هــذا الميـدان

العسكرى ترجع تبعًا لتقديره إلى طبيعة النشأة البرية للدولة بالقياس مع القوى البحرية المنافسة لها خاصة إنجلترا التى تعتبر هى الأقوى على المستوى العالمى . وأضاف التقرير أن الدولة العثمانية تمتلك الكثير من الإمكانيات التى يمكن لو حسن استغلالها أن تتبوأ مكانة متقدمة نظرًا لموقعها الاستراتيجى وإطلالتها على البحر المتوسط وقيمته العالمية والمضايق المتحكمة فى شريان رئيسى من شرايين التجارة، فضلاً عن مناطق سيادتها المطلة على البحر الأحمر والخليج الفارسى(٥٩).

واقترح إكفورد أهمية البرنامج التدريبى طويل الأمد للمهندسين والعمال الأتراك ، سواء بالموانئ الأمريكية أو التركية ، لاكتساب الخبرة والعمل على السفن أو فى العمليات العسكرية التدريبية المرتبطة بالبحر ، إضافة إلى حتمية بناء أحواض وترسانات حديثة للسفن تجاريًا وحربيًا فى آن واحد(٦٠) .

وعند وفاة إكفورد فى منتصف نوفمبر ١٨٣٢م وبناء على ترشيح من بورتر، عين المهندس فوستر رودس – Foster Rhodas على رأس خمسة عشر مهندسًا وعشرات من العمال الأمريكيين إضافة إلى ما يزيد على (٦٠٠) ستمائة عامل من الأتراك والإيطاليين والألمان ، لبناء حوض للسفن على النظام الحديث (إينالى كافاك) – Aynali Kavak الواقعة على ضفاف القرن الذهبى(٦١) ، وقد تم بناء أول فرقاطة لحساب البحرية العثمانية فى ١٨ مايو ١٨٣٥م . وفى ٢١ أغسطس ١٨٣٧م أحدث قاذفة للهب مزودة بعشرين مدفعًا ، أسهمت فى سد نقص واضح فى هذا الجانب القتالى(٦٢) .

أما على الجانب التبشيرى ، فإضافة إلى مقر البعثة التبشيرية السابقة فى أزمير ، افتتحت الولايات المتحدة قنصلية أخرى لها فى استانبول عام ١٨٣١م تحت رئاسة وليم جوديل William Goodell الذى ترجم الكتاب المقدس إلى الأرمينية والتركية ، واستطاع إقامة فروع لبعثته فى بعض المدن التركية والعربية الأخرى مثل طرابيزون ، أرضروم والبصرة حتى بلغت أعداد أمثالها فى نهاية السبعينات من ق ١٩ ما يزيد على الثلاثين فى مختلف أنحاء ولايات الدولة

العثمانية ، كذلك أسست كلية روبرت – Ropert College[٦٣] التى أطلق عليها بعد ذلك مسمى « جامعة البسفور » ثم تلتها كلية استانبول للبنات عام ١٨٧١م[٦٤] ومعها أيضًا أسست الكلية الوطنية[٦٥] .

بهذه الخطوات المتوازية التى أخذت فى التبلور والنمو على كافة الأصعدة استطاعت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والدولة العثمانية تحقيق هدفيهما بإقامة علاقات شاملة بينهما .

* * *

وبعد ، فقد جاءت هذه التطوارت التى أدت إلى توقيع معاهدة التجارة والصداقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والدولة العثمانية كإفراز طبيعى للتطورات التى أعقبت حرب الاستقلال التى كان أبرزها النشاط الاقتصادى المحموم الذى شهدته داخلية العالم الجديد والتسابق بين الأفراد المغامرين والتجار بعضهم البعض ، وبينهم وبين الشركات الاحتكارية حديثة النشأة فى جانب ، وعلى الجانب الأخر لقطف بعض ثمار التجارة العالمية النشطة وما صحبها من تنافس بين القوى الكبرى فى ذلك الوقت فى أواخر ق١٨ وبداية ق ١٩ .

وبالرغم من سياسة العزلة المعلنة رسميًا ، إلا أن الواقع العملى كان غير ذلك ، خاصة من قبل ممارسات الكثير من التجار والمغامرين، وتحت ستار مسميات أنشطة أخرى أتى التبشير منها فى المقدمة ، الأمر الذى استثمرته الإدارة الأمريكية أيضًا من وراء حجاب لتحقيق بعض تطلعاتها الخارجية لإقامة مراكز اتصال لها فى آسيا وأفريقية بعد ذلك (سلطنة عمان ، شرق أفريقية) .

أما الدولة العثمانية فكانت من جانبها تجد فى البحث للعثور على ظهير لها يمكنها من إقالتها من عثراتها ودعم تطلعاتها الإصلاحية فى كافة المجالات أولاً ، ثم خلق نوع من التوازن بين عناصر التنافس الدولى المستعر حولها والحصول على مؤازرة مثل هذه القوة الناشئة الجديدة « الولايات المتحدة الأمريكية » ثانيًا .

ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ غارقة في متاعبها المتشابكة داخليًا وخارجيًا، مما أعاق تطلعاتها لتنشيط أوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية ، فقد أخذت الولايات المتحدة زمام المبادرة في الاتصال بعد تخلصها من مشكلاتها الجوهرية ، وانطلق التوجه الخارجي منها حول محورين أحدهما عشوائي من قبل المغامرين التجار ورجال البحر ، والثاني سار ذو صبغة حكومية رسمية . واعتمد التوجهان على الزحف التدريجي نحو مبتغاهم لجس النبض والحذر من رد الفعل البريطاني والفرنسي المعادي .

وبالقدر الذي كانت العثرات الداخلية والخارجية التي اعترضت سبيل الطرفين التركي والأمريكي على حد سواء تمثل به عائقا أمام تحقيق الغاية المنشودة لأكثر من ثلاثين عاما كانت هذه الصعوبات ذاتها عاملا رئيسا من عوامل الدفع والتشجيع للمضي قدما نحو الاقتراب بينهما للوصول إلى ما يأملان فيه ، حتى تمكنا سويا من توقيع المعاهدة عام ١٨٣٠م ، واستطاعت الولايات المتحدة بها العثور على موطئ قدم لها على طرق التجارة بالبحار الشرقية ، سرعان ما ثبتته بشكل راسخ بتوقيع معاهدة للصداقة والتجارة مع سلطنة عمان عام ١٨٣٣م .

أما الدولة العثمانية فقد أسهمت هذه المعاهدة إلى حد ما في تشجيع سلاطينها على مواصلة خطواتهم الإصلاحية باتجاهات شتى ، بالرغم مما شاب هذه التوجيهات من ثغرات عدة كان أبرزها عدم وجود آلية واضحة ومحددة للإصلاح ، فضلا عن أن هذه الرغبة لم تكن تعبر إلا عن طموح شريحة بعينها (الفئات العليا) دون بقية عناصر الدولة المتعددة الفئات والعرقيات ، إضافة إلى التشابك والتداخل بين الغايات والتطلعات الإصلاحية ذاتها .

الهوامش

(١) A. B. C. F. M. (American Board of Commissioners for Foreign Missions), 16. 9. 3/23. Report from Admiral C. M. Chester 'American Commercial Opportunities in Turkey, To Department of State, 2/4/1907.

(٢) Ibid.

(٣) A. M. C. F. M. 16. 9. 3/3709, Report from Smith (W.), To Department of State, 3/5/1786.

(٤) بانيكار (ك. م.) : أسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مراجعة أحمد خاكى ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ص٩٥/١٤٣ .

(٥) أحمد توفيق مدنى : الثلاثمائة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢/١٧٩٢م ، الجزائر، بدون تاريخ ، ص ص٥٠٩/٥٢٧ .

(٦) A. B. C. F. M. 16. 9. 3, 908, Despatch from Continental Congress to Jefferson (T.) 19/10/1986.

(٧) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/24, Despatch from Adams (J.) to Sublime Porte, 19/2/1782.

(٨) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/7302, Despatch from Adams (J.) to the Continental Congress 17/11/1786.

(٩) نيفنز (ألان) وكوماجر (هنرى سنيل) : موجز تاريخ الولايات المتحدة ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ص ٦٢/٦٥ .

انظر كذلك ، شينى (ل. ج.) تاريخ العالم الغربى ، ترجمة محى الدين حفنى ناصف ، مراجعة على أدهم ، سلسلة الألف كتاب (٥٤٦) ، القاهرة ، ص ص٢٧٦/٢٨٠ .

(١٠) نيفنز (ألان) وآخر : المرجع نفسه .

(١١) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/2601, Report from Graves (J.), American Interests in Turkey, 25/3/1789.

(١٢) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/260, OP. Cit.

(١٣) Ibid.

(١٤) Phillips (James D.), Salem and Indies, The Story of the Great Commercial Era of City, Boston, 1949, pp. 139/241.

(١٥) Malone (J.), America and the Arabian Peninsula, The Middle East Journal, Vol. 30, 1976, P. 408.

(١٦) Malone , OP. Cit.

(١٧) I. O. Boards Collection, Vol. 192, Letter from Manesty (S.), Gombron to the Court of Director of the East India Company, 3/12/1797.

(١٨) I. O. Boards Collection, Vol. 192, Letter from Manesty (S.), to the Court of Director of the India Company, 5/7/1798.

(١٩) فى هذه الفترة كان جون آدامز قد أصبح رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية لفترة رئاسية واحدة من عام ١٧٩٧ حتى عام ١٨٠٠م .

(٢٠) بعد وساطة من بروسيا وإنجلترا وهولنده وقعت الدولة العثمانية مع روسيا معاهدة للصلح فى (زشتوى) فى جمادى الأولى ١٢٠٦هـ/ يناير ١٧٩٢م وبعدها ، دخلت الدولة مرحلة من الإصلاح الداخلى قاده « كوجك حسين باشا » ، خاصة فى المجال العسكرى والمالى ، وكان سبيله فى هذا الهدف تحطيم القاعدة العسكرية التقليدية للجيش العثمانى أولاً وهم الانكشارية .

انظر : محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ص٣٧٠/٣٧٢ .

مجموعة مجلس مخصوص : وثيقة رقم ٣٠٦٩٧ رسالة من الباب العالى إلى السيد آدامز بشأن العلاقات بين الدولة العلية والحكومة الأمريكية فى شوال ١٢١٣هـ/٧/١١/١٧٩٨م .

(٢١) A. B. C. F. M. 109/6705, Annual Report from Crooker (S.), 22/2/1800.

(٢٢) مجلس مخصوص : وثيقة ٣٦٨ من الصدر الأعظم للدولة العلية إلى السيد وليم سميث مفوض الدولة الأمريكية فى لشبونة ، بخصوص تعزيز العلاقات بين الدولتين ١٥ رجب ١٢١٩هـ/١٨٠٤م .

(٢٣) نفس المصدر .

(٢٤) A. B. C. F. M. 109/34102, Annual Report from Brewster 18/4/1805.

(٢٥) A. B. C. F. M. 109/10019, Annual Report from Crooker (S.), 19/2/1801.

(٢٦) A. B. C. F. M. 109/1786, Annual Report from Crooker (S.), 30/1/1803.

(٢٧) A. B. C. F. M. 109/538, Annual Report from Brewster (J.), 18/1/1809.

(٢٨) Ibid.

(٢٩) مجموعة خارجية : وثيقة رقم ٨٩٧٣ تقرير من طلعت باشا ، إلـى البـاب العـالى بشأن نشاط بعض التجار الأوربيين والأجـانب بالأناضول والروميللـى صفـر ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م .

(٣٠) المصدر نفسه .

(٣١) بالرغم من إعلان فرنسا التخلى عن موقفـها بالنسـبة للولايـات المتحـدة ، إلا أن إنجلترا استمرت فى تطبيق سياستها المعلنة ، مما أدى إلى استمرار سـوء العلاقـة بين الطرفين وجعله سببًا فى إعلان الحرب بينهما عام ١٨١٢م ، التى انتـهت فـى ٢٤ ديسمبر ١٨١٤ بتوقيع معاهدة جنت Gand بوقف العدوان وجلاء كـل فريـق عن أراضى الفريق الآخر بين كندا والولايات المتحدة : انظر : د. عبـد العزيـز سليمان نوار ، ود. عبد المجيد نعنعى : تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديـث ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ص١٠٤/١٠٧ .

(٣٢) N. A. U. S. A., Department of State, 711/6718, Annual Report (Turkish, Request That United State Sell Them Vessel on 1860-History.) 18/9/1861.

(٣٣) N. A. U. S. A., Department of State, 867/51, Despatch to Sublime Porte, 16/3/1818.

(٣٤) N. A. U. S. A., Department of State, 867/601, Despatch from Sublime Porte, to Dep. Of State, 27/5/1818.

(٣٥) هنرى كوماجر وألن نيفنز : المرجع السابق ، ص ص١٤٩/١٥٠ .

(٣٦) I. O. Boards Collection, Vol. 192, Report on 'A voyage Round the Middle West of America from James Carnac' The Governor of the Board of Control of the East India Company, 7/3/1834.

(٣٧) Ibid.

(٣٨) Olson (Keith W.) American History, Maryland, 1964, pp. 61/64.

(٣٩) N. A. U. S. A., Department of State, 864/034, Despatch from Harison, (Richard), Philadelphia, 13/7/1827.

(٤٠) N. A. U. S. A., Department of State, 864/034, OP. Cit.

(٤١) N. A. U. S. A., Department of State, 864/034, Despatch from David (O.), 7/4/1828.

(٤٢) نيفينز وكوماجر : المرجع السابق ، ص١٥٦ .

(٤٣) N. A. U. S. A., Department of State, 867/9867, Report from Clay (H.), 25/8/1826.

(٤٤) N. A. U. S. A., Department of State, 867/3109, Despatch to David (O.), 14/11/1828.

(٤٥) مجموعة مجلس مخصوص ، وثيقة رقم ٦٠٥١ ، تقرير للصدر الأعظم موقع من كاتب سر (مكتوبجى) عن الحادثة المشئومة (ناورين) فى ١٥ ربيع ثانى ١٢٤٣هـ/نوفمبر ١٨٢٧م .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) مجموعة مجلس مخصوص ، رقم ١٣٠٧٩ ، رسالة من مكتوبجى الصدر الأعظم إلى الخارجية الأمريكية فى ٧ شوال ١٣٤٣هـ/ مايو ١٨٢٨م .

(٤٨) كان ذلك فى شهر ذى القعدة ١٢٤٠هـ/آخر يونية ١٨٢٦م .

(٤٩) مجلس مخصوص : وثقة رقم ٧٣٤٦ ، عرض اجتماع لمستشارى الصدر الأعظم بخصوص العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وإمكانية شراء سفن حربية منها، جمادى الأولى ١٢٤٣هـ/فبراير ١٨٢٨م .

(٥٠) N. A. U. S. A., Department of State, 867/0023, Report from Charles (R.), 17/6/1830.

(٥١) N. A. U. S. A., 867/0023, OP. Cit.

(٥٢) Ibid.

(٥٣) N. A. U. S. A., 867/0023, OP. Cit.

(٥٤) N. A. U. S. A., Department of State, 667/096, Report on Opportunities for Extension of American Trade in Turkey, 19/9/1832.

(٥٥) N. A. U. S. A., 66/096, OP. Cit.

(٥٦) أوراق يبلديز سراى : وثيقة رقم ٧٣ . تقرير من والى « سينوب » إلـــى الصـــدر الأعظم عند مرور بعض السفن الأجنبية إلى البلاد الروسية ، بشـــكل مؤقـــت فـــى شوال ١٢٤٤هـــ/مايو ١٨٣٠م .

(٥٧) N. A. U. S. A., Department of State, 711/5308, Report from Webster (D.), 3/5/1845.

(٥٨) N. A. U. S. A., Department of State, 711/6016, Report from Martin (V. B.) American Relations with Turkey, 8/4/1832.

(٥٩) N. A. U. S. A., 711/6016, 8/4/1832, OP. Cit.

(٦٠) Ibid.

(٦١) N. A. U. S. A., Department of State, 711/0807, Despatch from Porteér, 15/2/1833.

(٦٢) مجموعة أوراق يبلديز سراى : وثيقة رقم ٧٦٩ ، تقرير من رامز باشا عن النشـــاط البحرى للخبراء الأجانب فى ميناء إينالى كافاك ، ذو الحجة ١٢٥٥هـــ/١٨٣٨م .

(٦٣) كانت هى الكلية الوحيدة الأولى التى أقيمت فى ذلك الوقت عام ١٨٦٣م فى منطقـــة الشرق الأدنى ، وقد أقيمت فى استانبول على ضفاف البسفور ولم تكن هذه الكليـــة خاضعة لإشراف أى من البعثات والمجالس التبشيرية لكنها كانت تحـــت إشـــراف القنصلية ، وقد اندمجت مع كلية القانون فى ولاية نيويـــورك ، وشـــملت قســـميها الدراسيين علوم الهندسة وآخر للزراعة . انظر فى ذلك :
Barton (James L.) American Educational and Philanthropic Interests in the Near East, The Moslem World Journal, Vol. 23, No. 1, January, 1933, P. 130.

(٦٤) أقيمت باستانبول أيضا بالقرب من كلية « روبرت » وانصبت مقرراتها على مناهج التربية التعليمية لتخريج المعلمات أكثر من كونها دراسة أكاديمية ، ثـــم اندمجـــت الكلية بعد ذلك مع كلية القانون فـــى مساشوســـتس – Massachusetts واعتـــبرت كمعهد عال لتعليم البنات .

(٦٥) انصبت الدراسة بها على فنون الزراعة بالإضافة إلى الفنون الحرة إلا أن الدراسة بها كانت للبنين فقط ثم انضمت أيضًا مع كلية القانون سابقة الذكر.

انظر عن هذه الكليات السابقة :

Barton, American Educational, OP. Cit.

المصادر والمراجع

أولاً : وثائق تركية :

وهى صور للوثائق الأصلية ، محفوظة بقسم الوثائق والدوريات بدارة الملك عبد العزيز بالرياض وقام بترجمها إلى اللغة العربية كل من :

١ - الأستاذ صبحى فرزات .

٢ - الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد متولى .

٣ - الأستاذ الدكتور الصفصافى أحمد القطورى .

٤ - الدكتور مجدى بكر .

١ - مجموعة مجلس مخصوص :

وثيقة رقم ٣٦٩٧	شوال ١٢١٣هـ
وثيقة رقم ٣٦٨	رجب ١٢١٩هـ
وثيقة رقم ٦٠٥١	ربيع ثان ١٢٤٣هـ
وثيقة رقم ٧٣٤٦	جمادى الأولى ١٢٤٣هـ
وثيقة رقم ١٣٠٧٩	شوال ١٢٤٣هـ

٢ - مجموعة خارجية :

وثيقة رقم ٨٩٧٣	صفر ١٢٢٤هـ

أوراق ييلديز سراى :

وثيقة رقم ٠٧٣	شوال ١٢٤٤هـ
وثيقة رقم ٧٦٩	ذو الحجة ١٢٥٥هـ

ثانيا : وثائق وزارة الهند I.O. (India Office)

1- Boards Collections, Vol. 192, 7/12/1797.
2- ---------------------, Vol. 192, 5/7/1798.
3- ---------------------, Vol. 192, 7/3/1843.

ثالثًا : وثائق أمريكية :

١ - وثائق مجلس مفوضى البعثات الخارجية :

A. B. C. F. M. (Board of Commissionrs for Foreign Missions.

أولاً : ملف رقم 16. 9. 3

I- 16. 9. 3/24, 9/2/1782.
908, 19/10/1784.
3709, 3/5/1786.
7302, 17/11/1786.
260, 25/3/1789.
23, 2/4/1907.

ثانيًا : ملف رقم 109

ويحتوى على تقارير المجلس السنوية

II- 109/6705, 22/2/1800.
10019, 19/2/1801.
1786, 30/1/1803.
5138, 18/1/1809.

ثالثًا : ملفات الخارجية الأمريكية :

1- 667/096, 19/9/1832.
II- 711 0807, 15/2/1832.
6016, 8/4/1832.
5308, 3/5/1845.
6718, 18/9/1861

III- 867 51, 16/3/1818.
- 601, 27/5/1818.
- 9807, 25/8/1826.
- 034, 2/4/1828.
- 3109, 14/11/1828.
- 0023, 17/6/1830.

رابعًا : مراجع عربية ومعربة :

١ - أحمد توفيق مدنى : حـــرب الثلاثمائـــة ســـنة بيـــن الجزائـــر وأســـبانيا (١٤٩٢م/١٧٩٢م) - الجزائر ، بدون تاريخ .

٢ – بانيكار (ل. م.) : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة توفيق جاويد، مراجعة أحمد خاكى ، القاهرة ١٩٦٢م .

٣ – شينى (ل. ج.) : تاريخ العالم الغربى ، ترجمة محى الدين حفنى ناصف ، مراجعة على أدهم ، سلسلة الألف كتاب (٥٤٦) .

٤ – د. عبد العزيز سليمان نوار ود. عبد الحميد نعنعى : تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث ، بيروت ، ١٩٧٣م .

٥ – محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٦ – هنرى ستايل كوماجر ، وألن نيفنز : موجز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، القاهرة ١٩٨١م .

خامسًا : مراجع بلغة أجنبية :

1- Olson (Keith W.), American History, Maryland, 1964.

2- Phillips (James D.), « Salem and India, » The Story of the Great Commercial Era of City, Boston, 1949.

سادسًا : دوريات أجنبية :

I- Barton (James L.) American Educational and Philanthropic Interests in the Near East, The MOSLEM World Journal, Vol. 23, No. 1, January, 1933.

II- Malone (Joseph J.), America and the Arabian Peninsula, The Middle East Journal, Vol. 30, No. 3, 1976.

على الغاياتى ودوره فى الحركة الوطنية

د. حسن أحمد يوسف نصار (*)

كفاحه فى صفوف الحزب الوطنى :

ولد (على الغاياتى) فى أسرة متوسطة الحال فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٨٥ بمدينة دمياط[١] ، والتحق بكتاب القرية قبل أن يتجاوز السادسة من عمره وما أن بلغ الثامنة حتى كان قد حفظ القرآن الكريم ثم أرسله أبوه إلى المعهد الدينى فى (جامع البحر) ليتلقى علوم الدين وأصول اللغة والبلاغة[٢] ، وتفتحت مدارك على الغاياتى مع بداية القرن العشرين على فظائع البريطانيين مع أن الاحتلال بدأ يؤثر فى الأمة تأثيراً ملؤه اليأس والقنوط ألا أن فترة البعث الوطنى جاءت على يد مصطفى كامل كانت تدعو إلى الحرية والاستقلال ، وبدأت دعوته غريبة على الأذهان ، إذ كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذا. ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، فكانت رسالته جهاد من أجل الحرية والاستقلال بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد[٣] . ومع ذلك فقد كان (على الغاياتى) فى معزل عن هذه الحركة الوطنية إذ (أنه نشأه بين قوم كرام غير أنهم محافظون يعبدون الحكام كأنهم آلهه يحيون ويميتون ثم لا يكادون يذكرون الوطن والوطنية على الإطلاق)[٤] .

بدأت أولى أفكار ومبادئ الشيخ (الغاياتى) تتبلور بطريق غير مباشر لدعوات الإصلاح التى تبناها جمال الدين الأفغانى ثم (محمد عبده) والتى تنحصر فى الدعوة إلى نبذ الخرافات التى لحقت بالدين الإسلامى ، كالتوسل بالأولياء والتواكل والاستسلام ، وعدم الأخذ بأسباب التقدم التى اتبعها الغرب . وكان الغاياتى بعقله المتفتح ونفسه المتوثبه يعكف على دراسة هذه الآراء وينشرها بين الطلاب ، ويدافع عنها بحماسة ، مما آثار خصومات بينه وبين شيخ المعهد الملتحق

(*) مدرس بكلية آداب – قنا – جامعة جنوب الوادى .

به فى دمياط ، انتهى به إلى الطــرد ، فترك المعهد ليعمل مدرساً بإحدى المـدارس الابتدائية الخاصة(٥) حيث بقــى بين أهله حتى ناهز الثانية والعشرين مــن العمـر ثم غادرهم إلى القاهرة .

انتقل الشيخ الغاياتى إلى القاهرة ليعمل محرراً بجريدة الجوانب المصريـــة ، وهى جريدة يومية سياسية أدبية تجارية يرأس تحريرها (خليل مطران) ، فكــان الغاياتى الأزهرى الشاب فى مطلع عمله بالصحافة لا يتردد فى أن يقف إلى جـانب الرأى الحر الذى يراه على صواب دون أن يقيم وزناً لسلطان خصوم هذا الـــرأى(٦) واستمر الغاياتى فى كتاباته الثائرة فى تلك الجريدة إلى أن تركها كما يقول « بسـبب سياستها فى عهد صاحبها الجديد (عطا بك حسنى) والذى كان معروفاً بأنه صـهر العائلة الخديوية(٧) . وقد حدث أن الغاياتى كتب إحدى مقالاته بعنـــوان (الدسـتور أميرنا) فلم تكد تعرف حتى أمر صاحب الجريدة برفعها وإحـلال أخـرى محلـها وإعادة طبع الجريدة . وجمع ما تم توزيعه فى السوق لأن المقال كان يغلب عليـــه الطابع الوطنى إذ كان يطالب الخديوى بالدستور وكــان أن خـرج الغايـاتى مــن (الجوانب) ليكتب فى (اللواء) لسان الحزب الوطنى آنذاك .

وعلى أنه حدث أثناء فترة عمل (الغاياتى) فى جريدة الجوانـــب أن قـامت فتنة دينية فى دمياط بسبب خلاف بين علماء الدين ، اشتعلت نارها بتدخل العــوام ، ورفع أمرها إلى مشيخة الأزهر والخديوى . وكان أحد علماء دمياط (الشيخ حســن على) قد قصد فى ليلة المولد النبوى مسجد النفيس وبعد قراءة قصة المولـــد حــث الحاضرين على الالتزام بما جاء فى كتاب الله وما صح من أحاديث الرســول ﷺ ، وحذرهم من السجود للأولياء والاستنجاد بهم ، وعندما علم شيخ المسجد (الشـــيخ النحاس) بما حدث حرض اثنين من قدامى العلماء على نقل ما جاء علــــى لســان الشيخ (حسن) محرفاً إلى الأهالى عندئذ قام الرعاع برمى منزل الشيخ بالحجـارة، مما أدى به إلى الاستنجاد بالحكومة وصدور حكم المشايخ بمنع هـــذا العــالم مــن

التدريس وقطع راتبه وجرايته سنة كاملة ، ورأى الغاياتى أن هذا الحكم هو (من عمل الشيطان) وعقب عليه قائلاً (فهل بعد هذا نرجو تقدم الأمة بارتقاء العلم والعلماء ؟ هل بعد هذا نعلق آمالنا بالأزهر ورجاله ؟ .

هكذا كانت بداية (الشيخ الغاياتى) تنبئ عن دور ملموس فى ميدان الجهاد الوطنى ، والوقوف ضد الجمود والتأخر فهو يدعو الأثرياء للتبرع للعالم الدمياطى الذى نعت بالكفر والهرطقة لدرجة أن خليل مطران (المسيحى) رئيس تحرير الجوانب تبرع بثلث راتبه لهذا الشيخ ، كما أيد الكتاب الغاياتى فيما يدعو إليه انتصاراً للحق ، ومنهم الفيلسوف الكبير (شبلى شميل)[٨] وانهالت رسائل القراء تحيى الجريدة وصاحبها ، مما جعل الغاياتى يوجه كتاباً مفتوحاً إلى شيخ الجامع الأزهر يندد فيه بالحكم على الشيخ حسن على ، ثم نشر ما كتبه فى (الجوانب المصرية) وما استكتبه السادة الأفاضل فى رسالة سماها (سيف الله الصارم) طبعت بمطبعة الجوانب فى ٦ يناير سنة ١٩٠٨[٩] . وقد نظم الغاياتى قصيدة جريئة وقاسية هاجم فيها دعاة الجمود الذين كانوا يعملون فى ذلك الوقت مع الاحتلال حتى وان كانوا من علماء الأزهر جاء فيها[١٠] .

يا ويل من عبدوا القبور واشركوا   بالله بين توسل وتضرع
ورأوا من العلماء تأييداً لهم   فمضوا وما فطنوا لغى مبدع
يا قوم أن أولئك العلماء   قد جعلوا الشريعة سلماً لمطمع
فهلما تنبذ رأيهم ونرى لنا   رأياً تنزه عن فساد المنزع

وكانت نتيجة التأييد الذى لقيه الشيخ (حسن) من الغاياتى أن حيكت ضده المكائد ، فأدخل الجيش بدعوى أنه أعفى من القرعة العسكرية لطلب العلم ، وأنه لم يقض المدة القانونية بعد المعافاة دون الاشتغال بحرفة سواها . وكانت نتيجة تلك المكيدة القبض على الشيخ الغاياتى وإدخاله (قشلاق العباسية الأحمر) اثنى عشر

يوماً . ثم أطلق سراحه بعد ثبوت أنها فرية لا أساس لها من الصحة وفى السجن وقف على أسرار النفور من الجيش المصرى ، وما وصل إليه الجيش من التدهور والتدنى-ويبدو أن الوطنى الثائر (على الغاياتى) اعتنق مبادئ الزعيم مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التى ألقاها بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء المحافظين لعهده طوال السنين[١١] ، وكان من الطبيعى أن يكون الحزب الوطنى هو الحزب الذى يروق لمثل الغاياتى ، فلم يكن لشاب فى مثل حماسته ووطنيته أن يجد فى أحزاب مصر فى تلك الأيام مثل حزب الأمة وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية – ما يشبع ميله الفكرى ولم يكن من بين الأحزاب المصرية ما يفوق الحزب الوطنى فى آرائه التى بلغت حد التطرف ، حتى أنه كان يؤخذ عليه عند بعض خصومه أنه يبالغ فى التطرف إلى حد يعمى معه عن حقائق الحياة[١٢] .

وهكذا وجد (على الغاياتى) ضالته فى الحزب الوطنى وصحفه الوطنية الثورية ، فبدأ ينشر فى (اللواء) لسان حال الحزب الوطنى ثم فى جريدة (العلم) قصائد نارية ، لا يهاب فيها جانب الاحتلال ، ولا يقيم وزناً لمقام المحاكم أو القضاء ، ولا يجامل فيها أصحاب المقامات الأدبية مثل (أحمد شوقى) شاعر الأمير فى ذلك الحين قبل أن تعقد له إمامة الشعر ، كما أنه لم يمالئ شيوخ الأزهر وهو واحد منهم.

وكان مصطفى كامل بحق باعث الحركة الوطنية فى مصر عندئذ وقد واكب هذه الحركة طائفة من الشعراء من أهمهم إسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى وأحمد محرم وأحمد الكاشف . وكان شعر هؤلاء يسير موازياً للصحافة جنباً إلى جنب ، ويجرى مثلها مع حوادث المجتمع ، لا يترك مناسبة من المناسبات حتى تكون له فيها كلمة ، كما كان للنثر الصحفى دوره الهام فى دفع تلك الحوادث إلى الاطراد والنمو . وكثيراً ما كانت تشترك الكلمات فى المعانى والأفكار كما

اشتركت فى الغايات والأهداف . وكانت الحركة الوطنية كالأتون تحتاج دائماً إلـــى من يلقى فى داخلها الوقود لتزداد النيران لهيباً فتزداد المشاعر قوة(١٣) .

لقد كان الشيخ (الغاياتى) فى تلك المرحلة من أبرز فرسان الوطنية ، وكـــان قلمه فى يده خير معبر عما يجيش فى داخله من تفاعل وصراع ، فجاءت كتاباتـــه حرة شجاعة . فها هو ينشر فى (اللواء) تحت عنوان (يا حماة الدين ويحكمـــوا) قصيدة يؤيد فيها طلبة الأزهر الذين أضربوا عن الدروس احتجاجاً على عدم قبـــول بعض طلباتهم ، ويعضـــد فيها استقالة الشيخ (حسونة النـــواوى) شـــيخ الجـامع الأزهر من منصبه ، وذلك لمـــا لقيه الطلبة الأزهريون من ســـوء المعاملة بلغـــت حد جلد بعضهم فى قبلة مسجد الأزهر بأمر من (خليل حماد باشا) رئيس ديـــوان الأوقاف وقد جاء فى هذه القصيدة(١٤) :

يا حمـــاة النيل ويحكمو ودعـــوا الدين الذى قبرا
إن بيـــت الله محتـــرم كيف بـــات الآن محتقراً
خلـــق الظالم لهم رجلاً حارب ا لعدل ومن عدلاً
عشـــق الجلد وعـــدنه فغـــدا الجلـــد له عملاً

وعندما صدر قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة قال (الغاياتى) تحت عنوان (صوت المصرى)(١٥) .

لئن قيدوا منى اليراع واوثقوا لسانى فقلبى كيفما شئت ينطق
فلا يأمنوا تلك القلوب فأنهـــا دمـــا أراهـــا أوشكت تتدفق

ثم ينشر تحت عنوان (إلى سمو الأمير والوزارة والأمة) قصيدة من ثـــلاث قطع واحدة لسمو الأمير ، وأخرى للوزارة السابقة والثالثة للأمة واعتـــبر الغايـــاتى الأمير رأس الحكومة الأكبر وعليه تنعقد آمال الأمة وآلامها . وقـــد جـــاء قـــانون

المطبوعات حائلاً بين الأمير وشعبه ولذلك (كان يوم إرجاع هذا القانون هو آخر العهد بيننا وبين سموه وقاطع حبل المودة والعتاب الذى أصبح أمره بيد الأفئدة بعد الألسنة) يقول (الغاياتى) فى هذه القصيدة :

أعباس هذا آخر العهد بيننا فلا تخشى منا بعد ذلك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة تنال إذا رمنا الحياة عتابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما قضيت علينا أن نكون غضابا
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدك يا عباس لا تبلغ المدى ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغى (جورست) إلا مكيدة تحول أقلام السلام حرابا
وها قد رمى (حرية القول) رمية بسهمك تجنى للبلاد خرابا

* * *

ويقول (الغاياتى) فى الوزارة :

ألا أمطر لله الوزارة نقمة ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها ولكن ستلقى دون ذلك أثاماً
وزارة خداع أقامته بيننا يد الحاكمين الآثمين فقاما
وبين يديه عصبة (بطرسية) تصوب نحو المصلحين سهاماً
جنى ما جنى فى (دنشواى) وغيرها ولم يكفه حتى استحل حراما
سلام على عهد الوزارة قبله وإن كان عهداً لا يبيح سلاماً

ثم استطر يقول فى حق الأمة المصرية :

بنى مصر بشـرى فالرخـاء محـقق ومـن عـدم الأقـوال رام فعـالا
وهـذا يراعـى فليقيـد فإنمـا لـدى يراع لا يهـاب نضـالا
سأطلقه يجـرى كمـا شـاء حـدة ومن شـاء فليقطـع عليـه مجـالا
فلا يتأسوا فاليـأس مجلبـة الـردى وشـدوا إلى نيـل الرجـاء رجـالا
ولا تفزعـوا من حاكـم أو حكومـة ترى نشـر آمـال العبـاد ضـلالا
وسـيروا إلى مـا تأملـون بحكمـة ولا تحسـبوا النـور المبين محـالا
فإنى لمحت النصـر بين صفوفكـم وابصرت عقبـى الظـالمين وبـالا

والملاحظ أن (الغاياتى) نهج أسلوب فريد فى التعبير والكتابة سواء شـعراً أو نثراً ، فنراه يحرص على شرح ما ينغلق على القارئ من آبيات محاولاً توصيـل المعنى فى لغة سهلة بليغة يطرب لها وجـدان المتلقى . ومن أمثلة ذلـك التفسـير الذى ساقه لنا هذا الوطنى الغيور لمعنى « سـياسة الوفاق » وهى تلك التـى أتـى بها المندوب السامى البريطانى فى مصر (جورست) بعد سياسة الخـلاف التـى ذهب بها اللورد (كرومر) وكان الغاياتى ، يرى أنه لا خـير فـى سياسـة مـع الاحتلال ، ويستمر فيقول « أما الحكمون الآثمون فهـم الإنجليز المغتصبون وقـد كان تعيين بطرس باشا غالى رئيساً للوزراء خلفاً لمصطفى باشـا فهمى بمحـض أرداتهم ، فهم الذين أقاموه رئيساً للنظار وأصدروا أمرهم من (لندرة) بذلك كمـا رواه المقطم (وهو لسانهم الصادق قطعه الله) . كما يرى (الغايـاتى) أن اليـأس باعث الهلاك ، ولا سبيل إلى نهضة الأمـة وحياتها ألا بمحالفة الأمل ومحاربـة اليأس ، وذلك تأكيداً لإحدى مأثورات الزعيم مصطفى كامل « لا حياة مـع اليـأس ولا يأس مع الحياة » .

وهكذا تسلح الشيخ (الغاياتى) بالجرأة البالغة ، ولم يجبن أمام تهديدات سلطات الاحتلال البريطانى ، ولم يتوان عن تجريد تلك الأسلحة فى آى ساحة من ساحات النضال الوطنى ، بل لم يبال بالنتائج المترتبة على ثوريته وحماسته الزائدة لدرجة التضحية بالنفس فى سبيل معتقداته الفكرية والوطنية . وكثيراً ما دفعته جرأته الشديدة إلى تحطيم القانون إذا ما دعا الموقف إلى تأييد الحق ورفع الظلم عن الوطنيين والأحرار ، ممن يواجهون الموت فى سبيل رفعة أوطانهم .

واستمر نضال الشيخ الغاياتى فى مصر قبل هجرته ما بين نظم القصائد فى المناسبات الوطنية وتدبيج لآلئة النثرية فى كبريات الصحف الوطنية حتى غدا نجماً ساطعاً ليس فقط فى سماء مصر بل فى سماء العروبة . واستطاع أن يجعل من مصر كعبة يتجه إليها بنى العرب بأفئدتهم وأبصارهم . وانعكس تأثير معاول الغاياتى فى داخل مصر على ما يناظرها من قضايا التحرير المصيرى فى المشرق وجند قلمه قبل لسانه من أجل نصرة آمال بنى وطنه ولم يدع مناسبة قوية إلا وهاجم فيها الاحتلال البريطانى والقصر والمشايعين لهما . ولم يتوان لحظة فى التنديد بالمتملقين والمتخاذلين فنراه يهاجم أعضاء الوزارة البطرسيه عندما امتنعوا عن حضور جلسات مجلس الشورى خشية مواجهة أسئلة نواب الشعب ومناقشاتهم فيقول :

يا أيها الوزراء ماذا أنابكم	حتى هجرتم صورة النواب
أن كان سيف الحق روعكم وقد	هتك الحجاب وصال فى الحجاب
أو كان (إسماعيل)[١٦] صوب سهمه	فأصاب منكم موضع الأوصاب
ورضيتم الهرب المعيب لأنه	خير من الإفلاس عند حساب
عارٌ عليكم أن يقال وزارة	لم تدر إن سئلت بيان جواب

وتحت وطأة الاحتلال وما لقيه الشعب من صنوف الأذى والظلم – خاصة بعد حادث دنشواى وإقامة المشانق فى ساحة القرية والحكم بالإعدام على العديد من أبناء الريف الأبرياء أخذ الغاياتى يمسح دموع الثكالى واليتامى ويطالبهم بالصبر عسى أن يأتى يوم القصاص من الطغاة فيقول[١٧] :

كفكفى يا مصر دمع الوجل　　وارتقب يا نيل نيل الأمل

جاوز الصبر المدى والصدر لم　　يعد فيه الوجد من محتمل

كم شقاء ! كم بلاء ! كم أذى !　　أى حال بعد ذا لم يحل

ومن ناحية أخرى ، أخذ على الغاياتى يناشد الأمم المحبة للحرية الوقوف إلى جانب وطنه الممزق وسارع لتوجيه النداء تلو النداء من أجل رفع قضية مصر فى المحافل الدولية . ولما كانت فرنسا تقف لبريطانيا بالمرصاد فإن الشعب المصرى كان يعلق آمالاً على إمكانية نجاح فرنسا فى زحزحة بريطانيا عن وادى النيل ومن هنا يتفاعل الغاياتى بما يدور فى داخل فرنسا ، فيواسى شعبها بعد أن فاض (نهر السين).واغرق جانباً من العاصمة باريس ، وربط أحداث ذلك الفيضان مع قضية مد امتياز قناة السويس لتصبح إلى سنة ٢٠٠٨ بدلاً من انتهائه فى سنة ١٩٦٩ . وقد أمر الخديو عباس الثانى بعرض هذا الموضوع على الجمعية العمومية فى ٨ فبراير سنة ١٩١٠ ، وأثارت هذه القضية مشاعر المصريين وصحفهم فكتب الغاياتى فى اللواء تحت عنوان (السين يضطرب والنيل ينتحب)[١٨] :

ما لقلب (السين) يضطرب　　وأخوه النيل ينتحب

بلغت باريس غايتها　　فتولى نهرها الطرب

ثم يهاجم أعضاء الجمعية العمومية تحت عنوان (إليكم نواب الجمعية العمومية) بقوله[١٩] :

أرادوا بمصر محنـــة وبـــلاء   وجـــاءوا بكم يستعجلون قضاء

لقد بات قلب الشعب مصوبـــاً   سيمضـــى إلى التراب أو ينتاءى

وبات يراع الكاتبيـــن مهنـداً   فاطلـــع مـــن ليل المداد ضياء

وها قد أتى يوم (القناة) معجلاً   فويـــل لمن (يوم القناة) أساء

ولم يكن نثر الغاياتى أقل وطنية من أشعاره ، فجاءت كطلقات الرصـــاص . وعلى الرغم من أن كثيراً من تلك الكتابات أتت لتمجد الواقعة أو الحادثة التى كتبت فيها إلا أن جميع كتاباته فى المناسبات ألهبت خواطر الشعب وصارت سلاحاً مـــن أسلحة الوطنية ، ففى الذكرى الأولى لوفاة الزعيم مصطفى كامل نشر تحت عنـوان (رب ذكرى هيجت شجناً) :

« قد دهمنى خطب الفقيد العظيم فأتمت حفلات التأبين الجامعة وأديـت مـن الفروض الوطنية بعض ما يجب لفقيد الشرق الإسلام ، واشترك خطبـاء المســاجد وعلماء الدين وجماعة الكتاب والشعراء فى قضاء هذا الحـق الوطنـى المقـدس . وكان الكل مدفوعاً بشعور واحد هو حب الفقيد الممثل لمعنى الوطـــن والوطنيـــة . ولقد جاء يوم الذكرى فحار دمعى بين الشؤون والجفون كما حار مدادى بين الـيراع والقرطاس ، فإذا ما شاركت اليوم الأمة فى شعورها الشريف بكلمات مـــن الشـعر صادرة عن فؤاد محزون فإنى لا أزال أرانى مع هذا بعيداً عما أريد مـــن التعبـير والبيان فى هذا الموقف العظيم »[٢٠] .

ثم ينشد هذه الأبيات :

عجباً للقريض كيـف عصانـــى   ولدمـــع دعوتـــه فتنـــاءى

كنت يوم الوفاة أول باك ... نظم الدمع والقريض رثاء

ليت شعرى ماذا دهاني ... جف بالأمس مدمعى ومدادى ؟

إن ذكرى الفقيد بعد ربيع ... جددت رزأة بكل فؤاد

* * *

قضية وطنيتى :

لم يكن لقصائد (على الغاياتى) الوطنية أن تأتى أكلها فرادى متناثرة هنا وهناك ، ولذا بادر بجمع تلك الأشعار فى ديوان أطلق عليه اسم (وطنيتى) وذلك فى منتصف عام ١٩١٠ . وبدا للحكومة آنذاك أنها أمام قذيفة مركزة من التحريض ضد الاحتلال وأنها حملة أثارة إن لم تعالج فى بدايتها استشرى خطرها واستحال القضاء عليها . ولذلك بدأت الحملة على ديوان (وطنيتى) وكل ما اتصل بهذا الديوان كأعنف ما تكون الحملة ، فحكم على محمد فريد والشيخ بعد العزيز جاويش وعلى (الغاياتى) بالحبس مدداً تتراوح بين السنة وثلاثة شهور . ولعل هذا أول كتاب فى مصر – كما يقول فتحى رضوان – يجر ثلاثة إلى السجن ، ويؤدى إلى هجرة اثنين منهما عن الوطن هجرة طالت ، حتى مات خلالها أحد الاثنين المهاجرين دون أن يرى وطنه ولا أهله ، وبنى فيها الثانى حياة جديدة كاملة خارج وطنه ، ولم يعد إليها إلا بعد أكثر من ربع قرن(٢١) .

يروى الغاياتى قصة ديوان وطنيتى فيقول « أننى فرغت من قصائد هذا الديوان فى ٢٤ يونيو ١٩١٠ ولما كان طبع مثل هذا الديوان يعرضه للمصادرة فقد قصدت مطبعة يملكها فرنسي وكان الأجانب حينذاك غير خاضعين لتفتيش البوليس المصرى إلا إذا أذنت القنصلية التى يتبعها هؤلاء الأجانب . وكان استصدار هذا الأذن يسمح بإخفاء جسم الجريمة . ومن هنا تم طبع الديوان دون أن يصادر وكان عدد النسخ المطبوعة ألف نسخه ... وأردت أن أهدى نسخة إلى الشيخ (على

يوسف) صاحب المؤيد ليقرظها ويعلق عليها . ولم يكد الشيخ على يوسف يطلع على الديوان حتى جرد عليه حملة ضارية ، وكأنه كان يكتب قرار الاتهام ضد الديوان وصاحبه ، وكانت (المؤيد) تنافس (اللواء) جريدة الحزب الوطنى وتتهم الحزب والجريدة بالتطرف المجنون وتلقت الحكومة هذه الحملة بصدر رحب فأخذت تبحث عن الديوان فى كل مكان تعلم أنه موجود فيه »[٢٢] .

كانت كل كلمة فى (وطنيتى) قذيفة فى صدر المحتل من الغلاف إلى الغلاف ، ففى إهداء الكتاب الذى ساقه الغاياتى إلى مصطفى كامل يقول (فلئن حييت لأنصرن مبادئ الحزب نصرًا ، ولأطلعن فى دياجى الخطوب من حياتى فجرًا ، ولأجودن بالنفس يوم تدعو البلاد للأمر حرًا ، بل لأغيرن أن استطعت وجه التاريخ الحديث فى مصر تغيرًا تخر له جبابرة الظالمين سجوداً يبكون خشية وفرقًا ويرفع الوطن المفتدى رأسه مهللاً مكبرا منصوراً إن شاء الله)[٢٣] . وهكذا يشعر المرء للوهلة الأولى بأن الغاياتى كان يؤهل نفسه لدخول السجن ، لأنه جازف بطبع الديوان مع إحساسه الداخلى بأن نسخ الديوان سوف تصادر ، ومعنى المصادرة هو اقتياده للمحاكمة ، ويعلق الدكتور أحمد هيكل[٢٤] على الديوان وصاحبة بأن (على الغاياتى) ينتمى إلى هذا الجيل من الشعراء الذى سار فى نفس اتجاه الشاعر (محمود سامى البارودى) ويترسم خطاه نحو الاتجاه المحافظ البيانى الحى . وترجع أهم أسباب ظهور هذا الاتجاه إلى الوعى الناضج الذى بدأ عند بعض المثقفين ... والذى يقرأ ديوان (وطنيتى) قد لا يجده كله شعرًا من طراز رفيع ولكن يجد فيه باكورة رائعة لشاعر شاب لم يتجاوز عمره ٢٥ سنة ، وإلى جانب ذلك نجد الوطنية الحقة والعقل المتحرر ، ويرى الأستاذ فتحى رضوان أن المتتبع لقصائد الديوان ويقرأ هوامشه لا تنطبع لديه صورة كاملة للعهد الذى ظهر فيه ، صورة شعب يناضل من أجل إجلاء الإنجليز عن أرضه بقلمه ولسانه ، ويتحفز

لقتال أشد ضراوة فى سبيل نفس الغاية ، من أجل الدستور ، ومن أجل مزيد من الحريات الداخلية وإصلاح الحكم والضرب على يد المفسدين[٢٥] .

ويرى الأستاذ محمد طاهر الجبلاوى أن ديوان وطنيتى هو الأول من نوعه الذى تخصص لموضوع واحد هو الوطنية . ذلك أن دواوين الشعراء فى ذلك الوقت كانت تصدر مقسمة إلى أبواب غالبًا ما تكون على النحو التالى : باب المدح، باب الرثاء ، باب الغزل والنسيب ، باب الوصف ثم الوطنيات . وهكذا كان (وطنيتى) وثبة من وثبات الشاعر فى عالم الشعر والأدب . يقص الشيخ على (الغاياتى) قصة قضية الديوان فيقول « كان من أشهر القضايا السياسية فى العصر الحديث . وقد كان لها صدى بعيد المدى فى مصر والشرق كما وصلت أنباؤها تترى إلى الغرب . ولا شك فى أن أول من وجه أنظار الحكومة علنا وحرضها بطريقة غير مباشرة على صاحبه هو الشيخ على يوسف[٢٦] .

يقول الشيخ على يوسف فى قضية الديوان (زارنا منذ يومين حضرة الشيخ على الغاياتى) المحرر بجريدة (العلم) وقدم لنا نسخة من كتاب شعرى وضعه حديثاً بعنوان (وطنيتى) وعزمت على أن اقرظه كما يستحق أديب مثله يحسن الشعر ويعمل كما يعتقد لأحياء الشعور الوطنى ... وأول ما وقع نظرى عليه قول هذا الشاعر المجيد :

يا ليت شعرى هل رأيت كما أرى ... أن (المؤيد) معهد الهفوات

فنشرت فيه ما نشرت وإنما ... هى زلة من أكبر الزلات[٢٧]

ويستطرد الشيخ (على يوسف) فيقول : استوقفنى هذا السباب الموجه إلى (المؤيد) وقلت : لعل حضرة الشيخ أراد أن يوجه إلى هذا الكلام مشافهة بتقديم الكتاب ، ولكنى رجعت وقلت لعل ذلك الزائر لم يقصد هذا وإنما قصد أن أدل قراء (المؤيد) على شئ من آيات وطنية البينات » ثم أورد الشيخ (على يوسف) أبياتاً

متفرقة من تسع قصائد للغاياتى كان قد نشرها فى (وطنيتـــى) ، كـانت ضمـن حيثيات الحكم فى تلك القضية الخطيرة .

ولم يمض يومان على مقالة (المؤيد) حتى نشرت الصحف خبراً مـؤداه أن إدارة الضبط قبضت على الشيخ (على الغاياتى) لأنه نشر ديوانا فيه قصائد تقـع تحت طائلة المطبوعات . وقد أحيل إلى النيابة للتحقيق معه(٢٨) ، ولكن فى الحقيقـة أن الغاياتى لم يقبض عليه ، وإنما كان خارج القاهرة . وذلك أنه علم بأن الحكومـة بدأت تبحث عن الديوان فى كل مكان وأن أمرا باعتقاله قد صـدر ، وقـد نصحـه بعض الأصدقاء بأن يفر خارج البلاد وليكن إلى تركيا .

وكان كتاب (وطنيتى) أبلغ دليل على : اتهام على الغاياتى بالثورة السياسـية والتحريض ضد سلطات الاحتلال . ذلك لما احتواه من أشعار ألهبت نار الحماسـة لدى العامة والخاصة متبعاً فى قوله سير الحركة الوطنية ، مشـرفاً علـى مشـاهد النهضة الحاضرة فيما بين ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ من سماء الحزب الوطنى فى (اللواء) ثم فى (العلم) . فلا ريب أنها أدنى سماء يشرف منها مثل هذا العـالم السياسـى والكاتب الوطنى على تطور الحركة الوطنية وأدوارها فى مصر . ولعل مـن بيـن الأسباب الهامة التى أدت بالحكومة إلى اختلاق قضية تهدد مـن خلالـها الحركـة الوطنية هو ذلك التقريظ أو المقدمة التى تصدرت الديوان بقلم كل من الشـيخ عبـد العزيز جاويش رئيس تحرير (العلم) لسان حال الحزب الوطنى ، والتى أدى بـه إلى دخول السجن ومحمد فريد رئيس الحزب الوطنى ورئيس تحرير جريدة اللـواء خليفة مصطفى كامل .

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى تقريظه للكتاب « إذا شئت أن تعرف جيد الشعر فدع عنك تفاعيل البحور والتزام الحروف ومحسنات الألفـاظ واعتـبر بمـا يتركه فى نفسك من الأثر فإن أحسن الشعر ما يملك قلبك حتى تفرغ منه كمـا أن أجمل الصور ما يملك بصرك حتى يغيب عنه ... ومن شاء أن يرى نموذج مـن

الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعنى ، وألف بين أحكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئاً من (وطنيتى) . من شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقده والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها »[٢٩] .

افتتح محمد فريد زعيم الحزب الوطنى كتاب الشيخ الغاياتى بقوله « لقد كان نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء فى الغرب أو الشرق إماتة الشعر الحماسى ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد ، والإطراء الفارغ فى الملوك والأمراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربى النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال ... لذلك تنبهت الأمم المغلوبة على أمرها فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع وسواهم من العمال غير المتعلمين ، فكان ذلك أكبر العوامل على بث روح الوطنية بين جميع الطبقات .. ومما يزيد سرورى أن شعراء الأرياف[٣٠] وضعوا عدة أناشيد وأغانى فى مسألة (دنشواى) وما نشأ عنها . وفى المرحوم مصطفى كامل باشا ومجهوداته الوطنية وفى موضوع قناة السويس ورفض الجمعية العمومية لمشروعها ... وهى حركة مباركة أن شاء الله تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ووصل تأثيرها إلى أعماق القلوب فى جميع طبقات الأمة وتبشر باقتراب زمن الخلاص من الاحتلال ومن سلطة الفرد بإذن الله »[٣١] .

كان (وطنيتى) سجل حافل لوقائع عصر زاخر بالوطنية مما حدا بالسلطة لتقديم صاحبه للمحاكمة . ولم تكن إدانة كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش إلا عقوبة لتأييد كل منها لمضامين هذا الكتاب الذى كان – كما يقول الغاياتى – أداة من أدوات الكفاح الوطنى . ولذلك نرى استجابة للأحداث استجابة سريعة ، فلا يكاد الحدث الوطنى يقع حتى يفيض شعره . فعلى سبيل المثال عندما يصرح أحمد

شوقى عن لسان الخديوى عباس فى حديث له مع جريدة (المؤيـد) أن الخديـو لا يستطيع أن يعلن الدستور إلا بأن الأنجليز يعاجله الغاياتى بقصيدة يقول له فيها :

يا شاعـر الأمير ويحك هل ترى فى النثر ما فىالنظم من خطرات

أنى رأيتـك فى حديثك شاعراً لـك خيالك زائـغ النظرات

ويتورط (أحمد زكى) باشا شيخ العروبة بكلمة يحمل فيـها علـى الحـزب الوطنى ، فيهاجمه الوطنيون ، فيعتذر عن هذا الخطأ ويصفه بأنه من فلتات اللسـان فيعرك (الغاياتى) أذنه فى نفس القصيدة التى يعاتب فيها شوقى ويختمـها ببيـت يقول فيه :

فعليك إصلاح الحـديث فإنـه عنـدى أشـد أذى من الفلتات

وفى الديوان مديح لمصطفى كامل وهو على قيد الحياة ورثاء له حين لحـق بالرفيق الأعلى ، ومديح وثناء على محمد فريد بعد انتخابه رئيساً للحزب الوطنـى ، ومديح للشيخ (جاويش) بمناسبة الإفراج عنه بعد اتهامه فى إحدى القضايا ثم عنـد منحه (وسام الشعب)[٣٢] الذى اكتتب المصريون بثمنه وقلدوه إياه عندما خرج مـن السجن. ونظم الغاياتى قصيدة فى هذه المناسبة بعنوان (الوسام بعد السجن) قـال فى مطلعها :

عاد إلى القلم المشـهور سـيرته ولاح بدر اللوا من بعد ما احتجبا

تجلـو بشـاشـته الآلام والكـربـا

وعندما وقع حادث اغتيال بطرس باشا غالى رئيس النظـار القبطـى انتـهز خصوم الحركة الوطنية هذا الحادث وأسرفوا فى القول بأن بـاعث (الوردانـى) على القتل كان باعثاً دينياً ، وذلك لبث سموم التفرقة بين المصريين . وقد تصـدى أحد المحامين الأقباط الذائعى الصيت (مرقص فهمى) يدفع عن الحركة الوطنيـة

هذا الاتهام الظالم فتأثر الغاياتى لهذا الموقف النبيل وكتب قصيدة عنوانـــها (إلـى خطيب السلام) يبدأها بقوله :

خطبت فلم تجنح إلى شـرعة الهـوى ولـم تتخـذ الخصـام سـبيـلاً

وما أمة القـرآن فى مصـر أمـة ترى أمـة الإنجيـل أبغـض جيـلاً

فأنا وأنتـم أخـوة فـى بلادنـا قمنـا على دين السـلام طويـلاً

وتنتقل من الوحدة الوطنية عند الغاياتى إلى الهجوم على (تيودور روزفلت) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سابقاً وذلك لالقائه خطاباً فى الجامعة المصريـة أشاد فيها بالاحتلال الأجنبى البريطانى لمصر ، فينبرى له من بين من تصدوا لـه من الكتاب والشعراء فيقول :

لعمـرك لسـت بالرجـل الهمـام إذا عـد الهمـام من إكـرام

كـرام النـاس أصدقهـم حديثـاً وأبعـد عن أكـاذيب اللئـام

ويذكر الغاياتى روزفلت فى هذه القصيدة بأن الإنجليز كانوا يحكمونـهم ، وأن الأمريكيين الأحرار قد ثاروا عليهم وأشاد ببطولة زعماء النضال الأمريكـى مثـل واشنجتون وجيفرسون . وعندما سافر روزفلت من مصر إلى إنجلترا خطب ثانيـاً فى قاعدة (جليد هول) بلندن فحمل على المصريين من جديد مشـيـداً بـالاحتلال البريطانى فنظم فيه الغاياتى قصيدة أخرى لا تقل قوة عن الأولى تحت عنوان إلـى خطيب (جيلد هول) يقول فى مطلعها :

ماذا تحاول يا رزفلت من خطـب ترمى مصر عن حقد وعن غضب[٣٣]

وها هو الغاياتى لا يجد حرجًا فى مخاطبة السلطان (عبـد الحميـد) فـى الآستانة وكان يسمى فى ذلك الوقت بأمير المؤمنين يطالبه فيه بالدستور ويشير إلـى نكبة مصر بالاحتلال فيقول[٣٤] :

رمتها الحادثات بشر قوم ... لهم في كل مظلمة شئون

قضت في عصرهم مصر ولولا ... رجاء فيك ما قرت عيون

فاعزز يا حمى الإسلام شعبًا ... بعزك لا يذل ولا يهون

وكان قرار الاتهام فى قضية وطنيتى هو إحالة كل من الشيخ جاويش – المحرر بجريدة العلم – والشيخ على الغاياتى – المصحح بجريدة العلم والشيخ محمد حسن القزوينى الموظف بقلم تحرير (العلم) والياس أفندى دياب صاحب مكتبة التأليف إلى محكمة الجنايات يوم ٦ أغسطس برئاسة (محمد بك مجدى) وحضرة (على بك ذو الفقار) والمسيو (سودان) أعضاء كما تقرر إخراج إسماعيل أفندى حافظ صاحب جريدة العلم وتأجيل رفع الدعوى على حضرة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى حين عودته من أوربا وذلك لوضع ونشر كتاب يسمى وطنيتى ، ويشتمل على قصائد ومنظومات يتضمن بعضها التحريض مباشرة على جناية القتل (صحيفة ٣٤,٥ ، ٣٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٢) وبعضها التحريض على كراهية الحكومة والازدراء بها صحيفة (٣٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧) وبعضها تحسين الجريمة التى ارتكبها الشيخ جاويش وحكم عليه من أجلها فى العام الماضى وغيرها (٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٢ ، ١٠١) وبعضها العيب فى حق ذات ولى الأمر (صحيفة ٥٥ ، ٥٦) وبعضها أهانه ناظر الحقانية بصفته موظفاً عمومياً (صحيفة ٦٣ ، ٦٤) وبعضها أهانه هيئة الوزارة والمحاكم (صحيفة ٥٦ ، ٦٨).

وهكذا أصبحت صفحات وطنيتى فى قائمة الاتهام حتى كان موعد انعقاد محكمة الجنايات الكبرى . وهذه صورة لجلستها كما جاء فى اللواء (انعقدت الجلسة فى الساعة التاسعة صباحاً تحت رئاسة محمد بك مجدى وكل من العضوين على بك ذو الفقار والمسيو سودان . وكان على كرسى النيابة توفيق بك نسيم

وسكرتير الجلسة جلال أفندى . وكان النظام سائداً ، والقاعة غاصـــة بالحـــاضرين يتخللهم رجال البوليس السرى المنتشر خارج القاعة وداخلـــها . وكـــان حضـــرات الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ محمد حسن القزوينى والياس أفندى دياب واقفيـــن فى موقف الاتهام ، وحضر حضرات المحامين الأفاضل للدفاع عن موكليهم ... ثـــم تكلم حضرة رئيس الجلسة بعض كلمات طلب فيها من الجمهور المحافظـــة علـــى النظام ونودى على المتهمين فسأل كل منهم عن اسمه وصناعته . وعمره وســكنه ، ثم قام كاتب الجلسة وتلا محضر الجلسة . وبعد ذلك قام وكيل النيابة وطلب معاقبـــة الشيخ الغاياتى والشيخ جاويش بصفته فاعلاً وشريكاً فى الجناية وذلك لنشر أشـــياء مخالفة للقوانين بالجرائد »[٣٥] .

سأل رئيس الجلسة الشيخ عبد العزيز جاويش عن التهم الموجهة ضده فقـــال أنه قرظ الكتاب عن نيه حسنة » . وسئل الشيخ القزوينى عن التهم الموجهة ضـــده فقال أنه لم يطلع على الكتاب . وسئل دياب أفندى عن التهم الموجهة ضده فقال إنـــه باعه كسائر البائعين . ثم قام حضرة وكيل النيابة وقال : قام هذا الشـــاعر المفتـــون (يقصد الغاياتى) ووضع هذا الكتاب فلا حيى الله وطنيته ولا بارك الله فيـــها مـــن وطنية قاسقة ، لقد مجد فعل دنجرا والوردانى وكلاهما قاتل سفاك وهـــذا تحريـــض على ارتكاب الجنايات .. وقال : نعم هنا فى هذا الكتاب (وطنيتى) جملة قصـــائد أدبية ولكن هذا لا يبرر ما فى هذا الكتاب الذى يعظم الأثم ويدفن الحسنة ... وفـــى اليوم التالى وقف حضرة توفيق بك نسيم قائلاً بأن النيابة العمومية تطلـــب معاقبـــة المتهم (الغايـــاتى) بـــالمواد ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ من قانون العقوبات لوضعه وطبعه كتاب (وطنيتى)[٣٦] .

ومع أن عدد من المحامين تطوعوا للدفاع عن المتهمين إلا أن حكماً صـــدر بإدانة كل من الشيخ الغاياتى والشيخ جاويش ووافق الخديو عباس حلمى الثانى علـــى

حكم محكمة جنايات مصر فى قضية النيابة العمومية رقـم ٦٧ سـايرة الأزبكيـة لسنه ١٩١٠ وذلك بالحبس لمدة سنة مع الشغل بالنسبة للغاياتي مع تبرئته من تهمـة التحريض على القتل والحبس ثلاثة أشهر على الشيخ جاويش .

كانت معظم القصائد التى احتواها كتاب وطنيتى قد سبق للصحف نشرها فـى حينها ، ولم تجد النيابة فيها ما يستدعى المحاكمة إلا أن الوزارة أخذا بسياسة الشـدة التى انتهجتها حيال الحركة الوطنية أوعزت إلى النيابة بـالتحقيق فيمـا ورد فـى الكتاب ، فأمرت بمصادرته وأصدرت حكمها المتقدم على الشيخ جاويش والغايـاتى، أما الزعيم محمد فريد الذى اشترك فى تقديم الكتاب فقد كان أثناء التحقيق فى أوربـا يدافع عن قضية مصر فأرجأت النيابة إجراءاتها معه حتى يعود[٣٧] واعتبرته النيابـة شريكا للغاياتى فى التهمة . وكانت الحكومة تريد بالحكم السابق ضد الشيخ جـاويش عدم عودة محمد فريد إلى مصر . وقد أشاع خصومه أنه اعتزم إلا يعود خوفاً مـن الحكم عليه ، ولكن فريد بادر بنفى هذه الإشاعة وهو فى أوربا . ويرى الرافعـى[٣٨] أنه بلغ من تأصل الوطنية الصحيحة فى بيت الزعيم أنه تلقى من كـبرى كريماتـه خطابا ترغبه فيه فى الحضور تقول فيه (ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثـل مـا حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم ومـا تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم) .

بـدأت النيابة العمومية التحقيق مع محمد فريد بعد عودته إلى مصـر فـى أواخر ديسـمبر ١٩١٠ ونظرت القضية أمام محكمة جنايات مصر فى ٢٣ ينـاير سنة ١٩١١ فانعقدت المحكمة برئاسة المستر (دلبروجلى) وعضوية كل من أحمد ذو الفقار بك وأمين بك على ومثل النيابة محمد توفيق نسيم وحضر الزعيم بـدون اصطحاب أحدا من المحامين وسأله رئيس المحكمة عن التهمة الموجه إليـه وهـى تقريظه للكتاب فأجاب قائلاً : « فى الوقت المنسوب إلى فيه تقريظ الكتـاب كنـت غائبًا عن مصر لأنه ظهر فى أخر يونيه وأنا سافرت إلى أوربا فى ٥ مايو ، أمـا

المقالة فكتبتها قبل صدور الكتاب ولا علم لى بالمسائل التى فيه لأن كثيرًا منها حدث ونظم شعره فى غيابى ، ولما كتبت المقالة كتبتها باعتقاد أنها مما لا يعاقب عليها القانون » وعلى الرغم من ذلك فقد صدر حكم المحكمة بحبس محمد فريد ستة أشهر مع النفاذ . وإذا كان من الثابت أن محمد فريد قد كتب مقدمة وطنيتى دون أن يطلع على محتويات الكتاب بل وقبل أن ينتهى الغاياتى من وضعه له فإن الزعيم لم يحاكم من أجل تلك المقدمة بل من أجل موقفه العدائى من الاحتلال والحكومة وأن الغرض من محاكمته إنما هو إرهابه ومعاقبته على إخلاصه فى جهاده ، إذ جاءت تلك المحاكمة بمثابة مأساة قضائية ووطنية وأخلاقية تلقى ظلالاً كثيفة على الحركة الوطنية .

وهكذا تخطت قضية وطنيتى مرحلة الذاتية بل صارت قضية قومية سياسية تناولتها الألسن والأقلام فى مصر على تباين مشاربها ووجدت الصحف جميعها فى الإحكام الصادرة مادة دسمة للخوض فيها واشتركت كافة الصحف فى توجيه النقد إلى تلك الأحكام حتى الصحف المؤيدة للقصر والاحتلال لأنها « كانت ترى أنها صادرة ضد رجل من ذوى الأقلام » استوت فى ذلك صحف المسلمين والأقباط والأجانب[٣٩] ، خاصة جريدة المقطم المعروفة بميولها للبريطانيين ، وشق عليها أن يصدر ذلك الحكم على خصمها العنيد وكأن ذلك الخصم القديم قد انقلب فى شعورها دفعة واحدة إلى صديق حميم[٤٠] أما جريدة (الاجيبشيا جازيت) فقد علقت على ذلك بقولها « إن الدلائل تدل على أن النيابة لا تعمل بمفردها فى تحقيق قضية الغاياتى بل ثمة يد انجليزية من وراء ستار لإدارة التحقيق »[٤١] .

أما جريدة (لوبرو جريه) الفرنسية فقالت تدافع عن الغاياتى بأن الجزء الأكبر من كتاب الشيخ الغاياتى عبارة عن ترجمة لقطع من الأدب الأوربى[٤٢] وأنها لم تر فيه إلا تبسيط يناسب العقلية المصرية ولكنه يهدف إلى جذب القارئ بإفهامه إن محاربة الإنجليز وحلفائهم والخديو وحكومته عمل من الأعمال الوطنية[٤٣] ،

ولكنها عادت مرة أخرى تتحدث عن الكتاب فقالت أنه مؤلف سياسى وليس أدبيا ولم يكن لها من دليل تذكره إلا أن محمد فريد والشيخ جاويش قدماه إلى القراء.

وقد كتبت صحيفة (ايجبت شاناخرشتن) الألمانية مقالا عنيفا تحمل فيه على الحكومة وتدافع فيه عن محمد فريد دفاعا لم تشهده أكثر الصحف العربية وطنية ، وتساءلت عن الجريمة التى اقترفها وقررت أن مقدمة الكتاب لم تخرج عن كونها دراسة أدبية عامة ... وأن أكثر القصائد التى ضمها الكتاب كانت قد نشرت فى جريدة (اللواء) دون أن تتخذ الحكومة أى إجراء حيالها واستطردت تقول (إن الحكم على فريد بك نتيجة طبيعية لما اختطته الحكومة لنفسها من نهج خلال السنتين الماضيتين تجاه الصحف من إنذار وتعطيل وسجن ونفى للكتاب والخطباء)(٤٤) .

وقد طالب « ريمون كولر » رئيس تحرير صحيفة (ليجبت) الخديو بأن يستعمل حقه فى العفو عن فريد بك ذاكرا أن الرأى العام جميعه والصحفيين خاصة يشاركونه هذا الرجاء ولكن (الايجبتشانا خرشتن) تذكر الحكومة بأنها لابد أن ترجع عن تصرفاتها حيال حرية الرأى وتنتهج لنفسها خطة جديدة تقوم على الأفكار الحديثة فى الحرية والتساهل وأن هذه الفرصة هى انسب الفرص لاتخاذ هذا الإجراء الذى يكون له أثره الحميد بين مختلف طوائف الشعب المصرى فتطبق بذلك المثل القائل رب ضارة نافعة فربما كان هذا الحكم له أكبر النفع فى أن تعود الحكومة فتقرب ما بينها وبين الشعب الذى تحكمه ، أما الأهرام فقد علقت على تلك الأحكام بقولها « أن مثل هذا النوع من المحاكمات سيكون محضأة يحرك الجمر الذى غطاه الرماد ، رماد السكون والهدوء »(٤٥) .

وعلى الرغم من أن ديوان الشيخ الغاياتى صودر بمعرفة سلطات الاحتلال وبسببه قامت تلك الضجة الهائلة إلا أن الأعداد التى وصلت إلى يد الناس كانت كافية لامتداد استمرار لهيب الثورة الوطنية عن طريق التبادل أو الاستعارة ويبدو

أن الكتاب أعيدت طباعته أكثر من مرة بواسطة الوطنيين من تلاميذ الغاياتى وأصدقاؤه ووصل سعره ثمنا باهظا[٤٦] بالقياس لأسعار المطبوعات فى تلك الفترة فكان من الطبيعى أن يتهافت الناس فى كافة أرجاء القطر المصرى على اختلاف انتماءاتهم السياسية على اقتناء نسخ من (المنشور الثورى) الذى أدى إلى تعديل قانون المطبوعات واقترن اسمه باسم زعيم الأمة (محمد فريد) .

وكما اقترن وطنيتى بـ (محمد فريد) - لأنه يعد فى نظر الكثيرين السبب المباشر فى نفى الزعيم نفياً اختيارياً خارج مصر - فإنه ارتبط أشد الارتباط بصاحبه وصار الاسمان متلازمين وإذا كان الغاياتى قد ارتفع بالديوان فوق هامات السائرين فى ركاب الإنجليز والأسرة العلوية الحاكمة فلا شك فى أن هذا الكتاب خلق من الغاياتى بطلاً قومياً ووطنياً لا نجانب الصواب إذا قلنا أنه وضعه فى مصاف زعماء الأمة الذين تبوءوا مكانة مرموقة فى نفوس الأهالى، بل اعتبر فى نظر بعض الكتاب أنه الباعث الحقيقى لثورة الشعب فى ١٩١٩ ولا عجب أن تفيض الصحف بالمآثر الوطنية الدافقة للغاياتى ولديوانه الشهير ، ولصحيفته التى أسسها فى القاهرة بعد عودته وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة[٤٧] التى يشيد فيها أحد المصريين من الطبقة المتوسطة بمناقب الغاياتى وبما يشتمل عليه ديوانه من أشعار ونثريات كانت درساً بليغاً فى تربية النشء إلى جانب انعكاساته الوطنية فيقول :

أنا ابن قولى وحسبى فى الفخار به وأن غدوت كريم العم والخالى
فانظر لقولى تجد نفسى مصورة فى صفحة فقولى خط تمثال

« لقد قرأت كتاب وطنيتى للغاياتى فإذا به أجد نفساً عالياً عامرة بالإيمان الثابت زاخرة بالتفانى فى حب الوطن ... وقد لمست الرجولة الفذة والوطنية الصادقة والإنسان الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونانى (ديوجين الكلبى) فالكتاب نفحة ربانية وتحفة أدبية ومشكلة وطنية وشعر رصين . ولو كان الأمر

يبدى لفرضت استظهاره على التلاميذ والتلميذات ، فلا أقل من أن يدخـــره الآبـاء ويتخذوه نبراسا لتربية البنات والأبناء ليضمنوا للوطن أشبالاً أخيـــاراً وأمــهات لا يقترفن الدنية ولا ينزلن إلى حضيض الرذيلة » .

هجرة الغاياتى خارج مصر :

اختلفت أقوال المؤرخين والكتاب فى سفر الغاياتى خارج الوطن فمنــهم مــن يسمى ذلك فراراً[٤٨] ومنهم من يطلق عليه هروباً أو ارتحالاً[٤٩] . وهنـــاك روايـة تقول أن الغاياتى هرب من داخل السجن[٥٠] وهذا غير صحيح ولكن نـــأخذ بـرأى الغاياتى نفسه فى أن ذلك كان فراراً ، وأنه كان فى السادس من يوليو ١٩١٠ .

عقد الغاياتى عزمه على السفر إلى تركيا ولم يكن يحمل معه جواز سفر يأذن له بمغادرة مصر ولا بدخول تركيا . ولكن لم يكن مثل هذا الجواز ضروريـاً فـى تلك الأيام ... وساقت الظروف للغاياتى ضابطاً تركيا كان فى رحلــة صيـد فـى السودان فتصادقا معاً حتى وصلا إلى استانبول ودخلـها فـى حمايتـه[٥١] . وفـى الأستانة علم بأن الحكومة بدأت فى تفتيش المنازل والمكتبات والمحــلات عـن أى نسخة من الديوان كما علم أيضاً بمحاكمة الشيخ جاويش . وشاع فى أنحاء مصـــر بأن الغاياتى غادر الأستانة فى طريقه إلى سويسرا وذلك لأن الحكومــة المصريـة بدأت تطلب من الاستانة تسليمه إليها . وقد نشر الغاياتى قصيدة طويلة بعد أن علـم بتفتيش البوليس لداره فى القاهرة يقول فيها :

فمـــاذا رأى العـادون فى دارى التى ... أحـن إليهـا كلمـا راح لامــــع

لقد أبصروا الأقــلام والكتب بينهـا ... فياليتهـــا أبصــروها مدافــــع

تولى على الغاياتى بعد وصوله استانبول رئاسة تحرير جريـــدة أسبوعيـــة كانت تصدر فى عاصمة السلطنة العثمانية تسمى (دار الخلافـــة) كـــان صــاحب امتيازها (عبد الوهاب عبد الصمد) وهو شـــاب من طرابلس الغـــرب (ليبيـــا)

كانت له صلات وثيقة برجال الاتحاد التركى فى تركيا والحزب الوطنى فى مصر. ومن المرجح أن الغاياتى كانت تربطه صداقة بصاحب الجريدة قبل مغادرته لها مصر . وكانت يخطط للعمل فيها عند سفره إلى تركيا إذ أنه كان يحمل رسالة توصية من صاحب الجريدة فى القاهرة إلى وكيله فى الآستانة ليسند إليه إحدى الوظائف الصحفية بها . ولكن الغاياتى قام بتمزيقها خشية أن تقع فى يد أحد رجال الضبط ، وولى الغاياتى مسئولية إدارة الجريدة ورئاسة تحريرها إذا كتب على رأس الجريدة فى بداية عمله بها : المدير المسئول ورئيس التحرير هو الشيخ (ع. غ.) ثم استعيض عن تلك الأحرف بعد قليل بالاسم الصريح (على الغاياتى) .

بدأ الغاياتى فى العاصمة التركية بشهر قلمه ضد الظلم والطغيان فكتب العديد من المقالات النارية التى ندد فيها بالاستعمار الأوربى للدول الناشئة وخاصة الاحتلال البريطانى لمصر ، كما شن حملة شديدة على الحكام الذين استكانوا واتخذوا من الذل والهوان سبيلاً إلى عروشهم التى لا محال فهى زائلة . ولم تجد تلك الكلمات بطبيعة الحال صدى فى نفس الخديو وسلطات الاحتلال فى داخل مصر ، ومن هنا أصدرت السلطة قرارها بمنع دخول جريدة « دار الخلافة » إلى القطر المصرى وجاء فى قرار ناظر الداخلية « حيث أن جريدة دار الخلافة التى تطبع فى الآستانة اعتادت على نشر عبارات شديدة ماسة بسمو الخديو والحكومة المصرية ونشرت فى عددها الصادر فى ٩ رمضان ١٣٢٨هـ/١٣ سبتمبر سنة ١٩١٠ قصيدة خطية فى سمو الأمير وتحريض للمصريين على الثورة وسفك الدماء ، الأمر المخل كل الإخلال بالأمن والنظام العام »[٥٢] .

وعلى الرغم من منع جريدة دار الخلافة من دخول مصر فقد استمر الشيخ الغاياتى فى حملته على سياسة الاحتلال أيا كان نوعه وشبه طغيان الإنجليز فى مصر بطغيان السلطان عبد الحميد فى تركيا ، وسار الغاياتى شوطاً أبعد من ذلك إذ

أن معظم أعداد (دار الخلافة) امتلأت بتمجيد ذكرى إبراهيم الورداني الـذي قـام باغتيال بطرس غالى رئيس الوزراء المصرى فى عام ١٩١٠[٥٣] .

وقد نشر الغاياتي فى العدد السابق من نفس الجريدة قصيدة تحت عنوان (مصر ودار السعادة) يقول فى مطلعها[٥٤] :

دار الســعادة هــل أتــاك مخبر   يشكو لديك شــقاء مصر وينشــر
النيـل من جمـر المدافـع فائض   والوجـد فى أحشــائه يشـعر
لهفــى على النيـل الحـزين وشعبه   وفـؤادى المغنــى بــه يتقطــر

والتقى الغاياتي وهو فى الأستانة بـ (محمد فريد) فى طريق عودتـه مـن أوربا إلى مصر وعرض عليه – من منطلق الوطنية – أن يعود معه إلى مصر لـو كان فى ذلك تحسين لمركزه أمام القضاء المصرى ولكن فريد رفض هـذه الفكـرة ويقول الغاياتي عن ذكريات تلك الفترة : لقد ذهبت لزيارة فريد بك فى الفندق الـذى يقيم به فدخل علينا بعض الضباط الشبان فى الجيش التركى ، فقدم فريد أحدهم إلـى وهو يقول : (عزيز على المصرى) وكانت تلك المرة الأولى التى اتعـرف فيـها على ذلك الضابط وهو الذى عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فشغل منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى[٥٥] .

تكررت اللقاءات القليلة بين كل من الغاياتي و(محمد فريد) فـى استانبول وانتهت بأن عقد الغاياتي العزم على السفر إلـى جنيـف مستمعاً إلـى نصائح الزعيم[٥٦] بأنها أرض بكر لتعليم اللغة العربية للأجانب الذين يريدون تعلمها ولمـا تهيأ للسفر إلى جنيف اهتم بتعلم اللغة الفرنسية . وكان قد بدأ يتلقى بعض الـدروس فيها فى مصر فى مدرسة أنشأها الشيخ جاويش لتعليم الأزهريين تلك اللغـة حتـى يلموا بشئ من الثقافة الحديثة[٥٧] .

وصل الغاياتى إلى جنيف قادماً من الاستانه مساء يوم السبت ٢ ديسمبر سنة ١٩١٠ ماراً بفينا عاصمة النمسا . وقد اختار تلك المدينة بالذات ليبحث عن الشبان العرب الذين يتوقون إلى تعلم اللغة العربية ، كما عرفه بذلك محمد فريد . ولكن عدد أولئك الشبان القليل لم يكن يوفر لهذا المغترب المال الذى يعينه على الإعاشة، فيمم شطر جنيف وهناك استقبله أحد الطلبة المصريين الوطنيين ويدعى « خليل مذكور » واتخذ منه الغاياتى رفيقاً لدرب كفاحه ومعينا له على نوائب الدهر فى بلاد الغربة ، ومع ذلك فلقد كان إحساس الغاياتى بالغربة عن أرض الوطن فى بداية الأمر شديداً ، ونظم شعراً بالعامية قال فيه :

يا نيل أنا بأشكى الهوى ... من يوم ما شفتك فى هوان

حبك رمانى بالثرى ... ورماك بأشجانى كمان

واتجه الغاياتى إلى معهد يسمى معهد (لانس) لتعليم اللغة العربية وعرض نفسه على صاحبه وعمل فى هذا المعهد لفترة وجيزة تعرف فيها على الأمراء عبد المنعم وعبد القادر أبناء الخديو عباس حلمى الثانى[٥٨] وكانا قد قدما إلى جنيف للاستزاده من الدراسة فى المعاهد الأوروبية ، شأنهم فى ذلك شأن كافة الأمراء من الأسرة المالكة . وكان من بين الطلبة المصريين الذين عرفهم الغاياتى فى جنيف أيضاً شاب وطنى آخر يدعى (الأمير العطار)[٥٩] سبق أن عرفه فى مصر قبل هجرته وكانت خطيبته السويسرية هى الواسطة فى معرفة الغاياتى بخطيبته السويسرية أيضاً والتى صارت زوجة له طيلة حياته .

وبعد زواج الغاياتى من تلك السيدة الأوروبية بدأ يتطلع إلى تعلم اللغة الفرنسية بدرجة أكبر ليتمكن من الالتحاق بالجامعة وتقدم للالتحاق بكلية العلوم الاجتماعية وقبل طلبه ، حيث أنه تخرج فى معهد دمياط الأزهرى التابع للأزهر الشريف وكان الأزهر فى ذلك الوقت يعد من أكبر الجامعات العربية . وانتظم

الغاياتى فى حضور المحاضرات . وكانت زوجته تساعده فى فهم اللغـة الفرنسـية وإيضاح ما يستعصى فهمه . وبعد دراسة ثلاث سنوات تمكن خلا لها من اسـتيعاب البرنامج المطلوب على أنه لم يتقدم للامتحان لأنه لم يستطع الوفاء بالتزاماته الماليـة بالنسبة للجامعة . وكانت الحرب العالمية الأولى قد قامت وقلـت مـوارده الماديـة نظراً لسفر أكثر تلاميذه إلى بلادهم ، وأيضاً لغلاء المعيشة[٦٠] .

وكان أن شرع الغاياتى فى مراسلة صحيفة الحزب الوطنى فى مصر حينذاك وهى (العلم) من مقر إقامته فى جنيف ، مقابل ثلاثة جنيهات فى الشـهر كـانت تساعده على مواجهة تكاليف الحياة هناك ، حتى يجد عملاً . ولكن لم يتلـق سـوى راتب شهرين فقط انقطع بعدها ورود الراتب إليه . وقد حزن حزناً شديداً ليس علـى انقطاع ذلك المورد المالى الهام ، ولكن لمعرفته سبب انقطاع تلك الجنيهات القليلـة إذ علم فيما بعد أن أحد الأشخاص اقترح للدفاع عن محمد فريد أن يقال أن الغايـاتى كان مدسوساً عليه من الحكومة ، ويبدو أن هذا الاقتراح الطائش وأن كان قد رفض إلا أن الألسن تناولته ، الأمر الذى أدى إلى البلبلة . وفى ظل هذا التشـويش رؤى أن يقطع صلة جريدة الحزب بالغاياتى ... (وهكذا يساء إلـى الأبريـاء برعونـة البلهاء) ، إلا أن الغاياتى استطاع أن يحصل على قوت يومه عن طريـق تدريـس اللغة العربية لبعض الشباب العرب الذين كانوا يطلبون العلم فى جنيف .

كان الغاياتى فى أوربا ولكن عينه كانت على مصر ، اسـتلهم منـها عشـقه الأول ، إذ أن لهيب الوطنية لا يزال مستعراً فى فؤاده لم تصرفه خطوبه ونوائبـه الذاتية عن استجلاء أخبار معشوقته بنت وادى النيل . كان دمعه يجـرى حـاراً إذا أصابتها المدلهمات رافعاً أكف الضراعة أن ينقذها من هذا الابتلاء العظيـم . ولـم تنل من وطنيته تلك الأقاويل المغرضة فكان يشارك بقلمه وأفكاره فيما يقيل وطنـه

من عشرته . وقد علم أنه بعد استقالة وزارة محمد سعيد وتشكيل وزارة حسين رشدى فى ٥ أبريل ١٩١٤ أن كثرت الفتن الحزبية والطائفية نتيجة تعدد الأحزاب فكتب مقالا إلى جريدة الأهرام تحت عنوان « الوحدة الوطنية المصرية»[٦١] يقول فيه :

« إننى أسألكم بحق مصر عليكم أن تدعو المصريين كافة إلى الاتحاد والوئام بدل الانقسام والخصام وتبينون لهم ضرر تعدد الأحزاب وتفرق الكلمة وتشيرون عليهم بأن يستبدلوا بهذه الأحزاب حزبا واحدا هو حزب الوحدة الوطنية الذى يجب على كل مصرى عاقل أن يعمل على إيجاده والانضمام إليه حبا فى مصر وإنقاذا لها من الهاوية التى رماها فيها رامى الخلاف والتفريق والتى لا يمكن خلاصها منها ما دامت على هذا الحال »[٦٢] .

وقد علق رئيس تحرير الأهرام (فى نفس العدد الصادر فى ٨ إبريل سنة ١٩١٤) بكلمة بليغة أقر فيها الغاياتى على ما كتبه حتى لا يتدخل الإنجليز فى كل صغيرة وكبيرة فى البلاد ولأن الوحدة الوطنية المصرية هى وحدها سفينة النجاة بل سلم الرقى والنجاح والإخلاص فمن أحب مصر عمل لها وحدها دون سواها ومن كان حربا عليها كان حربا على مصر لا يريد بها خيرا ولا يرعى فيها ذمة ولا آلا).

كانت البداية الحقيقية لعمل الغاياتى فى جنيف هى الاشتغال بالترجمة ومراسلة الصحف السويسرية التى كان أكثرها فى جنيف ، فعمل فى أكثر وأوسع صحفها مثل (تريبون دى جنيف) و (جورنال دى جنيف) و (لا سويس) كما راسل جريدة (جازيت دى لوزان) بمدينة لوزان وكانت تدفع له ثلاثين فرنكا عن المقال الواحد ولم يتوقف قلم الغاياتى فى الخارج عن التنديد بمن مالئوا الإنجليز وتواطئوا مع المحتل وداهنوا كبار الإقطاعيين . وهاجم الفساد الذى أخذ يستشرى فى الحياة الاجتماعية بين المصريين ويحثهم على النهوض لإزاحة المغتصب عن

أرض الوطن وتطهير تراب مصر الطاهر من الدنس والأوحال ، ولقد أصابت لعنة الوطنية التى اشتهر بها الغاياتى معظم الجرائد والصحف التى عمل بها فكانت السلطات المصرية لها بالمرصاد ومنعت دخولها إلى القطر المصرى (لأنها تنشر أموراً ماسة بكرامة ولى النعم)[٦٣] . ومع ذلك لم تسارع تلك الجرائد بفصل الغاياتى من العمل بها أو تجميد نشاطه الوطنى أو قصف قلمه بل ازداد قدرة ورسخت أقدامه وصارت تلك الصحف هى المورد المادى الثابت له إذ أصبح يتقاضىٰ من (تريبون دى جنيف) مرتباً شهرياً قدره ٣٠٠ فرنكا بعد أن كان يتقاضى مكافآت عن القطع التى يقدمها فقط للجريدة ، وقد ظل الغاياتى فى هيئة تحرير هذه الجريدة عشرة أعوام من ١٩١٤ – ١٩٢٤ وأصبح كسائر محرريها عضوا فى نقابة صحافة جنيف[٦٤] .

عندما قامت ثورة الشعب فى مصر عام ١٩١٩ تولى الغاياتى الدفاع عنها والدعوة لها فى الخارج الأمر الذى أثر تأثيراً بعيداً فى دخله المادى إذ قل ما كانت تنشره له الصحف السويسرية . وكان النشاط الصحفى محجوراً عليه فى مصر والخارج أبان الحرب العالمية الأولى كما أنه لم يكن هناك مجال لإصدار صحف مصرية فى أوربا خاصة بعد أن بدأت الحياة فى مصر تستقر فى الداخل وعندئذ أصدر الغاياتى لحسابه الخاص جريدة عربية فرنسية أطلق عليها بالعربية (منبر الشرق) وبالفرنسية (La Tribune d'orient) وكان رياض الصلح (رئيس وزراء لبنان بعد الحرب العالمية الثانية) قد اقترح عليه أن يسميها منبر العرب ولكن الغاياتى فضل أن تكون جريدة لسان حال حركات التحرير فى الشرق كله وكانت جريدة (تريبون دوريان) تجربة فريدة فى تاريخ الصحافة إذ كانت تصدر فى أربع صفحات ثلاث منها باللغة الفرنسية والرابعة بالعربية ولما لم يكن فى جنيف مطبعة عربية كان الغاياتى يكتب هذه الصحافة بخطه ثم تحفر على الزنكوغراف فإذا ما وقع فيها أى خطأ لم يشطبه بل يعيد كتابة الصفحة من أولها

إلى آخرها ، ويبدو أن هذا الجهد أضناه فاشترى حروف مطبعة عربية من ألمانيا وتولى بنفسه جمع حروف الصفحة العربية ولكنه لم يجد لهذه الصفحة العربية صدى عند العرب مثل الصفحات الثلاث الأخرى فاكتفى بإصدارها باللغة الفرنسية. وقد نمت الجريدة وترعرعت وانتشرت فى الشرق والغرب وبات لها اسم معروف لا سيما فى مركز عصبة الأمم . ويرجع نجاحها كما يقول صاحبها إليه وإلى بعض البيوتات التجارية فى جنيف والتى أمدته بإعلاناتها .

صدرت (منبر الشرق) بالفرنسية يوم الأحد ٥ فبراير سنة ١٩٢٢ ، ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٤٠ واستمرت تصدر فى انتظام حتى يوم الأربعاء ٢٦ مايو سنة ١٩٣٦ (١٦ ربيع أول سنة ١٣٥٦) وسط صعوبات مالية وسياسية بالغة الشدة صمد الغاياتى لها فى استبسال وصبر . ذلك أنه لم يلق من المصريين التأييد والمعونة الكافيين فى وقت كانت مصر فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الجريدة التى سما بها صاحبها فوق الخلافات الحزبية ، لتبقى خالصة للوطن ولمصلحة مصر ، وأن يكون الشرق للشرقيين . وقد أعلن الغاياتى فى صدر الجريدة أنها جريدة نصف شهرية أنشئت للدفاع عن حقوق الشرق الناهض تصدر بالعربية والفرنسية فى جنيف مركز جمعية الأمم ، وأن الاشتراك السنوى فى سويسرا هو عشرة فرنكات ، وفى الخارج عشرون فرنكا وحظيت شئون مصر السياسية والاجتماعية بالقدر الأعظم من أبواب الجريدة[٦٥] . وفى العدد الأول من الصفحة العربية يبين الغاياتى الهدف من إنشاء الجريدة بقوله « هى صحيفة شرقية همها الدفاع عن حقوق الشرق الناهض وتقريب المسافة بينه وبين الغرب ذى القوة والسلطان والبطش والعدوان . ولما كانت جنيف هى مركز جمعية الأمم ومرصد سياسة العالم فقد كان من الواجب فيها المبادرة بنشر تلك الجريدة لتحمل إلى هذه الجمعية المباركة ما قد لا تعلمه من آلام الشرقيين وآمالهم وتساعد على القيام بمعالم العدل ونشر لواء الإخاء والسلام بين الأمم والشعوب » .

أما المقالة الثانية للغاياتى فى الصفحة العربية من العدد الأول الصادر فى ٥ فبراير ١٩٢٢ فكانت تحت عنوان (سعد باشا) حيث كان سعد زغلول فى منفاه مع خيرة صحبه ، وكيف استقبله شعب وادى النيل قبل عشرة أشهر . ثم ينظم فيه قصيدة طويلة يقول فيها :

نظموا فيك أيها العلم دررا قيل أنها كلم

وهل عندى أجل جوهرة حملت تاج مصر لو علموا

بك يا سعد هام شاعرهم مثلما هام النيل والهرم

وجرت فيك من قصائدهم أبحر من النور والحكم

طال عهدى بموقف الشعرا ء وبينى وبينهم ذمم

أن نسونى فما نسيتهمو أو جفونى فما جفوتهمو

إن أمت أو أعيش بقيت على العهد أشقى به وقد نعموا

هيج النفس ذكر مصر فبا ت عصى القريض ينتظم(٦٦)

وقد ظهرت (منبر الشرق) فى وقت كانت المنطقة العربية تغلى كالبركان تحت وطأة قرارات التقسيم التى شملت معظم الشرق العربى من جراء اتفاقيات سايكس بيكو وسان ريمو بين الدول الاستعمارية الكبرى . ولم يكن ثمة متنفس للحريات سوى تلك الرئة فعن طريق جريدة الغاياتى أمكن للعديد من صيحات الاستنكار أن تصل إلى أوربا . ويعلق على ذلك أحد الشباب العرب عندما أرسل بمقال إلى (منبر الشرق) قائلاً : « لقد أجابنى على الغاياتى بإن الجريدة جريدتكم والمنبر منبركم ومنبر كل شرقى وعربى يعمل للشرق وللعرب ... لقد كانت مصر فى هوجاء اضطرابها السياسى ومعمعة حركتها الوطنية ، وكانت سوريا مسرحاً لحوادث دامية ، وكان لبنان غارقاً إلى قمته فى سياسة قائمة على الأحلام والأوهام،

وكان العراق ينتقل من ثورة إلى ثورة . في ذلك الوقت العصيب صدرت جريدة منبر الشرق في ١٩٢٢ في جنيف فكانت أشهر الصحف للآراء الوطنية وصفحاتها ميدانا لتلك الأحاديث ، تفتح صدر صفحاتها لحملة الأقلام من المشتغلين بالسياسة المصرية والشرقية(٦٧) .

وهكذا ظل الغاياتي يناضل بقلمه خارج الوطن ، وينفعل مع الأحداث التي تدور داخل مصر ، فيكتب عنها مهاجما الخلل ومظاهر الضعف مؤيداً ومشجعاً ما يستحق التأييد ، ثم لا يفتأ يقوم بعقد الندوات الطوال للمصريين والعرب ، لشرح وتفسير ما ينغلق من الأحداث السياسية على الساحة العربية ، ولم يمض وقت طويل حتى صار الغاياتي من ألمع الصحفيين العرب بل لقد حقق لنفسه شهرة تفوق نظرائه من الأوربيين ، فكان المتحدث الرسمي بلسان العرب وغدت (منبر الشرق) بمثابة وكالة أنباء رسمية احترمتها الصحف الأخرى نظراً لمكانة صاحبها وصلاته الوثيقة برجالات (عصبة الأمم) في جنيف . ويقول (أحمد حسين) (مصر الفتاة)(٦٨) عن جنيف ومكانة الغاياتي فيها بأنها (كانت بحق عاصمة العالم الدولية فهي مدينة المؤتمرات لا ينفض فيها مؤتمر حتى ينعقد مؤتمر ولا يغادرها عظيم من رؤساء الحكومات أو وزراء الخارجية أو كبار الكتاب حتى يفد عليها عشرات من هذا الطراز) وكان أحمد حسين قد أعد رسالة ليقدمها إلى سكرتارية عصبة الأمم عن طريق الغاياتي فكان إذ ذاك موضع ترحيب وإجلال من كل موظف هناك، وكان الناس يحيونه في الطريق تحية الحب والتقدير ... وما أن سلم الغاياتي هذه الرسالة إلى مندوب وكالات الأنباء حتى نشرت في عشرات الصحف والمجلات ، وأصبحت دار الغاياتي هي « السفارة المصرية » يقصدها المصريون والعرب على اختلاف مشاربهم ودياناتهم ويفد إليها أصحاب الحاجات ومحترفي السياسة والوطنية . وكان الغاياتي يسرف في الحفاوة بزواره وقاصديه خاصة أبناء وطنه ويتفانى في تقديم الخدمات لهم . وعلى الرغم من غربة هذا

السياسى الغيور إلا أن صورة مصر لم تبارح فؤاده أو عينيه ، فلا ينفك يحدث رفاقه عن مصر ونيلها ، فإذا سمع غناء مصريا هطلت الدموع من عينيه فاجتاحته نوبات الحنين[٦٩].

ولم تنج (منبر الشرق) الجنيفية من اضطهاد السلطات المصرية ، فمنعتها من الدخول مثل غيرها من الصحف التى عمل فيها الغاياتى من قبل ، وجاء فى نص قرار وزير الداخلية (إن جريدة تريبيون دوريان) التى تطبع بمدينة جنيف تنشر فيما يتعلق بمصر وحكومتها وولى أمرها أخبارا تتعمد فيها تشويه الحقائق تشويها من شأنه تضليل الأفكار والإخلال بالأمن والنظام العام . وبناء على المادة ١٧ من قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ وعلى قرار مجلس الوزراء الصادر فى ٢ مارس ١٩٠٩ تقرر منع دخول الجريدة المذكورة وعدم تداولها وبيعها فى القطر المصرى[٧٠] .

ولم يكن قرار منع جريدة الغاياتى من دخول مصر بالأمر السهل أو اليسير على نفسه ، إذ شق عليه أن تقابل جهوده فى الخارج بمثل هذا الإنكار ، كما حزن كثيرا لقطع صلة الهمز بينه وبين أبناء وطنه وساءه أن ينصرف عنه معظم الوطنيين من الساسة والصحفيين الذين بدءوا يتخذون من سياسة الحياد الإيجابى سبيلا لهم بعد أن توصلت سلطات الاحتلال إلى اتفاق ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذى كان ظاهره مصلحة مصر والمصريين وباطنه تمكين بريطانيا من إحكام قبضتها على البلاد . ومع ذلك استمر الغاياتى فى تأدية رسالته القومية تجاه مصر خارج الحدود، موضحا مساوئ تلك الاتفاقية وليكشف زيف وأباطيل قادة بريطانيا ، ثم يوجه الدعوة من جديد للمصريين لاستنهاض هممهم مستعيدا ذكريات ثورة ١٩١٩، ويحيى رموزها الوطنية ثم يوجه العتاب إلى حكام مصر وإلى الباب العالى كى يتمسكوا بحقوقهم فى السيادة الفعلية على البلاد . وفى محاولة يائسة من الغاياتى كى تفتح مصر ذراعيها لقلمه يقول فى التماس بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٢٧ (إن

جريدتي منبر الشرق التي أصدرها هنا (جنيف) منذ ستة أعوام هي صوت مصر الوحيد الذي يرتفع في جو أوربا وصحيفة المصريين الفذة التي تنشر في الغرب وفي جنيف مركز جمعية الأمم ... هذه الجريدة التي يجدر بالمصريين وحكومتهم السنية تشجيعها ومعاضدتها أصبحت اليوم في أزمة شديد من جراء الإهمال المعيب التي صادفته من ذوي الشأن بمصر)[٧١] وفي التماس آخر في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٧ يستحلف الغاياتي حكام مصر بترابها الغالي أن يتركوا الباب مواربا لإسماع صوته ويرجوهم في إباء وكبرياء اتصال ما انقطع فقط (أما الصحيفة فليست في حاجة إلى العون المادي)[٧٢] .

وبعد انقضاء ثلاث سنوات على الحكم الصادر ضد الغاياتي وسقوط العقوبة عنه ، جرفه الحنين لزيارة مصر ، فعرض على بعض الصحف السويسرية أن يكتب تحقيقاً عن الحالة في منطقة قناة السويس – وكانت آنئذ ميداناً هاماً من ميادين القتال في الحرب العالمية الأولى – فرحبت تلك الصحف بذلك الاقتراح ، وأذنت له السلطات المصرية بالدخول . ولكن بعد سبعة أيام تم إلقاء القبض عليه وأخرج منها، وهو لا يدري لماذا سمحت السلطات البريطانية بدخوله البلاد إذا كانت تشك في نواياه . ولما عاد الغاياتي إلى جنيف شن حملة شديدة على حسين رشدي رئيس الحكومة فأرسل إليه رشدي يقول : « إن صدري معرض للرصاص ، فلا تهمني حملات الأقلام »ولما تقابل الغاياتي مع رئيس الحكومة المصرية قال له أن المصريين يتهمونك بأنك خنت ولي نعمتك الخديو عباس حتى تم عزله ، فقال رشدي بل إن الخديو رفض العودة من استانبول دون إيعاز مني . فقال له الغاياتي : « ها أنت تتهم بالباطل فتغضب وأنت تصدق ما ينسب إلى من تهم بلا سند ولا دليل »[٧٣] .

أما المرة الثانية التي حاول فيها الغاياتي زيارة مصر فكانت في عام ١٩٣٣ وفيها اصطحب كبرى بناته (جميلة) ، وقد أمضى في الزيارة الثانية شهراً قضاه

على ضفاف النيل فلما غادرها بكاها وطار فؤاده شوقاً إليها وهاله ما رأى فيها من سوء الأحوال السياسية الحزبية فأنشد يقول :

وما الأحزاب مسعدة — ولا زعماؤها الكثر
إذا ما طاب للباغى — بمصر الكر والفر
فلا الدستور فى أمن — ولا الوزراء والقصر
ولا استقلال فى بلد — به العادون قد قروا
ولولا أننا شيع — يحارب شطرنا الشطر
ما أضحى لهم ظل — ولا أمسى لهم ذكر(٧٤)

عودة الغاياتى إلى مصر :

بعد أن قبلت مصر عضوا فى عصبة الأمم خيل للغاياتى أن دوره فى أوربا قد انتهى ، وأن بلاده قد تكون فى حاجة إليه ، فقرر العودة نهائياً مع أسرته بعد غربة استمرت ٢٧ عاماً . وكان الأمل معقوداً على أن يعمل فور عودته بوظيفة حكومية فى وزارة الخارجية . ويبدو أن على ماهر رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت وعده بتعيينه فى السلك الدبلوماسى ثم تهرب من هذا الوعد ، فطلب منه الغاياتى فى التماس له (بضرورة الوفاء بما قطعه على نفسه)(٧٥) . ولكن الغاياتى لم يكتب له النجاح فى هذا السبيل لأسباب كان يعلمها الاحتلال واذناب الاحتلال(٧٦) . وكان أول مقال كتبه بعد وصوله إلى مصر تحت عنوان (الملك المحبوب) . وعلى الرغم من أن المقال كان تهنئة وثناء على الملك إلا أنه لم يكن مدحاً ولا نفاقاً وإنما كانت تغشاه روح الانتماء للنيل والوطن(٧٧) .

تقدم الغاياتى للحكومة – وكانت وفديه – آنذاك بطلب للترخيص له بإصدار صحيفة ، إلا أن هذا الطلب قوبل بالرفض ، ثم شاءت الأقدار له أن يصبح محرراً

ثم رئيساً لتحرير جريدة السياسة اليومية فى عهدها الجديد ، فكتب افتتاحيـــة العـــدد الأول ، وواصل نشر بعض المقالات ، وقد أراد فيها أن يكون مصريـــاً مســـتقلاً ، ولذلك لم ترق تلك المقالات لبعض الناس فانقطع عن كتاباته مكتفياً بتحريـــر بـــاب السياسة الخارجية (نظرة عامة فى سياسة العالم) بتوقيـــع ع. غ.[٧٨] . واهتمـت الصحف الأوربية فى مصر بتلك المقالات وترجمتها لقرائها موضحة ما يرمى إليـه الغاياتى من الأغراض الوطنية النبيلة .

وقد تجسدت وطنية الغاياتى بعد عودته للوطن فى التصدى لأدعياء الوطنيـــة والخونة وأحزاب النفاق . ففى مقال له بعنوان (ما هذه الوطنيـــة ؟) نـــراه أكـثر جـــرأة وحباً لمصر فيقول : « ما عجبت لشئ منذ عدت إلى بلاد العجائب مصـــر العزيـــزة عجبى لقوم يزعمون أن الوطنيـــة وقف عليهم ، ويرمون ســـواهم بكـل عيب ، ويتهمونهم بكل تهمة ، ثم يكونون هـــم أبعد الناس عن الوطنية الصحيحـــة التى تعمل كثيراً وتتكلم كثيراً كما وصفها بحق قاسم بك أمين »[٧٩] .

وتحت عنوان (التعاون مع الأجانب)[٨٠] يحذر الغاياتى الذين يذهبون إلـــى أوربا من المصريين من الانحراف فى تيار التغريب وطمس الهوية القومية وخيانـــة الأمة فيقول « أن الكثيرين منهم يعودون أسوأ حالاً من قبل إن لم يكن فى الـــدرس والتحصيل ففى الخلق والسلوك والفقر فى الوطنية . والعلم إذ طغى على الأخـــلاق فهو لا خير فيه بل هو شر من الجهل » .

تقدم الغاياتى فى عهد وزارة النحاس إلى إدارة المطبوعات بوزارة الداخليـــة يطلب رخصة لإصدار جريدة سياسية أدبية جامعة يكون هـــو صاحبـــها ورئيـــس تحريرها ، وذلك فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٧ أى بعد عودته إلـــى مصـــر بأربعـــة شهور[٨١] . ولكن طلبه رفض[٨٢] وفى عهد وزارة محمد محمود باشا ووفق علـــى طلبه وقام بدفع الضمان وهو ١٥٠ جنيها صديق له يدعى أحمد خليل المـــهندس[٨٣] وفى يوم الجمعة ٦ ربيع أول سنة ١٣٥٧ ، ٦ مايو سنة ١٩٣٨ صدر العـــدد الأول

من (منبر الشرق) شعارها الشرق للشرقيين جريدة مصرية مستقلة أنشئت في جنيف وقد كتب الغاياتي على رأسها هذين البيتين :

باسم الكنانة باسم شعبي ناهض   لا باسم أحزاب ولا زعماء

كل يزول وينتقص أما الحمى   فوديعة الأباء للأبناء

كانت هناك قضايا أخرى هامة تبناها على الغاياتي إلى جانب القضية المصرية في « منبر الشرق » منها الوحدة العربية والإسلامية وقضية فلسطين وكانت هناك أسماء لامعه تشاركه الرأى والكلمة الحرة الشريفة منها : كامل كيلاني، عبد المنعم الصاوى ، عبد الحميد جودة السحار ، الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد غلاب ، وغيرهم . وكانت الوطنية بمفهومها الواسع سواء على المستوى المحلى أو الإقليمى هى الشغل الشاغل للغاياتي فلم يصدر أى عدد من «منبر الشرق» إلا وكان يزينه بمقال عن الوطنية سواء له أو لغيره من الكتاب اللامعين أو المغمورين الذين فتح لهم أبواب جريدته ليبثوا من خلالها آراءهم السياسية . ففى إحدى افتتاحيات الجريدة يقول تحت عنوان « إيمان ووطنية » « ... الوطنية قبس من نور الإيمان فإذا تمكنت من الفؤاد أتت بالمعجزات ، ودفعت صاحبها إلى القول وإلى العمل فى جميع الأوقات وكل الساعات »[٨٤] ويترك الغاياتي منبر الشرق ساحة يتبارى فيها فرسان الوطنية دون رقيب عتيد ، فينشد أحدهم قائلاً : « ليست الوطنية أن تقول إنى وطنى ولكن الوطنية أن تفهم حق وطنك عليك فإن قلبت صفحات التاريخ هل تجد من بينها أمة غزت بلسانها أو انتصرت ببيانها بلا عمل أو جهاد ؟ إن مصر ضعيفة فى اجتماعها ، ضعيفة فى اقتصادها ، متحللة فى سياستها ... يا شباب مصر فلتكن غايتكم الأولى أن تنهضوا بمصر التعسة حتى تتبوأ مقعدها فى علياء المجد »[٨٥] .

كانت قضية العرب والعروبة من بين المسائل الهامة التى أفرد لها الغاياتي مساحات واسعة فى جريدته فلم يتقاعس لحظة فى الهجوم على الاستعمار بأشكاله

المختلفة فكتب تحت عنوان « مهزلة الاستعمار فى لبنان » يقول « إن الذين يقولون إنهم يحاربون فى سبيل حرية الأمم (يقصد بذلك فرنسا) أنهم مخطئون ، أن فرنسا تريد استبقاء الاستعمار الظالم فى بلد كلبنان له من السيادة ومن الحرية أكثر مما لفرنسا نفسها فى الوقت الحاضر . ولكن لبنان لن يقف فى منتصف الطريق سيستمر إلى الإمام بفضل السياسة الوطنية التى يتبعها رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ومن معهما ، وهى سياسة قومية عربية عالمية[٨٦] ويندفع الغاياتى فى حملة شرسة ضد سلطات الاحتلال الفرنسى عند قيامهم باعتقال رئيس جمهورية لبنان والوزراء فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٣ « أنه يجب الاعتراف باستقلال لبنان فورًا وكذلك استقلال سوريا . وإذا كان المستعمرون الفرنسيون يمنعون سريان هذه الروح إلى الجزائر وتونس والمغرب ، فإنا نقول لهم بلسان عربى إن هذه البلاد جميعها يجب أن تنال الاستقلال عملاً بحق تقرير المصير ، وأن مصر لا يقر لشعبها قرار إلا إذا عاد الحق إلى نصابه فى جميع هذه الأرجاء تحت الوحدة العربية[٨٧] . وحظيت قضية فلسطين أيضًا باهتمام الغاياتى كجزء من وحدة القضايا العربية والإسلامية فتحت عنوان « العرب أمام الصهيونية »[٨٨] يطالب بالتمييز بين اليهود الفلسطينيين القدماء وبين غيرهم من اللاجئين والمهاجرين التابعين لجماعة الصهيونية ... ويستطرد فيقول ولا يسع العربى المؤمن إلا أن يواصل الجهاد من أجل عودة فلسطين إلى أحضان العروبة والإسلام[٨٩] ثم يكتب تحت عنوان « يجب زوال إسرائيل » يؤيد الفتوى التى أصدرتها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف والتى تحرم فيها الصلح مع إسرائيل وتزويد المجاهدين بالسلاح من أجل استردادها[٩٠] كانت قضية حق تقرير المصير بالنسبة للشعوب من الأمور التى تؤرق الغاياتى ، فكانت رؤيته الذاتية تقوم على ضرورة احترام العلاقات الدولية المتبادلة. فكتب تعليقاً على ما نادى به الرئيس روزفلت من وجوب وضع قانون تحترمه الدول فى علاقاتها الخارجية (لكن القانون ليس هو كل شئ وليس هو وحده الكفيل بالأمن والاطمئنان وتحقيق السلامة والحرب والاستقلال لجميع الشعوب)[٩١] ثم

بالأمن والاطمئنان وتحقيق السلامة والحرب والاستقلال لجميع الشعوب)[٩١] ثم يعارض التكتلات الدولية منادياً بنبذ الحروب وتعميم الرخاء فيكتب عن المؤتمر الذى عقد فى القاهرة من أجل وضع حد للتوتر الدولى (إن الرئيس روزفلت والمارشال شياغ كايشيك والمستر تشرشل قد أتموا المؤتمر الذى عقدوه ، وهو مؤتمر شمال إفريقية ، وذلك من أجل الهجوم النهائى على اليابان . ومما لا ريب فيه أن فكرة القضاء على سياسة الفتح والاستعمار فى أية قارة وبأى شكل تقابل منا بالتأييد. وقد كنا فى جنيف من خصوم هذه السياسة ولطالما استنكرناه فى هذه الجريدة . ولما رأينا اعتداء اليابان على الصين سنة ١٩٣٢ ناصرنا الصين وناصرنا فيها مبادئ عصبة الأمم .. وقد دافعنا كذلك عن كوريا واتصلنا ببعض زعمائها والمجاهدين من أبنائها ، كما كنا ندافع عن بلاد العروبة سواء بسواء لأن الظلم واحد والاستعمار واحد والإنسانية واحدة »[٩٢] .

لم يكن الغاياتى ذا النفس العالية والإيمان المتدفق بحب الوطن يضمر بغضاً أو حقداً لأى من خصومه السياسيين حتى أولئك الذين باغتوه بفتح النار عليه والتنديد بوطنيته وتسببوا فى خروجه من دياره ، ولم يجدوا منه إلا كريم الخلق ورجاحة العقل فها هو يكتب راثيا الشيخ على يوسف فى ذاكره الثلاثين (أنه منشئ مدرسة السياسيين الأولى ... وهو أول من رفع صوته فى الجمعية العمومية مطالباً بالدستور فى ١٩٠٤ ، ١٩٠٧ لقد عرفناه فى سنته الأخيرة عن كثب وراسلنا جريدته مدة من جنيف حيث التقينا به لآخر مرة فى ١٣ أغسطس ١٩١٣ . ولما وافانا نعيه من القاهرة بعد ذلك ببضعة أسابيع رثيناه مع الراثين . ونحن اليوم نكور الرثاء موجهين نظر الخلف الناهض من الصحفيين إلى وجوب تكريم السلف الصالح من أعلام الصحافة والوطنية »[٩٣] .

وليس أدل على ما تحلى به الغاياتى من وطنية عالية وبعد نظر جحده الجاحدون وغمطه الحاقدون من اعتراف خصومه من رجالات الأزهر بصحيح

المبادئ التى جند قلمه وروحه من أجل الدفاع عنها ، ولقى فى سبيلها كل عناء وشقاء مضحيا فى سبيل رفعة مصر وإعلاء كلمتها فى الداخل والخارج بكل غال ، فيقول الشيخ محمود شلتوت من هيئة كبار العلماء والمدرس بكلية الشريعة فى ذلك الوقت :

« تحية مخلصة من رجل يقدر إيمانك ووطنيتك . وليس الناس بحاجة إلى إقامة شاهد على تبوئك تلك المنزلة السامية ، فكل الناس يعرفون الشيخ على الغاياتى ، وكيف أخرج من دياره وأمواله بغير حق ، إلا أن يقول وطنيتى وطنيتى ... أنشأ له مملكة إسلامية فى بلاد لا تدين بالإسلام .. وأخذ وهو فى بيئته الجديدة يرسل دعوته الصافية الصادقة عن طريق « منبر الشرق » بلغة القوم « أى الفرنسية » ففتح للإسلام عيونا . وظل يكافح حتى عاد إلى بلاده فآب إليها يحمل نفس القلم ، وزاد فى إشراق قلبه ذلك المجهود الجبار الذى كان يبذله عن إخلاص فى سبيل وطنه ودينه فى بلاد لا تؤمن بوطنية فى مصر ولا بسعادة فى الإسلام»[٩٤] .

وفى ٢٧ أغسطس ١٩٥٦ – فى عهد الثورة – تقرر وقف إصدار جريدة «منبر الشرق» وشطب اسمها من قائمة الصحف المصرح بإصدارها فى مصر[٩٥]. وكان الغاياتى قد ارتفعت روحه قبل ذلك بأيام معدودة فلم يشهد تلك الخاتمة المؤلمة لذلك المنبر الذى كان فى حقيقة أمره قلعة لحرية الشرق ، وحرية العرب ، وحرية مصر .

الهوامش

(١) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة المصرية ، جـ٤ ص ٣٦٦ ، بيروت ، المطبعة الأمريكانية ١٩٣٣ .

(٢) محمد طاهر الجبلاوى : على الغاياتى ، فصل من كتب (خمسة من شعراء الوطن)، ص ٢٧٨ ، القاهرة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، جـ٤ ، ص ١٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٠ .

(٤) على الغاياتى : وطنيتى ، ص ١٦ ، الطبعة الأولى ، ١٩١٠ .

(٥) محمد طاهر الجبلاوى : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٦) فتحى رضوان : عصر رجال ، ص ٣٠١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٦٧ .

(٧) جريدة منبر الشرق ، عدد ١١ فى ١٩ أغسطس ١٩٣٨ ص ٥ مقال بعنوان (ذكريات قديمة منذ ثلاثين عاما) .

(٨) جريدة الجوانب المصرية ، ص ١ ، ٢ العدد ١٣١٥ فى ١٤ يونيه ١٩٠٧ مقال بعنوان (لا يعدم الحق انصارا) .

(٩) المصدر السابق ، ص ٣ ، عدد ١٣٦٥ فى ١٢ أغسطس ١٩٠٧ .

(١٠) على الغاياتى : وطنيتى ، هامش ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(١١) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ، ص ٣٥ ، جـ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٤ .

(١٢) فتحى رضوان : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(١٣) د. عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة فى مصر ، ص ٩١ - ١١٠ ، القاهرة دار الفكر العربى ١٩٥٧ .

(١٤) اللواء ، العدد (٢٨٨٥) ، ص ٦ ، ١٦ فبراير سنة ١٩٠٩ .

(١٥) اللواء ، العدد ٢٩١٥ ، ص ٦ ، ٢٥ مارس ١٩٠٩ .

(١٦) اللواء : العدد ٣١٦٠ ص ٥ ، ٦ يناير سنة ١٩١٠ ، يقصد بإسماعيل هنا (إسماعيل باشا أباظة) النائب عن مديرية الشرقية في مجلس الشورى .

(١٧) اللواء : العدد ٣١٦٤ ، ص ٥ ، ١٠ يناير ١٩١٠ .

(١٨) اللواء : العدد ٣١٨٥ ، ص ٥ ، ٣ فبراير سنة ١٩١٠ .

(١٩) اللواء : العدد ٣١٩٠ ، ص ٥ ، ٨ فبراير سنة ١٩١٠ .

(٢٠) اللواء : العدد ٢٨٨١ ، ص٢ ، ١٥ فبراير سنة ١٩٠٩ .

(٢١) فتحى رضوان ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص٣٠٥ .

(٢٣) على الغاياتى : المرجع السابق ، ص٧ ... نعتمد هنا على الطبعة الأولى من الديوان والتى صدرت عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م .

(٢٤) د. أحمد هيكل : المرجع السابق ، ط٤ ، ص٦٠٩ - ٦١١ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٣ .

(٢٥) فتحى رضوان : المصدر السابق ، ص٣٢٦ .

(٢٦) د. مختار الوكيل : على الغاياتى (فصل من كتاب خمسة من شعراء الوطنية)، ص٣٠٢.

(٢٧) جريدة المؤيد ، فى ١١ يوليو سنة ١٩١٠م .

(٢٨) جريدة اللواء ، العدد ٣٣٢٠ ، فى ٦ يوليو ١٩١٠م .

(٢٩) على الغاياتى ، المرجع السابق ص٨ .

(٣٠) يقصد بذلك (على الغاياتى) النازح من خارج القاهرة .

(٣١) على الغاياتى : المرجع السابق ص ٨ ... يقول الغاياتى فى كتابه أن توقيع (محمد فريد باشا) قد أخذ بالزنكوغراف عن خط يده بنفسه وكذلك توقيع الأستاذ الشيخ (عبد العزيز جاويش) المذيلة مع كلمتهما فى صدر (وطنيتى) .

(٣٢) جاء وصف هذا الوسام فى أحد هوامش الكتاب وهو مؤلف من ثلاث قطع وقد نقش على الأولى رسم الأهرام وكتب تحت الرسم (تذكار الشعب إلى الشيخ عبد العزيز جاويش) ، والقطعة الثانية أكبر حجماً رسم عليه نبات كان يتخذه

القدماء رمزاً للنصر ونقشت فيها هذه الآية الكريمة (لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم)، والقطعة الثالثة هلال في وسطه ثلاث نجوم وقد شبكت القطع الثلاث بوشاح من الحرير الأحمر والأبيض مرصعة بالأحجار الكريمة .

(٣٣) على الغاياتى : المرجع السابق ، ص ١١٢ من الديوان .

(٣٤) المصدر السابق : قصيدة بعنوان (الدستور العثمانى إلى أمير المؤمنين) ص ٤٢ .

(٣٥) جريدة اللواء : عدد ٣٣٤٦ ، ص ٥ ، فى ٦ أغسطس سنة ١٩١٠ .

(٣٦) اللواء : العدد ٣٣٤٧ ، ص ٢ ، ٣ ، ٤- ١٧ أغسطس ١٩١٠ .

(٣٧) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية ، ط٣ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٢ .

(٣٨) المصدر السابق : ص٢٧٠ ، ٢٧٧ .

(٣٩) د. إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٨١ ، جـ٤ ، ص٢٠١ ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٨٢ - (العلم) فى ٢٧ / ١ / ١٩١١ - (المقطم) فى ٢٣ / ١ / ١٩١١ .

(٤٠) المرجع السابق ، ص٣٠٣ .

(٤١) أنور الجندى : تطور الصحافة العربية فى مصر ، ص١٩٦ ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٩٦٧ .

(٤٢) يقصد من ذلك الأناشيد الوطنية الفرنسية ومنها نشيد (المارسلييز) .

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٤٤) المرجع السابق ، الصحيفة الألمانية يجبت شاناخرشتن ، ٢٣ يناير ١٩١١ .

(٤٥) الأهرام ، ص ٥ ، ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ .

(٤٦) كانت النسخة من وطنيتى تباع بمائة قرش فى السنوات التى تلت مصادرة الديوان وعند عودة الغاياتى إلى مصر وسقوط الحكم الصادر ضده قرر أعاده نشر الكتاب فجعل سعره عشرين مليما فقط مضاف إليه عشرة مليمات إذا أريد إرساله بالبريد - جريدة منبر الشرق ، ص ٣ ، ٢٦ مارس سنة ١٩٤٣ ،

إعـــــلان عن ديوان (وطنيتى) .

(٤٧) جريدة منبر الشرق ، ص ٥ ، فى ٨ يناير سنة ١٩٤٣ ، رسالة مـــن (ذو الفقــار مهران) المدرس بالتربية النسوية بباب اللوق يعلق فيها على ديوان (وطنيتى) .

(٤٨) أحمد شفيق باشا : مذاكراتى فى نصف قرن ، القسم الثانى من الجزء الثـــانى ، ص ٢٣١ ، القاهرة مطبعة مصر ١٩٣٦ .

(٤٩) أرثر أدوار جولد سميث ، الحزب الوطنى المصرى ، ٢٢٣ ، القاهرة الهيئة العامــة للكتاب ١٩٨٣ .

(٥٠) إبراهيم عبده : المرجع السابق ، ٣٠٦ .

(٥١) فتحى رضوان المرجع السابق ص ٦٥ .

(٥٢) دار الوثائق : محفوظات مجلس الوزراء ونظارة الداخلية ، صحافـــة ومطبوعـات مختلفة ١٨٧٨ - ١٩٢٣ .

(٥٣) د. يونان لبيب رزق . الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطـــانى فـى مصر ١٨٨٢ - ١٩١٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠ .

(٥٤) جريدة (منبر الشرق) ، ص ٨ ، العدد الثامن فى ١٩ يوليو سنة ١٩٣٨ .

(٥٥) منبر الشرق ، المرجع السابق .

(٥٦) يبدو أن محمد فريد حث الشيخ الغاياتى على ترك استانبول خشيه اســتصدار أمـر بالقبض عليه وترحيله إلى مصر لتنفيذ الحكم الصادر ضده .

(٥٧) فتحى رضوان ، المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

(٥٨) كان الخديوى عباس حلمى الثانى قد عزل من حكم مصر ثم تولى بعــده السـلطان حسين كامل يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

(٥٩) كان كل من (الأمير العطار) و (وخليل مدكور) هما شاهدى عقــد زواج الشـيخ على الغاياتى من زوجته السويسرية .

(٦٠) مختار الوكيل ، المرجع السابق ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٦١) إبراهيم عبده ، جريدة الأهرام تاريخ وفن ، ص ٣٣٥ ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٤ .

كانت الأحزاب الموجودة على الساحة السياسية فى مصر هى : الإصلاح على المبادئ الدستورية ، الوطنى ، الأحرار ، الدستورى ، النبلاء ، المصرى ، الأمة راجع د. يونان لبيب ، المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٧١ .

(٦٢) جريدة الأهرام ٨ أبريل ١٩١٤ .

(٦٣) دار الوثائق : محافظ عابدين ، محفظة رقم ٦٠٠ ، قصاصات وجرائد عربية ١٩٠٨ - ١٩٤٦ بشأن منع جريدة (لا سويس) فى ١٨ يوليو ١٩٢٢ ومنع جريدة (تربيون دى جنيف) من دخول القطر المصرى لأنها نشرت مطاعن ماسة بكرامة ولى الأمر ، فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٢ .

(٦٤) منبر الشرق ، ص ١ ، العدد ٢٣٠ ، فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٤٢ .

(٦٥) منبر الشرق ، العدد ١٣٨ ص ١ ، ٧ فبراير سنة ١٩٤٠ .

(٦٦) د. مختار الوكيل : المرجع السابق ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٦٧) منبر الشرق ، فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٣ ، رسالة من أحد المواطنين العرب للجريدة بتوقيع ح. ج.

(٦٨) فتحى رضوان ، المرجع السابق ، ص ٣٩٩ .

(٦٩) د. مختار الوكيل : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٧٠) دار الوثائق : محفوظات مجلس الوزراء ، نظارة الداخلية ، صحافة ومطبوعات مختلف ١٨٧٨ - ١٩٢٣ .

(٧١) دار الوثائق : محافظ عابدين ، محفظه رقم ٦٠١ ، جرائد ومجلات عربية من ١٩٠٨ - ١٩٦٤ التماس من على الغاياتى إلى السلطات المصرية .

(٧٢) المصدر السابق ، التماس من الغاياتى إلى الحكومة المصرية بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٢٧م .

(٧٣) د. مختار الوكيل : المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(٧٥) دار الوثائق : محافظ عابدين ، محفظه رقم ٦٠٠ قصاصات جرائد عربية ١٩٠٨ - ١٩٤٦ خطاب من على الغاياتى إلى على باشا ماهر فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٨ .

(٧٦) منبر الشرق ، ص ١ ، عدد ٨٦١ فى فبراير سنة ١٩٥٦ .

(٧٧) جريدة الجهاد ، فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧ .

(٧٨) جريدة السياسة ، ص ١ فى ٢ أبريل سنة ١٩٣٨ .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ١ ، فى ٣ أبريل سنة ١٩٣٨ .

(٨٠) جريدة السياسة ، ٦ أبريل سنة ١٩٣٨ .

(٨١) وزارة الداخلية : إدارة الصحافة والمطبوعات ، دوسية رقم ١١ ، ٢٩٢/٢ الخاص بجريدة منبر الشرق مستند رقم ٣ .

(٨٢) جريدة البلاغ ، فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٧ .

(٨٣) الهيئة العامة للاستعلامات ، إدارة الصحافة والمطبوعات ، سجل رقم ١٠ لقيد الصحف المصرح بإصدارها فى مصر تحت مسلسل رقم ٥٠٩

(٨٤) منبر الشرق ، عدد ٢٤٧ ، فى ٢ إبريل ١٩٤٣

(٨٥) منبر الشرق ، ص٣ ، ١٦ إبريل سنة ١٩٤٣ مقال تحت عنوان « الوطنية » بتوقيع سعيد محمد رمضان كلية حقوق القاهرة .

(٨٦) منبر الشرق ، ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٣ .

(٨٧) المصدر السابق ، ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، افتتاحية بقلم الشيخ الغاياتى تحت عنوان « قضية العرب والعروبة » .

(٨٨) العدد السابق ، عد ٨١٥ ، ٢١ يناير سنة ١٩٥١ .

(٨٩) المصدر السابق ، عدد ٨٥٨ ، فى ١٣ يناير سنة ١٩٥٦ .

(٩٠) المصدر السابق ، فى ٧ مايو ١٩٤٣ ، افتتاحية الجريدة بقلم على الغاياتى تحت عنوان « القانون والعلاقات الدولية » .

(٩١) المصدر السابق ، فى ٧ ديسمبر ١٩٤٣ ، افتتاحية بقلم الغاياتى تحت عنوان (مؤتمر القاهرة) .

(٩٢) المصدر السابق ٢٢ أكتوبر ١٩٤٣ افتتاحية العدد (ركن الذكريات) بقلم الغاياتى في رثاء الشيخ على يوسف .

(٩٣) المصدر السابق في ٧ ديسمبر ١٩٤٣ افتتاحية بقلم الغاياتى تحت عنوان « مؤتمر القاهرة » .

(٩٤) منبر الشرق ، ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٣ رساله فضيلة الشيخ محمود شلتوت إلى «على الغاياتى» صاحب الجريدة ملحوظة تولى الشيخ شلتوت مشيخه الأزهر في نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات .

(٩٥) الهيئة العامة للاستعلامات ، سجل رقم (١٠) لقيد الصحف المصرح بإصدارها في مصر تحت رقم ٥٠٩ .

مصادر البحث

أولاً : الوثائق غير المنشورة :

١ - وثائق دار الوثائق القومية :

(أ) محفوظات مجلس الوزراء نظارة الداخلية (محفظة ١/٣/أ) مجلات وصحف خاصة بجريدة اللواء ، الإنذار الأول فى ٢٥ أغسطس ١٩٠٩ ، الإنذار الثانى فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١٠م .

(ب) محفوظات مجلس الوزراء (نظارة الداخلية) صحافة ومطبوعات مختلفة ١٨٧٨ - ١٩٢٣ (ملف بشأن منع دخول جريدة دار الخلافة إلى القطر المصرى ، سبتمبر ١٩١٠) .

(جـ) محفوظات مجلس الوزراء نظارة الداخلية (محفظه رقم (٦٠٣) صحافة ومطبوعات مختلفة ١٨٧٨ - ١٩٢٣ ملف بشأن جريدة (لا تريبيون دوريان) ومنعها من الدخول إلى القطر المصرى فى ٢١ يوليو سن ١٩٢٢م .

(د) محافظ عابدين (محفظة رقم ٦٠٢) التماسات ، التماس بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٢٠ ، التماس بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٢٧م .

(هـ) محافظ عابدين (محفظة رقم ٦٠٠) قصاصات وجرائد عربية ١٩٠٨ - ١٩٤٦ ، بشأن منع جريدة (لاسويس) من الدخول للقطر المصرى فى ١٨ يوليو ١٩٢٢ ، ومنع جريدة (تريبون دى جنيف) فى ٢٢ يوليو ١٩٢٢م .

٢ - وثائق وزارة الداخلية :

- إدارة المطبوعات ، دوسيه رقم (١١ ، ٢٩٢/٢)

٣ - وثائق الهيئة العامة للاستعلامات :

- إدارة الصحافة والمطبوعات ، سجل رقم (١٠) لقيد الصحف المصرح بإصدارها فى مصر تحت مسلسل رقم ٥٠٩

ثانيًا : الكتب والمراجع :

١ ـ د. إبراهيم عبده :

(أ) تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٨١ ، جـ٤ ، مؤسسة سجل العرب ١٩٨٢ .

(ب) جريدة الأهرام ، تاريخ وفن ، مطبعة سجل العرب القاهرة ١٩٦٤م .

٢ ـ أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ،(القسم الثانى من الجزء الثانى) القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٦٣م .

٣ ـ د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث فى مصر ، ط٤ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٣م .

٤ ـ أرثر أدوارد جولد سميث : الحزب الوطنى المصرى ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٣م .

٥ ـ أنور الجندى : تطور الصحافة العربية فى مصر ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٩٦٧ .

٦ ـ عبد الرحمن الرافعى :

(أ) شعراء الوطنية ، جـ١ ، القاهرة ، دار النهضة المصرية ١٩٥٤م .

(ب) محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية ، ط٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢م .

(جـ) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، جـ٤ ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢م .

٧ - د. عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة فى مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٧م .

٨ - على الغاياتى : وطنيتى ، الطبعة الأولى ، ١٩١٠م .

٩ - فتحى رضوان : عصر ورجال ، القاهرة ، مطبعة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧م.

١٠ - فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ، جـ٤ ، الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٩٣٣م .

١١ - محمد طاهر الجبلاوى : على الغاياتى ، فصل من كتاب (خمسة من شعراء الوطنية فى مصر) الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م .

١٢ - د. مختار الوكيل : على الغاياتى ، فصل من كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ .

١٣ - د. يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤ القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .

ثالثًا : الدوريات :

١ - جريدة الأهرام :

يناير ١٩١٠م ، إبريل ١٩١٤م .

٢ - جريدة البلاغ :

أكتوبر ١٩٣٧م .

٣ - الجوانب المصرية :

يونيو ١٩٠٧م - أغسطس ١٩٠٧م .

٤ - جريدة الجهاد :

يوليو سنة ١٩٣٧م .

٥ - جريدة السياسة :

إبريل ١٩٣٨م .

٦ - جريدة العلم :

٢٧ يناير سنة ١٩١١م .

٧ - جريدة اللواء :

فبراير ، مارس ، أغسطس ١٩٠٩م .

يناير ، فبراير ، يوليو ، أغسطس ١٩١٠م .

٨ - جريدة المؤيد :

يوليو سنة ١٩١٠م .

٩ - جريدة المقطم :

٢٧ يناير سنة ١٩١١م .

١٠ - جريدة منبر الشرق :

يوليو ، أغسطس ١٩٣٨م .

فبراير ١٩٤٠م .

ديسمبر ١٩٤٢م .

يناير ، مارس ، إبريل ١٩٤٣م .

يناير ١٩٥١م - فبراير ١٩٥٦م .

الحماية الأجنبية
فى المغرب الأقصى وأثرها فى المجتمع الإسلامى

د. تركي عجلان الحارثي(*)

دخول المسلمين فى الحماية الأجنبية(*) :

أدى التنافس الاستعمارى بين الدول الأجنبية فى المغرب الأقصى - وخاصة بين فرنسا وبريطانيا وأسبانيا - إلى حصول تلك الدول على امتيازات تجارية وقانونية من خلال المعاهدات[1] التى فرضتها على المغرب فى أواسط القرن التاسع عشر . وكان من بينها الامتيازات القنصلية التى تعطى الأحقية للقناصل الأجانب باستخدام ترجمان واحد وبواب واحد من المسلمين أو غيرهم . وأستثنى القناصل ونوابهم وعيالهم والساكنين بدورهم من أية جزية أو غرامة أو مايشبه ذلك[2] . ولكن ذلك الشرط استخدم فى أسوأ صورة إذ أخذ القناصل ونوابهم فى استخدام الكثير من المغاربة كعاملين فى القنصليات أو كسماسرة ومخالطين(*) فى تجارتهم ، وتطورت الحماية إلى مرحلة أشد من الفوضى عندما أخذ الأجانب من دبلوماسيين

• أستاذ مشارك - كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الملك عبد العزيز - بجدة .

• الحماية الأجنبية تنقسم إلى قسمين حماية قنصلية قانونية وهذا ما نصت عليه المعاهدات التى وقعت بين المغرب الأقصى والدول الأجنبية والتى حددت عدد المحميين فى كل دولة بأعداد قليلة ولكن التنافس التجارى بين الدول الأجنبية وجشع القناصل والتجار وتفسير نصوص المعاهدات أسوء تفسير نقلت الحماية القنصلية القانونية إلى حماية قنصلية غير قانونية مما أحدث الخلل فانتشرت الفوضى وكثرت التعديات . وهذا البحث سوف يحاول الإجابة على الأسباب التى أدت بالمسلمين إلى دخول تلك الحمايات وممارسات المحميين والأضرار الناتجة عن الحماية القنصلية .

• المخالطون هم الأشخاص الذين يشاركون الأجانب أو المحميين المغاربة فى التجارة أو الزراعة وتصبح تجارتهم وزراعتهم معفية من الضرائب . انظر : عبد الوهاب بن منصور . مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠، الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٨٥ ، ص٨ .

وغيرهم فى التسابق على بيع أوراق الحماية إلى المغاربة ، بل لقد بلغ الأمر مداه ، عندما أخذ المغاربة المحميون يمنحون الحماية لأقاربهم وبذلك أصبح الكثير من المغاربة أجانب داخل بلادهم ، مما جعل الحكومة المغربية عاجزة عن السيطرة على البلاد .

وتحت تأثير تلك الظروف تطورت تلك الامتيازات إلى تعديات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث شارك فيها كل من اليهود والمسلمين ، فاليهود سبقوا مواطنيهم المسلمين فى التحاقهم بالحماية الأجنبية ، وفى تعدياتهم التى ضمنت لهم مكاسب شخصية على حساب اقتصاد وطنهم ، وبذلك ساهموا فى إضعاف الجبهة الداخلية للمغرب ، بل لقد لعبوا دوراً فى انهيارها حتى أصبحت غير قادرة على الوقوف ضد الهجمة الاستعمارية(٣) .

وجاء دور المسلمين الذين أقبلوا على الحماية الأجنبية لكى تشملهم الامتيازات التى كان يتمتع بها الأجانب فى المغرب ، سواء كانت امتيازات اقتصادية أو قضائية . وزاد من ذلك التهافت على الحماية عدة أسباب من أهمها الوضعية التى كان يتمتع بها اليهود المحميون فى المغرب ، فبعد أن كان اليهود ملتزمين بعهد أهل الذمة الذى نظم العلاقة بين المسلمين واليهود فى المغرب لعدة قرون ، أخذوا يتمتعون بامتيازات جديدة تفوق ما أعطى لهم فى ذلك العهد(٤) . ومع أن تلك الامتيازات كانت تعديات على شريعة المغرب إلا أن المسلمين أخذوا يتطلعون للحصول على ما حصل عليه اليهود المحميين. وقد أدرك أحد أمناء السلطان ممن كانوا يجمعون الأموال الضريبية تلك الحالة ، ووصفها فى رسالة لأمين الأمناء محمد بن المدنى بنيس بقوله : « .. وغاضتنا النفس من جهة الإسلام والله عالم على قلوبنا على المسلمين من جهة الحماية ، والمذلة الحاصلة للإسلام ، ترى الذمى لا يساوى فلسًا واحدًا يدخل ويخرج ولا يؤدى فى الأبواب ، والمسلم يؤدى شريفًا ومشروفًا .. »(٥) .

ومن الأسباب التى ساعدت المسلمين فى الدخول فى الحماية ، زيـــادة عـــدد الأجانب الذين استوطنوا المغرب من أفراد يعملون فى السلك الدبلوماسى كالقنـــاصل ونوابهم أو فى التجارة أو فى أعمال أخرى كالمنصرين ، ففى عـــام ١٨٥٨م كـــان عدد المستوطنين فى المغرب الأقصى حوالى ٧٠٠ مستوطنًا ولكـــن ذلـــك الرقـــم تضاعف تقريبًا فى خلال ستة أعوام حيث بلغ ١٣٦٠ مستوطنًا فى عـــام ١٨٦٤م(٦). ونتيجة لتلك الزيادة أخذ المستوطنون فى منح الحمايات، وخاصة للسماسرة الذيـــن عملوا فى توزيع التجارة فى المغرب ، وذلك لمعرفتهم بالطرق الداخليـــة للبـــلاد ، وسهولة اتصالهم اللغوى بالتجار المغاربة . وتطور الأمر إلى تقديم الحمايـــة إلـــى الكثير من المخالطين الذين أخذت أعدادهم فى الزيادة يومًا بعد آخر نتيجـــة لرغبـــة الأجانب فى زيادة أرباحهم التى تجنى عن طريق مخالطتهم مع أولئـــك المغاربـــة ، خاصة وأن غالبية المستوطنين كانوا من التجار(٧) .

وكان لمظالم المحميين ضد مواطنيهم الأثر الكبير للالتحاق بالحماية الأجنبية، خاصة وأن الحكومة المغربية وقفت عاجزة عن إنصـــاف رعاياهـــا مـــن أولئـــك المحميين الذين يتمتعون بحصانة دبلوماسية ، وهذا ما أشار إليـــه محمـــد بركـــاش عندما التقى بممثلى الدول الأجنبية فى منزله فى الرابع والعشرين من شهر محـــرم ١٣١٢هـــ (١٩ يوليو ١٨٩٤م) لمناقشة الحماية الأجنبية ، ومحاولة الحـــد مـــن تعديات المحميين - كأكل أموال الناس بالباطل - حيث ذكر أن بعـــض المحميـــين يقومون بشراء بعض السلع من أسواق المغرب، التى عادة ما تعقـــد فـــى منـــاطق مكشوفة . ويتفق كل من المشترى والبائع على ثمن معلوم ، وعندما ينتـــهى وقـــت السوق يأتى المشترى لتسلم السلعة ودفع الثمن ، ولكن المشترى الذى يتمتع بالحماية يحتج بوجود عيوب فى السلعة ، ويطلب من البائع تخفيض الثمن أو أنـــه يرفـــض شرائها ، ومن ثم يضطر البائع إلى الرضوخ لذلك المطلب أو تـــرك ســـلعته فـــى العراء معرضة للسرقة ، لعدم وجود مخازن فى الأسواق ، خاصة وأنه سرح دوابه إلى منزله بعد أن أحضرت السلعة ، وعندما يحتكما لأمين السوق أو قاضى البلـــد لا

يلزم المحمى بشراء السلعة ، بحجة أنه يتمتع بالحماية ، وعندئذ تجب العودة إلى قنصل الدولة الذى يحتمى بها كما نصت على ذلك المعاهدات(٨) .

وساهمت الإدارة المغربية فى دخول المسلمين تحت الحماية الأجنبية لأن معظم العمال كانوا يعينون من قبل الحكومة المغربية وهم يفتقرون إلى مبادئ الإدارة الناجحة ، فضلاً عن إن الحكومة المغربية لا تلتزم بدفع رواتب الموظفين فى معظم الأحيان ، وإذا التزمت للبعض فإن دفعها لهم يعتمد على إمكانيات الحكومة وعوائدها السنوية غير الثابتة ، ونتيجة لذلك فإن بعض الموظفين يلجأون لطرق ملتوية ، كقبول الرشوة أو ظلم الناس ، والتعدى على أموالهم ، والتسلط على حرياتهم ، وهذا ما حدث لأحد أهالى سلا الذى تعرض للظلم من جانب أحد الولاة مما أضطره لتقديم شكوى ضده . ولكن تعسف ذلك الوالى لم يكف بل أخذ فى ازدياد ، ونتيجة لذلك أقسم ذلك المظلوم ليذهبن إلى الدار البيضاء ليشترى الحماية من الأوربيين ، وبالفعل بر بقسمه حيث ذهب إلى الدار البيضاء حافيًا متذللاً وعاد بعد شرائه لورقة الحماية متنعلاً رافع الرأس واضعًا ورقة الحماية على رأسه ، كناية عن العزة ، حيث أصبح فى مأمن من الظلم والجور(٩) .

كان لضعف الحكومة المغربية وعدم قدرتها على إنصاف رعاياها من الأجانب والمحميين الدور الكبير فى بحث المغاربة المسلمين عن الحماية ، وزاد من ذلك التوجه كثرة التعديات على غير المحميين فى ظل عجز السلطات المغربية عن إيقاف تلك التعديات التى أضرت بمن لم تشملهم الحماية . ولقد أدرك بعض الولاة المغاربة ذلك العجز الذى استغل من قبل القناصل والتجار الأجانب والمحميين لكى يحققوا مصالحهم الشخصية ، دون مراعاة أى اعتبار آخر . ووصفت تلك الحالة : « .. فأعلم أعزك الله أن هؤلاء القوانيص (القناصل) الذين هنا بالجديدة مع تجار ، جنسهم أكثروا علينا من التعرض للعامة ، وكل واحد نازل بجواره خيام متعددة ، ويتعرض على ذلك وفيهم من يجعل غريبًا بالبادية وكل من نزل فيه، وأن لم يكن عنده متاعهم يتمنع من الأحكام كيف ما كانت

، ويشتغلون بما لا يعنيهم وأن تكلم معهم أحد على دناءة فعلهم فيشتغلون بالباطل إليهم ، ونحن مكلفون بما لا يخفى عليك من جانب المخزن حفظه الله ، ومن جانب حقوق عباد الله ، وحار أمرنا ورددنا الأمر لله ثم إليك .. »[١٠] .

ومن العوامل التى أدت إلى دخول المسلمين تحت مظلة الحماية الأجنبية محاولة الكثير منهم التحلل من الالتزامات المالية ، كالزكاة والمكس وبعض الجمارك التى كان يقوم بدفعها التجار المغاربة للحكومة المغربية . ولقد بدأت تلك المحاولة فى بداية الستينات من القرن التاسع عشر للميلاد ، حيث أخذ الكثير من التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون مع الدول الأوربية فى الحصول على الحمايات عن طريق الشراء ، لكى يضمنوا لأنفسهم امتيازات مالية وليتحصل بعضهم على حريات شخصية لكى يمارسوا عادات وتقاليد أوربية تتنافى مع دينهم داخل بلادهم ، دون رقابة من الحكومة المغربية بعد أن تناسوا مراقبة الله سبحانه وتعالى[١١] .

وكان لتنافس القناصل فى المغرب الأقصى لتأمين مصالح بلادهم الاقتصادية الاثر الكبير فى إدخال المسلمين فى الحماية الأجنبية ، حيث أخذوا فى إعطاء الحمايات لكثير من التجار والمخالطين ليكونوا عونًا لهم فى الوصول إلى أهدافهم ، وقد أدرك بعض أفراد الحكومة المغربية ذلك ، وتبودلت بينهم مكاتبات حول هذا الشأن حيث أرسل الطيب بن هيمة ، عامل أسفى ، إلى محمد بركاش شاكيًا له سلوك القنصل الأسبانى بقوله : « ... وبعد فأعلم أن قونصو الصنبول (قنصل الأسبان) الذى بأسفى أكثر علينا من الحمايات فى المدينة والقبائل بدون قانون .. وكادت الأحكام أن تتعطل من جهة كثرة من يريد الاحتماء بلا قانون ، وقد رام إدخال شخص فى حمايته مع أنه فى حماية البردقيز (البرتغال) ... »[١٢] .

وساعد الكثير من المسلمين للدخول فى الحماية الأجنبية طموح بعض القناصل الأجانب فى تكوين شئ من الهيبة والاحترام لأنفسهم من خلال منح الحمايات لمن يستحقها ومن لا يستحقها .

ومن الأمثلة على ذلك ما قام به القنصل الإنجليزى عندما شرع فى حماية فرع من فروع قبيلة بنى مالك القريبة من سوق أربعاء الغرب . وورد ذلك فى رسالة من القائد محمد بن عبد السلام ، عامل بنى مالك ، إلى محمد بركاش حيث قال فيها : « ... وبعد فأعلم حفظك الله ورعاك أن أناسًا بل دوارًا من إخواننا المغيطن(*) يقال لهم أولاد مسلم هذه مدة مديدة منذ مر عليهم باشدور النجليز (هكذا) وذبحوا عليه (هكذا) ولم ينقادوا للخدمة بعد كلمناهم مرارًا فلم يمتثلوا ، والآن تكلمنا معهم على واجبهم فى الأعشار من جملة القبيلة فأستظهروا علينا بكتاب من عند الباشدور (هكذا) المذكور..»[١٣] .

ولم تقف طموحات القناصل الأجانب عند ذلك الحد بل أنهم رغبوا فى زيادة رعاياهم فى المغرب ، خاصة وأن منحهم الحماية للمغاربة سيجعل منهم رعايا تابعين لدولة القنصل الذى منح الحماية ، وعندئذ سيصبح هو المسؤول الأول عنهم. وعلى الرغم من أن بعض الدول الأجنبية كانت تجارتها محدودة، أو تكاد تكون معدومة ، إلا أن قناصلها أخذوا فى منح الحمايات دون مراعاة لرفض الحكومة المغربية لتلك الممارسات ، ودون مراعاة لاستنكار بعض الدبلوماسيين الغربيين الذين رأوا فى تلك الأعمال تهديدًا لمصالح بلادهم، وورد ذلك الاستنكار على لسان الوزير البريطانى المقيم فى المغرب حيث قال : « .. أنها حقيقة تسترعى الانتباه أن الحماية غير القانونية قد أعطيت بصفة أساسية من قبل الموظفين الدبلوماسيين والقناصل الذين ليس لدولهم إلا تجارة بسيطة لا تنكر مع المغرب ، أو ليس لهم تجارة البتة ، وحتى لا يوجد لهم رعايا فى هذا البلد ! إنه السؤال الذى يفرض نفسه كيف جرى ذلك ؟ ... »[١٤] .

ومع مرور سنوات القرن التاسع عشر أخذ القناصل ونوابهم والمستوطنين الأجانب فى استخدام بطاقات الحمايات كسلعة تجارية ، تباع لكل من يرغب فى

---

* فرع من فروع قبيلة بنى مالك القاطنة بين القنيطرة والقصر الكبير . انظر : الوثائق ، الجزء الرابع ، ص٤٧٠.

شرائها . وبدأ القناصل ونوابهم فى بيع بطاقات الحماية لمن يرغب فى شرائها . وبرز عدد من قناصل بعض الدول كأسبانيا والبرتغال وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها فى بيع الحمايات مما أدى إلى زيادة أعدادهم إلى حد يصعب حصرهم ، خاصة وأن تلك الحمايات كان هدفها الكسب وتعطى لمن يريدها[١٥] ، وتفاوتت أسعارها حسب رغبة البائع وإمكانية الشارى ، بل أن ثمنها وصل إلى بضعة قروش[١٦] . وبالطبع أصبحت متاحة لكل شخص ، وأخذ المسلمون فى التسابق عليها جنبًا إلى جنب مع مواطنيهم اليهود ، وكان لمعظمهم السبق فى الحصول عليها. مع أن الأجانب استخدموا اليهود كمحميين فى بداية الأمر إلا أن الغالبية العظمى من سكان المغرب مسلمون حيث لا يمثل اليهود إلا نسبة لا تتجاوز ٧% من عدد سكان المغرب الذى قدر عددهم مع نهاية القرن التاسع عشر ما بين خمسة إلى سبعة ملايين نفسًا[١٧] . ونظرًا لقلة السكان اليهود مقارنة بالمسلمين ، وتركز معظمهم فى بعض المدن المغربية دون الأخرى كطنجة وتطوان وفاس ومكناس والرباط وأسفى[١٨] . لذلك أحتاج الأجانب إلى توسيع تجارتهم فى المناطق التى يسيطر على تجارتها تجار مسلمون ، وأخذوا فى التسابق لمد نفوذهم على أكثر عدد من سكان المغرب ، كى يحافظوا على مصالح بلدانهم، ويحصلوا على مكاسب شخصية . وعلى أثر ذلك شملت الحماية الكثير من المسلمين الراغبين فيها دون عناء حيث أنها قدمت لهم لكى يساهموا فى تنمية المصالح الأجنبية على حساب أضعاف بلدهم ، متناسين أن ذلك يضر بمصالحهم على المدى البعيد . ورغم التحذيرات من الحكومة المغربية للساعين للحماية الأجنبية ، إلا أن ذلك لم يستثن المغاربة المسلمين عن طلب الحماية . ومن بين التحذيرات التى استخدمتها الحكومة المغربية الإيعاز إلى بعض العلماء والأئمة لتحذير المسلمين من موالاة الكفار ضد دولتهم الإسلامية، وأن ذلك يعتبر مروقًا من الإسلام . وصدرت فتاوى بذلك ومن بين تلك الفتاوى ما نقل عن أبى المواهب جعفر الكتانى فى كتابه « الدواهى المدهية» حيث أشار إلى ذلك بالنص التالى « ... فثبت بهذه الآيات القرآنية التى

الدلائل اليقنية وما نقلناه عليها من كلام الأئمة وأهل التفسير ، صحة ما ذكرناه من تحريم موالاة الكفار والاحتماء بهم وبلوغ ذلك الغاية في القبح ، وأنه من العظائم المؤذنة بكل رذيلة .. ومن خالف الآن في هذا التحريم أو رام الخلاف ، فهو مارق من الدين ، ومنخرط في سلك الملحدين ومخالف لجماعة المسلمين .. »[١٩] .

ويبدو أن تلك الفتوى صدرت في بداية دخول الناس في الحمايات حيث أنها كانت تحذر المسلمين من الدخول فيها ، ولكن ذلك لم يلاق أذانًا صاغية من المسلمين المغاربة ، الذين أخذوا يتسابقون في سبيل حصولهم على تلك الحمايات . ونتيجة لذلك زاد عددهم ، فما كان من العلماء إلا أن وجهوا رسائل للعامة ، تحذر من مجالسة المحميين ، وحتى من التعامل معهم . ولقد ورد ذلك في رسالة أبي حامد المشرفي الذي قال فيها « ... بواجب على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يجالس أهل الحماية ولا يصادقهم ولا يؤاكلهم ولا يعاشرهم ولا يناكحهم ، وأن يوصي كل من لقيهم بمجانبتهم ومباعدتهم وترك معاملتهم ردعًا لأمثالهم ، لأن هذا المنكر - وهو التعلق بالعدو - من أعظم المفاسد في الدين التي يتعين فيها الزجر والتغليظ ، ولا يسمح فيه بوجه ولا حال ، وحيث لم يكفهم من له الكلمة من أهل العقد والحل ، زادهم ذلك غلظة وفضاضة ، وربما شارك المحتمي مسلم آخر فقوى العدد ، وانتشر المدد ، وأتسع الخرق على الراقع ، وعظمت المصيبة ... ومن أعان المحتمي أو عاشره أو خالطه أو أرضته حالته فهو فاسق ملعون .. »[٢٠] .

ورغم تلك التحذيرات والانتقادات التي وجهت إلى المحميين إلا أن الكثير من المغاربة أخذوا يلتحقون بالحمايات الأجنبية حتى وصلت الحالة إلى عجز الحكومة المغربية عن السيطرة على البلاد ، خاصة عندما أخذت الحماية منحنى جديد ألا وهو عدم اقتصار الحمايات على الأشخاص الذين يمتلكون بطاقات الحمايات والذين

يعيشون معهم تحت سقف واحد(*) ، بل لقد تعدت ذلك لتشمل أقارب المحمى حتى وصل الأمر إلى أن بعض الأشخاص يمكنه أن يحمى قبيلته التى ينتسب إليها(٢١) . وهكذا استشرت الحماية فى المجتمع المغربى كاستشراء النار فى الهشيم ، وأصبح الكثير من المغاربة يبحثون عن الحماية بأى ثمن متناسين آثارها المستقبلية ، ونتيجة لذلك حاولت الحكومة المغربية الحد من دخول المسلمين تحت الحماية الأجنبية ، وقام السلطان الحسن بن محمد ١٢٩٠ - ١٣٣١هـ (١٨٧٣ - ١٨٩٤م) بتكليف وزير الخارجية محمد بركاش بذلك بعد أن صور كثرة انتشار الحماية الأجنبية فى بلاده بالعبارة التالية « ... إن إدارتنا تكاد لا تجد فى البلاد من هو باق تحت سلطتها من كثرة ما منحته الدول الأجنبية من حمايات غير مشروعة.. »(٢٢) .

بل لقد وصل الأمر إلى أن القناصل والتجار الأجانب أخذوا فى منح الحمايات لعمل المخزون واستخدامهم كسماسرة ، وخاصة فى الريف المغربى ، ذلك أن الحكومة المغربية توصلت إلى اتفاق مع الفرنسيين والأسبان فى ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) يخول لهم استخدام عمال المخزن فى البوادى كسماسرة، ويبدو أن ذلك الاتفاق أضر بمصالح الحكومة المغربية ، خاصة عندما بدأ أولئك السماسرة لا يؤدون الواجبات المنوطة بهم ويتحججون بانشغالهم بالبيع والشراء ، مما جعل السلطان يأمر نائبه فى طنجة بإيقاف تلك الممارسات ، خاصة عندما أخذ قناصل الدول الأخرى يحصلون على ما حصل عليه الفرنسيون والأسبان . ولقد ورد فى تلك التعليمات ما نصه « .. فأنه لا يخفى على دول الأجناس أن مرادنا تسهيل أمور التجارة وتيسير طرقها وأسبابها ، حتى لا يحصل لسماسرة التجار - سواء كانوا من الأجناس أو من الرعية - ضرر ، ولا منع من أمورهم من جهة عمال البوادى ولا غيرهم ، غير أن الاتفاق على السماسرة المجعول مع الفرنصيص والصبنيول

---

* لقد أورد عبد الوهاب بن منصور بعض القوائم الرسمية فى مجموعة الوثائق ولكنها بالتأكيد لا تعبر عن الواقع الحقيقى وبعيده كل البعد عنه . انظر : الوثائق ، الجزء التاسع ، ص ص١١٣ - ١٣٧

(هكذا) وغيرهم بطنجة عام ثمانين ومائتين وألف قد أختبر فألقى فيه الضرر لهذه الأيالة ، ولا سيما إذا طلب مثل ذلك تجار جميع الأجناس من باب المساواة ، فيضاعف ضرر الرعية ، لأن التجار إنما يختارون السماسرة من أشياخ البادية وكبرائها فيتعصبون ولا يسمعون كلام المخزن في الأمور المتعلقة بهم، وأن خوطبوا بأمر يجيبون بأنهم مشتغلون بالبيع والشراء مع أصحابهم ولا حكم عليهم لأحد إلا لقنصوات المراسي .. »[٢٣] .

ومع أن الحكومة المغربية حددت فى المعاهدات التى عقدت بينها وبين معظم الدول الغربية اقتصار كل تاجر أجنبى على سمسار واحد لمن لديه تجارة قليلة أو متوسطة ، وسمسارين لمن لديه تجارة كبيرة إلا أن ذلك الشرط لم يلتزم به ، وأخذ التجار فى منح الحماية لعدد كبير من المغاربة ، بل لقد أصبح بعض الأجانب يقومون بمنح الحمايات مع أنهم ليسوا تجاراً . وأخذ المحميون أنفسهم فى حماية غيرهم . وقامت الحكومة المغربية باستنكار ذلك بل وطالبت بعض القناصل بالحد من ممارسات تجارهم بإعطاء الحماية للمغاربة الذين لم يترددوا فى قبولها ، حيث أن حصولهم عليها يعفيهم من الالتزامات المالية والقانونية . ولقد وردت تلك الشكوى فى خطاب وجهه محمد الفضل غريط ، وزير الخارجية المغربية إلى الوزير البريطانى المقيم فى المغرب حيث قال « ... وأمرنا مولانا نصره الله بإعلامك أية المحب بأن التجار لم يتمشوا فى اتخاذهم المخالطين والسماسرة على مقتضى الشروط التى هو (هكذا) اتخاذ من كان فيهم ذا تجارة له متسعة سمسارين ومتوسطة سمساراً واحداً ، وصار كل واحد منهم يتخذ ثمانية فأكثر . وحتى مَن لا تجارة له أصلاً صار يتخذهم ويتعيش منهم .. ولا يتحرز من أخذهم (هكذا) خدام المخزن كالأشياخ ونحوهم .. وإذا وقع الكلام معه (هكذا) فمنهم يزعم أنهم ليسوا فى خدمة المخزن . وكل سمسار ينحاش لخيمته العشرون خيمة من أخواته فأكثر فيتعرض عليها ويحميها مع أن المحمى لا يحمى غيره ، كما لم يتمشوا أيضاً هم والمحميون على مقتضى الشروط فى اتخاذ المخالطين . وصار

الواحد يتخذ الخمسين والستين مخالطاً . وكل مخالط ينحاش إليه العدد الكثير من خيام إخوانه فيتعرض عليهم للعامل ويغريهم على عدم إعطاء الواجب والقيام بالكلف وعلى عدم إعطاء حقوق الناس المترتبة عليهم ويحميهم مع أنه لا حماية له هو فضلاً من أن يحمى غيره .. وبأنه أيده الله (أى السلطان) أصدر أمره الشريف للنائب السيد الحاج محمد الطريس بالكلام مع نواب الدول بما يتعين فى ذلك والوقوف فى رتق هذا الخرق بإجراء أمرهم معه على مقتضى الشروط..»[٢٤].

ونتيجة لتلك التجاوزات فى منح الحماية وفى الحصول عليها ، بل وفى استخدامها أسوء استخدام ، قامت الحكومة المغربية بمساعى دبلوماسية لإقناع الدول الأجنبية ذات التمثيل الدبلوماسى بعقد مؤتمر تناقش فيه المشاكل الناتجة عن الحمايات القنصلية ، وبالفعل نجحت فى ذلك حيث أنعقد مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠م[*] ، ولكن قراراته لم تنفذ ، إذ أخذ القناصل ونوابهم ورعايا الدول الأجنبية والمحميون يراوغون فى الالتزام بتوصيات المؤتمر ، بل أن الحالة ازدادت سوءاً بعد مؤتمر مدريد ، وأخذ الكثيرون يتهافتون على الحماية الأجنبية ، وخاصة من أغنياء وأعيان القبائل الذين عملوا كسماسرة ، وبذلك امتنعوا عن دفع الالتزامات المالية التى تحصلها الحكومة المغربية من رعاياها ، وتنفقها على الأمن والقيام بالواجبات المخزنية - متحججين بأنهم محميون ، مع أن قرارات المؤتمر تؤكد على استثناء السماسرة فقط فى الأمور التجارية ، ولكن يجب دفع ما عليهم من التزامات أخرى . ونتيجة لذلك الرفض قام وزير الحضرة الشريفية محمد بركاش بإرسال رسالة إلى الوزير البريطانى فى المغرب سائلاً إياه الوقوف إلى جانب مطالب

---

* مؤتمر مدريد عقد فى سنة ١٨٨٠م (١٢٢٩هـ) ، وناقش مشكلة الحماية القنصلية وقضايا التجنس وتملك الأجانب للأراضى وتوصل المؤتمرون إلى عدة قرارات تنظم الحماية القنصلية وعدة قرارات أخرى ، لمزيد من المعلومات عن مقررات تلك المؤتمر . انظر : عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب .. ، ص ص١٠٣ - ١٠٧.

الحكومة المغربية ، خاصة وأن الوزير البريطانى كان متعاطفا بعض الشئ مع الحكومة المغربية . وكانت سياسة حكومته تساند قرارات مؤتمر مدريد . ولقد أجاب الوزير على الرسالة بقوله « ... وصلنا كتابك تعلمنا فيه بأن عمال القبائل كادوا أن لا يجدوا من يجرد معهم صحبة الركاب الشريف لكون أغنياء قبائلهم جلهم سماسرة ، وأبوا من القيام بكلف الحركة مع إخوانهم ، وأشتكوا بذلك وأنهم عجزوا عن القيام بأمور المخزن . وقد أمرنا مولانا نصره الله بالكلام معك ، إذ لا يخفى عليك ما فى شروطات (هكذا) مدريد بأن السماسرة إنما لهم الحماية فى أمور تجارتهم لا فيما يتعلق بخدمة المخزن .. فالجواب أن نعلمك بأن .. السماسرة لا حق لهم بمقتضى الاتفاق الجديد أن يقبل عذرهم من عدم خدمة المخزن لما تلحقهم نوبتهم لما يحتاجه الولاة للخدمة .. »[٢٥] .

ولم تقتصر الحمايات الأجنبية على عامة الناس سواء كانوا أغنياء أو فقراء بل تعدت ذلك لتشمل رموزا دينية كان لها أهميتها فى المجتمع المغربى، فعلى سبيل المثال قدم الفرنسيون سنة ١٨٨٤م الحماية لشريف وزان الحاج عبد السلام الوزانى ، أحد شيوخ الطرق الصوفية فى المغرب ، والذى كان نفوذه يتركز فى شرق المغرب ، وبالذات فى إقليم توات ، بل ويتعدى ذلك إلى الصحراء ، ويبدو أن الحكومة الفرنسية منحت الحماية لشريف وزان لكى تكسب وده ، وعندئذ تحافظ على مصالحها فى تلك المناطق التى تربط المغرب بالجزائر التى كانت تحت الاحتلال الفرنسى[٢٦] .

وهكذا أخذت الحمايات تزداد يوما بعد آخر مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بسبب زيادة الأطماع الأوربية فى المغرب ، حيث أخذت الكثير من الدول الأوربية فى زيادة محميها نتيجة لتنامى مصالحها التجارية[٢٧] . ووصل الأمر إلى أن الحماية لم تقتصر على أعيان وأغنياء وشيوخ وشرفاء المغرب بل تعدت ذلك إلى بعض وزراء الدولة الذين تركوا مناصبهم ، ومنهم على سبيل المثال مهدى المنبهى وزير الحربية فى عهد السلطان عبد العزيز ، والذى

منحت له الحماية البريطانية بعد أن عزل واستقر فى طنجة[٢٨] . ومن بينهم أيضًا المدنى الجلاوى الصدر الأعظم فى عهد السلطان عبد الحفيظ الذى منحت له الحماية الفرنسية ، وتعاون مع الفرنسيين بعد أن عزله من منصبه السلطان عبد الحفيظ قبيل فرض الحماية الفرنسية على المغرب[٢٩] . هذا بالإضافة إلى عدد من الشخصيات من أهمهم عمر التازى ، وزير المالية ، وعمر العيدى ، وزير الخارجية وغيرهم من الذين تولوا مناصب فى عهدى السلطانيين عبد العزيز وأخيه عبد الحفيظ[٣٠] .

نماذج من ممارسات المحميين المسلمين :

وبدخول المسلمين تحت مظلة الحماية الأجنبية أصبحوا يتمتعون بامتيازات مالية وقانونيةمساوية لما يتمتع به الأجانب فى المغرب الأقصى وهم الذين أحرزوا تلك الامتيازات من خلال المعاهدات التى عقدت بين الحكومة المغربية وبين حكوماتهم خلال القرن التاسع عشر . ومع أن الأجانب واليهود ما رسوا الكثير من التجاوزات المالية والقانونية والأمنية إلا أن المسلمين المحميين شاركوهم فى تلك التجاوزات ، بل أن بعض المحميين المسلمين فاقوا أقرانهم غير المسلمين فى هذه التجاوزات . وتأتى التجاوزات المالية على رأس قائمة التعديات التى تعرضت لها الحكومة المغربية والشعب المغربى بل والدين الإسلامى ومن التجاوزات المالية عدم الالتزام بدفع العشور[*] والهدايا التى كانت تؤخذ من الحكومة المغربية كهدايا سنوية تدفع لجباة السلطان الذين يمثلونه فى أقاليمهم المختلفة . وقد ورد ذلك على لسان أحد عمال السلطان الذى أرسل رسالة إلى محمد بركاش يخبره فيها بعدم امتثال المغاربة المحميين لدفع الالتزامات المالية التى تطالبهم بها الحكومة المغربية ويستشيره فى كيفية التعامل معهم وجاء فى هذه الرسالة : « ... أما بعد فإننا وجهنا

---

* العشور هو ما يؤخذ من زكاة على الأرض التى لا تسقى إلا بماء المطر . انظر : الوثائق ، الجزء الرابع ، ص ٤٨٦.

كاتبنا الفقيه السيد الجيلاني ابن الحاج ليتذاكر معك في أمور أهل الحمايات وما يكون عملنا معهم ، إذا الأمر أشكل علينا ولم أدر ما نفعل، ولتعلم أن نممهم متخلدة بالعشوز والهدايات (هكذا) ومهما وجهنا لهم على أداء ذلك إلا ورموا الباطل علينا وعلى أصحابنا ، ... الحاصل حامله كاتبنا يحكي لك ذلك ويعلمك بسيرتهم وما هم عليه من التقاعد والخلاف على إصلاح المخزنية .. نحبك (هكذا) تجاوبنا جوابًا كافيًا بما يكون العمل معهم.. »(٣١) .

كذلك من الممارسات المالية التي مارسها المحميون عدم دفعهم ضريبة الأبواب(*) متعللين بأن المعاهدات التجارية بين المغرب والدول الأوربية استثنت القناصل من دفع الجمارك ، وحددت الضرائب على التجار الأجانب بالضريبة التي تدفع فقط في المؤاني المغربية ، ونتيجة لذلك فالعاملون من سماسرة ومخالطين مع أولئك القناصل والتجار يجب استثناؤهم من دفع الضريبة . وفي حقيقة الأمر فإن المعاهدات التجارية نصت على أن يعامل الأجانب ومحميهم معاملة المغاربة في دفع ضريبة الأبواب ، مما جعل أمين الأمناء الحاج محمد بن المدني بنيس يحاول إيقاف تلك الممارسات ، وذلك بمخاطبته محمد برقش لكي يناقش ذلك مع قناصل الدول الأجنبية . وقد ورد ذلك في رد برقش لبنيس بقوله « ... وعلمنا ما ذكرت في شأن حلفاء الأجناس بالمراسي ، وما إلقيتهم عليه من التعرض على الإعطاء في الأبواب لمن هو في حمايتهم ، وأشرت بتعين وجه الكلام معهم ، حيث صدر أمر سيدنا أيده الله بتسريح التجارة لهم في الإيالة السعيدة ليجرى عليهم ما يجرى على الرعية في البيع والشراء وأداء واجب الأبواب .. وما ذكرت أخي في شأن أداء تجار الأجناس واجب الأبواب عن سلعتهم فلا يخفى على سيادتك أخي ما هو مبسوط في الشروط من أنه لا يلزمهم أداء غرامة ولا مكس ما عدا الكمرك (هكذا)

---

* هي نوع من أنواع الضريبة التي تؤخذ على التجارة التي تباع في الأسواق العامة أو المنتجات الزراعية الداخلة للمدن المغربية وتسمى المكس . انظر : المصدر السابق الجزء الثالث ، ص٢٨١ .

الذى بالمراسى .. ولكن نحن ننظر عسى أن (نجد) بابًا يسوغ لنا الكلام معهم فيه على شأن المساواة لرعية سيدنا أعزه الله فى أحوال التجارة ... »[٣٢] .

ولم يكتف المحميون بعدم دفع الضريبة بل تطورت ممارساتهم إلى التحايل على القانون فأعطوا المغاربة غير المحميين بطاقات تشير إلى أن البضائع التى بحوزتهم تابعة للمحميين وبذلك أضروا بدخل بيت المال المغربى. وكان أن قررت الحكومة المغربية مناقشة ذلك مع القناصل الأجانب لإيقاف ذلك التحايل وإلزام أصحاب السلع بدفع ما يترتب عليهم . وقد ورد ذلك فى رسالة من السلطان محمد ابن عبد الرحمن إلى محمد بركاش نصها « ... وبعد فأعلم أن نفقة الأبواب تباع بمال له بال ، والفرض أن أهل الحماية لا يعطون فيها شيئًا ، ثم إن أمرها صار يضعف بالتدريج حتى صارت لا يقبض فيها إلا مالاً بال له ، وذلك بسبب إفساد أهل الحمايات لها ، فأنهم لم يقتصروا على تحويز ما هو لهم فقط ، بل كل من أراد الامتناع من الدفع من الرعية يذهب إلى واحد منهم فيعطيه بطاقة مضمنها أن تلك الأحمال له ، وهو فى باطن الأمر بخلاف (ذلك) ، وها فساد كبير وضرر على بيت المال مما حصل من أهل الحمايات لا ينبغى السكوت عنه ... وأعلمناك لتكون على بصيرة وتتكلم مع نواب الأجناس فى ذلك ليعرفوا ما يترتب على فعل أهل الحماية... »[٣٣] .

ومن الحيل التى تحايل بها المحميون استقبال السلع خارج أسوار المدن المغربية وشرائها بأثمان تقل عن سعرها داخل المدن ، على أن يدخلوا بها إلى المدينة دون دفع الضرائب . وفى داخل المدن المغربية يبيعون سلعهم بسعر مرتفع على أن يسهلوا للمشترى خروجها من الأبواب دون دفع ضريبة، وذلك بإعطاء المشترى بطاقات تثبت أن البضاعة المباعة تابعة للمحمى وليس للشارى الذى لا يتمتع بالحماية ، وبذلك تسقط الضريبة عن الشارى . ونتيجة لذلك التلاعب طلب السلطان من محمد بركاش مناقشة ذلك مع قناصل الدول الأجنبية فى طنجة . وبالفعل قام بركاش بمناقشة ذلك التحايل مع القنصل الإنجليزى وبين له الأثر

الذي يترتب على ما يفعله أولئك المحميون من إفساد الأسواق وإضعاف مداخيل بيت المال المغربي . ولكن القنصل الإنجليزي ربط إصلاح تلك الحالة بمعاقبة بعض الولاة ، وبالذات عامل مراكش الذي يعرقل المصالح الأجنبية على حد قوله(٣٤) .

ولم تقتصر ممارسات المحميين على رفضهم دفع العشور ورسوم الأبواب والتلاعب في الأسواق المغربية ، ولكنهم لم يلتزموا بدفع بعض الرسوم التي كانت تؤخذ من التجار المغاربة ، مقابل تقديم خدمات على الطرقات من قبل الحكومة المغربية ، حيث تقوم بتهيئة بعض مراكز الخدمة بين المدن المغربية للقوافل التجارية التي يتوفر فيها الماء والغذاء والأمن ، فيلجأ إليها التجار ويتزودوا منها أو يخلدوا فيها للراحة نظير رسوم يدفعونها للحكومة المغربية . وكان أن وصلت إلى السلطان محمد بن عبد الرحمن عدة شكاوى من عماله الموكلين بجمع تلك الرسوم، فما كان من السلطان إلا أن قام بإصدار تعليماته إلى نائبه في طنجة يطلب منه مناقشة ذلك مع قناصل الدول الأجنبية حيث قال « ... وبعد فقد أخبر غير واحد من العمال أن أصحاب التجار يتمتعون من إعطاء ما جرت العادة بإعطائه في النزائل ، مع أن النزائل لم تجعل إلا لعمارة الطريق وحراستها ومرور الصادر والوارد بها آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وما يقبضونه من القوافل جعل لهم إعانة على عمارة الطريق والقيام بحراستها . وعليه فلا بد من القبض بها (هكذا) حتى من أصحاب التجار كغيرهم من القوافل .. وامتناعهم من الإعطاء لا وجه له، فلا بد تكلم مع النواب في هذا الأمر ... »(٣٥) .

ومع أن القائمين على بيت المال المغربي حاولوا التوصل إلى اتفاق مع التجار المحميين بفاس على تنظيم التجارة المستوردة إلى فاس ووزنها بالميزان الرسمي ، مع أخذ نسبة بسيطة على ذلك الجهد ، إلا أن التجار المحميين المسلمين دون اليهود رفضوا ذلك في جواب الحاجب السلطاني موسى بن أحمد لعامل فاس عبد الله بن أحمد البخاري حيث قال « ... وبعد فقد وصلنا كتابك معلمًا بما تشكى به أمين المستفادات بفاس وكتب لك به من امتناع تجار الحماية من دفع ما كان وقع

به القصال معهم فيه من دفع رطل من القناطر من السلع المجلوبة من البحـــر وأن ينقص لهم أربع أواق من الرطل ويؤدون عن المشترى الباقى ، وذكر أنه لمـــا أراد الرجوع لقبض الرطل المذكور من المشترين ووزنه بميزان المخزن أنكر ذلك أهـل الحماية من المسلمين دون اليهود ... »(٣٦) .

وإلى جانب الممارسات المالية قام المحميون بممارسات غير قانونية تمثلـــت فى إدعاء بعض المحميين الحماية ، سواء كانوا أفراد أو جماعات فبعض الأفــــراد تنتهى فترة حمايته ويقوم بتزوير الحماية ، أو أنه لا يملك أصلاً الحماية ويدعى أنـــه محمى . وصار هؤلاء المحميون يرتكبون بعض المخالفات المالية أو يقدمون علـــى جرائم ولا تستطيع السلطات المغربية القبض عليهم أو محاكمتهم إلا بعد استشـــارة القنصل الذى يدعى ذلك المحمى أنه تابع لدولتـــه . وبذلـك أصبحـت السـلطات المغربية عاجزة عن حفظ الأمن ، أما على المستوى الجماعى فقد أخـــذت بعـض الجماعات تدعى الحماية رغم أنها لم تحصل على الحماية فعليا أو أنـــها فقدتـها . ومن الأمثلة على ذلك ما قام به بعض المحميين فى العرائش حيث زعموا أنهم مـــن المحميين البريطانيين ، مما جعل حاكم العرائش يلتمس من محمد الطريس ، نـــائب السلطان فى طنجة، مخاطبة الوزير البريطانى فى طنجة للتأكد من ادعاءات بعـض المحميين بأنهم تحت الحماية البريطانية . وبالفعل طلـــب الطريـــس مـــن الوزيـــر البريطانى إخباره عن صحة ادعاء أولئك المحميون بعـــد أن أرسـل إليـــه قائمـــة بأسمائهم ، جاء فى رد الوزير البريطانى ما نصه « .. وبعد بنعلم سيادتكم جوابـــا عن كتابكم بتاريخ الثالث والعشرين ربيع المتضمن على زمام محتوى على أربعـــة عشر رجلاً من المسلمين من حكومة (حاكم) العرائش الذى ذكر العامل المذكـــور أنهم فى خدمة أناس من رعية أكريت ابريطن وامتنعوا من أداء واجبـــات المخـزن التى عليهم (و) بأنا لما بحثنا عن أمرهم مع خليفة أكريت أبريطن (هكذا) هنـــاك تخبرنا بأن المسلمين المذكورين ليسوا من مستخدمة رعية أكريت أبريطن (هـكـذا) عدا سمسار الخليفة وهو الحسن العربى .. »(٣٧) .

ومن التجاوزات غير القانونية إصرار بعض المحميين على البقاء فى الحماية رغم أن الحماية أسقطت عنهم. وهذا ما حدث من قبيلتى عامر والمناصرة(*) اللتين قامتا بالعصيان ضد عامل السلطان وامتنعتا عن دفع الحقوق المخزنية بحجة أن أفرادها محميون . وهذا ما جعل السلطان يأمر بمعاقبتهما وإعطاء النصارى الحامين لهم حقوقهم حتى لا يطالب الحامون الحكومة المغربية بالغرم إذا رفض المحميون دفع ما عندهم من أموال . وبالفعل صدرت تلك التعليمات من السلطات إلى محمد بركاش ليوضح له ما حدث من هاتين القبيلتين ويأمره بمخاطبة قناصل الدول لإحصاء حقوق رعاياهم حتى يمكن حيازتها ، ثم يعاقب من هو خارج عن القانون حيث ورد ذلك بقوله « ... فأن الفساد من عامر الذين ذكروا أنهم فى الحماية ، تعصبوا على العامل ومنعوا الحقوق وأنحازوا إلى فساد مثلهم من المناصرة ، وذكروا أنهم فى الحماية أيضًا وتعرضوا عليهم ، مع أن الحماية أسقطت ولم تبق حماية، فتعين زجرهم والتنكيل بهم على جسارتهم ، لاكن (لكن) بعد حضور العدول وإحصاء ما تحت أيديهم من متاعهم ومما عسى أن يكون عندهم من متاع النصارى ومعرفته على سبيل التفصيل ، وبعد حضور نواب النصارى على ذلك ، وحيازة ما لهم من الفساد المذكورين ، فتكلم مع النصارى ليبينوا من يحوز متاعهم إن كان لهم شئ عندهم ثم بعد إحصائه وحيازته من عندهم ينفذ فيهم أمرنا إن شاء الله .. »(٣٨) .

ومن الممارسات التى كان يقوم بها المحميون التحايل على الحكومة المغربية بإيقاف الحماية على أموال الخارجين عن الحماية ، وذلك بإدعاء المحمى بأن التجارة أو الأموال التى يمتلكها الخارج من الحامية هى أصلاً ملكًا لحاميه . وبذلك تسقط عنه الالتزامات المالية التى تطالب بها الحكومة المغربية . ويبدو أن الحكومة حاولت أن تضع حدًا لتلك الممارسات وطالبت بالتزام القناصل ونوابهم بإصدار

---

* قبيلة عامر تقطن بين سلا ووادى سبو حول مدينة القنيطرة أما لامناصرة فهى من قبائل الغرب بالقرب من نهر سبو . انظر : الوثائق ، الجزء الرابع ، ص٣١٨ .

قوائم يمكن من خلالها التعرف على المحميين الحقيقيين . ومع أن الحكومة المغربية سعت جاهدة إلى الوصول إلى حلول جذرية لذلك التحايل ، إلا أنـــها لـم تسـتطع القضاء على تلك الظاهرة . ويمكننا أن نلمس تلك الجـــهود مــن خـــلال تعليمـــات السلطان الحسن بن محمد إلى محمد بركاش عندما طلب منه أن يناقش ذلـــك مــع نواب الأجناس فى مؤتمر مدريد ، لأنه يدرك أن التحايل من الحامين والمحميـين لا يمكن علاجه إلا باتفــاق يجب التقيد بــه . وجاء فى تعليمـــاته مـــا نصــــه « ... فتكلـم فى ذلك (الخروج عن الحمــاية) مع نواب الأجناس عنـد انعقاد الجمـــع هنالك وباشر علاجه على وجــه منضبط تنحسم به تلك المادة حتى يكون الخـــروج عن الحماية حقيقًا لا صوريًا ... »[٣٩] .

ومن ممارسات المحميين المسلمين مشاركتهم لغيرهم من المحميـيــن اليـــهود وللحامين الأجانب فى الاستيلاء على الأراضى الحكومية دون حق شرعى ، فعلـــى سبيل المثال أخذ المحميون المغاربة فى شراء بعض الأراضى الزراعيـــة التابعـة لأفراد غير محميين ، ومن ثم قاموا بالاستيلاء على الأراضى المخزنية المجـــاورة لها متجاهلين التحذيرات المخزنية التى تقضى بمنع التعديات ، ونتيجة لذلك كــثرت شكاوى العمال من تلك الممارسات التى أضرت بـــأموال المخــزن ، ممــا جعـل السلطان الحسن بن محمد يرسل تعليماته إلى وزير خارجيته محمد بركاش يـــأمره بمناقشة تلك الممارسات مع قناصل الدول الأجنبية فى طنجة حتى يتمكنوا من إيقاف محميهم عن قيامهم بتلك الأعمال ، وبالذات فى أحواز طنجة التى نالها الكثير مـــن تعديات المحميين لكونها قريبة من طنجة التى تضم الكثير من المحميين ، وخاصـــة من العاملين فى القنصليات الأجنبية ، والذين كانوا مجتهدين فى إرضاء الحامين لهم من الأجانب ، وتوسيع رقعة أراضيهم على حساب الأراضى المخزنية[٤٠] .

ومن الممارسات التى كان يقوم بها المحميون التعدى على القوانين التنظيميـــة التى وضعتها الحكومة المغربية . فعلى سبيل المثال طالبت الحكومة المغربية جميـع سكان المغرب بعدم ذبح إناث الإنعام لكى لا تتناقص الثروة الحيوانية ، ولكن ذلـــك

المنع لم يلاق قبولاً من المحميين الذين لم يمتثلوا لذلك ، مما جعل السلطان الحسن ابن محمد يطلب من وزير خارجيته بالكتابة إلى قناصل الدول الأجنبية لكف محميهم عن تلك الممارسات التى تضر باقتصاد البلاد[٤١] . ومن الأمثلة على خرق المحميين للقوانين التنظيمية التى سنتها الحكومة المغربية ما كان يقوم به التجار الأجانب وسماسرتهم المغاربة من بيع السلع المحتكرة ، حيث أن الحكومة المغربية تحتكر بعض السلع وتبيعها على أحد التجار المغاربة مقابل بيعها بسعر محدود ، على أن يذهب ثمنها لبيت المال المغربى . ولكن التجار الذين يشترون تلك السلع أخذت شكواهم تتكاثر ضد المحميين الذين أخذوا فى بيع تلك السلع بمعاونة التجار الأجانب ، مما جعل السلطان يأمر وزير خارجيته بالاحتجاج ضد تلك الممارسات ، ويحاول الوصول إلى حلول توقف تلك الممارسات التى ستؤدى حتمًا إلى عدم الإقبال على شراء السلع المحتكرة من قبل كبار التجار المغاربة[٤٢] .

ومن الممارسات غير القانونية منح بعض المحميين الحماية لتشمل أسرهم ، بل تعدى الأمر ذلك ليصل المنح إلى أقاربهم الابعدين وإلى أصدقائهم . وهذا بالطبع لم يكن بدون مقابل ، حيث كان يدفع لهم مال مقابل تلك الحماية ، خاصة وأن المحميين يدفعون لمانحى الحماية - كالقناصل والتجار الأجانب - مبالغ مالية ويقومون باستردادها من بيع الحمايات . وبعض المحميين يعملون مع التجار كسماسرة بدون مقابل على أن يبيعوا حمايات لحسابهم الخاص لكى يستردوا أتعابهم[٤٣] .

ولم تقتصر ممارسات المحميين التعسفية على الممارسات المالية والقانونية الخاطئة بل تعدت ذلك إلى ممارسات أمنية ، كالتطاول على عمال المخزن وإشعال الفتن ، والتعدى على أرواح الناس وممتلكاتهم ومشاعرهم ، بل لقد وصل الأمر إلى تجسس بعض المحميين لصالح قوى خارجية . وقام البعض الأخر بتهريب بعض السلع التى يحظر دخولها للمغرب . فمن أمثلة التطاول على عمال المخزن ما قام

به أحد المحميين من قبل البرتغاليين . وكان يقطن أراضى قبيلة أنجرة(*) ضد عاملها ، حيث أنه أخذ فى تأليب الناس ضد الوالى وعدم طاعة تعاليمه ، بل ووصل الأمر به إلى التعرض للوالى فى الأسواق ومحاولة النيل منه . وقد ورد ذلك فى رسالة من أعيان القبيلة إلى محمد بركاش جاء فيها « ... وبعد فالإعلام لك بأن عبد الوهاب القاطن بدار النونوش يدعى بأنه فى حامية (هكذا) جنس البرطقيز (هكذا) وبسبب ذلك صار يجمع عليه أهل الزيغ والفساد ، ويخوض فى القبيلة ويشعل نار الفتنة . ثم قدم مع من ذكر لسوق الاثنين السالف عن تاريخه وتجاسر على خليفة قائدنا خديم سيدنا السيد محمد قتجاع ... »(٤٤) .

أما التعدى على أرواح الناس فهناك الكثير من الحالات التى تحدث من المحميين . فعلى سبيل المثال قام محميان من فرع عشيرة مديونة ، بالقرب من الدار البيضاء يدعى أحدهما عبد الرحمن بن محمد المديونى والآخر يدعى بو عزة ابن الحسين المديونى بقتل عبد السلام بن محمد المديونى ظلمًا وعدوانًا . وعندما حاولت السلطات المغربية القبض عليهما لم تستطع القيام بذلك إلا بعد العودة إلى قنصل الدولة الحامية لهما ، لكى تمكن السلطات المغربية من محاكمتهما والاقتصاص منهما . وقد ورد ذلك فى رسالة وجهها عامل الدار البيضاء إلى وزير الخارجية المغربى يلح عليه فى الحصول على أذن من القنصل بالموافقة على ذلك وحل الخلاف دون تطوره ، خاصة وأن المطالبين بدم القتيل يصرون على حل المسألة بالقضاء أو الانتقام والأخذ بالثأر(٤٥) .

أما التعدى على ممتلكات الناس وشعورهم ، فالأمثلة اليومية التى يتعرض لها المغاربة غير المحميين كثيرة ، ومنها على سبيل المثال ما قام به محمد السعيدى - أحد المحميين البرتغاليين من قبيلة بنى سعيد القريبة من تطوان - بالتعدى على املاك الناس غير المحميين ، وذلك بتركه لأبقاره ومواشيه ترعى فى مزارعهم .

• قبيلة أنجرة من القبائل التى تقطن حوز مدينة سبتة وتنقسم إلى عشائر من أهمها البرقوقيين والحراويين والغابويين . انظر : الوثائق ، الجزء الرابع ، ص٤٥٠.

وعندما حاولوا منعه من ممارسات تعدياته قام بإهانتهم ولم يستطيعوا الحد من ذلك، لأنه محمي ويتمتع بحصانة دبلوماسية ، وكان أن شكوه إلى عامل المدينة محمد أشعاش الذى كان عاجزًا عن إيقاف تعدياته ، مما اضطر أشعاش إلى مخاطبة محمد بركاش لكى يطلب من القنصل البرتغالى إيقاف ذلك المعتدى عن تعدياته التى وصلت إلى حد لا يمكن التغاضى عنه(٤٦) .

ولم تقف ممارسات المحميين المسلمين عند حد ، بل تناسى بعضهم أنهم مسلمون ويدينون بدين الإسلام ، ولم يدركوا أنهم بأعمالهم تلك دخلوا فى زمرة العصاة ، فأخذوا يرتكبون بعض الأعمال التى حذرهم دينهم من ارتكابها ، ومنها سب المحميون إخوانهم المسلمين وإطلاق ألفاظ اللعن(*) عليهم . وهذا ما حدث من محمد السعيدى السابق الذكر ، حيث أخذ يتطاول على المسلمين الذين حاولوا منع أبقاره ومواشيه من إتلاف زروعهم ، ولكنه لم يمتنع عن ذلك(٤٧) .

والواقع أن الكثير من المحميين عن ربهم بدخولهم تحت مظلة الحماية الأجنبية التى يحتكم المنتسبون إليها إلى القوانين الأوربية والتى تتنافس مع الأحكام الإسلامية.فالمحمي كما نصت المعاهدات يعامل معاملة الرعايا الأجانب حيث أنه يرفع دعواه إلى القنصل الحامى له أو أحد نوابه، وهذا على سبيل المثال ورد فى الشرط الثامن من المعاهدة المغربية البريطانية سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م ، الذى أشار إلى أن جميع الدعاوى التى تحدث بين الرعايا الإنجليز ترفع إلى القنصل البريطانى أو نوابه. وبالطبع كان أولئك المحميون يحتكمون إلى القانون البريطانى. أما فى الشرط التاسع من نفس المعاهدة فقد أعطيت الفرصة للمحميين ليقوموا بتعدياهم على غير المحميين، لأن ما ورد فى ذلك الشرط يجعل غير المحميين يرفعون شكاويهم إلى القنصل

• اللعن يعنى الطرد والإبعاد من رحمة الله بل وذهبت بعض الأحاديث الصحيحة أن لعن المؤمن كقتله . انظر : يحيى بن شرف النووى . رياض الصالحين ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٩١ ، ص٥٨٨ .

البريطانى الذى فى العادة يراعى أحوال محميه وليس الرعايا المغاربة غير المحميين[٤٨] . وبالطبع أخذت الدول الأخرى ، تطالب بما حصل عليه البريطانيون وبالفعل تحصلت عليه .

ومن الممارسات التى قام به المسلمون المحميون والتى حذرهم منها دينهم تقديمهم القروض الربوية للمغاربة غير المحميين بشروط ميسرة ، وتوريطهم فى الديون . وعندما لا يستطيعون تسديدها يقوم المحميون بالتطاول عليهم ، وإذا فشلوا فى تحصيلها فالحكومة المغربية تكون ملزمة باستيفائها لأولئك المرابين أو أنها تكون ملزمة بدفعها إذا ما عجز الدائنون . وقد حاولت الحكومة المغربية الحد من ذلك ، فجاء على لسان محمد بن العربى الطريسى « ... وبعد فقد كان خديم سيدنا القائد الميلودى المديونى رفع شكايته لحضرة مولانا العالية بالله بأن إخوانه يرتكبون الديون والربويات التى لا يشعرون بعاقبتها من تجار الأجناس وأهل حمايتهم ، وطلب خسم مادة ذلك فأصدر سيدنا أعزه الله أمره الشريف بأن لا تكون المخالطات إلا على يد العمال لكونهم أدرى بمن يصلح للمخالطة ومن لا يصلح لها . وقد حاولنا الوقوف مع أمره الشريف فلم يذعن التجار إليه ... »[٤٩] .

ولم يكتف المسلمون المحميون بخرق القوانين وأذية المسلمين غير المحميين، بل تعدت ممارساتهم إلى أن وصلت إلى العمل كجواسيس للأجانب - الذين يقدمون لهم الحماية ، متجاهلين مصلحة بلدهم ، وقد ورد ذلك فى رسالة وجهها عامل الصويرة إلى محمد بركاش يستنكر تلك التصرفات التى عادة ما تكون مدعومة من نواب القناصل الذين ينتشرون فى معظم المدن المغربية ، حيث جاء فيها « ... وبعد فليكن فى كريم علمك بأن قونص (هكذا) الدولة أصبليونية (هكذا) بهذا الثغر السعيد ... أن له كاتباً يقال له الحاج أدريس الحريشى ، وفيه من الطيش غايته من قبل ،،، وللقنصل المذكور أيضًا مسلمًا آخر قد أتخذه جاسوسًا وقت ذهب القنصل المذكور لنواحى ابن عمران ، وفيه من الطيش مثل ما مطبوع عليه الكاتب المذكور .. فخرج كل منهما فى باب من التعرض لمتاع الناس ظلمًا وتعديًا ، ...

والرجل الجاسوس من نواحي سوس يسمى الحاج عبد الله الجرارى يتعرض لمن يعرفه ومن لا يعرفه من أهل سوس ، ويتلبس عليهم ، ويأخذ متاعهم ، ولم يراقب فيهم إلاً ولا ذمه ... »[٥٠] .

نماذج من أضرار دخول المسلمين فى الحماية :

لقد أدى دخول المسلمين فى الحماية الأجنبية وممارساتهم المتعددة ، إلى أضرار كثيرة تركت آثارها على المخزن وعلى المجتمع المغربى ، وأخذت تضعف من تماسكه وتنقض عرى قوته عروة بعد أخر . فمن الأضرار الرئيسية إزالة هيبة الحكومة المغربية حيث أن المحميين أصبحوا لا يمتثلون للقانون المغربي ، إذ أن المحمي بإمكانه ارتكاب أية جريمة من الجرائم ، ولا تستطيع السلطات المغربية القبض عليه إلا بعد العودة إلى القنصل أو نائبه ، لكى يسمح لهم بالقبض عليه . ذلك أن الاتفاقيات المبرمة بين المغرب والدول الأجنبية نصت على ذلك ، فعلى سبيل المثال حدث فى سنة ١٨٦٣م أن طلب معظم القناصل الأجانب من الحكومة المغربية أن يساوى رعاياهم مع الرعايا الإنجليز والأسبان الذين توصلوا إلى شرط يقضى بأن لا يقبض على المجرم إذا لم يكن متلبسًا بجريمته إلا بعد العودة إلى القنصل ، ويمكن للقنصل أو نائبه حضور التحقيق[٥١] . ونتيجة لذلك فقدت الحكومة المغربية السيطرة على الأمن ، وأصبح الكثير من الجناة الذين ارتكبوا جرائم ضد غير المحميين طلقاء ، لا تستطيع الحكومة المغربية القبض عليهم إلا بعد العودة إلى قنصل الدولة الحامية لأولئك الجناة . وبالطبع كانت تلك الإجراءات تستنفد من الحكومة المغربية الكثير من الوقت والجهد .

ولم يقتصر عجز الحكومة المغربية أمام رعاياها على عدم إنصافهم من المحميين والأجانب على سواء ، بل أن بعض الأجانب والمحميين أخذوا فى التطاول على عمال السلطان ، وهذا ما جعل الحكومة المغربية تقدم احتجاجها ضد تلك التصرفات التى أضعفت من هيبتها أمام رعاياها، خاصة عندما يقوم المحميون بإهانة الولاة على مرأى ومسمع من المغاربة الذين يحضرون فى مجالس الولاة .

وهذا ما نلمسه من الرسالة التى وجهها محمد بركاش إلى ممثلى الدولة الأجنبية بطنجة يخبرهم بتلك التصرفات، ويطلب منهم عدم رفع القضايا إلى الولاة مباشرة، بل يجب رفعها عن طريق القناصل ، حتى لا يتعرض الولاة لإهانات الأجانب والمحميين . وقد ورد فى الرسالة ما نصه «... وبعد فغير خاف عليكم ما يقع بعض الأوقات من بعض رعية الأجناس وحمايتهم من كونهم يتوجهون لولاة البلد على بعض الدعاوى دون علم القنصل وتقع من بعضهم الجسارة ، ولا شك أن ذلك ليس مقبولا عندكم...»[٥٢] .

أما المجتمع المغربى فقد أنقسم على نفسه، وأصبحت فئة غير المحميين بناء على الفتاوى التى صدرت من بعض العلماء المغاربة والتى أشير إليها من قبل - تنظر إلى فئة المحميين على أنهم خارجين عن الدين الإسلامى ، وأنه لا يجوز مجالستهم ولا التعامل معهم ، ولا التزوج منهم ولا تزويجهم . وفى الواقع أن تلك النظرة أخذت تتلاشى فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، عندما أخذت شخصيات ذات مراكز سياسية ودينية فى المجتمع المغربى تدخل فى الحماية الأجنبية . ولم يقتصر هذا التفاوت على الجانب الاجتماعى بل أن فئة المحميين استفادوا ماديا من الحمايات الأجنبية ، وأصبحوا يشكلون طبقة أرستقراطية فاقت فئة التجار والأغنياء المعروفين داخل المغرب ، وأخذت تستنزف جيوب كبار الفلاحين عن طريق تقديم القروض فى أوقات القحط بعوائد ربوية كبيرة[٥٣] .

ومن أضرار دخول المسلمين فى الحماية الأجنبية التعدى على غير المحميين وظلمهم ، بل إيذاء المديونين من غير المحميين الذين كانوا لا يستطيعون دفع ذلك الأذى ، بل أن تلك التعديات وصلت إلى التطاول على الحكام المغاربة أنفسهم ، وعلى الشريعة الإسلامية . وهذا ما نلمسه من الخطابات التى كان يوجهها عمال المخزن إلى قناصل الدول الأجنبية لإيقاف تلك التعديات . وللمثال على ذلك ما قام به عامل العرائش الذى وجه خطابا إلى قنصل الولايات المتحدة الأمريكية يطلب منه إيقاف تجاوزات المحميين الأمريكيين الذين كان عددهم أضعافا مضاعفة

لمواطني تلك الدولة المقيمين فى المغرب ، إذ أشار فيها إلى تلك التجاوزات بقوله: « ... وبعد وصل كتابك فيما أنهى لعلمك مما يصدر من الظلم الكثير والجور الخطير ممن فى حماية الدولة المركانية (هكذا) الذين بهذه الايالة من التعنت على شرع المسلمين وعلى حكامهم ، وسوق الغرماء للأداء بالعنف والقوة والاعتساف ، واضطرارهم لقضاء ما عليهم ولو أدى إلى أستلاب مهجهم وأزهاق نفوسهم... »[٥٤].

ومن الأضرار التى لحقت بالمجتمع المغربى أضرار أخلاقية ، حيث أخذ المحميون فى إدخال بعض العادات والتقاليد بل والمحرمات التى تحرمها الشريعة الإسلامية ، والتى تتعارض مع عادات وتقاليد المجتمع المغربى ، الذى كانت غالبيته من المسلمين ، حيث أتاحت الفرصة للبعض ممارسة تلك العادات والمحرمات دون رقيب . ومن بين تلك العادات على سبيل المثال استيراد الخمور من قبل المحميين ، وتوزيعها فى جميع أنحاء المغرب . فبعد أن كانت الخمور لا تباع إلا فى المناطق الساحلية بدأ المحميون فى استيرادها وتوزيعها فى المدن الداخلية للمغرب وقد بلغ عدد مورديها إلى فاس سنة ١٩٠٢م ستة موردين وحوالى ثلاثين من الموزعين الصغار[٥٥] . وهذا يعطى دلالة كبيرة على أن ظاهرة شرب الخمر انتشرت داخل المجتمع المغربى نتيجة لعدم قدرة السلطات المغربية إيقاف المحميين عن نشرها . وقد أشاعوا فكرة أن « شرب الخمر يخفف من الاحباطات النفسية » ، لذلك أقبل الكثير على شرب الخمر دون مانع .

ومن المحرمات التى أصبحت تمارس من قبل المحميين أو تحت إشرافهم البغاء الذى تحرمه الشريعة الإسلامية ، ولكن المحميين الذين استظلوا بمظلة الحماية أخذوا فى استئجار بعض المنازل فى المدن المغربية التى يتواجد فيها الأجانب كمدينة طنجة ، وأخذ أولئك المحميون والأجانب يمارسون البغاء فيها دون الأكتراث بالسلطة التى لا تستطيع الدخول إلى تلك المنازل لتفتيشها إلا بعد أخذ الأذن من القنصل التابع له أولئك المحميون[٥٦] . ولم يقتصر المحميون على نشر

الفساد في المدن ، بل امتدت أضرارهم إلى القرى المغربية إذ قام بعض المحميين باتخاذ بعض القرى أوكاراً لاستدراج النساء إليها ، وإغراء البعض منهن بالأموال لكي يحترفن البغاء ومن الأمثلة على ذلك قرية السواني القريبة من طنجة والتي كانت من أكثر القرى المشهورة بالبغاء . وعلى الرغم من استنكار الكثير من أفراد الشعب المغربي لتلك الممارسات إلا أن تلك التجاوزات امتدت إلى مدن وقرى مغربية أخرى وأصبحت تزداد سنة بعد أخرى(٥٧) .

ومن المحرمات التي ارتكبها المحميون المسلمون تعاطي الربا ونشره بين المسلمين مع أن الإسلام حذر المسلمين من ذلك واعتبره من الكبائر التي أرشد المسلمين إلى اجتنابها(٥٨) .

ومع ذلك لم يستجب المحميون المسلمون لذلك التحذير ، وأخذ بعضهم في الانغماس في أوحال الربا بل ونشره بين المسلمين . وبذلك ألحقوا ضرراً باقتصاد بلادهم وارتكبوا أعمالاً تتعارض مع مبادئ دينهم ، ولم يكترثوا بالعواقب الدينية والدنيوية التي توعدهم الله بها .

ومن الأضرار التي لحقت بالمغرب ضعف عوائده المالية حيث رفض المحميون المسلمون وغيرهم من المحميين دفع الزكاة والضرائب التي كانت تحصلها الحكومة المغربية من التجار ، كضريبة الموانئ والأبواب التي تؤخذ على البضائع الداخلة إليها . ونتيجة لذلك قلت مداخيل الدولة التي تعتمد في المقام الأول على تلك العوائد ، فعلى سبيل المثال تناقصت مستفادات الطرقة(*) بصورة كبيرة في إقليم طنجة ، وبعد أن كانت في سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٥م) ٨٢,٢٠٦(**) هبطت بصورة تدريجية خلال النصف الثاني من العقد السادس للقرن التاسع عشر حتى

---

* الطرقة : يقصد بها هنا التبغ أو الدخان والذي في العادة تحتكره الدولة حيث يذهب العائد منها إلى بيت المال المغربي . انظر : الوثائق ، الجزء الثالث ، ص٤٠٦.

** فيما يبدو أن العملة كانت بالمثقال حيث أنها العملة الدارجة في تلك الفترة .

وصلت فى سنة ١٢٨٥هـ (١٨٧٠م) إلى ١٢,٣٣٩ مثقالا[٥٩] . وهـذا بالتأكيد جعل الحكومة المغربية فى موقف لا تحسد عليه ، خاصة وأن الإصلاحات التى تبنتها الحكومة المغربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت تتطلب أموالا طائلة . وازدادت الحالة سوءا مع أواخر القرن التاسع عشر عندما دخل الكثير من المغاربة فى الحماية الأجنبية .

ولم تقتصر أضرار المحميين المالية على عدم الالتزام بالضرائب بل تعدت ذلك إلى مطالبة الحكومة المغربية بمبالغ مالية كبيرة ، بحجة أن أولئك المحميين نهبوا وسرقوا ، أو تعرضت بضائعهم للتلف ، أو أنهم يستوفوا ديونهم من مواطنين مغاربة ليسوا تحت الحماية ، ونتيجة لذلك يجب على الحكومة المغربية أن تتكفل بدفع ديون رعاياها ، وبالطبع أخذت هذه المطالب تزداد نتيجة لتزايد التواجد الأجنبى ولازدياد أعداد المحميين ، فعلى سبيل المثال بلغت مطالب المحميين الفرنسيين فى عام ١٨٦١م حوالى ١٦٠,٠٠٠ فرنك وازدادت فى عام ١٨٧٣م إلى ٤٢٢,٠٠٠ وبلغت أكثر من مليون فرنك فى عام ١٨٨٧م[٦٠] .

أما مطالب الدول الأخرى فقد تفاوتت من دولة إلى أخرى . حتى الدول ذات المصالح المحدودة أخذت تطالب الحكومة المغربية بدفع تعويضات لرعاياها ومحمييها حتى بلغت مطالب الولايات المتحدة على سبيل المثال فى سنة ١٨٨٨م / ١٣٠٥هـ أكثر من مليونين وسبعمائة ألف دولار[٦١] . وعندما هاجمت بعض القبائل المغربية الدار البيضاء سنة ١٩٠٧م / ١٣٢٠هـ طالب المحميون والأجانب الحكومة المغربية بمبالغ مالية كبيرة بلغت تقريبا حوالى ستة وعشرين مليونا ونصف من الفرنكات[٦٢] .

وكان أن خلفت الديون ضغوطا كبيرة على الحكومة المغربية حتى أخذ قناصل الدول الأجنبية يلوحون باستخدام القوة ضد المغرب أو الرضوخ لدفع تلك الديون التى كانت الحكومة المغربية عاجزة عن دفعها ، فعلى سبيل المثال هدد القنصل الأمريكى ديفيد بيرك David. Burke باستخدام القوة إذا لم تدفع الحكومة

المغربية جميع الديون المستحقة عليها للرعايا والمحميين الأمريكيين على حد سواء. وعندما عجزت الحكومة المغربية عن دفع الديون المستحقة وضع القنصل تهديداته موضع التنفيذ حيث طلب من دولته سنة ١٨٩٥م إرسال بعض السفن إلى سواحل المغرب لإجبار الحكومة المغربية على الامتثال لطلباته ، وبالفعل أرسلت سفنا قامت بزيارة بعض الموانئ المغربية واستعرضت قوتها أمام سواحل المغرب، مما جعل الحكومة المغربية تعد القنصل بدفع معظم تلك الديون[٦٣] .

وظلت الديون الأجنبية تشكل مصاعب مالية للحكومة المغربية ، وبالذات عندما أخذ التجار الأجانب فى إغراق عمال المخزن بالديون . فعلى سبيل المثال قام التجار الإنجليز بتقديم الكثير من البضائع للعمال المغاربة من قواد وشيوخ وأمناء لتصريفها فى أسواق المغرب الداخلية ، مستغلين نفوذهم الإدارى . وعندما يفشل أولئك العمال من تسديد الديون فأن المخزن يضمن تسديد ديون موظفيه ، وهذا ما جعل بعض العمال يتورط فى تلك الديون . من ذلك أنه كان بين أولئك العمال القائد بو مهدى والشيخ عبد الله أو سليمان شيخ آيت باها الذى وصف القائد بومهدى فى إحدى الوثائق بأنه « يحطم أرقامًا قياسية فى الاستدانة من الأجانب»[٦٤]. وبالطبع أخذت الحكومات الأجنبية تطالب الحكومة المغربية بتسديد ديون عمالها الذين فشلوا فى الإيفاء بالتزاماتهم أمام الدائنين الأجانب .

وهكذا لم تتوقف مشاكل المحميين عند حد ، بل امتدت إلى مصاعب جديدة تمثلت فى أشغال الإدارة المغربية بالكثير من القضايا ، من مطالب مالية من الرعايا المغاربة أو إتهامات باطلة كالنهب والسرقة أو المطالبة بتعويضات مالية نتيجة لادعاءات كاذبة . وأخذت تلك الدعاوى والاتهامات - الصادق منها والمكذوب - تشكل عبئًا ثقيلاً على الإدارة المغربية . وأنصرف الكثير من العمال كالشيوخ والقواد بالاهتمام بقضايا المحميين وإهمال شؤون غير المحميين . بل إن أولئك العمال انشغلوا بالبيع والشراء لحسابهم الخاص ولم يقوموا بالواجبات المنوطة بهم من قبل الحكومة المغربية[٦٥] .

ونتيجة لتراكم الدعاوى لدى القضاة المغاربة ، أخذ القناصل الأجانب يوجهون التهم إلى القضاة المغاربة واتهامهم بعدم الأهلية فى حل المشاكل الخاصة برعاياهم . فعلى سبيل المثال أطلق دراموند هاى اتهاماته ضد قاضى الصويرة ونسب إليه عدم إنصاف بعض المحميين البريطانيين الذين كانوا يطالبون بديون ضد رعايا مغاربة . بل أن الأمر وصل بهاى إلى أنه أخذ يوجه انتقادته إلى القضاء المغربي الذى يعتمد على أسس شرعية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وهذا يعنى أن البريطانيين وغيرهم من الأجانب كانوا يسعون لمحاربة القضاء المغربى وعدم الاحتكام إليه ، وهذا التوجيه دعم بالتذكير بمعاهدة ١٨٥٦م بين المغرب وبريطانيا ، وهى التى أعطت الأحقية للرعايا البريطانيين فى الاحتكام إلى القانون البريطانى إذا كان الشاكى بريطانيا . وهذا يعنى أن البريطانيين وغيرهم من الأجانب كانوا يرغبون فى إلغاء القضاء المغربى وإحلال المحاكم الأجنبية محله حتى يتسنى لهم تحقيق مصالحهم[٦٦] .

* * *

وصفوة القول ، أن دخول المسلمين فى الحماية الأجنبية كان له أسبابه المقبولة والمرفوضة فى نفس الوقت ، فالفساد الإدارى داخل الإدارة المخزنية دفع بالكثير من المغاربة للالتحاق بالحماية الأجنبية ، إضافة إلى عدم قدرة الحكومة المغربية على حماية مواطنيها أمام تعديات الأجانب والمحميين ، الذين أصبحوا يتمتعون بنفس الامتيازات التى يتمتع بها الأجانب ، ويحرم منها المغاربة وهم أهالى البلاد . وفى هذه الحالة يلتمس لهم العذر بعض الشئ ، ولكن المرفوض هو تخلى المحميين عن بلادهم التى نشأوا عليها ، خاصة عندما تعرضت لأزمات اقتصادية كالغرامة الحربية التى فرضها الأسبان على المغرب بعد الهزيمة التى تعرض لها الجيش المغربى سنة ١٨٦٠م ، وحاجة الحكومة المغربية للمال اللازم للإصلاح ، ولتثبيت عرى الأمن فى البلاد . ليس هذا فقط ، بل أنهم باعوا ولاءهم لأولئك الأعداء المتربصين شراً ببلادهم .

أما عن دور المحميين المسلمين فى إضعاف المغرب الأقصى فقد كان مشابهًا إلى حد كبير لدور المحميين اليهود والأجانب القاطنين فى المغرب ، حيث أنهم قاموا بالكثير من التعديات التى أضرت بالمغرب حكومة وشعبًا فالتحلل من الالتزامات المالية ، والتمرد ضد القوانين الأمنية ، والتعدى على أفراد الجهاز الحكومى للمغرب ، وعلى الممتلكات العامة والخاصة ، دون وجود رادع لتلك الممارسات ، أدى إلى ظهور الحكومة المغربية بمظهر العاجز ، مما جعل الكثير من المغاربة يبحثون عن الحماية الأجنبية ، فازدادت أعداد المحميين وتضاعفت المشاكل الناتجة عن الحماية ، فمن الناحية الاقتصادية انخفضت مداخيل الدولة إلى الحد الذى جعل الحكومة المغربية تعانى من الإفلاس ، ومن الناحية الأمنية أنقسم المجتمع على نفسه وأصبحت هناك فئتان متنافرتان هما فئة المحميين وفئة غير المحميين . ومن الناحية الدينية والأخلاقية مورست أعمال تتعارض مع الدين الإسلامى كان لها أثرها القوى فى اختراق حواجز المجتمع المغربى ، وجاءت كل هذه العوامل مجتمعة لتترك آثارًا سيئة لمدة طويلة فى المغرب العربى .

الهوامش

(١) لمزيد من المعلومات عن تلك المعاهدات وما أعقبها من تعديات . انظر تركى عجلان الحارثى « نماذج من التجاوزات الأجنبية فى المغرب الأقصى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر » مجلة جامعة الملك عبد العزيز : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مجلد ٦ ، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٠٤ وما بعدها .

(٢) ورد ذلك بالتحديد فى الشرط من المعاهدات المغربية البريطانية سنة ١٨٥٦م، وكانت خاصة بالقناصل الإنجليز فى المغرب ، ولكن المعاهدات التى تلت تلك المعاهدة بين المغرب والقوى الأوربية جاءت مقلده لذلك الشرط . انظر من المعاهدة . الوثائق ، جمع وتعليق عبد الوهاب بن منصور ، الجزء الرابع ، الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٧٧ ، ص١٤٠.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر : تركى عجلان الحارثى « تغير وضعية اليهود فى المغرب الأقصى فى القرن التاسع عشر وموقف الحكومة المغربية منها » دراسات تاريخية . العددان ٤٥ - ٤٦ (آذار - حزيران ١٩٩٣) ص ص١٩٧ - ١٩٨ .

(٤) لمزيد من المعرفة عن عهد أهل الذمة انظر : د. على حسن الخربوطلى ، الإسلام وأهل الذمة ، القاهرة : د. ت. ١٣٨٩هـ ، ص٩٦ وما بعدها .

(٥) رسالة من محمد بن يحيى - أحد أمناء بيت المال - إلى أمين الأمناء محمد بن المدنى بنيس ، الوثائق ، الجزء الرابع، وثيقة رقم ٥٤٥ ، الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٧٧ ، ص٣٠٣ .

هذه الوثيقة استخدمت فى تجاوزات اليهود المالية . انظر تركى عجلان الحارثى «تغير وضعية اليهود فى المغرب الأقصى فى القرن التاسع عشر...» ، ص٢٠٠ .

(٦) مصطفى بوشعراء . الاستيطان والحماية بالمغرب ١٢٨٠ - ١٣١٩هـ(١٨٦٣ - ١٨٩٤م) الجزء الأول . الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٨٤م ، ص١٤٨.

(٧) مصطفى بوشعراء : مرجع سابق ، ص ص١٤٦ - ١٤٧ .

(٨) عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب ، ص ص٣٦ - ٣٨ .

(٩) نفس المصدر السابق ، ص ص ٣٨ – ٣٩ .

(١٠) رسالة من محمد بومهدى ، عامل الجديدة إلى محمد بركاش ، وزير الخارجية في ٨ رجب ١٢٨٤هـ (٥ نوفمبر ١٨٦٧م) الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم ٥٧١ ، ص٣٦٩ .

(١١) عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب ، ص ص٣٢ – ٣٣ .

(١٢) رسالة من الطيب بن هيمة إلى محمد بركاش فى ١٣ صفر ١٢٩٦هـ (٦ فبراير ١٨٧٩م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم ٥٩٩ ، ص٤٤٣ .

(١٣) رسالة محمد بن عبد السلام السفيانى إلى محمد بركاش فى ١١ رمضان ١٢٩٦ (٢٩ أغسطس ١٨٧٩) الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم ٦١١ ، ص٤٧١ .

(١٤) رسالة من جـ. هـ. دريموند هاى J. H. Drummand Hay ، وزير بريطانيا المقيم فى المغرب إلى ميركز سيلز بورى Marquis Salisbury وزير الخارجية البريطانى ١٦ مارس ١٨٨٠م (٤ ربيع الثانى ١٢٩٧هـ)، الوثائق ، الجزء السابع ، وثيقة رقم ٨٨٤ ونص الرسالة هو :

« ... It is remarkable faet (fact) that irregular protection has been chiefly extended by those diplomatic and consular offairs, who have little or no trade with Morocco, nor even subjects of their governments residing in this country, It is a question to be asked. How has this come to pass?...»

(١٥) Leland Louis Bouie. The Portage System in Morocco 1880-1904, Ph. D. Thesis, University of Michigan, 1970, pp. 78-88.

(١٦) عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب ، ص٥٢ .

(١٧) Margaret Landenberger. United States Diplomatic Efforts on Behalf of Moroccan Jews 1880-1906, N. Y. St. John's University, 1980, p. 3.

انظر أيضا : تركى عجلان الحارثى « تغير وضعية اليهود فى المغرب الأقصى فى القرن التاسع عشر ... » ، ص١٩٩ .

(١٨) شمعون ليفى وآخرون ، التاريخ الحديث والمعاصر ليهود المغـرب ، الربـاط: دار الستوكى ، د. ت. ، ص ص٢٨ – ٢٩ .

(١٩) محمد المنونى : مظاهر يقظة المغرب الحديث ، الجزء الأول ، الـدار البيضـاء : شركة النشر والتوزيع المدارس ، ١٩٨٥ ، ص٣٣٠ .

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ونفس الجزء ، ص ص٣٣٢ – ٣٣٣ .

انظـر أيضًا : عبـد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصليـة بـالمغرب ، ص٥٠ .

(٢١) عبـد الوهـاب بن منصور ، مشـكلة الحمـاية القنصليـة بالمغـرب ، ص ص٥٢ –٥٣ .

(٢٢) محمد أحمد بن عبود : مركز الأجانب فى مراكـش : دراسـة قانونيـة لوضعيـة الأجانب فى المغرب قبل الحماية وخلاله . تطوان : مطبعـة الشـويخ ، ١٩٨٠ ، ص٧٥ .

(٢٣) رسالة من الحسن بن محمد إلى محمد بركاش فى ٢٣ جمادى الأولـى ١٢٩٧ (٣ مايو ١٨٨٠) . الوثائق ، الجزء السابع ، وثيقة رقم ٩٩٦ ، ص٣٩٢ .

(٢٤) رسـالة من محمـد المفضل بن محمـد غريط إلى الوزير البريطـانى شـارلز أيوان سميث Charles Euan Smith فى ٦ ذى القعدة ١٣١١هـــ (١٦ مـايو ١٨٩٤م) العلاقات المغربية البريطانية – المحفظة الثالثة – مديرية الوثائق الملكية – الرباط .

(٢٥) رسالة من جـ. هـ. دريموند هاى J. H. Drummand Hay إلى محمد بركـاش ١٢ مايو ١٨٨٢م (٢٥ جمادى الثانية ١٢٩٩هـ) العلاقات المغربية البريطانيـة – المحفظة الأولى – مديرية الوثائق الملكية – الرباط .

(٢٦) رسالة من أميل حسنى Emilie Hassani ، شريفة وزان إلى شارلز أيوان سـميث ٢٨ مارس ١٨٩٢م (٢٦ شعبان ١٣٠٩هـ) – فيلم رقم ١٨٢ – ٤١٣ الأرشـيف البريطانى – لندن .

السيدة / Emilie Hassani سيدة بريطانية تزوجت من شريف وزان عبد السلام الوزاني في سنة ١٨٧٣م وأنجبت له أبنين أحدهما يدعى على فى سنة ١٨٧٤م والآخر اسمه حامد وكان ذلك فى سنة ١٨٧٦م ، أما نص الرسالة فهى كالآتى :

«..I am most anxious as an English woman to secure British protection for myself and my two sons, whose interests as co-heirs to the estates of their father, the Grand Cherif of Wazan, have been seriously jeopardized by the cherif's acceptance of French protection in 1884... The cherif, their father, is the sheik, or head, of religious fraterinity known as the Muley Taib, a sect whose origin in dates back to the fourteen century and whose votaries are found in every province of the Empire of Morocco, and also in Algeria and Sahara. At this moment the French have induced my husband to lend his support to their attempt to secure possession of Tuat...»

(27) Leland Louis Bouie, Op. Cit, pp. 298-299.

(28)Mohammed Kenbib Les Proteges contributiona L'histoire contemporaine du Maroc, Rabat: University Mohammed, 1996, pp. 297-298.

(29) Gavin Maxwell. Lords of the Atlas: the Rise and Fall of the House of Glaoua 1893-1956. London: Longmans, 1966, pp. 119-120.

(٣٠) عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب ، ص٤٠ .

(٣١) رسالة محمد بن عبد السلام السفياني إلى محمد بركاش ٢٨ محرم ١٢٩٧هـ (١١ يناير ١٨٨٠م) المصدر السابق ، الجزء السادس ، وثيقة رقم ٧٥٥ ، ص٥٢.

(٣٢) رسالة من محمد بركاش إلى محمد بن المدني بنيس ٢٥ محرم ١٢٨١هـ (٢٥ يونيو ١٨٦٤م) الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٥٧٣ ، ص٣٧٩ .

(٣٣) رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى محمد بركاش ٢٢ رمضان ١٢٨٣هـ (٢٨ يناير ١٨٦٧م) ، الوثائق ، الجزء الخامس ، وثيقة رقم٦٥٢ ، ص١٠٥.

(٣٤) رسالة من محمد بركاش إلى السلطان محمد بن عبد الرحمن ١٣ ذى الحجة ١٢٨٨هـ (٢٣ فبراير ١٨٧٢م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٥٨٣ ، ص ص٣٩٦ – ٣٩١ .

(٣٥) رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى محمد بركاش ٢٨ ذى القعدة ١٢٨٥هـ (١٣ مارس ١٨٦٩م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٥٧٣ ، ص٣٧٩ .

(٣٦) رسالة جوابية من موسى بن أحمد إلى عبد الله بن أحمد البخارى فى ١٤ شوال ١٢٩٥هـ (١١ أكتوبر ١٨٧٨م) ، الوثائق ، الجزء الخامس ، وثيقة رقم٦٥٢ ، ص١٠٥.

(٣٧) رسالة من شارلز أيوان سميث إلى محمد الطريس ، ٢٢ يناير ١٨٩٢هـ (٢١ جمادى الثانية ١٣٠٩م) . العلاقات المغربية البريطانية – المحفظة الثانية – مديرية الوثائق الملكية – الرباط .

(٣٨) رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى محمد بركاش ٢١ رجب ١٢٨١هـ (٢٠ ديسمبر ١٨٦٤م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٥٥١ ، ص٣١٩ .

(٣٩) عبد الرحمن بن زيدان . أتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، الجزء الثانى ، الرباط : المطبعة الوطنية ١٩٣٠م ، ٤١٤ .

(٤٠) رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى محمد بركاش ٢٠ جمادى الأولى ١٢٩٧هـ (١ مايو ١٨٨٠م) ، الوثائق ، الجزء السابع ، وثيقة رقم٩٨٥ ، ص٣٦٣ .

(٤١) رسالة من الحسن بن محمد إلى محمد بركاش ٤ صفر ١٢٩٧هـ (١٧ يناير ١٨٨٠م) ، الوثائق ، الجزء السادس ، وثيقة رقم٦٧٧ ، ص٨٦ .

(٤٢) رسالة من الحسن بن محمد إلى محمد بركاش ٣ شعبان ١٢٩٤هـ (٣ أغسطس ١٨٧٧م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٣٩٤ ، ص٤٢٩

(43) Leland Louis Bouie, Op. Cit, pp. 17-18.

(٤٤) رسالة من أعيان قبيلة أنجرة إلى محمد بركاش ٥ ربيع الأول ١٢٩٦هـ (٢٧ فبراير ١٨٧٩م) نفس المصدر السابق ونفس الجزء ، وثيقة ٦٦٢ ، ص٤٥٠.

(٤٥) رسالة من محمد ابن مشيش ، عامل الدار البيضاء ، إلى محمد بركاش ٢٨ محرم ١٢٨٢هـ (٣ يوليو ١٨٦٤م) نفس المصدر السابق ونفس الجزء ، وثيقة رقم ٥٥٤ ، ص٣٢٧ .

(٤٦) رسالة من أشعاش إلى محمد بركاش ١٤ ربيع الثانى ١٢٨١هـ (١٦ سبتمبر ١٩٦٤م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٦٥٠ ، ص١٠٠ .

(٤٧) انظر الوثيقة المستخدمة فى هامش ٤٦ .

(٤٨) انظر شروط المعاهدة فى عبد الرحمن بن زيدان ، مرجع سابق ، الجزء الخامس ، ص١٩٥.

(٤٩) رسالة من محمد بن العربى الطريس إلى محمد بركاش ١٥ ربيع الثانى ١٢٩٧هـ (٢٢ مارس ١٨٨٠م) ، الوثائق ، الجزء السابع ، وثيقة رقم٩٠٤ ، ص١١٢ .

(٥٠) رسالة من عمارة بن الصادق البخارى إلى محمد بركاش ١٠ شعبان ١٢٩٣هـ (٩أغسطس ١٨٧٨م) ، الوثائق ، الجزء الخامس ، وثيقة رقم٦٥٠ ، ص١٠٠ .

(٥١) عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب ، ص٦٥ .

(٥٢) رسالة من محمد بركاش إلى القناصل فى ٢٧ ربيع الأول ١٢٩٦هـ (٢١ مارس ١٨٧٩هـ) ، الوثائق ، الجزء الخامس ، وثيقة رقم٦٦٢ ، ص١٦٠.

(٥٣) أحمد توفيق . المجتمع المغربى فى القرن التاسع عشر اينولتان (١٨٥٠ – ١٩١٢) ، الرباط : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ١٩٨٣ ، ص٣٧٨.

(٥٤) رسالة من المكى بن محمد بن عبد السلام إلى نائب الدولة الأمريكية ، ويليم لويس william Lewis ١١ رجب ١٣٠٤هـ (٦ إبريل ١٨٨٧م) رسائل القناصل بالأمريكيين بالمغرب – ميكروفيلم رقم ١٥ – مجموعة ٥٩ ، الأرشيف القومى الأمريكى ، واشنطن .

(55) Mohammed Kenbib, Op. Cit, p. 218.

(٥٦) لمزيد من المعلومات انظر المعاهدة المغربية الإنجليزية سنة ١٨٥٦ فى عبد الرحمن بن زيدان ، مصدر سابق ، الجزء الخامس ، ص١٩٥ وما بعدها .

(57) Mohammed Kenbib, Op. Cit, p. 220.

(٥٨) انظر سورة البقرة : الآيات ٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٥٩) وردت تلك الإحصائية فى رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى محمد بركاش ٢١ شوال ١٢٨٦هـ (٢٤ يناير ١٨٧٠م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٥٧٩ ، ص٣٨٩

(60) Mohammed Kenbib Op. Cit, p. 192.

(61) Turki Ajlan Al. Harithi, Moroccan Policy Towards the United States. A Study in Moroccan Society Under the Impact of Western Penetration. 1830-1912. Ph. D. Thesis U. K. Exeter University, 1987. P. 187.

(٦٢) عبد الرحمن بن زيدان ، مرجع سابق ، الجزء الأول ، ص٤٣٠ .

أيضًا انظر : Mohammed Kenbib, Op. Cit, p. 210.

(63) Turki Ajlan Al. Harithi, Op. Cit., pp. 213-215.

(٦٤) خالد بن الصغير : المغرب وبريطانيا العظمى فى القرن التاسع عشر ١٨٥٦ – ١٨٨٦ ، الرباط : جامعة محمد الخامس ١٩٩٧ ، ص ص٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٦٥) انظر هامش رقم ٢٣ .

(٦٦) خالد بن الصغير : ص ص٢٧٠ – ٢٧١ .

الفكر السياسى والممارسة السياسية

عند الأمير عبد القادر الجزائرى

د. إسماعيل زروخى(*)

إن الاهتمام بشخصية الأمير عبد القادر يعد من أهم المسائل التى تستحق البحث والدارسة لأنها تشكل حلقة من حلقات تطور مجتمعنا السياسى فى المجالين الفكرى والوطنى . والأمير عبد القادر ليس مجرد شخصية بطولية تاريخية قاومت أكبر قوة فى عصرها ، وإنما هو أيضا رجل فكر ، ساهم فى بناء النهضة العربية الحديثة . أن جهوده تجاوزت حدود الجانب الوطنى المحلى إلى الإطار القومى الإسلامى ، فلم يقتصر على التخطيط لمقاومة العدو بالسلاح فقط ، بل كان يسعى إلى مقاومته بالفكر والقلم ، تعتقد أنه من واجبنا اليوم أن نقوم بدراسة أفكاره لنضعها فى نسق مترابط يحدد أطرها العامة لكى يبقى لها البقاء والاستمرار ، على أن يتم ذلك من خلال الممارسة السياسية المرتبطة بالمقارنة والتنظيم ، لأن هذه الممارسة كانت فى أول الأمر مجرد فكرة فى ذهن صاحبها ، ولذا فإنما تتطلب قراءة فلسفية وسياسية نظرا لما تحتويه من وسائل وطرق ومناهج على مستوى التنظيم والتأسيس .

والمعروف أن المقياس لكل نهضة أو تطور هو مجموعة التنظيمات التى تشتمل عليها الأمة أو الدولة . وذلك ما أحدثه الأمير فعليا سواء على مستوى التنظيم أو على مستوى الممارسة . ولذلك يعد الأمير عبد القادر من أوائل المفكرين والساسة العرب المسلمين الذين ساهموا فى بناء وتأسيس النهضة العربية الحديثة . وسأركز دراستى على الناصر الأساسية التى تبدو أساس النهضة السياسية التى كان للأمير عبد القادر دور كبير فيها ، وسيتحدد ذلك ويتضح من خلال مجموعة

(*) أستاذ محاضر بجامعة قسنطينة ، ورئيس اللجنة العلمية .

من التساؤلات نطرحها على أنفسنا ، ونحن مضطرين للإجابة عنها وهذه الأسئلة هى : ألسنا مطالبون بتحديد الأسس التى قامت عليها النهضة السياسية الحديثة ؟ ألم يستخدم الأمير عبد القادر آلياتها النظرية والتطبيقية ؟ ألم يتمثل الأمير عبد القادر أسسها المتمثلة فى الديمقراطية والحرية ؟ ألم يحدد المفاهيم التى كانت نمطًا مميزًا للنهضة الحديثة فيما يتعلق بالوطن والوطنية ؟ ألم يشجع العلم والمعرفة ؟ ألم يطبق العدل ؟ أليست هذه هى عناصر النهضة الحديثة التى قامت عليها الدول لا فى الوطن العربى بل فى أوربا ؟ ألسنا مطالبون بالتدقيق فى نصوص الأمير عبد القادر التى اشتملت على هذه المعانى ؟

ولدراسة شخصية الأمير عبد القادر دراسة علمية موضوعية نجد أنفسنا ملزمين بوضعه فى سياقه الزمنى والمكانى لتحديد آفاق فكره السياسى وممارسته السياسية . والواقع أنه قام بثورة على ما كان سائدًا فى عصره سواء على المستوى السياسى المرتبط بالسلطة أو على المستوى الاجتماعى المرتبط بالطبقات الاجتماعية . ولذلك فإنه حارب فى عدة جبهات :

حارب المستعمر كما حاربَ القبائل ذات النفوذ والسيطرة فى العصر العثمانى ، وكذلك حارب أيضًا العقلية التى غلبت على الإنسان الجزائرى آنذاك ، والتى لم تكن على استعداد لتقبل التحديث الذى كان يمارسه ويدعو إليه الأمير عبد القادر ، إنها ثورة كلية شاملة ، أنهكت قواه فى المدة التى قضاها حاملاً لواء المقاومة ، فلم يكن عدوه فى ذلك الوقت الاستعمار وحده بل تلك العناصر مجتمعة .

أولاً : العرب والغرب الأوربى وبداية عصر النهضة :

كان للغرب الأوربى التأثير الكبير على أغلب المفكرين العرب المسلمين الذين حملوا لواء النهضة العربية فى القرن التاسع عشر ، نظرًا لاحتكاكهم به. ولولا ذلك الاحتكاك لما تبين للعرب واقعهم المتقهقر . ويظهر ذلك بوضوح فى

فكر أغلب المصلحين العرب المسلمين الذين برزوا فى بداية عصر النهضة « القرن التاسع عشر » ، من الطهطاوى مرورا بخير الدين التونسى ، وانتهاء بمحمد عبده والأفغانى . ولكن ما تميز به الأمير عبد القادر عن أقرانه من المفكرين العرب المسلمين هو أن فكره التنظيمى التأسيسى كان إبداعا ذاتيا ، لأنه لم يحتك بالغرب الأوربى ولم يتأثر به ، وإنما كان يدافع عن إثبات كيانه وهويته . وما قام به يضاهى التنظيمات التى كانت فى الغرب والتى كان يدعو إليها مفكرو النهضة العربية ، سواء على مستوى التنظير أو الممارسة . وهذه خصوصية لا بد من التركيز عليها فى حياته . ولا يعنى هذا أنه كان يجهل صور الحضارة الغربية وما وصلت إليه علميا وسياسيا ، إذ الواقع أنه كان يشيد ببعض مظاهرها وينتقد أوضاع العرب الذين لم يسايروا تلك الحضارة ، فالروح العلمية الموضوعية التى كانت تميز شخصيته أشادت حتى بالفرنسيين الذين كان يقاومهم باعتبارهم العدو الذى جاء غازيا لوطنه ، فهو يعترف بتقدمهم وتفوقهم فى السياسة وفى مآثرهم على الحكام المغاربة . وقد أشار إليه حين تلقى ردود الفرنسيين على شروط الاستسلام حيث قال أن: « من وفاء كلمتهم وضبط قوانينهم وأنهم ليسوا كسلطان المغرب لعدم معرفة المغاربة بأحوال الرئاسة ومآثر السياسة »[1] .

إن هذا الإقرار والاعتراف من الأمير عبد القادر بسمو الحضارة الفرنسية ليس الهدف منه الخضوع والاستسلام لها ، وإنما ضرورة النظر إليها على أنها حاضر معاش ، يجب النظر فيه وتأليفه مع ما يتوافق مع تراثنا الذى كان يحمل نفس المظاهر ، حتى يمكننا النهوض والتقدم . وكانت هذه وجهة نظر كثير من المفكرين العرب المسلمين فى بداية النهضة العربية ، كخير الدين التونسى الذى كان يرى أنه لا بد من إيجاد توافق بين الحضارة الغربية ومبادئ الشريعة الإسلامية ، لأن التمدن الأوروبى كان كالسيل الجارف لا يقف أمامه شئ إلا استأصلته قوة تياره المتتابع وكان يخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار إلا إذا تنبهت هذه الممالك وحذوا حذوه وجروا مجراه فى التنظيمات الدنيوية

وعندئذ يمكن نجاتهم من الغرق[٢] . ونفس الدعوة دعا إليها الطهطاوى الذى عاش فى فرنسا وعاين فيها التقدم والتحضر الذى وصلت إليه واستخلص أن : « مخالطة الأجانب « الأغراب » لا سيما إذا كانوا من ذوى الألباب تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب »[٣] .

ثانيا : الأمير عبد القادر وتنظيم الدولة :

قامت النهضة الحديثة أساسا على التنظيم السياسى للدولة ، فكانت كل الدعوات العربية فى بداية النهضة تتجه إليها فى شكل مجموعة من القواعد الفكرية والتنظيمية ، سواء بالتركيز على ما كانت عليه حضارتهم فى غابر الأزمان ، أو ما هى عليه الحضارة الغربية فى عصرهم ، غير أن كثيرا من تلك الدعوات فى الفكر السياسى العربى سواء على مستوى التنظير أو على مستوى الممارسة لم يكتب لها النجاح . ونحن نعتقد أن ذلك يرجع إلى أن القواعد الفكرية التى تبنوها لم تعبر عن واقعهم العربى الإسلامى بقدر ما عبرت عن واقع المجتمعات الغربية ، كما أنها لم ترق إلى مستوى التنظيم الشامل لحياة مجتمعاتهم ، أما الأمير عبد القادر فقد نجح فى تنظيماته لأن فكره نبع من واقع ذاتى بخصوصية متميزة عن الواقع الغربى ، فهو لم يسافر إلى الغرب ولم يتمثل حضارته بخصوصيته الخاصة ، بل أنه كان يكيف كل ما لاحظه وشاهده على مجتمعه بخصوصية مغايرة للخصوصية الغربية . وكانت تلك هى عبقريته المتميزة التى استهدفت دفع مجتمعه إلى النهضة والتقدم وفق تلك الخصوصية . وعلى ذلك يمكننا القول — دون تحيز — أنه الوحيد فى القرن التاسع عشر الذى استطاع أن يجسد مبادئه الفكرية على مستوى الدولة التى أقامها فكرا وممارسة . وكانت ممارساته بالتالى فى ذلك العصر من أهم ما أنجزه العقل السياسى العربى الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، خلافا لما كان متعارفا عليه فى الفكر السياسى العربى السابق ، ذلك أنه أحدث قفزة نوعية متميزة فى الفكر وفى الممارسة ، وليس كما يدعى البعض أنه بقى مطوقا بملابسات الفكر العربى الإسلامى السابق[٤] .

فالدولة التى أقامها الأمير عبد القادر كانت تضاهى الدول المعاصرة لها فى الحداثة ، لا فى الوطن العربى فحسب ، بل حتى فى الغرب الأوربى نظرًا لما اشتملت عليه من مؤسسات تنظيمية وآليات تحديثية من ديمقراطية وعدل ومساواة ، واستطاعت أن تتجاوز الموروث السياسى للدولة العثمانية التى كانت تحكم آنذاك الوطن الجزائرى وأغلب مناطق العالم العربى . فكانت دولته كما يقول عبد الباقى الهرماسى ، أكثر تمركزًا وتحركًا وقوة ، وذلك ما لم تكن عليه يومًا دولة الترك(٥) . فالدولة القوية الحديثة المركزية التى بناها لم تكن تلك التى تتميز بالقوة القهرية الاستبدادية المهولة ، التى تمارس القهر والاستبداد على رعاياها ، لا واجب عليها إزاءهم ، بل إنها الدولة التى تمتلك تنظيمات وتشريعات للممارسة السياسية ، أى أنها عبارة عن أجهزة وأدوات وآليات للعمل السياسى والاجتماعى ، ولها من الوظائف وعليها من الواجبات أكثر مما لها من الحقوق ، فالأمير عبد القادر لم يمارس فى دولته نمط الدولة القهرية الاستبدادية ، هذا النمط من التنظيم السياسى الذى ساد الدولة العربية الإسلامية فترة زمنية طويلة . وما فعله من تغيير على مستوى الممارسة السياسية ، سواء على مستوى المظهر أو المضمون يعد بحق ثورة فى تاريخ الفكر السياسى الإسلامى .

إن الدولة القهرية الاستبدادية من وجهة نظر الأمير عبد القادر ليست الدولة التى تمارس الاستبداد فحسب ، بل حتى التى يصل فيها الحاكم إلى الحكم عن طريق القوة . وذلك ما أدركه الأمير عبد القادر حين قال : « إن أهل ناحيتنا هذه اتفقوا أشرافًا وعلماء ، وأهل الحل والعقد على ولايتنا وملازمة بيعتنا »(٦) ، أى أنه كان يعتبر أن الدولة الفعلية والقوية هى التى يصل فيها الحاكم إلى الحكم بطريقة ديمقراطية برضاء الشعب عليه وانتخابه أو مبايعته . فهو لا يفرق بين « البيعة » و « الانتخاب » ، لأنه أدرك أن المفهوم السياسى المتداول فى الممارسات الحديثة هو الانتخاب. لذلك أراد أن يكيف المفاهيم الإسلامية المتداولة فى الممارسة السياسية الإسلامية بالمفاهيم السياسية الناشئة ،

لأن هذا المبدأ الانتخابى هو الذى أحدث القوة والتقدم بالنسبة للدول الحديثة . لذلك كان حريصا على الامتثال له . وامتثاله له كان نتيجة إدراك مضمونه وتأثيره على الحياة السياسية . وقد استخدم لفظ « انتخبونى » فى وصوله إلى السلطة ، ولم يستخدم لفظ « أمرونى » الذى كان من أهم المفاهيم المتداولة فى الفكر السياسى العربى الإسلامى على مستوى الممارسة . ذلك أنه قال بشأن وصوله إلى الحكم : « انتخبونى لإدارة حكومة بلادنا وقد تعهدوا أن يطيعوا فى السراء والضراء ، وفى الرخاء والشدة ، وأن يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة »(٧) .

والعقد الناشئ من هذه البيعة أو الانتخاب – من وجهة نظر الأمير – ليس خضوعا للحاكم ، وإنما هو خضوع للقانون الذى يوحد بين الحاكم والمحكوم ، وهو منشأ القوة . لذلك كان يقول بعد انتخابه ومبايعته : « ولقبول هذه المسئولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائما واجب الخضوع فى كل أعمالهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل فى مختلف مناطقهم »(٨) ، أما ما يلتزم به هو فى هذا العقد فهو الإنصاف ، واعتماد النوازل المشهورة ، والفروع المأثورة من إتباع الكتاب والسنة والإجماع من السلف الصالح(٩) . ألم تكن هذه المسألة السياسية هى بداية الثورة لتأسيس الدول الحديثة . أليس معنى ذلك أن الأمير عبد القادر قد أدرك معنى الاختيار فى الوصول إلى السلطة ؟ ألا يحق لنا من هذا القول اعتباره من أوائل المفكرين والساسة العرب المسلمين الذين أسسوا نظرية الدولة الحديثة مبنية على الديمقراطية؟ ألم تكن الديمقراطية هى اختيار الشعب لحاكمه ؟

وكانت ممارسة السلطة السياسية عنده – رغم هذا الاختيار – تسير بصورة جماعية ، حيث كان يشاركه فيها من هم مؤهلون للمشاركة ، وهم عنده أهل العلم وحدهم فقط . وكان يبعد من حوله الغير مؤهلين والذين كانوا نافذين فى تسيير الدولة العثمانية وهم الأجواد ، حيث كان يقول : « كنت دوما أتحاشى استعمال

الجوادة « الأجواد » واستعين بالعلماء وأهل الدين فى تسيير الحكم »[١٠] ، وكان الأمير عبد القادر هنا يميز بين نوعين من حملة المعرفة والعلم . العلماء الذين يحملون المعارف العقلية والعلمية[١١] ، والعلماء الذين يحملون المعارف الشرعية الدينية ، وكلاهما ضرورى وجوده والاستعانة به فى تسيير شئون الدولة .

إن هذه المعانى الجديدة التى بنى عليها الأمير عبد القادر دولته هى التى جعلت الأمة تتفاعل معه وتذعن له بالطاعة والخضوع . ولا غرابة فى ذلك كما يقول عبد الباقى الهرماسى لقائد أعاد لها الثقة والاطمئنان . وبهذه الثقة كان الأمير عبد القادر قد أقام أول قاعدة للتوحيد الوطنى على الرغم من قصر فترة تجربته[١٢]. إن هذه الممارسات السياسية هى التى تجعلنا ملزمين بوضع تشريعاتها فى أطرها وأنساقها الفكرية الفلسفية والسياسية ، وننقلها للأجيال على أنها نظام فكرى سياسى قبل أن تكون ممارسة سياسية ، وهذا هو الطريق الوحيد الذى يضمن له البقاء والاستمرار .

ثالثا : الأسس السياسية فى فكر الأمير :

١ – الوطن والوطنية :

كانت مسألة الوطن والوطنية من أهم المبادئ التى تأسست عليها الدول الحديثة ، وكانا معيارين لكل نهضة سياسية حديثة ، حيث أصبحت معانيهما وممارستهما مغايرة لما كانا يعرفان به . وهذه المسألة لم تكن غائبة عن رجل حمل لواء نهضة مجتمعه وأمته ، أعنى بذلك الأمير عبد القادر الذىتطرق إليها ، وإن لم يكن يختلف فيها كثيرا عما ذهب إليه ابن خلدون فى دراسته لتركيبة المجتمع العربى الإسلامى البدوية والحضرية ، وغيره من المفكرين العرب المسلمين ، مما يجعلنا نعتقد أن بداية النهضة العربية الحديثة تبدأ من عصره ، وليست من القرن التاسع عشر ، فالأمير عبد القادر استخدم كلمة الوطن مرارا[١٣] ، ولكن الوطن بالمفهوم السياسى الحديث ليس مجرد مكانا للسكن ،

ولا أرضا بدون سكان ، فالوطن بلا سكان لا معنى له ، والسكان بلا انتماء ولا شعور ولا مدافعة عن الوطن لا بقاء لهم . وقد أدرك الأمير عبد القادر تلك الخصوصية الحديثة التى أصبحت تميز الإنسان العربى الحديث على مستوى الهوية ، الذى يجب عليه أن يجسدها فعليا ، فالإنسان العربى إن كان فى السابق يفتخر بانتسابه إلى قومه وقبيلته ، فإنه أضحى فى الواقع وفى المفهوم الحديث ينتسب إلى وطنه مكان سكناه أكثر مما ينتسب إلى قومه ، وفى ذلك يقول : « إذا انتسب إلى البلد ذهب قومه وتوسيت أسلافه فصار النسب مجهولا لا باحث على حفظه ولا حامل على تعريفه »[١٤] . وهذه من مستلزمات الصيرورة الاجتماعية التى تبعث التغير الحاصل فى تركيبة المجتمع العربى الإسلامى والتى يجب مسايرتها والحياة وفقها ، لأنه كما قال أن العرب : « حين دخلت قرى الشام والعراق ومصر والمغرب وغير ذلك ، فلا تزال تلقى حلبيا أو حمصيا أو كوفيا أو بصريا أو قرطبيا أو باجيا وهو تميمى أو قيسى أو أزدى أو غيره وكثير منهم لا يعرف نسبه »[١٥] . فالانتساب للقبيلة أصبح ليس نموذجا لتركيبة المجتمع الحديث ولا الدولة الحديثة . وصفة المواطنة لا تتحدد عليها ، وإنما تتحدد على كل من ينتمى للوطن مهما كان جنسه ومهما كانت قبيلته . وهذا ما أدى بكثير من الناس فى العصر الحديث إلى التباهى والتفاخر بانتسابهم إلى أوطانهم لا بالانتساب إلى أعراقهم . فأصبح كل واحد يمتدح وطنه للخصوصية التى يتميز بها : « فنجد هذا يمدح أرضه بكثرة المياه للاتساع فى الشرب والطهارة والنقاوة ونحو ذلك ، وهذا يمدح أرضه بالبعد عن المياه كجود منابتها وصحة هوائها وذهاب الوخم منها ، وهذا يمدح أرضه بالسهولة بجودة المزارع فيها وكثرة ربيعها واتساع خيرها ، وهذا يمدح أرضه لكونها جبالا لتمنعها وعزة أهلها وحسن مائها وهوائها وقناعتها وغير ذلك »[١٦] .

إن الانتساب إلى الأرض مهما كانت يتطلب الارتباط بها ، وهى فى عين سكانها تمثل ميزة خاصة بهم مهما تكن تضاريسها ، فإنه لا بديل لهم عليها ، ومن ثمة فلا بد عليهم من السعى إلى تحسينها وإغنائها وإثرائها ، وحمايتها والمدافعة

عنها . وإذا كان الأمير عبد القادر قد أدرك هذه الخصوصية وحث أبناء وطنه على المدافعة عن وطنهم ضد كل غريب دخيل ، فإنه جسدها حسا ومعنى ، لأنه لا وطن آخر يجنحون إليه إلا الوطن الجزائرى . ولذلك أليس من حقنا التساؤل عما فعله فى هذا الشأن : ألم يكن فعلا هذا هو المعنى الوطنى الذى بنيت عليه الدول الحديثة ؟ ألم تنشأ الوطنية الحديثة من هذا المعنى ؟ ألم يكن الأمير عبد القادر رائدا فى إعطاء معنى الوطنية التى يرتبط فيها المواطن بوطنه حين قال : « ومن أسباب المحبة والحنين حب من كان فيها من القرابة والأحباب وتذاكرهم وتذكارهم عند تذكارها »(١٧) ؟

إن الوطنية التى يقول بها الأمير عبد القادر والتى كانت ميزة الفكر السياسى الحديث ، هى التى تتحدد فيها العلاقات الاجتماعية من تعاون ومحبة ، على أساس الحياة المشتركة فى الوطن الواحد ، لا على أساس التفاضل الجنسى والعرقى ، وبهذه الممارسة والرؤية والمفهوم استطاع الأمير عبد القادر أن يؤلف بين كل سكان الجزائر ، ويحملهم على لواء المقاومة المشتركة للدفاع عن وطنهم . وهذه هى قمة الوطنية فى مفهومها الحديث والمعاصر ، وهى مخالفة حتى للمفهوم الأوروبى الحديث الذى يرى أن الوطنية هى التى نجحت فى تكوين كيان سياسى وحكومة مستقلة(١٨) . وهذا ما فعله الأمير حتى قبل تكوين الكيان السياسى المستقل ، لأنه كان يعتبر أن العرب أسبق من الأوروبيين فى الارتباط بعضهم بالبعض ، وبينهم وبين أوطانهم . وهذه من أخلاقياتهم وشيمهم الباعثة على الألفة والمحبة . وهى طبيعية فيهم يجب فقط تذكيرهم بها لأنهم ابتعدوا عنها . فى ذلك قال : « فالأمة العربية أكثر وأشد من جميع الأمم فى ذلك لأنهم فى جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية ، وأخلاق مرضية ، وأفعال كريمة ، وهمم عظيمة ، وعقول راجحة وآراء ناجحة ، وشرف صميم ، وأنفة من كل خلق ذميم، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة »(١٩) ، أى أنه إذا كانت ، هذه هى معانى الوطنية ، فإن العرب عرفوها قبل أن يعرفها الغربيون

فى حضارتهم المعاصرة ، ولكن إن ابتعد العرب عنها فيجب السعى لاستردادها ، لأنها شيمة من شيمهم الطبيعية ، فكل حركة نحوها سهلة التحقيق والممارسة .

٢ — العدل والمساواة :

أجمعت كل الآراء والأفكار التى أسهمت فى تأسيس النهضة العربية على أن النهضة فى أوروبا لم تقم إلا على أساس العدل والمساواة . وإذا كان العرب يريدون مسايرة تلك النهضة فلا بد من أن يتخذوا من هذه الأسس ركيزة لهم .

وكان الأمير عبد القادر من أوائل العرب المسلمين ليس القائلين بهذا الرأى فقط ، بل والممارسين له ، ذلك أن شعاره السياسى فى تلك الممارسة هو أن جميع المواطنين سواسية ، وأن القانون الذى يخضع له الجميع هو ما أتى به القرآن الكريم ، حيث كان يقول : « لن آخذ غير القرآن . لن يكون مرشدى غير تعاليم القرآن . والقرآن وحده ، فلو أن أخى الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات »[٢٠] . إنها المساواة فى أكمل صورها ، وإنه العدل فى أقصى حدوده ، وكان فى تجسيده لهذا المبدأ يعتمد على القضاة واختيار العدول منهم[٢١] .

وكان هؤلاء القضاة يفصلون حتى فى القضايا المتعلقة بالجيش ، أو بين الرعايا ومسئوليهم . وكان ممثل الأمير يجوب الأسواق وينادى من ظلم منكم من طرف الأغا فليتقدم بشكواه إلى الأمير . وبهذه الممارسة تكونت الوحدة والمساواة لا بين الرعايا بعضهم وبعض فحسب ، بل بين أفراد القبيلة ورئيسها[٢٢] .

إن سياسة المساواة التى تشبع بها الأمير ومارسها إلى درجة التقشف فى جميع مظاهر حياته هى التى أكسبته ولاء رعاياه وطاعتهم ، لأنها – كما بينا وكما – كان يرى ، قريبة من وجدان رعاياه ، وهى طبيعية فيهم ، ولذلك كان يقول عن نفسه : إننى أول من مارست التقشف ، وأول من ضرب المثل بلبس ثياب بسيطة بساطة ثياب أكثر خدمى تواضعا . وهذا التساوى فى اللباس لم يكن كما

يعتقد البعض تمويها للعدو من أجل تفادى ضرباته ، وإنما هو كما أجاب بنفسه وقال : « ما فعلت ذلك خوفا من تميز نفسى أمام ضربات قنابل العدو ، ولكننى فعلته لأننى كنت أرغب أن لا أفرض على العرب إلا ما أفرضه على نفسى »[٢٣]. ألم تبن الدول الحديثة على هذه المساواة وهذا العدل ؟ ألم يدرك الأمير بأن هذه المقومات السياسية هى التى ترتقى بالأمم نحو التقدم والإزدهار لذلك لا بد من استيعابها ؟ ألم تكن هذه الأفكار على زمانه فيها من الجرأة ما لم يتصوره العقل ، خصوصا فى مجتمع مثل مجتمعه عاش فى ظل الظلم والقهر والتفاوت بين الناس حتى غدت هذه الانحرافات هى أركان الحياة الفعلية ، بينما غدا ما يخالفها صورة غير طبيعية ، لقد صار هذا الوضع هو السائد حتى على مستوى علماء الأمة الذين كما يقول عبد الله شريط عمل الكثير منهم على إشاعة مفاهيم معاكسة تزلفا للحكام فحرف بعضهم فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم وأخرجوها مخالفين روح الإسلام ذاته[٢٤] .

وكان الأمير عبد القادر يرى أنه حتى النظام السياسى الذى تجسدت فيه هذه المظاهر السياسية الحديثة العادلة ، أى النظام « الجمهورى » فإنه ليس غريبا عن الإنسان العربى ، لأن معناه عربيا وعرفته العرب قبل الأوروبيين وكان هو أساس السياسة العادلة سواء عندنا أو عندهم ، لأن فيه يستوى : « الرئيس والمرؤوس ، الشريف والمشروف ، الرفيع والوضيع ، ليجزى كل واحد على قانون الآخر . ولا يختص بأحكام مفضول على فاضل ولا يقع التصرف على الأدنى لما له قلة دون الأعلى ، ولا يتجبر بالتكبر عالى منزلة على سافل . ويجرى حكم شرع الإنصاف على من تجاوزوا الحد المشروع كيف كان حسبا ونسبا ، ولأن التفرقة بين الناس فى الحكم هو سبب هلاك كثير »[٢٥] ، فمن ابتعد عن هذا الحكم يكون مآله الهلاك والاندثار ، ولم تصل الأمم الأوروبية إلى تلك العظمة الحضارية إلا باستنادها على هذا الحكم ، وفى هذا يقتدى الأمير عبد القادر ، بما أشار إليه الرسول ﷺ حين قال: «.إنما هلك من كان قبلكم ، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، واالله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ». ومن هنا يتضح أن هذا الحكم ليس من ابتكار الأوروبيين — وخصوصا الفرنسيين — وإنما يرجع إليهم الفضل فى أنهم طبقوه عمليا فى تسيير حياتهم السياسية بمقتضاه ، وفى هذا الشأن يقول : « وبهذا تعلم أن الجنس الفرنسوى فاق على جميع الأجناس الرومية والنصرانية بكونه يستعمل الفائدة وينقلها أينما وجدها ، ولا يقول هذه ليست لغتى أو ليست عادة بلدى أو وطنى ، فكأنهم سمعوا قول نبينا ﷺ للمؤمنين « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها حيث يجدها » »[٢٦] ، أليست هذه عبقرية متميزة للأمير عبد القادر ، أدرك من خلالها أسرار قوة الدول وقوة سياستها . وكان يدعو إلى الأخذ بمظاهرها سواء فى السير على السنن السياسية التى ساروا عليها ، أو أخذها منهم كما أخذوها عنا ، وهذا امتثالا لقول رسول ﷺ السالف الذكر .

ولا أدعى هنا أننى أحطت بكل فكر الأمير عبد القادر السياسى ، لأن الرجل كالجبل الشامخ الذى يحتوى على كنوز متعددة ومجهولة ومن يستطلع خباياه يكتشف فى كل يوم معدنا جديدا ثمينا وما زال فكر الأمير يحتوى على كثير من الآراء والأفكار المجهولة عنا ، ولكن باستعدادنا للبحث فيها والتنقيب عنها يمكننا إماطة اللثام عنها ، وهذا ما نحاول القيام به ، وباالله التوفيق .

الهوامش

(١) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة ١٨٤٩م ، تحقيق محمد الصغير بناني ، محفوظ سماتي ، محمد الصالح الجون ، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٩٤م ، ص١٣٠ .

(٢) خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق المنصف الشنوفي ، تونس ، ط٢ ، ١٩٧٢م ، ص١٦٦ .

(٣) الطهطاوي ، الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ١٩٧٣م جـ١ ، ٣٩٨ .

(٤) محمد الصغير بناني ، معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره ، معالم فكره السياسي ، الثقافة ، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر ، العدد ٩٦ ، نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٦م ، ص ١٣٩ .

(٥) محمد عبد الباقي الهرماسي ، المجتمع والدولة في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م ، ص٣٠ .

(٦) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٩٦ .

(٧) شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمه وعلق عليه أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط٢ ، ١٩٨٢م ، ص١٥٦ .

(٨) المرجع نفسه ، ص٥٩ .

(٩) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ٩٧ .

(١٠) بسام العسلي ، الأمير عبد القادر ، دار النفائس ، ١٩٨٠م ، ص٣٩ .

(١١) يعتبر الأمير عبد القادر أن العقل من أشرف الخواص التي تميز الإنسان عن الحيوان ، وخاصية الشئ هي كماله ، وبهذا العقل يستطيع الإنسان أن يدرك العلوم ويعرف طريق الحق بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك ، ويتيقن حقائق الأمور ويراها منكشفة ، فإن الظن لا يغني من الحق شيئا ، للمزيد من الإطلاع

على ما كتبه الأمير عبد القادر حول العقل يرجى الإطلاع على كتابه : المقراض الحاد ، لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد ، الطاسيلي للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٩م ، ص٩ وما بعدها .

(١٢) محمد عبد الباقي الهرماسي ، المجتمع والدولة في المغرب العربي ، ص٣٠ .

(١٣) عبد الحميد بن هدوقة ، الأمير عبد القادر والمجابهة اللامتكافئة ، الثقافة ، العدد٧٥، ماي — جوان ١٩٨٣م ، ص١٩٧ .

(١٤) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٢١٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص٢١٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص٢١٣ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص٢١٢ .

(١٨) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير ونظرية ابن باديس ، الثقافة ، العدد ٧٥ ، ص٢٣٩ .

(١٩) الأمير عبد القادر ، المقراض الحاد ، ص٢٤٣ .

(٢٠) شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ص٥٧ ، ٥٨ .

(٢١) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٩٦

(٢٢) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير ونظرية ابن باديس ، ص٢٤٠ .

(٢٣) شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ص١٥٤ .

(٢٤) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير ونظرية ابن باديس ، ص٢٤١ .

(٢٥) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص١٣٦ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص١٣٦ .

الصحوة العربية فى القرن العشرين

الثورة المغربية ١٩٤٥ - ١٩٥٦

د. مدحت محمد عبد النعيم(*)

شهد العالم العربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين صحوة بدأت فى شكل حركات سياسية هادئة ، وذلك نتيجة لتدهور الإقطاع كنظام متحكم فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية ، وحلول النظام الرأسمالى محل المراكز الاقتصادية المبعثرة التى تمثل النظام الإقطاعى ، إلى جانب تطور طرق المواصلات وتحقيق التقدم العلمى فى كافة الميادين المختلفة ، هذا بالإضافة إلى ظهور الطبقة المتوسطة وهى التى أصطلح فى المغرب على تسميتها الطبقة البرجوازية وبها قطاع ديناميكى هو قطاع المثقفين المسمى فى الغرب Inteiligenria وهذا القطاع بالذات هو الذى سير الحركة القومية الوطنية وقاد كافة الطبقات ورائه .

والطبقة المتوسطة هذه (التى كانت تشتغل بالتجارة عادة) تتجه بحكم مصالحها الشخصية نحو محاربة الإقطاع ومحاولة القضاء عليه ، وتخليص السوق الوطنى من نير الاستعمار لذلك فإنها تسعى إلى قيام حكم مركزى يستهدف التخلص من الإقطاع والاستعمار وفى ضوء هذه الاعتبارات فإن الحركات الوطنية فى الشرق الأوسط استهدفت تحقيق مبادئ أربع هى :

١ - الحرية الفردية .

٢ - النظام الدستورى .

٣ - هدم الإقطاع .

٤ - التحرر الوطنى من السيطرة الأجنبية .

---

* مدرس التاريخ الحديث - كلية التربية بالإسماعيلية - جامعة قناة السويس .

وهكذا اتجهت القوى الوطنية فى الشرق الأوسط قبل أواخر القـــرن التاسـع عشر إلى الدين والتقاليد والعصبية الأسرية ، لتطوير النظام الاجتماعى والاقتصادى فى اتجاه الرأسمالية وبقدر نجاحها فى ذلك تباينت مناطق الشـــرق الأوســط قـوة وضعفاً فى مسيرتها الوطنية والقومية ، فهى أظهر ما تكون فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فى مصر وبلاد الشام ، أما فى نجد واليمن وشمال أفريقيــة فقد اتخذت المقاومة للسيطرة الأجنبية شكل حركات دينية مثل الحركة الوهابية فــى نجد والأمامية الزيدية فى اليمن والسنوسية فى شــمال أفريقيــة والإدريسـية فــى عسير[١] .

وقد تميزت المجتمعات العربية بأنها لم تكن مجتمعات عربية خالصة الدمــاء، وإنما كانت إسلامية بالدرجة الأولى ، فقد تواجدت فيها إلى جانب العناصر العربيــة عناصر أخرى إسلامية غير عربية الأصول مثل الشراكسة والأتــراك والألبــان أو الأرناؤد وغيرهم وهذه العناصر كانت تعتبر الوطن العربى وطنـــها الأول ، ففــى مصر كان محمد على ألبانيا ، لكنه هو الذى وضع حجر الأساس فى بنــاء مصــر الحديثة ، وقام خلفاؤه باستصدار الفــرمانات التــى اســتخلصت اســتقلال مصــر الداخلى من النفوذ العثمانى ، وكان خير الدين باشــا فى تونس مملوكا مــن أصـل شركسى ومع ذلك فقــد كان مصلحا دستوريا كبيرا .

ويبدو أن أهم قوى المقاومة التى واجهت الاستعمار فى القرن التاسع عشـــر والنصف الأول من القرن العشرين فى الوطن العربى هى القبائل التى كانت تشــكل القوة الاجتماعية الأولى الرئيسية فى معظم أجزاء ذلك الوطن، وقد تميزت بــالروح العسكرية والصلابة وفى الوقت نفسه كانت تفتقر للروح النظامية التى تتمــيز بــها المجتمعات الراقية الحديثة ، كما كانت تسيطر عليها الروح القبلية الانقسامية التــى شتتت جهودها وأوقعتها فى منازعات عنيفة وحروب دموية لم يستفد منـــها ســوى الاستعمار . وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكن إدراك النتائج التى حققها المنــاضلون فى سبيل حرية بلادهم ، عبد القادر الجزائرى فى نضاله ضد الفرنسيين ، إذ كـــان

يتعرض لمعارضه بعض القبائل ويضطر إلى خوض الحروب ضدها ، كما يمكن فهم الاتفاقيات التى عقدها الفرنسيون مع بعض القبائل مثل قبيلتى الدوائر والزمالة فى ١٨٣٥/٦/١٦م ، وبمقتضاها أصبح أفراد القبيلتين رعايا فرنسيين(٢) .

ومن ناحية أخرى ، فإن الدين والطرق الصوفية لعبا دوراً هامًا فى مقاومة القبائل للمستعمرين ، كما حدث فى ليبيا حيث لعبت الدعوة السنوسية دوراً رئيسيًا فى لم شمل القبائل وتأسيس الزوايا السنوسية التى تصدت للمستعمرين الإيطاليين ، كذلك لعبت الاباضية دوراً فى توحيد القبائل الأمامية فى عمان الداخلية ، كما لعبت الدعوة الوهابية دوراً هامًا فى توحيد القبائل العربية فى نجد حتى جمعت أراضى الجزيرة العربية كلها فى وحدة متكاتفة .

وفى بعض الحالات لعبت الطرق الصوفية دوراً مضاداً ؛ فإذا كانت الطريقة القادرية قد ساعدت الأمير عبد القادر الجزائرى على قيام دولة فإن الطريقة الطيبية والتيجانية وقفتا موقف المعارضة من حركته .

وفى البلاد الزراعية كان الفلاحون يمثلون عنصر المقاومة الرئيسى فى الحركات الوطنية ، كما هو الحال فى مصر أثناء الحملة الفرنسية والثورة العرابية وثورة ١٩١٩م .

ومهما يكن من أمر فإن المقاومة العربية للاستعمار الأوربى مرت بمرحلتين، الأولى مرحلة المقاومة للغزوة الاستعمارية ، والثانية مرحلة التخلص من الحكم الاستعمارى وانتزاع الاستقلال من أنيابه ، ولكل مرحلة من هاتين المرحلتين سماتها الخاصة ، فإذا كانت المرحلة الأولى قد منيت بالفشل وترتب على ذلك سقوط العالم العربى تحت وطأة الاستعمار ، فإن الثانية ترتب عليها الاستقلال حتى أطلق عليها اسم الحركة الاستقلالية أو حركة التحرر الوطنى وحققت النجاح واستطاعت الشعوب العربية المناضلة أن تسترد حريتها وإرادتها واستقلالها وثرواتها(٣) ، ومن هذه الحركات الحركة الاستقلالية التى شهدها المغرب ضد

الحماية الفرنسية والأسبانية وقد بدأت هذه الحركة عام ١٩٤٥ وانتهت عـام ١٩٥٦ باستقلال المغرب وتوحيده في دولة واحدة ذات سيادة واحدة تحت حكـم الملـك « محمد الخامس » وهذه الحركة هى موضوع دراستنا .

* * *

الصحوة العربية المغربية على فرنسا وأسبانيا ١٩٤٥ – ١٩٥٦ :

يمثل المغرب الدولة العربية الوحيدة التى لم تخضع للحكم العثمـانى ، فظـل حتى منتصف القرن التاسع عشر يمثل دولة قوية مهابة ، تتعامل مع الدولة العثمانية معاملة الند للند ، بل أن المغرب أخذ يشجع جميـع الحركـات الوطنيـة المناوئـة للأتراك فى الجزائر ، وعندما عجز الأتراك عـن حمايـة الجزائـر مـن الغـزو الفرنسى، تولت الدولة المغربية مساعدة المقاومة الجزائرية فى تلمسان ، واسـتمر تأييدها لهذه المقاومة على النحو الذى أدى إلى وقوع الحرب بين المغرب وفرنسـا، وفى هذه الحرب منيت القوات المغربية التى كان يساعدها قوات الأمير عبد القـادر والقبائل الأخرى ، بهزيمة ساحقة فى معركة وادى أيسلى فى ١٤ أغسطس ١٨٤٤، وترتب على ذلك قبول المغرب الارتباط بفرنسا باتفاقيتين إحداهما لتخطيط الحد وقد عقدت فى يونيو ١٨٤٥ ، وراعت فيها فرنسا أن تهيئ لها سبيل التدخل فى المغرب كيفما شاءت ، والثانية تتعلق بالتجارة ، وتنص على أن تختـص فرنسـا بالمكانـة الأولى فى تجارة المغرب .

والواقع أن معركة اسلى تشكل نقطة تحول مصيرى فى الوضع المغربـى إذ أدت إلى زيادة التنافس الاستعمارى على المغرب ، وهو التنافس الذى اتخذ شـكلين مميزين :

الأول : فرض الامتيازات الأجنبية .

والثانى : اشـتداد الضغط الاستعمارى على المغرب وخاصة من جانب أسبانيا .

ففى يوم ٢١ مايو ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية العاصمة المغربية . وفى شهر يونيو دخلت مكناس ، وذلك لإخماد ثورة ١٩١١ ، وقد فتح هذا الانتصار شهية الدول الاستعمارية لاقتسام المغرب ، وقد حاولت أسبانيا مسايرة الفرنسيين فى التوسع فى منطقة نفوذها ، ففى يونيو ١٩١١ احتلت مدينتى القصر والعرائش بالإضافة إلى مدينتى مليلة وسبته وكانت تحتلهما منذ القرن الخامس عشر .

وفى ٣٠ مارس ١٩١٢ تم توقيع معاهدة الحماية بين فرنسا والمولى عبد الحفيظ سلطان المغرب ، وبمقتضاها وافق على أن تقوم فرنسا باحتلال أى جزء من المغرب ، وفى ٢٧ نوفمبر عام ١٩١٢ وقعت اتفاقية بين فرنسا وأسبانيا نظمت أسبانيا بمقتضاها إدارة النفوذ الأسبانى بالمغرب ، فجعلتها تابعة لسيادة السلطان الموجود بمنطقة النفوذ الفرنسية ، والتى يطلق عليها اسم المنطقة السلطانية ، ويعين خليفة له فى تطوان يخضع لإشراف الإدارة الإسبانية ، وأطلق على هذه المنطقة المنطقة الخليفية ، وهى منطقة الحماية الأسبانية ، حاكمها يمارس جميع سلطات السلطان بموجب تفويض عام ، وتستقل الإدارة الأسبانية بإدخال التنظيمات الإدارية التى تراها(٤) .

وبموجب هذه الاتفاقية ظلت المنطقة السلطانية(٥) منطقة حماية فرنسية والمنطقة الخليفية(٦) منطقة حماية أسبانية ، وهكذا استطاعت أسبانيا السيطرة على المنطقة الخليفية ما عدا تطوان التى أصبحت فيما بعد عاصمة للمنطقة .

فى ٧ مايو ١٩٤٥ انتهت الحرب العالمية الثانية بانهيار دول المحور واستسلام ألمانيا وفى ١٤ أغسطس استسلمت اليابان بلا قيد ولا شرط ، بعد أن ألقيت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية الأولى على مدينة « هيروشيما » فى ٦ أغسطس ، وألقيت القنبلة الذرية الثانية على « ناجازاكى » فى يوم ٨ أغسطس وانتهت بذلك الحرب العالمية الثانية ، وتم تقسيم ألمانيا بموجب اتفاقية « بوتسدام » وكان – لنهاية الحرب بهذا الوضع آثاراً كبيرة على المغرب بمنطقتيه ، وعلى الدولتين الحاميتين أسبانيا وفرنسا(٧) .

ذلك أن أسبانيا تعرضت فى فترة ما بعد الحرب لبعض المشاكل السياسية ، من أهمها :

١ - محاولة « فرانكو » تعديل نظام الحكم فى الداخل .

٢ - فشل محاولة فرانكو لإعادة الملكية لأسبانيا ، لكى تقف سدًا منيعًا ضد آمال الجمهوريين فى العودة إلى البلاد .

٣ - تحركات الجمهوريين ضد حكومة فرانكو ومناصرة دول الحلفاء لهم والعمل على إحلالهم محل حكومة فرانكو فى أسبانيا .

٤ - موقف الحلفاء العدائى ضد أسبانيا ، وخاصة بعد أن طالبت فرنسا فرانكو بالتنازل عن الحكم فوراً ، وإفساح الطريق لحكومة أخرى فى أسبانيا تستطيع أن تتعامل مع العالم بعد الحرب[٨] .

وكان رد الفعل الفورى فى المغرب أثر انهيار ألمانيا فى الحرب هو الوقوف موقف العداء ضد مواطنى دول المحور فى المنطقة وذلك بتوقيع الحجز على كافة أملاك الأجانب التابعين للمحور أو التابعين للدول التى تسيطر عليها[٩] ، وذلك عن طريق منع هؤلاء الأجانب من أى تصرف فى هذه الممتلكات[١٠] ، كما أخضعت الإدارة العامة للحماية فى المنطقة الخليفية بالمغرب جميع الهيئات الأجنبية التابعة لدول المحور المحتجزة أملاكها وأموالها لنظام تفتيش ، ومراقبة طبقًا لمراسيم خاصة تقررها المندوبية السامية الأسبانية .

وهكذا بدأت المنطقة الخليفية فى تغيير معاملتها بطريقة جذرية لمواطنى وهيئات ومؤسسات دول المحور بالمنطقة ، أو حتى الدول التى تتعامل معها ، لكى تحاول أسبانيا أن تمحى شبهة التعاون مع دول المحور أثناء سنوات الحرب ، ولكن الحلفاء لم ينسوا إطلاقًا ذلك التعاون وعاملوا الدول الحامية للمغرب بطريقة عدائية كبيرة .

ولم تقف المنطقة الخليفية فى تلك الفترة موقفا عدائيــا ضــد دول المحــور فحسب ، بل أن الحركة الوطنية بها وقفت ضد الدولتين الحاميتين أيضا ، وحــاولت الأحزاب القيام بهذه المهمة .

أما فرنسا وهى الدولة الحامية الأولى فقد خرجت من الحرب العالمية الثانيــة محطمة مهزومة ، وحاول الوطنيون فى المنطقة السلطانية تنظيم صفوفهم لإمكــان مواجهة هذا الكيان الضعيف ، ومحاولة انتهاز فرصة هذا الضعف لتحقيق آمالــهم الكبيرة فى الاستقلال بزعامة حزب الاستقلال[١١] .

وفى ذلك الوقت تقاربت أهداف الملك محمد الخامس وأهداف الوطنيين ، كمـا بدأت العلاقات بين القصر والإقامة العامة تسوء كثيرا عما كانت عليه ، وقد تـأزمت العلاقات بين السلطات والمقيم العام (جبريل بيو) لزجه بعدد كبير من الوطنييــن فى السجون وللوسائل التعسفية التى أغضبت حكومة المخزن[١٢] .

وحاولت فرنسا أن تقوم بتهدئة الموقف فى المغرب على أساس الوصول إلــى تفاهم مع العناصر الوطنية ، فقامت فى مارس ١٩٤٦ باختيار (أريــك لابســون) مقيما عاما للعمل على حل القضايا الملحة[١٣] .

وعلى أثر تعيين المقيم العام الجديد (أريك لاسون) قدم إليه حزب الاستقلال مذكرة تضمنت بعض المطالب ، وطلب الحزب العمل ضمن « إطار القانون »، كمـا التمست المذكرة الإفراج عن « الفاسى » و« الوزانى » اللذين كانا معتقلين منذ سنة ١٩٣٧م ، و« بلفرج » الذى اعتقل فى ١٩٤٤ وفى أوائل شهر يوليــو ١٩٤٦تـم الإفراج عن هؤلاء المعتقلين طبقا لسياسة التقارب والتهدئة التى حاول المقيم العــام الجديد تنفيذها مع الوطنيين[١٤] .

وبعودة هؤلاء الزعماء إلى المغرب تفجرت من جديد حدة الحركة الوطنيــة التى كانت تهدف أساسًا إلى الاستقلال عن الدولتين الحاميتين (فرنسا وأســبانيا) . وعندما عاد « علال الفاسى » إلى المغرب أنضم إلى حزب الاســتقلال[١٥] ، وقــد توسع حزب الاستقلال فى عمله سريعًا فى عدة جهات وفتح مكاتب إعلام فى كــل

من باريس ولندن والقاهرة وطنجة ودمشق ، ثم أرسل البعثات إلــى بـاريس فـى محاولة لتعريف القضية المغربية للشعب الفرنســى والحكومـة الفرنسـية تعريفًـا مباشرًا، والعمل على توصيل نداء الحزب للاستقلال للمناطق القبليـة فـى جبـال الأطلس الأوسط ،ثم قامت الحركة الكشفية التى يتزعمها « إدريس المحمدى » فـى المنطقة الخليفية بمجهودات سرية فى سبيل الاستقلال ، كما أسست منظمـة جديـدة للشباب فى الدار البيضاء ، وأنشأ الحزب أيضًا أندية رياضية فـى مدينـة فـاس ، وأصبحت هذه الأندية مراكز شعبية للحركة الوطنية كما أنشأ الحزب عدة مـدارس جديدة خلال عام ١٩٤٩ لتعليم الدين الإسلامى لتعمل فى نفـس الوقـت كمراكـز لإعداد ألإطارات اللازمة للحزب ، وضم أعداد جدد به(١٦) .

ومن المؤكد أن هذا التوسع الكبير فى النشاط الوطنى لحزب الاسـتقلال قـد اقنع المغاربة بأن الاستقلال هو المطلب الوحيد الملح الذى يمكـن أن يطـالب بـه المستعمر فى تلك الفترة ، قبل أى تصرف آخر ، أو أى إصلاحات أخرى، واعتـبر الوطنيون أن كل إصلاح هو جزئى ومسكن ، وأن الإصلاح الأساسى هو الاستقلال الكامل .

أما فى المنطقة الخليفية (منطقة الحماية الأسبانية بالمغرب) فقد بدأ ازدهـار الحركة الوطنية فيها ، فى ظل وجود المقيم العام الأسبانى الجديد (فاريلا) الــذى بدأ علاقاته مع الوطنيين فى المنطقة بداية استطاعوا أن يستشعروا معها بأنـه مـن الممكن أن يعمل معهم ذلك المقيم العام فى سبيل تحقيق الأمانى المغربية المشـروعة وأولها الاستقلال(١٧) .

وكد حاول الحسن بن المهدى خليفة المنطقة الخليفية أن يوجه وجه المنطقـة فى ذلك الدور إلى العالم العربى ، ويقـوى علاقاته بكافة الدول ، كما حاول الحسن أن يخـدم القضـية المغربية فى قلب أسبانيا ذاتهـا ، فذهب إلى أسبانيا فـى عـام ١٩٤٦ ، محاولاً الاتصال بحكومة مدريد لإجراء بعض التعديلات الجوهرية علـى السياسة التى تنتهجها أسبانيا فى هجرة المستعمرين الأسبان ، وذلك بعـد أن فتح

المقيم العـام الأسبانى (فاريلا) باب الهجـرة على مصـرعه . على أن هـذه التغيرات قوبلت بالرفـض من قبـل فرانكـو ، الـذى كـان يـرى أن بقـاؤه فى المغـرب لا يتأتى إلا بالأغلبية الأسبانية الموالية لأسبانيا[١٨] .

ولم تستكن المنطقة الخليفية لتصرفات المقيم العام الأسبانى فاريلا فاستأنف حزب الإصلاح نشاطه فى المنطقة الخليفية تحت قيادة عبد الخالق الطريسى ، الـذى طالب فى منشورات وزعها الحزب على الأهالى بإيقاف الهجرات الخارجيـة إلـى المنطقة ، والكف عن نزع ملكية الأراضى ، وإلغاء المساعدات المالية التى تصرف من ميزانية المغرب على الكنيسة الكاثوليكية الفرنسـية ، كمـا طـالب فـى هـذه المنشورات بإطلاق الحريات وتكوين حكومة مغربية وطنية مؤقتة تعمـل لإعـداد المغرب للاستقلال .

وفى أواخر أغسطس ١٩٤٦ ، وفى أثناء احتفال البلاد بعيد الفطر المبـارك ، تظاهر حوالى ألفى مغربى فى مدينة تطوان مطالبين بمنع هجرة الأسبان للمنطقـة حتى لا تفقد هويتها ، هذا بالإضافة إلى المطالبة باستقلال المغرب ورحيـل فرنسـا وأسبانيا عن الأراضى المغربية ، مما ترتبت عليه قيام القوات الأسبانية بـالتصدى لهذه المظاهرة ، واستعمال القوة والعنف ضد المتظاهرين ، فأصيب منهم المئـات ، وقتل منهم العشرات ، كما اعتقل حوالى مائة وخمسين مواطنا وتم ترحيلـهم إلـى السجن العمومى ، وشكلت لهم محكمة عسكرية ، وقد احتجت الحكومـة الخليفيـة على هذا التصرف وأنذرت الإقامة العامة الأسبانية بعواقب هذه التصرفات[١٩] .

كذلك امتدت الاضطرابات والمظاهرات إلى مدينة تطوان وطنجة[٢٠] محتجين على عدم مساواة الأجور بين المغاربة والأوربيين وخاصة رجال الشرطة ، وكذلـك سوء معاملة النساء المغربيات ، وحالة البطالة المتزايدة ، بسبب الهجرة الخارجيـة ، وأتساع نطاق البغاء فى البلاد .

واتحد حزب الإصلاح مع حزب الاستقلال وطالبوا بنفس مطالب المتظاهرين، كما طالبوا فى بيانات وزعوها على المتظاهرين باستقلال البلاد ووحدتها ، وكان رد الفعل الأسبانى فوريًا وعنيفًا إذ واجهوا المتظاهرين بالسلاح والقنابل المسيلة للدموع ، وأصيب وجرح وقتل العديد من الأهالى ، كما استعدت القوات البريطانية لمواجهة الظروف الطارئة ، وحاولت القوات الأسبانية إجهاض هذه الانتفاضة والسيطرة على الموقف المتأزم ، عن طريق التفرقة بين شطرى المغرب ، فأبلغت الخليفة بنيتها على إنشاء وزارات جديدة للمالية والزراعة والتعليم، بقصد دعم سياستها فى وجه نفوذ الملك محمد الخامس المتزايد ، ولهذا ثارت الأحزاب السياسية لهذا التصرف الذى ينم عن تفرقة وتمزيق وحدة المغرب ، فأصدر حزب الإصلاح بيانًا أكد فيه وحدة المغرب بمنطقتيها كما أكد فيه على إصراره على استقلال المغرب وعدم استعداد الحزب للدخول فى هذه الوزارات .

وفى الوقت نفسه أصدر حزب الاستقلال بيانًا تضمن نفس المعنى وأكد على تضامن واتحاد الوطنيين المغاربة فى الشمال والجنوب فى مطالبهما وحذر المواطنين من سياسة أسبانيا الخادعة[٢١] .

وكان أن حاولت السلطات الأسبانية الالتجاء إلى القوة فى مقاومة هذه الاضطرابات ، وشددت الرقابة على الصحف ، وأغلقت وأوقفت بعضها ، مثل صحيفة (الوحدة المغربية) ، وجريدة الحرية لسان حال حزب الإصلاح ، وفرضت غرامة مالية كبيرة على الحزب مع إنذاره بإيقاف نشاط الحزب كذلك أصدرت الإقامة العامة الأسبانية أوامرها بالتضييق على الوطنيين وأعضاء الأحزاب وزعمائها ، ومراقبة تحركاتهم وتفتيش منازلهم وحددت إقامة بعضهم ، خاصة بعد أن قدم حزب الإصلاح مذكرة إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة يفضح فيها التجاوزات غير المشروعة للسلطات الأسبانية مفندين فيها مظالمهم ومطالبين بإلغاء الحماية الأسبانية على المنطقة وإعلان الاستقلال لشطرى المغرب[٢٢] .

وإزاء كل هذه التطورات تأزم الموقف وأزداد سوءًا ، ولهذا أوفـدت الهيئـة العليا لحزب الاستقلال وفدًا من أعضائه إلى باريس لتقديم مذكرة للحكومة الفرنسـية تضمنت مسئولية فرنسا عما يحدث بالمنطقة الفرنسية من تجاوزات تقوم بها أسـبانيا فى المنطقة الخليفية ، لأنها هى التى تنازلت لأسبانيا عن هــذه المنطقـة دون إذن وموافقة سلطان مراكش ، وأنه ليست هناك أية اتفاقيات مبرمة بين أسبانيا وسـلطان مراكش بهذا الشأن ، كما تضمنت ضرورة الاعتراف بالسيادة المغربية على طنجـة وتوحيد المغرب بضم المنطقة الخليفية إلى المنطقة السلطانية تحت حكم الملك محمد الخامس[٢٣] .

واتفقت الحركة الوطنية فيما بينها فى المنطقتين الخليفيـة والسـلطانية علـى العمل المنظم والابتعاد عن استخدام العنف والقوة فى مواجهة السـلطات الفرنسـية والأسبانية ، وبدأت هذه السلطات مراجعة وإعادة حساباتها واتخاذ كافة الاحتياطـات لمواجهة أى موقف ، والعمل بطريقة جذرية ومدروسة لمواجهة الموقف الوطنـى ، كذلك عقد اجتماع سرى فى مدريد بين المسئولين فى الإقامـة العامـة الأسـبانية والمسئولين الفرنسيين فى المنطقة السلطانية وذلك لبحـث الموقـف المتـأزم فـى المغرب . وبعد مناقشات ومداولات بين الحكومتين الفرنسـية والأسـبانية واسـتقر الرأى على تغيير الملك محمد الخامس[٢٤] .

وكانت هذه أول بادرة خطيرة تصدر من السـلطات الاسـتعمارية بـالمغرب بمنطقتيه للتحكم والسيطرة على الأمور ولهذا استمرت التظـاهرات بتشـجيع مـن الحركة الوطنية فى العديد من المناطق المختلفة بالمغرب واتخذت أشكالاً مختلفة .

وكان عام ١٩٤٧ العام الحاسم بالنسبة للحركة الوطنية فى المنطقتين الخليفيـة والسلطانية لبداية انطلاق الحركة الوطنية بمفهوم وأسلوب جديد ، أدى فى النهايـة وبعد سنوات قليلة إلى الاستقلال ووحدة مناطق المغرب المختلفة . وقد شـهد ذلـك العام أحداثًا بالغة الأهمية اعتبرت علامات بارزة على طريـق تـأكيد الشـخصية المغربية القوية والإصرار على بلوغ الآمال ، مهما بلغت المصاعب ، فكان مؤتمـر

المغرب العربى بالقاهرة فى ١٥ فبراير ١٩٤٧ يمثل إصـــرار الحركــة الوطنيــة المغربية على فضح الاستعمارين الأسبانى والفرنسى بالمغرب فى جميــع أرجــاء الوطن العربى ، والتصميم على طلب الاستقلال مهما كانت نتائج هذا الطلب(٢٥) .

زيارة الملك محمد الخامس لطنجة وأثرها على الحركة الوطنية :

كانت زيارة الملك محمد الخــامس لمنطقة طنجة ، البداية الحقيقيــة لموقــف الملك محمد الخامس الصريح من تحيزه للحركة الوطنيــة المغربيــة ، ووقوفــه بجانب شــعبه فى جهاده من أجل الاستقلال ، ولتــأكيد ســيادته وســيادة المملكــة المغربية على المنطقة الخليفية ، حتى ولو كانت ترزح تحت الحمايــة الأســبانية ، وكذلك على منطقة طنجة حتى ولو كانت تتمتع بنظام دولى خاص(٢٦) .

وفى ٩ أبريل ١٩٤٧ بدأت زيارة الملك محمد الخامس لمدينة طنجة ، بعد أن اعترضت السلطات الفرنسية عليها ، واشترطت لإتمامها أن يصاحب الملك محمــد الخامس المقيم العام الفرنسى ، لكى يقوم بالإشراف على هذه الزيــارة مــن حيــث تحديد مناطق الزيارة ونوعية الخطب التى يلقيها الملك ، وتحديد الأشخاص المزمــع مقابلتهم ، لكن الملك رفض هذه القيود ، ووافق على أن يصاحبه المقيم العــام دون تدخله فى أى شئ ، وقد اهتم العالم كله بهذه الزيارة التاريخيــة ووصلــت طنجــة وفود الصحفيين من الدول المختلفة ، وكان الهدف من هذه الزيارة تــأكيد ســلطته وسيادته على مدينة طنجة على الرغم من أنها دولية الإدارة ولم يزرها أى ســلطان مغربى منذ عام ١٨٨٩م(٢٧) .

وكان أن جاوزت آثار الزيارة الملكية لطنجة حدود المغرب ، وانتقل صداهــا إلى العالم الخارجى ، وكانت فرنسا أكثر الدول تأثرًا بهذه الزيارة ، حيث اعتــبرت هذا العمل الذى قام به الملك محمد الخامس بمثابة ثورة على الوجود الأجنبى كلــه فى المغرب أشعلها الملك من العاصمة السياسية لبــلاده بحضــور ممثلــى الــدول الأجنبية والصحافة العربية والعالمية ، ليعرف العالم كله أن المغرب قد حدد هويــة

انتسابه ، فجعلها عربية إسلامية ، وحدد هوية مطالبه فجعلها الاستقلال ، وحدد وحدة ترابه ، وحدد هوية مستقبله السياسى ، فجعلها التعاون مع بلاد المشرق العربى فى بوتقة الجامعة العربية ، وحدد هوية خطته للمرحلة الجديدة فجعلها استقلالا ناجزًا يقود إلى الإصلاح بدلاً من أن تكون إصلاحًا يقود إلى استقلال فى بوتقة الاتحاد الفرنسى[٢٨] .

ومهما كانت ردود أفعال هذه الزيارة ، فقد أسفرت عن نتيجتين هامتين فى خلال عام ١٩٤٧ الأولى هى محاولة فرنسا نقل بطل المنطقة الخليفية عبد الكريم الخطابى إلى فرنسا لتحديد إقامته هناك ، وذلك فى إطار محاولتها التخفيف من ردود أفعال زيارة الملك محمد الخامس لطنجة ومناداته بالوحدة المغربية التى أثارتها كلمات الملك ضد فرنسا من جهة ، ومن جهة أخرى لمعاكسته بالإيحاء له بوجود منافس على عرش المغرب .

والنتيجة الثانية لزيارة الملك لطنجة هى عزل المقيم العام الفرنسى لابون وتعيين بدلاً منه (جوان) وذلك لغضب السلطات الفرنسية على الأول[٢٩] .

وكانت أول نتيجة لزيارة طنجة هى شبه العفو الذى أصدرته فرنسا عن عبد الكريم الخطابى الذى سبق أن حارب فرنسا وأسبانيا مجتمعيين فى حرب الريف ١٩٢٦/١٩٢٠ ، وقد احتج وزير خارجية أسبانيا على هذا الإفراج دون استشارة أسبانيا بوصفها الدولة الحامية للمنطقة الخليفية[٣٠] .

وفعلاً اتخذت وزارة الخارجية الفرنسية الاستعداد لنقل الخطابى وأسرته وأتباعه إلى فرنسا ، لكنه خيب آمالهم والتجأ سياسيًا إلى القاهرة[٣١] . وترتب على هذا العمل آثارًا بعيدة المدى فى داخل المغرب نفسه ، وفى سائر دول الشمال الأفريقى[٣٢] ، إذ أحدث دهشة عظيمة فى الأوساط الفرنسية والصحافة الفرنسية التى اتهمت الحكومة الفرنسية بالإهمال والغفلة لمساهمتها بإفلات الزعيم المغربى

من السيطرة الفرنسية ، وأن الرأى العام الفرنسى يشعر بالخجل من الإهانة التى لحقت بفرنسا .

أما الحكومة الأسبانية فقد لزمت الصمت لأنها رأت أن مسألة نزول الخطابى فى مصر تهم فرنسا بصفة خاصة .

وهكذا أصبحت القاهرة مقرًا لعدد من زعماء المغرب هم علال الفاسي وعبد الخالق الطريس والحبيب بورقيبه وعبد الكريم الخطابى ، وبذلك غدت من أهم المراكز للدعاية للقضية المغربية ، ومن القاهرة امتد نشاطهم إلى المغرب وبدأوا يخططون ويعدون ضد الأسبان فى المنطقة الخليفية ، وفرنسا فى المنطقة السلطانية، بل لقد امتد نشاطهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتم إيفاد ممثل عن الحركة الوطنية المغربية بمنطقتها إلى الولايات المتحدة هو « المهدى بتونة » ممثلاً لهم هناك ، فقام بالأعمال الدعائية لوحدة المغرب والتنديد بفضائح الاستعمار الأسبانى بالمنطقة الخليفية كما قام بتقديم مذكرة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة باسم الحركة الاستقلالية المغربية ، تناول فيها تجاوزات فرنسا وأسبانيا فى المنطقتين[٣٣] .

وفور تقديم هذه المذكرة استدعى (قاند بل آزاتار) سفير أسبانيا فى واشنطن « المهدى بنوته » لمقابلته ، وذلك لأن السفير توقع تقديم مذكرة أخرى ، يقدمها أحزاب المنطقة الخليفية لتشرح سوء وتدهور الأوضاع فى المنطقة ، وهذا بالطبع يشكل ضررًا بالغاً بالمصالح الأسبانية أمام هيئة الأمم المتحدة ، ولهذا طلب السفير من المهدى إرجاء تقديم المذكرة المذكورة ، وتم الاتفاق بينهما على التغاضى عن تقديمها فى حالة تحقيق بعض المطالب الهامة من الدولة الحامية أسبانيا والتى تتمثل فى :

١ – تأييد قيام دولة مغربية مستقلة تضم مراكش الفرنسية وطنجة والمنطقة الخليفية الأسبانية ، على أن تعلن أسبانيا استقلال المنطقة الخليفية .

٢ – إعلان العفو العام عن جميع المنفيين والمعتقلين السياسيين .

٣ – الدخول فى محادثات مباشرة لتحقيق الاستقلال التام لبلاد المغرب . لكن السلطات الأسبانية رفضت هذه المطالب[٣٤] ، الأمر الذى ترتب عليه أن قدم « المهدى بنونه » المذكرة للجنة السياسية للأمم المتحدة ، يشرح فيها الأوضاع الاستعمارية السيئة والمتردية فى المنطقة الخليفية وطالب فيها بالاستقلال الكامل وتوحيد مناطق المغرب .

وهكذا كان نشاط زعماء المغرب فى المنطقتين الخليفية والسلطانية كبيرًا فى الدوائر العربية والفرنسية والعالمية ، لتعريف تلك الحكومات والشعوب بالمشكلة المغربية والظلم الواقع على كاهل الشعب المغربى ، من جانب الأسبان والفرنسيين، مما كان له الأثر الكبير بعد ذلك فى وقوف العالم بجانب القضية المغربية[٣٥] .

وفى يونيو ١٩٤٧ تم عزل (لابون) المقيم الفرنسى العام فى المنطقة السلطانية وتعيين (جوان) بدلاً منه . وكان هذا التعيين تحديًا سافرًا من جانب فرنسا للوطنيين المغاربة ، وتسليمًا من جهتها بمعالجة المسألة المغربية بالعنف والشدة نظرًا لطبيعة شخصية (جوان) التى كانت تؤهله لهذا الأسلوب من التعامل. وكان أن بدأ الصراع السافر بين الملك محمد الخامس وجوان واستمر طيلة مدة عمله بالمغرب[٣٦] .

وفى خلال تلك الفترة تعددت أساليب مواجهة نمو الحركة الوطنية سواء من السلطات المخزنية (الفرنسية) أو الأسبانية ، وتمثلت فى إنشاء مجلس شورى فى المنطقة الخليفية لمواجهة أية اضطرابات من الممكن أن تحدث فيها نتيجة نمو الحركة الوطنية بصفة عامة ، وكان هذا المجلس يختص بدراسة كافة القضايا الخاصة بالمنطقة ويقدم المشورة للحكومة المخزونية ، كما حاولت السلطات الأسبانية إبعاد تأثير الثقافات المختلفة وخاصة المصرية منها ، وفرض الثقافة الأسبانية على شعب المنطقة إلا أن قادة الرأى والفكر فى المنطقة تصدوا لهذه

الفكرة ؛ وقد استغل الوطنيون والزعماء المغاربة فى المنطقة هذه المعارضة فى إثارة الاضطرابات والبلبلة بين الأهالى(٣٧) .

وكان لنمو الحركة الوطنية واليقظة القومية المغربية وعقد مؤتمر المغرب العربى فى القاهرة وزيارة الملك محمد الخامس لطنجة والتجاء الأمير عبد الكريم الخطابى سياسيًا للقاهرة كان لكل ذلك ، الأثر الكبير والحاسم فى تطور الكفاح المغربى ، ونقله من داخل المغرب إلى خارجه ، وإزاء كل هذه الأوضاع لم تجد الدولتان الحاميتان أسبانيا وفرنسا بدأ من استعمال العنف والشدة للسيطرة على المنطقتين ، فقامت أسبانيا بنشر جواسيسها في أوساط الوطنيين ، وكانت تعتقل كل من يتصل بالقاهرة لوجود زعماء الحركة فيها أو بالزعماء المغاربة المقيمين فيها الذين يحرضون الأهالى بالمنطقة على الثورة أو المطالبة بالاستقلال ، كذلك ألغت الشرطة المغربية واستعانت بدلا منها بالأسبانية وخولت لها حق تفتيش المنازل دون قيد أو شرط ، كما أسندت حق الفصل فى قضايا الأمن إلى القضاء العسكرى الأسبانى(٣٨) .

ومن الواضح أن الإقامة العامة الأسبانية استهدفت من وراء إصدار هذه القرارات إقصاء الحكومة المخزنية وتنحيتها عن ممارسة سلطاتها فيما يتعلق بصيانة الأمن والاستقرار ، وذلك بعد أن أحجم موظفو الحكومة المخزنية عن تنفيذ كل ما يصدر إليهم من السلطات الأسبانية من أوامر تستهدف كبح جماح الحركة الوطنية المغربية والتنكيل برجالها .

وقد ثار شعب المنطقة إزاء قرارات السلطات الأسبانية بالمنطقة ، وأضربت مدينة تطوان . وأيد الخليفة احتجاج الشعب وحدثت مصادمات بين الشعب والبوليس الأسبانى ، وساند الشعب حزب الإصلاح وأصدر بيانًا يشجب فيه تصرفات البوليس الأسبانى ودعى الشعب لمقاومة هذه التصرفات، وطالب بإلغاء القرارات(٣٩) .

واتفق كل من الجنرال (فاريلا) المقيم السامى الأسبانى ، والجنرال (جوان) المقيم الفرنسى العام للعمل فى توحيد خطتهما فى المغرب لضرب الحركة الوطنية والعمل معًا للقضاء على الروح الوطنية التى انتشرت فى المغرب .

وعلى أثر هذه الأحداث اتخذت السلطات الأسبانية إجراءات أمن عنيفة فى مدينة تطوان ، وألقت القبض على جميع زعماء الحركة الوطنية وزعماء الأحزاب الوطنية ، واحتلت القوات الأسبانية مراكز هذه الهيئات . ثم حاصر الجيش الأسبانى مدينة تطوان واحتل شوارعها وفق نظام حظر التجوال فيها ونصبت الأسلاك الشائكة فى مفترق الطرق[٤٠] .

وحدثت مصادمات واشتباكات عنيفة وقوية فى هذه الاضطرابات نتج عنها أعداد كبيرة من الجرحى والقتلى ، كما تم اعتقال الكثير من الأهالى ، وغصت سجون مدينة تطوان وسبته والمدن القريبة من تطوان بآلاف الأهالى، وطبقت السلطات الأسبانية الأحكام العسكرية بشكل لم يعرف له مثيل من قبل ، كذلك أغلقت جميع المدارس والمساجد وأصبحت المنازل محاطة بالجنود الأسبان المدججين بالسلاح لمنع تحركات الأهالى . وكان هدفهم من ذلك القضاء على الحركة الوطنية بأية وسيلة ، وكانت القوات الأسبانية تطلق النار بشكل عشوائى على أى فرد تشتبه فيه فى الطرقات[٤١] .

وفى ١٣ فبراير ١٩٤٨ ، ألقت السلطات الأسبانية القبض على وفد من أعيان تطوان كان فى طريقة لمقابلة السلطان ، وتم نقلهم إلى السجن وهم مكبلين بالحديد .

وفى ٣٠ مارس ١٩٤٨ أرسل زعماء الأحزاب الوطنية فى المنطقتين – الخليفية والسلطانية – ببرقيات إلى هيئة الأمم المتحدة ووزارتى الخارجية الأسبانية والفرنسية ، طالبوا فيها بإلغاء المعاهدات التى نصت على وضع مراكش تحت حماية كل من أسبانيا وفرنسا[٤٢] .

واتبعت السلطات الأسبانية ابتداء من ١٥ إبريل أساليب التهدئة . وبعد أن هدأت الثورة فى المنطقة حاولت السلطات الأسبانية التقارب مع الأهالى . وبالرغم من ذلك ظل التوتر قائمًا بين الأهالى والأسبان وذلك يرجع إلى عدم الإفراج عن المعتقلين .

وفى يوليو ١٩٤٩ انفجرت الثورة مره أخرى فى المنطقة الخليفية ، وذلك نتيجة لما صرح به فرانكو لممثل لبنان ، وهو يقدم أوراق اعتماده كسفير فى أسبانيا، بأن منطقة شمال مراكش أى المنطقة الخليفية مناطق أسبانية ، ومعنى هذا التصريح أن المنطقة قد ضمت لأسبانيا .

وقد تجاوزت الاضطرابات فى المنطقة الخليفية كل ما كانت تتوقعه أسبانيا وخشية من تطورها لتشمل المغرب كله ، عملت أسبانيا على تهدئة الأوضاع بالتقارب إلى شعبها[٤٣] .

ولكن سرعان ما بدت بوادر أزمة أخرى ، وذلك فى خلال انعقاد الدورة العادية لمجلس الشورى فى شهر ديسمبر ١٩٥٠ ، ذلك أن الإدارة الفرنسية تعرضت لهجوم عنيف فى أثناء عرض الميزانية المغربية ، وكان هذا هو أول نقاش عنيف يحدث بهذا الشكل فى تاريخ المجلس ، مما حدا بالجنرال (جوان) المقيم الفرنسى فى المنطقة السلطانية بأن يطلب من العضو (اليزيدى) المقرر العام للميزانية ، ورئيس الغرفة التجارية المغربية ، وعضو حزب الاستقلال ، الامتناع عن تلاوة بقية تقرير الميزانية . وكان ذلك عندما هاجم الإدارة الفرنسية فى المغرب واتهمها بالجور فى توزيعها للميزانية ، فطلب منه التوقف عند هذا الحد والامتناع عن إبداء مثل هذه الآراء فى المجلس ، وفى اليوم الثامن والتاسع من شهر ديسمبر ١٩٥٠م ، عندما انتقد محمد الغزاوى بحدة وعنف السلطات الفرنسية، اعتبرها الجنرال جوان أهانه لفرنسا ، وطلب منه مغادرة المجلس فوراً ، وأنسحب الغزاوى من المجلس وأنسحب معه أحمد اليزيدى وتسعة أعضاء آخرين .

واستقبل الملك محمد الخامس الأعضاء المنسحبين في قصره ، ومن ثم أدركت الإقامة العامة أن الملك متضامن معهم ، ومصمم على خوض معركة الاستقلال حتى النهاية ، خاصة بعد أن تزايدت قوه الحركة الوطنية داخل وخارج المغرب ، وتوحدت الأحزاب الوطنية في كافة أرجاء المغرب العربي الكبير ، ووضع ميثاق عمل لها يوحد أهدافها ، وهو العمل على الاستقلال التام[٤٤] .

وعلى أثر هذا الموقف الذي اتخذه الملك صمم الجنرال جوان على خلع الملك محمد الخامس لأنه قد تأكد أن وجوده فيه خطر كبير على نظام الحماية، وأختار جوان ، الجلاوي - وهو باشا من مراكش مناوئ للحركة الوطنية لتنفيذ مخططه وهو أن يقوم الجلاوي بالتحرش بالملك ، وذلك أثناء الاحتفال بالمولد النبوي في القصر الملكي ، بإسداء النصح للملك بالابتعاد عن حزب الاستقلال ، ولما رفض الملك الطريقة ، التي عامله بها وعدم ملائمة المكان ، أتهمه الجلاوي بأنه لم يعد سلطاناً للمغرب بل أصبح سلطان حزب الاستقلال الشيوعي الملحد ، فما كان من الملك إلا أن طرد الجلاوي من قصره أمام المدعوين ، وبدأت الصراعات بينهما فقام الجلاوي بمهاجمة الملك وأهله بشتى الطرق الشرعية وغير الشرعية ، وخاصة في الصحف داخل وخارج المغرب ، وأظهر تعاطفه مع السلطات الفرنسية بالمغرب وأشاد بالإصلاحات الفرنسية وسياستها الحكيمة بالمغرب ، محاولاً أن يظهر في صورة المدافع عن الإسلام ضد الهجمة الشيوعية[٤٥] .

ولم يرض الشعب المغربي عن هذا الوضع وبدأ رجال حزب الاستقلال والأحزاب الأخرى يعبرون عن احتجاجهم لمسلك الجلاوي ضد سلطان البلاد ، وتحيزه للسلطات الفرنسية ، وفي يناير ١٩٥١م ، قامت مجموعة من أعضاء الحزب بحركة مفاجئة عمدوا فيها إلى منع الحكام المحليين من الذهاب إلى دار المقيم العام الفرنسي في مدينة الرباط العاصمة بعد أن أغلقوا جميع الطرق المؤدية إلى الدار ، لمنعهم من تقديم التهاني إلى « جوان » المقيم العام الفرنسي .

وهكذا بدأت الأوضاع تتصاعد وتشتد توترًا من الجانب الفرنسي ، فقامت الإقامة العامة الفرنسية بتطويق القصر الملكي ومحاصرته بالجنود الفرنسيين لمنع أقطاب الأحزاب والحركة الوطنية من الرجوع إليه ، كما طلبت من بعض الفقهاء المتعاونين معها بإصدار فتوى شرعية بجواز استبدال الملك بآخر[٤٦] .

وفي ٢٦ يناير ١٩٥١م إلتقى الجنرال « جوان » مع الملك محمد الخامس وطالبه بالتخلي عن حزب الاستقلال وطرد أعضائه من القصر الملكي . وكذلك سلمه كشفًا يتضمن بعض أسماء من كبار الموظفين بالديوان الملكي لطردهم والاستغناء عنهم ، ولما رفض الملك هذه المطالب شددت الشرطة الحصار على القصر ومنعت دخول أو خروج أي فرد من القصر مهما كان وضعه في الدولة ، كما كلف الجلاوي بالعمل على حث رؤساء القبائل على قبول مبدأ خلع الملك[٤٧] .

وتطورت الأوضاع بعد أن ساءت الأحوال ، فقامت قوات الجيش الفرنسي بتجريد قوات الحرس الملكي من سلاحه ، وأمر الجنرال جوان بأن تزحف قوات الجلاوي على العاصمة لخلع الملك عن العرش ، واتجهت النية إلى تنصيب النجل الثاني للملك وهو الأمير « عبد الله » الذي كان لا يزال قاصرًا ، على أن يكون الجلاوي باشا وصيًا على العرش ليعمل على تحقيق أطماع فرنسا في المغرب .

وفي الأول من مارس بدأت الدبابات الفرنسية تجوب لأول مرة شوارع المنطقة التي يقع فيها قصر الملك ، وتم استبدال الحرس الخاص بالملك بقوات فرنسية لمراقبة تحركات الملك ، ثم حاصرت الدبابات الفرنسية منازل جميع أفراد الأسرة المالكة ، وزعماء الحركة الوطنية وأعضاء الأحزاب وفرضت نظام حظر التجوال ، بعد أن ألقي القبض على رموز الحركة الوطنية المغربية ، هذا بالإضافة إلى أن الجنرال « جوان » ألف حكومة جديدة وتولى بنفسه إصدار المراسيم الإدارية . وقد استنكرت المنطقة الخليفية بأحزابها وشعبها وخليفتها أعمال العنف التي تنتهجها السلطات الفرنسية في جنوب المنطقة السلطانية ، كما استنكرت جامعة

الدول العربية هذا التصرف المشين ، وطالبت فرنسا بإنهاء الحماية على المغرب ومنحه الاستقلال التام(٤٨) .

وفى ٢٨ أغسطس ١٩٥١م حل « جيوم » محل « جون » كمقيم عام فرنسى فى المنطقة السلطانية ، ومع ذلك لم تتغير سياسة فرنسا تجاه الوطنيين واستمرت الخطوط العريضة للسياسة الفرنسية التى كانت تستهدف فرض سيطرتها ونفوذها على المغرب بمنطقتيه السلطانية والخليفية .

وفى الوقت نفسه استغلت أسبانيا تردى الأوضاع فى المنطقة السلطانية وعملت على كسب ود الوطنيين فى المنطقة الخليفية ، فقامت باتخاذ بعض الإجراءات المالية الهامة ، بهدف التغلب على آثار المجاعة التى حدثت بالبلاد فقامت بزيادة رواتب أفراد القوات المسلحة المخزنية فى المنطقة الخليفية ، واعتماد ميزانية استثنائية لزيادة مرتبات الجنود المغربية ، ومنح علاوات ومكافئات مالية للعاملين بالدولة ، وإنشاء صندوق أعانه لموظفى المنطقة وتنظيم أعمال الشركات والمصانع ، والاهتمام بالشئون الصحية والتعليمية للمواطنيين(٤٩) .

وابتداء من عام ١٩٥٢م ، حدث تطور كبير فى السياسة الأسبانية حيث انتهجت أسبانيا سياسة جديدة قوامها دعم وتوطيد دعائم العلاقات الودية الشاملة مع المنطقة الخليفية ووضعت خطة دقيقة لتطور وتنمية هذه العلاقات تستهدف إحراز بعض المكاسب السياسية فى المنطقة الخليفية وقد بدأت هذه الخطة بدعوة الجنرال « فرانكو » الخليفة « مولاى المهدى » لزيارته أسبانيا خلال شهر يناير ١٩٥٢م ، وذلك للتشاور فى مستقبل العلاقات الأسبانية الخليفية بصفة خاصة ، والعلاقات الأسبانية العربية بصفة عامة وكانت الزيارة ودية للغاية ، وكل طرف تفهم الآخر ، واتفقا على بعض الأسس والمبادئ العامة التى تساعد على نمو وتحسن العلاقات بينهما على أسس واضحة وقوية(٥٠) .

ولم تقتصر محاولات أسبانيا على إقامة العلاقات الودية بينها وبين الخليفة فقط ، بل أنها حاولت إتباع هذا الأسلوب مع رجال الحركة الوطنية بالمنطقة ففى ٤

مارس ١٩٥٢ سمحت لزعماء المنطقة المبعدين عنها بالعودة إليها ، وكانت النتيجة وصول الزعيم عبد الخالق الطريس زعيم حزب الإصلاح ومعه مجموعة من رفاقه إلى تطوان حيث استقبلهما الشعب استقبالا حافلا ، كذلك اجتمع الطريس مرات عديدة بالمقيم العام الأسبانى وطالبه بالعفو العام عن جميع المعتقلين السياسيين ، وإلغاء الرقابة على الصحف ، وفتح المركز الرئيسى لحزب الإصلاح وفروعه ، وكان أن حققت السلطات الأسبانية المطالب التى طلبها منه الطريس ، وأطلقوا الحرية الكاملة للأحزاب، وصرحت بإصدار الصحف المعبرة عن وجهة نظرهما كما سمحت لها بعقد اجتماعاتها بحرية كاملة[٥١] .

وقد أثار تصرف أسبانيا هذا ، قلق فرنسا خوفا من أن تنعكس آثاره على المنطقة السلطانية الموضوعة تحت الحماية الفرنسية ، خاصة وأن السلطات الأسبانية بدأت فى أواخر مارس ١٩٥٢م تعتنى بدراسة مشروع يكفل الحكم الذاتى بالمنطقة الخليفية .

والواقع أن حزب الإصلاح الوطنى وزعيمه عبد الخالق الطريس استطاع أن يسهم مساهمة فعالة فى إثراء الحركة الوطنية فى تلك الفترة ، مستغلا جو الحرية الذى أتاحته له السلطات الأسبانية ، فأنشأ جريدة الأمة[٥٢] التى كانت تطالب بالاستقلال ، كما قام بتعريف شعب المنطقة بحقوقه وواجباته ، وخاصة واجباته تجاه الدولة الحامية وهى أسبانيا[٥٣] ولم يقتصر اهتمام الجريدة على النواحى السياسية فقط لكنها اهتمت بمعالجة النواحى الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى كانت تجتاح المنطقة الخليفية وحاول أن يجد لها الحلول التى ترضى المواطنين ، كما اهتمت بالنواحى الصحية والثقافية للأهالى[٥٤] .

أما فى المنطقة السلطانية فقد اندلعت المظاهرات ابتداء من ١٩٥٢م عندما قتل الزعيم التونسى فرحات حشاد[٥٥] فى ٥ ديسمبر ١٩٥٢م للقضاء على الحركة العمالية احتجاجا على تواطؤ السلطات الفرنسية فى عملية القتل ، مما أدى بالمقيم العام الفرنسى إلى إصدار الأحكام العرفية وحظر التجوال ليلا

ومنـــع الاجتماعات ، وأصبحت الدار البيضاء تطوقها الدبابـــات وقـــوات الجيش . وشـــاركت منطقة طنجة الدولية والمنطقـــة الخليفيـــة والســـلطانية فـــي إضرابـــها ومظاهراتها احتجاجًا على مسلك السلطات الفرنسية بتونس(٥٦) .

ومرة أخرى تطورت الأحداث في المنطقة السلطانية وتم اعتقال ما يقرب مـن ٣٠٠ فرد وقتل حوالى ٣٠٠ آخرين فى خلال عدة أيام من مقتل الزعيم التونســـى وعقدت المحاكم العسكرية لقادة زعماء حـــزب الاســـتقلال وتظـــاهر الآلاف مـــن المواطنين في مدينتى مراكش والدار البيضاء واشتبكوا فى صراع كـــان ضحيتـــه العشرات من القتلى والجرحى وقد بلغ عدد المعتقلين فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ حوالى ٣٤ ألف معتقل من بينهم ٢٦٠٠ سيدة ، وتوفى منـــهم ٦٠٠ شـــخص . واســـتغل الفرنسيون هذه الاضطرابات وحاولوا الضغط على محمد الخـــامس للتوقيـــع علـــى مراسيم تقوم على أساس إقرار السيادة المزدوجة بين الفرنسيين والمغاربة ، ولكـــن الملك رفض مثل هذه الأمور ، ولهذا قامت القوات الفرنسية بمحاصرة قصر الملـــك ومنعته من الاتصال بأى شخص حتى أفراد أسرته(٥٧) .

وفى ٢٠ أغسطس ١٩٥٣ قام جيوم مع مدير الأمن وقوة من الجيش الفرنسى باقتحام القصر الملكى وجردوا الحراس من سلاحهم وقبضوا على الملك ومن معـــه فى القصر وتم نفيه إلى كورسيكا ، بعد أن رفض التوقيع على وثيقة تنـــازل عـــن العرش .

وبعـــد نفى الملك محمد الخامس ، وفى يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٣م وصل إلى الرباط العاصمة الملك الجديد « محمد بن عرفه » قادمًـــا مـــن مراكـــش يصحبـــه الجلاوى ، وفى ذلك اليوم اجتاحت المغرب موجه من الســـخط العارم ، خاصة بعد أن أذاع الملك الجديد بيانًا أكد فيه صداقته الأبدية لفرنسا ، وأشـــاد فيـــه بفرنســـا ووقوفهـــا المشـــرف مع المغرب ، وعلى أثـــر هـــذا نشـــط الفدائيـــون المغاربـــة وقـــاموا بنسف مستودعات الجيش الفرنسى ومبنى بلدية الرباط .

وفى ١١ سبتمبر ١٩٥٣ وصلت أعمال العنف ذروتها بمحاولة اغتيال الملك الجديد محمد بن عرفه ، أثناء خروجه من صلاة الجمعة ، ثم تصاعدت الأحداث والاضطرابات والأعمال الفدائية ضد الفرنسيين والأوربيين ، وزادت الحرائق فى المنشآت الفرنسية ، وتم تفجير محطة كهرباء الرباط وبعض سكنات الجيش الفرنسى[٥٨] .

أما فى المنطقة الخليفية فلم يعترف بالملك محمد بن عرفه ، واستنكرت ما تقوم به السلطات الفرنسية ضد المغاربة ، كما طالبت جميع الأحزاب الأهالى بالوقوف صفًا واحدًا ضد الفرنسيين ، وطالبوا بإعادة الملك محمد الخامس الملك الشرعى للبلاد ، وإعادة حقوقه الشرعية[٥٩] .

ومن ناحية أخرى فإن الحكومة الأسبانية استنكرت بشدة هذا العمل ورفضت الاعتراف بمحمد بن عرفه ، وفى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٣ ، أعلن الجنرال « جارسيا بالينو » المقيم العام الأسبانى فى المنطقة الخليفية مسئولية فرنسا الصريحة عن نفى الملك محمد الخامس ونصحها صراحة بتغيير سياستها الفاشلة فى المغرب ، وكان لهذا التصريح أثره الكبير فى الأوساط الفرنسية ، حيث حمل فرنسا أخطاءها فى مراكش ، ولم يقتصر رد الفعل على الوطنيين فى المنطقة الخليفية والدولة الحامية لها فقط بل عم السخط البلاد العربية كلها من المحيط إلى الخليج[٦٠] .

وفى يناير ١٩٥٤ تواترت الأنباء بأنه من المؤكد أن ينادى بخليفة المنطقة الخليفية وصيًا على العرش ، وذلك فى اجتماع يدعى إليه العلماء والباشوات والوجهاء ورؤساء القبائل ، إلا أن وزارة الخارجية الفرنسية عارضت ذلك لتعارضه مع المعاهدات المعقودة بين فرنسا وأسبانيا ، وحذرت أسبانيا بأنها ستقاوم بجميع ما لديها من وسائل أية حركة تستهدف إخراج المنطقة الخليفية من دائرة السلطة التى يتمتع بها « محمد بن عرفه » سلطان المغرب الجديد ، وبذلك بدأت نذر الخلاف بين فرنسا وأسبانيا .

وفى ٢١ يناير ١٩٥٤م وفى مدينة تطوان عقدت اجتماع بين زعماء المنطقة الخليفية وذلك للاحتجاج على أعمال فرنسا فى المنطقة السلطانية ، وحضره من الجانب الأسبانى الجنرال « أوليفر » حاكم مدينة سبته العام ، وقائد قوات الطيران فى المغرب وحاكم المدينة العسكرى وشخصيات أسبانية عسكرية ومدنية كثيرة ، ومن الجانب المغربى حضره العديد من العلماء ورؤساء الأحزاب والقبائل . وفى هذا المؤتمر طالب المندوب السامى الأسبانى الشعب المغربى بالتمسك بوحدته ضد جميع المؤامرات التى تحاك ضده ، ثم أعلن العفو عن جميع المسجونين المحكوم عليهم بمدة أقل من سنتين ، كما خفضت مدة السجن بالنسبة للمحكوم عليهم بمدد بين ثلاث وست سنوات إلى النصف(٦١) .

وفى هذا المؤتمر أعلن المجتمعون عدم الاعتراف بالسلطان الجديد محمد بن عرفه ، ووقع ٤٣٠ من الباشوات والقضاة ورجال الدين والعلماء ممن كانوا حاضرين المؤتمر ، ورفعت للجنرال فرانكو ،الذى أعلن ارتياحه بذلك وفى ١٣ فبراير ١٩٥٤ أعلن فرانكو رسميًا أن أسبانيا لا تعترف بالملك محمد بن عرفه فازدادت العلاقات سوءًا بينها وبين فرنسا .

وفى تلك الأثناء ازدادت أعمال العنف قوة وامتدت إلى كل ما يتعلق بفرنسا ، وفى شهر يوليو ألقيت قنبلة على حشد كبير من الأوربيين فى الدار البيضاء ، قتلت وجرحت منهم الآلاف ، بالرغم من الإجراءات التى فرضتها السلطات الفرنسية ، كما انتشرت عمليات الاغتيالات وعمت البلاد، ولتهدئة الموقف ، أعلن المقيم العام الفرنسى أنه لا بد من عزل « بن عرفه » لرفضه من جميع الهيئات ومن الشعب المغربى ، وضرورة عودة محمد الخامس للبلاد(٦٢) .

ولاقى هذا الاقتراح قبولاً من الحكومة الفرنسية ، ولهذا أعلنت نقل الملك محمد الخامس هو وأسرته من المنفى إلى فرنسا تمهيدًا لعودته لبلاده ، لممارسة حقوقه المشروعة كملك للبلاد ، وعندئذ هدأت الأحوال والاضطرابات قليلاً فى المنطقة السلطانية ، ولقى هذا الإعلان ارتياح جميع فئات الشعب المغربى .

وهكذا اضطرت فرنسا للتراجع عن موقفها المتشدد فى المغرب ، خاصة بعد اندلاع ثورات فى الجزائر وتونس والكاميرون ، تطالب بطرد الفرنسيين من بلادهم(٦٣) .

وفى الوقت نفسه استمرت أسبانيا فى سياسة التقارب والتعاطف والدفاع عن موقف المنطقة الخليفية تجاه سياسة فرنسا فى المنطقة السلطانية ، وخاصة موضوع نفى الملك . وتطبيقاً لسياسة التقارب بين أسبانيا والمغاربة ، قررت أسبانيا إسناد بعض المناصب الإدارية إلى المغاربة لمشاركتهم فى الحياة السياسية العامة ، فتولى عبد الله كنون منصب وزارة العدلية ، والعربى بن الحاج على اللوه منصب وزير للأوقاف الإسلامية ، وتعيين الشيخ محمد زريوح زعيم حزب المغرب فى منصب وزير التربية والثقافة ، وقامت بإنشاء وزارة جديدة للشئون الاجتماعية تكون مهمتها حماية الطفولة والشيخوخة ونزلاء السجون ومقاومة الأمراض الخطيرة ومنح المعاشات للمحتاجين من أهل المنطقة .

كذلك أعلنت أسبانيا أنها سوف تشرك رؤساء الأحزاب فى المنطقة فى أعلى المناصب الحكومية وقوبل هذا التعيين بتقدير كبير من الوطنيين ، فى الوقت التى تقوم فيه فرنسا بأعمال عدائية ضد الأهالى فى المنطقة السلطانية .

واستمر الثوار فى مقاومتهم العنيدة والعنيفة للقوات الفرنسية حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدن كاملة على حدود المنطقة الخليفية ، ولم تهدأ الثورة إلا بوصول الملك محمد الخامس فى ١٦ نوفمبر ١٩٥٥م ، ونظمت السلطات المخزنية مع السلطات الأسبانية الاحتفالات الكبيرة فى العديد من مناطق المغرب(٦٤) .

وفى ١٢ ديسمبر ١٩٥٥ تألفت أول حكومة مغربية فى المنطقة السلطانية وفى نفس الوقت أعلن وزير خارجية أسبانيا ، أن أسبانيا تريد أن ترى عملية تحرر المغرب واستقلالها وتوحيدها فى دولة واحدة بدلاً من المنطقتين فى أسرع وقت ممكن ، وترفض أن تدمج المنطقة الأسبانية (الخليفية) مع المنطقة السلطانية

(الفرنسية) تحت سيطرة فرنسا أو الاتحاد الفرنسى ، وأنها تشترط دمج المنطقتين تحت رأية المغرب المستقل ذى السيادة المستقلة .

وكان لهذا التصريح أطيب الأثر بين الدوائر السياسية فى المنطقة الخليفية وشكر الخليفة « الحسن بن المهدى » الجنرال فرانكو على إصداره مثل هذا التصريح ، ووصفه بأن فرانكو قد وضع الأسس السليمة لبلوغ الاستقلال بإصداره هذا التصريح ، كما وعد الحكومة الأسبانية بالتعاون الدائم معها فى ظل وحدة الإمبراطورية المغربية تحت ظل السلطان « سيدى محمد الخامس » .

وبدأت المفاوضات بين السلطات المخزنية فى المنطقة الخليفية والسلطات الأسبانية فى المنطقة ، وتم الاتفاق على جميع المشروعات والوسائل الخاصة بعملية الدمج ، كما بدأت المفاوضات بين السلطات الأسبانية والفرنسية من جهة، وبين الحكومة المغربية والسلطات الفرنسية من جهة أخرى على إجراءات إعلان الاستقلال المغربى بمنطقتيه السلطانية والخليفية(٦٥) .

وفى ٢ مارس ١٩٥٦م ، أعلنت الحكومة الفرنسية اعترافها علنًا باستقلال المغرب وتمتعه بالسيادة الكاملة على أرضه ، وأن يتمتع بالحقوق التى تتيح له تكوين الجيش المغربى والسلك الدبلوماسى .

وفى ٧ إبريل ١٩٥٦م وقع وزير خارجية أسبانيا البرتومارتين ارتاخو ، فى مدريد والوزير الأول للمغرب « امبارك بكاى » على تصريح ينص على اعتراف أسبانيا باستقلال المنطقة الخليفية تحت زعامة الملك محمد الخامس وعلى تحديد العلاقة بين الدولتين فى المجالات المختلفة .

وبذلك استقلت المنطقة الخليفية ، واندمجت مع السلطانية ومنطقة طنجة الدولية فى دولة واحدة ، هى دولة المغرب ذات السيادة على جميع أراضيها ، وكانت لهذه المرحلة (مرحلة الاستقلال) أوضاعها الدولية داخليًا وخارجيًا المتميزة وبها بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ البلاد(٦٦) .

الهوامش

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٢٤٧.

(٢) عبد العظيم رمضان : الغزو الاستعمارى للعالم العربى وحركات المقاومة ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص٣٦ .

(٣) نفسه : ص ص٣٨ – ٤٠.

(٤) نفسه : ص ص١٧٣ – ١٨٨.

(٥) هى المنطقة الجنوبية من المغرب .

(٦) هى المنطقة التى تقع على الساحل الشمالى والشمال الغربى من المملكة المغربية واللذان يطلان على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، وقد أطلق هذا الاسم منذ عام ١٩١٢ على منطقة الحماية الأسبانية حتى إعلان الاستقلال فى عام ١٩٥٦م .

(٧) أحمد عطيه الله : القاموس السياسى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ص٢٢٥ – ٢٢٦.

(٨) جلال يحيى : المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار) جـ(٣)، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٦٢١.

(٩) وهم مواطنو الدول : ألبانيا ، ألمانيا ، بلجيكا ، بلغاريا ، الصين تشيكوسلوفاكيا ، الدانمرك ، إيستونيا ، فنلندا ، فرنسا ، اليونان ، هولندا هنغاريا ، إيطاليا ، اليابان ، ليتونيا ، لوكسمبورج ، النرويج ، بولندا ، رومانيا ، تايلاند ، يوغسلافيا .

(١٠) لمزيد التفاصيل انظر :

Boletin Oficial de la Zona le protector ado Saponal en Maruecos, Ano XXXII Num. B. P. 344.

(١١) Le Monde, Paris. 3 / 7 / 1947.

(١٢) Jelien, Charles Andre, L'Arique de Nord en Marche, Paris Réne Julliard, 1959, p. 353.

(١٣) روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، ترجمة الدكتور نيقولا زيادة ، مراجعة الدكتور أنيس فريحه ، المغرب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٣ ، ص٣١٨ .

(١٤) حزب الاستقلال : المغرب الأقصى ، مراكش ، مكتب المستندات والأنباء القاهرة ، ١٩٥١ ، ص٣٣ .

(١٥) عبد المجيد بن جلون : هذه مراكش ، ١٩٧١م ، ص٢٣٥ .

(١٦) دوجلاس أى، أشفورد : التطورات السياسية فى المملكة المغربية ص١١١.

(١٧) جريدة الوحدة المغربية : العدد ٤٥١ ، تطوان ، فى ١٠ يونيو ١٩٤٥م .

(١٨) علال الفاسى : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ، لجنة الثقافة الوطنية لحزب الاستقلال ، مطبعة الرسالة ط١ ، القاهرة ١٩٤٨، ص٣٧١.

(١٩) نفسه ، ص٣٧٢ .

(٢٠) خضعت مدينة طنجة لنظام دولي خاص وذلك بعد تقسيم فرنسا وأسبانيا للمغرب فيما بينهما عام ١٩١٢ ، ومن ثم لم يبق لملك المغرب سوى سيادة اسمية تتمثل فى وجود مندوب مخزني ليس له حق البت فى قرار ما ، ولكن عليه التوقيع رسميًا على كل ما يعرض عليه من مشروعات ، وبعد انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية تم تدويل طنجة .

(٢١) علال الفاسى : المرجع السابق ، ص٣٧٣ .

(٢٢) عبد الله العروى : تاريخ المغرب ، ترجمة ذوقان قرقوط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٧ ، ص١٢٠ .

(٢٣) Istiqlal Party Documents, Documentation and Information office of the Istiqlal Party (English edition) Paris, 1904, P. 62.

(٢٤) جلال يحيى : المغرب الكبير في الفترة المعاصرة وحركات التحرر والاستقلال ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٨٥ .

(٢٥) للمزيد انظر ، كمال محمد حسن علي : المنطقة الخليفية بالمغرب ١٩٣٩/١٩٥٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية آداب سوهاج ، ١٩٨٣م .

(٢٦) عبد الله العروى : المرجع السابق ، ص١٢١ .

(٢٧) حلمي محمد عشيش : المغرب الأقصى كما رأيته ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص٢٥ .

(٢٨) أمين سعيد : ثورات العرب في القرن العشرين ، دار الهلال القاهرة (د. ت) ص٦٦ .

(٢٩) أحمد عسه : المعجزة المغربية ، ط١ دار القلم للطباعة والنشر بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ص٢٤٥ - ٢٤٨ .

(٣٠) جلال يحيى : عبد الكريم الخطابي ، سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٨م. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ص١٢٢ .

(٣١) نفسه : ص١٢٣ .

(٣٢) علال الفاسي : الحركات الاستقلالية ، المرجع السابق ، ص ص٤٠١ - ٤٠٤ .

(٣٣) Istiqlal Party, Op. Cit, P. 46.

(٣٤) كمال حسن علي : المرجع السابق ، ص٢٨١ .

(٣٥) حلمي محمد عشيش : المرجع السابق ، ص٢٦ .

(٣٦) كمال حسن علي : المرجع السابق ، ص٢٨٢ .

(٣٧) صلاح العقاد : المغرب العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩م، ص ص١٠٠ - ١٠٥ .

(٣٨) جلال يحيى : عبد الكريم الخطابي ، مرجع سابق ، ص١٢٥ .

(٣٩) علال الفاسي : المرجع السابق ، ص١٦٣ .

(٤٠) جريدة الأهرام : القاهرة ، ١١ فبراير ١٩٤٨م .

(٤١) جريدة تطوان : تطوان المغرب ، ١١ فبراير ١٩٤٨م .

(٤٢) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص٣٠٨ .

(٤٣) جلال يحيى : المغرب الكبير فى الفترة المعاصرة ، مرجع سابق ، ص٨٨ .

(٤٤) روم لاندو ، المرجع السابق ، ص٣٤٦ .

(٤٥) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٤٠٦ .

(٤٦) أحمد عسه : المرجع السابق ، ص٢٥٧ .

(٤٧) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٤٠٩ .

(٤٨) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص٣٥٢ .

(٤٩) دوجلاس أى أشفورد : المرجع السابق ، ص ص٨٤ – ٩٩ .

(٥٠) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص ص٣٦٩ – ٤٠٥ .

(٥١) حلمى محمد عشيش : المرجع السابق ، ص٢٩ .

(٥٢) صحيفة الأمة : العدد الأول ، تطوان ، المغرب ، أول مايو ١٩٥٢م .

(٥٣) صحيفة الأمة : العدد الرابع ، تطوان ، المغرب ، ٨ مايو ١٩٥٢م .

(٥٤) نفسه : العدد (٢٧) ، ٢٨ يوليو ١٩٥٢م .

(٥٥) أحمد عطيه الله : المرجع السابق ، ص٨٥٧ .

(٥٦) The Middle East Journal. Washington, U. S. A. Spring 53. N. 2. P. 203.

(٥٧) جلال يحيى : المغرب الكبير ، الفترة المعاصرة ، مرجع سابق ، ص١١٨ .

(٥٨) عبد المجيد بن جلون : المرجع السابق ، ص٣٣ .

(٥٩) جريدة الريف : تطوان ، المغرب ، ٢٥ أغسطس ١٩٥٣م .

(٦٠) دوجلاس أى أشفورد : المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٦١) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص ص٤٥٥ – ٤٥٦ .

(٦٢) انظر تفاصيل أعمال العنف فى المنطقة السلطانية نتيجة نفى الملـــك محمـد الخامس ، انظر :

روم لاندو : المرجع السابق ، ص ص٤١٠ – ٤٢٦ .

(٦٣) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٤١٥ .

(٦٤) روم لاندو : المرجع السابق ، ص٤٢٧ .

(٦٥) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص ص٤٨٩ – ٤٩٢ .

(٦٦) ما عدا المستعمرتين الأسبانيتين ، مدينتى سبته ومليلة .

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد التاسع - المجلد الأول

مارس ٢٠٠١ م

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهـــرة

مجلة
المؤرخ العربى

العدد التاسع المجلد الأول مارس ٢٠٠١م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى :

دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطيـة - عمارات شركـة الخليـج
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلة

* علمية تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية.

* البحوث التى تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية.

* تصدر مؤقتا سنوياً فى مارس من كل عام؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق.

* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة.

* تخصص أقسام فى المجلة- حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات.

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لاترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة.

* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية. ولاعلاقة إطلاقاً بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية.

* * * * *

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

حقا ... إنها جميلة ...

إنها اللسان العربي المبين، الذي نزل به القرآن الكريم، والذى لايدانيه لسان آخر فى قوته وتأثيره وبلاغته وجمال بنيانه.

إن جمال اللغة العربية لايقف عند حد غنى هذه اللغة بالمترادفات وقابليتها للنحت، وطواعيتها للاشتقاق، وإنما يتخطى ذلك إلى قدرتها على التحوير فى صياغة الألفاظ ، بل وفى معنى اللفظ الواحد ، فتتعدد الكلمات والمعنى واحد، وتتعدد المعانى واللفظ واحد ... وكل هذه المزايا والصفات ساعدت لغتنا الجميلة على أن تكون أداة لأعظم حضارة عرفها العالم فى العصور الوسطى.

نحن لاننكر أن الحضارة العربية الإسلامية ولدت فى محيط ضيق، وأنه كان لا يمكن لهذه الحضارة عند مولدها أن تقارن بالحضارات القديمة التى سبقتها- كالحضارات الفارسية، والهندية، واليونانية، وحضارات مصر والشام، والعراق، وغيرها. ولم يكن للحضارة العربية الإسلامية- عند مولدها- نصيب من إنجازات الحضارات القديمة، وخاصة فيما نعرفه باسم العلوم العقلية أو التجريبية. لكن ظهر الإسلام ليدفع العرب- وغير العرب من شعوب الدولة الإسلامية الجديدة- إلى الأمام للتعبير عن طاقة حضارية بناءة جديدة.

ولايقلل من شأن الحضارة العربية الإسلامية أنها أفادت من غيرها من الحضارات السابقة، لأن سنة التطور الحضارى تطلبت أن يستفيد الخلف من جهود السلف، بحيث يحاول كل جيل أن يضيف إلى البناء الحضارى ويرتفع به. وهذا عكف المسلمون على دراسة وفحص إنجازات

غيرهم في شتى الميادين، فأخذوا منها ما لا يتعارض وأحكام الإسلام وآدابه، وعدلوا ما يتطلب التعديل والتقويم، أو التصحيح. واستبعدوا كل ما لا يتفق وروح الإسلام وشريعته وأحكامه.

وتحت مظلة الإسلام ، أقبل العرب وهم مزودون بسلاحين على دراسة ما أنجزه السابقون . أما هذان السلاحان ، **فأولهما** الرغبة في التحصيل ، والقدرة على سرعة التعلم والالتقاط . وقد ساعد على ذلك أن الإسلام حث على طلب العلم المفيد النافع من أوسع أبوابه ، وكرم العلم والعلماء ، ورفع الله الذين أوتوا العلم درجات. **وأما السلاح الثاني** الذي تزودت به الحضارة الإسلامية لتشق لنفسها طريقًا متميزًا ، فكان اللغة العربية وهي خير أداة أتاحت للعرب القدرة على التعبير عن معان وأفكار ومصطلحات لم يكن لهم بها علم، فعربها العرب وغدت مألوفة في عالم اللغة العربية. يقول الجواليقي في كتابه المعرب من الكلام الأعجمي «إن الكلمة إذا أخذها العرب من غيرهم، وصاغوها على أوزان حروفهم، ودارت في أشداقهم، ومرت عليها ألسنتهم ، صارت من لغتهم بالنقل والاقتباس » . وهكذا استخدم العرب مصطلح أرثماطيقا للدلالة على الحساب، وعرفوا الهندسة باسم جومطريا، وعرفوا الفلك باسم اسطرونوميا ... وكلها أسماء يونانية عربها العرب.

وفي وسط خضم كبير من الأسماء والمصطلحات التي دخلت اللغة العربية عن طريق التعريب، احتل علم التاريخ مكانة مرموقة، بوصفه العلم الذي امتدت جذوره في أعماق العصور، لتحكي أخبار الأنبياء والأديان، وسير الملوك والحكام، وحوادث الدهور والأيام. ومنذ مولد الإسلام احتل التاريخ مكانته البارزة، حيث قص القرآن الكريم على المسلمين العديد من القصص الذي يرتبط بأخبار السابقين. وحسبنا أن إحدى سور القرآن الكريم تحمل اسم «سورة القصص» ، كما جاء في سورة أخرى قوله تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص» . وهذا القصص الذي جاء به القرآن الكريم إنما استهدف العظة والعبرة، وربما حمل معه من أخبار الأولين ما لايمكن معرفته من مصدر آخر.

وقد تميز علم التاريخ عند المسلمين بالأمانة وصدق الأحكام وطلاوة العبارة، والحرص على اختيار اللفظ المناسب الذي يشد الباحث ويستثير إعجاب القارىء . ومن أهم ما عني به المؤرخ العربي انتقاء العنوان الصالح لمؤلفه أو كتابه، بحيث يجذب العنوان مشاعر القارىء . ومن هذه العناوين «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك»، وكتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر

والقاهرة»، وكتاب «غاية الأماني في أخبار القطر اليماني» وكتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» ... وغير هذا من العناوين الجميلة الجذابة، التي تشد القارىء، وتلتصق بفكره ومشاعره، بفضل ما تتميز به من جمال العبارة وسحر البيان.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن كتابة التاريخ، بما تتضمنه من حوادث مثيرة ومواقف متشددة أو عاطفية ، تتميز بصبغة لغوية يغلب عليها الطابع الأدبي في كثير من الحالات . وكثيراً ما نرى المؤرخ يستعرض واقعة من الوقائع ، فتتغلب على أحاسيسه النزعة الأدبية فيستشهد بالشعر والأمثال والحكم، مما يسبغ على كتابته مسحة أدبية واضحة ولاننكر إننا نعاني بعض الحيرة عندما نحاول تصنيف كتاب أو موسوعة مثل «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» ، أو كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» أو كتاب «مسالك الأبصار». وربما سا.ل الواحد نفسه: هل يدخل القلقشندي ، أو النويري أو العمري في قائمة الأدباء، أو في سجل المؤرخين؟ لقد جعل كل منهم كتابه موسوعة أدبية تاريخية: العنوان يعبر عن الاتجاه الأدبي ولكن المحتوى يضم الكثير من ألوان المعرفة التاريخية: جوانب من التاريخ السياسي، والتاريخ الاقتصادي، والأوضاع الاجتماعية، ونظم الحكم والإدارة، وحياة السلاطين والحكام... كل ذلك إلى جانب الكتب والرسائل والسجلات والتقاليد .

وهنا تحضرني عبارة دونتها منذ أكثر من ثلاثين عامًا في مقدمة كتاب «فهارس صبح الأعشى» نصها : (الواقع إن القارىء لكتاب «صبح الأعشى» يسترعى انتباهه أن مؤلف هذا الكتاب يتمتع بحاسة تاريخية قوية. فهو إلى جانب كونه أديباً وفقيهاً ، يبدو دائمًا في صورة المؤرخ الواسع الأفق ، المحيط ببواطن الأمور، المستوعب لكثير من كتب السير والتاريخ. وهو عندما يتعرض لعلم التاريخ، يقول ما نصه (أعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له. وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف قرونه، ما بين مختصر ومبسوط ...).

وهكذا تؤدي لغتنا دوراً كبيراً في الربط بين فروع العلم والمعرفة، لتجعل منها سلسلة متداخلة الحلقات متكاملة البنيان .

نعم، حقًا إنها جميلة

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد *

الهوية الثمودية فى النقوش النبطية

أولا : الطابع العام للنقوش الثمودية

من المعروف أن اللغة الثمودية هى لهجة عربية شمالية تنحدر من اللغة العربية الشمالية التى انحدرت منها لغتنا العربية الفصحى ولكنها تختلف عنها فى نوع الخط الذى كتبت به، فبينما اشتق الخط العربى من الخط النبطى الذى اشتق بدوره من الخط الأرامى الذى انتشر فى الشام بوجه خاص. فقد اشتق الخط الثمودى من الخط الددانى الذى انتشر فى العلا والذى اشتق بدوره من الخط المسند اليمنى.

وقد تتبع فان دن براندن نشأة الحروف الثمودية واشتقاقها من الحروف الدادانية وخاصة حروف الألف والجيم والدال والذال والهاء (Branden 1950, p.25-27) ثم حروف الباء والألف واللام والميم والسين والفاء والصاد والقاف والشين (Op. cit., p. 29-32) .

والوصف الأكثر انطباقا على الخط الثمودي أنه خط «مخربشات» (Scribbles) حفر حروفه على الصخر أشخاص تتفاوت طريقة وأسلوب كتابة كل شخص بتفاوت ثقافته ومهارته فى الكتابة كما تتفاوت اتجاهات سطوره إذ لاتوجد قاعدة محددة يسير عليها الكتاب الثموديون فى حفر نقوشهم فأحيانا تتجه السطور من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين أو من أعلى لأسفل أو حتى من أسفل لأعلى بل وأحيانا تتجه السطور فى شكل دائرى.

* أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ كلية الآداب جامعة الإسكندرية .

ولعل السبب فى ذلك أن الشموديين لم ينتظموا فى دولة تحدد طرق الكتابة فى نظام موحد. وتنسق شئونهم فكان أن دون كل كاتب خطه بالطريقة التى تناسبه أو تحلو له فتفاوتت بذلك أشكال الحروف تفاوتا كبيراً.

وعلى هذا فاللغة الشمودية لم تكن لغة أدبية، وإنما كانت لغة تخاطب والخط الشمودى لم يكن خطا رسميا بل كان خطا شخصياً ولعل هذا يشبه إلى حد كبير اللغة العامية أو الدارجة التى يستخدمها مختلف الشعوب العربية فى التخاطب. كما أن الخطوط الشمودية المحفورة على صخور الجزيرة العربية بما تتميز به من تفاوت فى أشكالها وموضوعاتها من تحية شخص لآخر أو تمنيات برحلة سالمة (نظراً لأن الشموديين كانوا تجار قوافل ورعاة إبل فى المقام الأول) لعلها تشبه ما يسطره الأفراد فى أيامنا هذه ممن يجوبون المناطق الأثرية فى الدول العربية فيسجلون على هذه المناطق مختلف العبارات التى تبدأ بكلمة «للذكرى» (ولو أنها عادة ذميمة تشوه الآثار حيث بدأت الهيئات الحكومية فى هذه الدول فى التصدى لها).

ثانيا : نتائج عدم وجود خط منتظم لدى الشموديين:

لعل عدم الانتظام فى الخط الشمودى وعدم وجود لغة أدبية لديهم يقدمان لنا حلا لمشكلة كثيرا ما واجهت الباحثين وهى تسجيل الشموديين بعض شئونهم بخط آخر ولغة أخرى غير خطهم الشمودى ولغتهم الشمودية وهما الخط النبطى واللغة النبطية.

والأمثلة على ذلك نقشان أحدهما فى مدينة مدائن صالح والآخر فى بلدة «رواقة» الواقعة جنوب غرب مدينة «تبوك» بحوالى ١٠٠ كيلو متر. فأما النقش الأول فهو يخص سيدة تدعى بالشمودية « ل ق ش / ب ن ت / ع ب د / م ن ت » وبالنبطية «رقوش برت عبد منوتو» وهذا النقش بخطين أحدهما الخط النبطى وهو من تسعة أسطر أفقية كتبت بطريقة منتظمة من اليمين إلى اليسار شأن سائر النقوش النبطية والخط الآخر هو الخط الشمودى وهو من سطر واحد كتب رأسيا إلى يمين النص النبطى وبنفس ارتفاعه تقريبا (شكل ١ وشكل ٢) والنص النبطى يسجل ملكية السيدة رقوش للقبر المدون اسمها بجانبه وهو عبارة عن فجوة مستطيلة محفورة فى الصخر بالقرب من قمة الضريحين اللذين يقع بينهما وترجمة هذا النص ببعض التصرف هى «هذا (الـ) قبر نحته كعب بن حارثة لرقوش بنت عبد مناة والدته التى توفيت فى الحجر (مدائن صالح) سنة مائة واثنين وستين من شهر تموز وليلعن إله العالم من يعتدى على هذا

القبر أو من يفتحه فيما عدا ولدها (للقراءة والترجمة الحرفية للنقش أنظر شكل ٢) (Contineau 1978, II, p. 38) .

أما النص الثمودى الذى يتكون من سطر واحد رأسى فقراءته هى «ذ ن / ل ق ش/ ب ن ت/ ع ب د / م ن ت» وترجمته هى : «هذا (قبر) لقوش بنت عبد مناة» (شكل ١) .

ومن هنا يتضح أن صاحبة هذا القبر ثمودية الهوية وأن ابنها استخدم لغته الثمودية والخط الثمودى للإفصاح عن هوية أمه بينما استخدم الصيغة النبطية لإثبات ملكية أمه للقبر حتى لايعتدى عليه أحد وهذه الصيغة هى الصيغة الشائعة فى الكتابات المدونة على واجهات أضرحة مدائن صالح الأخرى أى أنها تشبه ما نسميه فى عصرنا «نموذج إثبات ملكية» ولو أنها تختلف فى بعض عباراتها ولكن مفهومها العام واحد لأن جميعها تقريبا تبدأ بعبارة نبطية واحدة ترجمتها هى «هذا قبر» ثم تذكر اسم صاحب القبر وأحيانا أسماء من يوصى لهم بالدفن فى قبره ثم يذكر نص اللعنة ضد كل من يعتدى عليه ويختتم أغلب هذه الصيغ بإثبات التاريخ وهو سنة حكم الملك النبطى الذى نحت القبر فى عهده (ولو أن النص الذى نحن بصدده اختلف فى استخدام تقويم بصرى الذى اتبع عند انتهاء دولة الأنباط سنة ١٠٦م فالنص مؤرخ بما يعادل ٢٦٧ ميلادية.

ولعلنا نستنتج من ذلك أن الثموديين استخدموا هذا النموذج أو هذه الصيغة النموذجية النبطية المتعارف عليها فى تسجيل أحد شئونهم الرسمية وهو إثبات الملكية بينما استخدموا خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية فى الافصاح عن هويتهم.

والحقيقة أن هذا ليس المثال الوحيد لاستخدام الثموديين للخط النبطى واللغة النبطية فى شئونهم الرسمية فقد استخدموهما فى معبد روافه الذى ذكرناه وذلك فى النص التالى «دنه نوسا دى عبدت شركت ثمودو» (Milik 1971, p. 44) وترجمته هى «هذا (هو) الهيكل الذى شيدته قبيلة (أو اتحاد قبائل) ثمود» وهذا النص مؤرخ بتقويم بصرى بما يعادل ١٦٦ ميلادية .

ومن الواضح أن هذا النص قصد منه إثبات ملكية الثموديين لهذا المعبد ولو أنهم أهدوه إلى اثنين من أباطرة الرومان المعاصرين لهم .

ومن هنا يتضح ما أشرنا إليه سابقا من أن سبب استخدام الثموديين للخط النبطى واللغة النبطية فى هذين المثالين رغم أنه كان لهم لغة وخط خاصّين بهم هما اللغة (أو اللهجة)

الثمودية والخط الثمودي- سبب ذلك أن اللغة الثمودية كانت لغة تخاطب أكثر منها لغة تسجيل أو لغة أدبية وقد استخدم الثموديون خطهم ولغتهم فى التفاهم بين بعضهم البعض ومن هنا وجدنا آلاف النقوش أو المخربشات الثمودية محفورة على صخور الجزيرة العربية، ولهذا لم يكن هذا الخط الشخصى غير المنتظم يصلح فى تسجيل الشئون الرسمية مثل تسجيلهم ملكية مقبرة أو معبد فاستخدموا خطا منتظما له أصول وقواعد متعارف عليها وهو الخط النبطى وتبع ذلك استخدامهم اللغة المكتوبة بهذا الخط وهى اللغة النبطية واللذان كانا ينتشران فى منطقة الحجاز حيث قامت دولة الأنباط التى امتدت فى عصر ازدهارها من حدود الشام شمالا مرورا بالبتراء العاصمة الأولى لدولة الأنباط حتى مدائن صالح جنوبا التى كانت بمثابة العاصمة الثانية لدولة الأنباط. وبطبيعة الحال فإن دولة منظمة كهذه كان لها خطها المنتظم ولغتها الأدبية ولعلها تشبه عندنا الخط العربى المنتظم الذى يلتزم أصوله الخطاطون (سواء كان نسخا أو رقعة أو غيرهما) كما أن اللغة النبطية تشبه اللغة العربية الفصحى كلغة كتابة وأدب (ولو أنه لم يصل للعلماء نصوص أدبية باللغة النبطية، وما يسمى فى المملكة العربية السعودية بالشعر النبطى ليس به من اللغة النبطية عبارة واحدة فهو شعر عامى باللهجة السعودية الدارجة).

ثالثا: سبب استمرار استخدام الثموديين للخط واللغة النبطية رغم زوال دولة الأنباط:

مما يدل على انتظام الخط النبطى وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية أن الثموديين استخدموهما بعد زوال دولة الأنباط على أثر إسقاط الرومان لعاصمتها البتراء عام ١٠٦ ميلادية أى أن التراث النبطى فى الخط واللغة استمر بعد ذلك التاريخ بحوالى مائة وستين عاما (نقش رقوش المؤرخ بما يعادل سنة ٢٦٧ ميلادية كما ذكرنا).

غير أن هذا التفسير وحده أى استمرار استخدام الخط النبطى وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية وحدهما لدى الثموديين لايبرر تمسك الثموديين بهما هذه المدة الطويلة أى بعد زوال النفوذ النبطى بما يزيد على قرن ونصف وإنما لابد أن هناك سببا آخر عزز من ذلك ، هذا السبب هو فى رأيى وجود رابطة قرابة قوية بين الثموديين والأنباط تفسرها لنا الآيات الواردة فى القرآن الكريم عن الثموديين فقد نسبت هذه الآيات إنشاء الأضرحة النبطية فى الحجر (مدائن صالح) إلى قوم ثمود (سورة الفجر، آية ٩ . وسورة الحجر، آية ٨٠ . وسورة الأعراف، آية ٧٤ .) لا إلى الأنباط رغم ما على واجهاتها من كتابات بالخط النبطى واللغة النبطية مما

يرجع أن الأنباط كانوا فى الأصل قبيلة من القبائل الثمودية اجتذبت أفرادها ثروة التجارة المتدفقة عبر الطريق التجارى العظيم (أو طريق الذهب والبخور) القادم من اليمن والمتجه إلى الشام فانسلخت هذه القبيلة من الشعب الثمودي واستقرت فى منطقة البتراء الغنية بالمياه الباطنية والواقعة على هذا الطريق حيث استنبطت هذه القبيلة المياه بحفر الآبار وأطلق رجالها على قبيلتهم اسما يشير إلى هذا الاستنباط وهو «نبطو» فإن هذه الكلمة عربية قديمة وردت فى النصوص العربية الجنوبية بالصيغة «ن ب ط» وأحيانا «هـ ن ب ط» بنفس المعنى أى مما يدل على استنباط الماء (Beilla 1982, p. 290) وقد أضاف إليها الأنباط حرف الواو النهائى الذى هو من خصائص أسماء الأعلام النبطية (Contineau 1978, II, p. 165) وصار ملكهم يلقب بـ «ملك نبطو» (Op. cit., p.119) .

وكما هو معروف فقد انتحل الأنباط اللغة الآرامية والخط الآرامى واستخدموهما عوضا عن خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية لكى يسهل عليهم التعامل مع أسواق الشام التى كانت تسود فيها هذه اللغة وهذا الخط والتى كانت تصب فيها السلع الثمينة القادمة من الجنوب والتى أصبحوا يتحكمون فيها بحكم موقع عاصمتهم البتراء. وليس أدل على الأصل الثمودى (أو العربى الشمالى) للأنباط من أن اللغة العربية الشمالية بدأت بمرور الوقت تتغلغل فى لغتهم الآرامية المنتحلة فإن المقارنة بين نصوصهم المبكرة المدونة على واجهات أضرحة مدائن صالح والتى ترجع إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، والتى تسود فيها الكلمات والتعبيرات الآرامية- بمقارنتها بنصوصهم المتأخرة المدونة على واجهات هذه الأضرحة وعلى غيرها فى كل من العلا (نقش شمعون المؤرخ بما يعادل ٣٠٧م JS 1909, II, Atlas, pl. CXXI) وبمدائن صالح (نقش رقوش المشار إليه) يلاحظ غلبة الكلمات العربية الشمالية (القريبة من العربية الفصحى) على الكلمات والتعبيرات الآرامية.

هذا الارتباط فى الأصل بين الثموديين والأنباط هو الذى يفسر تمسك الثموديين باللغة والخط النبطيين بعد زوال دولة الأنباط بوقت طويل كما يفسر سبب إطلاق القرآن الكريم اسم ثمود على أصحاب أضرحة مدائن صالح رغم الكتابات النبطية التى عليها فمن الواضح أن القرآن الكريم خاطب الشعب العربى الأصلى وهو الشعب الثمودى الذى تنتمى إليه القبيلة أو القبائل النبطية ولم يخاطب الأنباط الذين انسلخوا منه وغيروا لغتهم العربية وخطهم العربى واستبدلوا بها خطا ولغة غريبة على العرب ولعل هذا يفسر اعتبارهم «أعاجم» فى نظر الإخباريين العرب.

المراجـــع

- Branden 1950 :

Van den Branden, ALB; Les inscriptions Thamoudéennes, Louvain.

- Cantineau 1978 :

Cantineau, J., Le Nabatéen , 2 vols. Paris, 1930-1932 .

- JS 1909 :

Jassen & Savignac,

Mission Archéologiques en Arabie, 4 Tomes, 1909-1914 .

- Milik 1971 :

Milik J.T "Inscriptions Grecques et Nabateennes de Rawafah " Bulletin of the Institute of Archaeology, No. 10 , London .



(شكل ١) النقش المحفور على واجهة مقبرة السيدة رقوش الثمودية في منطقة قصر البنت بمدائن صالح ويتكون من تسعة سطور أفقية بالخط النبطي واللغة النبطية (لغة الشئون الرسمية عند الثموديين) ومن سطر واحد رأسي بالخط الثمودي واللغة (أو اللهجة) الثمودية وهي لغة التخاطب عند الثموديين.

سطر ١

القراءة : ته   قبر وصنعه   كمبو   بر

الترجمة : هذا   (الـ) قبر صنعه (نحته)   كمب   بن

سطر٢

القراءة : حــرثــت   لرقوش   برت

الترجمة : حــارثـــة   لرقوش   بنت

سطر٣

القراءة : عبد   منـو   تـو   أمه   وهي

الترجمة : عبد   منـــــاة   أمه (والدته)   وهي

سطر٤

القراءة : هــلكت   فــي   ألحجـــر و

الترجمة : هلكت (توفيت)   فــي   ألحجـــر

سطر٥

القراءة : سنت   مــأة   وستين

الترجمة : سنة   مائـــة   وستين

(شكل٢أ) تفصيل النقش النبطي (المنشور في شكل١) وقراءة وترجمة السطور من ١ إلى ٥

سطر ٦

القراءة : واتنيـــن بيرح تمـــوز ولعن

الترجمة : واتنيـــن فى شهر تمـــود ولعن

سطر ٧

القراءة : مر ى علـــما من بتنأ القبرو

الترجمة : سيد العالم من بتنأ القبر

(يعتدى على)

سطر ٨

القراءة : دا و . من يفتحـــه حشى

الترجمة : هذا (ده) ومن يفتحـــه حاشـا

سطر ٩

القراءة : ولده ولعن من بغير دا على منه

الترجمة : ولدها ولعن من بغير هذا (الذى) أعلاه

(ربما المقصود هذه الكتابة)

(شكل٢ب) تفصيل بقية النقش النبطي، قراءة وترجمة السطور ٦-٩

د. حسن بكر الشريف *

الصلات القديمة بين أوربا والبلاد العربية الإفريقية

للوقوف على الصلات المبكرة بين أوربا والعالم العربي لابد من أن تكون نقطة البدء هى الاتجاه نحو الأقطار العربية الواقعة فى نطاق حوض البحر المتوسط. وعلى وجه التحديد تلك الدول الواقعة على شواطئه الجنوبية والشرقية ، فى عقد تلك الصلات، وذلك لما يتوفر لها من إمكانية إقامة صلات مباشرة فيما بينها وبين جنوب أوربا**.

ويبدو أن هذه الصلات لم يكن لها وجود فى عصر ما قبل التاريخ. ولكنها أخذت فى الظهور منذ أواخر العصر أى فى فجر العصر التاريخى العام للشمال الأفريقى.

وفى ساحة السباق الحضارى لكل من العالمين : الأوربى والشمال الأفريقى؛ يبدو أن كلا منهما كان يتمتع بشخصية حضارية مستقلة تماما عن الآخر. على الرغم مما كان يحدث

---

* أستاذ مساعد بكلية التربية بدمنهور- جامعة الاسكندرية.

** الواقع أن الجغرافيين يتحدثون عن ثلاثة معابر يمكن أن تكون طرق وصل فيما بين الجنوب الأوربى والشمال الأفريقى، تلك هى شبه جزيرة البلقان وجزر إيجا ، ومقدمة شبه الجزيرة الإيطالية ورأس بونو فى تونس عبر جزيرة صقلية، ثم مضيق جبل طارق.

أحيانا، وفى بعض المراحل من ظهور توهج حضارى -بلامقدمات- فى أحد العالمين، دون يكون له أى صدى فى العالم الآخر المقابل له.

ويسهل على الدارس المتتبع للتطور الحضارى لكل من العالمين - الأفريقى والأوربى- أن يلحظ هذه الحقيقة، وأن كلا منهما سار فى طريق حضارى مستقل تمامًا عن الآخر، دون أن يؤثر أو يتأثر بالجانب الآخر، على أنه يمكن القول إن أقطار العالم أخذت فى التباين الحضارى، أو ما يمكن أن نعده تمايزاً إقليميًا، فى مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط. ففى تلك الحقبة شهدت أوربا صناعات خاصة بها، أخذت مسمياتها من مواقع أوروبية حقيقية، عرفت بالصناعات الموستيرية أو الموستيرية- اللفلوازية. ويبدو أن هذه التقنيات الجديدة كانت بمثابة مرحلة حضارية عمت جميع أنحاء العالم القديم، وارتبطت بظهور إنسان نياندرتال، لأننا نلحظ أن أقطار الشمال الأفريقى شهدت هذا التطور العام، ولكنها سرعان ما اتخذت لنفسها خطا تقنيا خاصا، حيث ينبثق من أحد مناطقها صناعات محلية متميزة، تبعدها عما شهدته بقية مناطق العالم الأخرى .

وهذه الصناعات الجديدة، عرفها المشتغلون بعصور ما قبل التاريخ باسم الصناعات العاتيرية نسبة إلى مكان كشفها ، وتميزت بأداة خاصة يسهل التعرف عليها. والعجيب فى أمر هذه الصناعات أنها غطت كل أرجاء الشمال الأفريقى وصولا إلى وادى النيل شرقا[1]، واتجهت جنوبا متخطية ما يعرف حاليا بالصحراء الكبرى (أنظر الخريطة) ولكنها شمالا لم تتعد خط الساحل .

وفى حقبة العصر الحجرى القديم الأعلى (الباليوليتى الأعلى) شهدت أقاليم غرب أوربا ازدهارا حضاريا متألقا فى حقب حضارية ثلاث متتالية: مرحلة الحضارة الأورنياسية Au-rignacien، ثم السولترية Solutréen وأخيرا المجدالينية Magdalénlien وتتسم هذه المراحل الثلاث بتفجر طاقة تقنية وإبداع فنى، شهدت به مجموعات الأدوات الحجرية والعظمية المنقوشة، وفن حوائط الكهوف الذى خلفه إنسان ذلك العصر*. وكان هذا التطور يجرى بينما

---

* شهدت أقطار الشمال الأفريقى بعامة ظاهرة فنية أخرى ، مضاهية لظاهرة فن حوائط الكهوف، وهى ظاهرة النقوش والرسوم الصخرية . لكن ينبغى التنويه بوجود فروق جوهرية بين الظاهرتين ، يبعد أى شبه علاقة بينهما ؛

أقطار الشمال الأفريقي تمر بمرحلة تطور حضاري محلي تماما، تمثل في تطور تقني للصناعات العاتيرية التي كانت في العصر الحجري القديم الأوسط، تخطو نحو صناعات حجرية بدائية في خواتيم العصر الحجري القديم الأعلى، وبالنسبة لانتاجها من الأدوات العظمية جاء فقيرا في تنوعه وخاليا من النقوش.

وليس معنى ذلك أن هناك فواصل ظلت قائمة بين أوربا والشمال الأفريقي بحيث اتجه كل منهما وجهة حضارية خاصة به.

وهناك رأي درج عليه بعض الباحثين (٢)، يفسر الصناعات القفصية* Capsien، التي انتشرت في أرجاء الشمال الأفريقي، في حدود الألف السابع ق.م. تقريبا، على أنها النظير الأفريقي للصناعات الأورنياسية الأوربية، وهي أولى المراحل الحضارية للباليوليتي الأعلى الأوربي؛ والذي يقدر له علماء ما قبل التاريخ أنه بدأ في أوربا منذ أربعين ألف عام أو خمسة وثلاثين ألفا من وقتنا الحاضر. واعتمد أصحاب هذا الرأي على وجود مشابهة بين أداة (الإزميل أو المحت) في كل من الصناعتين. والمحت هو أداة الصناعات الأورنياسية المميزة، وكان أساسا أداة النقش على الأدوات العظيمة، وخاصة تلك التي من قرون الرنة.

= - تعاصر فن رسوم الكهوف في أوربا، مع آخر عصر جليدي في أوربا، والذي انتهى منذ حوالي عشرين ألف عام، فجاءت موضوعاته الحيوانية مقتصرة على حيوانات مرحلة الصيد . بينما في شمال أفريقيا فإن هذه الظاهرة، لاتذهب عند أكثر الآراء تفاؤلا أبعد من الألف العاشر ق.م ثم هي تستمر في التواجد لترصد بعد مرحلة الصيد مرحلة الرعي ثم مرحلة الحصان ثم مرحلة الجمل الذي عاصر الجفاف.

- اقتصار الأعمال الفنية في أوربا على حوائط الكهوف وأسقفها ، واستخدامها للرسم في التعبير مع استخدام ألوان طبيعية. بينما كان الحال في شمال أفريقيا الاقتصار في المراحل الأولى على أعمال النقش ، ثم فيما بعد مورس الرسم، وجاءت هذه وتلك في مناطق مكشوفة بعيدة عن الكهوف .

- انحصرت الظاهرة في أوربا على تصوير حيوانات وبعض مشاهد الصيد ، بينما في الشمال الأفريقي صور الإنسان، إلى جانب مشاهد الصيد ، والعديد من الموضوعات الأخرى من حياته وممارساته الطقسية، أنظر للباحث:

«الفن الصخري في بلاد المغرب» مجلة المؤرخ العربي، العدد السادس، المجلد الأول، القاهرة ، ١٩٩٨، ص٦٢ وكذلك:

«النقوش والرسوم الصخرية تتصدر للتاريخ» ، الدورية السابقة ، العدد السابع، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤١-٦٩ .

* نسبة إلى قفصة في جنوب تونس .

ويدخل ضمن هذا الرأى ، موضوع صناعات حجرية عثر عليها أحد المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ فى مصر وهو الفرنسى فينيار Vignard[٣]، بالقرب من مصنع قصب السكر فى نجع حمادي بصعيد مصر . وأسماه لذلك بموقع (حقل القصب) Champ de Bagasse وكان وجود نسبة كبيرة من المحتات، أهم ما يميز هذا الموقع. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الأداة هى أداة الصناعات الأورنياسية المميزة.

وكان أن نسب فينيار الموقع المذكور إلى الصناعة الأورنياسية الأوربية، على الرغم من أن فينيار لم يعثر فى موقعه هذا على أى أثر لمحاولات نقش على قطع عظمية، بل لم يعثر أصلا على مثل هذه القطع.

بل إن فينيار ذهب فى تأويلاته المتعلقة بموقع نجع حمادى إلى حد القول بأن أصحاب هذا الموقع ليسوا أصليين، وأن أدوات نجع حمادى إنما هى ذات علاقة بقفصية تونس، وبالأدوات الأورنياسية الأوروبية بمعنى أنها جميعا صناعات من أصل واحد، يرجع أصحابها فى أصولهم إلى آسيا، الذين أخذت هجرتهم وجهتين: وجهة فى اتجاه أوربا عن طريق وادى الدانوب والنمسا حيث أوجدوا الأورنياسية الأوربية. ووجهة أخرى نحو سوريا . وبالنسبة لقفصية تونس فإنها جاءتها إما عن طريق شبه الجزيرة الإيطالية- صقلية- تونس، أو عن طريق الشرق من سوريا. أما بالنسبة لموقع نجع حمادى فإنه يرجع قدوم أصحابه عن طريق سوريا- فلسطين- مصر، دون استبعاد للطريق الآخر.

وهكذا صار علينا أن نتخيل العالم القديم فى ذلك الزمان وقد غدا ساحة مفتوحة خالية تمرح فيها تلك القبيلة الأورنياسية كيف تشاء!

ويدخل ضمن الربط بين ما هو موجود فى أوربا وبين ما هو فى الشمال الأفريقى، ما عرف بالمشكلة السبيكية ، نسبة إلى موقع برج S'baika جنوبى مقاطعة قسنطينة بالجزائر ، حيث عثر ريجاس Rugasse[٣]، على عدد وفير من الأدوات الحجرية (٨٠٠٠ قطعة تقريبا)، عرَّفها ريجاس على أنها تقنية تصنيع جديدة تمثل تطورا خاصا فى صناعة قبضة اليد Coup de poing الأشولية - صناعة الباليوليتى الأسفل- إلى الأداة الورقية الشكل السوليترية، التى هى ثانى مراحل الباليوليتى الأعلى الأوروبى، دون المرور بالصناعات الموستيرية والأورنياسية .

وقد واجه هذا الرأى استهجانا واسعا من قبل أغلب المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ للشمال الأفريقى ، أمثال فوفرى Vaufrey وبالو Balout واليمان Alimen. الذين أشاروا إلى غياب الأدلة الكافية للمجموعة الحيوانية، مما يشكك فى الوضع الطبقى للسبيكية [٥].

وربما كانت آخر الآراء ، ما أثاره الباحث الفرنسي بلارى Pallary، من بلبلة فى تعريفه لأدوات حجرية، كان قد تم الكشف عنها فى مواقع أفريقية على الساحل الأطلنطى ، ثم تبين أنها تنتشر فى مواقع ساحلية أخرى، تمتد غربا من ساحل الأطلنطى إلى خليج قابس شرقا فى تونس *. وقد اعتقد بلارى أن هذه الصناعات الحجرية ذات علاقة بصناعات أخرى فى الجنوب الأسبانى، لذا أراد تمييز سمتها الجديدة، فأطلق عليها اسم الصناعات : Ibéro- maurusien ويتضح من تركيب الاسم الرغبة فى الإيحاء بوجود علاقات تقنية بين ما هو فى جنوب أسبانيا وما عثر عليه على سواحل المغرب، وهذا ما ثبت خطأه فيما بعد، ورغم تراجع بلارى عن آرائه، إلا أن التسمية ظلت مستعملة بحكم قانون الأسبقية(٦).

* * *

وننتقل بعد ذلك إلى مشكلة ترتبط بهذا الموضوع ، هى مشكلة ذلك الانتشار الواسع للأدوات القزمية أو الميكروليثية Mécrolihiques، الذى غطى كل من أوربا وشمال أفريقيا وغرب آسيا، الأمر الذى أثار الافتراض بوجود موطن أصلى خرجت منه إلى بقية مناطق العالم القديم. وكان هذا الموضوع ضمن أهداف المؤتمر الدولى للأنثروبولوجيا وآثار ما قبل التاريخ الذى عقد فى جنيف سنة ١٩١٢ .

وفى هذا المؤتمر أعلن عالم ما قبل التاريخ الفذ بريل Breuif أنه إذا ما أريد البحث عن أصل هذه الصناعات القزمية، فإنه يتعين علينا البحث عنها فى مكان ما جنوب البحر المتوسط(٧). والذى حدث بعد هذا المؤتمر وهذا الإعلان بحوالى عقد من الزمن، أن كشف فينيار Vignard فى وادى كوم أمبو بصعيد مصر، عن أشهر مواقع ما قبل التاريخ فى مصر بالقرب من قرية «سبيل» الواقعة فى هذا الوادى، وهو ما عرف فيما بعد بالصناعات السبيلية(٨).

وترجع أهمية هذا الكشف إلى أنه جاء على مستويات ثلاث متدرجة ومتوالية فى الزمن، حيث يعبر المستوى الأول عن صناعات موستيرية صميمة- باليوليتى أوسط- والمستوى الثالث عن أدوات ميكروليثية هندسية الشكل- باليوليتى أعلى- أما المستوى الثانى فيمثل الانتقال من الموستيرية إلى الميكروليثية.

---

* هذه الصناعات التى ارتبطت بمواقع ساحلية كونت مع الصناعات القفصية القائمة فى الداخل، ما يعرف فى حضارة المغرب القديم بمرحلة آل épipaléolithique وهى تمثل المراحل الختامية للعصر الباليوليتى الأعلى للشمال الأفريقى.

ويتضح فى «سبيل» بما لايدع مجالا للشك، التطور التقنى من صناعات الشظايا فى الباليوليتى الأوسط، إلى صناعات شفرية فى الباليوليتى الأعلى، وهو الوضع الذى يجعل من «سبيل» الموقع الوحيد فى العالم، الذى يجسد هذا الوضع الطبقى الصريح.

ويبدو أن فينيار Vignard استحضر دعوة بريل Breuil السابقة إذ يعلن أنه عثر فى «سبيل» على أصل الأدوات الميكروليثية فى العالم. وأنه من «سبيل» خرجت هذه الصناعات إلى سوريا وأوربا وأفريقيا بل وصلت إلى الهند . وأن صناعات هذه المناطق ليس لها نقاط مشتركة مع المستوى الثالث فى «سبيل» ، بل هى مستقة منه.

والحقيقة الماثلة هى أنه منذ اكتشاف فينيار فى «سبيل» لم يبق أمامنا فى مجال الكشف العلمى لعصور ما قبل التاريخ أكثر مما عثر عليه فى كوم أمبو، الأمر الذى يجعل من آراء فينيار عن «سبيل» أمرا من المحال تجاهله .

* * *

ثم كان أن حلت مرحلة العصر الحجرى الحديث وظهور الفخار فى الشمال الأفريقى .

ويكتسب الفخار فى الدراسات القديمة، أهمية خاصة، تميزه عن غيره من المواد الأخرى، كالحجر أو العاج أو العظم ، فهذه كلها مواد صلبة تفرض خصائصها الطبيعية، على الصانع، حتى مع نهجه نهجا معينا أو ابتداعه لتقنية خاصة فى تصنيعها. وبسبب ذلك كثيرا ما تتقارب تقنيات التصنيع وتتشابه الأدوات، مما يكون مدعاة لكثرة التفاسير.

والواقع أن هذا يوضح لماذا تكثر الآراء، وتتعدد أحيانا وقد تتضارب أحيانا أخرى عند تفسير طبيعة هذه المواد المصنوعة من الحجر أو العظم أو ما شابه ذلك. وبالنسبة لأقطار الشمال الأفريقى فإنها شهدت مثل هذه القضايا الخلافية، لأنها قامت فى أساسها على اتخاذ مادة الحجر عنصرا رئيسيا فى تطورها الحضارى. ولتفسير ذلك نقول إنه لكى يتم تصنيع الآنية الفخارية ، فإنه يتعين على الصانع أن يقوم بتصنيع عجينة لينة، يتم تجميع عناصرها من مواد محلية فى أغلب الأحيان. والذى يحدث أن هذه العجينة تكون بين أصابع الصانع قابلة لأن يشكلها حسبما يتراءى له. فعملية التشكيل هنا غالبا ما تكون قريبة من نفسية الصانع ، حيث يطبع فيها شخصيته وأحاسيسه ، وربما انفعالاته الوجدانية، وسرعان ما يتكون فى جلاء، نمط محلى يسود الإقليم، ويكون واجهة له ثم يصبح من اليسير التعرف على الأنماط المختلفة وتحديد مناطقها ، ورصد أى أنماط غريبة ومعرفة أصولها.

ونستطيع أن نطبق هذا فى حالة فخار المغرب القديم. حيث فى الإمكان، التعرف فى جلاء وكثير من اليقين ، على العناصر الأجنبية الوافدة من خارج أقاليم المغرب وتحديد مواطنها.

والحقيقة الماثلة فى حالة فخار المغرب القديم، أنه رغم اتساع رقعة أقطار الشمال الأفريقى، إلا أن الفخار الذى خلفته جاء فخارا خشنا ضعيف البهجة فى الغالب الأعم. وقد عزت الدراسات التى تناولته سبب ذلك إلى منافسة بيض النعام. ويتضح ذلك بشكل جلى فى الأقاليم التى كانت ضمن نطاق الحضارة القفصية، إذ يبدو أن أصحاب هذه الحضارة كانوا شديدى التمسك بتقاليدهم التى ورثوها قبل ظهور الفخار فى العصر الحجرى الحديث. ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن طائر النعام يعد من الطيور الحيوانية التى تأكد وجودها فى الشمال الأفريقى، ربما حسبما يعتقد فوفرى Vaufre منذ مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل[٩]. والواقع أنه قلما تخلو طبقة أثرية فى بلاد المغرب من تواجد بيض النعام أو قشوره. ويبدو أن هذا الطائر كان من أوائل الأنواع التى تم استئناسها وتربيتها فى حظائر خاصة.

والواقع إن الفخار فى المغرب عانى كثيرا من منافسة بيض النعام، فلم تخرج الأوانى فى تكوينها عن القاع المخروطى، مما يصعب تصور الكيفية التى كان يتم بها تثبيت الإناء فى وضع مستقر . على أنه كان يتم حمله داخل سلة من نسج الحلفاء ويعلق، وربما كانت هذه هى الطريقة التى كان يتم التعامل بها مع بيض النعام، الذى استخدم كقوارير بشكل شائع فى مناطق المغرب. ويبدو أن إنسان المغرب ألف مثل هذه العادة، ولم يشأ أن يبدلها وهذا قد يفسر البطء الشديد الذى اتسم به تطور الفخار المغربى.

والغريب أن كلا من الفخار وبيض النعام تبادلا تأثيرات سلبية ، ففى مرحلة العصر الحجرى الحديث أخذ دور بيض النعام فى التضاؤل ، ونتيجة لظهور تقنية جديدة ذات إمكانيات إضافية تتمثل فى الفخار، وفى المقابل عانى الفخار من منافسة بيض النعام، مما كان سببا فى بطء تطوره ، فجاءت تكويناته محدودة للغاية ، تفتقر إلى دقة التنفيذ وقلة أساليب الزينة وفى الحقيقة أن هذه هى الصفات التى اكتسبها الفخار المغربى داخل نطاق الأقاليم، وخضعت للتأثير القفصى. أما بعيدا عن هذه المناطق، فى اتجاه الشمال نحو الساحل فى الجزائر، وامتدادا غربا حتى سواحل الأطلنطى فى المملكة المغربية أى بعيدا عن التأثير القفصى، فإن هذه المناطق كانت أكثر استجابة ومسايرة للتطور وتأثرت بالمأثورات الأجنبية .

وهكذا أمكن تحديد الطبقات الأثرية، فى الجهات التى أشرنا إليها، والتى ثبت بشواهد أثرية يقينية أنها تأثرت بالفعل، بما كان يدور على الساحل الآخر المقابل، فى الجنوب الأسبانى، وعلى وجه الخصوص ساحل المرية*.

ويعبر فخار هذه الأماكن عن تنوع ملحوظ للنماذج، فجاءت الآنية بعيدة عن الشكل المخروطى، تحمل تقنيات جديدة لتحقيق زينة الجدران(١٠)، وجرى الحديث عن نوع من الفخار حمل اسم الفخار الكارديالى Cardiale، نسبة إلى وحدة الزينة التى على جدران الآنية، والتى تمت بواسطة طبع صدفة ال Cardium. كما عرف نمط آخر من الفخار سمى بالفخار ال Cannelée حيث يتم عمل حزوز عريضة على جدار الآنية فتبدو فى شكل قنوات هى إلى التجاعيد أقرب.

وهناك نمط ثالث، ربما كان أكثر شهرة من سابقيه فى حوض البحر المتوسط، ويعرف بالفخار الكأسى Campaniforme، وفيه تكون الآنية كالكأس أو الجرس المقلوب، وربما يلاحظ أن هذا النوع أخذ تسميته من شكل الإناء وليس من أسلوب الزينة، وإن كان لزاما على الصانع اتباع أسلوب زينة محدد بواسطة المشط، مع استخدام وحدات خاصة على جدار الإناء، أصبحت مرتبطة بهذا النوع(١١).

أما على الساحل الأطلنطى، فلابد من الإشارة بصفة خاصة، إلى جبانة الكفن El Kiffen من نواحى تمارس، حيث تم الكشف عن مقبرة جماعية، يمثل فيها الفخار كمنقولات جنائزية، وهى حالة فريدة تخالف ما وجدت عليه بقية الطبقات الأثرية فى دول المغرب العربى القديم: تونس، والجزائر، والمملكة المغربية. وأمكن الحصول من هذه المقبرة، على عدد من الأوانى كبيرا نسبيا (٥٨ آنية سليمة أو يمكن ترميمها) وقد لوحظ أن الأوانى لها أشكال جديدة، غير ما كانت عليه فى بقية مواقع الشمال الأفريقى. ومن المعتقد أن هذه المقبرة، وربما كانت تعود زمنيا إلى العصر الحجرى الحديث المتأخر(١٢).

وجاءت حالة مقبرة الكفن، حالة فريدة. ولذا تحاول الدراسات البحث عن أصل هذا الفخار وعن مدى انتشاره. وإن كان الاعتقاد الغالب أنه يعود فى أصوله إلى الساحل الأسبانى وخاصة ساحل المرية.

---

* جاء فى تحديد أشهر هذه الطبقات الأثرية فى إقليم وهران: كهف أشكار Achakar والخويل Elkhiril ومحطة كاحل Car Kahel وكهف تحت المحطة Caf that el gar، أما فى الساحل الأطلنطى فهى جبانة الكيفن ElKiffen (تمارس) والمهدية ودار السلطان.

خاتمة البحث

إن أقطار الشمال الأفريقى العربية كانت بمثابة العالم القديم الحقيقى فيما قبل العصور التاريخية وقبيل انبثاق الحضارات القديمة. ذلك أنها كانت تعيش حضارة حقيقية بتقنياتها المبتكرة فى مجال تصنيع الأدوات، وعندما شارفت هذه العصور على نهايتها تفجرت فى أرجاء هذا العالم الخاص، طاقة فكرية وفنية إبداعية، هى الفريدة من حيث ثراء موضوعاتها أو تعدد أساليبها .

وقد أظهر الواقع الأثرى لمجتمعات شمال أفريقيا أنها كانت لها حضارتها الخاصة، وأن هذه الحضارة كانت ذات خصوصية انفرادية إلى حد ما. والملاحظ على هذه المجتمعات أن ميلها نحو عقد الصلات، إنما كان فى حدود الشمال الأفريقى- عالمها الخاص- دون إبداء الرغبة فى النظر إلى ما وراء البحر المتوسط، أو معرفة ماذا يدور شماله*.

قد يكون السبب فى ذلك، راجعا إلى عظم مساحة الشمال الأفريقى، وتجاور مجتمعاته، وتنوعها وسهولة المسالك ووفرتها فيما بينها، مما أغناها عن التفكير فى مخاطر ركوب البحر!

ويمكن القول بقدر كبير من اليقين، إنه فيما قبل العصر الحجرى الحديث العام للشمال الأفريقى، عاش كل من العالمين : الشمال الأفريقى والأوروبى، حياته المستقلة، منفصلا عما يدور فى العالم الآخر. ولايسعنا فى هذا الصدد إلا الأخذ بالأسباب البيئية واختلافها فى كلا العالمين. فقد عاشت أوربا تحكمها ظاهرة عصور الجليد التى يتخللها فترات دفء، وهذه أو تلك كانت تغير من الوسط البيئى بكل عناصره الحيوانية والنباتية، وكان على الإنسان أن يشكل استجاباته بما يتلاءم ومقتضيات الأجواء .

وشواهد الأحوال تظهر أن إنسان العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوربا، الذى عاصر آخر عصر جليدى، مع اضطراره إلى المكوث طويلا فى الكهوف، اكتملت مداركه الفكرية، وتكونت هواجسه الدينية! وتملكته الرغبة فى التعبير، فأخرج فنا راقيا ورائعا، بلغ به ذروة لم يبلغها غيره فى أى مكان آخر فى زمانه .

---

* ربطت كثير من الدراسات بين صلات وعلاقات حضارية بين مناطق تقع فى قلب الصحراء، حاليا، كمنطقة تبستى وبين مراكز حضارية فى وادى النيل كمرمدة والفيوم ومناطق أخرى (مصر) وحضارة الخرطوم (السودان) .

أما فى شمال أفريقيا فقد كان الحال مغايرا تماما، إذ تتابعت على أقاليمه ظاهرة مناخية مختلفة عما فى أوربا، عصور من المطر الغزير، يفصلها فترات جفاف، وكان يمكن فى مثل هذه الحالات، أن يحدث لمظاهر الحياة الحيوانية والنباتية أن تهاجر إلى الجنوب، لتعاود رجوعها عند تحسن ظروف المناخ. وكانت الكهوف الكثيرة التى تميز بها الشمال الأفريقى بشكل عام، ملاذا نموذجيا لإنسان هذا الوسط، فلم تنقطع حضاراته، وداومت مجتمعاته على البقاء.

ومع حلول مرحلة العصر الحجرى الحديث، وما جاءت به من وفرة فى إنتاج الطعام، دعت الحاجة إلى تصريف الزائد منه .. ومقايضته ببعض الاحتياجات الأخرى الضرورية ، فى الوقت الذى سمحت به هذه المرحلة المهمة فى تطور المجتمعات، أن يقوى التنظيم الاجتماعى للكيانات القائمة، أى بمعنى أشمل أنه قد تم تهيئة الأسباب لعقد الصلات الخارجية وتبادل العلاقات عبر مناطق لم تكن مألوفة من قبل.

والواقع أنه لايمكن الجزم بالكيفية التى تمت بها هذه الصلات أو متى تمت على وجه التحديد، وعما إذا كانت قد تمت بواسطة اتصال مباشر بين مناطق جنوب أوربا وشمال أفريقيا أم أنها تمت بشكل غير مباشر، وهو على ما يبدو الأرجح . ونحن فى هذا الصدد لانستطيع أن نغفل نمو الدور الفينيقى فى حوض البحر المتوسط، وتزايده مع ازدياد نشاط المدن الفينيقية، وخصوصا فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد. وانتشار المحطات الفينيقية فى جزر وعلى شواطىء البحر. خاصة أن من حسن الطالع أن يترك لنا الفينيقيون دليل وجودهم على أرض الشمال الأفريقى ربما فيما يعتقد أنه حوالى ١٢٠٠ ق.م *. ويبدو أن الصلات تمت بين جنوب أوربا، وشمال أفريقيا فى شكل تبادل لسلع يسهل حملها عن طريق التجارة، أو استعارة تقنيات تتعلق بصناعة الفخار وتزيينه. ولكن حالة مقبرة الكفن ElKiffen، تشير إلى أن هذه الصلات أخذت شيئا فشيئا طابع علاقات محكية بين العالمين، وخصوصا عندما نجد ضمن مقتنيات عثر عليها فى بعض المواضع أشياء لايتضح لها استخدامات عملية، أو منحوتات على هيئات رمزية، كما فى حالة أشكال كهف أشاكار أو كهف المعبودات[١٣]، أو صنعت من مواد جلبت من خارج أقاليم المغرب، مما يعنى أن أقطار المغرب العربى القديم، قد خرجت من عزلتها الاختيارية السابقة، وأخذت فى الاندماج مع التيارات الثقافية الحديثة التى كان يموج بها عالم البحر المتوسط حينذاك.

---

* تمثلت هذه الشواهد فى بعض الأدوات المعدنية عثر عليها فى طبقات أثرية على الساحل، وكذا فى طبقات أثرية فى المغرب الأقصى وبين النقوش الصخرية لجبال أطلس العظمى فى موقع مراكش.
Vaufrey, R., Op. cit, p. 339 . Alimen, H., Op. cit, p. 90 .

الهوامش

1- El Cherif, H., " Outils Lithiques a Danfik" (Nagade), A.S. A.E., t. LXXII, Le Caire, 1993, p. 100, pl. VI no , 5et 6 .

2- Morgan, J. de., Capitan , L. et Boudy, P. Etude sur les stations prehistoriques du sud tunisien. Revue de l'Ecole d' Anthropologie t. 20, l. 910, pp. 105-196, 206-228, 267-286, et 335-347, t. 21, 1911 , pp. 217-228 .

3- Vignard, E., " Une station Aurignacienne à Nag Hammadi".
(Haute Egypte) Station du champ de Bagasse. "B. I.F. A.O., XVIII, 1921 .

4- Reygasse, M. Les ages de la Pierre dans l'Afrique du Nord (Algerie) . Une brochure in -8 de 34 pages, extraite de " Histoire et Historiens de l' Algeria". Chapitre II. Collection du Centenaire de l'Algerie (1830-1930), publiee par le soin de la Revue historique , pp. 37-70 1931 .

5- Vaufrey, R., Prehistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb, Paris 1955, pp. 121-123 .
- Balout, L., Prehistoire de l'Afrique du Nord , Paris, 1955, p. 454 .
- Alimen, H., Prehistoire de l'Afrique, Paris, 1966, p. 65 .

6- Vaufrey, R., Op. cit., p. 257 .

7- Breuil (H.) Les subdivisions du Paleolithique superieur et leur signification . Congres international d' Anthropologie et d'Archeologie prehistoriques. Compte rendu de la XIV Session, Geneve, 1912, pp. 165-238 , 47 figures.

8- Vignard, E., "Une nouvelle industrie lithique Le sebilien ", B. I. F A.O., XXII, 1923 , pp. 1-76, avec 24 pl .

9- Vaufrey , R., Op. cit., p. 383 .

10- Camps- fabrer, H., MATIERE ET ART MOBILIER dans la prehistoire nord - Africaine et Saharienne , Paris, 1966, p. 391 , ff.

11- Tarradell, Notica sobre la excavaction de Gar Gahal. Tumude, II, 1954, pp. 344-358 .
- Id., Avance de la Primera campana de excavaciones en Caf Taht el Gar Ibid., III, 1955 , pp. 307-325 .
- Id., Gar cahal y su aportacion al concimiemo de la Edad del Bonce en el extremp

occidental del Mediterraneo- IVe Congr . nacion . de Arqueol, Burgos, 1955, pp. 101-112 .

- Id ., Caf Taht el gar . Cueva neolotica en la region de Tetuan (Marruecos) Ampuries, 19-20 , 1957-1958 , pp. 137-166 .

وكذلك أعمال A. Jodin في:

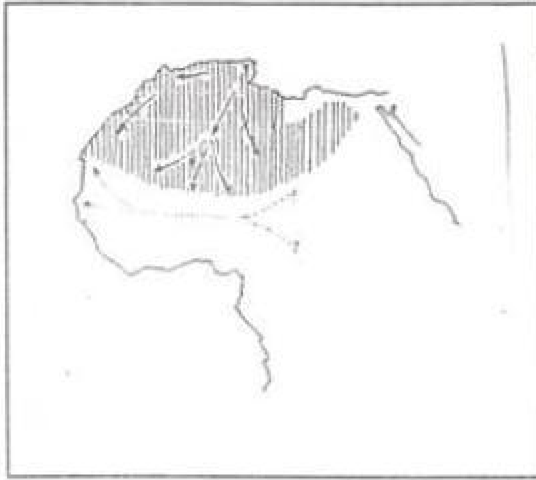
- Jodin. A., les grottes d'El-Khril a Achakar, Bull. d'Archeol. Maroc . t., 3, 1958-1959, pp. 250-313 .

- Id., Nouveaux documents sur la civilisation du vase campaniforme au Maroc. XVIe congr. prehist . De France, Monaco, 1959, pp. 677-687 .

بالإضافة إلى :

- Camps, G., en collaboration avec Souville . g., La civilisation du vase campaniforme (intervention au collogue atlantique de Brest, Septembre 1960) . Les civilisations atlantique du Neolithique a l' age du Fer , Rennes, 1963 .

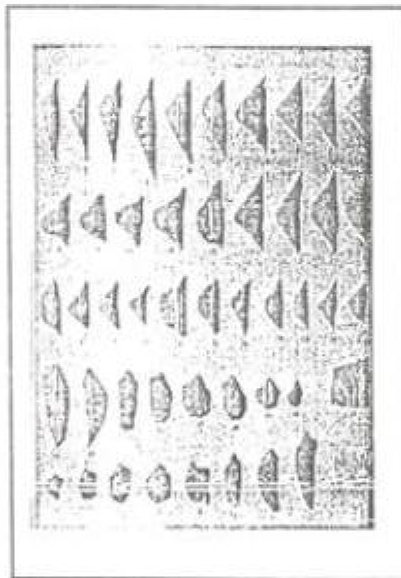
12- G. BAILLOUD et P. MIEG DE BOOFZHEIM , avec la collaboration de H. BAL FET et Ch. KIEFER, La necropole neolithique d'El- Kiffen pres des Tamaris (Province de Casablanca, Maroc). Libyca, Anthrop. Prehist. Ethnogr., t. XII, 1964 , pp. 95-171.



مناطق عاتيرية

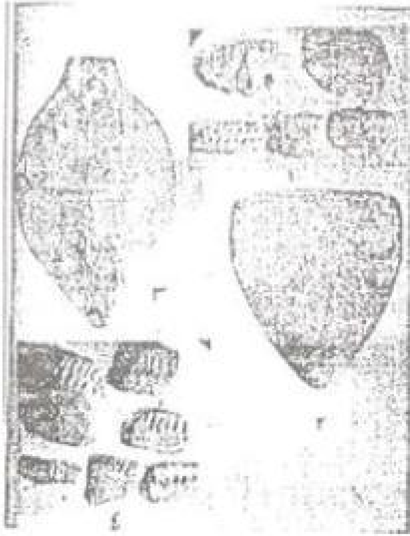
مسار الحضارة العاتيرية (افتراضي)

مسار المؤثرات الحضارة الموستيرية الجنوبية . عن : J. Tixier

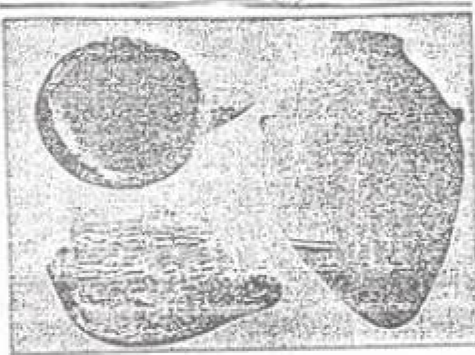


الصناعات القفصية وقد كثرت بها المحتات (الصفان الأخيران) . عن : Vaufrey

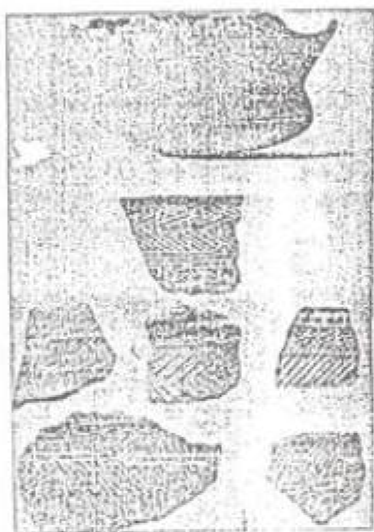
نماذج من الفخار المحلي للمغرب القديم
ويلاحظ انعدام أو قلة الزينة وبساطة الإلهام وقلة حذق التنفيذ.







أشكال هذه اللوحة واللوحات التالية عن : H. Camps- Fabrer



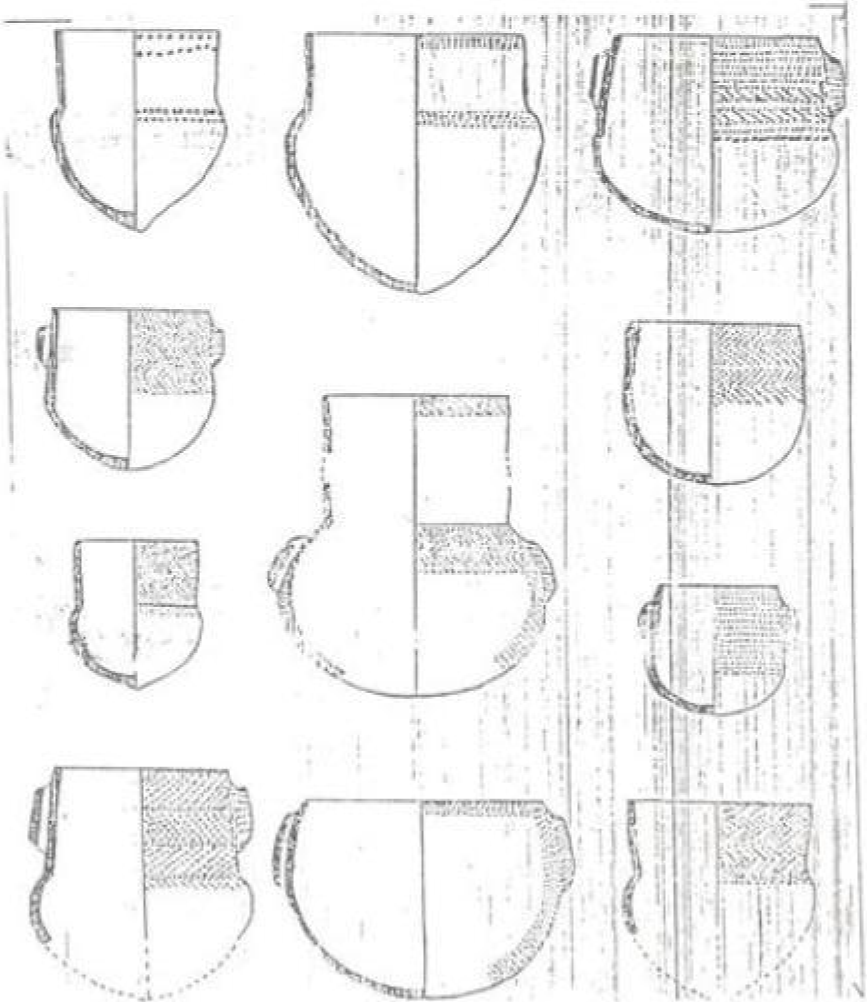
آنية دار السلطان

وهى النموذج الوحيد الكامل من الفخار الكأسى



فخار طبقة الحريل- أشكار

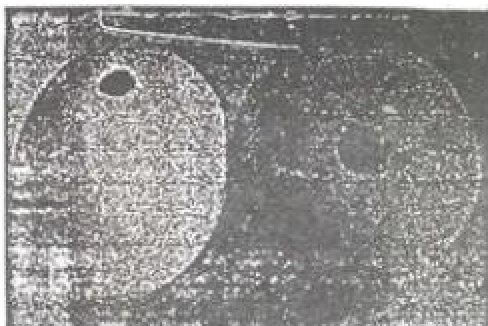
الزينة تمت بواسطة صدفة الكارديوم



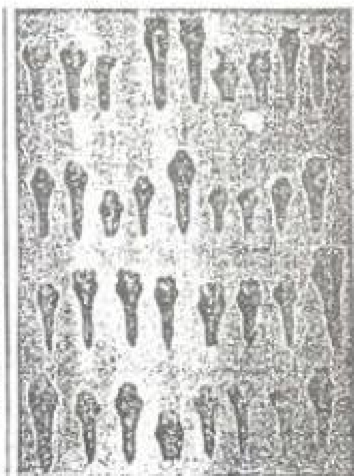
فخار المقبرة الجماعية فى الكفن

ويتميز بتنوع تكويناته وإن كانت الزينة ذات رتابة ملحوظة

وتمت بواسطة المشط إلا استثناءات قليلة واللازمة قليلة التنوع



استخدام إنسان الحضارة القفصية بيض النعام كقوارير بعد ثقبها وتفريغ ما بها، وكان ذلك قبل توصله لصناعة الفخار.



تمثل أشكال كهف المعبودات (أشاكـــار) تأثر بعض مناطق المغرب القديم بالتيارات الثقافية التي سادت عالم البحر المتوسط. وتؤخذ على أنها إما تماثيل أمومة أو رموز قضيبية ترتبط بمعنى الخصوبة



تمثال آخر من الحجر يشبه أشكال أشاكار مع تمثال آخر (على اليسار) ولكنه أخذ هيئـــة مغايرة (هيئة تماثيل بوذة؟)

د. نوّدة محمد الشريف *

ضبط سنى الأحداث التاريخية لبلاد المغرب في عصر الفتح الإسلامى

(٦٢-٩٢هـ/ ٦٨٢-٧١١م)

اختلفت مصادر التاريخ الإسلامى فى ضبط سنى الأحداث التاريخية، التى وقعت فى عصر الفتح الإسلامى لبلاد المغرب، وذلك منذ ولاية عُقْبة بن نافع الفهرى الثانية على إفريقية والمغرب سنة ٦٢هـ / ٦٨٢م، إلى بداية فتح بلاد الأندلس فى ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب سنة ٩٢هـ / ٧١١م. وقد حدثت فى هذه الفترة التى تزيد على ربع قرن - نحو ٣٠ سنة - أحداث مهمة وإنجازات عظيمة، غيرت مجرى التاريخ فى بلاد المغرب، الأمر الذى لفت نظرى فيما اطلعت عليه من مراجع حديثة [١]، وقد استرعى نظرى على وجه الخصوص نقد الدكتور صابر دياب لهذه الظاهرة[٢].

وقد أجمعت بعض المصادر التاريخية التى تمكنت من الاطلاع عليها، والتى تعنى بتاريخ المغرب فى هذه الفترة، على تحديد ولاية عُقْبة بن نافع الفهرى الثانية لبلاد المغرب بسنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م، وذلك من قِبَلِ الخليفة الأموى يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/ ٦٨٠-٦٨٣م)[٣]. فلما قدم عقبة بن نافع إلى القيروان، استخلف عليها زهير بن قيس البلوى

---

* قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة الملك عبد العزيز .

وخرج بجنده غازياً في نواحي بلاد المغرب ، حتى دوخ البربر في حروب متصلة، ووصل إلى السوس الأقصى، وفي طريق عودته إلى القيروان، توقف بمدينة طُبنة قاعدة بلاد الزاب، وفرق جنده إلى فرق ليعودوا لأهليهم، وسار هو بعدد قليل منهم إلى تهودة إحدى مدن بلاد الزاب، فلما رآه الروم، في قلة من الجند طمعوا فيه، وأرسلوا إلى كُسَيلة[٥] وأعلموه بحاله، فأسرع كُسَيلة فجمع قومه من البربر وأقبل لقتالهم، فقتل عقبة وأكثر أصحابه في سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م[٦]، وقصد كُسيلة القيروان، واستولى عليها[٧]. وكان أن اضطر زهير إلى مغادرة القيروان، والانسحاب إلى برقة، وبقيت القيروان في يد كُسيْلة نحو خمس سنين، وأمَّن من كان بها من المسلمين[٨].

لما استقرت الخلافة لعبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٦٨٥م) بعث إلى زُهير بن قيس الذي كان لايزال مرابطًا ببرقة ، وأمره بالاستعداد لقتال البربر، وأمده بالسلاح والعتاد[٩]. وقد حددت بعض المصادر التاريخية سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، تاريخًا لولاية زهير بن قيس لغزو المغرب وقتال كُسيْلة[١٠] ولكن هذا التاريخ يناقض ما جاء في مصادر أخرى ، ذكرت أن وفاة زهير بن قيس حدثت في سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م [١١]. لذا فمن المرجح أن زهير بن قيس كان يتولى المغرب بالنيابة منذ مقتل عقبة بن نافع الفهري، ولما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة، أقره على الولاية، وأمره بالتعبئة لقتال البربر واستعادة القيروان[١٢]. حيث أنه من المستبعد بقاء بلاد المغرب فترة طويلة من غير والٍ يتولى أمرها ، ولكن يبدو أن الظروف الحرجة والاضطرابات السياسية التي كانت تعاني منها الخلافة الأموية آنذاك ، أخرت وصول الإمدادات إلى زهير، مما اضطره للبقاء مرابطًا ببرقة ينتظر حتى تستقر الأوضاع الداخلية للخلافة . فلما وصلته الإمدادات اللازمة، توجه إلى القيروان في سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م[١٣] وهي السنة المرجح فيها حدوث قتال كُسيْلة ، ومن ثم فإننا نرجح استشهاد زهير ببرقة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً : تحديد بعض المصادر سنة ٦٧هـ / ٦٨٧م لوفاة زهير بن قيس البلوي.

ثانيًا: استبعاد أن تكون ولاية زهير بن قيس البلوي في سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، وذلك لأنها تدخل في زمن ولاية حسان بن النعمان الغساني، الذي خلف زهيراً على ولاية المغرب. وقد خاض- أي حسان بن النعمان- في هذه السنة عدة معارك مشهورة في قتال الروم والكاهنة[١٤].

ثالثًا: احتمال أن يكون ذلك تحريفًا من النساخ. ذلك أن رسم كلمة «تِسْع» يشبه إلى حد كبير رسم كلمة «سَبْع» فوقع النُسَّاخ فى هذا اللبس، وتسببوا فى خلل ضبط الأحداث التى حدثت بعد ذلك[١٥].

نعود إلى تتبع الأحداث، حيث امتثل زهير بن قيس لأمر الخليفة، وتوجه قاصداً القيروان، فخرج له كُسيْلة والتقيا فتقاتلا ، وانتهت المعركة بقتل كُسيلة وهزيمة من كان معه من البربر، وعاد سلطان الخلافة الأموية على إفريقية والقيروان. وتذكر الروايات إن زهير بن قيس لم يبق طويلا فى القيروان بعد فراغه من قتال كُسيْلة واستعادتها ، فقد ذكرت أكثر المصادر التاريخية أنه خرج منها متوجهًا إلى المشرق، زاهداً فى الإمارة[١٦]، ولعله كان فى نيته الاستعفاء منها ، فلما وصل برقة، اجتمعت عليه الروم، وقاتلوه ، وكان معه نفر قليل ، فقتلوه ومن معه ، فى نفس السنة التى غزا فيها المغرب ، والتى يرجع كما ذكرنا أن تكون سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م. ولما علم عبد الملك بن مروان ، بمقتل زهير بن قيس البلوى على يد الروم ببرقة، سارع بتولية حسَّان بن النُعمان الغسَّانى ، وكان حينذاك مقيمًا بمصر بأمر الخليفة على رأس حامية من الجند تحسبًا لما قد يحدث[١٧]. وأمره الخليفة بسرعة التوجه إلى بلاد المغرب، فسار حسان بن النعمان بمن معه من الجند إلى القيروان فى محرم سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م[١٨] وتجهز منها ، ثم اتجه لحرب الروم فى قرطاجنة[١٩]، وانتصر على من كان بها ، حتى ألجأهم إلى الفرار منها[٢٠]. وخاض حسان بن النعمان بعد ذلك عدة معارك أخرى مع الروم والبربر، حتى خافه أهل إفريقية، واضطر البربر والروم إلى اللجوء إلى حصونهم، وكان الجند المسلمون قد أبلوا بلاء حسنًا فى تلك المعارك التى خاضوها ، وكثرت الجراح فيهم، فقرر حسان بن النعمان العودة بهم إلى القيروان ، وأقام بها مع جنده مدة حتى استراحوا والتأمت جراحهم[٢١]. ثم غادر حسان وجنده القيروان فى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، وتوجه بهم إلى جبل أوراس[٢٢] لقتال الكاهنة ، التى كان البربر والأفارقة، قد تجمعوا حولها وملكوها زمام أمرهم بعد مقتل زعيمهم كُسيْلة . ودارت بين الطرفين معارك ضارية، هزم فيها حسان وقُتل عدد كبير من جنده، كما يروى أن البربر أسروا نحو ثمانين رجلاً منهم[٢٣]، مما أضطر حسان للإنسحاب ، وأرسل إلى الخليفة بالخبر، فأمره بالبقاء فى مكانه حتى تأتيه أوامر أخرى. وكان حسان بن النعمان فى ذلك الوقت قد وصل بقواته إلى منطقة عُرفت فيما بعد باسم «قصور حسان»[٢٤] فنزل وابتنى بها وابتنى له ولجنده وأقام بها نحو خمس سنين[٢٥].

لما فرغ الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، من القضاء على عبدالله بن الزبير بمكة المكرمة، عام ٧٣هـ / ٦٩١م، عبأ جيشًا جرارًا قدَّره بعض المؤرخين بنحو أربعين ألف رجل، ووجهه إلى حسان بن النعمان الغساني وولاه قيادته ، وأمره بالتوجه بهم لقتال الكاهنة، فسار حسان إليها وانتصر عليها وقتلها في سنة ٧٤هـ / ٦٩٢م[٢٦]. وأقام حسان في بلاد المغرب، حتى سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م ونظم خلال هذه الفترة أمور البلاد الإدارية والمالية، ثم غادرها في أواخر تلك السنة متوجها إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان محملاً بغنائم وأموال كثير، كانت سببًا - أي تلك الغنائم والأموال- في غضب عبد العزيز بن مروان والى مصر وبلاد المغرب عليه[٢٧]، فقام عبد العزيز بن مروان بعزل حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية وبلاد المغرب، وولى مكانه موسى بن نصير[٢٨]. الذى قدم إلى إفريقية فى أوائل السنة التالية، وبالتحديد فى شهر صفر سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م[٢٩]. وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى استشهاد حسان ابن النعمان الغسانى غازيًا بأرض الروم بعد ذلك بنحو عام، أى فى سنة ٨٠هـ/ ٦٦٩م[٣٠].

أما الرواية التى تقول، إن عزل حسان بن النعمان وتولية موسى بن نصير للمغرب، تم فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) دون تحديد ذلك بسنة معينة[٣١] أو الرواية الأخرى التى حددت ذلك بسنة ٨٩هـ/ ٧٠٨م[٣٢]، فالأرجح أن هاتين الروايتين خلطتا بين ولاية موسى بن نصير الأولى لبلاد المغرب فى عهد تبعيتها لوالى مصر عبد العزيز بن مروان، فى خلافة عبد الملك بن مروان ، وبين ولايته الثانية عليها فى خلافة الوليد بن عبدالملك، الذى فصلها عن والى مصر، حيث أصبحت بلاد المغرب فى خلافة الوليد بن عبد الملك إحدى الولايات الكبرى التابعة للخليفة مباشرة، وأقر عليها موسى ابن نصير[٣٣]. ومن المرجح أن فصل بلاد المغرب عن ولاية مصر، وإقرار موسى بن نصير على ولايتها من قبل الخليفة الوليد بن عبدالملك فى سنة ٨٩هـ/ ٧٠٨م كان سببًا لهذا الخلط. ومما يزيد فى ترجيح ولاية موسى بن نصير على إفريقية وبلاد المغرب طول المدة التى ذكرناها ، والتى تمتد من سنة ٧٩-٩٦هـ / ٦٩٨-٧١٥ التى انقسمت كما سبق أن بينا ، إلى فترتين كانت الأولى نحو عشر سنوات، وهى من سنة ٧٩-٨٩هـ/ ٦٩٨-٧٠٥م، عندما كانت بلاد المغرب خلالها تابعة لوالى مصر فى حين كانت الفترة الثانية نحو سبع سنوات، من سنة ٨٩-٩٦هـ/ ٧٠٨-٧١٥ وهى فترة ولايته المباشرة من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد فصل ولاية المغرب عن والى

مصر . وقد أشارت بعض المصادر إلى أن المدة التى قضاها موسى بن نصير فى ولايته للمغرب بلغت، أكثر من ستة عشر عامًا[٣٤]، غزا فيها البربر بالمغرب الأقصى، وأخضع المغرب كله للإسلام، وفتح بلاد الأندلس، وكان موسى بن نصير قد بدأ غزواته منذ قدومه إلى المغرب فى جمادى الأولى سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م[٣٥] فسبى وغنم أموالاً كثيرة وحاز رضاء الخليفة عبد الملك بن مروان، بعد أن كان واجدًا عليه[٣٦]. وظل موسى بن نصير على ولايته للمغرب، حتى توفى عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥هـ، فولى الخليفة عبد الملك ابنه عبدالله بن عبد الملك (٨٥-٨٩هـ/ ٧٠٤-٧٠٨م) على مصر وجميع بلاد المغرب[٣٧].

ولما توفى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م، وتولى ابنه الوليد الخلافة من بعده، فصل الوليد بن عبدالملك بلاد المغرب عن ولاية مصر سنة ٨٩هـ/ ٧٠٨م، وأقر موسى بن نصير على ولاية المغرب، وبقى موسى على ولايتها حتى نهاية خلافة الوليد بن عبد الملك. وكانت الأموال والغنائم الكثيرة التى توجه بها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبدالملك فى مرضه الذى توفى به ، فى سنة ٩٥هـ/ ٧١٤[٣٨]، سببًا فى عزله عن ولاية المغرب، ذلك أن سليمان بن عبد الملك أرسل إلى موسى بن نصير وطلب منه أن لايجد فى السير ويتمهل، حتى يموت أخوه، ويقدم بالأموال والغنائم فى خلافته، ولكن موسى لم يعبأ بطلب سليمان وسارع فى القدوم على الوليد فى أواخر أيامه. فلما توفى الوليد فى سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م، وتولى سليمان الخلافة، سارع بعزل موسى بن نصير عن ولايته على بلاد المغرب فى نفس تلك السنة. وقد توفى موسى بن نصير حاجًا فى موسم سنة ٩٨هـ/ ٧١٧م[٣٩].

الهوامش

١- انظر، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٣م، ج١ ص٢٠٨ ، ٢١٤-٢١٩، ٢٣٦، خطاب ، محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، بيروت، دار الفكر، ط٧ ١٤٠٤ / ١٩٨٤، ص٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦-٢٢٨، السامرائي، خليل وآخرون ، تاريخ المغرب العربي، الموصل ، دار الكتب للطباعة، ص٨٢-٩١ ، عنان، عبدالله ، دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٤، ص٢٠-٢٤، مؤنس ، حسين ، فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص٢١٨، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٨، ٢٦٦ .

٢- ذياب، صابر محمد، بلاد المغرب فى القرن الأول الهجري، القاهرة، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١١٠ .

٣- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥ / ١٩٩٥ ، ص٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ابن الأثير، على بن محمد ، الكامل فى التاريخ ، بيروت، دار صادر ، ١٣٨٥ / ١٩٩٥م، ج٤ ص١٠٥ ، ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان ، وأ. ليفي بروفنسال ، بيروت، دار الثقافة ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠، ج١ ص٢ ، النويري، أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الإرب فى فنون الأدب ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م، ج٢٤ ص٢٥ ، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٦م، ج٦، ص٢٩٧ .

٤- خليفة بن خياط ، التاريخ ، ص٢٥١، ابن عبد الحكم، الفتوح ، ص٢٢٦، الرقيق ، إبراهيم بن القاسم، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبدالله العلي الزيدان، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م، ص٩ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٨ ، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤ ، ص٢٦ .

- زهير بن قيس البلوى يقال له صحبة، شهد فتح مصر وسكنها ، قتله الروم ببرقة سنة ٧٦هـ [ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة فى تمييز الصحابة ، القاهرة، الكتبخانة الخديوية المصرية، ط١ ، ١٣٢٨هـ، ج١ ص٥٥٥، الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق عمر تدمري ، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠١ / ١٩٨١، (وفيات ٦١-٨٠) ص٤٠٤].

٥- كُسَيْلَة بن لمْزم الأوْربي، كان زعيم قبيلة أوربة البربرية . أسلم فى ولاية أبي المهاجر دينار، على بلاد المغرب، ولما تولى عقبة بن نافع بلاد المغرب، لم يعبأ بكسيلة ، واستخف به وأهانه . فأسرها كسيلة

فى نفسه، ولما سنحت له الفرصة انتقم منه. انظر [ابن عذارى البيان، ج١ ص٢٩، ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢٩٧، ٢٩٩-٣٠٠].

٦- خليفة، التاريخ، ص٢٥١، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٦-١٠٨، ابن عذارى، البيان، ج١، ص٢٨، ٢٩، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣١.

٧- ابن عذارى، البيان، ج١، ص٣٠.

٨- خليفة، التاريخ، ص٢٥١، الرقيق، التاريخ، ص١٦، ١٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠، ابن عذارى، البيان، ج١، ص٣٠، ٣١، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٢، ابن خلدون، العبر، ج٤ ص٤٠٠، ج٦ ص٢١٧، ٢٩٩.

٩- الرقيق، التاريخ، ص١٧، المالكى، عبدالله بن محمد، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ج١، ص٤٦، الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصارى، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس، المطبعة العربية التونسية، ١٣٢٠هـ، ج١ ص٥٢، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٨، ابن عذارى، البيان، ص٣١، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٢، ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢١٧.

١٠- المالكى، رياض النفوس، ج١ ص٤٦، الدباغ، المعالم، ج١ ص٥٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٨، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٣.

١١- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٨، البكرى، عبدالله بن عبد العزيز، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر دى سلان، ١٨٥٧م، ص٧ الرقيق، التاريخ، ص١٨، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٢ (فى رواية ذكرها عن الواقدى)، ابن خلدون، العبر، ج٤ ص٤٠٠، ابن أبى دينار، محمد بن أبى القاسم الرعينى، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، ط٣، ص٣٢، ابن الأبار، محمد بن عبدالله، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٣٠.

- أشارت بعض المصادر المتقدمة السابقة إلى أن وفاة زهير حدثت فى سنة ٦٧ هـ. إلا أن د. مؤنس يوافق الرأى القائل بأن حملة زهير حدثت فى سنة ٧٩هـ، ويرى بأن ابن خلدون قد شذ عندما جعل تأريخ حملة زهير فى سنة ٦٧هـ انظر [مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص٢١٨].

١٢- راجع ابن الحكم، الفتوح، ص٢٨٨، حيث أرخ ولاية زهير بن قيس للمغرب بسنة ٦٤هـ راجع أيضاً المالكى، رياض النفوس، ج١ ص٤٦، ابن عذارى، البيان، ج١ ص٣١، وقد حددا ولايته فى سنة٦٥هـ.

١٣- حدد ابن خلدون توجه زهير بن قيس لقتال كُسَيْلَة ، في سنة ٦٧هـ [انظر العبر، ج٦ ص٢١٧ ، ٢٩٩].

١٤- قال البكري: ولما قتل زهير بن قيس ببرقة، استعمل عبد الملك، حسان بن النعمان على إفريقية ، فخرج إليها في المحرم سنة ثمان وستين . وانظر [البكري، المغرب، ص٧ ، انظر أيضًا ، الدباغ، معالم الإيمان، ج١ ص٥٥] . وهنا يرجح أن مقتل زهير، حدث في أواخر سنة ٦١٧هـ.

١٥- يلاحظ ورود وقوع الخلط بين النساخين عند قراءة وكتابة هاتين الكلمتين «سبع» و«تسع» في الكتابات المخطوطة، مثال على ذلك، قارن رواية تحديد تاريخ مولد ووفاة عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، في طبقات كل من أبي العرب والدباغ، انظر [أبو العرب، محمد بن أحمد التميمي، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق على الشابي، تونس الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦م، ص٩٩، والدباغ، معالم الإيمان، ج١ ص١٧٦ .

١٦- الرقيق ، تاريخ إفريقية، ص٢٠ ، الدباغ ، معالم الإيمان، ج١ ص٥٣ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٩ ، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٣ ، ابن خلدون ، العبر، ج٤ ص٤٠٠ ، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٣٣ .

١٧- ابن عذاري ، البيان، ج١ ، ص٣٤ ، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٤ ، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٣٣ .

١٨- البكري، المغرب، ص٧ .

١٩- قرطاجنة من المدن القديمة المشهورة بإفريقية بالمغرب ، فيها آثار وعجائب البنيان ما ليس في بلد آخر، بين قرطاجنة وتونس عشرة أميال أو نحوها، ومرساهما واحد. [الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس ، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢ ١٩٨٤م، ص٤٦٢] .

٢٠- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٨، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٦٩، ابن عذاري، البيان ، ج١ ص٣٤، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٥، ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢١٨ .

٢١- ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٠، النويري ، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٥، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٣٤ .

٢٢- جبل قريب من باغاية بإفريقية، وبينه وبين تقاوس ثلاث مراحل وهو المتصل بالسوس، وهو قطعة من جبل درن بالمغرب، ومتصل به وطوله مسيرة نحو اثنى عشر يومًا مياهه كثيرة وعمارته متصلة [الحميري الروض، ص٦٥] .

٢٣- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٨، المالكي، رياض النفوس، ج١ ص٥١، الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٢٥ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٠، ابن عذاري، البيان، ج١ ص٣٦، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص٢١٨= اسمها دهيا بنت ماتية بن تيفان ، ملكة جبال أوراس، وقومها من جراوة، ملوك البتر وزعماؤهم. [انظر ابن خلدون، العبر، جـ٦ ص٢١٨] .

٢٤- منهل معروف بهذا الاسم ، يبعد عن طرابلس بأربعين ميلاً، انهزم إليه حسان بن النعمان بعد هزيمته من الكاهنة ، فأمره الخليفة عبد الملك بن مروان بالإقامة فيه بجنده فبنى فيه حسّان قصرين وأقام به نحو خمس سنين، انظر [البكري، المغرب، ص٨، الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت ، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩ / ١٩٨٩، ج١ ص٢٩٨] .

٢٥- الرقيق، التاريخ ، ص٢٦ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٠، ابن عذاري، البيان، ج١ ص٣٦ ، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤ ، ص٣٦ ، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٣٤ .

٢٦- خليفة، التاريخ، ص٢٧٠ ، الرقيق، التاريخ، ص٢٦ ، ٣٤ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٢، ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢١٩ ، ولعل مما يؤيد مسير حسان إلى إفريقية في سنة ٧٤هـ، ما جاء في رواية لأبي العرب ، تقول : « ولد عبد الرحمن بن أنعم ببرقة والجند داخلون بإفريقية سنة خمس أو أربع وسبعين». [أبو العرب، الطبقات، ص٩٩، انظر أيضاً، الدباغ، معالم الإيمان، ج١ ص١٧٦].

٢٧- ولي الخليفة الأموي مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر وبلاد المغرب سنة ٦٥هـ، وبقي عبد العزيز على ولايتها حتى وفاته في خلافة أخيه عبدالملك بن مروان، في جمادي الأولى سنة ٨٥هـ انظر [الكندي، محمد بن يوسف، ولاة مصر، تحقيق حسين نصار، بيروت، دار صادر ، ص٧٠، ابن كثير ، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف ، ج٩ ص٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ القلقشندي، أحمد بن علي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب، ط١ ١٩٦٤م، ج١ ص١٢٦، ١٣٠] .

٢٨- الكندي، ولاة مصر، ص٧٤ .

٢٩- خليفة، التاريخ، ص٢٧٧ ، ٢٩٨، ابن قتيبة ، محمد بن عبدالله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق طه الزيني، بيروت دار المعرفة، ج٢ ، ص٥٠ ، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٩، ٢٣١ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، ٥٤٠، الذهبي، التاريخ، (وفيات ٦١-٨٠هـ) ص٣٣٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩ ص١٧١ .

- ومما يرجح تولي موسى بن نصير للمغرب في سنة ٧٩هـ ، الرواية التي تقول إن موسى بن نصير، استقضى أبا الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي بالقيروان سنة ثمانين للهجرة. انظر [المالكي، رياض النفوس ، ج١ ص١١٠ ، الدباغ ، معالم الإيمان، ج١ ص١٥١] .

٣٠- ابن الأثير ، الكامل، ج٤ ص٣٧٢ ج، النويري نهاية الأرب، ج٢٣ ، ص٣٩ ، الذهبي محمد بن

أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ، ج٤، ص١٤٠، ٢٩٤ ، الذهبي، تاريخ الإسلام (وفيات ٦١-٨٠هـ) ص٣٩٣، ابن أبي دينار ، المؤنس، ص٣٥ .

- بالرغم من اتفاق المصادر السابقة على تحديد السنة التي توفي فيها حسان بن النعمان ، فإننا نلاحظ أن د. مؤنس يقدر وفاته بأوائل سنة ٨٦هـ- انظر [مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص٢٢٦] .

٣١- الرقيق، التاريخ، ص٢٦ ، ٢٧ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، ابن عذاري، البيان، ج١ ص٣٩، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٨ ، ٣٩ ، القلقشندي ، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٨٣ / ١٩٦٣، ج٥ ص١١٨ ، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٣٥ .

- ومما يلاحظ أن الدكتور مؤنس قد تبنى هذه الرواية رغم ما ورد فيها من خلط واضح لأحداث مشهورة، حيث قدمت وفاة عبد الملك بن مروان على وفاة أخيه وولي عهده عبد العزيز ، كما خلطت بين ولاية كل من عبد العزيز بن مروان، وابن أخيه عبدالله بن عبدالملك لمصر، فجعلت عبد العزيز بن مروان على ولاية مصر، في خلافة الوليد بن عبد الملك. انظر [مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص٢٦٤ ، ٢٦٥].

٣٢- البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت، مكتبة الهلال، ١٣٩٨هـ/ ١٩٦٣م، ص٢٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، انظر أيضًا، ابن أبي دينار ، المؤنس، ص٣٥، السلاوي، أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، الدار البيضا، دار الكتاب، ١٩٥٤م، ج١ ، ص٨٥ .

٣٣- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة، ج٢ ص٥٨، الرقيق، التاريخ، ص٣٨، ابن عذاري ، البيان، ج١، ص٤١، انظر أيضًا، سديو ، ل. أ. ، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨٩، ص١٥٧ .

- راجع أيضًا إشارة الكندي إلى خلافات ومراسلات وقعت بين عبدالله بن عبدالملك وبين موسى بن نصير، ويبدو أنها كانت من أسباب فصل بلاد المغرب عن ولاية مصر إداريًا ، ثم أعقب ذلك عزل عبدالله بن عبدالملك عن ولاية مصر، انظر [الكندي، ولاة مصر، ص٨١-٨٣].

- بعد وفاة عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥هـ، ولى الخليفة عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله بن عبد الملك على مصر والمغرب، ولما توفي عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن عبد الملك، كتب الوليد بن عبد الملك إلى أخيه عبدالله بن عبدالملك، بولاية موسى بن نصير إفريقية والمغرب، وقطعها عنه، وبقي عبدالله بن عبد الملك واليًا على مصر حتى عزله الوليد سنة ٩٠هـ. انظر [الرقيق، التاريخ، ص٣٨، ابن عذاري، البيان ، ج١ ص٤١، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج٩، ص٧٧] .

- وقد ذكر البلاذري رواية الواقدي التي تقول بتوجيه عبد العزيز بن مروان ، موسى بن نصير والياً على إفريقية، ثم قال : «ويقال بل وليها في زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ» فالروايتان فيما يبدو صحيحتان، وتدعم ما سبق بيانه من ترجيح ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب للمرة الأولى في سنة ٧٩هـ من قبل والي مصر عبدالعزيز بن مروان، ثم ولايته لها للمرة الثانية في سنة ٨٩هـ ، حينما أقره عليها الوليد، بعد فصلها عن والي مصر. انظر [البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٣٢] .

٣٤- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة، ج٢ ص٠٥ ، ٨٦ ، انظر أيضاً ما ذكره ابن عذاري في ولاية موسى بن نصير ، قائلاً : «وفي سنة ٨٨ ولي إفريقية ، فأقام عليها أميراً وعلى الأندلس والمغرب كله، نحو ثمان عشرة سنة، إلى أن مات»، وهي عبارة يتضح فيها التناقض بين تحديد السنة التي تولى فيها ويلاحظ كتابتها بالأرقام، وبين عدد السنوات التي قضاها في ولايته وهي مكتوبة بالحروف، كما يفهم من العبارة أنه بقي في الولاية لحين وفاته ، أي لسنة ٩٨هـ، ورغم الخلط الواضح في هذه الرواية ، والذي يبدو أنه من فعل النساخين، لكنها على أي حال تؤكد ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب في حدود سنة ٧٩هـ. انظر [ابن عذاري، البيان، ج١ ص٤٦] .

٣٥- خليفة، التاريخ، ص٢٧٨ ، ٢٧٩، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٣١ ، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص٨٦ .

٣٦- ابن عذاري، البيان ، ج١ ص٤١ .

٣٧- ابن حزم ، علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط٤، ص١٩٩٧م، ص٨٩، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج٩، ص٧٧ .

٣٨- خليفة، التاريخ، ص٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج٢ ص٦٨ ، ٦٩ ، الرقيق، التاريخ ، ص٤٤، ٥٤ ، ٥٥، ابن الأثير ، الكامل ، ج٤، ص٥٦، ٥٦٦ ، ابن عذاري، البيان، ج١ ص٤٣ ، ٤٤، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤ ، ص٤٠ ، ٥٢ .

٣٩- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ، ص٨٦ ، ابن عذاري، البيان، ج١ ، ص٤٦ .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر القديمة

* ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن أبى بكر القضاعى (ت – ٦٥٨هـ) .

– الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م.

* ابن الأثير، على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت. ٦٣٠هـ)

– الكامل فى التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٩٥م.

* الإدريسى ، محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٥٤٨هـ)

– نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب ، ١٤٠٩ / ١٩٨٩ .

* البكرى، عبدالله بن عبد العزيز، (ت ٤٨٧هـ)

– المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ، دى سلان، ١٨٥٧م.

* البلاذرى ، أحمد يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)

– فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت، دار مكتبة الهلال ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

* ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على بن محمد (ت ٨٥٢هـ)

– الإصابة فى تمييز الصحابة، القاهرة، الكتبخانة الخديوية المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.

* ابن حزم ، على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) .

– جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٩٧م.

* الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ)

– الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤ م.

* ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمى (ت ٨٠٨هـ)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٦ م .

* خليفة بن خياط ، بن أبى هبيرة العصفرى (ت ٢٤٠هـ)

- تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمرى، الرياض، دار طيبة ، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ / ١٩٨٩ .

* الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصارى (ت ٦٩٦هـ)

- معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس ، المطبعة العربية التونسية، ١٣٢٠هـ .

* ابن أبى دينار، محمد بن أبى القاسم الرعينى (توفى فى القرن ١١هـ)

- المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، الطبعة الثالثة.

* الذهبى، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠١ / ١٩٨١ .

- تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق عمر تدمرى، بيروت، دار الكتاب العربى، ط١، ١٤٠١ / ١٩٨١ .

* الرقيق ، إبراهيم بن القاسم (توفى فى القرن الخامس الهجرى)

- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبدالله العلى الزيدان، بيروت، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م .

* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ)

- فتوح مصر والمغرب ، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤١٥ / ١٩٩٥ .

* ابن عذارى ، المراكشى (توفى آخر القرن السابع الهجرى)

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان، وأ. ليفى بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

* أبو العرب، محمد بن أحمد التميمى القيروانى (ت٣٣٣هـ)

- طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق على الشابى ونعيم اليافى، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م.

* ابن قتيبة ، محمد بن عبدالله بن مسلم (ت . ٢٧٦هـ)

- الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزينى، بيروت دار المعرفة.

* القلقشندى ، أحمد بن على (ت. ٨٢١هـ)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٣٨٣هـ.

- مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

* ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)

- البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف، بدون تاريخ.

* الكندى ، محمد بن يوسف (ت ٣٥٠)

- ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ

* المالكى ، عبدالله بن محمد، أبوبكر (توفى فى النصف الثانى من القرن الخامس)

- رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامى.

* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

ثانيًا : المراجع الحديثة العربية والمعربة

* دياب، د. صابر محمد ، المغرب فى القرن الأول الهجرى، القاهرة، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

* السامرائى ، خليل وآخرون، تاريخ المغرب العربى، الموصل ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر.

* سديو، ل. أ.، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابى الحلبى، الطبعة الثانية، ١٣٨٩ هـ .

* سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٣م.

* السلاوى، أحمد بن خالد الناصرى ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصرى، الدار البيضا ، دار الكتاب، ١٩٥٤م.

* عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجى، الطبعة الرابعة.

* مؤنس، د. حسين، فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

* محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربى، بيروت، دار الفكر، الطبعة السابعة ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

د. ناجلا محمد عبد النبى *

القرصنة اللاتينية فى شرق حوض البحر المتوسط على عصر سلاطين المماليك

لعب البحر المتوسط دوراً هاماً فى الربط بين الدول المطلة عليه منذ العصور القديمة، عندما كانت تسيطر عليه الإمبراطورية الرومانية حتى غدا بمثابة بحيرة رومانية، وعند سقوط الأقاليم الشرقية والجنوبية والغربية من حوض ذلك البحر فى أيدى العرب فى حركة الفتح الإسلامى، حلت هناك بعض التعاملات التجارية بين الغرب اللاتينى والشرق الإسلامى، وإن كان نصيب الغرب فى تلك التجارة بسيطاً نظراً للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كيفت أوضاعه . ولم يحدث تطور فى نشاط الغرب اللاتينى فى هذا المجال إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى حين تقلصت الهيمنة العربية على مياه البحر المتوسط. وفى أخريات ذلك القرن عاد البحر المتوسط بحيرة مسيحية، ونشطت الحركة التجارية الأوربية عليه نشاطاً ملحوظاً نتيجة للحروب الصليبية ونشاط المدن التجارية الإيطالية، وفى مقدمتها البندقية وجنوة وبيزا. وكان طبيعيا أن تسير التجارة فى أعقاب الصليب فنمت وازدهرت ، وصحب ذلك انتعاش تلك المدن الثلاث حتى احتكرت التجارة بين الشرق الأدنى الإسلامى وأوربا رغم الصراعات الدينية بين الجانبين.. وقد صاحب هذه النهضة التجارية نشاط القراصنة فى حوض ذلك البحر.

* مدرس تاريخ العصور الوسطى- كلية التربية بدمنهور .

والواقع أن البحر المتوسط عرف القرصنة منذ التاريخ القديم، وهي صورة من صور حرب العصابات ، تقوم بها فرق سريعة الحركة تقتنص الفرصة المناسبة لتحقيق المكاسب المادية بالسطو على هدفها في طرق التجارة في البحر المتوسط. واعتبر مسيحيو الغرب الأوربي في العصور الوسطى، خاصة زمن الحروب الصليبية ، القرصنة نشاطًا مشروعًا ونوعًا من أنواع الثأر ضد المسلمين ولونًا من ألوان التجارة تدر المكاسب المادية الكبيرة على من يمارسها ، وكان يزاول القرصنة جماعات من المغامرين من شتى الفئات والطبقات ، سواء من النبلاء أو من التجار أو حتى من أدنى الطبقات كصيادي الأسماك . وهؤلاء باشروا القرصنة طوال أيام العام في مياه المتوسط. وحركة القرصنة كانت تزداد في فترات معينة مع مواسم التجارة أو «مدة التجارة» بين الشرق والغرب، خاصة في المنطقة الشرقية من حوض البحر المتوسط حيث كان الصراع الصليبي الإسلامي محتدمًا. وقد ألحق القراصنة أضراراً كبيرة بالتجار فلم يفرقوا بين سفينة لاتينية وأخرى للمسلمين طالما كانت متجهة إلى سواحل شرق البحر المتوسط، لأن هدفهم الأول كان تحقيق الكسب على حساب الضحايا، مسلمين كانوا أو مسيحيين .

وقبل أن نخوض في الموضوع الذي نحن بصدده وهو «نشاط القراصنة اللاتين على طرق التجارة في شرق البحر المتوسط في عصر دولة سلاطين المماليك» أي في الفترة من النصف الثاني من القرن ١٣ الميلادي (النصف الثاني من القرن ٧ الهجري) وحتى الفتح العثماني في بدايات القرن ١٦ الميلادي (بدايات القرن ١٠ الهجري). يجدر بنا أن نشير إلى أنه كان يوجد نوعان من القراصنة: قرصان يعمل لحسابه الخاص بمعاونة تابعين له، وهو ينقض على فريسته أو ضحيته التي يختارها بنفسه، في أي مكان تتاح له فيه الفرصة لتحقيق ما ينشده . وآخر يعمل لحساب الغير ، فهو لايختار ضحيته بإرادته وإنما يكون مكلفًا بتلك المهمة بمعنى أنه يعمل كمرتزق يتقاضى على عمله قدراً من المال أو تكون له نسبة من الغنيمة حسب اتفاق مسبق مع صاحب عملية السطو، وحينما تنتهي تلك المهمة يتحول مباشرة إلى القرصنة لحسابه الخاص[١]. وهذا هو الفرق بين لفظي Pirate و Corsaire الفرنسيين، فالأول مغامر يعمل لحسابه الخاص بينما الثاني غالبًا ما يكون مكلفًا من قبل جهات مسئولة . أي أن مهمته تكون رسمية ومشروعة.

وكانت لتلك القرصنة صور عدة اختلفت باختلاف الظروف والأحوال السياسية والحربية في شرق البحر المتوسط في فترة اتخذت الاضطرابات والصراعات بين المسلمين والمسيحيين

الغربيين شكل الحروب الصليبية. ولكن مما لاشك فيه أن تدخل البابوية فى النشاط التجارى بين المعسكرين المتناحرين ساهم بطريق غير مباشر فى تفاقم حركة القرصنة التى شهدها حوض البحر المتوسط فى تلك الأونة ، بل ربما أعطاها الصفة الشرعية إذ كانت تبارك من يقوم بها ضد المسلمين. وكانت العلاقات التجارية قائمة بين أوربا وعلى وجه الخصوص المدن الإيطالية وبين الدولة الفاطمية فى مصر والشام قبل مولد الحركة الصليبية واستمرت قائمة بعد أن قامت الإمارات اللاتينية الأربع على ساحل الشام، قائمة بل لقد أصبحت أكثر نشاطاً، ومع ذلك لم تعرها البابوية أى اهتمام طالما كان التفوق العسكرى فى المنطقة فى صالح الجانب الصليبى على الجانب الإسلامى. ذلك أن البابوية لم تلبث أن أظهرت موقفها العدائى للمدن التى كانت تتعامل مع مصر وذلك حين بدأ ميزان القوى يميل نحو رجحان كفة المسلمين وهذا يعنى أن مرحلة التفوق الصليبى قد انتهت، خاصة بعد انتصار المسلمين فى حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ . وعندئذ أدركت البابوية أن الخطر الإسلامى محدق بالإمارات اللاتينية فى الشرق فبدأت تتحرك وتعلن تهديداتها لمن يحاول الاتصال بمصر. وكانت الطامة الكبرى حين سقطت معاقل الصليبيين الواحد تلو الآخر -وآخرها عكا- فى أيدى المماليك فى أخريات القرن ١٣ م (أخريات القرن ٧هـ) وعندئذ تأكدت البابوية من تفوق المعسكر الإسلامى وميل ميزان القوى بشدة إلى جانب مصر والمسلمين فصبت كل غضبها على المدن الإيطالية لأنها تساهم بقدر كبير - بطريق مباشر أو غير مباشر- فى تعزيز قوة مصر العسكرية، لذلك اتخذت البابوية عدة قرارات للحد من التعامل مع مصر، منها الحرمان من عطف الكنيسة واللعنة والقطيعة، ومصادرة البضائع وحرمان من يتعامل مع المسلمين وبخاصة مماليك مصر[٢] من حريته الشخصية ولكن تجار تلك المدن فى أغلب الأحيان لم يعيروا تلك القرارات أى اهتمام، بل كانوا يتحايلون بشتى الطرق للإفلات منها: تارة بتقديم ما يوازى قيمة ما ربحه التاجر المخالف من تجارته مع المسلمين إلى خزانة البابوية[٣]، وتارة أخرى بشراء الغفران بدفع مبلغ من المال تحدده الكنيسة[٤]، وتارة ثالثة بشراء تراخيص التجارة فردية أو جماعية مع المسلمين[٥]. وهكذا كان التحايل على قرارات البابوية بحظر التعامل مع المسلمين. مقصوداً به فى بداية الأمر التجارة مع مصر وتوابعها. ثم شمل هذا القرار مسلمى الأندلس وشمال أفريقيا والسلاجقة فى آسيا لصلاتهم الطيبة بمصر[٦]. وعقدت المجامع الدينية لهذا الغرض وتوالت قرارات الحرمان الكنسى ضد من يتاجر مع مصر والمسلمين. وجاء مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١١م- ١٣١٢م ليكشف عن عدد كبير من التجار الأوربيين لايبالون بقرارات الحرمان أو

القطيعة وظلوا يتعاملون مع مصر، وكان قراره حظر الاتجار مع مصر نهائياً(٧). وضماناً لتنفيذ هذا الحظر كلف المجمع فرسان الداوية، المعروفين بشدة عدائهم للمسلمين، بمراقبة الحركة التجارية للسفن المسيحية الغربية التي تتجه إلى الموانئ الإسلامية في كل من مصر والشام وسواحل آسيا الصغرى. وكان مقر هؤلاء الفرسان جزيرة قبرس(٨)، وصارت مهمتهم حماية الجزيرة وأسر أية سفينة تحاول الاتجاه إلى بلاد سلطان المماليك(٩). وقد استغل بعض المغامرين هذه العملية ليعمل لحسابه الخاص. فقام بعضهم بعمليات القرصنة والسطو على السفن اللاتينية المتجهة إلى مصر. وهكذا رغم التعقيدات والعراقيل التي كانت تضعها البابوية في وجه تجار الغرب اللاتيني من أجل عدم التعامل مع سلاطين المماليك، ظلت العلاقات التجارية قائمة معهم في السر وفي العلن، وظلت القرصنة تزداد معها يومًا بعد يوم طالما لم يكن في إمكان الغرب المسيحي مواجهة دولة المماليك وقوتها العسكرية. وإن كان تعرضت موانيء الدولة في مصر والشام للقرصنة وكانت أشهرها تلك التي عرفت بغزوة القبارصة عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م والتي لم تكن سوى واحدة من تلك العمليات الخاطفة التي اعتاد أن يقوم بها القراصنة اللاتين ، وإن كانت بقيادة ملك قبرس. وبعد تلك الغزوة عقد الصلح بين مماليك مصر وبطرس لوزنيان ملك قبرص فسادت في المنطقة فترة هدوء . وجدير بالذكر أن القبارصة لم يستطيعوا الدخول مرة أخرى في صراع مع سلطان مصر لأنهم كانوا أضعف من أن يواجهوا وحدهم القوة المصرية، خاصة وأن الإسبتارية الذين كانوا أضعف من أن يواجهوا وحدهم القوة المصرية، خاصة وأن الاسبتارية الذين كانوا يساندون أي هجوم على المسلمين تطرق إليهم الضعف بسبب الخلافات التي مزقت صفوفهم. وقد تحولت تلك الخلافات إلى حرب مكشوفة فضلا عن مشاركتهم في الحروب ضد العثمانيين في أوربا. أما البابوية التي اعتادت أن تجمع المسيحيين ، فقد أصبحت هي الأخرى لاتقوى على التأثير عليهم للقيام بعمل مسيحي مشترك ضد المسلمين(١٠) سواء بحملة عسكرية أو بمقاطعة اقتصادية (١١). وهكذا لم يبق أمام الفرنج سوى القيام بعمليات حربية خاطفة على سفن وسواحل وموانيء دولة المماليك. وبهذه العمليات يمكنهم شل حركة التجارة واستنزاف مواردها أولاً بأول، ومما يؤثر بدوره على دخل مصر، فلاتتمكن من إنشاء الأساطيل أو تجهيز الجيوش لصدهم فيسهل عليهم تحقيق ما يرمون إليه. وجدير بالذكر أن هذا التصرف من قبل اللاتين والجبهة الصليبية لم يكن نابعًا من دافع ديني وإنما كان لتحقيق مكاسب مادية والتنافس على الهيمنة على البحر المتوسط. لذا ساد حوض البحر المتوسط في أخريات القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر الميلاديين [أخريات

القرن الثامن وطوال القرن التاسع الهجريين] عمليات قرصنة لاتينية تميز فيها القطلان بصفة خاصة[١٢] إلى جانب الإسبتارية وغيرهم. ولم تتعرض تلك الغارات لسفن المماليك فحسب ولكنها لم تترك سفينة فى شرق البحر المتوسط أو غربه تابعة للمسلمين عامة إلا وهاجمتها وأسرت من بها من مسافرين وتجار ونهبت ما بها من بضائع [١٣]، فضلاً عن مباغتة أولئك القراصنة لبعض الموانئ، المماليكية مثل الإسكندرية ورشيد وطرابلس وبيروت وصيدا ويافا واستيلائهم على بعض ما بها من مراكب[١٤] وأسر العديد من المسلمين[١٥]. وقد ذكر فليكس فابرى[١٦] Félix Fabri أنه كان يوجد ما يقرب من ثلاثة آلاف عبد مسلم فى البندقية وحدها فى القرن (الخامس عشر الميلادى/ التاسع الهجرى). وكان البنادقة يستغلونهم كمجدفين على سفنهم[١٧]. هذا وكانت السلطات المماليكية تصد القراصنة أينما أغاروا. ورغم انهزام الفرنج فى معظم الأحيان إلا أن المماليك تكبدوا خسائر كبيرة، وأصبحت هذه الغارات تسبب لهم قلقاً على أمن دولتهم. ووصلت بالقراصنة الجرأة أن خططوا «للوثب على ناظر الخاص حين قدومه للإسكندرية لتحصيل ما بها من مال، لولا أن كشف أمرهم». ولما لم يأمن أهل المدينة على حياتهم من المغامرين القراصنة، مع إدراكهم عدم جدوى الاعتماد على حماية المدينة، شرعوا فى حفر خندق حول المدينة لحمايتها من أى هجوم [١٨]. وقد ضاقت السلطات الحاكمة فى مصر بتلك الغارات التى كان يقوم بها المغامرون اللاتين وعلى رأسهم القطلان والإسبتارية والقبارسة والروادسة . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، وإنما زادت كارثة القرصنة بتحول التنافس بين البندقية وجنوة ، وهما أشهر وأقوى مدينتين تجاريتين فى مياه البحر المتوسط-، إلى حرب مكشوفة ضارية . ومارست كل منهما عمليات السطو على سفن منافستها، وكانت سفن كلاهما تأتى إلى مصر بما يحتاجه المماليك من سلع استراتيجية وتنقل منها ما يصلها من سلع الشرق الأقصى إلى أوربا، ولم يكن هذا الصراع مقصوراً على القرصنة على السفن المتجهة لدولة المماليك فحسب[١٩]، وإنما انسحب الأمر إلى الإغارة على مدن وموانئ، تلك الدولة فى مصر والشام ، خاصة بعد أن حققت البندقية على منافستها جنوة نصراً ساحقاً فى كيوجا عام ١٣٨١م، فانضمت الأخيرة إلى زمرة القراصنة الذين اعتادوا غزو ثغور المماليك حين ضاقت بالعلاقة الوثيقة التى ربطت مصر بالبندقية [٢٠]، مثلما فعل «بوسيكو» Boucicault قائد أسطول جنوة ، من شن غارات خاطفة على شواطئ، الدولة المماليكية. وتجنباً للأخطار التى قد تواجه تجار البنادقة فى البحر ، نظموا رحلاتهم التجارية فى شكل قوافل بحرية، لكل قافلة منها سفينة مسلحة للدفاع عن بقية السفن فى حالة تعرضها لهجوم القراصنة[٢١].

وهكذا أخذت هجمات القراصنة اللاتين بمختلف عناصرهم تعترض طرق التجارة فى البحر المتوسط إلى موانىء المماليك، ولم تسلم من هجماتهم حتى السفن المسيحية المتجهة إلى سواحل مصر والشام. وسببت هذه الهجمات خسائر فادحة للدولة المماليكية وضربت تجارتها فى مقتل، خاصة عندما أخذ الغرب اللاتينى باقتراحات بعض أبنائه الذين رأوا أن أفضل وسيلة للقضاء على قوة المسلمين والتغلب عليهم هى فرض حصار اقتصادى ومحاصرتهم فى منطقتهم[٢٢]. لذا زادت هذه العمليات رغم ما اتخذه المماليك من اجراءات دفاعية لحماية مصالحهم وسواحلهم .

وقد اعتادت السلطات المصرية فى حالة تعرض سفنها أو تجارها أو ثغورها فى مصر والشام لمثل هذه القرصنة أن تلقى بالمسئولية الجماعية على التجار الأجانب دون تمييز بين جالية وأخرى، فتقبض عليهم وتصادر أموالهم وتزج بهم فى السجون. ورغم ذلك لم تتوقف هجمات القراصنة على سواحل الدولة أو السفن التجارية فى مياه البحر المتوسط المتجهة إلى موانىء المماليك، بل ازداد تجرم هؤلاء المغامرين، فاضطرت السلطات الحاكمة فى القاهرة إلى الرد عليهم بنفس أسلوبهم. من ذلك أن السفن الإسلامية أغارت على قبرس- أقرب اوكار القراصنة الفرنج لسواحل المماليك - فى عامين متتاليين (١٤١٠-١٤١١م / ٨١٣-٨١٤هـ) ، ورغم ذلك عاود القراصنة غاراتهم على الشام، ولكن حين أحسن ملك قبرس باستعداد المماليك لغزو الجزيرة من جديد سارع بعرض الصلح عام ١٤١٤م (٨١٧هـ) مع حكام القاهرة، وتعهد فيه بعدم السماح بأعمال القرصنة على سواحل دولتهم وبألا يأوى المغامرين فى جزيرته، وإذا لجأوا إلى موانيه لايقدم لهم أى عون وأن يصدر الملك أوامره للقبارصة بعدم شراء السلع التى يستولى عليها المغامرون من عمليات القرصنة التى يقومون بها على سفن وسواحل المسلمين[٢٣]. ورغم تلك المعاهدة عاود القبارسة والقطلان «تجرمهم فى العام التالى (١٤١٥م/ ٨١٨هـ) فأضطر السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاء جميع التجار الفرنج وقناصلهم بالإسكندرية ودمشق، وعلى وجه الخصوص إزاء التجار القطلان وقنصلهم بالإسكندرية ، وأمر بسجنهم بأحد أبراج القلعة»[٢٤]. وتكررت غارات القراصنة على شواطىء المماليك ، ووجد السلطان ططر الذى خلف السلطان المؤيد أن التجار الفرنج وجالياتهم فى موانيه يمدون القراصنة بالمعلومات عن الاستحكامات العسكرية على السواحل وعن موعد وصول التجار، وعن الإجراءات الدفاعية التى تقوم بها سلطات المماليك لصد ومواجهة غارات المغامرين من اللاتين. لذا أراد أن يحد من نشاط تلك الجاليات الفرنجية

خاصة وأن هؤلاء كان من بينهم من يتمتع بالإقامة الدائمة فى أراضى دولة المماليك[٢٥]، وكان أن أصدر السلطان ططر مرسومه عام ١٤٢١م / ٨٢٤هـ بتحديد إقامة جميع التجار وغيرهم من طوائف الفرنج فى بلاده إلى أربعة أشهر على الأكثر وهى مدة يراها السلطان كافية لإنهاء التجار تعاملاتهم فى بلاده[٢٦]. وكان هذا المرسوم ضربة قاضية لبعض المدن التى كانت لها علاقات وثيقة بدولة المماليك مثل البندقية وجنوة. ولم يستمر تنفيذ هذا المرسوم طويلاً إذ توفى ططر وخلفه برسباى الذى كان فى حاجة ماسة إلى ما يأتى به تجار اللاتين من سلع استراتيجية، فأعاد الامتيازات لتجار بعض المدن التى كان ططر قد حجبها عنها، وعادت التجارة إلى سابق نشاطها ؛ واستمر تعرض القراصنة لسفن المسلمين فى مياه البحر المتوسط والإغارة على موانىء مصر والشام. وضاق برسباى بتصرفاتهم وتيقن من تمركزهم فى جزيرة قبرص شرق البحر المتوسط، فبعث بحملات ثلاث على تلك الجزيرة انتهت بإخضاعها للجزية وصارت جزءاً من إمبراطورية المماليك، ورغم ذلك لم ينته نشاط القراصنة فى تجرمهم على سفن المسلمين، وانتقل مركزهم إلى جزيرة رودس التابعة لفرسان الاسبتارية ، وكان القطلان يرمون بكل ثقلهم فى تلك العمليات، بعد أن حملوا لواء مقاتلة المسلمين أينما كانوا فى حوض البحر المتوسط. ونتيجة لذلك اضطر «جقمق» سلطان مصر آنذاك أن يتبع خطى سلفه برسباى فى القضاء على مراكز إيواء القراصنة اللاتين . وإذا كان برسباى قد نجح فى هجومه على جزيرة قبرص أو أخضعها لسلطان المماليك فى القاهرة، فإن جقمق قد أخفق فى محاولاته الثلاث لإخضاع جزيرة رودس للجزية أو حتى إيقاف عمليات السطو المسلح على سفن تجار مصر فى مياه المتوسط، وذلك لأسباب عدة أهمها بُعد الجزيرة عن سواحل دولة المماليك. وكانت النتيجة، ازدياد تجرم القراصنة اللاتين، وبسبب انعدام الأمان قرب سواحل المماليك والتى تسبب فيها القطلان بصفة خاصة، قلت السفن المتجهة إلى موانىء مصر والشام، حتى أن الجالية الأجنبية التى كانت بالإسكندرية لم تكن تضم فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (نهاية القرن التاسع الهجرى) سوى عناصر قليلة على رأسهم البنادقة والجنوية[٢٧]. وحقيقة كانت توجد جاليات أجنبية أخرى مثل أبناء فلورنسا أو أبناء مرسيليا وكانت لهم تجارة رائجة فى موانىء مصر والشام، ولكن كانت إقامتهم بتلك الموانىء لفترات قصيرة ، بعد أن زالت بيوتاتهم التجارية بها[٢٨].

على أية حال، ورغم ما ارتكبه القراصنة من عدوان على سفن مسلمى شرق البحر المتوسط إلا أن التجارة الأوروبية مع المماليك ظلت قائمة لأن الغرب المسيحى كان لايستغنى عن التوابل

وكماليات الشرق التى تأتيه عن طريق مصر ومع ذلك فإن التجار اللاتين قل توافدهم على موانىء المماليك بسبب انتشار قراصنة الفرنج عامة والقطلان خاصة فى البحر المتوسط واعتراضهم طريق أى سفينة متجهة إلى موانىء المماليك، حتى أنهم كانوا يمثلون الخطر الأكبر على تجارة قطالونيا نفسها. وأدى هذا إلى أن حكام المماليك منعوا تجارهم من دخول أسواق مصر والشام. ولاشك فى أن نشاطهم هذا جر فى كثير من الأحيان ثورة غضب المدن البحرية التجارية الأخرى عليهم حتى أن هذه المدن كانت تطارد العلم القطالونى فى أى مكان فى مياه المتوسط، انتقامًا لما يسببونه لهم من خسائر مادية وضرب لمصالحهم التجارية . لذلك أصدر مجلس الشيوخ البندقى أوامره إلى القائد العام للأسطول عام (١٤٧٤م / ٨٧٩هـ) بالبحث عن قراصنة قطالونيا أمثال «ريزو وسمبلانا وألماريتشى» الذين اعتادوا مهاجمة سواحل قبرص ودولة المماليك مع ضرورة القبض عليهم وعدم السماح لهم بالهروب [٢٩]. وهذا يوضح لنا سبب خلو فندق جالية قطالونيا فى الإسكندرية من نزلائه القطالونيين عام (١٤٨٣م / ٨٨٨هـ)[٣٠] عند مرور فليكس فابرى ورفاقه فى رحلة الحج بالمدينة ، فخصصه المسئولون فى مصر لإيواء الحجاج اللاتين[٣١]. وكيفما كان الأمر، فقد ازدادت القرصنة على سفن المسلمين أو تلك التابعة لدولة مسيحية تتعامل مع المماليك. وإذا كان حكام المماليك قد حاولوا الحد من تجرم هؤلاء القراصنة على مصالحهم بأن وجهوا حملات بحرية لضرب أوكارهم فى جزر البحر المتوسط، أو إقامة القلاع والاستحكامات العسكرية للدفاع عن سواحلهم، فقد كان لهم تصرف آخر داخل البلاد للانتقام من أعمال لصوص البحار. فبمجرد علم السلطان بأية حادثة قرصنة تعرضت لها جماعة من المسلمين أو ميناء تابع لهم على يد اللاتين، كان رد الفعل سريعًا : فكانت تلقى المسئولية الجماعية الأجنبية وعلى رأسها قناصلهم رهائن لديهم يتحملون عواقب أى عمل عدائى ضد رعايا المماليك أو المسلمين عامة، فكانت تصادر أموالهم وتجارتهم، وتزج بهم فى السجون إلى أن يتم التصالح بين الطرفين مع تعويض المتضررين. وقد كان ذلك فى أعقاب تعرض الإسكندرية عام (١٣٦٥م / ٧٦٧هـ) لحملة بطرس لوزينيان[٣٢]، فضلاً عن إغلاق أسواق مصر والشام فى وجه التجار الأجانب عامة، مما دفعهم إلى الاتجاه نحو العراق من أجل الحصول على السلع التى حرمتهم مصر منها. ولكن حاكم بغداد آنذاك وهو «أويس ابن الشيخ» منعهم من الاتجار فى بلاده إلى حين مصالحة حاكم مصر[٣٣]. وحادثة أخرى فى بدايات القرن الخامس عشر الميلادى (بدايات القرن التاسع الهجرى) حين أسر أحد القراصنة القطلان وهو «بيير دى لا راندا Pierre De La Randa» سفينة مصرية قرب سواحل

آسيا الصغرى وكان على متنها ما يقرب من مائة وخمسين مسلماً وحمولة ثمينة، وباع كل ما عليها من بشر وسلع إلى «جاكوب كريسبو» Jacopo Crispo حاكم جزيرة ناكسوس Naxos التي كانت تابعة للبندقية ، لذلك استدعى السلطان قنصل البندقية بالإسكندرية للمثول أمامه في القاهرة، وطالبه بضرورة الضغط على حاكم ناكسوس لإطلاق سراح جميع المصريين المحتجزين لديه، وحين أبلغه القنصل بأن لا سلطان للبندقية على ذلك الحاكم وأن الجزيرة خاضعة لجمهورية الأدرياتيكي اسمياً فقط، لم يقتنع السلطان بهذا الرد، وزج به في السجن كرهينة. ومرة أخرى في أخريات نفس القرن، استأجر بعض التجار المصريين سفناً بندقية أبحرت من الإسكندرية قاصدة المغرب، فمرت القافلة بجزيرة رودس اللاتينية فتعرضت السفن للسلب والنهب من الاسبتارية ويبدو أن ذلك تم بتحريض من القباطنة البنادقة. وبلغ السلطان الخبر، فانتقم من قنصل وتجار البندقية الموجودين بالإسكندرية، وصادر أموالهم وسجنهم[٣٤]. وأيا كانت جنسية القراصنة الذين يرتكبون الجريمة فكانت المسئولية تقع عادة على جاليات الفرنج عامة، ولكن كان الضرر الأكبر يصيب أعظم جالية موجودة في دولة المماليك وكانت بالطبع هي جالية البندقية. وهذا ما حدث في عهد السلطان قايتباى حين خطف قرصان بروفنسالي تاجرين مسلمين وتوجه بهما إلى وكر القراصنة اللاتين في رودس حيث تم التحفظ عليهما لحسابه الخاص. ورداً على هذه الفعلة قبض السلطان على تجار البنادقة في كل من مصر والشام كوسيلة للضغط على جمهوريتهم لإجبارهم على التدخل لإطلاق سراح التاجرين المسلمين وتسليم القرصان للسلطان[٣٥].

هذا قليل من كثير من أمثلة عمليات القرصنة التي كان يقوم بها اللاتين ضد سفن أو موانىء المسلمين في شرق البحر المتوسط ووسائل الرد عليها من قبل المماليك. ومهما يكن من أمر فلم يكن من السهل عودة سياسة الوفاق بين المماليك والتجار الأجانب بعد انقطاعها . وقد تظل مبتورة لفترات غير قصيرة رغم احتياج كل طرف للآخر. لذا كان لابد من تدخل طرف ثالث لإعادة المياه إلى مجاريها وإصلاح العلاقات بينهما. ولما كان التجار هم الفئة المتضررة في المقام الأول، فإنه كان من الضروري سعيهم بسرعة وإصرار لإعادة سياسة الوفاق بين الطرفين، كثيراً ما كانوا يقومون بدور الوسيط أو السفير لتلك المهمة الشاقة ، فيقع الاختيار على أحد التجار المرموقين وتكون له مكانة لدى الطرفين. وجدير بالذكر أن هؤلاء التجار الغربيين الذين كانوا يكلفون بتلك المهمة كانوا يخرجون من تلك الصفقة بمكاسب مادية كبيرة

يعوضون بها خسائرهم من السلع والأموال التى كان يستولى عليها المماليك فى مناسبات مختلفة. فكانوا يزيدون مبالغ تعوض خسارتهم فوق الفدية التى كانوا يدفعونها للقراصنة لفك أسر المسلمين، ثم يقومون بتحصيل المبالغ كاملة من المماليك دون علم هؤلاء بألاعيب الوسطاء الغربيين[٣٦]. ومن الشخصيات الهامة التى كان لها دور فعال فى المفاوضات بين طرفى النزاع كان التاجر البندقى السكندرى «بيلوتى- Piloti» الذى نجح فى إعادة العلاقات بين البندقية ودولة المماليك وكانت قد انقطعت بسبب فعلة القرصان القطلانى «بيير دى لاروندا»[٣٧].

وهناك مثال آخر لرجل اقتصاد فرنسى مرموق وهو «جاك كير[٣٨] Jacques Coeur» الذى عالج بحكمة الموقف المتدهور بين السلطان چقمق والتجار الأجانب بعد فشل الأول فى حملاته الثلاث على رودس للرد على غارات القراصنة على سواحله ، والتى كلفته الكثير من المال والرجال. فصب غضبه على التجار الأجانب فى مصر تطبيقًا لمبدأ المسئولية الجماعية كعادة حكومة المماليك وفرض غرامة مالية كبيرة عليهم لتغطية خسارته المادية. وخوفًا من تمادى السلطان فى الانتقام، تدخل چاك كير هذا بين الطرفين، واستطاع إتمام عقد الصلح بين چقمق وأصحاب رودس من الإسبتارية. وجدير بالذكر أن التواجد الفرنسى بدأ يأخذ شكلاً واضحًا متميزًا فى مصر فى أخريات حكم المماليك، بعد أن ضاق هؤلاء بالبندقية ، صاحبة أكبر جالية أو أفضل مكانة فى مصر، وسياستها ذات الوجهين. فاستغل قنصل فرنسا بالإسكندرية «فيليب دى بيرتز- Philippe de Peretz » تلك الظروف وأقنع السلطان الغورى بإمكانية لويس الثانى عشر ملك فرنسا مساعدته فى إعادة سفن مصر التى كان قد استولى عليها الاسبتارية فى خليج إياس[٣٩]. لم يكن التجار المسيحيون الغربيون هم وحدهم الذين يلعبون دور الوسيط فى تلك المفاوضات لفك أسر رعايا المماليك أو المسلمين عامة لدى القراصنة. إذ يشير ابن حجر العسقلانى فى أحداث عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) فى عصر السلطان برقوق بتدخل أحد التجار المسلمين وهو «الخواجا على» للقيام بمهمة إعادة التجار المصريين الذين كانت قد أسرتهم جماعة من قراصنة جنوة أثناء الصراع البندقى الجنوى»[٤٠]. على أية حال فإن تلك المهمة التى يقوم بها التجار لم تكن جديدة عليهم فى تلك الفترة، فقد أشارت المصادر أثناء التواجد الصليبى فى إمارات الساحل الشامى، عن تقدم تجار مسلمين أمثال «نصر بن قوام» و«أبا الدر ياقوت» وهما من دمشق ببذل أموال لافتكاك الأسرى المغاربة المسلمين من أيدى الصليبيين»[٤١].

* * *

وكيفما كان الأمر فإن القرصنة اللاتينية ضد مصالح المماليك فى شرق البحر المتوسط كانت إحدى الوسائل العسكرية التى شرعتها البابوية بطريق غير مباشر حين كلفت الرهبان العسكريين بمراقبة سفن التجار الغربيين التى تتجه لسواحل المسلمين، والنيل منها، مما شجع المغامرين اللاتين على التمادى فى القرصنة ضد المسلمين باسم الصليب والحرب المقدسة لحسابهم الخاص. وظلت تلك العمليات منتشرة فى شرق البحر المتوسط يمارسها اللاتين طالما لم يكن فى إمكانهم مواجهة قوة المماليك العسكرية فى حملة تقليدية جامعة، وقد صدهم المماليك بطرق شتى سواء بإقامة الاستحكامات العسكرية والقلاع أو التصدى لهجماتهم على سواحل دولتهم أو بالخروج فى تجريدات بحرية عسكرية على أوكارهم فى جزر البحر المتوسط ، كان منها ما ينجح ومنها ما يفشل ، لذا كان حكام المماليك ينتقمون لدولتهم بتطبيق مبدأ المسئولية الجماعية على التجار الأجانب فصادروا سلعهم وأموالهم فى موانئ مصر والشام وزجوا بهم فى السجون إلى أن يتم التدخل من قبل بعض الوسطاء لإعادة سياسة الوفاق بين المماليك والتجار الغربيين. ومع ذلك ظل القراصنة يستنزفون موارد مصر، خاصة بعد أن أحكم الغرب الحصار الاقتصادى عليها من الشمال والجنوب، وهزمت أمام أسطول البرتغال فى البحار الشرقية، وأصبحت فريسة سهلة المنال للجيش العثمانى فى عام ١٥١٦م ثم ١٥١٧ ، لتسقط دولة المماليك المستقلة وتصبح مصر ولاية تدور فى فلك الدولة العثمانية .

الهوامش

١- Burns , R. I., Moslems, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia , Camb., 1986 , p. 109 .

٢- Depping , G.B., Hist Du Com. Entre le Levant et L'Europe, T.II, Paris, 1830, pp. 172-173 .

٣- Heyd. W., Hist Du Com. Du Levant, T.II, Leipzig, 1886, p. 27 .

٤- Depping, Op. cit., T.II, p. 176 .

٥- Ibid., pp. 188-189 .

٦- المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج١، القاهرة، ١٣٦٧-١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص٣٠٠-٣٠٥ ؛ Heyd, Op. cit., p. 25

٧- Ibid., p. 28 .

٨- ورث فرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية نشاط الداوية في قبرص، وبعد سقوط تلك الجزيرة في أيدي المماليك انتقلوا إلى رودس.

٩- Ibid., p. 29 .

١٠- Jorga, N., Philippe de Méziéres, Paris, 1896, pp. 410-411 .

١١- أحمد دراج: المماليك والفرنج ، القاهرة، ١٩٦١، ص٩ .

١٢- أحمد مختار العبادي: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص٢٠٦ .

١٣- أحمد دراج : المرجع السابق، ص٩ ؛ انظر أيضاً:

Heyd, Op. cit., II, p. 472 ; Jorga, N., Rhodes sous les Hospitaliers, extrait de la Revue Historique, T. VIII, Paris- Bucarest, 1931 , pp. 102-103, 176 .

١٤- راجع ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأنباء العمر، مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٤٧٦ تاريخ ، ج١، ورقة ١٩٩، ٢٤٤، ٥٧٩، ٦٢٩، ٦٣٠ ؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوطة بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ ، لوحة ١٩٦، ١٩٧، ٤٣٠؛ راجع أيضاً : Coville, A., France: Armagnacs and Burgundians, in Camb. Medieval Hist., vol VII, Camb., 1932 , p. 376.

١٥- حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، ١٩٦٧، ص١٥١ .

١٦- فليكس فابري ألماني جاء في عام ١٤٨٣م/ ٨٨٨هـ مع مجموعة من رفاقه لأداء الحج في بيت المقدس، ومر بمدن كثيرة في مصر ودون مشاهداته فيها .

١٧- Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture, Indiana, 1966, p. 184 .

١٨- ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق، ج٢، ورقة ١٥٥-١٩٦ .

١٩- نفس المصدر ، ج١ ، ورقة ٢٦٥ .

٢٠- حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق ، إسكندرية، ١٩٨٦، ص٧٨ .

٢١- Depping, Op. cit., T.I, p. 159 .

٢٢- عن هذه المقترحات انظر : Adae , G., de Modo Sarrace nos Extripandi, R.H.C.- Doc . Arm T.II, pp. 523-528; cf . also, Depping, Op. cit., T.II, pp. 194-195 .

٢٣- أحمد دراج : المرجع السابق، ص٢٢-٢٣؛ انظر أيضاً :
Ziada, M.M., the mamluk Conquest of Cyprus in the 15th cent., in Bul. of the fac. of Arts, Cairo Univ. vol. I, May 1933, p. 91 .

٢٤- أحمد دراج : نفس المرجع ، ص٥٣ .

٢٥- هذه الإقامة تعرف «بنصف مواطنة» وفيها تمنح حكومة المماليك بعض أفراد الجاليات الأجنبية الإقامة الدائمة في أراضيها ولكن دون أن يتمتعوا بحقوق المواطن المصري. أنظر:
Heyd, Op. cit. T. II, p. 473 .

٢٦- أحمد دراج : نفس المرجع، ص٢٨ .

٢٧- Ibid., T.II, p. 486 .

٢٨- Loc. cit .

٢٩- Mas Latrie , M. L. de , Hist. De l'Ile de Chypre, T.III, Paris, 1855, pp. 402-403 .

٣٠- Heyd, Op. cit., II, p. 486 .

٣١- Ibid, II, p. 433 .

٣٢- النويري السكندري: الإلمام، ج١ ، حيدر أباد، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣٢٦-٣٣٥؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ورقة ١٧٧ .

٣٣- النويري السكندري: المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٦ .

٣٤- Ibid., II, p. 455 .

٣٥- Ibid., II, p. 496 .

٣٦- أحمد دراج: المرجع السابق، ص٢٦ .

٣٧- Dopp, un Corsaire du 15[e] Siécle, Bul. of the fac. of Arts, Cairo Uni., vol XI, part II, 1949, pp. 10-12, 17-18 .

٣٨- عن شخصية چاك كير أنظر : Pirenne, H., Cohen, G., Focillon , H., la Civilisation Occ. au Moyen Age , Paris, 1941, pp. 184-185, 549-550 note 4 ; Brinton, C., Christopher, J., Wolff, R., Ahist. of Civilisation, vol . I, 3rd ed. New Jersey, 1967 , p. 417 ; Hoyt, R.S., Chodorow, St. Europe in the Middle Ages, 3rd ed., New York, 1967, pp. 638-639.

٣٩- أحمد دراج : المرجع السابق، ص١٤٩ .

٤٠- ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ورقة ٢٦٥ .

٤١- ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، كتاب التحرير عن طبعة جيب، القاهرة ، ص٢١٤-٢١٥ .

د. نورة محمد التويجرى *

دعوة التوحيد وأثرها فى تغيير مجرى السياسة فى الدولة الإسلامية فى الأندلس

نجم عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التى أحاطت بالدولة الإسلامية فى الأندلس فى ظل حكم أمراء الطوائف أن ظهرت ما عرف فى التاريخ الأندلسى (بدعوة التوحد) التى قصد بها دعوة أمراء الطوائف وأبناء الدولة الإسلامية لتوحيد الصف وجمع الكلمة وتأليف القلوب ليكونوا جميعا يدا واحدة فى مواجهة الخطر المحيط بهم من قبل ملوك النصارى فى شمال الدولة الإسلامية فى الأندلس. وقد نادى بتلك الدعوة عدد كبير من أبناء الأندلس يمثلهم الفقهاء والعلماء والأدباء والقراء فى محاولة جادة منهم لإنقاذ الكيان الإسلامى من السقوط فى أيدى الأعداء الذين وجدوا فى ضعف الدولة الإسلامية وتفككها فرصة سانحة للعودة بها إلى نطاق العالم المسيحى مرة أخرى، وقد تمثلت هذه الأطماع النصرانية فى شن هجمات متكررة على دولة المسلمين بالأندلس. وازدادت هذه الهجمات وحشية وضراوة فى عهد ألفونس السادس ملك قشتالة. ومن الملاحظ أن هذه الدعوة لم تظهر من فراغ وإنما كان هناك عدد من الدوافع والمبررات التى أدت إلى قيامها.

---

* مدرس بكلية التربية بالرياض.

فمن هذه الدوافع:

أولا : سوء الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى الدولة الإسلامية فى الأندلس فى عهد أمراء الطوائف ، ومن ثم فقد قامت هذه الدعوة كنتيجة حتمية لهذه الأحوال السيئة التى كانت تمر بها البلاد والعباد[١].

ومن المعروف أن دول الطوائف بدأت تظهر على ساحة التاريخ الأندلسى الإسلامى منذ انهيار الدولة العامرية [٢]، وعلى وجه التحديد فى عهد آخر أمرائها عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر، الملقب بشنجول فى بداية عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م والذى لقى مصرعه على يد الخليفة محمد بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر[٣] بسبب تقربه من الخليفة هشام بن الحكم وإقناعه بإسناد الخلافة إليه من بعده ، فنزل الخليفة على رغبته وتم له ذلك.

وقد ذكر تلك الحادثة ابن عذارى نقلا عن ابن حيان بقوله : (فأطال الخلوة به، والتقرب منه حتى استدنى نسبه بالخؤولة ، إذ كانت أمهما بشكتيتين[٤] فقدرها عبد الرحمن بجهله قرابة، وسما بها إلى ميراث الخلافة[٥].

وقد أثارت تلك الحادثة غضب أمراء بنى أمية لأنهم رأوا فيها انتزاع الخلافة منهم وإسنادها إلى الأسرة العامرية. لذلك التف أمراء بنى أمية حول الأمير الأموى محمد بن هشام بن عبد الجبار وعينوه خليفة عليهم، وعملوا على تنحية الخليفة هشام بن الحكم من الخلافة.

وكان عهد الخليفة محمد بن هشام بداية لعهد الفوضى واختلال الأمن فى الأندلس[٦]، مما تسبب فى صراع مرير بين أمراء البيت الأموى، وبالتالى بين عناصر سكانها من العرب والبربر والصقالبة وأهالى قرطبة، وأدى ذلك إلى سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس فى عهد آخر خلفائها (هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر) (هشام الثالث) الملقب بالمعتد بالله (٤٢٠هـ) إذ قتل على أيدى العامة من أهل قرطبة[٧]، وتولى الأمر فى قرطبة أبو الحزم بن جهور[٨] بن محمد بن جهور. ومن هنا بدأ ظهور ما عرف فى تاريخ الدولة الإسلامية فى الأندلس بعصر أمراء الطوائف.

ولقد صور تلك الفترة فى تاريخ بنى أمية فى الأندلس المؤرخ ابن الخطيب بقوله : (ومشى البريد فى الأسواق والأرباض أن لايبقى أحد من بنى أمية ولايكتنفهم أحد)[٩].

وهكذا، أدى سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس وعدم وجود سلطان شرعى يوحد عناصر

السكان المتعددة الأصول فى ذلك القطر الإسلامى إلى انفصام عرى الوحدة وقيام ما عرف بدول الطوائف [١٠]، فانقسمت الدولة الإسلامية فى الأندلس إلى دويلات صغيرة تمثل العناصر السكانية فيها، واستقلت كل دولة بشؤونها ، وذلك على النحو التالى :

العنصر الأول وكان يمثله العرب الموالون للأمويين إذ ظهرت دولتان فى حوض النهر الكبير وهما دولة بنى جهور[١١] من موالى بنى أمية فى قرطبة ودولة بنى عباد[١٢] اللخميون فى إشبيلية [١٣]. والعنصر الثانى وكان يمثله البربر حيث ظهرت دولة بنى ذى النون[١٤] فى طليطلة[١٥] فى الثغر الأوسط، وينسبون إلى بربر هوارة [١٦]، ودولة بنى الأفطس[١٧] وينسبون إلى بربر مكناسة[١٨] وأسسوا دولتهم فى مدينة بطليوس[١٩] التى أصبحت عاصمة الثغر الأعلى ، ودولة بنى هود[٢٠] فى سرقسطة [٢١]ودولة بنى زيرى[٢٢] فى أقصى جنوب الأندلس فى غرناطة[٢٣]. وأما الصقالبة الذين خدموا بنى أمية فقد أصبح لهم نفوذ ومكانة فى قصورهم وأنشأوا لهم دويلات صغيرة فى شرق الأندلس[٢٥].

والواقع إن دولة المسلمين فى الأندلس غدت تضم أكثر من خمسين دولة[٢٦] تفاوتت فى المساحة والأهمية ، كما تفاوتت فى أعمارها ؛ فبعضها استمر قائماً لسنوات طويلة والبعض الآخر لم يتجاوز عمره السنوات الخمس[٢٧].

وبظهور دول الطوائف بدأت أسس الدولة الإسلامية فى الأندلس فى الانهيار والتصدع، وأصبحت تتألف من فرق متنازعة لاتربط بينها رابطة إخاء ولاتجمع بينها أواصر محبة أو مصالح مشتركة، بل ظهرت بينهم المنافسات الحادة نتيجة للأطماع الشخصية. وقد صور ابن الخطيب ذلك الوضع الذى أصبحت عليه الدولة الإسلامية فى الأندلس فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها بقوله: (وذهب أهل الأندلس فى الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم فى الخلافة إرث ، ولا فى الإمارة كسب، ولا فى الفروسية نسب، ولا فى شروط الإمامة مكتسب ، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار)[٢٨].

وعبر عن ذلك الوضع الشاعر الحسن بن رشيق[٢٩] بقوله:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر ... وذهب العين جميعا وانذثر
قام بكل بقعة مليك ... وصاح فى كل غصن ديك

وقد سلك كل أمير من أمراء الطوائف طرقا ملتوية لإضفاء صبغة شرعية على حكمه تتفق وصورة الخلافة[٣٠]. وأطلقوا على أنفسهم الألقاب والنعوت التى أطلقها الخلفاء فى المشرق وأمراء الطوائف فى المغرب على أنفسهم. وعبّر عن ذلك ابن حزم بقوله: (ثم رذل الأمر بالمشرق والمغرب جدا حتى تسمى بهذه الأسماء السماسرة من رذالات الناس)[٣١].

ومن الملاحظ أن أمراء الطوائف غلبت عليهم الذلة والمهانة أمام أعدائهم النصارى، خاصة أمام ألفونس السادس ملك قشتالة، الذى استغل ضعفهم وتفككهم وتناحرهم فيما بينهم فقام بابتزازهم وفرض عليهم إتاوة سنوية تدفع له مقابل ابقائهم على عروشهم وتحقيق أطماعهم فى القضاء على إخوانهم من أمراء ممالك الطوائف الأخرى[٣٢].

وقد أشار إلى ذلك ابن بسام نقلا عن الفقيه أبى بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة[٣٣] والذى صور مدى ما وصل إليه أمراء الطوائف من المهانة والذلة أمام أعدائهم النصارى بشىء من الألم والحسرة إذ قال: (وكاتب ملوك الروم مدة ملوك الطوائف بأفقنا، قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد. ودأب النصارى التسلط والعناد، حتى استصنعوا الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ، مما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة وإلى ما يتبعها من الهديات والنفقات)[٣٤]. أما عن علاقة أمراء الطوائف بعضهم ببعض فكانت يسودها الخوف والحذر والطمع، خوف الضعيف من اعتداء القوى والحذر منه، وطمع القوى فيما لدى الضعيف من ممتلكات ومحاولة ضمها إليه، مما دفع كثير منهم إلى عقد معاهدات صداقة وتحالف مع ملوك النصارى لتحقيق أطماعهم، مما يدل على عدم الانتماء الدينى الوطنى لدى كثير منهم من ذلك أن الأمير عبدالله بلقين ملك غرناطة تآمر مع ألفونس السادس ملك قشتالة وعقد معه معاهدة حلف وصداقة، تعهد فيها الأمير عبدالله بدفع جزية لألفونس تقدر بعشرين ألف دينار مقابل أن يمده ألفونس السادس بسرية من جنده يستخدمها الأمير عبدالله فى الإغارة على أراضى إشبيلية. واستطاع بهذه القوة من استرداد حصن (قبره)[٣٥] من بنى عباد وهو الحصن الواقع جنوبى غربى مدينة (جيان)[٣٦]. وكذلك تفويض المعتمد بن عباد لوزيره ابن عمار[٣٧] بعقد معاهدة مع ألفونس السادس ملك قشتالة يدفع بمقتضاها ألفونس السادس لابن عباد الجنود المرتزقة ليستعين بها ضد أعدائه من أمراء الطوائف ويتعهد له المعتمد بن عباد مقابل ذلك بدفع المال اللازم وبعدم اعتراضه على غزو مدينة طليطلة[٣٨].

وكان لذلك التصرف أثر كبير في نفوس أدباء ومؤرخي وأبناء الأندلس، وعبّر عن ذلك ابن حزم بشيء من اللوعة والحسرة بقوله : (أقسم بالله بأن هؤلاء الملوك لو علموا أن لعبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا إليها) إلى أن يقول (فنحن نراهم يستخدمون النصارى يمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسرى إلى بلادهم وربما أعطوهم المدن والقلاع فأخلوها عن الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه)(٣٩).

ولم تكن حالة التفكك والضياع التي نشأت كنتيجة حتمية للتنازع والتطاحن بين أمراء الطوائف قاصرة على هؤلاء الأمراء فقط، وإنما امتدت إلى أفراد الأسرة الواحدة كالحروب الأهلية القديمةالتي قامت بين المقتدر حاكم مملكة سرقسطة وإخوته الأربعة، والتي انتهت بتقسيم مملكة سرقسطة بينهم بعد أن استعان كل من هذين الأخوين بالنصارى للقضاء على الآخـــر(٤٠). وقد صور تلك الحالة ابن الخطيب بقوله : (وجعل الله بين أولئك الأمراء من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم من الله يد، ولانشأت على التعاضد عزم) (٤١). أما ابن حزم فقد وصف أمراء الطوائف بأنهم (محاربون لله ولرسوله ، ساعين بالفساد في الأرض) وذلك عندما أجاب من استفتاه في أمرهم(٤٢).

أما الفقيه ابن عبد البر(٤٣) فربما قصد أمراء الطوائف عندما تحدث عن الخيل المعدة للجهاد وفضلها حيث قال : (إلا إذا كانت معدة للفتن وقتل المسلمين وسلبهم وتفرق جمعهم وتشريدهم عن أوطانهم ، فتلك خيل الشيطان وأربابها حزبه وفي مثلها ، والله أعلم)(٤٤).

وربما كان يقصد من وراء ذلك التنديد بالسياسة التي سار عليها أمراء الطوائف والتي كانت قائمة على التشاحن والتطاحن فيما بينهم، وما يملكه كل منهم من قوة عسكرية هي في ظاهر أمرها معدة للدفاع عن الإسلام، ولكنها في حقيقة أمرها معدة للقضاء على إخوانهم المسلمين.

أما ابن حيان(٤٥) فقد تعرض للسياسة التي سار عليها أمراء الطوائف بقوله : (فلقد ركبت سنن من تقدمني فيما جمعته من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه، وأودعت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة، وأسباب كبار الأمراء المتنزين في البلاد عليهم، وسبب انتقاص دولهم) إلى أن يقول : (وما جرى في مددهم وأعصارهم من الحروب

الطوائل، والوقائع والملاحم إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان ووفاة العلماء والأشراف)[٤٦]. ووصف الفتنة التى أدت إلى قيام ممالك الطوائف بقوله: (هذه الفتنة البربرية الشنعاء المداهمة، المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة المغربة الشأن على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية)[٤٧].

أما عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة الإسلامية فى بلاد الأندلس فى ظل أمراء الطوائف فلم تكن أوفر حظًا من الحالة السياسية فى عهدهم ، إذ كان للحالة السياسية أثر كبير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والأمنية فى البلاد، وذلك من جراء التقلبات السياسية والحروب الأهلية المستمرة والمتواصلة بين الحكام الطوائف. ولعل أبلغ صورة لذلك الوضع الاجتماعى والاقتصادى هو ما ذكره الشاعر الأندلسى أبوطالب بن عبد الجبار[٤٨] بقوله:

ثم تمادت هذه الطوائف — تخلفهم من آلهم خوالف
فأهملوا البلاد والعباد — وعطلوا الثغور والجهاد
وزادهم فى الجهل والخذلان — أن ظاهروا عصابة الصلبان
فاستولت الروم على البلاد — واستعبدوا حرائر العباد
وفتكوا الرجال كيف شاءوا — وضاع دلو الدين والرشاد[٤٩]

أما ابن حزم فقد وصف تلك الحياة الاقتصادية المتردية فى ظل حكم أمراء الطوائف من جراء الضرائب الباهظة المرهقة للسكان بقوله : (والذى ترونه من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يفيضون على أهلها ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لاتبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم)[٥٠].

كذلك ندد ابن حزم بالأمور المستحدثة ، التى دخلت على أهالى الأندلس ولم تكن معروفة لديهم من قبل مثل إنهاكهم بالمغارم والضرائب التى أثقلت عواتقهم والتى كان لها أثر عظيم فى انحطاط الحياة الاقتصادية فى الأندلس بقوله : (والمغارم التى كان يقبضها السلاطين فإنما هى على الأرضين) إلى أن يقول (واليوم فإنما هى جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة

يؤدونها مشاهرة وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل، وعلى كل حليبة بشيء ، وقبالات تؤدى على كل ما يباع فى الأسواق، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد ، وهذا كله ما يقبضه المستغلون اليوم)[٥١]. ولعل ما ذكره الشاعر أبو حفص العروضى الزكرمى بأفريقية، مما قاله بالأندلس محتجاً على مطالبته بمكس كان يتولاه يهودي، يعطى صورة واضحة لذلك الوضع الاقتصادي المتردى فى ظل حكم أمراء الطوائف بالأندلس حيث قال:

يا أهل دانية لقد خالفتم ... حكم الشريعة والمروة فينا
مالى أراكم تأمرون بضد ما ... أمرت ترى نسخ الإله فينا
كنا نطالب لليهود بجزية ... وأرى اليهود بجزية طلبونا[٥٢]

وقد صور المؤرخ ابن عبد البر تلك الحالة التى كان يسير عليها أمراء الطوائف فى سياستهم فى الأندلس بشيء من النقد والإدانة مما أسهم فى إضعاف الحالة الاقتصادية بقوله : (كل من غلب على موضع ملكه استعبد أهله وكثر فيها الأمراء فضعفوا وصاروا خولا للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان المسلمون يأخذونه منهم)[٥٣]. كما يوضح تلك الصورة ما ذكره ابن بسام نقلا عن ذى الوزارتين الفقيه الكاتب أبوبكر عمر بن سليمان - المعروف بابن القصيرة- فى رسالة كتبها على لسان المعتمد بن عباد ، يخاطب بها القواد لتحصيل الأموال من الرعية، بالرغم مما أحاطهم من كوارث طبيعية حيث قال : (الحال مع العدو قصمه الله لاتحتاج إلى جلاء ولاكشف معروفة لاتفتقر إلى نعت ولاوصف) إلى أن يقول : (ووقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم إليه، ونستكف بها الشر الموهوب لديه، فكم حال كانت بخروجه تتلف ، ونعمة ما بأيدى طاغيته تنسف والرعية- أحطاها الله- فى هذا العام على ما تقتضيه ما عم بالبلاد من الفساد ، وشملها من جائحة القحط والجراد وتكليفها أداء شيء من المال) إلى أن يقول (فلقد أدرجت على رقعتى هذه عنذاقا تسمى الحذقة مثلك فيه ورسم على كل واحد منهم، ما توجبه الحال وتقتضيه فتقدم فيما نصصته فى الحال إليهم، وكلمهم ما يخفف الحال عندهم ويسهلها لديهم)[٥٤].

ولعل ما ذكره المقرى نقلا عن صاحب (مناهج الفكر) يعطى صورة واضحة لما كانت عليه الحال فى الأندلس فى ظل أمراء الطوائف حيث جاء فيما نقله (ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها فى سلك الإنقياد والوفاق إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه . فصار كل منهم

يشن الغارة على جاره ويحاربه فى عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو فى الدين يعادى، ويراوح معاقلهم بالعبث ويغادى، حتى لم يبق فى أيديهم منها إلا ما هو فى ضمان هدنة مقررة وأتاوة فى كل عام على الكبير والصغير مقررة، كان ذلك فى الكتاب مسطور وقدراً فى سابق علم الله مقدوراً(٥٥).

وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى السياسة التى اتبعها عبد الملك بن جهور مع رعاياه حيث بالغ فى الاستيلاء على أموال الناس وضمها إليه، وقد أشار ابن سهل لتلك الحادثة حيث ذكر أنه أقيمت عليه دعوى بذلك الشأن بعد سقوط دولة الجهاورة فحكم عليه برد المظالم إلى أهلها(٥٦). هذا فضلا عما كان عليه أمراء الطوائف من انحلال خلقى واجتماعى أثناء حكمهم فى الأندلس والذى كان نتيجة طبيعية لانصرافهم عن خالقهم وتهاونهم فى دينهم ، مما كانت له نتائجه الوخيمة على ذلك المجتمع . إذ مهد الطريق لأعدائهم النصارى للإطاحة بهم بعد أن اطلعوا على أوضاعهم المزرية، وأدركوا ما هم عليه من انحلال وفساد ، وهكذا زالت هيبتهم من نفوس أعدائهم ، وزادت رغبتهم فى القضاء عليهم. ولعل ما خاطب به السيد القمبيطور أهالى بلنسية أوضح دليل على ذلك، حيث جاء فى خطابه الذى وجهه لأهالى بلنسية قوله (من كانت له قضية عادلة فليأت إلى متى شاء وسأستمع إليه، فإنى لا أحتجب عنكم ولا أخلو إلى النساء والشراب والفساد كما كان يفعل أولو أموركم ما لم يمكنكم قط من رؤيتهم)(٥٧).

ثانيا : الهجمات المتواصلة والمتكررة من فرناندو الأول ابن سانشو الكبير ملك قشتالة على الدولة الإسلامية فى الأندلس منذ عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م، واحتلاله كثير من القلاع الإسلامية فيها. ذلك أنه قرر غزو مملكتهم وإخضاعها تحت سيادته ، فقام بغزو أراضى المظفر بن الأفطس فى بطليوس وعمل على تخريبها ، واستولى على عدد من مدنها، دون أن يصادف أية مقاومة من ملكها المظفر بن الأفطس الذى وقف عاجزا أمام تلك الحشود الهائلة من جيوش النصارى ، فلجأ إلى محاولة التوصل إلى حل سلمى مع (فرناندو الأول) وتعهد له بدفع ضريبة سنوية تبلغ خمسة آلاف دينار ذهبًا مع تبعيته التامة لملك قشتالة(٥٨) ثم توجه (فرناندو الأول) إلى سرقسطة التى كانت تابعة لابن هود فقام بغزوها وتدميرها، وصالح ابن هود على أساس التبعية التامة له مقابل الانسحاب من أراضيه. وبعد ذلك واصل سيره إلى طليطلة يحدوه ويدفعه الأمل فى إخضاعها لطاعته. وكانت تحت حكم المأمون بن ذى النون فعبر

حدودها، واحتل كثيراً من الحصون والقلاع الهامة التى تقع على الحدود مع أسبانيا النصرانية.

ولعل من العوامل التى جعلت أبناء الأندلس يذعنون لتلك الضربات غزو النورمان لمدينة بربشتر[٥٩] عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م فى عهد حاكمها المقتدر بن هود، إذ كانت تلك الغزوة من أعظم الكوارث والمحن التى حلت بدولة الإسلام فى الأندلس فى عهد أمراء الطوائف. وقد[٦٠] ذكرها ابن بسام نقلا عن ابن حيان قوله : (ولقد أنشينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة)[٦١] وأورد منها ابن بسام نقلا عن ابن حيان حوادث مؤلمة كحادثة القتل الجماعى الذى تعرض له أهالى مدينة بربشتر على أيدى النصارى وقطع المياه عنهم وأسر نسائهم وهتك أعـراضـهم[٦٢] ولعل السبب الرئيسى الذى يعتبر دفاعا قويا لظهور هذه الدعوة هو سقوط مدينة طليطلة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) على يد (الفونس السادس)[٦٣] ملك تشتالة[٦٤].

وهكذا فإن حركة الاسترداد التى قام بها ملوك النصارى اشتدت ضراوة فى عهد (الفونس السادس) الذى بعث هذه الحروب بين المسلمين والنصارى من جديد[٦٥] حيث باتت أطماعه تزداد شراهة فلم يعد يقتنع بأخذ الأموال من أمراء الطوائف، وإنما امتدت أطماعه إلى الحصون والمدن فى الأندلس، فأخذ يشن غارات مكثفة عليها. وكان إن ركز اهتمامه فى الاستيلاء على مدينة طليطلة ، فبدأ بمحاصرتها حتى سقطت فى يده عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. وصور ابن بسام تلك الحادثة التاريخية المؤلمة بقوله : (وعثا الطاغية (أدفونش) - قصمه الله- استقراره بطليطلة واستكبر بأمراء الطوائف فى الجزيرة وقصر وأخذ يتحنى ويتعتب ، وطفق يتشوق إلى انتزاع سلطانهم ، والفزع من شأنهم ويتسبب ورأوا أنهم وقفوا دون مداه، ودخلوا تحت عصاه)[٦٦].

وعبر ذو الوزارتين أبوبكر محمد سليمان عن استخفاف ألفونس السادس بأمراء الطوائف، فيما نقله عنه ابن بسام بقوله : (ولما كلب العدو فى ذلك التاريخ ، وأعضل داؤه ، وجعل يطأ بلاد المسلمين آمنا لايخاف ، وآنسا لايستوحش، مقدما لايقعى، ومجترئا لايرتدع ، ينزل بساحات القواعد الرفيعة، والقلاع المنيعة، فيعقب الآثار ويستبيح الدمار، ويهتك مصون الأستار ، ورمت لها الأنوف ، واستعذبت معها الحتوف ، وحميت منها النفوس الأبية، والعدو فى ذلك ثلج الفؤاد ، رابط الجأش لايرقب سنان دافع ولايبدو له سنان سيف مدافع، لأن أكثر ملوك هذا الإقليم كانوا يداخلون ملوك الروم)[٦٧].

وكان لسقوط مدينة طليطلة على يد (ألفونس السادس) أسوأ الأثر في نفس أبناء الدولة الإسلامية في الأندلس، فعبروا عن تلك المأساة ومدى تأثرهم بها في انتاجهم الفكري والأدبي ومن ذلك على سبيل المثال قول الشاعر عبدالله بن فرج الطليطلي المشهور بابن العسال[٦٨]:

حثوا رحالكم يا أهل الأندلس   فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى   سلك الجزيرة منثورا من الوسط

ونحن بين عدو لايفارقنا   كيف الحياة مع الحيات في السفط[٦٩]

كذلك عبر عن هذه الحادثة شاعر مجهول من أبناء الأندلس بقوله:

ثكلتك كيف تبتسم الثغور   سرورا بعدما سبيت ثغور

لقد قصمت ظهور حين قالوا   أمير الكافرين له ظهور

مساجدها كنائس أي قلب   على هذا يقر ولايطير

فيا أسفاه يا أسفاه حزنا   يكرر ما تكررت الدهور[٧٠]

وقال آخر :

ألم تروا فيلق الكفار فرزنه [٧١]   وشاهنا آخر الأبيات شهمات[٧٢]

وصاحب سقوط طليطلة سقوط عدد كبير من المدن والحصون المحيطة بها، والتي قدرت بثمانين وحدة من أهمها مدينة بلنسية [٧٣]، التي صور مأساة سقوطها الشاعر البلنسي المعاصر أبو اسحاق بن خفاجة[٧٤] بقوله :

عاثت بساحتك الضبا يا دار   ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردى في جنابك ناظر   طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها   وتمخضت بخرابها الأقدار[٧٥]

وهكذا .. كان سقوط مدينة طليطلة في يد (ألفونس السادس) وما يتبعها من سقوط مدن وقلاع وثغور سببا جوهريا للمناداة بدعوة التوحد بكل جد وحماسة من قبل أبناء الأندلس كافة، كما كان لها أثر كبير في استيقاظ أمراء الطوائف من غفلتهم وتخليهم عن أنانيتهم ، وذلك بعد أن أدركوا مدى خطورة هذا الأمر عليهم وأنه نتيجة حتمية لحالة التنازع والتناحر فيما بينهم، والتي سار عليها ساستهم، فكانت تلك الحادثة بمثابة الدافع المحرك لتقارب أهوائهم واتفاق آرائهم واتحاد مصالحهم، وخاصة بعد أن رأوا أن (ألفونس السادس) ملك

قشتالة قد تمادى فى طغيانه بعد سقوط مدينة طليطلة ، فامتدت أطماعه إلى الاستيلاء على مدن الأندلس كافة وكان أن بدأ بتهديد المعتمد بن عباد حاكم مدينة أشبيلية وقرطبة ، وأنذره بمهاجمة مدينة قرطبة إذا هو لم يسلم جميع حصونها التى على الجبل له، كما رفض الجزية التى كان يقدمها له المعتمد بن عباد[٧٦] وعندما سمع مشايخ قرطبة بذلك التهديد، أثر ذلك التعنت والتسلط من قبل الفونس السادس فى نفوسهم ، فاجتمعوا للتباحث والتشاور فيما بينهم، واتفقوا على الاستنجاد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

القائمون بالدعوة وجهودهم فيها:

وهكذا كان لهذه الأحداث والظروف السيئة التى أحاطت بالدولة الإسلامية فى الأندلس أثر كبير فى ظهور دعوة التوحد التى نادى بها كثير من أبناء الأندلس على مختلف طبقاتهم، وذلك بعد أن أدركوا مدى الخطر المحيط بدينهم ودولتهم فى الأندلس. وقد انبثقت دعوتهم هذه عن محاولة جادة منهم فى سبيل إنقاذ دولتهم من الأطماع النصرانية ، التى وجدت فى تفككها وضعفها وتخاذل أمرائها فرصة سانحة لإعادتها إلى أملاك الدولة النصرانية مرة أخرى[٧٧].

وقام بهذه الدعوة عدد من أبناء الأندلس تحدوهم إلى ذلك غيرتهم على دينهم وأمتهم ، فظهرت مشاركتهم فى هذه الدعوة بأشكال وأساليب مختلفة ، كالنصح والإرشاد فى رسالة موجهة إلى أمراء الطوائف ، أو كلمة للبيان الوصفى للحال التى وصلت إليها دولتهم بشىء من التذمر والأسى على تلك الحال لتخاذل أمرائها أمام أعدائهم النصارى[٧٨].

وكانت الدعوة إلى التوحد شعوراً صادقاً من قبل هؤلاء الدعاة موجها إلى أمراء الطوائف داعين إياهم إلى توحيد الصف وجمع الكلمة ونبذ الفرقة[٧٩] حيث أن ذلك هو الدواء الفعال لذلك الداء الذى ظل ملازماً لدولتهم طيلة فترة حكم أمراء الطوائف .

ومن أبرز هؤلاء الدعاة الذين كانت لهم جهود فعالة فى دعوة التوحد هذه ، القاضى أبو الوليد الباجى [٨٠]. ولعله أول من ابتدر هذه الدعوة ونادى بها، وذلك بعد عودته من رحلته العلمية إلى بلاد المشرق الإسلامى، والتى امتدت ما يقارب الثلاثة عشر سنة - ٤٢٦هـ/ ٤٤٠هـ[٨١]- وقد بدأ دعوته لتوحيد الصف وجمع الكلمة بالتردد على مدن المشرق الأندلسى سرقسطة، وبلنسية[٨٢] ومرسية[٨٣] ودانية[٨٤] ناصحا وواعظا لأمراء الطوائف ، داعيا إياهم لنبذ الفرقة والتشاحن ، حاثا إياهم على التوحد والائتلاف فيما بينهم.

وقد ذكر ذلك القاضي عياض عندما تحدث عن سيرته الذاتية ، معللا سبب قدومه إلى مدينة المرية أنه كان سفيرا بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام ويدعوهم إلى جمع كلمتهم مع جنود المغرب والمرابطين ، ولكنه توفى رحمه الله قبل أن يتم مهمته[٨٥].

ولم تكن مهمة أبي الوليد الباجي مقتصرة على أمراء الطوائف فقط، بل شملت أبناء الأندلس عامة، وذلك من خلال لقائه بهم وإقرائه لهم وتدريسه لهم في مساجد مدن الأندلس المختلفة. ولعله زاد تحمسا لهذه الدعوة وإصرار على إظهارها وإنجاحها بعد أن تولى القضاء في مدن مختلفة من الأندلس واشتغل بالتدريس فعرف واشتهر بمكانته العلمية[٨٦]. وقد أشار إلى جهوده المثمرة في تلك الدعوة القاضي عياض فقال عنه : (وكان يصحب الرؤساء ويرسل بينهم ، ويقبل جوائزهم، وهم له في غاية البر)[٨٧] كما أشار إلى جهوده أيضا ابن بسام مبينا دوره كناصح ومرشد لأمراء الطوائف فقال عنه : (ثم نازعه هوى نفسه إلى مسقط رأسه، ومنبت غرسه من أرض الأندلس، فورد وعشب بلادها وناب وظفر) إلى أن يقول (وملوكها أضداد وهواء أهلها ضغائن وأحقاد ، وعزائمهم في الأرض فساد وإفساد، فاسق على ما ضيعه وندم لو أجدى عليه ذلك أو نفعه ، على أنه لأول قدومه رفع صوته بالاحتساب ، ومشى بين أمراء أهل الجزيرة بصلة ما أنبت من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن من آل فرعون لو صادف أسماعًا واعية، بل نفخ في عظام ناخرة ، وعكف على أطلال دائرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه بالتأنيس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، ما كان أفطن الفقيه- رحمه - الله- بأمورهم، وأعلمهم بتقديرهم ، لكنه كان يرجو حالا تثوب ومذنبا يتوب)[٨٨].

ومن المرجح أن يكون للمؤرخ الأندلسي ابن حيان دور في تلك الدعوة كناصح وواعظ لأمراء الطوائف ، بعد أن آلمه ذلك الوضع السيء الذي كانت تمر به الدولة الإسلامية في الأندلس أثناء حكم أمراء الطوائف لها، حيث ذكر ذلك بقوله : (فركبت سنن من تقدمني فيما جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ونظمته وكشفت عنه، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة وسياستهم المنفرة، وأسباب كبار الأمراء المنتزين[٨٩] في البلاد عليهم) كما ذكر بشيء من الألم والحسرة عند تحدثه عن سقوط مدينة بربشتر الحالة التي وصلت إليها الدولة الإسلامية ورعاياها المسلمين في ظل حكم هؤلاء الأمراء ووصفهم بقوله : (أمراء الفرقة والهمل، القاسطون قد نكبوا منهج الطريق، ذيادا عن الجماعة وحوشا إلى الفرقة)[٩٠]

ويتضح دوره في هذه الدعوة بقوله : (ولا أشد ما أفتينا عند أولي الألباب ما أخفيناه من داء التقاطع . وقد أخذنا بالتواصل والألفة وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لامحالة)(٩١).

كما استمر في التعرض لأمراء الطوائف بشيء من الذم والانتقاد محملا إياهم مسؤولية ما حل ببلادهم من المصائب والمحن، بسبب انصرافهم عن خالقهم ودينهم، إلى جانب انتقاده إياهم لتجاهلهم وتغافلهم عن رعيتهم بقوله : (إنهم يعللون أنفسهم بالباطل . وإن من أكبر الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ويستقرى بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرفا ويبيد أمة . ومن لدينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم نهاة عن بثهم) إلى أن يقول : (حتى كأنهم ليسوا منا بثقفهم، وليس بفض إلينا، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء. عجائب فاتت التقدير، وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور، وإليه المصير)(٩٢).

واستمر ابن حيان في انتقاده لأمراء الطوائف بعد حادثة سقوط مدينة بربشتر في يد النصارى فقال: (ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء إن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الغراء في بربشتر إلا الفزع في حفر الخنادق وتعلية الأسوار وشد الأركان وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوء السوءاء. من إلقائهم (يومئذ) بأيديهم إليهم أمور قبيحات الصور مؤذنات الصدور بأعجاز تحل الغير.

أمــور لو تدبرهـــا حكيــم إذا لنهى وهيب ما استطاعا(٩٣)

ويبدو أن للمؤرخ الفيلسوف ابن حزم دورا في هذه الدعوة أيضا، الأمر الذي يتضح من مخاطبته لأمراء الطوائف محذرا إياهم من المقربين لديهم من الفقهاء الذين يزينون لهم أخطاءهم بغرض التقرب منهم حيث خاطبهم بقوله : (فلاتغالطوا أنفسكم، ولايغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم) (٩٤). كما خاطبهم بقول الله سبحانه وتعالى : (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا)(٩٥) مبينا لهم أهمية الوحدة والائتلاف وبقوله تعالى : (ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (٩٦).

وقد عبر عن الألم والمرارة التي يعانيها من جراء سياسة أمراء الطوائف والتي تقوم على الفرقة والتشاحن . في رسالة جوابية ردا على رسالة وردت إليه، مبينا فيها جهوده في تلك

الدعوة ، جاء فيها: (ورد كتابك على ما أمر الله به من الألفة والتقاء الكلمة، وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة، فى هذه الجزيرة المنقطعة عن الجماعة فالله رأيك الأصيل ، وسعيك الجميل، ومذهبك الكريم ، ووعيك السليم، ما أصدق قلبك ، وأهدى دليلك ، وأوضح فى سبيل البر سبيلك ، وقد كنت- علم الله - جانحا إلى ما اجتمعت إليه، ويلوح لى ما يلوح إليك من أنا على صرف إلا ما كفى الله، وعلى قلة إلا ما بقى الله)(٩٧).

وإذا كانت هناك جلة من العلماء والفقهاء من أبناء الأندلس الذين عايشوا تلك الفترة، فمن المحتمل أن يكون لهم دور فى هذه الدعوة. يتضح ذلك من خلال ما ذكر عنهم فى سيرهم الذاتية، حيث ذكر أنهم اتصفوا بالعدل والنزاهة وقول الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن المستبعد أن يقف هؤلاء العلماء والفقهاء من تلك الأحداث المؤلمة التى كانت تعصف بدولتهم الإسلامية فى الأندلس موقف المتفرج، وأن يتخذوا موقفا سلبيا من هذه الأحداث دون أن يساهموا فى إصلاحها ، بما يمليه عليهم ضميرهم ومسؤوليتهم أمام الله، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)(٩٨).

ولعل مشاركتهم فى تلك الدعوة كانت عن طريق الوعظ والنصح لأمراء الأندلس بالتكاتف والائتلاف ونبذ التشاحن والتطاحن وبث الفرقة فيما بينهم ، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيه الواعظ أبو محمد عبدالله ابن الفقيه أبى عبدالله عمر بن عبد البر النمرى - كما سبق وذكرناه فى موضعه- والذى جاء فى رسالة له على لسان أهالى مدينة بربشتر بعد سقوطها فى يد النصارى محذرا أمراء الطوائف من عاقبة غفلتهم وتخاذلهم مبينا لهم فضل التلاحم والترابط فيما بينهم قوله: (ولو كان شملنا منتظما ، وشعبنا ملتئما وكنا كالجوارح فى الجسد اشتباكا ، وكالأنامل واليد اشتراكا، لما طاش لنا سهم ولاسقط لنا نجم، ولا ذل لنا حزب ولا فل لنا غرب، ولا ورع لنا سرب ، ولا كدر لنا شرب، وكنا عليهم ظاهرين إلى يوم الدين، فالحذر الحذر فإنه رأس النظر، من بركان يتطاير منه شرر وملهب وطوفان تساقط منه خطر مرهب ، فلما يؤمن من هذا إحراق ومن ذلك إغراق ، فتنبهوا قبل أن تنبهوا، وقاتلوهم فى أطرافهم قبل أن يقاتلوكم فى أكنافكم، وجاهدوا فى ثغورهم قبل أن يجاهدوكم فى دوركم ففينا متعظ لمن اتعظ وعبرة لمن اعتبر)(٩٩).

كذلك تضمنت رسالته هذه دعوة أمراء الطوائف لأن يكونوا صفا واحد ضد أطماع أعدائهم النصارى، ، حيث عبر عن ذلك بقوله : (وننبئكم يا معشر المسلمين ببعض ما نبأنا من ثغورنا

عسى أن تكونوا سببا في نصرتنا ، فالمؤمنون إخوة والمسلمون لحمة ، والمرء كثير بأخويه، وإلى أمه يلجأ اللهفان، وإلى الصوارم تقرع الأقران، والسعيد واعظ غيره، والشقي من عميت عيناه وصمت عن المواعظ أذناه). وفي فصل من رسالته هذه يحث المسلمين على الجهاد والعمل على حفظ دينهم ودولتهم من أطماع المتربصين بهم من النصارى، مبينا لهم ما حل بالإسلام والمسلمين من أذى ومهانة على يد أعدائهم النصارى قوله (وما أظنكم معشر المسلمين وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن وحلاوة الأذان، مطبقة بالشرك والبهتان مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا عن شيعة الرحمن (والأئمة والمتدينين) والقومة والمؤذنين يجرهم الأعلاج كما تجر الذبائح إلى الذابح ، يكبون على وجوههم في المساجد صاغرين واضرمت عليهم نار حتى صاروا رمادا، والكفر يضحك وينكي والدين ينوح ويبكي) ثم يعبر عما به من ألم وحسرة على تلك الحالة التي وصل إليها المسلمون بقوله : (فيا ويلاه ويا ذلاه، ويا كرباه، ويا قرآناه ويا محمداه ، ألا ترى ما حل بحملة القرآن وحفظة الإيمان) ثم يعود لمخاطبة المسلمين بما فيهم أمراء الطوائف حاثا إياهم على الجهاد مبينا فضله داعيا إياهم على العمل لإنقاذ الدين والدولة بقوله : (وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد في غير ما آية من الكتاب يضيق عن نصها الكتاب إلى أن يقول : (فالله الله في إجابة داعينا وتلبية منادينا قبل أن تصدع صفاتنا كصدع الزجاج، فهناك لاينفع العلاج)[١٠٠].

كذلك كان للقاضي أبوعبدالله محمد بن عتاب بن محسن[١٠١] من أهل قرطبة والذي تفقه على يديه الكثير من أبناء الأندلس دور في هذه الدعوة، وأعرض عن دعوة ابن الأفطس وابن صمادج وابن هود للاشتغال في دواوينهم أو تقلد القضاء في عهدهم حيث كتب لهم ردا على دعوتهم إياه (تركت ذلك لله) [١٠٢].

ويبدو أن للفقيه أبو المطرف عبد الرحمن بن سلمة[١٠٣] - فقيه طليطلة- دور في هذه الدعوة حيث يتضح من ترجمة سيرته الذاتية أنه كان منكرا لسياسة التزييف والمداهنة التي كان يسير عليها فقهاء بلده لأمراء الطوائف. وقد حدث الناس فسمعوا منه، وكان خروجه من مدينة طليطلة، بعد أن استولى عليها النصارى. كذلك من المرجح أن يكون للقاضي أبي الوليد الوقشي[١٠٤] دور في هذه الدعوة حيث كان في طليطلة في أواسط القرن الخامس الهجري، وكان موجودا في مدينة بلنسية في رجب سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م. كذلك يرجح أن يكون للفقيه الزاهد بن أبي زندقة أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي دور في هذه الدعوة حيث تلقى علومه على يد القاضي أبي الوليد الباجي بسرقسطة، وأيضا على يد أبي محمد بن حزم

بإشبيلية ، ووافق الإمام القليعي قاضي غرناطة في فتواه بخلع أمراء الطوائف ، ثم رحل إلى المشرق واشتهر بزهده في الدنيا وقوله الحق(١٠٥).

ومن المحتمل أن يكون للقاضي الفقيه أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضي الجماعة بقرطبة دور في هذه الدعوة إذ أنه اشتهر بتعلمه وتفقهه في الدين، ومحبة الناس له، واللجوء إليه في كثير من أمورهم، وتقبل وعظه ونصحه(١٠٦) .

ويبدو أنه كانت للفقيه أبي المعالي ادريس بن يحيى بن يوسف من أهل إشبيلية ، جهود في هذه الدعوة وذلك من خلال ترحاله إلى عدد من مدن الأندلس، واعظا للناس وداعيا إياهم إلى التشاور والألفة (١٠٧) ، وقد اتخذ المسجد مركزا لنشاطه في هذه الدعوة (١٠٨).

ولعل للقاضي أبي بكر محمد بن أحمد بن حسن بن إسحاق بن عبدالله بن جعفر من أهل قرطبة دور في تلك الدعوة وذلك لما له من مكانة اجتماعية حيث أنه كان من بيت وزارة(١٠٩) مما جعله يحظى بتقدير أمراء الطوائف ، إضافة إلى اكتسابه مكانة مرموقة في الدولة حيث تجلت جهوده في الدعوة إلى إزالة الخلافات التي نشأت بين أمراء الطوائف أيام الفتنة(١١٠).

ويبدو أن للواعظ أبي عبدالله محمد بن سفيان بن إسحاق من أهل بلنسية وهو من تلاميذ الفقيه أبي بكر محمد بن أحمد بن إسحاق دور في هذه الدعوة حيث دعا إلى التآلف والتآزر واتخذ من مسجده والذي عرف باسم (الغلبة) في بلنسية مقرا لدعوته(١١١).

ومن الدعاة الذين لهم دور في محاولة جمع كلمة أمراء الطوائف وتوحيد صفوفهم كان ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة وقد كلفه المعتمد بن عباد مرات عديدة بالسفر إلى أمراء الطوائف والاتصال بهم ودعوتهم إلى التآلف ونبذ الفرقة بينهم، وكذلك للتشاور معهم في استدعاء يوسف بن تاشفين بعد أن أدرك مدى الخطر المحيط بهم من قبل ملوك النصارى (١١٢). كذلك من الدعاة الذين لهم دور في هذه الدعوة والذين حثوا على توحيد الصف وجمع الكلمة والجهاد في سبيل الله الوزير الكاتب أبي محمد بن الفقيه أبي عمر بن عبد البر النمري(١١٣) ففي فصل من رقعة كتبها ردا على رسالة وردته مستنكرا ما يحل بالمسلمين من أذى ونكد، قوله : (وتوضحت جميع تلك الأحوال التي وصفتها ، والأحداث التي قصصتها ، فأكبرت وقوعها ، ثم عرفت الأيام صروفها وصدوعها وتألمت لما يجري على المسلمين من نكد واضح، وتلف فادح) إلى أن يقول : (أما آن للنصر أن يقع، وللداء أن يشفى ؟ نظر الله لكل من واراهم مواضع الرشد من العقد والحل بمنه)(١١٤) كما عبر عن ألمه وحسرته في أحد رسائله على لسان أهالي مدينة بربشتر عندما غزاها النصارى

وذلك عندما بلغته الأخبار بتعدي النصارى على بعض المدن الإسلامية في الأندلس بقوله : (واتصل بنا أنه أباد الديار، في جميع الأمصار، والمسلمون بينهم سوام ترتع ، وأموالهم نهب يوزع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع، فأطال الفكرة في هذا الحزم الداخل، والبلاء الشامل، والله المرجو لكشف الغمة وتلافي الأمة (١١٥).

ولعل الفقيه أبي عبدالله محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصاري(١١٦) من أهل طرطوشه دور في هذه الدعوة ، وذلك لتجواله في أنحاء متعددة من الأندلس والعدوة ولما له من وجاهة وتقدير عند أمراء الطوائف(١١٧).

ومن المرجح أن يكون للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري(١١٨) دور في هذه الدعوة إذ كان قائما على الوعظ والإرشاد لأبناء الأندلس، يتضح ذلك من خلال ما ذكره عنه النباهي بقوله : (درس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، والتزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى أوذى في ذلك بذهاب كتبه وماله(١١٩).

كذلك يبدو أنه كانت للقاضي محمد بن سليمان المالقي(١٢٠) مساهمة في تلك الدعوة فقد تولى القضاء بمدينة مالقة مدة طويلة، فسار فيه بأجمل سيرة من العدل والنزاهة، وكان في مذهبه صلبا ورعا زاهدا متقنتا وأديبا. وقد روى عن أبي الوليد الباجي ومن شعره :

كان الزمان وكان الناس أشبهه فاليوم فوضى فلا دهر ولاناس
أسافل قد علت لم تعل من كرم ومشرفات الأعالي منه انكاس(١١٥)

كذلك كان للأدباء والشعراء في عصر أمراء الطوائف دور في هذه الدعوة إذ توفر في عصرهم من الأدب (شعره ونثره) إنتاج فكري يدعو إلى التوحد وجمع الصف ، ويحذر من مغبة النزاع والتناحر ، ويحث على الجهاد لإعلاء كلمة الله ونصرة الإسلام في الأندلس. أطلق على إنتاجهم إنتاج النكبات سواء المتأثر بهذه الأحداث والمتحسر عليها أو الداعي للتنبيه إلى مواطن الخطر لأخذ الحيطة وتجنب التنازع والتناحر ولاستعادة ما ضمر من الأوطان وسقط من الهيبة، وإزالة بؤس النكبة والذي يطلق عليه رثاء المدن أو الرثاء البلداني أو الرثاء السياسي(١٢٢) ، ومن الأدباء الذين ساهموا في هذه الدعوة بإنتاجهم الفكري الشاعر أبي حفص بن عمر بن حسن الهوزني (١٢٣). ومن شعره الذي يحض فيه المعتمد بن عباد على الجهاد عند ظهور الروم بشرق الأندلس بعد ألمه سقوط مدينة (بربشتر) سنة ٤٥٦هـ في يد النورمان قوله :

أعباد جل الرزء والقوم هجع على حالة من مثلها يتوقع

فلق كتابى من فراغك ساعة ... وإن طال فالموصوف للطول موضع

إذا لم أبث الداء رب دوائه ... أضعت وأهل للملام المضيع

فاستدعاه المعتمد وقام بقتله [١٢٤].

ومن شعره مستنفرا أهالي الأندلس للجهاد حاثا إياهم قوله :

بيت الشعر فلايستزل ... طرف التوام سمع أزل

فثبوا واخشوشنوا واحزئلوا ... كل ما رزء سوى الدين قل [١٢٥]

ومن إنتاجه الفكرى زيضا والذى يبدى فيه تحسره على ما أصاب بلاد المسلمين فى الأندلس من بلاء دون أن يحرك أمراء الطوائف ساكنا لإنقاذها قوله:

يا أسفاه للدين إذ ظل نهبه ... بأعيننا والمسلمون شهود

إلى أن يقول :

أعيذكم أن تدهنوا فيمسكم ... عقاب كما ذاق العقاب ثمود [١٢٦]

كذلك كان للشاعر أبى خلف السميسر [١٢٧] دور فى هذه الدعوة وذلك عندما دعا أمراء الطوائف إلى التكاتف والتعاضد ليكونوا صفا واحدا فى وجه العدو بدلا من تكاتفهم وتحالفهم مع العدو ضد بعضهم بعضا. ومن إنتاجه الفكرى الذى عبر فيه عن ألمه وحزنه لسقوط مدينة طليطلة قوله:

ناد الملوك وقل لهم ... ماذا الذى أحدثتم

أسلمتم الإسلام فى أيدى ... العدو وقعدتم

وجب القيام عليكم ... إذ بالنصارى قمتم

لاتنكروا شق العصا ... فعصى النبى شققتم [١٢٨]

وكان للشاعر أبى إسحاق إبراهيم بن مسعود الأبيرى من أهل غرناطة دور فى هذه الدعوة إذ كان من أهل العلم والعمل وشاعرا مبدعا، اختص شعره بالحكم والمواعظ [١٢٩]. ومن المرجح أن يكون للشاعر الغرناطى أبى إسحاق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبدالله بن خفاجة الأندلسى دور فى هذه الدعوة قد يكون قائما على النصح والإرشاد وذلك لإعراضه عن أمراء الطوائف فلم ينضم إلى أحد منهم رغم استمالتهم له لاعتراضه على طريقتهم وتصرفاتهم فى الحكم [١٣٠].

ومن المحتمل أن عددا من شعراء الأندلس أسهموا فى هذه الدعوة بإنتاجهم الشعرى، منهم على سبيل المثال أحد شعراء الأندلس المجهولين والذى انتقد سياسة أمراء الطوائف حيث كانت تقوم على الفرقة والتشاحن وموقفهم السلبى من نصرة الدين والدفاع عن الدولة فعبر عن ذلك الوضع بقوله:

وتفرقوا شيعا فكل محلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبرا

وقول الوزير الفقيه أبى حفص عمر الهوزنى:

صرح الشر فلا يستقل ... أن نهلتم جاءكم بعد غل
بدء ضعف الأرض نشىء وطل ... ورياح ثم غيم أبل
قد رجت عاد سحابا بهل ... فإذا ريح دبور محل
نتبوا فالداء رزء يحل ... واغمدوا سيفا عليكم يسل(١٣٢)

أما الشاعر عبدالله بن فرج اليحصبى(١٣٣) فكانت له إسهامات عظيمة فى مجال هذه الدعوة وهو تحذير أمراء الطوائف من المخاطر المحيطة بدولتهم وخاصة بعد سقوط مدينة طليطلة فى يد النصارى، ودعوتهم إلى التآلف والتآزر فيما بينهم محذرا إياهم من مغبة تخاذلهم أمام النصارى وتشاحنهم فيما بينهم حيث يقول :

يا أهل الأندلس حثو رحال مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منشورا من الوسط
ونحن بين عدو لايفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى سقط(١٣٤)

وقال شاعر آخر:

يا أهل أندلس ردوا المعار ... فما العرف عارية إلا مردات
ألم تروا بيلق الكفار فرزنة ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات(١٣٥)

أما الشاعر أبى الحسن بن الجد(١٣٦) فقد أنكر على أمراء الطوائف سياستهم والتى تقوم على السلبية المطلقة لدينهم ودولتهم محذرا إياهم من تلك السياسة وذلك بقوله :

أرى الملوك أصابتهم بأندلس ... دوائر السوء لاتبقى ولاتذر(١٣٧)

كذلك عبر عن ذلك الوضع المؤلم الذى كانت تمر به دولة الإسلام فى الأندلس فى ظل حكم أمراء الطوائف بقوله:

ألا رجـــلا لــــه رأى أصـيــــــل ... بـه مما نحـــاذر نـســتـجـيـــر
ويطعن بالقنــا الخطـــار حتـــى ... يقـول الرمح من هذا الخطيـــر[١٣٨]

ومن المرجح أن يكون للشاعر أبى طالب بن عبد الجبار[١٣٩] دور فى هذه الدعوة . ويتبين ذلك من خلال انتقاده وتذمره من السياسة التى كان يسير عليها أمراء الطوائف وما لاقاه أبناء هذه الدولة من ظلم ومهانة على يد النصارى من خلال حكمهم لهذه الدولة- كما سبق وأشرنا- حيث أورد ذلك بقوله :

ثم تمــادت هذه الطوائــــــف ... تخلفـــهم من آلهم خـــوالف
وأتت بديـــن الجـور والعـــدول ... إذ سلبت عــقــائل العــقــول
وأهملوا البـــلاد والعـبـــــاد ... وعطلوا الثـغــور والجـهـــاد

إلى أن يقول:

وزادهم فى الجـهـل والخـــــذلان ... أن ظاهروا عـصـابة الصلبان[١٤٠]

وشارك فى هذه الدعوة أيضا الشاعر أبو محمد بن عبدالله بن العسال الطليطلى[١٤١] وذلك بعد نكبة مدينة بربشتر (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) على يد النصارى حاثًا أمراء الطوائف على الائتلاف وجمع الصف وتوحيد الكلمة لدرء الخطر المحيط بهم[١٤٢].

كذلك من المرجح أن يكون للشاعر ابن خفاجة[١٤٣] دور فى هذه الدعوة - يتبين ذلك من القصيدة التى رثى بها مدينة بلنسية بعد سقوطها فى يد النصارى (سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) - كما سبق ذكره فى موضعه- والتى تبين مدى ألمه وحسرته على الحال التى وصلت إليها دولة الإسلام فى الأندلس فى تلك الحقبة من تاريخها ومطلعها :

عـــاثت بســاحـتك الظبـــا يا دار ... ومـحـــا مـحـــاسنك البلى والدار
فــإذا تردد فى جنابــــك ناظـــــر ... طال اعـتـبـار فـيك واسـتـعـبـار
أرض تقـــاذفت الخطوب بأهلهـــا ... وتمخـضت بخـرابهــا الأقـدار
كتبت يد الحدثان فى عـرصـاتها ... لا أنت أنت ولا الديـار ديــار[١٤٤]

النتائج التى أسفرت عنها دعوة التوحد:

أولا: كانت أول نتائج هذه الدعوة دخول الدولة الإسلامية فى الأندلس فى عهد جديد من عهود تاريخها بفضل الله سبحانه وتعالى ثم المرابطين والموحدين من بعدهم وهو عصر الدول الكبرى[١٤٥]. حيث كان لتلك الحوادث المؤلمة التى مرت بها الدولة الإسلامية فى عهد أمراء الطوائف وخاصة سقوط مدينة طليطلة على يد الفونس السادس ملك قشتالة، أن أدرك بعض من هؤلاء الأمراء مدى فداحة الخطر الذى يهدد ممالكهم فعقدوا مؤتمرا فيما بينهم حضره معظم أمراء الطوائف بالإضافة إلى قضاة مدينة قرطبة فأسفرت نتائج ذلك المؤتمر عن تكليف المعتمد بن عباد لقاضى مدينة قرطبة عبيدالله بن أدهم[١٤٦] بمقابلة واستدعاء يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين فى المغرب غير آبه بمشورة زعماء مدينة أشبيلية وولى عهده ابنه (الرشيد) الذين أشاروا عليه بمدارات الفونس السادس والامتثال لمطالبه وتنفيذ شروطه فذلك فى نظرهم أولى من الاستنجاد بالمرابطين إذ خاطبوه بقولهم (الملك عقيم والسيفان لايجتمعان بغمد واحد) فأجابهم بقوله (رعى الجمال ولارعى الخنازير)[١٤٧] وقد شاركه التحمس لهذه الدعوة المتوكل على الله عمر بن الأفطس حاكم مدينة بطليوس والذى تجلت جهوده مبكرة فى هذه الدعوة وذلك عندما كلف القاضى أبو الوليد الباجى بمهمة دعوة أمراء الطوائف ولجمع الصف وتوحيد الكلمة ضد أعدائهم ملوك النصارى فى شمال الدولة الإسلامية فى الأندلس وعبدالله بن بلقين صاحب مدينة غرناطة . فاستجاب يوسف بن تاشفين لتلك الدعوة ودخل الأندلس عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م[١٤٨]، وكان دخوله إليه على ثلاث مراحل، المرحلة الأولى دخلها مجاهدا فى سبيل الله بناء على استنجاد المسلمين له- كما فصلناه فى موضعه- فدخل مع النصارى فى معركة حاسمة فى التاريخ الإسلامى عرف باسم موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، وقد أحرز فيها الأمير يوسف بن تاشفين نصرا مؤزرا ملأ قلوب المسلمين عامة فرحا وعزة[١٤٩]، وبعدها غادر يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس عائدا إلى بلاد المغرب ، ثم دخلها للمرة الثانية عندما عاود الفونس السادس هجومه على دولة الإسلام فى الأندلس كتعويض للخسارة التى لحقت به بعد موقعة الزلاقة، أما دخول أمير المرابطين يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة فكان على أثر الأنباء التى وصلته بأن أمراء الطوائف استنجدوا بالنصارى لإنقاذهم من المرابطين وقاموا بدفع الجزية لهم من جديد كما فعل الأمير عبدالله بن بلقين حاكم مدينة غرناطة[١٥٠]، وكذلك استجابة من المراسلات والفتاوى من علماء الأندلس إلى جانب علماء المشرق لإنقاذها من أطماع النصارى وتخليصها من أمراء الطوائف[١٥١]. وكان يترأسهم فى ذلك قاضى مدينة غرناطة (ابن القليعى)[١٥٢] حيث ذهب إلى بلاد المغرب فاتصل بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأطلعه

على حقيقة الأمور وأفتى بخلع أمراء الطوائف [١٥٣]، وقد وافقه فى فتواه الإمام الغزالى[١٥٤] والقاضى أبوبكر الطرطوشى [١٥٥].

فتم بذلك دخول يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة للأندلس، فقام بخلع أمراء الطوائف وبسط نفوذه على بلاد الأندلس وإدخالها تحت طاعته ، وكان لدخول أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لبلاد الأندلس أثر كبير من الفرحة والاستبشار لدى أبناء الأندلس منهم الشاعر الأندلسى (ابن سارة الشنتريني)[١٥٦] حيث عبر عن استبشاره بدخول المرابطين إلى دولة الإسلام فى الأندلس لحمايتها من براثن النصرانية بقوله :

فى فـتـيـة بشرى إلى نصـر الهدى ... فنظنهم أسـد الدجـى أقـمـارهـا

خضبوا السـواعـد بالرقـاق تفـاؤلا ... إن سوف تخضب بالنجيع أشعارها

إلى أن يقول :

لم لا تراح شـريعـة التـقـوى بهم ... وجـفـونهم منا ترى أنصـارهـا

ضربوا سـرادق بأسـهم من دونهـا ... وقـد اشرأب الكفر بهدم ديارهـا

فرقوا بخرصـان الرمـاح جنابهـا ... وحموا بقضبان الصفاح دمارها[١٥٧]

ثانيـا : شكلت دولة الإسلام فى الأندلس فى عهد المرابطين وعلى يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وحدة متكاملة التأم على إثرها صدعها وجمع شملها واستعادت قوتها ومهابتها أمام أعدائها من النصارى.

ثالثـا: كانت هذه الدعوة سببا فى استمرار بقاء الدولة الإسلامية فى الأندلس، حيث استمر بقاؤها منذ دخول المرابطين إليها وحتى سقوط آخر معقل من معاقل المسلمين فى الأندلس، وهى مدينة غرناطة ، فى ظل محمد بن الأحمر مدة أربعة قرون[١٥٨] تصارع القوى المسيحية الساعية لإسقاطها.

رابعـا : دخلت الدولة الإسلامية فى الأندلس بفضل هذه الدعوة عهدا جديدا من النماء والتطور فى مختلف نواحي حياتها سواء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية، فى ظل حكم المرابطين لها والذى قارب خمسين عاما[١٥٩] وقد أشار إلى ذلك الإدريسى عندما تحدث عن مدينة المرية بقوله: (مدينة المرية كانت فى عهد الملثمين - ويقصد بهم المرابطين- مدينة الإسلام، وكان لها من الصناعات كل غريبة [١٦٠]. ولعل ما ذكره مؤرخو تلك الفترة دليل واضح على ما كانت تتمتع به بلاد الأندلس من أمن ورخاء فى عهد دولة المرابطين وقد

أشار إلى ذلك صاحب روض القرطاس «ابن زرع» بقوله: (وكانت أهل لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب ملكوا الأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربى المحيط ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة إلى جبال الذهب من بلاد السودان لم يجر فى عملهم طول أيامهم رسم مكروه معونة ولا خراج فى بادية وحضارة) إلى أن يقول: (وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل وأمن)(١٦١).

وأما القاضى أبوبكر بن العربى الإشبيلى(١٦٢) فقد ذكرهم بقوله (المرابطون قاموا بدعوة الحق، ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين ، الذابّون والمجاهدون دونهم(١٦٣)، مبينا بذلك دورهم فى حماية الدين والدولة . كما ذكر عنهم صاحب الحلل الموشية عندما تحدث عن يوسف بن تاشفين قوله (إذ قامت بلاد الأندلس فى مدته سعيدة وجميلة فى رفاهية وعيش على أحسن حال)(١٦٤).

خامسا: استعادت الدولة الإسلامية فى الأندلس قوتها العسكرية فى ظل المرابطين مما أكسبها مهابة وقوة أمام أعدائها النصارى، فلقد كان للناحية العسكرية نصيب الأسد من الاهتمام والعناية من قبل أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين حيث ظهر اهتمامه بالناحية العسكرية واضحا فى تنظيماته للدولة، وقد استفاد المسلمون من تلك القوة العسكرية بخوض عدة معارك مع النصارى تمكن المسلمون على أثرها من استعادة المدن والحصون التى استولى عليها أعداؤهم النصارى فى عهد أمراء الطوائف . كما استخدمت تلك القوة فى الحد من أطماع النصارى فى دولة الإسلام فى الأندلس. وقد أشار إلى تلك الناحية ابن الخطيب نقلا عن الصيرفى(١٦٥) فى كتابه الذى فقد والذى بعنوان (الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية) عندما تحدث عن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين بقوله : (كان بطلا شجاعا ، حسن الركبة والهيئة، سالكا ناموس الشريعة) إلى أن يقول مبينا جهوده فى الناحية العسكرية (وبذلك حمل على الخيل وقلد الأسلحة، وأوسع الأرزاق واستكثر من الرماة وأركبهم ، وأقام همتهم للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب، ففتح الحصون ، وهزم الجيوش، وهابه العدو)(١٦٦).

سادسا: ارتفعت الروح المعنوية لدى رعايا الدول الإسلامية فى الأندلس وذلك بفضل الله ثم ما حققه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من انتصارات باهرة على النصارى. وقد ذكر المقرى جهوده فى ذلك بقوله : (وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين فما قصر فيما أثار من إذلال المشركين وإرغام الكافرين واستدراك أمور المسلمين) (١٦٧).

الهوامش

١- أبو محمد على بن حزم / الرد على ابن النغريلة اليهودى ، تحقيق إحسان عباس، القاهرة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) ص١٣٩ ، ١٨٥ ، نقطة العروس، المنشورة بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة فى عدد ديسمبر (١٩٥١م) المجلد الثالث عشر الجزء الثانى. أبى الحسن على بن بسام الشنتريني/ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) ق٤ م٢، ص١٢٩-١٣٠ ابن عذارى المراكشى/ البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب، نشر ليفى بروفنسال ، دار الثقافة، بيروت لبنان (ب.ط) ج٣ ص٤٣ وما بعدها. ابن الأبار أبو عبدالله القضاعى/ الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة (١٩٦٣م) ج٢ ص٤٦ ، ابن الكردبوس التوزرى أبو مروان / الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، نشر تحت عنوان تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط تحقيق أحمد مختار العبادى، مدريد (١٩٧١م) ص٧٧ .

٢- الدولة العامرية : نسبة إلى الوزير محمد بن أبى عامر، من أسرة يمنية، كان جده عبدالملك المعافرى من رجالات العرب الذين اشتركوا فى جيوش طارق بن زياد وأبدى شجاعة فى القتال للاستيلاء على قرطاجنة ، نشأ محمد بن أبى عامر ظاهر النجابة والذكاء، أسند إليه الخليفة الحكم المستنصر بالله مهمة الوصاية على ابنه هشام، فاستغل محمد بن أبى عامر ظاهرة صغر سن هشام وضعفه فاستقل بأمر الدولة، وأسس الدولة العامرية بعد أن قضى على خصومه، استمرت الدولة العامرية ما يقارب من ثلاث وثلاثون عاماً ثم سقطت فى عهد ابنه عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر (شنجول) وكان ذلك سنة ٣٩٩هـ بعد أن قتل على يد محمد بن هشام بن عبد الجبار. ابن الخطيب ، لسان الدين / أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط (١٩٣٤م) ج٢ ص٥٨ ، ابن بسام. الذخيرة م١ ق٤ ص٤٥ ، ابن عذارى / البيان المغرب ج٣ ص٣٩٦، الفتح بن خاقان/ كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس قسطنطينية (١٣٠٢هـ) ص٤ عبد الرحمن على الحجى / التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م، دار القلم، دمشق بيروت، الطبعة الأولى (١٣٦٩هـ / ١٩٧٦م) ص٣٠٦ لسان الدين ابن الخطيب / الإحاطة فى أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان/ مكتبة الخانجى / القاهرة م٢ ص١٠١ .

٣- ابن عذارى / البيان المغرب ج٣ ص٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ابن الخطيب، أعمال الإعلام ج٢ ص٩٠ ، ٩١، ١٠٧، المقرى أحمد بن محمد / نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، تحقيق محمد محى الدين، عشرة أجزاء، القاهرة (١٩٤٩م) ج١ ص٤٠١ .

٤- نسبة إلى البشكنس Vascos - وهم سكان مملكة نبفار في أقصى شمال أسبانيا. أحمد مختار العبادي/ دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع (ب.ط) ص٣٠ جغرافية الأندلس وأوربا مأخوذة من كتاب المسالك والممالك للبكري، تحقيق عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٣٨١هـ/ ١٩٦٨م) ص٦٩

٥- ابن عذاري / البيان المغرب ج٣ ص٤٢ ، ٤٤ . ابن الخطيب/ أعمال الإعلام ج٢ ص٩٠ ٩١ ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٢ . المقرى / نفح الطيب ج١ ص٤٠١ .

٦- ابن عذارى / البيان المغرب ج٣ ص٥٢ . ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٢٦ ، ١٢٧ ، عبد العزيز سالم/ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ص٣٤٧ ، ٣٥٧ .

٧- ابن سعيد المغربي (على بن موسى / المغرب في حلى المغرب) جزآن، تحقيق شوقي ضيف، طبعة دار المعارف بمصر، القاهرة (١٩٥٣م) ج١ ص٥٥، المقرى/ نفح الطيب، ج١ ص٤١٣، محمد عبدالله عنان/ دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ، القاهرة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ص١٣ .

٨- ابن حيان (أبو مروان بن خلف) كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس/ تحقيق محمد على مكى، القاهرة (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ج٣ ص٢٥ . ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ج٢ ص١٣٨ ، ١٤٧ ، ٢٤٥، المقرى/ نفح الطيب ج١ ص٢٨٢، ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص١١٦، ١١٧، عنان / دول الطوائف ص٢٠، حسين مؤنس / معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة (١٩٩٢م) ص٤١٥، ابن حزم (أبومحمد على بن أحمد) الفكر الفيلسوفي في المغرب والأندلس (نقلاً عن مؤلف مجهول لكتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية) نشر سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، الدار البيضاء (١٩٧٩م) ص٤٥ .

٩- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٦٣٨، ابن الخطيب . أعمال الأعلام ج٢ ص١٣٩، ١٤٧ ، ابن عذارى/ البيان المغرب، ج٣ ص١٥٢ .

١٠- ابن حيان / المقتبس ص٢٥، المقرى/ نفح الطيب م١ ص٤٢٠ وما بعدها ، محمد عبدالله عنان/ مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الطبعة الرابعة، مؤسسة الخانجي القاهرة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) ص٢٦٥ .

١١- بنى جهور : بيت من بيوت الوزراء ، وهم من ملوك الطوائف بالأندلس تولوا على قرطبة نحو نصف قرن من الزمان خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر ميلادى) ، ينسبون إلى جهور بن محمد بن جهور بن عبدالملك، كان جده (بخت بن عبدة) من الفرس ومولى لعبد الملك بن مروان ، وقد دخلت أسرة بن جهور إلى الأندلس فى عهده، وكان ابن حزم بن جهور وزيراً للخليفة هشام الثالث آخر خلفاء بنى أمية، وبعد سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس سنة (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) نجح فى إنشاء دولته فى قرطبة . ابن عذارى / البيان المغرب م٣ ص١٨٦ ، المقرى / نفح الطيب م١ ص٤٢١ ، ٢٥٥ أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، م٣ ص٦٥٠، ابن بسام (نقلاً عن ابن حيان) الذخيرة ق١ م٢ ص٦٠٢ ، ٦٠٣ .

١٢- بنو عباد : أحد فروع اليمنيين ، من قبيلة لخم، قامت دولتهم فى مدينة أشبيلية فى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) وانتهت دولتهم على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين عندما دخل الأندلس لتخليصها من أمراء الطوائف ، للمزيد من تاريخ هذه الأسرة ينظر ابن عذارى / البيان المغرب م٣ ص٢٠٤ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص١٣ ، ٤١ ، ٤٩ ، المقرى / نفح الطيب م١ ص٤٢١ . عنان / دول الطوائف ص٥٩ وما بعدها ، أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى م٥ ص٥٠ .

١٣- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص١٣،١١ ، ابن عذارى/ البيان المغرب م٣ ص٢٠٤، المقرى / نفح الطيب م١ ص٤٢١ ، عنان / دول الطوائف ص٥٩ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٢٥ .

١٤- بنو ذى النون: أصلهم من البربر ، كانوا فى خدمة الدولة العامرية ، ينسبون إلى جدهم (زنون) الذى تصحف اسمه بطول المدة فصار (ذو النون)، شاع ذكرهم فى دولة ابن أبى عامر حيث تولوا مناصب عالية، دعا أهالى طليطلة ابن (ذى النون) ، لتولى أمرهم بعد أن قاموا بخلع حاكمها عبد الملك بن عبد الرحمن بن متوه. ابن عذارى/ البيان المغرب م٣ ص٢٧٦ ، المقرى/ نفح الطيب م١ ص٤٢٢ / ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٣٦٨ .

١٥- طليطلة : معنى طليطلة باللطينى (تولاند) ومعناها فرح ساكنوها ، وهى قاعدة القوط ودار مملكتها تقع وسط شبه الجزيرة الإيبرية يحيط بها نهر تاجه من ثلاث جهات تمتاز بموقعها الحصين وخصوبة أراضيها ، ابن القوطية القرطبى/ تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، مؤسسة دار المعارف للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م) ص٦٢ .الحميرى (محمد عبد المنعم) الروض المعطار فى خبر الأقطار تحقيق احسان عباس، بيروت، الطبعة الأولى(١٣٩٥هـ١٩٧٥/م)

ص٣٩٣ لحموي / شهاب الدين بن عبدالله ياقوت / معجم البلدان في معرفة المدن والقرى ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م) ج٤ ص٤٠ .

١٦- بربر هوارة : من بطون البرانس البربرية، ينسبون إلى هوارة بن أوريغ بن برنس كانت مواطن سكناهم بنواحي طرابلس وما يليها من برقة . للتفصيل ينظر تاريخها في ابن خلدون / عبد الرحمن / تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية / بيروت ، لبنان / الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) ج٦ ص١٦٣ وما بعدها .

١٧- بنو الأفطس : ينسبون إلى أبومحمد عبدالله ابن مسلمة المعروف بابن الأفطس وينتمي بنو الأفطس إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية ، قامت دولتهم في مدينة بطليوس من الأندلس وانتهت على يد أمير المرابطين يوسف ابن تاشفين عندما دخل الأندلس لتخليصها من ملوك الطوائف والدفاع عنها ضد الممالك النصرانية . ينظر تاريخ هذه الأسرة في ابن الخطيب / أعمال الأعلام ، ج٢ ص١٨٣ ، ابن الأبار الحلة السيراء ، ج٢ ص٩٧ ، ابن عذاري/ البيان المغرب ج٣ ص٢٣٧ ، المقري/ نفح الطيب ج١ ص٤٢٤ .

١٨- بربر مكناسة : موطن سكناهم على وادي ملوية من لدن أعلاه سجلماسة إلى مصبه في البحر، وما بين ذلك من نواحي تازا أو تسول، كانت رئاستهم في بني أبي يزول واسمه مجدول بن تاتريس بن مكناس، وقد أجاز منهم إلى العدوة عند الفتح أمم كثيرة ، كانت لهم بالأندلس رئاسة وكثرة. ابن خلدون / العبر ج٦ ص١٥٤ .

١٩- بطليوس : تقع على الحدود الشرقية للبرتغال ، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي . ليفي بروفنسال / صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتابة الروض المعطار في خبر الأقطار) أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري / تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة (١٩٣٧م) ص٤٦ ، صفة الأندلس (من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الإدريسي) تحقيق دوزي ودي خوية امستردام (هولندا) طبعة مصورة (١٩٦٩م) ص٧٢ .

٢٠- بنو هود : من أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن ، حكموا مدينة بطليوس وما أليها في عهد ملوك الطوائف ، المقري/ نفح الطيب م١ ص٤٢٣، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٧٠ ، ابن الأبار / الحلة السيرة ج٢ ص١٤٧، عنان / دول الطوائف ص٢٦١ .

٢١- سرقسطة : تقع شرق الأندلس، وقاعدة من قواعدها ، كبيرة القطر، آهلة بالسكان ، حسنة الديار والمساكن ، تعرف بالمدينة البيضاء، لكثرة جصها وجيارها ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب

(المسالك والممالك لأبي عبيدة البكري) تحقيق عبد الرحمن الحجي الطبعة الأولى، بيروت (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م) ص٩٨ .

٢٢- بنو زيري: أسرة بربرية تولت جزء من بلاد البربر الشرقية في نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى أواسط القرن السادس هجري (الثاني عشر الميلادي) وقد استقرت بهم الحياة في المغرب الأوسط. دائرة المعارف الإسلامية ، انتشارات جهانة تهران بوذر حميري نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي وأحمد بشناوي وآخرون ب.ط. ج١١ ص٢١ . عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيري/ التبيان والمنشور تحت عنوان (مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة) تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة (١٩٥٥م) ص١٧ ، ابن خلدون / العبر ج٦ ص١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .

٢٣- غرناطة : قاعدة الأندلس وعروس مدنها ، يخترقها نهر شنيل وعدد من الأنهار ، تمتاز بكثرة بساتينها وجنانها. المقري/ نفح الطيب م٤ ص٢٦٧ ، ابن خلدون / تقدمة ابن خلدون ، تحقيق عبد الواحد الواني، الطبعة الأولى (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م) ص٣٠٨ . الحموي / معجم البلدان ج٤ ص١٩٥، الحميري/ الروض المعطار ص٣٨٥ .

٢٤- الصقالبة : يعرفون أيضًا باسم (السلاف) وهم شعوب منحدرة من أصول شتى والتي كانت تنزل الأرض المجاورة بين القسطنطينية وأرض البلغار، وصقالبة الأندلس اسم لجنس يطلق على الحرس الأميري الخاص بخلفاء قرطبة الأمويين، تولى عدد منهم المناصب الإدارية الرفيعة في عهد عبد الرحمن الثالث. دائرة المعارف الإسلامية، م١٤ ص٢٥١ أحمد عطية الله/ القاموس الإسلامي، م٤ ص٢٩٨ .

٢٥- ابن الخطيب / أعمال الأعلام م٢ ص١٥٢، ٢٢٦، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص٩ . ابن عذاري/ البيان المغرب ج٣ ص١٥٨ ، ١٦١ . ابن خلدون / العبر م٤ ص١٨٧ . العبادي/ أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص٩٤ ، ٩٥ .

٢٦- اختلفت المصادر التاريخية حول عدد دول الطوائف ، فبعض منها ذكر أنها خمسين دولة وبعضها ذكر أنها عشرون دولة. ينظر محي الدين عبد الواحد المراكشي / المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي، منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة التراث الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) ص٧٠، ابن كرديوس التوزري (أبومروان عبد الملك) الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، علي حبيبة / مع المسلمين في الأندلس ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ص١٤٣ .

٢٧- عبدالله عنان/ دول الطوائف ص١٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٢٦ .

٢٨- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٤ ، أبو الحسن على بن عبد الملك بن سعيد الأندلسى / رايات المبرزين ، غرناطة (٦١٠هـ) - تونس (٦٨٥هـ) تحقيق غرسية غومس ، مدريد (١٩٤٢م) ص١٠١ ، عبد العزيز سالم / تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٢٤٣ .

٢٩- الحسن بن رشيق القيروانى ، أبو على ، أديب وباحث ، ولد فى المسيلة بالمغرب وتعلم الصياغة ثم مال إلى الأدب وقول الشعر، ابن خلكان / وفيات الأعيان ج١ ص١٣٣ / مؤلف مجهول / الحلل السندسية، عفيف الحبيب الهيلة، الأعلام / خير الدين الزركلى ج٢ ص١٩١ . كما صور ذلك الوضع الأديب أبى طالب بن عبد الجبار بقوله : لما رأى أعلام مصر قرطبة أن الأمور عندهم مضطربة وعدمت شاكلة للطاعة استعملت آرائها الجماعة / الذخيرة ق١ م٢ ص٩١٦ .

٣٠- ابن سعيد / رايات المبرزين ج٣ ص١٩٩ ، ٢٠٠ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام / م٢ ص١٥٤ ، ابن حزم / رسالة نقط العروس ص٨٣ ، ٨٤ .

٣١- ابن الخطيب (نقلاً عن ابن حزم) أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٢ ، ١٤٣ ، عبد الحليم عويس/ ابن حزم الأندلسى وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى / دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، (ب.ط) ص٢٥٦ .

٣٢- ابن بسام / الذخيرة ، ق٤ م١ ص١٢ ، ١٣٠ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٨١ عبدالله بن بلقين / التبيان ص١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٢٨٨، المقرى / نفح الطيب ج١ ص٤٣٨ ، عنان/ دول الطوائف ص٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ابن الخطيب / لسان الدين/ الإحاطة فى أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان ذخائر العرب رقم (١٧) مكتبة الخانجى، القاهرة (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) م٢ ص١١٠ . يوسف أشباخ / تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة وعلق عليه محمد عنان / مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية ، القاهرة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م) ج١ ص٣٨، سلامة الهرفى / دولة المرابطين فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، دراسة حضارية وسياسية، دار الندوة الجديدة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص٤٥ . صلاح خالص / إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان سنة (١٩٦٥م) ص٢٣ ، ٢٤ .

٣٣- أبوبكر بن سليمان الكلاعى الإشبيلى يعرف بابن القصيرة كان كاتباً بارع الخط، كان من المتفننين بالعلوم، انتدبه المعتمد بن عباد كرسول من قبله إلى ملوك الطوائف، ابن بشكوال / أبى القاسم خلف بن عبدالملك / كتاب الصلة / الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (١٩٦٦م) ق٢

ص١٠٤ . ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٣٩ ، ابن عذارى. المغرب م١ ص٣٥٠ ، المقرى/ النفح ج٤ ص٣٦١ ، ٣٦٥ ، ابن الخطيب/ الإحاطة م٢ ص٥١٦ .

٣٤- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٤٨ .

٣٥- حصن قبرة : مدينة قبرة Cabra تقع فى الجنوب الشرقى من قرطبة وبها يقع ذلك الحصن. الحميرى/ الروض ص١٤٩ ، ابن الأبار / الحلة السيراء م٢ ص٣٦٥ .

٣٦- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزرى) الكامل فى التاريخ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ، لبنان (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ج٧ ص٤٥٤ ، ابن بلقين / التبيان ص٦٩ ، عنان / دول الطوائف ص١٤٣ ، على حبيبة / مع المسلمين فى الأندلس، ص١٤٣ ، ومدينة جيان، مدينة بالأندلس كثيرة الخصب ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية، وتقع على سفح جبل عال، وقصبتها من القصبات الموصوفة بالحصانة ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار/ تحقيق ليفى بروفنسال، ص١٥٩ .

٣٧- ابن عمار : هو أبوبكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى ولد سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، أصله من قرية من أرباض شلب تسمى (شنوس) ، من أسرة متواضعة ، تلقى تعليمه فى مدينة شلب ثم أكملها فى قرطبة ، كان من أشهر وزراء المعتمد بن عباد ، ذو مكانة عنده وحظوة، وبقى يعمل لديه أعوامًا ولكنه نكب على يد المعتمد بتحريض من زوجة المعتمد (اعتماد الرميكية) ٤٧٧هـ ، وخصومه، ابن الأبار/ الحلة السيراء ج٢ ص١٥٠ ، ١٥١ ، ابن الخطيب/ أعمال الأعلام ج٢ ص١٦٠ ، ١٦١ ، ابن بلقين / التبيان ص٨١ . عنان/ دول الطوائف ص٦٦ . محمد عنان / تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية، القاهرة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) ص٢٨٢ وما بعدها.

٣٨- ابن خلدون / العبر ج٤ ص١٨٥ ، القلقشندى أبو العباس أحمد، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، تحقيق وتحليل عبداللطيف حمزة ، المكتبة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة (ب.ط) ص٢٤٨ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ ج١ ص٣٣، ٣٤ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص١٢٠ ، سعيد البشرى، الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس/ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ص٩٢، عنان / دول الطوائف ص٧٣ ، يوسف أشباخ/ تاريخ الأندلس ص٢٨ ، ٥٥ ، ٦٠ ، حسين مؤنس/ معالم تاريخ المغرب والأندلس/ دار الرشاد، القاهرة (١٩٩٦م) ص٤١٦ .

٣٩- ينظر على سبيل المثال لا الحصر ابن بسام / الذخيرة (نقلاً عن ابن حيان) ق٤ م٢ ص٧٢٣، ق١ م١ ص٢٧٢ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٢٠٢ ، ابن حزم / رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الأولى (١٩٨١م) ج٢ ص١٧٦، ابن الخطيب / أعمال الإعلام ج٣ ص١٤٩ .

٤٠- ابن الخطيب / أعمال الأعلام م٢ ص٢٤١ / دول الطوائف ص٢٤٨ ، ٢٥٠ .

٤١- ابن الخطيب / أعمال الأعلام م٢ ص٢٤١ .

٤٢- ابن حزم الأندلسي/ أبومحمد على بن أحمد بن سعيد، التلخيص لوجوه التخليص ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) ص١٧٥ ، عنان / دول الطوائف ص٤٢٠ .

٤٣- أبى عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر، كان من أوائل كتاب عصره علماً ومعرفة ، أصله من قرطبة ، ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٧٦٦ رقم الترجمة ١٥٠١، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٣٤ ، ابن حيان / المقتبس ص١٦٨ رقم الترجمة (٥٥٦) ، المقرى / نفح الطيب٣عن رسالة ابن حزم فى ذكر علماء الأندلس) ج٢ ص١٣١ .

٤٤- ابن عبد البر/ بهجة المُجالس وأنس المجالس وشحن الذهن الهاجس / تحقيق محمد مرسى الخولى، دار الكتب العلمية. بيروت ، لبنان ب.ط م١ ق١ ص٤٥٧ .

٤٥- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) ٣٧٨هـ- ٤٦٩هـ/ ٩٨٨-١٠٧٦م، من أوائل المؤرخين الأندلسيين ومن أشهر مؤلفاته المقتبس فى أخبار بلد الأندلس فى عشر مجلدات وكتاب (المتين) فى ستين مجلداً، من أهل قرطبة ، ذكره ابن بسام بقوله (كان سهمًا لاينمى رميه ، وبحراً لاينكش أذيه) ، كما ذكر ابن خلكان أن أبو على الغسانى قد ذكره بقوله (كان عالى السنى، قوى المعرفة ، متبحراً فى الآداب بارعًا فيها ، توفى تسع وستين وأربعمائة. ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد محمد بن أبى بكر بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ تحقيق احسان عباس / دار الثقافة ، بيروت، لبنان (١٩٦٨م) ج٥ ص٢١٨ . ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٥٧٤ . موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين / حققها وراجعها بول غليونجى ، جلال شوقى، حسين مؤنس وآخرون، مكتبة المعارف/ بيروت (ب.ط) ص٨١ ، عنان / تراجم إسلامية شرقية واندلسية ص٢٧٢ .

٤٦- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٥٧٨ .

٤٧- المصدر السابق ق١ م٢ ص٥٧٦ .

٤٨- هو أبوطالب بن عبد الجبار يعرف بالمتنبي الأندلسي، من أهل جزيرة شقر، عاش في حدود (٥١٩هـ/ ١٠٣٦م) . عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر / المختصر في أخبار البشر المسمى (تاريخ أبوالفدا) أربعة أجزاء في مجلدين ، بيروت (١٩٦٨م) دار المعرفة والنشر ، بيروت م١ ج٤ ص١٢٠ . ابن الخطيب / أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت (١٩٥٦م) م٢ ص١٤٩ . مجلة الأندلس الأسبانية ، المجلد الرابع، القسم الأول، غرناطة (١٩٥٠) ابن بسام / الذخيرة ق١م٢ ص٩١٦ .

٤٩- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٩٤٢ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٨ ، ٢٩ .

٥٠- ابن حزم / رسالة التلخيص ص١٥٧ ، ابن بسام/ الذخيرة ق١ م١ ص١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٤ . يبدو أن شرب الخمر وبيعه في الأسواق في فترة حكم ملوك الطوائف أمراً لامنكر عليه ولاغرابة فيه، وهذا ما ذكره مؤرخ ذلك العصر ابن حزم ، تنظر رسائل ابن حزم / تحقيق احسان عباس ص١٧٤ . المقرى/ نفح الطيب ج٤ ص١٩٩ . ابن سعيد/ المغرب ج١ ص٧٦٩. ابن عبدون أحمد التجيبي/ رسالة في القضاء والحسبة (ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسبة) نشر ليفي بروفنسال المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة (١٩٥٥م) ص١٣ . والمكوس: دراهم تؤخذ على بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية. طاهر أحمد الزاوي/ ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الكتب العلمية (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) مادة مكس ج٤ص٢٧٢ .

٥١- ابن حزم ، المرجع السابق، ص١٣٨ .

٥٢- أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السفر للسلفي) تحقيق احسان عباس، دار الثقافة / بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص٩٢ .

٥٣- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف) النمري القرطبي/ القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم / المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة (١٩٧٢م). وخولا : الخول هم العبيد والأماء وغيرهم من الحاشية. الزاوي/ ترتيب القاموس المحيط ج٢ ص١٢٩ .

٥٤- ابن بسام/ الذخيرة ق٢ م١ ص٢٥٢ ، والعنقاق تعني البيان أو براءة ضمن رسالة أو وثيقة . رينهارت دوزي ، تكملة المعاجم العربية نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر م٧ ص٢٦٨ .

٥٥- المقرى/ نفح الطيب ج٦ ص٢٣٥ .

٥٦- أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي، الإعلام بنوازل الأحكام المعروفة بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد التويجري، الطبعة الأولى، القاهرة (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) .

٥٧- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٨٠ ، المقرى / نفح الطيب ج٦ ص٢٤٣، ابن الأبار / الحلة السيراء، ج٢ ص٤٦، آنخل جنثالث / تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة (١٩٥٥م) ص٧٧ ، ٧٨ ، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس تحقيق أحمد العبادي ص٧٧، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٤، المقرى ، التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد / أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض/ تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة (١٣٣٩هـ / ١٩٤٢م) ج١ ص٦٠ ومما يدل على حالة الاستخفاف بهؤلاء الأمراء والازدراء بهم من قبل ملوك النصارى ما قاله ألفونس السادس ملك قشتالة عنهم عندما قابل سفير المعتمد بن عباد إليه وهو يهودي ويدعى بابن مشعل حيث خاطبه بقوله «كيف أترك قوماً مجانين تسمى كل منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولاحيفا، وقد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل البشر أن يقر منهم على رعيته أحداً وأن يدعها بين أيديهم سدى» وينظر دول الطوائف/ محمد عنان ص٧٤ . والسيد القمبيادور (الكمبيادور) فارس قشتالي اسمه الأصلي رودريجور لقب بالسيد من قبل المسلمين الذى كان يخدم بينهم ويحارب معهم، ووصفه بالكمبيادور معناها المحارب الباسل لشجاعته وحبه للقتال. المقرى/ نفح الطيب ج٢ ص٥٧٧ ، ابن الأبار/ الحلة السيراء ص١٠٧ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٠٣ / ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٣٠٥ ، ويذكر ابن عذارى أن كلمة (الكمبيدور) معناها صاحب الفحص ، عنان / دول الطوائف ص٣٣٢، ٣٣٣ .

٥٨- محمد عنان / مواقف حاسمة في التاريخ الإسلامي ص٢٤٨ ، ٢٦٦، عنان/ دول الطوائف ص١٤ .

٥٩- بربشتر : بالأسبانية Babastro بلدة حصينة تقع في شمال غرب مالقة وعلى مقربة من شمال شرق رندة، وكانت أيام الفتنة الكبرى من معاقل زعيم ثورة الجنوب ابن حفصون . ابن الخطيب / الإحاطة م٣ ص٧٩ ، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٨١ وما بعدها، عنان/ دول الطوائف ص٢٧٨، ٢٧٩ . ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٢٢٥ الحجى ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيدة البكري ص٩٢ وقد وردت في بعض المصادر باسم (بيشتر) .

٦٠- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٥٧ وما بعدها ، الحجى/ التاريخ الأندلسي ص٣٥٩ .

٦١- المرجع السابق ق٣ م ١ ص١٨٨ .

٦٢- المرجع السابق ق٣ م١ ص١٧٩ وما بعدها ، المقرى/ نفح الطيب م٦ ص٢٤٤

٦٣- المقرى / نفح الطيب م١ ص٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ابن بسام / الذخيرة ق٤ م١ ص١٢٩ ، ابن خلدون / العبر ج٤ ص١٦١ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٨١ .

٦٤- قشتالة : كستلا بالأسبانية مملكة قديمة بشمال ووسط أسبانيا. تنقسم تقليديًا إلى منطقتين ، قشتالة القديمة وتقع فى الشمال وقشتالة الجديدة وتقع فى الجنوب، وتشمل قشتالة معظم هضبة أسبانيا الوسطى العالية الجافة ، كانت قشتالة القديمة مقاطعة من مملكة (ليون) وبحلول القرن العاشر الميلادى أصبحت مستقلة عنها، الموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر صورة طبق الأصل من طبعة (١٩٦٥م) ص١٣٨١ .

٦٥- ابن حيان / المقتبس ص١٨ ، ابن الأثير / الكامل فى التاريخ ص١٢٠ ، المقرى / نفح الطيب م١ ص٤٢٣ ، ج٦ ص٨٤ ، ابن الكرديوس / كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، نشر تحت عنوان تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشباط ص١٥٧ ، عبد المجيد تغنمى/ الإسلام فى طليطلة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت (ب.ط) ص٣٠٣، محمد عنان تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، الطبعة الثانية / مكتبة الخانجى ، القاهرة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) ص٢٧١ .

٦٦- ابن بسام / الذخيرة ق٤ م١ ص١٦٣ .

٦٧- المرجع السابق ق٢ م١ ص٢٥٣، ٢٥٤ ، وأبوبكر محمد بن سليمان الكلاعى تنظر ترجمة فى حاشية ٣٣، ابن سعيد / المغرب ج١ ص٣٥٠ ، ابن الخطيب / الإحاطة ج٢ ص٥١٦ .

٦٨- ابن العسال : هو عبدالله بن فرج بن عسلون اليحصبى، يعرف بابن العسال يكنى أبومحمد ، طليطلى الأصل، سكن غرناطة ، واستوطنها سنة ٤٨٧هـ، ابن الخطيب/ الإحاطة م٣ ص٤٦٣ ، أخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفى، تحقيق إحسان عباس ص٧١ ، ابن الخطيب/ الإحاطة م٣ ص٤٦٣ ، ابن بشكوال / الصلة م١ ص٢٨٥ ترجمة رقم (٦٢٩) .

٦٩- ابن سعيد / المغرب ج٣ ص٢١ ، ابن بسام/ الذخيرة ق٢ م١ ص١٥٩ ، ويروى الصدر الثالث من البيت بهذا الشكل.

من جاور الشر لايأمن عواقبه   كيف الحياة مع الحيات فى سفط

المقرى / نفح الطيب ج٦ ص١٣١ ، ابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق احسان عباس / ج٥ ص٢٧ ، ٢٨ .

٧٠- المقرى / نفح الطيب ج٤ ص٤٨٣ ، ٤٨٦ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٥١ .

٧١- القرزان من لعب الشطرنج أعجمى معرب وجمعه قرازين ، وكذلك البيدق والشاه قطع من قطع لعب الشطرنج ، والشهمات ، كلمة من مصطلح اللاعبين يعبرون بها عن انتهاء الدور بمعنى مات الشاه ، ابن منظور/ لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط م٢ ص١٠٧١ ، المقرى / نفح الطيب ج٦ ص١٣١ .

٧٢- المقرى / نفح الطيب ج٤ ص٢٧٥ ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٣٥١ .

٧٣- بلنسية : تقع فى شرق الأندلس ، قاعدة من قواعد الأندلس، استولى عليها الروم قديما وأحرقوها بعد خروجهم منها سنة ٤٩٥هـ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب (الروض المعطار للحميرى) تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٣٧م) ص٤٧ ، دائرة المعارف الإسلامية، م٤ ص١١٩ ، ١٢١،١٢٠ .

٧٤- ابن خفاجة : أبو اسحاق إبراهيم ابن أبى الفتح بن عبدالله بن خفاجة الأندلسى من الشعراء الزاهدين فى عهد ملوك الطوائف ، ولما دخل المرابطون الأندلس، تخلى عن عزلته وشارك فى مدح أمراء الملثمين، إحسان عباس/ تاريخ الأدب الأندلسى فى عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الثقافة ، الطبعة السادسة، بيروت (١٩٨١م) ص٨٨ . ابن خلكان / وفيات الأعيان ، ج١ ص٥٦ ترجمة رقم ١٧ ، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م٢ ص١٧٣ ، ابن الخطيب / الإحاطة ص٤٣٩، ٤٤٠ .

٧٥- المقرى / نفح الطيب ج٤ ص٤٤٥ .

٧٦- ابن الأثير / الكامل فى التاريخ ج٨ ص٤٣٩ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٤٨ ، ٢٤٩ ، عنان/ دول الطوائف ص٧٥ .

٧٧- ابن بسام / الذخيرة ق٢ ج١ ص٢٥٣ ، السلاوى أحمد بن خالد الناصرى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد أبناء خالد الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء (١٩٥٤م) ص٣٨،٣٧ ، عنان / دول الطوائف ص٧٣ وما بعدها، سعد البشرى، الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس ص٧٢ ، الحجى، التاريخ الأندلسى، ص٣٤٥ .

٧٨- الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيله ، تونس (١٩٧٠م) ج ٢ ق١ ص١٩٤، الذخيرة / ابن بسام ق٣ م١ ص١٧٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ، ص٣٣٦ وما بعدها.

٧٩- ابن بسام/ الذخيرة ق٣ م١ ص١٧٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٣٦ وما بعدها .

٨٠- أبو الوليد الباجى : هو سليمان بن خلف بن سعيد التجيبى الباجى، أحد أقطاب المذهب المالكى،

ولد في مدينة بطليوس درس في قرطبة ، وأتم دراسته في بلاد المشرق مكة وبغداد توفي ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي/ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة (١٩٦٧م) ص٢٢٠ . ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة ص١٢٠ .

٨١- المقرى : نفح الطيب ج٢ ص٧٦ ، ابن فرحون / الديباج المذهب ص١٢٠ ، ابن بشكوال/ الصلة ج١ ص٢٠١ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٩٤ ، ٩٧ الحجى / التاريخ الأندلسي ص٣٤٢ .

٨٢- بلنسية . تنظر حاشية ٧٣ .

٨٣- مرسية : مدينة تقع شرق الأندلس شمال مدينة المرية، اختطها الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن معاوية ، وهى ذات أشجار وحدائق محيطة بها. الحموى / معجم البلدان ج٥ ص١٠٦ ، الحميرى/ الروض المعطار ص٦٢ ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيدة البكرى، تحقيق عبد الرحمن الحجى ص١٢٧ .

٨٤- دانية : قصبة الناحية الشمالية الشرقية من كورة القنت الأسبانية ، وهذه الكورة أبعد المقاطعات الأسبانية الحديثة، وكانت تتألف من هذه المقاطعات مملكة بلنسية القديمة، وتقع فى الطريق الجنوبى الشرقى من خليج بلنسية ، صفة الأندلس (من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) لأبى عبدالله بن محمد بن إدريس ، الإدريسى / تحقيق دوزى ودى خوية / أمستردام (هولاندا) طبعة مصورة (١٩٦٩م) ص١٩٢ ، الحموى/ معجم البلدان ج٢ ص٥٤٠، دائرة المعارف الإسلامية م٩ ص١٢٠ .

٨٥- عياض / ترتيب المدارك ق٣ م٤ ص٨٠٨ .

٨٦- الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤١ .

٨٧- عياض / ترتيب المدارك ق٣ م٤ ص٨٠٢ / ٨٠٨ .

٨٨- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص١٨٠ / ١٨١ .

٨٩- المتزين عليهم: الحاملين عليهم والمفسدين عليهم، ابن منظور / لسان العرب مادة نزأ م٣ ص٦١٤ ، أحمد الزاوى / ترتيب القاموس المحيط ، مادة (نزأ) ج٤ ص٣٥٣ .

٩٠- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص٧٩، المقرى / نفح الطيب م٦ ص٢٤٣ . والقاسطون : الجائرون والعادلون عن الحق، الزاوى/ ترتيب القاموس المحيط مادة (قسط) م٣ ص٦١٩ .

٩١- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م ١ ص١٨٠ .

٩٢- المصدر السابق ق٣ م١ ص١٨٨، المقرى / نفح الطيب ج٢ ص٢٤٣ .

٩٣- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م ١ ص١٨٠ ، ١٨١ ، المقرى/ نفح الطيب م٦ ص٢٤٤ وقد نقلها المقرى عن الشاعر القطامى بن عمير بن شميم ، وقد وردت الأبيات فى ديوان الشاعر بهذا الشكل.

أمــور لو تلافــاهـــا حليــــم إذا لنهى وهيب مــاســتطاعــا

ديوان القطامى ، تحقيق ابراهيم السامرائى وأحمد مطلوب، دار الثقافة ، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٦٠م) ص٩٦ .

٩٤- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٧٦ ، عبد الحليم عويس/ ابن حزم الأندلسى ص٣٥ وابن حزم هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد، أديب ومؤرخ أندلسى ولد سنة ٣٨٤هـ الضبى / بغية الملتمس ص٤١٥ ترجمة رقم ٢٠٥ ، ابن خلكان / وفيات الأعيان م٣ ص٣٢٥ ، الحموى أبو الدرى ياقوت بن عبدالله / معجم الأدباء / دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان (ب.ط) م١٢ ص٢٣٥ ، عبد الحليم عويس / ابن حزم الأندلسى ص٥٢ ، الموسوعة الإسلامية الميسرة ، أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية الملكية هـ. أ. جب و ج. هـ كالمرز، ترجمة راشد البراوى، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة (١٩٨٥م) ج١ ص١٩ .

٩٥- سورة آل عمران آية ١٠٥ .

٩٦- سورة الأنفال آية ٤٦ .

٩٧- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٣ ص١٧٢ .

٩٨- فى رواية مسلم ورد الحديث بهذا اللفظ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال طارق بن شهاب من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة قال قد ترك ما هنالك فقال أبوسعيد اما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» أما فى رواية النسائى فلم يذكر العيد والخطبة وورد الحديث بهذا اللفظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فقد برئ، وإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه فقد برئ،، وإن لم يستطع أن يغيره بلسانه فليغيره بيده فقد برئ» ، وذلك أضعف الإيمان» مجدى الدين أبى السعادات ابن المبارك بن محمد الأثير الجزرى / جامع الأصول فى أحاديث الرسول، حقق نصوصه وأخرج أحاديثه وعلق عليه عبد القادر الأرناؤوط ، الجزء الأول/ نشر وتوزيع مكتبة الحلوانى، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ص٣٢٥ .

٩٩- ابن بسام/ الذخيرة ق٣ م١ ص٨٥، وابن عبد البر هو أبي محمد عبدالله ابن الفقيه أبي عمر يوسف بن عبد البر ذكر عنه ابن بسام أنه كان من أشهر كتاب عصره استقصى أخبار ملوك الطوائف وكتب عن أكثرهم . توفي سنة ٤٧٤هـ، ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٢٤٢ ، ابن سعيد / المغرب ج٣ ص٤٠٢ الضبي / بغية الملتمس رقم ٩٦٥ .

١٠٠- المصدر السابق ق٣ م١ ص١٨٧ .

١٠١- المصدر السابق ق٣م١ ص١٧٤ .

١٠٢- القاضي عياض بن موسى بن عياض (سنة ٤٧٦-٥٤٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك / تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م) أربعة أجزاء ، ج٢ ص٨١١ .

١٠٣- عبد الرحمن بن مسلمة بن عبد الملك بن الوليد القرشي، قاضي قرطبة، كان مقدمًا في الفهم، بصيراً بعلوم كثيرة من علوم القرآن والأصول والحديث والفقه، ابن بشكوال/ الصلة ج٢ ص٣٣٤ ، عياض/ ترتيب المدارك ج٢ ص٨٢٢ .

١٠٤- القاضي أبو الوليد الوقشي هو أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني الوقشي من أهل طليطلة قاضي مدينة طليطلة ، ذكره المقري بقوله (الأديب والفيلسوف الأديب) المقري / نفح الطيب م٦ ص٨٥ ابن خلكان / وفيات الأعيان م١ ص٥٤٦، ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٦٥٣ رقم الترجمة ١٤٣٧، الحميري/ الروض المعطار ص١٩٦، الحجي/ التاريخ الأندلسي ص٣٤٩ ، ووقش قرية بثغر الأندلس، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار للحميري، تحقيق ليفي بروفنسال ص١٩٦ .

١٠٥- ابن بشكوال / الصلة ج٢ ص٥٧٥ رقم الترجمة (١٢٦٩) ، المقري/ نفح الطيب ج٢ ص٨٨ ، الحجي / التاريخ الأندلسي، ص٣٥٠ .

١٠٦- ابن بشكوال / الصلة ج٢ ص٥٧٦ ، ٥٧٧ ، النباهي / أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد بن محمد بن الحسن النباهي المالقي / المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا المسمى بتاريخ قضاة الأندلس، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة (١٩٤٨م) ص٩٨ ، ٩٩ .

١٠٧- ادريس بن يحيى بن يوسف الواعظ ، من أهل إشبيلية ، يكنى بأبي المعالي، كان يجول بلاد الأندلس يعظ الناس ويذكرهم ، أنشد بمسجد رحبة القاضي في بلنسية ومنها:

أنا فى الغـــربة أبكـــى ... مـــا بكت عين غـــريب

لم أكن يوم خـــروجى ... من بلادى بمصـــيب

ابن الأبار / أبو عبدالله محمد بن أبى بكر القضاعى ابن الأبار/ التكملة لكتاب الصلة طبعة العطار، جزءان ، القاهرة (١٣٥٥هـ/ ١٩٥٦م) ج١ ص١٩٦ ، رقم الترجمة ٥١٩ .

١٠٨- ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٣٦٩ .

١٠٩- أبى بكر محمد بن أحمد بن حسن ابن اسحق بن عبدالله بن اسحاق بن جعفر من أهل قرطبة من بيت وزارة وجلالة عمل على إزالة الخلافات بين ملوك الطوائف وعمل على جمع كلمتهم . ابن الأبار/ التكملة ج١ ص٣٩٠ رقم الترجمة (١٠٩٠) الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤٩ .

١١٠- ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٤١١ رقم الترجمة ١١٦٤ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤٨ .

١١١- محمد بن سفيان بن اسحاق الراعظ من أهل بلنسية ، يكنى أبا عبدالله ، سمع من أبى المعالى ادريس بن يحيى الواعظ وولى الحسبة بالسوق وكان يعظ بمسجده المشتهر بمسجد الغلبة، ابن الأبار/ التكملة ج١ ص٤١٤ رقم الترجمة ١١٧٤ .

١١٢- المقرى / نفح الطيب ج٦ ص١٢٩ ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٤٤٧ .

١١٣- ينظر هامش ٩٩ .

١١٤- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٢٥ .

١١٥- أورد رسالته صاحب القلائد حيث جاء فيها أن فرديناند نزل فى قرية أيوب محاصرا وغرسيه نزل بسرقسطة وردزمير نزل فى بوشقة وما وراثها . الفتح بن خاقان / قلائد العقبان فى محاسن الأعيان، تونس (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) مصورة عن طبعة باريس ص١٩٠ .

١١٦- محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصارى من أهل طرطوشة ، يكنى أبا عبدالله ، سكن سرقسطة وتجول كثيرا فى بلاد الأندلس والعدوة، غلب عليه علم العبارة، فشهر بها، وكان وجيها عند الملوك مترددا عليهم.

ابن الأبار / التكملة لكتاب الصلة، ج١ ص٤١١ رقم الترجمة ١١٦٤ ، الحجى/ التاريخ الإسلامى ص٣٤٩ .

١١٧- ابن الأبار/ التكملة ج١ ص٤١٦ .

١١٨- أبوبكر المعافرى : هو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد العربى المعافرى من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر ، إمام عالم، خاتم علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها . ابن بشكوال/ كتاب الصلة ق٢ ص٥٩٠ رقم الترجمة ١٢٩٧ . النباهى / المرقبة العليا ص١٠٥ . ابن خلكان / وفيات الأعيان م٤ ترجمة ٦٢٦ ص٢٩٦ .

١١٩- النباهى / المرقبة العليا ص١٠٦ .

١٢٠- محمد بن سليمان الأنصارى المالقى: قاضى مدينة مالقة/ ومن جلة أهلها وعلمائها اتصف بالعدالة والزهد، كان فى مذهبه صلبا ورعا وزاهدا أديبا، وله على كتاب (الموطأ) شرح كثير حسن مفيد . النباهى/ المرقبة العليا ص١٠٠ .

١٢١- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٥٦ . النباهى/ تاريخ قضاة الأندلس ص١٠٠ .

١٢٢- المقرى / نفح الطيب ج٦ ص١٢٩ . الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٤٤٧ .

١٢٣- أبو حفص بن عمر الهوزنى : سكن شرق الأندلس، ثم رحل إلى إشبيلية وطلب العلم على شيوخها، وأخذ من علماء المشرق، قتله المعتمد بن عباد بيده وأمر أن يدفن داخل القصر دون أن يغسل ولايكفن أو يصلى عليه. ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٤٠٢ رقم الترجمة ٥٦٨ .

١٢٤- القاضى عياض / ترتيب المدارك ج٢ ص٨٢٦ . ابن بسام الذخيرة ق٢ م١ ص٨٢ ، ٨٣ . ابن سعيد، المغرب ج١ ص٢٣٩ . سعيد البشرى الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف ص١٢٠

١٢٥- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٩٣ وما بعدها .

١٢٦- المصدر السابق ق٢ م١ ص٩٣ .

١٢٧- السميسر : هو أبو القاسم ، خلف بن فرج الإيبرى، يعرف بالسميسر ، شاعر من شعراء ملوك الطوائف بالأندلس، امتاز شعره بهجاء أهل عصره، ابن بسام/ الذخيرة ق١ م٢ ص٣٨٢ . المقرى/ نفح الطيب ج٤ ص٣٨٧ .

١٢٨- ابن سعيد/ المغرب ج٣ ص١٦٧ ، ١٦٩ . المقرى/ نفح الطيب ج٤ ص٣٨٧. ابن بسام/ الذخيرة ق١ م٢ ص٢٨٥ . أخبار وتراجم أندلسية ص٨٣ .

١٢٩- أبو اسحاق ابراهيم بن مسعود الأبيرى. إبراهيم بن سعيد التجيبى ولقبه الإيبرى وكنيته أبو اسحاق توفى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م، خصه الضبى بقوله : وفقيه فاضل زاهد عارف، كثير الشعر فى ذم

الدنيا، وذكر عنه ابن الأبار بأن شعره مدون وكله في الحكم والمواعظ والأزهاد . عين قاضيا بمدينة غرناطة بتعيين من باديس بن حبوس . ابن الأبار / التكملة ترجمة رقم ٣٥٢، أميلو غرسية غومث/ مع شعراء الأندلس والمتنبي سير ودراسات، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الأولى القاهرة (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص٨٩ .

١٣٠- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج١ ص٥٦ . ترجمة رقم ١٧ ابن بسام / الذخيرة ج٣ م٢ ص١٧٣ ، ابن الخطيب / الإحاطة ج١ ص٤٣٩ ، ٤٤٠ ، الحجي / التاريخ الأندلسي ص٣٤٦ .

١٣١- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج٤ ص٤٣٨ ، الحجي/ التاريخ الأندلسي ص٣٣٣ .

١٣٢- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٨٩ .

١٣٣- ينظر حاشية ٦٨ .

١٣٤- المقري/ نفح الطيب ج٦ ص١٢١ ، ابن سعيد الأندلسي/ رايات المبرزين ص٩٦، ابن بشكوال/ الصلة ج١ ص٢٨٥ رقم ٦٢٩، أورد المقري البيت الأول بصيغتين مختلفتين أولها :

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط

وثانيها : حثوا رواحلكم يا أهل الأندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسل من الوسط

ونحن بين عدو لايفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

ويروى الصدر الثالث من البيت هكذا: من جاور الشر لايأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

١٣٥- تنظر حاشية ٧١ .

١٣٦- أبو الحسن بن الجد: هو الوزير الكاتب يوسف بن محمد بن الجد ورد في مواضع أخرى من الذخيرة مرة بلقب أبو الحسين ومرة بلقب أبو الحسن ذكره ابن بسام بقوله : (وأبو الحسين هذا كان من أسنى نجوم سعدهم [ويقصد بهم بني الجد) وأسمى هضاب مجدهم) استكتبه ذي الوزارتين أبوبكر بن عمار أيام حربه بمرسية، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٥٥٦، ابن سعيد/ المغرب ج١ ص٢٤٠ .

١٣٧- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج٤ ص٤٢٨، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٤ .

١٣٨- عبد العزيز عتيق / الأدب العربي في الأندلس/ دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية/ بيروت (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) ص٣٢٨ .

١٣٩- أبو طالب بن عبد الجبار: تنظر ترجمته فى حاشية ٤٨ .

١٤٠- المقرى/ نفح الطيب ج٦ ص١٣١ . ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٩١٦ .

١٤١- تنظر حاشية ٦٩ .

١٤٢- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص١٥٩ ويروى الصدر الثالث من البيت بهذا اللفظ

من جاور الشر لايأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات فى سفط

١٤٣- ابن خفاجة : تنظر ترجمته فى حاشية ٧٤ .

١٤٤- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م٢ ص٥٤٢ ، ٥٦٢ .

١٤٥- حسين مؤنس / تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربى إلى الاحتلال الفرنسى للجزائر الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م) م١ ص٤٤٧ .

١٤٦- مؤلف مجهول / الحلل الموشية ص٢٠ ، ٢٢ ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٣٩٥ ، ٣٩٦ عنان/ دول الطوائف ص٣١٧ / الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٩٨، ٣٩٩ . يوسف أشباخ / تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج٢ ص٧٤ .

وعبيدالله بن محمد بن أدهم: من أهل قرطبة وقاضى الجماعة بها ، يكنى أبا بكر استقضاه المعتمد بن عباد. الصلة ج١ ص٣٠٤ رقم الترجمة ٦٧٣ .

١٤٧- ابن خلكان / وفيات الأعيان/ ج٢ ص٤٨٢ . الحل الموشية ص٢٨ .

١٤٨- عبدالله بن بلقين / كتاب التبيان (المنشور تحت عنوان مذكرات الأمير عبدالله) المقدمة ص٧٠. ابن أبى زرع الفاسى/ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس/ تحقيق شارل تورنبرج، إبسالة (١٨٤٣م) ص٩٢ ، ٩٣ . على حبيبه / دولة الإسلام فى الأندلس/ دار الشروق / الطبعة الثانية (ب.ت) ص٢٥١ . الحميرى/ الروض المعطار ص٣٩١ / ٣٩٢ مؤلف مجهول (ينسب لابن الخطيب)، الحلل الموشية ص٢١ ، ٣٩٨ ، الاستقصاء / الناصرى ج٢ ص٣٩ .

١٤٩- الحميرى / الروض المعطار ص٨٥، ٨٦ وما بعدها . محمد الهادى شعيره / المرابطون وتاريخهم السياسى، الطبعة الأولى، القاهرة (١٩٦٩م) ص١١٥ .

١٥٠- ابن بلقين / التبيان / مذكرات الأمير عبدالله ص١٢٨ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٣٩١.

٣٩٢، مؤلف مجهول / الحلل الموشية ص٣٩، ٤٠، محمد عبدالله عنان/ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ج١ ص٤١ ، ٤٢ .

١٥١- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٠٠ .

١٥٢- ابن بلقين / التبيان ١١٨، ١١٩ والقليعي هو أحد وزراء عبدالله بن بلقين ومن المقربين له، تظاهر بالولاء والإخلاص للأمير عبدالله .. فأولاه ثقته ، ولكن القليعي كان حاقدا على الأمير عبدالله لأنه منعه من الإقامة في المدينة وألزمه الإقامة في ضيعته لما كان يرى من شره حسب قول الأمير عبدالله- فعمل القليعي على حياكة المؤامرات ضده، فأمر الأمير عبدالله بحبسه في بيت قرب قصره، ثم أمر بإطلاق سراحه بعد أن التزم له القليعي بالانضباط وعدم التدخل في الأمور التي لاتعنيه ، ولكن ما لبث أن اتصل بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وحبب إليه غزو الأندلس، ينظر المصدر أعلاه ص١١٨، ١١٩ ، ابن الخطيب/ الإحاطة ج١ ص١٤٩ .

١٥٣- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٤٩ ، محمد عنان / عصر المرابطين والموحدين ج١ ص٤١ ، ٤٤ .

١٥٤- نفس المرجع السابق ، والإمام الغزالي هو الإمام أبوحامد محمد، فقيه ومتكلم وفيلسوف ومصلح ديني واجتماعي له مصنفات كثيرة منها علم الكلام والجامع العوام من علم الكلام، الموسوعة العربية الميسرة ، أشرف على تحريرها محمد شفيق غربال، دار الشعب ص٢٥٤، للمزيد من ترجمته يرجع إلى المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر (١٠٠هـ. ١٣٧٠هـ) ، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، دار الحمامي للطباعة (ب.ط) ص١٢٦ .

١٥٥- أبوبكر الطرطوشي : هو أبوبكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي ، المعروف باسم أبي زندقة، ولد بطرطوشة (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) وتوفي بالاسكندرية ، ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، صاحب كتاب سراج الملوك. ابن بشكوال / الصلة ج٢ ص٥٧٥ رقم الترجمة ١٢٦٩ / الضبي/ بغية الملتمس رقم الترجمة ٢٩٥، ابن فرحون / الديباج المذهب ص٢٥٠، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنكليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم يشرف على تحريرها تحت رعاية الاتحاد الدولي للمجامع العربية هو تسمارفينستك وآخرون، النسخة العربية إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتاوي وعبد الحميد يونس، كتاب الشعب م٥ ص١٦٣ .

ابن خلكان / وفيات الأعيان م٤ ترجمة رقم ٦٠٥ ص٢٦٢، ٢٦٥ .

محمد بن جابر الوادى آشى الأصل التونسى مولداً، برنامج الوادى آش/ تحقيق محمد محفوظ . دار الغرب الإسلامى/ اثينا / بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص١١٧

١٥٦- ابن سارة الشنتريني: هو الأديب أبومحمد عبدالله بن سارة الشنتريني البكرى ، الشنتريني الأصل، نزل أشبيلية وسكنها ، تجول فى بلاد الأندلس شرقًا وغربًا للتعليم بالعربية، امتدح الولاة والرؤساء. ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٨٣٤ ، ابن الأبار/ التكملة ص٨١٦ ، ابن سعيد الأندلسى/ المغرب ج١ ص٢١٩ .

١٥٧- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٨٣٤ .

١٥٨- الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٤٤٥ .

١٥٩- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٤٣ ، ٢٤٥ ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٤٤٣ . عنان/ دول الطوائف ص٣٧٣ ، يذكر عنان فى كتابه دول الطوائف أن بقائهم استمر ٤٠ عاما .

١٦٠- الشريف الأدريسى / صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس عن كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الأدريسى نشر دوزى ودى خوية، ليدن (١٨٦٦م) ص٧٥ .

١٦١- الناصرى/ الاستقصاء ، ج٢ ص٧٣ ، عنان / عصر المرابطين والموحدين ج١ ص٤٢٥ .

١٦٢- القاضى أبوبكر بن العربى الإشبيلى انظر ترجمته فى حاشية ١٣٩ .

١٦٣- مؤلف مجهول (ينسب لابن الخطيب) الحلل الموشية ص١٠٥ .

١٦٤- المصدر السابق ص٥٩ .

١٦٥- الصيرفى : هو أبوبكر الصيرفى، من أكابر علماء غرناطة فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عمل وزيرا وكاتبا لأمير المرابطين محمد بن تاشفين والذى حكم الأندلس (٥٢٠-٥٣١) وألف كتابا فى تاريخ دولة المرابطين وهو (الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية) ابن الخطيب / الإحاطة ج١ ص١٠٨ .

١٦٦- ابن الخطيب/ الإحاطة م١ ص٤٤٨ ، م٤ ص٣٤٩، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٤ ص٧٩ ، ٨٠ .

١٦٧- المقرى/ نفح الطيب م٦ ص٢٣٧ .

د. عمر سالم عمر بابكور*

غوردون وسياسة إخلاء السودان

(١٣٠١-١٣٠٢هـ / ١٨٨٤-١٨٨٥م)

يعالج هذا البحث موضوع غوردون وسياسة إخلاء السودان، في فترة هامة من تاريخه الحديث . والمعروف عن غوردون أنه شخصية إنجليزية استقلت أولاً بإدارة مديرية خط الاستواء عن حكمدارية عموم السودان في عام ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م ثم بعد أربع سنوات أي في عام ١٢٩٤هـ عين حاكمًا عامًا للسودان. ولم يكن يرغب في أن تكون هناك صلة بين مصر والسودان. ولكنه عين حاكمًا عامًا على السودان في يناير ١٨٨٤ وتسلم غوردون في يوم تعيينه خطابًا من الخديوي يحدد له خطوط مهمته، وهي تنفيذ الجلاء عن البلاد وسحب القوات والموظفين المدنيين والسكان ممن يرغبون في العودة إلى مصر. ولم يكن إخلاء السودان سوى تنفيذ لخطة أعدتها إنجلترا منذ وقت طويل استهدفت خفض مصروفات مصر، وبذلك تتجنب إنجلترا أي تدخل أوربي فيها فضلا عن عزل السودان عن مصر .

وقد اعتمدت في هذا البحث على الوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بالقلعة فضلا عن - المنشورة وغير المنشورة- وتشمل الوثائق المراسلات المتبادلة بين الخديوي وحكمدار السودان متضمنة منشورات تحمل توجيهات الخديوي إلى حكمدار السودان.

---

* أستاذ مشارك - جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

كذلك اعتمدت على كثير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، وحاولت فى المراجع العربية أن أرجع إلى بعض المؤلفين الذين شهدوا أحوال السودان فى تلك الفترة حتى تكون أقوالهم أقرب إلى شاهد عيان، ومن هؤلاء نعوم شقير فى كتابه (تاريخ السودان القديم والحديث)، وكذلك مكى شبيكة فى كتابه (السودان فى قرن ١٨١٩-١٩١٩) حيث أوضح هؤلاء الكثير من النقاط الهامة والغامضة ، هذا بالإضافة إلى الكتاب الأخضر الذى أصدرته رئاسة مجلس الوزراء المصرى فى سنة ١٩٥٣م عن السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ م إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣م.

أما المصادر الأجنبية فمن أهمها :

LYTTON STRACHEY ., THE END OF GENERAL GORDON, 1888.

الذى يتحدث عن نهاية الجنرال غوردون. ويمتاز ستريتيش بالعمق فى دراسة الشخصية التاريخية وفهمها ، وهو يجتهد فى إبراز المتناقضات فى الشخصيات التى يعالج تاريخها وأوجه الضعف والشذوذ فيها هذا فضلا عن كتاب :

ALLEN, B. M., GORDON AND THE SUDAN, LONDON, 1931 .

الذى يصور غوردون فى صورة الطفل البرىء الذى لايعرف مكراً أو دسًا أو خديعة ولايعبأ بجاه أو مال.

كذلك عالجت فى هذا البحث موقف غوردون من تجارة الرقيق فى السودان، وبطبيعة الحال رحبت إنجلترا بهذه السياسة التى تثير الأهالى ضد المصريين. وكذلك حملة هيكس ونتائجها حيث أن هزيمة هكس كان لها أكبر الأثر فى موقف حكومته بالنسبة لمصر والسودان، حيث تقرر الانسحاب وتمكن بارنج من إقناع حكومته على تبنى سياسته التى تهدف إكراه الحكومة المصرية على إخلاء السودان، وذلك حتى تتهيأ الفرصة أمام إنجلترا لتحل محل مصر فى مديريتها المفقودة ، وبذلك تربط بين الممتلكات البريطانية بسلسلة من الأراضى فيما بين الكاب والقاهرة . ولهذا الغرض رفضت إنجلترا السماح لتركيا بالعمل للسيطرة على السودان بصفة مباشرة وقد أسندت مهمة الإخلاء إلى غوردون فى يناير ١٨٨٤م إلى أن توفى فى يناير ١٨٨٥م.

أولاً : موقف غوردون من تجارة الرقيق:

حدث بعد استقالة بيكر[١] فى عام ١٢٩٠هـ أغسطس ١٨٧٣م أن أشير على إسماعيل أن يستخدم إنجليزياً آخر هو شارلس جورج غوردون الذى طلب أن يستقل بإدارة مديرية خط الاستوا.[٢] عن حكمدارية عموم السودان . وقد استهل غوردون عمله بمعاكسة التيار الإسلامى وإطفاء شعلة الحضارة العربية التى تصاحب دائماً هذا التيار . ذلك أن أمتيسا ملك أوغندة كان قد أرسل إلى السلطات المصرية فى أعالى النيل- قبل ذهاب غوردون - يطلب منها إيفاد عالمين إسلاميين ليعلماه وشعبه الدين الإسلامى"[٣]. ولكن غوردون بادر عند توليته السلطة بإرسال بعثة إلى أمتيسا تحول دون اعتناقه الإسلام، وتحمله على الدخول فى المسيحية. واستطاع فعلا أن يحول أمتيسا إلى المسيحية[٤] وقد وجه ستانلى المقيم فى أوغندة خطاباً إلى مواطنيه يحثهم على إرسال البعثات التنصيرية لتحويل قبائل مجاهل أفريقيا إلى المسيحية، فبعث غوردون الخطاب إلى إنجلترا [٥]. وهكذا اتخذ غوردون من المسيحية وسيلة لخدمة الدول الاستعمارية ، ولما جاءت البعثة التنصيرية إلى أوغندة كانت تتكون من قسيس وضابط من البحرية وطبيب ومهندس معمارى ومهندس ميكانيكى وأستاذ ورجل زراعى واختصاصى فى بناء السفن ويتضح من هذا أنها كانت ذات مسحة استعمارية:

وفى عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م غادر غوردون لادو إلى القاهرة ثم إلى لندن ، وادعى أنه وضع حداً لتجارة الرقيق فى مديرية خط الاستواء ، وبقى . أن يضع لها حداً فى جميع أنحاء السودان. وكان غوردون يرغب فى شغل منصب الحاكم العام للسودان . وبالفعل عين غوردون فى ١٧ فبراير ١٨٧٧م حاكمًا عامًا بالسودان[٦] ولم يكن يرغب فى أن تكون صلة مصر بالسودان قوية ، فرأى أن يوقف العمل فى مد خط السكة الحديد بين مصر والسودان ٥٠ ميلاً جنوبى وادى حلفا، بحجة أن مالية السودان لاتسمح باستمرارها. ومن العجيب أن غوردون اتجهت نيته حينئذ أن يعطى دار فور لأحد أبناء السلاطين[٧] وفى هذه الآونة بالذات أعلنها غوردون حرباً شعواء على تجارة الرقيق فى السودان، وصارت لغته وأفعاله كلها مطبوعة بطابع العنف . وقال فى ٨ أغسطس ١٨٧٨ «أنى أوجه كل يوم ضربات مميتة ضد تجارة الرقيق ، وقد أنشأت من أجل ذلك نوعاً من حكومة الإرهاب» وبطبيعة الحال كانت إنجلترا مرتاحة لهذه السياسة المتشددة التى تثير الأهالى ضد المصريين ، فكتبت فى ١٣ نوفمبر ١٨٧٨م إلى لاسيل مدير القنصلية العامة فى القاهرة تكلفه بأن يعبر للخديو عن اغتباط الحكومة

الإنجليزية بالعمل الحازم الذى يقوم به غوردون ضد تجارة الرقيق. وكان لهذا العمل أسوأ النتائج فى أعالى النيل بالنسبة للمصريين وأفضلها بالنسبة للسياسة البريطانية[٨] ولم يكتف غوردون بالتنكيل بتجار الرقيق، بل أنه أتبع خطة لإذلال بعض ذوى النفوذ من السودانيين مثل سليمان بن الزبير، مما أحفظ السودانيين على الإدارة المصرية[٩].

ولست هنا بحاجة إلى أن أتناول أسباب الثورة المهدية بإسهاب إنما يكفى أن أقول أن سياسة بيكر وغوردون التى قدمت بعضها دفعت السودان إلى الثورة . وفى ذلك قال شاليه لونج فى كتابه «مصر وأملاكها الضائعة». «إن إدارة غوردون وبيكر هى التى أغضبت السودانيين وأثارت ثائرتهم ولاشك فى أن إنجلترا تركت النار تتقد ليكون لها فيه مبرر لإخراج مصر والحلو محلها »[١٠].

ومن الأمور التى تسترعى النظر أن الثورة العرابية والثورة المهدية قامتا فى وقت واحد، وكلاهما قام ضد استبداد الحكم والتدخل الأجنبى. فهل كانت هناك علاقات بين عرابى والمهدى؟ من الصعب الحكم على ذلك ولكن بعض المهديين أعلنوا تأييدهم لعرابى. مثل عثمان دقنة الذى كان يحقد بشدة على الإدارة التركية والإنجليزية ، ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده وميله إلى المهدى، وأعلن أنه كان ينوى تنصيبه حاكمًا عاما على السودان. ومن ناحية أخرى نجد أن المهدى ، كان يهدف إلى توحيد وادى النيل تحت زعامته كمقدمة لتوحيد العالم الإسلامى فى ظل المهدية. وكان هذا يعنى أنه يعتبر مصر والسودان أمة واحدة أو دولة يمكن توحيد عناصرها[١١] ولم يمض على الثورة المهدية عام واحد حتى حلّ الاحتلال البريطانى لمصر، وأصبحت الشئون المصرية فى خريف عام ١٨٨٢م فى يد الإنجليز، ومعنى ذلك أنه لم يعد هناك قانون إلا رغبتهم ولاسلطة غير سلطة جيشهم[١٢].

على أنه كان باستطاعة مصر أن تخمد الثورة فقام عبد القادر حلمى بمحاصرتها فى كردفان، وطلب المدد ليتمكن من إعادة النظام فى كل أنحاء السودان. ولكن وجود الإنجليز فى القاهرة لم يكن مما يسهل مهمة عبد القادر حلمى فى السودان ، أو مما يزيد هيبة الحكومة الخديوية فى أعين المهديين.

ثانيا : حملة هكس ونتائجها :

زحف هكس بجيشه[١٣] الذى يتكون من فلول جنود وصموا بالثورة فى حين كان زعماؤهم فى سجون القاهرة رهن المحا[illegible] . كان هؤلاء الجنود ينقلون بحالة سيئة إلى السويس حيث

يلقون فى البواخر وبعضهم قيدت أرجلهم بتولى رئاستهم جندى غريب عنهم بجهل طباعهم وأخلاقهم، ويختلف عنهم فى الدين والعقيدة[١٤] كذلك أخذ الجيش يهرب فى الصحراء بعيداً عن قاعدته فى الخرطوم وجنوده فى أسوأ حال وقيادتهم غير منسجمة وكان أن لقى هذا الجيش حتفه عند شيكان فى «نوفمبر ١٨٨٣م». وبينما كانت قوات المهدى تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هناك قوتان على الأقل على درجة ما من القوة أحداهما فى دار فور على رأسها سلاتين والثانية فى بحر الغزال ، يتولى قيادتهما لبتون بك. وقد يكون لهذه القوات شأنها فى تحسين الموقف وتخفيف حدته لو أن تنسيقًا تم فى صورة من الصور، تتضافر فيه جهود تلك القوات فى زحفها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه فى تخفيف الضغط الذى تعرضت له حملة هكس، ولكن هذا التنسيق لم يتم فلماذا ولمصلحة من؟

جاء فى تقرير مبعوث الخديو أن الحالة فى مديرية دارفور وبحر الغزال كانت على ما يرام، ولايعلم السر فى بقاء مديريهما فى موقف المتفرج . إن موقف المديرين جاء عن عمد، وكانت تحركات حملة هكس تتسرب إلى المهدى أولاً بأول . وذكر مبعوث الخديو أن وكيل القنصل الإنجليزى فى الخرطوم كان فى الأبيض يعمل فى معسكر الإمام المهدى[١٥] ولما تأكدت أنباء كارثة شيكان لدى سلاتين استسلم لمندوب المهدى فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصلت أنباء الكارثة إلى مديرية بحر الغزال وخط الاستواء، حيث كانت لها نتائج سيئة[١٦].

ولم تصل إلى القاهرة ولندن أخبار عن هكس طوال شهر سبتمبر وفى خلال تلك الفترة واصل السير إيفلين بارنج عمله إلى القاهرة لكى يحل محل السير أدوارد ماليت فى منصب القنصل العام البريطانى، وأخذ يستعد ليكون منها حقلاً لتجاربه ولينفذ بها جانبًا من السياسة الإنجليزية، وقد بدأ سير إيفلن بارنج عمله فى القاهرة بأن شكا إلى لندن أن مصروفات السودان تكون عبئًا ثقيلاً على كاهل الحكومة المصرية، وبذلك يكون قد انتقد سياسة الحكومة الخديوية فى النواحى المالية، ونسى أن مصر تدفع نفقات جيش الاحتلال فيها ، وكان يعيب علىّ حكومة مصر إنفاق جزء من ميزانيتها لمحاولة الاحتفاظ بسودانها [١٧]، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى يعرف فيه أن عودة الأمور إلى نصابها فى السودان، ستقضى على الخسارة التى تتكبدها الميزانية المصرية فى السودان، وبالتالى ستساعد على تحسين الحالة المالية المصرية[١٨].

وفي ١٩ نوفمبر طلب بارنج تعليمات محددة بشأن السياسة التي يتخذها حيال السودان، وقال أن الحكومة المصرية قلقة جداً بشأن مصير حملة هكس التي لم يصل عنها أنباء منذ شهرين[١٩] وهي تتوقع أنباء سيئة عنه، وأنه من المحتمل إذا هزم هكس أن تسقط الخرطوم في يد الثوار، وليس لدى الحكومة المصرية أي احتياطي لمواجهة هذه الحالة . بعد أن أرسلوا كل رجل قادر على حمل السلاح إلى السودان، ماعدا القوات التي تحت قيادة السير إيفلن وود والجنرال بيكر. وقال بارنج أنه يعتقد أنه من المحتمل أن تطلب الحكومة المصرية من حكومة صاحبة الجلالة أن ترسل قوات إنجليزية أو هندية ، فإذا هزم هكس فإنه من مصلحة الحكومة المصرية أن تقبل الواقع وتنسحب إلى نقطة على النيل يمكن الدفاع عنها. وأضاف أن الحكومة المصرية قد تطلب إرسال جزء من قوات الجنرال وود إلى السودان، ولكن بارنج أعتقد أن جيش الجنرال وود يجب إبقاؤه في مصر ، وذلك لقرب سحب جزء من قوات صاحبة الجلالة منها. وقد أجاب لورد جرانفيل على بارنج «إنا لانستطيع أن نرسل قوات إنجليزية أو هندية وأنه ليس من صالح مصر أن ترسل قوات تركية إلى السودان ولذا فأنصح بإخلاء السودان في حدود خاصة» وهكذا رأى بارنج أن الحكومة المصرية قد تعرض أحد الحلين السابقين، وعمل على قفل الباب أمامها في كل منهما وقال بارنج أني اعتبر نفسي مسئولاً لحد كبير عن سياسة الانسحاب من السودان، وتقع على حكومة مستر جلادستون مسئولية تنفيذ هذه السياسة [٢٠].

وفي ١٢ نوفمبر وصلت أنباء كارثة حملة هكس إلى القاهرة ، فأرسل بارنج إلى حكومته في اليوم التالي أن رد الفعل الأول للحكومة المصرية هو أن تأمر بالإنسحاب من المقاطعات الجنوبية والغربية للسودان، ولكنهم مصممون على محاولة الاحتفاظ بالخرطوم وإعادة فتح الطريق بين سواكن وبربر [٢١]. وأنهم يريدون إرسال قوة من ألفين من بلوكات النظام وستة آلاف من السودانيين من أجل الغرض الأخير. وأوصى بتأخير سحب القوات البريطانية من القاهرة . وأضاف أنه من رأى الذين في الخرطوم أنه من الصعب الاحتفاظ بالمدينة، وأنه من الضروري الانسحاب . وفي ٨ أغسطس ١٨٨٣م أبرق لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية إلى سير أدوارد مالت قنصل بريطانيا العام ومعتمدها بالقاهرة يقول : «لست في حاجة إلى أن أذكرك أن حكومة جلالة الملكة لاتتحمل أية مسئولية بالنسبة لسير الأمور في السودان... وأن سياستها تقوم على الامتناع بقدر الإمكان عن التدخل في عمل الحكومة المصرية في هذا البلد...»[٢٢].

وكان بارنج سياسياً ماكراً قديراً ، وكان من المهارة والدهاء بحيث لايفرض الحل على رجال حكومته ، بل كل يعرض أمامهم القضية ، بحيث لايجدون مفراً من الالتجاء إلى الحل الذى يهدف هو إليه فى الأصل. ورغم أنه كان يريد من حكومته تعليمات بإخلاء السودان، إلا أنه لم يشأ أن يطلب ذلك صراحة بل أشار إلى زن الاحتفاظ بالخرطوم كطلب الحكومة المصرية يتطلب :

أولاً : إما إرسال قوات بريطانية أو هندية لحفظ الأمن، ثم يشير إلى أنه يكره هذا الحل لأنه سيجعل حكومته تنغمس فى المسئولية عن أمور خارج مصر ذاتها. فضلاً عن أن شريف باشا نفسه كان يعترض على الاستعانة بهذه القوات، لأن ذلك يعد بمثابة تدخل من جانب المسيحيين، ومن شأنه أن يلهب حماسة قوة الحركة الدينية فى السودان. وهكذا قدم بارنج الاقتراح، وفى نفس الوقت قضى عليه قضاء نهائياً.

ثانيـاً : وإما ترك المصريين وشأنهم فى السودان اعتماداً على مواردهم ولكن هذا فى رأيه من المحتمل أن يعقبه سقوط الخرطوم واندلاع الثورة فى كل المناطق الواقعة إلى الشمال منها حتى حلفا ، مما يدعو إلى زيادة أعباء الإدارة فى مصر، وبالتالى زيادة الحامية البريطانية فيها وتأجيل الانسحاب النهائى منها... وهكذا مرة أخرى قضى على هذا الاقتراح قضاء مبرماً لأنه يعلم أن الفريق الذى يرأسه جلادستون فى الوزارة لايريد إطالة أمد الاحتلال .

ثالثًا : وأما الاستعانة بقوات عثمانية، وهذا الحل يميل إليه شريف لولا أنه يريد أن يتأكد من جلاء قوات السلطان بعد تهدئة البلاد ثم يقول بارنج «إنى شخصيًا أكره فكرة التدخل التركى ، فهل لديكم اقتراحا أقل سوءاً»[٢٣].

وشاء بارنج أن يرسل هذه البرقية بصفة شخصية، ليتظاهر بأنه لايريد إحراج الحكومة إذا أرسلها بالطريق الرسمى، وكان من الطبيعى أن يأتى رد لورد جرانفيل فى ١٣ ديسمبر كما هو متوقع ، فيقول:

«إن حكومة صاحبة الجلالة ليس فى نيتها استخدام قوات بريطانية أو هندية فى السودان ، وليس لدى حكومة صاحبة الجلالة أية اعتراضات على استخدام قوات تركية بشرط أن تسدد نفقاتها الحكومة التركية، وأن يقتصر استخدامها على السودان خاصة، وتكون قاعدتها فى سواكن ... ولاتستطيع حكومة صاحبة الجلالة أن توافق على زيادة الأعباء على الموارد المصرية بالصرف على العمليات عدا تلك التى تهدف إلى تأمين ارتداد الحاميات التى لاتزال تحتل

مراكزها فى السودان ... وأن حكومة صاحبة الجلالة توصى وزراء الخديوى بالوصول إلى قرار سريع للتخلى عن كل المناطق الواقعة جنوبى أسوان أو على الأقل وادى حلفا[٢٤] وأقدم بارنج فى ١٦ ديسمبر على إطلاع محمد شريف باشا فحوى هذه البرقية ، فأبدى شريف اعتراضاته عليها، ووعد بارنج بأن يعرض عليه آراء الحكومة المصرية فى مذكرة مكتوبة .

فى ٤ يناير ١٨٨٤ أبرق جرانفيل بتعليماته إلى بارنج، وتنص على أن الحكومة البريطانية لاتثير أى اعتراض على التجاء الخديوى إلى الباب العالى لطلب قوات لسواكن بشرط أن لايثقل ذلك كاهل الخزانة المصرية، أو يؤدى إلى تأخير الحكومة المصرية فى الوصول إلى قرار بالنسبة لتحركات قواتها داخل السودان، كما أن الحكومة البريطانية لاتمانع فى تسليم موانىء البحر الأحمر وشرق السودان للباب العالى، إذا ما رفضت تركيا إرسال قوات إلى السودان .

وطلب جرانفيل من بارنج أن يوضح للحكومة المصرية أهمية رسم سياسة لها بدون تأخير، وأن يلح على الخديوى ووزرائه بشدة «بأنه يجب أن تتوقف فى السودان كل العمليات العسكرية عدا تلك التى تستهدف إنقاذ الحاميات البعيدة «وأضافت المذكرة: أن حكومة صاحبة الجلالة لاتعتقد أن فى إمكان مصر الدفاع عن الخرطوم ، وهى إذ توصى بتركيز القوات المصرية، تود سحبها من الخرطوم فضلاً عن بقية أنحاء السودان[٢٥].

وبذلك يكون بارنج قد وفق فى حمل حكومته على تبنى سياسته التى تهدف إلى إكراه الحكومة المصرية إلى إخلاء السودان.

وبذلك وضحت نية بارنج فى أنه لايمانع فى تسليم موانى البحر الأحمر وشرق السودان إلى تركيا، إذ كان يهمه إنسحاب مصر من الخرطوم وبقية أنحاء السودان ولاعجب أنه حين عرض السفير التركى فى لندن على لورد جرانفيل أن يضع السلطان يده على السودان بشرط أن يخضع له مباشرة ، لم يقبل وزير الخارجية أن يدخل فى أية مناقشة حول هذا الموضوع[٢٦]. ذلك أن إنجلترا لم تفكر إطلاقا فى إبعاد مصر عن الخرطوم وبقية أنحاء السودان لكى تحل الدولة العلية محلها.

ولم يكن إخلاء السودان «سوى تنفيذاً لخطة أعدتها إنجلترا منذ وقت طويل وكانت تهدف إلى :

١- خفض مصروفات مصر، وبذلك تتجنب إنجلترا أى تدخل أوروبى فيها.

٢- عزل السودان عن مصر.

٣- تهيئة الفرصة أمام إنجلترا لتحل محل مصر فى مديرياتها المفقودة، وبذلك تربط بين الممتلكات البريطانية بسلسلة من الأراضى بين الكاب والقاهرة(٢٧).

وأبلغ دليل على ذلك أن إنجلترا رفضت السماح لتركيا بالعمل للسيطرة على السودان بصفة مباشرة(٢٨).

وأما أنه لم يكن لإنجلترا أية مصالح تجارية فهذا المستر فوكس F.W.Fox من رجال الاقتصاد والتجارة الإنجليز يقترح فى ١٨٨٧م تأسيس شركة على شاطىء البحر الأحمر، وإنشاء موانىء ومصانع إلى الشمال والجنوب من سواكن على غرار الشركات الإنجليزية الأخرى فى مستعمرات جنوب أفريقيا والنيجر وشرق أفريقيا ، ثم يمد خط حديدى بين سواكن وبربر، على أن يمتد عقب ذلك إلى نقط أخرى أبعد من ذلك، لفتح أبواب السودان للتجارة مع أوربا. وتضيف (التيمس) إلى ذلك فى عددها الصادر فى ٣ يونيو ١٨٨٧ بعد أن عددت مصادر الثروة فى السودان ويسود الاعتقاد أنه ما أن يداوم السكان على صلتهم بالمنتجات والموارد من البلدان المتحضرة حتى يعتادون عليها بعد أن كانت بالنسبة لهم من الكماليات التى لاسبيل إليها (٩).

وفى الوقت نفسه كان العنصر الاستعمارى يلعب دوره بمهارة ، فلما كان لورد ولزلى رئيس أركان الجيش صديقًا قديمًا لغوردون ، فقد أبرق إليه فى ١٢ يناير يطلب منه القدوم إلى لندن ومقابلته فى وزارة الحربية. وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٥ يناير ، قابل غوردون ولزلى الذى سأله ما إذا كان على استعداد للذهاب إلى سواكن ليستفسر عن أحوال السودان.

فقدم غوردون خطة مؤداها أن يذهب إلى سواكن، ويقدم تقريراً عن الوضع العسكرى فى السودان ثم يعود، وأن يتلقى أوامره من بارنج وأنه يكون معلوما أن الحكومة لاتطلب منه أكثر من أن يقدم تقريراً وأنها ليست مرتبطة معه بأية حال من الأحوال (٣٠).

وأودع هارتنجتون ذلك كله مذكرة قدمها إلى جرانفيل فى نفس اليوم وأكد ضرورة التعجيل بها(٣١).

ودون أن ينتظر جرانفيل ، رد جلادستون على برقيته المؤرخة فى ١٤ يناير والتى يطلب فيها منه الموافقة على الضغط على بارنج لقبول غوردون ، أبرق إلى بارنج فى نفس اليوم -وهو ١٥ يناير الذى حدثت فيه مقابلة ولزلى وغوردون وتقديم مذكرة هارتنجتون - يقول إنه

وصل إلى مسامعه أن غوردون على استعداد للذهاب فوراً إلى سواكن دون المرور بالقاهرة ، وأن مهمته سوف تقتصر على أن يقدم تقريراً لحكومة صاحبة الجلالة عن الموقف العسكري في السودان، ويعود دون أي عمل آخر وأضاف «أنه ربما كان من المفيد إبلاغنا وإبلاغكم عن الموقف، فإن ذلك من شأنه أن يرضى الرأى العام البريطاني وختم برقيته بأن طلب منه رأيه(٣٢).

وقد حرص جرانفيل على أن يبعث هذه البرقية بصفة شخصية، ربما لأن جلادستون لم يكن قد وافق رسمياً على اقتراح جرانفيل في ١٤ يناير .

وجاءت موافقة جلادستون في برقيته إلى جرانفيل في ١٦ يناير ، وهي مشوبة بتحفظات على جانب كبير من الأهمية فقد جاء فيها «إذا كان على غوردون أن يقدم تقريراً بما يجب عمله، فينبغي ألايكون هو المسئول عن عمل ذلك ، أو يحملنا عليه بأن يقدم لنا النصيحة بصفة رسمية إذ يكون من الصعوبة بمكان عندئذ بعد أن أرسلناه رفض مثل هذه النصيحة، ولذلك فإني أعتقد أنه يجب أن يكون واضحاً أنه ليس منا أو نائباً عنا ليقدم لنا النصح حول هذه النقطة»(٣٣).

وكان رأى جلادستون واضحاً تماماً في ذهن غردون ، بدليل أنه كتب إلى شقيقته أوجستا في نفس اليوم (١٦ يناير) يقول أن هناك فرصة للذهاب إلى السودان، ولكن ليس بصفة حاكم عام، إنما كقائد عسكري ليقدم تقريراً عن الأحوال هناك(٣٤).

وهكذا، فرغم موافقة جلادستون ، كان من الواضح أنه مصمم على ألا ترتبط حكومته بشيء، وألايتزلق إلى الانغماس في الشئون السودانية ، وهي الخطة التي كان يرسمها بمهارة العنصر الاستعماري برئاسة هارتنجتون . وإذا كانت مهمة غوردون قد تحولت فيما بعد من (التقرير) إلى (التنفيذ) فإن جلادستون لم يستطع أن يتخلص من العقدة التي تسلطت عليه منذ البداية، وهي أن غوردون لم يلق بالاً إلى تعليماته(٣٥).

وفي تلك الأثناء كان بارنج في القاهرة ، قد فشل في إقناع عبد القادر باشا حلمي وزير الحربية بأن يتولى مهمة إخلاء السودان. ذلك أن الضابط المصري فكر في الصعوبات التي تتصل بهذه العملية، وقرر أنه نظراً لوجود الآف من الجنود والمدنيين هناك فإن ذلك يتطلب آلاف من الإبل لتنقلهم عبر الصحراء، وأن تنفيذ هذه المهمة يستغرق ما بين سبعة أشهر وعام كامل(٣٦).

ولما علم بأنه فى النية إعلان عزم الحكومة على التخلى عن السودان قال أن مثل هذا الإعلان من شأنه أن يجعله بلا حول ولاقوة، ورفض القيام بهذه المهمة، وكان حسين باشا خليفة مدير بربر قد قدم تحذيراً مماثلاً عن المصاعب الطبيعية التى تتصل بعملية الإخلاء(٣٧).

لذلك اضطر بارنج فى ١٦ يناير إلى أن يبرق إلى حكومته بأن الحكومة المصرية تكون شاكرة لو أن حكومة جلالة الملكة أوفدت فوراً ضابطًا بريطانيًا مؤهلاً للذهاب إلى الخرطوم ومعه سلطات مدنية وعسكرية كاملة ليتولى أمر الانسحاب(٣٨).

وبعد إرسال هذه البرقية بدقائق ، وصلت برقية جرانفيل التى صدرت من لندن الليلة السابقة، والتى تعرض عليها خدمات غوردون ، على شرط أن يقتصر عمله على مجرد التحقيق فى سواكن. وبدأ لبارنج- كما يقول- أنه الوحيد فى مصر وإنجلترا الذى يعترض على غوردون وشعر أنه لابد مخطىء فى ذلك الاعتراض(٣٩).

لهذا فإنه فى الساعة الحادية عشر والدقيقة الخامسة والأربعين يوم ١٦ يناير أى بعد خمس وأربعين دقيقة من إرسال برقيته الأولى أجاب على برقية جرانفيل بما يلى:

«إن الجنرال غوردون أفضل شخص يقوم بتنفيذ سياسة الانسحاب من السودان بأسرع ما يمكن ، وينبغى عليه أن يفهم تمامًا أنه يجب أن يتلقى تعليماته من المعتمد البريطانى فى مصر ويقدم تقريره إليه. وأنى أفضله على أى شخص آخر بشرط أن يكون على بينة مما سوف يكون عليه موقفه، ومن الخطة السياسية التى سوف ينفذها (٤٠).

وفى نفس الوقت أسرع غوردون إلى بروكسل لينال موافقة ليوبولد ملك البلجيك على تأجيل مشروع الكونجو ، واستدعاء ولزلى برقيًا فى ١٧ يناير. وفى اليوم التالى تمت المقابلة الهامة فى وزارة الحربية بين غوردون وبعض الوزراء. ولم يحضر الاجتماع جلادستون، وإن كان قد أحيط علماً به.

ولو أن جلادستون أطلع على التعليمات التى وردت فى هذا الاجتماع لما وافق عليها ، لأنها تتعارض مع ما جاء فى برقيته إلى جرانفيل المؤرخة فى ١٦ يناير: فقد ورد فى التعليمات التى صدرت لغوردون وبارنج أن غوردون سوف يسافر تلك الليلة إلى مصر ويصحبته اللفتنانت كولونيل ستيوارت «ليقدم تقريراً إلى حكومة صاحبة الجلالة عن الوضع العسكرى فى السودان وعن الإجراءات التى ينبغى اتخاذها لتأمين سلامة الحاميات المصرية التى لاتزال محتفظة

بمواقعها فى هذه البلاد » وأضيفت إلى هذه التعليمات فقرة أدت فيما بعد إلى متاعب عديدة، وإن كان البعض يعتقد أنها وضعت ضمن التعليمات استجابة لطلب افلن بارنج بإرسال ضابط بريطانى مؤهل إلى الخرطوم يتمتع بسلطات مدنية وعسكرية كاملة ليتولى أمر الانسحاب[٤١].

وكان أن وصل غوردون إلى القاهرة فى ٢٤ يناير ١٨٨٤، وبعد يومين (٢٦ يناير) عين حاكماً عاماً على السودان . ومن المصادفات العجيبة أنه قتل فى الخرطوم فى نفس اليوم من العام التالى (٢٦ يناير ١٨٨٥) . وتسلم غوردون فى يوم تعيينه خطاباً من الخديوى يحدد له خطوط مهمته، وهى تنفيذ الجلاء عن البلاد وسحب القوات والموظفين المدنيين والسكان ممن يرغبون فى العودة إلى مصر، واتخاذ الخطوات اللازمة لإعادة الاستقلال السابق لعائلات ملوك السودان[٤٢].

واستند بارنج فى تغيير مهمة غوردون إلى الفقرة الواردة فى برقية جرانفيل إليه فى ١٨ يناير والتى تنص على «أن يقوم غوردون بأية مهام أخرى قد تسندها إليه الحكومة المصرية والتى سوف تعرض عليه عن طريق بارنج[٤٣].

وكان لهذه البرقية التى بعث بها بارنج فى ٢٨ يناير وقع سىء على الوزارة البريطانية، وبصفة خاصة على الرئيس جلادستون وبعض الأعضاء، الذين فيما يبدو كانوا لايزالون على اعتقادهم بأن مهمة غوردون استشارية . لذلك وجهوا اللوم القاسى لبارنج ، وقالوا أن حكومة جلالة الملكة وهى تضع فى ذهنها هذه الحالة الاضطرارية لايسعها إلا الموافقة على الأوامر التى فى الحقيقة غيرت مهمة الجنرال غوردون من أن تكون مجرد تقديم النصح إلى أن تصبح تنفيذية ، أو على الأقل مباشرة الجلاء.. لا عن الخرطوم وحدها بل عن السودان كله [٤٤]. وقيل أن مهمة غوردون قد تغيرت فى المؤتمر الذى عقد بين نوبار وبارنج[٤٥].

وقد دافع بارنج عن نفسه بعد أكثر من عشرين عاماً فى خطاب بعث به إلى جريدة (التيمس) ونشر فى ٩ نوفمبر ١٩٠٥م. وفيه وضع أمام الرأى العام البرقية التى وجهها إليه لورد جرانفيل فى ٢٣ يناير ١٨٨٤ حين كان غوردون فى طريقه من لندن إلى القاهرة، واشتملت البرقية على ستة اقتراحات لغوردون حول الخطوات الواجب اتخاذها بإزاء الأوضاع فى السودان، منها اقتراح بأن يصدر الخديوى مرسوماً إلى شعوب السودان يتضمن هذه العبارة «وقد وكلت الجنرال غوردون الحاكم العام السابق للسودان أن يتوجه إليه كنائب عنى ولكى

يرتب معكم الجلاء عن البلاد وسحب القوات، وأن حكومة جلالة الملكة وهى شديدة الاهتمام برفاهيتكم ، قد عينت أيضًا الجنرال غوردون نائبًا عنها لنفس الغرض ولذلك فإن الجنرال غوردون قد عين حاكمًا عامًا للوقت اللازم لإنجاز الجلاء».

ثم قال جرانفيل «ليس لدى حكومة جلالة الملكة معرفة كافية تمكنها من تكوين فكرة عن مدى الناحية العملية فى هذه المقترحات ، ولذلك فأنى أصرح لك نظرًا لأن الوقت ثمين إما أن تعمل الترتيبات المقترحة فورًا أو أن تنتظر وصول الجنرال غوردون للتشاور معه حول الإجراء الذى يتخذ».

ثم يرد بارنج التهمة عن نفسه فيقول : «ولو أننى وافقت موافقة تامة على تبديل تعليمات غوردون، فإن الاقتراح بالتبديل لم يصدر منى أو فى الحقيقة من أى شخص فى القاهرة»(٤٦) ثم يختتم دفاعه بقوله «وقد بدا لى فى ذلك الوقت بالنسبة للبرقية المؤرخة فى ٢٢ يناير، أن لى الحق كله فى أن افترض أن حكومة جلالة الملكة قد وافقت على تغيير واجبات غوردون بمعنى يجعل منها واجبات تنفيذية لامجرد واجبات استشارية»(٤٧).

وغادر غوردون القاهرة فى ٢٦ يناير ١٨٨٤ وبصحبته الكولونيل ستيوارت الذى كان أحدث خبرة بشئون السودان. وكان بارنج يشعر أن ستيوارت هذا أقدر على معالجة الأمور من غوردون. وكان هناك عضو نائب هو الأمير الغورى عبد الشكور بن عبد الرحمن – وكان فى مصر ثم عين سلطانًا على دارفور تنفيذًا لسياسة غوردون التى تقضى برد السودان إلى العلاقات الحاكمة القديمة، أى أن غوردون لم يكن يريد الانسحاب من السودان بل يتوق لأن ينظم البلاد لمستقبل قادم . وقد جاءوا بعبد الشكور هذا وهو لايفيق من السكر ، وألبسوه كسوة التشريفة المرصعة بالأوسمة والنياشين، ثم أركبوه القطار مع غوردون مع عدد كبير من زوجاته ، فكان مثارًا للضحك والسخرية، واشتبك مع غوردون، فخلفه وراءه فى أسوان. وهكذا يتجاهل غوردون السلطة الشرعية فى البلاد ، ثم أخذ يبحث عن بقايا الأسر الحاكمة من هذا النوع ويعيدها إلى السودان.

وتوقف غوردون فى بربر فى ١١ فبراير حيث كشف أمام طائفة من الأعيان عن نية الحكومة الانسحاب من السودان، وانتشر الخبر بسرعة البرق، ونجمت عنه أوخم العواقب، فإن المهدى لابد قد علم نية الحكومة، فليس من المستبعد أن يكون قد بادر بسؤال زعماء القبائل الذين كانوا لايزالون مترددين فى الانضمام إليه ما إذا كان يجب عليهم تأييد حكومة تعد العدة للتخلى عنهم .

وكانت النتيجة الحتمية أن القبائل التى باتت تخشى نقمة المهدى فى حالة انسحاب الحكومة - تحولت للقضية المهدية[٤٨].

وفى المتمة أكد غوردون نية الحكومة فى رد سعد أمير الجعليين فانضم للمهدية، إذ كيف يبقى على ولائه لحكومة تخلت عنه [٤٩].

ويدافع البعض عن هذا التصرف فيقول أن غوردون قد كشف عن مهمته منذ البداية حتى لايعلق الناس على قدومه آمالاً كاذبة ، فيتهم بعد ذلك بالغش والخداع حين يبدأ الإخلاء[٥٠].

وحيثما تجمع الناس بين بربر والخرطوم ، وزعت عليهم مناشير تعلن إلغاء تحرير الرقيق وتخفيض الضرائب وقيام الحكم الذاتى. وبدأ واضحًا أمام غوردون وستيوارت أن الناس يرحبون بإلغاء تحرير الرقيق. ولم يهتموا كثيراً بالمناشير الأخرى حتى تلك التى تبشرهم بأنهم سوف يحكمون أنفسهم[٥١].

وقد أيدت (التيمس) غوردون فى هذا الإجراء ، وقالت أنه لم يكن هناك سوى الاختيار بين تحمل الرقيق لبعض الوقت، أو التضحية بالحاميات المبعثرة[٥٢] وقد وصف (ستيوارت) هذا الإعلان بأنه قفزة فى الظلام. ومع ذلك يحلو لبعض من نصبوا أنفسهم للدفاع عن غوردون وأعماله أن يعلل هذا العمل الأخرق بأنه لما رأى غوردون ما حل بالإدارة المصرية بعد هزيمة فالنتين بيكر فى شرق السودان، والتى ترتب عليها تعزيز مركز المهدية ، أراد أن يستميل إليه زعماء القبائل بالكشف عن الوثيقة وما يتبعها من مزايا سياسية بالنسبة إليهم، فيمنعهم من الانضمام للمهدية [٥٣].

ولست أدرى أية «مزايا سياسية» يمكن أن ينالها الناس من حكومة قررت أن تتركهم وشأنهم، مع أن غوردون نفسه فى مقابلته مع المستر (ستيد) محرر الجازيت، كان يرى أنه بمجرد إعلان الإخلاء ، فإن كل رجل سوف ينضم إلى المهدى[٥٤].

وما أن وصل غوردون إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ حتى أمطر سير افلين بارنج بوابل من البرقيات ، فالرجل الذى غادر انجلترا منذ شهر يحمل تعليمات بأن يقدم تقريراً عن أفضل الوسائل لتنفيذ الجلاء عن السودان وبدأ يتكلم صراحة عن القضاء على المهدى بمعاونة قوات بريطانية وهندية»[٥٥].

وقال سير تشارلز ديلك أن غوردون لابد قد جن كما حدث له فى مناسبات حرجة أخرى فى حياته [٥٦]

وقد يبدو ذلك التطور الغريب فى موقف غوردون فى نظر الوزير الإنجليزى جنونًا ، ولكن هذا الموقف الجديد يتفق فى كل تفصيلاته مع الآراء التى سبق أن أدلى بها غوردون لمحرر الجازيت.

بل أن غوردون وهو فى كورسكو فى طريقه إلى الخرطوم، كتب إلى بارنج فى أول فبراير ١٨٨٤م يطلب منه إبلاغ وزارة الخارجية أنه طلب من ليوبولد ملك البلجيك أن يضع يده على مديريتى بحر الغزال وخط الاستواء ، وتعيينه حاكمًا عليهما ، ولكن جرانفيل رفض السماح له بالذهاب إلى أبعد من الخرطوم(٥٧) وهكذا كان غوردون يتصرف فى أملاك مصر كأنما هى ضيعة ورثها عن أجداده أو أقطعتها إياه دولته .

ولم يقتصر هذا التطوير الغريب على موقف غوردون فى الخرطوم بل تعداه إلى موقف الحكومة الإنجليزية ذاتها .

ويتصل هذا بالموقف فى شرق السودان حيث قاد الثورة ضد الحكومة عثمان بن أبى بكر دقنه، وأصله من عائلة كبيرة تعمل فى تجارة الرقيق وتدعى الانتساب لأصول كرديه.. وقد ولد عثمان حوالى ١٨٤٠ وعمل بالتجارة بين سواكن وجده إلا أن الحكومة ألحقت إضرارٌ به وبتجارته غير المشروعة ، فقبض عليه مع اثنين من أشقائه وألقى بهم فى السجن. وعاد عثمان إلى سواكن ليجد أن ثروة العائلة كلها قد ضاعت ، فاشتد حقده على الحكومة وحاول بالفعل إثارة بعض الاضطرابات أيام الأزمة العرابية فى مصر، فلم يفلح.

فلما نشبت ثورة محمد أحمد، وجد فيها بغيته، وتوجه إلى الأبيض وهناك قابل محمد أحمد الذى عول على الانتفاع بخدماته فى شرقى السودان، فزوده ببعض الكتب إلى مشايخ البلاد - من هدندوة وبشاريين وأمرار- يدعوهم فيها لنصرة الدين والقيام مع عامله عثمان دقنة لمحاربة الترك والجهاد فى سبيل الله(٥٨) .

وكان أهالى شرق السودان وقتئذ موزعين بين طريقتين دينيتين رئيسيتين : الطريقة الختمية والطريقة المجذوبية. ونظرًا للرعاية التى كانت تسبغها الحكومة على الطريقة الأولى، كان من الطبيعى أن يميل أنصار الطريقة الأخرى إلى تأييد المهدى إذا بدت أقل بادرة تنبىء عن نجاح قدرته. وكان عثمان نفسه ينتمى إلى الطريقة المجذوبية فلقى تأييدًا من الشيخ الطاهر المجذوب الذى دعا أتباع الطريقة- وهم قبيلة الهدندوة- إلى تأييد عثمان وتعضيده ، وأقسم الشيخ يمين الولاء للمهدية.

وحاول عثمان أن يستميل إليه الميرغنية أتباع الطريقة الختمية، فلم يفلح ولما سمع محمد بك توفيق محافظ سواكن بخبر عثمان خرج إلى سنكات وعمل على تحصينها وتمكن من صد عثمان عنها فى ١٥ أغسطس ١٨٨٣ بعد معركة عنيفة جرح فيها عثمان نفسه.

ولكن عثمان لم يتطرق اليأس إلى قلبه، فتسرب الحصار على سنكات وعلى طوكر وهى تقع على مسافة عشرين ميلاً من الساحل فى دلتا خور بركة ، وواحدة من أهم مصادر الغلال فى السودان الشرقى.

وفى ذلك الوقت انفصل سليمان باشا نيازى عن قيادة حملة هيكس وعين حاكماً عاماً على السودان الشرقى فأرسل قوة من خمسمائة جندى لرفع الحصار عن طوكر بقيادة محمد باشا طاهر، وصحب الحملة المستر مونكريف (Moncrieff) القنصل الإنجليزى فى سواكن. ولكن القوة تمزقت أربا وقتل مونكريف وعاد طاهر باشا إلى سواكن، وذلك فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ أى فى نفس اليوم الذى وقعت فيه مذبحة شيكان. كما تمزقت قوة أخرى أرسلها نيازى لرفع الحصار عن سنكات فى أول صفر ١٣٠١ (٢ ديسمبر ١٨٨٣) وأعقب ذلك قطع طريق بربر- سواكن [٥٩].

وفى ٢٣ نوفمبر ١٨٨٣، أبرق بارنج إلى جرانفيل أن هناك نية لإرسال فالنتين بيكر باشا على رأس قوة لفتح طريق بربر- سواكن- ومد يد المعونه إلى الحاميات فى الداخل بعد أن دب فيها الفزع بسبب هزيمة هيكس[٦٠].

وأصل هذه القوة من الشرطة ، تختلط فيها العناصر التركية ببقايا الجيش العرابى القديم، وقد سافرت إلى السودان وسط عويل الأهالى حتى اضطر بيكر باشا إزاء هذا الموقف الذى يثبط عزائم الجند إلى أن يأمر القطار بالتحرك قبل موعده، فتخلف عنه الجنرال سارتوريوس، أحد قواد الحملة [٦١].

وكانت قوة على جانب كبير من سوء النظام وقلة الدراية بالفنون العسكرية[٦٢] وساد الخلاف بين الضباط المصريين والسودانيين ، كما أن الجنود كانوا قد تطوعوا أصلاً للعمل فى الشرطة ولم يدر بخلدهم أنهم سيرحلون إلى السودان ، إذ كان المقصود أن يحاربوا قوات البدو التى كانت تغير على أطراف الدلتا [٦٣].

وخرجت قوة بيكر من سواكن فى محاولة لرفع الحصار عن سنكات وطوكر. وكان طبيعياً أن

لحل بها هزيمة ساحقة ، فرت على أثرها إلى ترينكيتات ثم إلى سواكن. وأعقب ذلك سقوط سنكات فى يد عثمان دقنه مما أدى إلى شدة الفزع فى سواكن ، كما أن الشعور العام فى انجلترا بدأ يطالب بالانتقام . وعقدت الوزارة البريطانية اجتماعين فى ٦ فبراير، تقرر على أثرهما إرسال قوات البحرية إلى سواكن ، وأشار المستشاران العسكريان للحكومة وهما لورد ولزلى ودوق كمبردج بإرسال حملة بريطانية إلى سواكن لتوقع الهزيمة بأية قوة عربية قد تحاول حصار المدينة.

وأدرك جلادستون أن مثل هذا العمل من شأنه أن يغير بصفة أساسية من موقف انجلترا فى السودان(٦٤) فى حين أن الملكة أيدت إرسال هذه الحملة «وإلا صار من المستحيل إقناع المسلمين أنهم لم يهزمونا » وطلبت النظر بعين الاعتبار فى خطة لورد ولزلى(٦٥).

ووجد الجانب الاستعمارى فى هذه الهزائم بغيته . وبالفعل قررت الوزارة فى ١٢ فبراير - رغم معارضة جلادستون وبارنج - إرسال حملة إلى سواكن ، لإنقاذ الحاميات الباقية لحماية المدينة ، على أن يرأس الحملة سير جرالد جراهام .

ووقف هارتنجتون فى المجلس بعد أسبوعين فقط من مغادرة غوردون للقاهرة يعلن أن هذا الإجراء لايعد بمثابة تدخل فى السودان، لأن منطقة البحر الأحمر قد تعد من الناحية الفنية جزءًا من السودان، فى حين أنها من الناحية العملية يمكن أن تعد منفصلة عنه تمامًا. وعلق البعض على تصريح هارتنجتون بقوله «لست أدرى هل صرح بذلك ليقنع أعضاء البرلمان أو ليقنع فوق ذلك رئيسه جلادستون(٦٦) .

وسخرت (التيمس) من هذا القرار فقالت : أن الجنرال غوردون فى الخرطوم يقدم عروضًا للسلام والحرية باسم انجلترا إلى الشعب الذى سوف يعمل الجنرال جراهام السيف فى أقربائه فى ترينكينات(٦٧).

ولما وصل جراهام إلى سواكن كان أول نبأ بلغه هو سقوط طوكر التى أتى لرفع الحصار عنها(٦٨).

ورغم أن جراهام أنزل بقوات عثمان دقنه هزيمتين كبيرتين إلا أنه لم تبد أية بادرة على استسلام عثمان الذى انسحب داخل المرتفعات . ورأى جراهام ضرورة توجيه ضربة ثالثة للقضاء عليه قضاء مبرمًا فطلب الإذن من وزير الحربية للتقدم نحو سنكات ووافقت الوزارة

على ذلك[٦٩] ولكن جراهام طالب أيضا أن تتقدم فصيلة من قواته إلى (هندوب) لاستطلاع طريق بربر.

وارتاع جلادستون لهذا الاقتراح، فقد بدأ واضحًا له أن الحكومة قد انغمست رغم أنفها فى سياسة التدخل والغزو، وبدأ واضحًا أيضًا أن العنصر الاستعمارى فى الوزارة قد أوشك على بلوغ مآربه، وتصادف أن وصلت برقية جراهام مع طلب غردون المفاجىء إرسال قوات بريطانية وهندية للقضاء على المهدى[٧٠]. بل لقد طلب أيضًا إرسال الزبير باشا ليحل محل السلاطين السابقين للسودان، الذين أثبتوا أنه لافائدة ترجى من ورائهم . وكان قد سبق لغوردون أن أبرق إلى بارنج من أبوحمد وهو فى طريقه إلى الخرطوم، أن الزبير هو أنسب شخص ليكون حكمداراً عامًا على السودان إذا أردنا أن يسود الهدوء فى البلاد[٧١].

وكان بارنج أيضًا يؤيد إرسال الزبير، ولايعتقد أن تعيينه يمكن أن يؤثر فى مسألة الرق[٧٢].

وكانت خطة غوردون أنه بعد القضاء على المهدى، يمكن أن يحكم الزبير السودان على أساس أن يتمتع بحماية دولة خارجية، وهذه الدولة إما أن تكون مصر أو تركيا أو بريطانيا ، وسوف تكون السيادة لها بصفة اسمية دون أى التزامات من ناحية الأموال أو الجنود أو المسئولية . ولما كانت مصر وتركيا فى نظر غوردون لا تصلحان للقيام بهذا الدور، فقد رأى غوردون أنه يمكن لبريطانيا أن تلعب هذا الدور، أى يكون الزبير فى وضع مماثل لوضع أمير أفغانستان الذى يتلقى من بريطانيا معونة أدبية . وأيده بارنج فى ذلك[٧٣].

وهكذا أصبح الوضع أمام الوزارة البريطانية ينحصر فى : هل يوافقون على إرسال الزبير وتعزيز قوات جراهام والقضاء على المهدى؟

أما بخصوص إرسال الزبير ، فرغم موافقة بارنج وتأييده الشديد[٧٤] له ، فإن الوزارة لم يسعها الموافقة على إرسال رجل سبق لغوردون نفسه أن وصفه بأنه «أكبر تاجر للرقيق ظهر فى الوجود » كى يحكم السودان تحت السيادة البريطانية. أضف إلى ذلك أن جلادستون رأى أن انسحاب القوات المصرية من السودان يترك البلاد من حق الأتراك قانونًا (De Jure)، وهذا ما تجاهله كل من بارنج وغوردون، هذا فضلا عن أن الوزارة كانت منقسمة على نفسها إزاء هذه المسألة . فإن (ديلك) كان يرى أنه لو عرضت الحكومة تعيين الزبير، فإن جماعة مكافحة الرق (Anti-Slavery Society) ، يمكنها مع المحافظين قلب الوزارة فى مجلس العموم[٧٥].

وفى أثناء هذا التردد الذى ساد موقف الوزارة ، أقدم غوردون على خطوة خطيرة، فإنه لم يعد يحتمل تأخير الحكومة، فانفجر فى إحدى ثورات غضبه يعلن عن طلبه الزبير إلى (فراد باور) مراسل (التيمس) فى الخرطوم وقنصل انجلترا بها . وكان طلب إرسال الزبير قد بقى حتى الآن -رسميا- فى طى الكتمان. ويبدو أن غوردون قدر أن إعلان هذه المسألة من شأنه أن يجبر الحكومة على النزول على طلبه .

وإذا كان هذا ما دار بذهنه فعلاً ، فإنه يكون قد أخطأ خطأ كبيراً، فإن بلاده التى لم تكن هضمت بعد مسألة إباحة الرق، لم يكن من المتوقع أن تبتلع مسألة إرسال الزبير، فازداد تشدد موقف جماعة مكافحة الرق.

وقررت الوزارة فى النهاية ضرورة إبقاء الزبير فى القاهرة، لأن الرأى العام لايحتمل تعيين الزبير[٧٦]. ويقول البعض أن الرأى العام البريطانى كان يفضل كثيراً أن تستمر الفوضى وتجارة الرقيق فى السودان على أن يقضى عليها حاكم كان أصلا من تجار الرقيق[٧٧].

وهكذا بدا أن الموجة الاستعمارية التى كانت قد علت، لم تصل إلى الحد الكافى، بل لقد بدا أنها فى طريق الانحسار. وكانت الخطوة التالية حاسمة للغاية فقد اعترض (هاركورت Harcourt) أحد أعضاء الوزراء على توسيع نطاق عمليات جراهام العسكرية، وفعلاً قررت الوزارة إبلاغ القائد بأنها لاتنوى إرسال قواتها إلى بربر، وأن عمله ينبغى أن يقتصر على تهدئة المنطقة الواقعة حول سواكن، وإعادة المواصلات مع بربر بوسائل سلمية عن طريق الاستعانة بالقبائل الصديقة، وأن عليه أن يستعد للإبحار سريعًا مع قواته[٧٨].

وترتب على هذا الإنسحاب نتائج بالغة الخطورة ، فقد بدت القوات الإنجليزية فى نظر المهديين عاجزة عن أن تحقق نصراً مؤزراً عليهم، الأمر الذى انتهى بالقبائل النازلة بالشمال والشمال الشرقى من الخرطوم إلى أن تتخلى عن ترددها السابق، وتعلن انضمامها لجانب المهدى، فقامت بقطع خطوط المواصلات وبات من المستحيل سحب الأهالى أو الحاميات .

وكان أن غدت المشكلة تنحصر فى «كيفية الخروج بغوردون وستيوارت من الخرطوم[٧٩]»، وكانت الوزارة البريطانية بعد اجتماعها فى ١١ مارس قد أبلغت بارنج فى برقية ١٣ مارس أنه لايسعها الموافقة على إرسال الزبير أو إرسال القوات الإنجليزية إلى بربر[٨٠].

وصادفت هذه الأنباء تحرج موقف غوردون فى الخرطوم «ففى ١٢ مارس تم قطع خط البرق بين الخرطوم وبربر ، وظهرت تجمعات المهديين بقيادة الشيخ العبيد وأولاده والشيخ المضوى

عبد الرحمن - عند الحلفاية ، وطردت قوات الحكومة منها . وفشل غوردون مرتين فى استردادها . ولم يعقب ذلك أى هجوم من جانب الثوار بعد هذين الانتصارين[٨١] انتظاراً لتعليمات المهدى. وكان قد أرسل إلى غوردون فى ٧ جمادى الأولى ١٣٠١ (٥ مارس ١٨٨٤) رده على ما سبق أن عرضه عليه الحاكم البريطانى من الاعتراف به سلطانا على كردفان. ووصل رد المهدى فى ٢٢ مارس يعرض على غوردون اعتناق الإسلام، وبعث إليه بجبة مرقعة وهى زى الدراويش. ورفض غوردون العرض بكل احتقار ودفع الهدية بقدمه ، وأعاد الرسل إلى الأبيض، وبدأ العدة للدفاع عن الخرطوم. وبالفعل عين المهدى محمد عثمان أبو قرجه أميراً لجهات البحر وطلب منه تنظيم الحصار حول الخرطوم .

وفى الوقت نفسه أرسل محمد أحمد معلمه السابق محمد الخير أميرا على بربر، فوصلها فى ٢٧ أبريل . وكان الشيخ الأمين أحمد المجذوب - شيخ المجاذيب- قد انضم إليه فى الدامر، ومن الدامر كان محمد الخير قد كتب إلى حسين باشا خليفة حاكم بربر بالتسليم فرفض، ففرض الحصار عليها فى ١٦ رجب ١٣٠١ (١٢ مايو ١٨٨٤) واستسلم حسين باشا فى ٢٣ رجب ١٩ مايو [٨٢].

وبذلك بات موقف غوردون بالغ الخطورة ، فعثمان دقنه أغلق عليه الطريق إلى سواكن، ومحمد الخير أغلق طريق النيل نحو الشمال، ولم يعد فى وسع غوردون إخلاء الخرطوم دون أية مساعدة عسكرية من الخارج.

وأخذ القلق يسيطر على الرأى العام الإنجليزى، وعندئذ أدركت الملكة خطورة الموقف فأبرقت إلى لورد هارتنجتون فى ٢٥ مارس تقول أن الجنرال غوردون فى خطر وأنه- أى هارتنجتون - ملزم بأن يقوم بمحاولة لإنقاذه[٨٣] فرد جرانفيل فى ٢٥ مارس على برقية لبارنج فى اليوم السابق يقول أن الحكومة تود أن تترك لغوردون مطلق التصرف فى البقاء فى الخرطوم، إذا وجد ذلك ضرورياً ، أو أن ينسحب بطريق الجنوب أو أى طريق آخر يمكن أن يسلكه [٨٤].

وقد ثبت أنه كان فى وسع غوردون الجلاء فيما بين ١٨ فبراير (تاريخ وصوله إلى الخرطوم) و١٢ مارس تاريخ قطع خط البرق، بل وحتى فى إبريل لغاية منتصف مايو ١٨٨٤ ، كانت هناك فرصة للهروب لو أنه حاول الانسحاب من الخرطوم بطريق بربر، ولكنه لم يشأ أن يستفيد من هذه الفرص[٨٥] وبقى فى الخرطوم متعمداً أو متحدياً رغبات رؤسائه . وهنا بدأت الحقائق

تتضح فى ذهن جلادستون : غوردون يسعى إلى إكراه الحكومة على التدخل ، ويأمل أنه بقدر ما يطول مقامه فى السودان، يشتد الأمل فى أن ترسل الحكومة إلى السودان جيشاً للقضاء على المهدى.

والشواهد كلها تؤيد جلادستون فى تحليله للموقف فى السودان ، فقد جاء فى رسالة غوردون إلى بارنج فى ٧ أبريل أنه إزاء رفض الحكومة إيفاد الزبير أو حملة إلى بربر، فإنه يعتبر نفسه حراً يتصرف حسبما تدعو الظروف ، وأنه سوف يبقى فى مركزه طالما يستطيع ذلك، وإذا كان فى وسعه القضاء على الثورة فلن يتردد فى ذلك، وإذا لم يستطع ، فإنه سوف ينسحب إلى خط الاستواء ليتزل بالحكومة عار التخلى عن حاميات سنار وكسلا وبربر ودنقلة، وهنا لاتجد مناصاً من القضاء على المهدى[٨٦].

واعتبر جلادستون هذه الرسالة تحديًا شخصيًا له[٨٧]، فلم يعبأ بالرأى العام ووقف موقفاً صلبًا أمام مجلس العموم وتجاهل الصاحفة وقال إن إرسال جيش معناه إعلان الحرب ضد شعب يكافح من أجل حريته[٨٨].

وبالفعل بدأت الحملة التى تدعو لإنقاذ غوردون تخف تدريجياً ، وشغل الناس بأنباء أخرى أكثر أهمية منها تحركات الروس على حدود أفغانستان ، وبدا كأنما الجميع قد نسوا غوردون، بل أن جرانفيل بدأ يرى أن غوردون يسير على سياسة من وحيه للقضاء على المهدى دون جيش، وأن الحكومة بذلك تنفى مسئوليتها[٨٩] واكتفى جلادستون بأن أدلى ببيان فى مجلس العموم فى ٣ أبريل بأن لغوردون مطلق الحرية فى البقاء فى الخرطوم حتى ينتهى من مهمته أو ينسحب فى أى وقت يشاء ، وأن الحكومة لاتنوى أن تتدخل فى تصرفاته[٩٠].

رابعًا : حملة الإنقاذ:

وفى ٢٦ أغسطس ١٨٨٤ ، عين لورد ولزلى قائداً لحملة الإنقاذ. وعندما وصل إلى مصر فى ٩ سبتمبر ، كان الفيضان قد بلغ حداً جعل غوردون يفكر فى إنفاذ إحدى بواخره الصغيرة فى النيل لكى تمر فوق الجنادل إلى مصر، وفكر فى انتهاز هذه الفرصة لكى يبسط أمام السلطات فى القاهرة ولندن والرأى العام فى بلاده حقيقة الوضع فى الخرطوم وقد شحن بهذه الباخرة واسمها (عباس) مجموعة من الوثائق تضم مفكرة ستيوارت Stewart, S Diary، ونداء شخصى يطلب المعونة موجه منه إلى الدول الأوربية. وفى ليلة ٩ سبتمبر ، كانت الباخرة على وشك الإقلاع حين طلب القنصل الإنجليزى (فرانك باور) والقنصل الفرنسى المسيو هيربن

Herbin السماح لها بالسفر، ثم طلب ستيوارت أن يسافر معها وكان ستيوارت هو الرجل الثاني في القيادة ، لذلك لاندرى السبب في تخليه عن غوردون في هذه المحنة. قد علق أحد أصدقائه على ذلك بقوله «إن دونالد ستيوارت كان صديقاً شخصياً لي. ولايمكن لأحد أن يشك في شجاعته ، ولكن ما كان يجب أن يخلف أخاه في السلاح وحيداً في الخرطوم(٩١).

والمعنى الذى يمكن استخلاصه من سفر ستيوارت وزملائه أن الطريق كان لايزال مفتوحًا للعودة إلى مصر، ومع ذلك فضل غوردون البقاء في الخرطوم. وكتب في مذكراته أنه بفرض وصول حملة الإنقاذ ، فإنه كان مصممًا على ألايمثل دور الحمل الذى تم إنقاذه . وأكد أن الغرض من الحملة هو إنقاذ شرف إنجلترا عن طريق إنقاذ الحاميات في السودان وليس من المعقول أنها جاءت لإنقاذه وحده(٩٢).

وفي موضع آخر من مذكراته يقول : إنى أعلن أننى لن أغادر السودان قبل أن تتاح الفرصة لمغادرة السودان لكل من يريد ذلك، وإلا بعد أن تقوم حكومة تحمل العبء، وحتى لو وفد رسول أو جاءنى خطاب يأمرنى بالعودة، فلن أطيع ذلك ، بل سأبقى هنا أسقط مع المدينة وأخاطر بكل شيء(٩٣).

أما ستيوارت ورفاقه فقد هوجموا في بلاد المناصير قرب أبوحمد وقتلوا في ١٨ سبتمبر على يد سليمان نعمان ودقمر(٩٤) أحد شيوخ القبائل المحلية.

وكان غوردون صريحًا مع شقيقته (أوجستا) حين كتب إليها يقول : وإنى أتوقع أن يشتد حنق حكومة صاحبة الجلالة على بسبب بقائى واضطرارها إلى التدخل ... ثم يقول إنه سعيد لأنه حاول القيام بواجبه(٩٥) أى أن بقاءه في الخرطوم يعد في رأيه قياماً بواجبه.

ولم تصل أنباء حملة ولزلى إلى غوردون إلا في ٢٠ سبتمبر ، ومع ذلك فإن طابور الصحراء لم يتقدم من كورتى في دنقلة عبر صحراء بيوضة متجهًا إلى الخرطوم إلا في ٨ يناير ١٨٨٥م، وفي تلك الأثناء كان موقف غوردون يزداد حرجًا يومًا بعد آخر. فإن المهدى وأنصاره كانوا قد غادروا الأبيض في بداية إبريل ١٨٨٤، وعسكروا بالرهد ، ثم تحرك قسم من الجيش بقيادة عبد الرحمن النجومى من الرهد في بداية رمضان (٢٥ يونيو) ، فوصل الخرطوم في أوائل سبتمبر وبدأ يشدد ضغطه على المدينة. أما المهدى فقد غادر الرهد مع بقية أتباعه والأسرى في ٢٢ أغسطس حتى وصل إلى الدويم وسار بمحاذاة النيل الأبيض على الضفة اليسرى حتى بلغ موقع (أبوسعد) جنوبي أم درمان في ٢٣ أكتوبر وفيه أقام مقر القيادة وكتب

إلى غوردون يطالبه بالتسليم، ولم يلبث أن استسلمت قلعة أم درمان فى ٥ يناير ١٨٨٥ فكان لذلك وقع سيء فى نفوس المحاصرين(٩٦).

وكان لورد ولزلى قد وصل إلى دنقلة فى ٣ نوفمبر ١٨٨٤، وفى اليوم التالى قرأ على الناس دكريتو خديوى موجه إلى المدير والعلماء والقضاة والأعيان والتجار ومشايخ البدو بأن ولزلى يحمل إلى السودان قائداً للقوات البريطانية ليقوم بما تدعو الحاجة إليه من عمليات عسكرية، وطلب منهم إطاعته (٩٧).

وكانت التعليمات الأولية إلى ولزلى تنص على إنقاذ غوردون وستيورات فى الخرطوم، وبعد أداء هذه المهمة ، ينبغى ألايقوم بأية عمليات هجومية . ومع ذلك فإنه بعد أن يتم انسحاب الضابطين والجنود والموظفين المصريين فى سلام كان عليه أن يحمل الترتيبات اللازمة لإقامة حكومة للسودان وخاصة فى الخرطوم(٩٨). وبذلك يحقق الاستعماريون الأحرار هدفهم الذى عملوا من أجله فترة طويلة.

ووصلت حملة الإنقاذ إلى كورتى قبل أول العام الميلادى وهناك احتفلت ببداية العام الميلادى الجديد ولكن القوة لم تحتفل لأنه وصلت رسالة من غوردون مؤرخة فى ٤ نوفمبر ، ينصح فيها ولزلى بأن يشق طريقه من (أم بقول) - كورتى إلى المتمة عبر صحراء بيوضة ، وقال أنه سوف يجد فى انتظاره فى المتمة خمس سفن مزودة بتسعة مدافع، وقال إنه رأى أن غوردون يمكنه مواصلة القتال أربعين يومًا أخرى بسهولة. وقال أيضًا أن الطريق على طول النيل شمالى الخرطوم لاتحتله أية عناصر عربية لأنها تتركز فى الجنوب ، والجنوب الشرقى والشرق من المدينة(٩٩).

واضطر ولزلى بعد أن كشفت هذه الرسالة عن دقة الموقف وخطورته أن يبدل خططه. فعول على أن يتقدم طابور عبر الصحراء إلى المتمة فى مسافة ١٧٦ ميلاً ومنها إلى الخرطوم، وبات هذا الجيش يعرف باسم (طابور الصحراء) Desert Column. أما بقية الجيش فتسير طبقًا للخطة الأصلية بمحاذاة النهر. وخرجت مقدمة طابور الصحراء فى ٣٠ ديسمبر لاحتلال آبار الجقدول، وبعد أن أخذ سيرهربرت ستيوارت قائد الطابور العدو على غرة عند هذه الآبار، واصل سيره إلى المتمة، حيث بات من الواضح أن المهديين عقدوا النية على سد الطريق أمام الطابور عند آبار أبى طليح على مسافة ٦٣ ميلاً من المتمة وكان ولزلى قد أمر سير تشارلز ولسون بمرافقة الطابور ، بشرط أنه عقب وصوله إلى المتمة، كان عليه أن يتوجه على ظهر

البواخر التى تحدث عنها غوردون إلى الخرطوم بمساعدة ضباط البحرية وقوة صغيرة من المشاة. ثم يتباحث مع غوردون ، ويعود بالجنود على نفس البواخر إلى المتمة والاتصال بمركز قيادة ولزلى. ويبدو من هذه التعليمات أنه لم تكن هناك نية لسحب غوردون من الخرطوم، وأن ولزلى اعتقد أن المهدى لابد أن ينسحب حين يرى قوة ولسون ، وبالتالى يرفع الحصار عن المدينة، وبذلك تصبح الخرطوم مركزاً سياسيًا لرسم الخطط للمستقبل ، بينما تتحول بربر إلى هدف عسكرى، فتكفى قوة صغيرة برياسة ولسون لإقناع أهالى الخرطوم بوجود الجيش البريطانى، بينما تعمل القوة البريطانية الآتية بمحاذاة النهر على احتلال بربر والتقدم شرقًا على طريق سواكن(١٠٠).

فى حين أن خطة المهدى كانت تقوم على أساس أن تموت الخرطوم جوعًا فتضطر إلى التسليم كما حدث فى الأبيض. فلما شعر باحتمال قدوم قوة بريطانية لرفع الحصار عن المدينة، بات من الضرورى مهاجمة المدينة فوراً.

واشتبك البريطانيون مع قوات محمد الخير، وعلى ود سعد فرح ، أمير الجعليين عند أبى طليح ، وخسر المهديون - حسب تقرير ستيوارت الرسمى- ثمانمائة قتيل بعد أن أبدوا بسالة وإقداماً منقطع النظير(١٠١).

وبعد معركة أبى طليح استأنف الطابور زحفه ، فاشتبك مع التعزيزات التى أرسلها المهدى بقيادة النور محمد عنقرة عند القبة فى ١٩ يناير ، وتمكن الطابور من صد المهديين ، ولكن بعد أن دفع ثمن ذلك حياة قائده ستيوارت ، فحل محله ولسون الذى تقدم نحو النيل فوجد بواخر غوردون تحمل أنباء سيئة بأن مركز غوردون فى الخرطوم بات حرجًا للغاية (١٠٢).

وبدلاً من أن يتقدم ولسون على ظهر البواخر إلى الخرطوم مباشرة تمهل قليلاً ، إذ شعر أن واجبه الأول هو تأمين سلامة القوة التى سوف يخلفها فى المتمة على ضفاف النيل. فقد خشى أن تتعرض للهجوم من جانب الإمدادات التى بدأت تنهال على أعدائه من الشمال ومن الجنوب، وكان يعتقد فى إمكان تخفيف الضغط على الخرطوم، إذ أن انتصارات جقدول وأبى طليح لاشك سوف تقوى روح الجنود المعنوية فى الخرطوم ، فضلا عن أن المهدى سوف يسحب بعض قواته لمواجهة القوة القادمة من الشمال (١٠٣).

ويخالفه البعض فى اعتقاده ، ويرى أن تأخير قدوم القوة البريطانية هو السبب فى سقوط الخرطوم ومصرع غوردون وتقرير مصير السودان، وأن المهدى استقر رأيه على الهجوم فقط حين

بلغه التعطيل الذى أصاب القوة البريطانية فى القبة، وأنه لم يكن فى نيته الهجوم قبل ذلك، إذ أنه لما علم بما حل بقواته فى أبى طليح أراد أن يرفع الحصار وينسحب إلى كردفان ، فلو ظهر الإنجليز أمام الخرطوم قبل أن يشن هجومه عليها ، لرفع الحصار وانسحب (١٠٤).

ومهما يكن من أمر، فلاشك فى أن ظهور القوة البريطانية فى صحراء بيوضة كان له أثر كبير فى موقف المهدى أمام الخرطوم، ولاشك فى أن المهدى أيضاً وضع فى ذهنه يومئذ النتائج التى تترتب على رفع الحصار والإنسحاب إلى كردفان أو مهاجمة المدينة فوراً، ولابد أنه دارت مناقشات وظهرت آراء تؤيد هذا الحل أو ذاك، وقيل أنه عقب انتصارات الإنجليز فى أبى طليح والقبة عقد مجلساً من الخلفاء والأفراد وأقاربه، وهذا أمر طبيعى، وقد تم فيه الاتفاق ، بعد أن قلبُوا جميع أوجه الرأى، على الانسحاب إلى كردفان، ولعلهم فكروا فى عدم جدوى الاصطدام بالقوة الإنجليزية المدربة على أحدث فنون القتال، وفضّلوا استدراجها إلى مجاهل كردفان ليحل بها ما حل بالحملات المتعددة التى سيرتها الحكومة فى هذه المديرية. ولكن محمد عبد الكريم عم المهدى، اعترض على ذلك الانسحاب ، وأشار بمهاجمة الخرطوم فوراً وبذلك يضطر الإنجليز إلى الإنسحاب ، حين يعلمون بسقوط المدينة التى جاءوا لإنقاذها بمن فيها. وإذا أصر الإنجليز على التقدم فسوف يكون هناك وقت يسمح بالارتداد. ولذلك قرر المجلس المنعقد شن الهجوم فوراً قبل وصول القوة الإنجليزية. وقد شجع على اتخاذ القرار بعض من فروا من المدينة وهؤلاء شهدوا بنقص خطير فى المؤن وانعدام قدرة الجنود على القتال، فضلاً عن أن أحد قواد الباشبوزق ويدعى عمر الفقيه إبراهيم فر إلى معسكر المهدى يوم ٢٤ يناير من الخرطوم ودل المهديين على مواقع الضعف فى تحصينات المدينة. وفى اليوم التالى أتت الأنباء بخروج وابورات ويلسون من القبة فأمر المهدى عبد الرحمن النجومى ببدء الهجوم، وتم على الأثر استسلام المدينة ومصرع غوردون فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ (١٠٥). وقد أحدث نبأ سقوط الخرطوم ومصرع غوردون صدمة كبيرة فى الرأى العام البريطانى(١٠٦) . بل وفى العالم المتحضر كله(١٠٧) حتى أن الملكة بادرت بإرسال برقية en Clair إلى الوزارة تقول فيها أنه كان من الممكن تفادى الكارثة وإنقاذ حياة الكثيرين ، لو أن الوزارة بادرت إلى العمل فى وقت مبكر(١٠٨).

ولم يكن غريباً، حينما أبرق لورد ولزلى إلى حكومته يطلب التعليمات الجديدة عقب هذه التطورات ، أن يشعر الشعب البريطانى شعوراً قوياً بألا يسمح بالهزيمة. ولكن سرعان ما فتر

هذا الحماس المفاجىء ، بعد أن بدأت السحب تتبلد فى آفاق العلاقات مع روسيا فى أفغانستان ، إذ وقع صدام بين القوات الروسية والأفغانية على الحدود فى مدينة بنجدة الأفغانية.

خامسًا : الزحف نحو الخرطوم وفشل المهمة:

أمام هذا الوضع الدقيق لم يسع الحكومة سوى النزول على رغبة ولزلى بالزحف إلى الخرطوم أو إعلان سياستها عن المستقبل فى السودان [١٠٩].

وعندما عكفت الوزارة على التفكير فى هدوء بعد مرور العاصفة التى أثارتها حوادث الخرطوم، وبصرف النظر عن التوتر فى العلاقات مع روسيا ، أدركت الوزارة البريطانية أن الاستيلاء على الخرطوم لايخدم أى غرض [١١٠].

فاللورد ولزلى رغم أنه يوالى إرسال البرقيات التى تدعو إلى ضرورة القضاء على المهدى وإلا حل الدمار بمصر [١١١]. اعترف فى سياق خطاب منه إلى أحد الأعضاء الأحرار فى البرلمان، بأن حرب السودان سوف تكون أشد المعارك خطورة بعد (واترلو) . وتلقف هذا الاعتراف الأعضاء فى الوزارة البريطانية الذين كانوا يعارضون منذ البداية فى تجريد حملة الإنقاذ [١١٢]، ولم يسعهم الموافقة عليها إلا تحت ضغط تهديد هارتنجتون بالاستقالة ومن معه من الاستعماريين الأحرار. وصادف فى ذلك الوقت أن أرسل (بارنج) يعترض على مواصلة العمليات الحربية فى السودان [١١٣]. لذلك تمسك العنصر المعارض للتدخل برئاسة جلادستون بهذه الاعتراضات من جانب ولزلى وبارنج، واعترضوا بدورهم على الزحف على الخرطوم ، على أساس أن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى إطالة أمد الاحتلال فى السودان وبالتالى فى مصر، فضلاً عن أنه ليس فى صالح البلاد الانغماس فى القتال تحت تهديد شبح الحرب مع روسيا فى أفغانستان. وأمام هذه الاعتبارات كلها، وافقت وزارة الأحرار على الانسحاب من دنقلة [١١٤]، وذلك رغم معارضة الاستعماريين الذين كان يمثلهم فى الوزارة هارتنجتون ويؤيده نورثبروك وسليبورن وكالنجفورد [١١٥].

ولما سقطت حكومة جلادستون فى ٨ يونيو وخلفتها وزارة سولسبرى المحافظة ، فكرت فى العدول عن سياسة الانسحاب التى انتهت إليها وزارة الأحرار، خاصة وأن شبح الحرب مع روسيا قد اختفى [١١٦]. وبالفعل طلبت من ولزلى الاحتفاظ بدنقلة [١١٧]

غير أن ذلك كان يتطلب جهوداً وأموالاً طائلة. هذا بالإضافة إلى أن الجنرال بولر (Buller) أحد قواد حملة الإنقاذ قدم تقريراً بأن إخلاء دنقلة أوشك على الانتهاء ، وأنه لابد من تنظيم حملة جديدة ، إذا استدعى الأمر الاحتفاظ بالمديرية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المديرية كانت تعانى فقراً شديداً فى الغلال، أدركنا لماذا عدلت حكومة سولسبرى عن خطتها ، ففى ٢ يوليو أبرقت ما يلى:

«إن حكومة جلالة الملكة بعد أن استعرضت الظروف كلها تماماً، ليست على استعداد لأن تخالف أوامر الحكومة السابقة، فتوقف أمر انسحاب القوة من دنقلة»[١١٨] وبذلك تم التخلى عن السودان فى النهاية، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا القطر الكبير قد فقدته بريطانيا ، فمنذ ذلك الوقت نشأت علاقة بين بريطانيا والسودان نتيجة للحوادث التى بدأت منذ سنة ١٨٨٢ والتى انتهت بالانسحاب من دنقلة وهذه العلاقة من شأنها تعزيز وضع الإنجليز فى مصر، ثم أن إخلاء السودان كان يعقبه حتماً استرجاعه على يد مصر التى تقوم بريطانيا بدور الوصى عليها ، وإذا كان هذا لم يدر بخلد أحد رجال السياسة البريطانيين، فلا شك فى أنه كان فى ذهن سير افلين بارنج[١١٩]. وبذلك تنتهى المسألة نهاية سعيدة بعد مذبحة مروعة يتم فيها الإجهاز على عشرين ألفا من السودانيين فى موقعة أم درمان فى سبتمبر ١٨٩٨ ويعقبها ضم أراضى واسعة إلى الإمبراطورية البريطانية، ودخول سير افلن بارنج فى زمرة النبلاء»[١٢٠].

الخاتمـــة

وفى الختام، يبدو من خلال هذا البحث أن غوردون ارتكب خطأ كبيراً وكان له أثر عكسى على الثورة المهدية، فقد قوى من أنصارها حين أعلن للسلطات المحلية فى بربر فرمان الخديوى الذى يحمل نبأ الجلاء عن السودان . وفى ١٣ فبراير أخبرهم بنواياه فى إبعاد المصريين جميعاً -وكذلك الأتراك- وإحلال السودانيين محلهم، ليديروا شئون بلادهم، وأعلن أنه أخذ على عاتقه تنفيذ هذه السياسة ، وأن الحكومة على استعداد لتحمل نفقات كل من له رغبة فى الرحيل عن السودان، فكان هذا الإعلان -كما عبر ستيوارت - قفزة فى الظلام، وكما وصفه «اورفالدر» رئيس البعثة الكاثوليكية بأن هذه الطعنة سددها غوردون إلى نفسه فتقضى على مهمته . واعتبره السير ونجت الإعلان المميت الذى كان ضحيته غوردون نفسه، فقد قضى هذا الإعلان على كل متردد فى الانضمام للمهدى، وقطع أمل المساعدة على القبائل التى كانت لاتزال تتطلع إلى مصر فها هو حسين باشا حاكم بربر يقرر أن إعلان غوردون هذا قلب الوضع كلية فى السودان، وكان سببًا غير مباشر فى سقوط بربر وقد دفع ذلك المهدى إلى أن يوجه نداء إلى هؤلاء المترددين بأن ينضموا تحت لوائه . وتساءل عن مدى استمرارهم فى تأييد حكومة تتأهب لترك البلاد. ولاشك فى أن الاستجابة كانت قاطعة خوفًا من أن يلقوا مصيرهم بعد جلاء المصريين، ويتركون دون حماية ، ولذلك أخذ المعارضون للثورة يلهثون وراءها ويعلنون تأيدهم لها، فقد حطم اعلان غوردون كل أمل لهم فى مساعدة الحكومة. ويعبر عن ذلك ما قاله على واد سعيد أمير متمة «كيف أظل على إخلاصى للحكومة التى صممت على التخلى عنى» وقد رأى غوردون أن إخلاء السودان دون تحديد من يرث الحكم يكون خطيراً ورأى ضرورة تعيين الزبير باشا على رأس حكومة فى السودان على أن يكون هذا التعيين مباشرا من حكومة جلالة الملكة وعليه أن يتعهد بالآتى:

١- بألا تمتد سلطته إلى الأقاليم الجنوبية وخصوصاً منطقة بحر الغزال .

٢- بألا تمتد سلطته إلى دارفور .

٣- يوالى إشعار الحكومة المصرية بارتفاع مناسيب مياه النيل نظير مائتى جنيهاً سنويًا .

٤- أن يظل فى حالة سلمية مع أثيوبيا .

٥- ألايفرض ضرائب تزيد عن ٤٪ على الصادرات والواردات.

٦- ألايحاول الانتقام من أي شخص اشترك فى سحق ثورة ابنه .

٧- أن يقوم بدفع المعاشات التى تعهدت بها الحكومة المصرية لموظفيها القدامى.

وكان غوردون يطمع فى موافقة حكومته على هذا الاقتراح ، وخاصة بعد أن اتضحت له الرؤيا حول الثورة المهدية وطبيعتها وبعد أن لقى اقتراحه عطف بارنج وموافقة ستيوارت وآخرين من المسئولين فى القاهرة . وكان غوردون يرى فى الزبير الشخصية السودانيةالتى تستطيع أن تحقق التوازن مع قوة المهدى، وتستطيع أن تحدث انشقاقًا فى صفوف المهدية، وخاصة ممولوها من كبار تجار الرقيق فهما هو السودان وجيشه ورجاله يحاربون مع المهدى انتقامًا لإبعاد سيدهم وقتل ابنه سليمان. ولكن تعمدت الحكومة البريطانية إذاعة هذا الاقتراح ليلقى المعارضة من جمعيات محاربة تجارة الرقيق ومن الجرائد البريطانية، ولايمكن أن تعفى الحكومة البريطانية مطلقًا من مسئوليتها عن هذه الحملات حتى سقط هذا الاقتراح تلقائيًا. وفى ذلك يقول السير ونجت «من يدرى ربما لو كان الزبير قد سافر إلى هناك قبل غوردون لما دخل الإنجليز السودان» فبريطانيا تعرف جيداً أن غوردون قد أصدر أوامره بحرية امتلاك الرقيق وشرائه والتصرف فيه، وأنه لم يأت إلى السودان لتنفيذ معاهدة مكافحة الرقيق لأن ذلك خارج عن مهمته ، إذاً فلامبرر لبريطانية لأن تبدى مخاوفها من عودة الرق وتجارته فى ركاب عودة الزبير خصوصاً وأن غوردون قد أباح ذلك.

وقد أراد غوردون أن يختبر صدى هذه الإجراءات خارج الخرطوم فأرسل ستيوارت إلى منطقة النيل الأبيض وقد اصطحب معه شيخ الدويم وقاضى شلك، لمساعدته فى تنفيذ مهمته. ولكن الجميع لم يستطع التحرك خلف الدويم فى النيل الأبيض إذ قوبلوا بنيران البنادق من الأهالى. وكان لهذه الرحلة أثرها فى نفس القاضى الشيخ عبد القادر إبراهيم ، إذ أن البقاء أكثر من ذلك فى معسكر غوردون يعتبر تهوراً. وكان لهذا الفشل أثره فى اضطراب العاصمة عندئذ أدرك غوردون خطورة موقفه وسوء تقديره للموقف فقد كان لإجراءاته أثر عكسيا لما كان يتصور . وأخذ يشدد على حكومته بضرورة سحق المهدى وأتباعه. وهذا فى رأيه ضرورى لإتمام الجلاء وتكوين حكومة مستقرة. واعتقد غوردون أن تحطيم المهدى ضمان لسلامة حدود مصر ، وطلب إرسال مائتين من القوات المهدية لحراسة الحدود عند وادى حلفا ، وأصدر منشوراً يخبر بوصول قوات بريطانية لحفظ النظام وإعادة الأمن للسودان.

وفى هذه الأثنا ء أخذ غوردون فى جمع قواته عندما علم بتقدم الثوار إلى أم درمان استعد مع قواته للدفاع عن العاصمة ولكن هذه الاستعدادات على الرغم من كونها ضرورية للدفاع وحماية العاصمة إلا أنها أثارت الاعتقاد بأن غوردون لاينوى حقيقة الجلاء عن الإقليم، خصوصًا وقد لاحت له فرصة الانسحاب من ناحية بربر، على أن يقود غوردون بنفسه هذا الانسحاب . وأصبح واضحًا أن أى تأجيل أو تأخير سيجعل التقهقر عملية مستحيلة لأن النيل فى تلك المنطقة منخفض للغاية.

أما ما كان يدور فى خلد غوردون من إقامة حكومة منظمة، والعمل على القضاء على المهدي، وغير ذلك من خطوات اتخذها لتدعيم الخرطوم وحمايتها ، فإن كل هذه الإجراءات كانت على عكس ما توقعته حكومة جلادستون وزملاته من عدم التدخل عسكريًا فى السودان، إذكان الهدف الرئيسى لمأموريته هو الجلاء .

وفى نهاية فبراير أصبح موقف غوردون فى الخرطوم أكثر تعقيدًا، واتهم حكومته بأن ترددها وعدم تلبية أوامره قد جعله فى موضع المقبوض عليه فى الخرطوم. ولكى يهيىء لنفسه فرص نجاح مأموريته حث بشدة على ضرورة فتح الطريق بين سواكن وبربر، وطلب معونة من الفرسان البريطانيين والهنود لاحتلال الطريق بين سواكن وبربر، ومنذ ٨ مارس أصبح غوردون يخشى فرض الحصار على الخرطوم وأخذت الأحداث تتوالى مسرعة ففى ١١ مارس أبرق أن الثوار على مسيرة أربع ساعات من النيل الأزرق، ونتيجة لذلك أصبحت الخرطوم على وشك الحصار. ولكن فى نفس اليوم قررت الحكومة البريطانية ألا ترسل الزبير، وألا ترسل له أية قوات بريطانية إلى بربر. ولم يفلح غوردون فى أن يجبر حكومته على أن تغير من سياستها، على الرغم من أن وضعه ازداد سوءًا فى الخرطوم منذ ٨ مارس . وأبلغ بارنج غوردون هذه التعليمات من حكومته .

ولعل فى هذا ما يدعم الاتهام لبريطانيا بأنها حاولت استغلال الثورة المهدية لتحقيق مصالحها والإطاحة بالإدارة المصرية خارج السودان ، وأن تلبية رغبات غوردون يؤدى إلى تحطيم الثورة ، حتى إذا ما قررت إرسال حملة الإنقاذ نجد أنها تضيع الوقت حتى يتم تكوينها وسفرها إلى القاهرة ثم إلى السودان ، وبالتالى تتيح الفرصة للثوار للاستيلاء على الخرطوم وانتهاء الوضع فى السودان لمصلحة المهدى إلى حين.

وبسقوط بربر فى ٢٧ يونيو أصبح الأمر لايدع مجالاً للشك فى خطورة وضع غوردون. ونتيجة لذلك كان لابد من اتخاذ الإجراءات السريعة لإنقاذ غوردون والخرطوم. ولكن لم تتم الموافقة على إرسال حملة الإنقاذ إلا فى ٤ أغسطس ثم ضاع شهر آخر حتى يتم تعيين قائد الحملة فى ٩ سبتمبر ، ولم يصل وادى حلفا إلا فى ٥ أكتوبر. وهكذا استغرق إعداد الحملة لإنقاذ غوردون خمسة أشهر فى الوقت الذى كان يعنى التأخير إضعاف قوة غوردون وإتاحة الفرصة لقوات المهدى لتنظيم صفوفها والتشديد على حصار الخرطوم وتصفية الجيوب المصرية فى أنحاء السودان، دون أن ينشغل المهدى بمقابلة الحملة المنتظرة وقطع كافة الطرق على غوردون وأيضاً على حملة الإنقاذ .

الهوامش

١- أنظر الملحق نص العقد المبرم بين إسماعيل باشا خديو مصر والسير صموئيل بيكر، ص٤٦ .

٢- أنظر الملحق أمر تعيين غوردون مأموراً على خط الاستواء، ص٤٨ .

٣- مكي شبيكة : السودان في قرن ١٨١٩-١٩١٩، القاهرة ١٩٤٧م، ص١٠٩ .

٤- علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠-١٩٠٦، القاهرة ١٩٥٨م، ص٧٥ .

٥- مكي شبيكة: المرجع السابق ص١١١ .

٦- علي إبراهيم عبده : المرجع السابق ٧٨-٨٠ .

٧- مكي شبيكة : المرجع السابق ، ص١٢٤ .

٨- علي إبراهيم عبده: المرجع السابق ص٥٨ .

٩- مكي شبيكة : المرجع السابق ص١٢٤ .

١٠- داود بركات : السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية القاهرة ١٩٤٧م ص ٤١، ٤٢ .

١١- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان، القاهرة ١٩٥٩م، ص٤١ .

١٢- Alfred Milner : The Egyptian Sudan its lose & Hacovary, London, 1898 . 30 .

١٣- أنظر ملحق حملة هكس ، ص٥١ .

١٤- مكي شبيكة ، المرجع السابق، ص١٧٣ .

١٥- الشاطر بصيلي عبد الجليل : المرجع السابق ، ص١٧٢-١٧٣ .

١٦- Theobald, A.B., The Mahdiya, History the Anglo- Egyptain Sudan, London 195 .

١٧- أنظر الملحق عن سياسة الحكومة المصرية وأمالها في السودان .

١٨- جلال يحيى: المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠ .

١٩- Theobald: Op. cit., p. 67 .

٢٠- Omar Abdlenen Omar: Op. cit., p. 14-15 .

٢١- أنظر الملحق الأمر إلى غوردون بإعادة فتح بربر وزيلع ، ص٤٩ .

٢٢- Crabites, P., Gordon, The Sudan & Slavery, London, 1933 . p. 162 .

٢٣- Baring to Granville, Pivato, 10 . 12 . 83 . Quoted by shibeika, op. cit., pp. 120-1 .

Granville to Baring, F.O. 13 -12 -83, No 151 in Egypt No . I. 1884, also quoted in -٢٤ Russel Op. cit., p. 54 ; and Cromer , Op. cit., vol , pp. 379-80 .

Granville to Baring, F.O., 4-1- 84, quoted by Shibeika, Op. cit., p. 135; Cromer, -٢٥ Op. cit, vol 1, p. 382 ; Crabites, Op. cit., p. 170 .

Granville to Dufferin . Copy to Baring F.O. 11-12-1883, quoted by Abbas Mekki , -٢٦ The Sudan question, London, 1952 , p. 39 .

Cocheris, Op. cit., p. 329 . -٢٧

Abbas, M, Op. cit., p. 39 . -٢٨

Russel, Op. cit., pp. 372-5 . -٢٩

Allen, Op. cit., p. 221 . -٣٠

Shibeika, Op. cit., pp. 151-2; Crabites, Op. cit., pp. 182-3 . -٣١

Granville To Baring, private, 15-1-84 , quoted by shibeika, Op. cit., p. 152 ; Vide -٣٢ also ; Allen . Op. cit, p. 222 ; Elton, Op. cit., p. 335 ; Straschey , Op. cit., pp. 246-7 .

Gladston to Granville, 16 . 1 . 84 , quoted by shibeika, Op. cit., pp. 152-3 Morley . -٣٣ J., The life of W. e, Gradstone , London , 1903 , p. 390 .

Ellon, Op. cit., p. 34 . -٣٤

Shukry, Gordon at, Khartoum, p. 34 . -٣٥

Elton, Op. cit., pp. 337-8 . -٣٦

Theobald, Op. cit., p. 78 . -٣٧

Allen, Op. cit., p. 225 ; Elton , Op. cit., p. 337 . -٣٨

Cromer, Op. cit., vol . 1, p. 437 . -٣٩

Baring to Granville; Private, 16 . 1. 84 , quoted by Shibeka, Op. cit, p. 153 ; Vide -٤٠ also; Russel, Op. cit., p. 47 ; Elton, Op. cit., p. 337 ; Allen, Op. cit, p. 286 ; Stratchey, Op. cit., p. 247 .

Shukry, Gordon at Khartoum, pp. 33-34 . -٤١

Cromer, Op. cit., vol., I, p. 447 ; vido also : The Thodive to Gordon, cairo p. 6 . -٤٢

1.84, quotod in Russel, Op. cit., pp. 55-2 .

٤٣- Baring to Granville , Cairo, 28 . 1. 84 , quoted in Shibeika, Op. cit., p. 167 .

٤٤- Cromer., Op. cit., vol ., p. 447 .

٤٥- Fitzmaurice, Op. cit., vol. II, p. 383 .

٤٦- من المعتمد أن كرومر كان يقصد بذلك الرد على الفقرة الواردة في كتاب (Fitzmaurice, Op. cit., vol. II, p. 383) من أن التغيير تم بمعرفة بارنج ونوبار ويعزز هذا الاعتقاد أن المقال نشر في سنة ١٩٠٥ وهي نفس السنة التي ظهر فيها كتاب Fitzmaurice سالف الذكر .

٤٧- Times, 9.11.1905, quotod by Colvin, A, The Making of Modern Egypt, London, 1906 , p. 70 .

٤٨- Strachey , Op. cit., p. 257 .

٤٩- Shukry, Op. cit., p. 47 .

٥٠- Theobald, Op. cit., p. 87 .

٥١- Stewart's , diary, enclosed in Baring to Granville, Cairo, 3 . 3 . 84 , quoted in Shibeika, Op. cit., p. 178 .

٥٢- Eiton, Op. cit., p. 356 .

٥٣- Crabites, Op. cit., p. 211 .

٥٤- Eiton, Op. cit., p. 356 .

٥٥- Cromer , Op. cit., vol I, pp. 487 : Elton, Op. cit., p. 368 : Fitzmaurice , Op. cit., vol. II, p. 385 .

٥٦- Gwynn Tuckwell, Op. cit., vol II, p. 35 .

٥٧- Gordon to Baring, Koresko 1.2 . 84 ; Graville to Baring .F.O. II. 2 84, Quoted by Russel, Op. cit., p. 70 .

٥٨- أنظر كتاب محمد أحمد إلى أهالي سواكن المؤرخ أول رجب ١٣٠٠هـ (مايو١٨٨٣) في نعوم شقير تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج٣ ص٢٠١-٢٠٣، ٢٠٣، ١٩٠٣ م وانظر أيضاً : Holt, Op. cit 7074.

٥٩- عن تحركات ونشاط عثمان دقنه فى السودان الشرقى أنظر:

Jackson, Osman Digna, London. 1926 : levi (G.) Osman Denka Le Caire .

Baring to Granville . Cairo 23 , 11 . 84 . Quoted in Russle. Op. cit., p. 42 . -٦٠

Sortorivs, E Three Months in the Sudan London 1885, p. 23 . -٦١

Ibid., p. 155 . -٦٢

Wyide A, 83 to 87 in the Sudan, London, 1888, vol I. pp. 29-30 . -٦٣

Gladstone to Granville, 7 . 2 . 84 , Quoted in Shibeika, Op. cit., p. 202 . -٦٤

The letters of. Queen victoria , 2nd Sorios, (London 1928) , vol . III, p. 477 . -٦٥

Elton, Op. cit, p. 559 . -٦٦

Allen, Op. cit, p. 267 . -٦٧

Wylde, Op. cit., vol. I. p. 130 . -٦٨

Cromer, Op. cit., vol. I, p. 527 . -٦٩

vide Grodon's despatch to Bating Khartoum, 26.2.84 . in Russel, Op. cit., pp. 75-76 . -٧٠

Gromer, Op. cit., vol . I, p. 481 . -٧١

Baring to Granville, 28 . 2 . 84 , quoted in Russel, Op. cit., pp. 74-75 . -٧٢

Baring to Granville . 9 . 3 . 74 , quoted in Russel Op. cit., 81 . -٧٢

Baring to Granville 9. 3. 74 , quoted in Russel, Op. cit., p. 81 . -٧٣

Ibid., pp. 74-75 . -٧٤

Cwynn & Tuckwell, Op. cit., voll II, p. 33 . -٧٥

Granvill Bering , F.O. 22.2.84, quoted by Russel, Op. cit., p. 72 ; vide also : Allen, Op. cit., p. 282 . -٧٦

Elton, Op. cit., p. 371 . -٧٧

Royle C., The Egyptian Campaigns, 1882-1899, London 1899, vol. II. p. 11 . -٧٨

٧٩- Baring to Granville, Cairo 24 . 3 . 84 , quoted by Russel, Op. cit., p. 86 ; Allen, Op. cit., p. 312 ; Strachey. Op. cit., pp. 261-262 .

٨٠- Granville to Daring F.O. 133. 84 , quoted by Russel, Op. cit., p. 85 ; Allen, Op. cit., p. 306 .

٨١- أنظر رواية المهدى عن هذين الانتصارين فى الحلفاية فى ١٣ مارس والشرق فى ١٦ مارس فى كتابه إلى محمد خالد زقل المؤرخ ١٨ جمادى الثانية ١٣١٠ (١٥ إبريل ١٨٨٤) نعوم شقير: نفس المرجع، ج٣، ص٢٢٤ .

٨٢- Holt, Op. cit., pp. 40-41 .

٨٣- Strachey, Op. cit., p. 263 ; Allen., Op. cit., 312 . Letters of queen Victoria . Op. cit., vol III, p. 485 .

٨٤- Cromer, Op. cit., vol . I, p. 542 .

٨٥- Shukry, Gordon at Khartoum, pp. 49-59 .

٨٦- Allen, Op. cit., p. 331 ; Cromer, Op. cit., vol . I, p. 555 ; Gordon to Baring, Khartoum 7 . 4. 84 , quoted in Russel Op. cit., p. 93 .

٨٧- Strachey, Op. cit., pp. 268-69 .

٨٨- Allen, Op. cit., p. 338 .

٨٩- Fitzmaurice, Op. cit., vol. II , p. 386 .

٩٠- Allen, Op. cit., p. 326 .

٩١- Boulger, D. The life of Gordon, London 1892 vol. II p. 146 .

٩٢- Hake, E, The Journal of Major General C.G. Gordonat Khartoum, London, 1885 , p. 93 .

٩٣- Ibid, p. 307 .

٩٤- Hilt, Op. cit. p. 92 .

فى نفس اليوم الذى قتل فيه ستيوارت ورفاقه كان جلادستون ينزل ضيفًا على أحد لوردات حزب الأحرار فى اسكتلاندة قرب مدينة (ابردين) وتصادف أن التقط جريدة الأحرار المحلية فى ذلك الصباح ليقرأ برقية من القاهرة تحوى رسالة من غوردون إلى بارنج تاريخها ٥ أغسطس ١٨٨٤ عن خطة

إرسال ستيوارت لاسترداد بربر والاحتفاظ بها خمسة عشر يوماً ثم إشعال النار فيها والعودة إلى الخرطوم. وبذلك تأكد السياسي الكبير أن غوردون يسير قدماً في خطة تحطيم المهدى مخالفا بذلك أوامر حكومته ، وأنه يشن هجوماً على شعب له الحق في أن يكافح من أجل حريته ، وقال أحد شهود العيان وقتئذ أن وجهه قد تصلب، وفاضت منه الدماء.. واشتعلت عيناه بالنيران حتى لتكاد أن تأتي على الورق الذي طبعت عليه رسالة غوردون وفي اليوم التالي كان جرانفيل يبلغ بارنج أن غوردون يجب أن يتلقى أوامره من وازلي وأن حكومة غوردون تقتصر على الخرطوم وما حولها أنظر :

Elton, Op. cit., p. 404 ; Allen, Op. cit., 350 .

٩٥- Letters of Gordon to his sister, p. 384 .

٩٦- شقير : نفس المرجع السابق جـ٣ ص٢٨٩-٢٩١ وأنظر أيضاً . Holt, Op. cit., pp. 93-94

٩٧- Shibika, Op. cit., p. 290 .

٩٨- Royle, C., The Egyptian Compaigns 1882-1885 London, 1890 . vol . II, p. 205 .

٩٩- Archer T., The war in Egypt and the Sudan, London, 1886 , vol . III, p. 263 .

١٠٠- Colville H.E., History of the Sudan Campaign, London, 1899, Part II, p. 3 .

١٠١- Royale G., Op. cit., vol . III, p. 243 .

١٠٢- Shukry, Op. cit., p. 68 .

١٠٣- Wilson, C.W. From Korti to Khartoum, London, 1886 . p. 113 .

١٠٤- Ohrwalder J., Ten Year's Captivity in the mahdi's Camp, London, 1892 . p. 148 .

١٠٥- Crabites, Op. cit., pp. 318-29 ; Wingate, Op. cit., pp. 163 . 169-172 . 189, 192-5 ; Slatin, Op. cit., p.340; Strachey , Op. cit., p. 298 ; Arthur, T. Life of Kitchener , London, 1920 . vol .I . p. 121 ; Ohrwalder , Op. cit., p. 173 .

١٠٦- Strachey, Op. cit., p. 299 .

١٠٧- Hanotauk G., Histoire de la Nation Egyptienne F. Charles- Roux, L'Egypt de L'Occupaton Anglaise a l Independence Egyptienne", Tome Vii, Paris 1940 p. 83 .

١٠٨- The Letters of queen Victoira, vol . II, p. 597 .

١٠٩- Granville to Baring , Secret, F.O. 13 . 3 . 85 , quoted by Shibeika, Op. cit., p. 303.

١١٠- Holland, Op. cit., vol . II, p. 27 .

١١١- Rroyle, Op. cit. vol II, pp. 332-4 ; Stradchey . Op. cit., p. 300 , Charles- Roux, Op. cit, p. 83 .

١١٢- Holland , Op. cit., vol . II, p. 28 .

١١٣- Baring to Granville, Privare, 3. 4. 85 , quoted by Shibeika, Op. cit., p. 304 .

١١٤- Royle Op. cit., vol . II. pp. 364-5 .

١١٥- Holland, Op. cit., vol . I, p. 36 .

١١٦- Strachey, Op. cit, p. 300 .

١١٧- Shibeika, Op. cit., p. 307 .

١١٨- Royle, Op. cit., vol . II, p. 380 .

١١٩- Charles - Roux , Op. cit., p. 86 .

١٢٠- Strachey , Op. cit., pp. 300-1 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بالقلعة:

- المعية دفتر ٢٥٦ تركى ، ١٩٤٨ ، ١٨ «أوامر عربى».
- الكتاب الأخضر: الذى أصدرته رئاسة مجلس الوزراء المصرى فى سنة ١٩٥٣م عن السودان.

ثانياً: المصادر العربية:

١- الشاطر بصيلى عبد الجليل: تاريخ شعوب وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٥م.

٢- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان، القاهرة ١٩٥٩م.

٣- داود بركات: السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية القاهرة ١٩٤٧م.

٤- على إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠-١٩٠٦، القاهرة ١٩٥٨م.

٥- مكى شبيكة : السودان فى قرن ١٨١٩-١٩١٩، القاهرة ١٩٤٧م.

٦- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٠٣م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Abbas, M., The Sudan question , London, 1952 .
2- Allen, B.M., Gordon and the Sudan, London, 1931 .
3- Archer . T., The war in Egypt and the Sudan, vol III London, 1886 .
4- Colville . H., History of the Sudan Campaign, London, 1866 .
5- Colvin , A., The Making of Modern Egypt, London, 1906 .
6- Crabites, P. , Gordon , The Sudan & Slavery , London, 1933 .
7- Cromer, The Earl of Modern Egypt, vol II, New York , 1908 .
8- Elton, L., General Gordon, London, 1954 .
9- Fitzmaurice, L., The Life of Granvills (1815-1891), London, 1905 .
10- Gwynn, S.I., and Tuchwell, G., M., Life of Sir Charles Dilde, London, 1917 .
11- Hade . E., The Journal of Major General C.G. Gordon at khartoum , London, 1885 .
12- Hanatauk , G., Histore de la Nation Egyptienne F. Chales- Roux, L'Egypte de L'occupation Anglaise a I "Lndependence Egyptienne, paris, 1940 .
13- Holland, B., Life of Spencer Compton, 8th Duke of Devonshire, London, 1911 .
14- Holt, P.M., The Mahdist State in the Sudan, Oxford, 1958 .
15- Jackson , H., Osman Digna, London, 1926 .
16- Letters of queen Victoria, 2nd series, vol III, London, 1928 .
17- Lytton Strachey ., The End General Gordon London, 1918 .
18- Ohrwalder . J., Ten Year's Captimity in the Mahdis Camp, London, 1892 .
19- Royle . C., The Egyptian Campraigns, 1882-1899, London, 1899 .
20- Russel, H., The Ruin of the Sudan, London 1892 .
21- Shibeika, M., British Plicy in the Sudan, London, 1952 .
22- Shukry, M. F., Gerdon at Khartoum.
23- Sortorivs, E., Three Months in the Sudan , London, 1885 .
24- Strachey, L., Eminent Victarians, London, 1918 .
25- Theobald, A.B., The Mahdiya, London, 1951 .
26- Wilson , C.W., From Korti to Khartoum, London., 1886 .
27- Wyide. A., 83 to 87 in The Sudan, London, 1888 .

د. عبد العزيز صالح سالم *

توقيعات صناع المعادن ومدلولاتها

(من بداية القرن ٧هـ / ١٣م إلى منتصف القرن ٨هـ/ ١٣م)

تعد توقيعات الصناع على التحف المعدنية منذ بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى المصدر الرئيسى فى إمدادنا بالمعلومات الهامة والنادرة عن الصناع وأساليبهم الفنية وطوائفهم والعلاقات الأسرية والمهنية التى ربطت بينهم لدرجة أن أصبح لهؤلاء الصناع تلاميذ وغلمان ورواد يعملون على نفس منوال أساتذتهم ومعلميهم ، ولذا أصبحت تلك التوقيعات المصدر الوحيد فى وضع قوائم بأسماء الصناع وتخصص كل منهم ومكانتهم بين أبناء حرفتهم وتلاميذهم كما أمكن كذلك عن طريق التوقيعات تقسيم أساليبهم الصناعية والزخرفية إلى مدارس فنية متميزة يمكن تتبع مراحل تطورها أو تأثيرها بعضها فى بعض بالإضافة إلى نسبة التحف الغير موقعة إلى صناعها أو على الأقل إلى أسلوب مدارسهم الفنية[١].

وكان من تقاليد طوائف الحرف والصناع الحفاظ على أسرار تلك الحرف وقصرها على أفرادها وأسرهم ، ولعل هذا يفسر لنا ما شاع من تخصص بعض أسرات فى حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء[٢]، فضلا عن صعوبة دخول الغرباء على الطائفة فى صفوفها[٣].

* مدرس الآثار الإسلامية والفنون بكلية الآثار - جامعة القاهرة.

وقاد الصناع المواصلة حركة التواصل الصناعي والفني بين أقطار العالم العربي منذ بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي فهؤلاء الصناع الذين تربوا ونضجوا في مدينة الموصل هاجروا منها إلى مدن بلاد الشام ومصر وعاشوا تحت كنف الدولتين الأيوبية والمملوكية في مصر والشام ونالوا رعاية واحترام حكامهما وكونوا مدارس فنية لها أسلوبها المميز والخاص والتي أصبح لها تلاميذ وغلمان ورواد يعملون على نفس منوال أساتذتهم ومعلميهم ومن المعروف أن صناع التحف المعدنية هاجروا من الموصل إلى مصر وبلاد الشام في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي واشتغل هؤلاء الفنانين عند الأمراء والسلاطين الأيوبيين والمماليك في دمشق وحلب والقاهرة وطبيعي أنهم نقلوا الأساليب الفنية التي ألفوها في بلاد الجزيرة ولذا كانت آثارهم الفنية تتبع مدرسة الموصل(٤).

وقد وصل إلينا عدد من التحف المعدنية التي تحمل توقيعات صانعيها بالإضافة إلى الكتابات التاريخية وهو ما يؤكد أنها صنعت على يد فنانين من الموصل استقروا في مختلف العواصم الإسلامية وظلوا مخلصين للأساليب الفنية التي ازدهرت بمدينتهم الأولى مدينة الموصل وحرصوا على إبراز طابعها الخاص وتميز حضارتها(٥).

وعلى رأس هؤلاء الصناع إبراهيم بن مواليا الذي يعتبر صاحب أكبر مدرسة فنية خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حيث بلغت شهرته درجة كبيرة حيث كان من الصناع الذين يؤخذ عنهم وينتسب إليهم وقد ورد توقيعه على النحو التالي : «عمل إبراهيم بن مواليا »(٦).

ومن أشهر أعمال الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا أبريق من النحاس الأصفر المكفت بالنحاس الأحمر وينسب إلى مدينة الموصل في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي (٧). (شكل١)

وإذا كان هذا الصانع قد عاش في مدينة الموصل ونفذ أعماله المعدنية مفعمة بالسمات الفنية الخاصة بتلك المدينة فإن ما تكشف عنه توقيعات الصناع في تلك الفترة يثبت ارتباط الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا بعدد من الصناع المواصلة الآخرين الذين ارتبطوا به في علاقات مهنية متنوعة مثل علاقة التلمذة وعلاقة الغلمنة التي ربطت بين الصانع الكبير وتلاميذه وغلمانه ففي الوقت الذي ينعت الصانع اسماعيل بن ورد نفسه بأنه تلميذ الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا نجد الصانع قاسم بن علي ينعت نفسه بأنه غلامه. فالصانع اسماعيل بن ورد بن عبدالله الموصلي ينعت نفسه بأنه تلميذ الصانع المعروف «إبراهيم بن مواليا» على

صندوق معدنى على النحو التالى : «ونقش اسمعيل بن ورد الموصلى تلميذ ابراهيم بن مواليا الموصلى وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وستماية» (شكل ٢) .

وقد كشف هذا التوقيع عن علاقة من العلاقات المهنية التى جمعت بين الصناع وهى علاقة التلمذة حيث تتدرب وتتلمذ الصانع اسماعيل بن ورد على يد أستاذه الصانع إبراهيم بن مواليا[٨]. وقد أمكننا التعرف على اسم الصانع اسماعيل بن ورد بالكامل من خلال توقيعه على الصفحة الأخيرة من مخطوط مصابيح السنة[٩] المؤرخ فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٤٢١م وهذا يفيد بأن الصانع اسماعيل بن ورد كان كاتبا ماهراً بالإضافة لكونه صانعا للتحف المعدنية وتلميذا للصانع الكبير ابراهيم بن مواليا حيث جاء توقيعه فى نهاية المخطوط على النحو التالى : «وافق الفراغ من نسخه بكرة الخميس فى العشرين من شوال سنة ست واربعين وستماية كاتبه الفقير إلى رحمة الله ورضوانه اسماعيل بن ورد[١٠] بن عبدالله النقاش الموصل..»[١١] (لوحة ١، شكل٣) .

أما الصانع قاسم بن على فقد كشف توقيعه عن ارتباطه بالصانع المشهور ابراهيم بن مواليا حيث نعت نفسه بأنه غلامه ولم يمنع الصانع قاسم بن على الذى كان يعيش فى بلاد الشام بعيدا عن معلمه الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا فى مدينة الموصل أن يعترف بفضل معلمه حيث جاء توقيعه على إبريق[١٢] من النحاس الأصفر المكفت بالفضة[١٣]. على النحو التالى: «عمل قاسم/ بن على غلام أبر / هيم ابن مواليا / الموصلى وذلك فى / رمضان / سنة تسع/ عشرين وستماية»[١٤]. (شكل ٤) .

كما يضيف هذا التوقيع علاقة مهنية أخرى تجمع بين صانع كبير وآخر وهى علاقة الغلمنة[١٥]. وربما تدل هذه الكلمة على أن الصانع قاسم بن على قد تعلم صنعته على يد الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا ومن ثم فإنه يشعر كأنه مملوكه وربما كان الصانع المذكور مملوكا فعلا للصانع الكبير إبراهيم بن مواليا [١٦].

ومما يؤكد إقامة قاسم بن على ببلاد الشام وخدمته لحكامها وخصوصا حاكم مدينة حلب وجود نص تسجيلى يجزم بنسبة الابريق إلى مدينة حلب يقرأ كما يلى : «العز والإقبال لمولانا الأمير الأجل الكبير الزاهد (لوحة٢) العابد الورع البندقدار شهاب الدنيا والدين الملكى العزيزى (لوحة٣)» ويشير هذا النص إلى الأمير «شهاب الدين بن طغريل» آتابك «الملك العزيز غياث الدين محمد بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين» صاحب حلب الذى حكم بين سنتى (٦١٣-٦٣٣هـ / ١٢١٦-١٢٣٥م) [١٧].

وإذا كان شهاب الدين بن طغريل لم يستطع وضع اسمه ظاهرا فى سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م على الإبريق السابق واكتفى بكتابة ألقابه فإن نفوذه قد ازداد بعد عامين ونقش اسمه وألقابه بوضوح على واجهة المدرسة الأتابكية بحلب والمؤرخة فى سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م على النحو التالى: «وأنشأها [المدرسة] أتابكه وولى أمره وكافل دولته القائم بقوانين حفظه .. شهاب الدين أبو سعيد طغريل بن عبدالله الملكى الظاهرى»[١٨] والملاحظ أن الصانع قاسم بن على قد أنهى العمل فى إبريقه السابق فى شهر رمضان ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م وأن الصانع الكبير شجاع بن منعة الموصلى أنهى العمل فى إبريقه فى شهر رجب من نفس العام وهو يكون بذلك قد سبق قاسم بن على بحوالى شهرين وهذا مدون فى توقيعاتهما ، كما يظهر الفرق واضحا بين الصانعين لأن شجاع يعد نقاشا وأستاذا كبيرا وصاحب مدرسة لها تلاميذها وغلمانها وهو ذو شهرة ومكانة تفوق شهرة الصانع قاسم بن على كما وردت علاقة الغلمنة على تحفة أخرى صنعها الصانع إياس وهو من الصناع الذين تعلموا على يد الصانع عبد الكريم الترابى الموصلى وأنتج أعماله فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى ، وجاء توقيعه على إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة على النحو التالى : «من صنعة إياس غلام عبد الكريم ابن الترابى الموصلى فى سنة سبع وعشرين وستماية»[١٩]. (شكل ٥).

وشجاع بن منعة الموصلى[٢٠] يعتبر رائد حركة التواصل الفنى بين مدينة الموصل ومدن بلاد الشام ومصر وهو نقاش ماهر كان يؤخذ عنه، وينتسب إليه[٢١] وهو أول من ذكر فى توقيعه مكان صناعة منتجاته فقد ترك لنا تحفة فريدة تشتمل على اسم أولى المراكز الصناعية للتحف المعدنية عبارة عن إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة والنحاس الأحمر[٢٢] (لوحة ٤) يحمل توقيعه مصحوبا بتاريخ ومكان الصناعة يقرأ : «نقش شجاع بن منعة الموصلى فى شهر الله المبارك شهر رجب فى سنة تسع وعشرون (عشرين) وستماية بالموصل»[٢٣].

وهو من صناع التحف الذين كانوا يشتغلون عند «شجاع بن منعة الموصلى) ، الحاج اسماعيل ومحمد بن فتوح فقد اشتركا معا فى صناعة شمعدان كل فى تخصصه بحيث قام بالصناعة «الحاج اسماعيل» ، ونقشها «محمد بن فتوح» وهما من أشهر الصناع فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، ومن أعمالهما شمعدان (لوحة ٥) يحمل توقيع : «عمل الحاج اسماعيل نقش محمد ابن (بن) فتوح الموصلى المطعم أجير الشجاع الموصلى النقاش»[٢٤].

ويضيف هذا التوقيع علاقة ثالثة من العلاقات المهنية التي كانت تربط بين صانع وآخر وهي علاقة «الأجرة» وفيها يقوم صانع صغير بالعمل عند صانع كبير مشهور مقابل الأجرة والجدير بالذكر أن يسجل هذا الصانع اسمه على التحفة منعوتا بلقب أجير سيده [٢٥].

ويستفاد من التوقيع السابق أيضا أن لفظة طعم وتطعيم تطلق على من يقوم بحشو المعادن عادة أغلى وأثمن[٢٦] أما كلمة التكفيت والكفت فكانت شائعة عند العامة وعند أهل الصنعة لكن حرص المتخصصون على استخدام كلمة «التطعيم» وهذا ما أكده «المقريزى» عند تعريفه للكفت بأنه ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة»[٢٧].

ومن الصناع المشهورين الإيرانيين الذين برزوا فى الربع الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وعاصروا الصناع المواصلة وانتجوا تحفهم الفنية فى إقليم خراسان الصانع «شادى النقاش» ومن المحتمل أن يكون قد عمل فى مدينة هراة التى كانت واحدة من أكبر المراكز فى خراسان حيث تربى على يد سيده «مجد الملك المظفر» هذا من جهة ومن جهة ثانية أقام سوق لمنتجاته فى هيراة أو فى بخارى حيث عثر على بعض منتجاته بها[٢٨].

ومن أشهر أعماله : مقلمة من النحاس المطعم «المكفت» والنيلة السوداء ومؤرخة فى سنة ٦٠٧هـ/ ١٠-١٢١١م . كتب عليها توقيع الصانع وتاريخ الصناعة فى الجنب الأمامى من الغطاء بالخط الكوفى المورق ونصها: «عمل شاذى النقاش ٥ فى سنة سبعة وستماية (٢٥ يونية ١٢١٠-١٤ يوليو ١٢١١م)[٢٩]. (شكل ٦) وتحيط بسطح المقلمة كتابة بالخط النسخى ذات الهامات الآدمية نصها : «الصدر الأجل الكبير العالم العادل المؤيد المظفر المنصور مجيد الملك شرف الدولة والدين شهاب الإسلام والمسلمين اختيار الملوك والسلاطين ضياء الملة بها (ء) الأمة قدوة الأكابر الأماثل عمدة المعالى سيد الوزرا ونظام خراسان المظفر بن الصدر الشهيد مجد الملك[٣٠] ضاعف الله قدره»[٣١].

وأيضا يظهر توقيع الصانع «شاذى النقاش» على تحفتين بنفس الشكل الذى وجد على مقلمة الفرير الأول مقلمة مستطيلة[٣٢] مخصصة لحظ الريشة المستخدمة فى الكتابة، والثانية قنينة على شكل طائر عثر عليهما فى هراة ويظهر عليهما التشابه الكبير بين زخارف سطح غطاء مقلمة الفرير جاليرى فقد وجد توقيع الصانع الذى كتب بنفس الطريقة على القطعتين وهذا يبدوا واضحا فى حرفى «الذال والياء» [٣٣]. وعلى الرغم من أن القطعة لاتحمل اسم صاحبها أو مكان صناعتها إلا أنه من المرجح أن تكون قد صنعت لنفس الشخص الذى صنعت له المقلمة فى مدينة هراة حيث كانت المدينة مركزا عظيما فى صناعة وتكفيت المعادن من أواخر ق٦هـ / ١٢م وبداية ق٧ هـ/ ١٣م[٣٤].

ومن التوقيعات الهامة التى لها دلالات عديدة وأمدتنا بمعلومات هامة توقيعات الصانع الكبير أحمد الذكى النقاش وهو من الأساتذة البارعين فى النقش يرجح أنه عاش فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى[٣٥]. فالتوقيع الأول بخط النسخ على رقبة إبريقه[٣٦] يتضمن اسمه وتاريخ الصناعة يقرأ : «عمل أحمد الذكى النقاش الموصلى فى سنة عشرين وستماية والعز لصاحبه»[٣٧] (شكل ٧) كما يوجد على رقبة الإبريق اسم صانع آخر من الأسماء المضافة التى حزت على الرقبة وهو «حسين بن قاسم»[٣٨].

أما التوقيع الثانى فقد ورد على طسته الشهير الذى حمل أسماء وألقاب الملك العادل أبى بكر مؤرخ فى : ٦٣٥-٦٣٧هـ/ ١٢٣٨-١٢٤٠م [٣٩].

يقــرأ: «عمل احمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش » (لوحة ٦، شكل٨) والملاحظ أن الصانع ترك توقيعه فى مكان ظاهر على السطح الخارجى للطست فى حين كتب أسماء وألقاب الملك العادل أبى بكر محمد على السطح الداخلى بالإضافة إلى وجود نصان فى قاع الطست الأول يقرأ: «برسم الطست خاناه العادلية» والآخر يشير إلى الأمير اليمنى الحسين بن محمد بن أحمد بن أمير المؤمنين وهو ما الأشخاص الذين امتلكوا الطست فى القرن ١٧م[٤٠].

أما التوقيع الثالث لهذا الصانع فجاء على إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة : ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م[٤١]. (لوحة ٧) نقش عليه اسمه إلى جانب تاريخ الصناعة ويقرأ توقيعه : «عمل أحمد المعروف بالذكى النقاش الموصلى فى سنة أربعين وستماية»[٤٢] (شكل ٩) .

ولم ينتهى دور هذا الصانع الكبير فمن خلال التوقيعات التى بين أيدينا يمكننا التعرف على صناع مدرسته الفنية وتلاميذه وغلمانه فقد تخرج على يد الأستاذ الكبير أحمد الذكى النقاش صاحب المدرسة الفنية فى صناعة التحف المعدنية عدد من الصناع والنقاشين منهم أبوبكر بن الحاج جلدك وشقيقه عمر اللذان كانا ينقشان إليه بعد اجازاتها كما كانا يكتبان على ما ينقشانه من تحف أنهما غلمان تعلما على يد هذا الصانع والأستاذ الكبير.

فبعد عامين من ظهور أولى أعمال أحمد الذكى النقاش الموصلى تظهر أعمال تلميذه الصــانع أبو بكر بن الحـاج جلدك الذى أخـذ عنه وتخـرج على يديه وأتقن صناعـة النقش بفضله[٤٣].

وجاء توقيع أبوبكر بن الحاج جلدك ليؤكد فضل أستاذه عليه حيث ينعت الصانع نفسه بأنه غلام الصانع الكبير أحمد الذكى النقاش ويقرأ التوقيع على شمعدان من النحاس المكفت بالفضة[٤٤] مؤرخ فى سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٣٥م[٤٥]. (لوحة ٨) على النحو التالى:

«عمل أبوبكر بن الحاج جلدك غلام أحمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش الموصلى فى سنة إثنتين وعشرين وستماية والبقا لصاحبه»[٤٦].

وبالإضافة إلى النص الرئيسى الموجود على رقبة الشمعدان فإنه يوجد نصا آخر محزوز حزا عميقا على الجدار الداخلى للبدن يقرأ على النحو التالى : «الطشتخانة المسعودية»[٤٧].

أما غلامه الثانى فهو الصانع عمر بن جلدك[٤٨] الذى أخذ عن الصانع الكبير أحمد بن عمر الذكى النقاش ونعت نفسه أيضا بلفظة غلام لأستاذه الصانع الكبير أحمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش فقد أنهى إبريقه بعد عام من إنهاء أخيه أبوبكر للشمعدان السابق وحرص على أن ينعت نفسه بلفظة غلام فجاء توقيعه بالخط النسخ على رقبة إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة والمؤرخ فى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٣٥م[٤٩]. يتضمن اسمه وتاريخ صناعة الإبريق يقرأ على النحو التالى : «عمل عمر بن الحاجى جلدك غلام أحمد الذكى النقاش الموصلى فى سنة ثلاث وعشرين وستماية»[٥٠].

ومن الصناع المشهورين الذين أمدونا من خلال توقيعاتهم بالعديد من المعلومات كما تحققت على أيديهم وفى أبنائه من بعدهم فكرة التواصل الصناعى والفنى الصانع «حسين بن محمد الموصلى» الذى ظهر فى العصر الأيوبى وأنتج منتجاته فى مدينة دمشق حيث خدم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف[٥١] ثم خلفه من بعده أبنائه الذين انتجوا منتجاتهم الفنية فى القاهرة خلال العصر الأيوبى ويتضح ذلك على النحو التالى : انتج حسين بن محمد الموصلى إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م بمدينة دمشق [٥٢]. (لوحة ٩) .

ويوجد على رقبة الابريق شريط يتضمن اسم الصانع وتاريخ ومكان صناعة الإبريق ، ونص الكتابة كالأتى : «نقش حسين ابن محمد الموصلى بدمشق المحروسة سنة سبع وخمسين وستماية»[٥٣].

كما يحمل بالبدن شريط عريض من الكتابة النسخية وهى بارزة على أرضية ذات زخارف نباتية تتضمن اسم أحد سلاطين بنى أيوب الذين حكموا مدينة دمشق. ونص الكتابة كالأتى :

«عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد صلاح الدنيا والدين أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى»[٥٤]. (لوحة ١٠) .

ثم خلف الصانع الكبير حسين بن محمد الموصلى الذين عاش بمدينة دمشق وخدم الملك السلطان أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى ابنان محمد وعلى عاش الأول بمدينة مصر المحروسة والآخر بمدينة القاهرة فالصانع محمد بن حسين بن محمد الموصلى انتج شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب (لوحة١٠) مؤرخ فى سنة ثمان وستين وستماية [٥٥]. ويحمل توقيعه على النحو التالى : «نقش محمد بن حسين الموصلى رحمة الله عليه بمصر المحروسة فى سنة ثمان وستين وستماية هجرية...»[٥٦].

كما توجد ثلاث كلمات قرأها "Wiet" على النحو التالى : «ما احزن البقا»[٥٧]. (شكل١٠) .

والابن الثانى هو الصانع «على بن حسين بن محمد الموصلى» الذى حقق التواصل الصناعى والفنى فقد عاش بمدينة القاهرة وأنتج تحفا تحمل أسماء وألقاب الملك المظفر شمس الدين يوسف[٥٨] وصنع له بالقاهرة إبريق كبير من النحاس المكفت بالذهب[٥٩] مؤرخ فى سنة أربع وسبعين وستماية وتزينه زخارف متنوعة من الزخارف النباتية والهندسية والرسوم الآدمية داخل الجامات بالإضافة إلى عنصر الكتابات التى ظهرت فى شريطين الأول: على رقبة الإبريق ويشتمل على العديد من المعلومات الوثائقية مثل اسم الصانع وموطنه ومكان وتاريخ الصناعة وتقرأ الكتابة على النحو التالى : «نقش على بن حسين بن محمد الموصلى بالقاهرة فى شهور سنة أربع وسبعين وستماية / ١٢٧٥م»[٦٠]. (شكل ٥) .

والثانى : شريط آخر من الكتابة بخط النسخ المملوكى حول البدن تشتمل على أسماء وألقاب السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف واسم والده المنصور عمر[٦١] وتقرأ على النحو التالى: «عز لمولانا السلطان الملك المظفر شمس الدنيا والدين يوسف بن السلطان الملك المنصور عمر»[٦٢].

وتحتفظ مجموعة "M. Piet- Lataudrie" بمتحف اللوفر بباريس بطست كبير (لوحة ١١) لنفس الصانع يحمل التوقيع التالى : «نقش على بن حسين الموصلى بالقاهرة فى [سنة] أربع وثمانين وستماية» ، كما يوجد شريط آخر من الكتابة باسم السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر يقرأ:

«عز لمولانا السلطان الملك العالم العادل المجاهد المرابط شمس الدنيا والدين يوسف[٦٣] ابن عمر ابن على خليل أمير المؤمنين»[٦٤]. (لوحة ١٢، شكل ١١) .

ويتضح من ذلك أن التحفتين السابقتين قد صنعتا بمدينة القاهرة على يد الصانع الموصلى الأصل «على» الذى استقر والده «حسين بن محمد» بمدينة دمشق وخدم سلاطينها ثم استقر «على» بمدينة القاهرة واستقر أخيه محمد بمدينة مصر المحروسة وأنتجا منتجاتهما الفنية بمصر[٦٥].

وكذلك فمن توقيعات الصناع المواصلة الذين أنتجوا تحفا فنيا تحمل السمات الفنية للمدينة التى تربوا فيها بالإضافة إلى مزجها بتقاليد البلاد التى يعيشون بها كان الصانع داود بن سلامة وهو مكفت ماهر يرجح أنه عاش فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى [٦٦]. وأنتج عدة تحف منها: شمعدان من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م[٦٧]. وصنعت فى شمال سوريا (لوحة١٢) وعلى الرقبة ويدور شريط بارز من الكتابة النسخية جاء فيها اسم الصانع وتاريخ الصناعة نصه كالتالى : «البقا والسعد والبقا والمجد والبقا والخير والثنا عمل داود بن سلامة الموصلى فى سنة أربعين وستماية»[٦٨].

كما أنتج داود بن سلامة الموصلى طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة[٦٩] مؤرخ فى سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢-١٢٥٣م[٧٠] ترجع صناعته فى مدينة القاهرة ويحمل توقيع الصانع على النحو التالى: «نقش داود بن سلامة الموصلى / فى سنة خمسين وستماية / التأييد العز البقا والشكر لصاحبه» وصاحبه هو الأمير بدر الدين بيسرى[٧١] حيث يحمل الطست كتابة كوفية تقرأ : «برسم الأمير بدر الدين بيسرى الخزندار الجمالى المحمدى »[٧٢].

وكذلك نستدل من خلال توقيع صانع آخر يدعى محمد بن خنلغ أنه كان من الصناع المواصلة الذين هاجروا من الموصل واستقروا فى بلاد الشام حيث عاش بمدينة دمشق وهو من الكفتين البارزين فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى [٧٣]. وجمع هذا الصانع بين صناعة التحف المعدنية من جهة وبين صناعة الأدوات الفلكية من جهة أخرى وهو ما يثبت أنه كان من الصناع المهرة والمشهورين فى تلك الفترة وما يؤكد ذلك توقيعه على مبخرة مصنوعة من خليط معدنى ومكفتة بالفضة والنحاس الأحمر[٧٤] ومـؤرخـة فى : ٦٢٨ -٦٣٨هـ/ ١٢٣٠-١٢٤٠م وقد ورد توقيعه محددا مدينة دمشق كمركز صناعى فى شريط كتابى بالمفصلة يشتمل على سطرين كتابين من الخط النسخى نصهما : «١- صنعه محمد بن خنلغ

٢- الموصلى بدمشق»[٧٥] (لوحة ١٣، شكل ١٢) بالإضافة إلى توقيعه على آلة فلكية مصنوعة من النحاس الأصفر المكفت بالذهب والفضة حيث جاء توقيعه فى ثلاثة أسطر بنحو : «١- صنعه محمد ٢- بن ختلغ الموصلى ٣- فى سنة ٦٣٩ / [١٢٤٢-١٢٤٣م]» [٧٦]. (لوحة ١٤ ، شكل ١٣) .

ويمكن القول أن تفوق الصناع المواصلة فى صناعة التحف المعدنية وانتاجهم سواء فى مدينتهم الأولى الموصل أو مواصلة إنتاجهم فى مدن بلاد الشام ومصر بعد هجرتهم واستقرارهم بتلك المدن متأثرين بتقاليد بيئتهم الأولى بالإضافة إلى استفادتهم بالتقاليد المحلية للمدن الجديدة التى عاشوا فيها واكبه ظهور صناع محليين من تلك المدن أثبتوا قدرتهم الصناعية والفنية فى منافسة الصناع المواصلة ولقد بزغ نجم عدد من هؤلاء الصناع فضل الرحيل إلى البلدان المجاورة فعملوا واستقروا فيها والبعض الأخر آثر الاستقرار فى أوطانهم . ومن هؤلاء الصناع المحليين الذين أثبتوا قدرتهم الفنية أمام الصناع المواصلة الصانع أبو القاسم بن محمد الأسعردى الذى ينتسب إلى مدينة أسعرد التى تقع بين مدينة طنزة ، ومدينة حيزان بديار بكر[٧٧].

وهو من الصناع الماهرين الذين ذاع صيتهم فى ديار بكر وانتسبوا إلى مدينة أسعرد وورد توقيعه على مقلمتين من النحاس المكفت بالفضة[٧٨] على النحو التالى : «عمل أبو القاسم بن سعيد بن محمد الأسعردى فى سنة أربعة وثلثين وستماية»[٧٩] (لوحة ١٥، شكل١٤) كما ترك توقيع آخر على مقلمة ثانية نصه : «عمل أبو القاسم بن سعيد بن محمد أسعردى فى سنة ثلث واربعين وستماية»[٨٠]. (لوحة ١٦، شكل ١٥) .

وأيضا الصانع الشهير عبد الكريم المصرى من الصناع النابغين الذين بلغت شهرتهم درجة كبيرة ولد وعاش عبد الكريم[٨١] بمصر ثم رحل للعمل ببلاد الشام واتخذ لقب النسبة «المصرى» وعندما عمل فى خدمة الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بدمشق وديار بكر نعت الملكى الأشرفى ووقع على منتجاته الفنية : «الملكى الأشرفى» وما يؤكد ذلك هو العثور على آلة فلكية من إنتاج هذا الصانع مؤرخة لسنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م يقرأ النص التالى عليها: «الملكى الأشرفى الأسطرلابى»[٨٢].

ثم عمل فى خدمة «الملك العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب» صاحب حلب، والمعروف أن لقب «أتابك الملك العزيز ومربيه» هو شهاب

الدين، فقد حمل الصانع نعت «الملكى المعزى الشهابى» ولايستبعد أن يكون الصانع قد عمل فى خدمة الإثنين خاصة وأنه يستشف من بعض الروايات التاريخية أنهما قد جمعتهما علاقات طيبة ظهر بعضها فى حوادث سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م[٨٣].

وما يؤكد ذلك أسطرلاب من النحاس الأصفر المكفت بالنحاس الأحمر والفضة والمؤرخ فى سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م[٨٤]. (لوحة ١٧) .

ويعتبر هذا الأسطرلاب[٨٥] من الأسطرلابات الفريدة حيث يحتوى على العديد من المعلومات الهامة مثل : اسم الصانع ، موطنه ، أسماء وألقاب السلاطين فى هذه الفترة، التاريخ بالحروف[٨٦]. (شكل ١٨) .

وإذا كان عبد الكريم المصرى قد رحل من مصر إلى حلب للعمل هناك فإن على بن محمد النصيبينى قد ترك مدينة نصيبين فى بلاد العراق فرارا من هجمات المغول الذين استولوا عليها فى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م واتجه إلى مدينة قونية حيث صنع بها لمبة معدنية مزخرفة بالزخرفة النباتية الدقيقة الأرابيسك[٨٧] كما ترك توقيعه عليها يقرأ على النحو التالى:

«عمل على بن محمد النصيبين بمدينة قونية فى سنة تسع وسبعين وستماية»[٨٨]. (شكل١٩) .

وهذه التحفة صنعت فى حكم السلطان السلجوقى غياث الدين كيخسرو الثالث الذى حكم فى سنة ٦٦٥-٦٨٤هـ/ ١٢٦٦-١٢٨٥م[٨٩].

ومن صناع المعادن المواصلة الذين ظهروا فى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى وخلفوا ورائهم توقيعا واضحا الصانع «أحمد بن باره الموصلى» الذى كان إنتاجه سابق بسنوات قليلة منتجات الصانع الشهير محمد بن سنقر وإن كان يظهر التشابه فى أسلوبهما وطريقة توقيعهما على منتجاتهما ، وقد وصلنا توقيع أحمد بن باره على الحلقة البارزة التى يغلق منها صندوق مصحف خشبى مصفح بطبقة من النحاس المكفت بالفضة[٩٠] ويتضمن اسم الصانع أحمد بن باره الموصلى وتاريخ صناعة الصندوق يقرأ : «من صنعة أحمد بن بارة الموصلى فى شهور سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة [١٣٢٣م][٩١]. (شكل ٢٠) .

كما يضم هذا الصندوق بين كتاباته نصا باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون[٩٢].

ومن أشهر الصناع الذين تركوا بغداد وقدموا للعمل فى القاهرة فى أعقاب غزو المغول لها

فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م الصانع محمد بن سنقر[٩٣] البغدادى وهو من أشهر صناع المعادن فى عصر المماليك، وقد ساعد على هذه الشهرة ارتباطه باسم السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون الذى كان من أكثر سلاطين المماليك حبا للفن ورعاية للفنانين ، ومن أشهر أعماله كرسى عشاء معدنى مكفت بالفضة[٩٤]. (لوحة ١٨ أ،ب) .

نقش الصانع توقيعه عليه فى الزوايا الست التى تعلو أرجله مباشرة ويقرأ كالآتى: «عمل العبد الفقير الراجى عفو ربه المعروف بابن المعلم[٩٥] الأستاذ[٩٦] محمد بن سنقر البغدادى السنكرى[٩٧] وذلك فى تاريخ سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فى أيام مولانا الملك الناصر عز نصره»[٩٨]. وصياغة التوقيع اتخذت أسلوب الترجمة لما يشير إلى أنها كتبت على لسان الصانع نفسه وبخط يده خاصة وإن الخط الذى كتب به التوقيع يماثل الخط الذى نفذت به الكتابات على الكرسى وقرصته وبالتالى يمكن القول بأن الصانع محمد بن سنقر كان يجيد فن الكتابة إلى جانب مهارته فى صناعة المعادن كما يدلنا وضع التوقيع فى هذا الجزء أسفل الكرسى على أن الصانع يوقع أسفل عمله وكأنه كاتب مشهور يضع توقيعه فى ختام رسالته أو كتابه أو كأنه مصور ذائع الصيت يزود رسومه بتوقيعه الذى يضاعف من قيمة عمله الفنى، وعن تلقب الصانع محمد بن سنقر بالبغدادى فإنه لايدل على صنعه الكرسى ببغداد بل يستشف من توقيعه أنه قام بصنعه بالقاهرة فى عصر الناصر محمد كما أنه من المستبعد أن ينتسب الصانع إلى بغداد وهو مقيم بها، وإنما تكون النسبة إليها أكثر ملاءمة عند ابتعاده عنها ومعيشته فى بلد آخر بالإضافة إلى هذا لم تكن صناعة المعادن المكفتة بالعراق فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى بهذه الفخامة التى تميز بها أسلوب ابن سنقر على كرسى العشاء وذلك لتخريب المغول لمدن العراق وضعف صناعة التكفيت بها منذ منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى[٩٩].

وبذلك يمكن القول أن أصحاب الحرف والصناع فى مصر وبلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجريين كانوا من أكثر الناس وفاء لتقاليدهم الموروثة فقد بقيت طوائف العمال والحرف تسير على نفس النظم والطرق الصناعية التى كانت مستعملة فى الفترة من القرن الرابع حتى السابع الهجرى / العاشر إلى الثالث عشر الميلادى[١٠٠].

كما كان الصناع ينتظمون فى طوائف تحمى حقوقهم وتشرف على تأدية واجباتهم على الوجه الأكمل بحيث كان لها نظمها وتقاليدها التى يحترمها الجميع وتؤيدها الدولة بنفوذها[١٠١].

وكان أرباب الحرف والصناعات ينقسمون فيما بينهم إلى تخصصات حرفية متنوعة تعج بها أسواق المدن الإسلامية ولقد أسهمت دراسة الكتابات والنقوش الأثرية على التحف والآثار الإسلامية فى التعرف على العديد من التخصصات التى كانت تضمها الحرفة الواحدة كما كان أصحاب الحرف والصناعات يعيشون داخل المجتمع الإسلامى ضمن تكتلات مهنية ، فلكل صنعة أو حرفة طائفة ترعى مصالحها برئاسة شيخ الصنعة (١٠٢).

الشيخ (١٠٣): كان برأس كل طائفة شيخ ينتخبه الأساتذة من رجال الحرفة وبذلك يصبح حاكم الحرفة ويعاونه رئيس رامين صندوق ، وكاتب والشيخ موجود فى جميع الطوائف الإسلامية ، ويلى الشيخ الاختيارية أو المسنون بين أساتذة الطائفة وهم يتعاونون معه على إدارة الطائفة (١٠٤).

يلى الشيخ فى المكانة : الأستاذ(١٠٥) ويدعى عادة أسطى أو أحيانا المعلم وهم يشكلون القسم الرئيسى من الطائفة أما العامل فليس له دورا هاما فى الطوائف الإسلامية ولاوجود له عادة، إذ أن الانتقال من مبتدئ إلى أسطى يتم رأسا ، وقد حرف لقب أستاذ لأصحاب الحرف إلى أسطى(١٠٦).

كما كان تنظيم طوائف صناع التحف المعدنية فى القرن ٧هـ / ١٣م بحيث ازدهر هذا النظام فى العصور الإسلامية ازدهارا عظيما وساهم بأوفر نصيب فى تقدم صناعة التحف المعدنية. ونستفيد من دراسة توقيعات صناع التحف المعدنية التى وصلتنا فى تلك الفترة أن نتعرف على التخصصات الدقيقة التى كانت تضمها الحرفة ويمكن تقسيمها إلى:

١- الصفارون : وهو صانع الصفر(١٠٧) والأدوات النحاسية ، ولقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى وجود بعض مسابك النحاس(١٠٨) فى مدينة الفسطاط بمصر وفى ذلك دلالة واضحة على عراقة هذه الصناعة فى مصر فى العصر الإسلامى(١٠٩) كما جرت العادة أن يتجمع النحاسون فى سوق واحدة أو حى واحد فى المدن الكبرى ، ولهذا كان الحى يعرف بهم كما كانت بعض المؤسسات الموجودة فيه تنسب إليهم فقد عرف فى كل من القاهرة وحلب مثل: سوق النحاسين، وحمام النحاسين، وخان النحاسين(١١٠).

٢- النقاشون (١١١): أطلقت كلمة النقاش على الحفار سواء فى الرخام والحجر والجص والخشب والمعدن والفخار ، وبصفة خاصة أطلق لقب النقاش على الحفر فى المصنوعات المعدنية المتنوعة ولدينا مجموعة من التحف المعدنية فى القرن ٧هـ / ١٣م، لم تخلو من كلمة «نقش أو النقاش»(١١٢).

٣- المكفتون : (المطعمون) : المكفتون أو الكفتيون[١١٣] الذين يكفتوا الأوانى المعدنية من الطسوت والمباخر والزهريات والشماعد والأباريق بالفضة والذهب كما وردت صيغة «المطعم» بدلا من «المكفت» على بعض التحف والمعروف أن المطعم هو الذى يشتغل بحشو الخشب بمادة أغلى مثل سن الفيل أو العاج أو الصدف وإن كانت تطلق كذلك على من يشتغل بحشو المعدن كالنحاس بمعدن أثمن مثل الفضة[١١٤].

٤- الأسطرلابيون (الاسترلابيون، الاصطرلابيون) [١١٥].كان الاسطرلابيون عالمين بعلوم الفلك ، يصنعون آلاتهم الفلكية بأنفسهم كما كان يفعل منجموا الفرس ، ولذا فقد كانت آلاتهم فى غاية الدقة والاتقان ، ومن الصعب أن تضع قاعدة عامة للمكان الذى اصطلح الاسطرلابيون أن ينقشوا فيه توقيعاتهم على ظهر الاسطرلاب[١١٦].

ولقد كان الاتصال قويا بين مصر والشام فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى بحيث لانستطيع أن نضع حدا فاصلا بين المنطقتين ذلك أن الصناع والفنانين تنقلوا بين المنطقتين واشتهر منهم مجموعة وصلت إلينا أعمالهم الفنية تحمل توقيعاتهم[١١٧].

أما عن مراكز صناعة التحف المعدنية فقد أفصحت توقيعات الصناع عن أشهر مراكز صناعتهم حيث كانت المراكز الصناعية الأساس الذى قامت عليه التجمعات الحضرية فكان يهوى إليها الصناع والعمال والحرفيون من كل صوب كما يرد عليها كثير غيرهم ممن يتاجروا فى المواد الخام التى تحتاجها حرف وصناعات هذه المراكز فيحملونها إلى الأسواق المختلفة ، ووردت فى توقيعات صناع التحف المعدنية أسماء بعض المراكز الصناعية التى بلغت درجة كبيرة من الازدهار من بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وتصدرت قائمة المراكز الصناعية مدينة الموصل التى تفوقت فيها صناعة التحف المعدنية وتكفيتها بالذهب والفضة ، وتعتبر صناعة التحف المعدنية فى الموصل من الصناعات القديمة التى كانت معروفة فى هذه الديار ، ونشطت فى الموصل فى القرنين السادس والسابع للهجرة الثانى عشر والثالث عشر للميلاد حيث كان الصناع المواصلة قد جمعوا بين ما ورثوه من العناصر المحلية القديمة فى الزخرفة والنقش وما تأثروا به من الصناعات المجاورة لها ، وابتكروا عناصر جديدة فى الزخرفة والنقش وتنويع التكفيت فكان الطابع الموصلى هو الغالب عليها[١١٨].

وتأثرت صناعة التحف المعدنية فى الموصل بما كان يصنع فى إيران وأرمينية كما تأثرت بالصناعات المحلية التى كانت معروفة فى هذه البلاد قبل الإسلام وبعده وذلك بفضل صناع

الموصل على هذه الصناعة حيث أنهم لم يكونوا مقلدين فحسب بل طبعوها بطابع خاص ، وتفننوا فى تنويعها وتهذيبها حتى صارت مدرسة الموصل قبلة مدارس العالم فى هذه الصناعة وكانت مصنوعاتها من التحف المعدنية الثمينة التى يتسابق الملوك والأمراء وأرباب الثروة فى اقتنائها ، وتزيين دورهم وموائد طعامهم وشرابهم بها[١١٩].

كما أن طريقة التكفيت بالذهب والفضة فقد اختصت بها مدينة الموصل لما ابدعته قريحة الفنان الموصلى حيث فاقت مدرسة الموصل غيرها فى هذه الطريقة وتفننت فى إخراج أجمل الأوانى [١٢٠].

يلى مدينة الموصل مدينة دمشق التى تعتبر مركزا هاما من مراكز صناعة التحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى جعلت الصناع والفنانين يحرصون على كتابة اسم مدينة دمشق على القطع ترويجا لها ولعلها كانت المحطة الأولى التى استقر بها الصناع المواصلة أثناء هجراتهم من الموصل إلى بلاد الشام ومصر[١٢١].

ثم يلى مدينة دمشق مدينة حلب[١٢٢] حيث كانت من المدن التى ساعدت على ازدهار صناعة التحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وهى تعتبر من أهم المراكز التجارية والصناعية فى شمال الشام وكانت حلب نقطة يلتقى فيها الطريق الآتى من الخليج الفارسى حتى نهر الفرات، مع طريق القوافل الآتى من آسيا الوسطى، حيث تنقل السلع إلى موانىء البحر المتوسط. كذلك كانت حلب مركزا لتجمع القوافل التجارية الآتية من آسيا الصغرى والشام مارة إلى بغداد وفارس والهند داخل آسيا[١٢٣].

وتميزت حلب بثرائها الهائل على زمن الحروب الصليبية، وعمرت بالأسواق الواسعة والقياصر والحمامات ، ودأب التجار على جلب مختلف الحاصلات إليها، وظلت محتفظة بأهميتها التجارية حتى الغزو المغولى [١٢٤].

يلى مدينة حلب مصر المحروسة حيث سميت مصانع الفسطاط بـ «المسابك» فقيل «مسابك النحاس» ، و«مسابك الفولاذ» ونحو ذلك ، والذى لاشك فيه أن المسابك كانت قائمة بالفسطاط وتنتج من الخامات المعدنية المصهورة، والمسبوكة ما كان صناع المعادن فى مصر فى حاجة إليه لعمل العديد من الأسلحة والآلات الحربية، علاوة على الأدوات المنزلية والتحف المختلفة، وقد أشار بعض المؤرخين إلى وجود هذه المسابك بالفسطاط . ومن المعروف أن بمصر معدن الذهب والفضة والزمرد فى جبل عند «أسوان» لايشاركها فيها بلد، كما أن بها الحديد

والنحاس وغير ذلك ، والواقع أن الشماعد والمباخر والأدوات المعدنية التى ترجع إلى بداية العصر الإسلامى ، والتى كشفت نماذج منها فى حفائر الفسطاط لاتختلف كثيرا فى شكلها وزخارفها عما كان معروفا فى مصر قبل الفتح العربى مما يجعل التمييز بينها وبين ما أنتج فى العصر القبطى من تحف معدنية ليس من السهولة بمكان (١٢٥).

لاشك فى أن إنشاء دار جديدة للصناعة بساحل الفسطاط والتى سميت «الصناعة الكبرى» فى عهد الأخشيد أحدث نشاطا فى حركة الصناع والحرفيين وغيرهم من صانعى مستلزمات السفن الحربية وآلات القتال. كما أنشئت مسابك النحاس بالفسطاط حيث وجدت دار النحاس بالقرب من سويقة معتوق بالفسطاط ، وسوق النحاس التى كانت تقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص. وقد حفلت بمظاهر رواج وتقدم صناعة النحاس والأسواق التى تضم مجموعة الحوانيت لبيع الأوانى المنزلية وغيرها من المستلزمات المصنوعة من النحاس ولاشك أن الفسطاط العاصمة المصرية كانت تزخر بالعديد من هؤلاء من صناع الحديد ومن غيرهم من أصحاب الحرف (١٢٦).

ويعتبر أكثر ما صنع فى الفسطاط من تحف معدنية كان فى العصر الفاطمى الذى شهد ازدهارا حقيقيا فى هذه الصناعة ساعد عليه كثيرا هجرة عدد كبير من صناع المعادن المواصلة إلى مصر منذ بداية القرن ٧هـ / ١٣م ، ونقلهم خبرة مدرسة الموصل إلى الفسطاط حتى بلغت الصناعة المعدنية فى الفسطاط غاية نضوجها فى العصرين الأيوبى والمملوكى حيث كانت صناعة المعادن - فى بعض حالاتها - مشاركة بين المسلمين واليهود فى الفسطاط(١٢٧).

وهكذا عمل الصناع فى مدينة الفسطاط على إنتاج قطع النحاس كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأوانى المنزلية(١٢٨).

يليها مدينة القاهرة التى أصبحت بعد قرن واحد على الأكثر مركزا عمرانيا هاما سرعان ما أسست فيه حياة مجتمع ما بكل طبقاته ومتطلباته ، فانتشرت فى أرجائه أنشطة حرفية وصناعية مختلفة منها صناعة التحف المعدنية التى راجت رواجا كبيرا خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى. والواقع أن صناعة التحف المعدنية بمختلف أنواعها كانت من أكثر الصناعات رواجا وازدهارا فى مدينة القاهرة. يدل على ذلك ما وصل إلينا من القطع المعدنية التى لازالت محفوظة فى بعض المتاحف العالمية بالإضافة إلى ما ورد فى هذا الصدد

من كتابات تاريخية حيث يذكر «المقريزى» عن أسواق القاهرة فى العصر المملوكى «إن سوق الكفتين كان الموضع الذى يشتمل على كثير من التحف المعدنية المكفتة بالذهب والفضة»، وكذلك كانت بعض الورش فى سوق السروجين مخصصة فى بيع المهاميز واللجم والسروج المكفتة بالإضافة إلى سوق السلاح الذى كان يمتلىء بمختلف أنواع الأسلحة والدروع والحراب والزرد والخوذات والسيوف وبلط القتال[١٢٩].

ثم مدينة أسعرد[١٣٠] التى كانت مركزا هاما من مراكز صناعة التحف المعدنية فى العصر الأيوبى فقد اشتهرت بمنتجاتها المعدنية لدرجة جعلت الصناع والنقاشين ينتسبون إليها. وقد وصلنا من آثارها المادية ما يحفظ هذه المدينة ويسطر اسمها فى سجل المدن المنتجة للتحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وكذلك من بين الصناع الذين انتسبوا إلى أسعرد الصانع : «سعد الدين الأسعردى»[١٣١].

وأخيرا فإن توقيعات صناع التحف المعدنية من بداية القرن ٧هـ/ ١٣م وحتى الربع الأول من القرن ٨هـ / ١٤ م تمدنا بالعديد من المعلومات النادرة عن الصناع وأساليبهم الصناعية والفنية وتلاميذهم وغلمانهم والعلاقات الأسرية والمهنية التى جمعت بينهم بالإضافة إلى رعاة الفن من الحكام والأمراء، وأيضا فى التعرف على المراحل الصناعية التى تمر بها التحفة حتى تصل إلى شكلها النهائى ودور المشاركين فى صناعتها خاصة وأن بعض التحف كان يشارك فى صنعها أكثر من شخص، يقوم كل شخص بتنفيذ الجزء الذى يخصه فى التحفة ويمكن تلخيص ذلك على النحو التالى:

أولا: الصفار: وهو الذى يقوم بعمل التحفة وصقلها .

ثانيا : يقدمها إلى **الأستاذ** الذى يعمل عنده فيتولى الأخير نقشها أو يكلف أحد النقاشين الذين يعملون تحت يده، ويتدربون عنده فينقش عليها الزخارف والتصاوير والكتابات التى تناسب من تعمل له التحفة.

ثالثا: **النقاش** : وهو من يقوم بحفر ما نقش وصور وأحيانا يكون النقاش هو نفسه الأستاذ أو أحد تلاميذه أو من تدربوا على يديه.

رابعا : المكفت أو المطعم : الذى يقوم بملء ما حفر على التحفة بالذهب والفضة لكى تظهر النقوش والكتابات واضحة. وفى بعض الأحيان أتقن بعض النقاشين الصنعة وأصبحت لديهم

المقدرة على تنفيذ جميع الخطوات مع الأخذ فى الاعتبار أن أسرار صناعة التحف المعدنية كانت تدرس عمليا وتلقن شفويا بين جدران المصانع فالابن يمارس حرفة أبيه أو قريب له الذى يبدأ عادة فى تعلمها منذ الطفولة ، ولذلك حرص الصناع على تزويد أعمالهم بتوقيعاتهم التى أصبح لها دلالات معينة تتمثل فى:

١- اعتزاز الصانع بصناعته وبإنتاجه وبما وصل إليه من مكانة زملائه .

٢- الإشارة إلى تخصصه الدقيق فى الحرفة.

٣- توضيح مكانة الصانع بين أقرانه كأن يذكر قوله «المعلم» أو الأستاذ، أو شيخ الصنعة».

٤- الانتساب إلى وطنه الأصلى على نحو قوله : «البغدادى ، الموصلى ، المصرى، الأسعردى».

٥- إثبات العلاقات الأسرية والمهنية بين الصناع بعضهم ببعض مثل علاقة الأخوة وعلاقة التلمذة وعلاقة الغلمنة وعلاقة الأجرة، وغيرها من العلاقات التى يمكن التعرف عليها من خلال توقيعات صناع التحف المعدنية المصدر الرئيسى فى دراسة التحف المعدنية الإسلامية بصفة عامة وفى الفترة موضوع الدراسة بصفة خاصة.

الهوامش

١- راجع : عبد العزيز صلاح، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى ، الجزء الأول، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٨، ص٥٤ ، ٦٨ .

٢- فقد عرف من قبل عن اشتراك أفراد من عائلة واحدة هم «بنو عبد المؤمن» فى تجارة القماش فى الفيوم فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، كما اشتهرت كذلك أسرة مصرية عرفت «ببنى المعلم» اشتغلت بالتصوير فى بداية العصر الفاطمى ، ونبغت فيه، وانجزت أعمالاً اعتبرها المصورون فى عصرهم من العجائب كما تتلمذ عليهم مشاهير المصورين الذين تعلموا عنهم أسلوبهم وساروا على نهجهم .. راجع : حسين رمضان ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى مصر الإسلامية ، دكتوراة مخطوطة ، ١٩٨٧، ص٢٤٧ .

٣- ولقد كانت الحرف والصناعات تخضع لإشراف الدولة من خلال المحتسب الذى كان يعين لكل طائفة من الصناع عريف مشهود له بالثقة والأمانة يشترط فيه أن يكون على دراية ومعرفة تامة بأمور الحرفة التى يشرف عليها ومهمته اطلاع المحتسب على أخبار أهل صنعته ويدله على مواطن الغش والتدليس التى يلجأ إليها أحيانا أصحاب الحرفة. وكان لتلك الوظيفة أثر بعيد فى تضرج الصناعات الإسلامية ويكفى الإشارة إلى أن أهم أعماله إشرافه على الصناعات جميعا ، إذ كان يرسم للصانع طريقة العمل بإرشاد شيوخ الصنعة كما يحدد له الهدف الأسمى الذى ينبغى أن يتجه إليه وهو اتقان العمل والاخلاص فيه. راجع : عبد الرحمن بن نصر الشيزرى، كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، القاهرة، ١٩٤٦م، ص٦ ، السيد الباز العرينى، الحسبة والمحتسبون فى مصر ، المجلة التاريخية المصرية، ج٣، العدد ٢، ١٩٥٠م، ص١٥٧ ، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ، ج١ ، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م، ج٣ ، ص١٠٢٧ ، محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى مصر قبل عصر الفاطميين، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤م، ص٩ ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٤٠-٤١ ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى، ١٩٩١م، ص١٠٧ .

٤- راجع : زكى حسن، فنون الإسلام، القاهرة ، ١٩٤٨م، ص٥٤٢ .

٥- وهناك بعض الصناع الذين واصلوا اتجاهم الفنى بمدينة الموصل منهم: أحمد الذقلى الموصلى من الذين عاشوا فى القرن السابع للهجرة فى الموصل ، ومن أعماله : إبريق من النحاس المكفت بالفضة ، ومزين بعدة صور آدمية ، وزخارف هندسية ، وكتابات متنوعة نسخية وكوفية ، والتصاوير التى تزينه

تكون داخل جامات تحف بالإبريق ، وكتب على الإبريق : «صنع على يد أحمد الدقلى سنة ثلاثة وعشرون وستماية فى الموصل »، كما يعتبر يونس بن يوسف من الصناع البارعين الذين اشتهروا خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى بمنتجاتهم المعدنية التى حملت العديد من الزخارف والتصاوير، ومن أشهر أعماله : إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة مؤرخ : ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، ومن بين زخارف الرقبة شريط من الكتابة النسخية على أرضية نباتية تتضمن اسم الصانع وتاريخ الصناعة ويقرأ على النحو التالى: «عمل يونس إبن (بن) يوسف النقاش الموصلى سنة أربعة (أربع) وأربعين وستماية» راجع : زكى حسن، فنون الإسلام ، ٥٤٤، سعيد الديوه جى، أعلام الصناع المواصلة، الموصل، ١٩٧٠، ص٧٢-٧٣ .

٦- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص٩١ .

٧- محفوظ فى متحف اللوفر رقم : K3435 راجع Rice D.S.. Studies in Islamic Metalwork, II, BSOAS, 1953 , pp. 69-78 ; Migeon G., Manuel d'art musulman , Paris , 1927 , p. 54 .

٨- تلميذ : كلمة معربة عن السريانية، وهى تطلق على المتعلم على يد أستاذ ، وربما أطلقت على الموظف الذى لايزال يتدرب على يد رئيسه: راجع : حسن باشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م، ص٣٢٨ .

٩- محفوظ فى "Chester Beatty Library , Dublin , No. 3130"

١٠- يوجد فى نهاية الصفحة الأخيرة طمس كبير لنص يفيد ياهدا ، هذا المخطوط إلى الجامع الأقصى بالقدس كما يوجد فى ظهرها كتابة مضافة بخط آخر من وقعت المخطوط فى حوزته بالإضافة إلى أسماء الشيوخ الذين شاركوا فى السماع ويؤكد "David James" أنه من بين أسماء الشيوخ التى وردت اسم الشيخ الامام العالم أمين الدين أبو اسحق ابراهيم بن على بن حسين بن جرى الموصلى النهاوى وهذا يعنى ظهور اسم ابراهيم الموصلى بجانب صانع المعادن الشهير وأستاذ الصانع اسماعيل بن ورد لكن لم تثبت علاقة بين الاثنين وعلى أية حال فقد قام بعض الصناع والفنانين فى خلال القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى بإتقان أكثر من مهنة صناعية مثل الصانع اسماعيل بن ورد الذى أجاد الكتابة إلى جانب تفوقه فى صناعة المعادن راجع : David J., An Early Mosul Metal-worker Some New information , Oriental Art, N.S 26 1980 pp. 318-321 .

١١- راجع : David J., An Early Mosul Metalwoker ,. pp. 318-321 .

١٢- محفوظ فى متحف Kevorkian of New York

١٣- راجـع : Rice D.S. Studies in Islamic Metalwork , II, BSOAS, XV/1 , 1953 , pp. 66-68 , Atil E., chase, W.T., paul Jett, Islamic Metalwork in the Freer Gallery of Art Washington, 1985 , pp. 117-123 .

١٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص١٩٢-١٩٦ .

١٥- الغلام فى أصل اللغة هو الصبى الصغير ويجمع على غلمان وغلم ، ثم صار اللفظ يطلق على المملوك الصغير السن أو الذى لم يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم استخدم لفظ الغلمان فى الدولة العباسية والدول الإسلامية على المقربين من المماليك الذين كانوا يقومون بخدمة مولاهم ورعاية قصره، ويعهد إليهم بتنفيذ أوامره . راجع : حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج٢ ، ص٧٩٦ - ٧٩٨ .

١٦- راجع : Atil E., and Others , Islamic Metalwork., pp. 117-123

١٧- كما هو معروف أن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف والد الملك العزيز لما اشتد به المرض عهد بالملك من بعده لولده الصغير «محمد» ولقبه «العزيز غياث الدين وعمره ثلاث سنين كما جعل أتابكه ومربيه ، خادما روميا واسمه «طغرل» ولقبه «شهاب الدين» فكان هذا الأمير مدبر دولته وقد تولى حكم البلاد نيابة عنه بين سنتى (٦١٣-٦١٦هـ/ ١٢١٦-١٢١٩م) راجع المقريزى «تقى الدين أحمد بن على بن أحمد» ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق / محمد مصطفى زيادة ، ج١ ق١ ، ٢، القاهرة ، ١٩٧١م، ج٢ ، ق٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢م، ص٢٢ ، ٢٥٦، ٢٧٣ ، ٢٩٣، ٢٩٤ .

١٨- راجع : Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork , III , BSOAS, 1953 , pp. 69-70 .

١٩- راجع : عبد العزيز صلاح، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص١٩٧-١٩٨ .

٢٠- من المحتمل أن يكون شجاع بن منعة من أبناء يونس بن محمد بن منعة بن مالك- رضى الدين الاربلى ٥٠٨-٥٧٦هـ/ ١١١٤-١١٨٠م الذى يعتبر أول من سكن الموصل كما خرج من بيته جماعة من الفضلاء انتفع بهم أهل البلاد كما كانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها وبقيت أسرتهم مشهورة بالعلم إلى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر الميلادى، وكان منهم شجاع الصائغ المشهور الذى تتلمذ على يديه عدد من صناع التحف المعدنية . راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة، ص٩٦-٩٧، الموصل ، ص٢ ، ٥٦-٧٤ .

٢١- راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة ، ص٩٦-٩٧ ، الموصل ، ص٢ ، ٥٦ ، ٧٤ .

٢٢- المقاييس : الإرتفاع : ٢٩سم، القطر :١٤سم ، محفوظ فى المتحف البريطانى بلندن : و.٦٠ :
British Musseum OA 1866 . 12 . 29 . 61 .

٢٣- راجع : Lane - Poole , The Art of the Saracens in Egypt, London, 1888, p. 170 ; Wiet G., Répretoire chronologique d'épigrphie Arabe, IFAO. Le Caire, 1941-42 . p. 29 ; Hayward G., The Arts of Islam, 1976, p. 179 . Atil E., Chase W. T., Jett p., Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., pp. 18-19 .

٢٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص١٠٦-١١٣ .

٢٥- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ١٥١٢١ وهو شمعدان من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ، مؤرخ فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، راجع سعيد الديوه جى ، أعلام صناع المواصلة، ص٩١ .

٢٦- الثابت على التحف المعدنية الإسلامية بصفة عامة ورود كلمة «طعم» أو «المطعم» فقد وردت كلمة «المطعم» خلال القرن ٧هـ ١٣م وكدها الرحالة وتوقيعات الصناع راجع : Mayer L.A., Islamic Astrolabists and their works, Genève, 1956 . pp. 40-41. ، حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج٣ ، ١١٠٧-١١٠٨، حسين عليوة ، المعادن ، ص٣٧٨-٣٧٩ ، عبد العزيز صلاح، دراسة بعض التحف المعدنية الإيرانية المكفتة فى ضوء مجموعة متحف اللوفر بباريس من منتصف القرن ٦هـ / ١٢م إلى بداية القرن ٧هـ / ١٣م ، ندوة شرق العالم الإسلامى ، كلية الآثار- جامعة القاهرة ١٩٩٨م، ص٧٣٧-٧٥٦ .

٢٧- راجع: المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص١٠٥ .

٢٨- منها سطل من الهرميتاج عليه توقيع الصانع «محمد بن ناصر بن محمد» وابريق عليه توقيع الصانع «محمود بن محمد الهاراتى» مؤرخ فى سنة / ١١٨١-١١٨٢م راجع:
Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., p. 106 .

٢٩- طول المقلمة ٤، ٣١ سم والارتفاع : ٥سم والعرض : ٤ ، ٦ سم ومحفوظة بمتحف الفرير جاليرى بواشنطن راجع : Herzfeld E., A Bronze pen - Case , ARS Islamica, vol . III, part I, 1936 , pp. 35 .

٣٠- صاحب المقلمة هو مجد الملك وزير خوارزم شاه علاء الدين محمد الذي أسس مكتبة في مدينة ميرفي وتوفي في سنة ١٢٢١م خلال الغزو المغولي على هذه المدينة . راجع : Atil A . and Others Islamic Metalwork in the Freer Gallery of Art, p. 105 .

٣١- راجع . Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery., p. 102

٣٢- الطول : ٢٢,٢ سم ، العرض ٥,٣سم كانت محفوظة في مجموعة عطا محمد النقشبندي بهراة Allan J.W., Metalwork , Treasures of Islam , Wellfleet Press, 1985 , p. 258 , Fig 265 .

٣٣- راجع : Malikian - Chirvani A.S., Islamic Metalwork ., pp. 114-117 .

٣٤- راجع : Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., pp. 106-107 .

٣٥- Rice D.S. Inlaid Brasses from the Workshop of Ahmed al-Dhaki al-Mawsili, ARS Orientalis, vol . II, 1957 . p. 284 ., Barrett Douglas, Islamic Metalwork in the British Museum, London, 1949 , p. 14 .

٣٦- إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة مؤرخ في سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م . محفوظ : متحف كليفلاند Cleveland Museum of art

٣٧- راجع : Rice, Inlaid., pp. 283-301 .

٣٨- حسين بن قاسم: هو صانع أضاف اسمه بجوار اسم الصانع المشهور «أحمد الذكي النقاش» وربما كان ابنا للصانع «قاسم بن علي الموصلي» أحد الصناع الذين أخذوا عن الصانع المعروف «ابراهيم بن مواليا» . راجع العبيدي، التحف المعدنية، ص٤٠ ، . Rice Inlaid . pp. 283-301

٣٩- محفوظ في متحف اللوفر رقم ٥٩٩١ . راجع : Wiet G., Réprétoire., XI, p. 116 ; Art de l'Islam des origines , A 1700 dans les collection publiques Francaises , 1971 , pp. 103-104 Arabesque et Jardins de paris . Hayword, Gallery , the Arts of Islam , 1976 , p. 181 ., Collections francaises d'art islamique , Musée du louvre , Paris, 1989 - 1990 , p. 239 .

٤٠- راجع : Rice, Inlaid ., pp. 283-301 .

٤١- محفوظ في متحف همبورج بأمريكا Homberg collection .

٤٢- راجع : Rice, Inlaid, pp. 283-301 .

٤٣- راجع : سعيد الديوه جى، اعلام صناع المواصلة ، ص٨٢

٤٤- محفوظ فى The Museum of Fine Arts, Boston.

٤٥- Rice D.S. The Oldest dated 'Mosuu' candlestick A. D. 1225 , The Burington magazine, 1949 , pp. 336-340 .

٤٦- راجع : Rice D.S., Inlaid.. pp. 316-318 .

٤٧- والنص يشير إلى الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل الذى حكم باليمن من سنة ٦١٢هـ إلى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢١٥-١٢٢٨م ، وظل بها حتى استيلاء بنى رسول على الحكم. ونخلص من ذلك إلى تقارب تاريخ صناعة هذا الشمعدان مع تاريخ حكم الملك المسعودى صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل الذى حكم باليمن حيث كان لقب «مسعود» لقبا له أثناء حكمه لليمن من سنة ٦١٢هـ-٦٢٦هـ/ ١٢١٥-١٢٢٨م أى فى الفترة السابقة على حكم بنى رسول باليمن وفضلا عن أن تاريخ صناعة الشمعدان تقع فى حكم الملك المسعود فقد كان هناك علاقات سياسية بين الأيوبيين فى اليمن ومصر والشام تؤكد الوحدة التى نجح «صلاح الدين الأيوبى» فى تحقيقها بين مصر والشام وبعض اقاليم العراق حيث الأتابكة من بنى زنكى وبنى ارتق حتى أن بعض أتابكة الموصل كانوا يسجلون أسماء سلاطين الأيوبيين على نقودهم تحقيقا للعلاقات السياسية القائمة بين الموصل والقاهرة، راجع : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٢، ص٧٤١-٧٤٢ ، العبيدى ، التحف المعدنية ، ص٨٦ ، آمال العمرى الشماعد المصرية فى العصر الإسلامى منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى، ماجستير مخطوط ، ١٩٦٠م ، ص٧، ٨ ، ٨١ .
Rice D.S., Inlaid .. p. 317-338 ; the Oldest .. p. 339.

٤٨- هو شقيق أبوبكر بن الحاج جلدك الموصلى ومن المعروف فى الموصل وبلاد الشام يقولون للحاج «حجى» . راجع سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة، ص١٠٦ .

٤٩- محفوظ فى : Metropolitan museum of art No, 91-1-586.

٥٠- راجع : Rice, D.S., Inlaid., pp. 317-318.

٥١- السلطان الملك أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى: هو صاحب دمشق ويذكر بن العماد الحنبلى أنه فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، فتح له عسكره حمص ثم ملك دمشق ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وتوفى فى شوال سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م. راجع : ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى

بن عماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥ ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص٢٩٩ . زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دار الرائد العربي بيروت، ١٩٨٠م ، ص١٥١ .

٥٢- محفوظ بمتحف اللوفر سجل رقم : ٧٤٢٨ .

٥٣- قرأ "Berchem" التاريخ على هذه القطعة على النحو التالي: «سنة تسع وخمسين وستماية » راجع Berchem M.V., Notes d'archéologie arabe . étude sur les cuivres Damasquinés et : les verres émaillés, J.A., Tome III, 1904 , p. 22 .

٥٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي، ج١ ، ص١٧٠-١٧٢ .

٥٥- المقاييس : ارتفاع :٢٢سم، القطر : ٢٥سم ، مشتراه في ١٨٩٦م، محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم : ١٦٥٧ .

٥٦- راجـع : Wiet G., Catalogue général du musée arabe du Caire, Objets en cuivre, Organisation égyptienne généale du livre, 1984, pp. 47-48 .

٥٧- ربما تشير هذه العبارة إلى حنين الصانع إلى موطنه ورغبته في العمل بجوار أخيه على بمدينة القاهرة حيث تمتع أخيه بشهرة كبيرة وخدم الملوك والأمراء .

٥٨- هو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر السلطان الثاني في دولة بني رسول، كان رجلا حازما وخضعت له بلاد اليمن، وامتد نفوذه إلى مكة المكرمة. وبنى عددا كبيرا من المساجد ، خصوصا في قرى تهامة ، كما شيد نحو ثمان مدارس باليمن. وقد مات غيلة على يد بني ناجي أهل المخادر الذين قاموا بثورة ضد حكمه. راجع: محمد محمد سطيحه، اليمن شماله وجنوبه، القاهرة،١٩٧٢، ص٦٠ .

٥٩- أطلق على هذا الإبريق اسم ابريق مارسان "Marsan" لأنه وضع في بداية الأمر في مجموعة مارسان "Marsan" باللوفر وهو الآن بمتحف الفنون الزخرفية بباريس وارتفاعه ٤٠سم.

٦٠- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damasquinés., pp. 17-19 .

٦١- هو المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول مؤسس دولة بني رسول في تعز. وكان السلطان المسعود آخر سلاطين بني أيوب قد أنابه على السكة والخطبة عندما توجه إلى مصر سنة ١٢١٩م ، وقد عمل على تمهيد الملك لنفسه ، فلما بلغه خبر وفاة السلطان مسعود بمصر سنة ١٢٢٩م أعلن سلطانه على بلاد اليمن وتلقب بالمنصور، بعد أن استمد النيابة من الخليفة الظاهر بن العباسي رأسا وقد خضعت له معظم بلاد اليمن. راجع : محمد محمد سطيحه ، اليمن، ص٦٠ .

٦٢- يحتفظ المتحف البريطاني بلندن بدرهم لهذا السلطان ضرب مدينة زبيد فى سنة ٦٥٦هـ/ ويحمل نفس الألقاب التي وردت على الابريق مثل : والسلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور عمر». راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 17 , N.3.

٦٣- انتج الصناع المواصلة بمصانع القاهرة مجموعة من التحف المعدنية التى حملت أسماء وألقاب السلطان اليمنى الملك المظفر يوسف ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م بعضها حمل توقيع الصانع وقد سبق ذكره بالنص والبعض الآخر جاء خاليا من التوقيع منها على سبيل المثال : صينية بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، وشمعدان بـ "Palais des arts, Lyon" ، وصينية بـ "Collection marquet de vasse-lat" وطست بـ "Palais des arts, Lyon" ، وصندوق بالمتروبوليتان ، وشمعدان بـ "Musée des beaux arts de Lyon" راجع : Dimand M.S., Un Published Metalwork of the Rasülid Sultans of Yeman . The metropolitan Museum of art . vol . III. 1930 , pp. 229-230 ; Melikian - Chirvani A.S., L'art du métal dans les pays arabes, BMML, 1966 , pp. 46-48 ; Wiet G., Catalogue général., pp. 103-104 , 187 , 180 , 188 .

٦٤- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 21 .

٦٥- من المعروف أن مصر واليمن ارتبطا بعلاقات تجارية ساعدت على وجود علاقات سياسية طيبة بين القطرين خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى. فقد كانت الحبوب والمنتجات اليمنية تحمل إلى مصر فى مقابل التحف الفنية التى اشتهرت بها مصر . راجع: Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquiné., p. 21 .

٦٦- سعيد الديوه جى ، اعلام صناع الموصل ، ص٩٥ .

٦٧- متحف الفنون الزخرفية بباريس رقم : ٤٤١٤ .

٦٨- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 25 ; Migeon G.; Mannuel ., II, p. 52 ; Dimand M.S., Ahandbook of Muhammadan Art , New York , 1947 , p. 148 ; Rice D.S., The Oldest ., pp. 337-338 ; Arts de L'islam des origins, p. 106 ; Baer E, Ayyubid Metalwork., pp. 24-49 .

٦٩- متحف الفنون الزخرفية بباريس رقم ٤٤١١ الآن متحف معهد العالم العربى بباريس.

٧٠- راجــع : Wiet G., Répretoire .. XI, p. 230 ; Migeon G., Mannuel .. II, p. 52 ; Barrett D., Islamic Metalwork .. p. XV; Rice D.S., Studies., OO, p. 65 ; L'Islam dans les Collestion Nationnales, p. 101 ; Arts de l'islam, p. 105 .

٧١- الأمير بدر الدين الشمسى الصالحى النجمى أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب البحرية تنقل فى الخدم حتى صار من أجل الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة . ولم يعرف عنه أنه شرب فى إناء واحد مرتين وإنما يشرب كل مرة فى كوز جديد ثم لايعاود الشرب منه، توفى فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وستمائة . راجع : الدار البيسرية . المقريزى ، الخطط ، ج٢، ص٦٩-٧٠ .

٧٢- وتوجد مبخرة كروية تحمل أسماء وألقاب الأمير بدر الدين بيسرى ومؤرخة فى سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م، محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن راجع : Migeon G., Manuel .

٤٣- راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة ، ص١٠٩ ، الموصل ، ص٥٧-٥٨ .

٧٤- محفوظة فى مجموعة The Aron collection

٧٥- محفوظة Allan J.W., Metalwork of the Islamic World, The Aron Collection , Sotheby , 1986 , pp. 66-68 .

٧٦- The British Museum , No : 5-26-10 راجــــع : Wiet G., Répretoire.. X, p. 135; Rice D.S., Inlaid .. p. 332 .

٧٧- راجع : ياقوت الحموى، معجم البلدان ، مج٢، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص٤٩٤ ، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٧٤ ، ج١١ ، ص٩٤ ، ج١٢ ، ص٤٩٩ .

٧٨- له عمل ثالث عبارة عن شمعدان من النحاس المكفت بالفضة (the Collection of F.R..Lamm) راجع :. Wiet G.. Répretoire.. XI, p. 29 .. Allan J.W.. Islamic Metalwork p. 19

٧٩- مقلمة من النحاس المكفت بالفضة، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم : ١٥١٨٧ .

٨٠- مقلمة من النحاس المكفت بالفضة، متحف اللوفر بباريس رقم K: 3438.

٨١- ومن الصناع الآخرين الذين حملوا اسم عبد الكريم الصانع، «عبد الكريم بن الزين» الذى عاش فى القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر الميلادى . ومن أشهر أعماله : ابريق من النحاس المكفت بالفضة، مؤرخ لسنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، محفوظ بمتحف الاستانة باستانبول . ويرتبط بهذا الصانع صانع آخر مشهور هو «محمد بن الزين الموصلى» وهو من الأساتذة الماهرين فى صناعة النقش والتكفيت ومن

أشهر أعماله طست من النحاس المكفت بالفضة والذهب واستعمل هذا الطست في تعميد لويس التاسع ٦١٢-٦٦٩هـ / ١٢١٥-١٢٧٠م واشتهر باسم (معمدانية سان لويس) ولقد ترك توقيعه في ثلاثة مواضع منها توقيع داخل العناصر الزخرفية حيث يقرأ : «عمل ابن الزين» على الإناء في اليد اليمنى للشخص الجالس وكذلك على المقعد الذي يجلس عليه في مكان ظاهر (شكل ١٦ ، ١٧)وربما تعلم الصانع ابن الزين هذه الطريقة من الصانع على بن حمود الموصلي الذي سبقه في التوقيع بهذه الطريقة فقد ترك توقيعه على احدى الجامات برقبة زهرية من النحاس المكفت بالفضة حيث يظهر جندي يحمل صندوق بيديه حفر عليه توقيع يقرأ : «عمل على بن حمود»، والزهرية مؤرخة في سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، محفوظة في "Museoo nazionale. Florence" راجع : سعيد الديوه جي ، اعلام صناع الموصل ص١١٠ ، Abouseif Doris- Behrens , The Baptistére de Saint Luis, Islamic Art , III, 1988-1989 , pp. 3-9 ; Rice D.S., Studies., III, p. 229 ., Wiet G., Un novel artiste de mossoul, paris, 1931 , pp. 160-162 .

٨٢- راجع : Mayer, L.A., Islamic Astrolabists., p. 29 .

٨٣- يذكر المقريزي في السلوك في حوادث ٦٢٠هـ وزنه عندما أخذ المعظم عيسى المعرة وسليمة ونازل حماة شق ذلك على الملك الأشرف موسى وكان بمصر فتحدث مع السلطان «الكامل محمد» في إنكار ذلك فبعث السلطان الكامل إلى المعظم عيسى يسأله في الرحيل عن حماة فتركها وهو حنق ثم خرج الملك الأشرف موسى من مصر إلى بلاده ومعه خلع الملك الكامل والتقليد بسلطنة حلب للعزيز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازي فوصل حلب في شوال وتلقاه العزيز وعمره عشر سنين فأفاض الخلع الكاملية وحمل الغاشية بين يديه وأقام عنده أياما » : راجع : المقريزي السلوك، ق١-٢ حوادث ٦٢٠، ص٢٥٠ .

٨٤- راجع : Lane - poole St. , The Art ., p. 177 ; Migeon G., Les Cuivres Arabs, Gazette de Beaux arts, 1900, p. 32: Berchem M.V., Etude sur les cuivres Damassquinés., p. 32 ; Migeon G., Mannuel ., II, p. 58 ; Wiet G., Répretoire., X, p. 45; Mayer L.A., Islamic Astrolabists and their Works, Geneva , 1956 , p. 29 .

٨٥- المتحف البريطاني رقم : No . 557-9 1

٨٦- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي، ج١، ص١٩٩-٢٠٤ .

٨٧- المقاييس : الارتفاع ٢٠سم، الرقبة ٨ ، ٦سم ، القطر ١٨ سم ، محفوظة في Collection of the Etnografa Müzesi at Ankara No. 7591 .

٨٨- Rice D. S., Studies in Islamic Metalwork , BSOAS, XVII / 2 , 1955 , pp. 207-212 .

٨٩- كان أيضا الصانع : على بن محمد النصيبى من صناع الأخشاب فى قونية حيث صنع صندوق مصحف بأمر السلطان كيكاوس الثانى ٦٤٤هـ- ٦٥٨هـ/ ١٢٤٦-١٢٦٠م على يد وزيره الشهاب عطا والصندوق محفوظ بمتحف استانبول بتركيا راجع : Rice D.S., Studies in Islamic Metal-work , BSOAS, XVII/2 , pp. 207-212 .

٩٠- محفوظ بمكتبة الجامع الأزهر.

٩١- راجع : حسن عبد الوهاب ، ترقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية ، المجمع العلمى المصرى، ١٩٥٥، ص٥٥٦، عبد الرءوف على حسن ، تحف فنية ، ص١٠٥ .

٩٢- راجع: حسين عليوه ، المعادن، القاهرة ، ص٣٧٨ .

٩٣- يوجد صانع آخر يحمل اسم «محمود بن سنقر» اشتهر فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ومن أعماله مقلمة مستطيلة من الناحس المكفت تشتمل على رسوم الأبراج السماوية ومؤرخة فى سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١-١٢٨٢م ، وربما كان الصانع الشهير محمد بن سنقر من نفس العائلة الفنية التى هاجرت من العراق فى أعقاب غزو المغول لمدينة بغداد . : Willy Hartner : The Vaso Vescovali in the British Museum . Vunst des Orients, IXI/2, 1973 / 4 , pp. 109 - 110 .

٩٤- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم :١٢٩ .

٩٥- من المعروف أن لقب «المعلم» كان يطلق على مهرة الفنانين والصناع ، وقد أطلق فى كتابة أثرية على صانع شمعدان كبير من البرونز صنع سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م للأمير قوصون فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ونقل إلى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة من مدرسة السلطان حسن راجع : حسن الباشا ، بيتر المعلم، القاهرة ، ص١٢٢ .

٩٦- الأستاذ : أستاذ كلمة فارسية معربة، ومعناها : السيد أو المشهور بعمله كما استعملت كلمة أستاذ فى العربية بمعنى الماهر. راجع : القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج٣، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٣٨ م ، ج٣، ص٤٨١ ، ج٥ ، ص٤٨٩ ، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والآثار ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م، ص١٣٩-١٤٠ ، الفنون والوظائف ، ج١ ، ص٦٢-٦٣ .

٩٧- قرأها "Gaston Wiet" على نحو «السناى» وذكر أن الكلمة لاتزال غامضة ، وقرأها «زكى حسن» على نحو «السنانى» وبمراجعة هاتين الكتابتين على التحفة «عبد الرءوف على يوسف» تبين شرطة

حرف «الكاف» وكذلك حرف «الراء» وقد سقط عنهما تكفت الفضة وبذلك تكون صحة القراءة «السنكري» أي صانع المعادن وهي لفظة مازلنا نستعملها إلى الآن مع غيرها من أسماء الحرف واصطلاحات الصناعة التي وصلت إلينا من عهد المماليك والتي تزخر بها حجج الأوقاف ووثائق هذا العصر . ولفظة «السنكري» هي تحريف لكلمة «تكاري» الفارسية بمعنى صانع المعادن أو الحداد حيث يدل على تخصصه المهني في أعمال السنكرة التي يتسع مدلولها في ذلك العصر ليشمل عددا من الأعمال الحرفية في مجال صناعة المعادن وزخرفتها . ومما يؤكد ذلك توقيع الصانع محمد بن سنقر على صندوق مصحف بمتحف برلين بالخط النسخي بحروف صغيرة في سطرين يقرأ «عمل محمد بن سنقر البغدادي تطعيم الحاج يوسف بن الغوابي» وهذا التوقيع يكشف عن تخصصه بالسنكرة التي وردت على توقيعه على كرسي العشاء. راجع ، زكي حسن، فنون الإسلام، ص٥٥٩-٥٦٠ ، عبد الرءوف علي يوسف ، تحف فنية من عصر المماليك، مستخرج من مجلة «المجلة» العدد ٦٢ ، مارس ١٩٦٢ م، ص٩٨-٩٩ ، هامش ١ ، حسين عليوه ، دراسة لبعض الصناع والفنانين ، ص١٠٤ .

Wiet G., Catalogue général.. p. 18 .

٩٨- راجع : حسين عبد الرحيم عليوه، دراسة لبعض الصناع والفنانين، ص١٠٣ .

٩٩- راجع : حسين عليوه ، محمد بن سنقر، القاهرة، ١٢٨-١٣٠ ، دراسة لبعض الصناع والفنانين، ص١٠٣-١٠٥ .

١٠٠- أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي، ص١١١-١١٢ .

١٠١- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامي، تاريخه ، وخصائصه ، بغداد ١٩٦٥ ، ص١٧٠ .

١٠٢- راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج١ ، ص٦٣٠-٦٣١ ، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي، ١٩٩١م، ص٢٦٤ .

١٠٣- يعرف الشيخ أيضا باسم أمين أو عريف وأحيانا نقيب، إذا اختفت رتبة النقيب يسمى الشيخ. راجع : حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج١، ص٦١ .

١٠٤- راجع أحمد رمضان ، المجتمع ، ص١١٣ .

١٠٥- استعمل هذا اللفظ في الدول الإسلامية بدلالات وظيفية مختلفة فمثلا جرت العادة في بعض العصور على كل من اتقن مهنة وبلغ درجة رفيعة فيها سواء من رجال الدين أو العلم أو رجال الدولة أو ذوي الحرف والصناعات والمهارات المختلفة كما استخدمت لفظة استاذ في الدول الإسلامية وبخاصة

فى عصر السلاجقة للدلالة على بلوغ مرتبة رفيعة فى الدولة وكذلك للدلالة على الرئاسة وخاصة بين الموظفين من غير العسكريين الذين كان يصطلح على تسميتهم بأرباب الأقلام بالإضافة لعادة السلاجقة أن يكون لكل سلطان أستاذ يشرف على تربيته وتأديبه فى الصغر . راجع : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣، ص٤٨١ ، ج٥ ، ص٤٨٩ ، حسن الباشا. الألقاب ، ص١٣٩-١٤٠ ، الفنون والوظائف ، ج١ ص٦٢ - ٦٣ .

١٠٦- حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج١ ، ص٦٢-٦٣ .

١٠٧- الصفر : نوع من النحاس الأصفر أو الملاط الذى تصنع منه الأوعية والقدور . راجع : حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج٢ ، ص٧٠٥-٧٠٦ .

١٠٨- ضمت بعض نصوص البرديات العربية فى موضوعاتها لقب النحاس وما به تفاصيل دقيقة لأعمال النحاس وأيضا بعض أسماء الأدوات التى كان يستخدمها النحاس من قدور وقوالب وأدوات ومسابك وأفران مع أسعار منتجاته وسائر الصناعات الأخرى النحاسية. راجع : سعيد مغاورى، الألقاب والحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية، دكتوراة، ١٩٩٤م، ص٨٩١ .

١٠٩- ومما لاشك فيه أن وجود هذه المسابك كان ضروريا لإمداد صناع النحاس بالخامات اللازمة من هذا المعدن لانتاج مختلف الصناعات المدنية من أدوات منزلية وكراسى العشاء وغيرها من الشماعد والتنانير والثريات وصناديق المصاحف والمحابر والأوانى والأباريق . راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية ، ج١ ، ص٦٩ .

١١٠- راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج٢ ، ص١٢٧٥ .

١١١- استخدمت لفظة النقاش بمعنى الملون والمصور والمزخرف بالألوان سواء على الورق أو القماش وغير ذلك . راجع : حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣ ، ص١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٢- حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣، ص١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٣- التكفيت : كلمة فارسية من فعل «كفتن» بمعنى وضع مادة أغلى فى الثمن فى مادة أرخص منها تكون مختلفة عنها فى اللون مثل تكفيت النحاس والبرونز بالذهب والفضة . وقد ازدهر هذا الأسلوب فى زخرفة التحف المعدنية. راجع : سعاد ماهر، مشهد الإمام على فى النجف وما به من الهدايا والتحف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م، ص٣٢٨ .

١١٤- حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣، ص١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٥- الاسطرلابي : هو صانع أو مؤلف الاسطرلابات أو الاصطرلابات ، ويقال له أيضا الاسطرلابي أو الاصطرلابي ، وقد وردت الأسماء الثلاثة في الكتابات الأثرية. راجع:

Sourdel D., et J., Dictionnaire, pp. 112-114 .

١١٦- راجع : دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، مادة «الاسطرلاب» ص١١٤-١١٨ ، حسن الباشا، الاسطرلاب ، ص٥٧٨-٥٧٩ ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية، ص٧٥ .

١١٧- من هؤلاء قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغنى بن منصور علم الدين الحنفى وهو عالم رياضى وفلكي ومهندس ولد باصفون من أعمال قنا حوالي سنة ١١٧٨ / ١١٧٩م وتوفى فى دمشق سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، ولقد تلقى العلم فى سوريا ثم الموصل وتتلمذ على يد العلامة كمال الدين بن يونس الذى علمه الموسيقى وبعض العلوم ، ولما انتهى من دراسته بالموصل عاد إلى سوريا والتحق بخدمة المظفر الثانى تقى الدين محمود صاحب حماة ١٢٢٩-١٢٤٤م، وكان قيصر ماهرا فى صنع الأدوات الفلكية وخاصة الكرات السماوية ففى سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م صنع كرة سماوية من البرونز للسلطان الأيوبى الملك الكامل محمد بن أبى بكر ونقش عليها اسمه بالخط الكوفى. راجع : Mayer, L.A., Islamic Astrolabists, pp. 29-30 .

١١٨- سعيد الديوه جى، الموصل، ص٥٠-٥٢ .

١١٩- راجع : زكى حسن، فنون الإسلام ، ص٥٤٢ .

١٢٠- أهم المميزات الفنية لمدينة الموصل كذلك الزخرفة ذات الرسوم الآدمية التى تقوم فى كثير من التحف التى صنعت فيها على أرضية من خطوط منكسرة ومتداخل بعضها فى بعض تؤلف شكل حرف "T" المزدوج ، كما أن هذه السمة ظهرت على التحف المعدنية التى صنعت للسلاطين الأيوبيين ، ومن الرسوم التى انفردت بها التحف المعدنية الموصلية دون غيرها هى رسم الهلال بين ذراعى شخص جالس على نحو ما نرى على بعض قطع العملة التى ضربها بنو زنكى فى الموصل. راجع : زكى حسن، فنون الإسلام، ص٥٤٢ ، صلاح حسين العبيدى، التحف المعدنية الموصلية، ص٦٦ .

١٢١- راجع : ابن القلانسى (أبى يعلى حمزة بن القلانسى) ، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م، ص٥٥٢-٣٦٥ ، ابن حوقل (أبى القاسم بن حوقل النصيبى)، كتاب صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ ، ص١٥٣-١٧٣ ، ابن خرداذبة (أبى القاسم عبيدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة، متوفى فى حدود سنة ٣٠٠هـ)، المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، ص٩٨-٩٩ ، راجع : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٥٣-١٧٣ ، الاصطخرى، المسالك والممالك ، وزارة الثقافة والارشاد ، ١٩٦١م، ص٤٥ .

١٢٢- كانت حلب فى العصور الإسلامية الأولى بلدة ثانوية محصورة بين مدينتين عظيمتين وهما انطاكية عاصمة شمال الشام وقنسرين عاصمة الإقليم الذى تقع فيه حلب على أن هذا الموقع المتميز لم يكن نعمة على طول الخط ، وإنما كانت له بعض الآثار السيئة بالنسبة لحلب إذ غدت ساحة للحرب بين القوى المحيطة بها. ذلك أنها المدخل الطبيعى لبلاد الشام من ناحية ثانية، ومن ثم فإن السيطرة على حلب وأعمالها صارت تعنى فصل شمال الشام عن جنوبه ، وعندما هيئت الظروف لصلاح الدين الأيوبى بتملك الشام سعى للسيطرة على حلب وقد تم له ذلك فى ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م ومن ثم غدت الجبهة الإسلامية تحت زعامته تمتد من جبال طوروس شمالا حتى النوبة جنوبا راجع ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٥٣-١٧٣ ، ابن العديم، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ج١ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١م، ص٦٠-٨٠ ، ناصر خسرو ، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣م، ص٥٥ .

١٢٣- محمود محمد الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف ، ١٩٧٩، ص١٣٠ .

١٢٤- راجع : ابن العديم، زبدة الحلب، ص٦٠-٧٠ ، عادل عبد الحافظ حمزة، حلب وجيرانها فى عهد ملوك بنى أيوب، التاريخ والمستقبل، مج١ ، العدد الثانى ١٩٩١م، ص٦٥-٨٥ .

١٢٥- زكى حسن ، كنوز الفاطميين، ١٩٣٧م، ص٢٤١-٢٤٢ .

١٢٦- السيد طه السيد، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١م، ص١٥٨-٢٠٥ .

١٢٧- عاصم رزق ، مراكز الصناعة، ص٣١ .

١٢٨- السيد طه السيد، الحرف والصناعات، ص١٦٥ .

١٢٩- راجع المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص١٠٥ .

١٣٠- راجع : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مج ٢، بيروت ، ١٩٨٤، ص٤٩٤ . ، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، حققه د/ احسان عباس، مج٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص٢٢٢، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٧٤ ، ج١١ ، ص٩٤ ، ج١٢ ، ص٤٩٩ . ،
Allan J.W., Islamic Metalwork the Nuhad Es-Said Collection , Sotheby , 1982 , p. 19 .

١٣١- راجع : حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣، ص١٢٩٤ ، حسن عبد الوهاب ، ترقيمات الصناع، ص٥٣٨ .

ثبت المصادر والمراجع

أولا المصادر:

ابن الأثير «لأبى الحسن على بن أبى الكرم محد» ت : ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م .

الكامل فى التاريخ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م . {الكامل} .

ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى بن عماد ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج٥ ، بيروت ، بدون تاريخ .

القلقشندى «أبى العباس أحمد بن على بن أحمد» ت : ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م .

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الطبعة الثانية ، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م . {صبح الأعشى} .

المقريزى «تقى الدين أحمد بن على بن أحمد» ت : ٨٤٥هـ/ ١٤٢١م .

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق / محمد مصطفى زيادة، ج٢ ق١، القاهرة ، ١٩٧١ م، ج٢ ، ق٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢م. {السلوك} .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقريزية» ، جزآن ، طبعة بولاق ، بدون تاريخ. {الخطط} .

ياقوت الحموى ، معجم البلدان، مج٢ ، بيروت ، ١٩٨٤ م.

ثانيا : المراجع

- أحمد بدوى، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار النهضة بمصر، ١٩٧٩م. {الحياة الأدبية} .

- أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى ، ١٩٩٠م {الحضارة} .

الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، «العلوم العقلية»، الفكر العربى، ١٩٩١م. {الحضارة} .

- السيد طه السيد أبو سديرة ، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م {الحرف والصناعات} .

-ثروت عكاشة ، فن الواسطى من خلال مقامات الحريري، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م. {فن الواسطى} .

- حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م {الألقاب}.

الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م. {الفنون والوظائف} .

- حسين عليوة، المعادن ، كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها، القاهرة، ١٩٧٠ {المعادن} .

- حسين مؤنس ، اطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للاعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٧م. {المعادن} .

- زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، دار الرائد العربى بيروت ، ١٩٨٠م.

- زكى حسن، فنون الإسلام، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٨. {فنون الإسلام} .

- سعيد الديوه جى، أعلام الصناع المواصلة، الموصلة ، ١٩٧٠ .

الموصل فى العهد الأتابكى، بغداد ، ١٩٥٨م {الموصل} .

- سوادي عبده محمد الرويشيرى، إمارة الموصل فى عهد بدر الدين لؤلؤ، بغداد ، ١٩٧١ {امارة الموصل} .

- صلاح حسين العبيدي، التحف المعدنية الموصلية فى العصر العباسى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٠م. {التحف المعدنية} .

- عاصم محمد رزق ، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩م {مراكز الصناعة} .

- عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، الجزء الأول، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٨، (الفنون الإسلامية) .

- عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى، القاهرة، ١٩٦٣. (الفن الإسلامى) .

- محمد محمد سطيحه ، اليمن شماله وجنوبه ، القاهرة، ١٩٧٢ .

- محمود إبراهيم حسين : أعلام المصورين المسلمين وأشهر أعمالهم الفنية، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٢ (أعلام المصورين).
- محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف ، ١٩٧٩م . [الأوضاع الحضارية] .
- يوسف ذنون ، الواسطى موصليا ، منشورات مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل ، ١٩٩٨م.

ثالثا : المراجع الأجنبية المعربة :

- ويستنفلد . ف، جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة / عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.

رابعا : الدوريات

- حسن الباشا ، المبخرة ، بحث بكتاب القاهرة تاريخها ، فنونها ، آثارها ، المؤسسة، ١٩٧٠م [المبخرة] .
- حسن الباشا ، بنو المعلم، بحث بكتاب القاهرة تاريخها ، فنونها ، آثارها ، المؤسسة، ١٩٧٠م . [بن، المعلم] .
- حسن عبد الوهاب، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية، المجمع العلمى المصرى، ١٩٥٥ [توقيعات الصناع] .
- حسين عليوه ، محمد بن سنقر ، بحث بكتاب القاهرة تاريخها ، فنونها ، آثارها ، المؤسسة، ١٩٧٠م [محمد بن سنقر] .
- حسين عليوه ، دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر فى عصر المماليك، مستخرج من دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الأول ، مايو ١٩٧٩م [دراسة لبعض الصناع].
- عبد الرؤوف على يوسف، تحف فنية من عصر المماليك، مستخرج من مجلة «المجلة» العدد ٦٢ ، مارس ١٩٦٢م [تحف فنية] .
- عبد العزيز صلاح ، دراسة بعض التحف المعدنية الإيرانية المكفتة فى ضوء مجموعة متحف اللوفر بباريس من منتصف القرن ٦هـ / ١٢م إلى بداية القرن ٧هـ / ١٣م ، ندوة شرق العالم الإسلامى، كلية الآثار- جامعة القاهرة١٩٩٨م. [دراسة بعض التحف] .

خامسا : المراجع الأجنبية :

- Abouseif Doris- Behrens, The Babtistére de Saint Louis, Islamic Art, III, 1988-1989 .
- Allan, W., James, Metal work of the Islamic world , the Aron collection Sotheby, 1986 .
- Arabesques et Jardins de Paradis, Collections francaises d'art islamique, Musée du Louvre , Paris, 1989-15 Janvier, 16 Octobre, 1990 .
- Atil Esin, and Chase, W.T., Islamic metal work in the freer Gallery of art Washington, 1985 .
- Baer, Eva , Metal work in Medieval Islamic Art, New York, 1983 .
- Balog Paul, the coinage of the Ayyubids, London, 1980 .
- Barrett, Douglas, Islamic Metalwork in the British Museum, London, 1949.
- Berchem, Max Van , Notes d'archéologie Arabe, étude sur les cuivres Damasquinés et les verres émailés, Journal Asiatique, Tome III, 1904 .
- Inscription Mobiliérs Arabes en Russie, J.A., Tome. XIV , 1909 .
- Berchem, Max Van , Und Sarre Von Friedrich , Das metallbecken des arabeks Lu' Lu von Mosul in der kgl . Bibliothek zu Munchen, Munchen Jahrbucher der bildenden Kunst, 1907 .
- Blair Sheila S., Artists and Patronage in late fourteenth- century Iran in the light of two catalogues of Islamic metalwork , Bull. SOAS, XLVIII, 1985 .
- Combe, M. Étinne, Cinq cuivres musiman datés XIII , XIV et XV Siécles de la Collection Benaki , BIFAO, XXX, 1930 .
- Combe , E., J., Sauvaget , G. Wiet , Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe, Caire, IFAO, XI, 1941-1941 .
- David, James, An early mosul metalworker: some new information , Oriental Art, N.S. 26 , 1980 .
- Dimand , M.S., A handbook of muhammadan art, New York, 1947 .

- Dimand , M.S., Unpublished metalwork of the Rasulid Sultans of Yemen, Metopolitan Museum Studies, vol., III, 1930 .
- Ettinghausen , Richard , Le Baptistére de St. Louis, by Rice, ARS Orientalis, vol . I, 1954 .
- Hartner Willy , The Vaso vescovali in the British Museum A study on Islamic Astrologigal iconography , Kunst des Orients, IX 1/2 , 1973/4 .
- Hayward G., The Arts of Islam, 1976 .
- Lane - Poole, Stanley, The art of the saracens in Egypt, London, 1888 .
- Mayer , L.A., Islamic Metalworks and their works, Geneva, 1959 .
- Islamic Astrolabists and their works, Geneva, 1956 .
- Melikian Chirvani Assadullah Soure , Islamic Metalwork from the Iranian World , London, 1982 .
- L'art du métal islamique , Paris, 1971 .
- Migeon , Gaston , Mannuel d'art musulman , Paris, 1927 .
- Les Cuivres Arabes, Gazette de Beaux - arts, décembre , 1899 .
- Les Cuivres Arabes, Gazette de Beaux arts, LXXXVI, 1900 .
- Mostafa, Mohamed, the Museum of Islamic Art, a short Juide, Egypte, 1979 .
- Musée Benaki Athénes, Guide, Athénes, 1936 .
- Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork , I, BSOAS, XIV/3 ., 1952 .
- Studies in Islamic metalwork . II, BSOAS, XV/1 , 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork, III, BSOAS., XV/2 , 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork , IV, BSOAS., 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork , V, BSOAS., XVII/2, 1955 .
- Studies in Islamic Metalwork , VI, BSOAS., XX I/2 , 1955 .
- The Oldest dated ' Mosul' candlestick A.D. 1225 , The Burington Magazine, december , 1949 .
- Inlaid brasses from the Workshop of Ahmad al- Dhaki al- Mawsili , ARS Orientalis, VOL. 2, 1957 .

- The Brasses of Badr al - din Lu'Lu, Bulletin of the School of Oriental and African Studies 13 , 1950 .

- The Aghani miniatures and religious painting in Islam , Burlington Magazine vol. 95 , April 1953 .

- Wiet, Gaston, Répertoire chronologique dépigraphie Arabe , IFAO, X, Le Caire, 1939 .

- Catalogue Général du musée Arabe du caire (Le Caire), 1932 .

- Wiet G., Catalogue général du musée arabe du Caire, Objets en cuivre, Oraganisation égyptienne générale du livre, 1984 .

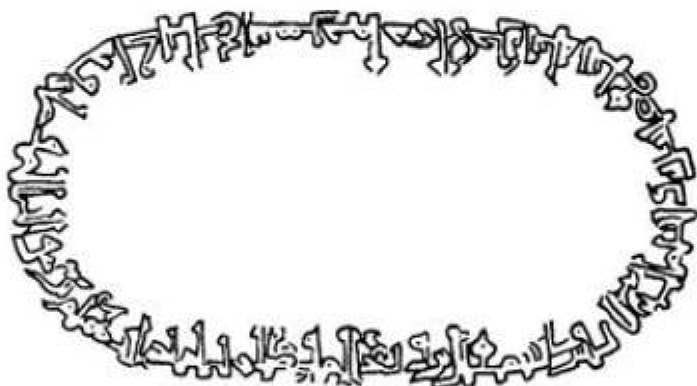
- Inscription mobiliéres de L'Égypt Musulmane, Journal Asiatique, CCXLVI, 1958 .

- Les inscription de Saladin, Syria, Revue d'Art Oriental et d'Archéologie, tome III, Paris, 1922 .

- Un Nouvel Artiste de Mossoul , Paris, 1931 .

- L'épigraphie arabe de l'expostion d'art persan du Caire, Mémoire a

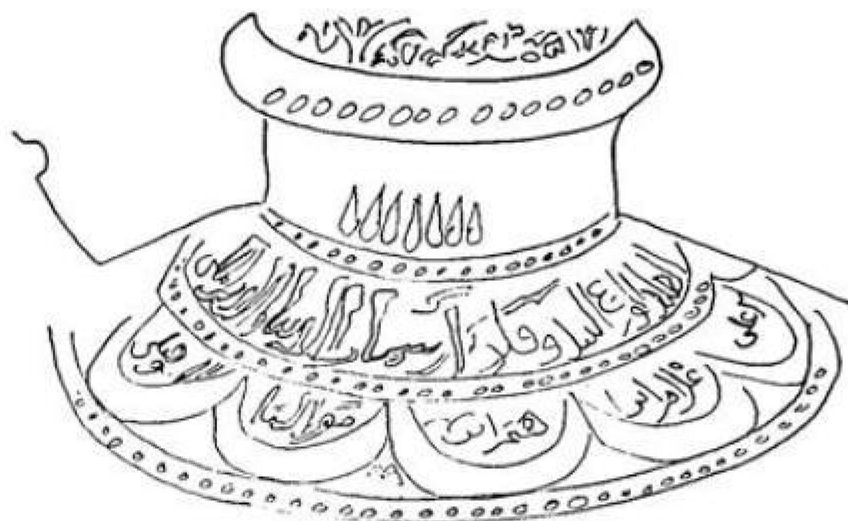
(شكل ١)



(شكل ٢)

وافق الفراغ من نسخه بكره الخميس في العشرين من شوال سنه ستة واربعين وستمايه
كاتبه الفقير الى رحمه الله ورضوانه اسمعيل بن ورد بن عبد الله الفقاش الموصلي وهو
حامدا لله ومصليا على رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله واصحابه وسلم تسليما وغفر الله
لمن نظر فيه ودعا له بالمغفره ولجميع المسلمين

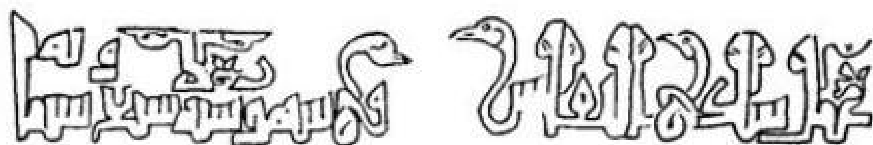
(شكل ٣)



(شكل٤)



(شكل٥)



(شكل٦)

(شكل ٧)



(شكل ٨)

(شكل ٩)

(شكل ١٠)



(شكل ١١)

(شكل ١٢)



(شكل ١٣)

عمل ابو القاسم بن سعد بن محمد الاشعري في سنة اربع وثلثين وستمائة

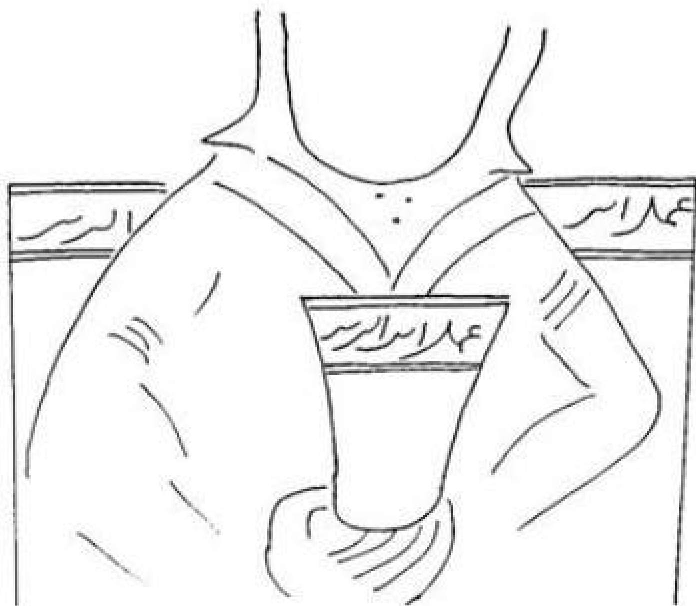
(شكل ١٤)

عمل ابو القاسم بن سعد بن محمد بن حمودي في سنة ثلث واربعين وستمائة

(شكل ١٥)

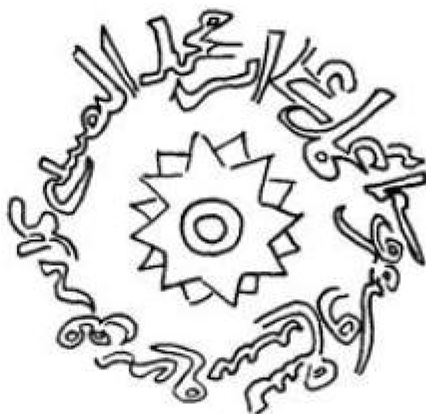


(شكل ١٦)



(شكل١٧)

(شكل١٨)



(شكل١٩)



(شكل٢٠)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هذا الحديث من صفات الله تعالى المنزه عن التكييف

والتشبيه وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب والسنة كاليد والاصبع [illegible]

والاتيان والنزول فالايمان بها فرض والامتناع عن الخوض فيها واجب فالمهتدي من سلك فيها

طريق التسليم والخائض فيها زائغ والمنكر معطل والمكيف مشبه تعالى الله عما يقول الظالمون علوا

كبيرا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد

لله رب العالمين

ووافق الفراغ من نسخه بكرة الخميس في العشر [illegible] من شوال سنة [illegible]

كاتبه الفقير الى رحمة الله ورضوانه اسمعيل بن [illegible] الموصلي وهو

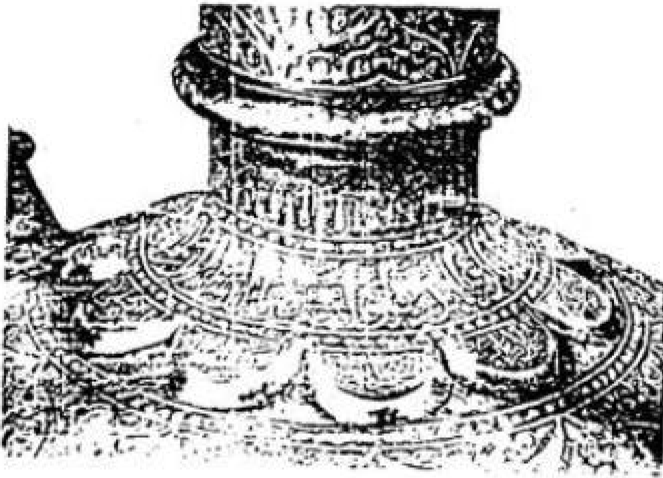
حامد الله ومصل على رسوله محمد صلى الله عليه وعلى اصحابه وسلم [illegible]

[illegible] ودعا له بالمغفرة ولجميع المسلمين

(لوحة ١)



(لوحة ٢)



(اللوحة ٣)



(اللوحة ٤)



(لوحة ٥)



(لوحة ٦)



(لوحة٧)



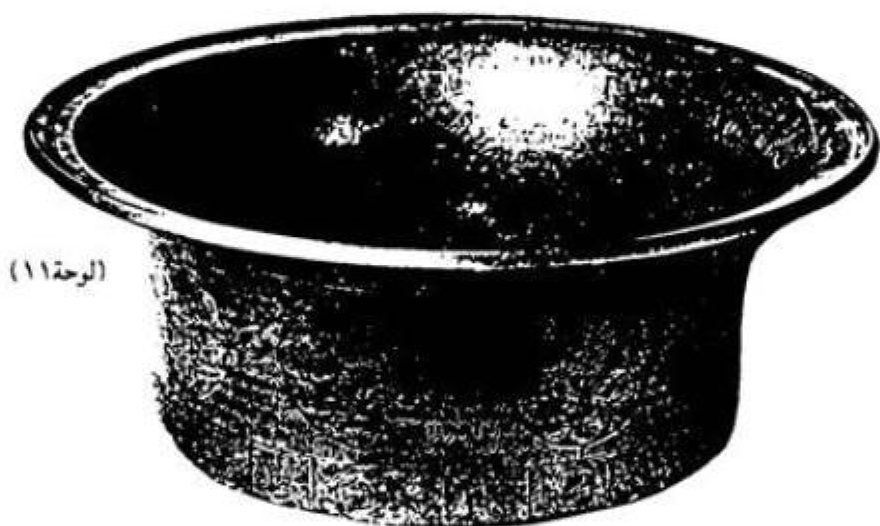
(لوحة٨)



(لوحة ٩)



(لوحة ١٠)



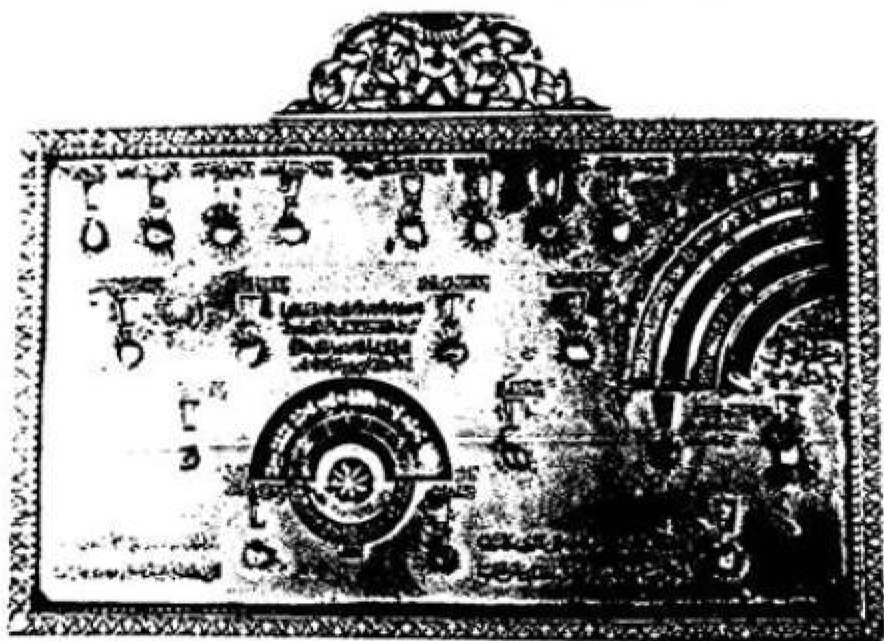
(لوحة ١١)



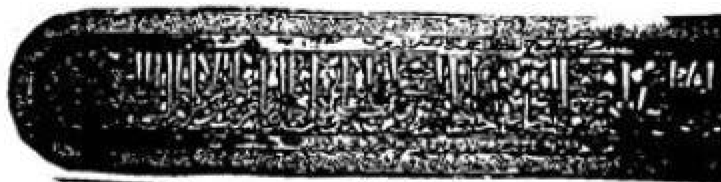
(لوحة ١٢)

(الوحة١٣)

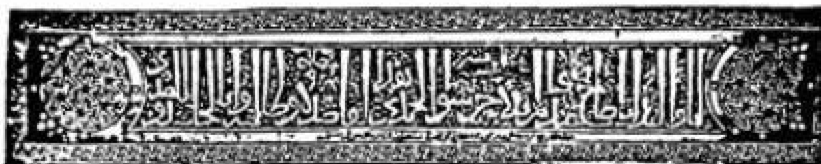




(الوحة١٤)



(الوحة ١٥)



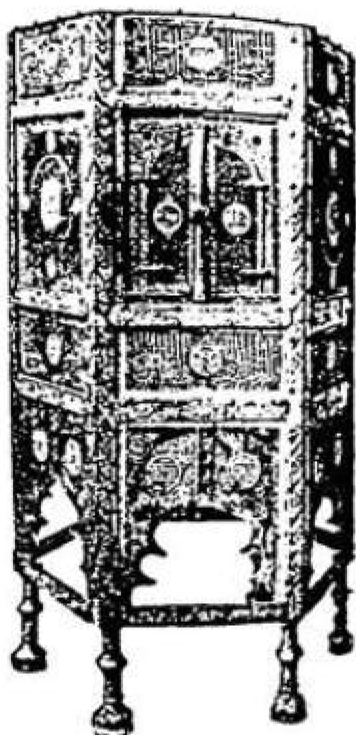
(الوحة ١٦)



(الوحة ١٧)



(أ)



(ب)

(لوحة ١٨)

د. يسرى أحمد عبدالله زيدان *

منهج المقريزى فى كتابه «المقفى الكبير»

اسم الكتاب ووصفه :

كتاب «المقفى الكبير» المعروف أيضًا باسم «تاريخ مصر الكبير»[1] ألفه عمدة مؤرخى مصر الإسلامية[2] الإمام الشيخ المؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى[3] المتوفى سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م والكتاب عبارة عن معجم تاريخى كبير، بتراجم مشاهير مصر، والوافدين عليها من شتى الأقطار، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وثقافتهم. وقد أشار صاحبه الإمام المقريزى إلى اختصاص هذا الكتاب بالترجمة لكل من دخل مصر لأى غرض من الأغراض، وظهر ذلك- على سبيل المثال- عندما ترجم لأحد الثوار ببلاد المغرب ويُدعى «خلف بن جبر» الذى قتل سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م[4] وحملت رأسه إلى مصر فطيف بها، وعلق المقريزى على هذا الحدث بقوله : «فلذلك ذكرت خلفًا هذا، وهو من شرط هذا الكتاب»[5]. كذلك صرح المقريزى فى كتابه «السلوك»[6] باختصاص كتاب «المقفى» بالتراجم والوفيات أثناء ترجمته للأمير أحمد بن بكتمر الساقى (ت٧٣٣هـ) حيث ذكر أن له ترجمة وافية فى «المقفى» إذ هو كتاب تراجم ووفيات، كما أن هذا الكتاب- السلوك- حوادث وماجريات».

---

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة.

وللإمام المؤرخ المقريزى كلمة عن كتابه «المقفى الكبير» سجلها له المؤرخ ابن تغرى بردى فى كتابه «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»[٧] هى قوله : «وله - للمقريزى- تاريخه الكبير فى تراجم أهل مصر والواردين إليها، ذكر لى- رحمه الله- قال : لو كمل هذا التاريخ على ما أختاره لجاوز الثمانين مجلداً».

ويبدو أن المقريزى أنجز ستة عشر مجلداً كاملاً من كتابه «المقفى الكبير» بدليل أن السخاوى ذكر أن «المقفى» بلغ ستة عشر مجلداً[٨].

ومن بين مجلدات الكتاب الضخمة عثر على خمسة مجلدات موزعة على بعض المكتبات ، وقام الأستاذ محمد اليعلاوى بتحقيقها فظهرت فى سبعة أجزاء ضخمة، وجعل الأستاذ المحقق الجزء الثامن للفهارس العامة، إضافة إلى بعض التراجم الناقصة من كتاب «المقفى» والتى عثر عليها بعد ما كان يظن أن هذه التراجم خاصة بكتاب المقريزى «درر العقود» ثم تبين أنها خاصة بكتاب «المقفى» .وقد اتضح بعد نشر الكتاب وتحقيقه أنه مبتور الأول والآخر، بمعنى ضياع مقدمته وخاتمته، كما فقدت بعض الحروف كالدال والراء وغيرهما من بعض الكلمات . ولأن المقريزى كثيراً ما أشار إلى تراجم سابقة أو لاحقة ، فمن السهولة الوقوف على فقدان العديد من التراجم غير الموجودة بالكتاب ، كذلك أشار المقريزى إلى أن بعض تراجم للنساء ، ضاعت هى الأخرى ضمن ما ضاع من الكتاب[١١].

ومهما يكن الأمر، فإنه يتضح من الكتاب أن المقريزى كان ينوى العودة إليه مرة أخرى، والنظر فيه، ولذا ترك العديد من النقاط التى تحدد تاريخ ميلاد[١٢] أو وفاة[١٣] أو ذكر معلومة[١٤] أو غير ذلك[١٥].

مادة كتاب «المقفى» :

إن مادة كتاب المقفى الرئيسة هى تراجم الملوك والأمراء والأدباء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين ، وباقى العلماء من أهل مصر فى جميع التخصصات، فضلاً عن مشاهير المصريين بصفة عامة، إضافة إلى من دخل مصر مستوطنا لها أو ماراً بها فى طريقه لأداء الحج أو للتجارة أو لغير ذلك .

ومن خلال التراجم الواردة فى الأجزاء المنشورة يمكن الوقوف على العديد من المعلومات المختلفة التى يمكن حصرها فيما يأتى :

١- المناصب والوظائف :

تضمن الكتاب تراجم الخلفاء والسلاطين والولاة والوزراء والقادة وأصحاب الدواوين والكتاب والقضاة والمؤذنين ، وغيرهم . وقد ترجم المقريزى[١٦] لـ ١٣ خليفة ، ٣٦ سلطانًا و٣٧٤أميرًا وقائدًا ، و٤٨ واليًا ، و٣٩وزيرًا ، و٨١موظفًا إداريًا ، و١١٣ كاتبًا ، و١٤٦ قاضيًا ، و١٦ محتسبًا ، و١٠ مؤذنين ، و١٩ طبيبًا ، ولغيرهم من أصحاب الوظائف.

٢- النشاط الفكرى :

عنى الكتاب برصد النشاط الفكرى، فتتبع أعلامه فى كل ميدان فكرى، فعلى سبيل المثال ترجم المقريزى لـ ٨٨١محدثًا ، و٤٢١فقيها ، و٢٢٢ مقرئًا ، و٤١خطيبًا و٢٢ واعظًا و١٨ إمامًا و١٣١ أديبًا وشاعرًا و٤٤ لغويًا ونحويًا ، و٩ من العلماء التجريبيين ، و١١ من العلماء المشتغلين بالكلام والمنطق ، و٢٣ مؤرخًا[١٧] ولعدد من المفسرين والمشتغلين بالعلم الدينى بصفة عامة من الرواة له، ويلغ عددهم حوالى ٥٠٠ .

٣- المهن والصناعات الحرة :

ترجم المقريزى فى كتابه «المقفى» لـ ١٩ مهنيًا وصانعًا مثل الخياطين والنساجين ، وغيرهم . كما ترجم لـ ٢٥ تاجرًا ممن كانوا بمصر أو نزلوها.

٤- تراجم أخرى :

أورد المقريزى تراجم أخرى عديدة لأنبياء نزلوا مصر كسيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولصحابة الرسول ﷺ ، ويلغ عددهم بالكتاب ٣١ صحابيًا . كما ترجم للعلويين ويلغوا ٤٣ علويًا ، وللمتصوفة والمتزهدين ويلغوا ٨٩ ، ولعدد من المعتزلة والقرامطة والثائرين بصفة عامة، وللمبتدعين فى الدين والمدعين للألوهية [١٨]. كما ترجم لبعض من عاشوا قبل الإسلام مثل : حمير بن سبأ[١٩]، وعبدالله بن جدعان [٢٠]، ولغيرهم [٢١].

وقد أسهب المقريزى فى الترجمة لعلماء الدين على اختلاف تخصصاتهم، ولاغرابة فى ذلك، فقد انشغلت أجيال متعاقبة بالعلوم الدينية، ومن ثم كثر الشيوخ فى كل فروعها ومع ذلك فإنه لم يهمل باقى الفئات والطوائف.

منهج الكتاب :

لم تصل إلينا مقدمة كتاب «المقفى» ليتسنى معرفة الخطوط العريضة لمنهجه على أن

المقريزى عرَّف بمنهجه بنفسه فى كتابه «الخطط» ومن خلال قراءة مادة الكتاب كلها، يمكن إجمال منهج المقريزى فى «المقفى» فيما يأتى:

أولاً : الترتيب الألفبائى :

جرت عادة كثير من مؤرخينا التزام طريقة الترتيب الألفبائى فيما صنفوه من كتب الطبقات والتـــراجم [٢٣]، فرتبوا الأعلام فيها بحسب حروف المعجم، بهدف التسهيل على القراء والمطلعين، وهو الأمر الذى أعلنوه . فالخطيب البغدادى- على سبيل المثال - ذكر منهجه فى بداية كتابه «تاريخ بغداد» وبين أنه التزم بالترتيب على حروف الهجاء «ليسهل إدراك ذلك على طالبيه، وتقرب معرفته من مبتغيه»[٢٤]. وهذا ما صرح به أيضًا ابن تغرى بردى[٢٥]، والسخاوى[٢٦]، وغيرهما.

وبالرغم من هذا التطابق فى المنهج بين العديد من المؤرخين، إلا أنهم اختلفوا فى البدء، فبدأ بعضهم[٢٧] كتابه بذكر سيدنا محمد ﷺ؛ إذ هو الذى بُعث بهذا الدين، وبذر أسس تاريخه وحضارته وتراثه الفكرى. وتَيَمَّن بعضهم باسم النبى ﷺ، فبدأ بترجمة المحمدين، لئلا يتناقض مع منهجه أو ما قصد إليه فى كتابه [٢٨]. فى حين أن بعض المؤرخين بدأ كتابه بالترجمة لمؤسس الدولة التى يترجم لرجالها ومشاهيرها [٢٩]. بينما راعى بعضهم الترتيب الألفبائى فى جميع الأعلام من أول الكتاب إلى آخره .

أما المقريزى فإنه اتبع نهج الترتيب الألفبائى ، لكنه بدأ باسم «إبراهيم» ومن ثم ترجم أولاً لسيدنا إبراهيم عليه السلام ثم بمن أسماؤهم «إبراهيم» معللا ذلك بقوله : «تبركًا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه» [٣٠]. ولذا جاءت ترجمة «أبان» بعد ترجمة «إبراهيم» .

وكان من المنتظر أن يراعى المقريزى فى كتابه كله تسلسل الأسماء حسب حروف المعجم بالنسبة للمترجم له وأبيه وجده ، وهكذا، لكنه لم يفعل ذلك دومًا ، فاقتصر أحيانًا على مراعاة تسلسل الأسماء حسب النظام الألفبائى بالنسبة للمترجم له ولأبيه فقط، واقتصر فى أحايين أخرى على التزام هذا المنهج بالنسبة للمترجم له فقط.

ويتضح ذلك- على سبيل المثال- من خلال ترجمته لأسماء «إبراهيم بن أحمد» [٣١]، فقد رتبهم كما يأتى:

١- إبراهيم بن أحمد بن عقبة بن هبة الله .

٢- إبراهيم بن أحمد بن على بن إبراهيم .

٣- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن أبى حاتم .

٤- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل .

٥- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الحارث .

٦- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن خلف .

٧- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عبدالله .

٨- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن على .

٩- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن سلمان .

وهنا نجد أن المقريزى قد تسلسل مع اسم المترجم له حتى ذكر والده وجده، فاعتبر الحروف فى أسماء الآباء والجد الأول فقط.

ومن أمثلة إيراد المقريزى لاسم المترجم له فوالده -فقط- مسلسلاً[٣٢] ما يأتى :

١- إبراهيم بن أدهم بن منصور .

٢- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن إسحاق .

٣- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل .

٤- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب .

٥- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم التجيبى.

٦- إبراهيم بن إسحاق بن الخضر .

٧- إبراهيم بن إسحاق بن صالح .

٨- إبراهيم بن إسحاق بن عمر .

٩- إبراهيم بن إسحاق بن محمد .

١٠- إبراهيم بن إسحاق بن لؤلؤ .

وهنا نجد المقريزى قد راعى الترتيب الألفبائى للمترجم له ولوالده فحسب ، ولم يعتبر باقى

الحروف فى باقى الأسماء .

ومن أمثلة اقتصار المقريزى على أسماء المترجمين لهم - فقط- مسلسين ومرتبين ترتيبًا معجميًا ما يأتى:

١- أدى بن جماز (٣٣).

٢- أرجواش .

٣- أرسلان الدوادار .

٤- أرغون الدوادار الناصرى.

٥- أرغون الناصرى .

٦- أرغون الأحمدى .

٧- أرغون العلائى .

٨- أرغون الكاملى.

٩- أرقطاى .

١٠- أزبك الحموى .

١١- أزدمر الحمصى .

١٢- أزدمر العلائى .

١٣- أزدمر الكاشف.

وهنا نجد المقريزى يراعى التسلسل الألفبائى بالنسبة للمترجم له فقط دون باقى نسبه. ونجد المقريزى يقتصر على اسم العلم المترجم له فقط مغفلاً باقى اسمه ونسبه .

على أننى لاحظت أن الأسماء السابقة غالبيتها أسماء لأمراء مماليك . وبالكتاب أسماء أخرى قليلة لغيرهم، سلك معهم المقريزى المسلك السابق نفسه ، واشتهروا -هم وغيرهم- بألقابهم دون نسبهم ، وهو ما شاع وانتشر فى المصادر المملوكية كلها (٣٤). ولـــذا أرى أن المقريزى يُعْذر هنا عندما اقتصر على الاسم الأول، وإن كان بإمكانه الإتيان باسم الأب على الأقل .

لكن المقريزى لايُعْذر عند إخلاله بالترتيب الألفبائى بالنسبة للمترجم لهم، وحدث هذا

أحياناً، ومن أمثلته [٣٥]:

١- بوري بن أيوب .

٢- بنان سعيد السعداء.

٣- بهرام بن أسيد .

ومنه [٣٦]:

١- بيدمر البدري .

٢- بدرجك الناصري .

ومنه [٣٧]:

١- برسبغا الحاجب .

٢- بركات .

٣- برجوان .

٤- بيسري .

ومنه [٣٨]:

١- جبرجين الخازن .

٢- جرجس بن ميخائيل .

٣- جعفر بن إسماعيل .

٤- جعفر بن أحمد .

٥- جعفر بن بدر .

٦- جعفر بن الحسن .

٧- جرجس المكين .

٨- جرجي بن ميخائيل .

ومنه : إقحام اسم «عبد الأحد» و«عبد الأعلى» بين تراجم أسماء «عبدالله»[٣٩]، وإقحام اسم «عبد الباري» بين تراجم «عبدالله»[٤٠].

وهكذا إذا تتبعنا كل تراجم «المقفى» وقفنا على عدم مراعاة المقريزى لمنهج واحد، ونظام موحد فى تسلسل الأسماء حسب حروف المعجم بالنسبة للمترجم له ثم لأبيه وجده، وإنما اقتصر المقريزى على ذكر المترجم له وأبيه فقط أحيانًا ، وذكر المترجم له فقط أحيانًا أخرى. وحدثت بعض المخالفات اليسيرة القليلة لمنهج الترتيب الألفبائى للأعلام بالمقفى ، فجاءت أعلام فى غير ترتيبها الصحيح وموضعها المناسب .

ثانيا : الحرص على ذكر اللقب أو الكنية والنسبة:

حرص المقريزى فى كتابه (المقفى) كل الحرص على ذكر لقب المترجم له أو كنيته أو نسبته إلى قبيلته وفروعها أو إلى مدينته أو جنسه أو غير ذلك، وندر أن يأتى ذكر للعلم دون لقبه أو نسبته أو كنيته[٤١]، وكان المقريزى يذكر ذلك فى أول الترجمة مباشرة بعد ذكر الاسم. كما حرص المقريزى على ذكر مكانة المترجم له العلمية أو ذكر مناصبه وأعماله نحو «الحافظ»[٤٢] و«المقرىء»[٤٣] و «الواعظ»[٤٤] و«محدث الإسكندرية»[٤٥] و «الكاتب»[٤٦] و «الشاعر»[٤٧] و «النحوى»[٤٨] و «الطبيب»[٤٩] و«التاجر»[٥٠]... الخ .

هكذا نسب المقريزى كل عَلَم إلى علمه أو عمله أو صناعته وحرفته أو مدينته أو جنسه ، وقلما ترك علمًا اشتهر بشىء وعرف به إلا ذكره . وهذا الصنيع من المقريزى مفيد عند تشابه الأسماء، وييسر على القارىء معرفة الأعلام المرادة بسرعة، والوقوف على المعلومات المطلوبة بيسر وسهولة .

ثالثًا : تحقيق أمر الولادة والوفاة :

اعتنى المقريزى فى «المقفى» بذكر تاريخ مولد ووفاة المترجم لهم، وكان أحيانًا يذكر يوم وشهر الولادة أو الوفاة، ومنه قوله- - على سبيل المثال- «توفى بالقاهرة فى يوم الجمعة سادس شعبان سنة عشر وسبعمائة»[٥١].

وكتب المقريزى - أحيانا قليلة - تاريخ الولادة والوفاة بالأرقام وليس بالحروف كما هو الشائع عنده ، ومن أمثلة ذلك ترجمته لمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وجاء فيها أنه ولد سنة ١٨٢هـ، ومات سنة ٢٦٨هـ وهو ابن ٨٦ سنة. وهكذا بالأرقام[٥٢].

وإذا حدث أن كان هناك تاريخان أو أكثر للولادة أو الوفاة ، فإن المقريزى غالبًا ما يورد ذلك. ومن أمثلة ذلك ترجمته لمحمد بن عثمان الربعى، وجاء فيها : «ولد فى عاشر صفر سنة إحدى عشرة- وقيل : سنة اثنتى عشرة وستمائة»(٥٣).

ومن ذلك أيضا قوله : «مات فى أخريات جمادى الأولى سنة ثمان وسبعمائة . ورأيت فى موضع آخر أنه مات بالقاهرة فى يوم الجمعة تاسع عشر المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة»(٥٤). أما إذا لم يكن متأكداً من تاريخ الولادة أو الوفاة، فإن الدقة والأمانة العلمية اللذين يتمتع بهما مؤرخنا المقريزى جعلته يختم ذكر تاريخ الولادة أو الوفاة بقوله : «تخمينا » وكثر استعمال هذه الكلمة عنده، ومن أمثلتها ما جاء فى ترجمته لشمس الدين الرقاقى وقوله : «مولده سنة تسع وخمسين وستمائة تخمينا »(٥٥).

ويبدو حرص المقريزى الشديد على تحقيق تاريخ الولادة والوفاة معًا للمترجم لهم- أو ذكر أحدهما- من تركه فراغًا عند عجزه عن الوصول إلى تاريخ الميلاد أو الوفاة؛ ريثما يتمكن من الوصول إليه ، وحينئذ يؤرخ بهذا التاريخ. ولذا جاءت فى كتابه عبارات مثل «ولد فى [...] »(٥٦) و «توفى فى ... »(٥٧).

وبالرغم من وضوح جهد المقريزى فى تحقيق أمر الولادة والوفاة ، إلا أنه لم يتمكن من فعل ذلك لكل علم وترجمة من أعلام وتراجم «المقفى» ، فجاءت بعض الأعلام بلا ذكر لتاريخ ميلادها، ووردت بعض التراجم بلا تحديد لتاريخ وفاتها، وضم الكتاب أعلامًا عديدين لم يذكر تاريخ ولادتهم ووفاتهم (٥٨).

لكن الغالب فى جميع الأحوال تمكن المقريزى من ذكر تاريخ الوفاة دون تاريخ الميلاد لكل الشخصيات المترجم لها ، لصعوبة العثور على تاريخ الولادة أحيانًا (٥٩).

ولى ملاحظة مهمة بشأن التراجم التى لم يذكر المقريزى تاريخ ميلادها، وهى أن كثيراً منها لم يتحدد تاريخ ولادتها فى المصادر السابقة على المقريزى أيضًا، ومن أمثلة ذلك تراجم :

١- إبراهيم الخواص (ت٢٩١هـ). لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته (٦٠).

٢- إبراهيم بن بشار. لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته ولا وفاته (٦١).

٣- إبراهيم بن إسماعيل (ت٢١٨هـ) . لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته (٦٢).

٤- إبراهيم بن إسماعيل (ت ٧٠٨هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته (٦٣).

٥- إبراهيم بن جعفر (ت ٧٢٩هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته [٦٤].

٦- إبراهيم بن ثابت (ت٤٣٢هـ) . لم يذكر ابن الجزرى تاريخ ولادته [٦٥].

٧- محمد بن إبراهيم (ت٣٥٠هـ) . لم يذكر ابن الجزرى تاريخ ولادته [٦٦].

٨- حمزة بن محمد (ت٦٨٢هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته [٦٧].

٩- خالد بن زيد (ت ٥٢هـ) . لم يذكر الذهبى ولادته [٦٨].

١٠- محمد بن إبراهيم (ت٢٧٦هـ) . لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته [٦٩].

وهناك تراجم قليلة محدودة لم يأت تاريخ ولادتها فى بعض المصادر وجاء ذلك فى مصادر أخرى[٧٠].

ومما سبق يتبين لنا أن كثيراً من الأعلام التى لم يتوصل المقريزى إلى تاريخ مولدهم، وتوصل إلى تاريخ وفاتهم[٧١] ولم يظفر السابقون عليه بتاريخ مولدهم أيضاً. وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من أن المقريزى بذل طاقته فى تحقيق تاريخ ميلاد ووفاة المترجم لهم فى «المقفى» ونجح فى ذلك كثيراً . فى حين أنه لم يتمكن من تحديد تاريخ الميلاد أحياناً إلا أنه تمكن من تحقيق أمر الوفاة، وعجز فى أحيان قليلة- بالنسبة لتراجم الكتاب كله- عن الوصول إلى تحديد تاريخ الميلاد والوفاة معًا، وإن كانت النية موجودة فى ذكر هذا عندما يتيسر ذلك للمقريزى، وهذا يعلل وجود بعض الفراغات فى المقفى.

رابعا : ضبط الأعلام والأنساب :

إن كثيرا من أسماء الأعلام تتشابه فى الخط أو الحروف المتشابهة كالجيم والحاء والخاء والدال والذال ، والسين والشين. فإذا أهمل أو نسى نقط هذه الحروف ، فإن الأمر يختلط على القارىء فلا يدرى إذا كانت حقيقة العلم «مزاحم» أو «مراجم» وهكذا. وقد يتحد الاسمان فى الحروف تماما ، ولكن الضبط بالشكل يختلف فى واحد عنه فى الآخر. وهناك أسماء أعلام لايستقيم النطق بها صحيحا إلا إذا ضبطت بالشكل أو بالحركات [٧٢].

من هنا كانت عناية المقريزى بضبط الأعلام والأنساب فى «المقفى» عناية فائقة ، أمن القارىء من خلالها من التصحيف والتحريف اللذين تقتضيهما طبيعة رسم الحروف العربية ، وأغنته عن الرجوع إلى كثير من المصادر لضبط الأعلام أو المدن أو غير ذلك فى كتب الأنساب والمعاجم الجغرافية أو اللغوية.

ومن أمثلة ضبط الأعلام:

١- محمد بن إبراهيم بن غفار : بكسر الغين المعجمة ثم فاء وراء مهملة [٧٣].

٢- محمد بن إبراهيم بن الهمام : بضم الهاء وفتح الميم [٧٤].

٣- محمد بن أحمد التغلبي : بفتح المثناة والغين المعجمة [٧٥].

٤- محمد بن عبد الرحمن الجباب. والجباب بجيم مفتوحة، وباء موحدة مشددة، وهو لقب لجده [٧٦].

٥- محمد بن عبد الرحمن بن حقبة : بحاء مهملة وقاف وباء موحدة [٧٧].

٦- محمد بن عبد الرحمن بن ثمير : بضم الثاء المثلثة وفتح الميم وسكون الياء آخر الحروف ثم راء مهملة [٧٨].

٧- محمد بن محمد النفاخ : بفتح النون والفاء المشدة ، وبعدها ألف ثم خاء معجمة ، وقبل حاء مهملة [٧٩].

٨- محمد بن محمد بن عتيبة : بضم العين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق، ثم ياء آخر الحروف وباء موحدة [٨٠].

٩- محمد بن محمد طرخان بن أوزلغ الفارابي : وطرخان بفتح الطاء المهملة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة ، وبعد الألف نون : اسم أعجمي . وأوزلغ بألف مفتوحة وعين معجمة : اسم تركي . والفارابي : نسبة إلى فاراب ، وهي مدينة فوق الشاش ، وهي قاعدة من قواعد مدن الترك . ويقال لها : فاراب الداخلة. وفاراب الخارجه ، وهي من أطراف بلاد فارس. وهي بفتح الفاء والراء وبينهما ألف، وبعدها باء موحدة. وتسمى أطرار بضم الهمزة وسكون الطاء المهملة، وبين الراءين ألف ساكنة . ويقال : [...] [٨١].

وكان المقريزي كثيرا ما يضبط الأسماء أو الألقاب أو الكنى في أول الترجمة، وضبطها أحيانا في وسط الترجمة، وأحيانا في آخرها [٨٢].

ومن أمثلة ضبط وتحقيق الأنساب :

١- إبراهيم بن سليمان الحرسي. نسبة إلى الحرس، بفتح الحاء المهملة والراء ثم السين

المهملة، قرية شرقي مصر[٨٣].

٢- إبراهيم بن حميد الكلابزى . بفتح الكاف، وبعد اللام باء موحدة مكسورة، ثم زاى، نسبة إلى ضيعة بالبصرة تعرف بالكلابزية[٨٤].

٣- أحمد بن عيسى المقيرى. والمقير بضم الميم وفتح القاف ثم ياء آخر الحروف ساكنة بعدها راء مهملة : قرية من أعمال الكرك[٨٥] .

٤- أسعد بن أحمد المعروف بابن اللمطى. واللمطى نسبة إلى لمطة- لفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء المهملة- قبيلة من البربر[٨٦].

٥- محمد بن إبراهيم بن أحمد الخبرى. بالخاء المعجمة المفتوحة وسكون الباء الموحدة، ثم راء، نسبة إلى خبر قرية من قرى شيراز من خبر سروشين وهى إقليم من عمل شيراز مشريهم فى جبل الدينار. وثم خبر آخر يقال له خبر سمكان من عمل شيراز أيضا[٨٧].

٦- محمد بن إبراهيم اليقورى . نسبة إلى يقورة بياء آخر الحروف مفتوحة، وقاف مشددة ، وراء مهملة : بلد بالأندلس[٨٨].

٧- محمد بن إبراهيم الأردستانى . أردستانى نسبة إلى أردستان بفتح اللام وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق ثم نون، وهى بلدة على ثمانية عشر فرسخا من أصبهان[٨٩].

٨- محمد بن حمير السليحى . قال السمعانى : السليحى بضم السين المهملة وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف، وفى آخرها حاء مهملة: نسبة إلى سُليح وهو بطن من قضاعة . وقيل بفتح السين وكسر اللام. قال ابن الأثير: والصحيح الثانى، والأول لايصح ، وهو سُلِيح ، واسمه عمرو بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة[٩٠].

٩- محمد بن عبد العزيز الجوزى، بالجيم والزاى المعجمة، من حمص الأندلس[٩١].

١٠- محمد بن مفرج القبشى، بقاف مضمومة وباء موحدة ثم شين معجمة: عين بقرطبة[٩٢].

١١- محمد بن محمد الكركنتى، نسبة إلى كركنت بكسر الكافين بينهما راء مهملة ساكنة، وبعدها نون ثم تاء مثناة من فوق ، قرية من قرى القيروان[٩٣].

واكتفى المقريزى أحيانا بنسبة الأعلام إلى البلدان أو القبائل أو الحرف والمهن أو غير ذلك ومنه :

١- أحمد بن عبد الرحمن درادة . ودرادة قبيلة من الأكراد [٩٤].

٢- إبراهيم بن عبد الله اليابرى. نسبة إلى يابرة من كورة باجة فى غرب الأندلس[٩٥].

٣- محمد بن أحمد بن أبى فروة الشعبانى. قال ابن يونس : والشعبانى من بنى شعبان بن عمرو بن قيس بن معاوية من حمير . فأهل مصر إذا نسبوا إليه قالوا : الأشعوبى. وأهل الكوفة يقولون: الشعبى. وأهل الشام يقولون : الشعبانى . وأهل اليمن يقولون : ذو شعبين . وكلهم يريدون شعبان بن عمرو بن قيس[٩٦].

٤- محمد بن مصطفى الصُلْغرى - وصلغر فخذ من الترك، الدوركى - ودورك من بلاد الروم، بالقرب من ملطاية [٩٧].

٥- محمد بن إبراهيم المعروف بالكيزانى، نسبة إلى عمل الكيزان، وكانت صناعة بعض أجداده . وكيزان مدينة بازربيجان [٩٨].

كذلك بين المقريزى المراد من بعض الأنساب ، ومنه :

١- أحمد بن محمد السِّلفى . نسبة إلى السلفة - بكسر السين المهملة وإسكان اللام، ثم فاء أخت القاف مفتوحة بعدها هاء - وهو لقب جده أحمد، وهو فارسى معناه: ثلاث شفاه ، فإن شفته كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين، سوى الشفة الصحيحة[٩٩].

٢- محمد بن أحمد المفيد . بضم الميم وكسر الفاء وإسكان الياء آخر الحروف، ثم دال مهملة: اسم لمن يفيد الناس الحديث من الشيوخ [١٠٠].

٣- محمد بن عبيد الله المعروف بالأدرع . قيل له : «الأدرع» من أجل أنه كان بسواد الكوفة سبع أدرع يؤذى الناس ولايطاق ، فخرج إليه ربادره وقتله، فقيل له الأدرع لقتله الأسد الأدرع [١٠١].

وفى حالة عدم إمكانية النسبة إلى البلدان أو القبائل أو الحرف والمهن والصناعات ، وعدم وجود تفسير وعلة للقب ، فإن المقريزى كان يصرح بهذا ، ومن ذلك ترجمة المقريزى لمحمد بن عبدالله الملطى وقوله : «والملطى لقب عرف به»[١٠٢].

وجرت عادة المقريزى أن يحقق الأنساب فى آخر ترجمة العلم وخالف هذا المنهج قليلا، فجعل هذا التحقيق والشرح والبيان فى أول الترجمة أو فى وسطها .

ونادراً ما ترك المقريزى نسبة دون توضيح أو تفسير أو بيان ، ومنه ترجمته لأحمد بن عبد الدايم الشارمساجى[١٠٣] المنسوب إلى إحدى بلاد الدقهلية[١٠٤].

وهكذا تعرفنا من خلال التزام المقريزى بمنهج تحقيق وضبط الأعلام والأنساب على العديد من المدن المختلفة فى أنحاء العالم الإسلامى، فضلا عن ضبط الأعلام، الأمر الذى يغنينا عن العودة إلى المعاجم اللغوية وكتب الأنساب، وهذا كله أدى إلى أن يكون الكتاب- فى هذا المجال- منقحا متقنا، بلغ الغاية فى هذا الباب .

وقد اعتمد المقريزى فى ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب على المصادر الآتية :

١- ابن ماكولا (ت ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) صاحب كتاب «الإكمال فى رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى والألقاب».

٢- ابن نقطة (ت٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) صاحب كتاب «إكمال الإكمال» . وأكمل به كتاب «ابن ماكولا ».

٣- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) صاحب كتاب «اللباب فى تهذيب الأنساب».

٤- السمعانى (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) صاحب كتاب «الأنساب».

٥- الخطيب البغدادى (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) صاحب كتاب» تاريخ بغداد ».

وقد صرح المقريزى بالنقل عن هذه المصادر - أحيانا بقوله : «قال السمعانى»[١٠٥] وقال «ابن نقطة»[١٠٦] و «قال ابن الأثير»[١٠٧] وقاله «ابن سيد الناس»[١٠٨].

خامسا : النقل عن المعاصرين أو القريبين للأحداث :

اتجه المقريزى فى كتاباته التاريخية إلى منهج قويم صحيح هو النقل عن مؤرخى البلد التى يتناول تاريخها ، والأخذ عن المعاصرين للأحداث التاريخية أو القريبين منها، فلم يكن نقله للأحداث والوقائع التاريخية - إذاً - عشوائيا دون اعتناء أو تدقيق ، وإنما كان المقريزى يعى طبيعة المادة التاريخية ومصادرها ، ومن ثم بذل جهده فى استخلاصها من أصحابها المعاصرين لها المتصلين بها أو القريبين منها. وقد صرح المقريزى فى كتابه «الخطط» بالنقل عن مؤرخى

الإقليم الذى يكتب عنه عندما نقل خبرا عن ابن الأثير، وابن زولاق المصرى، ورجح رأى المؤرخ المصرى معللا ذلك بقوله: «وأهل كل قطر أعرف بأخباره، ومؤرخو مصر أدرى بماجرياته وفوق كل ذى علم عليم»(١٠٩).

وظهر منهج المقريزى السابق فى كتابه «المقفى» ظهورا واضحا، فكان يأخذ مادته التاريخية عن أعلامه من المصادر القريبة منه زمنيا، ومن نماذج ذلك :

١- ترجمته لأبى بكر الفزارى (ت٣١٧هـ) وقوله : «قال ابن يونس - ت ٣٤٧هـ : «قدم مصر سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة، كتبنا عنه»(١١٠).

٢- ترجمته لأبى الحسن بن السوار (ت ٢٩٧هـ) وقوله : «قال ابن يونس : كتبت عنه ولم يكن ثقة»(١١١).

٣- ترجمته لأبى الحسن بن نوح (ت٣٢١هـ) وقوله : «قال ابن يونس : قدم مصر، وكتبنا عنه، وكان ثقة حافظا، وكان قدومه سنة أربع وثلاثمائة»(١١٢).

٤- ترجمته لضياء الدين بن قدامة (ت٦٤٣هـ) وقوله : «قال ابن النجار - معاصر لصاحب الترجمة- : كتبت عنه، وهو حافظ متقن ثقة صدوق حجة، عالم بالحديث وأقوال الرجال...»(١١٣).

٥- ترجمته للمؤرخ الأندلسى الحميدى (ت ٤٨٨هـ) صاحب الجذوة، وقوله : «قال ابن ماكولا (ت٤٨٦هـ) : أخبرنا صديقنا أبوعبدالله الحميدى وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ، لم أر مثله فى عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم»(١١٤). اعتمد المقريزى على ابن عساكر (ت٥٧١هـ) أيضا، فنقل عنه : «قال ابن عساكر : حدثنى يحيى بن إبراهيم قال: والدى أبو طاهر إبراهيم بن أحمد السلماسى- وكان قد لقى الأئمة- : لم تَرَ عَيْنِى مثل أبى عبدالله الحميدى فى فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم»(١١٥).

٦- ترجمته لابن الحمامى البزاز (ت ٤٨٨هـ) وقوله : «قال السلفى - ت ٥٧٦هـ- : كان من فقهاء الشافعية، كبير السن، ورأيته بمصر والإسكندرية. علقت عنه فوائد من حفظه»(١١٦).

٧- ترجمته لمحمد بن عيسى الأموى (ت ٥٦٠هـ) وقوله : «قال السلفى : كان من

الأذكياء في الفقه والأدب ، وله شعر كثير، وفضائل جمة. كتب عني الحديث الكثير، وكان حسن القراءة له»[١١٧].

٨- ترجمته لأبي عبدالله الجوزي الأندلسي وقوله : «وقال السلفي : قدم علينا الإسكندرية حاجًا، وهو فقيه صالح صدوق ، سألته عن مولده فقال : سنة ست وسبعين وأربعمائة بحمص ، وبها تفقهت»[١١٨].

٩- ترجمته لابن الأكفاني (ت٧٤٩هـ) واعتماده على الصفدي (ت٧٦٤هـ) في معلوماته ، يقول المقريزي: «قال الصفدي : ورأيت المولعين بالصنعة- يعني الكيمياء - يحضرون إليه- ابن الأكفاني- ويذكرون له ما وقع من الخلل في أثناء عملهم، فيرشدهم إلى الصواب ويدلهم على إصلاح ذلك الفساد. ولم أره يعوزه شيء من كمال الأدوات»[١١٩].

١٠- ترجمته لأبي بكر الصدفي (ت٣٦٧هـ) واعتماده على ابن الطحان (ت٤١٦هـ)[١٢٠] وفي هذا يقول المقريزي: «وقال ابن الطحان: سمعت منه . توفي في ذي القعدة سنة ثمان وستين. وقال في موضع آخر : سنة تسع وستين »[١٢١].

وهكذا إذا تتبعنا «المقفى» وقفنا بكل سهولة على التزام المقريزي منهج النقل عمن شارك في الأحداث، أو كان قريبا منها ، أو عايش أصحابها ، أو سمع ممن عايشهم . واستمرارا لهذا النهج فإن المقريزي عندما ترجم للمعاصرين له، فإنه حرص على إبراز الأخذ عنهم بعبارات مثل: «أخبرني» و «قال لي»[١٢٣] تأكيدًا على المشاركة والمشاهدة والمشافهة ، ومن ذلك :

١- ترجمته للطواشي مقبل الشامي (ت٨٠٢هـ) وقوله : «أخبرني - رحمه الله - أن السلطان الحسن (ت٧٦٢هـ) - رحمه الله- ترك بعد موته ذخيرة فيها سبعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار مصرية، وألفا ألف درهم فضة، وترك من الحلي والجواهر والأمتعة ما لايدخل تحت حصر لكثرته»[١٢٤].

٢- ترجمته لمقبل الرومي (ت قبل ٨٠٠هـ) وقوله : «رافق أبي ثم رافقني في مباشرة بعض النواحي الأوقاف نحو الثلاثين سنة حتى مات قبيل سنة ثمانمائة ، وكان عارفا قائما بما يليه ، سيوسا ، مهابا ، لم نر منه ما ننكره عليه، أخبرني- رحمه الله- أنه شاهد رجلا تغذّى حتى شبع من الطعام والملح... »[١٢٥].

٣- ترجمته للصدر المناوي قاضي الشافعية (ت٨٠٣هـ) وقوله : «أخبرني قبل موته بمدة عن جارية تسرى بها ...»[١٢٦].

٤- ترجمته لشمس الدين بن سكر الحنفي (ت٨٠١هـ) وقوله : «... وأعانني الله عليه لما جاورت مكة في سنة سبع وثمانين وسبعمائة حتى قرأت عليه كثيراً من مروياته، ولم يقع بيني وبينه سوء قط، والحمدلله، وكثر فرحه بأخذي عنه، وكتب لي خطه»[١٢٧].

ومما سبق يتبين لنا اعتماد المقريزي على المصادر المعاصرة للأحداث والوقائع التاريخية والمترجمة لأعلامه بالمقفى، وإظهار ذلك ؛ تأكيداً على مصداقية هذه المعلومات التاريخية التي وردت بالمقفى ، وفعل ذلك أيضًا مع المعاصرين له، والذين ورد الحديث عن بعضهم بالمقفى.

سادسًا : الاعتماد على العديد من المصادر :

لم يعتمد المقريزي وهو يترجم لأعلامه على مصدر واحد دون سواه، وإنما اطلع على العديد من المصادر التاريخية، ولذا كان يقدم مادة تاريخية دسمة، بها العديد من الإضافات عن المصادر التي ترجمت لهؤلاء الأعلام، إذا نظرنا إلى هذه المصادر أحادي، وهذا الصنع من المقريزي أكسب الكتاب أهميته فوق أهميته، خاصة إذا لم تقف على بعض المعلومات التاريخية في العديد من المصادر، مما يؤكد اعتماد المقريزي على مصادر أخرى مفقودة، وبالفعل وردت في «المقفى» أسماء لكتب مفقودة منها على سبيل المثال :

١- تاريخ مصر للقرطبي (ت ٥٦٧هـ) [١٢٨].

٢- أخبار النوبة لابن سليم الأسواني[١٢٩].

٣- نسب الأبناء لابن الكلبي. وعنه يقول المقريزي : «وهو عندي بخطه»[١٣٠].

٤- كتاب «الكنوز» [١٣١].

٥- تاريخ مصر لابن الطحان [١٣٢].

٦- السيل والذيل للعماد الأصفهاني [١٣٣].

٧- الخطط لأبي عبدالله محمد بن سلامة القضاعي [١٣٤].

إلى غير ذلك من كتب مفقودة اطلع عليها المقريزى ، واستفاد منها ومن غيرها فى تصنيف كتابه «المقفى» ، ولعل هذا يفسر وجود تراجم عديدة بالمقفى ، ولا أثر لها فى غيره من مصادر تاريخية(١٣٥).

وقبل الخوض فى هذه الجزئية يجدر بى أن أبين عدة أمور متصلة بمصادر المقريزى وأساسه موضوع المصادر، وسأناقش -بعد قليل - باحثًا ذكر أن المقريزى قلما يشير إلى مصادره ، وكثيرا ما ينقل من المصادر دون تحفظ أو تحرج.

والواقع أن المقريزى فى كتابه «المقفى» كان أحيانا يذكر مصادره التى استفاد منها ، وأحيانا يغفلها- مثلما يفعل كثير من مؤرخينا القدامى- وكان المقريزى يصرح فى بعض الأحيان بالمؤلَّف دون مؤلِّفه ، ويذكر المؤلِّف والمؤلَّف فى أحايين أخرى. لكن الشىء المؤكد - الذى سأدلل عليه بعد قليل- هو أن المقريزى اطلع على العديد من المصادر عند ترجمة كل علم من أعلامه.

مصنفون ذكرت مؤلفاتهم :

١- ابن حبان صاحب «الثقات»(١٣٦).

٢- أبو الحسن أحمد بن الزبير صاحب «جنان الجنان ورياض الأذهان»(١٣٧).

٣- الصولى صاحب «شعراء مصر»(١٣٨).

٤- ابن أبى أصيبعة صاحب : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»(١٣٩).

٥- الزبيدى صاحب «طبقات النحاة»(١٤٠).

٦- الشيرازى صاحب «طبقات الفقهاء»(١٤١).

٧- اليونينى صاحب «ذيل مرآة الزمان»(١٤٢).

٨- النسائى صاحب «الضعفاء»(١٤٣).

٩- العماد الأصفهانى صاحب «السيل والذيل»(١٤٤) و «الخريدة»(١٤٥).

١٠- نصر بن مزاحم «كتاب صفين» (١٤٦).

١١- ابن الداية صاحب «سيرة ابن طولون»(١٤٧).

١٢- ابن وحشية صاحب «الفلاحة النبطية»[١٤٨].

١٣- العمري صاحب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»[١٤٩].

١٤- القفطي صاحب «تاريخ النحاة»[١٥٠].

١٥- المسبحي صاحب «تاريخ مصر»[١٥١].

١٦- أبونعيم صاحب «تاريخ أصبهان»[١٥٢].

١٧- ابن سعيد صاحب «المغرب في حلى بلاد المغرب»[١٥٣].

١٨- ابن الجوزي صاحب «الضعفاء»[١٥٤].

١٩- ابن رشيق صاحب «الأنموذج» [١٥٥].

٢٠- ابن الأثير صاحب «أسد الغابة»[١٥٦].

٢١- ابن زولاق صاحب «قضاة مصر»[١٥٧] و «سيرة المعز لدين الله»[١٥٨].

٢٢- الإدفوي صاحب «الطالع السعيد»[١٥٩].

٢٣- ابن الآبار صاحب «تحفة القادم»[١٦٠].

٢٤- ابن يوسف الجرجاني صاحب «طبقات الشافعية»[١٦١].

٢٥- ابن عبد الظاهر صاحب «الشعراء العصرية»[١٦٢].

٢٦- غنجار صاحب «تاريخ بخارى»[١٦٣].

٢٧- ابن المستوفي صاحب «تاريخ إربل»[١٦٤].

٢٨- الخطيب البغدادي صاحب «المتفق والمفترق»[١٦٥]، و«تاريخ بغداد»[١٦٦].

إلى غير ذلك من مصادر صرح المقريزي بها وباسم مصنفيها[١٦٧].

مصنفون ذكروا دون مؤلفاتهم :

صرح المقريزي بالنقل والأخذ عن عدد كبير من المؤلفين والمؤرخين دون أن يصرح بكتبهم ، وأبرز هؤلاء المؤرخين هم :

١- البلاذري [١٦٨].　　　٢- الطبري[١٦٩].

٣- الذهبى [١٧٠].
٤- الصفدى [١٧١].
٥- البرزالى [١٧٣].
٦- ابن يونس [١٧٤].
٧- ياقوت [١٧٤].
٨- المنذرى [١٧٥].
٩- ابن ماكولا [١٧٦].
١٠- ابن حجر [١٧٧].
١١- الواقدى [١٧٨].
١٢- السمعانى [١٧٩].
١٣- ابن عسكر [١٨٠].
١٤- ابن ميسر [١٨١].
١٥- السلفى [١٨٢].
١٦- ابن الفرضى [١٨٣].
١٧- ابن العديم [١٨٤].
١٨- الكندى [١٨٥].
١٩- القشيرى [١٨٦].
٢٠- ابن خلكان [١٨٧].
٢١- ابن سعد [١٨٨].
٢٢- الحميدى [١٨٩].
٢٣- ابن بشكوال [١٩٠].
٢٤- ابن حيان [١٩١].
٢٥- ابن النجار [١٩٢].
٢٦- أبو العرب [١٩٣].
٢٧- ابن فضلان [١٩٤].
٢٨- أبو الفرج الأصفهانى [١٩٥].
٢٩- البيهقى [١٩٦].
٣٠- ابن النديم [١٩٧].
٣١- ابن العربى [١٩٨].
٣٢- الدبيثى [١٩٩].
٣٣- الخاليدان [٢٠٠].
٣٤- التنوخى [٢٠١].
٣٥- ابن عبد الحكم [٢٠٢].
٣٦- ابن وصيف شاه [٢٠٣].
٣٧- السبكى [٢٠٤].
٣٨- المالكى [٢٠٥].
٣٩- القاضى [٢٠٦].
٤٠- الحسن الهمدانى [٢٠٧].

وهكذا اعتمد المقريزى على عدد وافر من المصادر المتنوعة المختلفة، وأحسن الاستفادة منها، وعرضها عرضا بارعا فى كتابه «المقفى».

ويمكن لى - الآن- تقديم أمثلة لمؤرخين نقل عنهم المقريزى لأبيّن أمرين :

الأول: اعتماده على أكثر من مصدر فى كل ترجمة .

الثانى- طريقته فى النقل .

١- ترجمة المقريزى لابن الباغندى (ت٣١٢هـ) وفيها نقل المقريزى عن الخطيب البغدادى[٢٠٨] مرتب ، وعن الذهبى [٢٠٩]، ومع ذلك انفرد المقريزى ببعض معلومات عن شيوخ ابن الباغندى[٢١٠].

٢- ترجمة المقريزى لأبى جعفر الجمال (ت٣٤٦هـ) وفيها نقل المقريزى بأمانة عن الخطيب[٢١١]، وعن السمعانى ، وعن الذهبى [٢١٢]، لكن المقريزى ذكر عدداً من شيوخ الجمال أكثر مما ذكره هؤلاء المؤرخون السابقون ، الأمر الذى يثبت اطلاع المقريزى على مصادر أخرى[٢١٣].

٣- ترجمة المقريزى لأبى الحسين الحجاجى[٢١٤] وفيها ذكر كل شيوخ المترجم له فى حين أن الخطيب البغدادى[٢١٥] والذهبى[٢١٦] اكتفيا بذكر شيخ واحد من شيخ «الحجاجى» بمصر، كما أن المقريزى انفرد بمعلومات أخرى عن المصدرين السابقين.

٤- ترجمة المقريزى للأبهرى (ت٣٧٥هـ) وفيها نقل المقريزى عن الخطيب البغدادى[٢١٧] والذهبى[٢١٨] ومع ذلك بالمقفى إضافات تزيد عما ورد فى المصدرين السابقين، مما يؤكد اعتماد المقريزى على مصدر ثالث [٢١٩].

٥- ترجمة المقريزى لابن الهنى [٢٢٠]، وفيها زاد عما ذكره ابن الجزرى فى ترجمته [٢٢١].

٦- ترجمة المقريزى للبآرّ (ت٥٣٠هـ) وفيها اعتمد المقريزى[٢٢٢] على السلفى ، والسمعانى، والمقدسى، فجاءت الترجمة وافية إذا ما قورنت- على سبيل المثال- لدى الصفدى فى «الوافى»[٢٢٣].

٧- ترجمة ابن الخيمى المحلى[٢٢٤] (ت ٧٣٨هـ) وفيها انفرد المقريزى بمعلومات وأخبار عن صاحب الترجمة لم تأت عند الصفدى[٢٢٥] أو ابن حجر[٢٢٦] ولم يذكر المقريزى مصادر معلوماته هذه.

٨- ترجمة ابن البابا (ت٧٤٦هـ) وفيها انفرد المقريزى ببعض المعلومات[٢٢٧] عن الصفدى المعاصر لابن البابا، والذى استقى منه المقريزى بعض الحقائق التاريخية بتصرف [٢٢٨].

٩- ترجمة ابن الزبير القاضي[٢٢٩] (ت ٥٦٢هـ) وفيها وردت زيادات عن ترجمة الصفدي له[٢٣٠]، وانفرد المقريزي بذكر أن صاحب الترجمة سمع من السلفي، وقرأ عليه، ولازمه، وأنه كان عالما بالهندسة، وأورد المقريزي أقوالاً للحافظ السلفي والمنذري عن ابن الزبير.

وهكذا إذا قارنا بين تراجم المقريزي في «المقفى» وبين التراجم نفسها في المصادر الأخرى استطعنا أن نقف بكل سهولة على عدة أمور من أهمها:

١- كان المقريزي يعتمد على العديد من المصادر في الترجمة لأعلامه، ولايقتصر على مصدر واحد حتى وإن كان هذا المصدر معاصراً للأحداث وللمترجم لهم، فإن المقريزي كان يستكمل معلوماته من مصادر أخرى متاحة له، بها مادة جديدة، وهذا الأمر يؤكد صبره وسعة اطلاعه، ودقة استقصائه، وشدة تنقيبه عن كل معلومة تتصل بمن ترجم له .

٢- لم يكن المقريزي حاطب ليل ينقل كل ما وقعت عليه يداه، وما رأته عيناه دون تمييز ، وإنما كان ينتقي الحوادث والأخبار، ثم يرتبها ترتيباً ملائما لمنهجه ، ولذا كان يتصرف في النقل أحياناً[٢٣٢]، وكان يلتزم بحرفية النقل في بعض الأحوال[٢٣٣]، لاسيما وهو يترجم لرجال الحديث الشريف ويبين آراء علماء الجرح والتعديل فيهم، ومن ثم يكون النقل حرفيا عمن ينقد هؤلاء المحدثين أو يعدلهم ، ومنهم : أحمد بن حنبل [٢٣٤]، ، والحاكم [٢٣٥]، والنسائي[٢٣٦]، والدرامي[٢٣٧]، والدار قطني [٢٣٨]، وأبوزرعة[٢٣٩]، والشيرازي [٢٤٠]، وابن يونس [٢٤١]، والخطيب البغدادي[٢٤٢]، والذهبي[٢٤٣]، وغيرهم[٢٤٤].

قضية إغفال المقريزي لبعض مصادره في «المقفى»:

أغفل المقريزي ذكر بعض مصادره عند ترجمته لبعض أعلامه ، فلم يرد اسم المصدر الذي استقى منه المقريزي معلوماته ، بالرغم من وجود إشارات واضحة ، وقرائن قوية تدل على المصدر الذي أخذ منه المقريزي أخباره، منها معاصرة صاحب المصدر للأحداث التاريخية واتصاله بها ومشاركته فيها والإشارة إلى ذلك، ومنها : إشارة صاحب المصدر إلى تراجم سابقة أو آتية ونقل المقريزي لهذه الإشارة مع اختلاف منهج المصدرين في الكتابين ، ومنها التشابه الواضح بين المصدرين في المعلومات التاريخية.

ومن أمثلة ذلك ترجمة المقريزى[٢٤٥] لابن الخطيب الإسنائى (ت٧١٢هـ) دون إشارة إلى الإدفوى[٢٤٦] ، وأظن أنها منقولة عنه . وترجمة المقريزى[٢٤٧] لابن السيد إسنائى (ت ٧٠٤هـ) وأظنها منقولة عن الإدفوى [٢٤٨]، بل وأؤكد ذلك. وترجمة المقريزى[٢٤٩] لنور الدين الإسنائى (ت٧٢١هـ) وأظنها منقولة عن الإدفوى[٢٥٠] أيضا. وترجمة المقريزى[٢٥١] للبرشانى (ت٦٦٧هـ) وأظنها منقولة عن الصفدى [٢٥٢]، مع إضافات مهمة للمقريزى غير موجودة فى «الوافى». إلى غير ذلك من أخبار نقلها المقريزى عن الصفدى[٢٥٣].

ولكن المقريزى كانت له إضافات دائما إلى ما ينقله ، كما أنه ذكر مصادره التى أغفلها - أحيانا - فى مواضع أخرى، ومنها «الطالع السعيد للإدفوى»[٢٥٤] وكتب الصفدى[٢٥٥] ، غيرها. ويذهب أحد الباحثين الكبار[٢٥٦] إلى أن عدم الإشارة إلى المصادر لم يكن عيبا آنذاك. فهناك عدد كبير من كبار المؤرخين لم يذكروا القسم الأكبر من مصادرهم مثل : ابن الجوزى فى «المنتظم» وابن الأثير فى «الكامل» ، والعينى فى «عقد الجمان» وغيرهم. وهناك مؤرخون لم يذكروا المصادر نهائيا وهم من ثقات المؤرخين كالمنذرى فى كتابه «التكملة» . وفى الوقت نفسه كانت هناك طائفة أخرى عنيت بذكر مصادرها ، ولكنها تفاوتت فى ذلك أيضا حيث كان قسم منهم يذكر موارده بصورة دقيقة ، بينما كان القسم الآخر يذكر موارده تارة، ويغفلها تارة أخرى. وأظن أن المقريزى من القسم الأخير: ممن يذكرون مواردهم تارة، ويغفلونها تارة أخرى .

وبسبب هذا التوجه من المقريزى تعرض لاتهامات عديدة من المؤرخين المحدثين ، ويهمنا هنا تهمة ألصقت بالمقريزى من قبل أستاذ كبير، وتتصل بكتاب «المقفى».

تهمة النقل الكثير عن «ابن العديم» ومقارنة بين المصدرين:

اتهم المقريزى منذ فترة بأنه نقل كتابه «المواعظ» عن كتاب صنفه الأوحدى، وظفر المقريزى بمسودته فنسب الكتاب إلى نفسه، وقد فند هذه التهمة أستاذ كبير هو الدكتور سعيد عاشور[٢٥٧] فأوضح أنه لو افترضنا - جدلاً - أن المقريزى أخذ عن الأوحدى، فماذا يضيره أو يقلل من قيمة علمه؟ طالما أنه لم يقتصر على ما ذكره الأوحدى، وإنما استعان بمن سبقوا الأوحدى فى كتابه خطط مصر والقاهرة، كما أنه لو اتجهنا إلى اتهام أى مؤرخ أخذ من سابقيه ومعاصريه بالسرقة لأدين بهذه التهمة جميع مؤرخى الإسلام بعد القرن الرابع للهجرة دون استثناء . لكن المقريزى فى كتابه (الخطط) كان أمينا، وذكر أسماء من سبقوه من العلماء

والمجتهدين في ميدان الخطط، وكان له منهج خاص به ، وإضافات مهمة تجعله أحد المؤرخين الكبار.

أقول: إن المقريزي اتهم مرة أخرى من قبل أحد الأساتذة الكبار[٢٥٨] فذكر أن المقريزي قد نهل من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم ما شاء له القدر «ولكن كما هي عادته لم يشر إلى الكتاب، فهو نادرا ما يشير إلى مصادره، أو يقوم بذكر مصادر صاحب النص المنقول عنه».

ولكني قمت بمراجعة ومقارنة كتاب «المقفى» بكتاب «بغية الطلب» ومقابلة ما ورد فيهما من تراجم ومعلومات ، فاتضح لي عدم صحة ما ذهب إليه الدكتور سهيل زكار . وقبل التدليل على ذلك أذكر أولاً أن المقريزي أشار إلى النقل من ابن العديم أحيانا [٢٥٩]، وأقدر أن التراجم المشتركة بين المؤرخين الكبيرين بلغت إحدى وأربعين ترجمة .

ويمكن لي تقسيم هذه التراجم المشتركة إلى عدة أنواع :

١- تراجم انفرد بها المقريزي بمعلومات عن ابن العديم، وبلغت هذه التراجم تسعة عشر موضعًا ، من أمثلتها:

ترجمة أحمد بن شعيب بن على النسائي ، وانفرد فيها المقريزي[٢٦٠] بذكر البلاد التي تلقى بها أحمد بن شعيب العلم، وذكر جوانب من حياته الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ولم ترد عند ابن العديم[٢٦١].

ترجمة أحمد بن نصر النيسابوري (ت٢٤٥هـ) وفيها انفرد المقريزي[٢٦٢] بترجمة طويلة عن ابن العديم[٢٦٣] الذي ترجم للنيسابوري في كلمات قليلات.

ترجمة أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) وفيها انفرد المقريزي[٢٦٤] بمعلومات عن ابن العديم[٢٦٥].

ترجمة إسحق بن محمد بن المؤيد[٢٦٦] (ت٦٢٣هـ) وفيها انفرد المقريزي بمعلومات غير موجودة لدى ابن العديم[٢٦٧].

ترجمة إسماعيل بن إبراهيم بن غازي (ت٦٣٧هـ) وفيها انفرد المقريزي[٢٦٨] بمعلومات عن شيوخه وبعض مواقفه مع المعظم عيسى بن العادل، ولم ترد عند ابن العديم[٢٦٩].

ترجمة أصبغ بن عبد العزيز الأموي، وجاءت مفصلة عند المقريزي[٢٧٠]، موجزة عند ابن العديم[٢٧١].

ترجمة الحر بن يوسف بن يحيى (ت١١٣هـ) وجاءت بزيادات لدى المقريزى[٢٧٢] عن ابن العديم[٢٧٣].

ترجمة حماد بن هبة الله بن حماد (ت٥٩٨هـ) وفيها انفرد المقريزى[٢٧٤] عن ابن العديم[٢٧٥] بأن حماداً ألف كتابا جمع فيه من اسمه «حماد» . ولدى الصفدي[٢٧٦] ترجمة لحماد هذا، لكن ترجمة المقريزى أشمل وأوفى من ترجمة الصفدى.

ترجمة حوثرة بن سهيل الباهلى (ت١٣٢هـ) وجاءت شاملة وواسعة لدى المقريزى [٢٧٧]، مختصرة جدا لدى ابن العديم[٢٧٨] فى عدة أسطر قليلة.

إلى غير ذلك من تراجم[٢٧٩] وردت فى «المقفى»، و«بغية الطلب» وانفرد فيها المقريزى بمعلومات لم ترد عند ابن العديم، بالإضافة إلى تراجم أخرى وردت عند المؤرخين بزيادات هنا أو هناك.

وهكذا انفرد المقريزى عن ابن العديم بمعلومات عديدة فى مواضع مختلفة.

٢- تراجم تشابهت معلوماتها وذكر المؤرخان فيها مصادرها:

وبلغت هذه التراجم تسعًا ، تشابهت فيها المعلومات، وذكر كل مؤرخ مصادره، ومعنى هذا أن المقريزى لايعد ناقلا - هنا- من ابن العديم، وإنما من المصادر المتعددة التى صرح بها وذكرها[٢٨٠].

٣- تراجم تشابهت معلوماتها ولم يذكر كلا المؤرخين مصدريهما، وبلغت هذه التراجم اثنتين[٢٨١].

٤- تراجم متشابهة عاصر ابن العديم أصحابها أو ذكر مصادره ولم يذكر المقريزى مصادره[٢٨٢].

بلغ هذا النوع ستا فقط، وهنا يمكن الظن بأن المقريزى قد نقل معلومات هذا التراجم من ابن العديم بالفعل. وهكذا إذا افترضنا نقل المقريزى عن ابن العديم ، فإن هذا النقل ينطبق -فقط- على هذه الحالات والتراجم الست، مع الأخذ فى الحسبان إشارة المقريزى لابن العديم وورودت هذه الإشارة مرتين- كما سبق- ولذا فالقول بأن المقريزى نهل من البغية ما شاء له القدر، قول مبالغ فيه للغاية وغير صحيح . كذلك كان للمقريزى مصادره التى ينقل منها ، وليس صحيحا أنه كان ينقل مصادر المصدر الذى يطلع عليه، لاسيما وأن المقريزى قد أشار بالمقفى أكثر من مرة إلى مصادره التى ينقل عنها[٢٨٣].

سابعًا : التدخل بالشرح أو النقد أو التعليق:

التزم المقريزى بمنهج إيراد الآراء المتعددة حول بعض الشخصيات والأعلام الذين ترجم لهم، إما لأهمية هذه الشخصية وما أحدثته من تأثير علمي قوى[٢٨٤] أو سياسى أو غيرذلك ، وإما بسبب ما أثير حول هذه الشخصية من لغط [٢٨٥]، أو تشكيك فى عقيدتها أو علمها[٢٨٦] أو دورها السياسى، وكان المقريزى يتدخل - أحيانا- مبديًا رأيه أو معلقا على بعض الأحداث أو ناقدا لبعض المواقف.

وجرت عادة المقريزى فى كتبه[٢٨٧] ومنها «المقفى» أن يقول عند التعليق أو النقد : «قال كاتبه»[٢٨٨] أو «قلت»[٢٨٩].

ومن أمثلة تدخل المقريزى بالتعليق وريداء الرأى:

١- تدخله مؤيدا صحة نسب الفاطميين . فلقد ترجم لعبيد الله المهدي الفاطمى ترجمة طويلة ذكر فيها الآراء الطاعنة فى نسبه والمثبتة له، وعلق على ذلك بعدة تعليقات منها قوله: «قال كاتبه : أنا استغفر الله مما سطرته»[٢٩٠] أى من الطعن فى نسب الفاطميين . وقد استبعد المقريزى الروايات الطاعنة فى نسب الفاطميين» والذى يظهر أن هذه الأقوال موضوعة، لم يقلها أحد، بل افتراها أعداء القوم ونشروها فى الناس لينفروهم عنهم، وقد قال شيخنا العلامة أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - رحمه الله- فى كتابه الذى سماه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» :... »[٢٩١].

٢- تدخله مؤيدا «ابن يونس» وناقداً «السمعانى فى نسبة ابن أبى فروة الشعبانى (ت ٢٥٦هـ) إلى قبيلة حمير- كما قال ابن يونس- لا إلى قيس عيلان[٢٩٢].

٣- تدخله مثبتا بيتًا للبوصيرى نسبه الصفدى لغيره [٢٩٣].

٤- تدخله بالتعليق على أحوال شيخ الظاهر بيبرس الشيخ خضر قائلاً : «والله أعلم بحقيقة حاله» وذلك بعد أن ذكر بعض الأقوال فيه، وعرض لبعض أحواله[٢٩٤].

٥- تدخله مثبتا الاسم الصحيح لأحد كبار الصوفية ، قيل إن اسمه : محمد بن أحمد، وقيل : الحسن بن همام، وعلق المقريزى على ذلك بقوله : «والأول أصح»[٢٩٥].

٦- تدخله مقارنا بين التمكين لعبد الرحمن الداخل بالأندلس، وبين التمكين لمروان بن الحكم والدولة الأموية بصفة عامة بعد موقعة «مرج راهط» سنة ٦٥هـ [٣٠٦].

٧- تدخله حاكمًا على ما ذكره حذيفة بن اليمان- من أنه رأى عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب في المنام في الجنة مع رسول الله ﷺ بالوضع [٢٩٧].

٨- تدخله موضحًا طائفة القرامطة ، وأفعالهم بالمسلمين لمدة قرنين من الزمان، بعد أن ترجم لأحد القرامطة ترجمة موجزة[٢٩٨].

٩- تدخله مبينًا طائفة الدروز في عهده ، بعد أن ترجم لأحد هؤلاء الدرزيه المؤلهين للحاكم بأمر الله [٢٩٩].

١٠- تدخله حاكما على بعض المصادر التاريخية والمؤرخين ، ومن ذلك قوله عن مؤلفات ابن الفرات «وقفت عليها واستفدت منها مع عامية في ألفاظه »[٣٠٠]. ووصفه كتاب «أعوان النصر» للصفدي بأنه مفيد إلى الغاية في معناه[٣٠١]، وثناؤه على كتب أبي الفدا [٣٠٢]، والذهبي[٣٠٣].

١١- تدخله مثبتا ولادة سيدنا إبراهيم عليه السلام في «كوثى» من إقليم بابل، وليس بغوطة دمشق كما قيل[٣٠٤].

١٢- تدخله مؤيدا ما جاء في التوراة من ضبط أسماء أجداد سيدنا إبراهيم عليه السلام، على أساس أن هذه الأسماء ليست مما يلحقه التحريف أو التبديل «أما نقله الأخبار فقد احتاروا في ضبطها لبعدهم عن معرفة العبرانية»[٣٠٥].

١٣- تدخله مؤكدا ما ورد في كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية من أخبار عن المناظرة التي جرت بين سيدنا إبراهيم وقومه، بالرغم من تأكيده على أن ابن وحشية ليس من علماء الأديان[٣٠٦].

١٤- تدخله حاكما ومبديا رأيه في شعر المتنبي[٣٠٧].

وهكذا تدخل المقريزي[٣٠٨] - أحيانا- بالتعليق : شارحا بعض الأمور وناقدا بعضها ، ومرجحا لبعضها، ورابطا بين الأحداث التاريخية ومتابعا لبعضها إلى زمنه[٣٠٩].

ثامنًا : عفة القلم واحترام الغير[٣١٠]:

التزم المقريزي- وهو يترجم لأعلامه- منهج ونهج : عفة القلم واحترام الغير. وكثرت العبارات الدالة على ذلك ومنها : «عفا الله عنه وسامحه»[٣١١] والله يغفر لنا وله »[٣١٢] و«عسى الله أن يكفر عنه»[٣١٣] و«الله أعلم بحقيقة ذلك»[٣١٤].

ولاحظت أن المقريزى التزم هذا المنهج أيضا وهو يتحدث عن شيوخه ومن تلقى عنهم بعض الأخبار والمعلومات ، فكان يدعو لهم بالرحمة والمغفرة[٣١٥]. كما لاحظت أن المقريزى وهو يترجم لمعاصريه بالكتاب التزم هذا المنهج ، فأثنى عليهم[٣١٦]، ولم يقدح إلافيمن يستحقون القدح والذم بسبب ما اشتهروا به من لهو[٣١٧] أو سوء سيرة[٣١٨].

ولعل مما يؤكد اتصاف المقريزى بصفة الصبر، واحترام الغير، والسماحة هو ما ذكره عن أحد الفقهاء المشهورين بالشدة والجفاء ، حتى أدى ذلك إلى ابتعاد الناس عنه، ولكن المقريزى اقترب منه، وعبر عن ذلك بقوله : «وأعاننى الله عليه لما جاورت مكة فى سنة ٧٨٧هـ حتى قرأت عليه كثيرا من مروياته ، ولم يقع بينى وبينه سوء قط، والحمدلله»[٣١٩].

ومن ذلك دعاؤه لرجل كان يبذل المال من أجل المناصب بقوله : «الله يغفر لنا وله» [٣٢٠]. ولاشك أن هذه الصفات مطلوبة فى المؤرخين ، وبخاصة وهم يترجمون للرجال والأعلام على اختلاف أفكارهم وميولهم ووظائفهم.

تاسعا : الأسلوب الفصيح السهل:

اتسمت لغة المقريزى فى «المقفى» باللغة الفصيحة السهلة المفهومة مما يدل على معرفة المقريزى باللغة معرفة تامة، وهذا لاينفى وجود كلمات قليلات عامية مثل «بس» [٣٢١]، وأساليب عامية مصرية مثل «تمشى حاله»[٣٢٢]. وهذه الكلمات والأساليب قليلة جدا بالكتاب ، لكن اللغة الفصيحة السهلة هى الغالبة عليه.

مقارنة بين منهج المقريزى وبين مناهج بعض مصادر سابقة عليه أو لاحقة له:

عند مقارنة منهج المقريزى فى «المقفى» وبين مناهج بعض مؤرخى التراجم السابقين على المقريزى كالصفدى أو اللاحقين له كابن تغرى بردى والسخاوى، يتبين لنا اشتراك هؤلاء المؤرخين جميعا فى بعض الأمور منها على سبيل المثال : طريقة الانتقال من النقل إلى التعليق أو النقد وتصدير ذلك بـ «قلت» وفعل ذلك المقريزى - كما سبق- والصفدى، وابن تغرى بردى[٣٢٤] والسخاوى[٣٢٥] ، ومنها : تحقيق أمر الولادة والوفاة . وقد صرح الصفدى بالتزامه هذا المنهج فى مقدمة كتابه[٣٢٦] والتزم به، إلا أنه - كالمقريزى- لم يتمكن من الوصول إلى تاريخ ولادة كل أعلامه ، ولم يستطع- كذلك- أن يقف على تاريخ وفاة كل مترجميه، وبالمثل كان ابن تغرى بردى. ومن نقاط الاتفاق فى المنهج أيضا: ضبط الأعلام وتوضيح الأنساب، وفعل ذلك الصفدى[٣٢٧] وابن تغرى بردى[٣٢٨] والسخاوى فى بعض الأحيان[٣٢٩].

ومن خلال هذه القراءات السريعة فى مناهج هؤلاء المورخين ، اتضح لى اشتراك المقريزى مع الصفدى وابن تغرى بردى بصفة خاصة فى المنهج، مع ملاحظة أن المقريزى لم يخالف منهجه إلا قليلا، ولأن الصفدى سابق على المقريزى فلربما استفاد المقريزى من منهجه إلا قليلا، لكن الذى أوكده هو أن ابن تغرى بردى قد استفاد فى كتابه «المنهل الصافى» من منهج المقريزى، لاسيما أن ابن تغرى بردى يعد تلميذا للمقريزى ، واجتمعا معا كثيراً [٣٣٠]، واعتمد ابن تغرى بردى على كتب المقريزى [٣٣١]، ومنها «المقفى» ، لكن السخاوى يتفق مع المقريزى فى بعض الأمور القليلة ، وقد اعتمد هو الآخر على كتب المقريزى[٣٣٢].

خلاصات

١- تضمن كتاب «المقفى» معلومات تاريخية واسعة ، بعضها لايوجد إلا به ، بسبب اطلاع المقريزى على المصادر التى ضاع بعضها، واستطاع المقريزى أن يحسن الإفادة من مصادره المتعددة فى تقديم مادة جيدة أكسبت مصنفه قيمة عظيمة.

٢- اتبع المقريزى منهجا دقيقا منظما ؛ فبذل جهدا فى تحقيق أمر الولادة والوفاة، وفى ضبط الأعلام والأنساب ، والتزم النقل عن المعاصرين للأحداث أو القريبين منها، ونقل من المصنفات القديمة عند عدم توافر شرط المعاصرة والمشاهدة أو القرب من الأحداث التاريخية.

٣- لم يكن المقريزى ناقلا لكل ما تقع عليه عيناه أو تصل إليه يداه، وإنما كان يجتهد فى اختيار المعلومات التاريخية من أكثر من مصدر ، ولذا كان يقدم -دوما- أخبارا ونصوصا إضافية عن المصدر الذى صرح بالنقل عنه، وهذا معناه أن المقريزى كان واسع الاطلاع ، ولديه مقدرة على الاختيار والانتقاء والعرض للحقائق والأخبار التاريخي.

٤- اتهم المقريزى بالنقل عن بعض المؤرخين دون تحرج، والنهل منهم دون تحفظ ، ومن هؤلاء المؤرخين : ابن العديم ، والمقريزى فى «المقفى» برىء من هذه التهمة ومن غيرها .

٥- لم يكتف المقريزى - أحيانا- بسرد الوقائع والأحداث التاريخية، وإنما قام بالتعليق عليها أو نقدها أو شرحها ، وسار بالحديث عن بعضها إلى زمنه؛ رابطا بين الأحداث بعضها ببعض.

٦- وأخيراً فإن جهد المقريزى فى «المقفى» يجعل قراءه فى غنى عن الرجوع إلى المعاجم اللغوية والجغرافية وكتب الأنساب من أجل استيفاء معلومة أو بحث عن بلد أو إقليم أو مدينة أو غير ذلك .

الهوامش

١- أطلق المقريزى على كتاب «المقفى» اسم «تاريخ مصر الكبير» فى كتابه «الخطط جـ٢ ، ص٣٣ كذلك سماه السخاوى «تاريخ مصر» فى كتابه الذيل على رفع الإصر ص٦٢».

٢- أطلق ابن تغرى بردى على المقريزى لقب «عمدة المؤرخين» . ابن تغرى بردى: حوادث الدهور جـ١ ص٢٥ وص٣٩ . وأطلاق السخاوى على المقريزى لقب «مؤرخ الوقت» . السخاوى : الذيل على رفع الإصر ، ص٣٢٢ .

٣- راجع ترجمة المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى فى كتاب «المنهل الصافى» «لابن تغرى بردى جـ١ ص٤١٨-٤١٩ ، وفى كتاب «حوادث الدهور جـ١ ص٣٩ -٤١» وفى كتاب «التبر المسبوك للسخاوى ص٢١-٢٥».

٤- ثار خلف بن جبر فى خلق كثير من قبائل البربر على أبى الفتوح يوسف بن زيرى ابن مناد خليفة المعز ونائبه فى إفريقية وبلاد المغرب، فزحف إليه يوسف فقتله سنة ٣٦٤هـ، وأمر بأن يطاف برأسه ورؤوس من قتل معه بالقيروان، ثم حمل منها خلف إلى القاهرة، فطيف بها أيضا. راجع المقريزى: المقفى جـ٣، ص٧٦٢ .

٥- المقريزى: المقفى جـ٣ ، ص٧٦٢ .

٦- المقريزى : السلوك جـ٢ قسم ٢ ص٣٦٥ .

٧- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ، ص٤١٨-٤١٩ .

٨- السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص٢٣ .

٩- ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، ونشرته دار الغرب الإسلامى- بيروت - لبنان.

١٠- كتاب «درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » للمقريزى ، ترجم فيه لأعيان عصره البارزين، ووردت إحالات عليه فى كتاب «المقفى» منها على سبيل المثال إحالة المقريزى عليه فى أثناء ترجمته للبرهان بن الحريرى الضرير (ت٠٠٨هـ). راجع المقفى جـ١ ص٤٤-٤٥ ، كما أحال عليه المقريزى فى كتابه «الخطط» راجع جـ٢ ص٣٣ وص٦٢ وص٧٤ .

١١- راجع المقفى جـ٢ ص١٠٥ و١١٦-١١٧ وجـ٣ ص٢٦٨ و٣٠٤ و٦٥٢ و٦٩١ وجـ٤ ص٤٠٣ و٤١٩ .

٤٤٩ و٥٦٥ وجـ٥ ص١٧٦ و١٧٧ و٦١٦ وجـ٦ ص١٠٢ .

١٢- راجع المقفى جـ٥ ص١٣٦ وجـ٦ ص٤٤١ .

١٣- راجع المقفى جـ٦ ص١٣٨ و١٤٥ وجـ٦ ، ص٣١١ و٣٣٣ و٣٩٧ و٣٩٨ و٤٤١ و٤٤٦

١٤- راجع المقفى جـ٦ ، ص١٠٢ و١٢١ و١٣٧ وجـ٧ ص١٣٨ و١٤٥ و١٤٧ و٣٤٣ .

١٥- وراجع بصفة عامة المقفى جـ٣ ص٢٥٨ و٢٧٠ و٤٤٥ و٤٩٨ و٧٥٧ وجـ٤ ص٣٩٠ و٤٠٠ و٤٢٥ و٤٤٠ و٤٤١ و٤٥٠ وجـ٥ ص٦٥٩ و٦٧٣ و٦٧٦ و٦٧٩ ، ٦٨٦ ، و٦٨٩ وجـ٦ ص١٠٠ و١٠١ و٢١٧ و٢١٨ و٢٩٨ و٤٠٨ و٤٣١ و٤٣٣ و ٤٤٠ و٤٤١ وجـ٧ ص١٠٧ و١١٢ و١١٣ و ١٣٨ و١٤٥ و١٤٧ و٤٢٩ و ٤٣٠ و٥٢٢ و٥٢٦ و٥٢٨ . وراجع - أيضاً جـ١ ص٧٢٥ و٧٣٦ .

١٦- قمت بإحصاء وتصنيف كل التراجم الواردة في كتاب «المقفى» المطبوع لبيان ثقافة صاحب كل ترجمة أو منصبه أو وظيفته ومهنته ، أو غير ذلك.

١٧- أبرز هؤلاء المؤرخين محمد بن إسحاق (جـ٥ ص٣٠٢-٣٠٥) والمسبحي (جـ٦ ص١٦٣-١٦٥) والصفدي (جـ٣ ص٧٦٧-٧٦٨) والعمري (جـ١ ص٧٣٢-٧٣٥) والذهبي (جـ٥ ص٢٢١-٢٢٥) والحميدي (جـ٦ ص٥٠٤-٥٠٨) وأسامة بن منقذ (جـ٢ ص٤٠-٤٩) والكندي (جـ٧ ص٤٨٩-٤٩٠) وأبو الفدا (جـ٢ ص١٠٠-١٠٤) والعماد الأصفهاني (جـ٧ ص٢٠٤-٢١١) والطبري (جـ٥ ص٤٨١-٤٨٧) وابن الفرات (جـ٦ ص٦٤) والقلقشندي (جـ١ ص٥١٢-٥١٣) .

١٨- بلغ عدد المعتزلة ٣ ، وعدد القرامطة ٤ ، وعدد الشاترين ١٠ والمبتدعين في الدين والمدعين للألوهية ٤ .

١٩- راجع المقفى جـ٣ ص٦٩١-٦٩٧ .

٢٠- راجع المقفى جـ٤ ص٤٦٤-٤٨٤ .

٢١- مثل جرجي الأنطاكي وزيد روجار الحاكم النورماني لصقلية جـ٣ ص١٨-٢٠ .

٢٢- المقريزي : الخطط جـ١ ص٣ .

٢٣- فعل ذلك على سبيل المثال : ابن عبد البر : «الاستيعاب» والخطيب : «تاريخ بغداد» وياقوت : «معجم الأدباء» وابن خلكان : «وفيات الأعيان» والقفطي : «إنباه الرواة» والصفدي : «الوافي

بالرقيبات » وابن تغرى بردى : «المنهل الصافى» وابن حجر : «الإصابة فى تمييز الصحابة » و«الدرر الكامنة» والسخاوى» : «التبر المسبوك» والسيوطى : «بغية الدعاة» وغيرهم.

٢٤- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص٢١٣ وراجع من ص٢١٢ .

٢٥- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص١٩ .

٢٦- السخاوى : التبر المسبوك ص٢١ .

٢٧- فعل ذلك على سبيل المثال ابن عبد البر «الاستيعاب» و «الصفدى» الوافى لكن الصفدى ترجم للمحمدين بعد النبى ﷺ . ثم التزم الترتيب الألفبائى الذى التزمه ابن عبد البر مباشرة بعد ذكر النبى ﷺ.

٢٨- فعل ذلك الخطيب البغدادى : «تاريخ بغداد» والسيوطى «بغية الدعاة».

٢٩- مثال ذلك ما فعله ابن تغرى بردى فى «المنهل الصافى» .

٣٠- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٣ .

٣١- المقريزى: المقفى جـ١ ص٣٥-٤١ وراجع أمثلة أخرى مماثلة جـ١ ص٩٨-٩٩ وجـ٥ ص٤٧-٥٥ وجـ٦ ص٢٥-٣٠ و٣٤٨-٣٥٥ وجـ٧ ص٧-١٩ و٢٨-٣٢ .

٣٢- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٥ وص٩٠-٩٣ وراجع أمثلة أخرى مشابهة جـ١ ص١٠٢-١٠٥ وجـ٥ ص٥٦-٥٨ وجـ٧ ص٣٤٥ و٣٥٦ .

٣٣- المقريزى : المقفى جـ٢ ص١٣-٣٦ وراجع أمثلة أخرى مشابهة جـ٢ ص٤٩٦-٥٠٤ وجـ٣ ص٩-١٥ و٣٧-٣٩ و٤٣٣-٤٤٢ وجـ٤ ص٧-١٣ وجـ٥ ص٩-١٧ .

٣٤- راجع على سبيل المثال ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٦ ص٦٧-٨٠ وص٨٥ و٨٦ و٨٧ و٩٦ و١٠٤ و١١٥ و١١٨ و١٢١ و١٢٣ و١٢٧ و١٢٩، ١٢٩ . وابن حبيب : تذكرة النبيه جـ٣ ص١٩٤ و٢١٣، وابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان جـ٤ ص٢٥٢ و٤٦٢ و٢٩٩ .

٣٥- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٥١٠-٥١٢ .

٣٦- المقريزى : المقفى جـ٢ ، ص٥٦٨-٥٧٦ .

٣٧- المقريزى : المقفى جـ٢ ، ص٥٧٠-٥٧٦ .

٣٨- المقريزى : المقفى جـ٥ ص١٢-١٨ .

٣٩- المقريزى : المقفى جـ٤ ، ص٤٢٢-٤٢٣ .

٤٠- المقريزى : المقفى جـ٤ ، ص٤٢٥ .

٤١- من ذلك مثلا ترجمة (الحسن بن الجراح) المقفى جـ٣ ص٢٨٤ .

٤٢- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٣٩٦ وجـ٧ ص٤٨٩ .

٤٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص١٠٧ و١٥٣ وجـ٦ ص٤٥ و٥٠١ .

٤٤- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٧ .

٤٥- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٠٤ .

٤٦- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٨٨ و٤٩١ .

٤٧- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٨٢-٤٩٢ .

٤٨- المقريزى: المقفى جـ٧ ص٢٦ .

٤٩- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٤ و٢٤ وجـ٧ ص١٣٨ .

٥٠- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٦٣ وص٥٠٠ وجـ٧ ص٢٥٧

٥١- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٣٥ وراجع أمثلة أخرى مشابهة ص٣٦ و٣٧ و٤٣ و٤٥

٥٢- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٩٧ وراجع ص٩٨

٥٣- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٢١٣ وراجع أمثلة أخرى جـ١ ص١٧٦ و ١٨٣ و٣٠٤ وجـ٥ ص٦٦١ وجـ٧ ص١٠١ .

٥٤- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٧٣ . وواضح هنا الفارق بين تاريخى الوفاة، وبالرغم من ذلك ذكرهما المقريزى بسبب وجود هذين الرأيين .

٥٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤٨ وراجع أمثلة أخرى ص٦٠٨ و٦٥٩ وجـ٦ ص١٥٥ وجـ٧ ص٥٧ و٢٠٣ .

٥٦- راجع فى ذلك المقريزى : المقفى جـ٣ ص٣٥٨ وجـ٤ ص٥٩٤ وجـ٦ ص٤٤١ .

٥٧- راجع فى ذلك المقريزى : المقفى جـ١ ص١١٥ و٢٣١ و٢٣٦ و٢٣٨ و٧٥٨ وجـ٣ ص٤١٥ و٤٤٢ وجـ٥ ص٦٧٤ و٦٩٠ و٦٩١ وجـ٧ ص٢٣ و٥١ و٧٣ و٩٣ و١١٩ .

٥٨- راجع جـ١ ص٩١ ،٩٢ و٩٣ و١٤٥ و١٤٦ و٢١١ و٢٧٧ وجـ٢ ص٥٣ و٥٩ و٨٢ وجـ٣ ص٦٧٣ و٦٧٤ و٦٨٣ و٧٣٥ و٧٣٧ و٧٨٥ ،جـ٥ ص٥٦٢ و٥٧١ و٦٣٤ و٦٩٠ وجـ٦ ص٢١٤ و٢٣١ و٢٦١ و٢٧٦ و٤٤٦ و٤٤٨ و ٤٤٩ و٤٥٢ و٤٦٢ و٤٧٤ و٥٢٤ و ٥٣٢ و٥٣٩ .

٥٩- وبالرغم من ذلك أورد المقريزى تاريخ ميلاد بعض الأعلام دون تاريخ الوفاة ، ومن أمثلة ذلك المقفى: جـ١ ص١٠٤-١٠٥ وجـ٢ ص١٢٧ وجـ٥ ص٢٠٩ و٢٨٤ وجـ٦ ص٥١ و٩٩ و١٤٥ وجـ٧ ص٢٠-٢١ و٢٣ و٩٢ و٥٠٠ .

٦٠- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١١٥ والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٦ ص٧ .

٦١- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١١٥ والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٦ ص٤٧ .

٦٢- راجع المقريى : المقفى جـ١ ص١٠٢ والخطيب البغدادى تاريخ بغداد جـ٦ ص٢٠ .

٦٣- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١٠٢ والإدفوى : الطالع السعيد ص٥٢-٥٣ .

٦٤- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١٢٦ والإدفوى: الطالع السعيد ص٥٣ .

٦٥- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١٢٣ وابن الجزرى: غاية النهاية جـ١ ص١٠ .

٦٦- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٦٥ وابن الجزرى: غاية النهاية جـ٢ ص٤٨ .

٦٧- راجع المقريزى: المقفى جـ٣ ص٦٧١ والإدفوى : الطالع السعيد ص٢٣٢-٢٣٤ .

٦٨- راجع المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٢٤ والذهبى : العبر جـ١ ص٥٦-٥٧ وسير أعلام النبلاء جـ٢ ص٤٠٢-٤١٣ .

٦٩- راجع المقفى جـ٥ ص٦٢ والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص٣٩٧ .

٧٠- منها على سبيل المثال ترجمة محمد بن إبراهيم (ت٢٧٣هـ) لم يذكر الخطيب (تاريخ بغداد جـ١ ص٣٩٤) ولا المقريزى (المقفى جـ٥ ص٥٤) تاريخ مولده، بينما ذكر ذلك الذهبى : (سير أعلام النبلاء جـ١٣ ص٩١). ومنها محمد بن محمد بن سليمان (ت٣١٢هـ) ولم يذكر الخطيب تاريخ مولده (تاريخ بغداد جـ٣ ص١٠٩) ولا المقريزى (المقفى جـ٧ ص٢١) بينما ذكر الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٤ ص٣٨٣ .

٧١- راجع أيضًا المقفى جـ٦ ص٢٦ مع سير أعلام النبلاء للذهبى جـ١٥ ص٢٧٠-٢٧١ ، والمقفى جـ٦ ص٢٨ مع سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص٢١٧ ، والمقفى جـ٦ ص٥٥ مع سير أعلام النبلاء جـ٦ ص١٥٠.

والمقفى جـ٦ ص٧١ مع سير أعلام النبلاء جـ١٣ ص٤٥٩-٤٦٠ ، والمقفى جـ٦ ص٢٢٤ مع سير أعلام النبلاء جـ٦ ص٣١٧-٣٢٢ .

٧٢- محمد بن عبد الغنى حسن : التراجم والسير ص٩٦ .

٧٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٧ .

٧٤- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨٦ .

٧٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٨٩ وراجع أمثلة أخرى فى جـ٥ ص٢٩٩ و٣٠٢ و٤٤٥ و٤٨٩ و٥١٠ و٥٤١ و٥٤٤ و٥٤٨ و٦١٨ و٦٤٣ و٦٦٢ و٧١٤ و٧١٥ .

٧٦- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٠-٣١ .

٧٧- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٢ .

٧٨- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٦١ .

٧٩- المقريزى: المقفى جـ٧ ص٢٨ .

٨٠- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٦٩ .

٨١- المقريزى : المقفى جـ٧ ص١٤٧ وراجع أمثلة أخرى جـ٢ ص٢٢٠ و٣٧٠ و٥٧٥ وجـ٣ ص٧٣ وجـ٤ ص٣٨٤ وجـ٦ ص٩٥ و٩٨ و٩٩ و١٠٢ و١٠٥ و١٠٦ و١٠٧ و١٦٣ و٢٦٢ و٢٦٥ و٢٧٠ و٣١٨ و٣٣٤ و٣٠٣ و٤٦٣ و٤٥٧ وجـ٧ ص١٢ و٣١ و٣٦ و٣٧ و١٥٤ و٢٠٤ و٢٢٠ و٢٥٣ و٢٨١ و٢٨٥ و٢٩٥ و٣١٣ و٣٢٤ و٣٥٨ و٣٩٢ ، ٣٩٥ و٤٠١ و٤٠٩ و٥١٦ و٥١١ .

٨٢- راجع على سبيل المثال المقفى: جـ١ ص١٥١ و١٥٣ و١٧٦ و٢٠١ وجـ٥ ص٦٤٣ وجـ٦ ص٣١ و٩٨ و٩٩ و١٠٥ وجـ٧ ص١٤٧ .

٨٣- المقريزى: المقفى جـ١ ص١٦٧ .

٨٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٤٧ .

٨٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٥٧ .

٨٦- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٧٤ .

٨٧- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٥٠ وراجع من ص٤٩ .

٨٨- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٧ .

٨٩- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٧ .

٩٠- المقريزى : المقفى جـ٥ وراجع ص٦١٤ .

٩١- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٨٧ .

٩٢- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٨١ وراجع ص٢٧٩ .

٩٣- المقريزى : المقفى جـ٧ ص١٠٦ وراجع أمثلة أخرى عديدة جـ١ ص١٠٩ و١٥٠ و٢٣٤ و٢٣٨ و٣٤٥ وجـ٢ ص١٠٧-١١٠ وجـ٥ ص٥٢ و٨٢ و٩٨ و١٠٧ و١٣٨ و٢٣٨ و٢٤٥ و٢٥٢ و٢٦٤ وجـ٦ ص٢٦ و٨٨ و٨٩ و٢٦٥ و٤٤١ و٤٤٩ و٤٥٧ وجـ٧ ص١٢٦ .

٩٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٨٤ .

٩٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٣٤ .

٩٦- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٥ وراجع ص٢٤٦ .

٩٧- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٦٦ . وراجع أمثلة أخرى جـ١ ص٩٤ و١١٨ و١٤٢ وجـ٣ ص٤٣٦ و٥١٥ و٦٤٧ و٦٨٢ و٧٦٠ و٧٩٠ وجـ٤ ص٩٨ وجـ٦ ص٤٩ و٤٤٩ و٤٥٧ وجـ٧ ص٤٠٣ و٤٤٦ .

٩٨- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨٢ وراجع ص٨١ .

٩٩- المقريزى : المقفى جـ١ ص٧١١ وراجع من ص٧٠٦ .

١٠٠- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٧٨ .

١٠١- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٦٧ .

١٠٢- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٢٠ .

١٠٣- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٨١ .

١٠٤- وردت عند ياقوت (معجم البلدان جـ٣ ص٣٠٨) شارمساح، وذكر أنها قرية كبيرة بمصر تشبه المدينة ، وهى (شارمساح) من كورة الدقهلية.

١٠٥- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٦ و٦١٥ و٤٨٨ وجـ٦ ص١٠٨ .

١٠٦- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٩٧ وجـ٦ ص١٠٦ .

١٠٧- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٦١٥ .

١٠٨- راجع المقريزى: المقفى جـ٥ ص٢٢٠ . ويذكر هنا أن لابن سيد الناس فتح الدين محمد اليعمرى كتاب «عيون الأثر» و«أجوبة ابن سيد الناس» .

١٠٩- المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٣٢ .

١١٠- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٧٣ .

١١١- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٢١٠ .

١١٢- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٣٥٤ ولمزيد من اطلاع المقريزى على ما كتبه ابن يونس عن تاريخ مصر، ونقله عنه لمعاصرته للأحداث راجع جـ١ ص١٩٢ وجـ٥ ص١٤٩ و١٥٤ و١٦١ و١٧٥ و٢٠٨ و٢٦٠ و٤٩٣ و٦٠٤ و٦٢٤ و٦٣٣ و٧٢٦ وجـ٦ ص١٣ وص٤٥ وص٥٤ و١٠٤ و١٠٠ و٣٥٦ و٣٢٩ و٣٥٧ و٤٤٧ و٤٤٨ و٥٢٨ . وقد قام زميلى الفاضل وصديقى الكريم الدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح بجمع روايات وكتابات ابن يونس من بين بطون الكتب، وأصدر كتابين له كانا فى عداد الكتب الضائعة المفقودة ، وهما كتابا : «تاريخ الغرباء» و«تاريخ المصريين» ونشرا محققين تحقيقا علميا فائقا».

١١٣- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٥٠ وراجع مثالا آخر جـ٥ ص١٤١ .

١١٤- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٠٧ .

١١٥- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٠٦ .

١١٦- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٦٠ .

١١٧- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٤٧٢ .

١١٨- المقريزى : المقفى جـ٦ وراجع أمثلة أخرى جـ٥ ص٦٣٥ و٧٢٤ و٧٣٩ .

١١٩- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٣ .

١٢٠- ابن الطحان هو أبو القاسم يحيى بن على الحضرمى (ت٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) أحد المحدثين البارزين فى مصر ، والمهتمين بتاريخها ، وله عدة كتب فى تاريخ مصر. راجع (شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون جـ٢ ص٢٠٥-٢٠٦ .

١٢١- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٥٣٨ وراجع ص٥٥٦ وراجع ص١٦٥ وراجع جـ٣ ص٧٥٥ .

١٢٢- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤ وص٤٥ وص٨٠ .

١٢٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٥ .

١٢٤- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤ وراجع حتى ص٤٥ حيث أخبر المقريزى القارىء بمعلومات كثيرة عن طريق الطواشى مقبل الذى تربى فى قصر الملك الناصر محمد بن قلاوون .

١٢٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٦ .

١٢٦- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨٠ وراجع من ص٧٩-٨١ .

١٢٧- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٤٦ وراجع ص٣٤٥ ، وراجع أسئلة أخرى جـ١ ص٢٩٥ و٥٥٧ وجـ٣ ص٧٥٥-٧٥٦ وجـ٤ ص٨٢ وجـ٥ ص١٦ وجـ٧ ص٢١٦ .

١٢٨- راجع المقريزى : المقفى جـ٤ ص٥٧٠ وذكر الأستاذ المحقق أن القرطى هو أبو عبدالله محمد بن سعد ، مؤرخ مصرى عاش زمن العاضد الفاطمى ، وألف «تاريخ مصر» .

١٢٩- راجع جـ٤ ص٥٧٤-٥٧٥ من المقفى عن ابن سُليم الأسوانى مؤرخ النوبة.

١٣٠- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٤١٨ .

١٣١- ذكر المحقق أنه لايعرف هذا الكتاب ولامؤلفه ، وكذلك من خلال قراءتى المحدودة لا أعرفها ، وقد نقل عنه المقريزى : المقفى جـ٣ ص٦٣٠ .

١٣٢- المقريزى: المقفى جـ٥ ص١٧٥ وراجع ٢٦١ و٢٨٢ و٤٨٨ و٥٣٨ وجـ٦ ص١٨٧ و٢٥٣ .

١٣٣- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٣٦ .

١٣٤- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٥٧ .

١٣٥- راجع على سبيل المثال المقفى جـ٢ ص٥٠ ، وجـ٣ ص٣٤ و٦٢ و٣٢٤ ، وقد ذكر الأستاذ المحقق عن هذه التراجم وغيرها أنه لم يجد ترجمة لهؤلاء فى غير «المقفى» .

١٣٦- راجع المقفى جـ٥ ص٦١٥ وراجع جـ٤ ص٤١٦ ،جـ٥ ص٣٠٤ و٦١٥ و٦٤٣ وجـ٧ ص٢٣٨ .

١٣٧- راجع المقفى جـ٥ ص٥٥٠ وجـ٤ ص٣٩ وجـ٧ ص٩٧ ، وراجع جـ٦ ص٣٥٠ .

١٣٨- راجع المقفى جـ٧ ص٣١١ وراجع جـ١ ص٥٧٤ و٥٨٢ وجـ٢ ص٣٧٥ وجـ٣ ص٤٥٦ .

١٣٩- المقفى جـ٧ ص٣٢٦ .

١٤٠- المقفى جـ٧ ص٤٤٨ وراجع ص٢٧١ وجـ٢ ص١٠٨ و١٠٩ .

١٤١- المقفى جـ٧ ص٤٥٧ .

١٤٢- المقفى جـ٦ ص٣٥٣ .

١٤٣- المقفى جـ١ ص٤٠٩ .

١٤٤- المقفى جـ١ ص٥٣٦ .

١٤٥- المقفى جـ٢ ص٥١١ وراجع جـ٢ ص٤٤ وجـ٣ ص٣٠٩ و٤٤٨ .

١٤٦- المقفى جـ٣ ص٧٢٩ .

١٤٧- المقفى جـ٣ ص٤٥٧ .

١٤٨- المقفى جـ١ ص٢٣ .

١٤٩- المقفى جـ٥ ص٢١٦ وراجع ص٦٦٤ وراجع ص٦٦٤ وراجع جـ١ ص٣٥٧ و٤٧٠ و٤٧٥ وجـ٣ ص٤٢٩ وجـ٥ ص٦٦٤ وجـ٦ ص٣٧٠ و٣٧٩ و٣٨٢ وجـ٧ ص١٢٨ و٢٨٨ وراجع ترجمة المقريزى للعمرى جـ١ ص٧٣٢-٧٣٥ .

١٥٠- المقفى جـ٥ ص٥٩٧ .

١٥١- المقفى جـ٥ ص٤٧٣ وراجع جـ٣ ص٤٧ و٤١٠ و٦٣٠ وجـ٤ ص٥٥٢ وجـ٥ ص٥٩٤ و٥٩٥ .

١٥٢- المقفى جـ١ ص٥٠١ وراجع ص٣٠٠ .

١٥٣- المقفى جـ١ ص٣٩٠ ونفسه جـ٣ ص٤١٢ وجـ٦ ص٦٣ .

١٥٤- المقفى جـ١ ص١٤٥ وراجع عن ابن الجوزى فى «المقفى» جـ٤ ص٩٢ و٩٥ .

١٥٥- المقفى جـ٥ ص٥٠٥ وعن ابن رشيق فى «المقفى» راجع جـ٥ ص١٦٥ .

١٥٦- المقفى جـ٥ ص٤٥٣ .

١٥٧- المقفى جـ٥ ص٢٥٤ .

١٥٨- المقفى جـ٥ ص١٧٧ وعن نقول المقريزى عن ابن زولاق راجع جـ٢ ص٥٩ وجـ٤ ص٤٤٨ وجـ٥ ص١٣٧ و١٣٨ و١٧٧ و١٩٦ و٢٥٨ وجـ٧ ص٦٩ .

١٥٩- المقفى جـ٥ ص٧٠ وعن نقول المقريزى عن الإدفوى راجع جـ٥ ص٦٥ و٧٠ و١٧٣ و٢١٠ و٤٩٠ و٥٥٧ و٦٠٨ وجـ٦ ص٢٥١ و٣٧٢ و٣٨١ جـ٧ ص٤٢٥ .

١٦٠- المقفى جـ٥ ص١٨٢ . وعن تقول المقريزى عن ابن الأبار راجع جـ١ ص١٤٩ و٢٧٥ وجـ٥ ص٢٦٧ و١٠٣ و١٨٢ و٢١١ وجـ٦ ص٣٤٩ .

١٦١- المقفى جـ٦ ص١٩ .

١٦٢- المقفى جـ٥ ص٦٧٥ .

١٦٣- المقفى جـ٥ ص٢٩٧ .

١٦٤- المقفى جـ٥ ص٢٨٤ .

١٦٥- المقفى جـ١ ص١٦٩ .

١٦٦- المقفى جـ٥ ص١٩٠ و٥٠١ وعن النقول من الخطيب البغدادى راجع المقفى جـ١ ص٤٠ و١١٣ و١٢٤ و١٦٢ و١٦٧ و١٦٩ و١٧٢ و١٩٥ و٢٢٥ و٢٨٣ و٣١٥ و٣٦٦ و٥٤٨ وجـ٥ ص٦٢ و٦٧ و٨٤ و٨٩ و١١٠ و١٤٤ و١٧١ و١٨١ و١٨٥ و١٨٨ و١٩٠ و١٩٨ و٢٣٥ و٢٣٩ و٢٧٨ و٤٩٢ و٥٠١ و٦٠٠ وجـ٦ ص٧ و٢٨ و٨٣ و١٠٨ و٥٢٩ وجـ٧ ص١٥١ و١٨٥ و٢٧٠ و٣٥٩ .

١٦٧- منها كتاب «أخبار الشعراء» لعبد الرحيم (المقفى جـ٣ ص٤١١) وكتاب «تاريخ جرجان» لحمزة (المقفى جـ٥ ص٥٠١) و«العنوان فى القراءات» للسرقسطى (المقفى جـ٤ ص٣٩٥) وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن فرتون الفاسى (المقفى جـ٥ ص٩٨) ومعجم أبى الحسن يحيى القرشى (المقفى جـ٥ ص٥٦٤) . والعبر لابن خلدون (المقفى جـ٤ ص٥٤٧) وتاريخ أبى عبدالملك القرطبى (المقفى جـ٢ ص٤٤١) .

١٦٨- راجع المقفى جـ٤ ص٦٣ .

١٦٩- راجع المقفى جـ٤ ص٩٢ وجـ١ ص١٩ .

١٧٠- راجع المقفى جـ١ ص٤٥ و١١٣ و١٥٢ و٢٠٠ و٣٠٥ و٣٦٢ و٤١٤ و٤١٥ و٤٦٩ و٤٩٤ و٥٦١ و٧٠٨ و٧٤٣ وجـ٢ ص٣٢٥ وجـ٣ ص٦٤ و٤٢٨ جـ٦ ص٣٥٣ و٣٧١ ص١٢٧ .

١٧١- راجع المقفى جـ١ ص٢٢٦ و٥١٠ و٦٣٩ وجـ٣ ص٤٢٨ وجـ٥ ص٦٣ و٧٢ و١٢٨ و٧٢١ .

١٧٢- راجع المقفى جـ٣ ص٤٣١ وجـ٥ ص٥٢ وجـ٧ ص١٢٧ .

١٧٣- راجع المقفى جـ٣ ص٤٣٣ وجـ٥ وص٤٧ و٥٤ و٥٥ و٨٥ و٨٨ و٩٧ و١١١ و١١٣ و١٤٩ و١٥٤ و١٥٧ و١٧٤ و١٨٧ و٢٠٣ و٢٠٨ و٢٢٠ و٢٤٤ و٢٦٠ و٢٧٥ و٤٤٩ و٤٨٨ و٤٩٧ و٥٠٧ و٥١١

و٥١٧ و٤٠٦ ، ٦١٦ و٦٣٣ و٧٢٦ وجـ٦ ص١٣ و٤٥ و٥٤ و٦١ و٧٣ و٤٤٧ وجـ٧ ص٣٥٤ و٣٥٦ و٤٥٤ .

١٧٤- راجع المقفى جـ١ ص٣٦٦ .

١٧٥- راجع المقـــفى جـ١ ص٢٤٤ و٥٣٥ وجـ٤ ص٤٣٧ وجـ٥ ص١٧٣ و٣٠٨ وجـ٦ ص٣٥٠ وجـ٧ ص١٠٧ .

١٧٦- راجع المقفى جـ١ ص١٦٢ و١٧٢ وجـ٦ ص٥٠٧ .

١٧٧- راجع المقفى جـ١ ص٤٥ .

١٧٨- راجع المقفى جـ١ ص١٦ و٤١١ وجـ٣ ص٧٢٩ وجـ٦ ص٥٦ و٢٢٥ .

١٧٩- راجع المقفى جـ٥ ص١٦٠ و١٨٥ و٢٥٨ وجـ٧ ص٨٢ .

١٨٠- راجع المقـفى جـ٥ ص١٦٠ و٢٥١ و٢٣٨ و٣٠٠ و٤٩٨ و٥٠٥ و٥٧٢ وجـ٦ ص٥٠٦ وجـ٧ ص٩٧ و٣٣٩ .

١٨١- راجع المقريزى: المقفى جـ٥ ص٨٩ و٣٠٠ و٤٧٦ و٥٧٨ .

١٨٢- راجع المقـــريزى : المقـــفى جـ١ ص٩٩ و١٣٧ و١٤٨ و١٩٠ و٢٥٣ و٢٩٨ و٥٣٣ و٥٣٥ وجـ٥ ص١٩٨ و٢١٣ و٤٤٥ و٦١٠ و٦٢٢ و٧٢٤ و٧٣٩ وجـ٦ ص٨٧ و٣٦٠ و٤٧٢ .

١٨٣- راجع المقفى جـ١ ص٥٦٧ وجـ٢ ص٤٤١ وجـ٥ ص٢٠٧ و٢٧٧ .

١٨٤- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٢ وجـ٧ ص٣٣٩ .

١٨٥- راجع المقفى جـ٣ ص٧١٩ وجـ٥ ص٢٤٠ .

١٨٦- راجع المقفى جـ٥ ص٢٤٨ .

١٨٧- راجع المقفى جـ٥ ص٢٥٨ وجـ٧ ص٣٣٦ .

١٨٨- راجع المقفى جـ٥ ص٣٠٤ .

١٨٩- راجع المقفى جـ٥ ص٢٠٧ و٧١٨ وجـ٦ ص٥٣٧ و٥٠٧ .

١٩٠- راجع المقفى جـ٣ ص٧٦٠ وجـ٥ ص٤٨ و٧٨ و١١٢ و١٥٠ و١٧٠ و١٨٨ و٧١٩ وجـ٦ ص٧٠ .

١٩١- راجع المقفى جـ٦ ص٤٤٤ ووصفه المقريزى بمؤرخ الأندلس وراجع جـ٣ ص٤٢٩ .

١٩٢- راجع المقفى جـ١ ص٥٧٣ و٦١٧ وجـ٦ ص٦٣ و٠١٥٠ و٣٥٠ وجـ٧ ص٢٠٥ و٣٢٩ .

١٩٣- راجع المقفى جـ٢ ص٦٠ و٤٤٢ وجـ٧ ص٢٧٦ .

١٩٤- راجع المقفى جـ٢ ص٩٠ .

١٩٥- راجع المقريزى : المقفى جـ٢ ص٣٧٢ و٥١١ وجـ٣ ص٤٤٨ و٥١٧ .

١٩٦- راجع المقفى جـ٣ ص٦٧٠ .

١٩٧- راجع المقفى جـ٧ ص٤٤٨ .

١٩٨- راجع المقفى جـ٧ ص٥٢٤ .

١٩٩- راجع المقفى جـ٦ ص٣٥٠ .

٢٠٠- راجع المقفى جـ١ ص٣٧٧ .

٢٠١- راجع المقفى جـ١ ص٣٦٧ و٣٦٨ وجـ٣ ص٥٣١ .

٢٠٢- راجع المقفى جـ٢ ص٥٦ .

٢٠٣- راجع المقفى جـ١ ص٢٦ .

٢٠٤- راجع المقفى جـ١ ص٥٥٣ وجـ٥ ص١٧٢ .

٢٠٥- راجع المقفى جـ٦ ص٤٤٣ .

٢٠٦- راجع المقفى جـ٢ ص٨٤ .

٢٠٧- راجع المقفى جـ٣ ص٧٣٧ .

٢٠٨- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٣ ص٢٠٩-٢١٣ .

٢٠٩- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٤ ص٣٨٣-٣٨٨ .

٢١٠- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢١-٢٢ .

٢١١- الخطيب البغدادى : جـ٣ ص٢١٧-٢١٨ .

٢١٢- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٥ ص٥٤٧-٥٤٨ .

٢١٣- راجع المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٩-٣٠ .

٢١٤- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٨٥ .

٢١٥- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٣ ص٢٢٣-٢٢٤ .

٢١٦- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص٢٤٠ وراجع حتى ص٢٤٣ .

٢١٧- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٥ ص٤٦٢-٤٦٣ .

٢١٨- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص٣٣٢-٣٣٤ .

٢١٩- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٠٧-١٠٨ .

٢٢٠- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣١٢ .

٢٢١- ابن الجزرى : غاية النهاية جـ٢ ص٢٠٥ .

٢٢٢- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٥٣-٢٥٥ .

٢٢٣- الصفدى : الوافى جـ٦ ص٩٠-٩١ .

٢٢٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٠٦ .

٢٢٥- الصفدى : الوافى جـ٦ ص٥٧-٥٨ .

٢٢٦- ابن حجر : الدرر جـ١ ص٤٩-٥٠ .

٢٢٧- المقريزى : جـ٣ ص٧٥-٧٧ .

٢٢٨- الصفدى : الوافى جـ١١ ص١٩٩-٢٠١ .

٢٢٩- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٣٣-٥٣٦ .

٢٣٠- الصفدى : الوافى جـ٧ ص٢٢٠-٢٢٥ .

٢٣١- راجع على سبيل المثال مقارنا بين : جـ١ ص٢٠٨-٢٠٩ المقفى وجـ٦ ص٧٩-٧٠ الوافى، جـ١ ص٢٣٢ المقفى مع الوافى جـ٦ ص٣٣-٣٤ ، وجـ١ ص٢٣٨ المقفى مع جـ١ ص٣٦-٣٧ الوافى، وجـ١ ص٢٥٦-٢٥٨ المقفى جـ٦ ص٩٢ الوافى، وجـ١ ص٢٥٩ المقفى مع الوافى جـ٦ ص٩٥-٩٦ ، والمقفى ص٧٣٤-٧٣٥ مع الوافى جـ١٣ ص٢٦١ ، والمقفى جـ٣ ص٧٣٦ مع الوافى جـ١٣ ص٢٧٤ ، وجـ٥ المقفى ص٢٠٤-٢٠٥ مع الوافى جـ٢ ص١٥٠-١٥١ ، والمقفى جـ٣ ص٩٦ مع الوافى جـ١١ ص٩٩-١٠٠ ، وراجع المقفى جـ٦ ص٣١٢ مع غاية النهاية لابن الجزرى جـ٢ ص٢٠٥ ، والمقفى جـ٦

ص٢١١ مع غاية النهاية جـ٢ ص١٩٦ ، والمقفى جـ٦ ص٢٧-٢٨ مع غاية النهاية جـ٢ ص٣١٥-٣١٦ وقد جمعت أمثلة عديدة، واكتفيت هنا ببعضها للتدليل على الفكرة التى ذهبت إليها .

٢٣٢- راجع على سبيل المثال المقفى جـ٣ ص٧٥-٧٧ مقارنا بالوافى جـ١١ ص١٩٩-٢٠١ ، والمقفى جـ٦ ص٤٢٥-٤٢٧ مقارنا بالخطيب البغدادى ج٣ ص٢٦-٣١ .

٢٣٣- راجع على سبيل المثال المقفى جـ٦ ص٣٤٨ مقارنا بتاريخ بغداد جـ٣ ص٤٠٣-٤٠٤ والمقفى جـ٧ ص٢٨ مقارنا بتاريخ بغداد جـ٣ ص٢١٤، والمقفى جـ٧ ص٩٤ والمقفى جـ٧ ص٢٩-٣٠ مقارنا بتاريخ بغداد جـ٣ ص٢١٧-٢١٨ .

٢٣٤- راجع المقفى جـ٦ ص٢٢٤-٢٢٥ .

٢٣٥- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٥-٢٩٧ .

٢٣٦- راجع المقفى جـ١ ص٤٠٩ وجـ٥ ص٢٩٥-٢٩٧ .

٢٣٧- راجع المقفى جـ٢ ص٥٥ .

٢٣٨- راجع المقفى جـ١ ص١٤٥ و١٧٤ و٥٥٢ وجـ٥ ص٨٩ و٥٥٨ و٥٦٨ وجـ٦ ص٢٢ -٢٣ .

٢٣٩- راجع المقفى جـ٦ ص٢٢٤-٢٢٥ .

٢٤٠- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٥-٢٩٧ .

٢٤١- راجع المقفى جـ٣ ص١٢٨ وجـ٥ ص٢٢٠ وجـ٦ ص١٣ و١٠٤ و٢١٠ وجـ٧ ص٣٥٤ و٣٥٧ .

٢٤٢- راجع المقفى جـ٦ ص٧ و١٣ و٢٨ و٨٣ و١٠٩ و٥٢٩ وجـ٧ ص٣٥٩ .

٢٤٣- راجع المقفى جـ٤ ص٣٩٤ .

٢٤٤- راجع أمـــــثلة أخـــــرى جـ١ ص٣٩٨-٤٠٣ وجـ٣ ص١٢٧ و٦٣٢-٦٣٤ وجـ٤ ص٤٨-٥١ و١١٤-١١٧ وجـ٥ ص١٥٩-١٦٠ .

٢٤٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٨٩-٤٩٠ .

٢٤٦- الإدفوى : الطالع السعيد ص٩٢ .

٢٤٧- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٤٣-٥٤٤ .

٢٤٨- الإدفوى : الطالع السعيد ص١٠٢-١٠٣ .

٢٤٩- المقريزى : المقفى ج١ ص٣٢٧-٣٢٨ .

٢٥٠- الإدفوى : الطالع السعيد ص٦٩-٧١ .

٢٥١- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٤٩ .

٢٥٢- الصفدى : الوافى جـ١ ص٧٨ .

٢٥٣- راجع أيضا المقفى جـ٣ ص٧٥-٧٧ مقارنا مع الوافى ص١٩٩-٢٠١ .

٢٥٤- راجع المقفى جـ١ ص٢٤٤ و٥٣٥ وجـ٣ ص٥١٨ وجـ٤ ص٤٣٧ وجـ٥ ص١٧٣ و٣٠٨ وجـ٦ ص٣٥٠ وجـ٧ ص١٠٧ .

٢٥٥- راجع المقفى جـ١ ص٢٣٦ و٥١٠ و٦٣٩ وجـ٣ ص٤٢٩ وجـ٥ ص٦٣ و٧٢ وجـ٧ ص١٢٨ . وراجع ترجمة الصفدى جـ٣ ص٧٦٧-٧٦٨ .

٢٥٦- د. بشار عواد معروف : الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الإسلام ص٤٢٢ .

٢٥٧- د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته . بحث بمجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر ، العدد الثانى، يوليو وأغسطس وسبتمبر ١٩٨٣ م ص١٧٢-١٧٤ وراجع من ص١٦٥-٢٠١ .

٢٥٨- د. سهيل زكار : هامش ص١٧ من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم .

٢٥٩- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٢ وجـ٧ ص٣٣٩ .

٢٦٠- المقفى جـ١ ص٣٩٨-٤٠٣ .

٢٦١- بغية الطلب لابن العديم جـ٢ ص٧٨٢-٧٨٦ .

٢٦٢- المقفى جـ١ ص٧٢٦-٧٢٧ .

٢٦٣- ابن العديم : بغية الطلب جـ٣ ص١١٨٣ .

٢٦٤- المقريزى: المقفى جـ٢ ص٤٠-٨٩ .

٢٦٥- ابن العديم : بغية الطلب جـ٣ ص١٣٥٨-١٣٧٠ .

٢٦٦- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٥٦ .

٢٦٧- ابن العديم : جـ٣ .

٢٦٨- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٧١-٧٢ .

٢٦٩- ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص١٦١٢-١٦١٣ .

٢٧٠- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٢١٣-٢١٤ .

٢٧١- ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص١٩٢٦ .

٢٧٢- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٢٥٩-٢٦٠ .

٢٧٣- ابن العديم : بغية الطلب جـ٥ ص٢٢٢٣-٢٢٢٥ .

٢٧٤- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٦٥٨-٦٥٩ .

٢٧٥- ابن العديم : المقفى جـ٦ ص٢٩١٦-٢٩٢٠ .

٢٧٦- الصفدى : الوافى جـ١٣ ص١٥٤ .

٢٧٧- المقريزى: المقفى جـ٣ ص٧٠٤-٧٠٨ .

٢٧٨- ابن العديم : بغية الطلب جـ٦ ص٢٩٨٨ .

٢٧٩- راجع أيضا المقفى جـ٣ ص٧٧٤-٧٨٣ مع بغية الطلب جـ٧ ص٣١٨٤ - ٣١٩٧ ، والمقفى جـ٣ ص٨١١-٨٢٣ مع المقفى جـ٧ ص٣٣٨٢-٣٣٨٦ بغية الطلب، والمقفى جـ٣ ص٦٥٥-٦٥٨ مع بغية الطلب جـ٦ ص٢٨٥١-٢٨٥٦ ، والمقفى جـ٣ ص٤٤٧-٤٤٩ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٣٠٢-٢٣٠٣ ، والمقفى جـ٣ ص٢٧٦-٢٧٩ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٢٣٥-٢٢٣٦ ، والمقفى جـ٣ ص١٥٥-٢٥٨ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٠٣٧-٢١٠٤ ، والمقفى ج٢ ص٨٨-٨٩ مع بغية الطلب جـ٤ ص١٦٣١-١٦٣٤ ، والمقفى جـ١ ص٥١٤-٥١٥ مع بغية الطلب جـ٢ ص٩١٣-٩١٧ ، والمقفى جـ١ ص٤١٧-٧٥٢ مع بغية الطلب جـ٢ ص٨٢٦-٨٣٥ ، والمقفى جـ٣ ص٧٦٣-٧٦٦ مع بغية الطلب جـ٧ ص٣٣٥٧-٣٣٥٩ ، والمقفى جـ٣ ص٥٦٧-٦١٨ مع بغية الطلب جـ٦ ص٢٥٦٢-٢٦٧١ .

٢٨٠- راجع المقفى جـ١ ص٤٠٤ -٤١٢ مع بغية الطلب جـ٢ ص٧٩٢-٨٠١ والمقفى جـ١ ص٣٥٩ مع بغية الطلب جـ١ ص٦٢٢-٦٢٥ ، والمقفى جـ١ ص٣٦٦-٣٨٣ مع ابن العديم : بغية الطلب جـ٢ ص٦٣٩-٦٨٦ ، والمقفى ج١ ص٤٠٤-٤١٢ مع بغية الطلب جـ٢ ص٧٩٢-٨٠١ ، والمقفى جـ١ ص٦٩١ مع بغية الطلب جـ٣ ص١١٥١-١١٥٣ ، والمقفى جـ١ ص٧٣١ مع بغية الطلب جـ٣ ص١١٩٥-١١٩٨ ، والمقفى جـ١ ص٧٤٥-٧٤٩ مع بغية الطلب جـ٣ ص١٢٧٠-١٢٧٩ ، والمقفى جـ٣ ص٣١٨-٣٢٣ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٣٦٤-٢٣٧٣ ، والمقفى جـ١ ص٦٩٢ مع بغية الطلب ج٣ ص١١٦٨-١١٧١ .

٢٨١- راجع المقفى جـ١ ص٣٨٣ مع بغيـة الطلب جـ٢ ص٦٩١-٦٩٢ ، والمقفى جـ٣ ص٣١٨-٣٢٣ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٣٦٤-٢٣٧٣ .

٢٨٢- راجع المقفى جـ١ ص٣٨٥-٣٨٦ مع ابن العديم جـ٢ ص٧٤٣-٧٤٦ ، والمقفى جـ١ ص٦٩٢-٦٩٣ مع ابن العديم: بغية الطلب جـ٣ ص١١٥٤-١١٦٤ ، والمقفى جـ٢ ص١١٠-١١١ مع بغية الطلب جـ٤ ص١٨٠٤-١٨٠٨ ، والمقفى جـ٣ ص٦٣١-٦٣٢ مع ابن العديم جـ٦ ص٢٧٣٠-٢٧٣٣ ، والمقفى جـ٢ ص١١٨-١١٩ مع بغية الطلب جـ٤ ص١٦٦٧-١٦٧٠ ، والمقفى جـ٣ ص٦٨٦ مع بغيـة الطلب جـ٧ ص٣٢٤١-٣٢٤٣ .

٢٨٣- راجع المقريزى : المقفى جـ٢ ص٤١٨ وجـ٦ ص٦٤ .

٢٨٤- كالحافظ السلفى (جـ١ ص٧٠٦-٧١١) وغيره من الحفاظ والفقهاء. راجع المقفى جـ٢ ص١١٣-١١٥ و٢١٢-٢١٣ و١٢٧ و١٤١ وجـ٤ ص٥٩٢-٥٩٤ .

٢٨٥- مثل عبيد الله المهدى (المقفى جـ٤ ص٥٢٣-٥٧٠) وابن العربى (المقفى جـ٦ ص٣٤٨-٣٥٥) .

٢٨٦- راجع الأمثلة الدالة على ذلك : المقفى جـ١ ص١١٣ وجـ٤ ص٣٩٣-٣٩٦ وراجع جـ٣ ص٤٢٧-٤٢٩ وجـ٥ ص٢٢٠ .

٢٨٧- راجع الخطط للمقريزى جـ١ ص٤٨ و٤٩ جـ٢ ص٩٢ ، واتعاظ الحنفا للمقريزى جـ١ ص١٦ و٢٢ وفيها يقول أحيانا : «قال مؤلفه» وأحيانا «قلت» عندما يريد المقريزى إبداء رأيه ناقدًا أو معلقا .

٢٨٨- راجع المقفى جـ٣ ص٤٣٠ وجـ٤ ص٤٠٣ و٥٤٠ و٥٤١ و٥٤٧ وجـ٦ ص٣٥٢ .

٢٨٩- راجع المقفى جـ٥ ص٤٤ .

٢٩٠- المقريزى: المقفى جـ٤ ص٥٤٠ .

٢٩١- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٥٤٧ .

٢٩٢- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٦ وراجع من ص٢٤٥ .

٢٩٣- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٦٦٨ .

٢٩٤- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٥٣ وراجع من ص٧٥٠-٧٥٦ .

٢٩٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٧ .

٢٩٦- المقريزى : المقفى جـ٤ ص١٠٦ وراجع من ص١٠٢ .

٢٩٧- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٩٥ وراجع من ص٩١-٩٦ وكان عبد الرحمن بن عمر قد توفى فى حد شرب الخمر.

٢٩٨- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٢٨٧ -٣٠٣ .

٢٩٩- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٣٠٩ وراجع من ص٣٠٦ .

٣٠٠- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٦٧-٧٦٨ .

٣٠١- المقريزى : المقفى جـ٢ ص١٠٢ .

٣٠٢- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٢١-٢٢٥ .

٣٠٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٢١-٢٢٥ .

٣٠٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٥ و١٦ .

٣٠٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٣ وراجع حتى ص١٥ .

٣٠٦- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٣-٢٤ . وهناك تدخلات عديدة للمقريزى خاصة بقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام ، راجعها جـ١ ص٢٧ و٢٨ .

٣٠٧- المقريزى : المقفى جـ١ ص٣٦٨ .

٣٠٨- راجع أيضـــا جـ١ ص٥٥٧ وجـ٢ ص٤١٨ و٤٦٣ وجـ٣ ص٦٤ و٤٣٠ و٦٤٧ و٧٢٠ وجـ٦، ص٤٥٥ .

٣٠٩- منها على سبيل المثال حديثه عن منية مطر وقوله : «والتى تعرف اليوم بالمطرية خارج القاهرة » المقريزى : المقفى جـ٥ ص١٦٤ .

٣١٠- تقتضى الأمانة العلمية أن أشير - هنا - إلى أن الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور قد وصف المقريزى بهذه الصفة فى بحثه «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته » ص١٧٨ . وأنا أطبق هذه الفكرة على كتابه «المقفى» وأنقل منه ما يؤيدها ، وما أكثر الإشارات التى تدلل عليها بالمقفى .

٣١١- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨١ .

٣١٢- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٥ .

٣١٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤ و٤٥ و٤٦ و٨٠ و١٨١ .

٣١٤- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٥٣ .

٣١٥- راجع المقريزى : المقفى جـ٤ ص٥٤٧ وجـ٥ ص٤٤-٥٥ .

٣١٦- راجع المقفى جـ١ ص٤٥ و٢٩٩ و٣٦٣ و٥٥٦-٥٥٧ و ٥٣٠ و٥٤٨ و٦٢٢ وجـ٤ ص٩٨ و١٣٥ وجـ٥ ص١١ وجـ٧ ص٧-٨ وص٤٣ و٤٥ و٩٥ و٢١٥-٢١٦ و٤٣٧ .

٣١٧- المقريزى : المقفى جـ٥ ص١٦ و ١٨٠ .

٣١٨- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٨٣ .

٣١٩- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٤٦ .

٣٢٠- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٥ .

٣٢١- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٣٨ .

٣٢٢- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٨ وص٣٨ . ويذكر هنا أن الدكتور الخربوطلى ذهب إلى أن المقريزى لم يكن ينمق كتبه بالأساليب البيانية والفنون الأدبية ، لأنه ليس بحاجة إلى ذلك، بسبب الحقائق التاريخية التى يوردها فى كتبه د. الخربوطلى : المقريزى فى كتابه النزاع والتخاصم ص٢٥ .

٣٢٣- راجع الصفدى جـ١ ص١٧٧ و١٧٨ و١٨٦ و١٩٨ وجـ٥ ص١٩ وجـ١٣ ص٧ و١٥ و٢٦ و٢٧ و ٤٩٠ .

٣٢٤- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص٤٥ و٤٦ و٦١ و٦٦ و٧٦ و ٩٠ و٩٦ و١١٢ و١٢١ و١٢٦ وجـ٢ ص٦٥ و٨٩ و ٢٤٠ و٣٨١ . وحوادث الدهور ص٣٩ .

٣٢٥- السخاوى: الذيل على رفع الإصر ص٥٩ و٩١ و٩٣ و٩٤ و١٢٩ و٣٢٢ و ٤٥٠ .

٣٢٦- الصفدى : الوافى بالوفيات جـ١ ص٦ .

٣٢٧- الصفدى : الوافى جـ١ ص٩٩ و ١٠٠ و١٢٦ و١٣٢ و١٥٦ و٢٠٩ و٢١٢ و٢١٤ وجـ١٣ ص٢٢ و٣٢ و٤٥ و٦٣ و١٨٥ و٣٦٨ وجـ٥ ص٥ وص٢٧ وص٤٠ و٤٥ .

٣٢٨- ابن تغرى بردى : المنهل جـ١ ص٤٥ و٤٧ و١١٩ و ١٧٠ و٢٢١ و٢٣٤ و٢٣٨ وجـ٢ ص٦٣ .

٣٢٩- السخاوى: الذيل على رفع الإصر ص٨٩ و١٠٥ و١٢٧ ولم يضبط الأعلام ولم يوضح الأنساب فى مواضع عديدة من كتابه راجع ص٢٨ و٢٩ و٦٦ و٧٦ و٧٩ و ٨٠ و١٠١ و١٥٧ و٤٦٥ .

٣٣٠- راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ص٤٣٤ وراجع جـ٢ ص٥٠ .

٣٣١- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص٤٦ و٥٨ ، ٧٥-٧٦ و١٢٢ و ١٣٠ وفيها نقل عن السلوك. وراجع أيضا : المنهل الصافى جـ١ ص١٣٠ ، ٢٤٢-٢٤٣ وجـ٢ ص٣٧٩ وفيها نقل عن المقفى، وراجع جـ٢ ص٥١ وجـ٢ ص١٠٦ وص٤٣١ وفيها نقل عن «درر العقود» . ولم يكن ابن تغرى بردى يشير إلى الكتاب الذى نقل عنه- وأشار إلى ذلك نادراً - ولكنى قمت بمطابقة ما نقله ابن تغرى بردى مع ما كتبه المقريزى فى كتبه وحددت الكتاب المنقول عنه .

٣٣٢- راجع السخاوى : الذيل على رفع الإصر ص١٨ و١٠٨ و١١٩ و٢٢٤-٢٤٥ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

الإدفوى : (كمال جعفر ت ٧٤٨هـ) .

الطالع السعيد بأسماء نجباء الصعيد . تحقيق سعد محمد حسن الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ابن تغرى بردى : (يوسف ت٨٧٤هـ)

حوادث الدهور تحقيق فهيم شلتوت . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

المنهل الصافى تحقيق محمد محمد أمين وآخرين . الهيئة المصرية للكتاب .

ابن الجزرى : (محمد بن محمد ت٨٣٣هـ) .

غاية النهاية فى طبقات القراء . تحقيق ج برجستراسر . مكتبة المتنبى.

ابن حبيب : (عمر بن الحسن ت٧٧٩هـ) .

تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه . تحقيق د. محمد محمد أمين . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ابن حجر : (أحمد بن على ت ٨٥٢هـ) .

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة.

الخطيب البغدادى : (أحمد بن على ت٤٦٣هـ) .

تاريخ بغداد : دار الكتب العلمية -لبنان - بيروت .

الذهبى : (شمس الدين أبوعبدالله ت٧٤٨هـ) .

العبر تحقيق د. صلاح الدين المنجد . الكويت .

سير أعلام النبلاء إشراف د. شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة .

السخاوى : (محمد بن عبد الرحمن ت٩٠٢هـ)

الذيل على رفع الإصر. تحقيق د. جودة هلال ومحمد صبيح . الهيئة المصرية للكتاب.

التبر المسبوك . مكتبة الكليات الأزهرية.

الصفدى : (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ)

الوافى بالوفيات تحقيق مجموعة من المستشرقين .

ابن الصريفى : (على بن داود ت٩٠٠هـ)

نزهة النفوس والأبدان . تحقيق أ.د. حسن حبشى . مطبعة دار الكتب.

ابن العديم : (كمال الدين عمر ت٦٦٠هـ)

بغية الطلب فى تاريخ حلب . تحقيق د. سهيل زكار . دمشق.

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) .

المقفى . تحقيق أ. محمد اليعلاوى . دار الغرب بيروت – لبنان.

السلوك . تحقيق د. محمد زيادة ود. سعيد عاشور . دار الكتب المصرية.
الخطط. طبعة بولاق.

ياقوت الحموى : (ت٦٢٦هـ)

معجم البلدان . دار صادر – بيروت .

ثانيًا : المراجع والدوريات :

د. بشار عواد معروف : الذهبى ومنهجه فى كتابه (تاريخ الإسلام) طبعة عيسى البابى الحلبى.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته . بحث بمجلة (عالم الفكر) المجلد الرابع عشر، العدد الثانى ١٩٨٣ م. الكويت .

د. شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون . دار العلم للملايين.

د. على حسنى الخربوطلى : المقريزى فى كتابه النزاع والتخاصم . دار العلوم للطباعة ١٩٧٢م.

محمد عبد الغنى حسن : التراجم والسير . دار المعارف – مصر .

د. جمال فوزى محمد(*)

أوضاع السودان الغربى

فى عهد منسا موسى (٧١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م)

أولا : النطاق الجغرافى للسودان الغربى :

تشمل بلاد السودان المنطقة الفسيحة الممتدة من المحيط الأطلسى غربًا حتى البحر الأحمر شرقًا ، ومن الصحراء الكبرى شمالاً حتى المنطقة الاستوائية جنوبًا[١] . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام هى :

١ - السودان الغربى : ويشمل أحواض نهر السنغال ونهر غمبيا ونهر النيجر .

٢ - السودان الأوسط : ويشمل حوض بحيرة تشاد .

٣ - السودان الشرقى : ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل [٢].

وكلمة « السودان » عربية قصد بها أصحاب البشرة السوداء بصفة عامة وهم القاطنون فى ذلك الحزام السودانى الممتد فى قلب القارة الأفريقية من الشرق إلى الغرب . ولكن هذه الكلمة تكاد تنصرف إلى سكان الجزء الغربى منه ، لأن العرب نعتوا أصحاب البشرة السوداء فى غير هذا الجزء بأوصاف أخرى .

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

ويمكن أن يحدد هذا الجزء - السودان الغربى ، محل الدراسة - بالمحيط الأطلنطى (بحر الظلمات) (أو البحر المحيط) من الغرب وبحيرة تشاد من الشرق ، والصحراء الكبرى من الشمال وخليج غانا من الجنوب [٣].

وقد عُرفت هذه المنطقة لدى العرب والمشارقة باسم بلاد التكرور - وهى جزء منها وليست كلها[٤]، وهو اسم لم يشع بين أهل المنطقة أنفسهم [٥].

والسودان الغربى منطقة واسعة حبيسة بين عائقين تضاريسيين هائلين ، فالصحراء الكبرى تضغط عليها من الشمال والغابات الاستوائية فى الجنوب وهى تكاد تخلو من العوائق الطبيعية ، ويسودها مجرى نهر النيجر الكبير ونهر السنغال [٦].

وقد قامت فى هذه المنطقة عدة دول إسلامية ذات أهمية ، من أعظمها دولة مالى (٥٩٦ - ٨٧٤ هـ / ١٢٠٠ - ١٤٦٩م) التى كادت حدودها تتطابق مع حدود السودان الغربى سالفة الذكر [٧]، خاصة فى عهد « منساموسى (٧١٢ - ٧٣٨هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) » [٨].

ثانيًا : نسب منساموسى [٩]:

هو موسى بن أبى بكر ، على الأرجح [١٠]، وقيل : موسى بن فاجالى Faga-lay بن أبى بكر [١١]، وقد عرف السلطان موسى باسم : منساكنكن موسى Mansa Kankanmusa أو كونكور موسى Kounkour أو جونجو Gongo أو كونجو Kongo أو كانجو Kango ، وكلها نسبة إلى أم السلطان موسى واسمها « نانا كانجو Nan Kango » ، إذ النسبة للأم أمر مشهور لدى الأسر المالكة فى غربى أفريقية فى ذلك الحين ، وعند أهل مالى عرف هذا السلطان باسم : كى مل أى حاكم مالى [١٢].

ويعد منساموسى من أعظم سلاطين دولة مالى ، حكم مدة خمسة وعشرين عامًا كانت بمثابة العصر الذهبى للدولة [١٣]، وتروى فى كيفية انتقال الملك إليه قصة تفوح منها رائحة الخيال ، إذ سئل هذا السلطان عن ذلك ، فأجاب بأن الذى كان قبله فى الملك كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئات السفن بالرجال والمؤن الكافية ، وأمر فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهاية البحر أو تنفذ أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم ، فأجاب بأنهم ساروا بالسفن لمدة طويلة ثم عرضت لهم أمواج عاتية حطمت سفنهم ، فلم يصدقه الملك ، وجهز ألفى سفينة ، ألف للرجال وألف

للأزواد واستخلف السلطان موسى فى الحكم ومضى هو بنفسه ليعلم حقيقة الأمر ، فكان ذلك آخر العهد به وبمن معه (١٤).

وقد جانب أحد الباحثين الصواب حين اعتبر منساموسى هو نفسه الذى أرسل السفن فى البحر ، إذ يقول : « إن آمال منساموسى لم تقف عند حدود البحر بل امتدت إلى ما وراءه ، وكأن هذا السلطان أراد أن يتبع توسعه البرى بتوسع بحرى باكتشاف معالم المحيط الأطلسى ، فأعد حملة مكونة من مائتى سفينة شحنها بالرجال والأزواد وأمرهم ألا يعودوا حتى يبلغوا نهاية البحر ، ولما لم يعودوا جهز حملة أخرى فكان نصيبها الإخفاق » (١٥).

وينتمى السلطان موسى إلى إحدى الأسر التى حكمت فى دولة مالى وتدعى أسرة « كيتا Keita » . التى تدعى الانتساب إلى شخص هاجر من مكة المكرمة يرجع بنسبه إلى بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ ، والمعروف لدى المؤرخين أن عادة إرجاع الأسر نسبها لأحد الصحابة أو أهل البيت عادة معروفة فى غربى أفريقيا (١٦).

وتنتمى هذه الأسرة بدورها إلى فرع من الشعوب الزنجية هو قبائل الماندنجو Mandingo التى تعنى : الشعب الذى يتحدث لغة الماندى Mande وهى قبائل سادت لبضعة قرون فى المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى ، فى وديان نهر السنغال ، واسم «مالى» تحريف لاسم هذه القبائل التى عرفت بأسماء متعددة لدى القبائل والأجناس الأخرى ، فهى مالى Mali أو ميلى Mele عند قبائل الفولانى الزنجية ، ومل Mel أو مليت Melit عند البربر ، ومَلِّيل Malel أو مِليل Melel عند العرب ، وونجاره Wangara عند قبائل الهوسا فى منطقة شمال نيجيريا (١٧).

ثالثًا : الأوضاع السياسية والعسكرية فى عهد منساموسى وجهوده فى نشر الإسلام:

بلغت دولة مالى فى عهد السلطان موسى ذروة مجدها واتساعها ، فقد امتدت من بلاد التكرور على شاطىء المحيط الأطلسى غربًا إلى تَكِده شرقى النيجر . ومن تغازة فى الصحراء شمالاً إلى منطقة الغابات الاستوائية جنوبًا .

وقد قدرت مساحة الدولة زمن هذا السلطان بمساحة كل دول غربى أوربا مجتمعة ، واعتبرت من أعظم الإمبراطوريات فى القرن الرابع عشر الميلادى ، واشتملت على خمسة

أقاليم كبيرة ، كل منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، ولكنها تخضع لسلطان مالي، وهي :

١ - إقليم مالي ويتوسط أقاليم المملكة .

٢ - صوصو ، ويقع إلى الجنوب من مالي .

٣ - غانة ، ويقع شمالي مالي ، ويمتد إلى المحيط الأطلسي .

٤ - كَوْكَوْ ، شرق إقليم مالي.

٥- تكرور ، غرب مالي حول نهر السنغال(١٨) .

وقد أخضع السلطان موسى في توسعاته إمارة صنغي الناشئة(١٩) ووطد سلطان مالي بها ، وكانت على ما يبدو كثيرة الخروج عليه ، فبعد عودة السلطان من رحلة الحج الشهيرة التي قام بها سنة ٧٢٤ - ١٣٢٤م ، نجح قائده « سقمنجة » Sagaman (٢٠)في الاستيلاء على عاصمتها جاو Gao(٢١) سنة ١٣٢٥ م ، وقد عرج عليها السلطان حيث مكث بعض الوقت وبنى مسجداً كبيراً(٢٢) .

وتوالت فتوحات السلطان وتوسعه حتى ليقال إنه فتح أربعًا وعشرين مدينة من مدن بلاد السودان ومنها المدينة الشهيرة في تاريخ التجارة والثقافة في السودان الغربي وهي مدينة «تمبكتو» Timbuktu (٢٣). وبنى بها داراً للسلطنة ، وحين غادر المدينة هاجمتها قبائل الموسى Mossi الوثنية(٢٤) سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ونهبتها وخربتها ، ثم جلوا عنها فعادت لسلطان مالي (٢٥).

حاول السلطان موسى نشر الإسلام في ركاب فتوحه خاصة في المناطق التي كانت ماتزال على وثنيتها ، ومنها منطقة إنتاج الذهب في ونقارة في الجنوب على أطراف الغابات الاستوائية . وقد تكررت بخصوص هذه المنطقة لدى كثير من المؤرخين ، ودون تعليق تقريباً ، رواية مفادها أن السلطان فضل السيطرة غير المباشرة على مناطق إنتاج الذهب نظراً لانتشار دعاية تقول بأن أي غاز كان يحاول إخضاع هذه المناطق مباشرة كان إنتاجها من الذهب يقل بشكل ملحوظ (٢٦).

بينما علق عليها باحث بقوله : " على الرغم مما في هذا الخبر من طرافة وخرافة ، إلا أنه يدل على أن الوثنيين هناك استطاعوا إيهام ملوك مالي المسلمين بتلك الخرافة حتى يتركوهم

على دياناتهم الوثنية "(٢٧) . وحاول باحث آخر تعقل هذه الرواية وتقديها فى صياغة مقبولة فقال : " وفيما يتصل بالذهب ، حاول ملوك مالى أن يحولوا أهل ونقارة من الوثنية إلى الإسلام، ولكن هؤلاء هددوا بالكف عن استخراج الذهب من مناجمه إن أرغمتهم الدولة على اعتناق الإسلام ، فكف ملوك مالى عن هذه الحالة وتركوهم للزمن وللمؤثرات البطيئة، مما جعل أهل ونقارة يتأخرون فى اعتناق الإسلام " (٢٨).

كان السلطان موسى صالحًا فاضلاً كريمًا ، ومن عادته أنه كان يبنى مسجداً فى كل مدينة تدركه صلاة الجمعة فيها (٢٩)، وقد أنعم على أحد الأشخاص - كان جدٌ للسلطان قد أسلم على يدى جده - بثلاثة آلاف مثقال (٣٠). وكان أحد رعيته ويعرف باسم « ابن شيخ اللبن » قد أحسن إليه فى صغره بسبعة مثاقيل ، ثم اتفق أن جاء إليه فى خصومة بعد أن آل إليه الملك فعرفه السلطان وقربه وأنعم عليه إنعامًا كبيراً (٣١).

وقد عزز السلطان موسى صلاحه وانفعاله بالإسلام وتحمسه له بقيامه بأداء فريضة الحج سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤م فى رحلة شهيرة مر فيها بمصر ، وقابل السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه رفض أن يقبل الأرض بين يديه ، كما هى العادة أنفة من السجود لغير الله ، فأعفاه السلطان المملوكى من هذا التقليد (٣٢). ومن رجحان عقله أنه ثارت فى الحرم فتنة بين عسكره وبين الترك شهرت فيها السيوف فأشار عليهم بالرجوع عن القتال وسكتهم (٣٣).

ونظراً لفخامة موكب حجه وكثرة صدقاته من الذهب ورحلته المثيرة الى شهدها التجار البنادقة المقيمون بمدينة القاهرة فقد وصلت أخبار هذا الموكب إلى أوربا التى بدأت التعرف على قلب أفريقيا وافتتحت المدارس لهذا الغرض وظهرت صورة منساموسى والطرق المؤدية إلى مالى على الخرائط الأوربية آنذاك . وذلك تمهيداً لحركة الكشف والاستعمار الأوربى (٣٤).

وحرص السلطان على تبادل علاقة ودية طيبة مع البلدان الإسلامية فى الحجاز ومصر والمغرب وغيرها ، وقد خصص سلاطين المماليك بمصر قسمًا خاصًا بديوان الإنشاء لتبادل الرسائل مع سلاطين مالى ، كما خصصوا مترجمًا سودانيًا من التكاررة لمرافقة سلاطين مالى خلال إقامتهم بمصر عند نزولهم بها (٣٥). وتوطدت بين مالى والمغرب والأندلس العلاقات وشجع عليها اشتراك الجانبين فى المذهب المالكى وتبودلت السفارات (٣٦).

ويبدو أنه نظراً لحماس منساموسى للإسلام فقد تعرض للنقد اللاذع ، وبخاصة رحلته للحج التى أنفق فيها كثيراً من الأموال ، من جانب بعض الباحثين الأفارقة الذين ذهبوا إلى أن تصرفه لم يكن سوى تبذير لم تجن البلاد من ورائه غير الفقر الذى مازالت تعانى من آثاره إلى اليوم (٣٧).

وحول جهود منساموسى فى نشر الإسلام ، وجهود غيره من السلاطين المسلمين ، والتجار والعلماء ، والمستوطنين المسلمين ، وطبيعة هذا الانتشار فى هذه المنطقة ثار كلام كثير بين الباحثين المعاصرين والمستشرقين بصفة خاصة ، وبداية فإن ندرة المعلومات والسجلات المكتوبة خاصة عن الفترات المبكرة تصعب من تحقيق كثير من المسائل بوضوح وحسم (٣٨).

وقد قالوا بأن الدول والأسر الحاكمة فى هذه المنطقة تبنت الإسلام فى ذلك الوقت كديانة إمبراطورية استعمارية تدعو للسيطرة والغزو وتعين على ذلك بإنجذاب الناس إليها (٣٩). وأن الإسلام فى أفريقيا جنوب الصحراء ظل منطقة هامشية فى علاقتها بالعالم الإسلامى الواسع ، وأن حضارة الإسلام فى أفريقيا بقيت فى شكل بدائى (٤٠). وأن اتساع وهيمنة مالى التى أمدنا الكُتاب العرب بكم مموه من المعلومات عنها لم يتزامن معها انتشار مهم للإسلام (٤١)، وأن سمة هذه الفترة كانت تبنى الإسلام كديانة طبقية لدى الحكام والتجار والدعاة على حين لم يكن توغله بين جماعات غفيرة ويتمكن ممتداً وعميقًا ، واتسمت الحياة الدينية بأشكال من التكيف بواسطة ثنائية أو متوازية من القديم والحديث ، الإسلامى والأفريقى الوثنى (٤٢).

ويمكن أن يرد على ذلك بأن الإسلام قد انتشر بشكل متواز بين الطبقات الحاكمة وطبقات العامة . مثال ذلك دولة غانا الوثنية التى كان الإسلام قد انتشر بين كثير من رعاياها حتى دانت به عشائر مجتمعة قبل أن تتحول الدولة رسميًا للإسلام ، ومنها قبائل السوننكى So-ninke التى تحمست لنشر الإسلام حتى إن كلمة « سوننك » كانت تستعمل لدى بعض العشائر الوثنية فى غربى أفريقيا مرادفًا لكلمة « الداعى » مما يؤكد دورهم الكبير فى نشر الإسلام (٤٣).

وقد ظل السودان الغربى منطقة هامشية نسبيًا بالنسبة للعالم الإسلامى بسبب بعده عن قلب العالم الإسلامى وحواضره الكبرى ، والفاصل الطبيعى الهائل المتمثل فى الصحراء الكبرى المعيقة للاتصال بشكل كبير ، والفاصل اللغوى فلم يكن انتشار العربية فى المنطقة ساحقًا كما فى مصر وشمال أفريقيا مثلاً بحيث يضمن لها السيادة الدائمة وذلك لضآلة

الهجرات العربية لهذه المنطقة مقارنة بها فى الشمال الأفريقى أو شرقى أفريقية على سبيل المثال .

ورغم ذلك فلم يكن السودان الغربى منعزلاً تماماً عن بقية العالم الإسلامى إذ قامت بينهما علاقات فى مجالات متعددة . سبق ذكر بعضها وسيرد غيرها فى هذا البحث ، وسيرد أيضاً عند الحديث عن الأوضاع فى بقية المجالات الحضارية ما يثبت لهذه المنطقة مستوى من التحضر يرتفع كثيراً عن البدائية التى زعمها بعض المستشرقين ، وإن كنت أميل شخصياً إلى أنها كانت أقل تحضراً نسبيًا من كثير من مناطق العالم الإسلامى وشاهد ذلك إسهامها المتواضع نسبيًا فى سجل التراث الحضارى الإسلامى فى مقابل إسهامات بقية المناطق والأقاليم الإسلامية .

ولعل السر فى هذا التدنى النسبى فى مستواها الحضارى هو العوامل السالفة المذكورة تواً . وأميل أيضاً إلى القول بأن إسلام السودان الغربى فى تلك الفترة كان مختلطاً أحياناً ببعض العادات والتقاليد الأفريقية الوثنية ، فقد وا ءم الأفريقى بين دينه الوافد وتراثه التالد (٤٤) ، وسترد شواهد مؤكدة لهذه الثنائية عند الحديث عن الحياة الاجتماعية .

رابعًا : نظم الحكم والإدارة :

حكم السلطان موسى إمبراطوريته الواسعة من العاصمة نيانى Niani التى وصفت بأنها مدينة تجارية كبيرة مزدحمة السكان ، تقع قريباً من منطقة الغابات فى الجنوب على أحد روافد النيجر (٤٥).

وقد اتخذت إمبراطوريته نموذجًا للنظم السياسية الإسلامية فى غرب أفريقيا . فأساس الكيان السياسى أسرة ووحدات قروية ، ورأس الأسرة هو الشيخ أو المرشد الروحى أو الزعيم ، ومجموعة القرى بدورها تشكل ما يسمى كافو Kafu أو مقاطعة (٤٦).

وكان لمجلس السلطان هيئة وطقوس معينة رواها القلقشندى بالتفصيل (٤٧). وكان إذا أنعم على أحد فى مجلسه بإنعام أو وعده وعداً جميلاً أو شكره على فعل ، تمرغ المنعم عليه بين يديه فى الأرض من أول المكان إلى آخره ، فإذا انتهى إلى الآخر أخذ غلمانه أو أصحابه من رماد يكون موضوعًا فى آخر المجلس معداً لهذا الغرض ، فيذرونه على رأسه ثم يعود ويتمرغ إلى أن يصل إلى يدى الملك (٤٨).

وكان نظام الحكم فى دولة مالى ملكيًا وراثيًا ، ينتقل من الأب للابن أو الأخ ، والقاعدة أن يتولى من هو أكبر سنًا من الأبناء أو الإخوة . وقد يتولى الحكم أبناء الإخوة أو أبناء البنت، وقد انتشرت هذه العادة أى تولى ابن البنت فى منطقة غربى أفريقيا وعلى أساسها ولى أبو بكر والد منساموسى الحكم سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م (٤٩).

ويلى السلطان فى الحكم نائبه ويلقب « قنجا » يقوم مقامه إذا غاب ، وقد أناب منساموسى ابنه محمدًا(٥٠) أثناء غيابه فى رحلة الحج . ويساعد السلطان ونائبه فى الحكم الوزير ويسمى « صندكى » Sundaki (٥١).

وشاركت زوجة السلطان فى الحكم وتلقبت باسم « قاسا » Qasa ومعناها : الملكة أو الزوجة الكبرى ، وكان يذكر اسمها على المنبر إلى جانب اسم الملك (٥٢).

وبلغ قوام الجيش حوالى مائة ألف نفر ، منهم حوالى عشرة آلاف فارس ، والباقى رجالة . وأقطع أمراء الجيش إقطاعات واسعة بلغت أحيانًا خمسين ألف مثقال من الذهب للواحد فى السنة . والجيش موزع على الأقاليم المختلفة ، لكل حاكم إقليم فرقة يقودها بنفسه (٥٣).

وكان للقضاة منزلة كبيرة ولهم حق مصافحة الإمبراطور (٥٤). وقد أنعم السلطان موسى على أحد قضاته ، يكنى بأبى العباس ، بأربعة آلاف مثقال لنفقته . وحين وصلوا لأحد المواضع شكا القاضى للسلطان سرقة المبلغ من داره . فاستحضر السلطان أمير تلك المنطقة وتوعده وهدده إن لم يحضر السارق ، وطلب الأمير السارق فلم يعثر على أحد ، فدخل دار القاضى واشتد على خدمه وهددهم ، فقالت له إحدى جواريه : ما ضاع له شىء ، وإنما دفنها بيده فى ذلك الموضع ، وأشارت له إلى الموضع فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان وعرفه القصة ، فغضب السلطان على القاضى ونفاه مدة أربع سنين ثم رده (٥٥).

خامسًا : الأوضاع الاجتماعية :

تمايز مجتمع السودان الغربى إبان تلك الفترة إلى طبقتين : طبقة ارستقراطية يمثلها الحكام والأمراء والحاشية ، وتمتعت بالسلطة والثروة واحتكرت التجارة عماد اقتصاديات البلاد فى ذلك الوقت ، واعتمدت على نبل الأصل أو الشجاعة الحربية أو العمل فى الحاشية . وطبقة العامة وشملت بقية الشعب وكانت - كالعادة - أقل حظًا فى كل شىء (٥٦). وعلى تخوم الطبقة الأرستقراطية تقع جماعات التجار والعلماء والكتاب .

وقد سبقت الإشارة لما تمتعت به المرأة فى الطبقة العليا من منزلة كبيرة وأنها شاركت فى الحكم ودعى لها بجانب السلاطين . وورث أبناؤها الحكم ، ونسب إليها السلاطين ، ومنهم سلطاننا هنا . كما سلف الذكر .

ونظراً لدخول الإسلام إلى منطقة غربى أفريقية عن طريق شمالها فى الغالب ، وللعلاقات الوثيقة بين المنطقتين ، فقد سادها المذهب المالكى (٥٧). ووجد فى الأطراف الشمالية على مشارف الصحراء بعض الخوارج الإباضية (٥٨). ومن نافلة القول أن المجتمع السودانى ضم فى تلك الفترة إلى جانب المسلمين أعداداً كبيرة من الأفارقة كانت ماتزال مستمسكة بوثنيتها .

ومن ملامح اختلاط إسلام تلك المنطقة ببعض عادات أهلها الجاهلية أنه كان من عادة أهل مملكة السلطان إذا نشأ لأحدهم بنت حسناء ، قدمها له أمة موطوءة . فيملكها بغير زواج مثل ملك اليمين . وقد أخبر منساموسى ، أثناء مروره بمصر فى حجته المشهورة ، بأن هذا لا يحل لمسلم شرعًا . فتساءل : ولا للملوك ؟ ! فقيل له : ولا للملوك . فأجاب بأنه ما كان يعلم ، وقد ترك هذه العادة من فوره (٥٩).

ولعل هذه الرواية تشى بمدى الوعى بتعاليم الإسلام حتى بين المسلمين أنفسهم فى تلك المنطقة فى ذلك العهد ، إذ كيف تغيب مثل هذه التعاليم الواضحة المشهورة فى الدين عن فهم هذا السلطان المسلم ورجاله . ويبدو أن الأمور كانت ماتزال فى بكارتها إلى حد كبير . واتصالاً بهذا فقد وجدت كثير من الخرافات وممارسة السحر والشعوذة فى تلك العهود (٦٠).

سادسًا : الأوضاع الاقتصادية :

بلغت مملكة مالى شأواً عظيمًا من الثراء على عهد منساموسى لتعدد موارد دخل الدولة وغناها . ودلل على ذلك فخامة موكب حجه الذى بهر كل ما مر به من بلاد . بل وصل صيته إلى أوربا ، فقد بلغت حاشيته وأتباعه عدة آلاف ، وضمت القافلة مائة جمل يحمل كل منها أثقالاً من أرطال الذهب والهدايا النفيسة ، وقدم حين وصوله لمصر حملاً من التبر للخزانة السلطانية ، ولم يترك أحداً من الأمراء والحاشية إلا وبعث له بالذهب ، حتى قيل إنه ثمنه انخفض بمصر بسبب ذلك . وتصدق فى الحجاز بمبالغ طائلة . وفى طريق عودته أهدى للسلطان المملوكى بمصر ، حتى إن كثرة نفقاته أحوجته للاقتراض من أحد تجار مصر ويدعى « سراج الدين ابن الكويك » حيث وفى له به بعد عودته إلى بلاده (٦١).

وقد تنوعت موارد دخل المملكة على النحو التالى :

- **التجارة** : فقد جاءت معظم أرباح الإمبراطورية وأموالها الطائلة من طريق تحكمها فى طرق القوافل التجارية نتيجة ترامى أطرافها ، وقد انتظمت حركة القوافل بينها وبين كثير من البلاد كالمغرب وبرقة ومصر ، وساعد على ذلك استتباب الأمن وسلامة الطرق فى ذلك العهد(٦٢) . واشتهرت على طرق القوافل عدة مدن تجارية غنية مثل : ولاته وتمبكتو وجاو وجنى وتكدا ونيانى العاصمة(٦٣) .... إلخ . وقيل عن إحداها وهى « تكدا » الواقعة بالصحراء إنه كان يمر بها كل عام قوافل تفوق اثنى عشر ألف جمل قادمة من نيانى قاصدة القاهرة ، ولا شغل لأهلها غير التجارة (٦٤) .

وحملت هذه القوافل إلى هذه البلاد الملح وحلى الزجاج والسلع العطرية والثياب وتعود بالذهب والنحاس والرقيق وبعض المحاصيل .

وكان للملح أهمية خاصة لدى أهل السودان الغربى حيث يستعمل فى تجفيف الطعام والحفاظ عليه من الحرارة الشديدة ، لدرجة أنهم كانوا يستبدلونه بالذهب . وقد سيطرت مالى فى عهد موسى على مناجم الملح فى تغزة بالشمال الصحراوى (٦٥) .

- **الزراعة** : كانت أرض السودان الغربى فى معظمها خصبة زراعية كثيفة السكان(٦٦) وكان بالعاصمة نيانى كثير من المجارى المائية تروى الأرض الزراعية المحيطة بها . وعرفت البلاد نظام المزارع الجماعية التى يعمل بها عبيد الدولة (٦٧) . وزرع الأرز والفونى وهو كحب الخردل ... إلخ (٦٨) .

- **الموارد الطبيعية** : سيطرت الدولة على مناجم الذهب فى الجنوب وعلى مناجم النحاس فى تكدا بالشمال وأمدت بهما البلدان المجاورة . وبلغت كثرة الذهب بأرض المملكة أنه كانت تحفر الحفائر فيوجد منها كالحجارة والحصى . كما كانوا يحفرون للبحث عن النحاس فى تكدا ويسكبونه نحاسًا أحمر ويصنعونه قضبانًا رقاق وغلاظ تباع بالذهب والسلع وهى عملتهم(٦٩) .

- **الجزية والإتاوات** : حصلتها الدولة على قوافل التجارة وعلى بعض مناجم الذهب ، إذ يبدو أن سيطرة الدولة على بعضها لم تكن كاملة حيث اكتفت بأخذ الإتاوة من القائمين عليها(٧٠) .

وتقاضت الدولة إتاوة من إمارة صنغى حين أخضعتها وإمارة جنى التى حمتها شبكة من المجارى المائية من الخضوع التام رغم قربها من العاصمة ، ومن بعض قبائل صنهاجة الملثمين جنوب الصحراء الكبرى (٧١).

سابعًا : الأوضاع الثقافية :

شجعت على رواج العلم والثقافة بالسودان الغربى فى ذلك العهد عدة عوامل منها : توافر الثروة والرخاء الاقتصادى الذى مكن من إنشاء المساجد والمدارس والكتاتيب وشراء الكتب وإنشاء المكتبات وجذب العلماء والإنفاق على المتعلمين .

فقد بنى فى عهد منساموسى مسجد عظيم فى جاو وآخر مثله فى تمبكتو تفوقًا على كثير من المساجد كمركزين للثقافة الإسلامية ، بالإضافة إلى مسجد سنكرى بتمبكتو وكان من أشهر المراكز الثقافية بها وفيه تخرج العلماء فى مختلف فنون المعرفة الإسلامية (٧٢).

وبعد عودته من الحج أنشأ فى عاصمته مدرسة كبيرة لتحفيظ القرآن ، وكان التعليم إجباريًا بها (٧٣). كما اشترى فى طريق عودته من رحلة الحج من مصر بعض كتب الفقه المالكى (٧٤). واستقدم العلماء معه ومنهم الشيخ عبد الرحمن التميمى الفقيه الذى صحبه من أرض الحجاز وسكن تمبكتو وكانت وقتها حافلة بالفقهاء والعلماء فلما رأى تفوقهم عليهم ، رحل إلى فاس للتزود بالعلم ثم عاد واستوطن هناك (٧٥). وكذلك استقدم من المغرب الفقيه عبد الله البلبالى الذى تولى إمامة الجامع الكبير فى تمبكتو (٧٦).

ولم يكتف السلطان موسى باستقبال العلماء بل أرسل طلاب العلم من بلاده للدراسة فى معاهد العلم بمصر والحجاز والمغرب والأندلس ، وفى الأزهر خصص لهم رواق لإقامتهم عرف برواق التكاررة ووجدوا من سلاطين وأمراء المماليك العون والترحيب وأجروا عليهم الأرزاق وقد بنى منسا موسى نفسه دارًا لهم ينزلون بها بالقاهرة (٧٧).

وممن نبغ من بعثات منساموسى كاتبه المشهور بكاتب موسى الذى أرسله ليتابع حلقات العلم فى فاس ثم رجع بعد تمكنه من العلم وتولى إمامة الجامع الكبير بتمبكتو مدة أربعين سنة(٧٨). وكان السلطان موسى نفسه صالحًا متدينًا عارفا بمذهب الإمام مالك - رضى الله عنه - مجيدًا للعربية (٧٩).

واشتهرت فى عهده مدن مثل تمبكتو وجنى وجاتو كمراكز إشعاع ثقافى وحضارى إلى جانب أهميتها الاقتصادية [٨٠]. وكانت الدراسة فى معاهد هذه المراكز الثقافية على مستويين : المدارس القرآنية وتركز على قراءة القرآن وحفظه ، والمدارس التى تدرس العلوم الإسلامية المتنوعة كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه واللغة ، وغيرها كالمنطق والفلك والجغرافيا [٨١].

واصطحب السلطان فى عودته أيضاً المهندس المعمارى الأندلسى الأصل ، والذى كان يقيم بمكة ، أبو إسحق الساحلى ، وقد أسهم الساحلى فى تطوير فن البناء والعمارة فى مالى وبنى عدة مساجد وقصور على الطراز العربى فى غربى أفريقيا . وقد أعجب به السلطان وأغدق عليه ، ونال هو وأسرته منزلة كبيرة فى غربى أفريقية ، وظل قبره مشهوراً بتمبكتو ، وقد زاره ابن بطوطة [٨٢].

الهوامش :

١ – القلقشندى : صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٥م الجزء الخامس ص ٢٧٣ ، السيد أحمد السيد الباز : الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى فى عهد دولتى مالى وصنغى رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ، بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٤م ، ص ١٦ .

٢ – السيد الباز : المرجع نفسه والصفحة ؛ J. Spencer Trimingham : A history of Islam in West Africa, oxford University press, London, 1975 . 34 .

٣ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٢ ؛ إبراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م ص ٤ ، ٥ ؛ حسن جلال الدين محمد : مملكة مالى الإسلامية وأهم مظاهر الحضارة بها رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٨م ، ص أ من المقدمة .

٤ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٢ ؛ Trimingham : A history Islam in West Africa, p. 41 , 42 .

٥ – محمد بلوين عثمان بن فودى : إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور مطبعة الشعب ، ص ٢٧ .

٦ – د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٦١م ، ص ٢٢٨ .

٧ – د. حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى من منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدولة العربية سنة ١٩٥٧م ص ٥٩ ، محمد عبد الله النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى من بداية القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر الهجريين رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ٧٩ / ١٩٨٠م ، ص ٣ .

٨ – هذا على أرجح الأقوال فى تحديد فترة حكمه ، وفيها خلاف . انظر : د. طرخان : دولة مالى الإسلامية ص ٧٤ ، السيد الباز : الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى ص ٢٣ ، فاى منصور على : دولة مالى الإسلامية فى عصرها الذهبى على عهد السلطان منساموسى (٧١٢ – ٧٣٨هـ / ١٣١٢ – ١٣٣٧م) رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٩٣ – ٩٥ . (وهذه الرسالة لا تتناول عهد منساموسى فقط – والذى يمثل مبحثاً من فصل فيها – وإنما هى استعراض لتاريخ الدولة كلها ، وقد لا أبالغ إذا قلت إنها عبارة عن تاريخ

إجمالى للسودان الغربى فى العصر الإسلامى ، ومن المستغرب أن الباحث قد أضاف لقائمة مراجع الرسالة - التى تبلغ ٧٥ مصدراً ومرجعاً عربيًا - قائمة حوت أسماء عشرة مراجع فرنسية لم يرجع لواحد منها فى أى هامش من هوامش رسالته) .

٩ - « منسا » معناه عندهم : ملك أو سلطان . د. طرخان : دولة مالى ص ٣٣ .

١٠ - ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٠ هـ ، السفر الرابع ص ٣٨٣ .

History of West Africa, edited by : J.F.A. Ajayi and Michael Crowder, Longman, second edition, 1976, Vol one, p. 126 .

١١ - حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٤٥ .

١٢ - د. طرخان : دولة مالى ص ٧٣ .

History of West Africa, Vol one, p. 126 .

١٣ - The Cambridge history of Africa, Volume 3, edited by : Roland oliver, London, frist publised 1977, p. 380 , 381 .

١٤ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، د. طرخان : دولة مالى ٧٤ .

١٥ - د. حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦م ، ص ٢٢٢ . والغريب أنه يستند فى هذا فى المتن إلى رواية القلقشندى السابقة والتى خصت السلطان السابق لمنسا موسى بهذا الأمر وليس موسى نفسه ، ولكنه فى الهامش يوثق الكلام بإسناده إلى كتاب J/D/Fage وعنوانه :

An introduction to the history of West Africa, Cambridge 1955, p. 26 .

وقد راجعت هذا الكتاب فى طبعته التى رجع إليها د. حسن فلم أجد فى الصفحة نفسها ولا فى موضوع السياق فى هذا الموضوع أية إشارة لقصة السفن هذه ومن أرسلها .

ويشارك د. حسن محمود فى إسناد قصة إرسال السفن إلى منساموسى بدلاً من سابقة - وهو صحيح ما ذكرته رواية القلقشندى المشار إليها فى الهامش السابق - يشاركه فى هذا باحث آخر هو د. أحمد شلبى حيث يقول «ويضيف القلقشندى قصة تدل على أن أطماع منساموسى كانت واسعة، فإنه لم يقنع بسيطرته على البر ، بل أراد أن يسيطر على المحيط ، وأن يكتشف ما خلفه من أرض، فأرسل مجموعة من السفن شحنها بالزاد والرجال ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل » موسوعة

التاريخ الإسلامى الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن . مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٩٩٨م ، ص ٢٤٥ .

١٦ - د. طرخان : الدولة مالى ، ص ٧١ ، حسن جلال الدين : مملكة مالى ١٢ ،

Cambridge histroy of Africa, Vol 3 , p. 377, Fage : An introduction to the history of West Africa, p. 24, I ra.M. Lapidus : A history of Islamic societies, cambridge, frist published, 1988, p. 493 .

١٧ - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ترجمة إلى العربية عن الفرنسية د. عبد الرحمن حميدة ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، الموسوعة الأفريقية المجلد الثانى (تاريخ أفريقيا) ١٩٩٧م ص ١٧٤ .

Fage :An introduction to the history of West Africa, p. 24, F.N, Lapidus: A history of Islamic societies, p. 491, 493 .

١٨ - د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٥ ، ٢٤٦ ؛ د. حسن إبراهيم : انتشار الإسلام ، ص ٥٩ - ٦٣ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ج من المقدمة ، ٤٥ - ٤٦ ، ٥٩ ، - ٦٠ ؛ قاى منصور : دولة مالى ١١٣ - ١١٤ ؛ الموسوعة الأفريقية المجلد الثانى ١٧٤ ، ١٧٧ .

Trimingham : A History of islam in West Africa, p. 69 .

١٩ - وهى التى ستصبح فيما بعد سلطنة صنغى الإسلامية (٧٧٧ - ١٠٠٠هـ / ١٣٧٥ - ١٥٩١م) وترث إمبراطورية مالى . انظر الموسوعة الأفريقية ص ١٨٢ ، وما بعدها من المجلد الثانى .

٢٠ - أو « ساجمان دير » .Sagman Dir

٢١ - تقع على نهر النيجر ، وقد وردت فى الكتابات العربية بأسماء مختلفة منها : كاغ ، كوغا ، كاغو، كوكو ، كركر ؛ د. طرخان : دولة مالى ، ص ٩٢ ، هامش ٢ .

٢٢ - د. طرخان : دولة مالى ، ص ٧٥ ؛

History of West Africa, Vol .I, p. 126 .

٢٣ - أسسها البربر خلال القرن الحادى عشر الميلادى على مسافة اثنى عشر ميلاً من فرع النيجر ، وكانت منطقة معسكرات لهم فى البداية . وقيل أسسها ملك يدعى منسا سليمان سنة ٦٠٠ هـ . انظر: الوزان : وصف أفريقيا ص ٥٣٩ وهامشها ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٣ الهامش . ولعل هذا الملك قد زاد فيها وجملها ، وقد لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ غربى أفريقيا كمركز حضارى معروف فى ذلك الوقت : انظر موقعها على الخريطة الملحقة بالبحث .

٢٤ – قبائل زراعية فى إقليم ياتنجا Yatenga فى منطقة فولتا العليا ، ويكونون حالياً أغلب سكان هذه الجمهورية (فولتا العليا أو بوركينا فاسو الآن) . د. طرخان : دولة مالى ٧٦ ، النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ١٤٤ ؛ Trimingham : A history of Islam, p. 71 .

٢٥ – د. طرخان : دولة مالى ٧٥ ، ٧٦ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ٤٦ ؛
Trimingham : A history of Islam, p. 68 . History of West Africa, Vol. 1, p. 126 .

٢٦ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٧ .
Trimingham : A history of Islam, p. 70 ; Cambridge history of Africa, Vol. 3, p. 381 .

٢٧ – النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ١٣٧ .

٢٨ – د. شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٨ .

٢٩ – السعدى : تاريخ السودان طبعة هوداس سنة ١٨٩٨م ، ص ٧ .

٣٠ – ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار (الرحلة) دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٢م ، ص ٦٩٧ . حيث ذكر أن جد السلطان أسلم على يد الشخص المنعم عليه نفسه واسمه «مدرك بن فقوص» وليس على يد جده ، ولكن الأقرب للصواب ما ذكره فى المتن ، انظر Trimingham : A history of Islam, p. 66 .

٣١ – ابن بطوطة : الرحلة ٦٩٧ ، ٦٩٨ .

٣٢ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٩٥ ، ٢٩٦ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه تحقيق د. محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢م ؛ السعدى : تاريخ السودان ٧ ، ٨ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى : ٤٧ ، ٤٨ ؛ . Trimingham : A history of Islam, pp. 32 , 33 .

وقيل إنهم حين طلبوا منه السجود فى حضرة السلطان قال : أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ، ثم سجد . القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ .

٣٣ – السيد الباز : الحياة العلمية ١٧٥ ، ١٧٦ .

٣٤ – د. طرخان : دولة مالى ٨٣ ، ٨٧ ، ٩١ ;; Trimingham : A history of Islam, p. 67, 68
Hisatory of West Africa, Vol 1, p. 127 .

٣٥ – النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢١٤ .

٣٦ – Trimingham : A history of Islam, p. 70, Cambridge history of Africa, Vol3, p. 381, History of West Africa, Vol 1, p. 127 .

٣٧ - فاي منصور : دولة مالي ص ١١٦ - ١١٨ ، حيث أورد هذا الباحث هذه المزاعم وناقشها ومال إلى أنها وجهة نظر واردة من الغرب وقال بأنها جزء من المخطط الاستعماري الهادف إلى محاولة زلزلة إيمان الأفريقي بنفسه وتاريخه القومي والإسلامي بالذات ، وذلك عن طريق إقناعه بالعجز الذاتي المتعمل وصولاً إلى غرس الشعور بالنقص فيه ، فهذه محاولة لطمس أعمال ومعالم هذا السلطان التي حاول بها رفعة بلاده وتوحيدها وأقام علاقات طيبة مع الدول الإسلامية وفتح بلاده أمام اللاجئين المسلمين من الأندلس وعلمائهم الفارين من وجه حركة الاضطهاد المسيحي الصليبي ، حتى قيل إن فقد إسبانيا كان كسباً لأفريقيا المسلمة . وأنا أزيد على هذا الكلام القيم بالتساؤل في غرابة عما إذا كان حقًا أن أثار رحلة الحج هذه - على بعد زمان حدوثها - هي التي أفقرت ومازالت تتسبب في إفقار البلاد أم أنه الاستعمار الأوربي الحديث الى استعبد أبناءها ونهب خيراتها وربط مصائرها به وحاول القضاء على هوياتها ومزق وحدتها واصطنع لها الحدود والموانع الى أثارت ومازالت تثير كثيراً من المآسي والحروب والمنازعات .

٣٨ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن وآخرين مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠م ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ ؛ Ninian Smart : The World's religions, old Traditions and modern transformations, Cambridge University press, 1992, p. 297 .

٣٩ - Trimingham : A history of Islam, p. 34, the expansion of Islam, published in , Islam in Africa, edited by : James Kritzeck and William H. lewis, New York 1969, p. 24 .

٤٠ - Trimingham : The influence of Islam upon Africa . London, frist published 1969, p. 1 .

٤١ - Trimingham : The influence of Islam, p. 14 .

٤٢ - Trimingham : The influence of Islam . p. 34 ; Lapidus : A history of Islamic Societies, p. 494 .

٤٣ - فاي منصور : دولة مالي ١٩ ، ٢٠ . وقد ساعد على ذلك أن حملة الإسلام لهذه المنطقة كانوا في الغالب رسل حضارة على شكل جماعات من التجار والعلماء ، فعلى عكس مناطق أخرى في الشرق والهند مثلاً مهد فيها الفتح العسكري لانتشار الإسلام فإن الذي مهد للإسلام في غربي أفريقيا في الغالب هم الجماعات السابقة . انظر : د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ ٦ : ٤٧ ؛ Lapidus : A history of Islamic Socieities, p. 489 ولكن انتشار الإسلام في هذه المنطقة لم يكن ساحقًا منذ زمن مبكر بصورة تجيز قول أحد الباحثين بأن معظم سكان السودان الغربي وأغلب ملوكهم قد اعتنق الإسلام قبل فتح المرابطين لمملكة غانة الوثنية سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦م .

(انظر : محمد النقيرة : الزثير الإسلامى فى السودان الغربى ص ٣٥) .

وهذا الباحث نفسه يعود فيذكر أن مملكة غانة بعد تحولها للإسلام لم تأل جهداً فى نشر الإسلام بين جيرانها الوثنيين (السابق ص ٤٩) بل يذكر عن منسا موسى أنه فتح الكثير من البلاد الوثنية المجاورة ، ويروى أنه فتح بسيفه أربعًا وعشرين مدينة من مدن السودان (نفسه ص ٥٠) ، وذلك بعد فتح المرابطين لغانة بحوالى قرنين ونصف من الزمان . فلا مجال إذن للقول بالانتشار الساحق للإسلام فى ذلك الزمن المبكر ، وهذا ما يؤكده رأى أحد المستشرقين حين يقول معلقًا على ضآلة معلوماتنا عن تفاصيل انتشار الإسلام فى تلك المنطقة إبان ذلك العهد : " ولكن حقيقة واحدة تبرز لنا من هذا السجل التاريخى الهزيل ، تلك هى البطء الشديد فى تحول الناس هناك إلى الإسلام ، وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الأوثان يعيشون فى الأقاليم التى مرت عليها قرون وهى تحت الحكم الإسلامى ، ليدلنا فما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصوراً فى المدن طويلاً ، ولم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجيًا . والواقع أن النفوذ الإسلامى لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التى جعلت جماعة البمبارا Bambara الوثنية يحتفظون بوثنيتهم ، مع أنهم - وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى - كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين » . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٥٨ .

٤٤ - د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ص ١٥ .

٤٥ - انظر موقعها على الخريطة ، انظر كذلك : حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٤٥ ، ٤٦ ؛ الموسوعة الأفريقية ، ٢ : ١٧٦ .

٤٦ - Lapidus : A History of Istamic sosieties, p. 493 .

٤٧ - صبح الأعشى : ٣٠٠ - ٣٠١ .

٤٨ - صبح الأعشى ٣٠١ . ولعل هذا يزيد ما ملتُ إليه من قبل مع بعض الباحثين من القول بأن إسلام السودان الغربى اختلط أحيانًا ببعض العادات والتقاليد القديمة .

٤٩ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٤ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٦٧ ؛ History of West Africa, Vol 1 , p. 126 .

٥٠ - هو الذى خلف أباه ى الحكم باسم منسامغا Magha ، مما حرم سليمان أخا موسى من حقه كأكبر ذكر فى الأسرة الحاكمة . انظر : Cambridge history of Africa, vol 3 , p. 381

٥١ - حسن جلال الدين : مملكة مالى ٧٢ .

٥٢ - ابن بطوطة : الرحلة ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٧١ ، ٧٢ .

٥٣ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٩ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٧٦ .

٥٤ – فاى منصور : دولة مالى ، ص ١٣٠ .

٥٥ – ابن بطوطة : الرحلة ٦٩٩ ، ٧٠٠ .

٥٦ – جلال الدين : مملكة مالى ، ص ١٠٥ .

٥٧ – د. طرخان : دولة مالى ، ٣ ٥٣ ، ٥٤ .

٥٨ – ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٨٩ .

٥٩ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٦ ، Trimingham : A history of Islam, p. 71

٦٠ – Trimingham : A history of Islam, p. 71

٦١ – انظر وصف هذا الموكب الهائل وتلك النفقات الباهظة : القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ١٤٢ ، ١٤٣ ؛ السعدى : تاريخ السودان ٧ ، ٨ ؛ Trimingham : A history of Islam, p. 68 , Cultural Atlas of Africa, edited by : Jocelyn murray, New York 1989, p. 49 - 51 .

٦٢ – د. شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ؛ د. طرخان : دولة مالى ١٣٥ .

٦٣ – انظر مواقعها على الخريطة .

٦٤ – ابن بطوطة ٧٦٠٤ ؛ د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدولة الإسلامية ، ص ١١٢ .

٦٥ – ابن بطوطة ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٩ ، ٧٠٤ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٩ ، ٨٠، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية ، ص ١١٢ .

٦٦ – د. طرخان : دولة مالى ١٣٥ .

٦٧ – حسن جلال الدين : مملكة مالى ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٩ .

٦٨ – ابن بطوطة : ٦٨٩ .

٦٩ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٩ ؛ ابن بطوطة : ٧٠٥ . وقد استعمل أهل السودان الغربى الذهب والنحاس والملح وأعراض السلع كعملات يتبادلون بها فى متاجراتهم ، انظر بالإضافة إلى ما سبق : فاى منصور : دولة مالى ١٥١ ، ١٥٢ .

٧٠ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ولعل هذا ما دعا أحد الباحثين الغربيين إلى القول بأن الدولة لم تستطع على عهد منسا موسى إدارة مناجم الذهب . وايدتر : تاريخ أفريقيا

جنوب الصحراء الجزء الأول ترجمة : على أحمد فخرى ، د. شوقى الجمل مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٧٦م ، ص٣٢ .

٧١ - د. طرخان : دولة مالى ٧٥ ، ٧٦ ؛ Cambridge history of Africa, vol 3 , p. 381

٧٢ - السعدى : تاريخ السودان ٥٦ ؛ السيد الباز : الحياة العلمية ٢٧ ، ٥١ .

٧٣ - السيد الباز : الحياة العلمية ، ص ٦٢ .

٧٤ - د. طرخان : دولة مالى ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

٧٥ - السيد الباز : الحياة العلمية ، ص ٦٨ .

٧٦ - النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ٢٣٥ .

٧٧ - السيد الباز : الحياة العلمية ١٦٤ ، ١٦٥ ؛ النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢٣٦ .

٧٨ - السعدى : تاريخ السودان ٥٧ ؛ النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢٣٦ .

٧٩ - ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ١٤٣ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ .

٨٠ - حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ج من المقدمة ؛ فاى منصور : دولة مالى، ص ١١٤ ؛
From mande to songhay, towards a political and ethnic history of medieval Gao, published in : the jaurnal of african history, Vol 35 , 1994 , Number 2 .

٨١ - السيد الباز : الحياة العلمية ٦٤ .

٨٢ - ابن بطوطة ٧٠١ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٥٥ - ٥٨ ؛ Trimingham : A history of Islam, p. 68, 69 .

المراجع

أولاً : المراجع العربية والمعربة :

* أرنولد : سير توماس :

- الدعوة إلى الإسلام : ترجمة وتعليق د. حسن إبراهيم حسن ود. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٧٠م .

* الباز : السيد أحمد السيد :

- الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى فى عهد دولتى مالى وصنغى - رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

* ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، ت ٧٧٩هـ :

- الرحلة المسماة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار شرحه وكتب هوامشه طلال حرب - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٩٢م .

* ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩ هـ :

- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق : د.محمد محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

* حسن : د. حسن إبراهيم :

- انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية ١٩٥٧م .

* زكى : د. عبد الرحمن :

- تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٦١م .

* السعدى : الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر ، ت بعد عام ١٦٥٥م:

- تاريخ السودان طبعة هوداس مطبعة بردين ١٨٩٨م .

* شلبى : د. أحمد :

- موسوعة التاريخ الإسلامى الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخولها الإسلام حتى الآن . مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٩٩٨م .

* طرخان : د. إبراهيم على :

- دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

* العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن على بن حجر ، ت ٨٥٢ هـ :

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن ١٣٥٠هـ .

* على : فاى منصور :

- دولة مالى الإسلامية فى عصرها الذهبى على عهد السلطان منسا موسى (٧١٢ - ٧٣٨هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) ، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ١٩٨٤م .

* ابن فودى : محمد بلوبن عثمان ، ت ١٢٥٣هـ :

- إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور مطبعة الشعب ١٩٦٤م .

* القلقشندى : أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١ هـ :

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٥م .

* محمد : حسن جلال الدين :

- مملكة مالى الإسلامية وأهم مظاهر الحضارة بها ، رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٨م .

* محمود : د. حسن أحمد :

- الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

* النقيرة : محمد عبد الله محمد :

- التأثير الإسلامى فى السودان الغربى من بداية القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر الهجريين ، رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ٧٩ / ١٩٨٠م .

* وايدنر : دونالد :

- تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، الجزء الأول ، ترجمة على أحمد فخرى ، د. شوقى الجمل نشر مؤسسة سجل العرب ١٩٧٦م .

* الوزان : الحسن بن محمد أوليو الأفريقى ، ت ٩٤٤ هـ :

- وصف أفريقيا ، ترجمة من الفرنسية إلى العربية ، د. عبد الرحمن حميدة .

- الموسوعة الأفريقية ، إعداد نخبة من الأساتذة صدرت عن معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة بمناسبة اليوبيل الذهبي للمعهد ١٩٤٧ - ١٩٩٧م. المجلد الثانى (تاريخ أفريقيا) .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

Fage : J.D: An introduction to the history of west Africa, cambridge 1955 .

Lapidus : Ira M : A History of islamic societies, cambridge, frist published 1988 .

Smart : Ninian : The world's religions, old trafitions and modern Transformations, cambridge 1992 .

Trimingham : J. Spencer :

- A history of Islam in West Africa, London 1975 .

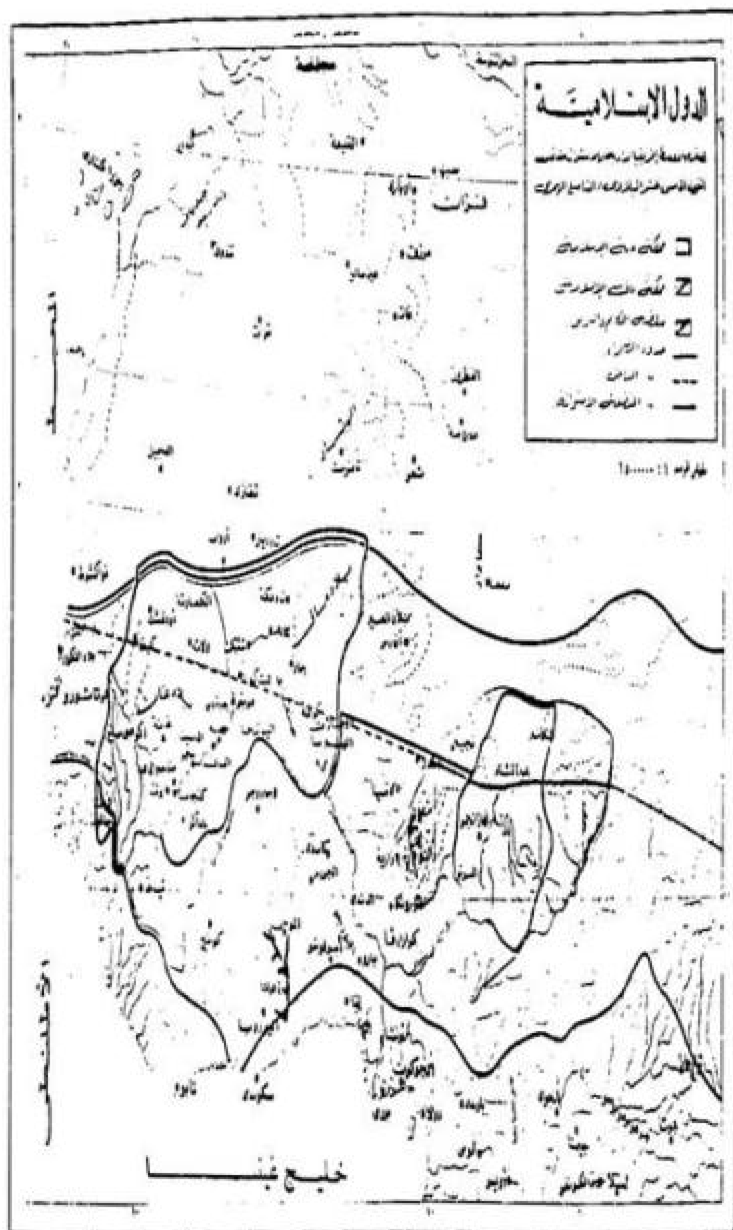
- The expansion of Islam, published in : Islam in Africa, edited by : James Kritzeck and William 14. Lewis, New York 1969.

- The influence of Islam upon Africa, London, frist published 1968 .

- Cultural Atlas of Africa, edited by : Jocelyn murray, New York

1989

- From mande to Songhay Towards a political and ethnic history of medieval Gao published in : The Journal of African history, Vol 35 , 1994 , Number 2 .
- History of West Africa, edited by : J.F.A.A jani and michael Crowder Longman, second edition 1976 .
- The cambridge history of Africa, Vol 3 , edited by : Roland oliver, London, frist published 1977 .



د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام الزهراء للإعلام العربي ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م

أ.د. محمد أحمد زيود(*)

النشاط الفاطمي المغربي في صقلية وجنوب إيطاليا

لاشك في أن الفاطميين ، ورثوا تراثاً حضارياً هائلاً ، شكل دعماً كبيراً لجهودهم البحري، ونشاطهم الملاحي المتوسطي ، الذي بدأ مع قيام دولتهم في المغرب العربي في رقاده عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨م ، واستمر هذا النشاط في تقدم مطرد ، حتى بعد نقلتهم الموفقة إلى مصر والشام ، وسيطرتهم على القواعد البحرية والتراث البحري الحضاري هناك .

ومما لا شك فيه أن هذا النشاط البحري الفاطمي في المتوسط أكدته وأثرت فيه عوامل متعددة ومهمة ، يأتي على رأسها أهمية البحر المتوسط والقوة الدفينة الكامنة التي يأمنها لشعوبه المواجهة له ، فهو يشكل منطقة القلب من العالم القديم ، ومركز احتكاك حضاري وصراع مصيري ، ومركز القوة العالمية ، في غالبية عصور التاريخ .

لقد دخل العرب المسلمون عالم هذا البحر المتوسط ، وأدركوا قيمته منذ أن وطأت أقدامهم شواطئه ، وواجهوا أكبر قوة بحرية عالمية معاصرة وهي دولة الروم أو الدولة البيزنطية . وسرعان ما نافس العرب الروم في النفوذ والسيطرة على هذا الممر المائي المتحكم

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة دمشق .

بالاستراتيجيات العسكرية القوية ، والتفوق الاقتصادى الهائل ، وصاحب الحلقة الكبرى الرئيسية فى الاتصالات المائية بين القارات والشعوب .

هذا التنافس العسكرى والاقتصادى والفكرى ، جعل القوى العربية الإسلامية كافة ، تدرك أهمية البحر بوصفه سلاحًا بحريًا حربيًا مضاداً لا غنى عنه ، فاندفعت تعمل لصد التحدى البيزنطى ، وعمل الجميع مجتمعين أو متفرقين فى معظم الأحيان ضد بيزنطة ، ولم تنته العقود الإسلامية الأولى حتى غدا العرب المسلمون فى وضع متقدم على بيزنطة ، وحققوا عليها انتصارات عسكرية مدهشة ، وأجبروها على تغيير خططها البحرية العسكرية فى شرق المتوسط فاتجهت إلى غربه ، واتخذ الإمبراطور البيزنطى قسطانز الثانى (٢١ - ٤٨ هـ) (٦٤١ - ٦٦٨م) من صقلية مركزاً لنشاطه العسكرى البحرى ، وقاعدة بيزنطية ، تهدد الوجود العربى الإسلامى فى أفريقية ، وتعمل جاهدة لحماية الممتلكات والمصالح البيزنطية فى الغرب بما فى ذلك الشمال الأفريقى ، والإيطالى ، والصقلى إلى جانب التصدى للتوسع العربى المحقق والمرتقب [١]. وأدركت القوى العربية الإسلامية أهمية صقلية اقتصادياً ، ودورها ، واقتنعت بأن فتحها وانتزاعها من بيزنطة عمل لابد منه تفرضه استراتيجية الفتوحات الإسلامية وصيانة الوجود الإسلامى من التهديدات البيزنطية التى اتخذت من صقلية قاعدة لها ومركزاً لاعتداءاتها [٢]. لذلك تتابعت الحملات العسكرية عليها طيلة العصر الأموى واستمر ذلك فى العصر العباسى . وجهدت بيزنطة فى إعاقة الجهود العربية الإسلامية وعملت على تحصين الجزيرة وحمايتها ، ومنعها من السقوط فى قبضة العرب المسلمين ، حماية لمصالحها فى صقلية وفيما وراء البحار وانقاذاً لعاصمتها القسطنطينية من الانهيار أمام الضربات العربية الإسلامية المتلاحقة .

وكان أن قدمت أول حملة عسكرية بحرية إلى صقلية من بلاد الشام ، وربما انطلقت من طرابلس ، تحت إمرة معاوية بن حديج . ويؤكد الواقدى أن هذه الحملة وصلت صقلية ، وحققت بعض الانتصارات العسكرية ، وعادت محملة بالغنائم ، وكانت الحملة تستهدف احتلال الجزيرة ، وتواكب عمليات الفتوح الإسلامية [٣]. ثم تتابعت بعد ذلك المحاولات العربية الإسلامية لفتح صقلية ، واستمرت أكثر من قرنين من الصراع العسكرى ضد بيزنطة التى غذته المصالح الاستراتيجية العربية الإسلامية ، وما تمتعت به صقلية من أهمية اقتصادية ، وموقع استراتيجى فريد وعسكرى كبير مؤثر فى تأجيج النزاع العربى البيزنطى ، فهى أحد

مفاتيح قلب البحر المتوسط ، والنافذة الكبيرة المطلة على إيطاليا ، والمتحكمة فى معظم الطرق التجارية ، والشرايين الفعالة فى البحر المتوسط ، هذا كله إضافة إلى خيراتها وإمكاناتها الزراعية والصناعية والمعدنية التى أشار إليها العلماء والرحالة العرب والفرنجة ، وأكدت عليها ، ووصفوها جميعًا ، بأنها بلد الخير والعطاء ، وفيها من الموارد الزراعية والصناعية ما أدهش الجميع وشد الانتباه . وصورتها أقلامهم بأنها مصدر رزق كبير ، ومفتاح خير عميم ، وهى تمتلك أنواعًا من السلع والمعادن التى تستخدم فى صناعة السفن كالأخشاب والحديد (٤ ، ٥) .

وقد أردك العرب المسلمون هذه الأهمية الاستثنائية لجزيرة صقلية ، فهى تمكن البيزنطيين من الهيمنة الكاملة على النشاط التجارى فى المتوسط ، والسيطرة عليه، وإحكام القبضة على التجارة المتوسطية ، التى استغلتها بيزنطة ، واستخدمت الأسلوب السلبى ضد التجارة العالمية بهدف تحقيق مصالحها السياسية والعسكرية ، وعملت على شل التقدم الحضارى ، والتفاعل البشرى الإيجابى بين الشعوب .

ولقد حقق فتح صقلية مكاسب ونتائج كبيرة سياسية واقتصادية واجتماعية ، وحضارية عامة ، فانتهى الحكم البيزنطى فيها ، وغدت عربية يحكمها ولاة أفارقة تابعين للأغالبة ، ثم الفاطميين بعد ذلك وغدت فيما بعد قاعدة انطلاق مهمة تنطلق منها الهجمات البحرية والبرية على إيطاليا ، مما مكن هذه القوى العربية الإسلامية الأغلبية ثم الفاطمية ، من تحقيق السيادة على البحرين التيرانى والأدرياتى ، والسيطرة الفعالة على القسم الأوسط من البحر المتوسط حتى أصبح بعد ذلك من شرقه إلى غربه تحت السيادة العربية الإسلامية ، وأصبح القول بأنه بحيرة عربية أمرا ممكنًا بعد أن بلغت القوى العربية الإسلامية أوج قوتها ونشاطها فيه .

وكما ساعدت السرايا العسكرية الإسلامية المتقدمة فى صقلية الأغالبة على تحقيق النصر ، باستفادتهم من التجارب الإسلامية السابقة ، فكذلك ورث الفاطميون هذا التراث كله ، بعد قيام خلافتهم فى المغرب . وشكل هذا التراث البحرى الموروث أرضية مفيدة ، وساعدهم على تلمس الأخطاء ، والابتعاد عنها ووضع الخطط الناجحة ، وتدعيم وجودهم فى صقلية ، والسيادة على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وبينما كانت القوة البحرية الأندلسية تساند الأغالبة وتقف إلى جانبهم فى فتح صقلية ، إلا أنها مع الأسف لم توظف فى العصر الفاطمى لصالح هؤلاء، بل على العكس عملت ضدهم ، وتقويض نشاطهم البحرى ، وذلك لما كان بين

الدولتين من خلافات فى الرؤى والتوجه ، مما أثر بشكل سلبى فى الاستراتيجية العسكرية البحرية العامة الإسلامية وقد أضعف تلك الخلافات الجهد العربى الإسلامى ، والمجهودات البحرية ، وعملت (٦ ، ٧) على الحد من النشاط الفاطمى وإضعافه .

لقد تبنت الدولة الفاطمية العبيدية معارضتها للعباسيين (٨) ، وكان أتباعها الإسماعيليون يعتقدون بأنهم وحدهم أصحاب الحق الشرعى بالخلافة ، وبأن الأمويين - وكذلك العباسيين - مغتصبون لها . ولقد اتخذ عبيد الله لقب المهدى ليشير إلى أنه هو الشخص الذى أظهره الله بالحق ليُملك الأئمة الفاطميون الأرض كلها (٩) . وكان قيامها حدثًا مهمًا ، ومؤثرًا فى التاريخ العربى والإسلامى إذ أصبح لدى المسلمين ثلاث خلافات إسلامية : عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى المغرب ، وأموية فى الأندلس . ومما يؤسف له أنها تبنت من حواضرها معاداة بعضها بعضًا ، ودخلت فى نزاعات مستمرة ، ولم تتمكن من الاتفاق حتى فى اللحظات الحرجة التى كانت تمر بها الأمة الإسلامية من مغربها إلى مشرقها .

لقد عمل الفاطميون ضمن معتقداتهم ، واعتبار أنفسهم مسؤولين عن أقاليم الدولة وشعوبها ، وتوحيد المسلمين تحت سلطانهم ، وامتداد خلافتهم ، ووضح هذا التوجه التوسعى فى مناسبات عدة ، وأعطوا بذلك التوجه أسبابًا للخشية منهم ، والعمل ضدهم ، ومحاربة مشروعهم التوسعى بكل الوسائل ، ودخلوا فى نزاع مع الأمويين فى الأندلس والعباسيين ومؤيديهم فى كل مكان (١٠) .

ومن ناحية أخرى واجه الفاطميون فى بلاد المغرب صعوبات كبيرة ، وأعداء كثيرين ، وفى هذا الجو المعادى ، قامت الخلافة الفاطمية ، وكان عليها أن تأخذ كل ذلك بالحسبان ، وتعمل بجهد ضد قوى كثيرة مجتمعة أو متفرقة .

وهكذا إدراك الفاطميون أن استمرارهم ، ونجاح مشروعهم لايمكن أن يتم إلا بتبنى سياسة عسكرية برية وبحرية قوية تعمل مشتركة ، معتمدة أسلوب القتال وتأصيل فكرة الجهاد الذى كان على رأس أولوياتهم ، ودعمته بمجموعة من الإجراءات والخطط التى كانت تصب كلها فى هدف واحد. يعمل لتدعيم قوة الدولة وصيانتها والتصدى لأعدائها من الداخل والخارج معتمدة أسلوب الإقدام والجرأة ثم حزم الأمور ، والاستفادة من الوقت ، والأتباع والمخلصين ، وهذه السياسة التى استنها عبيد الله المهدى كانت المنهج السليم الذى سار عليه خلفاؤه من بعده ، فحافظوا على دولتهم وكتب لها البقاء والاستمرار (١١) .

وقد اهتم الفاطميون منذ قيام دولتهم فى المغرب اهتمامًا ظاهرًا فى الشؤون الملاحية والبحرية ، وأعطوها الأولوية ، وفاقت مجهوداتهم فى العناية بالبحرية ، وفى الكفاح البحرى جهود كل من سبقهم من القوى العربية والإسلامية ، ودعموا قوتهم العسكرية البحرية والتى شغلت تفكيرهم منذ قيام دولتهم ، وتطلعوا منذ عهد المهدى (٢٩٧ - ٣٢٢هـ) (٩٠٩ - ٩٣٣م) لفرض هيمنة دولتهم ، وقوتهم على غرب البحر المتوسط والجنوب الإيطالى ، وغير ذلك من المناطق ، وتمكنوا من إيجاد قوة بحرية لم يسبقهم لها أية قوة عربية إسلامية ، وربما ساعدهم عى ذلك تأصيل الفكرة الجهادية عندهم بوصفها العنصر المهم فى سياستهم العسكرية ، ولأنها الركيزة الأساسية التى تقوم عليها العقيدة الإسماعيلية ، فساعدهم ذلك على شد الهمم والانتباه للعودة إلى مجد الفتوحات الأولى ، وقد أعطاهم العباسيون ، وما وصلوا إليه من ضعف وخنوع ، كل الحق فى تبنى هذا الشعار الجهادى إلى اعتبر ضروريًا لإنقاذ الموقف الإسلامى المتدهور والدفاع عن المصالح التى هددت فى كل مكان لاسيما فى الشام ومصر وجزر البحر المتوسط ، والتوسع البيزنطى فى الثغور ، والبحر المتوسط[١٢] وغير ذلك .

كل ذلك دفع الفاطميين لتقوية قوتهم البحرية ، وأدركوا ضرورة تنميتها فى حال رغبوا فى تحقيق هذه المطامع الطموحة ، التى لا يمكن النهوض بها إلا بقوة متفوقة برية بحرية فعالة ومتعاونة ، وقد تمكنوا من إعدادها بسرعة وأعطت ثمارها عبر مساهماتها فى جميع أوجه نشاط الفاطميين وتحركاتهم لاحتلال مصر[١٣] وإحكام قبضتهم على صقلية ، وغيرها من الأماكن التى خططوا لمد نفوذهم إليها .

وربما كان بناء المهدية ، وطريقة اختيار موقعها ، ومدى الاهتمام بتحصيناتها لتكون أكبر معقل بحرى فى الشمال الأفريقى ، أكبر دليل على اهتمام الفاطميين بالبحرية الإسلامية ، وتحقيق مخططهم البحرى الواسع الطموح ، الذى استند على قاعدة بحرية آمنت بفكرة قديمة متطلعة نحو البحر ، واعتقاد راسخ بأنه لابد من التوجه صوبه ، والاستفادة من الخبرات والتراث المغربى القديم ، وعلاقته الوشيجة بالبحر ، فتجلى ذلك من خلال تشييد المهدية على شاطئ البحر المتوسط ، وكان المهدى قد أدرك بحسه السليم ضرورة تشييد المهدية ، ولذلك كان أول حاكم عربى مسلم قام بمثل هذا العمل[١٤].
واختار موقعًا استراتيجيًا مناسبًا يقع بين سوسة وصفاقس فى جزيرة متصلة بالبر فى سنة

٣٠٣هـ / ٩١٦م واختط مدينته الساحلية ، لإيمانه أن دولته لابد لها من الانفتاح على العالم الخارجي ، ولابد لها من أن تكون دولة جهادية لأن سواحلها كلها مناطق ثغور وجبهات قتالية، وهذا ما يفسر مدى اهتمام الفاطميين بالأساطيل البحرية وقواعدها ومراسيها ، وتعددها ، وساعدهم على ذلك استفادتهم من التراث المغربي الموروث فى هذا المجال .

ولقد أفاضت المصادر العربية الإسلامية بوصف المهدية ، وركزت على أهميتها البحرية وأسلوب تشييدها ، ووصف أسوارها ، وبواباتها الضخمة ، ومدى التحصينات المرتبطة بالمرسى ، ودار الصناعة ، وإنجاز كل ذلك باتقان لأنه أقيم تحت إشراف المهدى نفسه وحسب توجيهاته ، وهذا ما مكن المهدية من أن تفوق جميع المدن الإسلامية التى سبقتها منعة وتحصيناً ، وشكل قيامها توافقاً مع أهداف الفاطميين وتطلعاتهم التوسعية ، وقد أبدى المهدى ارتياحه واطمئنانه عندما انتهى من إعمارها والإقامة فيها فى سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠م بقوله : " الآن أمنت على الفاطميات " ولم يكن يقصد حماية بناته ، وقريباته فحسب ، وإنما كان يتطلع إلي أنها ستحمى دولته ، وتحافظ على قوتها وتوطيد أركانها ، واطمأن بعد ذلك إلى قدراته العسكرية البحرية وتحقيق النصر ، ومواجهة جميع القوى المعادية من الداخل والخارج ، ولقد كثر الكلام عن هذه المدينة ، وجاء بعضها على شكل أسطورى ، وفاق ما قبل ونسج من بناء الحواضر الإسلامية الأخرى (١٥) . وأكدت المصادر القديمة والدراسات الحديثة على عمق توجهات الفاطميين وسعيهم الدؤوب للاهتمام بالبحرية والدوافع التى كانت خلف هذه العناية ، وبينت أن التصدى للثورات الداخلية والخارجية ، والتطلع للتوسع كان خلف قيام البحرية الفاطمية ، ونشاطها ، وكثرة أدواتها الحربية ومراكبها المتنوعة (١٦) ، وكثرة التوقيعات والرسائل حولها ، وتشييد دور الصناعة فى كل من سوسة ، والمنصورية وغيرهما ، ومتابعة الخلفاء لكل هذه الأعمال ابتداء من تأمين المواد الأولية حتى انطلاقة السفن بحراً ، وتعيين أمر قيادتها والاهتمام بموظفيها ، كبار وقادة عظام .

كما وضعت تحت تصرف هذه البحرية المواد اللازمة لصناعتها ، من أخشاب وحديد ، وألياف ، وقطران ، ونفط ، وكبريت ، وغير ذلك من مواد وسلع لابد منها لتجهيز الأسطول وإعداده الإعداد الجيد للقتال البحرى الشائك ، ولقد توفرت هذه المواد فى بلاد المغرب وفى صقلية بكثرة (١٧) ، ومن أهمها الخشب ومعدن الحديد والألياف الخاصة بالحبال وكذلك القطران والزفت ، ثم النفط والكبريت المستخدم فى القتال البحرى ، واستخدم هذا السلاح الذى كان

يسمى النار الإغريقية منذ سنة ٢٠٠ هـ / ٨٣٥م فى عصر الأغالبة ، واستخدمه الفاطميون فى هجماتهم فى البحر التيرانى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥م واحرقوا السفن المعادية ، ولم يعد هذا السلاح سراً وقفاً بعد ذلك على بيزنطة وسلاحاً فتاكاً بيدها (١٨).

كما شكلت المراسى والقواعد البحرية العديدة فى الشمل الأفريقى ستاراً أمامياً للسواحل الفاطمية الأغريقية ، وقد أفاضت بذكرها الأبحاث ، ولفتت الانتباه إلى أهميتها البحرية ، كما أكدت الدراسات على صقلية وأهمية مراسيها أمثال مسينى ، وطبرمين ، وقطانية ، وسرقوسة ، وجرجنت ، وطرابنش ، وبرطنيق وغيرها ، وهذه الأماكن تذكرنا بوقائع عسكرية مروعة تعاركت فيها السفن ، وأريقت الدماء ، وهذه القواعد والمراسى ، وضعت تحت تصرف الفاطميين وسيطرة قواتهم ، وساهمت بشكل فعال فى نشاط قوتهم البحرية ، وساعدتها فى تفوقها ، وحققت لها النصر على البيزنطيين وحلفائهم من روم وفرنجة وغيرهم (١٩).

كما أمنت سيطرة الفاطميين على معظم الجزر البحرية المتوسطية المواجهة للسواحل الأفريقية الحامية للمدن والثغور الأفريقية الفاطمية ، وعلى رأس هذه الجزر صقلية ، وسردانية ثم قرشقة، ومالطة وغيرها من الجزر العديدة الصغيرة ، والتى كانت تحرس وتحمى السواحل وتشكل نقاط إنذار سريعة ومتقدمة ، تدفع عنها عامل المفاجآت ، كما عملت هذه الجزر على تدعيم الجهود الملاحية والبحرية الفاطمية ، ومنحتها فرص النصر ، وقوة السيطرة على غرب المتوسط جنوة ، والتأثير فى أحداثه (٢٠). والمهم من كل ما تقدم أن الفاطميين ورثوا التراث المغربى الطويل الذى منحته الطبيعة لسواحلها ، وجعلت منهم شعباً لا يمكنه الاستغناء عن البحر ، وإدارة ظهرهم له ، ولذلك صار أهله من أنشط الأمم البحرية ، واستمر ذلك عبر العصور ، وأدرك العرب هذا التوجه ، واستغل الفاطميون ذلك أحسن استغلال ، وطوروا بحريتهم ، وتنبه إلى هذا التوجه البحرى عند شعوب المغرب العالم والمؤرخ الاجتماعى الأول ابن خلدون ، وفهم مدى تأثير هذا الساحل الأفريقى على طبيعة أهله ، وزيادة تمرسهم بالأمور البحرية (٢١). وهذا المروث أمن لهم نشاطاً اجتماعياً واقتصادياً ، وظهر أكثر ما ظهر بعد عمليات الاستقلال فى المغرب ، التى تعمقت أثناء حكم الفاطميين ، وساعدهم ذلك ، بحيث وصلت بحريتهم إلى الذروة فى دورها المغربى ، ودعمت بعد احتلالهم جزيرة صقلية ، وبعض الأماكن فى الجنوب الإيطالى والجزر الأخرى أمثال مالطة وسردانية وقورشقة وغيرها ، ثم تابع نشاطهم البحرى تفوقه .

وسوف نستعرض أهم أوجه نشاط الفاطميين في غرب المتوسط ، وتحركاتهم العسكرية على الطبيعة ، ونحاول التعرف على أهداف هذا النشاط وطبيعته وما كان يرمى إليه من فوائد مادية ومعنوية .

لقد ورث الفاطميون من جملة ما ورثوه في المغرب العربي عن الأغالبة جزيرة صقلية ، والتوجه الجهادي إليها ، وحماية المصالح الإسلامية في الجنوب الإيطالي ، ولم تكن الأحوال الإسلامية في صقلية مطمئنة ، ولم يكن التحول الإسلامي فيها قد اكتمل بعد ، كما كان قد نشأ فيها أسر تخصصت في الحكم ، وخبرت أمر الجهاد فيما وراء البحار وورثته . كما استهوتها السلطة ومغرياتها ، ونمت عند بعض الأفراد فكرة الانفصال والاستقلال والتفرد في الحكم بهذه الجزيرة المنشقة على نفسها عرقياً ومذهبياً ما بين عرب وبربر نشبت الحروب فيما بينهم ، وتعمق الخلاف في النفوس ، بينما كانت بيزنطة خلال عهد الإمبراطور باسيل الأول (٢٥٤ - ٢٧٣هـ (٨٦٧ - ٨٨٦م) تحشد قوتها البحرية ، واستعادت نفوذها في مدينتى باري وطارنت ، ودعمت سيطرتها على قلورية وأبوليا ، وأعادت فرض سيطرتها عى مجموعة المدن الكمبانية ، وعلى رأسها نابلى وجاتيا ، وامالفى بحيث لم يبق تحت القبضة الإسلامية سوى إمارة مونت جاريلبانو الموجهة ضد الريف الإيطالي الجنوبي ، وهيأت الاضطرابات التي حدثت في أفريقية وصقلية الفرصة لإخراج المسلمين من معظم القواعد[٢٢] المهمة في صقلية .

وسار الفاطميون منذ بداية نفوذهم في صقلية على نهج الأغالبة في الجزيرة فاتخذوها مقراً وقاعدة انطلاق ، تثب منها قواتهم باتجاه إيطاليا ، ولقد كان آخر ولاة الأغالبة في الجزيرة ، أحمد بن أبي الحسين بن رباح ، ولم يكتب له البقاء طويلاً في منصبه ، حيث وصلت أخبار انتصارات الداعي أبو عبد الله الشيعي على زيادة الله الثالث الأغلبي فما كان من الأهالي في صقلية إلا أن ثاروا على واليهم وحبسوه ، ونصبوا على الجزيرة على بن أبي الفوارس في رجب سنة ٢٩٦ هـ / أبريل ٩٠٧م ، ثم أرسلوا الوالي المخلوع إلى رقادة ، وكتبوا يطلبون من أبي عبد الله الشيعي تثبيت أبي الفوارس ، فوافقهم على ذلك ، واشترط عليهم أن يقوم بواجب الجهاد براً وبحراً . وما إن هدأت أحوال الداعي ، حتى وجه كتبه إلى الأقاليم يدعوها إلى الطاعة ، وكذلك أرسل خطاباً إلى صقلية ، حض فيه أهلها على الجهاد ، وجاء فيه : " وأنتم معشر أهل جزيرة صقلية ، أحق بما أوليته من المعروف والإحسان ، وأسديته ، وأولى به وأقرب إليه ، لقرب داركم من دار المشركين وجهادكم الكفرة الظالمين ، وسوف أملأ إن شاء الله

جزيرتكم خيلاً ورجالاً من المؤمنين الذين يجاهدون فى الله حق جهاده ، فينصر الله الدين والمسلمين ، ويذل بهم الشرك والمشركين " (٢٣).

هكذا بدأت العلاقة بين أهالى صقلية من المسلمين والفاطميين ، وهى توضح ميل المسلمين فى الجزيرة إلى الاستقلال ، وحاجتهم إلى القوة التى تساندهم على أعدائهم المتربصين بهم ، لهذا سرعان ما اتجهوا إلى الفاطميين وقوتهم المنتصرة فى بلاد المغرب ، وأكد هذا التوجه فى العلاقات خطاب الداعى الشيعى قبل اعتلاء المهدى سدة الحكم .

وما إن بويع عبد الله المهدى بالخلافة حتى أقدم على تعيين زعماء قبيلة كتامة على أمر الولايات فى دولته ، وأرسل إلى صقلية " أحمد بن جنزير " (٢٩٧ - ٢٩٩هـ) (٩٠٩-٩١١م) أحد قادة كتامة والياً يتولى أمرها ، فوصلها هذا فى ذى الحجة(٢٤) سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠م ثم تتابع بعد ذلك أمر تعيين ولاة صقلية من الحاضرة الفاطمية فى المغرب ، وكان أول عمل لهذا الوالى على طريق الجهاد تصديه لإخماد ثورة فى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١م قام بها النصارى فى مدينة دمنش فى إقليم قلورية ، فعاثت القوات فساداً هناك . ثم رجعت محملة بالغنائم ، ولم يغفر له جهاده -وفشله فى إدارة الجزيرة- فثار عليه أحرار مدينة بلرم وخلعوه ، وكتبوا بذلك للمهدى ، فعين عليهم " على بن عمر البلوى " (٢٩٩ - ٣٠٠هـ) (٩١١ - ٩١٢م) ، وربما أنف المسلمون العرب أن يحكمهم رجل من المغاربة البربر ، بالإضافة إلى أخذه بالمذهب الإسماعيلى ، وطرحه لمذهبهم المالكى ، فرمى بالاستبداد وسوء السيرة .

كما تابع الوالى الذى تلاه أحمد بن زياد الله بن قرهب أو (قرعب) (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ) (٩١٢ - ٩١٦م) جهاده وهجماته على قلورية قبل أن يعلن ثورته ضد الفاطميين، وينقض بيعتهم - فى الجزيرة . وبعث بحملة صغيرة إلى كلابريا (قلورية) سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢م ، ثم عادت الحملة كسالفتها محملة بالغنائم والأسرى (٢٥) .

ثم استأنف الفاطميون حملاتهم العسكرية فى صقلية بعد القضاء فيها على التمرد الذى قاده ابن قرهب ما بين ٣٠٠ هـ / ٩١٢ إلى ٣٠٤ هـ / ٩١٦م ، والهدف منه الاستقلال عن الخلافة الفاطمية وعن أفريقية ، ومحاولة إعادة حكم الأغالبة فى صقلية ، وخاصة أنه كان أغلبياً(٢٦) ولم تكن تبعيته للخلافة العباسية إلا تبعية اسمية .

انطلق الفاطميون فى سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨م من صقلية ، وكان هدفهم مدينة " ريو " فى قلورية ، وحققوا نصراً عسكرياً هناك ، وأجبروا حاكمها على الالتزام بتجديد الهدنة ، ودفع

اثنين وعشرين ألفًا من القطع الذهبية كل سنة مقابل الحفاظ على أمن بلاده ، وذلك بموجب الاتفاق والمعايشة أو حسن الجوار مع العرب المسلمين، وهذا كان معقوداً مع كبار القادة والبطارقة فى كلابريا (قلورية) وفى جنوب إيطاليا ، فى حال عدم تمكن هؤلاء من صد الهجمات العربية الإسلامية عنهم . وهذه الإجراءات أدت إلى زيادة الضرائب على المواطنين فى كلابريا وغيرها ، وأدت إلى قيام ثورات منها تلك التى قامت ضد البطريق جان " موزالون " وقتله فيما بين ٣٠٨ هـ و ٣١٠ هـ / ٩٢٠ م و ٩٢٢م ، وتوافق هذه الثورة ، تعرض بلاد اللومبارد، وكلابريا لهجمات الأساطيل الفاطمية من المهدية ، وصقلية ، ونشاط البحرية الفاطمية فى تلك السنين (٢٧).

وقد رحبت الدولة البيزنطية بعقد الصلح السابق ذكره مع العرب المسلمين فى صقلية لانشغالها فى الحروب البلغارية (٢٨)، والحروب مع القوى الإسلامية فى شرق المتوسط ومياه بحر إيجة المجاورة لجزيرة كريت . غير أن هذا الصلح لم يحترم ، ولم يكتب له الاستمرار. وكعادة بيزنطة وحلفائها من الإيطاليين ، كثيراً ما كانوا يقومون بنقض أى حلف مع المسلمين ، عندما تسمح ظروفهم بذلك ، لذلك استؤنف النشاط البحرى باتجاه قلورية فى سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢م وأقدم القائد الفاطمى " مسعود الفتى " وهاجم مدينة " شنت اغاثى " القريبة من "ريو"، واجتاحتها قواته ، وعاد إلى المهدية محملاً(٢٩) بالغنائم والأسرى .

وتتابعت الحملات العسكرية الفاطمية باتجاه الجنوب الإيطالى ، فقامت حملة سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م بقيادة الحاجب الوزير " جعفر بن عبيد " ويبدو أنها لم تخرج فى وقت ملائم ، ولهذا فقد عادت من بلاد الروم ، دون أن تتمكن من تحقيق أهدافها ، فى حين تورد بعض المصادر أن جعفر الحاجب استولى على بريصانة (٣٠).

ثم أمر المهدى بتكثيف الجهود البحرية ضد جنوب إيطاليا ، وتجلى ذلك بقيام حملة مزدوجة باتجاه إيطاليا سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥م ، قامت إحداها من صقلية بقيادة أميرها سالم بن أبى راشد (٣١٣ - ٣٢٥هـ) (٩٢٥ - ٩٣٦م) والثانية انطلقت من المهدية بقيادة الحاجب " جعفر بن عبيد " وعلى الرغم من التنسيق الظاهر فيما بينهما فإن كلاً منهما اتجه فى طريق خاص ، وكان محور حملة بلرم باتجاه اللومبارد حيث تمكنت من فتح مدينتى غيران ، وأبرجه ، وغنمت مغانم كثيرة ، ثم عادت الحملة بعد ذلك نحو " كلابريا " وفتحت طارنت عنوة ، ثم عرجت باتجاه " ادرنت " ولما لم تتمكن من فتحها ، أقدمت على تخريبها وهدم منازلها . ثم عادت هذه الحملة إلى صقلية بعد تعرضها لوباء أصاب مقاتليها .

أما الحملة التى انطلقت من المهدية بقيادة الحاجب جعفر ، فقد أخذت محور تارنت ، واجتاحت مدينة " أورية "(٣١) وقتلت الألوف من رجالها ، وسبت عشرات الألوف من نسائها ، وكان من بين الأسرى أحد البطارقة الذى دفع خمسة آلاف دينار عن نفسه ومدينته ، وأثناء عودة الحاجب جعفر إلى صقلية عبر " كلابريا " وهادن أهلها ، فدفعت له الجزية ، واصطحب معه رهائن مهمين بينهم أسقف صقلية ، وحاكم قلورية " كلاريا " ، وبعد أن عرج على صقلية لإصلاح أحوالها ، وأخبر المهدى بالغنائم الوفيرة ، التى قال المهدى عنها بأن قائده جعفر لم يعطه من " الجمل إلا أذنه " كما أرسل المهدى فى سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م إلى صقلية شيوخًا من المهدية برفقة الوالى سالم ، فقاموا بجباية الضرائب من أهلها دون ذكر للأسباب والتفاصيل(٣٢).

وفرضت هذه الانتصارات التى تحققت إثر هذه الحملة المزدوجة سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥م أمرًا واقعًا ووجد حاكم قلورية أن المصلحة والحكمة تقضيان أن يقوم بتجديد الهدنة وعقد الصلح الذى تضمن دفع الجزية وقدرها أحد عشر ألف قطعة ذهبية (٣٣).

ثم أسند الخليفة الفاطمى المهدى ، أمر الأسطول إلى الفتى الصقلبى " صابر " وأمره على رأس جيش كبير طالبًا منه سرعة الهجوم على السواحل الإيطالية الجنوبية . فقام هذا الفتى بثلاث حملات متتالية خلال الأعوام ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ هـ / ٩٢٧ و ٩٢٨ و ٩٢٩م ، اتجهت الأولى إلى صقلية ، حيث انطلقت إلى الجنوب الإيطالى ، وفتحت أماكن عديدة منها: اوترنتو، Otrente أما حملة صابر الثانية فكان هدفها السواحل التيرانية من جنوب إيطاليا ، وهاجمت " الغيران " وقلعة الخشب ، وأخذت ما فيهما ، وتابعت توجهها إلى " ساليرنو " فصالحها أهلها على فدية من المال والديباج ، ثم أقلعت إلى نابولى ، وصالحتها على نفس الشروط السابقة . وعرج صابر قبل عودته إلى كلابريا فعقدت معه هدنة سنوية ، مقابل مقدار من المال . أما الحملة الثالثة للفتى صابر سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩م ، فهى عبارة عن غارة صغيرة، تقدمت باتجاه البحر الأدرياتى وهزمت السفن الرومية بقيادة حاكم كلابريا "سردغوس" ، ثم تقدم صابر مقتحمًا مدينة " ترمولة " وأخذ منها سبيًا كثيرًا قدر باثنى عشر ألفًا ، قبل العودة إلى المهدية (٣٤). وتذكر بعض المصادر بأن القوات المشتركة الصقلية والمغربية بقيادة الأمير سالم بن راشد ، والقائد الفتى صابر الصقلبى الذى كلفه المهدى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩م، بالاستيلاء على مدينة طارنت وادرنت قامت بالمهمة وتمكنت بمساعدة سالم

من تحقيق النصر ، ولذلك أجبرت قلورية على دفع الجزية التى استمرت تسددها طيلة حكم المهدى [٣٥].

بدأ عهد القائم الفاطمى (٣٢٢ - ٣٣٤هـ) (٩٣٤ - ٩٤٥م) ، بحملة عسكرية بحرية قادها يعقوب بن اسحق التميمى انطلقت من المهدية فى رجب من عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٤م ، وذلك فى السنة الأولى من حكم القائم ، واتجهت الحملة لغزو بلاد الروم ، وصادفت الحملة فى طريقها مراكب للروم فأخذت تجارتهم ، وأسرت من فيها ، وتقدم يعقوب صوب مدينة جنوة ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً ، واضطروا للاحتماء بسور المدينة ، فشدد عليهم الزحف حتى فتحها وسبى من فيها ، وغنم منها البز والحرير والكتان ، ثم أقدم على حرقها ، ثم غادر الأسطول الفاطمى المدينة ، بعد أن انتشرت أصداء هذه الغزوة بين المسيحيين والمسلمين ، ومر فى طريقه على سردينيا ، وقرقيسيا [٣٦].

اضطربت أحوال الجزيرة بدءاً من عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦م واستمر ذلك إلى سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م ، وتحركت الفتنة نتيجة لسوء سيرة الوالى سالم بن أبى راشد ، وثارت جرجنت ، وبلرم وزاد العصيان فى سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨، بعد تدخل الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول (٣٠٧ - ٣٣٣ هـ) (٩٦٩ - ٩٤٤م) فجاءت نجدة فاطمية من المهدية مساندة لسالم بقيادة خليل بن اسحق ، الذى ضرب المتمردين بعنف وقسوة ، وأجبر الكثرين على الفرار إلى بلاد الروم حيث تنصر بعضهم [٣٧]، وأقدم على هدم تحصينات بلروم وأزالها وبنى قاعدة جديدة بديلة عنها وهى عبارة عن قلعة حصينة عرفت بالقصبة ثم أطلق عليها " الخالصة " .

أما المهدية فكانت تنوء تحت ثورة هزت الكيان الفاطمى وهددته بالأفول وهى ثورة أبى يزيد مخلد الخارجى ، ولهذا لا نستغرب أن يصاب النشاط الفاطمى البحري فى غرب المتوسط بالضعف حتى القضاء على الثورة فى سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م .

وما إن تخلص الخليفة الفاطمى المنصور (٣٣٤ - ٣٤١هـ) (٩٤٥ - ٩٥٢م) من ثورة أبى يزيد الخارجية فى المحرم من سنة ٣٣٦ هـ / يوليو ٩٤٧م ، حتى استبدل الوالى ابن عطاف (٣٢٩ - ٣٣٦هـ) (٩٤٠ - ٩٤٧م) بقائد آخر مجرب شحذته الأحداث وتمرس بالقتال وفنونه وعينه على صقلية وهو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى (٣٣٦ - ٣٤١هـ) (٩٤٠ - ٩٥٢م) وهو مقدم الأسرة الكلبية ، ومن أخلص أنصار الدولة الفاطمية وكبار قوادها ، وكان أبوه من أعوان الدولة الفاطمية فى صقلية وقتل أثناء أحداث سنة ٣٢٧هـ /

٩٣٧م، في ثورة جرجنت على الفاطميين. ولقد وفق المنصور في هذا الاختيار ، حيث أثبت الحسن أنه على قدر مسئولية وقيادة صقلية وإدراك قضاياها الاستراتيجية الخارجية ومشاكلها الداخلية السياسية والعرقية والمذهبية ، وكانت إمرته عليها بداية عهد جديد في تاريخها . فإليه يرجع الفضل في إصلاح أحوالها ، وضبطها ، وتكوين أسرة حاكمة فيها تناوبوا أمرها، ورفعوا من الشأن الفاطمي، وجعلوها من أقوى القوى البحرية الكبرى في المتوسط برفعيه الغربي والشرقي، وكان لشخصية الحسن الأثر في محبة الصقليين والتفافهم حوله، وتمكن من أن يقضي على الفتن ويتغلب على مقاومة العصبيات القوية التي يأتي على رأسها بنو الطبري، الذي فرض عليهم عقوبات قاسية(٣٨) .

فرض الحسن الكلبي هيبة الحكم الفاطمي في صقلية ، مما اضطر الروم لتقديم مال الهدنة المتراكم عليهم منذ ثلاث سنوات، وكانوا قد امتنعوا عن دفعه للوالي الفاطمي سالم ابن راشد ، ثم مد الحسن نفوذه باتجاه كلابريا والجنوب الإيطالي بعد أن كان قد استقر لصالح بيزنطة أثناء الحروب في الجزيرة في أواخر حكم سالم بن رشاد وفترة تسلم خليل بن إسحق زمام في صقلية(٣٩) .

بدأت الاستعدادات والتنافس يتصاعدان في الجنوب الإيطالي، وجاءت الإمدادات العسكرية من المهدية يقودها الفتى فرج مولى المنصور، واتجهت القوات الفاطمية بتشكيل عسكري بري وبحري إلى مسينا ، ثم إلى «ريوه» أوريه وانهزمت قواتها ، فتحركت الجيوش إلى قلورية (كلابريا) وحاصرت مدينة جراجة ، وأجبرتها على الصلح ودفع الفدية المالية للحسن الكلبي ، الذي أسرع بقواته نحو الروم الذين اعتصمت قواتهم في مدينة باري (باره) ، واستقر حول مدينة قسانه ، متخذاً منها مركزاً للقيادة والإشراف على إدارة العمليات العسكرية ، وانتهت الأحداث بسرعة حيث عقد صلح سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م وعادت قوات الحسن في إثره إلى مسين ورابطت فيها ، وانتقل هو إلى بلرم، منتظراً تحسن الأحوال الجوية للانقضاض بقواته على جراجة حيث التجمع الكبير للقوات الرومية التي تتأهب للقتال فالتحمت القوتان في شهر ذي الحجة من سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م بمعركة حاسمة انتصرت فيها القوات الفاطمية انتصاراً ساحقاً ، وهزم التجمع البيزنطي الرومي الإيطالي، وانتهوا بين قتيل، وهارب وأسير (٤٠)، وكثرت الغنائم ، وفتحت الحصون ومنها رمنسة، ولطرة، وأرسلت الأعداد الكبيرة من السبايا إلى المهدية وكان بينهم قائد الأسطول الرومي الذي صلب فيها(٤١) .

وفى سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢م قصد الحسن الكلبى جراجة ، وحاصرها ، مما أجبر الإمبراطور البيزنطى قسطنطين على إرسال مبعوثه " جان بلاطوسى " إلى الخليفة الفاطمى المنصور بالله بشأن طلب الهدنة ، بعد هذه الانتصارات المظفرة للقوات الإسلامية فى قلورية ، وقابل هذا المبعوث الخليفة المنصور فى عاصمته الجديدة المنصورية ، وتقبل منه هداياه ، وكتب إلى جوذر ومولاه وواليه على المهدية ، أن يكافىء السفارة بأحسن ما قدمته ، وأوكل إلى واليه على صقلية الحسن بن على الكلبى ، مفاوضة المبعوث البيزنطى بشأن طلب الهدنة ، ووقعت الهدنة بين الطرفين ، وكان من أهم شروطها بناء مسجد فى مدينة " ريو Reggio " ، بكلورية ، وتعهد البيزنطيون بالمحافظة عليه ، والسماح لأسرى المسلمين(٤٢) بأداء الصلاة فيه وأن يكون ملجأ آمنًا لأسرى المسلمين ، وبعد ذلك عاد الحسن إلى صقلية ، حيث وصلته الأخبار بوفاة الخليفة المنصور فى شوال سنة ٣٤١هـ/ فبراير ٩٥٣م، وقيام خلافة المعز (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) (٣٥٢ - ٩٧٥م) ، فنزل صقلية متجهًا إلى المهدية ، وأبقى على الجزيرة ولده أبا الحسين أحمد بن الحسن بن على الكلبى (٣٤١ - ٣٥٣هـ) .

أقر الخليفة الفاطمى المعز أحمد بن الحسن بن على الكلبى على صقلية ، وهكذا تحول الحكم فيها إلى حكم وراثى فى بنى أبى الحسين الكلبى ، وعرفت صقلية والأقاليم الواقعة تحت النفوذ الفاطمى فى قلورية والجنوب الإيطالى الهدوء النسبى والاستقرار لعدة أعوام فى ولاية أحمد .. وقد يكون ذلك متعلقًا بالأوضاع الداخلية لكل من بيزنطة والخلافة الفاطمية ، ولم تنته سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٦م حتى أقدمت بيزنطة على نقض الاتفاق السابق ، وأرسل الإمبراطور البيزنطى قواته التى تمكنت من احتلال بعض القلاع فى صقلية ، وأرسل الإمبراطور البيزنطى قواته التى تمكنت من احتلال بعض القلاع فى صقلية ، منتهزة وضع المعز الداخلى ، ومحاولته استكمال السيطرة على بلاد المغرب ، وما إن استقرت أمور الفاطميين ، حتى تحركت قواتهم باتجاه صقلية ، بهدف إعادة الهيمنة الكاملة الفاطمية عليها ، وعلى ما وراء البحار فى الجنوب الإيطالى ، وضمن هذا التوجه انطلقت قوة فاطمية فى عهد أبى الحسين أحمد إلى صقلية من أفريقية بقيادة عمار بن على بن أبى الحسين الكلبى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٧م ، ونزل الأسطول الفاطمى فى بلرم ، منطلقًا فى الصيف إلى الجنوب الإيطالى ، وهكذا عادت الحروب بين القوتين البيزنطية والفاطمية وحققت القوات الفاطمية بعض الانتصارات ، وهذا ما يفسر وصول سفارة بيزنطة إلى المنصورة سنة ٣٤٥هـ ، ولم يستجب الخليفة لهذه

السفارة وطلب من قواته مهاجمة الأسطول البيزنطى عند سواحل صقلية ، فدحر البيزنطيين إلى (قلورية) بعد هزيمتهم[٤٣] ، وجاء فى العام التالى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م إلى المنصورة سفير بيزنطى يحمل الهدايا والأموال الكبيرة ويبلغ الخليفة رغبة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (٣٠١ - ٣٤٨هـ) (٩١٣ - ٩٥٩م) ، فى وقف الغارات الإسلامية على أرض قلورية ، ويتعهد بدفع الجزية ، وإطلاق أسرى المسلمين فى المشرق[٤٤] ، فقبل الخليفة ، ورأى فى ذلك صلاحًا للدين والمسلمين .

ولم يكن البيزنطيون يلتزمون بالعهود إلا إذا كانت لصالحهم ، أو فى حال عجزهم عن المواجهة ، ولهذا تراهم يتحركون فى صقلية والجنوب الإيطالى ، وفى هذا الإطار قام ضابط بيزنطى باقتحام ريوه ، وهدم المسجد فيها ، ومهاجمة الشواطىء الصقلية ، والاستيلاء على مدينة ترميني Termini ، فتحركت القوات الفاطمية بقيادة أبى الحسين أحمد فى سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م وعبر مضيق مسينا إلى كلابريا والتقى أبو الحسين مع عمه عمار ، واتجها بقواتهما للقاء قوات " كلابريا " الذى هرب أمامهم بعد أن أخذ بعض سفن المسلمين [٤٥] ، واستمرت المناوشات الحربية بين الطرفين فى الأعوام التالية . إلي أن جاءت فى سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م فاشتركت القوات الفاطمية فى صقلية والمغربية الفاطمية فى حصار قلعة طبرمين الجديدة واستمر الحصار مدة سبعة أشهر تم خلال قطع الماء عنها فأجبرت على طلب الصلح ، وتحولت بعد أن سكنها المسلمون إلى مدينة فاطمية ، وأمر المعز بتسميتها المعزية تيمنًا به[٤٦] ، وأرسل بالكثرة من أسراها إلى المهدية فى أفريقا .

وربما كان التوجه الفاطمي يهدف إلى تحويل المنطقة الجنوبية الجبلية وجنوب مسيني إلى مناطق إسلامية ، وتحويل المدن المسيحية إلى مدن خاضعة للمسلمين ، والعمل على نشر الإسلام فى جميع المناطق ، عن طريق زرع المستعمرات الإسلامية ، وعلى غرار ما حدث فى طيرمين التى صودرت أملاك أهاليها ، وحول اسمها إلى المعزية ، وهذا ما أكده المؤرخ الفرنجي جي .

كما تمكن الأمير أحمد من استعادة رمطة وهى مدينة هامة فى صقلية تبعد عن مسين تسعة أميال ، بعد أن كانت قد خرجت عن طاعة والى صقلية ، وطلبت النجدة من الإمبراطور البيزنطى تقفور فوكاس (٣٥٢ - ٣٥٩هـ) (٩٦٣ - ٩٦٩م) ، فأرسل إليها نجدة تقدر بأربعين ألفًا بقيادة البطريق نقيتاس ، وإلى جانبه مانويل ابن أخي الإمبراطور ، وقائد فرقة

الخيالة ، وتلقى أحمد قوة فاطمية من المهدية قادها والده الحسن الكلبى ، واستلم قيادة القوات الفاطمية التى تولت مهاجمة رمطة وحصارها بقيادة الحسن بن عمار بن على الكلبى ، وحدثت المعركة الحاسمة ، وكان البيزنطيون مقتنعين بحتمية النصر بسبب كثرتهم ، لكن البسالة الإسلامية ، والخطط المفاجئة قلبت نتيجة المعركة ، وتحقق النصر للقوات الفاطمية ، وقتل مانويل ، وارتبك الجنود البيزنطيين وسقطوا فى حفرة ، وقتل بعضهم بعضاً ، ثم هوجمت رمطة وفتحت فى سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤م ، وتتبع المسلمون الجنود المنهزمين ، وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحد (٤٧).

واستثمر المسلمون هذا النصر فلاحقوا القوات البيزنطية التى تجمعت من جيش مانويل ، أخذت معها من وجدته من روم صقلية ، وجزيرة ريوه ، وغيرهم لمواجهة المسلمين ، وتحصنت فى البحر انتظاراً للحظة الحاسمة وما سيتم تقريره ، ولهذا سارع الأمير أحمد وزحف لقتال هذا التجمع فى البحر ودارت معركة بحرية أظهر فيها الصقليون كفاءة عالية فى القتال البحرى حيث نزل بعض الغطاسة ، ونقبوا السفن المعادية ، فغرق معظمها ، وقتل الكثير من رجالها ، ولم يكن أمام الروم إلا الانسحاب والاعتراف بالهزيمة التى عرفت باسم وقعة المجاز ، ولم يكن أمام المدن الإيطالية إلا طلب الهدنة من جديد سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م ، وتم لهم ذلك مقابل دفع الأموال والفدية المتفق عليها (٤٨).

وقبل مغادرة المسلمين رمطة تركوا فيها حامية من أجل حمايتها ، وإعمارها لمنع الروم والنصارى من العودة إليها ، كما فعلوا فى طبرمين ، وقد اعتبر بعض الباحثين الفرنجة هذا الإجراء من مسلمى صقلية ولاسيما الوالى أحمد بن الحسن بن على الكلبى محاولة لإزاحة البقية المتبقية من المسيحيين فى صقلية ، وإنشاء مستعمرات إسلامية مكانها بهدف نشر الإسلام فيها ، وهذا ما يتفق مع سياسة المعز الدينية فى نشر الإسلام والمذهب الإسماعيلى ، وهو ما حاول تنفيذه الأمير الصقلبى (٤٩).

بعد هذا النصر الحشدى الذى تحقق فى وقعتى الحفرة والخندق والمجاز - اتجهت المدن الإيطالية والقوى الرومية إلى طلب الصلح وتحقق لها ذلك فى سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥م ، بعد دفع الأموال المفروضة ، كما أجبر نقفور فوكاس المقاتل العنيد ضد المسلمين على طلب الصلح، وعقد مع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م اتفاقاً ودفع الجزية ، بعد سفارة حملت هدايا نفيسة شملت بعض الأوانى الذهبية المرصعة بالجوهر ، وأبلغت الخليفة المعز رغبة

الإمبراطور فى عقد الهدنة بشروط الهدنة الأخيرة المتضمنة وقف القتال ، ودفع الجزية ، وإطلاق سراح مجموعة من أسرى المسلمين المشارقة [٥٠]. ولقد ذهل السفير البيزنطى نيقولا Nicholaa وهو أحد أشراف البلاط البيزنطى ، أثناء حفل استقباله فى المنصورية ، وأدهشه ما رآه من مظاهر الأبهة والعظمة والإجلال للحضرة المعزية .

وقبل أن يتوجه المعز إلى مصر اقتضت السياسة الاستراتيجية الفاطمية إعادة النظر فى ممتلكات الدولة الفاطمية فى إقليم المغرب الإسلامى وتنظيم أمورها بما فى ذلك صقلية وضمن هذا التوجه الجديد أعفى المعز بنى الحسن الكلبيين من حكم صقلية ، رغم ما بذلوه من جهود وتضحية لتثبيت الحكم الفاطمى فى المغرب وصقلية وفى ما وراء البحار ، فأقدم المعز فى سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م على استدعاء أبى الحسن أحمد بن الحسن من صقلية إلى المهدية مع جميع أفراد الأسرة وخدمها وأنصارها ، وعين على الجزيرة أحد مواليهم وهو يعيش مولى الحسن نفسه [٥١]، حتى يخفف من وقع هذا الانقلاب المفاجىء وتأثيراته على أفراد هذه الأسرة ومكانتها ، ولا شك فى أن المعز تخوف من تفكير هؤلاء بالاستقلال عن الدولة والتفرد بحكم الجزيرة بعد أن تصبح الفرصة مناسبة إثر انتقاله المرتقب إلى مصر .

لم يكن الوالى الجديد على مستوى المسؤولية ، ولم يتمكن من ضبط أمور الجزيرة فأثيرت النزعات القبلية بين كتامة ومنافسيها ، وحدثت الفتنة ، وعدم الاضطراب ، وخشى المعز من طمع الأعداء ، وتحركهم ، فما كان منه إلا أن اضطر إلى إعادة الحكم فى الجزيرة إلى آل بنى الحسن الكلبيين ، فعين أبا القاسم بن الحسن بن على بن أبى الحسين نيابة عن أخيه أحمد الذى بقى فى المهدية ، أميراً لصقلية ، ومات أحمد بعد مدة قصيرة فعهد المعز بأمر صقلية إلى أبى القاسم ، فارتاح أهلها لهذا التعيين وهمدت الفتنة ، وهدأت الأحوال ، بعودة الأمور إلى مجاريها ، وعاد حكم الجزيرة لهذه الأسرة بعد أن أجبرت الأحداث العسكرية المعزّ على الاعتراف لها بحكم وراثى فى صقلية [٥٢].

وهكذا استقرت الأمور فى صقلية داخلياً وخارجياً ، واطمأن الخليفة المعز على أملاكه فى صقلية ، وفيما وراء البحار ، كما اطمأن على سلطانه فى المغرب العربى ، واستمر السلام بعد انتقاله إلى مصر فترة اتخذ خلالها التوجه الفاطمى منحى جديداً ، وسياسة خارجية جديدة تخضع لمؤثرات مستجدة شرقية وربما مختلفة ، وكان على الفاطميين أن يتعاملوا بجدية مع المعطيات الجديدة بعد استقرارهم فى مصر .

ربما كانت أهم الآثار التى ترتبت على السيطرة الإسلامية الجديدة على البحر المتوسط الغربى ، وهذه السيطرة كانت نسبية غير مطلقة وقد جاءت من باب التعميم غير الدقيق ، والمقصود بالسيطرة ، أن الغلبة فى البحر المتوسط بجزأيه الغربى والشرقى غدت تحت الإشراف العربى الإسلامى ، وزال الخطر البيزنطى الذى كان كثيراً ما يحد من النشاط التجارى فيه ، عندما كانت بيزنطة تستخدم أسلوب السلبية(٥٣) التجارية عن طريق سيطرتها على المتوسط، والتحكم فى مفاتيحه ، لأطماعها ومكاسبها الخاصة ، ضاربة بالمصالح البشرية عبر الحائط .

ظهر فى هذه الفترة للعالم الإسلامى ثلاثة مراكز متميزة للقوات الإسلامية البحرية فى حوض البحر المتوسط ، الأول فى الغرب ممثلاً للقوة الأموية فى الأندلس ، والثانى فى الوسط ، وهى قوة الأغالبة التى ورثتها الدولة الفاطمية ، أما الثالثة فكانت فى الشرق متمثلة بقوة البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، وكان أهم هذه المراكز وأقواها القوة التى تركزت فى الشمال الإفريقى وفى صقلية أيضًا . وقد ورث الإشراف عليها وعلى قيادتها وتطويرها الفاطميون منذ سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م كما رأينا (٥٤).

وكان الاحتكاك العسكرى البحرى بين قوات هذه المراكز الثلاثة ضعيفًا وغير ظاهر ، إلى أن قامت الخلافة الفاطمية ، معلنة شعاراتها الطموحة ، ونظريتها التوسعية ، واستخدمت قوتها البحرية ضد أملاك الخلافتين العباسية فى الشرق والأموية فى الغرب ، وظهر كل ذلك فى الحملات العسكرية المتكررة إلى مصر ابتداء من عهد المهدى الخليفة الفاطمى الأول وإرسال الحملات العسكرية البرية والبحرية منذ عام ٣٠١هـ / ٩١٣م ، واستمرار ذلك التوجه إلى أن تمكن الخليفة المعز وقائده جوهر من تحقيق الحلم الفاطمى فى مصر ، ومعلوم أنه كان يرافق هذه الحملات البرية وحدات بحرية ترافقها وتساندها وتحمل لها المؤن والذخيرة وما تحتاجه (٥٥).

كما قام الفاطميون بالتحرش بالأمويين فى الأندلس ، ولم يكتفوا بالنشاط الفكرى ، ومؤازرة الثوار على الحكم الأموى ، إنما تجاوز ذلك إلى غزو الأملاك الأموية فى الأندلس سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م ، وتكرر هذا الغزو فى سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م عندما قام الأسطول الفاطمى من صقلية فى عهد الخليفة المعز وغزا ميناء المرية الواقع فى جنوب شرق الأندلس ، وأحرق مراكبه والمخازن الخاصة بالسفن ، وما فيها من معدات بحرية من الصوارى والعدد ونهب جميع ذخائرها ، ثم عاد الأسطول الفاطمى محملاً بالغنائم إلى المهدية(٥٦) ، ومعلوم أن الأمويين ردوا على المشروع الفاطمى بإجراءات سريعة ، وفعالة ، وأبطلوه واستخدموا كافة السبل

حياله، بما فى ذلك التعاون مع الأعداء البيزنطيين ، الأمر الذى عمق الخلاف بين القوى الإسلامية فى غرب العالم الإسلامى ، وقاد ذلك إلى آثار سيئة على كلتا الدولتين ، وألحق الضرر الكبير بالمصالح العليا العربية الإسلامية وقدم كل ذلك الدليل الأكيد على وجود عوامل الانحلال الداخلى فى الدول الإسلامية ولم تتمكن البحرية الإسلامية من أن تقيم تعاونًا واضحًا وتحقق سيادة عربية معادلة لسيادة بيزنطة البحرية على المتوسط ، عندما كان واقعًا تحت نفوذها الذى استمر حتى[٥٧] سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م .

ورغم كل هذه السبيات الظاهرة ، وعلى الرغم من أن هذه السيادة العربية الإسلامية على البحر المتوسط كانت نسبية إلا أنها تركت آثارًا إيجابية اقتصادية عظيمة ، وأثرت بشكل واضح فى الخط التجارى فى معظم أقاليم هذا البحر المتوسط بالإضافة إلى الأسود ، وكان المستفيد الأول من هذا التحول الجديد ، والأكثر نفعًا من الوجهة الاقتصادية والتجارية سكان صقلية عامة والشمال الإفريقى خاصة ، حيث ازدادت أهمية سكان المنطقتين كوسطاء دوليين فى التجارة العالمية فى الشمال والواصلة بين سورية ومصر عن طريق صقلية وكريت وقبرص ، وتحكم هؤلاء الأفارقة فى نقل السلع بين الغرب والشرق ، وتقدموا على حساب التجار الشوام والأوربيين فقامت سفنهم وجابت هذه الأماكن لنقل السلع والتوابل والمنتجات الشرقية الفاخرة من مخازنها فى مصر والشام ، وإيصالها للغرب الإسلامى والأوربى .

هذه السيادة العربية على البحر المتوسط الغربى ، أدت إلى رخاء واضح لجميع بلاد المغرب كافة ، ويظهر ذلك بقوة عندما نقوم بعمل مقارنة بسيطة بين ما كانت عليه بعض المدن المشهورة فى الشمال الأفريقى فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع عندما كان النفوذ فى المتوسط لصالح بيزنطة كاملاً ، وبين هذه الفترة التى نحن بصدد دراستها منذ منتصف القرن التاسع وإلى نهاية القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، حيث يتضح لنا الفارق ، ونرى أن تونس والقيروان ورقادة ، وغيرها من المدن المغربية المهمة زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا ، زادت خيراتها وثراواتها وربما تضاعفت زمن الفاطميين على الرغم من فداحة الضرائب التى فرضها هؤلاء عليهم بهدف تحقيق مشروعهم التوسعى ، وما أدى إليه من حروب وصراعات فى المنطقة، وما استهلكه من أموال طائلة ، وخير مثال عن ذلك الثروة الهائلة التى انفقها المعز على حملته التى كلفت بفتح مصر والتى بلغت حصيلة ما جمعوه لها حوالى ٢٤ مليون دينار ذهبى ، وهو مبلغ مهم وكبير ويقدم البرهان الأكيد على التقدم الاقتصادى المتحصل من التجارة والصناعة فى الداخل والخارج [٥٩].

كما كان من آثار هذا التحول الجديد توسع تجارة الشمال الإفريقى مع مصر فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، وتوافد الكثرة من البربر وعرب أفريقيا إلى مصر واستقرارهم فى الإسكندرية ، وهؤلاء شغلوا دوراً مهمًا فى مساعدة الحملات الفاطمية على مصر بدءًا من الحملة الأولى وحتى حملة جوهر الصقلبى الأخيرة .

ومما يؤكد هذا التواصل الحضارى فى هذه الفترة ، بين الشمال الأفريقى وشرق البحر المتوسط ، انتقال الزراعات ، وبعض النباتات من الشرق إلى الغرب كزراعة القطن ، وقصب السكر ، والزعفران(٦٠) وغيرها من مواد زراعية وصناعية إلى بلاد المغرب وكذلك إلى صقلية، وفيما بعد ساعد هذا التنقل الذى ابتدأ من هذه الفترة ، على إيصال هذه البذور الحضارية إلى أوربا ، وعلى إنهاض الهمم فيها ، وغرس بذور الأمل فى نهضتها المرتقبة .

كما كان من آثار ذلك النشاط التجارى الوصول إلى أعماق القارة الأفريقية وإلى مناطق تواجد الرقيق ، وتوفر الذهب ، فوجدت مسالك وطرق جديدة فى العصر الفاطمى ، لتؤمن للقوافل الوصول إلى السنغال والنيجر والسودان ، مخترقة الصحراء ، حيث الذهب والرقيق الأسود ، وهذا ما زاد فى أهمية سجلماسة على هذا الطريق ، منذ أن شيدها الرستميون فى سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م ، وغدت من أهم المراكز على الطرق التجارية المتجهة إلى أماكن هذه السلع المهمة فى أفريقية ، ومن المظاهر الدالة على ازدهارها فى القرن العاشر أن الضرائب المفروضة عي هذه التجارات السودانية بلغت حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ألف دينار سنوياً (٦١).

كما استفادت مصر هى الأخرى من هذا الوضع الجديد ، وبلغت درجة من الرخاء خلال القرن العاشر على الرغم من الأحداث العسكرية التى تفجرت فيها منذ بداية القرن ، وربما كان التحول التجارى الذى أصاب التجارة الشرقية وانتقل بها عن طريق الخليج العربى والعراق ومراكزها كهرمز والبصرة إلى مصر والبحر الأحمر ، من العوامل التى ساعدت على ازدهار مصر ونهوضها الاقتصادى ، حيث تشير بعض المصادر لهذا النشاط وازدهارها المراكز الواقعة على هذا الخط أمثال عدن(٦٢) والإسكندرية التى أصبحت مستودعاً كبيراً لتجارة البحر المتوسط ، وغصت بتجار المغرب والبندقية وكذلك من القسطنطينية ، وشاركت الشام مصر فى رخائها رغم الصراعات الإقليمية فيها ، وانتعشت مدنها البحرية لاسيما طرابلس وبيروت وصور وجميع الموانىء والثغور الساحلية الإسلامية ، وذلك بسبب فتح البحر المتوسط أمام التجارة العربية الإسلامية ، وانتهاء التحكم البيزنطى(٦٣)، وما رافقه من سلبية تجارية كما أشرنا إلى ذلك .

ومن مظاهر هذا الرخاء التجاري ونشاطه أيضًا ، التغيرات التي رافقت استخدام الدينار الذهبي ، حيث عم انتشاره شرقًا وغربًا ، وغدت المناطق الإسلامية في الغرب والشرق تشكل وحدة اقتصادية نقدية واحدة ، وبعد أن كان استخدام الدينار حتى سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م مقتصراً على الشمال الأفريقي والشام ومصر وبعض أجزاء في إيطاليا ، أصبح في حوالي سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م نقداً دوليًا دون منازع واستخدم في جميع أنحاء العالم الإسلامي(٦٤) ما بين بلاد فارس والأندلس .

والأهم من ذلك كله أن السيطرة العربية الإسلامية على البحر المتوسط بجزأيه لم يكن لها آثار اقتصادية سلبية حتى على الأقاليم البيزنطية الشمالية ، وأسباب ذلك تعود إلى أنه لا توجد أية إشارات تشير إلى محاولة القوى الإسلامية عرقلة التجارة الدولية الذاهبة إلى الإمبراطورية البيزنطية أو القادمة منها ، أو التحكم فيها ، ومما يؤكد على ذلك انعدام ما يدل على أن الإمبراطورية البيزنطية تعرضت لأزمات اقتصادية خلال هذه الفترة المدروسة بل توضح القرائن أنها كانت تنعم برخاء اقتصادي هي الأخرى ، واستمرت القسطنطينية من المراكز الصناعية والتجارية المهمة في عالم البحر المتوسط وبين شعوبه (٦٥)، وبقيت عملتها رائجة ، ونقدها الذهبي نقيًا ، وواسع التداول ، وتوسعت الأعمال المصرفية ، وزادت أرباحها وجاء ذلك نتيجة للرخاء الذي عمّ العاصمة القسطنطينية ، واستمرار علاقاتها التجارية مع الغرب بواسطة المدن التجارية الإيطالية أمثال البندقية وغيرها .

أما الوضع الاقتصادي في أقاليم الغرب اللاتيني المهمة ، فإنه اختلف تمامًا عن بقية بلاد البحر المتوسط ، وغدت مناطق الساحل المسيحي في المتوسط من برشلونة حتى نهر التيبر تشكل مناطق مهجورة ، وميتة ، واختفت معالمها المتقدمة السابقة التجارية وغيرها وضعفت أمام التحدي العربي الإسلامي في الأندلس .

أما مدن ساحل إيطاليا الغربي أمثال أمالفي وجاتيا ، وسلرنو ، ونابولي فقد حظيت بشيء من التقدم ، ولم تلتزم كثيراً بتوجيهات بيزنطة ، وتمكنت بما ملكت من قوة من أن تحدد علاقاتها الاقتصادية مع العرب المسلمين على قدم المساواة ، وكذلك حدث مع البندقية على البحر الأدرياتي ، حيث استفاد تجارها من التفوق الإسلامي في البحر المتوسط ، واستمر تجار هذه المدن يتعاملون مع البلاد الإسلامية ، رغم اعتراضات بيزنطة والبابوية ، وكانت حاصلاتهم من الحديد والخشب والأسلحة ، إضافة إلى تجارة الرقيق هي التي درت على البندقية أرباحًا

طائلة فى أسواق العالم الإسلامى ما بين قرطبة وبغداد باعتبار أنه كان لهذه السلعة قيمة كبيرة فى قصور الحكام ، كما كان الخشب والحديد من المواد المهمة فى الصناعات البحرية والحربية وكانت دائمًا مطلوبة على طول السواحل البحرية فى المتوسط (٦٦). وقد تميزت نابلى عن غيرها من المدن الإيطالية فى علاقاتها مع العرب المسلمين ، وكثيراً ما كانوا ينقلون إضافة إلى الحديد والخشب العبيد والمنسوجات إلى الأسواق الإسلامية ، ويعودون محملين بزيت الزيتون والسلع الشرقية والمصنوعات فى بلرم ، وشمال أفريقية .

جملة القول إن فترة السيطرة الإسلامية على حوض المتوسط من ٢١٢هـ / ٣٤٩هـ (٨٢٧ - ٩٦٠م) كان لها تأثيرات إيجابية واضحة على مجمل النواحى الاقتصادية لاسيما التجارية على شعرب ذلك البحر ، حيث شهدت انتعاش العديد من الطرق التجارية ، واتضح تفوق الشمال الأفريقى وتقدمه ، وسيطرته على تجارة البحر المتوسط ، وعلى الرغم من هذا التقدم للشمال الأفريقى ، فلم يكن حائلاً دون الرخاء التجارى الشامى ، كما أن البحر الأحمر وتجارته نهضت ولاقت كل ازدهار ، وتبين أن العالم الإسلامى بجملته شهد فى هذه المرحلة تقدمًا ظاهراً، كما أن بيزنطة لم تخرج عن هذا الإطار فزاد رخاؤها ، ووصلت إلى أوربا كما أشرنا عن طريق البندقية وبعض المدن الإيطالية القديمة ، وبوساطة الطرق الواصلة بين البحرين الأسود والبلطى .

وهذا العصر يعد من العصور الحيوية المميزة فى تاريخ البحر المتوسط حيث تبدل النظام الاقتصادى القديم ، وحدث تعديل فى التحولات الاقتصادية للأقاليم الاقتصادية الغربية من زراعية إلى صناعية ، وشاركت المدن الإيطالية الوساطة التجارية ما بين الشرق والغرب ، وكل ذلك أخذ يشكل الخطوات الأولى نحو السيطرة الغربية فى البحر المتوسط التى أخذت تتحكم فى الأقاليم العربية الإسلامية الغربية شيئًا فشيئًا ، وأدى ذلك كله إلى التحكم الأوربى الغربى فى شؤون هذا البحر المتوسط ، والتسلط على مصيره ، وخيرات شعوبه ، ومن ثم إحكام القبضة عليه .

الهوامش

١ - ارشيبالد : القوى البحرية ، ص ٩٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ : تاريخ البحرية الإسلامية ج٢ ص ٢٣ ، ٢٤ .

٢ - انظر : فاريليف : العرب والروم ، ص ٦٣ ؛ وجوردن : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة صقلية ؛ الواقدى : فتوح الشام ومصر ص ٤١٣ ؛ تقى الدين عارف الدورى : صقلية علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربى حتى الغزو النورمندى : ص ٢٣ ، بيروت ١٩٨٠ .

٣ - المصادر والمراجع السابقة .

٤ - ٥ - انظر أقوال الرحالة العرب المسلمين ، المكتبة الجغرافية الصقلية ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٨١ ... إلخ ؛ ابن عذارى : المغرب البيان ج١ ، ص ٢٣ ؛ صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى، ص ٧٥ .

٦ - ٧ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ٢٠٠ ؛ صابر دياب : سياسة ، ص ٩١ / ١٤١ .

٧ - المقريزى : اتعاظ ، ج٢ ، ص ٩٢ ؛ جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٢٢ ، وقيام الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٢٦ ؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية ، ص ٤٩ .

٨ - ابن عماد : أخبار ملوك بنى عبيد " لعله هو عبد الله وليس عبيد الله وإنما عبيد الله هو تصغير لاسمه ، ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٣٩ ؛ المقريزى : اتعاظ ، ص ٨ ؛ عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، ص ٨١ ط ٤ ، ١٩٩٤م .

٩ - المقريزى : اتعاظ ج٢ ، ص ٨٠ ؛ ماجد : ظهور ، ص ٨١ .

١٠ - القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ تحقيق الحبيب الفقى ، تونس ١٩٧٨ ؛ ماجد : ظهور ، ص ٨٦ وما بعدها ؛ محمد محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، ص ١١١ ؛ حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله الفاطمى ص ٤٦ ، ٣٠٣ وما بعدها ؛ العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ، ص ٥٢ .

١١ - المكتبة الصقلية ، ص ٢٥٠ ؛ عارف تامر : تاريخ الإسماعيلية ج ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٢ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ج٣ ، ص ٥٧ ، ٦٢ .

١٢ - انظر : المقريزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ١٣٣ تحقيق الشيال ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ١٢٨ ط ١٩٥١م ، تحقيق الدهان ؛ السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ٤٥ ، تاريخ البحرية ج١ ، ص٩٩ .

١٣ - عريب بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى ، ص ١٧٣ ليدن ١٨٩٧م ؛ الكندى : الولاة ، ص ٢٦٩ ؛ المقريزى : اتعاظ ج٢ ، ص ٧١ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ،ج١ ، ص ٢٥٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية ج٢ ، ص ١٧٢ ، تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٠ .

١٤ - انظر : أرشيبالد : القوى ، ص ٢٢٤ .

١٥ - البكرى : المغرب ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩ وما بعدها ؛ ابن أبى دينار القيروانى : ص ١١ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ؛ العبر ج٢ ، ص ٦٢٨ ؛ التجانى : ص ٦ ؛ ابن حوقل : صورة ، ص ٧٣ ؛ سالم : البحرية الإسلامية ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ ؛ سعيد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ .

١٦ - انظر : الأنطاكى : تاريخ ص ٧٤٦ ، ٧٤٨ ؛ المقريزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ؛ صابر دياب : سياسة ص ١٠١ ، ١٠٣ ؛ سيرة الأستاذ جوذر : ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٢١ نشر محمد عبد الهادى شعيرة ، ومحمد كامل حسن ؛ حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله ، ص ٨٥ ، ١٨٦ ؛ ارشيبالد : القوى ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ؛ سالم : تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٢ .

١٧ - ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ١٤٧ ؛ سيرة الأستاذ جوذر : ص ١١٧ ؛ الأدريسى : نزهة ، ص ٩١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، المكتبة الجغرافية ، ص ١٣٤ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ١٤١ / ١٧٤ ؛ اليعقوبى : البلدان ص ٣٤٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٣ ، ٧٤؛ ابن حوقل : صورة ص ٧٧ ، ٨٤ ؛ البكرى : المغرب ، ص ٣٣ .

١٨ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ وعن أهمية صقلية والمواد الأولية فيها اللازمة لصناعة السفن : انظر : المكتبة الصقلية ٢٥ ومابعدها ٧٤ ، ٨٧ ... إلخ .

١٩ - ابن خلدون : العبر ج ٢ ، ص ٦٢٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ج١ ، ص٧٦ .

٢٠ - انظر : فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك العسكرى والاتصال الحضارى ج ٢ ، ص ١٩٢ ، القاهرة ١٩٦٧ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ١٧٢ ؛ البكرى : المغرب ، ص ٢٠ ؛ الإدريسى : نزهة ، ص ١٢٦ ، ١٢٨ ؛ سالم : تاريخ البحرية ج١ ، ص ٧٧ .

٢١ - ابن خلدون : ج ٢ ص ٦٢٧ ؛ سالم : البحرية ، ج١ ص ٧٧ / ٧٨ ؛ فتحى عثمان : الحدود ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ٣٤٧ .

٢٢ - انظر أرشيبالد : القوى ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ و ج٣ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

٢٣ – انظر : النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٦ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١٠٢ ؛ صابر دياب : سياسة ص ١٤١ نقلاً عن النويرى نهاية الأردب ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٣٤ حيث يذكر أن اسم والى الأغالبة الأخير هو " أحمد بن أبى الحسن بن رباح " .

٢٤ – ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٩ ، ٥٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ج ٢ ، ص ٦٦ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٢٠٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٩٨ ؛ تقى الدين الدورى: صقلية ، ص ١١٣ ؛ موريتو : المسلمون فى صقلية ، ص ١٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

٢٥ – انظر : ميخائل أمارى : المكتبة العربية الصقلية نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ص ٤٧٦ ، بيروت ليبسك ١٨٥٧م ؛ ابن خلدون : العبر ج ٣ ، ص ٣٦٥ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٧١ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٦ ، ١١٧ ؛ سعد زغلول عبد الحميد تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

٢٦ – وعن هذه الثورة وأحداثها : انظر : النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٦ ؛ الأنطاكى : تتمة تاريخ سعيد بن البطريق ، ص ٧٦٢ ، ٧٦٤ ، طبعة باريس ١٩٢٤ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٧١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ١٢٠ ؛ العبر ج ٤ ، ص ٢١٧ ؛ المقريزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ٦٨ ؛ تاريخ جزيرة صقلية ص ١٦٨ ؛ ابن عذارى : ج ١ ، ص ٢٣٣ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٨ ، ٩٩ ؛ عبد الله المهدى ص ٢٦٨ ؛ تقى الدين عارف الدورى : صقلية : ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٨ .

٢٧ – انظر : سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ نقلاً عن مؤرخ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ، ص ١٦٩ .

٢٨ – أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ؛ تقى الدين : صقلية ، ص ١١٧ .

٢٩ – تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٧ ؛ نقلاً عن مؤرخ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة العقلية ص ١٦٩ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ، ص ٢٦٤ ؛ وانظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ، ج٣ ، ص ١٥٦ .

٣٠ – ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٨٩ ، ٢٦٦ فى حين جاء فى تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ ، ١٧١ أن جعفر أخذ بريمانة ؛ انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٥٦ .

٣١ – الكامل : ج ٨ ، ص ١٥٩ ؛ ابن عذارى : ج ١ ، ص ١٩٠ و ط بيروت ٢٦٧ حيث يرد اسم المدينة " وارى " بدلاً من أوريه – وانظر : تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، المكتبة الصقلية لامارى ج ١ ص ١٧٠ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٧ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٧ ؛ وانظر أرشيبالد : القوى ص ٢٣٤ وورد اسم أورية " أريو " .

٣٢ - انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ص ١٥٨ نقلاً عن المكتبة الصقلية ج ١ فصل ٢٧ ، ص ١٧٠ .

٣٣ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ، ص ٢٧٠ ؛ تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ص ١٧٠ ؛ لويس أرشيبالد : القوى ، ص ٢٣٤ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ .

٣٤ - انظر : مؤرخ مجهول : جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٠ ؛ ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧٠ / ٢٧٥ ؛ ع . جاى : إيطاليا الجنوبية ص ٢١٨ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٩ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ .

٣٥ - الكامل ج ٦ ، ص ١٨٢ ؛ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ص ١٧٠ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٨ ؛ أرشيبالد : القوى ، ص ٢٣٤ .

٣٦ - انظر : العبر ج ٤ ، ص ٤٠ ؛ الكامل : ج ٦ ، ص ٢٤٦ ؛ وهناك اختلاف فى النصوص حول اعتبار جنوة من بلاد الروم أو الإفرنج انظر : سعد زغلول : ج ٣ ،و ص ٢٥٦ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٨٥ " حيث يقول إن جنوة من بلاد الروم ، وقارن ذلك مع افتتاح الدعوة ، ص ٣٣١ ، حيث تذكر افتتاح مدائن الروم فافتتحت جنوة ؛ انظر أرشيبالد : القوى ص ٢٣٤ " حيث يذكر أن الفاطميين أزعجهم النشاط البيزنطى فى غرب المتوسط فأرسلوا عام ٩٣٥ أسطولاً ليثبت دعائم سلطانهم فى مياه البحر التيرانى ، وأغار هذا الأسطول الفاطمى على مرونية وكورسيكا وربما على جنوة وتمكن من حرق العديد من السفن .

٣٧ - ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ، ص ٣٠٥ ، ٣٤٣ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء كج ٢ ، ص ٣٠٢؛ الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذ ، ص ٧١ ، ٧٢ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ؛ العبر ، ج٣ ، ص ٢٠٨ ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٦٠ ؛ عارف الدورى : صقلية ص ١١٧ ، ١١٨ .

٣٨ - انظر : الكامل : ج ٨ ، ص ٤٧١ ، ٤٧٣ ؛ العبر ج ٤ ص ٢٠٩ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١٠٨ ؛ سعد زغلول : ج٣ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

٣٩ - انظر : سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٦٦؛ نقلاً عن ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٧٢ .

٤٠ - انظر : الكامل ج٨ ، ص ٤٧٤ ، ٤٩٤ وأحداث سنة ٣٤٠ هـ . المكتبة الصقلية حيث يقابل سنة ٩٥٤م ٣٤٣هـ ، ج١ ، ص ١٧٤ و ١٧٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

٤١ - المصادر والمراجع السابقة .

٤٢ - انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٧٤ ، حيث يقول أن الحسن شرط على الروم إن أخرجوا حجراً من المسجد هدمت كنائسهم كلها بصقلية وأفريقية ، وأن الروم وجدوا بهذه الشروط ذلة وصغاراً؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٦٨ ؛ وانظر سليمان الرحيلى : السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ، ص ١٧٤ ، الرياض ١٤١٤هـ .

٤٣ - انظر : القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ص ١٦٦ ، ١٦٧ ؛ إدريس عماد الدين القرشي : عيون الأخبار وفنون الآثار ج ٥ ، ص ٣٣٨ ، بيروت ١٩٧٥ ؛ سليمان الرحيلي : السفارات ، ص١٧٥ .

٤٤ - لم يفرق المعز بين أسرى المسلمين سواء كانوا تابعين للدولة الفاطمية أو مشارقة تابعين للعباسيين فالجميع مسلمون وهذا ما يتفق والتوجه الإسماعيلي الفاطمي حيث يعتبرون المسلمين كلهم رعاياهم وحتى ولو لم يكونوا تحت نفوذهم أو سلطانهم وكانوا يفتخرون على الأمويين بذلك . انظر : القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٧٥ و ١٦٧ ؛ سليمان الرحيلي : السفارات ، ص١٧٦ .

٤٥ - الكامل : ج ٨ ، ص ٥٤٣ ؛ المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٥ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ؛ ابن ظافر الأزدي : الدولة المنقطعة ، ص ٢٣ ؛ تقي الدين الدوري : صقلية ، ص ١١٤ ، ١١٥ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

٤٦ - ج جاي : إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩ بالفرنسية ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣، ص ٢٧١ .

٤٧ - انظر : الكامل ج ٨ ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ ؛ جاي : إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية (بالفرنسية) ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ؛ المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٦ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

٤٨ - انظر المصادر والمراجع السابقة .

٤٩ - انظر : جاي : إيطاليا ، ص ٢٩١ ؛ سعد زغلول : تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٧٣ .

٥٠ - القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ص ٣٦٧ ، ٣٧٠ ؛ الكامل : ج ٩ ، ص ٥٥٨ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ؛ أحمد عزيز : صقلية الإسلامية ، ص ٣١ (بالإنجليزية) ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ؛ تقي الدين الدوري : صقلية ، ص ١١٦ ؛ نقلاً عن النويري : نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب ج ٢٢ ، ص ورقة ١١٩ ؛ انظر : سليمان الرحيلي : السفارات ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ .

٥١ - الكامل : ج ٨ ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، أحداث سنة ٣٥٩هـ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٧٥ / ٢٧٦ ؛ أحمد عزيز : صقلية الإسلامية (بالإنجليزية) ، ص ٣١ .

٥٢ - المصادر والمراجع السابقة .

٥٣ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ؛ فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، ص ٢٢ إلى ٢٦ ؛ زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

٥٤ - انظر ما سبق من هذا البحث .

٥٥ - القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٥٦ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٥١٣ حوادث سنة ٣٤٤هـ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٢٩ ؛ أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥١ .

٥٦ - انظر سعد زغلول عبد الحميد : ج ٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ؛ نقلاً عن المجالس والمسايرات ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٥١٣ .

٥٧ - أرشيبالد : القوى ، ص ١٥٧ ، ٢٥٢ .

٥٨ - انظر أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٢ .

٥٩ - المقريزي : اتعاظ ج ٢ ، ص Lane Poolei Egypt : p. 101 - 1s

أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٤ .

٦٠ - البكري : المغرب ، ص ٦٥ ، ٦٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤١٣ ، ٤١٥ ؛ أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٤ .

٦١ - لومبارد : العرب في أوج حضارتهم تجارة الذهب ، ص ١٤٩ ؛ أرشيبالد ، ص ٢٥٥ .

٦٢ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ نقلاً عن المقدسي ؛ وانظر :

Lestusange. G. Baghdad under the chliphis. p. 44 , 77 .

٦٣ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٩ .

٦٤ - لومبارد : العالم الإسلامي ، النقد ص ١٥٢ ؛ أرشيبالد : ص ٢٦١ .

٦٥ - لومبارد ، ص ١٥٣ ؛ أرشيبالد : ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ .

٦٦ - أرشيبالد : ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .

المراجـع

١ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٩م .

٢ - أرشيبالد ، لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠) ترجمة غربال وعيسى ، مكتبة النهضة ، القاهرة .

٣ - أحمد عزيز : صقلية الإسلامية (بالإنجليزية) أدنبرة ١٩٧٥م .

٤ - أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية تفسير جديد ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، القاهرة .

٥ - النعمان بن محمد : كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحان الدشراوى ، تونس ١٩٧٥ ، كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق الفقى ، وشبوح ، والبعلاوى ، تونس ١٩٧٨م .

٦ - البكرى : المغرب ، المسالك والممالك ، نشر رسلان الجزائر ١٨٥٧م .

٧ - التجانى : الرحلة ط ١ ، تونس ١٩٢٧م .

٨ - السيد عبد العزيز سالم والعبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ج ١ و ج ٢ ، ط ١٩٩٣م .

٩ - تقى الدين عارف الدورى : صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربى حتى الغزو النورمندى ، بغداد ١٩٨٠م .

١٠ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ١٩٨١م ، المعز لدين الله الفاطمى القاهرة ١٩٦٤م .

١١ - حسين مؤنس : تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٣م .

١٢ - ابن الخطيب : الأعلام ، تحقيق العبادى ، والكتانى الرباط .

١٣ - ابن خلدون : العبر بولاق ، ٧ أجزاء والمقدمة ..

١٤ - رؤوف عباس : مصر وعالم البحر المتوسط ، ط١ ، القاهرة ١٩٨٦م .

١٥ - راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٨٦م .

١٦ - سليمان الرحيلى : السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ، الرياض ١٤٠٦هـ .

١٧ - سيرة الأستاذ جوذر : تحقيق محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ١٩٥٤م .

١٨ - سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ، ج ٣ ، الإسكندرية ١٩٩٠م

١٩ - صابر محمد دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ، عالم الكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م .

٢٠ - على حسنى الخربوطلى : الإسلام فى حوض البحر المتوسط ، بيروت ١٩٧٠م .

٢١ - عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، دار الفكر ، القاهرة، السجلات المستنصرية ، القاهرة .

٢٢ - ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، دمشق ١٩٥١م .

٢٣ - عارف تامر : تاريخ الإسماعيلية ، ج ١ ط ١ ، ١٩٩١م .

٢٤ - ابن عذارى : البيان المغرب ، نشر إحسان عباس ، بيروت .

٢٥ - فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك العسكرى والاتصال الحضارى ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٧م .

٢٦ - فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، وفؤاد حسين على ، القاهرة دار الفكر .

٢٧ - لومبارد موريس : الإسلام فى فجر عظمته ، ترجمة حسين عودات ، دمشق. ١٩٧٩م.

٢٨ - المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، تحقيق الشيال ج٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١م .

٢٩ - محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية دار الفكر ١٩٩٥م ، وسياسة الفاطميين الخارجية .

٣٠ - ميخائيل أمارى : المكتبة العربية الصقلية ، ليبسك ١٨٥٧م .

٣١ - محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولونى حتى نهاية العصر الفاطمى ، بيروت ١٩٩٢م ، دار الفكر .

د. عبد الله كامل موسى عبده(*)

المنشآت التجارية والصناعية بمدينة قوص منذ العصر العثمانى حتى نهاية القرن ١٣هـ/١٩م دراسة أثرية وثائقية

نعالج فى هذا البحث موضوع منشآت مدينة قوص التجارية والصناعية من النواحى الأثرية والوثائقية . وهى المنشآت التى تنوعت ما بين فنادق وخانات ووكالات وأسواق ومعاصر وطواحين وقاعات حياكة وغير ذلك ، كذلك تتعرض هذه الدراسة للخطط التى ارتبطت بالتجارة وطوائف الحرف وغير ذلك من ألوان الحياة الاجتماعية والفنية بالمدينة ، خاصة وأن هذه المنشآت وطوائف الحرف لم تحظ بقدر كاف من عناية الباحثين خلال الفترة موضوع الدراسة ، وهى الفترة التى تبدأ فى القرن الخامس الهجرى .

وتتألف هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة محاور :

أما المقدمة فتتناول منشآت قوص التجارية والصناعية منذ بداية ازدهار قوص فى النصف الثانى من القرن ٥ هـ / ١١م نتيجة تحول درب الحج من شبه جزيرة سيناء إلى طريق قوص ، وهى الدراسة التى تعتمد بشكل أساسى على نصوص الجغرافيين والرحالة الذين

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

توافدوا على المدينة فى أوقات مختلفة خلال تلك الفترة ، وسجلوا عنها كل ما عاينوه فى كافة نواحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية وجاءت نصوصهم المدونة عنها فى غاية الأهمية والدقة .

ويتناول المحور الأول المنشآت التجارية المندثرة والباقية خلال الفترة موضوع الدراسة . ويشتمل هذا المحور على ذكر لبعض الوكالات المندثرة بقوص التى أمدتنا بها الوثائق ، كما يشتمل على دراسة أثرية معمارية لوكالتين إحداهما تعرف بوكالة الوقف وترجع إلى سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٨م ، وقد اندثرت حاليًا ، غير أن جان كلود جارسان (Garacin, J. C.) أمدنا بصورة لها ، والأخرى ترجع إلى ما قبل سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م وتعرف بوكالة بيت عودة ، وهى بحالة جيدة .

ويتناول المحور الثانى المنشآت الصناعية بالمدينة من خلال دراسة وثائقية .

أما المحور الثالث فيتناول الخطط التى ارتبطت بالتجار وبعض الحرف ، كما يتناول طوائف الحرف وطبقة التجار بالمدينة من خلال دراسة وثائقية .

موقع قوص وأهميته (شكل ١) :

قــوص[١] (Qous) مدينة مصرية قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل بين مدينتى قفط والأقصر ، ذكرها اليعقوبى فى النصف الثانى من القرن ٣هـ / ٩م فقال " ومن مدينة قفط إلى مدينة الأقصر ، وهى مدينة قد خربت وصارت مكانها مدينة قوص "[٢] ، بدأ عمرانها فى العصر الإسلامى منذ عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩م عقب تدهور مدينة قفط[٣] بسبب أهمية موقعها على النيل ، وكانت أسوان فى ذلك الوقت تمثل حاضرة الصعيد ، حيث ازدهرت إداريًا واقتصاديًا وعمرانيًا وثقافيًا وفنيا ، وهو الأمر الذى يتضح جليًا فى كتابات المؤرخين[٤] والجغرافيين[٥] والرحالة[٦] المسلمين فى العصور الوسطى .

بداية ازدهار قوص :

كان أول ظهور حقيقى لقوص على مسرح الأحداث التاريخية فى العصر الفاطمى ، وذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن ٥ هـ / ١١م عقب تحول درب الحج من طريق سيناء إلى الطريق الجنوبى عبر نهر النيل بسبب الأحوال السياسية[٧] والاقتصادية[٨] التى مرت بها مصر خلال تلك الفترة أى إلى أحد طرق ثلاثة تربط بين البحر الأحمر والنيل هى قوص - القصير ، قوص - عيذاب ، أسوان - عيذاب[٩] (شكل ١) .

ولم تلبث أن غدت قوص مدينة زاهرة من الناحيتين الدينية والتجارية بعد أن تدفق عليها الحجاج والتجار ، فقد وصفت بأنها " أعظم ولايات الديار المصرية ، وواليها يحكم على جميع بلاد الصعيد "[١٠]، ويحدثنا البكرى فى النصف الثانى من القرن ٥ هـ / ١١م عن هذا الازدهار بقوله : " وهى مدينة كبيرة .. وفيها أسواق وحمامات ومعاصر للسكر ... ولها ضياع جليلة "[١١]، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المدينة قد شهدت تطوراً فى الناحيتين التجارية والصناعية من حيث النشاط والمنشآت فتعددت الأسواق[١٢] والحمامات ، وازدادت موارد الثروة ، وازدهرت المعاصر كمنشآت صناعية ، حيث ازدهرت صناعة السكر من القصب ، وقد ارتبط كل ذلك ارتباطاً وثيقاً بالأحوال السياسية المستجدة ، وتطور الحياتين الاجتماعية والاقتصادية فى المدينة .

هذا وقد ازدهرت موانىء البحر الأحمر ازدهاراً عظيماً من الناحية التجارية حتى أنها فاقت فى العصر الفاطمى موانىء البصرة وسيراف وصحار ، عقب تحول طريق التجارة البحرية مع الشرق الأقصى من الخليج إلى البحر الأحمر . وغدت عدن مركزاً رئيسياً لكل تجارة المحيط الهندى . وقد فطن الفاطميون إلى ضرورة تأمين البحر الأحمر فتم لهم ذلك بقيام الدولة الصليحية[١٣] فى اليمن خلال الفترة من ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م إلى ٥٣٢هـ / ١١٣٧م[١٤] .

وقد ترتب على هذا الاستقرار السياسى للفاطميين فى مصر والحجاز واليمن تزايد ازدهار المنشآت التجارية والصناعية فى قوص وموانىء البحر الأحمر سواء من قبل الفاطميين أو التجار الكارمية[١٥] فى الوقت الذى لم تعد أسوان سوى مدينة تخزن فيها البضائع المخصصة للنوبة . ويحدثنا الإدريسى فى القرن ٦ هـ / ١٢م عن تزايد هذا الازدهار فى قوص بقوله "مدينة كبيرة بها منبر وأسواق جامعة وتجارات ودخل وخرج والمسافر إليها كثير والبضاعات بها نافقة والمكاسب رابحة والبركات ظاهرة ... ولها بقول طيبة وضروب من الحبوب كثيرة ... ولحوم .. طيبة المأكل "[١٦] . غير أن الأحوال التجارية والصناعية لم تلبث أن تأثرت فى نهاية العصر الفاطمى بسبب اضطراب أحوال مصر السياسية نتيجة الصراع بين شاور وضرغام. فى الوقت الذى اشتعلت فيه نار الحروب الصليبية[١٧] .

منشآت قوص التجارية والصناعية فى العصر الأيوبى :

استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يعيد إلى مصر الاستقرار السياسى[١٨] والاقتصادى فازدهرت تجارة البحر الأحمر ازدهاراً عظيماً ، وبلغت قوص أوج ازدهارها فى العصر الأيوبى

إداريًا واقتصاديًا وعمرانيًا وثقافيًا وفنيًا ، قال ابن جبير " وهذه المدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم "(١٩) .

ويشير ابن جبير إلى فندق بقوص ينسب لابن العجمى ، حيث أورد ما نصه : " وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينة "(٢٠) ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المدينة عرفت إلى جانب الأسواق العامرة فى العصر الأيوبى نوعًا آخر من لمنشآت التجارية تمثل فى الفنادق ، وفى اعتقادي أنها عرفت عمارة الفنادق فى العصر الفاطمى مع اتساع وازدهار الحركة التجارية الداخلية والخارجية من جهة ، وتوافد الحجاج عليها من جهة أخرى ، حيث تعد الفنادق من المنشآت التجارية الهامة الى خصصت للتجار وغير التجار الأجانب ، يدل على ذلك أن الفاطميين شيدوا العديد منها للتجار الإيطاليين وغيرهم ، إذ كان لكل جالية أجنبية فندق خاص ، وكانت عبارة عن منشآت ذات أفنية تشتمل على كنائس وأفران وغير ذلك من الملحقات(٢١) . وأغلب الظن أن تجار(٢٢) الكارم قد شيدوا أيضًا هذا النوع من المنشآت التجارية فى العصر الفاطمى فى قوص وبقية المدن التى نزلوا بها فى مصر واليمن ، وكانت فنادقهم أيضًا ذات أفنية تشتمل على مساجد وغير ذلك من الملحقات ، خاصة وأنهم اتخذوا الإسلام أساسًا لوحدة طائفتهم ، وأرجع أنها جاءت على غرار الفندق الذى شيد فى الفسطاط للكارم من قبل الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (٢٣).

ويذكر أحد(٢٤) الباحثين أن ابن جبير أمدنا بوصف لفندق ابن العجمى بقوص بما نصه "ربع كبير خارج المدينة " ، والواقع أن ابن جبير لم يقدم لنا وصفًا للفندق وإنما قدم لنا وصفًا للمنية التى يقع بها بما نصه " وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينة "(٢٥) ، وهو ما يدل على أن الباحث قد جانبه الصواب فى قراءة النص ، وفى النص تسجيل توثيقى لمنشأة تجارية مندثرة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه على الرغم من كثرة ما ورد من نصوص تتعلق بأسماء الفنادق الى شيدت بالقاهرة خلال العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية فى المصادر التاريخية وكتب الجغرافيين والرحالة المسلمين إلا أننا لم نستدل على تكويناتها المعمارية سواء من حيث التخطيط أو الوحدات والعناصر المعمارية ،

حيث خلت هذه النصوص من الوصف المعمارى لها من جهة ، ولم يبق قائماً منها شئ يمكن الاعتماد عليه فى وصفها من جهة أخرى(٢٦) .

كذلك يحدثنا ابن جبير عن موضع يشغل مساحة عظيمة عرف بالمبرز يقع قبلى قوص يجتمع فيه رحال الحاج والتجار ، حيث كان يتم السفر منه إلى عيذاب ، ويدل هذا الموضع من جهة ، ووجود الفندق بربض كبير عرف بالمنية من جهة أخرى على أن المدينة بلغت من النمو العمرانى نتيجة الاستقرار السياسى والازدهار الاقتصادى درجة عظيمة بحيث توسعت فى امتدادت عمرانية جديدة .

ويصف لنا ياقوت الحموى فى بداية القرن ٧ هـ / ١٣م المدينة وصفاً رائعاً يؤكد وصف الرحالة ابن جبير ، حيث قال " وهى مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر ... وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهى محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة ، وهى شديدة الحر " (٢٧).

قوص فى العصر المملوكى :

يحدثنا ابن سعيد عن قوص ومنشآتها الدينية والمدنية خلال زيارته لمصر قبل عام ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م بقوله " وهى مدينة جليلة ... ذات ديار فائقة ، ورباع أنيقة ، ومدارس وربط وحمامات ، يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال ، وبها البساتين والحدائق المستحسنة إلا أنها شديدة الحر ، كثيرة العقارب "(٢٨) .

ويصف لنا التجيبى المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩م والذى زار مصر فى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م المنشآت التجارية بقوص المتمثلة فى الفنادق أو الخانات بقوله " وكان نزولنا بهذه المدينة بالخان الكبير المعروف بالفندق ... وبه ينزل التجار المدعوون بالأكارم ... وإليه يقصد الجمالون وغيرهم ممن يريد دخول الصحراء "(٢٩). كما أمدنا بوصف معمارى للخان الذى نزل به بما نصه " وما رأينا قط خاناً أكبر منه ، وهو نوع حصن ، وكل نوع من مساكنه مستقل بنفسه غير محتاج إلى غيره وفى وسطه مسجد تصلى فيه الصلوات الخمس ، وله إمام راتب "(٣٠) ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن هذا الخان تميز بالضخامة والفخامة من الناحية المعمارية يشتمل على مسجد شأنه فى ذلك شأن بقية الخانات أو الفنادق التى شيدت من قبل الكارمية كما تقدم .

ويحدثنا أبو الفداء المتوفى ٧٣٢هـ / ١٣٣١م عن قوص بقوله " مدينة بالصعيد وليس بأرض مصر بعد الفسطاط مدينة أعظم منها وهى فرضة التجار من عدن ... وفرضة قوص قصير "(٣١) .

ويشير ابن فضل الله العمرى المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م إلى ازدهار الحياة التجارية والصناعية بهاوتعدد الفنادق بقوله " قوص أكبر مدينة بالصعيد وفيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن والحجاز بعد مرورها بصحراء عيذاب وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة والحمامات والمدارس والبساتين والحدائق ومزارع الخضروات ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ذوى العقارات والأملاك وهواؤها فى غاية الحرارة"(٣٢) .

هذا ويصف لنا ابن بطوطة المدينة فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ / ١٤م بقوله " مدينة عظيمة لها خيرات عميمة ، بساتينها مورقة ، وأسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الأثيرة ، وهى منزل ولاة الصعيد "(٣٣) .

والواقع أن الأحوال التجارية قد تأثرت فى قوص فى بداية العصر المملوكى بسبب اضطراب الأحوال السياسية من جهة ، وفرض السلطان قطز المكوس على تجار الكارم من جهة أخرى ، غير أن المدينة لم تلبث أن استعادت نشاطها التجارى بفضل سياسة الظاهر بيبرس ، حيث ألغى المكوس ، وربط المدينة بعيذاب بطريق البريد . وفى عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م أعاد استخدام درب الحج القديم مما أثر على الطريق الجنوبى ، غير أن المدينة ظلت تزاول دورها التجارى والصناعى ، وهو الأمر الذى يتضح جليًا من خلال نص ابن بطوطة الذى تقدم ذكره(٣٤) .

وقد بدأت عيذاب فى الاندثار منذ عام ٨٣٠ هـ / ١٤٣٦م عندما عمد السلطان برسباى إلى الاهتمام بجدة والشروع فى تعميرها فى عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م . وخلال تلك الفترة وحتى نهاية العصر المملوكى ذكرت قوص فى صبح الأعشى(٣٥) ، وفى الخطط المقريزية(٣٦) ، وفى زبدة كشف الممالك(٣٧) ، وفى الروض المعطار(٣٨) على سبيل المثال ، ويتطابق ما ورد عنها فى الروض المعطار وما أورده الأدريسى(٣٩) وتقدم ذكره .

المنشآت التجارية بقوص فى العصر العثمانى والقرن ١٣ هـ / ١٩م :

أولاً : الوكالات :

اندمجت الأعمال القوصية كلها بما فيها مدينة قوص في ولاية جرجا فى العصر العثمانى، وظلت كذلك حتى عام ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م ، حيث تبعت إقليم قنا لأول مرة باسم مأمورية قنا، وأصبحت قاعدة لقسم قوص من تلك السنة ، وقد سمي مركز قوص من أول سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م [٤٠].

هذا وقد أمدتنا الوثائق بالعديد من الوكالات بمدينة قوص في القرن ١٣ هـ / ١٩م ، مما يدل على ازدهار الحياة التجارية بالمدينة ازدهاراً كبيراً فى العصر العثمانى والقرن ١٣هـ / ١٩م . ومن هذه الوكالات وكالة ملك محمد أغاه (أنظر الوثيقة المرفقة فى نهاية البحث) بارون ورد ذكرها فى السجلات بما نصه " وأوقف جميع الوكالة الكائنة بناحية قوص إلى مسجد العارف الطواب وجعل الناظر عليها من بعده معتوقه سعيد "[٤١] ، وقد اتضح لى من خلال الزيارة الميدانية أن هذه الوكالة كانت تقع أمام مسجد الطواب ، غير أنها اندثرت حالياً وشيدت فى موضعها أبنية سكنية حديثة جارية فى وقف المسجد تقع فى شارع سيدى أحمد الطواب . (انظر الوثيقة الملحقة بالبحث) .

كذلك ورد فى الأشهاد السابق ذكر لوكالة أخرى بما نصه " وحدودها ... والشرقى وكالة أبى قـرض "[٤٢] . كذلك أمدتنا السجلات بوكالة تقع بحارة الخولى جارية فى ملك الأمير رجب أغـــاه [٤٣]. غيـر أنه مما يؤسف له أن الوثائق التى بين أيدينا لم تمدنا بوصف لهذه الوكالات يتناول طبيعة الوظيفة التى كانت تؤديها من جهة ، ووحداتها وعناصرها المعمارية وطبقاتها من جهة أخرى . ويذكر لنا على باشا مبارك وكالتين بمدينة قوص بما نصه " وبها وكالتين يبيت بهما الواردين ويربطون بهما مواشيهم ودوابهم "[٤٤] وقد ذكر جارسان وكالتين بقوص إحداهما تعرف بوكالة الوقف وترجع إلى العصر العثمانى ، حيث شيدت فى عام ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م ، غيـر أن هذه الوكـالة اندثرت ولم نقف عليـهـا ، وتتبين من خلال صـورة[٤٥] قديمة لها أنها شيدت بالآجر تشتمل واجهتها العمومية على مدخل جاء من فتحة مستطيلة يتوجها عقد مستقيم من الخشب ، ثم يتوج المدخل عقد ثلاثى .

أما الأخرى[٤٦] فتعرف بوكالة بيت عودة وترجع إلى النصف الثانى من القرن ١٢ هـ / ١٨م ، حيث جددت فى عـام ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م ، وهى بحالة جـيـدة من حيث التخطيط

والعمارة ، وقد قمت بزيارتها ودراستها دراسة ميدانية ، وهى الدراسة التى يمكن عرضها على النحو التالى :

وكالة بيت عودة :

الموقع وتاريخ الإنشاء (شكل ٢)

تقع هذه الوكالة بشارع أبى العباس فى مواجهة الواجهة العمومية الجنوبية الغربية للجامع العمرى ، وتشرف على الشارع السالك من خلال واجهة رئيسية تقع فى الجهة الشمالية الشرقية . أما الجهات الثلاث الأخرى الجنوبية الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الشرقية فتحيط بها حالياً عمائر سكنية ، حيث يوجد درب فى طرفها الجنوبى . ويبدو أن هذه الوكالة كانت تشتمل على أربع واجهات تشرف على الطريق السالك ، إلا أنها نتيجة الزحف العمرانى فقدت ثلاث واجهات ، ولم يتبق سوى الواجهة الرئيسية . (لوحة ١) .

وقد عرفت الوكالة واشتهرت بوكالة بين عودة أو آل عودة ، فقد ورثها آل عودة . وتشتمل الوكالة على نص كتابى نتبين منه تجديدها فى ١٤ ربيع الأول من سنة ١٣٠١هـ (١٨٨٣م) من قبل شخص يدعى أحمد عبد الله ، وهو الأمر الذى أرجح معه أن هذه الوكالة معاصرة لوكالة الوقف التى تقدم ذكرها ، أى ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى .

الواجهة ومشتملاتها (لوحة ١)

قسم المعمار الواجهة التى تقدم ذكرها بالجهة الشمالية الشرقية إلى مستويين أحدهما سفلى والآخر علوى ، حيث ترتفع الواجهة بمقدار طابقين . يشتمل الطابق السفلى على كتلة المدخل العمومى الذى يتوجه عقد ثلاثى ، كما يشتمل فى القسم الشمالى منه الذى يقع على يمين الواقف أمام المدخل العمومى على نافذة مستطيلة مغشاة بمصبعات حديدية، كذلك يشتمل فى القسم الجنوبى منه على حانوتين ثم نافذة تقع فى نهاية الطرف الجنوبى من الواجهة .

أما الطابق الثانى فيشتمل على سبع نوافذ مستطيلة كبيرة جاءت من مستويين تغشيهما مصبعات حديدية ، وتشرف هذه النوافذ على الطريق السالك والجامع العمرى . وقد أوجدها المعمار لإضاءة وتهوية القاعات العلوية التى تقع بالطابق الثانى من الوكالة فى الجهة الشمالية الشرقية ، ثم تنتهى الواجهة بسور علوى شيد مع بقية أقسام الواجهة بالآجر ، وقد وجدت أثناء صعودى إلى السطح بقايا قاعة يبدو أنها شيدت حديثًا تقع فى الطرف الجنوبى من

الواجهة تشتمل على نافذتين منفصلتين إحداهما صغيرة فى المستوى السفلى ، والأخرى كبيرة فى المستوى العلوى ، وتتوسط سور الواجهة نافذة تشرف من خلالها الواجهة على الطريق السالك والجامع العمرى .

كتلة المدخل (لوحة ٢) :

تقع كتلة المدخل فى الطرق الشمالى من الواجهة فهى لا تتوسط الواجهة ، ويعزى ذلك إلى اشتمال الواجهة على حانوتين ونافذة فى القسم الجنوبى منها والذى يقع على يسار الواقف أمام المدخل العمومى ، ويتوج المدخل عقد ثلاثى بديع يعد من أهم خصائص هذه الوكالة من الناحيتين المعمارية والزخرفية ، وتفصيل ذلك أنه يشتمل على فتحة مستطيلة يغلق عليها فردة باب خشبى كبير صفح تصفيحًا كاملاً بالصفائح المعدنية التى تثبت بمسامير مكويجة ويعلو الفتحة عقد مستقيم من الخشب يشتمل على نص تجديد الوكالة الذى تقدم ذكره والذى نفذ بالخط النسخ بأسلوب الحفر البارز ويتوج كتلة المدخل عقد ثلاثى بديع جاء على غرار عقد وكالة الوقف الذى يتوج مدخلها كما تقدم ، وعلى ما يبدو فإن هذا العقد يعد من أهم سمات عمارة الوكالات فى صعيد مصر فى العصر العثمانى ، فقد وجدته مدخل وكالة مدينة قفط التى ترجع فى اعتقادى إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما وجدته فى وكالتين بمدينة قنا إحداهما تعرف بوكالة أبى السرور (لوحة ٣) ، والأخرى تعرف بوكالة آل القط (لوحة ٤) ويرجعان إلى العصر العثمانى وبالتحديد إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما وجد هذا العقد يتوج بعض المداخل فى منازل قوص القديمة مما يدل علىّ أنه من أهم خصائص المنشآت المدنية خلال تلك الفترة .

وقد نفذ العقد بالآجر داخل إطار مستطيل يزدان فى داخله بأشكال هندسية بديعة التكوين قوامها أشكال نجمية ثمانية تكون ستة صفوف أفقية وأحد عشر صفًا بشكل رأسى ، وقد وزعت هذه الصفوف فى الحالتين بشكل متناغم على المساحة المخصصة لها بحيث جاء العقد لوحة فنية رائعة ، كذلك تتجلى لنا روعة الزخرفة فى الوحدات والأشكال الهندسية البديعة التى تفصل بين الأشكال النجمية سواء فى التنفيذ أو اللون ، وقد كرر الفنان عنصر الأشكال النجمية فى كوشتى العقد بشكل زخرفى جميل ، وفصل بينها بأشكال هندسية تكاد تماثل مثيلاتها داخل العقد غير أنها هنا تتميز ببساطتها حيث جاءت بهيئة مربعات تتصل ببعضها من خلال معينات صغيرة تربط بينها وبين الأشكال النجمية فى أسلوب زخرفى بديع التكوين ، والمدخل فى مجمله يمثل لوحة فنية جميلة ، وتتفق زخارف هذا المدخل المنفذة بالآجر مع زخارف

المداخل التى تقدم ذكرها بوكالات قفط وقنا من حيث الاعتماد على الأجر فى تشكيل الزخارف الهندسية مع الاختلاف في التفاصيل والتكوينات الزخرفية من وكالة لأخرى . (لوحة ٣ ، ٤).

هذا وقد أوجد الفنان الكتابات التى تعلو فتحة المدخل مباشرة فى العتب الخشبى والتى تقدم ذكرها فى ستة أجزاء ، بحيث جاء كل جزء على هيئة مستطيلة تنتهى فى طرفيها بعقد منكسر ، وقد نفذت هذه المساحات المستطيلة بشكل أفقى ، وتعلو أربعة أجزاء منها فتحة المدخل ، وقد وضع كل جزء داخل إطار مستطيل يزدان بزخرفة هندسية مجدولة بديعة التكوين، وتفصل بين كل جزء وآخر زخرفة هندسية عبارة عن دائرة تزدان فى مركزها بشكل نجمى من ثمانية أضلاع أوجده الفنان داخل شكل نجمى آخر بنفس التصميم إلا أنه نفذ بحجم أكبر ، ثم حدد الشكلين بإطار دائرى يزدان من خارجه بشكل ترس بديع التكوين ويحدد هذا الترس من الخارج إطار دائرى آخر يمثل الحد الخارجي للتكوين الهندسى بأكمله . (لوحة ٢) .

وقد نفذت التكوينات الزخرفية الهندسية على واجهات ومداخل وكالات قفط وقنا بهيئة تقرب كثيراً من تلك التى نفذت أعلى وعلى جانبى مدخل وكالة آل عودة بقوص ، مما يدل على مظهر من مظاهر الوحدة الفنية بين وكالات صعيد مصر فى العصر العثمانى .

الوكالة من الداخل (الدور الأرضى) :

يتوصل إلى داخل الوكالة من المدخل الرئيسى ، حيث نصل إلى دركاة المدخل التى تنخفض أرضيتها عن أرضية الطريق بمقدار ثلاث درجات ، وهى من مساحة مربعة يغطيها سقف خشبى، وأرضيتها من الآجر ، تشتمل فى جانبها الشمالى الغربى على حاصل يشرف على الطريق السالك من خلال نافذة صغيرة تقدم ذكرها عند ذكر الواجهة الرئيسية ، كما تشتمل فى جانبها الجنوبى الشرقى على دخلتين ، ونصل من خلال هذه الدركاه إلى ساحة مستطيلة الشكل تشتمل فى جانبها الشمالى الغربى على حاصل . كما تشتمل فى الجهة الجنوبية الشرقية على سلم يؤدى إلى الدور الأول أو العلوى ، ونصل من خلال هذه الساحة المستطيلة إلى حاصلين بجوار السلم أحدهما يقع خلف الحانوت المجاور للمدخل العمومى ويمتد من الشمال إلى الجنوب فى ساحة مستطيلة والآخر يقع خلف الحانوت الذى فى نهاية الواجهة من الطرف الجنوبى ، ويمتد رأسياً من الشرق إلى الغرب ملاصقاً لجدار الوكالة الجنوبى الشرقى .

هذا وتفضى هذه الساحة المستطيلة من خلال مدخل يقع على محور المدخل العمومى إلى صحن الوكالة أو القسم الغربى منها (لوحة ٥) ويتكون هذا القسم من مساحة مستطيلة تمتد أفقيًا من الشمال إلى الجنوب تنقسم إلى صحن مربع مكشوف تفتح عليه ستة حواصل من الجهتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بواقع ثلاثة حواصل فى كل جهة يعلوها سقف خشبى يمتد من الشرق إلى الغرب يمثل ممر الدور العلوى حول الفناء ، وقد أوجد المعمار فى الجهة الجنوبية الغربية مساحة مغطاة بسقف خشبى من براطيم خشبية تشرف على الصحن من خلال كمرة خشبية ضخمة ترتكز فى الوسط على عمود أسطوانى من الآجر ، وفى الجانبين على الجدارين الشمالى والجنوبى للحواصل (لوحة ٥) ، وتفتح الحواصل على هذا القسم المغطى بواقع حاصلين فى الجهات الثلاث الجنوبية الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الشرقية ، أى أن الجدار الشمالى الغربى للصحن والقسم المغطى يشتمل على خمسة حواصل تقابلها خمسة حواصل فى الجدار الجنوبى الشرقى أما الجدار الجنوبى الغربى فيشتمل على حاصلين ، وتميز الحاصل الذى يقع فى الطرف الجنوبى من الجدار الجنوبى الغربى باشتماله على نافذة تفتح على الدرب الذى يقع خلف الوكالة ، وهو الدرب الذى تقدم ذكره عند ذكر الموقع ، وقد أوجدها المعمار لإضاءة وتهوية الحاصل ، وهى فتحة مستطيلة تتسع من الداخل وتضيق من الخارج (لوحة ٦) ، كما أن الحاصل الذى يقع فى نهاية الضلع الجنوبى الشرقى من الجهة الغربية يشتمل أيضًا على نافذة تفتح على نفس الدرب ، لذا فهو يتسم بالإضاءة والتهوية ، وهو الأمر الذى أرجع معه أن جميع الحواصل التى تقدم ذكرها كانت تشتمل على فتحات للإضاءة والتهوية ، إلا أن نتيجة الزحف العمرانى على الوكالة وملاصقة الأبنية الحديثة لها سدت هذه الفتحات ، لذا فإن جميع الحواصل مظلمة تمامًا ولا توجد بها تهوية .

وقد جاءت هذه الحواصل فى معظمها من ساحة مستطيلة يغطيها سقف خشبى من براطيم خشبية أو من جذوع النخل ترتكز عليها ألواح خشبية أو أسقف خشبية من الجريد. (لوحة ٧).

الدور الأول (العلوى (لوحة ٨) :

يتوصل إليه من الساحة المستطيلة التى تلى الدركاه ، حيث نصل من خلال سلم يتكون من ثلاث قلبات إلى الدور الأول ، وتفصيل ذلك أن القلبة الأولى من السلم تنتهى بباب خشبى تعلوه قطعة مستطيلة من الخشب تزدان بأشكال مستطيلة مفرغة فى الخشب بهيئة مسننة فى حوافها بطريقة بديعة ، ثم نصل إلى القلبة الثانية وهى من ثلاث درجات ، تؤدى إلى دهليز يغطيه سقف خشبى ، وقد أوجد المعمار فى نهايته الشرقية دورة المياه ، ثم نصل من خلال القلبة الثالثة إلى الدور الأول ، ويشتمل هذا الدور على قاعات وزعت على النحو التالى :

ثلاث قاعات فى الجهة الشمالية الشرقية تشرف على الطريق السالك والجامع العمرى من خلال نوافذ تقدم ذكرها عند ذكر الواجهة العمومية ، أما الجهة الشمالية الغربية فتشتمل على أربعة مداخل ، ويتوصل من المدخل الذى يقع فى الطرف الشرقى إلى قاعة مستطيلة تؤدى بدورها إلى قاعة شبه مربعة تشرف على الجامع العمرى من خلال نافذتين على غرار قاعات الجهة الشمالية الشرقية التى تقدم ذكرها ، وينتهى الضلع الشمالى الغربى من الجهة الغربية بقاعة شبه مربعة يغطيها سقف خشبى تشتمل فى جدارها الشرقى على طاقة مصمتة كما تشتمل على مدخل فى نهاية جدارها الشمالى يؤدى إلى قاعة ، كذلك تشتمل فى جدارها الغربى على مدخلين يفتح كل منهما على قاعة .

أما الجهة الجنوبية الغربية فتشتمل على مدخلين يؤديان إلى قاعدتين ، تتوسطهما دخلة مستطيلة مصمتة .

وتشتمل الجهة الجنوبية الشرقية على خمس قاعات ، وهى فى معظمها مع قاعات بقية الجهات مستطيلة الشكل تغطيها أسقف خشبية على غرار حواصل الطابق الأرضى ، ويشرف ممر الطابق الثانى على الفناء من خلال دعامتين من الآجر فى الجانبين الشرقى والغربى ، ويتوصل من سلم يقع فى نهاية الجهة الجنوبية الشرقية من الجهة الشرقية إلى سطح الوكالة ، حيث نصعد من خلال قلبة أولى تنتهى ببسطة خشبية بديعة التكوين من تسعة ألواح خشبية مصممة بحيث تتخللها فتحات الإضاءة والتهوية لإضاءة وتهوية السلم من أسفل (لوحة ٩) ثم نصل من خلال هذه البسطة إلى القلبة الثانية وهى من ثلاث درجات تنتهى ببسطة خشبية على نفس النمط السابق، أما القلبة الثالثة فقد جاءت من سبع درجات، والسلم من الخشب والآجر يحيط به درابزين من الآجر، ثم نصل من خلال هذه القلبة الأخيرة إلى السطح (لوحة ١٠) .

ثانيًا : الأسواق :

إضافة إلى الأسواق التى تقدم ذكرها فى نصوص الجغرافيين والرحالة يذكر لنا على باشا مبارك ما نصه " وبها سوق كبير دائم يباع فيه الأقمشة وأصناف العقاقير والأبزار واللحم والخضر ونحو ذلك "(٤٧) والواقع أن المدينة أسهمت بدور فعال فى تجارة مصر الداخلية والخارجية بسبب كثرة منتجاتها الزراعية والصناعية ، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى ازدهار وانتشار الأسواق بالمدينة ، وقد أشارت السجلات إلى العديد منها أذكر منها على سبيل المثال سوق الغلال(٤٨) .

المنشآت الصناعية بقوص :

أولاً : المعاصر :

عرفت قوص العديد من الصناعات فى العصر العثمانى ، فقد أمدنا كتاب وصف مصر بعدة صناعات فى المدينة تتمثل فى مصانع الفخار ، وصناعة الجير ، وصناعة المنسوجات القطنية والصوفية ، وصناعة الحصر من الحلفا أو من سعف النخيل ، وصناعة الزيت من بذور الخس والقرطم وغير ذلك من الصناعات(٤٩) .

وتعد المعاصر من الوحدات التى نعتبرها منشآت صناعية . وقد أمدتنا الوثائق بالعديد منها فى قوص ، مما يدل على ازدهار صناعة السكر من جهة والزيت من جهة أخرى ومن هذا النوع الأخير بقيت لنا معصرة بقوص لعصر الزيت ، وهى بحالة جيدة وتعمل حاليًا ، حيث وجدنا نوعين من المعاصر الأول أمدتنا به المصادر كما تقدم ، والثانى أمدتنا به الوثائق ، ومن النوع الأخير معصرة (٥٠) تقع بحارة الأروام ملك ورثة القاضى عبد الرءوف النحريرى ، ومعصرة(٥١) ورثة الخولى تقع بحارة القرملانى ، ومعصرة(٥٢) تقع بحارة التجار قديمًا المعروفة بحارة أولاد هوارى وهى فى ملك ورثة عبد الحق ومعصرة بحارة الهيم ورد وصفها الوثائقى " فى كامل بيت معصرة معد لعصر الزيوت كاينة بمدينة قوص بالحارة الفوقانية بحارة الهيم ... مشتملة على حجر وقاعدة وجب وقرصة تحتوى على ثلاث مسابح " ، وغير ذلك من المعاصر التى أمدتنا بها الوثائق دون ذكر لمشتملاتها(٥٣) .

ثانيًا : الطواحين :

تعد الطواحين من الوحدات الإنتاجية الى يمكن وصفها بالمنشآت الصناعية ، وقد أمدتنا الوثائق بالعديد منها فى قوص ، مما يدل على ازدهار هذه الصناعة ضمن ما عرف وازدهر من صناعات عديدة بالمدينة ، ومن الطواحين التى وردت فى الوثائق طاحونة(٥٤) ورثة سلمان على ، وطاحونة(٥٥) بحارة أولاد هوارى ، وطاحونة(٥٦) البرعى ، وطاحونة ورد وصفها الوثائقى " طاحونة كاملة الآلة معدة لطحن الدقيق كاينة بالحارة المذكورة (حارة السبع أشراف)-(٥٧) .

ثالثًا : قاعات الحياكة :

تعد قاعات الحياكة من منشآت النسيج التى يمكن وصفها بالمنشآت الصناعية ، فقد ازدهرت هذه الحرفة ازدهاراً كبيراً فى قوص ، يدل عى ذلك على ما أمدتنا به الوثائق من ذكر

للعديد من قاعات الحياكة بالمدينة ، إلا أن النصوص الوثائقية التى بين أيدينا لم تصف لنا هذه القاعات وصفًا كاملاً ، كما لم ترد بها الآلات المستخدمة للحياكة ، كذلك أنواع الملابس، ومن قاعات الحياكة التى أمدتنا بها سجلات المحكمة الشرعية على سبيل المثال قاعة ورد وصفها الوثائقى " جميع كامل قاعة قايمة البنا والجدران كاينة بمدينة قوص بالحارة الفوقانية بحارة العارف بالله تعالى سيدى محمد البهجورى معدة لصناعة الحياكة قديمًا(٥٨) ، وقاعة ورد وصفها الوثائقى " فى كامل بيت قاعة معدة لصنعة الحياكة "(٥٩) ، وتقع هذه القاعة بحارة الحدادين ، وقاعة ورد وصفها الوثائقى " فى كامل قاعة معدة للحياكة كائنة بحارة الفراشى "(٦٠) .

طوائف الحرف وطبقة التجار :

أمدتنا سجلات المحكمة الشرعية ببعض الطوائف الحرفية بمدينة قوص خلال العصر العثمانى والقرن ١٣ هـ / ١٩م ، أذكر منها طائفة القصابين . ونتعرف أيضًا من خلال الوثائق على اسم شيخ هذه الطائفة بما نصه " تحرر سند على الرجل محمد إبراهيم القصاب شيخ قصابين ناحية قوص " (٦١)، وقد وردت بعض أسماء من أفراد هذه الطائفة فى السجلات أذكر منها على سبيل المثال ثلاثة أسماء وردت فى أشهاد واحد بما نصه " حضر الرجل محمد إبراهيم القصاب والرجل مصطفى على القصاب والرجل غلاب فتيحى القصاب الجميع من أهالى قوص " (٦٢).

كذلك أمدتنا الوثائق بطائفة الطحانين واسم شيخ هذه الطائفة بما نصه " تحرر سند على الرجل خليل إبراهيم شيخ الطحانين بقوص باستلام مبلغماية قرش ... "(٦٣) .

كما أمدتنا الوثائق بطائفة المعصرانية بما نصه " اسلم الرجل عبد العال زارع أحد المعصرانية بقوص الرجل حسن بدرير المذكور من أهالى جزيرة مطيرة ... "(٦٤) .

هذا وقدوردت عدة أسماء مقرونة بصنائعهم مثل " الرجل أبا بكر صالح القهوجى "(٦٥) "الرجل الحاج محمد أحمد عبد الله الخياط "(٦٦)، " الذمى حنا حبشى الفرارجى "(٦٧) ، "مصطفى عبد الله النجار " (٦٨)، محمد محمد حجازى النحاس "(٦٩) ، "ومقاريوس بن عبد رب المسيح الصايغ "(٧٠)، مما يدل على أن المدينة كانت تضم العديد من طوائف الحرف الأخرى إضافة للحرف التى تقدم ذكرها .

وقد أمدتنا السجلات بذكر لحارات ارتبطت بالحياة التجارية وبعض الحرف الصناعية ، ومن هذه الحارات حارة التجار أو درب التجار ، وقد عرفت هذه الحارة بحارة الأمير الحاكم صديق

مقبول ، ثم عرفت بحارة أولاد هوارى فقد ورد : " بالحارة الفوقانية بحارة التجار قديمًا والآن تعرف بحارة الأمير الحاكم صديق مقبول " (٧١) . ثم ورد " بالحارة الفوقانية بحارة التجار قديمًا المعروفة الآن بحارة أولاد الهوارى "(٧٢) .

كما أمدتنا السجلات بحارة السويقة (٧٣) . كذلك أوردت لنا بعض الحارات التى عرفت ببعض الحرفيين القاطنين بها مثل " حارة الحدادين "(٧٤) ، و " حارة الجمالة "(٧٥) ، وهى حارة أصحاب الجمال الذين كانوا يتحملون مسئولية الأحمال .

أما فيما يتعلق بطبقة التجار فى قوص فقد أمدتنا السجلات بأسماء العديد منهم مما يلقى الضوء على ازدهار الحركة التجارية بالمدينة ، ومن التجار المسلمين الذين ورد ذكرهم بالسجلات " الرجل حماده صالح كيلانى " الذى وصف بأنه أحد تجار قوص "(٧٦) ، والشيخ عبد الله أحمد عبد الجواد " الذى وصف بأنه " أحد عمد تجار الناحية "(٧٧) ، والرجل مصطفى صالح كيلانى " الذى وصف بأنه " أحد تجار قوص " ، وورد فى موضع آخر " الشيخ مصطفى صالح كيلانى "(٧٨) ويتضح من اسمه أنه كان شقيقًا للتاجر حماده صالح كيلانى الذى تقدم ذكره ، و "الشيخ محمد خليل حسن غرك " الذى وصف بأنه أحد تجار قوص " ، وقد وصف فى موضع آخر بـ " الرجل العاقل البالغ الرشيد محمد خليل حسن غرك "(٧٩) .

ومن أهل الذمة أمدتنا السجلات بعدد من التجار أذكر منهم " الذمى بطرس سعيرا " الذى وصف بأنه " أحد تجار قوص " (٨٠) . و " الذمى جودة منذلبون " الذى وصف بأنه " أحد عمد تجار قوص " ، وقد ورد فى موضع آخر " المعلم جودة منذليون "(٨١) .

والواقع أنه من خلال عرض بعض طوائف الحرف وطبقة التجار يمكن القول أن الطائفة الحرفية تعنى " مجموعة من الأشخاص تمارس نفس النشاط الحرفى فى المدينة ولها إطار تنظيمى يكفلها "(٨٢) . وقد كان هناك طبقة عليا من الأسطوات أو المعلمين ، وهى تتكون من المحنكين فى الطائفة. ويطلق عليهم أكابر الطائفة (٨٣) . وهؤلاء كان يتكون منهم ما يسمى بالمجلس أو المجمع وأهم وظائفهم مساعدة الشيخ فى إدارة الطائفة ، وأعضاء الطائفة كان يمكنهم عزل الشيخ . كما كان لهم باتفاق منهم إقرار الشيخ .

الخاتمة :

وبعد ، فإننى أرجو أن تكون هذه الدراسة قد ألقت الضوء على المنشآت التجارية والصناعية بمدينة قوص ، وهى المنشآت التى تنوعت ما بين فنادق وخانات وأسواق ومعاصر وطواحين وقاعات حياكة .

الهوامش

١ - قوص من المدن القديمة ، ذكرها جرتيبه فقال أن اسمها المصرى Hat Hor واسمها المدنى Qes ، واسمها الرومى Apollonopolis Vicus ، واسمها القبطى Qous ، ومنه اسمها العربى قوص ، مزيد من التفاصيل ، انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٨٩ .

٢ - اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧م : البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٩٣ .

٣ - مزيد من التفاصيل عن قفط انظر : د. حسن خضيرى أحمد : مدينة قفط وتطورها السياسى من الفتح العربى وحتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، مجلة كلية الآداب بقنا ، جامعة جنوب الوادى ، العدد ٤ ، ١٩٩٥م ، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

٤ - المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، جـ ١ ، ص ص ١٩٧ - ١٩٨ .

٥ - اليعقوبى : البلدان ، ص ٩٣ ؛ الاصطخرى (ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م ، ص ٤٢ ؛ المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧م : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤١١هـ / ١٩٨١م ، ص ص ١٩٤ - ١٩٥ .

٦ - ناصر خسرو علوى : سفرنامه ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م، ص ص ١٣٢ - ١٣٤ .

٧ - مزيد من التفاصيل عن الأحوال السياسية فى مصر والعالم الإسلامى انظر : د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٩٦م ، جـ ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

٨ - المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، كتاب الهلال ، العدد ٤٧٢ ، رمضان ١٤١٠هـ ، أبريل ١٩٩٠م ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

٩ - يسلك الحجاج من هناك برية عيذاب عبر وادى العلاقى إلى عيذاب ، وعبر وادى الحمامات إلى القصير ومنها إلى جدة أو ينبع ، فلم يعد الطريق البحرى الشمالى من القلزم إلى الجار أو جدة ، ولا الطريق البرى من أيلة آمناً لقوافل الحجاج . د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣م ، ص ص ٢١ - ٢٣ .

١٠ - القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ .

١١ - البكرى : المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن واندرى فيرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٢م ، ص ٦١٨ .

١٢ - د. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، ١٢٨ ، الكويت ، ذو الحجة ١٤٠٨هـ / أغسطس / آب ١٩٨٨م ، ص ١١٥ ؛ محمد محمود على حسن : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى (عن دراسة للباحث الفرنسى جان كلود جاراسان) ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ١٦٧ .

١٣ - مزيد من التفاصيل عن الدولة الصالحية وعلاقاتها بالدولة الفاطمية انظر : د. عبد الله كامل موسى عبده : دراسة معمارية مقارنة للعمائر الدينية فى عصر الدولة الصليحية فى اليمن والفاطمية فى مصر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص ص ٣٣ - ٤٤ .

١٤ - لمزيد من التفاصيل عن موانى ، الخليج وميناء عدن انظر : د. شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (٤١ - ٩٠٤هـ / ٦٦١ - ١٤٩٨م) ، عالم المعرفة ، ١٥١ ، الكويت ذو الحجة ١٤١٠هـ / يوليو -تموز ١٩٩٠م ، ص ص ١٧٤ - ١٨٣ .

١٥ - كان الكارمية أشهر تجار المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وكانت هذه الطائفة الدعامة والركيزة الأساسية للبناء الاقتصادى فى مصر الإسلامية ويحدثنا القلقشندى عن وظيفة " نظر البهار الكارمى" وموضعها التحدث على واصل التجار الكارمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر ، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتارة تضاف إلى الخاص وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان . القلقشندى : صبح الأعشا ، جـ ٤ ، ص ٣٢ ؛ د. آمال أحمد العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤م، ص ص ٣٧ - ٣٨ ؛ د. شوقى عبد القوى : تجارة المحيط الهندى ، ص ٢٦٩ ؛ د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ، ص ص ٣٥ - ٣٦ .

١٦ - الإدريسى (أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مج ١ ، ص ١٢٨ .

١٧ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢م ، ص ص ١١ - ١٣ .

١٨ - مزيد من التفاصيل عن استقرار مصر السياسى والاقتصادى فى عهد صلاح الدين انظر : د. سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ص ١٣٠ - ١٤٠ .

١٩ - ابن جبير (أبي الحسن محمد بن أحمد) : رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٦م ، ص ٣٧ .

٢٠ - ابن جبير : رحلة ، ص ٣٧ .

٢١ - د. آمال العمري : المنشآت التجارية ، ص ص ١٣٩ - ١٤٠ ؛ د. رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص ص ٤٣ - ٤٦ .

٢٢ - من التجار الذين ورد ذكرهم بقوص من طائفة الكارمية محمود بن الكويك ، الزين محمد بن محمد بن عبد الرحمن النخعي القوصي ، محمد بن مسلم بن أحمد البالسي الأصل، د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر، ص ص٣٥-٣٦ .

٢٣ - د. آمال العمري : المنشآت التجارية ، ص ١٤١ .

٢٤ - د. رفعت موسى : الوكالات والبيوت الإسلامية ، ص ٤٧ .

٢٥ - ابن جبير : رحلة ، ص ٣٧ .

٢٦ - مزيد من التفاصيل عن الفنادق انظر : د. آمال العمري : المنشآت التجارية ، ص ١٤٥ .

٢٧ - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله) ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، جـ ٤ ، ص ٤٦٩ .

٢٨ - أورد لنا هذا النص القلقشندي نقلاً عن ابن سعيد . انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧ .

٢٩ - أورد د.محمد محمد الكحلاوي هذا النص عند دراسته لآثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين . مزيد من التفاصيل انظر : د. محمد محمد الكحلاوي : آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، ص ص ١٤٦ - ١٤٧ .

٣٠ - د. محمد محمد الكحلاوي : آثار مصر الإسلامية ، ص ١٤٧ .

٣١ - أبي الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م : تقويم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ص ص ١١٠ - ١١١ .

٣٢ - أورد هذا النص على باشا نقلاً عن ابن فضل الله العمري . مزيد من التفاصيل : على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ١٣٠٥هـ ، جـ ١٤ ، ص ١٢٩ .

٣٣ - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م ، ص ٤٨ .

٣٤ - د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ، ص ص ٣٧ - ٦١ .

٣٥ - القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧ .

٣٦ - المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ .

٣٧ - ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م ، ص ١١٨ .

٣٨ - الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م ، ص ٤٨٤ .

٣٩ - الإدريسى : نزهة المشتاق ، مج ١ ، ص ١٢٨.

٤٠ - محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ص ١٨٩ .

٤١ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٥ صفر ١٢٧٧ - ١٢ شوال ١٢٧٧) ، اشهاد ١ ، ص ١ .

٤٢ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، إشهاد١ ، ص ١.

٤٣ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٢ ربيع ١٢٧٨ - ١٢ ربيع أول ١٢٧٩) ، إشهاد ٣ ، ص ١ .

٤٤ - على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ ١٤ ، ص ١٣٤ .

٤٥ - محمد محمود على حسن : قوص ، ص ٣٦٦ ، لوحة رقم ٣١ .

٤٦ - محمد محمود على حسن : قوص ، ص ٣٨٤ .

٤٧ - على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١٤ ، ص ١٣٤ .

٤٨ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣ ، ص ١ .

٤٩ - علماء الحملة الفرنسية : وصف مصر (الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة) ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، ص ص ١٦٧ - ٢٢٩ ؛ د. إلهام محمد على ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، تاريخ المصريين (٢٥٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص ص ١٧٩ - ٢٥٨ .

٥٠ - سجل رقم ٣ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية (الفترة التاريخية ٢٠ جمادى آخر ١٢٧٣ - ١٥ محرم ١٢٧٤) إشهاد ١٦٠ ، ص ٢٨ .

٥١ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٥ محرم ١٢٧٤ - ١٩ شوال ١٢٧٤) ، اشهاد ٢٥٢ ، ص ١٥ .

٥٢ - سجل رقم ١٣ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٣ شوال ١٢٧٧ - ٢٠ صفر ١٢٧٨) ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .

٥٣ - سجل رقم ١٨ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٤ ربيع آخر ١٢٨٠ - ٢٩ صفر ١٢٨١) ، اشهاد ٣٨ ، ص ٥ .

٥٤ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٨٣ ، ص ٥٢ .

٥٥ - سجل رقم ١٣ ، محكمة قوص ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .

٥٦ - سجلب رقم ١٣ ، محكمة قوص ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .

٥٧ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢١٦ ، ص ص ٢١ - ٢٢ .

٥٨ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٧٤ ، ص ٢٧ .

٥٩ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٠ شوال ١٢٧٤ - ٣ صفر ١٢٧٥) ، اشهاد ٨٥ ، ص ٧ .

٦٠ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٥ صفر ١٢٧٦ - ٢٢ صفر ١٢٧٧) ، اشهاد ١٦٠ ، ص ١٢ .

٦١ - سجل رقم ٢ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٠ جماد أول ١٢٧٣هـ- ٢٥ محرم ١٢٧٤) ، اشهاد ٢٧ ، ص ٥ .

٦٢ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٨ ، ص ٣ .

٦٣ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٤٩ ، ص ٢٥ .

٦٤ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٠٧ ، ص ١٩ .

٦٥ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٣ ، ص ٢ .

٦٦ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٩٠ ، ص ٥٢ .

٦٧ - سجل رقم ١٦ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٥ ربيع أول ١٢٧٩ - ٢٠ ربيع أول ١٢٨٠) ، اشهاد ٦٤ ، ص ٢١ .

٦٨ - سجل رقم ١٨ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٨ ، ص ٥ .

٦٩ - سجل رقم ٢٠ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٩ ربيع آخر ١٢٨١ - ١٧ ربيع آخر ١٢٨٢) ، اشهاد ، ٢٣٩ ، ص ١٨ .

٧٠ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، اشهاد ٦٨ ، ص ٦ .

٧١ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣١٧ ، ص ٢١ .

٧٢ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٧٠ ، ص ١٥ .

٧٣ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٩٦ ، ص ٣١ .

٧٤ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٦٥ ، ص ٧ .

٧٥ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٣ ، ص ٢ .

٧٦ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٣٤ ، ص ١٣ ؛ سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٥ ، ص ٢ .

٧٧ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٧ ، ص ١ .

٧٨ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٥٢ ، ص ٣٨ ، سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٠ ، ص ٣ .

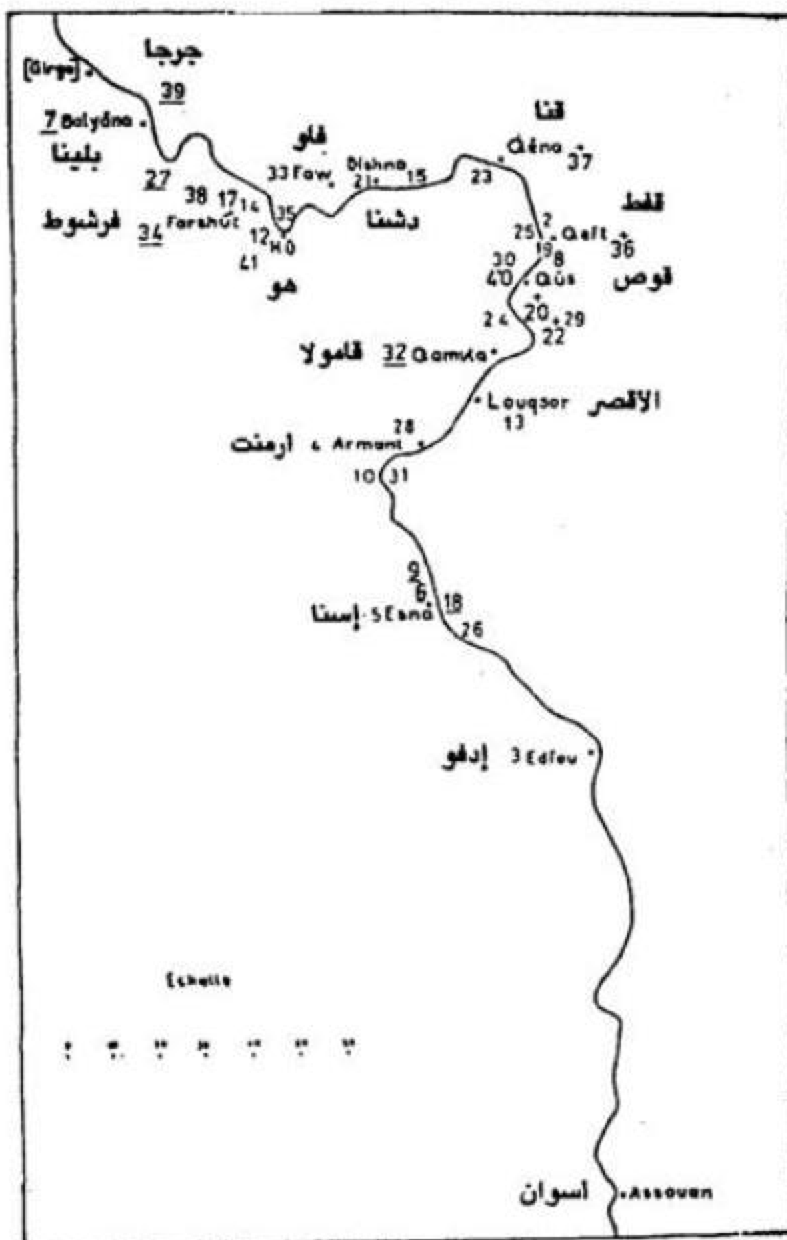
٧٩ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٢ ، ص ٣ ، سجل رقم ١٩ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٧ ربيع آخر ١٢٨١ - ١٧ ربيع آخر ١٢٨٢) ، اشهاد ١٩ ، ص ٤ .

٨٠ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٢ ، ص ٣ .

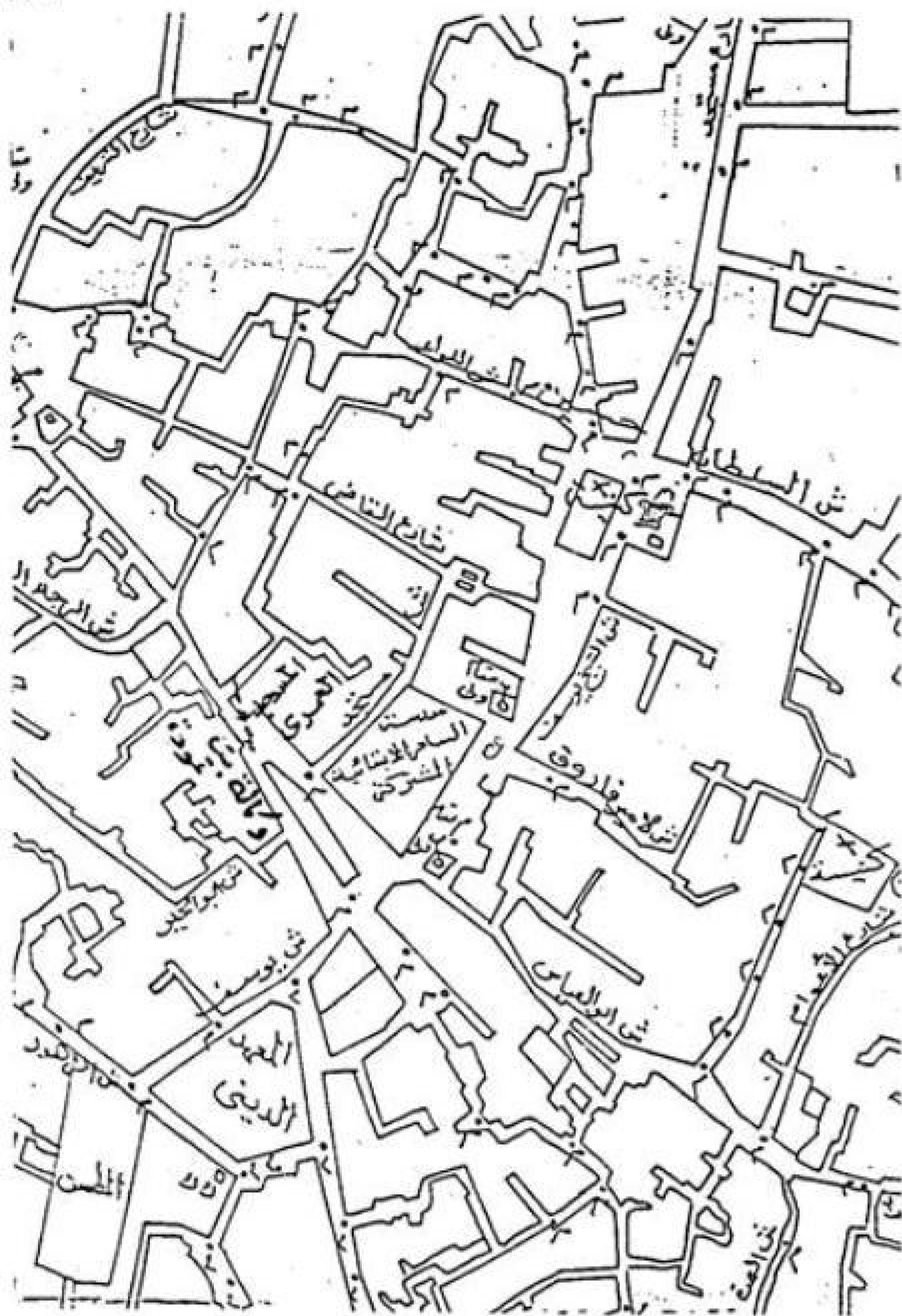
٨١ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٦٢ ، ص ٢٥ ؛ سجل رقم ١٩ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٠ ، ص ٣ .

٨٢ - مزيد من التفاصيل عن الأسواق والحرف انظر : د. حسين مصطفى رمضان : طوائف الحرف فى العصر العثمانى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ .
Raymond (A.) : Une Liste des Corporations de Metiers au Caire, Arabica, 1801, T.IV, 1957, pp. 154 - 155 .

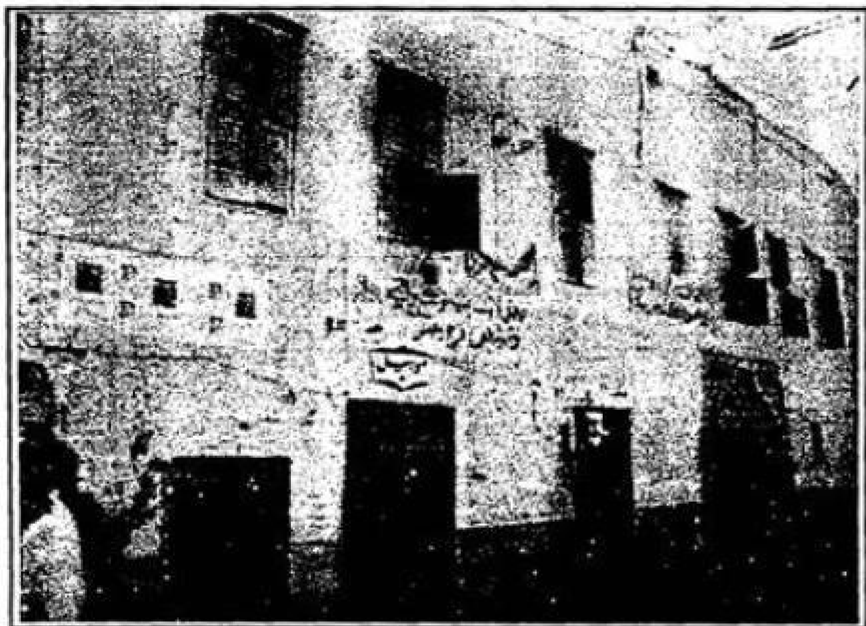
٨٣ - انظر عن لقب معلم : د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، جـ ٣ ، ص ص ١١٠٨ - ١١١٠ ؛ د. حسين رمضان : طوائف الحرف فى العصر العثمانى ، ص ٦٤ ، هامش ٢ ؛
Raymaond (A.): Artisans et Commer Conts au Caire. Au XVIII e Siecle 2, Tomes, Dames, 1973, p. 545 .



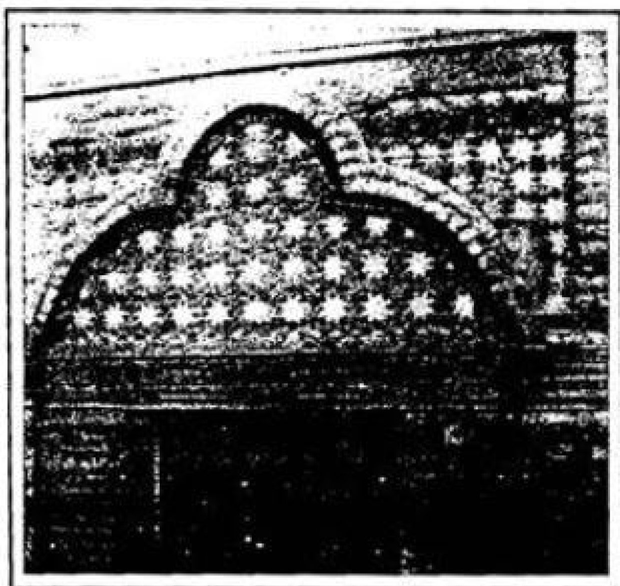
(شكل١) خريطة تبين موقع مدينة قوص (محمد محمود على حسن)



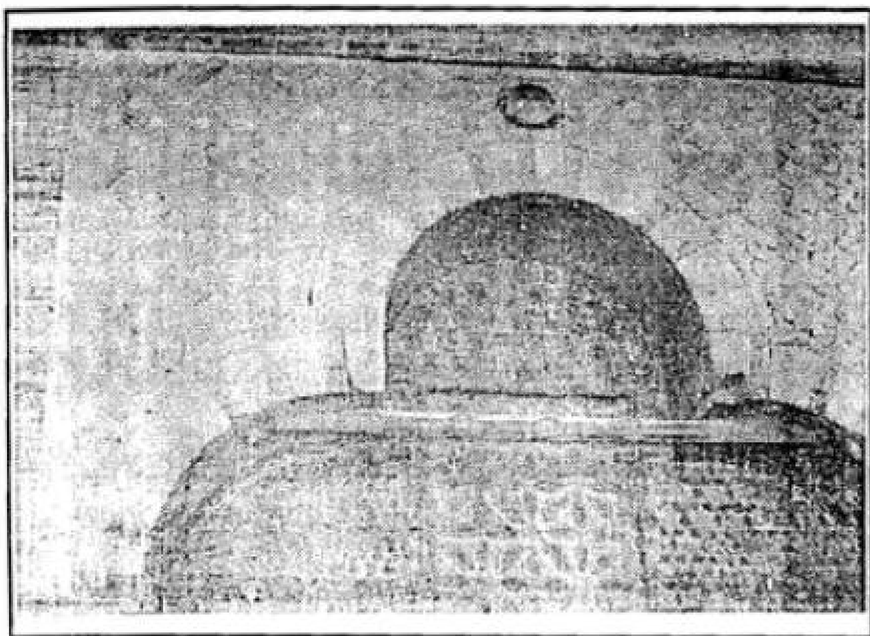
(شكل رقم٢) موقع وكالة آل عودة عن مصلحة المساحة



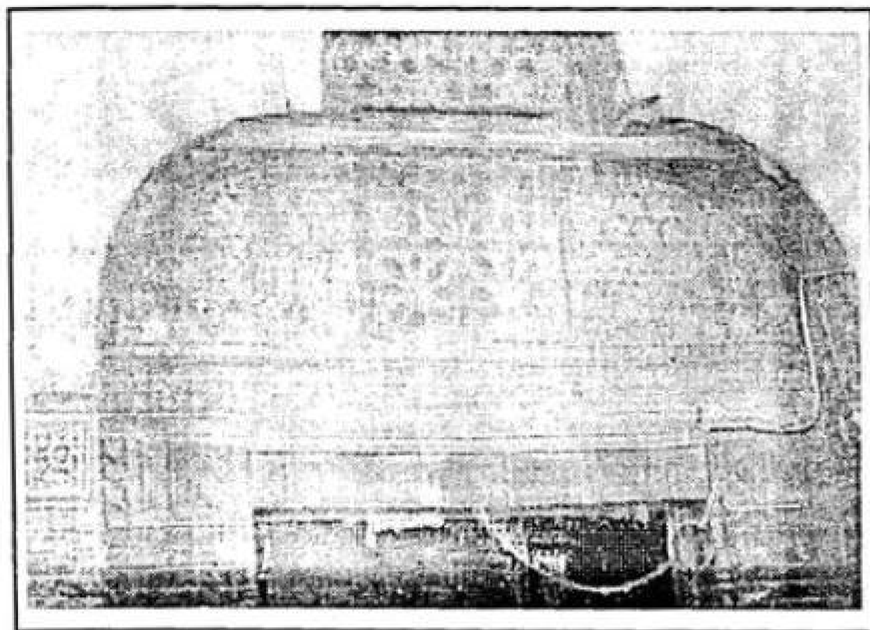
(لوحة١) : الواجهة الرئيسية لوكالة بيت عودة



(لوحة٢) : المدخل الرئيسي لوكالة آل عودة



(لوحة٣) : مدخل وكالة أبي السرور بمدينة قنا



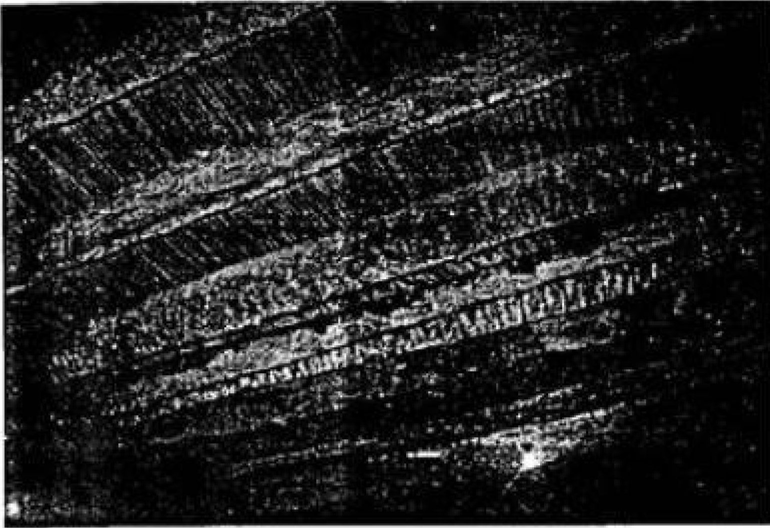
(لوحة ٤) : مدخل وكالة آل القط بمدينة قنا



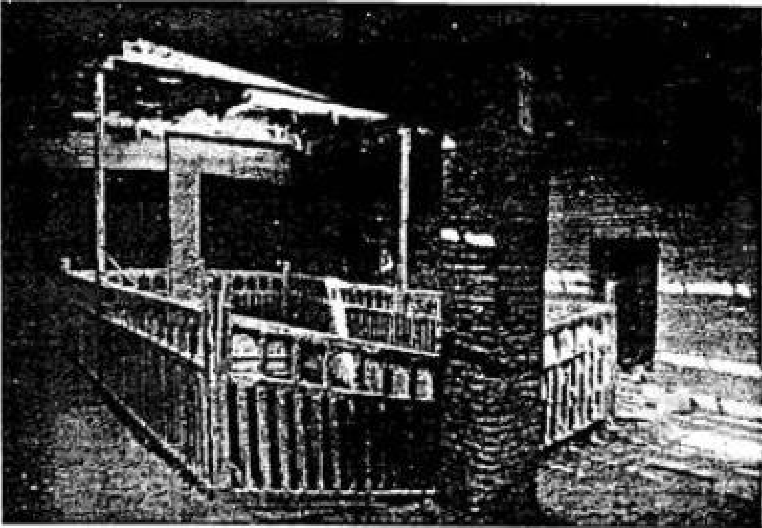
(لوحة٥) : الدور الأرضى لوكالة آل عودة



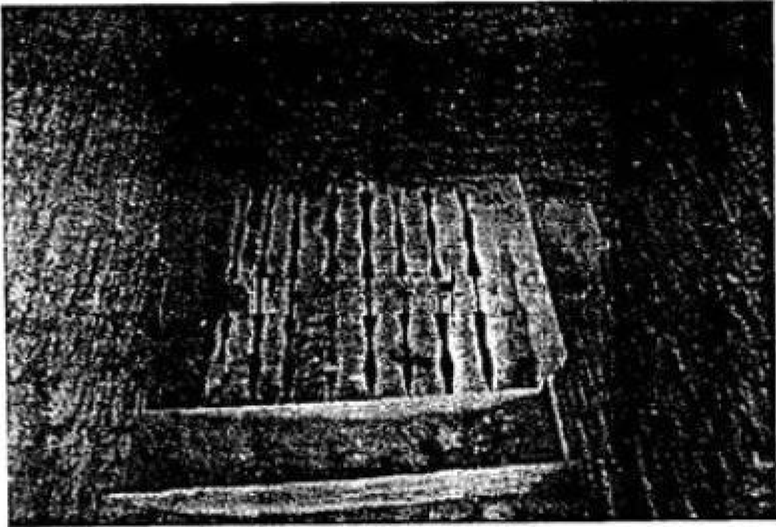
(لوحة٦) : نافذة حاصل بالدور الأرضى لوكالة آل عودة



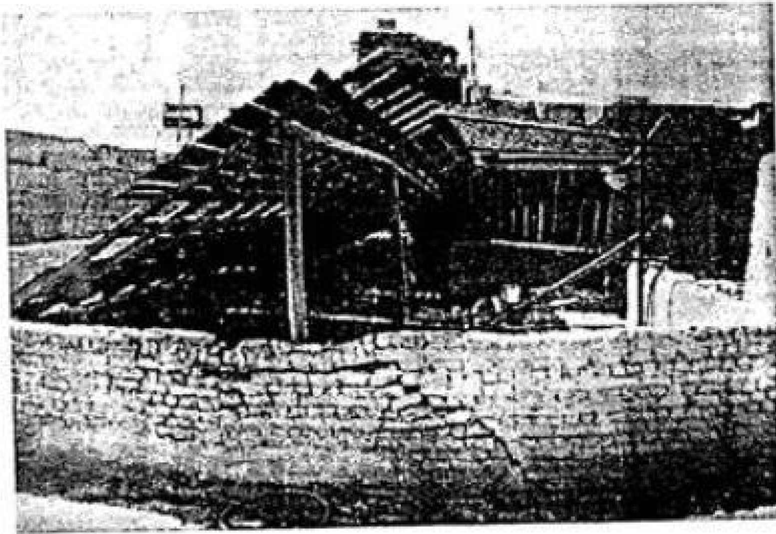
(لوحة٧) : نموذج من الأسقف الخشبية في وكالة آل عودة



(لوحة٨) : الدور الأول في وكالة آل عودة



(لوحة٩) : السلم العلوى المؤدى إلى السطح فى وكالة آل عودة



(لوحة-١٠) : سطح وكالة آل عودة

شهر صفر [illegible]

حضر كل من الرجل الكامل سيد [illegible] [illegible]

[illegible]

١٠٠	٢	طبق وارد [illegible]
٣٠	١٠	[illegible]
٨	٦	[illegible]
٤	١	[illegible]
٢٠	٢	[illegible]
٧٥	١	[illegible]
١٥	٣	[illegible]
١٢	١	[illegible]
٩	١٥	[illegible]
١٥	١	[illegible]
١٥	٣	[illegible]
٢٥	٢	[illegible]
٤	١	[illegible]
٤	٢	[illegible]
٤	٣	[illegible]
١	١	[illegible]
٢	١	[illegible]
٤	٧	[illegible]
٤	١	[illegible]
١٢٥	٢	[illegible]

أشهاد ملحق بالبحث يشتمل على وكالتين .

باقي تفصيل اغراض بيروت

١٨٨	ما قبله	
٢٠	دولاب خشب	١
٥	كرسي قديم	١
١٠	[illegible]	٥
٥	[illegible]	١
٤	[illegible] دخان قديم	١
٣	الكليم قديم	١
٣	[illegible]	١
١٠	مخاوز	١٠
٤	[illegible] خشب	١
١٠	صندوق خشب	١
٤	كرسي [illegible]	١
٩٠	سجادة [illegible]	١
٨	اكليم قديم	١
٣	[illegible] خشب	١
٤	[illegible] قديم	١
٣	[illegible]	٤
١	صندوق خشب	١
١١	[illegible] خشب	٢
٣٠	[illegible] نحاس	١
٤٠	سرج كبير	١
١٠	بندقية	١
٥٠	[illegible] حديد [illegible]	٤
١٠	كراسي خشب	٢
٥	[illegible] خشب	٢
١٠	[illegible]	٢٠
١٠	لوح خشب	٣٠
٢١	[illegible]	٧
٨٠	[illegible]	٢
٥٠٠	جاموس	١
١٠٠	حمار	١٠٠
٢٠٥	[illegible]	٦
٤	[illegible] نحاس	١
٣	طاس شرب	١
١٣٠	صينية نحاس	١
١٥	صوف شعر	١
٧١	[illegible] فضة	١
٥٠	[illegible] فضة	٣
١٠٣٠	[illegible]	١٠
٢٠	[illegible]	١٠
٩	[illegible]	١
٢٠٧	[illegible] نحاس	١
٤٣٤٤		

تابع ...

١٣٢٢

٢٧٧٦٩ — قروش

٩١٠٧

١٩٠٠٠

١٠٠٠ — ٥٢٨٥٦

٩٩١٥٧

١٠٠٠٠

٩٩١٥٧

٢١٧٨٩

١٣٤٦٨

١٥٧٨٩

٤١٧٦٧

١٩١٠٥

١٥٠٠

٤٢٩٢١

٢٣٢٢٦

[illegible]

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى(*)

بعض أضواء جديدة على :

العلاقات التجارية بين مصر والصين فى عصر دولة سلاطين المماليك

ترجع علاقة الصين ببلاد العرب إلى أمد بعيد - قبل الإسلام - حيث كانت التجارة بين الصين والهند من جهة وموانىء البحر المتوسط من جهة أخرى فى أيدى العرب حينذاك(١). كذلك كانت علاقة الصين بالمسلمين علاقة قديمة، إذ من المعروف أن الإسلام دخل الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحرى الذى كانت تسلكه السفن التجارية(٢). ولهؤلاء التجار الفضل فى أن يشتد عود الإسلام ببلاد الصين.

وقد عرفت مصر فى المراجع الصينية باسم "هاى - سى"، أى بلاد غرب البحر، ووصفت بأن منها يخرج نهر يصب فى بحر عظيم(٣). كما كانت الإسكندرية معروفة لديهم باسم "كسند". وكانت البضائع تصدر من مصر إلى الصين عن طريق البحر الأحمر، كما أن مدينة كانتون الصينية كانت معروفة فى المصادر العربية باسم "خانفو" وهى من أعظم مراكز التجارة فى الهند الصينية(٤). ومما يؤكد اتصال مصر ببلاد الصين منذ القدم، وجود

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى.

بعض الزخارف القبطية ذات المسحة المصرية على الرسوم والفنون البوذية ، مما يثبت أن الفنون القبطية المصرية وصلت تلك البلاد (٥).

ولا غرو أن تتوطد الروابط السياسية والعلاقات التجارية بين كلا الدولتين بيد أن العلاقات التجارية كانت أوطد من الروابط السياسية على مر عصور مصر الإسلامية ، ولكن الوضع اختلف فيما بعد ، فى أواخر العصور الوسطى عندما توثقت عرى المحبة وأواصر الصداقة بين سلاطين دولة المماليك بمصر وأباطرة دولة المغول بالصين ، وخاصة فى عهدى كل من أسرتى مينج المغولية الصينية ، وبنى قلاوون المملوكية المصرية ، فكان أوج ازدهار البعثات الدبلوماسية والعلاقات السياسية (٦). ومما لاشك فيه أن تلك العلاقات قد ساهمت مساهمة فعالة فى انتعاش ونمو النشاط التجارى بين كل من الدولتين الصينية والمملوكية ، وارتبط ذلك بميناء عيذاب الذى كان يعد من أهم مراكز التجارة بالبحر الأحمر فى عصر دولة سلاطين المماليك ، وبخاصة فيما تتعلق بتجارة دولة الصين وأيضًا الهند واليمن (٧). وترجع أهمية هذا الميناء إلى أنه كان أكثر الموانى أمنًا على السفن لقلة الشعب المرجانية التى كانت تنبت فى قاع البحر الأحمر حوله ، فضلاً عن عمق وغزارة مياهه . ومن ثم فقد كان هذا الطريق من أكثر الطرق التجارية أمنًا للتجار والملاحين (٨). علاوة على ذلك فقد كان أيضًا من أكثر الطرق التجارية أمنًا بين الشرق والغرب(٩) لانسداد معظم طرق التجارة العالمية بسبب حركة المغول التوسعية منذ القرن ٧ هـ / ١٣م ، بحيث لم يبق من الطرق الآمنة إلا الطريق المار بأراضى السلطنة المملوكية ، وهو طريق عيذاب ، قوص ، الإسكندرية أو دمياط (١٠).

وقد تدفقت أحمال توابل تجارة الشرق الأقصى من البهار والفلفل(١١) والقرفة وغيرها لتصل عبر طريق البحر الأحمر إلى ميناء عيذاب ، ثم تنقل فى القوافل البرية إلى ميناء قوص، ومن هناك تحمل فى النيل على مراكب الشحن النيلية لينتهى بها المطاف فى خزانة التوابل بالقاهرة(١٢) ، تلك التى ترد إليها " متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى " ، وهنا تكتمل حلقة التجارة العالمية عبر البحر الأحمر النيل - البحر المتوسط (١٣).

وقد لعب الدور الرئيسى فى هذه التجارة تجار الكارم أو الكارمية (١٤)، وهم كما عرفهم (ذكرهم) المقريزى(١٥) " فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الوارد إلى مصر دون غيرهم من الدول ، من الهند والشرق الأقصى " ، أى أنهم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق بين المحيط الهندى وبين البحر الأحمر ومصر (١٦).

وخلاصة القول فإن هذه الطائفة أو تلك الفئة كان بداية ظهورها في مصر في العصر الفاطمي ، وتزايدت أهميتها أيام الأيوبيين والمماليك مما أدى إلى أنهم كانوا أشهر تجار المحيط الهندي والبحر الأحمر أواخر القرنين ٧ - ٨ هـ / ١٣ - ١٤م ، وأوائل القرن ٩ هـ / ١٥م ، وقد كان هؤلاء التجار يحتكرون تقريبًا التجارة مع الهند والشرق الأقصى (١٧). ويكفي أنهم تعلموا استعمال إبرة المغناطيس في الملاحة البحرية من التجار الصينيين ، وعن طريقهم نقلت للعرب(١٨)، مما ساعد على زيادة الرواج التجاري . وكان لهذا أثره في إثراء دولة سلاطين المماليك، كما قاموا بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب مما نمى مكانتهم التجارية وأصبحوا يمثلون الرأسمالية التجارية آنذاك (١٩).

وقد اتخذ تجار الكارمية في العصر المملوكي ، من مدينة قوص(٢٠) مركزًا لنشاطهم الواسع ،فغدت تلك المدينة المهمة في صعيد مصر سوقًا تجاريًا واسعًا للمنتجات الصينية والهندية ، وهناك في قوص كون تجار الكارمية نقابة خاصة بهم ، وذلك للحفاظ على كيانهم التجاري ، حيث هيمنوا أو سيطروا على تجارة التوابل والفلفل والبخور في عصر دولة المماليك البحرية وخاصة إبان عهدي السلطان الظاهر بيبرس البندقداري والسلطان المنصور قلاوون ، وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك ، وأطلق عليه رئيس الكارمية(٢١)، ولا غرو أن نعرف أن هذه الطائفة وتلك الجماعة كانت شديدة الارتباط بعضها البعض مدعومة برابطة المصاهرة ، وأن مصر كانت هي المركز الرئيسي لهم (٢٢).

وقد شهد إقليم قوص أكبر حركة تجارية لتجار الكارم في عصر دولة سلاطين المماليك حيث كان سوقًا لمتاجرهم التي حفلت بمنتجات أفريقيا الوسطى والمغرب واليمن والحبشة والهند والصين(٢٣). وهكذا صار أهم مركز تجاري نهري في مصر ، لوقوعه عند نهاية طريق القوافل الممتد ما بين عيذاب والنيل(٢٤) (شكل ١) ويؤكد ذلك المقريزي (٢٥). في أن قوص لعبت دورًا كبيرًا منذ العصر الفاطمي حتى العصر المملوكي عن طريق تجار الكارم فيقول: «واستمرت بضائع تجارة الكارم تُحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة- أي سنة ١٣٥٨م- وتلاشى أمر قوص من حينئذ».

ومما هو جدير بالذكر أن إقليم قوص تبوأ مكانة عظيمة في صعيد مصر منذ العصر الفاطمي حتى العصر المملوكي، حيث كان والي هذا الإقليم يعهد إليه بحكم الوجه القبلي كله، وهو يلي الوزير في الرتبة تقريبًا ويحكم تحت نفوذه مناطق ومديريات عديدة(٢٦).

كذلك كان يقع على مسئوليته تأمين الطريق التجارى للكارمية ، وحفظ الثغور ، والاهتمام بالأسطول فى هذا الجزء الكبير من الوادى لأنه باب مكة للحجاج ، وباب التجارة مع اليمن والحجاز والشرق الأقصى . وظل ذلك ردحاً كبيراً من الزمن[٢٧]، وقد زار مدينة قيرص الكثير من الرحالة، وذكرها العديد من المؤرخين وكتب عنها الجغرافيون فأجمعوا على أنها مدينة متسعة المرافق ، كثيرة الأسواق لكثرة الصادر منها والوارد إليها من التجار من كل صوب ، وحدب، من شرق العالم الإسلامى ومغربه من أقصاه إلى أدناه .

هذا بالإضافة إلى أنها ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين وإليها عودتهم ، فهى محط الرحال ومجتمع الرفاق ، فضلا عن أنها مدينة تجارية عظيمة تقع على البر الشرقى للنيل، ذات مبانى كثيرة يسكنها العلماء والتجار وذوى الأموال[٢٨].

وقد أدرك المستشرقون الفرنسيون[٢٩] فى أوائل القرن ١٣هـ / ١٩م ، وكذلك ١٤ هـ / ٢٠م مكانة هذه المدينة وأهميتها الاقتصادية والتجارية على مستوى صعيد مصر ، ودورها الحضارى على مر العصور الإسلامية وخاصة العصر المملوكى، عصر الازدهار السياسى والرواج التجارى مع مختلف أقطار العالم الإسلامى[٣٠].

وهكذا كان لموقع مدينة قوص المتميز على النيل أثره الذى جعلها تزدهر اقتصادياً وتنتعش تجارياً وتعمر سكانياً ، وينشىء بها تجار الكارم الفنادق والخانات والوكالات[٣١] على نفقتهم الخاصة، لكى تتم فيها صفقات بيع التوابل والسلع الأخرى وأيضًا لمبيتهم وسكناهم [٣٢]، وقد اهتم سلاطين المماليك البحرية بهذه المنشآت التجارية لخدمة تجار الكارم، فأقاموا العديد منها على شاطىء النيل والكثير على المدن الساحلية مثل دمياط وقوص وجدة وعيذاب وعدن وزبيد [٣٣].

ويُعد عصر الناصر محمد بن قلاوون وأولاده من أهم عصور دولة سلاطين المماليك التى يتجلى فيها نشاط تجار الكارم على أرض قوص ، تلك المدينة التى لعبت دوراً تجارياً مهمًا فى تجارة الشرق الأقصى بين الصين وبلاد العراق والشام ومصر [٣٤].

وحفاظًا على النشاط التجارى لمدينة قوص ، صدر مرسوم سلطانى يوضح ويؤكد واجب ودور والى تلك المدينة تجاه تجار الكارمية ، جاء فيه : «وأكرم مقدوم من يرد عليك من الكارم وقرر بحسن تلقيك، أنك أول ما قدمناه من المكارم فهم سماء كل نادى، ورفاق كل ملاح وحادى، ولابد أن يتحدث السمار وتتداول بينهم الأسعار ، فاجعل شكرنا دأب ألسنتهم

ومننا حلية أعناقهم، ومنحنا سببًا لاستجلاب رفاقهم ، فهم من مواد الارفاق وجواد ما يحمل من طرف الآفاق (٣٥).

ولا غرو أيضًا أن يعمل السلطان الناصر محمد بن قلاوون على تأمين الملاحة والتجارة فى شمال البحر الأحمر وجنوبه من الخطر، ويسعى فى سبيل ذلك لجذب التجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ، يشهد على ذلك المنشور الرسمى الذى أذيع من قبل السلطان:

«... ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها، الظليلة أفياؤها وأفنائها ، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لايحتاج ساكنها إلى ميرة ولا ذخيرة ، لأنها فى الدنيا جنة لمن فطن ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر والمقيم بها فى ربيع دائم وخير ملازم، ويكفيها أن بعض أوصافها أنها شامة الله فى أرضه .. فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة فى الارتحال إليها ، والقدوم عليها ، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحسانًا يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها فى بلدة طيبة ، فى سلامة فى النفس والمال ، وسعادة تمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه... ».

ومن جهة أخرى فقد اهتمت حكومة الصين بالتجارة اهتمامًا كبيراً فعملت على تنشيط أعمالها التجارية بإرسال وفود إلى الخارج من قبل الإمبراطور الصينى يحملون معهم الخطابات المختومة بخاتم الإمبراطور ، ومقدار من الذهب والفضة لشراء البضائع وللدعاية بين التجار الأجانب بسواحل بحر الجنوب وترغيبهم فى زيارة الصين (٣٧).

أما عن علاقاتها التجارية مع مصر، فقد انتظمت وتطورت ولعب تجار الكارم دوراً مهمًا فى العلاقات الدولية السياسية إلى جانب التجارية (٣٨)، حيث كانت مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك ترسل سفراء من تجار الكارم إلى الصين ، فكانوا يقابلون بحفاوة بالغة وكرم كبير من ذلك أن السلطان برسباى أرسل سفارة إلى الصين فى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م مكونة من بعض تجار الكارم ، كان الهدف الرئيسى منها تقوية أواصر الصداقة بين الدولتين المملوكية فى مصر والمغولية فى الصين، وكان هؤلاء التجار محملين بالهدايا من قبل السلطان المملوكى للإمبراطور الصينى وأسرته، وعند عودتهم كانوا يحملون الكثير من الهدايا لأمراء وأميرات أسرة السلطان المملوكى من قبل الإمبراطور الصينى (٣٩).

ومما يدل على التواصل الحضاري والتجاري بين مصر وبلاد الصين، ما ذكره ابن بطوطه(٤٠) عند زيارته لمدينة الخنسا في القرن ٨هـ / ١٤ م من استقرار بعض التجار المصريين هناك فيقول: «وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصري ، هم كبراء المسلمين، ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عصمان المصري، وكان أحد التجار الكبار(٤١) استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه وأورث عقبه- أي ذريته أو أبنائه- بها الجاه والحرمه . وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء، والإعانة للمحتاجين ، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة، لها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية . وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع(٤٢) بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافًا عظيمة ، وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير».

ويتجلى التواصل الحضاري والتجاري واضحًا بين مصر وبلاد الصين فيما ذكره الخزرجي في أحداث سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، عند وصول أحد تجار الكارم من الصين إلى اليمن، وكان معه الكثير من السلع من أهمها الحرير والبهار وجملة مستكثرة من الفخار الصيني، وطلب من صاحب اليمن السماح له بمواصلة رحلته إلى مصر(٤٣).

وخير دليل على عمق المعاملات التجارية بين دولتي سلاطين المماليك في مصر وأباطرة المغول في الصين ، هو أن بعثة هيئة الآثار المصرية عثرت في حفائرها بمدينة قوص في موسم سنة ١٩٦٦-١٩٦٧م على جرة فخارية أو قدر من الفخار الصيني يحتفظ به الآن متحف جاير أندرسون بالقاهرة:(٤٤) «بيت الكريدلية» (لوحة ١) .

وهذا النوع من الفخار زاد انتشاره في العصر المملوكي نتيجة للنشاط البحري التجاري بين الدولتين ، واشتهرت بصناعته بلاد الصين، ويشهد على ذلك ابن بطوطة(٤٥) الذي زار هذه البلاد في القرن ٨هـ / ١٤م، ولمس تفوق بلاد الصين في صناعة الفخار الصيني ، فيقول : «وأما الفخار الصيني فلايصنع منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان، وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم ، ويضيفون إليه حجارة من عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابًا ، ثم يخمرونه ، فالجيد منه، خمر شهرًا كاملاً . ومن التراب يصنعون أواني الفخار الصيني وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنًا ، ويحمل إلى سائر الأقاليم، وهو أبدع أنواع الفخار» . ويستطرد ابن بطوطة(٤٦) ذاكرًا أكبر مدنها، وأهم أسواقها لبيع الفخار الصيني وهي مدينة صين كلان- صين الصين- وأيضًا مدينة الزيتون ومن هذه المدينة يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن(٤٧)».

وهذا القدر الفخاري أو تلك الجرة الفخارية التي عُثر عليها بحفائر قوص ، ترجع أهميتها في الزخرفة الكتابية والنقوش الخطية التي نفذت بأسلوب الحز تحت الطلاء العلوى من البدن الكروى وقرب فوهتها العليا. وقوام هذه الزخرفة وتلك النقوش كتابات باللغة الصينية القديمة من مقطعين هما "JI- Shun" بمعنى احترام المواثيق ، ومراعاة العهود (شكل ٢) . ودلالة هذه العبارة، أن التجار الصينيين على العهد والميثاق في مراعاة الأمانة والمتانة، مع الاتقان في صنعهم كما هو معروف عنهم، كذلك إشارة أو علامة على متابعة السلطات للسلع التجارية لمنع الغش ومحاربته .

ومما هو جدير بالذكر أنه عندما كثرت التيارات الفنية والأساليب الصناعية التي وردت إلى مصر إبان العصر المملوكي نتيجة عوامل كثيرة، منها اقتصادى لتجمع منتجات الشرق الأقصى التي أصبحت تنتهي في مصر ، بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والفنية، لوفود أجناس مختلفة ذات حضارات وعادات وتقاليد متباينة عن حضارة الشرق، لذا صار على الفنان أن يسجل هويته ولغته على عمله [٤٨].

ومن ثم فلا غرو في معنى هذا الختم أو تفسير تلك الكلمات ، إذا ما عرفنا كما ذكر آنفًا من بدر الدين حى الصـــينى[٤٩]، أن حكومة الصين كانت تهتم عظيم الاهتمام بالتجارة وتنشيط الأعمال التجارية مع المسلمين عامة ودولة المماليك خاصة، حتى أن امبراطور الصين كان يبعث مع وفوده إلى الخارج خطابات مختومة بخاتم الإمبراطور ومقدار كبير من الذهب والفضة، كدعاية لترغيب التجار الأجانب بزيارة الصين، ووعدهم برخصة خاصة ببضائعهم .

وكما جلب التجار المسلمون في العصر المملوكي أبدع التحف الفخارية من البلاد الصينية، فقد استوردوا أيضًا أجود أنواع الخزف الصيني منها، وهو ما عرف باسم «السيلادون[٥٠] ويتميز بأسلوب صناعي وزخرفي اشتهرت بصناعته الصين. ومما يؤكد مدى التواصل الحضارى وعمق النشاط التجارى بين أسرة قلاوون المملوكية في مصر ، وأسرتي سونج - من مغول- الصين، هو ما عثر عليه أيضًا في حفائر قوص من تحفتين خزفيتين من صنع الصين من نوع خزف السيلادون يحتفظ بها في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، التحفة الأولى عبارة عن صـــحن[٥١] من خزف السيلادون الصيني ذي لون أخضر ناقض ، له حافة خارجية مسطحة، ويتوسط قاع الصحن من الداخل ، زخرفة نباتية بأسلوب الحز على هيئة مجموعة من الزهور في باقة واحدة (لوحة٢) .

أما التحفة الثانية فهى عبارة عن إناء على هيئة مزهرية[٥٢] من خزف السيلادون الصينى ذى لون أخضر ناقض ، له فوهة متسعة، وبدن شبه كروى به تضليعات بارزة . وهذا البدن يستدق إلى أسفل حيث القاعدة ، والإناء خلو من الزخرفة اللهم إلا التضليعات (لوحة ٣) .

ولا غرو أن يكون بداية ظهور الخزف الصينى فى القرنين ٨-٩هـ / ١٤-١٥ م من بين الهدايا التى يرسلها سلاطين مصر إلى ملوك أوربا ، ومن ذلك الحين كانت أسواق القاهرة تتزود دائمًا بالخزف الصينى[٥٣].

وبالإضافة إلى التحف التطبيقية السابقة الذكر التى عثر عليها بحفائر قوص، والتى تدل على الترابط التجارى مدعمًا بالعهود والمواثيق ، فإن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة يحتفظ أيضًا بمجموعة من القطع النسيجية الحريرية تؤكد عمق العلاقات ومتانة السفارات بين أباطرة المغول فى الصين وسلاطين المماليك فى مصر، وهذه القطع من صنع الصين باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مهداة من إمبراطور الصين إلى سلطان مصر، وعليها كتابات صينية معناها «سعادة مكررة» ، «طول العمر» وكان يعتقد فى أول الأمر أنها كتابات كوفية ولكن ثبت بالدليل أنها كتابات صينية قديمة[٥٤].

* * *

وخلاصة القول أن العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الصين ازدهرت ازدهاراً كبيراً ، وكان أوج ازدهارها فى العصر المملوكى وخاصة فى عهدى قلاوون وبرسباى والعصر المغولى وخاصة فى عهد أسرتى سونج ، ومنج .

ويكفى أن العرب المسلمين فى القرن ٧هـ / ١٣م تعلموا من التجار الصينيين طريقة استعمال البوصلة البحرية (إبرة المغناطيس) فى الملاحة، مما كان له أثره الواضح فى زيادة النشاط التجارى البحرى زيادة كبيرة بين البلدين، وترتب عليه أيضًا زيادة الروابط السياسية ونمو العلاقات الدبلوماسية .

الهوامش

١ - محمد تواضع، الصين والإسلام، ص٥ .

- دائرة المعارف الإسلامية ، مج١٤، ص٤٥٩ .

- Encyclopaedia of Islam rol . Leiden 1986,1, p. 839 .

٢- زكي محمد حسن، الصين وفنون الإسلام القاهرة، ١٩٤١م ص٩ .

٣- يقصد باسم وهاى- سى، غرب البحر أي البحر الأحمر، والنهر يخرج منه هو نهر النيل، والبحر العظيم هو البحر المتوسط .

- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، مكتبة النهضة المصرية، ط١ ، ١٩٥٠م، ص١٣-١٤ .

٤- محمد محمود زيتون ، الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٤م، ص١٥ .

٥- سيدة اسماعيل كاشف ، علاقة الصين بديار الإسلام، مجلة كلية الآثار، ١٩٧٦م، ص٣٠ .

٦- بدر الدين حى الصينى، المرجع السابق ، ص٤٥ ، ٢٣٩ .

٧- سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى دار النهضة العربية ، ١٩٩٤ م، ص٥٤٢ .

٨- القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج٣، ص٤٦٨ .

٩- محمد عبد الغنى الأشقر، تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص٢٩٠-٢٩١ .

١٠- سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى، ص٥٤١ .

- راشد البراوى، فى الاقتصاد الإسلامى دار الحرية، ١٩٨٦م، ص١٣٠-١٣١ .

١١- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى جـ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م، ص٣٧٨ .

١٢- القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣، ص٤٦٤ .

- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م جـ١ ، ص١٥٥ .

- محمد بركات البيلى، بداية الكارم المؤرخ المصرى، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٣ ، ١٩٩٤م، ص١٠٦ .

١٣- محمد عبد الغنى الأشقر، المرجع السابق ، ص٤٣ .

١٤- لقد اختلفت الآراء، وتضاربت الأقوال فى معنى كلمة الكارم ونشأتهم وبداية ظهورهم وأصل وجودهم، وللآن لم يحسم النقاش بعد حول كل هذه التساؤلات .

وقد كان أول ذكر للكارمية فى متون الكتب عندما ذكرهم المقريزى فيقول وإن الكارمية جاءوا إلى مصر سنة ١١٨١م أى سنة ٥٧٧هـ وأنهم دفعوا مكوسًا عن عدة سنوات قادمة ، وهذا التاريخ يثبت أنهم جاءوا فى عهد صلاح الدين الأيوبى.

- المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٧٢-٧٣ .

- القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٦٤ .

- صبحى لبيب، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مايو ١٩٥٢، ص٥-١٠ .

- King , Historical Dictionary of Egypt, Cairo, 1984 , p. 384

- الشاطر بوصيلى ، الكارمية ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٣ ، ١٩٦٧ ، ص٢١٧-٢٢١ .

- جواتياين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية ، تعريب وتحقيق د. عطية القوصى ، ص٤٨٥، ص٤٩٤ .

- سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٩٤م ص٣٠١ .

- محمد عبد الغنى الأشقر ، تجار التوابل فى مصر، ص٢٤-٣٢ .

- محمد بركات البيلى ، بداية الكارم، ص٨٩-٩٨ ، ص١٠٣ -١٠٥ .

١٥- المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٨٩٩ ، هامش (١) .

١٦- صبحى لبيب ، التجارة الكارمية ، ص٦ .

١٧- جواتياين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى، ص٤٨٤ ، ص٤٩٥ .

١٨- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين، ص٣٠٨ .

١٩- شوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية عالم المعرفة ، الكويت، ١٩٩٠م، ص٢٦٩-٢٧٠ .

٢٠- قوص ، بالضم ثم السكون، وصاد مهملة ، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا، وبينها وبين قفط فرسخ وهي شرقي النيل ، يقال أن كلمة قوص قبطية معناها الدفن ، وسميت كذلك لتخصص إناس من أهلها في دفن ملوك الفراعنة بعد تحنيطهم، واسمها القبطي Qous، ومنه اسمها العربي ويقال لها قوص بربير.

- محمد رمزي ، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، ق٢ ج٤ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٤ م، ص١٨٧ .

٢١- سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٠١ .

- نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص١٤٣ .

٢٢- جوانابين ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص٤٨٤ .

٢٣- نعيم زكي فهمي ، المرجع السابق ، ص١٤٢-١٤٣ .

٢٤- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية ، جـ١ ، ص١٦٥ .

٢٥- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار / مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م، ج١، ص٥٦٧ .

٢٦- على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص٣٥٩ .

٢٧- القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٣ ، ص٥٢٠-٥٢٤ .

- سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص١١٥ .

- محمد خليل أحمد هيبي، إقليم قوص من الفتح العربي حتى نهاية عصر المماليك، مخطوط رسالة ماجستير ، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩٢م، ص١٣٧ .

٢٨- لمزيد من التفاصيل راجع:

عائشة التهامي، دور قوص كعاصمة إسلامية لصعيد مصر في العصور الوسطى، المؤتمر العالمي لجامعة الأزهر بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على دخول الإسلام مصر، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ/ سبتمبر ٢٠٠٠، ص٣٣١- ٣٤٠ .

٢٩- جان كيلود جارسان ، قوص مركز إسلامي لصعيد مصر في القرون الوسطى ، ١٩٩٤م، ص٣٥٥-٣٧٦ .

٣٠- The Encyclopaedia of Islam, vol . V. p.

- محمد عبد الستار ، المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩، ص٩٨ .

٣١- لم يبق بقوص غير وكالتين هما:

وكالة عوده وهى تقع بمواجهة المسجد العمرى بقوص ومسجلة فى عداد الآثار الإسلامية تحت رقم ١٣٥ .

ووكالة محروس وهى تقع بحارة البومة من شارع القيصرية وكلا الوكالتين جددتا فى العصر العثمانى، ووجودهما يدل دلالة واضحة على الرواج التجارى لهذه المدينة.

٣٢- صبحى لبيب، التجارة الكارمية ، ص١٩ .

٣٣- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة، ص٢٩١ .

٣٤- المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ص١٧٥، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

- عطية القوصى ، من تاريخ بلاد النوبة ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة، ١٩٨١، ص١١٦-١٢٥ .

٣٥- صبحى لبيب، التجارة الكارمية ، ص٣٨ .

٣٦- القلقشندى، صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٣٤٠-٣٤٢ .

٣٧- بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص١٣٤ .

- شوقى عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، ص٢٥٩ .

٣٨- محمد عبد الغنى الأشقر ، تجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، ص٣٥٦ .

٣٩- بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤٠ .

٤٠- الرحلة، ص٦٣٨-٦٣٩ .

٤١- ويذكر ابن حجر عن مكانة التاجر المصرى الكارمى بالنسبة للتاجر الصينى فيقول:

«إن التاجر الكارمى فى مصر يعادل أضخم تجار الصين مالاً وثروة من حيث المكانة المالية والتجارية».

- الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص٢٠٤ .

- أما ابن بطوطة فيذكر أن التاجر الصينى هو:

«وترى التاجر الكبير منهم الذى لاتحصى أمواله كثرة، وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره ... ومن كان له خمس عشرة قطعة سموه الستى وهو بمعنى الكارمى بمصر».

- الرحلة ، ص٦٢٨-٦٢٩ .

٤٢- وقد بلغ عدد المساجد الآن ببلاد الصين نحو ٢٣ ألف مسجد، منها أكثر من ٥٥ فى العاصمة بكين، وتعد هذه آخر إحصائية ذكرها رئيس تحرير جريدة الأهرام عند زيارته لدولة الصين فى أواخر القرن العشرين.

- إبراهيم نافع ، الصين معجزة نهاية القرن العشرين ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ص١٦٦ .

٤٣- العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص٣٥٠ .

٤٤- رقم السجل : ٣٧٩ ارتفاعها : ٥١,٠٠ سم قطر الفوهة : ١١,٠٠سم

٤٥- الرحلة، ص٦٣٠ .

٤٦- الرحلة، ص٦٣٣-٦٣٤ .

٤٧- بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ص١٣١ .

٤٨- سعاد ماهر ، كتاب الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص٥٣-٥٤ .

٤٩- المرجع السابق ، ص١٣٤ .

٥٠- السيلادون، نوع من الطينة الطبيعية توجد فى الصين ذات خواص طبيعية ، تعطى لوناً أخضراً ناقصاً إذا حرقت فى درجة حرارة معينة، كما أنها تعطى بريقاً خاصاً فهى ليست فى حاجة إلى مادة الطلاء الزجاجى الشفاف.

- ديماند، الفنون الإسلامية، ص٢١٨ .

- سعاد ماهر ، المرجع السابق، ص٥٥ .

- Hobson, The Art of the Chinese pottery , pp. 7-19 .

٥١- رقم السجل : ٢٣٩٧٠ قطر الصحن : ٦٩,٠٠سم ارتفاعه : ٣,٨سم

٥٢- رقم السجل : ٢٣٩٧١ قطرها : ١٣,٠٠سم ارتفاعها : ٦٢,٧سم

٥٣- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ٤ ، ص١٩٠ .

٥٤- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين، ص٢٣٩ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية

- ابن بطوطة : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن جبير : الرحلة ، دار صادر، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، الهند، ١٩٢٩م.
- الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد على الأكوع، جزءان، ١٩٨٣م.
- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة، الجزء الثالث، ١٤١٣هـ .
- المقريزى: السلوك فى معرفة دول الملوك ج١ نشر مصطفى زيادة، القاهرة ، ١٩٣٨م.
  المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج٢ بولاق، ١٢٧٠هـ .

ثانيًا : المراجع العربية :

- إبراهيم نافع : الصين معجزة نهاية القرن العشرين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- آمال العمرى (دكتور) : أضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م.
- السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى (دكتور) : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، ج١ ، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م.
- الشاطر بصيلى: الكارمية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٣ ، ١٩٦٧م.
- بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠م.
- جان كيلود جاراسان (دكتور) : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى، ١٩٩٤م.
- جواتياين : دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق د. عطية القوصى، دار الثقافة العربية ١٩٦٦م.

- دءاند : الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى، دار المعارف ، الطبعة الثالث ، ١٩٨٢م.
- زكى محمد حسن (دكتور) : الصين وفنون الإسلام ، القاهرة، ١٩٤١م.
- راشد البراوى (دكتور) : فى الاقتصادي الإسلامى، دار الحرية، ١٩٨٦م.
- سعاد ماهر (دكتور) البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧ .
  كتاب الفنون الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م.
- سعيد عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٣، ١٩٩٤م.
  مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، دار النهضة العربية، ١٩٩٤م.
- سيدة إسماعيل كاشف (دكتور) : علاقة الصين بديار الإسلام، مجلة كلية الآثار، ١٩٧٦م.
- شوقى عبد القوى عثمان (دكتور) : تجارة المحيط الهندي فى عصر السيادة الإسلامية، عالم المعرفة، ١٩٩٠م.
- صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مايو، ١٩٥٢م.
- عائشة التهامى (دكتور) دور قوص كعاصمة إسلامية لصعيد مصر فى العصور الوسطى، المؤتمر العالمى لجامعة الأزهر بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على دخول الإسلام مصر، ٢٠٠٠م.
- عطية القوصى (دكتور) :
  من تاريخ بلاد النوبة، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة، ١٩٨١م.
  أضواء جديدة على تجارة الكارم والكارمية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٢٢، ١٩٧٥م.
- فاروق عثمان أباظه (دكتور) : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

- محمد بركات البيلى (دكتور) : بداية الكارم ومعناه فى العصر الفاطمى، المؤرخ المصرى كلية الآداب- جامعة القاهرة، العدد ١٣ ، ١٩٩٤م.

- محمد خليل أحمد هميمى: إقليم قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، مخطوط رسالة ماجستير، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩٢م.

- محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ق٢ ج٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

- محمد عبد الغنى الأشقر (دكتور) : تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

- محمد محمود زيتون : الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة، ١٩٦٤ .

- نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٣م.

ثالثا : المراجع الأجنبية :

- Ashtor : The Karimi mershants, JRAS/ 1956 .

- Hobson : The Art of the Chinese potter, London, 1923 .

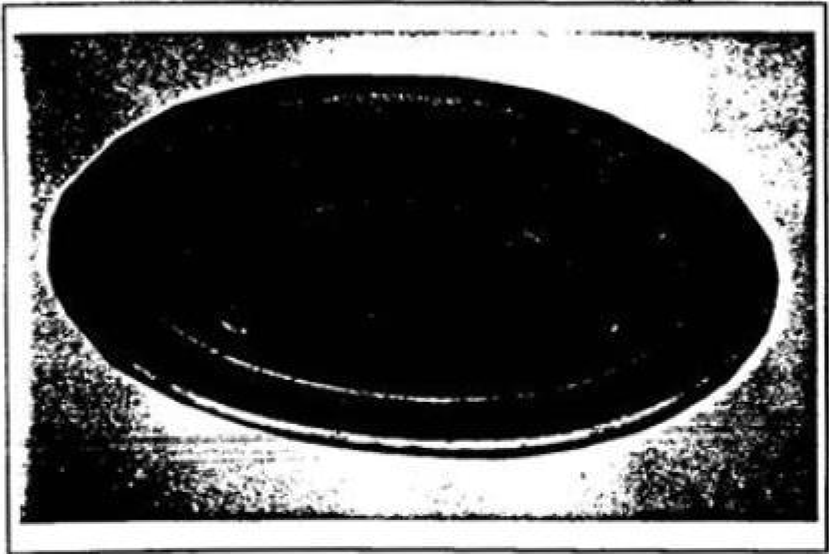
- The Encyclopaedia of Islam, vol . V, Leiden, 1986 .

- King, J.W: Historical Dictionary of Egypt, American University, Cairo, 1989 .



(لوحة١) جرّة فخارية عليها كتابات أثرية بالخط الصينى عُثر عليها بحفائر مدينة قوص

- محفوظة بمتحف جاير أندرسون بالقاهرة



(لوحة٢) صحن من خزف السيلادون الصينى عُثر عليه بحفائر مدينة قوص

- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة-



(لوحة ٣) مزهرية من خزف السيلادون الصينى عُثر عليها بحفائر مدينة قوص - محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة-

شكل (١) خريطة تبين طرق قوافل الحج والتجارة باقليم قوص فى العصور الوسطى



شكل (٣) الكتابة الصينية أعلى البدن بالجرة الفخارية التى عُثر عليها بحفائر قوص
- محفوظة بمتحف جاير أندرسون بالقاهرة-

د. محمد محمود أحمد النشار *

خاتمة الوجود الإسلامي في غرب الأندلس

اعتلى الملك سانشو الثاني Sancho II المدعو Capello[1] عرش مملكة البرتغال (١٢٢٣) [2]، بعد وفاة أبيه ألفونسو الثاني (١٢١١-١٢٢٣م)، ليواجه تركة مثقلة بالمشاكل، وخاصة مع رجال الدين ومع عماته . وكان أن بدأ الإصلاح بينه وبين رجال الدين فوقع اتفاقًا في قلمريه ١٢٢٣م ينص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التي حصلوا عليها من قبل، وأن تلغى جميع الاجراءات التي شكت منها الكنيسة ، مع منحهم بعض الامتيازات الجديدة[3]، ثم عقد الصلح مع عماته وسلم لهن أراضيهن مع رواتب سنوية. وفي المقابل اعترفن بسلطة الملك على أراضيهن أي الاعتراف بالتبعية الإقطاعية وما تتطلبه من شروط وواجبات [4].

أما بالنسبة لحركة الاسترداد البرتغالية فإنها توقفت بعد الاستيلاء على قصر أبي دانس Alcacer de Sol في ١٢١٧م نتيجة لمشاكل ألفونسو الثاني مع رجال الدين ومع إخوته . وعندما نجح ابنه وخليفته سانشو الثاني في معالجة مختلف الشئون والمشاكل التي ورثها مع الحكم عن أبيه قرر أن يمارس حركة الاسترداد ومشاريع غزو أراضي المسلمين للاستيلاء على قلاعهم ومدنهم. وكان ذلك في عام ١٢٢٦م عندما قام بحملته على الباس Elvas .

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد- كلية الآداب- جامعة طنطا .

ومن الواضح أن النهوض بهذه المشاريع (للغزو) تطلب توافر دعامتين : الأولى أن تكون الأحوال مستقرة فى البرتغال وهذا ما تحقق على يديه منذ بداية توليته العرش، الدعامة الثانية هى أوضاع المسلمين فى الأندلس والمغرب آنذاك . ومن زاوية الوضع الإسلامى فإن الخليفة المستنصر بالله الموحدى الذى استغرق فى اللهو والحياة العابثة توفى عندما ضربته إحدى الأبقار وذلك فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ الموافق ٦ يناير ١٢٢٤م [٥]. وأما بالنسبة لوضع الخلافة فقد اضطربت الأحوال فى الأندلس وخاصة بعد أن دعا بالخلافة لنفسه أبا محمد بن عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن صاحب جيان وتلقب بالظافر، والذى اشتهر بالبياسى نسبة إلى مدينة بياسة التى اعتصم بها، وانضم إليه البعض واشتعلت الحروب الأهلية بين المسلمين فى الأندلس الذين انقسموا إلى أقسام اشتد العداء بينها [٦]، حتى أن بعضهم تحالف مع القوى المسيحية ضد إخوانه من المسلمين [٧]. ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى تكالب الممالك المسيحية الأسبانية فى هجماتها على الأراضى الأندلسية.

ومن الإشارات الجديرة بالاهتمام للحميري والذى أشار أثناء ما كان العادل فى أشد صراعه مع البياسى إلى غزوة على أراضى إشبيلية وخاصته بفحص طلياطة Tejado [٨]، ويشير إلى أنه فى جمادى الأول ٦٢٢هـ، ١٢٢٥م، قام الروم الغربيون (ويقصد الليونيون) بقيادة مارتين سانشيز Martin Sanchez وهو ابن غير شرعى لسانشو الأول[٩]. ملك البرتغال وعم الملك الحالى سانشو الثانى والذى كان فى خدمة مملكة ليون آنذاك وحينئذ أشار الحميرى أيضا إلى حال الأندلس آنذاك بقوله :

> «فأغار الروم الغربيون على تلك الجهة وغنموا ما وجدوا وساقوا ما أصابوا والعادل صاحب المغرب يومئذ بإشبيلية ووزيره أبوزيد بن وجان ومعهما أهل الدولة وأشياخ الأمر ولا غناء لديهم ولامدفع عندهم إذا كان الأمر قد أدبر ورونق الدولة قد تغير ومن نزلت به من الناس مصيبة سرح لم يرجع مغيثا ولايجد نصيرا»[١٠].

ويتضح من إشارة الحميرى مدى ما وصلت إليه حال الأندلس من ضعف وانهيار وما تلا من غزوات فى شرق الأندلس وغزوات فرديناند الثالث ملك قشتالة آنذاك بمعاونة البياسى فى معظمها حتى ١٢٢٦م. والأراضى الإسلامية تتلقى الضربات من شتى الممالك الأسبانية.

هكذا كانت الأندلس مسرحا للفتن والصراعات وكان الملك سانشو الثاني قد وطد حكمه وبدأت خططه في غزو أراضي الأندلس تضامنا مع باقي غزوات الممالك المسيحية الأخرى وتحقيقا لأحلام ومشاريع مملكة البرتغال، خاصة وأن مملكة قشتالة قد تقدمت تقدما كبيرا ناحية الجنوب واستطاع القشتاليون بمحالفة البياسي أن يستولوا على العديد من المدن والقلاع الأندلسية في منطقة جيان وقرطبه وأصبحوا يتحركون كما يشاءون في أراضي الأندلس الوسطى حتى اقتربوا من قرطبة (١١).

وكان التنسيق بين الممالك المسيحية الثلاث (قشتالة - ليون - البرتغال) لحملاتهم جنوب التاجه يتم برعاية البابوية، إذ أن البابا وهو نوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م) أرسل مبعوثا إلى مدينة شانت ياقب دى كومبلاستلا Santiago de compostela ثم توجه إلى براغا حيث تقابل مع فرديناند الثالث ملك قشتالة في ربيع ١٢٢٦م ثم قام بزيارة ألفونسو التاسع ملك ليون، وذلك للتنسيق مع سانشو الثاني ملك البرتغال(١٢) لأجل توحيد هجماتهم وتعاونهم ضد الأراضي الإسلامية ، وكانت الخطة أنه في نفس توقيت مهاجمة ألفونسو التاسع لبطليوس يقوم سانشو الثاني بالهجوم على مدينة الباس Elvas(١٣) وقد أشار أحد المؤرخين إلى أن الهدف من توجه سانشو الثاني إلى هذه المدينة هو منع مساعدة القلاع الإسلامية الواقعة على ضفاف وادى يانة لمساعدة إخوانهم في الإكسترمادورا الأسبانية(١٤).

وجدير بالذكر أن هذه المدينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام تقع على منطقة الحدود ما بين البرتغال وليون . ويفسر ذلك الموقع الخطة الموضوعة المشار إليها سابقا- وتعتبر هذه المدينة قلعة حصينة جدا ومحاطة بجبل وأرضها غنية، وكانت مشهورة بأسوارها الحصينة القوية(١٥).

وعندما جهز الملك سانشو الثاني جيشه كان معه مارتين انيز Martin Anes رئيس أساقفة براغا ومعه دون أبريل بيريز Abril Peres والعديد من النبلاء والفرسان ، وتوجهوا إلى قلعة إلباس ، وذلك في شهر يوليو ١٢٢٦م / ٦٢٣هـ . وقد طوق المدينة وحاصرها حصاراً تاماً في حين تحصن المسلمون في داخل المدينة ودافعوا عنها باستماتة (١٦). وأشارت الروايات التاريخية إلى ظهور الملك سانشو الثاني (في أول اختبار له) كفارس وأنه أثبت جدارته كمحارب مثل جده الفونسو هنريكز ذلك أنه كان في طليعة المهاجمين لأسوار المدينة ، وعرض نفسه للخطر لقربه من الأسوار حتى أصبح في مرمى قذائف المسلمين، فأسرع أحد الفرسان ويدعى الفونسو منديز Alfonso Mendes إلى إنقاذ الملك وكان بدوره قد عرض نفسه لخطر

كبير لانقاذه[١٧]. وقد شدد الملك الحصار على المدينة ودافع المسلمون ببسالة، ولكن تحصينات إلباس كانت قد دمرت نتيجة للهجمات العنيفة للبرتغاليين، حتى أصبح الدفاع عنها صعبًا للغاية . ومع ذلك منذ استمات سكانها فى الدفاع عنها رغم تدمير معظم منازلها من شدة القذف[١٨].

وتوجد ثلاث روايات حول سقوط المدينة :

الأولى أن سانشو ملك البرتغال اقتحم المدينة واستولى عليها وأجبر سكانها المسلمين على الخروج منها ، ووضع فيها إحدى الحاميات . وأصدر مرسوما نصه :

«أنا سانشو الثانى ملك البرتغال ابن الملك المشهور ألفونسو مع زوجتى الملكة أورآكا ورغبة فى تعمير مدينة الباس التى استوليت عليها من المسلمين قد منحتها إلى الأشخاص التالين لتعميرها».

والمرسوم صادر فى عام ١٢٢٦ م ويفهم منه أن المدينة تم الاستيلاء عليها فى هذا العام[١٩].

وفى الرواية الثانية أنه استولى عليها ثم تركها وانسحب منها واستردها المسلمون مرة أخرى [٢٠]، ولم توضح الرواية لماذا انسحب منها وتركها .

وأما الرواية الأخيرة فهى أنه لم يستول عليها بل تركها لسبب غير معروف ثم بعد ثلاث سنوات قام بإرسال جيش مرة أخرى بقيادة مارتين انيز Martin Anes الذى نجح فى حصارها والاستيلاء عليها فى سنة ١٢٢٩م[٢١].

ويبدو أن الرواية الأولى هى الأقرب إلى الواقع لأن براندو Brando وهو مؤرخ ثبت أنه يعتمد كثيرا فى تاريخه على الاستشهاد بالنصوص والروايات .

وجدير بالذكر أنه بعد الاستيلاء على الباس أعطى الملك كثيراً من الحقوق والامتيازات لسكان إحدى المدن البرتغالية التى تدعى مارباو Marvao وأيضا لجماعة رهبان فرسان الاسبتارية لتعمير المناطق المحيطة بالباس واستولى أيضا على قلاع جديدة مثل قلعة بيلا مندو Vila Mendo وسالبتيرا دى إكسترموا Salvaterra de extremo [٢٢].

والواقع أن التعاون كان وثيقا بين الملك سانشو الثانى وجماعات الرهبان الفرسان فى مهاجمة الأراضى الإسلامية . إذ أشارت الروايات إلى أنه فى نهايات عام ١٢٢٩م ٦٢٧ هـ

فى نفس يوم استيلاء ألفونسو التاسع ملك ليون على مدينة ماردة Merida استولى أيضًا الملك البرتغالى على مدينة جلمانية Juremena (Juromenha) . وجدير بالذكر أن الروايات قد اختلفت فى تاريخ الاستيلاء ما بين ١٢٢٩م وأوائل ١٢٣٠م[٢٣] وهذا يتفق مع قراءة الأحداث إذ أن سانشو الثانى خرج فى أواخر عام ١٢٢٩م وكان الاستيلاء عليها فى أوئل عام ١٢٣٠م خاصة وأن براندو قد أشار إلى الاستيلاء عليها فى هذا التاريخ الأخير.

وفى أثناء نشاط الملك سانشو فى الأراضى الإسلامية على ضفاف وادى يانة الشمالية توفى ألفونسو التاسع ملك ليون فى عام ١٢٣٠م وورث مملكته ابنه فرديناند الثالث ملك قشتالة ، فتم بذلك توحيد المملكتين واستتبع ذلك النزاعات على الحدود مع مملكة البرتغال . ولكن اتفقوا سريعا على تقسيم بعض الأراضى التى كانت على الحدود مع المسلمين واتخاذها مجالا ومناطق لفتوحاتهم فى أغسطس ١٢٣١م[٢٤].

وكان لجماعات الرهبان الفرسان دور كبير سواء فى الاشتراك مع الجيوش البرتغالية فى غزو الأراضى والقلاع الإسلامية أو فى تعمير الأراضى المفتوحة حديثا وتأسيس القلاع الجديدة على الحدود مع المسلمين (وسيتعاظم دورهم لاحقا) ولذلك نرى أنه فى مارس ١٢٣٢م منح الملك سانشو الثانى خطاباً (موقع فى قلمرية) بهبة للإسبتارية يمنحهم الكثير من الأراضى على الحدود مع المسلمين لتعميرها فأسسوا قلعة جديدة اتخذت اسم اوكراتوUcrato(Ocrato)[٢٥].

ومن أهم الاستيلاءات التى أشارت إليها الروايات التاريخية ما قام به الملك سانشو الثانى فى عام ١٢٣٢م تنفيذا لأهدافه وسياسته فى الاستيلاء على الأراضى والمدن الإسلامية، إذ استولى فى الإلنتخو على قلعة شربة Serpa وتقع شرقى نهر وادى يانة إلى الجنوب الشرقى من مدينة باجة . كذلك استولى على قلعة مورا Moura وهى أيضًا شرق نهر وادى يانة إلى الشمال من شربة وإلى الشمال الشرقى من مدينة باجة واللتان استسلمتا له سريعا وتعتبر هاتان القلعتان من أهم الاستيلاءات فى وادى يانة وعهد بالدفاع عنهما وعن الأراضى المحيطة بهما لجماعة رهبان فرسان الاسبتارية بزعامة ألفونسو بيريز فارينا Alfonso Peres Farina[٢٦]، وكان محاربا له نشاط كبير فى تلك المناطق . ويبدو أن ذلك كان مكافأة لهم على دورهم فى الاستيلاء على هذه القلاع .

وهكذا استمر الملك سانشو الثانى فى حملاته ضد الأراضى والقلاع الإسلامية وتعمير الأراضى المحيطة بها واشراك جماعات الرهبان الفرسان فى نشاطه المكثف ضد المسلمين وقد

أشارت لنا المدونات التاريخية أنه نتيجة لهذا المجهود الكبير الذى يقوم به ملك البرتغال ضد المسلمين ، فإن البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) منحه حمايته ورعايته وأعرب عن مساعدته للملك البرتغالى فى حروبه ضد المسلمين والسماح للصليبيين بالاشتراك فى هذه الحروب لمدة أربع سنوات [٢٨].

وهكذا غدت الحرب ضد المسلمين فى الأندلس شعارا تنادى به كل القوى الأوربية آنذاك، واستمرت تحظى بتشجيع الممالك المسيحية الأسبانية مما ترك أكبر الأثر فى أحوال شبه الجزيرة الإيبيريه ذلك أن شبه الجزيرة لم تشهد مثل الحماس والروح والتكالب على الأراضى الإسلامية ، ولذلك تعتبر هذه الفترة ذروة الصراع ضد مسلمى الأندلس .

وفى تلك الحرب العدوانية بدأت تظهر أهمية جماعات الرهبان الفرسان إذ غدت هى التى تتولى القيام بغارات وغزوات ضد القلاع الإسلامية الصغيرة وتشير الروايات التاريخية إلى جماعة رهبان القديس شانت ياقب التى بدأت فى مملكة ليون وصارت لها فروع فى مملكة البرتغال ومن أهم مراكزها الرئيسية مدينة بلمالة Palmela وبعد استيلاء الملك ألفونسو الثانى على مدينة قصر أبى دانس منحها لجماعة القديس شانت ياقب وكان حاكم هذه المدينة وزعيم الجماعة فى البرتغال هو الفارس بايو بريز كوريا .
Paio peres Correia (Pelayo Perez Correa)[٢٩]

وفى نهايات ١٢٣٤م استولت تلك الجماعة على إحدى القلاع التى تدعى الجسترل Al-justral وبذلك وصلت الحدود البرتغالية حتى أعالى الألنتجو على طول خط وادى يانة إلى الشرق من نفس هذا النهر [٣٠]. وتشجيعا لهذه الجماعة أصدر الملك سانشو الثانى مرسوما فى ٣١ مارس ١٢٣٥م بمنح هذه القلعة إلى جماعة شانت ياقب [٣٢]، وفى نفس هذا العام استولت الجماعة على كل الأراضى المحيطة بوادى سيسمبر Vila de sesimbera [٣٢].

واستمرت حملات البرتغاليين فى عام ١٢٣٦ م فى نفس إقليم الألنتخو ، إذ أن الملك سانشو الثانى استولى على مدينة اروشس Arroches (٧يناير ١٢٣٦م) واستمر فى حملاته حتى استولى على كل الأراضى الواقعة على ضفاف نهر كوا Coa-والتى سوف تحدث نزاعات حولها فى المستقبل مع مملكة قشتالة[٣٣].

وهنا يبرز أمامنا تساؤل له أهمية : وهو ماذا كان موقف المسلمين من هذه الضربات العدوانية الواقع أننا إذا نظرنا إلى مسرح الأحداث نجد أنه ليست مملكة البرتغال وحدها هى

التى كانت تهاجم وتستولى على المدن والقلاع الإسلامية، إذ أن ممالك قشتالة ليون وأرجوان شاركت هى الأخرى فى هذه الفترة فى العدوان على الأراضى الإسلامية، والمسلمون عاجزون عن وقف هذه الهجمات خاصة وأن الحروب الأهلية والاضطرابات ظلت مستمرة حول منصب الخلافة ، مما عرض المسلمين بالأندلس لخسائر فادحة. من ذلك أن السيد أبا العلى ادريس ابن يعقوب المنصور والى أشبيلية وقرطبة دعا لنفسه بالخلافة عقب مقتل الخليفة العادل وتلقب بالمأمون[٣٤]. وفى نفس الوقت دعا لنفسه بالخلافة أيضا أبوزكريا يحيى بن الناصر فى المغرب[٣٥]، وهكذا شغل المأمون بقتال يحيى فى المغرب بمساعدة جيش من قشتالة وصراعهما[٣٦]. وبعد ذلك ظهر مدع جديد للخلافة هو السيد أبو موسى عمران بن يعقوب المنصور أخو المأمون ...[٣٧]، كل هذه الصراعات نشبت بين زعماء الدولة الموحدية فى نفس الوقت الذى ظهرت ثورات الأندلسيين ضد الموحدين ، وكان أهمها ثورة ابن هود وهو عبدالله محمد بن يوسف بن هود ، الذى دان له الكثير من مدن وأقاليم الأندلس وأصبح أميراً شرعيا على الأندلسيين، وقد اعترف بسيادة الخلافة العباسية وكان سلطته تمتد فى شرق الأندلس من الجزيرة وشاطبة حتى ألمريه جنوبا ، وفيما بين المريه والجزيرة الخضراء. وفى وسط الأندلس فيما بين قرطبه وغرناطة. وكان يمثل الفكرة الأندلسية القومية والتى تهدف إلى تحرير الأندلس من الموحدين والمسيحيين جميعا [٣٨].

وهكذا أصبحت الأندلس مثاراً للصراعات بين مختلف القوى، كل يسعى لمصلحته الخاصة، وكل عنصر من هذه القوى لابقوى على مقاومة الممالك المسيحية الإسبانية ، خاصة وأنهم فى صراعاتهم يحتاجون إلى قوتهم لقتال منافسيهم .

وقد أشارت لنا الروايات البرتغالية إلى نشاط مكثف فيما بين عامى ١٢٣٨م -١٢٤٠م للبرتغاليين فى حملاتهم ضد الأراضى والمدن والقلاع الإسلامية، إذ أن الملك سانشو الثانى توجه بجيشه إلى ضفاف وادى يانة حيث قلعة مارتلة Mertola [٣٩] وهى من أمنع القلاع وتقع فى منطقة حصينة حصانة طبيعية غربى نهر وادى يانه، وتحدها من الشمال الغربى إلى الشمال انهار Cabres et erges وبها حاميه قوية جدا ولها أهمية كبيرة منذ عهد الرومان والقوط ومن المدن التجارية الهامة. وقد نجح فى حصارها والاستيلاء عليها[٤٠]. ثم توجه إلى قلعة الفجار دى بنا Alfajar de Pena [٤١]، وأيمونت Aiamonte على الضفاف الشمالية لوادى يانه وقرب مصب النهر فى المحيط الاطلنطى ومنحت تلك القلاع لجماعة القديس شانت ياقب[٤٢].

وكان أن خرج بايو بيريز وجماعته فى عام ١٢٤٠م، وتوجه إلى حقل أوريك Ourique وكان أول مكان وصل إليه هو برج استمبار Torre de Estombar فقام بتدميره وعندما تصدى له المسلمون فى ذلك المكان نجح فى الانتصار عليهم ثم استولى على قلعة البور Al-vor[٤٣]، التى تقع بين شلب Silves ولاجوس Lagos، واشتبك هناك مع جيش من المسلمين كان قد تجمع من مدينة شلب وكل المناطق المجاورة وأتى لنجدة القلعة، ولكنه انتصر عليهم أيضًا[٤٤].

وبعد الهزيمة عرض المسلمون على «بايو» أن يسلموه مدينة كاسيلا Cacela بدلا من مدينتى برج استنبار Torr de Estombar والبور Alvor اللتين استولى عليهما، على أن تعاد المدينتين للمسلمين، وذلك لأن مدينة كاسلا أبعد قليلا من أراضى المسلمين فى حين أن المدينتين هما أقرب المدن إلى أراضيهم[٤٥].

وتوضح إحدى الروايات أن السيد بايو غضب كثيرا من عرض المسلمين بأن يترك هذه الأراضى البعيدة عن أملاكه والقريبة من أملاك المسلمين فى مقابل أراضى قريبة من أراضيه ولكنه رفض لغنى هذه الأراضى وأهميتها[٤٦]، ويبدو أن رفضه راجع أيضًا إلى أن هاتين المدينتين القريبتين من أراضى المسلمين يمكن أن يتخذها قاعدتين أماميتين للهجوم على أراضى المسلمين وفى نفس الوقت فإن الدور على مدينة كاسلا لن يطول.

ثم كان أن واصل بايو حملاته فتوجه إلى ميناء كاسيلا Porte de Casela وهو ميناء هام على المحيط الأطلنطى إلى الغرب قليلا من طبيرة، وهى منطقة قوية حصينة مليئة بالسكان ويستطيع المسلمون المجاورون لها نجدتها بسرعة[٤٧]. ومنحت هذه المدن الجديدة أيضًا لجماعة القديس شانت ياقب بزعامة بايو كارير[٤٨] ويعتبر هذا تشجيعا من الملك البرتغالى سانشو الثانى لهذه الجماعة لكى تستمر فى نشاطها وحملاتها ضد المسلمين وتعمير الأراضى المفتوحة.

وقام «بايو» أيضًا بالاستيلاء على كل القلاع المجاورة للمدن السابقة. وكان أهمها على نهر ريباكو Ribacoa مثل فيلار Vilar ومايور Maior وسابوجال Sabugal وجستوسا Ges-tosa وقلعة رودريك Castel Rodrigo[٤٩].

وهكذا تكالبت الجيوش البرتغالية على المدن والقلاع الإسلامية، فنجد أن بايو وجماعته خرجوا من كاسلا Cacela فى عام ١٢٤٢م / ٦٤٠هـ للاستيلاء على مدينة بادرنى Paderne مما جعل المسلمين يتجمعون من مدن فارو Faro (شنتمرية الغرب) ولولى Loule وطبيرة Ta-

vira وتوجهوا للقاء بايو وجيشه فى إحدى الأماكن التى تدعى دسبارتو Desbarato. وحدثت معركة كبيرة بينهم انتصر فيها «بايو» على المسلمين(٥٠) ثم وصل إلى مدينة بادرنى التى كانت حينئذ تواجه مشاكل داخلية، ولكن سرعان ما اتحد سكانها واتفقوا على مقاومة البرتغاليين. ونتيجة لحصانة هذه المدينة وعلم بايو بتجمع جيش من المسلمين مرة أخرى من مدن فارو وطبيرة وأماكن أخرى مجاورة ، غير بايو اتجاهه إلى مدينة لولى Loule ثم توجه إلى إقليم طبيرة (Tavira Tavila) ويبدو أن الهدف الرئيسى فى تحركاته هى التمويه لكى يفاجىء مدينة طبيرة وقد وصل إلى إقليم طبيرة وما كاد يصل إلى ذلك الإقليم حتى نظم قواته للمعركة رافعا أعلامه . واستعد المسلمون لمقاومته ونشب القتال وأشارت المدونات البرتغالية إلى أن المسلمين لم يستطيعوا الصمود أمام هجمات البرتغاليين، وأصبح كل واحد من المسلمين يسعى لإنقاذ حياته . وأسفرت الموقعة عن أعداد كبيرة من القتلى والجرحى المسلمين(٥١).

وعندما وجد بايو أنه يجب عليه أولا القضاء على الجيوش الإسلامية فى ذلك الإقليم قبل أن يحاصر المدينة للاستيلاء عليها تعقب المسلمين ، والتقى مع فلول الجيش الهارب والذى لجأ إلى المكان المسمى فورادير و Furadero وهناك نشبت المعركة فى منطقة نافورة الأسقف Fon- tedo Bispo وقد قتل عدد من البرتغاليين ولكن قتل من المسلمين كثيرين(٥٢) وأشار برنداو إلى أن بايو استمر فى تحركاته حتى التقى مع أحد الجيوش الإسلامية فى منطقة رأس مسترى Cabeca do mestre وقد صمد المسلمون فى بادىء الأمر ولكنهم لم يستطيعوا الاستمرار فى القتال حتى قدوم الليل، وأصبح الخطر بالنسبة لهم كبيرا مما دفعهم إلى الانسحاب خشية قدوم نجدات للبرتغاليين ثم عاد الجيش البرتغالى فرحا بهذه الانتصارات إلى كاسلا Cacela (٥٣). ويبدو أن عودته كانت ضرورية لتنظيم جيشه بعد هذه المعارك المتتالية، واستكمال استعداداته من أجل الهدف الرئيسى لحملاته السابقة، وهو الاستيلاء على كل القلاع والمدن فى الطريق إلى مدينته طبيرة Tavira .

وجدير بالذكر أن هذه المدينة لها أهمية كبيرة إذ أنها تقع على المحيط الأطلنطى إلى الغرب قليلا من مصب نهر وادى يانة فى المحيط. وهى على بعد أربع فراسخ (الفرسخ ثلاثة أميال) من مصب النهر المذكور. وقد أشارت المدونات البرتغالية إلى أهميتها وأنها ذات أسوار قوية تحيط بها من جميع الأطراف وقلعتها فى الداخل قديمة وقوية وبها كثير من المبانى ولذا فإنها من المدن الحيوية فى تلك المنطقة(٥٤). وكان المسلمون يعلمون أنها هدف لبايو وجيشه، ولذلك

حاولوا الحصول على هدنة معه لمدة أربعة أشهر كوقت ضرورى لأجل استكمال استعداداتهم وتجهيز الاستحكامات للدفاع عن أراضيهم، وأيضا من أجل طلب النجدات واحضار المساعدات لكى يستطيعوا الصمود أمام هجمات بايو [٥٦]. ولكن بايو لم يستجب لهم ثم خرج مرة أخرى وتوجه إلى طبيرة . وقد توقف فى الطريق فى المكان المسمى المارجين Al-margen لكى نظم قواته، عندما علم أن المسلمين قد تحصنوا فى داخل المدينة ، وصمموا على القتال. فانتظر وصول بعض الامدادات إليه ثم طلب المسلمين فى طبيرة والأماكن المجاورة المفاوضات مع بايو ولكنهم فشلوا[٥٦] (ويبدو أنه أدرك أن المسلمين يريدون اطالة الوقت فى انتظار النجدة) فتوجه سريعا إلى طبيرة ليهاجمها فجأة، ونجح فى مفاجأة المسلمين فى المدينة. وكانت أبوابها مقفلة وقد فتح المسلمون أحد الأبواب لكى يخرجوا منه لمقاومة البرتغاليين الذين نجحوا فى الانتصار على المسلمين وشددوا الهجوم على المدينة حتى دخلوها وذبحوا كل قادر على القتال فى المدينة كما قتلوا الكثيرين من سكانها [٥٧]. وأشارت الروايات إلى أن قائد المدينة والذى يدعى ابن فلول Aben Falule ، نجا بحياته وفر من المدينة (وفى رواية أخرى قتل) واستولوا عليها فى ٩ يوليو ١٢٤٢ (وفى رواية ١١ يوليو) ، فحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا [٥٨]، وقد اختلفت بعض الروايات فى تاريخ الاستيلاء عليها، ما بين تاريخى (١٢٤٢ أو ١٢٤٩م) ولكن يبدو أن الاستيلاد عليها تم فى عام ١٢٤٢ ويؤكد ذلك أن هذه المدينة منحت إلى جماعة القديس شانت ياقب أى جماعة بايو فى وثيقة مؤرخة ٩ يناير ١٢٤٤ وهذا ما يؤكده أيضا عدد من المؤرخين المحدثين [٥٩].

أما بايو فقد قرر أن لايفقد الوقت ولاعنصر المفاجأة فتوجه بسرعة إلى البور Alvor واستولى عليها مرة أخرى (ويبدو أن المسلمين كانوا قد استعادوا هذه القلعة مرة أخرى لأنه سبق الاستيلاء عليها) ثم توجه إلى حصار مدينة باردنى Paderne وكانت قلعة قوية جدا واستولى عليها أيضاً .

وكانت آخر المشاريع الكبيرة فى عهد الملك سانشو الثانى هو الاستيلاء على مدينة شلب[٦٠]، وهى من أهم مدن غرب الأندلس . وقد أشادت بموقعها وحصانتها وأهميتها وما تتمتع به من ثروات المصادر الإسلامية والمدونات البرتغالية . واحتلت مكانة بارزة فى عهد الموحدين [٦١].

ثم توجه بايو بيريز إلى منطقة شلب . وفى الطريق هاجم قلعة برج استمبار Torre de stombar، وهى القلعة التى كان قد استولى عليها من قبل سنة ١٢٤٠م ولكن المسلمين

استردوها مرة أخرى. وكانت هذه القلعة تابعة لابن عفان Aben Afan حاكم مدينة شلب . ويبدو أنها كانت خطة ماكرة من بايو بيريز إذ أن ابن عفان عندما علم بذلك خرج مسرعا من شلب لإنقاذ هذه القلعة . وعندما علم بايو بخروجه أسرع بجيشه تجاه شلب[٦٢].

وعندما علم ابن عفان بالموقف أسرع بالرجوع إلى مدينته، فوجد البرتغاليين محاصرين للمدينة وقد هاجموها . وهدموا منطقة فى سورها بجوار الباب الذى يدعى زايا (Azaia) Zaya وفى تلك المنطقة بجوار كنيسة سانت ماريا، التقى الجيش المسلم بقيادة ابن عفان بالجيش البرتغالى بقيادة بايو، وانهزم ابن عفان مما جعله يلجأ إلى القلعة داخل المدينة لكى يتحصن فى داخلها . ولكنه وجد أنه لاقبل له بقتال البرتغاليين ولايتوقع انتظار نجدة من المسلمين فى تلك المناطق مع صعوبة الاحتفاظ والصمود داخل المدينة[٦٣].

ولذلك أرسل ابن عفان أحد الفرسان ليبحث عن مخرج ونجح فى الفرار مع بعض أتباعه ولكنه غرق أثناء عبوره النهر على فرسه فى أحد الأماكن العميقة يدعى (حتى الآن) مخاضة ابن عفان Pego de Aben Afan [٦٤] أما عن باقى المسلمين فى داخل المدينة فإنهم دافعوا عن القلعة فى حدود إمكاناتهم ولكن نجح بايو فى نهاية الأمر فى الدخول والاستيلاء على القلعة. ويشير برنداو إلى أن المسلمين فى القلعة طلبوا الرحمة من دوق بايو الذى لم يخل سكانها وسمح لهم بالإقامة [٦٥]، وكان المسلمون الذين يبقون فى المدن ويخضعون للحكم المسيحى، كما يحدث للمستعربين فى الأراضى الإسلامية يدفعون جزية سنوية على الرأس[٦٦]. ثم توجه بعد ذلك إلى بادرنى Paderne واستولى على القلعة بالقوة وقتل المسلمين لقتلهم اثنين من الفرسان الرهبان هناك[٦٧].

وجدير بالذكر أن جميع الروايات البرتغالية اختلفت فى تحديد سنوات الاستيلاء على المدن والقلاع الإسلامية ما بين تقديم وتأخير. ولكن يبدو أن هناك بعض التعتيم المقصود من بعض الروايات البرتغالية ، إذ أضافوا الكثير من الاستيلاءات على عهد الملك ألفونسو الثالث لسنة ١٢٤٨م والبعض الآخر يرى أنه منذ بداية الحروب الأهلية التجأ الملك سانشو الثانى إلى مملكة قشتالة واستيلاء أخيه على الحكم فى سنة ١٢٤٥م ويضع كل حملات بايو فى عهد الملك ألفونسو الثالث. ويبدو أن بعض المدن قد استولى عليها البرتغاليون فى عهد الملك سانشو الثانى ثم استردها المسلمون وتم الاستيلاء عليها مرة أخرى فى عهد الملك ألفونسو الثالث، ولكن بعد تحقيق وروية اعتمدنا على مقارنة الروايات واستعراض أحداث الروايات نفسها ،

التى تنسب هذه الفتوحات إلى عهد الملك ألفونسو الثالث نجد أنها تتناقض فى بعض الأحداث، إذ تذكر أحداثا من المعلوم حدوثها فى عهد الملك سانشو الثانى . وجدير بالذكر أن برنداو هو أكثر المؤرخين البرتغاليين القدامى دقة حيث يعتمد على الوثائق والنصوص فى تأكيد سنوات الأحداث . وعلى سبيل المثال هناك أحداث الاستيلاء على طبيره فقد وضعها فى سنة ١٢٤٢ ثم بعدها فى نفس العام شلب- كما أشرنا- واتفق فى تفاصيل الأحداث مع بعض المؤرخين القدامى وهناك بعض المدونات مثل مدونة الملوك السبعة الأوائل للبرتغال تضع هذه الأحداث فى مدونة الملك ألفونسو الثالث، وأيضا مدونة الخمس ملوك الأوائل للبرتغال توضع فى عهد الملك ألفونسو الثالث، وكلها حدث فى سنوات ١٢٤٩-١٢٥٠م . ولكن معظم المؤلفات الحديثة وضعت هذه الأحداث فى عهد الملك سانشو الثانى اتفاقا مع وثائق برنداو.

ولنا أن نتساءل عن موقف المسلمين من هذه الحملات والغزوات البرتغالية على الأراضى الإسلامية فى غرب الأندلس؟

وجدير بالذكر أن هذه الحملات كانت تتواكب مع حملات مملكة قشتالة ومملكة أراجون إذ نجح الملك فرديناند الثالث فى الاستيلاء على العديد من القلاع والمدن الإسلامية وأهمها ابده سنة ١٢٣٣م وقرطبة سنة ١٢٣٦م[٦٨]، وخايم الأول ملك أراجون استولى أيضا على العديد من المدن والقلاع الإسلامية، وأهمها الجزر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة سنة ١٢٣١م وبلنسية سنة ١٢٣٨ وما حولها[٦٩]. أما بالنسبة للمسلمين فكانت الضربات تتلاحق على جميع أراضى الأندلس مضافا إليها النزاعات والحروب الأهلية التى منعت تضافر وتوحيد جهود القوى الإسلامية ضد نهضات الممالك المسيحية الإسبانية. ويهمنا هنا منطقة غرب الأندلس فقد كانت الصراعات قد اشتعلت بين ابن هود وابن الأحمر[٧٠]، وإذا كان ابن الأحمر قد اعترف بسلطته ابن هود فإنه سرعان ما ظهر قاضى مدينة لبلة Niebla شعيب بن محمد بن محفوظ ليدعو لنفسه، وتسمى بالمعتصم فتوجه ابن هود لقتاله وعندئذ امتنع ابن محفوظ فى مدينته ونجح فى الصمود، مما دعا ابن هود لترك حصارها، ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م[٧١] وبذلك قامت مملكة ابن محفوظ وعاصمتها لبلة. ويمتد هذا الإقليم من رأس القديس فيكنت San Vi-cente إلى الغرب حتى مصب نهر الوادى الكبير ويحده من الشمال سيرا مورينا Sierra Mo-rina ومن الجنوب البحر وإقليمها الحالي يشمل ولبه علاوة على شرية Serpa ومورا فى الألنتخو (البرتغال) وكل الغرب مع مدن فارو وطبيرة ولولى Loule وكاسترومارين Castromarin[٧٢].

وبهذا يتضح أن منطقة وغزوات البرتغاليين هي أملاك تابعة لمملكة ابن محفوظ فى لبلة، ولكن لماذا لم يقم بمجهودات فى الدفاع عن مملكته؟ والواقع أنه أعلن حكمه فى سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م، وكان على صراع مع ابن هود فى نفس الوقت ، متخوفا من هجمات ملك قشتالة فرديناند الثالث، فكان لايستطيع أن يترك عاصمته ليدافع عن أراضيه فى مناطق أخرى، خاصة وهو لايأمن من التحرك منها خوفا من ابن هود وملك قشتالة ولذلك اعتمد على مبدأ أن تدافع هذه المدن عن نفسها . وكانت كل مدينة تعتمد على الدفاع عن نفسها بجهود سكانها وحاميتها ، وأحيانا عندما يكون الخطر مشتركا تتعاون القرى والقلاع المجاورة فى التصدى للغزوات البرتغالية.

* * *

وقد تعرضت مملكة البرتغال فى عام سنة ١٢٤٥م لأحداث هامة، إذ قامت فيها ثورة ضد الملك سانشو الثانى ، وكانت بقيادة أخيه الفونسو كونت بولونيا - الذى كان متزوجًا من ماتيلده صاحبة بولونيا وأصبح أميراً على هذه الولاية(٧٣). وكانت لهذه الثورة أسباب عديدة أهمها العداء والنزاعات بين سانشو الثانى والأشراف (النبلاء) ، بالإضافة إلى نزاعاته أيضا مع رجال الدين، إلى جانب تربص كل من أخويه الفونسو وفرديناند وعمه بدرو ، وخضوع سانشو الثانى لنفوذ زوجته ، خاصة أنه ليس له ولد. واتفق الجميع على خلع الملك عن العرش. وأيد البابا هذا الطلب واتفق الجميع على عزل الملك وتولية أخيه الفونسو ، وصدر قرار البابا فى ٢٢ يوليو سنة ١٢٤٥ م بعزل الملك سانشو الثانى وتنصيب أخيه مكانه فى الحكم، ولم تلبث أن اشتعلت الحروب الأهلية وتحالف الجميع ضد سانشو الثانى، ماعدا قلة من أتباعه من النبلاء ، مما اضطره للفرار إلى مملكة قشتالة. ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث. وخرج بجيش، ومعه الفونسو أكبر أبناء الملك فرديناند ووريثه، وزحفوا على البرتغال، ولكن حدثت مفاوضات عرض فيها الفونسو الثالث على الفونسو ولى عهد قشتالة قرار البابا ، فوجد نفسه فى موقف صعب، مما دفعه إلى العودة دون قتال . وهكذا استمرت النزاعات حول بعض القلاع والمدن ، وأهمها قلمريه التى ثبتت على ولائها لسانشو الثانى حتى توفى الأخير فى طليطلة بناير سنة ١٢٤٨م(٧٤).

وجدير بالذكر أن فترة الحروب الأهلية ١٢٤٥-١٢٤٨م لم تشر الروايات إلى أى فتوحات تذكر فيها خاصة وأن الحرب الأهلية استمرت حتى توفى سانشو الثانى فى يناير سنة ١٢٤٨م. وعندئذ استقر الملك ألفونسو الثالث فى الحكم وبايعه الجميع، وتلقب بلقب الملك فى حين أنه كان من قبل يلقب بلقب القائم بشئون الدولة أو نائب الملك(٧٥).

ومن الأحداث الهامة فى غرب الأندلس - ما حدث عندما بدأ ألفونسو الثالث حكمه كملك- مشاركة البرتغاليين فى حصار مدينة إشبيلية بقيادة بايو بيريز مقدم جماعة القديس شانت ياقب، ومعه عدد كبير من أفرادها، بالإضافة إلى كثير من الفرسان البرتغاليين . وقد أشار برنداو إلى أن المؤرخين الأسبان تجاهلوا دور النبلاء البرتغاليين ، إذ كان لهم دور كبير حيث عبروا نهر وادى يانة واشتبكوا أيضًا فى أكثر من موقعة مع ابن محفوظ ملك الغرب الأندلسى، كما اشتبكوا أيضاً مع مسلمى طريانه Triana . وكان لهم نشاط فى شغل قوات المسلمين حتى لايتكتلوا فى الدفاع عن إشبيلية ، وأيضًا أشار إلى جماعة فرسان رهبان ابيز وزعيمهم مارتين فرديناند مع جماعة فرسان الداوية من مملكة البرتغال شاركوا أيضًا فى حصار أشبيلية، والاستيلاء عليها فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م[٧٦].

وكانت أول مهام الملك ألفونسو الثالث بعد استقرار الأمور ورغبته فى أن يضفى على حكمه أهمية وبطولات ، فقرر التوجه إلى الاسكترامادورا لكى يواصل حركة الاسترداد ويضع نهاية للبقية الباقية من الأراضى الإسلامية غرب نهر وادى يانه وقد جمع جيوشه والأموال اللازمة لهذا المشروع فأرسل لجمع الجنود من المدن البرتغالية كما استعان بفرسان جماعات الرهبان ومنهم جماعة أبيز Aviz (قلعة رباح سابقا) وجماعة شانت ياقب وكانت لهما أهمية كبيرة آنذاك فى الألنتخو وأراضى الغرب وجماعة الاسبتارية . واشترك كثير من الفرسان المشهورين وكثير من الفرسان الذين شاركوا فى حصار إشبيلية والاستيلاء عليها؛ هذا فضلا عن الأمير بدرو عم الملك[٧٧].

وتوجه فى ربيع سنة ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ إلى مدينة فارو Faro (شنتمرية الغرب) [٧٨]، خاصة وأن مدينة فارو وإقليمها غدت آخر ما بقى من الأراضى الإسلامية غربى وادى يانة.

وتشير الروايات إلى أنها كانت تابعة لأمير المؤمنين (الخليفة الموحدى فى مراكش) وكان يحكمها حاكم يدعى ابن هارون Uben Harron ويخمن برناردو أنه فى لقبه un almoxarife por Aloandre يرتبط باسم أمير المؤمنين فى المغرب وكان حاكم المدينة لديه عدد كبير من الرجال والأسلحة لأجل الدفاع عنها، وهى مدينة قوية وحاميتها مشهورة بقوتها . وكان سكانها يشعرون بالأمان والطمأنينة لحصانة مدينتهم وكانت المدينة مجهزة وخارجها برج مراقبة وعند رؤية أى خطر تدق الأجراس وتعطى تحذيراً للمدينة [٧٩]، وهكذا أصبحت مدينة فارو ملاذاً وملجأ لكل المسلمين المطرودين أو الذين رفضوا البقاء تحت الحكم المسيحى فى كافة

المدن والقلاع التى استولى عليها البرتغاليون. وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى أهمية هذه المدينة وأنها كانت من الموانىء الهامة جداً فى غرب الأندلس، خاصة بعد سقوط الموانى الأخرى وأصبحت هى الميناء الرئسى غربى وادى يانة. وكانت مجالا للتجارة المزدهرة وقد أشار الحميرى والإدريسى إلى أنه كانت بها المراكب واردة وصادرة ، وبها دار لصناعة السفن وكان من الضرورى أن يبدأ الملك البرتغالى بالاستيلاء عليها لأنه بسقوطها سيسهل سقوط توابعها

وعندما وصل الملك الفونسو الثالث مع جيشه إلى فارو Santa Maria de Faro أمر بتنظيم جيشه وتوزيعه على كل أسوار المدينة لحصارها: بعد أن قام بقتل الكثير من السكان والقادة فى المناطق المجاورة لكى لايتكتلوا أو يقدموا مساعدات للمدينة ولكى يفقد المسلمون الأمل فى وصول أو انتظار النجدات عن طريق البحر. أمر الملك أسطولاً من السفن بمحاصرة المدينة عن طريق البحر أى إحكام الحصار عليها براً وبحراً (٨٠). ثم شدد البرتغاليون هجومهم على أسوار المدينة ونجحوا فى ثقب منطقة من الأسوار ، ولكن نجح المسلمون فى سد الثقب وكان يايو ومجموعته ومعه فرق من الاسبتارية وأبيز قد هاجموا أحد الأبواب ويدعى باب الرهبان Porto los Freires . وفى نفس الوقت أمر الملك أحد النبلاء ويدعى برو اسكرنيو Pero Escrenho بأن يهاجم أحد الأبراج القوية ويسمى برج خوان دى بيام Joao de Baim وكان فى مواجهة قصر الملك حاكم المدينة(٨١).

أما بالنسبة للسفن الإسلامية فإنها عندما رأت كثرة عدد السفن المسيحية وأنه لاقبل لها بمواجهتها فرت من المواجهة (٨٢).

وقد عرض الملك ألفونسو الثالث على قائد المدينة ابن هارون أن يستسلم ويسلم المدينة وقلعتها مقابل حريتهم . ولكن رفض حاكم المدينة(٨٣) هذا العرض . وكان أن استمر الحصار لبضعة أيام قاوم فيها المسلمون قدر طاقتهم، حتى تأكدوا أنهم لن يستطيعوا انتظار النجدة التى كانوا يتوقعوها . وبدأ سكانها فى المعاناة من استمرار القتال، مما دفع ابن هارون لطلب تسليم المدينة والرحيل على شرط أن يخرج المسلمون من فاروا ويتجهون إلى أماكن أخرى ومعهم كل أملاكهم . وإذا أرادوا أن يعيشوا فى المدينة عليهم دفع الجزية للملك البرتغالى، (كما كانوا يدفعون من قبل إلى أمير المؤمنون على حد رواية المدونات البرتغالية) ويستطيعون الاحتفاظ بأملاكهم ومنازلهم على أن يكونوا خاضعين للملك ويخدموه فى الحرب ويؤدون

الخدمات المفروضة عليهم ومنها الدفاع أيضا عن المدينة . وقبل الملك ألفونسو الثالث هذه الشروط وبناء عليه بدأت اجراءات التسليم بتقدم عشرة من الفرسان مقابل عشرة من المسلمين لتسليم قلعة المدينة. ولكن حدثت تطورات، إذ أن البعض من جنود القلعة رفضوا الإذعان للتسليم ورفضوا الاستسلام ، مما أعاق دخول الملك إلى القصر خوفا على حياته، وقرر القضاء أولاً على هذه الجماعة الرافضة. وبدأ القتال بمحاولة البرتغاليين فتح أحد أبواب القلعة ولكن المسلمين قاوموا بشدة، ومات من الطرفين كثير من الرجال، مما دفع الملك إلى الصعود بسرعة إلى أحد الأبراج لكي يرى جيشه ويصدر تعليماته حتى تم القضاء على القوة المدافعة عن القلعة، ثم الاستيلاء على المدينة فى شهر مارس سنة ١٢٤٩م- ٦٤٧هـ (٨٥). وقام الملك بتنظيم أحوال المدينة وعين حاكماً للمدينة هو استفاو بيرز Estevao Pires de Tavares وهو أحد النبلاء البرتغاليين الذين حضروا حصار أشبيلية (٨٦)، وإن كانت هناك رواية بأن البرتغاليين اقتحموا المدينة وأنها فتحت عنوة، وحدث خلل وهرب سكانها ودخل البرتغاليون وقتلوا كثيرا من المسلمين (٨٧). ولكن الرواية الأولى لاتختلف كثيراً عن الثانية إذ أجمعت عليها المصادر البرتغالية .

وكان السماح لمسلمى المدينة فى البقاء مقابل دفع الجزية ويمثل سياسة اتبعها كثير من ملوك شبه الجزيرة الإيبيرية فى أنحاء وفترات مختلفة، وذلك لما هو معروف من الاستعانة بالمسلمين فى كثير من الصناعات والزراعات لتقدم المسلمين فى شتى مجالات الحضارة. ورأت مملكة البرتغال مثل غيرها الاستفادة من هؤلاء المسلمين خاصة فى هذه المدينة التى تعتبر من أهم موانى الغرب ولها نشاط تجارى كبير .

وبعد الاستيلاء على فارو قرر الملك غزو باقى القلاع الصغيرة فى الغرب ولذا قسم جيشه إلى عدة جيوش وأرسل أحدها وهو مكون من جماعات رهبان فرسان ابيز بقيادة مقدمهم مارتين فرديناند D. Martin Fernandez لكى يهاجموا مدينة البرفيرة Albuferia فنجحوا فى الاستيلاء على المدينة ولكن قبل دخول المدينة حضر الملك وخير سكانها بين الرحيل والبقاء ومنح المدينة لجماعة ابيز، وفى نفس ذلك الشهر ، وهو شهر مارس سنة ١٢٤٩ (٨٧)، توجه جيش آخر من البرتغاليين يتألفون من جماعة القديس شانت ياقب بقيادة بايو إلى مدينة سلير Selir واستولوا عليها (٨٨)، ثم انضموا إلى جيش الملك وتوجهوا إلى مدينة لولى Loule واستولوا عليها بعد مقاومة ضعيفة من جانب المسلمين ، وقتل عدد من الجانبين ثم استولوا على الجزر Aljezur، قلته بورشز Porches(٩٠). وانفصل بايو بجيشه واستولى على مدينة

سان فيكفت San Vicante وكان بها الكثير من المسلمين فقتل وأسر الكثيرين بها(٩٠).

وجدير بالذكر أن بعض القلاع السابقة كان قد تم الاستيلاء عليها من قبل فى عهد الملك سانشو، ولكن يبدو أن المسلمين انتهزوا فرصة الحرب الأهلية الدائرة فى البرتغال واستطاعوا استعادة هذه الأراضى والقلاع مرة أخرى.

وقد أشار هرقلانو إلى أن البرتغاليين أخضعوا مرة أخرى قلاع مثل ايمونت Aiamonte وكاسلا Cacela وطبيرة Tavira ، وهى قلاع كان قد استولى عليها فى عهد سانشو الثانى(٩١)، وجدير بالذكر أن المصادر البرتغالية لم تشر إلى هذه الاستيلاءات أو إلى أحداثها مرة أخرى.

أما آخر ما أشارت إليه الروايات من حركة التوسع البرتغالية فكانت مدينة الفجر Al-faghar وبها مدت البرتغال حدودها حتى شاطىء المحيط فى سنة ١٢٥٠م (٩٢)، بالإضافة إلى عدد من القلاع شرقى نهر وادى يانه مثل اروطه Arode وارووسبنه Aracena(٩٣). وهكذا وصلت البرتغال فى عهد الفونسو الثالث فى سنة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ إلى حدودها المعروفة وتم إنهاء الوجود الإسلامى غربى نهر وادى يانة.

وجدير بالذكر أنه أثناء هذه الفتوحات الأخيرة وخاصة شرقى وادى يانة حدث نزاع بين مملكة البرتغال ومملكة قشتالة إذ رأت الأخيرة أن البرتغاليين استولوا على بعض المناطق التى تعتبر مجالا لفتوحاتها ، مما جعل النزاع يدب بين البرتغال وقشتالة . وكان ملك البرتغال يرى أن هذه الأراضى هى الامتداد الطبيعى لأملاكه (٩٤).

كذلك رأت مملكة قشتالة أن حقوقها تنسحب أيضًا على بعض القلاع فى غرب وادى يانة، خاصة أن بعض المصادر القشتالية أشارت إلى أن بايو كان يعمل لحساب مملكة قشتالة، وأنه استولى على تلك الأراضى باسم مملكة قشتالة . وهناك مدونة قديمة تشير إلى أن بايو استولى على عدة أماكن فى الغرب كان قد فتحها لحساب ملك قشتالة(٩٦).

ويشير دوراتى ردا على ذلك بأن بايو قد انفصل عن تبعية ملك قشتالة وأصبح تابعًا لملك البرتغال (٩٦)، فهل يعنى ذلك أنه فى الفترة السابقة كان بايو يعتبر تابعا لملك قشتالة، والواقع أن بايو كان من أعضاء جماعة شانت ياقب التى كان من مراكزها الرئيسية فى البرتغال مدينة بلمالة Palmela كذلك أصبح حاكم قصر أبى دانس بعد الاستيلاء عليه فى

سنة ١٢١٧م وكان كلما استولى على مدن وأراضى بادر الملك سانشو الثانى وأصدر المراسيم بمنحه هذه المدن والأراضى للدفاع عنها وتعميرها ، ولكن ترى أن وجهة النظر الطبيعية هى أن البرتغاليين استولوا على بعض المناطق من الأراضى التابعة لابن محفوظ وهو على علاقة قوية وتبعية لمملكة قشتالة. وترى الأخيرة أن هذه الأراضى التى كانت تابعة لابن محفوظ فى مناطق ومجال فتوحات مستقبلية لها. أما الاعتماد على أن بايو بريز كان تابعا لمملكة قشتالة، على أساس أنه كان تحت تبعيته فى حصار إشبيلية فإنه بحكم كونه زعيماً من زعماء جماعات الرهبان الفرسان . وكان يرى ميدانه هو القتال ضد المسلمين سواء أكانوا فى الأراضى التى تعتبر امتداد لمملكة قشتالة أو الأراضى التى تعتبر امتدادا لمملكة البرتغال. ومما يؤكد وجهة نظرنا أن المدونة العامة الأولى لتاريخ أسبانيا تشير إلى أن بايو وهو من جماعة شانت ياقب البرتغاليين ومعه العديد من الفرسان والنبلاء البرتغاليين اشتركوا فى حصار إشبيلية(٩٧).

وقد فند برنداو هذا الرأى وأشار إلى أن المصادر القشتالية تشير أن الأراضى التى فتحها بايو لاتقع فى مجال فتوحات البرتغال، وأن الأراضى التى اكتسبها كانت تحت رعاية وتبعية فرديناند ملك قشتالة. وعقب برنداو أن هذا بعيد عن الحقيقة(٩٨) .

وهكذا أصبح المسلمون فى غرب الأندلس بين شقى الرحى، أى بين القشتاليين والبرتغاليين. وكان سقوط أشبيلية سنة ١٢٤٨م إيذانا بانتهاء الوجود الإسلامى فى غرب الأندلس ، إذ أن القواعد والمدن الباقية توالى سقوطها . وهكذا تكاملت الفتوحات القشتالية والبرتغالية . وكان المسلمون آنذاك ينحصرون فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة ، وهو ما أصبح مملكة غرناطة لبنى الأحمر، وكان المرجع الرئيسى لسقوط هذه القواعد هو الانقسامات والخلافات بين زعماء الموحدين ، وانقسام الأندلسيين فيما بينهم وما ترتب على ذلك من ثورات الأندلسيين ضدهم مما قسم الأندلس فرقا وشيعا.

وهكذا نجحت مملكة البرتغال فى انتزاع القواعد والمدن الأندلسية فى غرب الأندلس حتى وصلت حدودها جنوبا إلى المحيط الأطلنطى ، وإلى حدودها المعروفة ولم يكن ذلك نتيجة لقوة مملكة البرتغال أو نشاط ملوكها فحسب بل لضعف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم منذ موقعة العقاب سنة ١٢١٢م . واتسمت تلك الفترة بتسوية النزاعات بين الممالك المسيحية وتوحيد جهودها وقواها ضد المسلمين فى الأندلس ، استغلالا لهذا الضعف والانقسام الذى اعترى الجبهة الإسلامية فى الأندلس .

الحواشى

١- Capello ذو الثوب الكهنوتي اشتهر بهذا الاسم وأطلقت عليه جميع المدونات هذا الاسم وقد أشار أشباخ والمدونات البرتغالية أنه اشتق من الحياة التى عاشها فى أعوامه الأخيرة بالإضافة إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل على أثر مرض ألم به- ثوب راهب تبركا بالقديس أوغطين ووفاء لنذر نذرته متى شفى . أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ج٢ ، القاهرة ١٩٩٦، ص٢١٤ .

٢- أشار دنيس ولد سانشو الثانى فى ٨ سبتمبر ١٢٠٢ Denis . F: Historia de Portugal. Barcelone 1845 . p. 18. ويتفق معه أشباخ أنه كان لديه العشرين من عمره حينما خلف أباه نفس المرجع ، ص٢٠٧ وإن كان المؤرخ دوراتى يشير إلى أنه كان لديه من العمر عند وفاة أبيه ٢٦ عاما Daurte Nunes de Leao . Chronica del Rei Sancho II. Cronicas dos Reis de Portugal . Porto 1975 . p. 125 .

وكانت أمه هى دونيا اوراكا ابنة الفونسو الثامن ملك قشتالة . Duarte . Op. cit, p. 123

٣- لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر :

Cronica do Rei D. Sancho II . Cronicas dos sete primeiros Reis de Portugal . Lisboa 1952 . pp. 211-217 . Duarte, Op. cit, p. 127 .

أشباخ : نفس المرجع ، ج٢ ص٢٠٧ .

٤- Herculans . A. Historia de Portugal. T2. Lisboe 1982 . pp. 349-350 .

٥- ابن عذارى: البيان المغرب، القسم الثالث (الموحدين) انطوان ١٩٦٠، ص٢٤٧ ، ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط ١٩٧٢م ص٢٤٧ .

Huice : A. M. Historia Politica del Imperio Almohade T2 . tetuan . 1956 . p. 450 .

٦- ابن عذارى: البيان المغرب ، ص٢٤٧ ، ٢٤٨ : ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص٢٤٤-٢٤٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٣٥٤-٣٥٩ ؛ أشباخ : تاريخ الأندلس، ج٢ ص١٥٦ وانظر تفاصيل أوضاع الموحدين أيضاً فى :

Herculano, Op. cit. T2 . pp . 365-366, Peres, D. Historia de Portugal. vol 2. Barcelos. 1929 . p. 214 .

٧- ابن عذاري : البيان المغرب، ص٢٤٩-٢٥٠ ؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، القاهرة ١٩٣٧، ص٦٠-٦١ .

Cronica Latina de los Reyes de Castilla, Universidad de cadiz 1984, pp. 65-66 .

٨- مدينةطلياطة وبالأندلس بينهما وبين أشبيلية محلة من عشرين ميلا ومن طلياطة إلى لبلة محله مثلها ، الحميري : نفس المصدر، ص١٢٨ .

٩- أشار عنان إلى أن مارتين سانشيز هو ابن لسانشو الثاني.

عنان : نفس المرجع ، ص٣٥٤ وأشار أيضًا ويثى ميرانده Huici في ص٤٤ أنه ابن سانشو الأول وفي صفحة أخرى وهي ٤٥٤ أشار أنه ابن سانشو الثاني وقد أشار إليه هرقلانو أنه ابن سانشو الأول، Herculan , Op. cit, pp. 298-299 .

وجدير بالذكر بحثنا من خلال المدونات لم نجد من أبناء سانشو الثاني ما يدعى مارتين ، وهو في الواقع ابنا لسانشو الأول، وقد أشار بيريز أنه عم سانشو الثاني Peres, Op. cit. cit., p.214 وهو أيد ذلك لأنه دوارتي أشار أن سانشو الثاني عندما تولى كان لديه من العمر ٢٦ عاما وهذا ما ينفي أن يكون مارتن ابنا له ولمزيد من التفاصيل عن هذه الغزو انظر . Duarte Op. cit, p. 129

١٠- الحميري : نفس المصدر، ص١٢٨-١٢٩ ؛ عنان : نفس المرجع ، ج٢ ، ص٣٥٤ .

١١- بالإضافة إلى روايات ابن عذارى وابن أبي زرع عن هذه الغزوات انظر :

Ganzalez ., J: Las Conquistas de Fernando III en Andalucia , Madrid 1946 , p. 28-37, Huici, Op. cit, T2 , pp. 454-456 , Fortunato, Historia de Portugal. TI, coimbra 1922 . pp . 204-205 .

ولمزيد من التفاصيل انظر عنان : نفس المرجع والجزء ص٣٥٧-٣٦٣ .

١٢- كان سانشو قد تلقى مساعدات من البابا هونوريوس في ١٢٢٥م لأجل أن يتجهز لقتال المسلمين.

Peres. Op. cit, T2 , pp. 214-215 .

١٣- Herculano , Op. cit. T2 . pp. 371-372 , martinz, M. R: Historia del Reino de Badojoz, Badojoz 1905 , p. 248 .

١٤- Serrno , J. V: Historia de Potrugal , vol I , Lisboa 1979 , p. 127 .

١٥- Herculano , Op. cit, T2 , p. 273 .

١٦- Brandao , A. Monarquia Lusitana . Parte 4 , Lisboa 1974 , p. 125 CF. also: Fortunato, Op. cit, p. 205 ; Serrao P.OP. cit, p. 127 ; Stephens, H.M; Portugal. London 1891 , p. 75 .

١٧- Brandao , A, cronicas de D. sancho II ED. Alfonso III, porto 1946, p .26 ; CF . also ; Peres , Op . cit, 12 , p. 215 ; Denis , Op. cit, p. 18 Stephens, Op. cit. Loc cit., Martinez, Op. cit., p. 279-280 .

١٨- Herculano , Op. cit. T2 , pp. 374-375 ; Fortunato Op. cit, p. 205 .

١٩- Brandao , Man ... Lus ... Parte 4, p. 126 ; CF. also ; Peres , Op. cit, p. 215 ; Lomax, D.W; La Reconquista. Barcelana 1984 , p. 186 ; Sergio, A; Breve interpretacao da Historia de Portugal . Lisboa (N.D), p. 21 .

أشباخ : نفس المرجع ، ص٢٠٨ .

٢٠- Beirao , G: Historia breve de Portugal, Lisboa (N.D), p. 14 .

٢١- Herculano , Op. cit, T2 , pp. 374-375 ; Fortunato Op. cit, Loc cit; Serrao , Op. cit, p. 128 ; Mattoso, A.G: Historia de Portugal , vol.I . Lisboa 1939 , p. 70 ; Martinz , Op. cit, p. 287 .

٢٢- Fortunato , Op. cit, p. 208 ; Les Hospitaliers de la morte de D. Alfonso Henriquez a lo suppression des templiers, Paris 1977 , p. 39 ; Serrao , Op. cit. Loc cit.

٢٣- Radrigo, Op. cit, p. 274 ; Brandao, Cranicas de D. sancho II, p. 40, CF. also : Serrao , Op. cit, p. 128 ; Herculano Op. cit, p. 398. ; Peres Op. cit, p. 220 .

٢٤- Herculano , Op. cit, p. 419 .

٢٥- Peres, Op. cit, p. 223 ; Fortunato, Op. cit, Loc cit.

٢٦- نتيجة لنشاط الفونسو بيريز ضد المسلمين فقد تلقب بلقب فارس فى جماعة فرسان رهبان الاسبتارية والذى أصبح سيد الجماعة فى البرتغال وحارب المسلمين مدة ٢٢ سنة على الحدود البرتغالية الإسلامية ثم بعد منحه هاتين القلعتين اختار البقاء فى مورا . Moura Peres, Op. cit, p. 223

٢٧- أشار دوريك الطليطلي إلى أنه سانشو الثاني استولى على شيربة وعلى قلاع أخرى عديدة دون توضيح Rodrigo , opcit, p. 274 ولمزيد من التفاصيل عن هذه الاستيلاءات انظر Herculono , Op. cit, pp. 420-422 Fortunato , Op. cit, loc cit, serrao , Op. cit, loc cit, : stephens, Op. cit, p. 76 .

٢٨- وقد أشار البابا جريجوري التاسع في مقدمة المرسوم وجريجوري أسقف وخادم خدام الله وكل الأخوة المسيحيين في مملكة البرتغال يكونوا تحت حمايتنا ورعايتنا مع ملكهم الشهير ملك البرتغال سانشو الثاني ومن أجل حملاته ضد أعداء المسيح وأبضا كل النبلاء في أراضيه والذين قادوا الجيوش عن طريق البر والبحر وخدمتهم للكاثوليكية تشملهم بحمايتنا وعايتنا ... الخ» انظر نص هذا المرسوم في: Brandao , Cronicas de D. S. ancho II , pp. 67-68 ; Basto : Cronica de cinco Reis de portugal, vol I, porto (N.D), pp. 170-174 . CF. also serrao , Op. cit loc cit .

أشار أشباخ إلى البابا جريجوري الحادي عشر والواقع أنه التاسع. أشباخ، نفس المرجع والجزء ، ص٢٠٨ .

٢٩- Peres, Op. cit, p. 190 .

أشباخ : نفس المرجع والجزء ، ص٢٠٦ .

٣٠- Herculano , Op. cit. p. 433 : Fortunato , Op. cit, p. 208 ; sergio , Op. cit, p. 21 .

٣١- Brandao, Cronicas de D. sancho II, p. 56 ; Cronica Rei D. A fonso !!!, pp 253-255 . CF. also : serrao , Op. cit. p. 128 ; Beirao, Op. cit, p. 14 .

٣٢- Herculano , Op. cit, loc cit; Peres, Op. cit, p. 224 .

٣٣- Brandaa, Mon Lus ..., parte 4 . p. 140 .

٣٤- ابن عذاري: البيان المغرب- قسم الموحدين، ص٢٥٣-٢٥٥ ؛ أبي ابن زرع روض القرطاس ، ص٢٤٩-٢٥٣؛ عنان ، نفس المرجع، ص٣٦٤-٣٦٥ .

٣٥- ابن عذاري : البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص٢٥٣، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص٢٤٧-٢٤٩ .

٣٦- ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص٢٥٠-٢٥١ ، عنان : نفس المرجع ص٢٦٨-٢٦٩ ، Huici, Op. cit . pp. 473-474 .

٣٧- ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص٢٥٣ ؛ عنان : نفس المرجع ، ص٣٨٢

٣٨- لمزيد من التفاصيل عن ابن هود وثورته انظر:

ابن أبي زرع : روض القرطاس : ص٢٥٢-٢٥٣، ص٢٧٤، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، بيروت ١٩٥٦، ص٢٧٧-٢٨٦؛ عنان: نفس المرجع ، ص٤١١-٤١٥ ؛ أشباخ ، نفس المرجع ، ج٢ ص٢٠٨

Castro, Op. cit, pp. 69-70 .

٣٩- أشار إليها الحميري، «على نهر بطليوس بجزيرة الأندلس ، صفة جزيرة الأندلس، ص١٧٥ وأشار إليها الإدريسي» حصن مارتلة المشهور بالمنعة والحصانة صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس تحقيق دوزى امستردام ١٩٦٩م، ص١٧٩ ولمزيد من التفاصيل عن المدينة وحصانتها وآثارها انظر دراسة : . Pavon: B; Ciudades Y Fortalezas Lusomusulmanas, Madrid 1993, pp. 34-46

٤٠- Brandao , Cronicas de D. sancho II, p. 65 ; CF. also ; Fortunato , Op. cit., p. 208 ; coelho , Op. cit, p. 323; sergio , Op. cit, p. 27 .

٤١- أشار براندو إلى أنه توجد احدى الروايات أنه تم الاستيلاء عليها في عام ١٢٣٤م عندما أسبغت البابوية رعايتها على الحروب الصليبية في البرتغال.

Brandao Mon... Lus ... p. 141 .

٤٢- Brandao , cranicas de sancho II, pp. 65-67 ; CF. also : serrao , Op. cit, p. 129 ; Lomax, Op. cit, p. 188; peres, Op. cit, p. 244 ; castro , Op. cit, pp. 71-72 .

أشباخ : نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٠٨ .

٤٣- البور تقع على بعد ١٦ كم من شلب ويشير هرقلانو إلى أن هذه القلاع (البور) كانت أسست لخدمة القرى المجاورة ومركز للدفاع عنها .

Herculano , Op. cit, p. T2, p. 45 .

٤٤- Duarte, Op. cit, p. 173 ; Cronica del Rei D. Alfonso III. p. 256 ; cranica Reinos de Portugal, p. 204 ; CF. also : collho , Op. cit, p. 324 .

٤٥- Cranico do Rei D. Alfonso III, p. 256 . Brndao, cronicas de sancho II, p. 69 .

٤٦- Coelho , Op. cit, p. 324 .

٤٧- Cronica do Rei D. Alfonso III, p. 260 ; CF. also ; serrao , Op. cit, p. 129 , Fortunato, Op. cit., Loc cit; Peres, Op. cit , p. 224 ; mattoso, Op. cit, pp. 70-71, stephens, Op. cit, p. 78 .

أشباخ: نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٠٨

٤٨- Brandao , Cronicas de sancho II, p. 67 .

٤٩- Serrao, Op. cit, p. 129 .

قلعة رودريك فى غير قلعة مدينة رودريك Ciudad Rodrigo والأخيرة تقع فى مملكة ليون .

- وجدير بالذكر أن جميع الروايات اختلفت فى سنوات وترتيب الاستيلاءات على المدن والقلاع الإسلامية وإن كانوا اتفقوا أنها ما بين ١١٣٨-١١٤٢م .

٥٠- Brandao , Cronicas de Sancho II, p. 69 : Cronica Do Rei D. Alfonso III, p. 257 ; Cronica de cinco Reis de portugal, p. 205 .

٥١- Duarte, Op. cit, pp. 173-174 ; Cronica do Rei P. Alfonso III, pp. 266-267 , CF also. Coelho , Op. cit, p. 325 .

٥٢- Coelho , Op. cit loc cit.

٥٣- Brandao , Cronicas de Rei D. sancho II, p. 70.

٥٤- Ibid p. 72 .

٥٥- Brandao , Mon ... Lus ..., T4, pp. 146-147 ; CF. also ; Coelho, Op. cit, Loc cit.

٥٦- Duarte, Op. cit , pp 174-175 ; Cronica do Rei D. Alfonso III, p. 202 .

٥٧- هناك رواية أنه قرر الانتقام من سكان المدينة لأنه قد أرسل خمس فرسان مع بدرو رودريك لاستطلاع أحوال المدينة ولكن تلقاهم المسلمين فى منطقة أنتس Antes فانتقم من المسلمين فى تلك المدينة.

Cronica de cinco Reis de Portugal, pp. 208-209 , CF. also : Coelho , p. 328 .

- بحثنا عن اسم ابن فلول من خلال ما أتيح لنا من المصادر ولم نعثر على أى معلومة عنه أو اسمه.

٥٨- Brandao , Cronica de Rei Di . Sancho II, p. 71 ; Duarte, Op. cit, p. 176 ; coelho , Op. cit Loc cit, castro Op. cit, p. 699 Fortunato, Op. cit, p. 208 .

- والاستيلاء على المدينة أضيفت إليه بعض الأساطير مثل أسطورة السبع صيادين (قناصين) وبطولاتهم في الاستيلاء على المدينة.

Denis, Op. cit, p. 22 .

وإن كان دنيس Denis قد وصف الاستيلاء عليها في عهد ألفونسو الثالث .

Brandao : Cranio de Sancho II, p. 74- CF - also : serrao Op. cit, p. 129 ; castro , Op. cit, p. 69 ; Fortunato, Op. cit p. 208 sergio , Op. cit, p. 21 .

٦٠- يشير إليها الإدريسي بقوله : وحسنة في بسيط من الأرض وعليها سور حصين ولها غلات وجنات وشرب أهلها من واديها الجاري بجنوبها وعلى أرجاء البلد والبحر منها غربا على ثلاثة أميال ولها مرسى في الوادي وبها الانشاء والعود بجبالها كثير يحمل منها إلى كل الجهات والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة بديعة المباني مرتبة الأسواق وأهلها سكان قراها عرب من اليمن وغيرها وهم يتكلمون بالكلام العربي الفصيح الصريح... ومدينة شلب على اقليم الشنشين وهم اقليم به غلات التين الذي يحمل إلى أقطار الغرب.

- الادريسي : صفة المغرب ، ص١٧٩-١٨٥ ولمزيد من التفاصيل عن مدينة شلب انظر الحميري: نفس المصدر، ص١٠٦ ؛ أبو الفدا : تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص١٦٧ .

٦١- لمزيد من التفاصيل عن أهميتها وأحداثها انظر بحثنا عن مدينة شلب بين البرتغاليين والصليبيين والموحدين ١١٨٩-١١٩١م . ألقي هذا البحث في الندوة التاريخية الأولى للعلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى من ٢٠ أكتوبر ١٩٩٢م بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية .

٦٢- Duarte , Op. cit, p. 177 ; cronica do Rei D. Afons III v pp 269-270, cronica de cinco Reino de Portugal , p. 214 .

٦٣- Brandao, Cronicas de D. Sancho II, pp. 72-73 ; cronia do Rei D. Alfonso III, p. 270; coelho , Op. cit., p. 330 .

٦٤- Duarte, Op. cit., p. 178; Coelhgo, p. cit, Loccit.

٦٥- Brandao , Cronicas de D. sancho II, 73 .

٦٦- Marques, Op. cit, p. 164 .

٦٧- Coelho , Op. cit, loc cit .

٦٨- لمزيد من التفاصيل انظر بحث جونثالث عن فتوحات الملك فرديناند الثالث فى الأندلس .

Gonzales, J. Las conquistas le Fernando III 3n Andolucia, Madrid, 1946 .

عنان : نفس المرجع جـ٢ ، ص٤١١-٤٢٠ .

٦٩- ابن أبى زرع ، روض القـــــرطاس ، ص٢٧٣-٢٧٥-٢٧٧ ؛ عـنـان : نـفـس المرجع، جـ٢ ، ص٤٣٨-٤٤٤ .

- Masia, A: Introduccion a la Historia de Espana, Barcelana 1943 , pp. 190-191 .

٧٠- لمزيد من التـفـاصـيـل أنظر ابن الخطيب، أعـمـال الإعلام، ص٢٧٧-٢٨٦ ، عنان : نفس المرجع ، ص٤١١-٤٣٦ .

٧١- ابن عـذارى: البـيـان المغرب ، قـسـم الموحدين، ص٣٢٢، ابن أبى زرع ، روض القرطاس، ص٢٧١، عنان ، ص٤١٦ .

٧٢- Castro: Niebla, p.71 وهى رسالة عن مدينة لبلة.

٧٣- كان ألفونـسـو متزوجا من ماتيلده صاحبة بولونيا وورثتها وأصبح أمير لهذه الولاية وكان وثيق الصلة بالكنيـسـة حتى أنه وعد بأن يقود حملة إلى المشرق لمحاربة المغول وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمى الأندلس، ولمزيد من التفاصيل انظر Cronica Do Rei D. Alfonso III, pp. 24 - 252.

أشباخ ، نفس المرجع ، ص٢١٢ .

٧٤- انظر تفـاصـيـل الحروب الأهلية والنزاعات بين الملك سانشو الثانى وأخيه ألفونسو الثالث ثم وفاة سانشو فى:

Duarte, Opcit, pp 134-138 ; Cronica do Rei D. Alfonso III, pp. 229-241 ; Brandao , Cronica de Rei D. Sancho II, pp. 90-110 ; CF also : castro , Op. cit., pp. 72-73 ; Valdeavellano, Op. cit., pp. 135-136 ; Molina, Op. cit, p. 30 .

- أشباخ ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٢١١-٢١٤ .

- أشباخ : نفس المرجع، جـ٢، ص٢١٥ .

٧٦- Brandao , Cronicas de Rei D. sancho II, p. 139; Cronica do Rei D. Afanso III, p.

253 , Pimera croncica general de Espana , p. 765 ; CF. also : Lafeuent , Op. cit, pp. 398-399 ; Serrao, Op. cit, p. 137-138 ; Schantal , Op. cit, p. 47 ;

Isidoro de las cagigas. sevilla Almohadey Ultimos anos de su vida nusulmano , Madrid 1951 , pp. 31-33 .

٧٧- Duarte , Op. cit, p. 181 ; Herculano , Op. cit, pp. 19-20 , Peres, Op. cit, p. 244 .

٧٨- أشار إليها الحميرى بقوله «شنتمرية على معظم البحر الأعظم سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد وفى مدينة متوسطة القدر حسنة التربة، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة وبها المراكب وارده وصادرة وهى كثيرة الأعناب والتين وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلا. وهى مدينة أولية وبها دار صناعة للأساطيل وبإزائها جزائر فى البحر «صفة جزيرة الأندلس ، ص١١٤-١١٥، الإدريسى: نفس المصدر، ص١٧٩ .

٧٩- Brandao , Cronicas, p. 148 ; CF . also : coelho , Op. cit, p. 331 .

٨٠- Brandao, Cronicas, p. 150 ; CF also : Denis, Op. cit, p. 21; serrao , cit, p. 138 ; Fortunato , Op. cit, p. 215 .

٨١- Duarte, Op. cit., p. 181 ; CF . also : coelho , Op. cit., p. 33 .

٨٢- Coelho , Op. cit., p. 331-332 .

٨٣- Ibid.

٨٤- Brandao , Cronicas, p. 150 ; Duarte Op. cit., p. 182 ; CF . also ; Herculano , Op. cit, T3 . p. 20 ; Mattoso, Op. cit, p. 71 ; Peres Op. cit, p. 254 .

- عنان : نفس المرجع جـ٢ ، ص٤٩٢، أشباخ ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٢١٥ .

- وهناك رواية أن تم الاستيلاء على المدينة فى شهر يناير سنة ١٢٤٩م . Coells, Op. cit, 333 .

٨٥- Brandao, Op. cit, pp. 150-151 ; coelho, Op. cit, pp. 332-333 .

٨٦- Coelho , Op. cit., p. 332 .

٨٧- Brandao , Mon .. lus parte 4, pp. 182-183 . Duarte , Op. cit, p. 183 ; CF . also : Herculano, Op. cit, T3 . pp. 21-22 ; Peres, Op. cit., p. 254 ; Stephens, Op. cit, p. 80 ; castro , Op. cit, p. 72-73 .

٨٨- Duarte , Op. cit ., p. 182 ; CF . also : coelho , Op. cit, 331 .

٨٩- Brandao , cronicas , pp 151-152 ; croniea do Rei D. Alfonso III, p. 278 ; CF also : Fortunato , Op. cit., p. 216 ; coelho , Op. cit, p. 216 ; Beirao , cit, p. 17 .

٩٠- Duarte, Op. cit, loc cit ., cronica do Rei D. Alfonso III, p. 278; CF . also : serrao Op. cit, p. 138 .

٩١- Herculano , Op. cit., T3, p 21 ; CF. also : Stephens, Op. cit, p. 80 .

٩٢- Herculano , Op. cit, T3, pp. 21-22 .

٩٣- Serrao , Op. cit., p. 138 .

أشباخ ، نفس المرجع ، جـ٢، ص٤٩٣ .

٩٤- Castro, Op. cit., p. 70 ; Fortunato, Op. cit., p. 216 .

٩٥- Serrao, Op. cit, p. 138 .

٩٦- Duarte, Op. cit., p. 181 ; CF. also .

٩٧- Primera cronica general de Espana, pp. 766-767 .

٩٨- Brandao, Cronicas de D.S ancho II, pp. 148-149 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر البرتغالية والأسبانية :

Brandao , A:

1- "Monarquia Lusitana Parte 3, Parte 4, Lisboa 1973 .

2- Cronicas de D. Sancho II ED . Alfonso III, Porto 1946 .

- Cronica de cinco Reis de Portugal,

Edicoa M. Basto, vol I, Porto (N.D).

- Cronica Latina de los reyes de castilla.

Traoduccion luis chorlo Brea, un . de cadiz 1984 .

- Cronicas dos sete primeiros Reis de Portugal.

1- Cronica do Rei D. Sancho II.

2- Cronica do Rei F. Alfonso III .

Edicao Critica carlos do silva tarouca, vol I.

- Duarte Nunes de leao :

Cronicas dos Reis de portugal .

1- Chronica del Rei D. Sancho 11 .

2- Chronica del Rei D. Alfonso 111 Porto 1975 .

- "Primera Cronica general de Espane"

Publicada P or Ramon Menendez Pidal T2, Madrid 1955 .

- Rodrigo Jimenes de Rada

"Historia de los hechos de Espana" Madrid 1982 .

ثانيًا : المصادر العربية :

- ابن أبى زرع : (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) أبو الحسن على بن عبدالله

« الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » الرباط ١٩٧٢ .

- ابن الخطيب : (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) لسان الدين أبوعبدالله محمد بن عبدالله

« أعمال الأعلام، أو تاريخ أسبانيا الإسلامية» بيروت ١٩٥٦م.

- ابن عذارى : (ت٧١٢ / ٣١٢م) أبو عبدالله محمد المراكشى»

البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب القسم الثالث (تاريخ الموحدين) نشر ويثى ميراندة تطوان ١٩٦٠م.

- أبو الفدا : (ت٧٣٠هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبوالفدا اسماعيل

« تقويم البلدان » باريس ١٨٩٠م.

- الأدريسى : (ت. ٦٥هـ/ ١٢٥٢م) الشريف محمد بن عبد العزيز

«صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ووصف أفريقيا وإسبانيا » . تحقيق دورى امستردام ١٩٦٩م.

- الحميرى: عاش فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى ، أبى عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد المنعم

«صفة جزيرة الأندلس منتخبه من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار» تحقيق ليفى بروفنسال. القاهرة ١٩٣٧ .

ثالثا : المراجع الأوربية:

- Beirao, G :

Historia breve de Portugal, Lisboa (N.D).

- Cagigas:

Sevella Almohade Y ultimos anos de su vida Musulmana., Madrid 1951

- Castro : F. R:

Niebla Musulmana (Siglos VIII - xIII, Madrid 1993 .

- Chantal : S

Historia de Portugal, 400, Borcelone 1960 .

- Coelho : A. B:

Portugal na Espanha Arabe, vol 2 , Lisboa 1989 .

- Denis: F:

Historia de Porugal, Barcelona 1845 .

- Fortunato de Ameida:

Historia de Portugal" tl, Coimbra 1922 .

- Gonzalez: J:

Las conquistos de Femando III en Andalucia" madrid 1946 .

- Herculano : A

Historia de Porugal, t2 , t3 , Lisboa 1982 .

- Huici : M

Historia Politica del Imperio Almohade , t2 , Tetuan, 1957 .

- Lafuente : M;

Historia general de Espana " tl, Barcelona 1877 .

Les Hospitaliers de la morte de D. Alfonson Henriquez a la suppression des templiers, Paris 1977 .

- Lomax, D:W:

la Reconquista " Barcelona 1984 .

- Mattoso, A.G.

"Historia de portugal" vol I, lisboa 1939 .

- Marques, O

Historia de portugal lisboa 1976 .

- Martins, M: R:

"Historia del Reinado Badajoz" Badajoz 1905 .

- Masia, A.

Introduccion ala Historia de Espana, Barcelona 1949 .

- Molina, R:

Portugal , sevilla 1979 .

- Pavon , P:

Ciudades Y fortalezas lusomusulmanas Madrid 1993 .

- Peres, D:

"Historia de Portugal" vol 2, Barcelos 1929 .

- Sergio, A:

Breve interpretacao da Historia de Portugal Lisboa (N.D).

- Serrao, J.V:

Historia de Portugal vol I , lisboa 1979 .

- Shantal, S:

Historia de Portugal , Barcelona 1960 .

- Stephens , H.M:

Portugal London 1891 .

- Valdevellano , L.G:

Historia de Espana , Antigua Y Medievel, Madrid 1980 .

رابعًا: المراجع العربية والمترجمة:

- محمد عبدالله عنان:

عصر المرابطين والموحدين ، جـ٢ ، القاهرة، سنة ١٩٦٤ .

- أشباخ :

تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين، القاهرة ١٩٩٦ .

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر*

أوربا (الحضارة والحرب) فى كتابات المثقفين المصريين إبان الحرب العالمية الثانية

تعد الفترة الممتدة من مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر حتى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فترة التجارب والتأسيس فى نظرة المجتمع المصرى إلى الحضارة الغربية[١].

فقد أحدثت الحملة صدمة ثقافية عبر عنها الجبرتى عند زيارته المجمع العلمى الذى أنشأته الحملة الفرنسية بعد مجيئها إلى مصر (بأنه رأى عجباً وشاهد أعمالاً لا قبل لأمثالنا بها) على حد تعبيره[٢].

نافذة على الغرب

وربما كان المغزى الأول للحملة أنها أوضحت بشكل صارخ أن مصر أصبحت جزءاً جوهرياً من تطلعات السيطرة الأوربية الغربية حربياً وسياسياً واقتصادياً[٣].

كما كان من نتاج الحملة أيضاً أن أول نافذة تفتح لمصر على الغرب كانت نافذة فرنسية فحدث التصور بأن حضارة الغرب ما هى إلا الحضارة الفرنسية ، لذا كانت الاستعانة خلال فترة التحديث بالمخترعات والنظم الفرنسية، بعد أن أدرك محمد على بأنه لابد له من الأخذ بأساليب الحضارة الأوربية. وكان استدعاء الأجانب وإرسال البعثات هو بداية حلقة جديدة من

* مدرس التاريخ الحديث - كلية الآداب- جامعة القاهرة.

حلقات اتصال العقل المصرى بأوربا. وامتازت هذه الحلقة بالكثافة والتنظيم[٤] وهكذا انتقلت العلاقة من لقاء الدهشة إلى اللقاء المدروس عن طريق البعثات. ويمكن القول بأن التأثير الأوربى سرى فى كيان المجتمع المصرى عن طريق البعثات وعودة المبعوثين بالجديد إلى أرض الوطن[٥].

ومثل عصر إسماعيل عصر الانفتاح على أوروبا والنقل منها فى كافة نواحى الحياة. وكانت له مقولة بأن «مصر لم تعد فى أفريقيا بل أنها أصبحت بالفعل جزءاً من أوروبا»[٦].

التيار الليبرالى وحضارة أوروبا :

ثم ظهر التيار الليبرالى قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكان أحمد لطفى السيد ومعاصروه مثل طه حسين وهيكل وعباس العقاد قد اعتقدوا مبدأ الحرية التى أصبحت محور تفكيرهم[٧]. وعبر هؤلاء عن أفكارهم على صفحات المجلات والجرائد وفى كتابة القصص والروايات التى تتبنى أفكارهم وقضاياهم .

وقد رأى هؤلاء أن طريق النهضة المصرية ينبغى أن يبدأ من حيث بدأت النهضة الأوربية . ولم يأبه هؤلاء باتهامهم بأنهم ناقلون لتعاليم إفرنجية، فقد كانت حجتهم أن طبيعة الموقف الحضارى أن تنقل الأمة آثار الأمم المتقدمة عليها فهذا وحده شرط السبق والابتكار، وهذا يعنى رفضهم لطمس الذات[٨].

وكان هذا الجيل الليبرالى المتطلع عبر البحر المتوسط إلى أوروبا هو الذى رأى فى معاهدة ١٩٣٦ تقدماً وتصحيحاً لمسار العلاقة بين مصر وأوروبا[٩].

فنجد طه حسين يرحب كمعظم رجال جيله بمعاهدة ١٩٣٦ ويستقبلها بالتفاعل دون أن تخدعه الأوهام عن حقيقتها[١٠].

وقد اعتبر طه حسين أن المعاهدة وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى اتفاقية مونترو ١٩٣٧ بمثابة عهد جديد للتصالح الحضارى الدائم بين مصر وأوروبا بعد أن انتهى خصامهما السياسى. فكتب فى كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) ١٩٣٨ يقول : «هل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع[١١]، وهكذا أصبح أمامنا طريق واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم

لتكون لهم أنداداً ولتكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ومايحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب»[١٢].

ورغم إعجاب طه حسين بحضارة أوروبا فإن منهجه كان الأخذ بأسباب تقدم أوربا وحضارتها وليس النقل والمحاكاة بما يدخل فى إطار التقليد الأعمى : فقد تساءل : لماذا هذا التقليد للأجنبى ؟ إننا لن نستطيع محاكاتهم إلا إذا التقينا بأنفسنا ثقافياً وأصبحنا مساوين للأجنبى بحيث لايجرؤ أن ينظر إلينا باحتقار [١٣].

ولاشك فى أن هذا الاتجاه كان مرفوضاً من قبل الكتاب المثقفين ثقافة حقيقية ، ففى مقال كتبه أحدهم ورمز لاسمه بحرف (ع) (جلسنا نتحدث فمال بنا الحديث فيما مال إلى مبلغ شعورنا بقوميتنا ومبلغ حرصنا على مظهرها .. وكانت أشد الأقوال إيلامًا لنفوسنا أننا قوم نتلاشى فى غيرنا ويسهل على أية قوة أن تسوقنا حسبما تريده. وقطع النقاش دخول صديق فى رفقته شاب أراد أن يمنح هؤلاء المحاورين دليلاً مادياً على مايختلفون عليه. فأخذ يتحدث فى عبارات عربية إنجليزية مكرراً قوله .. «لما كنت فى إنجلترا» كأنما يخشى أن ينسى المستمعون أنه كان هناك !! وختم الصحفى مقاله بأنه فى المصريين من سافروا فتلقوا العلم فى أوربا ثم عادوا إلى وطنهم محتفظين بمظاهر قوميتهم فإن قلدوا غيرهم قلدوهم فى العظائم وأخذوا عنهم ما يشرفهم، ونبذوا ما يشينهم)[١٤].

وعودة إلى رأى الليبراليين ممثلاً فى طه حسين نقول بأنه كان يعتقد اعتقاداً جازمًا بأن مصر تنتمى إلى الغرب لا إلى الشرق. أما المنطلق الحضارى لهذه الدعوة فيتلخص فى الفرضية القائلة بأن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط[١٥]. وعليه فالعقل المصرى- عبر هذه الرابطة المتوسطية- عقل أوربي غربى يشارك أوربا جذورها الحضارية منذ اليونان والرومان [١٦].

ولذلك كان طه حسين من المؤيدين لدراسة الإنسانيات الغربية، وكان فى رأيه أن دراسة أرسطو وشيشيرون تعنى إنشاء جسر جديد بين مصر والبحر والمتوسط بما يعنيه ذلك من تقوية للجسور القديمة بينهما [١٧].

وهكذا نستطيع القول بأن هؤلاء الليبراليين اتجهوا فى فترة ما بين الحربين اتجاهين: فقد توخوا من جهة خلع السيطرة السياسية الأوروبية عن بلادهم. لكنهم أقروا من جهة أخرى بتفوق المدنية الأوربية، كما أنهم اعتقدوا بأن معونة أوربا ضرورية لتحقيق الاستقلال [١٨].

ولأن فترة ما قبل الحرب شهدت حالة من الاضطراب فى البيئة الحضارية للأمة نتيجة وجود تيارات فكرية متباينة [١٩] فطبيعي أن نجد فريقًا مخالفًا لهذه التيارات يبدأ رحلة البحث عن الإنتماء والهوية بدلاً من التحقيق عبر المتوسط ومحاولة التطابق مع أوروبا فى الهوية، إلى مد البصر عبر سيناء نحو إنتماء العروبة والإسلام.

وكان المازنى من الداعين إلى الفكرة العربية، وعندما نشبت المعركة الشهيرة بين طه حسين وساطع الحصرى حول الفرعونية والعروبة كان توفيق الحكيم يرقب تلك المعركة ويطرح فكرة «التوفيقية بين مصر والعروبة»[٢٠].

وكانت الطبقة الوسطى الجديدة هى التى وعت الواقع بحكم موقعها الاقتصادي والثقافي، وهى التى رأت ضرورة التوفيق بين النقائض الفكرية والحضارية المتصارعة بإعتبارها فئة عربية مسلمة منغرسة الجذور فى تاريخها وعقيدتها من ناحية، وباعتبارها من ناحية أخرى طليعة اجتماعية مخلصة انفتحت على قبس من روح العصر الحديث وشعرت بوطأة الغرب الحديث وخطره وأهميته وحاجتها إليه وإعجابها العظيم بإنجازاته، كل ذلك ممتزج بكرهها الشديد له لتسلطه وغطرسته وتفوقه الذى لايحتمل .

ومن هنا كانت النبرة الحادة فى صوت هذه الطبقة ضد الاستعمار والغرب، واللهفة فى الوقت ذاته للتحضر والتحديث وربط روائع الحضارة العربية الإسلامية بمكتشفات أوربا الحديثة[٢١].

روح الشرق

ونلمح أن قضية الاهتمام بالروحانيات، من صفات الشرق، كانت من القضايا التى تناولها الكتاب فى تلك الفترة، ففى كتاب «الشرق والغرب» كتب أحمد أمين بأن الغرب يأخذ بالسببية ولايعنى بخبرات هذا العالم وأن روحه علمية وتفكيره فى الشئون الاقتصادية تفكير عقلى فى حين أن الشرق لايفتقر إلا إلى اقتباس روح الغرب العلمية ويعطى العالم ما عنده من «روحانيات وأديان وتأملات» [٢٢].

أما العقاد فأحتج بأن الأوربيين «قد خدعونا . فصدقنا أننا أهل عاطفة ولسنا أهل عقل، وأننا أهل خيال ولسنا أهل حس، وإننا أهل روح ولسنا أهل مادة ». ويرى العقاد أن الأمة كلها من أوربا نفسها، فقبل اتصال أوربا بالشرق لم يقل أحد إن الشرقيين أهل أحلام وخيالات وإنهم من رجال العاطفة وغيرهم من رجال العقل والواقع [٢٣].

ولايعنى هذا أن العقاد كان يرفض اهتمامنا بالشعر والأدب. فعندما نشر «أحمد الصاوى» مقالاً فى الأهرام يناشد الشباب المصرى على هجرة الأدب والشعر والانصراف إلى العلم والاختراع ، وختم مقاله بقوله «أسكتى إذن يا آلهة الشعر، لقد ذهب أوانك وتلاشى سلطانك وأخرجى أيتها الأرض شباباً واقعيًا قويًا يفل الحديد بالحديد والنار بالنار لا بالقصائد والأشعار[٢٤]. عندئذ احتج العقاد على ذلك، واشترك فى الرأى مع الزيات فى رفض العلم المجرد والمدنية القاسية التى لاروح فيها ولا مبدأ . حيث أنه لابد للفكر أن يكون له نصيب من الروح كما أن له نصيبه من المادة[٢٥].

سنوات التكوين

وإذا كانت تلك هى فكرة كبار مصر ومثقفيها فى تلك الآونة ، فماذا عن فتية مصر وشبابها فى تلك الفترة ؟! إننا يمكن أن نجد فى ذكرياتهم وماضيهم نفس الإعجاب والانبهار الواعى أيضًا ، ولكن بروح شابة فتية ... وإذا كان المبعوثون والكتاب قد سجلوا آراءهم وفقًا لما شاهدوه فى سفراتهم ، فالشباب شاهد أوربا أولاً من خلال الكتب والروايات. يقول «لويس عوض» : أنا كنت عارفًا لندن قبل ما أسافر من مصر، بس عن طريق الكتب والروايات ، كنت أرسم فى خيالى خرائط لوستمنستر وبيكادبللى».

«لما كنت فى ثانوى كان فيه مجلات مصرية تسأل : إذا كنت ولدت فى غير القرن العشرين متى تحب أن تولد ؟! كنت أفكر أن أعيش فى عصر الثورة الفرنسية عشان أقرأ روسو وأكتب بنفسى على حيطان التويلرى بالطباشير (الحرية والإخاء والمساواة) »[٢٦]. وبعد ما أتيحت لكاتب هذه السطور زيارة الأماكن التى قرأ عنها سجل مشاهداته فكتب عن كمبريدج : «شفتها زى ما تصورت مش فى التفاصيل؛ لكن فى الجو والأبعاد والظل والألوان .. فيه حاجات كثيرة فى كامبريدج تخليها قرية من قرى العصور الوسطى».

إقرأ شعر «توماس جراى» تلاقى فيه أوصاف كثيرة تنطبق على كمبردج»

وعن زيارته لكنيسة الملك كتب : «دخلت كنيسة الملك عشان أدرس العمارة القوطية.. أشوف الكنيسة طويلة قوى وعالية قوى، تملأنى الرهبة، ولو كان السقف ساانداه عواميد كان تحول إلى سقف معبد وثنى لإله خلقه ضيق يحب الانتقام ، لكن الفراغ الكامل بين الحيطان والسقف أكدوا فى نفسى الخشوع .. حيث إزاى الفن القوطى العمودى فن مسيحى»[٢٧].

ومع انبهار الكاتب بما شاهده لم يخف استياءه من فكرة الناس فى أوربا عن مصر حيث كانت فكرة كثيرين منهم «أنها صحراء واسعة سخنة ومغروز فى وسطها هرم ونخل» [٢٨].

«فنظرة هؤلاء الشباب للقاهرة كانت مليئة بالإعجاب فقد كتب عبدالله عنان يصفها قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بأن العهد بلغت فيه قمة البهاء والعمران فقد كانت يومئذ مدينة عظيمة- جميلة نظيفة تغطى شوارعها الكبرى المحلات الكبرى والمقاهى الأرستقراطية والمسارح التى تعرض أحدث الأعمال الأوربية» [٢٩].

وكان لعنان اهتماماته فى مختلف المكتبات الأوربية مثل مكتبة الفاتيكان بروما والمتحف البريطانى ومكتبة أكسفورد بانجلترا ومكتبة باريس الوطنية ومكتبة فينيا الوطنية- ومكتبة ليدن الهولندية [٣٠].

ولأن تخصصه الأول كان فى الدراسات الأندلسية فقد سجل إعجابه بمكتبة قصر الأسكوريال الشهيرة التى تتضمن مخطوطات أندلسية ومغربية بالإضافة إلى إعجابه بالشعب الأسبانى وكتابه ومفكريه الذين بروج إنتاجهم فى أسبانيا وأمريكا اللاتينية [٣١].

ومثل الاهتمام والقراءة باللغات الأجنبية جانبا مهما من تكوين الشباب بإتقان اللغة الإنجليزية راجع إلى رأى كتبه محمد حسين هيكل فى إحدى مقالاته بأن الأديب العربى لايمكن أن يستغنى عن القراءة بلغة أجنبية واحدة على الأقل [٣٢].

أما سهير القلماوى فرأت أن القراءة باللغة الإنجليزية فتحت أمامها أبواب الثقافة العالمية على مصاريعها، ساعدت على إنعاش ثقافتها القومية وتفتحها على آفاق بعيدة [٣٣].

وسجل مصطفى سويف انبهاره بالأدب الإنجليزى وخصوصاً أدب أوسكار وايلد [٣٤].

بين الأصالة والانبهار

ولقد شهدت تلك الفترة تيارات فكرية متناثرة سياسية واجتماعية ودينية، بعضها يمثل منظمات وقوى سياسية واجتماعية وبعضها يمثل اتجاهات فردية فى الإطار العام لحركة الفكر المصرى [٣٥].

فكان للتيار الإسلامى رأى فى تلقى العلم من الغرب؛ فكتب أحد أقطابه . «وإن الإسلام يتسامح فى أن يتلقى من غير المسلم فى علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك أو الطب أو الصناعة أو الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية وأمثالها .. ولكنه لايتسامح فى أن يتلقى

أصول عقيدته ولانتظام حكمه ولاموحيات فنه وأدبه من مصادر غير إسلامية». وفي الوقت نفسه يصف سيد قطب الحضارة الغربية «بجاهلية العصر الحديث» ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي وعلى نتاجه كذلك في الدراسات الإسلامية. و«ومن ثم تجب الحيطة كذلك في أثناء دراسة العلوم البحتة التي لابد لنا في موقفنا الحاضر من تلقيها من مصادرها الغربية من أية ظلال فلسفية تتعلق بها»(٣٦). وفي ذلك تأكيد من أصحاب هذا الفكر على ضرورة النقل من الغرب مع توخي الحذر خلال ذلك.

وإذا كنا قد عرضنا لموقف تيار آخر تجاه حضارة أوربا فقد كان هناك دلائل على محاولات التوفيق بين المقتبس والموروث، فقد كتب البشرى في مذكراته عن ثقافة المدنية الحديثة، التي وجدها في النخب الاجتماعية الجديدة وأساليبها الحديثة في نشر الثقافة والمعارف والصحافة، وما تنقله من صور المجتمع الغربي والإذاعة ونغمات الموسيقى الأوربية والمسرح وتراجم الأدب الأوربي(٣٧). وفي الوقت ذاته رأى أن أجل ما كان له في جيل المطربشين أنهم رغم شعورهم بالتفوق على ذوي العمائم في حاضرهم ومستقبلهم ورغم ما أندس إليهم من وجوه الانبهار بحاضر أوربا، ذلك الانبهار الذي يميل بالمبهور إلى التقليد ويضعف لديه المقدرة على التوازن في الاختيار، رغم كل ذلك فقد كان موصول العروق بالرؤوس المعممة مقراً ومعتزاً بينوته لهؤلاء(٣٨).

وقد وضحت مسألة الصراع بين الارتقاء في أحضان الغرب أو العودة إلى التراث والكلاسيكيات حتى في كتابات الروائيين ففي رواية «قنديل أم هاشم» عرض «يحيى حقي» مسألة الاختيار، فالبطل القادم من دراسته في أوربا يعود إلى احترام المقدسات بعد أن كان رافضاً لها . وسلط حقي بذلك الضوء على الصراع الذي يعانيه شعب بأسره في الاختيار بين الكفاءة التي يستحضرها من مصدر غريب عن كيانه وبين الأصالة التي لا توجد إلا في هذا الكيان(٣٩).

الحرب :

وفي الوقت الذي انشغل الكتاب المثقفون بما يجب أن تكون عليه علاقة مصر بحضارة أوربا وعلمها ، كانت الأزمة الدولية على أشدها ، وكان شبح الحرب يبدو قوياً في الأفق، وبدت القارة الأوربية في أوضاعها السياسية والعسكرية الجديدة بنفس الصورة التي كانت تظهر بها

قبل نشوب الحرب الأولى فقد ظهرت فى تلك الفترة كتلتان من الدول الأوربية : كتلة الدكتاتورية ممثلة فى محور برلين- روما ، وكتلة الدول الديمقراطية ممثلة فى محور لندن- باريس الأولى ليست فى الواقع إلا صورة جديدة للتحالف الثلاثى الذى عقد فى أواخر القرن التاسع عشر بين ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا. والكتلة الثانية وهى محور لندن- باريس ليست إلا امتدادا وتجديداً للوفاق الودى الشهير الذى عقد بين انجلترا وفرنسا ١٩٠٤، وكان أساساً لتحالف الدولتين فى الحرب العالمية الأولى(٤٠).

وكان موقف مصر الدولى غير واضح من الحرب والأطراف المتصارعة فيها فى البداية. كان موقف مصر غاية فى الدقة والحساسية ، فالذين يقولون بأن مصر ليس لديها ما تكسبه بل لديها كل ما تفقده بسبب ذلك، كانت رغبة مصر فى التعاون مع بريطانيا تعلو وتنخفض حسب سير معارك الحرب نفسها (٤١). وأصبحت انتصارات الألمان فى الميادين المختلفة تشعر مصر بأن اشتراكها فى الحرب إلى جانب الإنجليز مراهنة على الجواد الخاسر، لذا أصبح مبدأ «تجنيب مصر ويلات الحرب» هو المبدأ المسيطر على السياسة المصرية خلال الحرب. ويكفى ما تقوم به قوات بريطانيا فى صحراء مصر وفى منطقة القناة بالإضافة إلى المساعدات التموينية، فكل ذلك يكفل لمصر أن تكون لها مطالبها فى أعقاب الحرب(٤٢).

وهكذا أخذت الحرب العالمية الثانية تضغط بظلها الثقيل على البلاد وأعلنت الأحكام العرفية، وفرضت الرقابة على الصحف وأخذت أنوار السلام تنطفىء حتى عم الظلام العالم كله.

ويصف محمد ذكي عبد القادر شعوره بقوله :

«خيل لى أننى وقد بدأت استقر فى حياتى بعض الشىء ، بدأت أنعم بهدوء الخاطر، أمارس عملى فى استمتاع ، وأبنى حياتى فى سلام كأن الحرب قد جاءت لتفسد كل ما غزلت.. كأنها جاءت من أجلى أنا وحدى».

ولاشك فى أن جانباً كبيراً من الخوف لم يكن شخصياً بقدر ما كان تمرداً على واقع تعيشه البلاد تحت الاحتلال حيث تساءل الكاتب «ما ذنبنا نحن حيث نعيش؟ ألمانيا وفرنسا بينهما ثأر قديم ، وبريطانيا دولة ذات امبراطورية تريد أن تحافظ عليها ، وما لنا نحن ؟!! ولكننا حلفاء بريطانيا .. حلفاء بالنبوت. وهكذا حظ الضعفاء من الشعوب»(٤٣)

وبمضى الكاتب يصف فى حسرة وألم كيف امتلأت القاهرة بالجنود البريطانيين والاستراليين وغيرهم، وصارت الأضواء مغطاة باللون الأزرق الكئيب بالمقاهى والمحال العامة التى كانت تتلألأ بالأضواء أصبحت كئيبة، وانطوت المدينة الساهرة الفاتنة على نفسها، اجترت أحزانها فى داخل قلبها وطوت صدرها على مآذنها وقبابها وكنائسها وآثارها ومفاخرها، تريد أن تزود عنها الشر النازل من السماء»[٤٤].

إذا انتقلنا إلى كاتب آخر هو الدكتور محمد حسين هيكل نجده لم يشغل نفسه بنشاط سياسى يذكر لعدة شهور بعد إعلان الحرب، حتى فكر فى العودة إلى الكتابة والاهتمام بكتابى «حياة محمد» و«فى منزل الوحى» ، وقراءة المصادر العربية والأجنبية .. ويقول هيكل: أن جو الحرب العالمية الذى أحاط به فى أثناء هذه القراءة كان له أثره فى معاونته على الاندماج فى العمل حتى شعر أن يعيش فى ذلك الصدر الأول للإسلام يجاهد مع المجاهدين ويغزو مع الغزاة الفاتحين [٤٥].

وقبل أن تجذبنا أحاديث الحرب التى لانهاية لها فى تلك الفترة أود أن أرصد صدى إعلان الحرب على اثنين من شباب المثقفين فى تلك الفترة نقلا عن مذكراتهم .. فيقول أنور عبد الملك: «بداية الحرب العالمية، الظلام يسود القاهرة والإسكندرية، بدأت ألتهم الكتب السياسية والفلسفية . كما فعل على ما اعتقد معظم الجيل الذى كان على موعد مع القدر، كان التساؤل هو : ما العمل ؟ كيف يمكن الإفادة من صراع الدول الكبرى لزعزعة قبضة الاستعمار البريطانى الحديدية على أرضنا والقضاء على الاحتلال. ثم ما معنى التحرير أو الاستقلال الحقيقى؟!!!»[٤٦].

أما طارق البشرى فكتب عن مصر والحرب هذه «إنها نقطة تقاطع المكان والزمان مع بداية إدراك الصبى بجماعته وأمته لم تكن مصر فى هذه الأيام محتلة فقط بمثل ما عرفت من قبل لأن الاحتلال كان فى هذا الوقت فى أشد حالات الحركة وكان ذا وجود كثيف وحركته تضاعف من كثافته . وشارك الإنجليز فى الاحتلال أصناف وألوان من جند الحلفاء من الأمريكيين والهنود الأفارقة»[٤٧].

وبدأ الوجود الاستعمارى بصورته الغليظة أمام العيان بغير غطاء، وبغير تجمل وظهرت شخصيتان عظيمتان فى الوعى الاجتماعى: شخصية « غنى الحرب» بجهله وفظاظته وسوقيته وشخصية «أرتست الحرب» بإباحيتها وكل منهما ثمرة وجود أجنبى بغيض وثمرة حرب لا ناقة لنا فيها وجمل»[٤٨].

وقد بدأ تأثير الحرب سريعًا وواضحًا فى كافة جوانب الحياة، فها هو أحمد حسن الزيات يشعر بقسوة الحرب على الصحافة وقطع الوارد عنها من الورق والحبر وأدوات الطباعة بالإضافة إلى صعوبة نقل الصحف . كما أن «الناس شغلوا بأخبار الحرب وأطوارها عن النظر فى الأدب / للباب والفن الخالص، فلم يقرأوا إلا ما يتصل من قريب أو بعيد بهذه القيامة القائمة»(٤٩).

وأطلقت الحرب العنان لخيالات الكتاب لتأملها ودراستها . فعندما قال بعضهم بأن عدوى الحرب انتقلت للبشر من الحيوان ؟! تساءل العقاد: «وأين هو الحيوان الذى يحشد الأسراب والقطعان لقتال سرب أو قطيع من جنسه ؟ بل أين هو الوحش الذى يجمع أبناء جنسه لقتال جنس آخر من الوحش فى الغاب ؟!! فالحرب كما تعلمها فى ميادينها البشرية إنما هى خاصة من خواص أبناء آدم !! هم دون غيرهم من الخلائق الحية يجمعون بعضهم لقتال بعض ويخرجون على نية القتال»(٥٠).

أما المازنى فقد كتب عما ذكرته الصحف البريطانية عن الجديد فى هندسة البناء نتيجة للحرب من حيث إقامة مبانى ذات طبقات ممتدة فى جوف الأرض يلجأ إليها الناس ويحتمون بها من الغارات الجوية، وتساءل المازنى : «أترى سيعود الإنسان إلى حياة الكهوف ؟! كيف تكون الحياة فى المستقبل البعيد، إذا بقيت الحروب تدور بين جماعات الإنسان ؟ أحسب أن اندساس الإنسان فى جوف الأرض سيكون بداية انحطاطه . فما أغرب أن يكون رقيه العلمى مفضيًا إلى انحداره وهويه ؟ وتلك جناية استخدام العلم فى الحرب»(٥١).

وكان الزيات أيضًا ممن أزعجتهم سطوة الآلة وسرعتها ، فقد تعجب من إعجاب الناس من السرعة الخاطفة عبقرية العصر ومزيته !! فقد رأى أن هذه السرعة ليست عبقرية ولا مزية وإنما هى مس من الجنون أصاب العالم منذ اخترعت الآلة : «فالحرب الحديثة لاتعتمد على فضائل النفس ولا على خصائص الروح وانما تعتمد على سرعة الدواليب فى الطائرة والسيارة والدبابة والغواصة ، فأصبح الفرق بين الآلة والسيف فى حصد الأرواح كالفرق بين الماكينة والمنجل فى حصد الحنطة »(٥٢).

ويبدو أن غضبة الزيات على العلم كانت من القوة بحيث دعت العقاد إلى مهاجمة العلم هو الآخر وتمنى لو أن العالم «كر إلى عصر الجمل والحصان، وحرب السيف والسنان ،ومدنية القلب واللسان، لينجو هذا العالم الذى يدمر ما يعمر، ويخلص من هذه الحضارة التى تأكل

ما تلد ». وإن لم يكن العلم هو المسئول الأول عما يحدث : «فلو كر العالم إلى عصر الجمل والحصان وحرب السيف والسنان لما رضى الزيات، لأن هولاكو وتيمور قد صنعا بالحصان والسنان ما لم يصنع قادة هذا الزمان . . فأين يذهب العلم المسكين مع الإنسان»[٥٣].

المحور .. أما الحلفاء؟!

وكان طبيعياً أن يناقش هؤلاء الكتاب المثقفون مبادىء الأطراف المتصارعة فى محاولة لفهم تداعيات هذه الحرب واستقراء نتائجها .. ففى مقال للدكتور جواد على أوضح فيه الأفكار والمبادىء الهتلرية التى تقول بأن اقتصاديات الشعب مرتبطة بقوة وسلامة العنصرية فيه، وبما أن لكل شعب فكر خاص وعقلية تميزه عن الشعوب الأخرى فاقتصاديات كل أمة ونظمها التجارية يجب أن تكون وفق نظمها وقواعدها السياسية والاجتماعية والتاريخية .

كما أوضح أن فقر ألمانيا فى المواد الأولية يدعوها إلى إيجاد مصادر لها فى الخارج وهى المستعمرات ، حيث قسمت ألمانيا مبدئياً العالم إلى قسمين : أمم متحضرة مستهلكة ومصدرة، وأمم كتب عليها أن تشتغل لتزويد هذه البلاد المختارة ؟[٥٤].

وعلق العقاد على ما نشره جواد على من آراء للنازية وخصوصاً الرأى القائل «بأن الهتلرية ترى أن خير حل لمشكلة العمل والعمال هو الاعتراف بمبدأ الملكية الشخصية ورأس المال، ولكنها ترى أن صاحب المال أو العمل من جهة أخرى هو مدير لماله أو لعمله، أو قائد يتصرف به وفق الأنظمة والقوانين ، وكل من يحاول استغلال ماله عن طريق يخالف مبادىء النازية تصيبه العقاب الصارم أو الإعدام».

فيرى العقاد أن ماذكر هو حبر على ورق : لا أثر له فى عالم الواقع. فهناك ألوف العمال الذين قتلوا بمحاكمة أو بغير محاكمة أو الذين أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال أو حرموا العمل فى أنحاء البلاد كافة لأنهم يطالبون أصحاب المصانع والشركات بحقوقهم. بينما لم يحدث أن قتل صاحب مصنع واحد أو قتل أو أرسل إلى معسكرات الاعتقال أو أغلق مصنعه لأنه ظلم العمال أو حرمهم حصتهم من الربح والأجر المعقول[٥٥].

وكان لعرض كتاب عبدالرحمن بدوى عن الفيلسوف الألمانى «نيتشه» صداه لدى القراء الذين كانوا مهيئين نفسياً لرفض التعاليم النازية وقسوتها. فالحرب التى تلقى بظلالها القاتمة عليهم هى عقيدة النازية التى تدعو الأمم للتنكر للسلام وعدم التجهم للحرب (فالسلام يقتل

حيوية الأمم المترفة المستسلمة.. فألمانيا تبتغى تقسيم العالم من جديد ، والشعب الألمانى خلق للسيادة فلابد أن يبسط سلطانه على العالم ليهبى، حضارة أعلى. وفى سبيل فرض السيادة على الدنيا لابد لألمانيا من التسلط على المستعمرات والطرق الرئيسية للبحار، وبالاطلاع على مبادىء نيتشة فى القيم الأخلاقية لاتستطيع أن ندهش لتصرفات الألمان فى أى بلد اجتاحوه. فعند نيتشه الضعيف يسمى العجز «إحساسًا» ويسمى عدم القدرة على الانتقام «صبرًا» ويسمى عجزه «تواضعًا» . فأما الأقوياء فيسمون الأشياء بأسمائها ولايبتغون إلا الظفر وتحطيم كل من يقف فى سبيل تحقيق مثلهم السامية فى الحياة. غير حافلين بدموع تسكب أو دماء تسفك ، لأن قلوبهم الصخرية وعواطفهم المتحجرة تملأها المطامع والغايات[٥٦].

وكان ادعاء ألمانيا النازية التى أشعلت الحرب بأن غايتها من الحرب هو تحرير الشعوب وإقامة العدل بين الناس مبالغة دعت الكثيرين إلى رفض تصديقها تمامًا[٥٧].

وكان الزيات من الرافضين لخداع دول المحور فقد رأى فى الإخلاص الإيطالى للإسلام والعطف الألمانى على العرب دعاية مموجة رغم أن هناك بعض المخدوعين صدقوها فرددوا مقولة خاطئة بأن قنابل الدوتشى وكتائب الفوهرر لم تحشد فى صحراء مصر وجبال البلقان ، إلا لتنقذ العرب والمسلمين من عذاب الديمقراطية البريطانية[٥٨].

واقترن رفضه لدول المحور بإعجاب شديد بالتجربة البريطانية فى الحرب «فعندما وقعت انجلترا بسطوتها وقوتها فى مواجهة القوة الهتلرية وانهارت حليفتها (فرنسا) فى الحرب، طورت من جيشها وأسطولها بحيث استطاعت فى أقل من خمسة أشهر أن تفسد على هتلر خطة الغزو التى أعدها»[٥٩].

وترتفع نبرة الانبهار ببريطانيا فى قوله : إن الله أمد الإنجليز بجيوش لاتقهر من الصبر والثقة بالنفس والإيمان بالله والحرية والديمقراطية . فياليتنا حين حالفناهم على السياسة والدفاع، حالفناهم كذلك على الآداب والخلق . لقد كنا بأخلاق القرآن قدوة للأقوياء، فأصبحنا وآسفاه بضلالات الأذهان عبرة للضعفاء»[٦٠].

نتاج الحرب!

ولقد وجدت الحرب من يدافع عنها أيضًا فخشونة الحرب وقسوتها كان لها تأثيرها الإيجابى على الشعوب، وكما يرى كاتب هذا المقال أن ألمانيا ألقت بسلاحها ١٩١٩ فشرطت عليها شروط وفرضت عليها الغرامات وأرادت أن تدفع عنها هذا الإجحاف فلم يسعفها إلا قانون الخشونة فلجأت إليه وفرضته على الناس فرضًا، فشاع مبدأ: المدفع قبل الزبد. وبدأت مرحلة التسلح وإنماء قوة ألمانيا .

أما فرنسا فلم توفق إلى ما وفقت إليه ألمانيا فى الاستعداد لهذه الحرب والأخذ بالخشونة، فسلمت فى أولى مراحلها . أما إنجلترا التى تمتعت بثمار انتصارها فى الحرب الأولى فقد تباطأت لذلك فى الاستعداد عن ألمانيا، ولكنها سارعت إلى اللحاق بركب التسلح فلما وقع حمل الحرب على كاهلها وحدها لم تنز به ووجدت فيها ألمانيا خصمًا يساجلها ثباتًا بثبات ومقاومة بمقاومة[٦١] .

ورغم إعجاب الكاتب بقانون الخشونة فإن الحرب دفعته إلى التأمل والتساؤل: «أخير هذه الحرب أم شر؟ فالشعوب التى كانت حرة استعبدت ، ومن هذه الشعوب شعوبًا كان فى إطلاق حريتها مجال فسيح لابتكار ما يفيد المدنية، فإذا علم المتحاربون ما فى قانون القوة من قدرة على احترام الحرب وسعوا للتخلص منه، كانت هذه الحرب التى أثمرت هذه الثمرة بركة على الناس: فربما خسر قانون القوة بعض الأنصار وكسب قانون العدل أنصارًا جددًا .. وخطونا خطوة فى سبيل السلام»[٦٢].

وفاق «سيد قطب» «محمد عرفة» فى رأيه فلم يقل بأن للحرب والخشونة إيجابيات بل قال بأن للسلم ويلات، ربما فاقت ويلات الحرب، بل هى تفوقها بالتأكيد . ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب ترياقًا لسموم السلام. «فنجد فرنسا بعد الهزيمة وهى أشد حيوية وأكثر يقظة وأخذ كل فريق فيها يعمل لفرنسا وحدها لا لنفسه أو لحزبه ، أما ألمانيا فقد صنعت عام ١٩١٩ ما تصنعه فرنسا اليوم فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة ، ولو لم يقم على هذه النهضة رجل مريض النفس (هتلر) لانتفع بها العالم فى التعمير بدل التخريب. أما فى مصر ففيها من ويلات السلم مالايتصوره عقل . وفيها مشاحنات ومنازعات وفحش من الفقر والغنى .. ومنشأ هذا كله طول عهدنا بالسلم الرخيص والدعة المريضة والأمان التافة»[٦٣].

غير أن قطب وصل حد المبالغة فى القسوة مع نفسه ومع بلاده فيقول : «علم الله لقد كانت أكبر أمنية لى أن أعيش حتى أرى مصر تخوض معركة واحدة تظهرها كما تظهر النار الخبث وتشفيها من رخاوة السلم وانحلال الدعة... اللهم إن تكن قد كتبت علينا ألا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركانًا ثائرًا أو زلزالاً محطمًا أو كارثة من كوارثك الرحيمة التى تنقذ بها عبدك من نعومة الأمن وويلات السلام»(٦٤).

حتمية المكان :

وكان للجغرافيين أيضًا تأملاتهم ودراستهم للحرب باعتبارها مظهرًا من مظاهر النشاط البشرى على وجه الأرض وبالتالى يمكن دراستها من جوانب متعددة فيدرسها علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة وحتى علماء النفس من حيث سلوك الأفراد والأمم .

أما علماء الجغرافيا فعليهم دراستها على أساس أن الإنسان لايحارب فى الفضاء وإنما يحارب فى (المكان). وظروف هذا المكان كثيرًا ما تحدد نجاح المحارب ، إن هو أحسن استغلالها والإفادة منها، أو إخفاقه إن هو لم يقدر صعوباتها حق قدرها .

ولذا نجد الجغرافى القدير سليمان حزين يكتب عدة دراسات عن أهمية موقع مصر فى الحروب العالمية (٦٥). فيستعرض الحروب التى مرت بها مصر عبر تاريخها الطويل منذ حروب الإسكندر الأكبر مرورًا بالحروب الصليبية ثم العصر الحديث وحملة نابليون التى نبهت الأذهان فى تلك المرحلة الحرجة إلى أهمية موقع مصر . وخرج «حزين» من الدراسة بحقيقة تختص بمصر وموقعها الجغرافى تقول بأن لم تحدث حرب عالمية بالمعنى الكامل الصحيح لهذه الكلمة ومنذ فتح الاسكندر باب هذا النوع من الحروب إلا كانت مصر طرفًا فيها ولم تستطع مصر بموقعها الجغرافى الفذ عند ملتقى الشرق بالغرب والشمال بالجنوب أن تجنب نفسها مثل هذه الحروب التى دفعت إليها دفعًا أو انساقت إليها انسياقًا (٦٦).

ورأى حزين أنه مهما قيل فى أسباب الحرب العالمية الثانية، فقد كان الغرض الأول منها هو السعى إلى السيطرة العالمية والتحكم فى مصائر الأمم، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق. ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحرب إلى الشرق الأوسط، لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم بابًا ينفذ منه الغرب إلى الشرق، وجسرًا تمتد من فوقه قنوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطمعًا للطامعين(٦٧). وهكذا نجد أن لهيب الحرب قد امتد إلى مصر والشرق الأوسط أكثر من أى جهة أخرى، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا .

وإذا نحن راعينا كثرة مداخل الإقليم وأهميته الفريدة فى صلات الغرب والشرق، فإنه كان طبيعيًا أيضا أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها ونتائجها بما يزيد عن تأثر غيره من أقاليم الأرض وشعوبها . فقد أطعمت الحرب الظافرين فى هذا الأقليم ومراكزه العسكرية وموارده الكثيرة. وهكذا لم تكن تلك الحرب الجبابرة وحدهم وإنما شارك فيها واكتوى بنارها الشرق الأوسط، وأمه وكانت مشاركتهم بمواردهم وأرزاقهم وأرواحهم(٦٨).

وأعقاب الحرب:

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بدأت كتابات المثقفين تتناول قضايا جديدة تتعلق بآثار ونتائج الحرب عالميًا وموقع مصر من هذه النتائج.

فكانت خسارة ألمانيا فى الحرب الثانية تطرح فكرة أن الهزيمة العسكرية وحدها لاتكفى لانتزاع فلسفة القوة من عقلية الشعب الألمانى، بل قد تغدو الهزيمة ذاتها عاملاً فى إذكاء هذه الروح العنيفة، كما حدث عقب الحرب الأولى حيث أصبحت الهزيمة مبعثا لفورة جديدة من القو وشهوة الانتقام والسيادة(٧٠).

لذا كانت دعوة الحلفاء لاتخاذ إجراءات نزع سلاح ألمانيا وتدمير قواها العسكرية ومواردها الاقتصادية.

وكان العامل الاقتصادي واضحا منذ بداية الحرب التى لم تعد حرب مواقع عسكرية صحيحة، بل هى حرب اقتصادية فقد كانت ألمانيا بموقعها الجغرافى وظروفها الاقتصادية وضعف مواردها الأولية فى مركز أضعف من انجلترا وفرنسا اللتين كانتا تسيطران على مستعمرات واسعة (٧١). ولذا دخلت الحرب فى محاولة لشق طريقها إلى مغانم الاستعمار وتحقيق التفوق الاقتصادى (٧٢).

وقام الحصار الذى ضربه الحلفاء حول ألمانيا خلال الحرب دليلاً على ذلك فقد استطاع هذا الحصار الخفى أن يمنع عن ألمانيا المؤن والأطعمة والزيت والمعادن الواردة من وراء البحار(٧٣) غير أن الحياة الاقتصادية لم تتصدع فى ألمانيا وحدها، بل فى كافة أنحاء أوربا، الأمر الذى يدعو إلى تعمير أوربا ثانية عن طريق نزع سلاح ألمانيا نزعًا دائمًا وبذل عون لدول أوربا لتعزيز قدرتها الصناعية مما يرفع من مستوى معيشتها حتى لايكون الفقر والعوز فيها تربة تنبت فيها بذور الحرب مرة أخرى(٧٣).

نحو نظام عالمى جديد:

كان الجميع يحلمون طوال أيام الحرب بعالم جديد تسود فيه العدالة الاجتماعية فى كل أمة. ولعل الهفوة الأولى التى ارتكبتها أوربا بعد الحرب الأولى هى معاهدة فرساى التى فشلت فى تقليم أظافر ألمانيا وفى وضع أساس نظام عالمى جديد[٧٥].

وأصبحت ضرورة إيجاد عصبة جديدة للأمم هى محور كتابات الصحفيين والمثقفين فى أعقاب الحرب، على اعتبار أن المشاكل لاتحل والعالم لايهدأ حتى تتغير عقلية الشعوب الكبيرة وعلى الأخص قادتها [٧٦].

واتسمت الكتابات عن النظام العالمى الجديد بمقارنته مع عصبة الأمم خوفًا من أن تكون هيئة الأمم المتحدة هى عصبة الأمم القديمة متشحة فى ثوب جديد.

وحذر «عبدالله عنان» من كون نظام العصبة الجديدة يحتكم إلى قوة عسكرية لتنفيذ قراراتها حين ترى تنفيذها بالقوة القاهرة، فإذا كان هذا الأمر يبدو من بعض الوجوه ميزة عملية فإن من جهة أخرى قد يغدو خطراً إذا أسىء استعمال هذه القوة[٧٧].

وأضاف بأن تبادر هيئة الأمم المتحدة إلى تقديم الأدلة العملية على أنها قامت لتحقيق العدالة الدولية بين سائر الأمم كبيرها وصغيرها، فإذا لم تشعر الأمم الصغرى بالطمأنينة على استقلالها وحريتها فى ظل هذا الصرح الدولى الجديد، فقدت الأمم المتحدة تأييد الشعوب وثقتها بسرعة وكان مصيرها المحتوم ما صرت إليه عصبة الأمم القديمة[٧٨].

وبنات الفكر تابع «محمود عزمى» أعمال المجالس واللجان فى الأمم المتحدة وأعلن عن خشيته أن تكون الليلة شبيهة بالبارحة ، أى أن الأمم المتحدة لايميزها عن عصبة الأمم إلا أن المناقشات تجرى فيها علنية، أما الرغبة فى سيطرة «العظيمات» على «الصغيرات» فواحدة[٧٩] .

غير أن الكاتب شعر ببادرة تفاؤل نظراً للعلنية التى تمتاز بها الأمم المتحدة ، والتى كان من شأنها أن تجعل مناقشاتها فى متناول الساسة والعلماء والمفكرين بمجرد انعقادها ، مما يكون له أثره فى دفع هؤلاء فى مختلف البلاد فى رعاية فكرة التعاون العالمى والمشاركة فيه[٨٠].

أما الكاتب «محمد عوض محمد» فاهتم فى مقاله بدراسة نتائج الاستعمار الذى أشاع الفوضى والفساد فى الشئون العلاقات الدولية، وبعد تعريفه للانتداب وأنواعه وكيفية

تطبيقه على يد عصبة الأمم القديمة، أوضح رأيه بأن الانتداب منذ طبق لم يكن سوى ثوب جديد تسترت به الشهوة الاستعمارية «ستراً جيداً أو ستراً رديئاً» ولم يتفا لل الكاتب هو الآخر كثيراً بعد دراسته للفروق الجوهرية بين النظام العالمى الجديد وعصبة الأمم القديمة(٨١).

وبانتهاء الحرب واجهت مصر صعوبة فى استمرار علاقتها بالغرب، فإذا كان الغرب الذى اتخذت منه مصر معلمًا قد خرج من الحرب العالمية الثانية حائراً مرتبكا فاقداً للثقة فى نفسه، فكيف يمكن لهم أن يظلوا من أتباعه؟!!.

وكما رأينا أصبح البحث عن حلول لمشاكل أوربا والعالم قضية أساسية فى كتابات المثقفين المصريين، وفقدت أوربا هيبتها السابقة، وأصبحت كلمة «الجلاء» فى أعقاب الحرب تعنى الرغبة الحقيقة فى التخلص من التبعية السياسية والثقافية لعالم لم يعد مبهراً كما كان.

الحواشى

١- عزت قرنى : فى الفكر المصرى الحديث - محاولات فى إعادة التفسير القاهرة ١٩٩٥، ص١٦١ .

٢- دار الهلال : التكوين .. حياة المفكرين والأدباء بأقلامهم - القاهرة ١٩٩٨، ص٣١٦ .

٣- عزت قرنى : نفس المرجع ص١٦٢ .

٤- نفسه ص١٦٤ .

٥- لمزيد من التفصيل عن البعثات فى عصر محمد على، انظر : أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على- القاهرة١٩٣٨ . وأيضاً : جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ١٩٥١ .

٦- جاك بيرك : مصر . الأمبرالية والثورة . ترجمة : يونس شاهين القاهرة ١٩٨٧ ، ص٣٦٤ .

٧- ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ بيروت ١٩٦٨ ، ص٢١٣ .

٨- عزت قرنى: نفس المرجع ص١٨٥ .

٩- محمد جابر الأنصارى: تحولات فى الفكر والسياسة فى الشرق العربى (١٩٣٠-١٩٧٠) الكويت، ١٩٨٠، ص٩٥ .

١٠- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٦٣ .

١١- الأنصارى : نفس المرجع ص٤٠ .

١٢- البرت حورانى : نفس المرجع ص٣٩٤ .

١٣- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٦٣ .

١٤- مقال بإمضاء (ع) وعنوانه (صنع فى إنجلترا) الرسالة : مجلة أسبوعية - العدد ٣٣٩ الأثنين أول يناير سنة ١٩٤٠ ، ص١٥ .

١٥- الأنصارى : نفس المرجع ص٩٤ .

١٦- نفسه ص٩٥ .

١٧- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٦٤ .

١٨- حورانى : نفس المرجع ص٣٨٧ .

١٩- قسطنطين زريق : الوعى القومى -نظرات فى الحياة القومية ١٩٤٠ ص٧٧ .

٢٠- لمزيد من التفصيل انظر محمد جابر الأنصارى ص١٤٠-١٤٩ . وأيضًا عاصم الدسوقى: مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٦ ص٣٦٣ وص٢٧١ .

٢١- الأنصارى : نفس المرجع ص١٦٣ .

٢٢- حورانى : نفس المرجع ص٣٩٤ .

٢٣- عباس محمود العقاد : لانخدع أنفسنا حتى يخدعونا - مجلة الرسالة- العدد ٣٦٧ الأثنين ١٥ يوليو ١٩٤٠ ص١١٥٠-١١٥١ .

٢٤- عباس محمود العقاد: العلم أم الأدب- الرسالة- العدد ٣٦٥- الإثنين أول يولية ١٩٤٠ ص١٠٩ .

٢٥- أحمد حسن الزيات : من مزايا عصر السرعة- الرسالة العدد ٣٦٢ الأثنين ٧ من يولية ص٩٦٢ .

٢٦- لويس عوض: مذكرات طالب بعثة. القاهرة ١٩٦٥ ص١٢٩ / ١٣٠ .

٢٧- نفسه ص١٤٦-١٤٧ .

٢٨- نفسه ص١٥٨- ١٦٠ .

٢٩- محمد عبدالله عنان : ثلثا قرن من الزمان : القاهرة - بدون تاريخ ص١١٥ / ١١٦ .

٣٠- نفسه ص١٦٥ .

٣١- نفسه ص١٤٤ .

٣٢- دار الهلال : التكوين .. شكرى عياد ص٢١ .

٣٣- نفسه . سهير القلماوى ص٢٧٣ .

٣٤- نفسه . مصطفى سويف ص٧١ .

٣٥- عاصم الدسوقى: نفس المرجع ص٢٦٩ .

٣٦- سيد قطب : معالم فى الطريق: دمشق ص١٧٠-١٨٥ الأنصارى: نفس المرجع ص٢٤٩-٢٥٠ .

٣٧- التكوين : طارق البشرى ص٣٦ .

٣٨- نفسه : ص٣٠ / ٣١ .

٣٩- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٧٢ .

٤٠- الموقف الدولي واحتمالات الحرب والسلام- مجلة الثقافة السنة الأولى- العدد ١٩ . الثلاثاء ٩ مايو ١٩٣٩ .

٤١- عاصم الدسوقي: نفس المرجع ص٣٤٣ .

٤٢- محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية - الجزء الثاني (يوليه ١٩٣٧ - يوليه١٩٤٥) القاهرة . ص١٥٩ / ١٦٠ .

٤٣- محمد ذكي عبد القادر : أقدام على الطريق . القاهرة ص٣٧٣ .

٤٤- نفسه ص٣٧٤-٣٧٥ .

٤٥- محمد حسين هيكل : نفس المرجع ص١٥٩ .

٤٦- التكوين : أنور عبد الملك ص٢٨٣ .

٤٧- نفسه : طارق البشرى ص٤٠ .

٤٨- نفسه ص٤١ .

٤٩- أحمد حسن الزيات : الحرب والصحافة . الرسالة . العدد ٣٣٩ الأثنين أول يناير ١٩٤٠ .

٥٠- العقاد : الإنسان والحيوان والحرب الرسالة . العدد ٣٣٩ .

٥١- إبراهيم عبد القادر المازني: الحرب ومستقبل الإنسان . الرسالة : السنة الثامنة - العدد ٣٥٠ - الإثنين ١٨ مارس سنة ١٩٤٠ . ص٤٨٥-٤٨٦ .

٥٢- أحمد حسن الزيات : من مزايا عصر السرعة . الحرب بين أمس واليوم . الرسالة العدد ٣٦٢ : الإثنين ١٠ يونيه ١٩٤٠ ص٩٦٢ .

٥٣- عباس محمود العقاد : العلم المسكين. الرسالة العدد ٣٦٣- الأثنين ١٧ يونيه ١٩٤٠. ص١٠١٧ .

٥٤- جواد علي: عقيدة النازى المالية - الرسالة. العدد ٣٥٢ الأثنين أول أبريل سنة ١٩٤٠ ص٥٧٧ / ٥٧٩ .

٥٥- عباس محمود العقاد : عقيدة النازى المالية . الرسالة . العدد ٣٥٣ الأثنين ٨ أبريل سنة ١٩٤٠ ص٦٠٣-٦٠٤ .

٥٦- عبد المجيد نافع : ألمانيا بين نيتشة وهتلر «دين القوة» الرسالة . العدد ٣٧٥ ص٤٥، ٤٨ .

٥٧- محمد عوض محمد : شئون الحرب وشئون السياسة : الثقافة العدد ٣٢٠ - الثلاثاء ١٣ فبراير ١٩٤٥ ص١٦٦ .

٥٨- أحمد حسن الزيات: أمة التوحيد تتحد، الرسالة العدد ٣٨٤ الإثنين ١١ نوفمبر ١٩٤٠ ص١٦٧٤ .

٥٩- الزيات : : إنجلترا هى المثل . الرسالة العدد ٣٨٦ الأثنين ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠ ص١٧٣٠ .

٦٠- نفسه ص١٧٣١ .

٦١- محمد عرفة : خواطر فى الحرب. الرسالة . العدد ٣٨٦ الإثنين ١٦ سبتمبر ص١٤٥٥ .

٦٢- محمد عرفة : خواطر فى الحرب . الرسالة . العدد ٣٧٧ الأثنين ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠ ص١٤٨٢ .

٦٣- سيد قطب : ويلات السلم : الرسالة ، العدد ٣٩٤ الإثنين ٢٠ يناير ١٩٤١ ص٦٨ / ٦٩ .

٦٤- سيد قطب : نفس المرجع ص٧٠ .

٦٥- سليمان حزين : بين الحرب والجغرافيا - الحروب العالمية وموقع مصر . الكاتب المصرى . العدد السابع أبريل ١٩٤٦ ص٤١٤ .

٦٦- سليمان حزين : نفس المرجع ص٤١٩ / ٤٢٤ .

٦٧- سليمان حزين: الشرق الأوسط والحرب- الكاتب المصرى العدد الثامن مايو ١٩٤٦ص٥٨٦-٥٩٠ .

٦٨- سليمان حزين : نفس المرجع ص٥٩٠-٥٩٢ .

٦٩- محمد عبدالله عنان : نهاية ألمانيا النازية والمعضلة الألمانية الحقيقية ،الثقافة العدد ٣٣١-- الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥ ص٤٧٤ .

٧٠- نفسه ص٤٧٥ .

٧١- الصراع الاقتصادى أبرز مظاهر الحرب العالمية . الثقافة - السنة الأولى- العدد ٤٩ الثلاثاء ديسمبر ١٩٣٩ ص٢ / ٤ .

٧٢- عبدالله عنان : نهاية ألمانيا النازية- الثقافة- العدد ٣٣١ الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥ ص٤٧٤ .

٧٣- كيف حاصر الحلفاء ألمانيا : نقلاً عن إدارة الاقتصاد الخارجى بالولايات المتحدة- المختار- أبريل ١٩٤٥ .

٧٤- فؤاد صروف : المشكلة الاقتصادية الكبرى فى التسوية العالمية بعد الحرب- المقتطف المجلد ١٠٦- ١ مايو ١٩٤٥ ص٣٢٠-٣٢٣ .

٧٥- مقدمة لتاريخ الحرب العالمية الثانية- المقتطف أول يناير ١٩٤٠ ص٩ .

٧٦- أحمد أمين : العالم الجديد- الثقافة العدد ٣٣٨ - الثلاثاء ١٩ يونيو ١٩٤٥ ص٦٧٠ / ٦٧١

٧٧- عبدالله عنان : عصبة الأمم القديمة وعصبة الأمم الجديدة - الكاتب المصرى مجلد ٢ العدد ٦ مارس ١٩٤٦ ص٢٦٨-٢٧٠ .

٧٨- نفسه ص٢٧١ / ٢٧٥ .

٧٩- محمود عزمى : انطباعات من أوربا ومن هيئة الأمم المتحدة - الكاتب المصرى- المجلد الثانى- العدد ٧ أبريل ١٩٤٦ ص٣٨٩ .

٨٠- نفسه ص٣٩٠ / ٣٩١ .

٨١- محمد عوض محمد : الانتداب والوصاية والاستعمار - الكاتب المصرى المجلد الثانى العدد ٧ - أبريل ١٩٤٦ ص٤١٣ .

مصادر البحث

دوريات:

الأعداد من ديسمبر ١٩٣٩ حتى مايو ١٩٤٦ .

- الرسالة : مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون .
- الثقافة .
- الكاتب المصرى : مجلة أدبية شهرية .
- المختار
- المقتطف .

مراجع عربية :

- ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ - بيروت .
- جاك بيرك : مصر - الأمبريالية والثورة- ترجمة- يونس شاهين - القاهرة ١٩٨٧ .
- دار الهلال : التكوين - حياة المفكرين والأدباء بأقلامهم- القاهرة ١٩٩٨ .
- سيد قطب : معالم فى الطريق - دمشق ١٩٦٥ .
- عاصم الدسوقى: مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ - القاهرة ١٩٧٦ .
- عزت قرنى: فى الفكر المصرى الحديث- محاولات فى إعادة التفسير- القاهرة ١٩٩٥ .
- قسطنطين زريق : الوعى القومى- نظرات فى الحياة القومية- ١٩٤٠ .
- لويس عوض : مذكرات طالب بعثة- القاهرة ١٩٦٥ .
- محمد جابر الأنصارى- تحولات فى الفكر والسياسة فى الشرق العربى، ١٩٣٠ - ١٩٧٠ ، الكويت ١٩٨٠ .
- محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية- الجزء الثانى- يوليه ١٩٣٧ - يوليه ١٩٥٢ - القاهرة .
- محمد زكى عبد القادر : أقدام على الطريق - القاهرة.
- محمد عبدالله عنان: ثلثا قرن من الزمان- القاهرة بدون تاريخ .

أ.د. عبدالله عبد الرازق إبراهيم *

الحملة الفرنسية على مصر حلقة فى التنافس التجـارى الدولـــى

نجحت البرتغال فى الوصول إلى رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨م والدوران حول القارة الأفريقية بهدف اكتشاف عالم البهار، وبالتالى تحويل التجارة إلى الطريق الجديد، والقضاء على طريق التجارة القديم عبر البحر المتوسط . وكان أن أدى هذا التحول إلى الدخول فى صراع مع دولة سلاطين المماليك فى مصر حتى انتهى الصراع بهزيمة المماليك فى موقعة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩م، مما أدى إلى انهيار دولتهم لتحل محلها الدولة العثمانية التى تزعمت الدفاع عن ديار الإسلام ضد المخططات البرتغالية الحبشية لغزو الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة وتدميرها .

وقد قام السلطان العثمانى سليم الأول ومن بعده ابنه سليمان بتحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية، ومنع السفن المسيحية من الدخول فيه حفاظا على المقدسات الإسلامية والعربية . ولما كان طريق التجارة القديم عبر مصر أقصر كثيرا من الطريق حول رأس الرجاء الصالح، فقد حاولت الدول الأوربية السعى لدى السلطان العثمانى لتسهيل مرور تجارتها إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر، ونجحت فرنسا فى عام ١٥٣٥ فى الحصول على امتياز باحتكار التجارة فى المنطقة وحق حماية الرعايا الكاثوليك فى أراضى الدولة العثمانية[١] .

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة .

ولما كانت فرنسا إحدى دول البحر المتوسط فقد رأت تجنب المنافسة بين إنجلترا وهولندا، حيث أن كلا منهما كانت تسعى إلى السيطرة على طريق رأس الرجاء الصالح، لذا رأت فرنسا أن تولى كل اهتمامها نحو إحياء الطريق البرى عبر مصر والبحر المتوسط، وذلك حتى تتمكن من تحقيق منافسة تجارية مع الدول الأخرى، خاصة هولندا وإنجلترا .

وقد ساعد الموقع الجغرافى فرنسا فى السيطرة على الطريق البرى مثلما ساعد الموقع البحرى كلا من هولندا وإنجلترا ومكنهما من التحكم فى رأس الرجاء الصالح[٢].

ومنذ أواخر القرن السادس عشر أخذت فرنسا تحتل المكانة التقليدية لكل من البندقية ونابلى ، خاصة بعد تحالفها مع السلطان العثمانى ، وصارت الدولة الأوربية الأولى ذات النفوذ فى البلاط العثمانى ، وصاحبة حق رعاية الكاثوليك داخل الإمبراطورية العثمانية[٣].

وكان أن بدأ الصراع منذ ذلك القرن بين الدول الأوربية من أجل السيطرة وبسط النفوذ ومحاولات التوسع للحصول على امتيازات من حكام المنطقة ، وإحياء الطريق البرى الذى يوفر المسافة بين أوربا والشرق، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد الثورة الفرنسية التى أحدثت انقلابا فى العلاقات السياسية فى أوربا كما أنها كانت ضربة قاصمة وجهت للنظم الملكية السائدة. وكان على القوى الأوربية أن تقف أمام أفكار الثورة التى دكت عروش الملكية. وقد دفع هذا الصراع القوى الأوربية إلى السيطرة على طرق المواصلات عبر مصر والشرق لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة، ولتأمين التجارة عبر هذه الطرق، ومن هنا جاء التفكير فى ضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند، وكان تاليران وزير الخارجية الفرنسى قد أدرك فوائد المستعمرات للدول الأوربية، وكانت الحكومة والرأى العام الفرنسى يميلان إلى القيام بعمل حربى حاسم، وغزو إنجلترا فى عقر دارها ، لكن نابليون أقنع حكومة الإدارة بخطورة ذلك، وأوضح أن غزو مصر لايقل أهمية وأثرا عن غزو إنجلترا ذاتها ، واستجابت حكومة الإدارة لثقتها فى عبقريته العسكرية[٤].

من هنا كانت فكرة الحملة الفرنسية على مصر والتى أصبحت مجرد حلقة فى سلسلة الصراع الدولى للسيطرة على طرق المواصلات البرية ولاحتكار طريق التجارة عبر مصر، ومحاولة الحصول على امتيازات من حكام المنطقة للسيطرة على هذا الطريق البرى الهام.

وفى هذا السياق نحاول فى هذا البحث إلقاء الضوء على عدد من النقاط الأساسية والتى تتمثل فى:

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر .

ثانيا : الحملة البريطانية للسيطرة على الطريق البرى .

ثالثا : اشتداد الصراع بين الدولتين أثناء الحملة وبعدها .

رابعا : الآثار التى ترتبت على هذا الصراع حول طرق التجارة البرية .

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر:

أدى تحول التجارة العالمية بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر إلى انزال الضرر البالغ بجمهورية البندقية ودولة المماليك فى مصر، يضاف إلى ذلك أن الصراع الحربى العنيف بين البندقية والدولة العثمانية الفتية التى ابتلعت شرق أوربا قد أجبر الأولى على الاعتراف بالأمر الواقع أى التفوق العثمانى فى هذا الجزء من البحر المتوسط (٥).

ومنذ القرن السادس عشر أقامت جالية فرنسية فى مصر، وكانت مصر إحدى ركائز الشرق التى أقامت بها الدول الأوربية وكالات تجارية، وحصلت الدول الأوربية على امتيازات تجارية تسمح للسفن الأوربية على حق تفريغ ركابها وبضائعها فيها(٦).

وكانت فرنسا أولى الدول التى حصلت على امتياز من السلطان العثمانى وذلك بمقتضى اتفاق عقد فى عام ١٥٣٥ بين ملك فرنسا فرانسوا الأول وسلطان القسطنطينية. وقد ضمنت هذه المعاهدة لرعايا فرنسا فى الدولة العثمانية حق الإقامة فى الثغور والمدن لأغراض التجارة كما ضمنت سلامة أرواحهم وممتلكاتهم، وحرية العبادة لهم، وأن يخضعوا فى معاملاتهم الشخصية لقضاء القنصل الفرنسى، وألا يدفعوا رسوما جمركية تزيد عن ٣٪ من قيمة المتاجرة ، كما لايتعرض عمال السلطان لتركات من يموت منهم (٧).

ولم يلبث أن حصل التجار الإنجليز على امتياز فى عام ١٥٨٠، كما حصل الهولنديون أيضا على امتياز فى عام ١٦٢٢ مثل امتياز الفرنسيين. وهذا يوضح أن الدول الأوربية المتنافسة كانت تحاول الحصول على امتيازات من الباب العالى حتى لاتتعرض تجارة أى منهم إلى مضايقات من الدول الأخرى. ويعطى هذا التنافس أهمية كبرى للطرق التجارية عبر مصر، خاصة بعد أن أغلق السلطان العثمانى البحر الأحمر، وجعله بحيرة إسلامية. وكان الهدف من هذه الامتيازات تنشيط التجارة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية دون أن تعطى للتجار الأجانب أى حق استعلاء على الرعايا المحليين .

وقد أثار فرانسوا الأول ملك فرنسا استنكار جزء من العالم الإسلامى لأنه أقام علاقات مع الدولة العثمانية رغم أن هذه المعاهدة ليست رسمية، لأن هذه الامتيازات إنما هى إنعامات يمنحها السلطان بصفة مؤقتة، ويجب أن تنال موافقة خلفائه . وفعلا وافق عليها السلطان سليمان القانونى فى عام ١٥٦٩ ، وباختصار فإنه منذ المعاهدة بين فرنسا والسلطان العثمانى حصلت الدول الأوربية على امتيازات مماثلة[٨].

والمعروف أن هذه الامتيازات أعطت الدول الأوربية حق البيع والشراء فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، كما تمتع التجار بإعفاء من غالبية أنواع الضرائب، مع حق ممارسة الشعائر الدينية بحرية[٩].

وكان النشاط التجارى الأوربى فى مصر فى فترة الحكم المملوكى العثمانى، خاصة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، يتجدد تباعا لمصالح الدول الأوربية خاصة انجلترا وفرنسا، وكانت هذه المصالح تتمثل فى التنافس على احتكار طريق السويس البرى، ورغم كشف طريق رأس الرجاء الصالح فإن التجارة لم تتحول عن الطريق البرى عبر برزخ السويس، وظل الإنجليز والفرنسيون يستخدمون هذا الطريق [١٠].

والواقع أن فرنسا أولت عناية خاصة بإحياء طريق السويس البرى منذ أواخر القرن السادس عشر خاصة عندما آلت المستعمرات البرتغالية- وأهمها جزر الهند الشرقية- إلى أسبانيا . وفى هذا الوقت فكر السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فى توصيل البحر الأحمر بالبحر المتوسط فى عام ١٥٨٦ حتى يستطيع الأسطول العثمانى الوصول إلى البحر الأحمر ، ومطاردة سفن البرتغال والأسبان فى مياه المحيط الهندى[١١].

لقد أصبح فتح الطريق البرى من قواعد الدبلوماسية الفرنسية فى القرن السابع عشر، ولاسيما فى عهد لويس الرابع عشر وخلفائه ، وسعت فرنسا لدى السلطان العثمانى حتى يوافق على فتح الطريق التجارى عبر مصر ، وعندما أسس كولبير شركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤ لم يكن الغرض احتكار جزء من تجارة انجلترا فحسب، بل كان الهدف احتكار نقل التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقية ومدغشقر المارة بطريق رأس الرجاء الصالح[١٢].

ورغم نشاط شركة الهند الشرقية فإنها لم تستطع أن تركز اهتمام فرنسا على إحياء الطريق البرى، وكان فقدان الممتلكات الهندية الفرنسية بعد ذلك بمائة عام قد بدد اهتمامات فرنسا بالطريق البرى، وتحول هذا إلى تنافس تجارى وعسكرى مع إنجلترا [١٣].

وسوف نحاول تتبع محاولات الفرنسيين لإحياء الطريق البرى، بل واحتلال مصر إذا لزم الأمر ، ويظهر هذا بشكل جلى من خلال كتب ومذكرات الرحالة والسياسيين والتجار، الذين كان لجهودهم الأثر الأكبر في لفت أنظار الحكومات الفرنسية لأهمية هذا الطريق البرى. وجاءت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث لوضع هذه الأفكار موضع التنفيذ من خلال الحملة الفرنسية التى أصبحت إحدى حلقات التنافس الدولى على طرق المواصلات البرية، بل وفاتحة سياسة استعمارية أوربية ليس على مصر فحسب، بل على كل المنطقة العربية باعتبارها شريان الحياة فى طرق التجارة العالمية.

أولا : استمر اهتمام فرنسا بمصر عندما صدر كتاب فى عام ١٦٦٥ يحمل عنوان «رحلات مسيو دي تيفينو في المشرق» والذى اشتمل على وصف مصر بدقة فضلا عن مدنها الرئيسية، والآثار الموجودة بها ، وتفاصيل دقيقة عن الحياة اليومية، والاحتفالات الدينية فى مصر.

ثانيا : ظهر اهتمام فرنسا بمصر وآثارها وعظمتها عندما قام الفيلسوف الألمانى ليبتز فى عام ١٦٧٢ بزيارة إلى باريس ليسلم لويس الرابع عشر مذكرة يقترح فيها بوضوح إرسال جيش لغزو بلاد الفراعنة ويقول «هذا هو أضخم مشروع يمكن تصوره والأكثر سهولة فى تنفيذه. إن مصر من بين جميع بقاع العالم هى الأفضل موقعا من أجل السيطرة على الدنيا وعلى التجار، والحال أنها خالية من أي دفاع، ولاتنتظر سوى وصول جيش تحرير لكى تنهض» (١٥).

إن هذه العبارات توضح مدى الاهتمام الذى أولته الدول الغربية لأهمية مصر، ومكانتها فى عالم التجارة وذلك فى القرن السابع عشر ، ويزداد هذا الاهتمام كلما دخلت أوربا فى صراعات وثورات اجتماعية وسياسية .

وكان ليبنز يعرف علاقات الدولة العثمانية السيئة مع فرنسا ، لكنه أكد أن مصر منذ قديم الزمن هى أرض العلوم ، وعرين المعجزات الطبيعية، ولذا يجب على المسيحيين عدم فقدان هذه الأرض المقدسة التى تربط آسيا بإفريقيا خاصة وأنها تتوسط البحرين الأبيض والأحمر ، وتعد مستودعا لغلال الشرق ، ومخزنا لكنوز أوربا والهند .

ثم عاد هذا الفيلسوف الألمانى ليؤكد مرة ثانية أنه بدلا من الهجوم على هولندا مباشرة، فإنه من الأفضل هزيمتها عن طريق مصر . ذلك لأن هذا المشروع سيؤمن امتلاك الهند وتجارة آسيا والسيطرة على الكون (١٦).

ولم يهتم لويس الرابع عشر بآراء ليبنز ولا حتى باستقباله أو الرد عليه، بل اكتفى بإخطار أمير المقاطعة الألمانية التى يعيش فيها بأن زمن الحروب الصليبية قد انتهى، ولم يعد يطابق ذوق العصر، وفضل الملك شن الحروب فى أوربا [١٧].

ثالثا : فى عهد لويس الخامس عشر تحسنت العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية، ولم يحدث أى تطور فى مشروع غزو مصر. وحاول لويس الخامس عشر فى عام ١٧١٤ تجديد معاهدة الامتيازات التى سبق أن وقعت فى عام ١٥٣٥ مع العثمانيين، والتى أعطت لفرنسا حق حماية المسيحيين فى سائر أرجاء الدولة العثمانية. لكن هذا أثار انجلترا التى ظلت تخشى ازدياد النفوذ الفرنسى فى الدولة العثمانية مما يهدد طريقها الملاحى عن طريق البحر الأحمر مثلما يهدد مصالحها فى الهند[١٨].

رابعا : ظل الحال على هذا المنوال حتى جاء لويس السادس عشر فتكررت النداءات والحجج لاحتلال مصر، فى الوقت الذى ازداد ضعف الدولة العثمانية بسبب حربها مع النمسا وروسيا[١٩].

وفى عام ١٧٧٦ قام البارون دى توت بإعداد مذكرة أكد فيها أن مصر مليئة بالثروات ويمكن غزوها بسهولة ، وإذا لم تستول عليها فرنسا فإن انجلترا سوف تفعل ذلك، وتحدث بسهولة عن فتح مصر واحتلالها فى مذكراته التى نشرها فى أربعة أجزاء فى عام ١٧٨٤[٢٠].

وتأثر وزير الحربية بهذه المذكرة ، وأرسل البارون دى توت إلى مصر، ثم عاد إلى باريس أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بفكرة مشروعه . لكن انشغال فرنسا فى حروب مع انجلترا جعل من الصعب التخلى عن أى جزء من الجيش فى هذه الفترة، وتأجلت فكرة احتلال مصر لكن المشروع ظل ماثلا فى أذهان الساسة والمفكرين الفرنسيين .

خامسا : فى عام ١٧٨٧ ألف الرحالة فولنى قصة بعنوان «الرحلة فى مصر وسوريا» ووصف حالة مصر السيئة ، وحاول أن يصف العلاج لهذه الحالة بخروج المصريين من تحت السيادة العثمانية ودخولهم تحت لواء دولة أخرى تكون صديقة للمصريين وذات حضارة . ونهضة أدبية وعلمية وفنية، حتى تتمكن هذه الدولة من إحياء التراث المصرى القديم، والتنقيب عن الآثار المغمورة فى الدلتا والصعيد ، وكشف رموز اللغة والكتابة الهيروغليفية .

وهكذا رسم فولنى صورة عن بلاد يطحنها البؤس والأمراض والفوضى ، لكنه تحدث عن التجارة والمكوس والضرائب ، كما تحدث عن تحصينات ميناء الاسكندرية، وقدم وثيقة فريدة للفرنسيين الذين يحلمون بغزو مصر . وتأكيدا لهذه الرغبة من فولنى فقد ألف الرحالة سافارى أيضا كتابا نشره فى ١٧٨٥ وتحدث فيه عن خصوبة أرض مصر ووفرة غلاتها وسهولة غزوها والاستيلاء عليها (٢٢).

وفى هذا الكتاب الذى حمل اسم «خطابات عن مصر» دعا إلى غزو مصر لأنها ستكون مركز التجارة فى العالم، والجسر الذى يربط أوربا وآسيا(٢٣).

وعلى العموم فإن كتابات هؤلاء الرحالة كانت مقدمة جوهرية لغزو مصر، حيث بلغ الضيق بهؤلاء التجار الفرنسيين حدا جعلهم يطالبون بإرسال قوات عسكرية لتأديب المماليك ولتأمين مصالحهم (٢٤).

لقد جمع فولنى كل الآراء التى تدعو فرنسا لاحتلال مصر ولخصها فى عدة نقاط :

أ- أن مصر تنتج المحاصيل التى تحتاجها فرنسا كالشعير والأرز والقطن والعنب وقصب السكر وغير ذلك .

ب- أن احتلال مصر سوف يمكن فرنسا من الحصول على السلع القادمة من أفريقيا كالعاج والتبر والرقيق .

ورغم هذه المزايا فقد أشار فولنى إلى أن احتلال مصر سوف يجعل فرنسا تدخل فى حروب مع الأتراك والإنجليز والمصريين . ولن تنجح فرنسا فى احتلال مصر نظرا لاختلاف الدين والعادات والتقاليد. وطالب فرنسا بأن تركز على تحسين الإنتاج داخل بلادها وتبتعد عن الاستعمار فى هذه الفترة.

سادسا : عندما استولى على بك الكبير على السلطة فى مصر عام ١٧٦٨ قام بالقبض على التجار الفرنسيين ، وانسحبت القنصلية الفرنسية من القاهرة إلى الاسكندرية ومعها غالبية التجار، وقرر بعضهم البقاء فى مصر على مسئولياتهم . ومن هؤلاء التاجر تشارل ماجالون الذى كان يقوم بعمل القنصل. وقد لعبت هذه الشخصية دورا حاسما فيما بعد خاصة بعد قيام الثورة الفرنسية ، وإضعاف الجالية الفرنسية، وقيام المماليك بابتزازهم، وكان الفرنسيون يشترون الأسلحة ويتدربون على استخدامها ساعتين يوميا(٢٥).

ونجح ماجالون فى عقد ثلاث معاهدات مع مصر فى يناير ١٧٨٥، الأولى مع مراد بك الذى تعهد بحماية التجارة الفرنسية عند مرورها فى مصر، وحدد الضريبة على متاجر الهند بمقدار ٢٪ للوالى على مصر و٤٪ للبيك الحاكم و٣٪ إذا كانت التجارة مصدرة إلى فرنسا. أما المعاهدة الثانية فقد وقعها مع يوسف كساب ملتزم الجمارك العام وفيها تعهد يوسف بعدم زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية وتحصيل ٥٪ من قيمة المتاجر المفرغة فى السويس ، وكانت المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ الأعراب (العربان) وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان فى طريق الصحراء بين السويس والقاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل[٢٦].

لكن هذه المعاهدات لم تكن ذات قيمة تذكر لأنها لم تحدث أى تغير فى موقف فرنسا تجاه مصر ، ولم يتحسن هذا المركز التجارى. وهذا ما جعل الجالية الفرنسية تتخذ خطوة أكثر إيجابية تجاه مصر والطريق البرى.

سابعا : وفى عام ١٧٩٠ أرسلت الجالية الفرنسية التماسا إلى الجمعية التأسيسية والغرفة التجارية بمرسيليا ، تطلب فيه فرض حصار بحرى على مصر، مما يتيح لفرنسا الاستيلاء على الطريق إلى الهند . وهكذا تحول التجار إلى خبراء فى الخطط الحربية الاستراتيجية ، كما قاموا بتحديد عدد القطع البحرية اللازمة لتنفيذ هذا العمل ، لكن لم يصل أى رد لأعضاء هذه الجالية[٢٧].

وفى عام ١٧٩٣ تقدم أعضاء الجالية الفرنسية بالتماس آخر، ولم يكن المطلوب هذه المرة مجرد حصار بحرى بل الاحتلال الصريح الواضح. لكن الحكومة الفرنسية لم ترد على هذا الالتماس أيضا، ونشط ماجالون وكتب إلى سفير فرنسا فى القسطنطينية يقول «أرجوك أيها المواطن ألا تتقاعس عن المعاونة فى اعطاء مصر لفرنسا ، فهذه هى أجمل الهدايا التى يمكنك منحها لها ، وسيجد الشعب الفرنسى فى هذا الكسب موارد هائلة»[٢٨].

وأوضح مجالون أهمية الطريق التجارى عبر مصر، وقال أنه إذا أصبح الفرنسيون سادة البحر الأحمر فإنهم يستطيعون أن يهددوا مصالح البريطانيين، وأن يطردوهم من الهند. وهكذا خرجت نوايا فرنسا تجاه مصر من حيز التفكير إلى حيز التصريح[٢٩].

ثامنا : لقد وجد ماجالون من يستمع إليه أخيرا، وذلك عندما أصبح تالبران وزيرا للعلاقات الخارجية ، وطلبت منه الحكومة كتابة مذكرة توضيحية عن أوضاع الطريق التجارى

عبر مصر. وقام تاليران بإعداد المذكرة التى اقتبس فيها الكثير من آراء ماجالون، وقدمها إلى حكومة الإدارة فى ١٤ فبراير ١٧٩٨ . وكان هذا التقرير دعوة إلى احتلال مصر ، وأشار تاليران فى تقريره إلى أن مصر بلاد غنية ، كما أن موقعها الجغرافى يجعل منهما المركز التجارى الطبيعى للعالم. فإذا ما قامت فرنسا بتحقيق الاستقرار والأمن بها تتمكن الملاحة المتجهة إلى الهند من التخلى عن طريق رأس الرجاء الصالح (٣٠).

وأوضح تاليران أن فرنسا سوف تفقد إن آجلا أو عاجلا مستعمراتها فى أمريكا، وأنه لايوجد تعويض أفضل من مصر. أنها بلاد يسهل أخذها ، ولن تدخل الإمبراطورية العثمانية فى حرب للدفاع عنها لأنها سوف تنهار بعدة مدة لاتزيد عن خمسة عشر عاما. وبالتالى فإن على الجمهورية الفرنسية أن تأخذ منها ما يناسبها . وهو يقصد بذلك أن تكون مصر فى أولى الأوليات من هذه الأنقاض. وأقر هذا الغزو هنرى لويس الذى أكد أن الغزو واجب تحتمه الثورة الفرنسية، نصيرة حقوق الإنسان، والتى تسعى إلى نقل الحضارة إلى منابعها الأولى فى مصر(٣١).

تاسعا : تحمس كل من تاليران ومعه الجنرال نابليون لمشروع غزو مصر، ولم يلبث أن صار هذا المشروع حديث رجال الإدارة والسياسة والصحافة ، كما حاز على تأييد الأوساط الشعبية الفرنسية ، ومن ثم دخل المشروع فى دور التنفيذ .

وفى ١٢ أبريل ١٧٩٨ أصدرت حكومة الإدارة قرارا بتشكيل جيش الشرق -تحت قيادة نابليون بونابرت - لغزو مصر ، وأوضحت حكومة الإدارة الأسباب التى دفعتها إلى إرسال حملة على مصر لمعاقبة بكوات المماليك أصحاب السلطة فى مصر، كما أشارت إلى الاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح والذى يعرقل وصول الفرنسيين إلى الهند(٣٢).

وهكذا اتضحت سياسة فرنسا من خلال الرحالة والمفكرين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، التى كانت تهدف إلى تحويل تجارة فرنسا الشرقية إلى الطريق البرى عبر مصر، وذلك لمنافسة التجارة التى تمر فى طريق رأس الرجاء الصالح. وقد اتضح أيضا أن الحكومة الفرنسية لم تفكر أساسا فى تشجيع التجارة مثلما فكرت فى القضاء على نفوذ كل من هولندا وإنجلترا (٣٣).

وباختصار فإن فكرة الحملة الفرنسية على مصر، وفكرة السيطرة على طريق التجارة عبر مصر، قد وجدت تأييداً ودعما من كل المفكرين عبر سنوات طويلة. وكلما اشتد الصراع بين

فرنسا والدول الأخرى كلما ازداد الاهتمام بالفكرة، وكانت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث هى التى أحيت الفكرة وإعادتها إلى الأذهان . وكانت محاولات انجلترا للسيطرة على هذا الطريق هى التى حفزت على القيام بالحملة[٣٤].

ثانيا : المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى:

من المعروف أن التجار البريطانيين وصلوا إلى مصر متأخرين عن التجار الفرنسيين، وذلك لأن بريطانيا لم تدخل ميدان البحر المتوسط إلا فى فترة متأخرة ولأن التجار لم يكن لهم اهتمام بالتجارة الأوربية قبل القرن السادس عشر . ولكن حدث بعد اتحاد انجلترا سياسيا إثر حرب الوردتين (١٤٥٥-١٤٨٥) أن أخذت تتطلع إلى الطرق البحرية لزيادة مواردها.

ومع مطلع القرن السادس عشر بدأت السفن الإنجليزية تتاجر على الساحل الأوربى بل وفى مدخل البحر المتوسط، مما تسبب فى إزعاج السفن الأسبانية والفرنسية. لكن بريطانيا أنشأت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ لاحتكار التجارة الشرقية.

وسوف نحاول فيما يلى إلقاء الأضواء على المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى والدخول فى منافسة مع الدول الأخرى.

أولا : فى النصف الثانى من القرن السادس عشر تكونت شركة الليفانت، وأدى قيامها إلى بداية علاقات دبلوماسية تجارية مع الدولة العثمانية. وقد حاولت الحكومة الفرنسية عرقلة نشاط هذه الشركة الإنجليزية، ونجحت فى ذلك إلى حد ما ، لكن السلطان العثمانى اعترف فى عام ١٥٨٣ بالسيد وليم هاربون سفيرا لبريطانية فى الأستانة ، وتعد هذه الخطوة بداية مرحلة جديدة من العلاقات البريطانية مع الشرق الأدنى [٣٥]، وهو الأمر الذى ظهر فى الاهتمام البريطانى بتعيين قنصل لها فى مصر عام ١٥٨٣، كما أرسلت إنجلترا سفينة محملة بالقصدير والرصاص إلى الاسكندرية.

ثانيا : فى عام ١٥٨٧ ظهرت طلائع السفن البريطانية فى الاسكندرية، وبدأ التجار الإنجليز يمارسون نشاطهم فى مصر رغم فرض رسوم وصلت إلى ١٠ ٪ على تجارتهم ، وهى بالطبع نسبة أعلى من النسبة التى تدفعها فرنسا، على أن الأصواف الإنجليزية لم تجد الرواج المطلوب فى مصر، فى حين أخذ التجار الفرنسيون ينظرون بعين الشك والريبة إلى التجار الإنجليز ، وأخذوا يختلقون لهم الدسائس والمكائد عند السلطات المصرية، وهكذا اضطر التجار

الإنجليز إلى مغادرة مصر، كما أغلقت شركة الليفانت القنصلية الإنجليزية فى عام ١٦٠١ ، وعهدت برعاية مصالحها إلى القنصل الفرنسى.

ثالثا : فى عام ١٦٩٧ عادت شركة الليفانت تمارس نشاطها من جديد، وعينت ميلز فليتود قنصلا للإشراف على مصالحها فى مصر، ولكنه وجد معارضة من القنصل الفرنسى هناك، وأيضا من القنصل الفرنسى فى الأستانة، رغم صدور قرار من السلطان فى عام ١٦٩٨ بالاعتراف رسميا بالقنصل الإنجليزى فى القاهرة، وإن دل هذا على شئ فإنه يدل على العداء الدفين الذى كان يكنه القنصل الفرنسى سواء فى مصر أو الأستانة لأى نشلط قنصلى انجليزى، حتى لاتجد فرنسا من ينافسها على طرق المواصلات التى وضعتها فى حساباتها منذ القرن السادس عشر . ويفسر هذا الموقف بدايات الصراع والتنافس على الطرق البرية عبر مصر والبحر الأحمر.

رابعا : عندما قامت حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠١-١٧١٤) حاولت انجلترا الاستفادة من هذه الحرب بتدعيم نشاطها التجارى، لكن لم يؤثر ذلك على ما حققته فرنسا من مكاسب تجارية وظلت التجارة الإنجليزية ضئيلة وأخذت تتناقص تدريجيا حتى أنه فى عام ١٧٥٦ لم يكن فى مصر سوى تاجر إنجليزى واحد.

خامسا : عندما قامت حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) تركت آثارها على التجارة الإنجليزية التى أخذت فى الاضمحلال. ولكن حدث بعد توقيع معاهدة باريس ١٧٦٣ أن تغير الموقف وأصبحت هذه نقطة تحول فى نظر انجلترا إلى الطريق البرى عبر مصر، لأن هذه المعاهدة أطلقت يد انجلترا فى الهند، حيث اقتصر اهتمام الحكومة البريطانية على أصلح الطرق وأقصرها لنقل الرسائل والتعليمات والجنود بين الهند وانجلترا وكانت الرسائل تصل فى خلال ثلاث وستين يوما أى حوالى ربع المدة للرحلة عن طريق رأس الرجاء الصالح[٣٦].

سادسا : وفى الربع الأخير من القرن الثامن عشر تجدد اهتمام الإنجليز بمصر وبطريق السويس البرى، وكان السبب فى ذلك يعود إلى :-

أ- زيادة أهمية موقع مصر الجغرافى أثناء حرب السنوات السبع باعتبارها حلقة هامة فى طريق المواصلات بين بريطانيا والهند، خاصة عند نقل البريد.

ب- استقلال على بك الكبير بمصر عام ١٧٦٩ واشتعال الحرب الروسية التركية

(١٧٦٨-١٧٧٤) مما أضعف الدولة العثمانية ، وخشية بريطانيا من وقوع مصر تحت سيطرة دولة قوية مما يؤثر على مصالحها فى الهند .

ج- رغبة بعض التجار الإنجليز فتح طريق مباشر بين الهند والسويس، وتشجيع على بك لفتح هذا الطريق ، وإرسال خطاب إلى وارن هستنج حاكم البنغال فى مارس ١٧٧٥ لعقد اتفاقية للتجارة والملاحة مع حكام المماليك ، خاصة مع محمد أبى الذهب، وتأكيد اتفاقية جيمس بروس عام ١٧٧٣ (٣٧).

سابعا : لم تكن انجلترا تهتم بالناحية التجارية فحسب، وإنما كان هدفها الوصول إلى المستعمرات . وكان التجار الإنجليز مجرد مغامرين . وقد ظهرت مجموعة من الرحالة والتجار الذين حاولوا تحقيق مكاسب تجارية لإنجلترا ، ومن هؤلاء الرحالة البريطانى جيمس بروس الذى كان يعمل فى قنصلية انجلترا فى الجزائر، وحضر إلى القاهرة فى يونيه ١٧٦٨ ولم يجد بها أحدا. وقابل على بك وعقد معه معاهدة ١٧٧٣ أعطت للسفن البريطانية حق الدخول شمالا حتى مرفأ السويس . وبذلك أصبح العلم البريطانى أو الأعلام الأجنبية التى رفرفت فى البحر الأحمر بعد أن كان بحيرة إسلامية مغلقة فى وجه السفن الأجنبية (٣٨).

وبعد رحيل على بك نجح بروس فى عقد اتفاق مع محمد أبى الذهب فى فبراير ١٧٧٥ ، وفى هذا الاتفاق أمكن السماح للسفن الإنجليزية بالقدوم إلى السويس ، وعدم التعرض للتجار الإنجليز بالأذى. هذا فضلا عن تحديد الرسوم الجمركية بحيث لاتزيد عن ٨٪ على التجارة الواردة إلى السويس، مع فرض خمسين ريالا أسبانيا كرسم ميناء لكل سفينة(٣٩).

ثامنا : لما ازداد نشاط التجار الإنجليز فى السويس، تقدم السلطانى العثمانى فى عام ١٧٧٥ بطلب إلى حكومة لندن يطلب فيه منع السفن الإنجليزية من الوصول إلى السويس أو القيام بأى نشاط تجارى هناك. ووافقت حكومة لندن على هذا الطلب بشرط أن تطبق نفس الشروط على سفن الدول الأخرى. ولكن رغم صدور قرارات الحكومة البريطانية فقد ظلت السفن الإنجليزية تصل إلى السويس حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى وقف الاتجار فيما وراء جدة. وهكذا أدت المعارضة العثمانية للسفن الإنجليزية إلى فشل المعاهدات مع المماليك(٤٠).

تاسعا : لقد كان هذا النشاط الإنجليزى فى مصر سببا فى إثارة فرنسا خاصة عند قيام جورج بولدوين بتنظيم خط منتظم من المواصلات بين الهند وبريطانيا ، وبدأت السلطات الإنجليزية فى الهند فى الاعتماد على طريق البحر الأحمر ومصر(٤١).

وأمام قسوة الحكام المماليك عاد النشاط الإنجليزى لمصر بعد عام ١٧٨٥ . لكنه لم يعد تجاريا بحتا، بل أصبح يحمل الطابع السياسى. ودخلت الحكومة البريطانية نفسها فى هذا المجال. وقد أصبحت مصر حلقة من حلقات الصراع العنيف بين فرنسا وانجلترا حول الهند، فضلا عن أن مصر خرجت من سياستها الجامدة فى علاقاتها مع الدول الأجنبية. وتخلت عن سباتها العميق، وأصبحت تتأثر بالأحداث الأوروبية الدولية. ولهذا استدعت التاجر البريطانى جورج بولدوين وطلبت منه أن يكتب تقريرا عن النشاط الفرنسى فى مصر(٤٢).

عاشرا : قدم بولدوين تقريره فى عام ١٧٨٥ ونشر هذا التقرير فى كتاب بعد ذلك تحت اسم «مذكرات سياسية بخصوص مصر» ، وفى هذا التقرير وجه الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى وحاصلاتها التجارية وأهميتها بالنسبة لفرنسا ، وما يمكن أن يؤدى إليه احتلال الفرنسيين لها. وقد أدى هذا التقرير إلى ضرورة مواجهة إنجلترا للنشاط الفرنسى فى مصر، وعقدت فعلا معاهدات مع شركة الهند الشرقية وقررت إنجلترا وضع خطة تقوم على أساس إرسال جورج بولدوين إلى مصر ليكون قنصلا لها، وتكون مهمته التفاوض مع المماليك لعقد معاهدة تجارية، وإرسال تقارير عن النشاط الفرنسى فى مصر(٤٣).

وفى عام ١٧٦٨ وصل بولدوين إلى مصر وتقلد مهام منصبه. وحاول عقد معاهدة مع القبطان باشا الذى جاء للقضاء على مراد بك، لكن فشلت المفاوضات لأن القبطان باشا عاد إلى بلاده بسبب الحرب الروسية التركية. وعاد مراد بك بجيوشه ودخل القاهرة ووقع معاهدة مع بولدوين فى عام ١٧٩٤ . وقام بولدوين بإرسال هذه المعاهدة إلى حكومة لندن ، لكن الحكومة قابلتها بنوع من الفتور وعدم الهتمام وذلك بسبب خوف بريطانيا من تحول التجارة الفرنسية إلى البحر الأحمر ومصر بعد حرب السنوات السبع، فضلا عن انشغال بريطانيا وفرنسا فى حروب بعد عام ١٧٩٣ وحاجتهما إلى جهود عسكرية لمراقبة مصالحهما فى الأستانة، وعلى الطريق البحرى حول القارة الأفريقية ، يضاف إلى ذلك تلك الفوضى السائدة فى مصر فى ظل حكم كل من ابراهيم بك ومراد بك ، وهو الأمر الذى انعكس بشكل واضح على الطرق التجارية(٤٤).

والجدير بالذكر أن وزير الخارجية البريطانية أمر بإغلاق القنصلية البريطانية فى فبراير ١٧٩٣ لأنها تتطلب نفقات تفوق وجودها فى مصر ، كما أقيل بولدوين ، الذى استمر رغم

ذلك فى مصر ولم يغادرها إلا فى أبريل ١٧٩٦، أى قبل وصول الحملة الفرنسية بشهور قليلة[٤٥].

واستمر بولدوين يحذر بريطانيا من مخططات فرنسا فى مصر، لكن دون جدوى، وعاد إلى مصر فى عام ١٨٠١ ليكون ضمن الحملة التى جاءت لإخراج الفرنسيين منها[٤٦].

وهكذا تخلت إنجلترا عن فكرة تقوية نفوذها فى مصر، ولم تستمع إلى نداء رجال التجارة والقناصل، حتى فاجأتها فرنسا بتلك الحملة على مصر، وهى التى تمثل دورا جديدا من أدوار السباق بين انجلترا وفرنسا حول الفتح والاستعمار منذ القرن السابع عشر، وخلال القرن الثامن عشر، والذى اتخذ طورا جديدا بعد الثورة الفرنسية التى قضت على النظام القديم وأعلنت الجمهورية، وكان أن تألبت الدول الأوربية عليها، ودخلت مع إنجلترا فى حرب سجال بعد أن صارت إنجلترا العقبة الكئود بسبب موقعها الجغرافى. ومن ثم فكرت حكومة الإدارة الفرنسية فى ميدان آخر يمكن أن تقهر فيه انجلترا. وكان أفضل ميدان هو ضربها فى مستعمراتها فى الهند بالاستيلاء على مصر، فكانت الحملة الفرنسية التى تعد فصلا جديدا من فصول الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية[٤٧].

وفى أبريل ١٧٩٨ قررت حكومة الإدارة غزو مصر، وصدرت التعليمات إلى نابليون بتجهيز الحملة وقيادتها. وتضمن البيان سوء معاملة التجار الفرنسيين، كما تعرض للاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح، وعرقلة وصول الفرنسيين إلى الهند، وطلبت حكومة الإدارة ضرورة فتح طريق آخر إلى الهند.

وتتلخص المهام التى كلف بها القائد العام لجيش الشرق، فى الاستيلاء على مالطة ومصر وطرد الإنجليز من مؤسساتهم فى الشرق[٤٨].

هذه هى الدوافع الحقيقية للحملة الفرنسية التى لم تكن سوى مرحلة من مراحل الصراع الدولى على طرق المواصلات، والحصول على امتيازات تجارية وصناعية، أى أن الحملة الفرنسية تدخل فى إطار الصراع الإنجليزى الفرنسى، ورغبة فرنسا فى السيطرة على طرق التجارة للهند. ومن الواضح أن الحملة الفرنسية على مصر تعد نقطة تحول خطيرة فى حياة مصر والشرق العربى كله، حيث أظهرت بشكل قاطع الأهمية الاستراتيجية لهذه البلاد المطلة على البحر المتوسط والواقعة على الطريق الهام المؤدى إلى الهند[٤٩].

ثالثا : الحملة واشتداد الصراع بين الدولتين :

خرجت الحملة الفرنسية من ميناء طولون يوم ١٩ مايو ١٧٩٨ ، فوصلت إلى جزيرة مالطة، وقامت باحتلالها ، فى حين كان الأسطول الإنجليزى يراقبها فى البحر المتوسط ، ويرغب فى تحطيمها . وبينما الحملة الفرنسية مشغولة فى مالطة ، وصل الأسطول الإنجليزى إلى الاسكندرية ليبدأ مرحلة من الصراع حول طرق المواصلات بين الشرق والغرب. ويتمثل هذا الصراع فى النقاط الآتية :

أولا : بعد أن وصل الأسطول الإنجليزى إلى سواحل مصر لم يجد الأسطول الفرنسى، فأقلع الإنجليز للبحث عن الأسطول الفرنسى، وعندما وصل نابليون إلى الاسكندرية اختار منطقة العجمى ، لإنزال الجنود والعتاد والمهمات ليلا، ولكن عندما علم الأميرال نلسون قائد الأسطول الإنجليزى بقدوم الفرنسيين إلى مصر، عاد إلى سواحلها . وفى أول أغسطس ١٧٩٨ وقعت موقعة أبى قير البحرية وفتحت النيران من الجانبين، وقتل أمير البحر الفرنسى وانفجرت بارجته ، وهكذا قضى على الأسطول الفرنسى بأكمله فيما عدا أربع بوارج اضطرت إلى الانسحاب بسرعة جنوب مالطة. وغنم الإنجليز ست سفن فرنسية. وكانت هذه العملية ضربة قوية أصابت الحملة الفرنسية على مصر، وقضت على وسائل اتصال الحملة بفرنسا ، وأدى هذا إلى انخفاض الروح المعنوية عند الفرنسيين، وخضوع مصر لعملية الحصار البحرى وما كان لهذا من أثر على طرق التجارة العالمية (٥٠).

وفى نفس الوقت رأت حكومة بومباى بعد وصول الحملة إلى مصر ضرورة القيام بنشاط واسع النطاق للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، لمنع أى محاولة فرنسية للوصول إلى الهند من جهة ولحماية جهودها الرامية إلى تنشيط التجارة المتبادلة مع سواحل البحر الأحمر والسواحل اليمنية على وجه الخصوص . ولهذا تحركت قوة من الهند بقيادة الكولونيل جون موراى واتجهت نحو المدخل الجنوبى للبحر الأحمر واحتلت جزيرة ميون أو بريم الواقعة فى أضيق نقطة فى بوغاز باب المندب، وذلك فى اليوم الثالث من مايو ١٧٩٨ وظلت حتى أوائل سبتمبر من نفس العام(٥١).

ثانيا : عندما تحطم الأسطول الفرنسى فى مياه أبى قير بفضل التفوق البريطانى، تشجعت كل من الدولة العثمانية وشعب مصر على التصدى لهذه الحملة، رغم المبادىء التى أعلنها نابليون وأنه جاء لتأديب المماليك وثار المصريون ثورتهم الأولى رغم مجهودات الفرنسيين فى

التقرب منهم وتحركت ثورة المصريين بشكل تلقائى وبدون تنظيم، لكنهم بسرعة تجمعوا أمام الأزهر ، حيث بدأ الصدام مع القوات الفرنسية .

وساعدت الدماء التى سالت فى المعركة على زيادة الحماسة ، فانتشرت الثورة وامتدت إلى الأقاليم وفى الإسكندرية ورشيد والبحيرة، وكانت المقاومة التى لقيتها الحملة الفرنسية فى الصعيد لاتقل فى ضراوتها عن تلك المقاومة التى واجهتها فى الدلتا. وكان أن نجح الثوار نتيجة انهيار الروح المعنوية للفرنسيين ، بعد أن حطم الإنجليز أسطولهم فى مياه أبى قير.

ثالثا : تشجعت الدولة العثمانية لإخراج الحملة من مصر ، وأحس نابليون أنه لابد من مواجهة هذا الخطر فى الشام قبل أن يصل إلى مصر خاصة وأن الإنجليز شاركوا العثمانيين فى هذا التحرك الذى امتد إلى العريش، فكان قرار نابليون القيام بحملته على سوريا. وبعد معركة العريش التى انهزمت فيها القوات العثمانية استولى الفرنسيون على غزة والرملة ويافا، التى شهدت أسر ثلاثة آلاف أسير عثمانى وقتلهم رميا بالرصاص مما أثار حمية الحامية العثمانية فى عكا ، فاستبسلت فى الدفاع عن عكا وساعد أحمد باشا الجزار فى الدفاع عن مدينة عكا وجود الأسطول الإنجليزى بقيادة السير سيدنى سميث أمام الميناء ، ومنع وصول مدافع الحصار إلى الفرنسيين بطريق البحر، بل إن الأسطول الإنجليزى كان قد أسر السفن الفرنسية التى حملت المدفعية والذخائر واتجهت بها جنوب سواحل سوريا ، وسلمها إلى أحمد باشا الجزار الذى دفع بها عن عكا أمام الفرنسيين، وأمام فشل نابليون فى حصار عكا اضطر إلى العودة إلى مصر وبعد أن فقد ما يزيد عن ألفى قتيل وألف رجل ماتوا بالأمراض فضلا عن حوالى ٢٥٠٠ جريح .

وهكذا عاد نابليون مهزوما بعد مائة وخمسة وعشرين يوما ليواجه المقاومة المصرية فى الصعيد والدلتا ، وكانت تهدد أمن القوات الفرنسية هذا فى الوقت الذى نزلت قوات عثمانية فى منطقة أبى قير فى شهر يونيه ١٧٩٩ واحتلت قلعة أبى قير لاتخاذها قاعدة لهم ضد الفرنسيين ، لكن نابليون هاجم هذه القوة وهزمها ، مما زاد من شعور المصريين بالعداء، ولم يلبث أن اضطر نابليون إلى العودة إلى أوربا بسبب الاضطرابات هناك وهزيمة الجيوش الفرنسية فى كل من إيطاليا والنمسا . وقد ترك نابليون مصر يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ومعه عدد من كبار الضباط [٥٢].

رابعا: فى عهد كليبر- خليفة نابليون فى مصر- قامت ثورة القاهرة الثانية، مما اضطره إلى

الاتصال بالدولة العثمانية من أجل التفاوض والصلح الذى انتهى باتفاقية العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ . وتقدمت الحكومة العثمانية لاستلام القاهرة لكن بريطانيا أعلنت رسميا عدم موافقتها على اتفاقية العريش لأنها ترى ضرورة الاستسلام دون قيد أو شرط بالنسبة للحملة الفرنسية . وأعلنت انجلترا أنها سوف تضبط فى البحر الأحمر كل سفينة تحمل جنودا فرنسيين، وتعتبر من عليها أسرى حرب. وأمام هذا الوضع تقدمت قوة عثمانية إلى القاهرة لكن المدفعية الفرنسية أوقعت بالقوات العثمانية خسائر جسيمة ، واضطر العثمانيون إلى الانسحاب من موقعة عين شمس التى كانت الشرارة التى أشعلت ثورة القاهرة الثانية وما تلاها من أحداث ذلك أنها كانت أقوى من ثورة القاهرة الأولى نتيجة انضمام بعض العثمانيين والمماليك ، واستمرت هذه الثورة ثلاثة وثلاثين يوما . وفى صبيحة يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠ ذهب كليبر إلى الروضة لاستعراض كتيبة الأروام التى جندها الفرنسيون، وفجأة اقترب منه أحد الشبان ، وأخرج خنجرا وطعن به كليبر الذى سقط مضرجا بدمائه وأسلم الروح(٥٣).

خامسا : وكان أن تولى الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية فى مصر ، ولكنه لم يكن ذا كفاءة عسكرية كبيرة، وبالتالى فإنه رتب الأمور على أساس إبقاء الاحتلال الفرنسى فى مصر، وقيام مشروعات اقتصادية من موارد مصر. لكن الوقت كان ضيقا إذ جاءت قوات عثمانية وبريطانية إلى مصر لمحاربة الفرنسيين وإخراجهم بقوة السلاح من مصر . وتحت ضغط الإنجليز اضطر مينو إلى قبول الرحيل عن مصر بعد أن بدأت القوات العثمانية والإنجليزية فى الزحف جنوبا نحو القاهرة التى احتلها العثمانيون والإنجليز .

وفى ٢٣ يونيه ١٨٠١م بدأ التفاوض بين الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز على أساس جلاء الفرنسيين عن البلاد. وبعد مفاوضات امتدت لمدة أربعة أيام تم الاتفاق على جلاء القوات الفرنسية عن مصر على أساس انسحاب القوات الفرنسية فى مدة لاتتجاوز خمسين يوما على نفقة الحلفاء. وتم توقيع الاتفاق فى ٢٧ يونيه ١٨٠١ ، وخرجت الحملة بعد ثلاث سنوات . وكان خروجها من مصر بفضل الجهود الضخمة التى بذلتها انجلترا فى محاولاتها للحفاظ على طرق المواصلات البرية إلى الهند. وبالتالى فإن الحملة الفرنسية لفت أنظار العالم إلى أهمية موقع مصر الجغرافى، واشتداد الصراع الدولى على هذه الطرق، خاصة بعد

رحيل الحملة . ولم يكن الإنجليز يهتمون بجلاء الفرنسيين عن مصر قدر اهتمامهم بمنعهم من تهديد المصالح البريطانية فى الشرق وكان أن فرضت انجلترا حصارا على سواحل مصر (٥٤).

سادسا : بعد رحيل الحملة سادت مصر فترة من الصراعات الداخلية بين المماليك والعثمانيين والمصريين . وكانت الحملة قد لفتت الأنظار إلى أهمية مصر فى المجالات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والمعنوية ، فظهرت على أنها مركز هام، ونقطة اتصال بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وطريق رئيسى يصل أوربا بالشرق الأقصى. هذا إلى أن مصر ظهرت على أنها سوق توزيع له قيمته بالنسبة لتصريف المنتجات الأوربية ، ومنطقة إنتاج مواد خام تحتاج إليها الصناعات الأوربية. وبعد رحيل الحملة أخذت كل من الدولتين انجلترا وفرنسا فى التفكير فى العودة إلى مصر . ورغم جلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١ فقد ظلت رغبتهم فى العودة إليها والتحكم فى طريق البحر الأحمر شديدة، وأوفد نابليون الكولونيل سبتيانى إلى مصر للتعرف على البريطانيين ولدراسة الأوضاع الجديدة هناك فى نهاية عام ١٨٠٢ م . وظل نابليون حتى نهاية حياته السياسية مهتما بمصر ، وبالطريق الموصل للشرق عبر البحر الأحمر، كما كان يرسل مبعوثه لجمع البيانات والمعلومات الهامة. لعرقلة مصالح ومساعى أعدائه البريطانيين فى هذه المناطق (٥٥).

وحاولت كل من انجلترا وفرنسا عن حليف قوى يضمن لها العودة، فتحالف الإنجليز مع زعيم المماليك الألفى، وتحالف الفرنسيون مع خصمه البرديسى بك. لكن الأمور آلت فى عام ١٨٠٥م إلى محمد على الذى حاول الفرنسيون والإنجليز التقرب منه. ولما أظهر تعاونا مع فرنسا أرسلت انجلترا حملة فريزر عام ١٨٠٧ لمساعدة زعيم المماليك الألفى بك لتقلد السلطة، ولكنه كان قد مات قبل وصول الحملة الإنجليزية التى منيت بالفشل نتيجة المقاومة الشعبية المصرية فى رشيد مما أجبرها على الرحيل. ورغم هزيمة حملة فريزر فإن بريطانيا كان لها السيادة البحرية فى البحر المتوسط حيث احتل الإنجليز جبل طارق عام ١٧٠٤ واحتلوا جزيرة مالطة عام ١٨٠٧ وضموها إلى مستعمراتهم أثناء انعقاد مؤتمر فينا عام ١٨١٥ (٥٦).

أما فى مصر فقد واصل محمد على سياسته الرامية إلى التحالف مع فرنسا، وهو ما أزعج انجلترا التى وقفت له بالمرصاد فى كل توسعاته ، سواء فى الجزيرة العربية، أو فى الشام أو فى الخليج العربى. ولما أحست بخطورة تحركاته على مصالحها وطرقها التجارية ، خاصة بعد احتلال عدن عام ١٨٣٩ ، قامت بإجبار محمد على على قبول معاهدة لندن ١٨٤٠ وهى التى

قلصت كل جهوده ، وحرمته من كل انتصاراته، وجعلته حاكما على مصر فقط . كل هذا من أجل الحفاظ على طرق المواصلات التى أبرزت الحملة الفرنسية أهميتها بالنسبة لطرق المواصلات إلى الهند(٥٧).

سابعا : كانت الحملة فاتحة الصراع على مصر، وظهرت أهميتها بعد رحيلها -فى عهد عباس حلمى الأول (١٨٤٨-١٨٥٤)- حيث نجح الإنجليز خلال فترة حكمه فى التفوق على فرنسا، خاصة عندما توطدت الصداقة بينه وبين قنصل بريطانيا العام فى مصر وهو شارل مرى وحصلت بريطانيا على موافقة لإنشاء سكة حديدية فى مصر لخدمة المصالح البريطانية ، ولتسهيل سرعة نقل التجارة والجنود البريطانيين بين انجلترا والهند(٥٨).

ثامنا : عندما تولى اسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) ظهر التنافس بين الدولتين انجلترا وفرنسا، وكان يختلف عن سابقيه حيث ظهر طموحه ومشروعاته الكبرى التى كلفته مبالغ ضخمة جعلت النفوذ الأجنبى يتغلغل داخل مصر . واشتدت الأزمة المالية التى أجبرت مصر على بيع حصتها فى قناة السويس، واشترتها إنجلترا حتى تكون شريكا لفرنسا فى إدارة القناة. ومع اشتداد الأزمة المالية، وتشكيل صندوق الدين ولجان التحقيق الدولية حاول اسماعيل إيقاف هذا النفوذ الأجنبى، وتحريك القوى الوطنية المصرية . وكان أن قامت إنجلترا وفرنسا بالضغط على السلطان العثمانى حتى عزل اسماعيل عام ١٨٧٩ . وتطورت الأمور بثورة الشعب المصرى بزعامة أحمد عرابى، الذى واجه تدخلا عسكريا سافرا من إنجلترا التى احتلت مصر عام ١٨٨٢ . وخرجت مصر من الناحية العملية عن سلطة الدولة العثمانية، واستقر الاحتلال نهائيا بالاتفاق الودى بين الدولتين عام ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا حيث اطلقت فرنسا يد انجلترا فى مصر مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش، وظلت مصر من الناحية النظرية ولاية عثمانية حتى إعلان الحماية على مصر فى عام ١٩١٤ لتنتهى قصة الصراع الطويل على طرق المواصلات عبر مصر بدخول مصر تحت الاحتلال البريطانى(٦٠).

رابعا : الآثار التى ترتبت على الصراع حول طرق التجارة البرية :

من هذا العرض للحملة الفرنسية باعتبارها حلقة من حلقات الصراع الدولى على طرق المواصلات بين الشرق والغرب تتضح عدة أمور لها آثارها على المنطقة وعلى طرق المواصلات البرية ومن هذه الآثار :

أولا : أدى هذا الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية إلى محاولة الدولتين انجلترا

وفرنسا توثيق علاقاتهما بالسلطات الحاكمة فى مصر ابتداء من القرن السادس عشر، خاصة بعد انهيار دولة المماليك وتولى الدولة العثمانية الدفاع عن ديار الإسلام، وإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن الأوربية ، وقيام الدولتين بعقد معاهدات مع الحكام الموجودين فى مصر خاصة على بك ومحمد أبو الدهب وإبراهيم بك ومراد بك بقصد تسهيل مرور التجارة عبر مصر، رغم أن طريق رأس الرجاء الصالح كان ميسورا بالنسبة لانجلترا وهولندا لكنه أطول كثيرا من الطريق البرى عبر مصر .

ثانيا : أثبتت الدراسة أن كلا الدولتين حاولتا إرسال الرحالة والمستكشفين والتجار الذين أكدوا أهمية احتلال مصر باعتبارها مفتاح الشرق، وكانت فرنسا أسبق فى هذا المضمار خاصة بعد مسيو دى تيفيو وليبنز وفولنى وماجالون. وأكد الرحالة ضرورة احتلال مصر حتى تضمن فرنسا السيطرة على الطريق التجارى وضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند.

ثالثا : عندما أحست انجلترا بمحاولات فرنسا إغلاق الطرق أمام بريطانيا كان رد الفعل الطبيعى أن تحاول إرسال عدد من التجار والقناصل لوقف هذا المد الفرنسى، فضلا عن محاولات انجلترا الاستيلاء على منافذ طرق التجارة ، خاصة الاستيلاء على جبل طارق فى مدخل البحر المتوسط وعدن فى مدخل البحر الأحمر، وفرض الحماية على المشيخات العربية، سواء فى الخليج العربى أو فى أطراف الجزيرة العربية هذا كله بالإضافة إلى تكوين الشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية وشركة الليفانت من أجل السيطرة على منافذ التجارة البرية عبر مصر والعالم العربى .

رابعا : كانت الحملة الفرنسية على مصر سابقة خطيرة فى تاريخ العلاقات الدولية ، خاصة بين انجلترا وفرنسا، وكان قدوم الحملة صدمة حضارية أصابت المجتمع المصرى ولفتت انتباهه إلى تخلفه الشديد إبان الحكم العثمانى. وكان لابد من محاولة مواكبة التطورات الدولية وإحياء طرق التجارة البرية.

وقد تجلى هذا فى عصر محمد على الذى وجد تنافسا من الشركات الأجنبية لحفر قناة السويس للسيطرة على طرق التجارة . ولكن محمد على كان حريصا على استقلال مصر، وقال عبارته المشهورة «لا أريد بسفورا آخر فى مصر» لأنه كان يخشى من وقوع مصر تحت سيطرة أى من الدولتين انجلترا وفرنسا، كذلك ورفض إعطاء امتياز حفر قناة السويس لأى منهما، وحافظ على استقلال مصر، مما زاد من غضب انجلترا التى ظلت تضمر له العداء، وحرمته من

كل انتصاراته، وأجبرته فى معاهدة لندن على التقوقع داخل مصر حتى لايؤثر على طرق المواصلات عبر مصر .

خامسا : أثبتت هذه الدراسة أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بداية مرحلة جديدة لفتت الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى الفريد فى طرق المواصلات البرية. وكانت بداية محاولات جادة من أجل السيطرة عليها. وإذا قارنا فترة الحملة وما كان بعدها نجد الفرق شاسعا بين المرحلتين ، حيث كانت فترة ما قبل الحملة مجرد محاولات من قبل الرحالة والتجار، لكن بعد الحملة كان الطابع السياسى هو السائد والمحرك لكل الأحداث التى تلت الحملة . وكانت الحملة نقطة التحول، وبداية الأطماع الأوربية فى مصر والعالم العربى والأفريقى. ولم تتوقف هذه المحاولات إلا بسيطرة بريطانية على مصر عام ١٨٨٢م ، وانتصار أصحاب الطريق البرى والسكك الحديدية على أنصار الطريق البحرى وحفر قناة السويس .

هوامش البحث

١- السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى ١٥١٧-١٨٨٢، ص٧١ .

٢- عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى ١٥١٦-١٩٩٢ ، ص٢٢٢ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٩ ، ص١٨٨ .

٤- أحمد زكريا الشلق: معالم التاريخ المصرى الحديث والمعاصر، ص٣٨ .

٥- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٢ .

٦- روبير سوليه : مصر : ولع فرنسى ، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة ١٩٩٩، ص١٤ .

٧- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٢٨ .

٨- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص٧٣ .

٩- Henry . Lamba: De l'evolution Juridique des Europeens en Egypt, Paris 1896 p. 205.

١٠- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٧ .

١١- جلال يحيى : المجمل فى تاريخ مصر، ص٥٢ .

١٢- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص٢٢٣ .

١٣- روبير سوليه : مرجع سابق ، ص١٦ .

١٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٠ .

١٥- عمر السكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى الوقت الحاضر، القاهرة ١٩١٦ ، ص١٧ .

١٦- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص٢٢٤ .

١٧- Deherain . Henry : L'Egypt, Turque p. 202 .

١٨- فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١ ، ص٧٣ .

١٩- روبير سوليه : مرجع سابق ، ص٢٤ .

٢٠- جلال يحيى: مرجع سابق ، ص١٥٣ ، وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سابق ، ص٢٠١ .

٢١- حراز : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٢٢- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص٩٦ .

٢٣- Jean Marir Carre : Voyageurs et Ecrivians Francais en Egypt le Cairo, 1956 , p. 36.

٢٤- حراز : مرجع سابق ، ص٧٧ .

٢٥- Francais Charles , Roux : les Origins de l'Expedition d'Egypt, paris 1916 , p. 39.

٢٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٣٠ وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن : النشاط التجارى فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨ ضمن كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ص٢٥٤

٢٧- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص١٠٠

٢٨- روبير سوليه : مرجع سابق، ص٣٠ .

٢٩- فاروق أباظة : مرجع سابق ، ص٧٩ .

٣٠- جلال يحيى : مرجع سابق ، ص١٥٤ .

٣١- Henry Laurens : L'Expedition d'Egypt Paris , 1989 . p. 230 . وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن: تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٢٠٣ .

٣٢- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص١٠٠

٣٣- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق، ص٢٢٢ .

٣٤- Ghorbal Shafik : The Beginnings of the Egyption Quastion and the Rise of Mahemet Ali 1928 , p. 3 .

٣٥- السيد رجب حراز: مرجع سابق، ص٨٠ Coupland R: East African and its Invaders, p. 362.

٣٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٢٦ .

٣٧- نفس المرجع السابق عمر عبد العزيز ص٢٢٧ .

٣٨- فاروق أباظة : مرجع سابق، ص٥٧ .

٣٩- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٨٤ .

٤٠- عبد الرحيم عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص١٩٦ .

٤١- محمد أنيس : مرجع سابق ، ص١٩٠ .

٤٢- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص٨٩ .

٤٣- عمر عبد العزيز : مرجع سابق ، ص٢٢٨ .

٤٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٩٢ .

٤٥- محمد أنيس : مرجع سابق، ص١٩ .

٤٦- عمر عبد العزيز : مرجع سابق، ص٢٣١ . وأيضا عبد العظيم رمضان : تاريخ أوربا والعالم فى العصر الحديث ، الجزء الأول، ص٤١٥ .

٤٧- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، ص٢٠-٥٠ . وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص١٩٩-٢٠٠ .

٤٨- شوقى الجمل وعبدالله عبد الرازق : تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ، ص١١٦ .

٤٩- شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص١٦٢ .

٥٠- جلال يحى : المجمل فى تاريخ مصر الحديثة ، ص١٦١ .

٥١- فاروق أباظة : التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وضمن كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ص٣٦١ .

٥٢- جلال يحى : المجمل فى تاريخ مصر الحديثة، ص١٧١ . وأيضا عبد العظيم رمضان : الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة ، ص٦٩ .

٥٣- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص١٤٦ . وأيضا شوقى الجمل وعبدالله عبد الرازق : تاريخ مصر الحديث والمعاصر . القاهرة ١٩٩٥ ص١٠١ .

٥٤- أحمد ذكريا الشلق : مرجع سابق، ص٤١ . وأيضا صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ١٥١٧-١٨٨٢ ، ص٣٣٦ .

٥٥- حسن صبحى : التنافس الاستعمارى الأوربى فى المغرب. وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص١٩٩ ومابعدها .

٥٦- George H.B: Historical Georgraphy of the British Empire , p. 124 .

٥٧- شوقى الجمل : سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ضمن كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ص٣٩٠ .

٥٨- نفس المرجع السابق ص٣٩٣ .

٥٩- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٢٤٧ . وأيضا عمر عبد العزيز عمر : ص٢٣٦

٦٠- رءوف عباس حامد : مصر فى القرن التاسع عشر، ص١٥٩ .

د. مجاهد توفيق الجندى *

أهم الوكالات فى مدينة القاهرة ودورها الحضارى

تمهيد :

الوكالات والوكائل مفردها وكالة ** بكسر الواو أوفتحها اسم مكان من الفعل «وكل»[1] ويعنى بها المكان الذى كانت تتم فيه العمليات التجارية من حيث البيع والشراء، إنه السوق بوصفه وعاء للعمل بصفة عامة، ثم مكانًا خاصا للعمل التجارى. وقد ورد ذكر السوق فى أكثر من مرة على لسان المصطفى ﷺ فقال «صلاة أحدكم فى جماعة تزيد على صلاته فى سوق وبيته بضعا وعشرين درجة الحديث»[2].

---

* أستاذ كرسى الحضارة الإسلامية فى جامعة الأزهر بالقاهرة .

** الوكالة : عبارة عن مبنى تجارى يتكون من طابقين أو ثلاثة فوق الأرض والأول به مجموعة من الحواصل (مخازن) يضع فيها التجار بضائعهم مقابل رسوم معينة ثم يعرضونها للبيع نهارا وهكذا . وأما الطوابق الأخرى الباقية فهى تستخدم كفنادق للنوم مقابل رسوم معينة أيضًا ومن أمثلة الوكالات الباقية إلى الآن وهى بحالة جيدة ، وكالتى الغورى بالقاهرة والمحلة الكبرى، ويرى د. ثروت عكاشة أن الوكالة تتكون من فناء محاط بحجرات من الحَجَر مقببَة تستخدم كمخازن ، ومن فوقها طابق يشتمل على حجرات تتم فيها المقايضة بين تجار الجملة الغرباء والمحليين تعلوها وحدات سكنية كل منها ثلاث طوابق قائمة بذاتها للتوسع . راجع : القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١م ، ص٦٨، ٦٩ . د. صالح لمعى مصطفى : التراث المعمارى الإسلامى ، ص٧٢ ، بيروت ١٩٧٥م.

ولأن السوق كانت تلعب أدوارا متعددة فى الدولة الإسلامية من النواحى الاقتصادية فقد كانت لها أيضاً دورا مهما من النواحى الاجتماعية . ذكر الخلال فى كتابه أن الإمام أحمد بن حنبل كان يدعو إلى العمل فى السوق . فجاءه رجل يخبره بسوء حالته المالية فقال له : «إلزم السوق تصل به الرحم وتعود به» وأمر ابن حنبل أولاده: «أن يختلفوا إلى السوق، وأن يتعرضوا للتجارة» فالعمل فى السوق يجنب الإنسان الفاقة والبطالة ومصارع السوء، ويبعد الأولاد عن قرناء السوء ويعوّدهم على ممارسة حياتهم ومزاولة الأعمال وخاصة التجارية منها والصناعية فى السوق [٣].

الحث على التكسب من التجارة :

وسائل الكسب المباح والحلال عند جمهور الفقهاء أربعة الإجارة والتجارة والزراعة والصناعة وأهمها جميعا التجارة لأنها تصرف المنتج من الثلاثة الأخريات وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع، قال تعالى : ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة ﴾[٤] وقوله تعالى ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾[٥] . وقال تعالى : ﴿... إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ . وقال تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله﴾[٦] .

ومما ورد من السنة النبوية بشأن الترغيب فى التجارة قوله ﷺ عندما سئل عن أطيب الكسب الحلال فقال : «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور»[٧] وقد ورد فى الأخبار المأثورة : تسعة أعشار الرزق فى التجارة وقد سئل بعض التجار، وكان يتجر فى البحر ، تركب البحر فى طلب الدنيا ؟ قال : أحب أن استغنى عن ضَرِيك[٨] من الناس[٩] وسئل سفيان الثورى عن أحد أصحابه فقال : «خرج إلى اليمن للتجارة»[١٠] وسئل أحد العلماء عن مكسبه فقال : «ينبغى للإنسان أن يتحرى تجارته »[١١] ثم ذكر قول آخر : «درهم من تجارة أحب إلىّ من عشرة من عطاء»[١٢] وقال آخر : «التاجر خير من الجالس»[١٣] وسئل أحد العلماء عن التاجر وعمله فقال : «تاجر صادق ثم قال ... التاجر الأمين»[١٤].

معنى الوكالة :

جاء معنى الوكالة من «وكيل الرجل الذى يقوم بشئونه وجل أموره [١٥]، وهناك باب فى الفقه الإسلامى يسمى بـ «الوكالة» وهو يحدد ويرسم عمل الوكيل والموكل وحدود عمل كل منهما ومتى تبطل الوكالة فى البيع أو الشراء وقبض الثمن من البائع أو المشترى ومتى يرجع كل منهما على صاحب البضاعة بالثمن إذا ظهر فيها غش أو تدليس[١٦].

ويعتقد الباحث أن معظم التجار من جميع الأقطار والذين يعملون فى أعالى البحار كان لهم وكلاء فى القاهرة يصرفون لهم بضائعهم ولهم وسطاء وسماسرة ودلالون يعرضون ويساعدون على إنجاز هذه الأعمال الضخمة وعقد الصفقات التجارية الكبيرة ، وعادة ما كان لهؤلاء التجار ألسنة أخرى غير اللسان العربى .

إذن فالوكالة هى المكان الذى يجتمع فيه التجار أو وكلائهم لبيع بضائعهم وابتياع غيرها وتتكون الوكالة من ثلاثة طوابق عادة أو من أربعة ، الطابق الأرضى به الحواصل أو المخازن التى تخزن فيها البضاعة ويوسطها صحن أو حوش واسع هو كشف سماوى يعرض فيه الدلالون نماذج لما هو كائن بالوكالة من البضاعات ، بأشكالها وألوانها المختلفة ، وأما الطابقين أو الثلاثة التى فوق الأرض فعادة ما تكون فندقا لراحة التجار وأسرهم ينزلون به طيلة مقامهم بالقاهرة ليكونوا على مقربة من أعمالهم ومايتم بشأنها وعلى مسمع ومرأى منها ، ، وتطل مشربياتها على الصحن .

هذا وقد استعمل لفظ «الوكالة» فى مصر مرادفًا لكلمات القيسارية أو الفندق[١٧] أو هى كما وصفها بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى (ق١٢هـ / ق١٨م) أن الخان أو الوكالة عبارة عن مبان محاطة بأسوار كبيرة منيعة ، وفيها حجرات كثيرة صغيرة (يقصد بها مساكن التجار) ومخازن للبضاعة مخصصة للتجار - يقصد بها الحواصل أو المخازن ، وقد أشار إليها المقريزى فى خططه قال: «إن وكالة قوصون فى معنى الفندق أو الخان[١٨] ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام ، إذ تشترك كل هذه المؤسسات والمنشآت أو المسميات فى وظيفة واحدة هى مأوى للتجار المسافرين والقوافل [١٩]، ومخزن للبضائع والتجارة بالتجزئة والجملة، والتى يبتاع منها التجار السلع لتوزيعها على الأسواق للتداول، هذا بالإضافة إلى أن الوكالات كانت مكانا مناسبا لعقد الصفقات التجارية[٢٠]، وهى بهذه الصورة مؤسسات تجارية كبيرة خاصة ساهمت فى حركة تنشيط الأعمال التجارية وتكون بمثابة مصرف لحفظ الأموال [٢١].

والوكالة فى العالم الإسلامى كمصطلح تجارى فى العصور الوسطى ليست ما يعرف اليوم بالتوكيل التجارى وإنما هى مخازن كبرى يباع فيها كل شىء ، وقد يملكها تاجر واحد أو أسرة واحدة ، وعرفت باسم صاحبها أو الشىء المبيعَ فيها [٢٢].

أشهر الوكالات وأهمها فى القاهرة:

فى العصر الفاطمى: كانت أشهر الوكالات التجارية وكالة الوزير «المأمون البطائحى» الذى أمر سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ببناء وكالة فى القاهرة للتجار الوافدين من العراق والشام (٢٣)، ولما كان التسامح الدينى سمة ذلك العصر فقد كثرت التجارة وازدهرت وأينعت ثمراتها ، بل ظهرت تعبيرات جديدة مثل «دار الوكالة» التى ظهرت لأول مرة فى عهد الخليفة الآمر بالله بن الخليفة المستعلى بالله والتى تعنى البيت الواسع للتجار الشرقيين المسلمين منهم خاصة (٢٥).

أما فى العصر الأيوبى : فقد تقلص بناء الوكالات والمنشآت التجارية ، ذلك لأن صلاح الدين الأيوبى اتخذ التدابير اللازمة لتقييد حرية تنقل التجار داخل البلاد المصرية خاصة عندما اشتعلت الحرب المقدسة بين مصر والفرنجة ، وانعكس هذا بالطبع على المنشآت المدنية وأضحى التوجه للمنشآت الحربية بعض الشىء ، لكن كان النشاط التجارى على قدم وساق مع بقية الأنشطة الاقتصادية الأخرى . ذلك أن السيادة لما آلت لصلاح الدين على مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية عقد معاهدة جديدة ضمنت للبيزيين المقيمين فى الإسكندرية امتلاك حمام وفندق وكنيسة وتمتعهم بحرية العبادة ورخصت لهم باستعمال موازينهم ومكاييلهم ، وشجعت استيراد منتجات الغرب إلى مصر وبخاصة الحديد والخشب والقار، وأعفت البيزيين من كل الضرائب على ما كانوا يستوردونه إلى مصر من ذهب وفضة ، ولكنها ألزمتهم عند رحيلهم أن يقدموا للجمارك ما يتبقى معهم من نقود .

وأخيراً وضع صلاح الدين حداً لكل أنواع التعسف التى كان البيزيون ضحية لها من إجبارهم على بيع بضائعهم للحكومة بأقل من السعر المتداول ، ومنعهم من الرحيل بالقوة وغير ذلك .

وعلى غرار «بيزة» استمرت «جنوة» و«البندقية» تزاولان تجارتهما مع مصر فى عهد صلاح الدين وعقدتا معه عن طريق سفرائهما معاهدات شبيهة بتلك التى عقدها مع البيزيين ، والحقيقة أن التبادل التجارى بين المدن الإيطالية والمسلمين كان ضروريا للطرفين لدرجة أن صلاح الدين حاول إغراء تلك المدن بأن تركز تجارتها مع مصر ليحرم الصليبيين من إمداداتهم فى موانىء الشام (٢٦).

أما العصر المملوكى : فهو يمثل العصر الذهبى لازدهار التجارة حيث ظهرت فئة التجار على مسرح الأحداث فيه فأنشأوا الوكالات الضخمة التى كانت تعقد فيها الصفقات التجارية

وتتم فيها عمليات البيع والشراء جملة وتجزئة ، وتوزع ما يرد إليها على الأسواق[٢٧] وقد أورد لنا المقريزى أسماء عدة خانات وفنادق ووكالات فى عصره تؤكد ما ذهبنا إليه من الدور العظيم الذى قامت به المؤسسات التجارية هذه فى حركة ازدهار التجارة والرخاء الذى تمتع به المصريون فذكر خان مسرور، وفندق بلال المغيثى ، وفندق الصالح ، وخان منكورش بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر ، وفندق ابن قريش[٢٨] كما ذكر من القيساريات قيسارية المحلى وقيسارية الضيافة وقيسارية شبل الدولة ، وقيسارية ابن الأرسوفى ، وقيسارية ورثة الملك الظاهر بيبرس وقيساريتا ابن ميسر ، وقيسارية ابن قريش ، وقيسارية الشرب وقيسارية ابن أبى أسامة وقيسارية سنقر الأشقر، وقيسارية أمير على، وقيسارية رسلان، وقيسارية جهاركس الخليلى وقيسارية الفاضل ، وقيسارية بيبرس الجاشنكير ، وقيسارية العصفر ، وقيسارية الفائزى وقيسارية بكتمر الساقى ، وقيسارية ابن يحيى ، وقيسارية طاشتمر ، وقيسارية الفقراء * وقيسارية بشتاك ، وقيسارية المحسنى وقيسارية الجامع الطولونى ، وقيسارية ابن ميسر الكبرى وقيسارية عبدالباسط .. إلخ وقد ترجم المقريزى لمنشئيها وما آلت إليه أحوالها فمن شاء فليرجع إليها فى مكانها[٢٩] والقيسارات والفنادق والخانات هى كما مر وكالات تجارية وسكنية ومن أشهر الوكالات التى ذكرها المقريزى:

أ- (وكالة قوصون)[٣٠] هذه الوكالة فى معنى الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك وموضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء. كانت أخيرا داراً تعرف بدار تمويل البوعانى فأخربها وما جاورها الأمير قوصون وجعلها فندقا كبيرا إلى الغاية وبدائره عدة مخازن وشرط أن لايؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة على ذلك ولايخرج أحد من مخزنه فصارت هذه المخازن تتوارث لقلة أجرتها وكثرة فوائدها .

وإن رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ماهنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها ثم تلاشى أمرها منذ خربت

---

* قيسارية الفقراء تشبه إلى حد كبير فى وقتنا الحاضر وكالة البلح فى حى بولاق حيث يقصدها الفقراء ومحدودى الدخل ليبتاعوا منها أصناف من السلع خاصة منها الأقمشة الأقل جودة تتناسب أسعارها مع دخولهم المتواضعة (الباحث) .

الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة على يد تيمورلنك ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلثمائة وستين بيتا وأنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير.

ب- (وكالة الجوأنية) هذه الوكالة تجاه باب الجوانية من القاهرة فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون كان موضعها عدة مساكن فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وبناها فندقا وربعا بأعلاه فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليه ما يصل إلى القاهرة وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والرب والدبس ويصير ما يرد فى البر يدخل به على عادته إلى وكالة قوصون وجعلها وقفًا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين فاستمر الأمر على ذلك [٣١].

ووكالتا قايتباى[٣٢] الأولى بالأزهر خلف الجامع الأزهر [٣٣]، والثانية[٣٤] على الشارع الأعظم التجارى الرئيسى للقاهرة فى حينه بالقرب من باب النصر، ووكالة المستخرج التى تقع بجوار قصر بشتاك والمطلة على شارع المعز لدين الله الفاطمى، والتى اشتراها السلطان قانصوه الغورى من الشيخ شمس الدين أبى عبدالله محمد بن زين الدين عبدالقادر بن شمس الدين محمد الشهير بابن الموقع بمبلغ ٢٥٢٠ دينارا ذهبيا [٣٥].

هذا وفى نهاية عصر المماليك الجراكسة نجد قمة العمارة التجارية والنضج الهندسى والجمالى فى وكالة السلطان الغورى[٣٦] والتى تقع بشارع التبليطة خلف خان الزراكشة بالأزهر وهى تتكون من خمس طوابق [٣٧]، الأرضى والأول: حواصل لتخزين البضائع، والثلاثة الباقية أروقة (رباع) لسكن التجار، وكل رواق يتكون من ثلاث طوابق، يتم الاتصال بينها بسلم داخلى بتغير موقعه بين كل طابق وآخر، وهى فى حالة ترميم وتجديد الآن[٣٨].

أما فى العصر العثمانى فقد زادت أعداد الوكالات، ويكفى للتدليل على ذلك وجود عشر وكالات[٣٩] فى هذا العصر أى فى القرون (١٠-١٢هـ / ١٦-١٨م) بالإضافة إلى الوكالات القديمة السابقة:

كما ذكر المقريزى بعض الأسواق وهى قرينة الوكالات بينهما اتصال لاينقطع نذكر منها نقلا عنه [٤٠]:

قال ابن سيدة والسوق التى يتعامل فيها تذكر وتؤنث والجمع أسواق وفى التنزيل إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق والسوقة لغة فيها والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان الذكر والانثى فى ذلك سواء. وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جداً قد باد أكثرها وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقًا أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتًا وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر وسأذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلا إلى ذكره إن شاء الله تعالى .

* (القصبة) قال ابن سيدة قصبة البلد مدينته وقيل معظمه والقصبة هى أعظم أسواق مصر وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول أن القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرمل إلى المشهد النفيسى ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لايكاد أن ينكر هذا الخبر وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العادُ عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن والتى يوضع فيها الجبن والتى يأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والخصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل ومن أدرك الناس قبل هذه المحن وأمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والترف لم يستكثر ما ذكرناه ، وقد اختل حال القصبة وخرب وتعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت بعد ما كانت مع سعتها تضيق بالباعة فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز وأصناف المعايش ، ويقال لهم أصحاب المقاعد وكل قليل يتعرض الحكام لمنعهم وإقامتهم من الأسواق لما يحصل بهم من تضييق الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت وقد ذهب والله ما هناك ولم يبق إلا القليل وفى القصبة عدة أسواق منها ما خرب ومنها ما هو باق وهذه بعضها .

* (سوق باب الفتوح) هذا السوق فى داخل باب الفتوح من حد باب للفتوح الآن إلى رأس حارة بهاء الدين معمور الجانبين بحوانيت اللحامين والخضريين والفاميين والشرايحية وغيرهم وهو من أجل أسواق القاهرة وأعمرها يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر والمعز ولشراء أصناف الخضروات وليس هو من الأسواق القديمة وإنما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية عندما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين وقد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث وفيه إلى الآن بقية صالحة .

* (سوق المرحلين) هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين إلى بحرى المدرسة الصيرمية معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج إليه يقصد من سائر إقليم مصر خصوصًا فى مواسم الحج فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق وفى المخازن . فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة وكثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق إلى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز بالبلاد الشامية صار الوزراء يستدعون ما يحتاج إليه الجمال من الرحال والأقتاب وغيرها فإما لايدفع ثمنها أو يدفع فيها الشيء اليسير من الثمن فاختل من ذلك حال المرحلين وقلت أموالهم بعد ما كانوا مشهرين بالغناء الوافر والسعادة الطائلة وخرب معظم حوانيت هذا السوق وتعطل أكثر ما بقى منها ولم يتأخر فيه سوى القليل .

* (سوق خان الرواسين) هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش قيل له ذلك من أجل أن هناك خانًا تعمل فيه الرؤس المغمومة . وكان من أحسن أسواق القاهرة فيه عدة من البياعين ويشتمل على نحو العشرين حانوتًا مملوءة بأصناف المآكل وقد اختل وتلاشى أمره .

* (سوق حارة برجوان) هذا السوق من الأسواق القديمة وكان يعرف فى القديم أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش وذلك أن أمير الجيوش بدر الجمالى لما قدم إلى مصر فى زمن الخليفة المستنصر وقد كانت الشدة العظمى بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر وأقام هذا السوق برأس حارة برجوان قال ابن عبدالظاهر والسويقة المعروفة بأمير الجيوش معروفة بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر وهى من باب حارة برجوان إلى قريب الجامع الحاكمى وهكذا تشهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة فإن فيها والحد القبلى ينتهى إلى سويقة أمير الجيوش وسوق حارة برجوان هو فى الحد القبلى من حارة برجوان وأدركت سوق

حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة فنقول بحارة برجوان حمامات يعنى حمامى الرومى وحمام سويد فإنه كان يدخل إليها من داخل الحارة وبها فرنان ولها السوق الذى لايحتاج ساكنها إلى غيره وكان هذا السوق من سوق خان الرواسين إلى سوق الشماعين معمور الجانبين بالعدة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ وبياعى اللحم السميط وبياعى اللحم البقرى وبه عدة كثيرة من الزياتين وكثير من الجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوايين والبواردية والعطارين والخضريين وكثير من بياعى الأمتعة حتى أنه كان به حانوت لايباع فيه إلا حوائج المائدة وهى البقل والكراث والشمار والنعناع وحانوت لايباع فيه إلا الشيرج والقطن فقط برسم تعمير القناديل التى تسرج فى الليل وسمعت من أدركت أنه كان يشترى من هذا الحانوت فى كل ليلة شيرج مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة عنها يومئذ دينار ونصف وكان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النئ والمطبوخ إلى ثلث الليل الأول ومن قبل طلوع الفجر بساعة وقد خرب أكثر حوانيت هذا السوق ولم يبق لها أثر وتعطب بأسره بعد سنة ست وثمانمائة ، وصار أوحش من وتد فى قاع بعد أن كان الإنسان لايستطيع أن يمر فيه من ازدحام الناس ليلا ونهاراً إلا بمشقة وكان فيه قبانى برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع لايتفرغ من الوزن ولايزال مشغولا به ومعه من يستحثه ليزن له فلما كان بعد سنة عشر وثمانمائة أنشأ الأمير طوغان الدوادار بهذا السوق مدرسة وعمر ربعاً وحوانيت فتحايى بعض الشئ ، وقبض على طوغان فى سنة ست عشرة وثمانمائة .

العناصر المعمارية للمنشآت التجارية:

وردت فى المصادر مسميات عديدة لنوع من المنشآت التجارية كالخان -الفندق- القيسارية - الوكالة ، ولم توضح المصادر أية فروق بينها جميعا ، لاسيما وأن المطلوب من بنائها هو إيجاد مكان لعرض السلع ، وإقامة التجار الأغراب عن المدن فى راحة تامة ... وعقد الصفقات التجارية الكبيرة وقد خطط المهندس المعمارى لتلك المنشآت أن يكون فى كل منها:

١- حوانيت لعرض البضاعة .

٢- فناء أوسط يتم إنزال البضائع به .

٣- الحواصل لتخزين البضاعة بها .

٤- مصادر المياه اللازمة للمنشأة (مياه الشرب، الصرف الصحى) .

٥- الأروقة أو الرباع لإقامة التجار، أو عامة الناس.

هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن معظم الوكالات الكبيرة فى العصر المملوكى وما بعده كانت تتركز فى حى الأزهر وبولاق حيث المساحة والأرض الواسعة بالإضافة إلى، أن بولاق كانت ميناء لاستقبال السفن التجارية القادمة من الشمال أو الجنوب فى نهر النيل حيث تمتلئ الوكالات بالسلع والبضائع .

أما وكالات العصر العثمانى فمعظمها يقع وسط المدينة بالقاهرة العثمانية ... وإذن فوكالات العصر المملوكى بشقيه وخاصة من نهاية ق٩هـ وأوائل العاشر نهاية ق١٥ أوائل ق١٦م كانت تتكون من خمسة طوابق ، وفناء كشف سماوى مستطيل الشكل محاط بمجاز دائرى ، يطل على هذا الفناء بائكة من العقود المحمولة على أعمدة ودعامات، ويفتح على هذا المجاز حواصل الطابق الأرضى والأول، أما الطوابق الثلاثة الباقية فتحتوى على أروقة خصصت لسكن التجار أو الأهالى، ونلمس كل هذا فى وكالة الغورى ، وهى بحالة جيدة الآن [٤١]، وأما مدخلها فيفتح على شارع التبليطة (شارع الشيخ محمد عبده الآن) .

وهذا الشكل والأسلوب الكائن بوكالة الغورى * وجد أيضا فى وكالة الخروب[٤٢] ووكالة سليمان[٤٣] باشا ووكالة حسن باشا الوزير [٤٤].

أما وكالات العصر العثمانى فهى أصغر حجما عنها فى العصر المملوكى كما أشرنا ، ويمثل هذا النوع من الوكالات وكالة جمال الدين الذهبى، فهى تتكون من فناء كشف سماوى مستطيل الشكل يفتح عليه حواصل الدور الأول مباشرة ، وذلك بسبب صغر المساحة المقام عليها الوكالة..[٤٥]. ونجد على مثالها وكالة ذو الفقار (ق١٢هـ/ ١٨م) .

ومهما يكن من أمر فإن وكالات هذا العصر - بصفة عامة- تتكون من فناء أوسط مستطيل عادة أو مربع الشكل، يحيط به فى الطابق الأرضى مجموعة من الحواصل مقببة السقف وحوانيت ، ومدخل الوكالة مميز بزخارف حجرية وهندسية ، وقد جعلت الحواصل الداخلية مخازن للبضائع ، والحوانيت الخارجية الواقعة على الشارع المسلوك لعرض البضائع فى الخارج على المارة من الناس.

---

* راجع ترجمته فى هذا البحث ، د. حسن الباشا : قنصوة الغورى وعمائره فى موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية جـ١ ص٣٤١-٣٥٧ ط١ سنة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، مكتبة الدار العربية للكتاب- القاهرة.

أما الأدوار العليا فكانت سكنا للتجار الوافدين بتجارتهم إلى القاهرة ، وأكثر من ذلك أنها جعلت سكنا للعامة ، أو رباعا يسكنها الأهالى كما ذكر ذلك المقريزى -وأشرنا إلى ذلك- عند ذكره لوكالة قوصون التى كان يعلوها ربع يشتمل على ٣٦٠ بيتا يسكنها حوالى أربعة آلاف شخص وعادة ما يكون بالوكالة صهريج يمد السكان بالمياه اللازمة ، ويوجد بها أحيانا مصلى أو مسجد يكون بوسط الوكالة ..[٤٦].

وبشئ من التفصيل أتناول كل عنصر من العناصر السابقة وهى:

١- الحوانيت : جمع حانوت (دكان) ويتكون عادة من مساحة مستطيلة الشكل، وسقفه قبو مغطى عادة بالبلاط الكدان أو الحجر الجيرى واللون الأبيض أو الأصفر أو الرمادى أو المجزع [٤٧]، وتوجد الحوانيت فى كل منشأة تجارية لعرض السلع والبضائع الكائنة بها، وعادة ما تكون مفتوحة على الشوارع الرئيسية التى يسلكها المارة لتلفت أنظارهم وتجذبهم لابتياع هذه السلع ويظهر ذلك واضحا فى وكالات قايتباى والغورى وجمال الدين الذهبى وغيرها .

٢- الفناء الأوسط : كان على هيئة مستطيلة الشكل وهو قاسم مشترك بين جميع المنشآت التجارية وكان يوجد به مبان دينية فى وسطه، فالفنادق التى كانت بالثغور بنيت فى وسطها الكنائس لتأدية الطقوس للتجار المسيحيين، وكذلك المسجد أو المصلى لإقامة شعائر الإسلام وفروض العبادة فى مكان عملهم وبجانب تجارتهم.[٤٨]. أو فوارة أو فسقية فى الوسط [٤٩]، وأحيانا تكون به حديقة صغيرة كما فى بعض الفنادق .

٣- الحواصل : جمع حاصل وهو المخزن[٥٠] وعادة ما تكون فى الطابق الأرضى من الوكالة أو الفندق أو القيسارية أو الخان وعادة ما تكون مستطيلة الشكل سقفها قبو نصف إسطوانى ذو باب بمصراع واحد يفتح على الصحن يعلوه نافذة للتهوية والإضاءة ، وأحيانا تشمل الحواصل الطابق الأرضى والأول الذى يليه ، واستخدمت فى خزن السلع لحفظها [٥١].

٤- مصادر المياه : كانت بالمنشآت التجارية عادة آبار توجد فى أفنيتها أو فى «الدركاة» وهو المكان الذى يلى المدخل مباشرة، وقد يلحق بأحد أركان المنشأة سبيل لشرب المارين على الطريق ، ولإمداد ساكنيها بالمياه العذبة الصالحة للشرب والوضوء، وبها صهريج[٥٢] يملأ سنويا فى موسم الفيضان ، وقد يوقف المنشىء الوكالة على مصالح السبيل لاستمرار تأدية وظيفته كصدقة جارية للتقرب إلى الله تعالى كما تنص على ذلك بعض الحجج الشرعية.

٥- الأروقة : جمع رواق ويتكون من إيوان[٥٣] أو إيوانين متقابلين بينهما دور قاعة[٥٤] فى الوسط وشبابيك وطاقات مطلة على الواجهة الرئيسية أو مطلة على الفناء الأوسط الداخلى كما فى وكالة الغورى بشارع التبليطة بالأزهر ومنافع وحقوق[٥٥].

وعادة ما تكون هذه الأروقة بالأدوار العليا تعلو الحواصل كالكائن فى وكالة الغورى حيث يسكن التجار علوها بعد أن يضعوا بضائعهم فيها، واستمر ذلك فى العصر المملوكى وامتد فى العصر العثمانى بتلك المنشآت. بل أكثر من هذا نصت بعض الوثائق على إنشاء رباع فوق المنشآت التجارية، وذلك للاستفادة القصوى منها لملاكها[٥٦] وقد ذكر المقريزى أن وكالة «قوصون» كان يعلوها ربع يتكون من ٣٦٠ بيتا (رواقا) يسكنها أربعة آلاف شخص ما بين رجل وامرأة وصغيراً[٥٧].

موظفو المنشآت التجارية :

يحتاج العمل فى المنشآت التجارية إلى جيش من الموظفين فى وظائف كثيرة ومتنوعة، ولابد لاستمرارها فى أداء وظيفتها الحيوية اليومية المنوطة بها، لابد من وجود موظفين وسنرتبهم حسب أهميتهم :

١- القنصل . ٢- السماسرة والدلالون . ٣- البواب . ٤- المتسبب . ٥- المثمن . ٦-المترجم أو الترجمان . ٧- العتالون أو الحمالون . ٨- ناظر الأسواق . ٩- كاتب الجرايد بالسوق - مدولب الوكالة . ١٠- شاد السوق . ١١- الشهود العدول أو شهود الوزن . ١٢- العاشر أو العاشور أو مستوفى الضريبة .

وأفصل فى شرح هذه الوظائف بعض التفصيل :

١- القنصل : هو النائب عن دولته فى دولة أخرى يرعى حقوقها وتجارتها ويدافع عن رعيتها وهو دون الوزير المفوض ومرتبته دون مرتبة السفير[٥٨]، وأصلها اللاتينى Consui بمعنى مستشار، ويعنى بها فى زماننا هذا ممثل الدولة[٥٩] وقد اصطلح أرباب السياسة على أن القنصل مأمور ترسله دولة إلى دولة أخرى أجنبية لحماية حقوقها وتجارتها وتبعتها، وكان فى الدولة الرومانية صاحب المقام الأول من الولاة وتكون له سلطة الملك لمدة سنة[٦٠].

بينما يرى القلقشندى : أن القنصل هو الذى يرعى مصالح دولته فى البلد الموجود به، وهو من ألقاب زعماء النصارى[٦١] وتلك وظيفة لاتوجد إلا فى الفنادق الموجودة بالثغور[٦٢] وقد

يعقد القنصل اتفاقيات تجارية هامة نيابة عن بلده، ففى عهد السلطان برسباى وفد إلى مصر مبعوث فلورنسا لعقد اتفاق تجارى مع السلطان برسباى، فيصف المراحل التى مرّ بها حتى وصل إلى رؤية السلطان ، حيث بدأ بمقابلة الدوادار .

٢- السماسرة والدلالون والمتسببون : جمع سمسار ودلاّل ومتسبب ، فالسمسار هو وسيط بين البائع والمشترى لتسهيل الصفقة وهذا اللفظ فارسى معرب أما السمسرة فهى الحرفة بعينها[٦٣] .

وفى حديث قيس بن أبى عروة : «كنا قوما نسمى السَّماسِرَة بالمدينة فى عهد رسول الله ﷺ فسمانا النبى ﷺ التجار[٦٤] » . والسمسار فى البيع هو الذى يدخل بين البائع والمشترى متوسطا لإمضاء البيع . والسمسرة البيع والشراء[٦٥] .

أما الدلاّل : فهو لفظ مرادف للسمسار ويعنى الجمع بين البيع والشراء، وهو ما ينادى على السلعة لتباع بالممارسة والحرفة منها هى الدلالة[٦٦] وجمعها دلالون [٦٧] .

أما المتسبب فهو مفرد المتسببة وهم فئة من التجار وتقول العامة لما فى أيديهم «سُبُوبَة» ويعرفهم ابن إياس بأنهم أشخاص يعملون فى هذه المهنة، كانوا يرتزقون عن طريق التجارة أو يقومون بدور الوساطة أو السمسرة بين البائع والمشترى[٦٨] .

وهذه الوظائف منفرد أو مجتمعة وجدت فى المنشآت التجارية سالفة الذكر، وهم الوسطاء بين البائع والمشترى ومهمتهم هى تسهيل عقد الصفقات التجارية وإنجازها ، وكان لكل سوق سمسار معين يتبعه سماسرة يختص كل منهم بسلعة معينة[٦٩] .

ولهذه الفئة صفات اتصفت بها حددتها كتب الحسبة وأوجبت عليهم أن يكونوا ثقاة من أهل الدين والأمانة وصدق القول، ولاينبغى لأحدهم أن يزيد فى سلعة ما ولايكون شريكا فيها ، وأن يكون عف النفس واللسان ، بصيرا بالشىء المبيع حسناته وسيئاته ، يبصر المشترى بكل شىء عن المبيع ويراقب الله تعالى فى عمله [٧٠] .

٣- البواب : هو الحاجب الذى يحجب الناس ويمنعهم من الدخول إلا بإذن وهو ملازم الباب والبوابة بتخفيف الواو وظيفة لحقت بالمنشآت المدنية فى العصور الوسطى وتعنى فى اللغة حافظ الباب أى حارسه، وإذن هى تطلق على الجزء ويراد به الكل أى المنشأة التى بها الباب وهو المدخل لهذه المنشأة [٧١] . وعلى شاغل هذه الوظيفة مراقبة الداخلين والخارجين . ويسهر على الحراسة ويفتح باب المنشأة فى وقت معلوم ويغلقه فى وقت معلوم من الليل أو بعد صلاة

العشاء، ويوقظ من يريد الإيقاظ فى وقت طلبه، ويحصل الإيجار من السكان، ويلزمه المبيت بالقرب من الباب ليسمع من يطرقه ويفتح للسكان . عندما يتأكد من سماع صوتهم، ويوقظ السكان وينبههم إذ شب حريق فى المكان[٧٢] هذا وقد تدهورت أحوال صاحب هذه الوظيفة عندما تخربت بعض الوكالات وأصبح الناس يدخلونها ولا بواب بها [٧٣].

٤- المترجم أو الترجمان : هو الذى بيّن الكلام وأوضحه أو هو المفسر للسان ونقل الكلام من لغة إلى أخرى[٧٤] وكلمة ترجمان مرادفة للمترجم ، والجمع تراجم وتراجمة، ويظهر أن الترجمان نوعان : أحدهما من أهل البلد بصير بلغة الأغراب وثانيهما من الأجانب بصير بلغة أهل البلد الذى يزوره ويسمى ترجمان الافرنج[٧٥].

٥- المثمن : وهو الذى يقوّم السلعة ويحدد ثمنها حسب درجة جودتها من عدمه [٧٦]، وعمله فى المنشآت التجارية وفى العصور الوسطى كان يقوم بتقدير الشىء المبيع ليمكن مقايضته بالمقابل له ، وربما كان موظفا حكوميا مهمته مراقبة عملية تبادل السلع والتجارة وحركتها فى المنشأة وغالبا ما كان ذلك فى الفنادق أكثر [٧٧].

٦- العتّال أو الحمّال : هو الذى يحمل الأشياء على كتفه أو رأسه أو ظهره وينقلها من مكان إلى آخر بأجرة[٧٨] ومن الطبيعى أن توجد تلك الوظيفة فى المنشآت التجارية والأسواق لحمل البضائع لمن يشترون[٧٩]. وقد وجدت هذه الوظيفة على شاهد قبر مؤرخ سنة ٢٤٢هـ ٨٥٦م باسم سعيد بن ميمون الحمّال وعلى النسيج والخزف ذى البريق المعدنى بمتحف الفن الإسلامى[٨٠].

٧- القبانى: نسبة إلى القبّان وهو ميزان بالغ الدقة فى تقدير الوزن[٨١] ومن المؤكد أن وظيفة القبانة وجدت فى المنشآت التجارية حيث يعتبر صاحبها طرفا محايدا بين البائع والمشترى ، وكان من صفاته : أن يكون ثقة مشهورا بالأمانة دينًا ، وعلى المحتسب ألا يمكن القبان من الوزن أو الكيال من الكيل أو القياس من القياسة أو غيرهم ممن يندرج عملهم تحت تلك الوظيفة إلا إذا كان مشهودا له بثبوت أمانته وعدالته[٨٢].

وقد وجدت كتابة أثرية على ميزان قبان محفوظ فى متحف الفن الإسلامى نصها : صاحبه محمد بن محمد القبانى عمل الفقير أحمد البرنبالى [٨٣].

٨- مدولب الوكالة: هو الشخص الذى يقوم بادارة الآلة المعروفة بالدولاب وهو اسم آلة تديرها الدابة لسقى الأرض، وجمعه دواليب لفظة فارسية معربة ، وقد وجدت هذه المهنة فى الوكالات وكذلك الحمامات ومطابخ السكر وغيرها [٨٤].

٩- شاد السوق : صاحب هذه الوظيفة مكلف بالتفتيش والإشراف على إدارة السوق ومنها شاد البحر أي له حق الإشراف على الموانى، أو شاد الجوالى وشاد الأقواد وشاد الأوقاف وشاد الخاص وشاد الشوانى وشاد المسابك وشاد المهمات وشاد العمائر وشاد الدواوين ... الخ وقد شاع استخدام هذه اللفظة فى دولة المماليك، وهو اسم فاعل من شد الشىء بمعنى قواه ومتّنه ، ويبدو أن هذه الوظيفة كانت معاونة للمحتسب فى الأسواق (٨٥).

١٠- الشهود العدول أو شهود الوزن : أصحاب هذه الوظيفة كانت مهمتهم الشهادة على صحة عقد البيع فى العمليات التجارية والشهادة أمام القضاة بصدق ذلك من عدمه فى حالة النزاع والخصومة بينهم، وكان لهم ديوان خاص بهم وقد عبر القلقشندى عنهم بالشهود المعدلين(٨٦) وعرفوا أيضا بالعدول أو العدل أو المعدل(٨٧) وكانت المحاكم تعينهم بعد أن تتأكد من ثبوت عدالتهم واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح والتعديل ليحصل لهم الوثق بهم (٨٨). وهم أنواع كثيرة فمنهم : شهود السبيل ، وشهود القيمة ، وشهود المماليك وشهود البيمارستان ، وشهود دواوين المال وشهود الطراز، وشهود دار الضرب وشاهد الخزانة... الخ(٨٩).

١١- ناظر الأسواق : هو الرئيس والمسئول الأول عن كل ما يجرى فى الديوان، ويرجع إليه الموظفون ، ولابد من توقيعه الرسمى على الإيراد والمنصرف فى الديوان، ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقى والفوائض والمتأخرات(٩٠) وصاحب هذه الوظيفة وعمله لابد أن يكون فى أماكن البيع ، ويعاون المحتسب ومن مهامه الإشراف على العمليات التجارية ومراقبة الأسواق(٩١) وأنواع النظارة كثيرة منها : نظارة : الجيش ، نظارة الخاص ، ونظارة المواريث ونظارة الزكاة ونظارة الكسوة ونظارة الدواوين ، وناظر النظار وغير ذلك(٩٢).

١٢- كاتب الجرائد بالسوق : وظيفة كتابة أسماء العملاء فى السوق على قوائم يمكن الرجوع إليها عند الحاجة(٩٣) والجرائد جمع جريدة وهى الصحيفة التى تسجل فيها المنشورات ، ولهذه الوظيفة مسميات كثيرة منها : كاتب الجيش وكاتب السر...الخ (٩٤).

١٣- العاشر أو العاشور : ووظيفته تحصيل العشور أو المكوس على البضائع المستوردة وعمله ومكانة فى الوكالات والأسواق وعلى بوابات القاهرة (بوابة المتولى، وباب الفتوح وباب النصر وغيرها، وآدابه ومظاهر رفقه فى استيفاء العشور تحدثت عنها كتب الحسبة وكتب الفقه

بالتفصيل وقد تجلى ذلك فى تنوع الاستيفاء ، وفى التفريق بين ما تنقسم عنه ومالاتنقسم وفى أخذ البدل مكان العين وتجلت أيضا فى تحريم القبالة وهى تضمين مناطق الجمارك للأفراد ، ويتم الإشراف عليها منهم بدلا من إشراف الدولة، ولايخفى أن ذلك يدعو إلى تعسف الأفراد المشرفين على استيفاء الضرائب أملا فى الحصول على أرباح أكبر(٩٥).

هذا ... لقد كانت الوكالات أسواقا كبيرة للجملة ، ولايخفى أن البيع أو الشراء بها مما يصحبه دواما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، ولولا طرق القوافل(٩٦) البرية والبحرية التى ترتبط بالقاهرة لما ازدهرت فى وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية.

وسنترجم لبعض أصحاب الوكالات الكبيرة الشهيرة لبعض السلاطين والتى ما زالت موجودة إلى الآن . ونحن نترجم لثلاثة من سلاطين المماليك الجراكسة أصحاب الوكالات الشهيرة بالقاهرة وهم :

السلطان برسباى الدقماقى :

هو الملك الأشرف برسباى بن عبدالله أبو النصر الدقماقى الظاهرى الجركسى ، سلطان البلاد المصرية والشامية والثامن من ملوك الجراكسة.

أخذ من بلاد الجركس وبيع ببلاد القريم ، فاشتراه بعض التجار متوجها به إلى بلاد الشام. فاشتراه فى الطريق نائب ملطية الأمير دقماق المحمدى، ثم أرسله هدية إلى الظاهر برقوق ضمن هدايا أخرى هائلة.

وقد أعتقه برقوق وتنقلت به الأحوال ليكون ساقيا فى دولة الناصر فرج ، ثم فرَّ إلى نوروز وشيخ إلى أن قتل فرج ، فعاد معهما إلى مصر، ولازال فى الترقى والصعود حتى أمير مائة ومقدم ألف، فولى نيابة طرابلس ثم عزل وقبض عليه وسجن . ثم عاد إلى مصر صحبة السلطان ططر، إلى أن مات ططر ، فأصبح هو المتكلم على ابنه الصغير (٩٧).

لكن رأى أهل الدولة وأصحاب الحل أو العقد فيها أن تكون السلطة لشخص كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ، وينظر فى أحوال الناس، ويدير الأمر، وينصر المظلوم. وقد وقع اختيار كبار الأمراء على «برسباى» لكونه متصفا بصفات الكمال من الدين والفقه والمهابة وطهارة الذيل واللسان ، وقوة القلب والجنان»(٩٨). ولقب بـ «الأشرف» وكنوه بـ «أبى النصر» ، وبولايته سكنت الفتن واستقرت الأحوال، فتولى السلطنة بذلك يوم الأربعاء ٨ من ربيع الآخر ٨٢٥هـ ١٤٢٢م»(٩٩).

صفاته : كان «برسباى» ملكا جليلا مهابا، عارفا متواضعا حسن الخلق، شهما شجاعا ذا شيبة نيرة وهيئة حسنة متجملا فى حركاته، لايتعاطى شيئا من المسكرات، محافظا على ناموس الملك، محبا لجمع المال، مكثرا من المماليك، ويحب العلماء، وأهل العلم.

من محاسنه : إبطال عادة تقبيل الأرض، وكانت هذه عادة من قبله من الملوك مكتفيا بتقبيل اليد، وحسن النقود حتى كانت نقوده من أجد الذهب والفضة. وكان الناس يرغبون فيها ويتكالبون عليها، وكان كثير البر والصدقات مع لين الجانب ، ولولا كثرة طمعه لكان عظيما من عظماء التاريخ(١٠٠).

ومن محاسنه : كذلك مرسومه إلى حاجب حجابه الأمير «قرقماس» سنة ٨٣٢هـ-١٤٢٩م، بإراقة الخمور وحرق من الحشيشة المغيرة للعقول شيئا كثيرا، وتتبع مواطن الفساد ومنع الناس من الاجتماع بها(١٠١).

ومن محاسنه : أنه أدب الفرنج ، وحارب القبارصة فى ثلاثة غزوات أسر فى ثالثتها «جانوس» ملك قبرص وأتى به مكبلا بالسلاسل إلى مصر ذليلا وعلق خوذته على باب مدرسته الأشرفية ، ثم عفا عنه ورسم له بما يكفيه حتى فك أسره ورجع، وثبت أركان دولته فهابها الجميع (١٠٢).

أما عيوبه : فالمظالم التى أحدثها فى شهر المحرم ٨٣٢هـ- ١٤٢٨م وهى إلزامه للتجار العراقيين بدفع ثلاثة دنانير ونصف عن كل حمل يتبضعون به من تجارة الهند بمكة بدلا من حضورهم إلى القاهرة، وألزم سائر التجار بالحضور للقاهرة لدفع الجمارك على بضاعتهم، صحبة ركب الحج ، وعين أعوانه لحراستهم وحفظهم حتى لايستطيع أحدهم الفرار أو البقاء بمكة.

وألا ينصب قبانى لوزن بضاعة أحد من التجار بالاسكندرية، ومنع كافتهم من بيع البهار للفرنج الذين ألزمهم بشراء الفلفل السلطانى من جدة بسعر ١٢٠ دينا للحمل، وكانت قيمته مع التجار بثمانين ، فأخذ الفرنجة البضاعة إلى بلادهم ، ولم يشتروا أو يبيعوا للتجار، وحصل بذلك لهم ضرر كبير (١٠٣).

ولما بلغ السلطان مدى كثرة الربح الذى يحصل عليه تجار الشام فيما يجلبونه من الأقمشة أمر السماسرة بمنعهم من البيع ويكون كل هذا النوع متجرا للسلطان ورسم لأمراء الشام بعدم

دخول هؤلاء التجار إلى القاهرة بأقمشتهم ، فأرجعوهم بتجارتهم فى البرارى وخربت مدن الشام من هذا النوع من الأقمشة وغيرها وبطلت صناعة النسيج كذلك وضج الناس من هذه الأهوال.

وكذلك احتكر السكر ليباع فى المتجر السلطانى فلايجرؤا أحدا على شرائه إلا من متجر السلطان وكذلك احتكر الفلفل . وبذلك تسبب فى خراب بيوت التجار وهجرهم القاهرة. وكان هو فى الحقيقة سببا فى اتجاه البرتغاليين من حينئذ فى البحث عن طريق بديل للتجارة غير مصر[١٠٤].

ومن عيوبه كذلك : توسيطه لطبيبه (أى قطعه لوسطهما بالسيف) وهما الرئيس «زين الدين خضر» والرئيس «شمس الدين بن العفيف الأسلمى» ، وذلك عندما حصلت له «مليخوليا» ، فى مرض موته ، وذلك لشدته عليه ، وكان ذلك فى ٤ شوال سنة ٨٤١هـ- ١٤٣٧م فاستسلم الثانى وثبت حتى صار قطعتين ، أما خضر فراع وجزع جزعا شديدا ودافع عن نفسه وكثر صياحه وبكاؤه ، فتكاثروا عليه ووسطوه توسيطا مروعا وذلك لتلويه واضطرابه[١٠٥].

أما جلوسه للحكم، فقد كان يوم السبت والثلاثاء ، وكان يجمع معه القضاة الأربعة، ثم تركهم وجلس وحده . فقد نادى فى يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ٨٤٠هـ بجلوسه مع القضاة الأربعة بمجلسه : «من له ظلامة ، من قهر من غبن عليه بالأبواب الشريفة»[١٠٦]. وكانت سفرته المشهورة إلى ديار بكر سنة ٨٣٦هـ- ١٤٣٢م .

وكانت وفاته يوم السبت ١٣ ذى الحجة ٨٤١هـ- ١٤٣٨م بعد أن اختلط عقله وابتلى بالصرع، وكانت مدة سبطنته ١٦ سنة و٨شهور، وكان سنه قد تخطى الخامسة والسبعين بخمسة أيام[١٠٧]، ودفن بتربته بالصحراء، وكان السلطان قد رسم ألا تخرج امرأة من بيتها مطلقا، فكانت الغاسلة إذا خرجت إلى ميت أخذت ورقة من المحتسب فتجعلها على رأسها حتى تستطيع المرور من السوق، وسلط أعوانه بتشديد القبضة عليهن ، فمن خرجت ضربت ضربا مبرحا ، فامتنعت النساء من الخروج ووقفت الأسواق من بيع العطور، وكان ذلك برأى القضاة وذلك لخروجهن متبرجات متزينات ، كما رسم بألا يلبس فلاح زنطا مطلقا[١٠٨].

منشآته وحبه للعمارة : كان برسباى ممن يعشقون العمارة ولعا بها ، وتعتبر منشآته من أشهر آثار العصر المملوكي، فمن المدارس التى أنشأها:

١- المدرسة الأشرفية بالقاهرة (١٠٩)، عند سوق الوراقين بشارع المعز لدين الله الفاطمى(١١٠)، وسميت الأشرفية نسبة إلى منشؤها الأشرف برسباى، وتمت عمارتها على أكمل وجه ، وكان السلطان يقوم بنفسه بمباشرة العمل بها.

ففى يوم الخميس مستهل رجب ٨٢٦هـ- ١٤٢٣م رسم السلطان بهدم الحوانيت بخط الصنادقيين إلى رأس الحريريين وما جاورها من الأملاك والأوقاف لكى يبنى المدرسة والمسجد فى هذا المكان، وكان المشرف على عمارتها «الزينى عبد الباسط» ، فدفع ثمن الأملاك التى هدمت والأوقاف التى استبدلت، وأظهر اهتماما ونهضة كبيرة ، ونقل التراب والطين المتخلف من الحفر، ونقل الحجارة وعملها جيرا، ورسم بعدد من الحمير والجمال لنقل ذلك.

وفى يوم السبت ٢٦ شوال من نفس هذه السنة ، ركب السلطان إلى مدرسته بعد الظهر ومعه جماعة قليلة من غير أن يعلم أحدا، ودار فى المدرسة ورجع (١١١). ولما تمت عمارتها وكملت عين بها أرباب الوظائف ، ففى يوم الخميس ٣ من رجب سنة ٨٢٧هـ عين لهذه المدرسة شيخا هو «علاء الدين على بن الرومى الحنفى»(١١٢)، وحضر السلطان والقضاة مجلس علمه، فبعد الاستفتاح خطب خطبة بليغة تضمنت مدح السلطان، ثم شرع يتكلم فى قوله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾(التوبة / آية ١٨) وخلع السلطان وأنعم عليه فى شهر رمضان بالقمح والسكر والذهب ، ولما سأله السفر للحجاز أعطاه هجينا ومبلغ من المال قدره ١٥٠ دينارا ذهبا (١١٣).

وفى ٩ رمضان ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م قرر السلطان بها ثلاثة دروس فجعل للشيخ «شمس الدين بن على القاياتى الشافعى»(١١٤) درسا ومعه عشرون طالبا، وشيخ المالكية «عبادة بن على ابن صالح الزرزاى»(١١٥) المولود ٧٧٧هـ- ١٣٧٥م ومعه عشرة طلاب، أما الحنابلة فشيخهم زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله المعروف بالزركشى (١١٦)، المولود سنة ٧٥٨هـ- ١٣٥٧ م ومعه عشرة طلاب (١١٧).

وقد أثبت السلطان وقفيتها وفى جدرانها بكتابة بارزة من بدن الحجر داخل المقصورة حرصا على بقاء أوقافها ، ومع هذا لم يفد ذلك فائدة ، فقد لحقها ما لحق بغيرها من الاضمحلال والضعف.

المرتبات : يصرف لإمام هذا المجتمع شهريا ألف درهم ، وثلاثة أرطال خبز يوميا وللخطيب خمسمائة درهم شهريا ، وثلاثة أرطال خبز يوميا، وللمدرس الحنفى ثلاثمائة درهم فى كل شهر وستة أرطال خبز يوميا، وللمدرس الشافعى مائة درهم شهريا وستة أرطال خبز يوميا، ولمدرس مالكى وحنبلى كل منهما خمسون درهم شهريا وستة أرطال خبز لكل منها، ولخمسة وستين طالبًا سبعة آلاف وخمسمائة درهم سهريا ، وخمسة وتسعون رطلا من الخبز يوميا (١١٨)، ولخازن الكتب ٣٠٠درهم شهريا ، ٣ أرطال خبز يوميا .

الصوفية بالمدرسة الأشرفية : قرر السلطان برسباى فى حجة وقفه شيخا للصوفية رجلا من أهل العلم حنفى المذهب، موصوف بالديانة ، ويكون عالما بالأصلين قادرا على إلقاء الدروس على الطلبة، «من الكشاف للزمخشرى ، ومن المفتاح للسكاكى، ومن الهداية فى فقه مذهب الإمام أبى حنيفة ، ومن البزدوى فى أصول الفقه »، وعدد الصوفية الذين معه خمسة وستون صوفيا .

«يجلس لهم كل يوم بالجامع المذكور مدرسا بكرة النهار يقرؤون عليه شيئا من العلوم الشرعية على ما جرت به العادة بالقاهرة المحروسة.

ويصرف لهذا الشيخ فى كل شهر من الفلوس الجدد المضروبة والمختومة معاملة الدينار المصرية أو ما يقوم مقامها من النقود ، ثلاثة آلاف درهم، ومن الخبز القرصة المستخرج من دقيق ستة أرطال (١١٩).

وشرط برسباى أن يكون الطلبة والأساتذة كلهم من الصوفية، كما شرط أن كل من يتقاضى خبزا لابد أن يحضر درس التصوف بعد صلاة العصر، على أن يجتمعون هم وشيخهم من كل مذهب فى كل يوم بالجامع المذكور ويفرق عليهم الربعات الشريفة ، ويقرأ كل منهم حزبا من القرآن العظيم(١٢٠).

كما عين السلطان الشيخ «شرف الدين موسى الرومى» مكتبا لتعليم أرباب الوظائف وغيرهم تحسين الخط العربى «ويصرف له فى كل شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة درهم أو ما يقوم مقامها من النقود ، وفى كل يوم من الخبز القرصة ثلاثة أرطال ، ليتعاهد أرباب الوظايف بالجامع المذكور بتعليم رسم الكتابة على العادة فى مثل ذلك»(١٢١).

٢- مدرسة السلطان برسباى بسرياقوس: كملت عمارتها فى ربيع الآخر ٨٤١هـ ١٤٣٨م

وقفها على الصوفية بخانقاه سرياقوس على الطريق المسلوكة ، وقرر السلطان لها إمام للصلوات الخمس وخطيبا وقراء يتناوبون القراءة فى المصاحف . وقيل أنه تناهى فى نقشها وزخرفتها[١٢٢]. وذرعت فجاءت خمسين ذراعا ، وبعض الباحثين يطلقون عليها مسجدا والبعض الآخر مدرسة ، والصحيح أنها مجمع دينى يشتمل مدرسة وكتاب وسبيل ومنبر للخطابة وخانقاه للصوفية ، ويرى بعض الباحثين أن السبب فى بناء هذا المسجد أنه عند خروجه لغزو قبرص نزل بخانقاه سرياقوس سنة ٨٢٩هـ، ونذر لله إن أحياه وظفر بعدوه الملك (جان دى لوزنيان) وأسره، ليعمرن فى هذا المكان مدرسة وسبيلا ، ولما تم له النصر وفى بنذره، والمسجد مربع الشكل، مساحته بالمتر ١٤٧٤ .

وممن ولى مشيخة هذه المدرسة (الخانقاه) القاضى «محب الدين بن رسول الكرادى» القرمشى الأصل الحنفى، المعروف بابن الأشقر المتوفى يوم ١٢ رجب ٨٦٣ هـ- ١٤٥٩م[١٢٣].

٣- مسجده بباب النصر : قرر فيه إمام للصلوات الخمس، ومؤذن وعلى المؤذن - بالإضافة إلى عمله بإعلام الناس بوقت الصلاة - تعليم الأيتام الموجودين المقررين بالمسجد وهم عشرة[١٢٤].

على أن حجة وقف السلطان برسباى تجعل الإمام لهذا المسجد هو المؤذن وهو نفسه مؤدب الأطفال به ، وشرطت أن يعلمهم كتاب الله العزيز والخط العربى والاستخراج (الحساب)[١٢٥] على أن يصرف له فى كل شهر خمسة عشر درهما وزنا بصنج الفضة، ومن الخبز القرصة كل يوم رطلان.

على أن يصرف للأيتام جميعهم خمسة عشر درهما لكل واحد منهم فى الشهر درهما ونصف درهم، ولكل واحد منهما رطلان من الخبز القرصة يوميا بالسوية بينهم ، وللأيتام كذلك من الفلوس الجدد مائتى درهم ليكمل لكل يتيم منهم درهم ونصف فضة وعشرون درهما فلوسا فى كل شهر ورطلان خبزا فى كل يوم .

ويزيد على مبارك فى خططه إمام للمسجد ويعطيه مائة درهم فضة، وليس هذا الإمام موجودا بحجة برسباى، ولا أدرى من أين أتى بهذا الإمام ، ولعله اطلع على الحجة الأصلية ورأى فيها الإمام وسقط هذا الإمام من الكاتب لحجة الوقف المنقولة عن الأصلية[١٢٦].

٤- مسجد وتربة وزاوية بالصحراء[١٢٧]: وقد عين السلطان برسباى لهذه المدرسة المجاورة

للتربة إماما وخطيبا ومدرسا حنفيا ومعه سبعة عشر طالبا. على أن يصرف لكل منهم: الإمام: خمسة وثلاثون درهما نقرة جيدة شهريا، وثلاثة أرطال خبز يوميا، وفى نظير قراءته فى المصحف كل جمعة خمسون درهما شهريا.

الخطيب: مرتبه مائة درهم شهريا فقط وليس له خبز لأنه لايحضر يوميا.

المدرس الحنفى: مرتبه شهريا خمسة وسبعون درهما، وثلاثة أرطال خبز يوميا.

أما الطلاب السبعة عشر: فلهم مائتا درهم شهريا، وواحد وخمسون رطلا من الخبز يوميا(١٢٨).

هذا وقد وقف السلطان برسباى على منشآته التعليمية وغيرها أرضا بالجيزة والغربية والدقهلية والمنوفية وأسيوط وغيرها وعقارات بالقاهرة وغيرها(١٢٩).

هذه تقريبا أهم منشآته، وله منشآت مدنية كثيرة منها: قنطرة المجذوب بمدينة أسيوط فقد جاء فى محاضر حفظ الآثار أنها انشئت فى عصر برسباى، وذلك لوجود رسم «فهد» على هذه القنطرة، وهو الرنك (الشارة والعلامة) المميزة لبرسباى، ويؤكد ذلك ويرشحه ويقويه وجود أملاك برسباى فى زمام ناحيتى ريفة(١٣٠) ودرنكة والتى تقع حاليا بحوض «الزنار» الذى يقع جنوب هذه القنطرة مباشرة، بالإضافة إلى وجود أراضى أخرى فى ناحية قريبة من هذه المنطقة(١٣١).

وللسلطان برسباى منشآت أخرى منها تجديدات بالحرم الشريف والجامع الأزهر، وبعض المساجد بمصر، وغير ذلك من أنواع البر والقربات(١٣٢).

أما مجالس علمه فكانت لاتنقطع ومنها على سبيل المثال:

مجلس فى شهر شعبان ٨٢٧هـ- ١٤٢٤م، أمر السلطان فيه بقراءة صحيح البخارى من أول شعبان بحضور القضاة الأربعة من كل مذهب، وحضر شيخ الإسلام «ابن حجر العسقلانى». وكان القارىء للبخارى -أمام السلطان- نور الدين السويفى، وحضر السلطان معهم فى القصر البرانى الكبير.

واستمر المجلس لمدة شهرين يحضره المذكورون كل يوم، وفى ختامه خلع السلطان على أكثر من عشرين فقيها، لكل منهم صوف طرى بسنجاب مربع، وخلع على شمس الدين الهروى كاملية خضراء بفرو سمور وعلى القاضى «البدر العينى» بصوف سنجاب مربع، وكذلك على

القارىء والمادح . كما فرق على الطلبة من سائر المذاهب لكل واحد منهم أكثر من مائة فلوس، بالإضافة إلى كسوة أيتام مكاتبه والتوسعة عليهم فى شهر رمضان المعظم (١٣٣).

أما المجلس الآخر والذى حدث فيه نقاش واستفتاء : فكان فى ختم البخارى بالقلعة فى ٢٣ من شهر رمضان ٨٤١هـ - ١٤٣٨م ، فقد اجتمع فيه الأعيان وقضاة القضاة الأربعة على العادة وعدد من مشايخ العلم والطلبة، وقد سأل السلطان فى هذا اليوم عن كثرة الوباء وهل هذا بسبب ارتكاب المسلم للذنوب فيعاقبه الله بالطاعون أو غيره، وقد أجابه بعض العلماء : «أن الزنا إذا فشى فى الناس سلط الله عليهم الطاعون ، وأن النساء يتزين ويتبهرجن ويمشين فى الطرقات مهتوكات ، لم يخف منهن غير رقعة وجههن، وغالبهن سافرات الوجوه».

وهنا برز أحد العلماء متصديا لهذا العالم، بأن هذا الكلام على عمومه، ويجب أن يمنع فقط المتبرجات ، أما العجائز ، ومن ليس لهن من يقوم بمصالحهن فلايمنعن من الخروج .. واختار السلطان منع النساء مطلقا من الخروج إلى الأسواق، ظانا منه أن منعهن يرتقى الطاعون، وقد اتفق مع قضاة الشرع على منع النساء من الخروج ، وشددوا فى ذلك، وهددوهن بالقتل . ونادوا بذلك فى القاهرة المحتسب والوالى والمشاعلى، وصاروا يتبعون من خرجت فيثخنونها ضربا وسجنا حتى امتنعن نهائيا (١٣٤).

* * *

والثاني من أصحاب الوكالات بالقاهرة : السلطان أبو النصر «قايتباى»:

أعظم رعاة العلم والفن والعمائر على الإطلاق من السلاطين الجراكسة، الملك الأشرف الجركسى الظاهرى -نسبة إلى الظاهر جقمق- السادسُ عشر من ملوك الجراكسة،ويلقبه بدون حصر بالأشرف أبى النصر، خاتمة العظام ونابغة النظام، ولد فى ٨٢٠هـ . واشتراه الأشرف برسباى من التاجر «محمود بن رستم» سنة ٨٣٩هـ، وحبس بطبقة الكازية من أطباق القلعة إلى أن ملكه جقمق وأعتقه وجعله خاصكيا ، ثم داودار صغيرا ، وصار يتدرج فى الوظائف ويكافح إلى أن نقله الظاهر تمربغا مكانه فى الاتابكية لما تسلطن ، ولم تطل أيامه فيها إلى أن تسلطن يوم الاثنين ١٢ رجب ٨٧٢هـ- ١٤٦٨م .

ولما استقر فى المملكة صار يعزل ويبقى، ويبذل ويأخذ ويتحرى لما يراه العدل، والتقريب والتهديد والإرشاد والتمهيد والتلبث والتثبت ، كان من رأيه وأسلوبه وتدبيره وتقريره مع حرمته الزائدة ، خافه الناس لعظمته ووافاه العظماء بالاسترضاء. سار فى الناس السيرة الحميدة واجتهد فى بناء المشاعر العظام وأزال الكثير من الفساق وقطاع الطرق والمناسر واستقرت الدولة غالب أيامه(١٣٥).

صفته : طويل القامة ، عربى الوجه، مصفر اللون، نحيف الجسد ، شائب اللحية، شجاعا عالما بأنواع الفروسية(١٣٦).

صفاته : كان غاية فى الثبات والتجلد وصدق العزيمة، رايته منتصبة دائما ، راقبا فى تربية مماليكه ، ويختار جلساءه ، عفيف يقظ بكاء ، يحب العلماء ويهوى مجالستهم، ويطالع كتب العلم والرقائق ، وسير الخلفاء والملوك ، ويسأل القضاة وغيرهم الأسئلة الجيدة. يكره التهويش ورفع الصوت العالى بدون فائدة (١٣٧). يمدحه الشعراء فلايلتفت إليهم، ويقول لهم لو مدحتم النبى ﷺ لكان أفضل، كثير الاطلاع فى الكتب، له أذكار وأوراد.

عمائره الدينية والمدنية: له مبرات وعمارات شتى فى مصر والمدينة ومكة وغيرهما ففى مصر جدد بعض ما تهدم من جامع عمرو بن العاص ، والمشهد النفيسى، والإيوان النفيسى كله المجاور لقبة الشافعى، وعمر القبة والمنبر من جامع الناصرى وجملهما بالرخام . وعمر إيوان القلعة ، وربعين متقابلين وجامع بجزيرة الروضة، وجامع بقلعة الكبش، وجامع بباب القرافة، وإيوان القلعة الكبير، والميدان الناصرى بالنصارية بعد أن كان مهجورا ، كما أنشأ عدة قناطر وجسور بالأقاليم ، ورمم أيضا جامع الأمير زياد بالمنيا(١٣٨)، وجامع بسلامون الغبار (١٣٩).

والمدرسة المتبولية بدمياط [١٤٠]، وحصنا بالاسكندرية ، ومدرسة بالقرب منه، وحصن ثغر دمياط وحصن ثغر رشيد [١٤١]. والمقام الدسوقي بدسوق ، والمقام الأحمدي بطنطا ، وزاوية اليسع والزاوية الحمراء ، والمقام الزيادي بين دهروط وطنبدا بالوجه القبلي [١٤٢]. وبطنبدا زاوية للعربان، وقناطر عشرة متلاصقة ، وجسور بالجيزة وبرجا محكما برشيد والاسكندرية ، وعدة سبل وعدة مكاتب للأيتام تعلوها ، أحدها بدرب الأتراك بالأزهر، وعند الفراغ منه سقى الناس السكر عدة أيام بجواره ربع متسع جدا، وخان للمسافرين ، وحوض لسقى الدواب وحوانيت ووكالة ، وغيرها وفي وسطها حوض وحوش للدواب، وحفر بها بئرا كذلك، وعمل خانا وفرنا وطاحونا ورباع، وكان يوسع الشوارع ويزيل الموانع [١٤٣].

اصلاحاته بالجامع الأزهر : جدد مطهرة الجامع الأزهر ليعم الانتفاع بها، وأمر بهدم الخلاوى المتجددة بسطحه ، بعد ضعف عقوده وسقفه ، وجمع العلماء بمجلسه لذلك. وجدد أروقة المغاربة والأتراك والشوام. وعمل ترابزين حول صحن الجامع ما زال اسمه ورنكه منقوشا عليه للآن، كما جدد باب الأزهر والمئذنة الرشيقة المركبة فوقه [١٤٤].

أنشأ تربة بالصحراء بجوارها مدرسة تقام فيها الجمعة والجماعات ويجتمع بها الصوفية وبها خزانة كتب شريفة منيفة [١٤٥]، وعمل بجوارها ربعا للصوفية بجواره سبيل، وحوض للدواب، يعلوه كتاب للأيتام، ومدرسته التي بالكبش للجمعة، والجماعات والطاعات . وهدم مسجد سلطان شاه ووسعه ، وجامع شاكر الذي بقنطرة قديدار، وبنى زاوية ظاهر الخانقاه بجوار زاوية النهتيتي بها فقراء مقيمون ، شيخهم «محمود العجمي» [١٤٦]. كما أكمل في رمضان ٨٨٦هـ- ١٤٨١م، قبة الأمير يشبك بن مهدي المعروفة بالقبة الفداوية، فإنه مات قبل أن يكملها [١٤٧].

عمائره بمكة والمدينة : عمر مسجد الخيف بمنى، وحفر صهريجا بنمرة ذرعه عشرون ذراعا، وعمر بركة خليص ، وأجرى العين الطيبة إليها ، وأصلح المسجد الذي هناك، وأجرى عين عرفة بعد انقطاعها أكثر من قرن، وعمر سقاية سيدنا العباس، وأصلح بئر زمزم والمقام، وفي سنة ٨٧٩هـ - ١٤٧٤م جهز منبرا عظيما للمسجد الحرام، وفي كل سنة يرسل للكعبة الشريفة كسوة فائقة ، وأنشأ بجانب المسجد الحرام مدرسة عظيمة وبجانبها رباطا مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، وسبيلا عظيما للعام والخاص، ومكتب للأيتام، بل بنى المسجد الحرام بعد حريقه .

وبالمدينة المنورة مدرسة بديعة، وعمر مدرسة بغزة ، ورمم الجامع الأموى بدمشق ومدرسة كبيرة ببيت المقدس [١٤٨]، وغير ذلك كثير[١٤٩] مما يطول شرحه [١٥٠].

مجالس العلم لدى السلطان قايتباى : تعددت مجالس السلطان قايتباى ، وكان أغلبها فى أول الشهور العربية للتهنئة بحلولها وكان بعضها يطلب عقده لظروف طارئة ، وكانت معظم مجالسه لأخذ رأى القضاة واستشاراتهم كلما عن له أمر من الأمور، مثل النظر فى شئون الدولة خاصة تصرفات القضاة حيال الأحكام والأوقاف ، وكذلك أخذ الفتاوى لتنفيذ أحكام الشرع، أو مناقشة مسائل بعينها، كجمع المال لمحاربة الأعداء، والنفقة منها على الجنود وغير ذلك .

وغالبا ما خذل السلطان فى مجالس الشورى هذه فلم يحظ رأيه بالتأييد[١٥١] ، وكانت مجالس العلم لاتنقطع بأمر السلطان سواء حضر أو كان مسافرا ، ففى رمضان ٨٨٢هـ-١٤٧٨م كان السلطان مسافراً ، وجرت العادة أن يختم البخارى بالقلعة ، لكن نظرا لسفر السلطان احتفل به هذا العام بالجامع الأزهر، وحضر القضاة الأربعة، ووزعت عليهم الخلع والصرر على العادة ودعا الحاضرون للسلطان بسلامة العودة[١٥٢].

ومن الذين درسوا بمجلس الأشرف قايتباى ، الشيخ «محمد بن على الحسينى القاهرى الشافعى» ويعرف بابن قمر والمولود سنة ٨٠٣هـ- ١٤٠٠م ، ت فى ١٣ جمادى الأولى ٨٧٦هـ-١٤٧١م) واشتهر بالحديث الذى أذن له ابن حجر فى تدريس فنونه، وهو أحد العشرة الذين أوصى لهم بعد موته ووصفهم بالحديث ، وقد درسه بالظاهرية القديمة وجامع الحاكم والخانقاه البيبرسية الذى كان شيخا لها وأحد صوفيتها، واستفاد منه الطلبة ، وألف كثيرا من الكتب، ورغب أخيرا عن كتبه ووظائفه[١٥٣].

إلا أن بعض الفقهاء لاقى منه العنت والإرهاق ، فقد صادر بعضهم وقطع مرتباتهم من اللحم، بل أراد أن يسترد منهم ما أخذوه فيما مضى . وذلك لوقوفهم ضده الوقفات المشرفة الجرئية ممتنعين عن الإفتاء على هواه، ومنهم شيخ الإسلام أمين الدين الاقصرائى» الذى رفض رفضا قاطعا اعتداء السلطان على الأوقاف، بحجة حرب شاه سوار أو حسن الطويل، وهذا الموقف يدل على انتصار الفقهاء على السلطان وبطشه .

وكذلك الشيخ «سراج الدين العبادى الشافعى» تحدث حديثا طويلا مع السلطان، قايتباى حثه فيه -وخَشَّنَ له القول- فى عدم إهانته للفقهاء ... ولكنه ضرب بكلامهما عرض الحائط

وأهان القضاة فى أحد مجالسه [١٥٤]. كما عارضه أيضا الشيخ القاضى عبد الغنى بن تقى المالكى بأخذه أجرة الأملاك سنة كاملة وأنها ستثقل كاهل الشعب، وإن كان لابد فليكن خمسة أشهر فقط فاضطر إلى الرضوخ والموافقة.

بر السلطان قايتباى وعطفه : فى سنة ٨٧٢هـ ١٤٦٨م حج السلطان قايتباى - ولم يحج من السلاطين الجراكسة غيره- فرتب لأهل الحرمين ثمانية آلاف أردب من القمح تعم الغنى والفقير والحر والعبد والذكر والأنثى.

وفى شوال ٨٨٤هـ- ١٤٧٩م خرج السلطان للحج، ولم يشعر بخروج المحمل أحد، ثم قدم فى المحرم ٨٨٥هـ- ١٤٨٠م رسول من عند السلطان يخبر بأنه دخل المدينة الشريفة وزار القبر الشريف، وأنعم بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار، وأنه وصل إلى الينبع قاصداً العقبة، وأنه رحل عنها وسيصل عما قريب . وكان من ثمرات هذه الرحلة أنه تبرع بستين ألف دينار ذهب من ماله الخاص دون بيت مال المسلمين، يشترى بها رباع وأماكن وغير ذلك ، ويصرف من ريعها على فقراء المدينة من الدشيشة والخبز والزيت يوميا، وشرع السلطان بنفسه فى بناء الرباع (الوكالات) التى أنشأها بباب النصر[١٥٥] وفى غيره من أنحاء القاهرة وما زال مبنى ربع باب النصر قائما للآن وعليه نقوش تؤيد وقف إيرادها على شراء قمح دشيشة لفقراء الحرمين[١٥٦].

كما كان السلطان قايتباى يعطف على ذوى الحاجات والمعوزين وأرباب الديون وصحائفه مليئة بالحسنات ، ومنها مثلا : إطلاقه لبعض المساجين بسجن المقشرة، وكان أحدهم به منذ ثلاثين سنة لعجزه عن سداد ديونه، فسددها عنه السلطان وأطلقه، كما وزع نحوا من ثمانمائة دينار على المدينية والفقراء.

وقد استن سنة جميلة من التوسعة على الفقهاء والعلماء فى شهر رمضان بتوزيع العطاء عليهم واستمر ذلك معمولا به حتى وفاته ، ولما سقط أحد النجارين ممن يعملون فى طباق المماليك بالقلعة ومات لتوه ، والتمس أهله صدقات السلطان سارع بمنحهم مائة دينار، وثيابا وثلاثة دنانير أشرفية لتجهيز الميت، كما بر رجلا فقيرا بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح لأنه أنجب أربعة أولاد وهو فقير[١٥٧].

رحلات السلطان : كان للسلطان قايتباى رحلات كثيرة طوال العصر، وتكرر نزوله من القلعة ليل ونهار حتى خرج عن الحد - كما يقول ابن إياس- ولما كان ركوب السلاطين فيما

مضى نادرة من النوادر ، اضطر المؤرخون المعاصرون إلى ترك ذكر ركوب السلطان ونزوله من القلعة ولم يحصوا ذلك. وعاب عليه ابن تغرى بردى ذلك بقوله : «أنه لم يَبِتْ أمرا ولاردع مفسداً» طبعا لكثرة أسفاره وخروجه ، ولم تظهر لها نتائج طيبة على الأقاليم التى زارها، بل شملها الخراب لكثرة النفقات والنهب والهدايا للسلطان ، ولما علم المفسدون منه ذلك ازداد طمعهم وكثر شرهم على الناس ، وقطعوا الطرق، بل تعدى بعضهم على أعوان السلطان وحاشيته .

بينما يعلق «الجوهرى» المؤرخ القريب من السلطان : «أنه كان فى ضيق من فتنة شاه سوار وغيره ، وأنه أراد إظهار قوته حتى لايطمع فيه أحد ، كما كان يتفقد أحوال دولته التى ترامت أطرافها من حدود الفرات إلى بلاد النوبة ، وتفقد أحوال الرعية، وغالبا ما كان ينزل متخفيا ويسأل عنها بنفسه ، مما كان سببا فى رفع كثير من المظالم وإعادة الحق إلى نصابه» كما كان يتفقد مشروعات التعمير الكثيرة التى اقترحها ، مما كان له أكبر الأثر فى إنجازها على وجه السرعة، وغالبها أعمال عم بها الخير جل البلاد، ولم يتحرج السلطان فى رحلاته هذه من زيارة المرضى من الأمراء، وهذا وفاء منه لزملائه الذين خدموا معه»(١٥٨).

حبه للصوفية : كان السلطان قايتباى يحب الصوفية ويعتقدهم ، وقد بنى للشيخ عبد القادر الدشطوطى مسجدا بباب الشعرية (١٥٩)، ما زال قائما للآن تقام به الجمع والصلوات، وكان قايتباى يعتقده غاية الاعتقاد ويمتثل لأمره ويقبل يده (١٦٠)، وقد قطع بعض المؤرخين بولاية قايتباى وصلاحه ، وبشره أيضا بالسلطنة بعض الأولياء، قبل أن يليها بزمن طويل، ولكنه كان يطلب منهم إخفاء ذلك حتى لايتعرضوا وإياه لنقمة السلاطين القائمين بالأمر.

ولما ثار الخلاف والجدل فى المحرم ٨٧٥هـ- ١٤٧١م بين العلماء بسبب قصائد ابن الفارض، وكان السلطان متعصبا له، وقد صرح العلماء بفسقه وتكفيره ، ونسبوه إلى من يقول بالحلول والاتحاد، تدخل حينئذ وألقى بثقله فى المسألة وعمل على حسم الفتنة(١٦١).

وكان دائما يزور الصوفية فى أماكنهم ويزور أضرحة الأولياء. ففى المحرم ٨٨٨هـ- ١٤٨٣م لما نزل السلطان لمعاينة الجسور ببلدة سنبت من الغربية عرج على طنتدا لزيارة مقام سيدى أحمد البدوى. وفى المحرم ٨٩١هـ- ١٤٧٦م توجه إلى قبة يشبك بن مهدى بالمطرية، وفى

عودته نزل عن فرسه وزار تربة الظاهر برقوق ، وأمر برعاية مصالح الصوفية بها وعمل لها منبرا من الحجر ما زال موجودا للآن[١٦٢] .

ولم يزرق صفوه إلا حربه مع شاه سوار الذى دوخ الدولة واستنفد كثيرا من آليتها وضاع فيها أعاظم الأمراء، وكذلك حربه مع حسن الطويل ومع العثمانيين .

مرضه ووفاته : انتاب السلطان أمراض ووعكات كان آخرها مرض موته ، فقد رفسه فرس الأمير أزبك فكسر ساقه، ولما لم يتمالك نفسه من السرور بانتصاره على العثمانيين ركب فرسا يتنزه به فى القلعة، انقلب به الفرس فانكسرت رجله وأغمى عليه، وحمل إلى الدهيشة وهو فاقد الوعى. وقد حاول المماليك الجلبان اغتيال السلطان أثناء نومه على الدكة فى الحوش السلطانى زمن الصيف وفشلت هذه المحاولة ، ثم انتقل من هذا المكان، وفى الصباح وجد ثلاثة أسهم نشاب بالمخدة التى ينام عليها ، فكتم الخبر، ونزل السلطان إلى باب السلسلة وجلس بالمقعد لم يكترث بذلك وزادوا فى الطغيان ، فحزن السلطان وزاد حزنه فمرض بالحمى، ولزم الفراش وأصيب بإسهال مفرط أقعده عن الحركة فتنازل لابنه محمد عن العرش وسنه يومئذ ١٤ سنة .

وفى ٢٧ ذى القعدة ٩٠١هـ- ١٤٨٦م مات السلطان قايتباى وله من العمر نحوا من ٨٤ سنة. وكانت مدة سلطنته ٢٩ سنة ، ٤ شهور ، ٢٠ يوما، ويكون مولده على ذلك سنة ٨١٧هـ، لأن السخاوى ذكر مولده سنة بضع وعشرين وثمانمائة ، وقال إن ترجمته تحتمل عدة مجلدات . ولم يخلف السلطان غير ابنه محمد وسيرته العطرة وأعماله المعمارية التى خلدت اسمه والخيرات الكثيرة التى ما زالت قائمة[١٦٣] ودفن بتربته التى أنشأها بالصحراء، وقبره ظاهر يزار[١٦٤].

والثالث من أصحاب الوكالات الشهيرة بالقاهرة: السلطان «قانصوه الغورى»:

السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبدالله الجركسى المشهور «بالغورى»[١٦٥]، نسبة إلى طبقة الغوْر أحد طبقات القلعة بمصر، والتى كانت معدة لتعليم المؤدبين . وقد سماه ابن طولون «جندب» وجعل «قانصوه» لقباله.

ولد فى حدود ٨٥٠هـ- ١٤٤٦م، وترقى فى المناصب حتى أصبح نائب «طرسوس» ولما انتزعها منه جماعة ابن عثمان هرب إلى حلب، ثم عاد إليها بعد انتصار الجيش المصرى على الروم ، ولما استولوا عليها مع غيرها هرب منها إلى حلب ، ولما انتصر عسكر مصر عاد إليها ثانيا، ثم أعطى نيابة ملطية ، فلما مات السلطان «قايتباى» جاء إلى القاهرة ووقعت له عدة وقائع فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم أعطاه تقدمة ألف، وفى دولة «جانبلاط» أعطى وظيفة نوبة أبنوب، ثم تنقلت به الأحوال حتى أصبح سلطانا[١٦٦].

قد تلا وفاة السلطان «قايتباى» عهد من الاضطراب والفوضى، تداول أمر مصر وما يتبعها فيه خمسة سلاطين ، فقد خلفه ابنه محمد لمدة ستة أشهر وخلع ليعود ثانية إلى الملك بعد خمسة أشهر ، فيقتل بعد ثمانية عشر شهرا سنة ٩٠٤هـ- ١٤٩٩م، وتوالى بعده ثلاثة سلاطين فى خلال ثلاثين شهرا.

فلما اختفى ثالثهم «طومانباى» هربا من المماليك بعد أن وثبوا عليه فى سلخ شهر رمضان سنة ٩٠٦هـ- ١٥٠١م ليلة عيد الفطر وأشيع ذلك فى الصباح، اجتمع رؤساء الدولة ليختاروا سلطانا ينتهى هذا الاضطراب بولايته ، ووقع اختيار الأمراء عليه بعد أن تعصب له «قيت الرجبى» أمير سلاح ، و«مصر باى» أحد الأمراء، وقالوا : ما نسلطن إلا هذا، فامتنع وبكى بكاء شديدا وهم يسحبونه من طوقه، ، حتى مزقوا ملوطته وأجلسوه بالقوة وتوسموا فيه الضعف فى المستقبل ، وظهر لهم بعد ذلك على عكس هذا التصور. وقد حضر القضاة الأربعة يتقدمهم خليفة الوقت وعقدت البيعة للغورى بعد أن كتبوا محضرا بخلع العادل وأنه سفاك للدماء .

وكانت سلطنة الغورى يوم الاثنين مستهل شوال سنة ٩٠٦هـ- ١٥٠١م، ثم ألبسوه خلعة السلطنة وهو يمتنع ويبكى، ولقبوه بالأشرف، وسما فى علوه وأشرف وكنوه بأبى النصر قنصوه الغورى ، وبه صارت مصر مشرقة بالغورى[١٦٧].

ونودى باسمه فى القاهرة، وارتفعت له الأصوات بالأدعية الفاخرة وزالت الشكوك والظنون وقرّت به العيون . وكان الناس يظنون أن هذه السلطنة على غير أساس لأنها جا ءت على غير قياس فصار منه بعد ذلك الهزل جد، ومكث فى السلطنة مكثا جاوز الحد، فزال عنه الإضرار والبأس ، وامتلأت منه أعين الناس ، فتولى الملك وله من العمر نحوا من ستين سنة ، ولم يظهر برأسه الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده[١٦٨].

وصفه : كان الغورى طويل القامة، غليظ الجسد، ذا كرش كبير، أبيض اللون مدور الوجه[١٦٩]، مشحم العينين جهورى الصوت، مستدير اللحية، لم يظهر بلحيته شيب إلا قليلا، مهيبا مبجلا فى المواكب ملء العيون فى المنظر[١٧٠].

حبه للتنزه والموسيقى والرقص والحفلات : كان السلطان الغورى يحب الموسيقى والغناء، ويعرفهما جيدا ، وقد اتفق المؤرخون على ولعه بالموسيقى ، وشهدت به سيرته ، فاذا أراد الاستراحة من عناء العمل خرج إلى مقياس النيل بالروضة أو إلى قبة الأمير يشبك بن مهدى بحدائق القبة وأحضر المطربين والعازفين .

ففى يوم عاشوراء من المحرم سنة ٩١٨هـ- ١٥١٢م نزل هو وحاشيته إلى المقياس نزهة هناك، فجلس بقصره ومد سماطه الحافل بأنواع الأطعمة ، وحضر أمامه أرباب الآلات الموسيقية والمغنون ، وحضر شخص يدعى على باى من المضحكين الفكهين والذى يعمل عفريتا فى المحمل عند دورانه ، فرقص أمام السلطان ورقص كرتباى من الأمراء واقباى الطويل أمير آخور ثانى، ثم بركات المحتسب ثم عبد العظيم الصيرفى الذى كان جسيما فعندما رقص ضحك عليه السلطان[١٧١].

وكانت هذه الاحتفالات تعود على العامة بالفرج والخير، إذ كانوا يأكلون ما بقى من سماط السلطان من اللحم والحلوى وغيرها الكثير وحينما يعود من نزهته يوزع عليهم النقود.

ففى ثانى يوم عيد الأضحى ذى الحجة ٩١٥هـ- ١٥١٠م توجه السلطان فى نزهة إلى قبة يشبك بالمطرية ، وهناك مدت الأسمطة الحافلة، وأحضر جماعة من المغنين وأصحاب الآلات الموسيقية ، وطلب إلى بعض الأمراء أن يرقصوا فرقصوا أمام السلطان. وبعد صلاة العصر - وفى طريق عودته إلى القلعة- صار يوزع على الفقراء ومن يقف له من الناس من كيس ذهب كان فى جيبه «يعطيهم من يده بغير واسطة بحسب ما يقسم لهم»[١٧٢].

صدقاته على الفقراء : كان يتصدق بيده كثيرا على الفقراء والمساكين والمعوزين ، فكان دائما يطلب الفقراء ويجمع معهم الحرافيش عند سلم المدرج، وعندما اجتمع منهم الجم الغفير «صار يوزع عليهم الصدقات، وهو راكب فرسه لكل صغير وكبير » من رجل وامرأة يعطى كلا منهم أشرفيا ذهبا » وقد مات من شدة الزحام فى هذا اليوم ثلاثة من الفقراء ، وقد بلغ ما فرقه نحو ثلاثة آلاف دينار وارتفعت له الأصوات بالدعاء (١٧٣).

كما كان يدفع ديون المساجين تخفيفا عنهم قربة لله تعالى، ففى شهر شعبان سنة ٩١٢هـ - ١٥٠٧م عرض السلطان المحابيس والنساء المسجونين بالحجرة ، فأطلق جماعة منهم بعد أن صالح عنهم أرباب الديون من ماله الخاص (١٧٤).

وفى رمضان ٩١٥هـ تصدق على نحو سبعين إنسانا ما بين رجال ونساء من المغاربة ، الذين قصدوا الحج فى هذه السنة ، ورسم لهم لكل واحد منهم أشرفيا ثمن بسقماط(١٧٥).

ولما كان النيل بمصر فى العصر المملوكى سيفا ذو حدين ، إذ نقص ماؤه هلك الزرع والضرع، وإذا زاد ماؤه حدثت الخسائر أيضا ، من أجل هذا كان السلطان الغورى يتصدق على الفقراء بعد قراءة القرآن والدعاء بزيادة النيل أو هبوطه .

ففى نهاية سنة ٩١٥هـ- ١٥١٠م زاد النيل زيادة يخشى منها الغرق والتلف، فطلب الغورى من القضاة الأربعة والعلماء أن يتوجهوا إلى المقياس ليدعوا الله تعالى بهبوط النيل فذهبوا إلى هناك وباتوا بالمقياس يدعون ويبتهلون . وقرأ السلطان فى هذه الليلة ختمة شريفة، بعد أن مد وسماطا فاخرا «فانهبط النيل إلى ما يقرب من نصف ذراع فكان من العجائب»(١٧٦).

وفى جمادى الآخرة ٩١٩هـ - ١٥١٤م عاد أحد الأمراء من الصعيد ومعه عدد من مشايخ العربان بسبب ٧٠ ألف أردب من القمح قد تأخرت عليهم، ولما عرضوا على السلطان مقيدين قال «أطلقوهم جميعا فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى»(١٧٧).

هوايات الغورى : كانت هواياته كثيرة منها : حبه لسماع الطيور المغردة ذات الألوان البديعة ، ونشق الأزاهير العطرة والبخور والمسك والعود، يحب رؤية الأزهار والفواكه ، يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . ويستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، ويستعمل الأشياء المفرحة(١٧٨).

أما ولعه وهوايته لغرس الأشجار والأزهار واقتناء الطيور فكان غاية في ذلك، وهذا المؤرخ المعاصر ابن إياس يحدثنا عن ذلك في حوادث سنة ٩١٢هـ- ٩١٥م فيقول : «في شعبان سنة ٩١٢هـ وصل إلى الغوري من بلاد الشام صناديق خشب فيها أشجار بطينها ما بين قراصية وتفاح شامي وكمثري وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض وسوسان وزنبق وسفرجل وكروم وعنب وغير ذلك من أشجار جوز الهند بطينها، فزرع ذلك جميعه بالميدان ، وكانت نحوا من مائة وخمسين حملا ، حتى صار هذا الميدان من جملة متنزهات القاهرة التي تشبه غوطة دمشق ما بين أشجار ومياه جارية[١٧٩]. وفي سنة ٩١٥هـ أينعت هذه الأشجار وأخرجت الشتلات أنواع الأزهار ما بين فل وورد وزنبق وياسمين وبان وسوسان وورد أبيض لم يجد بمصر مثله «فكان السلطان يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس وسيفرش فوقها مقعدا مخمل بنطع ويجلس عليه تظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المنشات ينشون عليه وحوله أقفاص بها طيور المسموع ما بين هزازات وشحارير وفواخت وقماري وغيرها، كذلك حوله بين الأشجار أنواع من الدجاج الحبشي والبط الصيني، وقد صار هذا الميدان جنة الله على وجه الأرض[١٨٠].

أبناء الغوري : لم نعثر في بدائع الزهور أو مجالس السلطان الغوري على أبناء له إلا بنت ذكرها ابن إياس فقال : «في يوم ٢٨ شوال ٩١٠ هـ توفيت للسلطان ابنة كانت مستحقة للزواج فأخرجت في بشخانة زركش ، وقداسها كفارة، وصلى عليها في الجامع الأزهر ، ودفنت داخل القبة بمدرسة أبيها ، وكانت جنازتها مشهودة[١٨١].

اهتمامه بالنواحي الاقتصادية : كان السلطان الغوري مهتما بالنواحي الاقتصادية لدولته من كل ما يدر له دخلا يتقوى به على الأخطار المحيطة بدولته من الحرب البحرية مع البرتغاليين بالإضافة إلى تحرش العثمانيين بالثغور والمنافذ الشمالية للدولة المملوكية.

ومن هذه الاصلاحات : ترميم وتجديد وإصلاح قنطرة اللاهون بالفيوم التي أنشأها السلطان بيبرس البندقداري ، ونظرا لأهميتها البالغة لإقليم الفيوم توالت عليها الإصلاحات إبان العصر المملوكي. ولما زار الغوري إقليم الفيوم سنة ٩١٨هـ- ١٥١٢م وجد هذه القنطرة في حالة تصدع شديد نتيجة لتقطع جسر اللاهون وجسر بحر يوسف ، فأمر أحد المقدمين الأمير «أرزمك» الناشف بإصلاحها فأصلحت.

ولكن هذه القنطرة دب فيها الخراب والتلف فى العصر العثمانى نتيجة لتدهور الحالة الاقتصادية والسياسية وإهمال شأن الترع والجسور والقناطر والعيون فى هذا العصر.

وكان الغورى كثيرا ما يفرض على الزراع الغرامات الفادحة ليستعين بها على الإصلاحات الطارئة، وربما سخر جمالهم وبغالهم وغيرها للعمل فى هذه المنشآت، أو يطلب إليهم كميات من التبن أو الغلال أو الفاكهة ، أو يفرض ضريبة على أرض الإقطاع معجلة قبل حلول موعد استحقاقها ، فيصيبهم الضرر البالغ ، وقد يفضل بعضهم الهرب والفرار أو الهجرة إلى ناحية أخرى لعدم استطاعته الوفاء بالدين(١٨٢).

أما عن منشآته فهى كثيرة جدا(١٨٣) منها: مسجد بحى «الشرابشيين»* (الغورية الآن) والقبة والكتاب والسبيل ومدرسته المواجهة للمسجد، وجامعا عند القلعة، وبنى خان الخليلى من جديد، بعد أن آل للسقوط ، وخانا ، وأحواضا فى طريق الحج عند العقبة ، ورباطا وبمارستانا فى مكة، وأنشأ الميدان عند القلعة ، وقصرا عند المقياس بالروضة ووكالة (١٨٤)، بحى الغورية(١٨٥)، وأخرى بالمحلة الكبرى، كما عمر قاعة البيسرية ، وقاعة العواميد والدهيشة فى القلعة، كما أنشأ عدة قناطر وأبنية أخرى، وبنى دائرة الحجر الشريف ، وباب إبراهيم ، وجعل علوه قصرا شاهقا وتحته ميضأة ، وجدد بعض أروقة المسجد الحرام، وأنشأ مجرى الماء من مصر إلى القلعة ، وعمر بعض أبراج الاسكندرية، والمئذنة المعتبرة ذات الرأسين بالجامع الأزهر (١٨٦)، كما بنى مصطبته السلطانية بدلا من الدكة، كما أقام عددا من المنشآت الحربية كالأبراج والمكاحل والأسطول (١٨٧).

أما مدرسته (١٨٨): فقد انتهى العمل من بنائها وزخرفتها فى ليلة عيد الأضحى سنة ٩٠٨هـ- ١٥٠٢م، وعمل السلطان احتفالا وعمل وليمة حافلة حضرها الخليفة «المستمسك بالله يعقوب» والقضاة الأربعة وأعيان مصر من المشايخ والأمراء والقراء والمباشرين والوعاظ، وزينت الدكاكين من باب زويلة إلى الشرابشيين* وعلقت القناديل المضاءة.

وكان صاحب هذه المدرسة هو الطواشى «مختص» (١٨٩)، الذى كان رأس نوبة السقاة، وكان قد وضع أساسها تمهيدا لإتمامها، لكن الغورى تغير خاطره عليه، ولما قبض عليه وصادره قرر عليه مالا، فأعطاه هذه المدرسة من جملة المال، وكان قد بنى منها شيئا فهدمه الغورى

---

* الشرابشيين : هو حى الغورية وهو شهير (بالطرابيش) .

وأضاف إليها سوق الجملون وما حوله ، فاتسعت ، وتناهى فى بنائها وزخرفتها فجاءت فى غاية الحسن والرونق والظرف.

وقد شنع بعض الناس على الغورى فى بنائه هذه المدرسة من مصاريف جاءت من المصادرات ومن وجوه المظالم ، فقد أخذ رخامها من أماكن متعددة بأبخس الأثمان ، وقد خرب قاعة «شموال» اليهودى الصيرفى وأخذ رخامها وأبوابها ، بل خرب عدة قاعات أخرى وقد سمى بعض الظرفاء هذه المدرسة «بالمسجد الحرام» لما وقع فيها من اغتصاب الأرض ومصروفها من مال فيه شبهات ، ويعلق ابن إياس على ذلك بقوله : «وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها فى حق الناس.. »(١٩٠).

ولما كملت عمارة هذه المدرسة بناء مدفن له- لم يدفن فيه- وعقد فوقه قبة وأنشأ بها صهريجا ومكتبا، وقرر بهذه المدرسة حضورين وصوفية يحضروا بكرة والعصر »، أى يحضرون فى الصباح الباكر دروسا معينة، ويبتدى بعد العصر- تشبه الفترة المسائية فى بعض مدارسنا حاليا- دروسا أخرى. وجعل «قاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف» شيخ الحضور بالنهار، ومحب الدين الحلبى الإمام شيخ الحضور فى العصر ، ثم نقل إليها الآثار الشريفة التى كانت برباط الآثار بعد أن استفتى العلماء مخالفا بذلك شروط الواقف ، كما نقل إليها المصحف العثمانى وربعة شريفة كتبت بماء الذهب ، كانت موجودة بالخانقاه البكتمرية بالقرافة كان الواقف قد اشتراها بألف دينار ، وبعد نقل هذه الأشياء أصبحت هذه المدرسة من محاسن الزمان، خاصة أن هذا الخط من هذه الناحية محتاجا إليها لعدم وجود مدارس أخرى سابقة فيها ، وعد ذلك من جملة سعد الغورى.

وكان أصل هذا المكان قيسارية للأمير على، فاستبدلت من وقف «الناصر محمد بن قلاوون». أما القاضى «البرهان بن أبى شريف» فقد ترك منصب قاضى القضاة ليتفرغ لمشيخة هذه المدرسة.

وكانت زيارات السلطان الغورى لمدرسته لاتنقطع ويعطى فيها لأيتام المدرسة وصوفيتها الكسوة وغيرها. كما أعطى لمطبخ الأزهر فى رمضان ستمائة أردب قمح ومائة قنطار عسل وستمائة وسبعين دينارا على أن يصنع من القمح خبزا يفرق على من به (١٩١).

وقد ارتفعت الأصوات له بالدعاء والزغاريد من الطيقان فى يوم ٣ جمادى الآخرة ٩١٧هـ/ ١٥١٢م حيث زار المدرسة وأنعم على صوفيتها وعلى مشايخ الدرس لكل واحد منهم عشرة

دراهم كما أنعم على أيتام المكتب والقراء والوعاظ والبوابين والفراشين، فكان جملة ما فرقه فى هذا اليوم نحوا من خمسمائة دينار[١٩٢].

وفى ١٩ رمضان ٩١٩هـ- ١٥١٤م زار الغورى مدرسته ، وعرض عليه أطفال المكتب: فرسم لهم بكسوة العيد [١٩٣]، وقد أوقف على مدرسته ومسجده وكتابة الأوقاف الكثيرة.

ومن منشآته : المصطبة بدلا من الدكة السلطانية التى يجلس عليها الغورى للحكم بين الناس، فقد بناها بالحجر الفص النحيت، وزخرفها بالرخام السماقى والزرزورى والمرسينى وغيره، ونقش بروازها بالذهب، وجعل لها أفريزا وكساه بالذهب ونقش عليه اسمه فجاءت فى غاية الحسن لم يعمل مثلها قط ، ولاسبق إليها[١٩٤].

أما جامع الغورى المشهور الآن بحى الغورية على مدخلها من شارع الأزهر على يمين المتجه إلى باب زويلة، فقد جاء فى غاية الأبهة والعظمة والحسن والبهاء والزخرفة، وقد صنع له مئذنة لها أربعة رؤوس وهو أول من اتخذ ذلك[١٩٥].

وأول من خطب بهذا الجامع هو العلامة «الشهاب أحمد بن الفرفور الدمشقى الشافعى» فى جمعة مستهل ربيع الآخر سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م، وحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة، برهان بن أبى شريف الشافعى وعبد البر بن الشحنة الحنفى، وبرهان الدين الدميرى المالكى والشهاب الشيشينى الحنبلى، وحضر غالب الأمراء والشيوخ والجم الغفير من أعيان الناس، وزينت منطقة الغورية كالمعهود ، وخلع السلطان على جملة من الأعيان منهم ابن الشحنة الحنفى لكونه أفتى بصحة الجمعة فى هذا الجامع ، وعلى اينال شاد العمارة بامرة عشرة، وجملة من النجارين والبنائين والمرخمين والمهندسين من أرباب الصنائع الذين عملوا الجامع، وأنعم على جملة الفعلة لكل واحد منهم ألف درهم[١٩٦].

وفى شهر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ- ١٥٠٦م مالت مئذنة هذا الجامع وتشققت وآلت للسقوط ، فرسم السلطان بهدمها بعد أن ثقلت من علوها لكونها ذات أربع رؤوس فلما هدمت أعيدت على الصحة، وقد بنى علوها بالطوب الملبس بالقيشانى الأزرق . وقد نظم للشيخ بدر الزيتونى الأديب قصيدة مطولة فى هذا الجامع منها:

وأنشأ بمصر جامعا لم يزل ... بيتا يذكر الله معمور
والقبة الزرقاء وصهريجها ... والماء والكيزان والزير
كأن برد الثلج فى مائه ... لكل عطشان ومحرور. الخ القصيدة[١٩٧]

وفى شهر شوال سنة ٩١٧هـ- ١٥١٢م ظهر فى بقية هذه المدرسة- التى انشأها السلطان تشقق فاحش حتى آلت للسقوط، فأمر السلطان بهدمها فهدمت من سفلها، ثم علقت ورمت ترميما حافلا(١٩٨)

ويفصل المسجد عن المدرسة شارع الغورية، حيث تتقابل هاتان المنشأتان العظيمتان شامختان إلى اليوم، والآن يتم تبييض الجدران وترميم المتهدم منها، ويوجد تحت الجامع طابق ينزل إليه بسلم، قال بعض العاملين بالمسجد أنه سجن كان الغورى يسجن به المتمردين وأرباب الجرائم.

تدين الغورى وحبه للعلماء وبره بهم: كان السلطان قانصوه الغورى ديِّنًا محافظا على فروض الدين، شديدا على من يفرط فيه، وكان يعتبر من علماء الدين بمصر، ذلك لأنه كلما نزلت بالبلاد نازلة أو قرعتها قارعة، وكلما حزبه أمر فزع إلى قراءة القرآن والحديث، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما سار الغورى على العادة القديمة بقراءة البخارى فى القلعة وختمه باحتفال مهيب فى نهاية رمضان.

ففى حوادث رجب ٩١٥هـ- ١٥١٠م نجده يأمر الناس بألا يتجاهروا بالمعاصى، ولايمشى أحد بسلاح بعد المغرب وأن الناس يواظبوا على الصلوات الخمس فى الجوامع (١٩٩). وقد وصف العلامة «الشريفى» مترجم الشاهنامة الفارسية إلى اللغة التركية بأمر الغورى- صلاة السلطان ودعائه وتهجده بالليل فى خاتمة الشاهنامة(٢٠٠).

وكان الغورى يبر العلماء حينما تضيق بهم الحال، فالقاضى فخر الدين بن العفيف، الذى كان يشغل منصب كاتب المماليك، وقف للغورى لما ضاقت الدنيا فى وجهه وأظلمت وشكا، ضيق ذات يده وفقره، رسم له بجامكية «ألفى دينار فى كل شهر وزيديتين لحم فى كل يوم»(٢٠١).

كما تحمل الضرائب المتأخرة عن الفلاحين المقيدين بالسلال قائلا: «أطلقوهم أجمعين فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى»(٢٠٢).

وكان يحب الصوفية ويجلهم ويحسن إليهم فعند مروره إلى قناطر السباع وقف وبصحبته الأمراء عند مدرسة ابن الزمن ليزور الشيخ «سويدان» الذى يقيم بهذه المدرسة(٢٠٣)، إلا أنه -لدواعى الأمن- ألغى مولد سيدى أحمد البدوى، حيث كانت العربان ثائرة فى البلاد والطاعون يعمل عمله بالقاهرة(٢٠٤).

مناظرات العلماء في مجلس السلطان الذى تعصب لضرب عنق أحد العلماء، شتم سيدنا ابراهيم الخليل : فى شهر جمادى الأولى ٩١٣هـ- ١٥٠٨م أشيع أن خطيباً بأحد الجوامع يسمى «علاء الدين النقيب الحنفى المحلى» أطال لسانه ووقع بكلام فاحش فى حق سيدنا ابراهيم الخليل ، فضبط عليه ذلك، فاستتابه بعض القضاة، وحكم القاضى ، «شمس الدين الحليبى» بحقن دمه، لكن السلطان الغورى لما علم بهذه الواقعة استشاط غضبا فتعصب للخليل، وأراد ضرب عنق هذا الرجل ، وجمع لذلك مجلسا من القضاة الأربعة فى الدهيشة بحضرته ، وحضر العلماء ، والقضاة المفصولون وغيرهم، وتباحث العلماء فى هذه المسألة، وتمخض المجلس عن نشوب الخلاف والمشاجرة بين القضاة ، فالشيخ «زكريا الأنصارى» قال : مذهبنا أن هذا القائل إذا تاب إلى الله واستغفر تقبل توبته ووافقه على هذا الرأى بعض العلماء. وخالف بعضهم الآخر ومنهم «عبد البر بن الشحنة» الذى وقع التشاجر بينه وبين الشيخ «نور الدين المحلى» وأحظر كل من العلماء بقوله فى هذه المسألة، وينفض هذا المجلس عن أن هذا القائل يسجن مدة طويلة حتى يتوب ، والسلطان مصمم على ضرب عنقه ، لكنهم أخذوا هذا القائل إلى السجن[٢٠٥].

مجالس العلم لدى الغورى : للسلطان الغورى مجالس كثيرة كان يجتمع معه فيها نخبة كبيرة من علماء عصره ، ويكثر فيها المناقشات والمجادلات للبحث فى مسائل شتى. ومن العلماء الذين اشتركوا فى هذه المجالس «عبد البر بن الشحنة» قاضى قضاة الحنفية، والشيخ «حسين چلبى» و«شمس الدين السديسى» و«البرهان بن أبى شريف» و«جلال الدين السيوطى» [٢٠٦]، والشيخ «محب الدين المكى» والشيخ «ابن أبى الحسن»، والشيخ «عبد الرازق» والشيخ «على الأخميمى الحنفى» والشيخ «كمال الدين البرقوقى»[٢٠٧] والشيخ «كورانى» والشيخ «كمال الدين الطويل» وغيرهم . وكان هؤلاء العلماء المذكورين هم رؤساء الجلسة الذين يديرون الحوار.

أما المسائل التى نوقشت مع السلطان فكثيرة ، منها فتاوى وقصص ونواد وحكايات وتفسير وحديث، وتاريخ وسيرة يتخللها نكات وألغاز وغير ذلك. ومن الألغاز التى قيلت فى أحد المجالس:

١- ما اسم شىء قد غدا نزهة   للنفس محبوب لدى الأزمنة

وإن ترد تصحيف مقلوبه   تجده شهرا من شهور السنة

فقيل هو البحر [٢٠٨].

٢- مـا اسم شيء أكـلا ناعـم فـي الخلـق لين
كيف يخفى عنك هــذا وهو في التصحيف «بين»[٢٠٩]

وهناك كتابان سجل فيهما كثير من مسائل هذه المجالس، ويصوران تصويرا حسنا بعض أحوال مصر السائدة فى عصر الغورى وهما :

١- كتاب «نفائس المجالس السلطانية فى الأسرار القرآنية» ويتضمن هذا الكتاب مقدمة وعشر روضات . وكانت المجالس تنعقد فى كل أسبوع مرة أو اثنين أو ثلاثة... ألف هذا الكتاب العلامة حسين بن محمد الحسينى[٢١٠].

٢- «الكوكب الدرى فى مسائل الغورى» ويحتوى هذا الكتاب على ألفى مسألة وأجوبتها[٢١١].

اهتمام السلطان قنصوه الغورى بالعلماء : عاش زمن الغورى عدد كبير من العلماء والأئمة الفضلاء الذين زاولوا القضاء والفتوى والتدريس ونذكر منهم على سبيل المثال المشهورين : جلال الدين السيوطى (ت٩١١هـ- ١٥٠٦م) المؤرخ المحدث المفسر الموسوعى، زين الدين زكريا الأنصارى الصوفى (ت٩٢٦هـ / ١٥١٩م) وقاضى قضاة الشافعية والفقيه البليغ شهاب الدين القسطلانى المحدث صاحب «ارشاد السارى» فى صحيح البخارى (ت٩٢٣هـ- ١٥١٧م، فخر الدين عثمان الديمى ، شيخ الحديث فى زمانه (ت٩٠٩هـ- ١٥٠٤م) ، وقد تتلمذ له فيه طبقات من الرجال ، نور الدين الأشمونى[٢١٢] العلامة فى النحو والقراءات والأصول وفقه الشافعية (ت٩٢٠هـ- ١٥١٤م) ، أما ابن اياس الحنفى المؤرخ (ت٩٣٠هـ- ١٥٢٤م) فقد شاهد عصر الغورى بعينيه ولمسه بيديه وكتب كتابه المستفيض «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» فى عصر الغورى ومن سبقوه ونهاية دولة وبداية دولة جديدة[٢١٣].

أما عن المعلمين (المهندسين) والرؤساء (الأطباء) فكثيرون جدا منهم: المعلم حسن بن الصياد (المهندس البارع) والذى صنع (ماكيتا) نموذجا مجسما من الجبس لمدينة الاسكندرية يتضمن كل ما بالمدينة من الأبراج والأبواب والمنارة وغير ذلك، وقد أقام هذا النموذج فى المطرية وزاره الغورى فى شعبان ٩١٦هـ- ١٤١١م وأعجب بدقة فنه وصناعته.

أما المعلم عبد القادر الشماع فقد كان خبيرا ونابغة فى التقويم والفلك (ت٩١٨هـ - ١٥١٢م) والأمير إينال شاد العمائر السلطانية وكان عليما بالهندسة خبيرا بفن البناء.

أما الأطباء فمنهم : (١) الرئيس بركات السكندرى (ت٩١٥هـ- ١٥١٠م) ، (٢) شمس الدين القوصونى (ت٩١٧هـ- ١٥١٢م) ، (٣) عبد القادر القطبى (ت٩١٩هـ- ١٥١٤م) .

ومن عالج الغوري من الكحالين (أطباء العيون) حين ارتخاء جفونه ، القوصوني المذكور وصلاح الدين الشامي، وعبد الرحمن الشريف ، وتقي الدين المنوفي[٢١٤].

شعراء عصر الغوري وأدبائه : كان من هؤلاء الحافظ الراوية ، والزاهد المتصوف والمؤلف البارع والأديب المفنن والشاعر البارعي. ومن هؤلاء من قصد القصائد الطويلة أو نظم المقطوعات، ومنهم من شطر البردة النبوية ومنهم من خمسها وغير ذلك ، ومنهم من أولع بالتورية والفكاهة والتضمين وما إلى ذلك، ونذكر منهم على سبيل المثال:

عبد القادر الدماصي (ت٩١٥هـ- ١٥١٠م) كان شاعرا ناثرا ومحاضرا فكها، نظم في الألغاز والخوانيات. جلال الدين النصيبي (ت٩١٦هـ- ١٥١١م) برع في العلوم الدينية والعربية ، زاول التأليف ونظم في الغزل وغيره ، وخمس إحدى قصائد الشاب الظريف. علاء الدين بن مليك الحموي (ت٩١٧هـ- ١٥١٢م) كان فقيها حنفيا خبيرا بالنحو والأدب والعروض ، له عدة قصائد في مدح الرسول ﷺ وديوان شعر كبير . عائشة الباعونية الشيخة العالمة المتصوفة المتوفاة (٩٢٢هـ- ١٥١٦م) نظمت شعرها في التصوف والزهد والمدح، أجادت المديح النبوي ولها فيه بديعيتان ، ولها أيضا شعر في الوصف والألغاز . الناصري محمد بن قنصوه بن صادق (ت ٩٢٨هـ- ١٥٢٢م) قال الشعر في النقد الاجتماعي، والوصف والمدح، شارك بشعره في أحداث بلاده في هذا العصر ، بكى مصرع السلطان الغوري بكاء مرا، ونكبة البلاد من بعده . جمال الدين السلموني (ت ٩٣٠هـ- ١٥٢٤م) وكان من أبرز شعراء عصر الغوري ، هجاء نقادا لاذع النقد والهجاء، وقد مرة على بيت قاضي القضاة شهاب الدين ابن الفرفور فمنعه حاجبه من الدخول فكتب أبياتا قال فيها:

ببابكم كلب عقـور مسلـط ... عديم الحيا والعقل في البعد والقرب

ومن يربط الكلب العقـور ببابه ... فإن بلاء الناس من رابط الكلب

فترضاه القاضي وصالحه[٢١٥].

مكانة الغوري العلمية : يظهر لنا من تاريخ الغوري، ومن أقواله التي تضمنها الكتابان نفائس المجالس والكوكب الدري ، ومما كتبه الشريفي مترجم الشهنامة ، أن السلطان الغوري كان ذا حظ من علوم التوحيد والفقه والتفسير مشاركا في علوم العربية[٢١٦] من نحو وبلاغة وغيرها ، إلا أنه كان مولعا وشغوفا بقراءة كتب التاريخ والسيرة[٢١٧] وكان يعرف عدة لغات أجنبية [٢١٨]، وله ملكة أدبية زينت له المشاركة في النظم أحيانا . كما كان يحب الموسيقى وله ألحان يتغنى بها[٢١٩].

وكان القضاة الأربعة وغيرهم لايتخلفون عن حضور مجالس الغورى ، إلا أن هناك نخبة ممتازة من العلماء، أمثال السخاوى والسيوطى والقسطلانى وزكريا الأنصارى تورعوا عن حضورها ولم تذكر أسماءهم إلا نادرا[٢٢٠].

ترجمته للشهنامة للفردوسي: كان سبب ترجمته لها من اللغة الفارسية إلى اللغة التركية أن الغورى كان يقرأ كثيرا ، ولديه خزانة فيها ضروب الكتب[٢٢١] وكان بها نسخة من الشهنامة ، فأمر الشريفى بترجمتها إلى اللغة التركية ، وتعتبر ترجمتها التى استغرقت نحو عشر سنين عملا أدبيا ممتازا ، حبذا لو كان ذلك إلى اللغة العربية إذن لأضفى ذلك على الحركة الأدبية فى عصره رونقا وبها،[٢٢٢].

شعره وموشحاته : للغورى عدة قصائد وموشحات ، القصيدة الأولى اثنان وعشرون بيتا أولها :

يا ملك أنعم ربنا الرحـــــمن وهو الكريم المنعم الرحـــــمن[٢٢٣]

يدعو الله فيها أن يؤلف بين قلوب جنده ويجمعهم حوله . والقصيدة الثانية ثلاثة وعشرون بيتا حث فيها على إحياء ليلة النصف من شعبان ودعاء له ولجنده ورعيته أولها :

لله فى أيامنــا نفـحــــات من ذكـرنا تزكـو بهـا الأوقـات

وله عدة موشحات بالعربية، منها واحد مكون من عشرة أبيات من نغم الحسينى: أوله

ربنا أدم لنا نعـمـــا جـــدت لى بهـــا كـــرمـــا

اثنا عشر بيتا من نغمة عشاق العجم: أوله :

جـــل من وهبـــا ملك مــصــر واكــتــسـبــا

اهتمامه بتعليم المماليك : يرى السلطان أن تعليم المماليك وتربيتهم تربية دينية سليمة يخلق فيهم حب الوطن والولاء له ولذلك اهتم بتعليمهم عند الفقهاء، وإحضارهم من حين لآخر إلى مجلسه ليقرؤا أمامه ويمتحنهم[٢٢٤].

ففى المجلس العاشر وكان إمام المجلس سيدى على الأخميمى، وطلع الشيخ عباس مع مملوكين ، واحد منهما حفظ عبادات مذهب أبى حنيفة والآخر حفظ القرآن الكريم. ووجود المماليك فى مجلس السلطان يدل دلالة قاطعة على اهتمامه بتعليمهم وتربيتهم[٢٢٥].

محاسن الغورى ومساوئه : أشرنا فيما سبق إلى أن للغورى صفات تدل على رقة طبعه ورقة إحساسه وولوعه بالجمال والاستمتاع بزينة الحياة الدنيا. ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالما جبارا سفاكا للدماء قاسيا على الضعفاء . وبالإضافة إلى أنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب ، كان له اعتقاد فى الصالحين ، يعرف مقادير الناس على قد طبقاتهم يمسك لسانه عن سب الناس فى شدة غضبه ، قريبا من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه[٢٢٦] ، غير كثيف فى الطبع فى ذاته ، ولديه لين جانب ورياضة ، ولم يكن عنده شمم ولاتكبر نفس عكس طبع الأتراك[٢٢٧].

وكان وفيا لإخوانه ورجاله الذين أخلصوا له ولم يغدر بهم ولانوى ذلك لهم ولا أضمر لهم حقداً ، أو دبر ضدهم مؤامرة كأسلافه ، بل كان مأمون الجانب فيما يتصل بهم عطوفا عليهم[٢٢٨].

غير أنه بجوار هذه المحاسن كانت له مساوىء كثيرة تغطى على محاسنه.. ومن المساوىء جنوحه إلى حياة عابثة لاهية، وسخائه على حفلاته وخاصته وعماراته[٢٢٩]، وشحه وبخله على جنده وعسكره الذين لم يكفوا عن الثورة مطالبين بالنفقة حتى اجترأوا عليه واستهانوا براجبهم، كذلك الضرائب الظالمة والمصادرات الجائرة وسوء ظنه ومبادرته إلى العقوبة ، كما أباح لنفسه جمع المال بأى طريق، لذلك سمح بغش وتزييف العملة والرشوة التى استشرت فى كل شىء، حتى القضاة الذين سعوا إلى وظائفهم لدى السلطان بالرشوة ، وترك لأمراء دولته الحبل على الغارب، ليتدخلوا فى القضاء، فتصدوا للفصل فى القضايا لقاء الأجور الباهظة والرشوة[٢٣٠].

لكننا أمام هذه المساوىء لانستطيع ولاينبغى أن ننسى- فى مقام التاريخ محاسن وعظمة هذا السلطان خاصة إذا أدركنا الظروف والملابسات التى صاحبت سلطنته من أول سلطنته، عاش بقية حياته مدافعا عن بلاده ما دامت مفاجآت الحوادث تدعوه إلى الدفاع الشديد الغيرة عليها، سريع الغضب إذا اعتدى على أطرافها معتد أثيم. ولوصفا له الدهر ونفوس من حوله لغير بهم وجه التاريخ.

لقد سار بنفسه إلى حلب- وهو طاعن فى السن- على رأس حملة كبرى، فشهد معركة مرج دابق وعاين النصر، لكن الخيانة والغدر لاحقته، وفرقت الدسائس بين صفوفه ، ففر جنوده لايلوون على شىء ، أما هو فقد لقى حتفه وهو يشهد خاتمته بعد أن ثبت وسط المعركة واقفا كعلمه، وبقيت سيرته عظة وعبرة لمن يعتبر .

الأعمال الخيرية للتجار الكارمية[٢٣١] وغيرهم من كبار التجار:

تمهيد:

فى العصر المملوكى عامة والجركسى خاصة أصبح تاجر الكارم هو صاحب القوافل الهائلة التى كان يحميها بخيّالة وجند يعملون لحسابه الخاص، ولهم وكالات ضخمة فى مدينة القاهرة وغيرها .

وقد حقق هؤلاء التجار من وراء عملهم هذا فى تجارة الشرق أرباحا هائلة وثروات طائلة . فقد بلغت ثروات بعضهم مليون دينار، وبلغت ثروات البعض الآخر أضعاف ذلك بكثير وقد تعذر إحصاء ثروات بعضهم[٢٣٢].

أما عن اهتمام سلاطين المماليك بهذه الطائفة، فقد قدموا لهم التسهيلات اللازمة حيث خصصوا لهم موظفا حكوميًا كبيرا هو «مستوفى البهار والكارم» يهتم بهم ويسهل لهم أمورهم، وقد حدثنا القلقشندى عن وظيفة هذا الرجل فقال: «إن موضوعها: التحدث عن أصل التجارة الكارمية من أصناف البهار وأنواع المتجر، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة، وتجعل تبعا لها ، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعا لها، وتارة تنفرد عنها حسبما يراه السلطان»[٢٣٣].

ومن الاهتمام بهذه الطائفة أقام المماليك لهم الفنادق والوكالات داخل البلاد، يمارسون فيها نشاطهم التجارى بمختلف أنواعه، كما بنى الكارمية أنفسهم بعضا من هذه الفنادق على نفقتهم الخاصة ، كانت تتم فيها صفقات بيع التوابل وسلع الشرق الأخرى لتجار أوربا، ولم تكن هذه الفنادق فى القاهرة وحدها، بل كانت لهم فنادق داخل الاسكندرية وطنطا والمحلة الكبرى ودمياط وقوص وعيذاب ومكة وعدن والهند[٢٣٤].

كيان الكارمية التجارى:

ولما كانت المراكز التجارية الكارمية هى: عدن ، وجدة ، وعيذاب ، والسواحل العربية للمحيط الهندى ، فقد ظل النشاط قائما فى تلك المراكز حتى انتقل مركز تجارة العالم من المحيط الهندى إلى البحر المتوسط، مع قيام دولة المماليك فى مصر ، وكان طبيعيا أن يتخذ العاملون فى هذه التجارة مراكز لهم على مقربة من البحر المتوسط، ولهذا جاء هؤلاء التجار إلى مصر ليتخذوها موطنا وسكنا لهم ، وأصبح بعضهم يسمى بحسن كارم ومحمد حسن كارم.

واستجابوا بذلك النشاط للاتصال العالمي بين الشرق والغرب ، فأصبحوا كبار التجار المشتغلين بتجارة الشرق العالمية، وأصبح التاجر الكارمي في العصر المملوكي الجركسي خاصة هو تاجر التوابل وسلع الشرق الغالية الثمن.

ويرجع تمتع هؤلاء التجار بالأمان على أنفسهم وعلى أحوالهم في تلك المناطق الإسلامية وإتاحة فرص الكسب الواسع لهم إلى إقرار النفوذ المصرى لهم في العصر المملوكي الجركسي قبل نهايته في البحر الأحمر، وفي تنظيم شئون التجارة في اليمن وغيرها من بلدان ذلك البحر وموانيه(٢٣٥).

أهم مميزات الكارمية :

كان يجمع الكارمية جلهم طائفة واحدة قوية تشبه الآن إلى حد كبير نقابة التجاريين، أو الغرفة التجارية ، وكان لهذه الطائفة رئيس يقوم بالإشراف عليها ويحل مشاكلها ويسمى بعدة أسماء منها «رئيس التجار» ، و«وكيل التجار » أو «شهبندار التجار» ، وكانت هذه الرئاسة وراثية يرثها الابن عن الأب جيلا بعد جيل.

وكان ابن رئيس التجار الكارمية يتعلم أصول هذه التجارة باشتراكه في رحلات تجارية بعيدة وهو في سن مبكرة ، وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء للعائلات التي تولت رئاسة الكارمية في العصر المملوكي ، أمثال عائلات: الخروبي والمحلي والدماميني وغيرهم.

وكان أهم ما يميز هذه الطائفة اتحادها رغم تعدد أجناسها وارتباطها مع بعضها برباط المصاهرة مسلمين كانوا أم يهودا ، وشاهد ذلك تلك المصاهرات التي ظلت قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، كذلك جمعت بينهم الأخطار التي كانوا يتعرضون لها في البحر الأحمر والمحيط الهندي سوا، كانت هذه الأخطار طبيعية كالأعاصير والرياح وارتفاع الموج والشعب المرجانية من ناحية أو من جهة متجرمة البحار وقراصنتها، كذلك كان الاشتراك في تجارة واحدة تتخذ لها طريقا واحدا، يحتاج بالضرورة إلى قيام طائفة تضم هؤلاء التجار وتحافظ على تجارتهم ومصالحهم(٢٣٦) .

تجار الكارم ومساعدتهم لحركة العلم والعلماء، ومآثرهم وأفضالهم :

كان لتجار الكارم مآثر وأيادي بيضاء على المجتمعات والشعوب التي عاشوا فيها أو حلوا بها، لما كانوا يتمتعون به من ثروات طائلة ، ويتحلون به من أخلاق فاضلة وتقوى زائدة، فكانوا يقيمون بإقراض المحتاجين بدون ربح(٢٣٧).

أولا: قاموا بنقل طلاب العلم على سفنهم من الراغبين فى طلبه إلى الجامع الأزهر بالقاهرة فى صورة علمية جميلة، وبعد أن ينتهى هؤلاء الطلاب من دراستهم ويريدون العودة إلى بلادهم أعادوهم مرة أخرى من حيث أتوا تدريجيا فى رحلات علمية أيضا. كما كانوا ينقلون على حسابهم بعض العلماء الذين يريدون الحج والمجاورة فى بيت الله الحرام بمكة.

ثانيا : كانوا يقومون بشراء المخطوطات التى نسخت حديثاً وظهرت فى أسواق البلاد التى يتجرون فيها، إلى راغبى العلم والمعرفة ، وبعضهم نقلوا إلى السلاطين والأمراء المماليك أندر وأنفس المخطوطات مكلفين بذلك منهم ، بل أنهم أنفسهم اقتنوا أعظم الكتب والمخطوطات فى مكتباتهم الخاصة ليطلع عليها كل من أراد، وأيضا كنوع من البركة والجمال، الذى تزدان به قصورهم.

ثالثا : خصص أغلبهم جزءا من ثروتهم لإنشاء المدارس والمساجد والزوايا والمستشفيات وترميمها بالقاهرة ومكة والمدينة.

رابعا : اهتم رجال الكارم بدراسة علوم الدين عامة والحديث خاصة. كما سهروا على العناية بتعليم أبنائهم تعليما خاصا، بإحضار الأساتذة والمشايخ لهم فى قصورهم ولم يبخلوا عليهم فى هذه الناحية، وكانوا يبتاعون لهم المخطوطات بأغلى الأثمان لتنشئتهم تنشئة دينية طيبة(٢٣٨) .

ومن يدرس تاريخ حياة هذه الطائفة بالتفصيل ، يجد أنهم لم يقتصروا على العمل فى تجارة الكارم فى البحار فحسب، بل كانوا أيضا أصحاب وكالات وحوانيت فى داخل البلاد بالقاهرة وغيرها ، وكان منهم من يعمل أيضا بالتدريس والقضاء إلى جانب عمله بالتجارة. وبالجملة فقد كان رجال الطائفة الكارمية فى العصر المملوكى الجركسى خيرة رجال عصرهم مكانة وعلما وخلقا(٢٣٩). وما يقوم به رجال المال والأعمال الآن من بناء المدارس والمستشفيات فى مصر يذكرنا بتجار الكارم وأعمالهم الجليلة فى خدمة العلم والعلماء والدين الإسلامى .

والآن سنذكر أمثلة لبعض التجار الذين قاموا بإنشاء المساجد والمدارس وغيرها رعاية للعلم: على سبيل المثال لا الحصر وحسبما أسعفتنا به المصادر المعاصرة:

١- برهان الدين المحلى التاجر (٧٤٥-٨٠٦هـ/ ١٣٤٤-١٤٠٣م) : إبراهيم ابن عمر بن على التاجر الرئيس برهان الدين المحلى الخواجا العظيم(٢٤٠) قيل إنه من ذرية طلحة بن عبيدالله ، انتهت إليه رياسة التجار فى زمانه وبلغ من الحظ فى المتجر وسعة المال إلى الغاية، وكان عنده حشمة ومرؤة وخير معروف وبر وعظمت منزلته بمصر وغيرها، جدد بمصر جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة(٢٤١) وبنى عدة أملاك تعرف به(٢٤٢). أنشأ مدرسة بمصر العتيقة وقف

عليها الأوقاف الكثيرة وعين بها المدرسين ومنهم «شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني» سمع منه صاحب المدرسة ترجمة العلامة البخاري سنة ٨٠٥هـ- ١٤٠٣م.

ولم يزل على رياسته حتى (ت في ٢٢ ربيع الأول سنة ٨٠٦هـ- ١٤٠٤م) وذكر ابن اياس وفاته في ذي الحجة من نفس السنة . وقد مدحه البدر الدماميني بشعر قال فيه:

ياسـريا مـعـروفـة ليس يحـصى ورئيـسـا زكى بفـرع وأصل

مـذ عـلا في الورى ملك عـــزا قلت هذا هو الوزير المحلى[٢٤٣]

٢- بعض الأبناء لم يلتزم بوصية والده في تكميل المدارس والإنفاق من أوقافها على العلماء والطلاب .

فالحسن بن سويد بدر الدين المصري، تاجر الكارم (ت في أوائل صفر ٨٢٩هـ - ١٤٢٦م) بنى مدرسة مقابل حمام جندر بالقاهرة . مات قبل تكميلها . وأوصد لإكمالها مبلغ أربعة آلاف دينار، ولكن أولاده ألغوا التدريس الذى كان بها وحولوها إلى مسجد[٢٤٤].

٣- محمد بن محمد بن محمد بن على بن محمد بن إبراهيم بن عبد الخالق المحب أبو القاسم بن الفاضل الشمسي النويري[٢٤٥] الميموني القاهري المالكي ، ولد بالميمون في رجب ٨٠١ - وتوفي في ٤ جمادى الأولى ٨٥٧هـ- ١٣٩٩-١٤٥٣م) . قدم القاهرة ولازم البساطي في الفقه والعلوم العقلية، وغيرها وأذن له في الإفتاء والتدريس، درس كذلك على الجمال الاقفهسي والشهاب الصنهاجي والشمس الشطنوفي وغيرهم كثيرون جدا، ألف كثيرا من الكتب والقصائد. كان متواضعا مع الطلبة كبيرهم وصغيرهم مفرطا في الانبساط معهم، باذلا جاهه لمن يقصده ، ذا كرم بالمال والإطعام . يتكسب من التجارة بنفسه وبغيره ، وقد أغناه ذلك عن الالتفات إلى وظائف الفقهاء ، عرض عليه السلطان جقمق قضاء القدس فامتنع وقضاء مصر فرفض، ولما حضروا إليه بربعة فيها مرتب العيني في الجوالي* بعد موته في كل يوم دينار قال: «إن جقمق يريد أن يستعبدني في موافقته بهذا المرتب».

بنى بخانقاه سرياقوس مدرسة وقف عليها كل ما كان في حوزته من أملاك.

ومن شعره في المدح :

وأفضل خلـق اللـه بعد نبينا عتيق ففاروق فعثمان مع علي

---

* المقصود بهم أهل الذمة (الباحث) .

وسعد سعيد وابن عوف وطلحة   عبيدة منهم والنهبر فتم لى[٢٤٦]

٤- أما محمد بن محمد بن محمد الفارسكورى البساطى المتوفى قريبا من سنة ٨٨٠هـ ١٤٥٦م أحد المتمولين من بيت تجارة ووجاهة . كان أبوه على قاعدة تجارة دمياط ، يقال إنه كان يسبك الفضة ويبيعها للهنود ، وغيرهم ، وكان يستأجر الغيطان ونحوها ، ترقى حتى زادت أمواله على الوصف، بحيث قيل أنه وجد خبيئة فى بعض المعاصر وبنى مدرسة بدمياط وعمل بها شيخا وصوفية»[٢٤٧].

٥- إبراهيم بن حسن برهان الدين المناوى ثم القاهرى التاجر (ت فى رجب ٨٧٥هـ- ١٤٧١م) عشق التجارة ، فرزقه الله منها حظا وبركة، لإخلاصه لأهل العلم والفقراء ، وصحب الشيخ الغمرى ، وقام لجامعه فى القاهرة بمصاريف كثيرة كزيت الوقود، وتسبيل الماء كل يوم والطعام ليلة الميعاد من كل شهر، والبخارى فى الأشهر الثلاثة رصد له ربعا بالقرب منه ورزقه حبسها عليه وغيره من القُرب . وصار بيته موردا للصالحين ، بل محلا لإقامة غيرهم بعياله[٢٤٨].

٦- عبد الرشيد البرلسى ثم السكندرى التاجر (توفى بمكة فى شوال ٨٨٧هـ- ١٤٨٢م) بنى فى رشيد مدرسة لطبقة علو صهريج بناء مع بيتين آخرين»[٢٤٩].

٧- وتاجر الخيل محمد الشمس بن المرضعة (٧٩٠-٨٨٩هـ- ١٣٨٨-١٤٨٤م)، كان رجلا خيرا، بدأ بتجارة الخيل، وكانت هذه التجارة فى هذا العصر رائجة رابحة جدا لحاجة أهل العصر إليها للركوب فى الأسفار ونقل البريد والحجيج بالإضافة إلى الحروب والتجاريد التى لم تنته طوال هذا العصر ، فحصل له منها رواج عظيم واتسعت دائرته وبحيث ابتنى مدرسة بخط الحجارين بالقرب من دار الخلافة فى طريق المشهد النفيسى».

٨- وهذا قبانى من أصحاب الحرف هو محمد المدعو بركات بن ولى الدين بن شمس الدين بن عبدالكريم القليوبى (ت٨٩٦هـ- ١٤٩١م) القبانى بباب الفتوح، كان صوفيا بسعيد السعداء، خيرا يقرأ القرآن ويشهد الجماعات، أصلح مسجدا تجاه خان الوراقة ، وخلوة فوق سطح جامع الحاكم[٢٥٠].

وهذا أحد الأمراء المماليك الصغار الذى كان يخدم عند التاجر نور على الطنهدى، وهو الأمير عنبر الطنبدى الطواشى أعتقه كبير التجار، وخدم عند الأمراء حتى أصبح نائب مقدم المماليك السلطانية (٨٦٧هـ-١٤٦٣م) بنى مدرسة بخط سوق الغنم قبل موته بمدة يسيرة[٢٥١].

الحواشي

١- الرازي :محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح - القاهرة دار التراث العربي د.ت مادة (وكالة).

٢- صحيح البخاري جـ٣ ص٢٠ دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان .

٣- الفكر الاقتصادي عند الخلال من خلال كتابه «الحث على التجارة والصناعة والعمل تحقيق الدكتور ضيف الله بن يحيى الزهراني مكة المكرمة سنة ١٤١٦هـ مطابع الصفا ، ص٣٨ ،٣٩ .

٤- سورة البقرة ، من آية ٢٨٢ .

٥- سورة النساء، من آية ٢٩ .

٦- سورة الجمعة، من الآيتين ٩ ، ١٠ .

٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٥ ص٤١٠ تحقيق أحمد شاكر دار المعارف - القاهرة .

٨- الضريك : كأمير : يعني الأحمق القاموس المحيط للفيروز آبادي ، أبوبكر أحمد بن محمد الخلال (ت٣١١هـ) : الحث على التجارة والصناعة والعمل ص٦ . نشر مكتبة القدسي والبدين طبع مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٤٨هـ .

٩- الخلال ... نفس المرجع ص٦ .

١٠- نفس المرجع ص٩ .

١١- نفس المرجع ص١٢ .

١٢- نفس المرجع ص١٣ .

١٣-١٤- نفس المرجع ص١٤ .

١٥-١٦- سمى وكيلا لأن موكله قد وكل إليه القيام بأموره وشئونه ، فهو موكول إليه الأمر، وهي تعني بذلك أن يعهد الإنسان إلى غيره أن يعمل له عملا ما سواء أكان بأجر أو بدونه ، وكأن تعهد «العروس» إلى ولي أمرها من أب أو أخ أو قريب أن يعقد قرانها على زوجها في الحال أو المآل، ومن ثم فالذي يقوم بهذا العمل هو «الوكيل» أو «الموكل إليه» في أداء هذا العمل وللاستزادة (راجع : ابن منظور «لسان العرب جـ١١ مادة (وكل) بيروت ، دار صادر بيروت سنة ١٩٥٦م. أيضا : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية جـ٢ مادة (وكل) ، د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية الدار المصرية اللبنانية ط أولى سنة ١٩٩٣م ، ص٥٢ وما بعدها .

١٧- القيسارية: مصطلح غير عربي، دخل اللغة العربية بالتقادم وهو مشتق من اسم «قيصر»(Cesar) و«قيصرية» (Cesarie) وهذا المصطلح يعنى سوقا صغيرة مخصصة لبيع السلع اليومية الطازجة كالخضر والفاكهة ومشتقات الألبان من زبد وسمن وجبن وقشدة وحليب وغيرها وعليها بوائك من الخشب لحماية الناس من حرارة الشمس وسقفها جملونى لحماية من بداخلها من ماء المطر، وتحتوى القيسارية على محلات للبيع وورش ومخازن، وفى الطابق العلوى يوجد- غالبا- مساكن يشغلها أصحاب هذه المحلات - راجع كتابنا «الجامع الأحمدى شقيق الجامع الأزهر» ص٤٨٨ طبعة أولى سنة ١٩٩٠م ، نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ط القاهرة - الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م ص٢٩٥-٢٩٦ ؛ د. صالح لمعى مصطفى : التراث الإسلامى المعمارى فى مصر ص٧٥ بيروت ، جامعة بيروت سنة ١٩٧٥ م ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ، القاهرة الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية سنة ١٩٧٠م ص٥٤ هذا وقد عرّفها باحث آخر حيث ذكر أنها نسبة إلى «بازيلوس» امبراطور القسطنطينية والذى يعادل لقب قيصر روما ، وهذا الاسم أطلق على الأسواق القائمة فى وسط المدينة التى تحف بها البوائك والتى تحولت فى المصطلح الدارج إلى قيسارية راجع : سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون فى دولة الإسلام الاسكندرية - منشأة المعارف سنة ١٩٨٦ ، ص٢٠٩ وذكر صاحب معجم البلدان أنها منسوبة إلى مدينة «قيسارية» الموجودة على ساحل بر الشام فى فلسطين . (ياقوت الحموى : معجم البلدان طبع طهران سنة ١٩٦٥ ، جـ٢ ص٢١٤ . أما الفندق : فهى كلمة فارسية تساوى كلمة «خان» ذكرها ابن منظورفى لسانه وأضاف أن الفندق فى لغة أهل الشام «خان» ومن هذه : الخانات التى ينزلها الناس مما يكون فى الطرق والمدائن وله معان أخرى (ابن منظور : لسان العرب مادة (فندق) ، عبد القدوس الانصارى : الفنادق والفندقة فى بلاد العرب . والاسلام (مجلة الفيصل) س١ع١ يونية سنة ١٩٧٧ م ص١٦ ، وبصفة عامة فهو مكان مهيأ لاقامة المسافرين من التجار (للتوسع راجع د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص٣٧ ، ٤٥ ، مرجع سابق .

١٨- المقريزى : الخطط جـ٢ ص٨٢ ط. بولاق .

١٩- د. حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية - القاهرة دار النهضة العربية سنة ١٩٧٩ ، ص١٩٢ ، د. آمال العمرى : أضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية (أبحاث الكتاب الذهبى فى الاحتفال الخمسينى لكلية الآثار) جامعة القاهرة -كلية الآثار سنة ١٩٧٨ ،ص٦٧-٧٠ .

٢٠- نعيم زكى فهمى- طرق التجارة الدولية ... ص٢٩٦ مرجع سبق، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة إبان العصر العثمانى ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية) تونس سنة ١٩٨٨ ، ص٤٨١ .

٢١- ابن الصيرفى : الخطيب الجوهرى على بن داود: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان تحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة ، دار الكتب سنة ١٩٧٠ م جـ١ ص٢٧١-٢٧٢ .

٢٢- جرابار ، أوليج : تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس ، إحسان صدقى العمد، مراجعة فؤاد زكريا - الكويت المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب سنة ١٩٧٨ ، جـ٢ ص٤٥ .

٢٣- ابن ميسر : أخبار مصر ص٦٢، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ١ ص٤٥١ ، د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص١٦٠ ، وكانت هذه الوكالة بجوار دار الضرب على يمنة السالك من رأس الخراطين إلى سوق الحباميين والجامع الأزهر للاستزادة راجع : د. آمال أحمد حسن العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى- جامعة القاهرة - كلية الآثار سنة ١٩٧٤ م رسالة دكتوراه ٢ مجلد غير منشورة ص١٦٨ .

٢٤- تولى الخلافة بعد موت والده سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م وكان عمره حينذاك خمس سنوات قتل سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م بعد أن حكم مصر تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف ، ومن آثاره الخالدة على الزمن للآن [الجامع الأقمر أثر رقم ٣٣ بشارع المعز لدين الله الفاطمى] ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ، ص٢٩٩ ترجمة رقم ٧٤٣ طبع القاهرة النهضة العربية سنة ١٩٤٩ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، نفس المرجع السابق جـ١ ص٣٥٧ ، جـ٢ ص٢٩٠-٢٩١ .

٢٥- ابن أيبك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر ، الدر المطلوب فى أخبارملوك بنى أيوب ، جـ٧ ص٣٠٤ تحقيق د سعيد الفتاح عاشور - القاهرة ، المعهد الألمانى للآثار سنة ١٩٧٢م، د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر- القاهرة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٣ ، جـ١ ص١٧١ .

٢٦- دكتور محمد الإسكندرانى: اكتشاف رأس الرجاء الصالح وأثره على العلاقات التجارية بين العالم الإسلامى والغرب بحث قدم للمؤتمر الدولى حول التاريخ الاقتصادى للمسلمين بجامعة الأزهر فى ذى الحجة سنة ١٤١٨ هـ أبريل سنة ١٩٩٨م جـ٢ ص٧١ ، ٧٢ .

٢٧- أحمد عبد الحميد خفاجى : طبقة التجار فى مصر المملوكية وأثرها فى المجتمع المصرى (مجلة كلية الآداب- جامعة طنطا) ع١ ص٦٨ ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م .

٢٨- خطط المقريزى، جـ٣ ص١٤٩-١٥١ طبع بمطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٥هـ .

٢٩- راجع خطط المقريزى ، جـ٣ ص١٤٠-١٤٨ ، طبعة النيل .

٣٠- أنشأها الأمير قوصون سنة (٧٤٣هـ/ ١٣٤١م) أثر رقم ١١- أى قبل موته فى هذه السنة، وقد خربت هذه الوكالة سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) أيام السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق من حيث وجود هجوم تيمور لنلك على الشام وتخريبها ، وقتن الخراب بين الأميرين نوروز الحافظى ، وشيخ المحمودى، وعم الغلاء والفناء، ولم يفيض النيل فى هذا العالم . للاستزادة عن الأمير قوصون - المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٩٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، طبع بولاق .

- عبداللطيف ابراهيم : ثلاث وثائق فقهية (مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة) . مج ٢٥ ، جـ١ مايو ١٩٦٣ ، ص١٢٩ ، د. رفعت موسى محمد الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص٥٥ مرجع سابق .

٣١- المقريزى : الخطط نفس المرجع جـ٣ ص١٤٠ وما بعدها .

٣٢- للاستزادة عن السلطان قايتباى وآثاره المعمارية انظر : حسنى محمد نويصر منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة دراسة معمارية أثرية - كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م (رسالة دكتوراه غير منشورة) د. عبد الرحمن عبد التواب قايتباى المحمودى - الأعلام ، طبع الهيئة العامة للكتاب وترجمتنا له فى هذا البحث .

٣٣- أثر رقم ٧٥ (٨٨٢هـ- ١٤٨٠م) هذا ولم يبق منها الآن إلا الطابق فوق الأرض والسبيل الملحق بها ، ويطلق عليها العامة وكالة «حلة».

٣٤- أثر رقم ٩ (٨٨٥هـ - ١٤٨٠-١٤٨١م) .

٣٥- سجل هذا البيع فى الوثيقة رقم ١٤١ جـ أوقاف ، وذكرت هذه الوكالة فى وثيقة ٨٨٢ أوقاف ، وقد أرخها الدكتور أحمد محمود عبد الوهاب المصرى بنهاية القرن ٩هـ/ نهاية ق١٥ أو أوائل ق١٦ راجع رسالته: العمارة فى وثائق الغورى الجديدة بوزارة الأوقاف - جامعة أسيوط - آداب سوهاج سنة ١٩٨١ م ، ص٤٢ - ٤٥ .

٣٦- أثر رقم ٦٤ (٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٤-١٥٠٥م) .

٣٧- صالح لمعى مصطفى : التراث المعمارى الإسلامى ... ص٦٠ مرجع سابق .

٣٨- تقوم وزارة الثقافة الآن على قدم وساق بترميم وتجديد هذه الوكالة بعد أن فرغت منها أصحاب الحرف التقليدية (النحاس والزجاج وخشب الخرط والخزف والحلى الشعبية وغير ذلك) ، وتقل منها كذلك جمعية «أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة» ومرسمها الحر (الباحث) .

٣٩- راجع : فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، القسم الثاني- الترتيب التاريخي ص٠١-١٤ بينما يذكر د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم أن عددها أربعة عشر من خلال الوثائق وهم : وكالة الزيت ، وكالة الغورية ، وكالة باب الشعرية، وكالة الماوردي، وكالة الجراكسة ، وكالة الكعكيين وكالة السكر ، وكالة المرجان ، وكالة الجلاية ، وكالة ذو الفقار ، وكالة الخشر، وكالة الشرايبي ، وكالة أحمد المراكشي، وكالة المغاربة راجع: د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثماني (مجلة كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر) ع٣ سنة ١٩٨٥م ، ص٢٩٩-٣٠٠ . لكن أدموند بوتي ذكر ستة عشر وكالة في القاهرة وبولاق (ق٠١هـ- ١٦م) وهم : وكالة حسن الباشا الوزير (أثر رقم ٥٣٨) سنة ٩٩١هـ ١٥٨٣م وكالة الخروب ((أثر رقم ٥٣٦ق٠١هـ- ١٦م) وكالة سليمان باشا (أثر رقم ٥٣٩)(٩٤٨هـ ١٥٤١م) وجميعهم في بولاق (ق١١هـ / ١٧م) وكالة الرش أثر رقم ١٩ (١٠٨٤هـ- ١٦٧٣م) بينما ذكرت في فهرس الآثار الإسلامية وكالة أودة باشي، وكالة مصطفى بيه طبطباي أثر رقم ٢٧٢ (١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م) بباب النصر ولم تذكر في فهرس الآثار الإسلامية ، وكالة عباس أغا (أثر رقم ٣٩٦ (١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م)، وكالة النقادي (أثر رقم ٣٩٧) (١٠٢٨هـ - ١٦١٨م) وكالة جمال الذهبي (أثر رقم ٤١١) - (١٠٤٢هـ- ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٢-١٦٣٥م) ، وكالة محمدين (أثر رقم ٥٠٠) (ق١١هـ- ١٧م) ولم تذكر في فهرس الآثار الإسلامية، وكالة الحرمين (أثر رقم ٥٠١) (ق١١هـ- ق١٧م) وكذلك لم تذكر في فهرس الآثار الإسلامية وكالة التوتنجي أثر رقم ٥٤٨ (ق١١هـ / ١٧م) أما القرن ١٢هـ ١٨م فقد حاز على ثلاث وكالات هي وكالة نفيسة البيضا (أثر رقم ٣٩٥) ١٢١١هـ/ ١٧٩٦ وكالة بازرعة (أثر رقم ٣٩٨) ق١٢هـ ١٨م) وكالة الشرايبي أثر رقم ٤٦٠ (١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م) راجع د. رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت ص٦٠ حاشية ١ .

٤٠- الخطط جـ٣ ص١٥٣-١٥٤ طبعة النيل .

٤١- أثر رقم ٦٤ (٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٤-١٥٠٥م).

٤٢- أثر رقم ٥٣٦ (ق٠١هـ-١٦م) .

٤٣- أثر رقم ٥٣٩ (٩٤٨هـ / ١٥٤١م) .

٤٤- أثر رقم ٥٣٨ (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) .

٤٥- للتوسع راجع د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية - مرجع سابق ، ص٦١ ، ٦٢ .

٤٦- راجع ملحق رقم وثيقة من أربع صفحات لحوانيت ورباع وحجرات سكنت بالأهالى فى وكالات تابعة لرواق المغاربة بالأزهر ، وينفق ريعها على مصالحه وطلاب العلم المجاورين به .

٤٧- د. محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم : المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية القاهرة - الجامعة الأمريكية سنة ١٩٩٠م ص٢٢ .

٤٨- د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٦٠ ، د. آمال أحمد حسن العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى رسالة دكتوراه - غير منشورة -كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤ .

٤٩- أنبوب ينطلق منه الماء إلى الفسقية فإذا كان ثابتا أطلق عليه فوار والمتحرك منه يسمى دوارة (د.محمد محمد أمين المصطلحات .. نفس المرجع ص٨٥ ، ٨٧) .

٥٠- مازال الناس فى بعض قرى مصر يطلقون على المكان الذى يضعون فيه تموين البيت من أرز وفول وذرة وغيرها حاصل ويعنون به «المخزن».

٥١- كما فى وكالة الغورى بشارع التبليطة بالأزهر (راجع د. مجاهد توفيق الجندى: المعمار المسلم سبق العالم الغربى فى تشييد الأسواق التجارية المتكاملة - جريدة الإيمان الكويتية (العدد ٨٨٥٨ الجمعة ١٧ من شوال سنة ١٤٢١هـ ٢ يناير سنة ٢٠٠١ م ص٤) .

٥٢- الصهريج : هو خزان أرضى للمياه يبنى بالطوب الآجر والخافقى فى تخوم الأرض لحفظ المياه، وله قبة غير عميقة مقامة على دعامات وقناطر من الحجر الفص النحيت ، وتغطى فوهته بخرزة من الرخام أو الحجر الصد المستدير الشكل (د. عبداللطيف ابراهيم : وثيقة قراقجا الحسنى أمير أخور كبير ص٢٠٣ مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة مج١٨ ج٢ ، د. مجاهد الجندى : الجامع الأحمدى ص٤٨٢ ، ٤٨٣ .

٥٣- الرواق : يطلق على المساحة المحصورة بين صفين من العقود ، وهو القاعة أو الايوان أو الغرفة ، وفى العصر المملوكى كان يختلف معنى الرواق فى المسجد عنه فى المنزل ففى المساجد كان معناه المسطحات المسقفة التى بين الأعمدة وفى المنازل الوحدة السكنية أو بعضها (صالح لمعى : التراث المعمارى الاسلامى ص٩٥) .

٥٤- الدرقاعة هى الجزء الذى يتوسط القاعة أو المسجد أو المدرسة ، وعنها يمكن الدخول إلى أجزائها ويكون مستوى أرضية الدرقاعة منخفضا عن مستوى أرضية الأواوين بمقدار درجة سلم ... للاستزادة أ.د. محمد محمد أمين : المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص٥٠ ، د. مجاهد توفيق الجندى : الجامع الاحمدى شقيق الجامع الأزهر ص٤٨٧ طبع أولى سنة ١٩٩٠م ، وثروت عكاشة : القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية ص٨٦ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١ م.

٥٥- الحقوق هى غرفة الخدمات (المعيشة) توجد دائما مع كلمة منافع (د. صالح لمعى مصطفى التراث المعمارى الاسلامى فى مصر ط. بيروت سنة ١٩٧٥ ، ص١١٨) .

٥٦- د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص٦٩ الدار المصرية اللبنانية ط. أولى سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

٥٧- الخطط المقريزية جـ٢ ص٩٣ طبع بولاق مرجع سابق .

٥٨- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط جـ٢ مادة (تنصل) .

٥٩- طوبيا العنيسى : تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية ص٥٩ .

٦٠- نفس المرجع ص٥٩ .

٦١- صبح الأعشى جـ٨ ص٥٣ طبع دار الكتب المصرية . وللتوسع راجع : صبحى لبيب: الفندق ظاهرة سياسية ص٢٩٥-٢٩٩ .

٦٢- دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى... ص٧٧ دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢ م .

٦٣- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية جـ١ مادة سمسر .

٦٤- ابن منظور : لسان العرب مج٤ مادة سمسر .

٦٥- نفس المرجع .

٦٦- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية جـ١١ مادة (دلال) ، الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦، ص٦٤ .

٦٧- السبكى : تاج الدين عبد الوهاب ت٧٧١هـ - معيد النعم ومبيد النقم تحقيق محمد على النجار وأبوزيد شلبى ومحمد أبو العيون القاهرة ، والخانجى سنة ١٩٤٨م.، ص١٤٣-١٤٤ .

٦٨- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤ ص٣٠٤ ، د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف جـ٣ ص٩٩١ .

٦٩- د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية - مرجع سابق - ص٧٤ ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثماني - مجلة كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر سنة ١٩٨٥ عدد ٣ ص١٩٦ .

٧٠- ابن الاخوة : محمد بن محمد أحمد القرشى : معالم القرية فى أحكام الحسبة . تحقيق روبن ليوى بكيمرج - دار الفنون سنة ١٩٣٧ ص١٥٢-١٥٣ .

٧١- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية مادة (بوأب) .

٧١- السبكى : معيد النعم - نفس المرجع ص١٤٤-١٤٥ وللاستزادة د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ١ ص٣٢٠-٣٢٣ .

٧٣- تدهورت أحوال صاحب هذه الوظيفة عندما أصبح البواب يتقاضى مرتبا لايكفيه وأولاده خبزا فقط فى الشهر فترك الباب وصار يبحث عن رزقه ومن هنا تندر العامة بقولهم لمن يدخل بدون إذن : هى وكالة من غير بوأب (الباحث) .

٧٤- ابن منظور : لسان العرب مجلد ١٢ مادة (ترجم)، المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية جـ١ مادة (ترجم) .

٧٥- ابن طولون الدمشقى شمس الدين محمد : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان - تحقيق محمد مصطفى - القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٤م جـ٢ ص١١١ . وللتوسع راجع: القلقشندى : صبح الأعشى جـ٨ ص١٢٣-١٢٥ ط. دار الكتب المصرية .

٧٦- ابن منظور : لسان العرب ط١ بيروت دار صادر . دار بيروت ١٩٥٦م مجلد ١٣ مادة (ثمن) مرجع سابق والمعجم الوسيط جـ١ مادة (ثمن) .

٧٧- صبحى لبيب : الفندق ظاهرة سياسية ... ص٢٩٤ .

٧٨- د. حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف .. جـ١ ص٤٢٩ ، ٤٣٠ .

٧٩- ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ، نفس المرجع ج٢ ص١١٠-١١١، أحمد المصرى - العمارة فى وثائق الغورى ... ص١٩ .

٨٠- د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ١ ص٤٢٩، ٤٣٠ .

٨١- نفس المرجع جـ٣ ص٨٩٢ .

٨٢- أحمد المصرى - العمارة فى وثائق الغورى ... ص١٧ ؛ ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص٨٤ ، صبحى لبيب ، الفندق ظاهرة سياسية ص٢٩٤ .

٨٣- حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ٢ ص٨٩١ ؛ والبرنبالى: نسبة إلى «برنبال» بلدة تتبع مركز منية النصر دقهلية تنقسم إلى برنبال القديمة وبرنبال الجديدة، راجع : دليل المحافظات والأقسام والشياخات ص٢٧ رئاسة مجلس الوزراء / مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار. مصلحة الأحوال المدنية.

٨٤- ابن منظور : لسان العرب مج ١ مادة (دلب) - محمد على الأنسى : الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات مادة (دولاب) ص٢٦٢ .

٨٥- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية مادة (شد) ، د. حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف جـ٢ ص٦٠٤ ، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢١٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

٨٦- صبح الأعشى جـ٣ ص٣٩٠ مرجع سابق .

٨٧- د. محمد محمد أمين : الشاهد العدل فى الشرع الإسلامى- دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق اسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك (مجلة الدارة السعودية) س٨ ع٢ أكتوبر سنة ١٩٨٢ م ص١٢٦ .

٨٨- د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ... جـ٢ ص٦١٩ .

٨٩- السبكى : معيد النعم ... ص٦٣ ، ٦٤ ، د. حسن الباشا الفنون والوظائف ص٦١٨-٦٢٢ .

٩٠- النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ٧٣٢هـ : نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ٣ ص٢٩٩ القاهرة- دار الكتب المصرية.

٩١- ابن الصيرفى : نزهة النفوس ... مرجع سابق ج١ ص١٣٢ .

٩٢- عن هذه الوظائف راجع القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٦٢ ، ج٤ ص٣٣ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ج٥ ص٤٦٥ ، ج٦ ص٣١ ، ج١١ ص٣٥٣ .

٩٣- ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ج١ ص١٤٨ .

٩٤- د. حسن الباشا : الفنون والوظائف ج٣ ص٩٠١ - ٩٢٠ .

٩٥- دكتور عمر عبد العزيز العانى: العلاقات التجارية بين المسلمين وغير المسلمين فى الفقه الإسلامى- بحث قدم للمؤتمر الدولى حول التاريخ الاقتصادى للمسلمين فى الفترة من ٢٨-٣٠ ذى الحجة سنة ١٣١٨هـ (٢٥-٢٧ أبريل سنة ١٩٩٨ م) مركز صالح كامل وقسم التاريخ فى كلية اللغة العربية

بالقاهرة - وقسم التاريخ فى كلية الدراسات الإنسانية بنات جامعة الأزهر ملخصات البحوث ص٢٥، ٢٦ .

٩٦- من الطرق التجارية إلى وكالات القاهرة درب الأربعين الذى ربط تجارة غرب أفريقيا والسودان بها قرونا طويلة ... لقد سرنا عليه فى رحلة علمية لقسم التاريخ والحضارة فى كلية اللغة العربية يوم ٢٧ يناير / ١ فبراير ٢٠٠١ فى زيارة لمحافظة الوادى الجديد وأطلعنا على بعض القلاع الإسلامية وقرية المكس.

٩٧- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى جـ٧ ص٢٣٨-٢٣٩ .

٩٨- نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ أهل الزمان لابن الصيرفى ج٣ ص٥ ، النجوم الزاهرة، ج١٤ ص٢٤٢ .

٩٩- خطط على مبارك ، جـ١ ص٤٤، ٤٥ ، راجع فى صفاته وأولاده : النجوم الزاهرة، ج١٥ ص١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

١٠٠- البدر الطالع ، ج١ ص١٦١ ، ١٦٢ .

١٠١- نزهة النفوس ، ج٣ ص١٤٤ .

١٠٢- راجع غزواته الثلاثة فى : نزهة النفوس ، ج٣ ص٧٦ ومابعدها ، والغزوة الثالثة ص٨٤ ، وما بعدها ، ص٠٥٠ ، ٢٥٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٨، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، وكذلك النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٢٧٠ ، الغزوة الأولى، والثانية ص٣٧٦ ، والثالثة وفيها بعض أعيان الفقها، ص٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ - ٢٩٨ .

١٠٣- راجع نزهة النفوس جـ٣ ، ص١٨٥ حيث جمع السلطان تجار الكارم وألزمهم بأوامره ومرسومه .

١٠٤- راجع : نزهة النفوس ، جـ٣ ص١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٨٥ .

١٠٥- شذرات الذهب، جـ٧ ص٢٣٩ .

١٠٦- نزهة النفوس، ص٣٧٧ .

١٠٧- راجع ترجمته بالضوء اللامع جـ٣ من ص٨-١٠ .

١٠٨- خطط على مبارك ، جـ١ ص٤٥ .

١٠٩- أثر رقم ١٧٥ .

١١٠- تقع الآن فى شارع المعز لدين الله الفاطمى فى التقاطع بين شارعى الأزهر والموسكى بجوار المناوى صاحب محل العطر هناك ، الاسحاقى: أخبار الأول، ص١٤٨ .

١١١- النجوم الزاهرة ، جـ١٦ ، ص١٨٧ ، ١٨٨ . نزهة النفوس ج٣ ص٢٦ .

١١٢- راجع النجوم الزاهرة ج١٦ ص١٨٠ .

١١٣- نزهة النفوس ، ج٣ ص٥٣ .

١١٤- العلامة القاياتي: محمد بن علي بن محمد بن يعقوب من محمد الشمس أبوعبدالله بن النور القاياتي القاهري الشافعي، ولد سنة ٧٨٥هـ - ١٣٨٣م بالقايات من أعمال البهنساوية، درس الفرائض على عمه الذي كان ماهرا فيها بالقاهرة، تكسب بالزراعة ثم نزل طالبا بالمؤيدية ، ثم مدرسة المحدثين بالبرقوقية ، ثم مدرس الشافعية بأشرفية برسباي ، ثم شيخ سعيد السعداء، ثم مدرس بالغرابية، خطبة الظاهر جقمق للقضاء فباشره بعفة ونزاهة ولم يأذن إلا قليل من النواب، نظم الأوقاف وعمرها ونظر في مصالحها وصرف لمستحقيها ثم تعين أخيرا لتدريس الفقه بالصلاحية والشيخونية، ثم مشيخة البيبرسية ونظرها (ت في محرم ٨٥٠هـ- ١٤٤٦م) وكان عالما علامة غاية في التحقيق وبالتدقيق وجودة الفكر، وكانت طريقته في التدريس أحسن قبل القضاء لتصديه للعلم ليل نهار (الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع للسخاوي).

١١٥- ولد بزرزاوا من قرى مصر، ثم رحل إلى اليمن مع البدر الدماميني، درس الفقه المالكي بالشيخونية والبرقوقية والأشرفية ببرسباي ، أفتى وانتفع به الطلبة (ت٨٤٦هـ- ١٤٤٠م). راجع ترجمته بأنباء الغمر (وفيات ٨٤٦هـ) ، والضوء اللامع جـ٤ ص٦٦ ، البقاعي: عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران ، ترجمة رقم ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص٢٧٩ .

١١٦- كانت الزركشة صنعة والده، رحل في طلب العلم إلى دمشق ونابلس واسكندرية ودمياط ، والصعيد ، ترجمته في أنباء الغمر رقم ٧ في وفيات ٨٤٦هـ ، البقاعي: مرجع سابق، ترجمة رقم ٢٧٢ ، ص١٧٩ .

١١٧- نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص١٩٥ ، ١٩٦ .

١١٨- خطط علي مبارك ، جـ٤ ص٥٨ ، حجة وقف برسباي.

١١٩- حجة برسباي رقم ٨٨٠ أ ، أوقاف ، ٥٠٥ ميكروفيلم ص١٧٩ ، المجلس الأعلى للثقافة .

١٢٠- حجة برسباي رقم ٨٨٠ أ ، أوقاف ، ص١٨٤ .

١٢١- راجع ص١٩١ من نفس الحجة ، ويلاحظ أن هذه هي الحجة الوحيدة التي ذكرت خطاطين يعلمون أرباب الوظائف بهذه المدرسة تحسين الخط خاصة.

١٢٢- نزهة النفوس، ص٣٩٥ ، ابراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص٣٢٢، حسن عبد الوهاب ، مساجد القاهرة ، ص٢٢٩ ، د. سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، مرجع سابق ص١٠٦ .

١٢٣- النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص٢٠٤ ، الضوء اللامع ، ج٨ ص١٤٣ .

١٢٤- خطط على مبارك، جـ٤ ص٥٩ .

١٢٥- راجع حجة برسباى ، بأرشيف وزارة الأوقاف .

١٢٦- راجع حجة برسباى رقم ٨٨أ، أوقاف ، المصدر السابق .

١٢٧- أثر رقم ١٧١ .

١٢٨- راجع حجة برسباى نفس المرجع ، خطط على مبارك ، ج٤ ص٥٩ ، د. ابراهيم طرخان : مرجع سابق ، ص٢١٨ وما بعدها ، ص٣٢٢ .

١٢٩- الخطط التوفيقية ، ج٤ ص٥٨ .

١٣٠- راجع : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية لابن الجيعان ص١٨٥ .

١٣١- د. سعاد ماهر ، محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ص٥٢،٥٣ .

١٣٢- للسلطان برسباى مصحف بمعرض دار الكتب برقم ١٩ مصاحف .

١٣٣- نزهة النفوس، ج٣ ص٥٥ .

١٣٤- المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

١٣٥- النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص٣٩٤ ، ٣٩٥ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباى المحمودى ص٩ وما بعدها .

١٣٦- راجع الملاحق .

١٣٧- الضوء اللامع ، ج٦ ص٢٠١-٢١١ ، الاسحاقى، أخبار الأول ، ص١٥٠ ، البدر الطالع للشوكانى، ج٢ ص٥٥ ، ٥٦ .

١٣٨- راجع د. سعاد ماهر : الجمهورية العربية المتحدة ، مرجع سابق ، ص٦٤ ، ومدفون بهذا المسجد زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكى ، وقد أعلا بناءه من جديد السلطان قايتباى ، كما هو مدون على اللوحة المثبتة داخل الضريح .

١٣٩- سلامون الغبار : إحدى قرى مركز بسيون محافظة الغربية وقد زار الباحث القرية بصحبة عمدتها الشيخ محمد الجندى سنة ١٩٨٠م.

١٤٠- على مبارك : الخطط ، جـ١١ ، ص٥٢ ، د. سعاد ماهر، محافظات الجمهورية ، ص١٧٩ ، ١٨٠، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة رقم ٨٨٩ (ق) . أوقاف بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ٨٨١هـ، تحقيق د. محمد محمد أمين .

١٤١- شذرات الذهب ، جـ٨ ص٨ .

١٤٢- التحفة السنية ، ص١٦٦ .

١٤٣- الضوء اللامع ، مرجع سابق نفس الجزء والصفحات ، تاريخ التربية فى مصر، ص٢١٨-٢١٩ .

١٤٤- عبد الرحمن زكى : قلعة مصر، ص٥١ ، ١٠٥ ، ١١٠ .

١٤٥- راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة رقم ٨٨٦ أوقاف ، ٥٠٣ ميكروفيلم المجلس الأعلى للثقافة .

١٤٦- الخطط التوفيقية ، جـ١ ص٤٦ .

١٤٧- قايتباى المحمودى ، ص٨٤ .

١٤٨- شذرات الذهب، جـ٨ ص٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة ، رقم ٨٨٧ أوقاف ٤٩٤ ميكروفيلم .

١٤٩- راجع عمائر السلطان وأماكنها بمصر فى: قايتباى المحمودى من ص١٨٦-١٩٣ للعمائر الدينية والتعليمية ، من ص١٩٤-١٩٨ للعمائر المدنية، من ص١٩٨-٢٠٠ للأسبلة التى يعلوها الكتاتيب ، ومن ص٢٠٠-٢٠١ لأعمال الرى، ومن ص٢٠١-٢٠٤ للعمارة الحربية ، ومن ص٢٠٤-٢٠٥ لعمائره بالشام، ومن ص٢٠٥-٢٠٨ لأعماله بالحجاز. أما عمائر رجال الدولة ووجهاء مصر فى عهده فمنها : (١) مسجد المرأة (فاطمة الشقراء) بشارع تحت الربع، (٢) مسجد قيم الرصافى بحى السيدة زينب، (٣) مسجد وسبيل قراز الأحمدى بالسيدة زينب ، (٤) مسجد وقبة جانم البهلوان بأول شارع السروجية ، (٥) مدرسة أبوبكر مزهر بالخرنفش (راجع : عارف رزق : رسالة ماجستير عن هذا المسجد رقم ١٠٣٦ بجامعة القاهرة ، (٦) مسجد وحوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر (حسن عبد الوهاب : ص٢٦١ ، ٢٦٦) ، (٧) مسجد السلطان أبى العلا (٨) تكية أحمد أبوسيف بالقرافة الشرقية ، (٩) زاوية فاطمة أم خوند بباب الشعرية (١٠) مسجد بدر الدين الوفائى بشارع الزرايب بحى الخليفة، (١١) مسجد ازدمر بشارع صلاح سالم بجوار مجرى العيون (١٣) مدرسة الأمير أزبك اليوسفى بحى السيدة زينب ، (١٢) ضريح الشرفا بالقلعة ، (١٤) مقعد الأمير ماماى ببيت القاضى

بالجمالية ، بالإضافة إلى آثار الأمراء التى عفا عليها الزمن كجامع أزبك بن ططخ بالأزبكية وحوضه وسبيله ببركة الحاج.

١٥٠- للسلطان قايتباى وثائق وقف بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة على منشآته هذه مسجلة تحت أرقام : ٨١٠ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠، ٩١٢ (ق) ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٧٠ ، ٦٧٦ ج ولم ينشر منها سوى جزء من الوثيقة رقم ٨٨٦ والوثيقة رقم ٨٨٧ انظر د. عبد اللطيف ابراهيم على : كتاب مؤتمر الآثار الثالث فى البلاد العربية ١٩٥٩م كما يوجد مجموعة منها بمحكمة الأحوال الشخصية تحت أرقام ١٨٧ محفظة ٢٨، ١٩٧ ، محفظة ٣٠، ٢١٠ محفظة ٣٣، ٢١٥ محفظة ٣٤ .

١٥١- راجع مجالس : ذى القعدة ٨٧٢هـ، ربيع الآخر ٨٧٣هـ، ربيع الآخر ٨٧٥هـ، ربيع الآخر ٨٧٦ هـ، ٢٥ من جمادى الأولى ٨٧٦هـ، رجب ٨٧٦ ، ١٠ رجب ٨٧٦هـ ، شوال ٨٧٦ هـ، رجب ٨٧٦هـ، رجب ٨٧٧هـ، المحرم ٩٠٠هـ، فى كتاب قايتباى المحمودى ص٤٨-٦٣ . وفى هذا المجلس الأخير سأل السلطان الشيخ جلال الدين السيوطى عن أى سُنَّة سنها الرسول ﷺ ولم يفعلها ، فلم يجبه السيوطى، وكان لدى السلطان كتاب «حيرة الفقهاء» ثم أجاب السيوطى بعد ذلك بأن السلطان يقصد الأذان ، فأنه سنة ولم يفعله ، والأصح أنه أذن فى وقت أورد فى ذلك الحديث، وعمل فى هذه المسألة كراسة مطولة.

١٥٢- قايتباى المحمودى ، مرجع سابق ، ص١٣١ .

١٥٣- الضوء اللامع ، جـ٨ ص١٧٦-١٧٨ ، نمرة ٤٣٨ .

١٥٤- قايتباى المحمودى، ص١١٨ .

١٥٥- الخطط التوفيقية ، جـ١ ص٤٦ .

١٥٦- راجع قايتباى المحمودى، ص٨٠-٨٣ ، إلا أن بعض الأهالى يستعملون هذا الربع الآن فى عمل ورش الحديد وغيره، كما يربون فيه أنواعا من الحمام ، وهو ظاهر للعيان، ولمن أراد الاطلاع على ذلك فليذهب إلى هناك ليرى مدى الاستعمال السئ لهذه الآثار النادرة الآن (الباحث) . وهذا الربع يقع على يمين الداخل من باب النصر .

١٥٧- قايتباى المحمودى، ص٣١-٣٢ .

١٥٨- راجع رحلاته بالتفصيل فى المراجع المعاصرة، قايتباى المحمودى ، ص٦٣-٨٥ ، وهذه سنوات خروجه ورحلاته : فقد كان أول ركوبه من القلعة فى شعبان ٨٧٢هـ، وفى صفر ٨٧٣هـ خرج للنزهة ،

وفى ربيع الأول ٨٧٣هـ خرج إلى خانقاه سرياقوس، وفى شوال ٨٧٣ هـ توجه إلى قليوب وقناطر أبى منجا . وفى ذى القعدة ٨٧٣هـ توجه إلى طرا فى ضيافة . فى نفس الشهر والسنة سافر إلى بحيرة تنيس على حين غفلة وانقطع خبره عن الناس مدة . وصلى العيد بفارسكور . وفى جمادى الأولى ٨٧٤هـ نزل بركة الحاج . وفى جمادى الآخرة ٨٧٤هـ توجه إلى خليج الزعفران للنزهة . وفى ذى القعدة من نفس السنة خلع الصوف ولبس البياض وابتدأ ضرب الكرة مع امرائه . وفى ربيع الأول ٨٧٦هـ ذهب للنزهة إلى طرا، والمطرية . وفى جمادى الآخرة ٨٧٥ سار إلى الخانكة والعكرشا وهو راكب الهجن . وفى رجب ٨٧٥هـ توجه إلى الأهرام، وفى ذى القعدة ٨٧٦ هـ نزل فى ضيافة . وفى المحرم ٨٧٦هـ توجه إلى شبين القصر وقد شب عليه فرس رفسه وكسر ساقه . وفى ربيع الآخر ٨٧٦هـ نزل إلى خليج الزعفران للنزهة . فوجد امرأة ميتة فأم الجماعة وصلى عليها . وهذه حسنة من حسناته . ومكرمة توضع فى سجلاته . وفى رجب ٨٧٦هـ نزل للمحاكمات . وفى صفر ٨٧٧هـ توجه إلى دمياط ورشيد وتوجه وركب البحر، واستغرقت الرحلة ١٣ يوما . وفى جمادى الأولى ٨٧٨هـ توجه إلى طرا . وفيه أيضا توجه إلى خليج الزعفران، وفى ربيع الآخر نزل إلى شبرا بعد أن أشيع سفره إلى الشام. فى جمادى الآخرة ٨٨٠هـ توجه إلى طرا فى ضيافة وقد لدغته نحلة تورم منها وجهه وعاد لتوه . وفى جمادى الآخرة ٨٨٠هـ توجه إلى دمياط، ثم ذهب إلى مكان ليصيد فيه السمك البورى وعاين كيف يصاد وهو راكب مركب صغير . وفى رجب ٨٨٠هـ سافر لبيت المقدس خلسة وزار الخليل ومكث بالقدس ثلاثة أيام، وقد أمر ببناء جامع بالقرين وهو مار بهذا البلد. وفى ذى القعدة ٨٨٠هـ سافر للفيوم للمرة الثانية وشاهد الطاحون الذى أنشأه خيربك من حديد ويدور بالماء . وفى شعبان ٨٨١هـ نزل للرماية . وفى رمضان ٨٨١هـ أشيع بين الناس أن السلطان ارتدى زى المغاربة ونزل إلى الجامع الأزهر، وصلى به، وكان يسأل فى بعض الطرقات الناس عن سيرة نفسه، ووقع له مع الناس فى هذا الأمر أشياء عجيبة وسمعهم وهم ينقدونه .

١٥٩- أثر رقم ١٢ .

١٦٠- قايتباى المحمودى ص٤٢ .

١٦١- راجع أحداث هذه الواقعة فى المراجع المعاصرة . قايتباى المحمودى ص٤٢-٤٥ .

١٦٢- المرجع السابق ص٨٥ .

١٦٣- خطط على مبارك ج١ ص١٤٧ .

١٦٤- شذرات الذهب ج٨ ص٩، قايتباى المحمودى ص٨٦-٨٨ ، خطط على مبارك ج١ ص١٤٧ . وقد أحسنت وزارة المالية حينما صورت مسجد السلطان قايتباى على الورقة الجديدة فئة الجنيه وذلك كنوع من التخليد لآثارنا الإسلامية، وكنوع من تشجيع السياحة الدينية فى مصر التى ترتبط بذكريات هذا السلطان العظيم (الباحث) .

١٦٥- ضبط الدكتور عبد الوهاب عزام كلمة الغورى بفتح العين لا ضمها، وبين أن حجته فى ذلك مصحف فى دار الكتب المصرية كتب باسم الغورى عليه بهذا الضبط ، ويرشح هذا الرأى ويقويه أبيات كثيرة فى الشاهنامة التركية جاء فيها القافية مع كلمات مثل ثور وغور، وأن الاسم ضبط هذا الضبط فى عنوان هذا الكتاب، (راجع ص٨ من كتاب مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام) .

١٦٦- شذرات الذهب ، جـ٨ ص١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٢ ، الأشرف قنصوه الغورى للدكتور محمود رزق سليم، ص٣٠-٣٣ ، الاسحاقى : أخبار الأول ، ص١٥٢ .

١٦٧- د. عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى ، ص٩ وما بعدها . د. محمود رزق سليم المرجع السابق ، ص٣٣-٣٥ .

١٦٨- بدائع الزهور، حوادث سنة ٩٠٦هـ.

١٦٩- راجع صورة الغورى فى أول كتاب مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام.

١٧٠- بدائع الزهور ، ج٦ ص٨٧ (حوادث سنة ٩٢٢هـ) .

١٧١- بدائع الزهور ، جـ٤ (ط ألمانيا) ص٢٥٤ ، ٢٥٥ ، مجالس السلطان الغورى ، ص١٥-١٧ ، الأشرف قنصوه الغورى ، مرجع سابق ، ص١٨٠ .

١٧٢- بدائع الزهور (ط ألمانيا) ، ص١٧١ ، ج٤ .

١٧٣- المرجع السابق ، ص٩٤ ، مجالس السلطان الغورى، ص٣٢ .

١٧٤- المرجع السابق ، ص١٠٢ .

١٧٥- نفس المرجع والصفحة.

١٧٦- المرجع السابق ، ج٤ ص١٧٢ ، مجالس السلطان الغورى، ص٣١ .

١٧٧- الأشرف قنصوه الغورى ، ص١٨٥ .

١٧٨- بدائع الزهور ، جـ٤ ص٨٦ حوادث سنة ٩٢٢هـ .

١٧٩- بدائع الزهور ، ج٤ ص٢٣٩ ، ٢٤١ ، وراجع الأشرف قنصوه الغورى ، ص٩١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، وللشاعر بدر الدين الزيتونى من أدباء العصر قصيدة طويلة فى منشآت الغورى (بدائع الزهور) جـ٤ ص١٠٢ .

١٨٠- وقد تهكم اسماعيل شاه الصفوى ببستان الغورى هذا وانشغاله بغرس الأشجار بقصيدة أرسلها إليه وقد رد عليه شعراء العصر بعدة قصائد رنانة راجعها فى : بدائع الزهور جـ٤ ص٢٢١-٢٢٧ (ط ألمانيا) ، مجالس الغورى ، ص٢٩ ، ٣٠ .

١٨١- بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٧٧ ، د. حسن الباشا : القاهرة تاريخها وآثارها وفنونها ، ص١٤٣-١٥٣ .

١٨٢- الأشرف قنصوه الغورى ، ص٧٠ .

١٨٣- راجع عن منشآت الغورى، المرجع السابق، من ص٨٧-٩٩ .

١٨٤- يقال أن عدد حجراتها يبلغ ٣٦٥ حجرة بعدد أيام السنة .

١٨٥- تقع هذه الوكالة خلف تكية محمد بك أبو الدهب ، وبها الآن مراسم الفنانين التشكيليين، وقد قام الباحث سنة ١٩٦٥م بعرض انتاجه الفنى حينما كان طالبا بمعهد طنطا الدينى الثانوى ، وقد حصل الباحث على الجائزة الأولى فى الفنون العملية، وقابل فضيلة المرحوم الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر واستلم منه الجائزة ميدالية ذهبية وأسبوع إقامة بمدينة البعوث الإسلامية لمشاهدة معالم القاهرة . وقد أحسنت الحكومة صنعا حينما أعادت الصناعات التقليدية التى كانت فى عصر الغورى إلى هذه الوكالة على يد معلمين فى فنون الخيام وحفر الخشب (أويمة) والزجاج الملون المعشق بالجص وحفر وتكفيت النحاس بالفضة وصناعة الصدف والخشب الخرط والخزف ، وغير ذلك لأطفال صغار ، فأحيوا بذلك صناعات خان الخليلى التى كادت أن تنقرض، وهى مزار سياحى محلى ودولى ، ومازلنا فى دراستنا الميدانية لمادة الآثار والعمارة والكتابة والفنون الإسلامية لطلاب شعبه الحضارة والدراسات العليا بكلية اللغة العربية تكون هذه الوكالة ضمن خطة الدراسة فى كل فصل دراسى (الباحث).

١٨٦- شذرات الذهب، ، جـ٨ ص١١٣-١١٧ ، مجالس الغورى ، ص٢٣ .

١٨٧- د. حسن الباشا : القاهرة ، ص١٥٢ . وهذه المئذنة من التحف الإسلامية النادرة فى العالم الإسلامى ، فقد زخرفت بتلبيسات القيشانى الأزرق ، وفى بدنتها الثانية سلمين للطالع والنازل لايرى أحدهما الآخر، وهى حيلة فنية معمارية للمهندس الذى صنعها، وقد صعد الباحث إلى الرأسين ونبه إلى خطورة تآكل الحديد وسقوط الرأسين ، فقامت هيئة الآثار مشكورة بعمل ترابزين ورممت الجزء المتآكل منها .. إلا أن سلالمها كانت مليئة بالقطط الميتة والقاذورات (الباحث) .

١٨٨- راجع عنها من الناحية المعمارية والفنية : د. حسن الباشا : القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، ص١٤٩ ، ١٥٠ ، وما بعدها .

١٨٩- ترجمته في بدائع الزهور ، جـ٤ ص٨٠ ، الأشرف قنصوه الغوري، ص٨٨ .

١٩٠- راجع : بدائع الزهور، جـ٤ ص٥٢ ، ٥٣ .

١٩١- راجع : بدائع الزهور، جـ٤ ص٣٩٩ ، مجالس الغوري ، ص٢٥-٢٧ ، د. عبد الرحمن زكي : القاهرة ، مرجع سابق ، ص١٦٧ ، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١١٤ .

١٩٢- راجع : بدائع الزهور، جـ٤ ص٢٣٦ ، حجة وقف الغوري رقم ٨٨٣ أوقاف ، ٥٠٠ ميكروفيلم بتاريخ ٢٠ صفر ٩١١هـ ، المجلس الأعلى للثقافة.

١٩٣- راجع : بدائع الزهور ، جـ٤ ص٢٨٥ ، ٢٨٦ ، حجة وقف الغوري رقم ٤٨٨، ١٩ ميكروفيلم .

١٩٤- راجع : حجة وقف الغوري رقم ١٣٠ ، أوقاف ، ٥٠١ ميكروفيلم، بدائع الزهور: جـ٤ ص٢٠٣ .

١٩٥- بعد زيارة الباحث لمسجد السلطان الحنفي بالناصرية بالقاهرة، وجد مئذنة أيضا لها أربعة رؤوس.

١٩٦- د. عبد الوهاب عزام : مجالس الغوري، ص٢٤ ، الأشرف قنصوه الغوري، ص٨٨ ، ٨٩ .

١٩٧- بدائع الزهور ، جـ٤ ص١٧٥ ، ١٧٦ .

١٩٨- راجع : بدائع الزهور ، جـ٤ ص٢٤٩ ، مجالس الغوري، ص٢٥ ، ويتكون هذا الجامع من صحن يحيط به أربعة أواوين أكبرها الايوان الشرقي، ويغطيها جميعا سقف ذو نقوش مموهة بالذهب ، وللصحن منور مستطيل لامثيل له. وأرضية الاواوين مغطاة برخام مختلف الألوان بديع الصنع.. ومكتوب على الجدران آيات بالخط الكوفي المغربي يقال أنها تمنع الذباب والهوام والحشرات ، وقد صليت به أكثر من مرة فوجدت ذلك صحيحا عكس غيره ، وقد اعتدى بعض التجار على جزء من المسجد واستولى عليه، وعمل به دورة مياه ، وكان الجامع مخزنا لتجار البهارات إلى أن تمكنت هيئة الآثار ووزارة الأوقاف من تنظيفه ، وبالجامع سلم يوصل إلى البئر وسلم آخر يوصل إلى مكان عميق تحت المسجد قيل أنه سجن ، كان الغوري يضع به أرباب الجرائم (الباحث) ، راجع : القاهرة لشحاته عيسى ابراهيم ص١٥٠ وما بعدها ، د. حسن الباشا : القاهرة ، ص١٥١ ، ١٥٢ .

١٩٩- بدائع الزهور، في حوادث هذه السنين ، مجالس الغوري ، ص٣٠-٣١ .

٢٠٠- ص١١٦٣-١١٦٤ .

٢٠١- بدائع الزهور، جـ٤ ص٣٢١ .

٢٠٢- المرجع السابق ، جـ٤ ص٣٢٧ .

٢٠٣- المرجع السابق ، جـ٤ ص٢٠٢ (ط ألمانيا) .

٢٠٣- المرجع السابق، ص٣٠٩ .

٢٠٥- بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص١٢٠ ، ١٢١ .

٢٠٦- راجع ، ص٦٠٥ من كتاب نفائس المجالس تأليف حسين بن محمد الحسيني، تحقيق عبد الوهاب عزام .

٢٠٧- ص٧٢ ، ٧٩ .

٢٠٨- أي أن كلمة بحر إذا صحفت أصبحت «رجب» راجع ص٣٣ من نفائس المجالس.

٢٠٩- فقيل هو التين، راجع المرجع السابق ، ص٥١ .

٢١٠- راجع ص٤٨ من مجالس السلطان الغوري.

٢١١- راجع ص٥٢ ، ٥٣ من المرجع السابق .

٢١٢- قام الزميل أمين عبدالله سالم المدرس المساعد بكلية اللغة العربية في «بنى العرب» منوفية بإعداد رسالة ماجستير عن «تنبيهات الأشموني على ألفية ابن مالك لأبي على الأشموني» نوقشت سنة ١٩٧٨م ويوجد منها نسخة بكلية اللغة العربية بالقاهرة (الباحث) .

٢١٣- تراجم هؤلاء : الأعلام في الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزي ، جـ١ .

٢١٤- راجع ص٢١-٢٣ من كتاب «الأشرف قنصوه الغوري» لمحمود رزق سليم .

٢١٥- تراجم هؤلاء موجودة بالتفصيل في الكواكب السائرة للغزي جـ١ ص٢٨ ، ٢٩ من كتاب الأشرف قنصوه الغوري ، وسنتحدث عنهم بالتفصيل عند ذكر الأدباء في هذا العصر .

٢١٦- راجع ص٢٠ من كتاب النفائس .

٢١٧- بدائع الزهور، حوادث رمضان ٩٢٢هـ، مجالس السلطان الغوري، ص٢٠ .

٢١٨- راجع نفائس المجالس، ص١٣٢ .

٢١٩- الأشرف قنصوه الغوري، ص١٧٦ ، ١٧٧ .

٢٢٠- مجالس السلطان الغوري ، ص٣٨ ، ٣٩ .

٢٢١- تبلغ هذه الكتب حوالي ٢٧ ألف كتاب ، ما زال بعضها داخل الصناديق كما أخبرني بذلك المسئول

عن مكتبة قصر ثقافة الغورى، وهى بعض الكتب التى عثر عليها بمدرسة الغورى وكانت تتكون خزانة كتبها بعد أن استولى السلطان سليم على مصر وأخذ منها إلى استنبول كل غال ونفيس (الباحث) .

٢٢٢- الأشرف قنصوه الغورى، ص١٩١ ، مجالس الغورى، ص٤٥ ، ٤٦ .

٢٢٣- راجع ص٤٣ ، ٤٤ ، مجالس السلطان الغورى.

٢٢٤- راجع ص٥١ من كتاب مجالس السلطان الغورى، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١١٤ .

٢٢٥- راجع ص٦١ من كتاب نفائس المجالس.

٢٢٦- راجع ص٦٦ ، ٧٥ ، ٨٦ من الكوكب الدرى فى مسائل الغورى، مرجع سابق .

٢٢٧- راجع : ص٣٤ من مجالس السلطان الغورى.

٢٢٨- الأشرف قنصوه الغورى: ص١٩١ ، ١٩٢ .

٢٢٩- للسلطان الغورى الآن حى بالقاهرة يعرف «بالغورية» نسبة إليه ، وقد تغنى الناس قديما وحديثا بالغورية . (الباحث) .

٢٣٠- بدائع الزهور ، حوادث رمضان ٩٢٢هـ، الأشرف قنصوه الغورى ص١٩٣ وما بعدها ، مجالس الغورى، ص٣٦ ، ٣٧ .

٢٣١- تنسب تجارة الكارم إلى «الكارمية» وهم كما تحدثنا عنهم الوثائق ، فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما إليها من السلع الأخرى، وكان مركز نشاطهم الأول فى المحيط الهندى (المجلة التاريخية، مجلد ٢٢ ، د. عطية القوصى ، ص١٧ ، ١٨) . وقد كان المحيط الهندى منذ القدم هو السوق التجارى الكبير الذى كانت تتجمع فى موانيه سلع الشرق الأقصى والهند وغيرها ، وقد اتخذ تجار سلع الشرق قواعد لهم فى موانىء ساحل الهند الغربى، وفى الخليج العربى، وعند مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وكانت سفن الكارم تتردد على أكثر من عشرين ميناء على سواحل الهند الغربية .

ويرغم أن تاريخ نشأة تجار الكارم لم يتحدد بعد ، فإنه من المعروف أن هذه الجماعة نشأت فى المحيط الهندى وعلى الشاطىء الغربى للهند، وأنها وجدت هناك فى بداية الأمر على صورة ما ثم تطورت مع الزمن ومع التقدم الحضارى ، وصار هذا الاسم هو ما تعرف به هذه الجماعة ، وتوارثه من جاء بعدهم أو من تحولت إليه السيطرة التجارية فى أسواق الهند وغيرها (الشاطر بصيلى : الكارمية ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ١٣ ، ١٩٦٦م، ص٢١٧) .

محاولات تفسير كلمة الكارمية: (المجلة التاريخية ، عدد ٢٢ ، ١٩٧٥ م، ص٢٤ ، ٢٥) لم يصل

المؤرخون بعد وحتى الآن إلى تفسير جازم لتسمية هؤلاء التجار بهذا الاسم، ويبدو أنه اسم عام لأنه ليست هناك كلمة في اللغة العربية بهذا المعنى، وقد تعددت محاولات تفسير هذه الكلمة، فقد نقل (كاترمير) ما أورده القلقشندي من أن هذا الاسم مأخوذ عن (الكانم) وهي منطقة من السودان الغربي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، وأن هذا الاسم انتشر بين من اشتغلوا بتجارة البهار، بعد أن وقع فيه تصحيف وأصبح كارم (صبحي لبيب: التجارة الكارمية ص٦ وتجارة مصر في العصور الوسطى، مستخرج من مجلة الجمعية التاريخية، المجلد الرابع، العدد الثاني، ١٩٥٢م).

ويفترض ليتمان أن هذا الاسم قد أخذ عن متاجر التجار نفسها، إذ وجد أن لفظ (كورارِما) الأمهرية تعني الحبهان وهو من التوابل التي تاجروا فيها، ثم حرفت هذه الكلمة وأصبحت (كارم) وأطلقت على هؤلاء التجار (صبحي لبيب، ص٦)، والتفسير الجديد لكلمة (كارم) الذي أورده جواتين المستشرق، مفاده أن أصل هذه الكلمة ليس عربيا، ولكنه هندي، ذلك لأن لغة جنوب الهند (التامل) توجد بها كلمة (كاريام)، وهي تعني فيما تعني من أشياء أخرى: «الأعمال» أو الأشغال، ولما كانت أعمال أهالي الساحل الهندي الغربي مع تجار الشرق الأوسط تتعلق بالتجارة، فمن المحتمل أن أصحاب هذه السفن أو التجار الذين عملوا في ذلك المضمار قد عرفوا وأطلق عليهم أهالي الهند هذا الاسم. وجاء مع هذه التفسيرات تفسير جديد آخر وهو الأكثر قبولا من غيره أورده الأستاذ الشاطر بصيلي، في مقال له عن الكارمية (ص١٧) ورد في ذلك التفسير أننا إذا قسمنا لفظة (كارم) قسمين لوجدناها تتكون من (كار) في المقطع الأول ثم (يم) في المقطع الثاني، وكان معناها الحرفة أو العمل أو التجارة أو الوظيفة ... الخ، و(يم) معناها المحيط أو البحر البعيد الشواطئ»، أو النهر الكبير، ثم سقط حرف الياء من (كاريم) فأصبحت (كارم) وأن معنى الكلمة- حسب هذا التفسير- هو حرفة التجارة في أعالي البحار.

٢٣٢- مجلة الجمعية التاريخية، مجلد ٢٢، ١٩٧٥، ص٣٢، ٣٣.

٢٣٣- صبح الأعشى، جـ٤ ص٣٢.

٢٣٤- مجلة الجمعية التاريخية، مصدر سابق، ص٣٠، ٣١.

٢٣٥- صبح الأعشى، المرجع السابق، جـ٤ ص٢٦.

٢٣٦- صبح الأعشى - نفس المرجع ج٤ ص٢٧.

٢٣٧- يذكر السخاوي في ترجمة رئيس التجار علي بن محمد النور بن الجلال الطبدي المصري وأنه كان يقرض الناس من المحتاجين بدون ربح وكان حسن المعاملة كثير البر. الضوء اللامع، جـ٦ ص٣٠.

٢٣٨- يحدثنا ابن الصيرفي عن غياث الدين محمد بن خواجا علي بن نجم الكيلاني المولود في حدود ٧٧٠هـ- ١٣٦٨م، كان أبوه من أعيان التجار فأشغله بالعلم بحيث كان يبتاع له الكتاب الواحد بمائة دينار . نزهة النفوس، جـ٢ ص٤٣١ .

٢٣٩- الضوء اللامع، جـ٣ ص٣٢ ، ٣٣ .

٢٤٠- بدائع الزهور ، جـ١ قسم ٢ (ط ألمانيا) ص٦٩١ .

٢٤١- نزهة النفوس ، ج٢ ص١٩٣ .

٢٤٢- المنهل الصافي ، ج١ ص١١١ ، ١١٢ .

٢٤٣- بدائع الزهور ، ج١ قسم ٢ (ط ألمانيا) ص٦٩١ .

٢٤٤- الضوء اللامع جـ٣ ص١٠١ ، نمرة ٤٠٦ .

٢٤٥- نوير: قرية من صعيد مصر الأدنى على مسافة يوم للراكب منها إلى القاهرة، والميمون: قرية أقرب للقاهرة من النويرة بنحو نصف بريد. الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص٢٤٦-٢٤٨ ، نمرة ٥٩٨ .

٢٤٦- المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

٢٤٧- الضوء اللامع ، جـ١ ص٤١ ، ٤٢ .

٢٤٨- محمد محمود زيتون : إقليم البحيرة ، ص٤٨٥ .

٢٤٩- الضوء اللامع ، جـ١٠ ، ص١٠٦ ، نمرة ٣٦٩ .

٢٥٠- المرجع السابق ، ج١٠ ، ص٧٠ ، نمرة ٢٣٨ .

٢٥١- النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص٣١٨ .



صورة للسلطان أبو النصر الأشرف قايتباى

والأصل فى أرشيف الباحث عن صورة بالمتحف الحربى .المرجع رسالتنا للدكتوراه غير منشورة والحركة العلمية فى عصر سلاطين المماليك البرجية ودور الأزهر فيها ، كلية اللغة العربية سنة ١٩٨١م ج٢ ص ١٠٥٠ .

راجع التقرير التاسع والأربعون بعد المائة للقومسيون الثاني محضر الجلسة نمرة ٥٧ رقم ٣ ص٧٦-٧٧ (المجموعة التاسعة) من محاضر لجنة حفظ الآثار القديمة العربية . وتقرير القومسيون الثاني عن سنة ١٨٩٢ أفرنكية .

(٣) وكالة قايتباى بالسروجيه

في أثناء مرور القومسيون الثاني وقف أمام بقايا وكالة قايتباى لمعاينة الكتابه الحفر البارزة على أعتاب الموارده التى كانت حاملة للدور الأولى المتلاشي بالكامل وهذه الكتابة هى المنوه عنها فى تقرير نمرة ١٤٦ فلأجل المحافظة على تلك الكتابة يوصى القومسيون أخذ تعهد على كل سكان وملاك الوكالة بعدم تسمير أو تركيب أى شئ على الأعتاب

وهذا هو نص الكتابة المذكورة

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى وجزيل عطائه سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل فى العالمين صاحب الديار المصريه والبلاد الشاميه والاعمال الفراتية والقلاع الرومية والحصون الاسماعيلية والثغور السكندرية صاحب السيف والقلم والنبل والعلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم صاحب البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين)

(اللهم أدم العز والبقاء والعلو والارتقاء والنصر على الاعداء بسيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الاسلام والمسلمين حامى حوزة الدين أبو الفقراء والمساكين كهف الارامل والمنقطعين منصف المظلومين من الظالمين الملك المكرم والخاقان المعظم أبو المعالي والهمم سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم عبدك وابن عبدك القائم بشريعتك وفرضك سيفك المرهف السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى عز نصره)

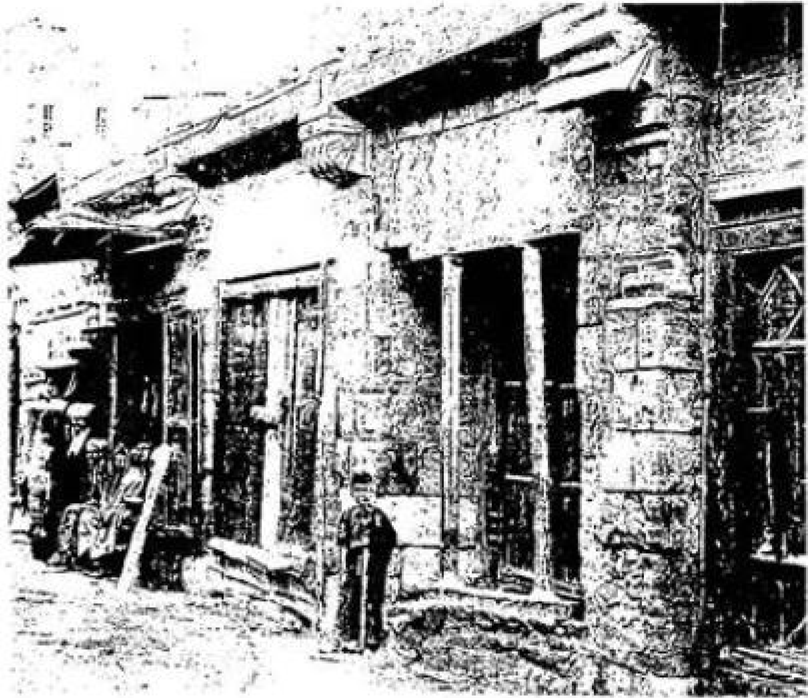
نص اللوحة التأسيسية لوكالة قايتباى وهو شيء نادر لاوجود له الآن فى بقاياها (الباحث)

التقرير السادس والخمسون بعد المائة للقومسيون الثانى محضر نمرة ٥٩ رقم٥ ص٧٢ ، ٧٥ والصورة بعدهما من المجموعة العاشرة من محاضر لجنة حفظ الآثار القديمة العربية وتقارير القومسيون الثانى سنة ١٨٩٣ أفرنكية .

(٥) وكالة قايتباى

طلبت نظارة الاشغال العمومية سرعة هدم الجزء المخل من المنزل وقف سناو وباحالة هذا الطلب من ديوان الاوقاف على مهندس الآثار رآى أن المنزل المذكور هو بقايا وكالة السلطان قايتباى التى تكلمت عنها اللجنة أخيرا وقد أجرى حالا شد وصلب الجزء المقول عنه ولما عاين القومسيون الثانى الوكالة يوم تاريخه وجد أن الدور الارضى لهذا الاثر غائص فى الارض أكثر من متر ونصف وقد أثرت عليه الترميمات المتعددة تأثيرا جسيما وصار فى حالة التلف الزائد الامر الذى يوجب تجديد وجهته بأكملها حفظا لاعتاب الابواب وعليه يطلب القومسيون من اللجنة عدم تسجيل هذا المكان ضمن الآثار اللازم حفظها وانما يصير التشديد فى نقل الافريز الخشب المستطيل الموجود عليه كتابة (انظر التقرير نمرة ١٥٠) الى الانتيكخانة العربية وان كل الاجزاء الصناعية الثمينة يجرى اعادة استعمالها فى العمارة الجديدة التى فى عزم الحكومة عملها على ذمة الكتبخانة الخديوية والانتيكخانة العربية اذا اقتضت الحال لهدم هذا المحل ولهذه الغاية يقتضى فك كل مبادى الادوات المذكورة بغاية الاعتناء ونقلها الى مخزن الاوقاف لحفظها به كما هو لازم ووقايتها من التلف والتأثيرات الجوية وقبل الهدم يتعين على المسيو هرتس أن يأخذ بعض مناظر بالفتوغرافية من الوجهة الموجودة ويجهز الرسومات الضرورية التى يمكن بواسطتها معرفة المحل الذى كانت كل قطعة محفوظة فيه ثم اعتمد القومسيون تكاليف الشدة الوقتية التى أمر بها المهندس البالغ قدرها ٧٠٠ مليم

وصف لحالة وكالة قايتباى المتردية سنة ١٨٩٣م



وجهة وكالة السلطان قايتباى بشارع السروجية بالقاهرة سنة ١٨٩٣م

(فتوغرافية ليكجيان وشركاه)



(لوحة 387) مصر ـ القاهرة

وكالة الغوري - منظر داخلي ٩٠٩-٩١٠هـ/ ١٥٠٣-١٥٠٤م

نقلا عن د. حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ص٢٤١ مكتبة الدار العربية للكتاب مجلد٤ ط أولى سنة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م



(السلطان الغوري)

نقلا عن كتاب مجالس السلطان الغوري للدكتور عبد الوهاب عزام

المرجع رسالتنا للدكتوراه والحركة العلمية في مصر في عصر سلاطين المماليك البرجية ودور الأزهر فيها ، ج٢ ص١٠٥٤ سنة ١٩٨١م كلية اللغة العربية جامعة الأزهر غير منشورة

د. حمود بن محمد بن علي النجيدي *

منهجية ابن العبرى التاريخية تجاه أحداث الحروب الصليبيـــة مقارنة بمنهجية ابن الأثير

أولا : المقدمة :

مما لاشك فيه أن عقيدة المرء تؤثر على فهمه ورؤيته للأحداث والتطورات ، وبالتالى نظرته وتصوره لها. ومن الأمور البارزة فى تاريخ العلاقات بين الإسلام والنصرانية أحداث الحركة الصليبية وتطوراتها التى صبغت الحياة السياسية بل ورسمت مساراتها فى عدة ميادين؛ كان أبرزها ميدان فلسطين وبلاد الشام.

وأظنه واضحًا أن تأثيرات الحركة الصليبية لم تقتصر على ميدانها أو ميادينها بالمفهوم الجغرافى ، بل إنها تجاوزتها إلى المناطق الأخرى المتاخمة بل وغير المتاخمة، والاختلاف يكمن فقط فى درجة ومستوى التأثير.

عاشت الحركة الصليبية فى ميدان فلسطين وبلاد الشام قرنين من الزمان، وأرخ لهذه الحركة الكثيرون من المعنيين بالتاريخ منهم من ينتمى إلى الجانب الإسلامى ومنهم من ينتمى إلى الجانب النصرانى، وهذا الاختلاف فى الانتماء الدينى بالنسبة لمؤرخى الحروب الصليبية

* أستاذ مشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم كلية العلوم الاجتماعية.

يقدم فرصة جيدة لتقويم العديد من الدراسات التاريخية المقارنة سواء بالنسبة لأفراد من المؤرخين أم بالنسبة لمجموعة المؤرخين على الجانبين، وأمر طبيعى أنه من غير الممكن تقديم دراسات مقارنة فى الإطار الثانى دون الاعتماد على دراسات مقارنة للمبرزين من أفراد المؤرخين فى كلا الجانبين.

وتمشيًا مع هذه القاعدة ، فإن البحث الذى أقدمه فى هذه الصفحات يعنى بدراسة منهجية مؤرخ مقارنة بمنهجية مؤرخ آخر كلاهما من المؤرخين الذين أرخوا للحروب الصليبية، أحدهما مسلم والثانى نصرانى عاشا فى فترتين متقاربتين من الناحية الزمانية، وفى منطقتين متقاربتين أيضًا من الناحية الجغرافية، وكان لكل من المنطقتين إسهامهما فى تشكيل بعض مسارات الحركة الصليبية وتحديد أبعادها .

وإضافة إلى ما سبق فإن كلا المؤرخين قد انتهت حياتهما فى فترة الصراع الذى كان محتدمًا بين المسلمين والصليبيين، والاختلاف بين المؤرخين فى هذه الجزئية يتمثل فى أن أحدهما وهو ابن الأثير أمضى حياته فى المنطقة الإسلامية، بينما أمضاها الآخر وهو ابن العبرى فى نواح كانت غالبًا خاضعة للصليبيين أو لحلفائهم.

واختلاف آخر بين المؤرخين هو أن لكل منهما نظرته المختلفة عن الآخر فى أحداث الحروب الصليبية ، وبالتالى اختلاف منهجيتيهما التاريخية حولها؛ وإذا كان تركيز هذه الدراسة على منهجية ابن العبرى، فهى أيضًا بيان لمنهجية ابن الأثير لأن المقارنة تستدعى توضيحًا لهذه المنهجية فى الحدود التى نتعرف من خلالها على منهجية الأول اعتماداً على ما أورده فى تاريخه من أحداث خاصة بالحروب الصليبية تتوافق مع الأحداث التى أوردها ابن الأثير ، وبهذا تكون المقارنة- من وجهة نظرى- أمثر دقة وأكثر موضوعية.

ولقد بدأت بتوضيح منهجية ابن الأثير ثم أعقبت ذلك ببيان منهجية ابن العبرى وذلك لسببين أرى أهميتهما:

أولهما : أسبقية ابن الأثير الزمنية مولداً ووفاة وتأليفًا لكتابه ، وأيضًا كونه أكثر قربًا للأحداث .

وثانيهما : أن ابن الأثير وبالتحديد كتابه (الكامل فى التاريخ) ، وهو موسوعى مفصّل يعد أصلاً لكتاب ابن العبرى (تاريخ مختصر الدول)، وهو مختصر موجز ، فقد نقل ابن العبرى معظم معلوماته إن لم يكن جميعها والخاصة بأحداث الحروب

الصليبية عن ابن الأثير حتى أنه استخدم ألفاظه وعباراته وجمله وكلماته فى كثير من الأحيان .

هذا ويلزم قبل الحديث عن عناصر المقارنة بين منهجيتى المؤرخين أن أمهد لذلك بحديث موجز عنهما وعن كتابيهما .

ثانيًا : المؤرخان والكتابان :

فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة (١١٦٠م) ولد أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى الذى حمل فيما بعد لقب عز الدين، وعرف واشتهر بابن الأثير الجزرى نسبة إلى جزيرة ابن عمر الذى ولد فيها ، وهى إحدى البلدات أو المدن الصغيرة التابعة لمدينة الموصل حاضرة ديار ربيعة فى القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة الفراتية [١] .

وبعد سنوات الطفولة انتقل صاحبنا مع أبيه وأخويه إلى مدينة الموصل، وكانت آنذاك تماثل مدينة حلب إلى حد كبير فى كون كل منهما مركزاً من مراكز المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبى ولاسيما فى إمارة أنطاكية الصليبية[٢].

وفى حياته يذكر عن ابن الأثير أنه زار العديد من المراكز أو المدن الإسلامية مثل بغداد ودمشق والقدس وغيرها ، وبعض هذه الزيارات تمت بوصفه مبعوثًا من قبل هذا أو ذاك من الحكام المسلمين : على حين كانت الزيارات الأخرى التى قام بها من أجل إكساب شخصيته العلمية- ولاسيما فى مجال التأريخ- المزيد من الصقل والإثراء.

وفى سنواته الأخيرة تنقل مؤرخنا بين كل من حلب ودمشق والموصل، وفى هذه الأخيرة ، وفى شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة (١٢٣١م) وافته منيته بالغًا من العمر خمسة وسبعين عامًا وثلاثة شهور ، ودفن فيها[٣].

ويعد ابن الأثير من أبرز المؤرخين المسلمين الذين أرخوا- لفترة زمنية طويلة من الحروب الصليبية كما أن كتابه (الكامل فى التاريخ) يعد من أهم مصادر التاريخ الإسلامى عامة وفترة الحروب الصليبية بصفة خاصة.

هذا عن ابن الأثير: أما عن ابن العبرى: فهو أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطى المشهور بابن العبرى نسبة إلى قرية (عبرا) وهى إحدى قرى ملطية[٤] المولود فيها سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية (١٢٢٦م) ، وكانت نشأته فيها حيث درس اليونانية والسريانية والعربية ، وعلوم أخرى مثل الطب والفلسفة واللاهوت.

وبسبب ظروف الغزو المغولى هربت أسرته إلى أنطاكية ، وارتحل منها إلى طرابلس ، وتنقَّل بين بلاد الشام وبلاد شمال العراق حتى عيِّن فى إحدى بلداتها (جوباس) رئيساً لأساقفة الشرق [٥]، واستمر فيه حتى وافاه الأجل فى بلدة مراغة من أعمال أذربيجان[٦] سنة خمس وثمانين وستمائة للهجرة (١٢٨٦م) .

ويعد ابن العبرى من أهم المؤرخين النصارى الذين أرخوا - كما هو ابن الأثير- لمعظم أحداث فترة الحروب الصليبية، كما يعد كتابه (تاريخ مختصر الدول) أهم مؤلفاته التى ألفها وزادت على الثلاثين كتاباً[٧].

ويوجد بين المؤرخين ابن الأثير وابن العبرى العديد من عناصر التشابه فكل منهما عنى بالتأليف فى حقل التاريخ، والاختلاف بين المؤرخين فى هذه الجزئية يكمن فى مستوى الاهتمام، فابن الأثير جعل من التاريخ اهتمامه الأول، ولهذا جاءت كافة مؤلفاته فى التاريخ على اختلاف أنواعه العام منها والخاص : أما ابن العبرى فقد شكل التأريخ واحداً من مجالات اهتماماته العلمية، وبما أتى فى مكانة تالية لتلك الاهتمامات .

وكلا المؤرخين يوضع ضمن مؤرخى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، فابن الأثير كان نصيبه من القرن المذكور ثلاثين سنة على حين كان نصيب ابن العبرى عمره كله والذى تجاوز ستين سنة، وهذا الاختلاف فى نصيب كل منهما من سنوات ذلك القرن لايؤبه به كثيراً إذا ركزنا على سنوات النضج، أو السنوات التى اكتملت فيها مقومات المؤرخ بالنسبة لكل منهما ، وفى هذه الحالة يتساوى المؤرخان على وجه التقريب .

وكل من المؤرخين أمضى حياته فى منطقة يمكن أن توصف بأنها ساخنة سواء فى ذلك بلاد الشام والجزيرة الفراتية بالنسبة لابن الأثير ، أو أنطاكية ومدن عدة فى شمال العراق وأرمينية بالنسبة لابن العبرى ، وكل منهما عرف بالتنقل بين العديد من المدن والمراكز الحضارية والسياسية فى منطقته .

والاختلاف الجوهرى الذى نلحظه بوضوح من خلال تتبع حياة المؤرخين يتمثل فى الصبغة الدينية التى غلبت على الحياة الوظيفية لابن العبرى، والتى أوصلته إلى مركز مرموق فى سلم المناصب الدينية لجماعة اليعقوبية أو السريان النصرانية[٨] ، وهذا لانجد له نظيراً بالنسبة لابن الأثير.

والقرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) الذى عاش فيه المؤرخان كان محكوماً بمجموعة من المسارات السياسية ، وأحد هذه المسارات الصراع الذى كان محتدماً بين المسلمين والصليبيين ، وهذا يعنى أن كلا من المؤرخين كان معاصراً لحقبة من حقب الحروب الصليبية ؛ فابن الأثير كان معاصراً لمرحلتين من مراحل الحروب الصليبية (٩) ، مرحلة صلاح الدين الأيوبى(١٠) ؛ والتى كانت موازين القوى فيها تشير إلى تفوق المسلمين ، ومرحلة العادل الأيوبى وابنه الكامل، وفيها وبالذات فى عهد الكامل تراجعت القوة الإسلامية مما أتاح للصليبيين الاستفادة من هذا التراجع.

أما ابن العبرى فنجد أنه كان معاصراً لإحدى فترات الحروب الصليبية التى اتسمت بتحسن ميزان القوى لصالح المسلمين؛ ففى منتصف العقد الثالث من عمره وقعت أحداث الحملة الصليبية السابعة ، وهى الحملة التى اندحر فيها الصليبيون بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا(١١). وفى بدايات العقد الخامس من عمره ، وتحديداً سنة ست وستين وستمائة للهجرة (١٢٦١م) نجح المسلمون بقيادة السلطان المملوكى بيبرس البندقدارى(١٢) فى تحطيم الوجود الصليبى فى أنطاكية التى عاش فيها ابن العبرى سنوات لايستهان بها ، وقد ترتب على انتصار المسلمين أن عادت أنطاكية إلى واقعها السابق منطقة إسلامية.

وقبل إنهاء الوجود الصليبى فى أنطاكية بحوالى عامين وجهت قوات الظاهر بيبرس ضربة شبه قاضية للكيان النصرانى المتمثل فى مملكة أرمينية النصرانية(١٣) والتى كانت ملطية وجوباس داخلتان فى نطاقها .

ومما لاشك فيه أن تدمير انطاكية والنكبات التى حلت بمملكة أرمينية قد انعكست أحداثهما بشكل مباشر على نفسية ابن العبرى، ولايمكن استبعاد أن تكون قد أثرت على تاريخه ، وليس مستغرباً أيضاً أن يكون انقطاعه فى بعض الأديرة قد جاء تعبيراً عما كان يعتمل فى داخله من حالة انهزامية.

ونترك المؤرخين ونلتفت إلى كتابيهما اللذين سنستخرج منهما عناصر المقارنة وبخصوص هذا الجزئية أقول :

إن كتاب ابن الأثير يحمل عنوان «الكامل فى التاريخ» على حين يحمل كتاب ابن العبرى عنوان «تاريخ مختصر الدول»، وهذا يعنى أنه جاء مختصراً أو موجزاً مقارنة بكتاب ابن الأثير غير أن هذا التفاوت لايشكل عقبة فى الوصول إلى عناصر المقارنة التى أستهدفها .

ولكى تتضح هذه العناصر بأسلوب علمى سليم يلتزم الحيادية والموضوعية المطلوبة، فإننى أرى أن تتركز عناصر المقارنة على أقسام ثلاثة تبعًا لطبيعة الأحداث وإطارها الزمنى إذ أنها تنقسم إلى أحداث رئيسة وأخرى ثانوية، ومن أجل تيسير المتابعة فإنه بالنسبة للأحداث الرئيسة من الأفضل تقسيم الفترة الزمنية إلى مرحلتين المرحلة السابقة على صلاح الدين، ثم المرحلة الأيوبية، وليس من الضرورى التقيد بهذا التقسيم بالنسبة للأحداث الثانوية، وعلى هذا يكون لدينا ثلاثة أقسام تتركز عليها عناصر المقارنة.

يتبقى بعد ذلك أمران من الضرورى الإشارة إليهما، أولهما أن ابن الأثير قد اتخذ من النظام الحولى أساساً لهيكلية كتابه، وهذا ما نجده لدى ابن العبرى ولكن فى إطار الدول التى أرخ لها والتى ابتدأها بالدولة الأولى، واختتمها بالدولة العاشرة[١٤]. الأمر الثانى يتصل باللغة التى كتب بها الكتابان، فاللغة الأساسية التى ألف بها ابن الأثير كتابه هى اللغة العربية على حين يذكر عن ابن العبرى أنه ألف كتابه فى الأصل باللغة السريانية ثم نقله إلى اللغة العربية وذلك فى أواخر حياته، وذلك بناءً على طلب البعض من وجهاء العرب، يقول العالم الذى وقف على طبع الكتاب فى صورته العربية[١٥] «وقد ضمنه أموراً كثيرة لاتوجد فى المطول السريانى، ولاسيما فيما يتعلق بدولتى الإسلامى والمغول وتراجم العلماء والأطباء».

ثالثا : تأريخهما للفترة السابقة على صلاح الدين الأيوبى:

يصل المدى الزمنى للمرحلة السابقة على صلاح الدين بالنسبة للحروب الصليبية إلى حوالى ثمانين سنة[١٦]، والأحداث الرئيسة فى أثنائها متعددة يأتى فى مقدمتها تأسيس الإمارات الصليبية الأربع (الرها، أنطاكية، بيت المقدس، طرابلس)[١٧]، ثم بعد ذلك انتهج الصليبيون فى كل إمارة سياسة التوسع على حساب القوى الإسلامية المجاورة؛ والتى كان عليها بالضرورة مقاومة هذا التوسع والتصدى له، وهو ما يعبر عنه إسلامياً بالجهاد.

وبعد حوالى ثلاثين سنة من بداية تأسيس تلك الإمارات الصليبية أخذ يظهر على الساحة الإسلامية وفى إطار الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين زنكى[١٨] وذلك فى منطقة لها مركزان أحدهما مدينة الموصل فى الجزيرة الفراتية وثانيهما مدينة حلب شمال بلاد الشام، وهذا يعنى أن المنطقة التى سيطر عليها عماد الدين كانت متداخلة فى حدودها مع الكيانين الصليبيين فى

كل من الرها وأنطاكية. اتخذ عماد الدين زنكى من الجهاد ضد الصليبيين طابعًا أساسيًا لسياسته . وفى إطار علمياته الجهادية نجح فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٥م) فى استرداد القسم الأكبر من إمارة الرها الصليبية، وبعد حوالى ست سنوات أكمل ابنه نور الدين محمود[١٩] المهمة الجهادية وتمكن من إزالة بقية إمارة الرها المتمثل بالجزء الشامى من الإمارة[٢٠] بعاصمته تل باشر[٢١].

ومن الأحداث الرئيسة البارزة فى عهد نور الدين محمود الحملة الصليبية الثانية والتى استهدفت دمشق، وذلك كى يعوض من خلالها الصليبيون ما ضاع منهم فى الرها . ونعرف أن الفشل كان من نصيب الصليبيين فى هذه الحملة، وبعد إخفاق الحملة الصليبية الثانية فى تحقيق أهدافها اتخذ الصراع بين الصليبيين ونور الدين محمود شكل منافسة أو سباق حاد من أجل بسط السيطرة المباشرة على مصر، والتى كان النظام الحاكم فيها- وهو النظام الفاطمى- يتهيأ للسقوط ويترنح منذ سنوات.

وفى حمى هذا التنافس سقطت الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) لحساب نور الدين محمود مما يعنى اكتمال تطويق الوجود الصليبى من بيت المقدس جنوبًا وحتى أنطاكية فى الشمال .

وبعد حوالى سنتين آل حكم مصر إلى صلاح الدين الأيوبى فى خطوة بالغة الأهمية فى تشكيل بداية الحقبة الأيوبية [٢٢].

* * *

١- هذه بصورة عامة الأحداث الرئيسة فى إطار الصراع بين المسلمين والصليبيين إبان المرحلة السابقة على صلاح الدين، وقد أرخ كل من ابن الأثير وابن العبرى للمرحلة المشار إليها: فبالنسبة للحملة الأولى أرخ لها ابن الأثير فى مقدمة تأريخه لأحداث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (١٠٩٨م) [٢٣]، وذلك بدرجة مناسبة من التفصيل حيث غطى تطورات القتال الذى دار بين الصليبيين وقوات أنطاكية تحت قيادة حاكمها من قبل السلاجقة ياغى سيان [٢٤]، حاكم الموصل وممثل الدولة السلجوقية ضد الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على أنطاكية منذ عدة أسابيع .

ويتفق ابن العبرى مع ابن الأثير فى التأريخ لاستيلاء الصليبيين على أنطاكية وذلك فى

شكل خبر موجز دون أي تفصيلات [٢٦]، والخبر الذى أورد ابن العبرى فى سطر واحد يمثل تلخيصاً لما أورده ابن الأثير مفصلاً فى عدة صفحات- قرابة أربع صفحات - .

ونتحرك مع تأسيس إمارة أنطاكية خطوة أخرى نحو جولة القتال الثانية التى انتهت بانتصار حاسم للصليبيين وبالتالى البداية الفعلية لتأسيس إمارة أنطاكية.

وبخصوص هذه الجزئية نجد أن ابن الأثير قد أرخ لهذه الجزئية فيما يزيد قليلاً على صفحتين[٢٧] بينما أرخ ابن العبرى لذات الحدث فى حوالى نصف صفحة وتحديداً فى أربعة عشر سطراً أى أربعة عشر مثلاً لما أرخ به لجولة القتال الأولى؛ بل وفى نفس الموضع [٢٨]، وما أرخ به ابن العبرى للجولة الثانية استقاه بل وأخذ بعض عباراته حرفيًا من ابن الأثير، وهذا النقل ليس مستغرباً من ابن العبرى إذ أنه من الأمور المسلم بها اعتماده على ابن الأثير كمصدر معلومات لكثير من الأحداث ومنها الأحداث المذكورة آنفًا .

غير أن التساؤلات التى تفرض نفسها تنصب على التباين الحاد فى مستوى المعالجة ، فإذا كان ابن العبرى قد أشار لجولة القتال الأولى باقتضاب شديد اتخذ شكل سطر واحد، فكيف نفسر إسهابه فى التأريخ لجولة القتال الثانية الذى استنفذ فيه أربعة عشر سطراً ؟ وهل يحمل هذا الإسهاب نوعًا من السخرية بالقائد المسلم كربوغا وإدارته للمعركة ؟. أم يبرز اعتزاز ابن العبرى بالقوة الروحية للنصرانية متمثلة فى أحد الرهبان الذى وصفه بقوله : «وكان داهية من الرجال» ؟ .

أم يغمز ابن العبرى من خلال ذلك إلى الروح الانهزامية التى سيطرت على الجنود المسلمين فولوا منهزمين قبل أن يخوضوا المعركة ؟!!.

تساؤلات عدة يطرحها تباين ابن العبرى فى مستوى المعالجة ، وإذا كان من الصعب أن نختار التبرير الحقيقى؛ فإنه من السهل أن نؤكد أن منهجية ابن العبرى ومعالجته لهذه الجزئية غير مستقيمة ، وأن فيها من الانحياز لأبناء ديانته، والسرور لنتائج الأحداث ماهو واضح لا لبس فيه .

٢- ونتحرك مع الزمن قليلاً بعد تأكيد الصليبيين سيطرتهم على أنطاكية، فنجد أن ابن الأثير قد أرخ لسيطرة الصليبيين على معرة النعمان[٢٩] مشيراً إلى المقاومة التى بذلها أهلها ضد الغزاة وموضحًا أيضًا المذبحة المروعة التى ارتكبها الصليبيون مع أهلها، وقد غطى ابن

الأثير ذلك فى نصف صفحة[٣٠] بينما غطى ابن العبرى أحداث معرة النعمان فى سطر واحد فـقط [٣١]، وهو بهذا الإيجاز الشديد أفرغ الحدث من مقوماته الأساسية ، وأظهر تغاضيًا متعمدًا عن أمور لايريد ذكرها ، ولاسيما المذبحة التى ارتكبها الصليبيون ضد الأهالى، وهذا التجاهل يبرز تعاطف ابن العبرى مع إخوانه فى العقيدة ، وفى إطار هذا أيضًا يتجاهل المقاومة الشديدة التى أبداها أهالى المعرة فى مواجهة الصليبيين، ومنطلق ابن العبرى فى تجاهل المقاومة الإسلامية هو نفسه منطلق تجاهله للمذبحة ، بمعنى أن ما يحمل إيجابية للمسلمين ينبغى تجاهله بالدرجة ذاتها التى يجب فى إطارها تجاهل الصور القاتمة أو السلبية بالنسبة للصليبيين، وهذا يعنى أن تعاطف ابن العبرى مع الصليبيين يقابله درجة من عدم التعاطف مع المسلمين، ويكل وضوح يقلل هذا الموقف من موضوعية ابن العبرى وحياديته فى تناوله للأحداث.

٣- وإذا انتقلنا إلى السنة التالية سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٩م)، حيث بدأ الصليبيون فيها تأسيس مملكة بيت المقدس ، وتتمثل نقطة البداية فى هذا التأسيس فى الانتصار الذى أحرزه الصليبيون على القوات الإسلامية المدافعة عنها والتى كانت تابعة للدولة الفاطمية.

ولقد أرخ كل من ابن الأثير وابن العبرى بما عرف عن أسلوب كل منهما بين التفصيل والإيجاز [٣٢]، وهذا أمر طبيعى ، ولكن الذى يثير التساؤل حقًا هو أن ابن العبرى أرخ فى كتابه للمذبحة التى أوقعها الصليبيون بالمسلمين فى بيت المقدس، وذلك على النقيض من تجاهله للمذبحة التى ارتكبوها بحق المسلمين فى معرة النعمان، ولايمكن الزعم بأن ابن العبرى قد أحيط علمًا بما جرى للمسلمين فى بيت المقدس؛ على حين أنه لم يكن يعرف شيئًا عن مذبحة المعرة، وذلك لسبب بسيط يتمثل فى حقيقة أن مصدر معلوماته فى الحدثين واحد هو ابن الأثير .

ولايبقى أمام الباحث سوى محاولة تفسير التناقض ، وفى هذا الجانب يمكن القول بأن ابن العبرى تجاهل مذبحة المعرة نظرًا لأن المدينة تحتل مكانة ثانوية مقارنة بمكانة القدس التى سيؤرخ لمذبحتها من قبل الجميع ، أما المعرة فنظرًا لثانويتها فقد ليؤبه بالتأريخ لمذبحتها ؛ ويحتمل إن هو أقدم على ذلك أن يكون الشاهد الوحيد على جريمة بشعة ارتكبها إخوانه فى النصرانية.

٤- معروف في التاريخ أن إمارة الرها الصليبية قد اسقطت على مرحلتين جرت أحداث المرحلة الأولى في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٤م) حينما هاجم عماد الدين زنكي ورجاله مدينة الرها وانتزعوها من حاكمها الصليبي جوسلين الثاني[٣٣]. أما المرحلة الثانية فإنها ترتبط بجهود نور الدين محمود في سنة ست وأربعين وخمسمائة (١١٥١-١١٥٢م) حيث تجمع المصادر التي أرخت للمرحلة الثانية أن نور الدين قد منى بالهزيمة أول الأمر، ثم وضع خطة لأسر حاكمها جوسلين الثاني. وفعلاً نجحت الخطة وترتب عليها هزيمة الصليبيين ومن ثم إزالة الوجود الصليبي في القسم الثاني من الرها الصليبية واستعادة حاضرته تل باشر.

ونرجع لابن العبري فنجده قد أرخ لمرحلتي السقوط، وجملة ما دونه بخصوص هذا الحدث يتفق مع ما دونه ابن الأثير[٣٤] مع ملاحظة الفرق بينهما في الإيجاز والتفصيل، وأيضاً أن كثيراً من الألفاظ والعبارات التي استخدمها ابن الأثير قد استخدمها ابن العبري، وهذا يؤكد أن ابن العبري قد نقل معلوماته بصورة مباشرة من ابن الأثير، ولايستبعد أن كليهما قد استفادا من مصدر آخر هو على الأرجح ابن القلانسي الذي كان معاصراً لهذه الأحداث[٣٥].

هذا بالنسبة للحدث أما التعليق عليه وإبراز قيمة أسر جوسلين في ترجيح كفة انتصار المسلمين، فقد أورده ابن الأثير[٣٦] على حين تجاهله ابن العبري تجاهلاً تاماً، ولاشك أن لهذا التجاهل مبرراته عند ابن العبري، ونستأنس بالنصوص من كلا المصدرين لبيان ذلك. فهذا ابن الأثير يعلق على نجاح خطة نور الدين في أسر جوسلين الثاني قائلا[٣٧]:

«وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً، شديداً على المسلمين قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره».

أما ابن العبري فنجده قد أرخ لمرحلتي إسقاط الرها وذلك بصورة موجزة للغاية بالنسبة للمرحلة الأولى حيث قال[٣٨]:

«وفي سنة تسع وثلاثين فتح أتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج».

أما بالنسبة للمرحلة الثانية فنجد ابن العبري يلجأ إلى تفصيل نسبي استفادة أو نقلاً عن ابن الأثير، والتفصيل الذي جاء يرتبط ارتباطاً مباشراً بتعاطفه مع الصليبيين حيث يقول[٣٩]:

«فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون، وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان فى جملتهم سلاح دار نور الدين ، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا ، وقال له: هذا سلاح دار زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه».

أما ابن الأثير فيقول [٤٠]: «فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون ، وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان فى جملة من أسر سلاح دار نور الدين، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا ، وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه».

ومن المقارنة بين ما أورده ابن العبرى وما أورده ابن الأثير يتضح أن الألفاظ والعبارات التى استخدمها ابن العبرى هى نفسها التى استخدمها ابن الأثير مما يؤكد أن ابن العبرى قد استفاد منه فى معلوماته ، والفرق البارز بين المؤرخين يتمثل فى حقيقة أن ابن الأثير كان متوازنًا فى عرضه للأحداث، ولم يمل أو يتحيز إلى الجانب الإسلامى على حساب الجانب الصليبى، وعلى العكس من ذلك كان ابن العبرى الذى دفعه ميله أو تحيزه إلى إخوانه فى العقيدة الصليبيين إلى إغفال ما يسىء إليهم أو يقلل من شأنهم، وفى ذات الوقت حرص على كشف كل ما ظنه مسيئًا إلى المسلمين.

٥- فى الفترة الواقعة بين مرحلتى إسقاط الرها الصليبية، وتحديداً فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (١١٤٨م) وقعت أحداث الحملة الصليبية الثانية[٤١] التى استهدفت دمشق مدينة وإمارة بهدف تعويض الخسارة التى لحقت بالصليبيين نتيجة ضياع الرها.

كان المتوقع من ابن العبرى الذى أرخ لمرحلتى إسقاط الرها ، أن يؤرخ للحملة الثانية غير أنه تجاهلها تجاهلاً تامًا ، وكأنها لم تحدث مع ملاحظة أن ابن الأثير قد أرخ لها بتفصيلاته المعهودة ، ولايصح لأحد أن يزعم أن تجاهل ابن العبرى لهذه الحملة يعود لتفاهة الحدث وقلة أهميته ، إذ أنه حدث أساسى من أحداث الحروب الصليبية ، ثم لايغيب عن أذهاننا أن ابن العبرى قد أرخ لأحداث تعد ثانوية للغاية.

والتفسير المنطقى والمقبول لهذا التجاهل يكمن فى حقيقة واحدة ولاشىء سواها ، تتمثل فى الفشل الذريع التى منيت به الحملة على الرغم من الحشد الهائل الذى سخر لها والتى عقد عليها الصليبيون الكثير من الآمال أقلها أنها ستعوضهم عن خسارتهم بضياع الرها بالاستيلاء على دمشق، ولكن لم يستحسن ابن العبرى هذا الخسران فآثر تجاهله، حتى ولو كان

على حساب الحقيقة والأمانة العلمية، واتخذ ابن العبرى هذا الموقف الذى يتنافى والحيادية فى التأريخ والأمانة العلمية، واتخذ ابن العبرى هذا الموقف الذى يتنافى والحيادية فى التاريخ للأحداث، وليته اقتدى بابن الأثير فى حياديته وترفعه عن التأثر بالعواطف بل ليته استفاد من مؤرخ صليبى اشترك مع ابن الأثير فى المعاصرة لعدة عقود ذلك هو وليم الصورى(٤٢) الذى أرخ لأحداث الحروب الصليبية بدرجة معقولة من الحيادية وخصص عدة صفحات للتأريخ للحملة الصليبية الثانية (٤٣)؛ بل إنه كتب فى التعليق على إحدى الهزائم التى حاقت بالصليبيين قائلاً (٤٤):

«ولقد ضاعت فى هذا اليوم شهرة الفرنجة الرائعة فى خطب كان من أشد الخطوب، وفى نكبة كانت من أقدح النكبات التى حاقت بالصليبيين . ذلك أن بسالتهم التى كانت حتى هذه اللحظة مضرب الأمثال عند الشعوب هوت إلى الحضيض ، وأصبحت سخرية فى عيون الأمم النجسة (يقصد المسلمين) بعد أن كانت بالأمس مصدر فزع لها ».

أفلايحق للباحث أن يقول بأن تأريخ وليم الصورى- وهو صليبى- للحملة الثانية وللفشل الذريع الذى منيت به يمثل شهادة تدين ابن العبرى، وتدين تجاهله المتعمد لهذه الحملة التى تمثل نقطة تحول فى مسار الحروب الصليبية .

رابعًا : الفترة الأيوبية:

أقصد بالفترة الأيوبية تلك الحقبة التى تبدأ من انفراد صلاح الدين الأيوبى بحكم مصر عقب وفاة نور الدين محمود فى شهر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة (١١٧٤م)، وتنتهى بمعاهدة يافا التى عقدت بين المسلمين والصليبيين فى ربيع الأول من سنة ست وعشرين وستمائة (مارس ١٢٢٩م) وهذا يعنى أن المدى الزمنى لهذه الفترة يصل تحديداً إلى سبع وخمسين سنة(٤٥).

والفترة الأيوبية متخمة بالأحداث الهامة والتقلبات المثيرة، وفى مقدمة هذه الأحداث نجاح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الإسلامية مما كان عاملاً مؤثراً فى الانتصار الإسلامى فى حطين(٤٦) وهى المعركة التى انتصر فيها المسلمون انتصاراً مؤزراً تحت قيادة صلاح الدين أثمر عن نتائج إيجابية عديدة جاء فى مقدمتها استرداد المسلمين بيت المقدس.

ثم كانت غلبة الصليبيين فى معركة عكا(٤٧) فى أعقاب الحملة الصليبية الثالثة مما ترتب عليه مكاسب عدة لصليبى الجنوب أو بيت المقدس، أما فى الشمال فقد خصص صلاح الدين

سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) للجهاد ضد أنطاكية، وقد تحقق للمسلمين فى هذه الناحية مكاسب لكنها كانت أقل شأناً مما تحقق لهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ختم صلاح الدين جهاده ضد الصليبيين بصلح الرملة[٤٨] الذى تم التوصل إليه فى شهر شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة (٢سبتمبر ١١٩٢م) .

وتبعاً لبنود صلح أو هدنة الرملة تجمّد النشاط العسكرى بين الجانبين لفترة، ثم فى أواخر سنة أربع عشرة وستمائة (١٢١٨م) بدأت طلائع قوات الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى شمال الدلتا المصرية، وهى التى شهدت عدة أحداث هامة أحدثت تغيراً مثيراً لصالح المسلمين.

كان من أحداث هذه الحملة استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط ومن ثم توغل قواتهم جنوباً صوب العاصمة المصرية، وفى الطريق تصدت لهم القوات الأيوبية فى منطقة شكلت ما يمكن أن نسميه خط الدفاع الثانى والتى كانت مدينة دمياط قبله قد شكلت خط الدفاع الأول، وفى منطقة خط الدفاع الثانى حقق المسلمون انتصارهم الأول على قوات الحملة، وبعده توالت الهزائم على الصليبيين ، وزاد من تأزم موقفهم إغراق مدينة دمياط وإغلاق خط الرجعة أمامهم، ورضخوا لشروط الهدنة التى أملاها عليهم ومن مركز قوة الملك الكامل الأيوبى[٤٩]،وكان أولها انسحابهم من أرض مصر مما يعنى هزيمة مريرة وفشلاً ذريعاً لأحلامهم وأهدافهم من الحملة على مصر .

وبعد سنوات ، وفى منتصف سنة خمس وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) شهدت سواحل أرض فلسطين الحملة الصليبية السادسة، والتى تتمثل أحداثها الرئيسة فى حدثين أولهما استعانة السلطان الأيوبى الملك الكامل بالإمبراطور الألمانى فردريك الثانى[٥٠] كى يسانده فى مواجهة منافسيه من زعماء البيت الأيوبى، أما الحدث الثانى فهو تخلى الزعيم الأيوبى عن بيت المقدس للإمبراطور الألمانى والذى يعد العنصر الأساسى فى هدنة يافا[٥١] التى عقدت بين الجانبين فى ربيع الأول سنة ست وعشرين وستمائة للهجرة (مارس ١٢٢٩م) .

* * *

١- كانت أحداث الفترة الأيوبية متزامنة مع المؤرخ ابن الأثير فى فترة نضجه وتشكيل مقوماته بوصفه مؤرخاً ، فقد كان حينما وقعت معركة حطين فى أواخر العقد الثالث من عمره؛ أما ابن العبرى فكان يعبر السنوات الأولى من عمره مع أحداث الحملة الصليبية السادسة ، وإذا صح للباحث أن يقول عن ابن الأثير أنه كان معاصراً للفترة الأيوبية ، فإن ابن العبرى كان

قريب العهد بها ، إضافة إلى أنه عاصر المرحلة اللاحقة بما فيها من أحداث الحملة الصليبية السابعة وإسقاط أنطاكية الصليبية .

على أي حال فالعنصر الأساس لهذه الدراسة هو المقارنة بين المؤرخين فى تأريخهما لأحداث المرحلة، ونبدأ بابن الأثير فنجده قد أرخ لكل أحداثها (٥٢)، وأهمها الجهود التى بذلها صلاح الدين الأيوبى من أجل مواجهة الخطر الصليبى بإعادة بناء الجبهة الإسلامية ، ومن ذلك نجاحه فى ضم دمشق وحصاراته لحلب(٥٣) ثم ضمها ، وأيضًا نجد ابن العبرى قد أرخ(٥٤) لهذه الحوادث ناقلاً ذلك بصورة نصّيه إلى حد كبير عن ابن الأثير، ومستخدمًا ألفاظه التى عبّر من خلالها عن تطورات الأحداث ، ويتبين لنا ذلك من قول ابن الأثير عن الحدث الأخير وهو حصار حلب سنة تسع وسبعين وخمسمائة (١١٨٣م) (٥٥):

«إنه يسلم- عماد الدين - حلب ، ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وجرت اليمين على ذلك ، وباعها بأوكس الأثمان، أعطى حصنًا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع... فعجب الناس كلهم من ذلك ، وقبحوا ما أتى ، حتى إن بعض عامة حلب أحضر إجّانة وماءً ، وناداه أنت لايصلح لك الملك ، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب، وأسمعوه المكروه».

أما ابن العبرى فيقول (٥٦):

«فتقرر الصلح أن يسلم حلب إلى صلاح الدين، ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وجرت اليمين على ذلك ، فباعها بأوكس الأثمان؛ أعطى حصنًا مثل حلب ، وأخذ عوضها قرى ومزارع، فقبح الناس كلهم ما أتى».

وكما هو واضح فقد اعتمد ابن العبرى على معلومات ابن الأثير، وحتى ألفاظه فى التأريخ لهذا الحدث، ولكن انفرد ابن الأثير بإبراز إيجابية هذا الحدث بالنسبة لدولة صلاح الدين قائلاً(٥٧):

«واستقر ملك صلاح الدين بتملكها ، وكان مزلزلاً ، فثبت قدمه بتسليمها ، وكان على شفا جرف هار».

وهذا التعليق من ابن الأثير يحمل مبالغة واضحة ، فقد كان ملك صلاح الدين يزداد رسوخًا وثباتًا سنة بعد أخرى منذ انفراده بحكم مصر أواخر سنة تسع وستين وخمسمائة، ولايغيب عنا أن ابن الأثير فى هذا التعليق كان متحاملاً على صلاح الدين ، وذلك لاعتقاده أنه لم يحفظ جميل أستاذه نور الدين، فعامل ابنه بصورة غير لائقة ، وعلى هذا الأساس فإن

تجاهل أو إغفال ابن العبرى لتعليق ابن الأثير لايخرج عن أحد أمرين أولهما : أن هذا الإغفال جاء تمشيًا مع أسلوب الإيجاز الذى اختاره لكتابه ، وفى هذه الحالة يلزم أن نصمت إزاءه؛ وثانيهما : أن يكون هذا التجاهل قد حدث لكى لايقع فى سقطة علمية، وفى هذه الحال يكون التجاهل أمراً طيباً جديراً بالإشادة[٥٨].

٢- بعد إعادة بناء الجبهة الإسلامية تتابعت سلسلة من الأحداث أبرزها معركة حطين فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) وما ترتب عليها من مكتسبات فى مقدمتها استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس .

وبالنظر إلى موقف مؤرخينا من هذه المعركة نجد أن ابن الأثير قد أرخ لأحداث السنة المشار إليها بدرجة وافية من التفصيل [٥٩]، وفى إطار هذا التفصيل أبرز عوامل الهزيمة التى لحقت بالصليبيين فى معركة حطين ومن أبرزها حرمان الصليبيين من مصادر المياه، وهو سلاح استخدمه صلاح الدين بقدرة فائقة ، ثم تحدث عن الأسرى الصليبيين ، وعدَّد من أسر من زعمائهم وطوائفهم .

أما ابن العبرى فموقفه غريب جداً من هذه المعركة حيث نجد أنه تجاهل الإشارة إليها تجاهلاً تامًا بحيث لم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد؛ هذا على حين أنه أرخ لأحداث ثانوية سبقت المعركة، وأخرى أقل شأنًا أيضًا أعقبت المعركة ، فمن الأحداث التى أرخ لها[٦٠] قبل معركة حطين استيلاء قوات صلاح الدين على طبرية [٦١]، ومن الأحداث التى أعقبتها استعادة المسلمين لعدد من المدن الإسلامية من بينها قيسارية وحيفا ويافا وتبنين وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من المدن والبلدات الإسلامية ، وابن العبرى فى هذا ناقل عن ابن الأثير فى كل معلوماته التى أوردها [٦٢].

فما هى مبررات ابن العبرى فى إغفال مثل هذا الحدث الهام واهتمامه بدلاً من ذلك بأحداث ثانوية؟!! .

إن فكرة الإيجاز أو التلخيص التى اتسم بها منهج ابن العبرى فى تأليف كتابه تعنى بداهة التركيز على الأحداث الأساسية ، وتجاهل الأحداث الثانوية غير أن ابن العبرى انتهج أسلوبًا متناقضًا تمامًا، وليس له من تبرير سوى أن قلمه لم يطاوعه فى أن يبرز كارثة حاقت بالصليبيين كتلك التى ألمت بهم فى معركة حطين ، وهذا يعنى رضوخه لعواطفه الدينية، وهذا الرضوخ ينافى الموضوعية المطلوبة من المؤرخ فى معالجة الأحداث التاريخية.

٣- وفى الوقت الذى تجاهل فيه ابن العبرى معركة حطين، نجده يؤرخ وبدرجة غير مألوفة من التفصيل عن ظروف استرداد صلاح الدين لبيت المقدس [٦٣]، وهو الحدث الذى وقع بعد معركة حطين بعدة أسابيع [٦٤]. ومن الأمور التى حرص على تسجيلها القتال الشديد التى احتدم بين المسلمين والصليبيين على مشارف المدينة، كما سجل الحوار الذى دار بين صلاح الدين وباليان بن نيوزان[٦٥] ومما ورد فيه قول الأخير[٦٦]:

«أيها السلطان ، إعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان؛ فإن رأينا أن الموت لابد منه فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ، ولانترككم تغنمون منا ديناراً ولادرهماً، ولاتسبون وتأسرون رجلاً أو امرأة. فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولانترك لنا دابة ولاحيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا. وحينئذ لايقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كرماء».

وأورد ابن العبرى هذا النص وفيه مالايخفى على فطنة القارىء الكريم من اعتزاز وتفاخر من الزعيم الصليبى، ودعاية للقوة الصليبية وتقليل من الانتصار الإسلامى ، وكأنى بابن العبرى قد جعل من نفسه أو من كتابه صورة دعائية لوجهة النظر الصليبية، وتعاطفاً مع أبناء عقيدته وتبريراً للظروف التى أدت إلى هزيمتهم. وهذا يتنافى مع الحيادية والموضوعية المطلوبتين فى المؤرخ عند معالجته أحداثا تقوم على التباين الدينى كأحداث الحروب الصليبية.

لقد سجل ابن العبرى القواعد التى على أساسها تم استسلام الصليبيين[٦٧]، ولكنه تجاهل عن عمد عدداً من الحقائق أو المعلومات ذات الصلة باستعادة المسلمين لبيت المقدس. وبالرجوع إلى ابن الأثير[٦٨] وهو الأصل الذى نقل عنه ابن العبرى معلوماته السابقة نلحظ هذا التجاهل بالمعلومات المتصلة بإحدى السيدات الروميات من نساء ملوك الروم، وأيضاً المتصلة بملكة القدس، وكذلك ما يتصل ببطريرك الفرنج من معلومات.

ونخلص من هذه الجزئية أن ابن العبرى سجل حقائق وتجاهل أخرى سجل ما رأى فيه نقاطاً إيجابية للصليبيين، وتجاهل ما قد يحسب نقاطاً مضيئة للمسلمين ولقائدهم صلاح الدين الأيوبى؛ سجل استماتة الصليبيين فى القتال لأن هذه الاستماتة تحسب لهم، وسجل الحوار الذى أورده على لسان باليان لأنه رأى فيه عبقرية أقنعت صلاح الدين بقبول فكرة استسلام الصليبيين وتبريراً مقنعاً لهزيمتهم، وفى الوقت نفسه نراه يتجاهل التصرفات النبيلة التى

صلاح الدين إزاء الصليبيين وفي كل هذا منافاة للموضوعية التي يلزم أن يتحلى بها المعنى بالتأريخ والحيادية التي ينبغي أن ينتهجها من يؤرخ للأحداث ويرصد تطوراتها.

أما عن موقف المؤرخين حول معركة عكا الذروة فيما يسمى بالحملة الصليبية الثالثة أو الرد الصليبي على انتصارات صلاح الدين الأيوبي، ففي نصوصهما عن هذه المعركة والمفاوضات التي أعقبتها يجد الباحث تشابهاً شديداً بين ما دونه ابن الأثير(٦٩) وما دونه ابن العبري(٧٠) باستثناء كلمة «غدروا» التي أوردها ابن الأثير وكررها أكثر من مرة في ثنايا المفاوضات التي جرت بين صلاح الدين وقادة الصليبيين تعبيراً عن عدم التزام الصليبيين بتعهدهم بعد تسلمهم عكا، وغدرهم بمن فيها من المسلمين، وحذف ابن العبري لهذه الكلمة يبرز تعاطفه مع إخوته في العقيدة، وكأنه بذلك يريد أن ينفي عنهم صفة الغدر.

وإذا كان ما سبق عن موقف المؤرخين من الأحداث المتصلة بمملكة بيت المقدس، فمن المناسب التعرف على هذا الموقف من الأحداث المتصلة بأنطاكية، والنشاط الجهادي الذي بذله صلاح الدين ضد الصليبيين في المناطق الشمالية.

٤- وفي هذا الصدد نجد أن ابن الأثير قد فصّل الحديث عن جهاد صلاح الدين وما بذله في سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) من نشاط حربي في مواجهة الوجود الصليبي في إمارة أنطاكية، وما ترتب عليه من استعادة معظم المدن والمواقع التابعة لأنطاكية والتي قال عنها ابن الأثير(٧١):

«وهي جميعها من أعمال أنطاكية، ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودربساك».

هذا وقد استنفذ تأريخ ابن الأثير لهذه العملية الجهادية عدة صفحات زادت على سبع صفحات، أما ابن العبري فقد قفز على هذه الأحداث بحيث اختصرها في سطر وثلاث كلمات فقط قائلاً(٧٢):

«وفي سنة أربع وثمانين فتح صلاح الدين جبلة واللاذقية وصهيون وشُغْربَكاس ودربساك وبغراس والكرك وصفد».

ويغلب على الظن أن ابن العبري قد لجأ إلى هذا الاختزال الشديد للأحداث كي لايبرز أو يؤرخ للعديد من الصور المؤلمة لهزائم الصليبيين في أنطاكية، وفي إطار هذا الاختزال تجاهل عبارة ابن الأثير التي اتخذت شكل إحصائية أو تقرير ختامي، وكأني بابن العبري لايريد

لقلمه أن يسجل حالة التردى التى وصل إليها الصليبيون فى إمارة أنطاكية التى أمضى فيها حقبة من حياته .

٥- ومن الأحداث الهامة المتصلة بالحملة الصليبية ما يتعلق بالجهود التى بذلها صلاح الدين فى تحصين مدينة القدس فى مواجهة القوات الصليبية التى استهدفتها بعد الاستيلاء على عكا، وقد ترتب على هذا التحصين فشل المحاولات الصليبية اقتحام المدينة المقدسة، وقد أرخ ابن الأثير لهذا الأمر بدرجة مناسبة من التفصيل[٧٣] على حين تجاهل ابن العبرى الموضوع برمته، وهذا يتسق مع طريقته فى تجاهل النقاط السلبية بالنسبة للصليبيين، ومما يساعدنا فى هذا الاستنتاج أننا نجد ابن العبرى يؤرخ بتفصيل غير مسبوق[٧٤] عن نجاح الصليبيين فى معركة عكا، وذلك فى السطور التى تسبق مباشرة الحديث عن تحصين القدس، وهو بهذا ينتقى الأحداث التى يؤرخ لها بحيث تكون من النوع الذى يسجل انتصاراً أو غلبة للصليبيين . أما تلك التى تفيد إخفاقًا أو فشلاً أو هزيمة لهم فإنه غالبًا ما يتجاهلها أو يسقطها من تأريخه ، وإذا وجد نفسه مضطراً إلى ذكرها فإنه يشير إليها إشارة عابرة أو بطريقة مختزلة يترتب عليها إخلال بالمعنى المقصود ، وهذا الأسلوب لايتوافق مع الحيادية والموضوعية اللتين يجب على المؤرخ التحلى بهما عند تدوين التاريخ.

أما آخر الأحداث الهامة المتعلقة بالحملة الصليبية الثالثة فهو صلح الرملة[٧٥] الذى ختمت به تلك الحملة، وعن هذا الحدث نجد أن ابن الأثير يؤرخ له بصورة مناسبة[٧٦] حيث أوضح أن المبادرة فى طلب الهدنة جاءت من جانب ملك انجلترا[٧٧] الذى دفعته ظروف متعددة إلى اتخاذ المبادرة؛ كما يبين ابن الأثير التنازلات التى قدمها ريتشارد قلب الأسد وأورد تفصيلات لها أهميتها بالنسبة للحدث فى ذاته، وهى أيضًا هامة بالنسبة لدارسى التاريخ إذ أنها تلقى مزيداً من الضوء على المفاوضات التى تمت بين الجانبين ، كما تعرفنا بوضعهما فى المواجهة العسكرية، ولعلى فى إبراز نص ابن الأثير حول الحدث المذكور ما يوضح ما ذهبت إليه ، يقول ابن الأثير[٧٨]:

«وسبب الصلح أن ملك إنكلتار لما رأى اجتماع العساكر ، وأنه لايمكنه مفارقة ساحل البحر، وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه، وقد طالت غيبته عن بلاده راسل صلاح الدين فى الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا.... فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة، ونزل عن تتمة عمارة عسقلان، وتخلى عن غزة والداروم والرملة».

وفى إطار تعليق ابن الأثير على الصلح، وعلى لسان الزعيم الصليبى باليان بن بارزان نقل ابن الأثير قوله لصلاح الدين[٧٩]:

«ما عمل أحد فى الإسلام ما عملت، ولاهلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا أحصينا من خرج إلينا فى البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل، ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم تتلتهم أنت، وبعضهم مات، وبعضهم غرق».

وتتبين أهمية هذا النص الذى أورده ابن الأثير من أهمية الإحصاء الذى انفرد به عن ضخامة الخسائر البشرية التى تكبدها الصليبيون، وكانت السبب المباشر لطلبهم الصلح مع صلاح الدين .

ونلتفت إلى ابن العبرى فنجد أنه أرخ للصلح أو الهدنة فى سطر واحد فقط [٨٠]. ومن السهل على الباحث أن يدرك سر تجاهله للتفصلات المرتبطة بالهدنة سواء فى أسبابها أو فى نتائجها إذ أنها تفصيلات تبرز تغيراً لايستهان به فى موازين القوى لصالح المسلمين ، وإلا لما أقدم ريتشارد على التنازلات التى قدمها ، وهى تنازلات تتصل بالسيادة والأرض كما هو واضح من نص ابن الأثير.

٦- توفى صلاح الدين فى شهر صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة (فبراير ١١٩٣م) أى بعد حوالى ستة أشهر من عقد صلح الرملة ، وبعد وفاته تتابعت سلسلة من التطورات الداخلية فى دولة صلاح الدين ، كما جرت تطورات سياسية على الجانب الصليبى، ولايعنى البحث الذى بين أيدينا هذه أو تلك حتى جاءت سنة ستمائة من الهجرة (١٢٠٢-١٢٠٣م)، وفيها جرت أحداث الحملة الصليبية الرابعة، وهى الحملة التى أسفرت عن استيلاء الصليبيين على الإمبراطورية البيزنطية وبالتالى تأسيس نظام كاثوليكى[٨١] عمر حوالى ستين سنة.

أرخ ابن الأثير[٨٢] للحملة الصليبية الرابعة، وقدم فى ثنايا تأريخه معلومات مفيدة ، وكذلك أرخ ابن العبرى[٨٣] لهذه الحملة أيضاً، ولكن بدرجة تكاد تكون تفصيلية على غير عادته، ومن ذلك تأريخه للمعاملة القاسية التى عومل بها الناس على يد الصليبيين وزعمائهم، ولم يسلم من ذلك رجال الدين البيزنطيون، ولا كنيستهم آياصوفيا ولا أناجيلهم ولا صلبانهم.

صحيح أن ما أرخ ابن العبرى لمذبحة القسطنطينية قد نقله بصورة شبه كاملة عن ابن الأثير

وذلك على غير المألوف من هذ المؤرخ الذى تجاهل من قبل المذبحة التى ارتكبها الصليبيون مع مسلمى معرة النعمان ، وذلك على الأرجح كى لايجعل من نفسه شاهداً على جرائم إخوانه فى العقيدة. أما إذا تعلق الأمر بنصارى الشرق (الأرثوذكس)[٨٤]- وهو منهم- فسيكون الأمر مختلف تماماً، وسيميل لصالحهم على حساب الصليبيين وهم (كاثوليك) ، ثم لاننسى أنه كان أحد رجال الدين النصارى ممن يحملون لكنيسة آيا صوفيا ورجال الدين النصارى فيها انتماءً روحياً وفكرياً وزمالة قديمة.

٧- أما عن الحملة الصليبية الخامسة فالعجيب تجاهل ابن العبرى هذه الحملة تجاهلاً يكاد يكون تامًا حيث أسقطها من مؤلفه وكأنها لم تكن [٨٥]، ولكن سرعان ما يزول هذا التعجب إذا عرفنا- - كما سبق أن أشرت- أنه قد تجاهل الحملة الصليبية الثانية، والقاسم المشترك بين الحملتين- وهو ما دعى ابن العبرى إلى الصمت عن تأريخ الحملة - هو الفشل الذريع الذى منيت به الحملتان، وعجز قادتهما عن تحقيق أى من الأهداف التى كانت مؤملة منهما.

والغريب فى الأمر أن ابن العبرى قد أرخ وبشىء من التفصيل[٨٦] المثير للانتباه للاجتياح المغولى لمناطق المشرق الإسلامى، وذلك ضمن أحداث سنة سبع عشرة وستمائة (١٢٢٠-١٢٢١م) ، فأرخ لسقوط بخارا، وكذلك سمرقند وغيرهما من مدن وأقاليم إسلامية علمًا أن الحملة الصليبية الخامسة امتدت أحداثها من أواخر سنة أربع عشرة وستمائة (١٢١٨م) إلى سنة ثمانى عشرة وستمائة (١٢٢١م) ، أى أن أحداث الاجتياح المغولى تقع زمنياً مع أحداث الحملة الصليبية الخامسة.

وكما سبق أن أشرت فقد أرخ ابن العبرى ضمن أحداث سنة ثمانى عشرة وستمائة لنهاية الحملة ، وبالتحديد للانسحاب الصليبى من مدينة دمياط التى سبق أن استولى عليها فى السنة قبل الماضية ، وقد نقل ما دونه من معلومات عن ابن الأثير ، ولكنه حذف ما لم تقبله عاطفته الدينية، وبالذات فى إغفاله الإشارة إلى رهائن الصليبيين وكانوا عشرين من قادتهم فى مقدمتهم ملك عكا[٨٧] ونائب البابا [٨٨]، وأيضاً إغفاله ذكر حالة الفرح والابتهاج التى عمت المسلمين نتيجة لانسحاب الصليبيين ، ولتكون هذه المقارنة أكثر وضوحًا أورد ما قاله المؤرخين عن ذلك الانسحاب ، يقول ابن الأثير[٨٩]:

«وتمموا الصلح على تسليم دمياط، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ، انتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن

على تسليم دمياط؛ ملك عكا، ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكاً، وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط فى تسليمها، فلم يمتنع من بها وسلموها إلى المسلمين... وكان يوماً مشهوداً».

ويقول ابن العبرى [٩٠]:

«فأجابوا - يقصد الصليبيين - إلى الصلح على تسليم دمياط وإطلاق ما بأيديهم من أسرى المسلمين، وإطلاق ما بأيدى المسلمين من أسراهم، وقرر الصلح عاماً مع الدكاد نائب البابا، وملك عكا، وملوك فرنجة ومقدمى الداوية والاسبتارية».

ونظرة إلى النصين نلحظ أن عاطفة ابن العبرى الدينية لم تطاوعه فى تسجيل موقف مهين بالنسبة للصليبيين، كما لم تطاوعه فى تصوير ابتهاج المسلمين وفرحهم، وبين هذا وذاك كان صمت ابن العبرى على حساب الحقيقة التاريخية والأمانة العلمية.

٨- ونقطع من الزمن حوالى ثمانية أعوام، وبالتحديد إلى منتصف سنة خمس وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) حيث شهدت سواحل بلاد الشام بداية الحملة الصليبية السادسة[٩١]، وذلك بوصول مقاتلين من قوات الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى، وأهم ما يميز هذه الحملة أنها كانت هادئة ومع هدونها حققت مكاسب مهمة على حساب المسلمين، وفى مقدمتها تسليم مدينة القدس للإمبراطور الألمانى، وذلك فى الأول من ربيع الثانى من سنة ست وعشرين وستمائة (فبراير ١٢٢٩م) [٩٢].

لقد أرخ كل من ابن الأثير[٩٣] وابن العبرى[٩٤] للحملة الصليبية مع تباينهما فى ذلك من حيث التفصيل والإيجاز كما هى عادة المؤرخين، ويعنينا من هذا التأريخ تأريخهما لنتائج الحملة بصفة خاصة، والتباين الشديد بينهما فى هذه الجزئية بالذات رغم اعتماد ابن العبرى فى معلوماتها على ابن الأثير إلا أنه كان بعيداً جداً فى تفكيره، وأهدافه ومضمون معلوماته عن ابن الأثير، الأمر الذى يعطينا مثالاً واضحاً على أهمية الفكر التاريخى لدى المؤرخ، وأهمية الصياغة فى التعبير عن هذا الفكر (أهدافه ومراميه)، ولأهمية ما أرغب توضيحه فى هذه المقارنة بالذات أورد نصى المؤرخين عن هذه الجزئية، ومن ثم أعلق عليهما، وأرغب من القارىء الكريم التدقيق جداً فى النصين والتوقف عند كل كلمة فيهما.

يقول ابن الأثير:

«فلما اجتمعا (يريد الملك الكامل الأيوبي وأخاه الملك الأشرف) ترددت الرسل بينهما وبين الأنبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة، فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وملطية وغير ذلك بيد المسلمين، ولايسلم للفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التي استقرت معه».

ويقول ابن العبري:

«وفي سنة خمس وعشرين وستمائة ترددت الرسل بين الفرنج والملك الكامل في طلب الصلح فاتفق على تسليم البيت المقدس إلى الفرنج فتسلموه ومواضع كثيرة أخر من بلاد الساحل، وإنما أجابهم الكامل لما رأى من كثرة عساكرهم وإمداد البحر لهم بالرجال والأموال، فخاف على بلاده أن تؤخذ عنوة فأرضاهم بذلك».

نصان قصيران ولكنهما يكشفان للباحث عن حقيقة خطيرة، فإلى جانب عدم دقة ابن العبري في تحديد سنة الصلح وجعلها سنة خمس وعشرين وستمائة وهي سنة ست وعشرين وهذا مأخذ له أهميته، فهو أيضًا قد عمد إلى التزييف بل إلى قلب الحقائق رأسًا على عقب، وليس هذا الحكم من باب التحامل على ابن العبري، فما أردته من إيراد النصين وتدقيق القارئ الكريم فيهما وفي كلماتهما إلا لتأكيد هذه الحقيقة.

إنه من خلال نص ابن الأثير والذي أيدته المصادر الصليبية[٩٥] نعرف أن الذي تم التنازل عنه هو بيت المقدس ومواضع يسيرة لا تذكر، وأن عدة بلدات مثل الخليل ونابلس والغور قد بقيت بأيدي المسلمين، بل وفوق ذلك فإن الحرم القدسي بما حواه من مسجد الصخرة والمسجد الأقصى قد بقيا تحت السيادة الإسلامية.

غير ابن العبري لم يرق له حجم هذه التنازلات، فجاءت عبارته «فتسلموه ومواضع كثيرة أخر»، ومن أجل إحكام التضليل والتزييف أضاف عبارة من بلاد الساحل، وفرق كبير بين الحقيقة ومقصد ابن العبري.

هذه ناحية، وناحية أخرى يبرز من خلالها التزييف المتعمد من ابن العبري، وتتمثل في إظهار أي الجانبين كانت ظروفه أشد ضغطًا عليه ودفعًا له إلى طلب الصلح، فابن العبري ودون لبس يصرح أن الكامل إنما أجابهم لما رأى من كثرة عساكرهم وإمداد البحر لهم بالرجال... على حين أن ابن الأثير وبوضوح أيضًا لم يشر إلى هذه الناحية، بل ما ألمح إليه هو تحسن

الوضع العسكرى للملك الكامل فى الفترة الأخيرة عنه مع بداية الحملة، وقد برز هذا التحسن بعد مؤازرة أخيه الملك الأشرف له فى مواجهة الصليبيين.

وإضافة إلى هذا تبرز مصادر أخرى إسلامية وغير إسلامية ضعف موقف الإمبراطور الألمانى وأن الوقت ليس فى صالحه والضغوط تزداد عليه، وأنه ليس لديه القوة الكافية التى يستطيع بها تحقيق أى انتصار ولو كان هزيلاً على المسلمين .

يقول رنسيمان (٩٦):

«على أن فردريك تعرض للضغط فترة من الزمن ، ولم يكن جيشه من الكثافة ما يكفى للقيام بحملة كبيرة».

وما أشار إليه رنسيمان تحدث عنه عدد من المؤرخين المسلمين(٩٧) بدرجة جيدة من التفصيل والوضوح، والنص على تسليم القدس، وأن تبقى خراباً ولايجدد سورها، وعليها والٍ من المسلمين يكون مقره البيرة، وأن الحرم الشريف بما حواه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى يكون بيد المسلمين، ولايدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، وأن ما حصل عليه الفرنج إضافة إلى القدس مجموعة قرى معدودة تقع فى الطريق بين عكا والقدس كى لاتكون مصدر تهديد للعابرين من الصليبيين بين المدينتين.

وأعتقد أن صلحاً هذه شروطه أو بنوده ليس فيه من المكاسب سوى الحد الأدنى منها ، وما أوردته المصادر الإسلامية من تفصيل حول شروط الصلح ليس تعاطفاً منها مع الكامل الأيوبى لأن أصحابها مسلمون لايستبعد تعاطفهم معه بل هى الحقيقة التاريخية التى نقلتها تلك المصادر بكل أمانة وصدق ، ومع هذا يمكن حسم مثل هذا الاتهام لو حدث من خلال الوثيقة التى أخذت شكل خطاب استعطاف بعث به الإمبراطور الألمانى إلى الكامل الأيوبى فى بعض مراحل المفاوضات، وأنه يكشف بوضوح وصراحة أن حاجة الإمبراطور إلى الهدنة كانت تفوق بكثير حاجة الكامل الأيوبى إليها ، كما يكشف عن حرج موقف الإمبراطور أمام شعبه وأمام البابوية التى أصدرت بحقه قراري حرمان ، وسمحت بالاعتداء على ممتلكاته ؛ ومما جاء فى هذا الخطاب (٩٨):

«وأنا مملوكك وعتيقك، وليس لى عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي ، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتي بينهم ، وهذا القدس

فهى أصل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر».

ونخلص مما سبق إلى القول بأن ابن العبرى قد عمد إلى تشويه الحقائق وتزييفها ، وهذا يدفع إلى عدم الثقة فى تأريخه لبعض الحوادث ولاسيما تلك التى تمس عواطفه الدينية.

خامسًا : المؤرخان والأحداث الثانوية:

إيفاءً بمتطلبات منهجية البحث يلزم أن نتعرف على موقف المؤرخين المذكورين بالنسبة لعدد من الأحداث الثانوية، حتى وإن جاءت المعطيات خفيفة الدلالة فيما نحن بصدده، فاليعذر القارىء الكريم ذلك رغبة فى استيفاء كافة المواضع التى تتحقق من خلالها عناصر المقارنة المطلوبة بين المؤرخين، ويؤيد هذه الرغبة توفر أحداث عديدة منها ما يتصل بالفترة السابقة على صلاح الدين، ومنها ما يتصل بالفترة الأيوبية جمعتها من وجهة نظرى صفة الثانوية من حيث الأهمية، وأعلق عليها معتمداً على تسلسها الزمنى.

١- الحدث الأول يتعلق بالفاطميين ودورهم فى إثارة الحروب الصليبية، وإذا كان ابن الأثير قد أبان شكه وعدم تأكده من حقيقة هذا الدور (٩٩)؛ فإن ابن العبرى قد تجاهل هذه الإشارة وأعرض عنها، وقد يكون بهذا محقًا حيث رأى أن ابن الأثير قد أورد هذا الحدث فى إطار الشك مبتدئاً حديثه بكلمة (وقيل)، ومختتما إياه بكلمة (والله أعلم) ، ولعل هذا الشك هو ما دعى ابن العبرى إلى تجاهل الحدث وعدم التأريخ له.

٢- الحدث الثانى هو حقيقة تعهد قادة الحملة الصليبية الأولى للإمبراطور البيزنطى (١٠٠)، والمتمثل فى حلفهم له أن يسلموا إليه أنطاكية ، وهو التعهد الذى أوردته المصادر الصليبية(١٠١).

فابن الأثير قد أورد هذا التعهد فى قوله عن الإمبراطور البيزنطى(١٠٢):

«لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لى أنكم تسلمون إلى أنطاكية».

أما ابن العبرى فقد أغفل الإشارة إلى هذا التعهد(١٠٣)، وهذا الإغفال مستغرب منه بحكم نصرانيته الشرقية الأرثوذكسية ، وانتمائه الدينى والعاطفى لها ضد الغربية الكاثوليكية.

٣- أما الحدث الثالث فعن استيلاء الفاطميين على بيت المقدس في شعبان من سنة تسع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٦م) في أجواء الحملة الصليبية الأولى، وهو الحدث الذي أوردته مصادر كثيرة إسلامية وغير إسلامية ومن بينها ابن الأثير[١٠٤] وابن العبري [١٠٥]، وإذا كان هذا الأخير قد أرخ للحدث بألفاظ ابن الأثير تقريباً ، ومع أنه قد جعل تاريخ هذا الحدث سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وما في ذلك من خلل منهجي وعدم دقة في تتبع الأحداث، فالتساؤل الذي يرد هو لماذا أرخ ابن العبري للاستيلاء الفاطمي على بيت المقدس في الوقت الذي تجاهل فيه الإشارة إلى تعهد القادة الصليبيين على أنفسهم للإمبراطور البيزنطي؟ ويستطيع البعض أن يجيب على هذا التساؤل بأن الاستيلاء الفاطمي على بيت المقدس حدث بارز عرفه الجميع بينما التعهد كان محصوراً في دائرة ضيقة ، وقد يفسر آخرون موقف ابن العبري من الحدثين بأنه أرخ للحدث الذي يوضح حالة العداء والانشقاق بين المسلمين في حين تجاهل الحدث الذي يبرز حالة العداء بين النصارى، وكذلك التعهد الذي قطعه قادة الصليبيين على أنفسهم، وفي حالة عدم وفائهم به يعني نقطة قاتمة في تاريخهم ، وهو لايريد لمثل هذه النقاط أن تظهر وإن ظهرت فلا يكون ظهورها من قبله.

٤- ومن الأحداث الثانوية وقوع حاكم الرها الصليبي القمص بردويل (بلدوين)[١٠٦] في أسر المسلمين سنة سبعة وتسعين وأربعمائة (١١٠٤م)، ثم إطلاق سراحه في سنة اثنتين وخمسمائة (١١٠٨م)، وعن الحدث بشقيه نجد أن ابن الأثير[١٠٧] قد أرخ له بينما ابن العبري تجاهل الحديث عنه ، وليس مقبولاً أن يقال إن عدم إشارة ابن العبري إلى الحدث ناتج عن عدم معرفته وهو الناقل من ابن الأثير أولاً ولأهمية الحدث ثانياً وكون الحدث على درجة كبيرة من الأهمية، وارتباطه بأكثر من سنة وبعدد من قادة الصليبيين من ناحية ثالثة، وفي ضوء هذه الاعتبارات فإن الأقرب إلى القبول هو أن ابن العبري تجاهل الخبر لأنه يمثل نقطة قاتمة في تاريخ الصليبيين، وليس لهذا التجاهل من تبرير آخر يمكن الاطمئنان إليه.

٥- ومن الأحداث الثانوية المرتبطة بسنة ثلاث وخمسمائة (١١٠٩م) استيلاء طنكري[١٠٨] حاكم أنطاكية الصليبية على عدد من الثغور الإسلامية في بلاد الشام، وقد أرخ ابن الأثير[١٠٩] وبدرجة مقبولة من التفصيل لهذا الاستيلاء ضمن أحداث السنة المذكورة والسنة التالية، وقد التفت ابن العبري[١١٠] هو الآخر لهذا الأمر، وتحدث عنه بصورة موجزة تتفق وطبيعة تأريخه ، وطالما أنه يمثل انتصاراً صليبياً وهزيمة للمسلمين ، ففيما بين كلمات النص

الذى تضمن الحدث يلمس القارئ، غبطة ابن العبرى وفرحه لهذا الانتصار، وحرصه على إبراز ضعف المسلمين سواء كانوا من أتباع السلطنة السلجوقية أم الخلافة الفاطمية.

٦- ومن أحداث السنة المذكورة وسنتى خمس وخمسمائة وست وخمسمائة الحملات الحربية التى قادها مودود[١١١] حاكم الموصل بدعم وتوجيه من السلطان السلجوقى[١١٢] ضد مدينة الرها وتوابعها ، فعن هذه الحملات[١١٣] نجد أن مؤرخينا لم يؤرخا للحملة الأولى فى سنة ثلاث وخمسمائة (١١١٠م)، وانفرد ابن الأثير فى التأريخ[١١٤] للحملة الثانية فى سنة خمس وخمسمائة مبرزاً إخفاق المسلمين فى استعادة المدينة، وانسحابهم منها لملاقاة الصليبيين الذين تجمعوا للدفاع عنها. أما عن الحملة الثالثة فى أول السنة التالية، فإضافة إلى تأريخ ابن الأثير لها[١١٥] نلاحظ أن ابن العبرى لم يغفل التأريخ[١١٦] لهذه الحملة لأن فيها انتصاراً صليبيًا على المسلمين، وما تأريخه لها إلا انسجامًا مع عاطفته الدينية التى بادرت إلى تسجيل الانتصار الذى حققه الصليبيون على المسلمين ، وهذا واضح جداً فى أمر هذه الحملات، فالنجاحات التى حققها المسلمون فى الحملتين السابقتين رغم فشلهم فى استعادة المدينة لاتستحق من ابن العبرى الرصد والتأريخ حتى ولا الالتفات والإشارة إليهما دون نجاحاتهما ، ولامبرر لهذا عند ابن العبرى سوى ما ذكر من أن عاطفته الدينية وفرحه لتحقيق أى انتصار على المسلمين سببان كافيان فى نظره للتأريخ ورصد الأحداث بدلاً من الأمانة والحيادية .

٧- فى سنة سبع عشرة وخمسمائة (١١٢٣م) استولى بلك بن بهرام بن أرتق[١١٧] على حلب بهدف دعم الجهاد الإسلامى فى مواجهة التوسع الصليبى، وفى السنة التالية استشهد وهو محاصر لمنبج، فعن هذين التطورين نجد كلاً من ابن الأثير وابن العبرى[١١٨] يؤرخان لهما حسب منهجيتيهما فى التفصيل لابن الأثير والإيجاز لابن العبرى، ولكن بالنسبة للحدث الثانى نلحظ أن ابن العبرى من خلال مقارنة نصه بنص ابن الأثير عن ذات الحدث قد تجاهل الجزئيات المتصلة بالصليبيين ، وعلى الأرجح أنه حرص على هذا التجاهل لأن الهزيمة لحقت بهم، وهو لايريد لقلمه أن يسجل انتكاستهم، وهذا يعنى أنه جعل عواطفه أو ميوله تتحكم فى تأريخه للأحداث ، وما يتبع ذلك من مجافاة للموضوعية والحيادية.

٨- وبعد سنتين أى سنة عشرين وخمسمائة (١١٢٦م) استشهد قسيم الدولة آقسنقر البرسقى[١١٩] حاكم الموصل ، وقد أرخ لهذا الحدث كل من ابن الأثير[١٢٠] الذى ألحق به

تفصيلات عديدة لها فائدتها، وكذلك ابن العبرى [١٢١]، ولكنه لم يلق بالاً للتفصيلات التى أوردها ابن الأثير- خصوصاً وأنه ينقل عنه- عدا جزئية واحدة يبدو أنها راقت له واتفقت مع ميوله، وهى المتعلقة بالصليبيين، ومعرفتهم خبر استشهاد قسيم الدولة قبل معرفة ولده عز الدين مسعود [١٢٢] بذلك.

وللباحث أن يتساءل عن حقيقة الدوافع التى دعت ابن العبرى إلى اختيار هذه الجزئية دون الجزئيات الأخرى التى ألحقها ابن الأثير بخبر استشهاد البرسقى ، وأظنه ليس من قبيل المجازفة أن أقول بأن الدوافع تتلخص فى إعجاب ابن العبرى بالصليبيين ومهارتهم فى التجسس أو تصيد الأخبار، وهو ما لم يكن متوفراً للمسلمين، وهذا بدوره يؤكد انسياق ابن العبرى وراء عواطفه وميوله الدينية.

٩- وعن استشهاد عماد الدين زنكى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (١١٤٥م)، فقد أرخ مؤرخانا [١٢٣] لهذا الحدث، وكما هى عادة ابن العبرى فقد استقى معلوماته عن ابن الأثير، وأيضًا استخدم مفرداته وعباراته، وفوق كل ذلك استخدم جمله الاعتراضية، وفى إطار هذا التقيد الشديد حذف كلمة واحدة لم تطاوعه عواطفه على ذكرها ، وهى كلمة الشهيد التى أوردها ابن الأثير صفة لعماد الدين، وأسقطها ابن العبرى ، وجاء هذا تعبيراً عن ما كان يكنه من عدم ارتياح أو بغض لعماد الدين ، وما ذلك إلا لأن عماد الدين قد وجه إلى الصليبيين العديد من الضربات .

ونلحظ أيضاً أنه اختلف مع ابن الأثير فى توقيت هذا الحدث فجعله قبل سنة من حدوثه أى فى سنة أربعين وخمسمائة (١١٤٤م)، ولامبرر لهذا الاختلاف ، فإن لم يكن سقط نظر من ابن العبرى ، فهو بالتأكيد مثال على موقفه السيء من الشهيد عماد الدين وسوء نظرته وعدم ارتياحه له.

١٠- ومن الأحداث المرتبطة بسنة أربع وأربعين وخمسمائة (١١٤٩م) غزو نور الدين محمود لإمارة أنطاكية ، فقد غزاها مرتين حقق فيهما انتصارين كبيرين، وبالنظر إلى مؤرخينا نجد أن ابن الأثير قد أرخ للغزوتين بشيء مناسب من التفصيل [١٢٤] أما ابن العبرى فنجده يؤرخ فقط للغزوة الأولى [١٢٥] متجاهلاً الثانية، ويبدو أن تجاهله لها ارتبط بروعة الانتصار الذى تحقق فيها لدرجة الإشادة الكبيرة من الشعراء، وهنا يبرز تحكم ميول ابن العبرى فى رؤيته للأحداث وفى تأريخه لها.

١١- وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة (١١٥٧م) تملك نور الدين محمود حصن شيزر[١٢٦]. وبالنظر إلى ابن الأثير نراه يؤرخ لهذا التطور بدرجة جيدة من التفصيل[١٢٧]، وأبرز العامل الأساسى فى حرص نور الدين على تملك شيزر، وهو اتصال أصحاب الحصن بالصليبيين وتعاونهم معهم مما يعنى عقبة فى المخططات الجهادية لنور الدين. كما أرخ أيضًا للحدث الذى زامن هذا التطور ، وأعنى به الزلزلة التى دمرت كثيراً من المدن الشامية، ومن بينها حصن شيزر .

أما ابن العبرى والذى نقل معلوماته عن ابن الأثير، فنراه يؤرخ للزلزلة والأضرار التى اقترنت بها[١٢٨] دون أن يلتفت إلى التطور الذى جرى فى حصن شيزر ، وهو بهذا يعبّر بطريقة غير مباشرة عن كراهيته لما حدث ، وعدم رضاه للنتائج المترتبة عليه، وما فيها من أضرار بالمصالح الصليبية.

١٢- ومن أحداث سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٦٤م) تدخل كل من نور الدين والصليبيين فى شؤون مصر الفاطمية، وملحظ تأريخ ابن الأثير[١٢٩] لإحدى مراحل هذا الصراع وبدايات هذا التدخل ، وتابعه فى ذلك ابن العبرى[١٣٠]، ولكن بإيجاز يتفق وطبيعة كتابه.

ومن أحداث السنة المذكورة انتزاع نور الدين لحصن حارم[١٣١] وقلعة بانياس[١٣٢] وهما الحدثين اللذين أرخ لهما ابن الأثير[١٣٣] وأبرز قيمتهما فى إرغام الصليبيين على الانسحاب من مصر، أما ابن العبرى فقد تجاهلهما تمامًا، وهذا التجاهل تعبير عن عدم رضاه على الانتصار الإسلامى والهزيمة الصليبية، والتطورات التى أعقبت ذلك، وبالذات الخسائر التى لحقت بالصليبيين نتيجة ضياع الموقعين ، وعدم تأريخ ابن العبرى لما فيه قوة للمسلمين وانتصار لهم أحد الأمثلة العديدة التى يبين فيها كرهه للمسلمين وتعاطفه مع الصليبيين ، وهو ما أملته عليه عواطفه الدينية.

١٣- وعن تأريخ الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة خمس وستين وخمسمائة (١١٦٨-١١٦٩م) ونجاح المقاومة الإسلامية بقيادة صلاح الدين فى صدها وإلحاق هزيمة قاسية بالصليبيين ، فقد أرخ ابن الأثير لتفاصيل هذه الحملة[١٣٤]، وبيّن الرابطة بين هذه الحملة ونجاح قوات نور الدين فى السيطرة على مصر فى تاريخ سابق، وقد قام بتغطية جيدة للحدث وتطوراته اللاحقة حتى نهاية الإخفاق الصليبى وهزيمتهم، ومن ثم انسحابهم من مصر.

أما ابن العبرى فكما هى عادته غالبًا فقد تجاهل الحملة، ولم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد، ولايفسر تجاهل مؤرخ لحدث له أهميته فى التاريخ عمومًا وفى تاريخ الفترة خصوصًا إلا لأسباب ذاتية تتعلق بالمؤرخ نفسه، إذ كيف تطاوعه نفسه، ويوافقه قلمه على تسجيل الهزيمة لإخوانه فى العقيدة، وهى شر هزيمة عبَّر عنها ابن الأثير بقوله :

«رجعوا خائبين لم يظفروا بشىء ، ووجدوا بلادهم خرابًا، وأهلها بين قتيل وأسير».

وهذا يعنى أن ابن العبرى لم يتخلص من عواطفه وميوله وأحقاده على المسلمين وبغضه لهم وجزعه من انتصاراتهم، مما جعله يقف وبكل وضوح مع المعسكر الصليبى ضد المسلمين.

١٤- ومن الأحداث الثانوية المقايضة التى تمت بين صلاح الدين وعماد الدين زنكى[١٣٥] ضمن جهود الأول فى توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، وسبق أن ذكرت بأن مؤرخينا قد أرخا لهذه المقايضة ، وأوردت نصيهما فى هذا الشأن[١٣٦]، والذى نلحظه من نص ابن الأثير أنه سفَّه فى جزئية منه قبول عماد الدين لهذه المقايضة ، ونقل ابن العبرى هذا التعليق بألفاظه من ابن الأثير، ومعروف أن هذا الأخير كان يميل إلى البيت الزنكى ويتعاطف مع ذرية عماد الدين مؤسس هذا البيت ، ويرى أن صلاح الدين لم يتعامل معهم بالمستوى اللائق الذى كان يجب عليه ويستحقونه ، نظرًا لأن كبير البيت الزنكى ومن بعده ابنه نور الدين هما صاحبا الفضل فى إقامة الدولة الأيوبية، لذا نجد فى تأريخه غمزات وإشارات ذات دلالة على هذا الموقف من ابن الأثير والمقايضة التى تمت، وتقبيحه لها يمكن أن تندرج فى هذا الإطار .

وابن العبرى - الذى ينقل عن ابن الأثير- يحرص على أن يؤرخ لمثل هذه الأحداث التى تظهر الانقسام بين المسلمين وقادتهم ، وتحط من شأنهم وشأن صلاح الدين بصفة خاصة، وهذا ليس لأنه ينقل عن ابن الأثير كل شىء، ولكن لأنه يختار ما ينقل وفق مزاجية مرتبطة بعقيدته وميوله وعاطفته من ناحية، ولأنه باستيلاء صلاح الدين على حلب يكتمل طوق الحصار حول الصليبيين من ناحية ثانية، وفى هذا تفوق حاسم لصلاح الدين عليهم، وهذا مالايستسيغه ابن العبرى ولايطمئنه ولايرضيه وهو المتعاطف مع الصليبيين.

١٥- ومن أحداث سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة (١١٨٦م) ما أقدم عليه أرناط[١٣٧] حاكم الكرك من نقضه الهدنة[١٣٨] التى كانت معقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية، وهو ما شكل السبب المباشر للتطورات التى وقعت فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م)، وأبرزها معركة حطين التى انتصر فيها المسلمون ، وانتزعوا بيت المقدس من

الصليبيين. فقد أرخ ابن الأثير لتصرف أرناط تفصيل مناسب ، وذلك تحت عنوان (غدر أرنــاط) [١٣٩]. أما ابن العبرى فقد تجاهل هذا الحدث تماماً رغم أنه أرخ لأحداث أقل شأنا وقعت فى السنة نفسها أوفى السنة السابقة عليها[١٤٠].

١٦- ومن الأحداث المتصلة بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) استعصاء مدينة صـور[١٤١] على صلاح الدين وجنوده حين حاول فتحها ، فقد أرخ مؤرخانا للحدث[١٤٢] ناقلاً ابن العبرى التفصيلات التى أوردها ابن الأثير فى هذا الشأن .

١٧- ومن أحداث سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) الهدنة التى وافق صلاح الدين على عقدها مع حاكم أنطاكية الصليبية[١٤٣] ، فقد أرخ لها كل من ابن الأثير[١٤٤] وابـن العبرى[١٤٥] ، ولكن فى الوقت الذى يوضح فيه ابن الأثير أن المبادرة فى ذلك جاءت من قبل الحاكم الصليبى، نلحظ أن ابن العبرى يبدأ نصه لهذا الحدث بقوله : «وهادن صلاح الدين»، فكأنه يحيل المبادرة بالهدنة إلى صلاح الدين دون أن يوضح التطورات التى مهدت لها ، وجعلت حاكم أنطاكية يبادر إلى عقدها مع صلاح الدين، وهذا ينسجم مع أسلوب ابن العبرى فى إظهار القوة الصليبية وتفوقها على المسلمين.

ومن أحداث السنة ذاتها موقف صقلية وملكها وليم الثانى[١٤٦] من انتصار حطين، وهزيمة الصليبيين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م)، ففى الوقت الذى يؤرخ فيه ابن الأثير[١٤٧] لهذا ضمن أحداث سنة خمس وثمانين وخمسمائة (١١٨٩م) نجد أن ابن العبرى يتجاهله ولايشير إليه ولو بعبارة مقتضبة ، ولعل مرد هذا التجاهل هو أن قوات صقلية لم تحقق نجاحًا يذكر ضد القوات الإسلامية.

١٨- ومن الأحداث الثانوية المرتبطة بسنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (١١٩٧م) انتزاع الملك العـادل الأيوبى[١٤٨] مدينة يافا من الصليبيين ، وتمكن الصليبيين من السيطرة مؤقتا على بيروت، وقد أرخ ابن الأثير[١٤٩] لهذه التطورات وبتفصيل مناسب أوضح فيه أن الصليبيين بعد أن أخذوا بيروت رحلوا عنها كى يدافعوا عن صور التى هاجمتها القوات الإسلامية، وهذا يعنى أن أخذ الصليبيين لبيروت كان مؤقتًا حيث استعادها المسلمون بعد وقت قصير؛ أما ابن العبرى فيؤرخ[١٥٠] وبصورة مقتضبة جداً لبعض هذا الحدث دون تطوراته، فيذكر استعادة يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين، وهذا يعنى أنه تجاهل بقية الخبر أى عودة بيروت للسيادة الإسلامية، وهذا نوع من التحريف لم يجد ابن العبرى غضاضة فى ارتكابه انسياقًا وراء عواطفه الدينية وميوله للصليبيين.

سادسا : الخلاصة :

من خلال المقارنة السابقة يمكننى تحديد قاعدتين أساسيتين توضحان منهجية ابن العبرى مقارنة بمنهجية ابن الأثير وذلك على النحو التالى:

أولاً: يمكن أن نصف ابن الأثير بأنه مؤرخ شامل إذ أنه غطى كل أو معظم الأحداث التى تجمعت لديه وذلك فى إطار الترتيب الزمنى، والأحداث التى أعنيها تشمل الأحداث السياسية والاجتماعية والعلمية سواء فى ذلك ما يتصل بالدول والأسر الحاكمة، وأيضًا ما يتصل بالأفراد ، ولاسيما النابهين منهم هذا بالنسبة لابن الأثير.

أما بالنسبة لمعاصره ابن العبرى فإنه على العكس من ذلك فى كثير من الأمور إذ يمكن وصفه بأنه مؤرخ انتقائى ، ينتقى أحداثًا بعينها ويؤرخ لها دون النظر إلى أهميتها ، وهذا يعنى أن تكون بعض الأحداث التى انتقاها وأرخ لها أقل أهمية من أحداث أخرى تجاهلها أو لم يعتن بها.

ثانيًا : تحلى ابن الأثير بدرجة عالية من الموضوعية والشجاعة حينما أرخ لأحداث تبدو مؤلمة بالنسبة له كونه مسلمًا ، وأبلغ مثال على ذلك تأريخه للنكسات التى منى بها المسلمون فى الصراع الدائر بينهم وبين الصليبيين ، وكذلك تأريخه للاجتياح المغولى لأقطار المشرق الإسلامى، وهذه خاصية إيجابية تحسب لابن الأثير وتجعله مصدراً موثوقًا به، كما تؤخذ فى الاعتبار عند تقييم ابن الأثير.

أما ابن العبرى فلم يكن يتحلى بهذه الخاصية؛ بل على العكس من ذلك آثار التجاهل أو الصمت إزاء الأحداث التى لم ترق له، أو كانت مؤلمة بالنسبة له بوصفه نصرانيًا، وأبرز الأدلة على ذلك تجاهله لسقوط إمارة أنطاكية الصليبية سنة ست وستين وستمائة للهجرة (١٢٦٨م) ، وكان عمره وقتها يزيد على الأربعين سنة ، أى أنه كان ناضجًا فكريًا وعلميًا ، واقتربت شخصيته كمؤرخ من الكمال، وفوق هذا وذاك ما هو معروف من أنه أمضى فى أنطاكية سنوات هامة من فترة شبابه.

ومع كل هذه الاعتبارات تجاهل ابن العبرى الحدث، ولم يؤرخ له، ولم يكن من تفسير لذلك سوى رضوخه لشعوره الدينى، وحزنه على سقوط السيطرة الصليبية على إمارة أنطاكية واستعادة المسلمين لها.

ومثل هذا الحدث ليس بالأمر السهل فهو ليس حدثاً ثانوياً ، بل هو بالغ الخطورة والأهمية في تطورات الأحداث والصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين بصفة خاصة، وابن العبرى الذى التزم الصمت إزاء حدث من هذا النوع أو تجاهله، نراه يؤرخ للاجتياح المغولى لأقاليم المشرق الإسلامي، ويسارع إلى تأريخ الاستيلاء المغولى لبغداد[١٥١] سنة ست وخمسين وستمائة هجرية (١٢٥٨م) وبتفصيل غريب يخالف منهجه وأسلوبه في تأليف الكتاب.

وليس لهذا من تفسير أمام الباحث أو المتفكر لموقف ابن العبرى سوى القول إن عاطفته الدينية قد تحكمت فيه وأثرت عليه ودفعته إلى نوع من التشفى من المسلمين ومن خلافتهم العباسية، وببساطة شديدة فإن تجاهل أحداث والتركيز على أحداث أخرى يعنى الافتقار إلي الموضوعية والحيادية اللتان تستدعيان من المؤرخ أن يرتفع بعواطفه وميوله عن التأثر بالأحداث سواء بالسلب أو الإيجاب .

هاتان هما القاعدتان الأساسيتان اللتان يمكن من خلالهما التفريق بين منهجيتي المؤرخين ابن الأثير وابن العبرى ، وفى إطارهما ورغبة فى معرفة مزيد من التفصيل عن منهجية ابن العبرى التأريخية يمكن تقديم العناصر الآتية [١٥٢]:

١- تاريخ ابن العبرى بما حواه من معلومات لايرضى نهم الباحث المتخصص ولايشفى غليلاً له، ولاميزة أو سمة يختص بها عن غيره من المصادر التاريخية، ومؤلفه بمعاصرته للأحداث ومهنته وصلاته الشخصية لم يستثمرها فى تدعيم الثقة فى الكتاب وإثراء معلوماته وإكسابه شخصية مستقلة.

٢- نقل ابن العبرى عن ابن الأثير القسم الأكبر من معلوماته، ويلحظ الباحث أنه نقل حرفى أو يكاد يكون حرفيا ودون تغيير.

٣- نقل ابن العبرى عن ابن الأثير، ولكن مع حذف جزئيات أو كلمات لاتتوافق مع عاطفته الدينية وميوله نحو الصليبيين .

٤- التباين الكبير فى مستوى المعالجة التأريخية لدى ابن العبرى ، وذلك لأمر ما فى ذهنه أو تأثراً بعاطفته وفكره الدينى، والمثال الصارخ على هذا التباين تأريخه لجولتى الصراع الذى خاضه الصليبيون من أجل الاستيلاء على أنطاكية، فمعالجة من سطر واحد للجولة الأولى تتباين كثيراً مع معالجة من أربعة عشر سطراً للجولة الثانية ،

وكذلك تأريخه لمذبحة القسطنطينية التى أوقعها الصليبيون ضد النصارى الأرثوذكس ، فى حين يتجاهل مذبحة معرة النعمان التى ارتكبها الصليبيون ضد مسلمى هذه البلدة، وهذا تباين حاد فى مستوى المعالجة تتصل بالمنهجية التى سار عليها ابن العبرى فى نظرته للأحداث من ناحية، وفى تأليف كتابه من ناحية ثانية وفرق كبير بين الإيجاز الشديد والمخل أحياناً وبين الإسهاب المفرط فى أحيان أخرى، وهذه الملحوظة تنسحب على كثير من الأحداث التى عالجها، كما تنسحب زيضاً على تركيزه على قضايا معينة وتجاهله لقضايا أخرى.

٥- يلجأ ابن العبرى إلى التغاضى أو التجاهل المتعمد بالنسبة لأحداث بعينها، وهذا خلل خطير فى منهجية المؤرخ وأمانته وصدقه مع نفسه ومع الآخرين.

٦- يفتقر ابن العبرى إلى التوازن فى نقل المعلومات ، وتتضح هذه السلبية فى تأريخه لمرحلتى إسقاط الرها الصليبية واستعادتها ، ولاسيما أنه نقل المعلومات الخاصة بالمرحلتين عن ابن الأثير.

٧- يؤخذ على ابن العبرى صمته التام إزاء أحداث رئيسة وجوهرية، وهذا يعنى أن تأريخ ابن العبرى أو شهادته للأحداث- وهو المعاصر لها- يشوبها قدر كبير من عدم الأمانة والصدق ، وهما يقتضيان قول الحقيقة حتى مع النفس، وما صمته عن الحملة الصليبية الثانية التى منيت بالفشل الذريع ، وسكوته عن معركة حطين التى تجاهلها تاماً مع أنها واحدة من أخطر وأهم الأحداث فى تاريخ الحروب الصليبية ، إلا دليلاً على أن ابن العبرى قد انجرف وراء عواطفه الدينية وميوله النفسية والفكرية مع الصليبيين وضد المسلمين.

٨- يعاب على ابن العبرى أنه فى انتقائه للأحداث التى يؤرخ لها ، وتلك التى يتجاهلها يرضخ لعواطفه الدينية فهى ميزانه فى نظرته للأحداث، وهذا الرضوخ مناف للموضوعية التى يجب أن يتحلى بها المؤرخ ، ومن الأمثلة الدالة على هذه السلبية تجاهله للتصرفات النبيلة التى عامل بها صلاح الدين الأيوبى عدداً من نساء الروم اللاتى كن يقمن بالقدس وقت فتحها، وكذل معاملته لملكة القدس، وابن العبرى لايريد أن يسجل ما قد يحسب نقاطاً مضيئة للمسلمين ولقائدهم صلاح الدين الأيوبى .

٩- مع إيجاز ابن العبرى للمعلومات واختزاله الشديد لها يقع فى أخطاء تاريخية لاتقع من معاصر لها وقريب الصلة بها ، ومما يؤكد وقوع الخطأ منه تعارض معلوماته مع المصدر الذى نقل عنه وهو ابن الأثير ، وهذا ينافى الأمانة العلمية التى يجب أن يلتزم بها المؤرخ ويحرص عليها.

١٠- وأخيراً يعمد ابن العبرى أحياناً إلى تزييف المعلومات أو قلب الحقائق دفاعًا عن الصليبين وتأييداً لهم وبسبب هذا يفتقر إلى معايير تماسك الذات والأمانة التى تميز بها المؤرخون الأقدمون ، وقسوة الصليبيين وقادتهم وغدرهم عنده فى أحيان كثيرة لم تكن موضع لوم أو ملاحظة تجعله يعمل على تسجيلها أو التأريخ لها ، وهذا المسلك من ابن العبرى مسلك خطير ينبغى للباحثين بصفة خاصة التنبيه لمثل هذا المزلق الذى وقع فيه ، وترتب عليه تشويه للتاريخ وتزييف لحقائقه ، وإخلال بالنتائج المترتبة عليها.

هذا بصورة عامة أبرز العناصر التى تبينتها فى منهجية ابن العبرى التاريخية تجاه أحداث الحروب الصليبية فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) مقارنة بابن الأثير وأحداث الحروب الصليبية فى كتابه (الكامل فى التاريخ) .

الهوامش

١- يطلق إقليم الجزيرة الفراتية على الأجزاء الشمالية من المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات ابتداءً من إلتقاءهما جنوبًا وحتى اقترابهما من بعضهما شمالاً، وهي المنطقة المحصورة بين جبال كردستان شمالاً ونهر دجلة شرقًا وأرض السواد جنوبًا ونهر الفرات غربًا ، وقد قسمت قديمًا إلى ثلاثة أقسام:

* القسم الجنوبي الشرقي والمعروف بديار ربيعة وحاضرته مدينة الموصل .

* القسم الجنوبي الغربي والمعروف بديار مضر وحاضرته مدينة الرقة.

* القسم الشمالي من الجزيرة والمعروف بديار بكر وحاضرته مدينة آمد أو مدينة ميافارقين.

ولمزيد من التفاصيل عن جغرافية الجزيرة الفراتية وتاريخها فضلاً أنظر:

- المقدسي : شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد (ت٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، سنة ١٩٠٦م، ص١٣٦، ١٣٨ .

- أبو الفداء: المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على (ت٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)، تقويم البلدان، باريس ، ١٨٤٠م، ص٢٧٧ ومابعدها .

- كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٥ / ١٩٨٥م.

- محمد يوسف غندور : تاريخ جزيرة ابن عمر، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م.

- عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة وبلاد الشام ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠م.

- عصام الدين عبد الرؤوف : في بلاد الجزيرة ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٥م.

٢- أنطاكية : قصبة إقليم العواصم شرق حلب بينهما مسيرة يومين (٣فراسخ = ٩أميال= ١٤,٥كيلومترا) وبينها وبين البحر ستة أميال ، وهي عبارة عن سهل طوله ثلاثة أميال تحيط بها استحكامات طبيعية حصينة تربطها عدة طرق باللاذقية غربًا والاسكندرونة وميناء السويدية شمالاً وبدمشق جنوبًا . ذات أهمية استراتيجية وعسكرية وتجارية وصناعية وكذلك دينية.

بدأ الصليبيون حصارهم لأنطاكية في الثالث عشر من ذي القعدة ٤٩٠هـ (الحادي والعشرين من أكتوبر ١٠٩٧م)، ومع ضخامة قواتهم التي زادت على ثلاثمائة ألف شخص ، فإنهم لم يحكموا حصارهم لها معظم مساحتها ومناعة حصونها وطبيعتها الجغرافية ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها رغم المساعدات المتكررة من الصليبيين والأرمن والبيزنطيين إلا بعد أكثر من سبعة أشهر

وبالتحديد في الأول من رجب سنة ٤٩١هـ (الثالث من يونية سنة ١٠٩٨م)، ونتيجة لخيانة أحد الحراس الأرمن وتآمره مع الصليبيين .

لمزيد من المعلومات عن أنطاكية وتاريخها فضلاً أنظر:

- ابن القلانسي أبويعلى حمزة بن أسد الدين بن على بن محمد (ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م.

- حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

- جمال محمد الزنكي: مؤيد الدين باغي سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى ٤٧٧-٤٩١هـ/ ١٠٨٥-١٠٩٨م، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية عشرة ١٤١٧-١٤١٨هـ، الرسالة السادسة والعشرون بعد المائة.

Downey (G), A History of Antiochin Syria from seleucus to the arab conquest, prinecton, 1961 .

٣- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، جـ٣، ص٣٤٨ ، ٣٥٠ .

٤- ملطية : تقع عند سفح جبل طوروس ، من أهم مدن الحدود أو الثغور الإسلامية بين بلاد الشام والدولة البيزنطية ذات أهمية عسكرية وزراعية ، كانت فى زمن المؤرخ (القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى) إحدى مدن مملكة أرمينية النصرانية فى آسيا الصغرى، والتى كانت فى تحالف عسكرى مع إمارة أنطاكية الصليبية ، وهى الآن على بعد فرسخين (ستة أميال= ٩.٦ كيلومترات) من موقعها القديم المسمى الآن إسكى شهر، وعلى بعد فرسخ واحد (ثلاثة أميال= ٤.٨ كيلومترات) من الجسر القديم المسمى قرق كزقوق نهر طوخمه صو قرب ملتقاه مع نهر الفرات.

- (ياقوت ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى (ت٦٢٦هـ، ١٢٢٨م) معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، جـ٥ ، ص١٩٢ ؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٥٢-١٥٣) .

٥- فى تاريخ متأخر انقطع ابن العبرى فى بعض الأديرة واختير أسقفًا على جوباس من أعمال ملطية، وأخذ يترقى فى الوظائف الدينية حتى حصل على رتبة جاثليق أى رئيس رؤساء الكهنة السريانيين فى فى بلاد المشرق (العراق وفارس وغيرهما).

- (الأدب أنطون صالحاني اليسوعي، ترجمة ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول ط الثانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م، ص د؛ محمد عزيز، العرب في المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية، من حصاد ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ / ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م، ص١٣٦).

٦- مراغة: من مدن أذربيجان تقع على بعد سبعين ميلاً (١١٢كيلا) جنوب تبريز، على نهر صافي الذي يصب في بحيرة أرمية، تشتهر بزراعاتها، أصبحت مركزاً لإقليم أذربيجان في العهد المغولي، وفي ظاهرها المرصد الفلكي الذي بناه نصير الدين الطوسي للإيلخان المغولي هولاكو.

أما إقليم أذربيجان فهو من أقاليم فارس الشمالية الغربية يحده شرقًا بحر خوارزم (بحر قزوين)، وغربًا عراق العجم وأرمينية الصغرى، وجنوبًا إقليم الجبال (كردستان)، وشمالاً إقليم الران (ياقوت، جـ١، ص١٢٨، جـ٥، ص٩٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص١٩٣، ص١٩٨-١٩٩).

٧- يعد كتابه في التاريخ باللغة السريانية أهم كتبه، وقد أكمل به تاريخ المنطقة من وفاة ميخائيل السرياني حتى وفاته سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، وهو في جزئين خصص أولهما للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بينما جعل الثاني في قسمين خصصهما للأحداث الدينية. فضلا أنظر:

- شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، جـ٢، ص٤٥٥.

- سهيل زكار، أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام، من حصاد ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ / ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م، ص١٣٢.

- محمد عزيز، العرب في المصادر السريانية، ص١٣٦.

٨- اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البرادعي (بارادبوس، ت٥٧٨م)، وهم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزية)، ومنطقتهم تمتد بين أنطاكية والرّها شمالاً وحتى القدس جنوبًا، ومراكزهم كانت في آسيا الصغرى حول ملطية وفي قليقية، في شمال بلاد ما بين النهرين، وكان كرسي اليعاقبة في عكا وبيت المقدس، وأكبر المناصب عندهم البطريركية، ثم منصب المفريان وتحت رئاسته عدد من الأساقفة.

(القلقشندي أبو العباس، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج١، ص١١٠-١١١؛ ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة

عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط الثانية ١٩٩٧م، ص١٣٤ ؛ الأب أنطون صالحانى، ترجمة ابن العبرى ، ص د، ص هـ).

والسريان هم المتحدثون بالسريانية ، وهى فرع من الآرامية إحدى اللغات السامية التى تحدث بها سكان سورية والجزيرة الفراتية والمناطق المجاورة لهما، وكتبوا بها خلال قرون طويلة منذ ماقبل الميلاد وحتى ما بعد الفتح الإسلامى، وكان السريان يعيشون فى بلاد الشام منذ القرن الأول للميلاد ، وهم فئتان السريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك ، وما زال بعضهم يتحدث بها حتى الآن.

(سهيل زكار : أضواء على بعض المصادر السريانية، ص١٢١، أغناطيوس يعقوب : البراهين الحسّية على تعارض السريانية والعربية، دمشق ، ١٩٦٩م، ص٢٣) .

٩- كان ابن الأثير يناهز الثلاثين من عمره حينما وقعت معركة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) .

١٠- صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان من الأكراد الروادية إحدى بطون قبيلة الهذبانية التى كان موطنها الأصلى بلدة دوين فى إقليم أذربيجان قرب تفليس، ولد ليلة انتقال أسرته من تكريت إلى الموصل سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م) ، وبعد سنتين انتقل مع والده إلى بعلبك ثم إلى دمشق حيث عاش فيهما طفولته وشبابه ، ثم إلى مصر حيث عاش فيها رجولته وجهاده إلى أن توفاه الله فجر يوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ (أوائل سنة ١١٩٣م) وعمره قريب من سبع وخمسين سنة.

(ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م، جـ٢، ص٤٢٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢ ، ص٣٧٧ ؛ أبوشامه : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، دار الجيل، بيروت ، ١٢٨٨هـ، جـ٢ ، ص٢١٨) .

١١- الملك الفرنسى القديس لويس التاسع (التقى المتحمس) ابن لويس الثامن ولد فى ٢٥ أبريل ١٢١٤م فى بواسى، تولى الملك فى ٨ نوفمبر ١٢٢٦م، جرد إضافة إلى الحملة السابعة حملة ثامنة على تونس سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠م) غادراً بما قطعه من عهد بعدم الرجوع إلى محاربة المسلمين ، وكان فيها هلاكه فى المحرم سنة ٦٦٩هـ (٢٥ أغسطس ١٢٧٠م) .

(جان سيردى جوانفيل، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٥٣ ، ص٣١٣ ؛

Brunschvia (ROBERT), La berberic orientale sous les Hafsides vol . I , Paris, 1940, pp. 59-62 .

١٢- السلطان المملوكى بيبرس بن عبدالله البندقدارى النجمى ركن الدين أبو الفتح أصله من القفجاق ، ولد سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م) ، وحمل إلى القاهرة واشتراه الأمير أيدكين البندقدارى ، ثم أخذه الصالح نجم الدين الأيوبى، تسلطن فى سابع عشر ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) واستمر حتى وفاته يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) .

(محمد بن شاكر الكتبى، فوات الوفيات ، تحقيق إحسان بن عباس، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م، جـ١ ، ص٢٣٥ ؛ ابن تغرى بردى جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبدالله الظاهرى (ت٨٧٤هـ / ١٣٥٤م) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ١ ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٥ ، ص٢٠٣) .

١٣- لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين الجانبين فضلاً أنظر:

- ابن عبدالظاهر ، محى الدين أبو الفضل عبدالله (ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٢)، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ

- المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥ / ١٤٤٢م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م) .

- فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٠م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور : (سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى) ضمن كتاب دراسات وبحوث فى تاريخ العصور الوسطى، بيروت ١٩٧٧م، ص٢٢٥) .

١٤- جعل ابن العبرى الدولة الأولى هى دولة الأوليا ، قبل الدخول إلى أرض الميعاد ، وجعل الدولة العاشرة هى دولة المغول، وقبلها دول ملوك العرب المسلمين ، فضلاً انظر الكتاب ، ص٣، ص٩٣ .

١٥- الأب أنطون صالحانى اليسوعى مقدمة الكتاب ص و.

١٦- ابتداء من سنة ٤٩١هـ إلى سنة ٥٦٩هـ (١٠٩٧-١١٧٤م) .

١٧- لمزيد من التفاصيل حول التأسيس فضلاً انظر:

- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق .

- فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زيادة العسلي، دار الشروق، بيروت ١٩٩٠م.

- ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ١، ترجمة السيد الباز العريني، ط الثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣ ، ١٩٧٨م.

١٨- أبو الجود أبوسعيد عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبدالله قسيم الدولة، كان مولده في حلب سنة ثمانين وأربعمائة ، وهو وحيد والده، كان صغيراً عندما قتل والده، وحافظ عليه مماليك أبيه حتى نشأ وكبر. تسلم ولاية البصرة صغيراً ، ثم ملك الموصل ثم الجزيرة، وماردين ثم حلب ثم دمشق وأجزاء من بلاد الشام، كان سياسياً محنكاً ومجاهداً عظيماً ضد الصليبيين تحقق على يديه لأول مرة توحيد الجبهة الإسلامية وتحقيق أول انتصارات المسلمين عليهم ، قتله أحد مماليكه وهو محاصر لقلعة جعبر ليلة الأحد سادس ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) .

(ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٤ وما بعدها؛ ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٢ / ١٩٦٣م، ص٥ ، ص٢٤ ص٣٢ وما بعدها؛ ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي (ت٦٦٠هـ / ١٢٦١م) ، بغية الطلب في تاريخ حلب، نشر بعض تراجمه سهيل زكار ضمن كتابه الحروب الصليبية، بيروت ١٤٠٤هـ، جـ٢، ص٧٢٥ وما بعدها) .

١٩- أبو القاسم ، نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي كان مولده سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وكانت نشأته في الموصل ثم بدمشق ، كان عادلاً زاهداً عابداً مجاهداً له جهاد حربي مشهود ضد الصليبيين، كانت وفاته يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة في قلعة دمشق.

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٨٤ ، ١٨٨ ؛ أبوشامة ، الروضتين، جـ١، ص٥ ، ص٢٤ومابعدها).

٢٠- معروف أن إمارة الرّها الصليبية كانت تتكون من قسمين أحدهما شرقي وبه مدينة الرّها ويقع في الجزيرة ، والثاني غربي وبه مدينة تل باشر الواقعة في بلاد الشام إلى الشمال من حلب.

لمزيد من التفاصيل فضل انظر:

- علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرّها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م.

- عماد الدين خليل، الإمارات الأرتقية فى الجزيرة والشام، ص١٩٩ وما بعدها .

٢١- تل باشر : شمالى حلب بينهما مسيرة يومين (٣ فراسخ = ٩ أميال = ١٤,٥ كيلومترا)، أهلها نصارى أرمن . فيها أسواق ومزارع وفيها قلعة حصينة، تعرف الآن بتل باجر تتبع إداريًا منطقة جبل سمعان إحدى محافظات حلب.

(ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص٤٠: سهيل زكار، الحروب الصليبية جـ٢، ص٥٦٢، حاشية(١)).

٢٢- عن تلك الأوضاع وتطوراتها فضلاً انظر : الدراسة الجيدة- من وجهة نظرى- التى قام بها على بيومى : الدولة الأيوبية فى مصر ، دار الفكر الحديث، القاهرة، ١٩٥٢م.

٢٣- الكامل فى التاريخ ، دار الفكر، بيروت ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، جـ٨ ، ص١٨٥، ١٨٨ .

٢٤- ياغى سيان بن محمد بن ألب التركمانى من أمراء السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى، الذى منحه حكم أنطاكية بعد مقتل سليمان بن قتلمش ابن عم السلطان، الذى استولى عليها من البيزنطيين سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥م، كان ذا رأى وحزم وشجاعة، قتل على بعد فرسخ من أنطاكية، تركه غلمانه مغشيًا عليه متأثرًا بضياع أنطاكية، فوجده على هذه الحال أحد الأرمن فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الفرنج.

(ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص١٨٦) .

٢٥- قوام الدولة أبوسعيد كربوقا كان من أمراء السلطان ملكشاه السلجوقى، كانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) على بعد أربعة فراسخ (١٢ ميلاً = ١٩,٣ كيلومترًا) من مدينة خوى، من أعمال أذربيجان بعد أن وصلها مريضًا، وكان السلطان السلجوقى بركيارق بن ملكشاه قد بعثه للاستيلاء عليها.

(ابن الأثير، الكامل، جـ٨ ، ص٢١٠) .

٢٦- ص١٩٦ .

٢٧- جـ٨، ص١٨٥-١٨٧ .

٢٨- ص١٩٦-١٩٧ .

٢٩- معرة النعمان تقع على الطريق بين حماة وقنسرين، كانت بداية الحروب الصليبية، مدينة عامرة مزدهرة ذات كثافة وأهمية تجارية وزراعية.

(ناصر خسرو (ت٤٨١هـ/ ١٠٠٨م) سفر نامة ترجمة يحى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص١١ ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٥٦) .

٣٠- جـ٨ ، ص١٨٧-١٨٨ .

٣١- ص١٩٧ .

٣٢- ابن الأثير، جـ٨ ، ص١٨٩ ؛ ابن العبرى، ص١٩٧ .

٣٣- جوسلين الثانى من أم أرمينية هى أخت ليون الأرميني، وهو بهذا من أمراء الفرنج الذين ولدوا فى الشرق اتصف بالبراعة الحربية مع حب اللهو والإسراف فى الشراب، أقام إقامة مترفة على شراطئ الفرات ، تزوج من بياتريس أرملة حاكم صهيون، ورث عن والده جوسلين الأول الذى قتل عند دلوك سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م) حب رعاياه له، ولكن كان يميل إلى حياة الراحة والهدوء وكانت تنقصه روح التصميم، كان شديد العداء للمسلمين، كثير الغدر والمكر لهم، أسره نور الدين محمود سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) وقضى سنواته مسجوناً فى حلب حتى هلك.

(ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٥٥؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٩٣ ؛ عليه الجنزورى ، إمارة الرُها ، ص٢٩٦-٢٩٧، ص٣٢٥) .

٣٤- ابن العبرى، ص٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن الأثير، جـ٩ ، ص٨ ، ص٢٩ .

٣٥- أبويعلى حمزة بن أسد الدين بن على بن محمد التميمى، ولد بدمشق سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٩م شغل العديد من المناصب مثل رئاسة ديوان الإنشاء، كانت وفاته بدمشق سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) ، مؤرخ ثقة ، له عناية بالحديث، كان أديباً ، له إنشاء جيد وشعر حسن .

(خير الدين الزركلى، الأعلام، (ط الخامسة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠م، مج٢ ، ص٢٧٦).

٣٦- جـ٩ ص٢٩ .

٣٧- جـ٩ ، ص٢٩ .

٣٨- ص٢٠٦ .

٣٩- ص٢٠٧ .

٤٠- جـ٩ ص٢٩ .

٤١- عن الحملة الصليبية الثانية وأحداثها فضلا أنظر:

- ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق .

- وليم الصورى: الحروب الصليبية: ترجمة حسن حبشى ، جـ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩٢م.

- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٦٠٦ وما بعدها.

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٣٩٧ ومابعدها .

٤٢- ولد وليم الصورى فى مدينة القدس سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م)، لم يكن حريصًا على ذكر أصله حيث بقى مجهولاً كما أن نشأته فى مدينة القدس كانت مجهولة سوى أنه كان حتى الخامسة عشرة من عمره يعيش حياته فى رغد من العيش بعدها سافر إلى إيطاليا وفرنسا للعلم، فدرس اللاهوت والفلسفة والرياضيات، وعاد إلى الشرق ليتقلد عدة مناصب هامة حيث شغل وظيفة رجل القانون الكنسى فى عكا ورتيبًا لشمامسة بيت لحم وصور، ثم مربيًا ومعلمًا لبولدوين الرابع ملك بيت المقدس، ثم مستشاراً للمملكة الصليبية ورتيبًا لأساقفة صور، مات سنة ١١٨٠م (٥٧٦هـ) فى بيت المقدس ألف عدة مؤلفات كان أهمها كتابه فى تاريخ الحروب الصليبية (Gesta Hierosolymit orum regus) الذى ترجمه الدكتور حسن حبشى فى أربعة أجزاء بعنوان (الحروب الصليبية) عن الترجمة الإنجليزية التى عنوانها:

(AHistory of deeds done beyond the Sea Columbia university, Press, 1943).

فضلا انظر : (مقدمة الكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، جـ١ ص٥ ، ٤٣ ؛ حسين محمد عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص٣٤، حاشية رقم (١٧)).

٤٣- الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٢٦٩ وما بعدها (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م) .

٤٤- الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٢٨٠ .

٤٥- عن تطورات هذه الفترة وتفاصيل أحداثها فضلاً انظر:

- ابن واصل ، مفرج الكروب .

- أبوشامة : الروضتين في أخبار الدولتين.

- المؤرخ المجهول : ذيل كتاب وليم الصوري (مخطوط روثلان) ترجمة وتعليق أسامة زكي زيد، الاسكندرية، ١٩٨٩م.

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢ .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، جـ٣ .

٤٦- حطين : قرية غرب بحيرة طبرية غنية المرعى وفيرة المياه بها قبر النبي شعيب عليه السلام، أخذت شهرتها من المعركة التي قادها صلاح الدين رحمه الله وانتصر فيها المسلمون على الصليبيين يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٤هـ (٤يوليو ١١٨٧م) واسترد المسلمون نتيجتها بيت المقدس وانهيار مملكة الصليبيين فيها .

لمزيد من التفصيل عن معركة حطين (مقدماتها ، نتائجها) فضلا انظر:

- ابن شداد بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سير صلاح الدين) تحقيق جمال الدين الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.

- فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامي في العصر الأيوبي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

٤٧- عكا: كانت من أحسن بلاد الساحل (ساحل بلاد الشام) وأعمرها، حصينة واسعة ذات نشاط زراعي وتجاري (ياقوت ، المعجم ، جـ٤، ص١٤٣). استولى عليها الصليبيون للمرة الثانية بعد جهاد إسلامي مشرف ، وبعد حصار دام بدأ في الثامن من رجب سنة ٥٨٥هـ (أواخر أغسطس سنة ١١٨٩م) ، وانتهى نهار الجمعة السابع عشر من جمادى الآخر سنة ٥٨٧هـ (يوليو ١٩٩١م) . لتفصيلات أوسع عن أحداث عكا فضلاً انظر:

- ابن شداد : النوادر السلطانية .

- أبوشامة : الروضتين .

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢ .

٤٨- الرملة مدينة قديمة في أرض فلسطين بينها وبين القدس مسيرة ثمانية عشر يوماً (٢٧ فرسخاً = ٨١ ميلاً = ١٣٠كيلومترا) مدينة واسعة معمورة خربها صلاح الدين خوفًا من استيلاء الصليبيين

عليها، واستمرت خرابًا حتى منتصف القرن السابع الهجرى. (ياقوت ، المعجم ، جـ٣ ، ص٦٩-٧٠)، وفيها تم عقد الصلح أو الهدنة بين صلاح الدين الأيوبى وريتشارد قلب الأسد بدءًا من يوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ (الثانى من سبتمبر ١١٩٢م) ، واستمر ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ونص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وتكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وبقية المدن والجهات الأخرى تكون للمسلمين. لتفصيلات أكثر عن هذه الهدنة فضلاً انظر:

- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٨٦٠ ، ٨٦٥ .

- قايد عاشور ، الجهاد الإسلامى، ص٢٣٤ ، ٢٤٤ .

٤٩- الملك الكامل أبو المعالى محمد بن محمد بن أيوب بن شادى ، ولد فى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م)، وحكم بعد وفاة والده العادل الأيوبى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) ، مات مريضًا عصر الأربعاء الواحد والعشرين من رجب سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م)، كان عظيم القدر جميل الذكر محبًا للناس والعلماء والفضلاء، ومجالستهم ومحاورتهم، كان حازمًا ذا حنكة ودراية محبًا للسلم كارهًا للحرب .

(ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٥ ، ص٧٩، ٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥، ص١٥٦ وما بعدها).

٥٠- الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى بن هنرى الرابع، ولد من أب ألمانى وأم نصف إيطالية فى ديسمبر ١١٩٤م، وتوج إمبراطورًا بمساعدة البابوية سنة ١٢٢٠م حتى عام ١٢٥٠م حيث كانت وفاته . أصبح ملكًا بالوصاية على مملكة بيت المقدس عام ١٢٢٥م، تربى وتعلم فى صقلية قريبًا من المؤثرات العربية فنشأ محبًا للعلوم والجدل والرياضيات واللغات ومنها العربية.

(سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٥٠، ٩٥٢ ، ستيفن رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٠٥ وما بعدها).

٥١- يافا من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا تعد ميناءً لبيت المقدس بينهما مرحلتان (١٦ فرسخًا = ٤٨ميلاً= ٧٧,٢٣ كيلومترا).

(ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٥، ص٤٢٦؛ الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت أواخر النصف الأول من القرن الثامن الهجرى)، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس، ط الثانية ،

مكتبة لبنان، ، بيروت سنة ١٩٨٤م، ص٦١٥).

وعن اتفاقية يافا فضلاً انظر ص٢٩ الجزئية الثامنة.

٥٢- فى الجزئين الثامن والتاسع .

٥٣- كان ضم صلاح الدين لمدينة دمشق سنة ستين وخمسمائة (١١٧٤م) أما محاولاته ضم حلب فكان أولها فى ٣ جمادى الآخر سنة سبعين وخمسمائة (١١٧٤م)، وآخرها فى صفر سنة تسعة وسبعين وخمسمائة (١١٨٣م) . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك فضل انظر:

- ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ١ .

- أبوشامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٣٥ ومابعدها .

- على بيومى: قيام الدولة الأيوبية فى مصر.

- وفاء محمد على: قيام الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

٥٤- فى الصفحات ٢١٥، ٢٤٥ .

٥٥- جـ٩ ، ص١٦٢ .

٥٦- ص٢١٩ .

٥٧- جـ٩ ، ص١٦٢ .

٥٨- لمزيد من الضوء عن هذه الجزئية فضلا انظر عرض الأحداث الثانوية الجزئية رقم (١٤) .

٥٩- جـ٩، ص١٨٢-١٨٦ .

٦٠- ص٢٢٠ .

٦١- طبرية : من أعمال الأردن، بلدة تطل على البحيرة المسماة باسمها يطل عليها جبل الطور، بينها وبين بيت المقدس مسيرة ثلاثة أيام (٤,٥ فرسخ = ١٣,٥ ميل= ٢١ كيلومترا) اشتهرت بعيونها الحارة وحماماتها (ياقوت ، المعجم ، جـ٤ ، ص١٧) . ذات تاريخ وجهاد فترة الحروب الصليبية، استعادها المسلمون يوم الخميس السابع من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٢٨يونية سنة ١١٨٧م) ، وكانت إحدى أهم مصادر المياه التى سيطر عليها المسلمون فى المنطقة، وبعدها بأيام كانت معركة حطين الفاصلة.

(ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٨٩؛ قايد عاشور، الجهاد الإسلامى، ص١٢٥) .

٦٢- ص٢٢٠ .

٦٣- ص٢٢٠-٢٢١ .

٦٤- حسمت معركة حطين فى ٢٥ ربيع الآخر (يوليو ١١٨٧م) بينما استردت بيت المقدس فى ٢٧ رجب من العام نفسه (أكتوبر ١١٨٧م) .

لمزيد من التفاصيل فضلا انظر:

- ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٧٥ وما بعدها.

- ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٩٣ ، ٢٣٤

- سهيل زكار : حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار إحسان، دمشق، ١٤٠٤هـ

- عبدالله ناصح علون : صلاح الدين الأيوبى بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٦٥- باليان الثانى دى إبلين، وفى المصادر الإسلامية باليان بن بارزان أو بيرزان، صاحب الرملة، خلف والده باليان الأول دى إبلين فى حكمها سنة ١١٦٩م، كان من الأمراء الفلاتل الذين نجوا من معركة حطين سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى بيت المقدس لأخذ زوجته الملكة ماريا كومنين أرملة عمورى الأول وأولاده ولكنه خان وعده لصلاح الدين وبقى فى بيت المقدس يعمل على تحصينها والدفاع عنها، كان أحد الموقعين على هدنة الرملة مع صلاح الدين (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٧٨١، ص٨٦٣) .

٦٦- ص٢٢١ .

٦٧- ص٢٢١ .

٦٨- جـ٩ ، ص١٨٤ .

٦٩- جـ٩ ، ص٢٠٨، ٢١٠ .

٧٠- ص٢٢١-٢٢٢ .

٧١- جـ٩ ، ص١٩٣ .

٧٢- ص٢٢٢ .

٧٣- جـ٩ ، ص٢١٤ ، ٢١٧ .

٧٤- ص٢٢٢

٧٥- فضلا انظر الحاشية رقم (٤٨) .

٧٦- جـ٩ ، ص٢٢١-٢٢٢ .

٧٧- ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧-١١٩٩م) توج خلفًا لوالده هنرى الثانى ملكًا على انجلترا فى سبتمبر سنة ١١٨٨م، وقاد مع الملك الفرنسى فليب أغسطس الحملة الصليبية الثالثة، وصفه ابن شداد بأنه شديد البأس عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب، وأنه دون ملك الفرنسيين ولكنه أكثر مالاً وأشهر فى الحرب والشجاعة. قتل فى مارس عام ١١٩٩م.

(ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٤٩-٢٥٠؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٨٣٦ ومابعدها) .

٧٨- جـ٩ ، ص٢٢١ .

٧٩- جـ٩ ، ص٢٢٢ .

٨٠- ص٢٢٣ .

٨١- الكاثوليكية ، إحدى العقائد النصرانية ، تسمى كنيستها بكنيسة الغرب اللاتينى، انفصلت عن الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) عام ١٠٥٤م لأسباب عديدة أهمها ما يتعلق بطبيعة المسيح عليه السلام ، تتبع النظام البابوى فى روما الذى يقوم على مجمع كنائس مكون من مجلس الكرادلة الذى يرأسه البابا، وله الحق فى إصدار إرادات بابوية سامية هى حسب زعمهم إرادات إلهية.

لمزيد من المعلومات فضلا انظر:

- محمد أبوزهرة : محاضرات فى النصرانية، الرياض ، ١٤٠٤هـ.

- محمد عزت الطهطاوى : النصرانية والإسلام، ط الثانية ، مكتبة النور، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

- أليكس جورانسكى : الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم ، ترجمة خلف محمد الجراد، ط الثانية، دار الفكر المعاصر ، بيروت، ١٤٢١هـ.

٨٢- جـ٩ ، ص٢٦٣-٢٦٤ .

٨٣- ص٢٢٧-٢٢٨ .

٨٤- الأرثوذكسية : إحدى العقائد المذهبية للنصرانية بعد انقسامها عام ١٠٥٤م، وتشمل نصارى الشرق، تسمى كنيستها بالكنيسة الشرقية أو اليونانية، أو كنيسة الروم الشرقيين كان مقرها مدينة القسطنطينية، ثم أصبحت موزعة على عدة كنائس مستقلة عن بعضها في عدد من الدول الآسيوية، والأفريقية، والملاحظ أن نصارى الشرق يتصرفون بصفات خاصة بهم تميزهم عن نصارى الغرب، وذلك من حيث توزيعهم إلى طوائف مختلفة قائمة بذاتها تستند كل منها إلى تاريخها الخاص بها، وكل كطائفة تتمتع بهيكلية كهنوتية وتشريعات كنسية ومحاكم مذهبية خاصة بها.

لمعلومات أوسع فضلاً انظر:

- محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، الرياض ١٤٠٤هـ، ص٤٦ .

- محمد عزت الطهطاوي : النصرانية والإسلام، ص١٤٠ .

- أدفون أرباط: المسيحيون الشرقيون (دراسات ومناقشات ، بيروت (ب-ت) ، ص١٥ .

٨٥- ص٢٣٧، وقد أشار إلى نهايتها فقط كما سيتضح ذلك بعد قليل.

٨٦- ص٢٣٣ ، ٢٣٦ .

٨٧- كان يوحنا دوبرين (١١٤٨-١٢٣٧م) ملكًا على عكا، كما كان وصيًا على مملكة بيت المقدس (١٢١٠-١٢٢٥م) .

٨٨- كان الكاردينال بيلاجيوس مندوبًا عن البابا (هونوريوس الثالث)، وقائدًا أعلى للصليبيين في حملتهم على مصر ، وكان المسئول الأول عن فشل الحملة الصليبية. (سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٩٢٠ وما بعدها) .

٨٩- جـ٩ ، ص٣١٨ .

٩٠- ص٢٣٦-٢٣٧ .

٩١- لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة فضلاً انظر:

- ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٢٣٣ وما بعدها .

- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٩٤٥ ، ٩٧٢ .

- رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ٣١٧ ، ٣٤٢ .

٩٢- حدث هنا نتيجة اتفاقية يافا التى عقدت بين الجانبين فضلاً انظر : ص٢٩ الجزئية الثامنة.

٩٣- جـ٩ ، ص٣٧٨ .

٩٤- ص٢٤٤ .

٩٥- . Setton, (K.M.): A History of the Crusades. pansylvania. 1958. vol . 2. pp. 454-457

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ص٣٣٠-٣٣١ .

٩٦- تاريخ الحروب الصليبية، ج٣ ، ص٣٢٩ .

٩٧- فضلاً انظر:

- ابن واصل مفرج الكروب ، ج٤، ص٢٤١ .

- أبو الفداء : المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥هـ، ج٣، ص١٤١ .

- ابن أيبك: أبوبكر عبدالله بن أيبك الدودار (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) : كنز الدرر وجامع الغرر ج٧ (الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب) تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٢٦ .

- المقريزى : السلوك ، ق١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

٩٨- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢، ص١٠١٠ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣٢٩ ؛ . Setton. Op. cit. vol . 2 . p. 454

٩٩- جـ٨ ، ص١٨٦ .

١٠٠- كما هو معروف تنقسم الحملة الصليبية الأولى إلى شعبتين ، الأولى ما عرف بالحملة الشعبية أو حملة الدعاة أو حملة بطرس الناسك، وقبلها حملة جوتييه سانزأفوار على رأس فريق من الرعاع وصل بهم إلى القسطنطينية ، والثانية ما عرف بحملة الأمراء التى تألفت من عدة مجموعات رأس كل مجموعة أحد الأمراء الأوربيين، فكان على المجموعة الأولى الأمير جودفرى بوايون ورفقته أخوه بلدوين البولونى وعدد آخر من الأمراء، ومجموعة ثانية وصلت إلى القسطنطينية بحراً هى ما عرف بالحملة النورامنية بقيادة بوهيمند النورمانى بن روبرت جسكارد ومعه عدد كبير من الأمراء والدوقات الأوربيين ، ومجموعة ثالثة وفدت من إقليم بروفانس تحت زعامة ريموند الرابع (ريموند الصنجيلى) أمير تولوز وبروفانس ، وصحبتها الأسقف يرى (Adhemar de monteil) الــذى

اختاره البابا نائبًا عنه في القيادة العليا للحملة الصليبية، ثم وصلت أخيرًا الحملة الفرنسية لتلتقي مع بقية المجموعات الصليبية على شاطىء البسفور ، وكانت بقيادة الأمير روبرت بن وليم الفاتح أمير نورماندیا، ومعه أيضًا عدد من الأمراء الفرنسيين ، وقد تعهد أولئك الأمراء قادة المجموعات الصليبية للإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١-١١١٨م) وأقسموا له بيمين الولاء والتبعية للإمبراطورية البيزنطية (فضلاً انظر المصادر التالية).

١٠١- من المصادر الصليبية :

- المؤلف المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م، ص١٧ ومابعدها .

- فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص٤٠ وما بعدها .

- وليم الصوري: الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص١١٢ ومابعدها .

- ولمزيد من المعلومات عن ذلك فضلا انظر:

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ١ ، ص١٤٠ ومابعدها .

- رنسيمان : الحروب الصليبية، جـ١ ، ص١٨٩ ومابعدها .

١٠٢- جـ٨ ، ص١٨٦ .

١٠٣- ص١٩٦ .

١٠٤- جـ٨ ، ص١٨٩ .

١٠٥- ص١٩٧ .

١٠٦- الأمير بلدوين الثاني دو بورج أمير الرها من كبار الأمراء الصليبيين الذين شاركوا في توجيه الحملة الصليبية الأولى، أشاد بجهوده المؤرخون في التقريب بين النصارى الشرقيين والغربيين ، ومن ذلك زواجه من مورفيا بنت جبريل حاكم ملطية الأرمني، تم تتويجه ملكًا على مملكة بيت المقدس في أبريل سنة ١١١٨م بعد وفاة ابن عمه بلدوين الأول، كان له جهود في توحيد الصليبيين بعد أن صار وصيًا على عدد من الإمارات الصليبية في الرها وانطاكية ، وقع في أسر المسلمين أكثر من مرة كان أولها بعد معركة حران (البليخ) في ٧ مايو سنة ١١٠٤م، الثانية وهو يهاجم خرتبرت في ١٨ أبريل سنة ١١٢٣م، وأطلق سراحه أواخر يونيو سنة ١١٢٤م، وأخيرًا هلك في بيت

المقدس في ١٢ أغسطس سنة ١١٣١م بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة.

(سعيد عاشور) الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٤٢٥ ، ٥٢١) .

١٠٧- جـ٨ ، ص٢٥٣ .

١٠٨- تنكرد : تانكريد بن المركيز أمير أنطاكية الصليبية (١١٠١-١١١١م) أحد الأمراء النورمانديين المشاركين في الحملة الصليبية الأولى ضمن المجموعة النورمانية، وأحد الأمراء المخلصين لقائد المجموعة جودفري بوايون لذا أقطعه إقليم الجليل وأسس فيها إمارة له أضاف إليها فيما بعد حيفا والمناطق المحيطة بها ، ثم أصبح وصيًا على إمارة أنطاكية بعد أسر خاله بوهيموند ، ثم أميراً عليها تحت لقب الأمير الكبير أو خادم الله كان من المتحمسين لحرب المسلمين، وله طموحات سياسية كبيرة جعلته في حروب دائمة مع المسلمين والبيزنطين وحتى الصليبيين ، كانت نهايته في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ م دون أن يترك وريثًا يرثه في إمارته الصليبية.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٢٥١ ، ٤٠٩) .

١٠٩- جـ٨ ، ص٢٥٩، ٢٦١ .

١١٠- ص١٩٩ .

١١١- الأتابك شرف الدولة مودود بن ألتونتكين ، أصبح أميراً على الموصل سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) بعد أن نجح في القضاء على عصيان أميرها السابق جاولي سقاوو الذي استقل بها عن التبعية للسلطان السلجوقي ، قتله أحد الباطنية الحشاشين في دمشق وهو خارج من صلاة الجمعة وكان صائماً وذلك آخر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة ، ودفن في أصبهان ، كان خيراً عادلاً كثير الخير كثير الجهاد للصليبيين الذين فرحوا كثيراً لمقتله.

(ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٧-١٨٨؛ سبط ابن الجوزي: شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهند، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، جـ٨ ، ق١ ، ص٥٠-٥١ ؛ عفاف صبرة ، الأمير مودود بن ألتونتكين ، مجلة الدارة، العدد الثاني ١٩٨٦م، ص١٠٩ ومابعدها) .

١١٢- السلطان أبوشجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي خطب له بالسلطنة في جامع بغداد في سابع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة له آثار حسنة وسيرة طيبة وسياسة حكيمة وجهاد مشكور، مرض مرضًا طويلاً أدى إلى وفاته يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي

الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة بمدينة أصبهان، وله من العمر سبعًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام.

(ابن الأثير ، الكامل، جـ١٠ ، ص٢٧٧-٢٧٨ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٥ ، ص٧١ ، ٧٣) .

١١٣- بدأت الحملة الأولى في شوال من سنة ٥٠٣هـ (أبريل سنة ١١١٠)، واستمرت المحاصرة مدة ثلاثة أشهر تقريبًا انتهت بانسحاب الجيش الإسلامي أواخر ذي الحجة (١٩يوليو) ، وتركت آثاراً واضحة عليها من الناحيتين السكانية والاقتصادية، والحملة الثانية بدأت أوائل سنة ٥٠٥هـ (يوليو سنة ١١١١م) واستمرت مدة خمسة وأربعين يومًا انسحب المسلمون بعدها بعد أن وجدوا صلابة في الدفاع عنها وكثرة الجنود والمؤن داخلها ، وكانت الثالثة في المحرم سنة ٥٠٦هـ / يونيو سنة ١١١٢م، ولم تستمر سوى أيام، وهي التي نال الصليبيون فيها من جيش مودود.

لمزيد من المعلومات عن ذلك فضلا انظر:

- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٩ ومابعدها .

- عليه الجنزوري : إمارة الرّها الصليبية ، ص١٣٠ ومابعدها .

١١٤- جـ٨ ، ص٢٦٢ .

١١٥- جـ٨ ، ص٢٦٥ .

١١٦- ابن العبري، ص١٩٩ .

١١٧- نور الدين بلك بن بهرام بن أرتق ، كان أميراً على خرتبرت وماجاورها ، ثم تولى إمارة حلب، وكان له فيها جهاد مشكور ودور بارز في محاربة الصليبيين. قتل وهو محاصر لمنبج في ربيع الأول من سنة ثماني عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٤م)، وحمل إلى حلب حيث دفن فيها .

(ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، جـ٨ ، ص٣١٥؛ عماد الدين خليل، الإمارات الأرتقية، ص٢٧٤) .

١١٨- ابن الأثير ، جـ٨ ، ص٣١٢ ، ص٣١٥ ؛ ابن العبري، ص٢٠٢ .

١١٩- أبوسعيد سيف الدين آق سنقر البرسقي الغازي كان مملوكًا تركيًا للأمير برسق من كبراء ممالك السلطان محمد السلجوقي، كان دينًا عادلاً خيراً لين الأخلاق حسن المعاملة والعشرة، كثير الجهاد،

ولى العراق والموصل وحلب وجهات أخرى فى العراق والشام. قتله أحد الباطنية الحشاشين فى الموصل بعد صلاة الجمعة ثامن ذى القعدة سنة عشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٦م) .

(ابن العديم ، بغية الطلب، تحقيق سهيل زكار (كتاب الحروب الصليبية) جـ٢ ، ص٧١٩ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ، ص٣٢٠ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ، جـ١، ص٢٤٢) .

١٢٠- جـ٨ ، ص٣٢٠ .

١٢١- ص٢٠٢ .

١٢٢- عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقى صاحب الموصل، وليها بعد وفاة أبيه، وكان فى إمارة حلب عندما علم بوفاة والده، فلم يختلف عليه أحد، واستقامت أموره وخطب للسلطان السلجوقى محمود بن محمد كان شجاعًا شهمًا طموحًا مات بمرض مفاجئ؛ وهو محاصر الرحبة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٧م) .

(ابن الأثير ، الكامل، جـ٨ ، ص٣٢٣؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ١ ، ص٢٤٣) .

١٢٣- ابن الأثير ، جـ٩ ، ص١٣-١٤ ؛ ابن العبرى، ص٢٠٦ .

١٢٤- جـ٩ ، ص٢٥-٢٦ .

١٢٥- ص٢٠٧ .

١٢٦- شيزر : مدينة قديمة على بعد خمسة عشر ميلاً شمال حماة ، تقع على أكمة صخرية على الضفة الغربية لنهر العاصى الذى يلتف حولها من ثلاث جهات مما زادها منعة وتحصينًا . عدت زمن الحروب الصليبية مركزًا هامًا لإمارة بنى منقذ التى ضمت كلاً من أفامية وكفر طاب واللاذقية.

(محمد محمد مرسى الشيخ ، الإمارات العربية فى بلاد الشام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ، ١٩٨٠، ص٤٦-٤٧) .

١٢٧- جـ٩ ، ص٥٣-٥٥ .

١٢٨- ص٢٠٨ .

١٢٩- جـ٩ ، ص٨٤-٨٥ .

١٣٠- ص٢١٢ .

١٣١- حصن حارم من أعمال حلب ، بينها وبين أنطاكية يتبعه بلدة صغيرة تحيط بها الأشجار ونهر صغير، يقع الحصن على رابية صخرية مرتفعة محمى من جميع الجهات بخندق عميق منحوت فى الصخر، كان حصناً مثلث الشكل ثم أصبح دائرياً بأربعة أبراج مربعة الشكل .

(ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٠٥ ؛ أسامة زكى بدر، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨١م، ص١٥٣ حاشية (١)).

١٣٢- قلعة بانياس ، مدينة صغيرة من أعمال دمشق إلى الغرب منها لها قلعة حصينة يحيط بها نهر بردى .

(الحميرى ، الروض المعطار، ص٧٣) .

١٣٣- جـ٩ ، ص٨٦-٨٧ .

١٣٤- جـ٩ ، ص١٠٥-١٠٦ .

١٣٥- أبو الفتح وأبو المجود عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى، ولى حلب بعد وفاة ابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، وعندما عرف عجزه عن حمايتها والدفاع عنها سلمها إلى صلاح الدين ثامن عشر صفر سنة ثمانية وخمسمائة للهجرة، وانتقل إلى سنجار حتى كانت وفاته فى المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة للهجرة (١١٩٧م)، كان خيراً ديناً عادلاً كثير الصدقات، كانت ولايته ثلاثين سنة.

(أبوشامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٢ ، ص٣٣٠-٣٣١) .

١٣٦- فضلا انظر ص١٨-١٩ .

١٣٧- أرناط فى المصادر الإسلامية (ريجنالد) أورينو دوشاتيون ، وقبل مجيئه إلى بلاد الشام كان اسمه (Le Prince arnould se igneur de Carac) فارس فرنسى قدم أنطاكية وأصبح أميراً عليها ثم أصبح أميراً لحصن الكرك، ظل فى قبضة المسلمين سنين طويلة أسيراً فى قلعة حلب، حتى أطلق سراحه سنة ١١٧٧م لم تفلح فى تهذيب سلوكه وتأديبه ، كان ذا سياسة طابعها الحماس والتطرف ، لقى منه المسلمون والصليبيون كثيراً من الغدر والخيانة قتل بيد صلاح الدين بعد انتصار حطين يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٤ يوليو ١١٨٧م) .

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧٤٠) .

١٣٨- عقدت هذه الهدنة أول سنة ٥٧٦هـ (مايو سنة ١١٨٠م) بطلب من الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بعد الضربات القوية التى وجهها صلاح الدين ضد الصليبيين فى عدد من الجهات التى استولوا عليها، والملاحظ أن هذه الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وحدها، مما جعل صلاح

الدين في حل من مهاجمة الصليبيين في شمال بلاد الشام، فاضطر ريموند الثالث أمير طابلس إلى عقد هدنة مماثلة مع صلاح الدين.

(أبوشامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٩٧ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧٣٥) .

وفي صيف سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨١م تناسى أرناط الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وقام ومعه قوة من رجاله بالتوغل في صحراء العرب (شمال غرب شبه الجزيرة العربية) حتى تيماء، وكانت واحة لها أهميتها في طريق الحاج بين بلاد الشام والمدينة المنورة ، وكان في نيته أن يزحف بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وعندما فشل هدفه اكتفى بالاستيلاء على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مكة المكرمة، وسلب ما تحمله من مال ومتاع وقتل وأسر من كان فيها.

لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلا انظر:

- ابن الشداد : النوادر السلطانية : ص٧٤ .

- ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٢٧ ، ١٣٢، ص١٩٤-١٩٥ .

- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧٢٩ وما بعدها .

- يوسف درويش غوانمه : إمارة الكرك في العصر الأيوبي. عمان، ١٩٨٢ م.

- محمود رزق محمود : العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى معركة حطين عام ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، القاهرة ١٩٧٣م.

١٣٩- جـ٩ ، ص١٧٤ .

١٤٠- ص٢١٩-٢٢٠ .

١٤١- مدينة صور من أعمال الأردن تبعد عن بيروت جنوبًا بسبعة أميال، وعن صيدا ستة أميال يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، لذا كانت حصينة جداً منيعة لايمكن أخذها بسهولة. (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٤٣٣؛ أسامة زكي بدر، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٠).

١٤٢- ابن الأثير ، جـ٩ ، ص١٨٦-١٨٧ ، ابن العبري، ص٢٢١ .

١٤٣- كان بوهيموند الثالث (١١٤٥-١٢٠١م) أميراً على أنطاكية (١١٦٣-١٢٠١م) قد اضطر إلى مهادنة صلاح الدين بسبب الهجمات المتتالية والناجحة التي حققها صلاح الدين ضد أملاك هذه الإمارة والحصون والقلاع التابعة لها ، وعقدت بين الطرفين هدنة مدتها ثمانية أشهر.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٨٠٠) .

١٤٤- جـ٩ ، ص١٩٥ .

١٤٥- ص٢٢٢ .

١٤٦- الملك وليم الثانى المولود سنة ١١٦٦م، كان ممن سارع فى تلبية نداء الصليبيين لحمايتهم والدفاع عنهم بعد حطين واستعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وكان أول من استجاب لتلك الدعوة، فعقد صلحاً مع البيزنطيين، وأرسل إلى بقية ملوك أوربا يدعوهم للتضامن معه فى مشروع حملة صليبية ضد المسلمين واستعادة بيت المقدس، ولم ينتظر رد أولئك الملوك بل بادر بإرسال أسطول يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس ، تحت قيادة أمير البحر مارجريت البرنديزى الذى نجح فى منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية، وكان مما حال دون اشتراك الملك الصقلى فى الحملة الصليبية الثالثة هو انشغاله بالعلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم كانت وفاته فى ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩م سبباً فى فشل أهدافه.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٨٠٩-٨١١ ؛ ستيفن رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٢١) .

١٤٧- جـ٩ ، ص١٩٩ .

١٤٨- الملك العادل سيف الدين أبوبكر محمد بن أيوب بن شاذى بن مروان ، ولد بدمشق فى المحرم سنة أربعين وخمسمائة، وكانت وفاته بعالقين - قرية بظاهر دمشق- فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة (١٢١٨م) ونقل إلى دمشق حيث دفن فى قلعتها وله من العمر خمساً وسبعين سنة وشهوراً، كان ذا رأى وتدبير ومعرفة وحنكة حسن السيرة ، جميل الطوية وافر العقل حازماً فى الأمور ذا دين وصلاح محب للعلماء.

(ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٧٠، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٥ ، ص٧٤) .

١٤٩- جـ٩ ، ص٢٣٧-٢٣٨ .

١٥٠- ص٢٢٥ .

١٥١- ص٢٧٠ ، ٢٧٢ .

١٥٢- تشكل الأحداث التى وردت فى الصفحات السابقة أمثلة لهذه العناصر مما لايخفى على فطنة القارىء الكريم .

قائمة المصادر والمراجع *

أولاً : المصادر:

- ابن الأثير: عز الدين على بن محمد بن عبدالكريم (ت.٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) :
الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن زبى بكر (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.
- ابن شداد : بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٦م) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ابن العبرى: أبو الفرج غريغوريوس بن هارون (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) :
تاريخ مختصر الدول، نشرة الأب أنطون صالحانى اليسوعى، ط الثانية ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٥٨م.
- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد العقيلى (ت.٦٦٠هـ / ١٢٦١م) :
بغية الطلب فى تاريخ حلب ، بعض تراجم نشرها سهيل زكار ضمن كتاب الحروب الصليبية، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- ابن القلانسى : أبويعلى حمزة بن أسد الدين بن على (ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م.
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٧م.
- أبو الفداء : المؤيد إسماعيل بن على (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) :
تقويم البلدان، باريس ، ١٨٩٠م .
- أبوشامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) :
الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجبل، بيروت، ١٢٨٨هـ.

---

* لم تشمل هذه القائمة المصادر والمراجع التى وردت فى حواشى البحث لمرة واحدة فقط.

- جوانفيل : جان سير دى جوانفيل (كانو موجوداً سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٩م) :

مذكرات جوانفيل (القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

- الحميرى: محمد بن عبد المنعم (ت أواخر النصف الأول من القرن الثامن الهجرى):

الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، ط الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤ .

- الشارترى : فوشيه (كان موجوداً سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م) :

تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة زياد جميل العسلى، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٠م.

- الصورى: وليم (ت٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) :

تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر منذ وقت خلفاء محمد ﷺ وحتى عام ١١٨٤م من الميلاد. ترجمة حسن حبشى تحت عنوان الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١-١٩٩٤م .

- المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) :

السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول- تحقيق محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧٦هـ.

- المؤرخ المجهول: ذيل كتاب وليم الصورى (مخطوط روثلان) ترجمة أسامة زكى زيد، الإسكندرية، ١٩٨٦م.

- ياقوت : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) .

معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

ثانياً : المراجع :

- أسامة زكى زيد : صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١م.

- حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

- ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، ط الثالث، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

- علي بيومي مهران: قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة، ١٩٥٢م.
- علية عبد السميع الجنزوري : إمارة الرُّها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة وبلاد الشام ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامي في العصر الأيوبي، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ .
- محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية، الرياض ، ١٤٠٤هـ.
- محمد عزت الطهطاوي : النصرانية والإسلام، ط الثانية، مكتبة النور، القاهرة ١٤٠٧هـ.

Setton , (K.M.) A History of the crusades, pensylvania, 1958 .

ثالثًا : البحوث والمقالات :

- الأب أنطون صالحاني اليسوعي : ترجمة ابن العبرى في كتابه (تاريخ مختصر الدول).
- سهيل زكار : أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام ، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب ، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ/ ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م.
- محمد عزيز : العرب في المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب.

رقم الإيداع ٦٥٤٩ / ١٩٩٤

دار روتابرنت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
مهندس / يوسف عز
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد العاشر - المجلد الأول
مارس ٢٠٠٢ م

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

العدد العاشر المجلد الأول مارس ٢٠٠٢ م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطية - عمـــارات شركـة الخليـج
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلة

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

* تصدر مؤقتا سنوياً في مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

* لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

* تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

*****

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويـــــــات

كلمة الافتتاح

التاريخ ... أيام متداولة

جاء فى قواميس اللغة العربية : دالت الأيام أى دارت ؛ والله عز وجل (يداولها بين الناس) .

والواقع إن من يتأمل مسيرة التاريخ على مر الأيام والعصور تتكشف أمامه الكثير من الحقائق التى يمكن أن تستوقفه ، والتى يتخذ منها التاريخ ركائز يبنى عليها مسيرته ، فى حين يتخذ منها المؤرخون محاور يحاولون النفاذ منها إلى صميمها للكشف عن أسرار الماضى وخبايا الحاضر .

وإذا كان للتاريخ ثلاثة محاور كبرى يدور حولها ، هى الإنسان والزمان والمكان ، فإن المشتغل بالتاريخ تواجهه مشكلة عدم تكافؤ هذه العناصر فى قوة التأثير على المدى القريب والبعيد . وكثيرا ما يلمس الباحث فى بعض حلقات التاريخ تغلب الزمان والمكان على الإنسان ، كما هو الحال فى الفيضانات والأوبئة وغير ذلك من الكوارث الطبيعية . وفى الوقت نفسه كثيراً ما يلمس الباحث تغلب الإنسان على كوارث الطبيعة ، فيقيم السدود ويشق الطرق ويعالج الأمراض . ويستغل ما وهبه الله من عقل وطاقة فى التغلب على ما يواجهه من صعاب وأخطار .

وهكذا فإنه مع مسيرة الزمان تبرز على ساحة المجتمع البشرى قوى جديدة وقد يكون ذلك فى نفس الحقبة التى يخبو فيها ضوء شعل كبيرة فيكون ذلك مصداقا لقوله عز وجل: " وتلك الأيام نداولها بين الناس "(من الآية ١٤٠ – سورة آل عمران) .

وهكذا تدور عجلة التاريخ .

د. فايزة محمود صقر(*)

العلاقات الاقتصادية بين مصر وكنعان
خلال النصف الأخير من الألف الثانى قبل الميلاد

كان اجتياح شعوب البحر منطقة الشرق الأدنى القديم عاملا هاما فى انهيار الإمبراطوريات الكبرى خلال النصف الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد أدى ذلك إلى تخفيف الضغط الأجنبى على إقليم سوريا وفلسطين وهو الإقليم الذى عرف باسم كنعان مما أدى - بدوره - إلى قيام كيانات محلية فى تلك المنطقة أكثر استقلالا من الكيانات السابقة . وقد أتاح ذلك لشعوب المنطقة فرصة إثبات وجودها ، مما أثر فى الأحداث التى مرت بها ، حتى اضمحلت الدول الكبرى من كبوتها . وتاريخ العبريين هو من الناحية السياسية فترة متواضعة الشأن ، إذا قورن بتاريخ الإمبراطوريات الكبرى فى الشرق الأدنى قديما ، ولا تصح مقارنته فى الواقع إلا بتاريخ الأقوام المتواضعة الأخرى فى المنطقة نفسها(1) ، ونقوم نحن فى هذا البحث برصد العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر وإقليم كنعان خلال النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد ، وهو الأمر الذى يتضح من خلال حملتين عسكريتين مصريتين سجلتهما المصادر التاريخية .

الحملة الأولى قام بها الملك سيا آمون (٩٧٩ - ٩٦٠ ق . م) ، والحملة الثانية قام بها الملك ششنق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ ق . م) ، حيث كانت سياسة كلا الملكين تجاه إقليم سوريا وفلسطين خيارا استراتيجيا لا مناص من تحقيقه سواء سلما أم حربا شكل (١) .

---

* - مدرس تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - فرع دمنهور .

ذلك أن بعض الباحثين يعتقد أن عصر الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ - ٩٥٠ ق.م.) يعبر عن بداية للتأخر في أوضاع مصر ربما بسبب الخمول الذي غلب على سياسته وضعف وحدة الحكم الأعلى فيه ، وتقلص النفوذ المصري خلاله خارج الحدود ، وتوزع السلطة فيه بعض الشئ بين الملوك . ويرى كتشن(٢) أن الفترة الممتدة من عصر الأسرة الحادية والعشرين حتى نهاية الأسرة الخامسة والعشرين تعبر عن عصر انتقال ثالث يتوسط بين العصر الزاهر للأسرة العشرين وبين بداية الأسرة السادسة والعشرين الذي جرى على تسميته باسم العصر الصاوي .

وقد أدت سياسة المسالمة واقتسام المغانم في عصر الأسرة الحادية والعشرين بين البيتين المالكين في تانيس وطيبة ، إلى الإبقاء على نظام الحكم الثنائي مائة واثنين وأربعين سنة اتسمت بالفتور والسياسة الانطوائية في مجملها . ويرجع السبب في غموض عصر الأسرة الحادية والعشرين إلى قلة ما كشف من آثارها في صعيد مصر ، ولتحلل أغلب آثاره في الدلتا بفعل رطوبة الأرض وكثافة طميها وكثرة المجاري المائية . وهكذا ظلت إمكانيات الدولة ومواردها محدودة ، بحيث استعانت في بعض منشآتها المعمارية بأحجار المباني القديمة ، وانكمشت بر رعمسسو وتانيس إلى نصف مساحتهما السابقة(٣) .

وجدير بالذكر أن تاريخ العلاقة بين مصر وكنعان خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين اقتصر على المعلومات التوراتية (الملوك ١١ : ٢١-٢٢) ومؤداها أن القائد اليهودي "يؤاب" كان قد قام - كقائد لقوات داود - بمجزرة بشرية في " أدوم " أفنى فيها الذكور بحد السيف ولكن أحد أطفال الأسرة المالكة واسمه " هدد " استطاع أن يهرب مع بعض الرفقاء ولجأ إلى مصر حيث احتضنه الملك المصري ، وتزوج من أخت " تحفنيس " زوجة ملك مصر إذ ذاك ، وولدت أخت " تحفنيس " له ، " جنوبث " ابنه ، وفطمته " تحفنيس " في وسط بيت فرعون بين بني فرعون (ملوك أول ١١ : ١٤-٢٢) . وبعد مدة خرج ملك مصر إلى كنعان وهاجم " جازر " وأحرقها وقدمها هدية لابنته التي تزوجها من سليمان مما يدل على أنه تودد بهذه الطريقة إلى جاره ملك فلسطين . شكل (٢) .

وهكذا تتضح سياسة ملوك مصر في ذلك العصر : فإنهم في الوقت الذي يظهرون ودهم وتحالفهم مع حكام فلسطين كانوا ينتهزون كل فرصة لتنمية روح الانقسام بين حكامهم وذلك للتدخل بينهم في الوقت المناسب . وبهذه الوسيلة يمكنهم استرجاع شئ من النفوذ في تلك

البلاد التى حصلوا عليها ممن سبقوهم ، بحروبهم المظفرة(٤)، ويبدو أن ملوك الأسرة الواحدة والعشرين كانت لديهم الرغبة في إعادة النفوذ المصرى فى آسيا . ومن هؤلاء الملك بسوسنس الأول حيث تشير ألقاب الملوك إلى الطموح السياسى والعسكرى(٥) .

حملة سيا آمون على فلسطين

جاء في سفر الملوك – الجزء الأول ، الإصحاح التاسع ، الفقرة ١٦ – أن الملك منح ابنته زوجة للملك سليمان ، وتعاهد الملك سليمان مع الملك المصرى عن طريق المصاهرة ، واصطحب ابنة ملك مصر فى مدينة داود حتى انتهى من بناء منزله ، " منزل الأبدية " وانتهى من بناء المعبد بعد إتمام الزواج الذى من المحتمل أنه تم فى ٩٨٠ ق.م. ويقال أن هذه الأميرة أعطيت مدينة جازر صداق ، ولكن من الصعب معرفة إذا كانت هذه الأحداث قد وقعت أثناء حكم سيا آمون أو إبان حكم خليفته بسوسنس الثانى ، وقد حكم سيا آمون حوالى ستة عشرة عاما(٦) .

ويرى د. عبد العزيز صالح أن تحالف الملك المصرى مع سليمان كان تحالف الأقوياء ، فبعث جيشه إلى جنوب أرض كنعان حيث استقرت جماعات من شعوب البحر المنافسة لسليمان وسيطرت القوات المصرية على مدينة جازر التى عجز العبرانيون عنها عدة مرات ، ثم جعلها بائنة لابنته التى رضى أن يزوجها لسليمان ، وفى ذلك يعنى ضمنا أن مصر ظلت حتى فى عهود ضعفها أقوى مرات من ملك سليمان الذى تحدثت به الأمثال لما كان عليه ملك أسلافه وجيرانه بطبيعة الحال(٧) .

ويرجح كيتشن أن الملك المصرى الذى زوج ابنته لسليمان هو سيا آمون(٨) بينما يرى د. نجيب ميخائيل أن الملك هو فى الغالب " باسباخع ان نيوت "(٩) .

وجدير بالذكر أنه لدينا شواهد مصرية نستخلص منها زواج المصرى من أجنبية ، إلا أنه فى الغالب لم يكن الأب يرضى أن تتزوج ابنته من أجنبى . ونستخلص من ذلك ما جاء على لسان ملك مصر أمنحتب الثالث – وكان قد تزوج من أكثر من امرأة من البلاد الآسيوية ولكنه دهش حين طلب منه ملك متيانى أن يبعث بفتيات مصريات إلى حريمه(١٠) .

وقد عرفت مصر الزواج السياسى كأسلوب من أساليب الدبلوماسية المصرية ولكنه اقتصر على زواج الملك المصرى من أميرات أجنبيات وخاصة خلال الإمبراطورية أو الدولة الحديثة

ولكن حدث خلال عصر الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين أن اختلف الأمر ، إذ عقد زواج أميرات ملكيات على أشخاص من العامة ، بما فيهم غير المصريين ، فالأميرة " تنت سبتاح " ابنة الملك بسوسنس الثاني تزوجت من الكاهن الأعلى للإله بتاح في منف ، كما تزوج سيا أمون أو ريما بسوسنس الثاني ، ابنة ششنق زعيم الما الليبي . كما تزوجت الأميرة " ماعت كارع " ابنة بسوسنس الثاني من الشاب الليبي أوسركون الذي سيعتلي عرش مصر في الأسرة الثانية والعشرين باسم أوسركون الأول ابن ششنق الأول . وفي المقابل فإن ملوك الأسرة الثانية والعشرين لم يزوجوا بناتهم من أشخاص لا ينتمون إلى الأسرة الملكية(١١) .

ورغم صعوبة تفسير زواج سليمان من ابنة سيا أمون ، إلا أن القرن العاشر ق.م. شهد عدة زيجات بين العائلات الملكية وطبقة النبلاء وذلك بغرض تحقيق أهداف اقتصادية وسياسية(١٢). وقد تزوج ششنق الأول من ابنة بسوسنس آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرون ، ويبدو أن ششنق لم يقم بثورة للاستيلاء على الحكم بل انتظر حتى وفاة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين واستولى على العرش في تانيس ، وعلى ذلك فقد قامت الأسرة الثانية والعشرين متخذة من بوباسطة بشرق الدلتا عاصمة لها(١٣) .

ونلاحظ أن النص التوراتي قد ربط بين زواج الملك سليمان من ابنة الملك المصري وبناء المعبد .

ويرى د. حسن ظاظا أن عدد الصناع الذين اجتمعوا في أورشليم لينفذوا مشروع سليمان – الذي أوصى به أبوه داود – ضخم جدا يزيد على مائة وخمسين ألف عامل ، والهيكل بناء صغير حسب أوصافه التي وردت في النصوص (طوله ٣٢ مترا ، وعرضه ١١ مترا وارتفاعه١٦٧ مترا بالتقريب) مما يدعو إلى التساؤل :

هل كانت كل مواد البناء التي أعدها داود ، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين الأجانب مخصصة للهيكل وحده ، أم أن الأمر على ما يذكره (لويس براون) من أن الهيكل لم يظفر من كل هذا إلا بالقدر الأقل بينما الجانب الأكبر خصص لمبان أخرى أقل اتصالا بتمجيد الرب ، منها القصر الملكي لسليمان ، وقصر زوجته ابنة فرعون مصر ، الصروح البديعة والأبنية الحكومية ، المعابد الوثنية التي أقيمت لمن رفضن التهود من النساء الأجنبيات اللاتي تزوجهن سليمان (الملوك الأول ١١)(١٤) .

وجدير بالذكر أن المعابد الوثنية استمرت تقيم طقوس المعبودات القديمة التي عرفتها أرض فلسطين ومنها الإله حورون الذى أشارت الأدلة الأثرية إلى استمرار عبادته فى أرض فلسطين منذ القرن الثانى قبل الميلاد حتى العصر الهلينيسى[١٥] .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن سيا أمون كان يخطط لغزو إسرائيل نفسها كما عثر له على آثار فى " تل فرعة " ، وسواء أصح هذا أم لم يصح ، فإن سليمان أدرك بثاقب فكره أن مملكته الصغيرة لن تعيش بالتفاهم مع جيرانها . واقتضت هذه السياسة أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الأمراء والملوك ، ومن ثم تزوج طبقا لرواية التوراة من بنات أمراء العمونيين والمؤابيين والآراميين والكنعانيين والحيثيين[١٦] ، ثم ساعدته الظروف بأن كانت أحوال مصر وآشور مرتبكة إلى حد كبير ، وأيا كان الأمر ، فقد لجأ سليمان إلى صهره ملك مصر لكى يعطيه منفذا على البحر المتوسط الذى كان يتنازع السيادة على موانيه ، الفينيقيون والفلسطينيون ، ومن ثم نقرأ فى التوراة " أن فرعون قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار ، وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة ، وأعطاها مهرا لابنته امرأة سليمان " ، وأصبحت الأميرة المصرية هى السيدة الأولى فى مملكته أو الزوجة الرئيسية كما كان يطلق عليها[١٧] .

وجدير بالذكر أن أحوال مصر الاقتصادية كانت متدهورة وخاصة فى عاصمة الأسرة الحادية والعشرين (تانيس) التى - بعد أن كانت مركزا لتجارة البحر المتوسط - أضحت لاتمتاز بغير كونها قاعدة الحكم ، وكان ثراؤها من قبل يقوم على قناة بينها وبين البحر ، ولكن تطهير هذه القناة أصابه الإهمال فملأتها الرواسب الطمية ولم يعد أصحاب السفن يدخلون الميناء . ثم ظهر منافسون جدد فى الميدان التجارى وعلى رأسهم سليمان الذى كان حريصا على تلك الأسواق القديمة وغزو أسواق جديدة . ولقد دخلت إسرائيل تحت حكمه - لأول مرة فى تاريخها- فى الميدان التجارى فحرمت مصر من موارد التجارة العربية ، وقد انضم حيرام الصورى إلى سليمان واتفقا على تبادل الفائض ، وكان حيرام فى حاجة إلى الزيت والحبوب ، وسليمان فى حاجة إلى خشب لبنان لبناء أسطوله ، وهكذا سيطر سليمان على محصولات آسيا التى بادلها بمحصولات بلاد العرب وأفريقيا[١٨] .

يتضح من النص التوراتى أن جيوش سيا أمون زحفت إلى جنوب غرب فلسطين واجتاحت مدنها حتى وصلت " جازر " - المقاطعة الكنعانية - التى تقع على الحدود بين فلسطين وإسرائيل ، كما يتضح أن الملك المصرى اجتاح أولا مدينة جازر قبل أن يقدمها دوطة (هدية

زواج) ابنته من الملك سليمان . ومن الواضح أن هذه الحادثة وقعت في بداية تولي سليمان العرش ، ربما خلال العقد الأول من عهد سليمان (٩٧٠ - ٩٦٦ ق.م) ، وربما خلال السنوات الأربعة الأولى من عهده وهذا يتطابق مع الغزو المصرى لجازر والمدن الفلسطينية الذى يقع خلال العقد الأخير من عصر الملك المصرى سيا آمون (٩٧٨ - ٩٥٩ ق.م) ، ومن الشواهد الأثرية التى تشير إلى حملة سيا آمون ، يظهر على مبنى متهدم ، أقامه بسوسنس الأول وسيا آمون فى المنطقة الشرقية للمقابر الملكية وجنوب المعبد الرئيسى للإله آمون فى العاصمة تانيس ، فى هذا النقش يظهر سيا آمون يضرب بمقمعة مجموعة من الأسرى تتسلح بفأس مزدوجة ، وهم ممثلون فى طراز شعوب البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

وهذا المنظر يؤكد خروج الملك سيا آمون بالفعل للحرب ضد عناصر شعوب البحر فى فلسطين، وهذا ما يشير إليه الفأس المزدوجة الذى يمثل تقليدا مصريا يحيى ذكرى حملات الملوك المصريين ضد شعوب البحر(١٩) .

وتعد الفأس المزدوجة رمزاً للسلاح الذى كانت تستخدمه شعوب البحر الذين عاشوا فى فلسطين بعد هزيمتهم على أيدى رعمسيس الثالث ، مما يشير إلى أن النقش إنما يخلد ذكرى غزو حقيقى قام به المصريون هناك ، وأن مدينة جازر إنما كانت هى الهدف المقصود ، ولعل هذه المصاهرة وغزو جازر وتقديمها مهرا لابنة الملك المصرى ، إنما كانت أحد الأسباب التى دفعت "برستد" يذهب إلى أن سليمان إنما كان واليا تحت النفوذ المصرى ، كما يرى المؤرخ اليهودى "سيسل روث" ، أن التحالف مع مصر هو الذى مكن دولة سليمان من أن يكون لها موطئ قدم على البحر المتوسط ، الأمر الذى لم يتح لها بغير معاونة الملك المصرى(٢٠) .

وغالبا فإن لوحة تانيس التى تصور الملك سيا آمون وهو يضرب عددا راكعا أمامه قابضا فى يده على فأس للحرب مزدوجة ، تسجل غزوة حقيقية قام بها المصريون وأنهم استولوا على مدينة جازر وإذا صح ذلك فسيكون سيا آمون هو الملك المصرى الذى عاصر سليمان(٢١) .

مما سبق يتضح أن العناصر العبرانية قامت بتحسين أوضاعها فى إقليم كنعان بعد مواجهة بعض مدن المنطقة مثل أريحا ولكيش وجازر ، بيد أن المدن الفلسطينية التى استقر أهلوها بالمنطقة وأسسوا كيانات سياسية تحكمت فى اقتصاديات المنطقة ، قد وقفت عقبة كؤود ضد طموح سليمان فى بسط السيطرة التجارية ، وكل منهما منع مصر من الحصول على حاجاتها من المواد الأساسية ، الحبوب من شمال النقب أو النحاس من مناجم تمنة أو

تحصيل الضرائب من بعض هذه المدن على الأقل فى الجزء الكنعانى وكذلك خشب الأرز من بيبولس[٢٢] .

وتعد حملة سيا آمون على فلسطين ثم تحالفه مع سليمان ذات أهداف مزدوجة لأن أغراض سيا آمون من الحملة كانت اقتصادية قبل أن تكون سياسية . فمنذ عصر سمندس والمرحلة الانتقالية ، كانت تانيس مدينة لها علاقات تجارية مع موانئ البحر المتوسط ، تمتلك موانئ تجارية مع سواحل البحر المتوسط (قصة ون آمون) ، فقوات سيا آمون تقوم بإعادة الأمن للمنطقة بغرض القضاء على منافسة المدن الفلسطينية والفينيقية التجارية . ومقاطعة جازر كانت مدينة كنعانية محصنة تقع على الحدود مع مملكة سليمان ، وكان وصول القوات المصرية حتى هذا الموقع مدعاة لوقوع تصادم بين قوات سليمان وقوات سيا آمون ، ولكن كلا الملكين وجدا فى التحالف الاقتصادى فائدة أكثر من الحرب ، لأن التحالف العسكرى والاقتصادى بين سليمان وسيا آمون سيجعل المدن الكنعانية تقع بين شقى الرحى ، فمدينة جازر ليست ذات أهمية خاصة للملك سيا آمون ولكنها تمثل أهمية كبيرة عند الملك سليمان حيث تمثل خطرا على حدوده ، وهنا يحصل عليها سليمان عند زواجه من ابنة سيا آمون ، إذن فقد قامت الحملة وتم التحالف ثم الزواج حوالى عام ٩٦٧ ق.م. واستطاع سيا آمون وقف زحف التنافس التجارى من قبل المدن الفلسطينية ، واكتسب امتيازات اقتصادية فى سوريا وفلسطين ، وسليمان فى نفس الوقت أمن حدوده الجنوبية الغربية مع مصر[٢٣] .

أما ازدهار الأحوال الاقتصادية فى أرض كنعان فقد نشأت عدة مدن تعد مراكز تجارية أخذت تزدهر خلال عصر سليمان وهى :

١- عصيون جابر

تقع بقايا عصيون جابر الآن فى تل الخليفة غربى ميناء العقبة[٢٤] . وقد نشر جلوك Gluck ، فى الفترة ١٩٣٨-١٩٤٠ نتائج الحفائر التى أجراها فى تل الخليفة ، وقد كشفت عن بقايا مصانع النحاس والحديد ترجع إلى القرن العاشر وعصر سليمان . وقد أحسن اختيار المكان ، فقد أقيمت فى موضع تبلغ فيه الرياح على وادى عربة غاية قوتها ، وذلك لكى تؤجج النار اللازمة للتكرير . وكان يؤتى بالنحاس والحديد من مناجم وادى عربة وطور سيناء ويتم التكرير فى عصيون جابر حيث تصنع الأدوات المعدنية المختلفة ، وقد عثر على الكثير منها فى تل الخليفة .

وجدير بالذكر أن العهد القديم لا يذكر شيئا عن هذه المصانع رغم أهميتها[٢٥].

وقد أضاء القرآن الكريم لنا الطريق في هذا الشأن حينما حدثنا عن النشاط التجاري للملك سليمان في قوله تعالى :-

" قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب " صدق الله العظيم (سورة ص ، آية ٣٥ ، ٣٦) .

ويتميز عهد سليمان بن داود بتقدم تجاري عظيم ، كفلته السيطرة على الطرق التجارية في سوريا وفلسطين وعلى الطريق المؤدي إلى البحر الأحمر .

ويرى " موسكاتي " أن رحلته إلى أوفير كانت عملا مشتركا مع الدول الفينيقية البحرية ، كما يعتقد أن أوفير ربما تقع على ساحل الصومال شكل (٤)[٢٦] .

ويتحدث سفر الملوك (١٠) عن اتجاره في الخيل وعربات الحرب ، ولابد أنه كان محتكرا لهذه التجارة فعلا ، لأن مزاولتها بين مصر وسوريا كانت تعتمد بالطبع على الطرق البرية ، وهذه كلها كانت في يد سليمان ، والاسطبلات الملكية الكبيرة التي كشف عنها في مجدّو تؤكد مدى اهتمام سليمان بتربية الخيل[٢٧] .

وقد قام أسطول سليمان من هذا الميناء بعدة بعثات بحرية حول ساحل بلاد العرب وشرقي أفريقيا ، وكان الغرض من هذه البعوث هو إحضار البخور وخشب الصندل والعاج والذهب والأحجار الثمينة في مقابل النحاس والحديد اللذين كانا يتم تكريرهما في عصيون جابر ، وهذه المواد كانت ترسل بطريق البحر أو بالقوافل إلي بلاد العرب وغيرها[٢٨] ، وقد أكدت الدلائل الأثرية استخدام الطرق البحرية منذ فترة مبكرة ، ومن تلك الدلائل العثور على جرة تحمل نقشا عربيا في ميناء عصيون جابر على رأس خليج العقبة ويعود تاريخها إلى القرن السادس ق.م.[٢٩] ، مما قد يشير إلى استيلاء سليمان على تجارة الجزيرة العربية .

وفي جملة ما عثر عليه في (تل الخليفة) جرتان ، عليهما كتابات بأحرف المسند ، وقد قدر أن تاريخ صنعهما لا يقل عن القرن الثامن قبل الميلاد ، وتدل أحرف المسند هذه على أن صانعيها كانوا يستخدمون هذه الكتابة . وقد يشير هذا إلى التبادل التجاري بين فلسطين والمعينيين الذين كانوا في العلا وتبوك[٣٠] .

٢- أوفير

اتجه سليمان إلى التجارة مع البلاد الساحلية ، وليستورد منها ما يحتاج العبرانيون إليه ، فأنشأ أسطولا تجاريا فى (عصيون جابر) على خليج العقبة بجانب (أيلة) - (أيلوت) - (ايلات) من أرض أدوم(٣١) .

وقد عرف خليج العقبة بـ (بحر سوف) ، (يم - سوف) فى العبرانية . ولما كان العبرانيون لا يعرفون البحر ، استعان سليمان بـ (حيرام) ملك صور فى تسيير الأسطول وتدريب العبرانيين على ركوب البحر ، فأمده بخبراء من صور تولوا قيادة السفن ، يخدمهم رجال سليمان ، فمخروا البحر حتى وصلوا إلى (أوفير) وأخذوا من هناك ذهبا زنته أربعمائة وعشرون وزنة أتوا بها إلى سليمان(٣٢) .

وقد اختلف الباحثون فى تحديد موقع أوفير ، فيرى البعض أنها فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية(٣٣) ، ويرى البعض أنها على ساحل أريتريا(٣٤) ، بينما يرى آخرون أنها كانت تشمل المنطقتين ، أى أنها كانت تشمل بلاد اليمن والساحل الإفريقى المقابل لها ، ويحدد البعض الآخر موقع أوفير بساحل الصومال ، بينما يرى آخرون إلى مدى أبعد بالقول أنها كانت فى بلاد الهند . فالذين قالوا بأن أوفير فى الهند اعتمدوا على ما ورد فى الكتاب المقدس من أن سفن حيرام وسليمان كانت تقوم بالرحلة إلى أوفير مرة واحدة كل ثلاث سنين ، كما اعتمدوا على أنواع السلع التى ذكرها الكتاب المقدس ، وكانت تجلب من أوفير ومن بينها سلع لا توجد إلا فى الهند منها الطواويس وخشب الصندل . غير أن بعض الباحثين يرون أن كلمة " تكييم" التى تترجم عادة بالطواويس ، محرفة عن " سكييم " بمعنى العبيد ، وبذلك تشير هذه الكلمة إلى سلعة أفريقية(٣٥) .

وقد قام الأستاذ الدكتور يعقوب بكر بعرض الآراء المختلفة حول مكان " أوفير " فقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، إذ منها ما يجعل أوفير فى الهند ، ومنها ما يجعلها فى بلاد العرب . وإذا استبعدنا النظرية الهندية ، لأن السفن فى عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب ، فقد تركزت آراء الباحثين حول النظرية الإفريقية والنظرية العربية ويرجح يعقوب بكر أن أوفير تقع فى الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، إذ كان أمام سليمان طريقان للحصول على الذهب هما : طريق البر عبر الصحراء وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر ، فآثر طريق البحر . رغم أن قومه أهل زراعة ورعى ولم يتمرسوا البحا،

. ذلك لأن طريق القوافل شاق ، وقد تزيد نفقاته على نفقات الطريق البحرى . ويفترض يعقوب بكر أن الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية هو المصدر الذى يجلب منه سليمان الذهب . ويستدل من الرواية التوراتية أن الذهب أهم سلع أوفير ، ويرد ذكرها فى سفر الملوك الأول ٩ :٢٨ (فأتوا إلى أوفير وأخذوا من هناك ذهبا أربعمائة وزنة وعشرين وزنة) ويذكر الذهب وحده أيضا فى أخبار الأيام الثانى ٨ :١٨ ، كما يذكر فى الملوك الأول ٢٢ :٤٩ . كما ورد " الذهب الأوفيرى " فى أيوب ٢٢ : ٢٤[٣٦] .

وكان يلى الذهب فى الأهمية بين سلع أوفير خشب الصندل ، ويرى بعض الباحثين أنه خشب الأصطرك ، والحجارة الكريمة ، فسفر الملوك الأول ١٠ :١١ يذكرهما هما والذهب دون سائر السلع . كذلك لا نجد سوى هذه السلع الثلاث فى سفر أخبار الأيام الثانى ٩ :١٠ ، والحجارة الكريمة سلع عربية أيضا ، وكذلك خشب الأصطرك . ويرى البعض أنه كان ينبت فى بعض أرجاء الجزيرة نبات يشبه الصندل ويقاربه فى الرائحة[٣٧] .

يضاف إلى هذا أن أوفير هو أحد أبناء يقطان ، وأوفير بن يقطان هذا – أى شعب أوفير القحطانى – هو الشعب الذى يسكن أرض أوفير ، فليس هناك أوفيران ، أوفير فى الجزيرة العربية وأوفير فى مكان آخر . وقد يعترض على هذا الرأى : من أن ذهب بلاد العرب كان قليلا بالقياس إلى المقادير الهائلة التى كانت تصل إلى سليمان ويتفق جواد على مع رأى يعقوب بكر فى أن أوفير تقع فى شبه الجزيرة العربية[٣٨] .

ولكن يجب علينا ألا نسلم بقصة أوفير حرفا حرفا ، لأن المبالغة الأدبية واردة فى هذا المجال ، وربما كان الغرض من المبالغة إظهار حملات أوفير وكأنها من حملات الملوك المصريين إلى بلاد بونت . وعن المبالغة فى تقدير دخل سليمان من الذهب ، يذكر سفر الملوك الأول ١٠ :١٤–١٥ أن الدخل السنوى المنتظم ٦٦٦ وزنة يساوى حوالى ٢٠٠٠٠ كيلو جرام (يساوى ٤٠٠ قنطار إنجليزى) ، وهو قدر لم يكن العالم القديم كله يستطيع إنتاجه فى سنة واحدة . ويضاف إلى ذلك أن ما كان يأتيه من أوفير كل ثلاث سنوات هو ٤٢٠ وزنة تساوى ١٢٦٠٠ كيلو جرام (يساوى ٢٥٢ قنطارا إنجليزيا) . يضاف أن ما أتت به مملكة سبأ (الملوك الأول ١٠ :١١) هو: ١٢٠ وزنة تساوى ٣٦٠٠ كيلو جراما (تساوى ٧٢ قنطارا إنجليزيا) فيكون المجموع ٧٢٤ قنطارا إنجليزيا من الذهب ومع هذا لم يستطع سليمان أن يرد دين ملك حيرام ، فيروى العهد القديم (الملوك الأول ٩: ١١) أن حيرام ملك صور " قد ساعد سليمان

بخشب أرز وخشب سرو وذهب " فأعطاه سليمان مقابل ذلك " عشرين مدينة من أرض الجليل " وهذا يدل على أن موارد سليمان لم تسعفه في رد الدين ، فتنازل لدائنه عن بعض أرض فلسطين نفسها . إذن لم يكن الذهب الذى يجلبه سليمان من أوفير بالكثرة الخيالية كما صورتها الرواية التوراتية (٣٩).

وفى دراسة أخرى تربط بين بلاد بونت(٤٠) والفينيقيين ، حيث لكل منهما نشاط تجارى فى البحر الأحمر ، فقد مارس الفينيقيون نشاطًا بارزا فى البحر الأحمر خاصة فى العصور المتأخرة لمصر ، ومع ذلك لم تنقطع علاقتهم بمصر وهم يمارسون نشاطهم البحرى فى البحر الأحمر . وقد كان المصريون يستخدمون في رحلاتهم فى البحر الأحمر سفنا تسمى " سفن جبيل " وقد اقتصرت هذه السفن على الرحلات المصرية فى البحر الأحمر . ورد فى مقبرة "خوى" بأسوان نص يربط بين بونت وبيبلوس ، ولعل ما يعزز هذه الصلة ، ذلك التشابه بين سلع بلاد بونت وبين السلع التى كانت السفن الفينيقية تجلبها من موانئ البحر الأحمر ومنها بلاد أوفير – أى المناطق الجنوبية من الساحل الأفريقى للبحر الأحمر .

ومن أهم السلع التى كانت تجلب من بونت ومن أوفير : الذهب ، وقد أفاضت نصوص البعثات المصرية فى ذكر وفرة الذهب الذى كان يجلب من بلاد بونت ، واحتل مكانا بارزا بين السلع التى جلبتها بعثة حتشبسوت . أما القردة فقد كانت من أبرز السلع التى جلبها المصريون من بلاد بونت كما أسماها المصرى gwf وقد انتشر اللفظ لدى بعض الشعوب التى كانت تشارك فى تجارة البحر الأحمر ومنها اللغة العبرية(٤١) .

وكان العاج فى مقدمة السلع التى تجلب إلى مصر من بونت ، وكان أيضا ضمن سلع أوفير (الملوك الأول ١٠ :٢٢ ، وأخبار الأيام الثانى ٢١:٩) ، وهذا يرجح تحديد موقع أوفير على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، فإن وفرة الفيلة فى القارة الأفريقية ، لاشك جعل من السهل على الفينيقيين والعبرانيين استيراد العاج من مناطق إنتاجه مباشرة . ومما يعزز هذا الرأى ما ورد فى سفر الملوك الأول بأن رحلات أوفير كانت تتم عن طريق البحر ، بينما ورد أن رحلة سبأ (فى بلاد العرب) كانت تتخذ البحر طريقا (وهذا يبرر أن أوفير كانت تقع فى جهة أخرى من بلاد العرب حيث سبأ – أى فى جهة كان الوصول إليها بالبحر) .

ومن أنواع سلع أوفير والتى تتفق مع سلع بلاد بونت ، الفضة والأحجار الكريمة (وقد وردت هذه المنتجات فى رسوم بهو بونت فى معبد حتشبسوت)(٤٢) . غير أن هناك سلعة من

سلع أوفير تثير مشكلة وهى خشب الصندل ، فإن هذا النبات هندى الأصل ، ولا يوجد لا فى شبه الجزيرة العربية ولا فى المناطق الأفريقية ، وقياسا على رأى يعقوب بكر بوجود نبات فى شبه الجزيرة العربية يشبه خشب الصندل ويقاربه فى الرائحة ، فليس هناك ما يمنع(٤٣) أن يكون نفس الأمر ينطبق على القارة الأفريقية التى تمتاز عن شبه الجزيرة العربية بكثرة أشجارها وتعدد أنواعها ، هذا بالإضافة إلى نصوص رحلة بلاد بونت الى أشارت إلى جلب الأخشاب ذات الرائحة الذكية ضمن سلع هذه البلاد .

من هذا يتضح أن موقع أوفير يقع ضمن مناطق الساحل الأفريقى للبحر الأحمر .

ويرجح د. عبد المنعم عبد الحليم أن أوفير تقع على الساحل الممتد من أريتريا إلى الصومال وخاصة المنطقة الممتدة من خليج زولا (أدوليس) إلى خليج تاجورة حيث تنتشر الموانى الملائمة لرسو السفن الفينيقية والعبرانية . ويقدم عدة أدلة لإثبات هذا الموقع(٤٤) .

ويبدو أن أوفير كانت محطة تجارية لتجميع منتجات القارة الأفريقية حيث تبادل المنتجات المحلية بما تحمله السفن من بضائع يحتاج إليها سكان أفريقيا من ملح وحديد ، وهكذا كان تكديس السفن الفينيقية والعبرانية والسفن المصرية بالمنتجات كالذهب والفضة والعاج والقردة والأخشاب .

وفى حفائر " تل قاصيل " على الضفة الشمالية لنهر " يرقون " عثر على قطعتين أوستراكا بنقوش عبرية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، تحمل الأولى نقشا يقول :

" للملك ألف (وزنة) من الزيت " . وربما تمثل قائمة بكميات الزيت التى ترسل من قبل الخزائن الملكية إلى أحد الموانئ المصرية أو الفينيقية من تل قاصيل . أما القطعة الثانية فتحمل إشارة إلى ذهب أوفير : " ذهب أوفير إلى بيت حورون ، ثلاثون وزنة " . ويبدو أن بيت حورون كان مركزا إداريا فى مقاطعة افرايم التى كانت مدينة اقتصادية فى عصر سليمان وقد أقيمت عدة قلاع على الطريق الذى يبدأ من السهل حتى الجبال التى تقع بين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل . ومع ذلك لا يمكننا أن نغفل أن بيت حورون كانت تتضمن معبدا كنعانيا للمعبود حورون ، وكان يعبد فى فلسطين منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد استمرت عبادة هذا المعبود على الساحل الفلسطينى حتى العصر الهيلينستى كما يشير هذا النقش إلى أن عبادة حورون من قبل الفلسطينيين والفينيقيين استمرت فى تل قاصيل والمدن المجاورة لها شكل (٥)(٤٥) .

٣- ترشيش

أنشأ سليمان خطا بحريا آخر ينتهي بأرض اشتهرت بالذهب كذلك ، سميت في التوراة (ترشيش) . وقد استعان سليمان بمدربين وملاحين من صور أمده بهم حيرام ملك صور ، وكان الأسطول يذهب مرة كل ثلاث سنوات وأما البضائع التي تعود بها من ترشيش فهي الذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس . ولم يتفق الرأي على تعيين موضع ترشيش فيرى البعض أنها في أفريقية ، ويرى آخرون أنها في مكان ما من سواحل أسبانيا الجنوبية ، ويرى البعض أنه في أسبانيا ، وكانت سفن صور تتاجر مع ترشيش وتربح من هذه التجارة ربحا وفيرا كما جاء في التوراة(٤٦) .

وترى الباحثة أن اسم ترشيش يقترب من اسم أحد عناصر شعوب البحر وهم التورشا الذين جاءوا من المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم ليديا (غرب الأناضول) ومنها هاجر التورشيون إلى وسط إيطاليا ، وربما حرف اسمهم إلى تاروشا ثم الأتروسكيين سكان روما القدامى(٤٧) .

ويتضح أن سليمان استعان بخبرة الفينيقيين في تجارة البحر المتوسط ويبدو أن العبرانيين لم يتعلموا ، الخبرة الفينيقية البحرية ، إنما اعتمدوا عليهم اعتمادا كبيرا ، ويتضح ذلك عندما أقدم أحد خلفاء سليمان بعد وفاة سليمان على بناء أسطول جديد في عصيون جابر ليسير إلى ترشيش ، غير أن مآربه لم يتحقق إذ تكسرت السفن ولم تستطع السير إلى ترشيش . وهذا يوضح أن العبرانيين لم يكونوا قد أتقنوا بناء السفن والسير بها في البحار ، فأخفقوا ، وأن نجاح سليمان في الوصول إلى أوفير وترشيش مرده إلى خبرة ومهارة الفينيقيين(٤٨) . ورغم أن أسماء داود وسليمان لم يردا في النصوص المصرية ، إلا أن الشواهد الأثرية تشير إلى أن المدن التي افترض أن سليمان أقامها في فلسطين ومنها حازور ومجدو وجازر فإن سماتها المعمارية من أسوار ومداخل ثلاثية وتكنات الموظفين تشير بجدية إلى النموذج المعماري المصري السائد في ذلك العصر(٤٩) .

حملة ششنق الأول على فلسطين (الأسرة الثانية والعشرون ٩٥٠-٧٣٠ ق.م.)

من أهم الأحداث في عهد الملك ششنق الأول (٩٥٠-٩٢٩ ق.م.) غزو سوريا العليا

وفلسطين ، وقد جاء ذكر هذه الحملة في الكتاب المقدس ، فنجد في سفر الملوك الأول ، الفصل الرابع عشر ، الجزء الثاني من التاريخ ، الفصل الثالث عشر أنه : " في السنة الخامسة من حكم مربعام جاء ششاق - هكذا يسمى في التوراة - ملك مصر ليهاجم القدس بألف ومائتي مركبة حربية وستين ألف فارس ، وخرج من مصر ومعه شعب لا يمكن حصره من الليبيين والسوقيين والأثيوبيين ، واستولى على المدن المحصنة التي كانت ملكا ليهوذا ووصل القدس واستولى على خزائن بين الأبنية وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شئ ، وأخذ كل الدروع من الذهب التي صنعها سليمان " .

كانت حملة ششنق الأول تهدف إلى إحياء الأمجاد المصرية في غربي آسيا ، وكانت الأمور قد بدأت تسير في هذا الاتجاه منذ عصر الأسرة الحادية والعشرين كما رأينا من قبل ، وهناك ما يشير إلى أن ششنق وخلفاءه قد أعادوا العلاقات التجارية مع أمراء جبيل ، وقد أهدى ششنق الأول تمثالا جالسا له إلى معبد سيدة جبيل ، أما في الجنوب فهناك ما يشير إلى إرسال حملة للحصول على احتياجات آمون في الكرنك ، وهذا يرجع عودة العلاقات التجارية ، وقد تحقق ذلك عام ٩٢٥ ق.م. تقريبا ودخل أورشليم واستولى على خزائن معبدها الرئيسي بعد تسليم رحبعام له تجنبا لأى تخريب قد يلحق بالعاصمة ومعبدها ، ثم يقفل ششنق عائدا لمصر ليخضع في طريق العودة مدن مجدو ومجاوراتها في سهل جزريل(٥٠) .

تتطابق السنة الخامسة من حكم يربعام الذى خلف سليمان في عام ٩٢٩ ق.م. مع السنة الحادية والعشرين من حكم ششنق ، وكان الجيش المصرى يضم في تلك الفترة قوات مرتزقة من الليبيين والسوقيين الذين قد يكونون قبائل من شرق الدلتا ، أما الأثيوبيون فهم قبائل من بلاد النوبة السفلى الذين أطلق عليهم الكوشيين والذين أمدوا في كل الأوقات الجيش المصرى بأفضل عناصره المقاتلة(٥١) .

وعندما عاد ششنق منتصرا إلى مصر ، سجل بالنقوش قصة انتصاره على الجُدران الجنوبية الخارجية لبهو الأعمدة الكبير في معبد الكرنك ، ويظهر في منظر فوق رؤوس الأسرى الذين يمثلون أهالي مائة وست وخمسين مدينة فلسطينية تقع على الحدود الجنوبية لأرض يهوذا شمال الجليل(٥٢) .

وعادت حملة ششنق على فلسطين بفوائد شتى ، فاستعادت مصر بها جانبا من مجدها القديم ، واستعادت سعة صلاتها بالمدن الفينيقية ، واستحب بعض حكام المدن الفينيقية أن

يقيموا التماثيل والنصب بأسماء ملوك مصر في معابدهم ومنها تماثيل لكل من ششنق الأول واسركون الأول واسركون الثاني . وأفاضت الحملة على مصر في الوقت نفسه غنائم وثروات استغلها ملوك الأسرة ٢٢ في مواصلة الترف القديم وزيادة مباني المعابد(٥٣) . وأعاد هذا الملك لمصر بعض سيطرتها القديمة التي كانت على عهد أسلافه المحاربين منذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد .

أهم المدن التي ورد ذكرها في نص ششنق الأول

يصف كيتشن قائمة ششنق الأول(٥٤) ، فيذكر أن القائمة تتكون من عشرة صفوف من الأسماء ، كتبت خلف المعبود آمون ، بينما هناك صف حادي عشر يمتد أسفل الجزء الخاص بالملك . ويرى كيتشن أن هذه السلسلة الطويلة من الأسماء لا تشكل تسلسلا جغرافيا في مجملها ، إلا أن بعضها يشير إلى طريق جغرافي موحد (شكل ٣) .

ويقدم كيتشن توزيعا جغرافيا كما يلي :-

الصف العلوي قائمة تمهيدية للأعداء التقليديين لمصر (الأقواس التسعة) ، ثم يعطي نقطة بداية الحملة إلى فلسطين وهي غزة إن لم تكن Makkedah أو Rubuti . أما الصف الثاني فيحتوي على ثلاثة قطاعات يمكن تمييزها :

أ- من وادي اسدراليون إلى رحوب (تل الساريم) .

ب- يستمر الامتداد عبر الأردن إلى ماهانيم .

ج- قطاع منفصل يمتد من وادي اجالون حتى جبيون بالقرب من أورشاليم .

وهكذا فإن الصف الثاني في (ج) يكمل المعلومات في الصف الأول ، بينما الصف الثاني (أ) و (ب) يمثلان الجزء الشمالي الشرقي من حملة ششنق ثم يقدم الصف الثالث :-

١- جزء من الطريق من مجدو جنوبيا إلى Socoh وما وراءها .

٢- جزء يمثل الطريق من مجدو إلى جنوب غرب الجليل .

أما الصف الرابع والخامس فإن جزئيهما يمثلان :

١- طريق عبر الأردن بين ماهانيم وأدوم .

٢- طريق من زيماريام (شمال أورشليم) حتى تيرزان والوادى (اسدارليون) .

وبعد ذلك فالصفوف من التاسع حتى العاشر ترتبط بجنوب يهوذا ومناطق النقب ، بينما الصف الحادى عشر من رفح متجها مع الطريق الساحلى إلى مصر .

وهكذا نجد الصف الرابع الذى كان يحتوى على ثلاثة عشر اسما لمواقع ، فقدت كلها باستثناء اثنين فقط أحدهما (رقم ٤٠) لا يمكن تحديده تماما ، والموقع الثانى غامض (بيت سبا؟) وهناك عشرة أسماء أخرى ، كلها فقدت باستثناء بقايا غير مقروءة ولا نستطيع معرفة أى بيت من فلسطين كانت ترتبط به هذه الأسماء . وقد يثار تساؤل حول عدم ذكر لمدينة أورشاليم فى قائمة ششنق ، والإجابة بسيطة وتشمل :

أولا : من المحتمل أن أورشاليم قد استسلمت لششنق الأول قبل قيام الحملة وقامت بدفع الجزية ، فلم يتم غزوها بالقوة وبالتالى لم يأت ذكرها فى القائمة .

ثانيا : من المحتمل أن اسم أورشاليم ذكر فى القائمة ولكن ضاع فى الأجزاء المهشمة منها فهناك ثمان أسماء مفقودة بالكامل قد تكون أورشاليم واحدة منها وعليه فإن قائمة ششنق الأول إما أنها لم تعد فى حاجة إلى وضع اسم أورشاليم فى المكان الأول ، أو قد ذكر فى الصف الرابع المهشم .

وجدير بالذكر أن التوراة تتحدث فقط عن غزو يهوذا جنوبا بينما قائمة ششنق تركز على مدن إسرائيل شمالا . فالمواقع الشمالية التى أخضعها الملك المصرى تشتمل على صفين كاملين فى القائمة هى الصف الثالث والخامس وجزء من الصف الثانى . بينما الصف الرابع مهشم ، وغير مقروء أساسا . وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الروايات التوراتية كتبت من وجهة نظر مملكة يهوذا وبالتالى فهم لم يهتموا بما حدث لجيرانهم فى الشمال ، لذا فإن قائمة ششنق أصدق قولا فى اجتياح الملك المصرى لهاتين المملكتين الصغيرتين: يهوذا وإسرائيل(٥٥) .

وفى محاجر جبل السلسلة التى أخذت منها أحجار البناء لتشييد بهو الأعمدة الكبير فى الكرنك والبوابة الرئيسية ، عثر على نقش رقم (١٠٠) مؤرخ بنهاية العام الحادى والعشرين من حكم ششنق الأول . مما يشير إلى أن الحملة نفسها قد قامت بالفعل فى خريف هذا العام نفسه ، حيث كان من نتيجة هذه الحملة تزويد المعابد المصرية بالغنائم العديدة(٥٦) .

ويرد فى نقش جبل السلسلة أن الملك ششنق الأول أمر بإعادة فتح محاجر جبل السلسلة لبدء مشروعات الملك الإنشائية ، من أجل إقامة العمائر الدينية للإله آمون رع الذى يمنحه مزيد من سنوات الحكم ، كما يتضح من النقش أن الملك ومعه ولى العهد (ابنه الذى كان يحمل لقب الكاهن الأول لآمون رع) قاما بافتتاح هذا المشروع وذلك فى العام الحادى والعشرين من حكم ششنق الأول ، حيث تقوم الآلهة برعاية وحماية هذا المشروع واختيار أحسن المواقع فى محاجر السلسلة من أجل إقامة العمائر العظيمة فى معبد آمون رع .

وجدير بالذكر أن النقش يحتوى على عبارة " إن الملك أعطى تعليماته من أجل بناء الصرح العظيم " . ويبدو أن العام الحادى والعشرين كان العام الأخير من حكم ششنق وهو ٩٢٥ ق.م. حيث ذكر مانيثون أن مدة حكم ششنق الأول هى واحد وعشرون عاما . ويبدو أن ششنق الأول أعطى أوامره إلى مهندسه المعمارى " حر – م – ساف " لإعادة فتح المحاجر فى جبل السلسلة من أجل إنشاء مبنيين رئيسيين فى المعبد الكبير لآمون رع بالكرنك ، ويفترض أنهما الصرح والأعمدة . وقام الملك بتقديم هدايا الذهب والفضة لكبار الموظفين المشرفين على المشروع تقديرا لجهودهم . ويتضح من ذلك أن البوابة البوباسطية كانت جزء من المشروع الأساسى الذى بدأه ششنق الأول ، أما عبارة " الصرح العظيم " التى وردت فى نص جبل السلسلة فتشير إلى المدخل الرئيسى للمعبد كله(٥٧) .

ويـــرى John Wilson(٥٨) أن النصوص المصرية لم تكن كافية لتغطية تفاصيل حملة ششنق الأول على فلسطين ، مما يجعل نص ششنق يبدو كما لو كان سرد لخط سير الرحلة أكثر منه نصا روائيا للحملة التى قادها الملك(٥٩) . ومع ذلك يتضمن النص عبارات مثل : " جزى الأراضى السورية " و " الأسيويون فى البلاد الأجنبية " كما يذكر الملك أنه قام بالحملة إرضاءا للإله آمون : " أحضرت للإله ، الأسيويين من جيوش ميتانى " . وهناك وثيقتان عثر عليهما فى الأراضى الأسيوية تؤكدان حملة ششنق ، ففى مجدو عثر على لوحة جنائزية تحمل اسم الملك ششنق الأول تشير إلى أن الملك بنفسه أقام احتفالا بالنصر هناك . وفى جبيل عثر على مقعد لتمثال جالس يحمل اسم الملك ، ويبدو أن هذه القطعة كانت هدية من أمراء المنطقة.

كما يوجد فى بلتيمور " Walters Art Gallery " تمثال من البازلت لشخص مصرى نقش عليه : " مبعوث إلى كنعان وفلسطين بادى ايست ابن أيب " وربما رجع هذا التمثال إلى

عصر الأسرة الثانية والعشرين ، وهذا يؤكد عودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وكنعان(٦٠).

مما سبق يتضح أن :-

- تاريخ العبريين هو من الناحية السياسية فترة متواضعة الأهمية إذا قورن بتاريخ الإمبراطوريات الكبرى فى الشرق الأدنى .
- إمكانيات الأسرة الحادية والعشرين الاقتصادية كانت محدودة ، حيث انكمشت العاصمة تانيس إلى نصف مساحتها السابقة .
- التحالف بين سيا آمون وسليمان كان يحقق لكل منهم غرضا اقتصاديا ، فمصر فى حاجة إلى اكتساب امتيازات اقتصادية فى فلسطين ، وسليمان يأمل أن يكون لدولته منفذ على البحر المتوسط عن طريق القضاء على مدينة جازر .
- استعان سليمان بخبرة المدن الفينيقية فى إنشاء أسطول تجارى بحرى .
- استولى سليمان على الأسواق التجارية القديمة فى البحر الأحمر وحرم مصر من موارد التجارة الخارجية .
- استطاع سليمان نتيجة تحالفه مع مصر ، إنشاء ميناء عصيون جابر على خليج العقبة حيث أنشأ مصانع لإنتاج النحاس والحديد مستغلا اتجاه الرياح ، ويبدو أن النحاس كان يأتى إليها من المناجم الغنية فى طور سيناء .
- وصلت سفن سليمان إلى ميناء أوفير لإحضار الذهب ، الرواية التوراتية بالغت فى إظهار حملات أوفير وكأنها أبهى من حملات الملوك المصريين إلى بلاد بونت .
- تشابه السلع التى جلبتها سفن سليمان من أوفير مع السلع التى كانت مصر تجلبها من بلاد بونت وهى الذهب والعاج والقردة والأخشاب والفضة والأحجار الكريمة وتكاد تقع فى المنطقة التى تشمل الصومال حتى خليج عدن .
- أوفير كانت محطة تجارية لتجميع منتجات القارة الأفريقية .
- سار سليمان على نهج الملوك المصريين من تقديم الهبات والهدايا إلى المعابد الأخرى ، مثل معبد حورون حيث كان يقدم له ذهب أوفير .

- ميناء ترشيش ربما كان المنفذ لتجارة سليمان على البحر المتوسط الذى أتاحه له الملك المصرى .

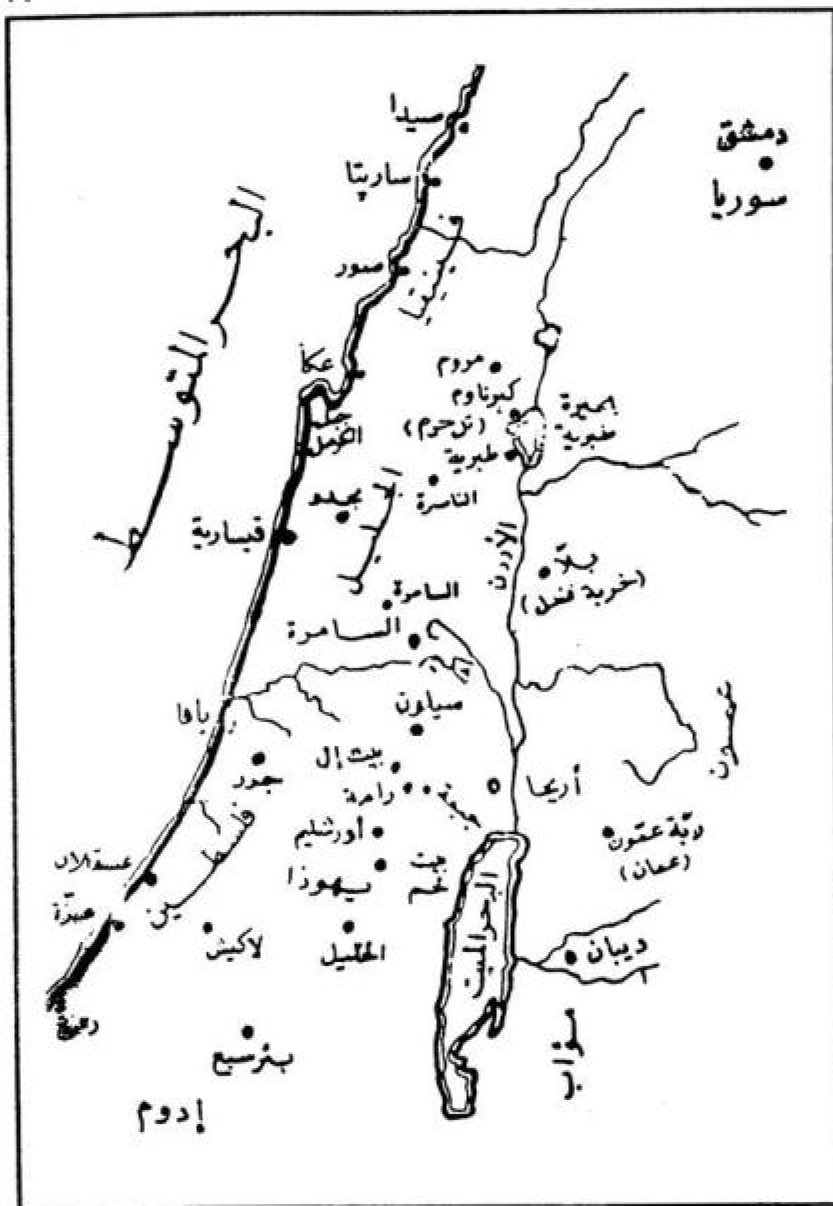
- حملة ششنق الأول على فلسطين أعادت سيطرة مصر على التجارة الخارجية فى غرب أسيا ، وعادت العلاقات التجارية بين مصر والمدن الفينيقية .

- سياسة الملك ششنق الأول تختلف عن سياسة سيا آمون تجاه الشرق ، فكان يرى أن صالح مصر السياسى والاقتصادى ليس مع التحالف مع الكيانات القائمة فى تلك المنطقة لأنها تمثل عائقا لا يستهان به أمام ازدهار العلاقات المصرية السورية ويقلل من الثروة المصرية لحساب مملكة سليمان ، فزحف بقواته لإخضاع المنطقة عسكريا .

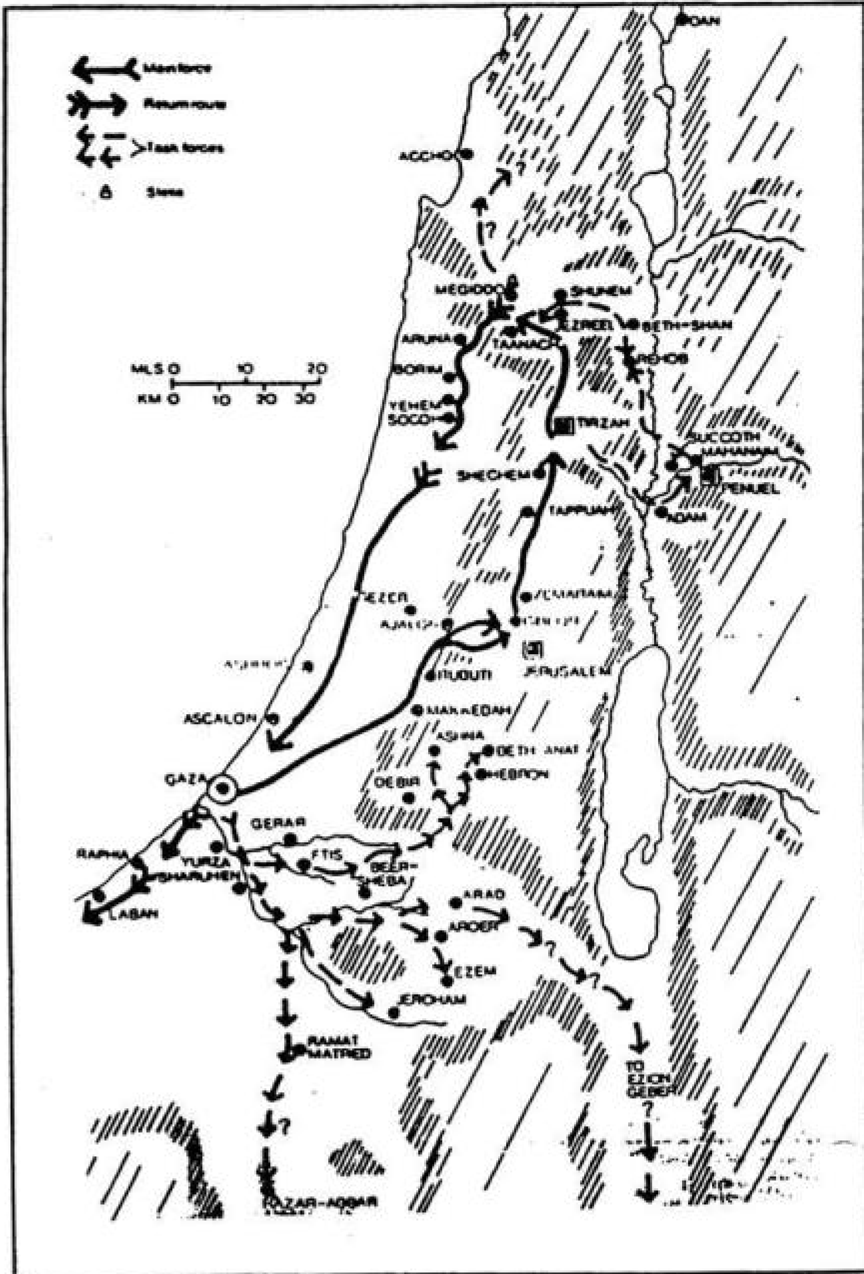
فترات حكم ملوك مصر المعاصرة لسليمان وابنه

الأسرة الواحدة والعشرين	سليمان	٩٧٠ - ٩٣٠ ق.م.	
	سيا آمون	٩٧٩ - ٩٦٠ ق.م.	
حملة سيا آمون	←	العقد الأول من عهد سليمان والعقد الأخير من عهد سيا آمون = ٩٦٧ ق.م.	
الأسرة الثانية والعشرين	ششنق الأول	٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م.	
	رحبعام	٩٣٠ - ٩١٣ ق.م.	
حملة ششنق الأول	←	السنة الخامسة من حكم رحبعام	= ٩٢٥ ق.م.
	←	السنة ٢١ من حكم ششنق	

شكل (١)

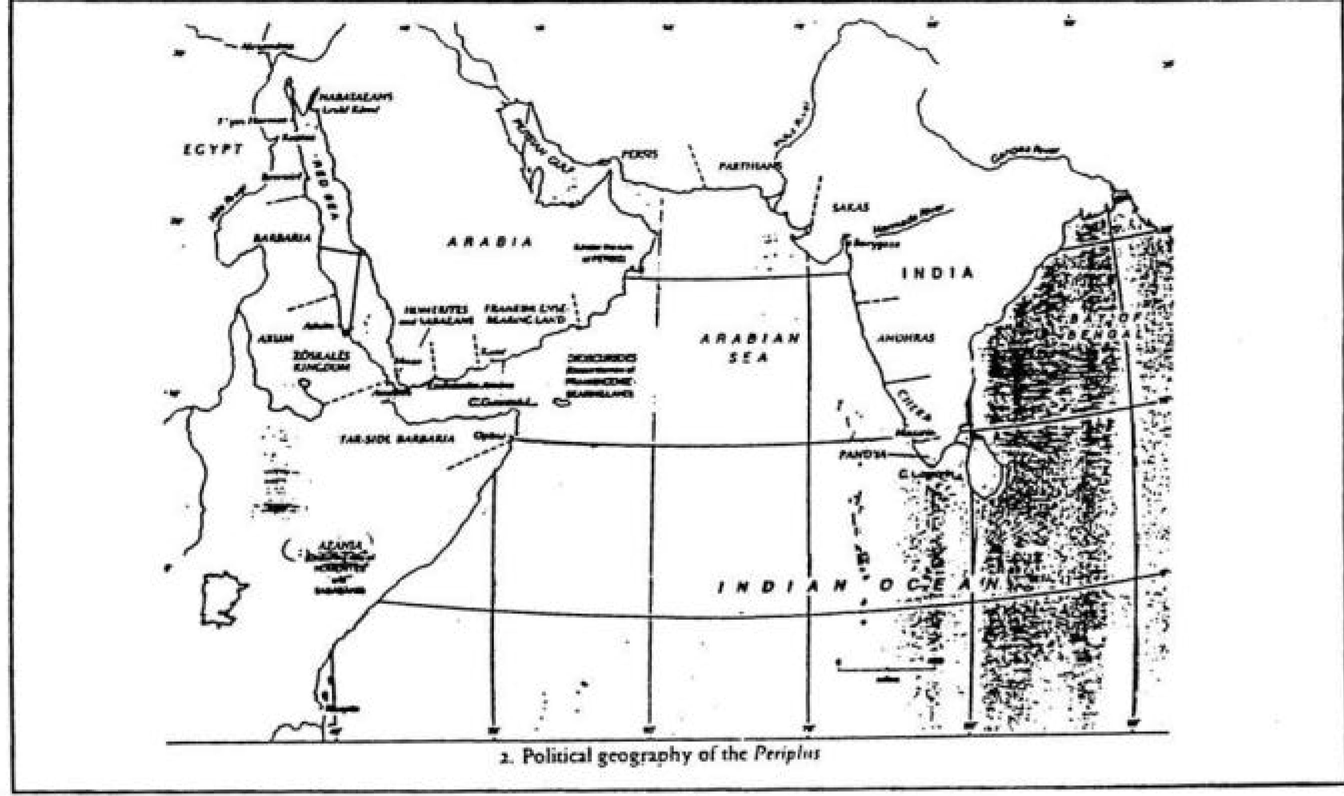

صيدا
ساربتا
صور
عكا
الكرمل
قيسارية
مجدو
الناصرة
طبرية
كبرناوم
(تلحوم)
مروم
بحيرة طبرية
دمشق
سوريا
الأردن
السامرة
يافا
جزر
بيت إل
جبعة
راعة
أريحا
أورشليم
بيت لحم
يهوذا
عسقلان
غزة
لاكيش
الخليل
ديبان
ربة عمون
(عمان)
بئر سبع
إدوم
البحر المتوسط

شكل (٢) فلسطين



شكل (٣)

Course of the Palestinian Campaign of Shosheng I. O.925.13.C.



2. Political geography of the *Periplus*

شكل (٤)



شكل (٥)

HEBREW OSTRACA FROM TELL QAILE

A OSTRACON NO.1 B OSTRACON NO.2

الهوامش

١- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية ، ترجمة السيد يعقوب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ١١٠ .

٢- Kitchen, K, The Third Intermediate Period in Egypt, warminster, 1986, 493.

٣- عبد العزيز صالح : مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٧ ، ٢٦٥ .

٤- نجيب ميخائيل : مصر من قيام الدولة الحديثة إلى دخول الإسكندر ، جـ٢ ، الإسكندرية ، ١٩٦٢ ، ٣١٧ ؛ Kitchen, K.A, op. cit, 280.

٥- Redford. B.R., Egypt, Canaan, and Israel, Cairo, 1993, 310.

٦- رمضان السيد : تاريخ مصر القديمة ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٩٣ ، ٢٢٥ .

يرى د. عبد العزيز صالح أن تحديد اسم الملك لازال فى مرحلة الفروض ، فهو قد يكون أحد الاثنين السابق ذكرهما ، أو قد يكون أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين : عبد العزيز صالح : مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٧ ، ٢٦٥ .

٧- عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٦٥ .

٨- Kitchen, K.A, op. cit, table 12 , 479.

٩- نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، ٣١٧ .

١٠- تحفة أحمد حندوسة : الزواج والطلاق فى مصر القديمة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ٢٨ .

١١- Kitchen, K.A, op. cit, 276, 282.

١٢- Redford, B.R. op. cit., 311.

١٣- أحمد أمين سليم وسوزان عباس عبد اللطيف : تاريخ مصر الفرعونية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ٢٩٢ .

١٤- حسن ظاظا : القدس مدينة الله ... أم مدينة داود ، الإسكندرية ، ١٩٧٠ ، ٣٨ .

١٥- Maisler, B, Two Hebrew Ostraca from Tell Qasile, JENS, X, 1951, 267.

١٦- عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ٣٨٧ .

١٧- محمد بيومى مهران : جـ٣ ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ٦٠٩ .

انظر : Chen, S., Solomon and the Daughter of pharoah: intermarriage Conversion and the Impurity of woman, JENS, 1984/85, 37.

١٨- نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣١٦ .

قام ششنق بنقل قاعدة الملك من تانيس إلى بوباستة التى رأى أنها تفضل تانيس من نواحى عدة ، انظر : إبراهيم محمد كامل : إقليم شرق الدلتا فى عصوره التاريخية القديمة ، جـ٢ ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ١٤٩-١٨١ .

سليم حسن : مصر القديمة ، جـ٩ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ٥١٧-٥١٩ .

١٩- Montet, P., Les Constructions et le Tombeau d'Osorkon II á de Tanis, 1947, (La Nécropole Royale Tains, I) 36, pl. 1 , 9A'; Kitchen, K.A., op. cit, 280-281.

٢٠- محمد بيومى مهران : مصر ، جـ١ ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ٦٠٩-٦١٠ .

٢١- عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٩ .

حفلت النقوش الجدارية بالعديد من مناظر قهر الشعوب الأجنبية منذ عصور ما قبل الأسرات وحتى العصور المتأخرة ، وهى تسجل الأحداث التاريخية بالإضافة إلى نوعية العقوبات التى ينزلها الملك على الشعوب الأجنبية ، أنظر :

Ivery, J., Crime and Punishment, (in) Egyptian Art principle and Themes in Wall Scenes, Prism Egypt, 2000, 207-223.

٢٢- Kemp, B., Ancient Egypt: A social History, Cambridge, 1989, 226-232.

Malemat, A., Aspects of the forgien Policies of Dawid and Solomon. JENS, 22/1, 1963, 1-17.

Waterman, L., The Treasuries of Solomon's Private chapel, JENS, 6, 1947, 161-163.

٢٣- Kitchen, K.A, op. cit, 282; Redford, D.B. op, cit., 310; Malamat, A., JENS, 22, 10-17.

إبراهيم محمد كامل : المرجع السابق ، ١٤٩-١٨١ .

٢٤- تقع عند رأس خليج العقبة عند تل الخليفة حاليا ، وكانت تسمى قديما عصيون جابر ثم أطلق عليها بعد ذلك إيلات ولما أتى الرومان أسموها أيلة :

انظر: عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٨ .

٢٥- Albright, W.F., The Archaeology of PALASTINE, Pengeuim Books;, Haramonds-worth, 1949, 44, 127-128

٢٦- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية ، ترجمة السيد يعقوب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ١١٥ -١١٦ .

٢٧- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ١ ، بيروت ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ٦٣٨ .

٢٨- سليم حسن : مصر القديمة ، جـ٩ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ٥١٦ .

٢٩- Glueck, N., M River in the Desert, New York. 1959, 162.

٣٠- جواد على : المرجع السابق ، ٦٨٣ ، Redford, D.B. op, cit., 328 .

٣١- لطفى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ٣٢٥ ؛ LÄ, V, 370

٣٢- جواد على : المرجع السابق ، ٦٣٧ .

٣٣- جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ١٥١-١٦٠ .

٣٤- Oxford Bible Atlas, trans. By Herbert G., and others , London, Oxford, 1968 , 66 .

٣٥- عبد المنعم عبد الحليم سيد : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الأحمر ، رسالة دكتوراه ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ ، ٢٠٢ .

٣٦- جورج فضلو حورانى : المرجع السابق ، ١٥٢-١٥٣ .لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ٣٣٥-٣٣٦

٣٧- جورج فضلو حورانى : المرجع السابق ، ١٥٣-١٥٤ .

٣٨- جواد على : المرجع السابق ، ٦٣٨ .

٣٩- جورج فضلو حورانى : المرجع السابق ، ١٥٨-١٦٦ .

٤٠- بلاد بونت : كان لها مدلول عام عند المصريين جنوبا على طول الساحل الأفريقى للبحر الأحمر .

٤١- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ -٢٠٣ ؛ Faulkner, R.O., CD., 288

٤٢- سليم حسن : مصر القديمة ، جـ٤ ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ٣٢٦ ؛ Naville, D. Bahari, Pl. 81

٤٣- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

٤٤- عبد المنعم عبد الحليم سيد : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

٤٥- Maisler, B., Two Hebrew Ostraca from Tell Qasile, JENS, X, 1951, 265-267.

٤٦- جواد على : المرجع السابق ، ٦٤٠ ؛ LÄ, V, 370

٤٧- Wainwright, G., the Teresh, The Etruscans and Asia Minor, Antolian Studies, 9, 201 ff. ;
Id., JEA, 47, 1961, 83 ff. ; Sanders, N.K., Sea Peoples, London, 1978, 111 ff.

٤٨- جواد على : المرجع السابق ، ٦٤٠-٦٤١ .

٤٩- Redfold, D.B., Egypt, Canaan and Israel, Cairo, 1993, 310;
انظر : Bienkowski, P., The Role of Hazor in the late Bronze Age, PEQ, 1987, 50-51.

٥٠- Kitchen, K.A., The third Intermediate Period, 1996, 293-300. fig.2;

رمضان السيد : المرجع السابق ، ٢٣٣ ؛ عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٨٦ ؛

محمد بيومى مهران : المرجع السابق ، ٦١٤-٦١٥ ؛

Simons, J., Hand book for the study of Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia, Leiden, 1937, 89-102.

٥١- رمضان السيد : المرجع السابق ، ٢٣٣-٢٣٤ .

٥٢- انظر: Braguet, Le Temple d'Amon-Re à Karnak, 1962, 48-49;

Legrain, Karnak, 54-62; University of Chicago, Oriental Institute Publ. 74, Relief and Inscriptions at Karnak III, 74; PM, VII, 381.

٥٣- عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ٢٨٦ ؛ PM, VII, 388

Redford, D.B., Op. Cit., 334.

٥٤- PM, Thebant Temples, II, Oxford, 1991, 34-35.

٥٥- Kitchen, K.A., Jerusalem in Ancient Egyptian Documentation ; in Bienkouski, P., The Jordan Volume: Apre- Islamic Jerusalem, London (Forth Coming) , 16.

٥٦- رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ؛ عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ٨٥٧ ؛

Cominos R.A., Gebel Es - Silsilah No. 100, JEA, 38, 1952, 46-61, Pl. 10-13.

٥٧- Cominos R,A., op. Cit., 50, 59-60.

٥٨- Pritchard, J.B., Ancient Near Easternt Texts, New Jersey, 1969, 263-264.

٥٩- Olmstead, A.T., History of Palastine and Syria, New York, 1931, 354-56; Yeivin, S., JEA, XVIII, 1962, 75-80.

٦٠- Steindorff, G., JEA, XXV, 1939, 30-33;

Malamat, A., The Kingdom of David & Solomon in its Contact with Egypt and Aram Naharain, XXII, 1963, 96-104;

Helck, W., Geschichte Des Atlen Ägypten, Leiden, 1968, 217-221.

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

تراث حضارة مصر الفرعونية في الحضارة الإنسانية

نتناول في هذا البحث جانبا من تراث حضارة مصر الفرعونية الذى ما زال باقيا حتى اليوم في سجل الحضارة الإنسانية ، فنقول إن هذا التراث يدور حول محورين ، لا تتقدم أى حضارة بدونهما ، هما : تقسيم الزمن ، والكتابة أو بالتحديد الأبجدية .

أما عن تقسيم الزمن فقد اعتمد المصريون القدماء فيه على دورة الشمس السنوية ، وليس على دورة القمر مثل سائر شعوب الشرق الأدنى القديم . وأما الأبجدية فقد كان المصريون القدماء أقدم الشعوب التى توصلت إلى الأساس الذى تقوم عليه فكرة الأبجدية بابتكار ٢٤ حرفاً أبجدياً فى الكتابة الهيروغليفية .

وقد انتقلت هاتان الظاهرتان الحضاريتان أى التقويم الشمسى وفكرة الأبجدية إلى الشعوب الأخرى ، وتطورت خلال القرون ، حتى وصلت إلينا فى أشكالها الحالية . فالتقويم الشمسى المصرى وصل إلينا فيما يعرف بالتقويم الميلادى ، وفكرة الأبجدية وصلت إلينا فى مختلف الأبجديات الباقية حتى اليوم سواء الأبجدية العربية (الخط العربى) أو الأبجديات اليونانية واللاتينية وسائر الأبجديات الأوروبية أو الأبجدية الجعزية فى الحبشة .

وعلى ذلك سوف نتناول فى هذا البحث العناصر الحضارية التى ما زالت باقية حتى اليوم لدى الشعوب المعاصرة والتى ترجع فى أصولها إلى حضارة مصر الفرعونية ، وهى :

* - أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

أولا: التقويم الميلادى (الشمسى) .

ثانيا: الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط وما يتاخمه من مناطق أوروبية .

ثالثا: الأبجدية الأثيوبية (الجعزية) فى الحبشة .

أولا: تراث مصر الفرعونية فى التقويم الشمسى

لما كان المصريون القدماء شعبا زراعيا ، فقد احتاجوا إلى تقويم ثابت لضبط مواعيد البذر والحصاد . لذا فإن التقويم القمرى لم يكن ملائما لضبط هذه المواعيد . فاتجهوا لرصد دورة الشمس السنوية ، وبذكاء لاحظ الراصدون المصريون أن وصول بشائر فيضان إلى خط عرض مدينة عين شمس أو هليوبوليس (التى كان المصريون القدماء يسمونها أون بمعنى "البرج" لأنهم كانوا يرصدون منه الأجرام السماوية) يتفق مع الشروق الاحتراقى (والشروق الاحتراقى لأى نجم معناه ظهور النجم قبل شروق الشمس ، ثم اختفائه بمجرد شروقها) لنجم الشِّعْرَى اليمانية الذى كان المصريون القدماء يسمونه " سبدت " (وقد شبهوا هذا النجم فيما بعد فى المراحل التالية من تاريخهم بالإلهة إيزيس) وكان هذا النجم يظهر فى الأفق الشرقى قبل شروق الشمس مباشرة بعد اختفائه مدة طويلة .

وقد أطلقوا على هذا الشروق الاحتراقى للنجم واقترانه ببشائر فيضان النيل عبارة " ب ر ت / س ب د ت / ح ع ب " ومعناها " شروق نجم الشعرى اليمانية (مع) فيضان النيل " (Breasted 1988, 709 & Sethe 1961, IV, 1116.4) وهذه الظاهرة أى اقتران الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية بوصول بشائر فيضان النيل لخط عرض هليوبوليس كانت تحدث يوم ١٩ يوليو من كل عام .

وعلى هذا فقد اعتبر الراصدون المصريون أن حدوث هذه الظاهرة يعبر عن بداية السنة ، وكانوا يحتفلون بها كل عام ، ويسمونها " أ و ب ت / ر ن ب ت " أى " فاتحة السنة " . وعلى ذلك فقد كان طول السنة المصرية هو المدة التى تنقضى بين شروقين احتراقيين لنجم الشعرى اليمانية . وقد احتسبها المصريون ٣٦٥ يوماً ، وقسموا السنة على أساس فيضان النيل إلى ثلاثة فصول ، هى : الفصل الأول الذى أطلقوا عليه " آ خ ت " بمعنى " الفيضان "، والفصل الثانى " ب ر ت " بمعنى " الخروج " أى خروج النبت من الأرض ، والفصل الثالث "ش م و" بمعنى " الذهاب " أى ذهاب الماء نتيجة انحسار الفيضان . ثم قسموا كل فصل من هذه

الفصول إلى أربعة شهور طول كل شهر ثلاثون يوما . وبذلك يكون مجموع الشهور الاثنى عشر ٣٦٠ يوما ، وتبقت خمسة أيام كان المصريون يضيفونها إلى آخر كل سنة ، وهى ما تعرف اليوم بأيام النسئ فى السنة القبطية التى هى امتداد للسنة المصرية القديمة .

وكانوا فى البداية لا يطلقون أسماء على الشهور لأن هذه الأسماء - التى تبدأ بشهر توت وتنتهى بشهر مسرى فيما يعرف بالشهور القبطية اليوم - لم يطلقها المصريون على الشهور إلا ابتداء من عصر الأسرة السادسة والعشرين (حوالى ٦٠٠ ق . م) (مونتيه ، ١٩٦٥ ص ٤٥) وإن كانت بعض الأسماء قد ظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة (إرمان ، ١٩٥٠، ص ٣٦٧) .

أما قبل الأسرة الثامنة عشرة فقد كان المصريون القدماء يرقمون الشهور طبقا لتسلسها بالنسبة للفصول ، فيقولون : الشهر الأول من فصل أخت - وهو الذى أطلق عليه فيما بعد شهر " توت " - والشهر الأول من فصل برت - وهو الذى أطلق عليه فيما بعد شهر " طوبة " - والشهر الرابع من فصل شمو - وهو الذى أطلق عليه فيما بعد " مسرى " .

ثم قسموا الشهر إلى ثلاث عشرات ، وليس إلى أسابيع كما نفعل اليوم . وقسم المصريون القدماء اليوم إلى ٢٤ ساعة ، ١٢ ساعة للنهار ، و ١٢ ساعة لليل . وهكذا أرسى المصريون القدماء أساس التقسيم الزمنى المتبع حتى اليوم فيما عدا اختلافين أولها أن طول السنة الشمسية اليوم ٣٦٥,٢٥ ، وليس ٣٦٥ كما كان عند المصريون القدماء فى البداية مما كان يؤدى إلى اضطراب مواعيد الفصول ولكن ذلك كان يحدث فى مدى زمنى طويل يصل إلى ٧٣٠ سنة عندما كانت الشهور التى من المفروض أنها شهور صيفية مثل شهر بؤونة تأتى فى فصل الشتاء ، بينما كانت الشهور التى من المفروض أنها شهور شتوية مثل شهر طوبة كانت تأتى فى شهر الصيف .

ولم يحاول المصريون إصلاح هذا الخطأ بإضافة ربع اليوم إلى الـ ٣٦٥ لأن التغيير فى الفصول لم يكن يشعر به الإنسان طوال حياته أو حتى طوال عدة أجيال ، وإن كان قد وصلتنا شكاوى للمصريين من هذا الاضطراب فى نص ، يتضرع كاتبه إلى الإله " آمون " أن يخلصه من السنة المضطربة . غير أنه بمرور ٧٣٠ سنة أخرى كانت الفصول تعود إلى حالتها الأصلية لأن نجم الشعرى اليمانية يعود إلى دورته المعتادة كل ١٤٦٠ سنة .

وكان أن أصلح الكهنة المصريون هذا الخطأ بإضافة ربع اليوم إلى الـ ٣٦٥ يوما ، وبالتحديد بإضافة يوم كامل إلى السنة كل أربع سنوات . وقد حدث ذلك سنة ٢٣٨ قبل الميلاد في عهد الملك بطليموس الثالث في المرسوم الذى أصدره هؤلاء الكهنة لتمجيد هذا الملك البطلمي ، والذى سجل على كتلة من الحجر بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية (مثل حجر رشيد) فيما يعرف باسم حجر كانوب نسبة إلى بلدة كانوب (أبى قير الحالية) ، حيث اجتمع هؤلاء الكهنة ، وسجلوا هذا المرسوم (عبد المنعم عبد الحليم ، ٢٠٠٠ ، ص ٦١).

وكان سبب هذا الإصلاح رغبة هؤلاء الكهنة فى ضبط مواعيد الاحتفال بعيد تتويج الملك البطلمي ، وليس لعلاج الاضطراب فى الفصول ، لأن المصريين لم يشعروا فى حياتهم بهذا الاضطراب كما سبق القول .

ولعل الإنسان يتساءل : كيف عرفنا هذه المعلومات عن علاقة التقويم المصرى بنجم الشعرى اليمانية ؟

لقد ذكرنا فيما سبق النص الهيروغليفى الذى يدل على أن المصريون القدماء ربطوا بين شروق نجم الشعرى اليمانية وبين فيضان النيل ، ولكن تواريخ بدء اتباع المصريين للتقويم الشمسى على هذا الأساس لم يرد لها ذكر فى النصوص المصرية القديمة ، وإنما الذى ذكرها كاتب رومانى يدعى سنسورينوس Sinsorinus الذى كتب فى عام ٢٣٨ ميلادية ، يقول : إن المصريين لا يعتمدون على القمر فى تقويمهم ، بل يبدءون سنتهم بشروق النجم Sothis (وهو الاسم الرومانى للشعرى اليمانية التى تسمى باليونانية Sirius) فى الأول من شهر توت ، وأن طول السنة المصرية يقل بمقدار ربع يوم عن السنة الفعلية (حرفيا يقل بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات) وهذا الفرق يختفى كل ١٤٦٠ سنة (٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠) ، ويقول سنسورينوس أيضا أن النجم Sothis هو نجم الكلب الذى ينتمى للمجموعة الجنوبية لكوكبة الكلب الأكبر Canis Major وأن هذا النجم يختفى من السماء الشمالية (حيث توجد سماء مصر) لجزء من السنة ، ثم يعود إلى الشروق فى نفس المكان فى نفس الوقت من فصل الصيف (Velikovsky 1977, P.216) .

أما تفسير فرق الربع يوم فهو بعد أن يظهر نجم الشعرى اليمانية فوق الأفق قبل شروق الشمس بقليل ، ثم يختفى هو والنجوم الأخرى مع شروق الشمس فيما يسمى " الشروق الاحتراقى " فإن نجم الشعرى اليمانية يشرق فى اليوم التالى مبكرا بعدة دقائق عن اليوم

السابق ، ويعلو فى الأفق قبل شروق الشمس . وبذلك يتجمع تأخير شروق النجم عن شروق الشمس بما يساوى ربع يوم كل ٣٦٥ يوما .

وهكذا يتأخر الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية فبدلا من أن يحدث هذا الشروق الاحتراقى فى اليوم الأول من شهر توت ، فإنه يشرق فى اليوم الثانى من توت ، ويظل هذا التأخير مستمرا حتى يبلغ ٣٦٥ يوما بعد ١٤٦٠ سنة إذ يعود الشروق الاحتراقى للنجم إلى اليوم الأول من شهر توت (Velikovsky 1977, p. 217) .

وقد أنبأنا سنسورينوس بمعلومة هامة أخرى هى أنه فى سنة ١٣٩ ميلادية بدأت دورة جديدة للنجم Sothis ، وهذا معناه أن الاتفاق بين الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية مع أول شهر توت حدث عام ١٣٩ ميلادية . ومما لا شك فيه أن المصريين القدماء لابد أنهم قد بدأوا تقويمهم بهذه الظاهرة أى باتفاق الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية مع أول شهر توت ، والذى يحدث كل ١٤٦٠ سنة . فإذا رجعنا فى الزمن إلى الوراء لتحديد مناسبات هذا الاتفاق لوجدنا أن ذلك حدث عام ١٣٢١ قبل الميلاد (١٤٦٠-١٣٩م = ١٣٢١) وقبل ذلك حدث فى عام ٢٧٨١ ق.م. (١٤٦٠ + ١٣٢١ = ٢٧٨١) وقبل ذلك فى عام ٤٢٤١ ق.م. (١٤٦٠ + ٢٧٨١ = ٤٢٤١) .

ولما كانت حضارة مصر الفرعونية قد بلغت النضج فى الأعوام ١٣٢١ ق.م (عصر الدولة الحديثة) و ٢٧٨١ ق.م (عصر الدولة القديمة) مما يدل على أن المصريين كانوا يتبعون فعلا التقويم الشمسى قبل هذه السنوات ، فضلا عن وجود إشارات فى النقوش المصرية إلى رصد النجم سبد منها : إشارة فى إحدى برديات اللاهون من عصر الأسرة الثانية عشرة (Breasted 1988, Vol. I, § 42) وإشارتان من عصر الملك تحتمس الثالث (Breasted , 1988, Vol. I, § 42, Vol. II, § 709) فعلى ذلك لا يبقى غير التاريخ الأقدم وهو عام ٤٢٤١ ق.م وهو يعاصر فترة ازدهار مدينة هليوبوليس التى يغلب أنه قامت فيها مملكة أو دولة كانت تتخذ من الشمس معبودا لها ، كما يدل على ذلك رمزها الذى ظهر على آثار العصور التالية ، وهو قرص الشمس المجنح . والتى كان معنى اسمها يشير إلى رصد الأجرام السماوية ، وهو " أون أو البرج " كما كان كبير كهنتها يحمل لقب " ور / م ا و " بمعنى " كبير الرائين " .

وقد استمر المصريون القدماء يتبعون هذا التقويم الشمسى القائم على الاتفاق بين الشروق الاحتراقى لنجم الشعرى اليمانية وبين وصول بشائر فيضان النيل إلى خط عرض هليوبوليس حتى أخر عصورهم ، وإن كانت أسماء الشهور قد تغيرت من أرقام منسوبة إلى الفصول إلى أسماء خاصة بكل شهر والتى استمرت حتى اليوم فيما يعرف بالشهور القبطية ، والتى تغيرت تواريخ بدايتها اليوم عما كانت أيام المصريين القدماء .

فبينما كان شهر توت هو أول شهور السنة يبدأ يوم ١٩ يوليو ، أصبح اليوم يبدأ يوم ١١ سبتمبر ، وتبع ذلك تغير بدايات الشهور الأخرى ربما نتيجة لما تعرض له التقويم الشمسى من إضافات أولها إضافة ربع اليوم سنة ٢٣٨ ق.م كما ذكرنا ، ثم ما أدخل عليه من إصلاحات عبر القرون حتى اليوم وكان أخرها الإصلاح الجريجورى كما سنذكر بعد .

وأسماء الشهور القبطية هذه إما أسماء آلهة أو أسماء مناسبات كما يلى :

١- توت : وهذا الشهر يبدأ في الوقت الحاضر من ١١ / ٩ ، ويمتد حتى ١٠ / ١٠ ، واسمه الأصلى فى اللغة المصرية القديمة " تحوت " ، وقد تحور فى اللغة القبطية إلى Toot ، وهو نفس الاسم المستخدم حاليا فى العامية المصرية . وتحوت اسم إله مصرى كان رمزه الطائر أبي منجل والظاهر أن هذا الطائر كان يكثر في الحقول لالتقاط الديدان بعد تعرية الأرض من النباتات قبل وصول مياه الفيضان الجديد .

٢- بابه : ويمتد من ١١ / ١٠ إلى ٩ / ١١ ، وهو اسم عيد كان يحتفل به فى طيبة التى كانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة " أ ب ت " ، وأضيف إليها اسم الإشارة " ب ن " ، فصارت الكلمة " ب ن /أ ب ت " التى تحولت فى اللغة القبطية إلى Pawpi وبقيت نفس الكلمة فى العامية المصرية .

٣- هاتور : ويمتد من ١٠ / ١١ إلى ٩ / ١٢ ، وينسب إلى الآلهة " حتحور " إلهة الخصب والجمال عند المصريين القدماء ، التى تحور اسمها فى اللغة القبطية إلى Hatwr .

٤- كيهك : ويمتد من ١٠ / ١٢ إلى ٨ / ١ والاسم محور من الكلمة المصرية القديمة "كا-حر-كا" ومعناها " قران الروح بالروح " ، وهو اسم عيد ، وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Kiahk ، وهو نفس نطقه بالعامية المصرية .

٥- طوبة : ويمتد من ١/٩ إلى ٢/٧ ، وأصل الاسم من الكلمة المصرية القديمة بت أو بطت ومعناها " قمح " ، وقلبت الكلمة فى اللغة القبطية إلى Twbe وهو نفس نطقها فى العامية المصرية .

٦- أمشير : يمتد من ٢/٨ إلى ٣/٩ ، وأصل اسمه من الكلمة المصرية القديمة " مخير " ومعناها " الزوابع " ، ثم صارت فى القبطية Emsheer ، وهو نفس النطق فى العامية المصرية.

٧- برمهات : يمتد من ٣/١٠ إلى ٤/٨ والأصل المصرى القديم للاسم هو " ب ن / أمنحتب " وهو اسم أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، وقد رفعه المصريون إلى مصاف الآلهة بعد وفاته ، وقد تحور الاسم فى اللغة القبطية إلى Parmhotep ، وصار فى العامية المصرية " برمهات " .

٨- برمودة : يمتد من ٤/٩ إلى ٥/٨ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " ب ن / ر ن و ت هـ " وهو اسم إلهة الحصاد عند المصريين القدماء ؛ لأنه شهر حصاد القمح ، وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Parmoute وصارت فى العامية المصرية برمودة .

٩- بشنس : يمتد من ٥/٩ إلى ٦/٧ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " ب ن / خ ن س و " ، وخنسو هو اسم إله القمر عند المصريين القدماء ، وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Pashons ، وهو نفس الاسم تقريبا فى العامية المصرية .

١٠- بؤونه : يمتد من ٦/٨ إلى ٧/٧ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " ب ن / ا ن ت " ، و " ا ن ت " وهو اسم وادى الملوك غرب مدينة طيبة الذى توجد فيه مقابر الفراعنة ، وكان المصريون يحتفلون فى هذا الوقت بعيد ينسب إليه أى يسمى " عيد الوادى " كان يتم فيه انتقال تمثال الإله آمون إله مدينة طيبة من البر الشرقى للنيل حيث يوجد معبد الكرنك إلى البر الغربى حيث يوجد وادى الملوك . وقد صار الاسم فى اللغة القبطية Paowne ، وهو نفس النطق فى العامية المصرية .

١١- أبيب : يمتد من ٧/٨ إلى ٨/٧ ، وأصل الاسم فى اللغة المصرية القديمة " إب إب " ، وفى القبطية . Epep وهو اسم عيد كان المصريون يحتفلون فيه بانتصار الإله حورس على إله الشر ست أى بانتصار الخير على الشر ، وقد ظل الاسم كما هو تقريبا فى العامية المصرية .

١٢- مسرى : يمتد من ٨/٨ إلى ٩/٥ ، وهو من الكلمة المصرية القديمة " م س / ر ع " بمعنى " ميلاد الشمس " أو " ابن الشمس " ربما إشارة إلى قرب ميلاد السنة الجديدة باقتران شروق (ميلاد) الشمس بنجم الشعرى اليمانية . وقد صار الاسم فى القبطية Me-sowre التى صارت فى العامية المصرية " مسرى " . (جورجى صبحى ، ١٩٢٥ ، ص ٩٣).

وأخيرا تتبقى الأيام الخمسة الزائدة على الـ ٣٦٠ يوما والمسماة اليوم " أيام النسئ " ، وكان المصريون القدماء يسمونها باللغة المصرية القديمة " د ى و/هـ ر و / ا ن / ر ن ب ت " ومعناها " الخمسة أيام الخاصة بالسنة " أو " د ى و/هـ ر و / ح ر و/ ر ن ب ت " أى الأيام الخمسة التى فوق السنة .

والآن بعد أن تتبعنا نشأة التقويم الشمسى عند المصريين القدماء وتطوره عبر العصور تبقى نقطة هامة هى : كيف انتقل هذا التقويم إلى الشعوب الأخرى واستمر حتى اليوم ؟

وللأجابة على هذا السؤال نقول أن هذا التقويم انتقل عن طريق الرومان على يد يوليوس قيصر عندما جاء إلى مصر فى عام ٤٥/٤٦ قبل الميلاد ، فقد كان الرومان يتبعون تقويما قمريا يبدأ بتأسيس روميلوس لروما ، وقد أخذ يوليوس قيصر فى ذلك بنصيحة عالم فلكى سكندرى يدعى " سوسيجينس " Sosigenes .

وهناك معلومة خاطئة تتردد عن سوسيجينس هذا بأنه الذى أضاف ربع اليوم للسنة المصرية التى كانت تتكون من ٣٦٥ يوما ، وبالطبع فإن الذى أضاف ربع اليوم هم الكهنة المصريون فى عام ٢٣٨ قبل الميلاد كما تقدم القول .

أما كيف تمت مطابقة التقويم الشمسى المصرى مع التقويم الرومانى القمرى ؟ فيمكننا معرفة ذلك إذا تتبعنا التقويم الرومانى منذ نشأته وتطوره حتى استبدل به التقويم المصرى على يد يوليوس قيصر .

نشأة التقويم الرومانى وتطوره :

ينسب الرومان التقويم الرومانى إلى Romolus مؤسس مدينة روما ، وكانت السنة الرومانية تتكون فى الأصل من عشرة شهور ، تبدأ بشهر مارس ، وتنتهى بشهر ديسمبر الذى اشتق اسمه من العدد عشرة (Decem) ، ثم حدثت عدة تعديلات فى هذا التقويم منها إضافة شهرى يناير وفبراير فى بداية السنة أى قبل شهر مارس ، فصارت السنة الرومانية

تتكون من اثنتى عشر شهرا ، ورغم ذلك ظل شهر ديسمبر يحتفظ بالرقم عشرة (Decem) فى اسمه .

ولما كانت السنة الرومانية سنة قمرية ، فقد كان عدد أيامها ٣٥٤ يوما ؛ لذلك أخذ يوليوس قيصر عندما جاء إلى مصر عام ٤٦/٤٥ ق.م بنصيحة العالم السكندرى سوسيجينس باتباع التقويم المصرى بدلا من التقويم الرومانى كما ذكرنا سابقا . وأصبحت السنة الرومانية تتكون من ٣٦٥.٢٥ (لأن ربع اليوم سبق أن أضافه الكهنة المصريون سنة ٢٣٨ ق.م كما ذكرنا) مع تغيير أسماء الشهور من مصرية إلى رومانية فشهر توت أول شهور السنة المصرية صار " يناير " ، وشهر بابه صار فبراير وهكذا .

وكانت أسماء الشهور الرومانية متخذة من أسماء آلهة أو أباطرة أو أرقام كما يلى :

– يناير : اتخذ اسمه من اسم الإله الرومانى يانوس Janus وهو إله على هيئة إنسان ذى وجهين أو رأسين لهما ذقنان ملتصقان ظهرا بظهر فكأنه يودع العام الفائت ويستقبل العام الجديد (أمين سلامة ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٧) .

– فبراير : واسمه مشتق من الاسم Februra بمعنى " التطهير " لأن الرومان كانوا يتطهرون فى منتصف هذا الشهر ، ويكفرون عن الخطايا .

– مارس : نسبة إلى إله الحرب Mars .

–إبريل : وهو من كلمة Operio بمعنى " ينكشف " أو " ينفتح " (Lewis, 1979, p. 64) وربما يشير إلى تفتح الأزهار فى فصل الربيع .

– مايو : من اسم الآلهة Maia إلهة الإخصاب والنمو الطبيعى (أمين سلامة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٦) . وربما إشارة إلى إخصاب الطبيعة فى فصل الربيع .

– يونية : ربما اسم الإلهة الرومانية Juno ، وتعادل الإلهة هيرا عند اليونان ، ولعلها ترمز إلى جمال الطبيعة فى شهر يونيه .

– يولية : على اسم يوليوس قيصر .

– أغسطس : على اسم الإمبراطور أغسطس أكتافيوس .

– سبتمبر : معناه الشهر السابع ، وهو رقمه فى السنة الرومانية ، عندما كانت تتكون من عشرة شهور ، وقد ظل اسم الشهر السابع (سبتمبر) رغم أنه أصبح الشهر التاسع عندما أصبحت السنة الرومانية تتكون من اثنى عشر شهرا كما ذكرنا .

– أكتوبر ونوفمبر وديسمبر : أسماء هذه الشهور معناها الثامن والتاسع والعاشر على التوالى ، وهى أرقامها عندما كانت السنة الرومانية تتكون من عشرة شهور ، وشأنها شأن شهر سبتمبر ، فقد احتفظت بترقيمها القديم .

هذا التقويم أطلق عليه التقويم اليوليانى نسبة إلى يوليوس قيصر ، ومبدؤه كما ذكرنا هو سنة تأسيس روما على يد روميولوس ، ولكنه تحول إلى التقويم الميلادى ، أى صار مبدؤه سنة ميلاد السيد المسيح وذلك على يد راهب يدعى ديونيسوس اكسيغيوس Dionysius Exigyus الذى عاش فى روما فى منتصف القرن السادس الميلادى وحوالى عام ١٢٨٦ رومانية حول هذا الراهب التقويم اليوليانى إلى التقويم الميلادى على أساس رواية للمؤرخ الرومانى كليمنت السكندرى بأن السيد المسيح ولد فى ٢٥ ديسمبر فى السنة الثامنة والعشرين من حكم الإمبراطور أغسطس أكتافيوس ، وبمعادلة هذه السنة مع التقويم الرومانى ، توصل ديونيسوس إلى أن السيد المسيح ولد يوم ٢٥ ديسمبر سنة ٧٥٤ رومانية ، وقد اعتبر ديونيسوس إن أول يناير من هذه السنة (٧٥٤ رومانية) موافقا لأول يناير سنة ١ ميلادية (محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ ، ص ٢٩) وبذلك بدأ التقويم الميلادى ، وبحساب هذا التقويم يكون هذا التغيير قد حدث سنة ٥٣٢ ميلادية (وهى المعادلة لسنة ١٢٨٦ رومانية) .

غير أنه بمرور القرون تبين فى عام ١٥٨٢ ميلادية – فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر– أن هناك خطأ فى حساب هذا التقويم نتيجة لوجود اختلاف طفيف بين السنة الشمسية والسنة الميلادية بزيادة السنة الميلادية بمقدار ٠,٠٠٧٨ من اليوم ، وقد عهد البابا جريجورى إلى الراهب كرستوفر كلافيوس Christopher Clavius بإصلاح هذا الخطأ . الذى تبين له أنه نتيجة لهذا الخطأ زادت السنة الميلادية بمقدار عشرة أيام عن السنة الشمسية ، فاعتبر هذا الراهب يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ هو يوم الجمعة ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ جريجوارية (محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ ، ص ٢٨ ، ٣٢) .

(وقد استخدمنا كلمة "ميلادية " بدلا من " يوليانية " ؛ لأن التقويم ظل يطلق عليه التقويم اليوليانى رغم أنه بدأ بميلاد السيد المسيح ، ولهذا استخدمنا كلمة ميلادى بدلا من كلمة يوليانى تسهيلا على القارئ الكريم) .

وقد أخذت الدول الأوربية تباعا بالتقويم الجريجوارى ، وتبعتها بقية دول العالم ، وهو التقويم المستخدم اليوم فى سائر أنحاء العالم باسم التقويم الميلادى ، وهو فى أصله من تراث حضارة مصر الفرعونية كما ذكرنا .

ثانيا: تراث مصر الفرعونية فى الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط وما يتاخمه من مناطق أوربية

من المتفق عليه بين الباحثين فى تاريخ الكتابة ، أن جميع الأبجديات المعاصرة فى المناطق المحيطة بالبحرين المتوسط والأحمر وما يتاخمها شمالا فى أوروبا وجنوبا حتى اليمن والحبشة وشرقا حتى الهند ، ترجع لأصل واحد مشترك يطلق عليه الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى .

ورغم أن الكتابة الهيروغليفية المصرية تضم أقدم أبجدية فى التاريخ ، وتتكون من أربع وعشرين علامة أبجدية (شكل ١) ، إلا أنها لم تكن الأبجدية الأم ، لأن المصريين القدماء استخدموها بطريقة أضاعت قيمتها الأبجدية ، فقد كانت الكتابة الهيروغليفية تضم إلى جانب هذه العلامات الأبجدية علامات مقطعية ثنائية وثلاثية (شكل ٢) ، وكانوا يستخدمون العلامات الأبجدية كمكملات صوتية لهذه العلامات المقطعية ، ومثال ذلك العلامات المقطعية الدالة على المنزل كانت تنطق " بر " أى بصوتين هما : الباء والراء (شكل ٣) ، فكان المصريون يضيفون حرف الراء ورغم ذلك كانت تنطق " بر " وليس " برر " وبذلك ضاعت قيمة الحروف الأبجدية الهيروغليفية نتيجة استخدامها مع العلامات المقطعية أى عدم الاقتصار على استخدامها وحدها كما هو الشأن فى الحروف الأبجدية .

وقد راجت آراء فى وقت ما بأن الأبجدية الفينيقية هى هذه الأبجدية الأم ، ولكن ثبت خطأ هذا الرأى لأنه لا يظهر فى حروفها مراحل التطور على الأرض الفينيقية ، وإنما تدل أشكال حروفها على أنها نهاية سلسلة تطور كما سنوضح بعد

فما هى هذه الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى ؟

إنها تلك التى يطلق عليها الأبجدية السينائية المبكرة Proto-Sinaitic Alphabet لأنها نشأت فى سيناء . وكلمة المبكرة تميزها عن أبجدية سينائية أخرى انتشرت فى سيناء فى عصر متأخر وبالتحديد فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، وترجع فى أصلها إلى الأبجدية النبطية.

نشأت الأبجدية السينائية المبكرة فى منطقة سيرابيط الخادم بسيناء على يد شعب سامى بسيط كان أفراده يعملون تحت إشراف المصريين فى استخراج النحاس والفيروز فى العصر الذى بلغ فيه النشاط المصرى ذروته فى سيناء ، وهو عصر الأسرة الثانية عشرة الفرعونية أى ما بين القرنين العشرين والثامن عشر قبل الميلاد ، إذ بلغ عدد أفراد إحدى البعثات التى أرسلها الفرعون آمون – محات الثالث – أحد ملوك هذه الأسرة – ٧٣٤ فردا وذلك لتعدين حجر الفيروز نصف الكريم من مناجم منطقة سيرابيط الخادم (الخريطة رقم ١) .

وقد حدث نوع من التقارب بين المصريين وبين أفراد هذا الشعب السامى البسيط تمثل فى اتباع هؤلاء الساميين للعادات المصرية وفى تقليدهم لمظهر المصريين ، وخاصة أن المصريين شيدوا معبدا لإلهتهم حتحور داخل كهف كان فى الأصل معبدا لإلهة الساميين " عشتارت " التى كانوا يكنونها " بعلات " بمعنى الربة أو السيدة مما أدى إلى توحيد الإلهتين . فوجدت داخل هذا المعبد تماثيل مصرية الطابع مثل تماثيل على هيئة أبى الهول (شكل ٤) والشخص القابع (شكل ٥) كما وجدت رسوم الآلهة المصرية كالإله " بتاح " (شكل ٦) وقد نقشت على هذه التماثيل والرسوم عبارات بالكتابة السينائية المبكرة . أى أن أصحابها الساميين صنعوها على الطراز المصرى بينما نقشوا عليها كتاباتهم . كذلك ظهرت بين الرسوم صور لبعض هؤلاء الساميين وهم يرتدون الزى المصرى ، وقد حلقوا لحاهم كالمصريين (شكل ٧ ب) على عكس عادة الساميين كما تظهرهم الرسوم المصرية الأخرى بلحى نامية وبأردية طويلة كاسية . (شكل ٧ أ) .

غير أن أهم ما أخذه هؤلاء الساميون عن المصريين علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية التى كانت بمثابة المادة الخام التى استخلص هؤلاء الساميون منها أبجديتهم ، إذ يبدو أن الكتابة الهيروغليفية المصرية بعلاماتها التى تبلغ حوالى ٧٠٠ علامة بخصائصها المقطعية المعقدة ، والتى لم يكن يستطيع فهمها واستخدامها إلا الذين نشئوا فى البيئة المصرية ، وتمرسوا عليها منذ صغرهم – يبدو أن هذه الكتابة استعصت على هؤلاء الساميين البسطاء ، فبسطوا بعض علاماتها بتحويلها من كتابة مقطعية إلى حروف أبجدية ، واتبعوا فى ذلك نفس الطريقة التى اتبعها المصريون فى ابتكار حروف أبجديتهم الهيروغليفية ، والتى لا شك أنهم تعلموها من المصريين ، إذ يستبعد توصلهم إلى هذه الطريقة بأنفسهم بالنظر إلى بداوتهم وحياتهم البسيطة ، وهذه الطريقة يطلق عليها الباحثون فى تاريخ الكتابة " الطريقة

الأكروفونية" Acrophonic Principle وتتلخص في اتخاذ الصوت الأول من نطق الاسم الدال على شكل العلامة ليكون مدلولا صوتيا مفردا Uniliteral للعلامة إذا دخلت في تركيب الكلمات (راجع حروف النون والألف المكسورة والغين والقاف والجيم والثاء والزاى أو الجيم المعطشة على سبيل المثال في الأبجدية الهيروغليفية في شكل ١) ، ومثال ذلك العلامة المقطعية الدالة على المنزل التي سبق أن ذكرناها والتي تنطق " بر " (شكل ٣) ، فقد اتخذها هؤلاء الساميون مدلولا لحرف الباء لأن المنزل يدعى " بيت " في لغتهم (ويلاحظ أن الكلمة تتفق في نطقها ومعناها مع اللغة العربية لأنها لغة سامية الأصل) ولأن أول حرف في هذه الكلمة هو حرف الباء .

بهذه الطريقة حول هؤلاء الساميون سبعا وعشرين علامة من العلامات الهيروغليفية إلى حروف أبجدية ، واستخدموها وحدها فقط ، أى غير مقترنة بعلامات مقطعية كمكمل صوتى لها كما فعل المصريون القدماء بأبجديتهم الهيروغليفية . فكانت هذه الأبجدية المسماة بالسينائية المبكرة هى الأبجدية الأم أو الأبجدية الأولى التي اشتق منها سائر الأبجديات وفي مقدمتها أبجديات شرق البحر المتوسط التي اشتقت منها بدورها أبجديات غرب البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى .

وكما ذكرنا ، رجح الباحثون – وخاصة علماء المصريات – عصر الأسرة الثانية عشرة الفرعونية (١٩٩١ – ١٧٨٣ ق.م) كتاريخ لنشأة هذه الأبجدية وفي مقدمتهم العالم " الان جاردنر " الذى حل رموز هذه الأبجدية (Gardiner , 1916, pp. 1-16.) وحددوا لذلك عصر الفرعون آمون – محات الثالث بوجه خاص (١٨٤٣–١٧٩٧ق.م) لأن منطقة مناجم الفيروز في سرابيط الخادم شهدت نشاطا مصريا مكثفا لم يحدث في عصر ملك واحد طوال عصور استغلال المصريين القدماء لهذه المناجم ، وازدادت مشاركة الساميين في البعثات المصرية في منطقة سيرابيط الخادم (Gardiner , 1962, p. 47.) .

غير أن بعض الباحثين في الدراسات السامية وخاصة الإسرائيليين منهم (Cross 1947, p.8, cf. Naveh 1987, p. 30) أرجعوا تاريخ اختراع الأبجدية السينائية المبكرة إلى عصر الأسرة الثامنة الفرعونية وخاصة عصر حتشبسوت وتحتمس الثالث (١٤٨٤–١٤٢٩ ق.م) واعتمدوا في ذلك على رأى قديم يرجع إلى أوائل القرن الحالى كان قد تبناه العالم الأثرى

فلندرز بتـــرى (Petrie 1906, p. 131) الذى كان أول من أجرى حفائر أثرية فى منطقة سيرابيط الخادم ، وكشف عن معبدها وآثارها ، وتتلخص الأدلة التى اعتمد عليها بترى فى تحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الأسرة الثامنة عشر وخاصة عصر تحتمس الثالث وحتشبسوت فيما استخلصه من الآثار التالية :

(١) تمثال لشخص قابع (شكل ٥) عليه كتابة سينائية مبكرة (وقد أعطاه بترى رقم ٣٤٦) عثر عليه عند مدخل مقصورة الإله " سبدو " (أحد آلهة منطقة سيرابيط الخادم) التى شيدتها الملكة حتشبسوت .

(٢) تمثال على شكل أبى الهول المؤنث (شكل ٤) وعليه كتابة سينائية مبكرة (وهى التى توصل إلى حلها العلامة جاردنر كما سبق القول وأمكنه بذلك قراءة النصوص السينائية المبكرة) . وهذا التمثال مصنوع من الحجر الرملى الأحمر ، وقال بترى عن هذا الحجر أنه استخدم لأول مرة فى عصر الملك تحتمس الثالث .

(٣) كسرة من الفخار البرتقالى ذو الخطوط الحمراء والسوداء ، وجدت فى أحد مناجم سيرابيط الخادم الذى نحتت على واجهته كتابة سينائية مبكرة ، وهذا النوع من الفخار يميز عصر تحتمس الثالث فى رأى بترى (Ibid) .

وقد أضاف علماء الدراسات السامية إلى أدلة بترى هذه أدلة أخرى من وجهة نظرهم ، وهى أن تمثال أبى الهول المؤنث (شكل ٤) ظهر فجأة فى عصر حتشبسوت(,Albright 1948 p.10) وأن التمثال القابع شاع فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد أى فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وأن وجود هذا التمثال يعتبر دليل قوى ضد أى تحديد لعصر النقوش قبل هذه الأسرة (Ibid) .

وللرد على هذه الحجج ، فإننا نقول إن آراء بترى كانت تعتبر صحيحة فى أوائل القرن العشرين عندما ألف كتابه عن حفائره فى سيناء فى أوائل القرن السابق (عام ١٩٠٦) ، ولكنها تغيرت خلال هذه المدة الطويلة ، فمثلا ثبت أن الحجر الرملى الأحمر استخدم قبل عصر تحتمس الثالث بوقت طويل ، بل وقبل عصر الأسرة الثانية عشرة نفسها وبالتحديد فى معبد الملك منتو – حتب الثانى فى الدير البحرى بالأقصر (٢٠١٠–١٩٩٨ ق.م) الذى يرجع لعصر الأسرة الحادية عشرة . (Lucas 1945, p. 72) .

أما عن العثور على قطعة الفخار من عصر تحتمس الثالث وعلى تمثال من عصر حتشبسوت فى أماكن ترجع لعصر هذين الملكين فلا يمكن الاعتماد على ذلك لأن هذه الآثار غير ثابتة ، فيسهل نقلها من مكان لآخر فضلا عن أن معبد سيرابيط الخادم امتد بناء أجزائه من عصر الأسرة الثانية عشرة إلى عصر الأسرة العشرين وبذلك شمل آثارا من جميع هذه العصور ومن بينها بطبيعة الحال آثار من الأسرة الثامنة عشرة .

وبالنسبة لآراء علماء الدراسات السامية بأن تمثال أبى الهول المؤنث ظهر فجأة فى عصر حتشبسوت ، فالواقع غير ذلك لأن هذا النوع من التماثيل منذ عصر الأسرة الرابعة وبالتحديد فى منطقة هرم الملك ددفرع فى أبى رواش (حوالى ٢٥٤٠ ق.م) (Hassan 1949, p.91).

كذلك فإن رأيهم بأن وجود التمثال المكعب يعتبر دليل قوى ضد تحديد عصر النقوش السينائية قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة ، هذا الرأى ينقضه العثور على تماثيل من هذا النوع ترجع لعصر الأسرة الثانية عشرة ، ومثال ذلك تمثالين أحدهما محفوظ فى المتحف البريطانى وهو لشخص يدعى " سا - حتحور " والثانى فى المتحف المصرى وهو لشخص يدعى " حتب " (Aldred 1956,pp. 43-44, pls. 36-37) .

وعلى ذلك فإن رأى علماء المصريات بتحديد عصر النقوش السينائية المبكرة بعصر الأسرة الثانية عشرة هو الأرجح ولاسيما أنهم الذين نسخوا النقوش السينائية المبكرة والذين درسوها ، والذين حلوا رموزها ، فهم أقدر على تحديد عصرها . (Cerny 1955, Vol I, pl. 82 & Vol II, p. 202 no. 345) .

وقد أكد هذا التحديد نقش وجد فى منطقة وادى نصب بسيرابيط الخادم (شكل ٨) بعد حوالى ستين عاما من كشف بترى للنقوش السينائية . ويتميز بخشونة ظاهرة بالنسبة لباقى النقوش مما يدل على قدمه فضلا عن أن العالم " ألان جاردنر " أثبت أنه يرجع إلى عصر الملك " أمون - محات " الثالث أحد أواخر ملوك الأسرة الثانية عشرة (Gardiner 1962, p. 46)

ومن الغريب أن هذا الرأى أى إرجاع عصر النقوش السينائية المبكرة إلى عصر الأسرة الثانية عشرة ، كان سائدا بين علماء الدراسات السامية وفى مقدمتهم العالم " ألبريت " فى بحث نشره عام ١٩٣٥ (Albright 1948, p. 15) واعتمد فى هذا التاريخ على وجود ميم التنوين Mimation فى لغة النقوش السينائية المبكرة (Ibid) وكانت ميم التنوين هذه - فى

رأيه – من خصائص اللغات السامية قبل منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، ثم اختفت حوالى ذلك التاريخ (Ibid) . ثم عاد ألبريت وغير رأيه فى بحث نشره عام ١٩٤٨ منكرا وجود ميم التنوين فى النقوش السينائية المبكرة (Ibid) وأكد رأيه هذا فى دراسة نشرها عام ١٩٦٩ عن قواعد لغة النقوش السينائية المبكرة ومفرداتها ، وبذلك تبنى الرأى القائل بأن النقوش السينائية المبكرة ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة (Albright 1969 , p.6) ولو أنه فى نفس هذه الدراسة أقر بأنه قد يضطر لقبول الرأى القائل بأن النقوش السينائية المبكرة ترجع لعصر الأسرة الثانية عشرة عندما واجهته بعض الصعوبات بشأن تفسير نشأة الأبجدية السامية الشمالية الغربية (ربما يقصد الفينيقية) ذات المظهر الخطى(Op.Cit., p.15) .

هذا التذبذب فى الرأى من أكبر علماء النقوش السينائية المبكرة يضعف رأى علماء الدراسات السامية بتحديد عصر هذه النقوش بعصر الأسرة الثامنة عشرة ، وبالتالى يرجح رأى علماء المصريات بإرجاع هذا العصر إلى عصر الأسرة الثانية عشرة .

لقد كان من أهم أسباب تغيير علماء الدراسات السامية لرأيهم الأقدم بأن النقوش السامية المبكرة ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة إلى رأيهم الأحدث بأنها ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة – كان من أهم هذه الأسباب – العثور فى فلسطين على عدة قطع أثرية حدد الباحثون عصرها بالقرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد، وقد نقشت بكتابة أطلقوا عليها الكتابة الكنعانية المبكرة Proto-Canaanite (Naveh 1987, p. 27) وهذه القطع الأثرية هى :

(١) كسرة فخار وجدت فى منطقة تل جازر الواقعة شمال غرب أورشليم بثلاثين كيلو مترا (الخريطة رقم ٢) وعليها ثلاثة حروف تقرأ من أعلى إلى أسفل " ك ل ب " (شكل ٩) (Op,cit.fig.19) وهو فى الغالب اسم علم قد يكون الاسم السامى " كالب " .

(٢) نصل خنجر من البرونز عثر عليه فى منطقة لكيش القديمة (تل الدوير الواقعة على بعد أربعين كيلو مترا جنوب غرب أورشليم) (الخريطة رقم ٢) وقد نقشت عليه أربعة حروف من أعلى إلى أسفل تقرأ " ط ر ن ز " (شكل ١٠) (Op,cit.fig.20) ويرى ألبريت أنه من أسماء الحوريين (شعب كان يسكن بين جنوب تركيا وشمال الشام) (Albright 1969,p.10) .

(٣) كسرة وجدت فى منطقة " شكيم " القديمة (تل بلاطة الحالية بالقرب من نابلس) ، وقد نقشت عليها سبعة حروف (شكل ١١) (Naveh, Op.cit.fig.19) قرأها ألبريت من اليسار إلى اليمين (... ت «ب» أ أ ر غ م / م أ ر «ت .....») " وترجمتها " (سوف) تحدث كلمات (هذه) اللعنة " (Abright 1969, p. 10).

ومن رأى علماء الدراسات السامية أن حروف النقوش السينائية المبكرة لاحقة فى التطور لحروف النقوش المذكورة وبهذا أرجعوا النقوش السينائية المبكرة إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد لأن النقوش المذكورة ترجع إلى القرن السابع عشر أو السادس عشر قبل الميلاد .

غير أننا إذا قارنا بين حروف الكتابة الكنعانية المبكرة ، وبين حروف الكتابة السينائية المبكرة من حيث الصفة الصورية (أو التصويرية) لهذه الحروف ، وهو لا شك مقياس قدم إحدى الكتابتين عن الأخرى ، نجد أنها إما متساوية بين حروف الكتابتين أو أن الحروف السينائية المبكرة تتفوق على الكنعانية المبكرة التى اختفت من حروفها هذه الصفة . فمن أمثلة الظاهرة الأولى حروف الكاف والباء (فى شكل ٩) وفى قائمة الحروف السينائية المبكرة (فى شكل ١٢ أرقام ٢ ، ١٣) وأيضا حرف الراء (فى شكل ١٠ ، ١١ بالمقارنة فى القائمة شكل ١٢ رقم ٢٤) أى أن الحروف الكنعانية المبكرة تتقارب فى شكلها الصورى مع الحروف السينائية المبكرة ومن أمثلة الظاهرة الثانية أى التى تتفوق فيها الحروف السينائية المبكرة على الكنعانية المبكرة فى الصفة الصورية ، حرف الألف (رأس الثور) فما زال رأس الثور واضحا فى السينائية المبكرة كما يتضح من القائمة (شكل ١٢ رقم ١) بينما اختفى فى الكنعانية المبكرة ، وتحول إلى ما يشبه شكل المثلث (شكل ١١) أى أخذ الشكل الخط Linear الذى يشبه إلى حد كبير الشكل الذى ظهر به هذا الحرف فى المرحلة النهائية للكتابة الكنعانية التى ترجع للقرن الثالث عشر ق.م (شكل ١٦) وكذلك حرف النون فما زال انحناء رأس الثعبان (نحش) ظاهرا فى السينائية (رقم ١٦ فى القائمة شكل ١٢) بينما اختفى هذا الانحناء وتحول إلى شكل مستطيل (خطى) فى الكنعانية المبكرة (شكل ١٠) . وأيضا حرف الميم الذى تمثله موجة مياه ، فما زال شكل موجة المياه ظاهرا فى السينائية المبكرة (رقم ١٥ فى القائمة شكل ١٢) بينما اختصرت خطوطها فى الكنعانية المبكرة (شكل ١١) . وأخيرا حرف الياء (يد) فإن شكل اليد (الذراع) ما زال واضحا فى السينائية المبكرة (رقم ١٢ فى القائمة شكل ١٢) بينما ابتعد عن هذا الشكل فى الكنعانية المبكرة (نفس الرقم فى نفس القائمة شكل ١٢) . (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٣) .

نستنتج من هذه المقارنة أن الصفة الصورية (أو التصويرية) قد غلبت فى الحروف السينائية المبكرة بالنسبة للحروف الكنعانية المبكرة مما يدل على أسبقية الأبجدية السينائية المبكرة وأنها الأصل الذى اشتقت منه الأبجدية الكنعانية المبكرة ، وهو ما يخالف رأى علماء الدراسات السامية . ويطابق رأى علماء المصريات الذين حددوا تاريخ النقوش السينائية المبكرة بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وبهذا تسبق أقدم نقوش الكتابة الكنعانية المبكرة التى حدد علماء الدراسات السامية تاريخها بالقرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد .

والحقيقة إن الكتابات السينائية المبكرة انتقلت إلى فلسطين ، وعلى الأرض الفلسطينية أخذت الصفة الصورية تختفى بالتدريج بينما غلبت الصفة الخطية على أشكال الحروف ومثال ذلك مكعب من الطين وجد فى لكيش (تل الدوير) وقد نقشت على وجهين من أوجهه علامات هيروغليفية (شكل ١٣ أ ، ب) (Albright 1969, fig.2) بينها اسم الفرعون أمنحتب الثانى (الوجه أ) وبذلك تحدد تاريخ المكعب بعصر هذا الفرعون (١٤٣٥-١٤٢٣ ق.م) وعلى الوجهين الآخرين (ج ، د) نقشت كتابة سينائية مبكرة وقد طمست تلك التى على الوجه (د) بينما يمكن قراءة التى على الوجه (ج) وقد قرأها ألبريت " (ايل) ذ ج ت " وفسر العبارة بأنها وصف للإله المسمى عند الساميين فى سيناء " نو - جت " أو " نو - جنتى " وإنه الإله الحامى لعصرة العنب وإنه كان يعتبر من ضمن حاشية الإله بتاح المرسومة صورته بجوار هذا النقش (Albright 1969 , p. 4) .

ويلاحظ على حروف هذا النقش أن حرف التاء ما زال محتفظا بالشكل الصورى وهو شكل رغيف الخبز بينما اختفى الشكل الصورى فى حرفى الذال والجيم وغلب عليهما الشكل الخطى.

إن النقوش على هذاالمكعب تعتبر دليلا قويا على تطور الأبجدية السينائية المبكرة على الأرض الفلسطينية من الصفة الصورية إلى الصفة الخطية . وهذه الصفة الأخيرة سوف تتضح فى مراحل اللاحقة للكتابة الكنعانية المبكرة إلى أن تصل إلى آخر مراحل تطورها فى الكتابة الفينيقية ، ولكن خلال هذا التطور سوف تظهر فى كل مرحلة خاصية من الخصائص التى ميزت الكتابة الفينيقية وهى اختفاء الشكل الصورى تماما واتخاذ الحروف كلها الشكل

الخطى ، ثم ظهور الفواصل الرأسية التى بدأت على شكل نقط ثم صارت خطا رأسيا فى نهاية التطور . (عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٤) .

وقبل أن نتتبع هذا التطور ، يجدر بنا أن نشير إلى الكتابات الأخرى التي ظهرت فى الشام ، والتى يحاول بعض الباحثين الربط بينها وبين الأبجدية الأولى ، وهى كتابة " رأس الشمرا – أوجاريت " فى شمال سوريا ، والكتابة المسماة بكتابة بيلوص الشبيهة بالهيروغليفية(Pseudo-hieroglyphic Script of Byblos) ورغم أن كتابة رأس شمرا تتكون من أبجدية من ثلاثين حرفا ، فإن كتاباتها بالخط المسمارى على الطين قلل من قيمتها فى نظر الفينيقيين التجار الذين كانوا يفضلون أبجدية تصلح للكتابة على المواد السهلة كالبردى والجلد ففضلوا عليها الأبجدية الكنعانية المبكرة (المتطورة عن السينائية المبكرة كما ذكرنا) ولهذا اندثرت أبجدية رأس الشمرا ، ولم تترك أثرا لدى شعوب الشام . أما الكتابة الثانية المسماة كتابة بيلوص الشبيهة بالهيروغليفية فرغم أن أغلب علاماتها صورية الشكل إلا أنها لم تكن كتابة أبجدية بل كانت مقطعية تتكون من عدد كبير من العلامات يبلغ ١١٤ علامة ، فاندثرت هى الأخرى .

ورغم هذه الحقائق عن هاتين الكتابتين التى أخذ بها العلماء منذ عهد بعيد ، فما زال بعض الباحثين يحاول الربط بين هاتين الكتابتين للخروج بآراء مؤداها أن الأبجدية الفينيقية ترجع إلى هاتين الكتابتين بل أن أحد الباحثين فى الدراسات العراقية القديمة حاول الربط بين هاتين الكتابتين من ناحية بعض حروف الكتابة الكنعانية المبكرة ، وهى المنقوشة على خنجر لكيش (شكل ١٠) وفى سبيل الوصول لهذا الغرض قرأ هذه الحروف قراءة تختلف تماما عن جميع قراءات العلماء الذين قرأوها " ط ر ن ز " كما ذكرنا ، إذ قرأها " ل ر ص ى " وفسر الكلمة بأنها اسم علم تعنى " معاونتى (على الإله) " (Sauren 1992, p.218) . ولا شك أن هذه الآراء تخالف تماما ما اتفق عليه العلماء بشأن هاتين الكتابتين . (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٤ ، ص ١٨٥) .

مراحل تطور الأبجدية الكنعانية المبكرة وظهور الأبجدية الفينيقية :

يطلق الباحثون على الحروف الكنعانية المبكرة التى ترجع للقرنين السابع عشر والسادس عشر ق.م (التى ذكرناها فيما سبق) " المجموعة الأولى من الحروف الكنعانية المبكرة " بينما

يطلقون تسمية " المجموعة الثانية " ، " والمجموعة الثالثة " على مجموعتين لاحقتين من هذه الحـــــروف (Diringer 1947, p.208) . وبعضهم يجمعونها تحت تسمية واحدة هي "الكنعانية" أو " الكنعانية المتأخرة " . وترجع المجموعة الثانية إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد (وبعضها يرجع للقرن الثالث عشر) بينما ترجع المجموعة الثالثة إلى القرن الثاني عشر . وتتميز حروف المجموعتين بغلبة الصفة الخطية عليها ، وهي الصفة التي ستظهر بوضوح فيما بعد في الأبجدية الفينيقية .

وقد وجد أحد نقوش المجموعة الثانية في منطقة " تل الحصى " في جنوب فلسطين (بالقرب من تل الدوير) بينما وجد النقش الآخر في منطقة " بيت شمس " (الواقعة عند منتصف المسافة بين القدس وأسدود تقريبا (الخريطة رقم ٢)) .

ويتكون نقش " تل الحصى " من ثلاثة حروف منقوشة على شقفة فخار تقرأ "ب ل ع " (شكل ١٤) ويتضح التطور نحو الشكل الخطي في حرف الباء الذي ابتعد عن شكل البيت وفي حرف العين الذي خلا من النقطة التي في وسط الدائرة التي ترمز لإنسان العين في الكتابة السينائية المبكرة .

أما نقش " بيت شمس أو بيت الشمس " فقد نقش على وجهي شقفة فخار أيضا ، ويتكون من خمسة أسطر على وجه الشقفة (شكل ١٥ أ) ومن أربعة أسطر على ظهرها (شكل ١٥ ب) ويلاحظ أن نظام الكتابة على وجه الشقفة يتبع الطريقة المعروفة بالطريقة الحلزونية فالسطر الأول يقرأ من اليسار إلى اليمين والثاني من اليمين إلى اليسار والثالث من اليسار إلى اليمين (شكل ١٥ أ) . وهي الطريقة المتبعة في بعض النقوش السينائية المبكرة كما ذكرنا وأن كانت الحروف في هذه النقوش تكتب أيضا من أعلى إلى أسفل ومن أسفل لأعلى (شكل ٨) . أما ظهر الشقفة فتقرأ سطوره كلها من اليمين إلى اليسار باستثناء السطر الأول فيقرأ من اليسار (شكل ١٥ ب) (Jensen 1958, p.279 & fig. 234) .

وفي هذه المجموعة أيضا تظهر بداية إحدى الخصائص التي ميزت الكتابة الفينيقية فيما بعد ، وهي الفواصل الرأسية بين الكلمات ، وكان ظهورها في هذه المرحلة على هيئة نقط رأسية وذلك في نقش يعرف بنقش " إبريق لكيش " (شكل ١٦) ويرجع لأواخر القرن الرابع عشر أو أوائل الثالث عشر ق.م. (Naveh 1987, p.35 & fig. 28) .

أما المجموعة الثالثة فترجع للقرن الثانى عشر قبل الميلاد وفيها يختفى الشكل الصورى تماما من الحروف ، وتتحول الفواصل من نقطة رأسية إلى خطوط عمودية ، وتتضح هذه الخصائص فى نقش يعرف بنقش " قبور الولايدة " (الواقعة شمال غرب بئر سبع فى جنوب فلسطين) (شكل ١٧) (Naveh, Op. cit. p. 38 & fig. 30) ويتمثل اختفاء الشكل الصورى فى هذا النقش فى تحول شكل رأس الثور إلى ما يشبه المثلث واختفاء النقطة التى تمثل إنسان العين من وسط الدائرة التى تمثل حرف العين (وإن كانت هذه الظاهرة ترجع إلى أحد نقوش المجموعة الثانية كما ذكرنا) .

ولكن رغم هذه التطورات الهامة نحو خصائص الكتابة الفينيقية ، فما زال اتجاه الكتابة مخالف لاتجاه الكتابة الفينيقية ، فالنقش يقرأ من اليسار إلى اليمين بينما تتجه الكتابة الفينيقية من اليمين إلى اليسار .

من كل ما تقدم يتبين أن الشكل الخطى للحروف الأبجدية ظهر فى فلسطين متطورا عن المراحل الأخيرة للأبجدية الكنعانية المبكرة (التى تطورت بدورها عن السينائية المبكرة) أى أن الأبجدية ذات الشكل الخطى كانت قد اكتملت قبل انتقالها إلى الفينيقيين فيما عدا خاصية واحدة هى اتجاه الكتابة الذى كان من عدة اتجاهات .

غير أنه بحلول القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، استقرت الكتابة الكنعانية فى آخر مراحل تطورها على اتجاه واحد هو من اليمين إلى اليسار ، وكان ذلك إيذانا بظهور الأبجدية الفينيقية .

الأبجدية الفينيقية وخصائصها :

إن هذه الخصائص كما يتضح من الدراسة السابقة هى اتخاذ الحروف الشكل الخطى Linear البحت بعد اختفاء الشكل الصورى تماما ، واقتصار اتجاه السطور على اتجاه واحد هو من اليمين إلى اليسار والفصل بين الكلمات بخطوط عمودية .

وأقدم النقوش التى ظهرت فيها هذه الخصائص والتى وجدت على الأرض الفينيقية نفسها ، هو نقش تابوت الملك " حيرام " الذى يرجع إلى حوالى ١٠٥٠ ق.م (شكل ١٨) (Naveh 1987, p. 53) .

والظاهرة التى تلاحظ على حروف هذا النقش أن أشكالها لا تمت بصلة إلى أسمائها (التى وصلتنا عن طريق العبرية واليونانية اللتين اشتقتا حروفهما من الفينيقية) ، وإنما ترتبط بالأشكال الأولى لهذه الحروف فى السينائية المبكرة (وليس فى الكنعانية المبكرة لابتعاد بعض حروفها عن الشكل الصورى كما ذكرنا من قبل) ، ولتوضيح هذه الظاهرة رسمنا فوق الحرف شكله كما ظهر فى السينائية المبكرة ، فحرف الألف اسمه فى السينائية "الف" بمعنى ثور أو رأس ثور ، بينما لا يدل شكله فى الفينيقية كما هو موضح على هذا المعنى ، وحرف الباء اسمه فى الفينيقية "بيت" بينما لا يدل شكل الحرف فى الفينيقية على ذلك ، وكذلك حرف النون (نحش بمعنى ثعبان) وحرف الراء (راش بمعنى رأس) وحرف اللام (لامد بمعنى لجام أو مقود ثور) ، فهذه الأسماء كلها تدل عليها أشكال هذه الحروف فى السينائية المبكرة والمرسومة فوقها .

مراحل اشتقاق الأبجديات الأخرى فى شرق البحر المتوسط :

استكمالا لحلقات التطور عن الأبجدية الأولى وانتشارها فى شرق البحر المتوسط ، فمن المناسب تتبع مراحل هذا التطور ، وهناك رأيان فى هذا الموضوع أولهما أن الأبجدية الكنعانية المبكرة (التى يسميها أصحاب هذا الرأى "الأبجدية السامية الشمالية") اشتقت منها فى الشام – بالإضافة إلى الفينيقية – أبجديتان أخريان هما الآرامية والعبرية المبكرة (وهى غير العبرية المتأخرة المسماة بالخط المربع) (Jensen 1958, p. 286) والرأى الثانى أن الآرامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الفينيقية . (Naveh, Op. cit., p. 53) .

وسواء صح هذا الرأى أو ذاك ، فالثابت أن هناك تشابها كبيرا بين حروف الأبجديات الثلاث قد يرجع إلى الأصل المشترك لها كما يرى الفريق الأول أو إلى اشتقاق العبرية والآرامية من الفينيقية كما يرى الفريق الثانى .

غير أن الثابت أن الحروف العبرية المبكرة بدأت تأخذ شكلها المميز منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، وأول نقش تظهر فيه خصائصها المميزة هو نقش "ميشع" ملك مـــوآب . (Naveh, Op.cit., P.65) .

أما الآرامية فقد بدأت حروفها تأخذ شكلها المميز ابتداء من منتصف القرن الثامن ق.م وظهرت هذه الخصائص فى نقوش على قوالب من الطين وجدت فى أطلال مدينة "حماة" . (Naveh, Op.cit., P.78 & fig. 74) .

وحوالى القرن السادس قبل الميلاد ، اختلفت حروف كل من الأبجديات الثلاث (الفينيقية والآرامية والعبرية المبكرة) عن بعضها كما يتضح من الجدول (شكل ٩) (Naveh, Op.cit., P.87) .

وقد تميزت من هذه الأبجديات الثلاث الأبجدية الآرامية باشتقاق العديد من الأبجديات منها ، بينما توقفت الفينيقية عن التطور ، فيما عدا انتقالها (وهى فى مرحلة التكوين كما سنذكر بعد) إلى بلاد اليونان واشتقاق الأبجدية اليونانية منها . كذلك اندثرت العبرية المبكرة ، وحلت محلها بعد السبى البابلى أبجدية أخرى اشتقت من الآرامية هى العبرية المتأخرة أو ما تسمى بالخط المربع . وأقدم نقش معروف من هذه الأبجدية هو المعروف بنقش " عراق الأمير " وهو اسم منطقة تقع على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا إلى الشمال الشرقى من نقطة التقاء نهر الأردن بالبحر الميت ، ويرجع هذا النقش إلى حوالى عام ١٨٠ ق.م . (Jensen 1958, p.305) .

ومن الآرامية أيضا تفرعت عدة أبجديات أخرى هى التدمرية (أو البلميرية Palmyrene) والسريانية والنبطية ، ومن هذه الأخيرة اشتقت الأبجدية العربية أو الخط العربى .

أما التدمرية والتى تنسب إلى مملكة " تدمر " أو بلميرا Palmyra التى ازدهرت خـــلال القرن الثالث الميلادى ، ثم سقطت فى يد الرومان عام ٢٧٢ ق.م فأقدم نقش تدمرى يرجع إلى عام ٩ ق.م ، وقد دون على شاهد قبر شخـــص يدعـــى " ع د ن ت ن " بن " ك هـــ ى ل و " (Jensen,Op.cit., p.315) وتتميز الكتابة التدمرية بظهور الأربطة ، وإن كانت قليلة فى أول الأمر وذلك فى نقش يرجع إلى عام ٢٧١م على تمثال للملكة " بت زباى " (المسماة زنوبيا عند الرومان) (Jensen,Op.cit., p.316 & fig. 281) ، أو الزباء عند العرب .

أما الأبجدية السريانية ، فقد ظهرت بوضوح فيما بين القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وأقدم نقش سريانى معروف ورد على شاهد قبر ملكة تدعى " صدان " ويرجع إلى القرن الأول الميـــلادى (Jensen,Op.cit., p.318 & fig. 281) وحروف هذا النقش مفردة فلم تظهر الأربطة فى الحروف السريانية إلا فى القرن الرابع الميلادى وذلك فى نقش وجد فى مجاورات منطقة الرها (Jensen,Op.cit., p.318 & fig. 286) .

وبالنسبة للأبجدية النبطية التى تنسب إلى الأنباط الذين ازدهرت دولتهم فى البتراء (شمال شرق خليج العقبة بحوالى ١٤٠ كيلو مترا) خلال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد والأول الميلادى . والذى امتد نفوذها جنوبا فشمل الحجاز - بالنسبة لهذه الأبجدية ، فقد اشتقت من الأبجدية الآرامية ، ويمكن تتبع الأصل الآرامى لها فى نقش وجد فى منطقة حوران (جبل الدروز) يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد (شكل ٢٠) (Jensen,Op.cit., p. 323 & fig. 292) ويلاحظ أن الأربطة التى ستصبح من مميزات الخط النبطى (ثم الخط العربى الذى اشتق منه) لم تظهر بعد كما يبدو من هذا النقش .

وقد اكتمل الخط النبطى بكل مميزاته فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد فغلبت الأربطة على حروفه كما يتضح من نقش على أحد أضرحة مدائن صالح (شكل ٢١) (Jensen,Op.cit., p. 323 & fig. 294) .

والجدول الموضح فى (شكل ٢٢) يوضح تطوير الخطين التدمرى والنبطى من الخط الآرامى مع مقارنة بين الحروف النبطية والحروف العربية (رمزى بعلبكى ، الكتابة العربية ، ١٩٨١ ، ص ١٦٨ ، شكل ٤١) .

ومن الخط النبطى اشتق الخط العربى كما هو معروف ، ولكن هناك رأيان بشأن مكان هذا الاشتقاق ، أى مكان نشأة الخط العربى ، أحدهما رأى قديم تبناه المستشرقون ومؤداه أن هذا الخط نشأ فى منطقة حوران فى جنوب شرق سوريا حيث وجد النقش النبطى المعروف بنقش " النمارة " . وأن هذا الخط انتقل إلى شمال الشام ومنه إلى الحيرة التى انتقل الخط العربى المبكر منها إلى مكة ويثرب فى عصور ما قبل الإسلام .

أما الرأى الثانى فيتبناه الباحثون العرب ومؤداه أن الخط العربى نشأ من الخط النبطى فى الحجاز حيث يوجد نقش نبطى فى منطقة مدائن صالح يعرف باسم نقش " رقوش بنت عبد مناة " وهو اسم صاحبة النقش وقد اتضحت فى هذا النقش الخصائص المبكرة للخط العربى ، ومن مدائن صالح انتقل هذا الخط إلى يثرب ومكة رأسا فكان أصل الخط العربى الذى ظهر فى صدر الإسلام ومنهما انتقل إلى الكوفة بعد تأسيسها . وقد ناقشنا هذين الرأيين فى دراسة سابقة ، ورجحنا الرأى الثانى (عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر وظهيره ، ١٩٩٣ ، ص ٢٣٦-٢٤٥) .

انتشار الأبجدية الفينيقية إلى بلاد اليونان ونشأة الأبجدية اليونانية

رغم أن الأبجدية اليونانية تنتمى للدراسات الكلاسيكية أكثر من انتمائها للدراسات السامية ، ولكن نظرا لاشتقاقها من أبجدية سامية هى الأبجدية الفينيقية فإنه يجب دراستها فى إطار الأبجديات السامية .

وقبل أن نتتبع مراحل اشتقاق الأبجدية اليونانية من الأبجدية الفينيقية لابد من أن نسوق الأدلة التى تثبت هذا الاشتقاق ، ونلخصها فيما يلى :

أ- جاء فى الروايات اليونانية أن حروف الأبجدية التى تطلق عليها هذه الروايات (Phoinika Grammata) بمعنى الحروف الفينيقية أو Kadmcia Grammata بمعنى حروف كادموس - جاء فى هذه الروايات أن هذه الأبجدية دخلت اليونان مع فنون أخرى على يد الفينيقيين الذين جاءوا إلى بلاد اليونان مع شخص يسمى كادموس (Naveh 1987,p.175) .

ب- إن أغلب أسماء الحروف اليونانية وهى ألفا ، بيتا ، جما ، دلتا لا معنى لها فى اللغة اليونانية . ولكن لها معان فى اللغات السامية أى أنها كلمات سامية الأصل .

جـ- إن ترتيب الحروف فى الأبجدية اليونانية مشابه فى الأساس لترتيب الحروف فى الأبجدية الفينيقية كما عرف من الأبجديتين العبرية والآرامية .

د- إن أشكال الحروف اليونانية المبكرة تشبه إلى حد كبير أشكال الحروف الفينيقية المناظرة لها .

والحقيقة إن بلاد اليونان نفسها لم تصلها الأبجدية الفينيقية إلا فى مرحلة متأخرة نسبيا ، بينما وصلت الأشكال المبكرة للأبجدية الكنعانية (التى اشتقت منها الأبجدية الفينيقية كما ذكرنا) إلى المناطق المحيطة ببلاد اليونان نفسها مثل جزيرة كريت وجزر الكيكلاد Cyclades ومن ذلك نقش وجد فى مدينة كنوسوس بجزيرة كريت (شكل ٢٦) وتظهر فيه أشكال الحروف الكنعانية ، كما تظهر الشرط الرأسية التى تفصل بين الكلمات واتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار ، وهى نفس الخصائص التى ظهرت فيما بعد فى الكتابة الفينيقية ، ومثال ذلك نقش الملك " احيرام " (شكل ١٨) من القرن الحادى عشر ، ونقش من بلدة كنوسوس فى جزيرة كريت ، ثم نقش من القرن الثامن قبل الميلاد وجد فى جزيرة ثيرا فى منطقة جزر الكيكلاد

(شكل ٢٥ أ ، ب) . تبدو فيه الخاصية الحلزونية التى تظهر فى الكنعانية التى تطورت عنها الفينيقية . فالسطر الأول والرابع يقرآن من اليمين لليسار ، والسطران الثانى والثالث يقرآن من اليسار إلى اليمين . وهذا دليل على أن الأبجدية اليونانية اشتقت من الأبجدية الفينيقية فى مرحلة تكوين هذه الأخيرة .

وأخيرا نقش وجد فى أثينا ، وهو نقش على إناء يطلق عليه Dipylon وهو أقـدم نقش يونانى على الأرض اليونانية نفسها ، ويرجع إلى نهاية القرن الثامن ق.م (شكل ٢٦) ، وقد بدأت الحروف فيه تأخذ أشكال الحروف اليونانية . والجدول (شكل ٢٧) يوضح مراحل تطور حروف الأبجدية اليونانية بعد اشتقاقها من حروف الأبجدية الفينيقية ، والتشابه فى نطق أسماء الحروف فى كل من اليونانية والفينيقية ، وقد ميزت الأسماء اليونانية التى اختلفت عن الأسماء الفينيقية بعلامة × (عماد حاتم ، ١٩٨٢ ، شكل ٣٦ ص ٢٥١) .

إن هذه الأشكال التى توضح مراحل اشتقاق الأبجدية اليونانية من الأبجدية الفينيقية تدل على أن الإغريق أخذوا أبجديتهم عندما كانت الأبجدية فى الشام فى المرحلة الكنعانية ، وكانت تكتب بالطريقة الحلزونية أى قبل أن تثبت الكتابة اليونانية على نظام موحد ، فذلك لم يحدث إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد عندما اتبع الإغريق فى كل بلاد اليونان الكتابة الأيونية ، واختفت بذلك الكتابات اليونانية المحلية ، وصارت هذه الكتابة هى كتابة اليونان الكلاسيكية (انظر شكل ٢٧) وثبت اتجاه كتابتها من اليسار إلى اليمين ، كما ثبتت أشكال الحروف (Naveh 1987, p.178) .

هذا ومن المعروف أن اللاتينية اشتقت من الأبجدية اليونانية ومن الأبجدية اللاتينية اشتقت سائر الأبجديات الأوروبية وبذلك انتشر تراث مصر الفرعونية فى الكتابة خلال ألوف السنين فى حوض البحر المتوسط .

ثالثا: انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن ومنها إلى الحبشة حيث نشأت الأبجدية الأثيوبية (الجعزية) التى ما زالت باقية حتى اليوم .

مثلما انتقلت الأبجدية السينائية المبكرة إلى الشام حيث تطورت عنها أبجديات الشام وأوروبا الباقية حتى اليوم ، فقد انتقلت إلى اليمن فى جنوب الجزيرة العربية ، حيث نشأت عنها ما يطلق عليه الباحثون الأبجدية السامية الجنوبية التى تفرعت منها الأبجديات العربية الجنوبية فى اليمن ، وهى السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية .

ومن السبئية اشتقت الأبجدية الحبشية القديمة Old Abyssinian التى تطورت إلى الأثيوبية Ethiopian المسماة أيضا " بالجعزية " نسبة إلى اللغة التى تكتب فى الحبشة بهذه الأبجدية .

كما تفرعت عن الأبجدية السامية الجنوبية الأبجديات العربية الشمالية فى شمال الجزيرة العربية ، وهى الدادانية واللحيانية والثمودية والصفوية ، ولكن جميع هذه الأبجديات اندثرت ، ولم يتبق من فروع الأبجدية السامية الجنوبية فى الوقت الحاضر سوى الأبجدية الأثيوبية أو الجعزية ، وعلى ذلك فهذه هى الوحيدة التى تعتبر من تراث حضارة مصر الفرعونية فى الحضارة الإنسانية .

وفى دراستنا لنشأة الأبجدية الحبشية القديمة ، واشتقاقها من الأبجدية السبئية (الخط المسند) سوف نتناول ناحيتين :

أ- أدلة انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن واشتقاق الأبجدية السامية الجنوبية وأبجدية الخط المسند منها .

ب- مراحل اشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الأبجدية السبئية .

أدلة انتقال الأبجدية السينائية المبكرة إلى اليمن واشتقاق الخط المسند منها :

هذه الأدلة يمكن إجمالها فيما يلى :

١- العثور على حروف سينائية مبكرة فى النقوش الصخرية فى اليمن ومثال ذلك حرف الألف ، وقد تمكن الباحثون من تتبع مراحل تطوره فى هذه النقوش حتى وصل إلى شكل حرف الألف فى الخط المسند (شكل ٢٨) (Jamme 1963, no. 173, fig.1) .

٢- العثور على نقش فى منطقة تل الخليفة بالقرب من العقبة يظهر به حرفان من حروف الخط المسند المبكر ، وهما حرف الألف وحرف الحاء أو الصاد (شكل ٢٩) ، مما يدل على أن انتقال الأبجدية تم عبر الطريق التجارى العظيم المتجه من اليمن إلى سواحل البحر المتوسط .

٣- التشابه الكبير بين أشكال بعض حروف الأبجدية السينائية المبكرة وما يماثلها من حروف الأبجدية السبئية المبكرة كما يدل على ذلك (شكل ٣٠) (Naveh 1987, fig.41) ، وهو يحتوى على حروف سبئية مبكرة (موضحة بالخط الثقيل) وإلى جانبها ما يشبهها من

حروف الأبجدية السينائية المبكرة (بالخط الرفيع) . هذا بالإضافة إلى أن الكتابة السبئية المبكرة كتبت أحيانا فى سطور رأسية (شكل ٣٠) مثل الكتابة السينائية المبكرة (شكل ٣١).

٤- إن الكتابة السبئية المبكرة كانت تكتب أحيانا بالطريقة الحلزونية ، وهى تختلف عن الطريقة الحلزونية التى كتبت بها الأبجدية الكنعانية فى الشام وفى بلاد اليونان فى أن السبئية الحلزونية منتظمة . فيكتب السطر الأول من اليمين إلى اليسار ، ويكتب السطر الثانى من اليسار إلى اليمين مع تغيير اتجاه الحروف ، والسطر الثالث من اليمين إلى اليسار ، والرابع من اليسار إلى اليمين ، وذلك بصفة مطردة وبانتظام (شكل ٣٣) (عبد المنعم عبد الحليم ، ١٩٩٣ ، ص ٢٧٣ وشكل ٣ ص ٢٩٠) . ولذلك يطلق الباحثون فى نقوش الجزيرة العربية على هذه الطريقة المصطلح Boustrophedon أى " دوران الثور " أو " دوران المحراث " ، وهذه الطريقة الحلزونية من خصائص الكتابة السينائية المبكرة (شكل ٣٢) وإن كانت ليست بنفس الانتظام الذى يميز الكتابة السبئية .

٥- إن الأبجدية السبئية تحتوى على روادف أو حروف ثانوية Secondary Letters وهى حروف الذال ، والثاء ، والخاء ، والضاد ، والظاء ، والغين ، ونفس الحروف توجد فى السينائية المبكرة . (شكل ٣٦) .

٦- وفى الجدول (شكل ٣٤) قائمة بحروف كل من الأبجدية السينائية المبكرة والأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند) يظهر فيها التشابه الكبير بين حروف الأبجديتين .

هذه هى أدلة اشتقاق الأبجدية السبئية أو أبجدية الخط المسند من الأبجدية السينائية المبكرة . أما عن اشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الأبجدية السبئية ، فلا يحتاج إلى أدلة لوضوح التشابه الكبير بين أشكال الحروف فى الأبجديتين رغم أن حروف الأبجدية السبئية أو أبجدية الخط المسند أغلبها ذات زوايا قائمة أو حادة ، بينما حروف الأبجدية الحبشية القديمة (التى تطورت عنها الأبجدية الأثيوبية المسماة بالجعزية التى تستخدم اليوم) مستديرة (شكل٣٥) .

وقد أفاد هذا التشابه علماء اللغات السامية فى التوصل إلى حل رموز الكتابة السبئية أو الخط المسند عام ١٨٤١ ، وذلك على يد العالمين النمساويين Gesenius & Rodiger ، وأقدم نقش حبشى قديم هو ما يعرف بنقش الملك " عيزانا " (شكل ٣٦) ويرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى (Jensen 1970, p. 345) ، ويتميز هذا النقش بأن الكلمات

تفصلها شرط رأسية ، وهى نفس خصائص الكتابة السبئية ، وقد اختفت هذه الخاصية فى الكتابة الأثيوبية الجعزية .

ولأهمية هذا النقش نقدم فيما يلى ترجمة له :

" عيزانا ملك أكسوم وكاسو (و) سبأ وحبشات وريدان وسلحين (و) سيامو وبجا ملك الملوك ابن محرم الذى لم يهزمه عدو ، عندما بدأ شعب بجا شن الحرب ، أرسلت إخوتنا "سيا زانا" وحشاد فاها ؛ لكى يتصدوا لهم وعندما ... " (Jensen 1970, p. 345 & fig. 329) .

كذلك تتميز الكتابة الحبشية القديمة بوجود بعض الروادف ، وهى حروف الحاء ، والضاد ، والظاء ، والغين ، وقد ورثت ذلك من الأبجدية السبئية التى ورثتها بدورها من الأبجدية السينائية المبكرة (شكل ٣٧) كما ذكرنا .

غير أن الأبجدية الأثيوبية (وهى المرحلة التالية لمرحلة الحبشية القديمة) تتميز بوجود الحروف المتحركة Vowels ، وهى ليست حروفا مستقلة ، وإنما تتكون نتيجة إضافة زيادات إلى شكل الحرف الساكن (شكل ٣٨) كما تتميز الأبجدية الأثيوبية بكتاباتها من اليسار إلى اليمين ، ويبدو أنها أخذت هذه الخصائص (فيما عدا طريقة تحويل الحروف الساكنة إلى متحركة التى يغلب أنها أخذتها من الكتابة الهندية) من الكتابة اليونانية إبان انتشار النفوذ اليونانى فى الحبشة فى القرن السادس عشر .

وعلى ذلك فإن الأبجدية الأثيوبية الجعزية هى التراث الباقى من حضارة مصر الفرعونية فى الحضارة الإنسانية بعد رحلة الكتابة المصرية القديمة عبر آلاف السنين ، وتطورها وانتشار المراحل الأخيرة لهذا التطور بين مختلف الشعوب .

ملاحظة : اقتصرنا فى دراسة انتشار الأبجديات الباقية من تراث مصر الفرعونية على الأبجديات المنتشرة فى حوض البحر المتوسط ، وفى الحبشة حتى اليوم ، ولم نتناول تلك التى انتشر منها فى مناطق أخرى مثل بعض الأبجديات المنتشرة فى إيران وفى الهند ، والتى اشتقت من الأبجدية الآرامية .

قائمة المراجع

أ- المراجع العربية والمترجمة :

١- أمين سلامة ، ١٩٥٥ : معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية ، القاهرة .

٢- إرمان ، ١٩٥٠ : إرمان ، أدولف وهرمان رانكة ، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، القاهرة .

٣- جورجى صبحى ، ١٩٢٥ : كتاب قواعد اللغة المصرية القبطية ، القاهرة .

٤- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٣ : البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، الإسكندرية .

٥- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ١٩٩٤ : " الأبجدية الأولى وانتشارها فى شرق البحر المتوسط " كتاب بحوث مؤتمر الإسكندرية الدولى الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ (١٥-١٩ يناير ١٩٩٤) ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

٦- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، ٢٠٠٠ : " حجر رشيد ، قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه ، ودراسة تحليلية مقارنة لنصوصه " ، العدد الثامن من مجلة المؤرخ العربى ، مارس ٢٠٠٠ ، إصدار اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة .

٧- عماد حاتم ، ١٩٨٢ : فقه اللغة وتاريخ الكتابة ، طرابلس ، ليبيا .

٨- محمد محمد فياض ، ١٩٥٨ : التقاويم ، العدد ١٦٣ من مجموعة الألف كتاب الأولى ، القاهرة .

٩-مونتيه ، ١٩٦٥ : مونتيه ، بيير ، الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة ، ترجمة عزيز مرقص منصور ، ومراجعة عبد الحميد الدواخلى ، القاهرة .

١٠- وليم نظير ، ١٩٦٨ : الثروة النباتية عند قدماء المصريين ، القاهرة .

ب- المراجع الأجنبية :

ملاحظة : اتبع فى الإشارات لهذه المراجع النظام المعروف بنظام Harvard Reference

System ، ويتخلص فى الإشارة إلى المرجع فى صلب البحث باسم المؤلف وسنة الطبع ورقم الصفحة فقط . ويمتاز هذا النظام بأنه يوفر المساحة الكبيرة التى تشغلها بيانات المراجع فى النظام التقليدى المعروف ، فضلا عن تركيز انتباه القارئ فى متابعة البحث وعدم تشتيت هذا الانتباه لمتابعة الإشارات للمراجع فى أسفل الصفحات أو فى نهاية البحث كما هو الحال فى النظام التقليدى .

1- Albright, W.F., 1948. The Early Alphabetic Inscriptions from Sinai and their Decipherment, Bull. Schools of Oriental Research, No. 110.

2- Aldred, C., 1956. Middle Kingdom Art in Ancient Egypt, London.

3- Breasted, J.H., 1988. Ancient Records of Egypt 5 Vols. Chicago, 1906, Repr. 1988.

4- Cerny, J., & Gardiner, A. & Peet, E., 1955. The Inscriptions of Sinai, 2 Vols. London.

5- Cross, M., F., 1967. The Origin and Early Evolution of the Alphabet, Erez.

6- Driniger, D., 1947. The Alphabet, a key to the history of Mankind, London.

7- Gardiner, A., 1916. "The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet", Journ. Egypt. Arch., Vol 3.

8- Gardiner, A., 1962. "Once Again the Proto-Sinaitic Inscriptions", ., Journ. Egypt. Arch., Vol 48.

9- Hassan, S., 1949. The Sphinx, its History in the Light of Recent Excavations, Cairo.

10- Jamme, A., 1963. Preliminary Report on Epigraphic Research. Bulletin of the Schools of Oriental Research, London.

11- Jensen, Hans, 1958. Sign, Symbol and Script, 3rd. ed. transl. From the German by G.Unwin, London.

12- Lewis, C.T., 1979. An Elementary Latin Dictionary, Oxford.

13- Lucas, A., 1945. Ancient Egyptian Materials and Industries, London.

14- Naveh, J.,1987. The Early History of the Alphabet, London.

15- Petrie, W.M.F., 1906. Researches in Sinai, London.

16- Sauren, Herbert, 1992, "Une Lance Pour L'Alphabet, le Poignard de Lachis" le Muséon, Tome 105, Fac. 3-4, Louvain.

17- Sethe, K., 1961. Urkunden der 18. Dynastie, Vierte Band, Berlin, 1927-1930, Rebr. 1961.

18- Sewell, 1943. "The Calendars and Chronology "in Clanville, S.R.K. (Editor) The Legacy of Egypt, Oxford.

19- Velikovsky Immanuel, 1977. People of the Sea, New York.

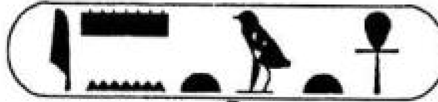
الأشكــال

الصورة	مدلولها التصويري	[illegible]		الصورة	مدلولها التصويري	[illegible]	
		[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]
	عقاب	أ ، ا			قصبة مزهرة	إ ، ي	
	ساعد	ع			فرخ سمانة	و	
	ساق	ب			مقعد	پ	
	حية ذات قرنين	ف			بومة	م	
	موجة مياه	ن			فم	ر	
	فناء دار	هـ			ضفيرة من الكتان	ح	
	مشيمة السيدة	خ			بطن حيوان ثديي وذنبه	غ	
	مزلاج (ترباس الباب)	ز			منديل مطوي	س	
	حوض ماء	ش			جانب التل (أو التل من الرمل)	ق	
	سلة ذات أذن	ك			حمالة زير	ج	
	رغيف خبز	ت			عقال الدواب	ث	
	يد	د			ثعبان	ج	

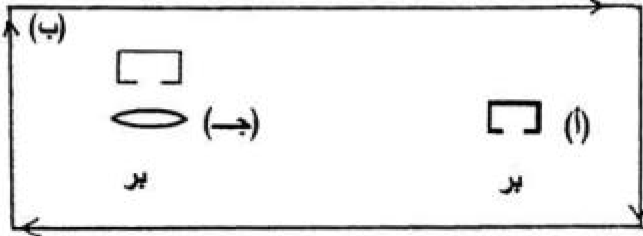
(شكل ١) الأبجدية المصرية الهيروغليفية ، وقد اشتقت بعض حروفها بالطريقة الأكروفونية مثل حرف "ن" وهو على شكل موجة مياه ، والمياه تسمى فى اللغة المصرية القديمة " ن ت " وحرف النون هو الحرف الأول من الكلمة . ويمثل الألف المكسورة وهو على شكل بوصة التى تسمى فى المصرية القديمة "إسو" والألف المكسورة هى الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " غ " على شكل بطن حيوان وذنبه وتسمى فى اللغة المصرية القديمة " غت " بمعنى " بطن " وحرف الغين هو الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " ق " وهو على شكل جانب تل والتل يسمى فى المصرية القديمة " ق اا " وحرف القاف هو الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " ج " على شكل قاعدة إناء (أو حمالة زير) التى تسمى فى اللغة المصرية القديمة "ج ن" ، والجيم هو الحرف الأول فى الكلمة . وحرف " ث " على شكل قيد حيوان الذى يسمى فى اللغة المصرية القديمة " ث ث ت " والثاء هى الحرف الأول فى الكلمة . وحرف الزاى (أو الجيم المعطشة) على شكل ثعبان الذى يسمى فى اللغة المصرية القديمة " ج د ف ت " أو " ز د ف ت " والجيم المعطشة أو الزاى هو الحرف الأول فى الكلمة . وهكذا كانت القاعدة الأكروفونية هى الأساس الذى كون المصريون القدماء أبجديتهم عليه ، ولو أنه لم تطبق على جميع الحروف ، وإن كانت بعض الحروف الأخرى مثل حرف " الشين " ، ويمثل بركة مياه التى تسمى " ش " فى اللغة المصرية القديمة أى من صوت واحد هو الأول والأخير فى الكلمة. وكذلك حرف التاء ، ويمثل رغيف خبز الذى يسمى

"ت" فى اللغة المصرية القديمة . وحرف الراء ، ويمثل "فم إنسان" الذى يسمى "ر" فى اللغة المصرية القديمة . وقد نقل الساميون سكان سيناء هذه الطريقة عن المصريين ، واستخدموها فى ابتكار أبجديتهم (السينائية المبكرة) التى اقتبسوها من العلامات الهيروغليفية المصرية .

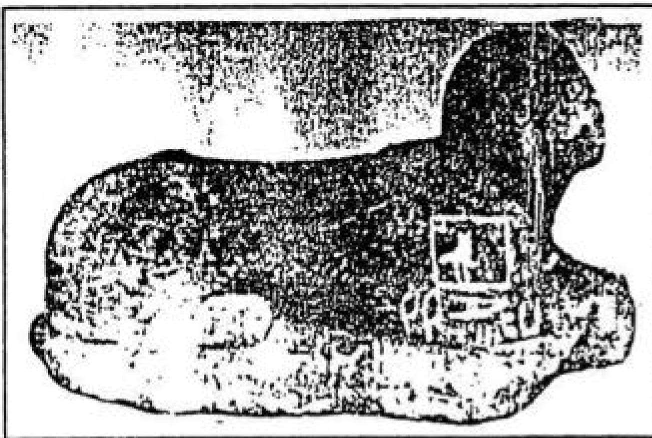
(الرسم من كتاب قواعد اللغة المصرية للدكتور عبد المحسن بكير ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٥) .



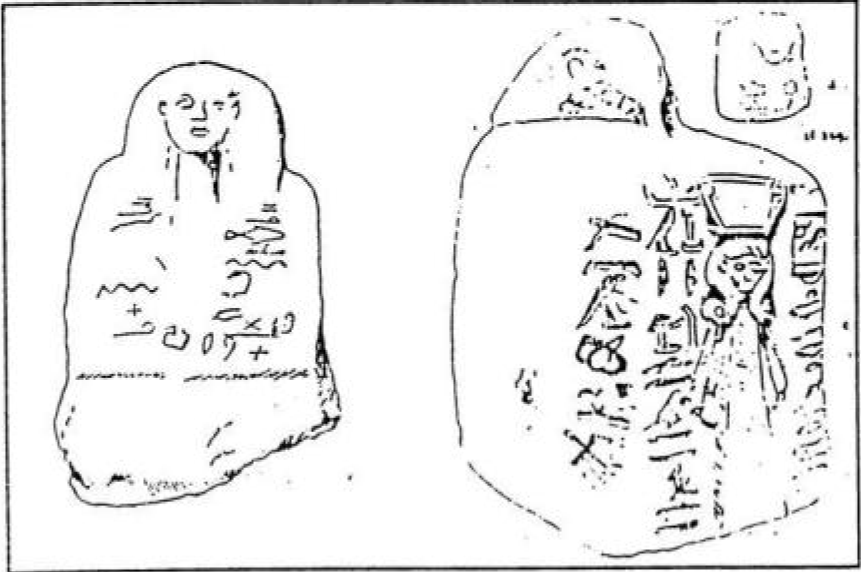
(شكل ٢) خرطوش (اسم) الملك " توت – عنخ – إمن (آمون) " وهو مثال لتوضيح كيفية الجمع بين الحروف الأبجدية وهى الألف (١) ، والنون (٣) ، والتاء (٤ ، ٦) ، والواو (٥) ، وبين العلامات المقطعية الثنائية وهى " من " (٢) والثلاثية وهى " عنخ " (٧) .



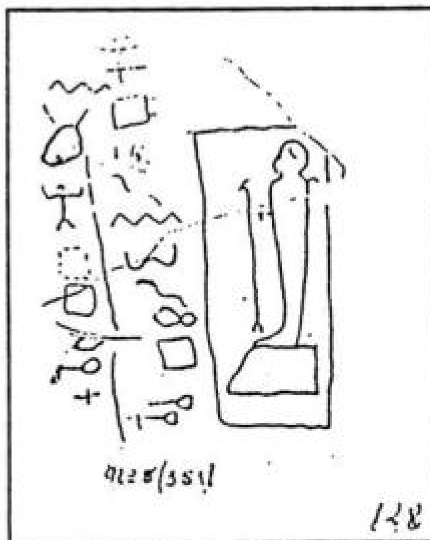
(شكل ٣) العلامة المقطعية الدالة على المنزل ، وتنطق " بر " (أ) رغم إضافة حرف الراء الأبجدى (جـ) أى لا تنطق " برر " ؛ لأن حرف الراء مكمل صوتى أى تكرار للصوت الأخير فى كلمة " بر " .



(شكل ٤) تمثال أبو الهول المؤنث ، وقد دونت عليه كتابتان إحداهما هيروغليفية (شكل الطائر الذى داخل مربع والسطر أسفله) والأخرى سينائية مبكرة (السطر السفلى) وهى ترجمة للنص الهيروغليفى المدون أعلاه . ومن الواضح أن أحد الساميين كرس التمثال لكل من الالهة المصرية "حتحور" والإلهة السامية "عشتارت" لأن ترجمة النص الهيروغليفى هى "محبوب حتحور ربة الفيروز" والنص السينائى يقرأ "ماه بعلت" أى "محبوب بعلت" وبعلت كان لقبا للإلهة السامية "عشتارت" التى عبدها الساميون فى سيناء كمرادفة للآلهة المصرية "حتحور" التى كانت الإلهة الحامية لمناجم الفيروز فى منطقة سيرابيط الخادم (عند المصريين) . وقد مكنت العبارة المصرية وترجمتها السينائية المبكرة العالم "جاردنر" من حل رموز الكتابة السينائية المبكرة .

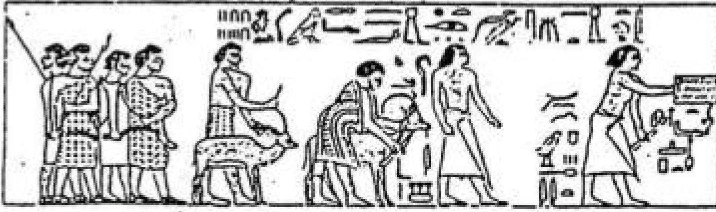


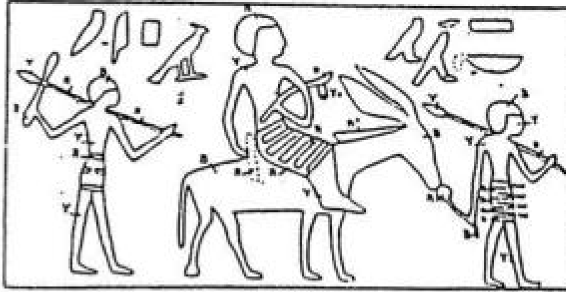
(شكل ٥ أ ، ب) تمثالان على هيئة "الشخص القابع" وجدا فى معبد سيرابيط الخادم وهو طراز مألوف فى التماثيل المصرية القديمة . والتمثال الذى إلى اليمين كرس للإلهة "حتحور" ربة الفيروز كما يدل على ذلك النص الهيروغليفى المحفور على واجهته . أما الذى إلى اليسار للإلهة "عشتارت" السامية كما يدل على ذلك النص السينائى على واجهة التمثال (السطر السفلى) ويقرأ : "ع ل ن ع م ت ل ب ع ل ت" وترجمتها "من أجل نعمة من بعلت" .



(شكل ٦) نقش كان محفورا فوق مدخل أحد مناجم الفيروز فى منطقة سيرابيط الخادم ، ويظهر فيه رسم للإله بتاح المصرى ، وقد عبده الساميون السيناثيون فى صورة إلههم المسمى " ذو جنتتى " وكان إله مصمصرة العتب عندهم . والنص السيناثى المدون يسجل الإهداء المألوف للإلهة " بعلت " (السطر الأيسر) .

وهذا النقش والنقوش الأخرى المذكورة سابقا (شكل ٤ ، ٥) المدونة على آثار مصرية الطابع (تابع وصف شكل ٥ أ ، ب) تؤكد اتباع الساميين فى سيناء للعبادات والعادات الدينية المصرية .



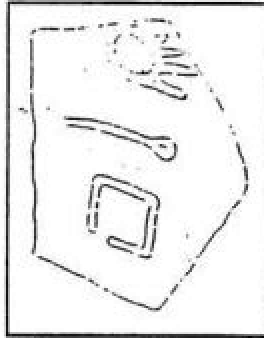


(شكل ١٧ أ ، ب) فى الصورة العليا ، الساميون – سكان سيناء بملامحهم المميزة كما صورهم المصريون على الآثار المصرية (على جدران مزار مقبرة الأمير خنوم – حتب فى بنى حسن بالمنيا من عصر الأسرة الثانية عشرة) ، ويتميزون بإطلاق لحاهم وبأرديتهم الطويلة المزركشة ، وهم بذلك يختلفون عن المصريين الذين صوروا أمامهم بالهيئة المصرية المألوفة (حلق اللحية وارتداء النقبة) .

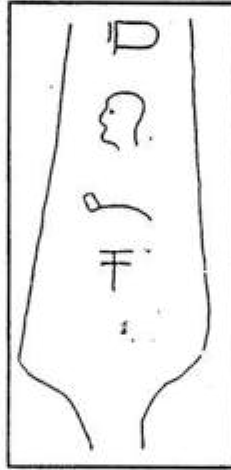
وفى الصورة السفلية يظهر هؤلاء الساميون فى رسوم معبد سيرابيط الخادم بسيناء ، وقد حلقوا لحاهم ، وارتدوا النقبة المصرية القصيرة ، أى اتبعوا العادات المصرية الدنيوية ، وباتباعهم هذه العادات والعقائد الدينية المصرية أيضا (كما يتضح من الأشكال السابقة ٤ ، ٥ ، ٦) تغلغلت الحضارة المصرية فى ثقافتهم ، وكان فى مقدمتها الكتابة المصرية الهيروغليفية التى اشتق هؤلاء الساميون أبجديتهم منها بإرشاد المصريين .



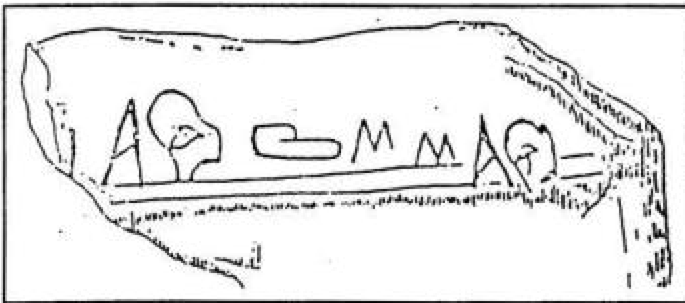
(شكل ٨) النقش السيناتى المبكر فى وادى " نصب " المجاور لاسم الفرعون أمون – محات الثالث ، وهو مكتوب بالطريقة الحلزونية ، فالسطر الأول يقرأ من أعلى إلى أسفل " ادا " والثانى من أسفل إلى أعلى " ربى حوت " والثالث من أعلى إلى أسفل " ويعقب (يعقوب) " .



(شكل ٩) نقش شقفة جازر ، ويقرأ حروفة من أعلى لأسفل " ك ل ب " وربما ينطق " كالب " وهو اسم شخص (من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة) .



(شكل ١٠) نقش نصل خنجر لكيش (تل الدوير) والحروف عليه تقرأ من أعلى إلى أسفل " ط رن ز " وهو من أسماء الأشخاص عند شعب الحوريين (من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة) .



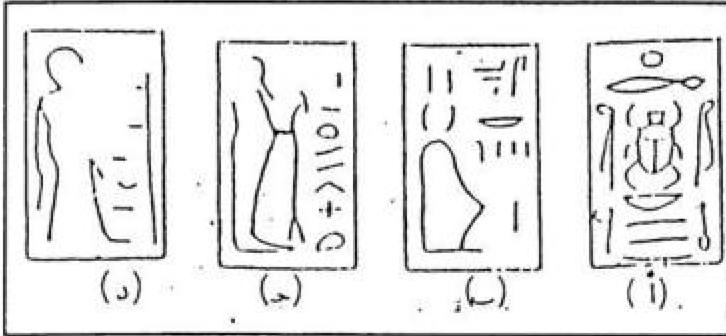
(شكل ١١) نقش رقعة شكيم (تل بلاطة) والحروف الظاهرة منه تقرأ من اليسار إلى اليمين " أ ر غ م م أ ر " ، وهو من المجموعة الأولى من النقوش الكنعانية المبكرة .

(شكل ١٢) مراحل اشتقاق حروف الأبجدية الكنعانية المبكرة (ثم الكنعانية المتأخرة) من الأبجدية السينائية المبكرة .

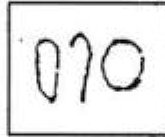
رقم المسلسل	الحرف	الأبجدية السينائية المبكرة	الكنعانية المبكرة * المتأخرة	الأسماء المبكرة للحروف	معانى هذه الأسماء	
١	أ	[illegible]	(16th) (13th)	'alp-	ox-head	×
٢	ب	[illegible]	(17th) (13th)	bêt-	house	
٣	ج	[illegible]	(15th) (13th)	gaml-	throw-stick	
٤	د	[illegible]	(10th)	digg-	fish	
٥	ذ	[illegible]	?	?	?	
٦	هـ	[illegible]	(10th)	hô(?)	man calling	
٧	و	[illegible]	(10th)	wô(-aw)	mace	
٨	ز	?	(14th) (10th)	zê(n-)	?	
٩	ح	[illegible]	(14th) (10th)	ḥê(t-)	fence (?)	
١٠	خ	[illegible]	?	ḫa( )	hank of yarn	
١١	ط	?	(14th) (10th)	ṭê(t-)	spindle ?	
١٢	ى	[illegible]	(13th) (10th)	yad-	arm	×
١٣	ك	[illegible]	(17th) (13th)	kapp-	palm	
١٤	ل	[illegible]	(14th) (13th)	lamd-	ox-goad	
١٥	م	[illegible]	(16th) (13th)	mêm-	water	×
١٦	ن	[illegible]	(16th) (13th)	nahš-	snake	×
١٧	س	?	(10th)	(šamk-?)	?	
١٨	ع	[illegible]	(13th) (10th)	'ên-	eye	×
١٩	غ	[illegible]	(14th)	ġa( )	?	
٢٠	ف	[illegible]	(10th)	pi't-(?)	corner ?	
٢١	ص	[illegible]	(10th)	ṣa(d-)	plant	
٢٢	ض	?	?	?	?	
٢٣	ق	[illegible]	(14th) (10th)	qu(p-)	?	
٢٤	ر	[illegible]	(14th–11th)	ra'š-	head of man	
٢٥	ش	[illegible]	(13th) (10th)	ṯann-	composite bow	
٢٦	س	[illegible]	?	?	?	
٢٧	ت	+	+ × (13th)	tâ(taw)	owner's mark	

ملاحظة : هذه النقطة مقتبسة من القائمة المنشورة فى كتاب (Albright 1969, fig.1) مع تعديل الحروف الكنعانية المبكرة أرقام ١ ، ١٥ ، ١٦ إلى القرن السادس عشر ق.م طبقا لأحدث الدراسات المنشورة فى (Naveh1987. pp.26-27) .

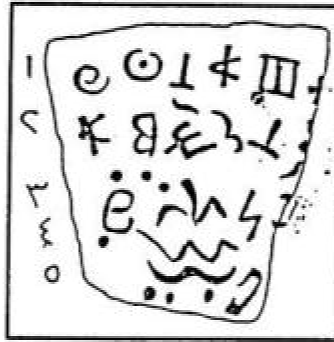
× هذه العلامة تشير إلى الحروف التى تباعدت أشكالها الكنعانية المبكرة عن الصورة الأصلية للحروف الظاهرة فى السينائية المبكرة .



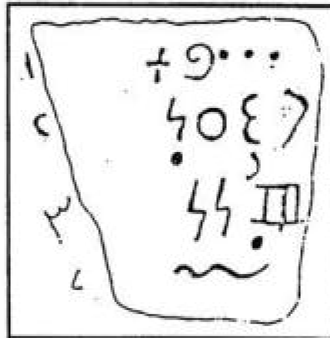
(شكل ١٣) ختم على شكل منشور وجد فى تل الدوير بفلسطين ، وعلى أحد أوجهه (أ) اسم الفرعون لمنحتب الثانى الذى عاش حوالى ١٤٠٠ ق.م ، وعلى وجه آخر (ج) كتابة بروتوسينائية ، ووجود الكتابة البروتوسينائية إلى جانب الكتابة الهيروغليفية ، ورسم الشخص الواقف على نمط الشكل المرسوم على اللوحة البروتوسينائية الموضحة فى شكل (٤) بالإضافة إلى وجود هذا الختم فى الشام ، يدل على انتقال الكتابة البروتوسينائية إلى الشام منذ عصر مبكر قبل معرفة الفينيقيين للحروف الأبجدية .



(شكل ١٤) نقش تل الحصى ، ويقرأ من اليمين إلى اليسار " ب ل ع " (من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة) .



(شكل ١٥ أ) نقش وجه شقفة " بيت شمس " بفلسطين ، وقد كتب بالطريقة الحلزونية ، فالسطر الأول يقرأ من اليسار إلى اليمين " ل ع ز ا ح ت (ة) " وترجمته : " من أجل عزاء حات " والسطر الثانى يقرأ من اليمين إلى اليسار (ش؟) م ز م هـ ر ا " وترجمته : " (شـ) مزا مهرا " ، والسطر الثالث من اليسار إلى اليمين "ب ى ن ح " ، والسطر الرابع به حرف " م " فقط ، ويكمل السطر الثالث وترجمتها : " أبى ناحوم " ، والسطر الخامس يقرأ من اليمين إلى اليسار " ش ف (ط) " وترجمته : " شاف (ط) " (من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة) .

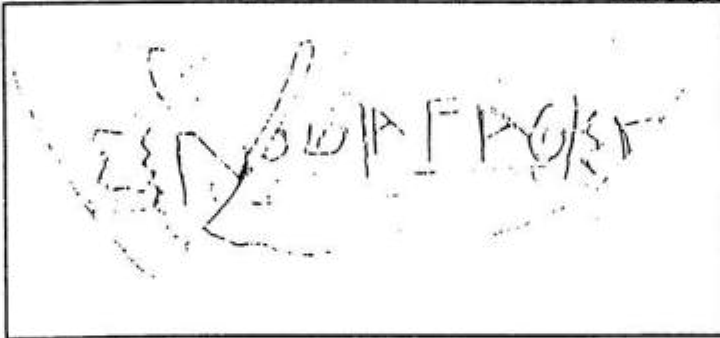


(شكل ١٥ ب) نقش ظهر شقفة " بيت شمس " ، ويقرأ بالطريقة الحلزونية أيضا فالسطر الأول يقرأ من اليمين إلى اليسار " ل ت " ، والسطر الثانى يقرأ من اليسار إلى اليمين " ن ع م / و " ، وترجمة السطرين : " اعط نعمة و " والسطر الثالث يقرأ من اليمين إلى اليسار " ح ن ن " ، والرابع به حرف واحد هو " م "

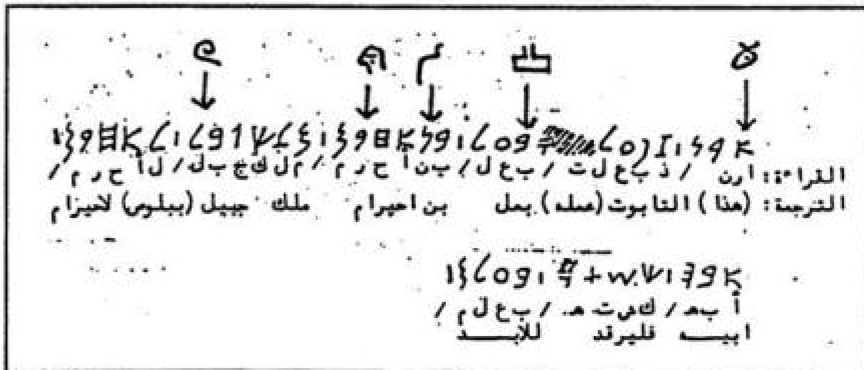
وترجمة السطرين : " يحنانهم " (من المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة) .



(شكل ١٦) نقش إبريق لكيش الذى ينتمى إلى المجموعة الثانية من النقوش الكنعانية المبكرة ، ويتميز بظهور خاصية ستستمر فى الكتابة الفينيقية فيما بعد وهى الفواصل بين الكلمات ، وقد اتخذت فى أول الأمر شكل نقط رأسية ، والنقش يقرأ من اليسار " م ت ن / ش ى (ل ر ب) ت ى أ ل ت " ، وترجمته : " متان ، قربان لسيدتى ايلات " .

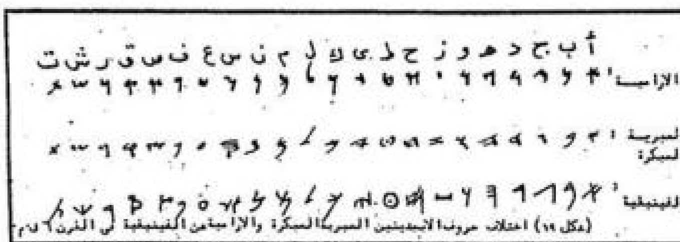


(شكل ١٧) نقش إناء " قبور الولايدة " (فى جنوب فلسطين) الذى ينتمى إلى المجموعة الثالثة من النقوش الكنعانية المبكرة ، ويتميز باختفاء الصفة الصورية من الحروف وبظهور الفواصل بينها على هيئة خط مستتر والنقش يقرأ من اليسار " ش م ب ع ل " / أ ى ا ل / ش ١٠ " وترجمته : " شمى بعل أيا – ايل ١٠ شكل "



(شكل ١٨) نقش تابوت " احيرام " ملك بيلوس الذى يعتبر أقدم نقش وجد على الأرض الفينيقية ، وتتمثل فيه خصائص الكتابة الفينيقية التى ميزتها طوال العصور ، وهى اكتمال الصفة الخطية والاتجاه الأفقى من اليمين إلى اليسار والفواصل بين الكلمات التى على شكل خطوط رأسية .

وقد وضعت فوق بعض الحروف أصولها كما ظهرت بوضوح فى الكتابة السينائية المبكرة ، والتى ظلت أسماؤها مرتبطة بالحروف الفينيقية رغم زوال الشكل الأصلى للحرف نتيجة لاختصاره وابتعاده تماما عن شكله السينائى .



(شكل ١٩) اختلاف حروف الأبجديتين العبرية المبكرة والآرامية عن الفينيقية فى القرن ٦ ق.م .

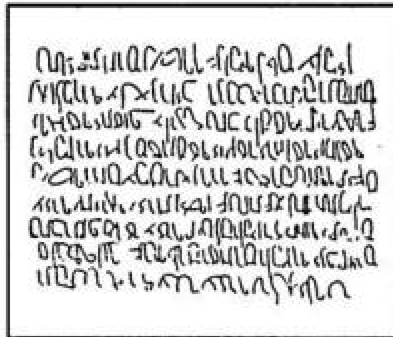
ن ب ش هـ د ى ح م ر ت د ى ب ن هـ ل هـ ا د ى ن ت ب ع ل هـ

(شكل ٢٠) النقش الآرامى فى حوران الذى يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد ، وفيه يمكن تتبع الأصل الآرامى لأشكال الحروف النبطية . ويلاحظ أن الأربطة التى ستصبح من خصائص الخط النبطى لم تظهر بعد فى هذا النقش .

وفيما يلى قراءة ، وترجمة للنقش كلمة كلمة طبقا لكلمات النقش :

القراءة : ن ب ش هـ د ى ح م ر ت د ى ب ن هـ ـ ل هـ ا د ى ن ت ب ع ل هـ

الترجمة : قبر (أو شاهد قبر) ل حمرة الذى بناه لها أذينة سيدها .



(شكل ٢١) نقش نبطى محفور على الواجهة الصخرية لأحد أضرحة مدائن صالح (الحجر المذكورة فى القرآن الكريم) وهو نموذج للنقوش العديدة التى من هذا النوع فى مدائن صالح .

والنقش مؤرخ بما يعادل العام الأول قبل الميلاد ، ويتميز بغلبة الأربطة بين حروف كلماته . والنقش يقرأ من اليمين إلى اليسار . وفيما يلى قراءة وترجمة للسطر الأول من النقش الذى تم تكبيره ، والفصل بين كلماته لتيسير متابعة أشكال الحروف والأربطة .

القراءة : دنة قبرا دى عبد عيدو بر كهيلو بر

الترجمة : هذا القبر الذى شيده (ه) عايد بن كهيل بن

الصوت	آرامي (القرن الثامن)	آرامي (القرن السادس)	تدمري	نبطي	نبطي	عربي قديم	كوفي
أ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
هـ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ح	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ط	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ي	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ل	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
پ/ف	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ر	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

(شكل ٢٢) قائمة تطور الأبجدية الآرامية فى القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد واشتقاق الأبجديتين التدمرية والنبطية خلال القرون المسيحية الأولى ، ثم تطور النبطية فى مرحلتين متعاقبتين واشتقاق الأبجدية العربية القديمة (أو المبكرة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين) حتى اشتقاق الأبجدية الكوفية أو الخط الكوفى منها فى صدر الإسلام .

(شكل ٢٣) شجرة الأبجديات القديمة والحديثة التى تفرعت من الأبجدية السينائية المبكرة ، وانتشرت فى حوض البحر المتوسط والجزيرة العربية والحبشة عبر القرون (وكذلك فى إيران والهند ، وإن كنا لم نوضح أبجديات هذين البلدين فى الرسم) . ويتضح فيها أن الأبجديات التى لم تندثر ، وتعتبر اليوم من تراث حضارة مصر الفرعونية فى الحضارة الإنسانية هى بحسب اتساع انتشارها : الأبجديات الأوروبية ، ثم الأبجدية العربية ، ثم الإثيوبية ، ثم العبرية المتأخرة (الخط المربع) ، ثم السريانية .

(١) هناك رأى ساد فيما مضى مؤداه أن الأبجديتين الآرامية والعبرية المبكرة اشتقتا من الأبجدية السامية الشمالية مباشرة وليس من الفينيقية (Jensen 1958, p.286) ولكن الرأى الموضح هنا هو الأحدث (Naveh 1987, p. 53) .

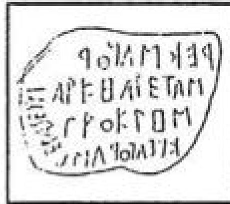
(٢) تجمع الأبجديات الثلاث (اللحيانية والثمودية والصفوية) أحيانا تحت مسمى واحد هو " الأبجديات العربية الشمالية " .



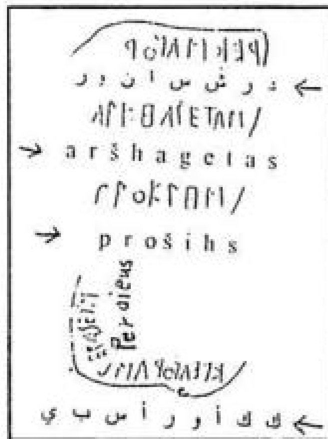
القراءة : ك س / ش م ع / ـ ب ن ل أ ...

الترجمة : كأس شمع بن ...

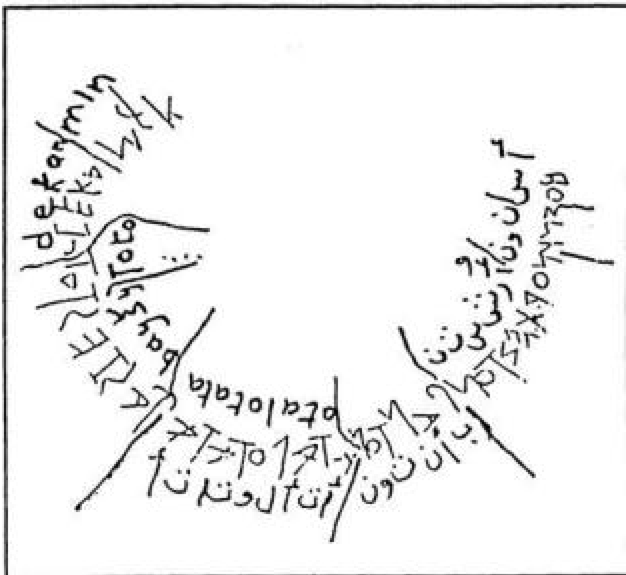
(شكل ٢٤) نقش كنوسوس فى جزيرة كريت ، وهو نقش كنعانى يرجع للقرن ١١ ق.م ، تظهر فيه الشرطة الرأسية كفاصل بين الكلمات كما يظهر فيه الاتجاه من اليمين إلى اليسار .



(شكل ٢٥) نقش جزيرة ثيرا بشكله الأصلى الكامل .



(شكل ٢٥ ب) تفصيل نقش جزيرة ثيرا ، وقد تمت تجزئته لتوضيح الطريقة الحلزونية التى اتبعت فى كتابته ، وقد وضعت قراءته أسفل السطور بالحروف العربية للسطور التى تتجه كتابتها من اليمين إلى اليسار ، وبالحروف اللاتينية للسطور التى تتجه كتابتها من اليسار إلى اليمين .

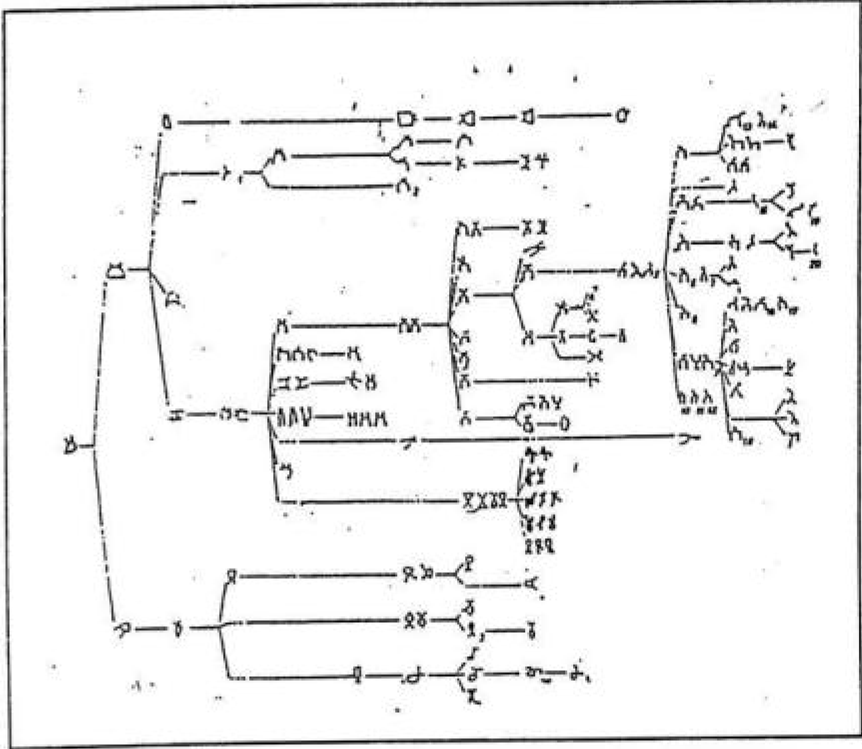


(شكل ٢٦) نقش إناء Dipylon من أثينا ، وهو أقدم نقش يوناني على الأرض اليونانية نفسها ، ويرجع إلى أواخر القرن الثامن ق.م ، وقد كتبت قراءته بكل من الحروف العربية واللاتينية تبعا لاتجاه الحروف .

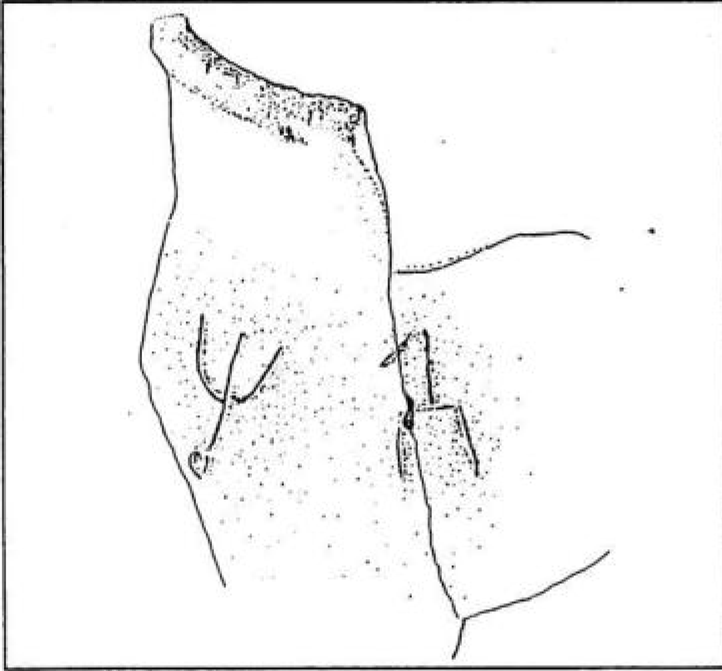
ترجمة النص : من يؤدى الرقص أكثر رشاقة ، فسوف يتسلم هذا (الإناء – الكأس) .

	تسمية الحرف		شكل الحرف				
	بالفينيقية	باليونانية	فينيقية	يوناني [illegible]	يوناني [illegible]	يوناني [illegible]	يوناني [illegible]
1	الف	الفا	ⲁ	ΔΑ	ΑΑ	ΑΑ	Α
2	بيت	بيتا	9	ᗺᗺ	Β	Β	Β
3	جيمل	جاما	7	11	Γ	ΓC	Γ
4	دالت	دلتا	◁	◁ D	Δ	ΔD	Δ
5	هي	ع ابسيلون x قصيرة	ⴺ	ⴺ	ⴺ E	E E	E
6	واو	خ ابسيلون x	Y	Y V	Y V	Y V	Y
7	زين	دزيتا	I Z	I	I	I	I Z
8	حيط	ع الطويلة ابا x	ⴴ H	ⴴ H	H	ⴴ H	H
9	طيط	تيتا	⊕	⊕ ⊙	⊕ ⊙	⊕ ⊙	Θ
10	يود	يوتا x	Z	ⵢ	I	I	I
11	كف	كابا	ⴾ	K	K	K	K
12	لامد	لامدا	⅃ L	⅃ L	Λ	Λ	Λ
13	ميم	مي	ᛗ	M	M	M	M
14	نون	ني	ᛋ	N	N	N	N
15	سامك	كسي XSi	ⵉ		Ξ		Ξ
16	عين	٥ ميكرون (قصيرة) x	o	O	O	O	O
17	في	بي	⊃	Π	Π	Π	Π
18	صادي	سبي x	M	M			
19	قوف	كوبا	ϙ ϙ	ϙ ϙ	ϙ	ϙ	
20	ريش	رو	◁	P	P	P	P
21	شين	سيجما x	W	ξ	ξ	ξ	Σ
22	تاو	تاو	+ X	T	T	T	T
23	—	فى			Φ	Φ	Φ
24	—	خي			X	X +	X
25	—	بسي Psi			Ψ	Ψ	Ψ
26	—	٥ اوميجا (طويلة)		O	Ω		Ω

(شكل ٢٧) جدول يوضح التشابه بين الحروف الأبجدية اليونانية وحروف الأبجدية الفينيقية ومراحل تطور الأبجدية اليونانية حتى المرحلة الكلاسيكية .



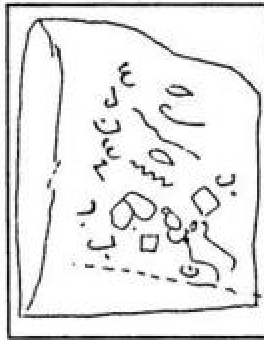
(شكل ٢٨) مراحل تطور حرف الألف البروتوسيناتى إلى حرف الألف العربى الجنوبى (فى الخط المسند) كما وردت فى النقوش المبكرة على صخور اليمن ، وهى من أدلة انتقال الأبجدية البروتوسينائية نحو الجنوب واشتقاق الأبجدية السامية الجنوبية منها .



(شكل ٢٩) نقش على بقايا جرة وجدت فى تل الخليفة بالقرب من مدينة العقبة ، ويظهر فيه حرفان من حروف الخط المسند المبكر ، وهما حرف الألف إلى اليمين ، وحرف الحاء أو الصاد المقلوب إلى اليسار . ويدل وجود هذا النقش فى هذه المنطقة بالإضافة إلى وجود حروف سينائية مبكرة فى شمال اليمن (شكل ٢٨) على أن انتقال السينائية المبكرة إلى اليمن حدث عبر الطريق التجارى البرى الذى كان يمتد من جنوب اليمن نحو الشمال مارا بالمناطق المحيطة بمدينة العقبة ومنتهيا فى فرعه الغربى عند مدينة غزة فى فلسطين .

(شكل ٣٠) نقش سبئى مبكر يظهر فيه التشابه بين أشكال بعض حروفه (المكتوبة بالخط الثقيل) وبين حروف الأبجدية السينائية المبكرة (المكتوبة بالخط الرفيع) إلى جانب الحروف السبئية المناظرة لها ، كما تظهر فيه الكتابة فى خطوط رأسية .

(شكل ٣١) نقش سينائى مبكر تظهر فيه الكتابة فى خطوط رأسية وهو فى ذلك يشبه النقش السبئى شكل ٣٠ .



من أجل
نعمة
(قربـان)
رب
الأنصـاب
(أو النقب)
(المنقبين)
من المعادن
أو الفيروز

(شكل ٣٢) نقش سينائى مبكر يظهر فيه الاتجاه الحلزونى للكتابة الذى ميز النقوش السينية المبكرة .

رقم السطر	الدلالة الصوتية (النطق)	الترجمة
١	ل ح ى / [ع ث ت / و]	لحي عثت (اسم شخصي)
٢	[هـ ل ك ا م] / و / ب	وهلك امر (اسم شخصي)
٣	ن / ع [م ع هـ ر / ا]	أبناء عم عهر
٤	ب ن / ح ى و م	بي حيوم
٥	/ ر ش و / ا ل م	كاهن (الإله) * إيل -
٦	ق هـ / و ذ ت / ح	مقة (المقة) *والإلهة ذات
٧	م ى م / و س م	حميم و(الإله) سامع
٨	ع / ذ ظ ب ي ت	ذو ظبية
٩	و ع ث ت ر / س م	و(الإله) * عثتر سامع *
١٠	ع / هـ ق ن ي / س	كرسوا
١١	م ع / ذ ظ ب ي ت	(للإله) سامع ذو ظبية
١٢	/ ع م / ذ ر أ / و	عم ذرأ (اسم شخصي)
١٣	ول د هـ م ي / و	وأولادهما
١٤	ق ن ى هـ م ي /	وأملاكهما (أو عبيدهم)

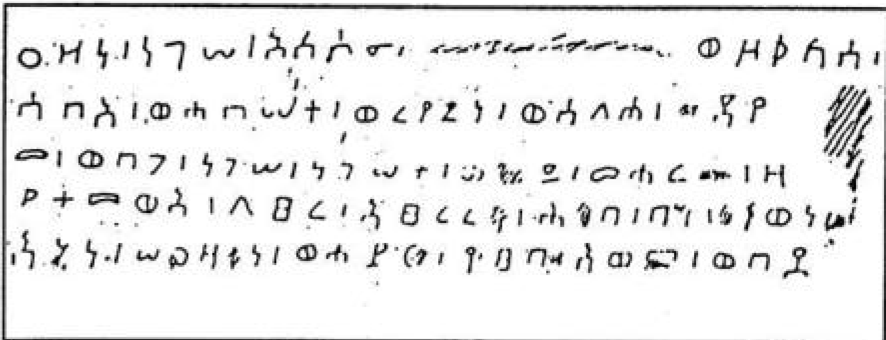
(شكل ٣٣) نموذج لحروف الكتابة السبئية المبكرة (الخط المسند) في نقش محفور على لوحة من المرمر محفوظة الآن في متحف قسم التاريخ بكلية الآداب بجدة ، وقد اتبعت الطريقة الحلزونية في كتابة الأسطر (السطر الأول يبدأ من اليمين والثاني من اليسار والثالث من اليمين وهكذا كما تشير الأسهم) . والكتابة السبئية المبكرة تشبه في ذلك اتجاهات بعض النقوش البروتوسينائية (شكل ٣١) مما يدل على اشتقاق الخط المسند من الخط البروتوسينائي وبجوار النص وضحت قراءته (الدلالة الصوتية أو النطق) وترجمته سطرا سطرا .

الحرف	الأبجدية السينائية المبكرة (البروتوسينائية)	الأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند)
أ		(Jamme)
ب		
ج		
د		(Jamme)
ذ		(Jamme)
هـ		
و		(Pursed for y)
ز	?	
ح		
خ		(Jamme)
ط	?	
ي		(orig. w)
ك		
ل		(Jamme)
م		(fd) (sch)
ن		
س	?	
ع		
غ		(Jamme)
ف		
ص		
ض	?	
ق		(Jamme)
ر		
ش		
س		(Jamme)
ت		(Jamme)

(شكل ٣٤) جدول يوضح اشتقاق حروف الأبجدية السامية الجنوبية المبكرة (الخط المسند) من الأبجدية السينائية المبكرة (البروتوسينائية)

الحرف			
أ			አ
ب			በ
ج			ገ
د			ደ
هـ			ሀ
و			ወ
ز			ዘ
ح			ሐ
ط			ጠ
ى			የ
ك			ከ
ل			ለ
م			መ
ن			ነ
س/ز			
ع			ዐ
ف			ፈ
ص			ጸ
ق			ቀ
ر			ረ
ش			ሠ
ت			ተ

(شكل ٣٥)
مراحل اشتقاق حروف الأبجدية الحبشية القديمة (التى تطورت إلى الأثيوبية أو الجعزية) من حروف الأبجدية السبئية (الخط المسند)



(شكل ٣٦) نقش الملك " عيزانا " ، وهو أقدم نقش بالأبجدية الحبشية القديمة ، ويلاحظ الشبه الكبير بين حروفه وبين حروف الخط المسند .

(شكل ٣٧) جدول يوضح وجود الروادف في كل من الأبجدية السيناتية المبكرة والسبئية والحبشية القديمة (الأثيوبية التي تطورت عنها) مما يدل على تسلسل اشتقاق الأبجديات الثلاث .

ቈ	ቊ	ቋ	ቌ	ቍ
qŭă	qŭī	qŭā	qŭē	qŭĕ
ኈ	ኊ	ኋ	ኌ	ኍ
ḫŭă	ḫŭī	ḫŭā	ḫŭē	ḫŭĕ
ኰ	ኲ	ኳ	ኴ	ኵ
kŭă	kŭī	kŭā	kŭē	kŭĕ
ጐ	ጒ	ጓ	ጔ	ጕ
gŭă	gŭī	gŭā	gŭē	gŭĕ

(شكل ٣٨) يوضح طريقة إضافة زيادات إلى شكل الحرف الساكن الواحد في الأبجدية الأثيوبية لتكوين عدة حروف متحركة منه .



(خريطة رقم ١ (أ)) شبه جزيرة سيناء ، والمستطيل الموضح عليها هو المرسوم فى خريطة ١ (ب)* ، وهى لتوضيح موقع منطقة سرابيط الخادم ، حيث نشأت الأبجدية السينائية المبكرة .



(خريطة رقم ١ ب)



(خريطة رقم ٢)

لتوضيح مناطق انتشار الأبجدية الكنعانية المبكرة ، ومناطق الأبجديات التى تفرعت عنها فى الشام ، وهذه المناطق هى من الجنوب إلى الشمال :

-١- قبور الولايدة -٢- تل العصى -٣- لكيش (تل الدوير)

-٤- بيت شمس (أو الشمس) -٥- تل جازر -٦- شكيم (تل بلاطة)

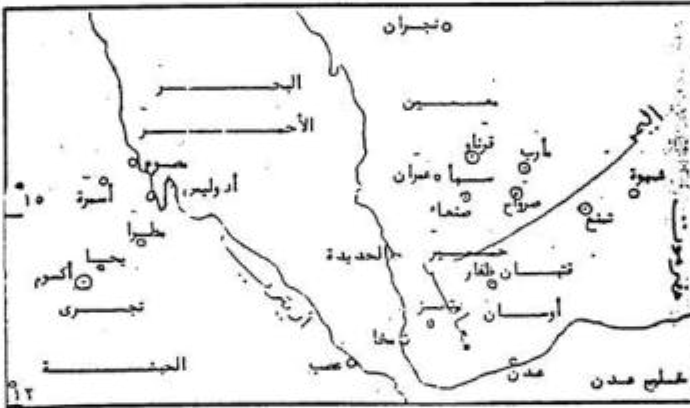
-٧- جبيل أو بيلوس

(خريطة رقم ٣) انتشار الأبجدية الكنعانية (التى تطورت عنها الأبجدية الفينيقية) إلى بلاد الاغريق وما يتاخمها من مناطق وهى :

١- نقش كنوسوس فى جزيرة كريت .

٢- نقش جزيرة ثيرا فى مناطق جزر الكيكلاد .

٣- نقش أثينا فى بلاد اليونان .



(خريطة رقم ٤) انتشار الأبجدية السبئية في بلاد الحبشة ، والخريطة توضح موقع مدينة مأرب عاصمة دولة سبأ وموقع مدينة أكسوم التي أسس فيها السبئيون دولة نقلوا إليها حضارتهم التي لم يتبق منها بمرور القرون سوى الكتابة (الأبجدية) السبئية التي تطورت إلى الكتابة (الأبجدية) الحبشية القديمة ، ثم إلى الكتابة (الأبجدية) الأثيوبية الجعزية .

– المواقع الموضحة بدائرة داخلها نقطة ⊙ تشير إلى أسماء العواصم القديمة .

د. كرم حلمي فرحات (*)

دراسة علمية حول مخطوطة الخلفاء الأربعة للإمام إسماعيل بن محمد التيمى

مقدمة

أحمد الله ، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ... وبعد ...

فإن لكتاب " الخلفاء الأربعة " للإمام إسماعيل التيّمى أهمية بالغة ، نظرا لتناوله فترة تاريخية لاكتها ألسنة شتّى ، ولعبت الأهواء فيها دورا خطيرا فى توجيه الروايات . ولكن الإمام إسماعيل انتقى روايات هذا الكتاب ودعمها بالأسانيد وفق منهج المُحدِّثين ، الذين ينتمى الإمام إسماعيل إلى مدرستهم .

وقد أبدى اهتماما بالغا فى أن يتبع منهج أهل السنة والجماعة ، فيما وقع بين صحابة الرسول ص من خلافات وفتن ، وأنفرد بمعلومات أتعبنى البحث فى أن أعزوها إلى مصادرها ، منها ما نوّه عن مصادرها ، ولكنها فُقِدت فاحتفظ بها كتاب الخلفاء الأربعة .

والإمام إسماعيل التيمى مؤلف كتاب الخلفاء الأربعة إمامٌ من أئمة المسلمين ، وهو من شيوخ السمعانىّ صاحب الأنساب ، ومن شيوخ أبى طاهر السلفى ، وأبى موسى المدينى ، وأبى قاسم بن عساكر صاحب " تاريخ دمشق " المشهور " بتاريخ ابن عساكر " .

---

* – مدرس بمعهد الدراسات الأسيوية – جامعة الزقازيق .

وقد تناولت فى هذا البحث عصر الإمام إسماعيل التيمى وما اشتمل عليه من دراسة الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة العلمية .

وتناولت شخصية الإمام إسماعيل التيمى وكيفية طلبه للعلم والشيوخ الذين علموه ، وذكر التلاميذ الذين تعلموا على يديه ، كما تناولت ثقافته المتنوعة ، وتناولت أيضا مؤلفاته العلمية فى شتى المجالات ثم ختمت بوفاته .

وقمت بدراسة المخطوطة " الخلفاء الأربعة " وما اشتملت عليه من تسمية الكتاب وصحة نسبته إلى الإمام إسماعيل التيمى ، والمنهج الذى سلكه فى كتابته ، ومصادره التى استقى منها مادته العلمية .

كذلك عالجت أهمية الكتاب بسبب تعرضه لفترة الفتنة المعروفة ، وتناولها بطريقة بعيدة عن الاتهامات ، قريبة كل القرب من منهج أهل السنة والجماعة فى أحداث تلك الفترة ، واحتوائه على نصوص من كتاب السنة للقاسم ابن محمد الذى فقد . ثم تناولت وصفا للمخطوطة المعتمدة فى التحقيق وصفا دقيقا كنسخة فريدة ليس لها نسخة أخرى تقويها أو تعضدها .

عصـــر المؤلـــف

الحياة السياسية :

عاش الإمام إسماعيل الأصبهانى ما بين عام ٤٥٧ وعام ٥٣٥ هـ ، وقضى أكثر أيامه فى إيران ، وتوفى بها ، وكانت تلك الفترة فى ظل الخلافة العباسية ، وتحت سيطرة الدولة السلجوقية ، التى بسطت نفوذها على إيران موطن الإمام إسماعيل ، وكان مؤسسها القائد "سلجوق بن تقاق" ، ظهرت محاولة السلاجقة نتيجة الفرار من الموت على يد ملك الترك "بيغو"(١) أو أنها ظهرت نتيجة هجرتهم من تركستان إلى ما وراء النهر بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم(٢) .

اعتنق السلاجقة الإسلام بحماس بالغ ، ملك منهم قرارة النفوس والأرواح ، واجتاحوا بجموعهم الكثيفة إيران والجزيرة وسوريا وآسيا الصغرى ، واستطاعوا بذلك أنْ يوحّدوا البلاد الإسلامية الأسيوية ، وأن يجعلوها تحت حكم واحد ، ودفعوا البيزنطيين إلى ما وراء حدودهم، وأنشأوا جيلا من المحاربين المخلصين(٣) . وكان هدفهم إنقاذ الدولة العباسية ، رجاء أن

يدركوها فى ساعاتها الأخيرة ، فصح رجاؤهم ، واستطاعوا أن يوحدوها مرة ثانية تحت حكم واحد بدلاً من مجموعة الدويلات المشتتة المبعثرة(٤) .

بعد تولى " ألب أرسلان " أمر السلاجقة بعامين كان ميلاد الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد الأصبهانى ، وذلك فى عزة وقوة سلطان الدولة السلجوقية ، وسيرتهم فى الناس حسنة، وكان ألب أرسلان شغوفا بالرعية باراً بأهله كثير الصدقات(٥) . حتى ليقال أنه كان يوزع على الفقراء فى نهاية شهر رمضان كثيرا من المال ، وكان محبا لدراسة التاريخ ، يستمع فى شغف ومتعة إلى ما يقرأ له من سير الملوك الغابرين ، وإلى الكتب التى تكشف الغامض من أخلاقهم وقوانينهم وأساليب إدارتهم(٦) .

لقد نشأ الإمام إسماعيل الأصبهانى فى بيئة زخرت بالعلم والعلماء ، تحت قيادة السلطان ألب أرسلان ، الذى هيأ الجو السياسى الذى خدم الدولة من الداخل وخاصة العلم والعلماء ، حيث أمر وزيره نظام الملك أن يبنى أماكن للعلماء ، وأعطاهم النفقات الكافية لهم ، ليتفرغوا لطلب العلم(٧) .

كما كان الوزير نظام الملك يكرم الأدباء ، ويقرب الفضلاء والعلماء ، ولا يضنّ ببذل جهوده فى نشر الدين والتعليم ، وتأسيسه للمدرسة النظامية الشهيرة ببغداد ، وقد ضمت كثيرا من الأساتذة والمدرسين(٨) .

وكما اهتم السلطان " ألب أرسلان " بالسياسة الداخلية للدولة فقد اهتم أيضا بالسياسة الخارجية . فاستطاع بسياسته الاستيلاء على فارس سنة ٤٥٩ هـ(٩) . ثم توجه إلى "كرمان" ومنها إلى " مرو " بعد أن استوثق من رسوخ حكم السلاجقة فى إيران والعراق ، وظل مشغولا بتحقيق الأهداف السياسية .

ثم سار لغزو ملك الروم " رومانوس " الذى أراد غزو بلاد الشام فالتقى به ألب أرسلان فى " ملاذكرد " سنة ٤٦٤ هـ وتمكن السلطان ألب أرسلان بجيشه أن يتغلب على " رومانوس " ووقع أسيرا فى يد جنود السلطان ألب أرسلان(١٠) . ولكن السلطان أطلق سراح الإمبراطور "رومانوس" لقاء فدية كبيرة وعقد معه معاهدة تسرى شروطها مدة خمسين عاما(١١) .

وتولى أمر الدولة السلجوقية السلطان ملكشاه وأقر الوزير نظام الملك على الوزارة(١٢) . ثم صرف أمره إلى توسعة رقعة الدولة السلجوقية ، وإصلاح الشئون الداخلية والخارجية ، وجعل نظام الملك ساعده الأيمن ، يدبر له الأمور ، وإذا تيسر له شئ من فراغ الوقت قضاه فى

الإشراف على المدارس الكثيرة التي بناها في بغداد وأصفهان ، مستمعا إلى حديث الصفوة من العلماء والفضلاء ، أو مشتغلا بتأليف رسالته الكبيرة عن تاريخ الحكم وفن الحكومة(١٣). هذه الأمور تكشف لنا أن عصر السلطان ملكشاه عصر رواج للعلم والعلماء ، رواج للعلوم المذهبية والأدبية بخاصة ، وعصر انطلاق للحركة المدرسية في الإسلام ، وكانت طبيعة الظروف السياسية العامة وقتئذ تتطلب تلك السياسة التعليمية . وقد ساعد كل هذا على تهيئة الظروف الملائمة لمثل الإمام إسماعيل وغيره من العلماء ، لكي يصل إلى المرتبة العلمية التي توصل إليها . فأقام بأصبهان أكثر من ثلاثين سنة قبل الخمسمائة يعلم الناس فنون العلم(١٤).

كانت سيرة السلطان ملكشاه العدل ، وسيرته الإنصاف والفضل ، ولم يُتوجه إلى إقليم إلا فتحه ، ولما توجه إلى " الشام " و " إنطاكية " بلغ إلى حد " قسطنطينية " ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبرا إسلاميا ، وعاد إلى " الرى " وقصد فتح " سمرقند " ولم تزد مدة هذه الأعمال على شهرين(١٥) .

وبسط السلطان ملكشاه نفوذ السلاجقة على هذا الإقليم ، ثم لم يلبث أن خضع له والي "كشغر" فامتد نفوذ السلاجقة شرقا كما امتد غربا(١٦) .

وفي عام ٤٨٢ هـ هاجم السلطان ملكشاه " بخارى " حتى ضمها إليه ثم حاصر "سمرقند" واستولى عليها بعد قليل ، ثم ألحق بها مدينة " أورجند أو أوزكند "(١٧) . وأصبحت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك مصدر رعب ، يهدد العالم المسيحي ويخيفه ، بسبب ما احتلت دولته من الاتساع ، من أقصى بلاد الترك ، إلى أقصى بلاد اليمن وراسله الملوك من سائر البلاد والأقطار حتى ملوك الروم والخزر واللاق ، وكانت دولته صارمة(١٨).

ثم لم يلبث السلطان ملكشاه أن توفي في شوال من عام ٤٨٥ هـ ، ومن قبله بشهر وأيام قتل نظام الملك على يد أحد أتباع الحسن بن الصباح .

وخلف السلطان ملكشاه من الأولاد " بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود " وهو أصغرهم(١٩). وبدأ التنافس على النفوذ والسلطان بعد موت ملكشاه ، مما أدى إلى الصراع المسلح ، وإحراز النصر ، ووقوع الهزيمة بينهم ، مما أدى إلى التفكك والضعف ، وتقسيمها إلى دويلات ، حتى تولى السلطان سنجر بن ملكشاه السلطة في عام ٥١٣ هـ ، واعترف به الخليفة العباسي سلطانا على السلاجقة ، وأصبح بلا منازع ، له الكلمة العليا ، وبسط نفوذه

على أكثر أجزاء إيران والعراق ، وصارت تضرب له السكة في أقاليم ما وراء النهر ، وخراسان وطبرستان ، وكرمان وسجستان ، وأصفهان وهمذان والري وأذربيجان وأرمينية وبغداد ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين(٢٠) . وامتاز عصر السلطان " سنجر " من ناحيته الأدبية والعلمية بكثير من البهاء ، الذي امتاز به عصر السلطان ألب أرسلان وملكشاه ، فقد ازداد عدد الأدباء الإيرانيين من كتاب النثر والشعر ، وتم خلاله تأليف عدد من أمهات الكتب العربية التي أخرجتها إيران(٢١) . مما أعطى انطباعا عن أن النصف الأخير من حياة الإمام إسماعيل الأصبهاني لم يحرم من اهتمام السلطان " سنجر " بالعلم والعلماء ، مما ساعد على وجود الحركة العلمية الدائبة عند الإمام إسماعيل في التأليف ، وإملاء المجالس ، وعقد مجالس الفتوى . وقد ألف الإمام إسماعيل كتابه " سير السلف " في عصر السلطان سنجر كما جاء بنسخة الكتاب الموجودة بمكتبة نواب سيد محمد علي حسن خان بندوة العلماء بلكنو - الهند بالورقة الثانية أنه أملاه يوم الثلاثاء السابع من شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة .

الحياة الاجتماعية :

اتسم عصر السلاجقة بعدم الاستقرار ، وذلك قبل مولد الإمام إسماعيل الأصبهاني ، وذلك في بادئ أمرهم ، فقد غلب عليهم طابع التنقل والارتحال ، وذلك قبل سيطرتهم على إيران ، وما جاورهم من البلاد الإسلامية . ولما أصبحت في أيديهم مقاليد الأمور تركوا آثارا واضحة في الحياة الاجتماعية ، ففي عهد السلاطين الأوائل " طغرلبك " و " ألب أرسلان " و "ملكشاه" استقرت الأوضاع إلى حد ما ، وبعدها حدث الاضطراب بين الأخوين " بركيارق ومحمد " ولدي " ملكشاه " نزاعا على العرش ، وبعدها جاء عهد السلطان " سنجر " وحمل معه بعض الاستقرار حتى وفاة الإمام إسماعيل الأصبهاني ، في سنة ٥٣٥ هـ . ونظرا لحاجة السلاجقة إلى إقامة دولة على أسس قوية ، احتاجوا إلى كثير من الموظفين للاستعانة بهم في مختلف شئون الدولة فعملوا على تشجيع الصناع والإكثار من اختيار الموظفين ، وحفلت كل مدينة بعدد من الفئات أو الطوائف كطائفة العظماء ، وطائفة الصناع وطائفة الموظفين ، وطائفة التجار ، وطائفة أبناء القبائل السلجوقية(٢٢) .

لقد ساعدت الحياة الاجتماعية في إيران على نشر العلم وإخراج العلماء ، وسار نظام سيرة حسنة عادلة ، فأسقط المكوس والضرائب وأزال لعن الأشاعرة من المنابر(٢٣)، وشجع

على تعمير المدن وإصلاح البلاد وشيد كثيرا من المساجد والمدارس(٢٤) . وكان السلطان ألب أرسلان يجل العلماء ويأخذ برأيهم ، وصار إحسان السلطان ملكشاه بين أهل العلم ميراثا يأخذونه بقدر الفرائض ويأمنون به من النوائب والعوارض(٢٥) . وكان للسلطان ألب أرسلان إمام وفقيه ، لا يقطع أمرا بغير رأيه(٢٦) .

ازدهرت الحياة الاجتماعية بفضل سياسة الوزير نظام الملك ، لأنه أوصى حكام الأقاليم بالعدل بين أفراد الرعية ، وعدم إرهاقهم بالضرائب والامتناع عن أخذها من المعسرين(٢٧) .

وكان يطمئن بنفسه على الضعفاء والعجزة والفتوى ، وأقام كثيرا من مؤسسات البر والخير في بغداد وأصفهان ، وسائر أقطار وأطراف البلاد ، وأوقف على هذه المؤسسات الخيرية مزارع وضياعا عامرة وأسواقا ومستلزمات نافعة(٢٨) .

الحياة العلمية :

أحاط حكام السلاجقة أنفسهم بطائفة من العلماء ، وشجعوا المشتغلين بالعلم ، وأجزلوا لهم المكافآت ، وأكثروا لهم من بناء المدارس وخزائن الكتب الملحقة بها ، ومساكن الطلبة ، ووقفوا عليها الأوقاف الكبيرة ومن وجد فى بلدة قد تميز وتبحر فى العلم ، بنى له نظام الملك مدرسة ، ووقف عليها وقفا ، وجعل فيها دار كتب(٢٩) .

وكان السلطان ألب أرسلان وملكشاه والوزير نظام الملك يجالسون العلماء ، وينفقون عليهم الأموال ، وقد اتخذوا منهم الفقهاء والأئمة ، كالسلطان ألب أرسلان جعل له إماما وفقيها هو محمد بن عبد الملك البخارى الحنفي(٣٠) . كما كانوا يحبون مجالسة العلماء وكان نظام الملك ملجأ العلماء ، فمن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره ، وتدريس الفضل وذكره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحيي به حقه ويميت باطله(٣١) .

وفى القرن السادس الذى أدرك نصفه الأول إسماعيل الأصبهانى قد تزايد الاهتمام بالمدارس وإنشائها ، التى تسببت فى رواج اللغة العربية ، وخدمة الدين ، ونشر العلوم الدينية وكان على الدارسين قراءة الكتب التى تتناول مجال العلوم الدينية بشتى فروعها ، مما يتطلب منهم إطلاعا كافيا فى ميدان اللغة والأدب ، مما أدى ذلك إلى ازدياد معرفة الدارسين باللغة العربية ، فقويت وقوى أدبها وعظم أثرها ونفوذها فى الأدب الفارسى(٣٢) .

فقد كانت مدارس السنة تفوق مدارس الشيعة بمراحل ، وكانت كل مجموعة منها وقفا على فرقة خاصة كالشافعية أو الحنفية وأمثالها ، فكانت المدارس النظامية من أهم مدارس أهل السنة فى عهد السلاجقة ، وعين نظام الملك راتبا ثابتا للطلاب(٣٣) . وأوقف الأموال الكثيرة لتغطية رواتبهم ورواتب الفقهاء(٣٤) . وأنفق على المبانى بسخاء(٣٥) . وعمت المدارس النظامية ببغداد ونيسابور والبصرة ، وأصفهان وبلخ وهراة ويزد والموصل(٣٦) . ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس شرف عظيم وفخر مخلد(٣٧) .

ولقد كان عصر الإمام إسماعيل الأصفهانى عصر رواج للعلوم المذهبية والأدبية ، وعصر انطلاق للحركة المدرسية فى الإسلام ، وكانت طبيعة الظروف السياسية العامة وقتئذ تتطلب تلك السياسة التعليمية ، كما أن التعليم فى هذه المدارس كان امتدادا لحركة التعليم فى المساجد ، فقد استمرت المساجد فى أداء وظيفتها التعليمية فى العصر السلجوقى . وأملى الإمام إسماعيل فى مسجد أصبهان ما يقرب من ثلاثة آلاف مجلس علم(٣٨) . وكان يحضر مجلس إملائه الأئمة الحفاظ والمسندون(٣٩) .

وقد تأثرت طائفة السلطان وأعوانه من الوزراء بهذا الرقى العلمى ، فكان السلطان ألب أرسلان كثيرا ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم وأحكام الشريعة(٤٠) . وأملى نظام الملك الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما(٤١) .

كما كان للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ت ٥٢٥ هـ معرفة بالشعر والنحو والتاريخ وكان قوى المعرفة بالعربية ، حافظا للأشعار والأمثال ، عارفا بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير(٤٢) .

وفى ظل هذه الحركة التعليمية النشطة ترعرع العلم ، ووجد طائفة من جهابذة العلماء من الرجال والنساء . استفاد منهم الإمام إسماعيل ، وتكونت شخصيته المتميزة الجامعة بين الحديث والفقه والتفسير واللغة ، كما أفادته هذه الحركة العلمية فى نشر علمه ، واستفاد الناس منه ، ومما يعطى أيضا عصر الإمام إسماعيل الأصبهانى صفة الحركة التعليمية النشطة ظهور المؤلفات العلمية فى شتى العلوم ، فكان للإمام إسماعيل نصيب طيب فى هذه المؤلفات فألف فى الحديث والتفسير والتوحيد والتاريخ والسير ، وقد راجت العلوم الشرعية والعلوم العقلية فى عصر الإمام إسماعيل ، مما كان لها أكبر الأثر فى حياته العلمية ، وقد شارك فيها وأسهم بمؤلفات كثيرة ، فكان صاحب المصنفات الحسنة فى العلوم الشرعية(٤٣) .

حيـــاة المؤلــف

شخصية الإمام إسماعيل

هو الإمـام الحـافظ قـوام السنة أبو القـاسم إسـمـاعيل بن مـحـمـد بن الفـضل بن على التيـمى(٤٤). ثم الطلحى(٤٥) الأصبهانى المتوفى سنة خمسمائة وخمس وثلاثين من الهجرة النبوية(٤٦) . ويلقب بألقاب متعددة ، فيلقب بقوام السنة وقوام الدين والجوزى .

كانت مدينة أصبهان مسقط رأس الإمام إسماعيل ، وقد نسب إليها فى تاسع شوال سنة سبع وخمسين وأربع مائة من الهجرة النبوية(٤٧) .

نشأ الإمام إسماعيل فى بيئة عُلمية ، ودرج فى بيت علم يتسم أهله بالصلاح والورع ، وقد حمل القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وسمع العلم وحرص عليه وعلى مجالسه ، وكان أبوه قد أرسله بعد أن ترعرع لسماع الحديث الشريف من العالمة الواعظة المسندة أم الفتح عائشة الوركانية ت ٤٤٦ هـ قال عنها الإمام إسماعيل : وهى أول من سمعت منه الحديث ، فبعثنى أبى إليها وكانت زاهدة(٤٨) .

طلبه للعلم :

بدأ الإمـام إسـمـاعيل سـمـاع العلم وهو صبى فـقـال عن نفسـه : " سـمـعت من عـائشـة الوركانية"(٤٩) وأنا ابن أربع سنين(٥٠) . وكان والده من العلماء الحاملين كتاب الله ، ولقد عرف بالصلاح والورع والزهد والأمانة .

وقال الإمام الذهبى : وأقدم سماع الإمام إسماعيل من محمد بن عمر الطهرانى صاحب ابن منده فى سنة سبع وستين وأربعمائة وهو ابن عشر سنين(٥١) .

نشأ الإمام إسماعيل فى بيت علم ونشأ على العلم والتعلم ، وقراءة القرآن وسماع الحديث وتعلم الفقه والتفسير والسير واللغة والأدب ، عارفا بالمتون والأسانيد(٥٢) . فـقـد شَب على العلم واجتهد فيه حملا وأداء حتى توفاه الله .

مضى الإمام إسماعيل عل سنن المحدثين من قبله فرحل فى طلب العلم ولم يكتف بالأخذ عن الشيوخ بأصبهان ، بل كانت له رحلات كثيرة إلى بغداد ونيسابور ، ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى ، والرى وقزوين ومكة ، وعاد إلى أصبهان حتى آخر عمره(٥٣) ، مشتغلا بالتحديث والإملاء والتصنيف والعبادة(٥٤).

شيوخه :

أكثر الإمام إسماعيل من الشيوخ الذين سمع منهم ، وأخذ عنهم سواء كان ذلك ببلده أصبهان أم البلدان الأخرى التى رحل إليها وأخذ عن علمائها ، وكان لمشيخته الأولى أثر فى توجيهه هذه الوجهة فى تلقى الحديث والتصدى لدراسته وحفظه . وقد زاد عدد شيوخه الذين حصلت لهم على ترجمة تزيد على السبعين شيخا ، أذكر منهم عددا على سبيل المثال وليس الحصر ، مثل :

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأصبهانى ت ٤٨١ هـ ، وأحمد بن الحسن ابن أحمد البغدادى المقرئ ت ٤٨٨ هـ ، وأحمد بن عبد الرحمن الهمذانى الزكوانى ت ٤٨٤ هـ ، وأحمد بن الحسن الطريثيثى ت ٤٩٧ هـ ، وأحمد بن على بن عبد الله بن عمر بن خلف الشيرازى مسند وقته ت ٤٨٧ هـ ، وأحمد بن عبد الله بن عمر الأسوارى ت ٤٩٦ هـ ، وأسعد بن مسعود بن على العتبى النيسابورى ت ٤٩٤ هـ ، وجعفر بن يحيى بن إبراهيم التميمى المكى ابن الحكاك ت ٤٨٥ هـ ، والحسن بن أحمد بن محمد السمرقندى ت ٤٩١ هـ ، وعبد الله بن يوسف الجرجانى ت ٤٨٩ هـ ، وعبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الرويانى الطبرى ت ٥٠١ هـ ، وعلى بن محمد بن شعيب الشيبانى الأنبارى ت ٤٧٨ هـ ، ومحمد بن إبراهيم ابن على بن أحمد القزوينى ، ومحمد بن أحمد بن عبد الباقى الربعى الموصلى ت ٤٩٤ هـ[٥٥] ، كما كان يحضر مجلس نظام الملك الحسن بن على بن الوزير[٥٦] . إن إحصاء شيوخ الإمام إسماعيل والحديث عنهم يحتاج إلى استقصاء واسع ، لأنهم من الكثرة بمكان ، وقد اكتفيت بما ذكرت .

تلامذته :

إن اشتغال الإمام إسماعيل بالعلم تحديثا وإملاء ، جعل له بالضرورة تلامذة كثيرة ، من أهم هؤلاء التلاميذ :

أبو طاهر السلفى أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهانى ت ٥١٦ هـ ، والحسن بن أحمد الهمذانى المقرئ ٥٦٩ هـ ، وعبد الكريم بن محمد بن منصور المروزى ت ٥٦٢ هـ ، وأبو موسى المدينى محمد بن أبى بكر ت ٥٨١ هـ ، وهشام بن عبد الرحيم البغدادى ت ٦٠٦ هـ ، ويحيى بن محمود بن سعد الثقفى ت ٥٨٤ هـ[٥٧] ، وغيرهم كثير .

ثقافته :

كان الإمام إسماعيل عميق الثقافة ، متسع المدارك ، خاليا من الشواغل والآفات فأكثر من الكتابة والتصنيف ، وتطالعنا كتب التراجم والسير بأخبار عن العلوم التى تبحر فيها ، وعن الثقافات التى عرف بها ، فهو عالم بالقراءات والتفسير والحديث والتوحيد والأدب واللغة والنحو والتاريخ والسير والأنساب ، فكان إماما فى التفسير واللغة ، وصنف فى التفسير والإعراب كتبا بالعربية والفارسية(٥٨) . وكان فاضلا فى معرفة الرجال ، حافظا للحديث ، عارفا بكل علم من علومه ، وتكلم فى الجرح والتعديل(٥٩) .

وصنف فى علم التوحيد لكي يبين اعتقاد السلف وأهل السنة ، وجمع دلائل التوحيد ومعرفة الله عز وجل على طريقة السلف الصالح(٦٠) .

وكان الإمام إسماعيل إماما فى اللغة والأدب ، فاضلا فى العربية ، ألف كتابا فى إعراب القرآن(٦١) . والمتتبع لمصنفاته التاريخية يجد أنه ضرب بسهم كبير فى علم التاريخ والسير والأنساب ، فقد أملى كتابه الضخم " سير السلف " بالمسجد الجامع . مما يعطينا فكرة واضحة عن الإمام إسماعيل أنه كان موسوعة علمية .

أما إذا أردت أن أتحدث عن مهنة الإمام إسماعيل ، فإننى أجد فيه مثال العالم العامل الدؤوب الجاد فى تحصيل العلم ، الحريص على جمعه وتطبيقه فى المسائل الدينية لاسيما ما يتعلق منها بالأمور الاعتقادية ، ولم أجد بين صفحات كتب التراجم من ذكر له مهنة يمتهنها غير العلم والتعلم واشتغاله بهما فلعله من العلماء الذين لهم ضيعات يأكلون منها ، أو ممن فرض لهم راتبا ، أو مما أوقفت عليه بعض الأوقاف .

لقد نال الإمام إسماعيل مكانة عظيمة بين علماء عصره ، حيث قالوا عنه : " ليس فى وقتنا مثله "(٦٢) وهو إمام أئمة وقته وأستاذ عصره وقدوة أهل السنة فى زمانه ، وهو المبعوث على رأس المائة الخامسة(٦٣) . وكان يملي على البديهة فى مجالس علمه(٦٤) .

ولقد كان للإمام إسماعيل دور مشرف بوقوفه بجانب طلبة العلم ، فقد أخلى دارا من ملكه لأهل العلم(٦٥) ، كما كان له مجلس علم فى داره بأصبهان ، وكان ممن يضرب به المثل في الصلاح والورع(٦٦) .

لقد اشتهر بكلامه ومواقفه واعتقاده ، فنقل عنه السمعاني[٦٧] ، والحافظ ابن عساكر في "تاريخ دمشق"[٦٨] ، وابن نقطة في " كتاب التقييد "[٦٩] ، وابن المستوفى في كتاب "تاريخ أربل "[٧٠] ، والحافظ الذهبي في كتابه " تذكرة الحفاظ "[٧١] ، وكتابه " مختصر العلو " الذي اختصره الألباني[٧٢] والإمام ابن القيم الجوزية في كتابه " اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية "[٧٣] .

فقد كانت عقيدته هي عقيدة أهل السنة والجماعة ، عقيدة سلفية بعيدة كل البعد عن علم الجدل والكلام والتأويل ، فكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة ، قليل الكلام[٧٤] ، قدوة أهل السنة في زمانه[٧٥] .

مؤلفاته :

كان الإمام إسماعيل من الموفقين في التأليف والتصنيف لعمق ثقافته وسعة مداركه ، فكان ثمار ثقافته كتبا جيادا اشتغل بتصنيفها ، وأكثر كتبه في التفسير والتاريخ ، مشاركا في علوم القرآن والحديث ، وبجانبها كانت له الأمالي الكثيرة[٧٦] .

التفسير :

١- كتاب " الإيضاح في التفسير " أربعة مجلدات مخطوط لم يعرف مكانه[٧٧] .

٢- التفسير باللسان الأصبهاني ويسمى " الموضح في التفسير " ثلاثة مجلدات لم يعرف مكانه[٧٨] .

٣- " الجامع في التفسير " ثلاثون مجلدا مخطوط لم يعرف مكانه[٧٩] .

٤- " المعتمد في التفسير " عشر مجلدات مخطوط يوجد منه نسخة بمكتبة " كوبرلي باستانبول " تحت رقم (٢١٣)[٨٠] .

٥- " إعراب القرآن " مخطوط ذكره كثير من أصحاب التراجم وهو مفقود[٨١] .

التاريخ :

١- " دلائل النبوة " مخطوط بالمكتبة السعيدية بحيدر أباد الدكن[٨٢] . توجد نسخة بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم (١٦٢٣ تاريخ) .

٢- " سير السلف " وقد تم تحقيقه بمعرفتنا وهو بمكتبة دار الراية بالسعودية[٨٣] .

٣- كتاب " المبعث والمغازى " وهو مجلد كبير[٨٤] ، وبه الجزء الذى يحتوى على "الخلفاء الأربعة " الذى نحن بصدد الدراسة عنه ويشغل الربع الأخير من الكتاب ، وهو بمكتبة (كوبرلى) باستانبول ، ومنه نسخة بمعهد المخطوطات العربية (٧٧٢) تاريخ .

الحديث :

١- شرح الجامع الصحيح للإمام البخارى ، مخطوط وهو مفقود[٨٥] .

٢- شرح الجامع الصحيح للإمام مسلم مخطوط وهو مفقود[٨٦] .

التوحيد :

١- "الحُجةُ فى بيان المَحَجَّة "[٨٧] مخطوط بمكتبة " لاله لى " باستانبول ، وقد طبع مؤخرا بالمملكة العربية السعودية . ومنه ثلاث نسخ بمعهد المخطوطات العربية (٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ توحيد) .

٢- " كتاب السنة "[٨٨] ويرجح أنه هو كتاب الحجة فى بيان المحجة السابق الذكر .

الوعظ والإرشاد :

١- " الترغيب والترهيب " ، مخطوط بمكتبة المدينة المنورة[٨٩] . وقد طبع مؤخرا بالمملكة العربية السعودية .

٢- " كتاب التذكرة " نحو ثلاثين جزءا[٩٠] ، يوجد منه فصول مستخرجة فى مكتبة (أوغلو) تحت رقم (٨٤٧) ومنه نسخة بمعهد المخطوطات العربية[٩١] .

الأمالى :

له " الأمالى فى الحديث " جزء منها مجموع (٤١) (ق ٢٤-٣٧) وجزء آخر (ق ١-٨) بدار الكتب الظاهرية[٩٢] .

وله أحاديث مسلسلات مجموع ٣٤ (ق ١٤٦-١٥٠)[٩٣] .

وله " العوالى الموافقات " نسخة ناقصة من آخرها مجموع ١٠٥ (ق ١١٦-١٣٣)[٩٤] .

بعد البحث عن مصنفات الإمام الأصبهاني ومعرفة أماكن بعضها والظن في فقدان البعض الآخر كانت له الأمالي والمجالس التي انتشر فيها علمه ، كالمجالس التي أملاها في جامع أصبهان قريبا من ثلاث آلاف مجلس ، على حد قول تلميذه أبي موسى المديني[٩٥] ، وتلميذه أبي سعد السمعاني[٩٦] ، الذي قال عنه : " ما فاتني من أماليه شئ ، وكان يملي على في كل أسبوع يوما مجلسا خاصا في داره ، وأقرأ في كل أسبوع يومين "[٩٧] .

وفاته :

قضى الإمام إسماعيل (رحمه الله) حياته في أجل وأسمى وظيفة ، فظل طيلة عمره بين التعلم والتعليم والتصنيف ، في خدمة الكتاب والسنة والدفاع عنهما قولا وعملا ، حتى وافاه الأجل ، ليبقى حيا بيننا بما تركه من مصنفات وإملائيات ومجالس علم كتبت عنه .

توفي الإمام إسماعيل وله من العمر ثمان وسبعون سنة[٩٨] ، في عشرة ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، يوم عيد الأضحى بأصبهان[٩٩] ، وذهب إلى هذا القول تلاميذه الذين سمعوا منه وأدركوه وحضروا جنازته كالإمام أبي سعد السمعاني ، وأبي موسى المديني[١٠٠] .

دراسة المخطوطة

تسمية الكتاب :

إن كتاب الخلفاء الأربعة تابع لكتاب كبير للإمام إسماعيل الأصبهاني ، وقد جعلناه منفصلا عنه نظرا إلى أن الكتاب الكبير ، يتحدث عن سيرة النبي محمد ﷺ ، وذكر ذلك الإمام إسماعيل في أول النسخة المخطوطة حيث قال : " بعد فراغي من كتاب السير اقترحوا على أن أملي كتابا مشتملا على ذكر مولد النبي ﷺ وبيان نشوءه وتربيته إلى حال إرساله وبعثته ، ثم ذكر أحواله في مغازيه ، وذكر سراياه إلى وقت وفاته ، ثم أتبع ذلك بذكر الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، وما جرى من الفتوح في أيامهم ، ففعلت ذلك[١٠١] " . فقد ذكر الإمام إسماعيل اسم هذا الجزء في مقدمة الكتاب الكبير الذي سماه " المبعث والمغازي " .

بعد أن قمت بدراسة وافية لكتاب المبعث والمغازي بما فيه القسم الذي يتحدث عن الخلفاء الأربعة ، وأطلعت على مراجع متعددة تبين لي صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف الإمام إسماعيل

وأن كتاب المبعث والمغازى هو الذى ألفه الإمام إسماعيل (رحمه الله) ويمكن تلخيص ذلك فيما يلى :

١- ذكره الإمام ابن الجوزى فى كتابه المنتظم ونسبه للإمام إسماعيل(١٠٢) .

٢- ذكره شمس الدين السخاوى فى كتابه الإعلان بالتوبيخ فقال : فأما السيرة النبوية والمغازى فقد انتدب لجمعها كأبى القاسم التيمى الأصبهانى(١٠٣) ، وذكره أيضا فى كتابه "الجواهر والدرر" ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة صالح العلى فقال : وجمع المغازى أبو القاسم التيمى الأصبهانى ، وآخرون(١٠٤) .

٣- ذكره الحافظ الذهبى فى كتابيه " تذكره الحفاظ " ، و" سير أعلام النبلاء "(١٠٥) .

٤- وذكره صاحب هدية العارفين ونسبه للإمام إسماعيل بعنوان المبعث والمغازى(١٠٦) .

٥- وذكره صاحب التاريخ العربى والمؤرخون ونسبه للإمام إسماعيل بعنوان "المبعث والمغازى " وقال إنه توجد منه نسخة مخطوطة فى كوبريلى فى استانبول(١٠٧) وهى النسخة التى اعتمدت عليها فى الدراسة .

٦- تصريح باسم الكتاب فى الورقة الأولى من المخطوط معزوا إلى الإمام إسماعيل فى نسخة المخطوط .

٧- أسلوب الكتاب المتميز ، فالقارئ فى أى كتاب من كتب الإمام إسماعيل المصنفة فى التاريخ وغيره يعرف ذلك ، فالإمام إسماعيل حافظ محدث كثيرا ما يستخدم الرواية فى كتاباته ، وينقل روايات كثيرة عن الكتب السابقة عليه ، ويملأ الكتب بالأحاديث النبوية ويذكر عن شيوخه الذين أخذ عنهم الرواية وغير ذلك .

الداعى لتأليف الكتاب :

الداعى لذلك استجابة لدواعى العلم ، وما اقترحه عليه أهل العلم من أن يملى كتابا مشتملا على ذكر مولد النبى ﷺ وبيان نشوءه وتربيته وإرساله وبعثه وذكر مغازيه وسراياه إلى وقت وفاته ثم يتبعه بذكر الخلفاء الأربعة وما جرى من فتوح فى أيامهم(١٠٨) .

وهذا دأبه فى أن يذكر الداعى للتأليف فقد ذكره فى كتابنا هذا وفى سير السلف وفى دلائل النبوة .

مادة الكتاب :

مادة الكتاب التى صنعها الإمام إسماعيل هى أيام الخلفاء الأربعة وسيرهم ، بدءا بذكر نسبهم عدا الخليفة الرابع لم يبدأ بنسبه ، بل بدأ بذكر أخبار من سيرته ، ثم يتلو ذلك بالاستخلاف وتولى أمر المسلمين ، ويذكر كثيرا من خطبهم ، ثم ذكر الفتوحات التى تمت فى عهدهم ، وذكر جانبا من الكتب التى أرسلوها إلى أمرائهم فى مكان ولايتهم ، ويذكر خبر وفاتهم .

ثم ختم الكتاب بذكر فصلين من كتاب السنة للقاسم بن محمد .

الأول : فى الحرب التى كانت بين على بن أبى طالب رضى الله عنه وبين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهم ، وقد ذكره باختصار .

والثانى : فى القول فيما كان بين على رضى الله عنه ومعاوية وقد ذكره باختصار أيضا .
ثم ذكر فصلا ثالثا فى فضائل معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .

كما كان يذكر لنا فى بعض الأحايين أبياتا من الشعر يستشهد بها فى موضعها ، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية أمر واضح أيضا فى الكتاب ، على أنها تخص الخليفة الذى يتحدث عنه ويعرض لنا سيرته ومنهجه وأسلوبه . وقبل الحديث عن تفصيلات منهج الإمام إسماعيل نذكر أن الفترة التى كتب عنها يتخللها فترة - أى فترة سيدنا عثمان وسيدنا على رضى الله عنهما - هى من الأهمية بمكان ، لأن كثيرا ممن ينتسبون إلى الإسلام يبغض حتى الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، ويقلب جميع حسناته سيئات .

وإن أحد الذين شاهدوا بأعينهم عدل عمر رضى الله عنه وزهده فى متاع الدنيا ، وإنصافه لجميع الناس ، لم يستطع أن يمنع الحقد الذى فى فؤاده على الإسلام من أن يدفعه إلى طعنه بالسكين دون أن يسئ إليه ، وفى عصر سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ضاقت صدورهم بطيبة ذلك الخليفة الذى خلق قلبه من رحمة الله فاخترعوا له ذنوبا ، وما زالوا يكررونها على قلوبهم حتى صدقوها ، وتفننوا فى إذاعتها ثم استحلوا سفك دمه الحرام

فى الشهر الحرام . كما أن هذه اليد الآثمة لم ينج منه الإمام على رضى الله عنه أيضا فى عصره .

إن أهمية هذه الفترة جعلت الإمام إسماعيل فى عرضه للأحداث والمواقف يسير فيها على منهج قويم بعيدا عن ترديد الخلافات التى عفى عليها الزمن ، مبينا أن هؤلاء الخلفاء كانوا أسمى أخلاقا وأصدق إخلاصا لله وترفعا عن خسائس الدنيا ، رغم الأيدى الخبيثة التى عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه .

فقد درأ الإمام إسماعيل عن سيرة هؤلاء الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلما وعدوانا ، فعرض صورتهم على أنظار الناس نقية صادقة ، تحسن القدوة بهم ، وتطمئن النفوس إلى الخير الذى ساقه الله للبشر على أيديهم .

لقد اعتبر الإمام إسماعيل أن الطعن فى هؤلاء الصحابة طعن فى الدين الذى هم رواته ، وتشويه سيرتهم تشويه للأمانة التى حملوها ، وتشكيك فى جميع الأسس التى قام عليها كيان التشريع فى هذه الملة الحنيفية السمحة .

لقد سلك الإمام إسماعيل فى كثير من كتبه طريقة أهل الحديث وهى ظهور السند فى رواياته ، ولكنه فى هذا الكتاب قليلا ما كان يكتب بطريقة السند وظهوره ، وعندما يظهره كان يجعله فى صلب الكتاب ، وهذا أمر واضح فيه(١٠٩) .

وأحيانا يصرح بأسماء الكتب التى نقل منها بطريقة السند مثل قوله : أخبرنا سعيد بن أحمد الواحدى فى كتابه .... (١١٠)، وعندما نقل لنا الرسم الموضح لمواضع القبور الثلاثة ، قبر النبى ﷺ ، وقبر سيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وقبر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه(١١١) .

وأحيانا يذكر المتن ثم يذكر السند فى نهايته فيقول : أخبرنا بذلك ...(١١٢)

كما يذكر أحيانا القول الراجح فى المسألة بأنه الصحيح والمشهور ، كجلوس فاطمة بعد موت أبيها(١١٣) .

كما راعى الإمام إسماعيل فى عرض سير الخلفاء الأربعة الترتيب على حسب سنهم وتوليهم الخلافة .

كثيرا ما يحذف سند الرواية ويذكر من سمع من النبي ﷺ [١١٤]. وكذلك في الحديث المرفوع للصحابي يذكر الصحابي دون السند الموصل إليه [١١٥] .

كثيرا ما يقول : قال أهل التاريخ ونجد من بين هؤلاء الطبري وخليفة بن خياط والواقدي وابن هشام .

كما يذكر لنا أهل اللغة في تفسير بعض المفردات اللغوية [١١٦] . كما يذكر لنا تعليق أهل العلم على خطب الخلفاء كخطبة أبي بكر [١١٧] . ويفسر الإمام إسماعيل أسماء البلدان والأماكن أحيانا [١١٨] .

ومن منهج الإمام إسماعيل الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والحديث النبوي الشريف والشعر العربي .

كما يذكر لنا بعض الفوائد اللغوية [١١٩] ، ويبين لنا بعض الأماكن من حيث الموقع الجغرافي [١٢٠] ، ويفسر لنا بعض القبائل وبطون العرب [١٢١] .

لقد كان للكتابة التاريخية في هذا العصر أسلوب خاص ، تمثل في كتابة الحوليات والتراجم والتواريخ المحلية ، وغلب على المؤرخين مصطلح الحديث والإسناد ، ولم يخرج الإمام إسماعيل عن هذا الإطار ، ويظهر ذلك واضحا في بعض رواياته في المخطوط ، وكذلك في كتابه سير السلف .

كما أنه استعمل في منهجه طريقة الإسناد الجماعي ، سواء من حفظ شيوخه أو من كتبهم إملاءا وغير إملاء .

كما اعتنى الإمام إسماعيل بتاريخ ذكر الوفاة للخلفاء الأربعة ، وتتبع في كثير من الأحايين الكتابة على نظام الحوليات فيذكر لنا أخبارا وفتوحات وغير ذلك سنة بعد سنة .

لم يبتدع الإمام إسماعيل اسلوبا خاصة للكتابة التاريخية ، وإنما جرى التدوين ضمن الأسلوب المرسل الذي كتب به معظم المؤرخين كتبهم منذ الإمام الطبري ، والإمام المسعودي ، والخطيب البغدادي ، وأبي نعيم الأصفهاني .

ولقد تميز أسلوبه الأدبي بالسهولة واليسر ، ولم يعن بالصنعة البيانية والألفاظ الصعبة ، بل يختار العبارة المناسبة ، وإن كان لابد من اللغويات فإنه يفسرها آخر الرواية .

كما أن له أسلوبه المتميز فى الصياغة التاريخية وكيفية عرضها ، فإنه يختلف عن الموارد التى نقل منها ، وأحيانا يتفق ، وقد دفعه هذا الأمر فى أغلب الأحايين إلى إعادة صياغة المادة التاريخية المنقولة عن المؤلفات السابقة عليه بأسلوبه الخاص ، ولم ير فى ذلك ضيرا ، طالما قد توخى الدقة والأمانة فى نقل معانى الأقاويل لاسيما تلك التى تؤثر فى قيمتها إعادة الصياغة .

مصادر الإمام إسماعيل :

اعتمد الإمام إسماعيل على ما رواه بأسانيد عن مشايخ عصره عن طريق السماع ، فيتلقى المؤلف أخباره سامعا من هذا وناقلا عن ذلك ، وكذلك عن طريق الإجازة فيما أجازه له مشايخه مثل أبى عمرو بن منده(١٢٢) .

كما اعتمد على نوع آخر من المصادر يعتبر نوع عام ، وهو معروف متداول بين أيدى طلبة العلم على مدى العصور ، كصحيح البخارى وصحيح مسلم وأمثالهما من كتب السنة .

كما اعتمد على نوع ثالث من المصادر ، يتمثل فى كتب تتصل بموضوع الكتاب ، منها ما هو متداول ، ومنها ما ليس متداولا ، كما يبدو أن اطلاع المؤلف على الكتب المصنفة قبله اطلاع واسع ، وأثره فى كتبه لا يقل عن أثره فى تحصيله الشخصى ، الذى اكتسبه من الرحلات ، ومن صور التحمل التى تلقى بها العلم ودأب فى تحصيله ، وكثيرا ما كان التلقى عن المشايخ يصحب بالكتابة والكتب ، وقد أثبت هذا النوع من المصادر فى متن الكتاب نفسه ، وتعد طريقة من طرق تسجيل المصادر المنقول منها ، كأن يقول على سبيل المثال : أخبرنا سعيد بن أحمد الواحدى فى كتابه .... " وذكر القاسم بن محمد فى كتابه "السنة"(١٢٣) .

أهمية الكتاب :

إن إخراج أى مخطوط إلى حيز الطباعة من كتب علماء الأمة السالفين ، الذين كانوا يتبعون خطة معينة فى التصنيف ، ويلتزمون بما يمكن أن يندرج الآن تحت ما يسمى بالمنهج العلمى ، هذا الإخراج فى ذاته يعد هدفا يجب أن يحرص عليه من يسر الله له أن يعمل فى هذا المجال .

إن استخراج مثل هذه الكتب يلقى الضوء على ماضى الأمة أو ينير السبيل أمام مستقبل أبنائها .

إن هذه الكتبَ التى ألفها العلماء لا يمكن أن تؤخذ مفردة مبتورة عن نسيجها الذى كانت فيه ، مع إخوانها من كتب كتبها العلماء شكلت بنيانا عقليا متكاملا ، فما من كتابٍ مخطوط إلا وهو لبنة فى هذا البنيان ، فإذا ما تتابع إخراج تراثنا على الطريقة العلمية الحديثة مطبوعا بمنهجها مفهرسا على طريقتها ، استطعنا أن نصل ما بين حاضرنا المتوثب وماضينا التليد ، فتبوأنا مكاننا الذى هو لنا والذى حل به أسلافنا فعلموا الدنيا وسبقوا العالم .

ومن أهمية هذا الكتاب أن كثيرا من المراجع التى رجع إليها الإمام إسماعيل واستمد منها مادته التاريخية قد ضاع فيمن ضاع من تراث الإسلام ، ومن هنا يعد كتاب الخلفاء الأربعة وعاء لكثير من النصوص والكتب التى ضاعت وبعثرتها يد الحدثان .

كما تكمن أهميته فى أنه يعكس لنا فترة تاريخية تعكس حالة من حالات الصراع الفكرى الذى كان سائدا خاصة فى فترة خلافة سيدنا عثمان وسيدنا على رضى الله عنهما .

كما أن قيمته تتجلى فى العرض الجيد الذى يحقق مواقف الخلفاء بعد وفاة النبى ﷺ وتبرئتهم مما نسبه إليهم الملاحدة والمفسدون والمضللون .

إن خروج مثل هذا الكتاب وهو يعرض لنا فترة خلافة كل من الخليفة الثالث والخليفة الرابع لإتحاف القراء ليصحح الكثيرون منهم ما تلقوه من معلومات خاطئة .

ولينجوا من الأفكار الخاطئة التى علقت فى أذهانهم بسبب الكتب التى يتداولونها ، والدروس التى يتلقونها فيتخذون من سيرة الصحابة مثلا عاليا يحتذونه ، وشحنة بل شحنات قوية تدفع بهم إلى الأمام ، إلى آفاق العظمة والمجد والسؤدد .

إن الخلفاء الأربعة وطبقتهم من أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم جميعا كانوا شموسا طلعت في سماء الإنسانية مرة ، ولا تطمع الإنسانية بأن يطلع في سمائها شمس من طرازهم مرة أخرى إلا إذا عزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الإسلام ويتأدبوا بأدبه من جديد ، فيخلق الله منهم خلقا آخر يعيش للحق والخير ، ويجاهد الباطل والشر ، حتى تعرف الإنسانية طريقها الحقيقي إلى السعادة .

ومما يزيد الكتاب أهمية احتفاظه بكلام القاسم بن محمد صاحب كتاب السنة حول ما حدث بين السيدة عائشة رضي الله عنها وبين الإمام علي رضي الله عنه ، وبين علي رضي الله عنه وبين معاوية رضيَ الله عنه .

فقد ذكره القاسم بن محمد في كتابه " السنة " في الحرب التي كانت بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ، اختصرته والذي عند أهل العلم فيما فعل أولئك أنهم تقاتلوا على التأويل ، ولم يقصد أحد منهم إلى باطل ، ولا أثر على دينه الذي فارق عليه نبيه ﷺ شيئا من أمر الدنيا ، بل كل مصيب عند نفسه .

أما علي رضي الله عنه فرأى أنه إمام ذلك بأنه قد سبقت بيعتهم له ، فلا يجوز لهم عنده الخروج من بيعته إلا بإبانة حجة عليه أنه غير مستحق للخلافة ، وأما طلحة والزبير رضي الله عنهما فإنهما كانا رجلين من أهل الشورى ، اللذين جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليهم الأمر ، ثم رأيا أن لهما نقض البيعة ورد الأمر إلى الأصلح ، وأما عائشة رضي الله عنها فإنها تأولت أنها زوجة رسول الله ﷺ ولها حق الأمومة فحضرت الجماعة لتصلح بينهم وكل أراد الله بما قصد وفكر ، ومن دخل فيما شجر بينهم فقد تعرض لسخط الله عز وجل .

قال : وكان أولئك يقدمون على ما يقدمون عليه بعلم ، وقد عرفوا من حق الله وحق الرسول وحق القرآن ما لا ينازعهم فيه أحد ، وليس لأحد البحث عما فعلوه ، ولا الدخولُ فيما كان بينهم ، ومن فعل ذلك فقد تعرض لسخط الله .

قال أهل السنة : ومن السنة السكوت عما شجر بين أصحاب الرسول ﷺ ورضي عنهم .

ومن كلام القاسم بن محمد فيما كان بين علي رضي الله عنه ومعاوية : أما علي رضي الله عنه فقد حل في الإسلام خطره وأنزله رسول الله ﷺ منزلته إياه وقدمه وولاه ، فما زال هو

كذلك حتى قبض الله الصديق ، وقام الفاروق فأقره على ما كان عليه وأنزله المرتبة التى كان يستحقها وفوض إليه الأعمال الجليلة ويشكره أهل عمله . ولا طعن عليه الناس فى شئ مما تولاه ولا أنكر عمر رضى الله عنه شيئا فى سياساته ولا تدبيراته . حتى قبض عمر رضى الله عنه ، وولى بعده عثمان رضى الله عنه فأقره على ما كان عليه زمان الخليفتين ، وزاده حظوة فلا يزداد على الأيام والليالى إلا جلالة . وإن رجلا يرضاه رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم الأمين حق والجليل كل الجليل ، فلما كان من قضاء الله فى عثمان ما كان وبايع الناس لعلى رضى الله عنه امتنع معاوية من بيعته ، وتأول أن قتلة عثمان فى حيزه وفى عسكره ، وأبى على رضى الله عنه قتاله بامتناعه من الدخول فيما دخل فيه الناس ، ورأى معاوية قتاله لكينونة المتهمين على دم عثمان فى ناحيته ، والذى عليه العلماء أن يحملوا أمور القوم على أوائل شأنهم فى أن ينكروا محاسنهم ، ويسكتوا عما شجر بينهم ، وذلك هو الغرض اللازم لهم ويرون أن كل الدماء طاهرة لهم .

وقد قال النبى ﷺ : بحسب أصحابى القتل ، وروى عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها فى الآخرة عذاب ، إنما عذابها فى الدنيا والزلازل والبلايا والفتن .

ومن كلام القاسم بن محمد عن معاوية رضى الله عنه قال : معاوية لا يرد من فضل ولا حلم ولا شرف . وكان من صميم عبد مناف وخالصة قريش وله بأن السيادة فى الجاهلية والإسلام ، قدم على رسول الله ﷺ مهاجرا راغبا فى الإسلام ، فقبل رسول الله ﷺ هجرته وأكرمه إكرام مثله ، وعرف منزله ، وعظم خطره ، وكان أجل ما كان ، ولقد لحق بالله ، والمسلمون كل يوم من الإيمان والخير فى ازدهار ، والله عز وجل رؤوف بالعباد . انتهى كلام القاسم بن محمد .

وصف المخطوطة :

لم يكن بين أيدينا من نسخ هذا الكتاب فى تحقيقنا له سوى مخطوطة واحدة محفوظة بمكتبة (كوبرلى - باستامبول) " برقم ١١٣٨ تاريخ " كتبت خلال القرن السادس - السابع كما هو مدون ببطاقة بيانات المخطوط ، كتبه سبط الإمام إسماعيل ، وهو يحيى بن سعد الثقفى ، المكنى بأبى الفرج ، وقد ثبت ذلك فى أخر ورقة من المخطوط .

ولم أعثر له على نسخ أخرى فى أى مكان . ومدون فى الورقة الأخيرة لأحمد بن يحيى بن محمد بن عمر السهروردى الكاتب تعريفا فى ذى الحجة الحرام المبارك من سنة خمس وعشرين وسبع مائة .

والكتاب كله بلغ عدد { ٢٠١ ورقة } بمقياس ١٩× ١٥ عدد الأسطر ١٦ سطرا أما قسم الخلفاء الذى نحن بصدد تحقيقه فعدد أوراقه { ٤٦ ورقة } من الورقة { ١٥٥ } إلى الورقة الأخيرة { ٢٠٠ } .

وهى النسخة الوحيدة كما سبق أن ذكرت ، كاملة من المقدمة إلى الخاتمة . جاء فى الورقة الأولى من المخطوط الكبير في صفحة الغلاف ختمان أحدهما كبير مستدير والآخر صغير مربع .

أما الختم الكبير فمكتوب فيه " هذا ما وهبه الوزير أبو العباس أحمد بن الوزير عبد الله محمد ... بكوبرلى ... الله " أما الختم الصغير فغير واضح المعالم .

وقد كتب المخطوط بقلم معتاد الإعجام خال من الضبط ، والعناوين فيه بخط أكبر مما يليها

وفى نهاية الكتاب يقول الكاتب : قال الشيخ رحمه الله : هذا آخر ما حضرنى ذكره من الزجر عن الخوض ما يهيج الفتنة ويورث الشبهة ، والحث على الاقتداء بالسلف الصالح فى ذلك .

ومكتوب أيضا على لسان كاتبه : آخر كتاب المبعث والمغازى التى صنفها جدى الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل قدس الله روحه .

رحم الله من دعا لصاحبه بالجنة ، ولكاتبه سبط المملى يحيى بن محمود بن سعد المكنى بأبى الفرج . الحمد الله وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين .

الذي توفي عليه فجعل فراشه قطيفة تحته ثم دفن صلى الله عليه وسلم ليلة الاربعا ونزل في قبره
علي بن ابي طالب والفضل بن العباس وقثم بن العباس رضي الله عنهم وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وطرح تحته قطيفة وكان آخرهم خروجا قثم بن العباس رضي الله عنه اخبرنا ابو محمد
الحسن بن احمد السمرقندي بنيسابور انا ابو عبد الحميد بن عبد الغافر [illegible] انا [illegible] الجيري
انا ابو [illegible] الجيري نا كثير بن عبيد الحذاء [illegible] عن
عن القاسم بن محمد قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت يا امتاه اكشفي لي عن
قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة
مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء قال فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدما وابا بكر رأسه
ورجلاه عند كتفي النبي صلى الله عليه وسلم وعمر رأسه عند رجلي النبي صلى الله عليه وسلم ورجلاه
وذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم الى القبلة وابو بكر رضي الله عنه عند كتفي النبي صلى الله عليه وسلم
والذي عند رجلي النبي صلى الله عليه وسلم عمر رضي الله عنه

قبر النبي صلى الله عليه وسلم

قبر ابي بكر رضي الله عنه — قبر عمر رضي الله عنه

فصل قال اهل التاريخ ثم قام ابو بكر الصديق رضي الله عنه في الناس خطيبا
بعد خطبته الاولى فقال الحمد لله احمده واستعينه على امركم كله سره وعلانيته ونعوذ بالله
مما يأتي به الليل والنهار واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ارسله بالحق بشيرا

الصفحة التي بها بداية استخلاف عمر بن الخطاب

[illegible]

الصفحة التي بها هيئة قبر النبي ﷺ وقبر أبي بكر وقبر عمر رضي الله عنهما

[illegible] بغير [illegible] فإنا [illegible]

[illegible] حجته . هذا آخر ما [illegible] من ذكر الخلاف [illegible] وتركنا

[illegible] اشتغالا [illegible]

في السكوت [illegible] بين الصحابة [illegible]

السلام [illegible] دينا [illegible]

[illegible] إن شاء الله فصل ذكر [illegible] كتاب السنة

في الحرب التي كانت بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم

[illegible] والذي عندنا [illegible] فيها [illegible] أولئك [illegible]

[illegible] إلى [illegible]

شيئا من أمر الدنيا بل [illegible]

[illegible]

[illegible] الخلافة [illegible] الزبير [illegible]

الشورى الذين جعل الإمام [illegible]

[illegible]

[illegible] عائشة [illegible]

[illegible]

[illegible]

الصفحة التي بها كلام القاسم بن محمد من كتاب السنة

الهوامش

١- صدر الدين الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ص ٢ .

٢- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ، ص ١٤٥ .

٣- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة د. إبراهيم الشواربي ص ٢٠٨ .

٤- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٢٠٧ .

٥- بدر الدين العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ص ١٧٣ .

٦- براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٢٢١ .

٧- القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١٤ ، ٤١٣ .

٨- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٢٢٠ .

٩- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥٤/٦ .

١٠- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

١١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦٧/١٠ .

١٢- السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٨٩ .

١٣- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٢٢٩ .

١٤- القزويني : التدوين في أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاري ٣٠٢/٢ .

١٥- صدر الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٧ .

١٦- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ٢٠٢ .

١٧- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٥٠ ، ٢٥٢ .

١٨- بدر الدين العيني : السيف المهند ص ١٧٥ .

١٩- صدر الدين الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٤ .

٢٠- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٣ .

٢١- براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٢٧٣ .

٢٢- د. أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٢٠٤ .

٢٣- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٠٦/١٠ .

٢٤- د. عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧٩ .

٢٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦١ .

٢٦- الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان : دول الإسلام ٢٧٢/١ .

٢٧- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٠ ، ٧١ ، وكارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٨٠ .

٢٨- د. حربي أمين سليمان : المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير ص ٢٤٨ .

٢٩- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/٤ .

٣٠- الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان : دول الإسلام ٢٧٢/١ .

٣١- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٩ .

٣٢- د. أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٣٧٣ .

٣٣- السبكي : طبقات الشافعية ٣/ ١٣٧ .

٣٤- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ص ٢٨٣ .

٣٥- الطرطوسي : سراج الملوك ص ١٢٨ .

٣٦- د. أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

٣٧- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ص ٢٨٣ .

٣٨- السمعاني : الأنساب ٣/ ٤٠٨ .

٣٩- الداودي : طبقات المفسرين ١/ ١١٣ .

٤٠- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٥/١٠ .

٤١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٠٨/١٠ .

٤٢- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٧٦/٤ .

٤٣- الصفدي : الوافي بالوفيات ٩/ ٢٠٨ .

٤٤- التيمي : نسبة إلى بني تيم ، وهم بطن من بطون قريش من بني مرة بن كعب ، منهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ١٧٩ .

٤٥- الطلحي : نسبة إلى الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله من جهة والدته بنت محمد بن مصعب بن عبد الواحد بن علي بن أحمد بن محمد بن مصعب بن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله . الإمام إسماعيل التيمي : " سير السلف الصالحين " الورقة ٨٦ / ب .

٤٦- انظر ترجمته عند السمعاني : الأنساب ٤٠٨/٣ ، ٤٠٩ ، وابن الجوزي : المنتظم ٩٠/١٠ ، وابن نقطة : التقييد ١/ ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، والقزويني : التدوين في أخبار قزوين ٣٠١/٢ -٣٠٣ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨٠/١١ ، وابن الفوطي : تلخيص معجم الآداب في معجم الألقاب ٤ جـ قسم ٤ ص ٧٦٨ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٣٧/٢٦ - ٢٩ ، وسير أعلام النبلاء ٨٠/٢٠-٨١ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٢٠٨/٩ ، ٢١١ ، والأسنوي : طبقات الشافعية ١/ ٣٥٩ - ٣٦١ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٣/١٢ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٣ ، وطبقات المفسرين ص ٨ ، وبغية الوعاة ص ١٩٩ ، والداودي : طبقات المفسرين ١٢٢/١ - ١٤٤ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ١٠٥/٤ ، ١٠٦ .

٤٧- القزويني : التدوين في أخبار قزوين ٣٠٣/٢ ، والسمعاني : الأنساب ٤٠٩/٣ ، وابن الفوطي ٤ قسم ٤ ص ٧٦٨ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٧/٢٦ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٢١١/٩ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٣ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ .

٤٨- الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٠٢/١٨ ، ٣٠٣ .

٤٩- هي عائشة بنت الحسن الوركانية ت ٤٦٦ هـ .

٥٠- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧١/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٨٢/٢٠ .

٥١- الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨١/٢٠ .

٥٢- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٩/٢٦ ، واليافعي : مرآة الجنان ٢٦٣/٣ .

٥٣- ابن نقطة : كتاب التقييد ٢٥٢/١ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٧/٢٦ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٢٠٨/٩ ، والسمعاني : الأنساب ٤٠٨/٣ ، ٤٠٩ ، والذهبي : تذكرة الحفاظ ٧١/٤ .

٥٤- الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٠٨/٩ .

٥٥- انظر ترجمتهم عند السمعاني : الأنساب ٤٠٩/٣ ، ١٨٩/٦ ، ١٩٠ ، وابن الجوزي : المنتظم ٦٤/٩ والقزويني : التدوين في أخبار قزوين ١٤٨/١ ، والسبكي : طبقات الشافعية ١٠٢/٤ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ٢٠٨/٩ ، ١٠٥/٢ ، والذهبي : العبر ٣٤٣/٢ ، ٣٤٦/٣ ، وسير أعلام النبلاء ٦٢٠/١٨ ، ٦٠٥/٩ ، ١٠٣ ، ١٠٠ ، ١٥٨ ، ١٣١ ، ٢٠٢ و ٨١ ، ١٥٩ ، ٢٦٠ ، ٨١/٢٠ ، واليافعي: مرآة الجنان ١٣٣/٣ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٢٨٣/٣ ، ٤٠٥ ، ١٧٣ ، ٣٩٤ ، ٣٠٨ ، ٣٧٩ .

٥٦- السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٣ .

٥٧- انظر كثيرا من تلاميذه عند : ابن نقطة : كتاب التقييد ٢٥٢/١ ، وابن المستوفي : تاريخ أربل ٢١٦/٢ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٨١/٢٠ ، ٢٠/٢١ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، وتذكرة الحفاظ ٧١/٤ ، والعبر ٦٠/٣ ، ٦١ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ص ٤٦٤ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٢٣٩/٤ ، ٢٥٥ .

٥٨- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٨٣/٢ .

٥٩- الداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٦٧/٥ .

٦٠- انظر ما نقله عن الإمام ابن قيم الجوزية في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص ٦٧ ، ٦٨ ، وكتاب الذهبي الذي اختصره الألباني مختصر العلو ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

٦١- السمعاني : الأنساب ٤٠٨/٦٣ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ .

٦٢- الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٨/٢٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٠٦/٤ .

٦٣- السيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٤ ، والداودي : طبقات المفسرين ١١٣/١ .

٦٤- السيوطي : طبقات الحفاظ ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

٦٥- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧١/٤ ، ٧٢ ، وسير أعلام النبلاء ٨٢/٢٠ .

٦٦- الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨٥/٢٠ ، والسمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٢ .

٦٧-السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ص ٩٣ .

٦٨- ابن عساكر : تاريخ دمشق القسم الأول ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

٦٩- ابن نقطة : التقييد ٢٥٣/١ .

٧٠- ابن المستوفي : تاريخ أربل ١٣٧/١ .

٧١- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٥/٤ .

٧٢- الذهبي : مختصر العلو ، اختصار الألباني ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

٧٣- ابن قيم الجوزية : اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٦٧ ، ٦٨ .

٧٤- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ .

٧٥- الذهبي : العبر ٤٤٧/٢ ، وسير أعلام النبلاء ٨١/٢٠ .

٧٦- انظر مؤلفاته عند الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٢/٤ ، وعند السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٨ .

٧٧- الذهبي : تاريخ الإسلام ٣٦ /٢٩ ، السيوطي : طبقات المفسرين ص ٤٦٤ .

٧٨- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٣/٤ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ١٤٠٩/٢ .

٧٩- الذهبي : العبر ٤٤٧/٢ ، والسيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ ، والبستاني : هدية العارفين ٢ /٢١١ .

٨٠- الأسنوي : الطبقات ٣٦٠/١ ، وحاجي خليفة ، كشف الظنون ٤٤٢/١ ، ١٧٣٢/٢ .

١٠٢- ابن الجوزى : المنتظم ٩٠/١٠ .

١٠٣- السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، تحقيق روزنتال ص ١٥٧ .

١٠٤- السخاوى : الجواهر والدر ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ص ٧٢٨ .

١٠٥- الذهبي : تذكرة الحفاظ ٧٣/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٨٤/٢٠ .

١٠٦- البستاني : هدية العارفين ٢١١/٢٠ .

١٠٧- د. شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ١٢٧/٢ .

١٠٨- الورقة الأولى من مخطوط المبعث والمغازى للإمام إسماعيل التيمى .

١٠٩- انظر ظهر الورقة (٢) وظهر الورقة (١٢) وظهر الورقة (١٦) من المخطوطة .

١١٠- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة .

١١١- انظر هامش الرسم والتخطيط بظهر الورقة (٢) بالمخطوطة .

١١٢- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة .

١١٣- انظر ظهر الورقة (٩) من المخطوطة .

١١٤- انظر ظهر الورقة (٢) من المخطوطة .

١١٥- انظر ظهر الورقة (٢) من المخطوطة .

١١٦- انظر وجه الورقة (٥) ووجه الورقة (٩) وظهر الورقة (١٠) ووجه الورقة (١٣) من المخطوطة .

١١٧- انظر ظهر الورقة (٤) من المخطوطة .

١١٨- انظر ظهر الورقة (٩) من المخطوطة .

١١٩- انظر وجه الورقة (١١) وظهرها ، وظهر الورقة (١٢) من المخطوطة .

١٢٠- انظر وجه الورقة (١٢) وظهرها ، والورقة (١٠) من المخطوطة .

١٢١- انظر الورقة (٢٩) من المخطوطة .

١٢٢- انظر ظهر الورقة (٤٥) من المخطوطة .

١٢٣- انظر ظهر الورقة (٦) من المخطوطة ، وكذلك ظهر الورقة (٤٤) .

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن أيبك : صلاح الدين خليل ت ٧٦٤ هـ : الوافى بالوفيات ، الطبعة الثانية ، دار النشر فرنزشتايز،١٩٨٢ .

٢- ابن الأثير : على بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠ هـ : الكامل فى التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت١٩٧٩ .

٣- د. أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، طبعة دار البحوث العلمية ، الكويت١٩٧٥ .

٤- الأسنوى : جمال الدين عبد الرحيم ت ٧٧٢ هـ : طبقات الشافعية ، تحقيق عبد الله الجبورى ، طبعة بغداد سنة ١٣٩٠ هـ .

٥- الأصفهانى : الفتح بن على بن محمد البندارى : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، طبعة دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠ .

٦- براون : إدوار جرنفيل : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة د. إبراهيم الشواربى ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٤ .

٧- البستانى : إسماعيل باشا البغدادى ت ١٣٣٩ هـ : هدية العارفين ، طبعة وكالة المعارف الجلية استامبول ، ط ٣ لسنة ١٩٥١ م .

٨- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٩ هـ .

٩- ابن جبير : محمد بن أحمد ت ٦١٤ هـ : رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ، طبعة مكتبة مصر سنة ١٩٩٢ .

١٠- ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ت ٥٢٧ هـ : المنتظم ، طبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٥٧ هـ .

١١- حسنين : د. عبد النعيم محمد : سلاجقة إيران والعراق ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ .

١٢- الحسينى : صدر الدين أبى الحسن على بن ناصر بن على ت ٥٧٥ هـ : أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح محمد إقبال ، من منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٤ .

١٣- خليفة : حاجى خليفة ت ١٠٦٧ هـ : كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون ، طبعة وكالة المعارف الجلية استامبول سنة ١٩٤١ .

١٤- الداودى : محمد بن على بن أحمد ت ٩٤٢ هـ : طبقات المفسرين ، تحقيق على محمد عمر ، نشر مكتبة وهبة ، مركز تحقيق التراث بدار الكتب ، بدون تاريخ .

١٥- الذهبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ٧٤٨ هـ : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير ، تحقيق لجنة دار الغد العربي ، طبعة دار الغد العربي ، القاهرة ١٩٩٦ .

وتذكرة الحفاظ ، الطبعة الثانية ، دائرة المعارف النظامية ، الهند ١٣٣٣ هـ .

ودول الإسلام ، تحقيق فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٧٤ .

وسير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت١٩٨٥ .

والعبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد السعيد بسيوني ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٦- الراوندي : محمد بن علي بن سليمان (ت) أوائل القرن السابع : راحة الصدور وآية السرور ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد الصياد ، طبعة القاهرة ١٩٦٠ .

١٧- السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ٧٧١ هـ : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو ، ومحمود محمد الطناحي ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، مصر١٩٦٤

١٨- السخاوي : محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٩ هـ .

والجواهر والدرر ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ، ترجمة صالح العلي . طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٩- سليمان : د. حربي أمين : المؤرخ الإيراني خواندمير ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

٢٠- السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢ هـ : أدب الإملاء والإستملاء ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٨١ .

والأنساب : طبعة وزارة المعارف ، الهند سنة ١٩٦٣ .

٢١- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، طبعة مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

وتاريخ الخلفاء ، طبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٩ .

وطبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، طبعة مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة ، بدون تاريخ .

وطبقات المفسرين ، طبعة ليدن ، بدون تاريخ .

٢٢- الطرطوسي : أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسي ت ٥٢٠ هـ : سراج الملوك ، طبعة المطبعة الخيرية ، القاهرة بدون تاريخ .

٢٣- عباس إقبال الاستيامي ت ١٣٧٦ هـ : تاريخ إيران بعد الإسلام ، نقله عن الفارسية ، د. محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة القاهرة ١٩٨٩ .

٢٤- ابن عساكر : الحافظ أبو القاسم على بن الحسن ت ٥٧١ هـ : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق الدكتور شكرى فيصل ، طبعة سورية ، بدون تاريخ .

٢٥- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ١٠٨٩ هـ : شذرات الذهب ، طبعة (٢) دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ .

٢٦- العينى : بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة ، طبعة دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧ .

٢٧- ابن الفوطى : أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد ت ٧٢٢ هـ : تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب ، تحقيق د. مصطفى جواد ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى سنة ١٩٦٧ .

٢٨- القزوينى : زكريا بن محمود ت ٦٨١ هـ : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبعة دار صادر ، بيروت بدون تاريخ .

٢٩- القزوينى : عبد الكريم بن محمد الرافعى من أعلام القرن السادس : التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق الشيخ عزيز الله العطاردى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ .

٣٠- القلقشندى : أحمد بن على بن أحمد ت ٨٢١ هـ : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٤ .

٣١- ابن القيم أبو عبد الله بن أبى بكر ت ٧٥١ هـ : اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، طبعة دار الفكر مصر ، سنة ١٤٠١ هـ .

٣٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .

٣٣- ابن كثير : الحافظ إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ : البداية والنهاية ، تحقيق نخبة من الأساتذة ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٥ .

٣٤- كحالة : عمر رضا : معجم المؤلفين ، طبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٥٧ ، وطبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٣ .

٣٥- ابن المستوفى : أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمى ت ٦٣٧ هـ : تاريخ أربل ، تحقيق سامى بن السيد الصقار ، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق سنة ١٩٨٠ .

٣٦- ابن نقطة : محمد بن عبد الغنى ت ٦٢٩ هـ : التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد ، طبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٨٣ .

٣٧- اليافعى : أبو محمد عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨ هـ : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٠ م .

د. نعمة علي مرسي محمد(*)

المستوفى والاستيفاء فى العصر السلجوقى

تمهيد :

تعددت الوظائف الإدارية فى الدولة السلجوقية ، ومنها وظيفة المستوفى[1] ، التى تلى مكانته الوزير فى الدواوين الحكومية ، ومهمته أشبه بوظيفة وزير المالية فى وقتنا الحاضر . وتشمل إدارته ديوان الاستيفاء والإشراف على تنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها[2] ، فالمستوفى موظف من موظفى الأموال بالدولة ، وعليه التنبيه على ما فيه مصلحتها من استخراج الأموال ونحو ذلك[3] .

ومن أهم الخطوات المتبعة فى تعيين المستوفى فى رئاسة ديوان الاستيفاء صدور مرسوم من السلطان القائم فى الحكم يحدد فيه المهام التى يقوم بها المستوفى ، كالمرسوم الصادر "لأبى العلاء صاعد بن حسين المستوفى" فى عهد السلطان "سنجر"[4] ، والمرسوم الصادر فى شوال سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٧ م ، فى عهد السلطان أرسلان شاه ، بتعيين " نظام كيخسرو بن مجد الدين " فى وظيفة مستوفى[5] .

أدرك السلاجقة منذ وقت مبكر أن الواجب يحتم عليهم أن يبذلوا جهدهم للمحافظة على مكاسبهم والإبقاء على الصرح الذى شيدوه ، فرأوا أنهم فى حاجة إلى إقرار نظم إدراية ،

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة المساعد بكلية دار العلوم – جامعة المنيا .

وإلى تعيين موظفين وعمال ينجزون حوائجهم وينظمون متطلباتهم ويساعدونهم في الاحتفاظ بدولتهم الفسيحة ؛ لذا احتفظوا بنفس التشكيلات[٦] ، كما كانت سائدة في المشرق الإسلامي ، ولم يستحدثوا وظيفة المستوفي ، بل عرفت قبلهم في العصر الساماني[٧] والغزنوي .

وفي حقيقة الأمر فإن السامانيين في بداية عهدهم استمدوا النظم الإدارية ورسوم البلاط من الخلافة العباسية وغيرها من البلاد ونقلوها إلى دواوينهم ، وقد أشار عباس إقبال[٨] إلى أن الوزير أبا عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وزير الأمير نصر بن أحمد الساماني[٩] ، أرسل الكتب إلى كل بلاط وديوان لكي تنسخ له نسخة مما لديها من مرسوم البلاط والديوان فأرسل إلى بلاد الروم والتركستان والهند والصين والخلافة العباسية .... وغيرها ، ثم نظر في تلك النظم وأخذ بأفضلها ، وأمر بأن يسير كل أهل البلاط والديوان في بخارى وفق تلك المراسيم .

ومن ذلك نستخلص أن ديوان الاستيفاء ونظمه كان خلاصة تجارب سابقة ، وأن الفضل يعود للسامانيين ووزيرهم في نقله إلى المناطق الشرقية من الخلافة العباسية . وقد انتقلت نفس التشكيلات الإدارية من السامانيين إلى خلفائهم الغزنويين والسلاجقة وملوك خوارزم ، وظلت حتى عهد المغول . وكانت طبقة المستوفيين تتوارث حفظ وتنفيذ هذه الأوضاع جيلا بعد جيل[١٠] .

أما عن أشهر المستوفين في العصر الساماني ، فكان أبو الحسين المزني ، الذي عمل في بداية حياته مستوفيا في ديوان الأمير نوح الساماني ، وأثبت جدارة فائقة في إدراة أمور الدولة ، وترقى إلى منصب الوزارة بعد استشهاد الوزير أبي الحسن العتبي[١١] .

كذلك اشتهر عبد الرحمن الخازن صاحب الاستيفاء في عهد الأمير نوح الساماني ، وهو الذي قام بدور الوساطة والصلح بين هذا الأمير والثائر عليه أبي علي سيمجور . وتميز هذا المستوفي بالميل إلى الفكر والثقافة ، فصنف عددا لا بأس به من الكتب من ضمنها كتاب سماه " زيج الصفائح " في العلوم الرياضية[١٢] .

كذلك عرفت وظيفة المستوفي في العصر البويهي ، إذ عهد عضد الدولة بن بويه[١٣] إلى مسكويه أبا علي الخازن بذلك المنصب ، فسير شئون الديوان على خير وجه ، وألف مناظرات ومحاضرات وتصنيفات في شتى علوم المعرفة[١٤] .

أما فى العصر الغزنوى فقد عين السلطان محمود بن سبكتكين فى منصب الاستيفاء أحمد ابن حسن الميمندى ، الذى تدرج فى عدد كبير من الوظائف الديوانية ، فأبدى مهارة فائقة فى إدارة شئون الجند وتنظيم جمع أموال خراسان[١٥] ، كما عين السلطان محمود فى ديوان الاستيفاء بغزنه[١٦] ، طاهر المستوفى[١٧] ، الذى استمر فى الوظائف الديوانية حتى رقى إلى منصب الوزارة فى عهد السلطان مودود[١٨] .

وفى بعض عهود سلاطين الغزنويين عين مستوفى خاص على الأقاليم الكبرى ، فأسند السلطان محمود إلى أبى إسحاق مهمة الاستيفاء على إقليم خراسان[١٩] ، وأسند السلطان مسعود الغزنوى على بلاد الهند مستوفيا يسمى سعد سليمان ، وعلى خراسان مستوفيا آخر[٢٠] ، وفى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨-١٠٣٩ م أقر السلطان على غزنة مستوفيا هو أبو منصور المستوفى ، أوكل إليه مهمة إعداد جهاز وقائمة العرس لابنه الصغير مردان شاه الذى لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره على ابنة الأمير بكتغدى[٢١] ، وقد لعب أبو منصور المستوفى هذا دورا بارزا فى حياة السلطان مسعود عندما قرر الذهاب إلى بلاد الهند عقب هزيمته فى موقعة داندانقان أمام السلاجقة ، فقام بتحميل جميع خزائن غزنه وما بها من الذهب والجواهر على جمال فى سرية تامة ونقلها إلى الهند[٢٢] . وفى عهد السلطان مودود تولى رئاسة ديوان الاستيفاء فترة قصيرة رجل يدعى طاهر المستوفى[٢٣] ، الذى ترقى بعد ذلك إلى منصب الوزارة .

وممن تولى منصب الاستيفاء فى الدولة الغزنوية أيضا أبو الحسن الخازن فى عهد سبكتكين[٢٤] وتكين الخازن فى عهد محمود[٢٥] ، وقد صادره السلطان مسعود وحصل منه على أموال طائلة[٢٦] ولم تكن هذه الحالة الأولى التى تشدد فيها السلطان على المستوفى ، فقد كان المستوفى دائما موضع محاسبة ويعاقب إذا أخطأ . والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما أوقعه السلطان محمود على أحمد بن حسن الميمندى من عقاب فقد صادر أمواله وعزله ، وأغرمه ما قيمته ألف ألف دينار[٢٧] ، كما عوقب أبا العباس الفضل بن أحمد ، الذى كان يتولى الشئون المالية فى الدولة إلى جانب الوزارة ، نتيجة لعجزه عن دفع المبالغ المعتادة لخزانة الدولة ، وقيل إنه دخل السجن بمحض إرادته ، وظل فيه حتى وفاته سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣م[٢٨] .

١- الشروط الواجب توافرها فى المستوفى :

اهتم سلاطين السلاجقة بالاحتفاظ بحق تعيين المستوفى فى السلطنة ، وكذلك عزله من منصبه ، ولما كان من حق الوزير الأعظم الإشراف على الدواوين باعتباره منفذا لسياسة السلطان السلجوقي ، فإن ديوان الاستيفاء كان من أهم مهامه . ومما يجدر الإشارة إليه أن تعيين المستوفى فى منصب رئيس ديوان الاستيفاء ، كان لابد وأن يصدر به مرسوم من السلطان ، وهناك عدد من المراسيم السلطانية منها مرسوم باسم " نظام الدين كنجرو بن مجد الدين " بتاريخ شوال سنة ٥٦٣ هـ/ سنة ١١٦٧ م(٢٩) ، ومرسوم آخر أصدره السلطان سنجر باسم " زين الدين أبو العلاء صاعد بن حسين " مستوفيا على مدينة مرو(٣٠).

وقد حدد هذان المرسومان أهم الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب ، بأن يكون معروفا بحسن السيرة والسداد فى الرأى ، على قدر كبير من التدين والخلق الكريم ، عارفا بأسرار المعاملات المالية ونظمها ، لا يفوته ضبط الجزء من حساباتها ، موصوفا بأنواع من الكفاءات والخبرات التامة بالشئون المالية وأصول التعامل بها ، خاصة فى أعمال الضرائب ويفصل المحاسبات ويجلبها ويراجعها ، عارفا بضبط الخراج والزيادات والعلاوات(٢٥).

ومن الواضح أن تعيين المستوفى يخضع لنظم معينة من التوقير والاحترام والخلع السلطانية ، وجلوس المجلس العام تقديرا وتعظيما له ، مع إلزام عمال الوزارة بمراعاة قدر المستوفى واحتشامه ، وإدراك منزلته الكريمة ، وأن يرفعوا إليه فى كل شأن يتعلق بديوان الاستيفاء مع توقير مرسومه ، وذلك بأمر من السلطان نفسه(٣٢) .

هذا بالإضافة إلى ارتباط عمله بالشئون المالية والحسابات وضبط الدخل والمنصرف ، وحفظ القوانين وتدبير الدواوين ، وجمع الضرائب وتنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها ، وتحصيل الخراج لذا كان عليه أن يكون على رأس الديوان ويتولى رئاسته(٣٣) ، وأن عليه تعيين نوابه ومحاسبتهم إذا أخطئوا(٣٤) .

٢- مهام المستوفى واختصاصاته :

تعددت مهام المستوفى واختصاصاته فى الدولة السلجوقية ، فشملت العديد من الأعمال التى أوكلها السلاطين لهم ، ما بين الإشراف على الخراج وتوزيع أرزاق الجند ، ومصاحبة الجيش فى تحركاته ، والقيام بالإنشاءات الخيرية كالمدارس وغيرها ، ومن أولى هذه الاختصاصات الإشراف على خزائن الدولة ، ولذا لقب بالخازن أو خزانه دار ، فقد عرف عن السلاطين السلاجقة أن لهم خزانتين دائما ، إحداها الخزانة الأصلية ، والأخرى خزانة الإنفاق، وكان معظم المال يوضع فى الخزانة الأصلية ، أما خزانة الإنفاق ففيها الشئ اليسير ولم يكن السلطان يأمر المستوفى بالإنفاق من الخزانة الأصلية إلا إذا ألجأتهم الضرورة إلى ذلك(٣٥) .

وقد اشتملت الخزائن فى العصر السلجوقى على العديد من الأشياء القيمة ، مثل السلاح بأنواعه والخيول الأصلية ، والغلمان والجوارى ، بالإضافة إلى الأموال والجواهر والتحف الثمينة وغيرها من الأشياء(٣٦) .

ومن متطلبات منصب المستوفى الوظيفية المحافظة على خزائن الدولة ، وإضافة الأموال إليها ، ففى عهد السلطان ملكشاه(٣٧) قام أبو الرضا المستوفى فى أثناء محاسبة الملك "قاورد" وحبسه فى خيمة الأمير " سوتكين " بدور بارز عندما دخل عليه مطالبا أياه بمفاتيح الخزائن وعلامات الدفائن ، حتى استخلصهما منه قبل قتله(٣٨) .

وكان من واجب المستوفى الاهتمام بالخزانة فى أثناء تحرك السلاطين من مكان إلى آخر ومصاحبتهم ، حتى يكون تحت يده ما يطلب من أموال ، فنرى السلطان ألب أرسلان يهتم أثناء تحركه من خراسان إلى العراق وبالعكس بالاستعانة بأموال خزائنه ، حتى يكمل النقص فى استعدادات جيشه وأرزاق جنده(٣٩) .

وعندما فرض ألب أرسلان على الإمبراطور " رومانوس ديوجين " - عقب انتصاره فى موقعة ملازكرد- دفع جزية كبيرة للمسلمين تقدر بحوالى ٣٦٠ ألف دينار سنويا ، بالإضافة إلى فدية عن الإمبراطور - الذى أسر فى الحرب - تبلغ مليونا ونصف المليون دينار ، قدم رسول الإمبراطور بأموال ناء بثقلها عمال الاستيفاء ، واغتص بحسابها ديوان الاستيفاء من كثرتها(٤٠) .

ويبرز بوضوح دور المستوفى فى الاهتمام بالخزائن وجمع الأموال بها ، وضبط حساباتها عندما قام الخازن فى عهد ملكشاه بجمع عدد كبير من الخزائن على مدى سنتين ، تقدر بأربعين خزنة ، جعل لكل خزنة صنف لا يشبهه الآخر من جميع أنواع الجواهر والأوانى الذهبية والفضية والأقمشة المثمنة الملوكية[٤١] .

وفى أثناء الحروب كانت الخزائن تعد هدفا حربيا يسهل الاستيلاء عليه فى حالة الانتصار ويظهر ذلك بوضوح عند هزيمة السلطان سنجر على يد الخطا[٤٢] فإن علاء الدين أتسر بن محمد خوارزم شاه انتهز الفرصة ودخل مرو عاصمة السلطان عنوة ، واستولى على خزائنه ونقلها إلى خوارزم[٤٣] . فلما أطلق سراح سنجر وعاد إلى الحكم ، زحف على علاء الدولة وأعاد خزائنه ، وقد قيل أنها كانت بنفس الختم السنجرى[٤٤] ، مما يدل على أن السلاطين السلاجقة كانوا يختمون بخاتمهم الخاص على صناديق الأموال والجواهر .

ومن المهام الموكلة للمستوفى ، والتى اضطلع بها وغلبت على غيرها من الاختصاصات مرافقة تحركات الجيوش وتنقلاتهم ، وذلك لتقديم الإنفاق وتوزيع الأرزاق والمرتبات على الجند، وبناء على ذلك فإن المستوفى لتواجده فى صفوف الجيش فربما يقع أسيرا بين يدى الأعداء ويضطر لفداء نفسه بالأموال ، ففى سلطنة طغرل بن محمد طبر ، قامت الحرب بينه وبين الملك داود عند مدينة همذان[٤٥] ، فأسر صفى الدين المستوفى ، وفدى نفسه بمبلغ مائتى ألف دينار ، وذلك فى رمضان سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م[٤٦] .

ومما يؤكد صحة قيام المستوفى ونائبه بمرافقة جيوش السلطان فى تحركاته العسكرية ما حدث فى سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ، من مسيرة رئيس ديوان الاستيفاء رضى الدين أبو سعد الخوافى ، ونائبه كمال الدين أبو الريان فى صحبة جيش السلطان محمد لمحاصرة بغداد فى عهد الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى[٤٧] .

ولا يفهم من كلامنا السابق أن اصطحاب المستوفى ونائبه برفقة الجيش كان بغرض المشاركة فى العمليات الحربية والقتال ، وإنما كان بهدف توزيع الأرزاق وترتيب الإنفاق على الجيش وخدماته ، فقد كان يثبت أسماء الجنود فى الجرائد الديوانية ، ويخصص لكل منهم رزقا معلوما ، ففى عهد ملكشاه وزع على قادة الجيش إقطاعات معينة فى سائر بلاد المملكة ، حتى إذا نزلوا بأيه ناحية منها كانت نفقاتهم وعلوفة دوابهم معدة مهيأة ، وقد بلغ عدد أسمائهم فى الديوان ستة وأربعين ألف فارس ، وانحصرت مهمة المستوفى هنا فى الإشراف على توزيع هذه الأرزاق[٤٨] .

وكثيرا ما غضب قادة الجيوش والأمراء على المستوفى عندما يكون شحيحا بخيلا معهم فى توزيع مؤنتهم وأرزاقهم ، مما يترتب عليه عزله أو قتله ، ففى سلطنة مسعود سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، تولى منصب رئاسة الاستيفاء كمال الدين محمد بن على الخازن ، الذى اتصف بالتهور والبخل ، وكان لا يترك الأمراء يتصرفون بحريتهم ، ولا يراعى جانبهم ، ويعطى الجند مؤنا بقدر وحساب ، ومن ثم اشتكى الأمراء للأتابك قراسنقر ، الذى تدخل عند السلطان مسعود ، فدارت الدائرة على كمال الدين وانتهت حياته بالقتل وقطع يده ورأسه وإرسالها إلى الأتابك قراسنقر(٤٩) .

وفى كثير من الأحيان عند تأخر الأرزاق على الجند ، يحدث اضطراب بينهم ، ويصل الأمر إلى الهجوم على الخزانة السلطانية ، كما حدث ذلك فى رئاسة مجد الملك المستوفى لديوان الاستيفاء فى عهد السلطان بركيارق بن ملكشاه(٥٠) .

ومن اختصاصات المستوفى أيضا تقديم الهبات والعطايا بأمر من السلطان للأمراء والعلماء والرسل ، ففى عهد ملكشاه ، قام أبو سعد محمد بن منصور المستوفى ، بتقديم جائزة سنية للشاعر أبو جعفر منصور(٥١) ، كما أمر السلطان ملكشاه خازنه بتوزيع العطايا والخلع على ستمائة زعيم من أمراء البلاد ، تقربا ومودة ، مما يدل على امتلاء الخزائن بالأموال فى ذلك الوقت(٥٢) .

وفى بعض أوقات الضعف كان المستوفى يتدخل فى شئون توزيع الميراث فقد قرر مجد الملك القمى المستوفى فى عهد محمود بن ملكشاه وأمه تركان خاتون أن يهب بركيارق من خزانة الدولة مبلغ خمسمائة ألف دينار من ميراث أبيه ، حتى يفك حصار أصفهان ويرحل عنها(٥٣) .

وفى عهد السلطان سنجر قام رئيس ديوان الاستيفاء بتنفيذ أوامر السلطان بتوزيع العطايا ، التى بلغت سبعمائة ألف دينار من العين ، وألف ثوب من الأطلس الأحمر وغيرها من الخيل والخلع ، وكان المستوفى فى ذلك الوقت هو ظهير الدين الخازن(٥٤) .

ومن المهام الموكلة للمستوفى الإشراف على نفقات بناء المؤسسات الخيرية فى الدولة ، كبناء المدارس والأربطة والمساجد وغيرها ، فقد قام شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى المستوفى فى عهد ملكشاه ببناء مدرسة كبيرة فى مدينة مرو ، وأوقف عليها كتبا نفيسة ، وبنى أربطة فى المفاوز(٥٥) .

وقد تعدت سلطة المستوفى شرف الملك أبو سعد الإشراف على بناء المؤسسات الخيرية فى حاضرة السلطنة ، إلى الإشراف على تشييد مبان فى حاضرة الخلافة العباسية نفسها ، فقد قام ببناء مدرسة كبيرة لأصحاب المذهب الحنفى بباب الطاق ببغداد على مقربة من قبر الإمام أبي حنيفة النعمان(٥٦) ، كما أقام مشهدا على القبر ، ولما فرغ المستوفى من تلك العمارة ، دعا العلماء والأعيان لمشاهدة هذه المنشآت المعمارية ، فأنشد الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياض الشاعر أبيات منها :

ألم تر أن العلم كان مبددا ... فجمعه هذا المغيب فى اللحد(٥٧)

ومما يسترعى النظر أن هذا المستوفى وصل إلى درجة كبيرة من الثراء ، والتنعم فى مطعمه ومشربه ومركبه ، حتى أنه كان يشرب ماء خوارزم بأصفهان ، ويزعم أنه يمرئه وأنه عليه نشأ ، وكان يأكل حنطة مرو ببلاد الشام ، ولا يبخل على نفسه بأجود الأطعمة فيجلبها من مواطنها الأصلية إلى أى مكان يكون فيه . وفى آخر أيامه ترك العمل فى ديوان الاستيفاء، ولزم قصره ، فكانوا يرجعون إليه فى بعض أمور الدولة المالية ، حتى توفى فى مدينة أصفهان فى المحرم من سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧١ م(٥٨) .

كذلك قام المستوفى تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فى سلطنة ملكشاه ببناء مدرسة بباب أبرز ببغداد فى سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م - قبل أن يصل إلى منصب الوزارة - خصصها لأصحاب المذهب الشافعى ، وأطلق عليها اسم المدرسة التاجية نسبة إلى اسمه(٥٩). وقد قيل إن تاج الملك أبو الغنائم ابتاع عدة أماكن كبيرة مثل دار الهمام وما يليها بقصر بنى المأمون ، ودار ختلع أمير الحاج ، لكى يقيم عليها تلك المدرسة ، وقام بتشييدها وعمارتها شخص يدعى أبو طاهر بن الأسباغى(٦٠) ، وعلى الرغم من أعمال هذا الرجل الخيرية إلا أنه قتل فى عهد بركيارق سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م نتيجة تدخله فى الصراع القائم بين الأخوين محمود وأمه تركان خاتون وبركيارق وأمه زبيدة خاتون(٦١) .

أما عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد المستوفى فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه فقد شيد بيمارستانا - مستشفى - متنقلا ، يشتمل على الآلات الطبية والأدوات والخيم والأطباء المرافقين . وكان هذا البيمارستان مخصصا لجند السلطان وقادته ، ويكون المستوفى مسئولا أمام السلطان عن أى نقص فى أدواته وأعماله(٦٢) . ومن جملة أعمال هذا المستوفى المعمارية بناء ملجأ للأيتام فى بغداد ، ورصد الأوقاف عليه وتخصيص من يكفل الأيتام حتى

يبلغوا الحلم ، فقد قام عزيز الدين المستوفى بتقرير نفقة هؤلاء الأيتام فى ديوان الاستيفاء وعمل ما يلزم لتجهيز أماكن إقامتهم ومعيشتهم ، وأحضر المشايخ لتدريسهم الأدب وحفظ القرآن وغيرها من العلوم(٦٣) .

كذلك قام معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاش المستوفى فى سلطنة محمود بن محمد بن ملكشاه الذى انتقل إلى خراسان فى بلاط السلطان سنجر ببناء المدارس والأربطة والمؤسسات الخيرية فى عدة أقطار ، وأوقف عليها القرى العامرة والمزارع الوافرة التى اشترى معظمها من ماله الخاص(٦٤) .

ومن جملة اختصاصات المستوفى أن يكون سفيرا ورسولا من قبل السلطان إلى دار الخلافة ببغداد ، لنقل الهدايا والرسائل ، من ذلك أن أبا سعد محمد بن منصور المستوفى فى عهد السلطان ألب أرسلان فى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦ م قام بحمل هدايا قيمة منها مصحف جليل وياقوتة نادرة للخليفة بالعراق(٦٥) .

ومن مهامه أيضا القيام بتقديم بيانات بالأموال المتوافرة ووجوه إدخالها وإخراجها ، ويظهر هذا بصورة واضحة عند عزل أو تعيين أحد رجالات الدولة كالوالى أو الوزير أو من فى منزلتهم(٦٦) . وعندما أساء السلطان محمد بن ملكشاه الظن بمختص الملك الكاشى ، أمر بمصادرة أمواله وعزله ، وأسند إلى محمد الجوزجانى مهام منصبه ، لذا لابد من جرد هذه الأموال وعدها ، وكتابتها فى سجلات ديوان الاستيفاء(٦٧) .

وفى مقدمة مهام المستوفى واختصاصاته مصادرة أموال المغضوب عليهم من الولاة والوزراء والأمراء ، ومنحه سلطة تقصى الحقائق والتجسس على ذوى الأمر ففى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م ، عهد السلطان ملكشاه إلى مستوفيه بتقصى الحقائق نتيجة لتجمهر عريف الصناع والفعلة ومن معهم من العمال أمام دار الخلافة ، نتيجة لما تعرضوا له من مصادرات من قبل والى مدينة " واسط " المسمى ابن رزق ، وعندما اتضح صدق أقوالهم ، قام المستوفى بمصادرة أموال الوالى ومعاقبته بالعزل عن ولايته ورد مال الصناع إليهم(٦٨) .

كذلك قام صاحب الاستيفاء المسمى أبو القاسم بن الفقيه فى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بمصادرة أموال وزير بغداد المعزول المسمى بأبى القاسم على بن جهير ، وأحصى ما بداره من أموال وأمتعة ، وأدخلها إلى ديوان الاستيفاء(٦٩) .

وأوكل إلى المستوفى مهمة الإشراف على شراء غلمان السلطان والإشراف على تدريبهم وإعدادهم للمهام المنوطة إليهم ، فقد أمر السلطان سنجر صاحب الاستيفاء المسمى ظهير الدين عبد العزيز بشراء غلام بمبلغ معلوم ففعل(٧٠) .

ومن المهام الرئيسية للمستوفى ونوابه فى الدولة السلجوقية الإشراف على إعداد جهاز العروس ومستلزمات الأفراح ، وإعداد بيت الزوجية ، خاصة إن كان هذا العرس يخص أحد أبناء أو بنات السلطان ، وقد انتقلت هذه المهمة من الدولة الغزنوية إلى السلاجقة ، فإننا نرى قيام أبى منصور المستوفى فى عهد مسعود الغزنوى بتجهيز متطلبات جهاز الأمير مردانشاه على ابنة الأمير بكتغدى ، وإعداد قائمة بجهازهما ، اشتملت على أربعة تيجان ذهبية مرصعة بالجواهر ، وعشرين طبقا من الذهب فيها فواكه من مختلف أنواع الجواهر ، وعشرين صندوقا للمغازل من ذهب مرصع بالجواهر ، ومكنسة من الذهب نظمت أليافها باللؤلؤ وغيرها من الأمتعة(٧١) .

وفى العصر السلجوقى قام عزيز الدين المستوفى بإعداد جهاز عرس ابنة السلطان سنجر ابن ملكشاه على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٧٢) .

وعند حدوث خلاف بين العروسين أو وفاة أحدهما كان يخشى من المستوفى الذى قام بإعداد الجهاز لأنه أعلم بما حوى ، فيتعرض للعقاب أوالقتل نتيجة لذلك ، فعندما توفيت ابنة سنجر ، طالب أبوها بجهازها ، وما حملت معها من أنواع التحف والجواهر ، فرفض محمود إعادته مرة أخرى ، وخشى من عزيز المستوفى أن يشهد عليه ، لأنه قد أعد هذا الجهاز ، ورتبه وعرف ما حوى من جواهر لا توجد فى كثير من خزائن الملوك ، ومن ثم قبض عليه وأودعه السجن فى قلعة تكريت(٧٣) ، ثم أمر بقتله فى سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠ م(٧٤) .

ومن منطلق الزيجات والمصاهرات التى تمت بين البيت الخلافى والبيت السلجوقى ، فإن دور المستوفى يظهر بصورة واضحة لمرافقته للعروس إلى دارها ، فقد كان السلاجقة يبعثون بناتهم إلى بغداد لإتمام مراسم الزواج وعقد القران ، مع إرسال الهدايا الفاخرة والتحف ، يصحبها قاض القضاة ومستوفى السلطنة ، فقد أرسل السلطان ألب أرسلان مع ابنة الخليفة القائم بأمر الله المسماة سيدة خاتون زوجة السلطان طغرلبك المتوفى ، نفقتها وقيمتها خمسة آلاف دينار ، مع صحبة المستوفى إلى بغداد(٧٥) .

وفي أثناء زواج أرسلان خاتون ابنة ملكشاه بالخليفة العباسي المقتدى بالله ظهر دور مستوفي السلطنة عندما ذهب إلى والدتها ، لكي يستأذن في اصطحاب العروس إلى دارها الجديدة ، حيث تقدم الوزير نظام الملك الطوسي وأبو سعد المستوفي إلى السيدة تركان خاتون وكل واحد منهما معه هدايا قيمة ، لتقديمها لوالدة العروس(٧٦) .

ومن الأمور الهامة التي تقع تحت نفوذ واختصاص المستوفي الإشراف على دار ضرب العملة ، حتى يكون على علم بالنفقات العامة ، وكمية العملة الذهبية والفضية في دار الضرب ، ومتابعة العمال والصناع بها ، والتأكد من قيمة الصرف ، لاستعمال الدنانير الذهبية في جباية الخراج والضرائب الأخرى(٧٧) .

٣- أشهر من تولوا منصب الاستيفاء ومكانتهم في الدولة :

اشتهر عدد كبير من المستوفين بعلو الهمة والمكانة الرفيعة في الدولة السلجوقية منهم "شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي" الذى تولى منصب رئاسة الاستيفاء في عهد كل من السلطان طغرل وألب أرسلان وجزء من سلطنة ملكشاه ، اتصف بجلالة القدر ، وكان على المذهب الحنفي ، لذا شيد مدرسة في باب الطاق ببغداد لأصحاب هذا المذهب(٧٨) ، وتمتع بالثراء الفاحش(٧٩) . وكان مقربا من الوزير نظام الملك الطوسي مؤيدا منه ، أشار عليه بالمسير إلى نيسابور(٨٠) والمقام بها مع السلطان ملكشاه في بداية سلطنته ، وذلك سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢م ، وبالفعل نفذ السلطان ووزيره هذه النصيحة فعادت بالخير على الدولة نتيجة لاستخراج أموال كبيرة من قهندز بنيسابور ، استخدمت في استمالة قلوب الأمراء وقادة الجند(٨١) ، توفي شرف الملك المستوفي في سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠ م بعد أن استقال من منصب الاستيفاء بفترة قصيرة(٨٢) .

وممن اشتهر في منصب الاستيفاء " سعد الملك بن محمد الآبي " ، الذى اتصف بالتدين وحسن التدبير(٨٣) ، عمل بداية حياته كاتبا في ديوان السلطان محمد طبر(٨٤) ، ثم رفع إلى منصب الاستيفاء(٨٥) ، وانتهت حياته بالتآمر عليه من قبل أعدائه .

وعندما رقى سعد الملك الآبي إلى منصب الوزارة في سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٤ م أسند السلطان محمد طبر إلى شمس الدين أبي سعد هندو بن محمد بن هندو القمي " منصب رئاسة ديوان الاستيفاء ، ولقبه بزين الملك(٨٧) ، وقد عرف بميله الشديد للمال والإسراف في جمعه وتحصيله ، ومن ثم جاءت نهايته بالقتل على يد الأمير التونتاشي كامبار(٨٨) .

ومن اشتهر في عهد السلطان محمد طبر " خطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميبذي[٨٩] . الذي ولد في بلخ ونشأ في أصفهان ، وامتاز بحسن الخط ، واستمر في الأعمال الديوانية قرابة الخمس والأربعون عاما ، متنقلا بين رئاسة عدة دواوين منها ديوان الرسائل وديوان الإشراف وديوان الاستيفاء "[٩٠] .

كما تولى ديوان الاستيفاء " مختص الملك أبو النصر أحمد بن فضل بن محمود الكاشي " ، الملقب بمعين الدين نصير الدولة ، الذي عمل في بداية حياته كاتبا للرسائل ومحررا في ديوان السلطان بركيارق ، وفي سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م أسند إليه منصب ديوان الإنشاء حيث انتزع الوزير سعد الملك الآبي هذا المنصب من يد نصير الملك بن مؤيد الملك وأسنده إليه ، ومنذ ذلك التاريخ دخل مختص الملك الكاشي في مصاف أصحاب المناصب الديوانية[٩١] .

وتولى " مختص الملك الكاشي " رئاسة الاستيفاء في عهد السلطان سنجر[٩٢] ، وامتاز بالخبرة الواسعة والأسلوب السليم في تحصيل الأموال من الرعية ، فجمع أموالا طائلة وتقرب من رجالات الدولة والأمراء بالهدايا والتحف[٩٣] ، وفي نهاية حياته رفع بأمر من السلطان إلى مصاف الوزراء ، الذي استمر فيه حتى قتله[٩٤] .

كذلك اشتهر " معين الساوي " مستوفي السلطان طغرل وأرسلان ، وهو يمتاز بحسن الخط والميل إلى الأدب والعلم[٩٥] ، كما اشتهر أبو نصر بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله الملقب بعزيز الدين المستوفي - عم العماد الأصفهاني الكاتب - بعلو القدر والرئاسة ، تولى أمر الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه[٩٦] ، وقتل في سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١ م[٩٧] .

وممن اشتهر من المستوفين " كمال الدين محمد بن علي الخازن الأزدي " ، الذي عمل في بداية حياته خازنا للسلطان سنجر ، الذي رفعه إلى مصاف الولاة فعينه على ولاية الري[٩٨] ، وفي عهد السلطان مسعود ارتفع شأنه بإسناد منصب الاستيفاء[٩٩] ، حيث أثبت كفاءة وخبرة كبيرة ، واتصف بالشجاعة والعدل وأزال المكوس ورفع المظالم ، وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق[١٠٠] ، وفي نهاية حياته حدث خلاف بينه وبين الأمراء والقادة وعلى رأسهم الأمير قراسنقر ، ومن ثم انتهت حياة كمال الدين بالقتل في شوال سنة ٦٣٣ هـ/ ١١٣٨ م[١٠١] .

كذلك اشتهر محمد بن عبد الكريم الأنبارى الملقب بسديد الدولة بمعرفة كبيرة فى تسيير شئون الاستيفاء ، وانفرد بإنشاء المكاتبات ، حتى وفاته فى سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م فى بغداد[١٠٢] .

ولا يفوتنا فى نهاية الحديث عن أشهر المستوفين أن نشير إلى أن بعضهم وصل إلى مكانة عالية فى الدولة ، ومنزلة رفيعة وازداد نفوذه حتى تمكن من التآمر على الوزراء وإقصائهم من مناصبهم ، فعلى سبيل المثال تمكن مجد الملك القمى المستوفى فى عهد بركيارق من إقصاء الوزير مؤيد الملك من منصبه ، والتغلب عليه ، وإبقاءه صورة بلا معنى ، لدرجة أنه اشتكى حاله عن طريق كتابة الشعر باللغة الفارسية ، يستعطف السيدة زبيدة خاتون ومستوفيها أن يطلق سراحه من سجنه[١٠٣] .

كما لعب " معين الدين الساوجى " المستوفى فى عهد السلطان أرسلان بن طغرل دورا بارزا فى التآمر مع الأمير " أمير بن على بار " حاكم ولاية الرى ، ضد الأتابك شمس الدين أيلدكز ، وتمكنا من الدس للأتابك ، لولا تدخل الوزير " فخر الدين الكاشى " وتوضيحه المؤامرة للسلطان ، وبذلك قبض على أمير بن على بار وأودع قلعة نخجوان ، وعنف المستوفى وأبعده عن مهام منصبه[١٠٤] .

وكثيرا ما قدم المستوفون المشورة والرأى إلى السلاطين ، خاصة إذا ازدادت مكانتهم فى الدولة ، وكانوا على درجة من الدهاء والكفاءة فى العمل ، فإننا نرى أن أحد المستوفين فى سلطنة مسعود يتدخل فى السياسة العامة ، ويوغر صدر السلطان على الخليفة الراشد وينصحه بخلعه وتولية أبو عبد الله محمد بن المستظهر ، وبالفعل يعزل الراشد ويتولى المقتفى لأمر الله فى ذى القعدة سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م[١٠٥] .

وفى سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م ، قام المستوفى أبو نصر بإبداء الرأى فى وزير السلطان محمود بن محمد ، المسمى شمس الدين عثمان نظام الملك ، وتخوف السلطان من مغبة إطلاق سراحه ، خشية أن ينضم إلى عمه السلطان سنجر فى خراسان ، وبالفعل يأمر محمود بإعطائه لسيافه عنتر الخادم ليقتله[١٠٦] .

٥- المستوفى والعلم والعلماء :

مال عدد كبير من المستوفين إلى العلم والتقرب من العلماء وتشجيع الشعراء والأدباء وبذل الهدايا والأموال لهم ، ومنهم من صنف التصانيف والمؤلفات العلمية ، وصار من المشاهير فى فروع المعرفة .

ومن هؤلاء أبو الفوارس الحسين بن على بن الحسين المعروف بابن الخازن الكاتب الذى امتاز بجمال الخط وحسنه فكتب خمسمائة نسخة من كتاب الله العزيز ، وكتب الشعر ونظمه ، وعاش حتى سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ م .

وممن اشتهر بميله للآداب والشعر " أبو الفضل بن الخازن " ، الذى نظم الشعر وأبدع فيه ومن أشعاره :

وافـيت منزله فلم أر صـاحـبـا   إلا تلقـــاني بوجـه ضـاحك
والبـشـر فى وجـه الغـلام نتـيـجـة   لقـد مــات ضـيـاء وجـه المالك
ودخلت جنتـه وزرت جـحـيـمـه   فـشكرت رضـوانا ورأفـة مـالك

وممن صنف فى العلوم المختلفة من المستوفين أبى طاهر الخاتونى مستوفى السيدة جوهر خاتون - زوجة السلطان محمد بن ملكشاه - الذى ألف فى التاريخ فصنف كتاب تاريخ آل سلجـوق(١٠٩) ، وله شعر جيد مختار حيث تعلم مجموعة من قصائد الشعر تحت عنوان مناقب الشعراء(١١٠) ، كما ألف كتابا فى الصيد أسماه سكارنامه ، أهداه إلى السلطان ملكشاه(١١١) .

كذلك نبغ مستوفى آخر فى الشعر والأدب وهو طاهر المستوفى ، الذى نظم قصيدة فى الوزير أبو سعد الآبى(١١٢) ، جاء فيها :

أنا فى المنزل وحـــــدى   وكـذلك الشـيخ وحـــده
وســـواء كـــان عنـــــدى   وســـواء كنت عنده(١١٣)

وكـذلك شجع بعض المسـتوفين الشـعراء وأجـزلوا لهم العطايا ، فـارتادوا قـصـورهم ، ومدحوهم فى قصائدهم ، ومنهم الشاعر المغربى - شاعر السلطان سنجر - الذى مدح " أبو سعد هندو المستوفى "(١١٤) .

وبرز دور عزيز الدين المستوفى فى تشجيع الشعراء ، فى هباته للشاعر زين الدين الذى نظم رباعية باللغة العربية فى مدحه ، فى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م فـأكرمه ، وشرفه وألبسه خلعة فاخرة من ثيابه الخاصة(١١٥) ، وقد وصل هذا الشـاعر زين الدين إلى مكانة عالية ، وبرع فى استخدام اللغة العربية والنظم بها ومعظم قصائده بها ، فقد أنشد قصيدة أخرى فى حضرة معين الساوى المستوفى لاقت استحسان الفضلاء والحاضرين جميعا(١١٦) .

واشتهر من مدينة كاشان عددا ممن تولوا ديوان الاستيفاء ، وامتازوا بالميل إلى الأدب والشعر وحسن الخط وجماله ، من أمثال " حميد الدين بن الحسين المستوفى الكاشانى[(١١٧)] وحميد الدين الجوهرى المستوفى " فى ديوان الاستيفاء ببلاد ما وراء النهر[(١١٨)] .

ويعتبر مؤيد الدين منتخب الدين بديع أتابك الجوينى ، الذى تولى الاستيفاء ورئاسة ديوان الرسائل ما بين عامى ٥٢٨ هـ/ ١١٣٣ م إلى ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م فى عهد السلطان سنجر من العلماء فقد قام بتجميع مجموعة من المراسلات الديوانية فى كتابه " عتبة الكتبة " باللغة الفارسية ، على مدى عشرين عاما ، حوت مراسيم مختلفة فى تعيين الوزراء والمستوفين والمشرفين وولاة الأقاليم ، والمصنف يعتبر قطعة أدبية كبيرة القيمة[(١١٩)] .

٥- أشهر من تولى الاستيفاء لنساء القصور :

من مظاهر سيادة المرأة السلجوقية امتلاك الإقطاعات والأراضى الزراعية ، واستعانتها بموظفين خصوصيين لإدارة شئون إدارتها مثل موظفى الدولة ، ويأتى على رأس هؤلاء الموظفين المستوفى ومهمته إدارة شئون النساء الخاصة ، وتيسير تعاملاتهن المالية والمحافظة على ممتلكاتهن الخاصة ، وتنظيم أساليب وحجم هذه التعاملات ، والإشراف على دفع رواتب باقى موظفى إدارة هذه الأجهزة ومن أشهر من تولى هذا المنصب تاج الملك أبو الغنائم بن المرزبان[(١٢٠)] ، الذى تولى الاستيفاء للسيدة تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه ، ويعتبر من الشخصيات البارزة فى السلطنة ، عين أولا على خزائن السلطان ، والإشراف على دور الحريم السلطانى ، ثم فى وزارة أولاده مستوفيا للإشراف على إدارة أراضيهم وضياعهم[(١٢١)] .

وعملت السيدة تركان خاتون على رفع مستوفيها إلى كرسى الوزارة العامة فى سلطنة ابنها محمود بأصفهان ، وأحلت محله فى الاستيفاء موظف آخر هو مجد الملك أبو الفضل القمى المستوفى[(١٢٢)] ، الذى ما لبث أن انضم إلى معسكر ضرتها ومنافستها على العرش السيدة زبيدة خاتون – زوجة ملكشاه الثانية – وابنها بركيارق ، خوفا من تآمر القادة عليه من أمثال الأمير اينانج بيغو والأمير برسق[(١٢٣)] ، وذلك بسبب ميل مجد الملك المستوفى لإعطاء بركيارق مبلغا من المال يقدر بخمسمائة ألف دينار من ميراث والده ، لكى يفك الحصار عن أصفهان ويرحل[(١٢٤)] .

وبناء على ذلك عينت تركان خاتون فى هذا المنصب مستوفيا ثالثا هو محمد بن منصور أبو سعد المستوفى ، ولكن لم يبق كثيرا فى هذا المنصب فسرعان ما عزل وصودرت أمواله(١٢٥).

كذلك تولى عدد من المستوفين للسيدة زبيدة خاتون ، التى زاد نفوذها واتخذت لنفسها إدارة خاصة لتسيير شئونها الإدارية وممتلكاتها وخزانة أموالها ، فعينت الأستاذ على فى الاستيفاء ، وعز الملك أبو عبد الله الحسين بن نظام الملك فى الوزارة ، واستعانت بأخيه الأصغر عبد الرحيم فى منصب الطغراء(١٢٦) .

ومن أوائل المستوفين الذين باشروا العمل للسيدة زبيدة خاتون ، " مجد الدولة أبو الفضل القمى " ، الذى استرضى الخاتون ، فارتفع شأنه بفضلها فى الدولة ، وساندته فى كل خطواته الإدراية ، فتمادى فى نفوذه وتجبر لدرجة أنه قبض على الأستاذ على المستوفى ، فى محاولة أن يحل محله فى إدارة الأملاك الخاصة بزبيدة ، وسمل عينه وتولى بدلا منه ، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه السيدة كانت إلى جانب مستوفيها مجد الدولة تسانده فى كل صغيرة وكبيرة وتعاونه فى تحركاته ، كما وقفت معه أيضا ضد الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك(١٢٧) .

وهناك سيدة ثالثة من نساء القصر السلجوقى ، استعانت بمستوفى خاص فى إدارة شئونها المالية ، هى السيدة جوهر خاتون التى استخدمت كمال الملك السميرمى فى منصب الاستيفاء ، الذى تمكن من الارتقاء بمكانه إلى درجة عالية فى السلطنة ، فقد كان فى بدء حياته يعمل بالزراعة فى أرض الخاتون بمدينة سميرم بأصفهان ، ثم اختاره الوزير محمد العميد الطغرائى نائبا عنه فى إدارة أملاك الخاتون الشخصية ، وعندما لمس فيه الكفاية اتخذه كاتما لأسراره ، وشيئا فشيئا سيطر على عقل السيدة ، بعد أن رأت أنه يفوق الأمراء أمانة وخبرة(١٢٨) ، ومن ثم أسندت إليه شئون أراضيها وأملاكها ، فذاعت ، شهرة كمال الملك السميرمى إلى حد كبير حتى استعان به السلطان محمد ، فأسند إليه منصب الاستيفاء العام فى الدولة السلجوقية(١٢٩) .

وقد لعب كمال الدين السميرمى دورا سياسيا بارزا فى تقريب وجهات النظر بين السلطان محمود وعمه السلطان سنجر ، وأنهى الخلاف الناشب بينهما ، فاعترف سنجر بسلطنة محمود فى العراق ، فصار هناك سلطانان فى الدولة السلجوقية لأول مرة فى تاريخها (١٣٠).

كذلك تمتع هذا المستوفى بالمكانة والثروة العالية ، لدرجة أن زوجته كانت تخرج للتنزه فى موكب كبير من الجوارى يقدر عددهم بمائتى جارية فى زى فاخر ، متشحات بالجواهر والمجوهرات ، بالإضافة إلى عدد كبير من الخدم(١٣١) .

استعانت السيدة جوهر خاتون بعدد لا بأس به من الرجال فى إدارة أعمالها ، فأنشأت ديوان خاص لإدارتها ، وعينت فيه موفق الدولة أبو طاهر المستوفى ، الذى اتخذ تخلصه من اسمها فنسب إليها وعرف باسم الخاتونى(١٣٢) . ارتفع شأن الخاتونى على جميع موظفى الإدارة ، ولم يمنعه رادع أو مانع من هجاء الوزير أبى منصور الميبذى – وزير محمد طبر – فوصفه بالجهل وعدم الكفاءة ، وهجاه بقوله :

كان حمارا وزيرنا ومضى فما يملك السلطان من خلل(١٣٣)

والملاحظ أن أبا طاهر المستوفى جعل لهذه القصيدة الهجائية عنوانا بارزا هو " تزين الوزير الزير الخنزير " .

وعلى ذلك فإن سيدات القصور السلجوقيات استخدمن فى إدارة أملاكهن الخاصة ، والإشراف على اقطاعتهن ، هؤلاء المستوفين الذين تميزوا بالأمانة والخبرة وحسن المعاملة ، وحققوا نجاحات كبيرة فى الإدارة .

٦– منصب الاستيفاء خطوة للارتقاء إلى مناصب أعلى فى الدولة :

لم يكن منصب صاحب ديوان الاستيفاء هو أعلى المناصب الإدارية التى يرتفع شأن المستوفى ونائبه إليها فى الدولة السلجوقية ، فكثيرا ما تخطوه إلى منصب الوزارة سواء فى السلطنة أم فى الخلافة العباسية نفسها ، فعلى سبيل المثال فإن أبا المعالى النحاس الأصفهانى ، الذى عمل فى بداية حياته نائبا " لمحمد بن غيلان " عارض ديوان السلطان ملكشاه ، ثم مستوفيا فى عهد السلطان بركيارق ، يصل إلى منصب الوزارة فى الخلافة العباسية ببغداد وذلك عندما ذهب إلى صاحب الحلة ، " سيف الدولة صدقه " الذى رشحه لهذا المنصب فى خلافة المستظهر بالله(١٣٤) .

أما عن المستوفيين الذى رقوا إلى منصب الوزارة فى داخل السلطنة ، فنجد منهم " سعد الملك بن محمد الآبى فى سلطنة محمد بن ملكشاه " ، الذى عمل فى بداية حياته نائبا وكاتبا ومدير شئون ولى عهد السلطنة ، ثم ارتفع شأنه بالوزارة إلا أنه اتهم بالانتماء إلى طائفة الإسماعيلية ، فأمر السلطان بقتله(١٣٥) .

كذلك ارتفع شأن " خطير الملك أبو منصور اليزدى " من رئاسة ديوان الاستيفاء إلى منصب الوزارة فى عهد السلطان محمود بن محمد ، وقد قيل أنه مكث فى الدواوين وأعمالها ما يقرب من خمسة وأربعين عاما بين ديوان الرسائل والإشراف والاستيفاء(١٣٦) .

ومن الجدير بالذكر أن " شمس الملك عثمان بن نظام الملك " ، الذى تولى فىْ بداية حياته المناصب الإدارية ورئيس ديوان الاستيفاء فى عهد محمود بن محمد ، وصل إلى دست الوزارة واستمر فيه ، حتى قتل ، وذلك نتيجة لتآمر أعيان العراق عليه وإرسالهم عددا من الشكاوى إلى السلطان سنجر بخراسان يتضررون من ظلم وتعسف الوزير فى جباية الأموال ، ومن ثم خاطب سنجر ابن أخيه محمود فى القضاء على وزيره وقتله(١٣٧) .

وفى عهد السلطان طغرل بن أرسلان ارتفع شأن عزيز الدين المستوفى من رئاسة الديوان إلى منصب الوزارة(١٣٨) ، كذلك كان " نصير الدين المظفر الخوارزمى " مستوفيا فى بلاط السلطان سنجر ، يفتخر ويتباهى بمعرفته التامة بفن الاستيفاء ، حيث عمل فى بداية حياته فى مهمة الإشراف على مطبخ واسطبل السلطان ، ثم رقى إلى الإشراف على جمع وإخراج أموال الولايات ثم تولى ديوان الاستيفاء ومنها أصبح وزيرا للسلطنة(١٣٩) .

وفى بعض الأحيان كان المستوفين يتنازلون عن مناصبهم ، خشية من المؤامرات والدسائس التى تحاك من قبل الوزراء ضدهم ، ويكتفون بالقرب من السلاطين والتودد إليهم ، ففى وزارة الدركزينى فى سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، تنازل عزيز الدين المستوفى عن منصبه فى رئاسة ديوان الاستيفاء ، بسبب عداوة الوزير له ، وفضل الإقامة فى البلاط مستشارا للسلطان محمود بن محمد ، ومن ثم عين صفى الدين أبو القاسم الجنزى مكانه فى الديوان(١٤٠) .

وفى بعض الأحيان عجز بعض الوزراء فى إدارة مهام منصبهم وفشلوا فى تحقيق مهامهم، ومن ثم يعادوا إلى منصب الاستيفاء من جديد ، ويظهر هذا بصورة واضحة فى حالة

نصير الدين المظفر الخوارزمي ، الذى أعفاه السلطان من الوزارة وأعاده مرة أخرى إلى مهمة الإشراف على جمع الخراج والاستيفاء[١٤١] .

وفي حقيقة الأمر فإن منصب الاستيفاء كان يغرى فى كثير من الحالات الأمراء وبعض وزراء الأتابكيات فيتطلعون إليه بشغف ، نظرا للمكاسب المالية الكبيرة التى يحققها صاحب هذه الوظيفة ، وبالتالي يتركون وزارة الأتابكية ويتولون رئاسة ديوان الاستيفاء في عاصمة السلطنة ، فقد قام " بهاء الدين أبو طالب وزير آقسنقر الأحمديلي " بالتنحى عن منصب الوزارة ، وتولى الاستيفاء للسلطان طغرل في وزارة الدركزيني[١٤٢] .

والواقع أن منصب الاستيفاء كان خطوة هامة على سلم المناصب الإدارية ، ودعوة للترقى إلى منصب صاحب الولاية أو عامل الولاية ، فقد أسند منصب حاكم الرى فى عهد السلطان سنجر إلى " معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاشى " الذى كان مستوفيا فى الديوان ، وبالفعل حقق معين نجاحا كبيرا فى إدارة شئون الولاية ، وذلك لأنه صاحب خبرة كبيرة وأسلوب سليم فى تحصيل الأموال من الرعية ، فإنه نجح فى جمع الأموال والأمتعة والهدايا ، وأرسلها إلى خزانة السلطان ، وجذب إليه نساء القصر والأمراء بإرسال التحف القيمة إليهم[١٤٣] .

كذلك تكرر الأمر مع " كمال الدين محمد " المستوفى ، الذى كان يعمل فى بداية حياته خازنا للسلطان سنجر فقد أسند إليه حكم ولاية الرى إلا أنه لم يستمر طويلا فى هذا المنصب حيث وقع أسيرا في يد السلطان مسعود السلجوقى عند زحفه على تلك المناطق ، فقضى كمال الدين فترة أسيرا فى قلعة " سرجاهان " ، ومع معرفة السلطان مسعود بذكائه وقوة شخصيته، فإنه أمر بإطلاق سراحه ، وإعادته إلى دواوين الحكومة والرفع من قدره بإسناد منصب الوزارة إليه[١٤٤] .

ونلحظ أنه بالرغم من انتشار شهرة العديد من الرجال فى الأعمال الإدارية ، فإن بعضهم لم يستمر أكثر من فترة وجيزة فى منصب الاستيفاء ، وفضلوا الابتعاد نهائيا عن الحياة الإدارية خشية القتل ، فقد مكث " المهذب أبو طالب بن أبو البدر " فى الاستيفاء شهرا واحدا، وأعفاه السلطان وولى بدلا منه الكمال أبو الريان الأصفهاني[١٤٥] .

ومن منطق الترقى فى الوظائف الإدارية والتطلع إلى المناصب الأعلى ، فإننا نجد أن نواب المستوفى يحتلون مكانة أسيادهم عند وفاتهم ، فقد كان أبو أسعد محمد بن موسى البرادستانى القمى يعمل نائبا للمستوفى فى عهد السلطان ملكشاه فلما توفى شرف الملك المستوفى احتل منصبه ، فوصل بذلك إلى رئاسة ديوان الاستيفاء ، وأطلق عليه لقب مجد الملك(١٤٦) .

٧- معاونو المستوفى :

عين المستوفى نوابا ووكلاء عنه فى إدارة المدن والأقاليم التابعة للسلطنة السلجوقية ، عرف أصحابها باسم وكيل المستوفى أو نائب المستوفى(١٤٧) كما عين فى عاصمة الخلافة موظفا يعرف " بجابى الأموال "مهمته جمع الضرائب والخراج وحملها إلى خزانة السلطان السلجوقى فى عاصمته ، وكثيرا ما قام المستوفى بزيارات تفقدية لنوابه وموظفيه ببغداد للاستطلاع على سير العمل ، ففى سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م ، قام شرف الملك أبو سعد المستوفى بزيارة بغداد، والقيام بعدة أعمال خيرية وبناء منشآت معمارية بها(١٤٨) .

وقد وجب على معاونى المستوفى أن يكونوا مثل رئيسهم ، مشهودا لهم بحسن الخلق والسيرة الحسنة وتمام الدين وحفظ القوانين وعلى معرفة بتنظيم الإيرادات والمصروفات(١٤٩) وعليهم أن يتوخوا الحذر ويعملوا بالأمانة والصدق فى ضبط الخراج ، وألا يتركوا للقلم سبيلا إلى الخطأ ، وأن تتسم حسابتهم بالوضوح والدقة ، ليتمكن المستوفى بدوره من إرسال نسخة منقحة إلى ديوان الاستيفاء ، يوضح فيها كيفية سير العمل فى السلطنة بوجه عام ، ويسجل فيها الدخل والمنصرف ، ويتدارك الأمر إذا ما حدث خطأ كتابى(١٥٠) .

ومن أهم نواب المستوفى فى مدن السلطنة ، نائب مدينة مرو ، ونائب مدينة كركان ، الذى صدر بحقهما مناشير بتولية الاستيفاء ، وذلك فى عهد السلطان أرسلان شاه ، أصدر منشور خاص بزين الدين أبى العلاء صاعد بن حسين يوضح فيه أنه نائب للمستوفى فى مدينة مرو ومدنها وقراها ونواحيها ، فيما يتعلق بالأملاك والأموال ، وأنه أنيط إليه بتحصيل الخراج عن عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م(١٥١) ، وأطلق له الحرية فى تحصيل ذلك بالأسلوب اللائق ، كما وضح له المنشور الطريقة التى يتبعها فى تنظيم الحسابات وضبطها(١٥٢) .

ومن أشهر نواب المستوفى فى الدولة السلجوقية " على بن الحسين الأردستانى " ، المشهود له بحسن الخط وحسن السمعة ، كثير الأدوات موصوفا بالثبات ، فكان أوحد عصره(١٥٣) . كما عمل " مختص الملك الكاشى " نائبا للاستيفاء فى وزارة الخطيبى ، ثم رفع بعد ذلك إلى رئاسة الاستيفاء فى وزارة خطير الملك سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠(١٥٤) ، مما يوضح أن من حق نائب المستوفى الترقى إلى منصب الاستيفاء وتولى رئاسة الديوان .

وفى عهد السلطان محمد طبر ، عندما حاول محاصرة بغداد سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م فى عهد الخليفة المقتفى لأمر الله ، كان رئيس الاستيفاء رضى الدين أبو سعد الخوافى ونائب الاستيفاء كمال الدين أبو الريان(١٥٥) .

كما كان لشرف الملك أبو سعد المستوفى نائبا كبيرا هو أبو غالب البراوستانى(١٥٦) وإلى جانب نواب المستوفى ، كان هناك عدد من الموظفين والعمال للمساعدة ، يأتى فى مقدمتهم موظف يطلق عليه اسم " المعين " ، " والناسخ " وكانت مهمته نسخ التوقيعات والمكاتبات الصادرة والواردة ، " والخازن " ، وهو الكاتب المتولى قبض الغلات وخزنها وإخراجها وقت الطلب(١٥٧) .

وكان لعزيز الدين أبو حامد المستوفى – فى عهد السلطان سنجر – خازنا لخزانة الأموال أطلق عليه اسم سابور الخادم الخازن(١٥٨) كذلك كان " شهاب الدين أسعد " كاتبا للاستيفاء أثناء رئاسة كمال الدين السميرمى فى سلطنة محمد(١٥٩) .

٨- العقوبات السياسية :

لم تشفع مكانة المستوفى ومنزلته الرفيعة فى الدولة من محاسبته وإنزال العقاب به إذا أخطأ ، فظهرت عدة حالات تعبر عن استياء السلاطين والوزراء منه ، وقد تراوحت العقوبات ما بين العزل أو السجن أوالقتل وفى بعض الأحيان يعاقب المستوفى بمصادرة الأموال والممتلكات، وتصفية مدخراته ، واستنزاف عائلته وأقاربه ، وفى البعض الآخر يكتفى بالعزل من منصبه ، وإبعاده عن المناصب الإدارية .

فمن المستوفيين الذين صودرت أموالهم وأبعدوا عن مناصبهم ، "صفى الدين المستوفى " ، حيث صودر منه مبلغ مائتى ألف دينار(١٦٠) وذلك فى رمضان سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١م.

وعندما غضب السلطان محمد على مستوفيه " مختص الملك الكاشى " أمر بعزله وعين بدلا منه الأمير محمد الجوزجانى العميد(١٦١) .

أما عز الدين الأصفهانى المستوفى ، فقد عزل من منصبه وأمر الوزير قوام الدين الدركزينى بإيداعه السجن ، الذى ظل فيه حتى وفاته ، ولم تجد نفعا الأشعار الاستعطافية التى نظمها وأرسلها لهذا الوزير(١٦٢) .

كذلك كان نصيب " شمس الدين أبو سعد زين الملك هندو بن محمد هندو المستوفى " فى عهد محمد بن ملكشاه العزل والإيداع فى السجن فترة من الوقت ، ومن منطلق شفقة السلطان بمستوفيه ، فقد عفا عنْه وأعاده من جديد إلى منصب الاستيفاء(١٦٣) .

وكان حظ محمد بن منصور أبو سعد المستوفى أفضل حالا من سابقيه ، فعندما غضبت عليه السيدة تركان خاتون وعاقبه ملكشاه بمصادرة أمواله ، فإنه استنجد بالسيدة تركان خاتون ، موضحا موقفه وأنه خادم فى الدولة وأن ماله من بين أيديهم ، حتى رضيت عنه ، فنحاه السلطان عن منصبه ، وبقى بعيدا عن الحكم ، يقيم فى منزله بأصفهان ، حتى وفاته سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠ م(١٦٤) .

وبالرغم من الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى منصب الاستيفاء ، وأهمها أن يكون الشخص حسن السيرة سديد الرأى متدينا موصوفا بالكفاءة والخبرة التامة معروفا عنه حسن الفصل بين الخير والشر ، والخبرة الطويلة فى أعمال جمع الضرائب والخراج ، إلا أنه كثيرا ما وقعت مخالطات مالية فى ديوان الاستيفاء ، سواء كانت بقصد يهدف المستوفى من ورائه الثراء السريع ، أم بدون قصد ، ومن ثم كان السلاطين يواجهون هذه الحالات بالقتل والمصادرة ، مثلما حدث لأبى المحاسن بن أبى الرضا المستوفى الملقب بسيد الرؤساء ، الذى عمل فى بلاط ملكشاه وخدم والده طويلا فى ديوان الطغراء(١٦٥) .

وعلى ذلك فقد سنحت لبعض رجال البلاط الفرصة بتلفيق التهم والافتراءات على المستوفين ، وراح ضحيتها العديد منهم ، فنرى " مجد الملك المستوفى " فى عهد السلطان بركيارق يتهم بالتآمر عليه من قادة الجند ، الذى أغروا السلطان بقتله ومصادرة أمواله ، بدون أن يفعل جريرة بينه(١٦٦) .

وفى سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م ، عذب وشنق شمس الدين أبو سعد زين الملك هندو المستوفى القمى فى سلطنة محمد بن ملكشاه ، بالرغم من محبة العديد من رجالات البلاط ، ومنهم الشاعر المغربى ، الذى كان من ممدوحيه ، فيقول عنه فى أول القصيدة :

يجئ الآن رستم من مـــازندران ويجئ الآن زين الملك من أصفهان (١٦٧)

أما عن سبب قتل زين الملك هندو فهو إتهام بعض رجالات الدولة له بكثرة أخذ الأموال وجمع الثروات والإساءة بالقول فى حق السلطان والخليفة العباسى ، مما أوغر قلب السلطان عليه كما أبدوا استعدادهم بنقل مبلغ كبيرا من أمواله إلى خزانة السلطان ، لذا سلم المستوفى إلى الأمير ألتونتاش كاميار(١٦٨) ، الذى استخدم الحيلة لجمع الأموال من أهله بإركابه دابة مزينة بالذهب ، زاعما أن السلطان خلع عليه ورفع من قدره على مال قرره عليه ، فحصل بذلك مبلغا كبيرا من أقربائه ومن أهل بلدته قم ، ثم ما لبث أن صادر هذا المال وسلمه للسياف تاج الدولة الديلمى ، الذى قام بشنقه(١٦٩) .

وفى سنه ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، تآمر المستوفى أبو نصر على الوزير شمس الدين عثمان ابن نظام الملك ، الذى عمل فى بداية حياته مستوفيا فى ديوان محمود بن ملكشاه ، وحرض السلطان ضده ، واتهمه بكثرة الحرص على جمع المال لنفسه ومصادرة أموال الأغنياء والتجار لصالحه ، ومع تقدم أعيان العراق بالعديد من الشكاوى للسلطان سنجر فى نفس هذا الغرض ، أمر السلطان محمود بتسليم شمس الدين ، إلى السياف عنتر الخادم لقتله ، ولكن لم تلبث الحقيقة أن اتضحت ، وظهرت للعيان ومن ثم نفذ السلطان نفس الشئ فى أبى نصر المستوفى(١٧٠) .

وفى سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م قبض الوزير الأنساباذى فى عهد السلطان طغرل بن أرسلان على " أحمد بن حامد بن محمد أبو نصر المستوفى " الملقب بعزيز الدين ، وسلمه إلى بروز الخادم ، الذى أودعه السجن فى قلعة تكريت ، وقام بتعذيبه بوحشية حتى الموت(١٧١) .

ونتيجة لتآمر رجال الجيش وقادته على " كمال الدين محمد الخازن " ، فى عهد السلطان مسعود بن محمد الذى تشدد معهم فى تقديم المؤن والعتاد ، ولم يراع حريتهم ولم يترك لهم مجالا للتصرف فى أموال الدولة ، فتآمروا ضده مع الأتابك قراسنقر ، الذى أصر على قتله وقطع يده اليمنى ، فقام السلطان بتنفيذ رغبة الأتابك وأمر بقطع رأس محمد الخازن ويده ، فى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨ م(١٧٢) .

ولابد أن نشير هنا إلى أن منزلة الوزير كانت أعلى من منزلة المستوفى فى الديوان وللوزير الحق فى محاسبة المستوفى وإنزال العقاب به إذا أخطأ أو قصر فى تقديم الأموال ، أو استحوذ على شئ منه كثيرا كان أو قليل ، ففى سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م أنزل الوزير البروجردى العقاب " بثابت بن حميد المستوفى " وأمر بحسبه فى سرداب فى مدينة همذان فى فصل الشتاء دون أن يمنحه ملابس أو أغطية يتدثر بها ، فتوفى المستوفى من شدة البرد ، ومما زاد الأمر سوءا أن هذا الوزير أمر بمصادرة أموال وممتلكات المستوفى ، وتصفية كل مدخراته ، واستنزف من عائلته قرابة ثلاثمائة ألف دينار ، ولم يترك لأولاده شيئا(١٧٣) .

ومن منطلق عقاب المستوفين واتهامهم بعدم الأمانة فإننا نجد أن بعض الوزراء كانوا يسندون تهمة اعتناق المذهب الإسماعيلى إليهم كى يتخلصوا من نفوذهم ، لأن تلك التهمة لا تنفع فيها شفاعة ولا استعطاف ، بل مصير صاحبها القتل لا محالة ، وعلى ذلك اتهم قاضى القضاة عبيد الله الخطيبى وصدر الدين الخجندى حاكم أصفهان ، المستوفى سعد الملك الآبى فى سلطنة غياث الدين محمد طبر ، باعتناق الباطنية ، واتصاله بأحمد بن عطاش(١٧٤) فى قلعة الإسماعيلية بأصفهان ، لذا أمر السلطان بقتله ، وعين بدلا منه خطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميبذى فى منصب الاستيفاء(١٧٥) .

ومن الملاحظ أن الصراع بين الدولة السلجوقية والإسماعيلية أصحاب الحسن الصباح(١٧٦) ، فى قلعة شاه دز بمدينة أصفهان كان على أشده فى تلك الفترة ، لذا لجأ الشيعة الإسماعيلية إلى القضاء على منافسيهم من رجالات الدولة السلجوقية ، ونرى ذلك بوضوح فى قيامهم بقتل كمال الدين السميرمى فى سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م ، الذى عمل مستوفيا للسيدة جوهر خاتون(١٧٧) ووصل ألى منصب الوزارة العامة فى عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه مرورا بمنصب الاستيفاء ، وقد قيل أن هذا الرجل قتل فى السوق العام ببغداد عند المدرسة النظامية على يد عبد أسود(١٧٨) .

٩- ديوان الاستيفاء :

من الدواوين الهامة فى الدولة السلجوقية يطلق عليه اسم ديوان الجبايات أو جباية الأموال، ويتم فيه الاحتفاظ بسجلات يدون فيها قيمة الخراج على المناطق التابعة للدولة والتعديلات التى قد تطرأ عليها ، فهذا الديوان يختص بتنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها ، ويعرف رئيسه

والقائم على شئونه باسم المستوفى ويصدر بتعينه مرسوما خاصا من السلطان يحدد فيه المهام المنوطه إليه ، وسياسة الدولة العامة .

وللمستوفى نواب فى جميع أقاليم ومدن السلطنة ، ويطلق عليهم اسم نواب المستوفى أو وكلاء المستوفى ، يشترط فيهم حسن السيرة والخبرة والمعرفة بأسرار المعاملات وأساليبها(١٧٩) . كما يعين له نائب فى عاصمة الخلافة العباسية يطلق عليه اسم جابى الأموال .

يقيم صاحب الاستيفاء فى حاضرة السلطنة ، لأن الدواوين الحكومية كانت مركزة فى العاصمة ، والشئون المالية تدار فيها ، لذا كان ديوان الاستيفاء فى مدينة الرى فى عهد السلطان طغرلبك(١٨٠) ، بينما كان ديوان الاستيفاء فى أصفهان فى عهد كل من ملكشاه وفترة حكم محمود وأمه تركان خاتون ، وبركيارق بعد أن انفرد بالسلطة ، والجزء الأكبر من سلطنة محمد طبر(١٨١) ، ونقلت الدواوين إلى مدينة همذان ومنها ديوان الاستيفاء فى عهد سلطنة محمود بن ملكشاه(١٨٢) ، بينما أقام السلطان سنجر دواوينه فى مدينة مرو بخراسان (١٨٣) .

ومن البديهى أن يشترط فيمن يعين فى منصب رئيس ديوان الاستيفاء أن يكون مقربا من السلطان السلجوقى ، فيصبغ عليه الألقاب التكريمية ، مثل لقب " الأجل الأوحد " سيد الرؤساء ، " وزين الملك " و غيرها من الألقاب ، ومن أفضل الشخصيات التى تولت ديوان الاستيفاء " شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور المستوفى " فى عهد السلطان طغرلبك وألب أرسلان وجزء من سلطنة ملكشاه(١٨٤) .

وكان مجد الملك القمى من أفضل من تولى المنصب فى عهد بركيارق(١٨٥) ، وتميز عز الدين الأصفهانى المستوفى فى سلطنة محمد بن ملكشاه(١٨٦) ، كما كان أبو سعد هندو فى سلطنة محمد طبر ، الذى ساءت أحواله وانتهى أمره بالقتل فى سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م .

ولرئيس ديوان الاستيفاء وكلاء ونواب فى المدن الكبرى ، وفى الإمكان أن يحتل هذا النائب محل سيده فى هذا المنصب ، فقد تولى أبو الفضل أسعد محمد بن محمد براوستانى القمى نائب المستوفى شرف الملك فى عهد ملكشاه ، محل أستاذه فى الديوان ، وتلقب بلقب مجد

المـلـك(١٨٧) ، وفى هذا دليل على أهمية هذا المنصب وخطوة للارتقاء إلى أعلى المناصب وارفعها فى الدولة السلجوقية .

وصفوة القول أن المستوفى كانت له حرية العمل مفوضا من السلطان فى إدارة حسابات الدولة ومقابلة الوارد بالمنصرف وضبطه ، وإذا ما وجد اختلالا يعيد ضبط الأمور إلى نصابها ، ذلك لأهمية العامل المالى فى استقرار الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى الدولة وتنفيذ سياسة الدولة العامة وتجهيز الجيوش وبناء المنشآت الخيرية ، مع وضع ضوابط كثيرة منها الأمانة لاختيار هؤلاء المستوفين ، وبالرغم من ذلك فقد وجدت العديد من الحالات التى عوقب فيها المستوفى بالسجن والمصادرة أو القتل أو الإعفاء من وظيفته فى الديوان ، وهناك عدد لابأس به من المستوفين رفعت أقدارهم وارتقوا إلى مناصب أعلى كالوزارة أو حكم أحد الأقاليم السلجوقية .

ولم يصل إلى أيدينا ما يمدنا بمقدار قيمة أجر المستوفى ونوابه ، وهل هو إقطاع أو أجر سنوى أو شهرى .

الهوامش

١- كلمة مستوفى من وفى بمعنى الوفاء ضد الغدر ، فيقال وفى بعهده ، وأوفى بمعنى الموافاة التى يكتبها كتاب دواوين الخراج فى حساباتهم فهى مأخوذة من قولك أوفيته حقه ووفيته حقه ووافيته حقه .

(ابن منظور : لسان العرب ، جـ٦ ، ص ٤٨٨٦ ، تحقيق عبد الله على الكبير ، طبعة دار المعارف ، الزبيدى : تاج العروس ، جـ١٠ ، ص ٣٩٤ ، المطبعة الخيرية بالجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ) .

٢- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ ، بتصحيح واهتمام محمد قزوينى وعباس إقبال ، ١٣٢٩ ، هـ . ش .

حسن أنورى : ديوان استيفاء درحكومت غزنويان وسلجوقيان ، ص ٣١ ، ٣٢ ، مجلة بررس هاى تاريخى، العدد ٦ لسنة ٨ بهمن اسفند ١٣٥٢ شماره .

٣- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٩١ م ، فإذا قيل مستوفى الديوان أو رئيس ديوان الاستيفاء فإن ذلك يعنى الشخص المكلف بالإشراف على الشئون المالية ، العارف بأسرار المعاملات وأساليبها ، والخبير بالرسوم وأصولها ، المفوض إليه شئون التدابير التى تتضمن أموال الدولة ، والتى تتعلق بمصالح الجيش ، فهو كاتب وصاحب مجلس فى الديوان ، وهو يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحسابات فى أوقاتها ، وينبه متولى الديوان على ما يجب استخراجه من المال فى وقته وحينه .

٤- الجوينى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦ إلى ص ٤٨ .

السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، تولى فى بادئ الأمر حكم خراسان لمدة عشرين عاما ، ثم صار سلطانا للسلاجقة مدة أربعين عاما وأربعة أشهر ، قامت بينه وبين خوارزم شاه أتسز عدة حروب ، وأسر هو وزوجته تركان خاتون على يد الخطا .

(القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ترجمة محمود محروس قشطه ضمن رسالة الماجستير).

٥- عباس إقبال :الوزارة فى عهد السلاجقة ، ص ٤٨ ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمى ، طبعة الكويت ، سنة ١٩٨٤ م .

تولى السلطان أرسلان شاه بن طغرل السلطنة عقب وفاة عمه ، وتزوج من ابنة الخليفة العباسى المسماة كرمان خاتون ، وصار الأتابك أيلدكز زوج والدته ومديرا لملكه .

(القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٤٤) .

٦- أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، الطبعة الأولى ، الكويت سنة ١٩٧٥ م .

٧- قام الأمير إسماعيل السامانى بإرساء قواعد الحكم فى بلاد ما وراء النهر ، واتخذ من مدينة بخارى حاضرة لملكه ، واتجه إلى توسيع مملكته بالتوسع فى طراز وأغار على الأتراك الوثنيين .
(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 137, (Cambridge, 1976)

٨- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٦٥ ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة والنشر والتوزيع .

٩- الأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل السامانى ، الذى تولى عرش بخارى وهو طفل صغير وسانده فى ذلك والى بخارى أحمد بن محمد بن الليث ، وقام الوزير أبو عبد الله محمد بأمور الملك وضبط المهام حتى بلغ سن الرشد . (مير خواند : روضة الصفا ، ص ٨٦ ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، طبعة الدار المصرية للكتاب سنة ١٩٨٨ م) . فقد كان الأمير إسماعيل قد درأ الأخطار الخارجية وأصلح مرافق البلاد ، ووجه حملات للشمال لتأمين حدود البلاد وشيد القصور والرياض .
(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 137)

١٠- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٦٦ .

١١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢١٥ ، ترجمة حربى أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

١٢- ميرخواند : روضة الصفا ، ص ٩٣ .

يعتبر أبو على سيجور أحد قادة الجيش السامانى ، انضم إلى كبير الحجاب المسمى تاش ، ضد الأمير نوح السامانى .

(Cambridge: History of Iran, Vol 4 . p. 156)

١٣- عضد الدولة بن بوية : هو أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة ، تولى الحكم سنة ٣٣٨ هـ/ ٩٤٩م بوصية عمه عماد الدولة على فارس وكرمان .

(ميرخواند : نفس المرجع السابق ، ص ١٨٨) .

١٤- ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١٧ ، مكتبة المتنبى بالقاهرة .

١٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٦ ، حسن أنورى : ديوان استيفاء درحكومت ، ص ٣٢ .

تدرج أحمد بن الحسن الميمندى فى شغل عدة مناصب إدارية قبل أن يصير وزيرا منها جباية الضرائب ورئاسة ديوان الرسائل ، والاستيفاء العام (نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ١٥٣ ، تهران سنة ١٣٣٧ هـ.ش ، حسن أنورى : نفس المرجع السابق ، ص ٣٢)

Nazim: The life and the time of Mahmoud of Ghazn, p. 134 (Cambridge, 1931).

١٦- غزنة : بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء غزنين

ويعربونها فيقولون جزنة ، غزنة قصبة الإقليم ، وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان ، وهى الحد بين خراسان والهند فى طريق فيه خيرات واسعة ، إلاّ أن البرد فيها شديد .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٠١ ، طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٨٤ م) .

١٧- كرمانى : نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء ، ص ٤٥ ، بتصحيح ومقدمه مير جلال الدين حسين جانجاه دانشكاه ، انتشارات دانشكاه تهران .

١٨- البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٣٩٠ ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٤٠ .

١٩- العتبى : تاريخ اليمينى ، ص ١٠٢ ، بهامش كتاب ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩ م .

١٢- البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٩ .

٢١- البيهقى : نفس المصدر السابق ، ص ٥٧٠ .

٢٢- البيهقى : نفس المصدر السابق ، ص ٧٢٦ .

٢٣- كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٤٥ .

٢٤- ميرخواند : روضة الصفا ، ص ١٢٩ .

سبكتكين هو مؤسس الدولة الغزنوية ، وكان فى بداية حياته عبدا لألبتكين ، الذى كان بدوره عبدا لدى نصر بن أحمد السامانى ، الذى أسند إليه قيادة الجيش فى عهد نوح بن منصور ، ثم تولى منصب الحجابة فى القصر ، فاكتسب مكانة عالية ، خاصة فى عهد عبد الملك بن نوح .

(Nazim: The life and the time of Mahmoud, p. 24.)

(خليل الله خليلى : سلطنة غزنويان ، ص ٣ ، طبعة كابل ١٣٣٣ هـ . ش) .

وقد تمكن سبكتكين عقب عقب وفاة البتكين من الوصول إلى حكم غزنة سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦ م .

٢٥- الكرديزى : زين الأخبار ، ص ٢٨٩ ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٢م.

٢٦- الكرديزى : نفس المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

٢٧- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٧ .

٢٨- نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

Nazim: The life and the time of , p. 135.

٢٩- عباس إقبال : الوزارة فى عهد السلاجقة ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

٣٠- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٦ إلى ٤٨ .

مرو : مدينة من مرو الشاهجان ، وهي على نهر عظيم ، وتعتبر من أشهر مدن خراسان وهي قصبتها (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١١٢) .

٣١- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

٣٢- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤١٨ .

٣٣- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، أحمد كمال الدين أحمد : السلاجقة ، ص٢١٠ .

٣٤- الجوينى : عتبة الكتبة ، ص ٤٨ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ .

٣٥- نظام الملك الطوسي : سياسة نامه ، ص ٢٩٧ ، ترجمة السيد محمد العزاوى ، طبعة دار الرائد العربي ، القاهرة سنة ١٩٧٥م .

٣٦- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٥٢ ، طبعة لاهور سنة ١٩٣٣ م .

٣٧- ملكشاه هو ابن ألب أرسلان بن جغر بيك بن ميكائيل بن سلجوق ، تولى الحكم عقب وفاة والده ألب ارسلان مع وجود عدة اخوة أكبر منه ، وذلك بسبب مساندة وجهود الوزير نظام الملك الطوسى له ، وقد ثار عليه أخوه الأكبر تكش ، وعمه قاورد (القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ١٠١) .

٣٨- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٣٢ ، تحقيق محمد نور الدين ، طبعة دار اقرأ سنة ١٩٨٥ م .

٣٩- نظام الملك الطوسي : سياسة نامه ، هامش ١ ، ص ٢٩٧ .

٤٠- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٣٢ .

٤١- ابن أيبك الدوادارى : كنز الدر وجامع الغرر ، جـ٧ ، ص ٢٤٥ ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م .

٤٢- الخطا : تنسب دولة القره خانيين إلى مجموعة القبائل التركية الوثنية التى تدين بالبوذية ، قامت على حدود تركستان فى عهد السلاجقة ، واستطاعت أن تثبت أقدامها فى تلك المناطق ، وتؤسس لها دولة فى حدود سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، وقد اتسعت دولتهم فشملت المنطقة ما بين مملكة الخوارزميين فى الغرب ، ومساكن المغول فى الشرق ، وأطلق على ملوكهم لقب كورخان .

(نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص ١٠٨ ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤٩م) .

٤٣- خوارزم : خوارزم ليس اسما للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها فأما القصبة العظمى يقال لها اليوم الجرجانية ، وأهلها يسمونها كركانج .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣٩٥م) .

علاء الدين خوارزمشاه محمد بن تكش ، كان أبوه أحد مماليك الملك العادل ألب أرسلان ، استولى على خراسان والعراق العجم وبلاد ما وراء النهر ، وطمع فى الاستيلاء على بغداد .

(ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر ، جـ٧ ، ص ٢١٧) .

٤٤- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

٤٥- همذان : فى الإقليم الرابع ، طولها من جهة الغرب ثلاث وسبعون درجة ، بها المياه العذبة وهواءها طيب ، فتحها المغيرة بن شعبة سنة ٢٤ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب .

(ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٤١٠ ، ٤١١) .

٤٦- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، الطبعة الثالثة ، لجنة إحياء التراث .

المقصود بصفى الدين المستوفى هذا والد عماد الدين الأصفهانى ، صاحب كتاب تاريخ دولة آل سلجوق .

٤٧- عماد الدين الأصفهانى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

٤٨- الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، طبعة المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٠ .

نظام الإقطاع الذى اتبعه السلاطين السلاجقة فى توزيع الأرزاق على الجند ، نوعان إقطاع وتمليك ويمنح من الأراضى التى ليس لها صاحب ، ولها حق الإقطاع حق التصرف فيه بالبيع والإيجار والتوريث ، والثانى إقطاع استغلال ، وليس لصاحبه إلا حق استغلاله فقط ، ويعود للدولة بعد انتهاء مدة إقطاعه، وهو الذى يمنح بدلا من الأرزاق .

(الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٩٠ - ١٩٢ ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٧ م ، نظام الملك الطوسى : سياست نامه ، ص ٦٧ ، ٧٤ ، ١٣٩) .

٤٩- الراوندى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١

٥٠- الراوندى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

٥١- ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، جـ٥ ، ص ٤١٤ ، طبعة دار صادر بيروت لبنان سنة١٩٨٢ م .

٥٢- ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ، ص ٢٤٦

٥٣- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢١٨ .

٥٤- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٢٥ .

٥٥- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٥ .

٥٦- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٨ هـ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنة ١٩٩٢ م .

٥٧- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٥٩ هـ ، ص ٥٤ ، طبعة دار صادر بيروت سنه ١٩٨٢ م ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٥ .

٥٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦ .

٥٩- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٢ هـ ، ص ١٨٠ .

٦٠- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٦١ .

٦١- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٢ هـ ، ص ٢١٦ .

٦٢- عباس إقبال : الوزارة فى العهد السلجوقى ، ص ٢٧ .

٦٣- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

٦٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ١٨٢ .

٦٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ .

٦٦- حسن أنورى : ديوان استيفاء دور حكومت ، ص ٣١ ، ٣٢ .

٦٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٤ .

٦٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٧ .

٦٩- ابن الجوزى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٩ .

٧٠- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٢ .

٧١- البيهقى : تاريخ البيهقى ، ص ٥٧٠ .

٧٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٨٨ .

٧٣- قلعة تكريت : تقع بين بغداد والموصل ، وهى قلعة حصينة فى غرب نهر دجلة ، أول من بنى هذه القلعة سابور بن أردشير بن بابك ، افتتحها العرب فى عهد عمر بن الخطاب ، حيث أرسل إليها سعد ابن أبى وقاص جيشا على رأسه عبد الله بن المعتم ، ففتحها عنوة ، (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣٨ ، ٣٩) .

٧٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٨٩ .

٧٥- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٣٤ .

٧٦- ابن الجوزي : نفس المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٣٦ .

٧٧- Miles Gearge: The Numismatic History of Rayy, p 90, (New York, 1938).

٧٨- ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٥٩ هـ ، ص ٥٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦ .

٧٩- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٣ .

٨٠- نيسابور : مدينة عظيمة خارجة من الإقليم الرابع إلى الإقليم الخامس ، فتحت في خلافة عمر بن الخطاب .

(ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٣٣١) .

٨١- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

٨٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٦٦

٨٣- الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٧٢ .

٨٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٧١ .

٨٥- نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٥٤ .

٨٦- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

٨٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٩ .

٨٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص ١٣٠ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ .

٨٩- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ٩٤ ، الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٣٤ .

٩٠- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٠ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

٩١- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

٩٢- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٥٥ .

٩٣- نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٨٨ .

٩٤- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ١٨٢ .

٩٥- الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٠٠ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٨ .

٩٦- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ١٢٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٧٥ .

٩٧- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠ ، ص ٢٨ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٣٩٢ .

٩٨- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٣ .

٩٩- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٣٣ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

١٠٠- الحسينى : زبدة التواريخ ، هامش ٣ ص ٢١٤ .

١٠١- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، أحداث سنة ٥٣٣ هـ ، ص ٧٠ .

١٠٢- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠ ، ص ٢٠٦ .

١٠٣- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ الدولة ، ص ٨٤ .

١٠٤- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩٨ .

قلعة نخجوان : بالفتح ثم السكون وجيم مضمومة وآخره نون ، وهى قلعة بأقصى أذربيجان (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٧٦) .

١٠٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٧٠ .

١٠٦- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩١ .

١٠٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ١٩٨ .

١٠٨- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٠٤ .

١٠٩- بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ص ٩٤ ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

١١٠- براون : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ، ص ٤١١ ، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٥٤ م ، بارتولد : تركستان ، ص ٩٤ .

١١١- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ .

١١٢- الباخرزى : دمية القصر وعصرة أهل العصر ، جـ١ ، ص ٦٥٠ ، تحقيق محمد ألتونجى ، بدون تاريخ .

١١٣- الباخرزى : نفس المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦٥٠، ٦٥١ .

١١٤- نظامى عروضى السمرقندى ، جهار مقاله ، ص ١٣٠ .

١١٥- الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٣ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٧٥ .

ولقد نبغ مسكوية أبو على الخازن فى الطب فى عهد عضد الدولة البويهى .

(ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١٧) .

١١٦- الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٠٠ .

١١٧- محمد عوفي : لباب الألباب ، جـ١ ، ص ١٠٨ ، تصحيح أدوار دبروز أنكليش ، طبعة ليدن سنة١٩٠٣ م .

١١٨- محمد عوفي : نفس المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٠٨ .

١١٩- الجويني : عتبة الكتبة ، ص ١-١٧٠ .

١٢٠- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٥هـ ، ص ٢١٦ .

١٢١- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٣ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢١٦ .

تركاني خاتون ابنة طمغاج خان بن بغراخان من بنات ملوك الخانية في تركستان وبلاد ما وراء النهر . (القزويني : تاريخ كزيده ، ص ١٠٢) .

١٢٢- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ الدولة ، ص ٨٥ .

١٢٣- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ .

١٢٤- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٧ .

١٢٥- ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ .

١٢٦- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٨٢ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢١٦ .

الطغراء : كلمة تركية استعملها أصحاب الديوان منذ قيام الدولة السلجوقية ، والطغراء نسبة إلى من يكتب فوق البسملة بالقلم الجلي تتضمن اسم الحاكم وألقابه ، وهي كلمة أعجمية محرفة من الطرة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ١٩٠) .

١٢٧- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ٥ ، ص ١٦٠ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢١٨ .

١٢٨- كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٢٩- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٠٧ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٥٧ .

١٣٠- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٨٩ .

١٣١- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٥١٦ هـ ، ص ٦٠١ .

١٣٢- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣٥ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٧٦ .

١٣٣- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ٤١١ ، ٤١٢ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٢٤ .

١٣٤- خواندمير : دستورالوزراء ، ص ١٩٩ .

١٣٥- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٣٢ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٧ .

١٣٦- الحسيني : أخبار الدولة ، ص ٧٨ ، خواندمير : دستورالوزراء ، ص ٢٩٠ ، عباس إقبال : الوزارة ص ٢٤٧ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

١٣٧- الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٣٤ ، خواندمير : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٥٨ .

١٣٨- الراوندي : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .

١٣٩- خواندمير : دستورالوزراء ، ص٢٨٣ ، كرماني : نسائم الأسحار ، ص ٧٥ .

١٤٠- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٣٨ .

١٤١- خواندمير : دستور ، ص٢٨٣ .

١٤٢- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٤٩ .

١٤٣- خواندمير : دستورالوزراء ، ص٢٤٨ ، نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٤٨ .

١٤٤- خواندمير : نفس المصدر السابق ، ص٢٩٣ .

١٤٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ١٧٤ .

١٤٦- عباس إقبال : الوزارة ص ٨٥ .

١٤٧- الجويني : عتبة الكتبة ، ص ٤٧ .

١٤٨- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٤١٤ .

١٤٩- ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ .

١٥٠- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ .

١٥١- الجويني : عتبة الكتبة ، ص ٤٦-٤٨ .

١٥٢- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٥٠ ، ٥١ .

١٥٣- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٥٨ .

١٥٤- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٣٧٣ .

١٥٥- عماد الدين الأصفهاني : تاريخ دولة ، ص ٦٢ .

١٥٦- ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ .

والخازن هو الذى يحفظ السر ويكتمه ، ويخزن السلع لوقت الحاجة ، وخازن جمع خزنه وهو مسئول الخزن .

١٥٧- الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

١٥٨- الحسينى :زبدة التواريخ ، هامش ٣، ص ١٩٢ .

١٥٩- الحسينى : أخبار الدولة ، ص ١٠٢ .

١٦٠- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٤ ، كرمانى : نسائم الأسحار ، ص ٨٨ .

١٦١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

١٦٢- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٩٧ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٤٩ .

١٦٣- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٢٨ .

١٦٤- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٤٧٦ هـ ، ص ١٣١ .

١٦٥- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

١٦٦- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص ٤١ .

١٦٧- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ١٠١ ، عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٥٠ .

١٦٨- ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، أحداث سنة ٥٠٦ هـ ، ص ٤٩٢ .

استمر تاج الدولة الديلمى الذى عذب أبو سعد هندو المستوفى فى منصبه حتى عهد السلطان محمود ، وقد غضب عليه الوزير قوام الدين أنسابادى ، فأمر بشنقه بنفس الطريقة التى اتبعت مع أبى سعد المستوفى .

(عباس إقبال : الوزارة ، هامش ١ ، ص ٢٥٠)

١٦٩- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٢٤٥-٢٤٨ ، خواندمير : دستور ، ص ٢٩١ .

١٧٠- ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ٥ ، ص ٢٤٣

١٧١- الراوندى : راحة الصدور، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، الحسينى : زبدة التواريخ ص ٢١٢ ، ٢١٥ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

١٧٢- ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠ ، ص ٨٧ .

١٧٣- أحمد بن عطاش : كان أبوه من مقدمى الباطنية ، فر مع أبيه من أصفهان إلى الرى ، كان يعمل سرا من أجل القضية الإسماعيلية .

١٧٤- الراوندى : راحة الصدور، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، خواندمير : دستور ، ص ٢٧١ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ .

١٧٥- الحسن الصباح : هو الحسن بن على بن على الحميرى ، يرجع نسبه إلى قبيلة حمير ، قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة ثم إلى قم فالرى ، الذى استوطنها ، وولد الحسن الصباح بها ، اعتنق مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، وتعلم المذهب على يد رجل يطلق عليه اسم مؤمن .

(عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ص ١٨٤ ، ١٨٦) .

ترجمة محمد جمال الدين .

١٧٦- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة ، ص ١٠٧ .

١٧٧- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ١٩٠ .

١٧٨- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٤٨ ، أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة ، ص ٢٠١ .

١٧٩- عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٧ .

١٨٠- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٠ .

١٨١- عباس إقبال : تاريخ إيران ، ص ٣٠٦ .

١٨٢- الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٨٤ .

١٨٣- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص ١٠١ .

١٨٤- الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٤ .

١٨٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

١٨٦- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقالة ص ١٣٠ ، نظام عقيلى : آثار الوزراء ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

١٨٧- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٨٥ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية :

١- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) : عز الدين أبو الحسن على بن أبو الكرم محمد " الكامل فى التاريخ " ، جـ١٠ ، جـ١١ ، طبعة دار صادر بيروت ، سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م .

٢- أحمد كمال الدين حلمى : " السلاجقة فى التاريخ والحضارة " ، الطبعة الأولى ، دار البحوث العلمية، الكويت سنة ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م .

٣- ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) : أبو بكر بن عبد الله " كنز الدرر وجامع الغرر " ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، جـ٧ ، تحقيق سَعيد عبد الفتاح عاشور ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م .

٤- الباخرزى (ت ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤م) : على بن الحسن بن على بن أبو الطيب " دمية القصر وعصرة أهل العصر " جـ١ ، تحقيق ودراسة محمد التونجي ، بدون طبعة وتاريخ نشر .

٥- ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) : أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد " المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم " ، جـ٨ ، جـ٩ ، جـ١٠ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدر أباد الدكن ١٣٥٨ هـ .

٦- ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " ، جـ١ ، جـ٢ ، جـ٥ ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار صادر بيروت.

٧- الزبيدى : محمد مرتضى " تاج العروس " الجزء العاشر ، المطبعة الخيرية ، المنشأة بجمالية مصر سنة ١٣٠٦ هـ .

٨- ابن القفطى (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م) : جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف " أخبار العلماء بأخبار الحكماء " ، مكتبة المتنبى بالقاهرة .

٩- الماوردى (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى " الأحكام السلطانية والولايات الدينية " ، طبعة دار الكتاب العلمية ، بيروت سنة ١٩٧٨ م .

١٠- أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) : جمال الدين تغرى بردى الأتابكى " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " ، جـ٥ ، الطبعة الأولى ، تعليق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٢ م .

١١- ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) : الوزير أسعد الأيوبى " كتاب قوانين الدواوين " ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

١٢- ابن منظور (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم " لسان العرب " ، جـ٦ ، تحقيق عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله هاشم الشاذلي ، طبعة دار المعارف .

١٣- ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م) : شهاب الدين أبو عبد الله " معجم البلدان " ، ٥ أجزاء ، طبعة دار صادر بيروت ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م .

ثانيا : المصادر والمراجع الفارسية :

١٤- البيهقى (ت ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٠م) : أبو الفضل محمد بن حسين " تاريخ البيهقى " ، ترجمة يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية .

١٥- الجوينى (ت ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م) : علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد " تاريخ جهانكشاى " ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ضمن كتاب دولة الإسماعيلية في إيران ، طبعة مؤسسة سجل العرب ١٣٨٤هـ/ ١٩٧٥ م .

١٦- الجوينى (عاش فى عهد السلطان سنجر السلجوقى : مؤيد الدولة منتخب الدين بن بديع " عتبة الكتبة " ، مجموعة مراسلات ديوان السلطان سنجر ، بتصحيح واهتمام محمد قزوينى وعباس إقبال ، أول مرداد ١٣٢٩ شمس) .

١٧- حسن أنورى : " ديوان استيفاء در حكومت غزنويان وسلجوقيان " ، مجلة بررس هاى تاريخى ، العدد ٦ لسنة بهمن اسفند ١٣٥٢ شاره .

١٨- الحسينى (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥ م) : صدر الدين الحسن على بن ناصر " أخبار الدولة السلجوقية " ، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال ، طبعة لاهور سنة ١٩٣٣ م .

١٩- ـــــــــــــ : " زبدة التواريخ المعروف بأخبار الأمراء والملوك السلجوقية " ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد نور الدين ، طبعة دار إقرأ ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م .

٢٠- خليل الله خليلى : " سلطنت غزنويان " ، طبعة كابل ١٣٣٣ هـ. ش .

٢١- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥م) : غياث الدين بن همام الدين " دستور الوزراء " ، ترجمة حربى أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

٢٢- الراوندى (ت ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢م) : محمد بن على بن سليمان " راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية " ، نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربى ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد عبد المعطى الصياد ، طبعة المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٠ م .

٢٣- عباس إقبال : " تاريخ إيران بعد الإسلام " ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة والنشر والتوزيع بالقاهرة .

٢٤- ــــــــــــ : " الوزارة في عهد السلاجقة " ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي ، طبعة الكويت١٩٨٤ م .

٢٥- العتبي (ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦م) أبو نصر محمد بن عبد الجبار "تاريخ اليميني" ، بهامش كتاب ابن الأثير : " الكامل في التاريخ " ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩ م .

٢٦- عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ/ ١٠١٧م) : محمد بن محمد بن حامد " تاريخ دولة آل سلجوق " ، الطبعة الثالثة ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، بيروت سنة١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .

٢٧- الكرديزي (ت ١٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م) : أبو سعد عبد الحي بن الضحاك " زين الأخبار " ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م .

٢٨- كرماني : " نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء " ، بتصحيح ومقدمة مير جلال الدين حسين ، جابجاه دانشكاه انتشارت دانشكاه تهران .

٢٩- القزويني : (ت ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م) : حمد الله مستوفي " تاريخ كزيده " المعروف بالتاريخ المختار ، ترجمة محمود محمود قشطه ، ضمن رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب جامعة عين شمس سنة١٩٦٨ م .

٣٠- محمد عوفي (توفي في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ القرن ١٣ الميلادي) : محمد نور الدين " لباب الألباب " ، جـ١ ، جـ٢ ، تصحيح أدوار دبروز انكليش ، طبعة بريل في مدينة ليدن سنة١٩٠٣ م .

٣١- ميرخواند (ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) : محمد بن خاوند شاه " روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء " الطبعة الأولى ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي ، الدار المصرية للكتاب القاهرة سنة١٩٨٨ م .

٣٢- نظام عقيلي (توفي في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري . القرن ١٥ الميلادي) : سيف الدين حاجي " آثار الوزراء " ، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسيني تهران ، ١٣٣٧ هـ. ش .

٣٣- نظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) : الحسن بن اسحق بن العباس " سياست نامه " ، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوي ، طبعة دار الرائد العربي بالقاهرة ١٩٧٥ م .

٣٤- نظامي عروضي السمرقندي (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) : الحسن بن عمر " جهار مقاله " ، عليه خلاصة حواش العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني ، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيي الخشاب ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩ م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

٣٥- بارتولد : " تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي " ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

٣٦- براون : "تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى " ، مطبعة السعادة بالقاهرة سنة١٩٥٤م.

37- Cambridge: History of Iran, Vol 4 , (Cambridge, 1975).

38- Miels Gearge: The Numismatic History of Rayy (New York, 1938).

39- Nazim: The Lífe and the time of Mahmoud of Ghazn, eith of areward by the late sir Tomes Arnold, (Cambridge, 1931).

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الإرهاب فى عصر الحروب الصليبية

جاء فى لسان العرب لابن منظور أن لفظ رهب بكسر ثانيه يرهب رهبة ورهبا، أى خاف . ورهب الشئ رهبا ورهبة ، أى خافه [1]. ومن هذا الجذر اشتق لفظ أرهب بمعنى أخاف، وإرهاب بمعنى إثارة الخوف والفزع . وقد شاع استخدام اللفظ الأخير فى عصرنا الحديث، بمعنى بث الخوف تحت تأثير التهديد بالقتل والاغتيال غدراً ، وصار مصطلحاً لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء ، وصار مصطلحاً لكل الحركات التى شهدها ويشهدها العالم، للتخلص من الخصوم والأعداء والمخالفين ، عن طريق الاغتيال والقتل غدراً مع سبق الترصد والإعداد.

وفى إطار هذا المعنى تميز الإرهاب بطابع خاص وصارت له ملامح محددة، منها أنه اتخذ صورة حركات تعبر غالبًا عن تنظيم جماعى . وبعبارة أخرى فإن حوادث القتل الفردية الناجمة عن الخلافات الشخصية والتحاسد أو التنافس والرغبة فى الانتقام أو السرقة ... لا تعتبر فى المصطلح الحديث حوادث إرهابية . ومن المعروف أن أول حادث قتل فى تاريخ البشرية كان عندما قتل قابيل - ابن أدم عليه السلام- أخاه هابيل حسداً وسخطاً . ولم يكن قابيل عندما اقترف ذنبه مدفوعاً بقوة خارجية وإنما: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [2]. ولا يمكن بمفهومنا الحديث أن نصف قابيل بأنه إرهابى وأن عمله كان إرهابا . وكذلك عندما

١- ابن منظور لسان العرب ، مادة رهب.

٢- المائدة ، آية ٣٠ .

نقرأ فى الكتب السماوية أن موسى عليه السلام دخل مدينة على حين غفلة من أهلها فوكز بعصاه رجلاً فقضى عليه وقتله ، فإننا لايمكن أن نعتبر هذا عملاً إرهابياً ، بدليل أن موسى سارع إلى استغفار ربه معاهداً إياه- عز وجل- على ألا يكون «ظهيراً للمجرمين»[1].

والإرهابى بمفهومنا الحديث لايعمل غالبًا بمفرده، وإنما تقف وراءه جماعة ، ينتمى إليها ، ويدين بفكرها وآرائها، ويمتثل لأوامرها ويخضع لإرادتها ويرتزق من ورائها. إنها بمثابة الرئاسة التى تخطط له وتحدد له دائرة نشاطه الذى يتصف غالبا بمسحة إجرامية . وفى مقابل كل ذلك فإنها تقدم له الوعود المعسولة ، وتتعهد بمساندته بعد تنفيذ الجريمة التى تحدد له أسلوبها ومكانها وتوقيتها.

وباستعراض العديد من الحركات الإرهابية عبر عصور التاريخ نجد أن معظمها يتمسح بالدين، ويتخذ منه ستاراً يخفى وراءه أهدافًا وتطلعات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية . وكثيراً ما تستخدم بعض المؤسسات الدينية ودور العبادة مراكز لنشاط الإرهابيين بل ربما ساحة لتنفيذ جرائمهم . فالدين بحكم ما له من سطوة على القلوب والنفوس، صار فى نظر الإرهابيين أصلح حجاب يمكنهم أن يستتروا خلفه لتبرير جرائمهم ضد المجتمع، والتخطيط للتخلص من القوى التى يعتقدون أنها تشكل حاجزًا يحول بينهم وبين تطلعاتهم وأهدافهم الهدامة المستترة . وقد تكون هذه الأهداف التعطش للوصول إلى الحكم لمجرد الرغبة فى فرض السيادة بدعوى الإصلاح ، أو الرغبة فى التحكم فى الثروات لنهب الأموال، أو غير هذا وذاك . وفى جميع الحالات يكون الاغتيال والقتل غدراً هو السلاح الرهيب الذى يعمل به الإرهابيون لنشر الرعب بين الناس، وإرغامهم على الخضوع لإرادتهم والرضوخ لسيادتهم والاستسلام لآرائهم ، بوصفهم «الأمراء» الذين يمسكون بأيديهم مفاتيح الحياة والموت ويتحكمون فى أبواب الجنة والنار.

وفى ضوء ما سبق يبدو أن الحركة الإرهابية يكون لها عادة ركنان أساسيان :

(أ) رئيس أو جهاز من الرؤساء يدبر ويرسم ويخطط ويوجه ، ويقدم المساعدات ويوفر الإمكانات ، ويختلق الوعود . وقد يتمثل هذا الجهاز فى حكومة من حكومات الدول التى تتخذ من الإرهاب وسيلة لفرض زعامتها على مجموعة من الدول التى تنافسها فى مجالات السياسة والرئاسة والاقتصاد.

١- القصص، آية ١٧ .

(ب) خلايا مأجورة من الأتباع والعملاء المخدوعين ، يراعى فيهم أن يكونوا فى حالة ضياع فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهؤلاء تجرى لهم عمليات غسيل مخ- تحت ستار الدين غالباً - لاحتوائهم فكرياً وعقائدياً ، واستثارة مشاعرهم وحماستهم، وتقدم لهم الوعود المعسولة بأنهم هم المرشحون لحكم البلاد والعباد. ويمثل هذا الفريق أداة تنفيذ الجريمة، فيمضى الواحد منهم ليقترف ما يكلف به من عمليات الاغتيال وقتل الأبرياء ، وتخريب المنشآت ، إما رغبة فى الحصول على مكاسب دينية ودنيوية، وإما خوفاً من الوقوع تحت طائلة العقاب من رؤسائه ومحرضيه ، بعد أن تورط معهم وصار فى وضع لاينفع معه الندم ويصعب فيه التراجع عنه والانسحاب منه .

هذان الجهازان هما الركنان الأساسيان لأية حركة إرهابية . وإذا كان الجهاز الأول هو المدبر والمخطط والمحدد للجريمة ، فإن الجهاز الثانى هو التابع المنفذ . وقد تكون الصلات بين هذين الركنين أو الجهازين غير مباشرة ، وإنما تتوسط بينهما حلقات وكوادر أخرى من الدعاة والوسطاء ، وذلك رغبة فى التستر وزيادة فى الحرص والحيطة . ذلك أن رؤساء الحركات الإرهابية والمخططين لها، غالباً ما يكونون على درجة من الجبن والحرص على الحياة بقدر ما يتطلبونه فى العملاء المنفذين للجريمة من جرأة وشجاعة وتضحية وفداء .

• • •

ولم تسلم الدولة الإسلامية عبر عصور التاريخ من ظهور بعض الحركات الإرهابية التى ذهب ضحيتها العديد من الأبرياء والمصلحين ، بل من الصالحين والمجاهدين . وفى هذه الحركات أمعن الإرهابيون فى ارتكاب جرائمهم، مدعين أنهم يعملون لخدمة أهداف يلصقونها بالدين لصقاً زائفاً مفتعلاً ، متناسين قوله تعالى : ﴿ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين﴾(١)، وقوله سبحانه : ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾ (٢)، وقوله عز وجل : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ (٣).

وثمة ظاهرة تسترعى نظر المؤرخ اليقظ ، ولاسبيل لإنكارها لأنها حقيقة تاريخية، هى أن معظم الحركات الإرهابية الكبرى التى برزت فى تاريخ الدولة الإسلامية، ونخرت بنيانها فى

١- المائدة، آية ٨٧ .

٢- الإسراء ، آية ٣٣ .

٣- النساء ، آية ٩٣ .

كثير من حلقات التاريخ كان مصدرها بلاد فارس أو إيران الحالية، فمن هذه البلاد صدر العديد من الآراء الهدامة وانطلق الكثير من الدعاوى الباطلة التى تتمسح بالإسلام وتتخذ منه قناعًا تخفى وراءه اتجاهات هى أبعد ما تكون عن جوهر الإسلام وآفاقه . ومن فارس انطلقت هذه الحركات الهدامة إلى كثير من بلاد الدولة الإسلامية – شرقًا وغربًا ، تحاول نشر فكرها عن طريق إثارة الذعر واغتيال المخالفين والمعارضين .

وفى تعليل هذه الظاهرة رأى بعض الباحثين والمفكرين ، أن الفرس- وهم أصحاب سيادة قديمة وحضارة عريقة- صدموا لما حدث فى صدر الدولة الإسلامية من نجاح العرب فى فتح بلادهم وفرض السيادة العربية عليهم. وكان الفرس- قبل الإسلام- يحتقرون العرب ويقللون من شأنهم ، ولايرون فيهم إلا قبائل بدوية ، لاحضارة ولاجذور لها. وإذا كانت الظروف قد اضطرت الفرس إلى الرضوخ لحكم العرب تحت مظلة الإسلام ، فلا أقل من أن يستغلوا الإسلام لتصحيح الوضع، وإعادة بناء الهرم- من وجهة نظرهم- إلى وضعه الطبيعى، بحيث تكون السيادة للفرس، حتى ولو أدى ذلك إلى هدم العرب والعروبة. وما دامت سيادة العرب- فى نظرهم ارتبطت بالإسلام ، فليحاول الفرس- وهم قادرون بحكم جذورهم الحضارية – تفسير تعاليم الإسلام تفسيرات دخيلة تتفق وأهدافهم ، واستخراج فرق ومذاهب وطوائف ذات آراء ومعتقدات بعيدة عن روح الإسلام ، لهدم الأمة العربية ونقل السيادة على العالم الإسلامى للفرس .

ومن أبرز المفكرين الذين أدركوا هذه الحقيقة وعبروا عنها تعبيراً دقيقًا ، المؤرخ أحمد بن على المقريزى – شيخ المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد- إذ كتب يقول ما نصه :

[واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر على أنفسها ، بحيث كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم].

[فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب- وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً- تعاظمهم الأمر، وتضاعفت عليهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى. وفى كل ذلك يظهر الله الحق . وكان من قائميهم (زعماء الحركات الإرهابية) شنفاد، وأشنيس ، والمقنع، وبابك ، وغيرهم... فرأوا أن كيده (كيد الإسلام) على الحيلة أنجع ...] .

• • •

وقد حفلت المرحلة النشطة فى تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق الأوسط، وهى الفترة الواقعة بين أواخر القرن الحادى عشر وأواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، (الخامس والسابع للهجرة) بالعديد من حوادث القتل والاغتيال ، سواء فى الجانبين الإسلامى والمسيحى. ولكن الغالب على هذه الحوادث أنها لم تستند إلى حركات إرهابية أو تنظيمات خططت لها لتحقيق أهداف معينة، وإنما كانت حوادث فردية ، ناجمة عن خصومات شخصية أو منافسات فردية، معظمها حركته أطماع سياسية ، ويستثنى من ذلك جماعة إرهابية كبرى انبعثت من بلاد فارس، وانطلقت إلى العديد من بلاد الشرق الأوسط، لتلعب دوراً خطيراً فى عصر الحروب الصليبية . ونعنى بهذه الجماعة فرقة الإسماعيلية التى أطلق عليها أيضًا اسم الباطنية واسم الحشيشية .

والإسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق . يقول الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) إن من أشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلاً . وبعبارة أخرى، فإنهم استباحوا لأنفسهم تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل حكم من أحكام الشريعة باطنًا يتفق وأهدافهم ، ولايحيط به إلا أهل العلم منهم . ويرد المقريزى على ذلك قائلاً «والحق الذى لاريب فيه هو أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجوهر لا سر تحته» .

ولعله من المناسب هنا أن نؤكد عدم الربط بين مصطلحى الشيعة والباطنية ، بمعنى إنه إذا كان الباطنية قد انحرفوا عن المذهب الشيعى ، فليس معنى ذلك أن كل شيعى باطنى. وبعبارة أخرى، إذا كان الباطنية قد تفرعوا عن الشيعة إلا أنهم يمثلون جناحًا متطرفًا ، ليس له من التشيع إلا الاسم والطلاء الخارجى. أما الشيعة المعتدلون فهم أبعد ما يكونون عن سياسة التطرف التى انتهجها الباطنية . ويعبر عن هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير عندما يشير فى حوادث سنة ٥٠١هـ إلى الأمير العربى سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس ، فيقول ما نصه :

(وقد طعن فى اعتقاده ، ونسبه بعض خصومه إلى مذهب الباطنية، وكذب ، وإنما كان مذهبه التشيع لا غير) .

وقد برز من رؤساء الباطنية اسم الحسن بن الصباح (ت ٥١٨هـ) الذى وصفه المؤرخون بأنه كان شهمًا ، ذكيًا ، عالمًا بالهندسة والحساب والنجوم. وكان أن ادعى أنه مصدر العرفان، فأول القرآن تأويلاً يتفق وأهدافه السياسية، ونشر دعاته فى البلاد والأقاليم . ولم يلبث أن

اشتد ساعده في فارس وبلاد المشرق ، فاستولى على العديد من القلاع والحصون ، منها قلعة أصبهان ، وقلعة الموت من نواحي قزوين ، وقلعة وسنمكرة، وقلعة خالنجان ، وقلعة استوناوند ، وقلعة أردهن ، وقلعة الناظر ، وقلعة الطنبور، وقلعة خلادخان ... وغيرها .

ثم إن الحسن بن الصباح نظم جماعته على درجات ، وجعل نفسه رئيسًا للدعوة، وهو ما أطلق عليه اسم (شيخ الجبل) . ويعنينا في هذه الدرجات تلك الفئة التي أطلق على أفرادها اسم الفداوية، أو الفدائيين ، وهم يمثلون المرتبة الخامسة في درجات التنظيم .. وكان يراعى في اختيار هؤلاء الفدائيين صفات خاصة، أهمها الجرأة والذكاء والمرونة في الحركة . ولم يشترط في الفدائي الإلمام بأصول الدين وأحكامه ، أو الدراية بأسرار المذهب وتعاليمه ، وإنما اشترط فيه الطاعة العمياء لرؤسائه ، وتنفيذ كل ما يصدر إليه من أوامر وتعليمات خاصة ما يتعلق باغتيال من توكل إليه مهمة اغتيالهم. وبذلك تحولت جماعة الباطنية الاسماعيلية إلى تنظيم إرهابي خطير أثار الذعر في جوف الدولة الإسلامية .

يذكر الرحالة البندقي ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م) أن رئيس الدعوة - شيخ الجبل- أنشأ قرب قلعة الموت- في إقليم قزوين- بستانًا حرص على أن يزوده بكل أوصاف الجنة، من خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى، وفاكهة مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون... فإذا وقع الاختيار على أحد الفتية لينخرط في سلك الفداوية ، فإنه يسقى جرعة من مشروب مخدر - لعله من نبات الحشيش- مما جعل اسم الحشيشية يلصق بهذه الجماعة. وعندما يفقد المخدَّر وعيه ، يُحمل إلى تلك الجنة المصطنعة ، حتى يفيق ، فتترك له حرية الاستمتاع بما في جنته من ألوان المتعة . وبعد عدة أيام يعاد تخديره ليحمل وهو فاقد الوعي إلى موضعه الأول، حتى إذا ما أفاق أخذ يحلم بالعودة إلى الجنة، وعندئذ تقدم له الوعود بإعادته بشرط أن ينفذ جريمة الاغتيال في فلان من خصوم الباطنية. وهكذا يمضي الفدائي لا يلوى على شئ محاولاً تنفيذ الجريمة، ربما دون وعي بأبعادها وأسبابها وعواقبها .

ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن شوكة الباطنية أخذت تشتد منذ أيام السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) . وكان الباطنية قد دعوا مؤذنًا مقيمًا بأصبهان للدخول في دعوتهم ، فلم يستجب لهم فقتلوه . وعندما أمر نظام الملك- وزير السلطان ملكشاه- بقتل القاتل، انتقم الباطنية باغتيال نظام الملك ، وهو من أعلام رجال السنة البارزين. وقد حزن جمهرة المسلمين حزنًا شديداً لمقتل نظام الملك سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) «لما كان عليه من حسن الطريقة وأثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن»

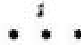
على قول ابن القلانسى . أما عن كيفية اغتيال نظام الملك، فقد قتل بنفس الأسلوب الذى شاع بين الباطنية فى اغتيال ضحاياهم، إذ يقترب الباطنى الإرهابى من فريسته فى صورة مستغيث ، حتى إذا ما تمكن منه أخرج سكيناً يخفيه فى طيات ردائه وطعنه عدة طعنات حتى يخر قتيلاً. فاذا لم تتم عملية الاغتيال وظهر أن الفريسة ما زالت على قيد الحياة ، برز باطنى ثان، وربما ثالث حتى يتم الإجهاز على الضحية .

وهكذا تعرض الباطنية فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الشرق الأوسط لعدد من حكام المسلمين وأمرائهم- وبخاصة من أهل السنة- بالاغتيال يذكر المؤرخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٠هـ أن الأمير أقسنقر - بهمدان - «كان كثير الغزو إليهم، والقتل فيهم، والتخريب لبلادهم، فوثب عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه» . ولعل هذا مما جعل الأمراء فى ذلك العصر ، يبالغون فى الحيطة ولبس الدروع، حتى فى ذهابهم إلى الجامع للصلاة ، خوفاً من أن يتعرضوا للاغتيال على أيدى تلك الجماعة الهدامة . من ذلك ما جاء فى المصادر المعاصرة عن الأمير بلكابك سرمز، من أمراء السلطان محمد السلجوقى ، إذ «كان كثير الاحتياط من الباطنية ، لايفارقه لبس الدرع». وعندما أغفل فى أحد الأيام لبس درعه «قتله الباطنية» (سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠م) .

ولم يقف سلاطين السلاجقة- وهم من أهل السنة- موقف المتفرج على نشاط الباطنية. من ذلك أن جاولى سقاووا- حاكم الموصل من قبل السلطان محمد السلجوقى - حارب الباطنية سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م) «وقتل خلقاً كثيراً منهم» . وفى نفس تلك السنة «فتك السلطان بركياروق بالباطنية، بعد أن اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم وقتلوا جماعة من الأمراء الأكابر...، وصاروا يتهددون من لايوافقهم بالقتل . فأشار بعض خواص السلطان عليه أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم...».

وفى سنة ٤٩٧هـ (١١٠٤م) أمر السلطان سنجر أحد أمرائه بقتال الباطنية، (فأكثر فيهم القتل والنهب والسبى ، وفعل بهم الأفعال العظيمة...) . على أنه يبدو أن السلطان سنجر تخوف من الإمعان فى معاداة الباطنية، فصالحهم وأمنهم، بعد أن اشترط عليهم «أن لايبنون حصناً ولايشترون سلاحاً ولايدعون أحداً إلى عقائدهم ...» وكان أن غضب رعايا السلطان من ذلك الصلح ، مما يدل على استياء جمهور المسلمين من تلك الفرقة الإرهابية الهدامة «فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونقموه على سنجر» .

وكان جمهور الناس على حق فى نقمتهم على تلك الفرقة الإرهابية إذ تشجع الباطنية فى خراسان، وأغاروا فى العام التالى – ٤٩٨ هـ / ١١٠٥م– على عديد من النواحى (وأكثروا القتل فى أهلها، والنهب لأموالهم ، والسبى لنسائهم حتى اشتد أمرهم ، وقويت شوكتهم...) حتى حجاج بيت الله الحرام لم يسلموا من عبث هؤلاء الإرهابيين، مما يدل على إنعدام الوازع الدينى عندهم، وبعدهم عن الإسلام وأركانه وروحه وأحكامه ، فأغاروا فى نفس السنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م) على قافلة كبيرة للحجاج (فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا، وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً ....)



ثم إن الباطنية الاسماعيلية الذين انطلقت حركتهم الإرهابية من بلاد فارس مدوا نشاطهم إلى مصر وبلاد الشام، وذلك منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى. وفى ذلك الحين كانت تقوم للمذهب الإسماعيلى دولة فى مصر، هى الدولة الفاطمية. ومع أنه لايوجد أى دليل على أن الفاطميين انغمسوا فى المسار المنحرف الذى سلكته الباطنية ، إلا أن هناك ما يشير إلى أن الباطنية حاولوا توثيق الروابط مع الفاطميين ، ربما للحصول على تأييدهم، ففى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م) «وصل الحسن بن الصباح الاسماعيلى فى زى تاجر إلى المستنصر بالله (الخليفة الفاطمى عندئذ بالقاهرة) وخاطبه فى إقامة الدعوة له بخراسان وبلاد العجم». ثم أخذوا يعملون لنشر الدعوة للفاطميين فى المشرق، إذ «قصدوا ما وراء النهر، ودعوا إلى طاعة المستنصر بالله العلوى صاحب مصر ، فتبعهم جمع كثير، وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد».

ومع ذلك فإن الدولة الفاطمية فى مصر لم تسلم من شرور الباطنية الذين لم يترددوا سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) فى اغتيال الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالى «صاحب الأمر والحكم بمصر ... وكان الاسماعيلية يكرهونه لأسباب منها تضييقه على إمامهم ، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها ترك معارضة أهل السنة فى اعتقادهم ، والنهى عن معارضتهم...». وكان أن انقض عليه ثلاثة من الإرهابيين الباطنية، وهو فى طريقه إلى خزانة السلاح، وطعنوه بالسكاكين فى خاصرته «فسقط عن دابته» . وبعد ذلك بسنوات قليلة– سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ – اغتال الباطنية الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله صاحب مصر «وثب عليه الباطنية فقتلوه».

أما بلاد الشام فقد تسرب نفوذ الباطنية إليها أيضاً فى أواخر القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر للميلاد– بحيث لم يستهل القرن التالى إلا وكانت لهم سطوة فى تلك البلاد وعندما نقول أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للهجرة – الحادى عشر والثانى عشر للميلاد – علينا أن نتذكر أن تلك الفترة تمثل المرحلة التي غزا فيها الصليبيون الغربيون بلاد الشام وأقاموا لأنفسهم مملكة قوية فى بيت المقدس، فضلاً عن بعض الإمارات فى المدن الكبرى، وهكذا جاء استفحال خطر الباطنية فى بلاد الشام فى تلك المرحلة الحرجة ليزيد من سوء الأوضاع التي تعرضت لها الجبهة الإسلامية، مما أضر بحركة الجهاد الإسلامى أبلغ الضرر.

وقد اتخذ نشاط الباطنية الحشيشية فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية اتجاهين: أولهما– وهو الاتجاه الرئيسى الذى استهدف مقاومة المذهب السنى واغتيال زعمائه وقادته . وثانيهما – وهو الاتجاه الفرعى وقد استهدف اغتيال بعض الزعماء الصليبيين– لا لأنهم صليبيون، ولكن لأنهم وجدوا فيهم خطراً يهدد– أو على الأقل يعوق– نشاطهم ويقف عقبة فى طريق تحقيق طموحاتهم.

ولم يتحرج الباطنية فى بلاد الشام من محالفة الصليبيين حيناً، أو مساعدة بعض زعماء السنة ضد خصومهم أحياناً ، مما جعل منهم عصابة من الارهابيين المأجورين ، يعملون لحساب هذا الجانب أو ذاك ، وفقاً لما تتطلبه مصالحهم أو لما يعود عليهم من كسب.

واتخذ الباطنية عدة قلاع وحصون ببلاد الشام مراكز لنشاطهم منها حصن القدموس الذى اشتروه سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) من صاحبه ابن عمرون، «وصعدوا إليه ، وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم »، وحصن مصيات (مصياف أو مصياب)، «وكان مملوكاً لبنى منقذ– أصحاب شيزر ، فاحتالوا عليه (على صاحبه) ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م) . وفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) ملكوا بانياس ، «فجلت المحنة واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين لاسيما أهل السنة...» ونديرك من هذه العبارة الأخيرة أن الباطنية كانوا سوطاً مسلطاً على الدين وأهله، وإن تظاهروا بالتمسح بالدين. ذلك أن الاغتيال كان السلاح الرهيب الذى استغله الباطنية فى التخلص من خصومهم ، مما أثار فى تلك الحقبة جواً من الإرهاب والخوف فى الشام ومصر ، فضلاً عن خراسان وبلاد المشرق.

وقد بلغ من تطرفهم أنهم كانوا يختارون وقت الصلاة لاغتيال ضحاياهم ، مما جعل العديد من الشهداء يتعرضون للقتل في المساجد والجوامع وربما وهم يؤدون الصلاة. من ذلك ما حدث سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) من اغتيالهم جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وكان قد «نزل من القلعة إلى الجامع لصلاة الجمعة ، وحوله خواص أصحابه بالسلاح التام، فلما حصل بموضع مصلاه على رسمه، وثب عليه ثلاثة نفر عجم من الباطنية ، فضربوه بسكاكينهم ، وقتلوه ، وقتلوا معه جماعة من أصحابه ...». وبعد ذلك بثلاث سنوات، قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية «قتله قوم من الباطنية».

وزاد من سطوة الباطنية في بلاد الشام في أوائل القرن السادس الهجري- الثاني عشر للميلاد - عطف رضوان ملك حلب عليهم، بعد أن وجد فيهم أداة صالحة للتخلص من خصومه ، ويقول المؤرخ ابن الأثير أنه عندما قتل الباطنية جناح الدولة حسين صاحب حمص ، فإن ذلك «كان بأمر رضوان ورضاه».

ومن ناحية أخرى، استغل طغتكين أتابك دمشق الباطنية في اغتيال المجاهد الكبير مودود أتابك الموصل، الذي أتى إلى الشام نجدة للمسلمين في حربهم ضد الصليبيين . فلما كان يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) وبعد أن فرغ مودود من أداء صلاة الجمعة في جامع دمشق وبصحبته طغتكين - اقترب رجل من الباطنية من الأمير مودود «كأنه يدعو له ويتصدق ... وضربه بخنجره أسفل سرته » فقتله . ويقال إن ملك بيت المقدس الصليبي كتب إلى طغتكين بعد مقتل مودود كتاباً جاء فيه : «إن أمة قتلت عميدها ، يوم عيدها (يوم الجمعة) ، في بيت معبودها (المسجد) ، لحقيق على الله أن يبيدها».

وهكذا مضى الباطنية في تنفيذ مخططهم الإرهابي في بلاد الشام فذهب ضحيتهم جماعة من خيرة المجاهدين في وقت كان المسلمون في حاجة ماسة إلى جهودهم، الأمر الذي أثار استياء جمهرة المسلمين- وخاصة من أهل السنة- بالشام . وما كاد رضوان صاحب حلب يموت سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، حتى استثار أهل حلب ابنه وخليفته- ألب أرسلان، الملقب بالأخرس - ضد الباطنية. وكان أن أمر ألب أرسلان بالإيقاع بهم في حلب، مما أدى إلى مقتل مقدمهم أبي طاهر الصائغ ، هو وجماعة من أعيانهم، في حين فر الباقون «فمنهم من قصد الفرنج، وتفرقوا في البلاد» .

وهؤلاء الباطنية الذين فروا من حلب عقب وفاة رضوان سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) ، واتجهوا إلى الصليبيين صاروا عوناً لهم ضد المسلمين وأداة في أيديهم لاغتيال قادة حركة الجهاد

الإسلامى. يذكر المؤرخ ابن الأثير أن الباطنية عندما ازداد نفوذهم فى دمشق، راسلوا الفرنج، سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩م) ليسلموا دمشق للصليبيين مقابل تنازل هؤلاء الأخيرين عن مدينة صور للباطنية . ولكن تاج الملوك بورى صاحب دمشق اكتشف المؤامرة ، فقتل المزدقانى زعيم الباطنية بدمشق، وعلق رأسه على قلعة المدينة، وأخذ يطارد الباطنية حتى قتل منهم ستة آلاف. وقد أثار ذلك الوضع مخاوف اسماعيل الباطنى والى بانياس ، «فراسل الفرنج، وبذل لهم تسليم بانياس والانتقال إلى بلادهم (لاجئًا) ، فأجابوه ، فسلم القلعة إليهم، وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم ، ولقوا شدة وذلة وهوانًا ...».

وهكذا تحقق أكثر من تحالف بين الباطنية والصليبيين فى بلاد الشام فى تلك الحقبة ، ضد الخصم المشترك، ممثلاً فى أمراء المسلمين وقادتهم من أهل السنة . ولا أدل على قوة الرابطة بين الباطنية فى الشام والصليبيين فى تلك المرحلة، من مدى تأثر الصليبيين وغضبهم لمقتل المزدقانى زعيم الباطنية فى دمشق ، إذ كانوا يبنون عليه آمالاً كباراً فى الاستيلاء على هذه المدينة . لذلك ما كادوا يسمعون خبر مقتله حتى «تأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها...».

ونخرج مما سبق بنتيجة واضحة، هى أن هؤلاء الإرهابيين الذين تمسحوا بالدين كانوا أبعد ما يكونون عن الإخلاص للدين. لقد اتخذوا الإسلام ستاراً يخفون من ورائه سياستهم الإجرامية فى اغتيال الأبرياء ، وسفك دماء المجاهدين ، والتخلص من المعارضين لهم. ولا مانع لديهم من تسليم البلاد وأهلها إلى الغزاة المعتدين، من الصليبيين الغربيين.

ولم يغفر الباطنية لتاج الملوك بورى صاحب دمشق قتل زعيمهم المزدقانى ، فدبروا مؤامرة لاغتياله سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) «وجرحوه جرحين، برأ أحدهما ، وبقى الآخر حتى اشتد عليه، وتوفى بسببه بعد قليل...».

ومضى الباطنية فى سياستهم الإرهابية ، بحيث يضيق المقام عن ذكر كافة ضحاياهم من الأبرياء . وفى النصف الأخير من القرن السادس الهجرى- الثانى عشر للميلاد - لم يسلم صلاح الدين الأيوبى- بطل الجهاد الذى وهب نفسه لتخليص قلب العالم الإسلامى من خطر الغزاة - من محاولة اغتياله على أيدى تلك الفرقة الإرهابية التى ادعت نسبتها إلى الإسلام. وقد حدث سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م أن دبر جماعة من أتباع الدولة الفاطمية فى مصر مؤامرة لاغتيال صلاح الدين . ولما وجدوا أنهم فى حاجة إلى مساعدة خارجية، بادروا بالاتصال

بالفرنج في الشام وصقلية ، كما كاتبوا سنان مقدم الحشيشية في الشام ليبعث إليهم أحد رجاله المدربين لاغتيال صلاح الدين و«يثب عليهم مكيدة وصيلة». ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة وتخلص من مدبريها .

ولم يصرف الباطنية نظرهم عن صلاح الدين بعد ذلك، أصروا على اغتياله. فبينما كان صلاح الدين يخوض معركته الضارية ضد الصليبيين في بلاد الشام، إذا به يفاجئ وهو يحاصر قلعة إعزاز سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) بأحد الباطنية يثب عليه. «فضربه بسكين في رأسه فجرحه ، ولولا أن المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله». وتعاقب بعد ذلك ثلاثة من الباطنية– الواحد بعد الآخر – يهاجمون صلاح الدين، ولكنهم قتلوا جميعاً، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لايصدق بنجاته».

ولم تكن هذه المحاولة الأخيرة لاغتيال صلاح الدين على أيدي الباطنية، إذ تعددت محاولاتهم ، لا لسبب سوى أن صلاح الدين سني يشكل عقبة في وجه نشاطهم . ومن ناحية أخرى فإن صلاح الدين لم يغفر للباطنية عدوانهم، فهاجم حصونهم بالشام، و«حصر قلعة مصياب – وهي أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم– فنصب عليها المجانيق ، حتى توسط شهاب الدين الحارمي– خال صلاح الدين فرحل عنهم». ويبدو أن صلاح الدين كان راغباً عندئذ في توجيه كل طاقته ضد خصومه من الصليبيين ، ولنا أن نتخيل صورة التاريخ لو كان هؤلاء الإرهابيون قد نجحوا في تنفيذ خططهم التي استهدفت قتل صلاح الدين. فلو تحقق ذلك ، ما كانت حطين، وما كان استرداد «بيت المقدس– على الأقل في تلك المرحلة– من الغزاة الغربيين، ولتعرض المسلمون في الشرق الأدنى لمزيد من الضربات ، نتيجة لأعمال عصابة من المجرمين يدعون الانتماء إلى الإسلام .

وفي تلك الأثناء ، كان هؤلاء الملاحدة من الإرهابيين يواصلون نشاطهم الهدام في المشرق الإسلامي. ولم تتوقف هجماتهم العدوانية على قوافل الحجاج ، فانقضوا على قافلة لهم سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) وأبادوهم ، و«قتل منهم من الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير . وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام وخصت خراسان، ولم يبق بلد إلا وفيه مأتم ....» ولم يستسلم سلاطين السلاجقة أمام خطر الباطنية ، فاستمروا يواصلون جهودهم لمطاردة الإرهابيين والعمل لاستئصال شأفتهم. وساعدهم في جهودهم عامة الناس والأهالي الذين كانوا «يكرهون مجاورتهم».

• • •

ومنذ أواخر القرن السادس وأوائل السابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) أخذ تيار تلك الجماعة الإرهابية يضمحل ، بعد أن لمسوا أنهم مكروهون من كافة الناس، وأن المجتمع الإسلامي ضاق بجرائمهم ذرعاً.

وكفى أن الناس أحسوا بأن أولئك الإرهابيين حرموهم من نعمة الأمن التي هي أساس بقاء أي مجتمع ، والتي تعتبر من أبرز خصائص المجتمع الإسلامي.

وكان أن اضطر الباطنية إلى التراجع والعودة إلى طريق الله ونبذ الإرهاب . وكان ذلك في الوقت الذي أخذت أعدادهم تتناقص مما أضعف من قوة نشاطهم . وفي سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) أعلن مقدم الباطنية التوبة «وأظهر الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها، وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام. وأرسل مقدمهم رسلاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج ، فأكرمت ببغداد إكراماً عظيماً وكذلك بطريق مكة ...».

وإذا كانت قد تبقت للباطنية بعض الحصون ببلاد الشام حتى منتصف القرن السابع الهجري- الثالث عشر للميلاد- فإن السلطان الظاهر بيبرس- سلطان دولة المماليك (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) استولى على تلك الحصون واحداً بعد آخر ، وبذلك عادت ممتلكات الباطنية إلى رحاب الإسلام الحق «فأقيمت هناك الجمعة وترضى عن الصحابة بها ، وعفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره»، على قول المؤرخ المقريزي.

وهكذا انطوت صفحة قاتمة من صفحات الإرهاب التي لوثت التاريخ الإسلامي في عصر الحروب الصليبية.

لقد اتضح أن أعضاء الحركات الإرهابية الذين يستترون خلف رداء الإسلام هم أشد خطراً على الإسلام من خصومه . إنهم وباء يصيب المجتمع ، يجتاح البلاد ويعصف بالعديد من أبرياء العباد...

ومن الواضح أن الصعوبة الكبرى التي واجهتها وتواجهها الحركات الإرهابية هي افتقارها إلى ركيزة تستند إليها من أهالي البلاد، فالإنسان النقي النفس يرفض الغدر وينفر بطبيعته من ظاهرة اغتيال الأبرياء وسفك دماء الآمنين. وتشتد هذه المشاعر وتقوى في ظل الأديان السماوية التي نهت جميعاً عن ظاهرة قتل الإنسان أخيه الإنسان دون ذنب جناه .

هناك أركان أساسية لاستقرار المجتمع البشرى وازدهار الحضارة الإنسانية ، أهمها الإحساس بالأمن والطمأنينة مما يحقق للمجتمع وللفرد قدراً من الاستقرار وهدوء البال يمكنه من العمل والإنتاج من جهة ، والاستمتاع بما هيأه الله له من أسباب المتعة الحلال من جهة أخرى . لذلك رفض الناس فى كل زمان ومكان ظاهرة الإرهاب ، ولم يروا فى الإرهابيين إلا أعداء لله وللبشر . ولم ينفع الإرهابيين تمسحهم بالدين ومحاولتهم التستر خلفه ، وإنما كانت الصخرة التى تحطمت عليها حركاتهم الإرهابية عبر العصور هى عدم وجود ركيزة من أهل البلاد تبارك- أو على الأقل- تقر جرائمهم فى حق البلاد والعباد. ومهما يشيع الإرهابيون من ذعر وخوف ، فهم فى نظر المجتمع عصابة من الأشرار المخربين الذين جلبوا على الشر والغدر، والتعطش لسفك دماء الأبرياء وهؤلاء «مأواهم النار وبئس مثوى الظالمين» .

د. حسن أحمد يوسف نصار (*)

الشيخ عز الدين القسام
رائد الحركة الوطنية الفلسطينية المسلحة

نشأة الشيخ القسام:

هو عز الدين عبد القادر القسام ولد فى عام ١٨٨٣ فى إحدى قرى قضاء اللاذقية شمال سوريا تسمى «جبلة» يرجع نسبة إلى أسرة الكيلانى المعروفة بنزعتها الدينية الغيورة لدرجة التزمُّت ، تلقى تعليمه الدينى الأولى فى تلك الأسرة فحفظ ثلثى القرآن الكريم واطلع على التفاسير المختلفة للأحاديث النبوية الشريفة ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى انتقل إلى القاهرة ليلتحق بالجامع الأزهر والدراسة به على يد كوكبة من أبرز العلماء فى مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

ومما لاشك فيه أن عز الدين القسام فى هذه المرحلة من صباه تأثر إلى حد بعيد بالاتجاهات الوطنية التى سادت مصر آنذاك ضد الاحتلال البريطاني، وقد اصطبغ بالصبغة التى سادت معظم الطبقة المتوسطة من المثقفين المصريين وهى النبوغ فى الخطابة هذا بالإضافة إلى تحصيله العلمى الغزير وحسن معشره وطيب أخلاقه ، وبعد أن انتهى القسام من دراسته فى الأزهر عاد إلى سوريا واشتغل بالوعظ والإرشاد فى جامع السلطان إبراهيم أدهم لفترة طويلة أصقلت من مواهبه الشخصية وأكسبته خبرة بأفئدة البشر وطبائعهم(١) .

---

* مدرس بكلية الآداب – جامعة جنوب الوادى .

لم يكتف القسام فى سوريا بنشر العلم بل شارك فى حركة الجهاد التى اندلعت فى كافة ربوع بلاد الشام أثر اتفاقيات التقسيم بين الدول الاستعمارية فى عام ١٩٢٠ وكان كغيره من أبناء سوريا يأمل تحقيق أهداف الحركة الوطنية العربية التى تحالفت مع الحلفاء فى ظروف الحرب العالمية الأولى غير أن تراجع الحلفاء عن وعودهم وقيام كل من بريطانيا وفرنسا بتقسيم منطقة المشرق العربى بينهما أدى بطبيعة الحال إلى ردود فعل وطنية فى سوريا بوجه عام وعلى الأخص فى الأجزاء الشمالية واشتعل هذا الجزء بحركات ثورية ابتداء من عام ١٩١٩ لمواجهة قوات الاحتلال الفرنسى ، وسارع القسام بالانضمام لصفوف الثوار وشارك فى قيادة حرب العصابات مع «عمر البيطار» فى جبل صهيون .

فى هذه الفترة أخذت منطقة جبل العلويين تشهد قيام ثورة كبيرة بقيادة الشيخ «صالح العلى» ١٩٢٠-١٩٢١ فانضم القسام مع بعض إخوانه من قرية (جبلة) من أمثال «محمد الحنفى» وعلى الحاج عبيد» إلى هذه الثورة وظلوا يحاربون فى صفوفها وقد أبلوا بلاء حسنا وكان لهم الفضل فى استمرار عنف ثورة جبل العلويين لدرجة أن السلطة العسكرية الفرنسية أرسلت رسولا إلى القسام يعده بتولية منصب القضاء وبذل العطاء له إذا ما تخلى عن مؤازرته للثورة ولكن القسام رد الرسول خائبًا . وبعد أن تمكنت القوات الفرنسية من إخماد ثورة جبل العلويين حكم عليه الديوان العرفى فى اللاذقية بالإعدام[٢].

اضطر عز الدين القسام ورفيقاه إلى الاختفاء مع مجموعة من الذين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام ومن جهتها تابعت السلطات الفرنسية ملاحقة المحكوم عليهم، عندئذ لم يجد القسام بدًا من مغادرة المنطقة الشمالية التى سيطر عليها الفرنسيون فى سرية تامة إلى المنطقة الجنوبية (فلسطين) والتى تحت السيطرة الإنجليزية ، وتقول ابنة الشيخ القسام نقلاً عن والدها إنه أحاط لجوءه مع زميليه بالكتمان الشديد حيث كانوا يختبئون نهاراً ويسيرون ليلاً حتى وصلوا الأراضى الفلسطينية عن طريق «رأس الناقورة» بعد رحلة شاقة زحفًا على البطون فوصلوها وكأنهم هياكل عظيمة من شدة المتاعب التى صادفتهم[٣] واستقر بهم المقام فى حيفا فى ٢٥ / ٢ / ١٩٢٢م.

كانت حيفا عندما هبط إليها الشيخ القسام سريعة النمو فى عمرانها فهى مرفأ فلسطين الأول وأقرب مدنها إلى لبنان وبيروت ودمشق وهى بلدة مختلطة ومتعددة الأقوام والجنسيات هذا إلى جانب أنها قاعدة من قواعد التهويد مما أسبغ عليها حساسية خاصة ، ويبدو أن

وجود الزعيم الوطنى السورى الشيخ «كامل القصاب» فى حيفا آنئذ من بين الأسباب التى جعلت القسام يتخذ منها مقرًا ومقامًا إذ أن «القصاب» كان يعمل مديرًا للمدرسة الإسلامية الأهلية التى أسستها الجمعية الإسلامية فى حيفا وقد تمكن القسام نظرًا لمؤهلاته العلمية وخبرته فى التدريس ومساعدة الشيخ القصاب من الحصول على وظيفة مدرس فى تلك المدرسة[٤] وإلى جانب وظيفته الرسمية فى المدرسة الإسلامية قام بالتدريس مجانًا فى جامع النصر.

لم يكن حكم الإعدام الذى صدر ضد الشيخ القسام ولجوئه إلى فلسطين ليحول دون احتفاظه بمبادئه الوطنية بل أن وصوله إلى فلسطين حيث الاستعمار البريطانى قد زاد من قناعته الثورية ضد الاستعمار[٥] من هنا رأى أن يتخذ لنفسه منهجا قام بتنفيذه دون إثارة الشبهات حوله فابتدأ أولا فى نطاق المدرسة التى عمل بها انطلاقا من اعتقاده بأهمية توعية العناصر الطلابية الشابة بالكفاح المقبل وأدرك القسام بثاقب بصره أن الطلاب أكثر من غيرهم فهما لما يريده ، وأعمق وعيا لمخططات الاستعمار البريطانى الذى أراد فصل فلسطين عن بقية بلاد الشام وتهويدها . وهكذا شرع القسام فى تأسيس حلقات سرية من المخلصين له وذلك للإعداد النفسى للثورة وكانت تلك الحلقات فى ازدياد مستمر[٦].

تزايدت مشاعر القسام القلقة مع تزايد الأخطار الصهيونية التى تعرضت لها البلاد والتى كان من أبرزها دخول المستوطنين الصهاينة بأعداد هائلة، ففى عام ١٩٢٤ دخل إلى أرض فلسطين ١٢,٨٥٦ من العنصر الصهيونى، ثم ازداد العدد العام التالى ١٩٢٥ إلى ٣٣,٨٠١ وبذلك أصبح عددهم ١٢١,٧٢٥ بعد أن كانوا عام ١٩١٨ حوالى ٥٦ ألف فقط. كما ازدادت مساحة الأراضى التى أصبحت فى حوزتهم من ٤٢٠,٥٠٠ دونم عام ١٩١٤ إلى ما يقرب من ٩٠٠,٠٠ دونم حتى بداية عام ١٩٢٥ كما ارتفع عدد المستوطنات اليهودية من ٤٧ إلى ٩٦ خلال هذه الفترة[٧] وكان كل ذلك بتسهيل من المندوب السامى البريطانى الصهيونى الأصل «هربرت صموئيل» .

استمر القسام يركز فى دروسه على الروح والأخلاق الوطنية السليمة وكان سبيله إلى ذلك انتقاء العناصر الوطنية بإحساسه الغريزى إذ كان يراقب المصلين وهو يخطب فيهم فوق المنبر ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد لزيارته فى منزله ثم تتكرر تلك الزيارات إلى أن ينخرط هذا التلميذ فى مجموعة سرية صغيرة لايزيد عددها من خمسة أفراد[٨] وعن طريق تلك الخلايا العنقودية بدأ فى ممارسة ما كانت نفسه تصبو إليه وهو تكوين عصابات إيمانية

ثورية مدربة شروطها الأساسية أن يقتني العضو السلاح على نفقته الخاصة وأن يتبرع بما يستطيع للعصبة التي ينتمي إليها (٩).

ولم يكد الشيخ القسام يشعر بأن دعوته بدأت تؤتي أكلها بين قطاعات الشباب حتى أخذ يشجعهم سراً على تأسيس جمعية لهم أطلق عليها جمعية الشبان المسلمين (في حيفا) ولما اشتد ساعد تلك الجمعية أسرع بالانضمام إليها(١٠) ليتخذ من عضويته فيها ستاراً لتغطية أعماله الوطنية من الإعداد والتنظيم (١١). وتتذكر ابنة عز الدين القسام نقلا عن والدها أنه استطاع من خلال جمعية الشبان المسلمين إلى أن يضيف إلى مهمتها الدينية مهمة أخرى اجتماعية قد يفتقد إليه المجتمع العشائري في جنوب بلاد الشام حينذاك مثل تقديم العون للمحتاجين وإمداد المرضى بالعلاج على نفقتها الخاصة والاحتفال بالمناسبات الدينية والاجتماعية . وقد نجح القسام في أن يضم إلى جمعيته أكبر عدد من الشباب حتى وصل عدد أعضائها إلى ٦٠٠ عضو خلال عامين فقط ، فكان يوكل إلى كل مجموعة أو عصبة بعض المهام الإدارية والواجبات العامة وحتى لاتخرج تلك التكليفات عن نطاق السرية وتصل إلى عيون السلطة البريطانية أو العصابة الصهيونية ، وكانت الأوامر تدون على جدران الجمعية أو المساجد التي يخطب فيها وذلك على شكل رموز(١٢) ومن هنا يمكن أن نقول إن هذا الشيخ الأزهري فطن مبكراً إلى أهمية التخطيط لحرب العصابات التي تعتمد اعتمادا كليا على الكتمان، وكان يردد دائما قول الرسول الكريم «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» كما فطن أيضا إلى أهمية الشفرة أو الرموز في إبلاغ ما تعده القيادة العليا لهذا التنظيم إلى أفراد الخلايا القسامية المتناثرة.

أدى النجاح الذي حققته جمعية الشبان المسلمين في حيفا إلى الدفع بكثير من الشباب المسلم في بقية المدن الفلسطينية إلى تكوين جمعيات على غرارها وكانت مدينة نابلس من أسبق المدن في هذا المجال وتكللت جهود مجموعة من أولئك الشباب كان من بينهم «محمد عزة دروزة» إلى وضع دستور لجمعية الشبان المسلمين بها ودعوة جميع طوائف الأمة لمناصرة الجمعية(١٣) ثم تلى تلك الخطوة إنشاء جمعيات مماثلة في كافة مدن فلسطين.

بدأ نطاق دعوة القسام يتسع منذ عام ١٩٢٩ عندما عُين مأذوناً شرعيًا من قبل المحكمة الشرعية فكان يخرج إلى القرى ويحضر حفلات الأعراس مما هيأ له فرصة لدراسة نفسية الجماهير وكان يتصل بسائر طبقات الشعب لا فرق بين متدين وغيره إيمانا منه بأن إصلاح

المستهترين أولى من إصلاح غيرهم وكان هذا الأسلوب قد جعله محل انتقاد من قبل بعض الشخصيات بل أدى فى كثير من الأحيان إلى عقد مناظرات بينه وبين أصحاب الرأى المعارض مثل «صالح الحوراني» ، وكان القسام فى دعوته للثورة الوطنية الفلسطينية يتكتم ما يعده من إجراءات أو استعدادات للوقوف فى وجه الصهيونية ومنع إقامة وطن قومى يهودى ولم يبح به إلا لأشخاص قلائل بعد دراسة مستفيضة لهؤلاء الأشخاص قد تطول لعدة سنوات ومن هذا المنطلق ظل يعمل بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين لكى يهيئهم فى الوقت المناسب للانطلاق نحو الثورة [١٤]. أدرك القسام أن نشاطه يجب ألا يقتصر على المدرسة التى يعمل بها أو الجمعية التى ينتسب إليها ذلك أنه لابد من توعية الجماهير داخل أماكن تجمعات تصطبغ بالصبغة الدينية الشرعية فلم يكن أمامه سبيل إلا حصوله على وظيفة إمام لأحد المساجد فى حيفا وهو مسجد النصر[١٥] ووضع برنامجًا لذلك يقوم على إلقاء دروس يومية عقب كل صلاة بالإضافة إلي خطبة أيام الجمعة ، وأخذ القسام رويداً رويداً يكتسب شهرة واسعة بين سكان حيفا بشكل عام ، وفى هذه الفترة كان قد تم إنشاء أكبر مسجد فيها وهو جامع الاستقلال فسعى حتى انتقل إليه[١٦] ليصبح فى استطاعته الاتصال بأكبر قدر من المصلين.

كانت الفترة السابقة من عام ١٩٢٢-١٩٢٦ بمثابة مرحلة التجهيز والإعداد فى تاريخ التنظيم القسامى إذ اقتصرت على إجراء دراسات ميدانية لما يجرى فى الساحة الفلسطينية كأساس لابد منه قبل التخطيط الثورى ولاشك أن تجارب القسام السابقة فى الثورات السورية قد أكسبته الكثير من الخبرة فأدرك أهمية العمل السرى فى نجاح أى تنظيم، وتقول ابنة القسام إن والدها اتفق مع بعض المخلصين من أصدقائه على حمل راية الثورة وتعاهدوا على أن يقدموا حياتهم فداء على مذبح الوطن ليعطوا لأبناء أمتهم درساً بليغًا فى التضحية ، فكان ينتقى أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة ويقوم بتدريبهم فى رحلات ليلية كما كانوا يقومون برحلات استطلاعية يتمرنون فى أثنائها على إصابة الهدف[١٧].

ومما لاشك فيه أن الشيخ القسام «رغم تعليمه الدينى الذى يبتعد كل البعد عن التكتيك العسكرى إلا أنه كان واسع الأفق خلقت منه أحداث شمال بلاد الشام قائداً عسكرياً متمرساً على فنون حرب العصابات فكان يقسم إخوانه إلى وحدات عسكرية منظمة ، وحدة خاصة بشراء السلاح ووحدة أخرى للتدريب العسكرى ووحدة للتجسس على الإنجليز والصهيونية

ووحدة للدعاية للثورة في المساجد والمجتمعات ووحدة للاتصالات السياسية وهذا كله رغم إمكانياته المحدودة ورغم مراقبة السلطة لكافة تحركاته هو وأعوانه [١٨].

كانت جموع الفلاحين تزداد في حيفا بعد تزايد عمليات الطرد الجماعية التي تقوم بها السلطة البريطانية أو نتيجة اغتصاب الشرائح الصهيونية لأراضي الفلسطينين ولاشك أن هذه الطبقة كانت أكثر من غيرها استعدادا للتضحية والعمل، ولقد أدرك القسام هذه الحقيقة فأخذ يكثر من الاتصال بهم داخل المسجد فيحدثهم ويستمع إلى شكاواهم ويحس بآلامهم ويتردد عليهم في أحيائهم التي اتخذوها مستقراً لهم وكانت هذه الأحياء تتألف في أغلب الأحيان من أكواخ من التنك والخشب[١٩] ثم جعل من بيته مدرسة ليلية خاصة يستقبل فيها تلك الطبقات بهدف تعليمهم وتوعيتهم[٢٠].

تعتبر الفترة من ١٩٢٦–١٩٢٨ هي بداية المرحلة الثانية في تاريخ التنظيم القسامي إذ بدأ القسام في تنظيم أولئك الأوائل من الذين استجابوا للدعوة وكان في مقدمتهم : العبد قاسم، محمد زعروره ، محمد صالح ، وخليل محمد عيسى[٢١] ثم تزايد عدد التنظيم القسامي بعد انضمام أكثر من أربعين شخصًا يرتبطون ببعض عن طريق حلقات محدودة العدد على كل حلقة أو مجموعة نقيب يقوم على قيادتهم وتوجيههم، وكل خلية من تلك الخلايا لاتعرف غيرها من الخلايا السرية التي تنتمي إلى التنظيم ، وكان على كل من يتطوع أو يشترك في إحدى هذه الخلايا الثورية أن يدفع اشتراكًا شهرياً بحسب طاقته على ألا يقل عن عشرة قروش[٢٢] وحتى يزيد القسام من دخل التنظيم في هذه المرحلة فقد أعلن قبوله للتبرعات، وبدأت تفد إليه طوائف الشعب الفلسطيني تمد له العون رغم شظف العيش بين أغلبية السكان.

كان التنظيم القسامي في خلال هذه الفترة ينمو ببطء وسط إجراءات بالغة من الحذر والسرية وقد اقتصر نشاط القسام فيها على كسب الأنصار وإعدادهم عقائدياً وتدريبهم على استعمال السلاح في السر[٢٣] ولعل هناك من الحوادث المواكبة لتلك الفترة ما جعل القسام وأعوانه يعمدون لاستعمال النفس الطويل إذ شهدت السنوات الثلاث ١٩٢٦ –١٩٢٨ تراجعًا في الهجرة الصهيونية وفي انتقال الأراضي العربية لليهود إذ بينما كان عدد المهاجرين الصهاينة عام ١٩٢٥ قد بلغ ٣٣,٨٠١ إذ به يتناقص في عام ١٩٢٦ إلى ١٣,٠٨١ ثم انخفض فجأة عام ١٩٢٧ إلى ٢٧١٣ ثم في العام التالي ١٩٢٨ إلى ٢١٧٨[٢٤] ولعل هذه الظاهرة أدت إلى التفاؤل بزوال الخطر الصهيوني وخاصة أن أعداداً كبيرة منهم بدأت في

مغادرة فلسطين، وكان من الطبيعى أن يرافق هذا التراجع فى أعداد المهاجرين تراجعًا فى عمليات انتقال الأراضى العربية إلى اليهود لدرجة أن البعض أصبح يعتقد أن فكرة إنشاء وطن قومى يهودى توشك على الفشل(٢٥) لهذا سارعت الحركة الصهيونية إلى التحرك فى داخل فلسطين وخارجها لنفض الجمود الذى أصيبت به فتعمدت افتعال أحداث داخل فلسطين بهدف جذب اهتمام يهود العالم وكان سبيلها إلى ذلك العنصرية الدينية ففى النصف الثانى من عام ١٩٢٨ قام الصهاينة بنصب ستار عند حائط المبكى مخالفين بذلك العرف المتبع، هذا الإجراء أدى إلى اندلاع توتر بين أوساط المسلمين وحرصت الحكومة البريطانية من جانبها على تصعيد تلك الأزمة بوسائل غير مباشرة وشهدت البلاد حملات متبادلة من خلال بيانات الاحتجاج التى تنشر فى الجرائد وامتد هذا الصراع خارج فلسطين آخذا شكل تأليب القوى الصهيونية العالمية لمناصرة إخوانهم وتخليصهم من براثن العرب، ولقد أثمرت هذه الادعاءات لتحقيق بعض أهداف الصهيونية إذ استؤنفت الهجرة من جديد ففى عام ١٩٢٩ دخل إلى فلسطين ٥٢٤٩ كما استؤنفت عمليات الاستفزاز فانفجر الموقف فى أغسطس (آب) ١٩٢٩م .

كان من نتيجة استئناف نشاط الحركة الصهيونية منذ أواخر ١٩٢٨ واستمرار الاستفزازات الاقتصادية والدينية أن ساد البلاد جوًا من التوتر دفع بعض أعضاء التنظيم القسامى إلى مطالبة القسام بضرورة البدء فى مرحلة العمل المسلح ضد تلك الأخطار المتزايدة، غير أن القسام الذى امتاز بعمق الفكر والتريث رفض الاشتراك العلنى فى ثورة ١٩٢٩ وذلك لاقتناعه بأن حجم الاستعدادات التى اتخذت حتى ذلك الوقت لم تكن كافية لإعلان الثورة إذ أن التنظيم لايزال محدودا من حيث التدريب والعدد والتمويل، ومع ذلك فقد شارك بعض أعضاء التنظيم فى ثورة ١٩٢٩ بصورة انفرادية(٢٦).

لما كان القسام يسعى جاهدًا لنشر دعوته الثورية فى سائر أنحاء فلسطين فقد طلب من الحاج «أمين الحسينى» رئيس المجلس الإسلامى الأعلى حينذاك أن يعينه واعظًا متنقلاً ليستطيع الاتصال بجميع طوائف الشعب غير أن الحاج أمين اعتذر له معللا ذلك بالسير فى طريق الحل السياسى(٢٧) ويبدو أن فريقًا ممن يميلون إلى فكرة الحل السياسى ولايؤيدون الثورة العنيفة قد بدءوا يروجون لتلك النظرية مما دعى القسام إلى إلقاء اللوم عليهم وأخذ عليهم تهاونهم فى الدعوة للجهاد بل حملهم مسئولية الوضع السئ الذى يكتنف الأراضى الفلسطينية. وكان فى كل مناسبة يردد آيات من كتاب الله تتعلق بالقتال والاستشهاد(٢٨).

كانت معظم الدول العربية حنئذ مهمومة إما بمشاكل الاستعمار الجديد أو بالإرهاصات الدولية التى من شأنها الارتباط فى فلك إحدى المعسكرات الداخلة فى نطاق الحرب العالمية الثانية والتى بدأت نذرها على الأبواب مبكرا ومن هذا المنطلق لم يعول هذا المناضل الثورى كثيراً على أية معونات من الدول العربية وكان يؤمن بأن عرب فلسطين إذا شاءوا أن يحيوا فى بلادهم ويصدوا عنها الخطر الصهيونى فعليهم الاعتماد على أنفسهم غير منتظرين أن تهبط عليهم النجدات من السماء أو تأتى إليهم من وراء الحدود(٢٩) من هنا تجاوزت شهرة القسام حدود مدينة حيفا إلى القرى المجاورة مما جعل العديد من قاطنيها يواظب على صلاة الجمعة فى مسجد الاستقلال ولما رأت السلطة البريطانية هذا التأثير الواضح من القسام على نفوس مستمعيه وشكها الدائم في مشاركة بعض أفراد التنظيم القسامى فى ثورة ١٩٢٩ فقد وضعته تحت المراقبة(٣٠).

بدأ الشيخ القسام يجدد مساعيه لدى المحكمة الشرعية التابعة للمجلس الإسلامى لتعيينه مأذوناً شرعياً لعقود الزواج بين قرى شمال فلسطين ليتخذ من تلك الوظيفة وسيلة للاتصال بالطبقات الشعبية وقد نجح القسام فى مسعاه وأخذ يتردد باستمرار على تلك القرى تحت ستار إتمام عقود النكاح وكان يركز فى أحاديثه بين جموع الفلاحين على أخطار الخلافات العائلية المتوارثة منذ الحكم العثمانى والتى كانت تزكيها حكومة الانتداب البريطانى وتعمل على الاستزادة منها وتعميقها بهدف تصدع الجبهة الداخلية وكثيراً ما يتطرق به الحديث إلى أخطار بيع الأرض والهجرة والصهيونية ولقد نجح القسام فى تحقيق أهدافه فى أوساط تلك الطبقات الشعبية بما أوتى من موهبة فى حسن الحديث وقوة التأثير(٣١).

تزايدت شكوك السلطة البريطانية تجاه القسام فى هذه الفترة ولذلك حاولت بطرق غير مباشرة تحديد نشاطاته فعرضت عليه الانتقال إلى القدس ليعمل بوظيفة مدرس فى دار المعلمات براتب قدره ٢٥ دينار وهو من أعلى الرواتب حينذاك هذا بالإضافة إلى امتيازات سكنية مجانية وتعليم بناته الثلاثة فى نفس المعهد(٣٢) غير أن القسام اعتذر عن عدم قبول هذا العرض بطريقة لبقة ليتمكن من الاستمرار فى المهمة التى نذر نفسه من أجلها.

صدقت توقعات القسام بالنسبة للثورة الشعبية العارمة إذ سرعان ما تخاذلت القيادات التقليدية أمام لجان التحقيق البريطانية فرحبت بما أسمته بريطانيا بالكتاب الأبيض وما جاء فى هذا الكتاب من بنود رغم افتئاتها على حقوق الفلسطينين ومع ذلك فقد تراجعت بريطانيا

عن تحقيق هذه المكاسب الضئيلة بالنسبة للشعب الفلسطيني وكان رد الفعل أن هيأت للحركة الصهيونية استئناف نشاطها بتقديم مزيد من الامتيازات الاقتصادية وفتح أبواب البلاد عن أخرها للهجرة الصهيونية وانتقال الأراضي إليهم فأصبحوا يملكون في عام ١٩٣١ ما يزيد على ١,٠٥٨,٥٠٠ دونم معظمها في أخصب الأراضي كما ازداد عددهم إلى ١٧٤,٦٠٦ ، كما قامت السلطة البريطانية في عام ١٩٣١ بتسليح المستوطنات الصهيونية التي ارتفع عددها إلى ١١٠ مستوطنة[٣٣].

كان من الطبيعي أن يزداد عدد الفلاحين المطرودين من أراضيهم نتيجة اغتصاب الصهاينة لتلك الأراضي وكانت حيفا هي الملجأ والملاذ لأولئك العاطلين عن العمل ولم يكن بوسعهم إلا الانضمام للتنظيم القسامي باعتباره التنظيم الثوري الحقيقي وبرز من بين صفوف هؤلاء الفلاحين نماذج ثورية أقضت مضجع السلطة العسكرية البريطانية مثل الشيخ «فرحان السعدي» وهو من قرية «المزار» بقضاء «جنين» والذي شارك في كل المظاهرات الوطنية السابقة كما شارك أيضا في ثورة ١٩٢٩ مما جعل السلطة البريطانية تحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام قضى بعضها في سجن (عكا) والبعض الآخر في سجن نور شمس وبعد خروجه انتقل إلى حيفا حيث اتصل بالقسام وانضم إلى حركته[٣٤] وكذلك «يوسف سعيد أبو درة» من قرية «سبلة الحارثية» قضاء جنين وقد هاجر إلى حيفا وعمل في دائرة السكة الحديد وتعرف على القسام وتتلمذ على يديه ودخل في تنظيمه [٣٥].

لما اتسعت دائرة القطاعات التي أخذ يعمل فيها القسام وقام بإعادة تنظيم الخلايا الثورية بهدف تشكيل اللجان المتخصصة فقسم أتباعه إلى مجموعات رئيسية تتفرع إلى حلقات صغيرة وكان من بين هذه التقسيمات الرئيسية: الوحدات العسكرية والتي انبعثت منها وحدة لشراء الأسلحة ومن قادتها البارزين الشيخ حسن الباير والشيخ نمر السعدي ووحدة للتدريب العسكري يشرف عليها عدد من ذوي الخبرة من أمثال محمد أبو العيون [٣٦]. كما كانت هناك وحدة للتجسس على اليهود والإنجليز لمعرفة خططهم السرية ومن أفرادها الشيخ ناجي أبو زيد مع مجموعة أخرى من العمال الذين يعملون في الدوائر الحكومية وخاصة البوليس ، كما كان قسم منهم يعمل مع اليهود للوقوف على نشاطهم السري بالإضافة إلى وحدات خاصة للدعاية في المساجد والمجتمعات وأوكل هذه المهمة لعدد من العلماء .

وكان الشيخ «كامل القصاب» أستاذه الحميم وصديقه القديم موجهاً ومستشاراً في هذه التنظيمات كما أسس الشيخ القسام وحدات خاصة للاتصالات الخارجية والسياسية ومن أبرز

رجالها الشيخ «محمود سالم المخزومي» والذى روى لصبحي ياسين أن عدد الذين أعدهم القسام للقيادات الجهادية وصل إلى ٢٠٠ شخص أشرف أكثرهم على خلايا رئيسية للحركة القسامية[٣٧] أما التمويل فقد أنشأ له وحدة خاصة تقوم بجمع الاشتراكات والتبرعات وقد استمر القسام عند حسن ثقة الناس به . ويشترط على العضو الذى يتم التحاقه بالتنظيم ضرورة تدبيره السلاح على حسابه الخاص[٣٨] وقد ضرب القسام مثلاً عملياً في التضحية عندما وكل عنه أحد أقاربه فى قرية (جبلة) ليبيع أملاكه الخاصة وخصص أثمانها لشراء الأسلحة وكان الشيخ القسام يشترى بعض هذه الأسلحة من تركيا عن طريق بعض الموردين وتذكر ابنة القسام أن أحد هؤلاء الموردين كان صحفي من بولونيا التقى بها أثناء المؤتمر النسائي العربى فى القاهرة عام ١٩٣٨ وتعرف عليها وأكد لها أنه كان من بين الذين عملوا على تهريب السلاح للحركة القسامية حيث كان يتم تسليمها فى المناطق الجبلية الشمالية من فلسطين[٣٩].

لم يكن نضال القيادات التقليدية الفلسطينية يتجاوز حدود تقديم الاحتجاجات إلى فخامة المندوب السامي البريطانى أو الدعوة إلى الإضراب على أكثر تقدير عند اكتشاف أية أعمال خطيرة للعناصر الصهيونية بينما استطاع التنظيم القسامي رغم قلة عدده أن يقوم بتشكيل عصابات ثورية من الفلاحين لمهاجمة المستوطنات الصهيونية منذ عام ١٩٣٠ وكانت أخطار الصهيونية قد تفاقمت ابتداء من مطلع عام ١٩٣٣ إذ قفز عدد اليهود فى نهايته إلى ٣٢٦,٣٠٠ هذا عدا آلاف الصهاينة الذين كان يتم تهريبهم كما تم فى نفس العام اغتصاب ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ دونم من أجود الأراضى العربية وكان طبيعياً أن يواكب هذا الاغتصاب فى الأرض إجلاء الفلاحين واستخدام العنف والتصفية الجسدية ضد الكثير منهم[٤٠].

بعد اضطرابات عام ١٩٢٩ حدث انقسام داخلى فى التنظيم القسامى إذ انشق عليه بعضاً من إخوان القسام كان على رأسهم «إبراهيم الكبير» المعروف بـ «خليل محمد عيسى» وذلك نتيجة لعاملين «العامل الأول»: هو أنهم رأو أن الوقت قد حان لإعلان الثورة بينما يرى القسام أن الإعداد للثورة لم يكن قد اكتمل بعد «أما العامل الثانى» فهو رغبة المنشقين فى جباية الأموال اللازمة للثورة من الشعب بكل الوسائل الممكنة بينما كان القسام يصر على عدم فرض أية مبالغ نقدية تزيد من الحالة المادية المتدهورة لجماهير الشعب الفلسطينى ، رغم هذا الانشقاق الداخلى إلا أن ثمة روح من الود والتراحم كانت تسود بين كل من الأصل والفرع وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على مدى تقدير أولئك الثوار لرسالتهم حتى وإن اختلفوا فى الوسائل والتفاصيل بل ظل المنشقون بعد ذلك يعملون سراً ضمن مخطط القسام الثورى.

انتقلت الحركة الثورية القسامية فى السنوات التى تلت عام ١٩٢٩ إلى مرحلة جديدة من النضال ضد الصهيونية وضد الإمبريالية المتمثلة فى الكيان البريطانى ولعل زعيم التنظيم رأى أن الوقت يسمح الآن بالعمل العلنى ولكنه حرص فى نفس الوقت على اتخاذ الصفة الفردية حتى لاينكشف أمر أعوانه من المجاهدين والثوار. وشهد عام ١٩٣٣ موجة من التهويد حل فيها الصهاينة محل العمال والفلاحين العرب من دوائر الحكومة مما أدى بمجموعة من التنظيم القسامى إلى التعبير عن شعور السخط تجاه سياسة التهويد بأسلوب عملى إذ تمكن فى ذات العام أحد أعضاء التنظيم ويدعى «أحمد الغلايينى» من صنع قنابل ألغام فى معمله فى حيفا وسلم بعضا منها إلى زميل له يدعى «صالح أحمد طه» فذهب مع بعض إخوانه ووضعوا إحدى هذه القنابل فى مسكن به أربعة حراس مُن اليهود فى مستوطنة «نهلال» الواقعة بين حيفا والناصرة فقتلت اثنين وجرحت الآخرين ، كما قامت مجموعة أخرى مكونة من الشيخ «أحمد التوبة ومصطفى على أحمد» برفقتهم الشيخ صالح طه أيضا بمهاجمة المستوطنات الصهيونية فى منطقة «مرج بن عامر» وعلى الرغم من اكتشاف السلطة البريطانية لتلك الحركة الفدائية واعتقال أفرادها لمدة تسعة أشهر وإعدام «مصطفى على أحمد» والحكم على أحمد الغلايينى بخمسة عشر عاما من السجن[٤١] إلا أن الحركة القسامية لم توقف نشاطها الفدائى ضد المستوطنات اليهودية حيث قامت مجموعة من أفراد التنظيم بأعمال فردية ليلية سريعة كان من بينها شن هجوم على مستوطنة «العفولة» وقتل مختارها اليهودى، كما تعرضت مستوطنة «عتليت» لهجوم آخر وكذلك السيارات التى كانت تنقل العمال اليهود إلى المستوطنات القريبة من قرية «الياجور»[٤٢].

وفى بداية عام ١٩٣٤ شعر القسام بأن ثمة مزيد من الخطر يهدد الحركة الوطنية الفلسطينية وذلك إثر الصراع العائلى الذى أصاب القيادات التقليدية على رئاسة اللجنة التنفيذية التى من المفترض أنها تشكلت من أجل انتزاع الحقوق الفلسطينية السليبة من السلطة البريطانية ومن شرائم الصهيونية، ثم لم تلبث تلك القيادات أن انشغلت بمهزلة انتخابات البلدية وتبادل الاتهامات والانصراف إلى تشكيل تكتلات حزبية عائلية بعيدة عن جماهير الشعب وأدرك القسام أن هذا الانقسام قد استنزف جزءًا كبيراً من طاقة الشعب التى كان من الواجب توجيهها لمقاومة الانتداب البريطانى وعصابات اليهود، ومما زاد فى قلقه ما كانت تقوم به تلك القيادات من تقارب مع السلطات البريطانية فى صورة التماسات تقليدية

واعتبر أن ذلك مضيعة للوقت لاتستفيد منه إلا الحركة الصهيونية لاسيما أن مزيدا من الهجرة الصهيونية قد عرفت طريقها إلى داخل البلاد إذ بلغ عدد اليهود الذين وصلوا فى نفس العام ١٩٣٤ إلى ٤٣,٣٥٩ مهاجرا . وفى المقابل فإن القسام كان يرى أن جموعًا جديدة من الفلاحين قد طردت من أراضيها بعد أن تمكن اليهود من شراء ١٦٠,٠٠٠ دونم بل بلغ الأمر بالصهاينة إلى حد الاعتداء العلنى على بعض العمال العرب لحرمانهم من فرص العمل القليلة المتبقية أمامهم (٤٣).

إزاء هذا الوضع المتردى أخذ عز الدين القسام يكثف نشاطه الثورى فى اتجاهين متوازيين الأول هو تأليب الرأى العام وتعبئة طاقات الأهالى ضد الاستعمار والصهيونية بكافة السبل والوسائل المشروعة وغير المشروعة ، أما الاتجاه الثانى فهو الكفاح المسلح ضد ما أسماهم المارقين وعصابات الكفر والإلحاد . وشهد عام ١٩٣٥ أحداثًا مؤسفة فى داخل الأراضى الفلسطينية مما أدى إلى تفاقم الحالة بوجه عام منها استخدام الصهيونية للفتيات اليهوديات فى التأثير على بعض شباب العرب والتلويح بورقة الجنس فى سبيل جذب هؤلاء إليهم واغتصاب المزيد من الأراضى الفلسطينية أو الانضمام إليهم والعمل فى صفوفه بإغرائهم بشتى الوسائل المادية ، وتعمد القسام أن يذهب مع مجموعة من رفاقه إلى المدن الفلسطينية المطلة على البحر المتوسط والتى عن طريقها يتم تهريب اليهود ليلقى بالزيت على الوقود المشتعل وكان من نتيجة تلك السياسة إضراب جميع العمال فى مدينة يافا عن الطعام كرد فعل لقيام السلطة البريطانية بطرد بعض إخوانهم من العمل(٤٤) وذلك فى ٥ مارس ١٩٣٥م.

بدأت الاستفزازات الصهيونية والبريطانية ضد الحركة الوطنية الفلسطينية تتخذ الشكل العلنى الصريح وذلك بوضع العراقيل أمام الحجاج المسلمين والمسيحيين الراغبين فى زيارة الأماكن المقدسة ومنعهم بالقوة من الوصول إليها وإمعانا فى الاستخفاف من تقاليد سكان البلاد وعقائدهم وإيمان الصهيونية العالمية بما للجنس الناعم اليهودى من أثر فعال فى صراع يقوم فى الكثير منه على الأسس الدينية والأخلاقية فقد لجأت تلك العصابات إلى تهريب كثير من اليهوديات فى زى مسلمات عن طريق جسر يصل بين البحر الميت وسوريا كما اتخذت من طريق (مخاضتى أم الشرب والمقدسة) الواقعتين بأريحا سبيلاً للتسلل إلى البلاد لاسيما أن المتسللات كن يجدن المساعدة من أبناء جلدتهم فى مستعمرة «غور الصافى» بعد أن تقوم اللنشات بحملهم إليها(٤٥).

كانت المقاومة السلبية لقيادات فلسطين التقليدية كما سبق القول- سبباً غير مباشر فى الجهر بالحركة القسامية بل ورميها بعدم الشرعية من قبل هذه القيادات التى اكتفت بالولولة والعويل والوقوف موقف المتفرج من تدنيس الأرض والعقيدة ففى بيان لمكتب الحزب العربى الفلسطينى جاء فيه «لقد أمَّ فلسطين لحضور حفلات (المكابياد) الرياضية هذه السنة عشرات الألوف من اليهود وأخذوا يستعرضون قواهم العسكرية المتسترة بستار الرياضة البدنية ... واليوم وقد انتهت حفلاتهم فقد أخذت جموعهم تجوس خلال الديار وانتشروا فى كل مكان وظهروا للناس بعادات تردتْ فيها الأخلاق الرياضية وتصرفات تنهى عنها الأديان السماوية وأماطوا لثام الحياء فى هذه البلاد المقدسة، وما قصدوا من ذلك إلا غزو الأخلاق العربية والفضائل الإسلامية كما غزوا الأراضى المقدسة[٤٦].

لم يعد أمام التنظيم القسامى إلا تكثيف جهوده فى مواصلة العمل الفدائى المسلح ضد كل ما هو معادى للحركة الوطنية الصادقة وقوبلت قرارات الاحتجاج والتنديد التى أصدرتها القيادات الرسمية الفلسطينية بالمزيد من الضربات المؤثرة فى جسد الكيان الصهيونى ولم يبال القساميون بالتشنجات المعادية ممن آثروا الاستكانة والاستسلام وإلصاق الصفات المشينة بهم وساروا فى الطريق الذى رسمه لهم زعيمهم حتى التحمت بهم كافة طوائف الشعب الفلسطينى وقد ازداد وعى أولئك البسطاء بمدى أهمية استرجاع حقوقهم الاقتصادية والانخراط فى العمل السياسى المنظم تحت مظلة القسام أيضا لمواجهة تلك الأحزاب الهزيلة التى تشكلت ولم يكن لها من هدف سوى استعطاف المندوب السامى البريطانى لمباركة تنظيماتها التى عبرت فقط عن رغبات فى تصفية الخلافات العائلية القديمة وجاء أول تعبير عن الاحتجاج الوطنى ضد الإمبريالية فى شكل إضراب للسائقين فى كافة المدن الفلسطينية الرئيسية والتى أصيبت بالشلل نتيجة توقف المواصلات وعلى الرغم من انعدام وجود رابطة أو هيئة يجتمع تحت لوائها تلك الطائفة المهنية إلا أن دقة التوقيت الذى أعلن فيه الإضراب يشير إلى وجود قيادات على وعى كبير بالعمل الثورى هى التى تخطط وتوجه هذه الانتفاضات[٤٧] وأشارت أصابع الاتهام إلى الشيخ القسام.

لم يكن فلاحو فلسطين أقل وعياً من بقية الطوائف الشعبية بحقوقهم السياسية ورأوا أن الموقف الوطنى يحتم عليهم – إزاء هذا الصراع الحزبى- الانضواء تحت راية واحدة تعمل من أجل صالحهم. وتقول جريدة «مرآة الشرق» «أن هناك حركة بين الفلاحين ترمى إلى استبدال

الأحزاب السياسية الحاضرة بهيئة وطنية مستقلة وقال إن هناك أكثر من ألف فلاح سيجتمعون قريباً فى «بيت جبرين» بالقرب من الخليل ... وأن هؤلاء الفلاحين يعتزمون تشكيل حزب جديد إذا رفض الزعماء تأييد خطتهم ... كما أن هناك بعض الفلاحين من نابلس وجنين وطولكرم قرروا تكوين حزب للفلاحين باسم «حزب الزراعة» للدفاع عن مصالحهم[٤٨].

وفى خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٣٥ شهدت المناطق الشمالية من فلسطين مزيدا من عمليات الكفاح المسلح فى صورة فردية وتركز معظم تلك العمليات فى منطقة المثلث العربى جنين- نابلس - طولكرم حيث تكررت حوادث اغتيالات الضباط الإنجليز ونسف القطارات[٤٩] وقد أشار التقرير السنوى لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ إلى أن الحكومة كان لديها شك كبير فى أن لعصابة الشيخ القسام علاقة بالأعمال الإرهابية التى حدثت خلال السنوات السابقة[٥٠]. وكان القسام يهدف من وراء تصعيد عملياته الفردية تهيئة الجماهير الشعبية وإعدادها لمساندة الثورة عند إعلانها هذا من جهة ومن جهة ثانية لإحراج القيادات الفلسطينية ودفعها للتخلص من سياستها السلبية فى مقاومة الاستعمار.

لقد ظل القسام مقتنعا بضرورة توجيه كل الصفوف وتوجيه كل الطاقات لمكافحة العدو وفى سبيل ذلك كان يجرى الكثير من المناظرات مع مؤيدى سياسة الملاينة والمهادنة وكان من أبرزهم الشيخ صالح الحورانى الذى لم يكن يؤمن بالثورة[٥١] أما بالنسبة للحاج أمين الحسينى فقد ظل القسام يقدر أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه فى مقاومة الاستعمار خاصة أنه أصبح بعد عام ١٩٣٣ ووفاة موسى كاظم وفشل راغب النشاشيبى فى انتخابات بلدية القدس وتشكيل الحزب العربى الفلسطينى هو الرجل الأول من الناحية الفعلية وأنه القادر على تحريك البلاد كلها ناحية الكفاح العملى ولذلك كان القسام يسعى دائما لدى الحاج أمين لإقناعه بأن يلقى بثقله إلى جانب الحركة الوطنية بشكل عملى وكان من بين هذه المساعى محاولاته لإقناعه بتخصيص قسماً من ميزانية «الأوقاف الإسلامية» الضخمة والتى كانت تزيد عن نصف مليون جنيه لإعداد الشعب للجهاد على اعتبار أن ذلك أفضل من إنفاقها على تشييد الأبنية (مثل فندق الأوقاف بالقدس) وتزيين المساجد حتى وإن وصل الأمر إلى المسجد الأقصى[٥٢].

أدرك القسام أن مهمته فى الإعداد والتهيئة قد نجحت إلى حد كبير وخاصة فى الأجزاء الشمالية من فلسطين وأن سكانها على استعداد للتضحية ونظراً لأنه كان يؤمن بالثورة

الشـاملة وأن الحاج أمـين الحـسـينى له من المكانة فى نفـوس الأهالى فى القطاعين الأوسط والجنوبى من فلسطين فـقد سـعى لديه للقيام بتهيأة النفوس فى تلك المناطق للثورة وأرسل القسام أحد إخوانه وهو «محمود سالم المخزومى» إلى الحاج أمين ليخبره بعزمه عن القيام بثورة فى فلسطين للقضاء على فكرة إنشاء وطن قومى لليهود غير أن الحاج أمين أجاب بإن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل وأن الجـهـود السـيـاسـيـة التى تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقهم(٥٣).

لاشك أن موقف الحاج أمين الحسينى المهادن للإنجليز الرافض لدعوة الشيخ القسام كان له ما يبرره وهو خوفه من إقالته من منصبى الإفتاء ورئاسة المجلس الإسلامى الأعلى إذا ما أبدى اعتراضاً على السياسة البريطانية ، وهذان المنصبان من أهم ركائز نفوذ الحاج أمين والمحافظة عليهما يتطلب عدم مواجهة الإنجليز والاكتفاء بالمساومة عن طريق الاحتجاجات والاتصالات ولم يكن القسام وحده هو الذى طلب من الحاج أمين الحسينى هذا المطلب ولكن طالبه أيضا بعض الشباب الفلسطينى الذين كونوا تنظيماً سرياً موازى للتنظيم القسامى ورفض الحسينى أيضا مطلبهم بنفس الحجة(٥٤).

ومهما يكن من الأمر فإن الموقف السلبى للحاج أمين لم يثن القسام عن مواصلة نشاطه فى المناطق الشمالية وكان يبعث ببعض رفاقه من قادة الخلايا الثورية إلى مسقط رأسهم ليعبئوا السكان معنوياً ويقوموا بتوجيه وتدريب أعضاء التنظيم فى تلك المناطق، وظل هذا التوسع القسامى شمالاً حتى مدينة صفد وتقول نشرة فلسطين الثورية أن أحد أفراد التنظيم ويدعى «عبد الله الأصبح» وهو من قرية «الجاعونة» شرق صفد قد تولى قيادة الفدائيين فى هذا الجـزء(٥٥) كما توسع القسام فى تدبير الأسلحة لدرجة أصبحت تكفى ألف مقاتل هذا بالإضافة إلى الأسلحة التى اشتراها أفراد آخرين من خارج التنظيم وتبرعوا بها للفدائيين وتذكر بعض المصادر أنه توفر لزعيم الحركة ما يقرب من ٨٠٠ عضو للاشتراك فى الثورة إلى جانب ٢٠٠ آخرين من العناصر القيادية فى الخلايا العنقودية (٥٦).

ازدادت الانقسامات العائلية تفاقما منذ عام ١٩٣٥ ومما زاد الأمر سوءاً حملات الاتهام المتبادلة بين أفراد هذه الأسر ومن جهة ثانية واصل الصهاينة عمليات إجلاء الفلاحين عن أراضيهم بالقوة وازداد أعداد العرب المعدمين ويقول Jeffries إنه كان فى مدينة حيفا وحدها نحو ١١,٠٠٠ من العرب الذين يعيشون فى ٢٥٠٠ من أكواخ التنك أى بمعدل أكثر من أربعة

أفراد فى الكوخ الواحد وكذلك كان الحال فى يافا وبقية المدن، وازدادت المخاوف العربية بعد انعقاد المؤتمر الصهيونى التاسع عشر فى مدينة لوسيرن Lucerne فى شهر آب ١٩٣٥ وأعلن أن فلسطين هى البلد الوحيد المقترح للهجرة اليهودية على أوسع نطاق وأن المنظمة الصهيونية سوف تركز جميع طاقات الشعب اليهودى لإعادة توسيع توطينه والإسراع فيه[٥٧].

ولكى توضع توصيات المؤتمر اليهودى موضع التنفيذ فقد وصل إلى فلسطين خلال هذا العام وبموجب الأذونات الحكومية ٦١,٨٥٤ صهيونيًا عدا آلاف المهربين وبذلك أصبح مجموعهم ٣٥٥,١٥٧ أى ما يعادل ٢٧,١٪ من مجموع السكان[٥٨] كما ازدادت عمليات بيع الأراضى هذا إلى جانب تعاظم الخطر الاقتصادى حيث تزايدت المؤسسات الاقتصادية الصهيونية التى كان عددها فى عام ١٩٣٣ حوالى ٣٣٨٨ مؤسسة يعمل بها ١٠,٥٩٥ مستخدما وقفز هذا العدد إلى ٣٥,٨٣٠ مستخدما يعملون فى ٤٦١٥ مؤسسة[٥٩].

من جهتها لم تكتف السلطة البريطانية بالتأييد المادى والمعنوى للعصابات الصهيونية بل راحت تسعى جاهدة لإمدادهم بالأسلحة سراً وكانت الطامة الكبرى بالنسبة للعرب حينما اكتشف هذا المخطط فى ١٦ / ١٠ / ١٩٣٥م ليزيد من مشاعر السخط[٦٠] إذ كان من بين هذه الأسلحة ٨٠٠ بندقية و ٤٠٠,٠٠٠ خرطوشة [٦١]. وكان القسام ينتظر أن تحرك هذه الأحداث القيادات الفلسطينية فتبادر إلى اتخاذ مواقف وطنية عملية غير أنها اكتفت بشن الحملات الصحفية فى الداخل واستجداء العون من بعض الدول الشقيقة كمصر التى كانت تئن تحت وطأة الاستعمار البريطانى[٦٢] فلم تملك إلا تقديم الاحتجاجات لدى المندوب السامى البريطانى .

لم تسفر جهود القيادات الفلسطينية للرد على حادث تهريب الأسلحة لليهود إلا على موافقة الجانب البريطانى على تنظيم إضراب عام وذلك يوم ٢٦ / ١٠ / ١٩٣٥م[٦٣] مما أدى إلى إصابة القسام بخيبة أمل جديدة لاسيما بعد أن لمس ترددهم فى إقراره ، وكان من نتيجة هذا الوضع المتردى وازدياد قناعته بضرورة الإسراع فى التصدى لتلك الأخطار قبل وقوع المزيد أو فوات الأوان خاصة وأن القساميين أصبحوا فى بؤرة المراقبة من قبل السلطات البريطانية، ولاشك أن اكتشاف حادث تهريب الأسلحة لليهود دفع بالقسام إلى البدء فى عمليات الاستنفار بين صفوف التنظيم فأعاد توزيع الأدوار بحيث أبقى قسمًا منهم فى حيفا وأرسل قسما آخر إلى القرى الشمالية ليقوموا بإنذار الناس وتنبيههم لدعم الثورة عند نشوبها ، وفى الذكرى

السنوية لوعد بلفور فى ٢ / ١١ / ١٩٣٥ م كان يتوقع القسام على الأقل حدوث إضراب مماثل للإضراب السابق ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بعد أن رفض رؤساء الأحزاب الفلسطينية هذا الإجراء.

واصلت جماعة القسام أعمالها الفدائية وبالذات فى المناطق الشمالية من فلسطين فتمكنوا فى ٧ / ١١ / ١٩٣٥ من قتل أحد أفراد البوليس البريطاني برتبة (جاويش) وتعمدت السلطة الإعلان فيما بعد إلى أن مقتله جاء على يد أحد اللصوص أثر تعقبه لمجموعة منهم من أجل السرقة فى هضاب الناصرة(٦٤) حيث دأبت السلطة على وصف الأعمال الفدائية بأنها أعمال قرصنة ونهب، وقد اضطر هذا الحادث الأجهزة المعنية فى البوليس إلى تكثيف أعمال المراقبة والتجسس ووظفت بعض الخونة كعيون لها راحت تسهم فى صفوف القساميين من أمثال «حليم بسطة» و«أحمد نايف» ، وقد أحس القسام بمدى خطورة اكتشاف التنظيم وإلقاء القبض على أعضائه فأسرع فى خطته لإعلان البدء فى تفجير الثورة المسلحة وأعلن حالة الطوارئ فى صفوف إخوانه وطلب منهم توديع أهاليهم وعقد خلال يومى ١٠ ، ١١ من نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٣٥ عدة اجتماعات فى أماكن مختلفة كان أحدها فى بستان «يوسف الزيباوى» وآخر فى منزل «محمود سالم المخزومى» حيث تقرر الخروج إلى القدس الشمالية لبدء العمليات الجماعية(٦٥) كما ترك القسام رسالة لصديقه الأوفى وخليفته فى حيفا «رشيد الحاج إبراهيم» يقول له فيها «إنى واثق من نفسى وأن صوتى سيجد صداه فى كل مكان عند أول صيحة ، ونستودعك الله راجين من المولى أن يوفقنا فى أعمالنا فى سبيل الوطن»(٦٦).

الجهر بالحركة الفدائية القسامية :

كان أتباع القسام قد باع كل منهم حلى زوجته وبناته بالإضافة إلى بعض الأثاث واشتروا بأثمانها رصاصاً لبنادقهم وقصدوا الجبال القريبة من حرس الأسطول البريطانى ومن معسكرات الإنجليز وهذا دليل على أن هؤلاء القوم كانوا يدركون مصيرهم وأن بغيتهم هى الشهادة فى سبيل الله(٦٧) ويؤثر عن رجال القسام أن كل واحد منهم كان يحمل فى جيبه نسخة من القرآن الكريم الذى اتخذوه قدوة لهم(٦٨) وكان إيمانهم بأن السعادة تكمن فى بلوغهم مرتبة الشهادة والانتقال إلى الحياة الأخرى للاستمتاع بما أعده الله للمجاهدين والشهداء من نعيم(٦٩).

خرجت المجموعة الفدائية الأولى للتنظيم القسامى فى يوم ١٢ / ١١ / ١٩٣٥ م وكانت تقدر بحوالى ٢٥ شخصاً يرأسهم القسام نفسه فتوجهوا إلى منطقة جنين التى تم اختيارها

منطلقًا لأعمالهم الثورية وذلك لطبيعتها الجبلية ذات المسالك الوعرة ولاكتساءها بالأحراش الكثيفة ثم إلى جانب ذلك كله مدى ما يتمتع به القسام من تأييد شعبي في قرى هذه المنطقة.

وكان القسام قد عين لكل منهم مهمة خاصة في منطقة معينة وبعد وصولهم انتشر قسم منهم في يعبد، اليامون، برقين ، كفردان ، فقوعة ، وصندلة وذلك لإبلاغ الأهالي بالمشاركة في العمليات الفدائية في الوقت المحدد الذي سيعلن عنه . أما القسام فقد تمركز مع مجموعة من أصحابه في إحدى المغارات القريبة من قرية فقوعة وهم، يوسف عبدالله ، مصطفى الزيباوى، حنفى عطيه أحمد ، حمد بوقاسم خلف ، نمر السعدى، داود الخطاب ، محمود الزرعينى ، أسعد المفلح ، أحمد جابر، محمد يوسف ، محمد الحلحولى ، ومعروف جابرى وكان مع كل واحد من المجاهدين بندقية ومبلغ ضئيل من المال لشراء ما يقيم أوده ، وقد روى سكان قرية «يعبد» حيث كان القسام يرابط مع جماعة بالقرب منها «أنهم لم يسألوهم أو يطلبوا منهم شيئا في يوم من الأيام وأنهم كانوا بالنهار يأوون إلى كهوفهم يصلون ويقرءون القرآن وفي الليل يخرجون إلى القتال »[٧٠] ولم ينس القسام حتى وهو في ميدان القتال أن يبصر الأهالي بأخطار العصابات الصهيونية فتقول جريدة فلسطين إنه ألقى على أهالي قرية فقوعة خطبة تحدث فيها عن تهريب اليهود للسلاح[٧١].

وفي يوم ١٤ / ١١ وبينما كان «محمود سالم» و«يوسف الزيباوى» يقومان بالمراقبة والحراسة وإذا بدورية بوليس يهودية قادمة من مستوطنة «عين حارود» بهدف البحث عن آثار مجهولين شنوا هجوما في الليلة السابقة على المستوطنة ولما أصبحت الدورية قريبة من مكان المجاهدين سارع «محمد سالم » بإطلاق النار على الدورية فأصاب منها أحد أفرادها وهو برتبة جاويش وفر الباقون وتمكنوا من الوصول إلى أقرب مركز للبوليس بالمنطقة وقد أرسل المركز مجموعة من الجنود اليهود لتمشيط الموقع بهدف الوصول إلى قاتل الجاويش ولكنهم اصطدموا مع مجموعة من المجاهدين القساميين عند قرية «البارد» وأسفر هذا الاصطدام عن استشهاد «محمد الحلحولى» ومقتل اثنين من البوليس[٧٢].

أدى هذا الحادث إلى تطور خطير في الحركة القسامية إذ اضطرت السلطة البريطانية إلى الإسراع في اتخاذ المزيد من التدابير العسكرية وبدأت بمراقبة المنطقة مراقبة دقيقة بغرض تحديد البؤرة التي يتمركز بها المجاهدون وكانت مجموعة من المباحث بقيادة أحمد نايف قد نجحت في تعقب القسام ومجموعته التي كان قد اضطر في أعقاب الأحداث الأخيرة إلى

الانتقال من قرية «فقوعة» إلى قرية الشيخ «زيد» عبر المنعطفات الجبلية وقد وصلها فى يوم ١٩ / ١١ / ١٩٣٥م ولم تتوان السلطة البريطانية فى تجريد قوة كبيرة تقدر ما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ جندى وأحكمت حصاراً شديداً حول قرى المنطقة بهدف الحيلولة دون وصول أية نجدات للمجاهدين[٧٣] .

وبدت المنطقة وكأنها ساحة حرب[٧٤] وفى صباح اليوم التالى ٢٠ / ١١ / ١٩٣٥م وبمساعدة الطائرات الاستكشافية في القوات البريطانية بدأت معركة حامية استمرت إلى ما بعد الظهر وتصف جريدة كوكب الشرق تلك الحرب الخاطفة بين القسام وأعوانه من جهة والقوات البريطانية من جهة ثانية فتقول «زحفت قوات هائلة من البوليس العربي والبوليس الإنجليزى إلى قرية يعبد ثم أخذت تصعد إلى أطراف الجبال وقممها وتحيط بالمكان من كل الجهات وكان الضباط والجنود يلتفتون هنا وهناك خوفا من أن يفاجئوا بالرصاص.. وبعد أن أتموا الاحتياطات رتب القائد الإنجليزى خطة الهجوم فى ثلاثة صفوف طويلة من أفراد البوليس العرب فى الأمام وجعل الجنود الإنجليز وراءهم ... وفوجئ الثوار بإطلاق الرصاص عليهم بشدة من أعالى القمم وهم فى الوادى، وقد بلغ ما أطلقه الجنود من رصاص فى الدقيقة الواحدة ما يقرب من ستمائة رصاصة[٧٥].

كان القسام شديد الحرص على عدم إراقة الدماء العربية بيد عربية مهما تكن الظروف والملابسات فلما رأى أن الجند العرب الملحقين بالقوات البريطانية هى التى تحارب جماعات القسام برز من بين الأحراش غير مبال بالخطر المحدق به مناديا أبناء جلدته بالتقهقر خلف صفوف الإنجليز وارتفع صوت القسام مرددا «يا أبناء العرب اتقوا الله فى وطنكم وأنفسكم لانريد أن نطلق الرصاص عليكم .. يا أبناء العرب إنكم تصوبون الرصاص إلى صدوركم وإلى بلادكم وتبيعون شرفكم بثمن بخس»[٧٦] ويبدو أن هؤلاء الجنود العرب إما استجابوا لتلك العاطفة العربية أو خشوا أن يقعوا صرعى فى المعركة الدائرة فبدءوا يتقهقرون مما اضطر القائد البريطانى أن يأمر أتباعه بالتقدم، واشتد إطلاق الرصاص بين الطرفين وسقط من المعسكر البريطانى جندى قتيلاً وأصيب ستة آخرون بجراح ، وظل القسام يحمس إخوانه بالتكبير والنداء بعدم الاستسلام حتى وهو فى ظل الرصاص المنهمر وتهديد العدو له بالاستسلام وقد أجاب على ذلك بأننا لن نستسلم وأن هذا الجهاد فى سبيل الله والوطن والتفت إلى زملائه قائلا «موتوا شهداء»[٧٧] وبعد قتال شرس استمر عدة ساعات انتهت

المعركة باستشهاد عز الدين القسام مع أربعة من رفاقه وهم : يوسف عبدالله ، مصطفى الزيباوى، حنفى عطية أحمد وحمد بو قاسم خلف، كما جرح نمر السعدى وأسعد كلش وحسن الباير (٧٨).

يروى التقرير السنوى لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ أنه فى القتال الذى دار بين القوات البريطانية وعصابة الشيخ القسام قتل أربعة وتم أسر خمسة آخرون ثم قبض على أحد أفراد العصابة بعد ذلك ، وأن العصابة كانت مسلحة تسليحًا جيداً بالسلاح والذخيرة(٧٩) وقد أثارت هذه المعركة عواطف عرب فلسطين وألهبت مشاعرهم فقابلوها بمظاهر جياشة من التهليل والتكبير ، وخشيت السلطة من أن يتحول تظاهر الجماهير إلى اضطراب يخل بالأمن فسلمت جثث الشهداء لذويهم وأغمضت عينها عن الاحتفال بدفنهم(٨٠) ومما يذكر أن جنود السلطة البريطانية وهم يفتشون ملابس الشهيد القسام وجدوا حجاباً فى عمامته كتب به هذا النص «أعوذ بالله من كيد الشيطان الرجيم فى كل ما أنا عازم عليه ، أعوذ بعزة الله وقدرته على قدرة الكافر وآلاته النارية وما يقدرون ، أعوذ بالله وقدرته من كل قدرة تعادينى، سبحانك رب العزة عما تصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»(٨١).

تحولت جنازة القسام إلى عرس وطنى قصده آلاف المواطنين وراحت الصحافة الوطنية تدلى بدلوها فى رثاء فقيد العروبة والثورة وأغلقت مدينة حيفا فى ذلك اليوم حدادا على الشهداء وبعد انتهائها من صلاة الغائب على أرواحهم الطاهرة فى المسجد الكبير انقلبت الجنازة إلى مظاهرة وطنية هاجمت فيها الجموع دائرة الشرطة فحطمتها كما حطمت نوافذ المحطة وأصيب عدد من رجال الشرطة الإنجليز ولولا أن جنود البوليس البريطانيين التزموا الصمت لتطور الأمر إلى درجة كبيرة(٨٢) وأبت الجماهير إلا أن تشيع جثمان الشهيد القسام إلى مثواه الأخير فى قرية «الياجور» التى تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلو مترات سائرة على الأقدام تحمل نعش الشهيد (٨٣)، وفى الخامس من يناير سنة ١٩٣٦ احتفلت «حيفا» بتأبينه وتابين رفاقه بمناسبة مرور اربعين يوما على استشهادهم احتفالاً وطنيًا رائعًا، وساهم شعراء العروبة فى تلك المناسبة وقد وقف صادق عرنوس متحدثا وشاعر فقال:

من شاء فليأخذ عن القسام ... أنموذج الجندى فى الإسلام
وليتخذه إذا أراد تخلصًا ... من ذلة الموروث خير إمام
ترك الكلام ورصفه لهواته ... وبضاعة الضعفاء محض كلام

أو ما ترى زعماءنا قد اتخموا ال … آذان قــولا أيمــا اتخــام

كنا نظن حـقـيـقـة مـا جـبـروا … فــإذا به وهمــا من الأوهـام[٨٤]

وتحولت فروع جمعية الشبان المسلمين إلى مكان لتقبل العزاء فى شهداء الوطنية وتوالت برقيات العزاء والتنديد بالاستعمار من كافة الدول العربية مع التمنيات للشعب الفلسطينى برأب الصداع والتكتل والصمود[٨٤].

وكان من المدهش حقا أن بعض المؤسسات الدينية ووجهاء القوم من القيادات التقليدية الفلسطينية الذين ناصبوا القسام العداء فى حياته وكانوا يدسون له لدى السلطة البريطانية راحوا يتباكون عليه بعد مماته وتسابقوا من أجل تقديم العون لأسر الشهداء وهم ينعتون الشهيد بالمناضل الثورى بعد أن كان زعيما لعصابة لا هم لها سوى النهب والسلب والقتل ووصل النفاق ببعض أولئك الزعماء إلى أن نذروا أنفسهم للحركة القسامية فقد قدم المجلس الإسلامى الذى يتزعمه الحاج أمين الحسينى لأسرة القسام عشرة جنيهات كتعويض عن فقدها لعائلها كما قدم أيضا خمسة جنيهات لعائلة كل من الشهداء الآخرين، أما (محمد عزة دروزه) مدير عام أوقاف فلسطين فقد اقترح أن تتبنى إدارة الأوقاف تعليم أبناء الشهداء بمدينة (دار الأيتام) بالمجان[٨٥] ونشط الحزب العربى الفلسطينى تحت رئاسة جمال الحسينى فى جمع التبرعات وإرسال المكاتبات إلى مكاتب الحزب فى داخل فلسطين وخارجها يحثها على إرسال تبرعات بأسرع ما يمكن للجنة العليا المختصة بشهداء التنظيم القسامى[٨٦].

صمم رجال القسام على الثأر لشهدائهم ومواجهة الخونة الذين وشوا بهم عند السلطة وتحقق لهم ذلك قبل إلقاء القبض عليهم فقد تم اغتيال (أحمد نايف)[٨٧] أما الذين ساعدوا فى القبض على المجاهدين أو شهدوا زوراً أثناء محاكمتهم فقد اغتالهم المجاهدون فى أوائل عام ١٩٣٧[٨٨] وكان القساميون قد لجأوا فى تلك الفترة إلى سياسة الاغتيال الفردى لإرهاب الجواسيس وسماسرة الأراضى فتخلصوا من الكثيرين فى مقدمتهم الضابط (حليم بسطة) مدير القلم السياسى فى شرطة حيفا ، وكانوا قد هاجموه فى بادئ الأمر فلم يصبه هذا الهجوم إلا بجروح ثم أعادوا الكرة وأطلقوا عليه سبع عشرة رصاصة استقرت فى جسده ولم يبرحوا المكان حتى تأكدوا إنه أصبح جثة هامدة وانصرفوا دون أن يتعرض لهم أحد أو التعرف على هويتهم[٨٩] ومن جانبها لجأت إدارة الأمن العام إلى التقليل من شأن الحركة القسامية بين صفوف رجالها واعتقدت أنه بالقضاء على القسام وشطر من رفاقه والقبض على

بعض الفلول الهاربة تكون هذه الحركة قد انتهت دون مخاوف من أية روح وطنية حتى بين أولئك الذين يمكن أن يطلق عليهم الصف الثانى من القساميين وراحت السلطة تغدق على رجالها الذين اشتركوا فى ملاحقة المجاهدين فى جبال (جنين) وقد رصدت من أجل هذا الغرض مبلغ خمسمائة جنيه (لينال منهم كل واحد بحسب نشاطه فى مقاومة تلك العصابة والقضاء عليها[٩٠]).

الحركة القسامية بعد استشهاد القسام:

بعد استشهاد عز الدين القسام قامت السلطة البريطانية بتمشيط مواقع الحادث فتم القبض على بعض الجرحى واعتبرتهم من الأسرى وعوملوا معاملة سيئة للغاية فعلى سبيل المثال الشيخ «نمر السعدى» والذى كانت حالته خطيرة. وامتنع الجنود البريطانيون عن تقديم الماء والطعام إليه بل حالوا بينه وبين اتصال أى من ذويه أو الجمهور به ولما كان الشيخ «نمر» يعتبر خليفة للشيخ القسام فقد راحت الجماهير تتبع أخباره باهتمام شديد وبالذات ما كان يتحلى به من بسالة نادرة إذ على الرغم من إصابته البالغة الخطورة ونزيفه المستمر فقد ظل يقاوم حتى آخر طلقة من ذخيرته[٩١] أما الشيخ «فرحان السعدى» وهو أحد مريدى القسام فقد خرج مع جماعة من الأنصار إلى جبال صفد متسللا من مخبئه داخل الأحراش الكثيفة ورابط هناك حتى إذا ما توصلت إليه القوات البريطانية بادر بمنازلتهم نزالا عاتيا وألقى القبض عليه وعلى مجموعة من الذين سلكوا طريق الجهاد على يديه فى الآونة الأخيرة.

وفى ظل الصراع غير المتكافئ بين قوات مدججة بأحدث الأسلحة وجماعات فدائية تسليحها البنادق فقط بينما قلوبهم محشوة بالإيمان كانت الجماهير تترقب ريثما تنجلى المعركة عن مكاسب سياسية ولم يعد للمواطن العادى من اهتماما سوى ما سيتمخض عنه هذا الصراع بعد شهور من استشهاد الزعيم ففى بيان من اللجنة العربية العليا تقول فيه «أن السلطة عندما قبضت على الشيخ فرحان السعدى فى قرية المزار قبضت عليه وعلى عدد من أهالى القرية ومع أن الحكومة أعلنت فى بلاغها بأنها ستقدم الشهيد وجماعته إلى المحكمة العسكرية فإنها قدمت الشهيد وحده وأخذت الجماعة إلى سجن القدس حيث لايزالون فيه دون محاكمة والسلطة تعذبهم كثيرا بقصد أخذ شئ منهم بشتى الطرق الإرهابية والتعذيب .. والسياسة أحيانا .. ويظهر أن بعض الجماعة صرح ببعض أسماء يقال أن الشهيد كان يعرفهم فقبض على نحو ثلاثين عربيا بموجب أنظمة الطوارئ وحكموا عليهم بالسجن ما بين

٣ إلى ٦ أشهر بتهمة معرفة الشيخ (فرحان السعدى)[٩٢] وكان من الطبيعى أن من يهب روحه فى سبيل الله والوطن أن يتسلح بجرأة منقطعة النظير فقد أعلن هؤلاء الفدائيون أمام المحكمة التى تشكلت لمحاكمتهم برئاسة أحد القضاة البريطانيين أنهم خرجوا لقتال الإنجليز قبل اليهود الذين دنسوا أرضهم الطاهرة[٩٣].

وفى الخامس عشر من أبريل سنة ١٩٣٦ قام جماعة من إخوان القسام وعلى رأسهم (السيد محمود ديراوى) بالهجوم المسلح على سيارات اليهود بطريق نابلس طولكرم وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا آخرين واختفوا عن الأنظار ليعيدو الكرة من جديد ، وأخذ كل فرد يفكر فى الثورة المسلحة وبدأ إخوان القسام من العلماء يحرضون الشعب على القتال وكان للعالم الشيخ (كامل القصاب) وزملاءه دورا بارزا فى هذا الصدد [٩٤].

راحت السلطة البريطانية – كما رأينا سابقا– تلقى القبض جزافا على المواطنين سواء من كان ينتمى إلى التنظيم القسامى من عدمه دون تفرقة ووجهت إليهم التهم الكاذبة بعد إلقائهم فى السجون وتعذيبهم بشتى الوسائل وذلك لإجبارهم على انتزاع اعترافات تشفى غليلهم ، وإزاء هذا التعذيب الوحشى كان بعض البسطاء يضطر إلى الادعاء بمعرفة بعض أعضاء التنظيم كى ينجو مما هو فيه ويذكر (أحمد الشقيرى) أنه كان من بين المحامين الذين حاولوا الدفاع عن هؤلاء البسطاء الذى يصفهم بأنهم من الكادحين المنفيين إلى حيفا ومنهم الحمال والبقال المتجول والعامل [٩٥].

ومهما يكن من الأمر فإن التنظيم القسامى كحركة ثورية منظمة لم ينته بمجرد قضاء السلطات البريطانية السريع على قائد التنظيم وبعض إخوانه واعتقال عدد آخر منهم فى أعقاب معركة غير متكافئة ذلك أن عددا من إخوان القسام الذين لم يشاركوا فى المعركة الأخيرة من أمثال (معروف حجازى وتوفيق الزبيرى وناجى أبوزيد) قد تمكنوا من الإفلات من الحصار المضروب عليهم وقاموا مع بقية أعضاء التنظيم الذين لم يكتشف أمرهم بإتمام المهمة الوطنية الثورية التى رسمها لهم القسام[٩٦] ولاشك أن استمرار أتباع القسام فى تلك المهمة الانتحارية كان من أبرز العلامات لهذه المنظمة الثورية التى يصفها «إميل الغورى» بأنها أخطر منظمة سرية وأعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية[٩٧] ذلك أن الحركة القسامية منذ بداية التفكير فى إنشائها اعتمدت على التخطيط المنظم البعيد عن الارتجال كما أن من أهم خصائص هذه الحركة هى اهتمامها بالطبقات الكادحة فى الوقت

الذى ظلت فيه هذه الطبقات موضع الإهمال المتعمد بل وقع عليها الظلم والاستغلال من قبل القيادات الوجيهة التى كانت تنظر إلى جماهير الشعب على أنها مناطق نفوذ تتقاسمها هذه الوجاهات فيما بينها حتى أن حزب الاستقلال الذى اعتبر أكثر الأحزاب تنظيما ظل عاجزا عن الوصول إلى التشكيلات الحزبية الفعلية وذلك لعدم اتصاله بالجماهير محافظة من زعمائه على نقائهم الطبقى واكتفت هذه الوجاهات بالصراخ والعويل واستجداء ضغط السلطة البريطانية على العصابات الصهيونية كى تتوقف عن اعتداءاتها المستمرة وليس أدل على ذلك من وقوفها مكتوفة الأيدى أمام الاستيلاء على شرق الأردن وفتح أبوابها للهجرة وشراء الأراضـى(٩٨) مثلما حدث فى الحركة القسامية وتراجع هذا المخطط الاستعمارى الجديد كما لم يحرك هؤلاء ساكنا بعد انطفاء جذوة الشعلة القسامية وتعاظم الخطر الصهيونى وهم الذين ذرفوا عليه الدموع الساخنة أمام جماهيرهم ولم يكلفوا أنفسهم مشقة الرد على الحاخام اليهودى «عميئيل» الذى قال على الملأ إن فلسطين لاتتسع لشعبين وأن اليهود لايقبلون أن يشاركهم أحد فى ملكيتها ولذلك على العرب أن يرحلوا منها(٩٩) بل الأدهى من ذلك كله أن هؤلاء الزعماء غضوا الطرف عما لحق بأعراضهم فى سبيل مصالحهم الشخصية ، وما حدث فى قرية صفورية من أعمال الناصرة لهو خير دليل على ذلك حيث اعتدى خمسة عشر جنديا بريطانيا على عفاف فتاة عربية صغيرة لايتجاوز عمرها عشر سنوات وفضوا بكارتها بالإكراه ثم تعاقبوا عليها حتى مزقوا جسدها وانتهت بهم وحشيتهم إلى موت الفتاة وللأسف جاءت صيحات الاستنكار لهذا الحادث الإجرامى من شعب مصر الشقيق(١٠٠) الذى ظل يواسى إخوانه الفلسطينيين على طول الخط.

كان من بين الاثار الهامة التى ترتبت على ثورة الشيخ القسام المسلحة إنها وضعت بذور الإيمان الوطنى الصحيح الذى كان مبعثه القلب والعقيدة لا البرامج الحزبية والمشادات العقائدية فاستيقظت فلسطين على استشهاده ، وعلى الرغم من أن المعركة لم تستمر وقتا طويلا لكن لاشك أن أثرها الروحى كان أكبر من أثرها الكمى وضرب القسام للجماهير القدوة الحسنة والأسوة الصالحة إذ خرج بنفسه فى أول معركة ليحيى فى النفوس روح الثورية ، كان ما فعله القسام أبلغ رد على سياسة زعماء فلسطين إذ ثقف ونظم وقاتل حتى مات شهيدا غير متطلع لجاه أو زعامة ، كما أن المنهج والطريق الذى رسمه القسام ظل شبحا يخيف تلك الزعامات لأنه لايكشفها فقط بل يهددها بفقدان هذه الزعامة ومن هنا حرص وجهاء القوم على

أن يديروا ظهورهم للجو المتوتر الذى تولد عن بدء المقاومة فضلا عن أنهم لم يشاركوا فى جنازة الشهيد على الرغم من أن «أكرم زعيتر» وهو من أبرز وجهاء حزب الاستقلال دعا زملاءه إلى الاشتراك فى تشيع الجنازة إلا أنهم صموا آذانهم عن تلك الدعوة حتى برقيات التعزية التى أرسلوها جاءت باردة باهتة ، مع أنهم تباكوا على القسام بعد وفاته ونعتوه بالألقاب الثورية الرنانة إلا أنهم سرعان ما اجتمعوا بالمندوب السامى البريطانى قبل مضى أسبوع واحد على استشهاد الزعيم وقدموا له مذكرة جددوا فيها مطالب البلاد فى صورة استجداء[١٠١].

وعلى كل حال فإن استشهاد القسام أدى بكل من القيادات التقليدية والجماهير الكادحة إلى السير فى طريقين متوازيين أخذ كل واحد منهما يعمل على ضم الآخر إليه فالقيادات التقليدية وقد رفضت الحركة الثورية القسامية وامتنعت عن الاشتراك فى تشييع الجنازة ثم لقائها بالمندوب السامى بعد موته بقليل أرادت أن تنبه السلطات إلى التدهور السريع الذى يمكن أن يطرأ على البلاد إذا لم ترد بريطانيا على المطالب التى قدمت إليها أما جماهير الفلسطينيين فقد ظلت متمسكة بالمنهج القسامى وصار الناس ينظرون إلى القسام وإخوانه نظرة تقدير واحترام وبالذات فى الأوساط القروية التى ساد فيها الحقد على السياسة البريطانية وأخذت تبد استعدادها للتجاوب مع أى نداء للثورة[١٠٢] كما أن العمال فى المدن بلغت حالتهم حدا لايمكن السكوت عليه إذ حاولوا القيام بمظاهرات فى يافا بعد استشهاد القسام غير أن السلطات رفضت منحهم إذن للقيام بالتظاهر مما اضطر «جمعية العمال العرب» أن ترد على ذلك ببيان أصدرته فى ٦ / ١٢ / ١٩٣٦م قالت فيه (إنه إذا لم تقم الحكومة بحل المشكلة فإن الأيام المقبلة ستضطرنا إلى إطعام العمال خبزا أو رصاصا)[١٠٣] ومن ناحية أخرى فقد كانت جماهير الشعب الفلسطينى تراقب ما يجرى فى مصر حيث بدأت الانتفاضات الجماهيرية منذ ديسمبر سنة ١٩٣٢ على شكل مظاهرات اجتاحت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى أدت إلى مصادمات مع قوات الأمن وسقوط قتلى وجرحى وإضراب عام فى القاهرة أجبر الأحزاب على تأليف جبهة وطنية فى ١٠ / ١٢ / ١٩٣٥ طالبت بإعادة دستور ١٩٢٣ والاعتراف عَمَليًا باستقلال مصر [١٠٤].

فى الوقت الذى سارع فيه القساميون إلى إعادة تنظيم أنفسهم من جديد إذا بالعناصر المثقفة فى المدن تبدى رفضها لما تقوم به القيادات التى ما تزال تلهث وراء السلطات

البريطانية من أجل الحصول على تنازلات بسيطة لاتحقق للحركة الوطنية أهدافها الأساسية ومن ثم ظهرت تشكيلات جديدة فى المدن الكبيرة بقيادة عناصر شبابية سارت على درب التنظيم القسامى من حيث إيمانها بضرورة التخلص من العناصر البريطانية والصهيونية وكان من أبرزهم «أكرم زعتير» على رأس كتلة نابلس وحمدى الحسينى ومشيل مترى من زعماء جمعية «العمال العرب» فى يافا ، وفى قلقيلية تشكلت لجنة من الشباب الثورى وفى طولكرم تولى سليم عبد الرحمن وقادة الكشافة العرب زعامة كتلة جديدة أخرى ، وفى حيفا تولى «عاطف نور الله» حركة مماثلة ، وكان يساند هذه الكتلة عزة دروزة وعجاج نويهض من زعماء حزب الاستقلال ، وقد اتهمت هذه الكتل بارتكابها أعمال التحريض السياسى ضد كل من السلطات البريطانية والصهيونية بل حملت سلطات الانتداب زعماء تلك الأحزاب مسئولية الامتناع عن دفع الضرائب وإثارة الاضطرابات (١٠٥).

انتهز الشباب الوطنى الذى تأثر بالمنهج القسامى فرصة الذكرى السنوية لاحتلال القوات البريطانية لمدينة القدس والتى تصادف يوم ٩ / ١٢ / ١٩٣٥ ، فعقدوا اجتماعا وطنيا فى يافا تحدث فيه «محمد عزة دروزة» وميشل مترى وجورج مطر وحمدى الحسينى وعيسى السفرى اكرام زعتير وعجاج نويهض وأصدروا فى أعقاب المؤتمر بيانا حملوا فيه السلطات البريطانية مسئولية ما حدث بفلسطين من نكبات وأعلنوا فيه تأييدها لأى حركة ترمى إلى مكافحة الاستعمار فى الأقطار العربية والاستعانة بجيران فلسطين العرب من أجل تأليف جبهة واحدة ضد الاستعمار البريطانى (١٠٦).

لاشك أن استشهاد القسام كان بداية لمرحلة جديدة من الكفاح الوطنى السياسى ضد الإمبريالية وهو وإن لم يتخذ الصفة الثورية الفدائية إلا أنها تعتبر خطوة من أجل حصول الفلسطينيين على بعض حقوقهم السياسية والتشريعية ولم تكن انتفاضه ١٩٣٦ إلا باكورة تلك الأعمال التى خرجت من تحت عباءة الشيخ القسام الذى أزعج السلطة المنتدبة حتى بعد وفاته إذا استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها وحظر عليهم كتابة أى شئ عن القسام وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم ولكن السلطة رأت أن روح القسام انتشرت سريعا فى الشعب كله خلال الإضراب الكبير الذى حدث بعد استشهاده بعدة أشهر والذى دام ستة أشهر كاملة ، ويبدو أن السلطات البريطانية فى فلسطين قد أحست بخطورة الوضع ولهذا حاولت إقناع الزعماء بإمكانية دراسة مطالبهم وذلك لمساعدتهم فى الاحتفاظ بما يملكون

من نفوذ وخوفا من أن يؤدى ذلك إلى عدم إمكانية تهدئة الحالة الحاضرة بالوسائل المعتدلة التى اقترحها المندوب السامي البريطاني والتى كانت فى معظمها مبادئ عامة حول إعادة فكرة تشكيل المجلس التشريعى (١٠٧).

والذى يستوقف المرء فى دعوة الشيخ القسام أنها اقتصرت على طبقتى العمال والفلاحين فلم تتجاوزهم إلى الأفندية والضباط وحرص على أن تكون حركة دينية خالصة من الشوائب ويرى البعض أن القسام كان بعيد النظر فى ذلك حيث أن هاتين الطبقتين هما أخلص الطبقات وأكثرهما انقيادا واستعدادا للبذل والتضحية (١٠٨).

هناك قضية هامة بالنسبة للحركة القسامية وهو عبارة عن سؤال يطرح نفسه دائما هل حركة الشيخ القسام ارتبطت بحزب معين من عدمه وهناك اختلافات فى هذا الشأن فيذكر البعض أن القسام كان منتسبا إلى حزب الاستقلال فى حيفا وأنه كان على صلة وثيقة ببعض أركانه(١٠٩) بينما ذكرت مصادر الهيئة العربية العليا أن القسام كان عضوا فى لجنة الحزب العربى التنفيذية وأنه كان أكثر رجال هذا الحزب اتصالا بالمفتى وتعاون معه وأنه انصرف إلى حركته بناء على اتفاق مع رجال الحركة الوطنية وتأييدهم له(١١٠) وأشارت مصادر أخرى إلى أن القسام لم يكن مؤمنا بأى حزب ولم يكن مرتبطا بأى جهة على الإطلاق (١١١).

ومهما يكن الأمر فإن المدقق فى شخصية عز الدين القسام وما مرت به هذه الشخصية من أطوار تاريخية ليصعب معه القول ارتباطه بأى من الأحزاب القائمة، ومن الطبيعى أن يكون للقسام علاقات طيبة بغالبية تلك الأحزاب إلا أن الاختلاف بينه وبين بعض القادة كان نابعا من استخدام الوسائل التى يمكن بشأنها تحرير الأرض الفلسطينية وأوجه إنفاق أموال الأوقاف الإسلامية التى يرى القسام أن تسليح المجاهدين عن طريقها هو أجدى للمسلمين وأنفع من إنفاقها على تزيين وترميم المساجد حتى وإن كان المسجد الأقصى نفسه .

وكان على رأس هؤلاء الذين اختلف معهم القسام الحاج «أمين الحسينى» رئيس المجلس الأعلى الإسلامى الذى يكن له كل تقدير واحترام باعتباره أحد الرموز الإسلامية الهامة والذى كان يرى القسام أنه بإمكانه أن يوجه فصائل الفلسطينين وقواهم الثورية المتباينة إلى الوجهة الصحيحة ، إلا أن عوامل اليأس والإحباط التى تجمعت لدى القسام من موقف الحاج «أمين الحسينى» دفعته لإلقاء آخر ورقة كان يحتفظ بها فى جعبته وذلك عندما أرسل إليه أحد إخوانه «محمود سالم» الملقب بأبى أحمد القسامى ينبئه عن عزمه بالقيام بثورة فى فلسطين للقضاء

على فكرة إنشاء وطن قومي لليهود وكان ذلك قبل نشوب الثورة القسامية بأشهر قليلة وكان الوسيط بين رسول القسام والحاج أمين الحسيني هو الشيخ «موسى العزراوي» أحد أعوان الحاج أمين ، وجاءت إجابة مفتي فلسطين بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ويبدو أن الحسيني قد فطن إلى أن القسام بدأ يرفع راية العصيان ضده بل يمكنه أن يكون أداة من أدوات هدم نفوذه في مواجهة السلطة البريطانية . وتذكر ابنة القسام- أنه إزاء هذا الاختلاف في الرأي بين المفتي والشيخ القسام لجأ المفتي إلى خلع الشيخ عز الدين من وظيفة المأذونية وتجريده من بعض الامتيازات الأخرى التي حصل عليها في الآونة الأخيرة (١١٢). مثل مجانية التعليم لأبناء القسام وذلك قبيل الثورة بأيام قليلة.

كان ثمة تناقض واضح يمنع التقاء الحركة القسامية بغيرها من الحركات الوطنية الأخرى إذ أن الحركة الأولى تقوم على فكرة الجهاد المسلح ضد الاحتلال وأن القوة وحدها هي التي عن طريقها يمكن إخراج بريطانيا والقضاء على شرائم اليهود ومن هنا لم تكن الحركة القسامية نابعة من حزب معين بل كانت منبثقة من إحساس عميق من رجال القسام – وكلهم من الفلاحين والعمال- بالخطر الذي يهدد حياتهم من جراء استمرار الهجرة الصهيونية المتدفقة ، وأن الوسائل السلمية والطرق المشروعة لم تعد تجدي فتيلا، وذلك هال الإنجليز أن تقوم في فلسطين ثورة وطنية ضدهم وراعهم أيضا ما خلف استشهاد القسام من أثر في نفوس أهالي فلسطين فعادت بريطانيا إلى سياسة تهدئة الأوضاع وأعلنت في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ عن عزمها على إشراك العرب في الإدارة والتشريع ووضعت مشروع تأليف مجلس تشريعي يضم مختلف طبقات الشعب الفلسطيني.

الهوامش

١- من حديث للسيدة ميمنة عز الدين القسام ابنة صاحب الدراسة للباحث فى مدينة «تعز» بجمهورية اليمن الشمالية وقد جرى هذا الحديث فى معهد المعلمين العام فى ٢٥ مارس عام ١٩٨٢ ، وكانت صاحبة الحديث تشغل منصب ، موجهة فى إدارة التفتيش العام بادارة التربية والتعليم بمدينة الزرقا بالأردن. ومبعوث من قبل وزارة التربية والتعليم الأردنية إلى وزارة المعارف بالجمهورية العربية اليمنية وتقول السيدة ميمنة أنها من مواليد ١٩٢٠ وكان عمرها وقت استشهاد والدها فى عام ١٩٣٥ خمسة عشرة عاما.

• تنتسب فصائل عز الدين القسام وهو الجناح العسكرى فى حركة حماس الفلسطينية إلى صاحب الدراسة الشيخ عز الدين القسام وقد بدأت هذه الحركة فى مواجهة الحركة الصهيونية منذ عام ١٩٦٧ تحت زعامة الشيخ أحمد ياسين وحتى اليوم.

٢- صبحى ياسين : الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ، من ١٩٣٦-١٩٣٩ ص١٩-٢٠ دار الهنا للطباعة.

٣- من حديث ميمنة القسام للباحث .

٤- الهيئة العربية العليا لفلسطين العربية ، نشرة فلسطين ، العدد ٩٤ ، كانون الثانى ١٩٦٩ ، ص١٧ .

٥- أحمد طربين: محاضرات فى تاريخ قضية فلسطين منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ ، ص٨٩ ، القاهرة معهد الدراسات العربية العليا ١٩٥٩م.

٦- صبحى ياسين : المرجع السابق، ص٢٠ .

7- Government of Palastint: Asurvey of palestine, vol 1. p. 141-142 .

٨- صبحى ياسين : المرجع السابق ص٢١ .

٩- المرجع السابق ، ص٢٠ .

١٠- نشرة فلسطين ، العدد ٩٤ ، ص١٧ .

١١- صبحى ياسين : المرجع السابق ص٢١ .

١٢- من حديث ميمنة القسام للباحث.

١٣- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الحربية ، ملف رقم ١٧٦ ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطانى والصهيونى ص٩-١٠ .

حة عيسى الحلبى بمصر سنة

١٦– نشرة فلسطين – العدد ٩٤ ص١٧ .

١٧– من حديث ميمنة القسام للباحث.

١٨– صبحي ياسين : المرجع السابق، ص٢٣ .

١٩– عبد الكريم الكرمي: كفاح عرب فلسطين ، ص٥٩ ، دمشق ١٩٦٤ .

٢٠– صبحي ياسين : نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، ص٧٧ ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢١– خليل محمد عيسى (الملقب بأبى إبراهيم الكبير) مقال في نشرة الثورة الفلسطينية (فتح) تحت عنوان «الثورة الفلسطينية الكبرى) ص٢٥ ، ٢٦ دمشق ١٩٦٩ .

٢٢– فيما يلي أسماء البارزين من أتباع عز الدين القسام: الشيخ محمد الحنفي والشيخ على الحاج عبيد (جبلة / سوريا) عطية أحمد عوض (قرية الشيخ قرب حيفا) يوسف الزيباوى (الزيب / حيفا) محمد الحنفى أحمد (مصر) حسن الباير (برقين) فرحان السعدى (المزار) نمر السعدى (شفا عمرو) صالح طه – أحمد التوبة– نايف المصلح– أبو محمود الصفورى– على إبراهيم زعروره (صفورية) محمود سالم المخزومى (قرية زرعين) ناجي أبوزيد (حيفا) يوسف أبودرة (السيلة الحارثية) محمد الصالح– عبد الفتاح أبو عبدالله (سيلة الظهر) عارف الحمدان (قضاء جنين) محمد الحلحولي (حلحول) محمد الخالدى وأخوه خالد (حيفا) أحمد جابر (حيفا) السيد عرب بدوى (قضاء جنين) السيد أبو على مزرعاوى (المزرعة / القدس) عبدالله يوسف (قرية عرابة) الشيخ عبدالله (كفروان) معروف حجازى (قرية يعبد) توفيق الزيرى (عرابة) محمود ديراوى (دير أبو ضعيف) نايف الزغبى (قرية سويلم) محمد أبو حصب (قباطية) عبد القادر على (عرعرة) خليل محمد عيسى (شفا عمرو) حسنين حمادة (اجزم) عبدالله عقلية (قرية عبلين) محمد العبد موسى (كوكب أبو الهيجاء) الشيخ سليمان ؟ (سمسم / غزة) السيد سرور برهم (حيفا) رشيد عبيد الشيخ (طيرة / حيفا) محمود الخضرى (؟) داود خطاب (؟) .

٢٣– صبحي ياسين : المرجع السابق ، ص٢٤ ، ٢٥ .

٢٤– دار الوثائق – جامعة الدول العربية ، الهجرة اليهودية إلى فلسطين ص٢٠ ، ٢١ .

٢٥– كريستوفر سايكس : مفارق الطرق إلى إسرائيل ، ص٢٥٥ ، ترجمة خيرى حماد، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٦ .

٢٦– عرفات حجازي: أرض الثورات فلسطين ص٥٤ ، بيروت سنة ١٩٥٩ .

٢٧– صبحي ياسين : المرجع السابق ، ص٢١ .

٢٨– الرابطة العربية ، ص٢٤ ، السنة الأولى، العدد ١٧ ، في ١٦ سبتمبر ١٩٣٦ م.

٢٩– جريدة الأنوار : ص١٢ ، العدد ٦٠٩ ، ٦ آب (أغسطس) ١٩٦١ مقال بقلم عجاج نويهض .

٣٠- ايميل الغورى : فلسطين عبر ستون عاماً، ص٢٥٠ ، دار النهار، بيروت ١٩٧٣ .

٣١- د. عبد الوهاب الكيلالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص٢٩٣ ، بيروت ١٩٧٣ .

٣٢- من حديث ابنة القسام للباحث .

٣٣- دار الوثائق : وثائق عابدين، وزارة الخارجية ، ملف رقم ٣ ، دوسيه (ب) تقرير الحالة فى فلسطين من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١ .

٣٤- نشرة فلسطين ، العدد ٧ ص١٥ ، سنة ١٩٦١ .

٣٥- المصدر السابق، العدد ٩، ص٢٢ ، ١٩٦١ .

٣٦- خليل محمد عيسى: المرجع السابق، ص٢٤ ، ٢٥ .

٣٧- صبحى ياسين : المصدر السابق، ص٢٣ .

٣٨- عبد الكريم الكرمى: المرجع السابق، ص١٠٦ .

٣٩- من حديث ميمنة القسام للباحث .

٤٠- دار الوثائق : مجلس الوزراء ، وزارة الحربية / ملف رقم ٣٥ / ح ، خطاب من بعض شباب فلسطين إلى صاحب الجلالة فى مصر يناشده فيه التدخل من أجل إنقاذ «أرض الأنبياء» عن الحالة فى فلسطين من ١٩٢٢-١٩٣٢ .

٤١- صبحى ياسين : المرجع السابق ، ص٢٦ .

٤٢- عبد الكريم الكرمى: المرجع السابق ، ص١٠٧-١٠٨ .

٤٣- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، محفظة رقم ٤٥ / ج . وزارة الخارجية / شئون فلسطين ، عن الحالة الراهنة فى فلسطين ١٩٣٤-١٩٣٥ .

٤٤- جريدة كوكب الشرق / السنة (١١) عدد ٢٠٣٥ ، ٩ مارس ١٩٣٥ .

٤٥- المصدر السابق : القدس فى ٨ أبريل ١٩٣٥ .

٤٦- دار الوثائق ، وثائق عابدين ، تقارير، تقرير من مكتب الحزب العربى الفلسطينى فى ١٥ أبريل ١٩٣٥ .

٤٧- المصدر السابق : اضراب السائقين فى ٤ أغسطس سنة ١٩٣٥ .

٤٨- جريدة مرآة الشرق: العدد ٢٧١ السنة الرابعة ، ٥ أغسطس ١٩٣٥ القدس، تحت عنوان «حزب الفلاحين الفلسطينيين» .

٤٩- صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ص١٧٧ ، دار الفتح بيروت ١٩٦٨ .

50- Report by his Majests Government on the Adiministration of Palestine and trans - Jordan for the Year 1935, p. 5 .

٥١- صبحي ياسين : المرجع السابق ، ص٢١ .

٥٢- المصدر السابق ، نفس الصفحة.

٥٣- المصدر السابق ، ص٢٢ .

٥٤- إميل الغوري، المرجع السابق ، ص٢٣٨ ، ٢٣٩ .

٥٥- نشرة فلسطين : الإعداد ٦٥ ، ٦٦ ، ص٥٩ ، أشهر تموز وآب ١٩٦٦ .

٥٦- صبحي ياسين : نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، ص٧٩ .

٥٧- Jeffries : Palestine, the Reality p. 651 .

٥٨- Survey of Palestine , vol . 7 , p. 141-142 .

٥٩- عيسى السفري: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، ص٢٥٥ ، الكتابان الأول والثاني ، ترجمة عبد الوهاب الكيالي ، بيروت سنة ١٩٦٥م.

٦٠- جريدة شئون فلسطين ، ص٤٧ ، العدد ٦، بيروت ، يناير ١٩٧٢م.

٦١- بربارة كالكاس : ثورة ١٩٣٦ ، ص٢٥٨ ، مقال في كتاب «تهويد فلسطين» إعداد إبراهيم أبو لغد ترجمة أسعد رزوق، مركز الأبحاث الفلسطينية ١٩٧٢ .

٦٢- دار الوثائق : وثائق عابدين، ملف (١) ، فلسطين ١٩٣٥ ، بيان إلى العالمين العربي والإسلامي من جمال الحسيني رئيس الحزب العربي الفلسطيني.

٦٣- خليل السكاكيني: كذا أنا يا دنيا (يوميات خليل السكاكيني) ص٢٧ ، أعدها للنشر هالة السكاكيني، القدس ١٩٥٥م.

٦٤- عمر أبو النصر : المرجع السابق ، ص٢٧٢ .

٦٥- من حديث ميمنة القسام للباحث .

٦٦- عبد الكريم الكرمي: المرجع السابق، ص١٠٨ .

٦٧- اللجنة الفلسطينية العليا بالقاهرة ، المرجع السابق ، ص٥١ .

٦٨- الرابطة العربية ، مقال بقلم عبد الله مخلص ، ص٢٢ ، السنة الأولى، العدد (٢٤) في ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦ .

٦٩- المرجع السابق، مقال بقلم أمين سعيد ، ص٢٤ ، السنة الثانية ، العدد ٩٦ ، في ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٨ .

٧٠- المرجع السابق : ص٢٩ ، السنة الأولى ، عدد ١٧ ، ٦ سبتمبر ١٩٣٦م.

٧١- جريدة فلسطين : يافا ، ١ / ٣ / ١٩٣٦م.

٧٢- نشرة فلسطين (الهيئة العربية العليا لفلسطين) العدد ٩٤ ، ص١٩ سنة ١٩٣٥ .

٧٣- صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ، ص٢٧-٢٨ .

٧٤- جريدة فلسطين ، يافا ٢٠ / ١ / ١٩٣٥ .

٧٥- جريدة كوكب الشرق، غرة رمضان ١٣٥٤ هـ / ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، مقال تحت عنوان ثورة فلسطين الدامية كيف وقعت ومن هو زعيمها .

٧٦- نفس المصدر السابق.

٧٧- ناجى غلوش : المقاومة العربية فى فلسطين ، ص١٠٣ ، من ١٩١٧ إلى ١٩٤٨ ، بيروت ١٩٦٧ .

٧٨- أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٩٨ ، القاهرة ١٩٥٥ .

تقول جريدة كوكب الشرق أنه قتل شاب من قرية (يعبد) يدعى أحمد الشيخ سعيد لم يكن من جماعة المجاهدين وهو فلاح كان يسكن بيتًا مجاور للمعركة ... كوكب الشرق، المرجع السابق، نفس الصفحة.

٧٩- Hymson K. A. m: Palestine under the Mandate (1920-1948) p. 6 London 1950 .

٨٠- جريدة الأنوار : نوفمبر ١٩٣٥ .

٨١- كوكب الشرق، ص١١ فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

تم محاكمة الأسرى فى ١٦ / ١٠ / ١٩٣٦ وهم : أحمد الحاج عبد الرحمن وحسن باير وعرابى بدوى بالسجن ١٤ سنة مع الأشغال الشاقة - أسعد المفلح ونمر السعدى وداود الخطاب ومعروف الحاج جابر بالسجن سنتين. تنفى جريدة كوكب الشرق مزاعم السلطة البريطانية بشأن وجود مثل هذا الحجاب ولكن ابنة الشيخ القسام تؤكد نقلاً عن الشيخ فرحان السعدى أن والدها كان من أشد المؤمنين بالغيبيات وبالقضاء والقدر ومن هنا لاتستبعد وجود مثل هذا الحجاب إلى جانب حملة لنسخة من القرآن الكريم بصفة دائمة- حديث ميمنة القسام للباحث.

٨٢- جريدة فلسطين : يافا ص١٨ ، ديسمبر سنة ١٩٣٥ .

٨٣- اللجنة الفلسطينية العربية، القاهرة، ص١٣ (عن ثورة فلسطين) سنة ١٩٣٦ .

٨٤- كوكب الشرق ، المرجع السابق ، ص١١ برقية من دولة مصطفى باشا النحاس رئيس وزراء مصر إلى جمعية الشبان المسلمين بحيفا.

٨٥- المصدر السابق ، نفس الصفحة.

٨٦- كوكب الشرق ، ص٩ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥، مقال تحت عنوان (مساعدة عائلات الشهداء) .

٨٧- مجل العرب ، ص٢٥ ، العدد ٤٥ ، القدس سنة ١٩٣٦ .

٨٨- اللجنة العربية الفلسطينية بمصر، ص٦ ، بيان إلى العالم الإسلامى عن حالة المعتقلين بسجن عكا.

٨٩- جريدة الثورة الفلسطينية (فتح) ص١٤ دمشق سنة ١٩٦٩ .

٩٠- كوكب الشرق ، ص٩ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ مقال تحت عنوان (مكافأة نبع الشهداء) .

٩١- كوكب الشرق ، المصدر السابق، ص١١ .

٩٢- دار الوثائق ، القضية الفلسطينية، محفظة رقم ٥٨٦ من بيان اللجنة العربية العليا بتاريخ ١٦ / ١ / ١٩٣٧م.

٩٣- جريدة لسان العرب، ص٥ سنة ١٩٥٢ .

٩٤- عمر أبو النصر وآخرون ، المرجع السابق ص٢٧٣-٢٧٥ .

٩٥- أحمد الشقيري: ٤٠ عاما في الحياة العربية والدولية، ج١ ، ص١٩٩-٢٠٤ ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ .

٩٦- صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص٢٨ -٢٩ .

٩٧- إميل الغوري: المرجع السابق ، ص٢٤٨ .

٩٨- وثائق عابدين : شئون فلسطين ، تقرير رقم (١) بيان إلى العالمين العربي والإسلامي من الحزب العربي الفلسطيني برئاسة جمال الحسيني .

٩٩- جريدة الرابطة العربية ، ١٨ رمضان ١٣٥٥ ، ٢ ديسمبر ١٩٣٦، ص٨٧ ، السنة الأولى، العدد ٢٨ .

١٠٠- دار الوثائق ، وثائق عابدين تقارير ، تقرير رقم ١ عن القضية الفلسطينية من ١٩٣٧ - ١٩٤٨ مقال بعنوان فلسطين تحترق فانتبهوا أيها المسلمون (لجنة مساعدة فلسطين) دار الإخوان .

١٠١- Hymson A. M; Palestine under the Mandate (1920-1948) p. 215 , London 1950 .

١٠٢- ف.م ، سيتون وليامز : بريطانيا والدول العربية ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ص١٤٨ ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥ .

١٠٣- نشرة المكتب العربي: مشكلة فلسطين ج٢ ، ص١٣٨ ، القدس سنة ١٩٤٦ .

١٠٤- جريدة المقطم ، ٢٣ / ١٢ / ١٩٣٥ .

١٠٥- د. عبد الوهاب الكيالي : المرجع السابق ص٢٩٧ .

١٠٦- المقطم، ١١ / ١٢ / ١٩٣٥ .

١٠٧- د. الكيالي : المصدر السابق ، ص٩٦ .

١٠٨- أمين سعيد : المرجع السابق، ص٦٥ .

١٠٩- سعدي بسيسو : الصهيونية نقد وتحليل ، ص١٧٣ ، حلب ١٩٥٧ .

١١٠- ناجي علوش : المرجع السابق، ص١٣٢ .

١١١- نجيب صدقة : قضية فلسطين ، ص٥٦ الطبعة الأولى، دار الكاتب ، بيروت سنة ١٩٤٦ .

١١٢- من حديث ابنة الشيخ القسام للباحث.

مصادر البحث

أولا : الوثائق :

١- جامعة الدول العربية ، الوثائق العربية فى قضية فلسطين ، المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦ ، القاهرة ١٩٥٦ .

٢- الوثائق القومية : وثائق عابدين، تقارير ، تقرير رقم (١) عن القضية الفلسطينية ١٩٣٧-١٩٤٨ .

٣- دار الوثائق : تقارير، تقرير من مكتب الحزب العربى الفلسطينى فى١٥ أبريل ١٩٣٥ .

٤- دار الوثائق : عابدين ، شئون فلسطين ، الفترة من ١٩٣٢-١٩٤٧ .

٥- دار الوثائق : وثائق عابدين القضية الفلسطينية، محفظة رقم ٥٨٦ بيان اللجنة العربية العليا فى ١٦ / ١ / ١٩٣٧ .

٦- دار الوثائق ، وثائق عابدين، ملف رقم (١) عن فلسطين سنة ١٩٣٥ .

٧- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء، محفظة رقم ٤٥ / ج (وزارة الخارجية) شئون فلسطين ، عن الحالة الراهنة فى فلسطين ١٩٣٤-١٩٣٥ .

٨- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الحربية ، ملف رقم ٣٥ / ج الحالة فى فلسطين ١٩٢٢-١٩٣٥ .

٩- دار الوثائق : مضابط مجلس الوزراء، وزارة الحربية، ملف رقم ١٥٦ عن المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطانى والصهيونى .

١٠- دار الوثائق : وثائق عابدين، وزارة الخارجية ملف رقم (٣) دوسيه (ب) من عام ١٩٢٩-١٩٣٦ .

ثانيا: المراجع العربية :

١- أحمد الشقيرى: أربعون عاما فى الحياة العربية والدولية، ج١ ، دار العودة بيروت، ١٩٧٣ .

٢- أحمدطربين : محاضرات فى قضية فلسطين من نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ ، معهد الدراسات العربية العليا سنة ١٩٥٩ .

٣- اكرم زعيتر : القضية الفلسطينية، القاهرة ١٩٥٥ .

٤- اميل الغورى : فلسطين عبر ستون عاماً ، دار النهار، بيروت سنة ١٩٧٣ .

٥- أمين سعيد: ثورات العرب فى القرن العشرين ، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبى بمصر سنة ١٩٣٥ .

٦- بربارة كلكاس : ثورة ١٩٣٦، مقال فى كتاب «تهويد فلسطين» إعداد إبراهيم أبو لغد ، ترجمة اسعد رزوق، مركز الأبحاث سنة ١٩٧٢ .

٧- خليل السكاكينى : كذا أنا يا دنيا، يوميات خليل السكاكينى، أعدتها للنشر هالة السكاكينى ، القدس سنة ١٩٥٥ .

٨- خليل محمد عيسى: الثورة الفلسطينية الكبرى (مقال فى نشرة الثورة الفلسطينية) فى دمشق ١٩٦٩ .

٩- سعدى بسيسو : الصهيونية ، نقد وتحليل، حلب سنة ١٩٥٧ .

١٠- صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح بيروت سنة ١٩٦٨ .

١١- صبحى ياسين : أ- الثورة العربية الكبرى فى فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) دار الهنا للطباعة.

ب- نظرية العمل لاسترداد فلسطين ، دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٢- عبد الكريم الكرمى: كفاح عرب فلسطين الحديث، بيروت ، سنة ١٩٦٤ .

١٣- عبد الوهاب الكيالى: تاريخ فلسطين ، بيروت سنة ١٩٧٣ .

١٤- عرفات حجازى : أرض الثورات فلسطين ، بيروت سنة ١٩٥٩ .

١٥- عمر أبو النصر وآخرون: جهاد فلسطين العربية ، بيروت سنة ١٩٣٦ .

١٦- عيسى السفرى : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، ترجمة عبد الوهاب الكيالى، بيروت ١٩٦٥ .

١٧- ف.م. سيتون وليامز : بريطانيا والدول العربية ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى مكتبة الأنجلو المصرية.

١٨- كريستوفر سايكس : مفارق الطرق إلى إسرائيل ، ترجمة خيرى حماد، دار الكاتب العربى بيروت سنة ١٩٦٦ .

١٩- محمد صادق عرنوس : صوت الشعر فى قضية فلسطين ، القاهرة ١٩٣٦ .

٢٠- ناجى علوش: المقاومة العربية فى فلسطين ، ١٩١٧-١٩٤٨ ، بيروت ١٩٦٧ .

٢١- نجيب صدقة : قضية فلسطين ط١ ، دار الكاتب ، بيروت سنة ١٩٤٦ .

ثالثا : المراجع الأجنبية:

1- Government of Palestine: A Survey of Palestine, prepared in December 1945 and January 1946 for the Anglo American Commisson of inquary , 2 vols.

2- Hymson , A. M: Palestine under the Mandate (1920-1948) London 1950 .

3- Jeffires , J. M. N : Palestine the Reality , London 1939 .

4- Report By His Majests government on the Adiminstration of Palestine and Trans - Jordan for the Year 1935 .

رابعا : الدوريات :

١- الأنوار عدد ٦٩ ، أب (أغسطس) ١٩٦١ .

٢- جريدة فلسطين (يافا) ، نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، ديسمبر ١٩٣٥ ، مارس ١٩٣٦ .

٣- الرابطة العربي سبتمبر ١٩٣٦-نوفمبر ١٩٣٦ - أبريل ١٩٣٨ .

٤- شئون فلسطين : يناير سنة ١٩٧٢ .

٥- كوكب الشرق : مارس ١٩٣٥ - أغسطس ١٩٣٥- نوفمبر ١٩٣٥ .

٦- مجلة العرب : العدد ٤٥ ، القدس سنة ١٩٣٦ .

٧- مرآة الشرق : اغسطس سنة ١٩٣٥ .

٨- نشرة فلسطين : (الهيئة العربية العليا) ١٩٣٥- تموز وأب سنة ١٩٦٦ .

خامسا : الأحاديث الشخصية:

حديث شخصى مع السيدة ميمنة عز الدين القسام وذلك فى مبنى معهد المعلمين العام بتعز بجمهورية اليمن الشمالية (الجمهورية العربية اليمنية) فى عام ١٩٨٢ .

د. حسين على المسرى(*)

مدينة الرى فى تاريخها السياسى من العصر العباسى الثانى حتى سقوط بغداد

ملخص البحث

إن مدينة الرى تعد واحدة من المدن الفارسية القديمة التى تمتاز بعراقة تاريخها الحضارى القديم، فقد كانت من مراكز الحضارة والثقافة القديمة عند الفرس، وظلت محافظة على هذا التراث متمسكة به، وفى العصر الإسلامى فتحت هذه المدينة ولكن بعد محاولات قام بها الفاتحون.

أما مدينة الرى فى الوقت الحاضر فليس لها شأن يذكر، فقد أفل نجمها وانطفأ نورها الحضارى، وتحولت إلى قرية متواضعة بسيطة معظم سكانها من الفقراء ، وقد سلبت أضواء هذه المدينة العريقة مدينة طهران العاصمة الحالية لجمهورية إيران، التى أنشأت على بعد (٨) كيلو مترات من مدينة الرى. وفى مدينة الرى ضريح يسمى شاه عبد العظيم ، وهو من أحفاد الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ويعتبر من المزارات الهامة فى جمهورية إيران .

لقد استفادت مدينة الرى فى الإسلام من الرصيد الحضارى الذى كانت تمتلكه ، فقد كان لهذه المدينة دور سياسى واقتصادى وثقافى واضح فى العصر العباسى مع ما مرت به من عوائق ، ويعود الفضل فى ذلك إلى موقعها الجغرافى الهام والمميز فى النواحى الاقتصادية والسياسية والعسكرية، لذلك حرصت كل القوى التى ظهرت على الساحة

* قسم التاريخ - جامعة الكويت .

السياسية السيطرة على هذه المدينة، وكان هذا النشاط السياسي والعسكري في السيطرة على مدينة الري متزامنا مع ضعف الخلافة العباسية، فإن ضعف الخلافة قد أفسح المجال أمام هذه القوى على التنافس في السيطرة على مدينة الري.

لذلك فإننا نلاحظ من سير الأحداث، أن التاريخ السياسي لمدينة الري ، لاسيما في العصر العباسي الثاني، يمتاز بعدم الاستقرار، فقد مرت على مدينة الري فترات ذات طابع سياسي مضطرب وغير مستقر يمتاز بأحداث سياسية سريعة الحدوث متلاحقة متشابهة في أسباب حدوثها حتى إنك لاتكاد تميز بين عدوان وآخر على مدينة الري من حيث الأسباب والدوافع.

وربما كانت بداية هذا الاضطراب وعدم الاستقرار في تاريخ مدينة الري في أواخر العهد الطاهري، فقد أساء نواب الطاهريين على مدينة الري إلى أهلها واعتدوا على أملاكهم ، فاستعان أعيانها بالعلويين ولم يتردد العلويون في قبول هذه الدعوة، وقد قاد هذه الحركة الحسن بن زيد بن محمد الطالبي، واستطاع العلويون بسط نفوذهم على الري وأعمالها .

ولما انتهى العهد الطاهري جاء السامانيون وتمكنوا من إخضاع مدينة الري لنفوذهم لاسيما بعد أن ضعف النفوذ العلوي على الري. لكثرة الصراعات والمنافسات بين القوى ، ويبدو أن السامانيين عجزوا عن الاحتفاظ بسيطرتهم على الري، فقد استطاع (أسفار بن شيرويه) المتمرد على السامانيين انتزاع مدينة الري من أيديهم.

وظلت مدينة الري بعد ذلك تتجاذبها القوى إلى أن جاء البويهيون الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على بلاد فارس ومدينة الري وأعمالها بعد حروب تكاد تكون مستمرة خاضوها ضد السامانيين والقوى المناوئة الأخرى، وامتد نفوذ البويهيين من بغداد العاصمة إلى سائر مدن العراق، لاسيما في عهد الأخوة الثلاثة وهم: ركن الدولة الذي يحكم مدينة الري وأعمالها وعماد الدولة على بلاد فارس ومعز الدولة على بغداد.

وقد زال النفوذ البويهي عن الري بسبب الصراعات التي وقعت بين أبناء البيت البويهي الحاكم ، وقد هيأ هذا الوضع الظروف لمجيئ الغزنويين وسيطرتهم على مدينة الري وسائر أعمالها.

أن الفساد الإداري الذي مارسه نواب السلطان مسعود الغزنوي على الري كان سببا في الإسراع بضياع النفوذ الغزنوي عن مدينة الري، ولم تنفع المحاولات التي بذلها السلطان مسعود لعلاج هذا الفساد .

هذا المناخ السياسى المضطرب غير المتوازن الذى يخيم على مدينة الرى قد أفسح المجال أمام الأتراك السلاجقة فى عهد السلطان طغرلبك من السيطرة على مدينة الرى. ولكن الصراعات المتكررة بين الأتراك أنفسهم، بالإضافة إلى القوى الطامعة فى السيطرة على مدينة الرى، نجم عنه إضعاف نفوذ الأتراك، وقد حببت هذه الأجواء للدولة الخوارزمية الفتية القوية غزو مدينة الرى ثم السيطرة عليها.

وأخيراً فإن مدينة الرى لم تسلم من خطر المغول التتار، شأنها فى ذلك شأن سائر المدن المجاورة لها والبعيدة عنها، فقد لحق بها الدمار من جراء هجمات التتار المتكررة ، فتضررت بذلك حياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، فكان لذلك تأثير واضح على النشاط الحضارى لمدينة الرى.

وفيما يتعلق بالمصادر التى استعنا بها فى تحقيق هذا البحث ، فجميعها مصادر تاريخية، لعل من أبرزها وأهمها بالنسبة لهذا البحث كتاب (تجارب الأمم) لابن مسكويه والكتاب المذيل عليه ، لأبى شجاع ظهير الدين الروذراورى ، فقد عُرضتْ الأحداث فى هذين الكتابين بدقة وبتفصيل أكثر من المصادر الأخرى؛ ومن المصادر التاريخية التى أفادتنا كثيرا : كتاب (تاريخ البيهقى) ، لأبى الفضل محمد بن حسين البيهقى، من أهل خراسان ولد فى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، وكان يعمل كاتبا للسلطان مسعود الغزنوى، فهو الذى يحرر الرسائل المتبادلة بين السلطان مسعود وبين نوابه على مدينة الرى، فكان معاصرا وقريبا من الاحداث ، لذلك فإن ما حرره من رسائل تعتبر وثائق وشاهد عيان على الأحداث إبان هذه الفترة من تاريخ مدينة الرى. وأخيرا كتاب (الكامل فى التاريخ)، لابن الأثير الذى ظل ملازما لنا بأحداثه التاريخية الهامة طوال الفترة الزمنية المقررة لهذا البحث ، فأفدنا منها كثيرا.

مدينــة الــرى فــى تاريخهــا السياســى
من العصر العباسى الثانى حتى سقوط بغداد

مدينة الرى من المدن الفارسية القديمة والعريقة ، حتى أن التاريخ لم يدرك على وجه التحديد بداية بنائها ، وقد وصل إليها الفتح الإسلامى ودخلت فى الإسلام ولكن بعد محاولات عديدة من الفاتحين حتى تم إخضاعها . وقد تأثرت مدينة الرى بالأحداث السياسية المحيطة بها، وقد تفاعلت معها وكان لها الدور الفاعل .

ولم تعد مدينة الرى فى الوقت الحاضر ذات قيمة سياسية أو ثقافية كما كانت فى الفترة التى نريد أن نتحدث عنها، فقد أفل نجمها وحلت محلها مدينة طهران العاصمة الحالية* لجمهورية إيران ، والتى تبعد عنها بحوالى (٨) كيلو مترات .

وحديثنا عن مدينة الرى كما جاء فى عنوان هذه الدراسة، يبدأ من العصر العباسى الثانى وحتى سقوط بغداد فى سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وقد خصصت هذه الدراسة للجانب السياسى لهذه المدينة.

وكما هو معلوم ومتعارف عليه عند المؤرخين أن العصر العباسى الثانى يبدأ بعهد الواثق ، أبوجعفر هارون بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) ، ثم الخلفاء الذين أعقبوه، وهو عصر يتميز بالضعف والتمزق والانقسام فى جسم الدولة العباسية بسبب ضعف الخلفاء العباسيين وتسلط العناصر الأجنبية.

هذا الوضع السياسى السيئ المتهالك الذى يعيشه الخلفاء آنذاك، كان له انعكاساته الإيجابية عند العناصر المناوئة للخلافة والتى تختلف معها سياسيا وفكريا ومذهبيا ، فراحت تحيك المؤامرات وتؤلب الأقاليم وتحرك المعارضين، فعمت الفوضى السياسية والعسكرية فى هذه الولايات والمدن، لاسيما البعيدة عن مقر الخلافة. وقد تأثرت مدينة الرى بهذا المناخ السياسى والمذهبى والثقافى المضطرب فراحت تتفاعل معه فكان لها الدور الواضح والفعال ، وهذا ما سوف نرصده ونبحثه فى هذه الدراسة وما تتضمنه من أحداث .

النزاع بين الطاهرية والزيدية فى السيطرة على الرى وحوادث أخرى:

عندما تولى هارون الواثق الخلافة، كانت مدينة الرى وخراسان وكرمان وطبرستان والسواد وما والاها يتولاها عبدالله بن طاهر[1] وكان على درجة كبيرة من الكفاءة فى القيادة

والإدارة، فقد ضبط هذه الولايات ، وكان على مقدار ما يقدمه من خراج في كل عام لمدينة الري وسائر هذه المدن يصل إلى ٤٨ ألف ألف درهم أي ما يساوي ٤٨ مليون درهم . ولما توفي الوالي عبدالله بن طاهر في سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) أسند الواثق أمر هذه الولايات بما فيها مدينة الري إلى ابنه طاهر(٢).

وعند وفاة الواثق تولى بعده أخوه المتوكل، جعفر بن المعتصم في سنة (٢٣٢هـ - ٢٤٧ / ٨٤٧-٨٦١م)، وقد أحدث المتوكل تغييرات إدارية ، ففي سنة (٢٣٥هـ / ٨٤٩م) قسم الولايات الإسلامية بين أبنائه الثلاثة، وهم : محمد المنتصر بالله وطلحة المعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله، فكان نصيب طلحة مدينة الري وطبرستان وخراسان وأرمينية وأذربيجان وكور فارس(٣).

وكان العامل على مدينة الري إبان هذه الفترة، السري بن معاذ الشيباني، وكان تعيين العمال يتم ضمن إدارة الأمير طلحة المعتز بالله وهو المسئول عن هذه الجهات تحت مظلة الإدارة الكلية للخليفة المتوكل، وقد توفي عامل الري في سنة (٢٤٦هـ / ٨٦٠م) ودفن بمدينة الري(٤).

وكثيرا ما كانت مدينة الري تتعرض إلى بعض الكوارث المدمرة ، مثل الزلازل ففي سنة (٢٤١هـ / ٨٥٥م)، ضربت مدينة الري زلازل مُدمرة راح ضحيتها العديد من الناس، ولانستبعد أن يكون لمثل هذه الزلازل والكوارث آثارها السلبية على الوضع السياسي والاجتماعي لهذه المدينة(٥).

بداية ضعف النفوذ العباسي على مدينة الري وظهور الحركات الانفصالية:

حركة الحسن بن زيد بن محمد الطالبي (٦):

كانت بداية حركة الحسن بن زيد في مطلع سنة (٢٥٠هـ- ٨٦٤م) وهو من سكان مدينة الري، وكانت مدينة الري تتأثر كثيرا بالأوضاع السياسية المحيطة بها التي تمر بها المنطقة، في طبرستان وخراسان والديلم، وقد تهيأت الظروف في مدينة الري لهذه الثورة، وذلك لما كان من استبداد الأمراء الطاهريين ومن ينوب عنهم في هذه المقاطعات والمدن، ومن أمثلة ذلك ما كانوا يقومون به من اعتداءات متكررة على حقوق الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية: من مزارع وأراضٍ (٧).

هذه الأوضاع السيئة أثارت حفيظة الأعيان وأهل الرأى فى هذه المدينة، وأثارت غضبهم على هؤلاء العمال، فتحرك هؤلاء الأعيان، وكان يمثلهم: محمد وجعفر ، وهما أبناء (رستم إخوان) طلبا مساعدة العلويين؛ وهم الأعداء التقليديون للعباسيين وسبب توجههم للعلويين هو لإعطاء هذه الحركة صفة وثقلا شرعيا حتى تكسب التأييد من العامة والخاصة.(٨)

وهكذا فإنهما إتصلا بمحمد بن إبراهيم ؛ أحد الطالبيين، وكان يسكن بطبرستان يدعونه ويبايعونه على الثورة ضد هؤلاء العمال المستبدين، ولكن محمد بعد أن فكر فى الأمر اعتذر عن قبول هذه الدعوة ، حيث لم يجد فى نفسه الهمة والعزيمة للقيام بمثل هذا الأمر وتحمل هذه المسئولية ، لكنه أرشدهما إلى غيره من العلويين ، فقال لهما : (لكنى أدلكم على رجل منا هو أقوم بهذا الأمر منى) (٩).

أرشدهم إلى الحسن بن زيد سالف الذكر، وهو من العلويين، فحملوا إليه رسالة من محمد ابن إبراهيم يدعونه فيها المجيئ إلى طبرستان حتى يتيسر لهم التخطيط بهدوء لهذه الثورة ، فقدم إليهم الحسن بن زيد من الرى، وكان للحسن من الطموح والتطلع السياسى ما دفعه لقبول مثل هذه الدعوة دون تردد، بل والترحيب لها (١٠).

وقد قامت هذه الثورة بقيادة الحسن بن زيد ، وكتب لها النجاح لأنها قامت على أسس مدروسة ولأن التهيؤ الكبير الذى قد صاحبها شمل القاعدة من العامة والخاصة فى هذه المدن، وما تم من تلاحم كبير بين المدن الثلاث وهى : الرى وطبرستان والديلم، وهذا الموقف المتعاون المتحد مع هذه الثورة يعطينا مؤشرا واضحا عن مدى غضب العامة والخاصة وكراهيتهم للعمال الطاهريين (١١).

وقد تمكن الحسن بن زيد بعد معارك عنيفة وطاحنة مع سليمان بن عبدالله بن طاهر ونوابه على هذه المدن من طرد عمال الخليفة المستعين عن هذه المدن، وعين عليها عمالا من أتباعه . أما مدينة الرى فإنه بعث إليها واحدا من أهل بيته لينوب عنه ويذكر الطبرى وكذلك ابن الأثير، أن اسمه حسن بن زيد أيضا ، ولكن حسن هذا ترك مدينة الرى، وأناب عنه أحد العلويين، واسمه محمد بن جعفر (١٢).

وكانت الخطبة والدعاء فى مدينة الرى للحسن بن زيد الذى اتخذ من طبرستان مقرا لحكومته ، ولكن محمد بن جعفر لم يكن مؤهلا للحكم والقيادة وإدارة المدينة، فقد أساء إلى جماعات من أهل خراسان كانت تسكن مدينة الرى، ولانعرف على وجه الدقة لماذا تعرض لهم بالإساءة ، ويحتمل أنهم كانوا متعاطفين مع بنى طاهر حكام خراسان(١٣).

كما أساء فى ذات الوقت إلى أهل مدينة الرى على حد قول ابن الأثير، يقول : (ظهرت منه أمور كرهها أهل الرى) (١٤). هذه الأوضاع التى تمر بها مدينة الرى قد لفتت انتباه الطاهريين، فأسرع محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر ويبعث قائده، محمد بن ميكال ، على رأس قوة عسكرية تمكن بها من احتلال مدينة الرى، فعادت المدينة إلى النفوذ الطاهرى، ولكن الحسن بن زيد - وهو ليس بحسن بن زيد الذى ترك مدينة الرى- لم يتوان فقد أعد جيشا بقيادة شخص يقال له (واجن) (١٥)، والتقى الجيشان، فكان النصر حليف القائد (واجن) وقتل القائد محمد بن ميكال، وعادت الرى مرة أخرى إلى نفوذ الحسن بن زيد (١٦).

وهكذا استطاع الحسن بن زيد فى أواخر سنة (٢٥٥هـ) أن يحقق هذا النجاح الكبير ويخضع هذه المنطقة لنفوذه ، ويمكننا القول: أن من نتائج هذه الثورة التى أججها الحسن بن زيد أبعاد ثلاثة : سياسية ودينية واجتماعية.

ففى الجانب السياسى، شمل نفوذ العلويين بقيادة الحسن بن زيد فى هذه المناطق مدينة الرى وطبرستان والديلم (١٧)، وعلى المسار الروحى الدينى فإن أكثر أهل طبرستان قد اعتنقت المذهب الشيعى الزيدى الذى أسسه الحسن بن زيد، وقد انتشر المذهب الزيدى بمدينة الرى أيضا(١٨). ومن نتائج هذه الثورة على الصعيد الاجتماعى، أن العلويين أصبحوا يشكلون طبقة مميزة فى المجتمع لاسيما فى مدينة الرى(١٩).

إلا أن نفوذ الحسن بن زيد السياسى والعسكرى قد أثار حفيظة الأمراء الطاهريين ، فقرروا التخلص من نفوذ الطالبيين ليس فقط من الرى وإنما من جميع المدن التى يسيطر عليها الحسن بن زيد ، فقد تمكنوا من السيطرة على طبرستان واعتقال الحسن بن زيد مع جماعة من زعماء العلويين، مثل إدريس بن موسى بن عبدالله الذى يتصل نسبه بعلى بن أبى طالب، وأعاد الطاهريون نفوذهم على سائر المدن، ولكن الحسن بن زيد تمكن من الهرب (٢٠).

ويذكر المسعودى أن هناك حركة أخرى قام بها العلويون بمدينة الرى، قام بها أحمد بن عيسى بن حسن بن على ، الذى يتصل نسبه بعلى بن أبى طالب، وقد ظهرت هذه الحركة بعد القضاء على حركة الحسن بن زيد، وكان أحمد بن عيسى يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد اصطدم مع محمد بن طاهر فانهزم الأمير الطاهرى إلى بغداد(٢١).

وفى عهد الخليفة المعتز، وهو الزبير بن جعفر المتوكل، كان المتولى على مدينة الرى موسى ابن بغا ، وقد اجتهد موسى بن بغا فى محاربة الحسن بن زيد (٢٢)، وفى ذات الوقت كان

للأتراك نفوذ قوى وتسلط على الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم ، فأصبح الخليفة معهم مسلوب الإرادة لاحول له ولا قوة والأمر كله بيد الأتراك، وكان بيدهم عزل وتولية الخلفاء وإذا لزم الأمر- فى بعض الأحيان- عمدوا إلى قتله كما صنعوا مع الخليفة المعتز فى سنة (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) ، فلما أحست قبيحة وهى أم المعتز أن ابنها فى خطر استنجدت بموسى بن بغا أمير مدينة الري، ولكن موسى وصل بعد فوات الأوان، إذ أجهز عليه الأتراك وقتلوه وبايعوا المهتدى بالله، وهو محمد بن هارون الواثق بن المعتصم، وباشر أعماله فقد أمر موسى ابن بغا بالعودة إلى مدينة الرى ولكن موسى رفض الذهاب متعللا بأن جنوده يرفضون الذهاب ويصرون على البقاء في سامراء، ولكن الحقيقة أن موسى كان يضمر الشر فكان ينوى الايقاع بالخليفة، فقد وصلت عساكره إلى العراق فى مطلع سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) ، فاعتقلوا الخليفة المهتدى ونهبوا أمواله[٢٣]. وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها ظهر صاحب الزنج، واسمه على بن محمد بن عبد الرحيم، ويقول أنه من قرية ورزنين من أعمال الرى، ويدعى أن نسبه يتصل بعلى بن أبى طالب [٢٤].

وقد تمكن الحسن بن زيد العلوى الهارب من الطاهريين أن يكون له الأتباع ويستجمع قوته زمن الخليفة العباسى المعتمد على الله، وهو أحمد بن جعفر المتوكل، فتمكن الحسن من السيطرة على خراسان وجرها من بنى طاهر [٢٥]، كما استولى على طبرستان وتحصن بها، ومنها أخذ يشن هجماته على المدن المجاورة ، ففى سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) توجه نحو الرى واستولى عليها في شهر رمضان من هذه السنة، ولكنه عاد أدراجه إلى طبرستان بعد أن علم باستعداد موسى بن بغا لمحاربته [٢٦]، وقد تم لموسى بالفعل السيطرة على مدينة الرى فى شوال [٢٧].

وفى سنة (٢٥٧هـ / ٨٧٠م) عاد الحسن مرة أخرى إلى الرى، وقد كان الأمير عليها من قبل الخلافة العباسية، عبد العزيز بن دلف ، فلما علم بقدوم الحسن بن زيد واستعداده التام للحرب والنزال، تركها فى الحال ودخل الحسن المدينة وعين قائده القاسم بن القاسم بن على العلوى عاملا عليها، وكان أهل الرى يكرهونه لعلمهم بسوء أخلاقه ، فمن ضمن ما قام به من أعمال، إقتلاعه لأبواب المدينة الحديدية وبعثه بها إلى الحسن بن زيد ، وظل أميرا على مدينة الرى من قبل الحسن لمدة ثلاث سنوات [٢٨].

إن تعاظم نفوذ الحسن بن زيد باستيلائه على المدن الفارسية قد سبب انزعاجا للسلطة العباسية ، فأخذت تفكر فى اقتلاعه والتخلص منه، ففى سنة (٢٥٨هـ / ٨٧١م) توجه إليه موسى بن بغا على رأس قوة عسكرية وتمكن من طرده من بعض المدن التى كان يسيطر

عليها[٢٩]. وفي سنة (٢٥٩هـ / ٨٧١م) أرسلت الخلافة العباسية يعقوب بن ليث الصفار الذي تمكن من احتلال مدينة طبرستان ومدينة الري، فانهزم على أثرها الحسن بن زيد ، وقد عين يعقوب على الري شخصاً يدعى (الصلاني) [٣٠].

وقد أجرى الخليفة العباسي المعتمد تقسيمات إدارية في الدولة الإسلامية في سنة (٢٦١هـ/ ٨٧٤م) بين ابنيه : جعفر ولي عهده الملقب بالمفوض إلى الله، فقد ولاه على الأجزاء الغربية من الخلافة ، وبين ابنه الثاني أبي أحمد ولقبه الناصر لدين الله وولاه مشرق الدولة الإسلامية، ومن ضمن ولاياتها مدينة الري[٣١].

ويبدو أن حركات الحسن بن زيد لم تتوقف ، فقد قام بمحاولات لإعادة نفوذه ، ففي سنة (٢٦١هـ / ٨٧٥م) استطاع استرجاع مدينة طبرستان من أصحاب يعقوب بن ليث الصفار[٣٢]. إلا أن مدينة الري كانت تحت النفوذ العباسي وأميرها (الصلاني) الذي توفي سنة (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) وعين مكانه شخصا يدعى (كيغلغ) [٣٣]. ثم عزل عنها وعين مكانه (خطا لحجور) . وفي عهد الخليفة المعتمد تغلب (إساتكين) على الشرطة ، وهو أحد القادة في مدينة سجستان ، ولما قوى نفوذه توجه إلى الري واحتلها في سنة (٢٦٦هـ / ٨٧٩م) وطرد عنها عاملها (خطا لحجور) [٣٤].

وقد توفي الحسن بن زيد العلوي المتولي على طبرستان في سنة (٢٧٣هـ / ٨٨٣م)، وخلفه أخوة محمد بن زيد على السلطة ، وقدجرت بينه وبين (إتكوتكين) ؛ أو (إرلزيكيس) كما يسميه ابن كثير في البداية والنهاية، وهو المتولي على قزوين، جرت بينهما منافسة في السيطرة على مدينة الري، ودار بينهما قتال عنيف في سنة (٢٧٢هـ / ٨٧٥م) تغلب فيه (اتكوتكين) واحتل مدينة الري، وثبت نفوذه على سائر المدن المجاورة ووزع عليها عماله [٣٥]. وأخذ من أهل مدينة الري مائة ألف دينار غرامة، ربما لموقفهم العدائي منه أثناء نزاعه مع محمد بن زيد [٣٦].

وفي ذات الوقت كانت لرافع بن الليث الصفار تحركات في المنطقة، فقد قوى نفوذه، فوضع يده على بعض القرى الهامة التابعة لمدينة الري رغم احتجاجات الخليفة العباسي المعتضد، وهو أبو العباس أحمد بن طلحة [٣٧]، ولم نر (لأتكوتكين) أي نشاط إزاء هذه الاعتداءات، فكتب الخليفة إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف في سنة (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) في إخراج رافع من المدينة، وقد جرت بين الطرفين حروب لأيام عديدة أسفرت عن هزيمة رافع وطرده من البلاد[٣٨].

أما محمد بن زيد العلوى المتولى على طبرستان ، فقد أصبحت له قوة كبيرة فى سنة (٢٨١هـ / ٨٩١م) ، فقد قام بمحاولات لإعادة نفوذه على مدينة الرى، هذه الأوضاع دفعت الخليفة المعتضد إلى الذهاب بنفسه إلى تلك المناطق وزيارة بلاد الجبل، التى تتبع من الناحية الإدارية مدينة الرى [٣٩].

وقد أجرى بعض التقسيمات الإدارية فى الدولة الإسلامية، كما صنع بعض أسلافه من خلفاء الدولة العباسية، فقد كان الغرض منها يرتبط بهدفين الأول: سياسى وهو المحافظة على النفوذ العباسى فى تلك المناطق النائية عن مقر الخلافة، والثانى: أراد الخليفة أن يتحاشى حدوث النزاع بين أبنائه بعد وفاته، ففى سنة (٢٨١هـ) ولىّ ابنه الأمير على الملقب بالمكتفى على مدينة الرى وقزوين وزنجان وأبهر وقم وهمذان ونهاوند والكرج[٤٠] ، وقد أناب المكتفى عنه على الكرج ونهاوند أحمد بن عبد العزيز [٤١]، ولم يمكث الأمير علىّ طويلا فى بلاد المشرق، فقد بعث والده المعتضد وزيره عبدالله بن سليمان فى سنة (٢٨٢هـ / ٨٩٢م) يستدعى الأمير علىّ [٤٢]. ولم تكن علاقة المعتضد طيبة بالأمراء الصفاريين، فقد كان غاضبا على الأمير عمرو بن الليث الصفار إلا أنه عفى عنه فى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) وأسند إليه ولاية الرى، وبعث إليه بالخلع والهدايا[٤٣].

وبعد موت المعتضد تولى ابنه المكتفى بالله، وهو على بن أحمد الخلافة ، فعين (إغرتمش) التركى عاملا على الرى، ولكن هذا كان حاكما ظالما، فقد ساد الظلم فى عهده فأراد أهل مدينة الرى التخلص منه، فاجتمع كبراؤها وأعيانها وقرروا استدعاء محمد بن هارون؛ وكان من قواد رافع بن هرثمة، وقد اكتسب هذا القائد شهرة كبيرة لاسيما بعد قضائه على محمد ابن زيد العلوى أمير طبرستان ، وقد جاء محمد بن هارون إلى مدينة الرى بعد مكاتبات سرية جرت بينه وبين البارزين من أهلها، واستطاع التغلب على (إغرتمش) ، وقد أسفرت هذه المعركة عن قتل (إغرتمش) وقتل ابنيه وأخيه (كيغلغ) واحتل ابن هارون المدينة ، إلا أن الخليفة تدارك الموقف بسرعة، فبعث مولاه (خاقان المفلحى) فى سنة (٢٨٩هـ / ٩٠١م) على رأس قوة عسكرية كبيرة لكنها لم تصل إلى مدينة الرى ولم نعرف الظروف التى حلت بها ، فبعث الخليفة المكتفى بالله إلى اسماعيل بن على وهو المتولى على بلاد ما وراء النهر، فأسند إليه إضافة إلى عمله الولاية على الرى ومحاربة محمد بن هارون، فتوجه إسماعيل إلى الرى وتمكن بعد معارك من هزيمة محمد بن هارون وأحكم سيطرته على الرى ، فهرب محمد بن هارون إلى

بلاد الديلم ، فبعث وراءه وتم اعتقاله وسجن في مدينة بخارى ومات في سجنه سنة (٢٩٠هـ / ٩٠٢م) [٤٤].

ولما تولى المقتدر بالله، وهو جعفر بن أحمد الخلافة أسند إلى ابنه الأمير عليّ في سنة (٣٠١هـ / ٩١٣م) ولاية المشـــرق، وهي تضم : الري ودنبـــاوند وقـــزوين وزنجـــان وأبهـــر وأذربيجان[٤٥].

في الحقيقة فإن الضعف الذي أصاب الخلافة العباسية في مدينة بغداد زمن الخليفة المقتدر، من جراء الاضطرابات الداخلية، قد ألقى بظلاله على الولايات الإسلامية سياسيا واقتصاديا ، لاسيما الولايات الشرقية، فقد ضعف ولاؤها للخلافة ، وبعضها استقل بولايته ولم يعد يدفع الخراج للخلافة العباسية ببغداد، كما صنع أحمد بن علي صعلوك، الذي أصبح عاملا على الري بأمر من الأمير الخراساني نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني دون علم الخليفة المقتدر[٤٦]. وفي سنة (٣٠٤هـ / ٩١٦م) قام يوسف بن أبي الساج المتولي على أرمينية وأذربيجان ، بهجوم على مدينة الري ، فهرب عاملها أحمد بن علي صعلوك إلى نواحي خراسان فاحتل ابن أبي الساج المدينة، مدعيا أن ما قام به كان بأمر من الوزير علي بن عيسى، وزير المقتدر، ولكن بعد التحقيق تبين كذب وزيف يوسف بن أبي الساج، فبعث الخليفة إليه جيشا ولكن أبي الساج تمكن من دحر هذا الجيش، وأسر البارزين من قواده وطيف بهم في شوارع مدينة الري ، فبعث الخليفة جيشا اخر بقيادة مؤنس، فاضطر يوسف بن أبي الساج إلى التسليم وطلب العفو والمصالحة ، حين عرض على القائد مؤنس بأن يستمر في ولايته على الري مقابل أموال يدفعها لبيت المال في كل سنة مقدارها سبعمائة ألف دينار[٤٧]، ولكن الخليفة المقتدر رفض هذا العرض بشدة قائلا: (لو بذل ملء الأرض لما أقره على الري يوما واحدا لإقدامه على التزوير) [٤٨]. هذه العبارات تنم عن مدى غضب الخليفة من تصرفات يوسف بن أبي الساج، ورفضه القاطع على تعيينه عاملا على الري.

فلما يئس يوسف بن أبي الساج من الولاية ترك مدينة الري، ولكنه قبل أن يتركها أمر بجباية أهلها لسنة كاملة وهي سنة ٣٠٤هـ وكان ذلك في غضون أيام قلائل لاتتجاوز العشرة، هذا فضلاً عن الدمار الذي لحق بالمدينة عند تركه إياها، وقد صدرت أوامر الخليفة بتقليد (وصيفا البكتمري) أمر الولاية على قزوين ومدينة الري، إلا أن الحروب لم تتوقف بين مؤنس ويوسف بن أبي الساج ، وقد انتهت بأسر ابن أبي الساج وإحضاره إلى بغداد[٤٩].

هذه الحروب قد تسببت فى إتلاف خزينة الدولة إلى حد الإفلاس، فقد كلفتها الكثير من الأموال، وقد تسببت حتى فى إرباك الجهاز الإدارى داخل بغداد، فمن نتائجها عزل الوزير علىّ بن الفــرات فى سنة (٣٠٦هـ / ٩١٨م) (٥٠)، ويشـرح لنا ابن مسكويه صاحب كتاب تجارب الأمم أسباب العزل، ويقول : إن السبب الرئيسى فى عزل الوزير ابن الفرات ، هو تأخره عن دفع رواتب جماعات من الفرسان ، لعدم توفر الأموال بسبب ما قام به يوسف بن أبى الساج من مصادرته لمال الخراج الخاص بمدينة الرى، وحال دون وصوله إلى بغداد ، مما أدى إلى تمرد الفرسان، ومن ثم عزل الوزير ابن الفرات ، فالعامل الاقتصادى إذا كان وراء العزل(٥١).

إمارة أحمد ومحمد ابنى صعلوك على الرى :

إن أحمد بن على صعلوك ، الهارب إلى نواحى خراسان قد استفاد من هذه الأوضاع ، كما استغل فرصة غياب الجيش العباسى عن الساحة وعن الرى فتحرك بجيشه من مدينة قم متوجها نحو الرى فغزاها واحتلها إلا أن استنكارات الخليفة العباسى أرغمته على الخروج من المدينة، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى واحتلها وأحكم سيطرته عليها، رغم اعتراضات الخليفة، فاضطر الخليفة إلى إرسال جيش، إلا أن أحمد تمكن من دحر هذا الجيش، وقتل قادته، ثم بعث يطلب من الخليفة أن يقره على الرى مقابل أموال يدفعها فى كل سنة إلى بيت المال، وكان مقدارها مائة وستين ألف دينار ، فقبل الخليفة هذا العرض مضطرا، ولم تكن هذه الأموال عن الرى وحدها، بل تشمل أيضا مدينة قزوين وزنجان ودنباوند وأبهر ، وهذا دليل على أن الخلافة العباسية تمر فى ظروف اقتصادية وسياسية صعبة لقبولها مثل هذا العرض(٥٢) .

واستمر أحمد بن على صعلوك يدفع في كل سنة الأموال المقررة عليه، ففى سنة (٣٠٨هـ / ٩٢٠م) بعث أخاه إلى بغداد حاملاً الأموال والهدايا والتحف إلى الخليفة المقتدر، ليجدد له الولاء بالعهد (٥٣).

أما يوسف بن أبى الساج ، فإنه مكث فى السجن حتى سنة (٣١٠هـ / ٩٢٢م) ثم بعد ذلك عفا عنه الخليفة بعد أن توسط له مؤنس، فأطلق سراحه ، وأمر بمكافأته وعقد له على الرى وقزوين وأبهر وزنجان وأذربيجان ، وقرر عليه أن يدفع كل عام لبيت المال مبلغ خمسمائة ألف دينار ، ويضاف إلى ذلك دفع رواتب الجند بهذه المدن ، فوافق يوسف بن أبى الساج على ذلك(٥٤). وقد أبرم الخليفة هذه الاتفاقية مع ابن أبى الساج بعد أن قام أحمد بن على صعلوك

بنقض ما كان معقوداً بينه وبين الخليفة من اتفاق ، فذهب يوسف بن أبى الساج فى سنة (٣١١هـ/ ٩٢٣م) إلى الرى ودخلها عنوه [٥٥]، وقد قتل أحمد بن على صعلوك أثناء هذا النزاع، وبعث برأسه إلى الخليفة المقتدر ببغداد، وتوجه ابن أبى الساج من الرى إلى همذان، بعد أن خلف على الرى غلامة (مفلح) ولكن أهل الرى ثاروا عليه وعزلوه ، فلحق بابن أبى الساج، وقد مضت سنتان، ولانعرف ما إذا كان أهل الرى قد عينوا عليهم حاكما خلال هذه المدة، ولكن كل ما نعرفه أن ابن أبى الساج عاد إلى مدينة الرى فى جمادى الآخرة سنة (٣١٣هـ / ٩٢٥م) واحتل المدينة وعين عليها غلامه (فاتك) [٥٦].

السامانيون ومدينة الرى :

لقد أصبح يوسف بن أبى الساج يتولى نواحى المشرق بما فيها مدينة الرى، وقد طلب منه الخليفة المقتدر فى أواخر سنة (٣١٣هـ) التوجه إلى مدينة هجر بالبحرين لمحاربة أبى طاهر سليمان القرمطى [٥٧]، وعند مغادرة ابن أبى الساج كان (فاتك) يتولى أمر الرى، وقد أراد الخليفة المقتدر إبعاد (فاتك) عن مدينة الرى، فكتب المقتدر إلى السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فى مطلع سنة (٣١٤هـ / ٩٢٦م) بضم الرى إلى ولايته، مما يدل على عدم إخلاص (فاتك) للخلافة العباسية ، فلما وصل كتاب المقتدر إلى السعيد نصر، توجه فى الحال إلى مدينة الرى واحتلها ، فترك (فاتك) المدينة ودخلها السعيد نصر فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأقام بها شهرين ثم تركها بعد أن ولى عليها (سيمجور الدواتى) ، ثم عزله وولى عليها محمد بن على صعلوك أخ أحمد صعلوك الأمير السابق لمدينة الرى، الذى قتل على يد يوسف بن أبى الساج. وهنا ملاحظة جديرة بالانتباه ؛ وهى : أن الأمير السعيد نصر يتمتع بصلاحيات إدارية واسعة حيث أنه يعزل ويعين الولاة على مدينة الرى دون الرجوع إلى الخليفة العباسى وهذا ربما يعطى مؤشرا على مدى ضعف نفوذ الخليفة العباسى فى تلك المناطق. على أية حال استمر محمد بن على صعلوك أميرا على الرى حتى سنة (٣١٦هـ / ٩٢٨م) ، وقد مرض محمد ولما أحس بدنو أجله كاتب العلويين ليسلم إليهم الأمر بمدينة الرى، فبعث إلى الحسن بن القاسم الحسنى الداعى أمير الديلم وإلى قائده (ماكان بن كالى) ، فقدما المدينة واستلما السلطة فى سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م) ومات محمد بن على صعلوك بعد هذا التاريخ بقليل[٥٨].

وهذا يعنى أن محمد بن على صعلوك قد أخرج مدينة الرى من يد السامانيين الموالين للسلطة العباسية إلى العلويين أعدائهم التقليديين، وقد تولى الحسن بن القاسم الداعى السلطة

بالرى، وقد أظهر العدل والاستقامة فى حكمه للبلاد فأحبه الناس، إلا أن (أسفار بن شيرويه) المتولى على طبرستان من قبل السعيد نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان ، لم يدعه يهنأ بحكم الرى، فقد جره إلى حروب انتهت بمصرعه، وقد كان للخيانة التى قام بها بعض المقربين دور بارز فى مقتل الحسن الداعى، واستولى على السلطة بمدينة الرى (أسفار بن شيرويه)، وامتد سلطانه على طبرستان وجرجان وزنجان وقزوين وأبهر وقم، وأمر بالدعاء فى هذه المدن لصاحب خراسان ، الأمير السعيد نصر الساماني(٥٩).

غير أن المسعودى عند حديثه عن هذا الموضوع، لايرى أن هناك تواطئا تم بين محمد بين على صعلوك وبين الحسن بن القاسم الحسنى الداعى ضد العباسيين لاحتلال مدينة الرى، وإنما يقول: إن الحسن بن القاسم الداعى أتى على رأس قوة عسكرية معظمها من الديالمة يقودها (ماكان بن كالى) الديلمى، فاحتل مدينة الرى وقزوين وزنجان وقم وأبهر، كان ذلك فى سنة (٣١٧هـ) ، ولما علم الخليفة المقتدر بالله بهذا الأمر، كتب إلى السعيد نصر بن أحمد السامانى المتولى على خراسان ، مؤنبًا على هذا الإهمال ويطالبه بالإسراع فى إخراج الحسن بن القاسم الداعى من مدينة الرى وسائر المدن الأخرى التى استولى عليها، ومما جاء فى خطابه إلى نصر السامانى قوله : (إنى ضَمَّنْتُكَ المال والدم، فأهملت أمر الرعية ، وأضعفتها وأهملت البلد، حتى نَخَلَتْهُ المبيضة) ؛ يعنى بذلك الحسن الداعى وأتباعه (٦٠).

وقد قام (ماكان بن كالى) قائد الحسن الداعى بعد ذلك بمحاولات لإعادة نفوذ العلويين إلى الرى ، فقد استغل فرصة غياب (أسفار) عن الرى فانقض عليها، ولكن (أسفار) تمكن من إعادة نفوذه ، وعلى أثر ذلك هرب (ماكان) (٦١).

أسفار بن شيرويه يتمرد ويستقل بحكم الرى:

لقد حقق أسفار انتصارات على المناوئين له ، وكان لايتورع من استعمال المكايد والحيل فى سبيل القضاء على أعدائه ، فكون له قوة عسكرية ضاربة فى المنطقة، فأصبح مرهوب الجانب، ، هذه القوة دفعته إلى الاستقلال عن التبعية التى تربطه بالسعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فخرج عن طاعته ، ومن مظاهر طغيانه وغروره وتجبره ، أنه وضع تاجا على رأسه وعملوا له سريرا من ذهب ليجلس عليه ويمارس أعماله، وتمرد على الخليفة وأعلن الحرب عليه وعلى أمير خراسان نصر السامانى، فبعث الخليفة إليه جيشا بقيادة هارون بن غريب، وسلك هذا الجيش طريق قزوين ، وقد لقى هذا الجيش مساعدات طيبة من أهل قزوين لكراهيتهم (لأسفار) ، ولكن (أسفار) تمكن من دحر هذا الجيش(٦٢).

هذا التمرد الذى قام به (أسفار) قد أثار حفيظة الأمير السامانى السعيد نصر، فقام بغزو الرى، وكادت الحرب تقع بين الجانبين لولا توسط مطرف بن محمد الجرجانى وزير (أسفار) ، فقد أشار على (أسفار) الدخول فى طاعة أمير خراسان وبذل المال، فإن قبل وإلا فالحرب، فوافق (أسفار) على هذا الرأى ، أما أمير خراسان فقد تردد أول الأمر ثم قبل بعد ذلك ، وتم الصلح على هذه الشروط ، وقد جبى (أسفار) هذه الأموال من أهل مدينة الرى وأعمالها ، فقرر على كل إنسان ديناراً وحتى المسافرين عابرى الطريق لم يسلموا من هذه الضريبة، ، فقد جمع من الأموال ما زاد عن المقدار المطلوب، وقد استفاد من هذه الأموال فى تكوين الجيوش ، فزاد بذلك طغيانه وغروره ، وعمد إلى أهل قزوين الذين ساعدوا جيش الخليفة المقتدر وأراد أن ينتقم منهم ، فنكل بهم وقتل الكثير منهم حتى أنهم فروا من منازلهم إلى الصحراء ، وذكروا أنه لما سمع المؤذن يقول : الله أكبر أمر به فألقى من على المنارة إلى الأرض، فهذه الأعمال تشهد على طغيانه وكفره [٦٣].

مرداويج قائد أسفار يستولى على السلطة بالرى:

وقد ولدت هذه الفظائع التى اغترفها (أسفار) الحقد والكراهية لدى الناس، فأرادوا التخلص منه ومن أعوانه ، وقد انفجر ذلك على شكل ثورة قادها مرداويج ؛ أحد كبار القادة فى جيش (أسفار) بالاتفاق مع (ماكان بن كالى) الموجود فى طبرستان ، وقد أيد الجيش هذه الثورة مما ساعد على نجاحها ، وكان جل اعتماد (مرداويج) على الديالمة الذين ينتمى إليهم، فكانت أعدادهم كبيرة فى مدينة الرى، وقد انتهت هذه الثورة بمقتل (أسفار) ، وتسلم السلطة (مرداويج) ، وخضعت له جميع المدن التى كانت تحت نفوذ (أسفار) مثل قزوين وهمذان وقم وقاشان وغيرها، وقد بدأ (مرداويج) عهده بالعدل والإحسان إلى أهل مدينة الرى وأعمالها، ولكنه ما لبث أن انقلب فأحل الظلم والطغيان محل العدل والتواضع ، فمن هذه الأعمال السيئة التى قام بها ، مصادرته أموال بعض التجار، وسار على نهج (أسفار) فى الغرور والتكبر، فقد جلس على أسرة الذهب والفضة وكان يقول: أنا سليمان بن داود ، وعمد إلى التنكيل بأهل الرى ولم يتورع عن قتل النساء وحتى الصبيان والأطفال فى المهد، ووضع الحجّاب ، فابتعد عنه الناس خوفا من بطشه ، وحتى صديقه ورفيقه فى الثورة (ماكان بن كالى) لم يسلم من شره، فقد استولى على جرجان وطبرستان وطرد عنها (ماكان) [٦٤].

ومن الطبيعى أن يهتم (مرداويج) بالناحية العسكرية ، فقد كون له قوة عسكرية كبيرة. وبذل الأموال بسخاء على جنده ليضمن ولاءهم، فهذه الأموال التى تدخل خزائن (مرداويج)

كان مصدرها غنائم الحروب، من جراء ما كان يقوم به من غزو جيرانه، فقد هاجم همذان واحتلها وقتل الكثير من أهلها، ونهب أموالهم وسبى نساءهم وأحرق محلاتهم، ولم يتمكن جيش الخليفة المقتدر أن يصنع شيئا ، فأذعن له أهلها بالطاعة ، كما احتل بلاد الجبل ووصلت جيوشه إلى مدينة حلوان ، ومن جراء هذا الغزو تكدست الأموال فى خزائنه (٦٥). ونظير هذه الأموال لم نجد (لمرداويج) أى اهتمامات تذكر فى النواحى العمرانية التى يستفيد منها العامة والخاصة من أهل مدينة الرى، كذلك لم نجد له اهتماما بالنواحى الاقتصادية ؛ كالزراعة أو الصناعة أو التجارة، بل كان جل اهتمامه منصباً على الناحية العسكرية.

ويلاحظ أن نفوذ (مرداويج) لم يكن قويا على المدن البعيدة عن مدينة الرى، لذلك كانت تنفصل عنه كلما سمحت الظروف بذلك، ففى سنة (٣٢١هـ / ٩٣٣م) قام (مرداويج) بغزو جرجان بهدف إعادتها إلى نفوذه، وكان ذلك بتحريض من وزيره مطرف بن محمد ، وكانت تحت نفوذ السعيد نصر بن أحمد السامانى، وقد اكتشف (مرداويج) فى اللحظة الأخيرة أن وزيره كان يتآمر عليه بتواطئه مع جماعة موالية لنصر السامانى، فاعتقله وأمر بقتله، ولما وجد أنه لاطاقة له بمحاربة السعيد نصر ، كما أنه فى ذات الوقت فى وضع لايمكنه من العودة، اضطر إلى طلب الصلح من السعيد نصر على أن يدفع مقداراً من المال مقابل حماية مدينة الرى ودرء الخطر عنها (٦٦).

ومن الأعمال العسكرية التى قام بها (مرداويج)، احتلاله لمدينة إصفهان فى سنة (٣٢١هـ) ومنها توجه إلى مدينة الأهواز(٦٧) فى سنة (٣٢٢هـ / ٩٣٣م) حتى يقطع الطريق أمام عماد الدولة بن بويه (٦٨)، الذى كان ينوى الذهاب إلى الخليفة الراضى بالله، وهو محمد بن جعفر المقتدر ببغداد (٦٩)، ويذكر ابن مسكويه أن الخليفة بعث برسالة إلى (مرداويج) يطلب منه التخلى عن إصفهان مقابل الاعتراف له بالشرعية لولاية مدينة الرى وأعمالها والجبل، فأبدى (مرداويج) الموافقة على طلب الخليفة (٧٠). وفى ذات الوقت طلب الخليفة من قائده محمد بن ياقوت الموجود بمدينة واسط بأن لايدع (مرداويج) يحتل مدينة الأهواز ، فتوجه ياقوت نحو مدينة الأهواز، وهناك دار قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة (مرداويج) وقتله فى هذه المعركة(٧١)، وبهذه الخطة التى رسمها الخليفة الراضى يكون قد فوت الفرصة على (مرداويج) وتخلص منه نهائيا ، بينما يذكر ابن مسكويه أن الأتراك هم الذين قتلوا (مرداويج) وهو فى الحمام(٧٢).

ولابد لنا من الإشارة إلى الأضاع السياسية التى تقع خارج مدينة الرى، لأنها، أى مدينة الرى، تتأثر وتتفاعل سياسيا مع جيرانها وحتى مع المدن البعيدة عنها، فما يجرى فى مدينة الرى من أحداث ووقائع يتصل إتصالا وثيقا بالأجواء السياسية المحيطة بها .

ويعلق ابن طباطبا على الوضع السياسى القائم إبان هذه الفترة من خلافة الراضى فى سنة (٣٢٢هـ) حيث الإنقسامات والإنفصالات والاستقلالات بحكم الولايات عن الخلافة العباسية، فيقول : أن الخلافة قد ضعف أمرها، فخراسان بيد السامانيين وبلاد فارس يسيطر عليها بنو بويه، ومدينة الرى وإصفهان والجبل بيد الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة بيد الحمدانيين (٧٣)، فكما هو واضح فإن السلطة قد انتزعت من يد الخليفة فى هذه المناطق التى أشرنا إليها .

ويذكر ابن الأثير أنه بعد مقتل (مرداويج) استولى على السلطة بالرى أخوه (وشمكير بن زيـار) (٧٤)، وقد كانت الحروب مع بنى بويه الذين أخذ نفوذهم يتنامى ويتعاظم فى الأجزاء الشرقية من الخلافة العباسية، ففى سنة (٣٢٧هـ / ٩٣٨م) قام (وشمكير) بغزو مدينة إصفهان ، وكان المتولى عليها أبو الحسن بن بويه، الملقب بركن الدولة ، فتمكن (وشمكير) من احتلال المدنية وطرد بنى بويه عنها (٧٥).

وفى أثناء النزاع الدائر ما بين (ماكان بن كالى) المتولى على جرجان وبين الأمير السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان فى محرم سنة (٣٢٨هـ / ٩٣٩م)، كان (وشمكير) قد اتخذ موقفا أيد فيه (ماكان بن كالى) ، فقد أمده بالمساعدات العسكرية، ولكن القائد السامانى (أبا على محتاج) استطاع أن يحقق النصر على (ماكان بن كالى) ، فاحتل جرجان، فهرب (ماكان) إلى طبرستان (٧٦). كذلك تمكن ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه من إعادة نفوذه على مدينة إصفهان فى سنة (٣٢٨هـ) ، وأخذ ركن الدولة يعمل على احتلال مدينة الرى وسائر أعمالها ، ووجد أنه لايتم له ذلك إلا بالتخلص من (وشمكير)، لذلك فإنه اتصل بأخيه عماد الدولة كى ينسق معه حتى يتم تحقق هذا الغرض (٧٧)، واتصل ركن الدولة بالقائد السامانى أبى على محتاج يحرضه على غزو الرى، وقد أظهر استعداده على مساعدته عسكريا، فركن الدولة يريد أن يحقق من وراء ذلك هدفين ، الأول : إضعاف (وشمكير) إذا ما دخل فى حرب مع أبى على محتاج . ثانيا : إذا ما تحقق النصر لأبى على محتاج واحتل الرى فهو لايشكل خطرا عليهم كما هو الحال مع (وشمكير) ، فضلا عن أن القائد محتاج كان حليفا لهم، وهو فى ذات الوقت أضعف من أن يدير السلطة بالرى وأعمالها، بالإضافة إلى ما بيده من ولاية خراسان وجرجان ، فهذا سوف يمكن ركن الدولة من تحقيق هدفه، وهو احتلال الرى(٧٨).

فأخذ ركن الدولة يحيك الخطة ويدبرها حتى أنه أقنع القائد أبا على محتاج، وربما كانت قناعة أبى على محتاج بدافع من الرغبه فى السيطرة على مدينة الرى ، فتوجه فى سنة (٣٢٩هـ / ٩٤٠م) نحو الرى، واستعد (وشمكير) للقائه وطلب من حليفه (ماكان بن كالى) الموجود بطبرستان المساعدة ، فلبى طلبه، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن انتصار أبى على محتاج ، وقتل (ماكان بن كالى) وهرب (وشمكير) من الرى، ودخل أبو على محتاج المدينة(٧٩) ، وبعد مضى سنتين من إحتلال الرى، عمد أبو على محتاج إلى المدن المجاورة، مثل همذان وقزوين وقم واحتلها، ووصل إلى مشارف مدينة حلوان(٨٠).

وقد مات الأمير السعيد نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان، فى سنة (٣٣١هـ / ٩٤٢م)، فرجع القائد أبو على محتاج إلى خراسان، فاغتنم (وشمكير) هذه الفرصة وانقض على الرى واحتلها، ولكن بنى بويه كانوا له بالمرصاد، وهما ركن الدولة وأخوه عماد الدولة ، اللذان كانا يخططان من قبل لإحتلال مدينة الرى، فلم يدعاه يهنأ طويلا باحتلالها ، ومما شجعهما على ذلك ما نمى إلى علمهما من ضعف قدراته العسكرية ، لذلك قاما بمباغتته واحتلال المدينة (٨١).

ولكن الأمير السامانى الجديد وهو نوح بن أحمد بن نصر ، الذى خلف أباه على الإمارة، قرر إعادة مدينة الرى من بنى بويه، لذلك فقد بعث قائده أبا على محتاج فى سنة (٣٣٣هـ / ٩٤٤م) على رأس قوة عسكرية من العساكر الخراسانية إلى مدينة الرى، وقد لجأ (وشمكير) إلى الأمير نوح السامانى، مستأمنا ، فأحسن إليه وبالغ فى إكرامه، أما أبو على محتاج فإنه خسر المعركة أمام بنى بويه، والسبب الرئيسى فى هزيمته خيانة أتباعه(٨٢).

وفى شهر صفر من سنة ٣٣٣هـ بعث الأمير نوح ب نصر السامانى جيشا بقيادة (وشمكير) إلى جرجان بقصد احتلالها ، وكان يتولاها الحسن بن فيزران، وقد احتلها (٨٣). وفى ذات الوقت أعد الأمير نوح جيشا آخر بقيادة أبى على محتاج لغزو الرى، ولما علم ركن الدولة بكثافة أعداد جنوده القادمة ، ترك الرى فاستولى أبو على محتاج عليها وعلى منطقة الجبال فى شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ (٨٤).

هذا الانتصار الذى حققه القائد أبو على محتاج، جعل المخاوف والشكوك تساور الأمير نوح السامانى من قائده ، فأراد أن يحد من سلطانه ، فجعل نفوذه مقتصرا على الرى ومنطقة الجبال فقط بعدما كان نفوذه يمتد إلى خراسان، وقد فطن القائد أبوعلى محتاج إلى نوايا

الأمير نوح ، ولم يكتف الأمير نوح بذلك، بل بعث بشخص إلى مدينة الرى وأعطاه صلاحيات واسعة فى ممارسة بعض الأعمال داخل مدنية الرى، والغرض من ذلك هو الحد من سلطات ونفوذ القائد أبى على محتاج، هذه الشخصية التى أرسلها الأمير نوح قد أساءت كثيرا إلى الجند فى تنفيذ معاملاتهم ومطالبهم وتوزيع أرزاقهم ، فتضايقوا منه واتفقوا على طرده من بلادهم، وقد أطلعوا القائد أبا على محتاج على ذلك، وطلبوا منه المساعدة ، ولكنه امتنع فهددوه بالقبض عليه فأجابهم إلى طلبهم(٨٥).

وهذا العمل يعتبر فى حد ذاته تمردا على السلطة السامانية فى مدينة الرى، وكان لهذا التمرد أبعاد وصلت إلى مدنية خُراسان ، فقد قام أهلها باقصاد أميرهم نوح عن السلطة وتعيين عمه إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل ، ولكن فوجئ أهل خراسان أن أميرهم إبراهيم لاتتوفر فيه الكفاءة والمقدرة للحكم، وعجز عن إدارة الأمور، وقد أحس الأمير بذلك، فاتفق سرا مع جماعة على خلع نفسه عن الإمارة، هذه الأجواء المضطربة كانت فرصة أمام نوح بن نصر للعودة إلى الإمارة، وقد نجح بالفعل وأعاد نفسه إلى السلطة(٨٦).

وبعد أن استقرت الأوضاع فى خراسان أراد الأمير نوح أن يقتص من قائده الخائن ، أبى على محتاج ، الذى تسبب فى حدوث الاضطرابات فى مدينة الرى، فبعث إليه العساكر لقتاله، فاستعد أبو على محتاج للقتال ، ودارت بينهما معارك طويلة كان أخرها فى سنة (٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، هذه الحروب ذكرها ابن الأثير، الذى يقول : إنه اعتمد على المصادر الفارسية فى نقل هذه الوقائع ولكن دون أن يشير إلى أسماء هذه المصادر(٨٧).

البويهيون يسيطرون على الرى وسائر أعمالها :

لقد استغل ركن الدولة بن بويه هذه الحروب الدائرة بين أبى على محتاج وبين الأمير نوح ابن نصر الساماني، وكان لركن الدولة من القوة ما مكنه من إحتلال مدينة الرى وسائر أعمالها، مثل منطقة الجبل وبلاد فارس والأهواز، وأزال عنها النفوذ الخراساني ، فأصبح بنو بويه يشكلون قوة عسكرية كبيرة فى مدينة الرى وفى باقى المدن(٨٨). فمدينة الرى التى أصبحت وهى فى ظل حكم أبى على بن بويه مناوئة للأمير نوح بن نصر السامانى أمير خراسان وما وراء النهر، فحل العداء بين الجانبين، فقد كان ركن الدولة يؤيد الحركات المناوئة للأمير نوح ويساعدها بقصد إضعافه ، من ذلك أنه فى شهر رجب سنة (٣٣٦هـ / ٩٤٧م) أيد

حركة محمد بن عبد الرزاق، وهو من المعارضين للأمير نوح، وأمده بالأموال، وكان محمد قبل خروجه على الأمير نوح يتولى أعمال مدينة طوس وتوابعها؛ وطوس تقع فى الشمال الشرقى من إيران[٨٩].

وأخذ ركن الدولة يعمل على تعزيز نفوذه بمدينة الرى وأعمالها ، فأسس له قوة عسكرية كبيرة كان الغرض منها المحافظة على حدوده، أو التوسع على حساب جيرانه كلما سمحت الفرصة بذلك . ففى ربيع الأول سنة (٣٣٦هـ) اتفق مع الحسن بن فيزران، الذى كان أميرا على جرجان لاحتلال مدينة طبرستان ، وكان يتولاها (وشمكير) أمير الرى السابق، فاحتلها وهرب (وشمكير) إلى خراسان طالبا المساعدة لإعادة نفوذه، وقد واصل ركن الدولة غزواته فاحتل مدينة جرجان أيضا[٩٠].

هذه الانتصارات الناجحة التى حققها ركن الدولة قد أثارت حفيظة السامانيين حكام خراسان وما وراء النهر، فأخذوا يعملون للحد من قوته ، فقد بعث الأمير نوح السامانى قائده وصاحب جيوشه ، منصور بن قرتكين على رأس قوه عسكرية كبيرة يصحبه (وشمكير) ، فاستعد ركن الدولة للقاءهم، فطلب المساعدة من أخيه معز الدولة، الذى كان حاكما على بغداد خلال هذه الفترة، وكانت علاقته بأخيه طيبة وثيقة يسودها الاحترام، إلا أن معز الدولة كان مشغولا فى حربه مع ناصر الدولة حاكم الموصل، فأضطر إلى طلب المصالحة مع ناصر الدولة حتى يتسنى له إرسال المساعدات إلى أخيه ركن الدولة، فهيأ العساكر وبعثها إلى أخيه، ولكن لم يحدث قتال لأن الجيش الخراسانى المتجه صوب الرى، توقف عند مدينة جرجان ولم يذهب إلى الرى لوقوع خلافات بين القائد منصور بن قراتكين وبين الأمير نوح بن نصر السامانى ، وذكروا أن أسباب هذه الخلافات تتصل بقضايا أسريه ، هذه الأوضاع دفعت القائد منصور إلى مصالحة الحسن بن فيزران أمير جرجان السابق وسلمه المدينة[٩١].

وفى الحقيقة فإن تحرك العساكر الخراسانية لغزو مدينة الرى قد شجع أمراء آخرين القيام بغزوها، من ذلك ما قام به المرزبان محمد بن مسافر حاكم أذربيجان فقد قرر غزوها، لاسيما وأن هناك دوافع أخرى قد شجعته على ذلك منها : أولا- العداء الذى كان بينه وبين معز الدولة أخى ركن الدولة ، فقد أهان معز الدولة رسل المرزبان. ثانيا أن عددا من قوات ركن الدولة وأفراد جيشه المنشقين عليه لجئوا إلى المرزبان محمد بن مسافر ، وقام هؤلاء القواد المنشقين بتحريض المرزبان محمد وسهلوا له عملية غزو الرى، وقالوا: بأن معظم قادة الجيش

بمدينة الرى يميلون إليه ؛ أى إلى المرزبان . ثالثا - أن حاكم الموصل ناصر الدولة قد بعث برسالة إلى المرزبان محمد يعده فيها بتقديم المساعدات العسكرية إن هو قام باحتلال الرى[٩٢].

هذه الأمور قد أكدت العزيمة فى نفس المرزبان محمد، على غزو مدينة الرى، ولكن يجب أن ننتبه إلى أن المساعدات العسكرية التى يريد ناصر الدولة تقديمها للمرزبان محمد لم تكن لوجه الله أو حبا فى المرزبان، وإنما هذه المساعدات تسيرها مصالح سياسية، فقد أراد ناصر الدولة إلهاء البويهيين فى هذه الحروب حتى يتيسر له تثبيت نفوذه على الموصل وباقى المناطق المجاورة ، وفى ذات الوقت فإن استمرارية هذه الحروب التى يخوضها البويهيون مع جيرانهم سوف تؤدى إلى إضعافهم.

إن المرزبان محمد قد أعد نفسه عسكريا وعزم على الذهاب لغزو مدينة الرى، وقبل خروجه أحضر والده وأخاه المدعو (هسوذان) ، يستشيرهما فى أمر الغزو، فمنعه والده عن الخروج، ولكن الابن أصر على الذهاب، فودعه الأب وبكى وقال فى توديعه : (يا بنى أين أطلبك بعد يومى هذا ؟ قال : إما فى دار الإمارة بالرى وإما بين القتلى) [٩٣].

وعند وصول جيش المرزبان إلى مشارف مدينة الرى لم يكن ركن الدولة فى وضع يمكنه من منازلة المرزبان ، فلجأ إلى الحيلة ريثما يأتيه المدد من أخويه عماد الدولة المتولى على فارس ومعز الدولة المتولى على بغداد، فقد كان ركن الدولة قد طلب منهما المساعدة، لذلك فإنه أظهر للمرزبان التنازل عن بعض المدن، مثل : زنجان وأبهر وقزوين ، وقد انطلت هذه الحيلة على المرزبان ، ولكن ركن الدولة سرعان ما انقلب على المرزبان ونقض الاتفاق ساعة وصول الإمدادات العسكرية، وبادره بالقتال ، فانهزم جيش المرزبان ووقع أسيرا فى يد ركن الدولة[٩٤].

ومن الملاحظ أن بنى بويه الأخوة الثلاثة وهم: ركن الدولة ومعز الدولة وعماد الدولة، كانوا متعاونين متحابين مما ساعد على قهر أعدائهم ، ومما يدل على هذا التواد والتواصل بين هؤلاء الإخوة، أن معز الدولة قبل أن يرسل جيوشه إلى أخيه ركن الدولة بمدينة الرى، أخذ عهدا من الخليفة العباسى المطيع لله، وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر، لأخيه ركن الدولة بأن يجعله أميرا على خراسان وتوابعها إذا ما تم له الانتصار على القوى المعارضة هناك، فوافق الخليفة على هذا الطلب [٩٥].

أما عماد الدولة المتولى على بلاد فارس ، وكان يقيم بشيراز (٩٦)، فإنه لما أحس بدنو أجله ولم يكن له وريث يرثه، بعث إلى أخيه ركن الدولة فى سنة (٣٣٨هـ / ٩٤٩م) يطلب منه أن يرسل إليه ابنه عضد الدولة ليتولى الأمر بشيراز، وقد تولى عضد الدولة الإمارة بشيراز بعد وفاة عمه (٩٧). وعلى هذا تكون أملاك ركن الدولة فى سنة ٣٣٨هـ تشمل مدينة الرى والجبال وإصفهان وهمذان يضاف إليها شيراز التى يتولاها ابنه عضد الدولة (٩٨).

وفى سنة (٣٣٩هـ / ٩٥٠م) اضطر ركن الدولة ترك مدينة الرى والذهاب إلى مدينة شيراز للقيام بتهدئة الوضع هناك ، وقد استغل الأمير الخراسانى نوح بن نصر فرصة غياب ركن الدولة عن الرى، خاصة وأن نائب ركن الدولة ، وهو على بن كامة كان ضعيفا ، فوصلت الجيوش الخراسانية بقيادة منصور بن قراتكين واحتل المدينة، فهرب على بن كامة إلى مدينة إصفهان ، فدخل القائد منصور المدينة، وقد كان أهل الرى يكرهون الخراسانية ، فأمر القائد منصور بتوزيع جنده فى جميع أرجاء المدينة لإحكام سيطرته، ثم عمد إلى بلاد الجبل وقرميسين فاحتلها وأجلى عنها نواب ركن الدولة، كما استولى على همذان (٩٨).

وقد طلب ركن الدولة وهو بشيراز المساعدة من أخيه معز الدولة ، وصلت على وجه السرعة العساكر المؤلفة من الديالمة والأتراك والعرب بقيادة (سبكتكين)، وخرجت هذه القوة من بغداد إلى المواقع التى يحتلها القائد الخراسانى منصور، وقد دارت بين الجانبين حروب طويلة تمكنت بعدها الجيوش البويهية من استرجاع بعض المدن، إلا أنها عجزت عن استرجاع مدينة الرى(٩٩).

وفى سنة (٣٤٠هـ / ٩٥١م) توفى القائد الخراسانى منصور بن قراتكين، وكان لموته أثر فى إضعاف القوى الدفاعية فى الجيش الخراسانى، وما رافق من ذلك حدوث اضطرابات فى صفوف الجيش، وقد أدى ذلك إلى انسحاب العساكر الخراسانية من مدينة الرى إلى مدينة نيسابور ، ولكى يحافظ الأمير الخراسانى نوح بن نصر على وجوده فى مدينة الرى ، أرسل على وجه السرعة القائد السابق أبا على محتاج للقيام بأعمال منصور بن قراتكين ، وأقطعه الرى وأمره بالإسراع والجد فى المسير (١٠٠)، ولكن ركن الدولة كان أسرع منه فسبقه فى الوصول إلى الرى، فأعاد نفوذه عليها وعلى معظم أعمالها، وفى سنة (٣٤١هـ / ٩٥٢م) انتقل ركن الدولة من الرى إلى مدينة نسا (١٠١)، وأقام فيها لفترة ، وعمل خلال وجوده على تثبيت نفوذه هناك ثم عاد إلى مدينة الرى، واستخلف على جرجان الحسن بن فيزران يساعده فى عمله، على بن كامة(١٠٢).

وكانت الدولة السامانية خلال هذه الفترة تخطط للإيقاع بالبويهيين ، وكانت تتربص بهم الدوائر ، محاولة بذلك القضاء على نفوذهم فى هذه الأقاليم. فلما عاد ركن الدولة إلى الرى توجه (وشمكير) إلى جرجان على رأس قوة عسكرية ، بأمر من الأمير نوح بن نصر السامانى أمير خراسان ، فاحتل جرجان وانهزم عنها الحسن بن فيزران (١٠٣)، وفى سنة (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م) كتب (وشمكير) إلى الأمير نوح يطلب منه المساعدة لغزو الرى، فأمده بقوة عسكرية من الجيوش الخراسانية يقودها أبوعلى محتاج، وقد أدرك ركن الدولة فداحة هذه الجيوش، إلا أنه استعد للقائهم ، فخرج من المدينة إلى موضع يقال له طبرك ؛ وهو موقع حصين ، فالتقى بالجيوش الخراسانية ، واستطاع الصمود وقد طالت الحرب بينهما وحل فصل الشتاء فسئموا القتال واتفقوا على الصلح، وقد تبودلت بينهما الرسل فى هذا الصدد، وكان أبوجعفر الخازن العالم الرياضى والفلكى رسولا لركن الدولة، ومن نتائج هذا الصلح التزام ركن الدولة بدفع مائتى الف دينار فى كل عام للأمير نوح بن نصر السامانى، فانسحبت الجيوش وعاد أبو على محتاج إلى خراسان، ولكن (وشمكير) اتهم القائد أبا على محتاج بالتواطئ مع ركن الدولة ، وكتب إلى الأمير نوح بذلك، فأمر بعزل القائد أبا على عن قيادة الجيوش الخراسانية ، وتولاها أبوسعيد بكر بن مالك ، وبذلك أصبح (وشمكير) بمفرده يواجه جيوش ركن الدولة، فاضطر إلى الانسحاب إلى منطقة تسمى إسفراين فاحتل ركن الدولة مدينة طبرستان(١٠٤).

أما أبو على محتاج فإنه قدم اعتذاره إلى الأمير نوح وطلب الصفح عنه، ولكن الأمير نوح لم يقبل الاعتذار ، فأحس محتاج بالخطر يهدده لاسيما من أتباع الأمير نوح، فطلب اللجوء إلى الأمير ركن الدولة البويهى، فرحب ركن الدولة ولم يتردد فى قبول لجوئه (١٠٥). وقد سعى الخليفة العباسى المطيع للتوسط فى الصلح بين ركن الدولة وبين الأمير نوح ، وقد أرسل وفدا لهذا الغرض ، ولما وصل الوفد عند مشارف مدينة حلوان تعرض لقطاع الطرق، وهم من الأكراد يتزعمهم ابن أبى الشوك ، فنهبوا أموالهم وأسروهم ، ثم أطلقوا سراحهم ، فبعث معز الدولة بعساكره وفتك بهؤلاء اللصوص، فأمن الطريق وزال خطرهم(١٠٦).

ويبدو أن وفد الوساطة لم يذهب إلى خراسان أو الرى، بدليل أنه فى سنة (٣٤٣ - ٩٥٤م) تم الاتفاق بين أبى على محتاج الموجود بالرى فى ضيافة ركن الدولة وبين الخليفة العباسى المطيع لله، على أن يقوم أبو على محتاج بمحاربة السامانيين، وإذا ما تحقق له النصر يكون أميرا على خراسان باسم الخلافة العباسية، فتوجه أبوعلى محتاج نحو خراسان واحتل نيسابور ، وأمر بالخطبة للخليفة المطيع ، ومن بعدها احتل خراسان (١٠٧).

وفى سنة (٣٤٣هـ) توفى الأمير نوح بن نصر السامانى وخلفه على الإمارة ابنه عبدالملك ابن نوح السامانى الذى كان بمدينة بخارى، وقد صمم الابن على إخراج ابن محتاج من خراسان ، فأعد الجيوش لهذا الغرض وجعل قيادتها بيد بكر بن مالك، فتوجه نحو خراسان، فانهزم ابن محتاج ولجأ إلى مدينة الرى عند ركن الدولة، ودخل القائد بكر بن مالك مدينة خراسان، وقد عمل ركن الدولة على تأمين حدوده مع خراسان خوفا من تحركات الأمير السامانى عبد الملك بن نوح ، لذلك فإنه غزا جرجان واحتلها دون حدوث قتال، وكان بها (وشمكير) فهرب إلى خراسان لاجئا[١٠٨].

وقد حدث ما كان يتوقعه ركن الدولة، ففى سنة (٣٤٤ هـ/ ٩٥٥م) تحركت العساكر الخراسانية نحو الرى لغزوها ، فأسرع وبعث إلى أخيه معز الدولة ليمده بالمساعدات ، فجاءت العساكر من بغداد يقودها الحاجب (سبكتين)، أما الجيوش الخراسانية فإنها تعرضت إلى النهب والسلب عند وصولها مشارف مدينة إصفهان التى كان يتولاها من قبل البويهيين أبومنصور بن ركن الدولة، وعمل ركن الدولة على تجنب الصدام العسكرى، فقد أرسل إلى بكر ابن مالك قائد الجيوش الخراسانية وأقنعه بعدم جدوى هذه الحروب ، فاستصوب رأيه واصطلحا على ما يلى: أولا- يتعهد ركن الدولة بدفع مبلغ من المال مقابل ولايته على الرى ومنطقة الجبل بأسرها. - ثانيا - يضمن ركن الدولة لبكر بن مالك قائد الجيوش الخراسانية بولاية خراسان، وهذا الشرط الأخير يعطى مؤشرا على أن لركن الدولة أطماع فى خراسان ، وقد وافق معز الدولة حاكم بغداد على ذلك ، وبهذه الطريقة تمكن ركن الدولة من أن يصرف عنه القتال، وعمل فى ذات الوقت على إفساد العلاقة بين القائد بكر بن مالك وأمير خراسان عبد الملك بن نوح السامانى[١٠٩].

وقد تعرضت مدينة الرى وسائر أعمالها فى سنة (٣٤٤هـ) إلى وباء عظيم مما أدى إلى انتشار الأمراض والأوبئة فماتت من جراء ذلك أعداد كبيرة من الناس، وكان القائد أبو على محتاج ضمن ضحايا هذا الوباء[١١٠]، كذلك فى سنة (٣٤٦ / ٩٥٧م) ضرب مدينة الرى زلزال عنيف مات على أثره ناس كثير، فلا يستبعد أن لهذه الأوبئة والزلازل آثارها السلبية على الحياة السياسية والاجتماعية فى مدينة الرى[١١١]

وقد أشرنا من قبل أن أبناء بنو بويه، وهم : ركن الدولة المتولى على الرى وأعمالها، وعماد الدولة المتولى على فارس، ومعز الدولة حاكم بغداد، كانت تربطهم علاقة قوية من المودة والمحبة

والاحترام ، فجميعهم كان يسمع ويطيع لعماد الدولة، وهو الأخ الأكبر، ولما مات انتقلت هذه الخصوصية إلى ركن الدولة، حاكم مدينة الرى، فكانت سلطاته تمتد حتى خارج نطاق حدوده الجغرافية ، لاسيما فى النواحى الروحية والمعنوية ، فكان رجال الدين يخطبون له فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، يدعون له أولا ثم لأخيه الأصغر معز الدولة (١١٢)، هذا النفوذ السياسى العريض الذى حظى به بنى بويه كان على حساب نفوذ السلطة العباسية الضعيفة المتهالكة زمن الخليفة الراضى والخلفاء الذين أعقبوه (١١٣).

وفى سنة (٣٤٨ / ٩٥٩م) تمت المصاهرة بين أبناء ركن الدولة وأبناء معز الدولة، فقد ذهب مؤيد الدولة بن ركن الدولة إلى بغداد ليتزوج من ابنة عمه معز الدولة ، ثم يعود بها إلى مدينة الـــرى(١١٤) . وفيما يتعلق بآل سامان فقد توفى الأمير السامانى عبد الملك بن نوح أمير خراسان فى سنة (٣٥٠ / ٩٦١م) وتولى بعده أخوه منصور بن نوح (١١٥).

وقد كان ركن الدولة دائم اليقظة والحرص فى المحافظة على حدوده ، ففى سنة (٣٥١ / ٩٦٢م) قام بغزو طبرستان ليزيد فى تحصيناته ، وكان يتولاها (وشمكير) ، فرحل عنها إلى جرجان قبل مجيئ ركن الدولة ثم غزا جرجان واحتلها ، وانضمت إليه أعداد كبيرة من جيش (وشمكير) ، بلغ عددها نحو ثلاثة آلاف، وقد أدى ذلك إلى إضعاف قوة (وشمكير) ، وتعاظم قوة ركن الدولة ، فترك (وشمكير) جرجان وذهب إلى منطقة الجبل وتحصن بها ، وكان إلى جانب اهتمام ركن الدولة فى النواحى السياسية والعسكرية، فإنه فى ذات الوقت لم يهمل النواحى الحضارية والعمرانية ، فقد قام بالعمل على تحسين الحياة الاقتصادية بمدينة الرى وفى سائر أعمالها(١١٦).

وكانت الدولة السامانية التى تسيطر على خراسان تعمل جاهدة لاستعاد نفوذها على مدينة الرى ، فكانت على الدوام تستفز البويهيين ، إلا أن محاولاتها كانت دائما تبوء بالفشل بسبب يقظة ركن الدولة وذكائه ، ومن الأهداف الرئيسية التى تخطط لها الدولة السامانية هو الاحتفاظ بمدينة الرى ذات الموقع التجارى الهام وذات الخراج الكبير الذى يشكل موردا هاما تستفيد منه الدولة السامانية (١١٧)، هذا فضلا عن موقعها الهام المتميز فى الجوانب العسكرية والسياسية ، فهى المدخل الرئيسى إلى خراسان، فمن يمتلك مدينة الرى فإنه بإمكانه السيطرة على الممرات التجارية والعسكرية لاسيما مع خراسان (١١٨)، ففى رمضان سنة (٣٥٥ / ٩٦٥م) قامت الدولة السامانية بمحاولة لغزو مدينة الرى، فخرجت العساكر الخراسانية، وكان

عددها يربو على العشرين ألفا واتجهت صوب الرى، وقد أظهروا أنهم يريدون الجهاد فى سبيل الله ضد الروم ، ولكن وزير ركن الدولة ، أبا الفضل بن العميد حذر الأمير ركن الدولة بسوء نواياهم وعدم صدقهم وقد وصلت هذه الجيوش إلى مدينة الرى ، واجتمعوا بالوزير ابن العميد وطلبوا منه الأموال لينفقوها على الجنود المجاهدين، وخاطبوه بشدة وغلاظة ، فوعدهم بإعداد المال، وقالوا: نحن نريد خراج الرى بأكمله، فنحن غزاة أحق بالمال منكم، ودخل الجند المدينة واعتدوا على أهلها، كل ذلك باسم الدين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أثاروا الفتنة والفزع بين الناس، ولم يكفهم ذلك، بل عمدوا إلى دار الوزير ابن العميد ونهبوها ، ثم استعدوا لمحاربة الأمير ركن الدولة الذى لم يكن فى وضع يمكنه من القتال ، فلجأ إلى الحيلة معهم وقد نجح فى ذلك وفوت الفرصة عليهم وأبعدهم عن بلاده (١١٩).

وفى أواخر سنة (٣٥٦ هـ/ ٩٦٦م) وأوائل سنة (٣٥٧هـ/ ٩٦٧م) قام الأمير السامانى منصور بن نوح بمحاولة أخرى لغزو الرى، وكان ذلك بتحريض من أبى على بن الياس، وهو أحد الفارين من عضد الدولة بن ركن الدولة الذى كان يتولى كرمان من قبل أبيه، فقد لجأ مستأمنا عند الأمير السامانى منصور بن نوح، فأمنه ما دام عدوا لركن الدولة وابنه عضد الدولة ، وقد حبب إليه هذا غزو مدينة الرى، وأظهر للأمير منصور أن قادة الرى غير مخلصين لركن الدولة، يضاف إلى ذلك تفشى الرشاوى بين القادة، فوجد الأمير منصور بن نوح أن كلامه مطابقا لكلام (وشمكير) الذى كان يوافيه على الدوام بالتقارير عن الأوضاع بمدنية الرى وأعمالها، فشجعه ذلك على الغزو، فتحركت عساكره بقيادة أبى الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور الدوانى قائد الجيوش، وطلب فى نفس الوقت من (وشمكير) ومن الحسن بن الفيزران أن يعدوا جيشا ويلحقوا بالجيوش الخراسانية، وقد فوجئ ركن الدولة بهذه الجموع المتجهة إليه، فخاف على أسرته فنجلاهم إلى إصفهان ، واستعد هو للحرب، فطلب من ابنه الموجود بكرمان أن يمده بالعساكر ، كما طلب من ابن أخيه بختيار بن معز الدولة حاكم بغداد المساعدة، وقد وصلت على الفور جيوش ابنه عضد الدولة، بينما عساكر بختيار تأخر وصولها . وكادت الحرب تقع بين الطرفين لولا موت (وشمكير) المفاجئ ، وما ترتب عليه من تمرد الجند فى صفوف العساكر الخراسانية ، هذه الأحداث كفت ركن الدولة شر القتال ، وخلف (وشمكير) على القيادة ابنه (بيستون)، واستطاع الأمير ركن الدولة البويهى بسياسته الرصينة استمالة القائد (بيستون) إلى جانبه واتفقا على الصلح، وقد أمده ركن الدولة بالمال والرجال، وفى هذا ما يدل على تحسن العلاقة بينهما (١١٩).

ولقد استغلت بعض العناصر المعارضة لركن الدولة حالة الحرب هذه ، فقامت بالتمرد والعصيان على السلطة المركزية بالري، ففي طبرستان الخاضعة لنفوذ الري خلال هذه الفترة، تزعم حركة التمرد فيها شخص يدعى، نوح بن نصر ، إلا أن موته المفاجئ أطفأ هذه الحركة ، وكذلك في همذان قامت حركة تمرد قادها أحمد بن هارون الهمذاني، ومن غرائب الصدف أن مصيرها كمصير أختها حيث انتهت بموت قائدها، ولكن هذا الموت المفاجئ للقائدين وبنفس الطريقة ليثير الشك والريبة بأن موتهما كان مدبرا(١٢٠).

وعلى العموم فإن هذه الحروب التي خاضها ركن الدولة مع الأمراء السامانيين ، والتي كادت أن تكون مستمرة ، كانت لها آثارها السلبية السيئة لاسيما على النواحي الأمنية بمدينة الري وأعمالها، فقد نشطت حركة قطاع الطرق خلال هذه الحروب على يد شخص يدعى، حسنويه بن الحسين الكردي، فكان يتعرض لقوافل التجار وغيرهم من المسافرين بالنهب والسلب والقتل في بعض الأحيان، فأصبح خطرا يهدد أمن الطريق، ولما سنحت الفرصة لركن الدولة، بعث وزيره الفضل بن العميد في سنة (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م) بالمسير إليه، ولكن الوزير مرض ومات بمدينة همذان، فخلفه ابنه أبو الفتح الذي قام بمصالحة حسنويه على مال يأخذه منه ثم عاد إلى الري(١٢١).

إن المتتبع لسياسة ركن الدولة يلاحظ أنه كان حريصا على استمرارية السلطة في البيت البويهي، وكان همه الوحيد أن يكون هذا البيت محتفظا بالسلطة، من ذلك أنه عارض ابنه عضد الدولة بشدة عندما أراد غزو بغداد والاستيلاء عليها والقبض على ابن عمه عز الدولة بختيار في سنة (٣٦٤ هـ/ ٩٧٤م) فقد بعث إليه برسالة شديدة اللهجة يحذره فيها بما يترتب عليه من نتائج وخيمة ربما فيها ضياع ملك بنو بويه إذا ما استمرت هذه الأطماع بينهما(١٢٢).

كذلك لما أحس بدنو أجله جمع أولاده في سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) ووزع الأعمال الإدارية بينهم في مملكته ليتحاشى حدوث الخلافات بينهم، فقلد ابنه فخر الدولة أبا الحسن همذان وأعمال الجبل، ومؤيد الدولة مدينة الري وإصفهان وأعمالها، أما عضد الدولة الابن الأكبر، فكان نصيبه كرمان وسائر بلاد فارس . وأوصاهم بأن على الجميع أن يسمع ويطيع أوامر عضد الدولة، فهو الذي يخلفه في السيادة على جميع هذه المدن (١٢٣). وفي هذه السنة التي نتحدث عنها مات الأمير الساماني منصور بن نوح وتولى الإمارة ابنه نوح (١٢٤).

ويبدو من سير الأحداث أن لعضد الدولة أطماعًا ومصالح سياسية كبيرة، فكان الأمل يحدوه في السيطرة على العراق، التي كانت تحت نفوذ ابن عمه عز الدولة بختيار، فقد أرسل

جيوشه إلى العراق واحتل العاصمة بغداد في سنة (٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م) ، وطرد منها عز الدولة بختيار وأرغمه على التنازل عن الإمارة ، ولما اكتشف خيانة وزيره أبي الفتح بن العميد اتصل بأخيه مؤيد الدولة وكان أميرا على الري وأمره بسمل عيون أبي الفتح وقطع أنفه، فكان أبو الفتح آخر وزراء أبناء بيت ابن العميد [١٢٥].

كذاك فإن عضد الدولة لم يلتزم بوصايا والده ركن الدولة ، فقد اعتدى على أخيه فخر الدولة واستولى على مملكته في بلاد الجبل، لاتهامه بالتوطئ مع ابن عمه عز الدولة بختيار[١٢٦]. بينما كانت علاقته بأخيه مؤيد الدولة المتولي على الري وأعمالها طيبة، فقد كان مؤيد الدولة متعاونا مع أخيه عضد الدولة ومما يدل على هذا الوئام والتعاون أنه بعث إليه في سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠م) رسولا يجدد له الطاعة والولاء[١٢٧].

وقد حافظ مؤيد الدولة بن ركن الدولة على تطبيق العدل في بلاده بمدينة الري وأعمالها ، فقد اختار القاضي عبد الجبار بن أحمد الموصوف بالعدل ليكون قاضيا على مدينة الري وقزوين وأبهر وزنجان وسهرورد [١٢٨]، وقم، وكان يسمى بقاضي القضاة [١٢٩]، وكان وزير مؤيد الدولة الصاحب بن عباد؛ وهو إسماعيل بن أبي الحسن بن عباد بن العباس الطالقاني، وهو الوزير الموصوف بالحكمة والفضل والعدل والأدب، فقد استقامت أمور مؤيد الدولة بمدينة الري بفضل حكمة ودراية هذا الوزير، وقد سمى بالصاحب لطول صحبته لمؤيد الدولة حيث أنها كانت منذ الصبا[١٣٠].

وفي جمادى الآخرة لسنة (٣٧١هـ / ٩٨١م) استولى عضد الدولة على جرجان، وكانت تحت حكم (قابوس بن وشمكير) ، وحجته أن قابوس كان متعاونا مع أخيه فخر الدولة لرفضه تسليم أخيه ، فكان مؤيد الدولة على رأس الجيش الذي احتل جرجان [١٣١]. ولكن الأمير الساماني نوح بن منصور بن نوح أمير خراسان لم يدع عضد الدولة وأخاه مؤيد الدولة يحتفظان بجرجان، فقد اتفق مع (قابوس بن وشمكير) ومع فخر الدولة على غزو جرجان ، فخرجت العساكر الخراسانية تحت قيادة حسام الدولة أبي العباس تاش نحو جرجان ، وهناك دار قتال عنيف بين الجانبين، أسفر عن انتصار أمير مدينة الري مؤيد الدولة أخي عضد الدولة ، ولعل من أسباب هذا النصر خيانة القادة الخراسانيين لتواطئهم مع مؤيد الدولة [١٣٢].

وقد امتدت أطماع عضد الدولة الذي يتولى العراق وبلاد فارس إلى أملاك إخوته، فكثيرا ما كان يتدخل في شئون فخر الدولة وحتى حميمه مؤيد الدولة أمير مدينة الري، المتعاون معه

لم يسلم من أطماعه ، فكان يريد أن يجرده من سلطانه على مدينة الرى، إلا أن موت عضد الدولة فى شهر شوال سنة (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) وضع حدا لمثل هذه الاعتداءات ، وخلفه على السلطة فى العراق ابنه صمصام الدولة (١٣٣). وفى ذات السنة فى شهر شعبان توفى أخوه مؤيد الدولة أمير مدينة الرى وأعمالها ، ولم يكن له وريث ، فقد سأله وزيره الصاحب بن عباد قبل موته عمن يكون على مدينة الرى، فلم يفصح بشىء، وعند وفاته طلب الوزير الصاحب من فخر الدولة، وهو أخو مؤيد الدولة أن يأتى ليتسلم السلطة، وبذلك أصبح فخر الدولة أميرا على الرى وعلى جميع أعمالها. وكانت العلاقة بين فخر الدولة وبين ابن أخيه صمصام الدولة حاكم بغداد طيبة والتعاون بينهما كان وثيقا (١٣٤). ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلا، فقد أخذ الخصام والنزاع طريقه بين أبناء عضد الدولة ، لاسيما بين صمصام الدولة حاكمُ بغداد وبين أخيه شرف الدولة المتولى على بلاد فارس وكرمان والأهواز ، وكان عمهم فخر الدولة المتولى على الرى وأعمالها يميل إلى جانب صمصام الدولة، وقد انتهى هذا النزاع بتغلب شرف الدولة وقام بالاستيلاء على بغداد وأبعد أخاه صمصام الدولة (١٣٥).

أما فخر الدولة فإنه ظل محتفظا بمدينة الرى وأعمالها، كما ظل محتفظا بالوزير الصاحب ابن عباد، الذى كان وزيرا لأخيه مؤيد الدولة من قبل، فقد بعثه فى سنة (٣٧٧ هـ/ ٩٨٧م) إلى مدينة طبرستان لتهدئة الوضع هناك، فتمكن الوزير من إعادة الهدوء والاستقرار إلى المدينة، كما عمل على تثبيت نفوذ فخر الدولة هناك، وجعل حدود المدينة آمنة باستيلائه على بعض الحصون المتاخمة (١٣٦)، وفى قزوين المدينة القريبة من الرى ، وهى من أعمالها ، حدث فيها تمرد ضد فخر الدولة، وقاد هذا التمرد عاملها أبومنصور بن كوريكتج ، وقد أنهى فخر الدولة هذا التمرد دون إراقة دماء، وعالجه بحكمة ، ونجح فى إعادة عاملها المتمرد أبومنصور إلى الطاعة والولاء (١٣٧). وفى مدينة الدامغان ؛ وهى من أعمال الرى أيضا، حدث تمرد قام به المتولى عليها نصر ابن الحسن بن الفيزران فى سنة (٣٧٨ هـ/ ٩٨٨م) ولكنه عاد إلى الطاعة والولاء بعد ما علم باستعدادات فخر الدولة لقتاله (١٣٨).

وقد قرر فخر الدولة فى سنة (٣٧٩ هـ/ ٩٨٩م) غزو العراق واحتلالها ، ولعل من الأسباب المشجعة التى دفعته إلى الغزو كما يذكرها ابن الأثير: أولا – رغبة الوزير الصاحب بن عباد السكنى فى بغداد، فإذا كان هذا السبب مقبولا ، فإنه يدل على مكانة الوزير عند الأمير فخر الدولة . ثانيا– أن الحاشية التى كانت تجالس فخر الدولة حببت إليه غزو العراق وملك بغداد

وسهلت له هذه العملية. ثالثا - موت شرف الدولة حاكم بغداد عجل في تنفيذه هذه الخطة فكانت الفرصة مواتية إذا لهذا الغزو ، ولكن جيوش فخر الدولة هزمت عند مشارف مدينة الأهواز على يد بهاء الدولة الذى خلف شرف الدولة على حكم العراق، فعاد جيش فخر الدولة منكسرا إلى مدينة الرى، وقد أعقب ذلك تسرب أعداد كبيرة من جيشه بسبب تأخر رواتبهم(١٣٩).

وفى شهر محرم سنة (٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م) توفى الوزير الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد، وقد حزن لموته حتى أهل بغداد (١٤٠)، وامتدح ابن الأثير هذا الوزير، لاسيما فيما يتعلق بمعرفته الواسعة بتحرير الرسائل ، وآرائه السديدة ، وبفضل علمه الواسع باللغة وآدابها ، وكانت له مؤلفات كثيرة ، فكانت مكتبته من الضخامة بمكان حيث أنها تضم أعدادا كبيرة من الكتب فى مختلف ميادين المعرفة، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : إنهم يحتاجون إلى أربعمائة جمل لنقلها، وقد مات الصاحب بن عباد بمدينة الرى ، ونقل جثمانه إلى مدينة إصفهان ، ودفن هناك فى إحدى قراها عند باب درية(١٤١).

وقد كان الصاحب بن عباد مخلصا لفخر الدولة حتى فى آخر لحظات حياته، فهذه وصيته للأمير فخر الدولة وهو على فراش الموت تشهد على ذلك إذ يقول : (خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع وسرتُ فى دولتك سيرة جلبتْ لك حُسن الذكر فإن أجريت الأمور بعدى على نظامها وقررت القواعد على أحكامها نسب ذلك الجميل السابق إليك ونُسيتُ أنا فى أثناء مايثنى به عليك ودامت الأحدوثة الطيبة لك . وإن غيرت ذلك وعدلت عنه كنت أنا المشكور على السيرة السالفة وكنت أنت المذكور بالطريقة الآنفة وقدح فى دولتك ما يشيع فى المستقبل عنك)(١٤٢).

عند استقرائنا لهذه الوصية نقف على نقطتين رئيسيتين : الأولى تبين مدى إخلاص وحرص الوزير الصاحب بن عباد على سلامة الدولة البويهية واستمراريتها، والثانية تتصل بشخص الأمير فخر الدولة، حيث تبين مدى إثارة ووفاء الوزير للأمير فخر الدولة ، فقد آثره على نفسه، وأراد ألا يتصدع هذا البناء القائم على العدل والاستقامة والاستقرار بعد رحيله ، بل أراد أن ينسب هذا الفضل كله إلى الأمير فخر الدولة لا إلى الصاحب بن عباد، إنها قمة الأمانة والإخلاص والوفاء .

ولكن لانعرف لماذا لم يحترم الأمير فخر الدولة هذا الإخلاص والوفاء ، فبعد وفاة الوزير أمر بمصادرة جميع أملاكه وأمواله ، ويقول ظهير الدين الروذراورى : (ونقل جميع ما كان فى

الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة[١٤٣]، ويعلق ابن الأثير على هذه العلاقة بقوله : (قبح الله خدمة الملوك هذا فعلهم مع من نصح لهم فكيف مع غيره) [١٤٤].

وبعد رحيل الوزير الصاحب إلى جوار ربه، عثر فخر الدولة على كيس به رقاع لأقوام، أي مستندات كتب عليها مبالغ من المال، تصل إلى مائة وخمسين ألف دينار، هذه الأموال كانت مودعة له عند بعض الأعيان ، وكان بعضها عليها خاتم مؤيد الدولة، فاستدعاهم فخر الدولة وأمرهم بتسليم المال فأحضروه . وقد كان لهذه الحادثة آثارها السلبية على مكانة وأمانة الوزير الصاحب بين الناس في مدينة الري، فهناك من اتهمه ورماه بالخيانة، والبعض الآخر قد أحسن الظن به على اعتبار أن هذه الأموال بعضها أمانات مودعة عنده لأبناء مؤيد الدولة لوجود ختم الأمير عليها[١٤٥].

على كل حال فقد أصبح منصب الوزارة شاغرا الآن مما أقلق الأمير فخر الدولة ، خصوصا وانه يريد الشروع في مصادرة أتباع الصاحب بن عباد فهو يحتاج إلى مشورة الوزير، لذلك فإنه كلف أبا العباس أحمد بن إبراهيم الضبي، الملقب بالكافي الأوحد وهو المرشح للوزارة ، القيام بهذه المصادرة ، وكان المبلغ المراد مصادرته ثلاثين ألف ألف درهم ، فامتنع أبو العباس وتردد. وفي ذات الوقت وصل كتاب لفخر الدولة من أبي علي بن حمولة يعرض نفسه للوزارة ويضمن عنها ثمانية آلاف ألف درهم، فأجاب فخر الدولة دون تردد ووافق على طلبه، وبذلك خسر أبو العباس منصب الوزارة ، وقد أنبه أتباعه لعدم امتثاله لأوامر فخر الدولة، عند ذلك أسرع أبو العباس وكتب لفخر الدولة بأنه مستعد لأن يدفع ستة آلاف ألف درهم مقابل إقراره على الوزارة [١٤٦].

فأخذ فخر الدولة يوازن بين هذين العرضين ، فوجد أنه لايستغني عن الاثنين ، ومن الأصلح والأسلم أن يشركهما في الوزارة ، وقرر على الاثنين عشرة آلاف ألف درهم يدفع كل واحد منهما نصف هذا المبلغ ، وأشركهما في جميع أعمال الوزارة، وقسم العمل بينهما بالتساوي ، حتى التواقيع على المعاملات قسمت بينهما، وقد رضيا بذلك ، وباشرا أعمالهما، فأول عمل قاما به استمرارهما في ملاحقة أتباع الوزير السابق الصاحب بن عباد والقبض عليهم ومصادرتهم ، فلم يفلت منهم أحد[١٤٧].

ومما يثير الانتباه والشك في آن واحد وهو هذا الموقف المتشدد والمتصلب الذي اتخذه الأمير فخر الدولة من وزيره الوفي الصاحب بن عباد ومن أتباعه، من الاجتهاد في المصادرة

وبلا هوادة ، ومما يدعو للتساؤل لماذا لم يصنع الأمير ذلك في حياة الوزير الصاحب ؟ هل اكتشف خيانة وزيره بعد وفاته ؟ هذا مالانجده في المصادر التي توصلنا إليها بما يؤيد ذلك.

وقد اعتاد الأمير فخر الدولة أن يشرك السيدة زوجته في بعض القضايا من أعماله، وقد أكسبها ذلك بمرور الوقت خبرة ودراية في القضايا السياسية، ثم أصبحت جميع الأمور السياسية تدار من قبل السيدة زوجة فخر الدولة. هذا الوضع قد أوهم بعض الأمراء بضعف الحياة السياسية بمدينة الري، فدفعتهم أطماعهم إلى غزو مدينة الري في ظل حكم هذه المرأة، ولعل من أبرز هؤلاء الأمراء الطامعين، يمين الدولة أبي القاسم محمد بن سبكتكين أمير خراسان ، فبعث من عنده رسولا يهدد السيدة بالمسير إليها . فعمدت السيدة في الحال إلى مستشارها الفذ المدعو بدر بن حسنويه، وكانت لاتحل ولاتعقد إلا بعد مشورته، تطلب منه الرأي في هذا المأزق ، فأشار عليها بعمل مناورة عسكرية كبيرة عند مجيئ هذا الرسول ، ولما جاء الرسول شاهد بأم عينه هذه الكثافة من الجنود المحتشدة على هيئة صفوف ، فقد أرعبه ذلك وعاد إلى يمين الدولة مخبرا إياه بما شاهد في مدينة الري من قوة عسكرية ضخمة . فقد نجحت خطة بدر بن حسنويه، بما قام به من تدبير جعل يمين الدولة أمير خراسان يكف عن نواياه وغير من سياسته العدوانية تجاه مدينة الري فعمد إلى الموادعة في علاقته مع حكام مدينة الري(١٤٨).

وقد مات فخر الودلة في شهر رجب سنة (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) وخلفه على السلطة بمدينة الري وأعمالها ابنه الصغير أبوطالب رستم الملقب بمجد الدولة (١٤٩)، فكان عمره يوم توليه لا يتجاوز الأربع سنوات ، وبالطبع كانت السيدة والدته هي الوصية عليه، وهي المشرفة على جميع الأمور والقضايا السياسية وإدارة الحكم ، يساعدها الوزيران أبو العباس الضبي وأبو علي بن حمولة. وقد خلف فخر الدولة في خزائنه أموالاً كثيرة من الجواهر وغيرها، ولمجد الدولة أخ صغير لقبوه بشمس الدولة، وأوكلوا إليه الولاية على همذان وقرميسين إلى حدود العراق(١٥٠).

هذه الأحداث التي تمر بها مدينة الري قد شجعت بعض القوى الطامعة أن تتحرك من ذلك أن (قابوس بن وشمكير) طمع في الاستيلاء على مدينة جرجان؛ وقد كان (قابوس) من المقربين من آل بويه زمن فخر الدولة، فقد كانت له خدمات ومواقف طيبة للأمير فخر الدولة فأراد الأمير مكافئته بأن يوليه على مدينة جرجان، وهي من أعمال مدينة الري، ولكن الوزير الصاحب بن عباد، عدل به عن هذا الرأي . وقد جاءت الفرصة مواتية الآن أمام (قابوس)

في ظل هذه الظروف السياسية التي تمر بها مدينة الري، خصوصا وأن أهل جرجان وأعيانها كما يذكر ظهير الدين الروذراوري قد كاتبوا (قابوس) بعد موت فخر الدولة ، وكان بنيسابور يدعونه، فتوجه إليهم واحتل جرجان في سنة (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) (١٥١).

ولكن ماذا عن الوضع في مدينة الري؟ وما هي ردود فعل حكامها عند ضياع مدينة جرجان ؟ يبدو أن روح الخلافات هي السائدة ، فقد لجأت أم مجد الدولة كعادتها إلى مستشارها الخاص بدر بن حسنويه لتأخذ برأيه حيال هذه المشكلة ، ولكن تفاقُم الخلاف بين الوزيرين وأتباعهما أفسد هذه الخطة، خصوصا وأن الوزير أبي على بن حمولة قد استمال إليه الأتباع بما كان يدفعه إليهم من الأعطيات والأموال والهبات، فكون بذلك قاعدة عريضة من الأنصار، وأعد نفسه لقتال (قابوس بن وشمكير) ، حاملا معه خزائن وأموال مدينة الري بحجة المحافظة عليها من (قابوس) فيما لو تعرضت المدينة للخطر ، وقد حبب إليه أتباعه غزو جرجان ومحاربة (قابوس) قائلين له: (إنك إذا حصلت بجرجان وملكتها كنت أميرا لا وزيرا وكانت الحاجة إليك داعيه والآمال بك متعلقة وبعدت عن الحضرة التي أنت فيها مجاذب على المنزلة)(١٥٢).

فخرج الوزير أبو على بن حمولة لقتال (قابوس) ، وقد انهزم الوزير ابن حمولة عند أول جولة من القتال ، وغنم (قابوس) خزائن وأموال مدينة الري التي كانت مع الوزير ابن حمولة ، وعاد (قابوس) إلى مدينة جرجان وامتنع عن دفع الرسوم والضرائب التي كانت تدفعها جرجان لمدينة الري. بعد هذه الهزيمة النكراء التي منى بها ابن حمولة الذي عاد إلى مدينة الري منكسرا خائبا ، وقال عند وصوله : (قد خرجت نوبة وهذه نوبة أبي العباس الضبي) على اعتبار أن الأعمال مناصفة بين الوزيرين (١٥٣).

يفهم من هذه الأحداث أن ما قام به الوزير ابن حمولة هو نوع من التمرد والانشقاق والاستقلال عن السلطة بمدينة الري، ومما يؤكد ذلك قول الأتباع لابن حمولة: إنه إذا ما ملكت جرجان تصبح أميرا، كذلك فإن هذه الأحداث تظهر مدى استخفاف أبي على بن حمولة بالجهاز الحاكم بمدينة الري، فعند انكساره أمام (قابوس) في هذه الحرب التي لم يأخذ إذنا من السلطة في خوضها ، يقول : (قد خرجت نوبة وهذه نوبة أبي العباس) (١٥٤).

لذلك فإن السيدة قررت بعد مشورة بدر بن حسنويه إبعاد الوزير ابن حمولة عن الوزارة والقبض عليه، وقد آل الأمر بعد ذلك إلى قتله، وقد تحرك أتباع ابن حمولة وكانوا يقتلون

الوزير أبى العباس لولا الاتصالات التى أجراها الوزير بكبار قادة الجند الديالمة، ثم تدخل السلطة وقد أسفر ذلك عن الأفراج عنه ، يضاف إلى ذلك أن أتباع ابن حمولة مالوا إليه خاصة عندما علموا بمقتل وزيرهم ابن حمولة ، وهكذا أصبح أبا العباس الضبى الوزير الأوحد بمدينة الرى[١٠٥].

ويبدو من سياق الأحداث أن أطماع السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى بمدينة الرى لم تتوقف ، وإنه كان يراقب مجريات الأحداث عن كثب ويتحين الفرص لاحتلالها ، من ذلك أنه فى سنة ٣٨٨ أو ٣٨٩هـ) بعث إلى السيدة والدة مجد الدولة يطلب منها أن تدفع له خراج مدينة الرى[١٠٦]، وهذا الخراج يشكل موردا كبيرا فقد خصص له ديوان عرف بديوان الخراج، ولهذا الديوان شأن كبير بمدينة الرى، حتى أن المسعودى كان يطلق عليه اسم دار الخراج[١٠٧].

ولما امتنعت السيدة بعث إليها السلطان محمود رسولا أخر يهددها ويقول : إنه سوف يرسل إليها ألفين من أفياله لتخريب مدينة الرى، ثم بعد ذلك يحمل ركامها إليه بمدينة غزنة . ولكن السيدة الوالدة أم مؤيد الدولة استقبلت رسول السلطان محمود بوافر التقدير والاحترام وحسن الضيافة ، ثم حملته رسالة ليوصلها إلى سيده السلطان محمود، وهذا نص الرسالة:

(لاشك أن السلطان محمود بطل من أبطال الإسلام . وهو من أقوى الأمراء والحكام ، وقد دانت له أكثر الأنحاء فى إيران وبلاد الهند، ولطالما خشيت سطوته منذ انتقل زوجى إلى جوار ربه وقد انزاح عن قلبى هذا الخوف الذى ملك نواصيه ، لأنى أجد أن السلطان محمودا من أكبر الملوك وأعزهم شرفا، ولن يقدم على محاربة امرأة عجوز مثلى، فأما إذا اختار الحرب والقتال فمن المؤكد أننى لن أتردد عن الطعن والنزال ، فإن وفقنى الله إلى التغلب عليه فسيذكر لى هذا الظفر إلى يوم الدين، وأما إذا فاز بالنصر على فسيتحدث المتحدثون فيقولون : إنه لم يفز إلا على امرأة عجوز ...! إنى ليأخذنى العجب كيف يتيسير له فى مثل هذه الحالة أن يعلن هذا الفوز ، وفى أى صورة يذيعه فى أنحاء ملكه العريض...؟ وقديما قالوا : (كيف يمكن أن يكون رجلا من نقصت همته عن همة النساء...؟ وإنى لأعرف أن السلطان عاقل حازم، ولن يقدم على مثل هذا الأمر، ومن أجل ذلك فإنى أنعم على أريكة الهدوء والراحة، لايأخذنى شيئ من الخوف أو الشك فيما ستنتهى إليه عاقبة الأمور).

إنه حقا لخطاب سياسى وأدبى رائع استخدمت فيه السيدة أساليب عديدة، منها الأكبار والرفعة لشخص السلطان محمود، ثم أسلوب المراوغة والمناورة دون الإذلال لنفسها، وبهذا

الأسلوب استطاعت أن تفوت الفرصة على السلطان محمود فامتنع عن قتالها أو التعرض لشيئ من أملاكها ، وظل هذا الاحترام متبادلاً طيلة حياة السيدة والدة مجد الدولة(١٥٨).

وقد عملت مدينة الرى على تحسين علاقتها مع الخليفة العباسي القادر بالله، وهو أبو العباس أحمد بن إسحق ، لربما الظروف السياسية المضطربة المحيطة بمدينة الرى هي التى دفعت الرى لمثل هذا التقارب ، ففي سنة (٣٨٨هـ) بعث الأمير مجد الدولة رسولا من عنده إلى الخليفة، فاستقبله الخليفة استقبالا حسنا، وخلع على مجد الدولة بالخلع السلطانية، وعهد له على الرى وأعمالها وعقد له لواء. وأراد مجد الدولة من هذا التقارب ضمان صفة الشرعية فى حكمه للرى وأعمالها ، فهذه الشرعية ربما تحميه من الطامعين ، لاسيما (شمس المعالى قابوس) الذى أقلق راحة مجد الدولة (١٥٩).

وفيما يتعلق بأمر الوزارة فى مدينة الرى ، فقد كان الوزير أبو العباس أحمد الضبى قد عمل على استقرار الوضع بمدينة الرى، وقد عمل قدر الإمكان على تحسين علاقته مع المسئولين فى الداخل ومع جيرانه فى الخارج، إلا أن حدة الطبع التى كانت فى الوزير أفسدت عليه هذا التقارب، ويعلق أبوشجاع الروذراورى على ذلك بقوله : (وكانت فى أبى العباس شدة تغلب على طبعه وشح يفسد عليه كثيرا من أمره) ، هذه الصفات التى ذكرها الروذراورى كانت هى السبب وراء ضياع الوزارة من يد أبى العباس(١٦٠).

يضاف إلى ذلك ما كان بينه وبين السيدة والدة مجد الدولة من شك وريبة، خصوصا بعد موت (الإصفهيد الأكبر) ؛ وهو ابن أخى السيدة، فقد اتهمت الوزير بأن له يداً فى قتله، ولما طلبت منه أن يدفع لها مصاريف العزاء رد قائلا لرسولها : (لو اشتغلت بما يعطاه الجند المطالبون لكان أولى من تشاغلها بعمل المواتيم للموتى الماضين) فغضبت من رده وأيقنت بأنه هو الذى قتل ابن أخيها ، فقالت : (صدق وكيف يقيم مأتمه من قتله)(١٦١).

وقد أدى ذلك إلى تأزم العلاقة بين الوزير والسيدة والدة مجد الدولة، فخاف الوزير على نفسه من أن تفتك به السيدة ، فقرر ترك مدينة الرى، ولكن قبل أن يرحل أراد أن يعرف رأى المستشار الفذ بدر بن حسنويه المتولى على مدينة بروجرد خلال هذه الفترة ولكن بدر بن حسنويه لم يوافقه على رأيه، واقترح عليه أن يبقى بمدينة الرى ويعمل على تحسين علاقته بالسيدة ، ولكن الوزير لم يأخذ لهذا الرأى، ويبدو أنه واقع تحت تأثير على بن الحسين بن القاسم العارض الملقب الخطير، وكانت له مكانة عند الوزير وموضع ثقته، وهو أحد المتنفذين

فى الجهاز الإدارى ، ولم يكن الوزير يعلم ما يضمره هذا الملقب بالخطير من شر، فترك مدينة الرى بعد أن رتب أموره وحصن نفسه بالأموال (١٦٢).

وعندما ترك الوزير مدينة الرى إلى مدينة بروجرد أصبحت الأجواء من الناحية الإدارية مهيأة أمام أبى على الحسين الملقب بالخطير ليتولى الوزارة بمدينة الرى ولو بالقوة، عندها ندم الوزير أبى العباس وحاول العودة إلى مدينة الرى مقابل أن يدفع مائتى ألف دينار للسيدة ولمجد الدولة فلم يقبل منه ، وهذا التصرف فيه حماقة من الوزير، فعندما كان فى الوزارة امتنع عن دفع مائتى دينار، والآن يبذل مائتى ألف دينار مقابل العودة فلايقبل منه(١٦٣)، ولم يعش الوزير بعد هذه الحادثة طويلا، فقد مات فى سنة (٣٩٢هـ / ١٠٠١م) أى بعد سنة أو أقل من إقصاء نفسه عن الوزارة ، وربما مات كمدا أو أسفا، وقد أوصى قبل موته بأن ينقل جثمانه إلى العراق ليدفن عند مرقد الحسين بن على بن أبى طالب فى مدينة كربلاء طلبا للتبرك (١٦٤).

وقد كان لهذا الاضطراب فى الجهاز الإدارى داخل مدينة الرى وفى منصب الوزارة وهو أعلى الرتب فى هذا الجهاز ، آثاره السيئة والسلبية على العلاقة بين البيت الحاكم، وقد كان للوزير الجديد الحسين بن القاسم الملقب بالخطير دور فعال فى إشعال نار الفتنة، فعمل على زرع الريبة والشك بين السيدة وابنها مجد الدولة، فجعل الأم تخاف ابنها، كما استمال إلى جانبه كبار القواد والمسئولين، وعمل على تجريد مجد الدولة من السلطات ، فأصبح شبه معزول لايملك من السلطة إلا القليل فى ظل حكومة هذا الوزير الملقب بالخطير، فخافت الأم على نفسها من مؤامرات الوزير فهربت إلى القلعة ؛ وهى من ضواحى مدينة الرى، فتبعها الوزير بجواسيسه وعيونه فلما ضيق عليها الخناق اضطرت اللجوء إلى مدينة بروجرد عند مستشارها الخاص بدر بن حسنويه الذى أحسن استقبالها وضيافتها وقدم لها المساعدات ، كما ساعد إبنها الأصغر شمس الدولة ، وقام بإعداد العساكر وقادها بنفسه متوجها نحو الرى ، وقد تمكن بعد معارك طويلة من احتلال الرى سنة (٣٩٧هـ / ١٠٠٦م) فأعاد السلطة إلى السيدة الأم وقبض على مجد الدولة المخلوع ووضع فى السجن، وجعلت السيدة إبنها شمس الدولة هو الحاكم للرى، تشاركه فى الحكم وممارسة السلطة، ولكنها أحست بعد ذلك بتغير ابنها عليها وبأطماعه المتنامية، وكان ذلك بتحريض من الأعداء والحاشية المحيطة بشمس الدولة، فأبعدته عن السلطة ، وجاءت بابنها المخلوع مجد الدولة وأعادته إلى الحكم، وعاد شمس الدولة إلى مدينة همذان مقر حكمه ، وجعلت جميع الأمور تدار تحت إشرافها

مباشرة، فهى التى تستقبل الرسائل من الأمراء والملوك، وقد أحدثت تغييرا إداريا ، فقد عينت ابن خالها أبا جعفر بن دشمترپار بن كاكويه ليتولى أمر مدينة إصفهان (١٦٥).

وقد طمع شمس الدولة بن فخر الدولة المتولى على همذان بأملاك بدر بن حسنويه، فقام بهجوم خاطف على مدينة بروجرد فى سنة (٤٠٥هـ / ١٠١٤م) واحتلها ، واستولى على الأموال والذخائر التى كانت موجودة فى قلاعها، فاستفاد من هذه الأموال فى تكوين العساكر، فأصبح بذلك قوة عسكرية كبيرة فى المنطقة، وقد دفعه ذلك إلى غزو مدينة الرى واحتلالها، وكان بها أخوه مجد الدولة ووالدته، فتركوا مدينة الرى ورحلوا(١٦٦) إلى مدينة دنباوند فدخلها شمس الدولة وأذعن أهلها له بالطاعة ، إلا أن شغب الجند وتمردهم جعله يضطر للعودة إلى همذان ، وقبل خروجه استدعى والدته وأخاه للعودة إلى الرى وسلمهما السلطة(١٦٧).

وقد تمرد الأتراك بهمذان على شمس الدولة فى سنة (٤١١هـ / ١٠٢٠م) ، فاستنجد بخال والدته أبى جعفر بن كاكويه المتولى على إصفهان ، والسيدة الأم حاكمة مدينة الرى هى التى طلبت من ابنها ذلك، فأمده بالعساكر فتمكن من القضاء على هذا التمرد(١٦٨). ويبدو مما مر ذكره أن المصادر التى رجعنا إليها لم تكن واضحة فى موضوع إبراز الحدود السياسية والعسكرية التى كانت لمدينة الرى على المدن المحيطة بها، فهى دائما تفاجئنا بأن حاكم مدينة الرى قد عين ابنه أو أخيه على همذان مثلاً أو بروجرد ، دون أدنى توضيح إن كانت هذه المدن تابعة لمدينة الرى أم لا؟ مما يوقعنا فى حيرة من أمرنا، وليس أمامنا إلا التسليم.

الغزنويون يسيطرون على مدينة الرى :

إن فساد العلاقة بين أبناء البيت البويهى الحاكم فى مدينة الرى، حيث لم يكن هناك تفاهم بين الأخوين وأمهما، ، قد أفسح المجال للضعف والوهن أن يسرى فى جسم هذه الإمارة، فضلا عن السياسة التى انتهجها مجد الدولة بن فخر الدولة فى سنوات (٤١٧هـ / ١٠٢٦م) وما بعدها ، فقد انشغل عن مهام السلطة بالنساء ومطالعة الكتب ونسخها ، فأفسح المجال بذلك أمام الجند والقادة الذين لم يجدوا رقيبا يحاسبهم إلى التدخل فى شئون السلطة، حتى أصبحت معظم الأمور تقريبا فى أيديهم خصوصا بعد وفاة السيدة والدة مجد الدولة، وكان لوفاتها الأثر البالغ فى ضياع السلطة من يد مجد الدولة(١٦٩).

إن الوضع السياسى المضطرب الضعيف المتهرئ الذى تعيشه مدينة الرى، قد خلق مناخا سياسيا غير متوازن مما شجع القوى المجاورة على القيام بالتهام هذا الصيد السهل، وهذا ما صنعه (منوجهر بن قابوس بن وشمكير) المتولى على جرجان وطبرستان ، فقد قام بغزو مدينة الرى والاستيلاء عليها، فلم يكن أمام مجد الدولة إلا طلب النجدة من عدوه التقليدى ، السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى أمير خراسان وما وراء النهر، فلم يتردد السلطان محمود فبعث عساكره إلى مدينة الرى فتمكنت من دحر الغزاة وهزيمة (منوجهر) ، وأعاد الهدوء والاستقرار إلى المدينة ، إلا أن مساعدات يمين الدولة السلطان محمود لم تكن لوجه الله، وإنما كانت تسيرها أطماعه بمدينة الرى، فضمها إلى أملاكه وأمر باعتقال مجد الدولة، ومما شجعه على ذلك ما وجد عليه مجد الدولة من الإهمال والضعف وعدم الكفاءة فى إدارة شئون البلاد، فوجد أنه أولى من غيره، فأمر بمصادرة جميع الأموال الموجودة فى خزائن مجد الدولة، وكانت قيمة الجواهر فقط خمسمائة ألف دينار، ومن الدنانير ألف ألف دينار، وأمر بنفى مجد الدولة إلى خراسان ، وقد بعث برسالة إلى الخليفة العباسى القادر بالله، يصف له فيها حالة مجد الدولة وفساد السلطة وما آل عليه الوضع بمدينة الرى، وهذا كتبرير لما قام به السلطان يمين الدولة من احتلاله لمدينة الرى(١٧٠).

وفى أثناء وجود السلطان يمين الدولة محمود بمدينة الرى قام بالتنكيل بجماعات الباطنية ومحاربتهم وقتل منهم أعداداً كبيرة، كما اعتقل عدداً كبيراً من المعتزلة وأحرق كتبهم ونفاهم إلى خراسان، كما أحرق كتباً أخرى فى علم الفلسفة والفلك، ولم يتعرض لكتب الأدب الموجودة فى مكتبات مدينة الرى، وأمر بنقلها إلى مدينة غزنة فاحتاج إلى مائة بعير لحملها (١٤١)، ثم عاد إلى خراسان واستخلف على مدينة الرى ابنه مسعود(١٧٢).

وهكذا ينتهى حكم الديالمة وعلى رأسهم الأسرة البويهية من مدينة الرى، وسقط حكم مجد الدولة بن فخر الدولة فى سنة (٤١٩هـ / ١٠٢٨م) وقد عمل مسعود بن يمين الدولة محمود على تثبيت نفوذه بالرى، فخاض من أجل ذلك المعارك الكثيرة، ففى سنة (٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) دارت معارك بينه وبين السالار إبراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن هسوذان بن محمد الديلمى المتولى على سرجهان(١٧٣) وزنجان وأبهر وشهرزور انتصر فيها مسعود (١٧٤).

وكثيرا ما كانت الرى تتعرض لهجمات الترك الغز، وهم أتباع أرسلان بن سلجوق، فقد اجتاحوا خراسان وإصفهان والرى وغيرها من المدن ، فكانوا يقومون بعمليات النهب والسلب

والقتل، فلما هجموا على خراسان ذهب الأمير مسعود إليها لمساعدة والده يمين الدولة محمود ابن سبكتكين ، فاستغلت بعض القوى الطامعة بمدينة الرى غياب الأمير مسعود فغزوها واستولوا على السلطة، وكان على رأس هؤلاء أبو جعفر بن كاكويه الملقب بعلاء الدولة، وكان للترك الغز دور بارز في مساعدته ، فأراد الأمير مسعود أن يعيد سلطانه على مدنية الرى، فبعث قائده (تاش فراش) فى جيش كثيف لمحاربة علاء الدولة أبو جعفر كاكويه (١٧٥)، ولكن القائد (تاش) لم يقو على محاربة الترك الغز، فقد حاصروه ، وظل علاء الدولة كاكويه محتفظاً بمدينة الرى، ثم أخذ يتوسع فاستولى على همذان وإصفهان (١٧٦).

وكان الأمير مسعود بن يمين الدولة خلال هذه الفترة مشغولا فى حربه مع بعض العناصر المناوئة فى بلاد الهند ، ولما هدأت الأوضاع هناك توجه فى الحال إلى مدينة الرى وأعمالها وخلصها من نفوذ علاء الدولة كاكويه. ففى سنة (٤٢١هـ / ١٠٣٠م) سير جيشا إلى همذان فاحتلها وطرد عنها عمال علاء الدولة، وفى خضم هذه المعارك أتته أخبار تنبئه بوفاة والده يمين الدولة محمود ، فاضطر إلى إرجاء حروبه مع علاء الدولة كاكويه (١٧٧). وكان مسعود هو الابن الأكبر ، إلا أن أباه قد فضل عليه أخاه الأصغر محمد ليتولى العرش وولاه ملك خراسان وما وراء النهر، وقرر الأمير مسعود الذهاب إلى خراسان ، ولكن الثورة المفاجئة التى قام بها أهل إصفهان منعته من ذلك ، فتوجه إليهم وقضى على ثورتهم بعنف (١٧٨).

بعد ذلك أراد التوجه إلى خراسان ولكنه فضل الذهاب إلى مدينة الرى للاطمئنان على الوضع هناك والتعرف على مدى ولاء أهل الرى له، ولما علم أهل الرى بقدومه إليهم استعدوا لاستقباله ، فزينوا مدينتهم، ويعلق المؤرخ البيهقى على ذلك، وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث والقريب منها بقوله : أنهم زينوا مدينتهم (بأبهى الزينات التى تفوق حد الوصف)، ولم يدخل الأمير مسعود المدينة بل أقام بظاهرها، فخرج إليه أهل الرى العامة والخاصة منهم حاملين الهدايا، وهذا يعطينا مؤشرا عن مدى ارتياح معظم أهل مدينة الرى لحكم الأمير مسعود . وقد بعث الأمير مسعود بمن يثق بهم من الحاشية إلى مدينة الرى ليشاهدوا هذا الاحتفال الذى أعده أهل الرى لينقل إليه الخبر بصورة صادقة، وقد شكر الأمير مسعود أهل الرى على صنيعهم وأثنى عليهم(١٨٠).

وقبل أن يترك الأمير مسعود مدينة الرى أراد أن يجتمع بأعيان أهل الرى وكبرائهم ، فأمر بأن يُعد موكب فخم لاستقبال هؤلاء الأعيان، وكان هذا الموكب يضم بين صفوفه الخيالة

والمشاة المدججين بالسلاح والغلمان ، وكان غرض الأمير مسعود من ذلك، أن يشاهد هؤلاء الأعيان القوة العسكرية التى يمتلكها الأمير، ربما لتزيد فى اطمئنانهم وولائهم له. وجاء أعيان ووجوه الرى وكان عددهم يتراوح ما بين خمسين إلى ستين رجلا، وبدأ الحفل بخطاب الأمير مسعود يسأل فيه أعيان الرى مستفسرا عن رأيهم فى سيرته معهم ، وهذا نص الخطاب :

(كيف كانت سيرتنا فيكم هذه المدة لاتخجلوا وأجيبوا دون خوف أو وجل، فقالوا : أمد الله فى حياة الأمير، فقد نجونا من جور الديالمة وعسفهم ؛ (يعنون بذلك البويهيين) وشملنا اسم هذه الدولة العظيمة أدامها الله ونحن نتام فى أمن آمنين على أرواحنا وأموالنا ونسائنا وأولادنا، نأكل فى أمن وننام فى دعة ونعيش فى سعة ، رافعين أكف الضراعة إلى المولى سبحانه ليديم ظل رحمة الأمير وعدله علينا إذ لم نكن فى شئ من هذا على عهد الديالمة)[١٨١].

وقد بعث هذا الرد الذى سمعه من أعيان الرى الطمأنينة فى نفسه وتأكد له مدى وفائهم وإخلاصهم وولائهم له وقبل أن يترك مدينة الرى، أعد شحنة من الفرسان الأقوياء كان عددهم خمسمائة فارس كحامية ، وعين حسن بن سليمان على رأس هذه الشحنة وليكون عاملا على الرى، ولكن الأمير مسعود كأنه استصغر هذا العدد، وقد لاحظ أحد مستشاريه الحيرة بادية على وجه الأمير مسعود ، فقال للأمير: (إذا أراد أهل الرى الوفاء ، سيأتمرون بأمر من يسميه مولانا عاملا عليهم وإن هم أرادوا العصيان فلن تنفع معهم كثرة الرجال) فاستصوب الأمير رأيه وقال : (حقا) [١٨٢].

بعد ذلك بعث الأمير مسعود إلى أخيه محمد يعترف له بالملك على خراسان وما وراء النهر وغيرها من الممالك، وإنه قانع بما لديه من الإمارة على الرى وأعمالها، ولكنه فى ذات الوقت طلب من أخيه أن يقدمه على نفسه في الخطبة على اعتبار أنه الأكبر، فقبل محمد وبعث برسالة إلى مسعود ليؤكد له ذلك، ولكن الأحداث أثبتت أن محمدا لم يكن صادقا فى وعده ، فقد نقض الاتفاق ولم يكتف بذلك، بل دفعته أطماعه التوسعية إلى الذهاب إلى الرى لمحاربة أخيه، ولكن بعض القادة كان يميل إلى جانب مسعود لشجاعته وخبرته فى الحروب، فعمدوا إلى محمد وقيدوه وسجنوه ونادوا بشعار مسعود ، وكتبوا إليه يدعونه المجئ فى الحال إلى خراسان[١٨٣].

فقرر الأمير مسعود الذهاب إلى خراسان ، وفى ذات الوقت أتته رسالة من الخليفة العباسى القادر بالله ، وكانت تتضمن اعتراف الخليفة بالأمير مسعود سلطانا على جميع

الممالك التي كانت تحت نفوذ أبيه يمين الدولة محمود [١٨٤]، هذه الرسالة شجعته وبعثت في نفسه الثقة للمضى إلى خراسان ، وعند رحيله من مدينة الرى، تجمهر الخاصة والعامة مودعين في موكب كثيف من الجند والحرس [١٨٥].

وعند وصول الأمير مسعود خراسان استقبلته العساكر تهنئه ومن الغريب حقا أنه أمر بقتل القادة الذين أيدوه وفضلوه على أخيه، واعتبرهم خونه لأنهم غدروا بأخيه، وقد بايعه الناس في شهر ذى القعدة سنة (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) ملكا على خراسان وما وراء النهر، فكانت حدود مملكته من خراسان إلى مدينة غزنة وبلاد الهند والسند وكرمان ومكران، بالإضافة إلى مدينة الرى وأصفهان وبلاد الجبل، فكانت رسائل الأمراء تأتيه من كل هذه الأقطار المجاورة منها والبعيده[١٨٦].

ومن الترتيبات والأعمال الإدارية التى وضعها السلطان مسعود بمدينة الرى ، أنه عين طاهر دبير الكاتب بمرتبة كتخدا على مدينة الرى ونواحيها؛ والكتخدا من أهم الوظائف ، حيث أن صاحبها بيده الإشراف على تدبير الأموال والأعمال في المدينة[١٨٧].

إلا أن ابتعاد السلطان مسعود عن مدينة الرى قد هيأ الظروف والفرص أمام الطامعين لغزو مدينة الرى، ومن هؤلاء الطامعين ، فناخسرو بن مجد الدولة البويهى محاولا بذلك إعادة نفوذ أسلافه البويهيين على مدينة الرى، وقد كان فناخسرو أثناء احتلال السلطان يمين الدولة محمود سبكتكين ؛ والد الأمير مسعود لمدينة الرى ، مختبئًا في موضع يقال له قصران [١٨٨]، وقد احتل فناخسرو المدينة بقوة عسكرية مؤلفة من الديالمة والأكراد، ولكن سرعان ما تمكن نائب السلطان مسعود على مدينة الرى، حسن بن سليمان من إعادة نفوذه بالقوة ودحر هذه العساكر فانهزم فناخسرو[١٨٩].

ومن الذين طمعوا باحتلال مدينة الرى، أبوجعفر علاء الدولة بن كاكويه ، فقد استغل هو الأخر فرصة غياب السلطان مسعود، وانشغاله أول الأمر مع أخيه محمد، وكان علاء الدولة بن كاكويه مستجيرا عند عبد الملك أبى كاليجار بخوزستان، فتوجه ابن كاكويه أول الأمر إلى إصفهان واحتلها ثم احتل همذان ، ومنها إلى الرى فاحتلها واحتل دنباوند؛ وهى من أعمال الرى، والذى كان يتولى دنباوند أنوشروان بن منوجهر بن قابوس ، فأخذ يعمل هذا على استرجاع مدينته من علاء الدولة بن كاكويه ، فاستعان بالسلطان مسعود الموجود في خراسان، وكتب له يهنئه ويطلب منه العون والمساعدة لمحاربة علاء الدولة، ويشترط مقابل ذلك

إذا ما تحقق له النصر أن يكون عاملا على الرى وأعمالها باسم السلطان مسعود ، يضاف إلى ذلك أن يدفع مبالغ من المال فى كل سنة يتفق عليها، فوافق السلطان مسعود على هذا العرض وبعث بالعساكر من خراسان لتنضم إلى عساكر أنوشروان ، وبهذه الطريقة استطاع أنوشروان دحر علاء الدولة أبوجعفر بن كاكويه ، فاحتل مدينة الرى ومعظم أعمالها ، وخطب بها للسلطان مسعود (١٩٠).

وفى شهر ذى الحجة من سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) توفى الخليفة العباسى القادر بالله، وكانت مدة خلافته إحدى وأربعون سنة وأشهرا، وخلفه ابنه أبوجعفر عبدالله ، ولقب بالقائم بالله (١٩١).

ويبدو أن اتفاق السلطان مسعود مع أنوشروان قد انتهى فى سنة (٤٢٢هـ) ، بدليل أنه أصدر أمرا بتفويض (تاش فراش) قائد الجيوش الخراسانية الإمارة على الرى وهمذان ومنطقة الجبال (١٩٢). وقد كان (لتاش فراش) حروب ووقائع عديدة مع علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه ، تسببت فى حدوث الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار فى هذا الإقليم (١٩٣)، ويحتمل أن هذه الاضطرابات دفعت السلطان مسعود إلى تغيير سياسته مع هذه القوى المناوئة ، فاتبع معهم سياسة اللين والمصالحة، ربما دفعته ظروفه لمثل هذا الأسلوب ، ففى سنة (٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) أجرى عدة اتفاقات ودية مع هذه القوى، أولها مع علاء الدولة أبوجعفر بن كاكويه ، فقد اتفق معه على إقراره على إصفهان نظير تعهد علاء الدولة بأن يدفع مبالغ من المال للسلطان مسعود فى كل عام تحدد حسب الوضع الاقتصادى للمدينة. كذلك أجرى مع (منوجهر بن قابوس بن وشمكير) نفس الاتفاق نظير ولايته على جرجان وطبرستان(١٩٤).

كان للأزمات السياسية التى تعرضت لها مدينة الرى إبان هذه الفترة، وهى المتمثلة فى هجمات الطامعين فى الاستيلاء على المدينة أن خلقت جوا سياسيا خانقا غير متوازن وغير مستقر فى مدينة الرى، كانت له آثاره السيئة على الوضع الداخلى بالمدينة ، لاسيما فى الجوانب الإدارية والاجتماعية ، فمن هذه الانحرافات الإدارية ما قام به الحاكم الكتخدا طاهر دبير ، فقد أهمل أعماله وواجباته وانغمس فى ملذاته الخاصة، من لهو وشرب ومجون، ومظاهر الإسراف والأبهة والطغيان ، فكان ينثر فى مجلسه على الحاضرين الورد فى مواسمه ممزوجا بالدنانير الذهبية والدراهم، وكانت أوانى الشراب المصنوعة من الذهب والفضة تربط بحبال من الحرير وتشد على أوساطهم وهم يرقصون سكارى ثملين والكتخدا طاهر دبير يتوسط الراقصين ، وكان يضع على رأسه تاج نسيجه من الورد الجورى والياس، هذه الليالى

الحمراء التي يقيمها الكتخدا قد جرفت معها حتى القادة المخلصين للسلطان مسعود ، أمثال القائد الكبير (تاش فراش) فقد انغمس في هذا اللهو، مما يدل على عدم أمانة هؤلاء المسئولين فراحوا يعبثون بأموال مدينة الري وينفقونها على ملذاتهم الخاصة دون أدنى مراعاة لحقوق الآخرين من العامة في مدينة الري (١٩٥).

هذه الأوضاع التي كانت تجري في مدينة الري ربما كانت من الأسباب التي شجعت الطامعين في الاستيلاء على مدينة الري. وقد وصلت أخبار فساد الجهاز الإداري إلى السلطان مسعود ، فقرر عزل طاهر دبير، ورشح لهذا المنصب عدداً من الشخصيات ولكن بعد تشاور السلطان مع كبار المسئولين استقر رأيه على أبي سهل الحمدوي؛ لما يتصف به من العدل والفضل ، حتى أن السلطان مسعود أثنى عليه وقال: (ولكن أبا سهل الحمدوي أهل لهذا المنصب فإنه ذو شهامة وكفاية وحنكة وله في مهام الأمور سابقة)(١٩٦).

وقد أراد السلطان مسعود أن يرسل ابنه الأمير سعيد مع أبي سهل الحمدوي، ليكون نائبا عنه بمدينة الري، أما الإدارة والحكم فتكون بيد الكتخذا أبي سهل الحمدوي، وهذا نص خطاب السلطان مسعود للكتخدا :

(فكرنا بالأمس في أمر الري والجبال فرأينا من الصواب أن نبعث معكم ولدنا الأمير سعيد بأبهة فائقة حتى يكون نائبا عنا وتكون كتخداه ، بحيث يكون الحل والعقد والخفض والرفع والأمر والنهي في يدك ويصغي ولدنا إلى نصحك فتكمل بذلك أسباب الهيبة). وقد رحب أبوسهل الحمدوي بهذا الرأي ولم يعارضه، إلا أنه اقترح على السلطان أنه إذا كان الهدف الحصول على الهيبة من مجيئ الأمير سعيد، فمن المصلحة أن يؤجل ذلك ريثما يستقر الوضع في مدينة الري ، وفي ذات الوقت يتم القضاء على القوى المعادية الطامعة بمدينة الري، فوافقه السلطان واستحسن رأيه(١٩٧).

هذا التغيير الإداري الذي أحدثه السلطان مسعود قد شمل القائد (تاش فراش) بالإضافة إلى الكتخدا السابق طاهر دبير ، وتقلد أبوسهل الحمدوي هذا المنصب ، وقد أجرى عدة إصلاحات في مدينة الري وقد نجح في ذلك إلى حد كبير ، فكان العدل أساس حكمه، ورفع المظالم والرشاوي والمصادرات التي كانت متفشية زمن الكتخدا طاهر دبير والقائد (تاش فراش) فأمن الناس على أموالهم وحقوقهم ، فكان لذلك آثاره الطيبة على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مدينة الري، مما أدى إلى استقرار الأوضاع في هذه المدينة إبان هذه الفترة على الأقل أي في سنة (٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) (١٩٨).

لقد سبق وذكرنا أن السلطان مسعود قد أبرم اتفاقية مع علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه، ولكن علاء الدولة نقض هذا الاتفاق المعقود بينه وبين السلطان مسعود، باعتدائه على العساكر الخراسانية التي كان يقودها أبو سهل الحمدوى المسئول عن الري، وقد أدى ذلك إلى حدوث حروب بين الطرفين أسفرت عن هزيمة علاء الدولة ونهبت أمواله وذخائره واحتلت إصفهان مقر حكمه ، فهرب علاء الدولة إلى إيدج[١٩٩] لاجئا عند الأمير أبي كاليجار [٢٠٠].

إلا أن علاء الدولة بن كاكويه لم يوقف نشاطه العسكري، فقد عاود تحرشاته في سنة (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) لإعادة نفوذه على إصفهان، ولكن أبا سهل الحمدوى كان له بالمرصاد ، ولم يمكنه حتى من اللجوء عند أبي كاليجار ، فانهزم إلى مدينة بروجرد وهناك نهبوا أمواله، ومنها ذهب إلى مدينة الطرم [٢٠١]، فلم يقبله أميرها السالار لاجئا[٢٠٢].

إن عدم الاستقرار في مدينة الري وفي سائر المدن التابعة لسلطان الملك مسعود شمل أيضا مدينة خراسان وبلاد ما وراء النهر، فأخذت تحاك المؤامرات هذه المرة ضد السلطان مسعود بن محمود أمير خراسان وما وراء النهر، فقد أراد مدبروها الإطاحة بالملك مسعود وإعادة السلطة إلى أخيه محمد ، وأسفرت هذه المؤامرة عن مقتل السلطان مسعود في سنة (٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) ، ونادوا بمحمد ملكا على خراسان وتوابعها ، ولكن هذا الأمر لم يمر بسلام، فقد استطاع (مودود) ؛ وهو أحد أبناء الملك مسعود أن ينتقم لأبيه بعد أن تولى على الأمر، فأمر بقتل عمه محمد وأبناء عمه علي وأحمد، وأمر بقتل القادة الكبار الذين دبروا هذه المؤامرة[٢٠٣].

وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أن خراسان لم تعد قادرة على الاستمرار في القيادة المركزية للولايات التابعة لها بعد مقتل السلطان مسعود، ففي سنة (٤٣٣هـ / ١٠٤١م) تمكن علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه من السيطرة على مدينة الري ، ولم تكن هناك ردود فعل من السلطة المركزية في خراسان، ولم تستنكر هذا الفعل وهذا دليل على ضعفها وتشتت قوتها، وقد مات علاء الدولة بن كاكويه واستمر أبناؤه وهم: ظهير الدين أبو منصور فرامرز، وأبوكاليجار كرشاسف، ثم الأخ الأصغر أبوحرب يمارسون سلطانهم على مدينة الري وإصفهان وهمذان [٢٠٤].

مدينة الرى تحت نفوذ السلطان طغرلبك :

إلا أن القوة المتنامية للسلاجقة إبان هذه الفترة والتى وضع أساسها السلطان ركن الدولة أبوطالب طغرلبك ، محمد بن ميكائيل بن سلجوق مؤسس الدولة السلجوقية ، وقد امتد نفوذها على معظم المدن الفارسية، كخوارزم وطبرستان وجرجان وكرمان وأعمالها وقزوين وبلاد الجبل، كما وضع حدا لنفوذ أبناء أبى جعفر علاء الدولة ولو لفترة محددة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن السلطان طغرلبك قام بغزو مدينة الرى فى سنة (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م) وفتحها واستولى على أعمالها، كما استولى على أموال وضياع أبناء علاء الدولة أبى جعفر (٢٠٥)، وكان يخطب له فى جميع هذه المدن بما فيها مدينة الرى (٢٠٦)، وينكر الحافظ الذهبى أن طغرلبك أسرف فى القتل حتى تمكن من إخضاع مدينة الرى، فلم يبق فى المدينة، والكلام للحافظ الذهبى غير ثلاثة آلاف إنسان، وأرى أن هذا الرقم الأخير مبالغ فيه ، فلايعقل أن يصل القتل إلى هذا الحد ، حتى لم يبق فى المدينة غير هذا النفر، فيجوز أنهم فروا من المدينة خوفا من القتل والتنكيل فلم يبق فى المدينة غير النفر الذين ذكرهم الحافظ الذهبى(٢٠٧).

وقد كانت للسلطان طغرلبك اهتمامات بالنواحى العمرانية ، فلما استقر الوضع بمدينة الرى عمد إلى التعمير، وأول عمل قام به أنه أمر بتجديد بناء مدينة الرى، كذلك اهتم بتحسين علاقاته مع جيرانه، لذلك فقد وصلته من أمير خراسان (كامرو) هدايا قيمة، وهى عبارة عن مركب مصنوع من الذهب، وخزينة لوضع المجوهرات من صنع الصين(٢٠٨).

ولكن ما زال فناخسرو بن مجد الدولة البويهى يحلم فى استرجاع مجد آبائه وأجداده ، فقد كان له نشاط ملحوظ خلال هذه الفترة ؛ أى فى سنة (٤٣٩هـ / ١٠٤٧م) ، وكان ينوى إعادة مدينة الرى، لذلك تحرك بقواته نحو مدينة آمد؛ وهى من أعمال السلطان طغرلبك ، فاحتلها وقتل عددا من أتباع طغرلبك، وكان طغرلبك بمدينة الرى فخرج منها لقتال فناخسرو(٢٠٩)، كذلك كانت بين طغرلبك وبين أبى منصور بن علاء الدولة الذى أعاد نفوذه على إصفهان ، مناوشات فى سنة (٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) ، فقد حاصره ولما طال الحصار أذعن أهل مدينة إصفهان بالطاعة لطغرلبك وسلموه البلد فدخلها ، وفضل السكن بها ، فنقل مقر حكمه فى سنة (٤٤٣هـ / ١٠٥١م) من الرى إلى إصفهان (٢١٠). كما قبض على الملك الرحيم؛ وهو آخر ملوك بنى بويه وسجنه فى القلعة بمدينة الرى، ومات فى سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م (٢١١)، وقد اتسع سلطان طغرلبك حتى وصل إلى بغداد والموصل، وقد توفى طغرلبك بمدينة الرى فى سنة (٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) (٢١٢).

وبعد موت طغرلبك ورثه ابن أخيه ألب أرسلان، واسمه محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وآلت إليه السلطة في بغداد وفي غيرها من المدن العراقية، إلا أن موت طغرلبك المفاجئ قد خلق جوا سياسيا غير متوازن ، لاسيما في الولايات التي تقع في مشرق الخلافة العباسية ، وأفسح هذا المناخ المجال أمام القوى الطامعة أن تتحرك للتوسع على حساب القوى الضعيفة ، وهذا ما حدث بالفعل ، ففي سنة (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) قام شهاب الدولة قتلمش بغزو مدينة الري، ولكن السلطان ألب أرسلان حاكم بغداد سبقه في الوصول إليها وتحصن بها ، وحدث القتال بين الطرفين عند مشارف مدينة الري انتصر فيه ألب أرسلان وقتل قتلمش (٢١٣).

بعد ذلك خرج ألب أرسلان من مدينة الري في ربيع الأول من نفس السنة المذكورة متوجها إلى مدينة آني لمحاربة الروم، هذا إلى جانب ما كان بينه وبين شمس الملك تكين المتولي على بلاد ما وراء النهر من حروب، وقد انتهت بمقتل السلطان ألب أرسلان، وقد أوصى بأن تكون السلطة من بعده لابنه ملكشاه ، فتولى السلطة في سنة (٤٦٥هـ / ١٠٧٢م)، وتوجه إلى مدينة الري (٢١٤)، ولكن نلاحظ أن (قاورت بك) عم السلطان ملكشاه المتولي على كرمان كانت له أطماع بالري وأعمالها، فسير جيوشه لاحتلالها ، فاصطدم ملكشاه مع عمه ودار قتال بينهما عند مدينة همذان أسفر عن انتصار ملكشاه ، فأسر عمه (قاورت) ثم أمر بقتله، وكان للوزير نظام الملك دور بارز في هذا النصر الذي حققه ملكشاه على عمه (٢١٥).

وقد أخذ سلطان ونفوذ ملكشاه يتسع حتى شمل من حد الصين شرقا إلى بلاد الشام غربا، ومن أقصى الشمال إلى اليمن، وكان يخطب له في هذه البلاد الواسعة ، وحتى ملوك الروم كانوا يحملون إليه الجزية، واتسم حكمه بالعدل والسيرة الطيبة، وبعد وفاته خلفه ابنه محمود، وهو أصغر من أخيه (بركيارق)، وكان لأم محمود؛ (تركان خاتون) أو زبيدة خاتون دور بارز في وصول ابنها إلى السلطة ولكن (بركيارق) لم يقبل هذه القسمة فأخذ يحيك المؤامرات حتى استطاع إبعاد أخيه وتولى هو السلطة، وذهب إلى الري فوجد زبيدة خاتون أم أخيه فأمر بخنقها وكانت في الحمام ، ثم بعد ذلك أخذ نفوذ (بركيارق) يتعاظم ، فكان يخطب له في يوم الجمعة في مساجد بغداد، فضلا عن مدينة الري وأعمالها(٢١٦).

وفي سنة (٤٩٦هـ / ١١٠٢م) ظهر على مسرح الأحداث ينال بن أنوشتكين الحسامي، كمنافس خطير (لبركيارق) ، وقد استطاع بمساعدة حاكم مدينة إصفهان السلطان محمد من

احتلال مدينة الري، والسلطان محمد هو أخ للسلطان بركيارق ، ولم تكن العلاقة بينهما طيبة بل اتسمت بالعداء والحروب الطويلة، يذكرها ابن الأثير وغيره من المؤرخين ، وقد أراد ينال أن يرد الجميل للسلطان محمد، فأمر أئمة المساجد أن يخطبوا بالري للسلطان محمد، ولم يكن ينال الذى استولى على مدنية الري محبا لأهل الري، فقد أساء إليهم وصادر أموال بعض التجار ، ولكن (بركيارق) لم يدعه يهنأ بحكم الرى فقد غزا الرى بقيادة (برسق بن برسق) الذى تمكن من إلحاق الهزيمة بينال، فدخل (بركيارق) مدينة الري وهرب عنها ينال إلى منطقة الجبال وتفرق عنه جنده وأتباعه ولم يبق معه إلا القليل ذهب بهم إلى بغداد ، فأكرمه الخليفة العباسي المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ولكن بعد ذلك طرد من بغداد لسوء سلوكه مع الناس واعتداءاته المتكررة على التجار[٢١٧].

وفى أثناء النزاع الطويل الذى أشرنا إليه والذى دار بين الأخوين، السلطان بركيارق والسلطان محمد في سنة (٤٩٦هـ) استطاع السلطان محمد فى نهاية الأمر السيطرة على مدينة الرى وطرد عنها نواب وأتباع السلطان (بركيارق) ، ثم بعد ذلك تم الصلح بينهما، فكانت المناطق التي تحت نفوذ السلطان محمد هي: كنجة وبلاد أران [٢١٨]، بالإضافة إلى الرى وأعمالها [٢١٩]، وبلغ اتساع مملكة السلطان محمد من حد خراسان وما وراء النهر إلى الرى وتوابعها، ومات السلطان محمد في سنة (٥١٢هـ / ١١١٨م) وخلفه ابنه السلطان سنجر بن محمد ، فقد ورث هذه المملكة وعمل جاهدا للمحافظة عليها وخاض الحروب من أجلها[٢٢٠].

ومن الملاحظ أن معظم هذه النزاعات والحروب كانت تقع بين أبناء البيت الحاكم، في سنة (٥١٣هـ / ١١١٩م)، وقعت خلافات بين السلطان سنجر وبين ابن أخيه السلطان محمود بن أحمد حيث كان السلطان محمود يطمع فى السيطرة على مدينة الري، هذه الخلافات قادتهم إلى حدوث صدام عسكرى بينهما داخل حدود مدينة الري، وقد هزم السلطان محمود في هذا النزاع ، وعمل السلطان سنجر على تحصين حدوده بمدينة الرى[٢٢١]. وكان أخر هذه الحروب التي خاضها السلطان سنجر فى سنة (٥٣٦هـ / ١١٤١م) مع الأتراك الخطا، فاستعد لقتالهم وفوض عنه ابن أخيه مسعود على مدينة الري، ولكن السلطان سنجر انهزم أمام الأتراك الخطا فاستولوا على بلاد ما وراء النهر. أما مدينة الرى فإن مسعود تركها وذهب إلى بغداد بعد أن أناب عنه شخص يدعى الأمير عباس ، وخلال وجود الأمير مسعود فى بغداد استطاع الوصول إلى السلطة ، فأصبح حاكما على بغداد[٢٢٢].

أما الأمير عباس فقد استقل بحكم مدينة الرى وخرج عن طاعة السلطان مسعود، وقد شجعه أمير خوزستان وبلاد فارس المدعو (بوزابة) على التمرد، وكره الملك مسعود محاربتهم ، وربما لم تكن الظروف مهيئة لهذا الغرض، فتصالح معهما فى سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) (٢٢٣). وتشير الدلائل إلى أن الأمير عباس قد حكم مدينة الرى بالعدل، وأحسن إلى أهلها وتتبع جماعات الباطنية فحاصرهم ونكل بهم واضطهدهم وقتل منهم الكثير حتى أن ابن الأثير يقول أنه عمل منارة من جماجمهم ، ثم عول على الجيش فأنشأ قوة عسكرية كبيرة ليحتمى بها من العاديات ، وفى ذات الوقت فإن هذه القوة الكبيرة أثارت حفيظة الملك مسعود ببغداد وتهيب منها وربما قد يكون هو المقصود والهدف من وراء إنشائها ، فأخذ يحترز ويعمل من أجل الحد من هذه القوة أو التخلص من صاحبها ، وقد جاءت هذه الفرصة مواتية عندما كان الأمير عباس ببغداد زائرا؛ ولعل الملك مسعود هو الذى استدرجه للقيام بمثل هذه الزيارة ، فغدر به وقتله فى سنة (٥٤١ / ١١٤٦م) وبذلك عادت مدينة الرى مرة أخرى لنفوذ الملك مسعود(٢٢٤).

ولكن نفوذ الملك مسعود على مدينة الرى كان ضعيفا بسبب انشغاله فى أمور بغداد، ثم أن نائبه على الرى الذى لم يعلن عن اسمه ، لم يكن على مستوى من الكفاءة، هذه الظروف قد أفسحت المجال أمام القوى الطامعة أن تعاود لتمارس نشاطها من أجل السيطرة على مدينة الرى، ومن بين هذه القوى: المماليك ، يتزعمهم (إيتاخ) أو (إينانج) وهم مماليك السلطان سنجر، فقد استغلوا فرصة انشغال السلطان سنجر فى حروبه مع الغز، فتركوا خراسان وتوجهوا نحو مدينة الرى، وربما كانت الظروف التى تمر بها مدينة الرى قد شجعتهم وساعدتهم لغزو مدينة الرى، فاحتلوها فى سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٣م) (٢٢٥).

ومن الملاحظ أن هذه الفترة التى نتحدث عنها وما بعدها ، تعتبر مرحلة مميزة فى التاريخ السياسى لمدينة الرى، فالرى لم تعد القوة المركزية التى تهيمن على الولايات المجاورة لها، إذ أخذت تفقد الكثير من سيطرتها على أعمالها ، فلم يعد لها نفوذ على هذه المدن، ويعود ذلك إلى أمرين: الأول يتمثل فى اضطراب وضعها الداخلى وعدم استقراره ، والثانى ظهور حكام أقوياء فى هذه المدن قاموا بقطع هذه التبعية واستقلوا عن مدينة الرى ، وقد ذهب الأمر ببعضهم أبعد من ذلك، فقد طمعوا بغزو مدينة الرى نفسها، وقد قام بذلك حاكم مدينة أرانية(٢٢٦) وأذربيجان المدعو (إيلدكز) ، ولم تمنعه الصداقة وصلة الرحم التى كانت بينه وبين

(إيتاخ) حاكم مدينة الرى، فقد كان محمد الملقب بالبهلوان وهو ابن (إيلدكز) زوجا لابنه (إيتاخ) ، فقد طمع (إيلدكز) أول الأمر بمدينة همذان ثم عدل عنها إلى مدينة الرى لعداوة تولدت بينه وبين صهره (إيتاخ) حاكم مدينة الرى ، وقد تطور هذا العداء إلى حدوث صدام عسكرى بينهما أسفر عن خسارة (إيتاخ) ، وانتهت هذه الخصومة إلى عقد صلح بينهما ، . شروطه أن يدفع (إيتاخ) (لإيلدكز) فى كل سنة مبلغا من المال [٢٢٧]. ولكن (إيتاخ) نقض هذا الصلح ووجد أنه مجحف وغير منصف ، فامتنع عن دفع الأموال متعللا بكثرة المصاريف ، فقام (إيلدكز) بغزو مدينة الرى فهرب (إيتاخ) إلى قلعة منيعة تعرف بطبرك سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) فلم يهدأ بال (إيلدكز) فاستأجر جماعة من المماليك لحقوا به وتمكنوا من قتله، إلا أن (إيلدكز) لم يقم طويلا فى مدينة الرى فقد تركها وعاد إلى همذان بعد أن أناب عنه، عمر بن على، وهو أحد الأتباع المقربين [٢٢٨]، وفى صيف سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) مات (إيلدكز) وخلفه على السلطة ابنه محمد الملقب بالبهلوان [٢٢٩].

الدولة الخوارزمية ومدينة الرى:

كانت الدولة الخوارزمية تشكل خلال هذه الفترة أكبر قوة فى تلك الأقاليم، فنفوذها السياسى يشمل مدينة خوارزم ونيسابور ومدن أخرى، وجميعها كانت تحت نفوذ الملك خوارزم شاه، ولكن فى سنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢م) تحرك أحد سلاطين الأتراك المدعو طغرل بن ألب أرسلان وأراد أن يسترجع ما كان لأبيه وأجداده من سلطان على همذان وكذلك مدينة الرى، وكانت الرى وهمذان إبان هذه الفترة تحت نفوذ (قتلغ إينانج بن محمد البهلوان) . فتوجه طغرل نحو همذان فاحتلها ، فهرب (قتلغ) إلى مدينة الرى واتصل بالسلطان خوارزم شاه يطلب منه المساعدة لحمايته من طغرل بن ألب أرسلان ، وعلى الفور جاءت عسكر خوارزم شاه إلى مدينة الرى، ولكن يبدو أن هذه العساكر لم تأت لتحمى وإنما لتستولى ، فقد طمع خوارزم شاه بمدينة الرى، فخاف (قتلغ) على نفسه فهرب إلى قلعة طبرك الحصينة فحاصره خوارزم شاه، ولكنه سئم المقام بالرى فلم يمكث طويلا وغادرها بعد أن ترك بها حامية تدير شئونها ، ليتصدى لأخيه سلطان شاه ويمنعه من احتلال مدينة خوارزم ، وقد أدى ذلك إلى حدوث نزاع بين الأخوين، ومن الطبيعى أن يستغل طغرل بن ألب أرسلان هذه الأوضاع فغزى مدينة الرى مرة أخرى واحتلها فى سنة (٥٩٠هـ / ١١٩٣م) وطرد عنها الحامية العسكرية [٢٣٠].

وعلى أثر ذلك تحرك (قتلغ إينانج) من مخبئه واتصل بالسلطان خوارزم شاه يعتذر له عما بدر منه ويعبر له عن سبب اختبائه عنه، ويطلب منه المساعدة لمحاربة طغرل، وقد أخذ السلطان خوارزم شاه يوازن بين (قتلغ) وبين طغرل، فوجد أن من المصلحة أن يقف إلى جانب (قتلغ) ويساعده عسكريا ضد طغرل ذى الأطماع السياسية، هذا فضلا عن العلاقة السيئة التى كانت بينه وبين طغرل، لذلك قبل عذر (قتلغ) وبعث معه قوة عسكرية لمحاربة طغرل، وقد تمكنت هذه القوه من هزيمة طغرل، فخضعت الرى وهمذان لنفوذ السلطان خوارزم شاه، ثم بعد ذلك سلمها بيد (قتلغ إينانج) ، وهذا دليل على أن العلاقة بينهما كانت طيبة، أو ربما أوضاع السلطان خوارزم حتمت عليه أن يفعل ذلك[٢٣١].

ولكن هذه العلاقة الطيبة كان عمرها قصيراً ما دامت هناك أطماع وتجاوزات ومنافسات للوصول إلى السلطة . فالحامية العسكرية التى سبق أن تركها خوارزم شاه بمدينة الرى عادت من جديد إليها، فكانت مصدر إيذاء ومضايقه (لقتلغ إينانج) . فتصدى لهم ولكنهم كانوا أقوى منه، فخرج من الرى ولجأ عند مؤيد الدين، وهو أبو الفضل محمد بن على بن القصاب البغدادى وزير الخليفة العباسى الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضيئ، الذى كان فى زيارة لهذه المدن، وكان على رأس قوة عسكرية أتى بها لإخضاع هذه المدن لطاعة الخليفة، وكان لقاؤه بالوزير عند مدينة ميسان، فأكرمه الوزير وأحسن إليه وزوده بالخيل وما يحتاج إليه الجيش من الخيام، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، وساروا جميعا إلى كرمان شاه [٢٣٢]، ومنها إلى همذان وكانت العساكر الخوارزمية بهمذان، فلما علموا بقدوم جيش الخليفة تركوا همذان ورحلوا إلى مدينة الرى، فتبعهم الوزير فتركوا الرى إلى دامغان وبسطام[٢٣٣] وجرجان ، بينما استقر جند الخليفة بالرى[٢٣٤].

وقد وجد (قتلغ إينانج) أنه لا نية للوزير مؤيد الدين أن يدعه وشأنه فى حكم الرى، فلم يكن أمامه إلا استخدام القوة ولكن الوزير استطاع القضاء على حركته، فهرب (قتلغ إينانج) إلى مدنية آوة[٢٣٥] فمنعته حامية الوزير من دخول المدينة، عند ذلك قرر محاربة الوزير، وأخذ يجمع الأتباع إلا أنها محاولات كانت يائسة إذ استطاع الوزير هزيمته، وقد عمل الوزير بعد ذلك على إحكام سيطرته على مدينة الرى وهمذان وباقى المدن المجاورة ولكن الجيوش الخوارزمية لم تدعه فقد كانت له بالمرصاد ، إذ أرسل الملك خوارزم شاه الجيوش لغزو همذان والرى، وتمكنت هذه الجيوش من إلحاق الهزيمة بجيش الخليفة الذى يقوده الوزير فى سنة

(٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) بعد حروب دامت بينهما، وكان لموت الوزير مؤيد الدين فرصة طيبة أمام الجيوش الخوارزمية لفرض سيطرتها التامة على همذان والرى وسائر المدن المجاورة (٢٣٦).

ويبدو أن مسلسل الحركات الطامعة فى غزو مدينة الرى لم يتوقف ، فكانوا يتحينون الفرص للسيطرة عليها، فقد استغلت جماعة من المماليك التى يطلق عليها الفهلوانية ونفر من الأمراء فرصة غياب الملك خوارزم شاه عن مدينة الرى فوثبوا على السلطة بالرى، ونصبوا عليهم شخصًا يدعى (كوجة) ؛ وهو من أعيان المماليك الفهلوانية ليكون أميرا عليهم ، ثم توجهوا إلى مدينة إصفهان لإخراج الخوارزمية عنها واحتلالها ، إلا أنهم فوجئوا بجيش الخليفة الناصر لدين الله يقوده سيف الدين طغرل قادما لمحاربة الخوارزمية ، فتريث المماليك ينتظرون ما يحدث بين الخوارزمية وجيش الخليفة، وقد فوجئوا بخروج الخوارزمية وتركهم لمدينة إصفهان ، وقد كان المماليك يمتلكون قوة عسكرية كبيرة لها وزنها، فوجد زعيم المماليك (كوجة) أن الفرصة مواتية ليتفاوض مع الخليفة العباسى، وقد تم الاتفاق على أن يحكم (كوجة) مدينة الرى وساوة(٢٣٧) وقم وقاشان وما والاها ، وتكون إصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة، فوافق الخليفة على هذا الشرط ، وقد بعث الخليفة بالهدايا والخلع توكيدا على حسن العلاقة، كذلك اهتم الأمير (كوجة) بالناحية العسكرية ، لذلك أنشأ قوة كبيرة ليحافظ بها على حدود مدينة الرى وباقى المدن، ولتكون رادعا لأعدائه الطامعين(٢٣٨).

ولم يكن السلطان خوارزم شاه غافلا أو متهاونا إزاء ما قام به الأمير (كوجة) من تحصينات وأعمال عسكرية استفزازية ، ولكنه كان ينتظر الوقت المناسب، ففى سنة (٥٩٤هـ / ١١٩٧م) قام بغزو مدينة همذان واحتلها ثم أتبعها باحتلال مدينة الرى وأعمالها ، وبعث للخليفة العباسى خطابا شديد اللهجة مشفوعا بالتهديد والوعيد، وكان يطلب من الخليفة أن يعترف بسلطانه على المناطق التى احتلها والخطبة له فى بغداد، فلم يستجب له الخليفة ، بل راح يعمل على كسر شوكته وإضعافه ، فاتصل بغياث الدين ملك الغور وغزنة يحرضه على خوارزم شاه، وقد فطن خوارزم شاه لخطط الخليفة، فراح يتصل بالأتراك الخطا يحرضهم ويؤلبهم على غياث الدين، وقد نجح فى ذلك وفوت الفرصة على الخليفة وأحبط مخططه (٢٣٩)، وفى ذات الوقت أحكم قبضته على مدينة الرى وهمذان، وأقر على مدينة الرى شخصًا يدعى (مياجق) ، ونتيجة للظرف السياسى المضطرب الذى تمر به الدولة الخوارزمية فقد دفع ذا (مياجق) إلى التمرد والخروج عن طاعة خوارزم شاه واستقل بحكم الرى فى سنة (٥٩٥هـ / ١١٩٨م) (٢٤٠).

ومن الطبيعي أن يحدث مثل هذا التمرد والانفصال والاستقلال بحكم مدينة الري عند بعض العمال، ويعود ذلك نتيجة لأسباب سياسية وجغرافية، وفيما يتصل بالجانب السياسي فإن المدن الخاضعة للنفوذ الخوارزمي لم تكن مستقرة، وولاؤها للدولة الخوارزمية ضعيف ، لذلك فإن السلطان خوارزم شاه منهمك ومشغول للعمل على تأكيد نفوذه على هذه المدن ، هذا الوضع السياسي المتأزم وغير المستقر قد أفسح المجال أمام المسئولين في مدينة الري إلى التمرد والثورة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهناك العامل الجغرافي المتمثل في بعد المسافة بين خراسان ومدينة الري .

ومع ما كان يمر به السلطان خوارزم شاه من صعاب إلا أنه استطاع أن يعيد سلطانه على مدينة الري، ولم يتمكن (مياجق) من الإفلات من يد خوارزم شاه وقرر قتله لولا وساطة (أقجة) : أخو (مياجق) وكان من المقربين من السلطان خوارزم شاه[٢٤١].

أمام هذه الأوضاع فإن الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وهو الضعيف سياسيا وعسكريا، اضطر إلى الإذعان وقبول الشروط التي أملاها عليه خوارزم شاه، إضافة إلى الهدايا والخلع التي بعثها إلى خوارزم شاه وإلى ابنه قطب الدين محمد، وقد توفي خوارزم شاه في سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) وتولى السلطة بعده قطب الدين محمد الذي لقب نفسه بعلاء الدين[٢٤٢].

مدينة الري والغزو المغولي:

عندما تعرض العالم الإسلامي إلى هجمات المغول التتار المدمرة في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، لم تكن مدينة الري في منأى عن هذا الدمار شأنها في ذلك شأن باقي المدن الإسلامية، ففي سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) تعرضت مدينة الري إلى هجوم بربري عنيف قام به التتار، ونتج عن ذلك قتل العديد من الرجال والأطفال وسبي النساء واسترقاق الأطفال، هذا فضلا عن اعتدائهم على معالم الحضارة في مدينة الري فجعلوها خرابا، ومن ثم عينوا عليها حاكما من قبلهم وانتقلوا إلى مدينة همذان[٢٤٣].

ولكن في سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) قام غياث الدين؛ وهو أحد أبناء خوارزم شاه، وكان يتولى إصفهان وكرمان، بهجوم مضاد ضد التتر استطاع أن يخلص مدينة الري من أيديهم، وكان غياث الدين بن خوارزم يعتمد كثيرا على خاله (إيغان طائيسي) في تدبير شئون مملكته،

فكان لايصدر أمرا إلا بعد مشورته، فهو المستشار الأول، فلما وجد الخال (إيغان طائيسى) أن جميع أمور الإدارة في يده شجعه ذلك على الاستئثار بالسلطة ، وكان للحاشية دور فعال فى تنفيذ هذه المؤامرة، يضاف إلى ذلك ما قام به الخليفة العباسي الناصر لدين الله من دور مؤيد (لإيغان طائيسى) ، فقد اتفق معه سرا بأن يقطعه هذه البلاد بما فيها مدينة الرى، ولما علم غياث الدين بخيانه الخال أراد الانتقام منه فجمع الأتباع والمؤيدين وألحق الهزيمة بخاله، فهرب الخال إلى أذربيجان وأخذ غياث الدين بعد ذلك يتحصن فاهتم بالناحية العسكرية فأصبح نفوذه قويا على مدينة الرى وعلى سائر المدن التابعة لملكته(٢٤٤).

ولكن خطر التتار لم يتوقف وقوتهم لم تضعف فقد قاموا فى مطلع سنة (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) بشن هجوم مباغت على مدينة الرى اتسم بالعنف ، فأسفر عن خسائر كبيرة فى الأرواح والممتلكات ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى المدن المجاورة ، وساعة الهجوم لم يكن غياث الدين موجودا فى المدينة، فقد كان خارج البلاد منذ سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) متجها نحو خراسان بقصد غزوها وتم له احتلالها ، ومنها توجه إلى مدينة شيراز واحتلها واتخذها مقرا لحكمه خاصة بعد ما علم بتدمير مدينة الرى، ومدينة شيراز تقع فى الجنوب الشرقى لإيران وهى ذات موقع تجارى هام(٢٤٥).

وقد عاود التتار هجماتهم على مدينة الرى فى سنة (٦٢٥هـ / ١٢٢٧م)، فتصدى لهم جلال الدين ؛ أخو غياث الدين واشتد القتال بينهما وطالت مدته، إلا أنه انتهى بجلائهم عن الرى(٢٤٦)، ثم عاودوا هجومهم من جديد على المدينة فى سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) وعلى مدينة همذان ، وقد ساعدتهم فى هذه المرة جماعات من أهل الرى من الباطنية الإسماعيلية المعادين للحكم الخوارزمى فى الرى، ودلوهم على مواطن الضعف التي يعانى منها جلال الدين، وأسفرت هجماتهم عن تدمير المدينة مرة أخرى ونهبها ، وهكذا ظلت مدينة الرى تعانى من الضعف السياسى وعدم الاستقرار نتيجة لهجمات التتار المتكررة ونتيجة للاضطرابات فى الداخل من جهة أخرى (٢٤٧).

خاتمة البحث

هذه الجولة البحثية التي كانت بدايتها من العصر العباسي الثاني وحتى سقوط بغداد؛ أي من حوالي سنة (٢٣٢- ٦٥٦هـ / ٨٤٦-١٢٥٨م) كانت فترة مزدحمة بالأحداث السياسية من تاريخ الري، وهذا دليل على أهمية هذه المدينة ذات الموقع الجغرافي المميز ذي الأبعاد الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية.

هذه الأحداث السياسية التي مرت بها مدينة الري، كانت عبارة عن سلسلة متصلة متشابهة من الصراعات العسكرية القتالية بين هذه القوى من أجل السيطرة على مدينة الري. هذا المناخ السياسي المتأزم المضطرب وغير المتوازن ، جعل مدينة الري في حالة من عدم الاستقرار ، وهذا الوضع لم يفسح لأي من هذه القوى المسيطرة على مدينة الري المجال للعمل من أجل النهضة الحضارية في هذه المدينة.

وبحكم موقع مدينة الري الجغرافي فإنها قد تأثرت بهذه الأحداث وتفاعلت معها، فأثرت وتأثرت بها، فقد تأثروا بأفكار ومعتقدات من غزاهم من هذه القوى، لذلك فقد تعددت بها المذاهب والمعتقدات ، فهناك أهل السنة على اختلاف مذاهبهم والشيعة والمعتزلة والباطنية ، هذه المذاهب كانت عرضة للاضطهاد والتنكيل من قبل القوى المتعاقبة المسيطرة على مدينة الري ، فبعض هذه القوى كانت تلجأ إلى اضطهاد من يخالفها في العقيدة والمذهب وتنكل بهم، وهكذا استمر الوضع إبان فترة الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي بمدينة الري.

ومع ما كانت تمر به مدينة الري من اضطراب وعدم استقرار إلا أنها أنجبت مجموعة من العلماء ورجال الدين البارزين في عالمنا الإسلامي، فكثيرا ما نقرأ ونسمع بلفظة (الرازي) نسبة إلى مدينة الري.

وباعتقادي أنه لو لم تتعرض مدينة الري لمثل هذا الدمار العسكري والاضطراب السياسي المستمر طوال العصر العباسي الثاني وحتى سقوط بغداد على يد المغول ، لظلت مدينة الري محتفظة بدورها الحضاري الريادي إلى يومنا هذا، ولأصبحت هي العاصمة لدولة إيران الحديثة.

الهوامش

١- ابن الأثير (أبو الحسن بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) : الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ج٥ ص٢٧٠-٢٧١ ، وانظر ابن خلدون (عبد الرحمن) : تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة، بيروت، ١٩٦٧م، مجلد ٣ ص٥٧٤ .

٢- اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب) : تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٤٨٠، وانظر ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٧١ .

٣- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٨٤ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٥٨٢، وانظر ابن العبري (غريغوريوس أبي الفتح هارون المالطي): تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠م، ص٢٧٤ .

٤- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٣٠١ .

٥- ابن الأثير : الكامل ج٥ ، ص٢٩٦ .

٦- هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. انظر الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، دار القاموس الحديث، سوريا (بدون تاريخ) ، ج١١ ص٩٢ - ٩٣ .

٧- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١١ ص٩٢-٩٣ وانظر ابن الأثير: الكامل ج٥ ص٣١٦ .

٨- الطبري : ج١١ ص٩١-٩٢ ، وانظر ابن الأثير: ج٥ ص٣١٦ .

٩- ابن الأثير : ج٥ ص٣١٦ .

١٠- الطبري: ج١١ ص٩٢ ، وانظر ابن الأثير : ج٥ ص٣١٦ .

١١- الطبري : ج١١ ص٩٢ ، وانظر ابن الأثير ج٥ ص٣١٦ .

١٢- الطبري: ج١١ ص٩٣ وانظر المقدسي (أبو زيد أحمد بن سهل المطهر بن طاهر) : البدء والتاريخ ، باعتناء كلمان هوار، باريس ١٩١٩، ج٦، ص١٢٤ ، وانظر ابن الأثير: ج٥ ص٣١٧ .

١٣- الطبري ج ١١ ص٩٣ وانظر المطهر المقدسي، ج٦ ص١٢٤ ، وابن الأثير ج٥ ص٣١٧ .

١٤- ابن الأثير : ج٥ ص٣١٧ .

١٥- لم نتمكن من معرفة باقي اسمه، غير أن الطبري يذكر أنه من أهل مدينة (اللارز) الطبري: ج١١ ص٩٣ ؛ و (اللارز) قرية من أعمال آمل بطبرستان ، ياقوت (أبوعبدالله بن عبدالله) : معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٣م) مجلده ص٧ ، بينما يكتفي ابن الأثير بذكر إسم (واجن) فقط دون تعليق ، ابن الأثير: ج٥ ص٣١٧ .

١٦- الطبرى ج١١ ص٩٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٥ ص٣١٧ .

١٧- الطبرى : ج١١ ص٩٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٥ ص٣١٧ .

١٨- على مرسى (د. نعمة) : دولة آل زيان فى طبرستان وجرجان وما جاورها، دار الهداية (بدون تاريخ) ص١٠ .

١٩- الطبرى : ج١١ ص٩٣ .

٢٠- ابن الأثير : ج٥ ص٣٢٩ .

٢١- المسعودى: مروج الذهب ، ج٤ ص٦٩ .

٢٢- المسعودى :ج٤ ص٩٦ .

٢٣- ابن الأثير : ج٥ ص٣٤٥ .

٢٤- المسعودى: ج٤ ص١٠٨ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٦٣٧ .

٢٥- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧١٤ .

٢٦- ابن لأثير: ج٥ ص٣٦٠-٣٦٤ .

٢٧- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ) : البداية والنهاية، باعتناء د. أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ، مجلد ٦ ص٢٧ .

٢٨- ابن الأثير : ج٥ ص٣٦٠-٣٦٤ وانظر ابن خلدون: مجلد ٣ ص٧١٤ .

٢٩- ابن الأثير : ج٥ ص٣٦٧ .

٣٠- ابن الأثير : ج٥ ص٣٧١ .

٣١- ابن الأثير: : ج ٦ ص٣ .

٣٢- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧١٦ .

٣٣- ابن الأثير : ج٦ ص١٣ .

٣٤- ابن الأثير : ج٦ ص٢٤ ، وانظر ابن خلدون: مجلد٣ ص٧١٨ ، وانظر ابن كثير: البداية مجلد ٦ ج١١ ص٤٢ .

٣٥- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٦٩٨ .

٣٦- ابن كثير: : مجلد ٦ ج١١ ص٥٤ .

٣٧- ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٠ .

٣٨- المسعودى : مروج الذهب، ج٤ ص١٥٤ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٠ .

٣٩- المسعودى : ج٤ ص١٥٧ .

٤٠- المسعودى : ج٤ ص١٥٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٧٨ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٢ .

٤١- ابن كثير : البداية : مجلد ٦ ج١١ ص٧٥ .

٤٢- ابن الأثير: ج٦ ص٨٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٣٤ .

٤٣- ابن الأثير : ج٦ ص٨٨ .

٤٤- ابن الأثير : ج٦ ص١٠٤-١٠٧ وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٤٥-٧٤٦ .

٤٥- ابن مسكويه (أبو على أحمد بن محمد) : تجارب الأمم، باعتناء > أمدروز، مصر ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، ج١ ص٣٢ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٤٤ ، وانظر ابن خلدون: مجلد٣ ص٧٧٠ .

٤٦- ابن الأثير : ج٦ ص١٥٥ .

٤٧- ابن مسكويه : ج١ ص٤٥-٤٦ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص١٥٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٤ : ٧٧٥ .

٤٨- ابن الأثير: ج٦ ص١٥٥ .

٤٩- ابن مسكويه : ج١ ص٤٦-٤٧ .

٥٠- ابن الأثير: : ج٦ ص١٦ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٧ .

٥١- ابن مسكويه : ج١ ص٥٦ .

٥٢- ابن الأثير: ج٦ ص١٥٦ وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٦ .

٥٣- ابن الأثير: ج٦ ص١٦٦ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٧٦ .

٥٤- ابن مسكويه : ج١ ص٨٢-٨٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص١٧١ .

٥٥- ابن مسكويه: ج١ ص١١٩، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٧٥ ، وانظر ابن خلدون ، مجلد ٣ ص٨١٤ .

٥٦- ابن مسكويه : ج١ ص١١٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٧٥ .

٥٧- ابن الأثير: ج٦ ص١٨٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٨٠ .

٥٨- ابن الأثير: ج٦ ص١٨٥ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٧٨٠-٧٨١ .

٥٩- التنوخى (القاضى أبو على الحسن بن على) : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجى المحامى ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ج١ ص٣٢٤ .

٦٠- المسعودى: مروج ، ج٤ ص٢٧٩ .

٦١- التنوخى : نشوار، ج١ ص٣٢٤ .

٦٢- ابن الأثير: ج٦ ص١٩٥ .

٦٣- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦١ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص١٩٦ .

٦٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦١ ، وانظر التنوخي : نشوار : ج١ ص٣٢٤ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص١٩٨ ، وانظر ابن كثير : البداية : مجلد٦ ج١١ ص١١٦ .

٦٥- ابن الأثير: ج٦ ص٢١٤ .

٦٦- ابن الأثير: ج٦ ص٢٣٠-٢٣٢ .

٦٧- الأهواز أصلها أحواز، فقلبتها الفرس إلى أهواز لأنه ليس في كلام الفرس حاء . وهي بلدة كبيرة تقع بين البصرة وفارس، تضم مجموعة من المدن، مثل سوق الأهواز ورام هرمز إيذج وعسكر مكرم وتستر وغيرها . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مجلد ١ ص٢٨٤ .

٦٨- بنوْ بويه : اسم لأسرة كانت تسكن بلاد الديلم من بلاد فارس، وكان ألمع رجالها ثلاثة : وهم : عماد الدولة أبو الحسن علي وركن الدولة أبو علي الحسن ومعز الدولة أبو الحسين أحمد وهم أولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام . وقد اختلف المؤرخون حول المكانة الاجتماعية لهذه الأسرة ، فبعضهم من ينسبهم إلى ملوك ساسان، والبعض الآخر يقول : أنهم من دهماء الناس. انظر ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر) : وفيات الأعيان . تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت (بدون تاريخ) ، المجلد ١ ص٤٠٥ ، وانظر محمود (د. حسن أحمد وأحمد الشريف) : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، دار الفكر العربي ١٩٧٧، ص٤٩٠ .

٦٩- ابن الأثير : ج٦ ، ص٢٢٩-٢٣٨ .

٧٠- ابن مسكويه : ج١ ص٢٦٥ .

٧١- ابن الأثير : ج٦ ص٢٣٦ .

٧٢- ابن مسكويه : ج١ ص١٦٢ .

٧٣- ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) تاريخ الدولة الإسلامية ، دار صادر، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م ص٢٨٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٨٥٤ .

٧٤- ابن الأثير : ج٦ ص٢٦٧ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٨٥٤ .

٧٥- ابن مسكويه : ج١ ص٤١١ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٧٠ ، وانظر ابن خلدون : مجلد ٣ ص٨٥٤ .

٧٦- ابن مسكويه : ج١ ص٤١١ ، وانظر ابن الأثير :ج٦ ص٢٧٢ .

٧٧- ابن مسكويه : ج٢ ص٤-٥ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٧٣ .

٧٨- ابن الأثير: ج٦ ص٢٧٨ .

٧٩- ابن مسكويه : ج٢ ص٦ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٢٧٨ .

٨٠- ابن مسكويه : ج٢ ص٦ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٧٨ .

٨١- ابن مسكويه : ج٢ ص٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٢٨٨ .

٨٢- ابن مسكويه : ج٢ ص٨وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣١١ .

٨٣- ابن الأثير: ج٦ ص٣١١ .

٨٤- ابن الأثير: ج٦ ص٣١٢ .

٨٥- ابن الأثير : ج٦ ص٣١٢ .

٨٦- ابن مسكويه : ج٢ ص١٠٣ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣١٩ .

٨٧- ابن الأثير : ج٦ ص٣٢٠ .

٨٨- ابن مسكويه : ج٢ ص١٠٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٢٤ .

٨٩- ابن الأثير : ج ٦ ص٣٢٦ .

٩٠- ابن الأثير: ج٦ ص٣٢٨ .

٩١- ابن مسكويه : ج٢ ص١١٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٢٩ .

٩٢- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٢ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٣٠ .

٩٣- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٢ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٣٠ .

٩٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٢ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٠ .

٩٥- شيراز : تقع في الجنوب الشرقي من إيران ، في إقليم بلاد فارس وهي من أكبر مدنه، فهي قصبة هذه البلاد. ياقوت : معجم البلدان مجلد٣ ص٣٨٠ .

٩٦- ابن الأثير : ج٦ ص٣٣٢ .

٩٧- العمري(محمد بن علي بن محمد) : الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق د. قاسم السامرائي ، المعهد الهولندي للآثار، القاهرة ١٩٧٣م، ص١٧٧ .

٩٨- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٨-١٣٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٥ .

٩٩- ابن مسكويه : ج٢ ص١٣٨-١٣٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٥-٣٣٦ .

١٠٠- ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٨ .

١٠١- نسا : مدينة تابعة لولاية خراسان، وذكروا أن المسلمين الفاتحين هم الذين أطلقوا عليها اسم

(نساء) لأنهم لما فتحوها لم يجدوا بها رجالا انظر صفى الدين البغدادى (عبد المؤمن بن عبد الحق) : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م ج٣ ص١٣٦٩ .

١٠٢- ابن الأثير: ج٦ ص٣٣٨ .

١٠٣- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٢ .

١٠٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٥٤ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٤ .

١٠٥- ابن مسكويه : ج٢ ص١٥٥ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٤٤ .

١٠٦- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٥ .

١٠٧- ابن مسكويه : ص١٥٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٤٦ .

١٠٨- ابن مسكويه : ج٢ ص١٥٧ ، وانظر ابن الأثير: ج٦ ، ص٣٤٧ .

١٠٩- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٨ .

١١٠- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦١ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٤٨ .

١١١- ابن الأثير: ج٦ ص٣٥٢ .

١١٢- ابن الأثير: ج٦ ص٣٤٧ .

١١٣- ابن الطقطقى : تاريخ الدولة الإسلامية، ص٢٨٠ .

١١٤- ابن مسكويه : ج٢ ص١٦٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٦ ص٣٥٦ .

١١٥- ابن الأثير: ج٦ ص٣٥٩ .

١١٦- ابن الأثير: ج٧ ص٣ .

١١٧- ابن الأثير : ج٧ ص١٨ .

١١٨- العمرى : الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص٨٩ .

١١٩- ابن مسكويه : ج٢ ص٢٢٢-٢٢٣، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص١٨ .

١٢٠- ابن مسكويه : ج٢ ص٢٣٢-٢٣٣ وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٢٣ .

١٢١- ابن الأثير: ج٧ ص٢٣ .

١٢٢- ابن مسكويه : ج٢ ص٢٧٠-٢٧١ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٣٧-٣٨ .

١٢٣- ابن الأثير: ج٧ ص٦٠-٦١ .

١٢٤- ابن الأثير: ج٧ ص٨٠ وانظر الحافظ الذهبى : العبر فى أخبار من غبر، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٤م، ج٢ ص٣٤١ .

١٢٥- ابن الأثير: ج٧ ص٨١ ، وانظر ابن كثير : البداية ج١١ ، ص٣٠١ .

١٢٦- ابن مسكويه : ج٢ ص٣٦٥ وما بعدها، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص٨٢-٩٠ .

١٢٧- ابن الأثير: ج٧ ص١٠١ .

١٢٨- ابن الأثير : ج٧ ص١٠٣ .

١٢٩- سهرورد : مدينة تابعة لمدينة زنجان في منطقة الجبال، وهي من أعمال مدينة الري، وكانت من مراكز الثقافة والعلم، فقد أنجبت الكثير من العلماء كانوا يترددون على بغداد. أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان مجلد ٣ ص٢٨٩ .

١٣٠- القزويني (عبد الكريم بن محمد الرافعي) : التدوين في أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، ج٣ ص١١٩ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٩٤ .

١٣١- الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق) : تاريخ الفارقي ، تحقيق د. بدوي عبد اللطيف عوض، المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ص٧٠ .

١٣٢- ابن الأثير: ج٧ ص١٠٨ .

١٣٣- ابن الأثير: ج٧ ص١٠٨ .

١٣٤- أبو شجاع : (محمد بن الحسين الروذراوري) : ذيل تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بمصر ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، ج٣ ص٢٩ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص١١٣ .

١٣٥- ابن الأثير: ج٧ ص١١٧-١١٨ .

١٣٦- ابن الأثير: ج٧ ص١٢٧-١٣٠ .

١٣٧- ابن الأثير: ج٧ ص١٣٤ .

١٣٨- ابن الأثير: ج٧ ص١٣٤ .

١٣٩- ابن الأثير ، ج٧ ص١٣٦ .

١٤٠- ابن الأثير: ج٧ ص١٣٩-١٤٠ .

١٤١- العمراني : ص٨٤ .

١٤٢- الفارقي : ص٧٠ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص١٦٩ .

١٤٣- أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ج٣ ص٢٦١ .

١٤٤- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦١ .

١٤٥- ابن الأثير: ج٧ ص١٧٠ .

١٤٦- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦٢ .

١٤٧- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦٣ .

١٤٨- أبوشجاع : ج٣ ص٢٦٤ .

١٤٩- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩١ .

١٥٠- العمراني : ص٨٤ .

١٥١- ابن الأثير : ج٧ ص١٨٦ .

١٥٢- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٧ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص١٩١-١٩٣ .

١٥٣- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٤- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٥- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٦- أبوشجاع : ج٣ ص٢٩٨ .

١٥٧- براون (إدوارد روجر أنفيل) : تاريخ الأدب في إيران، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م، ص١٩٨ .

١٥٨- نعمة : دولة آل زيان في طبرستان ص٧٤ .

١٥٩- براون : ص١٩٨ .

١٦٠- أبوشجاع: ج٣ ص٣١١، وانظر ابن الأثير: ج٧ هامش ص١٩٠ ، وانظر ابن كثير: ج١١ ص٢٤٦ .

١٦١- أبوشجاع : ج٣ ص٤٤٩ .

١٦٢- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٠ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص٢٤٠ .

١٦٣- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٠ .

١٦٤- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٢، وانظر لابن الأثير : ج٧ ص٢٤٠ .

١٦٥- أبوشجاع : ج٣ ص٤٥٢ .

١٦٦- ابن الأثير : ج٧ ص٢٣٩ .

١٦٧- ابن الأثير: ج٧ ص٢٤٠ .

١٦٨- ابن الأثير: ج٧ ص٢٧٤ .

١٦٩- ابن الأثير: ج٧ ص٣٢٥ .

١٧٠- ابن الأثير : ج٧ ص٣٢٥-٣٢٦ .

١٧١- ابن الأثير: ج٧ ص٣٣٦ ، وانظر البروفيسور رينولد ، أ. نكلسن : تاريخ الأدب العباسي، ترجمة د. صفاء خلوصي ، منشورات المكتبة الأهلية ، بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص٣٨ .

١٧٢- ابن الأثير: ج٧ ص٣٢٥-٣٣٦ .

١٧٣- سرجهان : قلعة تشرف على جبال الديلم، وتحدها من المدن قزوين وزنجان، وهي قلعة وربما اتسعت رقعتها حتى أصبحت مدينة. أنظر ياقوت الحموي : مجلد ٣ ص٢٠٧ .

١٧٤- ابن الأثير : ج٧ ص٣٣٦ .

١٧٥- ابن الأثير : ج٧ ص٣٢٨-٣٢٩ .

١٧٦- أبو الفضل البيهقي (محمد بن حسين) : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيي خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية (لايوجد تاريخ للطبع) ، ص٦٨ ، وأنظر ابن الأثير: ج٧ ص٣٢٨-٣٢٩ .

١٧٧- ألو الفضل البيهقي: ص١٦-١٧ ، وانظر ابن الأثير: ج٧ ص٣٤٥ .

١٧٨- ابن الأثير : ج٧ ص٣٤٧ .

١٧٩- أبو الفضل البيهقي : ص١٨ .

١٨٠- أبو الفضل البيهقي: ص١٩ .

١٨١- أبو الفضل البيهقي : ص١٨ .

١٨٢- ابن الأثير: ج٧ ص٣٤٧ .

١٨٣- أبو الفضل البيهقي : ص١٧ .

١٨٤- أبو الفضل البيهقي : ص٢٤ .

١٨٥- أبو الفضل البيهقي : ص١٦ ، وانظر ابن الأثير : ج٧ ص٣٤٧ .

١٨٦- أبو الفضل البيهقي : ص٤١٠ .

١٨٧- أبو الفضل البيهقي: ص٤١٠ .

١٨٨- قصران : موضعان حصينان في جبال الري، يأوي إليهما الفارون من السلطة ، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد٤ ص٣٥٣ .

١٨٩- ابن الأثير : ج٧ ص٣٤٨-٣٤٩ .

١٩٠- ابن الأثير: ج٧ ص٣٥٤-٣٥٥ .

١٩١- ابن الأثير: ج٧ ص٣٥٦ .

١٩٢- ابن الأثير: ج٨ ص٢-٣ .

١٩٣- ابن الأثير: ج٨ ص٤ .

١٩٤- أبو الفضل البيهقي : ص٤١١ .

١٩٥- أبو الفضل : البيهقي : ص٤١٢ .

١٩٦- أبو الفضل البيهقي : ص٤١٥-٤١٦ .

١٩٧- ابن الأثير: ج٨ ص٤ .

١٩٨- إيدج: بلدة تقع بين خوزستان وإصفهان ، ومناخها شديد البرودة وأكثر إنتاجها من الفواكه . أنظر ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد١ ص٢٨٨ .

١٩٩- ابن الأثير : ج٨ ص٦ .

٢٠٠- الطرم : قلعة حصينة من بلاد فارس؛ وكان الجغرافيون يطلقون على الأجزاء الجنوبية الشرقية من إيران اسم بلاد فارس، أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٤ ص٣٢ .

٢٠١- ابن الأثير: ج٨ ص١٠ .

٢٠٢- ابن الأثير: ج٨ ص٢٦- ٢٧ .

٢٠٣- ابن الأثير: ج٨ ص٣٠ .

٢٠٤- الفارقي: ص١٥٥ ، وانظر العمراني : ص١٨٨ ، وانظر ابن الأثير : ج٨ ص٣٤-٣٥ ، وانظر ابن كثير: ج١٢ ص٥٤ .

٢٠٥- ابن كثير : ج١٢ ص٥٤ .

٢٠٦- الحافظ الذهبي: العبر ، ج٣ ص١٨٤ .

٢٠٧- ابن الأثير: ج٨ ص٣٤ .

٢٠٨- ابن الأثير: ج٨ ص٤٦ .

٢٠٩- ابن الأثير: ج٨ ص٥٤ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٦٦ ، وانظر الحافظ الذهبي: ج٣ ص٢٠٣ .

٢١٠- ابن الأثير: ج٨ ص٨٧ ، وانظر الحافظ الذهبي : ج٣ ص٢٢٦ ، وانظر براون (إدوارد): تاريخ الأدب في إيران ص٢١٢ .

٢١١- ابن الأثير: ج٨ ص٩٤ ، وانظر بن العبري (غريغوريوس أبي الفرج بن هارون الملطي) ، تاريخ مختصر الدول المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٠م، ص٣٢١ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٩٥ .

٢١٢- ابن الأثير: ج٨ ص٩٨، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٩٧ ، وانظر الحافظ الذهبي : ج٣ ص٢٣٨-٢٣٩ .

٢١٣- ابن الأثير: ج٨ ص٩٩ - ١١٢ - ١١٣ .

٢١٤- ابن الأثير: ج٨ ص١١٤ .

٢١٥- ابن الأثير: ج٨ ص١٦٣-١٧٠ ، وانظر ابن كثير: ج١٢ ص١٦٧ ، وانظر القلقشندي (أحمد بن عبدالله) : مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٥م، ج٢ ص١٢-١٣ وانظر براون : تاريخ الأدب في إيران ص٣٧٥ .

٢١٦- ابن الأثير: ج٨ ص٢١٤-٢١٥ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص١٧٥ .

٢١٧- أران : عبارة عن إقليم في إيران ويضم مجموعة من المدن، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد ١-٤ ص١٣٦-٤٨٢ .

٢١٨- ابن الأثير: ج٨ ص٢١٦-٢١٧ .

٢١٩- الفارقي : ص٢٨٦ .

٢٢٠- القلقشندي : ج٢ ص٢٥ .

٢٢١- ابن الأثير: ج٩ ص٢ .

٢٢٢- ابن الأثير: ج٩ ص١٠ .

٢٢٣- ابن الأثير: ج٩ ص١٥ ، وانظر ابن كثير : ج١٢ ص٢٣٧ .

٢٢٤- ابن الأثير : ج٩ ص٤١ .

٢٢٥- وهو نفس الاسم لإقليم أران الذي مر ذكره .

٢٢٦- ابن الأثير : ج٩ ص٣٧-٤٧ .

٢٢٧- ابن الأثير: ج٩ ص١٠٤ .

٢٢٨- ابن الأثير: ج٩ ص١١٩ .

٢٢٩- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٠-٢٣١ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٠-١١ ، وانظر القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج٢ ص٥٨ .

٢٣٠- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٠-٢٣١ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٠-١١ ، وانظر القلقشندي : الأنافة ج٢ ص٥٨ .

٢٣١- كرمان شاه : من ولايات إيران الكبيرة ، وتضم مجموعة من المدن والقرى ، تحدها من الشمال خراسان ومن الجنوب الشرقي بحر فارس ومكران ، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٤ ص٤٥٤ .

٢٣٢- بسطام : مدينة والبعض يقول أنها قرية تتبع ولاية قومس وهي على الطريق إلى نيسابور . أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد ١ ص٤٢١ .

٢٣٣- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٢ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٢ ، وأنظر الحافظ الذهبي : ج٤ ص٢٧٩-٢٨٠ .

٢٣٤- ابن الأثير : ج٩ ص٢٣٢ .

٢٣٥- أوه : قرية تقع بين زنجان وهمذان : انظر ياقوت الحموي : مجلد ١ ص٢٨٣ .

٢٣٦- ابن الأثير: ج٩ ص٢٣٤ .

٢٣٧- ساوه : كانت مدينة جميلة تقع في وسط الطريق بين الري وهمذان، حيث أنها تبعد عن كل من المدينتين ٩٠ ميلا ، انظر ياقوت الحموي: مجلد ٣ ص١٧٩ .

٢٣٨- ابن الأثير: ج٩ ص٢٤١ .

٢٣٩- ابن الأثير: : ج٩ ص٢٤١ .

٢٤٠- ابن الأثير: ج٩ ص٢٤٨ .

٢٤١- ابن الأثير: ج٩ ص٢٤٨-٢٥٠ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص٢٥ .

٢٤٢- ابن الأثير: ج٩ ص٣٣٥-٢٤٥ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص٩٤ .

٢٤٣- ابن الأثير: ج٩ ص٣٥١ .

٢٤٤- ابن الأثير: ج٩ ص٣٥٢-٣٥٣ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١١٢ .

٢٤٥- ابن الأثير: ج٩ ص٣٧٦ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٢٦-١٣٢ .

٢٤٦- ابن الأثير: ج٩ ص٣٨٣ ، وانظر ابن كثير : ج١٣ ص١٣٧ .

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

ابن الأثير: (أبو الحسن بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) :

الكامل فى التاريخ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

براون (إدوارد روجر أنفيل) :

تاريخ الأدب فى إيران، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

التنوخى (القاضى أبى على الحسين بن على) :

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجى المحامى ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

الحافظ الذهبى:

العبر فى أخبار من غبر ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م.

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة ، بيروت ١٩٦٧م.

ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبى بكر) :

وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ) .

البروفيسور رينولد . أ. نكلسن :

تاريخ الأدب العباسى، ترجمة د. صفاء خلوصى، منشورات المكتبة الأهلية ، بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م.

أبوشجاع ظهير الدين (محمد بن الحسين الروذراورى) :

ذيل تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بمصر ، ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م.

صفى الدين البغدادى (عبد المؤمن بن عبد الحق) :

مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

الطبرى (محمد بن جرير) :

تاريخ الأمم والملوك ، دار القاموس الحديث ، سوريا (بدون تاريخ) .

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا):

تاريخ الدولة الإسلامية، دار صادر، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

ابن العبرى (غريغوريوس أبى الفتح بن هارون المالطى):

تاري مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠م.

على مرسى (د. نعمة) :

دولة آل زيان فى طبرستان وجرجان وما جاورها، دار الهداية (بدون تاريخ) .

العمرى (محمد بن على بن محمد) :

الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق د. قاسم السامرائى، المعهد الهولندى للآثار ، القاهرة ١٩٧٣م.

الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق):

تاريخ الفارقى ، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض، المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.

أبو الفضل البيهقى (محمد بن حسين) :

تاريخ البيهقى، ترجمة د. يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية.

القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) :

التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

القلقشندى (أحمد بن عبدالله) :

مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥م.

ابن كثير (أبو الفداء الحافظ) :

البداية والنهاية، باعتناء د. أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

محمود (د. حسن أحمد ود. أحمد الشريف) :

العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، دار الفكر العربى ١٩٧٧م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) :

مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

المقدسى (أبو زيد أحمد بن سهل المطهر بن طاهر) :

البدء والتاريخ ، باعتناء كلمان هوار، باريس ١٩١٩م.

ابن مسكويه (أبى على أحمد بن محمد) :

تجارب الأمم، باعتناء أمدروز ، مصر ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.

ياقوت الحموى (أبو عبدالله بن عبدالله) :

معجم البلدان، دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٣م.

اليعقوبى (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب):

تاريخ اليعقوبى ، دار بيروت ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م.

د. محمد الصغير غانم (*)

العلاقات الفينيقية المغاربية فى شمال إفريقيا

حتى يتسنى لنا تقييم العلاقات الفينيقية المغاربية من خلال ما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون الإغريق والرومان، وما أسفرت عليه نتائج التنقيبات الأثرية وكذا نصوص النقوش الكتابية، لابد أن نركز على علاقة قرطاجة وهى المدينة الهامة التى آلت إليها السيادة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط بعد تأسيسها وتطورها ، ذلك لأن المستوطنات التى سبقتها كانت قد أسست من قبل تجار من بسطاء عامة الشعب كانوا لايفكرون فى الاستقرار فى الحوض الغربى للبحر المتوسط بعد انتهاء مهمتهم التجارية المتمثلة فى جلب المواد المصنعة ومبادلتها عن طريق المقايضة [1]. ومقابل ذلك الحصول على المواد الخام، لاسيما معادن الحديد والرصاص والقصدير من شبه جزيرة إيبيريا وكذا المواد الأولية الأخرى التى كانوا يحصلون عليها من المغرب القديم مثل الملح وريش النعام وجلود الحيوانات والعاج. وكانت الوساطة التجارية بين حوضى البحر المتوسط هى مهمتهم الوحيدة [2].

أما مدينة قرطاجة فقد أسستها أميرة - تدعى عليسا- تنتمى إلى أسرة ملكية بمدينة صور، وقد جاءت بحاشيتها منذ الوهلة الأولى بهدف الاستقرار. ولايستبعد أن يكون المكان الذى أسست فيه مدينة قرطاجة والمتمثل فى خليج شمال تونس قد تعرف عليه الفينيقيون الأوائل وتبينوا مكانته الاستراتيجية فى المنطقة، ولم يكن تأسيسها هناك اعتباطيا كما يعتقد البعض [3]. ومع ذلك ، فإن الباحث يقف عاجزا أمام بداية ونوعية العلاقات الفينيقية المغاربية الباكرة فى غرب المتوسط ، فيما عدا بعض الإشارات التاريخية البسيطة التى يغلب عليها الأسلوب الأسطورى فى كثير من الأحيان [4].

---

* أستاذ التعليم العالى- قسم التاريخ- جامعة منتورى- الجزائر .

وهكذا يمكن أن نقسم العلاقات القرطاجية – الليبية إلى مرحلتين أساسيتين ، أولهما تبدأ منذ نشأة قرطاجة وتستمر حتى القرن الخامس ق.م ، وثانيهما تمتد من هذا التاريخ وحتى تهديم مدينة قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م.

أولاً : العلاقات التي تمتد منذ البدء وحتى القرن الخامس قبل الميلاد:

لعل أول إشارة إلى تلك العلاقات تكمن فيما ذكره المؤرخ الإغريقي تيمي (Timée) والتي نقلها عنه فيما بعد جوستان (Justin) في مختصر تروق بومبي (Trogue- Pompée) ويستفاد من هذه الكتابات أو ما عرفت بأسطورة عليسا (Elissa) أن المغاربة القدماء كانوا في بداية الأمر قد رحبوا بالتجار الفينيقيين الذين وفدوا إلى بلادهم وذلك نظرا لأهدافهم السلمية التي كانت لاتتعدى إنشاء مراكز تجارية تتم فيها المبادلات (٥).

ونظرا لهوية الفينيقيين السلمية، فقد قبلوا دفع ضريبة مالية سنوية للمغاربة القدماء عربونا للصداقة وإعطائهم الأمان وريعا للمكان الذي أسست فيه المدينة (٦). وقد دام ذلك الوفاق أو الاتفاق إن صح هذا التعبير بداية من تأسيس قرطاجة وحتى القرن الخامس ق.م تقريبا وهي الفترة التي تنقلب فيها قرطاجة إلى دولة مهيمنة على الحوض الغربي للبحر المتوسط(٧).

وبتقادم الزمن آلت بعض المراكز الفينيقية إلى مستوطنات ومدن قارة لها حرية السيادة في نطاق المنظومة العامة القرطاجية. وقد تجمع حولها المغاربة لتسويق بضائعهم المحلية المتمثلة في جلود الحيوانات وريش النعام والذهب وبعض المعادن الأخرى غير المصنعة. وبالمقابل كانوا يبتاعون من التجار الفينيقيين كل أنواع الزينة والعطور والأواني المصنعة الزجاجية والمعدنية وكذا الخزفية وكل ذلك كان يتم عن طريق المقايضة (٨). وباستقرار الفينيقيين والمغاربة في أماكن قارة بدأ التفكير في استغلال المناطق الصالحة للزراعة والقريبة من أماكن الاستقرار. وهكذا استغلت كامل السهول الموجودة في رأس بونة شمال تونس وسهول شمال غرب تونس والشرق الجزائري، ثم سهول المغرب الأقصى الواقعة حول مستوطنة ليكسوس (Lixus) (٩).

أما الجانب الثاني الذي يبرز لنا ذلك الامتزاج فيتمثل في الجانب الديني لاسيما في عبادة كل من المغاربة والقرطاجيين للإلهين بعل حمون وتانيت بني بعل ، وتعتبر هذه الأخيرة عند بعض المؤرخين إلهة مغربية تقابل الإلهة عشتار السامية في شرق المتوسط (١٠). كذلك يستدل من وجود رسوم الكبش الذي يحمل على رأسه دائرة تشير إلى قرص الشمس والتي وجدت في الرسوم الصخرية وكذا رسوم الخراف والثيران التي وجدت في بعض أنصاب قرطاجة

وسيرتا وحدرومات (سوسة) على مدى استمرار العبادة المغربية القديمة العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ وتعايشها مع العبادة السامية وهى ظاهرة تدل على الامتزاج الدينى بين القرطاجيين والمغاربة القدماء [١١]. ولعل من بين مظاهر الامتزاج الأخرى الفينيقية المغربية تشير إلى مظاهر الدفن ونوعية المقابر والهدايا الجنائزية التى وجدت بالقبور الحجرية كالحوانيت والدولمن التى وجدت معظمها فى مجال التأثير القرطاجى البونى، والعنصر الهام الذى يساعدنا على معرفة ذلك الامتزاج هو وجود الكسر والأوانى الفخارية المغربية- البونية منتشرة فى تلك المواقع الأثرية لاسيما فى كل من جيجل (ايجيلجلى Igilgili) وتيبازة بالجزائر وليكسوس بالمغرب الأقصى [١٢].

وقد استفاد المغاربة من الفينيقيين فى صناعة الخزف، سواء باستعمال دولاب الخزاف أو فى تطوير الرسوم الهندسية التى تبدو على الآنية الفخارية . علما وأنه كان يغلب على رسوم الآنية الفخارية المغربية قبل ذلك محاكاة الطبيعة ، ثم تطورت بعد ذلك ، فأصبحت بفضل القادمين الجدد تتخذ خطوطا وأشكالا هندسية وفقا لما كان سائداً فى فخاريات شرقى المتوسط وحتى شكلها ومظهرها قد تحسنا . وبذلك أصبحت الأوانى المغربية الفخارية تضاهى تلك الأجنبية المعاصرة لها والموجودة فى كل من بلاد الإغريق وشرقى المتوسط [١٣].

وعلى ضوء الملاحظات السابقة يتبين لنا بأن العلاقات الفينيقية المغاربية كانت علاقات سلمية اقتصادية دينية استفاد منها المغاربة فى الخروج من عزلتهم التى كانوا يعانونها فى جزيرة المغرب منذ فترة ما قبل التاريخ. كذلك عرف المغاربة بفضل احتكاكهم بالفينيقيين نظام الاستقرار وتأسيس القرى والمدن وزراعة بعض الأشجار مثل الكروم، والتين والرمان وتلقيح أشجار الزيتون البرى التى كانت موجودة ببلادهم.

هذا إلى جانب أخذهم حروف الكتابة البونية التى كانت سببا فى دخولهم إلى الفترة التاريخية وكذا النظام السياسى المتمثل فى نظام السوفيت (Suffète) أى القضاة الحاكمين [١٤].

وقد استمرت علاقة سياسة المصالح المتبادلة خلال القرون الأولى من تأسيس مدينة قرطاجة ، غير أنه فى بداية القرن السادس قبل الميلاد وأمام الزحف الإغريقى نحو الحوض الغربى للبحر المتوسط ومنافستهم للقرطاجيين ، عملت قرطاجة على تجنيد المرتزقة من أبناء المناطق التى كانت تتعامل معها، ولاغرو فى ذلك أن يكون ضمن الجيش المرتزق أبناء المغاربة الذين كانت بلادهم تمتد على كامل شواطئ البحر المتوسط الجنوبية [١٥].

وقد أخلص المغاربة فى بداية الأمر فى تعاملهم مع القرطاجيين ووقوفهم إلى جانبهم فى كل المعارك التى خاضوها ضد الإغريق سواء أكان ذلك فى كورسيكا (معركة ألاليا- Alalia) سنة ٥٣٥ق.م وذلك ضمن الاتحاد الإتروسكى- القرطاجى، وحتى فى صقلية نفسها. كما وقفوا معهم ضد الزحف الإغريقى غرب برقة (Cyréne) بليبيا [١٦].

ولم تبدأ العلاقات القرطاجية المغربية فى التدهور إلا منذ القرن الخامس ق.م وكان لذلك التدهور أسبابه الخاصة التى سنتطرق إليها فى الصفحات الآتية:

ثانيا : العلاقات اللاحقة للقرن الخامس ق.م وحتى سقوط قرطاجة:

عمِلت قرطاجة منذ القرن الخامس ق.م على تغيير سياستها الإفريقية وكان السبب فى ذلك راجعا إلى هزيمتها لأول مرة أمام الإغريق فى معركة هميرا (Himira) سنة ٤٨٠ ق.م . وقد انعكس ذلك التغيير على علاقتها مع المغاربة حيث حاولت بعد تلك الهزيمة أن تعيد النظر فى سياستها الاقتصادية المعتمدة على التجارة عبر سواحل المتوسط وربط حوضه الغربى بالشرقى، غير أن ظهور الإغريق فى كل من صقلية وقرينة بليبيا ومنافستهم لها بحيث أصبحوا يمثلون حاجزا يحول دون اتصال تجارها بشرقى المتوسط [١٧]. وكان على قرطاجة أمام هذه الوضعية الجديدة كما أشرت إلى ذلك آنفا أن تعيد النظر فى كل شئ يتعلق بسياستها فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وأن لاتعتمد على التجارة وحدها ، بل لابد أن تعطى للزراعة مكانتها اللائقة . وهنا بدأ ما عرف فى سياستها بالاتجاه الإفريقى[١٨]. وقد لاح ذلك واضحا فى تجهيزها وإرسالها لرحلة خميلكان (Himilcon) إلى جزر كاسيتريدس وكورنوال فى جنوب بريطانيا شمالا، وكذا رحلة حنون (Honnon) الاستكشافية فى نهاية القرن الخامس إلى أواسط جنوب غرب إفريقيا، بحثا عن مناطق أخرى فى السواحل الإفريقية على المحيط الأطلسى يمكن اللجوء إليها عند الضرورة [١٩].

وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الإغريقى بوليبيوس (Polybius) بأن السيادة القرطاجية قبل الحرب البونية الأولى كانت تمتد على كامل البحر الداخلى وذلك ابتداء من معبد الفلين بخليج السيرت الكبير شرقا حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالى) على المحيط الأطلسى غربا [٢٠].

كذلك لم تقف قرطاجة عند هذا الحد فى علاقاتها مع حلفائها المغاربة ، بل أساءت إليهم بقطع الضريبة السنوية التى كانت تدفعها لهم وذلك منذ نشأتها [٢١]. وأكثر من ذلك أصبحت

قرطاجة تفرض على المغاربة ضرائب جديدة لتمويل الحرب التى أصبحت تخوضها ضد المدن الإغريقية وتجند المرتزقة من أبنائهم لمواجهة الموقف فى صقلية.

غير أن قرطاجة باتباعها لتلك السياسة كانت قد أساءت إلى حلفائها المغاربة وفتحت أعينهم على التمرد والعصيان ضدها وتغيير نظرتهم لها حيث أنهم أصبحوا يعتبرونها شوكة غريبة فى جسمهم ولاتهمها بالدرجة الأولى إلا مصلحة أرستقراطيتها التى امتدت يدها لأراضى المغاربة تقيم لهم المزارع بغية تعويض ما خسروه فى صقلية(٢٢).

وتشير الكتابات التاريخية إلى أنه منذ القرن الخامس ق.م حتى نهاية الحرب البونية الثانية بمعركة زاما (Zama) ٢٠١ق.م . كانت قرطاجة قد عملت على ابتلاع كثير من الأراضى المغاربية ووضعتها تحت يد أرستقراطيتها وكان ذلك على حساب المغاربة القدماء. ولم تكتف قرطاجة بالشريط الساحلى بل تسربت إلى الداخل تقيم المزارع لأرستقراطيتها التى باتت مهددة فى صقلية(٢٣).

بناء على ما سبق أصبح المغاربة ينتهزون فرص الأزمات الصعبة التى تمر بها قرطاجة ليتمردوا عليها، وقد ظهر ذلك واضحا فى عدة مناسبات نذكر منها :

١- تذمر المغاربة مرة أولى وذلك سنة ٣٩٦ ق.م حيث حاولوا التصدى للقرطاجيين محاولين فى ذلك استغلال ضعفهم بعد هزيمة القائد خميلكون (Himilcon) أمام أسوار مدينة سيراكوزة (Syracuse) الإغريقية بجزيرة صقلية وفرار القائد خميلكون صحبة الضباط الذين هم من أصل قرطاجى وترك الجنود المرتزقة تحت ضربات الأعداء ، وحول هذا التذمر يذكر المؤرخ ديودور الصقلى (Diodore de Sicile) الذى نقل لنا أنباء هذا التذمر بأن تعداد المغاربة الذين طوقوا مدينة قرطاجة حينذاك كان حوالى ٢٠ ألف رجل (٢٤). ومن جهته يؤكد المؤرخ الفرنسى ج. كامبس (G. Camps) بأن العدد الذى أورده ديودور قد لايكون مبالغا فيه، ذلك لأن تعداد المغاربة الذين يقطنون مدينة قرطاجة أو بالقرب منها وكذا العبيد الذين هم بداخلها يجعل العدد يفوق ذلك(٢٥).

٢- تذمر المغاربة مرة ثانية وذلك سنة ٣٧٩ق.م كما يذكر ديودور الصقلى الذى هو مصدرنا فى هذا الموضوع وذلك باستغلالهم فرصة الاضطرابات السياسية التى حدثت داخل مدينة قرطاجة من جراء اجتياح مرض الطاعون لها غير أنهم لم يفلحوا فى الاستيلاء عليها(٢٦).

٣- أما التذمر الثالث فقد حدث فيما بين سنة ٣١٠-٣٠٧ ق.م وذلك أثناء غزو القائد الإغريقي أجاتوكليس (Agathoclés) لبلاد المغرب القديم وقد انضم إليه منذ الوهلة الأولى قائد نوميدي يدعى إيلماس (Ailymas) برجاله إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد لأسباب مجهولة![٢٧]. هل يعود ذلك إلى أن بقية القبائل الليبية - النوميدية عارضته في ذلك ؟ أم أنه أدرك بعد انضمامه إلى القائد الإغريقي، بأن هذا الأخير قد دخل في مغامرة مع قرطاجة قد لايستطيع تسجيل الانتصار عليها؟.

وما نعرفه هو أن ديودور الصقلي لم يشر إلى الأسباب الحقيقية التي جعلت إيلماس يتراجع عن مناصرة القائد الإغريقي، كما أنه لم يشر إلى هوية شخصية إيلماس نفسها! هل كان أميرا أو رئيس قبيلة ؟

ويذهب ج. كامبس إلى أن إيلماس كان أحد رؤساء قبائل الماسيل وهو من أجداد ماسينيسا [٢٨].

ويصف بوليبيوس إيلماس بأنه ملك ليبي [٢٩]. غير أن الغموض بقي يسود شخصية إيلماس .

وبشأن حملة القائد أجاتوكليس لبلاد المغرب القديم يشير ديودور الصقلي في مكان آخر من مكتبته التاريخية إلى أن المغاربة انقسموا فيما بينهم بين التأييد والمعارضة ، فبينما أيدت بعض القبائل الليبية القائد الإغريقي المغامر الذي نقل الحرب إلى شمال أفريقيا وقلب الهزيمة في صقلية إلى نصر في شمال أفريقيا بحيث غامر في البحر ونزل شمال شرق قرطاجة ثم حاصرها وأرغمها على التفاوض معه بعد إقدام سكانها على التضحية بحوالي ٤٠٠ طفل من أبنائهم، بغية إرضاء الآلهة التي اعتقد عرافوها وكهنتها بأنها غضبت عليهم. نرى في الطرف الآخر بعض القبائل المغاربية التي بقيت مترددة ترقب نتائج تلك الأحداث ، ولعل هذا ما جعل إيلماس يعدل عن مناصرة القائد الإغريقي[٣٠].

٤- كذلك استغل المغاربة القدماء محاولة أحد القادة القرطاجيين واسمه حنون (Honnon) للاستيلاء على الحكم في مدينة قرطاجة مستعينا في ذلك ببعض الليبيين من سكانها، وقد ناصره في ذلك ملك المور حسب رواية ديودور الذي لايذكر اسم هذا الملك الموري وحتى المملكة التي كان يحكمها . وقد علق المؤرخ س. جزيل (St. Gsell) على ذلك بقوله بأن قرطاجة كانت تخرج في كل مرة منتصرة وتوسع أراضيها على حساب السكان المحليين عقابا لهم. ذلك لأنها

أصبحت لاتثق فيهم، كما أن حصانة سورها الذى كان يمتد ما بين سبخة أريانة وبحيرة تونس إضافة إلى مرتفع بيرصة جعلها تكون مدينة محمية تصمد فى وجه كل من يحاول اقتحامها (٣١).

٥- أما التذمر المشهور في العلاقات البونية المغاربية والذى عرفه بعض المؤرخين بالثورة الاجتماعية لاسيما فى مرحلته الأخيرة فيتمثل فى مشاركة المغاربة القدماء فيما يعرف بتمرد الجنود المرتزقة (Révolte des Mercenaires) ، والذى اندلع فى نهاية الحرب البونية الأولى ٢٤١-٢٣٧ق.م ولاتهمنا هنا أسباب وتفاصيل هذا العصيان والشخصيات التى قادته بقدر ما يهمنا مشاركة القرى والمدن الليبية والنوميدية ، لاسيما بعدما عمدت قرطاجة إلى العقاب الجماعي لكل من له صلة بذلك العصيان سواء أكان من الجنود المرتزقة الذين كان أحد قادتهم ليبى يدعى ماطوس (Mathos) (٣٢). أو من سكان القرى والمدن المغاربية التى تعاطفت معهم فى بداية الأمر ثم انضموا إليهم فى المرحلة الأخيرة من ذلك التمرد بعد أن استغاثوا بها وبذلك انقلب التمرد إلى ما يشبه الثورة الاجتماعية . وعلى ذلك الأساس عمدت قرطاجة إلى فرض ضرائب مجحفة على السكان الليبيين والنوميديين الذين انضموا إلى المرتزقة وذلك بهدف تسديد الديون التى خرجت معبأة بها تجاه الرومان والمتمثلة فى ضريبة المنتصر على المنهزم وقدرها ٣٢٠٠ تالنت إضافة إلى محاولة جمع أجور المرتزقة الذين كانت تمنيهم أثناء الحرب بأنه بعد انتصارها ستسدد لهم كامل أجورهم وعلف خيولهم ودوابهم .

وحتى تتصدى قرطاجة بكل قوة إلى ثورة الجيش المرتزق فوضت الأمر إلى قادتها العسكريين وعلى رأسهم املكار برقة والد حنبعل . وقد حمل هذا الأخير على فلول المرتزقة بعد أن بلغ تعدادهم حوالى ٧٠ ألف فى حرب عرفت فى تاريخ المغرب القديم بالحرب غير المغتفرة (La guerre inexpiable) فحاصرهم فى عدة مناطق وقضى عليهم، ثم عاقب كامل القرى والمدن التى تعاونت معهم. وعلى ضوء ذلك اجتاح كامل المنطقة الشمالية الواقعة على الحدود التونسية الجزائرية الحالية حتى اقترب من مدينة تبسة ثم سار نحو مدينة سيرتا، وعاد بعد ذلك محملا بالغنائم التى استولى عليها عنوة(٣٣).

وبعد عودته إلى قرطاجة بقليل عاد من جديد فاجتاز بجيوشه بلاد المغرب وعبر أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق الحالى) إلى شبه جزيرة ايبيريا بهدف تجديد قوة الدولة القرطاجية هناك فى إسبانيا بعيدا عن أعين الدولة الرومانية (٣٤). وبعد وفاة املكار قتلا من قبل الأيبيريين

تولى القيادة بعده صهره صدربعل (Hasdrubal) الذى شيد مدينة قرطاجنة (Carthagéne) وبعد قتل هذا الأخير تعلق الجيش القرطاجي بحنبعل وذلك لما يتصف به من جرأة ومعاداة للرومان رغم صغر سنه فقد قبل القيادة وعمره لايتجاوز ٢٦ سنة وبعد إعادة تنظيم جيشه أعلن عن بداية الحرب البونية الثانية ٢١٨ ق.م وذلك بمهاجمته لمدينة صغيتتم (Sagonte) الموالية للرومان. وقد تسلق حنبعل فى فصل الشتاء بجيشه سلسلة جبال البيرينى والألب ، ثم دخل إلى إيطاليا من الشمال ورغم محاولة الرومان المستمرة للتصدى له وإعاقته عن الوصول إلى هدفه استطاع أن يؤثر بواسطة اتباعه لأسلوب سياسة فرق تسد أن يضمن كامل شمال إيطاليا إلى جانبه ويفرد روما ثم يشعرها بالخطر الداهم الذى قد يزعزع أسوارها.

وتجدر الإشارة إلى أن المغاربة في كامل هذه الفترة كانوا يشكلون زهرة الجيش المرتزق القرطاجي[٣٥].

غير أن المصادر هنا تصمت عن نوعية العلاقات التى سادت بين القرطاجيين وأتباعهم من المغاربة بعد إخماد ثورة الجيش المرتزق! هل كان عمل أولئك الجنود في الجيش القرطاجي ناتجا عن طواعية وحسن نية ؟ أم أن قرطاجة بعد إخمادها لتمرد الجيش المرتزق وما ترتب عنه من انضمام بعض المدن النوميدية إلى جانب المرتزقة جعلها تفرض التجنيد الإجبارى على رعاياها؟

هذا ما لا نستطيع التثبت منه لنقص الوثائق فيما عدا الإشارة إلى الحرب التى دارت بين قرطاجة والملك غايا (Gaïa) وذلك بعد استيلاء هذا الأخير على بعض المدن التى كانت تابعة للدولة القرطاجية وكان ذلك حوالى ٢١٣ق.م وكذلك الحرب مع سيفاقص ملك نوميديا الغربية التى سبقت بداية الحرب البونية الثانية وسرعان ما تراجعت قرطاجة عن تلك الحرب وحسنت علاقتها مع الملك المازسيلي وذلك بهدف ضمان استمرار الاتصال بجيوشها فى شبه جزيرة إيبيريا [٣٦]. وفى هذا المضمار يأتى تزويج الأميرة القرطاجية سفونيسبة (Sophonisbe) من الملك سيفاقص بعد أن كان ماسينيسا قد وعد بالتزوج منها قبل ذلك عندما كان يحارب ضمن الجيش القرطاجي فى شبه جزيرة ايبيريا . ولذلك اعتبر هذا الزواج سياسيا أكثر منه عاطفيا.

نستخلص من كل ما سبق بأن قرطاجة فى أخريات أيامها كانت تسلك فى علاقتها مع المغاربة القدماء سياسة مسك العصا من الوسط. وذلك من بين الأسباب التى جعلت بعض حلفائها المغاربة يتخلون عنها وينقلبون ضدها فى كثير من الأحيان وأكثر من ذلك يرتمى

البعض منهم فى أحضان أعدائها وهو ما جعلها لقمة سائغة بالنسبة للرومان وقد أساءت للمغاربة بسياستها تلك. هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن روما كانت دولة فى مستهل شبابها تطبق نظاما انضباطيا بين مواطنيها لايقل صرامة عن التنظيم الذى كان سائدا قبل ذلك في مدينة اسبارطة ببلاد الإغريق وكان الهدف من كل ذلك هو جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية وإيجاد مستعمرات لجنودها وعبيدها فى مناطق أخرى خارج شبه جزيرة إيطاليا قصد التخفيف على مدينة روما التى كانت تعج بالطبقات الاجتماعية المتصارعة على السلطة . السياسة والاقتصاد، إضافة إلى العبيد والجنود المتقاعدين الذين أصبحوا يشكلون خطرا عليها.

الهوامش

1- Hérodote Histoire, CXCVI , éd. France Maspero , Paris 1980 , p. 261 .

2- Donald Harden , The Phonicians, éd. Thames and Hudson , London 1963, p. 63 .

3- G.G. La Peyre et A. Pellegrin, Carthage panique , éd Payot , Paris , 1942 , p. 9 et suiv.

4- Justin Histoire, T. 2 , Livre 19 , trad . Jules Pierrot , Paris 1833 , p. 35 ;

– وهو الذي نقل لنا أسطورة عليسة واتفاقية شروط بناء مدينة قرطاجة بينها وبين حيرباس Hyrbas ملك الليبيين .... إلخ.

5- St Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T.I, éd. Hachette, Paris 1913-1928., pp. 468-509 .

6- P. Cintas , Manuel D'Archéologie Punique, T. I, éd. A et J. Picard, 1970 , p. 11 et şuiv .

7- St. Gsell H. A. A. N. T. I, p. 460 ; M. GHAKI, Recherches sur les rapports entre les Phénico - Numides (thése de III cycle , Paris 1979) p. 118 .

8- Hérodote, Op. cit., p. 261 .

9- P. Cintas , Manuel d' Archéologie punique , T.I, pp. 12-19 ; M. Tarradell, Lixus, Institut, Muley El- Hasan tetuan 1959 , p. 41 ; Pline l'Ancienn XIX , 63 .

10- P. Cintas , le Signe de Tanit dans archéologie vivante, vol - 1 N°2 , Décembre 1968 , et Février 1969 , pp. 4-10 .

11- M. H. Fantar , les Phéniciens en Algérie , en Tunisie et en Libye , Dossiers Histoire et archéologie , N°132 . Novembre 1988 , pp. 92-95 .

12- P. Cintas , Fouilles Punique à Tipasa, R. Af. XCII, 1948 , pp. 263-330 .

13- G. Camps, Monuments et rites funéraire , Protohistoriques, A. M. G., Paris 1961 , p. 95

14- S. Moscati , L'épupée des Phéniciens , éd Fayard , Paris 1971 , p. 251-253 ;

– محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، مطبعة . دار الأمة الجزائر ١٩٩٨، ص٢١٠ .

15- J. Desanges , Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique Diffusion de Boccard , 1978 , pp. VIII IX .

16- Hérodote Histoire, 168 , p. 251 . B.H; Warmington , Histoire et civilisation de carthage, éd. Payot , Paris 1961 , p. 53 .

17- Harden op . cit., p. 163 ; Hérodote , W. CXL II.

18- St Gsell . H. A.A. N. T. II, p. 112 .

19- F. Decret , Carthage ou l'empire de la mer, éd du Sud 1977 , p. 123 et suiv; Desenges op. cit., pp. 39-85 .

20- Polybuis. III, 30 , 2 .

21- G. et C. Picard , vie et mort de Carthage, éd Picard, Paris1970 , p. 89 .

22- C. Nicolet , Rome et la conquête du monde Méditerranéen 2 / Genése d'un empire, Paris 1978, p. 601 .

23- B. H. Warmington, Carthage, éd. penguin Books, 1964 , pp. 57-87 ; F. Decret et M. Fanatar , l'Afrique du Nord dans l'Antiquié, Payot, Paris 1981, pp. 66-67 .

24- Diodore de Sicile XIV , 77 éd. old Father 1933 , 1967 .

25- G. Camps, Massinissa au les débuts de l'histoire, imprimerie officielle, Alger 1961, p. 35 .

26- Diodore de Sicile XV- 24 .

27- Diodore de Sicile XX, 17-1 .

28- G. Camps Op . cit., p. 117 .

29- Polybius , I, 69-6 .

30- G. Walter , la Destruction de Carthage , éd Albin Michel, Paris 1947 , pp. 94-116 ; Diodore de Sicile, XIX et XX .

31- St Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T. I, pp. 303-304 ;

- فى الحقيقة أن قرطاجة كانت محاطة بثلاثة أسوار يتمثل السور الأول فى مجموعة من الأوتاد مصطفة على كامل السور ، ويتمثل السور الثانى فى الخندق الذى كان يحميها هو الآخر. أما السور الثالث فيتمثل فى الجدار السميك الذى هو عبارة عن ثكنة عسكرية فى جانبه الداخلى . أنظر محمد الصغير غانم، التواجد الفينيقى- البونى فى الجزائر، رسالة الدكتوراه الدور الثالث/ نوقشت بمعهد التاريخ جامعة الجزائر المركزية سنة ١٩٨١ص ص ٩١-٩٧ .

32- Polybe , I, 70-88 ; Diodore XXV, 2 ; G Walter. Op. cit ., pp. 237-254 .

- تمثل قادة المرتزقة فى القائد ماطوس الليبى وكذا أسبانديوس الذى كان عبدا رومانيا فر من الجيش الرومانى والتحق بالجيش القرطاجى . أما الثالث فكان من أصل غالى اشتهر بالخطابة وإلهاب المشاعر داخل صفوف المرتزقة.

33- St. Gsell , H A. A. N. T. 5 , pp. 179-180 ; Tissot , Géographie comparée de la province romaine d' Afrique T. I, Paris 1884 , pp. 545-548 .

34- Polybe. I, 70, Diodore XXV, 2.

- يلاحظ بأن أسرة البرقيين كانت تعارض اتفاقية نهاية الحرب البونية الأولى، لاسيما القائد أملكار الذى بقى فى صقلية بعد نهاية الحرب يعسكر فى جبل إريكس يقلق الرومان بحرب العصابات .

35- Salah - Eddine Tlatli , la Carthage Punique libraire d'Amérique et d'orient, Paris 1978 , pp. 282-283 .

36- Titelive XXIV , 13 , p. 583 ;

- محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية مطبعة. دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٩٨، ص ص٥٩-٦٠ .

أ.د. حياة ناصر الحجى

المنطلقات الحضارية فى سلطنة المماليك

٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م

إن فاعلية الحياة فى حكم السلاطين المماليك كانت ظاهرة مشتركة بين الحكام المماليك المسلمين وبين عامة الناس فى مصر والشام، حيث ارتكز هيكل البناء فيها على ثلاث زوايا متساوية حددت قواعد العمل الحضارى فى سلطنة المماليك وهى الجهاد الإسلامى، والإبداع العلمى ، ونظام الوقف.

وقد تفاعل العمل المستمر المشترك بين المماليك وعامة الناس فى هذه المسارات الثلاثة دون تفضيل ، أو تمييز أو تعدٍ . ففى «الجهاد الإسلامى» شكل المماليك العسكر الرسمى الذى حقق الانتصارات العظيمة ضد المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، وفى شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣ م ليسجل تاريخ بلاد الشام صفحة رائعة فى انتصارات المسلمين على الأعداء الطامعين فى البلاد. وكذلك يذهب الفضل فى هذه الانتصارات الحاسمة أيضًا لعامة الناس من المتطوعة المصريين والشاميين، الذين بذلوا الأرواح ، حيث لم يملكوا الأموال، فى سبيل الإسلام والأرض والعرض.

وقاد الفقهاء والعلماء المسلمون راية الجهاد فى توحيد صفوف هؤلاء المتطوعة من أهل البلاد ، فكان ابن دقيق العيد فى عين جالوت ، وأحمد ابن تيمية فى شقحب على رأس المتطوعة من عامة الناس المصريين والشاميين من كافة المدن والضواحى. وهكذا يرجع الفضل فى هذه الانتصارات الإسلامية ضد المغول للمماليك كما هو لأهل البلاد فى مصر والشام .

---

* استاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب- جامعة الكويت .

ولم يقتصر الجهاد الإسلامى بين المماليك وأهل البلاد على مواجهة المغول فى أكثر من أربعة حروب كبيرة فى القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية/ الثالث عشر ، والرابع عشر، والخامس عشر الميلادية، حيث إن هذا الجهاد الإسلامى المشترك شمل كذلك هدف التخلص من الاحتلال الصليبى فى مدن ساحل الشام، فأحرز الفرسان المماليك والمتطوعة المصريين والشاميين أجمل الانتصارات الحربية الإسلامية ضد الصليبيين فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) عندما حقق تحرير إنطاكية من قبضة الصليبيين لتعود مرة أخرى إسلامية التاريخ والحضارة. ثم تولى السلطان المنصور قلاون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٨٠-١٢٩٠م) ليسجل بقيادته أروع صفحات الجهاد الإسلامى فى هزيمة الصليبيين، وطردهم من المرقب وطرابلس وعندما تولى السلطنة الأشرف خليل بن قلاون (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٤م) توج هذا الجهاد الإسلامى العظيم فى فتح عكا، آخر معقل صليبى فى بلاد الشام، سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م.

وأخيرا جاء الناصر محمد بن قلاون فى فترة حكمه الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) ليطهر جزيرة أرواد فى البحر الأبيض المتوسط من القراصنة الصليبيين الاسبتارية ليضمن حماية السواحل المصرية والشامية من اعتداءاتهم الوحشية المتكررة، ولتبدأ فى عهده مرحلة الازدهار الاقتصادى، والعلاقات الدبلوماسية ، والتفوق العلمى ، والعطاء الوقفى، والرخاء المعيشى ، والتقدم العمرانى . وهكذا ازدهر المجتمع الإسلامى فى مصر والشام فى ظل حكم السلاطين المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

أما فى محور «الإبداع العلمى» فإن ذخائر المكتبات العالمية والعربية من مصادر مخطوطة ومطبوعة وموسوعات، وقواميس دونت فى عصر المماليك فى مصر والشام دليل واضح وقاطع على دور هؤلاء فى مجال الإبداع الفكرى. فكما كان النويرى فى موسوعة «نهاية الأرب فى فنون الأدب»، والمقريزى فى حولية «السلوك لمعرفة دول الملوك»، والقلقشندى فى موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، وابن حجر العسقلانى فى تراجم «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»، والسخاوى فى تراجم «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وغيرهم كثيرون يمثلون نخبة الإبداع العلمى لأهل مصر وبلاد الشام، كذلك كان ابن تغرى بردى فى «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، وابن إياس فى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، وابن أيبك الدوادارى فى «كنز الدرر وجامع الغرر» يمثلون نخبة الإبداع العلمى للمماليك.

لقد كتب هؤلاء المؤرخون المماليك الذين عرفوا فى ذلك العصر باسم «أولاد الناس» الحوليات الطويلة، والمؤرخات الموثقة فى تاريخ الدولة الإسلامية فى مصر والشام والحجاز. وكانوا حريصين على إبراز كافة الجوانب الحضارية فى المجتمع ، مفضلين الاشتغال بهذه الأعمال الخالدة بالقلم دون السيف . لقد وثق هؤلاء تاريخ هذه البقاع التاريخية من منطق الدين الإسلامى الذى احتضن عقولهم ، وملك أرواحهم ، وقوى عزائمهم ، وتوج أهدافهم ، فاجتهدوا فى تجسيد انتمائهم الكلى للإسلام عقيدة وحضارة . كما كان هؤلاء المؤرخون من أخيار الكتاب المسلمين تدوينا وعرضا وتحليلا. وهذا البذل العلمى المشترك عند المصريين والشاميين والمماليك يؤكد عمق الوازع الإسلامى فى هذه الأرض على مدى حقبة زمنية طويلة زادت عن قرنين ونصف قرن .

أما الركيزة الثالثة فى هذه النظرية التى تنطلق من مفهوم الانصهار الإسلامى بين المماليك وأهل البلاد فهى «نظام الوقف» أو عطاء الخير الذى بذل فيه غالبية السلاطين والأمراء المماليك الأموال الطائلة لإنشاء الجوامع والمساجد، والبيمارستانات ، والمدارس، والخانقاوات ، والزوايا، والأربطة ، ودور السبيل لتربية الأيتام ، إلى جانب منشآت السقاية والرواية فى كافة أنحاء الأقاليم .

ومن ناحية أخرى كان للأغنياء من المصريين والشاميين دور كبير فى إنشاء الكثير من هذه المنشآت الدينية، والعلمية، والاجتماعية ، فعمل الجميع من أجل تشييد ودعم هذه المؤسسات الخيرية خدمة لعامة الناس، ولاتزال هذه المنشآت الوقفية العظيمة شاهداً حياً وبرهاناً خالداً على هذا البذل المادى الكبير فى مصر وبلاد الشام. لقد خصص المماليك وأغنياء مصر والشام الأموال الطائلة لهذا النشاط الدينى والتعليمى والاجتماعى ، فجاءت هذه المؤسسات الوقفية آيات فنية رائعة فى مضمار العمارة الإسلامية ، والعطاء العلمى، والعمل الخيرى، وكان المستفيد الأول من هذه المؤسسات الوقفية عامة الناس فى مصر وبلاد الشام.

وهكذا كان «الإسلام» هو القاسم المشترك بين المماليك على شتى طوائفهم، وأعراقهم ، ولغاتهم ، وثقافاتهم ، كما كان بوتقة انصهار بين المماليك وأهالى البلاد فى مصر والشام. لقد كان المماليك مسلمين بكل ما تعنيه هذه الصفة من عطاء لاحدود له تطبيقا لمبادئ الإسلام وأخلاقه . وبهذا تظل أعمال «الجهاد الإسلامى، والإبداع العلمى ونظام الوقف» وثيقة خالدة تتضمن جميع الإنجازات المملوكية والمصرية الشامية المشتركة لتصبح سلطنة المماليك إسلامية

فى تحويل مبادئ العقيدة إلى أعمال خالدة، وأهداف إنسانية وثقها المعاصرون، ويصبح المماليك والمصريون والشاميون إخوة تجمعهم رابطة الإسلام. وبهذه الرابطة شكلوا بنيانا شامخا برزت آثاره فى أعمال كبيرة خلدها التاريخ، وسجلتها الوثائق والحجج الشرعية، وأبرزتها مداخل المنشآت الوقفية التى لا حصر لها فى مصر والشام والتى لاتزال موجودة حتى يومنا هذا شاهدا حيا على نوبان كل الاختلافات فى بوتقة الإسلام.

لقد كانت مصر والشام فى عصر سلاطين المماليك إسلامية عقيدة ومنهاج حياة، وكان الحكام المماليك وعامة الناس المصريون والشاميون مسلمين روحا وسلوكا ، وكان الهدف المشترك هو خدمة الإسلام جهادا وتعميرا . كما كان التوق للشهادة فى سبيل الله تعالى والإسلام هدفا مأمولا سعى له المماليك، وتسابق إليه عامة الناس، فكانت دولة إسلامية، وحكاما مسلمين ، وشعوبا إسلامية جمعت بينهم العقيدة السمحاء كلمة وعملا ومقصدا .

وهكذا تبرز لنا المعرفة التاريخية الموثقة فى حيثيات صفحات الجهاد الإسلامى، والدروس المستقاة من مواجهات الانتصار والهزيمة لتدعم جذع الارتباط بالأرض، وتكون هذه المعرفة درعا واقيا لدرء أخطار المستقبل ، وإدراك أهمية الارتكاز على عاملى العقيدة والعلم فى أى بناء حضارى إنسانى على مر العصور .

أما فى محور الإبداع العلمى فإن الثقافة المعرفية تظهر فى إطار الإدراك العقلى الواعى لما وراء الحوادث، والربط بين الوقائع ، والقدرة على فهم الأسباب المباشرة وغير المباشرة لكل ما يحدث، بل ما يمكن أن يترتب على الحادثة من نتائج إيجابية وسلبية، وظواهر تبرز عبر فترات الزمن . بل إن القدرة على استيعاب الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى تشكل عاملا حيويا مهما فى فهم كافة مجريات الأمور التلقائية والمخطط لها . وحيث إن مجالات الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى واسعة، وشاملة ومتشعبة ، فإنه يستحيل على إنسان واحد الإلمام بها مهما ملك من قدرات عقلية وجسمانية . وبالتالى تبقى عملية الإلمام بجزء معين من مجالات الإبداع العلمى مهمة ضمن مسئوليات من يملكون قدرة البحث والاستقصاء فى مجريات حوادث العصر ومداخلاته، وعليه تظهر إلى النور تلك الإنجازات الإنسانية الكبيرة التى تمت فى عصر المماليك. ومن المؤكد أن مثل هذا العمل البحثى يعتبر قاعدة علمية أساسية تحرص عليها الدول ذات الاهتمامات العلمية.

وقد أظهرت ثمار فعالية هذه العوامل المؤسسية لقيام سلطنة المماليك فى الصور الحضارية التى شهدها المجتمع الإسلامى فى ظل حكم المماليك. وتأتى المدارس على رأس هذه العطاءات الحضارية، وقد كانت فى عمارتها وعلومها حضارية بديعة لهذه الحقبة التاريخية.

ويعود تاريخ إنشاء المدارس في مصر بالتحديد الدقيق إلى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، حيث بنى لكل من الطائفتين الشافعية والحنفية مدرسة بمدينة مصر[١] . ومن ثم بدأت قافلة التعليم تسير بعدد ضئيل من المدارس، وينضم إلى القافلة بين فترة وأخرى مدرسة وثانية، إلى أن أصبح بمصر مع بداية حكم السلاطين المماليك عدد كبير من المدارس، فغدت مصر مركزا حضاريا للعلم ونشر التعليم . ولا أدل على ذلك التفوق والتقدم في مجال الحياة العلمية والتعليمية من أن الكانم من طوائف التكرور[٢] لما وصلوا إلى مصر سنة «بضع وأربعين وستمائة»[٣] قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالا بنى به مدرسة للمالكية . وهي بخط حمام الريش . ولما انتهى بناؤها درس بها القاضي ابن رشيق فعرفت باسمه وصار لها في بلاد التكرور سرحة عظيمة . وكانوا يرسلون لها الأموال في أغلب السنين[٤].

ولاشك في أن طوائف التكرور أدهشها ما كان في مصر في ذلك الحين، من المدارس العديدة، فرأوا المشاركة في بناء هذا الصرح التعليمي بالإسهام في بناء مدرسة لتدريس الدين الإسلامي وما يتفرع منه من علوم مختلفة .

ويذكر القلقشندي ارتباط عدد من السلاطين المماليك بعدد من المدارس التي ازدهر بها العصر المملوكي، فقد بنى الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية . وأنشأ المنصور قلاون المدرسة المنصورية، وشيد الناصر محمد المدرسة الناصرية [٥]، وأسس الناصر حسن بن الناصر محمد مدرسته العظمى . كما أقام ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين المدرسة الأشرفية . وبنى الظاهر برقوق مدرسته الظاهرية [٦]، «وفي خلال ذلك ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها » [٧]. وبمقارنة قول القلقشندي هذا بما سبق أن ذكره عن المدارس أيام الدولة الفاطمية ثم الدولة الأيوبية[٨] يتضح لنا تمام الوضوح أن العصر المملوكي كان بحق العصر الذهبي في انتشار التعليم نتيجة هذا الإقبال الكبير على إنشاء المدارس، والذي اشترك فيه السلاطين والأمراء والأغنياء على حد سواء . حتى كثرت المدارس وتعددت بشكل كبير لفت أنظار مؤرخي العصر المملوكي فسجلت أقلامهم هذه الميزة الفريدة التي امتاز بها العصر المملوكي.

ولاشك أن الهدف الأساسي من وراء سياسة الإكثار من المدارس أيام حكم سلاطين المماليك هو خدمة الدين الإسلامي وما يتفرع عنه من مختلف العلوم العقائدية والتشريعية. وقد

كان وجود العلماء والفقهاء والقضاة فى مصر فى العصر المملوكى بأعداد كبيرة ، مع تعمق فى مختلف الدراسات العقائدية والاجتماعية عاملا مشجعا لأصحاب السلطة ، ومحبى العلم والتعليم ، والمقتدرين لإنشاء المدارس على مختلف أنواعها، وقد كان من نتيجة ذلك تلك العلاقة الوثيقة والرابطة القوية بين الحكام المماليك من ناحية، وبين طبقة العلماء والفقهاء والقضاة والمتعلمين من ناحية أخرى ، وليس هناك ما هو أكثر فعالية من هذه الرابطة القوية بين هذين الطرفين المتناقضين لإقناع الشعب بمختلف فئاته وطبقاته على تقبل الوضع السياسى والرضا بحكم المماليك الدخلاء . بالإضافة إلى ذلك أمعن مؤسسوا هذه المدارس فى الصرف على بنائها ، وتوفير الأساتذة الأكفاء ، وما يلزم من مواد وأدوات لتدريس مختلف العلوم العقائدية والأدبية والعلمية، ولكن رغم تباينها عن مدارس الدولة الأيوبية فى الفخامة العمرانية والتقدم العلمى إلا أن كل هذه المدارس تتفق فى المظاهر المشتركة والأهداف الواحدة، من ذلك أن جميع ما أنشىء من مدارس أيام الدولة الأيوبية وفى العهد المملوكى كان يعتمد فى الصرف عليه على نظام الوقف الذى كان يمثل مصدرا شرعيا ثابتا للصرف والإنفاق على هذه المدارس(٩).

وبفضل نظام الوقف استطاعت خمس وسبعون مدرسة أن تؤدى وظائفها التعليمية بانتظام فى القرن الخامس عشر . وكان المدرسون فى هذه المدارس يختارون بعناية كبيرة، ويتم تعيينهم من قبل السلطان(١٠).

وقد كان جميع مؤسسى هذه المدارس من السلاطين والوزراء والأمراء والأغنياء والعلماء المقتدرين ، ومن ثم كانت لديهم الإمكانات الاقتصادية الوفيرة لوقف مختلف الأنواع من الأملاك والعقارات وغير ذلك من الأجزاء ومن جملة ما يوقف على هذه المدارس عدد كبير من القرى(١١)، والضياع (١٢)، والنواحى (١٣)، والحمامات (١٤)، والفنادق (١٥)، والحوانيت (١٦)، والأملاك (١٧)، والأراضى (١٨).

أما عن أوقاف المدرسة الناصرية فيذكر النويرى أنه حين «حصل الشروع فى عمارتها. وعين له من الأملاك السلطانية ما يوقف عليها، وكان المعين لذلك قاضى القضاة زين الدين المالكى ، وهو يومئذ ناظر الأملاك السلطانية، التى ورثها السلطان عن والده وإخوانه والمبتاعة من أجر أملاكه، وكانت أجرتها فى كل شهر بالقاهرة وظواهرها خاصة تزيد على ثمانية عشر ألف درهم . ولما عزم السلطان على الحركة إلى الشام للقاء غازان وضربه عند طروقه الشام، وقف القبة والمدرسة، ووقف على مصالحهما من أملاكه ما يذكر، وذلك فى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة قبل استقلاله ركابه الشريف إلى الشام بيومين»(١٩).

ثم أخذ النويرى بعد ذلك يعدد ما تم وقفه على المدرسة الناصرية من قيساريات وقاعات وحوانيت وحمامات وخانات وغير ذلك من المباني ، وكلها تدر الإيجارات الوفيرة ، حيث يستغل كل ذلك للصرف على تعمير المدرسة ومرتبات أرباب الوظائف الدينية، والتعليمية، والخدمات المختلفة [٢٠]. وكان جملة ما تدره هذه الأوقاف ريعا ثابتا للمدرسة الناصرية يزيد على (٨٤٠٢) درهم في السنة [٢١]. كما يشير المقريزى إلى أوقاف المدرسة الناصرية بقوله : «ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشين من القاهرة، والربع الذى يعلوها وكان يعرف بالدهيشة ، ووقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق»[٢٢].

لم يقتصر حبس الأوقاف على المدارس وقبابها عند الانتهاء من البناء فقط، بل كان يعمل على زيادة الأوقاف فى فترات لاحقة ، كما كان جائزا أن تتم هذه الزيادة فى الأوقاف على يد شخص آخر غير الواقف الأصلى، من ذلك أن الأشرف خليل بعد أن تولى زمام الحكم بعد وفاة والده المنصور قلاون أوقف فى شعبان سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م على القبة المنصورية التى بناها والده بين القصرين من قرى عكا الكابرة وتل الميشوح وكردانة، ومن ساحل صور معركة وصريفين . وأوقف على المدرسة الأشرفية بجوار السيدة نفيسة قرية الفرح من عكا، وقرية شعر عمر وقرية الحمراء، ومن ساحل صور قرية طيربنة[٢٣].

وكان بعض الفضلاء يوقفون الأوقاف الجليلة على مدارس وجوامع لاتنسب إليهم، فصاحب حماة إسماعيل بن على الأيوبى المعروف بالملك المؤيد عماد الدين أبى الفداء، كان له وقف على جامع ابن طولون وهو خان كامل بحوانيته فى دمشق، وسبق أن ذكرنا أن جامع ابن طولون كان مخصصا فيه مكانا للدرس له وظيفة المدرسة [٢٤]. ويؤكد المقريزى فى مواقع متفرقة من كتابه المواعظ والاعتبار على أن الأوقاف كانت العمود الفقرى لذلك الهيكل التعليمى القائم على تلك المدارس الكثيرة، وبدون ذلك الريع الثابت الشرعى الذى تدره الأوقاف لايمكن لأى مدرسة أن تمارس وظائفها، أو تحقق الهدف الذى تم تشييدها من أجله. وقد شهد العصر المملوكى إنشاء ثلاث مدارس تجمدت فيها الحياة التعليمية بسبب عدم توفر ذلك الشريان الاقتصادى[٢٥] . ومن ريع الأوقاف هذا كان يصرف فى بعض الأحيان للفقهاء المقيمين فى المدرسة معلوم يعيشون منه [٢٦]، وكان هذا المعلوم هو مصدر الرزق الوحيد لبعض الفقهاء، ومن ناحية أخرى كان هو السبب الوحيد أحيانا لبقاء هذه المدارس وعدم وصول الخراب إليها[٢٧].

كما كان يصرف من ريع الوقف هذا مرتبات للطلبة [٢٨]، كل هذا يؤكد أن الأوقاف كانت هى القلب الذى يعمل على استمرار الحياة التعليمية فى هذه المدارس بانتظام وبدون تغيير، وبدونها تصبح هذه الأماكن خرابا لا منفعة من ورائها، ففى المدرسة الناصرية كان واجب على الناظر أن «يصرف لكل واحد من المدرسين ولمعيديه وطلبته والداعى عنده والنقيب فى كل شهر من شهور الأهلة ألف درهم نقرة، ومن ذلك ما يختص به المدرس عن التدريس مائتى درهم، والمعيدون والطلبة والداعى والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل » [٢٩]، ويلاحظ أن المرتبات التى تصرف للطلبة الدارسين على أيدى فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة تختلف من طائفة إلى طائفة ، كما كانت قيمة هذه المرتبات من أسباب جذب الطلبة نحو أحد المذاهب دون غيره، مثال ذلك ما يذكره المقريزى أنه فى «سنة سبع وستين وسبعمائة جدد الأمير يلبغا العمرى الخاصكى درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما وإردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية» [٣٠].

إلى جانب ما كان يحصل عليه أرباب الوظائف من مرتبات منتظمة كانت توزع عليهم الخيرات المختلفة فى المناسبات الدينية حيث يقتطع ذلك من ريع الأوقاف كما جاء فى وصف المدرسة الحجازية : «وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية، وكان يفرق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكنانك، وفى عيد الأضحى اللحم، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام» [٣١]. أما فى المدرسة الناصرية فإنه «جعل للناظر أيضا أن يصرف من ريع الوقف إذا فضل عن المرتب المعين فيه، فى ليالى الجمع والأعياد والمواسم وشهر رمضان ، ما يراه فى التوسعة عليهم، فإن تعذر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف إلى ما فيها، فإن تعذر صرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا » [٣٢].

وبذلت بعض المدارس عناية كبيرة لتوفير بيوت لسكنى الطلبة فالمقريزى فى كلامه عن المدرسة الصاحبية البهائية يصف التشاحن والتنافس بين الطلبة بهدف الفوز بالسكن فى أحد بيوتها التى أعدتها لإقامة الطلبة، بل ويقبل الطالب منهم مشاركة آخرين فى نفس البيت ، ولعل فى هذا كناية لما وفرته هذه البيوت الداخلية من راحة ورفاهية للطلاب لكى يتمكنوا من مواصلة دراستهم براحة نفسية، مطمئنين إلى أماكن إيوائهم واستقرارهم «وكانت من أجلّ مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة» [٣٣].

أما المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م فقد كان للناس في سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إلى الحكام» [٣٤]، وهذا دليل على جودة المساكن التي توفرها المدارس للطلبة .

يستفاد من ذلك كله أنه وجدت في هذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين ليعيشوا فيها، وتكون المقر الدائم لإقامتهم حتى ينهون دراستهم، إلى جانب ما كان يصرف لهم من مرتبات يتعيشون منها. وقد عمرت هذه المدارس بالمدرسين والمعيدين والطلبة والمباشرين والفراشين ، إلى جانب وجود إمام ومؤذن لإقامة الصلوات الخمس، وقد كان لكل هؤلاء الرواتب الثابتة[٣٥].

بالإضافة إلى ما كانت تؤديه هذه المدارس من وظائف علمية وتعليمية، فإنها كانت تستخدم أيضا لإقامة الشعائر الدينية، وإقامة الصلوات الخمس، أي أماكن للعبادة ومراكز للوعظ والإرشاد التهذيبي [٣٦]، ويستدل على ذلك من قول المقريزي في كلامه عن المدرسة الصالحية: «فلما كان في يوم الجمعة حادى عشر من ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة رتب الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك جمال الدين الغزاوي خطيبا بإيوان الشافعية من هذه المدرسة، وجعل له في كل شهر خمسين درهما، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفا جاريا فاستمرت الخطبة هناك إلى يومنا هذا» [٣٧]. كما أشار الناصر محمد في وصية الوقف الخاصة بالمدرسة الناصرية إلى ضرورة وجود الأئمة والمؤذنين والقراء لإقامة الصلوات الخمس، فقد جاء في شروط وصية الوقف : «وجعل للناظر أن يرتب بالقبة المذكورة إماما يؤم المسلمين في الصلوات الخمس ، ويفعل ما يفعله الأئمة على ما يراه الناظر من المذاهب، ويؤدي إليه اجتهاده ، ويصرف له في كل شهر بالحلال ثمانين درهما أو ما يقوم مقامها» [٣٨]، واشترط على الناظر أن يرتب بالقبة شيخا لإقراء الحديث النبوي ، ويصرف له من ريع الوقف في كل شهر ثلاثين درهما نقرة، ويرتب بالمدرسة من القراء الحافظين لكتاب الله العزيز خمسة وعشرين نفرا، ويصرف لهم في كل شهر خمسمائة درهم . ومن المؤذنين ثمانية في القبة والمدرسة لإعلان الأذان وإقامة الصلوات والتسبيح، ويصرف للاثنين الرئيسيين في كل شهر مائتي درهم وثلاثين درهما نقرة، ويصرف للستة الباقين في كل شهر مائة درهم وخمسين درهما [٣٩]. وكان الحصول على منصب في أحد المدارس هدف الكثيرين من القضاة ورجال الدولة، فيشتد التنافس والخلاف بينهم طمعًا في هذه المناصب المدرسية ، سواء التدريس أو النظر أو الإشراف فإن وفق أحدهم في الحصول على إحدى الوظائف اجتهد في جعلها وراثية لأبنائه من بعده ، ثم أحفاده وذريتهم ، أي يتم ربطها بشخصيات إحدى الأسر، وهذا

الاحتكار الوظيفي الأسرى يظهر واضحا فى كتاب وقف المدرسة الناصرية ، فحين رتب قاضى القضاة زين الدين المالكى كتاب الوقف هذا «جعل النظر فيه على الوقف والمدرسة والقبة لنفسه أيام حياته، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من أولاده وأولادهم وذريتهم ، ثم من بعدهم لقاضى القضاة المالكى، وشرط أيضا التدريس فى إيوان المالكية لنفسه ولأولاده من بعده.. وكتب الكتاب ووقع الإشهاد على السلطان فيه لذلك»(٤٠).

وعلى ذلك يمكن أن نسأل إلى أى حد استطاع القاضى زين الدين أن ينجح فى تنفيذ تخطيطه هذا ومواجهة تيار التنافس الوظيفى الذى اتسم به العصر المملوكي تشير الحوادث إلى أن شهاب الدين أحمد بن عبادة تضايق من تدبير قاضى القضاة زين الدين المالكى وانفراده وأولاده بوظيفتى النظر والتدريس، وكان قد سبق أن ناشد القاضى زين الدين أن يجعله مشرفا على تنفيذ وصية شروط الوقف فلم يمكنه من ذلك ، لذلك كله عمل شهاب الدين أحمد على تغيير كتاب الوقف، وأخذ يغرى الناصر محمد بأن يجعل وظيفة النظر لعتيقه الطواشي شجاع الدين عنبر اللالا بدلا من قاضى القضاة زين الدين، وما زال يلح عليه حتى نجح فى إقناعه ، وأوكلت وظيفة النظر إلى الطواشي شجاع الدين «وجعل له أن يتناول من ريع الوقف المذكور في كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة مدة حياته، وجعل لمن يؤول النظر إليه بعده فى كل شهر مائتى درهم، وابطل الكتاب الأول وثبت الكتاب الثانى» (٤١).

ويوضح هذا مدى أثر التطلعات الشخصية والتيارات الفردية فى تولية المناصب دون النظر إلى عواقب ذلك ونتائجه على المصلحة العامة، وقد حدث ذلك مع وظيفة النظر إذ يبدو أن من تولاها لم يكن كفئا للقيام بأعباء هذا المنصب، وأهملت شروط الواقف حيث «حصل الخروج فيها عن شرط واقفها فى كثير من أموالها، وأحصر المرتب عن شرط الواقف مع توفر المال وزيادة عن كفاية الشروط . وإنما ظهر ذلك عند وفاة ناظرها الطواشي شجاع الدين فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة وظهور كتاب الوقف ولعل الناظر المذكور لم يفعل ذلك عن علم واطلاع على الشروط، وإنما فعله عن إغفال وإهمال وجهل وعدم احتفال بإمعان النظر فيما أسند إليه ، واعتمد فيه عليه»(٤٢).

وهذا يؤكد ما سبق مناقشته من حدوث العواقب الوخيمة فى حالة عدم وجود الشخصية المناسبة فى المنصب الحساس، حيث أهملت شروط الواقف، وبالتالى تضرر أرباب الوظائف من القضاة والعلماء والفقهاء والأعيان والمدرسين وغيرهم، «فلما أسند النظر إلى أهله ، وانتهى إلى من يتحرى الصواب فى قوله وفعله، أجرى الأمور فيها على شرط واقفها ، وصرف

أموالها فى وجوه مصارفها ، وما عدل عن شرط الواقف ولاخرج: ولا اعتمد ما يترتب عليه فيه إذا خرج»[٤٣].

كذلك كان من غير المستحب أن يعمل السلطان على منع الناظر من تنفيذ شروط الواقف، حيث إن بقاء الناظر في وظيفة النظر كان مرتبطا بتقييده بشروط وصية الواقف . بالإضافة إلى أنه كان من المتعارف عليه بيع هذه الوظائف من قبل أصحاب الاستحقاق ، مثلما تم بيع وظيفة مشيخة الحديث فى الكاملية بمبلغ ستين دينارا ، دون أدنى اهتمام بأن يعهد بها لمن تؤهله علومه للقيام بالتزاماتها ومسئولياتها فى التهذيب والتعليم. وتذكر المصادر المملوكية أنه كان يحدث فى بعض الأحيان أن يقوم المدرس بوظيفة النظر فى أوقاف المدرسة إلى جانب قيامه بوظيفة التدريس، من ذلك ما حدث فى المدرسة الناصرية بالقرافة حيث «رتب بها مدرساً يدرس الفقه على مذهب الشافعي، وجعل له فى كل شهر من المعلوم عند التدريس أربعين ديناراً . وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً بالمصرى ، وراويتين من ماء النيل»[٤٤].

ومن ناحية أخرى يظهر واضحاً فى نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية الناصرية كتب لقاضى القضاة تقى الدين ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز- إن هذه الوظيفة توكل لمن تؤهله أخلاقه وسمعته وعلمه للقيام بمسئولية هذا المنصب، حيث يتم تعيينه بأمر سلطانى لينشر علمه بين طلاب المعرفة ويكون ذلك قدوة لعلماء عصره»[٤٥].

وإذا حدث وتنامى إلى سمع السلطان فشل المدرس الذى عينه فى القيام بأعباء مسئولياته كاملة، فإنه يتم إحضار هذ المدرس بين يدى السلطان للتحقيق فى الأمر[٤٦]. وكان المدرس يقوم بتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغير ذلك ، ويأتى من بعده المعيد الذى يعيد ما سبق أن شرحه المدرس، لكي يفهمه الطلبه [٤٧]. وكـــان لزامًا على المدرس أن يعامل الطلبة وكأنهم أبناؤه [٤٨].

ويلاحظ ارتباط هذه المدارس بالمذاهب الإسلامية الأربعة فيختص بعضها للفقهاء الشافعية، وبعضها للفقهاء المالكية، وبعضها للحنفية [٤٩]. وفى بعض الأحيان يكون فى مدرسة واحدة درس للطائفة الشافعية ، ودرس للطائفة الحنفية [٥٠]. كما وجدت مدارس بها دروسًا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، مثلما وجد فى المدرسة الناصرية من تدريس المذاهب الأربعة على يد كبار الفقهاء ومعهم المعيدون والطلاب كل مجموعة فى إيوان، المالكية فى الإيوان القبلى،

والشافعية فى الإيوان البحرى، والحنفية فى الإيوان الشرقى، والحنابلة فى الإيوان الغربى ، ويراعى تحديد عدد المعيدين والطلبة حسب أوامر الناظر (٥١). وعنيت بعض المدارس بتدريس علم الطب مثل المدرسة المنصورية (٥٢). ووجد من أهل الدين والعلم من إذا بنى مدرسة، وانتهى منها، ووقف عليها الأوقاف الجليلة ، باشر التدريس بها بنفسه (٥٣). فالشيخ هبة الله ابن على بن السديد الإسنائى مجد الدين (ت سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) تولى التدريس فى مدرسته التى أنشأها فى بلده إسنا ووقف عليها بساتينه، وكان يعمل للطلبة فيها طعاما طيبا(٥٤). وإلى جانب ما كانت تؤديه بعض المدارس من منافع تتفق مع كونها عبادة ودرس، كانت تقوم أيضا بوظيفة الخانقاة ، حيث تصبح مقرا لإيواء الصوفية ، وممارسة وظيفة التصوف «واستضافة الواردين من الفقراء» (٥٥). فالمدرسة المهمندارية التى بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى المهمندار ونقيب الجيوش فى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م «جعلها مدرسة وخانقاة» (٥٦). والمدرسة الجمالية التى بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م « جعلها مدرسة للحنفية وخانقاة للصوفية»(٥٧).

واحتوى عدد من المدارس على مكاتب سبيل تقام بجانبها معونة للأيتام والمحتاجين ، حيث يكون هدفها تعليم أيتام المسلمين ، وتجرى لهم الجرايات والكسوة (٥٨). وعادة تلحق مكاتب السبيل هذه إما بالمدارس، أو بالمساجد، أو غير ذلك من المؤسسات الدينية والتعليمية. وقد يكون السبب فى عدم قيام مراكز تعليم اليتامى هذه مستقلة بذاتها هو الخوف من اندثارها وسرعة وصول الخراب إليها، ولذا كانت تلحق بهذه المؤسسات الكبيرة القادرة على تمويلها وإمدادها بالمدرسين والطعام والكتب، وغير ذلك مما تحتاجه لتواصل مسيرتها فى تعليم الأيتام وحسن توجيههم . فالمدرسة الحجازية مثلا قد أقيم بجوارها مكتب للسبيل يضم عددا من أيتام المسلمين(٥٩)، مع مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويوزع عليهم فى كل يوم لكل واحد منهم خمسة أرغفة من الخبز، ومبلغ من المال، بالإضافة إلى كسوتى الشتاء والصيف(٦٠).

وقد اجتهد على أن يتوفر فى هذه المدارس مؤدب أطفال تكون مهمته توجيه وتعليم الأطفال اليتامى فى مكاتب السبيل (٦١). وكان بعض الخيرين يبنى مكتبا للأيتام قائما بذاته دون أن يلحقه بمدرسة ، من ذلك أن محمد بن الصاحب (ت سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م) «بنى مكتبا بالقرافة ، وشرط فى كتاب وقفه أن ألواح الصبيان إذا غسلت يصب على قبره»(٦٢) وقد يكون السبب وراء بناء هذا المكتب مستقلا بذاته هو عدم توفر المال لبناء مؤسسة كبيرة يلحق بها، فاكتفى الواقف بإنشاء هذا المكتب لتعليم الأيتام طلبا للثواب والرحمة.

ويدرج في كثير من الأحيان على أن تلحق بالمدرسة قبة يدفن فيها الواقف صاحب المدرسة أو يبنى له قبرا فى أحد جوانبها (٦٣)، فالمقريزى فى وصفه للمدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد، يذكر «وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة... فلما مات ابنه أنوك من الخاتون طغاى في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وعمره ثماني عشرة سنة دفنه بهذه القبة وعمل عليها وقفا يختص بها...»(٦٤).

أما المدرسة الحجازية التى شيدتها خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد وزوجة الأمير بكتمر الحجازى- فيذكر- المقريزى أنه قد «أنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وأنشأت بها منارًا عاليًا من حجارة ليؤذن عليه»(٦٥). وحين توفيت خوند تتر الحجازية دفنت بهذه القبة فأخذ «يجلس بها عدة من الطواشية، ولايمكنون أحداً من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية إلا القراء فقط وقت قراءتهم خاصة»(٦٦).

كذلك يذكر المقريزى عن شمس الدين شاكر بن غزيل المعروف بابن البقرى مؤسس المدرسة البقرية أنه «دفن بمدرسته هذه وقبره بها تحت قبة فى غاية الحسن» (٦٧). بالإضافة إلى ذلك كان بعض الفضلاء المقتدرين يعملون على وقف دروس قرآنية فى الترب طلبًا للرحمة والمغفرة(٦٨). وهكذا كان من المستحب دفن صاحب المدرسة أو أبنائه فى المدرسة بعد وفاته . ولعل السبب أنها مكان للدرس، وذكر الله، وتفسير الشريعة الإسلامية، إلى جانب كونها مكان عبادة وتعبد . من ذلك أن الأمير الكبير سيف الدين الجاى دفن فى مدرسته المعروفة باسمه «مدرسة الجاى»(٦٩).

كما دفن السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون فى مدرسة أمه المعروفة باسم مدرسة أم السلطان ، وذلك بعد قتله (٧٠). ودفن الأمير سيف الدين إينال اليوسفى بعد وفاته فى سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢ م خارج باب النصر، حتى انتهت عمارة مدرسته، مدرسة إينال ، فنقل إليها ودفن فيها(٧١).

ويفهم من كلام المقريزى فى وصفه لهذه المدرسة أن الهدف من بنائها أن تكون مقراً يدفن فيها صاحبها ، حيث يذكر : «ولم يعمل فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره»(٧٢). ولعل الواقف صاحب المدرسة حين يوصى بأن يدفن فى مدرسته يرجو دعاء الشيوخ العلماء والمدرسين والمعيدين والطلبة ترحماً عليه وطلب المغفرة له .

إلى جانب ذلك ضمت معظم هذه المدارس خزانة كتب بها أمهات الكتب فى مختلف العلوم[٧٣]. واحتوت بعض المدارس على كتب تكون من جملة الموقوف للتعليم فى هذه المدارس[٧٤]، فالمدرسة الفاضلية وقف بها جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد[٧٥].

أما المدرسة المحمودية التى أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م فقد «عمل فيها خزانة كتب لايعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهى باقية إلى اليوم لايخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن»[٧٦]. وكان من المعتاد أن يعين لخزانة الكتب فى المدرسة مشرفًا يتولى العناية بها والاهتمام بما فيها، من كتب ومراقبة الإعارة ففى المدرسة الناصرية مثلا: «شاهداً لخزانة الكتب، يحفظ ما فيها من الكتب، ويضبط ما يؤخذ منها للاشتغال بها، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة ، ويصرف له فى كل شهر ثلاثين درهماً ، أو ما يقوم مقامها من النقود»[٧٧].

وهذه النظرة السريعة إلى بعض ما أنشئ من مدارس أيام الدولة المملوكية – هى خير دليل على أسباب قيام هذه المؤسسات، والهدف من تأسيسها ، وكيفية قيامها فى تأدية وظائفها ، ولابأس من تركيز هذه الدراسة حول مدارس عصر الناصر محمد بن قلاون، خاصة وأن المصادر المملوكية تكاد تجمع على أن هذا العصر كان يعد بحق العصر الذهبى للعمارة المملوكية، حيث ازدهر بعدد هائل لمختلف أنواع العمائر ، وكان يصرف ببذخ على تشييدها، ويتفانى فى ضخامة بنائها، وجودة زينتها، والإنفاق فى سبيل ذلك بغير حساب.

ونستشهد على ذلك كله بقول ابن حجر العسقلانى فى ترجمته للناصر محمد حيث يقول : «وبنى فى سلطنته من الجوامع والمدارس والخوانق الشيئ الكثير جداً»[٧٨].

الهوامش

١- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣ .

٢- عن العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربى انظر عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٢٤٢-٢٤٥ (الطبعة الأولى، ١٩٦٥م).

٣- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

٤- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

٥- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥١-٩٥٢ .

٦- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٦٣-٣٦٤ .

٧- القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٦٤ .

٨- القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣ ، ص٣٦٢-٣٦٣ .

٩- أبو الفدا ، مختصر ، ج٤ ص١٣٣ ، ابن حجر ، الدرر ، ج٤ ، ص٥٠ ، المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣-٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج١ ، ص٢٩٢-٢٩٣ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٤٢ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

١١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٢- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٣- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٤- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ ، ٣٧٨ .

١٥- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٦ .

١٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ .

١٧- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ .

١٨- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٨٢ .

١٩- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ورقة ٣٩٩أ ؛ انظر أيضا المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥١-٩٥٢ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، ج٨ ، ص٢٠٨-٢١١ .

٢٠- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤١ب.

٢١- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤١أ.

٢٢- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٨٢، انظر أيضا المقريزى، السلوك ، ج١، ص٩٥١-٩٥٢ .

٢٣- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٧٦٩ .

٢٤- ابن حجر ، الدرر ، ج١ ، ص٣٩٩ .

٢٥- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٠١ .

٢٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

٢٧- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

٢٨- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٥ .

٢٩- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ورقة ٣٤٠ ب.

٣٠- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٢٦٩ .

٣١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٨٢ .

٣٢- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤١ ب- ٣٤٢ .

٣٣- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧١ .

٣٤- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧٩ .

٣٥- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٤٠٠، ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

٣٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ ، ٣٩٤ .

٣٧- المقريزى، الخطط، ج٢، ص٣٧٤ .

٣٨- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٣٤٠أ .

٣٩- النويرى ، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٣٤٠ أ.

٤٠- النويرى ، نهاية ، ج٣٠، ورقة ٣٣٩أ.

٤١- النويرى، نهاية، ج٣٠، ورقة ٣٣٩ب.

٤٢- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٣٣٩ب.

٤٣- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤٠أ.

٤٤- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

٤٥- القلقشندى ، صبح الأعشى، ج١١ ، ص٢٣١ -٢٣٤ ، قارن ص٢٣٦-٢٣٩ ، ٢٣٩-٢٤١ .

٤٦- ابن تغرى بردى ، حوادث ، ورقة ١٢ أ، تبر ، ص٢١٩ .

٤٧- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٦٤ .

٤٨- القلقشندى، صبح الأعشى، ج١١ ، ص٢٤٧ .

٤٩- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ .

٥٠- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٩ .

٥١- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٢٤٠ب.

٥٢- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧٤ .

٥٣- ابن حجر ، الدرر، ج٥، ص١٧٦ .

٥٤- ابن حجر، الدرر ، ج٥ ، ص١٧٦ ، ابن تغرى بردى، المنهل، ج١، ص٢٩٢-٢٩٣ .

٥٥- ابن العماد، الشذرات، ج٦ ص١٤٢-١٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ .

٥٦- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٩ .

٥٧- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٢ .

٥٨- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩١، ٣٩٤ .

٥٩- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٨٢ .

٦٠- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٨٢ .

٦١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٤٠١ .

٦٢- ابن حجر، الدرر ، ج٤ ، ص٣٢٣ .

٦٣- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

٦٤- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٨٢ .

٦٥- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٨٢ .

٦٦- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص ٣٨٣ .

٦٧- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٩١ .

٦٨- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص١٦٥ .

٦٩- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٩٩ .

٧٠- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

٧١- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٤٠١ .

٧٢- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠١ .

٧٣- المقـــريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٧١ ، ٣٧٩ ، ٢٨٢-٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ .

٧٤- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٦٦ .

٧٥- المقريزى، الخطط، ج٢، ص٣٧٩ .

٧٦- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٩٥ .

٧٧- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٢٤١أ.

٧٨- ابن حجر ، الدرر، ج٤ ، ص٢٦٤ .

المصادر والمراجع

ابن إياس محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

١- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٣ أجزاء ، القاهرة، ١٨٩٣-١٨٩٦م.

ابن بطوطة محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٢- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «رحلة بن بطوطة»، تحقيق د. على المنتصر الكتاني ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٧٥م.

ابن تغرى بردى أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)

٣- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، جزءان، تحقيق : وليام بوبر، لوس أنجلوس، ١٩٣٠-١٩٤٢م.

٤- المنهل الصافي ، والمستوفى بعد الوافي، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٦م.

٥- مورد اللطافة في من ولى السلطنة والخلافة ، بإشراف ، ج.د. كارليل، طبعة أوروبا، ١٧٩٢م.

٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٥٦م.

ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٧- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق : محمد محمد أمين، مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٧٧م.

ابن حجر : أحمد على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)

٨- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

٩- إنباء الغمر في أبناء العمر، جزءان ، حيدر آباد ، ١٩٦٧م.

١٠- فتح البارى بشرح صحيح البارى، ١٣ جزء ، القاهرة، ١٣١٩هـ / ١٩٠٩م.

الحجى: حياة ناصر

١١- التعليم في مصر زمن المماليك، ضمن كتاب: التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات ، الجزء الثالث، ١٩٩٠م، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن.

١٢- أسواق القاهرة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ضمن كتاب ، بحوث ودراسات في التاريخ العربي، مهداة إلى أ.د. نور الدين حاطوم بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، دار شمال للطباعة والنشر دمشق، ١٩٩٢م.

١٣- العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (حائز على جائزة معرض الكتاب المقدمة من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٨١م).

١٤- السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده مع تحقيق ونشر وثيقة وقف سرياقوس، الكويت، ١٩٨٣م.

١٥- السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٤م.

١٦- أحوال العامة في حكم المماليك ٦٨٧-٧٨٤ هـ / ١٢٧٩-١٣٨٢م دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، الكويت، ١٩٨٤م، والطبعة الثانية في عام ١٩٩٤م.

١٧- دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام، الطبعة الأولى، الكويت ، ١٩٨٦م.

١٨- صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٢م.

١٩- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الكويت، ١٩٩٥م.

٢٠- صفحات من تاريخ الكويت في ظل الاحتلال العراقي أغسطس ١٩٩٠- فبراير ١٩٩١م (دراسة وثائقية تاريخية) ، الطبعة الأولى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٩٥م.

الدواداري : أبوبكر بن عبدالله بن أيبك (معاصر للناصر محمد بن قلاوون)

٢١- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: و. هاريمان، القاهرة ، ١٩٧١م.

٢٢- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هـ. ر. رويمر، القاهرة ، ١٩٦٠م.

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) .

٢٣- العبر في خبر من غبر ، ٥ أجزاء ، الكويت (١٩٦٠- ١٩٦٦م).

٢٤- خلاصة تهذيب الكامل في أسماء الرجال، تحقيق : أ.أ الخزرجي ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م.

٢٥- كتاب دول الإسلام، جزآن ، حيدر آباد، ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨م.

زيتير شتين

٢٦- تاريخ سلاطين المماليك ، نشرة كارل ف ، زيتير شتين ليدن، ١٩١٩م.

السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) .

٢٧- معيد النعم ومبيد النقم ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٨٣م.

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)

٢٨- الضـوء اللامع لأهل القـرن التـاسـع، ١٢ جـزءا، القـاهـرة، ١٣٥٣- ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤-١٩٣٦م.

٢٩- التبر المسبوك في ذيل السلوك ، القاهرة، ١٨٩٦م.

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

٣٠- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان ، تحقيق : م . أ . إبراهيم ، القاهرة، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

٣١- تاريخ الخلفاء ، تحقيق :م.م . عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٦٤ م.

ابن شاكر محمد بن أحمد الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٩٢م).

٣٢- عيون التواريخ، الجزءان، ٢٠، ٢١ ، تحقيق : فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم داود، الطبعة الأولى، بغداد ، ١٩٨٤م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح :

٣٣- العصر المملوكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣٤- مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣٥- مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣٦- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م.

ابن عبد الظاهر : محيي الدين أبو الفضل عبدالله (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)

٣٧- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: م. كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

٣٨- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق : عبد العزيز الخويطر، الرياض .

٣٩- الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، ليبزج ، ١٩٠٢م.

أبو الفدا : إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

٤٠- المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة، ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م.

٤١- تقويم البلدان ، تحقيق :م . رينود ، م. سلان، باريس ، ١٨٤٠م.

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)

٤٢- تاريخ الدول والملوك ، جزء ٨ ، تحقيق : قسطنطين زريق وآخرون، بيروت، ١٩٣٩م.

ابن أبى الفضائل : مفضل

٤٣- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ج٢، ٣، تحقيق: أ. بلوشيه ، باريس ١٩٢٨م.

القلقشندى: أحمد بن على (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

٤٤- مآثر الأناقة فى معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤ م.

٤٥- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢م.

المقريزى : أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

٤٦- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق:م . عابدين، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٧- إغاثة الأمة بكشف الغمة، حمص ، ١٩٥٦م.

٤٨- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، القاهرة، ١٨٩٥م.

٤٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقريزية» ، جزءان، القاهرة، ١٨٥٣م.

٥٠- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ٢، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، ج٣،٤ ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٧١م.

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

٥١- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ٣٠ جزء ، تحقيق : د. محمد عبد الهادى شعيرة، د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٢٣-١٩٩٠م.

مخطوط، دار الكتب المصرية، ٥٤٩ معارف عامة، الأجزاء ٢٦-٣٠ .

د. على منصور نصر(*)

معابر الحضارة العربية الإسلامية للغرب الأوروبى

تعددت المعابر التى سلكتها الحضارة العربية الإسلامية فى وصولها إلى الغرب الأوروبى، فكانت هناك ثلاثة معابر رئيسية ، تمثلت فى الأندلس وصقلية والحروب الصليبية ومعبرين مساعدين هما التجارة والترجمة. واختلفت هذه المعابر فيما بينها من حيث النشاط وكمية المنقول الحضارى والثقافى. وإن نظرة فاحصة للمنقول من عناصر الحضارة العربية الإسلامية والطريق الذى عبرته يستدل منها بأن الأندلس كان الجسر الرئيسى فى عملية انتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبى وذلك لأن الاحتكاك الأوروبى بالعرب استمر مع المشرق والأندلس فترة ثمانية قرون بينما استمر مع صقلية ثلاثة قرون فقط، وتأتى أهمية الحروب الصليبية باعتبارها وسيلة ساعدت على نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبى وهنا برزت أهمية التجارة ثم الترجمة كعاملين مساعدين، أثرا إلى درجة كبيرة فى نقل الكثير من معالم هذه الحضارة إلى الغرب الأوروبى كذلك. وفيما يلى عرض لأهمية كل معبر من هذه المعابر :

أولا : معابر رئيسية :

١- الأندلس :

فتح المسلمون إسبانيا عام (٩٢هـ / ٧١١م) وحرروها من حكم القوط البرابرة ، ولم يكد يتم فتحها حتى أخذوا يمارسون نشاطهم الحضارى، فأقاموا حضارة بين ربوعها كانت

* أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - قسم العلوم الاجتماعية - كلية الآداب- جامعة البحرين.

امتدادا طبيعيا للحضارة الإسلامية في المشرق ، فأكثروا من المنشآت ووطدوا ودعموا الصلات التجارية بين الأمم، ثم شرعوا يتفرغون لرعاية العلوم والآداب وينشئون المدارس ودور العلم التي ظلت زمنا طويلا مراكز الإشعاع الثقافي في أوروبا ، وقد بهر أهل الأندلس من النصارى بهذه الحضارة إلى حد دفعهم إلى تعلم اللغة العربية . وعثر على قصيدة لمؤلف مجهول تقوم حوادثها على قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، لذا سموها قصيدة يوسف وهذه القصيدة مكتوبة بحروف عربية ، على الرغم من أن كلماتها إسبانية وهي مثال لما عرف في إسبانيا والبرتغال باسم الأدب الجميادي Literature Aljamida وهي كلمة مشتقة من العجمة Aja-ma ، وكان يستعملها في أول الأمر الأسبان الذين كانوا يتكلمون العربية، ويحرصون عليها حتى بعد أن أخذوا يكتبون بالأسبانية ، ثم استعملها الموريسكيون الذين كانوا يكتبون الألفاظ الأسبانية بحروف عربية[١] وهذا اللون من الكتابة يدل على شدة تعلق الأسبان بلغتهم بعد أن غلبهم المسلمون على أمرهم.

وإذا كانت اللغة العربية قد أثرت بمفرداتها في اللغة الأوروبية فإن ميدان الأدب فاق ميدان اللغة والألفاظ إذ صار للشعر العربي سحره الخاص في أوروبا، ففي الشعر كان الشعر العربي يهتم بالقافية ويلتزم بها في حين لم يكن الشعر الأوروبي الكلاسيكي يعنى بها. وقد لاحظ شعراء أوروبا الجمال الذي تضفيه هذه القوافي على الشعر العربي، فشرعوا يحاكونه إلى أن شاع اتخاذ القوافي في أشعارهم . على أن هذا التأثير في الشعر الأوروبي لم يرق للمتعصبين فأخذوا يحاربون استخدام القوافي في الشعر باعتبارها دخيلة على أشعارهم ، ولم ترد في الشعر الكلاسيكي . ولكن شعراء أوروبا لم يقيموا وزنا لهذه الحرب التي شنها أمثال (فيلاموفيتس) وبقيت القافية إلى اليوم دليلا يشهد على فضل الأدب العربي.

ومن المسائل التي شغلت بال الباحثين المعاصرين مسألة تأثير الشعر العربي الأندلسي في نشأة الشعر الأوروبي الحديث في أسبانيا ، وجنوبي فرنسا خصوصا أن هناك مواد عديدة جديدة تظهر كل يوم لتؤكد هذا التأثير، بل ولتثبت أن الشعر العربي الأندلسي في الموشحات والزجل يعبر عن المرحلة الأولى لنشأة الشعر الأسباني نفسه، وذلك في الخرجة التي تكتب عادة بلغة أجنبية، وكانت في الزجل الأندلسي تكتب باللغة الأسبانية الدارجة أو الرومانسية . فإذا جعلنا من الخرجة أبياتا أسبانية فإنها تصبح بمثابة النموذج الأولي للشعر الأسباني، وبهذا يكسب الشعر الأسباني أكثر من قرنين من الزمان [٢] .

لقد كان الشعر العربي في الأندلس ذا تأثير كبير على أوربا العصور الوسطى، وكانت هذه الأشعار والموشحات التي عرفتها إسبانيا تطوراً للشعر الغنائي العربي. لقد كان أدب إسبانيا العصور الوسطى انعكاسا للثقافة الإسلامية التي كانت أقرب إلى طبيعتهم من الحضارة المسيحية [٣].

لقد بقي المسلمون في بلاد الأندلس من ٧١١م إلى عام ١٤٩٢م أي حوالي (٨٧٠) عاما، وقد استطاع المسلمون خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤثروا ويتأثروا بالبيئة الأسبانية في الغرب، وبالبيئة العربية في الشرق، في كافة الأصعدة الحضارية ، ولم يكن الفتح العربي لأسبانيا مجرد احتلال عسكري، بل كان حدثا حضاريا امتزجت خلاله الحضارات والشعوب المتعددة وأدى هذا التمازج إلى ولادة وتبلور الحضارة الأندلسية [٤].

وكانت الحضارة الإسلامية في الأندلس تشع من مراكز متعددة مثل قرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ، ، حيث كان العرب والمغاربة هم الذين يغرسون جذورها وقد عرفهم الأوروبيون باسم الموريسكيين Moriscos، Moros . وكانت غالبية سكان الأندلس من المسيحيين قد تشبعوا بالحضارة العربية نتيجة لروح التسامح الذي تحلى به الحكم الإسلامي ، تجاه العلماء من شتى الأجناس، والأديان والذي شجع نزوح طالبي العلم من شتى أنحاء أوروبا إلى الأندلس . ومن هؤلاء كان جربرت (٩٣٠-١٠٠٣م) الذي تقلد البابوية باسم سيلفستر الثاني ، وقام برحلة إلى الأندلس بين عامي ٩٦٠م و٩٦٧م وكان تأثره بالعلوم العربية الإسلامية ، التي وجدها هناك عميقا وخاصة في الرياضيات [٥].

كذلك استفادت الأندلس وغرب أوربا من الطب العربي الذي شهد تطورا بارزا في المشرق، ثم انتقل بواسطة الأطباء والمؤلفات إلى الأندلس . وبرز من المسلمين داخل الأندلس الكثير من الأطباء وفي مقدمتهم بنو زهر ، وهي العائلة التي أنجبت عددا كبيرا من الأطباء المشهورين خلال ستة أجيال متعاقبة . وقطن بنو زهر اشبيلية ، القاعدة الأندلسية الشهيرة، واشتهر منهم أبو مروان بن عبد الملك بن زهر المتوفى سنة ١١٦٢م عن عمر يناهز ٧١ عاما كذلك محمد عبد الملك بن محمد بن زهر المتوفى سنة ١٠٧٨م [٦].

وكان أن أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية في الأندلس ، وأنشأ حكامها مدارس للطب ، والفلسفة والعلوم، والفنون الأخرى، وبذلوا المال في سخاء . وعندما بلغت دولتهم درجة عظيمة من الثراء والتقدم ، أرسل عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١م) مبعوثيه لجمع الكتب

واجتذاب العلماء للبحث والدرس، والتأليف ، فأصبحت قرطبة موطنا للعلوم وفيها عدد ضخم من المستشفيات ، والأطباء ، والصيادلة والكيميائيين وعلماء النبات والفلك ، وصارت جامعتها ومكتبتها مراكزًا للعلوم والترجمة(٧).

وخير ما يعبر عن أثر الحضارة الإسلامية في غرب أوروبا هو ما يرتبط بمعرفة صناعة الورق التي تعلمها مسلمو الأندلس من الشرق الإسلامي وعنهم انتقلت إلى أوروبا ، فبدأت هذه الصناعة في إيطاليا، ثم عرفتها ألمانيا وإنكلترا، وفرنسا وذلك منذ حوالي سنة ١٣٠٠م. ولم تلبث أن نجحت صناعة الورق نجاحا كبيرا في الأندلس ، فأخذت تقوم بتصدير الورق إلى المشرق الإسلامي كما نص على ذلك الإدريسي(٨).

ومن المؤثرات العلمية للأندلس ، انتقال نظريات في علم الرياضيات إلى الغرب الأوروبي عن طريق مؤلفات المسلمين ، ومن المعروف أن قرطبة لم تكن عاصمة سياسية للخلافة فحسب، بل كانت على غرار بغداد مركزا للبحث العلمي، وإذ كانت بغداد قد أطلق عليها عروس الشرق وأصبحت في عهد الرشيد والمأمون عاصمة الدنيا، فقد أصبحت قرطبة في عهد الناصر والمستنصر عروس الغرب وأيضا عاصمة الدنيا (٩).

ومن بين علماء الرياضيات في الأندلس مسلمة المجريطي (المدريدي) أمام علماء الرياضيات في الأندلس (المتوفى ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) ومن تلامذته ابن السمح (ت ١٠٣٤م) وابن الصفلاء والكرماني وأمية بن أبي الصلت . كذلك من العلماء المسلمين البارزين في الأندلس في الرياضيات والذين أثروا في أوروبا أبو الحسن علي بن محمد علي القلصاوي ، المولود بمدينة بسطة في الأندلس (٨٢٥هـ / ٨٩١م) ومن كتبه (كشف الأسرار عن علم الغبار) وهو يعتبر أول من استعمل الرموز والإشارات الجبرية واقتبسته عنه غالبية علماء الرياضيات في أوروبا (١٠).

هذا وقد عرفت أوروبا الأرقام الهندية، عن طريق العرب . لذا فإنها تعرف في أوروبا إلى الآن بالأرقام العربية . ولفظ الصفر كما يلفظه العرب عرفه الأوروبيون ، كما نقل المسلمون إلى أوروبا عن طريق الأندلس الكسر العشري الذي استخدموه في عملياتهم الحسابية .

وفي ميدان الزراعة سجل مسلمو الأندلس أبحاثا متعددة ومن أشهر المؤلفين في الفلاحة من الأندلسيين يحيي بن محمد بن العوام، صاحب كتاب الفلاحة وكذلك ابن بصال الذي اعتمد في الفلاحة على تجاربه الخاصة . ثم ابن الخير الاشبيلي ، والحاج الغرناطي ، وفي مؤلفات

هؤلاء تحدثوا عن أصول فلاحة الأرض ، وكيفية العمل فى الزراعة والفراسة ، واهتموا اهتماما خاصا بأشجار الفاكهة ، فتبنوا أنواع الغرس ، وطريقة الحفر استعدادا للغرس ومواعيد الغراس، وكان لكتب العرب فى الفلاحة والنباتات أثرها فى تقدم الزراعة فى أوروبا(١١).

أما عن الدراسات العليا فقد استوعبتها المدارس التى انتقلت فكرتها إلى أوروبا عن طريق المسلمين عبر اتصال الأوروبيين بهم فى الأندلس. وهذا الأمر أصبح الآن فى حكم الحقيقة المؤكدة ، إلا أنه بالرغم من أن المدارس عند المسلمين كانت تمج التدريس والبحث العلمى، فإن الجامعات التى نشأت فى أوروبا كانت تغلب عليها الصبغة الأكاديمية المدرسية ، ولم تكن تهتم بالبحث العلمى، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة بنية المجتمع الأوروبى آنذاك، وإلى غلبة تأثير الفلسفة اليونانية التى انتقلت إلى الأوروبيين ضمن ما انتقل إليهم عن المسلمين(١٢).

وبدا تأثير الموسيقى العربية واضحا على الموسيقى الأندلسية من خلال الغناء الأسبانى الأندلسى المعروف باسم الفلامنكو Flamenco وكانت موسيقى الأغانى الأسبانية فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، قد أثرت بدورها فى نشأة الموسيقى الأوروبية الحديثة. وقد تألق النجم المبدع زرياب فى الأندلس وذاع صيته وذكرت مواهبه ، وترك من المعالم الفنية ما دفع الموسيقى العربية والأسبانية إلى التطور والتجديد، واستطاع زرياب أن يغنى الموسيقى الأندلسية بعشرات الآلات الموسيقية ، فأصبحت لديهم ثروة من الآلات الوترية وآلات النفخ وآلات الإيقاع ، وانتقل الكثير من هذه الآلات إلى الغرب (١٣).

وهكذا ذاعت شهرة الأندلس برقى ثقافته ، وتقدم علومه بين طالبى العلم فى أوروبا فقصدوه ، ومما سهل عليهم تلقى العلوم العربية دون معرفة باللغة العربية، وإمكانية أخذهم مستعربين أندلسيين يعرفون العربية معرفة جيدة، إضافة لمعرفتهم باللغة اللاتينية، لغة الثقافة والكنيسة (١٤).

٢- صقلية :

نزل حبيب بن أبى عبيدة، حفيد عقبة بن نافع ، فاتح أفريقية سنة ١٢٢هـ أرض صقلية ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، وفى نيته فتح الجزيرة كلها، غير أن قيام ميسرة السقا بثورة فى أفريقيا اضطره إلى العودة وأحبط سعيه فحولت جهودهم عن صقلية، مما أدى إلى تنبيه الروم لمكانة الجزيرة ، وجعلها قاعدة حصينة(١٥).

ولما اتسعت الدولة الإسلامية وامتدت أطرافها في خلافة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) كانت صقلية وجزء من جنوب إيطاليا ولايتين بيزنطيتين ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يعارض القيام بمخاطرات عسكرية عبر البحار، أو حتى عبر الأنهار الكبيرة ، إلا أن هذه السياسة أعيد النظر فيها ، في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ) (٦٤٤-٦٥٦م). فلحماية المدن الساحلية التي فتحها المسلمون على ساحل الشام ومصر من خطر غارات البيزنطيين، الذين كانوا يمتلكون أسطولا قويا ، أنشئت قوات بحرية في عهد معاوية بن أبي سفيان، الوالي على بلاد الشام آنذاك ، وعبدالله بن سعد الوالي على مصر، ولم تلبث هذه القوات البحرية أن لعبت دورا هجوميا، ودفاعيا تجاه البيزنطيين في شرق البحر المتوسط(١٦).

وكان أن استعان أحد أهالي صقلية واسمه فيمن ببني الأغلب. وكان قد ثار على قسطنطين بطريق صقلية ولكن كيف لوالي أفريقيا زياد الله أن ينقض الصلح ؟ لم يجد مخرجا إلا عندما علم بأن لديهم أسرى من المسلمين، وهذا مخالف للصلح ، فجهز أسطولا قوامه مائة مركب، بقيادة أسد بن الفرات وأقلع من سوسة في شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م. وتتفق المصادر بأن الجيش كان مكونا من أشراف العرب والجند وأهل العلم والبصائر(١٧) . وتعتبر هذه الحملة من أهم الحملات، رغم إنها لم تحقق أهدافها كاملة بسبب تفشي الوباء بين جند المسلمين، حتى هلك منهم خلق كثير ، كان بينهم قائد الحملة أسد بن الفرات. وتكمن أهمية هذه الحملة في أنها فتحت الباب لمزيد من الحملات، والغزوات البحرية التي تتابعت بعد ذلك ، وكانت تضيف في كل مرة أجزاء جديدة من الجزيرة إلى سابقتها. وكان فتح بلرم سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م قد يسر الأمر أمام المسلمين ، لفتح ما بقي من أقاليم الجزيرة . ولما كان ميناء بلرم سهل الاتصال بقواعد المسلمين، على شاطئ أفريقيا فقد أمكن عن طريقه تزويد جيوش المسلمين بالإمداد، والأقوات التي كانت تصلهم بانتظام فتزيد من قدرتهم على القتال(١٨) .

وعندما تم فتح صقلية الإسلامية عين أسد بن الفرات واليا، وقاضيا عليها ثم أصبح الوالي والقاضي شخصيتين متميزتين، والمعتقد أن كثيراً ما كان الجيش ينتخب الوالي، دون أن ينتظر مجئ وال جديد من أفريقيا(١٩) .

وعندما ثبت العرب أقدامهم في صقلية، في القرن التاسع الميلادي اهتموا بوسائل الزراعة، فحفروا الترع والقنوات وشقوا المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعة

القطن، وقصب السكر. وفى الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية ، فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت وأدخلوا فيها صناعة الحرير[٢٠].

أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها ، على أيام العرب، بعد أن بلغت الحضيض فى العصر السالف مباشرة، ولم يبق الآن فى صقلية من منشآت العرب، سوى القليل النادر، ولكنها تشهد جميعها بالروعة والجمال الآخاذ، ويكفينا ما ذكره الإدريسى فى وصف بالرمو على عهد روجر الثانى، أى بعد زوال حكم العرب بقليل، إذ أشاد بقصورها ودورها، ومنتزهاتها. ويبدو الفارق كبيرا، إذا قارنا بين أحوال صقلية من النواحى الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية سيطرة العرب عليها، وبين أحوالها عند نهاية سيطرتهم عليها من جميع النواحى .

وقد نشط علماء صقلية ، فأنتجوا إنتاجا منوعا فى الفقه والحديث واللغة، والطب والهندسة والنجوم ، وأشتهر من العلماء فى صقلية فى زمن ابن حوقل (٣٦٥-٣٩٥هـ / ٩٧٥-١٠٠٤م) ابن أبى خرسان فى النحو والقراءات ، وعلى بن حمزة فى اللغة والشعر، والبرادعى فى الفقه المالكى ، ومحمد بن الحسين المروزى ، وفى القرن الرابع أبو عبدالله محمد بن عيسى بن مطر الذى علم فى مسجد الزهرى بالسماط وسافر إلى المشرق وكتب الحديث[٢١].

إن النهضة العلمية التى شهدتها صقلية بعد انقضاء الحكم الإسلامى على أيدى النورمان كانت بفضل رعاية ملوك النورمان ، ورجالهم للعلماء ، فكانوا يغدقون الأموال عليهم ويعاملونهم بالاحترام ، ويرفعون مراكزهم الاجتماعية فى الوظائف والألقاب لإغرائهم بالقدوم إلى صقلية . ويذكر الصفدى أن الملك روجر كان محبا لأهل العلوم الفلسفية[٢٢] وإن الإدريسى كان يجئ إليه راكبا بغلة ، فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيجلسان معا[٢٣].

كذلك كان ابنه غليالم الأول وابنه غليالم الثانى، فقد وصفهما ابن جبير . وقال أن لهما الأطباء والمنجمون، وأنهما كثيرا الاعتناء بهم، شديدا الحرص عليهم ومتى ذكر أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده ، أمر الملك بإمساكه وأدار له أرزاق معيشته ، حتى يسلبه وطنه[٢٤] ومع أن غليالم كما يذكر ابن جبير كان يقرأ ويكتب العربية، ويتخذ لنفسه شعارا إسلاميا ، إلا أن جوارى قصره المسلمات كن يتكتمن إسلامهن ، وإنه كان إذا مر بقصره فسمع ذكر الله، والرسول ، ممن به من النساء والفتيان فإنه يقول لهم (ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به) وفى عبارة (تسكينا لهم) التى ذكرها ابن جبير ، ما يقطع بخوفهم من إعلان عبادتهم، فهم

يداورونه وهو يداريهم ، وهم يحاولون أن يصطنعوه وهو يحاول أن يصطنعهم . وابن جبير يدعو عليه في مواضع متفرقة من كتابه فيقول (أراح الله المسلمين من ملكته)[٢٥].

والواقع أن الحضارة العربية لم تنته بانتهاء حكم العرب للجزيرة ، وإنما وجدت هذه الحضارة في ملوك النورمان خير مشجع لها . ومن الواضح أن سبب حماية ملوك النورمان لعرب صقلية ، هو أنهم لمسوا تقدمهم في الفنون والعلوم والصناعات ، وعرفوا تماما أن تشجيع الجالية العربية في الجزيرة ، سيعود عليهم بفوائد عظيمة. لذلك نرى روجر الأول (١٠٦١ - ١١٠١م) يشمل العرب برعايته ويحسن المحافظة عليهم ويحميهم، حتى أنه أقبل على كتابة أوامره ومراسيمه باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية[٢٦].

كذلك اتخذ ملوك النورمان لأنفسهم في صقلية حراسا من العرب، ارتدوا زيا اختلف عن زي حراسهم من النورمان[٢٧] ولايوجد شك في أن الشعر العربي كان يمارس في بلاط ملوك صقلية النورمان، لكنه لم يسمع عن المدرسة الصقلية في الشعر، إلا في عصر الإمبراطور فردريك الثاني في القرن الثاني عشر ، وهو الإمبراطور الذي أسماه بعض الكتاب (نصف شرقي) ، نظرا لما أحاط به نفسه من مظاهر شرقية عربية، حتى قيل أنه تعلم العربية، وأحاط نفسه بالعلماء والراقصات ، والمغنيات الشرقيات ، وشجع ترجمة الكتب العربية ، كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب[٢٨] ويقول المستشرق المعروف أماري، إنه لو زادت معرفتنا بالشعر الشعبي العربي في صقلية ، لأصبح من الممكن أن نكشف عن صلات وثيقة ، بينه وبين الشعر الإيطالي القديم، الذي نشأ في أواخر العصور الوسطى، وأن الباعث على ممارسة الشعر باللغة العامية في صقلية ، هو علم أهلها بأخبار العرب، وشعرائهم، وما كانوا يلقونه من تشجيع الأمراء العرب المسلمين ويؤيد ذلك أن الشعر الشعبي المبكر في إيطاليا يتفق مع الشعر الشعبي في أسبانيا ، مما يدل على أن المؤثر واحد في الحالتين [٢٩].

لذلك كانت إيطاليا سباقة إلى النهضة نتيجة الاتصال المباشر بالتراث العربي الإسلامي، حتى ليذكر (مونتجومري وات) أن (الطابع الإسلامي كان أقرب إلى الإيطاليين آنذاك ، من الطابع المسيحي) وهذا يعني أن الوجود الإسلامي السياسي، في هذه النواحي رغم انتثاره ، إلا أنه ظل يمارس تأثيرا حضاريا على أوروبا، وفي ذلك دليل لايرقى إلى الشك عن الطابع الحضاري للفتوحات الإسلامية[٣٠].

وقد ترك المسلمون في الجزيرة كثيرا من عاداتهم ، وآثار لغتهم، لاتزال قائمة في الكثير من الأسماء والأعلام، وكلمة (قلتا) التي تبدأ بها أسماء القلاع هي الكلمة العربية قلعة.

وكان تأثير العرب بعلمهم فى هذه الجزيرة أعظم من تأثيرهم بمبانيهم ، والجانب الأعظم من الألفاظ التى تعبر عن نواحى الحضارة المختلفة. وقد اضطرت جنوة أمام انتشار هذه الألفاظ العربية فى اللغة الإيطالية إلى أن تؤسس فى سنة ١٢٠٧م مدرسة لتعليم العربية[٣١].

ومن العلماء المسلمين الذين اشتهروا فى صقلية : محمد بن عيسى بن عبد المنعم من أصحاب العلم بالهندسة والنجوم، ويعتبر من الحكماء فى هذين العلمين[٣٢].

وقد بقيت اللغة العربية شائعة فى الجزيرة ، إلى أواخر القرن التاسع للهجرة، حتى أنها استخدمت لغة التخاطب والكتابة بعد الخروج العربى لمدة طويلة، وأرخوا بالتاريخ الهجرى[٣٣].

وللشعر العربى أثره فى نهضة الشعر الإيطالى، فقد حاكى أهل صقلية العرب فى العناية بالشعر، ومن صقلية انتقلت هذه العناية إلى إيطاليا ، كما أثرت القصص العربية فى الأدب الإيطالى نفسه، ويذهب بعض العلماء إلى أن شاعر إيطاليا الكبير (دانتى) قد أفاد فى روايته (الكوميديا الإلهية) من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، لأن التراث العربى كان شائعا فى صقلية ومنها انتقل إلى إيطاليا.

وهكذا نقل النورمانديون عناصر الثقافة العربية إلى إيطاليا وأوروبا. ومنذ القرن العاشر للميلاد ، ظهرت آثار العلوم العربية فى أوروبا ، أثر تسرب معالم الفن والأدب والعلوم العربية ، إلى الحضارة الأوروبية ، فاستخدم الأوروبيون فن هندسة بناء أبراج الكنائس ، بعد أن أخذوه عن المآذن فى مصر والشام ، كما قام معمل الحياكة الذى أسسه المسلمون فى باليرمو ، بإنتاج ملابس ملوك أوروبا. وكانت هذه الملابس تزدان بالزخارف والكتابات العربية ، وفى القرن الثالث عشر للميلاد انتشرت صناعة الحرير على النمط العربى فى مدن إيطاليا، وأصبح الطلب على هذه المنسوجات عظيما ، بعد أن أصبحت تمثل موضة العصر فى أوروبا .

والزائر اليوم للمكتبة الكبرى فى الفاتيكان بمدنية روما بإيطاليا، يجد العديد من الكتب من تأليف علماء العرب، وقد أشاد (ديبل) بأثر الحضارة العربية فى صقلية ، فقال : إن العرب حملوا معهم إلى صقلية ، مظاهر فنهم ، ونماذج قناطرهم العالية الجميلة، وفسيفسائهم من الرخام الملون، وصورهم الجميلة، ويهيج صناعاتهم وليدة علمهم، وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه الزمان فيما بعد[٣٤].

وأنشأ المسلمون فى بلرم مدرسة للطب تعتبر الأولى بين مدارس الطب فى أوروبا، ومن هذه المدرسة انتشرت دراسة الطب العربى فى إيطاليا ثم فى أوروبا، بعد ذلك ، كذلك أسس العرب فى صقلية مجموعة من الدواوين ، بقيت ثلاثة أنواع منها فى عهد النورمانديين، وتعتبر أثرًا من آثار الحياة الديوانية الإسلامية، وهى : ديوان المظالم الذى اقتبسه روجر من المسلمين ، وكان عمل هذا الديوان النظر فى الشكاوى التى تقدم إليه وإنصاف أصحابها . وديوان الطراز: وهو ديوان إسلامى عرف فى الأقطار الإسلامية قديما، ومهمة هذا الديوان تطريز ملابس الملك، ثم ديوان التحقيق الذى كان يعنى بشئون الأرض وما يتصل بها [٣٥].

٢- الحروب الصليبية :

تمثل الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، رد فعل أوروبى هجومى، على العالم الإسلامى، الذى تحول إلى موقع الدفاع فتوالت الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى، ونجحت فى تأسيس ممالك أربع فى بلاد الشام، وهى إمارة إنطاكية وطرابلس والرها ومملكة بيت المقدس.

وقد بالغ كتَّاب القرن التاسع الهجرى، ولم يحسنوا التقدير عندما بالغوا بشكل غير عادى فى أهمية الحروب الصليبية وبلاد الشام كطريق سلكته الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبى. فالصليبيون قصدوا بلاد الشام للحرب، لا لطلب العلوم، وامتازت حياتهم فى تلك البلاد، بما تتصف به حياة الجنود عادة من خشونة ، فلم يهتموا إلا بتحصين مواقعهم، والدفاع عن كيانهم والإبقاء على معاقلهم التى أقاموها فى الشام، وسط محيط عربى واسع، ولم تتوقف الحرب بينهم وبين العرب المسلمين ، إلا بإجلائهم نهائيا فى عصر المماليك . وتم إجلاؤهم نهائيا عن أرض الشام سنة ١٢٩١م، وإذا حدث وهدأت الحرب بين الطرفين لفترات وجيزة من الوقت ، فإنها كانت تتوقف لتستأنف من جديد بعد قليل من الزمان ونريد من ذلك أن نصل إلى القول إنه لم تتح للصليبيين فى الشرق الحياة الهادئة الضرورية ، والمساعدة لممارسة النشاط الفكرى والحضارى، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمى بالعرب، بالقدر الذى أتيحت به لإخوانهم الأوروبيين فى الأندلس وصقلية[٣٦].

وصحيح أن الصليبيين تمكنوا من تأسيس عدد من الإمارات القوية فى بلاد الشام، بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس الشهيرة، ولكن جميع هذه المعاقل الصليبية لم تكن سوى معاقل أو ثكنات حربية متناثرة، وسط محيط من الأعداء ، سيطر عليها جو من الفزع والرعب،

لاتستقيم معه بال حال حياة علمية ناضجة ، يضاف إلى ذلك أن عصر الحروب الصليبية امتاز بنوع من الفقر على الصعيد الفكرى، فى المشرق العربى ككل، فندر الإقبال على الفلسفة ، بوفاة ابن سيناء وغيره[٣٩] ، حتى أن الخليفة العباسى فى بغداد قام بإحراق كتب الفلسفة سنة ٥٤٥هـ / ١١٥١م ومنها كتب ابن سينا نفسه.

وهكذا فإن الحروب الصليبية جاءت غنية بالحوادث المتعددة والوقائع النادرة ولكنها فقيرة بالأثر الحضارى ، الذى بولغ فيه لا سيما فى الغرب، وهو أثر محصور فى الفن والصناعة والتجارة دون العلم، والأدب . أما فى سوريا فقد تركت هذه الحروب حالة من الدمار والخراب. ومما ورثه الشرق عن تلك الحروب، ذكريات التعصب الدينى والنفور بين المسلمين والنصارى. ومن جهة أخرى فإنه علينا أن نذكر أن الفرنجة فى سوريا ، فضلا عن كون ثقافتهم دون ثقافة أعدائهم ، فقد كانوا فى الغالب جماعات عسكرية أجنبية ، تنزل فى القلاع والثكنات وتقتصر صلاتها على عامة الناس من فلاحين وصناع ، دون الطبقة الراقية المفكرة ، زد على ذلك أن التحريات القومية والتعصبات الدينية، والعداوات المتأصلة ، حالت دون تبادل الأفكار والثقافات ولم يكن عند الفرنجة من العلم والفلسفة ما يلقنونه أبناء البلاد .

وكانت سوريا وما ارتبط بمسرحها من حروب صليبية ، ذات أثر فعال فى هذا الميدان ، فالحروب الصليبية صحبها بعض النشاط الفكرى والحضارى، فظهرت مؤلفات فى التاريخ ، مثل (وليم الصورى) أو فى القانون مثل (حنا الإبلينى) و(فيليب ناڤارى) كما انسابت بعض المصطلحات العربية إلى البلاد الغربية[٣٨].

كذلك أثرت الحروب الصليبية فى تطور فن الحرب عند الغربيين، لاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الجدران المزدوجة ، هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه الحروب الصليبية من تقدم حركات الحصار، واستعمال المجانيق والكباش الهادمة، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، وإرسال الرسائل الحربية ، عن طريق الحمام الزاجل، ومن المحتمل أن يكون الشرق العربى إبان الحروب الصليبية ، هو المصدر الذى أخذ عنه الغرب الأوروبى ألعاب المبارزة، التى تشبه كثيراً ألعاب الجريد (التحطيب) عند الشرقيين. كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات، والرنوك فى الغرب الأوروبى، نتيجة للاتصال بالعرب فى بلاد الشام[٤١].

إن الاتصال الذى تم بين الأوروبيين وشعوب الشرق، فى عصر الحروب الصليبية أثارت عظمة الحضارة العربية الإسلامية، وتقدمها ونضج أصحابها دهشة الغزاة الغربيين. ذلك أن

الصليبيين كان همهم الأول الانتصار ، والاستحواذ على الأراضى الإسلامية، ومع أنهم لم يفكروا فى الاستفادة من الحضارة الإسلامية ، حتى فى إقامة مدارس يعلمون فيها أبنائهم، إلا أنهم تعلموا الشئ الكثير من حضارة المسلمين. من ذلك أنهم دهشوا لبراعة الأطباء العرب المسلمين ، لكنهم لم يفيدوا من ازدهار الطب العربى[٤٠] إلا بعد مرور أجيال وبعد طردهم من المنطقة.

واكتسب الفرنجة خلال إقامتهم فى بلاد المشرق ، إبان الحروب الصليبية أسواق جديدة، وبخاصة فيما يتعلق بالروائح العطرية والتوابل والحلوى وسواها من محصولات المناطق الحارة، ثم أن هذه الأسواق الجديدة أدت إلى إنعاش التجارة فى المدن الإيطالية وسواحل البحر المتوسط ، فاشتهرت أنواع البخور، وماء الورد الدمشقى، والروائح العطرية، التى امتازت بها دمشق . ومن العقاقير الجديدة التى تعرفوا عليها حجر الشب. ثم أن التوابل والقلفل والبهارات وغيرها جرى استعمالها فى الغرب، خلال القرن الثانى عشر الميلادى. وأهم من ذلك كله السكر ، فقد كان الأوربيون لايعرفونه من قبل، وكانوا يستخدمون العسل لتحلية أطعمتهم وكان إن عرف الأوروبيون هذا النبات (قصب السكر) الذى أخذ منذ ذلك الحين يلعب دورا هامًا، فى الحياة الاقتصادية ، وفى تركيب الوصفات الطبية. وكان السكر أول اللذائذ الفاخرة التى أدخلت إلى الغرب، ولم يبلغ درجتها طعام آخر ، ومع السكر دخلت الأشربة غير الكحولية، والماء الذى تخلط فيه بواسطة التقطير خصائص الورد والبنفسج وسواهما من الزهور كذلك دخلت شتى أنواع الحلويات ، أما الأقمشة الموصلية والدمشقية وسواهما فقد ولجت أوروبا من الشرق العربى، كما تدل عليه أسماؤها فى اللغات الأوروبية ، محرفة عن العربية[٤١].

وظل الاحتكاك بين الحضارة الغربية المتخلفة والحضارة الإسلامية المزدهرة فى الشرق حوالى القرنين ، منذ القرن الخامس حتى القرن السابع الهجرى/ منذ القرن الثانى عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادى، فتعلم الصليبيون عن طريق الرواية الشفوية الكثير من العلوم.

لقد استحوذ الصليبيون على كثير من كتب المكتبات العربية فتعلموا اقتناء الكتب، وقرأوا القصص العربية منها كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وشعر الموشحات ، وتعلم الأوربيون العادات والتقاليد وبعض القيم الإسلامية، بل إنهم أخذوا عنهم أسلوب اللباس والأكل ، وأخذ كثير من المفردات يتسرب إلى اللغات الأوروبية. وما زال قسم منها حتى الآن[٤٢] مثل بازار Bazaar وكلمات أخرى مثل Sofa, Lufe مستخدمة فى أوروبا .

وكان تأثير الحروب الصليبية على الغرب فى مجال الفنون والآداب أعمق وأشد، فاهتم الغربيون بلغات العالم الإسلامى، وظهرت الدعوة للعناية بدراسة اللغات الشرقية ، وبتأثير هذه الحروب الصليبية نشطت دراسة علم التاريخ عند الأوروبيين، وظهرت مؤلفات كثيرة، عن الحروب الصليبية وبيت المقدس، وتناول المؤرخون الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية بالدرس والبحث ، وأصبح لهذه المنطقة من العالم اهتمام خاص عند المؤرخين ، والجغرافيين، ازداد الاهتمام بارتياد تلك المناطق الإسلامية ، ووصف الأماكن المقدسة ، وبيان الطرق إليها ووضع الصليبيون كل هذه المعلومات والدراسات في خدمة أغراضهم العسكرية.

وكانت عنايتهم الجغرافية فى أول الأمر قاصرة على سواحل آسيا الغربية ، أو الساحل الشرقى لبحر الروم، اعتقادا منهم أن هذا يعينهم على النصر على المسلمين فى الأراضى المقدسة. فلما خاب أملهم فى هذا الأمر ، وفشلوا فى السيطرة عليها، وطرد المسلمين منها بالحرب، انتقلت عنايتهم الجغرافية من ساحل آسيا الغربى إلى قارة آسيا كلها . لقد زادت أطماعهم فزادت مناطق اهتماماتهم، واهتموا اهتماما شديدا بإيفاد البعثات التبشيرية لعلها تحقق ما عجزت الحروب الصليبية عن تحقيقه[٤٣].

ونتيجة لعنايتهم الجغرافية أخذ الأوروبيون عن العرب رسم الخرائط على أساس سليم للمعلومات الجغرافية ، وولد فى نفوسهم حب الاستطلاع وروح المغامرة وتحمل المشاق كما نقلوا كثيرا من العلوم ولاسيما العلوم الرياضية والطبية.

وليس أدل على تأخر الطب آنذاك فى أوروبا من إرسال صلاح الدين طبيبه الخاص ، لمعالجة عدوه قائد الحملة الصليبية الثالثة ريتشارد قلب الأسد . ولعل أبرز ما أخذه الأوروبيون عن المسلمين في الشرق فن العمارة ، فأخذوا يبنون بيوتهم بالأسلوب الشرقي، فكانت تبنى على النمط العربي وتزخرف بأسلوب إسلامي، وبأثاث عربي. وقد انتقلت هذه الأمور إلى معظم مدن أوروبا كالبندقية وغيرها .

وعرف الأوروبيون كثيرا من الحاصلات والصناعات العربية، فعرفوا نباتات السمسم، والمشمش ، والثوم ، والأرز ، وصناعة المرايا والملابس القطنية والموسلين (من الموصل)[٤٤] والمسكوكات . ونقل الأوروبيون أسلوب بناء المستشفيات من الشرق، وقد أسس البابا أنوسنت الثالث في روما فى أوائل القرن الثالث عشر ، مستشفى القديس سبيرتو تقليدا للمستشفيات فى سوريا، بل وعلى طراز المستشفى النورى (نسبة إلى نور الدين زنكى) فى دمشق لأنه كان مثاراً لإعجاب الأوروبيين[٤٥].

ونحن حين ننظر إلى الحروب الصليبية نجد أن أوروبا فشلت فى تحقيق كل الأغراض والأطماع التى كانت تراودها ، من وراء هذه الحروب، فلا هى حققت النصر العسكرى على المسلمين، ولا هى استطاعت أن تحتفظ بالأراضى التى استولت عليها، ولانجحت فى تحرير بيت المقدس من أيدى المسلمين، كل هذه الأهداف لم يتحقق منها شئ.

إنما الذى تحقق نتائج أخرى حضارية لم تكن فى بال هؤلاء الصليبيين، عندما قاموا بغزواتهم للعالم الإسلامى. أن النزاع فى حقيقته بين الشرق والغرب كان نزاعا دينيا حضاريا، إذ كان الصليبيون يتصورون كما لقنهم زعمائهم أن بلاد المسلمين مظلمة ، تسودها روح الجهل والظلم، وتخلو من أى أثر من آثار الحضارة ، وأنهم سيكونون رسل أوروبا لبث حضارة الغرب فى تلك البلاد، وإنقاذ المسيحيين هناك من الاضطهاد . ولكن هؤلاء المخدوعين ما لبثوا أن أفاقوا وأدركوا الحقيقة عندما جاءوا إلى الشرق واتصلوا بالمسلمين ، فقد رأوا حضارة لم تعرفها بلادهم وعرفوا الإسلام على حقيقته ، وعاد كثير منهم إلى أهله يبدى إعجابه بالإسلام، وحضارة المسلمين. إن تأثير الشرق فى تمدين الغرب ، كان عظيما بفعل الحروب الصليبية ، وهذا التأثير كان يشمل كل المجالات . وإننا إذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية باضطراد بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ عن الاتصال بينهما فى أثناء تلك الحروب، من نمو فى فنون أوروبا وصنائعها ، يتجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة، وأن هذا التقدم انبثق من خلال ما كانت تستعين به جامعات أوروبا من علوم العرب، وآدابهم فى عصر النهضة الحديثة[٤٦].

ثانيا : معابر مساعدة:

١- التجارة

لم تكن علاقة العرب المسلمين مع أوروبا علاقة حربية، فالإسلام مشتق من السلام ، لذلك وجدت علاقات سلام وصداقة ، فقد اشتهرت شخصية الرشيد فى أوروبا نتيجة لعلاقته الودية مع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارلمان (٧٦٨-٨١٤م) فقد قامت بين الرجلين صلات ود وصداقة ، وتبودلت بينهما السفارات والهدايا فى المدة التى بين سنتى ٧٩٧- ٨٠٦هـ ، ولاشك أن المصالح السياسية والتجارية كانت وراء هذا التقارب الودى بين الملكين [٤٧]. وتعبيرا عن تلك العلاقات ، أرسل الرشيد إلى شارلمان فيلا وساعة دقاقة ، وخيمة مطرزة بالقصب ومفاتيح كنيسة القيامة[٤٨] وبدوره أرسل شارلمان صدقات وهبات إلى فلسطين

فاستعملت فى تعمير بعض الكنائس ، وأنشأ منزلا للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة[٥١] وهى تدل على الحرية الدينية فى فلسطين من ناحية، وتسهيل التجارة بين الشرق وأوروبا من ناحية أخرى.

وكان لشارلمان دور فى نمو التجارة الخارجية بينه وبين الشرق، حيث عمل على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، كما نظم الموازين والمقاييس واهتم بالطرق التجارية[٥٠] وكان التجار يفضلون استخدام الأنهار فى نقل تجارتهم. وانتعشت التجارة البحرية كذلك فى عهد شارلمان[٥١] فكانت تتم عن طريق موانئ نانت ، ويوردو عن طريق البحر المتوسط[٥٢] فى بروفانس وسبتمانيا ولم تتوقف إطلاقا بسبب الفتوحات الإسلامية، بل نمت هذه التجارة وتطورت بين دولة الفرنجة، وبلاد الشرق، وخاصة فى فترة الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) والجاليات المسيحية فى مصر والشام وغيرهما من بلاد المشرق[٥٣].

وكانت أهم صادرات الشرق إلى دولة شارلمان ، المنسوجات والأقمشة المزركشة والملونة والملابس الحريرية، والنسيج الأرجوانى مثل العباءات الحريرية والمصنوعات الجلدية والروائح العطرية والأعشاب والتوابل[٥٤].

وساعد هذا النشاط التجارى الواسع بين دولة شارلمان والشرق على ظهور أهمية بعض المدن، بحكم موقعها مثل ميتز ومثل نيم Nimes وماجلون وارل وناربون التى كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق [٥٥].

كذلك قامت علاقات سياسية بين عبد الرحمن الناصر مع ملوك شمال أسبانيا ، وإمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع (٩٠٥-٩٥٩م) وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الكبير (٩٣٦-٩٧٣م) فنراه يتبادل الهدايا ، والسفارات معهم، وهذا مظهر التفاهم الدبلوماسى بين الطرفين[٥٦] ودليل على مكانة الناصر فى حوض البحر المتوسط ، إلى درجة جعلت كلا من إمبراطور بيزنطة وأباطرة الدول الغربية يتوسطون لدى خليفة قرطبة فى أن يتم التعاون بين بلدانهم، وبينهم وبين حكام الأندلس، ولاشك فى أن هذا التعاون يشمل نواحى عدة، إذ يبدأ سياسيا، ثم اقتصاديا ، ثم ثقافيا، ولما كانت الأندلس مزدهرة فكريا وحضاريا ، فلابد أن تتجه إليها أنظار الطلاب من كافة أنحاء أوروبا . وهكذا لم يقف نشاط العرب عند حد معين ، إذ تم لهم اجتياز جبال الألب الشمالية، ودخلوا سويسرا ، وامتد نفوذهم من شواطئ بحيرة كنستانس شمالا إلى جنوة ومرسيليا ونيس جنوبا . كذلك عمل العرب بجانب

نشر تجارتهم على نشر ثقافتهم الإسلامية ، وفى مقدمتها اللغة العربية التى كانت اللغة العالمية، ولغة العلم فى العصور الوسطى، حتى إننا لانزال نرى اسم الحى العربى Canton de Sarazins يطلق على أحد أحياء مدينة نيس[٥٧].

وما أن حل النصف الثاني من القرن العاشر الميلادى حتى كانت التجارة بين أوربا الغربية والعالم الإسلامى، قد بدأت تنمو فى إطار نمط محدد، آخذ فى الازدياد ، وكان أكثر مظاهر هذه التجارة إثارة للانتباه هى أن عملية نقل السلع عبر البحر الأبيض المتوسط كانت فى أيدى الإيطاليين لا فى أيدى العرب وكان أهالى أمالفى والبندقية أول من شق الطرق عبر البحر المتوسط، لا إلى تونس فحسب بل إلى مصر والشام أيضًا . تبعهم بعد ذلك بفترة وجيزة مدينتا بيزة وجنوة اللتان سرعان ما حلتا مكان أمالفى، ربما لأنهما كانتا ميناءين أصلح من أمالفى لاستقبال السلع القادمة من الشمال، بل إنه حتى فيما يتعلق بنقل البضائع من المغرب أو من غرب الدولة الإسلامية (أسبانيا وشمال أفريقيا) إلى بلاد الشرق [٥٨]، فقد شهد نموًا مطردا وسلك طرقا برية أسهمت فى ذلك النماء منها الطريق البرى الذى يعبر جبال البرانس إلى بلاد الفرنج ، وكانت الطرق البرية، لابد أن تعبر هذه الطريق فمن الجزيرة الخضراء إلى إشبيلية إلى بلاد الفرنج أو من مرسية إلى بلنسية إلى غرناطة أو من ملقة إلى قرطبة[٥٩].

وكل هذه الطرق البرية كانت تسلكها القوافل التجارية، فكانت تمر من ممرات جبال البرانس لتلتقى بموانئ جنوب فرنسا الشهيرة بحي بروفاس وسبتمانيا [٦٠]، وهناك الطرق البحرية، فكانت السفن التجارية تفرغ حمولتها فى مرسيليا أو ناربون ، حيث كانت أهم المراكز الرئيسية للتجارة ، ثم تنقل عبر الطرق النهرية فى فرنسا ، كالراين والدانوب ، والسين والرون إلى جميع أنحاء أوروبا[٦١] ولم تكن هذه هى الطرق البحرية الوحيدة ، فهناك الطريق البحرى عبر ساحل أسبانيا الغربى على المحيط الأطلسى ، وقد استعمل هذا الطريق منذ عهد عبد الرحمن الأوسط[٦٢] أما الطريق البحرى الأخير فيمر عبر الساحل الشرقى المطل على البحر المتوسط من الجزيرة الخضراء إلى البحر المتوسط لفرنسا .

ومعلوم أن الأندلس لم تنقطع علاقاتها التجارية بأوروبا ، خاصة أن تجارة الرقيق الأبيض المجلوب من أوروبا إلى العالم الإسلامى كانت عن طريق الأندلس[٦٣].

أما من ناحية التبادل التجارى فقد لعب أهل بلاد الشام الدور الأكبر فى تحمل عبء التجارة فى البحر المتوسط فكانت لهم جاليات متاجرة فى كل موانئ البحر[٦٤] كما عاشت

جاليات تجارية إيطالية فى المراكز التجارية الكبرى فى مصر والشام. وتحمل أهل الشام النصيب الأكبر من عبء التجارة فى البحر المتوسط، فكانت لهم جاليات تجارية فى كل موانئ هذا البحر، وفى الكثير من البلاد الهامة، فأقامت هذه الجاليات فى ثغور بريطانية وغالة وأسبانيا ، وأيضا فى الثغور النهرية على الدانوب [٦٥]. وكان أكبر مركز رئيسى لهم فى مرسيليا ، وانتشروا فى حوض الرون وشمال باريس وكليرمونت وتوروولوج ارل. ونشطت حركة التبادل التجارى بين أسبانيا وفرنسا مع بلاد الشام ومصر ، وظلت فرنسا تستورد البردى والتوابل وغيرهما من منتجات الشرق، واحتفظت مرسيليا بأهميتها كميناء ، وكان يرد إليها زيت الزيتون الذى كان[٦٦] يستعمل فى الطهى والإنارة ، فكان يستورد بكميات كبيرة من بلاد المغرب خاصة، وكانت السفن تعود محملة بالدقيق والفراء من روسيا ، والرقيق الذى كان يجلبه التجار اليهود لمسلمى الأندلس. وكان المسلمون يعاملونهم أحسن معاملة. كما كانوا يمثلون حلقة الوصل الاقتصادية بين المسلمين والعالم المسيحى[٦٧].

ولعبت التجارة دورا هاما فى تحضير أوروبا على يد التجار المسلمين ، وما العثور على العملات والنقود الإسلامية فى أماكن مختلفة من أوروبا إلا دليل على تغلغل التجارة الإسلامية فى أوروبا. وقد وجدت النقود الإسلامية مرارا شمال بحر قزوين وبمحاذاة نهر الفولغا ، وفى المنطقة البلطيقية الشرقية، وفى الامتدادات الجنوبية لفنلندا والنرويج والسويد ، وكانت البضائع العربية التى تنقل فى نهر الفولغا تنقل إلى المشترين فى الشرق الأوسط جلود الحيوانات ، وأسرى سلاف (منها اشتقت الكلمة الإنجليزية Slave) وقطعان وأغنام وسهام وجلود مصنعة خاصة[٦٨].

ولربما كانت أعظم خدمة أسداها العرب إلى أوروبا هى تقديم سلع جديدة من بلاد تقع خلف المتوسط، وضمان تدفق مستمر لها، كالبهارات. وكانت معظم هذه السلع باهظة الأثمان، وهى كمالية فى غالب الأحيان، على الأقل بالمعايير الأوروبية ، ويبدو أن التكاليف الباهظة للنقل عبر مسافات شاسعة جعلت الاتجار بالسلع الضخمة والثقيلة أو بالسلع الأرخص ثمنا أمرا غير مستحب. وحين توسعت التجارة فى أوروبا على نحو أسرع من انتشار النقود لم يكن من غير المألوف أن تكون المدفوعات بالفلفل والبهارات الشرقية الأخرى[٦٩].

وكان وجود العملات والنقود الإسلامية عاملا من عوامل نشاط التجارة ، وقد سكت العملة الأندلسية تحت ضغط الحاجة الملحة لاستخدامها فى التجارة التى اتسعت آفاقها فى كل

أرجاء الدولة الإسلامية. ويرجع تاريخ سك النقود الإسلامية فى الأندلس إلى موسى بن نصير فى سنة ٩٥هـ / ٧١٣م . إذ صار يتعامل بها إلى جانب النقود الرومانية القديمة . وسك موسى بعد دخوله طليطلة نقودا عليها نقوش تحمل عبارة التوحيد(٧٠) كما سكت عملات على هيئة العملة المستخدمة فى الشرق الإسلامى(٧١) وكان لعبد الرحمن بن معاوية عملة خاصة باسمه، كما كانت له دار لضرب العملة فى قرطبة، ولم تختلف هذه العملة عن بلاد الشام، فكانت تشبهها من حيث الشكل والوزن والنقوش، وكانت تصنع من الذهب الخالص (٧٢).

وللتدليل على وجود الأثر التجارى العربى فى الغرب الأوروبى، ما نراه خلال وجود بعض الكلمات ذات الأصل العربى فى اللغات الأوروبية مثل كلمة Cheque المأخوذة من كلمة صك العربية وكلمة Magasin المأخوذة من كلمة مخازن العربية، كما نلاحظ فى بعض المصنوعات أسماء عربية الأصل، فعلى سبيل المثال، المنسوجات التى كانت تحتل مكانة عالية عند الأوروبيين فى العصور الوسطى، إذ أثارت فى نفوسهم دهشة عظيمة عندما قارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه أنوالهم، وراحوا يتساءلون عن موضع السحر فى هذه المنسوجات الإسلامية، أهو فى دقة النسيج أم هو فى جمال الزخرفة، أم هو التنسيق بين الألوان، أم هو فى هذه جميعا(٧٣) وقد أقبلوا عليها وسموها فى لغاتهم بأسمائها العربية سواء كانت هذه الأسماء مستمدة من طبيعتها مثل القماش الذى أطلقوا عليه كلمة Chifion فقد كان فى الأصل يشف عما تحته فأخذوا هذه الكلمة، من كلمة شفاف العربية، ومثل كلمة Ricano المشتقة من كلمة رقم العربية، أو كانت هذه الأسماء مستمدة من البلاد التى اشتهرت بها مثل الجرانديين Ge-randine التى كانت تنتجه مدينة غرناطة، ومثل كلمة Tabis التابس المأخوذة من كلمة العتابى (قماش من عطابية فى بغداد) وهناك أسماء عدد كبير من أسماء الأقمشة أخذها الغرب مثل الشاش، البقرم، الساتين ، الموهير ، الموصلين (من الموصل) ، الدامسكو (من دمشق)، القطن، كما أدخل العرب أيضا الانيلين الذى يعتبر مقوما هاما من مقومات أصبغة النسيج(٧٤).

وقد لعبت مصر دوراً رياديا فى انتشار التجاة وتبادلها بين الشرق والغرب ففى العهد الفاطمى كان المشرق مركزا سياسيا وتجاريا وثقافيا مهما(٧٥) وكانت مصر تسيطر على مسالك التجارة أنذاك بين الشرق والغرب، فكان الأوروبيون يفدون إلى مصر لشراء السلع الشرقية . فساهم هذا الاتصال بين الشرق العربى والغرب الأوروبى فى نقل الحضارة العربية

الإسلامية إلى أوروبا، لاسيما بعد أن نشطت هذه العلاقات التجارية بين مصر وسوريا والمدن الإيطالية كالبندقية وفلورنسا ، ونابولى ، وجنوة وبيزا وقد نشطت هذه المدن وأقامت علاقات تجارية مع مصر والمشرق وأصبحت هذه المدن تتوقف تجارتها مع سلاطين مصر، وأدى ذلك إلى ثراء التجار، ونقل التراث العربى، واتجاه بعض الأوروبيين إلى تحصيل العلم والمعرفة العربية(٧٦).

ويكفى أن التجارة كسرت حاجز الخوف عند الأوروبيين، وجعلتهم يطلعون على بلاد جديدة، مما جعلهم يتعرفون على غرائب الكائنات والموجودات ، ومع التجارة كثرت قصص الرحلة والرحالة وهى التى قادت أوروبا إلى الاستكشافات الجغرافية التى قادتهم إلى الأمريكتين(٧٧).

٢- الترجمة :

هناك وسيلة لابد من تبيانها لأهميتها البالغة فى عملية انتقال المؤثرات الحضارية العربية إلى أوروبا ، وهى حركة الترجمة التى نشطت مع بداية القرن الثالث الهجرى. ذلك أن بداية انتقال العلوم المتطورة من بلاد العرب إلى الغرب كانت فى هذا الوقت بالذات ، فقد ترجمت بعض الكتب فى الكيمياء والطب وأحكام النجوم، من اللغة العربية إلى اليونانية فى القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية، ولكن المستوى العلمى فى الدولة البيزنطية كان غير مناسب لأن تؤتى هذه الترجمات ثمرتها المنشودة(٧٨).

عرف الأسبان ما كان للمسلمين من تقدم فى العلوم ومن نظم إدارية وسياسية وتجارية وثقافية ، وكانوا يميلون إلى الأخذ بها، ودراستها والاستفادة منها. وعندما كتب للأسبان الانتصار على العرب فى حربهم الطويلة مع المسلمين التى يسميها كتابهم بحرب الاسترداد وتمكنوا من استعادة طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، وتقرر مصير الجزيرة بذلك ، أخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين شعبهم، بنقل كنوز الثقافة الإسلامية إلى لغاتهم، ومن ثم ظهرت فى طليطلة مدرسة المترجمين التى نقلت العلوم الإغريقية وما أضافه العرب إليها من شروح وتعليقات إلى المدارس الأوروبية، وقد نقلت مدارس الترجمة التى نشرت كافة العلوم التطبيقية والبحتة، والعلوم الإنسانية وكانت طليطلة مهدا لهذه الحركة فانتشرت فيها المكتبات التى نقلت إليها من المشرق آلاف المجلدات . وكانت الترجمة تتم من العربية إلى

اللاتينية عبر العبرية، إذ يقوم اليهود بنقل الكتاب إلى العبرية من العربية، ثم يعاد نقله مرة أخرى إلى اللاتينية، وكان ريموندو Raimondo أسقف طليطلة وكبير مستشارى ملوك قشتالة آنذاك هو الذى شجع حركة الترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية، وكان لجهوده تلك، أبعد الأثر فى مصير أوروبا كما يقول رينان ، ثم توالى خلفاؤه من الأساقفة فى تشجيع هذه الحركة والحرب عليها حتى استمرت أكثر من قرن(٧٩).

إن العدد الكبير من الكتب التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية أو الإيطالية أو العبرية، وهى كتب تملأ المكتبات الأوروبية منذ زمن مبكر، تدل على تقدم العلم الإسلامى بجميع فروعه.

ففى الأندلس برز الكثير من العلماء الذين اهتموا بالترجمة والتعريب ، منهم جيرارد الكريمونى (١١١٤-١١٨٧م) الذى كان يترجم من العربية إلى اللاتينية، وقد نسب إليه ترجمة واحد وسبعين كتاباً فى مختلف العلوم، ويأتى فى مقدمتهم خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر يوحنا الاشبيلى، وكان يترجم من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية(٨٠) ونقل بعض مولفات ابن سينا (النفس) و(الطبيعة) ، (ما وراء الطبيعة) وبعض آثار الغزالى (مقاصد الفلسفة) وابن جبرول (ينبوع الحياة) ، وهناك مترجم آخر هو يوحنا الأسبانى الفلكى الذى ترجم من العربية إلى اللاتينية بعض كتب أبى معشر الفلكى والفرنمانى عام ١١٣٤م وبعض كتب فى الرياضة للخوارزمى انتقل بفضلها النظام العشرى فى الحساب إلى أوروبا ، وبفضل هذه الكتب أيضا عرفت أوروبا (الصفر) فأدخلته فى نظامها العددى، وبذلك استغنت عن الطريقة التى كانت تعتمد على القيم العددية للحروف الأبجدية(٨١).

ويرى (سيزكين) إن طريق الأندلس كان أحد الأسباب الرئيسية فى انتقال المعرفة عن المسلمين ، إذ أن الترجمة لم تكن الطريق فقط، بل كان الاحتكاك المباشر له أهمية كبرى أيضا كما حدث فى الأندلس.

ويرى (سيزكين) أيضا أن أقدم ما ترجم كان كتابا فى علم الفلك، ومن الطبيعى- من وجهة نظره - ألا ينتظر - أحد منهم فى هذه المرحلة المبكرة أن يستطيعوا ترجمة الكتب النظرية ذات المسائل المعقدة ، فكانت أقدم ترجماتهم تتعلق بالاسطرلاب والهندسة العملية، والجدير بالذكر هنا أن المترجمين لم يجدوا فى كثير من الأحوال اصطلاحات لاتينية مقابلة للاصطلاحات العربية ، مما اضطرهم إلى اقتراض الاصطلاحات العربية كما هى(٨٢).

وكان أهم ما ترجم من كتب العرب كتب الفلسفة ، وذلك لأن العقلية الأوروبية وقتذاك كانت مشغولة بالمشاكل الفلسفية ، التى تعالج العقيدة أو بمعنى أخر الفلسفة اللاهوتية ، التى عرفت بالفلسفة المدرسية، لأنها كانت تدرس فى المدارس، ومن يقومون بها يسمون المدرسين، وقامت الفلسفة المدرسية على يد القديس أوغسطين (St. Augustin) [٨٣]، وكانت هناك دوافع دفعت الأسبان إلى النقل والترجمة عن العرب وتدارس كتبهم منها: الدفاع عن الديانة المسيحية وذلك عن طريق التعرف على آراء العدو ودراستها لمعارضتها ، وإظهار تفوق العقيدة المسيحية عليها من باب اعرف عدوك. ومنها أيضا: الرغبة فى تحصيل العلم والمعرفة ، خاصة أن أسبانيا كانت تعانى من فقر ثقافى شديد وتخلف كبير. وأخيرا: رغبة المغلوب دائما فى تقليد الغالب[٨٤] ورغبة الضعيف فى التشبه بالقوى، فقد كان العرب أقوياء، ولهم الغلبة، ولذا حاولت أوروبا أن تتشبه بالعرب فى ذلك الوقت[٨٧] .

وقد امتدت الفترة الزمنية لمرحلة الترجمة إلى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى ، وتميزت باهتمامها الكبير بترجمات المؤلفات العربية التى تسير على الخط الارسطاطالى . أما المترجمون فظلوا خليطا من الجنسيات الأوروبية ، مثال ذلك الإنجليزى ميخائيل الاسكتلندى، وميخائيل سكوت ، الذى ترجم عام ١٢٧١م، كتب البطروجى، الذى يتبع خط أرسطو الفكرى ، وفيه شكك المؤلف بنظرية بطليموس فى الفلك التى كانت معتمدة خلال العصور الوسطى، وربما اعتمد على أفكاره العالم المشهور كوبرنيق الذى أجهز على النظرية، وقد طبعت هذه الترجمة فى بولونيا عام ١٤٩٥م ، كما أن المترجم ذاته ترجم كتبا لأرسطو مع شروح وتعليقات عليها لابن سينا[٨٦] .

وقام الراهب الأسبانى ماركوس بترجمة كتب جالينوس فى الطب إلى اللاتينية من العربية، كما ترجمت تحت إشراف الأسقف جنمنيث دى رادا عدة كتب إسلامية ، كان فى مقدمتها القرآن الكريم، إضافة إلى بعض المؤلفات الدينية الأخرى[٨٧] .

وقد نشطت الترجمة حتى بعد سقوط طليطلة عام ١٠٨٥م حيث استمر كثير من المسلمين واليهود المتكلمين بالعربية فى الإقامة بها، وقد أدرك ريموندو الذى كان أسقفا لطليطلة من عام ١١٢٥م وحتى وفاته عام ١١٥١م، أن هذا الوضع يتيح فرصة عظيمة لممارسة الترجمة، فعكف على تشجيع الباحثين والعلماء للمجيء إلى طليطلة للمساهمة فى مشروع الترجمة ، لذا اشتهر عدد من التراجمة منهم دومنيك جوند يالفى الذى عمل مع عدد من التراجمة مثل يوحنا الاشبيلى ، وابن داود اللذين كانا من المتكلمين بالعربية ، وكان دومنيك هذا يقوم بانتقاء

الأعمال التي يترجمها، ويعطي النص اللاتيني صيغته النهائية، في حين كان مساعدوه قد نقلوا إلى اللاتينية الفكرة الأساسية للأصل العربي، ويبدو أن معظم الترجمات في القرن الثاني عشر كانت تتم على هذا النحو[٨٨].

كذلك أسهمت أجزاء أخرى من أسبانيا في أعمال الترجمة في القرن الثاني عشر فقبل ذلك بقليل ظهر هو جونديسالفي الذي ترجم كتبًا علمية بناء على طلب أسقف طرسونة، وهي مدينة صغيرة تقع إلى الغرب من سرقسطة، وعلى الساحل الشرقي من مدينة برشلونة قام بلاتو التيقولي مع إبراهام بازجية بترجمة كتب في الهندسة والفلك من العربية إلى اللاتينية[٨٩].

ويعتبر جوند يسالفي شيخ المترجمين لجهوده الكبيرة في الترجمة، حيث ألف كتبا نجد فيها لأول مرة آثار الفلسفة الإسلامية. وبدأت عقول ممتازة من الأوروبيين في قراءة آثار الفلاسفة المسلمين المترجمة حيث بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفي الأوروبي، وذلك في القرن الثالث عشر[٩٠].

وبلغ الاهتمام بالترجمة من العربية إلى اللاتينية أوجه في عهد الفونسو العاشر (الملقب بالحكيم) . ففي هذا العصر تناولت أيدي الأسبان كتبا عربية في الحكم والألغاز نقل أصحابها فيها حشدا من آراء الفلاسفة المسلمين ومفكريهم.

وترجمت عن العربية كتب في الألعاب كالشطرنج ، واستعملت الموسيقى الأندلسية في صياغة الأغاني الأسبانية ، وذاعت بينهم ترجمات لكتب عربية مشرقية في الحكمة والقصص والأمثال إلى اللغات الأوروبية الحديثة منها: كتاب كليلة ودمنة، الذي ترجم إلى الأسبانية سنة ١٢٥١م، ثم إلى اللاتينية ، وكتاب رحلات السندباد الذي انتشر في أوروبا بعنوان (الرؤساء الحكماء السبعة) وقد ترجم إلى اللاتينية ترجمة لاتزال محفوظة في العديد من المخطوطات، وقام بطرس الفونسو في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي بترجمة مجموعة من القصص العربية[٩١].

وبعد أن نشطت حركة الترجمة في صقلية وأسبانيا أيما نشاط بحكم اتصال هذين البلدين بالعرب وتمرسهم بثقافاتهم وأفكارهم ، أخذت تتحول حركة الترجمة إلى مراكز أخرى في أوروبا ابتداء من القرن الحادي عشر منها إنجلترا وإيطاليا. وكان الطريق يمر عبر صقلية وأسبانيا والمغرب العربي. فمن المعروف أن ما نقله قسطنطين الأفريقي يجاوز السبعين كتابا عربيا إلى سالرنو ، وذلك عن طريق الترجمة، أو نسبة بعض الكتب إليه منها. على سبيل المثال: كتاب (كامل الصناعة الطبي) لعلي بن موسى المجوسي، الذي ظل متداولا عند الأطباء

على أنه من مؤلفات قسطنطين الأفريقى إلى أن تمت ترجمة الكتاب الأصلى فلفتت الحقيقة أنظار المشتغلين فى هذا الحقل [٩٢].

وقد استمر الأوروبيون ينهلون من الكتب العربية ترجمة واقتباسا ، وفى القرن الرابع عشر زاد عدد المشتغلين بالعلوم المترجمة عن العربية، واعتاد كثير منهم تأليف كتب مرجعية ضخمة فى مختلف التخصصات ، منها تلخيص للكتب العربية المترجمة ، ولكن هؤلاء الملخصين اعتادوا حذف أسماء العلماء العرب، وذكروا بدلا عنها أسماء علماء الإغريق المشار إليها فى المصادر العربية، فقد ذكروا بطليموس وكتابه فى الفلك مع أن مصدرهم كان كتاب البتانى ، صحيح أنه أخذ النظام البطليموسى ، ولكن كتابه كان يحتوى على اكتشافات مهمة بالمقارنة ببطليموس [٩٣].

ويعتبر الفونس الحكيم- وهو نفسه عالم مستنير - من حماة العلم وأهله، ظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وأسهم فى المجموعة الفلكية الضخمة، وترجم كثيرا من كتب الفلك والنجوم والآلات الفلكية من العربية إلى اللغة القشتالية.

ومن مترجمى ذلك العصر كان ارمينجو Armengand فترجم عن العربية كتابا منسوبا إلى جالينوس والأرجوزة لابن سينا مع شرحها لابن رشد[٩٤] ، وتوجد مجموعة أخرى من التراجمة يضيق المقام عن ذكرهم ، لكثرة ما ترجموا ونقلوا من معارف عربية سواء إلى اللغة اللاتينية أو إلى اللغات الأوروبية أو العبرية ويهمنا أن نقف على الأثر الذى خلفته حركة الترجمة هذه فى المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى. ولعل خير من أفصح عن ذلك الفيلسوف رينان فى كتابه الذى مضى على تأليفه أكثر من قرن حول (ابن رشد والرشدية) عندما قال : إن إدخال النصوص العربية فى دراسات الغرب الأوروبى، يقسم تاريخ الفلسفة والعلم إلى فترتين مختلفتين بصورة كلية، فى الأولى، كان على النفس الإنسانية أن ترضى تطلعاتها إلى المعرفة بتلك البقايا الفقيرة ، المحفوظة فى المدارس الرومانية لعصر الانحطاط ، أما الفترة الثانية فقد استفاد الغرب من المؤلفات الأصلية لليونان والعرب[٩٥].

لقد أدى الاختلاط بين الغربيين والعرب المسلمين عبر كل الوسائل والطرق التى ذكرت حتى الآن ، إلى اقتباسهم شيئا كثيراً من الحضارة العربية الإسلامية، على مختلف الأصعدة والميادين ، ولاسيما فى مجال العلوم الرياضية والفلكية والطبية والصيدلانية والفلسفية والجغرافية ، مما جعل أوروبا تنتقل من مرحلة نومها الطويل عبر قرون عديدة مظلمة، إلى مرحلة أكثر وضوحاً وإشراقا وتأثيرا فى جميع مناحى الحياة العامة بصورة إيجابية [٩٦].

الهوامش

١- توماس ارنولد الفريد جيوم، تراث الإسلام، ص٧٢ .

٢- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكفير الفكر الأوروبي، ص١١ .

٣- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٥٨ .

٤- حسان حلاق ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٦٤ .

٥- يوسف محمود، الإنجازات العلمية في الحضارة إسلامية ص٢٢٢ .

٦- رحاب خضر عكاوي، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، ص٣٢٠، كذلك عامر النجار، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص١٧٣ .

٧- أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص١٢٩ .

٨- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص٣٨ .

٩- علي محمد راضي الأندلس والناصر ، ص٤٠ .

١٠- علي عبدالله الدفاع ، تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين ، ص٣٠١ .

١١- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص٤١ .

١٢- يوسف محمود، الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، ص٢٢٥ .

١٣- عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية ص٢١١، كذلك زنغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤٩٠ .

١٤- أحمد بدر ، تاريخ الأندلس (السقوط والتأثير الحضاري) ص٤٠٢ .

١٥- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٥ ص٨٩ .

١٦- د. عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص٨ .

١٧- ابن عذاري ، البيان المغرب في تاريخ أخبار الأندلس والمغرب، ص٣٥٥ .

١٨- د. طه ندا، فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص١٩٥ .

١٩- إحسان عباس، العرب في صقلية، ص٥٠ .

٢٠- سعيد عبد الفتاح عاشور، فضل العرب على الحضارة الأوروبية، ص٧ .

٢١- ابن عذاري ، البيان المغرب، ص٢٦٤ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٢١ .

٢٢- الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٤ ، ص٦٥٧ .

٢٣- المصدر نفسه ، ص٦٥٨ .

٢٤- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص٢٢٥ .

٢٥- المصدر نفسه ، ص٣٢٠ .

٢٦- سعيد عبد الفتاح عاشور ، حضارة ونظم أوروبا فى العصور الوسطى ، ص٢٦٢ .

٢٧- المصدر نفسه ، ص٢٦٤ .

٢٨- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق١، ص٢٢٢ .

٢٩- جب، تراث الإسلام، ص١٧٤ .

٣٠- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٠ .

٣١- محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، ج١ ، ص٢٨٧ .

٣٢- القفطى ، أخبار الحكماء، ص١٨٩ .

٣٣- محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية، ج٢ ، ص٢٩١ .

٣٤- أحمد على الملا، أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية، ص١٢٥ .

٣٥- إحسان عباس ، العرب فى صقلية، ص١٤٧ .

٣٦- المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، ص٥٦-٦٠ .

٣٧- د. بيكر ، تراث الإسلام، ص١٠٦ .

٣٨- سعيد عاشور: المدنية الإسلامية، ص٥٧-٥٨ .

٣٩- بيكر، تراث الإسلام، ص١١٥ .

٤٠- توفيق الطويل، فى تراثنا العربى والإسلامى، ص١٥٢ .

٤١- Hiti , History of the Arabs . pp. 662, 663, 667, 668

وانظر كذلك : Hiti . The Arabs Short History, pp. 180, 181, 182, 183.

٤٢- توماس أرنولد ، تراث الإسلام، ص١٠١ .

٤٣- طه ندى ، فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٩٢ .

٤٤- توماس أرنولد ، تراث الإسلام، ص١٠١ .

٤٥- المصدر نفسه ، ص٥٠٠ .

٤٦- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٣٦٧ ، ٣٦٨ ، وانظر كذلك : نجيب العقيقى، المستشرقون، ج١ ، ص٧-١٨ ، كذلك : فيليب حتى، موجز الشرق الأدنى، ص٢٢٤ .

٤٧- أحمد مختار العبادى، التاريخ العباسى والأندلسى ، ص٨٩ .

٤٨- عبد العزيز سالم ، العصر العباسى الأول ، ج٣ ، ص٧١ .

٤٩- عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٢٠ .

٥٠- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١ ، ص٢١٣ .

٥١- Lovisseet R. Hist . de France vol III , p. 338 .

٥٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر، ص٨٩ .

٥٣- Lovisset R. Hist de Frence vol II . p. 338 , 339 .

٥٤- منى حسن محمود ، المسلمون في الأندلس وعلاقاتهم بالفرنجة ، ص٢١٤ .

٥٥- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى، ص٢١٤ .

٥٦- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢١٦ .

٥٧- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، ج٣ ص٢٤٢ .

٥٨- مونتجومرى وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص٣٠ .

٥٩- ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج١،٢، ص٢٦٢ ، ٢٦٤ .

٦٠- شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص٨٨ .

٦١- منى حسن محمود، المسلمون في الأندلس، ص٢٢٥ .

٦٢- أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٥١ .

٦٣- محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٢ .

٦٤- أرشيبالد لويس ، القوى البحرية في البحر المتوسط، ص١٢٠ .

٦٥- منى حسن محمود، المسلمون في الأندلس، وعلاقاتهم بالفرنجة ، ص٢٢٩ .

٦٦- أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص١٣٠، حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ص٥٣ .

٦٧- Pirenne, Mohammed and Charlemagne p. 174.

٦٨- مجموعة مؤلفين، عبقرية الحضارة العربية، منبع الحضارة الأوروبية ، ص٣٣٧ .

٦٩- المصدر نفسه، ص٣٤٤ .

٧٠- منى حسن محمود، المسلمون في الأندلس، ص٢٣٣ .

٧١- عبد الحميد الشرقاوي ، الحالة الاقتصادية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، ص١٣٥ ، وارشيبالد لويس، القوى البحرية في البحر المتوسط ، ج١، ص٢٦١ .

٧٢- عبد الرحمن فهمي محمد، دراسة لبعض التحف الإسلامية، ص١٩٩ .

٧٣- أنيس الأبيض ، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص١٧ .

٧٤- مجموعة مؤلفين، عبقرية الحضارة العربية، منبع الحضارة الأوروبية ، ص٣٤٥ .

٧٥- عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ص٢٩٠ .

٧٦- حكمت عبد الكريم فريحات، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص١٦١ .

٧٧- عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، ص٢٥٦ .

٧٨- فؤاد سيزكين، محاضرات فى تاريخ العلوم العربية والإسلامية، مجلد ١، ص١٢١ .

٧٩- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٥٦٨ .

٨٠- حسان حلاق ، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٧١ .

٨١- محمد عبد الرحمن مرحبا ، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب ، ص٥٦٩ .

٨٢- فؤاد سيزكين ، محاضرات فى تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ج١، ص١٢١ ، ١٢٢ .

٨٣- عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٩١ .

٨٤- محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص٥٧١ .

٨٥- رمضان الصباغ ، العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص٢٩٧ .

٨٦- أحمد بدر ، تاريخ الأندلس، ص٤١٢ .

٨٧- المصدر نفسه، ص٤١٣ .

٨٨- مونتجومرى وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص٨٤ .

٨٩- المصدر نفسه ، ص٨٥ .

٩٠- عبد الرحمن بدوى، دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، ص٣١ .

٩١- المصدر نفسه ، ص٦٧ .

٩٢- فؤاد سيزكين، مصدر سابق، ص١٢٥ .

٩٣- المصدر نفسه، ص١٢٩ .

٩٤- توفيق الطويل، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ، ص١٦٢ .

٩٥- Renan , Averries I, Averroishne pp; 158, 159 .

٩٦- الكسندر، ستيفتش ، تاريخ الكتاب، ترجمة محمد الأرناؤوطى ، ص٢٤٦ ، عمر الإسكندرى وسليم حسن ، تاريخ أوروبا الحديثة وآثار حضارتها، ص٦٠٥ ، كذلك إبراهيم زعرور وعلى الأحمد، المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية فى الغرب الأوروبى خلال العصور الوسطى، ص١٨ .

المصادر والمراجع

أولا : باللغة العربية:

ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م).

١- الكامل فى التاريخ ، دار صادر، بيروت .

ابن جبير : محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى المكنى بأبى الحسين.

٢- رحلة ابن جبير ، المسماة : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار تقديم د. محمد مصطفى زيادة ، دار الكتاب اللبنانى ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة، بدون تاريخ .

ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبى (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) .

٣- صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٩٢م.

ابن عذارى : أبو عبدالله محمد المراكشى (ت نهاية القرن السابع الهجرى)

٤- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، جزءان، تحقيق ومراجعة ج.س- كولان ولافى برفنسال - دار الثقافة، بيروت .

الأبيض ، أنيس (دكتور)

٥- بحوث فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى جروس برس، بيروت ، ١٩٩٤م.

الإسكندرى ، عمر وسليم حسن.

٦- تاريخ أوروبا الحديثة آثار حضارتها، دار المعارف ، القاهرة، ١٩١٧م.

أحمد، عزيز (دكتور) .

٧- تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: د. أمين توفيق الطيبى، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٠م.

إسماعيل ، محمود (دكتور) :

٨- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ، الكويت ١٩٩٢م.

الحموي : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .

٩- معجم البلدان ، دار إحياء التراث ، بيروت ١٩٨٠م.

الدفاع ، علي عبدالله (دكتور)

١٠- تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١م.

الدوري، عبد العزيز (الدكتور).

١١- العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي الطبعة الثانية، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ١٩٨٨م.

ارسلان ، شكيب.

١٢- تاريخ غزوات العرب، القاهرة، ١٣٥٢هـ .

الشرقاوي ، عبد الحميد

١٣- الحالة الاقتصادية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، جامعة القاهرة، ١٩٥٠م.

الصباغ ، رمضان (دكتور)

١٤- العلم عند العرب، وأثره على الحضارة الأوروبية ، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، إسكندرية ، ١٩٩٨م.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

١٥- الوافي بالوفيات ، فيسبادن ، ١٩٧١م.

الطويل، توفيق (دكتور) .

١٦- في تراثنا العربي والإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٥م.

العبادي ، أحمد مختار (الدكتور) .

١٧- في التاريخ العباسي والأندلسي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢م.

١٨- في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

العقيقي: نجيب.

١٩- المستشرقون ، القاهرة، بدون تاريخ .

القفطى : جمال الدين أبو الحسن على (ت ٦٣٦هـ / ١٢٤٨م)

٢٠- أخبار الحكماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦هـ .

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

٢١- السلوك لمعرفة دول الملوك ، جزئين ، نشر وتحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف، والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٤ ، الطبعة الثانية ١٩٥٦م،ج٣ ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠م. ١٩٧٢م.

الملا، أحمد على:

٢٢- أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق ١٩٨١م.

النجار، عامر (دكتور)

٢٣- فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، دار الهداية ، القاهرة، ١٩٨٦م.

بدر، أحمد (دكتور)

٢٤- تاريخ الأندلس ، التجزؤ- السيادة المغربية، السقوط والتأثير الحضارى مكتبة أطلس، دمشق ١٩٨٣م.

بدوى، عبد الرحمن:

٢٥- دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، الطبعة الثانية، وكالة المطبوعات ، الكويت، ١٩٧٩م.

توماس أرنولد ، الفريدجيوم:

٢٦- تراث الإسلام ، كتب فصوله : ب ترند، أرنست بيكر، أ.ر. جب، ألفرد جيوم، ١٠ هـ ، توماس أرنولد، مارتن برجز، قامت على ترجمته ونشره بالعربية، لجنة الجامعيين لنشر العلم، جزئين، القاهرة ١٩٣٦م.

حتى، فيليب:

٢٧- موجز الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، ١٩٧٠ .

حسن : حسن إبراهيم (الدكتور)

٢٨- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٢ ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

خلاق ، حسان (الدكتور)

٢٩- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٩م.

راضي ، على محمد

٣٠- الأندلس والناصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

زعرور ، إبراهيم (الدكتور) ود. على أحمد

٣١- المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى، دار المستقبل ، دمشق.

سالم ، السيد عبد العزيز (دكتور)

٣٢- العصر العباسي الأول، دراسات في تاريخ العرب، ج٢، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٣٣- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م.

ستيفنيتش ، الكسندر

٣٤- تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، سلسلة عالم المعرفة ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٩٣م.

سيزكين ، فؤاد

٣٥- محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، سلسلة نصوص، ودراسات، المجلد الأول، منشورات تاريخ العلوم العربية الإسلامية، فرانكفورت ١٩٨٤ .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح (دكتور)

٣٦- أوروبا العصور الوسطى، ج١ ، التاريخ السياسي الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٩١م.

٣٧- حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٦ .

٣٨- فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣٩- النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر ، ١٩٥٦م.

عباس، إحسان (دكتور)

٤٠- العرب فى صقلية ، دراسة فى التاريخ والآداب، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٥ .

عكاوى ، رحاب خضر (الدكتور)

٤١- الموجز فى تاريخ الطب عند العرب، دار المناهل ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٥م.

على، محمد كرد

٤٢- الإسلام والحضارة العربية، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م.

فراج ، عز الدين (دكتور)

٤٣- فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، دار الفكر العربى القاهرة.

فريحات ، حكمت عبد الكريم (الدكتور) وإبراهيم ياسين الخطيب.

٤٤- مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٨٩م.

لوبون، جوستاف

٤٥- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة البابى الحلبى القاهرة، ١٩٤٨م.

لويس، ارشيبالد

٤٦- القوى البحرية فى البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.

ماجد، عبد المنعم (الدكتور)

٤٧- تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٦م.

مؤنس ، حسين (الدكتور)

٤٨- المسلمون في البحر المتوسط، المجلة التاريخية، تصدرها الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد الرابع، ١٩٥١م.

مجموعة من المؤلفين :

٤٩- عبقرية الحضارة العربية، منبع النهضة الأوروبية، ترجمة عبد الكريم، محفوظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، بنغازي، ١٩٩٠ .

محمد، عبد الرحمن فهى (الدكتور)

٥٠- دراسة لبعض التحف الإسلامية، حولية كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢٢ ، العدد١ ، ١٩٦٠ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م.

محمود، منى حسن (دكتورة)

٥١- المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢-٢٠٦هـ / ٧١٤-٨١٥م) دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٦ .

محمود، يوسف

٥٢- دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبي، القاهرة .

مرحبا، محمد عبد الرحمن (دكتور)

٥٣- المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب ، دار الفيحاء ، طرابلس، ١٩٨٩ .

منتصر ، عبد الحليم (الدكتور)

٥٤- تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.

نداء طه (الدكتور)

٥٥- فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٣م.

هونكة ، زنغريد

٥٦- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وأخرون، الطبعة الثالثة، المكتب التجارى للطباعة، والتوزيع والنشر بيروت، ١٩٧٩م.

وات ، مونتجومرى

٥٧- أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، ترجمة : جابر أبى جابر، دمشق وزارة الثقافة ١٩٨١م.

٥٨- فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة : حسين أحمد أمين، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٣م.

ثانيا : باللغة الأجنبية :

59- Hitt , p. k.

History of The Arab , London - 1949 .

60- The Arabs: Short History Prenston 1941 , 1944 .

61- Lovisset History de France Depuis Origines Jusque 1906 .

(Revolution) Paris, 1911 .

Pirenne (Henri).

62- Mohammed and charlemagne.

London 1911 .

63- Averries I, Averrostine, Paris 1862 .

د. السيد حسين جلال (*)

بور سعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشـرق والغـرب

نشأة ونمو المدينة :

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبالتحديد في ٢٥ أبريل ١٨٥٩ أقيم حفل متواضع إيذانا بالبدء في عمليات حفر المدخل الشمالي لقناة السويس ، وقد شهد الحفل جمع من مستخدمي الشركة والمقاول العام وفريق من العمال المصريين، بلغ عددهم في ذلك اليوم نحو مائة عامل جئ بهم من دمياط والنواحي القريبة منها وألقى دي لسبس خطابا قال فيه : «نضرب أول معول في الأرض التي ستفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته»(١).

وأخذت المدينة تنمو مع سير عمليات الحفر ، وأخذت المباني الحجرية المتماسكة تتزايد لتحل محل المنشآت الخشبية ، وبدأ وصول القناصل ثم الجرائد المحلية وافتتحت المدارس وشيد البنك العثماني فرعا له ببورسعيد (١٨٦٣) ، وصارت بور سعيد مدينة وليدة ، ارتبطت الحياة فيها بالميناء الذي افتتح للملاحة العالمية في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ . وقد أطلق عليها البعض اسم : «بوابة الشرق» .

وعلى الشاطئ الشرقي (الضفة الآسيوية) أنشئت مدينة جديدة هي بور فؤاد في عام ١٩٢٦ لسكنى مستخدمي وعمال شركة قناة السويس علاوة على الورش الخاصة بصيانة الوحدات البحرية للشركة . وقد خططت هذه المدينة تخطيطا حديثا فشوارعها واسعة ومحاطة بالحدائق الجميلة (٢).

---

* كلية الآداب - بدمنهور- جامعة الإسكندرية .

التركيب السكاني لبورسعيد :

شهدت الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ جذبا سكانيا كبيرا وخاصة من الأجانب الذين قدموا بحثا عن الثروة والعمل فى هذا الموقع الاستراتيجى الهام وساعد على ذلك سياسة دى لسبس وشركة قناة السويس من جهة وسياسة الخديوى سعيد وإسماعيل من جهة أخرى، فقد فتحوا أبواب مصر على مصراعيها للأجانب ، ويذهب الدكتور محمد صبرى (السربونى) فى وصف هذه الحركة «إلى أنها كانت أقرب إلى الغزو منها إلى الهجرة»[٣].

وعندما ألغيت السخرة في حفر القناة ووفد إلى مصر جموع متباينة من العمال الأجانب اضطرب حبل الأمن وكثرت حوادث القتل والسطو ، وتعددت حوادث الاعتداء على الشرطة ومهاجمة مراكز قواته .

وكان وقوع هذه الحودات بكثرة بين العمال أمرا متوقعا ، إذ كانوا على قدر كبيبر من التنافر فى الأخلاق والعادات والتقاليد والأمزجة واللغة ، فكان لابد من الصدام. أضف إلى ذلك إن كثيرا منهم كانوا من المتعطلين الذين ضاقت بهم سبل الحياة فى أوطانهم فجاؤا إلى مصر التماسا للرزق فى عمليات حفر القناة ، فكانوا فى حال من الفقر . وقد وصف محافظ الإسكندرية العمال الإيطاليين الذين وفدوا إلى مصر فى أكتوبر ١٨٦٥ بأنهم : «من سفلة الناس» [٤].

وعند افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ بلغ تعداد سكان مدينة بور سعيد حوالى عشرة آلاف نسمة ، وبعد ثمانين عاما فقط أصبحت ثالثة مدن القطر المصرى وبلغ عدد سكانها ١٢٥٠٠٠ نسمة [٥]، وجمعت أخلاطا شتى : يونانيين وفرنسيين وإيطاليين ونمساويين وبريطانيين ومالطيين وهنود وقبارصة علاوة على الشوام والمصريين . وكانت الجالية اليونانية من أكبر الجاليات الأجنبية فى بور سعيد ، وكانوا محل تقدير دى لسبس، حتى أنهم طلبوا منه تعديل اسم بور سعيد إلى : «كاسوس الجديدة» [٦]، ولكن دى لسبس خشى غضب إسماعيل [٧].

والجدير بالذكر إن الجاليات الأجنبية وفدت إلى بور سعيد فى ظل نظام التسلط القنصلى والامتيازات الأجنبية ، فاستغلت هذه الامتيازات أسوأ استغلال، كما سارعت الدول لإقامة قنصليات لها فى بور سعيد بلغت ١٤ قنصلية .

أما بالنسبة للمصريين فقد توافدوا من محافظات : دمياط والدقهلية وكفر الشيخ والنوبة والصعيد باحثين عن فرص عمل بالمدينة والميناء الجديدين.

الحى الإفرنجي والحى العربي:

انقسمت المدينة إلى قسمين:

أولا- الحى الإفرنجي:

ويقع إلى الشرق والشمال الشرقى للمدينة حيث أقام به الأجانب وقد توفرت لهم كافة أسباب الحياة في ظل الخدمات الممتازة من محلات ومطاعم بأنواعها ومقاهى وفرق موسيقية وكباريهات وخمارات وفنادق وميادين عامة وحدائق ومحلات للعب القمار .. الخ وكان الطراز المعمارى لمنشآت بور سعيد يجمع بين الطابعين العربي والأوربى ، تحميها أسقف مائلة ومزودة بالشرفات والفراندات الزجاجية وكذلك مبنى شركة قناة السويس ذى القباب الثلاثة والبواكى والكنائس ذات الطراز القوطى.

التماثيل :

كذلك ازدانت المدينة بالتماثيل التى تخلد شخصيات فرنسية وأخرى إنجليزية نذكرها حسب ترتيب إقامتها زمنيا، فبعد عودة الإمبراطورة أوجينى لفرنسا عقب حفلات افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) أوصت المثال الفرنسى (الإيطالى الأصل) بارتولدى Bartholdi بصنع تمثال ليوضع فى مدخل قناة السويس الشمالى، وانتهى المثال من صنع التمثال الذى بلغ ارتفاعه ٤٦ مترا وهو يمثل سيدة ترمز للحرية وتحمل في يدها شعلة . وقبل تنفيذ إقامة هذا التمثال قامت الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا وانتهت بهزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ودخلت القوات الروسية باريس وأسرت الإمبراطور نابليون الثالث وهربت الإمبراطورة أوجينى ونجلها لويس نابليون إلى إنجلترا وبقى التمثال إلى أن قامت الرابطة «الفرنسية - الأمريكية» بإهدائه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تقديرا وتعبيرا منها لحرية الشعوب، فوضع على قاعدة ارتفاعها ٤٥ مترا عند مدخل ميناء نيويورك على المحيط الأطلسى بارتفاع ٩١ مترا. وفى يوليو ١٨٨٦ (العيد القومى الأمريكى) أزيح الستار عن التمثال فى احتفال هز العالم كله [٨].

تمثال نصفى لدى لسبس (١٨٩٥) :

كانت توجد فى وسط ميدان دى لسبس حديقة من الأشجار الكثيفة أقيم فى طرفها الشمالى تمثال نصفى لدى لسبس ، ففى ١٦ يونيو ١٨٩٥ حضر جمع غفير من أهالى بور سعيد الحفل الكبير الذى أقيم فى ميدان دى لسبس لإزاحة الستار عن التمثال النصفى لدى

لسبس ، وكانت قد تكونت جمعية برئاسة السيد باخو Pacho [٩]، وقامت هذه الجمعية بجمع الأموال بغرض إقامة هذا التمثال الذى صممه المثال Mantovan، وحضرت ثلاث فرق موسيقية : اليونانية والدولية والليرة، وقد حضر هذا الحفل جميع الشخصيات الرسمية بالمدينة منها قنصلا اليونان وإيطاليا إلا إن شخصيات شركة قناة السويس لم تحضر تلك الحفلة وكذلك قنصل فرنسا. وكانت هذه المقاطعة مثار حديث أهالى بور سعيد . ويرجع السبب فى تلك المقاطعة أن شركة القناة كان فى نيتها إقامة تمثال ضخم لدى لسبس[١٠].

تمثال للملكة فيكتوريا (١٨٩٧) :

احتفلت قوات جيش الاحتلال البريطانى سنة ١٨٩٧ بإقامة تمثال الملكة فيكتوريا [١١]، وذلك بمناسبة العيد الستينى لجلوسها على العرش. وقام بتنظيم هذا الحفل اللورد كرومر (المعتمد البريطانى فى مصر) ومعه قنصل بريطانيا فى بور سعيد . وقد قاطع هذا الحفل الخديوى عباس حلمى.

وهذا التمثال عبارة عن قاعدة فى شكل أربعة أسود تصب مياها من أفواهها لتسقط بالحوض ، وكان يشرب منه المارة ، حتى عرفت عند أهالى بورسعيد القدامى باسم «سبيل فيكتوريا» وعلى نفس العمود وأعلى الأسود ذكر مناسبة هذا التمثال وسنة إزاحة الستار، ويعلو هذا العمود، تمثال للملكة فيكتوريا، وقد أقيم على رصيف الميناء المطل على شارع فرانسوا جوزيف [١٢].

تمثال دى لسبس (١٨٩٩) :

قررت الجمعية العمومية لشركة قناة السويس فى جلسة ١٨٩٧- بناء على اقتراح الأمير اوجست دارنبرج (Auguste D'Arenberg) - إقامة تمثال فى برزخ قناة السويس لفرديناد دى لسبس ، وقد تم التصويت على القروض المطلوبة ، تاركين لمجلس الإدارة اختيار النحات والموقع الذى سيقام فيه التمثال . وستقوم الباخرة Indus بنقل أعضاء مجلس الإدارة والمدعوين على هذه السفينة . وغادرت السفينة انديس (المذكورة) ميناء مارسيليا فى ١٢ نوفمبر ١٨٩٩ [١٣].

وقد تم صنع تمثال دى لسبس من البرونز وتم تدشينه يوم ١٧ نوفمبر ١٨٩٩، بمناسبة العيد الثلاثينى لافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية. ويبلغ ارتفاعه ٧ أمتار وينصب فوق

قاعدة تجعل ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار، وكان ايمانويل فريميه (Fremiet)[١٤] الذى صنع هذا التمثال ، يتمنى أن يضع عند قاعدته تماثيل نصفية لأربعة خديوات مصريين متعاقبيين : سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس، ولكن تم إثنائه عن فكرته حتى لا يغضب المصريين: ، إن الرجل عظيم ولكن لايمكن وضع أربعة عواهل عند قدميه [١٥].

احتفالات إقامة التمثال (١٨٩٩) :

يعتبر هذا الاحتفال العالمى الثانى فى بورسعيد ، بعد الاحتفال العالمى الأول لافتتاح القناة عام (١٨٦٩) وقد بدأت مراسم الاحتفال العالمى الثانى فى التاسعة من صباح السبت ١٧ نوفمبر ١٨٩٩ بإزاحة الستار عن تمثال دى لسبس ، حضره الخديو عباس حلمى الثانى، الذى جاء إلى ميناء بور سعيد على اليخت المحروسة، وهو نفس اليخت الذى استقله الخديوى عند استقباله للملوك والأمراء ببور سعيد عند حفلات الافتتاح . وقد جاءت وفود الوزراء المصريين فى قطار خاص وكذلك المدعوين الأجانب من القاهرة والإسكندرية. هذا علاوة على السفن الحربية الكثيرة التابعة لفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والدانمارك . وكان الجسر العائم (Ponton) مغطى بخيام مصرية وبأكثر من ٣٠٠٠ شخص وعمال من كل نقاط القناة ، والأطفال من كل مدارس بور سعيد اصطفوا على السقالات Gradins المدرجات) ، وكان من بين كبار المدعوين الأمير والدمان Waldeman من الدنمارك ، والغازى مختار باشا واللورد كرومر ، والوزير الإيطالى توجينى (Tugini) وسفير فرنسا بمصر Cogordan وسفير اليونان M. Oryparis والوزير الهولندى Vilbos والوزير الألمانى Muller والوزير البرتغالى Zogheb[١٦] ، كما شهد الاحتفال أسرة دى لسبس [١٧]. وقد ألقى الخديو عباس حلمى الثانى كلمته وفى ١٩ نوفمبر ١٨٩٩ وقلد عباس بيده النيشان المجيدى من الدرجة الأولى للأمير دارنبرج . وفى ٤ ديسمبر دعى الخديوى أفراد عائلة دى لسبس لتناول الغداء بسراى القبة[١٨].

هذا ويمثل التمثال دى لسبس وقد ارتدى عباءة فوق بذلته وقبض بيده اليسرى على خريطة مشروعه الضخم، وأشار بيده اليمنى إشارة كلها ثقة وكرم، كأنما يدعو كل قادم إلى الشرق عن طريق القناة بقوله : «تفضل» وقد بدت أسارير وجهه واضحة مطمئنة[١٩].

دى لسبس وفضيحة قناة باناما:

توفى دى لسبس وهو حزين بعد أن تحطم بسبب فضيحة قناة باناما ، وكان قد بلغ الرابعة والسبعين من عمره حين تم اللجوء إليه ليرأس الشركة العالمية للقناة التى تربط المحيطين

الأطلنطي بالباسيفيكي. لقد بدأ مشروع باناما انطلاقا من خطأ فني أدى إلى سوء تقدير للميزانية، ثم تحول إلى كارثة بعد وفاة العديد من المهندسين والعمال والفنيين بعد إصابتهم بالحمى الصفراء . ولكنها كانت بالأخص فضيحة مالية وسياسية اتسمت بدفع أموال خلسة من أجل الحصول على قرض . استلزم الأمر توقف الأعمال وإعلان إفلاس الشركة، وقد أفلت دى لسبس من محكمة الجنايات ومن السجن ، على عكس ابنه شارل ادين بالفساد، ولم تعد الصحافة تهتم إلا بالأموال القذرة[٢٠].

وهكذا تحولت قناة باناما من مشروع خاص إلى فضيحة عامة (a public scandle) بعد أن قاضى المساهمون الشركة الفرنسية وعلى رأسها دى لسبس وابنه شارل وأعضاء مجلس إدارتها . وبعد أن حكم عليهم بالسجن وبغرامات فادحة ، الأمر الذى أدى إلى هرب بعضهم وانتحار البعض الآخر ، وأوقف تنفيذ الحكم على دى لسبس لكبر سنه . وواصلت الحكومة الأمريكية الأعمال بمعرفتها ابتداء من عام ١٩٠٤ فأنجزتها فى عام ١٩١٤ وافتتحت رسميا للملاحة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩١٤ [٢١].

ويجب أن نتوقف هنا لنذكر القارئ بأن دى لسبس نجح فى مصر لأنه استعان فى حفرة قناة السويس بأيدى مصرية عن طريق السخرة ، وعندما جاء الخديو إسماعيل طلب من دى لسبس إلغاء السخرة فلجأ دى لسبس بالاتفاق مع الخديو إسماعيل- بقبول تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث- فقضى الأخير بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٤ بتعويض هائل يقدمه إسماعيل لدى لسبس قدره ٣٨ مليون فرنك مقابل إلغاء السخرة فى حفر قناة السويس [٢٢]. هذا المبلغ الضخم علاوة على قيام الشركة ببيع الأراضى المصرية حول القناة والترعة العذبة أعانها على إتمام المشروع .

تمثال الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين (١٩٣٢) :

أقيم هذا التمثال لتخليد جنود هذا الجيش الذين ماتوا أثناء الدفاع عن القناة وشبه جزيرة سيناء، وهو عبارة عن تمثال يمثل جندى من الخيالة الخفيفة ، ومعه جواد ، وهو مصنوع من الرخام الأسترالى الصلب بمعرفة حفار ماهر من ذوى الشهرة العالمية . وقد وافق مجلس بلدى بورسعيد [٢٣]، على أن يقتطع جزءا من حديقة واصف المطلة على الميناء. وفى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ تم رفع الستار عن الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين المشتركين فى الحرب العالمية الأولى ، وأقيم بجوار حديقة كازينو بالاس ، وكانت نفقات إقامة هذا التمثال من

تبرعات جنود هاتين الدولتين تخليدا لذكرى زملائهم الذين ماتوا فى الحرب ما بين ١٩١٤ و١٩١٨ [٢٤]. وحضر حفل إزاحة الستار عن التمثال المندوب السامى البريطانى « السير برس لورين» ورئيس وزراء أستراليا السابق السيد / هيوز Hiouz وقائد الجيش البريطانى فى مصر ورئيس الوزراء المصرى إسماعيل صدقى باشا وسعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء موفدا من قبل الملك فؤاد وقناصل الدول وكثير من سكان بورسعيد [٢٥].

الأهالى فى بور سعيد يقومون بتحطيم التماثيل فى بور سعيد (١٩٥٦) :

فى أعقاب العدوان الثلاثى (الإسرائيلى البريطانى الفرنسى) عام ١٩٥٦ على بورسعيد ، قام أهالى بورسعيد بنسف تمثال دى لسبس غداة رحيل القوات المعتدية عن بورسعيد ، ونزعوا العلم البريطانى من يده ، وهو الذى وضعته القوات البريطانية قبل رحيلها ، ثم نزل التمثال يتهاوى فوق إحدى المواعين بالقناة . كذلك قام رجال المقاومة الشعبية بتحطيم تمثال الجندى المجهول بعد تحطيم تمثال دى لسبس[٢٦]. ويتهكم أحد الكتاب الفرنسيين[٢٧] عن هذه الحادثة فيقول : «إن دى لسبس الذى كانت تغطيه الزهور أصبح شيطانا» . ألم يكن هذا المجرم المحاط بالسماسرة والمرابين هو «أسوأ عدو لمصر خلال القرن التاسع وفقا لتأكيد الدكتورحسين مؤنس عضو لجنة تضم أساتذة جامعيين وكتابا ومصريين [٢٨]، «كان تاريخنا خلال الـ ١٥٠ عاما الماضية هو تاريخ صراعنا ضد فرنسا وإنجلترا لم يمر عام واحد دون حدوث صراع بيننا وبين الواحدة والأخرى»[٢٩]، وعلى أى حال فإن تمثال دى لسبس يقبع الآن فى ترسانة بورسعيد البحرية ويثير أزمة ثقافية بين مصر و فرنسا .

ثانيا : حي العرب:

أنشأه العمال المصريون الذين جاءوا لبور سعيد سنة ١٨٦٢ واشتغلوا فى المهن الصغيرة كحمالين وباعة وسعاة وسقايين وبمبوطية، والتى تعنى فى الأصل (Boat Man) أي عمال القوارب التى تعمل فى البحر للارتزاق من السفن الراسية بالميناء. وقد أخذوا هذه المهنة نقلا عن التجار اليونانيين الذين كانوا يستقلون القوارب التى تسير فى القناة البحرية الصغيرة وكانت تحمل ألونا مختلفة من الأطعمة والمشروبات والفواكه والملابس وتباع هذه الأنواع المختلفة إلى العمال الذين يعملون فى الكراكات حيث تكون فى جهات بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان ، وكان يتعذر عليهم أن يحصلوا على حاجياتهم بطريقة منتظمة سهلة . وكان أصحاب هذه القوارب هم بحارتها .

هذا وقد بنى الوافدون الأولون من الأهالى مساكنهم من الأخشاب والحصر ، وكان معظمهم من الفلاحين الذين لايتحدثون إلا باللغة العربية وفى الحى العربى أو قرية العرب كما كان يطلق عليها فى بادئ الأمر، كانت الشوارع ضيقة والمنازل متواضعة يبدو عليها فقر السكان ولكن تنبعث منها روح جذابة تخالف الروح المادية المنبعثة من حى الإفرنج . هنا الشرق بحركته ونشاطه وضجيجه وحواريه وحوانيته ونداءاته وأطفاله ونسائه وملابسه وألوانه ومشاكله وزحامه وحياته الشرقية الساحرة الحكيمة المملوءة فلسفة وقناعة. فهذا رجل يصلى وهذا طفل يمرح وهذه امرأة تصرخ وتلك حوارى غير مرصوفة يغوص الأطفال فى طينها بين قانورات لانهاية لها وميكروبات خطيرة . كذلك يكثر الباعة المتجولون يبيعون الخضروات والفواكه والمثلجات . ويربط الحمالون حميرهم فى عربات «كارو» لنقل الأثاث من مكان لآخر. وفى شارع الجامع التوفيقى[٣٠] ترى الترام تجره البغال على شريط من (الدكوفيل) كرمز لأخذ الشرق بالمدينة الغربية والتطور المنظور فى هدف الحياة الفطرية الأولى لاعتناق مذهب السرعة[٣١].

وقد حدث قبل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) حريق هائل فى قرية العرب أدى إلى دمار كثير من العشش الخشبية الواقعة غرب المدينة وتم إعادة تخطيط قرية العرب بحيث تتكون من مربعات تفصلها شوارع وحارات بحيث تقلل من أخطار الحرائق فى حالة حدوثها [٣٢].

وكان يفصل حى العرب عن حى الإفرنجى أرض فضاء كانت تغمرها المياه فى أغلب أوقات السنة، وكان الاتصال بين الحيين يتم بواسطة فلايك . وفى سنة ١٨٨٥ أصبحت تلك المنطقة جافة تماما، وقامت شركة القناة ببيع أراضى تلك المنطقة ، وعرف هذا الفاصل فيما بعد باسم شارع محمد على ، وقام دى لسبس بتجميع أبناء جزيرة كاسوس فى منطقة واحدة عرفت «بحارة الكاشوتيه» فى جزء من شرق هذا الشارع [٣٣].

وعند حدود حى العرب تجد يافطة سوداء كتب عليها بالإنجليزية تحذير للقوات البريطانية بأن هذا هو حى العرب، وهو خارج حدود تحرك القوات البريطانية (Arab Town out of bounds) وبالفعل لم يكن لهم الحق فى التحرك داخل المنطقة غرب شارع محمد على .

التعليم فى بور سعيد:

أولا : التعليم الأجنبى :

كان للتعليم الأجنبى فى بور سعيد دوراً كبيراً فى النهضة التعليمية بها. ويمكن تقسيم أنواع المدارس الأجنبية التى قامت بالنشاط التعليمى فى بور سعيد إلى الآتى :

١- مدارس الإرساليات الدينية[٣٤]

إرسالية أخوات الراعى الصالح Soeus du bon pasteur ، وهى من أقدم المدارس وقد افتتحت فى ١٨ أغسطس ١٨٦٣ . وقد ألحق دى لسبس بها مستشفى شركة القناة فى بورسعيد والمبنى عبارة عن سكن للراهبات ومدرسة وملجأ يقبل البنات اليتيمات من أى جنسية وأي دين من ٧ إلى ١٨ سنة وتقوم تلك اليتيمات بأعمال المشغولات اليدوية والتى تعرض للبيع لصالح الأعمال الخيرية لتلك المؤسسة حيث توجد إداراتها ببلدة انجر بفرنسا[٣٥].

وقد زار الخديو إسماعيل هذه المدارس (١٨٦٩) عند زيارته لمنطقة قناة السويس . وفى سنة ١٨٧٥ بلغ عدد الموجودين بالمدرسة ٣١ فتاة ٩ نمساويات، ٥ مصريات ٩ إيطاليات ، ٤ فرنسيات ، ٣ يونانيات وألمانية واحدة) وكانت دياناتهن : ٢٧ كاثوليكية ٢ أرثوذكسية ، ومسلمة ويهودية (إسرائيلية) [٣٦]. وكان منهج الدراسة معلومات أولية باللغة الفرنسية ومبادئ اللغة الألمانية والإيطالية والإنجليزية بالإضافة إلى دروس الموسيقى، والمعلومات العامة، وكان التعليم بالمجان . أما نفقات المدرسة فكانت تتكفل بها الراهبات من عملهن اليدوى والأطفال ، علاوة على معونة شهرية قدرها ١٠٠ فرنك من إدارة شركة قناة السويس .

وانشأت أيضا مدرسة دينية للبنات- غير اليتيمات - كان بها ٨ طالبات ، ٤ منهن بالداخلية و٤ بالخارجية وكانت الدراسة بها بالمجان ، وأنشأت أيضا مدرسة خارجية بالمصروفات عام ١٨٧٤ وأخرى بالمجان [٣٧].

وكان يدرس بالأولى ٣٦ طالبة وبالثانية ٨ طالبات وكانت جنسياتهن : فرنسية وإيطالية ومصرية ويونانية ونمساوية ومالطية وبولندية . أما الديانات فكانت موزعة إلى: الكاثوليكية والأرثوذكسية واليهودية . وكان يدرس فى هذه المدارس نفس المناهج التى تدرس بمدرسة الراعى الصالح الدينية للأيتام . وكانت المصاريف الدراسية تتناسب ودخل أولياء الأمور. وقد حددت المصروفات العادية بعشرين فرنكا شهريا ثم عشرة فرنكات فسبعة فخمسة[٣٨].

ومنذ أن تأسست شركة قناة السويس، كانت هناك حاجة لإنشاء مدرسة فى منطقة القناة إذ أن السكان يعرفون اللغة الفرنسية لأنها كانت لغة شركة القناة، فتقرر إنشاء مدرسة بها، وقد دخل الفرير بورسعيد فى مارس ١٨٨٧ ، وكان عددهم ثلاثة إخوة.

والتجأ الفرير إلى دير الآباء الفرنسيسكان . وقد افتتحت المدرسة في مارس وكان ثمانية تلاميذ زادوا في آخر السنة إلى أربعين ، وضمت الجنسيات الآتية : (١٢ فرنسيون ، ١١ يونانيون ، ١١ نمساويون، ٤ إيطاليون، ٣ مالطيون ، ٢ مصريون، ٢أتراك ، ١برتغالي)[٣٩]. ثم افتتح المدير فصولا مجانية لأبناء العمال، وبعد مدة أصبح العدد ٦٧ بالمجان ، ٦٥ بالمصروفات ولما ضاق المكان بالتلاميذ اتفق المدير مع شركة القناة بالاشتراك مع الحكومة المصرية في ٢٠ فبراير ١٨٨٩ ، بأخذ قطعة من أرض مساحتها ٤٧٠٠م على شارع أوجيني لبناء المدرسة، وتم البناء في سبتمبر ١٨٩٠ وسميت College Saint Marie وكانت تدرس فيها اللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والعربية ومبادئ تجارية . وفي عام ١٨٩١ ابتدأت فصول ليلية للتلاميذ الذين يرغبون في تحسين لغتهم الفرنسية.

وإبان الحرب العالمية الأولى غادر ستة من الإخوة المدرسة وألقيت عليها القنابل ، ثم عادت إلى نشاطها السابق بعد الحرب، وقد زارها الملك فؤاد عام ١٩٢٤ ، ومنح جائزة للمتفوقين بهــا[٤٠]. هذا ويلاحظ أن المدارس الأجنبية كانت محل عطف ورعاية كل من الخديو سعيد وإسماعيل ومن جاء بعدهم، مما دفع الراهبات للتقدم لاسماعيل سنة ١٨٧٧ بطلب يلتمس فيه منحهن نصيبا من الحنطة وقد أنشئ هذا الملجأ في النصف الأول من السبعينات [٤١].

وتقدمن للحكومة المصرية سنة ١٨٨٠ للإنفاق منها على الدير الذى أنشأن ببورسعيد لدراسة اللاهوت، وكانت شركة قناة السويس قد منحتهن حوالي ١٠٠٠ فرنك ، وطالبن بأن يكون تحت إشراف الحكومة . وكانت شركة قناة السويس قد طلبت بأن تكون المدرسة تابعة لها نظير دفعها ٥٠ فرنكا شهريا للمساهمة في نفقاتها . فقد قبلت الحكومة المصرية دفع منحة لهن بشرط إشرافها وحدها عليها [٤٢]. وكانت محافظة بورسعيد قد طلبت من ديوان المدارس إلحاق يتيمين أوربيين ببورسعيد بإحدى المدارس الأميرية التابعة للديوان حتى ينالا حظا من التعليم مساعدة لهما وإحسانا من الخديو [٤٣]. كما أقيمت مدرسة دينية كاثوليكية باسم «مدرسة الأرض المقدسة الكاثوليكية» Ecole Catholique de la Terre Sainte.

وكان يقوم بالتدريس فيها : اثنان من إخوة الرحمة وكان بها ٧٦ كلهم من البنين كانوا كالآتي: ٢٧ إيطاليا، ١٩ فرنسيا، ١٣ نمساويا ، ٦ يونانيين، ٤ مالطين، ٤ عرب (شوام) ، ٣ أتراك ، ١ يهودي.

وكانت مناهج الدراسة تشمل تعليم اللغات الفرنسية والايطالية ومواد الجغرافيا والحساب الذى يدرس من واقع الكتب والتاريخ المقدس والقراءة والخط والرسم والتاريخ الديني (الكنسي) والتاريخ [٤٤].

٢- مدارس الجاليات الأجنبية:

أ- مدارس الجالية اليونانية:

كان لتدفق اليونانيين على منطقة قناة السويس- كما سبق الإشارة- وبالأخص مدينة بورسعيد تصحبهم أسرهم ، ولذلك أقام لهم دي لسبس كنيسة فى بورسعيد ومدرسة أيضا لتعليم أبنائهم بها، وقام بتعيين مدرس يوناني لتعليم صغارهم، كل ذلك على نفقة الشركة وكانت هذه الجالية متضامنة، وبفضل الإيرادات التى أتى بها بيع الشموع فى الكنيسة ومن الرسوم التى دفعها التلاميذ ، كونوا صندوقا لمواجهة متطلبات إنشاء المدرسة والكنيسة.

وفى سنة ١٨٦٦ تنازل دي لسبس عن الأرض التى بنيت عليها مدرسة البنات والبنين التى أقيمت لأبناء الجالية اليونانية وذلك عرفانا لما قاموا به من أعمال للشركة وتملكتها الجالية اليونانية بالفعل [٤٥].

وكان الغرض من التعليم اليونانى فى مصر، هو تعليم اليونانيين اللغة اليونانية والاحتفاظ بثقافة وعادات اليونانيين ، مع تزويدهم بما يؤهلهم للحياة فى مصر[٤٦] .

ب- مدرسة للجالية الإيطالية:

قامت الجالية الإيطالية بتأسيس مدرسة لها ببورسعيد سنة ١٨٨٩ [٤٧]. وقد حظيت هذه المدرسة بمساعدة وتشجيع الحكومة المصرية. كذلك أمدتها جمعية المعارف اليونانية ببورسعيد بالكتب اللازمة لتدريس أبناء الجالية اللغة العربية[٤٨].

٣- المدارس الخاصة:

قامت الجاليات بإنشاء مدارس خاصة على نفقتهم، وقام بهذا العمل أفراد من رجال الأعمال والتعليم، نتيجة لازدياد أعداد الجاليات الأجنبية فى مصر ، أدى إلى التوسع فى إنشاء المدارس على اختلاف أنواعها لتسد الحاجة ، وكانت المدارس الأجنبية على علاقة طيبة بالسلطات المصرية ، فقد نصب إسماعيل أكبر أبنائه وولى عهده توفيق باشا راعيا للمدارس الحرة المجانية ، وكان يبعث بابنه إبراهيم باشا من وقت لآخر لشهود حفلات توزيع الجوائز فى بعض المدارس الأجنبية . كما شهد بورسعيد نشأة المدارس الأجنبية العلمانية للبنين والبنات، فقد تم إنشاء المدرسة العلمانية الحديثة للبنين Ecole Laigue pour Garcon فى سنة ١٨٧٣[٤٩] وكان بها ٣٧ طالبا: ٨ إيطاليين، ٨ عرب ، ٧ نمساويين ، ٥ فرنسيين ، ٣

يونانيين، ٢ مـالطيين، وكـانت دياناتهم كـالآتى : ٣٠ كـاثوليك ، ٧ مـسلمين، ٣ أرثوذكس (يونانيين) وكانت الدراسة تشمل الآتى : القراءة والخط والجغرافيا والحساب بالإضافة إلى اللغات: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وكانت الدراسة مجانية .

أما إيراداتها فكانت تبلغ حوالى ٦٠٠٠ فرنكا كانت تأتى كلها من المحفل الماسونى عن طريق الاكتتاب الاختيارى (التبرعات)(٥٠). ويذكر البعض أن هناك مدرسة خاصة داخلية للبنات أنشأتها مدام/ شاليه Madame Challet وقد افتتحت أبوابها للدراسة فى عام ١٨٧٣ . وتم فى نفس العام وبفضل جهود ومبادرة من إحدى اللجان التى تكونت برئاسة السيد/ باكير Baker(٥١)، والسيد / باربازا (Barbaza) (٥٢). والدكتور /كوفيدو Couvidou ، والسيد / لويزيديه Loisides (تاجر) ، والسيد / مانش Manche(٥٣)، والسيد / ستافلر Stuffler(٥٤) والذى قام بجمع الاشتراكات . وأنشئت المدرسة الابتدائية المجانية تحت رعاية الأمير ولى عهد مصر، وهى تشبه مثيلتها فى الإسكندرية والتحق بها عدد كبير من الأطفال الفرنسيين والإيطاليين وكانت هذه المدرسة تقع قبالة لوكاندة سميراميس . وكانت الدراسة باللغة الفرنسية وبلغ عدد الطلبة فيها سنة ١٨٧٥ خمسة وأربعين تلميذا . وكان يدير المدرسة إيطالى يدعى أولدرينى Oldrini . وفى عام ١٨٧٦ تم إعداد يانصيب لصالح هذه المدرسة بواسطة لجنة مكونة من زوجات رجال الأعمال(٥٥).

وحين أتم التلاميذ الدورة الدراسية بهذه المدرسة وحصلوا على درجات جيدة، أتاح لهم ذلك الفوز بوظائف جيدة. وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ لم تعد هذه المدرسة قائمة، فقد كانت هذه المدرسة قد شيدت بمبادرة من الماسونية والتى افتتحت محفلها الماسونى فى بورسعيد فى الخامس من نوفمبر سنة ١٨٧٨ (٥٦). وهناك مدرسة أخرى علمانية للبنات اسمها: «المدرسة العلمانية الحديثة» Ecole laigue Des Jeunnes Filles وقد أنشئت عام ١٨٧٥ . وبلغ عدد الطالبات بها ٣٢ طالبة جميعهن بالخارجية وكانت مواد الدراسة هى التى تدرس فى التعليم الابتدائى بالإضافة إلى اللغة الفرنسية والحساب والجغرافيا والتاريخ العام والموسيقى وفن الخياطة والدراسة بمصروفات كانت تتراوح بين ٦ و ١٥ فرنكا شهريا .

ومن هنا يتضح أن مدينة بورسيعد قد تميزت بانتشار التعليم العلمانى فيها ، كما يتضح أن مجموع الطالبات بهذه المدارس جميعا كان يفوق عدد الطلبة بها (٥٧). كما يلاحظ قلة عدد الطلبة المصريين إلى حد كبير ، فمن بين مجموع الطلاب وعددهم ٢٢٨ كان عدد الطلبة العرب

٢٤ فقط أى بنسبة تزيد قليلا عن ١٠٪ من مجموع الطلاب، منهم سبعة من المسلمين ، وكان نصف هؤلاء الطلبة من البنين والنصف الآخر من البنات .

كما نلاحظ أن نصف هؤلاء الطلبة العرب كانوا من غير المصريين، والأغلب أنهم كانوا من الشوام . وبالنسبة للمصريين فإننا نلاحظ أنهم جميعا من الطالبات ، وكان من بينهن طالبتان مسلمتان فقط . أى أن عدد الطالبات المصريات كان لايتجاوز ٥٪ من عدد الطلبة الأجانب ببورسعيد . ويرجع ذلك إلى أن الدراسة بهذه المدارس كانت باللغات الأجنبية فضلا عن أن الطلبة ملزمون بالتكلم بها طوال نهارهم مع أساتذتهم أو فيما بينهم، حتى بلغت نسبة الطلبة الذين يتلقون علومهم بالفرنسية حوالى ٥٥ ٪ من مجموع الطلبة فى مصر. أضف إلى ذلك أن أحوال الوطنيين الاقتصادية بالمدينة لم تكن تمكنهم من دفع المصاريف المطلوبة بهذه المدارس، فقد كان معظمهم من العاملين فى حمل الفحم وبأجور زهيدة يتقاسمها معهم شيخ الطائفة(٥٩).

وفى عام ١٨٧٨ أنشئت مدرسة أخرى للبنات بفضل جهود الأخوات جوان Jouane والآنسة / روز Rose التى تحمل دبلوم الثانوية العليا تعاونهم الأخت تريز (Therese) وكانت كريمتا أحد رواد بورسعيد من اللاجئين السياسيين فى الجزائر ، وقد وصل مصر بدعوة من دى لسبس . ودامت مدرسة إخوان جوان هذه ما يقرب من عشرين عاما. وكان موقع هذه المدرسة مكان مطافئ بورسعيد حاليا. ومن بين المدارس الحرة التى وجدت ببورسعيد - قبيل الحرب العالمية الأولى- نجد مدرسة مدام تيسيه (Teisser) والتى يصعب تجميع بيانات دقيقة عنها، لأن البيانات المتاحة متناقضة .

ففى أيام عمرها الأولى ضمت بورسعيد مدارس رياضية كان يشرف على تنظيمها وإدارتها فرنسيون وإيطاليون لم تمكث فترة طويلة نذكر منها : صالة رماية أسلحة ، وكان يديرها بروفيسور كورفيزيه (Corvisier) مدرس وأستاذ سلاح الرماية . ومدرسة أخرى للسلاح أنشئت عام ١٩٢٥ على يد السيد / لينون Linon(٦٠) وتحت إشراف أستاذ السلاح E. Janse(٦١).

ثانيا : التعليم الوطنى فى بورسعيد:

استمرت مدينة بورسعيد بدون مدرسة أميرية حتى نهاية الثمانينات ، فقد تأسست أول مدرسة تابعة للحكومة ببورسعيد سنة ١٨٨٩م(٦٢) وقد أدى عدم انتشار التعليم الوطنى

ببورسعيد إلى انتشار الجهل بين الأهالى مما تسبب عنه ظهور طائفة العرضحالجية، وقد قام هؤلاء بانتخاب شيخ عليهم يعرف بشيخ الكتبة أو العرضحالجية . كما أدت كثرة الأجانب إلى الحاجة لوجود تراجمة لإيجاد تفاهم مشترك بين كل من الأجانب والإدارة المصرية والأهالى فظهرت طائفة التراجمة[٦٣].

واقتصر التعليم الوطنى لأبناء بورسعيد على الكتاتيب فقط، ويبدو أن نطاقه قد انحصر فى قرية العرب ببورسعيد حيث انتشر السكان الوطنيين .

وقد ظلت الكتاتيب كما كانت من قرون معاهد التعليم الأولى فى البلاد حيث القرآن الكريم أساس للتعليم بالإضافة إلى تعليم الصبية القراءة والكتابة. ورغم قصورها فقد وفرت جانبًا كبيراً من حاجة الأمة إلى التعليم .

وقد وجدت فى بورسعيد فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن التاسع عشر وذلك لأن وجود الكتاتيب يرتبط ارتباطًا وثيقًا بوجود العلماء أو الفقهاء أو المعلمين الذين يقومون بمهمة التعليم فيها. وكان يوجد فى بورسعيد ١٨ عالمًا وفقيها وغيرهم من المشايخ فى منتصف سنة ١٨٧٢ . وقد ارتفع عددهم فى منتصف ١٨٧٨ إلى ٣٣ شخصًا وقد باشروا مهمتهم فى تعليم الصبية من أبناء العرب ببورسعيد . وكان يوجد ثمانية مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم ببورسعيد سنة ١٨٧٧ ، وكان بها ٧٧ بما فيهم عدد المعلمين أنفسهم[٦٤].

وهذه الكتاتيب يمكن أن نطلق عليها اسم (كتاتيب المدن) طبقا للائحة رجب ١٢٨٤ والتى كان يكتفى بها تعليم القرآن الكريم والقراءة والكتابة ثم أضيف إليها مادة الحساب قصرته على «باب العدية» أى الأعداد وكان ذلك أهم تجديد فى الكتاتيب . كما قررت اللائحة أن يكتفى فيها بالمؤدبين والعرفاء. على أن يكون تعينهم من اختصاص ديوان المدارس بالمشاركة مع العمداء وعمد الجهة . وليس هناك ما يؤكد تدخل ديوان المدارس فى تعيين الفقهاء والعرفاء بهذه الكتاتيب ، مما يعنى أن اختيارهم كان قاصراً على العلماء فى بورسعيد ، ويبدو أن ذلك استمر حتى سنة ١٨٧٨ م على الأقل على الرغم من صدور دكرتو فى ١٨٦٩ يجعل كل كتاتيب القطر تحت تفتيش وملاحظة نظارة المعارف العمومية وزاد عدد الكتاتيب فى بورسعيد إلى تسعة مكاتب سنة ١٨٧٨ وكان يدرس بها ٣١٠ تلاميذ وهذا يعنى أن هناك إقبالا من الوطنيين ببورسعيد على تعليم أبنائهم فى هذه المكاتب لعدم وجود مدارس أميرية ولعجزهم عن تعليم أبنائهم بالمدارس الأجنبية بالمدينة أو الرغبة فى تعليم أبنائهم القرآن الكريم[٦٥].

كما يتضح أن متوسطة عدد التلاميذ بكل مكتب من مكاتب بورسعيد يزيد على ٢٤ تلميذا ، فإذا كان السكان العرب بها ٣٨٥٤ شخصا فإن متوسط عدد الأهالي للمكتب الواحد ٤٢٨ شخصا ويكون عدد التلاميذ من كل ألف شخص ببورسعيد . ورغم حداثة بورسعيد فإننا نلاحظ تفوقها في نسبة التلاميذ الذين يتعلمون في الكتاتيب عنها في سائر البلاد . فمثلا بلغت النسبة في القاهرة ٢٦ في الألف وأيضا في الإسكندرية ٢٦ في الألف و١١ في الألف في مديرية قنا .

ويمكن ترتيب المحافظات والمديريات بنسبة انتشار التعليم فيها وفق الجدول التالي(٦٦):

المحافظات والمديريات	النسبة
بورسعيد	٨٠ في الألف
الإسماعيلية	٧٥ في الألف
السويس	٥٢ في الألف
دمياط	٤٢ في الألف
المنوفية	٣٥ في الألف
الغربية	٣٤ في الألف
الشرقية	٣٢ في الألف
البحيرة	٢٧ في الألف
القليوبية	٢٧ في الألف
القاهرة	٢٦ في الألف
الإسكندرية	٢٦ في الألف
الدقهلية	٢٦ في الألف
بني سويف	٢٥ في الألف
جرجا	٢١ في الألف
الجيزة	٢٠ في الألف
أسيوط	١٩ في الألف
إسنا	١٨ في الألف

وفى مطلع القرن العشرين (١٩ يونيو ١٩٠١) تم الاحتفال بوضع حجر الأساس لمدرسة الواصفية ببورسعيد بحضور محافظ بورسعيد[٦٨] وتولت الجمعية الخيرية الإسلامية الصرف عليها وهى مدرسة ثانوية وتهدمت هذه المدرسة فى مارس ١٩٩٧ [٦٩].

محو أمية الجنود وضباط الصف ببورسعيد :

فى سبتمبر ١٨٧٠ صدر أمر كريم إلى ديوان الجهادية بعدم ترقيه الضباط الصف الذين يجرى امتحاناتهم لترقيتهم إلا بعد التأكد من معرفتهم القراءة والكتابة.

وتنفيذا لهذا الأمر فقد صدر أمر ناظر الجهادية فى أواخر ديسمبر ١٨٧٢ بضرورة تعليم جميع العساكر بالمحافظة من مستحفظين وبوليس وعساكر الطلمبة القراءة والكتابة، وكان رؤساء العساكر هم الذين يقومون بهذا العمل كما تم توزيع بعض الكتب الهجائية على بعض هؤلاء العساكر.

وكان الخديو يهدف إلى تقدم أفراد وصفوف العساكر فى هذا التعليم . ولم يقتصر تعليم العساكر اللغة العربية قراءة وكتابة فقط بل شمل أيضا تعليم الجاوشية البلدية أبناء العرب ببورسعيد اللغة الإيطالية من كتاب مترجم عن اللغة الإيطالية باسم (النخبة الترجمانية فى اللغة التليانية) وقد اتضح أن عدد هؤلاء الجاويشية ٣٢ شخصا منهم ٦ فقط يجيدون القراءة والكتابة و٨ لهم إلمام بها والباقون أميون [٧٠]. وهذا التعليم وهو (محو الأمية للجنود والشرطة) مازال معمولا به حتى الآن.

طائفة أهل العلم :

ارتبط ظهور مكاتب تعليم القرآن الكريم ببورسعيد بوجود العلماء وإقامتهم بها، كما أدى إلى ظهور طائفة خاصة بهم هى «طائفة أهل العلم الشريف وحملة القرآن الحنيف». بل وتعددت الطرق الخاصة بهم. وقد قاموا بانتخاب الشيخ أبى الحسن[٧١] شيخا على طائفة أهل العلم الشريف وحملة القرآن الكريم . وقد صدقت المحافظة على انتخابه لأهليته وصلاحيته ولياقته بهذه الوظيفة[٧٢].

كذلك نجد أن الخديو إسماعيل قد أمر بربط ٧٠٠ قرش بالأوقاف لوظيفة معلم اللغة العربية بمدرسة الأوروبيين ببورسعيد ، وأمر بشراء كتب أجرومية قدرى بك للمدارس اليونانية ببورسعيد[٧٣].

فى أعقاب الاحتلال الإنجليزى لمصر ..
الدعوة لتعلم الإنجليزية ونبذ اللغة الفرنسية :

فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت اللغة الإيطالية هى اللغة الأوربية الأولى ذات النفوذ فى مصر ، وبعد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ وانفتاح مصر على أوروبا وإرسال البعثات لفرنسا نمت اللغة الفرنسية وتراجعت أمامها اللغة الإيطالية وفقدت الثقافة الإيطالية مكانتها فى مصر وحلت محلها الثقافة الفرنسية . وبعد الاحتلال البريطانى لمصر ١٨٨٢ كانت هناك دعوة لتعلم اللغة الإنجليزية ونبذ اللغة الفرنسية، وقد قامت سلطات الاحتلال البريطانى بإنشاء ثمانية عشر مدرسة إنجليزية بمصر فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس[٧٤].

وعلى الرغم من محاولات سلطات الاحتلال البريطانى إحلال الثقافة الإنجليزية محل الثقافة الفرنسية فإنه لم يستطع أن يقف أمام التعليم الفرنسى فى مصر ، فقد كانت اللغة الفرنسية معروفة فى الأوساط العالية والطبقة الوسطى أيضا، وكانت اللغة الفرنسية رئيسية فى المدارس الإيطالية والفرنسية واليهودية بأعداد مدارسها الكبيرة ، بينما اقتصرت اللغة الإنجليزية على المدارس الأمريكية والإنجليزية فقط[٧٥].

ونجد صحيفة المقطم[٧٦] تندد باللغة الفرنسية ، مستشهدة بأن أهل القطر المصرى وغيره من الأقطار الشرقية من أقاصى الهند واليابان راغبون فى تعلم اللغة الإنجليزية لأنها على حد قولها «لغة أوسع الأمم تجارة وأرقاهم علما وتمدنا وأكثرهم عددا» وتستطرد الصحيفة بقولها «إن الصحف المتفرنسة تندد بنظارة المعارف لأنها زادت عدد معلمى اللغة الإنجليزية، ولو نظرت هذه الجرائد فى حقيقة هذه الزيادة وبينت أسبابها وأثبتت أنها تفوق المطلوب لوجب لها الشكر»[٧٧].

كما تدعو الصحيفة الشعب المصرى إلى إتقان اللغة الإنجليزية بعد أن تقرر أن تكون من جملة اللغات الرسمية التى يترافع بها فى المحاكم المختلطة . وأكدت الصحيفة «أن اللغة الإنجليزية قد انتشرت سريعا فى هذا القطر حتى لقد عنى أكثر أبناء الأعيان بتعلمها وصارت مما لايستغنى عنه فريق كبير من المصريين . وإذا دامت الحال على هذا المنوال فلا تمضى بضع سنين حتى تعم، لذلك فالحكيم من استعد للانتفاع بها قبل أن يسبقه غيره إلى منافعها[٧٨].

وعلى أية حال فقد تعاظم التغلغل الثقافى الأجنبى فى بور سعيد ونشط من خلال الحركات النشطة للجمعيات التبشيرية الأجنبية- التى حرصت كما رأينا على افتتاح العديد من المدارس التى توفر تعليما يسير على نهج البلدان الأجنبية التى تنتمى إليها هذه الجمعيات. وتعتبر فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية أهم البلدان التى وفدت منها الجمعيات التبشيرية، علاوة على مدارس الأقليات الأجنبية والمدارس الخاصة أيضا.

ولم يقتصر الأمر على التوسع فى إنشاء المدارس الأجنبية وإنما تجاوز ذلك إلى فرض محتوى تعليمى يؤكد تبعية من يمثلونه من الطلاب للثقافة الأجنبية ، ويترتب على ذلك إضعاف روح الانتماء إلى الوطن وإضعاف الوعى بالهوية المتميزة لشعبنا فكان التعليم فى المدارس الفرنسية فيما بين الحربين العالميتين نسخة مطابقة للتعليم الفرنسى، وأن جميع التلاميذ فى هذه المدارس أجانب وسوريين ولبنانيين كانوا يعرفون بشكل جيد شارلمان وجان دارك ولويس الرابع عشر ، فى الوقت الذى يجهلون فيه أبسط المعلومات عن هارون الرشيد أو رمسيس الثانى. وفى كتب التاريخ التى كانوا يدرسونها ، يتعلمون أن سكان بلاد الغال هم أجدادهم[٨٠].

ولم يهمل الإنجليز أيضا الممارسات الثقافية الرامية إلى تأكيد هيمنتهم فقد طبعوا مدارس التعليم الحديث بطابع الثقافة الأنجلو سكسونية وجعلوا لغة التعليم فى مدارس مصر الحكومية هى اللغة الإنجليزية ، ليكونوا طبقة من المتعلمين تفكر كما يفكرون ويحققون من خلالهم مصالحهم السياسية ، وفى مقابل ذلك مارس الفرنسيون هيمنتهم الثقافية بفضل مدارسهم التى تزايد أعدادها وتطابقت مناهجها مع المدارس الفرنسية.

وهكذا أصبح التعليم فى المدارس الحديثة التى تديرها الدولة وتلك التى تخضع للجاليات الأجنبية أداة غزو ثقافى تعمل على تأكيد الانتماء للغرب ومن ثم قبول هيمنته على مقدرات شعبنا[٨١].

زوال التعليم الأجنبى (١٩٥٦)

تعرضت بورسعيد لعدوان سافر فى عام ١٩٥٦ وهو العدوان الثلاثى (إنجلترا وفرنسا وإسرائيل) وكان ذلك إيذانا بالقضاء على التعليم الأجنبى فى مصر، ويعترف أحد الكتاب الفرنسيين المعاصرين بقوله «كانت كارثة للنفوذ الثقافى الفرنسى، فقد تم الاستيلاء على

المنشآت الست الخاصة بالبعثة العلمانية التى كانت تعلم عشرة آلاف و ٥٥٠ تلميذا سنويا . وتحولت مدارس الليسيه إلى مدارس «الحرية» مثلما تحولت كليات فيكتوريا الإنجليزية إلى مدارس «النصر» وحرمت هذه المدارس من مدرسيها الفرنسيين وأصبحت تابعة للجنة حكومية[٨٢].

«فى ساعة واحدة يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ فقدت فرنسا نفوذا نسجته بأناة خلال قرن ونصف». وعلى ضفاف النيل أصبح اسمها موضع سخرية وتقوضت حظوتها »[٨٣].

ويمثل القانون رقم ١٦٠ ولائحته التنفيذية الصادرة فى ١٧ مارس ١٩٥٩ نهاية التعليم الأجنبى فى مصر بشكل عملى.

الصحافة فى بورسعيد :

أولا- الصحافة الأجنبية:

جانب آخر من النشاط الثقافى تمثل فى الصحافة الأجنبية فى بورسعيد : الفرنسية واليونانية والإيطالية ، وقد شملت مواد إخبارية وتجارية وإعلاميه وفنية وسياسية وأدبية . وكانت غالبية الصحف الفرنسية نذكر منها:

١- صحيفة Le Journal du Canal وصدرت عام ١٨٦٧ وطبعت فى بورسعيد وكانت تدافع عن مشروع دى لسبس ضد الهجمات التى تشنها الصحافة الإنجليزية على مشروع القناة وكان يديرها الأب مول Le Pere Moll. وذاع صيت هذه الصحيفة فكانت تنشر وتقرأ فى العالم أجمع[٨٤].

٢- صحيفة Journal de Port- Said وقد أصدرها ج باربير J. Barbier سنة ١٨٧٠ ، وهى صحيفة أسبوعية من أربع صفحات بحجم متوسط، وقد أوقفت بناء على أمر الحكومة المصرية فى أواخر فبراير ١٨٧٢ بسبب بعض المقالات السياسية[٨٥].

٣- صحيفة Le Moniteur de Port- Said وقد أصدرها نفس الناشر : ج باربيه وصدرت فى ٢٩ فبراير عام ١٨٧٢ [٨٦].

٤- صحيفة L' Avenir Commerciale de Port - Said : (أى المستقبل التجارى لبورسعيد) وقد أصدرها أ. رو E. Roux فى ٢٧ يونيو ١٨٧٣ وظلت تصدر حتى عام ١٨٧٤م[٨٧].

وقد نشرت هذه الصحيفة نقدا لاذعا للحكومة المصرية إزاء عدم اهتمامها بتعليم المصريين وانتشار الجهل بين أفراد الشعب فى عددها الصادر فى ٢٨ نوفمبر ١٨٧٤ وأن من واجب الحكومة تنوير الأهالي عن طريق العلم والأدب لمعاونتهم كي يتعاونوا فيما بينهم والوفاء لهم بما يلزم في هذه الحياة من الحق والحرية ، فقد كان ذلك مطمح العقول السليمة من الحكام على مر العصور، مما أدى إلى تأسيس جمعيات خيرية ومؤسسات كان من نتائجها ظهور شخصيات شهيرة ونشأة حكومات قوية وظهور أمم خلد التاريخ ذكراها، وأنه بانتشار العلم والأدب والعدل في الأمم تتهذب الأخلاق وتزداد الثروة وتسعد الشعوب .

وقد حاولت جريدة الوقائع المصرية الرد على ذلك فأشارت إلى جهود الحكومة المصرية للتصدى للجهل وأنها تسعى لتعميم التعليم بالديار المصرية(٨٨).

٥- جريدة Le Courrier du Port - Said (أى رسالة بورسعيد) وقد أصدرها كل من ماريوس بيريير ، ج. سيريير Marius Perrier & J. Serrier وقد صدرت فى نوفمبر وظلت تصدر حتى عام ١٨٧٧(٨٩) وهذه الجريدة شبيهة بجريدة لافونيير التى كان يحررها إميل روكس وقد تعهد السيد موريس من تلقاء نفسه بالامتثال لقانون المطبوعات . وبناء عليه فقد أصدرت الخارجية ترخيصا له بإنشاء المطبعة والجريدة المذكورة ببورسعيد(٩٠).

وقد اهتمت هذه الجريدة بالشئون التجارية والبحرية، وقد انتقدت الأوضاع فى مدينة بورسعيد وبالأخص الأمور الصحية عندما وجهت اللوم لمستخدمي جمرك بورسعيد الذين يلقون المياه القذرة والقاذورات من الدور الأعلى بالشارع الخلفى والشوارع المحيطة بمبنى الجمرك مما يسبب روائح كريهة وعفونات مضرة بالصحة . ونتيجة لهذا النقد طلبت المحافظة من أمين الجمرك وقف ذلك لمنع نشر مثل هذه الأمور بالجريدة وكانت هذه الجريدة الأكثر انتشاراً فى بورسعيد وقامت هذه الجريدة أيضا بإصدار كتاب بعنوان «رحلة عبر البرزخ» من تأليف كوفيدو H. Couvidou سنة ١٨٧٥ (٩١).

٦- جريدة لاجور سيروانس ، وقد صدرت عام ١٨٧٦ عن نفس الجريدة السابقة وكان يتولى إصدارها جاك سيريير الفرنسي Jacques Serriere وقد تخصصت هذه الجريدة بالإعلانات الخاصة بمحكمة الإسماعيلية المختلطة ومحكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية(٩٢).

٧- جريدة البسفور إجيبسيان Le Bosphore Egyptien أصدرها ج. سيريير J. Serri-er فقد صدرت في ٤ مارس ١٨٧٨ وكانت أسبوعية ومخصصة لنشر المواد التجارية الأدبية والحوادث الأجنبية فقط وقد ذاعت هذه الجريدة وانتشرت خارج حدود مدينة بورسعيد ووصلت إلى القاهرة وأصبحت هذه الجريدة المحلية التى تصدر فى بورسعيد معروفة، مما دعا صاحبها ومحررها إلى أن يجعل اسمها «البسفور المصرى» وكان ذلك سنة ١٨٨٠ (٩٣).

وقد اكتسبت هذه الجريدة شهرة وشعبية فى القاهرة وبورسعيد ونتيجة لذلك طلب صاحب الجريدة التصريح له بمعالجة الشئون السياسية والإدارة على صفحات الجريدة وقد أجيب لطلبه بشرط مراعاة القوانين الخاصة بالصحافة والطباعة فى مصر فيما ينشره من مواد سياسية وغيرها . وبدأت فى ذلك اعتبارا من يناير ١٨٨١ . وأدى ذلك إلى الارتفاع بشهرتها مما دعى سيريير إلى الإقامة بالقاهرة بمساعدة أصدقائه ، وأصبحت جريدة البسفور المصرى جريدة يومية بدلا من أسبوعية وأحدثت قدرا كبيرا من الضجة . وقد قام جيرود Giraud - محامى مدير الجريدة- بنشر عدد من المقالات المدوية ، حتى أصبح سكان القاهرة سواء من الأوروبيين أو الوطنيين من عشاقها أو من المفتونين بها، حتى أنهم قاموا بحمل جيرود على الاعناق فى شوارع الأزبكية فى أحد الأيام(٩٤) وكانت مقاومة الخديو إسماعيل لصحف الرأى الفرنسية غير مجدية، فكان إذا أقدم على إلغاء صحيفة سرعان ما تظهر أخرى غيرها فى الميدان وذلك لما كان لها من امتيازات تكفل لها الحماية سواء فى الإنذار أو التعطيل أو الإغلاق النهائى وأجمعت الصحف الفرنسية على تشييع إسماعيل- بعد عزله - أسوأ تشييع وكانت تعبر بذلك عن رأى حكومتها فى إسماعيل . وفى عهد توفيق استمرت الصحف الفرنسية فى الظهور والازدياد كما استمر سيريير فى جهوده فى إنشاء صحف جديدة بالإضافة إلى الصحف السابقة فأنشأ صحيفة سياسية هى :

٨- صحيفة بورسعيد جورنال Port - Said Journal لتحل محل جريدة البسفور المصرى التى صدر الأمر بتعطيلها لعيبها فى ذات أحد الولاة الأصدقاء . ولقد صدر العدد الأول فى ٧ أبريل سنة ١٨٨١ (٩٥). وبعد عام ١٨٨٠ ظهرت صحف كان يديرها بعض المالطيين والإيطاليين(٩٦).

٩- جريدة الفنار Le Phare والتى صدرت عام ١٨٨٩ ونشرت نعى أقدم بورسعيدى يمتلك فندق باريس الكبرى(٩٧).

الصحافة اليونانية :

مجلة بروجريه Le Progres الأسبوعية وكانت تصدر باللغة اليونانية وقد توقفت فترة من الوقت ثم عادت إلى الظهور مرة ثانية . وكانت تخصص الصفحتين الأولى والثانية للتحرير باللغة الفرنسية ، أما الصفحتان الثالثة والرابعة فكان التحرير بهما باللغة اليونانية ، ثم انتقلت فيما بعد إلى القاهرة ، وكانت تجارية أدبية ولنشر الإعلانات وكان يديرها لازاريدس Lazarides (٩٨).

الصحافة الإيطالية :

تقدم مأمور قنصلية إيطاليا ببورسعيد فى ديسمبر ١٨٦٧ بطلب إلى محافظة بورسعيد برغبة أحد الإيطاليين ويدعى موفتليين الترخيص له بإنشاء جريدة إيطالية تحمل اسم «الموستيك» وأن تكون أسبوعية تختص بنشر الأخبار والشئون التجارية وقد أحيل الأمر إلى محافظ عموم القناة للتحرير للخارجية التى رأت ضرورة مخابرة قنصل عام إيطاليا فى ذلك. وقد شرع الإيطالى فى إجراءات نشر الجريدة. والصحافة الايطالية فى هذه الفترة لم يكتب لها الازدهار والانتشار، ولم تشهد بورسعيد سوى ظهور صحيفة إيطالية واحدة(٩٩).

الصحافة الوطنية فى بورسعيد :

صدرت أول جريدة مصرية فى بورسعيد عام ١٩١٠ وهى جريدة المؤدب كانت تتابع الأخبار والقضايا المحلية، وأفردت صفحات للثقافة والأدب، وتم إنشاء ثلاث مكتبات عامة بالإضافة إلى مكتبات خاصة كان صاحبها ينظم الاستعارة فيها مقابل اشتراكات زهيدة وهو محمد أبو النور الذى أنشأ فى الثلاثينات جريدة «المستقبل» ودار نشر تحمل نفس الاسم(١٠٠).

كذلك قامت مجموعة من المثقفين بإصدار نشرة دورية هى «الانتصار» إبان العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ على بورسعيد ، فكانت هذه النشرة الدورية عاملا هاما فى كسر العزلة الإعلامية، وتضمنت مقالاتها تحليلا لأبعاد المعركة ومتابعة الأخبار، كما تضمنت إرشادات للتوعية وكشف حيل وأساليب العدو، وتوجيهات إلى أبناء المدينة بالإضافة إلى أشعار تحريضية مباشرة وبسيطة ، وظهرت أغانى السمسية التى لعبت دورا هاما فى تلك الفترة فى تعبئة الناس بتعبيرها التلقائى ضد الاحتلال (١٠١).

مراكز أخرى للأنشطة الثقافية فى بورسعيد:

تواجدت مراكز متعددة للأنشطة الثقافية فى بورسعيد تمثلت فى المسرح والسينما والموسيقى والغناء والإذاعة والمتاحف والصالونات الثقافية:

المسرح الأجنبى :

وجد ببورسعيد مسرح بحرى متنقل على صندل (Chaland) قبل افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية، وكان يسير فى القناة البحرية الصغيرة وعليه فرقة من الممثلين الأجانب ، يبدأون التمثيل بدق الطبول واستعمال الناى والصفارات ثم يقومون بتمثيل بعض الروايات الصغيرة(١٠٢).

كما وجد بمدينة بورسعيد سنة ١٨٧٨م محلات للعزف والتمثيل الهزلى والغناء والبغاء(١٠٣). وقد ذكر بعض الأجانب الذين زاروا بورسعيد أو نقلوا عمن زارها وجود المسرح فى المدينة(١٠٤). وأشار بعضهم إلى أن شركة قناة السويس هى التى قامت بإنشاء المسرح وتحملت نفقات إعداده(١٠٥).

المسرح الوطنى البورسعيدى :

أنشئ فى المنزل الكائن بشارع المقدس أول مسرح فى بورسعيد ، ويذكر الحسيب الكيال الذى يؤرخ للمسرح في بورسعيد : «ترجع صلتى بفن التمثيل إلى العهد الذى كان فيه نخبة الهواة أمثال توفيق الطيب وحامد الصفطى وطلبة رضوان قد أسسوا سنة ١٩٢٧ فرقة رمسيس تيمنا بفرقة رمسيس للفنان يوسف وهبى» وكان الفن يومئذ مدرسة للتثقيف والترفيه على السواء. وقد أنشئ نادى رمسيس سنة ١٩٢٣ وكان يسمى بالنادى الأهلى، وهو نادى اجتماعى ثقافى خيرى غالبية أعضاؤه من الموظفين ، وكان مقره بالدور الأول بالمنزل الكائن بشارع الثلاثينى والمقدس(١٠٦).

ويرجع الفضل فى إنشائه للسيد محمد مصطفى علام(١٠٧) رئيس المستخدمين بمحافظة القناة. وبدأ نشاطه التمثيلى عام ١٩٢٧ بمنزل غندر بشارع أوجينى وفى سنة ١٩٤٠ قدم بعض أعضاء نادى رمسيس استقالاتهم وكونوا ما يعرف بنادى المسرح الذى بدأ نشاطه فى مكان نادى الليرا والذى تم تصفيته أثناء الحرب العالمية الثانية ضمن أملاك الإيطاليين فى بورسعيد واشتهر باسم نادى الجمارك لأن غالبية أعضائه من موظفى الجمارك(١٠٨).

وقدمت جماعة التمثيل بنادى رمسيس أهم روائع أمير الشعراء أحمد شوقى (مجنون ليلى) وقد حضرها فؤاد سراج الدين [١٠٩]، وكذلك مسرحية «رصاصة فى القلب» لتوفيق الحكيم. وهكذا نشأت حركة مسرحية فى بورسعيد مواكبة للحركة المسرحية فى القاهرة وسارت فى نفس الطريق حيث قدمت مسرحيات: سلامة حجازى ويوسف وهبى ونجيب الريحانى وعلى الكسار، حتى أن هناك ممثلين من بورسعيد تخصصوا فى أداء دور هؤلاء النجوم وأصبح ذلك جزءا من التراث المسرحي البورسعيدى. كما قدمت مسرحيات عالمية وظهر فى فترة متأخرة قبل الثورة مسرحيات محلية تناقش هموم وقضايا محلية. وشهدت المدينة نشاطا ثقافيا من خلال هذه المؤسسات كان يدعى إليها أبناء القاهرة البارزين ، واحتلت قضايا التراث مساحات كبيرة من المناقشات[١١٠].

الموسيقى والغناء الأجنبي:

فى أيام الآحادى كان يجتمع نخبة من سكان المدينة فى ميدان دى لسبس[١١١] حيث يستمعون إلى الجوقات الموسيقية التى تعزف أنغامها المختلفة، ويظلون فى ذهاب وإياب حول الميدان يحيون بعضهم بعضا برفع قبعاتهم على الطريقة الأوروبية[١١٢].

كذلك أقيمت حفلات موسيقية فى نفس الميدان (دى لسبس) بواسطة الفرقة الموسيقية الخاصة بالسفينة الحربية المصرية السقا Sakka والتى كانت قد ألقت مرساها فى ميناء بورسعيد ، وكان هدفها الوحيد هي تحية تطلقها مدافعها احتفالا وترحيبا بالسفن الحربية المملوكة للدول الأجنبية عند وصولها لميناء بورسعيد، والرد عند رحيلهم بإطلاق مدافع للتحية اللائقة . وكانت هذه الفرقة مكونة من ٤٠ عازفا موسيقيا يقودهم بعصاه مايسترو مصرى ، وعلى الرغم من سفر السفينة المصرية السقا من بورسعيد ومغادرتها الميناء ، فإن هذا لم يحرم المجتمع البورسعيدى من سماع المعزوفات الموسيقية حيث أنشئت التيرا سانتا Terra Santa بواسطة الأب كابوسان كليمنت Capusan Clement وبعد ذلك بفترة نظمت هذه الفرقة تحت اسم جديد هو «الليرا» Lyra بعد إنذارها وإلغائها لأنها ساهمت بالعزف فى جنازة أحد الماسونيين[١١٣].

وفى حديقة واصف[١١٤] كان يتوسطها كشك موسيقى مخصص للسيدات والأطفال[١١٥] ويبدو أنه كان هناك أكثر من مكان أو محل لسماع الموسيقى ، فإلى جانب كشك الموسيقى كان هناك نادى تقام فيه الاحتفالات ، وكان به بيانو فى مكان آخر كانت الموسيقى العسكرية تعزف فيه وكان يحضر لسماعها الأجانب والوطنيون .

الموسيقى والغناء الوطنى:

إن دراسة الفن الشعبى فى بورسعيد والذى يتمثل فى الغناء يعد مدخلا هاما لدراسة عناصر المقاومة لدى الشخصية البورسعيدية ، وهى تبدأ بأغانى «الضمة البورسعيدية» والتى يؤكد شيوخ الغناء في المدينة أنها بدأت مع حفر قناة السويس ، فبعد يوم من العمل الشاق تحت سياط السخرة والعشرات يتساقطون يوميا أثناء الحفر، وخليط من البشر جاءوا من محافظات مختلفة من مصر لايكاد أحدهم يعرف الآخر، يواجهون مصيرا مجهولا كانت الذاكرة تأبى أن تستجيب لنداء الأجسام المنهكة لتخلد إلى الراحة ساعتها فقط يتذكرون أنهم بشر وأن لهم ماضى وحياة كانوا يحنون إليها ، يجلسون على أبواب الخيام يقول أحدهم للآخر: «ضم علينا» أى انضم لنا ويبدأون بسرد ذكرياتهم ... الأماكن التى جاءوا منها ثم يغنى كل منهم أغنية من قريته، ويدور الغناء في الحلقة حسب ترتيب الجالسين . ومع الوقت أخذت أغانى الضمة تكتسب تقاليد الأداء بحيث أصبحت فى النهاية تؤدى كطقس غنائى ، يبدأ أحد الجالسين بافتتاح الغناء الذى يكون عادة إما بموال أو أبيات غزل أشبه بالنسيب ، ثم يأتى الدور على الذى يليه فيغنى مقطع بلحن معين ، ثم يغنى الذى يليه مقطعا آخر على نفس اللحن، وهكذا حتى يصبح دور غناء شارك فيه جميع الجالسين [١١٦].

وبعد ذلك تطور الأمر وكان الجالسون يتبارون في ارتجال الكلمات وينظمونها فى أبيات مع إيقاع اللحن ويسمى ذلك تطور الأمر وكان الجالسون يتبارون فى إرتجال الكلمات ، وينظمونها فى أبيات، مع إيقاع اللحن ويسمى ذلك : «الدور المقسم».

وقد ورثت الأجيال التالية «الدور المقسم» ليس كمجموعة أغانى وإنما كأغنية واحدة، ولكنها تضم ملامح شتى من مختلف أنحاء مصر.

وشهدت حلقات الضمة فيما بعد غناء التراث الغنائى المصرى والعربى من الموشحات القديمة وشعر التصوف الإسلامى. وكان يستعان بوسائل بدائية قديمة وبسيطة لضبط الايقاع. وأغانى الضمة تسجل لنا بداية التفاعل بين السكان الجدد الذين وفدوا على بورسعيد من أماكن شتى فأنتج مجموع الأصوات صوتا واحدا، خرج به أولئك الناس من الحدود الفردية الضيقة إلى نطاق الجماعة، حيث ظهر الغناء كاستجابة لتفاعل الأفراد فيما بينهم وتفاعلهم مع الواقع المحيط به من ناحية أخرى .

السمسمية :

ظهرت آلة السمسمية لأول مرة في بورسعيد حوالي الثلاثينات من القرن العشرين واستطاعت هذه الآلة الموسيقية الشعبية البسيطة، أن تطلق فنون الإبداع الشعبي تبلور الوجدان الجماعي لسكان المدينة، وهي تشبه إلى حد كبير آلة الطنبور المنتشرة في النوبة والصعيد، والتي تطورت بدورها عن آلة الهارب الفرعونية ، ولكنها أصغر حجما من الطنبور وهي تنتسب إلى أبناء النوبة من الوافدين إلى المدينة. لكن مما ساعد على إنتشارها هو بساطتها في العزف ولها سلم موسيقي غير مدون ، كذلك بساطة الخامات المستخدمة فيها، بحيث يتاح لأي فرد أن يقوم بصنعها باستخدام بعض العصي والأسلاك وطبق معدني من أطباق الطعام(١١٧).

وأغاني السمسمية تفيض بوصف الحياة اليومية التي تمثل أغاني العمل مساحة كبيرة منها، وهي تعطي المهاجر البورسعيدي من قرى مصر الجسارة في مواجهة البحر، فهي أحيانا أشبه بترانيم للقناة مصدر عيشه ، وهو يروض بها البحر، كما يثأر لنفسه من خلالها ممن يضعون العقبات أمامه ، فهي أشبه بالتميمة التي كان يحملها الإنسان الأول أو التعويذة التي يتلوها للتغلب على قوى الطبيعة . وتبرز من خلال أغاني السمسمية ملامح الشخصية البورسعيدية التي يعتبر البمبوطي والصياد محورين أساسيين فيها.

ويتم غناء السمسمية في جماعات تسمى الصحبة «الصحبجية»، ويصاحبها الرقص الذي يتميز باللياقة والرشاقة ويمثل شريحة يوم كامل في حياة البمبوطي أو الصياد(١١٩).

كما ظهرت خلال فترة الاحتلال الإنجليزي الأغاني الوطنية التي عبأت الناس ضد الاحتلال والوجود الأجنبي، وربطت ذلك بالملاحقة اليومية له وقطع سبل عيشه .

وتحولت مشاعر الغربة (التي عاني منها جيل الآباء في أغاني الضمة أحيانا) إلى مشاعر اغتراب لدى جيل الأبناء من فناني السمسمية نتيجة لهذا الاحتلال(١٢٠).

وليس أبلغ هنا من صوت ابن البلد البورسعيدي وهو يشدو تحت وابل القنابل ليسمعه العالم كله بهذه الأغنية :

«إيدن و بن جوريون وجومولييه
جـايين يحـاربونا على إيه
هو القنال ده في أراضيهم
ولا إحنا خدناه منيهم»(١٢١)

السينما :

وجدت ببورسعيد العديد من دور العرض السينمائى الأجنبى والعربى، فعلى سبيل المثال نجد سينما باتييه Pathe والتى انشأها الأخوان مانولى و ينى تروفيلدس وبعد ذلك أطلق عليها اسم «سينما ماجيستك».

وتوضح محاضر مجلس بلدى بورسعيد[١٢٢] أن محمد أفندى عثمان صاحب «سينما عثمان» تقدم للمجلس بتصريح له ببناء غرفة تحت البواكي لوضع ماكينة السينما توغراف ، وعرفت بعد ذلك بسينما ، ومسرح الكزموغراف المصرى، والتى ظلت تذكرة الدخول لها إلى ما قبل هدمها تقل عن القرش صاغ بمليم واحد ، حتى لاتخضع للضرائب .

وكان الكثير يدخلونها مجانا . وفى أول عهدها كانت تستضيف فرق القاهرة أمثال سلامة حجازى وجورج أبيض ونجيب الريحانى وعلى الكسار وأمين صدقى[١٢٣].

كذلك نجد أن صالة الفرقة الموسيقية «مارجيتا» تحولت إلى سينما ريو[١٢٤] وقد تم إنشاء عدد من دور السينما فضلا عن التى أنشأها الأجانب ووصل عدد دور العرض السينمائى ١٥ دارا للعرض [١٢٥].

الإذاعة :

انشاء كامل محمود فى فبراير ١٩٣٠ استوديو لأول إذاعة أهلية فى بورسعيد تحت اسم «محطة أمير الصعيد» بلغ تكاليف إنشائها ٢٠٠ جنيه، وهى محطة لها موجة ترددية على الهواء مباشرة وعلى موجة متوسطة طولها ٩٠ كيلو سيكل، وكان يعتمد فى تمويلها على الإعلانات التجارية لمختلف الأنشطة للأفراد والشركات وأيضا للمناسبات والحفلات للمصريين. وكان سعر إذاعة الإعلان قرشين لمرة واحدة، ولمدة دقيقة، وخمسة قروش للإعلان ثلاث مرات منها مرتان خلال فترة المساء والسهرة ، وكان الاشتراك فى تلك الإذاعة بمبلغ عشرة قروش شهريا ، ويمكن للمشترك الاستماع لاسطوانة واحدة يوميا لأحد مشاهير الطرب والغناء فى ذلك العصر مثل محمد عبد الوهاب وصالح عبد الحى ومنيرة المهدية والآنسة أم كلثوم .

وكانت البرامج اليومية دينية وثقافية وأدبية ورياضية ، ويبدأ إرسال الفترة الصباحية فى السادسة صباحا بتلاوة آيات الذكر الحكيم يليه رأى الدين لأحد العلماء ، وتستمر الفترة الصباحية حتى الثانية بعد الظهر. أما الفترة المسائية وتبدأ فى الخامسة وتنتهى عند منتصف

الليل وتختم بالسلام الملكى. وكانت هذه الإذاعة تبث إرسالها لمدن القناة الثلاث بالإضافة إلى دمياط . وكانت المذيعة حياة عارف تتولى إذاعة الفترة الصباحية، أما المذيع خليل جويد فيتولى الفترة المسائية.

وفوجئت جميع محطات الإذاعة الأهلية بالقطر المصرى بإنذار من وزارة المواصلات بأن توقف هذه الإذاعات إرسالها فى يوم ٢٩ مايو ١٩٣٤ لتبدأ الإذاعة الحكومية المصرية أول إرسال لها يوم الخميس ٣١ مايو عام ١٩٣٤ بصوت المذيع يقول «هنا القاهرة»(١٢٦).

المتاحف :

رأت البلدية ببورسعيد أن تعمل على إنشاء متحف ببورسعيد تمده مصلحة الآثار بمختلف الآثار المصرية لتكون منه نموذجا مصغرا لآثار مصر عبر العصور الفرعونية والإسلامية والقبطية كما يشمل معرضا للوحات الزيتية من صنع فنانى مصر وآخر زراعيا لمختلف منتجاتها الزراعية (١٢٧).

وعلى ناصية شارع النصر نجد منزل رزق الله وهذا المنزل ارتبط بإنشاء أول متحف فى تاريخ بورسعيد ففى جلسة ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ عرض رئيس المجلس البلدى (المحافظ محمود صدقى بك) رغبة مصلحة الآثار المصرية فى مد المجلس البلدى (بالأنتيكات) اللازمة للمتحف المزمع إنشاؤه بالدور الأرضى فى منزل (الخواجة) رزق الله وبجلسة ٨ يوليو ١٩٢٢ وافق أعضاء المجلس البلدى على طبع دليل باللغات : العربية والإنجليزية والفرنسية وبجلسة ٥ مايو سنة ١٩٢٣ المنعقدة برئاسة المحافظ (حسن مظلوم بك) وعلى أثر افتتاح المتحف تم تعيين لجنة إدارية برئاسة رئيس المجلس سعادة حسن مظلوم بك وعضوية مهندس مصلحة الآثار وأعضاء المجلس البلدى والمسيو سيمونينى والدكتور سكوفويلو وإبراهيم أفندى لهيطة والدكتور على أفندى البحراوى.

وبجلسة ٨ سبتمبر ١٩٢٣ تليت المذكرة التالية (أن كثيرا من السياح يجدون أن أجرة المتحف هى خمسة قروش كثيرة جدا فلا يدخلونه ومن جهة أخرى فإن التراجمة يهملون عمدا إرشاد السياح إلى المتحف لأنهم يفضلون الذهاب بهم إلى المحلات التى تعطى للتراجمة عمولة، فقرر القومسيون أن تخفض أجرة الدخول إلى قرشين ونصف أو ستة بنسات ، وأن تعط للتراجمة مكافأة)(١٢٨).

ولم يستمر المتحف طويلا فى منزل رزق الله، إذ نقل إلى أول شارع النهضة بمبنى الغرفة التجارية[١٢٩].

الصالونات الثقافية والفنية:

أولا ـ الأجنبية :

عند تقاطع شارع دى لسبس بشارع فرعون (١٣٠) يقابلنا «مقهى اللوفر» وأعلاه نادى الجالية الفرنسية، التى كان لها نشاط فى الاحتفالات والندوات والمحاضرات، فنظمت محاضرة لأمين متحف اللوفر بباريس (الأب دو بورجيه) Pere du Bourget عن التاريخ المصرى القديم بصفة عامة والفن المصرى القديم بصفة خاصة ، وكذلك النسيج فى العصر القبطى، وتخلله عرض بالشرائح الزجاجية الملونة عن روائع الفن المصرى القديم ، الموجود بمتحف اللوفر بباريس [١٣١]. كذلك نجد نادى الرابطة الفرنسية Alliance L' Francaise ، وكان عميد الجالية الفرنسية طبيب الأسنان د. جوتير (Dr. Gautier) وكان لهذه الرابطة نشاط ثقافى راقى، فكانت تنظم المحاضرات وتقيم المعارض فمثلا فى ٢٠ مارس ١٩٥١ افتتح عبد الهادى غزالى بك[١٣٢] المعرض الخاص بالرسامين الفرنسيين العالميين خلال القرن التاسع عشر . وفى ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ ألقى البروفيسور زيوجين (Ziogien) وهو أستاذ محاضر بجامعة الإسكندرية ، محاضرة عن فلسفة الكاتب الفرنسى جان بول سارتر [١٣٣]. أما بالنسبة للنشاط الثقافى للجالية الإيطالية ، فنجد أن جمعية «دانتى اليجيرى» ببورسعيد وهى إيطالية قد نظمت محاضرات كان يقوم بإلقائها الدكتور Lugi Duri وهى محاضرات فى ٩ فبراير ١٩٥٢ و١٢ مايو ١٩٥٢ عن تاريخ بورسعيد[١٣٥].

وبالنسبة للجالية المالطية نجد أن ناديها الثقافى وكان يسمى «بالنادى المالطى» : (Mul-tese Club) وكان يقع بجوار سينما ماجستيك وكان من أشهر نوادى الجاليات الأجنبية فى بورسعيد . وعقدت فيه الندوات الثقافية وفى ٥ أغسطس من كل عام كانت هذه المنطقة تعج بجمع غفير من أبناء الجالية المالطية بالإضافة إلى لفيف من أبناء الجاليات الأخرى الذين يحضرون الاحتفال بالعيد الوطنى المالطى[١٣٦].

ثانيًا – الوطنية :

وبالنسبة للنشاط الثقافى الوطنى نجد أن محل الحاج سليمان كان منتدى لأهل الفكر والدين ويضم كوكبة من العلماء والشعراء مثل : الشيخ محمود حلبة وهو الرجل الموسوعى

وعميد الصحافة البورسعيدية والشيخ معوض إبراهيم (كبير مفتشى الوعظ والإرشاد بمنطقة القناة) والأستاذ على الألفى (شاعر القناة) والحاج عبده أبو الخير (من كبار تجار الخضر والفاكهة ببورسعيد) كانوا يلتقون كل يوم لقراءة ومناقشة كتاب من كتب الدين والآداب[١٣٧].

كذلك كانت المقاهى الوطنية أشبه بصالونات ثقافية، فنجد «مقهى الاتحاد» [١٣٨]، قـد افتتحه «محمد أفندى» سمى بمقهى الاتحاد نسبة إلى شعار حزب الوفد الذى كان ينادى بوحدة عنصرى الأمة ، من مسلمين وأقباط . وثبت صاحب المقهى صورة كبيرة للزعيم سعد زغلول نظرا لأن أغلب روادها من مؤسسى حزب الوفد . وكان رواد هذا المقهى من رجال الأعمال بالإضافة إلى رجال الفكر والأدب البورسعيدى كشاعر القناة على الألفى ومحمد شردى (مراسل صحيفة المصرى) والأديب عبد الهادى الحديدى. كما كانت مقرا لرؤساء النادى المصرى وعلى رأسهم الحاج عوض فقوسة[١٣٩].

وعلى أية حال يمكن لنا إيجاز الحركة الثقافية الوطنية فى بورسعيد فى الآتى:

أولاً : هذه الحركة الثقافية التى تطورت ونمت داخل المدينة كانت تسير فى رافدين: حركة المثقفين والثقافة الشعبية المحلية، كانتا تهدفان إلى تجسيد أبعاد الشخصية المحلية والقومية فى مواجهة الوجود الأجنبى وتأكيد هويتها .

ثانيًا : بروز وتطور شعور المقاومة- نتيجة الوجود الأجنبى- فقد عبر عن نفسه من خلال الفنون الجماعية ذات الاتصال المباشر بالجمهور، أكثر من الفنون الفردية، إذ ظهر المسرح والأغنية الشعبية الجماعية عن باقى الأشكال الثقافية الأخرى.

ثالثًا : ارتبطت حركة المثقفين بإنشاء المؤسسات الثقافية وقد اقتبست أشكال تلك المؤسسات من الجاليات الأوروبية ، وإن كانت ذات مضامين وتوجيهات وطنية فى حين أن الثقافة الشعبية قد خلقت أشكالها الخاصة، فقد لاقت أغانى «الضمة القديمة والسمسمية» إقبالا واسعا ، فى حين أن أغانى «البيانولا» التى كانت منتشرة بالمدينة أثناء وجود الجاليات الأجنبية حتى فى المناطق الشعبية قد اندثرت برحيل الأجانب.

رابعًا: ارتبطت حركة المثقفين بالأبعاد القومية من خلال ارتباطها بالحركة الثقافية فى مصر بشكل عام وبرزت فيها الأبعاد المحلية خلال فترات الحروب وتصاعد المقاومة، فى حين أن الثقافة الشعبية التى جسدت الأبعاد المحلية كانت تبرز فيها الأبعاد القومية خلال تلك الفترات.

خامسا : لم يكن هناك انفصال بين حركة المثقفين وبين الثقافة الشعبية المحلية ومبدعيها ، حيث يوجد مبدعين يمثلون حلقة اتصال بين الجانبين، وتتدرج إبداعاتهم بين استيعاب الحركة الثقافية للمثقفين والتعبير التلقائي الشعبي، وهم مؤثرون بدرجة كبيرة داخل المدينة ومنهم عدد من شعراء السمسمية وفنانيها.

العلاقة بين الأجانب والمصريين ببورسعيد:

يتحدث البعض عن صدام- الحضارات - ولكننا نجد فى هذه المدينة تعايشًا للحضارتين والثقافتين الأوربية والمصرية ، جنبًا إلى جنب على مدى قرن من الزمان- هى فترة الدراسة- فقد أخذت كل واحدة من الأخرى بقدر ما تسمح به العادات والتقاليد.

فقد أقام الأجانب فى الحى الإفرنجي ببورسعيد ، وأقام المصريون بقرية العرب ببورسعيد، كما ذكرنا من قبل . وإذا عقدنا مقارنة بين كل من مركز الأجانب والمصريين ببورسعيد ، لوجدنا أن الأجانب قد تمتعوا بكافة الامتيازات وبحماية قناصلهم وتأييدهم. أما المصريون فكانوا فى مركز يلى الأجانب الذين توفرت لهم أيضًا كافة أسباب الحياة الكريمة والرفاهية بدرجة أكبر من المصريين.

ولم يكن الأجانب يلتزمون بالقوانين والأوامر والتعليمات ، بينما نجد أن المصريين كانوا أكثر التزامًا. لذلك كان إحساس المصريين فى بورسعيد أنهم مواطنون من الدرجة الثانية فى الوقت الذى اعتبر الأجانب أن بورسعيد هى بلدهم لما يتمتعون به من مميزات ومكانة اجتماعية وخدمات تفوق ما يتمتع به الوطنيون(١٤٠).

وكان الوطنى إذا أراد الذهاب لحى الأفرنج يقول لزميله : «أنا طالع حى الأفرنج» وإذا اتجه لحى العرب يقول: «أنا نازل حى العرب».

ورغم انفصال المدينة إلى حيين متميزين- كما سبق وأوضحنا- إلا أنه كانت هناك اتصالات واحتكاكات بين الأجانب والمصريين . فهناك ظاهرة زواج طبيب مستشفى بورسعيد وهو مصرى من فتاة نمساوية طبقًا للشريعة الإسلامية. وقد أثبت الطبيب فى طلب الزواج موافقة الزوجة وموافقة أسرتها أيضًا.

كذلك أعلنت إحدى السيدات المسيحيات إسلامها برضاها ورغبتها. ومع ذلك لايمكن القول أن امتزاج الأجانب والمصريين كان بصورة كبيرة ، فقد ظل المصريون وأبناء العرب يقيمون

فى قرية العرب يمارسون فيها حياتهم وعاداتهم ومعيشتهم كما كانت من قبل فى موطنهم الأصلى، بينما أقام الأجانب فى الحى الأفرنجي وعاشوا حياة شبيهة بحياتهم فى بلادهم الأصلية . وقد ظلت قرية العرب بعاداتها وتقاليدها مثاراً لإعجاب الكثير من الأجانب وخاصة السياح (١٤١).

من جانب آخر نلاحظ كثرة حوادث اعتداء الأجانب على المصريين وأبناء العرب ببورسعيد. ومن أمثلة ذلك تعدى بعض اليونانيين على حمال مصرى وعدم تسديد أجرته وكذلك التعدى على مؤذن مسجد بورسعيد وعلى بعض صغار التجار، وتعدى إيطالى على فتاة مصرية بالسكين . ولم يكن الاتصال بوكلاء القناصل يفيد بشئ لصالح المعتدى عليهم، فضلاً عن عدم معاقبة المعتدين فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية والتسلط القنصلى .

وامتدت هذه الاعتداءات فشملت مستخدمي الحكومة المصرية من العسكريين والمدنيين، فحدثت حوادث اعتداء كثيرة من بعض اليونانيين والفرنسيين والإيطاليين وغيرهم على قواصة بورسعيد وعلى غفر السواحل وعلى مستخدمى الجمارك (١٤٢).

كما نجد أن موظفي شركة قناة السويس من الفرنسيين- فى ظل الترف الذى نعموا به- وقد اتسمت تصرفاتهم بالعنجهية والترفع إزاء المصريين(١٤٣).

ظاهرة أخرى تمثلت فى توافد أعداد هائلة من السياح الأجانب على مدينة بورسعيد، وكان بمثابة احتكاك حضارى وثقافي بين الوافدين وأهل المدينة. وهكذا أصبح ثغر بورسعيد ملتقى الأجناس البشرية من مشارق الأرض ومغاربها . فكان الممر الرئيسى ليس فقط لتجارة الشرق والغرب بل أيضاً لحركة الركاب بين الشرق والغرب (خلال فترة الدراسة) (١٤٤).

فالسفر بالسفن كان هو الوسيلة الوحيدة بين القارات حتى منتصف القرن العشرين إلى أن نافست الطائرة السفينة فى حركة نقل الركاب بين الشرق والغرب .

وكانت بورسعيد محطة رئيسية ينزل فيها الركاب من كل الأجناس ، يمضون فيها الليل انتظاراً لعبور سفنهم فى الصباح ، وكان الآلاف من الركاب يستمتعون بقضاء وقتهم فى هذه المدينة التى نافست ميناء نيويورك فى حركة السفن بها طوال العام(١٤٥).

وعندما تقترب السفينة من ميناء بورسعيد يقع نظر الركاب على أول مبنى على ناحية شارع السلطان حسين وشارع كتشنر، وهو مبنى كازينو بورسعيد الفخم ، حيث توفرت فيه

جميع أسباب الراحة. كذلك يطالعهم متجر «سيمون أرزت» وفندق «مارينا بالاس» ومكاتب شركة قناة السويس ذات القباب الثلاث واستراحة ضباط الأسطول البريطاني لشرق البحر المتوسط ومبنى قسم الميناء الجديد ببورسعيد [١٤٦]، وفندق «أيسترن اكتستشنج» أو البيت الجديد الواقع عند تقابل شارع فؤاد الأول بشارع أوجيني [١٤٧].

وبعد أن يخرج الركاب من أبواب الجمرك يتجهون إلى شارع الأمير فاروق الذى كان يعرف باسم «شارع التجارة» حيث يجدون أمامهم مكتب التلغراف فيتسابقون إليه لإخطار ذويهم باتجاهاتهم أو بمحمل وصولهم. وبعد ذلك ينسون فى زحام الشوارع . وهنا تجد أصحاب المتاجر وهم ينادون هؤلاء السياح بكل لغات العالم فى أبواق مضخمة للصوت، فهذا صاحب مكتبة يدعو لمكتبته باللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية واليونانية، حسب ما يتوسمه فى جنسية هؤلاء السياح .

وهذا بائع صحف يصيح بأعلى صوته مقاربًا لبيع جرائده ، وذاك ينادى على أدوات الكتابة وآخر على الملابس وآلات التصوير ، وذلك يبيع نظارات مكبرة وهنا مصنوعات شرقية، وهناك صراف يستبدل العملة الأجنبية بعملة محلية. وبعد عبور هذا الضجيج الذى تختلط فيه جميع اللغات تصل إلى تقاطع شارع فاروق بشارع فؤاد الأول حيث توجد مشارب البيرة ومقاهى من الدرجة الأولى يستريح فيها السياح لبعض الوقت ويتناولون شيئًا من المرطبات . وتوجد فى كل هذه المقاهى فرق موسيقية تعزف أحدث الأدوار الموسيقية بأشجى الأنغام جذبًا للزبائن.

وتتعدد أخلاط السياح ، فنجد الهندى السابح فى أحلامه وبجواره الصينى بعيونه الصغيرة البراقة وبجواره اليابانى وبجواره الطالب الأنامى فى طريقه إلى جامعات باريس وبرفقته زميله الطالب المالیزی المبعوث إلى الجامعة الأزهرية بالقاهرة.

كما تجد أيضًا السائح الأمريكى وقد أحاط به الباعة والصيارفة والأدلاء والحمالون وبجواره الأوربى المشدوه أمام مناظر الشرق الآخاذة.

هنا يبدأ تعارف الشرقى بمقدمات الحضارة الغربية ، ويبدأ تعارف الغربى بمقدمات الحضارة الشرقية، فتتلاشى قوة الصدمة التى تنتج عن الانتقال الفجائى بين الشرق والغرب.

تلك هى خاصة بورسعيد التى تتميز بها عن سائر المدن بعد أن أصبحت محطة أساسية للخطوط الملاحية ولخطوط سفن الركاب على وجه الخصوص [١٤٨].

وكان ملوك مصر وأمرائها وكبار رجالاتها يفضلون السفر من ميناء بورسعيد عن السفر عن طريق ميناء الإسكندرية. فكانت أول زيارة رسمية للملك الشاب فاروق الأول ببورسعيد فى ٢٧ مارس ١٩٣٧ عندما توجه لأوربا ترافقه والدته الملكة نازلى وشقيقاته الأميرات، حيث زار إيطاليا وفرنسا وسويسرا وكان فى استقباله ببورسعيد محافظ القناة (محمد السيد شاهين بك) وأعيان بورسعيد(١٤٩).

العبور الليلى للسفن فى قناة السويس:

ظلت قناة السويس منذ افتتاحها للملاحة العالمية (١٨٦٩) وحتى عام ١٨٨٦ تخضع لنظام الملاحة نهاراً فقط. ولكن فى عام ١٨٨٦ تم تزويد السفن بكشاف فى مقدمتها Projector لينير لها الممر الملاحى ونجحت التجربة وكان ذلك بمثابة ثورة فى حركة الملاحة بالقناة، وكان لذلك أثره الفعال اقتصادياً وسياسيًا على مجريات الأمور، وتهدئة الصراع بين الشركة وعملائها والحكومة البريطانية بسبب التأخير فى عبور السفن فقد كان المعدل الزمنى لعبور السفن القناة فى عام ١٨٨١ هو ٤٥ ساعة و٥٣ دقيقة ، وارتفع إلى ٥٣ ساعة ، ٤٦ دقيقة عام ١٨٨٢ بسبب القيود الصحية التى فرضها الحجر الصحى . وكانت السفن تفقد ١٠ ساعات فترة الانتظار الليلى، وهو متوسط الليل فى مصر . إلا أنه فى عام ١٨٨٦ بعد تطبيق نظام العبور الليلى بلغ المتوسط الزمنى لعبور القناة ٢٠ ساعة و٤٢ دقيقة وهذا يمثل نسبة خفض قدرها ٤٢٪ من زمن العبور.

إلا أن هذا العبور السريع أثر فى نفس الوقت على أصحاب الحوانيت فى بورسعيد ، ذلك أن ركاب السفن لم يعودوا فى حاجة إلى قضاء الليل فى الشرب بالميناء فى انتظار العبور بالقناة . كذلك أضر بتجارة البمبوطية وزاد من الحوادث الملاحية لقوارب الأهالى(١٥٠).

الهوامش

١- عبد العزيز الشناوي، السخرة في حفر قناة السويس (عصر سعيد) ، ص٥١ .

٢- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ص٢١٨ .

٣- Sabri, M., Bey L'Empire Egyptienne sous Ismail et L'ingerence Anglo francaise. Paris 1933 , p. 207 .

٤- عبد العزيز الشناوي، السخرة في حفر قناة السويس (عصر اسماعيل) ص٤١٥ .

٥- فؤاد فرج، مرجع سابق ص٢١٨ .

٦- قام دى لسبس بتجميع أبناء جزيرة كاسوس اليونانية فى منطقة واحدة عرفت بحارة الكاشوتية فى جزء من شارع محمد علي- راجع : ضياء الدين ، بورسعيد ص١٤٨ .

٧- ضياء الدين، بورسعيد ص٧٨ .

٨- ضياء الدين، بورسعيد ص١٤٧ .

٩- مدير جريدة Phar Port Said .

١٠- ضياء الدين، المرجع السابق ، ص١٥٨ .

١١- ولدت سنة ١٨١٩ وجلست على العرش ١٨٣٧ وتوفيت ١٩٠١ .

١٢- وهى تابعه لشركة المساجيرى ماريتيم الفرنسية.

١٣- Charles Roux, L'Isthme et le Canal de Suez t . 2. Paris 1901 . p. 335-336 .

١٤- نحات فرنسي (١٨٢٤-١٩١٠) .

١٥- روبير سوليه ، مصر ولع فرنسي ص٢٦٩ .

١٦- Charles Roux, t. 2 . Op. cit. pp. 338-341 .

١٧- أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن ج٢ سلسلة تاريخ المصريين العدد رقم ٨٤ ، ص ص٣١٤-٣١٥ .

١٨- المرجع السابق، ص٣١٦ .

١٩- فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره ص ص٢٢٦-٢٢٧ ، وانظر الرسم بملحق الدراسة .

٢٠- روبير سوليه ، مصر ولع فرنسي ص٢٧٠ .

٢١- السيد حسين جلال، قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي ص ص٢٣٩-٢٤٣ .

٢٢- عبد العزيز الشناوي وجلال يحيي، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف، ١٩٦٩ ، ص٦١١ .

٢٣- جلسة مجلس بلدى بور سعيد فى ٢٢ / ٩ / ١٩٣٢ وكان الماجور هدسون (من الجيش الاسترالى).

٢٤- ضياء الدين، مرجع سبق ذكره ، ص١٣٧ .

٢٥- المرجع السابق .

٢٦- ضياء الدين، الأطلس التاريخي. الطبعة الثالثة ، ص ص١٠٥-١٠٦ .

٢٧- بيير سوليبه . مصر ولع فرنسي ص٣١٨ .

٢٨- المرجع السابق .

٢٩- المرجع السابق .

٣٠- يعرف الآن باسم : الثلاثينى أو شارع سعد زغلول .

٣١- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ص٢٣٥ .

٣٢- ضياء الدين، مرجع سبق ذكره ص٨٨ .

٣٣- مرجع سابق ص١٤٨ .

٣٤- إن هذا النوع من التعليم قد بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها فى الشرق وفى مصر خاصة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثونكسية فى مصر لرياستها ، وكذلك بذلت الأرساليات الدينية البروتستنتية مجهودات كبيرة لتحويل أقباط مصر إلى البروتستنتية (فى القرن التاسع عشر) . راجع جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص١٥ .

٣٥- ضياء الدين، موسوعة تاريخ بور سعيد ص٦٥ .

٣٦- راجع كل من : أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى مصر، القسم الثانى، ص٨٤٦ ، جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص١٣٩ وزين العابدين، بورسعيد ص٣٤٦-٣٤٧ .

٣٧- زين العابدين ، بورسعيد ص٢٤٧ وأحمد عزت عبد الكريم ، مرجع سبق ذكره ص٨٤٦ .

٣٨- زين العابدين ، بورسعيد ص٢٤٧-٢٤٨ .

٣٩- سلامة جرجس، التعليم الأجنبي في مصر ص١٤٤-١٥٤ .

٤٠- المرجع السابق ص١٥٤ .

٤١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٤٨ .

٤٢- المرجع السابق.

٤٣- المرجع السابق ص٣٤٨-٣٤٩ .

٤٤- المرجع السابق ص٣٤٩ .

٤٥- المرجع السابق ص٣٥٠ .

٤٦- جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص٥٢ .

٤٧- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٥١ .

٤٨- عبد الفتاح تركى وآخرون، تاريخ التعليم في مصر، ص١٣٢-١٣٣ .

٤٩- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٥١ .

٥٠- المرجع السابق ص٣٥٢ .

٥١- وهو مدير البنك العثمانى فى بورسعيد .

٥٢- وهو يعمل صراف بشركة قناة السويس.

٥٣- وكيل ملاحى.

٥٤- وكيل مؤسسة اللويدز الألمانية ببورسعيد .

٥٥- زوجات السادة كوفيو وفرنشيس وهاسيه وباينيه روتز برج وراتشيوتى .

٥٦- I . Dorini . Eltimsah . pp. 31-32 .

٥٧- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ص٣٥٢-٣٥٣ .

٥٨- المرجع السابق ص٣٥٤ .

٥٩- المرجع السابق.

٦٠- وهو مدير شركة ليبون الخاصة بالإنارة فى بور سعيد .

٦١- I. Dorini . Eltimsah. Op. cit . p. 32 .

٦٢- أمين سامى ، التعليم فى مصر ص٦٦ ، ٧٩ .

٦٣- زين العابدين ، مرجع سبق ذكره ص٣٥٦ .

٦٤- المرجع السابق ص٣٥٩ .

٦٥- المرجع السابق ص٣٥٩- ٣٦٠ .

٦٦- المرجع السابق ص٣٦٠ .

٦٧- أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ص٣١٧-٣٥٤ .

٦٨- حسين واصف باشا الذى نسب إليه اسم المدرسة .

٦٩- ضياء الدين حسن القاضى ، بورسعيد ص١١٩ .

٧٠- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٦٣ (نقلا عن وثائق القلعة) .

٧١- وهو إمام جامع القرية ، وهو عالم فاضل .

٧٢- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٦٣ .

٧٣- جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص٣٨ .

٧٤- إحصائية وزارة التربية والتعليم عام ٥٧ / ١٩٥٨ الملحق الإضافى ١١٠١ .

جرجس سلامة ، أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر (١٨٨٢-١٩٢٢) ، ص٢٣٤ .

٧٥- R . Gault . the Conflict of French Educational Philosophies in Egypt . pp. 6-8 .

٧٦- وهى لسان حال سلطات الاحتلال .

٧٧- جريدة المقطم بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٩٠ .

٧٨- جريدة المقطم فى ٢١ نوفمبر ١٨٩٠ .

٧٩- عبد الفتاح تركى وآخرون ، تاريخ التعليم فى مصر ص١٦٨ .

٨٠- المرجع السابق ص١٦٨-١٦٩ .

٨١- المرجع السابق ص١٦٩ .

٨٢- روبير سوليه ، مصر : ولع فرنسى، ترجمة لطيف فرج . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٣٩١ .

٨٣- المرجع السابق ص٣١٩ .

٨٤- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٦٧ .

٨٥- I. Dorini . Eltimsah . Port- Said aprés, L, inaugeration du canal du Suez (1869-1900) . p. 32 .

٨٦- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد، ص٣٧٠-٣٧١

٨٧- I . Dori . Op. cit .

٨٨- زين العابدين ، بورسعيد ص٣٧٢-٣٧٣ .

٨٩- I. Dori . Op. cit . p. 32 .

٩٠- زين العابدين ، بورسعيد ص٣٧٣ .

٩١- المرجع السابق جرجس ٣٧٣-٣٧٥ .

٩٢- I. Dori , Op. cit. p. 32 .

٩٣- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص٣٧٦-٣٧٧ .

٩٤- المرجع السابق ص٣٧٧ .

٩٥- المرجع السابق .

٩٦- I. Dori, Op. cit. p. 32 .

٩٧- Ibid .

٩٨- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٣٧٩ .

٩٩- المرجع السابق ص٣٧٩-٣٨٠ .

١٠٠- سهام بيومي ، الثقافة في بورسعيد من المقومة إلى الانفتاح. مقالة في مجلة المنتدى الفكر ببورسعيد الكتاب الثالث (مارس ١٩٩٥) إصدار كلية التربية ببورسعيد.

١٠١- المرجع السابق ص٥٩ .

١٠٢- عبد العزيز الشناوى ، السخرة في عصر إسماعيل .

١٠٣- بدفتر ٢٧٨ وثائق عابدين رقم ٣٥٩ ، ٣٧٢ ، ٤٠٠ في ٢ ، ١١ ، ٥ صفر سنة ١٢٨٨هـ - و٨ صفر سنة ١٢٩٥هـ .

١٠٤- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص٣٨١ .

١٠٥- المرجع السابق ص٣٨١ .

١٠٦- حاليا أعلى محل أبونكرى للأسماك .

١٠٧- ضياء الدين ، بور سعيد ص١٦٣ .

١٠٨- المرجع السابق ص١٢٦ .

١٠٩- وزير الداخلية آنذاك.

١١٠- سهام بيومي، مرجع سابق ذكره ص ص٥١-٥٢ .

١١١- الآن يسمى ميدان المنشية.

١١٢- فؤاد فرج ، منطقة القناة ص ص٢٣٤-٢٣٥ .

١١٣- Lugi Dori, Op. cit. pp. 34-35 .

١١٤- نسبة إلى المحافظ حسين واصف .

١١٥- ضياء الدين، بورسعيد ص١٣٧ .

١١٦- سهام بيومي مرجع سبق ذكره ص ص٥٢-٥٣ .

١١٧- المرجع السابق ص ص٥٣-٥٤ .

١١٨- المرجع السابق .

١١٩- المرجع السابق ص ص٥٤-٥٥ .

١٢٠- المرجع السابق ص٥٥ .

١٢١- المرجع السابق ص٥٩ .

١٢٢- محضر مجلس بلدى ببور سعيد بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٢٠ .

١٢٣- ضياء الدين ، بورسعيد ، ص١٥٩ .

١٢٤- المرجع السابق ص١٢٨ .

١٢٥- سهام بيومي ، مرجع سبق ذكره ص٥١ .

١٢٦- ضياء الدين ص ص١٦٢-١٦٣ .

١٢٧- فؤاد فرج ص٢٤٢ .

١٢٨- ضياء الدين ص١٣٦-١٣٧ .

١٢٩- المرجع السابق ص١٣٧

١٣٠- راجع أسماء الشوارع القديمة وأسماءها الحالية من البحث.

١٣١- ضياء الدين ، مرجع سابق ذكره ص١٥٩ .

١٣٢- محافظ القناة.

١٣٣- ضياء الدين ، مرجع سابق ص١٢٦ .

١٣٤- كان والده يعمل مترجما لدى دى لسبس .

١٣٥- Lugi Dori . Op. cit . p. 28 .

١٣٦- ضياء الدين، بورسعيد . مرجع سبق ذكره ص١١١ .

١٣٧- المرجع السابق ص١٥٩ .

١٣٨- كان يقع في شارع الهلالية .

١٣٩- ضياء الدين ، بورسعيد ص١٦٣ .

١٤٠- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ، ص ص٩٥-٩٦ .

١٤١- المرجع السابق ، ص٩٩ .

١٤٢- المرجع السابق ، ص ص٧٦-٧٧ .

١٤٣- جاك بيرك ، مصر الإمبريالية والثورة ، ترجمة يوسف شاهين ، ص٢٣٨ .

١٤٤- راجع جدول حركة عبور الركاب عبر قناة السويس في فترة الدراسة في ملحق البحث.

١٤٥- بلغت أعداد السفن التي كانت تعبر القناة ٢٠,٠٠٠ سفينة سنوياً .

١٤٦- وهو جوازات الميناء حالياً .

١٤٧- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس، ص ص٢٢٩-٢٣٠ .

١٤٨- لمزيد من التفاصيل عن الخطوط الملاحية التي تعبر قناة السويس، راجع للمؤلف كتاب: الصراع الدولي حول استغلال قناة السويس (١٨٦٩-١٨٨٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ص٨٥-١٠٥ .

١٤٩- ضياء الدين ، بورسعيد ، ص١٤٠ .

١٥٠- Bullétin Decadaire , No . 532 , 22 September, 1886 .

مراجع البحث

أولاً : المراجع العربية :

١- أحمد شفيق باشا، مذكراتى فى نصف قرن (جـ٢)، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢- د. أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر إسماعيل ، مكتبة النصر، القاهرة، ١٩٤٥ .

٣- د. السيد حسن جلال ، قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢-١٩٠٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٨٠ ؛ ١٩٩٥ .

٤- د. السيد حسن جلال ، الصراع الدولى حول استغلال قناة السويس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٥- جاك بيرك، مصر .. الإمبريالية والثورة ، ترجمة يونس شاهين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،. القاهرة ، ١٩٨٧ .

٦- د. جرجس سلامه ، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة، ١٩٦٣ .

٧- د. جرجس سلامه ، أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر (١٨٨٢-١٩٢٢)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (ط١) ، ١٩٩٦ . .

٨- روبير سوليه ، مصر : ولع فرنسى، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٩ .

٩- د. زين العابدين شمس الدين نجم ، بورسعيد (تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

١٠- سهام بيومى، الثقافة فى بورسعيد ، الكتاب الثالث، كلية التربية ببورسعيد ، مارس ١٩٩٥ .

١١- ضياء الدين حسن القاضى، موسوعة تاريخ بورسعيد ، ط١ ، مطبعة المستقبل ببورسعيد ، ١٩٩٧ .

١٢- ضياء الدين حسن القاضى ، الأطلس التاريخى لبطولات شعب بورسعيد عام ١٩٥٦، ط٣ ، مطبعة المستقبل ببورسعيد .

١٣- د. عبد العزيز محمد الشناوى، السخرة في حفر قناة السويس (عصر سعيد) منشأة المعارف بالاسكندرية ، ط٣ ، ١٩٦٦ .

١٤- د. عبد العزيز محمد الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس (عصر اسماعيل، ١٩٥٢) .

١٥- د. عبد العزيز محمد الشناوى ، د. جلال يحيى ، وثائق ونصوص - التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .

١٦- د. عبد الفتاح إبراهيم تركي وأخرون ، تاريخ التعليم فى مصر، مطبعة جامعة طنطا ، (بدون تاريخ) .

١٧- د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٧ .

١٨- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس (المجلد الثانى) ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٩٤ .

ثانيًا - المراجع أجنبية :

1- Charles Roux , L'isthme et la Canal de Suez T.2, Paris 1901 .

2- R. Gault , The Conflict of French Educational Philosophies in Egypt.

3- Sabri, M. Bey , L'Empire Egyptienne sous Ismail et Ingerence Anglo-Francaise . Paris , 1933 .

ثالثا : دوريات عربية :

- جريدة المقطم .

رابعًا - دوريات أجنبية :

1- Eltimsah , Lugi Dorini , Port Said aprés L'inaugeration du Canal du Sues. (1869-1900) .

2- Le Canal De Suez, Bulletin Décadaire de la Compagnie Universlle du Canal Martime de Suez.

ملاحق البحث

بيان بأسماء شوارع بورسعيد القديمة والأسماء الحديثة

الأسماء القديمة	دلالاتها	الأسماء الحديثة
Rue Des Dames	شارع السيدات	شارع ممفيس
بوليفار دى بورت *	شارع الميناء	شارع فؤاد الأول وحاليا شارع الجمهورية
شارع البولانجيرى	شارع المخابز	شارع القسطنطينية
شارع لاسييرى	شارع ورشة الخشب	شارع رمسيس
شارع دى سيركل	شارع الدائرة أو شارع النادى	شارع فرعون
شارع ارسينال	شارع الترسانة	شارع اسماعيل
شارع اوجينى	(امبراطورة فرنسا)	شارع صفية زغلول
دولا ديفيزيون	شارع التفتيش أو القسم	شارع سعيد
شارع بابل	لم يتغير	شارع بابل
شارع التجارة	————	شارع فاروق وحاليا النهضة
كيه دى نورد	الرصيف الشمالى	شارع دى لسبس وحاليا سعد زغلول
كيه دى سيد	الرصيف الجنوبي	شارع الإسكندر الأكبر
ميدان دى لسبس	————	ميدان سعد زغلول

* هذا الشارع هو الشارع الرئيسى بالمدينة وأسماء الفرنسيون هكذا ليذكرهم بمدينة مرسيليا .

(حركة الركاب فى قناة السويس)

(١٨٧٠-١٩٥٤)

السنة	عدد الركاب	السنة	عدد الركاب	السنة	عدد الركاب
١٨٧٠	٢٦,٧٥٨	١٨٩٨	٢١٩,٥٥٤	١٩٢٦	٢٨٦,٤٣٢
١٨٧١	٤٨,٤٢٢	١٨٩٩	٢٢١,٣٣٢	١٩٢٧	٣٤٠,٣١٨
١٨٧٢	٦٧,٦٤٠	١٩٠٠	٢٨٢,٥١١	١٩٢٨	٣١٧,٧١٨
١٨٧٣	٦٨,٠٣٠	١٩٠١	٢٧٠,٢٢١	١٩٢٩	٣٢٥,٨٥٥
١٨٧٤	٧٣,٥٩٧	١٩٠٢	٢٢٢,٥١٣	١٩٣٠	٣٠٥,٢٠٢
١٨٧٥	٨٤,٤٤٦	١٩٠٣	١٩٦,٠٢٤	١٩٣١	٢٧٠,٦٥٧
١٨٧٦	٧١,٨٤٣	١٩٠٤	٢١٠,٩٨٠	١٩٣٢	٢٦١,٧٧٤
١٨٧٧	٧٢,٨٢٢	١٩٠٥	٢٥٢,٦٩١	١٩٣٣	٢٥٣,٩٤٠
١٨٧٨	٩٩,٢٠٩	١٩٠٦	٣٥٣,٨٨١	١٩٣٤	٢٦٢,١٢٢
١٨٧٩	٨٤,٥١٢	١٩٠٧	٢٤٣,٨٢٦	١٩٣٥	٦٢٥,٤٦٥
١٨٨٠	١٠١,٥٥١	١٩٠٨	٢١٨,٩٦٧	١٩٣٦	٧٨١,٩٢٩
١٨٨١	٩٠,٥٢٤	١٩٠٩	٢١٣,١٢٢	١٩٣٧	٦٩٧,٨٠٠
١٨٨٢	١٣١,٠٦٨	١٩١٠	٢٣٤,٣٢٠	١٩٣٨	٤٧٩,٨٠٢
١٨٨٣	١١٩,١٧٧	١٩١١	٢٧٥,٢٥٩	١٩٣٩	٤١٠,٥٢٣
١٨٨٤	١٥١,٩١٦	١٩١٢	٢٦٦,٤٠٣	١٩٤٠	١٦٧,٨٠٥
١٨٨٥	٢٠٥,٩٥١	١٩١٣	٢٨٢,٢٣٥	١٩٤١	١٤,١٢٤
١٨٨٦	١٧١,٤١١	١٩١٤	٣٩١,٧٧٢	١٩٤٢	٥٩٠
١٨٨٧	١٨٢,٩٩٧	١٩١٥	٢١٠,٥٣٠	١٩٤٣	١٧٣,٢٦٩
١٨٨٨	١٨٣,٨٩٥	١٩١٦	٢٨٣,٠٣٠	١٩٤٤	٤١٨,٨٣٢
١٨٨٩	١٨٠,٥٩٤	١٩١٧	١٤٢,٣١٣	١٩٤٥	٩٨٣,٩٣٧
١٨٩٠	١٦١,٣٥٣	١٩١٨	١٠٥,٩١٤	١٩٤٦	٩٣٢,٠٠٧
١٨٩١	١٩٤,٤٦٧	١٩١٩	٥٢٧,٥٠٢	١٩٤٧	٥٨٧,١٣٥
١٨٩٢	١٨٩,٨٠٩	١٩٢٠	٥٠٠,١٤٧	١٩٤٨	٤٥٤,٨٦٤
١٨٩٣	١٨٦,٤٩٥	١٩٢١	٢٩٥,١٩٩	١٩٤٩	٦١٠,٩٥١
١٨٩٤	١٦٥,٩٨٠	١٩٢٢	٢٧٥,٠٣١	١٩٥٠	٦٦٤,٢٨٤
١٨٩٥	٢١٦,٩٣٨	١٩٢٣	٢٤٦,٣٣١	١٩٥١	٥٨٨,٩٤٧
١٨٩٦	٣٠٨,٢٤٣	١٩٢٤	٢٦٣,٨٦٩	١٩٥٢	٥٧١,٤١٦
١٨٩٧	١٩١,٢١٥	١٩٢٥	٢٦٩,٥٢٢	١٩٥٣	٥٥٤,٠٩٣
				١٩٥٤	٥٣٧,٩٧٦

المصدر كل من :

Paul Raymond , Histoire De la navigation dans le canal de suez . le Caire. 1956, p. 247 .

Hallberg , W. charles ., The Suez Canal . its history and diplomatic importance .

London. 1931 , p. 351 .

د. مدحت محمد عبد النعيم (*)

الأزمة السياسية اللبنانية عام ١٩٤٣

ظهرت في تاريخ لبنان الحديث أزمات سياسية عديدة ولكن تبقى أزمة عام ١٩٤٣ أهم تلك الأزمات وأبعدها أثرا في تاريخ لبنان .

كان اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية سببا في إحداث تغييرات شاملة بالنسبة للوضع في كل من سوريا ولبنان ، فقد عملت فرنسا على تقوية جيش الاحتلال في كل من البلدين، وعينت ويجند قائدا للقوات الفرنسية في منطقة الشرق الأوسط وأطلقت يده حرة في التصرف في شئون المنطقة مما يؤمن مصالح فرنسا .

وكان على المندوب السامي الفرنسي في لبنان أن يأمن جانب الشعبين السوري واللبناني حتى يؤمن موقف فرنسا في المنطقة ولذلك فقد أوقف العمل بالدستور وحكم لبنان حكما مباشرا .

وازداد الموقف تعقيدا بالنسبة لفرنسا بدخول إيطاليا الحرب في يونيو عام ١٩٤٠ بجانب ألمانيا، مما جعل فرنسا تعيد النظر في موقفها سواء داخل أراضيها نفسها أو بالنسبة لدولتي الانتداب- على ضوء هذه التطورات - وكانت التطورات سريعة بالنسبة لفرنسا نفسها، فقد احتل الألمان باريس في الشهر التالي لدخول إيطاليا الحرب وقامت حكومة فيشي الموالية لألمانيا .

---

* أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر - كلية التربية جامعة قناة السويس.

وبالرغم من المحنة التى كانت تواجهها فرنسا ومن احتلال أراضيها نفسها أعلن الجنرال منتل هوزو بأنه لن يحدث أى تغيير فى وضع الأراضى الواقعة تحت الانتداب الفرنسى وأن العلم الفرنسى سيظل مرتفعا فى هذه الأراضى وأن فرنسا ستستمر فى تأدية رسالتها فى سوريا ولبنان .

وقد كان لهذا التصريح أثره السيئ فى نفوس شعبى سوريا ولبنان مما قد يؤثر تأثيرا سيئا على موقف الحلفاء فى المنطقة ، خاصة وأن سياسة إنجلترا فى ذلك الوقت كانت ترمى إلى محاولة جذب الشعور الوطنى إلى جانب الحلفاء وتكوين جبهة ضد تغلغل نفوذ دول المحور[١].

وكانت بداية الخلاف بين إنجلترا وفرنسا (حكومة فيشى[٢]) بسبب السياسة التى أخذت السلطات الفرنسية تعمل على تنفيذها وهى سياسة معادية فى الوقت نفسه لمصالح إنجلترا . ولم يكن أمام إنجلترا إلا أن تعمل منفردة وبوحى من مصلحتها الخاصة دون النظر إلى أى اعتبار آخر، فأصدر الوزير البريطانى المقيم فى القاهرة فى يوليو ١٩٤٠ تصريحا استنكر فيه تصريح الجنرال هوز وأكد فيه أن إنجلترا لن تقف مكتوفة الأيدى إزاء أى تدخل من دول المحور فى سوريا ولبنان، وأوضح الوزير البريطانى فى تصريحه أن سياسة بريطانيا تجاه البلدين هى ترك الحرية التامة لهما فى أن تتخذ الموقف الذى يلائم مصلحتهما دون الإضرار بمصلحة الحلفاء ، بما فى ذلك الاستقلال على ألا تتاح الفرصة لألمانيا لأن تتخذ منها قاعدة لضرب إنجلترا .

وكانت نتيجة هذا الخلاف بين إنجلترا وفرنسا إتاحة الفرصة لازدياد نفوذ الدعاية الموالية لدول المحور ووضع فرنسا فى مركز حرج . وبدأت نظرة الشعب تتبلور وتتقلب من نظرة رهبة واحترام إلى نظرة عدم اكتراث وعداء لدولة احتلته وحجرت على حريته، وفى الوقت نفسه تريد أن تبقى على سلطانها وهيبتها فى أراض غير أراضيها التى تحتلها فى نفس الوقت سلطات أجنبية[٣].

وفى ١٨ أبريل عام ١٩٤١أعلنت حكومة فيشى انسحابها من عصبة الأمم ، وبذلك فقدت فرنسا (الشرعية) حقها (الشرعى) فى أن تكون دولة منتدبة على سوريا ولبنان ، وفى ٢٢ يونيو (حزيران) عام ١٩٤١ وفى غابة كومباين Compiegn وقعت كل من فرنسا وألمانيا الهدنة بعد أن هزمت فرنسا هزيمة منكرة، وتضمنت شروط الهدنة التى قبلتها حكومة بيتان Petain[٤] عددا من المواد كان أهمها :-

١- وقف الأعمال الحربية للقوات الفرنسية اعتبارا من ١١ يوليو .

٢- دخول القوات المتحالفة سوريا ولبنان وتجميع قوات دانتز فى نطاق محدد حتى يحين سفرها .

٣- تحتفظ هذه القوات بأسلحتها دون ذخيرة، أما القطع الحربية الثقيلة فتوضع تحت تصرف القوات البريطانية .

٤- لضمان إطلاق سراح الأسرى البريطانيين ستبقى عدد من الضباط الفرنسيين التابعين لفيشى من بينهم دانتز نفسه (٥).

أثارت شروط الهدنة الجنرال ديجول الذى اعتبر هذه الاتفاقية عملية تسليم بسيطة ومجردة لسوريا ولبنان إلى البريطانيين وأنها لاتتوافق مع المصالح السياسية والعسكرية لفرنسا ، ورفضت التصديق عليها لأنها لم تتضمن أى ذكر لقوات فرنسا الحرة، ولأنها وضعت الأسلحة التى كانت بعدة فيشى بأيدى البريطانيين ولم تسلم للسلطات الديجولية.

وأسرع ديجول إلى القاهرة فى ٢١ يوليو يعلن أنه غير ملتزم باتفاقية الهدنة وأنذر الكابتن ليتلتون بفصل قواته بصورة تامة فى القوات البريطانية .

وفى ٢٤ وافقت الحكومة البريطانية على مطالب ديجول فعدلت اتفاقية الهدنة باتفاقية تفسيرية من ٩ بنود أتاحت للضباط الديجوليين مجالا أوسع لعرض وجهة نظرهم أمام قوات فيشى ووضعت الأسلحة المصادرة والقوات الخاصة تحت إمرة كاترو.

وفى أواخر أغسطس اقترح دانتز إطلاق سراح الضباط البريطانيين ورحل عن البلاد فى ٤ سبتمبر ١٩٤١، وما أن انتهت العمليات العسكرية حتى نسى ممثلو فرنسا الحرة وعودهم بإنهاء الانتداب وعمدوا إلى وضع معاهدة قريبة من صيغة الانتداب ووقفت بريطانيا إلى جانب فرنسا رغم إقرارها بحق البلاد بالاستقلال إلا أنها احتفظت لفرنسا الحرة بأحقية التفاوض مع الهيئات المحلية دون غيرها من الجهات الأجنبية الأخرى.

كذلك كانت تدرك بريطانيا خطورة تبعية لبنان إلى حكومة فيشى وخطورة التواجد الألمانى فى الشرق خاصة من النواحى الاستراتيجية والعسكرية(٦)، لذلك حدثت الرغبة المشتركة عند الفرنسيين الأحرار وبريطانيا للتدخل العسكرى بمهاجمة لبنان وطرد فيشى منها وإزاحة النفوذ الألمانى، فى الوقت الذى لم يكن فيه الفرنسيون الأحرار بزعامة ديجول راغبين فى ترك المجال لبريطانيا للعمل وحدها .

وفى البداية أعد الفرنسيون خطة للتدخل ولكنهم وجدوا أنها غير ممكنة التطبيق لقلة ما لديهم من قوات فقد أدركوا أن التواطؤ بين فيشى والألمان لم يثر حركة واسعة وسط القوات الفرنسية فى الشرق الأدنى وهو أساس الخطة الفرنسية، وأن الذى حدث فقط أن بضع مئات من القوات الخاصة ، وبشكل خاص اجتازت الفرسان الشركس بقيادة الكولونيل كوله Collet الحدود الجنوبية وانضمت للفرنسيين الأحرار فى فلسطين التى كانت تحت قيادة الجنرال الفرنسى الديجولى ليجنتيل هوم Legentil Homume [٧].

ولذلك ولعدم إمكانية تطبيق المشروع الفرنسى كان لابد من إشراك البريطانيين وتم أخيرا الموافقة على خطة فرنسية- إنجليزية مشتركة يقوم بتنفيذها الجنرال ويلسون Henry Mait-land Uilson [٨]، وفى ٢٥ مايو (أيار) ١٩٤١ أخبر ويفل Wavel وزارة الحربية البريطانية أنه جهز خطة للعمل فى لبنان وسوريا [٩].

وفى ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤١ شرعت قوات الحلفاء بغزو لبنان وسوريا ، وكانت فى مجموعها مؤلفة من قوات بريطانية مع قوات استرالية وهندية وقوات فرنسية حرة. وفى اليوم نفسه الذى تحركت فيه هذه القوات التى كانت فى معظمها بريطانية ، أعلنت الحكومة البريطانية أنه بالرغم من تحذيرها السابق والواضح فى أول حزيران فإن حكومة فيشى تابعت سياستها فى التعاون مع دول المحور فوضعت المطارات تحت تصرف الألمان ولذلك فإن الحكومة البريطانية لن تتسامح حول هذا العمل ولاتستطيع السكوت عنه [١٠].

دامت الحرب حوالى شهر ونصف بدأت فى حدود مرجعيون والناقورة وضربت بيروت عدة مرات بقنابل الطائرات ووجه الرئيس نقاش كتابا إلى الجنرال دانتيز يطلب منه إعلان بيروت مدينة مفتوحة كى لاتضرب بالقنابل [١١]، ولم تحدث أية مقاومة خلال الأسبوع الأول فالطابور الساحلى أخذ صور واتجه إلى ما بعدها ، ولكن فى ١٦ حزيران قامت قوات فيشى بهجوم معاكس استعادت فيه مرجعيون ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد استعيدت مرجعيون والمناطق المحيطة بها ووصلت نجدات من العراق كما وصلت نجدات أخرى من البحر[١٢].

وزاد من صعوبة موقف دانتز أن المساعدة التى كان بحاجة إليها عن طريق حكومة فيشى كانت محدودة هذا حسب ما يقوله لونج ريج بأن الألمان الذين غزوا روسيا فى ٢٢ حزيران ١٩٤١ فقدوا المصلحة فى لبنان وسوريا ولذلك ظهر أن المساعدة الألمانية الخارجية غير ممكنة فى الوقت الذى أصبحت فيه قوات فرنسا الفيشية ضعيفة نتيجة للخسائر الفادحة التى تعرضت لها .

لقد تأكد لدانتز فى ٢٢ حزيران عبث المقاومة فطلب من القنصل الأمريكى فى بيروت (فان انجهرت Van Englrt) معرفة شروط الهدنة من بريطانيا ، وفى ٨ تموز (يوليو) ١٩٤١ طلب دانتز وقف إطلاق النار مع القائد البريطانى ويلسون وتسلم شروطه فى اليوم التالى ، ولكن هذه الشروط لم تقبل من فيشى على أساس ما جاء فيها من شروط سياسية(١٣) وأنها لم تقبل المفاوضة مع رجال فرنسا الحرة وعلى رأسهم ديجول ، وفى ١٥ تموز دخلت جيوش الحلفاء بيروت واحتلت المراكز العسكرية فى المدينة.

النتائج السياسية للوجود البريطانى فى لبنان عام ١٩٤١:-

فى اليوم الذى بدأت فيه القوات العسكرية اجتياح لبنان أسقطت الطائرات منشورين أحدهما بإمضاء الجنرال كاترو Catraux ممثل الجنرال ديجول فى القاهرة ، ومما جاء فيه . «بأن فرنسا ذات التقاليد المجيدة تعد بإنهاء عهد الانتداب وضمان الحرية والسيادة للبنانيين» وختم هذا المنشور بالنص التالى «لقد أزفت ساعة عظمى فى تاريخكم ، وأن فرنسا بصوت أبنائها الذين يحاربون من أجل حياتها ومن أجل حرية العالم تعلن استقلالكم»(١٤).

أما المنشور الثانى فقد كان عبارة عن بيان وقعه مايلز لامبسون Milies Lampason السفير البريطانى فى القاهرة وجاء فيه «أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية فوضته بأن يعلن تأييد ضمان الاستقلال الذى أعطاه الجنرال كاترو Catroux بالنيابة عن الجنرال ديجول واشتراكها به»(١٥).

وكانت بريطانيا ترغب فى أن تتم صياغة هذين البيانين فى بيان واحد وذلك عندما عرضت الوثيقة الفرنسية على شكل مسودة على مكتب وزارة الخارجية البريطانية بحيث يأتى على شكل ضمان بريطانى لكن ديجول رفض ذلك وأجاب «بأن بريطانيا تستطيع نشر ضمانها بالطريقة التى تناسبها ولكنه لايحبذ وضع إعلان بريطانى مع الإعلان الفرنسى ويتعجب لماذا تصر قوة أخرى على ضمان وضع دول تابعة للانتداب الفرنسى»(١٦).

وفى رسالة بعث بها تشرشل إلى ديجول يقول فيها «أنه ليس لإنجلترا مآرب خاصة فى الإمبراطورية الفرنسية ، ولاتريد مطلقا أن تجنى فائدة لها من حالة فرنسا المحزنة، ثم رحب فى رسالته بقرار الجنرال ديجول بمنح لبنان الاستقلال ، وأشار إلى الضمانة البريطانية وما فيها من قوة وأبدى حرصه على تجنب كل ما يهدد الاستقرار فى المشرق ووجوب صنع كل شئ مستطاع لتحقيق آمال العرب ورغباتهم(١٧).

وفى ٢٤ حزيران أصدر الجنرال ديجول أوامره بتعيين الجنرال كاترو Catroux مندوبا ساميا عاما ومفوضا وقائدا عاما فى الشرق وبذلك حل محل الجنرال دانتيز وهذا التعيين كان الهدف منه تثبيت الفرنسيين الأحرار لوجودهم السياسى فى لبنان وإعطائه صورة جديدة تختلف عن ذلك الوجود الذى كان مرتبطا بحكومة فيشى وعلى أساس أن كاترو Catroux يمثل تمثيلا حقيقيا ذلك الوجود الجديد .

ولكن كانت عند الفرنسيين الأحرار ومنهم كاترو Catroux الرغبة فى وضع قواعد معينة تنظم العلاقات الجديدة التى أصبحت قائمة فى لبنان على أثر التواجد البريطانى والمتعلق بالنواحى العسكرية والسياسية ومن أجل ذلك جرت مراسلات بين ديجول وليتلتون Oliver Lyttelton وزير الدولة البريطانى فى مصر، وقد اتفق على تسمية هذه المراسلات باتفاق ديجول ليتلتون، وقد جاءت فيه أمور عسكرية وسياسية وأهم ما جاء فى هذا الاتفاق هو قبول الفرنسيين للتواجد البريطانى مع اعتراف بريطانيا بالوضع الخاص والمميز لفرنسا فى لبنان مع تعهد الدولتين باستقلال لبنان (١٨).

وفى ٨ من يونيو عام ١٩٤١ وأثناء زحف القوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة لاحتلال لبنان وتخليصها من حكومة فيشى أعلن الجنرال كاترو قائد قوات فرنسا الحرة انتهاء نظام الانتداب وأن كل شعب مستقل له سيادته وأمامه فرصة العمل أما أن يتحدوا فى دولة واحدة وإما قيام دولتين منفصلتين ، وسوف يكرس هذا الاستقلال بمعاهدة يضمن فيها المصالح المتبادلة . ولكى يعطى الجنرال كاترو بيانه شكلا قويا وسندا يقبله المواطنون فقد أكد بأن الحكومة البريطانية بالاتفاق مع فرنسا الحرة قد ضمنتا للبلدين كافة المزايا التى يتمتع بها العالم الحر الذى يقف بجانبها ، وعلى ذلك فإن الحصار المضروب حول البلدين سوف يرفع(١٩).

وأثبتت الأحداث التى تلت ذلك التصريح أن فرنسا قد تراجعت منذ بداية استقرار جنودها فى لبنان عن الموقف الذى اتخذته فى يونيو وكان على إنجلترا أن تساند سياستها مرة أخرى وتقف فى صف الاستقلال فأعلنت بيانا يؤكد هذا الموقف .

ولم يقتصر أمر إعلان استقلال سوريا ولبنان على الجانب الفرنسى فقط، بل كان على إنجلترا وهى صاحبة القوة أن تثبت وجودها فى أمر جوهرى خطير كهذا ، لذلك سارع السير مايلز لامبسون سفير بريطانيا فى القاهرة فى ٩ يونيو ١٩١٤ بإذاعة بيان باسم الحكومة البريطانية أنها تؤيد وتدعم الاستقلال والتأكيد التى أعلنته فرنسا .

وفى ٢٦ تشرين الثانى (نوفمبر) أعلن كاترو Catroux استقلال لبنان وبعض ما جاء فى هذا الإعلان «أن فرنسا تتعهد بالمحافظة على سلامة لبنان ووحدة أراضيه وأنها ستضمن استقلال البلاد فى إطار مشروع معاهدة ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التى رحب بها اللبنانيون فيما مضى، ثم قام كاترو Catroux بتعيين الفرد نقاش فى أول كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه رئيسا للجمهورية، وكان النقاش قد عين فى هذا المنصب من قبل الجنرال دانتيز، وفى الوقت نفسه تألفت وزارة برئاسة المهندس أحمد الداعوق ، وقد اختلفت هذه الوزارة عن سابقتها بأنها تضمنت منصبا وزاريا للشئون الخارجية وأعطى هذا المنصب لحميد فرنجيه[٢٠].

ولكنه لم يلبث أن استقال بعد الأزمة الغذائية الحادة فى ٢٢ يوليو ١٩٤٢ لعجزه عن إيجاد حل مرضى لمشكلة الإعاشة أو وقف ارتفاع الأسعار مما أدى إلى إقفال عام للمخازن صباح يوم ١٦ يوليو وحصول اشتباكات فى ذلك النهار وقد وضع بيار الجميل الحكومة أمام خيارين أما أن تجد الطحين أو ترحل وتولى الوزارة سامى الصلح [٢١].

وهكذا اجتمعت مقتضيات الحرب على فرنسا أن تتبع سياسة التأجيل التى لم تقتضيها الشعوب المحلية خاصة بعد إعطاء وعود محدودة بالاستقلال والسيادة ويعتبر البعض أن إعلان ٨ يونيو (جاء فى إعلان ٨ يونيو الموجه إلى أهالى سوريا ولبنان «أنه سوف يتاح لكم أن تشكلوا دولتين مستقلتين أو أن تتحدوا فى دولة واحدة) حول انتهاء الانتداب قد أضاع الفرصة من فرنسا لتعزيز وضعها وإعادته إلى ما قبل ١٩٣٩ .

ولم يعجب اللبنانيون تمسك فرنسا بمركزها الممتاز أو عودتها إلى تطبيق السياسة السابقة والتى تشير إليها بوضوح تصرفات المندوب السامى بجمع الصلاحيات فى يده خاصة وأن فرنسا ١٩٤١ المنهارة والمنقسمة على نفسها والخارجة من عصبة الأمم هى غير فرنسا ١٩٣٦ التى رضى الشعب اللبنانى أن يوقع معها اتفاقية لم توافق عليها هى فى ذلك الوقت .

ولقد اعترفت الدول رسميا ولأول مرة باستقلال لبنان وكان فى مقدمة هذه الدول بريطانيا التى عينت فى فبراير ١٩٤٢ الجنرال سبيرس وزيرا مفوضا لها فى لبنان وسوريا والذى جعل بيروت مقرا لعمله، كما عينت الولايات المتحدة الأمريكية السيد وود سورث معتمدا سياسيا الذى صرح بعد تقديم أوراق اعتماده الرسمية إلى رئيس الجمهورية الفرد نقاش فى نوفمبر «يمكن لسوريا ولبنان الاعتماد على دعم الولايات المتحدة للحصول على استقلالهم التام»[٢٢].

ثم كان الاعتراف البريطاني السريع باستقلال لبنان خاتمة المطاف في عام ١٩٤١ وقد جاء هذا الاعتراف على شكل رسالة تهنئة من الملك جورج السادس George VI إلى الرئيس اللبناني على أساس أنه رئيس دولة مستقلة بتاريخ ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١ . وهذا الاستقلال المعلن واعتراف الدول به لم يكن يكتمل معناه ما دامت فرنسا تفرض على لبنان قيودا سياسية تمنعه من تحقيق أمانيه .

وفي ٢٩ أبريل ١٩٤٢ بعث كاترو إلى حكومة فرنسا الحرة برقية جاء فيها «الخطة الوحيدة التي يمكن معالجة الأوضاع بها تتمثل في إعادة الأوضاع الدستورية كما كانت عليه عام ١٩٣٦ دون إجراء الانتخابات التي يطالب بها سبيرس والتي ستتيح للعملاء وللمال الأجنبي فرصا عديدة للسيطرة على الأحداث » . لذلك رأى كاترو بالعودة لرئاسة اميل إده والمجلس النيابي المكون من ١٢ عضوا فرصة تسمح له بإقرار معاهدة ١٩٣٩ .

أحداث لبنان السياسية عام ١٩٤٢ :

دعمت بريطانيا اعترافها السابق بتعيين الجنرال إدوارد سبيرس Edward Spears كأول وزير بريطاني مفوض لدى الجمهورية اللبنانية والجمهورية السورية في شباط (فبراير) ١٩٤٢ والذي جعل من بيروت مقرا له ، وبقي سبيرس في هذا المنصب حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٤ .

والحقيقة فإن الخطوة البريطانية الأخيرة، الاعتراف الرسمي باستقلال لبنان وتعيين سبيرس، هذه الخطوة أدت إلى دعم الوجود السياسي البريطاني في لبنان بالإضافة إلى وجودها العسكري الذي بدا منذ ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤١ ، ثم أضافت إلى خطوتها السابقة خطوة أخرى وهي تعيين ضباط سياسيين في جميع المناطق اللبنانية مما زاد تأثير الوجود السياسي والعسكري البريطاني وبالتالي التأثير في كل الأحداث اللاحقة.

لقد أخذ يبرز شعور عام لدى اللبنانيين بأن الوجود الفرنسي في لبنان أصبح ضعيفا لذلك أخذ اللبنانيون يتجهون صوب بريطانيا لإنجاز ما تم الوعد به من استقلال خاصة وأن بريطانيا ضمنت تحقيق ذلك في بيان مايلز لامبسون وفي اعترافها الأخير بهذا الاستقلال[٢٣].

ولكن زاد من اتجاه اللبنانيين نحو بريطانيا أن واقع الحال في عام ١٩٤٢ بدا يثبت أن الفرنسيين لم يغيروا شيئا فهم مستمرون في تعطيل الحياة الدستورية ، ومستمرون في تعيين

رئيس الجمهورية والمجلس الوزارى فى ظل تعطيل الحياة النيابية ، وهذا كله يتنافى مع الاستقلال الذى أعلنوه ولذلك أحاط باللبنانيين شعور بخيبة الأمل ، وفى رأى سبيرس الوزير البريطانى المفوض فى بيروت والذى جاء فى رسالة سرية إلى وزير الدولة البريطانية فى القاهرة أن خيبة الأمل تلك تعود إلى فتور الهمة عند الرئيس اللبنانى نقاش والإدارة المحيطة به وخاصة الوزراء وأيضا إلى النقص الواضح فى البرهان على أن لبنان فعلا بلد مستقل وهذا الجانب مرتبط بالشك بحسن نية فرنسا.

وفى ظل هذا الوضع السياسى أخذت تظهر فى لبنان قضية إجراء الانتخابات وهذه القضية كانت المحك الرئيسى التى يمكن أن تبين مدى إمكانية صدق النية الفرنسية نحو تحقيق الوعود التى أطلقها الفرنسيون من أجل الاستقلال أو ما يمكن أن يطلق عليه إعادة الحياة الدستورية كهدف نحو تحقيق هذا الاستقلال .

لقد أثارت مسألة الانتخابات خلافا بين المفاهيم الفرنسية والبريطانية ، ففرنسا اعتبرت إجراء انتخابات مبكرة سيؤدى إلى فوز الوطنيين اللبنانيين وفيه إحراج لمركزها ، أما بريطانيا فكانت ترى العكس تماما فإجراء انتخابات ووصول الوطنيين إلى الحكم سيؤدى إلى هدوء الحالة والاتجاه الكامل نحو كسب الحرب كذلك أخذت السلطات الفرنسية تطرح أفكاراً بديلة عن الانتخابات .

أما اللبنانيون وعن طريق أحزابهم السياسية وهيئاتهم الوطنية فقد اعتبروا مسألة الانتخابات على أنها أمرا لابد منه ، لأنه عن طريق الانتخابات سيتم تشكيل حكومة دستورية تمثل الشعب، وكان أكثر هذه الأحزاب نشاطا فى هذا المجال الحزب الدستورى بزعامة بشارة الخورى وحزب النجادة بزعامة جميل عكاوى[٢٤].

ولما كانت هذه الأحزاب تدرك وجهة النظر البريطانية الداعية إلى إجراء انتخابات مبكرة فقد صاغت مذكرة وذلك فى ٤ أبريل (نيسان) ١٩٤٢ وقدمتها إلى الوزير البريطانى المفوض فى بيروت وجاء فيها «عدم رضاها عن الحالة السياسية الراهنة فى لبنان وطلب العودة إلى الحياة الدستورية القائمة على أساس إجراء انتخابات يتمخض عنها مجلس نيابى وحكومة دستورية ، وقام المفوض بدوره وبحث المسألة مع كاترو Catroux فى اليوم نفسه، ويقول الوزير البريطانى المفوض «أنه وجد ما كان يتوقعه وهو أن تحديد موعد للانتخابات قبل نهاية ١٩٤٢ سوف لن يحسن الأحوال السياسية ، لأن ذلك لن يسمح للحكومة بالاستمرار فى منصبها وأن أفضل ما يمكن عمله فى هذه الحالة هو إيجاد مجلس نواب معين [٢٥].

وإذا كانت مسألة الانتخابات هي القضية السياسية المطروحة فإن موضوع مصير الحكومة بدأ يطرح أيضا على بساط البحث والفرنسيون أنفسهم كانوا متأكدين بأن الحكومة في تشكيلها الراهن لن يطول عمرها في الحكم، ولذلك فإن حلها بدا قاب قوسين أو أدنى ، وفي مقابلة مع الوزير البريطاني المفوض أشار رئيس الجمهورية إلى أنه توجد إمكانية وشيكة الحدوث تقوم على أساس تشكيل مجلس وزارى جديد من ستة وزراء فقط (واحد لكل طائفة رئيسية) وأن كاترو Catroux يميل إلى استقالة الوزراء ، ولكنه يرغب في تشكيل وزارة جديدة مع بقاء رئاسته وربط رئيس الجمهورية موضوع التحديد لموعد الانتخابات بتشكيل مثل هذه الحكومة [٢٦].

استمرت ذيول هاتين المسألتين متلازمتين الانتخابات ومصير الحكومة مرتبط بهما كذلك الحالة الاقتصادية التي كانت سائدة في لبنان وبالوضع العسكرى العام خارج لبنان وخاصة في الشمال الأفريقي لقد أخذ بشارة الخورى تلك الأثناء يعمل بجهد كبير نحو لملمة صفوف حزبه وكسب المؤيدين له في بيروت وطرابلس ومجموعات أخرى صغيرة كانت قد بدأت تشكل نفسها أو تعيد تشكيل نفسها ، أو تعيد تشكيل صفوفها على أساس أن الانتخابات لابد قادمة أما أميل إده الرئيس السابق وزعيم الكتلة الوطنية، والمنافس الرئيسي لبشارة الخورى، فقد كان يعمل على دفع رئيس الجمهورية نحو تغيير الحكومة وحجته في ذلك أن تلك الحكومة فقدت ثقة البلاد، ويعلق الوزير البريطاني المفوض في تقرير للخارجية البريطانية على ذلك أن اده يؤيد تغيير الوزارة من أجل أن يزيد من نفوذه بوضع أعوانه في الحكومة الجديدة وبذلك يصبح في وضع أفضل للتأثير في مجرى الانتخابات القادمة .

ويضيف التقرير نفسه أن رئيس الجمهورية كان يعكف على وضع أحد بنود قانون الانتخابات موضع التنفيذ والذي يجيز له تعيين ثلث مقاعد مجلس النواب وانتخاب الثلثين عن طريق الاقتراع ، بالرغم من أن الحياة الدستورية كانت معطلة فإنه يميل إلى هذا الاتجاه حتى يقوى من موقفه داخل مجلس النواب القادم ، مع أن الشعور السائد عند الناس في لبنان بأنه لامجال لأعضاء معينين في مجلس نيابي في دولة مستقلة[٢٧].

ولم تقف تحركات رئيس الجمهورية في هذا المجال عند هذا الحد فقد حاول في ٢٢ أيار (مايو) ١٩٤٢ أن يقنع الضابط السياسي البريطاني سبيرس Spears بأن الانتخابات في حال إجرائها ستولد اضطرابا شعبيا ولن تقود إلى مجلس نيابي يمثل الشعب بصورة

صحيحة وإجابه سييرس Spears، بأن الانتخابات من وجهة النظر البريطانية ضرورية من أجل تنظيم وضع الحكومة وإعطاء صمام أمن للنقد الشعبي»[٢٨].

أن إجراء الانتخابات في لبنان وهذا هو رأى الوزير سيبيرس Spears حسب ما جاء في تقريره ستؤدى إلى زوال نقاش من منصبه لأنه مجرد إجراء مثل تلك الانتخابات - وهو ما تؤيده بريطانيا - سيفقده منصبه الرئاسي لفقدانه التأييد الشعبي شخصيا لضعف فرص انتخابه من قبل مجلس ينتخب بمجموعة من الشعب ومن هنا كان تأييده دائما لمجلس معين بكامله أو أن يعين ثلث أعضاء ذلك المجلس[٢٩].

وفي صيف عام ١٩٤٢ بدا موقف الحكومة اللبنانية ضعيفا فالرئيس اللبناني يحاول كسب شعبية شخصية له ووزير الخارجية حميد فرنجية يهدد بالاستقالة لفشله في نقل الصلاحيات من الفرنسيين إلى الحكومة ومصر العراق والولايات المتحدة لاتعترف باستقلال لبنان .

وفي يوم ١٦ تموز (يوليو) ١٩٤٢ حدث اضطراب شعبي منظم حيث أغلقت الحوانيت وتوقفت المواصلات وجرت مظاهرات قام بها الشباب وحصلت اضطرابات وأطلق البوليس النار ولكن لم تحدث إصابات، وحسب ما جاء في التقرير البريطاني الذي تعرض لهذا الحادث فإنه لم يتم التوصل إلى فاعليه ولكنه وصف بأنه كان عفويا شعبيا وأن سببه الرئيسي هو السخط الناجم عن النقص في خدمات التموين اللبنانية خاصة فيما يتعلق بتوزيع الطحين الذي تأخر توزيعه أياما في بيروت بالإضافة إلى ارتفاع الأسعار في الأسابيع الأخيرة بشكل لايمكن احتماله [٣٠].

لقد أدى هذا الحادث إلى سقوط الحكومة في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٤٢، وفي ٢٧ تموز تشكلت حكومة جديدة برئاسة سامي الصلح صهر رياض الصلح الوطني اللبناني المعروف، وكان قبل أن يشكل تلك الوزارة قد اتخذ خطوات كانت أهمها التحقق من أنه مقبول شخصيا من البريطانيين وبعد التأكد من ذلك باشر في تشكيل الوزارة ، ولكنه وجد أن الرئيس اللبناني والفرنسيين ثم البريطانيين قد أبدوا اعتراضات على بعض الأشخاص الذين رشحوا للاشتراك في وزارته وفي النهاية تم التفاهم على إزالة تلك الاعتراضات من الطريق فوضع القائمة التي تشكلت منها الوزارة[٣١].

وكان استقبال الوزارة في البلاد محبذا أكثر مما كان متوقعا خاصة شخصية سامي الصلح ففي يوم الجمعة ٣١ تموز تجمهر عدد كبير من الناس في الجامع الرئيسي لأداء صلاة

الجمعة ، وبعد الصلاة عبروا عن تأييدهم الحار لسامى الصلح، كما وصله سيل من برقيات التهنئة خاصة من طرابلس وجنوب لبنان(٣٢) .

ومن ناحية أخرى فقد وصل الجنرال ديجول فى بداية شهر آب (أغسطس) إلى بيروت، وأثارت زيارته بطبيعة الحال الاهتمام ، وفى أول اجتماع له مع الموظفين الفرنسيين الرسميين، أعاد إلى الأذهان تأكيد استمرار وجود الانتداب على لبنان وأثنى على جهودهم الناجحة فى دعم الوجود الفرنسى ، وكان هذا القول من ديجول أول تحد للحكومة الجديدة التى أبدت اعتراضها ولكنها لم تستطع توجيه أى احتجاج رسمى على ذلك لإدراكها أن رئيس الجمهورية لن يوافق على ذلك ، وفى مباحثات أجراها الوزير البريطانى المفوض مع ديجول ، اُستنتج أن الأخير لايرغب فى وضع تاريخ محدد لإجراء الانتخابات ، ثم ترك ديجول بيروت والحالة السياسية على حالها ولم يحدث حتى نهاية عام ١٩٤٢ ما يدل على تغيير فى المواقف الفرنسية(٣٣).

عودة الحياة الدستورية :

ولكن بمطلع عام ١٩٤٣ رجعت قضية الانتخابات تفرض نفسها، وفى ٢٤ كانون الثانى (يناير) ١٩٤٣ أصدر المسيو هيلو Hellew السكرتير العام فى بيروت ، بلاغا رسميا نيابة عن اللجنة الوطنية الفرنسية فى لندن جاء فيه بأن اللجنة مصممة على حماية استقلال لبنان وتعتقد بناء على مشاورات أجرتها مع الحكومة البريطانية أن تطور الحالة العسكرية تسمح بإعادة الحياة الدستورية وقد أعطيت الصلاحية إلى الجنرال كاترو Catroux عند عودته بأن يتخذ الخطوات المناسبة لتحقيق ذلك بعد التشاور مع الحكومة اللبنانية ومع الشخصيات المحلية الرئيسية(٣٤).

وبالرغم من عدم تحديد موعد للانتخابات وعدم معرفة القانون الذى سيتم بواسطته طريقة إجراء تلك الانتخابات فإن النشاط السياسى أخذ يدب فى لبنان بأشكال مختلفة وأساليب متعددة لصدور هذا البلاغ .

ففى ٢٦ كانون الثانى حاول رئيس الجمهورية حث رئيس الوزراء سامى الصلح على الاستقالة مع وزرائه على أساس أن تلك الاستقالة ضرورية للمصلحة الوطنية مع بقائه رئيسا للبلاد وتعيين حكومة محايدة تشرف على الانتخابات ، لكن رئيس الوزارة رفض ذلك وربط استقالته باستقالة رئيس الجمهورية لكنه على استعداد للتخلى عن منصبه إذا طلب منه

سلطات الحلفاء ذلك، وكان رأى الوزير البريطاني المفوض سبيبرس Spears مع رئيس الوزراء في وجهة نظره في الوقت الذى تنظر فيه ما تتمخض عنه المشاورات مع الفرنسيين وأبدى المسيو هيلو وجهة نظر تتفق مع وجهة النظر البريطانية [٣٥].

وعلى صعيد آخر فإن الإعلان عن عودة الحياة الدستورية أدى إلى نشاط سياسي عند الأحزاب المتعددة للتحضير لمعركة الانتخابات وتحاول إثارة الاهتمام الفرنسي أو البريطاني والدوائر الوطنية الممثلة بصورة خاصة في الكتلة الدستورية فقد كانت تحاول نشر الاعتقاد بأن وصولها للسلطة ينال رضى البريطانيين، وعلى الجانب الآخر فقد تدهور وضع رئيس الوزراء بشكل خطير فالاكليروس المسيحى يقف ضد سياسته ذات الاتجاه الإسلامى والبطريرك المارونى يدعم محاولات إقصائه وزعماء الطائفة السنية يعارضونه على أساس أنه فشل فى حماية المصالح الإسلامية[٣٦].

وفى ١٩ شباط (فبراير) عاد كاترو Catroux إلى بيروت وبدأت مشاوراته مع الشخصيات اللبنانية وأخذت الشائعات تنتشر حول ما سيقوم به ، هل سيعيد برلمان عام ١٩٣٩ ، وهل سيتم استبدال الحكومة الحالية بحكومة أخرى يتم تعيينها ؟ وفى أثناء ذلك أدرك كل من الرئيس اللبنانى ورئيس الوزراء أن منصبيهما فى خطر ، ولذلك أرسلا رسالة مشتركة إلى كاترو Catroux ونسخة منها إلى الوزير البريطانى المفوض سبيبرس Spears يحتجان فيها «على أساس المشاورات التى أجريت مع بعض السياسيين اللبنانيين الذين هم حسب رأيهم (أصحاب مصلحة) ولايوافقون على إعادة نواب ١٩٣٩ » ، وفى حديث لرئيس الجمهورية قال فيه «أنه كرئيس لدولة أعلن استقلالها فإنه لايقبل أن يجبر على الاستقالة ولن يفعل ذلك»[٣٧].

وبالرغم من تلك المعركة السياسية التى كانت تجرى بين الحكومة اللبنانية وكاترو Catroux فقد بدأت تتضح أهداف كاترو Catroux والطريقة التى سيعالج فيها الأمور الملحة، فبالنسبة للحكومة القائمة فإن هدف كاترو Catroux هو إقناع الرئيس اللبنانى بالاستقالة ويقوم بتعيين وزارة انتقالية قليلة العدد برئاسة فيليب بولص أو أيوب ثابت فى الوقت الذى يدرك فيه كاترو Catroux عدم إيمان غالبية اللبنانيين بالنظام الدستورى القديم والقائم على أساس تعيين ثلث النواب من قبل رئيس الجمهورية، كذلك وضع حلان أمام كاترو Catroux ، الأول يقوم على إعادة الحياة الدستورية مع نزع تلك الفقرات غير المرغوب فيها فى الدستور، والثانى إيجاد جمعية تأسيسية لسلطات تشريعية مع تحديد دور انعقادها لسنتين وخلال ذلك يتم تعديل الدستور[٣٨].

لقد أصبح واضحا أن هناك خلافا بين كاترو Catroux والرئيس اللبنانى وأن كاترو Ca-troux سيخطو خطوة مضادة لإيقاف تحركات رئيس الجمهورية وبالتالى لإفشال أهدافه ، كذلك فقد أصبح واضحا أن الاعتقاد الذى ظهر فترة حول إعادة المجلس النيابى القديم قد تبدد تماما نتيجة للاعتراضات البريطانية (٣٩).

أما الخطوة التي قام بها كاترو Catroux فقد تمت في ١٨ مارس (آذار) حيث أعاد العمل بالدستور المعطل منذ عام ١٩٣٩ مع استثناء تعيين ثلث الأعضاء من قبل رئيس الجمهورية وعين حكومة انتقالية من ثلاثة أعضاء فيها الدكتور أيوب ثابت رئيسا للدولة والحكومة ويساعده وزيران لإدارة البلاد حتى يتم إجراء الانتخابات في غضون ثلاثة شهور وهما خالد شهاب وجواد بولص . وقد جاءت هذه الخطوة بالاتفاق الكامل مع السلطات البريطانية والدليل على ذلك صدور بيان عن الوزير البريطاني المفوض سبيرس Spears في ١٩ آذار (مارس) أعلن فيه ترحيبه بالخطوة الفرنسية وهذا الترحيب أوجد شعورا بالارتياح بشكل عام لدى الأهالي(٤٠).

ومن المرجح أن الجهود البريطانية أسفرت عن نتائج أولية لمصلحة السياسية البريطانية في المنطقة، ففى آذار (مارس) ١٩٤٣ وقعت الأزمة الحادة بين الرئيس الفرد نقاش وبين المفوض كـــاترو Catroux وقد أوضح الرئيس اللبنانى كيفية اتفاق بريطانيا مع فرنسا من أجل انتخابات نيابية في لبنان رغم أن أجواء الحرب العالمية الثانية كانت لاتزال تسيطر على لبنان والمنطقة كما أن سليم تقلا ، بشارة الخورى، حبيبى أبوشهلا، أميل اده حضرا إلى كاترو Ca-troux وقالا له «باسم الحزبين الممثلين الآن أمامك نؤكد لك يا جنرال أننا مستعدون لأن نتعهد معك ونتعهد لك بتنفيذ برنامجك السياسى بشرط أن تسلمنا الحكم»(٤١).

وبالرغم من الاتفاق البريطاني- الفرنسي غير أن الصراع كان لايزال قائما بين السياستين بدليل أنه بعد عودة كاترو Catroux إلى لبنان كان في مقدمة هدفه استمالة الناخبين في سوريا ولبنان بواسطة مستشاريه وأتباعه المخلصين (٤٢).

وعلى ضوء المساومات البريطانية الفرنسية سلم دافيد David مندوب الجنرال كاترو Ca-troux في ١٨ مارس (آذار) ١٩٤٣ رسالة للرئيس الفرد نقاش طلب منه فيها أن يقدم استقالته رسميا من رئاسة الجمهورية ، ولكن الرئيس النقاش رفض الانصياع لطلب كاترو Catroux وظل رئيسا للجمهورية من الناحية الشكلية إلى الأول من سبتمبر (أيلول) ١٩٤٣ عندما قدم استقالته إلى المجلس النيابى الجديد (٤٣).

وفيما يتعلق بسامي الصلح رئيس الوزراء فقد قدم استقالته بمذكرة احتجاجية لكاترو Ca-troux في ١٥ مارس (آذار) ١٩٤٣ ومهما يكن من أمر فقد اختار كاترو Catroux النائب أيوب ثابت رئيسا للجمهورية على أن تكون رئاسته مؤقتة بهدف الإشراف على إجراء الانتخابات النيابية ينبثق عنها مجلس نيابي جديد يتولى بدوره انتخاب رئيس الجمهورية.

وكان الرئيس أيوب ثابت الذي تولى الحكم في ١٨ مارس (آذار) ١٩٤٣ من الأقليات المسيحية البروتستانتية وكان من جملة الأسباب التي أدت إلى اختياره كون كاترو Catroux يريد تحقيق أمنية المفوض السابق (بيو) الذي كان يتلهف لإقامة حكم مسيحي برئاسة بروتستانتي على غرار مذهبه [٤٤].

وكان الانطباع الذي كان سائدا في لبنان أن الحكومة الجديدة ذات اتجاه فرنسي، لكنها في نفس الوقت تنال الدعم من السلطات البريطانية وهذا جعلها مقبولة لدى الكثيرين مع وجود بعض الرافضين ، ومع ذلك فقد وجهت الانتقادات إلى سلطات الحلفاء لتنصيبها حكومة من ثلاثة أعضاء كانوا هم أنفسهم مرشحين للمجلس النيابي أو الرئاسة اللبنانية وبعضهم يسهل انقياده للتيار الفرنسي[٤٥].

ورغم أن عهد الرئيس كان قصيرا غير أنه كان مليئا بالاتجاهات الطائفية وبالمشكلات السياسية التي عمقت الهوة بين اللبنانيين، وكذلك أخذت التقارير الواردة من الأقاليم للمفوضية البريطانية في بيروت تشير إلى الانطباع السائد بأن الحكومة المؤقتة برئاسة ثابت ستقترح تأجيل الانتخابات وعلى الأقل لستة شهور وزيادة عدد النواب والتقليل من مناطق الانتخاب ، وأشارت تلك التقارير أيضا إلى إمكانية تدخل أعضاء الحكومة والمستشارين الفرنسيين في الانتخابات والضغط على الناخبين وكان ذلك يثير القلق عند الرأي العام والخوف من عدم حدوث انتخابات نظيفة وخاصة وأن أعضاء الحكومة يرشحون أنفسهم للانتخابات وبذلك أوجدوا الشبهة حولهم لأنه من المؤكد أنهم سيسيئون استعمال مناصبهم لترجيح كفتهم ، في الوقت الذي أخذ فيه المستشارون الفرنسيون في طرابلس وصيدا يتدخلون وبشكل صارخ في محاولات تشكيل قوائم انتخابية مؤيدة للفرنسيين.

وفي تلك الأثناء وصلت تقارير أخرى إلى بعثة الوزير البريطاني المفوض سبيرس Spears أشارت إلى اتساع تدخلات رئيس الدولة أيوب ثابت نفسه في تشكيل قوائم الانتخابات في المقاطعات والتي أوضحت أن طموحه للوصول إلى الرئاسة جعله ينغمس في مسالك غير

صحيحة وذلك لتأمين انتخاب نواب يؤيدونه في ترشيحه النهائي لرئاسة الجمهورية ، كذلك اتجهت جهوده بشكل خاص ضد المرشحين الأعضاء في الكتلة الدستورية التي تزعمها بشارة الخوري والذي كان يعده خصمه القوي في ترشيحات الرئاسة القادمة ولذلك وضع خطوات معينه لكبح نشاط الخوري وجماعته [٤٦].

ومما لاشك فيه أن قضية الانتخابات كانت تلقى الاهتمام الرئيسي من قبل السلطات البريطانية وهذا الاهتمام جعلها تضغط على الرئيس ثابت لتحمله على الموافقة على إجراء انتخابات مبكرة ، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ثابت في مؤتمر صحفي عقد في ٢٧ أبريل (نيسان) وذكر فيه «أنه مصمم على مقاومة الضغط البريطاني من أجل انتخابات مبكرة»[٤٧] ومن ثم أجرى الضابط السياسي البريطاني في ٤ أيار (مايو) محادثات مطولة مع ثابت بين له فيها الأسباب التي تجعل السلطات البريطانية تحبذ إجراء انتخابات مبكرة ، وفي اليوم نفسه تحقق ذلك الضابط من الموضوع من هيللو Helleu ليعرف وجهة النظر الفرنسية فوجده على اتفاق كامل معه في أن تكون الانتخابات مبكرة ، وبناء على ذلك وجه الوزير البريطاني المفوض رسالة إلى ثابت في ٥ (مايو) أشار فيها أنه سيقترح على هيللو Helleu وضع تاريخ محدد للانتخابات [٤٨].

لذلك أعطى البطريرك الماروني رأيه في موضوع الانتخابات وهو تأييده لانتخابات مبكرة حسب ما جاء في الصحف ، وأكد ذلك من خلال زيارة مجاملة قام بها للوزير البريطاني المفوض في ٦ أيار (مايو) لكنه ربط هذه الموافقة بوجوب أن يقوم المرشحون قبل خوض الانتخابات بالقسم على الإخلاص إلى فكرة استقلال لبنان وعزله عن الدول المجاورة له لكن الوزير البريطاني أجابه بأن ذلك لايتفق مع المبادئ الديمقراطية [٤٩].

والحقيقة فإن نتائج الضغط البريطاني على رئيس الدولة بدأت تظهر نتائجها ، ففي مقابلة تمت مع الوزير البريطاني المفوض ذكر ثابت أنه «إذا طلب منه هيللو Helleu تثبيت أي تاريخ معين لإجراء الانتخابات فإنه سيوافق على ذلك» [٥٠].

والذي كان يبدو في الأفق السياسي أن فرنسا أصبحت مقتنعة بأن إجراء الانتخابات يجب أن تتم بسرعة والحجة التي كانت تستند إليها في السابق وخاصة ما يتعلق بالوضع العسكري العام في شمال أفريقيا قد تحسن وأصبح في جانب الحلفاء ، ولم يبق على إعلان موعدها سوى عودة الجنرال كاترو Catroux إلى لبنان كذلك كان قد تدعم موقف الفرنسيين الأحرار

بالاتفاق الذى عقد بين الجنرال ديجول وجيرو [٥١]، وبالتالى تدعيم هذا الموقف فى لبنان وتم تعيين هيلو فى ٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ مندوبا ساميا عاما فى لبنان وسوريا بدلا من كاترو Catroux الذى نقل إلى الجزائر كمندوب للشئون الإسلامية، كما تم التفاهم على تشكيل لجنة التحرير الوطنى الفرنسية ومدينة الجزائر مقرا لها [٥٢].

وكان أول عمل قام به هيللو Helleu بصفته المندوب السامى الفرنسى العام هو إعلامه رئيس الدولة بأن رغبة الجنرال كاترو Caroux أن تجرى الانتخابات فى لبنان فى شهر تموز (يوليو) ووافق رئيس الدولة على أن تجرى الانتخابات فى حوالى ١٠ من ذلك الشهر[٥٣].

وبدأ بإعداد العدة للانتخابات بتحديد عدد المقاعد النيابية وجعلها ٥٤ مقعدا اثنان وثلاثون منها للطوائف المسيحية واثنان وعشرون للمسلمين وكان هذا التوزيع يشكل إجحافا بحقوق الطائفة الإسلامية[٥٤].

لقد استقبلت الطائفة الإسلامية هذا المرسوم بغضب، وقدم المفتى كتابا للمندوب السامى جاء فيه أنه يجب أن يقنع الحكومة بإلغائه ، وإذا فشل فى ذلك فإن المسلمين سيحتجون للبريطانيين والأمريكيين والحكومات العربية المجاورة، وسوف يقاطعون الانتخابات، وفعلا وقعت الشخصيات الإسلامية البارزة مذكرة احتجاج قدمتها لسلطات الحلفاء والحكومات العربية وسلمت نسخة للمفوضية البريطانية فى بيروت [٥٥]. ولهذا فقد زار كاترو مفتى المسلمين واستمع منه عن الإجحاف اللاحق بالمسلمين من جراء هذا المرسوم.

وبالرغم من السخط العنيف الذى واجه فيه المسلمون مرسوم ثابت فقد نشرت الحكومة اللبنانية مرسوما جديدا أعلنت فيه أن الانتخابات ستجرى يوم ٢٦ سبتمبر (أيلول) ، ولتهدئة الرأى العام الإسلامى صدر بلاغ رسمى من الحكومة جاء فيه : أن الاستعدادات وضعت لإجراء إحصاء قبل إجراء الانتخابات ، ولكن صدور هذا البلاغ لم يؤد إلى النتيجة التى صدر من أجلها، بل اتهم المسلمون الفرنسيين بأنهم يدعمون المسيحيين من أجل الانفراد بحكم لبنان ولا يعاملونهم على قدم المساواة مع المسيحيين ولذلك فإنهم سيطالبون بتوحيد لبنان مع سوريا فى دولة واحدة.

وإذا كان غير المقبول بالنسبة للمسيحيين فإن الحال الآخر هو إعادة المحافظات الأربع التى أضيفت إلى لبنان عام ١٩٢٠ إلى سوريا ويعود لبنان إلى حدود ما قبل عام ١٩١٤ ويوضع تحت إشراف دولى وبيروت ميناء حر[٥٦].

وفي تلك الأثناء وبينما كان زعماء المسلمين يقفون بثبات في معارضتهم للتعديل الأخير في عدد مقاعد المجلس النيابي، وصل الجنرال كاترو Catroux إلى بيروت واستقبل على الفور رئيس الدولة الدكتور ثابت واميل اده وبشارة الخوري، ولكنه لم يستقبل زعيما مسلما، كما تباحث القائم بالأعمال البريطاني في بيروت مع ثابت في ٢٩ حزيران (يونيو) حول محتويات مرسوم الانتخابات الجديد فأجابهم بأنه لايستطيع إلغاء أية فقرة فيه(٥٧).

واستمرت احتجاجات المسلمين وتركزت منذ ٨ تموز (يوليو) على الحكومة اللبنانية برئاسة ثابت على أساس أنها تجاوزت الصلاحيات التي تسلمتها من الجنرال كاترو Catroux عند تعيينها وتصرفت بطريقة غير شرعية ، وذلك بإضافة ١٥٩ ألف مقيم لبناني خارج لبنان إلى مجموع عدد السكان عند حساب عدد النواب الجديد في المجلس النيابي حيث أثر ذلك على التوازن بين الطوائف الإسلامية والمسيحية في الوقت الذي لم يتم فيه التحقق ما إذا كان هؤلاء المهاجرين اللبنانيين يتمشون مع القوانين التي تتعلق بحق الاقتراع اللبناني(٥٨).

ولذلك اضطر كاترو Catroux أمام هذه الاحتجاجات وتلك الضغوط أن يستقبل وفدا من وجهاء المسلمين واستدعى رسميا المفتي، وقد جابهه هؤلاء باللوم لأنه لم يجتمع معهم قبل ذلك وقدمت له مطالب تتعلق بعزل الحكومة وحذف التعديل الذي تم على قانون الانتخاب ، ومن خلال محادثاته تلك خرج بانطباع وهو أن ثابت اقترف خطأ سياسيا، وهيلو برهن على عجزه في القيام بواجباته وسماحه بإصدار بيانات مثيرة للجدل ومؤيدة للخلاف مع البريطانيين(٥٩).

ووجه مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر رسالة إلى كاترو الذي كان في زيارة للمنطقة مستفسرا عن السبب الذي دعا إلى تقوية الخلاف الديني ولافت نظره إلى المشكلة اللبنانية وضرورة النظر إليها من ناحية علاقة لبنان بالدول العربية وتحقيق الاتفاق التام بين المسلمين والمسيحيين. وتتهم تقارير الخارجية الفرنسية رئيس الوزراء المصري بالتعصب ، وأنه بمحاولته التوفيقية هذه كان يرمي لإنشاء وحدة عربية تلعب مصر فيها دور الزعامة مشيرة إلى أن بعض المسلمين الموجودين في مصر في تلك الفترة كانوا يعارضون تفكير رئيس الوزراء المصري وتستشهد بمحي الدين النصولي ومنير كريديه ، راجع حول هذا الموضوع عرائض المسلمين لملك مصر . وفي مساء ١٢ تموز أرسل كاترو Catroux إلى زعماء المسلمين مجموعة من الاقتراحات الجديدة. ووضعت بطريقة ترضي تطلعاتهم وتتضمن ما يلي :-

١- تبنى اقتراح مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر فى تقسيم المقاعد فى مجلس النواب بين المسيحيين والمسلمين بنسبة ٢٩-٢٥ .

٢- تعيين سكرتير دولة مسلم جديد توضع بين يديه السلطة التنفيذية ، أما الدكتور ثابت فيصبح اسميا للدولة وتقل صلاحياته ويمنع من الوقوف أمام أى مرشح للانتخابات .

٣- يوضع على الرف موضوع المهاجر اللبنانى وينظر المجلس النيابى القادم فى هذا الموضوع .

٤- تقديم تاريخ الانتخابات إلى آب (أغسطس) [٦٠].

وأمام احتجاجات المسلمين الصارخة وإصرار ثابت على موقفه ، توصل الفرنسيون إلى قرار يقوم على أساس إقالة رئيس الدولة ، الأمر الذى اضطر المندوب السامى الفرنسى جان هيللو Helleu إلى إصدار قرار بإقالة أيوب ثابت من رئاسة الجمهورية وتعيين النائب بترو طراد بدلا منه وذلك فى ٢١ تموز (يوليو) ١٩٤٣ ، وكان طراد من طائفة الروم الأرثوذكس وكان تعيينه أيضا بشكل مؤقت وذلك للإشراف على الانتخابات النيابية . وتعيين عبد الله بيهم المسلم السنى أمينا لسر الدولة وأمين عواد المسيحى المارونى معاونا لأمين سر الدولة.

وكان على هذه الحكومة أن تضع حلولا للمسائل الرئيسية التالية:-

١- نسبة المسيحيين إلى المسلمين فى مقاعد المجلس النيابى الجديد.

٢- تاريخ الانتخابات .

٣- الإحصاء الرسمى للسكان [٦١].

وأعقب صدور القرار الفرنسى الجديد بإقالة الحكومة السابقة قبول المسلمين للاقتراحات الجديدة التى قدمها كاترو Catroux أخيرا لهم لكنها أثارت معارضة عنيفة من الاكليروس المسيحى، ولكن تبين أن كاترو Catroux مصمم على وضع الحال الذى أرتاه ولو بالقوة[٦٢].

باشرت الحكومة الجديدة أعمالها ، لكنها لم تتوصل إلى حل قضية نسبة توزيع المقاعد فى المجلس النيابى الجديد وذلك لاختلاف أعضاء الحكومة أنفسهم حول هذا الموضوع، لذلك جرت محاولات للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة وكان آخر تلك المحاولات التى قام بها الفرنسيون والقائمة على أساس الاقتراح المصرى الذى اقترحه النحاس باشا ، والذى وافق عليه المسلمون لكن رفضه المسيحيون[٦٣] وتعاون كل من هيللو وسبيرس الذى زار بطريرك

الموارنة ثم مفتي المسلمين وبعد ذلك أصدر هيللو في ٣١ يوليو مرسوما يجعل عدد نواب المجلس المدعو لعودة تأسيس الدستور ب ٥٥ نائبا بنسبة ٢٥ للمسلمين و٣٠ للمسيحيين ، على أن يتم إجراء إحصاء في خلال سنتين من تاريخه ، وهذا أدى إلى ظهور المعادلة الشهيرة ٦ للمسيحيين و ٥ للمسلمين .

وينسب الشيخ بشارة الخوري قضية تسوية النسبة الطائفية في المجلس إلى النحاس باشا رئيس وزراء مصر الذى اقنع الجنرال كاتو بها (حقائق لبنانية ص٢٥٢) أما أتدمون رباط فيرجع الفضل فيه إلى الجنرال سبيرس(٦٤).

لقد أدرك الجميع أن ما تم حول قضية نسبة توزيع المقاعد في المجلس النيابي كان عملا قد دبر بين الإنجليز والفرنسيين وتم فرضه من قبلهم، وفي ٤ آب (أغسطس) نشرت الصحف رسالتين متبادلتين بين رئيس الدولة بيترو طراد والبطريرك الماروني، أعطى فيها الأخير موافقته وبركاته للتنظيمات الانتخابية الجديدة ، وفي ٥ آب (أغسطس) نشر مرسوم جاء فيه أن الانتخابات ستجرى في يوم ٢٩ آب أي قبل شهر من التاريخ الذى عينه رئيس الدولة السابق(٦٥).

على أثر إعلان موعد إجراء الانتخابات دب نشاط واسع في جميع المحافظات اللبنانية، وبدأ تشكيل قوائم المرشحين ، وأخذت تقارير الضباط السياسيين البريطانيين المنتشرين في المناطق اللبنانية تصل إلى المفوضية البريطانية وتغطي الأحداث التي تصاحب هذه المعركة.

ففي موضوع التدخل الفرنسي في تشكيل المرشحين أشار أحد التقارير أنه حدث تدخل عمدت السلطات الفرنسية في صيدا وطرابلس نحو اتخاذ خطوات واسعة في تشكيل قوائم للانتخابات من أولئك الذين يسهل انقيادهم نحو الاتجاه الفرنسي، لذلك وصلت عرائض إلى المسئولين البريطانيين أعقبتها زيارات لهؤلاء المسئولين تستفسر عن العمل الذى ستقوم به السلطات البريطانية لمواجهة التدخلات الفرنسية في تشكيل قوائم الانتخابات(٦٦).

أن النشاط الواسع للمسئولين الفرنسيين في الانتخابات خاصة فيما يتعلق في تشكيل القوائم وغياب النشاط البريطاني أوجد موجة من الإحباط بين السكان في الوقت الذى بدا الأهالي يشعرون بأن التواجد البريطاني في هذا المجال ليس كافيا لإيجاد أية حرية حقيقية في الانتخابات المقبلة ، وقد جاء في الرسالة المتضمنة لهذا الكلام والمرسلة من الوزير البريطاني السياسي في زحلة يقول التقرير «لا أحد هنا يعتقد اعتقادا كاملا باستقلال لبنان

أو أن الانتخابات ستكون حرة ومن يرغب فى الوصول إلى البرلمان لابد له من دعم فرنسى أو بريطانى وفى بعض الأحوال يمكن التقليل من التأثير الأمريكى، لأن مئات السنين من الهيمنة الأجنبية قتلت الشعور عند اللبنانيون يؤثرون القوى الأجنبية على مصالح بلادهم والأشخاص يتابعون أهدافهم القائمة على الأنانية ولتغيير ذلك يحتاج إلى مئات السنين من التربية السياسية(٦٧).

ثم ظهر سخط كبير لدى الرأى العام للتدخل الصارخ فى تشكيل القوائم والتى قام بها القسم السياسى فى المندوبية الفرنسية وذلك عن طريق إصدار هذا القسم تعليمات للمستشارين الفرنسيين وخاصة فى صيدا وطرابلس للتدخل المباشر فى الحملة الانتخابية ، فى الوقت الذى أخذ فيه توفيق عواد أحد أعضاء الحكومة الانتقالية يعمل على توجيه الموظفين الرسميين فى منطقته ليعملوا على محاباته وفى هذا إساءة إلى منصبه (٦٨).

وقد بدا واضحا الصراع البريطانى الفرنسى من خلال الاستعدادات المكثفة للمرشحين للانتخابات النيابية فبدأت الكتلة الوطنية تنشط فى مختلف المناطق مدعومة من فرنسا ، بينما بدأت بريطانيا تدعم الكتلة الدستورية التى رشحها الشيخ بشارة الخورى، كما اتخذت الانتخابات طابعا آخر هو طابع الصراع بين دعاة العزلة ودعاة الاتحاد العربى، بالإضافة إلى أن الانتخابات اتخذت مظهرا سياسيا طائفيا على أساس أن الكتلتين المتصارعتين كانتا تضمان من مختلف الطوائف الدينية .

وبدأت الاتهامات المتبادلة تطلق من كلتا الكتلتين فالدستورين اتهموا أركان الكتلة الوطنية باستسلامهم للفرنسيين وبأنهم ضحوا بمصالح البلاد طمعا بمساعدتهم وأن قوات الأمن الفرنسية سخرت لخدمتهم وأن الأموال وزعت تأمينا لفوز مرشحيهم ، أما الكتلويين فقد اتهموا الدستوريين بان الإنجليز وعلى رأسهم الوزير البريطانى المفوض سبيرس Spears لم يدخروا وسيلة إلا استخدموها لإنجاح مرشحي الدستوريين وأن رئيسهم الشيخ بشارة الخورى تناول أموالا طائلة من مصطفى النحاس باشا أثناء وجوده فى مصر للإنفاق على الانتخابات ، وأنه أعطى وعدا مقابل ذلك أن يوجه سياسة لبنان توجيها عربيا(٦٩) بينما اتهمت اللايدى سبيرز (زوجة الوزير البريطانى المفوض سبيرس Spears) كلا من المفوض الفرنسى جان هيللو Helleu ومساعده بوغينز بأنهما تدخلا فى سير الانتخابات النيابية وعملا على تعبئة رجال الدين المسيحى الموالين لفرنسا ، كما أرسلا رجال الأمن إلى كافة المناطق

اللبنانية قبل أسبوع من موعد الانتخابات لإقناع الناخبين وتهديدهم وابتياع ضمائرهم، غير أن اللايدى سبيرز اعترفت بأن الفرنسيين أنفقوا خمسين مليونا من الفرنكات على الحملة الانتخابية فى حين اتهم زوجها بأنه شوهد يجوب الجبال يحمل أكياسا من الذهب (٧٠).

لكن السلطات البريطانية في لبنان لم تقف مكتوفة الأيدى أمام تلك التدخلات خاصة تلك التى كان يقوم بها ثابت، لذلك اتخذت الخطوات المناسبة لإيصال قلقها إليه حول تدخلاته الصريحة والادعاءات القائلة بأنه ينوى تأجيل موعد الانتخابات وأنه سيزيد من عدد أعضاء المجلس النيابى وإمكانية تغيير المناطق الانتخابية ، ولهذا أعلنت السلطات البريطانية وجهة نظرها حول ذلك (٧١).

كذلك فإن المفوضية البريطانية فى بيروت تعد من أسباب المعارضة التى يبديها ثابت نحو المرشحين التابعين لحزب بشارة الخورى تعود فى جزء منها إلى اعتقاده بأن اتفاقا سريا قد تم بين بشارة الخورى والسلطات البريطانية ، وعلى أساس أن الخورى إذا أصبح رئيسا للجمهورية فإنه سيعمل على ضم لبنان فى اتحاد فيدرالى مع دول عربية إسلامية يشجعه البريطانيون ، وهذا يعنى أن السلطات البريطانية عقدت صفقة مع الخورى تدعمه فى الانتخابات ويضم لبنان إلى ذلك الاتحاد (٧٢).

واستمر التدخل الفرنسى على أشده فى الحملة الانتخابية حتى بعد يوم ١٧ آب (أغسطس) وهو آخر يوم لتقديم طلبات الترشيح ، وكان لابد من مواجهة ذلك من قبل السلطات البريطانية حيث قدم الوزير البريطانى المفوض سبيرس Edward Spears احتجاجا إلى هيللو Helleu على التدخلات الفاضحة التى كان يقوم بها المسيو بوغيز Boegner والمسيو روزوك Rozek والمستشارين الفرنسيين فى صيدا وطرابلس ، وأجاب هيللو Helleu على ذلك بأن أنكر مجموعة التهم الموجهة للفرنسيين ووجه تهما يقول عنها المفوض البريطانى سبيرس Edward Spears فى تقريره للخارجية البريطانية أنها تهم ضعيفة ضد الضابط السياسى البريطانى فى طرابلس، ولكن هيللو Helleu أنهى جوابه بأن وعد الوزير البريطانى المفوض بحجز مستشاريه فى بيوتهم حتى نهاية آخر يوم فى الانتخابات ، وكان للاحتجاج البريطانى رد فعل آخر بالإضافة إلى جواب هيللو Helleu وهو طلب هيللو Helleu من أعضاء الحكومة الثلاثية أن يكتبوا رسائل يعلنون فيها أنهم لا هم ولا الموظفين التابعين لهم سيتدخلون فى الانتخابات (٧٣).

وباقتراب موعد الانتخابات قدمت احتجاجات إلى سلطات الحلفاء تشير إلى الإساءات التي تتم أثناء الحملة الانتخابية وخاصة في منطقة جبل لبنان، كما وصلت من شمال لبنان تلغرافات تحتج على المحاولات الأكيدة التي يقوم بها توفيق عواد والمتعلقة برشوة الإداريين ولهذا فإن التدخل والتحايل كان بدون شك واسعا لكن استطاعت السلطات البريطانية أن تحد من تدخل القوات الفرنسية وقوات الأمن المحلية[٧٤].

ومن الثابت أن الرشوة تفشت أثناء الانتخابات تفشيا كبيرا، وقد كتب الدكتور مصطفى عز الدين في جريدة النهار عدة مقالات بهذا الصدد تحت عنوان «كيف تستقيم النيابة في لبنان» أكد فيها انتشار الرشوة مع عدم نفيه وجود وجوه نيابية جديدة [٧٥]. أما صحيفة البيرق الموالية لفرنسا ولاميل إده فقد هاجمت الكتلة الدستورية بسبب ميولها غير اللبنانية ، بينما أيدت قائمة الكتلة الوطنية في جبل لبنان لا لشئ إلا لأن إرادة الأمة تجلت بأحلى المظاهر في تأييد زعماء هذه الكتلة بالنظر لمبادئهم اللبنانية القديمة الصحيحة على حد قول البيرق[٧٦].

كما أن الفرنسيين والكتلويين اتهموا الدستوريين بأنهم «مرشحون بريطانيون» بينما ذكرت اللايدى سبيرز Spears بأن البريطانيين لم يساندوا مرشحا معينا ، ولم يتدخلوا بطريقة من الطرق بشؤون الانتخابات ولكنها أضافت بأن القرويين الذين اعتقدوا بأن مرشحيهم الوطنيين كانوا مؤيدين من قبل بريطانيا وأن ذلك لم يسوءهم بل ربطوا ما بين الإنجليز وتحقيق آمالهم الوطنية ، واعتبرت أن انتشار القوات البريطانية في أنحاء لبنان هي التي أدت إلى حرية اللبنانيين في الانتخابات ، بينما لم يعترف الفرنسيون بأنهم كانوا مكروهين حتى في جبل لبنان المسيحي، لكنهم اعتقدوا بأن البريطانيين كانوا وراء ذلك كله ، وأن هذه الحملة الاستقلالية كانت مؤامرة بريطانية وأن الوزير البريطاني سبيرز Spears كان كبير المتآمرين عليهم في البلاد [٧٧].

ويلاحظ الدبلوماسي لونغريغ Longrigg أن الفرنسيين بذلوا كل ما في وسعهم من أساليب للتأثير على الناخبين في المدن والأرياف وأن عمليات الانتخابات أسفرت عن نجاح أنصار فرنسا في المعاقل المارونية مقابل خصومهم في المناطق الأخرى[٧٨] وفيما يتعلق بنتائج انتخاب الدورة الأولى التي تمت في ٢٩ آب (أغسطس) فقد أسفرت الدورة الأولى عن نجاح مرشحين عديدين ، وأن قوائم المرشحين التي دعمت من الفرنسيين في شمال لبنان وجنوبه والبقاع نالت هزيمة قاسية ، ومن ناحية أخرى فإن القائمة التي شكلت من قبل المسيو بوغيز

لمعارضة جورج ثابت والتي تضمنت اثنان من الرؤساء السابقين الفرد نقاش والدكتور أيوب ثابت ورئيس الوزراء السابق رياض الصلح نالت فوزا ساحقا ، أما في الجبل فقد حقق ثمانية من سبعة عشر مرشحا أغلبية واضحة منهم سبعة من جماعة أميل اده (الكتلة الوطنية) وواحد وهو كميل شمعون من جماعة بشارة الخوري (الكتلة الدستورية) بينما لم ينجح رئيسا الكتلتين المتنافستين بشارة الخوري واميل اده إلا في الدورة الثانية (البالوتاج) ، بعد أن اشتد الصراع بين الكتلتين وكثرت في محافظة جبل لبنان نفقات الانتخابات ولعبت التدخلات الفرنسية والإنجليزية دورها الفاعل ، كما تدفقت عشرات الألوف من الليرات من الجانبين لشراء الأصوات [٧٩]. غير أن الانتخابات انتهت بصورة رئيسية بنجاح كاسح ومهم للكتلة الدستورية التي يرأسها بشارة الخوري ضد الكتلة الوطنية التي يرأسها أميل اده [٨٠].

والواقع أن التنافس الفرنسي- البريطاني لم ينته بانتهاء الانتخابات النيابية إنما استمر وبرز بوضوح في انتخابات رئاسة الجمهورية ، فقد استمرت فرنسا تدعم مرشحها للرئاسة أميل اده ، بينما قامت بريطانيا بدعم مرشحها بشارة الخوري، غير أن بشارة الخوري نفى هذه التهمة بقوله «أن السلطة الفرنسية أصرت على مخاصمتي ، ولم أجر أي اتصال مباشر بالسلطة البريطانية وكل ما كنت أعرفه أنها لاتنظر إلى أميل اده بعين الرضى[٨١]، بينما أكد كمال جنبلاط[٨٢] أنه كان للبريطانيين اليد الطولى في إيصال أعضاء الكتلة الدستورية إلى المجلس النيابي عام ١٩٤٣ ثم إلى الحكم ، وأن الجنرال سبيرس Edward Spears تدخل لدى السفارة البريطانية في بيروت ودوائر الاستخبارات لديها لمناهضة أميل اده، وأضاف جنبلاط أنه كان بين أعضاء الكتلة الدستورية من اتصفوا بالوطنية الصحيحة والعروبة السليمة، وبعضهم عرف أيضا باتصالاته الأجنبية وعلاقاته المباشرة بدوائر الاستخبارات البريطانية بعد أن كانت لديهم ارتباطات سابقة بالدوائر الفرنسية.

وفي هذا الجو من الصراع السياسي والمحلي والعربي والدولي بدا كل من بشارة الخوري واميل اده بممارسة نشاطهما للوصول إلى منصب الرئاسة وبدأت المناورات أولها لجوء أميل إده إلى طرح اسم الرئيس بترو طراد ليكون بديلا عنه وعن بشارة الخوري مدعيا أن القبول به ينهي الخلاف بين الموارنة ، غير أن بشارة الخوري رفض هذا الاقتراح ، وراح يجتمع ببعض النواب وبينهم عبد الحميد كرامي وعادل عسيران فأكد لهما استعداده للتعاون مع الدول العربية إلى أقصى حد في حال وصوله لرئاسة الجمهورية ، ولكنه رفض اقتراحهما بتوحيد

العلم والجيش والتمثيل الخارجي مع سوريا ، ورأيت في ذلك تجاوز للحدود فرفضته بكل صراحة ». فأوضحا له بأن أميل اده قبل اقتراحهما ، فرد بشارة الخوري بأن الوعد شئ والتنفيذ شئ آخر[٨٢].

ثم بعد ذلك تزايدت المناورات السياسية بين القوى الفاعلة ، ففي ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ وقبل انتخابات الرئاسة بأيام قليلة، اقترح الجنرال سيبرس Spears على بشارة الخوري بحضور النائب هنري فرعون الانسحاب لكميل شمعون أو حميد فرنجية أو يوسف اسطفان أو أمين السعد ، ولكن تبين أن هذا الاقتراح كان مجرد مناورة بريطانية انطلت على الفرنسيين ، وكانت تهدف إلى إجبار فرنسا على القبول ببشارة الخوري[٨٣]. ذلك لأن الفرنسيين ما كانوا ليوافقوا على نجاح كميل شمعون ، وقد أوضح المفوض الفرنسي جان هيللو Helleu لبشارة الخوري «أن كميل شمعون هو خويصة الإنجليز وأنا باسم فرنسا أطلب منك أن ترجع عن تنازلك لمصلحته[٨٤].

والحقيقة أن المناورات استمرت بين الفرنسيين والبريطانيين واللبنانيين إلى أن اقتنعت فرنسا على مضض بأن وصول بشارة الخوري إلى الحكم يبقى أفضل وأقل خطورة من وصول كميل شمعون وخويصة الإنجليز» وفي هذا ذكر اميل اده بأن الفرنسيين لم يكونوا معادين للشيخ بشارة الخوري وذلك اعتمادا على ما جاء في مذكرات الجنرال كاترو Catroux «أن الشيخ بشارة الخوري لم يكن خصما لنا بل بالعكس كان في جميع أدوار حياته السياسية صديقا مخلصا لفرنسا» [٨٥].

ثم أن بشارة الخوري نفسه ذكر بأنه ما أن اقترب موعد انتخابات الرئاسة حتى زاره موظفان فرنسيان كبيران وعرضا عليه مساعدة المفوض السامي بأصوات النواب الذين ينتمون إلى الموظفين الفرنسيين وتحمل بعض النفقات ، وكان بشارة الخوري حريصا بدوره على استمالة بعض القوى الدينية المارونية ، وقد ذكر سعيد فريحة بأنه مر على منزل بشارة الخوري ورأى أمامه عشرين ظرفا ، فقرأ على الظرف الأول اسم غبطة البطريرك وعلى الثاني اسم أحد المطارنة ، فقال له سعيد فرنجية ألم تنته بعد من الدفع ؟ فأجاب بشارة بأنه جرت العادة أن تدفع لرجال الدين شيئا من المال مقابل إقامة قداس ، ورأى سعيد فريحه أن بشارة الخوري لم ير وسيلة لتحقيق إقناع رؤساء الدين بعدم محاربة ترشيحه للرئاسة أنجع من استعمال المال[٨٦].

ومن جهة ثانية لابد من الإشارة إلي أن رياض الصلح وبعض القوى السياسية الإسلامية لم تكن تؤيد وصول بشارة الخورى للرئاسة الأولى مما دعا سوريا إلى التوسط لإقناع تلك القوى لتأييد بشارة الخورى ، وقد حرص الرئيس السورى شكرى القوتلي ورئيس وزرائه سعد الله الجابرى- نسيب رياض الصلح- ووزير خارجيته جميل مردم بك على إرسال وفد خاص مؤلف من لطفي الحفار وعفيف الصلح وسواهما إلى بيروت وسبب الحرص السورى على التوسط في هذا الموضوع صادر من وعود بشارة الخورى في القاهرة للوفدين السورى والمصرى بأنه سيعمل على تعزيز التعاون العربى إلى أقصى حد، وبالفعل فقد اجتمع لطفي الحفار وعفيف الصلح بكل من رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وسامي الصلح وصائب سلام وانتهى الاجتماع بالموافقة على تأييد بشارة الخورى، وكان للموقف السورى أثر واضح فى تغيير موقف الزعامات الإسلامية الذين ساهموا فى تشكيل جبهة قوية لمساندة الشيخ بشارة الخورى وكان رياض الصلح على رأس هذه الجبهة ، ومن ثم فقد عقد اجتماع ضم بشارة الخورى ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي وصائب سلام أعلنوا فيه أن بشارة الخورى هو مرشحهم الوحيد لرئاسة الجمهورية [٨٧].

وقد ذكر بشارة الخورى أن أميل إده استمر فى مناوراته حتى آخر لحظة ، فقد اقنع إده رئيس الوزراء الأسبق سامي الصلح بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية فى ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ، ورأى بشارة الخورى أن هذه ألعوبة سبق أن لعبها أميل إده مع الشيخ محمد الجسر عام ١٩٣٢ غير أن هذه الألعوبة فشلت .

واستكمالا لعملية انتخاب بشارة الخورى للرئاسة فقد اجتمع فى منزله فى بيروت فى ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ أغلبية النواب الموالين، وكتب عبد الحميد كرامي وثيقة بترشيح بشارة للرئاسة ، وكان أول من وقع عليها كرامي نفسه ثم وقع عليها رياض الصلح وصائب سلام. مجيد أرسلان، أحمد الأسعد وغيرهم، وبذلك بدأ بشارة الخورى ليل ٢٠-٢١ يعد الخطاب الرئاسي الذى سيلقيه أثر انتخابه لرئاسة الجمهورية ، واثقا بذلك من نجاحه [٨٨].

ويموجب الدستور اللبناني فكان يجب على المجلس النيابي الجديد أن يجتمع فى ٢١ أيلول (سبتمير) وكانت الأنظار قد بدأت تنصب على من سيكون الرئيس ، وبدأ أن السلطات الفرنسية ستعطى دعمها للدكتور أيوب ثابت والذى تعتبره الزعيم المفضل لدعمه فكرة استقلال لبنان المسيحى، أما بشارة الخورى فبالرغم من أن النتائج العكسية التى حصل عليها فى انتخابات الجبل إلا أنه كون رصيدا شعبيا واسعا [٨٩].

وفى ٢١ أيلول (سبتمبر) عقد المجلس النيابى جلسته الأولى التى ترأسها رئيس السن النائب جورج زوين فانتخب المجلس النائب صبرى حماده رئيسا للمجلس النيابى ، ثم بدا الاقتراع لرئاسة الجمهورية، وبين المرشحين أميل اده وبشارة الخورى وأيوب ثابت والفرد نقاش وبترو طراد والثلاثة الآخرون كان حظهم من الفوز قليلا فى البداية فقد ظهر أن الصراع سيكون عنيفا بين اده والخورى ، وكان الدستوريون حلفاؤهم مقتنعين من الحصول على الانتصار على اده الذى كان معروفا بدعم الفرنسيين له، كذلك فقد أدرك الكثيرون بأنه فى حالة هزيمة اده فإنه سيشكل معارضة قوية داخل البرلمان ضد الخورى، ولذلك بدا البحث عن مرشح آخر للرئاسة وغير حزبى ، لكن هذه الجهود لم تثمر ، وعندما اتفق الوزير البريطانى المفوض وهيللو Helleu كاقتراح أخير أن ينسحب كل من اده والخورى وذلك لتجنب نزاع دائم فى البرلمان يمكن فى النهاية أن يضر بمستقبل البلاد[٩٠].

وانتهت النتيجة بانتخاب ٤٤ نائبا بشارة الخورى لرئاسة الجمهورية من مجموع الأعضاء البالغ عددهم ٤٧ نائبا ، هذا وقد كشف عن ثلاث ورقات اقتراع بيضاء ، كما غاب عن الجلسة كل من أميل اده وكمال جنبلاط ، أسعد البستانى، جورج عقيل ، أحمد الحسينى، عبد الغنى الخطيب، حبيب تلحوق، وهم نواب الكتلة الوطنية ، كما غاب عنها النائب أيوب ثابت ، أما جورج زوين وأمين السعد فرغم أنهما من الكتلة الوطنية فقد حضرا الجلسة وانتخبا بشارة الخورى[٩١].

وبذلك تم انتخاب بشارة الخورى رئيسا للجمهورية وقد اعتبر نجاحه انتصارا للقوى الوطنية واعتبر كاترو Catroux أن نجاح بشارة الخورى كان نتيجة للاتفاقات التى تمت بين الزعامات السورية والعربية وليس نتيجة لاتفاق بشارة الخورى مع الزعماء المسلمين واللبنانيين[٩٢].

مع العلم أن بشارة الخورى قد قرر قبل انتخابه التعاون مع رياض الصلح باعتباره أول أحد العاملين فى سبيل استقلال لبنان[٩٣] بالإضافة إلى هذا الواقع يمكن القول بأن انتخابات الرئاسة أكدت أيضا تبعا للاتجاهات العربية والدولية والتدخلات فيها أن الصراع لم يكن طائفيا بقدر ما كان سياسيا ، لاسيما وأن مجموعة من النواب المسلمين أيدوا أميل اده المعروف بتعصبه الطائفى والمعادى للعروبة.

وعلى أى حال فقد استقبل انتخاب الخورى بترحيب كبير من معظم اللبنانيين وانتهى الاعتقاد الذى كان سائدا بأن المجلس النيابى منقسم إلى قسمين متعادلين بين زعامتين متقاربتين ، وتأكد لدى الجميع بأن الخورى سيدشن سياسة وطنية معتدلة مبنية على التحرر

التدريجى من الهيمنة الفرنسية، وانتخاب الخورى كان معناه أن الهيمنة الفرنسية فى لبنان أصيبت بضربة عنيفة لأنه منذ بدء الحملة الانتخابية فإن المفوضية الفرنسية تداخلت بشكل واضح لمصلحة أميل اده (٩٤).

كذلك فإن انتخاب الخورى أدى إلى ارتياح لدى جميع اللبنانيين ماعدا أولئك الذين رغبوا لأسباب خاصة بهم فى دولة تكون السيادة فيها لفرنسا كما أن الرئيس الخورى، أخذ يعبر فى أحاديثه عن الصداقة وعلاقات الجوار مع البلاد العربية وضرورة التماسك بين الجماعات السياسية فى لبنان واعتبرت أحاديثه تلك دلالة على أن لبنان سيشارك فى مشاريع الوحدة العربية(٩٥).

أما النتيجة المباشرة لانتخاب الخورى فكانت تشكيل وزارة رياض الصلح فى ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ (تم تشكيل الوزارة على النحو التالى رياض الصلح (سنى) رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية ، حبيب أبو شهلا (روم أرثوذكس) نائبا لرئيس الوزارة ووزيرا للتربية والعدل، كميل شمعون (مارونى) وزيرا للداخلية والبريد والبرق، سليم تقلا (كاثوليك) وزيرا للخارجية والأشغال ، عادل عسيران (شيعى) وزيرا للاقتصاد ، مجيد أرسلان (درزى) وزيرا للدفاع والصحة . ولقد تمثلت فيها جميع الطوائف الدينية أكثر مما تمثلت فيها الاتجاهات السياسية، وذكر الرئيس بشارة الخورى من أنه ارتؤى اختيار وزيرين من الكتلة الوطنية هما جورج زوين وجبرائيل المر، غير أن أميل اده رفض اشتراكهما فى الحكم(٩٦).

وفى ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ عقد المجلس النيابى جلسة ألقى فيها رياض الصلح بيانه الوزارى، وقد حرص كل من الوزير البريطانى المفوض Spears وقنصل مصر أحمد رمزى بك على ضرورة هذه الجلسة ، عالج فيه جميع الأمور التى تهم الدولة والمواطنين على السواء لتحرير الدستور من كل النصوص التى تكرس الانتداب الفرنسى وتنظيم الحكم الإدارى والوطنى ليصبح حكما صالحا تبرز فيه حسنات العهد الاستقلالى الدستورى، وتطرق للتعاون مع الدول العربية المجاورة لأن لبنان ذو وجه عربى كما أشار الصلح فى بيانه إلى أسلوب الحكم فى المستقبل وضرورة تعديل الدستور وإلغاء الطائفية والقضاء على مساوئها لأنها تسمم روح العلاقات بين الجماعات الروحية التى يتألف منه الشعب اللبنانى كما ركز البيان على بعض التعديلات فى السياسة الداخلية والخارجية، ومن أهمها تعديل الدستور على أساس إلغاء تلك الفقرات التى لاتتناسب مع الاستقلال ، واعتبار اللغة العربية هى اللغة الرسمية للبلاد وإصلاح النظام الانتخابى(٩٧).

وكان لهذا البيان أثر كبير على فئات الشعب لأنه أوجد طريقة نحو الاستقلال وتوحيد الصفوف، كما أنه اعتبر بمثابة اتفاق بين المسلمين والمسيحيين على عدد من المبادئ الأساسية(٩٨) وبعد إلقاء البيان الوزاري ناقشه مجموعة من النواب، وحاولت المعارضة المدفوعة من أجل أميل اده عدم وضع برنامج الحكومة للتصويت لكن هذا الاقتراح هزم ووضع البرنامج للتصويت وتمت الموافقة عليه بأغلبية ساحقة بلغت اثنين وخمسين صوتا ثم انتهت الجلسة بإعطاء الحكومة الثقة(٩٩).

والحقيقة أن الحكومة اللبنانية عقدت عزمها منذ البدء على تقليص النفوذ الفرنسي بتعديل الدستور اللبناني ، بما يضمن استقلال لبنان عن فرنسا فسعى رياض الصلح أولا إلى صبغ لبنان بالصبغة العربية فأصدر تعميما وزع على مختلف الدوائر الرسمية طلب فيه استخدام اللغة العربية كلغة رسمية وحيدة للبلاد جاء في تعميم رئيس الوزارة رقم ١٢٥ ما يلي «أرجو من حضراتكم أن تصدروا التعليمات اللازمة إلى جميع الدوائر التابعة لوزارتكم بأن جميع المخابرات والمعاملات بين الدوائر الرسمية يجب أن تحرر من الآن فصاعدا باللغة العربية التى هى لغة البلاد الرسمية وذلك عملا بالعهد الذى قطعته الحكومة على نفسها فى البيان الوزارى»(١٠٠).

ومما لاشك فيه أن ظهور حكومة وطنية فى لبنان كان ضربة قوية للسلطات الفرنسية، ولذلك بدأت المناوشات بين هذه الحكومة وتلك السلطات منذ تشكيلها ، ففى حفلة العشاء التى أقامها الرئيس اللبناني الشيخ بشارة الخورى وحكومته للمندوب السامي ومستشاريه السياسيين ومن ضمنهم المسيو شاتانيو السكرتير العام للمندوبية ، أخبر المسيو هيللو Hel-leu الرئيس بوضوح بأنه لن تتم تنازلات للحكومة اللبنانية حتى يتم إلغاء الانتداب عن طريق عقد معاهدة ، وحدث نقاش مع رئيس الحكومة رياض الصلح الذى ذكر بأن الاستقلال كان قد تم إعلانه ، فأجابوا هيللو Helleu بأنه لن يتم تسليم السلطات للحكومة اللبنانية قبل انتهاء الحرب وعقد معاهدة، ثم حدثت مجادلة بين الطرفين وبدا أن موضوع المعاهدة محور النقاش ، وانتهت المجادلة بدون نتيجة وأصبح الانطباع السائد عند هيللو Helleu بأن كلا من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء لن يوقع على معاهدة مع لجنة التحرير الفرنسية تحت أية ظروف(١٠١) .

وفى ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ أصدر رئيس الوزراء أوامره باستبدال الأوامر العسكرية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، كما تألفت لجنة خاصة لوضع المصطلحات

اللازمة لأفراد الدرك والشرطة باللغة العربية، بالإضافة إلى ذلك فقد قرر رئيس الوزراء فتح مدرسة ليلية لتعليم الموظفين الذين لايتقنون العربية مبادئ هذه اللغة وكانت أول نتيجة لاستخدام اللغة العربية في المعاملات الحكومية تعطيل عمل المستشارين الفرنسيين الذين لم يعد بوسعهم أن يشتركوا في الإشراف والمراقبة على سير إدارات الدولة كما أدت إلى أنه في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) عارض جان هيللو Helleu استخدام العربية مكان الفرنسية وأن ذلك يعتبر مخالفا لصك الانتداب ، ومخالفا لنصوص الدستور اللبناني، كما أن صك الانتداب لايخول للبنان حق تعديل الدستور منفردا (١٠٢).

وذلك لأن الانتداب لايزال موجودا وأن فرنسا ستستمر في حمل المسئوليات المعطاة لها من الانتداب ولايمكن التخلص منه إلا من قبل عصبة الأمم أو تحل محلها هيئة دولية أخرى، ولذلك فإن لجنة التحرير الوطني الفرنسية سوف لن تسمح بأي تعديل في الدستور من جانب الحكومة اللبنانية وتستنكر أية مناقشة لهذا الموضوع في المجلس النيابي ، وأضاف هيللو Helleu في رسالته «بأن لجنة التحرر الوطني الفرنسية على استعداد للبحث مع الحكومة اللبنانية ترتيبات معينة يمكن أن تسهل تطوير لبنان إلى الاستقلال الكامل وأن فرنسا لاتزال مصممة على وضع أسس عامة للعلاقات اللبنانية الفرنسية (١٠٣).

لم توافق الحكومة اللبنانية على ما جاء في رسالة هيللو Helleu وأخذت تتعرض لضغط شديد من قبل المجلس النيابي لفتح باب المناقشة حول تعديل الدستور كجواب عليها ، كذلك حاول رئيس الوزراء أن يحث الفرنسيين على سحب تلك الرسالة التي اعتبرت تهديدا للحكومة اللبنانية ، لكن الفرنسيين رفضوا سحبها ، وأعلم المسيو شاتانيو رئيس الحكومة بذلك ، وكرد فعل لهذا الرفض سلمت الحكومة اللبنانية المسيو شاتانيو مذكرة تحوي أربعة مطالب هي:

١- المندوبية الفرنسية في بيروت يجب أن تتحول إلى شعبة دبلوماسية .

٢- يجب أن يحصل لبنان على سيادته الحقيقية.

٣- جميع المطالب والخدمات التي تدار حاليا من قبل المفوضية يجب أن تنتقل إلى الحكومة اللبنانية .

٤- عائدات المصالح المشتركة يجب أن تعطى للحكومة اللبنانية والسورية، وألحقت بهذه المذكرة نسخة من اتفاق حول هذا الموضوع تم مع الحكومة السورية (١٠٤).

كما ذكر الرئيس تقي الدين الصلح بخصوص معارضة المحامين الموارنة الذين يتقنون الفرنسية ويجهلون العربية وسواهم من المتنفعين رفضوا حركات تعريب الدولة لأنهم كانوا ضد الاستقلال وضد إلغاء المحاكم التي يترافعون بها وهؤلاء هم اليسوعيون المؤمنون بالحماية الفرنسية ، وأضاف قائلا «هذه الجرثومة اليسوعية انطفأت بصورة مؤقتة لدى اليسوعيين والمتعصبين غير أنها عادت لتنمو شيئا فشيئا بعد اغتيال رياض الصلح : وبالفعل فقد اعتبر البعض أن تعريب لبنان هي مسألة خطرة وهو أخطر قرار بحق الشعب المسيحي لأنه أعطى الشرعية القومية لمن يريد تعريبه بالقوة(١٠٥).

وبالرغم من أن السياسة البريطانية كانت مؤيدة للعهد الاستقلالي الأول، غير أن تقريرا بريطانيا صادر في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، كشف عن مدى انتقاده لفقرات من البيان الوزارى لاسيما حول اللغة العربية كلغة رسمية في الدولة، فأشار التقرير إلى أن اللغة الفرنسية لاتقل أهمية عن اللغة العربية وأنه كان من الأفضل عدم تركيز رئيس الوزراء على هذه النقطة بقوة، وأن استخدام اللغة الفرنسية أو عدم استخدامها هو موضوع يجب أن يتم عبر الاتفاق ، ثم أشار التقرير إلى ضرورة الاهتمام بموضوع إحلال الموظفين اللبنانيين مكان الموظفين الفرنسيين ، كما أشار إلى أن وزير العدل يحضر لمشروع إلغاء المحاكم المختلطة ، بينما يحبذ الفرنسيون بقاء هذه المحاكم بسبب ارتباطهم الدولية (١٠٦).

أما فيما يختص بالدستور اللبناني فقد عزم رياض الصلح على تعديله وفاء بتعهداته لاسيما أنه سبق أن أشار في بيانه الوزارى أنه لابد من تعديله، بحيث يصبح ملائما كل الملائمة لمعنى الاستقلال وفيه ما يجعل لغير الشعب اللبناني وممثليه الشرعيين مشاورة في تسيير شؤونه (١٠٧).

وكانت الحكومة اللبنانية منذ أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ قد أبلغت المفوض السامي الفرنسي هيللو Helleu عزمها على استلام جميع المصالح اللبنانية وتحويل المفوضية الفرنسية إلى بعثة دبلوماسية ، غير أن لجنة الجزائر رفضت تحقيق ذلك ما لم يوقع على اتفاق بين البلدين يحدد العلاقات بينهما (١٠٨).

وفي ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ قامت الحكومة اللبنانية بالرد السامي على رسالة هيللو Helleu وقد صيغ الرد بتعبير معتدله في بدايتها لكنها أنهيت بتعبير عنيف واستعملت كلمة السفير بدل المندوب للتعبير عن منصب هيللو Helleu على أساس أن لبنان دولة مستقلة

، وفى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، وجهت اللجنة الوطنية رسالة إلى رئيس الجمهورية اللبنانية تعلمهم أن الفرنسيين لن يسمحوا بإجراء أى تعديل فى الدستور اللبنانى من جانب واحد[١٠٩].

وتلقى الصحافيون اللبنانيون دعوة من مدير قلم المطبوعات الفرنسى للحضور إلى دائرة المطبوعات لإعلامهم بذلك البلاغ ونشره فى صحفهم دون مناقشة سواء فى الاجتماع معه أو على صفحات الصحف [١١٠]. كما أن المسئول العسكرى الفرنسى دافيد David سلم البلاغ نفسه إلى رئيس الوزراء الذى أنكر حق فرنسا فى التدخل فى الشئون الداخلية اللبنانية ، كما أن بعض الصحف اللبنانية أيضا أشارت إلى حق لبنان بتعديل دستوره [١١١]. غير أن مجلس الوزراء أصدر بلاغا بعد ظهر ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، اعتبر فيه أن تعديل الدستور حق من حقوق السلطات الدستورية اللبنانية وفقا لأحكام المادة ٧٦ وما يليها من الدستور ، ثم قدم مجلس الوزراء للمجلس اللبنانى مشروع تعديل الدستور فى بعض مواده التى تتعارض مع استقلال لبنان[١١٢].

وكان هيللو Helleu قد سافر إلى الجزائر للتشاور وحث رياض الصلح قبل سفره على تأجيل أى عمل إلى ما بعد أسبوعين ، وفى الجزائر تشكلت لجنة مؤلفة من ديجول وماسيغلى Massigli مفوض الشئون الخارجية وكاترو Catroux وأعطت هيللو Helleu تعليمات «بأن لاتتم بأى حال من الأحوال نقل السلطات والخدمات التى تقوم بها فرنسا فى لبنان على أساس الانتداب حتى تصل فرنسا إلى تنظيم تعاقدى مع لبنان يقوم على أساس معاهدة تنظم العلاقات بين الطرفين بشكل عام» وعندما طلب هيللو Helleu من اللجنة أن تحدد موقفها من شرعية تعديل الدستور اللبنانى من طرف واحد وهو الحكومة اللبنانية والبرلمان اللبنانى ، أجابت اللجنة على ذلك «بأن التعديل لايتم إلا عن طريق اتفاق مع ممثلين فرنسيين ، ولذلك فإن لجنة التحرير الوطنى الفرنسية لن تعترف بشرعية تلك التعديلات إذا تمت».

وفى طريق عودته حيث وصل إلى القاهرة علم هيللو Helleu بأن المجلس النيابى سيناقش لائحة التعديلات بعد ظهر ذلك اليوم ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣، فاتصل تليفونيا بالحكومة اللبنانية وأعلمها «بأنه سيكون فى بيروت بعد ظهر غد وهو يطلب تأجيل الجلسة حتى يعود لأنه يحمل تعليمات من لجنة التحرير الوطنى الفرنسى تحوى اقتراحات نتيجة اتصالاته معها» .

ومن جهتهم فإن الفرنسيين حاولوا إقناع رياض الصلح بالعدول عن تنفيذ قرار تعديل الدستور ولكنه رفض طلبهم ، فما كان منهم إلا أن حاولوا إقناع ٧١ نائبا بالتغيب عن جلسة تعديل الدستور التي حددت في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ وذلك لتعطيل الجلسة. كما أن المفوضية الفرنسية أظهرت من خلال هذه الممارسات بأنها غير راضية إطلاقا في إنهاء انتدابها عن لبنان ، ورأى كاترو Catroux أن أقصى ما تسمح به المفوضية هو إبدال الانتداب بمعاهدة تستوحى من بنود اتفاقية ١٩٣٦ ، كما سعى بعض كبار الموظفين الفرنسيين في المفوضية الفرنسية مثل بار ودافيد وشانيتيو إلى إقناع بعض النواب بعدم القبول بتعديل الدستور وبممارسة الضغوط عليهم أحيانا(١١٣).

وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ اجتمع ١٢ نائبا في مكتب الرئيس الأسبق أميل اده(١١٤)، الذي اتصل بمدير الأمن العام غونيه وأخبره أن الجماعة حضروا ، فما كان من غونيه إلا أن طلب منهم عدم حضور جلسة تعديل الدستور، غير أن عددا من النواب رفضوا وأصروا على حضور الجلسة وإقرار التعديل رغم التهديد الفرنسي لهم (١١٥). والحقيقة أن المجلس النيابي كان في هذه الفترة ينقسم إلى ثلاث مجموعات مجموعة تتصرف بوحي من وطنيتها اللبنانية ، ومجموعة تتصرف بوحي من السياسية الفرنسية ومجموعة ثالثة تتصرف بوحي من السياسة البريطانية ، وقد صرح النائب أحمد الحسيني الموالي لاميل اده بالقول «لاأريد أن استبدل سيدا بسيد ودولة منتدبة عرفناها بدولة منتدبه بريطانية نعرف عنها الشئ الكثير»(١١٦).

وكان جواب الحكومة اللبنانية على كل ذلك هو انعقاد جلسة مجلس النواب في مساء ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، وتغيب عنها النواب أيوب ثابت وأحمد الحسيني وبو كالوسيان ، واقترح كل من أميل اده وجورج عقل وأسعد البستاني في بداية الجلسة إحالة مشروع التعديل إلى لجنة خاصة لمراجعته فرفضت الحكومة الاقتراح وأيدها المجلس النيابي في ذلك فانسحب أميل اده من الجلسة قبل مناقشة مشروع التعديل ، ثم أقر ٤٨ نائبا من المجلس المشروع وبالإجماع وتغيب سبعة عن حضور الجلسة. وقد تناول التعديل المواد (١) و ١١ و ٥٢ و ٩٠ و ٩١ و ٩٣ و ٩٥ و ١٠٢، وقضت التعديلات بإلغاء المواد والفقرات المتعلقة بالانتداب والدولة المنتدبة ، كما أنها جعلت اللغة العربية لغة رسمية وحيدة في لبنان(١١٧).

واعتبر الوزير البريطاني المفوض الجنرال سبيرس Edward Spears أن هذا التعديل هو السبب المباشر للأزمة السياسية اللبنانية ، وعندما وصل هيللو Helleu إلى بيروت في

اليوم التالي علق على ذلك بقوله «سأدرس القرارات وسأتخذ الإجراء المناسب لهذا التحدي»(١١٨).

وعلى الفور وقع رئيس الجمهورية على مشروع التعديل ونشر في اليوم الثاني في الجريدة الرسمية ليصبح نافذ المفعول(١١٩) وفي مساء يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ تناول هيللو Helleu العشاء مع الوزير البريطاني المفوض الجنرال سبيرس Edward Spears فذكره الأخير «أن يتجنب أي عمل يمكن أن يؤدي إلى اضطرابات عامة أو إجراءات من شأنها أن تؤثر في المجهود الحربي، ووعد هيللو Helleu سبيرس بأنه لن يقدم على أي عمل(١٢٠).

فإذا به يصدر قرارا في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، رقم (464 / F.C) علق بموجبه العمل بالدستور اللبناني وحل المجلس النيابي وألغى التعديلات الدستورية، ثم أصدر في اليوم نفسه قرارا ثانيا يحمل الرقم (465 / F.C) عين بموجبه أميل اده رئيسا للجمهورية وللحكومة بصفة مؤقتة (١٢١).

وفي ليل ١٠-١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ نفذ هيللو Helleu خطته في اعتقال وسجن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ثم الوزراء ، سليم تقلا ، كميل شمعون ، عادل عسيران، والنائب عبد الحميد كرامي ونقلوا جميعا إلى قلعة راشيا (١٢٦)، ويذكر Edward Spears أنه عندما اعتقل الفرنسيون بشارة الخوري اعتقلوا معه نجله ووضعوه في السرداب وأخذوا يوجهون له إهانات كقولهم (ابن الكلب ، ابن الإنجليزي) وقد أكد بشارة الخوري بنفسه هذه الحادثة(١٢٢).

ولما انتشرت أخبار ذلك أغلقت الحوانيت في بيروت وحدث اضطراب شعبي وأطلق الفرنسيون النار على المتظاهرين ، وفي يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ أعلن منع التجوال وفرض الأحكام العرفية، ولما حاول الرئيس أميل اده تشكيل حكومته رفض جميع السياسيين مشاركته الحكم، ولما حاول إشراك بعض المديرين العاملين أعلنوا أيضا رفضهم الاشتراك في الحكم وأصدروا بيانات بهذا الخصوص(١٢٣).

بينما كان أميل اده لايستطيع في هذه الفترة الخروج إلى الشوارع إلا بحماية الدبابات والسيارات العسكرية الفرنسية ، ولذا فقد حاول هيللو Helleu تهدئة الأوضاع بإسناد رئاسة الوزراء إلى سامي الصلح- وهو مسلم وابن عم رياض الصلح- غير أنه رفض هذا العرض قائلا «إني ملتزم بموقف رفاقي وإني أصر على استقلال البلاد وإخلاء سبيل المعتقلين فورا(١٢٤).

وفي صباح ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ وصل تقرير هيللو Helleu عن الإجـراءات التي قام بها إلى لجنة التحرير الوطني الفرنسية في الجزائر وكانت وجهة نظر كاترو Ca-troux أن العمل الذي قام به هيللو Helleu لايمكن تبريره لاشرعيا ولاسياسيا ولا أخلاقيا ، ولذلك يجب أن يستدعي حالا، بينما كانت وجهة نظر ديجول هي دعم إجراءات هيللو Helleu، ثم تقرر أن يذهب كاترو Catroux بنفسه إلى لبنان لدراسة الموقف [١٢٥].

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ اجتمع ٣٤ نائبا في منزل النائب صائب سلام، وقد اتخذوا عدة قرارات لدعم الحكومة واعتبروا أن الدستور اللبناني لايزال قائما، وأن حكومة أميل اده غير شرعية ، وفي الوقت نفسه عقد مؤتمر وطني في بيروت للبحث فيما يجب اتخاذه، وقد تم انتخاب لجنة تنفيذية لمتابعة الموضوع (تكونت اللجنة التنفيذيّة على النحو التالي: سليم إدريس، جورج حنا، محمد خالد، حبيب روبير، مصطفى بيضون ، رئيف أبي اللمع، فريد طليع ، إلياس اليفقليني، يوسف عطية ، ميثال فرعون، أحمد الداعوق، نقولا بستلايس ، سليم الطيارة ، سعيد فريحه ، رينيه سرسق ، محسن الدين النصرلي، محمد على بيهم، إبراهيم الأحدب، عبد الرحمن سحمراني، أمين الحلبي، إيلي خياط ، تقي الدين الصالح، جورج ريس، إبراهيم عودة ، الياس طرابلسي، كمال خير، مصباح بحصيلي، إيلي فارس، سامي عبد الملك، جورج عاقوري، ارتين مادويان) وقد استنكر المؤتمر الإجراءات الاستبدادية الصادرة عن المندوبية لجنة فرنسا، واعتبر أن الحكومة الشرعية هي وحدها دون سواها صاحبة الحق للتكلم والمفاوضة باسم لبنان[١٢٦].

وكان طلاب مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية والجامعة الأمريكية يتظاهرون ضد السلطة الفرنسية ، وقتل منهم الطالب هاني غندور كما جرح ابن وزير تموين سوريا، ثم قام مفتي الجمهورية اللبنانية محمد توفيق خالد والمطران الماروني اغناطيوس مبارك وصلا إلى منـزل Edward Spears وقد طلبا منه الدعم والتأييد ، ثم طلب منه المطران مبارك باسم المسيحيين التدخل المسلح وكان حينذاك يهتز بشئ من السخط والهياج [١٢٧].

كما شاركت المرأة اللبنانية بعدد من المظاهرات مندة بالفرنسيين طالبة من Edward Spears إرسال برقية احتجاج باسم المرأة اللبنانية إلى رئيس وزراء بريطانية[١٢٨] وذكر كاترو أن جان هيللو Helleu قد وحد لبنان كله ضد فرنسا في ليلة واحدة[١٢٩].

فقد بدأت الحركة الشعبية ضد السلطة الفرنسية في منطقة البسطة في غربي بيروت ثم ما لبثت أن امتدت إلى الجميزة وما جاورها من شرقي العاصمة ثم امتدت إلى عدد من المناطق

اللبنانية ، وبالفعل فقد كانت أحداث ١٩٤٣ فرصة ليحقق اللبنانيون أمانيهم خاصة وأن الرأى العام أخذ يتقارب كثيرا وبدأ اللبنانيون ينسجمون ويتوافقون [١٣٠].

ولما كانت فرنسا قد حاولت تثبيت صفوف اللبنانيين على أمل إيجاد حوادث تمكنهم من استمرار انتدابهم ، وكان محمد جميل بيهم قد اقترح فى اجتماع المؤتمر الوطنى فى ١٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ إرسال وفد من المؤتمرين لمقابلة البطريرك المارونى انطون عويضة لإطلاعه على تطورات الأوضاع قبل أن يتصل به الفرنسيين وعملائهم ، وبالفعل اتصلوا به الفرنسيون وحاولوا إقناعه بأن حركة المقاومة ليست إلا حركة إسلامية قصدوا بها طغيانهم وإضعاف المسيحيين [١٣١].

ولما شعر الفرنسيون بفشل مساعيهم مع البطريرك المارونى عمدوا إلى بث الفتن الطائفية وبذلوا جهودهم لحصر نطاق الثورة فى المناطق الإسلامية [١٣٢]، لتأكيد وجهة نظرهم القائلة بأنها ثورة إسلامية ، ثم بدأت السلطات الفرنسية بث الشائعات المغرضة بين الفئات الإسلامية والمسيحية والتى اتخذت طابعا طائفيا[١٣٣] أما فيما يختص بالصحافة اللبنانية فقد كانت منقسمة إلى عدة اتجاهات سياسية فبعضها مؤيد للفرنسيين والبعض الآخر معاد لهم، وقد كانت صحف البيرق والبشير وصوت الأحرار والشرق وسوريا الصادرتان باللغة الفرنسية تدعم موقف فرنسا وقد تعرضت هذه الصحف لغضب المتظاهرين الذين رموها بالحجارة والقنابل مما اضطروا إلى الإقفال ، كما قامت السلطات الفرنسية بإقفال أربعين صحيفة وكان هذا أمرا صعبا على اللبنانيين المعادين لفرنسا، ولذا قرر الشباب الوطنى اللبنانى إصدار صحيفة لاتحمل اسما أو عنوانا سوى علامتى استفهام ؟؟ وكانت لها دور كبير فى إزعاج السلطات الفرنسية وتوعية المواطنين ، وعمدت السلطات على تشويه هذه الصحيفة فأصدرت صحيفة مزورة تحمل نفس الاسم وهى علامتان استفهام وكانت تطبعان فى المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين باللغة العربية واللغة الفرنسية وتوزع بكثرة فى أنحاء لبنان وكانت تهاجم الحركة الوطنية الشعبية[١٣٤] .

وفى ١٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ أعلن فى الجزائر بأن الإجراء الذى قام به هيللو Helleu اتخذ بدون علم لجنة التحرير الوطنى الفرنسية ، لكنه فى اليوم التالى لهذا الإعلان أخبر هيللو Helleu مؤتمرا صحفيا فى بيروت بأن اللجنة المذكورة هى التى اتخذت القرار وأنه أوضح لديجول بأن الشعب اللبنانى سيقوم باضطرابات إذا نفذ الإجراء المتعلق باعتقال

وسجن رئيس الجمهورية ومجلس الوزارة ولكن الجنرال ديجول طلب منه أن يستمر في ذلك[١٣٥].

وفي الوقت ذاته وجه القائم بأعمال الوزير البريطاني المقيم في الجزائر مذكرة للسلطات الفرنسية هناك جاء فيها «إن الحكومة البريطانية لن توافق على تفاقم الحالة في لبنان ولن تتحمل قيام اضطرابات خطيرة في هذا البلد خلال الحرب ، لأنه في مثل هذه الحالة فإن الحكومة البريطانية مضطرة للتدخل في النهاية بواسطة القوات البريطانية لإعادة النظام[١٣٦].

وفي اليوم نفسه أيضا تلقى رينيه ماسيغلي R. Massigli وزير الخارجية في اللجنة الوطنية لفرنسا الحرة، مذكرة من روجرز ماكنز R. Makins الوزير البريطاني جاء فيها «أن حكومة صاحب الجلالة لا يمكنها بوجه من الوجوه أن توافق على خطورة الحالة في الشرق ، ولاتهضم وقوع اضطرابات جديدة أثناء الحرب ، والحكومة ترى ضرورة تدخلها عسكريا لإعادة الهدوء إلا إذا سحبت فرنسا مندوبها هيللو Helleu وأطلقت سراح المعتقلين»[١٣٧].

ونلاحظ من خلال هذه المذكرة حدة الصراع والتنافس البريطاني الفرنسي على لبنان ، بحيث وصل إلى إمكانية التدخل العسكري البريطاني، وفي الوقت نفسه كان الجيش التاسع البريطاني قد وزع في لبنان إعلانا هاما جاء فيه أن السلطات البريطانية لاتؤيد اعتقال الحكومة اللبنانية وأن البريطانيين سيحافظون على الوعود التي قدمت عندما انتزعت البلاد من القوات الفيشية[١٣٨].

وفي ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ وصل كاترو Catroux إلى القاهرة واستدعاه الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط كاسي Casy والذي كان قد عاد من بيروت لتوه وأخبره بأن الحكومة البريطانية تعتبر أن الحالة في لبنان خطيرة جداً ، وأي تأخير من جانبه في حل المشكلة سيضطر بريطانيا إلى التدخل العسكري، وأجابه كاترو Catroux بأنه لم يقبل أي تدخل أجنبي في موضوع الخلاف الفرنسي اللبناني»[١٣٩].

ومنذ اللحظة التي وصل فيها كاترو Catroux إلى بيروت في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣، تأكد له قوة الرأي العام في لبنان وجدية بريطانيا في تصرفها مع الأزمة، ثم تأكد له هذا الموقف بعد أن اجتمع مع الوزير البريطاني المفوض وبعد مشاورات أجراها مع أصحاب الشأن من الزعماء الدينيين المحليين ووجهائهم ، كذلك فإن أحدا منهم لم يعط جوابا إيجابيا

بأنه على استعداد لدعم أميل اده الرئيس المعين أو يعلن أنه يحبذ ما قام به هيللو، حتى البطريرك المارونى أبدى معارضته ولم يوافق على الإجراءات الفرنسية الأخيرة ، كل ذلك جعل كاترو Catroux وغيره من أعضاء لجنة التحرر الوطني الفرنسية يدركون في النهاية خطورة الموقف(١٤٠).

كما أن إطالة مدة الأزمة أدى إلى التأثير على الأحوال ونفاد الصبر أخذ يتسع ومظاهر الثورة تزداد وزعماء الفلاحين في البقاع بدءوا يتسلحون وينظمون أتباعهم وينسقون مع أى انتفاضة تحدث في أى مكان آخر في لبنان، ولاحظت السلطات البريطانية أن اللبنانين أخذوا يصعدون من حركتهم لإعطاء الذريعة لإجراء تدخل عسكرى مضاد ضد الفرنسيين ، فقد استطاع الوزيران اللذان كانا خارج الاعتقال جمع عدد كبير من الأتباع من قرى الجبل وجعلوا من قرية بشامون مأوى لهم وأعلن الوزيران فيها أنهما يمثلا الحكومة الشرعية ، في الوقت الذى تابع فيه مجلس النواب اللبنانى المنحل عقد جلساته في البيوت الخاصة واعترف بحكومة بشامون ، وأصدر جملة قرارات مهمة من ضمنها إلغاء العلم اللبنانى القديم واستبداله بعلم جديد يرمز إلى استقلال لبنان(١٤١) .

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ عاد المعتمد البريطاني كيزى Casey من القاهرة إلى بيروت واجتمع بالجنرال كاترو Catroux وسلمه بحضور الوزير المفوض سبيرز Ed-waed Spears إنذارا من بريطانيا والحلفاء تضمن أنه في حالة عدم إنهاء الأزمة فإن الجيش البريطانى مضطر للتدخل العسكرى لتوطيد الأمن وإعادة الأوضاع اللبنانية إلى طبيعتها ، وأن حكومة صاحب الجلالة قد أطلقت يد وزير الدولة البريطانى كيزى Casey في حرية التصرف وإعلان الأحكام العرفية في لبنان وتسلم قائد الجيش التاسع مهمة الأمن، وأنه إذا لم يخل سبيل رئيس الجمهورية والوزراء قبل الساعة العاشرة من صباح الاثنين ٢٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ فإن الجيش البريطانى يتولى هذه المهمة »ونحن نؤكد أن تدخل بريطانيا ليس له هدف خاص أو إبدال نفوذ فرنسا بنفوذ بريطانيا »وفي ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر ١٩٤٣ تسلم سبيرز Edward Spears برقية من كيزى Casey عالج فيها الموقف اللبنانى كما أشار إلى مسئولية الإنجليز الدولية حيال الوضع الراهن في لبنان(١٤٢).

وكانت أجهزة الإعلام الفرنسية قد بدأت تتهم البريطانيين بأنهم يعملون للسيطرة على سوريا ولبنان وأن Edward Spears هو المحرك الأول في المؤامرة البريطانية ورأى

الفرنسيون أنهم إذا تخلصوا من سبيرز Edward Spears فعندئذ يصبح كل شئ على ما يرام فى لبنان، ولهذا فإنهم حاولوا اغتياله ولكنهم فشلوا فى تحقيق ذلك ، ويذكر كاترو Ca-troux أن سبيرز Spears كان طموحا ويود أن يصبح الرجل الأول الذى يكون له الفضل التاريخى فى إزاحة فرنسا عن الشرق، لاسيما وأن الشرق العربى كان تحت سيطرة العسكرية، غير أنه لم يرد أن يقلد النازية فيدوس فرنسا علنا ، كما ذكر بانتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية فأوضح بأن سبيرز Spears ساهم كثيراً فى دعم لائحة بشارة الخورى تحت ستار إنقاذ البلاد من الفرنسيين وإعطاء اللبنانيين استقلالهم ، وقد تعهد بشارة الخورى حينئذ مقابل هذا التأييد أن يسير فى ركاب السياسة البريطانية . هذا وقد شعر كاترو بأن الصراع ليس بين الفرنسيين واللبنانيين والدول العربية بقدر ما هو صراع بين الفرنسيين والإنجليز(١٤٣).

وفى هذه الفترة تساءل ونستون تشرشل W. Churchill رئيس الوزراء البريطانى عن سبب إقدام فرنسا على حركة اعتقال رئيس الجمهورية ومجلس وزرائه ، وكيف يمكن لها أن تفسر رغبتها فى إجلاء الألمان عن أراضيها وهى تبشر بالاستعمار فى غير بلادها ، ورأى أن الحل يكمن فى تدخل بريطانى- أمريكى لحل الأزمة التى خلقت «لنا الفرصة السانحة أمام الرأى العام العالمى لنبحث جديا أمر ديجول ولنوقفه عند حده ، ورأى تشرشل ضرورة إطلاق سراح رئيس الجمهورية وبقية المعتقلين ، فإذا رفض ديجول هذا الحل نبادر إلى إلغاء اعترافنا باللجنة الوطنية الفرنسية ووقف القوى العسكرية الفرنسية الموجودة فى أفريقيا، ولقد أصدرت أوامرى للجنرال ويلسون أن يكون على استعداد لفرض النظام والهدوء فى لبنان(١٤٤).

ومنذ ذلك الوقت بدأ الموقف البريطانى الحازم يعطى ثماره المرجوة وتأثيره الفاعل حيث أصدرت لجنة التحرير الوطنى الفرنسية تعليماتها بإطلاق سراح رئيس الوزراء والوزراء بالإضافة إلى عبد الحميد كرامى، كذلك أعلن بان المسيو هيللو Helleu سيستدعى من بيروت وفعلا تم إطلاق سراح جميع المعتقلين يوم ٢٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، فاستقبلت لبنان ذلك بابتهاج عظيم والعلم الفرنسى الثلاثى الألوان مع شجرة الأرز مزق أرضا بعدإنزاله عن المبانى الحكومية واستبدل بالألوان الوطنية الأحمر- الأبيض- الأحمر مع شجرة الأرز. وفى اليوم نفسه عاد رئيس الجمهورية والوزراء إلى مكاتبهم فى المبانى الحكومية وزاولوا وظائفهم الرسمية ، وأعيد فتح البرلمان وأعطى رئيس الوزراء أوامره بإنهاء الاضطرابات(١٤٥).

وعلى ضوء ذلك بدأت الحياة السياسية تعود إلى حالها السابقة وصدرت نشرة باسم منظمتى النجادة والكتائب تطلب من الشعب اللبنانى حل الاضراب واستئناف الحياة العادية(١٤٦).

وفى مساء ذلك اليوم أذاع كاترو Catroux كلمة فى راديو المشرق بين فيها الأسباب التى جعلت لجنة التحرر الوطنى الفرنسية تقوم بإجراءاتها الأخيرة(١٤٧).

موقف الدول من هذه الأزمة :

كان لعملية الاعتقال أصداء دولية تشكلت فى الاستنكارات والاحتجاجات التى وجهها المحليون وكذلك بالإنذار الأول الذى وجهه سبيرز إلى هيللو يوم الاعتقال، يذكره بوعده الشفوى وكلام الشرف الذى أكده خلال الحفلة التى أقيمت على شرف الملك اليوغسلافى ، بأنه سيتجنب كل ما من شأنه أن يعكر الأمن، ثم يضيف قائلا «وأنا أترك لغيرى الحكم على عملك هذا بأن تعطى وعدا وتنقضه بعد ساعات قليلة ومن العسير أن يتصور المرء إجراءات تعكر الأمن وتعرقل مجهود الحرب فى هذه البلاد أكثر من عملك» .

ولقد جاء موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الذى أعلن موقفه فى ١٦ نوفمبر مماثلين للموقف البريطانى ، وبالنسبة للأمريكيين فالجدير بالذكر أنهم تعاونوا مع البريطانيين لإنهاء الأزمة اللبنانية لأن ذلك يضاعف من نفوذهم فى الأوساط اللبنانية خاصة وهم لم يوقعوا على صك الانتداب ، ولهذا فقد وجد الأمريكيون الفرصة سانحة لهم لإبداء معارضتهم للفرنسيين عندما تعرض طلاب الجامعة الأمريكية فى بيروت لنيران الجنود الفرنسيين وجرح منهم أكثر من عشرة طلاب، الأمر الذى أدى إلى إدخال جنود أمريكيين إلى بيروت بحجة حماية الجامعة الأمريكية والمفوضية الأمريكية أيضا. وفى منتصف شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة إلى اللجنة الفرنسية فى الجزائر تضمنت تحذيرات شديدة اللهجة وتهديدات فى حال استمرار التعنت الفرنسى الذى لا يضر بفرنسا ولبنان فحسب ، وإنما بجميع دول الحلفاء الذين لايريدون الانشغال عن الحرب العالمية الدائرة فى أوربا وبقية بلدان العالم ، وقد أوضح شابان Chapin المسؤول فى وزارة الخارجية الأمريكية ، فى مذكرة لوزارة الخارجية الفرنسية بأن فرنسا تحافظ على مصالحها أكثر وأفضل إذا أعطت الاستقلال للبنان فورا ، عوضا عن إصرارها على الانتداب ، إذ أنها لو اعتمدت سياسة استعمارية فهى لن تنتظر انفجار الجماهير ضدها فحسب ، بل أن الحكومة

الأمريكية ترى أيضا بأن الاضطرابات تضر بمجهود الحلفاء العسكرى، خاصة وأن الشعوب تنتظر تحقيق وعود أمريكا الهادفة إلى تقرير مصير تلك الشعوب(١٤٨) ، ويقول كاترو فى هذا الصدد «اتفق الأمريكيون والإنجليز على خطة واحدة ضدنا»(١٤٩).

أما الاتحاد السوفيتي فقد أبدى تأييده للبنانيين فى أزمتهم لاسيما وأن السوفيات كانوا يعانون من وطأة الاحتلال الألمانى لأراضيهم ، بالإضافة إلى تحالفهم - المؤقت- مع الولايات المتحدة وبريطانيا وذلك منذ الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتى فى ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، وكان لابد من اتخاذ موقف موحد وبالفعل فقد أرسلت حكومة الاتحاد السوفيتى مذكرة لكل من المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين أعلنت فيها تأييدها لوجهة نظرهما حيال قضية لبنان وأنها تقف إلى جانب الشعب اللبنانى لنيل استقلاله الحقيقى كما طالبت المذكرة بإطلاق سراح المعتقلين(١٥٠).

أما بالنسبة للموقف العربى من أزمة تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ ، فقد استطاعت الدول العربية التحرك لدعم موقف لبنان إما بإيحاءات بريطانية وإما من منطلقات عربية ، فبعد اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء قامت المظاهرات الصاخبة فى سوريا والعراق ومصر وفلسطين(١٥١).

كما قام تحسين قدرى القائم بالأعمال العراقى فى بيروت بإرسال مذكرة إلى جان هيللو Helleu أكد فيها أن ما قام به يعتبر عملا شاذاً ، وأن العراق حكومة وشعبا يحتج بشدة على العمل الذى قامت به فرنسا فى لبنان (١٥٢).

أما الملك فاروق ملك مصر فقد أرسل رسالة إلى رئيس الجمهورية تسلمتها الحكومة المؤقتة فى بشامون أيد فيها قضية لبنان ومما قاله فيها «أننا لواثقون بأن الشعب اللبنانى بالغ فى ظل الكرامة والحرية والشرف ما هو جدير به من سيادة ومجد ، ولست فى حاجة لأن أؤكد لفخامتكم أن الشعب اللبنانى يستطيع أن يعتمد على صداقتنا وصداقة حكومة وشعب مصر فى ساعة الشدة والحرج التى تمر»(١٥٣).

وفى ١٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ وهو عيد الجهاد الوطنى فى مصر، ألقى مصطفى النحاس رئيس الوزراء المصرى خطبة ندد فيها بالفرنسيين ، وحيا فيها الحركة اللبنانية الاستقلالية وطالب الدول العربية بدعم القضية اللبنانية ، كما قدم مذكرة إلى الجنرال ديجول قال فيها «فإذا لم تعد الحالة فى لبنان إلى وضعها المنطقى فإن مصر تعيد النظر في موقفها من فرنسا على ضوء الحوادث الجارية»(١٥٤).

كما أن الشعب المصرى بجميع فئاته لاسيما الفئة المثقفة منه من طلاب الجامعات قد قاموا بتنظيم المظاهرات الصاخبة تأييدا للبنان وتجاوبا مع إخوانهم الطلاب اللبنانيين(١٠٥).

وكان الجنرال كاترو Catroux قد وصل إلى القاهرة فى ١٥ تشرين (نوفمبر) ورفض فى البدء زيارة النحاس باشا، أما مباحثاته مع كيزى Casey المعتمد البريطانى للشرق الأوسط، فقد انتهت إلى إصرار كاترو على استمرار الانتداب الفرنسى وركز على آثام الجنرال سبيرز الذى ينبغى أن يستدعى إلى بلاده جنبا إلى جنب مع المفوض هيللو Helleu (١٠٦).

أما فيما يختص بالموقف السورى فقد بدأت حركة مظاهرات واسعة النطاق مؤيدة للبنان ، وكانت الحكومة السورية برئاسة سعد الله الجابرى تراقب الوضع اللبنانى ثم ما لبثت أن وجهت إنذارا إلى كاترو فى ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) طالبت فيه إرجاع الحياة الدستورية إلى ما كانت عليه فى لبنان «وإلا تتحملون وحدكم المسؤوليات.

كما أبرق الملك عبد العزيز آل سعود ملك السعودية إلى الحكومتين الأمريكية والبريطانية محتجا على سياسة الفرنسيين ، ووقف اليمن وشرقى الأردن إلى جانب لبنان ، وقد أرسل الأمير عبدالله أمير شرقي الأردن رسالة إلى البطريرك المارونى أيد فيها لبنان ضد الممارسات الفرنسية ، ونظرا للموقف العربى المؤيد للبنان، اتخذت السلطات الفرنسية قرارا يمنع دخول الصحف العربية إلى لبنان غير أن هذا القرار لم يمنع تسرب بعض الأعداد لاسيما من فلسطين إلى الداخل(١٠٧).

وكان لابد من حدوث خطوة مهمة كانت السلطات الفرنسية تتردد فى أجرائها وهى الاعتراف بشرعية الحكومة اللبنانية بعد إطلاق سراح رئيس الجمهورية وأعضاء حكومته ، وأمام الضغط البريطانى العنيف على لجنة التحرر الوطنى الفرنسية لإعطاء اعتراف رسمى بالحكومة اللبنانية ، وفى توصية من الجنرال كاترو لتلك اللجنة ، فإن اللجنة وفى وقت متأخر من مساء يوم ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) أعطت الصلاحية لكاترو بإبلاغ رئيس الجمهورية بهذا الاعتراف وقد وصله ذلك وبصورة رسمية فى صباح يوم ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر)(١٠٨).

وبعد هذا الاعتراف الرسمى بالحكومة اللبنانية ظهر واضحا قوة موقف الرئيس اللبنانى وحكومته، ومع ذلك فقد أبدى المسئولون اللبنانيون رغبتهم فى الوفاق وتجنبوا التحريض فى تصريحاتهم ، وفى ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبر) حدث اجتماع ضم من الجانب اللبنانى الرئيس بشارة الخورى ورئيس الوزراء ووزير الخارجية ، ومن الجانب الفرنسي الجنرال كاترو والمسيو

بـارت Bart المفوض الجديد للبنان، وفى هذا الاجتمـاع لم يتطرق كاترو إلى موضـوع المعاهدة وكان هذا اتجاها جديدا، فقد عبر عن شعوره فى إمكانية حل كثير من المسائل بطريقة ودية، فى الوقت الذى يمكن فيه إعطاء فرنسا وضعا مميزا وهو ما اعترفت به بريطانيا سابقا، لكن الرئيس اللبنانى ومن معه رفضـوا أن يرتبطوا بشئ من هذا مع الفرنسيين وبعد مشاورات مع باقى أعضاء الحكومة اللبنانية توصلت الحكومة اللبنانية إلى نتيجة وهى أن أى اعتراف بذلك سيستغله الفرنسيون إن عاجلا أو آجلا(١٥٩).

وقـبل عـودة كـاترو إلى لبنان والتى تمت فى ١٦ كـانون الأول (ديسـمـبـر) ١٩٤٣ وذلك للتفاوض مع الحكومة اللبنانية من أجل تسوية تنهى الأزمة السياسية فى لبنان، حدثت عملية تطهير فى الوظائف القيادية الفرنسية فى لبنان وقد شملت كل من بوغنز Boegner وبايلين Baelon، كذلك اجتمع المجلس النيابى فى أول ديسمبر وللمرة الأولى منذ الأزمة الأخيرة وحضر الاجتماع أربعة وأربعون نائبا وبعد قراءة محاضر الجلسات التى عقدت فى خارج قاعة البرلمان أكد رئيس الوزراء أن الحكومة اللبنانية لم تعترف بالانتداب ولن تعترف به ثم قال أمام النواب «للبنان الحق فى أن يكون حرا وأن استقلاله قد تأمن من قبل تعهدات الحلفاء وميثاق الأطلنطى(١٦٠).

وفى ٢٤ كانون الثانى (يناير) ١٩٤٤ تم توقيع على البرتوكول الخاص بتسليم المصالح المشتركة Interet Communs، وفى نفس الوقت أوضح الوزير البريطانى أنتونى ايدن بأن الحكومة البريطانية قد اعترفت باستقلال لبنان وسوريا وضمنت هذا الاستقلال وهى لم تفكر قط فى التـراجع عن هذه الخطة، كمـا أوضح له «أنكم أصدقـائنا والفرنسيـون هم أيضـا أصدقائنا وأنه ليكون أدعى بكثير لراحة وزير الخارجية الذى هو آنا أن توافقوا إلى إيجاد حل فيما بينكم للمسائل التى تفرقكم»(١٦١).

وهذا القول فى رأينا يشير إلى أن بريطانيا لن تتدخل للضغط على فرنسا من أجل سحب قواتها من لبنان بل تنتظر من لبنان وفرنسا أن يتفقا معا على حل هذا الموضوع، كما أوضح كميل شمعون الوزير اللبنانى المفوض فى لندن لإيدن وزير الخارجية البريطانية بأن فرنسا تريد أن تفرض على لبنان معـاهدة تضمن لها مـركزا ممتازا فى بلاد الشرق، فكرر إيدن مجددا موقفه السابق مطالبا بإيجاد تسوية بين لبنان وفرنسا.

الهوامش

١- محمد كمال الدسوقي : الحرب العالمية الثانية، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٨ ، ص١٢٣ .

٢- فيشي Vichy مدينة صغيرة قرب باريس اتخذت مقرا لحكومة فيشي ١٩٤٠-١٩٤٤ التي حكمت فرنسا بعد سقوط باريس في الحرب العالمية الثانية والتي ألفها المارشال بيتان .

3- George Kirk; The Middle East in The War , Survey of International Affaires, 1939-1946 (London Oxford Universty, Press, 1952, p. 86 .

٤- كان بيتان قد تسلم الحكم في ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ بعد استقالة رينو .

٥- للاطلاع على النص الكامل لبنود الهدنة انظر:

The Bulletin of Internaional News, Vol XVLL, No 13 , June 29 , 1940 ,p. 780.

٦- حول هذه الأهمية لبريطانيا راجع:

Winston Churchill : The Second World War , vol . 5 . (London Cassel and Company ltd, 1965 . p. 390 .

٧- للإطلاع على موقف الفرنسيين الأحرار حول هذا الموضوع: راجع الجنرال ديجول : مذكرات عن الحرب العالمية الثانية ج (١) تعريب خيرى حماد، بغداد مكتبة المنار، ١٩٦٤ ، ص٢٤ .

8- Stephen Hemdy Longrigg; Syria and Lebanon Under Mendate (London Oxford Universty), Press, 1958 . p. 56 .

٩- للاطلاع على هذه الخطة راجع . . Churchill Winston . vol . 5 p. 296

10- The Bulletin of International News: vol XVLL . No 14 , July 13, 1940 . p. 18 .

١١- كان الجنرال دانتيز قد عين القاضي الفرد نقاش رئيسا للدولة ، كما تشكلت وزارة برئاسة أحمد الداعوق ، راجع : بشارة خليل الخوري: الخوري: حقائق لبنانية، ثلاثة أجزاء حريصا ١٩٦٠ / ١٩٦١ الجزء الأول ، ص٢٣٨ .

١٢- حول هذه النجدات وتأثيراها الإيجابي على الحلفاء راجع :

Albert Hourani ; Syria and Labanon , A Political Eaay (London Oxford Universty, Press, 1945 , p. 239 .

١٣- للاطلاع على نص هذه الشروط انظر George Kirk; Op. cit. p. 314.

14- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 42 . p. 231.

15- H. M. Wilson ; Eight Years Overseas 1939 -1947 (London Hatchinson , 1948), pp. 113 114 .

16- Archives Diplomatique Minister des Affaires , Etrangeres Series, Repport a La Societe des Nations sur la situation de La Syrie et de Liban. 1945 .

17- Winston Churchill ; Op. cit, vol . 3 , p. 297 .

١٨- شارل ديجول : مذكراته السياسية ج٢ ، تعريب وتعليق خيرى حماد ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص٢٣٩ .

19- Archives diplomatique Minster des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939 - 1945 . Comite National sur La situation de la Syrie et de Liban . 1945 . p. 124 .

٢٠- بشارة الخورى : حقائق لبنانية ، ثلاثة أجزاء ، حريصا ١٩٦٠ / ١٩٦١ . الجزء الأول، ص٢٣٨ . (فى برقية من كاترو إلى ديجول يذكر أن حكومة الداعوق قد تشكلت فى ٢ / ١٢ / ١٩٤١ بمعاونه ارثوذكس ، ١ روم كاثوليك ، اقليات بروتستانت ، وتشير البرقية أن الحكومة استقبلت بالترحيب رغم معارضة تجمع بشارة الخورى والبطريرك لها) .

21- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .

Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F. vol 40 . p. 53-54 . 75 . et vol 42 . pp. 136-137 .

22- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .

Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F. vol. 40 . p. 166 .

23- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie .

Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francias Symbole (M.A.E) C. N. F. vol. 41 . p. 5 de Catroux a Francelib .

24- Foreign Offic F.O . 371 / 31471 . E 369 / 207 / 89 Confidental General Spears to Minister of State (Cairo) Beirut Febraury 26 , 1942 .

25- Foreign Office. 371 / 31471 . E . 3331 / 369 / 207 Confidental , Issued by . Syria to Mission April, 4, 1942 .

26- Archives Diplomatique, Ministeres des Affaires , Etrangeres series, Levant Syria Liban 1920, 1945 .

27- Foreign Office . 371 / 31471 . E . 2276 / 207 Confidental , Issued by . Syria to

Mission , No , 9 , April , 1942 .

28- Foreign Office . 371 / 31471 . E . 2691 / 207 . Secret No 10 , Issued by . Syria to Mission , 22 . May . 1942 .

29- F. O . 371 / 31473 . E 3331 / 207 / 89 . Confidental , No , 11 , May . 30 , 1942 .

30- F. O . 371 / 31474 . E 4347 / 207 / 89 . Confidental , No , 16 . July 3, 1942 .

31- F. O . 371 / 31474 . E 4507 / 207 / 89 . Confidental . No ,17 , July . 7 , 1942 .

32- Foreign Office . 371 / 31474 . E . 4507 / 207 No , 8 , Issued by . Syria to Mission , July , 31 . 1942 .

33- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 111 .

34- F. O . 371 / 35174 . E 845 / 27 / 89 , February 16 . 1943 .

35- F. O . 371 / 35147 . E 719 / 27 / 89 , Secret No , 44 , February , 3 , 1943 .

36- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 321 .

37- F. O . 371 / 35175 . E. 300 / 27 / 89 , Secret No, 48, March 3 , 1943 .

38- F. O . 371 / 35176 . E . 1708 / 27 / 89 , Secret No , 49 , March 10 . 1943 .

39- F. O . 371 / 35176 . E . 1589 / 27 / 89 , Secret No, 49 , March 17 . 1943 .

40- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 41 . p. 262.

41- F. O . 371 / 35176 . E, 1708 / 27 / 89 . Secret , No , 49 . March 11, 1943 .

42- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 42 . p. 231 .

43- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1943 . vol . 31 . p. 1231 .

44- Stephen Hemdy Longrigg , op. cit . p. 295 .

45- Edward Spears ; Fullilment of a Mission Syria and Lebanon , United Empire XXXVI . 1977 . p. 47 .

46- F. O. 371 / 35176 . E , 1918 / 27 / 89 . Secret , No , 52 . March 31 , 1943 .

47- F. O. 371 / 35177 . E , 2642 / 27 / 89 . Secret , No . 57 . Apr 28, 1943 .

48- F. O. 371 / 35177 . E, 2798 / 27 / 89 . Confidental , No , 58 . May 6, , 1943 .

49- Edward Spears ; Op. cit. p. 143 .

50- F. O. 371 / 35177 . E, 2965 / 27 / 89 . Secret , No , 57 . May 19, 1943 .

51- Georg Kirk ; Op. cit. p. 162 .

52- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National . vol 31 . p. 1231 .

53- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1926- 1950 . vol . 12 . p. 341 .

٥٤- بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، المصدر السابق ج ١ ، ص٢٤٦ .

55- F. O . 371 / 35177 . E, 3691 / 27 / 89 . Secret , No . 64 . July 6, 1943 .

٥٦- محمد جميل بيهم : لبنان بين المشرق والمغرب ١٩٢٠-١٩٦٩ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص١٢٢ .

٥٧- كمال صليبي: تاريخ لبنان الحديث ، بيروت ، دار النهار، ١٩٨٤ ، ص٢١٧ .

58- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1920-1945 . vol 2 . p. 321 .

59- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 143.

60- F. O . 371 / 35179 . E, 4142 / 27 / 89 . Secret , No , 67 . July 14 . 1943 .

٦١- بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، المصدر السابق . ج١ ، ص٣٢٧ .

62- F. O . 371 / 35179 . E, 4281 / 27 / 89 . Secret , No , 68 . July 21 . 1943 .

63- F. O . 371 / 35179 . E, 4459 / 27 / 89 . Secret , No , 69 . July 20, 1943 .

64- Admon : La formotion Historique , du Laban Politique et Censtitutionnel . e. Roabbarto . p. 452 .

65- F. O . 371 / 35179 . E, 4611 / 27 / 89 . Secret , No , 70 . 1, Augest , 1943 .

66- F. O . 371 / 35180 . E, 4990 / 27 / 89 . Secret , No , 62 . 1, Sep , 1943 .

67- F. O . 371 / 35175 . E, 845 / 27 / 89 . Secret , No , 45 . Feb, 10 , 1943 .

68- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .

٦٩- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج٢ ص١٠٧٦ .

٧٠- اللايدي سبيرز : قصة الاستقلال في سوريا ولبنان ، تعريب منير البعلبكي، بيروت، ١٩٧٤، ص٧٦ .

71- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .

72- F. O . 371 / 35177 . E, 2484 / 27 / 89 . Secret , No , 56 . 8, April , 1943 .

73- F. O . 371 / 35181 . E, 5810 / 27 / 89 . Secret , No , 74 . 1, Sep , 1943 .

74- F. O . 371 / 35180 . E, 5104 / 27 / 89 . Secret , No , 75 . 1, Sep , 1943 .

٧٥- انظر مقالات الدكتور مصطفى عز الدين في جريدة النهار، العدد ٢٧٨٠ ، ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، والعدد ٢٧٨٢ ، ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، العدد ٢٧٦٣، ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ .

٧٦- البيرق ، العدد ٢٧٦٣ ، ٦ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٤٣) .

٧٧- اللايدي سبيرز : المرجع السابق ، ص٧٨ .

78- Stephen Hemdy Longrigg , Op. cit, p. 329 .

٧٩- بشارة الخوري: المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٦ .

80- Arab World Political and Diplomatic History 1900 , 1957 , vol 2, 1942, 1952 , 29 August 1943 .

٨١- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥٨ .

٨٢- كمال جنبلاط (١٩١٧-١٩٧٧) أحد الزعماء السياسيين البارزين في لبنان دخل المجلس النيابي لأول مرة عام ١٩٤٣ ، وفي أول مايو ١٩٤٩ أسس الحزب التقدمي الاشتراكي ، كان أحد زعماء ثورة عام ١٩٥٨ ضد عهد كميل شمعون، ولعب دورا بارزا في كل العهود السياسية ، وتبوأ مناصب وزارية أكثر من مرة، كما لعب دورا فاعلا في أحداث لبنان ١٩٧٥-١٩٧٦ وترأس الحركة الوطنية، له عدة مؤلفات في السياسة والأدب ، اغتيل في ١٦ آذار (مارس) ١٩٧٧ .

أنظر ، كمال جنبلاط : حقيقة الثورة اللبنانية ، ص٢١ .

٨٢- بشارة الخوري: المرجع السابق، ج١ ، ص٢٥٨ .

٨٣- يوسف مزهر : المرجع السابق، ج٢ ، ص١٠٨٣ .

84- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 112.

85- G. Cat roux; Op. cit . p. 239 .

٨٦- بشارة الخوري : المرجع السابق ج١ ، ص٢٦٤ .

٨٧- مذكرات سامي الصلح: المرجع السابق، ص٢٣٦ .

٨٨- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج٢، ص٢٦٥ .

٨٩- يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٠٨٥ .

90- F. O. 371 / 35182 . E, 5567 / 27 / 89 . Secret , No , 76 . 22 , Sep , 1943 .

٩١- بشارة الخوري : المرجع السابق ، ج٤ ص٢٧ ، ١ .

92- A. Williams , Britain and France in the Middle East and North Africa. p. 321 .

93- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1939-1945 . vol . p. 212.

94- F. O. 371 / 35182 . E, 5700 / 27 / 89 . Secret , No , 77 . 22, Sep , 1943 .

95- F.O. 371 / 35182 . E, 5639 / 27 / 89 . Secret , No , 78 . 29 , Sep , 1943 .

٩٦- بشارة الخوري : المرجع السابق ج٢، ص١٩ .

٩٧- راجع نص البيان في، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني، ٧ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٤٣) ، ص١١-١٧ ، النهار ، أعداد ٢٧٦٩ ، ٢٧٧٠ ، ٨و٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، بيار زيادة : مجموعة الوثائق الدبلوماسية والسياسية- لبنان ص٩١ .

98- E. Abouchdid : Thirty Year of Lebanon and Syria 1917- 1947 p. 19 .

٩٩- منير تقي : ولادة الاستقلال ص٣٧ ، محمد جميل بيهم : النزاعات السياسية بلبنان ص٩٧ .

١٠٠- انظر النهار، العدد ٢٧٧٢ ، ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، والعدد ٢٧٧١ ، ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ، صوت الأحرار العدد ٥٠٥٨ ، ١٤ تشرين الأول ١٩٤٣) .

101- F. O. 371 / 35182 . E, 6239 / 27 / 89 . Secret , No , 81 . 20 Oct, 1943 .

102- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 44 , p. 101 .

103- F. O. 371 / 35182 . E, 6239 / 27 / 89 . Secret , No , 82 . 27 , Oct, 1943 .

104- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 231.

١٠٥- وليد فارس : التعددية في لبنان ، الكسليك ، لبنان، ١٩٦٤ ، ص١٥٥ .

106- F.O. 371 / 35183 . E, 6213 / 27 / 89 . Secret , No , 83 , to Speras . No . E. 6451, in F.O. 371 / 35183 / 89 .

١٠٨- انظر البيان الوزاري في مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني، في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣ ص ص١١-١٩ .

١٠٩- بشارة الخوري: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٢٣ .

110- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Sympole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 111.

111- F. O. 371 / 35183 . E, 6213 / 27 / 89 . Secret , No , 83 . 6 , Nov, 1943 .

١١٢- انظر تعديلات هذه المواد في الدستور اللبناني مع تعديلاته ١٩٦٢، ص٧-٢٠ ، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ص٤٠-٥٣ ، بشارة الخوري : حقائق لبنانية ص٢٧-٩٢ .

113- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie Landres Guerre 1939-1945 . Comite National Francais Symbole (M.A.E) C.N.F. vol 44. p. 331 .

١١٤- من هؤلاء النواب كمال جنبلاط ، عبد الغني الخطيب، أحمد الحسيني، جورج زوين، جورج عقل، أسعد البستاني، جميل تلحوق، أمين السعد ، جبرائيل المر ، وديع الأشقر.

١١٥- منير تقي : المرجع السابق ، ص٤٩ .

١١٦- البشير : العدد ٦٩٧٩ ، ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

١١٧- انظر تعديلات هذه المواد في الدستور اللبناني مع تعديلاته ١٩٦٢ ، ص٧-٢٠ ، مضبطة الجلسة الثالثة لمجلس النواب اللبناني ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ص٤٠-٥٣ .

118- Edward Spears ; Op. cit , p. 173 .

119- E. Rabbath, Op. cit. pp. 459-469 للمزيد من التفصيلات انظر.

120- Edward Spears ; Op. cit . p. 174 .

١٢١- للمزيد من التفصيلات الوافية يوما بيوم من ٧ إلى ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ انظر :

Kessings Contemporary Archives 1943-1945 . vol , V. pp. 6109-6111, A . W. 11. Now 1943 , W, B. Fischer, The Middle East. p. 493 .

١٢٢- (للمزيد انظر اللايدي سبيرز Spears المصدر السابق ص٨١-٨٤ ، بشارة الخوري ، ج٢ ، ص٢٣-٢٩ ، يوسف مزهر ج٢ ص١١٢٨ . Edward Spears : Op. cit . p. 225-229 .

123- Edward Spears ; Op. cit. 228 .

124- E. Rabbath ; Op. cit. p. 94 .

125- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 261.

١٢٦– منير تقي: المرجع السابق ، ص١٥١ .

١٢٧– اللايدي سبييرز : المرجع السابق ، ص٨٥ .

١٢٨– انظر نص البرقية . Edward Spears , p. 237

129- Catroux ; Op. cit p. 414 , Stephen Hemdy Longrigg Op. cit. p. 332 .

١٣٠– كمال جنبلاط : حقيقة الثورة ١١١ .

١٣١– يوسف مزهر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١١٦٦ .

١٣٢– أنيس صائغ : لبنان الطائفي ص١٥٦ .

١٣٣– للمزيد من التفصيلات عن هذه الشائعات انظر ، منير تقي الدين: ولادة الاستقلال ص١٦٣–١٦٦ ، يوسف مزهر ج٢ ١١٥٠ .

١٣٤– علامة استفهام (؟) العدد ٧ و ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

135- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 291.

136- Kessings Contemporary Archives 1943-1945 . vol , V, p. 6109, E Spears , pp. 222-223 .

137- F. O . 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret , No , 86 . 24 , Nov. 1943 .

138- Edward Spears ; Op. cit , p. 266-269 .

139- W. Churchill; Memoires sur la deuxieme guerre. T, V, pp. 185-187 .

140- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 43. p. 432 .

141- F. O . 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret , No , 86 . 24 , Nov, 1943 .

142- Catroux ; Op. cit. p . 412 .

بشارة الخوري المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٤٣ .

144- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1945 .

145- F.O. 371 / 35195 . E, 7682 / 27 / 89 . Secret, No , 86 . 27 Nov. 1943 .

١٤٦- بشارة الخوري المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٤٣ .

147- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 145.

148- American Foreign Policy Gvornment Printing Office Washington Current Documents, Depatrment of State Washington . 1945 , vol , V. p. 1221 .

149- Archives diplomatiques Minstere des Affaires Etrangeres Serie . Landres Guerre 1939-1945. Comite National Francais Symbole (M. A. E) C. N.F. vol 44. p. 146.

١٥٠- البشير ، العدد ٦٩٨٥ ، ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

151- Stephen Hemdy Longrigg; Op. cit, p. 23 .

١٥٢- جورج حنا : من الاحتلال إلى الاستقلال ، ص ص٢٠٢-٢٠٥ ومنير تقي الدين : المرجع السابق ، ص٩٧ .

١٥٣- علامة استفهام ؟ العدد ٢، ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ .

١٥٤- يوسف مزهر : المرجع السابق، ج٢ ، ص١١٥٨ ، وجورج حنا: المرجع السابق ، ص٢٠٢ .

١٥٥- زاهية قدوره : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص٢٩١ .

156- Minister des Affaires , Etrangeres series, Repport a la societe des Nations sur la situation de la Syrie et de Liban . 1945. vol. p. 331 .

١٥٧- مذكرات سامي الصلح : المرجع السابق، ص٢١٤ .

158- Stephen Hemdy Longrigg , Op. cit . p. 295 .

159- Albert Hourani , Op. cit . p. 132 .

160- F. O. 371 / 35169 . E, 8000 / 27 / 89 . Secret , No , 88 . 18 , Dec. 1943 .

١٦١- كميل شمعون : المرجع السابق، ص١١٢ .

د. حسن خضيرى أحمد (*)

الهمدانى ومنهجه فى كتابة التاريخ

القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادى

معظم الذين كتبوا عن حياة أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، من أيام القاضى أبى القاسم صاعد بن أحمد ين صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) ، ووزير حلب جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى (ت ٦٣٦هـ / ١٢٤٨م) ، وياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) إلى العصر الحديث لم يذكروا عنه إلا معلومات قليلة[١].

ويعرف الهمداني بالنسابة[٢]، وابن الدمينة[٣] ، ويلقب نفسه لسان اليمن، ويعبر عن نفسه قائلاً : «أبومحمد أو الهمداني»[٤] كما يعرف بالعبدي[٥] وبالبكيلى [٦]، بينما يذكره مسلم اللحجى بابن الحائك [٧]. ويعلل القفطى[٨] هذه التسمية بقوله : «فأما تلقيبه بابن الحائك ، فلم يكن أبوه حائكًا ، ولا أحد من أهله ، ولا فى أهله حائك ، وإنما هذا اللقب لمن يشتهر بقول الشعر، وكان جده سليمان بن عمرو المعروف بابن ذى الدمنة، شاعراً ، فسمى حائكًا لحوكة الشعر..».

ولد أبومحمد الهمداني سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م فى مدينة صنعاء [٩]، ويبدو أن أسرة الهمداني تأثرت بعوامل لانعرف الكثير عنها ، فكانت من أقدم الأسر التى تركت البداوة، وتحضرت ، حيث انتقل بعض منها إلى الكوفة، والبعض الآخر إلى زبيد [١٠]. ومارس بعضهم حرفة الصناعة[١١].

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد – كلية الآداب بقنا– جامعة جنوب الوادى .

على أن أسرة الهمداني كانت تقطن في المراشي (١٢)، في مواطن قومهم البكيليين الهمدانيين ، ثم انتقل يوسف الجد الثالث للهمداني إلى صنعاء، يقول الهمداني: «سكن صنعاء في آخر عمره، وحمل بها هو وأولاده» (١٣). أما والده فقد كان يعمل في تجارة الذهب والفضة ، وزار بلاداً كثيرة بحكم عمله في التجارة، «فقد دخل الكوفه وبغداد والبصرة وعمان ومصر ومكه »(١٤)، وفي ظل هذه الأسرة عاش الهمداني سني حياته الأولى في صنعاء ، التي كانت تمثل إحدى منارات الثقافة في أوائل العصر الذهبي للثقافة العربية ، ومن خلال أسرته بدأ أول جسر مع المعرفة . ومن المرجح أن الهمداني شارك أهله في عملهم في نقل الحجاج والتجار إلى مكة ، «فقد كان لهم بصر بالإبل لم يكن لأحد من العرب»(١٥)، ويصف الرحلة وصفًا شائقًا بقوله (١٦): «وكنت أنظر إلى التجار إذ حملناهم إلى مكة من صعدة ، يأكلون سفرهم طرية إلى نصف الطريق، ويابسه تدق وتطر إلى مكة».

تلقى الهمداني أولى مراحل تعليمه في صنعاء التي كان مفتونًا بها، حيث افتتح دراسته بعلوم القرآن الكريم والحديث والفقه ، هذه العلوم التي كانت تمثل الركيزة الأساسية في ثقافته، وانعكست على مؤلفاته الموسوعية العديدة. وإذا أردنا أن نقف على ثقافته الواسعة نجد لزامًا علينا أن نعرض للخلفية الثقافية في عصره، فقد نشطت رواية الحديث في اليمن منذ مطلع القرن الثاني الهجرى / الثامن الميلادى، حتى صار لمدرستها جلة من العلماء من أمثال همام بن منبه بن كامل بن سنسخ وأخيه وهب بن منبه (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م) (١٧)، الذى كان بارعًا في الروايات ، هذا فضلاً عن تضلعه في اللغات اليونانية والعبرية والسريانية والحميرية. وينسب إليه كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم»(١٨) وكتاب المغازى (١٩)، ويقول وهب بن منبه (٢٠): «.. قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتابًا».

ومن بين هؤلاء العلماء نذكر معمر بن راشد (ت ١٥٤هـ / ٧٧٠م) وطاووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ) الذى قال عنه ابنُ عباس : «طاووس عالم أهل اليمن»(٢١)، ويصفه الجندى: «أنه كان فقيها زاهداً ورعًا محدثًا ، عابداً ناسكًا ، أدرك خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحبهم وأخذ عنهم ..» (٢٢). وأما عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م) ، فهو فقيه أهل اليمن وصنعاء ، ومحدثها ومؤرخها ، وأحد أئمة الأمصار المعدودين ، وله الجامع المشهور في السنن(٢٣)، وهو أقدم من موطأ مالك (٢٤)، ونذكر أيضًا أبا قرة موسى بن طارق الزبيدى (٢٠٣هـ / ٨١٨م) وكان إمامًا كاملاً لمعرفة

السنن والآثار، أخذ العلم عن مالك وأبي حنيفة ومعمر، فقد لقيهم جميعاً وروى عنهم(٢٥)، كما أدرك نافعاً وأخذ عنه القراءة(٢٦).

وإلى جانب العلوم الدينية، عكف أبو محمد الهمداني على دراسة الرياضيات والفلك والنجوم والطب والفلسفة ، واتخذ من بطليموس القلوذي أستاذاً ومعلماً ، ونهل منه حتى بلغ الغاية القصوى(٢٧)، «وفي مؤلفات الهمداني جُمَل حِسَان من حِسَابِ القِرَانَات وأوقاتها ، ونبذ من علم الطبيعة ، وأحكام النجوم، وآراء الأوائل من قدم العالم وحدثه»(٢٨).

على أننا نستشف من كتابات الهمداني مؤثرات يونانية فنراه يعرض في مقدمة كتبه صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين ، والمقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ونبذاً من أخبار الإسكندر. ويبدو التأثير اليوناني قوياً ، عندما يقول (٢٩): «قالت الحكماء...» ويقصد بذلك فلاسفة اليونان من أمثال دوثيوس اليوناني ، وأرسطوطاليس ، وديستوريدس»(٣٠).

وفي حين ينكر صاعد الأندلسي علم الفلسفة على العرب فإنه يخص منهم اثنين اشتهرا به أحدهما الهمداني وذلك حيث يقول : «.. وأما علم الفلسفة فلم يمنح الله العرب شيئاً منه، ولا هيأ طباعهم للعناية به، ولا أعلم أحداً من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي، وأبا محمد الحسن الهمداني» . ويذكر أحد المستشرقين المنصفين (٣١)، أن ما كتبه الهمداني في مؤلفاته ، وفكره ونظرته الشمولية ، جعله يكتسب صفة الفيلسوف ، إلى حد أنه وضع جنبا إلى جنب مع الكندي فيلسوف العرب المشهور.

وعلى الرغم من تأثر الهمداني بحكماء اليونان في علم الفلك والنجوم، فمن المرجح أنه تتلمذ فيه على يد مشاهير المنجمين في اليمن، يتضح ذلك عند ذكره لأبي عصمة المنجم وغيره (٣٢). وهو أحد شيوخه ، وأبي هارون الكباري الحاسب باليمن (٣٣)، ولاغرو في ذلك فالعرب بصفة عامة وأهل اليمن بخاصة لهم دراية واسعة في هذا المجال ، وضربوا بسهم وافر فيه ، فقد نقل لنا صاعدا الأندلسي (٣٤): «أن ملوك حمير لم يكونوا يستعملون من قوادهم، ولايصرفون من كفالهم إلا من عرفوا مولده، ووجدوا أدلته من البروج والكواكب موافقة لأدلتهم ومشاكلة لها».

أما الجغرافيا فهي التجسيد الأمثل لدى إدراك الهمداني لأهمية البيئة، فقد ارتبطت كتابة التاريخ عنده بالجغرافيا، ولم يكتف بالقراءة والمشاهدة، وإنما أخذ يجمع المعلومات عن الجزيرة العربية من أهلها ، وسافر وتجول في أنحائها سعياً وراء المعرفة ، ووضع لها مؤلفاً خاصاً أسماه «صفة جزيرة العرب»، وصف فيه المدن والبلاد، وذكر طرقها وشعابها وحاصلاتها وأجوائها، وقبائلها وبطونها ، الأمر الذي جعله مؤرخاً وجغرافياً في آن واحد.

وإلى جانب ذلك كان الهمداني يجيد أكثر من لغة ، كان يجيد لغة حمير، ومما يدعو للدهشة أنه فك رموز الخط المسند، واستنطق الحجارة، وأماط اللثام عن الحضارة العربية القديمة في جنوب جزيرة العرب [٣٥]، هذا فضلا عن معرفته باللغة اليونانية، واشاراته الكثيرة في أكثر من موضع في سرائر الحكمة وصفة جزيرة العرب والجوهرتين والأكليل .

ولم تقف ثقافة الهمداني وإحاطته للكثير من اللغات عند هذا الحد فحسب ، فقد كان يجيد اللغة الفارسية بحذق ، حتى أنه يورد اللفظ الفارسي ومعه اللفظ العربي المقابل [٣٦]. أما اللغة العربية ، فإن ما وصل إلينا من مؤلفات الهمداني يقيم الدليل على تبحره في اللغة العربية والشعر ، فقد كان شاعراً بارعًا في الوصف ، وذكر السيوطي أن للهمداني ديوانًا يقع في ست مجلدات [٣٧]، وفي معظم مؤلفاته يعتبر الشعر سنداً أساسيًا للأخبار المروية ، يصفه القفطي[٣٨] بقوله : «الأديب النحوي ، الطبيب المنجم الاخباري اللغوي .. نادرة زمانه وفاضل أوانه .. صاحب الكتب الجليلة، لو قام قائل : إنه لم تخرج اليمن مثله لم يزل».

وقد أدرك الهمداني أهمية النقود ، فأرخ لها ، وإن كان هذا الاهتمام لم يعرف على نطاق واسع في ذلك العصر، ويشمل كتاب «الجوهرتين» معلومات قيمة عن النقود في الفترة السابقة للإسلام وفي عصره ، حيث عرض للنقود البيزنطية والفارسية والعربية ودنانير حمير ودراهمها، هذا فضلا عن الكتابة على الدينار والدرهم ودور السكة في صنعاء وصعده ، والعاملين فيها الذين استقى منهم معلوماته [٣٩]. وتعتبر عائلة الهمداني مصدراً من مصادره، فمنها حصل على بعض المعلومات التي ضمنها كتابه ، فوالده أمده بمعلومات قيمة عن تنظيف الفضة [٤٠]، وكان جده الأعلى مسئولاً في عيار ذهب صنعاء، وعنه عرف كيفية اختبار الذهب، وعن تاريخ دار السكة في صنعاء[٤١]، مما حدا بأحد الباحثين[٤٢] ، إلى القول : «... إن هذا الكتاب ينقل لنا في مجال التعدين وصنعة المعادن تقليداً حرفيًا أصيلاً ، وحين تلقفت أوربا في العصور الوسطى مثل هذا التقليد، كان لايزال حينها على حاله، بل دون تغير يذكر كما هو شاهد آخر كغيره على توحد الثقافة الهلينستية (اليونانية والفارسية) والعربية في العصور الوسطى».

وبلغ من شغف الهمداني بالمعرفة أن شد الرحال إلى مكة ، التي كانت حاضرة ثقافية يتردد عليها كبار الشيوخ والعلماء والطلاب، «والرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم»[٤٣]. ويبدو أنه ارتحل إلى مكة في شبيبته ، وأطال فيها الإقامة [٤٤]، يقول

القـفطى :[٤٥] « وأقام بمكة دهراً طويلاً »، وفى مكة تفتحت له آفاق المعرفة ، ونهل من علم علمائها الشئ الكثير ، والتقى فى مكة بالخضر بن داود سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩م [٤٦]، وهـذا العالم من رواة السيرة عن محمد ابن اسحق (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م[٤٧]) وألف ابن اسحاق كتاب المغازى ، وحفظ لنا ابن هشام (ت ٢١٨هـ / ٨٣٤م) ، الكثير منه فى سيرته، كما اعتمد عليه القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) فى كتابه الأموال، وكذلك المؤرخ المسعودى (ت ٣٤٥هـ / ٩٥٦م)[٤٨]، ويعتبر محمد بن اسحاق من أكبر أعلام كتاب المغازى ، هذا فضلا عن أن كتابه هذا يعتبر علامة واضحة على طريق تطور التاريخ عند العرب [٤٩]، وقد شهد الشافعى لابن اسحاق فقال: «من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على محمد بن اسحق »[٥٠]، ومما يجدر ذكره أن الهمدانى شغف كثيراً بكتاب المغازى لابن اسحق ، وروى كثيراً عنه فى إكليله[٥١].

على أن الهمدانى وطن نفسه على دراسة التاريخ والأنساب ، وتبحر فى الأنساب حتى صارت ديدنه وميدانه ، «فهى أصل علم الأخبار، ومعدن معرفة السير والأمصار»[٥٢]. وينقل صاعد الأندلسى عن الهمدانى قوله : «ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم ، .. ومن سكن اليمن فإنه علم أخبار الأمم جميعاً»[٥٣]، أما الجندى[٥٤] فيرى أنه لولا «التاريخ لجهلت الأنساب ، واندرست الأحساب، ولم تفرق بين الجهلة وأولى الألباب».

ومن المرجح أن الهمدانى اطلع أثناء إقامته فى مكة على مؤلفات محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ / ٧٦٣م) فى الأنساب وعلى مؤلفات ابنه هشام (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذى كان غزير العلم بالأنساب والتاريخ [٥٥]، حتى وصف بأنه أعلم الناس بالأنساب [٥٦]. ويعتبر محمد ابن السائب الكلبي وابنه هشام سنداً أصيلاً فى الرواية التاريخية عند البلاذرى[٥٧]، ونجد نقولاً كثيرة عنهما فى كتب الهمدانى [٥٨]. ويرى الهمدانى أن الكلبيين اختصروا أنساب الناس وطرحوا منها بقوله [٥٩]: « ... وكذلك سبيل نساب العراق والشام يقصرون فى أنساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهئوا بها عدة الآباء من ولد اسماعيل» .

وأما عن شيوخ الهمدانى فيعتبر أبونصر محمد بن عبدالله اليهرى الحميرى من أكابر شيوخ الهمدانى، ومصدره فى كل ما أورده من أخبار اليمن وأنساب أهله، وقد أشاد الهمدانى بذكره، ووصفه شائقًا بقوله [٦٠]: «شيخ حمير وناسبها وعلامتها ، وحامل سفرها ووارث ما ادخرته ملوك حمير فى خزائنها من مكنون علمها، وقارئ مساندها والمحيط بلغاتها». ومن

أشهر مشايخه أيضًا محمد بن عبدالله الأوساني الحميرى (٢٧٦ / ٨٨٩- ٣٦٠هـ / ٩٧٠م)(٦١).

لم يكتف الهمدانى برحلته العلمية إلى مكة ، بل سار إلى العراق التى تبوأت الذروة الفكرية والعلمية فى ذلك الوقت، وغدت مركزا للعلماء والأدباء والشعراء من كل حدب وصوب، يقول القفطى (٦٢): «وسار إلى العراق ، واجتمع بالعلماء واجتمعوا به». ويبدو أنه اقتنى أثناء وجوده بالعراق، كثيراً من الكتب كدواوين الشعر وكتب التاريخ والأنساب والجغرافيا، والكتب المترجمة عن اليونانية أو الفارسية أو الهندية ، حيث نجد نقولاً كثيرة فى كتبه (٦٣)، هذا فضلا عن توطيد علاقاته بالعلماء، حيث «صحب أهل زمانه من العلماء وراسلهم وكاتبهم» (٦٤)، ومن بين هؤلاء العلماء محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى وكان يختلف بين صنعاء وبغداد، وهو أحد عيون العلماء باللغة والعربية وأشعار العرب وأيامها ، وكان يكاتب أبا عمر النحوى صاحب ثعلب، وأبا عبدالله الحسين بن خالويه (٦٥).

ولعل هذه المصادر العديدة والمتنوعة من المعارف والثقافات والأسفار والرحلات شكلت فكر وثقافة الهمدانى المؤرخ والنسابة ، حتى صار لسان اليمن وأعظم مؤرخيها بلا منافس.

على أية حال عاد الهمدانى إلى اليمن بعد رحلته العلمية التى طاف فيها مكة والعراق ، واستقر فى مدينة صعده حاضرة الدولة الزيدية طويلاً ، يقول الهمدانى (٦٦): «.. وقد سكنت بها عشرين سنة ... ، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفرى ، المتوارث من الجاهلية ، فمن أخبارهم ما دخل فى هذا الكتاب (٦٧)، ومنها ما دخل فى كتاب الأيام»(٦٨).

ويبدو أن مرحلة استقرار الهمدانى فى صعدة الطويلة نسبيا، كانت بمثابة محصلة لكل معارفه وإفرازات فكره وثقافته وتوجيه كتابته فى تاريخ اليمن، ومن خلالها استطاع أن ينجز كل مؤلفاته الموسوعية العديدة ، والتى تدل على علو كعبه ورجاحة فكره .

ولعله من المفيد أن نعرض للمناخ السياسى فى أيام الهمدانى ، وأثره سلبًا أو إيجابًا على فكره ومنهجه فى كتابة التاريخ. والحقيقة أن فكرة التاريخ عند شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، ليست فى حقيقة أمرها سوى شكل من أشكال فهم هذا الشعب لهويته الذاتية والحضارية (٦٩) فقد شهدت بلاد اليمن منذ أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى تمزقًا سياسيًا وصراعًا من أجل السلطة عصف بوحدتها السياسية (٧٠)، فقد كان لسياسة خلفاء بنى العباس منذ عهد المأمون (١٩٨ / ٨١٣ – ٢١٨هـ / ٨٣٣م) فى كثرة تولية الولاة

فى اليمن وعزلهم، وعدم اهتمامهم بشئون بلاد اليمن ، أن ساءت أحوال هذه البلاد الاجتماعية والاقتصادية، وأتاح الفرصة للشيعة فى تلك البلاد فى أن تحقق مطامحها [٧١]. فالتغيرات السياسية والدينية التى عاشتها اليمن خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى كانت تعكس وإلى حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها اليمن . ففى حين ساهم الإسلام فى تحرير المنطقة اجتماعيًا واقتصاديًا ، فإن ظهور المذهب الشيعى فى اليمن فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، يجب أن تتم رؤيته داخل إطار التغيرات التى شهدتها المنطقة ، وليس من منطلق المفهوم القبلى الضيق.

عول الخليفة المأمون على اسناد ولاية اليمن سنة ٢٠٣ / ٨١٨م لمحمد بن عبدالله بن زياد[٧٢]، وما لبث ابن زياد ان اختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م ، وعمل على توطيد نفوذه فى جميع أرجاء اليمن [٧٣] . بيد أن هذه الدولة تعرضت لهزات عنيفة ، فى أواخر عهدها ، وخرج الكثير من الأمراء عن طاعتها ، الأمر الذى أدى إلى تطلع بعض الزعامات القبلية فى تأسيس دويلات لها فى نجد اليمن، ومن بينها آل يعفر بن عبد الرحمن الحوالى فى شبام وهى أسرة حميرية [٧٤]، حيث استطاع محمد بن يعفر سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م أن يؤسس دولة اليعافرة ، عندما ولاه الخليفة العباسى المعتمد الصلاة، وأعمال المعادن، والحرب والخراج، والضياع والصدقات ودور الضرب، وسائر أبواب الجبايات بصنعاء واليمن ومخاليفها وجميع أعمالها ونواحيها [٧٥]. بيد أن ما تعرض له بنو يعفر من انقسام، ساعد على خروج الزعماء المحليين والقبائل عن طاعتهم [٧٦]، ومهد الطريق فى إنجاح الدعوة الاسماعيلية فى اليمن على يد الداعيين على بن الفضل اليمانى وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م [٧٧]. واتسعت مناطق نفوذهما حتى شملت صنعاء وعدن [٧٨]. ومع نهاية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، استطاع الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين تأسيس الدولة الزيدية سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م فى صعده ، وقام بنشر المذهب الزيدى [٧٩]، وتضافرت لدولته عوامل البقاء والاستمرارية زهاء ألف سنة ونيف [٨٠].

وعندما عجزت الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، عن الاحتفاظ بوحدة البلاد، تجزأت اليمن من جديد، ولكن وفق تجمعات سياسية دينية، تعكس خلفيات اجتماعية اقتصادية ، لاتمت بصلة لتجمعات المنطقة فى مرحلة ما قبل الإسلام. وكان الصراع من أجل السلطة مع عامل سوء الإدارة من قبل ولاة بنى العباس، وراء تفكك المجتمع اليمنى،

وتذبذب مواقفه، ومن هنا كثر المتطلعون إلى الحكم والسلطان مثل بني يعفر في صنعاء وشبام، وآل المناخي في المذيخرة[٨١]، وبلاد الجند [٨٢]، وآل الضحاك في حاشد، وآل أبي المغلس في الدملوه ، وآل الكرندى في المعافر[٨٣] ، محاولة منهم في السيطرة على مقدرات بلادهم . يقول ابن خلدون [٨٤]: «أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأى منها وهوى عصبية تمانع دونها ...».

وفي الوقت الذي كانت رياح التغير تعصف ببلاد اليمن، تمكن الإمام الهادى يحيى ابن الحسين من السيطرة على شمال اليمن، وتأسيس دولته في صعده ، ولم يفكر في الاعتراف بالخلافة العباسية ، التي لم يصدر عنها ما يدفعه لمخالفتها ، والخروج عن طاعتها ، وهكذا أفصحت دعوته عن نية أتباع المذهب الشيعيّ في المنطقة[٨٥].

في ظل هذا المناخ السياسي المفعم بالصراع المرير والتناحر القبلي، واجه الهمداني حالة التراجع والانكفاء الحضاري، بروح المفكر الثائر ، لذلك لجأ إلى التاريخ يستنطقه ، ويحث الآخرين على الاعتبار به ، ويستشرف حضارة أسلافه التى جعلتهم يكتشفون حكمة الحياة في هذه الربوع قبل غيرهم ويفيدون بها ، ويتجلى ذلك في شعره الذى يعتز فيه كثيراً بهمدانيته[٨٦]. وفي سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨ م أثناء إقامته في صعده ، وقع بينه وبين شعرائها المنتسبين إلى عدنان خصومة لتعصبهم ضد قبائل اليمن [٨٧]، فكتب لكل واحد منهم قصيدة ، فلما بلغهم قوله ، اشتد ذلك عليهم ، ونصبوا له .....، وتألبوا عليه ، ودخلوا على الإمام الناصر لدين الله بن الإمام الهادى- صاحب صعده – وأخبروه أن ابن يعقوب هجا النبي ﷺ فتوعده الإمام الناصر ، وكتب إلى الأمير أسعد بن أبي يعفر ، وكانت بينهما مودة شديدة، فأمر أسعد ابن أخيه الخطاب عامله على صنعاء ، بسجن الهمداني [٨٨]، وأشار الهمداني في المقالة العاشرة من سرائر الحكمة إلى أن الملوك «غضبت عليه يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ٣١٩هـ ، وأدخل السجن وأجريت الأيمان والعهود بالله أن لايخرج إلا على لوحة ميتًا ...[٨٩]»، وفي موضع أخر يصف لنا سجنه وما جرى عليه وهو يرسف في القيود الثقال حتى «نقل من بلد إلى بلده ، وطيف به مصفداً إلى موضع غربة. فلقى من ذلك الأمرين »[٩٠]، وفي ١٧ شعبان سنة ٣٢١هـ أذن بإطلاقه فأطلق ، ثم رد إلى السجن ثانية ، وبعث به مغرباً مع حفظه أينما وصلوا من قرية سجنوه [٩١]، ثم «فلت من النهج الذى قصد به له وملك نفسه ، وذلك بعد ٦٤٩ يوماً تكون شهوراً تامة ٢١ شهراً و١٩ يوماً» [٩٢]. ويفهم أن الهمداني هرب من محبسه ، بيد أن الهمداني[٩٣] ، يذكر في الاكليل «أن الناصر لما قام آل أبي فطيمة [٩٤]، مطالبين بإخراج

الهمداني من السجن فتح له ، فرضوا ووادعوه ، حتى صح لهم أن إطلاق الهمداني كان من جهة ابن زياد صاحب زبيد» ويبدو أن ابن زياد هذا هو اسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد الذي كان معاصراً لأسعد ابن أبي يعفر وللإمام الناصر لدين الله (٩٥)، وهو الذي ساعد على هروب الهمداني من السجن.

على أننا نشك أن يكون الهمداني أقدم على هجاء النبي ﷺ وإلا فأين ما يدل على هذا الهجاء، هذا فضلاً أن هذا العمل يتنافى مع أخلاقه ودينه وورعه وتقواه واهتمامه بالعلوم الدينية. ومن المرجح أنها مكيدة دبرها له الحاقدون والحاسدون في صعدة ، يدعم ما ذهبنا إليه قول القفطي (٩٦): «... وكان رجلاً محسداً في أهل بلده» وقد يكون وراء هذه التهمة شيء من التعصب القبلي.

ومما لاشك فيه أن قصيدة الدامغة النونية التي رد فيها على قصيدة للكميت بن زيد الأسدي في تفضيله عدنان على قحطان ، «أحدثت له العداوة من النزارية والمتنزرة»(٩٧)، وفتحت عليه أبواب الطعن وسبل الاتهام ...، وطعنوا في خلقه ورموه بالكذب . يقول صاحب طبقات الزيدية (٩٨): «أكثر تصانيفه لايخليها من التعصب لقحطان على عدنان حتى خرج إلى الكذب، وكان مشهوراً بالكذب في الأنساب مع معرفته بها» . ويقول أحد الباحثين (٩٩): «أن الهمداني يثبت حقائق العلم على صحتها ما استطاع في كل مالايمس همدانيته ويمنيته ، فإذا لمس العلم هذا الجانب الحساس من الهمداني وجد فيه ضعفاً».

على أية حال أثبت الهمداني حبه واعتزازه بيمنيته وهمدانيته ، حتى وقف حياته على كل ما أمكنه من الدراسات المتعلقة والمتصلة باليمن، لعشقه العظيم للمجد السالف، والتغني بمفاخر الآباء والأجداد (١٠٠)، حتى أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقي عن اليمن، وبمعلومات مؤسسة على قواعد أصيلة مثل الهمداني (١٠١). لقد أدرك الهمداني مبررات حكمة التاريخ واستوعب منطق الأجيال، وعرف أن قوة الحاضر لاتنفصل عن حضور الماضي، فالتاريخ ما هو إلا عملية متصلة للتفاعل بين المؤرخ وحقائقه ، وحوار متصل بين ماضيه وحاضره (١٠٢).

أما وقد تعرضنا للعوامل التي أثرت وشكلت شخصية الهمداني، فإنه يبقى علينا أن نتناول منهجه في كتابة التاريخ ، ويجدر بنا أن نبحث في مصادر مادته التاريخية بإيجاز، حتى نقف على منهجه في عرض هذه المادة التاريخية من خلال كتبه : الاكليل ، صفة جزيرة العرب، والجوهرتين ، باعتبارها العمل الأساسي والأكثر أهمية من أعماله الموسوعية المتعددة.

اعتمد الهمدانى فى استقاء المادة التاريخية على مصادر عديدة أهمها : القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقد أشار السخاوى إلى أن البداية الحقيقية لعلم التاريخ عند المسلمين ذات أصل دينى، بتأثير ما ورد فى القرآن الكريم من مادة تاريخية تتناول قصص الأمم الماضية وأخبار الأنبياء ، وغير ذلك (١٠٣) ، هذا فضلا على اعتماده على الشعر وأئمة اللغة وفصحاء البادية ، وكتب المؤرخين السابقين، والروايات الشفوية التى سمعها، ثم ما رآه أو سمعه بنفسه من الأحداث التى دونها . وهكذا يكون الهمدانى قد اعتمد على النقل والرواية والدراسة والمشاهدة كمصادر لمعلوماته التاريخية .

على أن الهمدانى يشير إلى مصادره دائمًا ، بيد أنه يذكر اسم المؤلف أو النسابة الذى نقل عنه دون الإشارة إلى عنوان الكتاب ، مثل قوله(١٠٤) : قال الفيروزى، وقالت الحكماء ، ويقول بعض النساب (١٠٥) ، وحينًا يشير إلى اسم من سمع منه أو أخبره. فيقول (١٠٦) : «وحدثنى محمد بن أحمد الأوسانى ، أنه قرأ فى مسند بعمران» وخبرنى أحمد بن أبى الأغر الشهابى من كندة، وخبرنى مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيوانى (١٠٧) . كما يبين الأحداث التى شاهدها بنفسه بقوله (١٠٨)، قال أبو محمد ، وقرأت فى مسند قصر ريدة(١٠٩). وإلى جانب الأحداث السياسية نجده ينقل لنا بعض المعلومات ذات الصبغة الاجتماعية والاقتصادية عندما يقول (١١٠): «... أنه لما قحط القطر فى زمان يوسف عليه السلام.، وألحت الجراد، وساءت أحوال اليمن والحجاز ونجد، لأنها أرض معلقة لاسوح فيها ..» ثم يحدثنا عن تاريخ دار السكة فى صنعاء وكيفية حساب عيار الذهب ، والأدوات والوسائل اللازمة لذلك، وأماكن التعدين فى اليمن (١١١)، ثم يتناول الكتابة على الدينار والدرهم(١١٢).

ومما يجدر ذكره أن الهمدانى لم يقتصر على رواية الحدث التاريخى فحسب، بل يعنى بالتحليل أو التفسير لهذا الحدث فى إطار العلاقة السببية، فهو يحاول استقصاء الأسباب وتحرى الحقائق ، فبعد أن يورد أقوال ابن اسحاق عن زعم أهل التوراة أن السواد فى ولد حام عن دعوة دعاها نوح على ابنه حام يعقب قائلا(١١٣): «.. وهذا فى غاية التناقض أن يسيئ حام ويلعن ولده ، والله يقول : «ولاتزر وازرة وزر أخرى» ، وإنما سواد الناس وبياضهم وسمرتهم علة ذكرناها فى السيرة من هذا الكتاب.

كما يرى الهمدانى أن الكلبيين قد اختصروا أنساب الناس وطرحوا منها، ويعلل ذلك بأن بعضهم حاول إفساد النسب فى أيام العصبية فى دولة معاوية ليقرب نسب قضاعة وكهلان،

على نحو ما أرادت النزارية من إدخال هذه القبائل فى ولد إبراهيم عليه السلام[١١٤]، وينقل عن ابن خردانبة من المسالك والممالك بيد أنه يعده من الشعوبية [١١٥]. وقد نقل عن أرسطوطاليس ، وما لبث أن أورد رأيا مخالفا له [١١٦]، وينقد الهمدانى الأخبار بطريقة العقل كتعليله لانطفاء السراج فى الأمكنة التي ينعدم فيها الهواء بقوله [١١٧]: «هذا الحديث فيه زيادة لا تمكن ، لأنهم ذكروا المسلك فى المغارة ثم دخولهم منها إلى هوة وأبيات ، فقل بها النسيم، ويعجز بها التنفس .. فإذا انقطع فى مثل هذه المغارات العميقة ، .. لا يثبت فيها روح ولا سراج».

على أن هذه الروح النقدية التى يتمتع بها الهمدانى لم تظهر بوضوح بين مؤرخى المسلمين إلا فى عصر متأخر ، وبخاصة على يد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) الذى عاب على المؤرخين عدم مناقشة الحقائق وقبولها دون تمحيص [١١٨]، فالمؤرخ «محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط ...»[١١٩].

تأثر الهمدانى كثيراً ببعض الآراء الواردة فى الكتب المترجمة عن اليونانية أو الفارسية أو الهندية ، تأثراً دفعه لا للأخذ بها فحسب ، بل إلى احترامه لأصحابها ، فهو بعد أن يورد قول أرسطوطاليس الحكيم فى مبتدأ الحرارة فى جوف الأرض يعقب عليه بقوله [١٢٠]: «قد أحسن الحكيم فيما فرع، وإن كان قد بنى قوله فى مبتدأ الحرارة على غير أصله» ، ثم يسترسل فى إيضاح ذلك ، ومن خصائص منهج الهمدانى تلك المقارنات التى يعقدها أحياناً هذا فضلاً عن استطراده فى تفاصيل حادثة بعينها مثل بلقيس وسليمان بن داود عليه السلام[١٢١]، وحادثة على بن أبى طالب وحارثة ابن بدر الغدانى [١٢٢].

وقد أدرك الهمدانى أهمية دراسة العوامل الجغرافية من أجل معرفة تأثيراتها على مسار التاريخ، فأفرد مؤلفًا من مؤلفاته أسماه «صفة جزيرة العرب»، مما جعله فى مصاف فحول الجغرافيين الذين تضلعوا فى هذا العلم[١٢٣]، هذا فضلاً أن هذا الكتاب يكشف عن وعى تاريخى عميق وقدرة فائقة على تتبع العلاقة السببية بين الظواهر التاريخية والجغرافية ، فهو يربط بين العوامل الاقتصادية والأحوال الاجتماعية فى جزيرة العرب بعامة وبلاد اليمن بصفة خاصة . أما كتابة الاكليل فيعتبر بحق مصدراً هاماً من مصادر تاريخ اليمن فى جوانبها السياسية والاقتصادية والفكرية ، ومن ناحية أخرى يحوى الكتاب معلومات إضافية عن أنساب القبائل العربية [١٢٤]، فقد استخدم العرب الأنساب باعتبارها نمطاً من أنماط المعرفة

التاريخية ، ووسيلة القبيلة فى البحث عن هويتها وتأكيد ذاتها، وتدعيم وجودها الحاضر من خلال ماضيها الحافل بالمآثر والبطولات (١٢٥). وكل من يطالع ما كتبه الهمدانى عن أنساب القبائل اليمنية فى الاكليل وصفة جزيرة العرب، يدرك أن هذا الرجل بلغ شأواً لم يبلغه غيره ممن كتب فى الأنساب ، «فعليه المعول فى أنساب الحميريين»(١٢٦).

عول الهمدانى فى توثيق مادته التاريخية على الاستشهاد بالشعر، حيث ضمن مؤلفاته نماذج من الشعر، أماطت اللثام عن حادثة تاريخية، وتتبعت تسلسلها فى وحدة بنيوية متكاملة، وهو بهذا لايكتفى بأن يكون مؤرخًا ونسابة ، بل يضيف إلى معرفته بالتاريخ والأنساب معرفة وثيقة بالشعر(١٢٧). هذا فضلاً عن عنايته الفائقة بالمباحث اللغوية مما يدل على تبحره فيها . ولفضل نظرته الشمولية توحد عنده المحيط الجغرافى والفلكى مع المحيط الاجتماعى للإنسان ، فهو يفتش عن الأحداث وتسلسلها الزمنى ولغتها التاريخية التى تحدثت عنها الوثائق الأثرية ، لمعرفته الفائقة بالخط المسند (١٢٨). كما أدرك الهمدانى أهمية النقود فأرخ لها وأن كان هذا الاهتمام بعلم النميات لم يعرف على نطاق واسع فى عصره، فقد اشتمل كتاب الجوهرتين على معلومات وافرة عن النقود فى الفترة السابقة للإسلام وفى عصره(١٢٩).

على أنه يؤخذ على الهمدانى شدة تعصبه لقحطانيته بعامة ، وهمدانيته بخاصة شدة قد تحيد به فى بعض الأحيان عن جادة الصواب، فالدارس لكل ما يتصل بحياة الهمدانى، يجد أن تعصبه لقومه المنفذ الواسع لدراسته (١٣٠). ويبدو أن تجربة السجن التى امتحن بها الهمدانى تركت بصماتها على فكره، وأزكت من عصبيته لقومه، حتى وقف علمه وخبرته ونتاجه الغزير على دراسة اليمن، وكل ما يتصل به ، وغدت سمة واضحة فى منهجه التاريخى.

أما مؤلفات الهمدانى فتبلغ قرابة بضع وعشرين كتاباً ، وللأسف لم يصلنا مع كثرتها إلا بقية قليلة لاتقاس بما كتبه ، وأكثرها مفقودة ، وقد أورد القاضى محمد بن على الأكوع قائمة بها(١٣١):

١- الاكليل - عشرة أجزاء - (ظهر منه أربعة أجزاء)

الجزء الأول فى المبتدأ وأصول أنساب العرب والعجم ونسب ولد حمير ، وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٦٣ تحقيق محمد بن على الأكوع ، والجزء الثانى فى نسب ولد الهميسع ابن حمير ونوادر من أخبارهم، وطبع فى القاهرة ١٩٦٧ تحقيق محمد بن على

الأكوع ، والجزء الثالث فى فضائل اليمن ومناقب قحطان[١٣٢] (مفقود) ، بينما يتناول الجزء الرابع فى السيرة القديمة من عهد يعرب بن قحطان إلى عهد أبى كرب أسعد الكامل (مفقود) ويتناول الجزء الخامس السيرة الوسطى من عهد أبى كرب إلى عهد ذى نواس (مفقود) والجزء السادس فى السيرة الأخيرة من عهد ذى نواس إلى عهد الإسلام (مفقود) ، والجزء السابع فى التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة[١٣٣] (مفقود) أما الجزء الثامن فى محافد اليمن ومساندها ، ودفائنها وقصورها ومراثى حمير والقبوريات ، طبع فى بغداد سنة ١٩٣١ تحقيق الأب انستاس مارى الكرملى ثم فى برنستن سنة ١٩٤٠ بتحقيق نبيه أمين فارس، بينما يتناول الجزء التاسع أمثال حمير وحكمها باللسان الحميرى، وهو مفقود كذلك. أما الجزء العاشر فى معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها، وقد طبع فى القاهرة سنة ١٣٦٨هـ تحقيق محب الدين الخطيب .

٢- السير والأخبار (مفقود).

٣- صفة جزيرة العرب، وهو من أشهر مؤلفاته بعد الاكليل ، ويحوى معلومات جغرافية مهمة عن بلدان اليمن، وقبائلها ، وجبالها ، ووديانها ، وسهولها ، وحصونها، وإنتاجها الزراعى والصناعى، وعاداتها، وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة بريل فى ليدن سنة ١٨٨٤م بتحقيق (د. هـ . مـــولر D. H. Moller ثم أعاد الشيخ محمد بن عبدالله ابن بلهيد طبعه فى سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣ م، ثم قام القاضى محمد بن على الأكوع بنشره وإعادة تحقيقه بإشراف الشيخ حمد الجاسر (بيروت ١٩٨٣) .

٤- المسالك والممالك اليمنية (مفقود) .

٥- اليعسوب (مفقود) وقد ورد ذكره فى الاكليل وصفه جزيرة العرب [١٣٤].

٦- الأيام (مفقود) وورد ذكره فى الاكليل [١٣٥].

٧- سرائر الحكمة (طبع منه المقالة العاشرة تحقيق محمد بن على الأكوع (صنعاء د.ت) .

٨- الزيج (مفقود) ، ذكره القفطى وقال : عليه اعتماد أهل اليمن [١٣٦].

٩- توحيد الزيج (مفقود).

١٠- القوى فى الطلب (مفقود) ، ذكره صاعد الأندلسى والقفطى[١٣٧].

١١- الحيوان (مفقود) .

١٢- المطالع والمطارح (توجد منه نسخة خطية فى مكتبة الإسكندرية).

١٣- الجوهرتان العتيقتان ، حققه الدكتور كريستوفر تول.. ونشره بالسويد سنة ١٩٦٨ ، وأعانت وزارة الإعلام والثقافة اليمنية نشره سنة ١٩٨٥ فى صنعاء بإشراف الدكتور يوسف محمد عبدالله .

١٤- الحرث والحيلة (مفقود) .

١٥- مفاخر اليمن ووقائعها (مفقود) .

١٦- أخبار الإبل (مفقود) .

١٧- أخبار الأوفياء (مفقود) .

١٨- أسماء الشهور والأيام (مفقود) .

١٩- الدامغة ، قما بتحقيقه محمد بن على الأكوع، بيروت (د.ت) .

٢٠- تفسير الدامغة ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت (د.ت) .

٢١- ديوان شعر الهمدانى (مفقود) .

٢٢- الوشى المرقوم (مفقود) .

أما عن وفاة الهمدانى ، فيكتنفها الغموض، ويلزمنا تحقيق هذا التاريخ لأهميته فى البحث. يحدد صاعد الأندلسى[١٣٨]، هذه الوفاة فى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، يذكر أنه يوجد بخط أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله بن عبدالرحمن الناصر، (ت ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) «أن أبا محمد الهمدانى توفى بسجن صنعاء فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة» .

وذكر كاتب مقال الهمدانى فى دائرة المعارف البريطانية[١٣٩] أن الوفاة كانت سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م فى سجن صنعاء . كما قال صاعد الأندلسى، بيد أنه أثار الشك حول وفاته فى هذا التاريخ «... ويقال أنه توفى فى سجن صنعاء سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م ، ولكنه الآن محل شك وسؤال».

بينما يذكر القفطى أن الهمدانى سار فى آخر زمانه إلى ريدة- من البون الأسفل من أرض همدان - وبها قبره وبقية أهله[١٤٠] بيد أنه لم يحدد القفطى تاريخ الوفاة . أما الأكوع[١٤١] فيحدد تاريخ الوفاة فى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٣م، وينقل عنه الزركلى[١٤٢] واعتمد الأكوع فى ذلك على خبر ورد فى الجزء الثانى من الاكليل [١٤٣]، عن محمد بن عبدالله الأوسانى- شيخ الهمدانى- ونصه : «قال أبومحمد بن عبدالله بن سليمان : رويت عن محمد هذا سنة ٣٥٦هـ وهو من عمره فى ٨٠ وكتبت عنه ، وقتل فى سنة ٣٦٠هـ رحمة الله».

ويمناقشة هذه الروايات نرى:

أولا: أن الهمدانى نص فى الجزء العاشر من كتاب الاكليل [١٤٤]، على خروجه من السجن، وبقائه فترة طويلة فى صعده ، ضعف خلالها نفوذ الحكام المسيطرين على اليمن، حيث توفى الامام أحمد الناصر بن الإمام الهادى سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣ م ، وتوفى الأمير أسعد بن أبى يعفر فى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م [١٤٥]، هذا فضلاً عن ذكره أن سيد همدان فى عصره أحمد بن محمد الضحاك - «الذى يمدحه الهمدانى، ويقيد أيامه، وهو منه خل وصاحب» [١٤٦] .. «ثم باعد القاسم بن الناصر، فجرى بينهما ما ينطق به شعر الهمدانى» ، وقد قتل ابن الضحك القاسم بن الناصر سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م، ووقع الخلاف بينهما سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م [١٤٧]، وهذا يدل على أن الهمدانى أدرك هذا الزمن، وقال الشعر فى تلك الحوادث.

ثانيا: يقول الأكوع [١٤٨]: «جاء فى مخطوط بخط جدنا العلامة أحمد بن على الأكوع ، أطلقت عليه «التاريخ المجهول» أنه لما حمل جثمان أسعد بن يعفر من ذمار فى رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة إلى شاهرة ليقبر هناك، وكان توفى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م قال الهمدانى يصف تشييع الجثمان :

قد استوى الناس ومات الكمال   وقال صرف الدهر أين الرجال
هذا أبوحسان فى نعشه   قوموا انظروا كيف تزول الجبال
يا ناصر الملك بأرائه   بعدك للملك ليال طوال

وعلى هذا فإن وفاة الهمدانى فى الأغلب تكون فيما بعد سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م، ولم تكن فى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م كما ذكر صاعد الأندلسى، أو فى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٢م كما ذهب الأكوع وتبعه الزركلى، لأن الرواية التى اعتمد عليها الأكوع يفهم منها مقتل محمد بن على الأوسانى- شيخ الهمدانى- ولا علاقة لها بوفاة الهمدانى .

الهوامش

١- الهمداني : الاكليل ، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٦٨هـ، ج١٠ مقدمة المحقق ؛ الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، بيروت (د.ت) ، ج٢، ص١٧٩ .

٢- مؤلف مجهول: تاريخ اليمن في الكوافي والفتن، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٩٦٨) ، ورقة ١٣٧ ، ١٣٨ ؛ الحجرى ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى): مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٢٩٣٨) ، ورقة ١٠٣ ، ١١١ .

٣- ياقوت الحموى : معجم البلدان، طبعة بيروت (د.ت) ، ج٤ ، مادة (الحسن بن أحمد)، القفطى ، جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف (ت٦٢٤هـ) : أنباه الرواه على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٨٦، ج١ ، ص٣١٤ .

٤- الهمداني : الاكليل ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ، ص١٩ ، ج١٠ ، ص١٤ ، ١٧٧ ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، ص٢٩ ، ص٤٦ ، ص٤٨، ص٦٦ وكذلك .The New Enc, Britannica , V.5 (Art . Hamdani, al)

٥- نسبة إلى أصله فى عبد بن عليان بن أرحب . (الهمداني: الاكليل ، ج١٠، ص١٧٧ وما بعدها، القفطى: أنباه الرواه على أنباه النحاه، ج١ ، ص٣١٥ .

٦- بكيل : بالفتح ثم بالكسر وياء ساكنة ، مخلاف باليمن . (ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢ ، ص٢٥٧) .

٧- مسلم اللحجى ، مسلم بن محمد بن جعفر اللحجى (ت حوالى ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) : تاريخ مسلم اللحجى ، مخطوطة باريس، رقم ٥٩٥٢ ، ج٤ ، ورقة ٨ .

٨- القفطى : أنباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٤ .

٩- الهمداني : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، تحقيق محمد بن على الأكوع، صنعاء (د.ت) .

١٠- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٩٥-١٩٨ .

* زبيد واد مشهور من أودية اليمن ، وأما مدينة زبيد فقد أنشأها سنة ٢٠٤هـ محمد بن زياد عامل الخليفة المأمون على اليمن، وينسب إلى هذه المدينة جمع كثير من العلماء ، وهى مدينة مدورة الشكل عجيبة الموضع على النصف ما بين البحر والجبل، وفى جنوبها واديها المسمى وادى زبيد. (ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقى ت ٦٩٠هـ) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ويسمى تاريخ المستبصر ، نشر أوسكار لوفجرين ، ص٢٢ ، الخزرجي، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢هـ) : العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم (٧٣٦) ورقة ١٢٠ ب.

١١- حمد الجاسر: صفة جزيرة العرب ، المقدمة ، ص٨ .

١٢- المراشي : بالفتح جبل معاند لبرط من جهة الشرق، وهو جبل خصيب فيه فاكهة العنب الذي يؤتى أكله في السنة مرتين، وكان مسكن أجداد الهمداني. (الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٩٩، صفة جزيرة العرب، ص١٦١).

١٣- الهمداني: الاكليل ، ج١٠ ، ١٩٩ .

١٤- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣١٩ .

١٥- الهمداني: الاكليل ، ج١٠ ، ص١٩٩ .

١٦- الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٣٦٥ .

١٧- الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص١٠٣ ؛ الاكليل ، ج٢ ، ص٣٣ ؛ ابن سمرة ، عمر بن على بن سمره الجعدى (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن، ، تحقيق فؤاد سيد، دار القلم، بيروت (د ت) ص٥٧ .

١٨- الهمداني: صفة جزيرة العرب ، ص١٠٣ ، حاشية رقم (١) .

١٩- ذكر المستشرق كارل مينرش أن هناك بضعة أوراق منه في مكتبة هايدلبرج.

٢٠- ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص٥٧ ، الجندى، بهاء الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف الجندي السكسكى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد بن على الأكوع، بيروت ١٩٨٣، ج١، ص١١٤ .

٢١- ابن النديم : محمد بن اسحاق (ت ٤١٢هـ / ١٠٣٢م) الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ، ص٣١٨ ، الرازي، أبوالعباس أحمد بن عبدالله (ت حوالي ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق عبد الجبار بكار وحسين العمري، دمشق ١٩٧٤ ، ص٢٩٧ ، ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص٥٦، الجندى : السلوك ، ج١ ، ص١٠٤ .

٢٢- الجندى : السلوك ، ج١ ص١٤٤ ، وراجع : ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص٦٧-٦٨ .

٢٣- ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص٦٦-٦٧ .

٢٤- ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص٦٦ ، الجندى: السلوك، ج١ ص١٤٥ .

٢٥- الجندى: السلوك ، ج١ ، ص١٥٩ .

٢٦- بامخرمة : أبومحمد عبدالله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكرلوفجرين ، ليدن ١٩٣٦ ، ج٢ ، ص٢٦٠ ، وراجع : الجندى: السلوك ، ج١ ، ص١٥٩ .

٢٧- محمد بن على الأكوع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة للهمداني، ص٢١ .

٢٨- صاعد الأندلسى، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) : طبقات

الأمم، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣، ص٧٩ .

٢٩- الهمداني: صفة جزيرة العرب ، ص٣٩ ، ص٦٥ ، الجوهرتين : تحقيق الدكتور كريستوفرتول، صنعاء ١٩٨٥ ، ص١٠٣ ، ص١٠٦ .

٣٠- الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص٩١ ، ص١٠٥ ، المقالة العاشرة، ص٢٥ ، ص٣٦ ، ص٥٠ .

٣١- كريستوفرتول : مقدمة كتاب الجوهرتين ، ص٥٤ - ٥٥ وراجع:

- Croken Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen (626-858 AH / 1229 - 1454 AD) Ph . D. diss., Harvard University . 1990 . pp. 24-26 .

٣٢- ذكر الهمداني من أصحاب النجوم أبا عصمة وأبا جنده وابن عاصم وابن المنذر وابن عبدالله وغيرهم. (صفة جزيرة العرب، ص١٠٤) .

٣٣- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص٨٤ .

٣٤- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص٥٧ .

٣٥- Swanson : Historical Considerations in Yemen Vernacular Architecture : Sulahid Dyansty (439-1047) to the modern Period - Ph D. diss., Ohio State University , 1997 . pp. 8-9 .

٣٦- الهمداني : كتاب الجوهرتين ص٥٠ ، ١٢٦ .

٣٧- السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ ، ص٤٩٨ ، ص٥٣١ .

٣٨- القفطي : انباه الرواه على أنباه النحاه ، ج١ ، ص٣١٤ .

٣٩- الهمداني : الجوهرتين ، ص٤٣-٤٤ ، ٥١ .

٤٠- كريستوفرتول : مقدمة الجوهرتين ، ص٥١ .

٤١- الهمداني : الجوهرتين ، ص١٦٥ .

٤٢- كريستوفرتول : مقدمة الجوهرتين ، ص٥٥ .

- Lealan Anderson : Hitstorical Considerations in Yemen, pp. 13-14 .

٤٣- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الإسكندرية (د.ت) ، ص٣٩٩ .

٤٤- يذكر الشيخ حمد الجاسر أن ابن فهد نقل عن الخزرجي في كتابه «تاريخ اليمن، فقال : «أن الهمداني ولد بصنعاء ، وبها نشأ، ثم ارتحل في شبيبته إلى مكة فجاور بها وقتل » (حمد

الجاسر:مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١٠) .

٤٥- القفطي : انباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

٤٦- الهمداني : تفسير الدامغة ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، بيروت (د ت) ، ص٢٩٥ ، وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة الجزيرة ، ص١٠ .

٤٧- حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، القاهرة ، (د ت) محمود الحويري: منهج البحث التاريخي ، القاهرة ١٩٩٩، ص١١٦-١١٧ .

٤٨- راجع : ابن هشام ، محمد بن عبدالملك (ت ٢١٨هـ / ٨٣٤م) سيرة ابن هشام ، القاهرة (د ت) ٤ ج، ابن سلام ، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) الأموال ، بيروت ١٩٨١ ، وكذلك : المسعودي، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) التنبيه والاشراف ، القاهرة (د ت) .

٤٩- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، القاهرة ٢٠٠١م، ص٩٦ .

٥٠- أحمد أمين : ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٧٩، ج٢ ، ص٣٢٨-٣٣٢ ، محمود الحويري: منهج البحث في التاريخ ، ص١١٩ .

٥١- الهمداني: الاكليل ، ج١ ص٣٨ ، ج٢ ، ص١٢٧ ، ج٨ ، ص٦١-٦٢ ، ج١٠ ، ص٢٣ .

٥٢- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص٦٠ .

٥٣- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص٦٠ .

٥٤- الجندي: السلوك ، ج١ ص٦٣ .

٥٥- المسعودي: التنبيه والاشراف ، ص٧١: ابن النديم : الفهرست ، ص٨٩ .

٥٦- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٥٢٥-٥٣٦ .

٥٧- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت ١٩٨٧، الصفحات ٢٤ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ١٠٣ .

٥٨- الهمداني، الاكليل ، ج٨ تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي، بغداد ١٩٣١ ، ص١١٩، ١٢٠، ج١٠، ص٣٠ ، ص٢٢٦ ، صفة جزيرة العرب، ص٨٣ .

٥٩- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص٣٠ .

٦٠- الهمداني : الاكليل ، ج١ ص٩ ، ص٢٠ وراجع : حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١١ .

٦١- الهمداني: الاكليل ، ج٢ ، ص٣٧١ وراجع حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١١ .

٦٢- القفطي : انباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

٦٣- راجع مؤلفات الهمداني : الاكليل ، ج١، ج٢ ، ج٨ ، ج١٠ ، صفة جزيرة العرب، الجوهرتين ، المقالة العاشرة من سرائر الحكمة .

٦٤- القفطي : انباه الرواه ، ج١ ص٣١٥ .

٦٥- القفطي: انباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

٦٦- الهمداني : الاكليل ، ج١ ، ص٢٧٥ .

٦٧- يقصد به كتاب الاكليل.

٦٨- كتاب الأيام ، من كتب الهمداني المفقوده وذكره في كتاب الاكليل .

٦٩- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ، ص٧٢ .

٧٠- أحمد بن أحمد بن محمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامي، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، بيروت ١٩٨٦ . ص٥٧-٧٠ ، كذلك : حسن خضيرى أحمد، قيام الدولة الزيدية فى اليمن، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٢٥-٣٠ .

٧١- ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبدالباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣م) : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص٢٥-٣٣ : الخزرجى ، أبو الحسن على ابن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) : اليمن فى عهد الولاة، تحقيق راضى داغفوس، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩، ص١٠٠- ١٠٧ .

٧٢- عمارة اليمنى ، نجم الدين محمد الحكمى (ت ٥٦٩هـ) : المفيد فى تاريخ صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٤١ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن، ص٢٥ .

٧٣- الجندى : السلوك ، ج١ ، ص٢٢١ ، حسن خضيرى : قيام الدولة الزيدية ، ص٣٨ .

٧٤- شبام : قرية فى مخلاف أقيان بن زرعه بن سبأ الأصغر ، وبهما مملكة بنى حوال، ويقال إنها سميت بشبام بن عبدالله رجل من همذان توطنها (الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، ص٢١١ ، ص٢١٢) .

٧٥- محمد بن على الأكوع : الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الاسلام إلى سنة ٣٢٢هـ ، بغداد ١٩٧٦، ص٢٣٤-٢٣٧ .

٧٦- ابن عبد المجيد : بهجة الزمن، ص٣٥ ، الخزرجى : الكفاية والاعلام، ص١١٤ .

٧٧- نشوان الحميرى ، أبوسعيد نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحور العين، تحقيق كمال

مصطفى ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٢٥٣ ، ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيباني (ت ٩٢٤هـ/ ١٥٣٣م) : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ، ص١٨٣-١٨٥ .

٧٨- الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص٣٥ ، الرازي : تاريخ مدينة صنعاء، ص٢٦٣ .

٧٩- العلوى ، على بن محمد بن عبيدالله العباسى (كان معاصراً للإمام الهادى يحيى بن الحسين) : سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق الدكتور سهيل زكار، بيروت ١٩٨١ ، ص٣٦-٤٩ ، وكذلك راجع : يحيى بن الحسين : أنباء الزمن فى أخبار اليمن، القاهرة ، (د ت) ، ص٧-٥٣، وطبقات الزيدية ص٢٤-٢٧ .

٨٠- حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية في اليمن، ص١٤١ .

٨١- المذيخرة : بضم الميم وفتح الذال وسكون الياء، مدينة ذات أنهار ورياض واسعة من مخلاف جعفر ، وقد اختط هذه المدنية جعفر مولى محمد بن زياد أول المائة الثالثة . (الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١١٨ - ١١٩) .

٨٢- الجند: بلدة مشهورة فى اليمن جنوب صنعاء ، على مسافة سبع مراحل ، وهى مقابلة لمدينة تعز من جهة الشرق (الحجرى : مجموع اليمن وقبائلها ، ورقة ٤٢) .

٨٣- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٤٢ ، المعافر هو المخلاف الذى يعرف الآن بالحجرية وهو شمال غربى عدن (الحجرى : مجموع بلدان اليمن، ورقة ١٧١) .

٨٤- ابن خلدون : المقدمة ، ص١١٧ .

٨٥- حسن خضيرى أحمد: قيام الدولة الزيدية فى اليمن، ص٥٦-٥٨ .

٨٦- للهمداني قصيدة تعرف بقصيدة الجار يعتز فيها بهمدانيته وكذلك القصيدة الدامغة النونية ومطلعها:

ألا يا دار هـــــلا تنطقـــينـــا   فـــإنا ســـائلوك فــخـــبـــرينا

الهمداني : الاكليل ، ج١ ، ص٤٢٦ ، ياقوت الحموى، معجم الأدباء ، ج١ ، ص٤١٣ وراجع : محمد بن على الأكوع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢١ .

٨٧- ابن فهد المكى: الدر الكمين وذيل العقد الثمين ، مخطوطة (رامبوز الهند) ، ورقة ١٠٢ ، (نقلاً عن الشيخ حمد الجاسر ، مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١٥) .

٨٨- ابن فهد المكى : الدر الكمين، ورقة ١٠٢ .

٨٩- الهمداني : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص١١١ .

٩٠- نفس المصدر، ص١١٥ .

٩١- نفس المصدر ، ص١١٦ .

٩٢- نفس المصدر ، ص١١٦ وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١٧ وكذلك : محمد ابن علي الأكوع : مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢١ .

٩٣- الهمداني: الاكليل ، ج١ ، ص٣٣١ .

٩٤- القطيميون : هم ولد سعد بن جائر بن صحار بن خولان ، وهم أكثر خولان إجابه، وأبعدهم صيتاً ، وأفرسهم فروسية، وكانت ملوك حمير تميل معهم (الهمداني: الاكليل ، ج١ ، ص٣٢٦، ٣٢٧) .

٩٥- الجندي: السلوك ، ج١ ص٢٣١ ، ابن الديبع : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، ص١٧٨، ١٩٩ ، أحمد بن محمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص٦٠-٦١ راجع كذلك:

- Croken Barbra : Zabid under the Rasulids of Yemen , pp. 84-87 .

٩٦- القفطي : أنباه الرواه، ج١، ص٣١٥ .

٩٧- نفس المصدر، ص٣١٨ .

٩٨- يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٢٨ ، ورقة ٦١ .

٩٩- محب الدين الخطيب، مقدمة الاكليل ، ج١٠ .

١٠٠- أحمد بن محمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص٣٣ .

١٠١- Enc. of Islam (art El- Hamdani).

١٠٢- ميلاد المقرحي : ملاحظات حول كتابة التاريخ والبحث التاريخي، مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة، العدد الثاني يوليو ١٩٨٤، منشورات جامعة الفاتح ، ليبيا، ص٤٧٧ .

١٠٣- السخاوي ، شمس الدين عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧م) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، القاهرة ١٣٤٩هـ ، ص٨٥-٨٦ ، وراجع : قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين، ص٣٤ .

١٠٤- الهمداني: الاكليل ، ج١٠، ص٢٧ ، كتاب الجوهرتين، ص١٠٥ .

١٠٥- نفس المصدر ، ج١٠ ، ص١٠٣ .

١٠٦- نفس المصدر ج١٠ ، ص١٦ .

١٠٧- الهمداني: الاكليل ، ج١٠ ، ص٢٠ .

١٠٨- نفس المصدر ، ج١ ، ص٢١ الجوهرتين، ص١٠٦ .

١٠٩- ريده : بفتح الراء وسكون الياء ثم دال وهاء، وهي اليوم آهلة بالسكان والحياة وهي لاتزال سوقا لحاشد وبكيل (الهمداني: صفة جزيرة العرب ص١١٤، الاكليل ، ج٢ ، ص٩٨) .

١١٠–الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٤ .

١١١– الهمداني: كتاب الجوهرتين ، ص١٨٥ ، ص٢٠٠ .

١١٢– الهمداني : كتاب الجوهرتين ، ص٢٢٦ ، ص٢٢٩ .

١١٣– الهمداني: الاكليل ، ج١ ص٦٦ ، ص٨٤ راجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١٠ .

١١٤– الهمداني: الاكليل ، ج٨ ، ص١٠١ .

١١٥– الهمداني : الاكليل ، ج١ ، ص١٣٧ .

١١٦– الهمداني: الجوهرتين ، ص١٠٧ .

١١٧– الهمداني: الاكليل ج٨ ، ص٢١٣–٢١٨ .

١١٨– سيده اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٦١ ؛ عبد المنعم ماجد : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١ ، ص٦٨ .

١١٩– ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٧ .

١٢٠– الهمداني: الجوهرتين، ص١٠٦ .

١٢١– الهمداني: الاكليل ج١٠ ، ص٢٣–٢٥ .

١٢٢– نفس المصدر، ج١٠، ص٤٧–٥٠ .

١٢٣– سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ص٤٣ ، حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب، ص١٩ .

١٢٤– صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص٧٨ .

١٢٥– قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، ص٦٧ .

١٢٦– حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب ص١٩ .

١٢٧– محمد عبد الغني حسن: التاريخ عند المسلمين ، القاهرة ١٩٧٧، ص٢٩–٣٠ .

١٢٨– راجع الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص١٥ ، ص٦١ ، ص٣٠ وكذلك :
The historical value of ancient Yemen's , pp. 10-12 .

١٢٩– الهمداني: الجوهرتين ، ص٩٦ .

١٣٠– راجع : محب الدين الخطيب : الاكليل ، ج١٠ ، المقدمة ، كذلك : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص١٨ .

١٣١- محمد بن علي الأكوع، المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢٢-٢٣ .

١٣٢- تكره القفطي: أنباه الرواه، ج١ ، ص٣١٧ .

١٣٣- القفطي : انباه الرواه، ج١ ص٣١٧ .

١٣٤-الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، ص٨٨ ، ص١١٧ ، صفة جزيرة العرب ، ص٣٦٥ ، القفطي ، أنباه الرواه ج١، ص٣١٦ .

١٣٥- الهمداني: الاكليل ، ج١ ، ص١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢١٦ .

١٣٦- القفطي: انباه الرواه ، ج١ ، ص٢١٨ .

١٣٧- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص٧٨، القفطي : أنباه الرواه ، ص٣١٧ .

١٣٨- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص٧٩ .

١٣٩- The Enc. Britannica (art Hamdani , al).

١٤٠- القفطي : أنباه الرواه ، ج١ ، ص٣١٥ .

١٤١- محمد بن علي الأكوع، : المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢٣ .

١٤٢- الزركلي: الأعلام ، ج٢ ، ص١٧٩ .

١٤٣- الهمداني: الاكليل ، ج٢، ص٢٧١ .

١٤٤- الهمداني: الاكليل ، ج١٠ ، ص٦٧ ، وراجع : حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب ، ص٣٠ .

١٤٥- نفس المصدر، ج١٠ ، ص٦٧ .

١٤٦- نفس المصدر، ج١٠ ، ص٦٧ .

١٤٧- نفس المصدر ، ج١٠ ، ص٦٧ ، وراجع : محمد بن علي الأكوع: المقالة العاشرة، ص٢٣ .

١٤٨- محمد بن علي الأكوع: المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، ص٢٣ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة:

- الحجرى ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٢٩٣٨).
- الخزرجي ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤١٠م) : العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٧٣٦) .
- مسلم اللحجى ، مسلم بن محمد بن جعفر اللحجى (المتوفى فى حوالى سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) : «كتابٌ فيه شئ من أخبار الزيدية فى اليمن، يعرف بتاريخ مسلم اللحجى، مخطوطة باريس رقم ٥٩٥٢، ج٤ .
- مؤلف مجهول : تاريخ اليمن فى الكوافى والفتن، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية رقم (٩٦٨) .
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨م) : الطبقات الزهر فى أعيان العصر، ويعرف باسم طبقات الزيدية الصغرى، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، توجد صورة من المخطوط بمكتبتى الخاصة.

ثانيا: المصادر المطبوعة:

- بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٣٦ .

البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) : فتوح البلدان ، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٨٧ .

- الجندى، بهاء الدين أبوعبدالله محمد بن يوسف الجندى السكسكى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) :
- السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الأكوع، بيروت ١٩٨٣ .
- الخزرجي ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) : اليمن فى عهد الولاة، تحقيق راضى دغفوس ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩ .
- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الاسكندرية (د.ت) .

- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى (ت ٩٢٤هـ / ١٥٣٣م) قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة، ١٣٧٤هـ .

- الرازى ، أبو العباس أحمد بن عبدالله (ت حوالى ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق عبد الجبار زكار وحسين العمرى ، دمشق ١٩٧٤ .

- السخاوى، شمس الدين السخاوى (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، القاهرة ١٣٤٩هـ.

- ابن سلام، أبوعبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨م) : الأموال ، بيروت ١٩٨١ .

- ابن سمرة ، عمر بن على بن سمرة الجعدى (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد ، بيروت (د.ت) .

- السيوطى، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ .

- صاعد الأندلسى ، القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠ م) طبقات الأمم، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٩٣ .

- ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد (٧٤٤هـ / ١٣٤٣م): بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازى، القاهرة ١٩٦٥ .

- العلوى، على بن محمد بن عبدالله العباسى (كان معاصراً للإمام الهادى يحيى بن الحسين فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى) سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق الدكتور سهيل زكار، بيروت ١٩٨١ .

- عمارة اليمنى، نجم الدين محمد الحكمى (ت ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م) : المفيد فى تاريخ صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٩٦٧ .

- ابن قتيبة ، أبومحمد عبدالله بن مسلم (٢٧٦ هـ / ٨٨٩م) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشه ، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠ .

- القفطى ، جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) : أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٦، ج١ .

- ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقى (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ويسمى تاريخ المستبصر ، نشر أوسكار لوفجرين ، ليدن ١٩٥١ .
- المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) : التنبيه والاشراف، دار الصاوى للنشر، القاهرة، (د.ت) .
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢٢م) : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ.
- نشوان الحميرى، أبوسعيد نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) الحور العين، تحقيق كمال مصطفى، بيروت ١٩٨٥ .
- ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) : السيرة النبوية ويعرف بسيرة ابن هشام ، القاهرة (د.ت) ٤ أجزاء .
- الهمدانى ، أبومحمد الحسن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) :

الاكليل ج١ ، تحقيق محمد بن على الاكوع، القاهرة ١٩٦٣ .

الاكليل ج٢ ، تحقيق محمد بن على الأكوع، القاهرة ١٩٦٧ .

الاكليل ج٨ ، تحقيق الأب انستاس مارى الكرملى، بغداد ١٩٣١ ، تحقيق محمد بن على الاكوع، دمشق ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ .

- الهمدانى ، الاكليل ج١٠ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ.
  - صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع، طبعة ثالثة ، بيروت ١٩٨٣ .
  - كتاب الجوهرتين ، تحقيق الدكتور كريستوفرتول، صنعاء ١٩٨٥ .
  - المقالة العاشرة من سرائر الحكمة ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، صنعاء (د.ت) .
- ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبدالله الحموى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان، بيروت ١٩٨٤ ، ج٢، ج٤ .
  - معجم الأدباء ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ج١ .
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) : أنباء الزمن فى أخبار اليمن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د. ت) .

ثالثًا : المراجع العربية:

- أحمد بن أحمد بن محمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامي ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، بيروت ١٩٨٦ .
- أحمد أمين: ضحى الإسلام ، القاهرة ١٩٧٩ ، ج٢ .
- حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية فى اليمن (٢٨٠-٢٩٨هـ / ٨٩٣-٩١١م) ، القاهرة ١٩٩٦ .
- حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، القاهرة (د-ت) .
- حمد الجاسر : مقدمة صفة جزيرة العرب للهمداني، بيروت ١٩٨٣ .
- خير الدين الزركلي: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت (د-ت) ، ج٢ .
- سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، القاهرة، ١٩٧٦ .
- قاسم عبده قاسم : فكرة التاريخ عند المسلمين ، قراءة فى التراث التاريخى العربى، القاهرة ٢٠٠١ .
- كريستوفرتول : مقدمة كتاب الجوهرتين للهمداني، صنعاء ١٩٨٥ .
- محمد عبد الغنى حسن : التاريخ عند المسلمين ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .
- محمد بن على الأكوع الحوالي: مقدمة المقالة العاشرة من سرائر الحكمة للهمدانى ، صنعاء (د-ت) .
- الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٢٢هـ ، بغداد ١٩٧٦ .
- محمود الحويرى : منهج البحث التاريخى، القاهرة ١٩٩٩ .
- ميلاد المقرحى : ملاحظات حول كتابة التاريخ والبحث التاريخى: مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة ، العدد الثاني، يوليو ١٩٨٤ ، منشورات جامعة الفاتح ليبيا.

رابعا :المراجع الأجنبية:

- Croken Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen (626-858 AH/ 1229 - 1454 AD) Ph . D. diss., : Harvard universty , 1990 .
- Encyclopeadia of Islam .
- Hayden V. White H,: Ibn Khaldun in world Philosophy of History(in Coparative studies in society and history . V. 2 October 1959) pp. 110-175 .
- Swanson Lealan Anderson Nunn : Historical considerations in Yemeni Vernacular Architecture: Sulahid Dyansty (439-1047) to the modern Period . Ph . D diss , Ohio State University 1997 .
- Daghfous Radhi : " Les You' Furides " Faclt Des letters et sciences Humaines de Tunis (1 et 2 timesttes 1982) .
- Reniner L History its Purpose and method , London , 1950 .
- The historical Importance of the Antiquities Related to Ancient Yemen's (www. Yemenini gov. ye).
- The historical Value of ancient Yemen's (art of El Hamdani. htm) .
- The new Encyclopaedia Britannica.

د. جمال فوزى محمد (*)

النشاط السياسى والحضارى للمسلمين فى الهند فى عهد السلطان علاء الدين الخلجى

٦٩٥-٧١٥هـ / ١٢٩٥-١٣١٦م

اختلف المؤرخون والباحثون حول أصل الخَلجيين[١] ونسبهم . فقد ذهبت طائفة إلى أنهم من نسل «قالج خان» صهر جنكيز خان، وكان خاطره قد ملّ من زوجته ابنة جنكيز خان، ولم يجد مفراً من المداراة خوفًا من أبيها . وقد واتته الفرصة عندما عاد جنكيز خان عن بلاد المشرق الإسلامى إلى موطنه فى منغوليا - شمال الصين- ففكر فى تحصين جبال الغور- شرقى الهضبة الإيرانية، وضمن أفغانستان الآن- وأسكنها قبيلته ، وكثر نسله . ودخل الخلجيون الهندستان بالتدريج فى ظل توسع سلاطين الغور[٢] فيها، حيث عظم هناك شأن عدد من أحفاد قالج خان هذا الذى حرف إلى خالج وصار لكثرة استعماله خلج [٣]. وربما يظهر بوضوح خطأ بعض مضمون هذا الرأى من الناحية التاريخية . فالمعروف أن الغور- الذين ينكر هذا الرأى أن بعض أحفاد قالج خان صهر جنكيز خان قد علوا وبرزوا فى عهدهم- قد انتهت دولتهم سنة ٦١٢ هـ على يد الخوارزميين[٤]. فى حين أن جنكيز خان لم يقدم إلى مشرق العالم الإسلامى إلا فى عام ٦١٦هـ .

---

* مدرس بقسم التاريخ الإسلامى والحضارة دار العلوم- جامعة القاهرة.

في حين ترجح طائفة أخرى من المؤرخين والباحثين الأصل التركي للخلجيين ، ولكن نظراً لهجرتهم المبكرة من ديار الترك فقد ألفوا مجموعة متمايزة ببلاد الغور [٥]، وربما كان هذا هو الدافع للبعض لأن ينسبهم للغوريين [٦].

كان جلال الدين فيروز شاه (٦٨٩-٦٩٥هـ / ١٢٩٠-١٢٩٥م) أول من ولى عرش دهلي- عاصمة الهندستان- من الأسرة الخلجية [٧]. وكان لهذا السلطان ابن أخ يدعى «علاء الدين محمد بن شهاب الدين مسعود»، كان والده قائدا عسكريًا ومحاربًا جسوراً ، ولكنا لانعرف متى ولد علاء الدين ولا في أي ظروف نشأ [٨]. ولكنا نعرف أن جلال الدين كان يحب ابن أخيه وأنه زوجه ابنته وعينه حاكمًا لكره Kara وعين أخاه «الماس بيك» – وصهر السلطان أيضًا- في منصب آخوربك [٩].

كان علاء الدين شجاعًا مغامراً ، وقلبه متعلق بحب الملك، كما كان على علاقة سيئة بزوجه ابنة السلطان أيضا وأمها «ملكه جهان»[١٠] وفي نهاية سنة ٦٩١ هـ تقريبًا حصل علاء الدين على إذن السلطان بالتقدم نحو بهيلسه Bhilsa ومهاجمة تلك المنطقة، حيث حصل على غنائم كبيرة أهدى منها للسلطان كما اصطحب معه عند العودة من هذه الغزوة صنمين حديديين كانا معبودين لأهل هذه النواحي ووضعهما تحت بوابة بداون Badaon [١٢] ليطأهما الناس . ولقيت أعماله هذه استحساناً من قبل عمه السلطان [١٣].

في بهيلسه سمع عن ثروة ملك ديوكير (أوديو جيرى Devagiri) الهائلة في الجنوب . وبدون الحصول على إذن من عمه أو عمل الترتيبات في كره لإمداد دهلي العاصمة بأخبار منتظمة عن تحركاته منعًا للشكوك ، وخرج علاء الدين سنة ٦٩٥هـ على رأس ثمانية آلاف فارس، ولأبعد مما وصل إليه حاكم مسلم من قبل ، عبر جبال ويندهيا Vindhyas نحو الدكن جنوبيًا حيث كانت ديوكير[١٤] يفصلها عن كره مدة شهرين سيراً عبر أقاليم غير معروفة . وبعد صراع قوى أذعن له حاكمها «رام ديو» وحصل علاء الدين على غنائم هائلة ، وانتوى العصيان، فرجع إلى كره ولم يبعث إلى عمه شيئًا من الغنائم وامتنع من المثول بين يدى السلطان فأغرى الأمراء عمه به ولكن السلطان قال : أنا أذهب إليه وآتي به، فإنه محل ولدى. وبعد مراسلات ساعد فيها – على نية الغدر أيضًا- الماس بيك ، أخو علاء الدين ، الذى التمس من السلطان مقابلة أخيه في غير عدة ولا عدد كي لايخافه علاء الدين فوافق السلطان، وفي مركب في عرض النهر غدر علاء الدين بعمه ، إذ قتله أعوانه بالاتفاق معه وهو يحتضنه .

على أثر ذلك فر أكثر عساكر عمه إليه ، بينما عاد بعضهم إلى دهلى واجتمعوا على ركن الدين إبراهيم أصغر أبناء السلطان جلال الدين ، الذى أقامته أمه ملكه جهان- بمعاونة أمراء أبيه الذين غمرتهم بالهدايا والهبات- سلطانًا على عرش دهلى خلفًا لأبيه . على أن علاء الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها، فاضطر السلطان الشاب وأمه إلى الفرار إلى المُلْتان[١٥].

لم يضيع علاء الدين وقتًا ، فقد أرسل قواده لمطاردة أركلى خان وركان الدين ابن عمه السلطان حيث حوصرا فى الملتان ثم قبض عليهما وقتلا وتحفظ على زوجات السلطان وبقية أولاده مسجونين فى دهلى [١٦].

وفى يوم مقتل السلطان جلال الدين نفسه نشر علاء الدين شارات الملكة وشعاراتها، ورفع المظلة فوق رأسه باعتباره السلطان الجديد، وأمطر العامة فى دهلى العاصمة بالدنانير والدراهم وقطع الذهب، ويومًا فيومًا ربط أمراء جلال الدين أنفسهم بخدمته وحلفوا له يمين الولاء تحت الرغبة والرهبة . ودخلت المملكة جميعها تحت سيطرة علاء الدين[١٧].

وفى ٢٩ ذو الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م ارتفع لواء السلطان علاء الدين على دهلى بواسطة أخيه الماس بيك، الذى لقب بعد ذلك بألغ خان ، ولقب سنجار أمير مجلس علاء الدين بألب خان، بينما منح ملك نصرت جليسارى لقب نصرت خان وملك بدر الدين (أو هزبر الدين) لقب ظفر خان . وهؤلاء هم قواده الأربعة المشاهير وأذرعته الطويلة لتسخير مجمل أرجاء شبه القارة الهندية خلال مدة سلطنته التى دامت حوالى عشرين عامًا منذ أقيمت الخطبة باسمه وذكر على السكة ولأول مرة فى تاريخ الحكم الإسلامى بها [١٨].

- النشاط السياسى والعسكرى فى عهد السلطان علاء الدين:

أولاً : التصدى للمؤامرات الداخلية:

فى السنة الثالثة لجلوس السلطان علاء الدين على العرش أرسل قائديه ألغ خان ونصرت خان بجيوش جرارة لمهاجمة الكجرات[١٩] فعادا بغنائم كثيرة أخذ بعضها بالشدة والتعذيب . فاتفق بعض الأمراء من المسلمين الجدد[٢٠] مع آخرين تضرروا لما أخذ منهم، واجتمعوا وهجموا علي ملك عز الدين أخى نصرت خان وكان أمير حاجب ألغ خان وقتلوه ودخلوا خيمة ألغ خان فخرج من الطرف الثانى، ووصلوا إلى خيمة نصرت خان، وكان ابن أخت السلطان علاء الدين نائمًا بها فقتلوه ظنًا منهم أنه ألغ خان، فأسرع نصرت خان وجمع جموعه وقصد

المتمردين فتفرقوا وتوجهوا إلى الجوانب والأطراف . وعلى أثر ذلك قبض السلطان على أولاد وأتباع الأشخاص الذين سعوا فى هذه الفتنة وقتلهم (٢١).

وفى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م وجه السلطان قائديه ألغ خان ونصرت خان للاستيلاء على حصن رنتنبهور Ranthambhor (٢٢). وفيما كانا يحاصرانه أصابت إحدى قذائف المدافعين الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة، فخرج المدافعون لمهاجمة القوات المحاصرة التى اضطرت للتراجع ، فبادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هذا الحصن . وذات يوم- وهو فى فى طريقه إلى الحصن- كان السلطان مشغولاً فى ميدان الصيد بطريقة القمُرغَة Qamurgha (٢٣)، وقد نشر قواته فى الأطراف وبقى هو مع تابعيه المختارين يتسلقون مرتفعًا ويتابعون ممارسة هذه الرياضة فى غضون ذلك هاجمه بقسوة مع مجموعة من المسلمين الجدد ابن أخيه سليمان أكات خان ورموه بالسهام فجرحوا ذراعه ، ولأن الوقت كان شتاء ، والسلطان يرتدى لباسًا واقيا شيئًا ما، لم يكن جرحه مميتًا . ورغب المتمرد فى قطع رأس السلطان، ولكن بعض المحيطين به صرخوا قائلين : قتل السلطان ، فكف عنه وتوجه بسرعة إلى المعسكر وجلس على العرش ونشر المظلة فوق رأسه .

وحينما استعاد السلطان وعيه توجه نحو قائده ألغ خان فى جهاين . قرب رنتنبهور- ليتقوى به، إذ كان يظن أن المتمرد متفق مع أمراء آخرين شجعوه على تمرده ، ولكن بعض خلصائه لم يستصوبوا ذلك وألحوا عليه فى التوجه نحو المعسكر السلطانى، فى الحال، ولأن أمر ابن أخيه لم يتم وسينفض الناس من حوله عند رؤية السلطان . وفى طريقه للمعسكر انضم إليه بعض عسكره ، وحين علم المتمرد بأمره سلك طريق الهرب ، ولكن أحد الذين أرسلوا لملاحقته قبض عليه وأرسله إلى حضرة السلطان - وقيل أرسل رأسه- وحينئذ دمرت كل أسرته وأقاربه حيث وجدوا(٢٤).

على أثر هذه الحوادث التى شارك فيها المسلمون الجدد من المغول أصبح السلطان كثير الشك فيهم واعتزم استئصالهم وهم من جانبهم كانوا مدفوعين بابتزاز وجشع جامعى الضرائب حانقين عليهم. وفى نهاية الأمر أرسلت من قبل السلطان أوامر سرية لحكام البلاد تأمرهم بالتخلص من المسلمين الجدد أينما وجدوا فى موعد معين . وفى الموعد المحدد- كما يذكر بدوانى- «جعلوا كثيرا من فقراء المغول سيئى الحظ طعمة لسيف الظلم وأرسلوهم إلى مملكة الإبادة وهم يستعصون على الحصر، ولم يعش اسم المغول طويلا فى الهندستان»(٢٥).

وفى أثناء حصار السلطان السابق لحصن رنتنبهور جمع شخص يدعى «حاجى مولى» من مماليك فخر الدين أمير الأمراء فى بلاط السلطان- مجموعة من غلاظ الطبع وأظهر أمراً مزيفًا فى دهلى ، ادعى أنه تسلمه من السلطان ودخل العاصمة، وأرسل فى طلب الكوتوال(٣٦) وفى الحال قطع رأسه وأغلق أبواب المدينة وأرسل إلى كوتوال القلعة علاء الملك- وكان صديقا له - قائلاً:

وصل أمر من السلطان تعال واقرأه . فتوجس خيفة ولم يلب الاستدعاء ، بينما أطلق المتمرد السجناء وأعطى حصانًا وأسلحة وصرة قطع ذهبية من الخزينة لكل منهم، وجمع أتباعًا كثيرين وقبض على شخص علوى يدعى «سيدزاده»، ينحدر من ناحية أمه من نسل السلطان شمس-الدين ايلتمش وأجلسه على العرش فى حضور الزعماء والأمراء الذين استدعاهم وجمعهم واضطروا إلى حلف يمين الولاء له .

وحين وصلت أنباء هذا التمرد فى العاصمة إلى مسامع السلطان وهو يحاصر رنتنبهور لم ينشرها بين عساكره حتى تمكن من فتح الحصن ثم أرسل نحو المتمرد قائده المدعو «حميد الدين» فتمكن من قتله وقتل العلوى وأرسلوا رأسيهما إلى السلطان فى رنتنبهور .

وعين السلطان ألغ خان ليتقدم إلى العاصمة دهلى لتعقب الذين شاركوا فى التمرد وقتلهم واستئصال أسرهم . ثم عهد له بحصن رنتنبهور وما يحيط به . ولكن ألغ خان ما لبث أن مرض ثم توفى(٣٧).

بانتهاء هذا التمرد الأخير فرغ بال السلطان من الشأن الداخلى واستقامت له الأمور وتوجه بنظره إلى الخارج لدرء الأخطار الخارجية المهددة لسلطنته خصوصا الخطر المغولى التقليدى القادم من الشمال الغربى، ثم توسيع حدودها على حساب الإمارات الهندوكية المتبقية فى شبه القارة الهندية.

ثانيًا : مواجهة الأخطار الخارجية :

تمثل الخطر الخارجى الرئيسى فى غزو المغول لأرض الهند، الذى تجدد مع بداية سلطنة علاء الدين واستمر حتى عام ٧٠٥هـ / ١٣٠٤م، دخل معهم السلطان خلال هذه المدة فى حروب طاحنة حتى تمكن فى النهاية من رد عائلتهم عن البلاد.

ففى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م عبر جيش مغولى نهر السند فى الشمال الغربى قادما من

بلاد ما وراء النهر (٢٨)، ودخل إلى أراضي الهند فأرسل السلطان قائديه ألغ خان وظفر خان حيث اصطدم الفريقان في معركة حامية حاقت فيها الهزيمة بجيش المغول وقتل منه كثيرون وأسر جماعة (٢٩).

وفي العام التالي(٣٠) قدم مما وراء النهر «قتلغ خواجه» بن داود بجيش لايحصى محاولا غزو الهندستان وتوغل نحو دهلي حيث أصبحت الحبوب فيها عزيزة والأهالي في عسر عظيم . ومرة أخرى أرسل السلطان قائديه ألغ خان وظفر خان على رأس قوات كبيرة لصد الهجوم الجديد حيث وقعت معركة شديدة هزم فيها المغول وتعقبهم ظفر خان وتأخر عنه ألغ خان حسدا له فخرجت عليه الكمائن فقتلته (٣١).

وللمرة الثالثة يتوجه تارغي المغولي مصحوبًا بمائة ألف من المشاة وعشرين ألفا من الفرسان لنهب الهندستان، وتوغل حتى نزل على شاطئ نهر جون قرب دهلي . في ذلك الوقت كانت معظم قوات السلطان قد توغلت جنوبًا لإتمام فتح الدكن، وبقية الأمراء قد توجهوا نحو مقاطعاتهم بعد فتح رنتنبهور، وكان الجيش المصاحب للسلطان في العاصمة- قد صار بلا أمتعة بسبب المطر وطول السفر- عائدًا من رنتنبهور- فاضطر السلطان- لكل هذه الأسباب- إلى الخروج من العاصمة والنزول بسيري- إحدى ضواحيها- حيث تحصن هناك وراء الخنادق والأشواك في انتظار بعض الأمراء الذين استدعاهم من الأطراف، والذين صعب عليهم الوصول للسلطان لاستيلاء المغول على نواحي دهلي والأطراف المجاورة لها، فتوقفوا قريبًا من دهلي ، وعندما مر شهران انسحب جيش المغول دون سبب واضح، ربما لخشيته من الوقوع بين براثن جيوش السلطان التي من المحتمل تكاثرها ومسارعتها في الوصول من الأطراف لنجدة العاصمة(٣٢). واستمر المغول في تهديد أطراف الهندستان الغربية حيث تصدى لهم في المرحلة التالية قائد السلطان الجسوران تُغلق وكافور(٣٣).

ونظرًا لإدراك السلطان لجسامة الخطر المغولي المهدد لبلاده فقد اتبع عددًا من الترتيبات للتصدي لهذا الخطر ، فأعاد تأسيس وتنظيم الدفاعات في غربي الهندستان، في إقليم البنجاب ، ووضع المقاطعة الأمامية منه في ديبالبور Dipalpur(٣٤) تحت إمرة قائده تُغلق العسكري القدير، وجهز جيشًا للطوارئ ، جعل اعتماده على الإقطاعات وأعده للأغراض الدفاعية والهجومية ، يعني هذا أن أمراء السلطان تحولوا من الدفاع للهجوم وأخذوا بزمام المبادرة وبالفعل فقد أغاروا على مقاطعات المغول قرب كابل وغزنة(٣٥) وبذا استبدلت

باستراتيجية الحدود المتراجعة– فى السياسة الدفاعية للسلاطين قبل علاء الدين فى الشمال الغربى للهند– فى النصف الثانى من عهد علاء الدين، استبدل بها ما يمكن تسميته باستراتيجية الحدود المتقدمة ضد المهاجمين من ممرات الطرف الشمالى الغربى وخاصة المغول. فانقطع تهديد المغول للهند [٣٦].

وقد عبر الهروى عن هذا التحول بقوله : «وبعد ذلك انتهت متاعب المغول تمامًا على الأطراف ودخلت بلاد الهندستان التى كانت ملاذًا وملجأ للمفسدين والمتمردين فى حيز الضبط، وتم تأمين طرق ذهاب وإياب التجار والسائحين ... واستراح خاطر السلطان علاء الدين من عرش دهلى، وشرع فى تسخير البلاد البعيدة»[٣٧].

ثالثًا : التوسع فى شبه القارة الهندية .

فى السنة الثالثة لجلوس السلطان أرسل قائديه ألغ خان ونصرت خان بجيوش جرارة لمهاجمة إقليم الكجرات فانتهبوه ، وفر «راى كران»[٣٨] حاكم نهرواله[٣٩] والتحق بوالى ديوكير بالدكن . وسقطت نساؤه وبنته «ديولرانى نام» مع الخزانة والأفيال وكل شئ فى يد الجيش، وحمل الصنم الذى اتخذه البراهمة معبودًا لهم بدلاً من سُومنات[٤٠] الذى حمله السلطان محمود إلى دهلى، وجعله تحت أقدام الناس. وتوجه نصرت خان إلى كنبايت[٤١] حيث حصل من التجار المقيمين هناك أموالاً كثيرة ونفائس [٤٢]. واكتسحت مقاطعات الراجبوتانا Rajpu-tana وأخذت منها غنيمة هائلة [٤٤].

ونظرًا لكثرة مال السلطان وعتاده وذخائره خطر له أن ينيب عنه فى دهلى ويتوجه لفتح أركان الأرض تأسيا بالإسكندر الأكبر ، وأمر أن يدعى فى الخطبة الإسكندر الثانى وكتب هذا على السكة أيضًا . وصدقته حاشيته خوفًا من طبعه الخشن ومزاجه القاسى إلا ملك علاء الملك[٤٥] كوتوال دهلى[٤٦]، الذى طلب منه السلطان المشورة فى ذلك ، وكان مخلصًا متزنًا ، فأقنع السلطان بأنه من الأولى الانتهاء عن إحداث شئ فى الشريعة لأن فى ذلك خراب الملك والسلطنة . وأوضح له أن تبليغ الرسالات مهمة الأنبياء والرسل، وأن الزمان قد تغير عن عصر الإسكندر الذى كان الناس فيه أقل غدرًا ومكرًا وأن الإسكندر تهيأ له وزير لايجود الزمان بمثله وهو أرسطو ، فإذا ما خرج السلطان لغزو العالم لم يأمن من انتقاض الأطراف عليه. والأولى أن يوجه همته لتسخير الهندستان وتحصين وإحكام القلاع جهة المغول، وبعدها يستطيع السلطان أن يرسل المماليك المخلصين بالجيوش القوية إلى الأطراف للاستيلاء على

الأقاليم البعيدة وبهذا يذيع فى الآفاق أنه فاتح العالم، وعلى عكس المتوقع، استحسن السلطان منه هذه المشورة وأنعم عليه كما أنعم عليه أمراء السلطان الذين سرهم أثر نصيحته (٤٧).

فى عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م أمر ألغ خان بالتقدم نحو حصنى رنتنبهور وجهاين حيث رأى همير ديوا الابن الأكبر لراى بتهورا الذى كان بحوزته عشرة آلاف فارس وما لايحصى من المشاة والفيلة- ذائعة الصيت. ولكنه هزم وانسحبت بمهارة عسكرية فائقة كل قواته إلى حصن رنتنبهور. وأبلغ ألغ خان طبيعة الحال إلى البلاط السلطانى وألح على السلطان باقتناص الحصن فجمع السلطان قواته وسار نحوه ، وفى وقت قصير وبمحاولة بارعة وبمعاونة ونشاط مماليكه قهر السلطان الحصن واستولى عليه وقضى على همير ديوا وحاز كنوزًا وغنائم عظيمة وعين كوتوالا للحصن واستعمل ألغ خان على جهاين وغادرها ليهاجم جبتور أو جتور فغزاها فى أيام قليلة وأعطاها اسم «خضر آباد»(٤٨) على اسم ابنه خضر الذى عهد إليه بحكمها ، ثم رجع السلطان إلى دهلى (٤٩).

فى العام التالى أمر السلطان «عين الملك شهاب ملتانى» أن تقدم إلى مالوه - وسط الهندستان- فى جيش ضخم ، فلم يستطع كوكا Koka زعيم الإقليم، الذى كان يمتلك أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، الوقوف ضده فنهب عين الملك وأتلف ورجع مظفراً بغنائم لاتعد(٥٠).

بعد أن فرغ بال السلطان من إخضاع جميع الهندستان توجه بأنظاره صوب الدكن- القسم الجنوبى من شبه القارة الهندية- فعين قائده ملك نايب كافور مع قادة آخرين لمهاجمة ديوكير . من بلاد الدكن- سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧ م فهزم حاكمها رام ديو- الذى كان قد امتنع عن دفع الجزية التى وعد بها عقب غزوة علاء الدين الأولى- وأسره، على الرغم من شجاعته . وأرسل جميع خزانته وسبعة عشر فيلا مع رسالة فتح إلى دهلى، ثم أرسله هو نفسه إلى السلطان الذى أنعم عليه ولقبه «راى رايان» وأعاده حاكمًا على ولايته فسلك مسلك التابعين المطيعين وقدم خدمات جليلة(٥١).

بعد ذلك بعامين عاد كافور مرة أخرى إلى الجنوب على رأس جيش جرار متوجها إلى ورنكل Warangal، وقد أوصاه السلطان بأنه إذا بذل راى نادر ديو حاكمها الطاعة والجزية أن يقبل منه ويكتفى بذلك. فسار كافور متوجهًا إلى ديوكير فاستقبله رام ديو وقدم هدايا كثيرة وقدم لوازم الطاعة والولاء ورافق القائد الخلجى عدة منازل حتى سمح له كافور بالعودة

لولايته. وعندما اقترب جيش المسلمين من ورنكل أسرع رايان- حكام - الأطراف إلى قلعتها- فحاصرها المسلمون وسعوا فى فتحها واجتهد الهنادك فى الدفاع عنها وبعد مدة فتحت الأجزاء الخارجية منها وأسر أكثر الرايان ، واضطرب راى نادر ديو وطلب الصلح والأمان فأخذ ملك نايب منه مائة فيل وسبعة آلاف جواد وأمنه بعد أن قبل أن يرسل مقررات سنوية(٥٣).

فى العام التالى -٧١٠هـ - توجه كافور نحو بلاد المعبر على الساحل الشرقى حيث فتحها وخرب معابد أصنامها وحطم الأصنام الذهبية وأدخل ذهبها فى الخزانة. وعاد بثلاثمائة وأثنى عشر فيلاً واثنى عشر ألف جواد عدا صناديق الذهب والجوهر فسر السلطان بفتوحهم وأكرمهم. كما امتد سلطان المسلمين فى تلك الأونة حتى الساحل الجنوبى للهند(٥٤).

هكذا امتد سلطان المسلمين فى مختلف أرجاء شبه القارة الهندية، لأول مرة فى تاريخ المسلمين بها، فى عهد السلطان علاء الدين، الذى ينقل أحد الباحثين- فى حقه- عن تاريخ فرشته ما يفيد أن عدة معاركه كانت أربعاً وثمانين ، فى كلها ظفر وغنم(٥٥).

ويرجع أحد الباحثين هذه القدرة التوسعية فى عهد علاء الدين إلى التزايد الكبير فى الطاقة البشرية القابلة للتجنيد التى نتجت عن مشاركة الأهالى فى الجيوش والإدارة فى ذلك العهد وعدم اقتصارهما على الأرستقراطية التركية وذلك أيضاً نتيجة الأعداد الكبيرة التى اهتدت إلى الإسلام بفعل جهود الدعاة والصوفية المسلمين مما وفر أعدادا ضخمة لخدمة الدولة(٥٦).

ويرى باحث فى هذا التوسع سببا لضعف الدولة إذ انهار سريعا حكم الأسرة الخلجية بعد وفاة علاء الدين بمقتل آخر حكامها سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، بعد أن دام حكمها حوالى ثلاثين عاما (٥٧). ولا أدرى كيف يكون التوسع وما يجلبه من ثروات وإمكانيات هائلة تدعم قوة الدولة وهيبتها- خصوصا إذا كانت السلطة فى يد قوية كيد علاء الدين الذى وضع قواعد راسخة لتنظيم دولته (٥٨)- سببا فى الضعف. وأظن أن الأوجه هو القول بأن علاء الدين خلفه من أسرته سلاطين ضعاف أضاعوا ما أسسه(٥٩).

رابعًا : نهاية علاء الدين:

حين خلا بال السلطان من الفتح والتوسع واستقرت قواعد السلطنة ، تفرغ للنظر فى مستقبل أولاده فعين لكل منهم شيئا وجعل ابنه «خضرخان» وريثه وولى عهده ، وكان له من الأولاد أربعة غيره ، هم:

شادى خان وأبوبكر خان ومبارك خان وشهاب الدين . ثم اعتلت صحة السلطان لتقدم سنه ، فنشط ابنه خضر خان فى جلب الصالحين لدهلى للدعاء له وتمريضه. ولكن قائده كافور ، الملازم له والمقرب عنده والذى فوض إليه السلطان كثيرا من الأمور فى آخر أيامه وقد كانت له طموحات شخصية كبيرة، أوغر صدر السلطان ضد ابنه وأوحى له أن خاله ألب خان الذى حضر من الكجرات إلى دهلى يسعى للتدخل فى شئون الدولة وأن نفسه تميل إلى سلطنة ابن أخته خضر خان وهو يصبو إلى أن يصبح نائبا عنه . ونتيجة لهذه الوشاية أمر السلطان بإعدام «ألب خان» . ثم أوحى كافور للسلطان أن خضرخان قد حذر لقتل خاله وسيتجنب الحضور للبلاط ، فاستدعاه السلطان، قد أطاع الابن الأمر وحضر فاستقبله السلطان بمشاعر الأبوة.

ولكن ملك نايب كافور عاد وملأ آذان السلطان بالأكاذيب من جهته ، فأمر السلطان بإبعاد خضرخان وأخيه شاى خان إلى حصن كواليار[٦٠] Gwoliar .

وبعد إبعاد هذين الوريثين أقام كافور شهاب الدين بن السلطان من أم أخرى وريثًا ونصب نفسه وصياً عليه إذا كان غضاً صغيراً. وبعد أيام قلائل توفى السلطان فى شوال سنة ٧١٥هـ / يناير ١٣١٦م. وأسرعت يد القدر فى أسرته ما بين سجن وسمل للأعين وقتل، حتى انقطع نسله وزال ظل السلطنة عن أهل بيته[٦١].

نظم الحكم والإدارة فى عهد علاء الدين:

أولا : السلطان :

رأس الأمر وعموده فى نظام الحكم بالهند فى ذلك الوقت ، إليه المرجع فى كل الأمور ، ولايراجعه أحد، يصف المؤرخون السلطان علاء الدين بأنه كان قاسياً صعب الطباع مستبداً ، ورغم أنه كان فى أوائل حاله يستشير رجاله فى بعض أمور الملك ، إلا أنه حين فرغ خاطره من جميع الشواغل كان «يقوم بعمل ما يرد بخاطره من الأمور الملكية، وما كان يأتى على مخيلته ويوافق رأيه ينفذه، ولم يكن يستشير أى شخص فى تنفيذ أمر الملك»[٦٢].

وكان للسلطنة شعاراتها فالجتر لايفارق رأس السلطان فى سفر أو حضر وبه يعرف[٦٣]. ودار السلطان بالعاصمة دهلى كانت تسمى «دولت خانه» ، ولها أبواب كثيرة، فأما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الأبواق فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها لكل

حسب رتبته . وبين الباب الثاني والثالث دهليز[٦٤] كبير به أهل النوبة – التناوب– من حراس الأبواب . وبالباب الثالث يجلس كتاب الباب. ومن عادتهم ألا يدخل من هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك ، ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه وأهله يدخلون معه . وكل من يأتي إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلاناً جاء في الساعة الأولى أو الثانية أو بعدهما من الساعات إلى آخر النهار. ويطالع السلطان ذلك بعد العشاء الآخرة. ويكتبون كذلك كل ما يحدث بالباب من أمور . ومن عادتهم أيضاً أن من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو بغير عذر ، لايدخل من هذا الباب إلا بإذن من السلطان . فإن كان له عذر من مرض أو غيره قدم بين يديه هدية مما يناسبه إهداؤها إلى السلطان ، وكذلك القادمون من الأسفار ، فالفقيه يهدى المصحف والكتاب وشبهه ، والناسك يهدئ المصلى والسبحة والسواك ونحوهما، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والركاب ... والسلاح . ويفضى هذا الباب الثالث إلى المشور– الساحة– الهائل فسيح المساحة المسمى «هزار استون»[٦٥] وهى أعمدة من خشب مذهبة وعليها سقف خشب منقوش بأبدع نقش يجلس الناس تحته . وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام[٦٦].

وكان جلوس السلطان في الديوان العام بعد العصر أو أول النهار على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها حشية وخلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه ويساره متكأ. ويقف أمامه الوزير وخلفه الحجاب ثم يتلوهم النقباء. وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم «بسم الله» ، ثم يقف على رأس السلطان كبير الأمراء وبيده المنبة يشرد بها الذباب. وعن يمين السلطان يقف مائة من السلحدارية[٦٧] ومثلهم عن يساره بأيديهم الأسلحة. ثم يقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة ثم خطيب الخطباء ثم سائر القضاة ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء ثم المشايخ ثم إخوة السلطان وأبناؤه وأصهاره ثم الأمراء الكبار.

وكل من يأتي من الناس المعينين للوقوف في الميمنة والميسرة يطأطئ رأسه عند موقف الحجاب ثم ينصرف إلى موقف لايتعداه أبدا . ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بأيديهم التروس والسيوف ، فلايتمكن أحد من الدخول بينهم إلا بين أيدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان [٦٨].

ثانيًا : السلطات الإدارية التنفيذية :

لم تختلف كثيراً عن نظم الإدارات فى الدول الإسلامية السابقة خاصة الإدارة الغزنوية[٦٩]. وقد كان على رأس الجهاز الإدارى «الوزير» وهو المهيمن على هذا الجهاز بإداراته المختلفة والمسئول عن تدبير أمور الدولة يعاونه المشرفون والمستوفون وغيرهم . وكانوا يسمونه «خواجه جهان»[٧٠]، وهو بمثابة رئيس الوزراء الآن . وقد ولى هذا المنصب لعلاء الدين أسماء مثل : نصرت خان وشمس الملك [٧١].

وكان «الحاجب» هو الوسيط بين السلطان ورجال السلطة وهو على مراتب كثيرة، ولذا فقد كان موضع رجاء الأمراء ورجال السلطان ولمنصبه هيبة عظيمة . وهو على مراتب كثيرة منها:

كبير الحجاب ونائبه ، وخاص حاجب وشرف الحجاب وسيد الحجاب .

و«أميرداده»[٧٢] هو الأمير الكبير الذى يحكم على الأمراء [٧٣]، فمن كان له حق على أمير أو كبير يحضر بين يديه . و«ديوان عرض» وموضوعه التبليغ عن السلطان فى عامة الأمور، «وكيل دار» وإليه أمر البيوت السلطانية من المطابخ والشراب خانه[٧٤] والحاشية والغلمان . والمستوفى والمشرف من بأيديهم حساب الدخل والخرج . و«إقطاع دار» وهو الأمير الذى ينوب عن السلطان فى حكم ولاية كبيرة من أرض الهند وإليه أمر جيشها وماليتها. ومناصب أخرى عديدة [٧٢].

تنظيم الجيش وتنظيم البريد.

لتدبير أمور الجيش كانت وظيفة العارض أو مشرف عرض الممالك وظيفة رئيسية ضمن الحكومة المركزية ، وقد اكتسب منصبه أهمية كبيرة ليس فقط لقيادته القوات أحيانا[٧٦]، ولكن لمسئوليته عن تجنيد أفراد الجيش وتدبير تمويل الصرف عليه. وكانت العساكر تعرض بين يديه وهنالك قسى كثيرة ، فإذا أتى من يريد أن يثبت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسى ينزع فيها، وهى متفاوتة فى الشدة والضعف ، فعلى قدر نزعه يتحدد مرتبه . ومن أراد أن يثبت فارسا، فهناك طبل منصوب فيجرى فرسه ويطعنه برمحه . ومن يريد أن يثبت راميا فارسا فهناك كرة موضوعة فى الأرض ، فيجرى فرسه ويرميها ، وعلى قدر ما يظهر من الإصابة يكون مرتبه [٧٧].

ونظرا لخطورة الغزو المغولى الذى كان يتهدد الهند بين لحظة وأخرى مما يتطلب إعادة

تشييد وتقوية القلاع والحصون المواجهة لهم وإعادة تنظيم الجيش على أسس جديدة فقد حاول جعله نظاميا ثابتا ذا رواتب شهرية تدفع له نقدا من الخزانة وإمداده بالخيول الصالحة للقتال ووسمها - وضع علامة عليها- لتمييزها (٧٨).

وقد كان سلاح الفرسان العمود الفقرى للجيش، ولكن خروجا على النظام التقليدى وظلت - قبيل هذا العهد واستمرت على أيام علاء الدين- الفيلة فى قوس ممتد على أرض المعركة إلى جانب جنود المشاة (باياك Payaks) الذين كانوا فى الغالب هنودا . وقد قسمت القوات على نظام عشرى : فسارى عسكر يقود عشرة فرسان، وسبهسالا يقود عشرة سارى خيل ، والأمير يترأس عشرة سبهسالار، والملك يتأمر على عشرة أمراء، والخان يتزعم عشرة ملوك(٧٩).

وقد بلغت عدة الجيش فى ذلك العهد أربعمائة ألف وسبعين ألفا من الفرسان والرجالة ، وعسكر معظمه حول العاصمة دهلى وصينت هذه القوات على الدوام لمواجهة التهديدات(٨٠). وإلى جانب الأسلحة التقليدية استعمل النفط والنار الإغريقية، وكانت السهام الملتهبة والرماح بالإضافة إلى قدور اللهب تقذف نحو العدو (٨١).

أما البريد فقط نظم فى ذلك العهد تنظيماً جيداً للغاية ببلاد الهند وقد كان على صنفين :

بريد الخيل ويسمونه بالتركية «أولاق»(٨٢) وهو خيل للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال . وبريد الرجالة ويكون فى مسافة ميل منه ثلاث رتب ويسمونه «الداوة» وهى ثلث الميل. وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة، وقد شدوا أوساطهم، ومع كل واحد منهم مقرعة بأعلاها جلاجل من نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى . فإذا سمع الرجال الذين فى القباب صوت الجلاجل تأهبوا له، فإذا وصل إليهم أخذ ما معه أحدهم وجرى بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل للداوة الأخرى وهكذا حتى يصل البريد إلى غايته فى سرعة تفوق بريد الخيل (٨٣).

ومن خلال هذا النظام البريدى المسعف كان علاء الدين يظل على اتصال بالجيش عندما يكون متحركًا إلى جهة ما، واعتادت الأخبار الوصول للسلطان مخبرة عن تقدم الجيش واتصال المدد السلطاني المحمول له . وكانت الأخبار السيئة يحظر انتشارها بين الناس أو الجيش(٨٤).

ثالثاً : القضاء :

عرف مجتمع المسلمين بالهند أربعة نظم قضائية ورقابية هي:

ديوان المظالم : يترأسه السلطان أو ممثله ، محاكم القضاة : التي تنفذ الأحكام الشرعية بين الناس وتفصل في خصوماتهم ، المحتسبون : الذين يراقبون الحفاظ على الأخلاق القواعد والأعراف والنظم العامة والشعائر الإسلامية ، ورجال الشرطة(٨٥).

وكان لكل ولاية قاضيها الذى يتبع قاضى القضاة الملازم لحضرة السلطان، ويلقبونه «صدر جهان» . وبالرغم من شهرة السلطان علاء الدين بالقسوة والوحشية . إلا أن ذلك لم يمنع بعض رجال القضاة من الجهر بالحق فى وجهه وقد مر بنا نموذج القاضى مغيث الدين الذى لم يخش نقد تصرفاته . كما شجع الضغط النسبى للرأى العام- نظراً لمكانة القضاة ورجال الدين الملتزمين فى المجتمع الإسلامى- أمانة واستقلال القضاء.

الأوضاع الاجتماعية : «عناصر المجتمع وطبقاته وأديانه ومذاهبه»

تمثلت عناصر المجتمع الهندى فى ذلك الوقت فى:

أ) الدراوريون والتمول: أقدم من سكن الهند فى التاريخ المعروف ، ومنهم أغلب سكان الهند اليوم. وترجع أصولهم إلى اختلاط أجناس حامية سوداء قطنت الغابات مع موجات تورانية وافدة من أواسط أسيا .

ب) الآريون : قدموا فى موجات متتالية من الشمال الغربى فاكتسحت أمامها العنصر السابق الذى توغل جنوبياً وتمركز فى الدكن بينما غلب الآريون على الهندستان فى الشمال .

ج) العرب : وصلوا إلى سواحلها مبكراً قبل الإسلام للتجارة وتمركزت جاليات منهم بموانيها ، وازداد عددهم بتوغلهم فى أطرافها الشمالية الغربية مع موجة الفتوحات الإسلامية الأولى على أيام الراشدين ثم الأمويين .

د) الترك : دخلوا إليها فى موجات كثيفة متتابعة مع فتوحات الغزنويين الترك فى الهندستان ثم حكموها نيابة عن الغوريين ثم استقلوا بها مكونين أسر تركية حاكمة متتابعة كالمماليك والخلجيين- على أرجح الآراء- وغيرهم .

هـ) الأفغان : تطرقوا إليها فى ركاب الفاتحين من العرب والترك وحكم فيها بعضهم هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى كثيرة قليلة الشأن بالمجتمع الهندى فى ذلك الوقت (٨٧).

ورغم هيمنة العنصر التركي على الحياة السياسية والعسكرية بالهند في تلك الآونة إلا أنه يبدو أن السلطان علاء الدين لم يكن يسمح بنفوذ قوى للعشيرة أو الأسرة في اختياره لقواده ورجاله ، وقد كان كافور أشهر قواده من غير العنصر التركي[٨٨].

وقديمًا خاف البراهمة الآريون مغبة اختلاط قومهم بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات الذي يعبر عنه أحد رجال الهند في الوقت الحاضر [٨٩]. بقوله : «أما نظام الطبقات فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشدة قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينيًا ومدنياً، وخضعت له آلافًا من السنين ولاتزال» وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي ... بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها . وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفقت عليه البلاد وأصبح قانونًا رسميًا ومرجعًا دينيًا في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ «منوشاستر»

وقد قسم هذا القانون أهل الهند إلى طبقات هي:

١) **البراهمة** : وهم رجال الدين الهندوسي الآريين .

٢) **الشترى**: وهي تلي الطبقة السابقة وتتكون من النبلاء الفرسان المحاربين قادة الجيوش.

٣) **الويش** : وهم التجار وأرباب الأموال .

٤) **الشودرا** : وتنتظم الزراع والصناع والحرفيين.

٥) **الباريا أو المنبوذون** : وهم أحط طبقات المجتمع الهندي وهم أصحاب المهن الوضيعة ، والعبيد وأسرى الحرب ... إلخ [٩٠].

ولاشك أن مجتمع المسلمين بالهند قد تجاوز هذا النظام الطبقي المقيت الذي ظل متحكمًا في البيئات الهندوسية .

وقد كانت الهندوسيه أو الهندوكية [٩١]. في ذلك العهد- وما تزال- صاحبة الأغلبية في شبه القارة الهندية . وفيها تمثلت تقاليد الهنادك وعاداتهم وأخلاقهم ، وقد أطلق عليها البرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما Brahma وهو القوة السحرية العظيمة الكامنة التي تتطلب كثيراً من العبادات والطقوس كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم

القرابين . ومن براهما اشتقت كلمة «البراهمة» لتكون علما على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم متصلين فى طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة . ويقدس الهنادك قوى الطبيعة وعناصرها المختلفة حتى مجارى الأنهار وخاصة نهر الكنج الذى يحجون إليه ويذرون فى مياهه رماد جثث موتاهم بعد حرقها (٩٢).

ومثل المسلمون – وما يزالون– الطائفة الدينية الثانية. ويبدو أن الطائفتين قد عاشتا منفصلتين غير ممتزجتين فى الممارسات والأحوال المعيشية فى كثير من بلاد الهند ، يصور ذلك قول ابن بطوطة واصفاً رحلته عبر طريق بساحل المليبار: «والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار ، وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر . وعند كل بيت منها بئر يشرب منها، ورجل كافر موكل بها، فمن كان كافراً سقاه فى الأواني، ومن كان مسلماً سقاه فى يديه ، ولايزال يصب له حتى يشير له أن يكف . وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولايطعم فى آنيتهم، فإن طعم فيها كسروها أو أعطوها المسلمين، وإذا دخل المسلم موضعاً منها لايكون فيه دار للمسلمين ، وطبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الأدام ، وما فضل عنه تأكله الكلاب أو الطير(٩٣).

ورغم اشتغال علاء الدين بالأغراض الدنيوية وانشغاله بها وعدم تعويله على الأغراض الدينية كثيراً ، إلا أن التحول إلى الإسلام قد شجع ، كما استنت فى ذلك الوقت عادة تقديم الشخص الذى أسلم حديثًا إلى السلطان– كما يروى ابن بطوطة– الذى كان يكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره (٩٤). وقد اعتنق أخر حكام إقليم مالوه الهنادكة الإسلام على أيدى الخلجيين(٩٥). وكذا حاكم كشمير ولم يترك الدعاة بقعة من الهند إلا دخلوها بدءا بالسواحل حتى قلب هضبة الدكن(٩٦).

وقد أقبل عدد كبير من الهنادكة على الدخول فى الإسلام طواعية فلم يكن سيف الفتح ولاعوامل أخرى كالتخلص من الجزية– التى يدفع المسلم الزكاة فى مقابلها– هما السبب فى هذا الإقبال باعتراف بعض مؤرخى الغرب بل بعض المؤرخين من الهنود أنفسهم– بل كان التعليم والإقناع والقدوة العملية هى وسائل الدعاة المسالمين الفعالة فى هذا المحيط الهندوسى الفسيح ، ولم يكن ما تعرض له غير المسلمين من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية عارضة(٩٧).

ورغم هذا الإقبال وتلك الجهود ورغم أن الإسلام قد تطرق لأطراف هذه البلاد مبكراً - منذ عهد الخلفاء الراشدين- ، وظل يتوغل حتى عمها نفوذ المسلمين السياسى والعسكرى أيام علاء الدين الخلجي، رغم كل هذا ما يزال التساؤل قائما: لماذا لم يغمر الإسلام الهند ويصير المسلمون أغلبية فيها كما حدث فى كثير من البلدان والأقطار التى دخلها الإسلام ؟ صحيح أن المسلمين صاروا - فى ذلك الوقت وما زالوا إلى الآن- أقلية ضخمة ولكنهم لم يتحولوا قط إلى أغلبية فى شبه القارة الهندية .

بل الأغرب من ذلك أن المرء كان يتوقع تركز انتشار الإسلام فى المناطق التى ترسخ فيها سلطان المسلمين السياسى، لكن الواقع - وبغض النظر عن الشمال الغربى- حيث باكستان الآن- والشمال الشرقى - حيث بنجلاديش الآن- اللذان تركز فيها جهد الدعاة والمتصوفة وتمركزت جماعات المسلمين القارة أمام ضغط المغول، بغض النظر عن ذلك، فإن نسبة انتشار الإسلام فى الهندوستان- فى الشمال- حيث معاقل قوة المسلمين سياسياً وعسكرياً حول العاصمة دهلى، منخفضة قياساً على نسبة انتشاره فى الجنوب فى ساحل المليبار مثلا حيث لم يرسخ سلطان المسلمين كما فى الشمال. وقد تخف جدة الغرابة فى هذا إذا عرفنا أن انتشار الإسلام فى أطراف الشمال كان امتداد طبيعياً مباشراً لكتلة الإسلام المتصلة فى غرب أسيا حتى حدود شبه القارة الهندية أما الجنوب فقد جاءه الإسلام عن طريق البحر على يد التجار فى الغالب(٩٨). ورغم كل هذا نعود فنكرر التساؤل : لماذا لم يصر للإسلام الأغلبية فى شبه القارة الهندية ؟

يعلل لذلك كثير من الباحثين بأسباب وجيهة تتلخص فى أن الذين قدموا الإسلام لهذه البلاد فى الغالب، إما تجار أو فاتحون عسكريون وكلتا الطائفتين قليلتا البضاعة من الفقه والفكر الإسلامى ولم تصحبها جماعات من العلماء الدعاة بالقدر الكافى، بالإضافة إلى أن هؤلاء الفاتحين العسكريين كانوا أحياناً قدوة غير حسنة بلجوئهم للعنف والتدمير وتنازعهم ونهمهم فى جمع الغنائم. كما أن هذه البلاد كانت الهندوسية قد هيمنت عليها من قديم وتأصلت فى نفوس أهلها وشبوا عليها وباشروا طقوسها (٩٩).

وختاماً للحديث عن طوائف المجتمع الهندى فى ذلك الوقت يجدر أن نذكر أنه لم يمارس تمييز يذكر بين رعايا السلطان علاء الدين، وربما يمكن القول بأن الرعية المسلمة شعرت بارتياح كبير مع حكمه، ولم يكن لدى الطبقات الدنيا من غير المسلمين ما تشكو منه تجاه حكمه القاسى العادل، إذ كان أقرب إلى صنف المستبد العادل من الحكام(١٠٠).

خامساً الأحوال الاقتصادية :

أ- الزراعة :

بالهند مناطق واسعة خصيبة ترويها أنهار عديدة أهمها نهر السند الذي يروي السند والبنجاب في غرب الهندستان، والكنج وجمنا اللذان يرويان في الشرق منطقة الدواب- أرض ما بين النهرين المذكورين ، وهي المعد الأول لمالية السلطان ومصدر الدخل الرئيسي للدولة. وأعظم مناطق الهند حيوية وخصوبة ، ومناطق أخرى غيرها(١٠١).

وكانت الأرض مقسمة على كور كبيرة يلي كل كورة أمير يسمونه إقطاع دار ينوب عن السلطان فيها ويرفع إليه ما يتحصل منها من أموال، وكل كورة بدورها مقسمة لعمالات عليها أمير يسمى المقطع (١٠٢).

وقد كان الهنود - كما يروى ابن بطوطة - يزرعون مرتين في السنة :

عند نزول المطر في أوان القيظ يزرعون الزرع الخريفي ويحصدونه بعد ستين يوماً فإذا حصدوا زرعوا المحاصيل الربيعية المعروفة كالقمح والشعير والحمص ويزرعون أيضاً الأرز في البنغال والقطن والكروم في الكجرات والبطيخ في سيوستان ومن فواكههم أيضا النبق والمانجو والنارنج والرمان(١٠٣) وكان علاء الدين أول من أنشأ البساتين تقريباً فقد أسس ثلاثين حديقة بدهلي وملأها بالرياحين والفواكه والأشجار المثمرة (١٠٤).

ونظراً لإصلاحات علاء الدين الاقتصادية ، وعنايته بالزراعة عناية فائقة وهمته في ضبط الأسعار في بلاده الواسعة توفرت الأقوات وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء- مخازن- الحبوب التي أقامها علاء الدين بدهلي والتي ما برحت تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التي كانت تجتاح الهند حينما تنحبس الأمطار وتقوم الخانقاوت - رباطات الصوفية - والمطابخ السلطانية المنتشرة في أنحاء البلاد بإطعام الأهلين في هذه الأزمات(١٠٥).

ب) التجارة :

تعددت طرق التجارة الداخلية بالهند وربطت بين أجزائها وأطرافها المختلفة، وسلكتها إلى جانب الجيوش الضخمة قوافل التجار والحجاج المسافرين الهندوس والمسلمين، ومنها : طريق يخرج من قنوج(١٠٦) في قلب الهندستان في الشمال ويصل إلى بنواسى على الساحل

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الحادى عشر - المجلد الأول

مارس - ٢٠٠٣م

منشورات اتحاد



القاهـــرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الحادى عشر - المجلد الأول

مارس - ٢٠٠٣م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى فى :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - عمـــارات شركــة الخليــج

تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلة

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

* تصدر مؤقتا سنوياً فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

* لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

* تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

*****

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدواني - الحي الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - ٢٨٧٠٠٩١ - فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويـــــــــات

كلمة الافتتاح

إذا أخذنا بالرأى القائل فى تعريف التاريخ بأنه العلم الذى يتتبع سيرة الإنسان على مر العصور بدئًا بهبوط آدم وحواء على سطح الأرض وحتى الأيام التى يعيشها المؤرخ ، فإننا نجد أنفسنا أمام مهمة صعبة ربما يتعذر القيام بها على الوجه الأكمل . ذلك أن التاريخ البشرى يشكل دائرة واسعة كبيرة ، أشبه بحلقات متداخلة مليئة بالأحداث ، كل حلقة لها أجواؤها وظروف وجودها وأثرها فى مسيرة الكون ، لأن الله عز وجل لم يخلق الكون ليربطه مخلوقاته فى مكان محدد ، وإنما خلق الأرض ومن عليها وأعدها لتكون ساحة يتحرك عليها مخلوقاته ويتكاثرون فوق سطحها على أشكال شتى إنسان وحيوان ، ذكور وإناث ، شعوب وقبائل،كبير وصغير ، غنى وفقير ، قوى وضعيف ، حاكم ومحكوم .. وترك لكل جماعة قدراً مرسوماً من متاع الحياة الدنيا ....

ويعنينا فى مجال التاريخ أن تطور الإنسان ونقلته من مرحلة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر جاءت تدريجية ومحكمة . حسبه أنه مزود بعقل يحكمه فى حركاته وسكناته ويرجع إليه فى التمييز بين الخبيث والطيب .

وهكذا مضت مسيرة الإنسان خطوة بعد أخرى ، ولكل خطوة حسناتها وسيئاتها : التاريخ يسجل ، والله عز وجل يثبت فى أم الكتاب ، ويثيب ويعاقب .

وفى إطار هذه المسيرة حفل التاريخ بالخير والشر ، والبناء والهدم وترك لكل جيل من الأجيال المتعاقبة مهمة تسجيل ما يسمعه ويراه ، وما يحب أو يكره سمعه ورؤياه .

اللهم إنا نسألك الهدى والهداية ، وأن نكون خير عون فيما ذهبنا إليه فى دراسة التاريخ

أستاذ دكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور

أ.د. علاء الدين عبد المحسن شاهين (*)

التأثيرات الحضارية بين مصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية في العصر الحديدي : دراسة نقدية

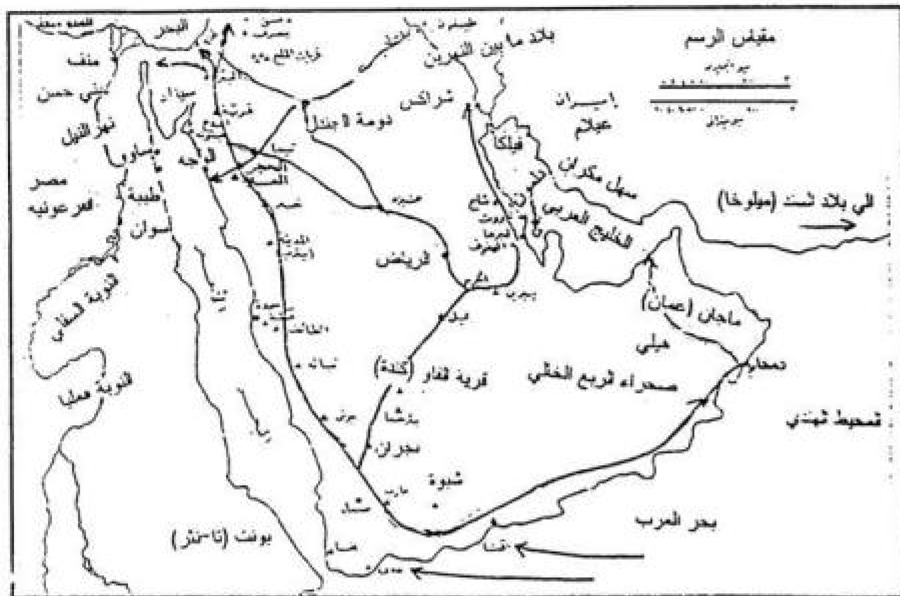
تمهيد:

يتبادر إلى الذهن تساؤلات حول مدى التأثيرات الحضارية المتبادلة بين مصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية ومتى نشأت وماهية الطرق التى انتقلت عبرها والدلائل الأثرية على وجودها مما كان دافعًا وراء هذه الدراسة بحثًا عن إجابة لها تدعيمًا أو نفيًا أو ترجيحًا خلال العصر الحديدى خلال الألف الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد .

وتعكس البقايا الأثرية المبكرة من عصور ما قبل التاريخ احتمالية اتصالات لشبه الجزيرة العربية مع مصر الفرعونية خاصة من العصر الخالكوليثى (الحجرى - النحاسى) من منتصف الألف الخامس قبل الميلاد وما تلى إلى الألف الثالث قبل الميلاد تجسدت فى بعض التأثيرات السامية (الأسيوية) الحضارية المرجحة فى بعض أنماط الفخار وبعض موضوعات فنون النحت على تلك الصلايات التذكارية خاصة مقبض سكين جبل العرقى وفى بعض الرسومات المنقولة عن الأختام الأسطوانية المميزة لحضارة بلاد ما بين النهرين وما قد يرتبط بنور حواف شمال وشمال غرب شبه الجزيرة فى حركة النقل لتلك التأثيرات الحضارية إلى وادى النيل (خريطة ١)(١) .

---

* كلية الآثار - جامعة القاهرة .

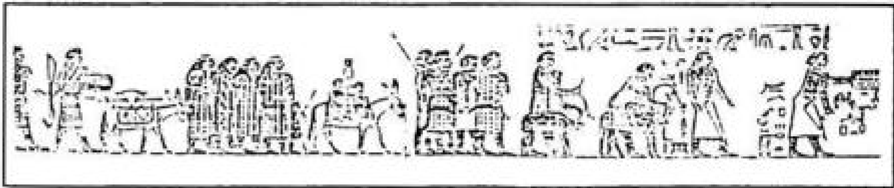


خريطة (١) : أهم لمواقع الأثرية وخطوط التجارة فى شبه الجزيرة العربية

وبغض النظر عن منطقة الساحل الغربى فإن الخريطة الأثرية لشبه الجزيرة العربية خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد تبدو خالية من الدلائل على مراكز حضارية للإنسان بالمكان[٢]. ويبدو أن التغيير المناخي والجفاف المتزايد بشبه الجزيرة العربية بدءًا من العصر النيوليثى (الحجري الحديث) فى الألف السادس قبل الميلاد لعب دورًا هامًا فى الفراغ البشرى إلى أواخر العصر البرونزى الحديث بصفة أساسية فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد إلى فجر الألف الأول قبل الميلاد . وإذا كانت الدلائل الأثرية فى مناطق الداخل من شبه الجزيرة العربية مازالت ناقصة ولم تكشف مواقعها عما قد تحتويه من آثار مرجحة لمجموعات بشرية قد تكون مازالت بالمكان أو عبره فإن المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية فى بعض مراكز الساحل الغربى من الخليج العربى كانت الصورة بها نسبيًا مختلفة على الأقل من أواخر الألف الثالث قبل الميلاد إلى فجر الألف الثانى قبل الميلاد حيث عكست البقايا الأثرية المكتشفة بالمكان عن ملامح لما يعرف محليًا بالحضارة الدلونية عثر بين آثارها على ما اعتقده بعض الباحثين آثارًا ممصرة رجحت تأثرًا محتملاً فى الشكل والتنفيذ مع مثيلاتها من الحضارة المصرية القديمة خاصة النمط المصرى المعروف بهيئة الجعل (الجعران) من جزيرة

فيلكا الكويتية والبحرين بصفة رئيسية ، وطريقة التنفيذ لنماذج من النحت لبعض التماثيل أو في طريقة التنفيذ المعمارية لبعض المنشآت الدينية خاصة ما يعرف باسم معابد باربار البحرين أو تلك الأواني المرمرية المكتشفة في جزيرة البحرين ، وإن ظلت إمكانية الاتصال الحضاري، المباشر لمصر الفرعونية ومنطقة الساحل الغربي من الخليج العربي غير مرجحة للبعد الجغرافي بين المكانين ولانعدام الدوافع الاقتصادية المرجحة لمثل هذا الاتصال ولعدم وجود ضغوط بشرية أو غير مباشرة من قبل أهل تلك الحضارة تجاه الحضارة الفرعونية مما جعل الدليل على أي احتكاك عدائي بينهما معدوماً (٣).

وتبدو خلال مرحلة أوائل الألف الثاني قبل الميلاد الموازي تقريباً للعصر البرونزي الوسيط بدورية الأول والثاني MBI-II (٢٠٦٠ – ١٧٠٠ق.م) وللدولة الوسطى والنقلة إلي عصر الانتقال الثاني (مرحلة الهكسوس) في التاريخ الفرعوني القديم احتمالية مرجحة لعلاقات لمجموعة بشرية على أطراف شمال غرب شبه الجزيرة العربية تجسد في وصول ٣٧ أسيوي (عامو C3mw) من الأموريين / الكنعانيين بإشراف حاكم الأرض الأجنبية (أو الصحراوية H3st) المدعو ابشا Ibš3 ضمن مناظر مقبرة حاكم إقليم الوعل (بني حسن بمحافظة المنيا الحالية بوسط صعيد مصر) ، المدعو " خنم حتب " Hnm-htp خلال فترة حكم سنوسرت الثاني من الأسرة الثانية عشرة المصرية قادمين من منطقة جغرافية تضمنتها النصوص المصرية المصاحبة باسم " شوت " Šwt حاملون منتجاتهم معهم وعاكسين ملامح حضارتهم مما يرجح معه احتمالية تواجد بشري متنقل حول حواف شمال غرب شبه الجزيرة العربية (شكل ١)(٤)، إلى ما يوازي حالياً المنطقة الجنوبية من المملكة الأردنية الهاشمية في ضوء ترجيح دراسة د. عبد العزيز صالح احتمالية تطابق موقع شوت من أرض مؤاب (٥)، وبالمثل في اتفاق مع ما نادى به " نجف " Negev من إمكانية تطابق شوت Šwt (Sheth) التي أوردتها قوائم نصوص اللعنة مع أرض مؤاب (٦).



شكل (١) : المجموعات الآسيوية من مقبرة خنوم حتب ، بني حسن

عصر الدولة الوسطى / العصر البرونزي الوسيط

ودعم مثل ذلك الرأى " مندنهل " Mendenhall باعتبار أن هؤلاء الأسيويين المصورين فى مقبرة خنوم حتب ليسوا سوى الأسلاف المبكرين لملكة مدين التى كانت لها السيطرة تحت ملكها خلال عصر موسى عليه السلام وغطت مساحة جغرافية شملت المنطقة حول خليج العقبة حتى واحة البدع شمال غرب السعودية وإلى الساحل الغربى من خليج العقبة حتى منتصف وجنوب شبه جزيرة سيناء المصرية (٧)، وإن ظلت أهمية مثل ذلك التطابق لأرض شوت ومؤاب لا يعكس بالضرورة ارتباطاً بتلك المجموعات البشرية المرجح ارتباطها بمناطق شمال غرب شبه الجزيرة العربية فى ضوء ما نعرفه عن الامتداد الجغرافى لملكة شوت / مؤاب فى الإطار الجغرافى للمملكة الأردنية خلال أواخر العصر البرونزى المتأخر إلى العصر الحديدى(٨).

وخلال مرحلة العصر البرونزى الوسيط فى دوره الثالث MB III (١٦٥٠ - ١٥٥٠ق.م) الموازى تقريباً لعصر الانتقال الثانى (مرحلة الهكسوس) فى التاريخ الفرعونى إلى أوائل العصر البرونزى الحديث (١٥٥٠ - ١٢٠٠ق.م) الموازى تقريباً لعصر الدولة الحديثة وأوج الحضارة الفرعونية لا تتضح لنا دلائل أثرية ترجح علاقات لشبه الجزيرة العربية مع الحضارة الفرعونية بالرغم مما ذهب إليه البعض من ترجيح لمثل تلك العلاقات (٩). وبالرغم مما كشفت عنه أعمال التنقيب الأثرى الأخيرة فى مراكز الحضارات فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية خلال العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى التى رجحت تجمعات بشرية لها حضارتها المحلية فإن تلك البقايا مع ملاحظة قلة عددها والنشر العلمى لها لم ترجح تأثيرات أجنبية حضارية لها ، ولم تعكس اتصالات لتلك المجموعات البشرية مع مراكز حضارية أخرى مجاورة لها خاصة منطقتى بلاد ما بين النهرين ووادى النيل (١٠). وعلى أى حال فإن ظهور اسم تلك المجموعة البشرية فى النصوص المصرية للفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) من الأسرة الثامنة عشر فى شكل جنبتيو Gnbtyw وما حملوه معهم من منتجات / هدايا (Inw) من الكندر واللبان والمر (البخور / العنتيو Cntyw) والراتنج يعكس احتمالية بدء التواجد البشرى بالمكان وإن ظلت حقيقة واضحة فى طريقة تدوين المصريين لاسمهم تحت مخصص البشر وليس مخصص الأرض مما يعنى عدم معرفة المصريين لمكان ثابت لهم ووطن محدد لهم ذات أهمية فى ضوء ما رجحته دراسة د. عبد العزيز صالح فى الربط بينهم من بعد وبين الجبناتيين (قطبان) المذكورين فى الكتابات الكلاسيكية والحضارة القتبانية المعروفة كأحد أهم الحضارات اليمنية القديمة فى الألف الأول قبل الميلاد (١١).

العلاقات الحضارية لمصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية فى الألف الأول ق.م:

شهدت مرحلة الألف الأول ق.م نشأة العديد من المراكز الحضارية على امتداد المنطقة للساحل الشرقى من البحر الأحمر خاصة شمال غرب شبه الجزيرة العربية (الحجاز) وجنوب غرب شبه الجزيرة العربية (اليمن) ربما فى ارتباط بمعرفة إنسان المكان لتدجين (استئناس) الجمل والاستفادة من ذلك فى تدشين خطوط تجارية برية لعل من بين أشهرها ما ربط بين بلاد الشام شمالاً واليمن جنوبًا على امتداد الساحل الشرقى من البحر الأحمر وما ارتبط بذلك من قدرة على تسويق أهم منتجات مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية من البخور واللبان والمر والكندر باعتبارها " الذهب الأبيض " لاقتصاديات المكان فى ذلك الزمان بالمقارنة مع الذهب الأسود (البترول) حاليًا ، وبالمثل فى مرحلة متأخرة من النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد فى استخدامه للطرق البحرية خاصة وما ارتبط بذلك من أهمية قصوى لمينائى " قنا " (بير على أو حصن أبو غراب) من الحضارة الحضرمية و " الوجه " على الساحل الشرقى من البحر الأحمر لحضارتى العلا (الحجر) ومدائن صالح (دادان) بصفة رئيسية (خريطة ١)(١٢).

كما شهدت المنطقة أيضًا معرفة إنسان المكان لكيفية الاستفادة من الموارد المائية الناجمة عن سقوط الأمطار خاصة باليمن على مدار الفصلين ، وتشييد السدود لعل من بين أشهرها سد مأرب ، ومعرفة نظام الأفلاج وبناء الخزانات والصهاريج لحفظ المياه والاستفادة من حواف الجبال لزراعتها فيما يعرف محليًا باسم الجلول أو الاستفادة من ترسيب الطمى على مجارى الأودية الزراعية العديدة بالمكان خاصة وديان ذبيان وأذنة وحضرموت وبعض مناطق الواحات خاصة تيماء والعلا والجوف فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية(١٣). وحفظت لنا النصوص من الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية خاصة بلاد ما بين النهرين ومصر الفرعونية أسماء مرجحة لبعض تلك المجموعات البشرية فى شبه الجزيرة العربية تتطابق على وجه الاحتمال معها خاصة من العصر البرونزى الحديث (المتأخر) إلى العصر الحديدى بصفة رئيسية كان من بينها مثلما سلفت الإشارة الجنبتيو Gnbtyw = القطبانيين والخبستيو Hbstyw = حبشات إحدى القبائل اليمنية بالمكان وعرب أو عريبى Cr(b)/ Cribi أو الأعراب من النصوص الأشورية ومن بعد بصفة مرجحة فى النصوص الفرعونية كصفة ملازمة لأعراب المكان أو البدو فى مناطق حواف شمال وشمال غرب شبه الجزيرة العربية (١٤). وعكست لنا بعض المكتشفات الأثرية من بعض مراكز حضارات شمال غرب وجنوب غرب شبه الجزيرة

العربية وعلى امتداد خط التجارة البرى الرئيسى الواصل ما بين بلاد الشام واليمن تأثيرات حضارية مرجحة لمصر الفرعونية بصفة رئيسية فى العصر الفرعونى ومن بعد خلال العصر البطلمى / الرومانى على المكان خاصة فى مجال اللغة والعقيدة والعمارة والفخاريات والتماثيل بصفة رئيسية مما سوف نتناوله تالياً فيما يختص بالمرحلة الزمنية المرتبطة بالبحث بمزيد من الدراسة والتفصيل .

ومن المعروف فى مجال الدراسات اللغوية المرتبطة باللغة / الكتابة العربية أن الخط المسند تكون من ٢٩ حرفاً : ٢٨ حرف عربى بالإضافة إلى حرف السين الثانى المقتبس من الأبجدية المكتشفة فى سرابيط الخادم بشبه جزيرة سيناء المصرية التى يرجع البعض من الباحثين أنها الأصل للأبجدية الفينيقية / الأوجاريتية (١٥)، وأنها أيضاً محورة عن الخط المصرى القديم ، وأن تلك الكتابة البروتوسينائية Proto-Sinaitic Inscriptions تتشابه مع تلك المدونة على حجر مدين ، وأن تلك الكتابة على حجر مدين تتشابه بدورها مع الكتابات الثمودية والكتابة العربية الجنوبية مما دعى بعض الباحثين ومن بينهم د. عبد المنعم عبد الحليم سيد إلى تأكيد مثل ذلك الاتصال والتشابه اللغوى بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية الجنوبية ، وأن هناك العديد من مظاهر الاشتراك بين اللغة المصرية واللغة العربية الجنوبية خاصة وجود حرف العين بين حروفها وشيوع المصدر الثلاثى بين أفعالها ، وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها ، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض أسمائها وصفاتها المؤنثة (١٦)، وفى المحافظة على الخصائص العامة للكتابة البروتوسينائية ومنها الاتجاه الرأسى للكتابة ووجود العلامات المزدوجة والاتجاه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين (شكل ٢) (١٧).

ويلاحظ فى مجال العقيدة التشابة أيضاً فى استخدام الرموز الدينية : الهلال الأفقى للدلالة على القمر وقرص الشمس المشع للدلالة على إله الشمس والنجمة للدلالة على الزهرة فى الارتباط للآلهة المصرية واليمنية القديمة بصفة خاصة ، وفى الإشارة إلى أصول مشتركة مرجحة لبعض الآلهة المصرية مع آلهة جنوبية خاصة ما ارتبط بالإله حورس (الصقر) Hr وترجيح ارتباط أصله اللغوى باللغة العربية الجنوبية والإله مين Min المرجح تشابهه مع الإله الموقه السبئى وربما أيضاً الإله بس (١٨)، وإن رجحت غالبية آراء الباحثين فيما يرتبط بالإله بس أصولاً أفريقية له (١٩). وقد عثر على قطة برونزية من الآثار السبئية محفوظة فى متحف فيينا نشرها جروهمان A.Grohmann تمثل الإله بس جالساً بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه مما يعكس التمازج فى التصوير بين شكل الإله المصرى والرموز المحلية للعقائد اليمنية القديمة بالمكان (٢٠).

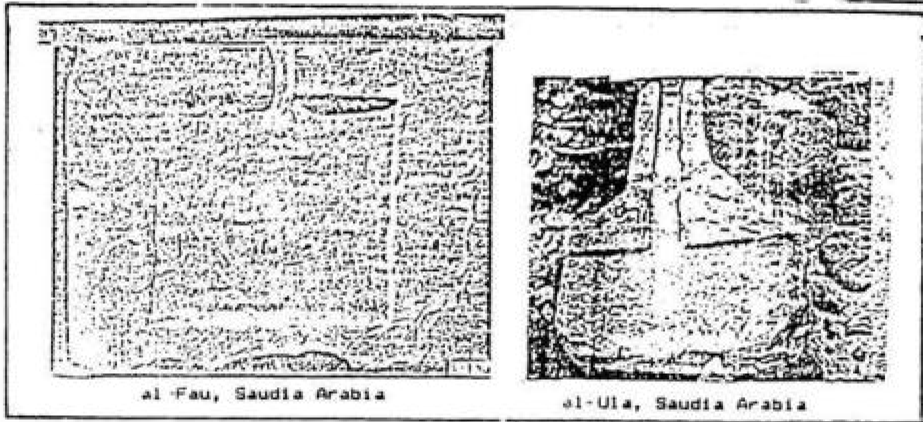
شكل (٢) : الخطوط العربية القديمة

كما يرجع أيضاً شكلاً آخر من أشكال التأثير المصرى الحضارى المرجح بين حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ومصر الفرعونية فى ضوء ما أبانت عنه بعض أعمال الكشف الأثرى فى العقود الثلاث الأخيرة من القرن العشرين الميلادى من وجود " دفنات " جنائزية بهيئة قبور صخرية وأضرحة حجرية خاصة تلك المجموعة من القبور فى شبام (الغراس) التى اشتملت على ودائع هامة محنطة محفوظة حالياً فى متحف جامعة صنعاء مؤرخة تقريباً من النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد مثلما يذهب إلى ذلك جان كلود رو ربما تتشابه فى طريقة التنفيذ جزئياً مع مثيلاتها من الحضارة الفرعونية وإن لم تتضح لنا من خلال النصوص اليمنية القديمة إلى القرن الثالث قبل الميلاد مدى وجود مفهوم " البعث والخلود " المعروف عن العقيدة المصرية القديمة بين أهل المكان آنذاك فى ارتباط بنهجهم للحفاظ على الجسد للمتوفى فى حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (٢١).

كما أن ما أبانت عنه أعمال التنقيب الأثرى فى صرواح ، العاصمة السبئية من وجود "حوض للمياه " قائم الزوايا ومحاط بأعمدة بعضها مثمن وبعضها ذو ستة عشر ضلعاً داخل

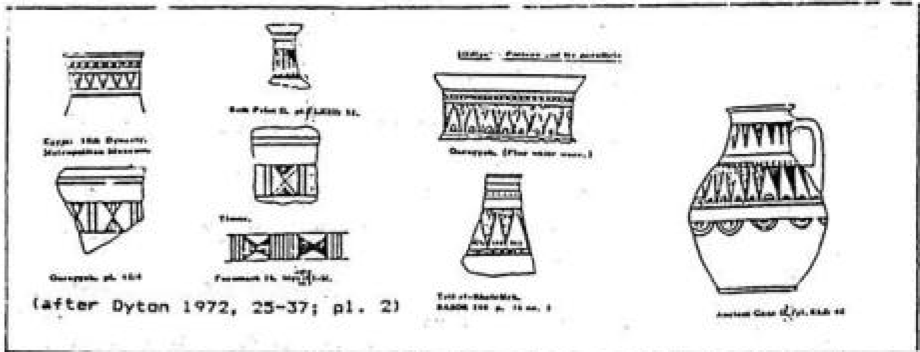
حرم المعبد للإله القمرى بالمكان ما قد يرجح معه تشابه مع الحضارة المصرية بالرغم من ندرة وجود مثل ذلك النمط في المعابد المصرية فيما عدا ما رجحه د. عبد المنعم عبد الحليم سيد من العثور على مثل ذلك النمط أمام مدخل معبد أبى صير من الأسرة الخامسة الفرعونية(؟)(٢٢).

إضافة إلى ذلك عثر على شكل مقلد لنمط موائد القربان المصرية بهيئة مربعة الشكل من الحجر وبها رسوم محفورة لأنواع الأطعمة وأواني الشرب وفي وسطها تجويف يبرز من أحد جوانبها على شكل مجرى لتصريف السوائل خاصة ما عثر عليه في مأرب ومن السوداء (الجوف) من نهاية القرن الثامن ق.م من المرمر البالغ ارتفاعها ١٨ سم وطولها ٤٧ سم (متحف صنعاء)(٢٣) ومن موقع العلا(٢٤) ومن الفاو (مملكة كنده) من المملكة العربية السعودية (شكل٣) (٢٥).



شكل (٣) : موائد القربان من حضارات شبه الجزيرة العربية

كما عثر بين أنقاض تمنه حوالى ١٥ ميل شمال خليج العقبة على أنماط فخارية من الطراز الميديناتي المنتمى إلى حضارة مدين والتى كان لها استناداً إلى الآثار والنصوص علاقات مع مصر الفرعونية خلال العصر البرونزى المتأخر / عصر الرعامسة بصفة أساسية يتشابه مع مثيله من الأنماط الفخارية لمصر الفرعونية (شكل ٤) (٢٦).



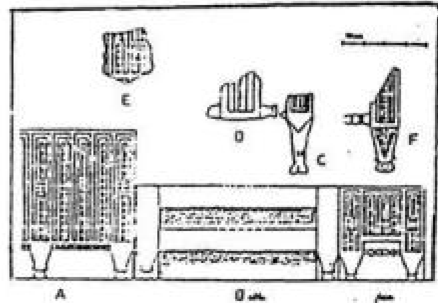
شكل (٤) : أنماط فخارية من حضارة مدين ، العصر البرونزى المتأخر

وبفحص البقايا للأنماط الفخارية المنشورة من مواقع شبه الجزيرة العربية يتضح لنا غلبة الأنماط المحلية عليها فى الصنعة والأشكال وندرة التقليد لأنماط أجنبية الأصل اللهم فيما التأثيرات العبيدية المبكرة من بلاد ما بين النهرين والسندية من حضارة موهنجدارو وهارابا خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ثم من بعد الأنماط الكاشية والبارثيانية خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد فى مراكز الساحل الغربى من الخليج العربى (٢٧)، ثم فى الداخل وبعض مناطق شمال غرب وجنوب غرب شبه الجزيرة العربية لأنماط ميسينية الأصل من النمط المعروف باسم زمزمية الحاج Pilgrim flask مثلما عثر عليه بين أنقاض قرية الفاو بصفة أساسية المرجح تاريخها من القرن الثالث قبل الميلاد وما تلى ، وبالمثل فى تشابه بعض أنماط الزخارف للفخار النبطى مع مثيلاتها على الفخار المكتشف من هجر بن حميد اليمنى أو الامتداد الجغرافى الحضارى للحضارة النبطية ذاتها إلى ما يقرب من حائل ومدائن صالح (الحجر) فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية مع الأخذ فى الاعتبار أن فخار الحضارة النبطية لم يعرف إلا منذ حوالى القرن الأول قبل الميلاد (٢٨).

ويرجع عدم العثور على أنماط مصرية من الفخار بمواقع شبه الجزيرة العربية ربما لانعدام المواد الخام المرجح اشتمالها عليها والمصدرة من وادى النيل إليها على العكس مما نعرفه عن العديد من الأنماط الفخارية السورية الطابع (شرق حوض البحر المتوسط) من مواقع الحضارة الفرعونية التى احتوت حين تصديرها إلى مصر الفرعونية على الزيوت والنبيذ المرغوب فيه من مصر بصفة رئيسية (٢٩) . وتتناقض تلك الصورة خلال العصر الهيلينستى خارج الإطار الزمنى لموضوع بحثنا الحالى مثلما أبانت عنه تلك البقايا الأثرية التى كشفت

عنها التنقيب الأثرى للبعثة اليمنية السوفيتية المشتركة فى موقع ميناء قنأ (بير على أو حصن أبو غراب الحالى) من الحضارة الحضرمية فى القرن الأول ق.م. وما تلى خاصة تلك الجرار الفخارية المعروفة لنمط الأمفورا وبالمثل الأوانى الزجاجية الهيلينستية الطابع والمرغوب فيها من مراكز حضارات العالم القديم آنذاك والمصدر من الإسكندرية ، مركز الحضارة البطلمية(٣٠) . وتظل هناك احتمالية ضعيفة أو مرجحة لتأثير حضارى مصرى مع اليمن فى طريقة تنفيذه لشكل مقبض إناء بهيئة الوعل مشابه لمثيله المصرى من منطقة تل بسطة بشرق الدلتا ولكن بشكل الماعز يقفز برجليه الأماميين (٣١).

كما عكست بعض أنماط الأثاث المنزلى احتمالية تأثرات حضارية لمصر الفرعونية وحضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية خاصة تلك القطع الأثرية التى عثر عليها ونشرت من قبل كل من د. أحمد فخرى وأعيد تركيبها ودراستها من قبل برينيه J.Pirenne باعتبارها قاعدة كرسى العرش اليمنى القديم التى حملت تأثيرات مصرية فى شكل ما يعرف باسم واجهة القصر الملكى (السرخ Srh) أو نظام المشكاوات المعمارى السالف الإشارة إليه فى عمارة بلاد ما بين النهرين (شكل٥) . وتكرر مثل ذلك أيضًا على كتلتين حجريتين عثر عليهما فى البيضاء ، مأرب (حوالى ١٧٠×٤٥سم) ، وعلى إحدى المباخر خلال أعمال حفائر البعثة الأمريكية وبالمثل على أحد المباخر المحفوظة حاليًا فى متحف اسطنبول رقم ١٧٧٣ بتركيا(٣٢).

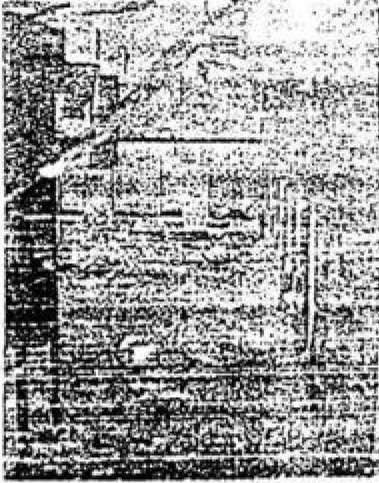


شكل (٥)

واجهة القصر الملكى على كرسى العرش اليمنى

وعكست أنماط المشكاوات (الدخلات والخارجات) Recessed panels على حائط معبد تمنع (هجر كحلان) العاصمة القتبانية شكلاً آخر من أشكال التأثيرات الحضارية المتبادلة لمصر الفرعونية الناقلة عن حضارة بلاد ما بين النهرين لمثل هذا النمط من العمارة القديمة لعل أشهر نماذجها من العمارة الفرعونية سور المجموعة الجنائزية للملك المصرى زوسر (ارى

خت نثر) من الأسرة الثالثة بجبانة سقارة الحالية على مبعدة حوالي عشرين كيلو متر جنوب القاهرة الحالية (شكل ٦) (٣٣).



شكل (٦)

التأثير المعمارى فى طراز المشكاوات من الحضارة الفرعونية : بهو الأعمدة والنوافذ الصماء من معبد الموقة اليمن

كما عثر على نمط مشابه لنمط الأثاث ذى القوائم المستوحى من قوائم البقر المعروف منذ الألف الثالث قبل الميلاد سواء من بلاد النهرين أو مصر الفرعونية وذلك فى قوائم قاعدة العرش المكتشفة في مأرب ، وإن كانت هنا بهيئة قدمي الوعل من المرمر والبالغ ارتفاعها ٤٢ سم وطولها ١٥ سم وبلغت الأخرى ٣٧سم فى الارتفاع و ٢٤ سم في الطول والمعروضة حالياً في متحف صنعاء الوطني مما قد يعكس تأثراً غير مباشر فى طريقة التنفيذ مع مثيلاتها من حضارات الشرق الأدنى القديم (شكل ٧)(٣٤).



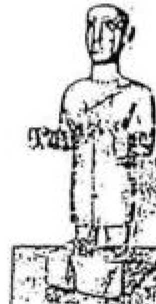
شكل (٧)

قوائم العرش اليمنى بهيئة الوعل

وفى مجال فنون النحت خاصة فيما يتعلق بالتماثيل بهيئة بشرية فإنه من اللافت للنظر أن معظم النماذج الفنية للتماثيل التى عثر عليها من مواقع حضارات شمال غرب وجنوب غرب شبه الجزيرة العربية تعود زمنياً بصفة رئيسية إلى العصر الهيلينستى فى القرن الثالث قبل الميلاد وما تلى من مراحل حضارية خاصة تلك المجموعة الممتازة لأسدى تمنع وتمثال مريم (مريام) وغيرها وعاكسة تأثراً واضحاً بفنون النحت الهيلينستى من مدينة الإسكندرية حاضرة مصر البطلمية وكنتيجة تالية لتزايد الاتصالات البحرية والتجارية نتيجة لحسن الاستغلال الأمثل للاتصالات البحرية عبر قناة سيزوستريس (دارا / فيكاو) المحفورة فى منتصف الألف الأول ق.م. مما أدى لربط البحرين المتوسط والأحمر عبرها ومن خلال أفرع نهر النيل بصفة أساسية (٣٥). كما أن تلك المجموعة من التماثيل التى عثر عليها بين أنقاض المواقع الأثرية فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية من مملكة لحيان ، المستعمرة النبطية أنذاك تعود زمنياً إلى مرحلة متأخرة من الألف الأول ق.م(٣٦). ولعل ندرة ما تمك العثور عليه من فترة زمنية سابقة على فترة الوجود الهيلينستى بين أنقاض المواقع الأثرية من حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بصفة أساسية ومن مواقع شمال غرب شبه الجزيرة العربية جانبية لا يتيح لنا الكشف عن مظاهر التأثر الحضارى المتبادل المحتمل بين شبه الجزيرة العربية ومصر الفرعونية في الفترة الزمنية محل البحث إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وإن ظلت ملامح التأثر للمدرسة الهيلينستية لفنون النحت بالقواعد النمطية لفنون النحت من مصر الفرعونية واضحة فى طريقة التنفيذ خاصة ما يعرف بتزجيج العيون وإظهار الفتوة والشباب بالمبالغة فى محيط الصدر والرشاقة فى الخصر وفى استقامة اليدين بجوار الجسد أو فى تقدم أحدهما قابضة على علامات شرفية أو فى تقدم القدم اليسرى عن اليمنى (شكل ٨)(٣٧).

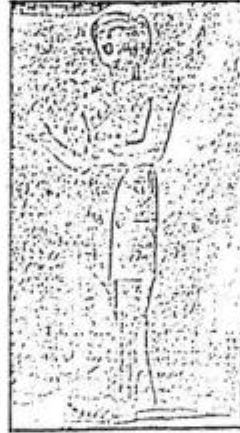






شكل (٨) : نماذج من فنون النحت اليمنية القديمة

ويعكس تمثال معدى كرب الذى عثر عليه بين أنقاض معبد أوام مأرب المؤرخ حوالى القرن الرابع ق.م ضمن أعمال حفريات البعثة الأمريكية فى بدايات الخمسينيات من القرن العشرين الميلادى والمصنوع من البرونز البالغ ارتفاعه ٩٣ سم والمحفوظ حاليًا فى متحف صنعاء الوطنى بعض تلك القواعد الفنية المراعاة فى فنون النحت اليمنى القديم فى تأثر بالمدرسة المصرية من إبراز لمحيط الصدر ونحافة الخصر وتقدم اليد ربما للقبض على علامة الشرف وتقديم القدم اليسرى للأمام عن اليمنى وفى ارتدائه لجلد حيوان ربما الفهد أو الأسد الذى يغطى ظهر التمثال مما يذكرنا بما كان يرتديه بعض الكهنة المصريين خاصة طائفة كهنة : " سم " المكلفون بأداء طقوس جنائزية أمام جثة المتوفى[٣٨] أو مشابه فى رأى آخر لزينة الإله الفينيقى بعل ملقار فى القرن السابع ق.م أو الإله الإغريقى هيراكليس من القرن السادس قبل الميلاد (شكل٩)[٣٩].



شكل (٩)

تمثال معدى كرب نموذجًا

لفنون النحت اليمنى القديم

خاتمة البحث:

وبالنظر إلى تلك الدلائل الأثرية التى رجحنا احتمالية تشابه فى الملامح أو تعبيرًا لانعكاس حضارى متبادل بين المراكز الحضارية فى شبه الجزيرة العربية خاصة فى جنوبها الغربى وشمالها الغربى على التوالى بصفة رئيسية نلاحظ نقاطًا جديرة بإلقاء مزيد من الضوء عليها لعل من بين أهمها أن معظم تلك الدلائل على اتصالات حضارية لا تتضح إلا بدءًا من العصر الحديدى وما تلى خلال الألف الأول قبل الميلاد بصفة أساسية فى ارتباط بظهور تلك المراكز الحضارية اليمنية أو مستوطناتها فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية (الحجاز) فى ارتباط

بما تم لحضارة أهل المكان ومعرفتهم بتدجين الجمل ويقدرتهم على تسويق منتجاتهم المحلية الهامة من البخور . ولعل لذلك التأخير في ظهور بعض التأثيرات الحضارية بين مصر الفرعونية وبعض المراكز الحضارية في شبه الجزيرة العربية إلى الألف الأول قبل الميلاد ما يبرره في ضوء المتاح لدينا من الدلائل الأثرية والنصية في ندرة الوجود البشرى في مراكز الداخل من شبه الجزيرة العربية ذاتها وفي صعوبة الاتصال ذاته براً في ضوء طبيعة المكان الصحراوية وبعدها الجغرافي النسبي عن مصر الفرعونية وفي ضوء عدم توافر المواد الخام التي قد تكون عامل جذب اقتصادى لمصر تغريها بالذهاب إلى المكان في ضوء أن أهم ما كان ينتجه الإقليم أو تحتويه أراضيه تمثل في البخور (العنتيو) وهو ما حصلت عليه مصر من بلاد بونت الأقرب جغرافياً لها والأيسر في الوصول إليها بحرياً في المقام الأول (عبر الملاحة البحرية في مياه البحر الأحمر) واستثنائياً نهرياً عبر نهر النيل جنوبياً وبرياً من بعد في جزء من تلك الرحلة في ضوء قبول معظم الباحثين لموقع بونت في أفريقيا جغرافياً على الأقل إلى النصف الأول قبل الميلاد فيما يشتمل حالياً على الشواطىء الشرقية للسودان وفي أريتريا مع امتداد غربي وصولاً إلى نهر النيل(٤٠)، وفي أن ما تحتويه مناجم شبه الجزيرة العربية من نحاس المعرف من مناجم ماجان (عمان أو سهل مكران الإيراني) كان متوافراً في مناجم مصر ذاتها أو قامت باستيراده من بعد من مناطق نفوذها في حوض البحر المتوسط خاصة آلاشيا (= قبرص) بصفة رئيسية .

وتتزايد ملامح تلك الاتصالات في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد . ولعل السبب في ذلك يعود إلى تزايد حركة الاتصالات بين المركزين الحضاريين وفي وجود وسيلة اتصال ملاحية جديدة بينهما ارتبطت مع حفر قناة دارا / نيكاو ربما رغبة من القوة العالمية الجديدة آنذاك الأخمينية في تيسير الربط بين مستعمراتها خاصة مصر الفرعونية وعبر مناطق الترانزيت في حركة النقل البحرى في منطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، وبالمثل في غلبة الطابع الاقتصادى على العلاقات المصرية العربية القديمة في ضوء عدم وجود أي إشارات نصية عكس ذلك ، وأن مثل تلك التأثيرات الحضارية المرجحة بين اليمن / شمال غرب شبه الجزيرة العربية ومصر الفرعونية كانت عبر حركة التجارة البرية في المقام الأول ، وأنها تأثيرات مباشرة تم النقل لها عن أصول حضارية مصرية أو بمشاركة نحاتين وغيرهم استقدموا من مصر لتنفيذ بعض تلك الأعمال ولصالح حكام تلك المراكز الحضارية مثلما هو الحال على وجه الاحتمال للحضارة اللحيانية / الدادانية في شمال غرب شبه الجزيرة العربية بصفة أساسية .

الهوامش

* - كان هذا البحث محل الدراسة في الأصل موضوعًا لورقة عمل باللغة الإنجليزية شاركت بها ضمن أعمال الندوة العلمية الخامسة بعنوان " مصر والجزيرة العربية عبر العصور ٣-٥ أبريل ١٩٩٣م" التي نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة القاهرة بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب ، ولم يتم للأسف نشرها بعد إلى وقتنا الحاضر . ومن ثم قمت بإدخال العديد من التفصيلات المرتبطة بالموضوع محل البحث - بعد ترجمته إلى اللغة العربية - وتعديل الإطار الزمني له .

1 - Huzzayin, S. The Place of Egypt in Prehistory, Le Caire: 1941; Massulard, E. Prehistoric et Protohistoric d,Egypt, Paris: 1949 p. 13; Copeland, L and Hous, F. "A Microlithic Flint site in the Wadi Rum, Jordan and a review of the Epi-Palaeolithic of Northern Arabia", Proceedings of the Seminar of the Fifth Seminar for Arabian Studies, 1972, p. 18 .

- علام (شفيق) ، " بعض العوامل الحضارية التي وصلت مصر من البلاد الشرقية في عصر فجر التاريخ " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٣٣٦ - ٢٤٠ ؛ شكل ٢٤ - ٢٥ ؛ الناضوري (رشيد) ، " دور عمان الحضاري في فجر التاريخ" حصاد ندوة الدراسات العمانية ، المجلد الأول ، سلطنة عمان ، وزارة التراث والثقافة ، الطبعة الثانية ، أمون للتجليد والطباعة ، القاهرة : ١٩٨٠م ، ص ٨٢ - ٨٧؛ خريطة ص ١٠٣ .

2 - Parr, P.J. "The Present State of Artchaeological Research in the Arabian Peninsula: Achievements of the Past, and prospects of the Future", Studies in the History of Arabia, Vol. II: Pre-Islamic Arabia, edited by A.Al- ansary, Saudi University Press: 1984, p. 46 ؛ شاهين (علاء الدين) ، تاريخ الخليج والجزيرة العربية القديم ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ ص ١٢٧ - ١٣٠ ؛ ص ١٥٤ - ١٦٠ ؛ ص ١٨١ - ١٨٢؛ نفسه ، " المناطق الأثرية والمباني التاريخية في دولة الكويت : قضية المناقشة " ، كتاب ندوة استراتيجية الثقافة والتنمية ودور كليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في دول مجلس التعاون الخليجي ، كلية الآداب ، جامعة الكويت في المدة ٢٧ - ٢٩ مارس ٢٠٠٠م ، ص ٤٩١ - ٥٤٢ .

٣ - كيروم (بول) ، فيلكا من مستوطنات الألف الثاني قبل الميلاد . المجلد الأول - الجزء الأول : الأختام والأختام الأسطوانية ، ترجمة د. خير ياسين ومراجعة د. سليمان سعدون البدر و د. عز الدين إسماعيل غريبة ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة الإعلام ، الكويت (بدون تاريخ نشر) ، ص ١٢٧ : خاتم رقم ٣١٥ - ٣١٦ ؛ شاهين (علاء الدين) ، " فنون النحت من حضارات الساحل الغربي للخليج العربي في العصور البرونزية إلى نهاية العصر الحديدي " التواصل الحضاري بين أقطار العالم العربي من خلال

الشواهد الأثرية" ، كتاب الملتقى الثاني لجمعية الآثاريين العرب ، الندوة العلمية الأولى في الفترة من ٦-٧ شعبان ١٤٢٠هـ / ١٤-١٥ نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ١٥٣ - ١٧٣ : ص ١٨١ - ١٩٧ :

Shaheen, A " Egyptianized Artifacts on the Western cost of the Arabian Gulf: A Case of Discussion", Göttinger Miszellen 176 (2000), pp. 89 - 101 .

٤ - Newberry, p. Beni Hasan, Vol. 1, London : 1893, pls. 27; 30-31; Aharoni, Y. The Land of the Bible. A Historical Geography. Translated from Hebrew by A.F. Rainey, Revised and enlarged Edition. The Westminster Press, Philadelphia: 1979, p. 146; Grimal, **N.A History of Ancient Egypt**, Translated by Ian Shaw, Blackwell, Oxford UK & Cambridge USA : 1988, p. 165 .

5 - Saleh, A " Arabia and the Northern Arabs in Ancient Egyptian Records", Book of the 50th Anniversary of Archaeological Studies in the Cairo University, Part II. Special Issue from Journal of the Faculty of Archaeology, 1978, p. 74; Redford, D.B. Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times, Princeton University Press: 1992, p. 90 .

6 - Negev, A. " Moab," Archaeological Encyclopedia of the Holy Land, Jerusalem Publishing House: 1972, p. 212 .

7 - Mendenhall, G.E. "Qurayya and Midianites". Studies in the History of Arabia Vol. II : Pre-Islamic Arabia edited by A. Al-ansary, Saudi University Press, 1984, p. 137; p. 143 .

٨ - شاهين (علاء الدين ، " مدخل إلى اثار المملكة الأردنية وحتى نهاية العصر الحديدي " مجلة التاريخ والمستقبل يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة المنيا ، المجلد الأول ، العدد الثاني (١٩٩١م) ، ص ١٢ - ٤٢ : خريسات (محمد عبد القادر) وآخرون ، محاضرات في تاريخ الأردن وحضارته ، اربد : ٢٠٠٠م ، ص ٥٠ - ٥٤ .

9 - Masry, A. " Introduction : The Historic Legacy of Saudi Arabia", Atlal I, The Journal of Saudi Arabian Archaeology (1397H/1977), pp. 9-19 .

١٠ - راجع عن أعمال التنقيب : اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي في باريس ، الطبعة العربية، دمشق : ١٩٩٩م .

١١ - مهران (محمد بيومي) ، " دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة " مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، السعودية ، العدد السادس (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ، ص ٣١٠ -٣١١ :

سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر ، " دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض : ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٣٩ - ٥٤ : Salehm A. "The Genbtyw of Thutmosis III's Annales and the

South Arabian Gebbanite of Classical Writers," BIFAO LXXII (1972) pp. 246 - 62 .

١٢ - سيدوف (الكسندر) ، " قنا ، ميناء كبير بين الهند والبحر المتوسط " ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ١٩٣ - ١٩٦ .

- عن الآراء المختلفة المرجحة لعملية تدجين الجمل راجع : شاهين (علاء الدين) ، ترجمة مقالة ربنسكى عن " الأصول المرجحة لتدجين الجمل " مقبولة للنشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة البحرين :

Shaheen, A " MBI_II A in Northwest Arabia," To be puplised in the forthcoming volume of Journal of the Faculty of Archaeology, Cairo University .

- أما عن الأهمية الاقتصادية للبخور لحضارات المكان في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية راجع : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " البخور عصب تجارة البحر الأحمر في العصور القديمة " ، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة ، مجموعة بحوث نشرت في الدوريات العربية والأوربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : ١٩٩٣م ، ص ٥٦٥ - ٥٩٥ .

١٣ - شاهين (علاء الدين) ، تاريخ الخليج والجزيرة العربية القديم ، ص ١٩٩: ص ٢٠٤: ص ٢١٠ : ص ٢٢٠ : ص ٢٢٦ - ٢٢٧: برونز (أ.) ، " بدايات الري " ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٥٣ - ٥٤ : جاننتل (بيير) ، " السيطرة على الري " ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩م ، ص ٧٦ .

١٤ - عن تلك الأسماء المرجحة لمجموعات بشرية في شبه الجزيرة العربية في النصوص المصرية راجع : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض : ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٣٩ - ٥٤ .

١٥ - برو (توفيق) ، تاريخ العرب القديم ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٨م ، ص ٩٦ : مهران (محمد بيومي) " المرجع السابق ، السعودية ، ص ٣١٥ - ٣١٦ : محمد (محمد عبد القادر) ، " العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، مطابع جامعة الرياض ، الرياض : ١٣٧٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٢٤ - ٢٦ : صالح (عبد العزيز) ، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة (محاضرات - طبعة مزيدة ومعدلة) ، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، القاهرة : ١٩٨٨م ، ص ٣٢ - ٣٩ : بروون (فرانسوا) ، "نشوء وصيرورة أبجدية جنوب الجزيرة العربية " ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٥٥ - ٥٧ : روبان (كريستيان) ، " حضارة الكتابة" ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٨٤ - ٨٥ .

١٦ – مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٢١ : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٣٥٦ – ٣٦٢: شكل ٢٦ – ٢٨ . راجع أيضاً : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " دور سكان سيناء القدماء فى نشأة الخط المسند (اليمنى القديم) " البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، مجموعة بحوث نشرت فى الدوريات العربية والأوربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : ١٩٩٣م ، ص ٤٥١ – ٤٦٢ .

١٧ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام " ، ص ٣٦١ .

١٨ – برو (توفيق) ، المرجع السابق ، ص ٩٧ : مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ : محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٦ – ٢٧ : فخرى (أحمد) ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم . مصر والعراق – سوريا – اليمن – إيران . مختارات من الوثائق التاريخية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة : ١٩٨٤م ، ص ١٣٥ – ١٣٦م

١٩ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها فى النقوش القديمة فى مصر" ، ص ٢٣ .

٢٠ – مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

٢١ – دى ميغريه (أليساندرا) ، " الطقوس الجنائزية " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ١٩٥ .

– عن وصف لأعمال فريق بعثة جامع صنعاء عن موميا ات شبام الغراس والترميم لها والوصف للأثاث الجنائزى المرافق لها راجع : با سلامة (محمد) ، " مومياءات شبام الغراس " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م، ص ١٧٧ .

٢٢ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم سيد) ، " الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام " ، ص ٣٦٤ .

٢٣ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٣ : لوحة ٣٥ : موللر (والتر) ، " الدين"، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ١٢٨.

24 - Nasif, A. Al-Ula. An Historical and Archaeological survey with special reference to its Irrigation system. King University Press: 1988, p. 24; pl. XCII .

٢٥ – الأنصارى (عبد الرحمن) ، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام فى المملكة العربية السعودية ، جامعة الرياض : ١٣٧٧ – ١٤٠٢هـ ، الشكل ص ١٣٦ – ١٣٨ .

26 - Dyton, J.C. " Medianite and Edomite Pottery", Proceedings of the Fifth Seminar for Arabian Studies, London : 1972, p. 26 .

٢٧ – البدر (سليمان سعدون) ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ، الكويت : ١٩٧٤م ؛ نفسه ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد ، الكويت ١٩٨٧م؛ الغزي (عبد العزيز بن سعود) والدوسري (عبد الله بن عبد الرحمن) ، " مجموعة فخارية من موقع " أبو خميس " ، الدارة ، السعودية ، العدد الثالث ، السنة العشرون (ربيع الآخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ١٤١٥هـ) ، ص ٥١ – ٧٠ .

28 - Schmitt-Korte, K. " Nabataean pottery: A Typological and Chronological Framework", Studies in the History of Arabia, book II: Pre-Islamic Arabia, King Saudi University Press: 1984, p. 8; map 6; figs. 31-33 .

– لمزيد من الدراسة عن المجموعات الفخارية في المملكة العربية السعودية راجع : الغزي (عبد العزيز بن سعود) ، " استعراض للدراسات الأثرية للفخار القديم ى شرقي المملكة العربية السعودية ٣٠٠٠ ق.م-٣٠٠م" ، الدارة ، السعودية ، العدد الثالث ، السنة التاسعة عشر (ربيع الآخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ) ، ص ٥٩ – ٧٥ ؛ نفسه ، " أنماط فخارية جديدة من الموقع (٢١١-٢٢٢) "الإقليم الأوسط " ، الدارة ، العدد الأول ، السنة التاسعة عشر (شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة ١٤١٣هـ) ، ص ٩ – ٢٦ ؛ عبد النعيم (محمد) ، آثار ما قبل التاريخ وفجره في المملكة العربية السعودية ، ترجمة عبد الرحيم محمد خبير ، الرياض : ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ٣٠٨ – ٣٥٧ .

٢٩ – Shaheen, A. "Imported LB Ceramics and their local versions in the Egyptian collection of the University Museum, Philadephia, U.S.A." ، مجلة التاريخ والمستقبل ، يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة المنيا ، المجلد الثالث ، العدد الأول (يناير ١٩٩٣م) ، ص٣-٦٥.

٣٠ – ربنسكي (جربا) ، " تاريخ حضرموت وحضارتها : قضايا دراستهما والبحوث الأخيرة " ، الجديد حول الشرق القديم ، ترجمة عن الروسية جابر أبي جابر وخير الضامن ، دار التقدم بموسكو ، ١٩٨٨م، ص ٢٣٣ – ٢٣٨ ؛ سيدوف (الكسندر) ، المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

٣١ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٧ .

٣٢ – محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ؛ فوكت (بوركهارد) ، مأرب : عاصمة سبأ ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م، ص ١٠٨ .

٣٣ – صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٨١ – ٨٢ ؛ سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٧ ؛ لوحة ٤١ أ – ب .

– من اللافت للنظر أيضاً استمرارية التأثير المصري القديم على فنون العمارة في شمال غرب شبه الجزيرة العربية خاصة منطقة مدائن صالح (الحجر) ، من القرن الأول ق.م حيث يوجد بعض المقابر النبطية يعلوها الكورنيش المصري ، أحد أهم خصائص العمارة المصرية القديمة ، وإن لم نتناول هنا ذلك بالتفصيل لمراعاة الإطار الزمني للبحث محل الدراسة . راجع على سبيل المثال : السايح (إبراهيم) ، مدائن صالح من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء ، دار البستاني للنشر والتوزيع ، القاهرة : ٢٠٠٠م ، ص ٧٠ – ٧٢ ؛ الأشكال ص ١٩ ؛ ٢٤ ، ٣٤ .

٣٤ – فوكت (بوركهارد) ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

٣٥ – محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٩ : لوحة ١٦ : شاهين (علاء الدين) ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ : شكل ٤٧ : نفسه ، ترجمة مقال إريك أبهيل عن " الاتصال الملاحي بين مصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية E.Uphil, " Maritime link between Egypt and Arabia, " Proceedings of the Twenty First Seminar for Arabian Studies, held at Durham on 28th 0 30th July 1987, pp. 163 - 70 مقبول للنشر فى المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة البحرين .

– عن فنون النحت من حضارات الساحل الغربي للخليج العربي راجع : شاهين (علاء الدين) ، " فنون النحت من حضارات الساحل الغربي للخليج العربي فى العصور البرونزية إلى نهاية العصر الحديدى " ، التواصل الحضارى بين أقطار العالم العربي من خلال الشواهد الأثرية ، كتاب الملتقى الثانى لجمعية الأثاريين العرب ، الندوة العلمية الأولى فى الفترة من ٦ – ٧ شعبان ١٤٢٠هـ / ١٤ – ١٥ نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ١٥٣ – ١٧٣ : ص ١٨١ – ١٩٧ .

٣٦ – Saleh, A . " Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style," ; Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol.28 (1970), pp. 1-31 . : عبد العزيز صالح، " المزج الحضارى فى الآثار القديمة للعلا ومدائن صالح " ، محاضرات الموسم الثقافى لعام ١٤٠٤ – ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤ – ١٩٨٥م ، الإدارة الثقافية ، وزارة الإعلام والثقافة ، دولة الإمارات العربية المتحدة، ص ٢٩٥ – ٣٠٠ : ص ٣٠٤ .

٣٧ – محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٨ : لوحة ١٠ – ١٣ : Pritchard, J.B. The Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeto University Press : 1958, figs. 65 - 66; Pirenne, J." Notes d' archéologie Sud-/ rabe", Syria 49 (1972), p. 198; figs. 4-6 .

٣٨ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٦ – ٣٦٧ : لوحة ٣٩ ب .

٣٩ – روبان (كريستان ج) ، تأسيس إمبراطورية . السيطرة السبئية على الممالك الأولى " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٨٨ .

٤٠ – كيتشن (ك.) ، " بلاد البونت : مصر تبحث عن الطيوب " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٤٩٠ .

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد (*)

صفحة من الصلات بين اليمن والأحباش

أولاً: مقدمة تاريخية:

منذ أقدم العصور جذبت سلع الساحل الإفريقي للبحر الأحمر وخليج عدن من مواد ترف وبخور وغيرها من السلع الثمينة ، جذبت سكان اليمن من الساحل الأسيوى المقابل ، فكانوا يهاجرون إلى الشاطىء الإفريقى ، حيث يؤسسون مراكز تجارية ساحلية لجلب هذه السلع من منطقة الظهير (المناطق الممتدة وراء الساحل، مثل أريتريا والحبشة والصومال). ولدعم هذه الصلات بين سكان هذا الساحل من مهاجرين يمنيين ومن أهل ظهيرة من وطنيين إفريقيين ، أخذ هؤلاء المهاجرين يرتبطون بصلات المصاهرة مع زعماء قبائل السكان الوطنيين ، بالزواج من بنات هؤلاء الزعماء . ولدينا مثالين على ذلك أحدهما يرجع إلى أقدم العصور (حوالى عام ١٥٠٠ق.م) إذ ورد ضمن مناظر بعثة الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت (الساحل الصومالى فى ذلك الوقت) رسم لأمير بونت وزوجته يمثل هذا الأمير بملامح أسيوية بينما يمثل زوجته بخصائص جسدية إفريقية (Naville 1898, pl 69 .) أما المثال الثانى فمع بعده قليلاً نحو الجنوب ، وبالتحديد على الساحل الجنوبى لجمهورية الصومال والساحل الشمالى لتنزانيا فقد أطلق عليه مؤلف كتاب " الطواف حول البحر الإريترى Ausanite أى الساحل الأوسانى . ولعلها إشارة إلي دولة أوسان " التى

* أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ بكلية الآداب – الإسكندرية .

كانت تسيطر على الجزء الجنوبي الغربي من اليمن ، هذا المثال الثانى لصلة المصاهرة بين المهاجرين اليمنيين وبين سكان الساحل الإفريقي ورد فى كتاب الطواف المشار إليه بعد المثال الأول بحوالي ١٥٠٠ سنة وبالتحديد في القرن الأول الميلادى ، إذ جاء في كتاب " الطواف حول البحر الإريترى Periplus Maris Erythreae المشار إليه أن أهل مدينة " موزا " (ميناء المخا الحالى في جنوب غرب اليمن) كانوا يحكمون أحد الموانى على ساحل إفريقيا الشرقى الذى أسماه مؤلف هذا الكتاب " الساحل الأوسانى " كما ذكرنا من قبل " أمير Mapharitis (دولة أو إمارة يمنية قديمة ربما كانت فى منطقة " المعافر " الحالية فى جنوب غرب اليمن) وكانوا يبعثون إلى الميناء المذكور ربابنة ووكلاء عرب يعرفون المكان ويتزوجون من نسائه ويفهمون لغة سكانه (Huntingford 1980. p. 124) ولاشك أن هذه المصاهرة كان الهدف منها تدعيم الصلات التجارية بين هؤلاء التجار وبين سكان الساحل الإفريقى لتيسير حصولهم على السلع الإفريقية الثمينة من مواد ترف وبخور .

والمهم فى موضوعنا هذا أن هذه الهجرات من اليمن إلى الساحل الإفريقى للبحر الأحمر وما يتصل به من ساحل خليج عدن أخذت أعدادها تتزايد بمرور الزمن وخاصة عندما قامت دول مختصرة فى اليمن وأقدمها دولة سبأ (ما بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) فقد استوطن المهاجرون السبئيون منذ القرن السادس قبل الميلاد منطقة إريتريا (جواد على ١٩٦٩ ، جـ٣ ، ص ٤٥٠) وأخذوا يتوغلون نحو الداخل بحثًا عن الرزق للأعداد المتزايدة من المهاجرين الذين كان من بينهم مهاجرون من قبائل الحبشات والجعز التى كانت تسكن جنوب غرب اليمن (جواد على ١٩٦٩ ، جـ٣ ، ص ٤٤٩ والخريطة رقم ١ فى هذا البحث) وكان من الطبيعى أن يبحث هؤلاء المهاجرون اليمنيون عن المناطق الخصبة التى تشبه فى طبيعتها ومناخها بلادهم الأصلية فى اليمن ووجدوا ضالتهم فى هضبة " تجرى " فى شمال الحبشة وكان ذلك حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، وظلت التأثيرات اليمنية واضحة فى حضارة المنطقة حتى القرن الرابع ق.م (اليونسكو ١٩٨٥م ، ص ٣٨٣) ، ثم ما لبثت أن ضعفت تحت تأثير الطابع الإفريقى حتى تأسيس دولة أكسوم التى ازدهرت سياسيًا منذ القرن الأول الميلادى كما قلنا .

غير أنه وإن كانت المظاهر الخارجية للحضارة اليمنية القديمة قد ضعفت أو تلاشت إلا أن المظاهر الثقافية لم تمت ، بل ظلت واضحة فى حضارة أكسوم مثل الكتابة واللغة وعبادة إله

القمر الذى تغير اسمه من " إيل مُقة " وهو اسم الإله السبئى إلى " محرم " وكذلك إله الزهرة وقد ظل اسمه اليمنى " عثتر " باقياً (نفس المصدر) .

وبالإضافة إلى هذه المظاهر الثقافية استمرت التأثيرات اليمنية واضحة فى العمارة والتماثيل والأنصاب وشواهد القبور ومحارق البخور وهذه التأثيرات تتضح بوجه خاص فى المنطقة الممتدة من بلدة مطرا (على بعد ٥٥٠ كيلو متراً إلى الجنوب من مصوع) إلى يحا (على بعد ٦٠٠ كيلو متراً تقريباً إلى الجنوب الغربى من مطرا) إلى أكسوم (على بعد ١٥٠ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من يحا) (الخريطة رقم ٢) ومن الواضح أن الطريق بين هذه المدن هو الطريق الذى سلكه المهاجرون اليمنيون تدريجياً من الساحل إلى الداخل حيث توجد عاصمتهم أكسوم .

واستمرت دولة أكسوم الحبشية الطابع فى النمو والتوسع فسيطرت على المناطق الممتدة من حدودها حتى الساحل الإريترى وأخذ ملوكها يتطلعون للسيطرة على الساحل اليمنى المقابل أى أن ميزان القوى فى جنوب البحر الأحمر أخذ يميل من الساحل الإفريقى إلى الساحل الأسيوى للبحر الأحمر ، على عكس ما حدث فى القرون السابقة . وبلغ هذا الميل مداه فى أوائل القرن الثالث الميلادى ابتداء من عهد الملك السبئى " علهان نهفان " (٢٠٥ – ٢٣٠م) عندما عبر الأحباش البحر الأحمر واستقروا على الساحل اليمنى فى المنطقة الممتدة من وادى سهام (عند ميناء الحديدة فى الجنوب) إلى وادى سردد (شمال وادى سهام بخمسين كيلو متراً تقريباً) ومن هناك بدءوا فى التوغل نحو الداخل فاستولوا على مدينة ظفار (الخريطة رقم ٣) وهنا بدأ ملوك اليمن فى التصدى لهم ودارت المعارك بينهم وبين الملك " شاعر أوتر " ملك سبأ وذو ريدان (٢٣٠ – ٢٤٠م) ثم بينهم وبين الملك " إيل شرح يحضب " (٢٤٠ – ٢٦٠م) تمكن خلالها هذان الملكان من طرد الأحباش من ظفار ومن وادى سردد ولكن لم يتمكنا من طردهم من معقلهم فى وادى سهام وطردهم من اليمن . وبعد ذلك لم تفصح النقوش عن تطور الصراع بين الأحباش وبين ملوك اليمن فيما عدا عصر الملك الأكسومى " عيزانا " (٣٢٥ – ٣٦٠م) الذى حمل لقب " ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين " مما يشير إلى سيطرته على اليمن وعلى العاصمة مأرب فقد كان " سلحين " اسم قصر الملك السبئى فى مدينة مأرب.

غير أن الصراع الكبير بين اليمن والحبشة الذى حدث فى القرن السادس الميلادى وانتهى بغزو الحبشة لليمن وإخضاعه تماماً للحكم الحبشى ، وذلك طبقًا لروايات الكتاب المسلمين عن

اضطهاد ملك حمير اليهودى الذى أطلقوا عليه " يوسف ذو نواس " لمسيحى نجران وإحراقهم فى خندق (أو أخدود كما جاء فى سورة البروج طبقًا لتفسير المؤرخين المسلمين) وإرسال ملك الحبشة المسمى عند هؤلاء المؤرخين المسلمين " عذبة " والمسمى فى النقوش الحبشية " كالب إيلا اصبحا " والمسمى عند الكتاب البيزنطيين Elesbaos (٥٢٠ - ٥٤٠م) - وإرساله حملة بحرية بقيادة " أرياط " ومساعده " أبرهة " (طبقًا لرواية المؤرخين المسلمين) وانتحار الملك الحميرى يوسف ذو نواس غرقًا (وهذه المعلومات أكدتها النقوش الحميرية فى جانب واحد فقط هو ما ورد فى نقش على صخور ميناء حصن الغراب فى جنوب حضرموت ومؤداه أن الأحباش قتلوا ملك حمير (RES 2633) (١).

هذا هو مجمل الصلات بين اليمن والحبشة فما هى النتائج الحضارية لهذه الصلات وإلى أى مدى أثرت اليمن حضاريًا فى الحبشة وأثر الأحباش فى اليمن ؟ .

كما قلنا فى بداية هذا البحث انتقلت المظاهر الحضارية السبئية إلى الحبشة حيث ظهرت بوضوح فى المنطقة الممتدة من مطرا إلى يحا إلى أكسوم ثم أخذت تتلاشى بالتدريج وإن ظلت بقاياها وآثارها كما سنذكر بعد ..

أما تأثير الحبشة فى اليمن فهو شبه منعدم رغم وجود الأحباش فى اليمن منذ القرن الثالث الميلادى وحتى القرن السابع عندما طردهم الفرس بقيادة " باذان " وعاد حكم اليمنيين لبلادهم بزعامة " سيف بن ذى يزن " . والدليل على انعدام التأثير الحبشى فى اليمن أن أبرهة الحبشى عندما أراد تسجيل نشاطه السلمى على جدران سد مأرب والحربى على صخور بئر مريغان شمال نجران فإنه لم يستخدم الخط الحبشى (الإثيوبى الجعزى) واللغة الحبشية (الجعزية) بل استخدم الخط الحميرى واللغة العربية الجنوبية (بلهجتها السبئية - الحميرية) (Smith 1954, p. 451f; Sayed 1988, pp. 131f.) وهكذا فإذا كان الأحباش قد تمكنوا من غزو اليمن حربيًا فإن اليمنيين غزوهم حضاريًا .

ثانيا: مظاهر التأثير الحضارى السبئى فى الحبشة :

اتضح هذا التأثير كما أجملنا سابقًا فى المظاهر التالية :

أولاً : الكتابة :

اشتملت الأبجدية الحبشية القديمة على ٢٦ حرفًا عندما اشتقت من الأبجدية السبئية (شكل ١) أو ما يسمى بالخط المسند الجنوبى خلال القرون الثلاث الأولى للميلاد بالإضافة

إلى ثلاثة حروف تمثل أصواتًا غير موجودة فى الأبجدية السبئية (Kammerer 1929, p. 238) ثم مرت بالمراحل التالية :

أ – فى القرن الأول الميلادى كانت حروف الأبجدية الحبشية القديمة ما تزال قريبة الشبه بالأبجدية السبئية وكانت تتألف من الحروف الساكنة (الصوامت) فقط مثل السبئية وظلت خالية من الحروف المتحركة (الصوائت) حتى منتصف القرن الرابع تقريبًا (Jensen 1958, p. 345) كما احتفظت بالفواصل الرأسية بين الكلمات كما فى الأبجدية السبئية . وتظهر هذه الخصائص فى نقش مسلة مطرا (شكل ٢) .

ب – أخذت أشكال الحروف تتغير من الشكل المزوى (ذى الزوايا) السائد فى حروف الأبجدية السبئية إلى الشكل المستدير الذى ساد فيما بعد فى الأبجدية الحبشية المتأخرة المسماة بالأثيوبية أو الجعزية (شكلا ٣ ، ٤) .

جـ – بدأت الحروف المتحركة تظهر فى الأبجدية الحبشية والواضح أن ذلك كان بتأثير تغلغل الثقافة الإغريقية فى الحبشة منذ أن تحول الملك " عيزانا " للمسيحية فى منتصف القرن الرابع الميلادى بعد أن كان وثنيًا (جواد على ١٩٦٩م ، ص ٤٥٢ – ٤٥٣) وذلك بتأثير جاليات يونانية نشرت الثقافة اليونانية فى مملكة أسكوم (نفس المصدر) .

د – كان من نتيجة التأثير اليونانى أيضًا أن تغير اتجاه الكتابة الحبشية القديمة من اليمين إلى اليسار وهو الاتجاه الذى ورثته عن الكتابة السبئية إلى الاتجاه من اليسار إلى اليمين مثل الكتابة اليونانية (Diringer 1947, p. 231) ويطلق العلماء عليها فى هذه المرحلة النهائية الكتابة الأثيوبية أو الجعزية (شكل ٣) .

ورغم هذا التغير فقد ظلت أشكال الحروف الإثيوبية (الجعزية) تظهر شبهًا كبيرًا مع أشكال الحروف السبئية مما ساعد علماء اللغات السامية فى القرن التاسع عشر الميلادى (منذ عام ١٨٤١م) على حل رموز الأبجدية السبئية وغيرها من أبجديات الخط المسند الجنوبى وقراءة النصوص العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) .

والحقيقة إن التغيير فى الكتابة الحبشية لم يقتصر على ما ذكرناه وإنما حدث تغيير آخر وخاصة فى علاقة الحروف الساكنة بالحروف المتحركة مما جعل الأبجدية الحبشية تتخذ طابعًا مقطعيًا فى نطاق الطابع الأبجدى واستمرت هذه الخاصية حتى اليوم وتفاصيل ذلك خارج نطاق بحثنا .

ثانيًا : العمارة الأكسومية وزخارفها :

توجد فى مدينة " يحا " أطلال معبد حول فى عصر لاحق إلى كنيسة مسيحية وهو يشبه معابد مأرب وتمنع فى اليمن من حيث تصميم واجهته ومن حيث ارتفاع المعبد على شكل مصطبة يؤدى إليها درج (شكل ٥ ، وشكل ٦) كم توجد أعمدة متناثرة فى الطريق الممتد من " يحا " إلى " أدوليس " Adulis (جنوب مصوع بأربعة كيلو مترات وتسمى اليوم " عدولى ") وأخرى فى منطقة " حاولتى " (جنوب شرق أكسوم) وهذه الأعمدة تشبه أعمدة معبدى مأرب المسمى أحدهما قديمًا " أوام " وحاليًا " محرم بلقيس والآخر " ب ر أ ن " وحاليًا " عرش بلقيس " (٢).

والمعبدان خاصان بعبادة الإله السبئى " إيل – مُقة " إله القمر . وتيجان هذين المعبدين على شكل أسنان Denticulation (شكل ٧) وهو طراز شائع فى العمارة اليمنية القديمة إذ يوجد أيضًا فى أعمدة معبد الإله " عثر "(٣) فى مدينة " تمنع " (هجر كحلان حاليًا) عاصمة دولة قتبان (الخريطة رقم ٣) والإله عثر هو كوكب الزهرة .

وقد ظهرت زخارف الأسنان أيضًا فى محارق البخور الأكسومية ومن ذلك محرق البخور المنشور فى شكل ١٨ حيث تظهر هذه الزخارف فوق شكل القرص والهلال وعلى جانبيه . والزخارف المعمارية الأخرى الغالبة فى العمارة الأكسومية مستمدة من أشكال الوعول والثيران (اليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٤٨) وهى نفس الزخارف الغالبة فى العمارة اليمنية القديمة (الأشكال ٨ ، ٩) .

ثالثًا : المسلات والأنصاب والشواهد :

توجد فى الحبشة أشكال مسلات تشبه من حيث شكلها العام المسلات الفرعونية فى مصر إذ يصل ارتفاع إحداها إلى ٣٣ مترًا (شكل ١٠) وهو نفس ارتفاع أحد مسلات الملك تحوتمس الثالث القائمة الآن فى روما ويزيد على ارتفاع مسلة الملكة حتشبسوت القائمة الآن فى معبد الكرنك بأربعة أمتار مما دعا بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن المسلات الأكسومية تقليد للمسلات الفرعونية من حيث الشكل والوظيفة وأنها نتيجة تأثير حضارى مصرى وصل إلى الحبشة عن طريق النوبة (Kammerer 1929, p. 135) .

والحقيقة إن هذه المسلات الأكسومية تتفق مع المسلات الفرعونية فى شكل البدن فقط وفى أحجامها ولكنها تختلف عنها فى شكل القمة فبينما شكلت قمم المسلات الفرعونية على هيئة هريم رمزًا لعبادة إله الشمس فإن أغلب المسلات الأكسومية مستديرة القمة . وبينما ترمز المسلات الفرعونية إلى عبادة إله الشمس فإن المسلات الأكسومية ترمز لعبادة الأسلاف أو الأجداد ، فهى أقرب إلى النصب أو الشاهد الجنازى ولهذا يطلق عليها بعض الباحثين الشواهد أو اللوحات الشبيهة بالمسلات Stèles Obélisques (Kammerer 1929, p. 228) والدليل على ذلك وجود مسلات فوق المقابر ومثال ذلك وجود مسلة فوق مقبرة فى منطقة "بازن" Bazen فى شرق أكسوم (اليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٧) وترمز هذه المسلات بهذه الصفة إلى الروح أو النفس وهى عقيدة سامية يطلق عليها فى اللغات السامية " نفس " أو "نفش " ne-phesh (Hastings 1925, I, p. 57) . وهى بهذه الوظيفة أقرب إلى الأنصاب التى كانت تقام فوق المقابر فى اليمن (شكل ١١) ومما يؤكد الوظيفة الجنازية للمسلات الأكسومية وجود كتل حجرية كبيرة أمامها (شكل ١٣) كانت مذابح للأضاحى فهى بهذه الصفة تمثل نوعًا من عبادة الأجداد (نفس المصدر) .

أما الدليل على تأثر هذه المسلات بالمؤثرات اليمنية فهو رسم القرص والهلال على قمم بعضها وهى زخارف دينية تتكرر كثيرًا على الأنصاب والشواهد اليمنية (Kammerer 1929, p. 229) بالإضافة إلى استدارة قمتها (يقارن شكل ١١ مع شكل ١٢) .

ومن مظاهر التأثير اليمنى المعمارى فى المسلات الأكسومية نحت جوانب هذه المسلات بأشكال أبواب ونوافذ مصمتة (شكل ١٠) وهى من خصائص الزخارف المعمارية اليمنية وقد تكررت كثيرًا على جوانب محارق البخور اليمنية (شكل ١٤) وتنتشر هذه المسلات على طول الطريق الممتد من أدوليس إلى مطرا إلى أكسوم (الخريطة رقم ٢) وهو الطريق الذى سلكه المهاجرون السبئيون من ساحل البحر الأحمر حتى أكسوم ففى أدوليس كانت توجد مسلة (شكل ١٥) اختفت الآن ولكن ورد وصفها فى كتاب الرحالة " كوزموس جوّاب المحيط الهندى" Cosmos Indicopleuestes الذى عاش فى القرن السادس الميلادى وتبين من وصف كوزموس لها أنها كانت منقوشة بكتابة إغريقية مما يرجح أن أحد ملوك البطالمة الذين تميزوا بنشاطهم فى البحر الأحمر هو الذى أقامها ولكن اتخاذها الشكل المميز للمسلات الأكسومية يدل على أنها شكلت على نمط إحدى هذه المسلات التى كانت مقامة فى ميناء أدوليس . أما

المسلة الثانية على الطريق من أدوليس إلى أكسوم فهى مسلة مطرا (شكل ١٢) الواقعة فى منتصف هذا الطريق ويلاحظ على هذه المسلة القمة المستديرة ورسم القرص والهلال وهى الخصائص التى تميزت بها الأنصاب اليمنية . (قارن شكل ١١) .

رابعًا : التماثيل :

كشف فى " حاولتى " إلى الشرق من أكسوم عدة تماثيل من بينها تمثال لامرأة (شكل ١٦) (UNESCO 1981, p 1. 13.2a) يشبه إلى حد كبير التماثيل اليمنية ومنها تمثال امرأة قتبانية تدعى " ب ر أ ت "[٤] (شكل ١٧) وجد بين أطلال مدينة تمنع عاصمة دولة قتبان (Doe 1971, p. 48) والتشابه بين هذا التمثال والتمثال الأكسومى يتمثل فى جلسة المرأة وثوبها المنسدل الطويل والقاعدة التى نقش عليها اسم المرأة القتبانية .

خامساً : محارق البخور :

انتقلت أشكال محارق البخور اليمنية إلى أكسوم فتشابهت الرسوم التى على كل منهما ومن ذلك محرق بخور أكسومى وجد فى بلدة " عدى قلامو " على خط عرض مدينة " يحا " تقريبًا وإلى الشرق منها (الخريطة رقم ٢) ويتشابه هذا المحرق فى شكل قاعدته المخروطية أو التى على شكل هرم ناقص وفى رسم القرص والهلال فى أعلاه (شكل ١٨) مع محارق البخور اليمنية ومنها محرق بخور سبئى (شكلان ١٩) وردت عليه نفس الرسوم بالإضافة إلى نقش أسماء الأشخاص الذين صنعوا المحرق أو أهدوه للإله (الذى ضاع اسمه) والنقش يقرأ:

س ع د م / و س ع د ش م س م / و ر ب إ ل / ب ن و / ب ح ر م

وترجمته : سعد . وسعد شمس ورب إيل بنو بحرم
(أسماء ثلاثة أشخاص) (أى صنعوا) (اسم مكان
حروف ناقصة)

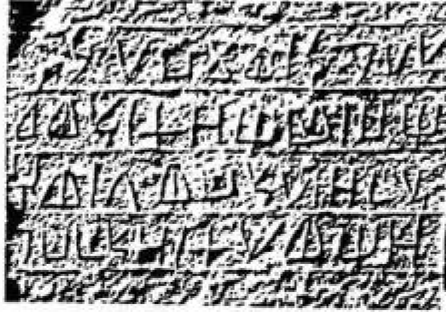
وقد ذكرنا فيما سبق تشابه زخارف الأسنان Denticulation على محرق البخور الأكسومى (شكل ١٨) مع هذه الزخارف على تيجان أعمدة معابد اليمن (شكل ٧) ويلاحظ هنا أيضًا وجود زخارف الأسنان على جانبى المخروط والقرص والهلال .

سادساً : السدود :

يوجد بين أطلال مدينة كوهايتو (شمال مدينة مطرا بقليل) بقايا سد (اليونسكو ١٩٨٥، ص ٣٧٣ - ٣٧٤) يشبه سد مأرب (Doe 1983, p. 189f) في وجود حوض واسع لتجميع المياه أمام كل منهما وفي تدرج جسم السد وإن كان جسم سد كوهايتو على شكل مدرج بينما كان جسم سد مأرب أملس في انحداره من الجانبين ، ويزيد سمك كل من السدين من أعلى لأسفل وإن كان سد كوهايتو شيد من الحجر بينما شيد سد مأرب من الطوب اللبن المكسو بالحجر ، وتزيد أبعاد سد مأرب عن سد كوهايتو إذ يبلغ طول سد مأرب ٦٠٠ متراً بينما لايزيد طول سد كوهايتو عن ٧٦ متراً كما يبلغ ارتفاع سد مأرب ١٨ متراً بينما لايزيد ارتفاع سد كوهايتو عن ثلاثة أمتار .



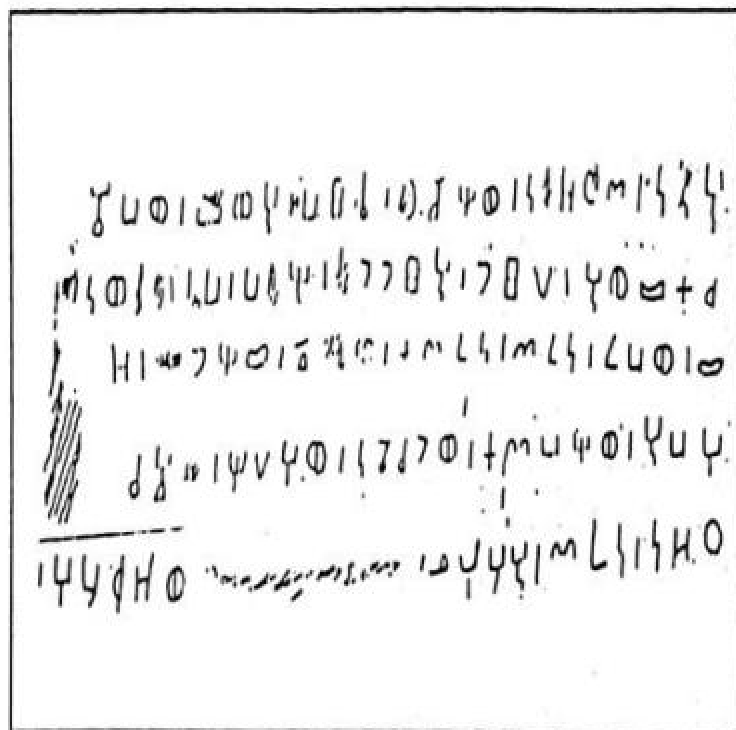
(شكل ١) نموذج للأبجدية العربية الجنوبية المبكرة (الخط المسند الجنوبي) ويتضح في هذا النقش السبئي خصائص هذا الخط الذي انتقل إلى الحبشة وحروفه كما يبدو خالية من الزخرف الذي بدأ يظهر في الخط السبئي المتأخر (الحميري) ويلاحظ على الحروف الشكل المزوى (ذو الزوايا) والخطوط الرأسية التي تفصل بين الكلمات . (عبد المنعم عبد العليم ١٩٩٣ ، ص ٢٩٠ وشكل ٣)



(شكل ٢) نقش مسلة مطرا وهو أقدم نماذج الكتابة الحبشية القديمة ويلاحظ أن الحروف مازال يغلب عليها الشكل المزوى . (Diringer 1947, fig. 112)

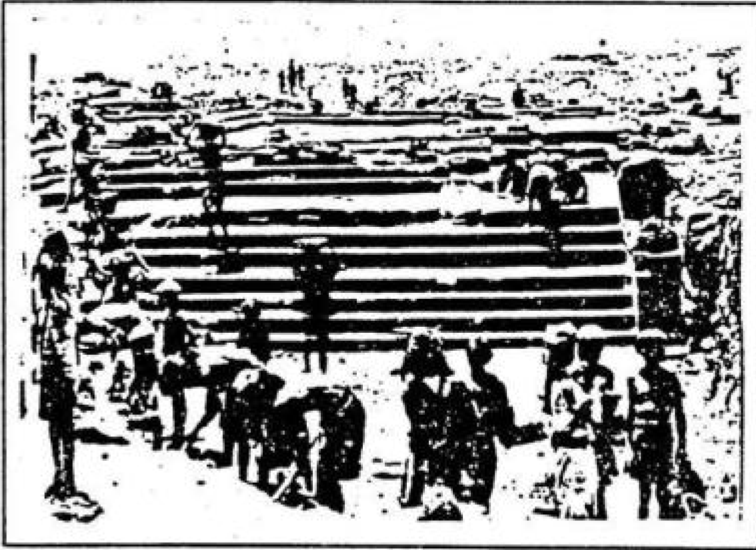
الصوت	الأبجدية السبئية	الحبشية القديمة	الإثيوبية (الجعزية)
أ	𐩱	አ	አ
ب	𐩨	በ	በ
ج	𐩴	ገ	ገ
د	𐩵	ደ	ደ
هـ	𐩠	ሀ	ሀ
و	𐩥	ወ	ወ
ز	𐩸		ዘ
ح	𐩢	ሐ	ሐ
ط	𐩷		ጠ
ى	𐩺	የ	የ
ك	𐩫	ከ	ከ
ل	𐩡	ለ	ለ
م	𐩣	መ	መ
ن	𐩬	ነ	ነ
س	𐩯		
ع	𐩲	ዐ	ዐ
پ/ف	𐩰	ፈ	ፈ
ص	𐩮	ጸ	ጸ
ق	𐩤	ቀ	ቀ
ر	𐩧	ረ	ረ
ش	𐩦	ሠ	ሠ
ت	𐩩	ተ	ተ

(شكل ٣) جدول يوضح تطور لاشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الخط المسند الجنوبي (الأبجدية السبئية) ويلاحظ عليه استمرار الشكل المزوى في الحروف الحبشية وإن كان الشكل المستدير قد ظهر في حروف قليلة وقد غلب هذا الشكل المستدير على حروف الأبجدية الحبشية المتأخرة (الاثيوبية أو الجعزية) (Jensen 1970, fig. 320) .

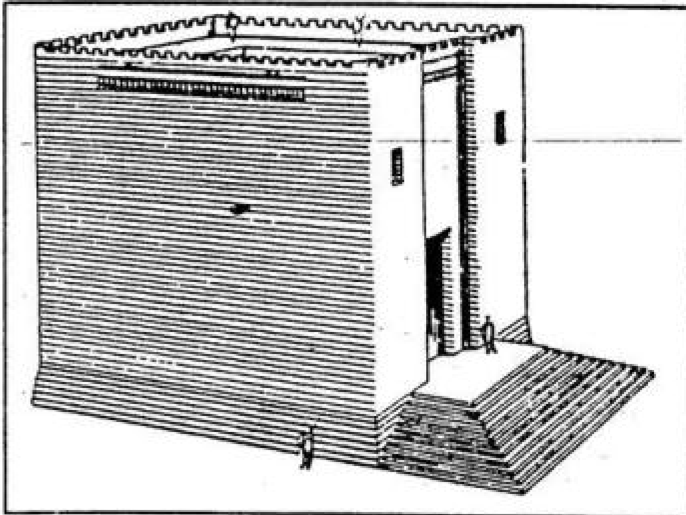


[شكل ٤] نقش الملك "عيزانا" [منتصف القرن الرابع الميلادي] وقد كتب بالأبجدية الحبشية القديمة ونلاحظ فيه الخطوط الرأسية بين الكلمات والاتجاه من اليمين إلى اليسار وهي الخصائص التي ورثتها الأبجدية الحبشية القديمة عن أبجدية الخط المسند ولكن بدأت العلامات تأخذ الشكل المتغير الذي ساد في الأبجدية الأثيوبية [الجعزية] فيما بعد

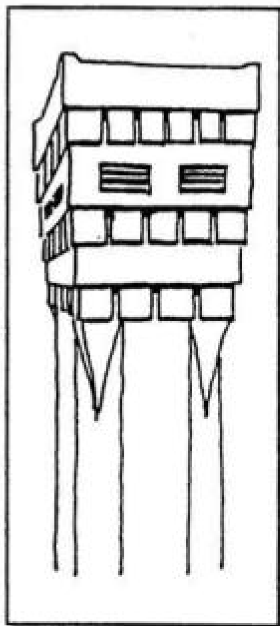
(Jensen 1970, f.g. 329)



(شكل ٥) قاعدة أو مصطبة معبد الإله " عثتر " فى مدينة " تمنع " عاصمة دولة قتبان اليمنية (الخريطة رقم ٢) التى كان المعبد مقاماً عليها وقد زال المعبد ولم يتبق غير المصطبة والدرج المؤدى إليها . (عبد العزيز صالح ١٩٨٠ ، شكل ١٦).

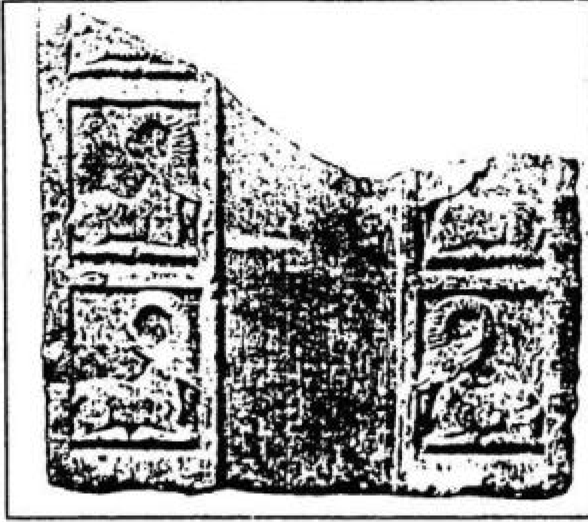


(شكل ٦) منظر تخيلى لمعبد مدينة " يحا " فى الحبشة يوضح ما كان عليه المعبد فى الأصل كما يوضح المصطبة المقام عليها المعبد والدرج المؤدى إليه مما يشبه درج مصطبة معبد " عثتر " القتبانى الموضح فى شكل ٥ . (نلسن ١٩٥٨ ، شكل ٣٩) .



(شكل ٧) زخاف الأسنان **Denticulation** في تاج عمود مأرب في اليمن

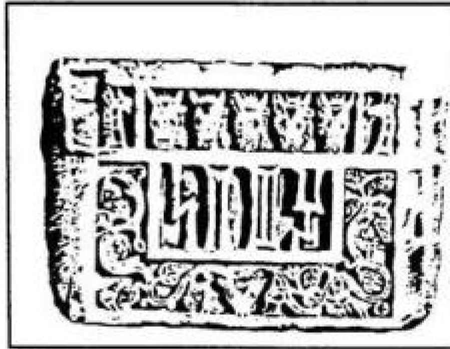
(Doe 1983, figs. 69, 70) وقد انتقلت هذه الزخارف إلى مباني الحبشة الدينية

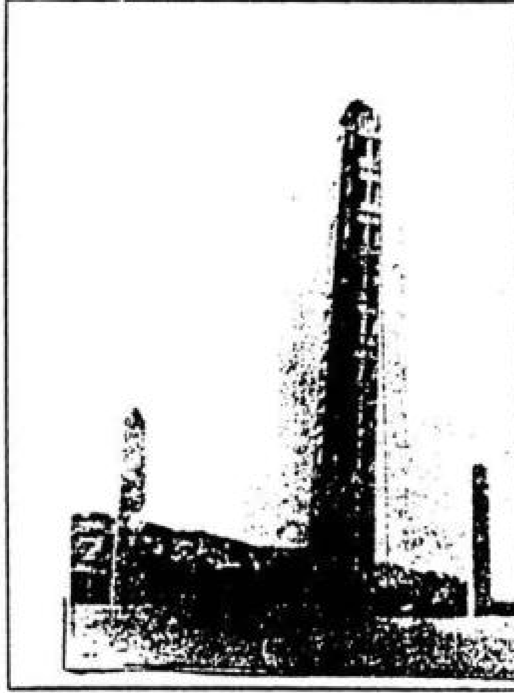


(شكل ٨ ، شكل ٩) زخارف الوعول والثيران كما تبدو على الآثار اليمنية القديمة

(عبد المنعم عبد الحليم ١٩٩٣ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٦)

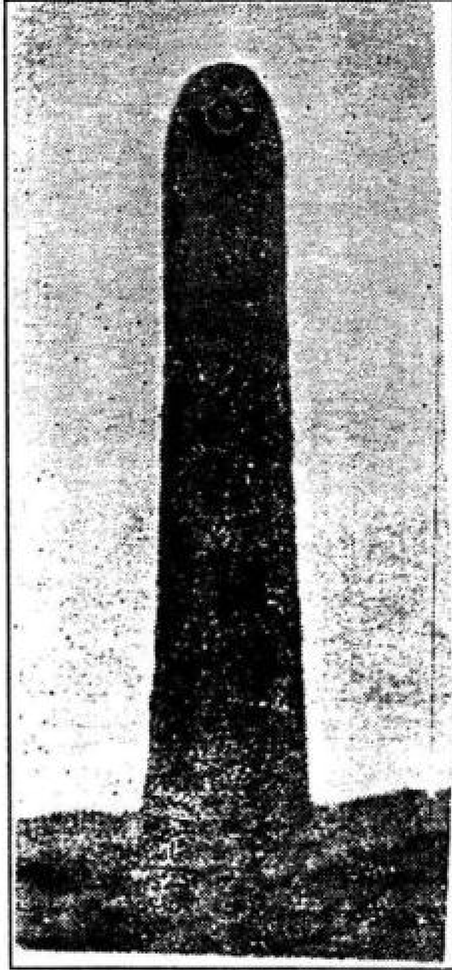
وقد انتقلت بدورها إلى الحبشة وصارت من العناصر المعمارية الرئيسية في مبانيها .





(شكل ١٠) منظر عام لثلاث مسلات (أو أنصاب) فى أكسوم
(Conti Rossini 1928, Tav. XXX no. 92)

والمسلة الوسطى يبلغ ارتفاعها ٣٣ متراً وقد حليت جوانبها بزخارف على هيئة أبواب فى جزئها السفلى ونوافذ فى جزئها العلوى .



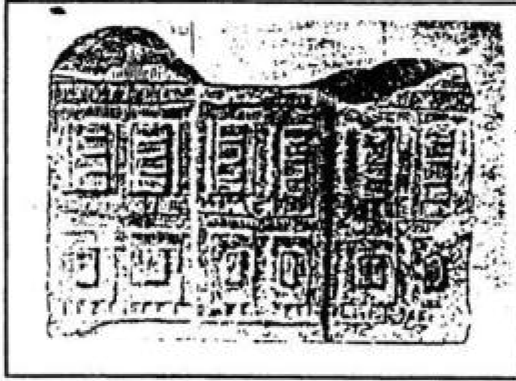
(شكل ١١) نصب على هيئة شبيهة بالمسلة توجد في مدينة " مأرب " باليمن (جامعة الدول العربية ١٩٧٠ ، صورة رقم ١٦) وكانت مقامة فوق إحدى المقابر مما يدل على أن وظيفتها جنازية وهى بذلك تشبه مسلات أكسوم التى لا شك تأثرت بها فى الشكل (القمة المستديرة) والوظيفة .



(شكل ١٢) نصب على هيئة شبيهة بالمسلة توجد فى مدينة مطرا بالحبشة (Krenker 1913, p. 66) ويلاحظ التشابه الكبير بينها وبين نصب أو مسلة مأرب الموضحة فى شكل ١١ من حيث استدارة القمة ووجود رسم القرص والهلال بالقرب من قمة المسلتين .

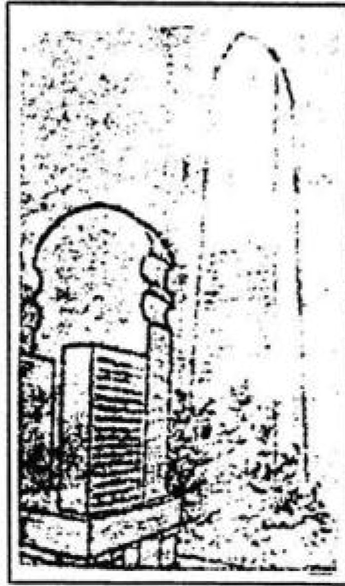


(شكل ١٣) أحد الأنصاب أو المسلات فى مدينة "يحا" بالحبشة (Conti Rossini 1928, Tav. XXVII, no. 87) وتظهر أمامها كتلة حجرية كانت تستخدم مذبحًا للأضاحى (مشار إليه بالسهم) مما يرجح أن هذه الأنصاب كانت ذات وظيفة جنازية هى عبادة الأسلاف أو الأجداد .



(شكل ١٤) حرق بخور سبئى عليه زخارف على هيئة نوافذ تشبه زخارف مسلات أكسوم .

(شكل ١٠) (تلسون ١٩٥٨ ، ص ١٦٠) .



(شكل ١٥) شكل تخيلى لنصب أو مسلة أدوليس التى وصفها الرحالة كوزماس

(**Kammerer 1929, p. 222**)



(شكل ١٦) تمثال لامرأة وجد فى " حاولتى " إلى الجنوب الشرق من أكسوم

(UNESCO 1981, P I. 13, 2a)

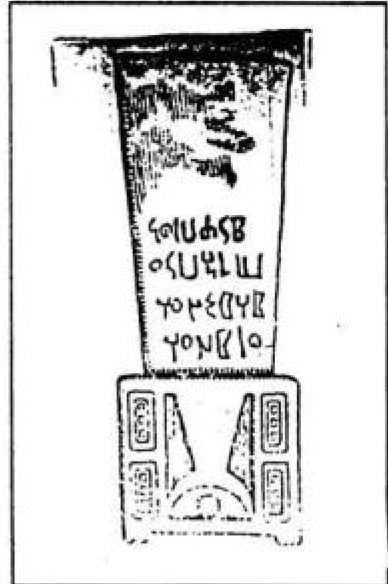
ويلاحظ الشبه الكبير بينه وبين تمثال المرأة القتبانية المسماة " برأت " الممثلة فى شكل ١٧



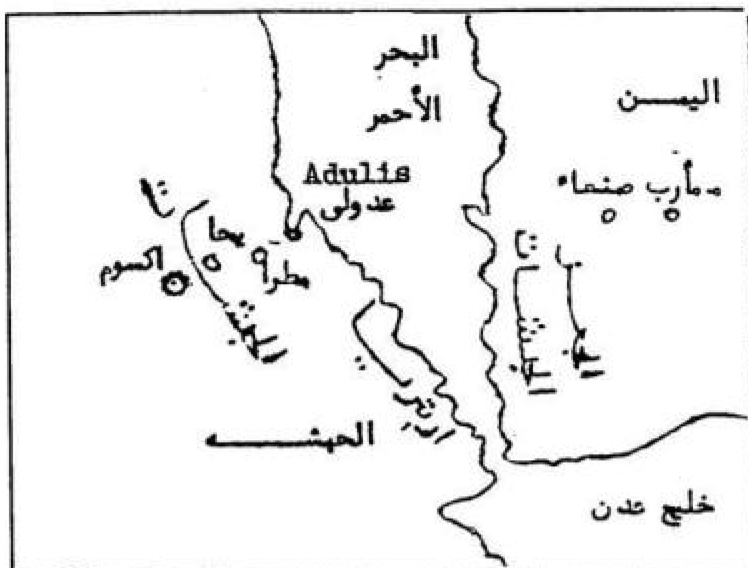
(شكل ١٧) تمثال المرأة القتبانية المسماة " برأت " وقد عثر عليه فى مدينة تمنع (هجر كحلان الحالية) عاصمة قتبان ويتمثل التشابه الكبير بين التمثالين فى جلسة المرأة وثوبها الطويل وفى القاعدة وقد نقش على قاعدة تمثال تمنع اسم المرأة وهو " ب ر أ ت " (Doe 1971, p. 48, fig. 36) .



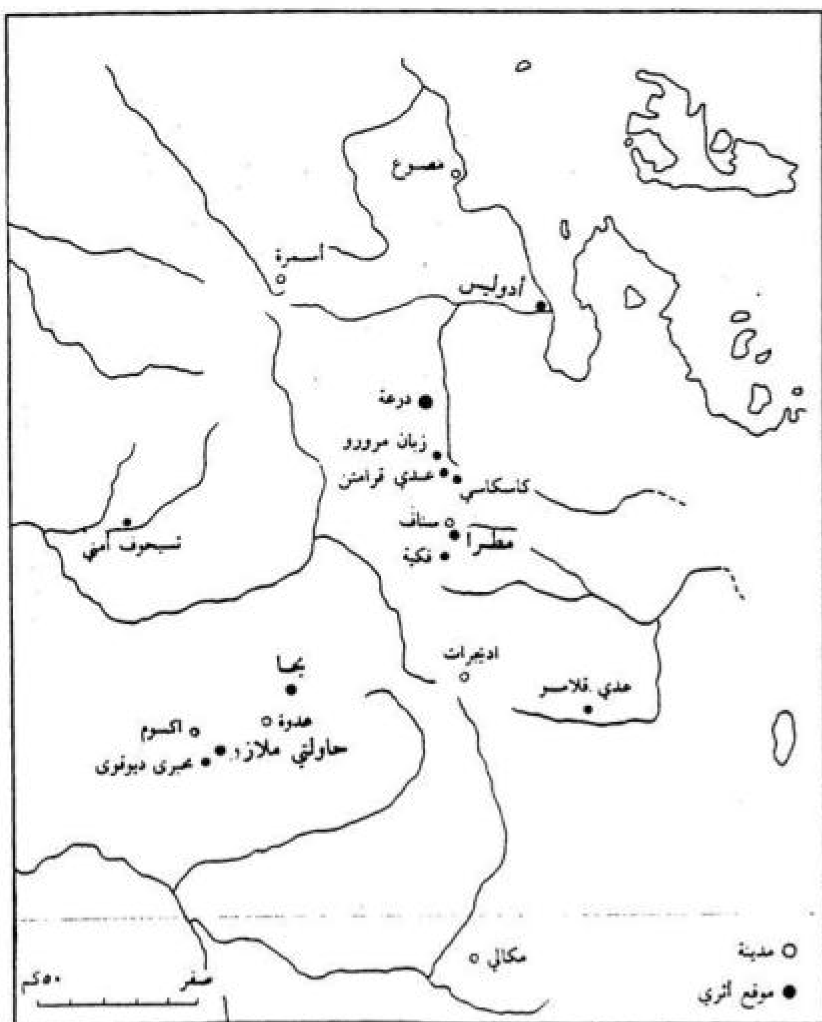
(شكل ١٨) محرق بخور وجد فى بلدة "عدى قـلامـو" (UNESCO 1981, pl. 13.3) الواقعة إلى الشرق من بلدة "يحا" بالحبشة ويلاحظ التشـابه بينه وبين مـحرق البـخور السبئى المنشور فى شكل ١٩ كما يلاحظ فيه زخارف الأسنان Denticulation الشائعة فى الزخارف المعمارية اليمنية .



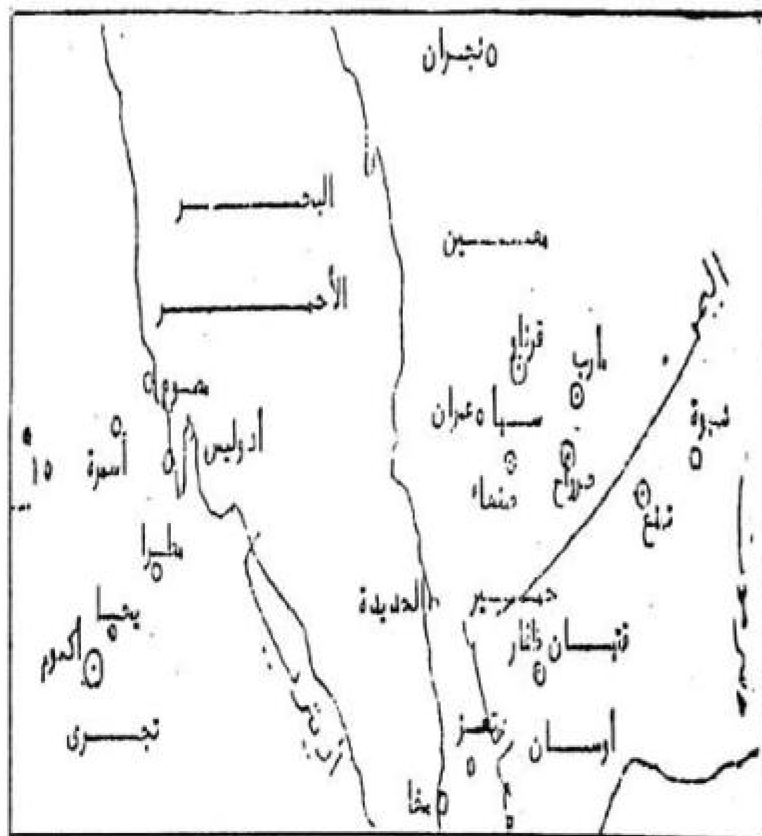
(شكل ١٩) محرق بخور سبئى نصفه السفلى ذو شكل مـخروطى أو هرم ناقص وفى الصف العلوى شكل القـرص والهـلال (Kammerer 1929, I, p.227) وهى الزخـارف التى أصـبحت عناصـر دائمة فى زخـارف مـحارق البـخور الاكسوميـة والزخارف المعمارية بوجه عام



خريطة رقم ١ : مناطق انتشار قبائل الحبشات والجعز من اليمن إلى الحبشة



خريطة رقم ٢ : مراكز ظهور التأثيرات اليمنية في الحضارة الحبشية



خريطة رقم ٢: المراكز الحضارية في كل من اليمن والحبشة وعواصم الدول اليمنية القديمة

الهوامش

١ - منذ اكتشاف هذا النص أخطأ أحد الباحثين فى فهم مضمونه وهو Forester وذلك فى كتابه :

Ch. Forester, The Historical Geography of Arabia, II, London, 1844, p. 445. إذ قــارن الكلمة الأولى منه بأول كلمة وردت فى قصيدة للقزوينى تبدأ بكلمة " سمعنا " ، واعتقد بناء على هذه المقارنة الخاطئة أن النقش هو القصيدة الشعرية التى أشار " القزوينى " إلى وجودها محفورة عى صخرة بالقرب من عدن مدعياً أنه وردت بها إشارة إلى قوم " عاد " والنبى " هود "

- غير أن الباحثين سرعان ما صححوا هذا الخطأ منذ عام ١٨٧٢م إذ تبين لهم بعد قراءة النقش قراءة صحيحة أن كاتب هذا النقش أحد القواد الذين حاربوا الأحباش تحت قيادة ملك حمير المسمى فى نقش آخر لنفس القائد " يسف أسار يثأر " واسم هذا القائد " سميفع أشوع " وأنه بعد هزيمة الملك الحميرى لجأ إلى منطقة حصن الغراب البعيدة عن متناول الجيش الحبشى . وقد كان سبب خطأ Forester اعتقاده بأن كلمة " سمعنا " الواردة فى بداية رواية القزوينى هى كلمة " سميفع " الواردة فى بداية نقش حصن الغراب . وقد نشر تصحيح هذا الخطأ كما قلنا منذ عام ١٨٧٢ وذلك فى

F. Praetorius, Himjarische Inschrifetn, ZDMG 39, 1872, p. 27-31.

- وأيضاً فى :

H.Mordtmann, New Himjarische Inschrifetn, ZDMG 26, 1885, p. 230 - 234.

- ورغم قدم هذا التصحيح فإن بعض الباحثين اللاحقين لم يفطنوا إليه ومنهم : سيد مظفر الدين نادفى كتابه:

Sayed Muzaffar-Ub-din Nadvi, Historical Geography of the Koran, 1932 .

- فقد تكرر فى هذا الكتاب توحيد نص حصن الغراب بقصيدة " القزوينى " والإشارة إلى قوم " عاد " والنبى " هود " وبالتحديد إلى الاسم التوراتى " عابر " الذى اعتبره مؤلف هذا الكتاب هو النبى " هود" (فى الروايات العربية يعتبر " عابر " أبا للنبى " هود ") .

- وقد تكرر نفس خطأ Forester - أى الإشارة إلى قوم " عاد " والنبى " هود " فى النقش فى ترجمة الكتاب السابق الذكر :

- سيد مظفر الدين نادفى - التاريخ الجغرافى للقرآن الكريم - ترجمة عبد الشافى غنيم ومراجعة حسن جوهر - سلسلة الألف كتاب (٦٧) - القاهرة ١٩٥٦ - ص ١٨٢ .

– بل وظل هذا الخطأ يتردد حتى عام ١٩٨٨ فى مقال بعنوان : اللغة والأبجديات لمحمد سالم شجاب والذى نُشر فى مجلة الإكليل – العدد الأول – صنعاء ١٩٨٨ – ٧٥ .

٢ – كتب مترجم هذا الفصل فى كتاب " تاريخ إفريقيا " الصادر عن اليونسكو ، كتب اسم هذا المعبد "برعان " وهو خطأ (اليونسكو ١٩٨٥ ص ٣٤٨) لأن الاسم السبئى فى الخط المسند هو أى " برأن " بينما الكلمة فى الأصل الإنجليزى صحيحة وهى (UNESCO 1981,p. 345)Bar' n .

٣ – ورد اسم هذا الإله خطأ فى كل من الأصل الإنجليزى والترجمة العربية لكتاب اليونسكو عن تاريخ إفريقيا إذ كتت فى الأصل الإنجليزى Ashtar وفى الترجمة العربية " عشترت " إلا أن هذا الاسم يكتب بالثاء كما ورد فى نصوص الخط المسند (أى " ع ث ت ر " وليس بالشين أى عشتر لأن عشتر اسم إلهة شمالية أنثى بينما عثتر اسم إله ذكر جنوبى (فى اليمن) راجع UNESCO 1981, p. 345 واليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٤٨).

٤ – كتب مترجم كتاب تاريخ إفريقيا الصادر عن اليونسكو ، كتب اسم هذه المرأة " برعات " (اليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٥٢) وهو خطأ وصحة الاسم " برأت " وقد ورد صحيحًا فى الأصل الإنجليزى (UNESCO 1981,p. 345)Bar't

المصادر والمراجع

استخدمنا فى كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع فى المؤلفات الأوربية والأمريكية باسم Harvard References System وذلك لتميزه عن النظام التقليدى السائد فى المؤلفات العربية بمرونته وعدم إهدار وقت وجهد القارىء فى تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المراجع . فضلاً عن المساحة التى يوفرها نتيجة لاختصاراته ، وكتابة الاختصارات فى متن البحث .

أولاً : المراجع العربية :

١ – جامعة الدول العربية ١٩٧٠ : جامعة الدول العربية ، المعالم الأثرية فى البلاد العربية ، الجزء الأول ، القاهرة .

٢ – جواد على ١٩٦٩م : جواد على ، المُفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٣ ، بيروت.

٣ – عبد العزيز صالح ١٩٨٠م : عبد العزيز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، القاهرة .

٤ – عبد المنعم عبد الحليم ١٩٩٣ : عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، الإسكندرية .

٥ – نلسن ١٩٥٨ : نلسن ، ديتلف وآخرون ، التاريخ العربى القديم ، ترجمة فؤاد حسنين على ومراجعة زكى محمد حسن ، القاهرة .

٦ – اليونسكو ١٩٨٥ : اليونسكو ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الثانى ، حضارات إفريقيا القديمة إشراف د. جمال مختار ، باريس .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1 - BSOAS : Bulletin of the Schools of Oriental and African Studies . -

2 - Conti Rossini 1928 : Conti Rossini, Carlo; Storia d'Etiopia, Parte Prina, Bergamo .

3 - Diringer 1947 : Diringer, David; The Alphabet, A Key to the History of Mankind, London.

4 - Doe 1971 : Doe, Brian; Southern Arabia, Cambridge.

5 - Doe 1983 : Doe, Brian; Monuments of South Arabia, Cambridge .

6 - Hastings 1925 : Hastings, James; (ed.) Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburagh.

7 - Huntingford 1980 : Huntingford, G.W.B; The Periplus of the Erythraean Sea, London.

8 - Jensen 1970 : Jensen, Hans, Sign, Symbol and Script. Transl. by George Unwin, London .

9 - Kammerer 1929 : Kammerer, M. Albert; La Mer Rouge, Tome Premier, M.S.R.G.E. Tome XV .

10 - Kitchen 1994 : Kitchen, K.A. ; Documentary for Ancient Arabia, Part I, Liverpool.

11 - Krenker 1913 : Kernker, D.; Deutsche Aksum Expedition, B II, Älter Denkmäler Nordabessinien, Berlin .

12 - M.S.R.G.E. : Mémoire de la Societé Royale de Geographie d'Egypte .

13 - Naville 1898 : Naville, E. ; The Temple of Deir El-Bahri, Prat III, London .

14 - PSAS : Proceedings of the Semirar for Arabian Studies, London .

15 - RES : Repertoire d'Epigraphies Semitiques, Paris.

16 - Sayed 1988 : Sayed, Abdel Monem A.H.; "Emendations of the Bir Murayghan Inscription Ry 506 and a new minor Inscription from there " PASA, Vol. 18 .

17 - Smith 1954 : Smith, Sj; "Events in Arabia in the 6th Century A.D." BSOAS, XVI .

18 - UNESCO 1981 : UNESCO, General History of Africa II, Ancient Civilizations of Africa, ed. G.Mokhtar, Paris .

د. رياض مصطفى أحمد شاهين (*)

النشـاط الاقتصـادى
لليهود فى الحجاز قبل الإسلام

ملخص البحث :

تناولت بالدراسة موضوع النشاط الاقتصادى لليهود فى الحجاز قبل الإسلام لما لهذا الجانب من أهمية ، وخصوصاً لفهم الموقف الحاسم الذى اتخذه الرسول محمد ﷺ من هؤلاء اليهود ، والذى انتهى أخيراً بإجلائهم عن مراكزهم ، والقضاء على تجمعاتهم . حيث أن للعامل الاقتصادى أهمية لا تقل عن أهمية العامل الدينى فى الصراع الذى نشب بين اليهود والمسلمين ، فلقد رأى اليهود أن مجىء الإسلام وحلوله بين ظهرانيهم فى المدينة هو نهاية نفوذهم ومكاسبهم الاقتصادية التى حققوها طوال الفترات السابقة .

ولقد حاولت فى بحثى هذا أن أتطرق فى البداية للوجود اليهودى في الحجاز حيث تناولت موقع الحجاز ، ودلالات هذا الموقع لموطن هؤلاء اليهود ، مبيناً أن اليهود استوطنوا بالأصل مناطق الواحات التى تمتاز بمياهها الكثيرة وتربتها الخصبة ، مما جعل منها محطات مهمة على طرق القوافل التجارية ، بالإضافة إلى أن ذلك أتاح لليهود ممارسة مهنة الزراعة.

وتناولت أيضًا فعاليات اليهود الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، والتى كانوا يمارسونها فى المدينة المنورة ، مما جعلها مجتمع الموارد المتنوعة ، لم يطغ فيها جانب من الجوانب الاقتصادية على الآخر .

---

* أستاذ مشارك فى التاريخ الإسلامى بالجامعة الإسلامية – غزة .

وأخيراً تحدثت عن العلاقات الاقتصادية التى تربط اليهود مع التجمعات السكانية الأخرى التى تسكن المدينة وهم الأوس والخزرج ، وأثر ذلك الجانب الاقتصادى فى خلق وإذكاء التنافس الواقع بين الطرفين ، وحاولت أن أربط بينها وبين مواقف الأطراف الخارجية خلال هذه الفترة .

الوجود اليهودى فى الحجاز :

أ – موقع الحجاز :

لابد لنا قبل الدخول فى تفصيلات الوجود اليهودى فى الحجاز من تحديد الإطار الجغرافى لإقليم الحجاز لما لهذا الموقع من انعكاس على دور هذا الإقليم والفعاليات الاقتصادية ، التى مارسها سكانه ، سواء التجارة أو الزراعة .

والذى يلاحظ من الوصف الجغرافى الذى تقدمه لنا كتب الجغرافيا الإسلامية بأن حدوده لم تكن ثابتة ، وغالباً ما تتداخل هذه الحدود بينه وبين أقاليم شبه الجزيرة العربية الأخرى وهى تهامة والعروض واليمن بالإضافة إلى الحجاز(١)، فمن ناحية الامتداد الجغرافى للحجاز نلاحظ بأنه كان يمتد شمالاً حتى تبوك ، ويتراجع من الناحية الجنوبية إلى ما وراء مدينة يثرب(٢) . وفى بعض الأحيان تدخل مدينة يثرب مع منطقة نجد المجاورة لها (٣) . كما تضاف اليمامة إلى الحجاز مع مكة والطائف(٤) . ويكاد معظم الجغرافيين يتفقون على أن الحجاز هى المنطقة المحصورة بين تهامة ونجد(٥) والممتدة على محاذاة البحر الأحمر من العقبة شمالاً وحتى عسير جنوباً وهى عبارة عن سلسلة جبال تعرف بجبال السراة (٦) . ويتمشى مع هذا التحديد ما حدده القزوينى حيث يقول " بأنه حاجز بين الشام واليمن وهو مسيرة شهر " (٧)، وتحديد المسعودى الذى يحدده بقوله " إنه حاجز بين اليمن والشام والتهائم " (٨) . والهمدانى " وهو ما حجز بين الشام واليمن "(٩) وما يصفه البكرى " ما احتجز به فى شرقية من الجبال ، وانحاز إلى ناحيته بين الجبلين " أجا وسلمى " إلى المدينة . ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيْد ، فذلك كله الحجاز " (١٠).

ويشتمل الحجاز على عدة مدن أهمها مدينة مكة ومدينة يثرب ، والطائف ، وخيبر ، ووادى القرى . ولقد لعبت الاعتبارات الجغرافية والدوافع الاقتصادية دوراً كبيراً فى نشوء هذه المدن الحجازية وتطورها . فمن الحجاز كان يمر أحد الروافد الأساسية للتجارة وطريق مهم فى

طرق التجارة البرية المعروفة فى تلك الفترة ، وهو الطريق الذى يبتدئ من موانى اليمن غرباً مخترقًا تهامة الحجاز ماراً بمكة ويثرب حتى يصل إلى أيلة على خليج العقبة ثم موانىء البحر المتوسط شرقًا (١١).

وبعد الحصار الذى لحق بتدمر على أيدى الرومان وتراجعها عن الدور الذى كانت تلعبه فى السابق . كان هذا فرصة للعرب فى الجزيرة بأن يسيطروا تدريجيًا على هذا الطريق ، وساعدهم على ذلك معرفتهم بالبادية ودروبها ، وتعودهم على الحياة فيها . كما ساعدهم على ذلك أيضًا نوعية الحيوان الذى يركبونه ، فالجمل هو الحيوان الوحيد القادر على السير فى الصحراء ولمدة طويلة ونقل التجارة ، وقيامهم بتنظيم القوافل عبر هذه الصحراء (١٢).

وساعد الازدهار التجارى على ازدهار المدن الحجازية والتى نشأت بالأصل كمحطات على طرق القوافل التجارية لتقديم الخدمات التى تحتاجها هذه القوافل من ماء ورعى للإبل حيث ساعدها على هذا الازدهار وجود المياه وحصانة الموقع ، والمتوفر لهذه المحطات جميعها سواء مكة والتى يمكن إعطاء وصفها بعض الخصوصية لوجود الحرم ، ومما استتبع ذلك من مكانة دينية ميزتها عن بقية مدن الحجاز إلا أن يثرب والطائف وخيبر وفدك ووادى القرى وتيماء هى بالأصل أراضى خصبة لوجود المياه فيها ، حيث توفر هذه المناطق خدمات إسنادية لحركة القوافل مثل التزود بالماء والغذاء المناسب استعداداً لقطع مسافة أخرى داخل هذه الصحراء .

ب - أصل يهود الحجاز :

أما الخوض فى مسألة الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية وفى شمال الحجاز بالذات ، فهى مسألة بالغة التعقيد ، ولا تخلو من منزلقات خطيرة يجب أن نكون حذرين من الخوض فيها ، إلا بالقدر الذى يخدم موضوع البحث وانعكاسات هذا الوجود اليهودى على نشاطاتهم الاقتصادية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام .

إن بعض رواياتنا تؤكد أن اليهود هم من القبائل العربية المتهودة ، فذكر اليعقوبى أن أشهر قبائل اليهود وهى بنو النضير وبنو قريضة التى استوطنت يثرب تنتميان إلى قبيلة جذام اليمانية التى هاجرت إلى الحجاز ، والتى استقرت - بعد اعتناقها اليهودية - فى مدينة يثرب(١٣) وأما القبيلة الثالثة التى سكنت المدينة وهى قبيلة قينقاع فهى من بقايا الجماعة التى رافقت سيدنا موسى عليه السلام ، للحج (١٤)، حيث تخلفت جماعة منهم ، وسكنت فى موضع سوق قينقاع ، فكانوا أول من سكنوا موضع المدينة (١٥).

ويلاحظ أنه بالمقابل لهذا الرأى هناك رأى آخر فحواه أن اليهود هاجروا إلى الحجاز من بلاد الشام فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد بعد نجاح الرومان فى فرض سيطرتهم على بلاد الشام ومصر ، وعلى اليهود ودولة الأنباط فى القرن الثانى بعد الميلاد ، مما أدى إلى هجرة هذه القبائل اليهودية إلى الحجاز ، التى كانت بعيدة عن السلطة الرومانية (١٦). واستمرت هذه الهجرة اليهودية بشكل متزايد بعد فشل التمرد اليهودى ضد الرومان ، وهى الثورة التى قضى عليها القائد الرومانى تيطس عام (٧٠م) ، وثورة أخرى أفشلها الإمبراطور هادريان بين عامى ١٣٢ - ١٣٥م (١٧).

لقد كانت فلسطين هى الامتداد الطبيعى للحجاز ، وكان من الطبيعى أن يكون هناك اتصال لسكانها بالحجاز ، واتصال مقابل لسكان الحجاز بفلسطين ، وقيام جاليات يهودية بالذهاب إلى الجزيرة العربية للاتجار والإقامة (١٨)، ويجعل ابن الكلبى هذه العلاقة قديمة منذ استيلاء نبوخذنصر على فلسطين ، " حيث أجلى من أجلى وسبى من سبى من بنى إسرائيل فلحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادى القرى وتيماء ويثرب . وكان فى يثرب قوم من جرهم وبقية من العماليق - وهم بنو عملاق بن أرفخسد بن سام بن نوح - قد اتخذوا النخل والزرع فأقاموا معهم ، وخالطوهم فلم يزالوا يكثرون وتقل جرهم والعماليق حتى نفوهم عن يثرب واستولوا عليها " (١٩).

ولكن أبا الفرج الأصفهانى يجعل هذه الهجرة من فلسطين ذات صبغة سياسية حيث يقول: " ثم ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعًا بالشام فوطئوهم ، وقتلوهم ، ونكحوا نسائهم ، فخرج بنو النضير وبنو قريضة ، وبنو هدل هاربين منهم إلى من بالحجاز من بنى إسرائيل" (٢٠).

إن هذا التضارب بين هذه الروايات قاد إلى حيرة واسعة بين المؤرخين القدامى والمحدثين الذين حاولوا أن يعرضوا لتاريخ اليهود ، فهناك من يعتبرهم عربياً ، وبعضهم يعتبر أن بعض القبائل العربية قد تهودت وليس كلها بفعل معاشرتها ومجاورتها لهذه القبائل اليهودية ونرى البعض الآخر يحاول تفسير هذا الاضطراب بأن هناك هجرتين يهوديتين من فلسطين إلى الحجاز ، وأن مهاجرى الدّور الثانى كانوا أكثر سلمية من مهاجرى الدّور الأول حيث يقول إسرائيل ولفنسون " إنهم كانوا مجرد ضيوفًا مضطرين ، نزلوا على أبناء جلدتهم فاستقبلهم هؤلاء بالحفاوة والترحيب إذ كانوا يعلمون أنهم فارون من مخالب النسر الرومانى حيث سهل هذا الامتزاج بين هؤلاء " (٢١).

إن للهجرة اليهودية خلفية سياسية أكثر منها دينية ، عندا هربوا من الاضطهاد في فلسطين والذي وصل ذروته في العصر الروماني (٢٢)، وأنه ليس من السهولة تحديد هوية اليهود الحجازيين ومدى جدية انتماء بعضهم للأصل العربي ، وعدم صحة نسبة بعضهم كبني قينقاع مثلاً إلى العنصر العربي .

ويرى إبراهيم بيضون – أنه بغض النظر عن أصل المنطقة التي وفدوا منها والتي تبقى مجرد فرضيات . كل منها له ما يؤيده يبقى أن نقول : " بأنهم ظلوا جسماً غريباً عن المنطقة ولم يتطبعوا بحياة أهلها إلا بمقدار مصالحهم الخاصة ، وأن العلاقة بين العرب واليهود لم تخلو في محورها من الاحتقار المتبادل . ولم يتأثر العرب بالديانة اليهودية على الرغم من أنها دين سماوي ، ورغم تفوق اليهود الاقتصادي والسياسي " (٢٣). فإننا نرى أن اليهود هم الذين تأثروا بالعرب وهذا ما سنراه لاحقاً في ثنايا هذا البحث .

جـ – مواطن اليهود في الحجاز :

لقد استوطن اليهود أخصب مدن الحجاز ، تلك التي تتوفر فيها الشروط المثلى للإقامة كخصوبة التربة ، وتوفر المياه والموقع الاستراتيجي المهم والمسيطر على الطرق التجارية . وأكبر هذه المواطن اليهودية وأهمها في الحجاز هي مدينة يثرب التي وصفت على أنها أقل من نصف مكة (٢٤)، وموقعها الاستراتيجي المهم على عقدة المواصلات الرئيسية لتجارة الشام حيث يصفها ياقوت على أنها " حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه " (٢٥). وهي واحة خصبة التربة غزيرة المياه محصورة بين لابتين بركانيتين تعرفان بالحرتين ، حرة واقم في الشرق وحرة السويرة في الغرب . وتحيط بها الوديان في جهاتها الأربع ، وتسير فيها الأودية مثل وادي بطحان ووادي مهزوز ووادي رانوناء . وتسير أودية المدينة منحدرة من الجنوب إلى الشمال ويسير مع انحدارها مياه الأمطار فيها جنات ذات نخل وبساتين تنبت أشجار الفاكهة" (٢٦).

وتشير الإشارات المتوفرة في مصادرنا ، بأن اليهود هم أول من استوطنوا يثرب "فلما قدم بنو النضير ، وقريضة وهدل المدينة ، نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها ، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً سواها ، فخرج حتى أتي العالية وهي بطحان ومهزوز واديان من حرة على تلاع الأرض عذبة، بها مياه عذبة، تنبت حُرُّ الشجر فرجع إليهم فقال قد وجدت لكم بلداً طيباً نزهاً على حرة يصب منها واديان على تلاع عذبة، ومدرة طيبة في متأخر الحرة" (٢٧).

إن أشهر القبائل اليهودية التي سكنت يثرب هم بني النضير وبني قريضة ، حيث سكنوا حرة واقم فى الناحية الشرقية من يثرب ، وهى أخصب المناطق ، وهم ما يطلق عليهم لقب سكان العوالي [٢٨]. وأما قبيلة بنى قينقاع فقد سكنت الجزء الجنوبي الغربي من واحة يثرب[٢٩]. ومنطقة السافلة و أما بقية قبائل اليهود ، فكانت منتشرة فى أماكن متعددة من مناطق يثرب الغنية ، فبنو بهدل (هدل) وبنو عوف كانوا إلى جوار قبيلة بنى قريضة ، وتنزل بنو القصيص وبنو ناغضة بقباء ومنازل بنى مرير وبنى معاوية وبنى ماسكة ، تقع شمالى وادى مهزوز وبنو زعوراء سكنوا منطقة العوالي قرب مشرية أم إبراهيم ... والتى كانت تسمى الملك أو فراقة النمل [٣٠]. وبنو عكرمة (عكوه) وبنو مراية ، سكنوا طرف حرة واقم شمالى منازل بنى حارثة (فى الأوس) ، بينما كانت ثعلبة وجماعات غيرهم من اليهود يسكنون قرية زهوة بناحية واحة العريض . كما كان يعيش فى شمالى يثرب ويقرب جبل أحد جماعات من اليهود[٣١].

إن هذا الاستعراض لمواقع اليهود فى يثرب يثبت أن اليهود كانوا يسكنون أخصب مناطق يثرب وأغناها [٣٢]. مما كان له الأثر الفعال فى نشاطهم الاقتصادى فى يثرب . ويمكننا أن نقول وبشيء من الثقة أن اليهود الذين سكنوا الناحية الشرقية من يثرب أو العوالى كما تسميهم مصادرنا ، كانوا يتمتعون بالغنى والمكانة الاجتماعية المرموقة أكثر من غيرهم الذين سكنوا النواحى الأخرى فى يثرب .

وأشهر المواطن اليهودية بعد يثرب هى خيبر التى عرفت قبل الإسلام بأنها ريف الحجاز[٣٣] وهى على ثمانية أميال من المدينة لمن يريد الشام وتشمل هذه المنطقة على سبعة حصون وبها مزارع نخل كثير ، وأسماء حصونها : حصن ناعم ، والقموص ، وحصن أبى الحقيق وحصن الشق ، وحصن النطاة والسلالم وحصن الوطيح ، والكتيبة ، وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن [٣٤].

ومن مواقعهم المشهورة أيضاً فدك ، وسكانها مثل أغلب يهود الحجاز ، امتهنوا الزراعة واشتغلوا بالتجارة وبعض الحرف التى تخص اليهود مثل الصياغة والحدادة ، والنجارة [٣٥].

ووادى القرى وسمى بهذا الاسم لأن به من أوله إلى آخره قرى منظومة ، وكانت قديماً منازل ثمود وعاد ، وبها أهلكهم الله ، ونزلها بعدهم اليهود ، واستخرجوا عظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها [٣٦].

وكانت أيضًا تيماء والتى فيها حصن الأبلق وهو حصن السموءل بن عاديا اليهودى(٣٧). وكان أيضًا بين أهل مقنا وأيلة فى أيام الرسول قوم من اليهود ، وكذلك أهل بقية القرى الواقعة فى أعالى الحجاز وعلى ساحل البحر . ومن هؤلاء اليهود بنو جنّة ، وهم يهود مقنا(٣٨)، وبنو عاديا(٣٩) ، وبنو عريضة (٤٠).

ولا يستبعد أن يكون هناك قوم من اليهود بالطائف ، ولكنهم كانوا قلة حيث يذكرهم البلاذرى " حينما صالح أهل الطائف الرسول " : فصالحهم على أن يسلموا ويقرهم على ما فى أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم أن لا يرابوا ولا يشربوا الخمر ، وكانوا أصحاب ربا ، وكان بخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها التجارة ، فوضعت عليهم الجزية . ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف (٤١)، ولا يستبعد أن يكون قد قدم الطائف جاليات يهودية جاءت إليها من اليمن ويثرب إبان الاضطرابات السياسية .

ويظهر أنه كان هناك وجود يهودى فى مكة قبل الإسلام ، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الوجود الذى يظهر أنه كان متعلقًا أساسًا بالنشاط التجارى ولا تخرج عن كونها صورًا من الإقامة الفردية . مثل ذلك الإشارة التى ترد عن اليهودى الذى كان يقيم بجوار عبد المطلب بن هاشم ، الذى حرض حرب بن أمية على قتله لنشاطه التجارى الواسع (٤٢).

ويرى جواد على أنه يمكن الإشارة إلى وجود جاليات من اليهود فى المدن التى اشتهرت بالتجارة كبعض موانئ البحر الأحمر وموانئ سواحل العربية الجنوبية ، غير أن وجودهم فى هذه المواضع لم يكن له أثر واضح حيث لم يتجاوز محيط التجارة والاتجار (٤٣).

النشاط الاقتصادى لليهود فى الحجاز :

إن الحديث عن النشاط الاقتصادى لليهود فى الحجاز لا يمكن فصله بأية حال من الأحوال عن الحديث عن النشاط الاقتصادى بشكل عام فى تلك الفترة ، فلقد مارس اليهود جميع الأعمال الاقتصادية التى كانت مألوفة فى عصرهم ، من زراعة وتجارة وصناعة ، وخير صفة يمكن أن نطلقها على مجتمع المدينة فى تلك الفترة ، بأنها مجتمع الموارد المتنوعة ، فلا نرى جانبًا يتطور على حساب جانب آخر ، كما هو الحال فى مكة ، حيث نرى أن النشاط الرئيسى الذى ميزها هو النشاط التجارى بحكم موقعها وطبيعتها الصحراوية .

أ – النشاط الزراعي :

إن المواطن التي سكن فيها اليهود هي بالأصل عبارة عن واحات تتوفر فيها الشروط اللازمة لممارسة العمل الزراعي ، الذي لم يكن الوحيد كما لاحظنا ، فيثرب أهم هذه المراكز اليهودية التي لم تتميز بنمط إنتاجي معين . وإن كانت الزراعة أهم أعمدة الحياة الاقتصادية فيها ، فأرضها بركانية تمتاز بخصوبة تربتها ، وتجرى فيها أودية كثيرة تفيض بمياه السيول، التي تتجمع في الحرات الشرقية والجنوبية في فترات مختلفة من السنة (٤٤). وكانت هذه الأودية تسيل فيها المياه ، والتي كانت غزارتها تتراوح حتى تصل إلى أكثر من ارتفاع الكعبين، ولكنها كانت تفيض أحيانًا حتى تصل إلى أنصاف النخل (٤٥). كما يبدو أنه استخدمت الآبار الكثيرة المنتشرة في يثرب لري هذه المزروعات ، وكان – قبل الإسلام – يناط بالعبيد مهمة القيام بهذه الأعمال الزراعية (٤٦).

وترد إشارات كثيرة لهذه الآبار ، ويتضح من هذه الإشارات أن ملكية هذه الآبار كانت أصلاً لليهود ، مثل بئر أريس نسبة إلى رجل يهودي يقال له أريس ، ومعناه بلغة أهل الشام الفلاح (٤٧). ويظهر أن هذه البئر كانت من الضخامة بحيث إن عثمان رضى الله عنه حينما سقط خاتمه " علق عليها اثنا عشر ناضحاً فلم يقدر عليه " (٤٨).

وهناك أيضاً بئر خنافة ، وكانت لخنافة اليهودي(٤٩) ، وبئر رومه ، وكان ليهودي أمر رسول الله ﷺ بشرائها فاشتراها عثمان (٥٠). وبئر ذروان ، وهي البئر التي ذكر أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر رسول الله بها ، كما يشار أيضاً لبئر عاضد ، وبئر الأعواف (٥١).

ومن الطرق التي يبدو أنها استخدمت في تنظيم رى المزروعات وسقاية النخيل ، فقد وردت إشارة إلى الطريقة التي كان الزراع بها يقسمون الماء بينهم " بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى تسقي نخله فتصل إلي جذوره ، بارتفاع الكعبين ، ثم يرسلها إلى من هو أسفل منه فيسقي " (٥٢). هذا بخصوص الأودية أما إذا انخفض منسوب المياه في هذه الأودية فكانوا يلجئون إلى استخدام الآبار ، أو يحملون المياه على الجمال النواضح لري الجهات التي تبعد عن مجرى سيلان المياه (٥٣).

ومن أشهر المزروعات التي تشتهر بها المدينة ، والواحات الأخرى التي استوطنها اليهود في الحجاز هي أشجار النخيل ، وكانوا يزرعونها في مغارس كبيرة ، وقد يحوطونها فتكون حدائق وكانت أرض المدينة صالحة لزراعة النخيل ، حتى ليقال إن وديّة النخل تثمر بعد عام واحد من زراعتها (٥٤).

ويظهر أن النخيل كان عصب الحياة الاقتصادية لسكان الحجاز ويعتمد عليه السكان اعتماداً أساسياً فى طعامهم ، والتعامل بينهم ، وكان يتخذ وسيلة لدفع الأجور وتسديد الديون(٥٥). كما كانوا يأكلون جمارها " شحم النخل وهى أعلى الساق تحت الجريد " (٥٦)، بالإضافة لاستخدام جريدها لصناعة المكاتل والقفف من خواصها ، كما كانوا يستخدمونها في سقف سطوح منازلهم وعرائشهم التى يستظلون بها من الحر " (٥٧). إضافة لاستخدام أشواكها وكرانيفها للوقود ، ويرضخون النوى بالمراضخ حتى يتكسر ، فيكون علفاً للإبل ، وكانت النخلة من الاحترام والمكانة فى تلك الفترة ، والفترة الإسلامية حيث شبه الرسول ﷺ المؤمن الصالح بالنخلة ، كل ما فيه خير (٥٨).

وكان هذا النخل ينتج أنواعاً متفاوتة الجودة من التمور ، وكان أجود هذه الأنواع من التمر نوع يسمى الصيحانى ، وأبن طاب ، وعزق زيد ، والعجوة ، والصيفان وهو نوع من التمر أحمر وهو أوزن التمر كله ، والخبيب وهو من أجود أنواع التمر . وكان ليهود بنى النضير نوع فاخر من التمر يقال له اللوز ، " أسفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحّمة " (٥٩).

ولم تكن زراعة النخيل حكراً على المدينة وحدها من دون واحات الحجاز التى عاش بها اليهود سواء فدك أو خيبر أو تيماء التى كانت غنية بأشجار النخيل ، وتعتمد فى حياتها على هذه الغلة اعتماداً كبيراً جداً ، حتى أن الرسول ﷺ اتخذ من قطع أشجار النخيل وسيلة للضغط والتهديد لإجبار هؤلاء اليهود على الاستسلام فى حروبه معهم ، كما حصل مع بنى النضير التي نزلت فيها الآية الكريمة ، " ما قطعتم من لينة ، أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين " (٦٠).

ويهود خيبر هم الذين قالوا عن أنفسهم : " نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها " (٦١)، و "إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً" (٦٢)، كما كان يهود خيبر فى نظر من حولهم من القبائل العربية هم " أهل النخل " (٦٣). ولا عجب ! فيهود منطقة الحصون ، كانوا أحرص الناس على زرع النخيل وغرسه ، وكانوا أكثر خبرة بزراعته وسقيه(٦٤) فالنخلة عنهم " أحب إليهم من أبكار أولادهم " (٦٥).

كما يظهر أن فتح خيبر قد عادت على المسلمين بثروة هائلة من التمور(٦٦) حيث كانت "موصوفة بكثرة النخل والتمر " بحيث نرى عائشة رضى الله عنها تقول " الآن نشبع التمر " وقول ابن عمر " ما شبعنا حت فتحنا خيبر " (٦٧). وليس أدل على كثرة محصول التمر فى

الواحة الخيبرية من أن نخل وادى الكتيبة كان ينتج ثمانية آلاف وسق من التمر (٦٨)، وأما عن الإنتاج الكلى لمحصول التمر فى واحة خيبر فى عام، فإن ابن شبه يذكر فى كتابه تاريخ المدينة المنورة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن رواحة ليخرص على يهود خيبر النخل، فخرص عليهم أربعين ألف وسق من التمر (٦٩).

ويأتى الشعير بالمرتبة الثانية بعد النخيل، وكان يعتمد عليه السكان اعتماداً رئيسياً فى غذائهم وكانوا يزرعونه فى حقول خاصة، بالإضافة لزراعته تحت النخيل، ويظهر أن كمية الإنتاج من الشعير كانت وفيرة (٧٠)، فكان إنتاج وادى النطاة من الشعير وفيراً (٧١)، وما غنمه المسلمون من (دار بنى رقمه) يقطع بوفرة إنتاج هذا الوادى (٧٢)، "كما كان يزرع فى الكتيبة شعير، فكان يحصد منها ثلاثة آلاف صاع" (٧٣). كما وجد فى حصن الصعب وهو من حصون النطاة شعيراً كثيراً(٧٤) أما عن الإنتاج الكلى لمحصول الشعير فى خيبر لوحدها فقد بلغ حوالى عشرة آلاف صاع(٧٥) وكانت له مخازن فى الحصون والأطام والدور، وكان اليهود يتاجرون بدقيق الشعير ويبيعونه فى الأسواق (٧٦).

كذلك زرع اليهود القمح والكروم وكان إنتاجه وفيراً(٧٧) وبعض أنواع الفاكهة الأخرى من رمان وموز وليمون وبطيخ، كما كانت تزرع بعض الخضروات والبقول. كالقرع واللوبيا والسلق والبصل والثوم والقثاء (٧٨). إذ حرص اليهود على أكلها لما فيها من صحة أبدانهم فيما يعتقدون (٧٩)، ويخبرنا أبو ثعلبة الخشنى أنه غزا مع رسول الله ﷺ خيبر، "فوجدوا فى جنانها بصلاً وثوماً فأكلوا منه وهم جياع"، وفى رواية أخرى "حتى تقرحت أشداقهم ثم نهى النبى ﷺ عن إتيان المسجد لمن أكلها (٨٠). ومن مصادر الثروة الزراعية أيضاً حب ألبان، ومنها كان يحمل إلى سائر البلدان (٨١).

لقد استوطن اليهود كما أسلفنا سابقاً أصلح الأراضى الزراعية فى يثرب ويظهر أن هؤلاء اليهود سيطروا على مركز الثروة الاقتصادية والثروة الزراعية فى المدينة، وكانوا من أشهر أهلها غنى وثروة الذين يمتلكون الأراضى الزراعية الواسعة فهذا مخيريق اليهودى حين أسلم أوصى بأمواله للرسول، وبلغت هذه الأموال سبع حوائط" (٨٢).

ولقد استخدم هؤلاء اليهود الأساليب التى تضمن لهم الربح، وقاموا بإعطاء الأرض لمن يزرعها على نظام المزارعة، وحسب جودة هذه الأرض، وكانوا يزارعون على الثلث أو على الربع، وأحياناً على النصف مما تنتجه الأرض (٨٣)، وطبقوا أيضاً نظام المؤاجرة، حيث

كانت الأرض تؤجر إما مقابل مبلغ محدد من النقود ، أو جزء من المحصول ، أو تقسيم الحقل إلى قسمين ، قسم لصاحب الأرض وقسم للمزارع الذى يقوم بزراعتها (٨٤).

ويلاحظ أنه على الرغم من هذا النشاط الزراعي الواسع لليهود إلا أن حاصلات بعض المناطق مثل المدينة لم تكن لتكفى حاجة سكانها المتزايدة ، بحيث كانوا يستوردون ما يحتاجونه من بلاد الشام ، وتصل بهم الحاجة حداً لأن يشاركوا نبط الشام ، فى الحنطة والشعير والزبيب إلى أجل مسمى ، قد يبلغ سنة أو سنتين ليضمنوا الحصول على ما يحتاجونه منهم (٨٥).

ويظهر أن السيطرة الاقتصادية لليهود على المدينة كانت سبباً فى فقر سكانها الأصليين وحرمانهم ، وسوء أحوالهم الاقتصادية ، ويبدو أن عملية إجلاء اليهود عن المدينة فى عصر الرسول ﷺ كانت تعبيراً عن هذا الوضع السيئ ، ولتضايقهم من السيطرة الاقتصادية لليهود على مجتمع المدينة فى تلك الفترة ، وتركت هذه العملية أثرًا إيجابيًا على هؤلاء ، وأخذوا لهم رزقًا فى العمل والتجارة (٨٦).

ويرى ولفنسون أن اليهود أسهموا فى تطوير الزراعة وتنوعها " بإدخالهم أنواعًا جديدة من الأشجار وطرقًا جديدة للحراثة والزراعة بالآلات " (٨٧)، ولكن هذا بتقديرى يعود للبيئة الحجازية نفسها التى وجد اليهود أنفسهم بها ، هذه البيئة التى أسهمت فى إنجاح أية عملية تطوير للعمل الزراعى التى فرضت عليهم هذا النمط الزراعى فى يثرب . وفرضت بالمقابل العمل فى التجارة على مكة . وهذا ينفى قول ولفنسون بأن اليهود كانوا أساتذة الحجاز فى ممارسة العمل الزراعى ، لأنه ينكر بهذا دور القبائل اليمانية ، ذات التراث العريق والخبرة الزراعية الواسعة التى جلبتها معها من اليمن موطنها الأصلى ، وطبقتها فى المدينة ، ولكن يبدو أن الخبرة الوحيدة التى أدخلها يهود الحجاز إليه هى عملية بناء الحصون والآطام . وهى لم تكن معروفة لدى عرب الحجاز ويظهر أن اليهود قد نقلوها معهم من بلاد الشام . وبلغ عددها فى يثرب لوحدها تسعة وخمسين أطمًا "(٨٨) .

والآطام كلمة عبرية تعنى حوائط بدون نوافذ من الخارج ، وبالعربية "البناء المرتفع "(٨٩). ولهذه الآطام استخدمات متعددة وتقدم خدمة كبيرة الأهمية لأصحابها فيحتمى فيها السكان عند هجوم العدو ، وتأوى إليها النساء والأطفال عندما يخرج الرجال للحرب كما كانت تستخدم مخازن للغلال والأسلحة ، وتنزل بجوارها القوافل ، وتقام الأسواق على أبواب هذه

الآطام ، ويوجد فى كل أطم بئر يستسقى منه أهله ، إذا هاجمهم العدو . كما كانت هذه الآطام تشتمل على المعابد ودور المدارس ، ليجتمع بها الزعماء للبحث والمشاورة فى كل أمورهم (٩٠). ولقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى : { لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ }(٩١). لقد كانت لكل قبيلة يهودية آطام اشتهرت بها فمن آطام بنى قينقاع أطم قرع(٩٢)، ومن أشهر آطام بني النضير حصن كعب بن الأشرف ، وهو الذى أمر الرسول ﷺ بقتله لأنه كان يهجو الرسول ويحرض كفار قريش على الرسول(٩٣) .

وحصن ناضحة ، وحصن عمر بن جحاش ، وحصن البديلة ، وحصن براج ومنور (٩٤)، ومن حصون بنو قريضة ، حصن الزبير بن باطا القرضي ، وحصن كعب بن الأشرف ، ويسمى حصن (بلجان) ، وكذلك حصن الملحة ، والمعرض ، وهو الحصن الذى يلجئون إليه عند الشدة (٩٥). ومن أشهر حصون القبائل اليهودية الأخرى أطم صوار ، والريان ، والعاشان لبنى ثعبه (٩٦). وهناك حصن الشفجان شمالي شرق المدينة قرب وادى قناة (٩٧). ومن أشهر حصون خيبر : الشق والنطاة وماحيز والكتيبة والسلالم والوطيح (٩٨). وحصن ناعم والقموص، وحصن أبي الحقيق (٩٩)، وحصن الأبلق ، وحصن السموءل بن عاديا المشرف على تيماء (١٠٠).

ب - النشاط الصناعي :

كان النشاط الصناعي فى المدينة المنورة متقدمًا عنه في كافة المدن الحجازية الأخرى وكانت هذه الصناعات ضرورية للأعمال الزراعية ، ثم أنه كان بها صناع مختصون احترفوا أنواعًا من الصناعات وبرعوا بها ، وخصوصًاتلك الصناعات التى يحتاجها الناس فى استخداماتهم اليومية (١٠١).

ومن أشهر هذه المصنوعات تلك التى تعتمد على الإنتاج الزراعى وأهمها صناعة الخمر الذى كانوا يصنعونه من التمر ، والتى كانوا يسمونها الفضيخ ، وكانوا يشربونها ويتاجرون بها ولديهم منها كميات كبيرة يختزنونها فى جرار ، وكانت هذه الصناعة عامة يمارسها العرب واليهود على حد سواء (١٠٢).

كما اشتهرت بصناعة الخوص من سعف النخل ، بالإضافة لصناعة المكاتل والمقاطف والقفف . وأعمال التجارة اللازمة للبيوت من أبواب ونوافذ وأثاث كان أغنياء اليهود يمتلكون الكثير من الأثاث فى بيوتهم ، وكان استعمال الكراسى أمرًا شائعًا حيث يصنعونها من الخشب وأرجلها من الحديد (١٠٣).

ولقد ساعد على تقدم الصناعات الخشبية في يثرب وفرة أشجار الخشب والطرفاء، والأثل في منطقة الغابة في الناحية الشمالية الغربية من المدينة (١٠٤).

وكانت الحدادة إحدى الصناعات القائمة في المدينة والمرتبطة في الأعمال الزراعية ، حيث ازدهرت بعض المصنوعات التي تحتاجها طبيعة الأعمال الزراعية التي يمارسها السكان في نشاطهم الزراعي ، حيث تحتاج الزراعة إلى أدوات مختلفة مثل الفئوس ، والمحاريث ، والمساح والمناجل للحصاد ، وغيرها من الآلات التي كان يمارسها العرب واليهود على حد سواء . وإن كانت الموالي والعبيد أكثر احترافًا لها(١٠٥). وهذا يخالف ما جاء به أحد الباحثين المحدثين في أن العرب كانوا يأنفون العمل بها ويعتبرونها من المهن الحقيرة (١٠٦). فنرى أن ممارسة هذه المهنة لم تنحصر فقط بالجماعات اليهودية ، ولكنها كانت ممارسة عامة للجميع بدون استثناء .

واشتهر اليهود وخصوصاً يهود بني قينقاع بالصياغة حيث احترفوها ولم يحترفها أحد من العرب معهم (١٠٧). ومن هذه المصنوعات التي كانوا يصوغونها الأساور والدمالج والخلاخيل والأقرطة والخواتم ، والفتخ والعقود من الذهب ، أو من الجوهر والزمرد ، أو من الجزع الظفاري ، وهو خرز ثمين به ألوان بيضاء وسوداء ، وكانت هذه الحلي تباع في سوق خاص بهم(١٠٨).

وجاء في الأغاني أن النابغة النبياني أقبل إلى المدينة يريد سوق بني قينقاع فلما أشرف على السوق سمع الضجة وكانت سوقًا عظيمة فحاطت به ناقته (١٠٩). وحين فتح رسول الله ﷺ خيبر ، وكان قد اشترط على أهلها أن لا يخفوا عليه شيئًا ويظهر من هذا أن آل أبي الحقيق وهم المهيمنون اقتصادياً من اليهود في تلك الفترة كانوا يمتلكون ثروة من هذه المصوغات الذهبية التي لها شهرة واسعة جدًا لدرجة أن بعض أهل مكة كانوا إذا عرسوا يأتوا إليهم ليستعيروا ذلك الحلي لمدة شهر ، وكان ذلك الحلي يكون عند الأكابر ، وهم في الأغلب من آل أبي الحقيق (١١٠). وكان هذا الكنز عبارة عن مسك جمل ، جله أساور وذهب ودمالج ذهب ، وخلاخل ذهب ، وأقرطة ذهب وتظم من جوهر وزمرد وخواتم ذهب ، وفتح بجزع ظفار مجزع بالذهب (١١١).

وتفوق اليهود أيضًا بصناعة الأسلحة كالدروع التي كانوا من البراعة فيها ، حتى أنه ليقال: إنهم ورثوها عن النبي داود عليه السلام (١١٢)، وكانت السيوف والنبال تصنع بالمدينة ونبال يثرب مشهورة ، وكان من هؤلاء الصناع من يتخصص في حداء الأسلحة ، وصقل

السيوف(١١٣). بالإضافة لمصنوعاتهم من أدوات الصيد المختلفة كالفخاخ والشباك ... وأشراك الحديد ، وغير ذلك (١١٤).

ويبدو أن هؤلاء اليهود كانوا يمتلكون ثروة واسعة من هذه الأسلحة ، كانوا يخزنونها فى حصونهم وآطامهم فحين فتح الرسول ﷺ خيبر وجد فيها ألف وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة درع ، وألف رمح ، وألف وخمسمائة ترس وحجفة (١١٥).

وكذلك وجد المسلمون حينما فتحوا حصون بنو قينقاع كثير من الدروع والسيوف والأقواس ووجدوا سلاحًا كثيراً وآلة للصياغة (١١٦). وغنموا كذلك الكثير من الأسلحة حينما فتحوا حصون بنو قريضة (١١٧).

وإلى جانب هذه الصناعات الهامة كانت تقوم صناعة النسيج والتى تمارسه النساء (١١٨). بالإضافة لذلك وجدت حرف أخرى ، مثل الخياطة والدباغة وأعمال النحت وضرب الطوب(١١٩)، بالإضافة إلى صنع آنية المنازل ، وأدواتها من نحاس وفخار للأكل والشرب ، وما إلى ذلك من مصنوعات (١٢٠).

ومن هذا نلاحظ أن اليهود فى شمال الحجاز كان لهم باع طويل فى النشاط الصناعى حيث مارسوا كافة الحرف المتعلقة بحياتهم وأعمالهم الزراعية ، ومع أن اليهود برعوا فى جوانب معينة في هذه الصناعة ، بل حتى احتكروها كصناعة الصياغة ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن ممارسة العمل الص ناعي بجميع جوانبه لم تكن حكراً عليهم لوحدهم ، بل شاركهم فيها سكان المدينة الآخرون من العرب .

جـ - النشاط التجارى :

إن الحجاز مكان يشقه شريان التجارة الرئيسى ، الذى تتفرغ منه شرايين تتجه باتجاه الشرق والشمال الشرقى ، كما يسير بمحاذاته شريان آخر مهم ، هو طريق البحر الأحمر المؤدى إلى الهند ، لهذا فإن الحجاز كان جسراً يربط بلاد الشام وحوض البحر الأبيض المتوسط مع اليمن والحبشة والصومال بالسواحل المطلة على المحيط الهندى ، وكان لهذا الطريق أعظم الأثر فى قيام مدن تجارية بالحجاز ، كمحطات تجارية واقعة على هذا الطريق البحرى (١٢١).

ومما زاد من قيمة هذا الطريق وازدياد مكانته التجارية هو النزاع الفارسى البيزنطى ، ذلك النزاع الذى بلغ أشده فى القرن السادس الميلادى بسيطرة الأحباش واحتلالهم لليمن وما

تلاه بعد ذلك من احتلال فارسى لها . وقيام الحروب المتصلة بين هاتين الإمبراطوريتين حيث أدى هذا لإغلاق طريق التجارة الشرقى ، المار بين العراق إلى بلاد الشام ، بالإضافة لخلو الطريق البحرى عبر البحر الأحمر من السفن الرومية ، ولم تستطع البحرية الحبشية أن تسد هذا الفراغ فيه ، فأصبح ميدانًا لسفن القراصنة (١٢٢). وساعد هذا على أن يكون الطريق البرى المار عبر الحجاز هو الطريق المفتوح أمام التجارة .

لقد نشطت مكة ويثرب كمحطات تجارية على هذا الطريق التجارى الذى يربط اليمن بالشام، ومع أن الإشارات متوفرة وبكثرة عن النشاط المكى التجارى ، إلا أن هذا لا يمنعنا من الافتراض بأن المدينة شاركت مكة مثل هذا الدور ، وإن كانت لم تختص بالتجارة لوحدها مثلما هو الحال فى مكة بل لها موارد اقتصادية أخرى غير التجارة .

لم يقتصر دور يثرب ومكة التجارى على كونهما محطات تجارية بل شاركتا فى العمل التجارى نفسه فكانتا مدينتين تجاريتين لهما نشاطهما الخاص بهما .

إن طبيعة كون يثرب مدينة محاطة بالقرى والأعراب لابد أن تكون فيها حركة تجارية وأن يكون كثير من أهلها قد تفرغوا للأعمال التجارية (١٢٣)، ومما يؤكد هذا الدور الكثير من الإشارات القرآنية المتعلقة بهذا النشاط التجارى (١٢٤).

وكانت حركة التجارة الداخلية نشطة بين سكان يثرب والقبائل المحيطة بها مما يدفعنا للقول ، بأنه قامت حركة واسعة للتبادل التجارى بين المدينة التى اشتهرت بمنتجاتها الزراعية وصناعاتها وبين هذه القبائل التى كانت تشترى من يثرب ما تحتاجه وتتبادل معها بما تنتجه من منتجات حيوانية من وبر وحليب وسمن .

وكان دور اليهود فى هذا النشاط التجارى الداخلى كبيرًا ، فاليهود مارسوا كل أنواع المعاملات التجارية المعروفة فى زمانهم ، ووسعوا نفوذهم الاقتصادى بين القبائل العربية ، ووجهوا كل نشاطهم التجارى لتضخيم ثرواتهم التى اعتمدوا فيها على مختلف المعاملات والقروض الربوية ، كما امتازوا أيضًا ببعض الصناعات المربحة كالصياغة والنسيج ، وكانوا قبل الإسلام من أكثر سكان يثرب نشاطًا فى تجارة البر والشعير والتمر ، واحتكار صناعة الخمر وتجارته ، حيث وفرت تلك التجارة لهم أرباحًا طائلة (١٢٥).

ونشطت فى يثرب بعض الأسواق التجارية الكبيرة ، التى تعتبر مؤشرًا على النشاط التجارى الواسع الذى شهدته قبل الإسلام من أشهرها هو سوق بنو قينقاع ، وهو السوق

الذى امتدت شهرته حتى بداية عصر النبوة (١٢٦). ومما يشير لنشاط هؤلاء اليهود التجارى وعدائهم للحركة الإسلامية الجديدة لمحاولة الرسول ﷺ اتخاذ سوق آخر فى موضع بقيع الزبير(١٢٧). وربما أراد الرسول ﷺ بذلك أن يضرب احتكار اليهود لهذه التجارة ، وتحويل مركز الثقل الاقتصادى ليد المسلمين ، وربما أراد بذلك التخلص من العمليات الربوية الواسعة التى كانت تجرى فى ذلك السوق مما يتنافى مع القيم الإسلامية الجديدة التى أراد الرسول ﷺ ترسيخها ، ومما يشعر بالدور الكبير الذى كان يؤديه هذا السوق فى يثرب قبل الإسلام ، وتحول المسلمين إلى سوق جديد حيث بدأ هؤلاء اليهود يشعرون بالخطر يتهدد مصالحهم بقيام الرسول ﷺ بنقل سوق يثرب إلى موضع جديد قائلاً لهم : " هذا سوقكم فلا تضيق ولا يؤخذ فيه خراج " (١٢٨) حيث قام كعب بن الأشرف أحد الزعماء اليهود بإظهار عداوته لهذه الخطوة الجديدة حيث دخل الخيام وقطع أطنابها .

واستمر سوق بنى قينقاع يؤدى دوره حتى بعد معركة بدر عام ٢ هـ / ٦٢٣م . فعندما انتصر المسلمون على مشركى مكة ومجاهرة يهود بنى قينقاع بالعداء للرسول ﷺ " ذهب إليهم فى سوقهم ونصحهم بعدم إثارة الفتن " (١٢٩).

ويلاحظ أن هذا السوق كان يؤدى أدواراً أخرى ، فهو مكان للاجتماع والتباحث بالإضافة لدوره الاقتصادى المتميز ، فبنو قينقاع سكنوا الأماكن الأقل أهمية من الناحية الزراعية ، ولكنهم اشتهروا كقوم تجارة وصاغة ، مما أدى إلى تعويضهم عن هذا الحرمان ، واتجاههم نحو العمل الأكثر ربحاً وهى العمليات التجارية وما يتعلق بها من حرف ذات مردود مادى عالٍ كالصياغة ، وعمليات الصيرفة ذات الفوائد الربوية العالية ، وتدل الإشارات المتوفرة على تردد أهل يثرب من المسلمين على هذا السوق لشراء المصوغات الذهبية التى يحتاجونها فهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أراد الزواج من فاطمة الزهراء رضى الله عنها ذهب إلى سوق بنى قينقاع لشراء الحلى الخاصة بالزواج (١٣٠). وكانت حادثة الاعتداء على المرأة المسلمة التى ارتادت هذا السوق لشراء الحلى سبباً مباشراً لإخراج هؤلاء اليهود من المدينة(١٣١) كما يبدو أن المهاجرين الأوائل من المسلمين استطاعوا استغلال خبراتهم التجارية السابقة واستطاعوا الاستفادة من الإمكانيات المتوفرة فى هذا السوق ، حيث نزلوا للعمل فى سوق بنى قينقاع للتخفيف من الأعباء الملقاة على كواهل الأنصار . ولقد استطاع عبد الرحمن بن عوف أن يجمع أموالاً بسرعة من مزاولته التجارة فى هذا السوق ، حيث أدى هذا لغناه فتزوج من الأنصار وأسس له بيتاً مستقلاً (١٣٢). ولقد استطاع هؤلاء المهاجرون الجدد ذوو الخبرة

التجارية السابقة فى مجتمع مكة من التأثير على الحركة التجارية فى يثرب لصالحهم ، ويبدو أن مركز الثقل الاقتصادى قد انتقل إلى أيدى هؤلاء ، مما أدى لأن يجاهر اليهود بعداوتهم علناً للمسلمين بعد، معركة بدر .

وكانت هناك أسواق أخرى فى يثرب وإن كنا غير جازمين بأنها يهودية ، ولكن لا يستبعد أن يكون لهؤلاء نشاطاً تجارياً مميزاً فى هذا الأسواق ، فهناك سوق من ناحية يثرب " وهو ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف " (١٣٣). وسوق فى منطقة العصبة عند قباء وسوق مزاحم قرب مساكن بني الحبلي قوم عبد الله بن أبي سلول (١٣٤). وسوق قرب البقيع عرفت ببقيع الخيل ، كان بنو سليم يجلبون إليها الخيل والغنم والسمن ، وكان أكثر ما يباع بهذا الأسواق الحيوانات (١٣٥).

ويلاحظ أن هذه الأسواق كانت تقام على أطراف المناطق السكنية والمنطقة التجارية ، ولعل الأمر يعود لأسباب دفاعية واجتماعية (١٣٦).

وكانت السلع التى تباع فى هذه الأسواق متنوعة ، سواء ما تنتجه المدينة نفسها من تمور وشعير وطعام وخمر ، والحطب الذى يجلبه الحطابون من حول المدينة بالإضافة لما يفد إليها من منتجات البادية من صوف وشعير ووبر وسمن ، ومصنوعات المدينة نفسها من مصوغات وحلى ذهبية أو آلات زراعية كمساح ومكاتل وكرازين ، أو ما يجلب إليها من الخارج من نبيذ وزيت وحنطة ومنسوجات قطنية وحريرية ، ونمارق ملونة يشتريها أهل النِّعمة واليسار ، كما كان هناك عطارون يتاجرون فى أنواع العطارة والمسك والروائح العطرية . وكان لكل طائفة من الباعة موضع معلوم فى السوق (١٣٧).

إن المدينة كانت تقع على نفس الطريق التجارى الذى تقع عليه مكة ، وكانت تؤدى نفس الدور الذى تؤديه مكة ، فى المعاملات التجارية فمن هذا يصح الافتراض بأن الإشارات الكثيرة المتوفرة عن السلع المكية يمكن أن تنطبق على يثرب أيضاً .

فلقد كانت ترد إلى هذه المدن حاصلات الهند عبر موانئ الجنوب ... كالذهب والقصدير والفضة والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل كالبهار والفلفل ونحوها ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والزعفران والآنية الفضية والحديد والذهب

والرقيق (١٣٨). ومن حاصلات اليمن البخور واللّبان والمرّ واللادن والعطور والحجارة الكريمة ، كالثيب والعقيقة والجلود ذات الرائحة الطيبة (١٣٩)، ومن حاصلات جزر سومطرة "جزيرة بانونيسيا" العود والند ومن البحرين اللؤلؤ ومن الشمال القمح والرقيق والزيت والخمر (١٤٠).

كما تحمل من حاصلات الجزيرة العربية نفسها كالعطور من اليمن والزبيب من الطائف ومعادن الحجاز ولم تكن هناك أية قيود مفروضة على نوعية التعامل الاقتصادى داخل هذه الأسواق ، وكانت جميع العمليات التجارية تمارس بدون تحديد ، فيهود بني قينقاع على ما يبدو عملوا بالصيرفة حيث كانوا يبيعون الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، ويقومون باستبدال النقود ويظهر أنهم كانوا يستغلون بساطة الناس فلا يظهرون لهم مدى جودة هذه العملة ومدى فرق الوزن بين هذه الدنانير والدراهم (١٤١).

كما ازدهرت حرفة السمسرة ، فهناك من كان يتولى البيع نيابة عن أصحاب البضائع ، وخاصة أهل البادية وكثيراً ما كانوا يستغلون جهل هؤلاء الأعراب فيبخسونهم أو يرفعون السعر أو ينقصونه مضاربة(١٤٢) .

كما يلاحظ أن ظاهرة الاحتكار كانت معروفة فى المدينة ، فكان تجار يثرب يتلقون الركبان خارج المدينة ويشترون منهم ما يحملونه من طعام قبل أن يصلوا به إلى السوق حتى لا يعرف الناس ثمنه الحقيقي ، ثم يجمعونه ليحتكروا به السوق ، وأحياناً يبيعونه فى مكانه قبل أن يصلوا إلي السوق إذا تحقق لهم الربح الذى يطلبونه (١٤٣).

ويتضح أن اليهود كانوا يمارسون مختلف العمليات التجارية المربحة ، فكانت ظاهرة الغش والمخادعة ظاهرة موجودة فى الأسواق ، فكانوا يخلطون الحنطة بالشعير ليكثر كيلها ، ويخلطون التمر الرديء بالجيد ويتركون الإبل والغنم والبقر بحليبها أياماً حتى تبدو كثيرة اللبن ثم يبيعونها (١٤٤). وعرفوا أيضاً البيع بالنسيئة فكان الناس يستلفون فى التمر العام والعامين، ويلاحظ بأن ارلوسل ﷺ أقر هذه المعاملات التجارية ، ولكنه وضع لها قواعد اقتصادية سليمة فقال : " من سلف فى تمر فيسلف فى كيل معلوم ، ووزن معلوم " (١٤٥).

وكانت دائرة هذا النشاط تتسع لتشمل تجار بلاد الشام ، وفى هذا إشعار لدور المدينة التجارى فى هذه الفترة " فكنا نسلّفُ بنبط أهل الشام فى الحنطة والشعير والزيت فى كيل معلوم إلى أجل معلوم " (١٤٦).

وعرفوا الرهن أيضًا حتى أن الرسول ﷺ ، نفسه رهن درعه عند يهودى مقابل مُدَّين من شعير وحين أرسل الرسول ﷺ سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف الذى كان يؤذى الرسول ﷺ ، اشترط عليهم أن يرهنوا شيئًا مقابل ما يريدون من شعير (١٤٧).

ولقد وصل الحسّ التجارى بهؤلاء لدرجة أنهم كانوا يجمعوا شحوم الحيوانات الميتة ويبيعونه لأهميته في طلاء السفن ودهن الجلود والإنارة (١٤٨).

وكانت الربا مظهراً من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية ، ووسيلة من وسائل التعامل فى المجتمع العربى بعامة ، وفى المدن خاصة ، ويرع به اليهود لدرجة كبيرة ، سواء أكان مع أهل المدينة أم مع القادمين إليها . وكان هذا الربا يصل حداً يتجاوز به على القيمة الفعلية للدّين (١٤٩) . وترد فى القرآن الكريم إشارات كثيرة تؤكد على اشتغال هؤلاء اليهود بالربا ، وعلى أكلهم أموال الناس بالباطل بقوله تعالى فى سورة النساء [وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا] (١٥٠).

وكانت هذه المعاملات الربوية من الشدة والرسوخ لدرجة أن القرآن الكريم تدرج فى تحريمه ، مما يعكس مقدار تمكنه من المعاملات الاقتصادية اليومية ، ففى البداية نهى القرآن عن الربا الفاحش بقوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ](١٥١) . ثم جاء تحريمه القاطع بسورة البقرة [الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ] (١٥٢).

أما عن نشاط اليهود الخارجى فى التجارة فلدينا إشارات قليلة ، لا تعطى صورة تفصيلية عن مجمل جوانب ذلك النشاط . وتبقى مجرد افتراضات أكثر منها حقائق ثابتة . ويظهر أن اليهود كانوا يشتركون فى تجارة القوافل المكية المارة فى أراضيهم ، ويبدو أن مشاركتهم كانت فى هذه القوافل فعالة مع أن مصادرنا لا تشير من قريب ولابعيد لأية معاهدة أو اتفاقية عقدت بين التجار المكيين والمدنيين وترد إشارة لأحد هؤلاء التجار اليهود وهو أبو رافع الخيبرى، الذى وصلت شهرته التجارية مرتبة عظيمة وكان يرسل بضاعته بواسطة القوافل إلى الشام ويستورد منها الأقمشة المختلفة (١٥٣).

ويحاول ولفنسون أن يحصر تجارة البلح والشعير والقمح بهم فى شمال الحجاز (١٥٤)، ولكن هذا لا يمنع أن يكون هؤلاء اليهود تجاراً نشيطين مع المناطق الشمالية ، وتخصصوا فى

بعض السلع التى درت عليهم أرباحًا طائلة كتجارة النبيذ مع بلاد الشام ، والتى يظهر أنهم برعوا بها لدرجة كبيرة (١٥٥).

ولقد شكل بعض هؤلاء اليهود منافسًا خطيرًا للتجارة المكية ، حيث ترد إشارات عن إقامة بعض هؤلاء التجار في مكة مما يجعلنا نعتقد بأنهم ارتبطوا معهم بتحالفات تجارية لحماية تجارتهم وتوفير عنصر الأمن لهم ، ليتاجروا بكل حرية فكان في جوار عبد المطلب يهودى يقال له أذينة ، وكان اليهودى يتسوق فى أسواق تهامة بماله ففاض ذلك حربًا فألب عليه فتيانًا من قريش ، وقال هذا العلج يقطع إليكم ويخوض بلادكم كثيرًا من غير جوار ولا خيل " (١٥٦).

إن عدم تجانس التركيبة السكانية فى يثرب بين اليهود وبين العرب أوجدت التنافس بين أمكنتها المختلفة ، وغياب الوحدة السياسية أدى لحرمان يثرب فى أن يكون لها دور مميز فى النشاط التجارى قبل الإسلام ، وربما لو تهيأ لها هذا لكانت منافسًا خطيرًا للتجارة المكية ، وخصوصًا أن مواردها الاقتصادية متنوعة بدرجة تختلف كليًا عن مكة . ونلاحظ أنه فيما بعد حينما توفرت لها هذه الوحدة وهذا التجانس أصبحت تشكل منافسًا خطيرًا للتجارة المكية ، واستطاعت أن تحتل مكانها ، وتحولت إلى مركز الثقل الاقتصادى ، واستطاعت أن تهزم مكة اقتصاديًا قبل أن تهزمها سياسيًا ، وبعد أن استقر المسلمون فى المدينة أخذوا بمزاولة التجارة الخارجية وأخذ تجار من المهاجرين القرشيين أمثال طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن زيد يرحلون إلى الشام ويجلبون منها التجارة (١٥٧).

وتعززت هذه المنافسة حينما بدأت سرايا الرسول ﷺ تعترض القوافل القرشية ، مما شكل تهديدًا كبيرًا لقريش ، وتجارتها ، وكانت بداية لانهيارها كقوة تجارية .

العلاقات الاقتصادية اليهودية :

أ – علاقاتهم الداخلية فى يثرب :

يلاحظ أن اليهود كانوا موجودين فى يثرب قبل مجيء الأوس والخزرج إليها ، والتى لا مجال للخوض فى أسبابها وتفاصيلها ، ولكن على ما يبدو أن هذه الهجرات التى قامت بها هذه القبائل الأزدية كانت أسبابها متعددة ، منها اضطراب أحوال اليمن نتيجة للنزاع السياسى بين القبائل ، وتتابع الغزوات الحبشية عليها منذ القرن الثالث الميلادى ، والخراب الاقتصادى نتيجة لانهيار سد مأرب ، وحدوث سيل العرم (١٥٨) . وأخذت هذه القبائل بالهجرة

باتجاه الشمال ، ومنها قبائل الأوس والخزرج الذين هاجروا للمدينة فى فترة كانت أوج السيطرة فيها لصالح اليهود سياسيًا واقتصاديًا ، وبعد استقرار الأوس والخزرج بدءوا بمحاولة السيطرة على المدينة والقضاء على هذا النفوذ اليهودى الواسع حيث يفهم هذا من رواية صاحب الأغانى : "فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزلوا فى حرار وتفرقوا ، وكان منهم من لجأ إلى عفار فى أرض لا ساكن فيها ، فنزلوا به ، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها، فكانوا مع أهلها ، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق المعاش ، ليسوا بأصحاب نخل وزرع وليس للرجل منهم إلا الأعزاف اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات ، والأموال لليهود ، فلبث الأوس بذلك حينًا" (١٥٩).

ويؤكد هذا السمهودى أيضًا حيث يقول " وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدى اليهود ، والعدد والقوة معهم ، فمكثوا ما شاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جوارًا وحلفًا يأمن به بعضهم من بعض ، ويمنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا . ولم يزالوا كذلك زمنًا طويلاً ، وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، وخافت قريضة والنضير أن يغلبوهم على دورهم فتنكروا لهم حتى قطعوا الحلف (١٦٠) . وتسلطوا على المدينة ، فاستعان الأوس والخزرج بأقربائهم على اليهود ، فغلبوهم ، وصارت الغلبة للعرب على المدينة منذ ذلك العهد (١٦١) .

إن هاتين الروايتين تظهران بأن هذه السيطرة الاقتصادية لليهود على يثرب لم تصمد طويلاً أمام عبقرية الأوس والخزرج الاقتصادية التى تنتمى إلى العقلية اليمانية التى لها باع طويل فى الحضارة ، خصوصًا فى المجال الزراعى ، بحيث انتقل مركز الثقل الاقتصادى تدريجًا لأيدى هؤلاء ، والذين أصبحوا منافسًا خطيرًا لنفوذ اليهود ، مما دفع هؤلاء اليهود لإظهار العداوة لهؤلاء القادمين الجدد .

وتحاول هذه الروايات أن تفسر هذا التغير فى شكل العلاقة تفسيرًا ساذجًا لا يخلو من الطرافة ، ولكنه فى الوقت نفسه يظهر مدى تأذى القبائل العربية من هذه السيطرة اليهودية على يثرب . فتعزو هذه الروايات السبب لوجود ملك يهودى مستبد وظالم ، وكانت لا تهدى عروس من الحيين حتى تدخل على " الفيطون " ملك اليهود فيكون هو الذى يفتضها وتحدثنا الروايات أن أخت مالك بن العجلان – أحد رجال العرب – تزوجت رجلاً من قومها ، وفيما مالك فى النادى إذ خرجت أخته فضلاء فنظر إليها أهل المجلس فشق على مالك ، فدخل

وعنقها فقالت ما يصنع بى غداً أعظم ، أهدى إلى غير زوجي ، فلما أمسى اشتمل على السيف ودخل متنكراً مع النساء وقتل الفيطون وانصرف لدار قومه ... " (١٦٢).

إن هذه الرواية وعلى الرغم من الضعف البارز فى ثناياها كما يرى ولفنسون فى أنها لا تتناسب مع الطبيعة العربية التى تأبى الانحدار لهذا الدَّرك من الوحشية والهمجية ، مع ما هو معروف عنهم من عزة ومنعة ، والتضحية بكل شيء فى سبيل العرض ، وحفظ الشرف ، كما أن يهود الحجاز هم أصحاب دين سماوى ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يمكن أن تسمح لهم أخلاقهم بهذه الأعمال اللاأخلاقية (١٦٣).

إن هذا الموقف من مالك بن العجلان يظهر مدى تذمر العرب من السيطرة الاقتصادية لليهود ، وحدة التنافس الاقتصادى ، خصوصاً التنافس التجارى ، حيث دفع هذا أهل يثرب للاستعانة بالقوى الخارجية ، حيث استعان مالك بأبى جبلة الغسانى وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم ، فقال له أبو جبلة : " والله ما نزل قوم منا بلداً إلا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضى إلى قومه ، وقال له أعلمهم أنى سائر إليهم ، فرجع مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبى جبلة ... فأمر ببناء حائر واسع ، فبنى ثم أرسل إلى اليهود أن أبا جبلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبقى من وجوه القوم إلا أتاه، وجعل الرجل يأتى ومعه خاصته وحشمة ، رجاء أن يحيوهم ، فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالاً من جنده أن يدخلوا الحائر الذى بنى ، ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود ، ثم أمر حجابه أن يأذنوا لهم فى الحائر ويدخلوهم رجلاً رجلاً ، فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك، ويقتلهم الجند الذين فى الحائر حتى أتوا على آخرهم " (١٦٤).

إن هذه الرواية يتضح من فحواها التناقض الواضح ... فاليهود لا يعقل أن يكونوا من السذاجة بحيث يبادوا بهذا الشكل . كما أن أبا جبلة على رأى ولفنسون لم يكن ملكًا ولا يوجد من ملوك غسان ملكًا بهذا الاسم من سلالة آل جفنه .

ولكنه يرجح أنه من المحتمل أن يكون قائداً جاء إلى يثرب بإيعاز من أحد ملوك آل جفنة . وربما أرادت الأوس أن تعقد حلفًا مع بعض القبائل اليمانية ، والتى أصولها واحدة ، بسبب أن الحلف المعقود بينهم وبين هؤلاء اليهود ، لا يرضى آمالهم وطموحاتهم ، والتى تتجاوز قناعاتهم السابقة بأن يستمروا عمالاً ومساعدين لليهود فى دوائرهم الزراعية والحركة التجارية (١٦٥).

وتظهر هذه الروايات مقدار التنافس التجارى والاقتصادى بين سكان يثرب والعرب واليهود كما تظهر بوضوح مقدار النفوذ التجارى الواسع الذى وصل إليه اليهود خلال هذه الفترة .

إن سيطرة الأحباش على اليمن ، والمصيبة التى لحقت باليهود هناك ، والتحالف اليمانى بين الأوس والخزرج وبين أبناء عمومتهم من آل جفنة فى الشمال فى بلاد الشام ، هى العوامل الأساسية التى أدت إلى تراجع السيادة اليهودية فى شمال الحجاز ، وبدأت كفة السيطرة السياسية تنحاز لصالح القبائل اليمانية .

إن هذا الصراع لم تكن الدولة البيزنطية بعيدة عنه ، وهى التى شجعت الغزو الحبشى الحليف لها . حيث تبدوا هذه الحادثة فى جوهرها صراعاً على النفوذ الاقتصادى ، ومحاولة للهيمنة على طرق التجارة التى تعتبر نجران أحد فروعها المهمة والتى تتوزع منها المواصلات إلى الخليج العربى والعراق ، عبر وادى الدواسر ، واليمامة أو إلى الشام عبر الخط البرى التقليدى الذى كان يمر فى المدينة .

ويرى إبراهيم بيضون بخصوص العلاقة بين يهود الحجاز واليمن فى هذه الفترة أن الفصل بين الإقليمين فى هذه المرحلة لا يتفق مع طبيعة التطورات التى شهدتها المنطقة الجنوبية منذ بدايات القرن السادس الميلادى ، ولعل أبرز مؤشرات هذه العلاقة هو اضطهاد حملة الحبشة لليهود والمتهودين فى اليمن ، دفعت بقسم كبير منهم على الأرجح للهجرة نحو الحجاز ، حيث نزلوا فى أحياء خاصة فى يثرب ، وبعض المراكز الأخرى ، أو فى نطاق جاليات تجارية تزلت فى المدن المزدهرة كالطائف أو التجمعات الزراعية الخصبة فى هذا الإقليم(١٦٦).

إن هذا التحول فى شكل العلاقة كان فى مصلحة عرب يثرب ، وأتاح لهم المجال للظهور فى قوة سياسية منافسة لليهودفى المدينة ، وأسهم هذا فى زيادة عزلة اليهود ، وساعد على زيادة الشقاق والخلاف بين طوائفهم المختلفة ، والتى تعزز انقسامها بعد هذا التحول فى وضعهم السياسى ، وأخذت هذه الطوائف تحاول الانحياز لجانب أحد القبائل العربية فى المدينة ، والتحالف معها على حساب الطوائف الأخرى .

إن هذا التراجع فى مكانة اليهود لا يعنى بالضرورة أنهم فقدوا مكانتهم كاملة وفقدوا سيادتهم الاقتصادية ، ولكنهم حافظوا على هذه المكانة حتى ظهور الإسلام ، وساعدهم فى ذلك الخلافات والانقسام الذى حل بالقبيلتين الرئيسيتين فى يثرب الأوس والخزرج ، حيث لا يمكن أن يبرأ اليهود من أنهم لعبوا الدور الأكبر فى خلق هذا الانقسام ، وإذكاء نار الفتنة بين

القبائل العربية ، ويمكننا أن نفهم دوافع القتال بأن العرب كانوا باستمرار يسعون لتحطيم السيطرة الاقتصادية لليهود على المدينة ، فهذا الزعيم الخزرجي عمرو بن النعمان البياضي يعدُ قومه في يوم بُعاث : " والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريضة والنضير على عذب الماء وكريم النخل " (١٦٧).

إن افتقار المدينة لزعامة بارزة ، كما هو الحال في مكة توظف دورها في خدمة مصالحها الاقتصادية في داخل الحجاز وخارجه (١٦٨)، وعدم التجانس السكاني ، والتوتر السائد بين الجماعات اليهودية وغير اليهودية(١٦٩) ، هو الذي حال دون بروز المدينة كما هو الحال في مكة، مع أنها محطة مثلها على طريق القوافل إلى الشام ، وحتى أنها تملك من تنوع مصادر الثروة الاقتصادية أكثر من مكة .

وإن هذا التفسخ السياسي في المدينة هو الذي دفع سكانها من العرب لأن يسارعوا بالترحيب بالرسول ﷺ ودعوته إلى المدينة ، ومن منطلق التنافس الاقتصادي والخوف على المصالح ، يمكن فهم موقف اليهود ومقاومتهم للدعوة الإسلامية الجديدة ، التي هددت نفوذهم الي كانوا يتمتعون به قبل مجيء الرسول ﷺ ، وشعورهم بأنهم سيفقدونه حيث دفعهم هذا لإعلان المقاومة للإسلام منذ اليوم الأول لذلك كان لزامًا على الرسول ﷺ ليرسي دولته الجديدة من التخلص من هذا المنافس الأول في المدينة .

ب – علاقاتهم مع المناطق المجاورة :

يلاحظ أن بعض الباحثين لا يستبعدون وجود شبكة تجارية يهودية مزدهرة في هذا الوقت حيث يفسر هذا في رأيهم عدم وجود عمليات تجارية كبيرة بين مكة والمدينة " (١٧٠). ولكن هذا الرأي لا يوجد من الشواهد والدلالات ما يؤيده مما يدفعنا للافتراض بأن اليهود كغيرهم من القبائل الموجودة على هذا الطريق التجاري الذي سيطر عليه التجار القرشيون ، فكانت تقدم خدمات الأمن والحماية ، وتسهم في العمليات التجارية المتعلقة بذلك ، سواء أكان ذلك أثناء مرور القوافل في المدينة ، حيث يساعد هذا على قيام حركة تجارية نشطة ، أم بالاشتراك فعلياً بهذه التجارة ومرافقتها .

ومما يؤسف له أن الإشارات المتوفرة لدينا عن علاقة مكة ويثرب قبل الإسلام قليلة ، ولا تكوِّن بمجموعها رأياً نستطيع الاستدلال بها عليه ، فقريش على ما تشعرنا هذه المصادر كانت تحترم اليهود ، وترى أنهم أهل الكتاب الأول (١٧١)، وكان اليهود بالمقابل يجلون القرشيين ويعتبرونهم سادة العرب وملوك الناس (١٧٢).

وترد بعض الإشارات عن صلة بعض اليهود بالمكيين ومحالفتهم لهم ، وإقامتهم بمكة للاتجار (١٧٣). ولكن هذه الإشارات لا تعطينا مبرراً نستطيع به أن نفترض بأنه كان هناك وجود واسع لليهود في مكة . ويرى جواد على " أنه من المرجح أنه لم تكن في مكة جالية يهودية كبيرة ، حتى لم يرد في الآيات المكية إشارات لوجود اليهود ، للاحتكاك بينهم وبين الرسول ﷺ ، ومن المحتمل أن المستقرين منهم في مكة لا يتجاوزون أفراداً قلائل " (١٧٤).

كما لا يستبعد أن يكون لليهود علاقات مع الطائف التي كان بها قوم من اليهود طردوا من اليمن أو يثرب ، وجاءوا إلى الطائف وسكنوا بها ، ودفعوا الجزية لسادتها ، ومن بعضهم اشترى معاوية أمواله بالطائف (١٧٥).

كما تذهب مصادرنا بعيداً حيث ترى أن بدايات الزراعة في الطائف كانت على أيدي هؤلاء اليهود " وكان قصي قد مر بيهودية بوادي القرى حين قتل المصدق فأعطته قضبان كرم فغرسها بالطائف فأطعمت ونفعته " (١٧٦).

ولا يستبعد أيضاً أن يكون لليهود علاقات تجارية واسعة مع بلاد الشام حيث كانوا يجلبون من هناك الحبوب والخمور ، ويبدو أنه كانت هناك زيارات متبادلة بينهم وبين تجار بلاد الشام، فترد إشارات من نزول الساقطة في الجاهلية والإسلام بالمدينة ، يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش وما يكون في الشام " (١٧٧). إن ندرة الإشارات المتوفرة عن النشاط اليهودي الخارجي والعلاقات الخارجية قبل الإسلام تجعل الصورة التي نكونها عن ذلك باهتة كثيراً .

الخاتمة :

المحصلة النهائية التي يمكن لنا أن نستخلصها من ملاحظتنا للنشاط اليهودي في الحجاز هو أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل غيرهم من سكان الحجاز مارسوا الأعمال الاقتصادية المألوفة وخصوصاً العمل في الزراعة ، حيث إن اليهود استوطنوا أصلاً في أهم الواحات الزراعية في منطقة الحجاز وسيطروا على هذه الواحات سيطرة تامة إلى الحد الذي تعتبرهم مصادرنا بأنهم أول من سكن هذه البلاد ، وقام بين هذه القبائل اليهودية والقبائل العربية التي جاورتهم خصوصاً في يثرب تنافس اقتصادي واسع قد يشعرنا بتأذي هذه القبائل العربية التي هاجرت من اليمن بعد خراب سد مأرب من هذه السيطرة الاقتصادية لليهود في الحجاز ، ويظهر أنهم استعانوا بقوى خارجية للحد من هذه السيطرة .

إن الموقع الممتاز على طرق القوافل التجارية القادمة من اليمن إلى شمال بلاد الشام لهذه الواحات الزراعية التى استوطن بها اليهود سواءً أكان فى يثرب أم خيبر أم فدك أم وادى القرى أم تيماء جعلت اليهود أيضًا يلعبوا دورًا نفترض أنه لم يكن قليلاً فى النشاط التجارى فى الحجاز ويبدو أنهم كانوا يسهمون فى عمليات البيع والشراء والتبادل التجارى مع هذه القوافل التجارية ولا يستبعد أنهم عقدوا حلفًا مع قريش ، شاركوا بموجبه فى هذه القوافل التجارية القرشية . ولا يستبعد أنهم أقاموا علاقات تجارية واسعة مع بلاد الشام واليمن مثلهم مثل تجار مكة الآخرين . ولكن تبقى معلوماتنا عن هذا النشاط التجارى اليهودى قليلة ، لا تكون بمجموعها صورة واضحة المعالم ، وتظل افتراضات لها ما يبررها من الإشارات الواردة فى مصادرنا ، ويمكن القول إن عداء هؤلاء اليهود للدعوة الإسلامية حال دون وصول أخبارهم إلينا ولكننا نستطيع القول بأن اليهود مارسوا مختلف العمليات الاقتصادية ، التى كانت تمارس فى تلك الفترة . ولا نستطيع أن نحصرهم فى ممارسة مهن معينة بالرغم من أنهم تفوقوا ببعض منها ، كما لم تكن ممارسة العمليات الربوية حكرًا على هؤلاء اليهود ، بل كانت ممارسات عامة فى زمانهم برزوا فى بعض منها .

وأخيرًا لابد من القول بأننى حاولت فى هذا البحث أن أقدم صورة واضحة المعالم لمختلف جوانب النشاط الاقتصادى اليهودى ، وصورة مبسطة عن علاقات هؤلاء اليهود الداخلية فى يثرب والتى امتازت بالتنافس والنزاع سواء أكان قبل الإسلام أم بعده . والتى لا تخلو من دوافع اقتصادية ، وتظهر عدم الرضا من قبل القبائل العربية على هذا التفوق اليهودى وهذه السيطرة على الأراضى الخصبة فى يثرب ، وما يلعبه هؤلاء اليهود من دور فى إذكاء نار الخلاف بين القبيلتين الأساسيتين فى يثرب (الأوس والخزرج) حتى لا توحد وجهات نظرها فى مقاومة اليهود واستمر هذا التنافس حتى استطاع الرسول أن يجلى هؤلاء اليهود عن يثرب، وأكمل خطوته هذه عمر بن الخطاب حيث أبعدهم عن الحجاز كليًا .

أما بالنسبة للعلاقات الخارجية بين اليهود والمناطق المجاورة فتبقى ناقصة إلى حد كبير لعدم توفر الإشارات التى تدعم افتراضنا بوجود مثل هذه العلاقات ويبقى البحث فى تاريخ الوجود اليهودى فى الحجاز وفعالياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية موضوع بحاجة للدراسة والعناية للخروج بصورة متكاملة عن يهود الحجاز قبل الإسلام وبعده .

الهوامش

١ – المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح ، (ت٣٧٥هـ) ، " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " ، بيروت ، مكتبة خياط ١٩٠٦م ، ص ٦٩ . ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله ، (ت ٦٢٦هـ) ، " معجم البلدان " ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م ، جـ٢ ، ص ٢١٨ – ٢١٩ .

٢ – الاصطخري ، إبراهيم بن محمد الفارسي ، (ت ٣٥٠ هـ) ، " المسالك والممالك " ، تحقيق محمد جابر ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦١م ، ص ٢١ .

٣ – ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، (ت٣٠٠هـ) ، " المسالك والممالك " ، ليدن ، مطبعة بريل ، سنة ١٩٦٧م ، ص ١٢٨ .

٤ – ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي ، (ت٣٦٧هـ) ، " صورة الأرض " ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ص ٣٨ . ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح ، يوسف بن يعقوب ، ت (٦٩٠هـ) ، " صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المتبصر " ، تصحيح أوسكر لوففرين ، ليدن ، بريل، ١٩٥١م ، جزءان ، جـ١ ، ص ٣٩ – ٤٠ .

٥ – البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) ، " معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع " ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ٤ أجزاء ، ١٩٤٥م ، جـ١ ، ص ١١. ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢١٩ .

٦ – الشريف ، أحمد إبراهيم ، " مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول " ، دار الفكر العربي ، دار وهدان للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥م ، ص ١٣ .

٧ – القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (١٢٨٣هـ) ، " آثار البلاد وأخبار العباد " ، بيروت ، دار صادر، ١٩٦٠م ، ص٨٤ .

٨ – المسعودي ، علي بن الحسن ، ت (٣٤٦هـ) ، " مروج الذهب ومعادن الجوهر " ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٥م ، جـ٢ ، ص ٣٥ .

٩ – الهمداني ، الحسن بن أحمد ، ت (٣٣٤هـ) ، " صفة جزيرة العرب " ، تحقيق محمد عبد الله النجداوي، القاهرة ١٩٥٣م ، ص ٥٠ .

١٠ – البكري ، " معجم ما استعجم " جـ١ ، ص ٩ .

١١ – الحوراني ، جورج فضلوا ، " العرب والملاحة في المحيط الهندي " ، ترجمة يعقوب بكر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط١ ، ١٩٥٨م ، ص ٥٨ .

١٢ – الشريف ، أحمد إبراهيم ، مكة والمدينة ، ص ١٦ – ١٧ .

١٣ – اليعقوبي ، أحمد بن أبي واضح ، ت (٢٩٢هـ) ، " تاريخ اليعقوبي " ، بيروت دار صادر ، مجلدان ، جـ٢ ، ص ٥٢ .

١٤ – السمهودى ، نور الدين على بن السيد الشريف أبو المحاسن أحمد الشافعى ، ت (٩١١هـ) ، " وفا الوفا بأخبار دار المصطفى " ، مطبعة الآداب والمؤيد ، مصر ، ١٣٢٦هـ ، جـ١ ، ص ١٦٢ .

١٥ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٢ .

١٦ – السامرائى ، خليل إبراهيم ، " المظاهر الحضارية للمدينة المنورة وعصر النبوة " ، منشورات مكتبة البسام ، الموصل ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، ص ١٧ .

١٧ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٠٤ – ٣٠٩ .

١٨ – على ، جواد ، " المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام " ، دار العلم للملايين ، مكتبة النهضة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٠م ، جـ٦ ، ص ٥١٣ .

١٩ – البلاذرى ، أبو الحسن يحيى بن جابر ، ت (٢٧٩هـ) ، فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨م ، ص ٢٩ .

٢٠ – الأصفهانى ، أبو الفرج ، " كتاب الأغانى " ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٠م ، جـ٢٢ ، ص ٩٩ .

٢١ – ولفنسون ، إسرائيل ، " تاريخ اليهود في بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام " ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، الطبعة الأولى ١٩٢٧م ، ص ١٠ .

٢٢ – الطبرى ، محمد بن جرير – ت (٣١٠هـ) ، " تاريخ الرسل والملوك " ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، جـ١ ، ص ٢٨٩ . السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٦٠ .

٢٣ – بيضون ، إبراهيم ، " الحجاز والدولة الإسلامية " ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م ، ص ٤١ – ٤٢ .

٢٤ – ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٧ .

٢٥ – ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٨٢ .

٢٦ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

٢٧ – أبو الفرج الأصفهانى ، كتاب الأغانى ، جـ٢٢ ، ص ٩٩ .

٢٨ – ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٢٤ . ابن رسته ، أبو على أحمد بن عمر ، ت (٢٩٠هـ)، " الأعلاق النفيسة " دى غويا ، ليدن ، ١٨٩١م ، ص ٦١ . السمهودى ، " وفا الوفا " جـ١ ، ص ١٦٠ – ١٦١ .

٢٩ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٧ .

٣٠ – ابن سعد ، محمد بن سعد ، ت(٢٣٠هـ) ، " الطبقات الكبرى " دار بيروت ، دار صادر بيروت ١٩٥٧م، بلا طبعة ، جـ١ ، ص ٢٧٩ .

٣١ – السامرائى ، المظاهر الحضارية للمدينة ، ص ١٨ .

٣٢ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٥ . الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٦ .

٣٣ - الواقدى ، المغازى ، جـ٢ ، ص ٧٠٣ .

٣٤ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٤٠٩ .

٣٥ - البكرى ، معجم ما استعجم ، جـ١ ، ص ٣٢٧ .

٣٦ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٣٣٨ .

٣٧ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٧ .

٣٨ - ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ١ ، ص ٢٧٦ .

٣٩ - المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢٧٩ .

٤٠ - المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢٧٩ .

٤١ - البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٦٣ . ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ١٠ .

٤٢ - البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

٤٣ - جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٦ ، ص ٥٣٠ .

٤٤ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٨٣ .

٤٥ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٩١ .

٤٦ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٨٢ .

٤٧ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٢٠ .

٤٨ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢١ .

٤٩ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢٥ .

٥٠ - ابن قتيبة ، أبى محمد بن عبد الله بن مسلم ، ت (٢٧٦هـ) ، المعارف ، تحقيق ، ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٨٣ .

٥١ - البخارى ، صحيح البخارى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، جـ٣ ، ص ١١١ .

٥٢ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٢١ - ١٢٧ .

٥٣ - أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى ، جـ١٣ ، ص ١٨ .

٥٤ - الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٥٧ .

٥٥ - البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦٣ - ١٣٧ . الكتانى ، عبد الحى بن عبد الكبير الكتانى ، " نظام الحكومة المدنية المسمى التراتب الإدارية " ، تحقيق حسن جعين ، بيروت ، جزمان ، دار الكتاب العربى ، جـ١ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٣ . السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٥٥ .

٥٦ - البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٧٨ .

٥٧ - الخزاعي التلمساني ، أبو علي الحسن بن محمد ، ت (٧٨٩هـ) ، " تخريج الدلالات السمعية " ، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١م ، ص ٦٦٩ .

٥٨ - الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٧ .

٥٩ - الواقدي ، محمد بن عمر ، ت (٢٠٧هـ) ، " كتاب المغازي " ، تحقيق مارسدن جونز ، عالم الكتب، بيروت ، (بلا طبعة وتاريخ) ، جـ١ ، ص ٢٨٩ .

٦٠ - البلاذري ، فتوح ، ص ٣٢ .

٦١ - الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٩٠ .

٦٢ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٦ .

٦٣ - الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٧٢٩ .

٦٤ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ .

٦٥ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ .

٦٦ - ياقوت الحموي ، معجم ، جـ٢ ، ص .

٦٧ - البخاري ، صحيح ، جـ٥ ، ص ١٧٨ .

٦٨ - الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٩٣ .

٦٩ - ابن شبه ، تفاريخ المدينة المنورة ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

٧٠ - الشريف ، أحمد ، " دور الحجاز في الحياة السياسية والعامة في القرنين الأول والثاني للهجرة " ، ص ٦٠ . سلام ، شافعي محمود سلام ، " النشاط الزراعي في خيبر " ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ٢٦ .

٧١ - ابن كثير ، السيرة النبوية ، جـ٣ ، ص ٣٨٣ .

٧٢ - البكري ، معجم ما استعجم ، جـ٢ ، ص ٥٢٣ .

٧٣ - الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٩٣ .

٧٤ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٦٤ .

٧٥ - الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٨ .

٧٦ - سلام ، النشاط الزراعي ، ص ٢٧ .

٧٧ - السهيلي ، الروض الأنف ، جـ٦ ، ص ٣٢٧ .

٧٨ - الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٨ .

٧٩ - ابن قتيبة ، (ت ٢٧٦هـ) ، " عيون الأخبار " ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، جـ٣ ، ص ٢٧٠ .

٨٠ - عروة بن الزبير ، " مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، ص ١٩٥ . الحلبي ، " إنسان العيون وسيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية " ، بيروت ، ١٩٨٠م ، جـ٢ ، ص ٧٥١ .

٨١ - ابن الفقيه الهمداني ، كتاب البلدان ، ص ٢٥ .

٨٢ - ابن هشام ، عبد الملك ، ت (٢١٣هـ) ، " السيرة النبوية " ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ٤ أجزاء، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، جـ٢ ، ص ١٦٤ .

٨٣ - البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ١٠٧ .

٨٤ - الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٩ .

٨٥ - البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٨٥ - ٨٧ .

٨٦ - ابن هشام ، السيرة ، جـ٣ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

٨٧ - ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٧ .

٨٨ - السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٥ . الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٦ . هيكل ، في منزل الوحي ، ص ٦١٨ .

٨٩ - السامرائي ، المظاهر الحضارية للمدينة ، ص ١٩ .

٩٠ - ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١١٦ .

٩١ - سورة الحشر ، آية ١٤ .

٩٢ - السمهودي ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٥٨ . العلي ، صالح أحمد ، خطط المدينة المنورة ، مجلة العرب ، عدد ١٢ ، أيلول ١٩٦٧م ، الرياض ، ص ١٠٧٤.

٩٣ - الواقدي ، المغازي ، جـ١ ، ص ١٨٤ . الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٨٧ .

٩٤ - السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

٩٥ - المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٤ .

٩٦ - المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

٩٧ - الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٥٠٥ - ٥٦٨ .

٩٨ - البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨ - ٣٩ .

٩٩ - ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٤٩ .

١٠٠ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٧ .

١٠١ - الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٧٥ .

١٠٢ - المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، (ت ٨٤٥هـ) ، إمتاع الأسماع ، تصحيح محمود محمد شاكر، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٤١م ، جـ١ ، ص ٢٤٥ .

١٠٣ – الخزاعي ، الدلالات السمعية ، ص ١١٥ – ١١٦ .

١٠٤ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب ، ص ٤٠٤ .

١٠٥ – أحمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٧٧ .

١٠٦ – أحمد با شميل ، غزوة بني قريضة ، ص ٤٧ .

١٠٧ – الواقدي ، المغازي ، جـ١ ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

١٠٨ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٧٧ .

١٠٩ – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، جـ٢١ ، ص ٦٢ .

١١٠ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٧١ .

١١١ – المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٧٣ .

١١٢ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٩٨ .

١١٣ – الخزاعي ، الدلالات السمعية ، ص ٤٠١ .

١١٤ – المصدر نفسه ، ص ٦٧٦ – ٦٧٧ .

١١٥ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٥١٠ .

١١٦ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٤٢ .

١١٧ – ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، ص ٥٤ .

١١٨ – ابن سعد ، الطبقات ، جـ١ ، ص ٢١٢ . البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦١ .

١١٩ – الخزاعي ، الدلالات السمعية ، ٦٦٥ – ٦٦٨ .

١٢٠ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٧٨ .

١٢١ – سالم ، السيد عبد العزيز ، دراسات في تاريخ العرب والدولة العربية ، جـ٢ ، ص ١٤٠ .

١٢٢ – بيضون ، إبراهيم ، دور الحجاز ، ص ٢٤ . جواد علي ، المفصل ، جـ٧ ، ص ٣٩٢ .

١٢٣ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٤ .

١٢٤ – القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٨٣ . سورة النساء ، الآية ٢٩ . سورة التوبة ، الآية ٢٤١ . سورة النور ، الآية ١٦٠ . سورة الجمعة ، الآية ٩ – ١١ .

١٢٥ – محمد أحمد باشميل ، غزوة بني قريضة ، ص ٤٥ – ٤٧ .

١٢٦ – الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٧٩ .

١٢٧ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٢١٢ – ٢١٣ . العلي خطط المدينة ، ص ١١٦٣ – ١١٦٥ .

١٢٨ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ٧٤٧ – ٧٤٨ . الكتاني ، التراتب الإدارية ، جـ٢ ، ص ١٦٣ . العلي ، خطط المدينة ، ص ١١١٨ .

١٢٩ – ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٧٩ .

١٣٠ – البخاري ، صحيح ، جـ٢ ، ص ١٢ – ١٣ .

١٣١ – الواقدي ، المغازي ، جـ١ ، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

١٣٢ – البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ١٩ – ٢٠ .

١٣٣ – العلي ، خطط المدينة المنورة ، ص ١١١٨ .

١٣٤ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ٧٤٧ – ٤٧٨ .

١٣٥ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٥٤٤ – ٥٤٥ . البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦٢ .

١٣٦ – السامرائي ، المظاهر الحضارية ، ص ٢٦ .

١٣٧ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٦ .

١٣٨ – عوض الله ، أحمد أبو الفضل ، مكة في عصر ما قبل الإسلام ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ، ص ١٣١ – ١٣٢ .

١٣٩ – الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٥٧ . الواقدي ، المغازي ، جـ١ ، ص ٦٥ .

١٤٠ – عوض الله ، مكة في عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٣٢ .

١٤١ – البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦٨ . الخزاعي ، الدلالات السمعية ، ص ٦٤٤ .

١٤٢ – البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٧١ – ٧٢ .

١٤٣ – المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٧١ – ٧٣ .

١٤٤ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٥٤٦ .

١٤٥ – البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ١١٠ .

١٤٦ – المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١١٢ .

١٤٧ – المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

١٤٨ – المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١١٠ .

١٤٩ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٨ .

١٥٠ – القرآن الكريم ، سورة النساء ، الآية ١٦١ .

١٥١ – القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الآية ١٣١ .

١٥٢ – القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ – ٢٧٦ .

١٥٣ – البخاري ، صحيح ، جـ٢ ، ص ١١٦ .

١٥٤ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٨ .

١٥٥ – جواد علي ، المفصل ، جـ٦ ، ص ٥٣٥ – ٥٣٦ .

١٥٦ – البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٧٢ – ٧٣ .

١٥٧ – ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٧ . السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٧٤ .

١٥٨ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣١٥ .

١٥٩ – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٩ ، ص ٩٦ .

١٦٠ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٨٣ .

١٦١ – المدنى ، توفيق ، المجتمع المدنى والدولة السياسية فى الوطن العربى ، مجلة دراسات ١٩٩٧ ، من موقع File : IIA:]1997. HTM .

١٦٢ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٨٤ .

١٦٣ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٨٤ .

١٦٤ – الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٩ ، ص ٩٧ .

١٦٥ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٨٤ .

١٦٦ – بيضون ، دور الحجاز ، ص ٤٢ .

١٦٧ – الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٥ ، ص ١٥٤ – ١٥٩ .

١٦٨ – بيضون ، دور الحجاز ، ص ٤٤ .

١٦٩ – محمد عبد الحي شعبان ، تاريخ صدور الإسلام والدولة الأموية ، ص ٢٠ .

١٧٠ – المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

١٧١ – ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٣٣٠ .

١٧٢ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٤٣١ .

١٧٣ – ابن سعد ، جـ١ ، ص ١٤٤ . البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

١٧٤ – جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٢٣٥ .

١٧٥ – البلاذري ، فتوح ، ص ٦٨ .

١٧٦ – البلاذري ، أنساب ، جـ١ ، ص ٢٧ .

١٧٧ – الواقدى ، المغازي ، جـ١ ، ص ١٦ .

المصادر والمراجع

أ - المصادر :

١ - الأصفهانى ، أبو الفرج علىّ بن الحسين (٣٥٦ هـ / ٩٦٦م) : كتاب الأغانى ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار الثقافة ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٦٠م.

٢ - الاصطخرى ، إبراهيم بن محمد الفارسى ، ت (٣٥٠ هـ / ٩٦١م) : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٣ - البخارى ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (٢٥٦ هـ / ٨٦٩م) : صحيح البخارى ، دار إحياء التراث العربى بيروت ، لبنان .

٤ - البكرى ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، ت (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ٤ أجزاء ، ١٩٤٥م.

٥ - البلاذرى ، أبى الحسن يحيى بن جابر ، ت (٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) :

- فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م .

- أنساب الأشراف ، الجزء الأول تحقيق محمد حميد الله ، معهد المخطوطات العربية ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٩م.

٦ - الحلبى ، ت (١٠٤٤ هـ / ١٦٣٥م) : إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية " ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ، الجزء الثانى .

٧ - ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حوالى ٣٠٠هـ / ٩١٢م) : المسالك والممالك ، بغداد مكتبة المثنّى .

٨ - الخزاعى التلمسانى ، أبو على الحسن بن محمد، ت (٧٨٩هـ / ١٣٨٧م) : تخريج الدلالات السمعية ، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨١م .

٩ - ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى ، ت (٣٦٧ هـ / ٩٧٧م) : صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

١٠ – الديار البكرى ، حسن بن محمد بن الحسن ، ت (٩٦٦هـ / ١٥٥٨م) : تاريخ الخميس، الطبعة الأولى ١٣٠٢هـ ، القاهرة ، مطبعة عثمان عبد الرازق ١٨٨٤م .

١١ – ابن رستة ، أبو على أحمد بن عمر ، ت (٢٩٠هـ / ٩٠٢م) : الأعلاق النفيسة ، دى غويا ، لندن ١٨٩١م .

١٢ – ابن الزبير ، عروة ، ت (٩٣ هـ / ٧١١م) : " مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم"، جمع وتحقيق محمد الأخطى ، ط١ ، منشورات مكتبة التربية العربية لدول الخليج ، الرياض (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

١٣ – ابن سعد ، محمد بن سعد ، ت (٢٣٠هـ / ٨٤٥م) : الطبقات الكبرى ، دار بيروت ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧م.

١٤ – السهيلى ، ت (٥٨١ هـ / ١١٨٥م) : " الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام " ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، القاهرة ، ٣٩٠هـ / ١١٧٠م ، الجزء السادس .

١٥ – السمهودى ، نور الدين على بن السيد الشريف الشافعى ، ت (٩١١هـ / ١٩٧٩م) : وفا الوفا ، بأخبار دار المصطفى ، مطبعة الآداب والمؤيد ، مصر ١٣٢٦هـ .

١٦ – ابن شبة ، ت (٢٦٢ هـ / ٨٧٥م) : " تاريخ المدينة المنورة " ، أربعة أجزاء ، تحقيق فهيم شلتوت ، دار الأصفهانى ، جدة ، (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م) .

١٧ – الطبرى ، محمد بن جرير ، ت (٣١٠ هـ / ٩٢٣م) : " تاريخ الرسل والملوك " ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف (بدون تاريخ) .

١٨ – ابن قتيبة ، أبى محمد عبد الله بن مسلم ، ت (٢٧٦ هـ / ٨٨٩م) :

– المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩م.

– " عيون الأخبار " ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م.

١٩ – القزوينى ، زكريا بن محمد بن محمود ، ت (٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت دار صادر ١٩٦٠م .

٢٠ - الكتاني ، عبد الحي بن عبد الكبير ، ت (١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) : نظام الحكومة المدنية المسمى التراتيب الإدارية ، بيروت ، تحقيق حسن جعين ، جزمان دار الكتاب العربي .

٢١ - ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ، ت (٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) : البداية والنهاية في التاريخ ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٣٢م.

٢٢ - ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب ، ت (٦٩٠هـ / ١٢٩١م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المتبصر ، تصحيح أوسكار لوفغرين ، ليدن بريل ، جزمان ١٩٥١م.

٢٣ - المسعودي علي بن الحسن ، ت (٣٤٦ هـ / ٩٥٧م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٥م.

٢٤ - المقدسي ، محمد بن أحمد بن أبي بكر البشارى ، ت (٣٧٥ هـ / ٩٨٥م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، بريل ، ١٩٠٦م.

٢٥ - المقريزى ، تقي الدين أحمد بن علي ، (٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) : إمتاع الأسماع ، تصحيح محمود محمد شاكر ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٤١م.

٢٦ - ابن هشام ، عبد الملك ، ت (٢١٨ هـ / ٨٣٣م) : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ٤ أجزاء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

٢٧ - الهمداني ، الحسن بن أحمد ، ت (٣٣٤ هـ / ٩٤٦م) : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد عبد الله النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣م.

٢٨ - الواقدي ، محمد بن عمر ، ت (٢٠٧ هـ / ٨٢٢م) : كتاب المغازى ، تحقيق مارسدن جونز ، ٤ أجزاء ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون طبعة وتاريخ .

٢٩ - ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبي عبد الله ، ت (٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) : معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م.

٣٠ – اليعقوبي ، أحمد بن أبي واضح ، ت (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) : تاريخ اليعقوبي ، مجلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.

ب – المراجع

١ – باشميل ، محمد أحمد : غزوة بني قريظة ، الطبعة الأولى ، دار الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦م.

٢ – بيضون ، د. إبراهيم : الحجاز والدولة الإسلامية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م.

٣ – الحوراني ، جورج فضل : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، في العصور القديمة ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٤ – سالم ، السيد عبد العزيز :

– تاريخ العرب والعصر الجاهلي ، دار النهضة العربية ، مصر ، الطبعة الأولى، ١٩٧١م .

– دراسات في تاريخ العرب والدولة العربية .

٥ – السامرائي ، خليل إبراهيم : المظاهر الحضارية للمدينة المنورة وعصر النبوة ، منشورات البسام ، الطبعة الأولى ، الموصول ، ١٩٨٤م.

٦ – سلام ، سلام شافعي محمود ، " النشاط الزراعي في خيبر في الجاهلية وحتى نهاية عهد عمر بن الخطاب " ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م.

٧ – الشريف ، أحمد إبراهيم :

– دور الحجاز في الحياة السياسية والعامة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

– مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، دار الفكر العربي ، دار وهران للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥م.

٨ – شعبان ، محمد عبد الحي : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، الدار المتحدة للنشر والتوزيع .

٩ – العقيلي ، محمد أرشيد : اليهود في الجزيرة العربية ، الطبعة الوطنية ، عمان ، ١٩٨٠م.

١٠ – علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، مكتبة النهضة بغداد ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠م.

١١ – عوض الله ، أحمد أبو الفضل : مكة في عصر ما قبل الإسلام ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨م.

١٢ – هيكل ، محمد حسين : في منزل الوحي ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٥م.

١٣ – وات ، مونتفجري : محمد في المدينة ، تعريب سفيان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، بدون طبعة .

١٤ – ولفنسون ، إسرائيل : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبعة الاعتماد ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٧م.

جـ – الدوريات :

١ – العلي ، صالح أحمد : خطط المدينة المنورة ، مجلة العرب ، عدد ١٢ ، أيلول ١٩٦٧م ، الرياض .

٢ – المدني ، توفيق : المجتمع المدني والدولة السياسية في الوطن العربي ، مجلة دراسات ١٩٩٧م ، (File:11A:]1997.htm) .

د. يحيى بن حمزة الوزنة السليمانى (*)

ملامح من حضارة دمشق
(من الفتح الإسلامى حتى العصر الأموى)

تمهيد: دمشق قبل الفتح الإسلامى:

أخذ الطابع العربى يسود دمشق منذ حكمها الأنباط ، فتوالت عليها هجرات عدد كبير من القبائل العربية التى استقرت فى المنطقة المحيطة بها ، وظلت على هذه الحال حتى قضى الإمبراطور الرومانى تراجان سنة ١٠٥م على إمارة الأنباط ، واستولى عليها(١) طمعًا فى السيطرة على الطريق التجارى الذى يمر بها(٢) ولم يتخذ الرومان هذه المدينة حاضرة بسبب تعرضها لغارات القبائل العربية الضارية فى نواحيها (٣).

وقد عمد الرومان فيما بعد إلى إضعاف الإمارات العربية بالشام والقضاء على نفوذها ، إذ غدا استقلالها خطرًا يهدد سلامة إمبراطوريتهم ، وتجلت هذه السياسة مع إمارة تدمر التى خالفت روما ، ونفذت سياستها ضد الفرس ، إذ نجح أذينه حاكم تدمر فى طرد شابور الأول الفارسى من الشام سنة ٢٦٥م . ومنحه الإمبراطور الرومانى أوريان لقب " حاكم الشرق " (Dux Orientis) اعترافًا بجهوده وخدماته ، غير أن هذه الإمارة لم تستمر طويلا ، فقد قضى عليها الرومان سنة ٢٧٣م(٤).

---

* قسم التاريخ والحضارة الإسلامية كلية الشريعة - جامعة أم القرى .

وبينما كان الرومان يعملون على القضاء على نفوذ الإمارات العربية فى بلاد الشام الواحدة بعد الأخرى ، كانت قبيلة أخرى[٥] تدعم لنفسها على أنقاض إمارتى الأنباط وتدمر ، تقيم دولة فى الجنوب الشرقى من دمشق [٦].

كانت بادية الشام أرضًا عربية من أقدم الأزمنة ، فوفد إليها بعض القبائل من البادية ، كما هاجر إليها الضجاعمة [٧]، ونزلوا بالبلقاء وظلوا بها ، إلى أن قدم عليهم الغساسنة ، فطالبهم الضجاعمة بالإتاوة ، وظل الغساسنة يؤدون الإتاوة للضجاعمة حتى تغلبوا عليهم ، وأنشئوا لأنفسهم دولة عرفت بدولة الغساسنة ، واتخذ الغساسنة أكثر من عاصمة لأن - حياتهم كانت غير مستقرة ، ومن عواصمهم بُصرى[٨] وجلق (جنوبى حوران) والجابية [٩].

زاد الاهتمام بمدينة دمشق فى عهد الدولة البيزنطة ، لأن الفرس كانوا يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، فاتخذ البيزنطيون من الغساسنة - الذين كانوا يقيمون فى منطقة دمشق والصحراء القريبة منها - حلفاء لهم لحماية حدود دولتهم من خطر الفرس وغارات البدو . وقد أدت هذه السياسة إلى تقوية الطابع العربى فى دمشق ، فغدت محط أنظار العرب فى الجاهلية يفدون إليها للتجارة [١٠].

حالف الروم الغساسنة على أن يمدوهم بأربعين ألفًا إذا هاجمهم العرب ، وأن يمدوا الروم بعشرين ألفًا إذا حاربهم الفرس . واعتنق الغساسنة - تحت تأثير ما بينهم وبين البيزنطيين من علاقات المسيحية ، غير أنهم لم يتبعوا المذهب الملكانى - مذهب الدولة البيزنطية - بل اعتنقوا المسيحية على المذهب المنوفستى السائد فى سورية .

كان الحارث الثانى بن جبله (٥٢٩ - ٥٦٩م) من أعظم أمراء الغساسنة شأنًا ، وقد رفع الإمبراطور جستنيان الحارث إلى مرتبة الملوك ، وبسط سلطانه على كافة القبائل العربية فى بلاد الشام .

قامت بين الغساسنة والمنذر بن ماء السماء - أمير الحيرة - حرب لادعائه ملكية الطريق الممتد من دمشق إلى ما بعد تدمر ، وأوعز كسرى سرًا لأمير الحيرة أن يتوغل فى غزو سورية، فأجابه إلى طلبه ، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الحيرة ودولة الغساسنة ، ثم تقدم كسرى وحليفه المنذر فى أراضى سورية وآسيا الصغرى ، وأوشكا على فتح القسطنطينية ، فاستنجد الإمبراطور البيزنطى بالحارث بن جبله ، وطلب منه أن ينضم إلى قائده بليزاريوس فى صد الفرس والمناذرة وفى سنة ٥٤١م حارب الحارث فى العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزاريوس ، ولم يحصل من حملته هذه على نتائج تذكر .

لم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال سنة ٥٤٤م ، واستمر القتال بينهما إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً في واقعة عين أباغ ، أدت إلى دخول قنسرين فى حوزة الحارث بن جبلة (١١).

سافر الحارث بن جبلة في أواخر عهده سنة ٥٦٣م إلى القسطنطينية لمفاوضة الإمبراطور جستنيان فيمن يخلفه من أولاده على سورية ، وما يتخذ من تدابير لمقاومة أمير الحيرة ، وكان لما شاهده فى العاصمة البيزنطية من مظاهر العظمة والأبهة وقع عظيم في نفسه (١٢).

استطاع الحارث بن جبلة أثناء إقامته في القسطنطينية أن يظفر بتعيين يعقوب البردعى أسقفًا على الكنيسة السورية ، وكان يعقوب هذا متحمسًا فى نشر مذهبه حتى أن الكنيسة المنوفستية السورية عرفت بعده باسم اليعقوبية (١٣).

لما توفى الحارث سنة ٥٧٠م خلفه ابنه المنذر ، ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى اشتبك فى حرب مع عرب الحيرة ، وكانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة أبيه ، فقاتلهم وانتصر على ملكهم قابوس بن المنذر ، ثم وقعت جفوة بين المنذر وبيزنطة بسبب مناصرته المذهب المنوفستى – وكانت تؤيد المذهب الملكانى – فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ، فاضطر الروم إلى استرضاء الأمير الغسانى ودعاه الإمبراطور البيزنطى تيبريوس (Tiberius) لزيارة القسطنطينية سنة ٥٨٠م ، فرحب المنذر بهذه الدعوة ، وأحسن الإمبراطور استقباله ، وأنعم عليه بالتاج ، وذلك سماه بعض مؤرخى العرب " المنذر ملك العرب " (١٤).

على أن الإمبراطور البيزنطى لم يلبث أن ارتاب في ولائه ونفاه سنة ٥٨٠م إلى صقلية حيث توفى بعد سنتين . وقطعت الحكومة البيزنطية الإتاوة السنوية التى كانت تعطيها للغساسنة ، فسخط أبناء المنذر الأربعة على الإمبراطور البيزنطى ، وشقوا عصا الطاعة على الدولة الرومانية ، ثم توغلوا بزعامة أخيهم الأكبر النعمان بن المنذر الغسانى فى الصحراء ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضى هذه الدولة ، لكن الحكومة البيزنطية تمكنت من أسر النعمان سنة ٥٨٣م(١٥).

تفرقت كلمة العرب فى سورية بعد أن سيق النعمان إلى القسطنطينية وتفككت عرى وحدتهم ، فاختارت كل قبيلة منهم أميرًا لها (١٦).

كما ترتب على انهيار سلطان الغساسنة هجرة بعض القبائل العربية إلى الشام ، ومن أشهرها قبيلة كلب التى امتلكت غوطة دمشق ومنطقة جنوب جبل حوران وواحة دومة الجندل وتبوك ، وهيأت لهم هذه البقاع السيطرة على الطرق التجارية التى تخترقها فضلاً عن الينابيع المائية الكثيرة بها ، وورثت هذه القبيلة ما كان للغساسنة من زعامة على عرب الشام فى عهد معاوية وابنه يزيد (١٧).

كما كان لضعف الغساسنة بالشام آثار سيئة على مدينة دمشق إذ غزا الفرس بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس ودمشق سنة ٦١٣ – ٦١٤م(١٨). غير أن الفرس لم يستمروا طويلاً فى الشام إذ تمكن الإمبراطور هرقل من إجلائهم عن تلك البلاد سنة ٦٢٨م وظهر من الغساسنة إذ ذاك جبلة ابن الأيهم ، ويعد آخر أمراء البيت الغسانى ، وقد اشترك مع الروم فى واقعة اليرموك(١٩) التى انتصر فيها العرب المسلمون .

تعرضت دمشق فى العهد البيزنطى لأحداث هامة كان لها تأثير بالغ فى سكانها من العرب حملهم على التطلع إلى إخوانهم فى شبه الجزيرة العربية ، فقد كان أهل دمشق يتبعون المذهب اليعقوبى ، بينما كانت الدولة البيزنطية تتبع المذهب الملكانى . حاول هرقل إنهاء النزاع بين أتباع المذهبين ، ففرض على سكان الإمبراطورية مذهباً يقول بأن للمسيح مشيئة واحدة(٢٠) ولكن أهل دمشق تمسكوا بمذهبهم اليعقوبى (٢١). وقد أدت هذه السياسة بزوال عهد السيادة البيزنطية على دمشق ، إذ سرعان ما تحققت الوحدة الدينية والسياسة فى جزيرة العرب ، ورأوا فيهم رمزاً للخلاص من نير الروم واستبداد الكنيسة البيزنطية (٢٢).

الفتح الإسلامى لمدينة دمشق :

شرع المسلمون فى غزو الأطراف الجنوبية لبلاد الشام فى حياة النبى ﷺ ، ولما ولى أبو بكر الخلافة بدأ عمله بإنفاذ حملة أسامة بن زيد التى جهزها الرسول قبل وفاته ، وزودها بخيرة المسلمين من المهاجرين والأنصار (٢٣).

كان أبو بكر يرمى من وراء الإسراع بإرسال هذه الحملة إشعار الخارجين على الحكومة الإسلامية فى المدينة ، بقوتها وثبات مركزها ، هذا فضلاً عن رغبته فى شغل الأنصار الذين كانوا غير راضين عن فوز المهاجرين بالخلافة فى بيعة السقيفة (٢٤).

ويذكر ابن الأثير(٢٥) أنه كان لإنفاذ جيش أسامة أهمية كبيرة للمسلمين ، " فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا".

لكن بعض الصحابة اعترض على إرسال هذه الحملة ، وقالوا للخليفة " انتفضت عليك العرب فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك " فأجابهم أبو بكر بقوله : " لا أرد قضاء اقضى به رسول الله ﷺ ، ولو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي"(٢٦).

ولما تحرك الجيش خرج أبو بكر لتوديعه ، وأوصى أفراد هذه الحملة بقوله " لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ؛ وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصاب ، فأخفقوهم بالسيف خفقًا . اندفعوا باسم الله " (٢٧).

سار أسامة على رأس جيشه قاصداً البلقاء ، حتى بلغ "بنى(٢٨) غزا قومًا من قضاعة وأوقع بهم ، وتغلب على كل من تعرض له ، وغنم وعاد منتصراً إلى المدينة بعد أن قضى في غزوته ما يقرب من شهرين(٢٩). وبذلك أخذ أسامة الثأر لأبيه ولمن استشهد معه من المسلمين في مؤتة. وكانت هذه الحملة أولى السلسلة الرائعة من الحملات التى اجتاح العرب فيها سورية وفارس وشمال أفريقية (٣٠).

وجه أبو بكر اهتمامه بعد أن فرغ من أهل الردة إلى توجيه الجيوش إلى الشام ليحقق بذلك سياسة التوسع للدولة العربية الإسلامية التى وضع أساسها الرسول قبل وفاته(٣١) فجمع الصحابة فى المسجد وقال لهم : " اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه السلام وزادكم إيمانًا ويقينًا ، واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عول أن يصرف همته إلى الشام ... ألا وأنى عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم وما لهم فإن الرسول أنبانى بذلك قبل موته ، فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة وقالوا له : مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت"(٣٢).

كتب أبو بكر إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز ، يدعوهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم . وقد استجاب المسلمون في جميع أنحاء الجزيرة العربية لنداء الخليفة " فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع " (٣٣)، فأقبلوا ومعهم الذرارى والأموال والنساء والأطفال . وخرج المسلمون لاستقبالهم " وأظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الأعلام الإسلامية ورفعوا الألوية المحمدية ، فما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضاً قوم في أثر قوم وقبيلة في أثر قبيلة ، فنزلهم أبو بكر حول المدينة وجعل كل قبيلة تقيم في ناحية معينة " (٣٤).

عقد أبو بكر أربعة ألوية لأربعة من قواد المسلمين ، وهم يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وعهد إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح بالمسير إلى حمص ، وطلب إليهم في حالة اضطرارهم إلى الانضمام لبعض أن تكون القيادة لأمير المنطقة التى فيها التجمع (٣٥).

أوصى أبو بكر الصديق يزيد بن أبي سفيان بقوله : " إذا سرت فلا تضيق على نفسك وعلى أصحابك في مسيرك وشاور أصحابك في الأمر " واستعمل العدل ، وباعد عنك الظلم ، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم ، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا امرأة ولا طفلاً ، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم ، ولا تهدموا صوامع الرهبان، وحاربوا عبدة الصلبان حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " (٣٦).

لما بلغ يزيد بن أبي سفيان تبوك - وهو في طريقه إلى الشام - أنفذ هرقل إمبراطور الروم جيشاً ليحول دون دخول العرب بلاد الشام ، ودارت بين العرب والروم موقعة انتصر فيها العرب (٣٧).

وعندما سار عمرو بن العاص إلى فلسطين أسرع أميرها سرجيوس لصد غارات العرب ، لكنه هُزم في موضع يقال له العربة (Araba) ثم فر وقُتل أثناء فراره ، وفي هذه الأثناء كان هرقل إمبراطور الروم في شمال الشام قد حشد جيشاً كبيراً لصد القوات العربية (٣٨)، فكتب عمرو بن العاص إلى أبي بكر يستنجده ويخبره بكثرة عدد العدو وعدتهم (٣٩)، وكان أبو بكر إذ ذاك يرى أن فتح الشام أكثر أهمية من فتح العراق (٤٠)، ومن ثم كتب إلى خالد بن الوليد - الذى كان وقتذاك يواصل زحفه في بلاد العراق - يأمره بالتوجه إلى الشام(٤١)، وأسند إليه قيادة الجيوش العربية في تلك البلاد (٤٢).

لما أتى خالد بن الوليد كتاب أبى بكر وهو بالحيرة أسند قيادة الجيوش العربية فى العراق إلى المثنى بن حارثة الشيبانى ، وسار فى ربيع الأول سنة ١٣هـ إلى بلاد الشام على رأس نصف الجيش الذى كان يقوده فى العراق (٤٣).

ولما وصل إلى بلدة بصرى – وكان فتحها قد استعصى على شرحبيل ابن حسنة استطاع أن يستولى عليها بمعاونة واليها رومانوس الذى اعتنق الإسلام ، ويسر للعرب أمر دخولها ، وصالح خالد أهل بصرى وأعطاهم أمانًا على دمائهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية (٤٤).

وكان عمرو بن العاص إذ ذاك قد أغار على جنوبى فلسطين حتى بلغ غزة ، فقطع المواصلات بين مدينة بيت المقدس وبين الساحل ، أما هرقل قيصر الروم فقد أعد جيشًا فى ناحية تقع جنوبى دمشق ، وأسند قيادته إلى أخيه تيودور الذى سار جنوبًا للدفاع عن بيت المقدس وغزة ، فخشى خالد بن الوليد هزيمة القوات العربية فى الجنوب ، وأسرع جنوبًا عبر شرق الأردن ، وحشد قواته فى وادى عربة ، ثم زحف إلى فلسطين لمحاربة تيودور ، وفى جمادى الأول سنة ١٣هـ نشبت معركة بين العرب والروم فى أجنادين دارت الدائرة فيها على الروم ، وولى تيودور هاربًا حيث التقى بأخيه هرقل الذى غادر حمص وتراجع إلى إنطاكية(٤٥).

وبانتصار العرب فى أجنادين أصبحت فلسطين كلها فى يدهم وقد نوه عن ذلك سفرنيوس رئيس أساقفة بيت المقدس فى خطاب ألقاه فى الاحتفال بعيد الميلاد سنة ١٣هـ (٦٣٤م) إذ قال : أن المسيحيين أصبحوا لا يستطيعون الحج إلى بيت لحم لأن بلاد فلسطين أصبحت فى قبضة العرب (٤٦).

لما علم أهل الحجاز واليمن ونجد بالانتصارات التى أحرزها المسلمون والغنائم الكثيرة التى غنموها ، تسابقوا فى الخروج إلى الشام لمشاركة إخوانهم فى الجهاد ، فأقبل إلى المدينة عدد غفير منهم ، وطلبوا من أبى بكر أن يأذن لهم بالخروج إلى الشام ، فأذن الخليفة لهم ، وكتب إلى خالد بن الوليد كتابًا جاء فيه : " قد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين ، وأخبرك أن تنزل إلى دمشق حتى يأذن الله بفتحها على يدك ، فإذا تم ذلك ، فسر إلى حمص وإنطاكية والسلام " (٤٧).

تركزت المعارك فى بداية عهد عمر بن الخطاب فى الأردن حيث انتصر العرب على الروم فى بيسان وفحل ، ذلك أن هرقل إمبراطور الروم لما توجه إلى أنطاكية أعد جيشًا كبيرًا التقى بالقوات العربية فى فحل التى كانت تحمى الطريق إلى دمشق – وهدم الروم سدود المياه

ليعرقلوا تحركات العرب [٤٨]، لكنهم رغم ذلك انتصروا على أعدائهم ، وتحصن أهل فحل في مدينتهم ، فشدد العرب عليهم الحصار حتى طلبوا الأمان على أن يؤدوا الجزية والخراج فاستجاب العرب لطلبهم ، وأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، ودخلوا فحل سنة ١٣هـ / ٦٣٤م[٤٩].

مهدت الانتصارات التى أحرزها العرب في الأردن الطريق إلى دمشق ، فتوجه العرب في المحرم سنة ١٤هـ إلى دمشق – وكان الروم قد أعادوا تنظيم صفوفهم بعد أن أمدهم هرقل ببعض قواته – ، والتقى العرب بالروم في مرج الصفر وأوقعوا بهم الهزيمة[٥٠] وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام العرب للزحف إلى دمشق[٥١] فاستولوا على الغوطة وكنائسها عنوة[٥٢] وتحصنت الحاميات البيزنطية في المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، ومن ثم بدأ التعاون والتنسيق بين سائر قواد العرب ، فوزعوا قواتهم على أبواب المدينة الرئيسية لتشديد الحصار عليها ، وحملها على التسليم ، فاختص خالد بن الوليد بالباب الشرقي ، واتخذ من دير صليبا – الذى عرف فيما بعد بدير خالد – مقراً لقيادته ونزل عمرو بن العاص بباب توما ، وشرحبيل بن حسنة بباب الفراديس ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح بباب الجابية [٥٣].

وبينما كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يشترك مع قواد العرب في محاصرة دمشق وصله كتاب من الخليفة عمر بن الخطاب يتضمن إسناد قيادة الجيوش العربية في الشام إليه بدلاً من خالد بن الوليد . ومما جاء في هذا الكتب " قد بلغنا حصاركم لأهل دمشق وقد وليتك جماعة المسلمين ، فبث سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ، ومن حضرك من المسلمين ومن استغنيت عنه فسيره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غني بك عنه " [٥٤].

كتم أبو عبيدة عن خالد بن الوليد توليته قيادة الجيوش العربية حتى تم فتح دمشق ، وحينئذ أظهرها له قائلاً : كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو [٥٥]. ولما قرأ خالد بن الوليد كتاب الخليفة قال : (ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين) ، وحارب تحت إمرة أبي عبيدة [٥٦].

ظل العرب يحاصرون مدينة دمشق ستة أشهر متوالية[٥٧] ولم تجد أهالي هذه المدينة منعة حصونهم نفعًا ، كما أنه في أثناء الحصار كانت بعض القوات العربية بين دمشق وحمص تحول دون وصول أية إمدادات قد تصل إليهم ، فضعفت مقاومتهم ، ووهنت عزيمتهم[٥٨] .

لما اشتد الحصار على أهل دمشق بعثوا إلى هرقل وهو بإنطاكية رسلاً يقولون له : " إن العرب قد حاصرونا وليس لنا بهم طاقة ، وقد قاتلناهم مراراً ، فإن كان لك فينا وفي السلطان علينا حاجة ، فأمددنا وأعنا وإلا فإنا في ضيق وجهد فاعذرنا وقد أعطانا القوم الأمان ، ورضوا منا بالجزية اليسيرة (٥٩).

لما رأى أسقف دمشق أن أبا عبيدة بن الجراح على وشك دخول مدينة دمشق من باب الجابية توجه إلى خالد بن الوليد وطلب منه أن يعقد معه صلحًا بقوله : " يا أبا سليمان أن أمركم مقبل ولي عليك عدة ، فصالحني عن هذه المدينة " ، فأجاب خالد طلبه ، وكتب إليه كتاب صلح لأهل دمشق جاء فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنون لايعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية " (٦٠).

فتح أسقف دمشق على أثر ذلك الباب الشرقي لخالد بن الوليد ، فدخل المدينة في ربيع الثاني سنة ١٥هـ / ٦٣٦م ، ويصحبه الأسقف ناشراً كتاب الصلح الذى كتبه خالد بن الوليد له . والتقى خالد بقوات العرب في دمشق على مقربة من كنيسة المقسلاط (٦١) ، وأخبرهم بالصلح الذى كتبه لأهل دمشق ، فأمروا قواتهم بالكف عن القتال(٦٢) وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب بهذا الصلح فوافق عليه (٦٣).

هنك روايات كثيرة تدور حول الفتح العربي لمدينة دمشق يناقض بعضها بعضاً ، ومن أبرز هذه الروايات رواية ابن عساكر(٦٤) التي ذكر فيها أن خالد بن الوليد دخل المدينة من الباب الشرقي عنوة ، في حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية صلحًا ، وعلى ذلك كان صلح أهل دمشق على أنصاف منازلهم وكنائسهم . وهذه الرواية متأخرة وتناقض كل الروايات الموثوق بها والسابقة عليها في الزمن ، ورواية البلاذرى أقرب هذه الروايات إلى الصحة (٦٥).

ذكر البلاذرى(٦٦) أن محمد بن سعد(٦٧) روى عن الواقدى قوله : " قرأت كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ، ولكن دمشق لما فتحت لحق كثير من أهلها بهرقل وهو بإنطاكية ، فكثر فضول منازلها ، فنزلها المسلمون " . وكان أبو عبيده قد أعطاهم أمانًا لمدة ثلاثة أيام يغادرون خلالها المدينة (٦٨).

قضى العرب شتاء سنة (٦٣٦م) فى دمشق واضطروا إلى الرحيل عنها وعن بعض المدن التى فتحوها لملاقاة الروم فى اليرموك ، بل أعادوا لأهل حمص ما أخذوه من الخراج وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم (٦٩) . ذلك أن هرقل عول على مهاجمة العرب بعد أن بلغه فتحهم دمشق ، فجمع جيشاً كبيراً من الروم وعرب الشام وأهل الجزيرة وأرمينية ، وأسند قيادة هذا الجيش إلى تيودور (٧٠).

اجتمعت القوات العربية فى المنطقة المعروفة بحوض نهر اليرموك . أما قوات الروم فسارت إلى الواقوصة ، وهاجمت خيالتهم العرب (٧١) ، واشتد القتال بين الفريقين ، ولكن حدث أن استهوت عرب الشام بالجيش البيزنطى العصبية العربية ، وانضموا للقوات العربية أثناء القتال وقالوا لهم : " أنتم إخوتنا وبنو أبينا " . كما أن اليأس تسرب إلى جند الروم بعد أن فشلوا مراراً فى وقف تيار الزحف العربى ، وانتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم فى رجب سنة ١٥هـ / ٦٣٦م(٧٢).

عاد العرب إلى دمشق بعد انتصارهم الرائع فى اليرموك فى خريف هذه السنة ، وفتحوها للمرة الثانية ، وجدد خالد بن الوليد لأهل دمشق كتاب الصلح الذى كان كتبه لهم ، وأثبت فى هذا الكتاب شهادة أبى عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من قواد العرب (٧٣).

ولما بلغ هرقل إيقاع المسلمين بجنده قال فى حسرة وألم : " عليك السلام يا سورية لقد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، ولا يعود إليك رومى أبداً إلا خائفاً " (٧٤).

عاد العرب عقب اليرموك إلى المناطق التى كانت تعسكر فيها قواتهم ، فسافر عمرو بن العاص إلى فلسطين ليتم فتحها ، واتجه شرحبيل بن حسنة إلى الأردن ، وفتح عكا وصور وأخذ يزيد يغزو مدن الشام الغربية ، فاستولى على صيدا وجبيل وبيروت ، أما أبو عبيدة فإنه تقدم شمالاً واسترد المدن التى استولى عليها العرب من قبل ، وامتدت فتوحه إلى حمص وقنسرين وحلب وإنطاكية ، وكان خالد بن الوليد قد سار فى صحبته ، غير أنه ما لبث أن تركه وتوجه إلى المدينة تنفيذاً لأوامر الخليفة ، وظل أبو عبيدة والياً على سورية كلها (٧٥).

كانت دمشق من بين المدن التى استردها العرب بعد انتصارهم فى اليرموك . وكان خالد قد فتحها فى أول الأمر صلحاً ، ثم اضطر العرب إلى الرحيل عنها ، فاستعاد الروم سلطانهم

عليها ، غير أنهم لم يبقوا بها طويلاً ، فقد عادت إلى قبضة العرب سنة ١٥هـ [٧٦]، ومن ثم أصبح لهم حق التصرف فى أرضها [٧٧].

صالح أبو عبيدة أهل دمشق على أداء الجزية والخراج وتقديم قدر من الطعام لمؤونة المسلمين، كما التزموا بإضافة من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام من أوساط ما يأكلون ولا يحدثوا فى دمشق ولا فيما حولها كنيسة أو ديراً ولا يجددوا ما خرب من كنائسهم مما كان فى خطط المسلمين ولا يؤون فى منازلهم جاسوساً ولا يكتموا على من غش المسلمين [٧٨].

كان أبو عبيدة بن الجراح قد قرر على كل ذمى فى دمشق جزية قدرها ديناراً واحداً تؤدى فى كل سنة يضاف إلى ذلك جريب حنطة وقدر من الخل والزيت لمؤونة المسلمين تؤدى فى كل شهر ، ثم كتب عمر بن الخطاب إليه يأمره بأن يجعل الجزية قدر الطاقة فتؤدى الطبقة العليا أربعة دنانير والطبقة الوسطى دينارين والطبقة الدنيا ديناراً واحداً يضاف إلى ذلك[٧٩] جريب حنطة وثلاثة أقساط زيت وقدر من العسل والخل يؤديها شهرياً كل من يؤدى الجزية [٨٠].

وترك أبو عبيدة أرض دمشق وقراها الزراعية بأيدى أهلها يزرعونها ويؤدون خراجاً عنها . ولما قدم عمر بن الخطاب على الجابية سنة ١٨هـ رفض تقسيم هذه الأرض بين الفاتحين وأبقاها بأيدى أهلها على أن يؤدوا خراجها [٨١].

واختط أبو عبيدة بن الجراح فى دمشق مسجداً صغيراً عقب فتحها[٨٢] وترك لأهل الذمة خمس عشرة كنيسة يؤدون فيها شعائرهم الدينية [٨٣].

عين عمر بن الخطاب يزيد بن أبى سفيان أميراً على دمشق بعد وفاة أبى عبيدة الجراح ، ولما توفى فى سنة ١٨هـ ضم عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبى سفيان - الذى كان يلى الأردن - ولاية دمشق ، وأقر عثمان بن عفان ولايته عليها ، ثم ضم إليه فلسطين وحمص وقنسرين وجمع له الأجناد كلها ، وبذلك أصبح والياً على جميع بلاد الشام لسنتين من خلافة عثمان[٨٤] ومما لاشك فيه أن عثمان بن عفان بإطلاقه يد معاوية فى هذه الولاية مهد له سبيل نقل الخلافة إلى أسرة أبى سفيان وتثبيتها فى البيت الأموى [٨٥].

كان معاوية يرى نقل حاضرة الخلافة إلى دمشق حين وفد إلى عثمان سنة ٣٤هـ ، وأيقن أن هناك خطراً يواجه الخليفة ، فقال له : " يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا " لكن عثمان أبى إلا أن يظل فى المدينة[٨٦] .

ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة ، امتنع معاوية عن مبايعته [٨٧]، وظل والياً على الشام ، واستطاع معاوية أن يصمد فى نزاعه مع على ، بفضل إخلاص أهل الشام ، فقد أثار للتحكيم بعد واقعة صفين للفرقة بين صفوف جيش على ، على حين جنى معاوية بعد هذه الواقعة ثمار جهوده فى إقليم الشام ، وبقاء أهله على الطاعة والولاء له ، إذ لم تلبث الأحداث أن هيئت الجو لمعاوية تماماً حين انتهت حياة على بن أبى طالب ونزل الحسن بن على سنة ٤١هـ عن الخلافة لمعاوية [٨٨].

وهكذا تحققت أطماع معاوية ، فاستقرت له الخلافة وأصبح صاحب السلطان المطلق فى كافة أنحاء الدولة العربية الإسلامية واتخذ دمشق حاضرة لخلافته بعد أن كانت حاضرة ولاية الشام وحدها ، فانتقلت إليها سياسة الملك [٨٩]. وحرص معاوية منذ توليته الخلافة على ألا تعيش القبائل العربية فى الشام فى معزل عن أهلها الأصليين ، وبذلك استطاع أن يكون آمناً فى حاضرة دولته ، ونقل بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق ، وزاد فى عطاء أهل الشام ، فأطاعوه وظلت دمشق محتفظة بمكانتها كحاضرة طوال العهد الأموى [٩٠].

أدرك العرب منذ أن فتحوا دمشق أن تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم أول ما يجب أن يكفل للمحكومين ، وقد جاء ذلك فى كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق ، فعاشوا فى كنف ولاة المسلمين فى أمن وطمأنينة ، وقام العرب بحماية الأهالى فى مقابل دفع مبلغ معين يؤديه كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية وكانوا يعفون من أدائها إذا اعتنقوا الإسلام ، كما ترك العرب لأهل دمشق الأرض يزرعونها على أن يؤدوا خراجاً عنها [٩١].

كان لانتصار الجيوش العربية على الروم فى بلاد الشام وما تبع ذلك من فتح دمشق أكبر الأثر فى إحياء الصلات القديمة التى كانت تربط بين العرب المقيمين فى دمشق وبين العرب الفاتحين ، وساعدت وحدة الجنس ووحدة اللغة على انمداج الفريقين ، كما أدى الاتصال الاجتماعى بينهما إلى تكوين مجتمع جديد فى دمشق .

كان طبيعياً ألا يتخذ هذا المجتمع الجديد شكله النهائى فى بضع سنين ، ذلك لأن العرب غادروا أرضهم إلى أرض جديدة وواجهوا فى دمشق أقواماً يختلفون عنهم فى اللغة والدين والتقاليد ، وكان لابد لهذا المجتمع الجديد فى دمشق وهو فى دور التكوين أن يتخذ صوراً وأشكالاً متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغات وأديان وتقاليد مختلفة [٩٢].

كانت اللغة العربية منتشرة فى دمشق قبل الفتح العربى فقد نشرها العرب الذين كانوا يدينون بالوثنية ، ثم العرب الذين دخلوا فى المسيحية بعدهم . ولما فتح العرب المسلمون دمشق، وهاجرت بعض القبائل العربية إليها زادت العربية انتشاراً ورسوخاً فى هذه المدينة ، واضطر أهلها من غير العرب إلى تعلم العربية لأنها لغة الحاكمين (٩٣).

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية في دمشق أنها لغة الدين الجديد كما أن العرب سعوا إلى جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة . ولم يحارب العرب اللغة اليونانية – لغة السواد الأعظم من سكان دمشق – بل ساروا فى نشر لغتهم سيراً حثيثاً (٩٤).

يعلل بن خلدون(٩٥) انتشار اللغة العربية فى البلاد التى فتحها المسلمون بقوله : " لما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان الفاتحين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها فى جميع ممالكها لأن الناس تبع السلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة " .

كان من عوامل انتشار اللغة العربية فى دمشق تعريب الدواوين الذى بدأ فى عهد عبد الملك بن مروان ، فقد ظلت الدواوين فى دمشق تكتب باليونانية – لغة أهلها – حتى شرع عبد الملك فى صبغ الدولة بصبغة عربية بعد أن استقرت الأمور فيها ، واتسعت خبرة العرب الذين "انتقلوا من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حزق الكتابة" (٩٦). وجاء ذلك تأكيداً لسيادة الدولة العربية التى سار عليها بنو أمية .

يذكر الجهشيارى(٩٧) أنه من الأسباب التى حملت الخليفة عبد الملك على تعريب الدواوين أن سرجون بن منصور الرومى – الذى كان يتقلد ديوان دمشق فى عهد عبد الملك – أمره الخليفة يوماً بشيء فتثاقل فيه وتوانى عنه ، فعاد لطلبه مرة أخرى ، فرأى تفريطاً وتقصيراً ، فقال عبد الملك لأبى ثابت سليمان بن سعد الخشنى – وكان يتقلد ديوان الرسائل – أما ترى إذلال سرجون علينا ، وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا إليه وإلى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولته إلى العربية ، قال له : فافعل ، وقلده عبد الملك جميع دواوين الشام .

بينما يذكر البلاذرى(٩٨) سبباً آخر لتعريب الدواوين فيقول : ظلت دواوين دمشق تكتب باليونانية حتى ولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، فلما كانت سنة ٨١هـ أمر بنقل الدواوين إلى العربية ، ذلك أن رجلاً من كتاب الروم احتاج مداداً ليكتب به ، فلم يجد ، فسلك مسلكاً مشيناً أغضب عبد الملك فأمر عبد الملك سليمان بن سعد بنقل الدواوين إلى العربية ، وكافأه فى مقابل ذلك بخراج الأردن سنة .

كان نقل الدواوين إلى العربية بطيئًا ، وقد شرع فيه في أيام عبد الملك ، واستمر حتى عهد الوليد(٩٩) ، ومن المرجح أن يكون هذا هو السبب الذى حدا ببعض المؤرخين أن ينسبوا نقل الدواوين إلى عبد الملك (١٠٠)، بينما ينسبه آخرون إلى الوليد (١٠١).

ساعد تعريب الدواوين على ذيوع اللغة العربية وانتشارها ، فقد أقبل الكتاب من غير العرب على تعلم اللغة العربية حتى يستمروا في عملهم بالدواوين ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والإدارة والسياسة فضلاً عن كونها لغة الدين والأدب ، والثقافة (١٠٢).

انتشر الإسلام بين عرب الشام الذين يقطنون في دمشق ونواحيها بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب القادمين من الجزيرة العربية ، وحين وفد عمر بن الخطاب إلى الجابية سنة ١٨هـ ، كانت لخم وجذام قد دخلت في الإسلام(١٠٣) ومن القبائل التي اعتنقت الإسلام بعد الفتح العربي لمدينة دمشق قبيلة غسان وقبيلة بني كلب(١٠٤) . وكان انتشار الإسلام بين القبائل المسيحية التي تقيم في منطقة دمشق أكثر من انتشاره بين سكان هذه المدينة (١٠٥).

من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في دمشق وفود نفر قليل من الصحابة والتابعين إلى هذه المدينة وإقامتهم بها وحماستهم لهداية الناس إلى الدين الحنيف (١٠٦).

كما كان للانتصارات الرائعة التي أحرزها العرب في بلاد الشام أثر كبير في جعل المسيحيين يعتقدون أن هذه الانتصارات إنما تمت بعون من الله وأن نجاح المسلمين دليل على صدق دينهم (١٠٧).

كما أدى تدهور حال الكنيسة الشرقية من الناحيتين الخلقية والروحية إلى دخول كثير من أهل دمشق دين الإسلام (١٠٨)، إذ كانت الأحزاب الدينية تناوىء وتضطهد بعضها بعضًا ، مما كان له تأثير كبير في زعزعة أسس العقيدة الدينية عند المسيحيين ، فلم تعد المسيحية الشرقية – التي مزقتها الانقسامات الداخلية وزعزعت أسسها ودخل اليأس في نفوس أهلها بسبب هذه الشكوك – قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى قدم مزايا مادية جليلة فضلاً عن مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل .

وكانت المسيحية في الشام قد تأثرت بالثقافة اليونانية فتحولت إلى عقيدة محفوفة بمذاهب معقدة مليئة بالشكوك ، وكانت الطبقات العليا يشيع فيها الفساد ، والوسطى مثقلة بالضرائب، ولم يكن للأرقاء أمل في حاضرهم أو مستقبلهم ، فأزال الإسلام هذه المفاسد والخرافات ، ودعا الناس إلى فعل الخير ونبذ الرذائل وأحل الشجاعة محل الرهبنة ، وآخى بين المؤمنين ، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية (١٠٩).

وعلى الرغم من أن تعصب العرب لبنى جنسهم قد أدى فى بادىء الأمر إلى عدم تمتع المسلمين الجدد بالمزايا التي كان يتمتع بها العرب ، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة فى المجتمع وهم على ولائهم للقبائل العربية التى كانوا قد تعودوا في بادىء الأمر الانضواء تحت لوائها . وفى نهاية القرن الأول الهجرى كان المسلمون من غير العرب يتمتعون بنفس المزايا التى كان يتمتع بها العرب (١١٠).

عين الخليفة عمر بن الخطاب في مدينة دمشق رجالاً عهد إليهم تعليم الذين دخلوا فى الإسلام حديثًا القرآن وتفقيههم فى الدين ، حتى يستطيع المسلمون الجدد أداء شعائرهم الدينية أداءً سليماً والإلمام بقواعد الدين الجديد (١١١).

وكان دخول أهل دمشق فى الإسلام عن اختيار وإرادة حرة (١١٢). ويدل كتاب الأمان الذى أعطاه خالد بن الوليد لهم سنة ١٥هـ . على أن العرب لم يحاولوا نشر الإسلام فى دمشق بحد السيف ، كذلك كفل العرب لأهل الذمة الحرية الدينية ، وسمحوا لهم بأن يؤدوا شعائرهم وفق مذهبهم اليعقوبي أو النسطورى (١١٣).

وصف خطط دمشق وتطورها :

تتمتع دمشق بمركز جغرافى فريد في نوعه ، إذ تقع فى مركز متوسط بين الشرق والغرب كما أنها نقطة يلتقى بها الطريق الذى يخترق سورية من الشمال إلى الجنوب بنهر بردى الذى يجرى من الشرق إلى الغرب (١١٤). وقد أدرك الإمبراطور البيزنطى يوليان (Julian) (٣٦١ – ٣٦٣م) أهمية موقعها فكان يسميها " عين الإمبراطورية فى سائر إقليم الشرق" (١١٥). وقد وصفها الخليفة عمر بن الخطاب فى كتاب بعث به إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح بأنها "حصن الشام وبيت مملكتهم " (١١٦).

أفاض الرحالة العرب في وصف مدينة دمشق ، فذكر اليعقوبي (١١٧) أنها " مدينة الشام فى الجاهلية والإسلام وليس لها نظير في جميع مدن الشام " . كما ذكر ابن جبير (١١٨) أنها "جنة الشرق ... وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها ... قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة للقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء على امتداد للبصر " . وذكر ياقوت أنها (١١٩) " جنة الأرض لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة " .

شيد الرومان إبان حكمهم لمدينة دمشق (١٠٥ – ٣٩٥م) سوراً لها جرياً على سياستهم فى تحصين المدن . وكان هذا السور مستطيلاً يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً تقريباً ، وسمكه خمسة عشر قدماً ، وتوازى جوانبه شوارع المدينة المستقيمة عدا جانبه الشمالى الذى كان يحازى نهر بردى [١٢٠].

كان يعلو أسوار دمشق أبراج بارزة مربعة الشكل يبعد كل برج عن الآخر مسافة قدرها خمسين قدماً تقريباً ، وتيسر هذه الأبراج للمدافعين وبخاصة الرماة سبل الدفاع عن المدينة . وكان يوجد فى عدة مواضع من السور بعض الأبنية الصغيرة وبيوت للسكنى يقيم بها أفراد الحامية التى تعهد إليها حراسة المدينة وأسوارها [١٢١].

كانت أسوار دمشق مبنية بالحجارة الضخمة التى لا يزعزعها شىء ، وكان يصعب اقتحامها وهدمها للدخول منها على الرغم مما تعرضت له فيما سلف من هجمات الفرس أو البيزنطيين . ولم يستطع العرب أثناء محاولتهم فتح دمشق اجتيازها إلا بعد لأى وعناء[١٢٢].

وظلت هذه الأسوار تحمى المدينة طوال عهد الراشدين والأمويين الذين حافظوا عليها . وذكر البلاذرى[١٢٣] أن أسوار دمشق استمرت قائمة حتى هدمها عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بعد زوال العهد الأموى ، بينما يذكر ابن كثير الدمشقى[١٢٤] أنها هدمت سنة ١٢٧هـ حين أرسل مروان بن محمد جيشاً إلى دمشق لإخماد ثورة أهلها .

كان لمدينة دمشق قبل الفتح العربى سبعة أبواب رئيسية صفحت بالحديد لصد غارات الأعداء . ولما كان الجانب الشمالى من المدينة أكثر جهاتها تحصيناً لوجود النهر حوله لذلك أنشىء به ثلاثة أبواب فقط [١٢٥]. وأبواب دمشق هى :

١ – الباب الشرقى : وسمى بذلك لوقوعه شرق المدينة ، وقد شُيد هذا الباب إبان الحكم الرومانى فى مستهل القرن الثالث الميلادى ، وكان يتألف من ثلاثة أبواب الأوسط منها كبيرة أحجاره مصقولة ، وكان يوجد على جانبيه بابان صغيران ، وكان الجند وقوافل الجمال وبواب الحمل تمر من الباب الأوسط ، أما البابان الآخران فكانا يستعملان لمرور الناس ، أحدهما للدخول والآخر للخروج [١٢٦] . وقد نزل خالد بن الوليد بهذا الباب أثناء حصار العرب لمدينة دمشق [١٢٧].

٢ - باب توما : وينسب إلى توما حاكم دمشق قبيل الفتح العربى . وكان هذا الباب يقع شمال دمشق (١٢٨)، ونزل به عمرو بن العاص أثناء حصار العرب لمدينة دمشق (١٢٩).

٣ - باب السلامة : ويقع فى شمال دمشق وسمى بذلك تفاؤلاً ، لأنه ليس من السهولة الهجوم على المدينة من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار (١٣٠).

٤ - باب الفراديس : يقع فى شمال دمشق وهو عبارة عن باب ضخم مستطيل ، وينسب إلى قرية تسمى الفراديس (١٣١).

٥ - الباب الصغير : وسمى بذلك لأنه أصغر أبواب دمشق ويقع جنوبها (١٣٢)، وقد دخل يزيد بن أبى سفيان دمشق من هذا الباب (١٣٣).

٦ - باب كيسان : ويقع جنوب الباب الصغير وينسب إلى كيسان مولى معاوية بن أبى سفيان ، وكان يسمى باب يونس قبل الفتح العربى (١٣٤).

٧ - باب الجابية : ويقع غرب دمشق وسمى بذلك نسبة إلي قرية الجابية . وكان يتألف من ثلاثة أبواب ، الأوسط منها كبير وعن جانبيه بابان صغيران ، وبناؤه بالحجارة الضخمة، وكان يخرج من الأبواب الثلاثة ، ثلاثة طرق إلى الباب الشرقى - الأوسط وكان يستعمل لمرور الناس ، والآخران لمرور الركبان (١٣٥)، وقد نزل على هذا الباب أبو عبيدة عامر بن الجراح أثناء حصار العرب لدمشق (١٣٦).

لم تتغير المعالم الرئيسية لمدينة دمشق بعد الفتح العربى عما كانت عليه فى العصر الرومانى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلي وقوعها عند نقطة يلتقى بها الطريق الذى يخترق قلب سورية من الشمال إلى الجنوب ويعبر نهر بردى الذى يجرى من الشرق إلى الغرب ، ومن ثم انتظمت على هذا النحو طرقات المدينة (١٣٧).

كانت دمشق عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل (١٣٨)، تمتد على ضفة نهر بردى اليمنى جنوبياً ، وكان يوجد فى الركن الشمالى الغربى من المدينة قلعة حصينة زالت ، وظل مكانها شاغراً ، وقد توالت هجرات القبائل العربية إلى مدينة دمشق عقب الفتح العربى سنة ١٥هـ (٦٣٦م) أقام بعضها فى المنطقة المجاورة لدمشق ، مما أدى إلى اتساع مساحة هذه المدينة وكثرة أحيائها ، واتخذت القبائل التى لم تستقر فى دمشق منازل لها فى ظاهرها حتى أصبحت هذه المنازل أشبه بقرى متصلة بعضها ببعض ، وترتب على ذلك اتصال العمران من

مدينة دمشق حتى القرى المحيطة بها (١٣٩). كذلك أدت كثرة المهاجرين من العرب إلى هذه المدينة إلى زيادة عدد دورها ، وكان لذلك تأثير كبير على شوارعها المنسقة المتوازية ، ففقدت كثيراً من طابعها (١٤٠).

استقر العرب عقب فتحهم دمشق في بادىء الأمر في الطرف الشمالي من المدينة ، وأقاموا في الدور التى هجرها الروم وبعض سكان دمشق عقب الفتح بالقرب من نهر بردى (١٤١)، وأقام بعض الصحابة في دور على مقربة من باب توما (١٤٢) شمال دمشق . ثم أنشأ العرب خططهم فيما بعد في الجهة الغربية من دمشق . واتخذ معاوية قصره (الخضراء) مجاوراً لخطط أصهاره بني كلب ، واتخذ بنو أمية دوراً مجاورة لقصر الخضراء (١٤٣). أما المسيحيون واليهود فاستقر مقامهم في الجهة الشرقية من دمشق (١٤٤).

لما نزل العرب دمشق احتفظوا بعاداتهم القبلية ، وتجمعوا في المدينة حسب تقسيمهم القبلي، فكان لكل قبيلة خطة أو درب أو حى خاص بها يضم منازلها وأسواقها ومساجدها ومنازلها ، وكان أهل دمشق يسمون هذه الأحياء أو الخطط دروباً - وكان يفصل كل درب عن الآخر سور ضمن الأسوار القائمة حول المدينة ، ومن ثم تحولت هذه الدروب إلى مدن صغيرة مسورة داخل دمشق ، وكانت أبواب هذه الدروب تغلق عند نشوب الفتن والاضطرابات الداخلية، فتنقطع بإغلاقها المواصلات بين دروب المدينة (١٤٥).

لم يتوسع معاوية بن أبى سفيان في تجميل مدينة دمشق بالعمائر ، وإنما قصر اهتمامه على بناء قصره الذى عرف بالخضراء ، كما أن يزيد بن معاوية لم يبذل جهداً في تحسين المدينة وتجميلها (١٤٦).

ولما انتقلت الخلافة إلى الفرع المرواني من بنى أمية تجلت الرغبة فى العناية بدمشق على اعتبار أنها عاصمة الأمويين ، ومن ثم كثرت بها العمائر كما أنشأ الخلفاء بها الحصون المنيعة والقلاع ذات القباب البيضاء والقصور والجوامع الفخمة ، وظهرت دمشق فى عهد الوليد بن عبد الملك فى أجمل مظهر ، بما شيده فيها من منشآت وعمائر بديعة (١٤٧)، فقد كان الوليد مولعًا بالعمائر ، حتى أن الناس كانوا يلتقون فى أيامه ، فيسأل بعضهم بعضاً الأبنية والعمارات (١٤٨).

لم يبذل الخلفاء المتأخرون من بنى أمية جهوداً كبيرة لتجميل مدينة دمشق بل إن بعضهم لم يتخذ دمشق مقراً له ، فأقام سليمان بن عبد الملك فى مدينة الرملة (١٤٩)، على حين أقام هشام بن عبد الملك فى الرصافة (١٥٠)، وكان بعض الخلفاء الأمويين يقضى شطراً كبيراً من السنة فى قصورهم بالبادية (١٥١). ومما لا شك فيه أن ترك الأمويين دمشق إلى الصحراء أدى إلى زوال مكانة هذه المدينة (١٥٢).

كان أهم شىء يميز المدينة الإسلامية - المسجد الجامع - فإنشاؤها يظهر طابعها الإسلامى ، وقد أمر عمر بن الخطاب حين قدم إلى الشام سنة ١٨ هـ ألا يتخذ فى المدينة سوى مسجد جامع واحد ، وأراد عمر بذلك المسجد الذى تقام فيه الجمعة ، ولم ينه عن اتخاذ المساجد التى لا تقام فيها الجمعة (١٥٣).

اكتفى العرب بعد فتح دمشق بمسجد متواضع كان يوجد إلى جوار كنيسة القديس يحنا ، وتركوا الكنيسة كلها للنصارى يؤدون فيها شعائرهم الدينية ، أما القول بأن(١٥٤) العرب استولوا عقب الفتح مباشرة عى نصف الكنيسة لإقامة شعائرهم الدينية ، وتركوا النصف الآخر للنصارى مكافأة لهم على استسلامهم ، وأن المسلمين والنصارى كانوا يدخلون من باب واحد هو باب الكنيسة القبلى ، فيتخذ المسلمون يمينهم إلى القسم المخصص لهم ، على حين ينصرف النصارى إلى جهة الغرب لأداء شعائرهم الدينية فهذه كلها روايات متأخرة وغير صحيحة(١٥٥).

كان المسجد القديم بدمشق يجاور قصر الخضراء(١٥٦) وكنيسة القديس يحنا ، يؤيد ذلك ما كتبه الأسقف الغالى أركولف (Arculf) الذى زار الشام فى خلافة معاوية إذ قال : كان فى دمشق كنيسة عظيمة بنيت لتمجيد القديس يحنا المعمدان وهناك أيضاً بيت يؤدى العرب فيه شعائرهم الدينية (١٥٧).

وتوضح الروايات العربية التى تصف الحوادث التى وقعت بعد ذلك أن المسجد القديم كان منفصلاً تمام الانفصال عن الكنيسة ، وأن قصر الخضراء كان مجاوراً لهما .

كان يوجد فى دمشق سقيفة مستطيلة ذات عمد تسمى جيرون(١٥٨) ، يرجع تاريخها إلى العصر الرومانى ، وكان الباب الشرقى للمسجد الجديد الذى شيده الوليد بن عبد الملك ينسب إليها ، واستعملت قطع من تلك السقيفة فى بناء المسجد الجديد (١٥٩).

ومن المرجح أن جيرون هو المسجد القديم (١٦٠)، وليس أدل على ذلك مما أورده الطبري(١٦١) فقد ذكر أن اليوم الذى اجتمع فيه المسلمون لاختيار خليفة جديد عقب وفاة معاوية الثاني سنة ٦٤هـ عرف باسم يوم جيرون نسبة للمسجد الذى اختير فيه الخليفة .

حاول معاوية بن أبي سفيان بعد أن ازداد عدد المسلمين فى دمشق توسيع بناء المسجد الذى ضاق بالمصلين ، فطلب من نصارى دمشق النزول عن كنيسة القديس يحنا ، فرفضوا إجابة طلبه (١٦٢)، وظل المسجد على حاله حتى آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ . فعاد يطلب من نصارى دمشق النزول عن هذه الكنيسة ، فأتوا إليه بكتاب خالد بن الوليد الذى تضمن أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، فعرض عليهم عبد الملك مالاً كثيراً ليبنوا كنيسة مثلها فى أى موضع يختارونه بدمشق ، فأبوا أن يسلموها إليه (١٦٣).

ولما ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة سنة ٨٦هـ (٧٠٥م) وجد أن المسلمين فى دمشق فى أشد الحاجة إلى مسجد كبير بعد أن أصبح المسجد الأموى بدمشق لا يتسع للمصلين ، فجمع زعماء النصارى فى هذه المدينة وعرض عليهم رغبته فى إدماج كنيسة يحنا فى المسجد ، وأبدى لهم استعداده فى أن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى فى أى موضع شاءوا بدمشق أو يدفع لهم تعويضاً ماليًا عنها ، وبذل لهم أربعين ألف دينار فأبوا ، فقال لهم الوليد : لئن لم تفعلوا لأهدمنها ، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين إن من هدم كنيستنا جن وأصابته عاهة ، فخرج الوليد ، ومعه معول ، فقال : أنا أول من يجن فى الله ، وبدأ الهدم بمعوله ، وتبعه العمال، وأكملوا هدمها (١٦٤).

شرع الوليد بن عبد الملك فى إعادة بناء مسجد دمشق سنة ٨٧هـ (١٦٥)، واستمر بناؤه تسع سنين ، لكنه توفي دون أن يتم بناءه فأتمه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ (١٦٦)، ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة طلب منه نصارى دمشق أن يعيد كنيستهم إليهم وقالوا له : يا أمير المؤمنين قد علمت حال كنيستنا ، ورفعوا إليه العهد الذى تضمن أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن . فأمر عمر بن عبد العزيز برد كنيستهم إليهم ، فأعظم المسلمون ذلك ، وقالوا : أنرد إليهم مسجدنا وقد أذينا فيه الصلاة وجمعنا فيه ثم يهدم ويعاد كنيسة ؟ (١٦٧).

عرض الفقهاء من أهل دمشق على النصارى أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين – على أن ينزلوا عن كنيسة القديس يحنا ويمتنعوا عن

المطالبة بها ، فرضوا بذلك (١٦٨)، وكتب لهم عمر بن عبد العزيز سجلاً بأنهم آمنون على كنائسهم بدمشق ، والكنائس والديارات خارجها في الغوطة لا تخرب ، وليس لأحد من المسلمين عليها سلطان وأشهد لهم شهوداً على ذلك (١٦٩).

كان للمسجد الأموى بدمشق ثلاث مقصورات الأولى مقصورة معاوية ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، بناها وقاية لنفسه من المتآمرين (١٧٠)، وإلي جانب هذه المقصورة خزانة محلاة بالرسوم فيها المصحف الذى وجهه عثمان بن عفان إلى الشام والمقصورة الثانية فيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة ، وفي الجانب الغربي من المسجد توجد مقصورة صغيرة (١٧١).

زينت جدران المسجد بالفسيفساء المذهب والملون وغطيت أرضه بالمرمر . أما عمده فكانت من الرخام المختلف الألوان ، ورصع محرابه بالجواهر الثمينة ، ونقش على جدرانه آيات قرآنية(١٧٢)، وينسب إلى الوليد المئذنة الشمالية المعروفة بمئذنة العروس (١٧٣)، وكان المسجد يضاء بكثير من القناديل المصنوعة من الذهب والفضة (١٧٤)، وكتب على حائط المسجد بالذهب: ربنا الله لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة ٨٧هـ (١٧٥).

كان لمسجد دمشق ستة أبواب منها أربعة أبواب رئيسية ، وهى باب الزيادة فى الناحية القبلية من المسجد ، وكان قصر معاوية « الخضراء » إلى يسار الخارج منه (١٧٦)، وباب الساعات فى الناحية الشرقية من المسجد ، وفى الناحية الغربية باب البريد ، وفى الناحية الشمالية باب الناطفيين (١٧٧).

أكسب المسجد الأموى مدينة دمشق شهرة كبيرة ، وقد انفق الوليد فى بنائه أموالاً كثيرة ، وبلغ من استياء بعض أهالى دمشق من إنفاق هذه الأموال أن قال بعضهم : أينفق فيؤنا فى نقش الخشب وتزويق الحيطان ، ثم كأنه قد حرمنا أعطياتنا ، واعتل علينا بقلة المال ؟ فلما بلغ الوليد ذلك جمع أهل دمشق ، وقال لهم : قد بلغنى مقالتكم وليس الأمر على ما ظننتم ، ألا وأنى أمرت بإحصاء ما فى بيوت أموالكم ، فنصيب فيه عطاكم ست عشرة سنة مستقبلية من يومى هذا (١٧٨).

وفى الحق يعد مسجد دمشق آية من آيات الفن العربي والبيزنطي ، وأن فى هذا الوصف الذى ذكره ياقوت (١٧٩)، لمثلاً حياً وبرهاناً ناطقاً على ما بلغه هذا المسجد من إتقان وبهاء هو

جامع المحاسن ، كامل الغرائب ، معدود إحدى العجائب ، قد تزود بعض فرشه بالرخام ، وألف على أحسن تركيب ونظام ... يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً .

اتخذ معاوية بن أبي سفيان قصر الخضراء مقراً له ، ومركزاً لإدارة شئون الحكم ، وكان هذا القصر من المباني التي شيدت من عصر الرومان فجدده معاوية إبان ولايته على الشام في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وبناه معاوية بالطوب أولاً ثم أعاد معاوية بناء الخضراء بالحجارة ، وزينه بالذهب والمرمر والفسيفساء وأحاطه بالحدائق الغناء (١٨٠).

ظل قصر الخضراء مركزاً لإدارة الدولة ، ومقراً للخليفة في عهد يزيد بن معاوية(١٨١) وخليفته معاوية الثاني ، ولما ولى مروان بن الحكم الخلافة سنة ٦٤هـ تزوج من فاختة بنت أبي هاشم بن عقبة – وكانت زوجة ليزيد بن معاوية – فاتخذ الخضراء مقراً له (١٨٢).

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ كانت الخضراء ملكاً لخالد بن يزيد بن معاوية ، فاشتراها منه الخليفة بأربعين ألف دينار ، واتخذها داراً للخلافة (١٨٣). وظلت على هذه الحال في عهد الوليد بن عبد الملك . فلما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة سنة ٩٦هـ رأى أن يتخذ مقراً آخر له بدلاً من الخضراء التي تداعى بناؤها ، فشيد قصراً بدرب محرز في موضع سقاية جيرون وجعل له قبة صفراء كالقبة الخضراء التي كانت بدار الخلافة ، واتخذ سليمان من هذا القصر – الذي عرف بالصفراء – مقراً له (١٨٤). وصار هذا القصر داراً للخلافة (١٨٥). حتى اتخذ هشام بن عبد الملك الرصافة مقراً له بدلاً من دمشق (١٨٦).

اضطربت الأمور في دمشق بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذي قضى معظم أيام خلافته في البادية ، وبقي في الخلافة سنة وشهرين ، ثم قُتل لسوء سيرته سنة ١٢٦هـ(١٨٧) وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر ، وبويع أخوه إبراهيم ، وفي عهده تجلى الاضطراب في البيت الأموي ، فلم يكن هناك إجماع على توليته ، فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالإمارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما (١٨٨) ، وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد (١٨٩).

ولما آلت الخلافة إلى مروان بن محمد تعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد بن يزيد ، فثار عليه يزيد بن خالد القسري بدمشق ، وانضمت إليه اليمنية ، فأرسل مروان إلى دمشق جيشاً أخمد الثورة ، وخلصت له دمشق ، كما قضى على ثورات أخرى قام بها اليمنية في بلاد الشام (١٩٠).

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد فى بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها إلى خلعه وانضمت إليه اليمنية ، فسار إليه مروان ، وأوقع به الهزيمة(١٩١).

ولما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمنى ، فقد آثر مروان بن محمد أن يتخذ حران حاضرة لدولته بدلاً من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته (١٩٢) . وضعف منذ ذلك الوقت شأن دمشق كحاضرة للخلافة الأموية .

أدعو الله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن ينفعنا بها يوم الدين ويغفر لنا خطايانا أنه سميع مجيب الدعاء وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الهوامش

1 - Hitti : History of Syria, p. 382 .

2 - Kremer: Orient Under. The caliphs, p. 133 - 134 .

3 - Encyc of Islam, Art Damascus .

4 - Hitti : History of Syria, p. 398 - 396 .

٥ - لما هاجرت الأزد من اليمن على أثر انكسار سد مأرب استقرت إحدى قبائلها بجوار ماء يقال له غسان بالشام ، فسموا " أزدغسان " (زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٨٤) .

6 - Hitti : History of the Arabs, p. 78 .

٧ - الضجاعمة من ولد سليح بن عمرو بن حلوان من قضاعة . وقد هاجرت قبيلة قضاعة إلى الشام حوالى سنة ٢٣٠م أى نهاية تدمر .

(Susseeud : Les Arabs en Syria avant 1 Islam, p. 9)

(Oleary : Arabia befor Muhammad, p. 161 - 162)

٨ - نلدكه : أمراء غسام ، ص ٥٢ - ٥٤ . الجابية قرية من أعمال دمشق (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢، ص ٩١) .

9 - Hitti : History of Syria, p. 78 .

10 - Hitti : History of Syria, p. 78 .

١١ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ١١ .

١٢ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ١١ .

13 - Hitti : History of the Arabs, p. 69 .

14 - Hitti : History of the Arabs, p. 79 - 80 .

15 - Hitti : History of the Arabs, p. 80 .

١٦ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ٣٤ .

17 - Lammens : Etudes sur le regne du calife Moawia, p. 286 - 289 .

١٨ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ٤٦ .

19 - Hitti : History of the Arabs, p. 80 .

٢٠ - كان اليعاقبة يقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة لها كل الصفات البشرية والإلهية ، بينما يرى أتباع المذهب الملكانى بأن للمسيح طبيعتين بشرية وإلهية لا اختلاط بينهما ، وكل طبيعة تحتفظ بخصائصها . ويرى هرقل أن المسيح يحقق الجانب الإنسانى والجانب الإلهى بقوة إلهية إنسانية واحدة (أرنوك :

الدعوة إلى الإسلام ، ص ٥٢) .

٢١ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ١ ، ص ٢١٥ .

٢٢ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٣ .

٢٣ – الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ١٨٥ .

24 - Muir, The Caliphate, p. 15 .

٢٥ – الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٥٣ .

٢٦ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٥٣ .

٢٧ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٥٤ .

٢٨ – أبنى : موضع بالشام جهة البلقاء ويقال أنها قرية مؤتة (ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٩٧) .

٢٩ – المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ١ ، ص ٥٤٠ .

٣٠ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٦ .

٣١ – سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص ٤٢ .

٣٢ – الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٢ .

٣٣ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٤ .

٣٤ – الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٣ .

٣٥ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٤ – ١١٥ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص ١٥٥ .

٣٦ – الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٤ – ٥ .

٣٧ – الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٦ .

38 - Muir, The Caliphate, p. 66 .

٣٩ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٦ .

40 - Muir, The Caliphate, p. 66 .

٤١ – تاريخ اليعقوبى : جـ١ ، ص ١١٢ .

٤٢ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٦ – ١١٧ .

٤٣ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٧ – ١١٨ .

٤٤ – الواقدى : فتوح الشام ، جـ ١ ، ص ٢١ .

45 - Muir, The Caliphate, p. 70 - 71 .

٤٦ – Muir, The Caliphate, p. 71 : (المواضر الإسلامية ، م ٢) .

٤٧ – الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٥٢ .

٤٨ - الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٤٣٤ .

٤٩ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٢ .

٥٠ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٤ .

٥١ - تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ١١٣ .

٥٢ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ .

٥٣ - ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ١٥ .

٥٤ - الطبرى : تاريخ الأمم والملك ، جـ٣ ، ص ٤٣٥ .

٥٥ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢١ .

٥٦ - ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، جـ٢ ، ص ٩٨ .

57 - Muir, The Caliphate, p. 93 .

٥٨ - الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٤٣٩ .

٥٩ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٥٢ .

٦٠ - البانرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦١ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦٢ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦٣ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦٤ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٥٥ .

65 - Encyc. Of Islam, Art Damascus .

٦٦ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٩ .

٦٧ - محمد بن سعد : كان كاتبًا للواقدى وكان راوية . (فتوح البلدان البلاذرى : تحقيق صلاح الدين المنجد ، جـ١ ، ص ١٨) .

٦٨ - الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٦٤ .

٦٩ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤١ .

70 - Muir, The Caliphate, p. 129 - 130 .

71 - Muir, The Caliphate, p. 129 - 130 .

٧٢ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٢ .

٧٣ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٩ .

٧٤ - الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٦٥ .

75 - Muir : The Caliphate, p. 130 .

76 - Muir : The Caliphate, p. 136 .

٧٧ – محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ، ص ٤٦ .

٧٨ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .

٧٩ – المد : ربع الصاع ، والصاع مكيال لأهل المدينة (الكرملى : النقو العربية ص ٣٩) .

٨٠ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٠ – ١٣١ .

٨١ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٥٨ .

٨٢ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ١ ، ص ٥٢٥ .

٨٣ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٠ .

٨٤ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص ٤٤ – ٤٥ .

٨٥ – محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ، ص ٥٩ .

٨٦ – الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ٣٤٥ .

٨٧ – الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٢٠ .

٨٨ – الدينورى : الأخبار الطوال ، ص ٢٢٠ .

٨٩ – فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٦ .

٩٠ – محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ، ص ٩٤ .

٩١ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٣ .

٩٢ – فيصل شكرى : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ، ص ٦٧ .

٩٣ – فيصل شكرى : المجتمعات الإسلامية ، ص ٤٧ – ٤٩ .

٩٤ – كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ، ص ١٢٢ .

٩٥ – ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ١ ، ص ٣٦ .

٩٦ – ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ١ ، ص ٢٠٣ .

٩٧ – كتاب الوزراء والكتاب ، ص ٤٠٤ .

٩٨ – كتاب فتوح البلدان ، ص ٢١٠ .

99 - Hitti : History of the Arabs, p. 117 .

١٠٠ – الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤ .

١٠١ – تاريخ بن الوردى : جـ١ ، ص ١٩٥ .

١٠٢ – كرد على : الإسلام والحضارة العربية ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

١٠٣ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٧٢ .

١٠٤ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ – ٤٨ .

١٠٥ – فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٧ .

١٠٦ – الدوري : مقدمة في صدر الإسلام ، ص ٧٩ .

١٠٧ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ – ٧٠ .

١٠٨ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ – ٧٠ .

١٠٩ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ .

١١٠ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ .

١١١ – نفس المصدر ، ص ٥٠ – ٥١ .

١١٢ – فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٧ .

١١٣ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٥٤ .

114 - Charlesworth : Trade Routes of the Roman Empire, p. 38 .

115 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 139 .

١١٦ – الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٤٣٧ .

١١٧ – كتاب البلدان ، ص ٣٢ .

١١٨ – رحلة ابن جبير : ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

١١٩ – معجم البلدان : جـ٢ ، ص ١٦٤ .

120 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 141 .

121 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 141 .

١٢٢ – البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ .

١٢٣ – البلاذري : فتوح البدان ، ص ١٣٢ .

١٢٤ – البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

125 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 141 .

١٢٦ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٢٧ – ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ١٥ .

١٢٨ – ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٢٩ – ابن كثير الدمشقي : البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ٢٠ .

١٣٠ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٣١ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٣٢ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٣٣ - ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٧ ، ص ٢٠ .

١٣٤ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٣ .

١٣٥ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

١٣٦ - ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ١٥ .

١٣٧ - Encyc. Of Islam, , Art Damascus - كان الشارع الرئيسي في دمشق اسمه " المستقيم " وكان طوله ١٦٠٠ متر ويمتد من شرق المدينة إلى غربها ويضم على جانبيه ممران أحدهما للمشاة والآخر للركبان .

138 - Muir : The Caliphate, p. 99 .

١٣٩ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

١٤٠ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ . يذكر البلاذرى أن الناس لما اجتمعوا لتشييع جنازة عبد الملك بن مروان وجد الوليد بن عبد الملك أنهم لا يستطيعون السير في الجنازة بسبب بيت يعترض الطريق ، فأمر بهدمه . (أنساب الأشراف جـ١١ ، ص ٣١٥) .

١٤١ - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، جـ١ ، ص ٥٩٧ .

١٤٢ - العينى : عقد الجمان القسم الثالث ، جـ١٠ ، ورقة ٣٨٢ .

١٤٣ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ ؛ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٧ .

١٤٤ - عمان القماطلي : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، ص ٧٣ .

١٤٥ - سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ١٦٥ .

146 - Ency, Of Islam : Art Damascus.

١٤٧ - سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٦٢ .

١٤٨ - ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٩٢ .

١٤٩ - المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

١٥٠ - تاريخ اليعقوبى :

151 - Hitti : History of the Arabs, p. 277 .

152 - Ency, of Islam, Art Damascus .

١٥٣ - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، جـ١ ، ص ٢٢٠ .

١٥٤ - ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٩ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

١٥٥ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٧٠ .

١٥٦ - ذكر المسعودى أن معاوية كان ينفذ من قصره مباشرة إلى المسجد في كل صلاة (مروج الذهب جـ٢ ، ص ٥٠ - ٥٣) ومما يدل على أن المسجد القديم كان مجاوراً للخضراء أن هشام بن إسماعيل المخزومي قدم دمشق ، وجلس بعد الصبح في مسجدها ، فسمع عبد الملك بن مروان يقرأ القرآن في الخضراء . (ابن كثير الدمشقي البداية والنهاية جـ٩ ، ص ١٥٩) .

157 - Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens, p. 159 .

١٥٨ - ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٩ ، ص ١٤٣ .

١٥٩ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٢٢ .

160 - Ency: of Islam, Art Damascus

١٦١ - تاريخ الأمم والملوك ، جـ٥ ، ص ٥٣٣ .

١٦٢ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣١ .

١٦٣ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣١ .

١٦٤ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٢ .

165 - Creswell: Early Muslim Architecture, Part 1, p. 131 .

١٦٦ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٩٩ .

١٦٧ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٠٩ .

١٦٨ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .

١٦٩ - ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ٤٤ .

١٧٠ - رحلة بن جبير : ص ٢٥٣ .

١٧١ - رحلة بن جبير : ص ٢٥٣ .

١٧٢ - رحلة بن جبير : ص ٢٤٩ .

173 - Creswell : Farly Muslim Arthitecture, Part 1 , p. 120 .

١٧٤ - المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٦٦ .

١٧٥ - المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٢٠ .

١٧٦ - رحلة بن جبير : ص ٢٥٧ .

١٧٧ - العمرى : مسالك الأبصار ، ص ١٨٨ .

١٧٨ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

١٧٩ - معجم البلدان : جـ٢ ، ص ٤٦٦ .

١٨٠ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ .

١٨١ – الذهبي : تاريخ الإسلام ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ .

١٨٢ – المسعودي : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٧٨ .

١٨٣ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٨ .

١٨٤ – الذهبي : تاريخ الإسلام ، جـ٤ ، ص ٨ ؛ الديار بكري : تاريخ الخميس ، جـ٢ ، ص ٣١٤ .

١٨٥ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٥ ، ص ١٩ .

١٨٦ – المسعودي : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

١٨٧ – السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٦ .

١٨٨ – ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٢٣ .

١٨٩ – الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣٤ .

١٩٠ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٥ ، ص ١٥٦ .

١٩١ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٥ ، ص ١٥٧ .

١٩٢ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، جـ١ ، ص ٣٤١ .

المصادر والمراجع

١ - ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكوم : الكامل فى التاريخ ، ١٣ جزءًا - القاهرة ١٩٥٢م.

٢ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٢٨م.

٣ - أرنولد : Arnold. Tomas W, : The Caliphase ; The Preachlang of Islam - نقله إلى العربية الأساتذة : حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى باسم " الدعوة إلى الإسلام" .

٤ - أسد رستم : الروم وصلاتهم بالعرب ، بيروت ١٩٥٥م .

٥ - الأصبهانى : (ت ٢٥٦هـ / ٩٦٧م) أبو الفرج : كتاب الأغانى ، ١٦ جزءًا - القاهرة ١٩٦٣م.

٦ - الاصطخرى : (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى : المسالك والملك ، تحقيق دكتور محمد جابر عبد العال - القاهرة ١٩٦١م.

٧ - ابن أبى أصيبعة : (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، (جزءان - القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠هـ) .

٨ - الألوسى : السيد محمود شكرى البغدادى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، (ثلاثة أجزاء - القاهرة ١٩٢٤م) .

٩ - أمير على : سيد Amer Ali Sayed : A Short History of The Saracens ، نقله إلى العربية رياض رأفت باسم : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ، (القاهرة ١٩٢٨م) .

١٠ - أنتونى نتنج : العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام : ترجمة راشد البراوى (القاهرة ١٩٧٤م) .

١١ - أوليرى : دى لوسى : Oleary, De Lucy : Arabia Before Mohammed, London, 1977 .

١٢ – بارتولد : ف : Bartold, F تاريخ الحضارة الإسلامية . نقله إلى العربية حمزة طاهر – (القاهرة ١٩٤٣م) .

١٣ – بروكلمــان : كــارل Brokelman Carl : " Gesbchte der Islamischen Uolker and Statem " ، نقله إلى العربية الدكتور نبيه فارس والأستاذ منير بعلبكى باسم : " تاريخ الشعوب الإسلامية " ، (دار العلم للملايين – بيروت ١٩٤٨م) .

١٤ – البكرى : (ت ٤٨٧هـ / ١٠٧٩م) أبو عبيد الله بن عبد العزيز : معجم ما ستعجم ، حققه الأستاذ مصطفى السقا (القاهرة ١٩٤٥م) .

١٥ – البلاذرى : (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر :

– فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ هـ .

– أنساب الأشراف الجزء السابع – مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٠٤ ، وجـ ١١ ، القدس ١٩٣٦م .

١٦ – ترنون : أ : أهل الذمة فى الإسلام ، نقله إلى العربية حسن حبشى (القاهرة ١٩٤٩م).

١٧ – الثعالبى : (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م) أبو منصور عبد الملك الثعالبى : لطائف المعارف .

١٨ – الجاحظ : (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) أبو عثما عمرو بن بحر

– كتاب : التارج فى أخلاق الملوك ، حققه المرحوم أحمد زكى ، (القاهرة ١٩١٤م) .

– كتاب : البيان والتبيين ، (٤ أجزاء – القاهرة ١٩٢٨م) .

– كتاب : التبصر بالتجارة ، (القاهرة ١٩٣٥م) .

١٩ – جب : هاملتون . أ.ر : Gibb Hamilton A.R. : The Arab Conquests in central Asia, London, 1923 .

٢٠ – ابن جبير : (ت ٦١٤هـ) ، محمد بن أحمد بن جبير : رحلة بن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥م) .

٢١ - الجهشياري : (ت ٣٣١هـ / ١٩٤٣م) أبو عبد الله محمد بن عيدروس : الوزراء والكتاب، حققه ونشره الأستاذة : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي . (القاهرة ١٩٣٨م) .

٢٢ - ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) أبو الفرج عبد الرحمن علي بن الجوزي : مناقب عمر بن عبد العزيز ، (القاهرة ١٣٣١هـ) .

٢٣ - حتي : فيليب : Hitti, Philip : History of the Arab, London, 1945 ; History of Syria, London, 1950 .

٢٤ - ابن حجر (ت ٨٥٣هـ / ١٩٤٩م) : شهاب الدين بن علي العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، (القاهرة ١٣٢٣هـ) .

٢٥ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، (القاهرة ١٩٦٤م) .

٢٦ - حسن أحمد محمود : العالم الإسلامي في العصر العباسي (القاهرة ١٩٧٣م) .

٢٧ - حسيني س . أ . ق : Hussini s. A.O : Arab Administration ، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أحمد العدوي باسم : الإدارة العربية ، (القاهرة ١٩٥٨م) .

٢٨ - حمزة الأصبهاني (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م) أبو عبد الله حمزة ابن الحسن الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، (ليبزج ١٨٢٤م) .

٢٩ - ابن خرداذبة : (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢م) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : المسالك والممالك (دي غويه ١٨٨٥م) .

- مختارات من كتاب « اللهو والملاهي » . الملزم الأب أغناطيوس اليسوعي بيروت ١٩٦١م .

٣٠ - ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد ، : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، (٧ أجزاء - بولاق ١٢٨٤هـ) .

٣١ - ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس ، أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي : وفيات الأعيان ، (جزءان - بولاق ١٢٨٣هـ) .

٣٢ – الدميرى (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) محمد بن موسى كمال الدين ، : حياة الحيوان الكبرى ، (جزءان – القاهرة ١٣٠٩م) .

٣٣ – دوزى : ر . ب . Dozy : R.P.A. : Easal our I. History de. Islamisme, Par- is, 1879 .

٣٤ – دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام Da Boer .

٣٥ – الدينورى : (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) أبو حنيفة أحمد بن داود : الأخبار الطوال ، (جزءان – ليدن ١٨٨٨م) .

٣٦ – الذهبى : (ت ٧٨٤هـ / ١٣٤٧م – ١٣٤٨م) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، (٥ أجزاء – القاهرة ١٩٥٩م) .

٣٧ – ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، (مجموعة الكتب الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٩١ – ١٨٩٢م) .

٣٨ – روفائيل بابو إسحاق : تاريخ نصارى العراق (بغداد ١٩٤٨م) .

٣٩ – زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، (القاهرة ١٩٤٨م) .

٤٠ – زكى نجيب محمود : جابر بن حيان (القاهرة ١٩٧٥م) .

٤١ – زيدان . جرجى : تاريخ التمدن الإسلامى (٥ أجزاء – القاهرة ١٩٠٢ – ١٩٠٦م) .

٤٢ – ابن الساعى ، نساء الخلفاء ، تحقيق مصطفى جواد .

٤٧ – ابن سعد (ت ٢٣٠هـ /٨٣٥م) ، محمد : كتاب الطبقات الكبيرة ، (٨ أجزاء – ليدن ١٣٢٢م) ..

د. نعمة على مرسى (*)

العلم والعلماء فى المشرق وآسيا الوسطى

مقدمة :

ظهر فى آسيا الوسطى العديد من المراكز الثقافية الهامة التى تعتبر منارة للعلم والعلماء ، ومن أهم هذه المراكز بلاط الدولة المأمونية فى خوارزم (١) وقصر شمس المعالى قابوس بن وشمكير (٢) فى طبرستان وجرجان ، وقصر الصاحب بن عباد وزير البويهيين فى الرى وأصفهان (٣) ، بالإضافة إلى قصر السامانيين فى بخارى (٤) .

لقد شهدت العديد من البلاد فى آسيا الوسطى حركة علمية وثقافية واسعة ، انعكس مدارها على الحكام والرعية، فشجع الأمراء العلم والعلماء ، وأجزلوا لهم العطايا والهبات، وأحاطوا أنفسهم بنخبة عظيمة من أشهرهم وأفضلهم ، وبرع الشعراء فى نظم القصائد فى مدح الأمراء ، وتهافت العلماء على القصور الحاكمة ، يصنفون الكتب ويهدونها باسم حكام هذه القصور .

وقد آثرت أن أدرس دولتين ، وهما الدولة المأمونية والدولة الزيارية فى طبرستان وجرجان ، على أساس أنهما ظهرتا فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وأن هناك صلات تجارية قديمة تربط بينهما (٥) ، وتأثر الأهالى فى تلك البلدان بالثقافة الإسلامية ، من الدولة السامانية التى كانت إشعاعا فكريا انتشر فى المنطقة ، لذا فإن المقومات العقائدية حملها السامانيون معهم إلى جانب المقرومات السياسية والفكرية والمؤثرات الثقافية إلى دولتى المأمونيين والزياريين ، كذلك الدولة الخانية فى تركستان بآسيا الوسطى .

---

* - أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد - كلية دار العلوم - جامعة المنيا .

أولا : العلم والعلماء في الدولة المأمونية :

تأسست الدولة المأمونية في الجرجانية في الجزء الشمالي من خوارزم ، بينما كان الجزء الجنوبي في يد الخوارزمشاه وعاصمته مدينة كاث (٦) ، واستطاع حكام الدولة المأمونية ضم الإقليم كله إلى حكمهم وتلقب ملوكهم بلقب الخوارزمشاه (٧) .

ونحن في الواقع لانعرف شيئا عن نسب المأمونيين ، و لا متى بدأت دولتهم وقد أطلق المؤرخون عليهم المأمونيين ، ونظرا إلى أن أول أمرائهم على إقليم خوارزم بعد توحيده كان يدعى مأمون بن محمد (٨) ، وقد ورد ذكرهم في تاريخ ابن الأثير (٩) منذ أحداث سنة٣٨٥هـ /٩٩٥ م ، أثناء الصراع القائم بين أحد أمرائهم وهو مأمون بن محمد وأبي عبدالله خوارزمشاه ، فقد تهيأت الظروف السياسية في تلك الآونة لوالي الجرجانية لإخضاع الجزء الجنوبي في إقليم خوارزم ، نتيجة لمناصرته لأبي سيمجور أحد أمراء الدولة السامانية(١٠) الذي فر من الأمير نوح بن منصور إلى منطقة هزار أسب (١١) ، على أن الأمير ابن عبدالله خوارزمشاه بادر بمخادعة أبي على وأودعه السجن (١٢) ، وعندما وصلت الأنباء للأمير مأمون بالجرجانية، بادر بتجهيز جيش لمناصرته وللإيقاع بأبي عبدالله خوارزمشاه (١٣) .

وهكذا نجح مأمون بن محمد في ضم إقليم خوارزم لحكمه ، وتعيين نائب عنه على المنطقة الجنوبية ، فأعاد بذلك الوحدة السياسية للإقليم وورث اللقب الملكي خوارزمشاه(١٤).

ظل المأمونيون تابعين لنفوذ الدولة السامانية سواء أكانوا حكاما لشمال خوارزم أم حكاما للإقليم بأكمله ، لدرجة أن الأمير المستنصر إسماعيل بن نوح لاذ بالفرار من أمام أيلك خان(١٥) إلى بلاط الأمير على بن مأمون في محاولة منه لإسترجاع بلاده من الخانيين الترك(١٦) ، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل نتيجة لقوة الجند الأتراك ، وضعف الأمير نفسه .

وعندما اشتد عود الدولة الغزنوية وارتفع شأن سلطانها محمود ، خضعت الدولة المأمونية لسلطانه ، وأصبحت تحت حمايته (١٧) ، وان كانت هذه التبعية في بادىء الأمر لم تتخذ صفة رسمية بإقامة الخطبة للسلطان على منابر خوارزم ، إلا أنه كان يحسب لغزنه وسلطانها المكانة العالية وربطت الصداقة والمصاهرة بين الدولتين فقد تزوج الأمير على بن مأمون بأخت السلطان محمود ، ثم بزواج الأمير أبي العباس مأمون من نفس السيدة عقب وفاة أخيه (١٨).

ازداد نفوذ السلطان محمود فى خوارزم شيئا فشيئا ، خاصة فى عهد الأمير أبى العباس مأمون –الملقب بمأمون الثانى –لدرجة أنه طالب بالاستحواذ على السلطة ، وإقامة الخطبة على سائر منابر خوارزم باسمه (١٩) ، مع تقديم الجزية لخزانة غزنه ، وكانت هذه الخطوة عقب رفض الأمير أبى العباس الاشتراك فى إرسال مندوب من قبله لعقد الصلح مع خانات الترك عقب موقعة أوزكندا (٢٠) ، وعلى ذلك دخل فى قلب السلطان محمود الكراهية لأمير خوارزم ، وشعر بعدم إخلاصه له ، وأخذ بنصيحة وزيره أبى القاسم أحمد بن الحسين الميمندى بأن يمتحن إخلاص وولاء المأمونيين بإقامة الخطبة وإعلان التبعية لغزنة(٢١) .

وقد ترتب على ذلك ثورة أهل خوارزم بقيادة أبتكين على أميرهم ، وزحف السلطان محمود بجيشه وضم خوارزم ، وعين حاجبه الكبير ألتونتاش حاكما عليها ، وذلك فى حدود سنه ٤٠٨هـ/١٠١٨ م (٢٢) ، وقد قال الشاعر العنصرى قصيدة باللغة الفارسية تخلد انتصار السلطان محمود جاء فى مطلعها بترجمتها باللغة العربية :

هكـذا السيف الملـكى الأثـــــــار   وهكذا يفعل العظماء إذا لزم القتال

انظر سيف الملك ولاتقرأ كتب الأولين   فإن سيفه أكثر أنباء من الكتب (٢٣)

وعلى ذلك انتهت الدولة المأمونية ، التى حظيت فترة حكمها بنشاط علمى وثقافى كبير ، وكان نظامها الإدارى يعتمد على الوزراء كالوزير أبوالحسن السهيلى الذى تولى الوزارة لعلى بن مأمون ، وبداية عهد الأمير أبو العباس مأمون (٢٤) كذلك تولى أحمد طفان الوزارة للأمير الصغير أبوالحارث محمد بن مأمون ، فما لبث أن نحى الأمير واستولى على مقاليد الحكم يسانده فى ذلك القائد البتكين البخارى (٢٥) .

١–دور الحكام المأمونيين فى تشجيع العلم :

أسهم حكام خوارزم من المأمونيين بدور بارز فى ازدهار الحركة الفكرية والثقافية فى بلادهم، فناصروا العلم ورصدوا الأموال الطائلة فى سبيل تأسيس المكتبات وعينوا الأوقاف لها، ورعوا الشعراء والكتاب والحكماء (٢٦) ، وانبعثت من بلاطهم الإشعاعات الفكرية فتم التأليف والتصنيف سواء باللغة العربية أو باللغة الفارسية ، وأسهم الأمراء وخاصة أبا العباس مأمون بجهود سابقة فى إيواء العلماء والشعراء وتشجيعهم واستدرار مدحهم ، وصارت عاصمتهم موطنا للعلم والأدب ، ومقصدا للشعراء والأدباء ، لرواج سوق الثقافة بها ، فقد نبغ

الكثير من العلماء والأطباء فى بلاطهم ، وتمتع بعض أمرائهم بالثقافة ، فكان الأمير أبوالحسن مأمون بن محمد بن مأمون شاعرا مفوها ، له العديد من القصائد (٢٧) ، واشتهر وزراؤهم بحب العلم وأهله ، فكان الوزير أبوالحسين السهيلى من أنبه العلماء ، اشتهر بتشجيع العلم ومصادقة العلماء ، وكان مجلسه عامر بهم ، ومن أمثال أبى على بن سينا (٢٨) .

استعان المأمونيون فى مجالسهم بكثير من العلماء والندماء ، فكانت منادمة الأمير ومجالسته أمرا عظيما وعملا خطيرا ، لأن النديم شاهد على عقل الحاكم وبرهانا على فضله ، والإنسان بفطرته الطبيعية يميل إلى اقتباس أخلاق جليسه ، وبناء على ذلك كان للأمراء المأمونيين رجال مصطفون وجلساء مجربون وندماء مختارون ، كذلك احتوت مجالسهم على كثير من مظاهر البهجة ، خاصة فى مجالس الموسيقى والغناء والطرب التى ضمت مطربين حسنى الصوت مهرة (٢٩) ، فقد احتلت الموسيقى مكانة بارزة فى حياتهم ، وكان الشعر فى كثير من الأحيان ينشد فى قصورهم على أنغام العزف والموسيقى .

وعلى ذلك فإنه يستفاد بأن ندماء المأمونيين كانوا على درجة كبيرة من العلم والمعرفة فلم يكونوا من المهرجين أو عامة الشعب ، بل كانوا علماء أفاضل نابغين فى التأليف والعلم والأدب ، من أمثال أبى منصور الثعالبى صاحب "يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر" ، الذى عمل نديما فترة طويلة فى بلاط الأمير أبى العباس مأمون ، وألف باسمه كتبا ومصنفات علمية كثيرة (٣٠) .

كما ضم مجلس هذا الأمير عالما جليلا فاضلا هو "أبوالريحان البيرونى" الذى عمل نديما مايقرب من سبع سنوات فى مجلس الأمير ، وحفظ لنا جزءً كبيراً من تاريخ هذه الأسرة فى كتابه المسمى تاريخ خوارزم أومسامرة خوارزم ، ولكن لسوء الحظ فإن هذا المصنف قد فقد، وما وصل إلينا منه أجزاء متفرقة نقلها المؤرخ البيهقى فى تاريخه (٣١) .

اتصف المأمونيون بالكرم والبذخ فكان الأمير أبو العباس مأمون يهب العلماء والشعراء العطايا ببذخ شديد ، ويمنح كل واحد منهم حصانا قيما وكسوة وكيسا من المال به عشرة آلاف درهم (٣٢) .

لقد عظمت مكانة العلماء فى بلاط المأمونيين ، وزادت هبات الأمراء وعطاياهم ، وخير دليل على ذلك ارتفاع شأن أبى الريحان البيرونى ، فوصل من علوا شأنه أن الأمير أبا العباس

مأمون كان يترجل عن جواده أمامه تقديرا واحتراما للعلم ومكانته العالية ، وكلما استنكر عليه البيروني ذلك كان يقول : "العلم من أشرف الولايات يأتيه كل الورى ولايأتى .. فالعلم يعلو ولايعلى عليه (٣٣) " .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى مكانة البيروني في نفس الأمير أبى العباس ، فقد كان موضع سره ، يستأمنه على خبايا الأمور ، ويرسله لاستقبال الرسل والهدايا وذلك لأن الاتصال بين الأمراء المأمونيين فى خوارزم والخليفة العباسي فى بغداد كان يتم عن طريق السلطان محمود وبواسطته ، وأن الخلع والهدايا والهبات من الخليفة تأتى عن طريق غزنه(٣٤)، لذا خشى أبوالعباس على نفسه من غضب السلطان عندما أرسل إليه الخليفة القادر بالله مع عهده بالولاية هدية ولواء ، وخطاب يحمل ألقاب للأمير ، حيث لقبه "أميرالدولة وزين الملة" ، فقرر الأمير ألا يستقبل رسول الخليفة المسمى "حسين سالار" كبير الحجاب بعاصمة إمارته ، بل فضل إرسال أبى الريحان البيروني ليستقبله فى الصحراء خارج خوارزم ، ويتسلم منه الخلع والألقاب ، مع ستر هذا الأمر ، وعدم إذاعته على الرعية ، خشية وصول أخبارها إلى مسامع السلطان محمود بغزنه (٣٥) ، والذى كان يرعى جانبه ومكانته ، ويبدى لاسمه كثيرا من الاحترام والتواضع إلى درجة أنه كان حين يجلس للشرب ويدعو صفوة رجاله وقواده إلى مجالسه ، فان الأمير كان يأمرهم بالوقوف عند وصولهم للكأس الثالث اجلالا وتقديرا للسلطان محمود الغزنوى (٣٦) .

وتعتبر المكتبات وخزائن الكتب من أهم عوامل النهضة الثقافية فى الدولة المأمونية ، فقد اهتم الحكام بإقامة المكتبات ، وإمدادها بأندر الكتب والمحفوظات ، فزخر بلاطهم بخزائن الكتب ، فضلا عن المكتبات الخاصة المملوكة للعلماء والشعراء (٣٧) ، والتى حوت آلاف المصنفات فى شتى العلوم والفنون المختلفة ، مما أثرى الحياة الثقافية والأدبية فى العصر المأمونى .

٢ - بلاط المأمونيين مركزا للعلماء وأهل الفكر :

لقد ضم بلاط المأمونيين نخبة عظيمة من أهل العلم والفكر ، وازدان مجلسهم بالعظماء والشعراء ، حيث تجمع عدد كبير منهم خاصة فى عهد الأمير أبى العباس مأمون ، الذى حظى بلاطه بمجموعة بارزة من خيرة العلماء ، يأتى على رأسهم أبى على بن سينا وأبو الريحان

البيروني ، وأبو نصر العراق ، وأبو الخير الخمار (٣٨) ، الذين برعوا في العديد من العلوم كالطب والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم العقلية ، وكان الأمير أبو العباس مأمون يرعاهم جميعا رعاية تامة ، ويهبهم الهبات ويجزل لهم العطايا .

ومع ازدياد نفوذ السلطان محمود وارتفاع شأن غزنه االعلمي والسياسي فإن السلطان بدأ في المطالبة بالاستحواذ على هؤلاء العلماء البارزين ، ولكي يستأثر بهم في بلاطه فإنه أمر بإحضارهم من خوارزم على الفور ، وأرسل لهذا الغرض رسولا من قبله هو أبو الفضل حسين بن ميكال ، يحمل رسالة مطولة بهذا الأمر (٣٩) .

ولما كانت الدولة المأمونية في عهد الأمير أبي العباس مأمون ، تدين بالولاء لسلطان غزنه، فإن الأمير خشي على نفسه وعلى دولته من مغبة رفض طلب السلطان ، وفي نفس الوقت لابد له أن يبرهن على صدق إخلاصه وحسن نواياه ، مع رغبته الأكيدة في عدم إرسال هؤلاء العلماء إليه ، لذا تحايل على رسول السلطان في إبقائه بالقصر دون مقابلة من يطلب من العلماء ، حتى أطلعهم على ما حوته رسالة السلطان ، وخيرهم بين الذهاب إليه ، أو الفرار خارج البلاد ، قائلا :"إنني لا أريد أن أبعث بكم إلى السلطان رغما عنكم ، فإذا كنتم لاتريدون الذهاب إليه ، فعليكم أن تدبروا أمركم ، وتتصرفوا قبل أن يراكم مبعوثه في خوارزم(٤٠) .

ومن ثم اختار كل من أبي الريحان البيروني وأبي الخير الخمار وأبي نصر العراق الذهاب إلى بلاط السلطان محمود ، بينما فضل أبو علي بن سينا وأبو سهل الفرار من خوارزم ، فرحلا من فورهما ، وفي الطريق مات أبو سهل ، وواصل ابن سينا فراره حتى مدينة جرجان في دولة قابوس بن وشمكير الزياري (٤١) .

ومن هنا نستنتج أن السلطان محمود كان يتطلع إلى جمع العلماء في بلاطه ، وينظر إلى بلاط خوارزم نظرة الغيرة والحسد ، وعلى الرغم من أن الأمير أبا العباس مأمون كان يبجل العلماء ويقدرهم وأنه مرتبط برباط مصاهرة وصداقة مع السلطان إلا أنه لم يمتلك القوة والنفوذ لحمايتهم .

كذلك ساهم المأمون مساهمة فعالة في إنشاء المؤسسات العلمية ، والتي نهضت بالعلم بصورة واضحة ، فقد أقام المساجد التي تعد المركز الأول لنشر العلوم وتعليم طلاب العلم

ورواد المساجد فى حلقات الدرس الشىء الكثير . والذى يعد من أهم المنشآت المعمارية الفاخرة فى البلاد ، ويدل على مدى ما وصل إليه من الكتابة والنقش على الحجر ، وخير شاهد على ذلك منارة المسجد الذى أقيم فى الجرجانية ، ويحمل النقش اسم الأمير ، وتاريخ البناء وهو عام ٤٠١هـ/١٠١٠ م .

٣- أهم العلوم فى خوارزم :

انقسمت دراسة العلوم فى العصر الإسلامى إلى قسمين علوم نقلية وهى العلوم الدينية البحثية كالقرآن الكريم وعلوم السنة المطهرة والفقه وغيرها ، وعلوم عقلية تقوم على دراسة الطبيعة والطب والفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق والآداب وغيرها من العلوم .

ومن البديهى أن علوم الحديث والفقه وحفظ القرآن الكريم كانت فى المرتبة الأولى من اهتمام الأمراء ، خاصة فقه المذاهب السنية الأربعة ، فالمأمونيون كانوا مسلمين على المذهب السنى ، مذهب الخلافة العباسية (٤٢) ، وأكثر ماوصل إلى أيدينا من علوم عند المأمونيين هى العلوم العقلية ، لذا سأتناول بعض من هذه العلوم بالشرح :

١- علم التاريخ :

يعد علم التاريخ مستودعا للتجارب البشرية ، والعلاقات الإنسانية ، ودعاية كبرى للتقدم السياسى للأمم والشعوب ، فهو فن يبحث فيه عن وقائع الزمن من حيث التعيين والتوقيت .

ومن أشهر المؤرخين فى الدولة المأمونية " أبو الريحان البيرونى " ، ذلك المؤرخ الذى حظى بمكانة عظيمة فى البلاط ، بإقامته ما يقرب من سبع سنوات في الجرجانية ، وتأليفه كتابا خاصا عن خوارزم وتاريخها ، أطلق عليه اسم تاريخ خوارزم أو مسامرة خوارزم ، قيل أنه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بهذا الإقليم ، خاصة الوقائع التاريخية التى شاهدها بنفسه ، فاعتبر شاهد عيان (٤٣) ، ولقد وصل لنا جزء من هذا التاريخ عن طريق ما نقله المؤرخ البيهقى من حوادث فى تاريخه (٤٤) ولقد أجمع العديد من المستشرقين على أن البيرونى كان مؤرخا يشار إليه بالبنان (٤٥) أمضى فترة من الوقت فى جرجان فى بلاط قابوس بن وشكمير ، ثم عاد مرة أخرى إلى خوارزم ، وشاهد بعينه القضاء على الدولة المأمونية ومقتل الأمير أبى العباس مأمون فى سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م (٤٦) .

٢-علم الطب :

نال هذا العلم اهتماما كبيرا عن غيره من العلوم ، فهو العلم الذى يبحث فيه عن بدن الإنسان من جهة ما يصح وما يمرض لالتماس حفظ الصحة وإزالة المرض ، وقد ارتفع شأن علم الطب فى خوارزم ، وتقدمت وسائل دراسته ، وزخرت مكتبة المأمون آنذاك بما ألفه كثير من الأطباء ، ولا غرابة إذا نال الطب هذه المكانة المتميزة بين العلوم ، فهو إلى جانب أنه مهنة مربحة تدر على صاحبها الثروة فإنها تكسبه صحبة الناس وإجلالهم وتقديرهم . وتدل الإشارات على أن علم الطب لم يزدهر بصورة واضحة فى خوارزم فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، بل بدأت ملامحه في النمو والتطور على يد العالم الجليل أبى على بن سينا (٤٧) ، الذى أقام فترة فى بلاط المأمونيين فى الجرجانية (٤٨) ، وخصص له الأمير عملا ، ورعاه رعاية تامة ، حتى أصبح له الصدارة بين جلساء مجلس الأمير (٤٩) ، واعتبر الطبيب الأول فى الدولة .

ويعتبر " أبو الريحان البيروني " من أشهر علماء الطب البارزين فى بلاط المأمونيين ، اشتغل بعلوم الحكمة ، وله نظم جديدة فى صناعة الطب والصيدلة ، وكان معاصرا للشيخ الرئيس ابن سينا وبينهما محادثات ومراسلات (٥٠) .

كذلك اشتهر في دولتهم العديد من الأطباء المشهورين من أمثال أبى الخير الخمار ، وهو الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام أو بهنام النصراني الفيلسوف المنطقى الطبيب المشهور ، الذى وضع للأمير أبى العباس مأمون مقالة فى امتحان الأطباء ، وألف كتابا فى خلق الإنسان وتركيب أعضائه (٥١) .

كذلك اشتهر أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحى الجرجانى بعلم الطب والتطبيب فى خوارزم، ولد فى جرجان ، وأتم دراسته فى بغداد ، وهو من أشهر أطباء القرن الرابع الهجرى وأحد أساتذة ابن سينا ، ومن العلماء الذين أحاطهم الأمير أبو العباس مأمون بالرعاية والعناية (٥٢) . ومن أشهر مؤلفاته فى الطب كتاب "المائة فى علم الطب" (٥٣) .

٣- علم الرياضيات :

علم الرياضيات والهندسة من العلوم التى حظيت باهتمام الأمراء المأمونيين وطلاب العلم الذين أقبلوا على الدراسة والتخصص فيها ، وقد نبغ عدد لابأس به من علماء الرياضيات

منهم "أبو النصر بن العراق (٥٤) ". وألف "أبو الريحان البيروني " في علم الرياضيات والهندسة العديد من المؤلفات أشهرها كتاب "التفهيم في علم التنجيم" ، وقد فضل تأليف هذا الكتاب باللغة العربية عن اللغة الفارسية ، لأنها أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته (٥٥) .

٤- علم الفلك والتنجيم :

اهتم المأمونيون بهذا العلم اهتماما واضحا ، خاصة محاولة معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل ولقد نبغ "أبو الريحان البيروني" في هذا العلم وصنف المؤلفات فيه من أهمها كتاب "التفهيم في صناعة التنجيم" ، الذي أهداه إلى السيدة ريحانة الخوارزمية (٥٦) .

وكان لهذا العلم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الأمراء ، الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم ، وقد انتشر في خوارزم بعض العادات كالشعوذة والسحر والاعتقاد في الأرواح الشريرة ، لذا كانت الرعية يستخدمون البخور والأدخنة ، لإبراز الروائح الطيبة معتقدين أن ذلك يبعد عنهم الأرواح الشريرة (٥٧) .

٥- الأدب والشعر:

حظى بلاط خوارزم بكثير من الأدباء والشعراء الذين أورد الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" العديد من أسمائهم ، من أمثال أبي محمد عبد الله بن ابراهيم الرقاشي أحد أبناء كبار رجال الدولة ، الذي تولى منصبا مرموقا في الديوان بالبلاط ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن حامد أبو القاسم أحمد بن أبي ضرغام (٥٨) .

ومن البديهي أن نوضح أن أبا المنصور الثعالبي نفسه من أدباء هذا البلاط ، فقد أقام بقصر المأمونيين فترة من الوقت ، وعمل نديما للأمير أبي العباس مأمون ، وألف كتابا باسمه(٥٩) .

كذلك كان الأمير أبو الحسن مأمون بن محمد بن مأمون شاعرا نفوها ، يجيد النظم ، وله قصائد كثيرة في المديح . فمن قصائده في مدح الأمير أبي العباس مأمون قصيدة ذكر في أولها :

أغاظني الدهر من إنصافه صنفا ... هل كان غيري من الأيام منتصفا

أشكو إلى غير مشكو ليشكيني ... هل ينفع الدنف استشفاه الدنفا(٦٠)

وهناك الأديب أبو الفضل شاه بن إبراهيم بن نصر الكاثي ، والمولود في مدينة كاث من نواحي خوارزم وكان هذا الشاعر شديد الحب لإقليمه فقال فيه :

أحـن إليـه كـل يـوم وليـلـه   واشكو فـراقـا قـد أذاب عـظامي

إذا نشأت مـن نحـو خـوارزم مـزنة   تداويت من وجدي بماء غمامي[٦١]

ومن الأدباء أيضا الشاعر أبو سعيد أحمد بن شيب الشبيبي الذي جمع بين أدب القلم والسيف واتصل بالدولتين السامانية والبويهية . كما نبغ الشاعر أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي ، الذي انتقل من موطنه طبرستان ، واستقر في خوارزم مدة من الوقت [٦٢] وظهر من الأدباء والشعراء المفوهين شاعر آخر من أفراد الأسرة المأمونية نفسها ، لم يصل إلى كرسي الحكم ، ولكنه كان شاعرا سمح البديهية ، وهو أبو بشر مأمون بن علي الخوارزمي[٦٣].

٤-أشهر العلماء والأدباء في الدولة المأمونية :

برز عدد كبير من العلماء في خوارزم ، وألموا بكثير من فروع الآداب والفنون والعلوم ، فأسهموا بإضافات جديدة في مختلف ميادين العلم والمعرفة يأتي في مقدمتها العالم الجليل والفيلسوف النابغة والطبيب البارع أبو علي بن سينا .

١-أبو علي بن سينا :

ولد في مدينة بلخ ، وانتقل إلى بخارى ، وأقام في الجرجانية ، وبلغت شهرته في الطب والعلاج مبلغا رفيعا بين السلاطين والحكام أمثال الأمير نوح بن منصور الساماني ومجد الدولة البويهي [٦٤] . درس الحساب على يد محمود المساح ، وتعلم علم المنطق والفلسفة والرياضيات على يد الشيخ أبي عبد الله الناتلي ، وصل إلى مرتبة عالية في دراسة علم الطب حتى نال مهارة فائقة في جميع العلوم والفنون ، ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره [٦٥] .

استمر الشيخ ابن سينا في بلاط المأمونيين يحتل مكان الصدارة في مجالس العلماء ولم يترك الأمير أبو العباس مأمون صغيرة أو كبيرة في سبيل رعايته والمحافظة عليه إلا وفرها ، ولكن عندما طالب السلطان محمود بنقل العلماء ومنهم ابن سينا إلى بلاطه بغزنه ، فر هذا العالم إلى جرجان [٦٦] ، واشتغل بالطب في بلاط قابوس ، وألف كتابه الأوسط الجرجاني[٦٧] هذا إلى جانب عدة مصنفات في شتى نواحي العلم والمعرفة ، أشهرها كتاب الشفاء في الحكمة وكتاب القانون في الطب [٦٨] ، وألف بعد رحيله إلى الري كتاب "دانشي

نامه علائى " للأمير علاء الدولة بن كاكويه (٦٩) . توفى ابن سينا فى مدينة أصفهان (٧٠) سنه ٤٢٧هـ/١٠٣٥م .

٢-أبو منصور الثعالبى :

هو أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى ، المتوفى سنه ٤٢٩هـ/١٠٣٨م ، ألف العديد من المؤلفات ، أهداها إلى الأمراء وحكام الأقاليم ، حيث أهدى كتابه "لطائف المعارف" إلى الصاحب بن عباد وزير فخر الدولة البويهى ، وأهدى كتابه "المبهج" وكتابه "التمثل والمحاضرة" إلى الأمير قابوس بجرجان ، كما أهدى إلى الأمير مأمون عدة كتب منها "النهاية فى الكتابة" ، وكتاب "نثر النظم" ، وكتاب "اللطائف والطرائف" (٧١) ، ويعد كتابه "يتيمة الدهر" من أشهر ما صنف ، فقد جمع فيه كثيرا من الأدباء والشعراء وقصائدهم (٧٢) .

٣-أبو الريحان البيرونى :

ولد البيرونى فى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م ، وقضى الشطر الأول من حياته فى قصور المأمونيين(٧٣) . ألف البيرونى كتابا علميا بارزا هو "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ، يبحث فى القوانين التى كانت تستعملها الأمم ، ونظم الطوائف والجماعات المختلفة والاحتفالات بالأعياد القومية (٧٤) ، وذلك فى حدود سنة٣٩١هـ/١٠٠٠م .

برزت مكانة البيرونى فى قصر قابوس بجرجان كما برز سابقا فى قصر المأمونيين بخوارزم، فشارك فى المجالس العلمية والأدبية ، وبلغ من علو شأنه أن الأمير الزيارى أفرد له جناحا خاصا فى قصر الإمارة ، ولكنه أبى الإقامة فيه ، وانتقل الى بلاط المأمونيين مرة أخرى(٧٥) لأنه كان نزاعا إلى الحرية والانطلاق من بلاط إلى آخر ، ثم انتقل إلى بلاط السلطان محمود بغزنه وصاحبه فى غزواته إلى بلاد الهند ، فتهيأت الظروف له لدراسة جغرافية وعلوم وديانات وعقائد بلاد الهند ، فألف كتابا عن مظاهر الحياة الاجتماعية والعلمية سماه " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرزولة " (٧٦) ، كما ألف كتاب " قانون المسعودى " الذى أهداه إلى السلطان مسعود الغزنوى ، هذا الكتاب الذى برع البيرونى فى وصف مادته ، فقد استقصى فيه معرفة ماهية الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف أراء المتقدمين، وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه ، ورتبه على حروف المعجم وأطلق عليه كتاب " الصيدلة فى الطب" أو "قانون المسعودى" (٧٧) .

كما أهدى كتابه عن الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود الغزنوى ، وقد أطلق عليه اسم " الجماهر فى الجواهر " ، كذلك ألف كتابا فى مقاليد الهيئة وآخر فى تسطيح الكرة(٧٨) . وقد توفى أبو الريحان البيرونى فى حدود سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م(٧٩) .

ثانيا : العلم والعلماء فى دولة آل زيار :

شهد بلاط الزياريين فى طبرستان وجرجان نهضة علمية وثقافية كبيرة ، انبعثت الإشعاعات الفكرية ، من تأليف وتصنيف باللغتين العربية والفارسية ، وإيواء الشعراء وتشجيعهم واستدراء مديحهم (٨٠) حيث اشتهر أمراء تلك الأسرة برعاية العلم والعلماء ، بل أن بعضهم كان من الكتاب والشعراء المفوهين ، خاصة قابوس بن وشمكير الأمير الخامس فى دولتهم.

فقد أسس مرداويج بن زيار الديلمى هذه الدولة فى حدود سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م بالاستيلاء على طبرستان من القائد ماكان بن كاكى الديلمى ، واتجه منها إلى جرجان وأصفهان التى اتخذها مقرا لدولته (٨١) . مال مرداويج إلى إحياء النزعة القومية الإيرانية ، ورغب بالاستقلال ببلدان الخلافة الشرقية ، وطمح إلى إعادة أمجاد الفرس القديمة ، إلا أنه لم تكن لديه القدرة الكافية لإزالة الخلافة العباسية لوجود الخلافات الداخلية بين صفوف جيشه (٨٢) . قتل مرداويج فى سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م على يد قواد جيشه ، وتولى بدلا منه أخوه وشمكير الذى مال إلى استرضاء الخليفة العباسى ، وعقد معاهدة صلح مع القائد السامانى ابن محتاج فى عهد الأميرنوح بن نصر ، فأصبح بذلك مواليا لدولتهم(٨٣) وأصبح من المعروف أن يبادر الأمير الزيارى عند تعيينه بطلب الخلع والعهد من الخليفة ، فعندما عين "بيستون بن وشمكير" ، طلب من الخليفة "المطيع لله" الخلع واللواء ، ومن ثم لقبه الخليفه بظهير الدولة(٨٤) . كذلك اعترف الخليفه الطائع بالأمير "قابوس بن وشمكير" ، ولقبه بشمس المعالى(٨٥) ، ولقب الخليفه القادر بالله الأمير "منوجهر بن قابوس" بلقب فلك المعالى (٨٦) .

وعلى ذلك فإن دولة الزياريين الفارسية الأصل قامت على أكتاف مؤسسها الأول مرداويج وتوارثها إخوة وشمكير وأبناؤه من بعد حتى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، وارتبطت بعلاقات خارجية مع السامانيين وبنى بويه كما ارتبطوا بمصاهرات مع الدولة الغزنوية (٨٧) ، وسقطت دولتهم على يد السلاجقة فى عهد ملكشاه ، فى عهد آخر الأمراء الزياريين المسمى كيلانشاه بن كيكاوس ، الذى اقتصر الحكم فى عهده على منطقة كيلان أو جيلان (٨٨) .

١ – دور الأمراء الزياريين فى الحركة العلمية :

شجع الأمراء الزياريون النهضة العلمية فى البلاد ، وكان بعضهم من العلماء والأدباء المثقفين ، فنجد "شمس المعالى قابوس" الذى تولى الحكم سنة٣٦٦هـ/٩٧٦م وقد ارتقى النثر الفارسى فى دولته وألف العديد من المنظومات لدرجة أن ابن سفنديار (٨٩) يصف نثره بقوله : "ففى نثر قابوس فرائض الفوائد وفى نظمه قلائد الولاية" .

مارس قابوس كتابة المصنفات الأدبية وله مناظرات مع معاصريه من المشاهير فجمع بين عزة الملك وبساطة العلم والحكمة (٩٠) ، وقد بقى لنا من آثاره الأدبية مجموعة من الرسائل جمعها الإمام "أبو الحسن على بن محمد اليزدادى" ، تحت عنوان "قرائن شمس المعالى وكمال البلاغة"(٩١) . وقد أشيد بهذه الرسائل البلاغية ، فقيل عنها " أن أحدا لم يسمع كلاما باللغة العربية مثل رسائل قابوس فى الفصاحة وإبداع المعالى وغرابة الأسجاع مع سهولة الألفاظ وامتزاج الحروف المتجانسة" .

برع الأمير قابوس فى علم النجوم ، ونظم الشعر باللغتين العربية والفارسية (٩٢) ومن أشعاره :–

قل للذى بصروف الدهر عيرنا   هل عاند الدهر إلا من له خطر

ففى السماء نجوم ما لها عدد   وليس بكسف إلا الشمس والقمر(٩٤)

ومن شعر الأمير قابوس فى عضد الدولة البويهى عندما أهدى إليه سبعة أقلام قوله :

قد بعثنا إليك سبعة أقلام   لها فى البهاء حظ عظيم

مرهفات كأنها ألسن الحيات   قد جاز حدها التقويم(٩٥)

وقد امتاز الأمير قابوس بحسن الخط وبرع فى رسمه وإظهار محاسنه ، فكان الصاحب ابن عباد ، إذا رأى خطه قال :"هذا خط قابوس أم جناح طاووس"(٩٦) وذلك عن طريق المراسلات العديدة التى كانت بين هذا الأمير والوزير البويهى والتى حظيت باهتمام قابوس فخصص كاتبا للإشراف عليها يسمى "عبد السلام" .

وجه الأمير قابوس اهتماما كبيرا لتشجيع الحركة الأدبية والشعرية ، وأجزل العطايا والهبات لهم ، فنطلق للمجتمعين على بابه من الشعراء فى عيدى النيروز والمهرجان الأموال الكثيرة ، وكان يأمر رجال دولته وعلى رأسهم أبو الليث الطبرى بتوزيع العطايا عليهم على حسب مراتبهم ومنازلهم (٩٧) .

ومن أعظم الشعراء في عهده ، الشاعر أبو عامر الجرجاني ، الذي نظم كثيرا من القصائد في مدح الأمير منها:

اشيم عفوك والآمال البسطة   وموقفي منك الأخذ بالكظم (٩٨)

كذلك أشاد الشاعر الملقب بالبجلي بالأمير قابوس ، فعدد فضائله وصفاته في أبيات منها:

اله شمسان تنكير لخيرهما   وللمؤنثة النقصان ملتزم

لو كنت من قبل ترعانا وتحرسنا   لما تهدى إلينا الشيب والهرم(٩٩)

وبالرغم مما اتصف به الأمير قابوس من تعسف وشده إلا أنه عفا عن الأستاذ "على بيروزي" أحد كبار شعراء طبرستان في عهده ، الذي قصد في بداية حياته بلاط الأمير ، ومدحه بكثير من القصائد ، وألقى شعره باللهجه الطبرية (١٠٠) .

وسوف أتناول أهم الشعراء في عهد الأمير قابوس في أثناء الحديث عن علم الأدب والشعر. كذلك اهتم الأمير قابوس بالحركة العلمية وإحياء العلوم والطب ، فرعى العالمين الجليلين أبو الريحان البيروني وابن سينا اللذين أقاما في قصر الإمارة في جرجان . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن الدولة المأمونية .

وقد امتاز الأمير قابوس بتذوق الفن والزخرفة المعمارية ، فقد اهتم بتشييد مقبرته ، فأقامها على نمط خاص ظهر فيه فن العمارة الإيراني الإسلامي ، على شكل مخروطي ذي أضلاع متعددة ، وهو الطراز الخاص المعروف كثيرا في البلاد الواقعة على ساحل بحر الخزر، وأنفق الأمير عليها الأموال الطائلة وبالغ في تحسينها وتجميلها ، فبلغ ارتفاع المقبرة مائة وخمسة وسبعين قدما ، يعتمد على جدران سمك كل واحد منها أربع أذرع مبنية بالآجر (١٠١).

ويعتبر الأمير الزيادي " عنصر المعالي كيكاوس بن إسكندر بن قابوس " ، الذي حكم من سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م إلى ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م من أفضل الأدباء ، فله فضل كبير في الحركة العلمية والأدبية في عهده ، فعلى الرغم من أن أكثر كتب التاريخ لا تشير بشيء ذي بال عن حياته وسيرته ، ولا يكان المؤرخون أن يزيدوا على اسمه غير تأليفه لكتاب النصيحة المعروف بقابوس نامه ، فان هذا الكتاب يعتبر من أجل الأعمال الأدبية في عهد هذه الدولة .

ألف الأمير عنصر المعالي كيكاوس هذا الكتاب باللغة الفارسية ، لتقديمه لابنه وولي عهده "كيلانشاه" ، يتضمن نصائح وتعاليم في الحياة والحكم (١٠٢) ، فجاء هذا المؤلف كمرآة صادقة للمجتمع الإسلامي والحضارة التي سادت في هذه الفترة .

يعتبر كتاب قابوسنامه من أهم المصنفات الفارسية الإسلامية ، الذي تضمن في ثناياه الحكايات والقصص ، فهو يحيي سنة المؤلفات الفارسية القديمة ، فسار في تصنيفه وموضوعه على منوال كتب الرسوم والنصائح الفهلوية وصار هذا المؤلف فتحا جديدا في الأدب الفارسي الإسلامي ، فألفت على غراره مؤلفات كثيرة من أمثال سياست نامه للوزير نظام الملك الطوسي، وكتاب جهار مقاله لنظامي عروضي السمرقندي (١٠٣) .

وللحقيقة التاريخية فإن عصر هذا الأمير حظي بتصنيف العديد من المصنفات الأدبية الجليلة خاصة باللهجة الطبرية منها ماكان منثورا مثل كتاب "مرز بان نامه" ومنها ما كان منظوما مثل كتاب "نيكي نامه" ، لقد قام الأمير مرزبان بن شروين أحد أمراء الزياريين الذين لم يصلوا إلى كرسي الحكم بتأليف كتاب مرزبان نامه (١٠٤) ، قسم كتابه إلى ثمانية أبواب ، وقد ذكر الأمير مرزبان في مقدمة كتابه أن سبب تأليفه لهذا الكتاب أنه عندما انتقل الملك من الأمير أنو شيروان إلى أن استقر فيه شيروين ، كان ترتيب مرزبان الأخير ولكنه امتاز بالفطنة وحسن السياسة ، فهداه اجتهاده إلى أن يضع كتابا يشتمل على أنواع الحكمة واللطائف ، يظهر فيه لأخيه الملك بعض المؤامرات والحيل التي تحاك في الخفاء (١٠٥) .

ومن هنا نستفيد أن الأمير عنصر المعالي كيكاوس شارك في الحركة الثقافية ، وشجع الأدباء ، بالإضافة إلى قرضه للشعر ونظمه للنثر باللغة الفارسية (١٠٦) .

احتوت مجالس الأمراء الزياريين على كثير من مظاهر البهجة والموسيقى والغناء ، كما ضمت أعدادا كبيرة من الندماء ، فكان للأمراء رجال مصطفون وجلساء مجربون ، بل إن الأمراء أنفسهم عمل بعضهم كندماء في مجالس السلاطين ، فقد جرت العادة بين الأمراء الزياريين على إرسال أبنائهم وأخواتهم إلى البلاط الغزنوي للإقامة والتأدب بأدب الملوك والأمراء ، فقد قضى دارا بن قابوس فترة في بلاط السلطان محمود (١٠٧) ، كذلك قام الأمير عنصر المعالي كيكاوس نديما لمدة ثمان سنوات في بلاط السلطان مودود بن مسعود الغزنوي(١٠٨).

٢-اشهر العلوم والعلماء فى الدولة الزيارية :

شهدت الحركة العلمية فى الدولة الزيارية ازدهاراً كبيرا فى عدد من العلوم العقلية والنقلية ومشاركة كبيرة من العلماء والفقهاء يأتى فى مقدمة هذه العلوم :

١-علوم الفقه :

فعلى الرغم من انتشار المذهب الشيعى فى الدولة الزيارية واعتناق الأمراء الإسلام عليه ، فان المذاهب الفقهية السنية ظهرت بين الرعية ، فمنهم من كان حنفيا أو حنبليا إلى جانب الشافعيين ، بالإضافة إلى الكرامية والشيعة (١٠٩) .

ولكن المذهب الشافعي ظهر فيه عدد غير قليل من الفقهاء في هذه الدولة ، أثروا فى الحياة العقدية والثقافية فى البلاد ، فممن اعتنق هذا المذهب الفقيه "أبوبكر أحمد بن إبراهيم الشافعى الجرجانى" ، المتوفى سنة ٣٧١هـ/٩٨١م ، والفقيه "أبوعبدالله محمد بن الحسن الاستراباذى المعروف بالختن ، الذى اشتهر بالفضل والعلم ، وله وجوه حسنة فى المذهب الشافعى ، شرح كتاب "التلخيص" لأبى العباس ابن القاضى ، وسمع من "أبى نعيم بن عدى" ، وتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م (١١٠) .

كما جذبت بغداد الكثير من فقهاء الشافعيين من طبرستان فنقلوا علمهم ومصنفاتهم إليها ، من أمثال الفقيه "أبو على الحسين بن القاسم الطبرى الشافعى" ، صاحب كتاب "المحرر" ، وكتاب " الإفصاح فى المذهب " ، وكثيرا ما قامت الفتن والمنازعات بين أصحاب المذهب الشافعى والمذاهب السنية الأخرى فى طبرستان (١١١) .

٢-علم التاريخ :

التاريخ من العلوم الهامة التى لا غنى عنها فى معرفة الأمم والشعوب وتاريخ حكامهم ، وظهر فى الدولة الزيارية عدد من المؤرخين على رأسهم مؤرخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة وهو محمد بن جرير الطبرى ، صاحب كتاب " تاريخ الأمم والملوك "(١١٢) ، الذى صنف العديد من الكتب فى شتى مجالات العلم والمعرفة ، خاصة فى التفسير والحديث ، مثل كتاب " تفسير القرآن ومعانيه " ، وكتاب " النيل والمذيل " ، وقد حوت خزانة كتبه على ما قدر بحمل أربعمائة دابة (١١٣).

ومن أبرز مؤرخى الدولة الزيارية المؤرخ " أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن مهران " ، الذى صنف كتاباه سماه " تاريخ أصفهان " ، وكتاب أخر فى علم الحديث سماه " حلية الأولياء " ، وقد توفى هذا المؤرخ فى أصفهان سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨م (١١٤).

٣ – علم النحو :

ارتفع شأن اللغة والنحو في طبرستان ، وذلك لاهتمام الأمراء باللغة العربية والفارسية في آن واحد ، وتألق الأدب الفارسي بجوار الأدب العربي ، ونما وترعرع في ظل حكمهم ، بالإضافة إلى الاهتمام بقواعد اللغة العربية وعروضها .

ومن ثم نبغ عدد لابأس به من فقهاء اللغة العربية من أمثال عالم النحو " أبو على الحسن ابن أحمد الاستراباذي" النحوى الأديب ، مصنف كتاب "شرح الفصيح" و"شرح الحماسة"(١١٥)، واشتهر الأديب "أبو عامر الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني" وهو أحد أصحاب عبد القاهر الجرجاني ، وقد أتصف أبو عامر بحسن الخط ، وصحيح الضبط ، ألف عدة كتب منها "البيان في علم القرآن" ، وكتاب عروق الذهب في أشعار العرب" ، وكتاب "سلوة الغرباء"(١١٦) ، كذلك اشتهر "أبو الفرج على بن الحسين بن هند الكاتب "بالنحو والبلاغة ، وله رسائل مدونة في النحو وهو مشهور بجودة الشعر ونظمه ، ومن أشعاره في الأمير قابوس بن وشمكير قوله :

كفـــانى مـــن المدام شحيم صـالحتنى النهى وثاب الغريم (١١٧)

٤– علم الفلك والنجوم :

كان لهذا العلم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الأمراء ، الذين اعتمدوا على التنجيم في تنفيذ سياستهم ، فقد نصح منجم وشمكير "بن زيار" بعدم الخروج إلى الصيد في يوم وفاته(١١٨) . كما اهتم الأمير قابوس بعلم النجوم ، فدرس أصوله ، وقد قيل أنه حكم على نفسه في النجوم أن منيته ستكون على يد ولده ، ومن ثم أبعد ولده دارا عن عاصمته ، إلى غزنه لما كان يرى من عقوقه ، وقرب إليه ابنه منوجهر ، لما كان يراه من طاعته وانقياده إليه ، ولكن جاءت نهايته بالعكس ، فقد قبض عليه رجاله وحبسوه في قلعة جناشك بجرجان ، وأقاموا بدلا منه في الحكم ابنه منوجهر(١١٩) .

٥– علم الطب :

اهتم الزياريون اهتماما بالغا بعلم الطب والعلاج ، وأغدقوا على أطبائهم المنح والعطايا ، فصار للأطباء منزلة رفيعة بين رجال البلاط ، مما ساعد على تقدم دراسة علم الطب ونبغ الكثير منهم ، ومن أبرز هؤلاء الأطباء "على بن ربن الطبرى" اليهودى المنجم(١٢٠) ، ذلك

الطبيب الذى تميز فى الطب ، والهندسة ، والرياضيات [١٢١] . ومن أهم مؤلفاته فى الطب كتاب "فردوس الحكمة" ، وهو كتاب مختصر يحتوى على ثلاثين مقالة ، وكل مقالة تحتوى على ثلاثمائة وستين ورقة ، وكتاب فى "حفظ الصحة" ، وآخر فى ترتيب الأغذية[١٢٢] . هذا إلى جانب كتاب "إرفاق الحياة" ، وكتاب "منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير" [١٢٣] .

وقد وصل الطب إلى أعلى مرتبة فى عهد الأمير قابوس بن وشمكير ، حيث أعلى من مكانة الأطباء ورفع من منزلتهم ، ومن أمثال الأطباء "أبوالفرج رشيد عبد الله الاستراباذى" الذى ذكر فى كتاب دمية القصر للباخرزى ، بأنه على درجة كبيرة من العلم والبلاغة وعلى دراية بالنظم والنثر[١٢٤] .

وممن نبغ فى عصر قابوس الطبيب الأديب "أبو الفضائل إسماعيل بن محمد الموسوى الجرجانى" ، الذى وصل إلى درجة عالية فى عالم الطب ، ومن أهم ماقام به ترجمة كتاب القانون لأبى على بن سينا إلى اللغة الفارسية ، كما ألف كتاب "الأغراض"[١٢٥] .

وقد نشأ فى طبرستان الطبيب "أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى" ، ثم انتقل إلى خدمة الأمير "ركن الدولة البويهى" ، ومن مؤلفاته كتاب " الكناش المعروف بالمعالجات البقراطية" ويعتبر هذا الكتاب من أجل الكتب وأنفعها فى عصره[١٢٦] .

ولايفوتنا فى سياق الكلام الإشارة إلى الطبيب ابن سينا وأبى الريحان البيرونى الذين سبق الكلام عنهما فى الحديث عن الدولة المأمونية .

ومن هنا نرى أهمية علم الطب ومدى ما وصلت إليه الحركة العلمية من نهضة فى بلاط الزياريين ، وقد تجلى اهتمامهم فيما أورده قابوس الثانى فى كتابه ، حيث أفرد لهذا العلم بابا كاملا يشرح فيه صنعة الطب ، ووصف صفات الطبيب ، وما يتسم به من علم ومعرفه [١٢٧] .

٦-علم الأدب :

من أهم العلوم التى حظيت بالمنزلة والمكانة العالية فى الشعر والأدب ، وعظمت منزلة الشعراء ، وبرزت مكانتهم فى بلاط قابوس ، مثل الشاعر "قمرى الجرجانى" الذى كتب الشعر باللغة الفارسية[١٢٨] ، والشاعر "أبو مهد مامطير" ، الذى نظم الشعر باللغتين العربية والفارسية ، والشاعر "باربد الجريدى" ، والشاعر "رافعى النيسابورى" وهم يعتبرون من أعظم من مدح وعدد فضائل هذا الأمير الزيارى[١٢٩] .

هذا إلى جانب الشاعر "أبو الحسن على بن محمد اليزدادى" الذى جمع باللغة العربية أقوال ومراسلات الأمير قابوس فى كتاب "قرائن شمس المعالى وكمال البلاغة" .

كذلك حظى بلاط الأمير منوجهر خامس الأمراء الزياريين بالعلماء والأدباء ، فقد كان الأمير على درجة عالية من حب العلم والأدب وتشجيع الحركة العلمية والعطاء ببذخ ، وخير مثال على ذلك ماناله شاعر الطبيعة الملقب بمنوجهرى من مكانة فى بلاطه ، فقد ولد هذا الأديب فى دامغان (١٣٠) ، وأخذ تخلصه-أى لقبه-من اسم الأمير الزيارى ، وهو أول ممدوح له (١٣١) ، وقد تبحر منوجهرى فى اللغة العربية ، ولم يسلك سبيل بعض معاصرية ، من الاقتصار على اقتباس المعنى أو الأسلوب فقط ، بل كان يستعمل الألفاظ العربية الغربية ، والتراكيب النادرة . وقد توفى الشاعر منوجهرى فى حوالى سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م(١٣٢) ، بعد وفاة الأمير منجهر بفترة قصيرة .

ثالثا : العلم والعلماء فى دولة الخانية :

دولة الخانية من الدويلات التركية التى نشأت فى منطقة تركستان (١٣٣) ، ثم توسع حكمها فى بلاد ما وراء النهر على حساب الدولة السامانية ، حيث اقتسموا أملاكها عقب موقعة قطوان مع السلطان محمود الغزنوى ، فأصبح الحد الفاصل بينهما نهر جيحون وبذلك تكون خراسان ضمن ممتلكات السلطان وتكون بخارى وسمرقند ضمن ممتلكات أيلك خان(١٣٤)، المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م .

والملاحظ أن المؤرخين لم يتطرقوا إلى تاريخ تلك الدولة منذ نشأتها ، إلا بعد أن اتصل هؤلاء الحكام اتصالا مباشرا بمن جاورهم من الدول الإسلامية كالسامانيين ، وذلك فى حدود سنة٣١٦هـ/٩٢٨م ، عندما اعتنق "ستوك بغراخان عبد الكريم" الإسلام على المذهب السنى على يد الأمير أبى نصر السامانى . ومن ثم أخذ الخانيون على عاتقهم مهمة نشر الإسلام بين بنى بلدتهم من القبائل التركية الوثنية ، خاصة أرسلان خان الذى استشهد فى إحدى غزواته(١٣٥) ، كما سار خليفته طغان خان على نفس سياسته فى الفتح ، وفتح يوسف قدر خان مدينة ختن وأخضع قبائل الترك شمال وادى نهر ايلى لسلطانه (١٣٦) .

كانت الصلة بين الخانيين والخلافة العباسية صلة اسمية ، مقصورة على الارتباط الروحى ومنح الألقاب وإرسال البنود والرايات ، فلم يتدخل الخليفة فى عزل وتعيين الخانات ، بل إذا

ولى الخان العرش يستبدل اسمه القديم بلقب جديد مرسلا من قبل الخلافة فقد اتخذ هارون بن موسى بغراخان لقب شهاب الدولة ، واتخذ طمغاج خان لقب عماد الدولة ، ثم أضاف اليه لقب ظهر الدعوة ، واتخذ أخر حكامهم لقب طنان هو سلطان أرض الشرق والغرب وبرهان خليفة الله وناصر أمير المؤمنين بالرغم من اقتصار حكمه على مدينة سمرقند فقط (١٣٧) .

والملاحظ أن الخانيون كانوا شديدى التمسك بإسلامهم على المذهب السنى فعملوا على القضاء على أى حركة شيعية ، كما حدث سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م فى عهد بغراخان هارون حينما بايع أهالى ماوراء النهر للخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فتظاهر الخان بقبول الدعوة الشيعية ، حتى اطمأن الدعاة ، ثم أمر بالقبض عليهم وذبحهم عن آخرهم(١٣٨) .

سار الخانيون على مبدأ وراثة العرش بين أبناء أسرتهم ، إلا أن هذه القاعدة لم تطبق على جميع من تولى العرش ، فإن إبراهيم خان بمساندة أمه اغتصب عرش الخانية من أخيه الأكبر جغرى تكين (١٣٩) . كما قام بعض الخانات بتقسيم ممتلكاتهم بين أبنائهم ، مما أفقد السلطة المركزية قوتها ودارت حروب داخلية بين الأمراء والخان الأكبر (١٤٠) ، لذا لابد أن نشير إلى أن دولة الخانية قسمت إلى ثلاث شعب شعبة كاشغر تبدأ بعبد الكريم ستوق بغراخان وتنتهى بيوسف قدر خان سنة٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، والشعبة الثانية تحكم الجهات الغربية وتبدأ بجغراتكين سنة٤٠٦هـ/١٠١٥م وتنتهى بالسلطان عثمان خان [illegible] قتل سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، أما الشعبة الثالثة والتى تشمل الجهات الشرقية بـ[illegible]ـان تبدأ بشمس الملك نصر٤٤٩هـ/١٠٥٧م وتنتهى بمجد بن يوسف ٦٠٧هـ/١٢١٠م .

وقد تعددت عواصم الخانية ، ففى بادىء الأمر اتخذوا مدينة كاشغر ثم بلاساغون ، وبعد ضم بلاد ماوراء النهر لحكمهم اتخذوا من أوزكند مقر لهم ، وفى عهد شمس الملك نصر بن ابراهيم ابن طمغاج خان انتقل إلى ماوراء النهر واتخذ من بخارى حاضرة لملكه (١٤١) .

استعان الخانيون بموظفين فى إدارة الشئون الخاصة بالبلاد كالوزراء وقادة الجيوش ، من أهمهم الوزير أبو المعالى محمود بن زيد فى عهد طغان خان والوزير طغاربيك محمد بن سليمان الكاشغرى (١٤٢) ، وأقاموا دواوين مركزية فى حاضرة ملكهم من أهمها ديوان الرسائل ، الذى عين على رأسه أحمد بن محمد بن يوسف الكاتب فى عهد بغراخان هارون ، أما فى عهد ركن الدين قلج طمغاج خان فإن بهاء الدين محمد بن على الحسن الظهيرى الكاتب صاحب كتاب سندباد نامه كان متولى الإشراف عليه ، المتوفى سنه٥٥٠هـ/١١٥٥م .

أما عن الثقافة والعلم فى الدولة الخانية ، فتعتبر فترة حكمهم من الفترات التى تدهور فيها – إلى حد ما –الفكر فى تركستان وبلاد ماوراء النهر ، التى شهدت ازدهارا ثقافيا فى عهد السامانيين . فلم يكن الترك فى أى مكان تابعين تبعية كاملة لحضارة العرب والإيرانيين، ولم يتخلوا عن لسانهم التركى ، ومع ذلك فإن تأثير المدنية العربية والفارسية كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية أن تصبح لغة رسمية أو لغة ثقافية ، فقد كانت اللغة الفارسية إلى جانب اللغة العربية فى دولة الخانية فى بلاد ماوراء النهر فى ميدانى الإدارة والأدب ، وصنف بها العلماء مؤلفاتهم (١٤٤) ، ومن الجدير بالذكر أن الأبجدية الأريغورية أخذت حروفها تتلاشى تدريجيا ، لتحل محلها العربية ، وهى الحروف التى كانوا يضربون بها أسماءهم على العملة (١٤٥) .

١–اهتمام الخانيين بالعلم :

اهتم كثير من الخانات بالحياة العلمية فى بلادهم ، كبغراخان الذى اشتهر بالعدل وحسن السيرة ، وامتاز بحبه الشديد للعلماء وأهل الدين ، وقد ألف لهذا الخان باللغة التركية فى كاشغر كتابا سمى "قوتاد غوبيليك" ، بمعنى العلم السعيد ، ألفه شخص يدعى يوسف يعمل حاجبا فى البلاط ، وذلك سنة٤٦٢هـ/١٠٦٩م–١٠٧٠م ، ويعتبر هذا الكتاب قصيدة تعليمية كبرى قصد بها إبراز حكمة الحياة للأمراء والملوك الخانيين (١٤٦) .

ويعتبر الخان شمس الملك نصر من أفضل الملوك الخانية علما ورأيا وسياسة ، فقد درس وأملى الحديث ، وكتب بخطه مصحفا ، وخطب على منبرى بخارى وسمرقند ، وكان فصيحا عالما ، توفى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م (١٤٧) .

وقد اشتهر خضر خان إبراهيم بتشجيعه للشعراء ، وزخر بلاطه بكثير منهم ، واعتبر صديقا لهم ، من أمثال الأمير عمعق والأستاذ الرشيدى وغيرهم (١٤٨) .

كما ألف لبغراخان كتاب قوتا دغو بيليك ، وألف لطمغاج خان باللغة الفارسية كثيرا من الكتب مثل كتاب سندباد نامه الذى هذبه بهاء الدين محمد بن على الظهيرى وأهداه إلى هذا الخان (١٤٩) ، كذلك ألف فى عهد هذا الخان كتاب فى التاريخ يسمى "تاريخ ملوك تركستان" صنفه مجد الدين محمد بن عدنان ، جمع مادته عن تاريخ الخانية ، وتعرض فيه لأصلهم ونشأتهم (١٥٠) .

وفى حقيقة الأمر فإن طمغاج خان نفسه كان على قدر كبير من العلم ، اشتهر بجمال الخط الذى يوصف بالدر المنثور ، يكتب به المصاحف ، وقيل أنه كان يعطى ما يكتب إلى مجهول لبيعه ويتقوت من ثمنه (١٥١) .

ومن أفاضل العلماء فى بلاط "القاضى منصور" من أهل هراه ، كان يملك ناصية الفضل والعلم والكتابة والشعر والرسائل ، ولم يكن يروق مجلس علم لايكون فيه ، ورحل من هراه إلى بلاط الخانية بتركستان ، وبقى عدة سنوات حتى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م فى بلاطهم ، وعامله الخان بكل تقدير واعتزاز ، وأغدق عليه الهبات الوفية (١٥٢) .

٢-المؤسسات العلمية فى الخانية :

تعددت المؤسسات العلمية فى الخانية فى بلاد ماوراء النهر ، وتأتى فى مقدمتها الكتاتيب لحفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة للصغار ، وهناك المسجد وهو أكبر معهد للدراسات الدينية. فلم تكن المساجد للعبادة وحدها بل كانت تؤدى فيها أعمال مختلفة ، فهى مكان للعبادة ومحكمة للتقاضى بالإضافة إلى أنها مكان للدراسة والعلم ، ومن أشهر المساجد التى بنيت فى عهد الخانيين فى بلاد ماوراء النهر مسجد الجامع فى بخارى ، الذى شيده شمس الملك نصر (١٥٣) ، ومسجد مدينة بيكند تلك البلدة التى اشتهرت بكثرة علمائها وفقهائها (١٥٤) .

وفى قرية اسكحكت أقام أحد عمالها من قبل الخانيين ويطلق عليه اسم "خوان سالار" مسجدا جامعا فى عهد شمس الملك نصر ، ويشاع أن هذا الجامع تعطل فيه الصلاة إلى أن تولى قدر خان جبرائيل بن عمر بن طغرل خان ، الملقب بكولارتكين ، فأمر بهدم المسجد ، واشترى أخشابه من ورثة خوان سالار ، وأقام به مدرسة أطلق عليها اسم مدرسة كولارتكين (١٥٥).

ولما تولى أرسلان خان محمد بن سليمان الحكم سنة٤٩٥هـ/١١٠١م ، شيدعدة مبان هامة فى بخارى من ضمنها توسيع المسجد الذى أنشأه الأمير إسماعيل السامانى فى بخارى سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م ، كذلك أقام مسجدا جامعا من ماله الخاص ، ورباطا للغرباء بجانب قرية اسكجكت ببخارى (١٥٦) .

كذلك انتشرت المدارس فى بلاد ماوراء النهر لتدريس العلوم الدينية والدنيوية ومن هذه المدارس المدرسة التى شيدها أرسلان خان فى بخارى وأوقف عليها ضياع القرى المجاورة

والحمام الذى على باب السراى (١٥٧) . كما أنشئت المدرسة الكولارتكنية ، نسبة للخان قدر خان جبرئيل ، والتى انفق عليها من ماله الخاص (١٥٨) .

ولقد لعبت هذه المدارس دورا هاما فى نشر الدين الإسلامى والمذاهب الفقهية ويشير بارتولد (١٥٩) الى النظام المتبع فى إدارة هذه المدارس بقوله :"بأن هذه المدارس كانت مستقلة عن تدبير الحكومة وسياستها " .

٣-أهم العلوم وأشهر العلماء فى الدولة الخانية :

من أهم العلوم التى اهتم بها الخانيون ببلاد ماوراء النهر العلوم الشرعية ، فقد ظهرت الدراسات الفقهية بصورة واضحة ، حيث وفد المذهب الشافعى وكثرت تلاميذه بها ، وارتفع المذهب الحنفى فى البلاد ، والملاحظ أن المذهب الشافعى وجد طريقه إلى قلوب الفقهاء أكثر من غيره من المذاهب ، فقد اعتنقه كثير من الأئمه وعلى رأسهم الفقيه المؤيد بن الحسن المرفقى، الذى أتبعه العديد من التلاميذ والأتباع (١٦٠) . والفقيه الشافعى يحيى بن أحمد بن زكريا الغاربى ، ويعتبر الفقيه عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالزازيرابين من أهم الفقهاء الشافعيين لتأليفه كتابا فى الفقه سنة ٤٩٤هـ/١١٠٥م (١٦١) .

ومما يدل على مدى حب الخانيين للفقهاء وتشجيعهم ، ما قام به "نصر خان بن طمغان" من إهداء بعض الفقهاء ضياعا قريبة من قرية كارل علويان-التابعة لبخارى ، وكانت هذه الضياع أملاك سلطانية خاصة وذلك لتيسير سبل العيش عليه (١٦٢) .

علم التاريخ:

اهتم الخانيون بتاريخ بلادهم ، وكتابة أيامهم ، فظهر عدد لابأس به من المؤرخين الذين صنفوا فى هذا المجال من أمثال "بهاء الدين محمد بن على بن محمد الحسين الظهيرى" مؤلف سندباد نامه ، الذى قام بتأليف عدة كتب تاريخية ، يأتى فى مقدمتها كتاب "أعراض السياسة فى أغراض الرياسة" ، الذى اشتمل على لطائف كلام الملوك وحكمتهم منذ عهد جمشيد حتى زمان طمغاج خان(١٦٣) ، وألف أيضا كتاب سمع الظهير فى جمع الظهير(١٦٤).

كما اشتهر المؤرخ "أبو لفتوح عبد الغفار بن حسين ألمعى" الذى عاش بمدينة كاشغر فى القرن الخامس الهجرى ، وتوفى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م ، وله كتاب عن تاريخ كاشغر يبدو أنه ملىء بالأساطير (١٦٥) .

وكان المؤرخ أحمد اليسوى الذى لانعرف عن حياته شيئا إلا من الحكايات الخرافية المتأخرة، والتى ترجعه إلى أحد أولياء الأتراك المسمى "أرسلان بابا" ، من كتب فى تاريخ الخانيين ، فقد ألف كتابا دينيا منظوما أو منثورا باللغة التركية زاعما أن هذا لتعزيز الدين الإسلامى بين الأتراك (١٦٦).

وهناك مؤرخ آخر عاش فى عهد ركن الدين قلج طمغاج خان ، وكتب عن تاريخ ملوك تركستان هو المؤرخ "مجد الدين محمد بن عدنان" وقد استوفى فى كتابه تاريخ الترك والخانيين، إلا أن هذا المصنف مفقود (١٦٧) ، ولم يصل إلى أيدينا فى الوقت الحاضر .

الشعر:

امتاز الحكام الخانيون بتشجيعهم للشعراء والأدباء وفتح بلاطهم لهم ، الذى زخر بالكثير منهم ، فقد شجع خضر خان إبراهيم الشعراء ، واعتبر نفسه صديقا لهم ، وأقام المناظرات فيما بينهم ، وكثيرا ما حاول الإيقاع بين الشاعر عمعق والشاعر الرشيدى (١٦٨) . على عادة السلاطين ، هذا بالإضافة إلى أنه كان جوادا كريما مع شعرائه ، يهبهم بسخاء ، ومن ضمن هباته للشاعر الرشيدى مبلغا كبيرا قدر بملء أربعة أطباق من الذهب (١٦٩) .

ويعتبر الشاعر عمعق البخارى من أشهر شعراء البلاط فى عهد خضر خان ، ويلقب بأمير الشعراء (١٧٠) وهو من بخارى ، رحل إلى سمرقند لطلب العلم ، ومدح كثيرا من أمراء الخانية مثل أحمد خان بن خضر خان ، ومحمود خان بن شمس الملك نصر وغيرهم من الأمراء(١٧١).

وصل الأمير عمعق إلى درجة عالية من الثراء فى ظل حكومة خضر خان ، فكان يمتلك كثيرا من الغلمان الأتراك والجوارى والخيل والأدوات الذهبية والأكسية الفاخرة (١٧٢) ، واتصل بالسلاطين السلاجقة خاصة السلطان سنجر الذى دعاه عدة مرات إلى بلاطه بمرو ، وقام فى إحداهما برثاء ابنة السلطان مهملك خاتون ، ولكنه لم يتمكن من تلبية دعوته عند وفاة أخته ، نظرا لتقدمه فى العمر ، ومن أبياته فى رثاء ابنة سنجر :

فى حين ينبت الورد فى أرض البستان

ذهبت تلك الـوردة المتفتحة واختفت فى التراب

وفى حين يأخذ الغصن من السحاب قطر الماء

أصبح نرجس هذا البستان الجميل بلا ماء (١٧٣)

ولقد اتسم شعر عمعق باختيار أخف الأوزان الشعرية ، وعرف بالسلاسة والعذوبة (١٧٤) ، وتوفى فى مدينة سمرقند سنة٥٤٢هـ/١١٤٨م (١٧٥) .

أما عن الشاعر أبو محمد بن محمد رشيدى السمرقندى ، الملقب بسيد الشعراء ، فهو من شعراء بلاط خضر خان ، فإنه مدح كثيرا من ملوك الخانية والسلاجقة ، ونسب إليه منظومة شعرية باسم قهروونا -بمعنى الحب والوفاء -وله مقالة فى البلاغة (١٧٦) .

ومن شعراء بلاط خضر خان أيضا بخارى الساغرجى ، والشطرنجى الذى تعتبر معظم أشعاره مقتطفات في الحكمة والوعظ (١٧٧) .

كما اشتهر بلاط ركن الدين قلج طمغاج خان بتردد كثير من الشعراء عليه ، من امثال الشهامى ، و هو شهاب الدين أحمد بن المؤيد السمرقندى ، الذى كان أستاذا فى جميع العلوم الدينية ، وله مجلس يعقد كل يوم جمعه للوعظ والإرشاد ، يتلى فى مجلسه بعض أشعار العرب، ومن ممدوحيه قلج طمغاج خان مدحه بقصيدة طويلة تتسم بالسلاسة والعذوبة(١٧٨).

ومن الملاحظ أن هناك عدداً من الشعراء الذين أشادوا بمدح الخانيين فى بلاد ما وراء النهر دون الإقامة فى بلاطهم ، من أمثال عثمان المختارى ، وهو من شعراء الغزنويين ، فإنه مدح أربعة من الملوك المعاصرين له ، كأرسلان خان محمد بن سليمان ، وأرسلان بن مسعود ، ويعتبر المختارى من الشعراء المشهورين في بلاط غزنه ، وله دواوين فى المدح(١٧٩).

كذلك قدم على ديار الخانيين الشاعر البستى وهو أبو الفتح على بن محمد الكاتب ، الذى أقام بغزنه فترة طويلة فى عهد ناصر الدولة سبكتكين ثم طرده السلطان محمود ، فلجأ إلى الخانيين واستمر فى كنفهم حتى وفاته سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م (١٨٠) ، لما اتصف به حكامهم من بذل الأموال على الشعراء والأدباء وكرمهم الزائد .

خاتمة :

وصفوة القول فإننا نستخلص أن الخانيين بذلوا جهدهم للاهتمام بالحياة العلمية ، خاصة بعد افتتاحهم ماوراء النهر ، وتأثرهم بالحضارة السامانية وتركوا أبجديتهم الأيغورية وراءهم ، وشجعوا العلم والأدب فظهر العديد منهم ، وألف باسمهم المصنفات ، وصار بلاطهم مقصدا للشعراء ، خاصة بلاط خضر خان وطمغاج خان .

وقد بلغت الحياة العلمية والأدبية درجة كبيرة من الرقى ، فظهرت فى الدولة المأمونية ودولة آل زيار شخصيات بارزة فى الشعر والأدب والطب والفلك ، مما أدى إلى ظهور نهضة علمية وثقافية كبيرة فى آسيا الوسطى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين .

ولم تقتصر الحركة العلمية على ما أنتجته قريحة مشاهير المفكرين ، بل تعداه إلى مشاركة الأمراء فى كلتا الدولتين فى الإنتاج العلمى . ومن ثم فإن الأدب الفارسى الإسلامى ازدهر جنبا إلى جنب مع الأدب العربى ، وصنف الكثير من الأعمال بهاتين اللغتين ، وظهر أدب باللهجة الطبرية منها ما هو منظوم ، ومنها ما هو منثور ، وبرزت فى عهدهما حركة الترجمة والنقل من المؤلفات العربية إلى الفارسية ، وبهذا أثرت الثقافة العربية فى فكر وعلوم آسيا الوسطى ، لدرجة أن ضرب المثل بارتفاع الثقافة والعلم فقيل لم تكن سوق العلم والأدب فى طبرستان أقل رواجا من سوق التجارة .

الهوامش

١- خوارزم : ولاية تشبه المملكة ، وهي ليست اسما للمدينة إنما هي اسم الناحية بجملتها . (البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣١ ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، دار الناشر بمكتبة الأنجلو المصرية ، علي أكبر : لغت نامه ، ص٢ ، ص٥٧٩ ، تهران در جانجانة مؤسسة انتشارات رحاب دانشكاه تهران). وكلمة خوارزم تنطق باللغة الفارسية خارزم لأن الواو تكتب ولا تنطق (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص٧ ، ص٢٣٩ ، مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦م) .

٢-تولى عرش الزياريين سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م ، وفي عهده انتزع البويهيين جرجان من حكم الزياريين ، فاضطر قابوس للفرار مدة ثمانية عشر عاما في بلاط السامانيين ثم في بلاط محمود الغزنوي (الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٦٦ ، ترجمة د.عفاف السيد زيان ، القاهرة سنة ١٩٨٢).

٣- الصاحب بن عباد : هو إسماعيل بن عباد ، كان كاتبا عند أبي الفضل بن العميد وتلميذا له ، وصاحبه فسمي الصاحب (ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ص٦ ، ص١٧٢ ، دار المستشرق بيروت-لبنان) ، تولى الصاحب الوزارة لمؤيد الدولة البويهي ، وعرف بأنه وحيد عصره وزمانه في العلم والفضل ، جمع من الكتب ما لم يجمعه غيره من الوزراء . له العديد من المؤلفات منها عشر رسائل أطلق عليها رسائل الصاحب بن عباد . توفي الصاحب في حدود سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م .

٤- براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، ص١١٧ ، ١١٨ ،مطبعة السعادة بالقاهرة سنة١٩٥٤م .

٥- حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية في أسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ، ص١٦١، طبعة دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٦٨م .

٦- كاث معناها بلغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء ، وهي بلدة كبيرة تقع في شرق نهر جيحون ، (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص٧ ، ص٢٠٣) .

٧- من المفيد أن نشير إلى أن حكام خوارزم اتخذوا لأنفسهم لقبا ملكيا خاصا بهم ، وهو لقب "شاه" أضافوه إلى اسم الإقليم فأصبح خوارزمشاه ، هذا اللقب كان معروفا في هذه المنطقة قبل الفتح العربي، واستمر حكام تلك المناطق يتوارثونه جيلا بعد جيل واتخذه المأمونيون بعد توحيد خوارزم كلها تحت حكمهم . (البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣١) .

٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٨ ، علي أكبر : لغت نامه ، جـ٢ ، ص٥٧٩ .

٩- الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، أحداث سنة٣٨٥هـ .

١٠- الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٧٣ ، ميرخواند : روضة الصفا ، ص١٠٨ ، ترجمة د.أحمد عبد القادر الشاذلي ، طبعة الدار المصرية للكتاب القاهرة سنة١٩٨٨م ، بارتولد : تركستان ، ص٤٠٠ .

١١- هزار أسب : قلعة حصينة ومدينة جيدة المياه ، وليس لها إلاطريق واحد على ممر ، بينها وبين خوارزم ثلاثة أيام ، وبها أسواق كثيرة .(ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٨ ، ص٤٦٣) .

١٢- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٢٢، بهامش كتاب ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩م ، ميرخواند : روضة الصفا ، ص١٠٧ ، فامبري : تاريخ بخارى ، ص١٢٢ ، ترجمة أحمد محمود الساداتي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

١٣- الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٧٤ .

١٤- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٢ ، نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٨ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٣٨٥هـ .

١٥- أيلك خان : هو أبو نصر أيلك خان الملقب بشمس الدولة ، ضرب في عهده عدة عملات في بخارى وسمرقند فيما بين عامي ٣٩٠هـ و٤٠٠هـ .

Howorth : The Northern Frontagers of China,P.471.

(Journal of royal Asiatic Saciety,London,1898).

- تمكن أيلك خان من ضم بلاد ماوراء النهر للخانية ، وتولى الجزء الغربي من المملكة ، وذلك بعد وفاة بغراخان ، واتخذ من أوزكند عاصمة لملكته .

- (القزويني : تاريخ كزيده ، ص٣٨ ، ترجمة محمود محروس قشطة ، رسالة ماجستير سنة ١٩٦٨م ، وارتبط مع السلطان محمود الغزنوي بعدة عهود ومواثيق ، وتمت المصاهرة بين الطرفين .

- (الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٨٧) .

Howorth : The Northern Frontagers Of China,P.471.

١٦- القزويني : تاريخ كزيده ، ص ٢٨ ، فامبري : تاريخ بخارى ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

١٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٨ .

١٨-العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص١٦٩ ، البيهقي ، ص٧٣٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٣٨٧هـ ، علي أكبر : لغت نامه ، جـ٢ ، ص٥٨٠ .

- السلطان محمود بن سبكتكين من أعظم سلاطين الدولة الغزنوية ، تولى الحكم بعد عزل أخيه الأصغر إسماعيل ، واتصف بالخبرة الإدارية والكفاءة منذ صغره .

- (الجوزجاني : طبقات ناصري ، جـ١ ، ص١٧٠ ، طبعة كابل سنة١٣٤٣هـ ش ، خليل الله خليلي : سلطنت غزنويان : ص ٢٠ ، طبعة كابل ١٣٣٢ هـش) ، منح عدة ألقاب كان أولها "سيف الدولة" ، الذي منحه إياه الأمير منصور الساماني .

Nazim : The Life and the Time of Saltan Mohamud of Ghzna, p.30 (Campridge, 1931).

- اتخذ لنفسه لقب " سلطان " ، فكان أول من تلقب بهذا اللقب ، (بروان : تاريخ الأدب في إيران ، ص ١٢٠) ، وأنعم عليه الخليفة القادر بالله العباسي بلقب " يمين الدولة وأمين الملة" ، وذلك لجهوده المتواصلة في نشر الإسلام في شبه القارة الهندية .

Nazim : The Life and the Time,p.77.

- (ميرخواند : روضة الصفا ، ص ١٣٦) .

١٩- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٤ ، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٧٦ ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة والنشر والتوزيع بالقاهرة .

٢٠- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٧٣٦ ، القزويني : تاريخ كزيده ، هامش (١) ، ص ٤١ ، بارتولد : تركستان ، ص ٤١٥ ، علي أكبر : لغت نامة جـ٢ ، ص ٥٧٩ .

٢١- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٤ .

- الوزير أبو القاسم تمتع بقدر كبير من العلم والكفاءة العالية ، وقدم الخدمات الجليلة لبلاده ونظم الدواوين وأدخل اللغة العربية في نظام المراسلات الديوانية .

- (نظام عقيلي : آثار الوزارة ن ص١٥٣ ، تهران سنة١٣٣٧هـ ش) ، ولقب بلقب شمس الكفاءة .

- (العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص١٣٩ ، البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٧ ، الباخرزي : دمية القصر وعصره أهل العصر ، جـ١ ، ص١٤٤ ، تحقيق د.محمد التونجي ، بدون طبعة ولا دار نشر).

٢٢-العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٨ ، الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٩٤ ،

Sykes :History of Persia,vol.II,p.26.(London,1930).

- وعلى ذلك انتهت الدولة المأمونية ، وما لبث أن أسست دولة خوارزمية تركية أخرى ، أسسها انوشتكين في حدود سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، (خواندمير : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، جزء جهارم ، جلد دوم، ص ١٤٩ ، طبعة طهران سنة١٩٣٠م .

٢٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٩ .

٢٤- نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر السابق والصفحة ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي، ص٦٥ ، طبعة الفكر العربي سنة ١٩٤٧م .

٢٥- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٧٦ .

٢٦ - رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ٦٥ .

٢٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص ١٦٩.

٢٨- استمر الوزير أبوالحسن السهيلي وزيرا للمأمونين طوال عهد الأمير علي بن مأمون وبداية حكم أبي العباس مأمون حتى سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣عندما هاجر من خوارزم إلى بغداد خوفا من غضب الأمير عليه وتوفي ببغداد سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م (نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر السابق ، ص١٧٠) .

٢٩- الأمير قابوس : قابو سنامه ، المعروف بكتاب النصيحة ، ص٩٦ ، ترجمة محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨م .

٣٠- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٤ .

٣١- البيهقي : نفس المصدر السابق ، ص٧٣٥ .

٣٢- البيهقي : نفس المصدر السابق ، والصفحة .

٣٣- البيهقي : نفس المصدر السابق ، ص٤٣٦ .

٣٤- بارتولد : تركستان ، ص ٤١٥ ، علي أكبر لغت نامه ، جـ٢ ، ص ٥٨٠ .

٣٥- بارتولد : نفس المرجع السابق ، ص٤١٥ ، علي أكبر : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

٣٦- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٤ ، ٧٣٥ .

٣٧- ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ، جـ٢ ، ص ٢٥٢ ، ازميانه قرن پنجم تا آغاز قرن هفتم هجرى جاب ١٣٥١ هـ ش .

٣٨- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٢٧ ، فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣ ، تهران بنياد فرهنك إيران.

٣٩- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص ٥١ ، براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٢ .

٤٠- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٢٧ .

٤١- خواندمير : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، جزء جهارم ، جلد دوم ، ص٩٥ .

- وبعد استقرار أبي الريحان البيروني في غزنه ، اتهمه السلطان محمود بالزندقة ، نظرا لاكتشافه لنظرية جديدة ، فأودعه السجن ، لولا شفاعة الوزير أبي القاسم أحمد بن الميمندي لما أطلق سراحه .

- (القزويني : تاريخ كزيدة ، هامش ٢ ، ص٤٢) .

٤٢- بارتولد : تركستان ، ص ٥ ٤ .

٤٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٧ .

٤٤- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٥ .

٤٥- البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص٢٢٧ ، طبعة بغداد سنة ١٩٣٢م .

٤٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٧ .

٤٧- خواندمير : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، جزء جهارم جلد دوم ، ص٥٩ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٧ .

٤٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٧٠ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٢٩ ، طبعة دار الحياة ببيروت ، براون : تاريخ الأدب ، ص ١١١ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ٦٢ .

٤٩- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٧.

٥٠- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٥٩ .

٥١- بهنام لفظة فارسية مركبة من كلمتين به معني خير ونام اسم أي اسم الخير. ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر السابق ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

٥٢- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٥ ، ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر السابق ، ص٤٣٦ .

٥٣- ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر السابق والصفحة .

٥٤- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٣ .

٥٥- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٨ ، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ص١٧ ، ١٨٠، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص٦٤ .

٥٦- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٧ ، رضا زاده شفق : نفس المرجع السابق والصفحة .

٥٧- البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص٢٢٧ .

٥٨- الثعالبي : يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر ، جـ٤ ، ص٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ .

٥٩- البيهقي : تاريخ بخاري ، ص٧٣٤ .

٦٠- الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ١٤٣ .

٦١- الباخرزي : دمية القصر وعصره أهل العصر ، جـ١ ، ٦٥٩ .

٦٢- الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٢٤٢ ، ص٢٣٤ .

٦٣- الباخرزي : دمية العصر ، جـ١ ، ص٦٥٥ .

٦٤- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص٦٧ .

٦٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص٢٢٦ .

٦٦- ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص٢٧٢ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب ، ص, ٦٢

٦٧- خواندمير : دستور الوزراء ، ص٢٢٧ ، فرهنك أدبيات فارس دري ، ص٢٥ .

٦٨- محمد عوني : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص٢٣٥ ، تصحيح إدوارد بروز انكليش ، طبعة ليدن سنة ١٩٠٣م، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب ، ص٦٣ .

٦٩- ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص٢٧٤ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص, ٢٣٣

٧٠- فرهنك أدبيات فارس دري ، ص٢٦ .

٧١- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٦ .

٧٢- محمد عوني : لباب الألباب ، جـ١ ، ص١٠ .

٧٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٤ .

- كلمة بيروني نسبة الى بيرون ، وهي مدينة في السند (ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٥٩) وهذه التسمية معناها البراني ، لأن البيروني باللغة الفارسية بمعنى برا ، وقد قيل أن مقام البيروني في خوارزم كان قليلا ، وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الأسم .

٧٤- فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣٠

٧٥- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٧ ، ص١٨٢ .

٧٦- ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

٧٧- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٥٩ .

٧٨- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٧ ، ص١٨٢ ، براون : تاريخ إيران ، ص١١٧ .

٧٩- رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص٦٤ .

٨٠- حسن محمود : الإسلام فى آسيا الوسطى ، ص١٢٢ .

٨١- المرعشى : تاريخ طبرستان ورويان ومازندران ، ص١٧٣ .

٨٢- العتبى : تاريخ اليمينى ، جـ١ ، ص٩٢ ، الكرديزى : زين الأخبار ، ص١٣٣ .

٨٣- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٩٧ ، از ابتداى بنياد طبرستان ما استيلاى آل زيار بتصحيح عباس إقبال ، جايخانة مجلس .

٨٤- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص٢٢٠ .

٨٥- المرعشى : تاريخ طبرستان ورويان ومازندران ، ص١٩٨ .(القزوينى : تاريخ كزيده ، ص٧٧) ، وقد حارب قابوس مؤيد الدولة البويهى ، وطرد من دياره وبقى خارجها فى غزنه فترة من الوقت .

٨٦- العتبى : تاريخ اليمينى ، جـ٢ ، ص٢٣ .

Bosworth :On the Chronology of the Ziyarids in Gurgan and Tabaristan,p.27(Berlin,1964).

٨٧- لمزيد من التفاصيل أنظر كتابنا دولة آل زيار ، ص٢٥ الى ص٥٤ ، طبعة دار الهداية سنة ١٩٨٧م .

٨٨- قابوس : قابوس نامه ، المقدمة ، ص٧ .

٨٩- تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٤٢ ، ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب ، ص١١٨ .

٩٠- الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٥٩ ، ، نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص٩٩ ميرانحواند : روضة الصفا ، ص١١٦ .

٩١- الأمير قابوس : قابوسنامه ، المقدمة ، ص ٨ ، محمد عونى : لباب الألباب ، جـ١ ، ص٢٩١ .

٩٢- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٤٢ .

٩٣- حسن محمود : الإسلام فى آسيا ، ص١٢٢ .

Sykes :History of Persia,vol.II,p.23.

٩٤- ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٤٠٣هـ ، المرعشى : تاريخ طبرستان ورويان ومازندران ، ص٨٢ .

ومن شعر قابوس :

خطرات ذكرك تستثير مودتى ... فأحس فيها فى الفؤاد دبيبا

لا عضـــو لى الا وفيه صبابة ... فكـــأن أعضائى خلقن قلوبا

(ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص٢٢٦)

٩٥-ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص٢٢٥ .

٩٦-قابوس : قابوسنامه ، المقدمة ، ص٩ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٤٠٣هـ .

٩٧-ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص٢٢٩ .

٩٨-ابن سفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٢٨ ، ١٢٩ .

٩٩-الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٥٠ .

١٠٠-العتيبي : تاريخ اليميني ، ص١٧ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٤٠٣هـ ، ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٣٧ .

Bosworth :on the Chronology of the Ziyarids in Gurgan and Tabaristan,p.25.

١٠١- ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ١٦ ، ص٢٢٣ .

Sykes : History of Persia, Vol II, p. 23 .

١٠٢-الأمير قابوس : قابوسنامه ، ص٢٠ ، حسن محمود : الإسلام فى آسيا ، ص١٢٢ .

- يطلق على هذا الكتاب عدة أسماء ، منها "قابوسنامه" ، المأخوذ من اسم مؤلفه لأنها معربة كيكاوس (المرعشي : تاريخ طبرستان ورويان ، ص٢٠٠) كما تسميته كتاب النصيحة ، فهى تطابق موضوع الكتاب ، (براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص٢٤) .

١٠٣- قابوس : قابوسنامه ، المقدمة ، ص٤٢ ، ص٤٤ ، براون : نفس المرجع السابق ، ص٣٤٨ .

Bosworth :on the Chronology of the Ziyarids in Gurgan and Tabaristan,p.32.

١٠٤ - مرزبان : مرزبان نامه ، ص٥ ، ترجمة أحمد بن محمد بن عرب شاه ، القاهرة سنة ١٢٧٨هـ .

١٠٥- الأمير مرزبان : نفس المصدر السابق ، ص٧ .

١٠٦- فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣٨٢ .

١٠٧- الأمير قابوس : قابوسنامه ، ص١١١ .

- وعندما عاد دارا إلى طبرستان انضم الى سلك الندماء فى بلاط طبرستان ، ولم يغب لحظة عن مجالس أنس ورحلات صيد وأوقات فراغ ولهو وطرب الأمير قابوس (ميرخواند : روضة الصفا ، ص١٢٠) .

١٠٨- العتبي : تاريخ اليميني ، ص٣٠ ، الكرديزى : زين الأخبار ، ص٢٧٢ .

١٠٩- قابوس : قابوسنامه ، ١٧ .

١١٠- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٠٣ .

١١١- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٧٣ .

١١٢- فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣٢٥ .

١١٣- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص٩١ ، ص٩٢ .

١١٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٩١ ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت -لبنان .

١١٥- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ٨ ، جـ٥ .

١١٦- ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق ، جـ١٦ ، ص١٩٢ ، ١٩٣ .

١١٧- ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق ، جـ ١٨ ، ص١٨٨ .

١١٨- مسكوية : تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص٢٣٣ .

١١٩- العتبى : تاريخ اليمينى ، ص٢٢ ، ميرخواند : روضة الصفا ، ص١١٨ ، ١١٩ .

١٢٠- ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص١٣٩ .

١٢١- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص٤١٤ .

١٢٢- ابن القفطى : أخبار العلماء ، ص١٥٥ .

١٢٣- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤١٤ .

١٢٤- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٣٧ .

١٢٥- ابن اسفنديار : نفس المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

١٢٦- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٢٧ .

١٢٧- قابوس : قابوسنامه ، ص١٧٦ الى ص١٧٨ .

١٢٨- محمد عوفى : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٩ .

١٢٩- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص٣٦ ، ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٢٤ ، فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٨٣ .

١٣٠- دامغان : مدينة كبيرة بين الرى ونيسابور ، وهى قصبة قومس ، بها كثير من الفواكه ، (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٦ ، ٢٧).

١٣١- محمد عوفى : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص٥٣ ، براون : تاريخ الأدب ، ص١٨٩ .

١٣٢- براون : تاريخ الأدب ، ص١٨٩ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص٤٨ ، فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٢٨٦ .

١٣٣- اشتملت دولة الخانية على ممتلكات واسعة فى منطقة تيان شان ، وقاعدتها كاشغر وبلا وحدهم الغربى بلاد ماوراء النهر .

(Howorth :The Northern Frontagers of china.p .467)

- ويرجع أصلهم الى البطل الأسطورى أخر أفرسياب ، بينما يشير البعض الى أنهم من شعوب اليغما . بارتولد : تاريخ الترك ، ص١٣٥ ، مكتبة الأنجلوا المصرية ١٩٥٨م.

(Horworth :Ibid.p.466).

- أطلق على حكامهم لقب الأيلك خانات أو خاقانات التركستان (الظهيرى السمرقندى : سندباد نامه ، هامش ١ ، ص٦ ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ، النهضة المصرية سنة ١٩٧٣م) كما أطلق عليهم اسم القرة خانيون أو القراخانيون ، وقيل أن أول من أطلق عليهم هذا الاسم كان عبدا زنجيا أهداه أحد ملوك إيران إلى أحد ملوك تركستان ، فصار أعجوبة بين الناس ، وقد رفعه الملك واشتهر باسم الملك الأسود (نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص١٤٢).

١٣٤- العتبى : تاريخ اليمينى ص٢٢٣ ، الكرديزى : زين الأخبار ، ص٢٨٨ ، القزوينى : تاريخ كزيده ، ص٢٨ ، بارتولد : تاريخ الترك ، ص٨٦ .

١٣٥- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص١٠٤ .

Howorth : The Northern Frontagers,p.p.464,468.

Barthold : Four Studies on the History of Central Asia,vol1,p.20 .

١٣٦ - النرشخى : تاريخ بخارى ، هامش ١ ، ص٦٧ ، طبعة دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٥م .

Barthold : ibid, pp. 22-23 .

١٣٧- العتبى : تاريخ اليمينى ، ص٩٨ ، الظهيرى السمرقندى : سندباد نامه ، ص٣٢ .

١٣٨- بارتولد : تركستان من الفتح العربى ، ص٤٥٦ .

١٣٩- Homorth:The Northern Frontagers,p.473.

١٤٠ - دار النزاع بين أيلك خان نصر وبين الأمير طغان الذى استعان بالسلطان محمود الغزنوى .(العتبى: تاريخ اليمينى ، ص٩٨) .

١٤١- بلاساغون : بلدة عظيمة فى ثغور الترك فيما وراء نهر سيحون قريبة من كاشغر (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٥٨) .

- أوزكندا : إحدى مدن الحدود قليلة الأهمية الواقعة الى الشرق من فرغانة ، لها سور وقهندز وعدة أبواب وبساتين .(ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق ، ص٣٧٤) .

- النرشخى : تاريخ بخارى ، ص٤٩ ، بارتولد : تاريخ الترك ص٨٣ ، ص٨٤ .

Barthold : Four Studies,p.22.

١٤٢ - خواندمير : دستور الوزراء ، ص٢٧٧ .

Howorth : The Northern Frontagers,p.491 .

١٤٣ - ضربت عدة عملات باسم الخان ركن الدين قلج طمغاج خان الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٤٠٠ ، الظهيرى السمرقندى : سندباد نامه ، ص٤٠ .

Howorth : Ibid ,p.499.

١٤٤ - بارتولد : تاريخ الترك ، ص١٣٣ ، براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص٢٧٢ .

١٤٥- بارتولد : نفس المرجع السابق ، ص١٠٧ ، ص ١٠٨ .

١٤٦- بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٩٨ ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢م .

١٤٧- النرشخي : تاريخ بخاري ، ص٤٨ .

١٤٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص٥٣ ، ٥٤ .

١٤٩- سندباد نامه ، ص٦ ، محمد عوني : لباب الألباب ، جـ١ ، ص٩٢ .

١٥٠- نظامي عروضي السمرقندي ، ص١٤٤ .

١٥١- الظهيري السمرقندي : سندباد نامه ، ص٦ .

١٥٢- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٦٥٠ ، ٦٥١ . - رحل القاضي منصور من بلاط الخانية إلى غزنه في سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م .

١٥٣- النرشخي : تاريخ بخاري ، ص٢٨ .

١٥٤- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

١٥٥- النرشخي : تاريخ بخاري ، ص٢٩ ، ٧٦ .

156 - Howorth :The Northern Frontagers of China.p.492 .

١٥٧ - النرشخي : تاريخ بخاري ، ص٥٧ .

١٥٨- بارتولد : تركستان ، ص٦٧٠ .

١٥٩- بارتولد : تاريخ الترك ، ص٥٨ .

١٦٠- ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، أحداث سنة ٥٥٣هـ .

١٦١- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٦٦ .

١٦٢- النرشخي : تاريخ بخاري ، ص٤٨ .

١٦٣- نظامي عروضي السمرقندي ، جهار مقاله ، ص١٣٨ ، فرهنك أدبيات فارس دري ، ص ٣٢٣ .

١٦٤- نظامي عروضي السمرقندي ، نفس المصدر السابق ، ص١٤٤ .

١٦٥- بارتولد : تركستان ، ص٨٢ .

١٦٦- بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٩٩ .

١٦٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٢ .

١٦٨- محمد عوني : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٨١ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ١١٧.

١٦٩- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص٥٥ .

١٧٠- محمد عوني : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٨١ .

١٧١- فرهنك أدبيات فارس دري ، ص٣٥١ ، ٣٥٢ .

١٧٢- نظامی عروضی السمرقندی : جهار مقاله ، ص٥٤ .

١٧٣- رضا زاده شفق : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٧ ، ١١٨ .

١٧٤- محمد عوفي : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٨١ .

١٧٥- براون : تاريخ الأدب من الفردوس ، ص٣٧٣ .

١٧٦- نظامی عروضی السمرقندی : جهار مقاله ، ص١٢٥ ، محمد عوفي : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص٣٦٢ ، فرهنك أدبيات فارس دری ، ص٢٣٢ ، ٢٣٣ .

١٧٧- محمد عوفي : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص١٩٩ .

١٧٨- محمد عوفي : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص٣٦٢ ، فرهنك أدبيات فارس دری ص٣٥٢ .

١٧٩- نظامی عروضی السمرقندی : جهار مقاله ، ص١٢٤ .

١٨٠- الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٢٨٥، ٢٨٦ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية:

١- ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٥م) : أبو الحسن على بن أبو المكارم "الكامل فى التاريخ" ، جـ٧ ، طبعة دار الفكر بيروت ١٩٧٨م .

٢- ابن أبى أصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٢٩٣م) : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" ، تحقيق نزار رضا ، طبعة دار الحياة بيروت .

٣- الباخرزى (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) : على بن الحسن بن على بن أبو الطيب "دمية القصر وعصرة أهل العصر" ، ج١ ، تحقيق ودراسة د.محمد التونجى بدون طباعة .

٤- البيرونى (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) : أبو الريحان محمد بن أحمد "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ، نشر إدوارد سخا ، ليبزج سنة ١٨٧٦م .

٥- الثعالبى (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) : أبو منصور عبد الملك بن محمد "يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر" ، تحقيق محمد محى الدين ، جـ٤ ، طبعة مصر ، المكتبة التجارية الكبرى.

٦- حسن أحمد محمود : "الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى" ، طبعة الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م .

٧- ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٣٠٥م) : أبو العباس شمس الدين أحمد "وفيات الأعيان وأبناء الزمان" ، حققه إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة بيروت -لبنان .

٨- ابن القفطى (ت٦٤٦هـ/١٢٤٩م) : جمال الدين أبو الحسن على "أخبار الحكماء بأخبار العلماء" ، مكتبة المتنبى بالقاهرة .

٩- ياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى "معجم الأدباء" ، جـ٦ ، جـ١٦ ، جـ١٧ ، دار المستشرق بيروت-لبنان .

١٠- « « « : معجم البلدان" ، ٨أجزاء ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة مصر سنة ١٩٠٦م .

ثانيا : المصادر والمراجع الفارسية :

١١- ابن اسفنديار : بهاء الدين محمد بن حسن "تاريخ طبرستان" ، مجلد أول ، ارابتداى بنياد طبرستان ما استيلاى آل زيار ، بتصحيح عباس أقبال ، جايخانة مجلس .

١٢- البيهقي (ت٤٧٠هـ/١٠٧٧م) : أبو الفضل البيهقي "تاريخ البيهقي" ، ترجمة يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية .

١٣- الجزجاني (ت٦٩٨هـ/١٣٠٠م) : أبو عثمان منهاج سراج "طبقات ناصرى" ، تصحيح وتعليق عبد الحي حبيبي ، طبعة كابل سنة ١٣٤٣هـ.ش .

١٤- خليل الله خليلي :"سلطنت غزنويان" ، طبعة كابل ١٣٣٣هـ ش .

١٥- خوانمير(ت٩٤٢هـ/١٥٣٥م) : غياث الدين بن همام الدين "حبيب السير في أخبار أفراد البشر" ، جزء جهارم، جلد دوم ، طبعة طهران سنة ١٩٣٠م .

١٦-« « « : دستور الوزراء" ، ترجمة حربى أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م .

١٧- ذبيح الله صفا : "تاريخ أدبيات در إيران" ، جـ٢ ، از ميانه قرن ينجم أغار قرن هفتم هجرى جاب ١٣٥١هـ.ش .

١٨- رضا زاده شفق : "تاريخ الأدب الفارسي" ، ترجمة محمد موسى هنداوى ، طبعة دار الفكر العربي .

١٩- الظهيرى السمرقندى (ت٥٥٠هـ/١٣٦٨م) : بهاء الدين محمد بن على "سندباد نامة" ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٧٢م .

٢٠- عباس أقبال : "تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الظاهرة حتى نهاية الدولة القاجارية" ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

٢١- العتبى (ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م) : أبو نصر محمد بن عبد الجبار "تاريخ اليميني" ، بهامش كتاب ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق ١٩٠٩م .

٢٢- على أكبر : "لغت نامه" ، جـ٢ ، تهران درجانجاية ، مؤسسة انتشارات وجاب دانشكاة تهران .

٢٣- فرهنك أدبيات فارس درى ، تهران بنيان فرهنك إيران .

٢٤-قابوس (ت٤٦٢هـ/١٠٦٩م) : عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر "قابوسنامة أو كتاب النصيحة" ، ترجمة محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوى ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨م .

٢٥- القزوينى (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) : حمد الله مستوفى "تاريخ كزيدة" المعروف بالتاريخ المختار ، ترجمة محمود قشطة .

٢٦- الكرديزى (ت٤٤٢هـ/١٠٥٠م) : أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك "زين الأخبار" ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٨٢م .

٢٧- محمد عوفى (ت منتصف القرن السابع الهجرى/١٣م : محمد نور الدين عوفى "لباب الألباب" جزمان ، تصحيح ادوار ديروز انكلش ، طبعة بريل فى مدينة ليدن سنة ١٩٣٠م .

٢٨- مرزبان "عامر آل زبار" : مرزبان بن رستم بن شروين "مرزبان نامه" ترجمة أحمد بن محمد بن عربشاه ، طبعة القاهرة سنة ١٢٧٨م .

٢٩- المرعشى : سيد ظهير الدين بن سيد نصير الدين "تاريخ طبرستان ورويان ومازندران" ، مسحة باعتنا واهتمام كمترين بتكان برنهارد دارن ، بطبغخانه أوكاديميه سنة ١٨٥٠م .

٣٠- ميراخواند (ت٩٠٣هـ/١٤٩٧م) : محمد بن خاوند شاه "روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا" ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، طبعة الدار المصرية للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٨٨م .

٣١- النرشخى (ت٣٤٨هـ/٩٥٩م) : أبو بكر محمد بن جعفر "تاريخ بخارى" ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازى ، طبعة دار المعارف مصر ١٩٦٥م .

٣٢- نظام عقيلى (ت فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى) : سيف الدين حاجى "آثار الوزراء" ، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسينى ، تهران ١٣٣٧هـ.ش .

٣٣- نظامى عروضى السمرقندى(ت٥٥٠هـ/١١٥٥م) : الحسن بن عمر جهار مقاله" وعليه حواش محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف سنة ١٩٤٩م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

٣٤- بارتولد : "تاريخ الترك فى آسيا الوسطى" ترجمة أحمد السعيد سليمان ، مكتبة الأنجلو المصرية١٩٥٨م .

٣٥- ״ ״ ״ : تاريخ الحضارة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢م .

٣٦- ״ ״ ״ : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولى" ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

37 - Barthold : four studies on the History of central Asia,vol1(leiden Brill,1962).

38 - Bosworth : The Medieval History of Eran Afghanstan and central Asia (Leiden,1977).

٣٩ – براون :"تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدى" ، مطبعة السعادة سنة ١٩٥٤م .

٤٠- Howorth : The Northern frontagers of china (journal of the royal Asiatic society ,London,1898).

٤١ – فامبرى :"تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر" ، ترجمة أحمد محمود الساداتى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

42 - Nazim : The life and the time of mahmoud of Ghazna, with of arc-word by the by the late sir Tomes Arnold, (Cambridge,1931).

43 - Sykes : History of perisa,vol II(London,1931).

د. حسن خضيرى أحمد (*)

مظاهر النشاط العلمي والديني في زبيد
في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٨ هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)

اهمية موقع زبيد :

تقع مدينة زبيد في أرض الحصيب في سهل تهامة ، على الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب ، من مكة إلى عدن ، في منتصف المسافة بين مرتفعات اليمن والبحر الأحمر ، على مسيرة ١٦ ميلاً تقريباً من الشاطيء ، وينسب اختطاط مدينة زبيد إلى محمد بن زياد عامل الخليفة المأمون العباسي على اليمن (١)، وكان قد بدأ في بنائها سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م (٢)، ليتخذ منها مكاناً حصيناً يصلح مقراً لحكمه ، ولما كان تأسيس مدينة عسكرية جديدة تكون مركزاً للإمارة ، ونقطة تجمع للقوات المقاتلة من الأمور الواجبة لحفظ النظام ، واستتباب الأمن ، فإن اختيار المكان الملائم لهذه المدينة من النواحي الاستراتيجية والمناخية والاقتصادية يكون ألزم وأوجب (٣).

وقد وصف الخزرجي(٤) مدينة زبيد بقوله : " مدينة مدورة الشكل عجيبة الموضع ، على النصف ما بين البحر والجبل " ، ومن جنوبها واديها المبارك المشهور المخصوص بالبركة لدعاء الرسول ﷺ فيه بالبركة . ومن شمالها الجبال الشامخة ، والحصون الباذخة ، والمعاقل المنيعة الرفيعة، ومن غربها البحر الزاخر، والسفن المواخر ، والنخيل الباسقة(٥).

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي .

ويبدو أن اختيار ابن زياد لشكل المدينة المدور هذا ، كان مرده إلى عوامل أمنية واستراتيجية واقتصادية فى المقام الأول ، حيث أن الشكل الدائرى للمدن يصبح أكثر فائدة وأعم نفعاً من تلك التى تبنى على شكل مربع أو مستطيل ، ففى الشكل الدائرى تختفى الزوايا فى أركان السور اللواتى تحدثها الأسوار المربعة أو المستطيلة (٦). كما أن هذا التخطيط المستدير يحقق غرضاً اقتصادياً من ناحية التوفير فى تكاليف البناء ، فمحيط قطعة من الأرض على شكل دائرة أقل من محيط المربع المساوى لها فى المساحة ، والاقتصاد شرط من الشروط الأساسية التى يجب توافرها فى العمارة بمعناها الصحيح(٧) وقد قدر لهذه المدينة بفضل موقعها الاستراتيجي الممتاز ، وجغرافيتها الطبيعية ، ونشاطها الاقتصادى الكثيف ، أن تسهم بدور حيوى وفعال فى شئون اليمن ، يصفها المقدسى(٨) فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى بقوله : " بلد جليل حسن البنيان ، يسمونه بغداد اليمن ، به تجار كبار ، وعلماء وأدباء ، مفيد لمن دخله ، مبارك على من سكنه " ويأتى البكرى(٩) فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، فيذكر أنه ليس باليمن بعد صنعاء أكبر من زبيد ، ولا أغنى أهلاً ولا أكثر خيراً منها ، ويبدى الإدريسى(١٠) فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى حماساً فى وصفه للمدينة بقوله : " المسافرون إليها كثيرون ، وبها مجتمع التجار من أرض الحجاز ، وأرض الحبشة ، وأرض مصر ، الصاعدون فى مراكب جدة ، وأهل الحبشة يجلبون رقيقهم إلى زبيد، وتخرج منها ضروب الأفاوية الهندية والمتاع الصينى وغيره".

أما ابن بطوطة(١١) الذى زارها فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، فيذكر أنه ليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ، ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه ، إحدى قواعد بلاد اليمن ، مدينة كبيرة ، كثيرة العمارة ، بها النخل والبساتين والمياه، أملح بلاد اليمن وأجملها ... وعلماء تلك البلاد وفقاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق .

ويصفها ابن الديبع(١٢) فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى بأنها : " بلاد العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء ، والدين والصلاح والخير والفلاح ، ولم نعلم مدينة من مدائن اليمن المعمورات ، ومساكنها المشهورات، ظهر فيها ما ظهر فى مدينة زبيد من العلم والعلماء".

ويتبين من النصوص السابقة أن مدينة زبيد نعمت بتطور حضارى كبير ، نتيجة لازدهارها الاقتصادى ، بفضل وقوعها على طريق التجارة ، حتى غدت مجتمعاً لتجار الحجاز والحبشة

ومصر ، وانعكس ذلك على أهلها ، فصاروا أصحاب ثروة ومال وعلم ، وبذلك يكون العامل الاقتصادي قد لعب دوراً كبيراً في الازدهار العلمي والديني لزبيد خلال هذه الحقبة التي نحن بصددها في الدراسة .

عوامل ازدهار النهضة الثقافية في زبيد :

تبوأت زبيد مكانة مرموقة في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤م)(١٣) ، هذا العصر الذي يعد بحق من أزهى عصور اليمن الإسلامية في مضمار النشاط العلمي والديني ، فقد واكبته نهضة ثقافية عظيمة ، بدت في أوضح مظاهرها في اهتمام الملوك والأمراء ، وكبار رجالات الدولة بإحاطة أنفسهم بالنابغين من رجال العلم والأدب والفقه ، والاهتمام بهم ، وبذل العطاء السخي لهم (١٤) ، فصارت في عهدهم مدينة زبيد كعبة القصاد من العلماء والمتعلمين من جميع أرجاء العالم الإسلامي وازدهرت المراكز العلمية والدينية المتعددة في المساجد ، والأربطة ، والمكتبات ، وفي قصور السلاطين والأمراء(١٥).

على أن طول فترة حكم الدولة الرسولية التي ناهزت قرنين من الزمان ونيف ، فضلاً عن اتساع نفوذها الذي شمل من مكة إلى ظفار (١٦) ، حتى أن ميناء زيلع(١٧) على الساحل الأفريقي دخل في حوزتها ، ولم يخرج عن سلطانها إلا المناطق الزيدية حول صعدة (١٨) ، وأدى اتساع الدولة الرسولية إلى ارتقاء نظمها ، نتيجة لتطور المجتمع اليمني من ناحية ، والاحتكاك بالحضارات الأخرى التي سادت المنطقة من ناحية أخرى ، مما جعل حضارتها تستحكم وتزداد رسوخاً ، ولابن خلدون(١٩) قول في ذلك : " أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول ، أنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها ... إذا اتصلت تلك الدولة ، وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد ، استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً " .

كما أسهم الاقتصاد المزدهر في تلبية الحاجات المهمة لخزانة الدولة (٢٠) ، فزبيد بخلاف أرض تهامة ، تتميز ببساتينها التي يزرع فيها النخيل والقمح ، والنيلة والنباتات الطبية ، وقد شجع سلاطين بني رسول الزراعة واهتموا بها ، حيث كانوا يسيطرون على المناطق الأكثر خصباً في اليمن (٢١) ، بيد أن التجارة الدولية الواسعة هي التي وفرت الدخل الأساسي لزبيد ، فقد تدفقت البضائع من الهند وسيلان والصين وأفريقيا ، وأعيد تصديرها من اليمن (٢٢) ، وكانت عدن من أكبر محطات التبادل التجاري بين عالمي البحر الأحمر والمتوسط ، وعالمي

المحيط الهندى وبحر الصين[٢٣]، يقول المقدسى [٢٤]: " والتجارات فى هذا الإقليم مفيدة ، لأن به فرضتى الدنيا ، وسوق منى والبحر المتصل بالصين وجدة ، والجار[٢٥] خزانتى مصر، ووادى القرى مطرح الشام والعراق واليمن ، معدن العصائب والعقيق ، والأدم والرقيق ، وبتجارات الصين تضرب الأمثال " .

وساعد على الازدهار الاقتصادى ، العلاقات الودية التى كانت تربط سلاطين وملوك بنى رسول وغيرهم من الدول ، فيذكر ابن الديبع فى حوادث سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ، أنه قدم على السلطان الملك الناصر أحمد الرسولى (٨٠٣ - ٨٢٨هـ / ١٤٠٠ - ١٤٢٤م) ، رسل صاحب الصين بثلاثة مراكب عظيمة فيها من الهدايا النفيسة ، ما قيمته عشرين لكًا من الذهب[٢٦]، ولاشك أن الازدهار الثقافى كان وثيق الصلة بالازدهار الاقتصادى الذى شهدته زبيد فى عصر الدولة الرسولية ، وحمل فى أعطافه جميع المظاهر الدينية والثقافية والحضارية ، مما حدا بالكثير من العلماء والأعلام فى مختلف مجالات النشاط الفكرى ، أن ييمموا وجوههم شطر مدينة زبيد ، فيجدوا من التكريم والتقدير أكثر مما يؤملون ، وفوق ما يتوقعون ، فيقدمون أبدع ما جادت به قرائحهم من مؤلفات .

وساعد على ازدهار النهضة الثقافية فى زبيد ، ما كان عليه سلاطين وملوك بنى رسول من فكر وثقافة ، ودراية كبيرة بالعلوم الدينية والعقلية ، وغيرها من فروع المعارف الأخرى ، واشتغال بعضهم بالتأليف والكتابة ، وتشييدهم للكثير من المنشآت الدينية والعلمية [٢٧]، التى أصبحت سمة بارزة شاهدة على عصرهم ، فقد شيد أول سلاطين هذه الدولة الملك عمر بن على بن رسول (٦٢٦ - ٦٤٧هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤٩م) مدرستين فى زبيد : المنصورية العليا لأصحاب المذهب الشافعى ، والمنصورية السفلى والتى جعلها على قسمين أحدهما لأصحاب أبى حنيفة ، والآخر لأصحاب الحديث [٢٨]، وله أيضاً مدرسة فى حد المنسكية من وادى سهام شمالى مدينة زبيد [٢٩].

وحيث أن دراسة المنشآت الدينية والعلمية التى حفلت بها اليمن فى عصر الدولة الرسولية، وامتد أثرها إلى مكة [٣٠]، من الكثرة بمكان ينوء بها مثل هذا البحث ، فسوف نكتفى بذكر نماذج منها فى مدينة زبيد بوجه خاص ، وذلك لأهميتها الخاصة .

ومهما يقال من أن الرسوليين توسعوا فى إنشاء المدارس الإسلامية ، والتى فاقت كثرتها المساجد ، بقصد تدعيم مذاهب أهل السنة ، وبصفة خاصة المذهب الشافعى ، الذى كان أكثر

المذاهب انتشاراً فى جنوب اليمن ، لمواجهة مذاهب الشيعة ، وأخصها المذهب الزيدى(٣١) فى المناطق الشمالية ، والذى وصل فى كثير من الأحيان إلى صنعاء نفسها عاصمة اليمن (٣٢)، فإنه يجدر بنا أن نضع موضع الاعتبار ، أن التغير الاقتصادى والاجتماعى الذى كان يمر به المجتمع اليمنى فى تلك الفترة ، ساعد على إقامة مراكز خاصة بالتعليم يكون الهدف من وجودها أن تستوعب هذا الكم الكبير من الداسات والطلاب ، هذا فضلاً عن اتخاذ هذه المدارس رمزاً ومنبراً للسلطة السياسية ، مما يضفى المهابة على الكيان السياسى الرسولى ، وما يحدثه ذلك فى نفوس العامة من ردود فعل تبلورت فى هيئة النظام الجديد .

نهج الملك المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤هـ / ١٢٤٩ - ١٢٩٥م) نهج أبيه ، فى تشييد المدارس والمساجد ، وساعده على ذلك طول فترة حكمه ، حتى وصفه الوصابى (٣٣): " بأنه كان أعظم ملوك بنى رسول مملكة ، ولقب بالتبع الأكبر " ، فقد كان ملكًا جواداً كريماً ، كثير البذل للأموال ، حسن السياسة (٣٤)، وهو أكثر ملوك بنى رسول إنشاء للمدارس والجوامع (٣٥)، ومن مصنفاته العلمية : الأربعين فى الحديث ، والبيان فى كشف علم الطب للعيان ، وتيسير المطالب فى تسيير الكواكب ، والعقد النفيس فى مفاكهة الجليس ، واللمعة الكافية فى الأدوية الشافية (٣٦)، والمخترع فى فنون الصنع (٣٧)، والمغنى فى البيطرة (٣٨).

لم يقتصر الأمر على سلاطين بنى رسول فى تشييدهم المنشآت الدينية والعلمية ، بل امتد ليشمل أهل بيتهم وذويهم ، ووزرائهم ، وحاشيتهم ومواليهم ، ومن انتسب إليهم ، فقد أنشأت نبيلة ابنة الملك المظفر المدرسة الأشرفية بزبيد (٣٩)، وعمرت ابنته ماء السماء المدرسة الواثقية بزبيد ، ورتبت فيها أيامًا ، ومؤذنًا وقيمًا ومعلمًا ، وأيتامًا يتعلمون القرآن ، ومدرسًا وطلبة يقرءون العلم ، ووقفت عليهم من أملاكها ما يقوم بكفايتهم (٤٠)، كما أنشأت زوجته الحرة مريم، المدرسة السابقية فى زبيد ، وتعرف أيضًا بالعفيفية ومدرسة مريم (٤١)، وشيد خادمه تاج الدين بدر المظفرى ثلاث مدارس بزبيد إحداهم للفقه على المذهب الشافعى والثانية للقراءات السبع ، والثالثة للحديث (٤٢)، كما أنشأ الطواشى نظام الدين مختص بن عبد الله المظفرى ، المدرسة النظامية بزبيد (٤٣)، ووقف عليها وقفًا جليلاً يقوم بكفاية المرسومين عليها ، وليس فى مدارس زبيد أحسن منها وقفًا ، وله أيضًا المسجد المعروف بالنظامى ، الذى يقع جنوب دار السلطان بزبيد (٤٤)، كما أصلح الأمير شهاب الدين غازى بن المعمار سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م منبر الحديث والوعظ بمسجد الأشاعر ، وأوقف عليه دكاكين(٤٥).

ولعل من عوامل ازدهار النهضة الثقافية في زبيد ، أن سلاطين وأمراء بني رسول كانوا من محبي العلم وطلابه ، ويصف لنا الجندي[٤٦] أحد أمراء بني رسول ، وهو محمد بن حسن بن علي بن رسول (ت ٦٧٧ / ١٢٧٨م) بقوله : " ... أحد خيار بني رسول .. اشتغل بقراءة كتب العلم، وكان يستدعي بالفقهاء إلى موضعه ، فيقرأ عليهم ويحسن إليهم .. فقرأ غالب كتب المسموعات ، خاصة من كتب الحديث .. ثم نسخ عدة مجلدات ، ووقف ذلك على أماكن عديدة".

أما السلطان الملك الأشرف الأول ممهد الدين عمر (٦٩٤ - ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م)[٤٧] ، كان محبًا لمصاحبة العلماء ، ومجالسة الفقهاء ، وبلغ درجة عالية من المعرفة في العلوم ، وكان ملمًا بكل فن ، باحثًا في كل مذهب ، حتى أنه كان يفتي في عشرة علوم[٤٨]، مما حدا بأحد الباحثين[٤٩] القول : " كان السلطان الأشرف عمر ، عالمًا ، ومبدعًا ومفكرًا علميًا ، فاقت معارفه عصره " ، وله العديد من المؤلفات نذكر منها : الإبدال لما عدم في الحال ، والاسطرلاب[٥٠]، والإشارة في العبارة في علم تعبير الرؤيا [٥١]، أما كتابه الموسوعي : "التبصرة في علم النجوم " ، فيعتبر إضافة جديدة في علم الفلك[٥٢] عرض فيه لأحكام النجوم وتأثيرها في طبائع الإنسان ، وفيضان نهر النيل ، والإبحار من الهند إلى عدن، والأيام والشهور الرومانية والفارسية ، هذا فضلاً عن الأطعمة التي تناسب أهل اليمن[٥٣]، وهذا المصنف يعبر بوضوح عن غزارة علم الأشراف الأول ، وإبداعه ، وتقدمه في ضروب العلم وجوانب المعرفة .

ويعطينا ابن عبد المجيد[٥٤] وصفًا شائقًا عن السلطان الملك المؤيد داود (٦٩٦ - ٧٢١هـ / ١٢٩٧ - ١٣٣١م) بقوله : " كان ملكًا فاضلاً محبًا للعلوم ، مقربًا لأهلها ، يستميلهم إليه حيث كانوا ويرغب فيهم ، ويرغبهم فيما عنده ... ، وكان محبًا لجمع الكتب والتحف ، جمع من مصنفات العالم على اختلافها وتباينها ما ينيف على مائة ألف مجلدة ، وحملت إليه الكتب والتحف من كل جهة ، وكان عنده مع ذلك زيادة على عشرة نساخ ، ينسخون الكتب ، وترفع إلى خزانته ، بعد مقابلتها وتحريرها " ويعد عصر السلطان الملك المجاهد علي بن المؤيد (٧٢١ - ٧٦٤هـ / ١٣٣١- ١٣٦٣م)[٥٥]، أوج ازدهار الثقافة في زبيد ، فقد كان " أديبًا لبيبًا ، فقيهًا شاعرًا فصيحًا ، مشاركًا في عدة من فنون العلم [٥٦]، مما حدا بأحد المؤرخين إلى القول : " أنه أعلم بني رسول " [٥٧]، وله العديد من المؤلفات نذكر منها الأقوال الكافية والفصول الشافية [٥٨]، والتذكرة في معرفة البيطرة [٥٩]، وكتابه في الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها [٦٠].

وأما الملك الأفضل (٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م) ، " فقد كان من العلم والأدب بمكان(٦١) فقيهًا ، نبيهًا ، عارفًا بالفقه والنحو واللغة والأنساب والتواريخ مشاركًا في غير ذلك(٦٢) ، وله العديد من المصنفات نذكر منها : بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين، وبغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم (٦٣)، والعطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية (٦٤)، يحتوي على طبقات فقهاء اليمن ، وكبرائها وملوكها ووزرائها ، وله أيضًا نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء ، ونزهة العيون في معرفة الطوائف والقرون ، واختصر تاريخ ابن خلكان اختصارًا حسنًا(٦٥) وكتب قاموسًا بخمس لغات (٦٦).

لما اعتلى الملك الأشرف الثاني إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣هـ / ١٣٧٦ - ١٤٠٠م) عرش السلطنة ، وجه جل عنايته إلى تشييد وتجديد العديد من المنشآت الدينية والعلمية في زبيد ، يقول ابن الديبع (٦٧): " .. وفي دولته أمر بعمارة المساجد والمدارس بزبيد ، بعد أن كان أكثرها دائرًا لا أثر له " . فقد كان عالمًا جوادًا كريمًا ، يقدر العلم وأهله ، اشتغل بكثير من فنون العلم ، " وكانت نفسه تؤثر العلم والعلماء " (٦٨)، وواكب عصره نهضة علمية مزدهرة ، وتألقت زبيد في عصره حتى غدت حاضرة ثقافية مزدهرة ، يؤمها طلاب العلم والعلماء من شتى أصقاع العالم الإسلامي (٦٩) ، وحسبنا ما ذكره المؤرخون عن الحفاوة التي قوبل بها الإمام اللغوي مجد الدين الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ، عندما قدم إلى زبيد سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م فقد بالغ الأشرف في إكرامه ، وأنزله ضيفًا عليه ، وأغدق عليه العطايا والهبات ، وتصدر الفيروزآبادي للتدريس في مدينة زبيد (٧٠)، وكان الملك الأشرف أحد من أخذ عنه ، وطاب له المقام في زبيد ، ثم ولاه الملك الأشرف قضاء الأقضية ، فكان يقضي ويدرس ويؤلف ، وفي زبيد صنف الفيروزآبادي مؤلفه الشهير (القاموس المحيط) في اللغة(٧١)، وتزوج الملك الأشرف ابنته ، وتوفي الفيروزآبادي في سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م ، ودفن في زبيد ، و لا زال قبره يعرف بصاحب القاموس (٧٢)، كما وفد على زبيد الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، فأنزله الأشرف منزلاً كريمًا ، وبالغ في إكرامه ، وأجرى عليه الأرزاق ، ولما أراد العودة إلى مصر ، ودعه الأشرف ، وحباه بمائة ألف دينار ، هذا فضلاً عن الكثير من التحف ، تقديرًا لعلمه وفضله وتبحره في العلم (٧٣)، وكان الأشرف يجزل العطاء للعلماء على مؤلفاتهم ، يروي لنا ابن الديبع أن قاضي القضاة ، جمال الدين الريمي (ت٧٩٢هـ / ١٣٩٨م) ، عندما فرغ من تأليف كتابه " التفقيه في شرح التنبيه"،

الذى يقع فى أربعة وعشرين مجلداً ، حمل إلى الملك الأشرف فى سنة (٧٨٨هـ / ١٤٨٣م)، بالزف والطبول ، وسارت بين يديه القضاة والعلماء والأمراء ، فنجازة السلطان باثنى عشر ألف ديناراً ، حملت فى أطباق الفضة ، ملفوفة بأثواب الحرير والديباج (٧٤).

فى ظل هذا المناخ العلمى أصبحت زبيد موئلاً للعلماء وطلاب العلم ، فتلاحقت الآراء وامتزجت الثقافات ، فأخصبت الحياة الفكرية ، وأفرزت روائع الأبحاث فى شتى مناحى المعرفة ، وساهمت بقسط وافر فى بناء الحضارة الإنسانية ، فلم تكن حاضرة تقليدية فحسب، بل كانت حاضرة ثقافية تغص بالعلماء والأدباء والشعراء ، ذاع صيتها فى الآفاق (٧٥).

أهم المراكز العلمية والدينية فى زبيد :

تعتبر المساجد من أهم المراكز العلمية والدينية ، ليس فى زبيد فحسب ، بل فى الأمصار الإسلامية جميعها ، وكان المسلمون يحرصون على بناء المساجد الجامعة ، عند إنشائهم للمدن فى الأمصار المفتوحة ، لتقوم بوظائف متعددة ، لعل أبرزها قيامها بدور المدرسة والجامعة فى العصر الحديث (٧٦)، ومع نمو مدينة زبيد واتساع دائرة الحضارة ، تعددت المراكز العلمية والدينية ، منها ما غلب عليه الصفة الدينية المساجد والخانقاوات والزوايا والأربطة ، ومنها ما استهدف تحقيق رسالة علمية وتعليمية كالمدارس والمكاتب ، ومهما تتباعد أو تتقارب هذه المنشآت التى تميزت بها الحضارة الإسلامية فى أهدافها ، ومهامها وطابعها ، فإن المسجد ظل يتبوأ مكان الصدارة ليبدو فى صورة المؤسسة الأولى فى الإسلام ، التى غدت رمزاً وعنواناً له، ومقراً لعديد من ألوان النشاط التى ارتبطت به وعبرت عنه (٧٧)، ويذكر أحد الفقهاء أن مواضع التدريس ثلاثة : البيت والمدرسة والمسجد ، وذكر أن المسجد أفضلها جميعاً ، لأن الفائدة من التدريس أن تظهر بها سُنة ، أو تخمد بدعة ، أو يتعلم به حكم من أحكام الدين(٧٨)، والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد ، لأنه موضع مجتمع الناس (٧٩).

تعددت المساجد فى زبيد ، وأصبحت من كثرتها تلفت النظر ، حتى أن بعض الباحثين(٨٠) أحصاها فبلغت ٨٢ مسجداً من واقع ما ذكره بعض المؤرخين ، ويعتبر الجامع الكبير من أهم هذه المساجد ، فقد كان حصناً وملاذاً لمذاهب السنة فى جنوب اليمن ، ومشعلاً من مشاعل الفكر فى جميع فنون العلم : القرآن وعلومه ، والحديث وأسانيده ومصطلحه ، والفقه وأصوله وفروعه ، وشتى مناحى المعرفة (٨١)، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن هذا المسجد الجامع

أسس فى عهد الدولة الزيادية فى مطلع القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وفى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م ، جدد عمارته الحسين بن سلامة ، يقول عنه ابن الديبع (٨٢): " وهو الذى بنى الجوامع الكبار والمنائر الطوال فى المدن .. ومبتدأ عمارته من حضر موت إلى مكة نحو ستين مرحلة ، فى كل مرحلة جامع ومئذنة ومنبر " ، وفى سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م قام السلطان طغتكين بن أيوب بتوسعة فى هذا الجامع ، شملت الجناح الشرقى والغربى والمؤخر والمنارة والمنبر (٨٣). وقد أمدنا المقدسى(٨٤) (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م) بوصف دقيق عن الجامع : "والجامع ناء عن الأسواق ، نظيف مبربق الأرض ، تحت المنبر تقويره ، ليتصل الصف " ، وشهد الجامع الكبير بزبيد منذ نشأته حياة علمية مزدهرة ، وبفضل تشجيع سلاطين بنى رسول للعلم والعلماء ، أصبح هذا الجامع مركزاً للدراسات السنية ، وتحلق فيه مشاهير العلماء من كافة أصقاع العالم الإسلامى (٨٥). ومن هنا يمكن القول أن الجامع الكبير بزبيد كان بمثابة الجسر الذى عبرت عليه الثقافة العربية فى دراسات علوم القرآن والنحو واللغة ، هذا فضلاً عن العلوم العقلية من المشرق ، إلى كافة أرجاء العالم الإسلامى .

أما مسجد الأشاعر أو جامعة الأشاعرة ، فيعتبر أقدم جامعة إسلامية فى العالم الإسلامى(٨٦). تذكر المصادر أن أبا موسى الأشعرى وقومه أسسوا هذا المسجد فى العام الثامن للهجرة (٨٧). وسمى هذا المسجد باسم قبيلة الأشاعر (٨٨). ثم أعاد ابن زياد بناء هذا المسجد عند تخطيطه لمدينة زبيد فى أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (٨٩). وفى سنة ٤٢٥هـ / ١٠٣٣م ، بنى الحسين بن سلامة مسجد الأشاعر ، وكتب اسمه على لوحة خشبية شرق المحراب الكبير بالخط الكوفى ، لا تزال ماثلة للعيان إلى الآن فى واجهة الجدار القبلى للأشاعر (٩٠). كما أنشأ الملك المظفر بن عمر بن رسول (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) منبر الحديث بجامع الأشاعر (٩١). وفى سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م، أصلح الأمير أبو غازى بن المعمار منبر الوعظ الإرشاد والحديث (٩٢).

تعهد سلاطين بنى رسول هذا المسجد بالتجديد والعمارة ، وخصوه بالكثير من رعايتهم وعنايتهم ، وخصصوا الأموال للإنفاق عليه ، فوقفوا عليه الأحباس (٩٣). كما أغدقوا العطايا على علمائه وطلابه ، فهؤلاء السلاطين لم يكونوا رعاة للعلوم والآداب فحسب ، بل كانوا هم أنفسهم أيضاً كتاباً وعلماءً ومفكرين ومبدعين(٩٤). مما هيأ لهذا المسجد أن يتبوأ مكانته العلمية ، ويصبح جامعة إسلامية ، يدرس فيها النحو واللغة والأصول والمصطلح والجبر

والمقابلة ، فضلاً عن العلوم الدينية كالفقه والحديث والقراءات [٩٥]، تخرج منها علماء وفقهاء ومشرعون ، كان لهم إسهامات بارزة فى العلوم والحضارة العربية والإسلامية [٩٦].

وعلى الرغم من أن الجامع الكبير ومسجد الأشاعرة ، كانا أقدم المساجد فى مدينة زبيد ، وأكثرها ذيوعًا وشهرة ، فقد ظهرت مساجد أخرى ، لعبت دوراً كبيراً فى الحياة العلمية والدينية ، نذكر منها على سبيل المثال : مسجد سرور الفاتك ، ومسجد القائد فرج السحرتي، ومسجد المملاح [٩٧]، ومسجد الهند ، ومسجد الضياء ، ومسجد الحاجة سمح ، ومسجد الحاجة قنديل ، ومسجد الحاجة غصون [٩٨]، .. وغير ذلك كثير .

تعد المدارس من أهم المراكز العلمية في زبيد ، وغطت أهميتها الدينية والتعليمية والسياسية على أية منشأة إسلامية مشابهة أخرى ، مثل الخانقاه أو الرباط أو الزاوية ، ولم يحتفظ بأهميته ومكانته الخاصة بين مؤسسات الحضارة الإسلامية سوى المسجد الجامع[٩٩].

على أن فكرة نشأة المدارس فى الإسلام ، بدأت منذ عهد الرسول ﷺ ، فعلى الرغم من أن المسجد كان المركز الأساسى للتعليم فى عصره ، لم يحل ذلك دون قيامه ﷺ بالدعوة إلى التعليم فى أماكن أخرى ، فقد أحس أصحاب رسول الله ﷺ ، بحاجتهم إلى أماكن خاصة للتعليم ، وعدم الاكتفاء بالمسجد وحده كمركز تعليمى ، وهذا ما فعله عبد الله بن عباس فى أخريات أيامه ، بعد أن استوطن الطائف ، واتخذ من منزله معهداً لدراسة العلم [١٠٠].

كانت دروس العلم فى اليمن فى صدر الإسلام ، تتم فى الدور السكنية ، كتأثير مباشر قادم من مكة والمدينة والطائف ، وهى التى أطلق عليها أمكان الهجر ، حيث يفد الطلاب عليها لتلقى العلم ، على أيدى العلماء من المتخصصين فى العلوم الدينية ، وفى شتى ميادين الفكر والثقافة ، وانتشرت أماكن الهجر الأولى فى شمال اليمن بوجه خاص ، وذلك لقرب التأثير الدينى القادم من الشمال فى مدينة صعدة ، كهجرة فلله ، وهجرة قطابر ، وهجرة معيتى ، وهجرة باقم ، وهجرة حيدان ، وغيرها ، ويعتقد أحد الباحثين[١٠١] أن هذه الأماكن ، كانت غالبيتها فى الدور السكنية فى أول الأمر ، وكانت نواة للمدرسة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية ، وربما كانت من المقدمات التى أدت بعد ذلك مع مكة والمدينة فى ظهور ما عرف بعد ذلك بدور العلم ، وبيوت الحكمة ، حتى وصل هذا النظام إلى قمة ازدهاره على يد الوزير نظام الملك فى عهد السلاجقة فى مدن نيسابور[١٠٢] وبغداد .

يقـول المقـريزى(١٠٣) " ... والمدارس مما حـدث فى الإسـلام ، ولم تكن تعـرف فى زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة ، ... وأشهرها ما بنى فى القيم المدرسة النظامية فى بغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها الفقهاء معاليم ، وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الطوسى ، وزير ملك شاه ألب أرسلان بن سلجوق فى بغداد ، وشرع فى بنائها سنة ٤٥٧هـ ، وفرغت فى ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ ... فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان ، وما وراء النهر، وفى بلاد الجزيرة وديار بكر " .

ومن المرجح أن التعليم الذى كان منتشراً فى الدور السكنية ، لم يكن يسمى مدارس ، ويبدو أن كلمة مدرسة لم تكن معروفة فى العالم الإسلامى قبل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ومن هنا يمكن القول أن المدرسة هى المكان الذى يتخذ لتلقى علم واحد على أيدى شيوخ موقوفين عليه ، وذلك لتمييزه عن حلقة المسجد ، وأن يكون ملحقًا به مكان لسكن المدرسين والطلاب ، مع وجود معاليم ، أى مرتبات وجرايات دارة عليهم ، ولمن يقوم بالتدريس فيها ، وبذلك تكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء ، لا من قاعات التدريس والمدرسين(١٠٤) ومهما يكن من أمر فقد ارتبط بناء المدارس إلى حد كبير بتدريس المذاهب الدينية الأربعة ، وقد يدرس مذهب واحد فى المدرسة ، أو أكثر من مذهب واحد (١٠٥)، كما ارتبطت عمارة المدرسة ارتباطًا وثيقًا بوحدات معمارية ثابتة توافرت فى البناء ، وفى مقدمتها الإيوان ، وهو وحدة معمارية مستطيلة الشكل مسدودة من ثلاثة جوانب ، ومفتوحة من ناحية واحدة ، بحيث يطل على الصحن أو الفناء فى المدرسة بواسطة عقد كبير ، وقد تحتوى المدرسة على إيوان واحد أو أكثر ، حتى يصل عدد هذه الأواوين إلى أربعة ، كان يخصص كل منها لمذهب معين (١٠٦)، هذا فضلاً عن بيت الصلاة والمئذنة ومساكن الطلاب (١٠٧).

وإذا كانت العراق قد احتلت مكان الصدارة فى كونها أول الأمصار الإسلامية ، التى عرفت المدرسة بمفهومها الحديث ، فإن اليمن لم تقل عن غيرها ، لأنها كانت طوال التاريخ مركزًا للعلوم والثقافة ، وكانت زبيد محط رحال العلماء ، أقاموا بها وعاشوا بين جنباتها ، من وقت كان الجامع الكبير ومسجد الأشاعر ، يقومان بمهمة التعليم ، ويتخذ مكانًا ومقرًا للدراسة ،

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوباً ، الإيمان يمان والحكمة يمانية "(١٠٨)، وفي رواية أخرى عنه : " الفقه يمان والحكمة يمانية "(١٠٩).

وعن نشأة المدرسة في اليمن ، فمن المرجح أن المدارس لم تظهر فيها إلا بعد أن امتد إليها نفوذ الدولة الأيوبية سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م(١١٠)، وبالتحديد في أواخر فترة حكمهم ، حين شرع الملك المعز إسماعيل بن طغتكين ببناء أول مدرسة يمنية بمدينة زبيد سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م، وهي المدرسة التي عرفت باسم المعزية ، أو مدرسة الميلين (١١١)، ثم استمرت المدارس منذ ذلك الحين في الانتشار في عصر الدولة الرسولية .

على أن الحركة النشطة التي قام بها سلاطين بني رسول في التوسع في بناء المدارس ، التي اكتظت بها مدينة زبيد ، وغيرها من مدن الجنوب اليمني ، وفاقت كثرتها كثرة المساجد ، لعل مردها إلى أمور منها : ما اشتهر عن سلاطين هذه الدولة وملوكها من حبهم للعلم والعلماء، وقد وضح ذلك منذ أن نجح السلطان عمر بن علي بن رسول ، أول سلاطين هذه الدولة في إقامة دولته سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م (١١٢). هذا فضلاً عن السلطة الرسولية فكانت واعية بأهمية الثقل الديني والتعليمي ، بل والسياسي الذي كان بإمكان المدارس ، أن تلعبه من خلال احتضان بعض الفقهاء المعارضين للتوجه السياسي الزيدي ، وتثبيت قوة المذاهب السنية، والمذهب الشافعي بوجه خاص في مواجهة مذاهب الشيعة ، فالتغيرات السياسية والدينية التي عاشتها اليمن من خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر الميلادي ، كانت تعكس ، وإلى حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها اليمن في عصر الدولة الرسولية من وراء تشييدها لهذه المدارس ، فالظاهر أنها كانت تهدف كذلك إلى تكوين نخبة جديدة من الفقهاء والقضاة ، يأخذون على عاتقهم مسئولية الدفاع عن مشروعية هذه السلطة ، وتحويل الأنظار إلى المدارس الجديدة ، ومن هنا يمكن القول أن المدارس الرسولية في زبيد ، قد شكلت إحدى الأدوات الهامة ، التي عولت عليها السلطة الرسولية في بناء توازناتها الداخلية بتخريجها لكوادر مرتبطة مباشرة بالتوجه الرسولي .

ونذكر من هذه المدارس على سبيل المثال : المدرسة الأشرفية (دار الدملوة) ، والمدرسة التاجية للقراء وأهل الحديث ، ومدرسة الجبرتي ، والمدرسة الشمسية التي شيدتها الدار

الشمسي ابنة السلطان عمر بن علي بن رسول ، ورتبت فيها إمامًا ومؤذنًا وقيمًا ، ومعلمًا ، أيتامًا يتعلمون القرآن ، ومدرسًا يدرس حديث رسول الله ﷺ ، ووقفت عليها في وادي زبيد وقفًا جيدًا يقوم بكفاية المرتبين فيها ، ومن بين هذه المدارس في زبيد نذكر أيضًا المدرسة الظافرية ، والمدرسة الفرحانية ، والمدرسة المنصورية السفلي والمدرسة المنصورية العليا (١١٣). وهذه نماذج يسيرة مما حفلت به مدينة زبيد من المدارس العديدة .

لم تقتصر المراكز العلمية في زبيد علي المساجد والمدارس ، بل وجدت إلي جانبها منشآت التصوف التي اشتملت على الخانقات والزوايا والأربطة ، وتلازم ظهورها مع ظهور المدارس ، فقد بدأ إنشاء الخانقات في نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ووقفت الأوقاف الكثيرة عليها ، وبدأ الاتجاه السياسي في اعتمادها أداة من أدوات نشر المذهب السني ، مما ساعد على انتشارها (١١٤)، واشتدت نزعة التصوف بصفة عامة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي (١١٥)، وتطورت الخانقات تطورًا كبيرًا في عصر الدولة الرسولية ، حيث حدث التقارب بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد عدد المتصوفة ، وزاد عدد المتصوفة في فترة حكم الملك المظفر يوسف بن عمر (٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) الذي ولي أحد رجال الصوفية القضاء (١١٦)، ثم أصبح لهم مكانة مرموقة في عصر الملك المجاهد علي بن المؤيد (ت٧٧٤هـ / ١٣٦٣م) ، الذي أنشأ خانقاه مستقلة للصوفية بزبيد (١١٧)، كما أنشأ المدرسة المجاهدية في تعز ، وجعلها مدرسة وجامعًا ، وخانقاه ، ورتب فيها إمامًا وخطيبًا ومؤذنًا ، وقيمًا ومدرسًا ، وطلبة يقرؤن الفقه ، ومحدثًا وطلبة يقرءون الحديث ، ومعلمًا وأيتامًا يتعلمون القرآن ، وشيخًا ونقيبًا ، وفقراء وطعامًا للواردين (١١٨)، كما أنشأت والدة السلطان المجاهد خانقاه في زبيد قبالة المدرسة الصلاحية ، والتي تعرف بمدرسة أم السلطان ورتبت فيها شيخًا ونقيبًا ، وفقراء ، ووقفت عليهم وقفًا جيدًا(١١٩) كما انتشرت الأربطة في مدينة زبيد ، وكان الغرض الأساسي من بنائها لتكون سكنًا لطلبة العلم والمنقطعين والغرباء ، لكي يقيموا فيها ، ويبدو أن أربطة زبيد كانت تقع خارج المدينة ، فيذكر الجندي أن رباط النور يقع خارج المدينة من ناحية الجنوب عند تربة الشيخ مسعود (١٢٠)، هذا فضلاً عن الزوايا التي وجدت في بعض المساجد ، ورتب لها عدة أوقاف مما مكنها من البقاء حتى أيام الجندي(١٢١)، كما انتشرت في زبيد العديد من خزائن الكتب ، الملحقة بالمساجد والمدارس ، هذا فضلاً عن مكتبات الخاصة من العلماء ، الذين كانوا مولعين بجمع الكتب واستنساخها (١٢٢)، وقد ذكر المؤرخون الكثير

عن اهتمام سلاطين بنى رسول ، وعنايتهم الشديدة باقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات العظيمة(١٢٣).

العلوم العقلية :

نقصد بالعلوم العقلية جميع العلوم التى كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى من رياضيات وموسيقي وطب وتنجيم ، وطبيعيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التى كان يحذقها فلاسفة هذه العصور ، وأول العلماء الذين تضلعوا في هذه العلوم من أهل اليمن، هو أبا يوسف بن إسحاق الكندى ، فقد صنف في علوم الفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضيات(١٢٤)، ويذكر ابن النديم أنه زاد فى هذه العلوم فصنف فى الطب والمنطق ، وله ما يقرب من مئتين وأربعين كتاباً(١٢٥)، وأما الثانى فهو أبا محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) ، الذى عكف على دراسة الرياضيات والفلك والنجوم والطب والفلسفة (١٢٦)، والحق أن ما كتبه الهمدانى فى مؤلفاته الموسوعية العديدة ، وفكره ونظرته الشمولية ، جعله يكتسب صفة الفيلسوف ، إلى حد أنه وضع جنباً إلى جنب مع الكندى فيلسوف العرب المشهور (١٢٧).

على أن هذه العلوم لم يقدر لها الانتشار إلا فى عصر الدولة الرسولية ، حيث تألقت علوم الطب والبيطرة والزراعة والهندسة والفلك والملاحة ، بفضل تشجيع سلاطين هذه الدولة للعلماء، واهتمامهم بهذه العلوم ، فقد كان لبعضهم علو كعب فيها ، ومن بين من عنى بالطب الملك المظفر شمس الدين يوسف (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) ، الذى ترك ثروة هائلة من الكتب الطبية ومن أشهرها : كتاب البيان فى كشف علم الطب للعيان ، ويقع هذا الكتاب فى مجلدين (١٢٨)، وكتاب المعتمد فى الأدوية المفردة (١٢٩)، وكتاب اللمعة الكافية فى الأدوية الشافية ، وكتاب المغنى فى البيطرة (١٣٠)، ونذكر كذلك ابنه الملك الأشرف عمر (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) فقد كان عالماً بارزاً ، تضلع فى مختلف العلوم ، ومؤلفاته تربو على اثنى عشر كتاباً فى الزراعة والحيوان والطب ، نذكر منها كتابه شفاء العليل فى الطب (١٣١)، أما الملك الأفضل (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) ، فله كثير من المؤلفات نذكر منها على سبيل المثال كتاب اللمعة الكافية فى الأدوية الشافية ، وقاموسه الذى صنفه بخمس لغات العربية والفارسية والإغريقية البيزنطية القديمة والأرمينية والمغولية ، تناول فيه فنون الطبخ والملابس والصحة ، والتشريح (١٣٢)، كما اهتم

علماء الأشاعر بالطب فنبغ منهم عدد غير قليل كان الأزرق القدوة فى مؤلفه تسهيل المنافع ، والإمام إبراهيم بن إسماعيل الحضرمى الذى ألف كتاب فطن الأذهان فى طب الأبدان (١٣٣)، وعمر بن محمد الجبلى الذى تصدر لتدريس الطب بمدرسة زبيد سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م ، وكان قد بلغ فى صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء (١٣٤).

وأما فى مجال الزراعة ، فالمعروف أن الزراعة تمثل عصب الاقتصاد اليمنى ، وأولى الرسوليون الزراعة اهتماماً كبيراً ، وألفوا فيها مؤلفات عديدة ، فقد صنف الملك المظفر درج السياسة فى علم الفراسة وما يدل على الخيل من ملاحة وقباحة (١٣٥)، ولابنه الملك الأشرف كتاب التفاحة فى علم الفلاحة(١٣٦) كما صنف الملك المؤيد كتاب الجمهرة فى البيزرة (١٣٧)، وأما الملك الأفضل فله مؤلف قيم أسماه " بغية الفلاحين فى الأشجار المثمرة والرياحين " ، تناول فيه الزراعة وأنواعها وفصولها (١٣٨).

ومن علماء الهندسة القاضى الرشيد أحمد بن أبى الحسين الغسانى ، " كان أوحد عصره فى علم الهندسة " ، ويعزى إليه تخطيط مدينة زبيد ، وتيسير دخول الماء إليها من عين قريبة منها تسقى البساتين حول المدينة (١٣٩)، كما برع فى الكيمياء الملك المظفر شمس الدين يوسف ، وألف فيها كتابه الشهير " المخترع فى فنون من الصنع " الذى يبحث فى الكيمياء والصناعات (١٤٠).

وفى مجال علم الفلك ، فالمعروف أن العرب بصفة عامة ، وأهل اليمن بخاصة لهم دراية واسعة فى هذا المجال ، فأبى عصمة المنجم أحد شيوخ الهمدانى ، كان متفنناً فى العلم(١٤١)، أما الهمدانى فيعتبر علم الفلك دينه وميدانه ، فقد تأثر بأفكار اليونان والهند فى كتابه "سرائر الحكمة" ، وقال عنه القفطى(١٤٢) : " الأديب النحوى ، الطبيب المنجم ... نادرة زمانه وفاضل أوانه " ، وبرع فى هذا العلم الملك المظفر الرسولى ، وصنف فيه كتاب تيسير المطالب فى تسيير الكواكب(١٤٣) ، وكتاب الزيج المظفرى المشهور(١٤٤) ، وللملك الأشرف عمر مصنفه الشهير "التبصرة فى علم النجوم" الذى طار ذكره فى الآفاق ، ويدل على علو كعبه وتبحره فى هذا العلم(١٤٥) وله أيضاً كتاب الأسطرلاب (١٤٦)، كان من الطبيعى أن يتألق علم الملاحة فى ظل هذا المناخ العلمى ، ومما يجدر ذكره أن هذا العلم برز فى جنوب شبه الجزيرة العربية فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وبدأ يزدهر مع دراسة الرياح والشواطىء

والجزر في البحر الأحمر ، والمحيط الهندى فالتجارة فى البحر الأحمر وخليج عدن كانت مستمرة طول العام(١٤٧)، وعنى بدراسة هذا العلم عدد غير قليل من أبناء اليمن ، نكتفى بذكر واحد من أشهر ملاحى هذه الفترة ، وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى ، ولا نعرف بالتحديد تاريخ ميلاده أو وفاته ، إلا أنه أمكن تحديد الفترة التى عاش فيها ، وهى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ولابن ماجد أراجيز وقصائد تبلغ العشرين ، كانت مخصصة فى علم البحار والفلك والملاحة (١٤٨)، بيد أن واحد من مصنفاته الكبرى يحمل عنوان " كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد " ، يعرض فيه لكتب الملاحة التى قبله ، ويذكر ثلاثة من البحارين هم : سهل بن إبان ومحمد بن شاذان ، وليث بن كهلان ، ونظراً لأهمية هذا الكتاب ، فقد عدّ ابن ماجد واحداً من أعظم ملاحى عصره ، كما أعتبر هذا المؤلف أول مؤلف للمرشدات البحرية في العصور الحديثة (١٤٩)، ويبدو أن الجغرافيا كانت من العلوم المزدهرة فى مدارس زبيد .

العلوم النقلية :

من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية ، إنما نشأت بسبب القرآن الكريم ، وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه ، وتفهم معانيه ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم موضع اهتمام المسلمين فى جميع الأمصار الإسلامية ، ومنها اليمن ، وكان أكثر تفقه أهل اليمن في العصر الأول إلى وقت ظهور تصانيف الشافعية(١٥٠) بفقهاء مكة والمدينة (١٥١)، وظل أهل اليمن حتى المائة الثالثة من الهجرة " إما حنفى وهو الغالب ، وإما مالكى "(١٥٢).

على أن شخوص الإمام الشافعي إلى اليمن ، كان سبباً مباشراً في انتشار مذهبه هناك ، ولم يقدر لمذهب أبى حنيفة أن ينتشر ويستمر في اليمن بعد المائة الثالثة من سنى الهجرة ، فقد حل مكانه المذهب الشافعي ، وظل سائداً هناك ، وخاصة فيما يعرف باليمن الأسفل إلى وقتنا هذا (١٥٣)، وأوجز المقدسى(١٥٤) مذاهب أهل اليمن فى وقته بقوله : " ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء ، وقرح سنة ، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية ، وبقية الحجاز وأهل الرأى بعمان وهجر وصعدة شيعة " ، وفى موضع آخر قال : " ... والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبى حنيفة ، والجوامع بأيديهم ... ويكبر بزبيد فى العيدين على قول ابن مسعود " (١٥٥).

ومن أوائل رجال المذهب الشافعي الذين ساعدوا على نشره في اليمن الإمام القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي السهفني (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) (١٥٦)، أخذ فقهه وعلمه عن علماء المائة الرابعة ، فأخذ عن محمد بن عبد الله بن علي الزرقاني ، ثم انتقل إلى زبيد ، وكان مذهب الشافعي بها معروفًا ، فتلقى عن شيوخها (١٥٧)، وفي الوقت نفسه عرف مذهب الشافعي في تهامة بفضل جهود فقهاء بني أبي عقامة ، الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي في تهامة (١٥٨)، يقول الجندي(١٥٩) : " ... ولم يزل بنو أبي عقامة قضاة زبيد ، وربما كان في التهائم منذ دخل ابن زياد ، وجدهم محمد بن هارون إلى صدر الدولة المظفرية".

كان علماء زبيد يرحلون في طلب العلم إلى مكة ، ويجاورون بها سنة أو سنتين ، لتلقى العلم عن القاطنين بمكة والواردين عليها ، فتضلعوا من العلوم تضلعًا جيدًا ، حتى كان بعضهم يقول : أنا ابن ثمانية عشر علمًا (١٦٠). كما نشطت الرحلة العلمية إلى مصر ، التي وصلت إلى الذروة الفكرية والعلمية في ذلك الوقت ، بيد أن حركة العلماء هذه من زبيد وإليها ، أبقت على المدينة في المجرى الرئيسي لحركة العلوم الإسلامية ، واستفادت زبيد في القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد من التيارات الفكرية التي نمت في مكة ومصر ، وإذا أردنا أن نعطي صورة واضحة عن النهضة الثقافية في زبيد نجد لزامًا علينا الرجوع إلى كتب الطبقات ، فهي المراجع التي تؤرخ للنهضة الثقافية ، وتتناول العلماء وتترجم لهم ، وتكشف عن آثارهم العلمية ، وتعرف وتفصل أمر شيوخهم وتعرض لمذاهبهم ، وسنقتصر على نماذج لهؤلاء العلماء في مختلف العلوم .

وجه اليمانية جل عنايتهم لدراسة علوم القرآن ، وظهرت مؤلفات قيمة في علوم الدين ، تدل على سعة معرفة مؤلفيها ، نذكر من هؤلاء : أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن أبي الحسين ويعرف بابن الحطاب ، تفقه بابن قاسم ، وتضلع في علوم شتى ، بحيث كان يفضل على فقهاء عصره ، أجمع على ذلك المؤالف والمخالف وكان يقرىء بالقراءات السبع ، وكان نحويًا لغويًا فروعيًا أصوليًا فرضيًا حسابيًا ، تصدر للتدريس في مسجد الأشاعر حتى وفاته بزبيد سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م (١٦١)، ونذكر أيضًا أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي الجداي الذي برع في علم القراءات والنحو ، كان رأسًا في القراءات السبع ، توفي ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م(١٦٢) أما علي بن أبي بكر بن محمد بن شداد الحميري ، فقد كان فقيهًا عالمًا نحويًا لغويًا ، مقرئًا محدثًا ، انتهت إليه رئاسة الإقراء في اليمن ، وكانت إليه الرحلة في علمي القراءات والحديث،

كان يدرس بالمدرسة التاجية للقراء ، وتفقه به جماعة من المقرئين ، وتوفي في سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م (١٦٣) ، كما برز في علم القراءات الفقيه العلامة جمال الدين محمد بن عمر الفارقي المشهور بالنهاري ، قرأ بالقراءات السبع ، وتصدر للإقراء في المدرسة الفرحانية بزبيد ، حيث رتب إماماً ومدرساً بها ، وتوفي في زبيد سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م(١٦٤) ، ونذكر أيضاً علي بن صالح الحضرمي ، كان فقيهاً ، عالماً مقرئاً ، غلب عليه علم القراءات ، حتى كان يعرف بالمقرىء ، وكان يدرس بالمدرسة التاجية للقراء (١٦٥).

نشطت رواية الحديث في زبيد كما كان عليه الأمر في الحواضر الإسلامية ، وبرز فيها كوكبة من علماء الحديث نذكر منهم أبا الحسن علي بن عبد الله الزيلعي المعروف بالفرضي ، كان فقيهاً ، عالماً ، مشهوراً وكان مشاركاً في سائر العلوم الدينية ، وأخصها الفقه والحديث والتفسير ، أخذ الحديث عن الإمام أبي الخير بن منصور ، وأخذ الفقه عن الإمام أحمد بن موسى بن عجيل ، وأحمد بن سليمان الحكمي ، تصدر للتدريس في المدرسة التاجية للحديث ، وتوفي سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م(١٦٦) ، وأما أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الخير بن منصور الشاخي ، فقد كان فقيهاً وإماماً ولغوياً ، ومحدثاً ، مشاركاً في عدة من الفنون ، وكان أبيه شيخ الحديث في عصره ، وإلى جد أبيه أحمد تنتهي أسانيد الحديث في قطر اليمن ، تصدر للتدريس في المدرسة المنصورية العليا بزبيد ، وفي المدرسة المؤيدية في تعز ، توفي سنة ٧٠٧هـ / ١٣٩٤م (١٦٧)، وتكشف لنا كتب الطبقات عن تفوق علم الحديث في زبيد في عصر الدولة الرسولية تفوقاً عظيماً ، فعندما تعرض هذه المصادر لمشاهير المحدثين في اليمن تذكر " أنه أخذ الحديث عن أهل زبيد " (١٦٨).

أدى تنوع المذاهب الإسلامية في اليمن إلى تنوع الثقافات الدينية ، وظهور العديد من المؤلفات التي يناقش ويشرح فيها مؤلفوها مذاهبهم ، ويبرزون سماتها ومميزاتها ، ويردون على المذاهب الأخرى ، ويدحضون حجج معارضيهم (١٦٩) ، وشهدت مساجد ومدارس زبيد في هذه الفترة ظهور كوكبة من العلماء تضلعوا في علوم الفقه ، نذكر منهم أبا الحسن علي بن قاسم بن العليف بن عباس بن سليمان الشراحيلي الحكمي ، قدم زبيد ، وأخذ عن الفقيه عباس بن محمد ، يقول الجندي : " وكان إماماً كبيراً من أئمة الدين ، به تفقه غالب الطبقة المتأخرة من نواحي اليمن " (١٧٠) ، وقصده الطلبة من نواح مختلفة ، وتفقهوا به وعادوا بلدانهم ، وله مصنفات عديدة منها كتاب الدر في الفرائض ، وله مختصر سماه الدر يبين به

مشكلات المهذب ، وكان يحفظ التنبيه عن ظهر غيب ، وفضله أكثر من أن يحصر ، تصدر للتدريس فى مساجد زبيد ومدارسها ، وتوفى سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م[١٧١] ، ونذكر أيضًا الفقيه أبا بكر بن أحمد بن الفقيه مقبل الدثينى ، كان فقيهًا فاضلاً وخطيبًا كاملاً تولى خطابة زبيد سنين عددًا ، وتوفى سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م[١٧٢] ، ومن بين جلة الفقهاء نذكر أبا العباس أحمد بن سليمان بن أبى بكر الحكمى شهاب الدين ، كان فقيهًا بارعًا فاضلاً عارفًا مشهورًا ، وإليه انتهت رئاسة الفقه والفتوى فى زبيد وأعمالها ، وكان يتصدر لتدريس الفقه فى المدرسة المنصورية العليا بزبيد ، وتوفى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م[١٧٣] ، وإذا تحدثنا عن فقهاء زبيد يجب ألا يفوتنا ذكر جمال الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر الريمى ، فقد كان أحد الفقهاء المبرزين ، والعلماء المجودين ، انتهت إليه رئاسة الفتوى فى اليمن ، وكانت إليه الرحلة من سائر الأقطار ، واختصه السلطان الملك المجاهد بقربه[١٧٤] ، ولعل من أهم مصنفاته كتاب التفقيه فى شرح التنبيه لأبى إسحاق الشيرازى ويقع فى ٢٤ مجلدًا ، الذى حمل للملك الأشرف فى أطباق من الفضة ملفوفة بأثواب الحرير والديباج ، وكانت له مكتبة من ألفى مجلد فى سائر الفنون ، تصدر للتدريس فى المدرسة المظفرية والمدرسة المؤيدية ، كما أنشأ مدرسة فى زبيد تعرف باسمه ، توفى فى زبيد سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م[١٧٥] ، ونذكر أيضًا الفقيه أبا الحسن على بن عبد الله الشاورى ، كان فقيهًا نبيهًا ، متقنًا ، عارفًا بأصول الفقه وفروعه ، والحديث والقراءات السبع ، والنحو واللغة والعروض ، والفرائض ، تعلم فى بداية أمره فى عدن ، ثم ارتحل إلى زبيد ، فقرأ القراءات السبع على المقرئ محمد بن عثمان بن شنية ، وعلى المقرئ على بن أبى بكر بن شداد ، وسمع كثيرًا من أمهات كتب الحديث ، وتفقه على الإمام محمد بن عبد الله الريمى ، وانتهت إليه التدريس والفتوى فى زبيد ، وتخرج عليه كثيرون ، ومنهم السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل ، توفى فى زبيد سنة ٧٩٨هـ / ١٣٥٩م[١٧٦].

ازدهر التصوف فى زبيد فى عصر الدولة الرسولية ، وأصبح الرباط مكانًا يلجأ إليه الزهاد والصالحون للمرابطة والعبادة ، وحفظت لنا المصادر التاريخية وكتب الطبقات الكثير من رجالات التصوف فى زبيد ، نذكر منهم أبا الربيع سليمان الملقب بالجنيد (ت ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م) ، كان فقيهًا صالحًا ، متعبدًا ورعًا زاهدًا ، ولى قضاء زبيد ، وكان مقصود الزيارة ، مشهورًا باستجابة الدعوة ، وكانت له كرامات يجل قدرها عن الحصر[١٧٧] ، وثمة صوفى

آخر وهو محمد بن على بن محمد بن على (ت ٧٨٨هـ / ١٣٨٤م) ، كان فقيهًا صوفيًا ، عارفًا شيخًا فى الطريقتين ، له مصنفات فى الفقه ومصنفات فى الحقيقة [١٧٨] ، وقدم لنا ابن بطوطة وصفًا شائقًا لمتصوفة زبيد ، عندما زار المدينة فى عصر الملك المجاهد الرسولى (٧٢١ - ٧٦٤هـ / ١٣٢١ - ١٣٦٣م) ، حيث التقى بالشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعانى ، والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الأبيانى ، والفقيه المحدث أبا على الزبيدى ، واجتمع عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى [١٧٩].

على أن التصوف فى زبيد كان له طابع خاص ، فحين حاول متصوفة زبيد أن يفلسفوا الزهد أقاموا التصوف على الحياة الواقعية ، وعلى السلامة الفقهية المذهبية ، وعلى اللياذ بعالم الكرامات ، ومن هنا اجتمع فى التصوف زهد القاضى المتعفف ، وكرامات العابد ، وقد خضع هذا التصوف منذ نشأته لمؤثرين لعل أولهما الحج إلى بيت الله الحرام ، ومشاهدة العبَّاد المنقطعين حول البيت ، أما المؤثر الثانى وهو الأقوى ، فهو الحياة الاجتماعية نفسها ، ويذكر الجندى أن سُئل أحد أقطاب التصوف فى زبيد عن الصوفى فأجاب بقوله [١٨٠]: "من صفا سره من الكدر ، وامتلأ قلبه من العبر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر" .

ومن نافلة القول أن موقع زبيد الاستراتيجى ، والنشاط الاقتصادى المزدهر فى عصر الدولة الرسولية ، كان له انعكاساته البارزة على التصوف فى زبيد .

وأما فى مجال علوم اللغة العربية ، فقد حفظت لنا كتب الطبقات ، وغيرها من كتب اللغة عدداً غير قليل من علماء وأدباء وشعراء زبيد ، ولاغرو فى ذلك ، يقول نشوان الحميرى [١٨١]: "العرب مخصوصة بأمور منها البيان الذى ليس مثله بيان ، واللغة التى ليس مثلها فى السعة لغة ، ... ، وللعرب الشعر الذى لم يشاركهم فيه أحد من العجم" .

ويقول ابن خلدون [١٨٢]: " إن الشعر من فنون العرب ... ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصلاً يرجعون إليه فى الكثير من علومهم ، ... ، وكانت ملكته مستحكمة فيهم" ، ومن أشهر علماء اللغة تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى ، كان عالمًا ، عارفًا باللغة والنحو ، والفقه والمعانى ، والبيان ، شاعراً مجيداً ، كانت له رحلة إلى مصر والشام ، حيث جالس علماءها ، وأخذ عنهم وأخذوا عنه ، وأرخه مؤرخهم ، وحسن ذلك عندهم ، ورتبه السلطان الملك المؤيد لإقراء النحو بمدرسته ، ثم رتبه فى مدرسته

في زبيد ، وهي التي تعرف بأم عفيف ، ثم صادره الملك المجاهد بمال غير معروف ، فترك اليمن وقصد مصر سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٦م وولي شهادة المارستان ، ودرس في المشهد النفيسي، وبقي زماناً يتردد بين دمشق وحلب وطرابلس والقدس إلى أن توفي في سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٣م (١٨٣)، وترك مصنفات كثيرة في اللغة منها : إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين ، مطرب السمع في حديث أم زرع ، ومختار الصحاح (١٨٤) ، وغيرها ، وثمة عالم لغوي آخر هو أحمد بن عثمان بن أبي بكر بن بصيص الزبيدي ، كان وحيد عصره في النحو واللغة والعروض ، وإليه انتهت الرئاسة في طلب النحو ، رحل إليه الناس من سائر أنحاء اليمن ، ومن مصنفاته شرح مقدمة طاهر بن بابشاذ في النحو ، ومنظومة في علم الفرائض ، توفي في زبيد سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م (١٨٥) ، وفي مجال الأدب نذكر أبا عبد الله محمد بن أبي قاسم ، كان رأساً في الأدب ، وله شرح مقامات الحريري (١٨٦)، وأما الشعر فقد زها سوقه وبلغ في فترة البحث مبلغاً عظيماً من الرقي والازدهار ، بفضل تشجيع سلاطين وأمراء بني رسول ، وإغداقهم الهبات والعطايا على الشعراء ، حتى غدت قصورهم في تعز وزبيد تعج بالشعراء والعلماء والأدباء (١٨٧) ، ومن بين شعراء زبيد نذكر يوسف بن يعقوب والد المؤرخ الجندي ، فقد كان شاعراً مفوهاً ، وله قصائد حسان منها قصيدة طويلة في مدح الفقيه الصوفي أبي العباس أحمد (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) (١٨٨)، نقتبس بعضاً من أبياتها :

هذه ديار أحبتي يا حادي ... انخ المطي فقد بلغت مرادي

وعلى الكثيب الأشرف أنزل فقد ... حللت بمأمنع الأطواد

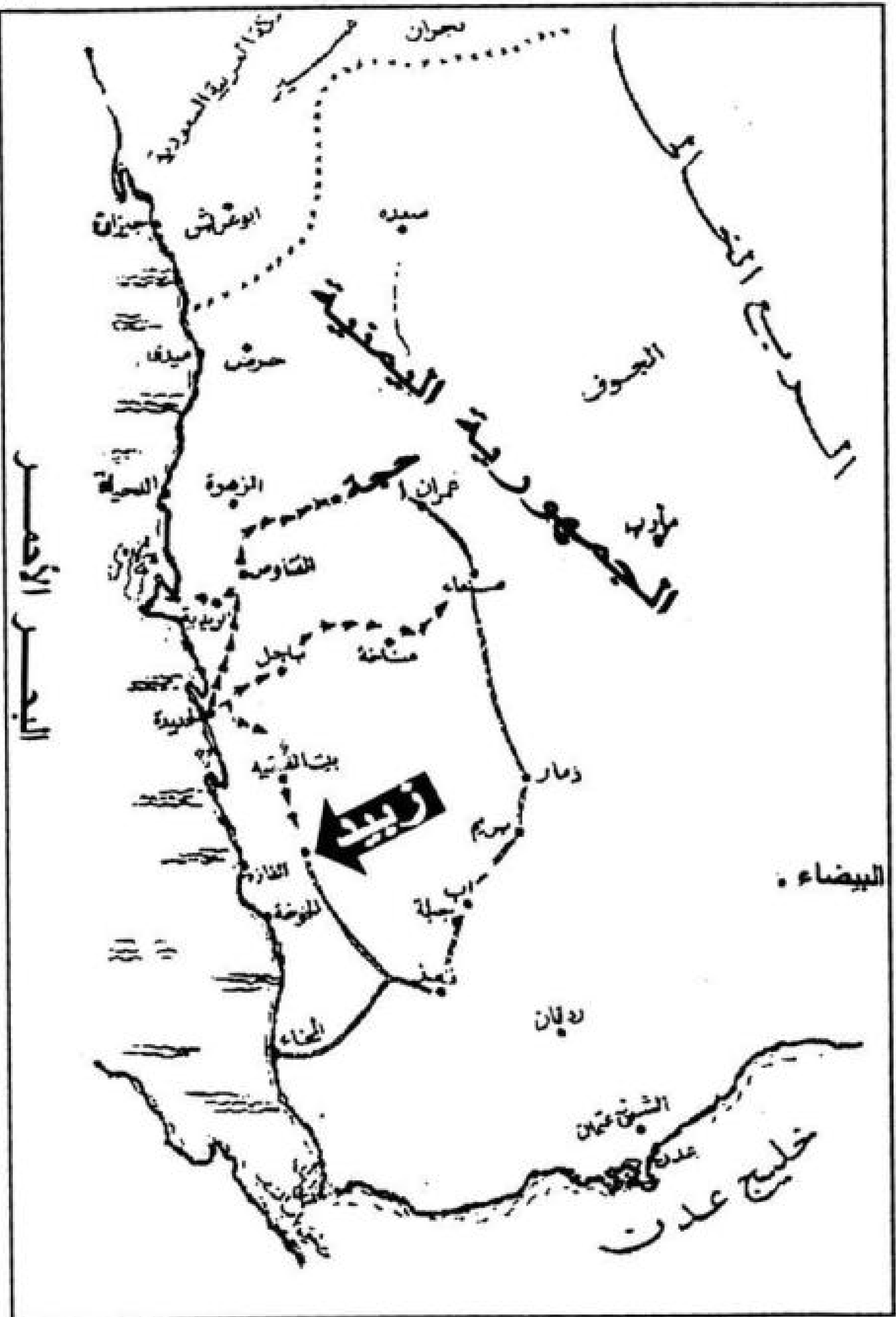
وأشاهد البدر الذي من أمه ... ينجو من الأحزان والأنكاد

ومن شعراء زبيد أبا حفص عمر بن علي بن محمد بن أبي بكر العلوي (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) ، كان شاعراً فصيحاً مفوهاً ، وكانت له خزانة كتب ليس لأحد مثلها يقال أنه كان بها خمسمائة ديوان من الشعر (١٨٩).

ومن الطبيعي أن يكون للمدرسة التاريخية مكاناً في النهضة الفكرية في زبيد ، وكان يمثلها عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٣م) وله كتاب تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن (١٩٠) ، ولا يفوتنا ذكر أبي عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي ، الفقيه المؤرخ ، الذي كان حياً في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي كان فقيهاً ، فاضلاً ، مفتياً ، عارفاً مشتغلاً بفنون العلم ، عمل بالتدريس

بمدارس عدن وزبيد ، وتعز وتقلد وظيفة الحسبة في زبيد ، يقول الجندي [١٩١]: " ... ولما كانت سنة خمس عشرة وسبعمائة محنت بحسبة زبيد ، وكثرة عول ودين وعدم طول " ، ومن مصنفات الجندي في التاريخ كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك [١٩٢]، وإذا ذكرنا مشاهير المؤرخين في زبيد ، لا يفوتنا ذكر المؤرخ والنسابة موفق الدين أبا الحسن على بن الحسن الخزرجي ، كان واسع الاطلاع نابه الفكر ، متضلعاً في فنون المعارف والعلوم ، متقنناً في علم الأنساب[١٩٣] ، التقى بالحافظ ابن حجر العسقلاني في زبيد عندما زارها الأخير في الفترة من (٧٩٩ - ٨٠١هـ / ١٣٩٧ - ١٣٩٨م) ، وأثنى عليه الحافظ ثناءً حسناً ، وقال : "... وجمع لبلده تاريخاً كبيراً ، وآخر على الحروف " [١٩٣]، صنف الخزرجي في التاريخ مصنفات تشهد على براعته في تصنيف التاريخ والتراجم والأنساب ، نذكر منها : الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الإسلام [١٩٤]، وطراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن ، والعقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان أهل اليمن [١٩٥]، بيد أن من أهم مصنفات الخزرجي يأتي كتاب " العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك " ، وكتاب " العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية " ، وهذان الكتابان مثار شك في نسبتهما إليه ، ويرجح بعض الباحثين أن مصنف هذين الكتابين هو الملك الأشرف الثاني (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م)[١٩٦]، بينما يرى أحد المؤرخين المحدثين أن الخزرجي قد يكون هو المصنف لهذين الكتابين ، وذلك بأمر من الملك الرسولي المذكور ، الذي كان مشهوراً بدوره بتآليفه التاريخية[١٩٧]، توفي الخزرجي في زبيد سنة ٨١٢هـ / ١٤١٠م [١٩٨]، ومهما يكن من أمر فإن ذلك لا يقلل من قيمته كمؤرخ له آثاره البارزة في تصنيف التاريخ والأنساب في اليمن هذا فضلاً عن كونه واحداً من المؤرخين الأساسيين للدولة الرسولية التي عاصر البعض من سلاطينها .

وهكذا كانت زبيد في عصر الدولة الرسولية ، أكثر بلاد اليمن فقهاء ومتفقهين وعلماء محققين [١٩٩] ، مدينة العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء ، أم قرى اليمن ومحط رحال العلماء في كل فن [٢٠٠]، ولابن خلدون[٢٠١] قول في ذلك : " أن العلوم ، إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة " ، ولا غرو أن أصبحت زبيد في عصر هذه الدولة مركزاً للإشعاع الفكرى والثقافي ، وكانت بحق واحدة من المدن الإسلامية التي حافظت على معالم الحضارة الإسلامية، وساهمت بجهود علمائها في بناء الحضارة الإنسانية .



رسم تخطيطي لمدينة زبيد

الهوامش

١ – ابن المجاور ، جمال الدين أبى الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الدمشقى (كان حيًا سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المعروف بتاريخ المستبصر ، حققه أوسكر لوفجرين ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٨٢ – ٨٣ ، الجندى ، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندى (كان حيًا فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) : السلوك فى طبقات العلماء والملوك تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، جـ١ ، ص ٢٢١ ، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٨جـ١ ، ص ١٥١ ، وراجع كذلك :

Enc., of Islam, art (Zabid) .

٢ – ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد بن عمر الشيبانى (ت ٩٢٤هـ / ١٥٢٣م) : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٣٧٤هـ ، جـ١ ، ص ٢٢٢ وراجع :

Croken, Barbara Eileen: Zabid under the Rasulids of Yemen ph.D.Diss., Harvard University, 1990, pp. 52 - 54 .

٣ – طاهر مظفر العميد (الدكتور) : بناء مدينة زبيد فى اليمن ، مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد ، العدد ١٣ ، ١٩٧٠م ، ص ٣١٤ .

٤ – الخزرجى ، أبو الحسن على بن أبى بكر الحسن الخزرجى الأنصارى (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) : (العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك) مخطوط بمكتبة الحرم المكى الشريف رقم ٤٨ (تاريخ) ، ملحق بمقال الدكتور طاهر مظفر العميد (من ص ٣٤٦ – ٣٥٤) مجلة كلية الآداب ببغداد العدد ١٣ ، ١٩٧٠م ، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

٥ – ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص ٢٢٢ .

٦ – طاهر مظفر العميد : بناء مدينة زبيد ، ص ٣٤٣ .

- Lealan Anderson Swanson: Historical considerations in yemen Vernacular Architecture Sulahid Dynasty (439 - 1047) to the modern period, ph.D.diss., Ohio state University, pp. 18-20 .

٧ – محمد عبد الستار عثمان (الدكتور) : المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ذو الحجة ١٤٠٨هـ/ أغسطس ١٩٨٨م ، ص ١٤١ .

- Geoffery King: Examples of the secular Architcture of Najd Arbian Studies, Cambridge, 1962, pp. 126 - 128 .

٨ – المقدسى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشارى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩١م ، ص ٨٤ .

٩ – البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن ، وأندرى فيرى ، تونس ١٩٩٢م ، جـ١ ، ص ٣٦٥ .

١٠ – الإدريسى ، الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤م ، جـ١ ، ص ٥٢ .

١١ – ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) : رحلة ابن بطوطة ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

١٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق سويف شلحد ، دار العودة ، بيروت ، (د.ت) ، ص ٤٧ .

١٣ – ورث بنو رسول ملك اليمن عن أسلافهم الأيوبيين ، إذ كانوا نوابهم عليها فى عهد الملك المسعود يوسف بن الكامل ، وأول من ملك منهم الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول ، لما توفى الملك المسعود بمكة استولى نور الدين عمر على زبيد والأعمال التهامية فى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م ، وأسس السلطنة الرسولية ، وتلقب بالملك المنصور ، وتزوج زوجة الملك المسعود وهى بنت جوزا ، وقد سميت بالدولة الرسولية نسبة إلى محمد ابن هارون الملقب برسول الخليفة العباسى ، وذلك لحملة البريد بين بغداد ودمشق لثقته فيه ، وقد اختلف فى نسبهم بين الأصل اليمنى التركمانى والغسانى . (راجع : ابن رسول ، عمر بن يوسف (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) : طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب ، تحقيق ك. و . سترستين ، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٢٩ – ٣١ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيونى عسل ، القاهرة ١٩١١م ، جـ١ ، ص ٤٠ – ٤٩ ، وابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٨٩ وراجع : محمد عبد العال أحمد (الدكتور) : بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٣٩ – ٥٦ وراجع أيضاً :

- G.R.Smith, " The Ayyubids and early Rasulids in the Yemen (567 - 694 H/1173-1295 A.D.) London 1978, V.2, pp. 61 - 62 .

١٤ – ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م) : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ، نشره مصطفى حجازى ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص ١٣٢ – ١٣٣ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٣٣٤ ، وراجع :

Croken, Zabid under the Rasulids of yemen, p. 143 .

١٥ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٣٣ ، ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ – ٩٥ ، وراجع القاضى إسماعيل بن الأكوع : المدارس الإسلامية فى اليمن ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٧–٩ ، وراجع كذلك :

- Lealan Anderson : Historical Considerations in Yemen, pp. 62 - 63 .

١٦ – ظفار : مدينة على ساحل حضرموت فيما بينها وبين عمان ، اختطها أحمد بن محمد الحبوضي سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٥١ ؛ ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٧٥؛ إبراهيم أحمد المقحفي : معجم المدن والقبائل اليمنية ، ص ٢٦٩ .

١٧ – زيلع : مدينة على ساحل البحر الحبشي المتصل بالقلزم ، وهي صغيرة القطر ، كثيرة الناس والمسافر إليها كثير ، وأكثر مراكب القلزم تصل إلى هذه المدينة بأنواع من التجارات التي يتصرف بها في بلاد الحبشة ، ويخرج منها الرقيق والفضة . (الحميري ، محمد بن عبد المنعم الحميري ، ت في أواخر القرن التاسع الهجري : كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٩٠م ، ص ٨٨٢ ؛ ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤م ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ .

١٨ – ميشيل توشرر : المخلاف السليماني في اليمن ، ترجمة الدكتور علي محمد زيد ، مجلة دراسات يمنية، العدد الثاني والثلاثون (أبريل – مايو – يونيو ١٩٨٨م) مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ص ٩٢ ، وراجع أيضاً :

- Croken : Zabid Under the Rasulids of Yemen, 165 - 166 .

* صعدة : مدينة تاريخية في الشمال من صنعاء ، تقع في بلاد خولان ، وكانت تسمى قديماً باسم جميع ، وهي أم قرى بلد قضاعة ، وما إليها من همدان ، وكانت عاصمة للدولة الزيدية . (الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (كان حياً في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، بيروت ١٩٨٤م ، ص ١١٥ – ١١٦ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٤٠٦ ؛ الحجري ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجري) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، بيروت ١٩٨٤م ، طبعة أولى ، جـ٢ ، ص ٧ ؛ إبراهيم أحمد المقحفي : معجم المدن والقبائل اليمنية ، دار الحكمة ، صنعاء ١٩٨٥م ، ص ٢٤٨ .

١٩ – ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية (د.ت) ، ص ٢٥٩ .

20 - Lealan Anderson : Historical Considerations, p. 63 ; K.N.Chaudhuri: Trade and civilization the Indian Ocean, Cambridge University Press, 1985, p. 107 .

٢١ – ميشيل توشرر : المخلاف السليماني في اليمن ، ص ٩٢ .

٢٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٧ ؛ ميشيل توشرر : المخلاف السليماني ، ص ٩٢ .

- John Lash Meloy : Mamluk authority, Meccan autonomy and Red sea Trade (797 - 859 / 1395-1455), ph.D.diss., Chicago University, 1998, pp. 63 - 74 .

٢٣ – شوقى عبد القوى عثمان (الدكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ذو الحجة ، ١٤١٠هـ / يوليو ١٩٩٠م ، ص ٢٤٩ .

٢٤ – المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٩٧ ؛ وراجع الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ١ ، ص ٥٢ – ٥٣ .

٢٥ – الجار : مدينة بالحجاز على ساحل البحر الأحمر مما يلى المدينة ، وهى آهلة عامرة ، والمراكب إليها قاصدة ومقلعة ، وهى مدينة مسورة حسنة البناء ، ولها أسواق ومسجد جامع . (الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٥٣) .

٢٦ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٧ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، جـ٢ ، ص ٥٦٥ .

٢٧ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٦٦ – ٤٦٨ ، القاضى إسماعيل بن على الأكوع : المدارس الإسلامية فى اليمن ، ص ٧ .

٢٨ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ ، وراجع : عبد الرحمن عبد الله الحضرمى : جامعة الأشاعرة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٥٧ .

٢٩ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ ، القاضى إسماعيل بن على الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٣٩ .

٣٠ – الفاسى ، تقى الدين محمد بن أحمد المكى (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق فؤاد سيد القاهرة ١٩٥٩ – ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص ٣٠٠ – ٣٠٥ ؛ راجع : الكبسى ، محمد بن إسماعيل الكبسى الصنعانى (ت ١٠٣٨هـ / ١٨٩٠م) : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة دار السعادة ، القاهرة (د.ت) ، ص ٨٠ .

٣١ – يرجع نشأة المذهب الزيدى إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى ظهر على المسرح السياسى فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م ، وكون أتباعًا يشايعونه سياسيًا ومذهبيًا ، عرفوا بالزيدية . (راجع ترجمته عند : الأصفهانى ، أبو الفرج على ابن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) : مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩م ، ص ١٢٧ – ١٥١ ، الحاكم الجشمى ، أبو سعد الحسن بن محمد بن كرامة الجشمى البيهقى (ت ٤٩٤هـ / ١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الإمام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ، جـ١ ، ورقة ٥ ، نشوان الحميرى ، أبو سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحوار العين ، تحقيق كمال مصطفى ، بيروت ١٩٨٥م ، ص ٢٣٨ ؛ وراجع : حسن خضيرى أحمد (الدكتور) : قيام الدولة الزيدية فى اليمن ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩٦م ، ص ١٢٥ – ١٣٢ ، وراجع كذلك :

- Madelung W.: Der Imam al-Qasim ibn Ibrahim und dia Glaubenslhredes Zaidten, Berlin, 1965, pp. 86 - 87 .

٣٢ – مصطفى عبد الله محمد شيحة (الدكتور) : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية (٢٢ – ٢٥ أبريل ١٩٩١م) ، تاريخ المصريين رقم ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م ، ص ٤٣٥ .

٣٣ – الوصابي ، وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٧٨٢هـ) : الاعتبار في ذكر التواريخ والآثار ، المعروف بتاريخ وصاب ، تحقيق عبد الله الحبشي ١٩٧٩م ، ص ١١٦ – ١١٧ .

٣٤ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٩٩ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٧٥ .

٣٥ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ وراجع : -Croken : Zabid Under the Rasulids, pp. 178-180 .

٣٦ – وينسب هذا الكتاب إلى الملك الأفضل العباسي بن الملك المجاهد (راجع : القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ١٠٨ ، وحاشية رقم ٣ .

٣٧ – توجد منه نسخة خطية في مكتبة الأمبروزيانا رقم (٥٢) : الجندي : السلوك ، جـ١ ، مقدمة المحقق محمد بن علي الأكوع ، ص ٣٩ .

٣٨ – توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية رقم ٣٧٧ طب (القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس، ص ١٠٨) .

٣٩ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٩ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٠ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٦٨ ؛ وراجع : القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس ، ص ٢٠١ .

٤١ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤٠٨ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٣ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٩ ، وراجع : القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٩٧ .

٤٤ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٥ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ ، وراجع : عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، سنة ٢٠٠٠م ، ص ٥٦ .

٤٦ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٦٧ .

٤٧ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٠٠ – ١٠١ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٩٧ .

٤٨ – القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١٨٥ .

49 - Croken : Zabid under the Rasulids, p. 143 .

٥٠ – ابن الديبع : قرة العيون ، جـ٢ ، ص ٥١ ، وراجع : إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص١٨٥ .

51 - Croken : Op. Cit., p. 143 .

52 - Lealan Anderson : Historical Considerations, p. 65 .

53 - Ibid., p. 65 ; Croken : Op,Cit., pp. 143 - 144 .

– توجد نسخة من المخطوط فى مكتبة بودلين فى أوكسفورد رقم (٢٣٣) .

٥٤ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٣٢ ؛ وراجع : الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤٣٤ – ٤٤٠ ؛ ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٤٨هـ ، جـ٢ ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

٥٥ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٧ .

٥٦ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٧ ؛ وراجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٢٣٣ .

٥٧ – نفس المصدر ، ص ٩٨ .

٥٨ – توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية رقم ١٥٦ طب ، ونسخة أخرى فى مكتبة لندن (راجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٣٣ ، وكذلك : محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، جـ١ ، ص ٤٠ .

٥٩ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٣٣ .

٦٠ – توجد منه نسخة فى مكتبة الجامع الكبير ، وراجع عن الملك المحاه الرسولي : الفاسي : العقد الثمين ، جـ١ ، ص ١١٨ ، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، جـ٣ ، ص ٤٩ .

٦١ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٢٧ – ١٦٣ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٠ ، قرة العيون ، جـ٢ ، ص ١٠٤ ،

٦٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٢ ، وراجع :

- Croken : Zabid under the Rasulids, pp. 142 - 143 .

٦٣ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٢ ؛ وراجع : محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، ص ٤٠ .

٦٤ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٢٤٦ .

٦٥ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٢ ؛ وراجع : عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى ، تاريخ اليمن ، المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، دار اليمن الكبرى ، صنعاء ، ١٩٩٠ – ١٩٩١ ، ص ١٠٢ .

٦٦ – ميشيل توشرر : المخلاف السليمانى فى اليمن ، ص ٩٢ .

٦٧ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٣ – ١٠٤ ؛ مؤلف مجهل – تاريخ الدولة الرسولية فى اليمن ، تحقيق عبد الله الحبشي ، دمشق ١٩٨٤م ، ص ٣٧ – ٤٨ ، وراجع أيضاً :

- Croken : Zabid under the Rasulids, pp. 165 - 166 .

٦٨ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٤ .

69 - Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٧٠ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٦٣ ، ٣٢٠ ؛ وراجع : الشوكاني ، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ٢ ، ص ٢٨٠.

٧١ – السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر جلال (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية بيروت (د.ت) ، جـ١ ، ص ٢٧٤ ؛ بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦م ، جـ٢ ، ص ٢٠ ؛ عبد الرحمن عبد الله الحضرمي : جامعة الأشاعرة ، ص ٥٩ .

٧٢ – السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ ؛ الشواني : البدر الطالع ، جـ٢ ، ص ٢٨٠ ؛ عبد الرحمن ابن عبد الله الحضرمي : جامعة الأشاعرة ، ص ٥٩ .

٧٣ – ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، حيدر أباد الدكن ١٣٢٥هـ ، جـ١ ، ص ٢–٧ ؛ وراجع : القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٢٧٥ .

٧٤ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

75 - Laelan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٧٦ – أحمد فكري (الدكتور) : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

٧٧ – سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) : العلم بين المسجد والمدرسة ، أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م ، ص ١٥ – ١٦ ؛ محمد حسين الذهبي : المسجد محور النشاط (بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، مكة المكرمة ١٣٩٥هـ ، ص ٤٦٠) .

٧٨ – ابن الحاج (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) : المدخل ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ١ ، ص ٨٥ (نقلاً عن أستاذنا الدكتور : سعيد عبد الفتاح عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة ، ص ٢٨) .

٧٩ – سعيد عبد الفتاح عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة ، ص ٢٨ .

80 - Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, pp. 40 - 169, 171.

- Elian Al-Haisami : The Big Mosque in Zabid.htm (Al-thowra Newspaper 8/1/98) .

٨١ – عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٤٧ .

٨٢ – ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

٨٣ – عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٤٧ ، وراجع كذلك :

- Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٨٤ – المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٨٤ .

٨٥ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٧٢ ، ص ٤٧٤ ، ص ٤٨٦ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٢٦ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ ؛ مؤلف مجهول : تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٢٨ – ٢٩ .

٨٦ – عبد الرحمن الحضرمي : جامعة الأشاعرة زبيد ، ص ٢٩ – ٤٠ ، وراجع أيضاً :

- http://www.unesco.org .

- The city of Zabid, Unesco Press, December 2000 .

٨٧ – عبد الله بن قيس ويكنى بأبي موسى الأشعري بن سليم بن حضار بن يعرب بن قحطان ، وفد على رسول الله ﷺ سنة ٧هـ ، إثر سماعه بالدعوة الإسلامية ، صحبة عمه أبي عامر ، وعمره سبعة عشر عامًا ، ولما عاد إلى اليمن نشر الإسلام بين قومه الأشاعر في تهامة ، وبنى في زبيد هذا المسجد الذى ينسب إليه . (ابن سمره ، عمر بن على بن سمره الجعدى) (المتوفى بعد سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٨ – ٢٤ ؛ الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٩٧ .

٨٨ – الأشاعر : قبيلة من اليمن من ولد الأشعر بن أدد بن عمرو بن زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر . راجع : الهمداني : الأكليل ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ ، جـ١٠ ، ص ٢ ، صفة جزيرة العرب .

٨٩ – عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية ، ص ٥٥ .

٩٠ – نص الكتابة : " بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم " ، ومما أمر بعمله الحسين بن سلامة عامله الله بعفوه ، ولذلك له الأجر عند الله جزيل الثواب .. " في شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين وأربعمائة ضاعف الله له الثواب ، وجعله ذخيرة له في يوم المآب ، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقًا ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . (راجع : عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ، ص ٥٥) .

٩١ – المقداد ، محمد عبد الوهاب المقداد : جامع الأشاعر ، المسمى قرة العيون وانشراح الخواطر فيما حكاه الصالحون في فضل مسجد الأشاعر ، تحقيق عبد الرحمن الحضرمي ، مجلة الإكليل ، صنعاء ، العدد ٣ ، ٤ ، ١٩٨١م ، ص ١١٨ .

٩٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٩٣ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٠ .

94 - Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٩٥ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٢٥٨ – ٢٦٨ ، ٢ ، ٥٤٨ – ٥٥٠ .

96 - Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, p. 171.

- The city of Zabid, Unesco Press.http .

٩٧ – عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمى : زبيد ، مساجدها ومدارسها العلمية ، ص ٦٥ – ٧٨ .

٩٨ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٧ – ٩٩ .

– الحاجة غصون إحدى جوارى الملك المجاهد الثلاث وهن : المذكورة ، وقنديل وسمح . (ابن الديبع : الفضل المزيد) ، ص ٩٩ .

٩٩ – أيمن فؤاد سيد (الدكتور) : المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى ، تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ، ص ٨٩ .

١٠٠ – عفاف سيد محمد صبرة (الدكتورة) : المدارس فى العهد الأيوبى ، تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ، ص ١٤١ .

١٠١ – مصطفى شيحة : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، ص ٤١٠ – ٤١١ .

١٠٢ – نيسابور : مدينة من بلاد خراسان ، وهى بلد واسع افتتحه عبد الله بن عامر بن كريز فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، سنة ٣٠هـ ، وليس بخراسان مدينة أصح هواء ، ولا أرحب فناء ، ولا أمكن تجارة ، ولا أكثر سابلة ، ولا أغزر فائدة من نيسابور . (المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣١٤ : الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٨٨) .

١٠٣ – المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٩٩٠م ، جـ٢ ، ص ٣٦٣ : ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت٦٨١هـ / ١٢٨١م) : وفيات الأعيان ، دراسة الثقاة ، بيروت ١٩٧٢م ، جـ٥ ، ص ١٢٨ .

١٠٤ – أيمن فؤاد سيد : المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى ، ص ٩٩ .

١٠٥ – مصطفى شيحة : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، ص ٤١٢ .

١٠٦ – مصطفى شيحة : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، ص ٤١٣ – ٤١٤ .

١٠٧ – عفاف سيد صبرة : المدارس فى العصر الأيوبى ، ص ١٦٥ – ١٦٦ ، وراجع أيضاً :

- Lealan Anderson : Historical Consideratoions, pp. 68-69 .

١٠٨ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٥ – ٦ ؛ الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٦٤ .

١٠٩ – أورد صاحب نثر الدر المكنون ص ٢٥ ومابعدها ، هذا الحديث برواياته المختلفة ، وطرق أسانيده ، وذكر الكتب التي أوردته . (ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٦ ، حاشية رقم ١) .

١١٠ - القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٥ .

١١١ - ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٩ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص٤٠٢ - ٤٠٣ ، وراجع : القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١٠ .

١١٢ - ابن الديبع : الفضل المزيد : ص ٩٠ ، وراجع :

- Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, pp. 110-114.

١١٣ - القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ١٩٦ ، ١٧٦ ، ٢٨٧ ، ١٥٨ ، ٣٤٦ ، ٢٨٩ ، ٥٣ ، ٥١ .

١١٤ - محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، ص ٢٤٣ ؛ وراجع : الوقفية الغسانية ، القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٧٠ - ٢٧٤ .

١١٥ - حسن الباشا (الدكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٧١٥ .

١١٦ - الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٥١٢ - ٥١٣ .

١١٧ - الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٧٥ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٩ .

١١٨ - القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٢٣٠ .

١١٩ - ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٣ ؛ وراجع : عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٢١٣ .

١٢٠ - الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٨٣ .

١٢١ - نفس المصدر ، ص ٣٨٤ .

١٢٢ - نفس المصدر ، ص ٤٦٦ ؛ ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٣٢ ؛ ابن حجر : الدرر ، جـ٢ ، ص ١٠٠ .

١٢٣ - ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٣٣ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٨ ، وراجع :

- Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, pp. 165-166.

١٢٤ - الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، جـ ١٨٠ .

١٢٥ - ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢١م) : الفهرست ، تحقيق رضا تحدد ، طهران ١٣٥٠هـ / ١٩٧١م ، ص ٦٢ .

١٢٦ - القفطي ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) : أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٨٦م ، جـ١ ، ص ٣١٤ - ٣١٩ ؛ وراجع : حسن

خضيرى أحمد : الهمدانى ومنهجه فى كتابه التاريخ ، مجلة المؤرخ العربى ، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد العاشر ، المجلد الأول ، مارس ٢٠٠٢ ، ص ٤٦٥ - ٤٩٣ .

١٢٧ - حسن خضيرى : الهمدانى ومنهجه فى كتابه التاريخ ، ص ٤٦٧ .

١٢٨ - توجد نسخة من المخطوط فى خزانة عبيكان بالطائف (القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ١٠٨) .

١٢٩ - ينسب هذا الكتاب للمظفر تارة ، وتارة أخرى إلى ابنه الأشرف عمر ، وقد طبع هذا الكتاب باسم المظفر ، (راجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ١٠٨) .

١٣٠ - توجد نسخة من المخطوط فى دار الكتب المصرية رقم (٣٧٧طب) ، وراجع القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٠٨ ، حاشية رقم (٥) .

131 - Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, p. 167 .

١٣٢ - القضاى إسماعيل الأكوع : المدارس اليمنية ، ص ٢٤٧ ، وراجع :

- Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

١٣٣ - عبد الرحمن الحضرمى : جامعة الأشاعرة ، ص ٧٥ ، ويذكر الحضرمى أنه توجد نسخة من الكتاب فى مكتبة العلامة عبد الله محمد السالمى المتوفى سنة ١٣٩٩هـ . (راجع الحضرمى : جامعة الأشاعرة حاشية رقم ١٠) ، ص ٧٥) .

١٣٤ - عبد الرحمن الحضرمى : جامعة الأشاعرة ، ص ٧٥ .

١٣٥ - القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٠٨ .

136 - Lealan, Op. Cit., p. 68 .

١٣٧ - القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية فى اليمن ، ص ٢٠٤ .

١٣٨ - محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، ص ٣٩ : عبد الرحمن الحضرمى : جامعة الأشاعرة ، ص ٧٦ .

١٣٩ - ابن الديبع : بغية المستفيد ، ص ٤٨ .

١٤٠ - محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، ص ٣٩ .

١٤١ - الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، ص ١٠٤ .

١٤٢ القفطى : أنباه الرواة على أنباه النحاه ، جـ١ ، ص ٣١٤ .

143 - Lealan, Op. Cit., p. 67 .

١٤٤ - توجد منه نسخة خطية فى الخزانة الظاهرية بدمشق راجع : محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك ، جـ١ ، ص ٤١ .

١٤٥ - ابن الديبع : قرة العيون ، جـ٢ ، ص ١٥ .

146 - Lealan : Op. Cit., p. 65 .

١٤٧ – الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٠١ ، وراجع :

- John Meloy : Mamluk Authority and Red Sea Trade, pp. 72 - 73 .

١٤٨ – شوقى عبد القوى عثمان (الدكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥١ ، الكويت فى ذى الحجة ١٤١٠هـ / يوليو ١٩٩٠ ، ص ٣٧ – ٣٨ .

١٤٩ – نشر هذا المخطوط جبريل فران ، باريس ١٩٢١ – ١٩٢٣ ; وراجع : شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى ، ص ٩٧ .

١٥٠ – الشافعية : نسبة إلى محمد بن إدريس بن العباس بن شافع الشافعى ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ ، ثم انتقل إلى مكة وتعلم القرآن على سفيان بن عيينة ، ثم خرج إلى المدينة فقرأ على مالك بن أنس الموطأ وحفظه ، وقدم إلى اليمن مع جده لأمه عبيد الله بن الحسن سنة ١٨٠هـ طلبًا للعلم ، فأخذ بها عن قاضى صنعاء هشام بن يوسف الإبناوى . (عن الشافعى راجع : ابن أبى حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م) : آداب الشافعى ومناقب ، تحقيق عبد الغنى عبد الخالق ، القاهرة ١٩٥٣م ; ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٣٤ – ١٤ ; وراجع : أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، ص ٥٨) .

١٥١ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٤٣ .

١٥٢ – نفس المصدر ، ص ٧٩ .

١٥٣ – أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، ص ٥٨ – ٥٩ .

١٥٤ – المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٩٦ .

١٥٥ – المقدسى : أحسن التقاسيم ، ، ص ٩٦ ، ص ١٤٤ .

١٥٦ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٨٨ – ٩٠ ; الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٢٦٤ .

١٥٧ – أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ، ص ٥٩ – ٦٠ .

١٥٨ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٢٤١ .

١٥٩ – الجندى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤١ .

١٦٠ – نفس المصدر ، ص ٣٨٩ .

١٦١ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٨ – ٥٥٠ .

١٦٢ – نفس المصدر ، جـ١ ، ص ٤٥٥ .

١٦٣ – بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ١٣٨ ; وراجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٨٢ .

١٦٤ – السخاوى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) ، جـ٨ ، ص ٢٦٩ .

١٦٥ – السيوطى : بغية الوعاة ٢٥٢/١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

١٦٦ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٥٤ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤١١ – ٤١٢ .

١٦٧ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٢٧٠ ؛ عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية ، ص ٢٠٦ .

١٦٨ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٨٨ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٢٦٤ .

١٦٩ – عصام الدين عبد الروف الفقى (الدكتور) : اليمن فى ظل الإسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٣١٥ .

١٧٠ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٦ .

١٧١ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٧ .

١٧٢ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥١٨ .

١٧٣ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٣٥٥ ؛ وراجع : عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٢٠٥ .

١٧٤ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٨ – ١٩٤ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٨ .

١٧٥ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٩٤ – ٢١٨ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٤ ؛ وراجع : إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٢٥٧ – ٢٥٩ .

١٧٦ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، جـ٢ ، ص ١٧٣ .

١٧٧ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥١٢ – ٥١٣ ؛ وعن رجال التصوف عند الجندى راجع الصفحات : ٣٨٤ – ٢٨٧ ، ٤٤٣ – ٤٤٥ ، ٤٥٥ – ٤٦٠ ، ٤٨١ – ٤٧٨ .

١٧٨ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٩٨ .

١٧٩ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٦٥ .

١٨٠ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٣٨٦ .

١٨١ – نشوان الحميرى ، نشوان بن سعيد : الحور العين ، ص ٢٧١ .

١٨٢ – ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٩ .

١٨٣ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٣٦٢ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٣١٥ – ٣١٧؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ؛ وراجع : مقدمة المحقق مصطفى حجازى لكتاب بهجة الزمن ، ص ٦ – ٩ .

١٨٤ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٤٦ – ١٥٠ .

١٨٥ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٣٦ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٣٣٥ ؛ وراجع أيضًا : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٥ – ٣٦ ؛ عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ١٥٦ .

١٨٦ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٥٢ .

١٨٧ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٨ – ٢١٥ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٨ ، ١٠٤ .

١٨٨ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٨٦ – ٤٨٧ .

١٨٩ – القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٩٤ .

١٩٠ – ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢١٥ – ٢١٧ ؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ؛ وراجع : ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٤٦ – ١٥٠ ؛ وراجع : أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٤م.

١٩١ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٩٧ – ٤٩٨ .

١٩٢ – قام بتحقيق ونشر هذا الكتاب الأستاذ محمد بن على الأكوع الحوالى ، بيروت ، ١٩٨٣م.

١٩٣ – السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢٩٩ ؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ٢٠ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص ١٩ – ٢٠ ؛ ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر ، القاهرة ١٩٧١م ، جـ٢ ، ص ٤٤٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢١٠ .

١٩٤ – مخطوط بمكتبة خدابخش بتنه بالهند رقم ٢٨٨٣ تاريخ ، وتوجد صورة من المخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١١٨٢ ، وقام الأستاذ راضى دغفوس بتحقيق ونشر الفصول الخمسة الأولى من الكفاية والأعلام ، منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧٩م .

١٩٥ – راضى دغفوس : اليمن فى عهد الولاة ، ص ١١ .

١٩٦ – القاضى إسماعيل الأكوع: " أضواء على مؤلفات على بن الحسن الخزرجي مؤرخ اليمن " ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الرابع ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ١٢٣ – ١٢٩ ، حيث نسب كلاً من كتاب العسجد والعقود للملك الأشرف ، ص ١٢٥ ، وراجع أيضاً : راضى دغفوس : اليمن فى عهد الولاة ، ص ١٢ ، حيث يتفق مع رأى القاضى إسماعيل الأكوع فى نسبتهما للملك الأشرف .

١٩٧ – راجع : أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ، ص ١٥٧ .

١٩٨ – أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ، ص ١٥٨ – ١٦٢ .

١٩٩ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٦ .

٢٠٠ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٤٧ .

٢٠١ – ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٠٤ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر المخطوطة:

- الحاكم الجشمي ، أبو سعد الحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي (ت ٤٩٤ هـ / ١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الإمام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية (ميكروفيلم رقم ٣٠٦) .

ثانياً : المصادر المطبوعة :

- الإدريسى ، الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤م ، ٢ جزء .

- الأصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) : مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٧٤م.

- ابن بطوطة ، أبو عبد الله بن عبد الله اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) : رحلة ابن بطوطة ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) .

- البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليون ، وأندرى فيرى ، تونس ١٩٩٢م ، ٢ جزء.

- الجندى ، محمد بن يوسف بن يعقوب الجندى (كان حيًا فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) : السلوك فى طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣م ، جـ١ .

- ابن أبى حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م) : آداب الشافعى ومناقبه ، تحقيق عبد الغنى عبد الخالق ، القاهرة ١٩٥٣م.

- ابن الحاج (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) : المدخل ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ١ .

- ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) :

- إنباء الغمر بأبناء العمر ، القاهرة ١٩٧١م ، ٢ جزء .

- تهذيب التهذيب ، حيدر أباد الدكن - الهند ، ١٣٢هـ ، جـ ١ .

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، حيدر أباد الدكن ، الهند ١٣٤٨هـ ، جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ .

- الحجرى ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، بيروت ١٩٨٤م ، ٢ جزء .

- الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠م.

- الخزرجى ، موفق الدين أبو الحسن على بن أبى بكر (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) :

- العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى الشريف ، رقم ٨٤ تاريخ ، القسم الخاص ببناء مدينة زبيد ، ملحق بمقال د. طاهر مظفر العميد ، ص ٢٤٦ ٣٥٤ ، مجلة كلية الآداب ببغداد ، العدد ١٣، سنة ١٩٧٠م.

- العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ، القاهرة ١٩١١م ، ٢ جزء .

- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون ، الإسكندرية (د.ت) .

- ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨١م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢م ، جـ٥ .

- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد بن عمر الشيبانى (ت ٩٢٤هـ / ١٥٣٣م) :

- قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٧٤هـ .

– الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، تحقيق الدكتور يوسف شلحد ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٣م.

– ابن رسول ، عمر بن يوسف (ت٦٩٦هـ): طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب ، تحقيق كوسترستين ، القاهرة ١٩٨٥م.

– السخاوى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .

– ابن سمرة ، عمر بن على بن سمرة الجعدى (المتوفى بعد سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، دار القلم ، بيروت (د.ت) .

– السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت (د.ت) .

– الشوكانى ، محمد بن على الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ١ ، جـ٢ .

– ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م) : تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازى، القاهرة ١٩٦٥م .

– الفاسى ، تقى الدين بن أحمد المكى (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (١–٧) تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٩ – ١٩٦٧م.

– القفطى ، جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : أبناه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٨٦م ، جـ١ .

– الكبسى ، محمد بن إسماعيل الكبسى الصنعانى (ت ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م) : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية مطبعة دار السعادة ، القاهرة (د.ت) .

– ابن المجاور ، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الدمشقي (كان حيًا سنة ٦٣٠هـ / ١٢٧٢م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المعروف بتاريخ المستبصر ، حققه أوسكر لوفجرين ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦م.

– بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) : تاريخ ثغر عدن تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦م ، جـ٢ .

– المقداد ، محمد عبد الوهاب المقداد : جامع الأشاعر المسمي قرة العيون وانشراح الخواطر فيما حكاه الصالحون في فضل مسجد الأشاعر ، تحقيق وتعليق عبد الرحمن الحضرمي ، مجلة الأكليل ، صنعاء ، العددان ، ٣ ، ٤ ، ١٩٨١ .

– المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المعروف بالبشاري (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩١م.

– المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، القاهرة ١٩٩٠م ، ٢ جزء .

– مؤلف مجهول : تاريخ الدولة الرسولية في اليمن ، تحقيق عبد الله الحبشي ، دمشق ١٩٨٤م.

– ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢١م) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٥٠هـ / ١٩٧١م.

– نشوان الحميري ، أبو سعيد نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، دار أزال للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٥م.

– الوصابي ، وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٧٨٢هـ) : تاريخ وصاب ، الاعتبار في التواريخ والاثار ، تحقيق عبد الله الحبشي ، دمشق ١٩٧٩م.

– ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤م.

- الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (كان حيًا فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) :

- الإكليل ، جـ١ ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٩٦٣م.

- الإكليل ، جـ١٠ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ .

- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣م.

- ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤م.

- يحيى بن الحسي بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٨م ، ٢ جزء .

ثالثًا : المراجع العربية الحديثة :

- إبراهيم أحمد المقحفى : معجم المدن والقبائل اليمنية ، منشورات دار الكلمة ، صنعاء ١٩٨٥م

- أحمد فكرى (الدكتور) : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٩٦٩م ، جـ٢ .

- أيمن فؤاد سيد (الدكتور) : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٨٨م.

- مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٧٤م.

- المدارس فى مصر قبل العصر الفاطمى ، أبحاث ندوة المدارس فى مصر الإسلامية (٢٢ - ٢٥ إبريل ١٩٩١م) ، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م .

- حسن الباشا (الدكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٦م.

- حسن خضيرى أحمد (الدكتور) : قيام الدولة الزيدية فى اليمن (٢٨٠ - ٢٩٨هـ / ٨٩٣ - ٩١١م) مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٩٦م.

- الهمدانى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، مجلة المؤرخ العربى ، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد العاشر ، المجلد الأول مارش ٢٠٠٢ م .

- راضى دغفوس (الدكتور) : اليمن فى عصر الولاة ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٩م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) : العلم بين المسجد والمدرسة ، أبحاث ندوة المدارس فى مصر الإسلامية ، (٢٢ - ٢٥ أبريل ١٩٩١م) سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

- شوقى عبد القوى عثمان (الدكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (١٤ - ٩٠٤هـ / ٦٦١ - ١٤٩٨م) سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥١ ، الكويت ذو الحجة ١٤١٠هـ / يوليو ١٩٩٠م .

- طاهر مظفر العميد (الدكتور) : بناء مدينة زبيد فى اليمن ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٧٠م.

- عبد الرحمن الحضرمى : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية فى التاريخ ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ، دمشق سنة ٢٠٠٠ .

- جامعة الأشاعرة زبيد ، دار أزال للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٥م.

- عبد الواسع بن يحيى اليمانى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، دار اليمن الكبرى ، صنعاء ١٩٩٠ - ١٩٩١م .

- عصام الدين عبد الرؤف الفقى (الدكتور) : اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٢م.

- عفاف سيد محمد صبرة (الدكتورة) : المدارس فى العصر الأيوبى ، أبحاث ندوة المدارس فى مصر الإسلامية (٢٢ - ٢٥ أبريل ١٩٩١م) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م .

- القاضى إسماعيل بن على الأكوع : المدارس الإسلامية فى اليمن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- أضواء على مؤلفات على بن الحسن الخزرجي ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الرابع ، بغداد ، ١٩٧٧م.

- محمد حسين الذهبى : المسجد محور النشاط ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، مكة المكرمة ١٣٩٥هـ .

- محمد عبد الستار عثمان (الدكتور) : المدينة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الكويت فى ذى الحجة ١٤٠٨هـ / أغسطس ١٩٨٨م.

- محمد عبد العال أحمد (الدكتور) : بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما ، القاهرة ١٩٨٠م.

- محمد بن على الأكوع الحوالى : مقدمة كتاب السلوك فى طبقات العلماء والملوك ، للجندى ، بيروت ١٩٨٣م.

- مصطفى عبد الله محمد شيحة (الدكتور) : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية المدرسة اليمنية ، أبحاث ندوة المدارس فى مصر الإسلامية (٢٢ - ٢٥ أبريل ١٩٩١م) سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

- ميشيل توشرر (الدكتور) : المخلاف السليمانى فى اليمن ، نقله إلي العربية الدكتور على محمد زيد ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٣٢ ، أبريل ، مايو ، يونيو ١٩٨٨م ، صنعاء .

رابعاً : المراجع الأجنبية :

1 - Croken, Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen ph.D.Diss., Harvard University, 1990 .

2 - Elian Al-Haismi : The Big Mosque in Zabid.htm (Al-thowra Newspaper 8/1/98) .

3 - Encycolopaedia of Islam .

4 - The City of Zabid, Unesco press, December 2000 (http://www.unesco.org) .

5 - Geoffery, King: Examples of the secular Architcture of Najd Arabian Studies, Cambridge, 1962 .

6 - G.R.Smith, " The Ayyubids and early Rasulids in the Yemen (567 - 694 H/1173-1295 A.D.) V.2 , London 1978, .

7 - John, Lash Meloy : Mamluk authority, Meccan autonomy and Red sea Trade (797 - 859H / 1395-1455A.D), ph.D.diss., Chicago University, 1998 .

8 - K.N, Chaudhuri. : Trade and Civilization in the Indian Ocean , Cambridge University press, 1985 .

9 - Lealan Anderson Swanson: Historical considerations in yemeni Vernacular Architecture houses from the Sulayhid Dyansty (439H - 1047A.D) to the modern period, ph.D.diss., Ohio state University, 1997 .

10 - Madelung W.: Der Imam al-Qasim ibn Ibrahim und dia Glaubensiehra der Zaidten, Berlin, 1965 .

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى (*)

شاهد قبر أحد قضاة مصر فى العصر العثمانى

مما لاشك فيه أن دراسة شواهد القبور الإسلامية ، كشفت النقاب عن أهميتها الكبرى فى علم الآثار ، حيث أنها تُعد بحق توثيقًا تاريخيًا وتسجيلاً أثريًا ، لكل بلد من بلدان العالم ، وكل قطر من أقطار الإسلام ، ومن ثم فهى أصدق قيلاً وأقوى دليلاً ، فى تمثيل حضارة كل عصر من العصور الإسلامية بجميع أحداثه السياسية ، وجوانبه الاجتماعية ودلالاته الدينية (١).

وقد تميزت مصر على مر حقبها التاريخية وعصورها الإسلامية ، بكثرة ما عُثر عليه من شواهد قبور(٢) بباطن أرضها ونتاج حفائرها . تلك الشواهد هى الألواح الحجرية أو القوائم الرخامية التى توضع فوق التركيبة للدلالة على من يرقد فى هذا القبر ، أو للإشارة إلى من دُفن فى هذا اللحد ، وكما هو معلوم لدينا أن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، يحتفظ بأقدم شاهد قبر من الحجر الجيرى ، نقش عليه كتابة باسم ابن حجر ، ومؤرخ سنة ٣١هـ ، وهو يمثل أقدم كتابة على الحجر كشاهد قبر فى مصر الإسلامية (٣).

وعلى الرغم من إجماع آراء الفقهاء ، واتفاق أغلبية العلماء ، على كراهية الإسراف فى تشييد شواهد القبور من حيث النقش عليها خطيًا ، والتأنق بها زخرفيًا ، غير أن المسلمين للأسف لم يلتزموا بما رسمه لهم علماء الإسلام ، ولم يتبعوا ما أفتى به فقهاء الدين ، بل على العكس زادت عنايتهم بزخرفة هذه الشواهد(٤) ، بالعناصر النباتية والخطوط الكتابية والرسوم الهندسية .

* كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

ومما يحسب لهم ، أنها تعد بحق – بما نقش على ألواحها ، وكتب على تراكيبها – سجلاً حافلاً بالأحداث التاريخية ، والحياة السياسية ، والمكانة الاجتماعية ، والأوضاع الاقتصادية ، والنصوص التذكارية ، والعبارات الدعائية ، والألقاب الفخرية ، والأنساب العائلية ، ومن ثم انعكس كل هذا على الأساليب الفنية (٥).

ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بمجموعة كبيرة من شواهد القبور الإسلامية التي ترجع إلى عصور مختلفة ، بينما يظهر جليًا واضحًا التأنق الزخرفي ، والثراء المادي في تلك الألواح الرخامية(٦) لشواهد القبور العثمانية .

وخير ما يحتفظ به متحف الفن الإسلامي بالقاهرة من تلك الشواهد العثمانية ، هو ذلك الشاهد الرخامي ، الذي أتناوله بالدراسة والتحليل ، لما له من طراز فريد ، حيث يعد من الشواهد المهمة دينيًا وتاريخيًا وسياسيًا ، وأيضًا أثريًا ، وكذلك لغويًا (لوحة ١) (٧). وينفرد هذا الشاهد الرأسي في أن صاحبه الأمير محمد نبيل ، كان يشغل منصبًا دينيًا وقضائيًا في القطر المصري ، وذلك في النصف الأول من القرن ١٣هـ / ١٩م .

ومن المعروف أن أول سلطة للقضاء (٨)، وتطبيق نصوص التشريع الإسلامي على الوقائع ، كان في عهد الرسول ﷺ ، فقد استمدها النبي ﷺ ، من المولى عز وجل في كتابه العزيز بقوله : { فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ } (٩). ومما هو جدير بالذكر أنه من نتائج الفتح العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، كان السلطان يعهد برياسة القضاء لقاضي غير مصري يعين من قبل الباب العالي بالأستانة ، ويبقى الأمر كذلك إلى وقت الاحتلال الفرنسي ، حين قلد الفرنسيون عالم مصري جليل ، هو الشيخ أحمد العريشي ، القضاء (١٠)، بين المسلمين بالمحكمة وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥م ، ويعد هذا هو السبب الذي دفعني إلى الاهتمام بدراسة وتحليل شاهد قبر نُقش عليه اسم قاضي مصر من قضاة تلك الفترة الزمنية التي عُهد فيها بمنصب تولي القضاء للعثمانيين ، حيث يوضح هذا الشاهد بجلاء ، احتوائه على العديد من الألقاب الجميلة ، والصفات الحميدة لمفتي الديار المصرية ، وقاضي مصر الفتية ، جُمعت من حديقة كلمات اللغة العربية ، وبستان مفردات اللغة التركية ، وزهرات من اللغة الفارسية ، وذلك بما يتناسب مع المكانة الرفيعة والقدر العالي لهذه الشخصية الدينية المتبوأة منصبًا قضائيًا مهمًا (لوحة ٢) .

وهذا الشاهد الرأسي نُقش عليه عبارات جميلة ، وصفات حميدة ، وألفاظ بليغة ، وكلمات مرتبة في اثنا عشرة سطر ، كل سطر داخل منطقة مستطيلة تشغل مساحة الشاهد كله ، وهو خلو من أية زخرفة اللهم القاعدة (لوحة ٣ ، شكل ١) ، وترتيبها كالآتى :

السطر الأول : هو الباقي

السطر الثاني : مفتي دوران اولان عاش افنديمزك أولدى [١١]

السطر الثالث : حفيدى بومير عدنه خرام ايلدى[١٢]

السطر الرابع : ذات[١٣] حسيب وجميل يعني محمد نبيل اولدى

السطر الخامس : صلاح دليل خلد واروب الكام [١٤]

السطر السادس : امير[١٥] سخندان ايدى فايق الأقران ايدى[١٦]

السطر السابع : ذات بر[١٧] عرفان ايدى نظم ونثر ده بنام[١٨]

السطر الثامن : قاضي مصر ايكن آه[١٩] روحى ايدوب[٢٠] وعزم راه[٢١]

السطر التاسع : قصر جناني بناه[٢٢] ايليه رب الأنام[٢٣]

السطر العاشر : كلدى بو بالا[٢٤] لبيب سويلدى تاريخ فوت[٢٥]

السطر الحادى عشر : مير محمد نبيل جنتي قيلدى مقام [٢٦]

السطر الثاني عشر : ١٢٣٥

وترجمة[٢٧] أسطر وكلمات هذا الشاهد بالترتيب كالآتى :

السطر الأول : الله هو الباقي

السطر الثاني : عاش سيدنا الذى أصبح مفتي الدنيا (العصر)

السطر الثالث : وقد أصبح هذا الأمير سعيداً (متبختراً)

السطر الرابع : يعني محمد نبيل أصبح شخصية ذات حسب ونسب جميل (أى أصل عريق)

السطر الخامس : لقد امتلك الصلاح ووصل إلى سجل الخلد (لقد أصبح صالح أعماله دليل خلده)

السطر السادس : كان أميراً للكلام ، وكان فائق الأقران .

السطر السابع : كان شخصاً مفعماً بالعرفان ، صاحب اسم فى النثر والنظم (أى أنه كان علماً فى نظم الشعر والنثر) .

السطر الثامن : آه ... أسلم الروح عندما كان قاضى مصر ، ونو عزم (عندما كان قاضياً لمصر كانت روحه سمحة ، ونو عزم)

السطر التاسع : فليسكنه رب الأنام (رب الوجود) قصر الجنات ، (يا إلاهى فلتجعل له قصراً فى الجنة)

السطر العاشر : فجاء تاريخ وفاة هذا الأمير اللبيب منكوراً

السطر الحادى عشر : فاجعل الجنة مقام (مستقر) الأمير محمد نبيل

السطر الثانى عشر : سنة ١٢٣٥ (أى السنة الهجرية التى توفى فيها الأمير)

وتُعد كلمات السطر الحادى عشر بحساب الجُمل[٢٨] هى تاريخ وفاة الأمير محمد نبيل ، وبيانها كالآتى :

مير (م = ٤٠ + ى = ١٠ + ر = ٢٠٠) = ٢٥٠ +

محمد (م = ٤٠ + ح = ٨ + م = ٤٠ + د = ٤) = ٩٢ +

نبيل (ن = ٥٠ + ب = ٢ + ى = ١٠ + ل = ٣٠) = ٩٢ +

جنتى (ج = ٣ + ن = ٥٠ + ت = ٤٠٠ + ى = ١٠) = ٤٦٣ +

قيلدى (ق = ١٠٠ + ى = ١٠ + ل = ٣٠ + د = ٤ + ى = ١٠) = ١٥٤ +

مقام (م = ٤٠ + ق = ١٠٠ + ا = ١ + م = ٤٠) = ١٨١

إذن المجموع الكلى = ١٢٣٢

للاستدراك هناك : ا = ١ فى كلمة جناتى

ا = ١ فى كلمة أمير

ا = ١ فى كلمة ماقام

إذن يكون حساب الجُمل ١٢٣٥ ، هو ما ينطبق مع تاريخ الوفاة التى نُقشت على شاهد قبر الأمير . بالإضافة إلى الألفاظ الفارسية والتركية التى ورد ذكرها على شاهد هذا القبر .

فإن هناك بعض الألفاظ العربية المهمة التى يجب إيضاحها وتفسيرها عن شخصية الأمير محمد نبيل ، وهى مرتبة حسب ما جاء ذكرها ، ونُقشت كلماتها كالآتى :

مُفتى : هو اسم وظيفة دينية ، ذات مكانة رفيعة وقدر عالى ، حيث يُعد هو والصدر الأعظم من أكبر الشخصيات فى الدولة بعد السلطان (٢٩)، والمفتى هو الذى يفتى فى الأمور الدينية من فقه وشريعة وحديث ، وغيرها من العلوم الدينية ، لذا لابد أن يكون عالمًا متفقهًا فى كل هذه العلوم ، فهو الذى يفتى بإقامة الحق ، وإبطال الباطل ، ويرد على السائلين بخصوص الحلال والحرام(٣٠) .

كما أنه هو الذى تُعرض عليه المسائل العويصة التى قد تظهر عند تطبيق أحكام الشريعة ، ويتوجه إليه للحصول على حكم منه ، باعتباره رجل الشريعة المُكلف بإبداء الرأى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات ، وهذا الذى يصدره من هذه الأمور الجنائية أو غيرها من المسائل المدنية يُسمى فتوى (٣١).

وبناءً على ذلك فهو المفسر الرسمى للشريعة الإسلامية فى الدولة ، وجرت العادة أن يخصص لكل إقليم رئيسى أربعة للمذاهب الأربعة ، بالرغم من أن المذهب الرسمى للدولة العثمانية كان هو المذهب الحنفى (٣٢).

وقد كان للقب المفتى فى العصر العثمانى شأن كبير ، حيث نُعت به كبار العلماء والقضاة ، وأطلق هذا اللقب على شيخ الإسلام باستانبول فى عهد مراد الثانى ، كما أطلق عليه أيضًا لقب مفتى الأنام فى عهد بايزيد بيلدرم رابع سلاطين آل عثمان ، وذلك للإشراف على جميع العلماء والقضاة ونواب الشرع (٣٣).

وترجع أهمية المفتى فى هذه الفترة إلي كثرة الفتاوى التى اعتمدت عليها قوانين الدولة العثمانية حتى أنه قد أنشىء له فى عهد سليمان القانونى مكتب خاص عُرف بـ (فتوى خانه) لمساعدة المفتى فى إعداد قراراته (٣٤).

وقد كان الإفتاء وظيفة يُعين لها من قبل ولى الأمر أى السلطان العثمانى بالباب العالى ، ومن بعده الوالى المصرى (الباشا) ، وبالرغم من ذلك فللمفتى الحق فى إصدار فتوى بعزل الباشا نفسه ، ولم تكن تلك قاعدة ، فقد كان من سلطة السلطان أن يصرف صاحب اللقب ، عن منصبه حين لا يتجاوب معه ، وهى سلطة لجأ إليها كثير من السلاطين العثمانيين (٣٥).

ومما هو جدير بالذكر أن مفتى القاهرة كان يُعين من قبل شيخ الإسلام أستانبول ، وكان يطلق عليه أيضاً شيخ الإسلام ، وهو لقباً فخرياً وليس وظيفياً ، مثلما كان يُعين المفتيون فى جميع ولايات الدولة ، ومن ثم فقد كان يطلق عليهم هذا اللقب على غرار مفتى أستانبول (٣٦).

أما عن أول من لُقب بإفتاء السلطنة الشريفة بالديار المصرية ، فهو أبى السرور البكرى ، والذى لُقب أيضاً بشيخ الإسلام ، كما يذكر ابنه فى نزهته الزهية (٣٧). كما لُقب به العديد من علماء الأزهر ومشايخ الإسلام (٣٨).

وقد ورد كثيراً ذكر لفظ المفتى فى الكتابات الأثرية ، كلقب مركب مثل " مفتى المسلمين " ، و " مفتى الشرق " و " مفتى الفرق " (٣٩). وهنا على شاهد هذا القبر " مفتى العصر أو الدنيا ".

أفندى : كلمة يونانية الأصل ، عامية الاستخدام من افنديس Efendis ، مأخوذة من الكلمة القديمة Aventus ، وهو من الألقاب الفخرية (٤٠). دخلت فى اللغة التركية الأناضولية فى وقت مبكر ، واستعملها الترك فى القرن ٧هـ / ١٣م (٤١). وهذه الكلمة تُعنى السيد والصاحب والمالك والولى (٤٢). وقد استعملها محمد الفاتح بهذا المعنى " أنا السيد العظيم" (٤٣) وقد استخدم هذا اللقب الفخرى لأصحاب الوظائف الدينية والمدنية ورجال الشريعة والعماء ، وكان لقباً رسمياً لضباط الجيش العثمانى حتى رتبة بكباشى (٤٤).

ولا غرو فى أن العثمانيين كانوا يستعملونه لقباً للرجل يقرأ ويكتب ، ولقباً لبعض كبار الموظفين ، ومن ثم كان لقباً لرئيس الكُتاب " رئيس أفندى " ، وله ديوان خاص يعرف " ديوان افنديسى " (٤٥). ولقاضى استانبول (استانبول أفنديس) (٤٦). أى أفندى استانبول ، وكذلك كان لقباً للأمراء أولاد السلاطين ، كما أطلق على مشايخ الإسلام .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا اللقب أطلقه الترك على رؤساء الديانات الأخرى ، حيث لُقب به حايم ناحوم أفندى عندما كان حاخاماً فى استانبول ، ثم عين فيما بعد حاخاماً على يهود القاهرة (٤٧) ومن الطريف أن لقب أفندى كانت تُلقب به أيضاً النساء فى العصر العثمانى ، فيقال " خانم أفندى " ولزوجة السلطان " قادين أفندى " (٤٨).

وقد شاع لقب أفندى فى البلاد التى خضعت للنفوذ العثمانى ، حيث استخدم فى مصر لقباً فخرياً لنقيب الأشراف ، وفى ذلك يذكر الجبرتى (٤٩). فى أحداث ١٢٣٤هـ فيقول " عمر أفندى نقيب الأشراف " .

كما كان يطلق على القاضى لقب أفندى فى مصر العثمانية (٥٠)، كما يذكرها الجبرتى فى أحداث ١٢٣٥هـ فيقول " وقع الاختيار على محمد أفندى الأسيوطى قاضى أسيوط " (٥١)، وأطلق كذلك على الكثير من المهن والوظائف ، التى كان يشغلها الموظفون المصريون فى العصر العثمانى منها الدفتردار والروزنامجي وأمين عيار الضربخانة (٥٢).

ويكفى للاستدلال على المكانة العالية والسمو الرفيع للقب أفندى فى العصر العثمانى ، أن أطلق المصريون على محمد على باشا " أفندينا " (٥٣)، وأيضًا على الباشوات الذين تولوا الحكم قبله . ومما يؤكد هذا ما ذكره المستشرق الفرنسى " لانكريه "(٥٤) " بأن الأفندية فى مصر يتمتعون بكثير من الاحترام ، بسبب نزاهتهم وتعليمهم ، وتبعًا لتقاليد هذه البلاد ، وكان أغلبهم يتكلمون اللغة التركية بخلاف لغة بلادهم التى يعرفونها جيداً ، وكل من هؤلاء يمتلك ثروة ، تضعه فى عداد الطبقة الميسورة " .

وقد شاع استخدام هذا اللقب كما يظهر في النقوش الكتابية فى القرن ١٣هـ / ١٩م ، وخاصة على شواهد القبور العثمانية بمدافن مدينة القاهرة (٥٥)، وألغى لقب أفندى فى تركيا سنة ١٩٣٤م ، وبطل استعماله فى مصر بعد سنة ١٩٥٢م(٥٦).

مير : تحريف للفظ أمير ، والأمير هو ذو الأمر أو المتسلط ، وتستخدم هذه اللفظة كاسم وظيفة أو للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخرى (٥٧)، وقد وردت كلمة أمير فى الحديث كثيراً، وترسم هذه اللفظة اليونانية " أمير أو أمار أو أميراس ، وفى اللاتينية أميرانوس أو أميراليوس ، وينطق بها فى الفارسية عادة مير (٥٨).

وقد استخدم هذا اللقب فى بداية عصر محمد على بنفس استعماله فى العصر العثمانى ، وذلك لقبًا لكبار رجال الدولة ، وأحيانًا كثيرة كان يرد هذا اللقب مخففًا بصيغة " مير " ، كما استخدم بعد ذلك لقبًا لأفراد الأسرة المالكة ، من الرجال والنساء على حد السواء (٥٩)، ووردت هذه الكلمة بدلالات مختلفة فى الكتابات الأثرية على الآثار العربية والإسلامية .

ذات بر وعرفان : ذات أو ذو ، صاحب أو مالك ، وجمعها ذوات ، وقد استعمالها الأتراك ببعض التحريف فى معانيها الأصلية إلى معان مجردة أو اصطلاحية ، وبالرغم من ذلك فهى متصلة بالمعنى الأصلى (٦٠).

وقد ألحقت في تكوين كثير من الألقاب المركبة ، وكان هذا النوع من الألقاب شائعًا في العالم الإسلامي ، خاصة منذ أواخر القرن ١٢هـ / ١٨م ، واستمر هذا اللقب في القرن ١٣هـ/١٩م بنفس المعنى والمضمون الذي استعمل به طوال العصور الإسلامية (٦١).

والبر هو الصلة والخير والجنة والسعة في الإحسان ، وجمع هذه الكلمة أبرار وبررة (٦٢)، وقد ورد ذكر كلمة البر في كثير من الآيات القرآنية (٦٣)، وإضافة بر وعرفان إلى ذات تُعني أن صاحبه تمتع بصلة البر والخير والعرفان مع الناس في حياته الدنيا ، ومع الله في دنياه وآخره ويكفي للدلالة على ذلك ، أن تُذكر كلمة البر صراحة في الكثير من سور القرآن الكريم .

قاضي : من المعروف أن أول سلطة للقضاء في الإسلام كانت في عهد الرسول ﷺ (٦٤). حيث استمد النبي ﷺ نصوص التشريع الإسلامي على الوقائع من المولى عز وجل ، في كتابه الكريم بقوله { فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ } (٦٥).

وقد كان يشترط فيمن يُولى القضاء شروطًا كثيرة وهي أن يكون حرًا ، عاقلاً ، بالغًا ، مسلمًا ، عادلاً ، وأن يكون سليم السمع والبصر (ويجوز للقاضي أن يكون ضريرًا) ، وأن يكون عالمًا بالأحكام الشرعية ، عارفًا بأسرار التشريع ، مجتهدًا لا مقلدًا غيره في تفسير أو تأويل ، وأن يكون رجلاً (٦٦)، وذلك لأن القضاء من المراتب العظيمة الأهمية ، التي لها مساس بحرية الأشخاص وبأموالهم وبحقوقهم .

والقاضي اسم لوظيفة ، عُرفت في الدولة العباسية ، وكذلك في عصر الغزنويين ، ومن ثم انتقلت إلى السلاجقة ومنهم إلى الأتابكة (٦٧)، بينما استعمل كلقب فخري في نهاية العصر الفاطمي ، حيث كان يطلق على الكُتاب والعلماء وموظفي الدولة المدنيين ، سواء أكانوا يشغلون وظيفة القضاء أم غيرها (٦٨).

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الوظيفة استخدمت رسميًا في مصر ، منذ عصر صلاح الدين الأيوبي فكان صاحبها يحضر بدار العدل ، ويصاحب السلطان في سفره ، مع قضاة الشافعية والمالكية والحنفية وليس بينهم الحنابلة (٦٩).

أما في العصر المملوكي ، فقد قام القضاة في هذا العصر بدور مهم في المجتمع ، إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية ، وكانت جلسات المحاكم تُعقد في دور القضاء ، فإن لم توجد فإنها تُعقد عادة في المساجد (٧٠).

وقد عُرفت وظيفة القضاء فى الدولة العثمانية منذ عصر أورخان ، بينما كان الاهتمام الأكبر برجال القضاء فى عهد السلطان محمد الفاتح ، حيث كان يحرص حرصاً خاصاً على حسن اختيارهم من المضلعين فى الفقه والشريعة والمتصفين بالنزاهة والاستقامة ، وأن يكونوا موضع احترام الناس ، وأن تكفى رواتبهم كفاية تامة ، سداً لسُبل الإغراء والرشوة (٧١)، فلم يكن للقاضى المرتشى عند الفاتح من جزاء غير القتل العنيف الزاجر " (٧٢).

ففى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م ، حدث تغيير كبير فى النظام القضائى المصرى فى العصر العثمانى حينما بعث السلطان سليمان القانونى (٧٣) – والذى عُرف بالقانونى لازدياد حركة الفتوحات الإسلامية وكذلك لازدياد حركة التقنين فى عهده – من استانبول ، بمرسوم يقضى بإبطال القضاة الأربعة الذين بمصر ، ويقتصر الأمر علي أربعة نواب ، من كل مذهب نائب لا غير ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود لا غير ، وأن هؤلاء النواب الأربعة يكونون فى المدرسة الصالحية دائماً ، وأن لا يُعقد عقداً ولا يوقف وقفاً ولا تُكتب وصية ولا عتق ولا تُكتب إجازة ولا حُجة ولا غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تُعرض على قاضى العسكر بالمدرسة الصالحية دائماً .

فلما وقف ملك الأمراء على مرسوم السلطان سليمان ، أرسل يقول للقضاة الأربعة : اصرفوا الرسل عن أبوابكم ، والنواب قاطبة والوكلاء ، والزموا بيوتكم إلى أن يحضر قاضى العسكر .. فامتثلوا ذلك " (٧٤).

وسرعان ما حضر جلبى العثمانى إلى القاهرة فى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م بمرسوم سلطانى من قبل الباب العالى باستانبول ، ليكون بذلك أول قاضى عسكر للديار المصرية ، وكان من أتباع المذهب الحنفى ، لكونه المذهب الرسمى للدولة (٧٥)، ونستدل من هذا بأن المهمة الموكلة للقضاة فى إقامة العدالة فى مصر ، مرتبطة بالهيئة القضائية الإسلامية التى مقرها القسطنطينية (٧٦).

أما عن هذا القاضى فقد حصل لأهل مصر منه غاية الضرر للرجال والنساء ، ووقع منه أمور شنيعة ، وصفها ابن إياس(٧٧) بقوله " ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، فتزايد حكمه بالجور بين الناس ... حيث فتك بالناس فتكاً ذريعاً " ويسترسل فى وصفه قائلاً " وقد جمع بين قبح الشكل والفعل ، فإنه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء ، وقد طعن فى السن ، وكان قليل الرسمال من العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئاً من الأحكام الشرعية " .

ولا غرو أن بلغ عدد نواب القضاة الأربعة ست وعشرين نائباً ، عينهم قاضي العسكر جلبي وأناب عنه القاضي صالح العثماني الحنفي (٧٨)، حتى وصل عدد نواب القضاة الأربعة " عن المذاهب الأربعة " في نهاية العصر العثماني بمصر ست وثلاثين قاضياً بما فيهم قاضي العسكر المكلف بإدارة شئون القضاء في القاهرة ، والذي يعتبر القاضي الأول في الإقليم ، وكل هؤلاء القضاة كانوا يتبعون القسطنطينية مباشرة ، وللأسف فإنهم كانوا يجهلون لغة البلاد بما فيهم قاضي العسكر ، الذي كان يستعين بتراجمة يقرأون له النصوص ويترجمونها كما يحلو لهم (٧٩).

وعلى الرغم من القانون الذي أصدره سليمان القانوني ، يقضي بتجريم بيع وظيفة القضاء، إلا أن ذلك لم يكن معمولاً به ، في أواخر الحكم العثماني ، فقد كانت وظيفة قاضي العسكر ، تشترى من القسطنطينية ، ويدفع التزامها إلى رئيس قضاة الأناضول وشيخ الإسلام ، وكذلك وظائف القضاة الست والثلاثون (٨٠).

وهكذا حرص العثمانيون على عثمنة القضاء المصري ، وذلك بأن ظل تعيين قاضي القضاة أو كما كان يسمى بقاضي العسكر ، يتم بقرار من السلطان العثماني بناءً على اقتراح شيخ الإسلام ، وفي حالة خلو المنصب من شاغره ، لم يكن من سلطة والي مصر أن يعين قاضياً ، وإنما يعين قائمقام لقاضي العسكر ، حتى يرسل الباب العالي بالأستانة قاضياً (٨١).

وقد كان نتيجة طبيعية لنظام من هذا النوع ، أن كل قضاة مصر في العصر العثماني كانوا غرباء على البلاد التي عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الأهمية والمكانة (٨٢) . وظل الأمر كذلك إلى أن عهد الفرنسيون لعالم مصري جليل برئاسة القضاء سنة ١٢٣١هـ ، هو الشيخ أحمد العريشي (٨٣)، وللأسف بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، عادت الأمور إلى سابق عهدها ، واستمر ذلك إلى أن قطعت انجلترا علاقة مصر بالدولة العثمانية في سنة ١٩١٤م(٨٤) . أما عن اختصاصات ومهام قاضي العسكر فهي تنحصر في :

الفصل في القضايا ، اختيار أئمة المساجد ، إدارة الأوقاف الخيرية ، تقسيم التركات ، تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات ، ولهذا فقد نظمت مصاريف القضاء ووضع لها رسوماً ونسباً تتخذ من قيمة الأشياء موضوع النزاع ، ولكن للأسف كان هناك بعض القضاة لم يتمتعوا بعرف وأخلاق الوظيفة القضائية ، فكانوا يغالون في فرض رسوماً أكبر من المقرر ، وأحياناً إتاوات ورشاوى (٨٥).

وقد كان القضاة يلقبون بلقب أفندى فى مكاتباتهم ، ومن ثم كان السلطان يخاطبهم مخاطبة رسمية بلقب " أقضى قضاة المسلمين ... " ، كما تنعتهم بعض الوثائق بشيخ الإسلام(٨٦). وهناك أيضاً مجموعة متنوعة من الألقاب السامية والمراتب العالية والصفات الغالية التى ألحقت بهم (٨٧).

قصر جنانى : أى ساكن قصور الجنان ، وقد ورد هذا اللفظ أحيانًا بالتركية " جنتمكان أى ساكن الجنان " وأحيانًا أخرى بالعربية ، وعبارة " ساكن الجنان " وهى أسلم وأصوب ، ولكن كما هو معروف أن الكلمة التركية كانت منتشرة ودارجة مجرى الاصطلاح الرسمى المعتبر (٨٨).

وقد كان هذا اللقب يطلق على سلاطين آل عثمان بتركيا ، وأسرة محمد على بمصر ، على نقوش شواهد قبورهم فى القرن ١٣هـ / ١٩م ، والمراد هنا التمنى والدعاء بدخول الجنة ، وأن يكون من ساكنيها ، ومن خلال الأمثلة التى وردت عليها هذه العبارات الدعائية ، وتلك النقوش الكتابية يتضح أنها أطلقت عليهم بعد وفاتهم (٨٩).

اللبيب : فعيل من اللُب وهو العقل ، وكان من ألقاب رجال الدولة المدنيين ، ولابد أن يكون كل من المفتى وكذلك القاضى صاحب فكر ورجاحة عقل ، أى أن من يتولى منصب الإفتاء والقضاء يتمتع بتلك الصفات الحميدة (٩٠).

المقام : فى اللغة اسم لموضع القيام ، ولفظ المقام ورد فى القرآن الكريم بهذا المعنى ، يقول المولى عز وجل فى كتابه [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا] (٩١). وهو أحد ألقاب الكناية المكانية (٩٢). استخدم للإشارة إلى صاحب اللقب تعظيماً له عن التفوه باسمه .

وقد استعمل هذا اللقب منذ أوائل العصر الأيوبى للسلطان أو من هو فى مكانته ، وظل محتفظًا بمنزلته الرفيعة حتى نهاية العصر المملوكى (٩٣) ، ويُعد أقدم استخدام له على نقش رخامى باسم " المقام الشريف " للناصر محمد بن قلاوون ، وأيضًا بنفس الصيغة بمدفن السلطان قايتباى (٩٤). أما فى العصر العثمانى فقد استخدم بمدينة القاهرة ، على النصوص التأسيسية بصيغة " المقام الشريف " لقبًا للسلطان سليمان القانونى ، منقوشًا على سبيل وكتاب خسرو باشا سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م ، ولقبًا لمحمود باشا والى مصر من قبل الدولة العثمانية ، على نقش بمسجد المحمودية سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م (٩٥).

ومن ثم فقد صار هذا اللقب من أرفع الألقاب ، وكان يطلق في أول الأمر على الخليفة بصيغة الجمع " المقامات الشريفة " ، واستمر هذا اللقب محتفظًا بمنزلته الرفيعة طوال العصور الإسلامية ، حيث كان يستعمل للسلطان أو من في منزلته ، ورُتب هذا اللقب ترتيبًا تنازليًا إلى " المقام الشريف " ، " المقام الكريم " ، " المقام العالي " ، " المقام " (٩٦). ورتبه القلقشندي(٩٧) ترتيبًا آخر " المقام الأشرف " ، " المقام الشريف " ، " المقام العالي " .

ويعلو قمة هذا الشاهد الرأسي شكل عمامة ضخمة(٩٨) (شكل ٢) منحوتة في الرخام بهيئة طبيعية ، وكما هو معروف لدينا أن الرسول ﷺ ، كان يعتم بعمامة معروفة باسم السحاب أورثها أو تنازل عنها لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) .

أما العرب قد عرفوا العمامة منذ القدم ، ويذكر مؤلف مجهول في مخطوطة(٩٩) " أن السنية في القلنسوة كونها منخفضة لا مرتفعة كما يلبسها بعض المتكلفين " ، ويذكر عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) " أن الرسول ﷺ كان يلبس قلنسوة بيضاء لاطئة ، أي ملاصقة للرأس " ، ويذكر أدي شير(١٠٠) عن القلنسوة فيقول " يحتمل أن يكون معربة عن الفارسية لكلمة بوش ، وهو مركب (كله) أي رأس ، ومن بوش أي غطاء ، والقلنسوة مأخوذة عن الفرنسية Qulunse ، وعن الفارسية " كلاه " .

ومن المعروف أن العمامة هي لباس الرأس ، وربما كُني بها عن البيض أو المغفر ، والجمع عمائم وعُمام ، وعُم الرجل ، سُوِّدَ ، لأن تيجان العرب العمائم (١٠١)، ويذهب دوزي(١٠٢) في معجمة بأن كلمة عُمامة ذات تفسير يُعنى كلمة Turbun ، أي المشمذ ، بينما يذكر ابن سيدة(١٠٣) " بأن العمامة ما يلاث على الرأس تكويرًا ، وقد تعمم بها واعتم ، وأنه لحسن العمة وقد عمته " .

ومما هو جدير بالذكر أن الفقهاء في بلاد الأندلس كانوا يلبسون العُمامة بصورة عامة ، بينما كانت عُمامة القضاة أضخم كثيرًا من عُمامة العرب الآخرين ، ومن هذا الوضع كان يسمى الواحد منهم " المُتعمم أو المُعتم أو صاحب عُمامة أو رب العُمامة " ، ومن هنا يحرص المسلمون عامة ورجال الشريعة خاصة على حصر شرفهم في عمائمهم ، ومازال حتى الآن يلبس الشرفاء وأحفاد الرسول ﷺ ، العمامة الخضراء (١٠٤).

ويعد لبس العمامة أو ارتداء غطاء الرأس والتعمم به خاص بالرجال وحدهم ، وفي الشرق ينحت شكل العمامة وتظهر وظيفة صاحبها على شاهد قبره ، وبذلك ترمز إلى نوعه أو جنسه ،

سواء كان رجل أم امرأة ، صغيراً أم كبيراً ، وبهذه الوسيلة أو تلك الطريقة ، يمكننا أن نميز بسهولة مشاهد قبور الرجال من مشاهد قبور النساء ، وذلك لأن شواهد قبور أضرحة النساء ينحت لها إكليل أو تاج أو عمامة ترمز للمرأة (١٠٥).

بالإضافة إلى جمال خط شاهد هذا القبر وأناقة تنسيقه ، فإن عناصره الطبيعية ورسومه الزخرفية التى زينت قاعدته ، قد لعبت دوراً فنيًا كبيراً وجماليًا عظيمًا ، حيث استعمل العثمانيون فى زخارفهم الأسلوب الواقعى ، فى الرسوم الزخرفية التركية فى أستانبول وكذا فى القاهرة (١٠٦).

وتُعد تلك المزهرية التى تزين قاعدة هذا الشاهد ، خير دليل على تمثيل الطبيعة النباتية أصدق تمثيل فى الزهور والورود وأهمها زهرة الرمان والسوسن وزهرة النسرين ، علاوة على الزخرفة بالطراز الشائع ، لفنون الباروك والركوكو ، التى تأثر بها العثمانيون فى أسلوبهم الزخرفى الجديد عن طريق أوربا فى عصر النهضة(١٠٧) (لوحة ٤ ، شكل ٣) .

هذا فضلاً عن البراعم والنوار والأفرع والأوراق النباتية الممتدة فى الإطار السفلى للشاهد، وكذلك العقود الصغيرة المفصصة ، يتدلى منها زهرة اللوتس فى الإطار العلوى للقاعدة ، وقد أضفى كل من الإطارين النباتين شكلاً جماليًا ومنظراً طبيعيًا خفف إلى حد ما من جو وحشة القبور .

وخلاصة القول :

إن دراسة شواهد القبور العثمانية بتراكيبها الرخامية ، هى توثيق تاريخى وتسجيل أثرى، نظراً لاحتوائها على أحداث سياسية وأوضاع اجتماعية وحياة اقتصادية لفترة زمنية مؤرخة ومعلومة .

على الرغم من إجماع آراء الفقهاء ، واتفاق معظم العلماء ، على كراهية العناية بتشييد شواهد القبور ونقش كتابتها ، والتأنق فى زخرفتها ، إلا أن مسلمو العصر العثمانى لم يلتزموا بكل هذا .

لعبت اللغة الفارسية والتركية إلى جانب العربية ، على طراز الخط العثمانى دوراً رئيسيًا فى تسجيل كثير من النصوص التذكارية ، والعبارات الدعائية ، والألقاب الفخرية ، والأنساب العائلية على شاهد قبر هذا القاضى العثمانى .

من المعروف أن أول سلطة للقضاء ، وتطبيق نصوص التشريع الإسلامي على الوقائع ، كان في عهد الرسول ﷺ ، فقد استمدت من الكتاب العزيز والمصحف الشريف .

لقد عمل السلطان سليمان القانوني على عثمنة القضاء في مصر ، حيث أصدر مرسومًا في سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م ، يقضي بأن يكون قاضي قضاة مصر عثمانيًا ، يبعث من استانبول إلى القاهرة وبذلك فإن المهمة الموكلة للقضاة في إقامة العدالة بمصر ، مرتبطة بالهيئة القضائية الإسلامية التي مقرها القسطنطينية .

لقد ظل قاضي القضاة في مصر عثمانيًا ، يُرسل من قبل الباب العالي بالأستانة إلى القاهرة ، إلى أن عهد الفرنسيون في سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥م ، برئاسة القضاء لقاضي مصري هو الشيخ أحمد العريشي .

مما يؤسف له أن كثيرًا من القضاة العثمانيين ، كانوا يجهلون اللغة العربية محادثة وكتابة، مما جعلهم يستعينون بتراجمة يقرون لهم النصوص ، ويترجمونها كما يحلو لهم .

مما يؤسف له أيضًا ، أن كثيرًا من قضاة هذا العصر لم يتمتعوا بعرف وأخلاق الوظيفة القضائية فكانوا يغالون في فرض رسومًا أكبر من المقررة على القضايا ، وأحيانًا كانوا يتقاضون إتاوات ورشاوى .

لقد كان قاضي مصر ، الأمير محمد نبيل ، من قبل السلطنة العثمانية بتركيا ، يتمتع بشخصية ذات حسب ونسب ، أي ذات أصل عريق ، وسمعة طيبة ، وأعمال خالدة في نظم الشعر وكتابة النثر ، حتى قيل عنه أنه كان أميرًا للكلام وفائق الأقران في عصره ، ومن ثم فقد استحق كل هذا الثناء والإطراء على شاهد قبره ، الذي نقش عليه تلك الصفات العديدة ، والأخلاق الحميدة بكل اللغات العربية والتركية والفارسية .

لقد تبوأ هذا القاضي العثماني – الأمير محمد نبيل – بالقطر المصري ، عدة مناصب منها دينية وهو مفتي العصر ، ومنها قضائية وهو قاضي مصر ، كما أنه تمتع بألقاب كثيرة منها فخرية ، ومنها وظيفية ، وذلك في النصف الأول من القرن ١٣هـ / ١٩م .

لقد توفي الأمير محمد نبيل سنة ١٢٣٥هـ / ١٨١٩م ، وهو يشغل منصب قاضي مصر وذلك في عهد محمد علي باشا .

لقد استعمل الفنان في زخرفة نهاية هذا الشاهد ، الأسلوب الواقعي من حيث العناصر النباتية الممثلة طبيعيًا أصدق تمثيل ، هذا إلى جانب الأسلوب المحور في زخرفة الطراز الرومي والهاتاى .

لقد لعبت الزهرية الممتلئة بالزهور الطبيعية ، وعلى جانبيها الحزم النباتية ، وبها عناقيد العنب داخل منطقة محددة ، دوراً رئيسياً في زخرفة القاعدة الرخامية لهذا الشاهد .

وضحت جلية زخرفة العقود الصغيرة مفصصة الشكل ، بأعلى القاعدة الرخامية لشاهد قبر الأمير محمد نبيل ، على هيئة ستارة تتدلى منها حزم نباتية صغيرة بشكل زهرة اللوتس ، مما أضفى على الشاهد جواً زخرفياً جميلاً ، خفف من وحشة القبر .

لقد استخدم الفنان حساب الجمل فى تأريخ وفاة صاحب شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، إلى جانب ذكر التاريخ الهجرى كتابة .

لقد لعبت زخرفة العمامة دوراً مهمًا ، فى معرفة نوع شاهد القبر فى العصر العثمانى بمصر وبرزت أهمية هذه الزخرفة ، فى نقش شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، حيث عبرت تعبيراً صادقًا عن المنصب الوظيفى المهم الذى تبوأه هذا الأمير وهو قاضى مصر



اللوحة (١) : تركيبة رخامية لشاهد قبر الأمير محمد نبيل قاضى مصر فى العصر العثمانى محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، برقم ٢٠٥٨٨ * لم يسبق نشره *



اللوحة (٢) : شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، تعلوه عمامة كبيرة ، رمز قاضى مصر فى العصر العثمانى



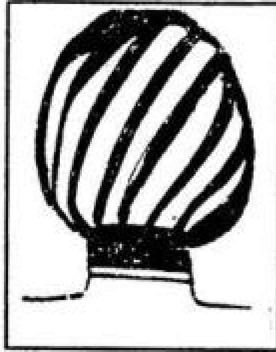
اللوحة (٣) : نقش شاهد قبر الأمير محمد نبيل
باللغة التركية والفارسية والعربية



اللوحة (٤) : الزخرفة النباتية للتركيبة الرخامية لشاهد القبر السابق ، ممثلة في زخرفة الباروك والروكوكو.



الشكل (١) : يبين البحور الاثنا عشر لشاهد قبر قاضي مصر محمد نبيل



الشكل (٢) : يبين زخرفة عمامة قاضى مصر فى العصر العثمانى
ممثلة على شاهد قبر الأمير محمد نبيل



الشكل (٣) : يبين زخرفة قاعدة شاهد القبر السابق ، بالزخارف
النباتية التركية من الباروك والروكوكو

الهوامش

١ – مصطفى شيحة ، شواهد قبورر إسلامية ، ص ٩ .

٢ – مما هو جدير بالذكر أن لفظ مشاهد (مشهد) ، قد استخدم لأول مرة عند الشيعة عند مقتل الحسين بن على " رضى الله عنهما " ، حينما أخفوا الرأس لكى لا تستخدم فى التشهير بالخليفة يزيد بن معاوية، ومن ثم ثار باقى آل بيت الإمام على ، ضد خلفاء بنى أمية ، وخشى آل بيت على ، على أن يظهروا قبورهم حتى لا تُنبش ولهذا أخفوها ، فلما هدأت الأمور أظهر الشيعة قبور الأئمة السابقين ، وسموها مشاهد ، لأن الجميع شهدوا على صحة دفن الإمام على ، فى هذا المكان ، ومن هنا جاءت تسمية مشهد على القبور . مصطفى شيحة ، المرجع السابق ، ص ١٠ .

٣ – سعاد ماهر ، مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى ، ص ٢٢ ، لوحة ٤ .

٤ – مصطفى شيحة ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠ – ١١ .

٥ – مايسة داود ، الكتابات العربية على الآثار الإسلامية ، ص ٧٧ .

٦ – الرخام MARBLE ، ضرب بلورى من الحجر الجيرى متماسك مدكوك لدرجة تسمح بصقله صقلاً شديداً ويكون عادة أبيض أو رمادياً ، ويقتصر وجود الرخام فى مصر فى الصحراء الشرقية ، كما سجل وجوده فى عدة أماكن فى هذه الصحراء ، وفى موضع قريب من ساحل البحر الأحمر ، يوجد نوع من الرخام الرمادى السكري اللون ، وأيضاً فى جبل الرخام الذى يقع شرق إسنا ، فى الطريق بين النيل والبحر الأحمر ، يوجد نوع من الرخام عديم اللون استعمل فى العهود الإسلامية . لوكاس ، المواد والصناعات ، ص ٦٦٦ .

٧ – رقم السجل : ٢٠٥٨٨ ، ارتفاع الشاهد بالقاعدة ٢٠٨سم ، عرض الشاهد ٣٨سم ، ارتفاع القاعدة : ٦٦ سم ، سمك البدن : ٨٦سم ، لم يسبق نشره .

٨ – عطية مشرفة ، القضاء فى الإسلام ، ص ٧٩ .

٩ – سورة المائدة ، آية ٤٨ .

١٠ – الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، جـ٤ ، ص ٢٥٥ – ٢٥٦ ؛ شفيق غربال ، ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية ، مج٤ ، جـ١ ، ص ٢٣ ، حاشية ١ .

١١ – مفتى دوران : مفتى العصر أو الدنيا – اولان : الذى (تركية الأصل) – افنديمزك : سيدنا (تركية الأصل) – اولدى : أصبح (تركية الأصل)

١٢ – بومير : هذا الأمير – عدنه : جنة عدن – خرام ايلدى : جعله سعيدا متبختراً (فارسية الأصل) .

١٣ – ذات : أو بمعنى صاحب أو مالك ، وقد استعمل كثير من الألقاب المركبة ، وكان هذا النوع من الألقاب المركبة ، شائعاً فى العالم الإسلامى خاصة منذ أواخر القرن ٢هـ / ٨م ، واستمر استخدام هذا اللقب

١٣هـ / ١٩م بنفس المعنى والمفهوم الذى استعمل به طوال العصور الإسلامية : مصطفى بركات ، الألقاب والوظائف العثمانية ، ص ٣٠٩ .

١٤ – اروب : وصل أو أصبح – الكلام : تقريباً ... امتلك .

١٥ – أمير : استخدم هذا اللقب في بداية عصر محمد على بنفس استعماله في العصر العثماني ، وذلك لقباً لكبار رجال الدولة ، وأحياناً كثيرة كان يرد هذا اللقب مخففاً بصيغة " مير " ، مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

١٦ – سخندان : مصدر فارسي بمعنى الكلام أو الحديث – أيدى : كان .

١٧ – بر : ممتلىء .. مشحون ... مُفعم.

١٨ – بنام : مشهور ... معروف ... صاحب اسم (ذو صيت أو شهرة).

١٩ – ايكن أه : عندما كان .

٢٠ – روحى أيدوب : روح سمحة.

٢١ – عزم راه : أى ذو عزم ،

٢٢ – بناه : كلمة فارسية بمعنى ملجأ ... ملاذ ... التجاء .. مسكن .

٢٣ – الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق ، رب الأنام ، أى رب كل هذه المخلوقات ، ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١ ، ص ١٥٤ .

٢٤ – كلدى : جاه – بالا : كلمة فارسية بمعنى عال .. رفيع .

٢٥ – سويلدى تاريخ فوت : ذكر تاريخ وفاته .

٢٦ – قيلدى مقام : فاجعل مقام (مستقر)

٢٧ – في الحقيقة ، لقد تفضل مشكوراً الأستاذ الدكتور / الصفصافى أحمد المرسى ، رئيس قسم اللغات الشرقية (لغة تركية) ، بكلية الآداب – جامعة عين شمس ، وقام بمساعدتى في ترجمة أسطر وكلمات هذا الشاهد على النحو الأكمل ، بالإضافة إلى تقديمه بعض القواميس التركية القديمة والعثمانية الحديثة ، والتى استعنت بها ، ومكنتنى من الترجمة على هذا النحو ، وهى :

– محمد على الإنسى ، قاموس اللغة العثمانية ، الدارى اللامعات في منتخبات اللغات ، ١٢٣٠هـ / ١٩٠٢م

– شمس الدين سامى ، قاموس تركى ، در سعادت ، ١٣١٥ – ١٣١٧هـ (رومية)

٢٨ – فتح الله محمد الحميرى ، كيفية حساب التواريخ الهجرية الميلادية القبطية ، ص ١١٦ – ١١٨ .

٢٩ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٣ ، حاشية ١ .

٣٠ – شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ ؛ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ٢ ، ص ١١١٦ – ١١٢٠ .

٣١ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

٣٢ – محمد نور فرحات ، القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني ، ص ٨٦ – ٨٩ .

٣٣ – دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأتراك .

٣٤ – أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ١١٤

٣٥ – ليلى عبد اللطيف ، المجتمع المصري في العصر العثماني ، ص ١٠ .

٣٦ – مصطفى بركات ، الألقاب والوظائف العثمانية ، ص ١٣١ .

٣٧ – ابن أبي السرور البكري ، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، ص ٣١ ؛ ليلى عبد اللطيف ، تاريخ مؤرخي مصر والشام ، ص ١٣٢ .

٣٨ – أحمد شلبي بن عبد الغني ، أوضح الإشارات ، ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

٣٩ – حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ٣ ، ص ١١١٦ – ١١٢٠ .

٤٠ – شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

٤١ – أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي ، ص ٢٠ .

٤٢ – أحمد تيمور ، الرتب والألقاب المصرية ، ص ٦٦ .

٤٣ – أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

٤٤ – دائرة معارف البستاني ، جـ٤ ، ص ٧٣ ؛ أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

٤٥ – دائرة المعارف الإسلامية ، مادة رئيس الكتاب .

٤٦ – دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٤ ، ص ٨٧ .

٤٧ – أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

٤٨ – مصطفى بركات ، الألقاب والوظائف ، ص ٣٣٣ .

٤٩ – الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، جـ٤ ، ص ٤٢٧ .

٥٠ – موسوعة وصف مصر ، جـ٥ ، ص ٣٨ .

٥١ – الجبرتي ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٤٠ .

٥٢ – الجبرتي ، نفس المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢١٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ .

٥٣ – أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

٥٤ – موسوعة وصف مصر ، جـ٥ ، ص ٤٥ – ٤٦ .

٥٥ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢ – ٣٠٣ .

٥٦ – أحمد السيعد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

٥٧ – حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ١ ، ص ١١٥ .

٥٨ – دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٤ ، ص ٤٣٢ .

٥٩ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

٦٠ – عبد السميع الهراوى ، لغة الإدارة فى مصر ، ١٨٧ .

٦١ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٣٠٩ .

٦٢ – القاموس المحيط ، باب الراء ، مادة البر ، ص ٣٦٦ .

٦٣ – سورة البقرة ، الايات : ٤٤ ، ١٧٧ ، ١٨٩ : سورة آل عمران ، الآية : ٩٢ : سورة المائدة ، الآية : ٢ .

٦٤ – عطية مشرفة ، القضاء فى الإسلام ، ص ٧٩ .

٦٥ – سورة المائدة ، الاية : ٤٨ .

٦٦ – عطية مشرفة ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

٦٧ – حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٢ ، ص ٨٦٦ .

٦٨ – حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، ص ٤٢٤ .

٦٩ – القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ١٩٢ .

٧٠ – سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، ص ٥٥٨ .

٧١ – بالرغم من الامتيازات المادية والأدبية التى تمتع بها القضاة فى العصر العثمانى ، إلا أن بعضهم تفشت بينهم الرشوة والفساد والجور والطمع ، ويؤكد ذلك ما ذكره الجبرتى فى أحداث ١٢٣١هـ .
الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، جـ٤ ، ص ٣٥٤ – ٣٥٥ .

٧٢ – سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، ص ٢٨٥ .

٧٣ – جرجى زيدان ، مصر العثمانية ، ص ١١٣ .

٧٤ – ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٤٥٣ – ٤٥٤ .

٧٥ – محمد نور فرحات ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

٧٦ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٣ .

٧٧ – ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ .

٧٨ – ابن إياس ، نفس المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٤٦٩ .

٧٩ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٤ .

٨٠ – المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .

٨١ – محمد نور فرحات ، المرجع السابق ، ص ٦٧ – ٦٨ .

٨٢ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٩ .

٨٣ – الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ٣٥٥ – ٣٥٦ .

٨٤ – شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٣ ، حاشية ١

٨٥ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٦ – ١٩٧.

٨٦ – ليلي عبد اللطيف ، والمجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، ص ٢٢٠ ؛ أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات ، ص ٢٨٨ ، حاشية ١١٧ .

٨٧ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ١٤١ – ١٤٢ .

٨٨ – عبد السميع الهراوى ، لغة الإدارة العامة فى مصر ، ص ٥١٢ ، ٥١٤ .

٨٩ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ .

٩٠ – حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص ٤٤١ .

٩١ – سورة آل عمران ، الآية : ٩٦ .

٩٢ – حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ٤٨٢ – ٤٨٧ .

٩٣ – القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ١٩ .

٩٤ – حسنى نويصر ، منشآت السلطان قايتباى الدينية ، ص ٤٨٢ – ٤٨٥ .

٩٥ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

٩٦ – حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص ٤٨٥ .

٩٧ – القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٩٨ .

٩٨ – ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بمدينة القاهرة ، بشاهد قبر مسجل برقم ١٣٦ ، تزخرف قمته عمامة قاضى أو رجل دين ذو شأن كبير من العصر العثمانى ، وهى مضلعة وتشبه عمامة قاضى مصر الأمير محمد نبيل ، ووجود العمامة بكلا الشاهدين ، يوضح مدى مهابة وأبعاد مكانة رجل الدين فى هذا العصر .

Wiet, Catalogue du Musee Arabe du Cairo, PL.XXXI.

٩٩ – مؤلف مجهول ، رسالة فى بدعة القلنسوة ، ورقة ٨٧ .

١٠٠ – أدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ١٢٨ .

١٠١ – أحمد مطلوب ، معجم الملابس فى لسان العرب ، ص ٨٨ .

١٠٢ – دوزى ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ص ١٩٢ .

١٠٣ – ابن سيدة ، المخصص ، جـ٤ ، ص ٨١ – ٨٢ .

١٠٤ – دوزى ، المرجع السابق ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

١٠٥ – دوزى ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .

١٠٦ – اوقطاى أصلان آبا ، فنون الترك وعمائرهم ، ص ٣١٨ .

١٠٧ – سعاد ماهر ، الخزف التركى ، ص ١١٦ .

اللوحات

اللوحة (١) : تركيبة رخامية لشاهد قبر الأمير محمد نبيل قاضى مصر فى العصر العثمانى محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، برقم ٢٠٥٨٨ " لم يسبق نشرة".

اللوحة (٢) : شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، تعلوه عمامة كبيرة ، رمز قاضى مصر فى العصر العثمانى .

اللوحة (٣) : نقش شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، باللغة التركية والفارسية والعربية .

اللوحة (٤) : الزخرفة النباتية للتركيبة الرخامية لشاهد القبر السابق ، ممثلة فى زخرفة الباروك والروكوكو .

الأشكال :

الشكل (١) : يبين الاثنا عشر لشاهد قبر قاضى مصر محمد نبيل .

الشكل (٢) يبين زخرفة عمامة قاضى مصر فى العصر العثمانى ممثلة على شاهد قبر الأمير محمد نبيل .

الشكل (٣) : يبين زخرفة قاعدة شاهد القبر السابق ، بالزخارف النباتية التركية من الباروك والركوكو .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة :

– القرآن الكريم .

– مؤلف مجهول ، رسالة فى بدعة القلنسوة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٦ ، ورقة ٧٨ ، رسالة ١٠٧ .

– ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق د. محمد مصطفى ، ٥ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م.

– ابن سيدة ، المخصص ، جـ٤ ، بيروت ، ١٩٦٦م.

– ابن بطوطة ، الرحلة ، دار صادر بيروت ، ١٤٢١هـ / ١٩٩٢م.

– أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن ولى مصر من الوزراء والباشوات ، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨م.

– الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، ٤ أجزاء ، دار الأنوار المحمدية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

– القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٦ ، ٤ ، ٧ ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٩م.

ثانياً : القواميس ودوائر المعارف والموسوعات :

– شمس الدين سامى ، قاموس تركى ، دار سعادت ، ١٣١٥ – ١٣١٧هـ (رومية)

– محمد على الأنسى ، قاموس اللغة العثمانية ، الدرارى اللامعات فى منتخب اللغات ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م .

– دائرة المعارف الإسلامية التركية ، أستانبول ، ١٩٦٧م.

– كتاب دائرة المعارف ، البستانى ، مطبعة دار المعارف ، بيروت ، ١٩٨٤م.

– موسوعة وصف مصر ، المصريون المحدثون ، تأليف الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ، جـ١ ، ٥ مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢م.

ثالثاً : المراجع العربية :

- أحمد السيد سليمان (دكتور) : تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، دار المعارف ، ١٩٧٩م.
- أحمد تيمور (دكتور) : الرتب والألقاب ، دار الكتاب العربى ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٠م
- أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : فى أصول التاريخ العثمانى ، دار الشروق ، طبعة أولى ، ١٩٤٨م.
- أحمد مطلوب (دكتور) : معجم الملابس فى لسان العرب ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٥م .
- أدى شير : كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٠٨م.
- أوقطاى أصلان آبا : فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، استانبول ، ١٩٨٧م.
- جرجى زيدان : مصر العثمانية ، تحقيق د. محمد حرب ، كتاب الهلال ، العدد ٥١٧ ، ١٩٩٤م.
- حسن الباشا (دكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٣ أجزاء ، القاهرة ٦٥ – ١٩٦٦م .
- الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، الدار الفنية للنشر ، ١٩٨٩م.
- حسنى نويصر (دكتور) : منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط دكتوراه بكلية الآثار جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م.
- دوزى (رينهارت) : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ترجمة أكرم فاضل ، بغداد ، ١٩٧١م.
- سعاد ماهر محمد (دكتور) : مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية ، ١٩٧٧م.
- الخزف التركى ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية ، ١٩٧٧م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٤م .

- شفيق غربال (دكتور) : ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية ، مجلة كلية الآداب، مج٤ ، جـ١ ، مايو ١٩٣٦م.

- عبد السميع الهراوى (دكتور) : لغة الإدارة العامة فى مصر فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٣م.

- عطية مصطفى مشرفة (دكتور) : القضاء فى الإسلام ، شركة الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٦م.

- فتح الله محمد الحميرى : كيفية حساب التواريخ الهجرية الميلادية القبطية ، مطابع دياب ، ١٩٨٤م.

- لوكاس (الفريد) : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة زكى اسكندر ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩١م.

- ليلى عبد اللطيف (دكتورة) : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ، ١٩٨٧م .

- تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ، الخانجى و ١٩٨٠م.

- مايسه داود (دكتورة) الكتابات العربية على الآثار الإسلامية من القرن الأول حتى أواخر القرن الثانى عشرة للهجرة ٧-١٨م ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٩١م.

- محمد نور فرحات (دكتور) : القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ، تاريخ المصريين ١٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨م.

- مصطفى بركات (دكتور) : الألقاب والوظائف العثمانية ، دراسة فى تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية ، دار غريب ٢٠٠٠م .

- مصطفى عبد الله شيحة (دكتور) : شواهد قبور إسلامية من جبانة صعدة باليمن ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

رابعًا : المراجع الأجنبية :

- ARSEVAN, les arts docoratifs turc

- WIET, catalogue du musee arabe du Caire, 1930 .

د. كرم حلمى فرحات (*)

صفحة جديدة من حضارة الإسلام فى إندونيسيا

المقدمة :

يتناول هذا البحث " صدى حضارة الإسلام فى إندونيسيا " ، وهذا الموضوع من الأهمية بمكان إذ يعالج الجوانب الآتية :

أولاً : بيان متى دخل الإسلام هذه الجزر الخضراء المسماة فيما بعد بإندونيسيا .

ثانيًا : العناصر التى حملت الإسلام إلى تلك الجزر من عرب وهنود وصينيين .

ثالثًا : الممالك الإسلامية التى قامت على أرض تلك الجزر .

رابعًا : ما قام به ملوك تلك الجزر من خدمة للإسلام والمسلمين سواء من حيث تطبيق الشرائع الدينية أو الدعوة لنشر الإسلام .

خامسًا : مدى ما أحدثه الإسلام من ثورة حضارية على المسار السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى .

وبناء عليه يتعرض هذا البحث لعدة موضوعات ، منها :

التعريف بكلمة إندونيسيا ، والحديث عن موقعها ومساحتها ، والطبيعة والمناخ والسكان بها ، والأديان الى فيها قبل الإسلام .

ثم يتناول أيضًا الحديث عن دخول الإسلام إندونيسيا ، وانتشاره بها والممالك الإسلامية التى قامت على تلك الجزر ، ثم الحديث عن صدى حضارة الإسلام فى الحياة

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية -معهد الدراسات والبحوث الآسيوية -جامعة الزقازيق .

السياسية بها ، وكذلك صدى حضارة الإسلام فى الحياة الاجتماعية والحياة الثقافية ، والحياة الاقتصادية .

التعريف بإندونيسيا :

كلمة " إندونيسيا " مركبة من مقطعين إحداهما " إندو " بمعنى " الهند " والثانية " نيسيا " بمعنى الجزر ، فإندونيسيا معناها " جزر الهند " وتسمى هذه الجزر بأسماء متعددة منها : الجزر الخضراء ، لأن أرضها مكسوة بالخضرة والغابات ، ويطلق عليها " جزر الملايو " وكذلك " جزر الهند الشرقية " ، كما أطلق عليها العرب اسم " جاوة " (١).

وأطلق عليها " جزر الهند الهولندية " و " جزر الهند النيدرلندية " و " جزر السوند " وشملها فى وقت من الأوقات اسم " ملايو " أو " ماليزيا " واسمها اليوم " إندونيسيا " أو على الأصح " هندونيسيا " وإنها لتستحق أيضًا أن نسميها " الجزر الخضراء " لأنه - على حد قول حبيب جاماتى - لا يوجد فى العالم كله جزر يكسو سطحها مثل هذا الثوب الأخضر ، الذى تسربل به تلك المجموعة العجيبة من الجزر الكبيرة والصغيرة الآهلة بالسكان أو الخالية منها ، وعدد الجزر نحو ثلاثة آلاف جزيرة أو أكثر(٢) .

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى أخذ اسم إندونيسيا يغلب على ماعداه من الأسماء(٣) وتنقسم تلك الجزر إلى عدة مجموعات أشهرها : مجموعة جزر " سومطرة وجاوة وبورنيو وسيليبس " وتسمى هذه المجموعة " صُونْدا الكبرى " .

ومجموعة جزر أخرى تقع بين جزيرة " غينيا " الجديدة شرقًا و " جزيرة جاوة " غربًا ، وتسمى " صوندا الصغرى " . ومجموعة أخرى ، هى مجموعة الجزر التى تقع بين " سيليبس " غربًا ، و " غينيا " الجديدة شرقًا ، وتسمى جزر الملوك التى ورد ذكرها فى كتب التاريخ (٤).

فهذه الجزر واسعة الأرجاء مترامية الأطراف ، يصل امتدادها من الغرب إلى الشرق حوالى ثلاثة آلاف من الأميال ، ويصور الإندونيسيون طول هذه الجبهة أن الأرخبيل الإندونيسى لو فرش على خريطة أوربا وآسيا لكان طرف سومطرة الشمالى عند مدينة " دبلن " عاصمة " إيرلندا " ووصل الطرف الشرقى فى " إيران " الغربية إلى مدينة " طهران " عاصمة " إيران " (٥).

أسيا والشرق الأقصى

موقع إندونيسيا ومساحتها:

تمتد إندونيسيا على شكل قوس عظيم بين المحيطين الهندي والهادى وقارتي آسيا واستراليا ، وتعتبر دولة بحرية كبيرة .

تعد هذه الدولة أكبر مجموعة من الجزائر العالمية ، حيث تموج البحار من حولها بالثروة والحياة ، وتقوم على حراستها أشجار نخيل جوز الهند ، الذى ينمو بكثرة فى كافة الجزر الإندونيسية (٦).

تمتد إندونيسيا من خط عرض " ٦ درجة شمالاً " إلى " ١١ درجة جنوبياً " ، ومن خط طول " ٩٥ درجة غرباً إلى ١٤١ درجة شرقًا" .

وتبلغ مساحة الأرض ٧٣٥٠٠٠ سبعمائة وخمسة وثلاثون ألف ميل مربع ، أى مليون وتسعمائة وأربعة آلاف وثلاث مئة وخمسة وأربعون كيلو متراً مربعًا ، ومساحة البحر هى مليون ومائتان وثلاثة وستون ألف ميل مربع (١,٢٦٣,٠٠٠) أى ثلاثة ملايين وثلاث مئة وواحد وثلاثون ألفًا ومائة وسبعون كليو متراً مربعًا ، وأطول مسافة بين الشرق والغرب هى حوالى "٣٢٠٠ ميل " أو " ٥١١٠ كيلو مترات " ، ومن الشمال إلى الجنوب " ١٢٠٠ميل" أى " ١٨٨٨ كيلو متراً " .

وموقع إندونيسيا – بين قارتى آسيا واستراليا والمحيط الباسفيكى والمحيط الإندونيسى – قد جعل من موقعها موقعًا استراتيجيًا هامًا بين دول العالم (٧).

وكثير من تلك الجزر معمور آهل بالسكان ، ولكن الأكثر عدداً منها مازال غير مطروق ، بل لعله لم يزل مجهولاً فى مساحته وثروته الطبيعية ، ولا يرده إلا الحيوانات والنباتات .

تمتد هذه الجزر لمسافات تزيد على ثلاثة آلاف ميل على طول خط الاستواء ، وهى تبدو فى امتدادها كمدرج من الجبال العالية يصل عبر المحيط ما بين آسيا واستراليا .

وينتفع بمساحة إندونيسيا الواسعة من البر والبحر تجمع هائل من السكان يعتنق معظمهم دين الإسلام ، ويصل عددهم أكثر من ٩٢٪ من السكان (٨).

هذه الجزر تتمتع بموقع ممتاز ذى أهمية خاصة ، هذا فضلاً عن وجود المواد الأولية الضخمة والأيدى العاملة التى تستخدم فى استغلال هذه الموارد (٩).

ولإندونيسيا أهمية استراتيجية فى السلم والحرب ، ويرجع ذلك إلى توسط موقعها بين استراليا وآسيا ولسيطرتها على الطرق الموصلة إلى الصين واليابان (١٠).

الطبيعة والمناخ

طبيعة إندونيسيا :

تغلب على إندونيسيا الطبيعة الجبلية ، كما توجد الجبال التى يزيد ارتفاعها على تسعة آلاف قدم ، وتوجد فى إندونيسيا بعض المناطق المنخفضة والسهول والمرتفعات والمناطق الجبلية.

أما الأراضى المنخفضة وهى جزء صغير ، توجد معظمها على طول السواحل فى الجزر الرئيسية وعلى طول وديان الأنهار ، وأحياناً تجفف السهول المرتفعة والهضاب البحيرات الجبلية لتكون حلقة الاتصال بين الأقاليم الجبلية المرتفعة (١١).

أما الجبال فتكسوها الخضرة السندسية ، ويلفها الجمال الطبيعى الآخاذ وتستغل ارتفاعها فى عمل مدرجات زراعية ، تسقى بواسطة استغلال انحدار المياه من القمم العالية (١٢).

أما المياه الإقليمية لإندونيسيا فهى المساحة البحرية التى تقع فى الحزام البحرى لمسافة "١٢ ميل بحرى " من الخط الرئيسى ، بينما كل البحار والمضايق والخلجان التى تقع داخل النطاق تعتبر بحار داخلية (١٣).

والأنهار فى إندونيسيا صغيرة وليست طويلة إذا قورنت بالأنهار فى قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا ، إلا أن هناك عدداً من الأنهار الصالحة للملاحة مثل أنهار "موسى " و " باتانجهارى" و " اندراجيرى " و " كامبار " فى " سومطرة " ، و " كابواس " و " بارتيو " و " ماهاكام " و "رانجانج " فى " كاليمانتان " ، وأنهار " مامبيرامو " و " ديجول " فى " إيريان الغربية " . و "نهر موسى " صالح للملاحة ويمكن أن تسير فيه السفن التى تبلغ حمولتها حتى عشرة آلاف طن لمسافة ثمانين ميلاً .

أما معظم البحيرات فهى توجد فى الأقاليم الجبلية ، وهى ليست كبيرة . وأهم هذه البحيرات هى بحيرة " توبا " و " مانينجوا " و " سنجاكاراك " فى " سومطرة " و " تمبه " و " تاوتى " و " سيدنرنج" و " مونتانا " و " بوسو " و " ليمبوتو " و " تواندانو " فى " سولاويسى " و " بينيا " و " سينتانى " فى " إيريان الغربية " ، وهذه البحيرات هى مصدر هام للأسماك ، كما يوجد عدد كبير من المساقط المائية ، والتى تعوق حركة المرور فى الأنهار ، التى هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات فى داخل الأرض من الأجزاء الكبرى من جزر " كاليمانتانى " و "سومطرة " و " إيريان الغربية " (١٤).

مناخ إندونيسيا :

من المعروف أن إندونيسيا تقع فى المنطقة الاستوائية بين خطى عرض ٦ْ درجة مئوية شمالاً ، و ١١ْ درجة مئوية جنوبياً مما جعل مناخها استوائياً (١٥). حيث يتساوى الليل والنهار إذ تشرق الشمس فى الساعة السادسة صباحاً وتغرب فى السادسة مساء تقريباً ، والأشجار خضراء طول السنة (١٦). إلا أن الرياح الموسمية والرياح التجارية التى تسبب سقوط الأمطار الغزيرة في فصل الشتاء ، والأمطار الخفيفة فى فصل الجفاف كل منهما يمكن اعتباره عاملاً مهمًا من العوامل التى تؤثر في تخفيف درجة الحرارة ، وتغيير طبيعة المناخ الاستوائى ، بجانب المساحات الواسعة من البحار والمحيطات والخلجان التى تطوق إندونيسيا ، ومنها تلك الكثرة الموفورة من القمم الجبلية ، وكذلك الغابات الكثيفة التى تغطى مساحتها - تقريباً - ثلثى مساحة الأرض .

كل هذا كان له بالغ الأثر فى خفض درجة الحرارة ، وقد لوحظ أنها فى المناطق الساحلية غالبًا ما تكون ٢٦ْ درجة مئوية ، وتنخفض الحرارة بمعدل درجة كلما ارتفعنا عن سطح الأرض ٣٠٠ قدم .

ففى إندونيسيا فصلان مناخيان : أحدهما فصل الجفاف ، ويبدأ من شهر مايو إلى أكتوبر. والآخر : فصل الشتاء ، ويبدأ من شهر نوفمبر إلى شهر أبريل (١٧).

وهذا الاعتدال بالحرارة أثر على نشاط السكان فجعل فيهم الحيوية ، إذ من المعلوم أن النشاط قليل لدى سكان البلاد الشديدة البرودة أو الشديدة الحرارة ، وهذا ما يؤثر بالتالى على الحضارة ، ونحن لانرى حضارات قامت فى المناطق الشمالية الباردة جداً أو المناطق الاستوائية الشديدة الحرارة ، هذا إذا كانت الحوافز عادية ، ولكن إذا كانت هناك حوافز قوية تنبع من الأعماق كدوافع العقيدة ، فيمكن أن تقوم الحضارة فى أسوأ البقاع صلاحية لها ، فليس فى إندونيسيا موسم خاص للمطر ، وإنما يستمر طيلة العام (١٨).

أما جوها فمتماثل طول العام تقريباً ، ومع وقوعها فى هذه المنطقة فإن جوها ليس شديد الحرارة ؛ لأنها تتكون من جزر يتخللها البحار ، ثم لأن أرضها مكسوة بالخضرة والغابات مما جعلها تسمى الأرض الخضراء ، فخفت حرارة الشمس وأصبح جوها أقرب إلي الاعتدال ، ولهذا يطلق على جو إندونيسيا " الجو الاستوائى المعتدل " ، ولكن سواحل إندونيسيا أشد حرارة وأعلى رطوبة ، لأنها مناطق منخفضة ، أما الجهات الداخلية المرتفعة فهى أقل حرارة ، ونسبة الرطوبة فيها منخفضة (١٩).

السكان واللغات :

سكان إندونيسيا :

يبلغ عدد سكان إندونيسيا أكثر من (١٨٠ مليون نسمة) ، لذلك تعد سادسة بلاد العالم من حيث تعداد السكان بعد الصين والهند والاتحاد السوفيتي - سابقًا - والولايات المتحدة واليابان ، وأكثر الإندونيسيين من جنس يُدعى الإندونيسي أو الملايوى ، وجنس وافد من الخارج منذ حوالى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وكان يظن أن هذا الجنس وافد من الصين والهند الصينية ، ولكن البحوث الحديثة أثبتت أن المصريين والفينيقيين كانوا من الأجناس المبكرة التى نزلت إندونيسيا للتجارة واستوطنتها [٢٠]. ولكن المجموعة العربية هى التى اكتسبت احتراماً بالغًا عند السكان للروابط العقيدية بين الطرفين ، ولأن الإندونيسيين يعدون العرب مثلهم الأعلى لحملهم رسالة الإسلام ونقلها إليهم ، ولهم جمعيات خاصة بهم [٢١].

يعتبر هؤلاء السكان أخلاط من أجناس مختلفة أهمها الجنس الملوى والصينى والهندى والعربى [٢٢].

ولاتزال بإندونيسيا رموز نشأت وتطورت فى مصر ونقلها هؤلاء الرحالة إلى وطنهم الجديد بإندونيسيا ، فهى كغيرها من الأقطار الأخرى قد تعرضت فى شتى العصور لهجرات بشرية متعددة ... ولذا فإن الإندونيسيين نتاج تلك العناصر البشرية المختلفة التى اختلطت دماؤها وامتزجت خصائصها وغلبت خصائص فى بعضها ونقصت فى البعض الأخر ، ومن أجل ذلك يختلف الإندونيسيون اختلافًا بينًا فى بعض الصفات الجنسية ، وإن كانت تجمعهم إلا أقلهم صفات عديدة مشتركة والعناصر البشرية الهامة التى ساهمت فى تكوين الشعب الإندونيسى هى : العنصر الزنجى والعنصر الملايوى وعناصر أخرى كالهنود والصينيين والعرب والأوروبيين [٢٣].

فسكان إندونيسيا موزعون توزيعًا غير منتظم على الجزر الإندونيسية فلون السكان يشبه لون سكان الشرق الأوسط تقريبًا ، وكذلك الشعر الأسود الطويل الناعم ، والعيون السوداء ، وأحيانًا فيها اللون العسلى والقامة أميل إلى القصر مع هيف يقرب من النحول ، والأنف الأفطس قليلاً ، والقواطع البارزة نوعًا ما أحيانًا ، والشباب الإندونيسى ذكى محب للعلم .

أما المرأة الإندونيسية فهى على قدر من الجمال ، ولها نشاط كبير فى كل مجال ، وهى خير عون لزوجها ، وهى دعامة كبيرة من دعامات المجتمع ، ويمتاز الإندونيسيون بالصبر والرضا والهدوء .

ويوجد بإندونيسيا جماعات مختلفة ، جماعات مدنية رفيعة فى المدنية والتقدم ، تجيد لغات أجنبية ، ويجوارها جماعات بدائية (٢٤).

من المعروف أن أكثر من ٩٢٪ من سكان إندونيسيا يعتنقون دين الإسلام ، وعدة ملايين يعتنقون النصرانية ، وباقى السكان يدينون بديانات مختلفة كالبوذية والكونفوشية والهندوسية، فإندونيسيا تمثل أكبر تجمع للمسلمين فى العالم الإسلامى ، ورغم بعد هذه البلاد عن العالم العربى فإنها تحاول على الدوام أن تكون قريبة الصلة به ، وقد أسهم الإسلام بدور كبير فى تكوين هذه الدولة وتوحيدها والإبقاء على كيانها (٢٥).

اللغات فى إندونيسيا:

من المعروف أن إندونيسيا تتكون من آلاف الجزر ، وكانت لكل جزيرة لغتها الخاصة التى تختلف عن غيرها من لغات الجزر الأخرى ، وفى بعض الأحيان تكونت ممالك ضمت مجموعة من الجزر ، ولكن لم توجه عنايتها لتوحيد اللغة ، فقد اتجهت عناية الدول إلى الوحدة السياسية والعسكرية ، وليس للوحدة الثقافية ، ثم إن توحيد اللغة كان عملاً شاقاً بعيد المنال ، ولم يقف الأمر عند اختلاف اللغات باختلاف الجزر ، بل إن الجزيرة الواحدة كانت تعيش فيها جماعات منفصلة بعضها عن بعض ، وتختلف اللغة فى جماعة عنها فى أخرى ، فليس من المبالغة أن يقال إنه كانت بإندونيسيا مئات اللغات قبل أن توجد اللغة الإندونيسية فتضافرت الجهود للحصول على حل لمشكلة اللغة ، وكان الحل يمكن فى اللغة الملايوية التى كانت متداولة بين التجار وأصحاب الأعمال وكثيرين من السكان فى المنطقة بأسرها أي فى جزر الفلبين ، وفي شبه جزيرة الملايو ، وفى أكثر جزر إندونيسيا ، وكانت هذه اللغة تستمد أصولها من اللغات الأصلية بتلك البلاد وتقتبس من اللغات المختلفة كلمات سرعان ما تصبح أصيلة فى هذه اللغة ، وقد ساعد تطور الاتصال التجارى والدينى والثقافى بين سكان هذه المنطقة وبين التجار الهنود والعرب والصينيين على تطور هذه اللغة وازدهارها (٢٦).

فالسكان فى إندونيسيا يتكلمون أكثر من ثلاثين لغة ومائتين وخمسين لهجة مختلفة ويرجع ذلك إلي ترامى أطراف البلاد وتباعد أقسامها وصعوبة المواصلات التى تربط أجزاءها ، وهذه اللغات تنضوى تحت مجموعة اللغة الملايوية الأم وأهم هذه اللغات ، الجاوية والسوندنية والمادورية .

ثم إن انتشار التجارة وتنقل التجار بين الموانى الإندونيسية المختلفة جعل اللغة الملايوية تعم مناطق واسعة على الرغم من بقاء اللغات واللهجات المحلية . وتعرف اللغة الملايوية الإندونيسية بـ " هاسا " وقد كانت تكتب بالأبجدية العربية وحاولت هولندا إلغاء هذه الأبجدية ولكنها لم تجرؤ على ذلك ، وهذه المحاولة تعود لإبعاد الصلة بين الإندونيسيين وبقية العالم الإسلامى وخاصة البلاد العربية ، ولكن عندما ألغيت الخلافة العثمانية واستبدل أتاتورك الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية تجرأت هولندا على ذلك واستعملت الأبجدية اللاتينية للغة " هاسا " الإندونيسية ، وقد عمت هذه اللغة وبهذه الكتابة بين المواطنين واستعملت فى الصحف والمجلات والدوائر الرسمية ، وتجد فيها كثيراً من الكلمات العربية . وفى أيام الحكم الهولندى كانت اللغة الهولندية هى الرسمية ، وتدرس فى المعاهد والمدارس (٢٧).

فاللغة الإندونيسية هى لغة الملايو التى تعد من قرون عديدة لغة التجارة بين جزر إندونيسيا(٢٨).

وهذه اللغة يتكلم بها الشعب الإندونيسى كلغة تخاطب شامل منذ أكثر من ستة قرون ، إذ كانت اللغة الملايوية لغة تفاهم شعبى بين سكان أقاليم إندونيسيا ، والباحث فى اللغة الإندونيسية والدارس لآدابها والمتعمق لمشتقات كلماتها ، يجد أن كثيراً من كلماتها اقتبست من اللغة العربية وأتت عن طريق الإسلام (٢٩).

الأديان فى إندونيسيا قبل الإسلام :

فى عصور التاريخ الأولى ، كان سكان جزر الهند الشرقية – إندونيسيا فيما بعد – يدينون بدين الطبيعة ، أو فلنسميه دين " الروح " أى أنهم كانوا يعتقدون أن الطبيعة مصدر كل شىء ومرجعه ، وأن للأحياء والأشجار أرواحاً تحوم حولها وتحرسها ، وإن كل حركة من حركات الإنسان تسيرها الروح الحائمة حوله ، وكانوا يقدمون القرابين للأشجار والحيوان استرضاء لأرواحها – أو بعبارة أخرى للآلهة القائمة على حراستها .

وفى القرن الخامس الميلادى حمل الصينيون والهنود إلى الجزر الخضراء معتقداتهم الدينية ، أى الديانتين البوذية والبرهمانية ، وانتشرت الديانتان انتشاراً واسعاً عم الجزر كلها أوجلها وشيدت المعابد (٣٠).

فالبوذية لا تعترف بوجود إله ، كما لا تؤمن بالنبوات ولا بالنفس الإنسانية ، وأن الأخرى وهى الهندوكية تؤله مظاهر الطبيعة وتشتمل على أنماط من التعاليم ، وأنماط من السلوك تنفر منها النفس الإنسانية الراقية ، وتنحيه عن ساحتها فضلاً عن الأديان ورسالاتها المقدسة .

فالبرهمانية مملوءة بأسماء الأرباب والشياطين والأرواح والملائكة وعقيدتها الكبرى قائمة على الثالوث المؤلف من " براهما " و " فشنو " و " سيفا " " وفيها للآلهة صفات الذكورة والأنوثة ، فضلاً عن صفات الشخوص ، أما البوذية فقالت : إن القضاء على الآلام لا يكون إلا بالقضاء على الوعى ، والتجرد من لباس الجسد للدخول فى السعادة العليا التى تتاح للمخلوقات ، ولزم من أجل ذلك أن تنكر الواعية فى الإنسان ، (فالنرفانا) أى السعادة العليا هى الإله الذى لا يعى نفسه ولا يعى غيره (٣١).

فالأديان التى كانت بإندونيسيا قبل الإسلام كانت وافدة كالبوذية والهندوكية ، وكانت البوذية عبارة عن عودة إلى الأحجار والأصنام ، وكانت الهندوكية تحمل عادات الهند وتقاليدها مما جعل فيها فرض تقاليد شعب على شعب آخر ، ومن هنا لم يكن للإندونيسيين حماسة التمسك بهاتين الديانتين (٣٢) . وهما قائمتان على التقشف الذين يعطى فكرته الكهنة الذين يُسيِّرون التعاليم الدينية على حسب إرادتهم ، ويوجهونها على النظام الذى يليق بمكانتهم ، أما الدين الهندوكى فقد أنشأ نظام الطبقات الذى خول الكهنة كل السيطرة على بقية الطبقات ، فهم الرؤساء الذين بيدهم تصرف أمور الكهنوت ، وهم يؤدون الطقوس الدينية التى تربط الرغبات الإنسانية فى إذلال كلى نحو المعبود الذى منه يستمد الرضا والسعادة والأمن والطمأنينة .

وقد أثرت الديانة البوذية فى هذا النظام إذ محت الفوارق وألغت الطبقات ، وجعلت الدين فلسفة تقشفية بحتة (٣٣).

هذه الأديان كانت تضل الأفكار ، وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعدد النِّحَل ، وتحمل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب ، وعدا ذلك فإن فى هذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس فى أعلى عليين وبعضهم فى أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى فى الحضرة الإلهية ، أما الدين الإسلامى فقد أتى أهالى إندونيسيا بما كانوا يشعرون بالحاجة إليه من المساواة التامة فضلاً عن كون عقيدته صافية واضحة (٣٤).

دخول الإسلام إندونيسيا:

دخل الإسلام جزر إندونيسيا في شكل تدرج سلمي بطيء منذ القرن الأول الهجري - السابع الميلادى ، وذلك على أيدى العرب الذين جابوا هذه البلاد منذ قديم الزمن فى تجارتهم البحرية مع الشرق (٣٥).

فالحقيقة أن دخول الإسلام ليس عن طريق الحرب والغزو أو الفتح ، فالروايات المتناثرة هنا وهناك سواء فى دوائر المعارف أو المراجع التاريخية القديمة والحديثة تدل على أن الإسلام بدأ يهتم بحركة امتداد الدعوة الإسلامية وبثها فى جزر الشرق الأقصى فى وقت مبكر ، إبّان عصر الصدر الأول ، حيث سافر أحد دعاة الصحابة الماهرين فى شئون الدعوة ويُدعى "رهاب بن رعشة" إلى الصين لنشر الإسلام الحنيف في ربوعها ، وكان ذلك بعد الهجرة ببضع سنوات ، وهناك تعلم اللغة الصينية ودرس عادات القوم وطبائعهم وعقائدهم القديمة ، ثم أخذ يبثُّ فيهم دعوة التوحيد ، فتجمع الناس حوله وأثار أمره إمبراطور الصين آنذاك "شاى تسونج" فأذن له بمقابلته عام ٦٢٨ ميلادية ، وهذا التاريخ يوافق السنة السابعة من الهجرة(٣٦).

ويعنى ذلك أن سفره إلى الصين ، وبدايته فى بث دعوته كان قبل هذا التاريخ ، ومن قبل ذلك كان للعرب علاقات تجارية مع الصين يرجعها بعض الباحثين إلى سنة ٣٠٠ ميلادية (٣٧)، والبعض الآخر إلى ما قبل ذلك .

فليس معنى هذا أن دخول الإسلام وانتشاره فى تلك المناطق توسع عربى دوافعه التجارة وسد الجوع والحرمان ، فالعرب لم يجهلوا البحر لا فى جاهليتهم ولا فى إسلامهم ، فقد باشروا التجارة قبل الإسلام وبعد الإسلام ، ودخلوا إندونيسيا فى ثوب تجارى لنشر الإسلام ووصلت الدعوة خالصة لوجه الله عز وجل ، فكانت التجارة وسيلة أوصلت إلى الشعب الإندونيسى إشعاعات العقيدة الإسلامية التى تسربت إلى قلوب الناس فارتاحت أفئدتهم لهذه العقيدة (٣٨).

بدأت البذور الأولى تثبت جذورها فى تلك الأرض ، واتخذت جميع الوسائل لإدخال الإسلام إلى نفوس الشعب كمعاملة السكان للتعرف على الخُلق الإسلامى لإقبال الناس على هذا الدين، حيث كان التجار المسلمون يشترن العبيد ويعتقونهم ليرفعوا من قيمتهم الشخصية ويدعونهم إلى الإسلام ، كما أنهم يتزوجون من سكان البلاد فتدخل الزوجة فى دين زوجها بعد أن تتعرف على حقيقة الإسلام عن قرب ويتبعها بذلك أهلها وأقرباؤها (٣٩).

لقد سهل دخول الإسلام إلى تلك البلاد كون العرب قد دخلوها وهم يتاجرون فى الحرير الصينى من قبل عام ٦٠٠ ميلادية ، أى قبل الهجرة النبوية بحوالى ربع قرن من الزمان ، الأمر الذى سهل فكرة دخول الإسلام إلى تلك الجزر ، عبر طريق التجارة البحرى إلى "كانتون" ، ومن المقبول كذلك أن يسلك طريق القوافل البرية إليها عبر سهول آسيا وجبالها .

فهؤلاء التجار قد وفدوا من الجزيرة العربية ، ومن حضرموت وعدن ومن أبناء الجاليات العربية المنتشرة فى جزر الهند الشرقية ، أو من المنحدرين من أصل عربى ، جاء أباؤهم من حضرموت ، هاجروا أول ما هاجروا إلى جزيرة " سومطرة " و " جاوى " وأسسوا فيها جاليات تكاثرت وازدهرت وسيطرت على التجارة بين جزر الهند الشرقية وسواحل الهند ، وامتد نشاطهم وتشعب فى مختلف الميادين ومرافق الحياة ، وانتقلوا مع الوقت من " سومطرة" و "جاوى " إلى الجزر الأخرى وأنشئوا فيها المتاجر ومراكز المقايضة والمبادلة على منتجات البلاد، وكانت سفنهم تجوب البحار فى كل الجهات (٤٠).

ولما اتسعت الدولة الإسلامية ، وأذاع البيزنطيون عنها أنها دولة عسكرية ، وأنها سوف تسيطر على طرق التجارة العالمية ، أرسل الإمبراطور الصينى " كاوتونج " حوالى عام ٦٥٠ ميلادية الموافق عام ٣٠ هجرية بعثة إلى المدينة لمقابلة الخليفة عثمان بن عفان والتفاهم معه ، وقد رد عليه الخليفة عثمان بن عفان ببعثة أخرى أرسلها إلى بلاد الصين عام ٦٥١م - ٣١ هـ، ثم تلتها بعثة أخرى عام ٧١٣م - ٩٥هـ ثم ثالثة عام ٧٢٦م - ١٠٨هـ(٤١).

كل ذلك يدل على اهتمام عصر الرسول - ﷺ - وعصر الخلفاء الراشدين بتوثيق العلاقات مع جزر الشرق الأقصى ، وبث الدعوة الإسلامية فى ربوعها بواسطة دعاة يسترخصون فى سبيلها كل غال ، من جهد أو مال أو حياة ، فإن أول من أوصل نور الإسلام إلى هناك كان من الدعاة المخلصين للدعوة ، ولم يكن تاجراً . وفى عصر الدولة الأموية اشتد اضطهاد رجال الحكم للعلويين ، فهاجر بعضهم إلى الصين واستوطنوها ومد لهم إمبراطورها يد المساعدة وكان ذلك عام ٧٥٠ ميلادية (٤٢).

ولا يستبعد أن يكون البعض منهم قد ألقى عصا الرحيل فى بعض موانى إندونيسيا فى شمال سومطرة ، حيث يحلو لهم المقام ، وحيث تدل على ذلك سلالاتهم التى ماتزال موجودة هناك حتى اليوم .

ويقول أحد علماء أرخبيل الملايو " عبد الملك كريم أمر الله " : إن دخول الإسلام فى تلك الجزر كان عن طريق رجال من دعاة العرب ، مرّوا بالهند ، وأنهم كانوا يستريحون فى موانى

الهند إبان القرن السابع الميلادى ، وأنهم يأخذون من موانى الهند مقرًا للراحة ، كما أنهم يقومون بالزواج من بعض فتيات هذه المنطقة (٤٣).

أما من حيث الفتوحات الإسلامية فقد حارب الأمير " قتيبة بن مسلم " عام (٨٨هـ - ٧٠٦م) أهالى " الصغد " و " فرغانة " التابعين للصين ، ثم عاود محاربتهم فى جهات أخرى عام (٩٦هـ /٧١٤م) .

وفى حوالى عام (١٣٤هـ / ٧٥١م) قامت ثورة فى البلاد الصينية اندلع لهيبها فى كافة أنحاء البلاد ، ولما استفحل أمرها اضطر الإمبراطور " سوتسونج " إلى الاستنجاد بالخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، فأنفذ إليه الخليفة المنصور جيشًا قوامه خمسة آلاف مقاتل من رجاله الأشداء فنجحوا فى إخماد الثورة وتمكنوا من إعادة الإمبراطور إلى العرش واسترداد عاصمته "سينجان فو " ، ويذكر المؤرخون أن الجنود المسلمين التابعين للخليفة المنصور لم يعودوا إلى بلادهم بعد انتهاء مهمتهم فى الصين بل طاب لهم العيش فى الصين(٤٤). فتزوجوا من النساء الصينيات وأقاموا فى داخل الصين أحياءً إسلامية وتناسلوا ، وكانوا يشترون العبيد أيام المجاعات ويدخلونهم فى الإسلام ، فزاد بذلك عدد المسلمين حتى وصلوا إلى نسبة لا بأس بها من مجموع السكان (٤٥).

وكذلك كانت الوفود تتردد بين الخليفة هارون الرشيد وبين إمبراطور الصين " سوتسونغ " حيث كانت تستقبل هنا وهناك بالحفاوة والترحيب ، مما كان عاملاً مساعدًا ومشجعًا على ازدهار التجارة العربية والدعوة الإسلامية فى ربوع الصين ، بل إن العرب قد تمكنوا من السيطرة على مدينة " كانتون " بأكملها ، ونشروا الإسلام فى الجهات التى حولها .

نخلص من ذلك أن الإسلام قد وصلت أنواره الأولى إلى جزر الشرق الأقصى قبل السنة السابعة من الهجرة النبوية ، يحملها الصحابى الداعية " رهاب بن رعشة " رضى الله عنه .

وأن القرن الأول الهجرى كان حافلاً بالصفحات الناصعة ، التى تسجل العلاقات الطيبة بين العالم الإسلامى فى الغرب ، وبين جزر الصين فى الشرق ، وأن الحكام المسلمين كانوا يدعمون عروش ملوك الصين ، وهؤلاء بدورهم كانوا يردّون هذا الصنيع إلى كل من يقيم لديهم من العرب والمسلمين فلا يقفون فى طريق دعوتهم ، وأن عدة آلاف من جنود العرب المسلمين استحبوا الصين واستوطنوا وتناسلوا فيها .

وكما اهتم المسلمون بجزر الصين اهتموا أيضًا بالهند فى فجر الإسلام ، وحرص الحكام على الدعوة للإسلام فيها ، وأقدم ما وصلنا من أنباء عن دخول الإسلام إلى أرض الهند عندما

بلغ " أن راجا " أى ملك " مالابار " عندما بلغه خبر الإسلام أرسل وفداً إلى بلاد العرب للتعرف علي الدعوة الجديدة والتقرير عنها ، فلما وصل الوفد إلى المدينة كان النبى ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى ، فقابل الوفد الخليفة أبا بكر الصديق وتبادل معه البحث ، حتى اقتنع الوفد بالإسلام فاعتنقه وعاد به إلى " مالابار " (٤٦).

ومعروف أن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة (٦٣٢م - ١١هـ) وقد تولى أبو بكر الصديق الخلافة من بعده ، وفى ذلك العام وصل الوفد الهندى ، وأسلم ثم عاد إلى قومه بالجنوب الغربى للهند .

ويذكر البلاذرى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولّى على " البحرين " و " عمان " عثمان بن أبى العاص سنة (١٥هـ) ، فوجه أخاه " الحكم " إلى " البحرين " ومضى إلى عمان وأقطع جيشاً إلى " تانة " فلما رجع الجيش كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه بذلك .

ولما ولى " عثمان بن عفان " رضى الله عنه وولّى " عبد الله بن عامر بن كريز " العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر " الهند " من يعلمه علمه ، وينصرف إليه يخبره ، فوجه " حكيم بن جبلة العبدى " فلما رجع أوفده إلى عثمان بن عفان فسأله عن حال البلاد فأخبره ، فلما كانت سنة (٣٨هـ) وأول سنة (٣٩هـ) فى خلافة على بن أبى طالب كرّم الله وجهه توجه إلي ذلك الثغر " الحارث بن مرة العبدى " بإذن على رضى الله عنه ، فظفر وأصاب ، ثم غزا " المهلب ابن أبى صفرة " فى أيام معاوية سنة ٤٤هـ .

ولما ولى " الحجاج " محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل فى أيام الوليد بن عبد الملك ، غزا السند ، ودخل " البيرون " فصالح أهلها (٤٧).

وكان فتح محمد بن القاسم للسند سنة (٧١٢م/٩٤هـ) ومنذ ذلك التاريخ أصبحت ولاية إسلامية ، وصارت قاعدة لما وقع بعد ذلك من فتوح مباركة ، ففتحت " كوجارت " سنة ٧١٢م و " بروج " سنة ٧٢٤م (٤٨).

مما سبق نستنتج أن الهند درجت علي أديمها فى سنة (١١هـ/٦٣٢م) وذلك بإسلام الوفد الملابارى عند الخليفة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وفى الصين كانت قبل ذلك ببضع سنوات على يد الصحابى الداعية " رهاب بن رعشة " سنة (٧هـ/٦٢٨م) .

وإذا كان دخول الإسلام إلى الصين قد بدأ مبكراً ، وكذلك كان حاله فى الهند ، وأن إندونيسيا آنذاك كانت تعتبر جزءاً من الجزر الهندية وبعض الرحالة كانوا يطلقون عليها جزائر الصين ، وآخرون يسمونها جزائر الهند (٤٩).

حيث تقع فى الوسط من طريق المواصلات البحرية بين الهند والصين ، وأن بعض موانيها كانت ملتقى للمسافرين من هنا ومن هناك من الشرق ومن الغرب حتى أطلق على أحد موانيها " ملقا " لأنها كانت محطة التقاء بين الغادين والرائحين .

أفليس من القبول عقلاً بعد ما بيّناه من حقائق أن يكون الإسلام قد دخل إندونيسيا كما دخل غيرها من بلاد الصين أو الهند ، وإن إهمال التاريخ لذكر أخبار الإسلام الأولى فيها بذاتها لم يكن له ما يبرره ، إلا لأنها كانت آنذاك جزراً تابعة للهند ، فالحديث عن الهند فى هذا الصدد يعتبر فى نفس الوقت حديثًا عن جزر أندونيسيا ، فمن هنا اندرجت أخبارها ضمن أبناء الهند أو أبناء الصين ، ويؤيد ذلك ، أن أول من زار إندونيسيا هو من تجار العرب المسلمين فى القرن السابع الميلادى / القرن الأول الهجرى ، حيث حطوا رحالهم فى "سومطرة" فى طريقهم إلى الهند (٥٠).

ويؤيد ذلك صاحب " حاضر العالم الإسلامى "(٥١) حيث قال : فى ابتداء القرن السابع الميلادى زادت التجارة مع الصين على طريق " سيلان " حتى إنه وجد تجار عديدون من العرب فى " كانتون " بالصين فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، لذلك يتقوى الاحتمال بأن العرب قد ذهبوا بتجارتهم إلى بعض الجزائر الهندية الشرقية فى ابتداء القرون الأولى من الهجرة ، كما فعلوا فى أماكن أقرب وأخرى أبعد منها ، بينما بعض هذه الجزائر مثل " سومطرة " واقعة بينهما ، وكما ذكر فى كتب التقويم الصينية أنه فى سنة (٦٧٤م / ٥٥هـ) كانت هناك جالية عربية فى الشاطىء الغربى من " سومطرة " .

وقيل جاء أول المسلمين إلى أندونيسيا فى بداية القرن السابع بينما جاء العرب إلى إندونيسيا قبل ذلك خلال القرن الأول ، وأقاموا أول مركز لهم فى شمال " سومطرة " وأعقب ذلك مباشرة قيام ممالك إسلامية فى " سامدرا " و " باساى " و " بيرلاك " وغيرها (٥٢).

وبناء عليه فإن الوجود الإسلامى ثبت فى " سومطرة " سنة ٥٥هـ ، وليس بعيداً أن يكون وجوده فى " سومطرة " فى وقت قريب جداً من الوقت الذى وصل فيه الصحابى الداعية "رهاب بن رعشة " فى طريقه إلى الصين لتبليغ الرسالة وإعلاء كلمة التوحيد فى بلاد كانت تعبد القوى الطبيعية وأصنامها .

وخلاصة الأمر أن الإسلام دخل هذه البلاد فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى على يد رجال من العرب المسلمين وكانت هجرتهم خالصة لوجه الله عز وجل واستخدموا فى دعوتهم القدوة الطيبة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة (٥٣).

انتشار الإسلام فى إندونيسيا:

دخل الإسلام إندونيسيا خلال القرن السابع والثامن والتاسع الميلادى ، وذلك عن طريق الجماعات التجارية ، والتي كانت تصاحب معها فيما بعد بعض الدعاة والعلماء ، وقد دخل الإسلام أولاً على يد رجال من العرب عن طريق الموانى التجارية فى الهند ثم كثرت رحلات الدعاة إلى هذه البلاد(٥٤).

فكان هناك دعاة من بلاد فارس والهند ومن الإندونيسيين أنفسهم واستمرت هذه الحالة هكذا طوال القرن السابع والثامن حتى التاسع الميلادى ، حتى جاء القرن العاشر الميلادى حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وازدهر الإسلام وانتشر فى جزر إندونيسيا (٥٥). فلعل هذه الجزر الإندونيسية أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار الإسلام بين الأمم التى كانت تدين بغيره قبل وصوله إليها ، ففى كل موضع فيها تصحيح لأوهام من يزعمون أنه دين ينتشر بالسيف ولا ينتشر بغيره ، وفى كل موضع دليل من الواقع على فعل القدوة الحسنة فى انتشار الإسلام بغير عنف بل بغير اجتهاد فى الدعوة أكثر الأحيان (٥٦).

وقد بدأت سمات الجماعة الإسلامية تتضح كجاليات لها طقوسها الدينية وتقاليدها الإسلامية ورغم اختلاف الجنسيات التي كانت تكون هذه الجماعات ، فقد كانت تجمعها كلها كلمة واحدة هى الجماعة الإسلامية ، فقد ألف الإسلام بين العرب والفارسيين والملاويّين والإندونيسيين الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً .

فقد انتشر الإسلام فيها عن طريق التجار العرب والإندونيسيين على السواء لاسيما فى عهد " هارون الرشيد " حيث كان التجار من الجانبين يلتقون فى موانى الخليج العربى لتبادل التجارة فحلَّ الإسلام محل البوذية والوثنية (٥٧).

وتكاد تكون هناك منافسة كريمة بين الهنود والعرب ، وكل منهما صاحب الفضل فى نشر الإسلام فى جزر الملايو وإندونيسيا ، لأنها منافسة ترمى لنيل هدف سام ، بينما كان العرب أسبق فى القيام بنشر الإسلام لأنهم الذين تلقوا الإسلام قبل غيرهم وهم الذين حملوه إلى الشام ومصر والشمال الإفريقى والأندلس وفارس ثم إلي الهند وماوراء النهر وإلى الملايو وإندونيسيا وقد جاء الإسلام إلى إندونيسيا على المذهب الشافعى .

كذلك كان للحضارمة هجرات تاريخية إلى الملايو وإندونيسيا ، فقد رحلوا تجاراً وعلماء ، وكانوا يعرفونها قبل الإسلام ، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام فى كثير من البلدان والأمكنة

وأن يعاشروا السكان معاشرة أقرب إلى الامتزاج ، وكان لهم دور بارز فى نشر الإسلام بإندونيسيا وبالجزر والبلاد المحيطة بها (٥٨).

وعاشت هذه الجماعة الإسلامية بحريتها فى ظل ممالك هندوكية مثل " لغكاسوكا " و "جغكالا" و " داها " و " سغهاساري" وفى ظلال هذه الممالك غير المسلمة كان من السهل على المسلمين أن يتصلوا بالصين إما على سبيل النشاط الفردى أو كمبعوثين فى سفارات رسمية من هذه الممالك ، كما يرجع تكاثر الجماعة الإسلامية فى هذه القرون إلى عوامل ثلاثة : الأول: استقرار العرب والفرس الدعاة ، وتكوين أسر لهم من العائلات الأصلية لسكان هذه الجزر .

الثاني : دخول العبيد في الإسلام ليحصلوا على الحرية ولشعورهم بالوحدة والمساواة بينهم وبين الأسياد في المبادىء الإسلامية ، حيث لا فرق لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

الثالث : دخول أفواج من أهل البلاد فى الإسلام بسبب النشاط والمعاشرة الكريمة التى أبداها المسلمون فى خلق كريم ومستوى رفيع من المعاملات والتوادد والوحدة الإسلامية ، وتقدير القيم وأدب التصرف وإعجاب السكان بهذه القيم وهم يتمثلونها عن رضى وإقناع مما جعلهم يقبلونها فوجدوا أنفسهم مسلمين .

وقد ساعدت هذه العوامل على انتشار الإسلام وتوسيع رقعة العقيدة الإسلامية حتى غدت ممالك " بوذا " والديانة الهندوكية في بلاد أرخبيل الملايو تضعف لفساد عقيدتها وفى مقدمة هذه الممالك " مملكة سرى وى جايا " بسومطرة الجنوبية ، فقد أخذت فى الضعف والذبول خاصة بعد الحرب الطاحنة التى قامت بينها وبين مملكتى " مادا غكامولان " و " وتشولا ماندالا " ، وقد صادف هذا الضعف فى هذه الممالك البوذية يقظة إسلامية فى بلاد منبع الإسلام ، إذ نقلت قيادة الإسلام أو الدعوة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة فى " عصر المماليك " (٥٩).

لقد أحس سكان البلاد أنهم يعيشون فى كنف الإنسانية وبدءوا يحسون بآدميتهم ، حيث انتقلوا بفضل الإسلام من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الهمجية إلى الإنسانية ، ومن البدائية إلى الرقى والحضارة ، فقد قدم لهم الإسلام الحرية والمساواة والعدل والنظام والمحبة (٦٠).

وبانتقال القيادة إلى مصر تأثرت معنويات المسلمين فى إندونيسيا فقامت فى هذه الفترة أول مملكة إسلامية فى " أتشه " بسومطرة الشمالية ، وبدأ الإسلام ينتشر بشكل واضح ،

وأصبح ديناً لبعض الدويلات في شمال سومطرة في أواخر القرن الثالث عشر ثم انتشر الإسلام من هذه المنطقة إلى " ملقا " على الساحل الغربي من الملايو بفضل المصاهرة بين سلطان " أتشه" وحاكم " ملقا " (٦١).

ثم تابع مملكة " أتشه " دولة " سامودرا فاساى " وقدم شريف مكة مساعدات إلى هذه المملكة الأخيرة كما قدم لها المسلمون من أصل عربي في الهند جانباً من المساعدات .

استمر عمر مملكة " فاساى " إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وفي منتصف هذا القرن . قامت مملكة " ملاك " كاستمرار لهذه الدولة وتوسيع سلطانها .

ولقد صادف هذا الانتشار الإسلامي في هذه الجزر ضعف دولة " بوذا " في " جاوا " التي كانت تعرف بمملكة " ماجا فاهت " والتي كانت معقل عقيدة الهندوكية وذلك بسبب موت ملكها " فاهت كاجامادا " ، ولقد كان لاتساع رقعة مملكة " فاساى " أثر عظيم في توطيد دعائم المبادىء الإسلامية في هذه المنطقة وقوة المسلمين الذين انتشروا في هذه الديار من تلك الجزر، وقد ساعد على ذلك السياسة الحكيمة التي اتبعها ملوك هذه الدول باتباع سياسة هادئة مع جيرانهم من ملوك الصين الذين اعترفوا لهم بسيادتهم الإسلامية ، فكان لذلك أثره الطيب إذ اتسع سلطان الإسلام وانتشر في ربوع البلاد حتى وصل إلى جزيرة " مالوكو " في الطرف الآخر لإندونيسيا من جهة الشر ، في اتجاه قارة استراليا وأحاط بجزيرة " كالمنتان " أكبر جزر إندونيسيا حالياً .

وفي أوائل القرن السادس عشر سقطت " ملاكا " على يد البرتغال وبسقوطها ضاعت إحدى دول الأمة الإسلامية في أرخبيل الملايو ، وصاحب هذا السقوط إقامة ممالك أخرى في "أتشه " و " درى " و " دماق " و " بانتام " في " جاوا " ، وفي نفس الوقت قامت مملكة " جهور" التي تتصل أراضيها برقعة أرض " ملاكا " التي استعمرها البرتغال ، وقد اشتهر في تلك الفترة عدة سلاطين اشتهروا بنشاطهم الإسلامي منهم :

سلطان " أتشه " السلطان على " المغبط " ، و " رادن " فاتح سومطرة الجنوبية " فالمباغ والسلطان " والى سونجو " في جاوا ... إلخ .

وخلال القرن السابع عشر دبّ الصراع بين الاستعمار بعضه مع بعض من جانب ومع المسلمين من جانب آخر ، فقام صراع بين البرتغال والإسبان من جهة ، وصراع بين المسلمين

والإنجليز والهولنديين من جهة أخرى ، مما أعطى الفرصة لظهور قيادات إسلامية عليا فى هذا الصراع مثل : السلطان " تشن باياسا " فى " بانتام " ، و السلطان " ترونوجويو " في "مادورا" و السلطان " حسن الدين " فى " مكاسار " .

وكذلك ظهر كتبة من العلماء الأفذاذ منهم : الشيخ " نور الدين رانيرى " فى " أتشه " ، والشيخ " عبد الرؤوف سنغكيل " ، والشيخ " حمزة فانسورى " ، والشيخ " يوسف تاج الخلوتى" فى " مكسار " .

وهكذا أظهر الجهاد الإسلامى ضد الاستعمار قدرات الأمة الإسلامية وإمكانياتها فى الحفاظ على وطنها ودينها ، وكانت هذه القدرات تتمثل فى النشاطين الحكومى بقيادة السلاطين ، والشعبى بقيادة العلماء .

وفى القرن الثامن والتاسع عشر كان الصراع العنيف من أجل الحصول على حياة مستقلة فى أرض الوطن وطرد الاستعمار بكل ألوانه وأنماطه وأبعاده خاصة الاستعمار الهولندى والإنجليزى ، وساعد على هذا النشاط حسن الاتصال بحكومة الحجاز ووفود جماعات من شباب العرب من حضرموت .

لقد كان هذا النشاط رصيداً فعالاً للحركة الإسلامية التى تصارع الاستعمار الذى لم يبق فى وجهه إلا نشاط الشعب بقيادة العلماء بعد أن اضمحلت سلطة الملوك والأمراء ، ولو أن بعضهم جاهد الاستعمار بصفة فردية مثل الأمراء من سلالة " بوكسيس " الذى استشهد فى الدفاع عن " ملاكا " ضد البرتغال ، ووليد أمام " بمونجل " و " ديفونكورو " و " بجاوا " ، والسيد " عمر جوهان " وقائد " فوليم " فى أتشه ، والسلطان " داود بدر الدين " فى " فالمباغ " ... إلخ .

ومن العلماء الذين ساهموا فى حركة الاستقلال : الشيخ " أرشد " فى " بانجار ماسين " ، والشيخ " نواوى " فى " بانتام " والشيخ عبد الصمد فى " فالمباغ " ، والبد عثمان بن يحيى فى " جاكرتا " (٦٢).

فقد كان لانتشار الإسلام أثره العميق فى قيام ممالك إندونيسية متعددة فى تلك الجزر ، مثل مملكة " بنتام " التى أسسها الملك حسن الدين فى " جاوة الغربية " ، ومملكة " متارام " التى أقامها رجل عسكرى يدعى " سنافاتى " فى شرق " جاوة " ، وبذلك أصبحت جزيرة

"جاوة" مركز إشعاع للدين الإسلامي ، وانتقل منها إلى غيرها من الجزر ، ومملكة " أتشه " في شمال " سومطرة " ومملكة " ديماك " في وسط " جاوة " والتي أقامها رمضان فاطمي ٨٣٢هـ، ومملكة " بالبانغ " في جنوبي " سومطرة " وبانتشار الممالك الإسلامية تم القضاء على إمبراطورية " ماجافاهيت " وانتهى حكم الهنود في تاريخ إندونيسيا (٦٣).

الممالك الإسلامية في إندونيسيا:

إن أكبر دليل على وجود صدى قوى للإسلام في إندونيسيا هو إقامة ممالك إسلامية هناك، فكان بعضها واسع الأثر والمدى خطير الشأن ، وكان بعضها محلياً وفي مناطق صغيرة ، لقد بذلت هذه الممالك أقصى ما في وسعها لصد أي عدوان عليها ، وأصبح الإسلام يمثل القومية والوطنية ضد الزحف العدواني الذي جاء من أوروبا لينهب ويسلب وينشر المسيحية ، فقاومت إندونيسيا حروباً تعد جزءاً من الحروب الصليبية التي عرفها الشرق عدة مرات وفي عدة ميادين بسبب الزحف الغربي الغاشم .

لقد عملت هذه الممالك على حمل الإسلام للخارج ونشره في جزر آسيا الجنوبية الشرقية ، وأتاحت الفرصة لتوسع إسلامي هائل جنوب شرق آسيا ، وكان لجهود هذه الممالك أثر كبير في نشر الإسلام من جهة وإقلاق المستعمر من جهة أخرى ، فمن الممالك الإسلامية التي قامت في إندونيسيا .

مملكة " فاساى " في القرن الثالث عشر والرابع عشر : فعندما انتشر الإسلام في المنياء البحري " فاساى " أصبحت نقطة ارتكاز مهمة للإسلام في الساحل الشمالي الشرقي "بسومطرة" ، وربما كانت أقدم نقطة ارتكاز إسلامي في إندونيسيا (٦٤).

وقد اهتم شريف مكة بوجود المسلمين في هذه المنطقة " بساحل سومطرة " فأرسل عالماً جليلاً يسمى " الشيخ إسماعيل " ليرشدهم إلى طريق الله السوي ، حيث زرع هذا الشيخ مفاهيم التصوف الإسلامي ، واشتهر هذا الشيخ بمذهبه وسلوكه وأخلاقه الرفيعة ، واستقر له المقام وبسط تعاليم الدين وفتح الله قلب السلطان على يديه فدخل في الإسلام راضياً مرضياً، ثم غير هذا السلطان اسمه ولقبه من السلطان " ميره سيلو " إلى الملك الصالح .

قامت في " فاساى " أول دولة إسلامية وقد تم العثور على حجر في هذه المنطقة ، وُجدت عليه كتابة بالخط العربي الرقعة مما يفيد أن هذا الحجر كان يحمل اسم أول ملك لهذه الدولة

وتاريخ حكمه ، وكان المكتوب عليه اسم الملك الصالح الأول عام (٦٩٢هـ الموافق ١٢٩٧م) ، وقد رزق هذا الملك بولدين الأول الملك الظاهر والثاني الملك المنصور ، وكان الملك الظاهر على شغف بنشر الإسلام مثل أبيه في البلاد المجاورة لمملكته ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في ربوع الممالك المجاورة له ، وقد وصفه ابن بطوطة بأنه ملك عظيم المعرفة والبيان وقوة النشاط الإسلامي ، وكانت الدولة في عهده على قدر عظيم من الحياة الاقتصادية المنتعشة بما كان لها من تجارة مع دول المنطقة وخاصة بلاد الصين ، وسارت مملكة " فاساي " مركزاً للدعوة الإسلامية بالإضافة إلى كونها مركزاً تجارياً ، واشتهرت بأنها المركز الأصيل لنشر الإسلام إلى درجة أنه إذا وجدت مشكلة في المسائل الفقهية في بلد إسلامي مجاور مثل " ملاكا " أو غيرها توجهوا إلى علماء " فاساي " للتعرف على مأربهم الفقهي (٦٥).

وأما الملك المنصور بن الملك الصالح فقد تولى العرش في سنة ١٢٩٧م . ومن هذه المملكة انتشر الإسلام في سومطرة وغيرها(٦٦).

ثم تولى حكم هذه المملكة السلطان زين العابدين ١٣٥٠م بعد أبيه الملك الظاهر ولم تسعفه سنه لأنه كان حدثاً فتولى إدارة أمور الدولة مجلس وصاية من كبار رجالها ، ولم تدم طويلاً حتى صارت هذه المملكة الإسلامية مستعمرة تحت سلطان ملك بوذي في " سيام " ، ولكن الله عوّض أهل هذه البلاد عن مملكة " فاساي " بمملكة " ملقا " الإسلامية في الشاطىء المقابل للدولة القديمة (٦٧).

مملكة " ملقا " وكانت في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وهي مدينة ساحلية وميناء تجاري هام ازدهرت يوماً بعد يوم حتى صارت أهم مركز تجاري في المنطقة ، وكان أميرها هندوسي اسمه " باراميسور " خلفه ابنه " اسكندر شاه " ، وقد أراد هذا الأمير الجديد أن يتزوج رجلاً غير مسلم انطلاقاً من تعاليم الإسلام وشريعته ، فاتجه هذا الأمير "اسكندرشاه " للتعرف على الإسلام ودراسته حتى اعتنقه وأعلن إسلامه وأصبح شديد العناية به ، ودعا رعاياه لاعتناق الإسلام فاستجابوا له ، ومنذ ذلك الحين أصبحت دولة " ملقا " مركزاً للدعوة الإسلامية بجانب كونها مركزاً تجارياً حافلاً ، وبسبب نشاط الدعوة الإسلامية ، والنشاط التجاري في " ملقا " توسعت رقعتها وضمت ولايات أخرى كثيرة تحيط بها في شبه جزيرة الملايو ، ومن هذه الولايات " كده " و " ترينجايو " و " باهانج " و " جامبيسي " و "بنتانج " وغيرها ، وبذلك أصبحت " ملقا " إمبراطورية واسعة الأرجاء تضم شبه جزيرة الملايو

كلها ، كما تضم جزءًا كبيراً من " سومطرة " ثم تتابع عليها الملوك المسلمون (٦٨). كالسلطان محمد شاه الذى منذ أن أسلم تأسست الدولة الملقية الإسلامية فى سنة ١٤٠٩م ، وفى عهده كثر مجيء التجار المسلمين من الهنود والفرس والعرب إلى " ملقا " ولم يعش طويلاً حتى مات فى سنة ١٤١١م .

والسلطان المظفر شاه الأول ، كان عادلاً ، حيث أنشأ دستوراً فى البلاد ، وقانونًا لتوحيد العادات والتقاليد ونظام الحكم ، وفى عهده قوى نفوذ الدولة الإسلامية " بملقا " ، فباعتلاء مظفر شاه العرش زصبحت مملكة " ملقا " رأس حربة لتقدم الإسلام وراءها تقدمًا أمكن الوصول إليه بالمقدرة التجارية المتزايدة ، ووطدت " ملقا " اتجاهاتها الإسلامية بالمصاهرات الملكية الحميمة (٦٩).

والسلطان منصور شاه ، اتسعت فى عهده حدود الدولة الإسلامية وزادت الروابط بينه وبين إمبراطور " ماجاهيت " " مما أدى إلى تنازل إمبراطور " ماجاهيت " عن عدة ولايات للسلطان منصور شاه ، وفى عهده قويت الروابط بينه وبين إمبراطور الصين أيضًا ، وازداد انتشار الإسلام فى البلاد التى وقعت تحت نفوذه ، وكان شغوفًا بتعلم أصول الدين والتشريع الإسلامى.

والسلطان على الدين رعيد شاه فى ١٤٧٧م ، حيث نفذ هذا السلطان القانون الخاص بقتل قاطع الطريق مصداقًا لقول الله عز وجل : " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم" «المائدة - آية (٣٣) » وأصدر أمراً بحفظ ما يُعثر عليه من الأشياء المسروقة والمفقودة إلى حين ظهور أصحابها ، وساد فى عهده الأمن ، كما حرّم قتل الحكام للجانى إلا بعد إصدار حكم منه بالقتل ، حتى تسود العدالة جميع الرعية ، وبعدله وحُسن تدبيره فى تسيير أمور الحكم اشتهر اسمه فى العالم الإندونيسى وعظم شأن مملكة " ملقا " .

والسلطان محمود شاه الأول ، وهو آخر سلاطين مملكة " ملقا " الإسلامية حيث سقطت "ملقا " واستولى عليها البرتغاليون فى سنة ١٥١١ميلادية بعد معارك دموية (٧٠).

كانت مملكة " ملقا " كغيرها من الممالك الإسلامية ، فبمكانتها الدعوية والتجارية حملت الإسلام للخارج ونشرته فى جزر آسيا الجنوبية الشرقية ، ولم تأت نهاية القرن الرابع عشر

الميلادى حتى كانت مملكة " ملقا " قوية شامخة على شاطىء المضيق المسمى باسمها ، وكانت مؤمنة بالعقيدة الإسلامية كل الإيمان ، وانتشرت هذه العقيدة بسرعة مدهشة إلى كثير من الجزر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ومنذ ذلك الوقت صار الإسلام دين الغالبية العظمى لأهل تلك الجزر (٧١). وقد استمر هذا الحال حتى غزا البرتغاليون " ملقا " وبدأت المعارك بسقوط دولة " ملقا " الإسلامية وسيطرت البرتغال فى ١٥١١م (٧٢).

مملكة " أتشه " وكانت فى ١٥١٤ – ١٩٠٤ ، وتقع هذه المملكة فى شمال سومطرة ، وقد ظهر الإسلام وانتشر بها ومنها منذ عدة قرون قبل بدايتها سنة ١٥١٤م ، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة ، وأعجب بها وبالنشاط الإسلامى فيها ، وأثنى على ما لقى من ترحيب من علماء هذه المنطقة وسلاطينها ، فقال عن سلطانها : " إنه من فضلاء الملوك وكرمائهم ، شافعى المذهب ، محب للفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الجهاد والغزو ، ومتواضع ، يأتى إلى صلاة الجمعة وهو ماش على قدميه ، وأهل بلاده شافعية محبون للجهاد يخرجون معه تطوعًا ، وهم غالبون على من يليهم من الكفار ، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح (٧٣).

لقد نشأت هذه الدولة عقب سقوط مملكة " ملقا " وجاء تطورها سريعًا عقب نشأتها واتجه اهتمامها إلى جانبين مهمين هما نشر الإسلام ومصارعة الغرب المحتل . وأول سلطان على هذه المملكة هو السلطان " على الدين راعيت شاه الثانى " الذى نذر نفسه للإسلام ومجد الإسلام . وقد تولى من ذرية هذا السلطان مجموعة من السلاطين المسلمين هم : السلطان مظفر شاه الثانى ، والسلطان عبد الجليل الأول ، والسلطان عبد الجليل الثانى ، والسلطان على الدين رعيت الثالث ، وغيرهم من السلاطين المسلمين .

لقد عاشت مملكة " أتشة " أزهى عصورها فى ظل الإسلام ، وأنجبت مجموعة هائلة من العلماء المسلمين استطاعوا أن يقوموا بدور كبير فى شرح الإسلام وتقديمه لسكان المنطقة حتى عانى الغرب أشد المعاناة فى مواجهة " أتشة " مواجهة عسكرية حتى لجأ هؤلاء الغربيون إلى وسائل أخرى لنشر الفتن والدسائس التى تثير بعض الجماعات على الأخرى ، وبذلك فقط استطاعت قوى الشر أن تنتصر على " أتشة " بعد صراع استمر إحدى وثلاثين عامًا من سنة (١٨٧٣ – ١٩٠٤م) (٧٤).

مملكة " ديماك " وهى بمنطقة " جاوة " وكانت فى سنة ١٥١٢ – ١٥٥٢م . فهى من الممالك الإسلامية التى قامت على أنقاض إمبراطورية " ماجاهيت " وقدر لهذه المملكة أن تقود غزوة

ضد بقايا تلك الإمبراطورية ، وأن تحيلها قبيل نهاية القرن الخامس عشر إلى ولاية صغيرة تابعة لجاوة الشرقية وعقب ذلك أسقط البرتغاليون دولة " ملقا " في سنة ١٥١١ ميلادية ، وأحست " ديماك " بمسئوليتها تجاه الصراع ضد أعداء الدين والوطن فتعاونت " ديماك " مع الدولة الإسلامية الناشئة آنذاك في رد الغزاة ، ثم حاولت تعويض البرتغاليين عن نشر سلطانهم بإندونيسيا ، وأنشأت صلات قوية مع " آتشة " و " بالمنبج " و " جوهود " و " سولاويسي " : وذلك للوقوف في وجه الاستعمار الغربي ، ولمقاطعة البرتغاليين تجارياً ، ولمصارعتهم عسكرياً فقد قدمت " ديماك " جهوداً كبيرة لنشر الإسلام بجزر إندونيسيا باعتبار الإسلام قوة تتجمع حولها البطولات للوقوف في وجه الاستعمار (٧٥).

اختار العلماء هذه المنطقة بالذات لأنها مفرق الطرق في جزيرة " جاوة " ولها أهمية استراتيجية في نشر الدعوة الإسلامية ؛ لكونها ملتقى لعديد من الولايات ولبعدها عن مركز الهندوكية في " ماجاباهيت " وشهرتها بين الرحالة أنها مدينة العلم والعرفان ، وأنها المركز الأكبر لنشر الإسلام وقد اعتبر أهلها أن كل هذا المجهود لا يتم إلا بإقامة دولة إسلامية فيها ، وكان رئيس هذه الدولة " رادن فتح الله " الذي أقام فيها أكبر المساجد ليكون المنارة العليا(٧٦).

لقد كان ملوكها من خيرة الأبطال والمجاهدين ، أولهم " رادين فتاح " الذي استقلت الدولة في عهده ، وجاء بعده ابنه " باتي . يونس " فتمكن من توسيع مملكته ، ثم جاء بعده في ١٥٣١م " رادين ترينجانو " واستمر حكمه من ١٥٣١م إلى ١٥٤٦م ، وكانت ثمرة عمله الخالدة دخول " جاوة الغربية " الإسلام (٧٧).

مملكة بنتان " جاوة الغربية " وكانت في ١٥٥٢م حتى ١٦٨٤م ، حيث استقلت هذه المملكة عن مملكة " ديماك " وازدهرت خلال حكم السلطان حسن الدين أول ملك لها (١٥٥٢ - ١٥٧٠م) حتى زاد انتشار الإسلام في جاوة ، وتزوج هذا الملك من ابنة ملك " اندرابورا " بسومطرة ، فقويت الصلة بين " جاوة " و " سومطرة " في مواجهة الغزو الغربي .

كما اهتم هذا الملك بجذب التجار المسلمين إلى مملكته مما جعلها بديلاً لمدينة ملقا التجارية، وقد اختير الأمير يوسف أحد أبناء السلطان حسن الدين ليكون خلفاً لوالده الذي ترك من خلفه حضارة ورخاء وازدهاراً نتيجة لسياسته الاقتصادية التي استغل فيها مهارة البرتغال والفرس والعرب والهند جميعاً .

كما وصل الملك " أجونج كرتاياسا " بمملكة " بنتان " إلى غاية المجد حتى استطاع الهولنديون تركيز جهودهم الحربية ضد " بنتان " ولم يستطع العدو هزيمة ملك " بنتان " في ميدان الحرب ، فأعملوا الحيلة لهزيمته داخلياً عن طريق الفتن والوقيعة بينه وبين ابنه فقامت حروب داخلية انتهزتها هولندا لتساعد الابن ضد أبيه حتى جاءت نهاية " بنتان " في سنة ١٦٨٤م (٧٨).

مملكة متارم وكانت في ١٥٨٣ - ١٦٤٥م ، ظلت هذه المملكة على الوثنية حتى ١٥٨٣م حتى تولى أمرها رجل مسلم هو " سنوفاتي " واتجه هذا القائد إلى نشر الإسلام في " جاوة " كلها ، كما اتجه إلى أن يكون منها مملكة واحدة فأرسل الدعاة إلى المناطق المختلفة ، وأرسل الجيوش التي تقاوم اتجاه الوحدة التي كان يرمي إليها ، ومن أجل الحروب الكثيرة التي خاضها هذا القائد ، الذي عُرف عصره بعصر الحروب والمعارك ، حتى جاء حفيده " سلطان أجونج " أي السلطان العظيم الذي حارب كل الذين وقفوا في طريقه وفي سبيل نشر الإسلام، حتى كثرت البلاد والتابعة له ، ونشر الثقافة الإسلامية في " جاوة " الوسطى ، واهتم بتنقية الفكر الإسلامي من العناصر الهندوكية واستعمل التاريخ الهجري واعتنى بالآداب عناية كبيرة. ثم عاجلته المنية فدخلت هولندا في صراع الأمراء مع بعضهم البعض وهي تدعم هذا الجانب على ذاك حتى ضعفت القوى وتمكنت هولندا في النهاية من النصر (٧٩).

ومهما يكن من أمر ، فإن الهولنديين قد جاءوا إلى إندونيسيا مستعمرين ولكن استعمارهم كان ذا صفة تجارية بالدرجة الأولى ، وسارت هولندا على سياسة عقد المعاهدات بين الملوك والسلاطين من حين لآخر توطيداً لنفوذها وسيطرتها على هذه الجزر .

ولم ترع هولندا أي تحالف أو عهود بينها وبين الإندونيسيين ، فما أن خلت الساحة من البرتغاليين حتى ظهر طمعهم ونهبهم لخيرات البلاد حاقدين على الإسلام وأهله ، وأحدثت الوقيعة بين الممالك الإسلامية (٨٠).

مملكة " غووا " وكانت في سنة ١٦٦٧م وقد قامت هذه المملكة في جزيرة " سلاويسي " وأسهمت بنصيب كبير في الصراع ضد الزحف الأوروبي وعقب سقوط " ملقا " أصبحت "غووا" ميناءً هاماً للتجار المسلمين ، فانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في جزيرة " سلاويسي " وبدأت هذه الجزيرة تتخذ نصيبها في الصراع ضد هولندا ، ودارت حروب ومنازعات وكان يقود الجيش السلطان حسن الدين الذي حقق انتصارات كبيرة وضم إلى مملكته جزر الملوك وغيرها من الجزر .

ظلت هذه المملكة المسلمة نابضة بالحياة على الرغم من الاستعمار حتى القرن التاسع عشر[٨١] .

شهد الإسلام في ظل تلك الممالك الإسلامية نهضة علمية اشتد من خلالها ساعد الدعوة الإسلامية وقويت المبادىء الإسلامية وكان هدفها إبعاد الناس عن التقاليد الهندوسية ، وكان لكة وبعض الدول الإسلامية تأثير روحى على الناس فى إندونيسيا لتطبيق شريعة الله ، وكانت قوة الإسلام دافعًا للشعب الإندونيسي لمقاومة كل مستعمر أو غاصب وخاصة المستعمر الهولندى الذى حرص على عدم تعليم الإندونيسي مما دفع المسلمين إلى إنشاء مراكز للعلم ونشر الإسلام حيث أصبح التعليم مجالاً خصبًا لعلماء الدين المسلمين ، وكانت المساجد هى المراكز الطبيعية التى يشع منها ضياء العلوم الإسلامية ويؤثر فى الشعب الإندونيسى [٨٢].

صدى حضارة الإسلام فى الحياة السياسية فى إندونيسيا :

حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومراسيم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق ، فقيام أى جماعة متحضرة لا يتصور إلا فى ظل نظام قانونى أو دستورى ، فما بالنا لو كان هذا النظام هو الشريعة الإسلامية التى نصب دستورها الخالق سبحانه وتعالى ، فالدين الإسلامى على عكس الأديان الأخرى عقيدة ونظاماً ، حيث يجمع بين الدين والقانون ، فالتشريع الإسلامى سرعان ما أصبح أساس القانون فى إندونيسيا كغيرها من البلاد الإسلامية ، حيث اعتنق أهلها الإسلام وحل القانون السماوى مكان القانون الوضعى .

أخذ الإسلام مكان العادات والأعراف السائدة التى كانت تنظم المجتمعات بجانب القوانين، ولقد كان أثر التشريع الإسلامى أكثر فاعلية مما قامت به القوانين السابقة ، ذلك لأن من أسلم كان لابد له من أن يلم بالتشريع الإسلامى .

ولقد أصبح انتشار الإسلام بجزر إندونيسيا معناه انتشار القانون السماوى والنظام الإسلامى ، حيث تكونت الممالك الإسلامية فكان بعضها ذا شأن عظيم ، وكان البعض الآخر محلياً وفى مناطق صغيرة ، فبذلت هذه الممالك الإسلامية أقصى ما فى وسعها لنشر الإسلام حتى أصبح يمثل القومية والوطنية ضد أى عدوان [٨٣].

فالأثر السياسى لانتشار الإسلام بإندونيسيا ظهرت ثمرته فى قيام ممالك إسلامية إندونيسية متعددة خاصة فى جزيرة " جاوة " وجزيرة " سومطرة " كما سبق أن بينا ،

وبانتشار هذه الممالك الإسلامية ثم القضاء على إمبراطور " ماجاناهيت " وانتهى حكم الهنود في تاريخ إندونيسيا وثبت المسلمون أقدامهم (٨٤).

وهناك ما يدل على أن الإسلام صار دين الدولة في دولة " ترنجانو " على الساحل الشرقي من الملايو قبل ذلك ، كما يبدو من تاريخ الحجر الأثرى الذى عثر عليه هناك ، محفور عليه قوانين رسمية أعلنها الحاكم المسلم ، حرم فيها المحرمات الإسلامية ، ويرجع تاريخ الكتابة إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

لقد شكلت القيم الإسلامية الجوهر الأساسى فى نظام سياسة إندونيسيا وحضارتها بحيث اعتبرت قطاعاً إسلامياً ، غرس الإسلام أثره الكبير على الصعيد السياسي بإندونيسيا ويبدو ذلك جليًا في المصطلحات المستعملة لتقديم الأفكار السياسية كالأفكار عن السلطة والملك والصلة بين الملك والشعب وما إلى ذلك من الآراء السياسية فى الحقل السياسى ، ففى هذا الحقل جعل الشعب الإندونيسى الإسلام أساسًا في تشكيل سلوك سياسة رجال الملكية وباعتبار أن الإسلام أساس للسلوك السياسي يبدو جليًا فى قضايا السياسة الرئيسية وغيرها من الأفكار الهامة التى تبرز فى الأفق السياسى بإندونيسيا ، وبموجب ذلك تقدم أفق إندونيسيا السياسى بعد فكرة الشورى كنظام فى سلوك سياسة ملوك إندونيسيا ، واستمدت هذه الفكرة من تاريخ الإسلام السياسى ، فلعب الإسلام دوره الهام فى تشكيل الملكية وتأسيس نظام الحضارة (٨٥).

أصبحت كل مملكة من الممالك الإسلامية يحكمها أمير أو سلطان شديد العناية بالإسلام ، ويدعو رعاياه لاعتناق الإسلام ، مثل سلطان " ملقا " السلطان إسكندر شاه ، حتى جعل من مملكة " ملقا " مركزًا للدعوة الإسلامية بجانب كونها مركزًا تجاريًا (٨٦).

فقد أثر الإسلام على السلطان ووجهه إلى مهمته الأساسية وهى النظر فى أمور الدين فى ولايته ولاسيما الصلاة والإدارة والسياسة والحكم والدفاع ، وإعداد الجيش وقيادته والحكم والقضاء وتدبير الأموال ، فهى رئاسة عملية ، وحراسة للدين وسياسة للدنيا (٨٧). أو بمعنى آخر رعاية الدين والاشتغال بالسياسة وفن الحكم (٨٨).

اهتم سلاطين الممالك الإسلامية فى إندونيسيا بتنظيم البلاط السلطانى وإعداد المراسم الخاصة بالحياة الملكية ، واقتبس السلطان " محمد شاه " سلطان " ملقا " ما كان شائعًا آنذاك فى البلاد الإسلامية من ألقاب ونظم ، وكان قصر السلطان يتوسط دائرة العاصمة

ويحيط به من قصور كبار الحاشية والحرس ، ومع أنه لم يكن للسلطان مجلس شورى ، فقد كان له موظفون كبار يستشيرهم فى مشكلات المجتمع (٨٩).

فتغير الأسماء والألقاب عند ملوك وسلاطين هذه الممالك أمر واضح ، فقد غير السلطان " ميره سيلو " سلطان مملكة " فاساى " بعد دخوله الإسلام - لقبه واسمه إلى اسم ولقب إسلامى وهو : " الملك الصالح " وجاء من بعده ولده الملك الظاهر ، واسمه الملك محمد ، وابنه الثانى الملك المنصور (٩٠). وكذلك سلاطين مملكة " آتشة " حيث اتخذوا لقب سلطان ولقب شاه، وذلك تأثرًا بالحكام المسلمين ، مما جعل الإندونيسيين يتخلون عن الألقاب التى كانت تستعمل قبل وصول الإسلام إليهم ، حيث كانت هذه الألقاب تضع الملك فى مكان الإلهى ، وتراه ظل الله على الأرض وهو ما يعارضه التفكير الإسلامى ، مما يدل على أن للإسلام أثر واضح على بعض الجوانب السياسية فى ممالك إندونيسيا ، وليس فى مثل ذلك فحسب ، بل أتاح انتشار الإسلام فى جزيرة " ملقا " فرصة توسع إسلامى هائل فى جنوب شرقى آسيا، كما أتاح فرصة لاقتباس كثير من التشريعات الإسلامية التى سرعان ما كونت القانون الرئيسى لمملكة " ملقا " فى جميع الاتجاهات القانونية (٩١).

وقد قام السلطان حسين الذى لقب بالسلطان " على الدين رعيت شاه " الأول بتنفيذ حد الله بقتل قاطع الطريق تنفيذًا لقول ربنا عز وجل { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا ... } (٩٢).

كما بنى هذا السلطان فى مفارق الطرق دورًا تحت حراسة عمد البلاد وأصدر أمرًا بحفظ ما يُعثر عليه من الأشياء المسروقة والمفقودة فى هذه الدور إلى حين ظهور أصحابها ، وبذلك ساد الأمن فى ربوع البلاد ، كما حرم قتل الحكام الجانى إلا بعد صدور حكم منه بالقتل حتى تسود العدالة جميع الرعية . كل ذلك انطلاقًا من تأثير الإسلام وصداه على هؤلاء تأثيرًا مباشرًا حكامًا ومحكومين .

لقد مارس السلطان الإدارة والسياسة والحكم وإنشاء القوانين والدستور الذى تتفق والشريعة الإسلامية التى يدين بها ، فقد أنشأ السلطان المظفر شاه الأول سلطان " ملقا " دستورًا فى البلاد ، وقانونًا لتوحيد العادات والتقاليد ونظام الحكم (٩٣).

وفى وقت من الأوقات تولى الحكم والزعامة فى بعض الجزر والممالك بإندونيسيا أسر عربية جاء أفرادها من جزيرة العرب أو ولدوا فى الهند من أمهات وآباء من العرب (٩٤).

تولت الدولة تدبير شئون الدين ، والغيرة على محافظة الأفراد على شعائر دينهم ، وقد تفرض الإدارة الخاصة بالشئون الدينية عقوبات على من يقصر فى أداء الشعائر كالصلاة أو الصيام ، فنجد فى كل سلطنة أو مملكة إدارة حكومية خاصة للشئون الدينية لها قانونها ومجلسها الذى يفصل فى شئونها ولها مُفْتٍ خاص يصدر قراراته فيما يحول عليه من مسائل وفتاوى ، سواء من الحكومة أو الأفراد . والسلطان فى سلطنته رئيس الشئون الدينية بمقتضى الدستور ، ويدعى باسمه على المنابر فى خطبة الجمعة (٩٥).

وكان لتأثير الإسلام على نظام الحكم صدى واضح ، فقد قام سلطان مملكة " ديماق " واسمه " الشريف فتح الله " بتكوين ما يشبه مجلس الشورى من جماعة من الأولياء يستشيرهم فى أمور الدولة وسياستها ، فعرض على هذه المجموعة ذات مرة يستشيرهم فى الأسلوب السياسى الذى يتبعه فكان الرد عليه أن يتخذ أسلوبًا دبلوماسيًا ، وألا يجنح إلى القوة والقهر – وكان من بين هؤلاء الأولياء من هو دائم النصح له ، والتوجيه – وأن يتذرع بالصبر والهدوء والأناة ، فإن السلاح الروحى أقوى من سلاح الجيش ، والدعوة بالحسنى مقدمة على رفع السيوف مادام هناك سبيل معبد لأداء كلمة الحق وتوصيلها إلى أسماع البشر (٩٦).

إن السياسة التى سلكتها الإدارة السياسية للبلاد الإندونيسية لتبرز صدى الإسلام على أهل تلك البلاد ، كالمحافظة على حسن الجوار والعلاقات المتبادلة بين البلاد المنبثقة من روح الإسلام بأن المسلمين كالجسد الواحد فى التواد والتراحم ، وكأنهم بنيان مرصوص ، حيث شدد الإسلام فى توصيته على علاقة الجوار سواء على مستوى الأفراد أو البلاد ، فقد ظهرت ثمرت الإسلام فى مثل هذه السياسات كما حدث فى مملكة " ملقا " وعلاقاتها مع الممالك الأخرى ، فقد رسمت سياستها على احترام الجيران ورعاية حسن الجوار مهما كان المأزق السياسى عصيبًا ، وقد أثرت مثل هذه العلاقات فى إقامة علاقات دبلوماسية بين الصين والممالك الإندونيسية خاصة مملكة " ملقا " فقد عين القيصر الصينى أحد القادة العسكريين البحريين سفيرًا متجولاً فى منطقة إندونيسيا وكان هذا القائد يسمى " سامغو " ، وقد قام هذا السفير المسلم بمهمته خير قيام فطاف بسبع عشرة دولة بأسطوله البحرى ، وبسبب هذه السياسة الخارجية الحكيمة التى قامت على أساس من الاحترام المتبادل بين الدول المجاورة أصبحت مملكة " ملقا " مركزًا تجاريًا هامًا بين أقطار العالم ، وكانت ملتقى السفن القادمة من بلاد العرب والهند وفارس والصين فازدهرت الحياة فيها ورسخت دعائم المجتمع .

لقد كان هذا الأسلوب بمثابة منهج فى الدعوة الإسلامية حيث حرص سلاطين وملوك وأمراء إندونيسيا على تحسين العلاقات بينها وبين الدول المجاورة ، مما أدى إلى بسط هؤلاء السلاطين والملوك سيطرتهم على رقعة واسعة من الدول فى جو من الأمان والعلاقات الحسنة الطيبة ، مما ساعد على نشر الإسلام ، وكانت مثل هذه النظرة بعيدة المدى ، تدل عل سياسة بارعة وناجحة وهمة عالية وإرادة قوية ، كما فعل السلطان أبو بكر سلطان مملكة " جوهور " فرفع من شأن بلاده ووضعها فى مصاف البلاد الراقية وكان أهم عمل قام به هو تحسين علاقته بالدول المجاورة ، وربط بلاده بجميع الدول برباط متين من الصداقة والمحبة .

كما سمح السلطان المسلم لكل مسلم ليس من أهل بلاده أن يمنح أوسمة الدولة وألقابها إذا حسن إسلامه وتأقلم مع العادات الإسلامية ، كما جعل له الحق فى الوظائف العليا مثل رئاسة الجيش والوزارة .

واهتم السلطان بنفسه بشئون الأمن فأصدر عدة أحكام منها قطع يد السارق ، ونظام الحراسة الليلية ، وكان السلطان يعس بالليل مثلما كان يفعل الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد قام بهذا على سبيل المثال السلطان علاء الدين رعايات سلطان مملكة " ملقا " وكان يتعرف على أحوال المملكة بالليل ثم يصبح فيسأل الحكام وتدور بينهم مساجلات مخجلة لهم حتى عُرف عنه أنه يتفقد أمن الدولة بنفسه ليلاً بمساعدة خدمه الخاص .

لقد كان لاهتمام سلاطين وأمراء إندونيسيا أثر عظيم فى توطيد دعائم المبادىء الإسلامية كما حدث فى مملكة " فاساى " وقد ساعد على ذلك السياسة الحكيمة التى اتبعها سلطان مملكة " فاساى " – على سبيل المثال – باتباع سياسة هادئة مع جيرانهم من ملوك الصين الذين اعترفوا لهم بسيادتهم الإسلامية (٩٧).

وإن أعظم أثر أحدثه الإسلام وجدير بأن نتحدث عنه هو توحيد أجزاء الأمة فقد أعطاها قوة جعلها تقف فى وجه الغرباء والمستعمرين . وبسبب وحدة العقيدة وأثر الإسلام الواضح جاءت تشكيلاتهم السياسية أقوى من غيرها (٩٨).

وكما كان لكل مملكة سلطان يدير شئون البلاد السياسية سواء الداخلية والخارجية ، فقد أنشأ السلطان منصب الوزير ورئيس الوزراء لكى يستعين بهما فى إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها .

فقد عرفت مملكة " ملقا " بإندونيسيا رئيس وزراء حازقًا قويًا هو " توف بيراق " وكان هذا الرجل شديد الفطنة ، وظل رئيسًا للوزراء تحت حكم أربعة سلاطين ، ونالت " ملقا " خلال هذه المدة نهضة علمية ، واتسعت الدولة في عهده ، وبعد وفاته تولى شقيقه " تون بوتيه " رئاسة الوزراء ، فواصل نظام أخيه ، حتى استمرت الدولة في الاتساع والنفوذ (٩٩).

وكما يوجد وزراء ورئيس وزراء للدولة كذلك يوجد الأمراء والكتاب وقائد جيوش وفقهاء وندماء وحكماء وشعراء .

يروى لنا ابن بطوطة موقفًا عن سلطان " جاوة " يضم كل هذه المناصب فيقول : متحدثًا عن مركب السلطان من المسجد إلى داره : ولما خرج السلطان من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه وأهل العلم عن يمينه ، فركب في ذلك اليوم الفيل وركبنا الخيل وسرنا معًا ، فنزلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكبًا وقد اصطف الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفًا ، فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ، ووزراؤه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ، ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقعهم ، وكذلك تفعل كل طائفة ، ثم صُف الشرفاء والفقهاء ، ثم صُف الندماء والحكماء والشعراء ، ثم صُف العسكر ثم صُف الفتيان والمماليك (١٠٠).

كان التنظيم السياسي في الممالك الإندونيسية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنظم الحربية ، وذلك لأن هذه الممالك كانت محاطة بأعدائها من كل جهة ، حيث جعل الإسلام الجهاد ركنًا من أركان الدين وفُرض على المسلمين للدفاع عن أرض الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد ومحاربة المعتدين ، وقد تأثر الإندونيسيون بالنظام الحربي في الإسلام فاعتمدوا على جيوش تحميهم من الأعداء وتدافع عن الدين والعرض والوطن ، وتكون مهمتها تأييد الحكم والحد من طمع المنافسين ، ويدل على ذلك بعض المواقف التي تثبت أن ممالك إندونيسيا قد أخذت بنظام الإسلام في تكوين الجيوش ، فقد كان لسلطان مملكة " ملقا " – على سبيل المثال – جيش له أمير ، وهذا الأمير بجانب قيادته للجيش في الحروب ، كان له دور عند عودة السلطان في موكبه إلى القصر بعد عودته من المسجد فيقوم بنشر عمامة الملك في الموكب ، كما يقوم في يوم العيد حيث يجتمع مع كبار رجال الجيش ومعه كبار رجال الدولة في قصر السلطان بالملابس الرسمية .

كما أخذ أيضًا سلطان مملكة " ديماق " بنظام الإسلام فى تكوين جيش قوى لنشر الدعوة الإسلامية واستخدامه ضد الملوك الذين يعانون المستعمر ، فقد كان لهذا السلطان جيش يرأسه الشريف هداية الله لإسقاط مملكة " فاجاجارانِ " فى جاوا الغربية ، وقد استطاع هذا الجيش المسلم أن يستولى على جميع الموانى والمواقع الهامة فى دولة " فاجاجاران " بالإضافة إلى الاستيلاء على ولاية " بانتام " التى أصبحت دولة إسلامية فيما بعد (١٠١).

فلا مراء فى أن جميع الممالك التى ظهرت فى أندونيسيا جعلت لها جيشًا يحميها على غرار الجيش الإسلامى ، ويحمى العقيدة الإسلامية محافظًا على حياة الناس فى أمن وأمان وسلام، وإنه ليعد من صدى حضارة الإسلام التى تهتم بجميع الناس ، حياتهم ومستقبلهم وأمنهم وسلامتهم وسعادتهم .

صدى حضارة الإسلام فى الحياة الاجتماعية فى إندونيسيا :

يتألف المجتمع الإسلامى من طبقات يقوم على رأسها الخليفة أما فى إندونيسيا فالمجتمع الإسلامى يتألف من طبقات يقوم على رأسها الملك أو السلطان ثم يليه الأمير وكبار رجال الدولة وغيرهم .

فالمجتمع الإندونيسى يتكون من الطبقة الحاكمة وتشمل السلطان وأتباعه ، والطبقة العليا وتشمل العلماء ورجال الدين والتجار والصناع ، ثم طبقة الفلاحين والرعاة والحمالين والسقائين والرقيق ، والطوائف الأخرى كالنصارى واليهود والصابئة .

وقد ظهر صدى حضارة الإسلام على هذا المجتمع الأندونيسى متمثلاً فى توحيد الأجناس المختلفة ومزجها معًا في بوتقة واحدة هى بوتقة الإسلام ، دون أن يفرق بين رجل وامرأة ، فكما اهتم بالرجل اهتم بالمرأة فكرمها وضمن لها حريتها وحقها فى ممارسة حقوقها المدنية والعمل فى التجارة والصناعة .

نادى الإسلام بالمساواة بين البشر ، ونادى بحرية الرأى ، وانتقال كثير من العادات والتقاليد الكريمة ، كالأخلاق والتسامح والفروسية والشجاعة والمروءة ، وكان لكل هذه المظاهر الإسلامية وغيرها صدى واضح فى إندونيسيا .

استطاع المسلمون الذين دخلوا إندونيسيا سواء فى عمل التجارة أو الرحلات أن يعاملوا أهل البلاد معاملة حسنة تعرض الإسلام فى أحسن صورة للتعرف على الخُلق الإسلامى مما

جعل الشعب الإندونيسى يتمسك بالتقاليد الإسلامية الشرقية الصالحة ، والتعاليم الدينية الإسلامية القويمة حتى أصبحت هذه التقاليد من أبرز خصائص المجتمع الإندونيسى ، فالروابط الأسرية الإندونيسية وثيقة العرى ، يتعاون أفراد الأسرة الواحدة على مواجهة أعباء الحياة ويساعد قويهم ضعيفهم وغنيهم فقيرهم كل فى حدود طاقته وإمكانياته ، وبدافع عميق من الود الخالص والولاء الأكيد للأسرة التى ينتمون إليها ، بل إن هذه الروح تتعدى عادة نطاق الأسرة إلي مجال القرية الواحدة ، فترى أهلها يتعاونون فى السراء والضراء على السواء تحدوهم الرغبة فى خدمة الصالح العام ، سواء فى الزواج أو الوفاة أو الأعياد أو حرث الأرض وريها وزرع المحاصيل وحصاد الزرع وبناء المساكن ومختلف المناسبات الاجتماعية .

بجانب هذا نرى الشعب الإندونسيي يتمسك بالأدب الجم وحسن الخلق والمحافظة على النظافة انطلاقًا من تمسكهم بتعاليم الإسلام فالإسلام يعنى بتقويم المعاملة وتنظيم المجتمع والنظافة والطهارة وفيه بيان أن للفقير حق فى مال الغنى حتى لا تعيش طبقة دون طبقة ، فقد أدرك الكثير من الإندونيسيين أن هذا الدين يعطيهم حقهم ويكفل لهم حريتهم وأن الغنى يؤثر الفقير عندما يقدم له زكاة ماله مما أسعد كثير من الناس (١٠٢).

ومما يدل على أن الإسلام كفل حرية البشر ودعا لتحرير العبيد ؛ أن التجار المسلمين كانوا يشترون العبيد من الإندونيسيين ويعتقونهم ليرفعوا من قيمتهم الشخصية وليبينوا لهم أن الإسلام ينادى بحرية الإنسان وحفظ كرامته ، وقد تأثر الإندونيسيين بوضوح العقيدة الإسلامية ويسرها وبما فيها من المساواة بين المؤمنين على خلاف ما كانوا يعرفونه من فروق فى تلك الديانات الأخرى التى كانت تسود إندونيسيا ، وقد أقبل المسلمون على المؤاخاة بين أهل البلاد بعيداً عن الغايات والأطماع التى كانوا يعرفونها من الغرباء وغيرهم ، حتى وجد الإندونيسيون فى ذلك تقبلاً للانتساب إلى الإسلام وفخراً لهم (١٠٣).

ويتضح صدى حضارة الإسلام على الحياة الاجتماعية للإندونيسيين من خلال ممارستهم أعمال وعادات وتقاليد إسلامية مثل قضاء ليالى رمضان فى تلاوة القرآن الكريم ، والاستماع إلى الحكم والمواعظ ، والاحتفال بالمناسبات والأعياد الدينية كعيد الفطر ، فقد اهتم الإندونيسيون بإحياء عيد الفطر عناية كبيرة ، وتدب الحركة الدائبة فى كل بيت قبل حلول العيد بأيام استعداداً للعيد على مستوى جميع أفراد الأسرة ، ويحرص الإندونيسيون رجالاً ونساء على أداء صلاة عيد الفطر فى المساجد جماعة وللنساء أماكن خاصة بهن ، ويتبادلون الزيارات

بعد الصلاة ، ويغمر البشر والسعادة أرجاء البلاد ، والكل يغدو ويروح فى مرح وحبور ، ولا ينسى الأغنياء من الإندونسيين الفقراء منهم وأبناء السبيل انطلاقًا من تعاليم الإسلام الحنيفة ولا ينسون إخراج الزكاة ومد يد العون إلى المحتاجين ، وتوزيع المال على الفقراء (١٠٤)، حيث يفرح الجميع ويلبسون الملابس الجديدة ويبكرون بالذهاب إلى المساجد فى مثل هذا اليوم لصلاة العيد ، وبعدها ينطلقون إلى موائد الطعام والشراب بعد الصلاة ويقضون اليوم فى زيارة بعضهم البعض (١٠٥).

وكذلك عيد الأضحى يحتفل الإندونيسيون به بروح عامرة بالبهجة والسرور وبمظاهر البشر والحفاوة التى يستقبلون بها عيد الفطر وهم يذبحون الأضاحى من الأغنام والماعز والبقر والجاموس ، والعادة عندهم أن يشترك كل سبع عائلات فى الأضحية عملاً بمذهب الإمام الشافعي وهو المذهب السائد عندهم فى كافة أرجاء البلاد (١٠٦).

وكذلك الاحتفال بالمولد النبوى كأنه عيد عندهم ، فيستمر الاحتفال به طوال شهر ربيع الأول حيث تعمر المساجد بحلقات الوعظ والإرشاد ويدعون له الخطباء والعلماء وتقام الموائد فى كثير من الأحيان ، مما يدل على صدى حضارة الإسلام فى تأثيرها على الشعب الإندونيسى (١٠٧).

أما الزكاة عندهم فكان لليوم إدارة لجمعها وخاصة زكاة الفطر التى تتسم بالعمل المنظم، وقد تجمع نقداً ، فيقدر قيمة ما يجب عى المسلم إخراجه من الأرز ويضربونه في عدد أفراد الأسرة فيمر جابى الزكاة على البيوت الإسلامية قبل عيد الفطر بأيام يجمع هذه الزكاة ، ومما يجمع من هذه الزكاة ينفق على المساجد والمدارس الدينية وفى مساعدة الفقراء . أما زكاة المال والزروع وغير ذلك فكانوا يخرجونها من نفس المحصول والغلال ، وتوجد جباة لها فى بعض الممالك الإندونيسية من قبل الدولة ، وليس هناك إجبار للأهالى على أداء الزكاة ، ومن الناس من يؤديها للعلماء الأجلاء وغيرهم ويقومون بتصريفها فى مصارفها المعروفة (١٠٨).

أما الصيام فأغلبهم يصوم شهر رمضان ويحتفلون فيه بالعشر الأواخر باعتبارها أهم أيام السنة وفيها ليلة القدر خير من ألف شهر ، فهم يحرصون عليه كفرض وركن من أركان الإسلام ، ويحرصون أيضاً على إقامة ليالى شهر رمضان بتوجههم إلى المساجد بعد الإفطار حيث يؤدون صلاة العشاء والقيام .

أما الحج فإنهم يقومون بأداء فريضة الحج وكثير من هؤلاء الحجاج يتخلفون فى مكة عدة سنوات لتلقى العلم . فأعظم هدف عندهم هو الحج إلى بيت الله الحرام ، حيث يدخر الفرد من قوته ويبيع أعز أملاكه ليؤدى هذه الفريضة (١٠٩).

أما المسجد فكان له صدى كبير وعظيم فى حياة الناس مثل المساجد الجامعة فى حواضر جاوة " و " آتشة " ووسط " سومطرة " ومثل المساجد الصغيرة فى " جاوة " ووسط "سومطرة" و " آتشة " وغيرها ، فكانت منتشرة بكثرة ، وكما تؤدى فيها الصلاة كذلك يؤمها الناس فى العيدين ويجعله الناس أيضاً مكاناً لعقد مجالس القضاء فى جميع الخصومات التى يحكم فيها بمقتضى الشريعة وتشمل مسائل النكاح والأسرة والتوريث (١١٠).

أما الزواج عند الإندونيسيين فإنه يتم عن طريق الاتفاق بين الآباء والأخوال وحدهم ، وليس عندهم مغالاة فى المهور ، وقد تكون نقدية أو عينية ، وكانوا يفضلون عقد القران فى شهر ذى الحجة تيمناً بهذا الشهر المبارك ، وليس الزوج وحده الذى يتحمل نفقات الزواج بل يقاسم فى ذلك جميع أفراد الأسرة . فعن طريق الزواج تكونت أسر إسلامية نتيجة زواج المسلمين العرب من إندونيسيات ، وبمرور الزمن كثرت الأسر الإسلامية وانتشرت وأصبحت منارات هدى تنشر الإسلام فى ربوع إندونيسيا .

ولما كان الزواج قائم على الرضا والقبول ، فالزوج يقوم عقب العرس مباشرة بما يضمن لزوجته الطلاق بالتعليق إذا أخل بما يجب على الزوج الصالح ، حيث أخذ مسلموا إندونيسيا بالطلاق المعلق إصلاحاً لحال المرأة التى جعلت الشريعة الإسلامية جل أمرها فى يد زوجها ، فالطلاق ميسور والزواج ميسور ، ولذلك فإن المشكلات الناتجة عن الزواج والطلاق قليلة وغير معقدة . فالطلاق لا يلجأ إليه الرجل الإندونيسى إلا فى الحالات الخطيرة لأنه لا ينظر إلى علاقة الزواج على أنها علاقة بينه وبين زوجته فحسب ، ولكنها علاقة تربط الأسر بعضها ببعض وهو أشرف ما يكون حرصاً على سلامة تلك العلاقة الأخيرة (١١١). ولأن هذا الزواج يجرى بينهما وفقاً للشرع المحمدى (١١٢).

فالمرأة الأندونيسية لها كافة الحقوق المدنية التى يتمتع بها الرجل من تعليم وغيره ، وعامة فإنها تشارك الرجل فى كافة ميادين الحياة . والرجل يحترم المرأة بشكل يبدو فى بعض الأحيان على جانب من المبالغة ، وتحترم المرأة فى العمل كما يحترم الرجل ، وهى تشارك

زوجها في أعماله فتقف بجانبه في الحقول والمراعي والأسواق ، فهي تشارك في جميع نواحي الحياة حتى الحياة السياسية(١١٣).

أما العادات والتقاليد فقد التزموا الإسلام فيها كالامتناع عن أكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، والتزموا بعادة ميلاد الطفل فعندما يولد جرت العادة عندهم أن يمنح المولود اسماً بعد ولادته خلال خمسة أيام أو سبعة أيام ، ويقترن ذلك بإقامة وليمة صغيرة أو عقيقة كما نصت السنة الشريفة ، ويسمون بأسماء عربية أو مشتقة من أصل عربي مثل : محمد وأحمد ويوسف وداود وعيسى وعبد الله وزين العابدين وعائشة ومريم وفاطمة وخديجة وزينب وهكذا(١١٤).

فالحياة في إندونيسيا بوجه عام حياة شرقية إسلامية لأن لها جميع الصفات أو معظم الصفات التي تمتاز بها الحياة الاجتماعية في البلاد الشرقية على العموم من متانة العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة وقوة التضامن في حياتها ، ومتانة الصلة بين الأسر المختلفة ، ومراعاة حسن الجوار بين القرى المختلفة ، وهي إسلامية لأنها اصطبغت إلى حد بعيد بالصبغة الإسلامية مع قرب عهدها بالحضارة الهندوكية إذ لم يمر على استقرار التعاليم الإسلامية في هذه البلاد إلا مدة قصيرة ، ويرجع هذا إلى أن الإندونيسيين أنفسهم قبيل مجيء الإسلام كانوا قد ملوا الحياة القديمة المصطبغة بالصبغة البوذية لما في تعاليمها من تعقيد وعقم وفي نظمها الاجتماعية من تفاوت بين الطبقات المختلفة .

فالدين الإسلامي أتى الإندونيسيين بما كانوا يشعرون بالحاجة إليه من المساواة ، فضلاً عن أن عقيدته صافية واضحة سهلة الشعائر ، فالله واحد لا شريك له والإسلام دينه ، وهو سبحانه المهيمن على الخلق ، وجميع الناس أمامه سواء فلا طبقات ولا فواصل ، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى (١١٥).

لذلك فالأخلاق الإسلامية تتوغل في نفوس الإندونيسيين ، فهم يكرهون الرياء والتظاهر والعلاقات غير الشريفة ، ويحبون التسامح والنظافة ، ويمتازون بمتانة العلاقة بين أفراد الأسرة ، وقوة التضامن في قضاء شئون الأسرة ، فمصاب الفرد مصاب الأسرة ، وفرح الفرد فرح الأسرة .

كما ضرب الإسلام المثل الأعلى في المساواة وبرهن على علو كعب الإنسان في المؤاخاة ، فألف الإسلام بين العرب والعجم ، مما جعل العبيد يدخلون في الإسلام ليحصلوا على الحرية

ولشعورهم بالوحدة بين العبيد والأسياد فى المبادىء الإسلامية ، ولما أبداه المسلمون من خلق كريم ومستوى رفيع من المعاملات والوحدة الإسلامية (١١٦).

صدى حضارة الإسلام في الحياة الثقافية في إندونيسيا :

اهتم الإسلام بالعلم وحث على طلبه وجعله فريضة على كل مسلم وكفل الإسلام الحرية العلمية وأحقية كل مسلم فى تلقى العلم ، فاهتم الخلفاء والسلاطين والأمراء والولاة بالعلم ورعايته ، وقد ظهر هذا الاهتمام برعاية المساجد ومجالس العلم والمراكز الإسلامية لنشر العلم والبعثات العلمية إلى إندونيسيا ورعاية التأليف والترجمة ، والعلاقة بين طالب العلم وبين المعلم، والعمل على نشر اللغة العربية .

فالمساجد التى بناها المسلمون بإندونيسيا تعبر عن صدى حضارة الإسلام ، حيث كانت ولاتزال مركزاً لنشر العلم ودراسة القرآن وعلوم الشريعة ، فقد بنى السلطان " عبد الجليل " لـ " عايت شاه الثانى " مساجد لدراسة القرآن والثقافة الإسلامية ، فكل علم ينبع من تلك المساجد يجعل الفكر الإسلامى يتحد ويقوى(١١٧) .

وبفضل تلك المراكز والدروس التى تلقى فيها امتد الإسلام إلى مملكة " جاوة " الشرقية ، وإلى جزر " الملوكو " فقد كان الأمير " رادين باكو " يقوم على رعاية الدروس الدينية ومجالس العلم فى مسجده الذى أسسه " بجاوة " (١١٨).

فمازالت المساجد هي المراكز الأولى لنشر الإسلام وإبراز صدى حضارته ، وقد بنيت على الطراز العربى والأندلسي والعثمانى والهندى والمصرى والعباسى والإيرانى .

ففى " جاوة " و " سومطرة " مساجد تمتاز بضخامتها ودقة زخرفتها ، وما فيها من نفائس مثل مسجد " دماك " بجزيرة " جاوة " والمشهور عنه أنه أول مسجد شيد فى إندونيسيا على أثر دخول الإسلام إليها على أيدى العرب ، ومسجد " ميدات " بجزيرة " سومطرة " ، ومسجد " جيرى " بجزيرة " جاوة " ومسجد " كورس " وغيرها من المساجد (١١٩).

فالمسجد فى إندونيسيا يعطى صدى كبيراً عن أثر حضارة الإسلام هناك ، فهو المركز الذى يبسط منه الإسلام تأثيره على حياة الشعب جميعها ، فالمساجد منتشرة فى جزر إندونيسيا ، وعن طريقها عرف الناس الإسلام ، وفى المساجد عقدت مجالس القضاء ومسائل النكاح والأسرة والتوريث فى يوم الخميس من كل أسبوع ، فالعلماء فى إندونيسيا كانوا

حريصين كل الحرص على إيجاد طلاب علم يعدونهم للدراسات الدينية من خلال المسجد كمركز من مراكز انتشار العلم بجوار مجالس العلماء والمدارس الإسلامية والمراكز الإسلامية أيضاً (١٢٠).

وإلى جانب المسجد كمركز من مراكز انتشار الإسلام كانت توجد مجالس العلم في أماكن أخرى خارج المسجد مثل مجلس العلم الذى كان يعقده سلطان " جاوة " الملك الظاهر بمقصورة الجامع وكان يحضره الفقهاء ، وكان للقراءة والمذاكرة ، وكان يذاكر فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى ولم يزل يذاكر العلم فى حلقته من بعد الجمعة حتى صلاة العصر (١٢١).

وقد توجد مجالس العلم فى منازل العلماء والسلاطين ، حيث جعل بعض السلاطين أماكن خاصة لدراسات الفكر الإسلامى يتعلم فيها أهل البلاد العلوم الإسلامية كالشريعة والتصوف، وقد نقلت الكتب التى يدرسونها من العربية إلى لغة البلاد ، كما يدرسون التفسير والحديث وأصول الفقه وغير ذلك ، وتتراوح مدة الدرس بين سنتين وعشر سنوات أو أكثر تبعاً للغرض الذى يسعى إليه الطالب ، ورغم ما أحدثه أعداء البلاد فى " ملقا " و " أتشة " فقد بقيت هذه المجالس والمدارس القرآنية على مر القرون تؤدى رسالتها الدينية وتخلد التراث الإسلامى (١٢٢).

ومن الزعماء والقادة الذين تقدم بهم العمر من اتجه إلى العلم وبنى داراً للعلم ومسجداً للصلاة وجعل له مجلس علم يقبل عليه الطلاب وقد استقر فيه معلماً وداعية وأستاذاً ، ومن هؤلاء الزعيم القائد الداعية فتح الله الشريف هداية الله ، الذى كان يقوم بنفسه بالدعوة إلى الله ونشر تعاليم الإسلام بين الناس وتبليغهم دين الله عز وجل وأحكام الشريعة (١٢٣).

وتوجد المراكز العلمية لنشر الإسلام أيضاً فى جزر إندونيسيا وذلك بسبب العلماء الأجلاء الذين يعقدون المجالس العلمية ويحضر إليهم طلاب العلم ليتلقوا عنهم ، سواء من نفس البلدة أو من البلاد الأخرى ، ثم يعود هؤلاء الطلاب إلى بلادهم حيث ينقلون أفكار هؤلاء العلماء إلى أهليهم ومواطنيهم ، ومن أهم هذه المراكز مركز " فرساى " ومركز " فرلاق " ، وقد قاما بجهد كبير فى خدمة الدعوة الإسلامية ، ولا ننسى أن نشاط هؤلاء العلماء استمر بعد أن قامت الممالك الإندونيسية .

لقد كان مدى هذه المراكز واسعاً ، وكانت قوية التأثير فى مختلف نواحى البلاد ، واتصلت هذه المراكز بالملوك والزعماء فنالت قوة سياسية بالإضافة إلى قوتها الروحية (١٢٤).

حرص أهل هذه البلاد على دينهم وجاء هذا الحرص متمثلاً فى عنايتهم بتعليم أولادهم ذكوراً أو إناثاً شعائر الدين الإسلامي ، منذ الصغر فعندما يبلغ الطفل الخامسة يجلب له معلم خاص يزوره فى المساء ويعلمه كيفية الصلاة والوضوء والصيام وأركان الإسلام ، ويمرنه على تلاوة القرآن الكريم من المصحف الشريف ، وقد اكسبت هذه العادة غالبية الشعب صحة نطق الحروف العربية التى لا نظير لها فى لغة هؤلاء كالعين والغين والحاء والخاء ، وبعد تمام تمرين الغلام على التلاوة للقرآن كله مناسبة عظيمة للغاية ، فتقام فيها الحفلات والمآدب .

فقد ظهر صدى حضارة الإسلام فى نشر وتعليم القراءة والكتابة وظهر أيضًا فى إيجاد علاقة ثابتة بين المعلم والمتعلم بين الأستاذ والتلميذ حيث يلتقيان فى مكان واحد معين فى مواعيد منظمة لدراسة العلم سواء فى تلاوة القرآن أو دراسة العقيدة الإسلامية أو أبواب العبادات على مذهب الإمام الشافعى أو التصوف مع مبادىء القراءة والكتابة والحساب (١٢٥).

أما المذهب الشافعى فقد وجد فى إندونيسيا منذ دخول الإسلام ، وقد ذكر ابن بطوطة أن ملك " فاساى " وهو الملك الظاهر كان على درجة كبيرة من التقوى وأن مذهب دولته كان شافعيًا ، وكان هذا الملك على قدر كبير من العلم في مناقشة العلماء ، وكان شغوفًا بنشر الإسلام فى مملكته وفي البلاد المجاورة لملكته وكان حريصًا على نشر الإسلام فى ربوع الممالك المجاورة ، وكان عظيم المعرفة والبيان (١٢٦).

وقد ساعد انتشار هذا المذهب وازدهار العمل الإسلامى على جذب مجموعة من العلماء المسلمين من مصر ومكة والمدينة واليمن والهند إلى مملكة " فاساى " على أنها المركز الأصيل فى إندونيسيا لنشر الإسلام إلى درجة أنه إذا وجدت مشكلة فى المسائل الفقهية فى بلد إسلامى مجاور مثل " ملقا " أو غيرها توجهوا إلى علماء " فاساى " للتعرف على مأربهم الفقهى (١٢٧).

فالشبه الفقهي الديني بين العرب وبين الإندونيسيين قوى يمارسون جميعًا عباداتهم على المذهب الشافعى ، مما يعطى معنى كبيراً أن العرب صاحبة الفضل فى انتشار الإسلام فى إندونيسيا دون إغفال دور المسلمين الهنود والصينيين (١٢٨).

فمعظم المسلمين متمسكون بالمذهب الشافعى الذى انتقل من حضرموت إلى إندونيسيا عن طريق ساحل " ملبار " الهندى (١٢٩).

كما ظهر صدى حضارة الإسلام فى كثرة البعثات العلمية التى تفد إلى إندونيسيا بغرض تعليم المسلمين هناك ونشر العلم ، حيث اهتم شريف مكة خلال القرن الثالث عشر الميلادى بوجود الأمة الإسلامية فى ساحل " سومطرة " وأرسل عالمًا جليلاً يسمى الشيخ إسماعيل ليرشدهم إلى طريق الله السوى ، فقد اتجه الشيخ إسماعيل إلى " سومطرة " حتى وصل إلى " ملبار " بالهند ثم منها إلى " أتشة " وهناك أرسى هذا الشيخ مفاهيم التصوف الإسلامى . ولقد اشتهر هذا العالم بمذهبه وسلوكه وأخلاقه الرفيعة واستقر له المقام فى هذه المنطقة ، وأخذ فى بسط تعاليمه حتى وصل مريدوه إلى ولاية " فيرق " وهناك فتح الله على يديه قلب السلطان " ميره سيلو " فدخل الإسلام راضيًا مرضيًا ثم غير لقبه واسمه إلى اسم ولقب إسلامى : الملك الصالح .

وفى مملكة " ملقا " فى عصر السلطان منصور شاه ١٤٥٩ – ١٤٧٧م ، ذاع صيت ومكانة الدولة الإسلامية ورحل إلى هذه المملكة مع التجار من " أفغانستان " و " ملبار " وبلاد العرب وفود العلماء من مكة المكرمة وكان بين علمائها وعلماء " فاساى " احترام متبادل وصلة علمية دائمة قائمة على تبادل تفهم مسائل الدين ، وقد ساعد على ذلك اتجاه السلطان نفسه الذى كان يهتم بنجاح الإسلام فى مملكته وما تحته من سلطنات أخرى (١٣٠).

وكما وفدت بعثات علمية من العرب والفرس إلى إندونيسيا كذلك وفد إليها علماء من الهند ، فقد وجد فى كتب القصص الإندونيسية بعض أسماء العلماء الأولين الذين علموا الإندونيسيين مبادىء الإسلام وأصول الدين مثل : " مولانا سادر جاهن " و " مولانا الملك إبراهيم " و "نور الدين إبراهيم " وهذه الأسماء أطلقت كثيرًا على الهنود والفرس (١٣١).

كما وفد كثير من الدعاة إلى مملكة " ملقا " آتين من البلاد العربية وكانت لهؤلاء العلماء هيبة ومكانة ، فذات مرة رفض أحد معلمى السلطان محمود أن يلقى درسه على السلطان لأن السلطان جاء إلى بيته راكبًا أحد الفيلة ، وصرح المعلم قائلاً : إن طالب العلم ينبغى أن يجىء إلى المعلم راجلاً ، كما وجد اتصال مباشر ووثيق بين الأساتذة المسلمين فى مملكة " ملقا " وبين زملائهم فى جزر كثيرة ، وكان النقاش والتفاهم يدور بينهم حول القضايا الإسلامية ، وقد أرسلت مملكة " ملقا " إلى " سومطرة " بعض العلماء لنشر الدين الإسلامى ، وأرسل السلطان " ستوفاتى " المسلم سلطان مملكة " متارم " فى ١٥٨٣ – ١٦٤٥م الدعاة إلى المناطق المختلفة، وذلك لنشر الإسلام (١٣٢).

ولم يكتف التجار المتوجهون إلى إندونيسيا باعتبار دعاة للدين الإسلامي فاصطحبوا معهم دعاة من الصوفية والمرشدين لتعليم المسلمين هناك الصلاة والأدعية والأذكار وتلاوة القرآن(١٣٣).

ليس التجار وحدهم أو العلماء وحدهم الحريصون على نشر الإسلام وتعليم المسلمين أمور الدين ، بل حرص الملوك والسلاطين على نشر الإسلام وتعاليمه ، فالملك الظاهر ملك " فاساى " واسمه الملك محمد (١٢٩٧ - ١٣٢٦م) كان شغوفًا بنشر الإسلام ، وعُرف عنه عظمة بيانه ومدى نشاطه الإسلامي (١٣٤).

إن صدى الحضارة الإسلامية ليظهر جليًا مع كل هذا عندما دخل العرب جزيرة " جاوة" وغيرها من الجزر ، جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عند الإندونيسيين وأهل الشرق الأقصى ، مثل علم الهيئة والتقويم والجغرافيا والعروض والأطوال لتحديد الأقاليم ، وكان فن الملاحة بالغًا عند العرب الدرجة العليا من الإتقان ، وكانوا قوامين على الأسفار خبيرين بأحوال الأمم ، وأنهم عرفوا إبرة المغنطيس ، وكانوا ينشئون الجوارى كالأعلام ، ويقطعون البحار بمزيد من الجرأة والإقدام ، وقد خُلق العرى بفطرته خبيرًا بالعمليات المالية والحسابية بأساليب الأخذ والعطاء (١٣٥).

كما ظهر صدى حضارة الإسلام في أمر التأليف والترجمة ، ففي التأليف ظهر هذا الصدى عندما كتبوا قصص أبطال الإسلام مثل حكاية إسكندر ذى القرنين ، وحكاية الأمير حمزة ، وحكاية أبو حنيفة والسلطان إبراهيم بن أدهم ، وأصبحت شخصية ذى القرنين شخصية ملكية ولقد اعتبر معظمهم من مبشرى الإسلام حتى ذو القرنين الذى عاش قبل مجيء الإسلام ، ولكنه اعتبر مبشرًا بعقيدة سليمة صحيحة ، والنبى إبراهيم عليه السلام ، كان مثالاً للشخصية المقدسة الذى كان يبحث عن وحدانية الله الخالق .

وهناك مجموعة ثانية من الحكايات عن سيدنا محمد ﷺ التى تم التركيز فيها على شخصية النبى ﷺ ، ومجموعة أخرى من قصص الأنبياء التى يرجع أصلها إلى القرآن الكريم وتفسيراته ومن هنا فإن ثروة من القصص العربية جاءت إلى إندونيسيا بعد ترجمتها تحت اسم حكايات الأنبياء ، وهى تحكى قصة الخلق من آدم حتى عيسى عليه السلام ، وظهرت قصص أخرى عن الأنبياء متفردة مثل حكاية سيدنا يوسف عليه السلام .

وبالإضافة إلى ذلك ظهرت مجموعة من الكتاب كتبوا حول الشريعة الإسلامية وأصول الدين والعبادة والمتطلبات اليومية لممارسة العقيدة ، وكان التصوف الإسلامى أكثرها أهمية ، وكان من أحسن الكتاب المعروفين فى مجال الدين " حمزة فانسورى " و " شمس الدين ورانيرى " وغيرهما ، وكان هؤلاء من الشخصيات الإسلامية الذين يستحقون كل تقدير لجهودهم فى غرس العقيدة الإسلامية بين السكان . فقد غطى الكاتب " حمزة فانسورى " جوانب كثيرة فى العبادة عن طريق قصائد جميلة يرشد فيها المسلمين لتحقيق الكمال فى العبادة ، وقد غطى "شمس الدين " مجالاً كبيراً فى كل من الشريعة الإسلامية والمذاهب ، وكثير من هؤلاء بذل الجهد الكبير فى سبيل نشر الإسلام وكتابة القصص الدينى (١٣٦).

ومن المشاهير الذين دعوا إلى الإسلام وكان لهم الأثر الثقافى الواضح فى إندونيسيا الشيخ " عبد العارف " فى أوائل القرن السادس الهجرى فى شمال " سومطرة " ، والشيخ "برهان الدين " الواعظ فى غربى الجزيرة وجنوبها ، وفى القرن الثامن الهجرى قدم أيضاً الشيخ إسماعيل ونشروا الإسلام فى " سومطرة " وأما فى " جاوة " فكان أشهرهم التاجر العالم الشيخ إبراهيم الذى كان يعرف باسم الملك إبراهيم وكان مجال عمله فى جاوة الشرقية وقد توفى عام ٨٢٢هـ(١٣٧).

فقد كثر تأليف الكتب لخدمة الدين الإسلامى وتعليم المسلمين وتوجيههم وإرشادهم خاصة فى الحكايات ذات الصبغة التاريخية أو الأدبية الخيالية كما صيغت الأحكام الشرعية فى صورة قوانين لهدى القضاة والحكام (١٣٨).

كما تجاوزت جهود الشيخ عبد الرؤوف سنجل مملكة " أتشة " و " سومطرة " إذ كان له مريدون كثيرون فى " جاوة " يتلقون منه العلم فى المجالس العلمية ، وكذلك الشيخ " نور الدين الترانيرى " وكان هذا الشيخ طموحاً يريد أن يُعلِّم فى مناطق عديدة ، وأن يعيش علمه بعده ، فألف كتاباً شهيراً ، كان مصدر هداية للكثيرين ، واسمه " بستان السلاطين " .

كما أنجبت جزيرة " أتشة " مجموعة هائلة من العلماء المسلمين الذين قاموا بدور كبير فى شرح الإسلام وتقديمه لسكان تلك الجزر . وقد ألَّف بعضهم مجموعة من الكتب كانت مراجع عظيمة للباحثين والدارسين ، ومنهم الشيخ عبد الرؤوف الذى ترجم تفسير البيضاوى إلى لغة الملايو (١٣٩).

أما الترجمة ، فقد كانت ذائعة الصيت منتشرة ، فقد تُرجمت منذ القديم كتب عربية إلى اللغة الإندونيسية وكتبت بالحروف العربية منها كتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب كليلة ودمنة وغيرها من الكتب وروايات وقصص وعظات دائرة مع الزمن ثابتة فيه ، وجالت مع الأيام راسخة المعاني تستحق الثناء والشكر .

نشطت الترجمة كما نشطت حالة التأليف ، حيث تُرجمت كتب من اللغات الأجنبية ولاسيما الكتب العربية التي تحتاج إليها إندونيسيا لسد النقص الكبير الذى كان يشعر به الإندونيسيين .

وقد ترجمت الكتب الإسلامية التى تنفع المسلمين مثل كتب التصوف وعلوم الفقه مثل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي وكتاب الرسالة القشيرية للإمام القشيري (١٤٠).

ومن صدى حضارة الإسلام بإندونيسيا انتشار اللغة العربية تلك اللغة التى نزل بها القرآن الذى فيه سر العربية ، ومظهر تقدمها ، حسن أسلوبه ورونقه والحكمة والموعظة وأداب الدنيا لسلامة الأخرة ومراسيم المعاشرة ، ودوام الأخوة وإبقاء الصداقة ، فهو كتاب المسلمين عامة ، وقانون حياتهم الخاصة ، نزل بالعربية فلازمته روحاً ومعنى ، واستمدت منه قوة الحياة ، وقد دخلت اللغة العربية بدخول الإسلام إلى إندونيسيا إذ هى لاتفارق هذا الدين أينما ذهب ، فهما روحان فى جسد واحد ، وهما توءمان من جنس واحد ، وقد أعطت هذه اللغة فكرة جديدة عن الحياة الأدبية التى تأثر بها الأدب الإندونيسى عن كثب، بل سيطرت على هذا الأدب وأصبحت منه الروح المعبرة ، وأثار هذه اللغة باقية فى أسماء هذه الأمة وفى طبائعها وعاداتها وتقاليدها وفى روحها وأخلاقها وفى شعورها وإحساساتها .

فاللغة العربية قد ارتفعت بالإسلام قيمة وسمت به مكانة ، وعزت به منزلة وتلقتها الشعوب دراسة وتعلماً حتى تأثر بها كثير من الأمم و وضع بها كثير من الكتب العلمية والثقافية والدينية ، واللغة الإندونيسية قد اقتبست واستمدت كثيراً من اللغة العربية التى أتت عن طريق الإسلام ، إذ جاء بها هذا الدين أثراً من أثاره الباقية .

فاللغة الإندونيسية تكتب بالحروف العربية واللاتينية غير أن الكتابة العربية قليلة الانتشار فى إندونيسيا بالنسبة للاتينية ، فهم يتلون القرآن الكريم باللغة العربية والنغمة العربية لا اللكنة الصينية أو الهندية ، وقد عمل الإسلام على محو الأمية ونشر مبادىء القراءة والكتابة فى إندونيسيا (١٤١).

صدى حضارة الإسلام فى الحياة الاقتصادية فى إندونيسيا :

ارتبط الدين بالاقتصاد وهذا شيء يهم الطبقات الفقيرة ، ففى مال الغنى والتاجر نصيب يُعطى للفقراء ، فالغالبية العظمى فى البلاد كانت فقيرة ، والغنى فى يد الكهنة والحكام ومعاونيهم فقط ، والإسلام يعطى الفقير حقه من الغنى ، لذلك أقبل الجمهرة من الشعب على هذا الدين الذى يعطيهم هذا الحق ، وقد كان الغنى المسلم يؤثر الفقير المسلم عندما يقدم زكاة ماله ، وارتبط بهذا الدين عدم الطبقات لذلك فأثر الإسلام وصداه على الجانب الاقتصادى فى جزر إندونيسيا واضح جلى ، وذلك من خلال حديثنا عن ازدهار الزراعة والتجارة والصناعة والصيد ، فإندونيسيا صاحبة المكانة الاقتصادية فى الأزمان الغابرة ولم تكن مكتوفة الأيدى أمام الهجمات التى كانت تستهدف اقتصادها ، فكثيراً ما كانت تجمع قوتها لاسترداد مجدها وتسعى جاهدة لتعيش فى صفوف الأمم الاقتصادية المنظمة ، إذ أن حياة الأمم مرتبطة بحياتها الاقتصادية .

ومما يعطى إندونيسيا مكانة تتميز بها عن غيرها أنها وقعت فى تمام خط الاستواء ، وتكونت من عدة جزر منها الكبيرة الآهلة بالسكان مثل " جاوة " و " سومطرة " و " سليبس " و "بورنيو" ومنها متوسطة الحجم وتعد بالمئات ، وصغيرة وهى ألوف كثيرة ، فجوها معتدل إذ يتبادل فى أجزائها نسيم البحر والبر طول العام فلا هو حار فى الصيف ولا بارد فى الشتاء ، ومعظم هذه الجزر كثيرة التعاريج وهى السبب الصالح لإنشاء الموانى لرسو السفن ، وتحفها القارتان العظيمتان وهما آسيا واستراليا ، وتداعب شواطئها الغربية أمواج المحيط الهندى والشرقية المحيط الهادى ، ثم اختلاف سفوح هذه الجزر وارتفاعها عن سطح البحر له تأثيره فى نظم عالم الاقتصاد ، وفى أعالى جبالها وهضابها ، حيث يكون الجو بارداً تنبت فيها مزروعات حوض البحر الأبيض المتوسط وفى شواطئها وما يماثلها فى الانخفاض ، حيث كانت الرطوبة والحرارة ، تزرع كل المحاصيل الزراعية وغير الزراعية ، وفيها دقائق الكنوز من معادن الذهب والفضة والحديد والقصدير وأنواع من الفحم الحجرى ومنابع البترول الغنية ، اجتمعت كل هذه المزايا فى إندونيسيا وزينتها بصفة ممتازة دائمة ولا غرو إذا اتجهت أنظار العالم الاقتصادى إليها (١٤٢).

تؤكد البحوث العلمية أن التجار العرب عرفوا إندونيسيا منذ القرن الثالث الميلادى على الأقل ، وقد تعاملوا مع التجار المحليين فى " جاوة " و " جزائر الملوك " وغيرها من جزر المنطقة

الغنية بالتوابل ، وذلك في أثناء رحلاتهم إلى الصين وقد دونت السجلات الصينية القديمة ذلك ، وذكرت ما يفيد أن العرب قد اتخذوا لهم أماكن استيطان فى هذه الجزر وفى "كانتون" وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠ ميلادية(١٤٣).

لقد تمسك المجتمع الإندونيسى بالعادات والتقاليد الشرقية الصالحة القويمة كالتعاون فى السراء والضراء وفي كل ناحية من نواحي النشاط البشرى خاصة النشاط الاقتصادى فيظهر هذا التعاون فى حرث الأرض وريها وزراعة المحاصيل وحصاد الزرع وغير ذلك .

فالاقتصاد العربى له تاريخ طويل مع إندونيسيا منذ القرن السابع الميلادى حيث شهد عصراً ذهبياً للتعاون الاقتصادى خاصة التجارة العربية فى بلاد " سيلون " والتى وصلت إلي بلاد الصين فى القرن الثامن الميلادى ، ولقد كانت مدينة " كانتون " إحدى مراكز التجارة العربية القوية فى الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الميلادى ، فقد كان العرب يسيطرون بأساطيلهم التجارية على هذه البلاد فى هذه الجزر دون منافس لهم ، ومنذ القرن الأول الهجرى وجد الإسلام له طريقاً فى قلوب أبناء هذه الجزر (١٤٤).

فالعلاقات الودية التي استمرت عدة قرون بين إندونيسيا والعرب والهند والفرس ساعدت هذه البلاد على السير نحو الحضارة العظيمة .

ازدهار الزراعة : ازدهرت الزراعة في جزر إندونيسيا في ظل الإسلام واعتبرت المورد الرئيسي لاقتصاد إندونيسيا ، ومن أهم مصادرها المادية ، بل وكانت العمل الرئيسى لسكان إندونيسيا ، ولم يكن نصيب الزراعة بأقل حظًا من التجارة فى التقدم ، فإن الأرض الواسعة التى كانت مهملة والغابات الواسعة المتروكة حوِّلت إلى أراضى زراعية خصبة معتمدين على زراعة الأرز والتوابل والجوز الهندى ، وظلت الحالة الزراعية محتفظة بكيانها ، واتصلت إندونيسيا بالشعوب المجاورة وتبادلت معهم المحاصيل الزراعية وحمل الإندونيسيون معهم كل شيء من محاصيلهم وهم يترددون ما بين شواطيء آسيا وموانى إفريقيا الجنوبية والشرقية(١٤٥).

لقد عُرفت جزر إندونيسيا بأنها جزر التوابل المعروفة فى التاريخ ، فإنتاج أرضها من الغزارة بحيث تستطيع الأسر الواحدة أن تعيش على نتاج قطعة صغيرة من الأرض ، وتنمو الزراعات فى تلك الأرض الاستوائية طوال السنة حتى أنها قد تنتج ثلاثة محاصيل فى السنة ، وفى كل مكان فى تلك البلاد تجد أنواع النباتات المختلفة حيث تنمو مزارع قصب السكر وجوز

الهند وزيت النخيل والبن والشاى والفلفل الأسود ، والفاكهة اللذيذة توجد فى كل فصل من فصول السنة .

وتتنوع حياة البنات تنوعًا عجيبًا وتنمو الأزهار البرية متسلقة أشجار الغابات ، وقد ساعد على ذلك غزارة الأمطار واستمرار الحرارة مما يجعل الأشياء خضراء فى الجزء الأكبر من البلاد .

ومن خلال حديثنا عن الزراعة وازدهارها فى جزر إندونيسيا نستعرض تلك الجزر ونعرف مدى جهدها فى الزراعة وازدهارها ، فجزيرة " سومطرة " يبلغ طولها نحو ألف ميل ، وجانبها الغربى مكلل بالجبال ، ثم تنحدر إلى الجانب الشرقى حتى تسير أحراشًا ومستنقعات مع مساحات واسعة اعتاد الإنسان أن يستعملها لفائدته مثل القسم المسمى " ديلى " على مقربة من مدينة " ميدان " حيث استطاع العلماء أن يزرعوا على الأرض التى كانت قاحلة من قبل نوعًا من الدخان السومطرى الذى يحتل قيمة كبيرة فى التجارة العالمية .

وأما الجانب الجنوبى من الجزيرة فقد اتسعت فيه زراعة الأرز الذى يروى بالماء كما فى جزيرة " جاوة " ، وتوجد أيضًا ى " سومطرة " مزارع كبيرة للمطاط والسكر وغيرهما من المواد التجارية .

أما جزيرة " بورنيو " فإنها مليئة بالتلال والغابات وتعتبر هذه الجزيرة الثالثة ، أكبر جزر العالم ، فهى بعد جزيرة " جرينلاند " و " نيوجينى " حيث يوجد فى الغرب منها مساحة من الأراضى الزراعية وأكثر أهل الشمال فيها يعيشون على الزراعة المتنقلة ويعيشون عيشة بدائية بجانب صيد الحيوان والأسماك .

أما جزيرة " جاوة " فتخترق أرضها سلسلة من الجبال البركانية ، وفى أقسام منها تجد الأراضى قاحلة ، ولكن فى أماكن أخرى تجد مجموعة من مصاطب وزراعات قصب السكر والشاى والبن والمطاط وغيرها من الحاصلات . فجزيرة " جاوة " زاخرة بالسلع كالفلفل وجوزة الطيب وسنبل الطيب والخلنجان والقرنفل ، وجميع الأنواع الأخرى من التوابل والعقاقير (١٤٦).

إن المساحة القابلة للزراعة تبلغ حوالى ثلاثة ملايين فدان يزرع منها حوالى النصف ، وأهم الحاصلات الزراعية فى البلاد : قصب السكر والمطاط والشاى والبن والأرز والتبغ ونبات الكوبرا والبهارات والخشب والخيزران والكابوك والكينين والصمغ والقمح والذرة والنارجيل والفول السودانى والتوابل (١٤٧).

ويعمل أكثر من ٧٠٪ من السكان بالزراعة ويساعدهم على ذلك خصوبة التربة الناتجة عن تحلل البازلت بسبب كثرة البراكين والمياه المتوفرة الناتجة عن غزارة الأمطار ودوامها والحرارة الدائمة إضافة إلى اتساع الأرض (١٤٨).

لقد كانت الحاصلات في بداية القرن الثامن عشر هي المألوفة منذ سنوات فالأرز هو الطعام الأساسي ، والفلفل والتوابل والسكر هي التي تأتي بأكبر دخل ، وكان البن من المنتجات التي نجحت نجاحًا كبيراً ، إذ وزعت النباتات على زعماء المراكز بقرب " بتافيا " فانتجوا مائة رطل من حبوب البن في سنة ١٧١١م وظلت الكمية تنمو وتنمو إلى عشرة ملايين في السنة (١٤٩). لذلك أصبحت الزراعة هي المهنة الأولى التي يوليها الشعب والحكومة أعظم الرعاية باعتبارها أهم موارد الثروة القومية في البلاد (١٥٠).

تقدم الصناعة : عُرفت إندونيسيا الصناعة منذ فجر تاريخها ، واهتم الإسلام بالعمل على تقدم الصناعة على اعتبار أنها مورد هام من موارد الثروة ، فاهتم الخلفاء والملوك والسلاطين بها انطلاقًا من قول الله عز وجل : { وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون } .

فقد اتقنوا الكثير من الصناعات واشتهروا بها ، فتعمل جمهرة كبيرة من الإندونيسيين في حرف وصناعات قومية عديدة ، بعضها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالغلات الزراعية ومنتجات الغابات وبعضها يقوم على ما يتوفر في البلاد من مواد أولية معدنية ، ، بالنظر إلى صناعات إندونيسيا نجد صناعة البترول في المقدمة وتتبعها صناعة المطاط وصناعة الخيزران والقش وصناعة المنسوجات الشعبية والمظلات وصناعة الجلد ، وتقوم تلك الصناعة في " باميكسان " في "مادورا " وفي " ماجيتان " في شرق " جاوة " وفي " جلانج " في وسط " جاوة " هذا علاوة على صناعة الفضة والنحاس التي تعمل منها الأواني المنزلية (١٥١).

فهناك حرفة جمع المطاط من الأشجار ونقله إلى المصانع المجاورة ويعمل في هذه الحرفة آلاف من السكان من نساء وفتيات ورجال وفتيان ومزارع المطاط واسعة الانتشار وعلى الأخص في " جاوة " و " سومطرة " ، ويستخرج سائل عصارة المطاط من جنوع الأشجار ثم تعبأ العصارة في جرار أو أوان كبيرة تحملها العاملات والعمال على رؤسهم إلى المصانع وهناك تتعرض لعدة عمليات كيماوية حتى يصبح المطاط صالحًا للاستعمال كما تهتم إندونيسيا بصناعة الحفر على الخشب وعمل التماثيل والأواني والأثاث والمنازل وكلها من الحرف القومية السائدة في كثير من جهات إندونيسيا ، وكذلك صناعات وطنية عديدة مثل

إقامة المنازل من أجار الخيزران وصنع الأثاث والآلات الموسيقية والمظلات والقبعات والأقفاص والسلال والصناديق والمراوح ومقابض المناجل وعشرات من أدوات أخرى .

كما تزدهر في إندونيسيا الصناعات الجلدية من حقائب وأحذية لكثرة وجود الماشية والأغنام في البلاد ، وهناك صناع الفضة المهرة الذين يبهرون العين بمنتجاتهم الفنية الرائعة إنها صناعة تقليدية يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد جيل بعد جيل وهم ينتجون نماذج ممتازة من أطقم القهوة والشاي ، وأواني الزهر والأطباق والصواني وغيرها من الأدوات المنزلية .

ولعل صناعة المنسوجات هي الأخرى من الصناعات القديمة التي يزاولها عدد غير قليل من أهالي البلاد ، ويستخدم في هذه الصناعة القطن ، كما تنتج إندونيسيا أنواعًا شتى من المنسوجات الوطنية ، مثل رداء السيدات الملون وصناعة المظلات والقبعات (١٥٢).

ورغم ذلك فلاتزال الصناعة تؤلف قسمًا بسيطًا من إنتاج البلاد إذ لا تعطي أكثر من عشرة بالمئة من الدخل بينما تعطي الزراعة ٥٦ ٪ منه ويتألف معظم القطاع من معامل صغيرة للتحويل وأخرى للنسيج ، مازال بعضها أنوالاً يدوية ، والنسيج صناعة يدوية قديمة في إندونيسيا وكذلك الملبوسات التقليدية مشهورة ومطلوبة في جنوب شرقي آسيا وتقدمت صناعة الأسمنت والسكر وغيرها من الصناعات الأخرى (١٥٣).

وإذا ما نظرنا إلى جزيرة " جاوة الصغرى " نجد أنها تحتوي على كثرة موفورة من الثروات كخشب الصبر وخشب السابان للصباغة وأنواع أخرى من العقاقير (١٥٤).

أما من حيث الثروة المعدنية في إندونيسيا فيوجد بعض الفحم والبوكسيت وهو مصدر الألمونيوم ، وكمية أقل من الملح والمنجنيز والنيكل والذهب والفضة وغيرها من المعادن ، كما تعتبر الجزر الثلاثة " نبجكا " و " بليتون " و " سنجكب " بين " سومطرة " و " بورنيو " من أغنى موارده ، وظهرت معادن أخرى فقد صار البوكسايت وهو المعدن الذي يخرج منه الألمنيوم ذا أهمية ، وتعتبر إندونيسيا أكبر مصدر للألونيوم في آسيا فيما عدا الاتحاد السوفيتي ولازال الإندونيسيون يستخرجون كمية صغيرة من المعدنين الذهب والفضة (١٥٥).

فإندونيسيا غنية في المعادن كالملح والقصدير والبوكسيت والفحم والمنجنيز والأيودين ، وتعتبر إندونيسيا أهم بلاد الشرق الأقصى في إنتاج الزيت ، وتوجد آباره في "سومطرة" و "كاليمانتان " و " جاوة " (١٥٦).

النشاط التجارى : عندما نطلع على تاريخ التجارة فى العالم نجد منطقة جنوب شرق آسيا بها التوابل والبن والبخور والجلود والأخشاب وجوز الهند ، كل هذه الأشياء مطلوبة للشرق الأوسط وكانت الصين سوقًا واسعًا لاستهلاك منتجات الشرق الأوسط من نسيج وتمور وحبوب وهكذا أدرك العالم من قبل الإسلام بعدة قرون ضرورة الصلة الاقتصادية والتجارية عبر الجزيرة العربية إلى جنوب الهند ، فشبه جزيرة الملايو فسومطرة فالصين ، وكانت الرحلة بالمراكب الشراعية بطبيعة الحال ، وكانت بعض هذه السفن التى تحمل التجارة تابعة إلى الغرب وبعضها كان تابعًا لإندونيسيا والصين ، مما يدل على أن التجار العرب عرفوا الملايو وإندونيسيا منذ القرن الثالث الميلادى ، وتعاملوا مع التجار المحليين فى جاوة وجزائر الملوك وغيرها من الجزائر الغنية بالتوابل وقد دونت السجلات الصينية القديمة ذلك ، وذكرت ما يفيد أن العرب قد اتخذوا لهم أماكن استيطان فى هذه الجزر وفى " كانتون " (١٥٧).

فمن المراسى التى كانت المراكب التجارية تقف بها فى طريقها إلى الصين هى " ملابار " و " سيلان " و " مأبد " و " معبر " و " سومطرة " و " جاوة " و " تونكين " (١٥٨).

وقد كون العرب جاليات عربية فى بعض ثغور الملايو و إندونيسيا ، وكانت لهم معرفة بالمدن المهمة الواقعة على سواحل هذه الجزر (١٥٩).

لقد نهضت هذه التجارة بين الصين والهند منذ القرن الأول الميلادى وكانت الملايو و إندونيسيا ملتقى السفن التجارية الواردة من القطرين العظيمين ، فكانت الملايو وإندونيسيا بمثابة محطة كبرى تلتقى عندها السفن وتتناول السلع من الجانبين سواء بالإبحار حولها عن طريق بوغاز ملقا " أو بنقل هذه السلع برًا عبر الجزء الشمالى من الملايو .

لقد لعب العرب دورًا هامًا فى نقل السلع بين الشرق والغرب حتى كثرت أسفار العرب إلى هذه البلاد وعظم الاختلاط بينهم وبين أهلها حتى ظهر الإسلام وحاول العرب نشره بشكل واضح فى " ملقا " وغيرها من الجزر الإندونيسية (١٦٠).

وتوطدت الصلات بين جنوب الجزيرة العربية ومصر من جانب وبين الملايو وإندونيسيا من جانب آخر ، وقامت مراكز فى الملايو وإندونيسيا للعرب ، وقامت مراكز للملايو وإندونيسيا فى جنوب الجزيرة العربية وفى مصر ، وأصبحت السفن التجارية يقودها ويتاجر عليها عرب مسلمون ، وأصبح كثير من المراكز العربية بجزر الملايو وإندونيسيا مراكز إسلامية(١٦١).

من المعروف أن الإسلام ارتبط بالاقتصاد ، فجعل في مال الغنى نصيباً يعطى للفقير ، مما جعل الكثير من الإندونيسيين يقبلون على الإسلام طمعاً فى حصولهم على حقوقهم الإنسانية ، لقد أعلن الإسلام عن نفسه فى كل اتجاه ، ثم إن بعض التجار كانوا يتمنون الهداية للناس ويرغبون فى إبعادهم عن عبادة غير الله وتوجيههم إلى عبادة الواحد الأحد ، فبذلوا من جهدهم ووقتهم للدعوة .

فالتجار العرب أنشئوا أسراً إسلامية فى هذه الجزر منذ ذلك العهد المبكر للإسلام ، وأصبحت تلك البيوت الإسلامية المزدوجة الجنسية منارات يهتدى بها السكان .

واستمرت العلاقات التجارية بين العرب وإندونيسيا حتى زار عدد من التجار الإندونيسيين بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ورأوا هناك الحضارة الإسلامية فى أزهى مظاهرها فجذبتهم إلى دين الإسلام ، وعندما عادوا إلى إندونيسيا كانوا شديدى الحماسة فى نشر هذا الدين وتقوية أصوله فى بلادهم . وظهر صدى هذا الإسلام العظيم فى الحياة الاقتصادية حيث تعلم أهل البلاد من التاجر العربى – الذى تحكمه مبادىء وقيم وأخلاق الإسلام – أصول التجارة وطرق البيع والشراء والمساومة ، وتحديد أثمان السلع والحبوب ، وتأسيس المستودعات التى تعتبر الواسطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشترى وتعلموا طريقة الحوالة التى كانت عند العرب .

لقد تعلم أهل جزيرة " جاوة " الكثير من الأمور التجارية والاقتصادية على أيدى العرب الذين بمجيئهم انتشر الحضارة الإسلامية بين أهل " جاوة " حيث جاءوا بمعلومات كانت مجهولة عند الإندونيسيين وعند أهل الشرق الأقصى ، حتى أضحت هذه الجزيرة أرقى الجزر واتقن أهلها التجارة والزراعة وتربية الماشية والصناعات اليدوية وبناء السفن وأصبحت حرفة الملاحة وصيد الأسماك لا يباريهم فيها أحد (١٦٢).

أقام الإسلام مبدأ الاحترام المتبادل بين جزر إندونيسيا ، حيث جعل كثيراً من الجزر الإندونيسية ذائعة الصيت فى التجارة مثل جزيرة " ملقا " فرحل إليها التجار المسلمون والعلماء من أفغانستان ومكة ، وأقام بهذا الرحيل مبدأ الاحترام المتبادل حيث كان بين علماء " ملقا " أو علماء " فاساى " احترام وصلة علمية دائمة ، ففى عهد السلطان منصور شاه ت ٨٨٢هـ سلطان " ملقا " نشطت التجارة العربية الإسلامية حتى شملت مملكة " ماجافاهيت "

فى " جاوة " ووصلت إلي أطراف إندونيسيا ، بسبب ما أضفاه الإسلام على هذه الجزر من صبغة إسلامية كان لها أكبر الأثر فى تقدم الحياة الاقتصادية بإندونيسيا (١٦٣).

وجعل ميناء " ملقا " محط كثير من الأنظار ، حيث تميز هذا الميناء - كميناء اقتصادى كبير - بسبب موقع " ملقا " المهم على المضيق الذى ازدهر من القرن السابع الميلادى وازداد ازدهاراً تجارياً فى القرن الثالث عشر الميلادى نتيجة التسهيلات التى يقدمها الميناء للتجار ، ومن ثم توافد التجار إلى " ملقا " من الشرق والغرب عبر مضيق " ملقا " إما للبيع والشراء أو التجارة (١٦٤).

كما كانت مدينة " كانتون " إحدى المراكز العربية القوية للتجارة فى الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر ، حيث عثر على بعض المذكرات الصينية التى تضم بين طياتها : أنه فى القرن السابع الميلادي كان يوجد داعية عربى فى " سومطرة الشمالية " مما يدل على أن العلاقات العربية الإندونيسية ممتدة الجذور منذ زمن بعيد ، وأن الإسلام له صدى بعيد فى تلك الجزر ويتضح ذلك من خلال الوحدة الاقتصادية التى قام بها يبين المقاطعات التى تعد ركيزة ودعامة من دعائم بناء الدولة الإسلامية فى مملكة " آتشة " (١٦٥).

فقد كان لتعاليم الإسلام أثر طيب فى تكوين روح إندونيسيا العالمية وغرس روح السلام والنشاط والتضحية ، وجعلهم يحققون نجاحاً كبيراً ، وأحرزوا ثروات ضخمة ، وجعل العرب ينتقلون من " سومطرة " إلى " جاوة " إلى الجزر الأخرى وأنشئوا المتاجر ومراكز المقايضة والمبادلة على منتجات البلاد وكانت سفنهم تجوب البحار فى كل الجهات ، واتسع منذ ذلك الحين التبادل التجارى بين الجزر وموانى جنوب الهند والخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، كما انتظم سفر القوافل ذهاباً وإياباً بين موانى البحر المتوسط وموانى الخليج العربى فى القرن الرابع عشر وبعده ، مما أدى إلى تعميم الدين الإسلامى فى معظم جزر إندونيسيا وإنشاء المساجد بها والتكايا ودور التدريس الدينى (١٦٦). وتوالت الملوك والسلاطين المسلمين على ولاية هذه الممالك فظهر على أيديهم صدى حضارة الإسلام فى الناحية الاقتصادية وازدهارها ، ووجود أحياء فى تلك الممالك مستقلة لجنسيات التجار المتعاملين ، كما فى مملكة " ملقا " على سبيل المثال ، فهناك منطقة للتجار القادمين من " جاوة " وأخرى للتجار القادمين من الصين ، وثالثة للتجار القادمين من الهند ، ورابعة للتجار القادمين من بلاد العرب وهكذا (١٦٧).

الخاتمة :

الحق الذى لا مراء فيه أن وجود الإسلام فى إندونيسيا كان سبباً كبيراً فى ازدهارها على جميع المستويات ، سواء السياسى أو الاجتماعى أو الثقافى أو الاقتصادى ، مما يعطى أكبر دليل على صدى حضارة الإسلام في إندونيسيا سواء في نظم الحكم والإدارة فقامت ممالك إسلامية بحكم ونظام يعيش تحت مظلة الإسلام ، تولى حكمها وإدارتها حكام مسلمون ، أقاموا علاقات مع الدول الإسلامية وغيرها واستمدوا منها الدعوة ورجالها وتعاليم الدين وشرائعه العظيمة . وقوّوا الروابط بينهم وبين إخوانهم وجيرانهم . وجعلوا الإسلام يسود مكان الأعراف والعادات والتقاليد القديمة ، وجعلوا الإسلام عقيدة ونظام سماوى ينظم العلاقات بين الحاكم والمحكوم وبين الأفراد والجماعات .

كما ظهر هذا الصدى العظيم في الحياة الاجتماعية ، حيث عمل الإسلام على إذابة الفوارق بين الناس وألغى نظام الطبقات الذى يجعل من الناس سادة وعبيد وكفل لهم حرية التعبير ، وحرية الإرادة ، وجعلهم يحسون بإنسانيتهم ، وبيّن لغير المسلمين أن حياة السلام هى طبيعة الإسلام ، وأنه يحمى كل الطوائف ولا يظلم أحداً ، وشرع للأسرة أحكامًا تضمن لها السعادة ودوام الحياة وجعل لكل فرد حقوق وعليه واجبات ، وعمل على تنظيم المجتمع ودعاه إلى حسن الخلق والأمانة والنظافة وحسن الجوار وحب الآخرين ونشر روح التعاون والإخاء والمحافظة على المصلحة العامة ، وجعل لهم مناسبات سعيدة عوضهم بها عن عادات وتقاليد جاهلية قديمة جعل لهم عيد الفطر وعيد الأضحى وغير ذلك من المناسبات الإسلامية التى أسعدتهم .

كما ظهر هذا الصدى أيضًا فى الحياة الثقافية ، فحث أهل إندونيسيا على العلم وكفل لهم حرية التعليم وأحقية كل مسلم فى طلب العلم ، فأنشئت المساجد التى بمثابة أماكن للعبادة ودور للقضاء ومجالس لحل المشكلات الأسرية والفصل في الخلافات الاجتماعية . وأماكن لدروس العلم والتعليم .

وأتى العلماء من كل مكان إلى إندونيسيا لتعليم أهلها ونشر الإسلام فيها ورعت الدولة الإسلامية طلاب العلم وعملت على إنشاء المساجد والمراكز الإسلامية ، والبعثات العلمية إلى إندونيسيا ومن إندونيسيا إلى بلاد العالم الإسلامى ، وتم رعاية التأليف والترجمة والاهتمام باللغة العربية ، وتحفيظ القرآن وإنشاء مكاتب لتحفيظ القرآن ودراسته ومعرفة معانيه

وتفسيره، كما ظهر هذا الصدى فى حرص أهل البلاد على تعليم أبنائهم - ذكوراً وإناثًا - شعائر الدين الإسلامي منذ الصغر . وقد انتشر المذهب الشافعي الذى انتقل من عند العرب ، واهتم الجميع بنشر وتعليم القراءة والكتابة بالعربية الفصحى ، التى ارتفعت بالإسلام قيمة وسمت به مكانة وعزت به منزلة .

كما ظهر صدى حضارة الإسلام فى الحياة الاقتصادية ، حيث ارتبط الدين بالاقتصاد وجعل الاهتمام بالطبقات الفقيرة أكثر من غيرها ، وجعل للفقير حقوقًا عند الغنى ، وأوجب على الغنى أداء حق الفقير المتمثل فى الزكاة ، سواء زكاة الفطر أو زكاة المال . وبين الإسلام روح التعامل الاقتصادى على المسار الزراعي والصناعي والتجارى فجعل مبدأ الأمانة فى التعامل والصدق ، وجعل الثواب والعقاب ، وبين للناس أن كل عمل يعمله الإنسان سوف يعرض على الله وأنه سوف يجزى بنفس جنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ، وبيّن أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وجعل الإسلام العلاقات العربية الإندونيسية أكثر ارتباطًا وازدهاراً من ذى قبل ، حيث حث الناس على روح العمل الدؤوب والتعاون بين الأفراد ، ومد يد العون والمساعدة بين الأسر والجماعات على مستوى جميع المجالات الزراعية والصناعية .

كما أقام الإسلام مبدأ الاحترام المتبادل بين الأفراد والجماعات الذى سرى بين الإندونيسيين حتى أصبح منتشراً بين الممالك والجزر الإندونيسية ونشطت التجارة العربية الإسلامية فى إندونيسيا ، وتعلم التجار الإندونيسيون من التجار العرب روح المعاملة الإسلامية فى البيع والشراء والمبادلة وطرق التخزين وغير ذلك من الأمور الهامة اللازمة لأعمال التجارة . مما يجعلنا نقول : لقد ظهر صدى الإسلام فى الحضارة الإندونيسية ظهوراً جليًا على جميع المسارات وفى جميع نواحى الحياة .





إندونيسيا

الهوامش

١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨/٤١٣ .

٢ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ص ٥ ، ٦ .

٣ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ص ١٦٩ .

٤ – محمود شاكر : جغرافية العالم الإسلامى ، ص ٨٤ .

٥ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥١ : أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤١٥ .

٦ – حسن محمد جوهر ، وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٢٧ .

٧ – وزارة الإعلام الإندونيسي : إندونيسيا ، ص ٧ .

٨ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ١٨ – ٢٠ .

٩ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، ص ١٧٠ .

١٠ – عطية محمد : إندونيسيا المجاهدة ، ص ٦ .

١١ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ٩ .

١٢ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ٢٢ .

١٣ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ١٠ .

١٤ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ١٣ .

١٥ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ٢٢ .

١٦ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ١٢ .

١٧ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ٢٢ – ٢٤ .

١٨ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ١٧ .

١٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨/٤١٥ ، ٤١٦ .

٢٠ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨/٤١٩ ، ٤٢٠ .

٢١ – محمود شاكر : إندونيسا ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

٢٢ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥٤ .

٢٣ – حسن محمد جوهر ، وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

٢٤ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤٢٠ – ٤٢١ .

٢٥ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، ص ١٧٠ .

٢٦ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤٢١ – ٤٢٤ .

٢٧ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٧٨ – ٧٩ .

٢٨ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥٤ .

٢٩ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا ، ص ٣٠ ، ٤٠ .

٣٠ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ، ص ٩٥ .

٣١ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ١١٧ – ١١٩ .

٣٢ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٤٧ .

٣٣ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبي والتحريري والإسلامي ، ص ١٣ .

٣٤ – لوثروب ستودارد : حضارة العالم الإسلامي ١ / ٣٤٨ .

٣٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٤٩ ؛ ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ، ص ٣٠ .

٣٦ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ؛ ومحمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين مادة الصين .

٣٧ – قيصر أديب : الإسلام في الشرق الأقصى ، ص ٢٧ .

٣٨ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٣٨ – ٤٠ ؛ وفؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبي والتحريري والإسلامي ، ص ١٣ .

٣٩ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٤٠ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

٤١ – هاري هازارد : أطلس التاريخ الإسلامي ، ص ٤٢ .

٤٢ – محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين مادة " الصين " .

٤٣ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ص ٤٢ .

٤٤ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٧٢ .

٤٥ – هاري هازارد : أطلس التاريخ الإسلامي ، ص ٤٢ .

٤٦ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ١ .

٤٧ – البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٥٣٦ .

٤٨ – هاري هازارد : أطلس التاريخ الإسلامي ، ص ٤٢ .

٤٩ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ١/٣٤٥ ، ٣٤٦ ؛ عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ١٥٦ .

٥٠ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٤٩ ؛ هاري هازارد : أطلس التاريخ الإسلامي ، ص٤٢ .

٥١ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ٣٦٦/١ .

٥٢ – وزارة الاستعلامات بإندونيسيا : إندونيسيا ، ص ١٩ .

٥٣ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٤٧ .

٥٤ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥٧ .

٥٥ – عبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٥٥ .

٥٦ – عباس العقاد : الإسلام في القرن العشرين ، ص ٤٨ .

٥٧ – إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامي ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .

٥٨ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥٧ – ٤٥٩ .

٥٩ – عبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٥٥ ، ٥٦ : إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

٦٠ – على الطنطاوي : إندونيسيا ، ص ٣٥ .

٦١ – محمد عبد الرؤوف : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٨٢ ؛ عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥٧ .

٦٢ – عبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٥٧ – ٥٩ .

٦٣ – إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامي ، ٢٢٤/١ .

64 - Harrison : South East Asia. P. 77 .

٦٥ – عبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٦٢ – ٦٣ .

٦٦ – المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٤ .

٦٧ – عبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٦٤ .

٦٨ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ٤٦٦/٨ – ٤٦٩ .

69 - Harrison : South East Asia. pp. 85-86 .

٧٠ – المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ٥٥ – ٥٧ .

71 - The Land and Peaple of Indonesia, p. 56 .

٧٢ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ٤٧٣/٨ .

٧٣ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦١٨ .

٧٤ – عبد الله عباس ناستيوم : تاريخ الملايو العظمى ١٠٥/١ ؛ المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٩ – ٦٤ .

٧٥ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٤٨١/٨ .

٧٦ – عبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٩٠ .

٧٧ – المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ص ٦٥ .

٧٨ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٤٨٣/٨ ؛ وعبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ١٠٨ .

٧٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٨٤ – ٤٨٥ .

٨٠ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا ، ص ١٧٨ – ١٧٩ نقلاً عن كتاب " آسيا والسيطرة الغربية تأليف بانيكار ، ص ٥٦ ، ٥٨ .

وكتاب : Panikar, K.M. : Malabar and the Sutch, Bombay 1930 .

٨١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٨٦ .

82 - Cobden, Richard, Political writings of cobden, London, 1867 . vol. 2, p. 25 - 106 .

٨٣ – إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامي ٢٢٤/١ .

٨٤ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٦١ .

٨٥ – ستوديا إسلاميكا : مجلة إندونيسية للدراسات الإسلامية السنة الثامنة العدد الثاني لسنة ٢٠٠١م ، ص ٣ ، ٤ .

٨٦ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٤٦٦/٨ – ٤٦٧ .

٨٧ – الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٣ .

٨٨ – عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص ٣١ .

٨٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٤٧٠/٨ .

٩٠ – رؤوف شلبي : أرخبيل الملايو ، ص ٦٢ .

٩١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٤٧٢/٨ ، ٤٧٩ .

٩٢ – المائدة الآية (٣٣) .

٩٣ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٥ – ٥٧ .

٩٤ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ٤١ .

٩٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥١ .

٩٦ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

٩٧ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٦٢ – ٦٣ ؛ رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٧٠ – ٧٦ .

٩٨ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ٣٥٠/١ ، ٣٥٤ .

٩٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٧١ – ٤٧٢ .

١٠٠ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٢٠ .

١٠١ - رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٦٨ ، ١٠٠ .

١٠٢ - حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٥١ - ٥٣ ؛ وأحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ٤٤٨/٨ .

١٠٣ - محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٢٧ - ٢٩ .

١٠٤ - حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٥٤ - ٥٦ ؛ دنيس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ١٨٧ .

١٠٥ - محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٧ .

١٠٦ - حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٥٦ - ٥٧ .

١٠٧ - دينس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ١٨٧ ؛ حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٥٧ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٧ .

١٠٨ - محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٨ ؛ إبراهيم خورشيد وآخرون : دائرة المعارف ٤١٦/١١ - ٤١٧ .

١٠٩ - حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٥٣ ، ٥٤ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٥ .

١١٠ - إبراهيم خورشيد وآخرون : دائرة المعارف ، ١١ / ٤١٨ .

١١١ - حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ١١٣ ؛ حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٦١ ، ٦٤ ؛ المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ١٣١ ؛ أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٦٤ .

١١٢ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ١ / ٢٤٨ .

١١٣ حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ١١٢ ، ١١٣ ؛ المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ١٣٢ ، ١٤١ ؛ حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٦٥ .

١١٤ - حسن محمد جوهر وعبد الحميد : إندونيسيا ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

١١٥ - المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص١٢٨ ؛ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ١ / ٢٤٨ .

١١٦ - المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، فؤاد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبي والتحرري والإسلامي ، ص ٢١ ؛ رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

١١٧ - رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ١٢٣ .

١١٨ - المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٢ .

١١٩ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

١٢٠ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٣ .

١٢١ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

١٢٢ – دائرة المعارف الإسلامية ١١ / ٤١٦ ، ٤١٨ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٢٣ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ١٠٦ .

١٢٤ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ٨/٤٦١ ، ٤٦٤ .

١٢٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٢٦ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦١٨ .

١٢٧ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٦٣ .

١٢٨ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥١ .

١٢٩ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥٩ .

١٣٠ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٥ .

١٣١ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٤٨ .

١٣٢ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٨٤ .

١٣٣ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٤ .

١٣٤ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٦٣ .

١٣٥ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

١٣٦ – وزارة الاستعلامات بإندونيسيا : إندونيسيا ، ص ٩٠ – ٩٢ .

١٣٧ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

١٣٨ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٧ .

١٣٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

١٤٠ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا ، ص ٦٤ ، ٧٠ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٥ – ١٥٧ .

١٤١ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا ، ص ٢١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥١ ، ١٥٦ .

١٤٢ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

١٤٣ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥١ .

١٤٤ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٣٥ .

١٤٥ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٨٩ .

١٤٦ – ديتس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ٣٧ – ٤٠ ؛ وماركو بولو : رحلات ماركو بولو : ٢٥/٣ .

١٤٧ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٦٠ ؛ محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٨٧ – ٩٠.

١٤٨ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٨٧ – ٨٨ .

١٤٩ – ديتس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

١٥٠ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد ، ص ٧٠ .

١٥١ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٧١ .

١٥٢ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي ، ص ٧٠ – ٧٥ .

١٥٣ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٩٧ .

١٥٤ – ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ٢٩/٣ .

١٥٥ – ديتس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ٢١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

١٥٦ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٦٠ ، ٦١ .

١٥٧ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥٠ ، ٤٥١ .

١٥٨ – بدر الدين الصيني : العلاقات بين العرب والصين ، ص ١١٠ .

١٥٩ – عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام في الهند ، ص ٦٠ .

١٦٠ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٨١ – ٨٢ .

١٦١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥٣ – ٤٥٤ .

١٦٢ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ؛ أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥٤ – ٤٥٦ .

١٦٣ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

164 - Muhammad yasoff Hashim : The Malay Sultanate of Malacca Kuala Lumpur 1992 , pp. 180 - 206 .

١٦٥ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٣٥ ، ١١٠ ، ١١١ .

١٦٦ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ٤٠ ، ٩٦ .

١٦٧ – رأفت الشيخ : ملقا ودورها التجاري في جنوب آسيا ، ص ٦ – ٧ .

قائمة المراجع

١ – إبراهيم خورشيد وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية ، ط. دار الشعب . بدون تاريخ .

٢ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٣ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، ط. مكتبة العبيكان – الرياض ، ١٩٩٤م.

٤ – بدر الدين الصيني : العلاقات بين العرب والصين ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠م.

٥ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ط. دارصادر بيروت . بدون تاريخ .

٦ – البلاذرى أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، ط. مكتبة النهضة المصرية . بدون تاريخ .

٧ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ط. دار المعارف – مصر ، ١٩٥٧م.

٨ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ط. دار المعارف – مصر ، ١٩٥٩م.

٩ – ديتس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ترجمة حسن محمود ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢م.

١٠ – رأفت الشيخ : ملقا ودورها التجارى فى جنوب آسيا ، بحث مقدم إلى مؤتمر التاريخ الاقتصادى للمسلمين – مركز صالح كامل – جامعة الأزهر ٢٥–٢٧أبريل عام ١٩٩٨م.

١١ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، طبعة خاصة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٧٥م ، مطبعة السعادة .

١٢ – ستوديا إسلاميكا : مجلة إندونيسية للدراسات الإسلامية . ط. إندونيسيا ، السنة الثامنة ، العدد الثانى لسنة ٢٠٠١م ، المقال بعنوان : تأثير الإسلام فى العالم الملايوى .

١٣ – عباس محمود العقاد : الإسلام فى القرن العشرين ، ط. نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٤ – عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم " آسيا الإسلامية " ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩م.

١٥ – عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى . ط. مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الخامسة ، ١٩٨٦م.

١٦ – عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠م.

١٧ – عطية محمد : إندونيسيا المجاهدة ، ط. دار الطباعة المصرية الحديثة ، ١٩٤٨م.

١٨ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبى والتحريرى والإسلامى ، ط. الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

١٩ – قيصر أديب : الإسلام فى الشرق الأقصى ، ترجمة نبيل صبحى ، ط. بيروت ، ١٩٦٦م.

٢٠ – قسم الاستعلامات والعلاقات العامة بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، طبعة القاهرة ١٩٧٧م.

٢١ – لوثروب ستودارد : حضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، ط. دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٣م.

٢٢ – ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦م.

٢٣ – الماوردى على بن محمد البصرى : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط. دار الفكر – القاهرة ، ١٩٨٣م.

٢٤ – محمد أحمد السنباطى : حضارتنا فى إندونيسيا ، ط. دار القلم – الكويت ، ١٩٨٢م.

٢٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ط. الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م.

٢٦ – محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ، مادة " الصين " ط. بدون تاريخ .

٢٧ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ط. المكتب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الثامنة ١٩٨٧م.

٢٨ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ط. القاهرة . المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا ، ١٩٤٦م.

٢٩ – هارى هازارد : أطلس التاريخ الإسلامى ، ترجمة وتحقيق إبراهيم خورشيد ط. بيروت. بدون تاريخ .

30 - Colden, Richard, Political writings of cobden, London. 1867 .

31 -Harrison : South East Asia. 1954 .

32 - Muhammad yasoff Hashim : The Malay Sultanate of Malacca Kuala Lumpur. 1992 .

33 - Panikar, K.M. : Malabar and the Sutch, Bombay 1930.

34 - Studia Islamika. Indonesian Journal for Islamic Studies : Jagat Durbanudin : The Mahing of Islamic Political Tradition in the Malay world. Volume, 8, Number 2, 2001 .

35 - Datus Smith : The Land and People of Indonesia1961 .

أ.د. السيد حسين جلال (*)

الحضـــارة العـــربيـة الإســـلاميـة
ودورها فى حركة الكشوف الجغرافية

تمثل حركة الكشوف الجغرافية التى تمت فى عصر النهضة الأوروبية ، واستمرت قرنًا ونصف من الزمان ، منعطفًا هامًا فى تاريخ الإنسانية ، فقد أصبح هناك عالم جديد وعالم قديم وبدأت حركة التوسع الاستعمارى الأوروبى التى اتخذت فى مطلعها روحًا صليبية ضد المسلمين وقد حاول البعض أن يرجع حركة الكشوف الجغرافية الكبرى إلى حيوية وتطلع غير عادى من شعوب أوروبا وإلي حب استطلاع ومغامرة وتفوق طبيعى فى الجنس، إلا أن الأمر غير ذلك ، فالحقيقة ترجع إلى اقتباساتهم العلمية من الحضارة العربية الإسلامية ، التى هى بحق جزء فاعل فى حضارة البشرية قديمًا وحديثًا .

وقد اندفعت أوروبا الغربية للكشوف الجغرافية بسبب عدة عوامل أهمها :

حضاري:

تمثل فى حب المغامرة والكشف عن المجهول الذى ساد عصر النهضة الأوروبية ، وهذه الحضارة بدورها نتاج الاحتكاك بالحضارة العربية الإسلامية .

سياسى:

نمو الشعور القومى والوعى بالذات الوطنية بسبب ضغوط القوى الخارجية المعادية .

---

* أستاذ بكلية الآداب - فرع دمنهور - جامعة الإسكندرية .

ديني:

كان هدف كل من الإسبان والبرتغال هو تعقب المسلمين بعد خروجهم من الأندلس والقضاء على آخر معاقلهم على الساحل الإفريقي ، بل وتطويق المسلمين كما اعتقد الأمير هنرى الملاح بأن نهر السنغال قد يقوده إلى منابع نهر النيل وإلي بلاد الحبشة المسيحية وبذلك يفتح طريق مائي عبر إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر ومن ثم إلى الهند وبذلك يحصر الإسلام في إفريقيا من الشمال والجنوب بدول مسيحية ويصير البحر المتوسط آمنًا للملاحة المسيحية (١).

واتخذت هذه الموجة صبغة صليبية ، وقد باركت البابوية هذا العمل العدائي ضد المسلمين واعتبرت كل من يستشهد في سبيل تحقيق هذا الهدف من شهداء الكنيسة . بل ذهب الأمر بتشجيع البابوات لحركة الكشوف الجغرافية بإصدارهم المراسيم والقوانين . ففى سنة ١٤٥٤م تلقى الأمير هنرى الملاح من البابا نيقولا الخامس تفويضًا بأن له الحق فى جميع الكشوف التى يكشفها حتى بلاد الهند(٢) كذلك أصدر البابا كاليكتوس الثالث فى ١٤٥٦/٣/١٣م مرسومًا بابويًا يؤكد المنحة التى وهبها نيقولا الخامس وبذلك تمكن هنرى من الحصول على كل شيء . وفى ٩ يونيو ١٤٩٤م أبركت معاهدة توردسيلاس : Tordesilas بين إسبانيا والبرتغال حددت خطًا فا صلاً بين ممتلكاتها يقع إلى الغرب من جزر رأس فردى بنحو ٧٠ فرسخًا على خط طول : ٣٧َ ٤٦ْ . وقد أيد البابا الإسكندر السادس هذه الاتفاقية (٣).

وقد أيد الملوك والأمراء فى كل من إسبانيا والبرتغال هذا العمل ورصدوا له مبالغ ضخمة للإنفاق منها على الحملات التى تتجه ضد المسلمين فكانت موجات الغزو الأوروبى تحت هذا الستار الصليبى عاملاً كبيرًا فى تقويض جزء من الحضارة الإسلامية فى القارة الإفريقية والمحيط الهندى والسواحل العربية(٤) ، وكان ارتباط الأهداف الدينية للاستعمار الأوروبى ، ارتباطًا وثيقًا بتلك المفاهيم الوطنية المتعلقة بممتلكات ما وراء البحار (٥).

اقتصادي:

أدى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م فى يد الأتراك العثمانيين إلى ارتباك التجارة وانهيار طرقها البرية والبحرية بين آسيا وأوروبا عبر البحر الأسود والأناضول والمضايق . وبعد الاستيلاء على مصر والشام وشمال إفريقيا واليمن ، ووقوع الطرق البرية والبحرية فى يد

الأتراك العثمانيين ، وأصبح على التجار الأوروبين إذا أرادوا الوصول إلى أى مكان فى الشرق، أن يمروا بأرض عثمانية ، ولابد لهم من الحصول على تصاريح من السلطات العثمانية.

وهكذا أصبحت الطرق من أوروبا لشرق البحر المتوسط فى ظل السيد الجديد وتحت إشرافه(٦).

أسباب انطلاق حركة الكشوف الجغرافية من شبه جزيرة أيبريا:

لم تنطلق حركة الكشوف الجغرافية من الأندلس من فراغ ولكن كان وراء ذلك الأمر خلفية تاريخية وحضارية قامت واستمدت جذورها من الحضارة العربية الإسلامية .

استقر العرب فى إسبانيا قرابة ثمانية قرون (٧١١ - ١٤٩٢م) وكانت إسبانيا خلالها مركزًا للاتصال بين آسيا وإفريقيا من جهة وأوروبا من جهة أخرى .

وقد كان العلم العربى من القرن الثامن حتى أواخر القرن الرابع عشر ، أرقى علم فى العالم متفوقًا فى ذلك على العلم فى الغرب والصين .

وكان العلماء المسلمون فى كل حقل تقريبًا فى طليعة التقدم العلمى ، وكانت الحقائق والنظريات والتصورات العلمية التى تضمها رسائلهم العلمية أرقى ما يمكن الحصول عليه فى أى مكان فى العالم (٧).

كانت المعاهد العلمية الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية مجمع العلوم والمعارف الرفيعة فى تلك العصور ، وقصدها الطلاب من كل فج ، وكانت مكتباتها تضم أنفس الكتب والمصنفات فى مختلف العلوم والفنون (٨) . وقد بلغت سبعون مكتبة عامة (٩) ، وكانت الأندلس مركزًا رئيسًا لحركة الترجمة فى أوروبا ومكان التقاء حضارة الشرق والغرب حيث وجدت عليها تربة خصبة للانطلاق إلى كشف المجهول فى عالم البحار والمحيطات والقارات .

أهمية الموقع الجغرافى لشبه جزيرة إيبريا:

تتميز السواحل هنا بطولها وامتدادها ، فهى تطل على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسى مما جعلها عرضة باستمرار للغزو البحرى . وقد أدرك المسلمون منذ بادىء الأمر ورسموا لأنفسهم سياسة بحرية اعتمدوا فيها على دور الصناعة القديمة التى كانت منتشرة على تلك السواحل مثل : طرطوشة وطراكونة ودانية ولقنت وبجانة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وغيرها (١٠).

كذلك بنى الأندلسيون ميناء " سلا " على المحيط الأطلسى بتصميم المعلم " أبو عبد الله محمد بن على " من أهل أشبيلية . وكذلك كانت هناك داراً للصناعة فى دانية بشرق الأندلس على البحر وأخرى فى شلطيش وتقع فى غرب إشبيلية وفى مالقة والدويرة والصويرة كانت تبنى فيها الحراريق والشوانى (١١).

مظاهر إسهامات الحضارة العربية الإسلامية في الكشوف الجغرافية :

اعتمدت الكشوف الجغرافية على علوم ومعارف متعددة مثل : الجغرافيا والفلك والملاحة البحرية وغيرها من العلوم التى أبدع فيها المسلمون واقتباس الأوروبيون لهذه الحضارة العربية الإسلامية . وسأتناول باختصار هذه العلوم :

أولاً : تقدم الفكر الجغرافى لدى العلماء المسلمين :

ساد الاعتقاد الخاطىء لدى الجغرافيين المسيحيين أن الأرض مسطحة ومن ثم فقد رسم العالم على شكل تخطيطى كما يظهر فى خريطة العالم المعروفة باسم Orbis Terranum أو The Wheel Map والتى اعتقد عند رسمها أن الله خلق الأرض فى شكل منتظم وأنه وضع القدس فى وسطها ، كما رسم العالم على شكل حرف O وظهر البحر الأسود وكذلك البحر الأحمر والبحر المتوسط فى وسطها على شكل حرف T واحتلت آسيا النصف الشمالى من الخريطة ، بينما شغلت أوروبا النصف الأيسر من الجزء السفلى المقابل لقارة أوروبا (١٢).

وقد رفع القساوسة أصواتهم محذرين بأن البحث فى طبيعة الأرض وموضعها لايعود على الإنسانية بشىء يحقق آمالها فى الحياة الأخرى ، كما سخروا من فكرة كروية الأرض .

وأصبحت الجغرافيا فى حاجة إلى فكر متحرر ويد أمينة تتعهدها ، ولم يكن حينذاك أفضل من المسلمين ولا أحق منهم للقيام بهذا العمل . وهكذا قادوا مسيرة تقدم علم الجغرافيا فى العصور الوسطى (١٣).

كانت لدى الجغرافيين المسلمين فكرة واضحة عن العالم المعمور نتيجة للفتوح الإسلامية وحركة التجارة العربية والحج وأيضاً جهود الرحالة المسلمون علاوة على أن الإسلام يحث على طلب العلم ومن ثم قدم الجغرافيون المسلمون إسهامات جليلة فى تقدم العلوم الجغرافية بكافة تخصصاتها .

نجح الجغرافيون المسلمون[١٤] فى تحديد مواقع مدن كثيرة بالنسبة لخطوط الطول ، وقسموا العالم المعروف إلى أقاليم على أساس اختلاف طول الليل والنهار كلما بعدنا عن خط الاستواء . وقد اعتقد الجغرافيون المسلمون أن الماء يغطى مساحة كبيرة من الكرة الأرضية وأنه يحف باليابس على هيئة بحر مظلم وكانت لديهم فكرة صحيحة وواضحة عن بحر الروم (المتوسط) وبعض سواحل المحيط . كما عرفوا الجهات الأصلية [١٥].

وقد ذكر المستشرق " كريمورز " أن للنظرية الإسلامية الحق أن تدعى بأنها أسهمت فى كشف العالم الجديد [١٦] . فقد ترجمت كتب الإدريسى إلى اللاتينية حيث تعلمت منها أوروبا علم الجغرافية فى العصور الوسطى [١٧].

كروية الأرض :

استدل المسلمون عن طريق رحلاتهم البحرية على كروية الأرض ، لأن المغادر والقادم للساحل تتراءى له الأشياء فى الساحل تباعًا . وكان ابن خرداذبة قد تصور أن الأرض مستديرة تشبه الكرة وأنها موضوعة فى السماء كما توضع المحا فى جوف البيضة . وقد ذكر أن محيط الأرض ٩٠٠٠ فرسخ (الفرسخ = ١٢ ألف ذراع والذراع يساوى ١٨ بوصة) [١٨]. وهذا يساوى ٥٢٦٥٠كم .

العرب وقياس محيط الأرض :

ومن أهم أعمال العرب فى الجغرافيا الفلكية هى محاولة قياس درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح الأرض . وبلغ متوسط قياس الدرجة ٥٦٣/٢ ميل تقريبًا (والميل العربى = ١٩٧٣,٢مترًا) فإن طول الدرجة عند فلكى المأمون = ١١١,٨١٥ كيلو مترًا وطول محيط الأرض ٤١٢٤٨ كم ، وهو رقم قريب من الحقيقة [١٩] . ويعد قياس العرب أول قياس حقيقى أجرى كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من الصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكين والمساحيين فى العمل [٢٠].

كذلك هناك نظرية أبو الريحان البيرونى (ت١٠٤٨م) لإيجاد مقدار محيط الأرض بالتقريب أن ذلك العالم الأجل جعل فى آخر كتابه الإسطرلاب فصلاً فى معرفة مقدار استدارة الأرض واستنبط أن مقدار درجة من خط نصف النهار ٥٨ ميلاً تقريباً [٢١].

وبانتشار الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية انتشر أيضاً فى أوروبا معرفة مقدار الدرجة على القياس المأمونى أى ٢/٣ ٥٦ ميل ، كما أن العرب عند نقل الكتب اليونانية والسريانية ، ما كانوا انتبهوا لاختلاف أجناس الميل فوقعوا فى أخطاء كبيرة ، كذلك الإفرنج فى القرن الرابع عشر والخامس عشر للمسيح ، لم يلتفتوا إلى مخالفة أميالهم للميل العربى فأخطئوا فى حساباتهم خطأ شديداً ومنهم كرستوفر كولومبس (مكتشف أمريكا) فإنه بفرض أن طول الدرجة ٢/٣ ٥٦ميل ، إيطالى[٢٢] قد بعد بين سواحل أوروبا الغربية وسواحل آسيا الشرقية أقل مما هو فى الحقيقة بقدر عظيم جداً ، فلا يبعد أنه لولا غلطة كهذه لم يكن رأى من الممكن أن يصل إلى بلاد الصين راكباً الإوقيانوس فى سفن صغيرة لاتنقل من الزاد ما يكفيه مدة عدة أشهر فامتنع عن سفرة ذلك العجيب الذى هداه لكشف القارة الأمريكية ، فياله من خطأ عاد على الورى بالمنافع العظيمة [٢٣].

دوران الأرض :

سبق العرب كلاً من كيبلر وكوبرنيك فى اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضى وفى نظرية دوران الأرض ، وإن اذياج الأزفونش العاشر المسماة (الأذياج الأذفونشية) مأخوذة عن العرب [٢٤]. وعلى الرغم من تقدير المسلمين لأفكار اليونانيين ، إلا أنهم نبذوا فكرة ثبوت الأرض ، وأعلن معظم العلماء المسلمين البارزين أن الأرض تدور ومن هؤلاء البيرونى ، فلقد أكد (أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها) [٢٥].

ثانياً : الخرائط الملاحية :

صنع المسلمون خارطات بحرية ممتازة للإرشاد الملاحى والدليل على ذلك أن الأميرال البرتغالى الفنسو البوكيرك (Alfonso E Lbuqurque) أرفق فى تقرير له لملك البرتغال عام ١٥١٢م خارطة بحرية كبيرة لملاح من جاوة موضحاً عليها رأس الرجاء الصالح والبرتغال والبحر الأحمر والخليج الفارسى وجزائر الملوك ومسالك ملاحية إلى الصين وجزيرة (فرموزا). كما أن فاسكو دا جاما نفسه يقرر أنه قد وجد الملاحين العرب على الساحل الإفريقى يستخدمون البوصلة وآلات دقيقة ملاحية وخارطات بحرية [٢٦].

وقد بلغ من ثقة الجغرافيين والرحالة الأوروبين بدقة الخرائط العربية للبحار الجنوبية فى عصر الكشوف البحرية أنهم كانوا يعدون الحصول على واحدة منها أقرب إلى اقتناء النفائس النادرة . وقد ذكر المستشرق الفرنسى (رينو) أن الملاح والرحالة البرتغالى (ألفونسو

البوكيرك) مدين بنجاح رحلاته فى المحيط الهندى والخليج العربى - إلى حد كبير - لخريطة من عمل ربان عربي يدعى (عمر) [٢٧].

كما ذكر (السير توماس رد) أنه قابل فى جزيرة مدغشقر سنة ١٤١٥ ربانًا عربيًا (يدعى المعلم إبراهيم) أصلح له الخريطة التى كان يحملها عن ملامح تلك المنطقة [٢٨].

ثالثًا : الملاحة الفلكية وتطورها عند المسلمين :

علم الفلك من العلوم التى اهتمت بها البشرية لارتباطها فى العصور القديمة بالتنجيم ومعرفة الطوالع . وتظهر أهمية علم الفلك من حيث تأثيره على الملاحة البحرية وظهور علم (الملاحة الفلكية) ويرجع علم الفلك فى العصور الوسطى لأصول يونانية وشرقية وسكندرية وأوروبية وعربية [٢٩].

نقل الفرغاني - فى القرن التاسع الميلادى - علم الفلك لبطلموس إلى العربية . وكان علم الفلك من أحب الدراسات إلى العرب بعد الرياضيات . فالنجوم منذ الأيام القديمة هى هادى العرب فى الصحراء [٣٠].

وتقدم المسلمون فى هذا المضمار تقدمًا فاقوا فيه أساتذتهم ، فأقيمت المراصد الفلكية[٣١] زمن المأمون فى كثير من نواحى الدولة . ونجح المسلمون بفضل تبادل الملاحظات فى مراجعة جداول بطلميوس الفلكية ، وتحديدهم بشكل دقيق ميل سمت الشمس وكذلك مدارها ومدار القمر والكواكب . وحدد البيرونى بطريقة بارعة - كما ذكرنا من قبل - محيط الكرة الأرضية ، كما حدد المسلمون فى جميع أنحاء الدولة اتجاه القبلة فى المساجد بفضل علم الفلك وعلم الرياضيات الذى ارتبط بعلم الفلك وتفوق فيه العرب والمسلمون أيضًا . وكان معلما أوروبا فى هذا الميدان اثنين من أقدم الفلكيين المسلمين وهما : الفرغاني والبتانى (٩٢٩م) اللذين تمتعا بشهرة ذائعة فى أوروبا تحت اسم (الفرجانوس) Alfraganius و (الباتيجينوس) Alba-tegniues . والمصطلحات الفلكية ذات الأصل العربى أكبر دليل على دور العرب الحضارى فى علم الفلك [٣٢].

ويؤكد جوستاف لوبون : أن العرب هم الذين نشروا علم الفلك فى العالم كله بالحقيقة [٣٣].
وظل علم الفلك عند المسلمين محفوظًا له مكان الصدارة حتى منتصف القرن السادس عشر حينما حل نظام كوبرينكس الفلكى محل النماذج الفلكية التى وضعها ابن الشاطر ومدرسة

مراغة الفلكية وقد اعتمد ملاحو المحيط الهندى من المسلمين على الاسترشاد بالأجرام السماوية كما فعل أحمد بن ماجد ويظهر ذلك فى استخدام الإسطرلاب والبوصلة والكوادرانت(٣٤).

هذا ويلاحظ أنه عندما استمرت الكشوف الجغرافية تتوغل جنوبياً غاب النجم القطبى فى الأفق ، وعندما اقتربوا من خط الاستواء فقدوا رؤيته تماماً ، وأصبح من الصعوبة تحديد خط العرض فى نصف الكرة الجنوبى فكان ذلك صدمة لملاحى أوروبا فى القرن الخامس عشر(٣٥).

وفى عام ١٤٨٤م استشار الملك جون الثانى مجموعة من رجال الفلك ، فقالوا أن خط العرض يمكن حسابه عن طريق ملاحظة ارتفاع الشمس فى منتصف النهار ، ونتيجة لهذا الحساب فإن الملاحين سيكونون فى حاجة إلى جداول تبين الميل الزاوى للشمس وهنا كان لدراسة الفلك عند المسلمين عن السماء أهميتها وفاعليتها ، فعن طريق اليهود أمكن ترجمة ونقل جداول الارتفاعات على يد برتغالى يهودى اسمه : إبرهام زاكوتا (Abraham Zacuta) عام ١٤٧٨م – وكان أستاذ لعلم الفلك فى جامعة سلامنكا بإسبانيا salamanka ، وهاجر نتيجة لطرد اليهود من إسبانيا إلى لشبونة وعمل فى خدمة البلاط الملكى كرجل فلك وكتب جداوله بالعبرية (٣٦).

وفى المؤتمر الذى أقامه الملك جون الثانى ، تمت ترجمة هذه الجداول إلى اللاتينية ثم بعد ذلك بفترة قصيرة نشرت باللغة البرتغالية كجزء من رسالة عامة عن الملاحة بعنوان : Oregi-mento Du Astrolabio ، فكان ذلك أول دراسة علمية وعلامة على التقدم فى علم الملاحة الفلكية . وقامت البرتغال عام ١٤٨٥ بإرسال بعثة إلى غينيا بحراً لاختبار العلم الجديد الخاص بمعرفة خط العرض .

فكان فى بداية القرن الخامس عشر من الصعوبة بمكان على الملاح الأوروبى تحديد موقعه بدقة لأنه لم تكن لديه الوسائل العلمية الخاصة بذلك ، فإذا فقد ولو مرة واحدة رؤيته للساحل سبب له ذلك خطراً شديداً ، لذلك كان الملاح باستمرار يضع نظره على الساحل .

أما فى نهاية القرن الخامس عشر أصبح لدى ملاحى عصر النهضة الأوروبية وسائل عديدة لكشف خطوط العرض بتقديرات متفق عليها عن الطول الجغرافى لدرجة العرض (٣٧) . كما كان لديه خرائط يمكن تسجيل ملاحظاته عليها ، وقد استفاد هؤلاء الملاحون بلا شك من

التراث الجغرافى والخبرة الملاحية والفلكية وأدوات الرصد والقياس التى كانت لدى المسلمين فى الأندلس وفى المحيط الهندى والبحر المتوسط .

ثالثاً : آلات الرصد والقياس :

استفاد ربابنة السفن من آلات الرصد والقياس التى ابتكرها المسلمون وأدخلوا عليها تعديلات قيمة منذ عرفوا الملاحة فى عرض المحيط ، وعلى هذا فإن حركة الكشوف الجغرافية استفادت كثيراً من هذه الآلات ونجملها فيما يلى :

١ - الإسطرلاب [٣٨]:

وهى آلة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم ولم يصنع منه أحسن مما صنع العرب بشهادة أوروبا نفسها . وفى متحف باريس إسطرلاب من صنع أحمد بن خلف من منتصف القرن العاشر الميلادى ، يفوق فى صناعته وتدريجه ما صنع من هذه الآلة فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

والإسطرلاب عبارة عن قرص مستدير مقسم إلى ٣٦٠درجة به ذراع متحرك مثبت من المركز ، ومؤشر يتخذ الموضع العمودى على الأفق . ولاستعماله يحرك الملاح الذراع على الدائرة ليقيس الزاوية بين النجم القطبى مثلاً والاتجاه الرأسى الذى يدل عليه المؤشر . وعلى ذلك تكون الزاوية المكملة للزاوية المحصورة بين الذراع والمؤشر مساوية لارتفاع القطب فوق الأفق [٣٩].

ويؤكد ول ديورانت فى كتابة قصة الحضارة أن المسلمين قد ادخلوا على الإسطرلاب تحسينات كثيرة ووصل منها إلى أوروبا فى القرن العاشر الميلادى ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر الميلادى . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية [٤٠].

وقد استعمل البرتغال الإسطرلاب ربما لأول مرة فى عام ١٤٥٥م وأثناء رحلاتهم على الساحل الغربى لإفريقيا ، كما استعمل ملاحهم ديجو جوميز Diego Gomez ربع الدائرة فى عام ١٤٦٢م[٤١].

٢ - ربع الدائرة (الكوادرانت) [٤٢]:

وهى آلة تمثل قوساً قدره ٩٠ درجة من الإسطرلاب ، وتقيس ارتفاع الأجرام فوق الأفق هى الأخرى عن طريق قياس زاوية الظل أيضاً . ومن ربع الدائرة عرف الأوروبيون فى القرن

السابع عشر سدس الدائرة أى (آلة السدس) Sextant المعروفة حاليًا فى الملاحة والتى ابتكرها إسحق نيوتن .

ويلاحظ أن الإسطرلاب وآلة ربع الدائرة اختراع عربى بالنسبة للأوروبيين ، فقد نقلوا فكرتيهما عن العرب إبان الحروب الصليبية وإن شاع استعمال هذه الآلات عند الفرس والهنود من قبل . ويعتمد كل من الإسطرلاب وربع الدائرة فى قياس زاوية ارتفاع النجم فوق الأفق على الخيط والثقل المدلى من المركز والذى يتخذ دائمًا الوضع الرأسى بالنسبة للأفق (٤٣).

وفى عصر الكشوف الجغرافية لم يكن لدى الإسبان والبرتغال سوى الإسطرلاب وربع الدائرة فى تحديد خط العرض أو رصد ارتفاع النجوم فى السماء ، هذا فى الوقت الذى أبطل فيه العرب استعمال هاتين الآلتين ، اللهم إلا لتحقيق أرصادهم أثناء رسو السفينة فى ميناء أو جزيرة ، بل استعملوا آلات أخرى من ابتكارهم تلائم طبيعة القياس من على ظهر المركب فى البحر ، ومن ثم فقد اعتمد العرب فى قياسهم لارتفاع النجوم على آلات أخرى تتفق وهذه الفكرة ، وقد سبق العرب البرتغال فى هذه التفكير وفى استعمال هذه الآلات (٤٤).

كما أنه فى المقابلة التى تمت بين فاسكو داجاما ومرشده الربان المسلم فى مالندى يذكر لنا المؤرخين البرتغال كيف أن الملاح البرتغالى قد أخذته الدهشة حين اطلع على الآلات التى يقيس بها العرب ارتفاع النجوم ، وهو نفسه لم يكن لديه سوى إسطرلابات خشبية وأرباع الدوائر (٤٥).

٣ – القياس بالأصابع :

أوجد ابن ماجد صلة بين تقسيم دائرة الأفق إلى ٣٢ جزءًا تماثل أخنان البوصة وبين استخدام قبضة اليد والذراع مبسوطة فى اتجاه البصر أمام الراصد . فقبضة اليد من الخنصر إلى الإبهام والذراع ممدودة إلى الأمام تمثل $\frac{١}{٣٢}$ جزء من محيط الدائرة مركزها نقطة اتصال الذراع بالكتف فلو استقبلنا الشمال لأمكن باستخدام قبضة اليد فقط التعرف على أى اتجاه آخر فى دائرة الأفق (٤٦).

٤ – آلة الكمال(٤٧) :

وهى خشبة على شكل متوازى مستطيلات يتصل من وسطها خيط مدرج بعقد تختلف المسافة بين كل عقدة وأخرى حسب نظام زاوية الارتفاع . ولاستعمال هذه الآلة يثبت الراصد الضلع الأسفل لمتوازى المستطيلات على الأفق بحيث يماسه الضلع الأعلى ويماسه النجم

المرصود وهو فى هذه الحالة يقرب نخشبة أو يبعدها حتى يحصل على هذا الوضع ثم يقرأ مباشرة عدد العقد التي بين العي أو طرف الأنف ووسط الخشبة . ويوضح هذا العدد ارتفاع النجم بالأصابع . وهذه القاعدة مبنية على حساب المثلثات ، ومنها يمكن معرفة خط العرض برصد النجم القطبى (٤٨).

٥ – آلة البلستى (٤٩):

وهي تشبه الألواح أو الخشبات سالفة الذكر ، غير أنه قد استعيض عن الخيط المعقود فيها بمسطرة مضلعة من الخشب أو الأبنوس ومدرجة إلى أصابع ينزلق عليها مربع القياس .

٦ – آلة الأربليت (٥٠):

وهو نوع آخر من عصا القياس يستخدم من الأمام أو من الخلف لرصد ارتفاع النجوم أو الشمس نهارًا يشبه إلى حد كبير البلستى ، ويعتمد تدريجه أيضًا على الربع المجيب ، ويطلق على هذه الآلة أحيانًا اسم " الصليب الهندسى " وأحيانًا أخرى " عصا يعقوب " . وكل هذه الآلات فى الواقع مردها إلى عصا الخوارزمى . وجدير بالذكر أن البرتغال قد نقلت فكرة هذه الآلة وكذلك البلستى عن العرب فى القرن الخامس عشر الميلادى (٥١).

٧ – وردة الرياح العربية (٥٢):

وهى تمثل دائرة الأفق ويوضح عليها الجهات الأربع ، وتعرف هذه الدائرة باسم (وردة الرياح) وتنقسم إلى ٣٢ قسمًا متساويًا معروفة باسم (الأخنان)(٥٣) أو المنزل ، وهذا هو نفس التقسيم الذى استعمل فى (الحقة) والدائرة وبيت الإبرة المعروفة حاليًا باسم البوصلة الملاحية وكان التقسيم للتعرف على الجهة التى تهب منها الرياح . ويعتمد هذا التقسيم العربى على مطالع ومغارب نجوم ملاحية معينة . أما الشمال فيشير إليه قطب (الجاه) والجنوب فيشير إليه قطب (السهيل) وأما الشرق فيشير إليه مطلع الطائر وأما الغرب فيشير إليه مغيب الطائر(٥٤) وقد نقل البرتغال فى القرن السادس عشر هذه الدورة عن الملاحين العرب كما أشار إلى ذلك دى سوسيرا (٥٥).

٨ – البوصلة الملاحية أو بيت الإبرة :

ظهرت البوصلة الملاحية أولاً عند أهل الصين والعرب ، وتنقسم إلى الإبرة المغناطيسية نفسها ثم تقسيم دائرة الأفق إلى الجهات الأربع الأصلية والأقسام الصغيرة المتساوية التى بين كل جهتين منها وذلك على ورقة أو لوح وهو ما يعرف باسم (وردة الرياح) السابق ذكرها ، وهى أسبق فى الوجود وفى الاستعمال فى الملاحة من الإبرة المغناطيسية .

واستعان الملاحون المسلمون في المحيط الهندي ببيت الإبرة منذ وقت متقدم ولا يمكن الحكم على أن الصينيين قد سبقوا العرب إلى استخدام البوصلة في الملاحة ، بل إن المرجح أن العرب عرفوا خواص الحجر المغناطيسي أثناء تجارتهم مع الصينيين ، ثم طبقوا الفكرة لمعرفة الاتجاه أثناء سير السفينة في البحر . وعلى أية حال فقد سبق الشرق أوروبا بثمانية قرون على الأقل في الاستعانة ببيت الإبرة في التعرف على الجهات الأربع الأصلية .

رابعًا : فنون الملاحة البحرية :

الملاحة الساحلية : قد سبقت الملاحة في أعمال البحار أو البحر المفتوح (open sea) بقرون عديدة ، فالملاحة الساحلية تعتمد على ملازمة الساحل طول الوقت والتعرف على معالمه البارزة مثل رؤوس الخلجان والجبال والتلال وما إليها للتحرك من مكان لآخر .

الملاحة في البحار المفتوحة : تعتمد بالدرجة الأولى على معرفة الاتجاه في عرض البحر سواء بالشمس نهارًا أو بالكواكب والنجوم ليلاً أي بالملاحة الفلكية . وقد عرف عرب الجنوب الملاحة الفلكية قبل الإسلام بقرون . وكانت مراكب العرب والفرس تحمل التجارة إلى موانى كمبوديا والصين خلال القرن الثامن والتاسع الميلادي (٥٧).

المرشدات الملاحية : وعرفت أيضًا باسم (الرهنامات)(٥٨) وقد دون أحمد بن ماجد كثيرًا من هذه المرشدات على صورة أراجيز .

علم الإشارات البحرية : وهو يعتمد إلى حد كبير على ملاحظة الأسماك والطحالب وحشائش البحر وأنواع الطيور ولون المياه وفي أحيان كثيرة على سبر العمق أيضًا للتعرف على البعد أو القرب من الشاطيء أو على معرفة سواحل أو جزر بعينها ، أيضًا معالم الساحل المشهورة من جبال وجونات وشعاب مرجانية . وقد استغل الربابنة المسلمون ، مثل أحمد بن ماجد والمهري ، هذه الإشارات البحرية في التعرف على الطريق الملاحي . وعن المسلمين نقل الملاحون الأوروبيين الكثير من هذه الإشارات التي يسرت لهم الملاحة في نصف الكرة الغربي فيما بعد . بدليل أن الملاح الإسباني (بيرو دي كويروس) يكاد ينقل حرفيًا بعد قرن من الزمان تعاليم أحمد بن ماجد . فالملاح الإسباني يقرر في عام ١٦٠٦م في رحلة له في المحيط الهادي علامات قرب البرور ومنها (الأوساخ والأجسام الصافية) التي تحملها الأنهار إلى مصابها وكذلك أنواع الطيور ولون ماء البحر ، وهي أمور قد تكلم عنها أحمد بن ماجد بتفصيل كبير فيما أسماه (علم الإشارات البحرية) (٥٩).

خامساً : دور السفن فى حركة الكشوف الجغرافية :

بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى استفاد العرب من الأمم السابقة التى كان لها باع طويل فى صناعة السفن والملاحة البحرية وهم أحفاد المصريين القدماء والفينيقيين والفرس القدامى وأهل الصين الذين سبقوا العرب فى صنع المراكب الشراعية الكبيرة . وسرعان ما أتقنوا صناعة بناء السفن وجلبوا لصناعة السفن الأخشاب الملائمة من غابات آسيا ومن الهند ومن جزر إندونيسيا والملايو ومن ساحل إفريقيا الشرقى ، وصنعوا لهم طرازاً خاصاً من السفن الكبيرة لها أشرعة مثلثة الشكل ، وقد ورد ذكرها فى مؤلفات أحمد بن ماجد وفى رحلة التاجر سليمان المهرى .

أسطول المحيط الهندى :

نجد سيادة العرب الملاحية ومعرفتهم بأسرار الملاحة ومواكبة ذلك لانتشار الإسلام على سواحل وجزر المحيط الهندى ووجود الجاليات الإسلامية فى أغلب موانى المحيط (٦٠).

وكانت السفن الإسلامية سهلة الاستعمال ويمكن الاعتماد عليها وهى صالحة للملاحة وكانت تمخر عباب المحيط الهندى فى القرن الخامس عشر أحسن صنعة وتصميماً من أى سفينة أوروبية فى ذلك الوقت (٦١). وقد تفوق ملاحو المحيط الهندى على ملاحى البحر المتوسط فى العصور الوسطى وحتى قبل عصر الكشوف الجغرافية التى قام بها البرتغاليون والإسبان فى أدوات الملاحة أو قياسات النجوم ومعرفة الانحراف وقياس المراحل والدوائر الملاحية ، كما يتضح من نصوص ابن ماجد وسليمان المهرى ، وأيضاً مؤرخى البرتغال : كاستنهيدا ودى باروش عن رحلة فاسكو داجاما إلى الهند .

أسطول حوض البحر المتوسط :

سيطر المسلمون ، إبان العصور الوسطى ، على معظم سواحل وجزر حوض البحر المتوسط وأضحى لهم قواعد بحرية ممتدة من شرقه إلى غربه : فى عكا والإسكندرية وجزيرة كريت وتونس وصقلية وبارى Bari وجارليانو وطارنت بجنوب إيطاليا وعند ساحل نابلى فى جزيرة بونتزا Pontza وفى جنوب فرنسا على ساحل بروفانس فى فراكسنتم Fraxinetum وكذلك فى جزيرة كامرج وجزيرة ماجلون غربى نهر الرون ، هذا بالإضافة إلى قواعد جزر البليار : (ميورقة ومينورقة ويابسة) وقواعد سواحل إسبانيا (٦٢).

وبانتقال الجزر الهامة فى البحر المتوسط إلى أيدى المسلمين فضلاً عن أغلب سواحله توافر لهم الحصول على المواد الأولية اللازمة لبناء السفن مثل الخشب والحديد من صقلية وشمالى إفريقيا وغربى تونس والأندلس قرب طرطوشة وأيضًا عن طريق التجارة مع البندقية حصلوا على الأخشاب والحديد رغم احتجاجات البابوية على المتاجرة مع المسلمين فى المواد الحربية(٦٣).

وهكذا أصبح حوض البحر المتوسط بحيرة إسلامية وظل كذلك حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . وأن قوة الأسطول الإسلامى منذ العهد الأموى فصاعداً ، ثم قوة الأسطول المصرى زمن الفاطميين ، ونشاط أبى الحسين مجاهد الدانى العامرى فى القرن الحادى عشر الميلادى من قواعده فى جزر البليار وسردانية ، كل ذلك أتاح للمسلمين السيطرة على معظم حوض البحر المتوسط (٦٤).

الأسطول الأندلسى :

يهمنا الحديث عن أسطول الأندلس فى العصر الإسلامى باعتباره نواة الأسطول البرتغالى والإسبانى فى مرحلة الحملات الكشفية فى نهاية القرن الخامس عشر .

وكانت أهم دور الصناعة بالمغرب والأندلس تلك التى أنشئت فى ثغور بجاية وسبتة وطنجة والجزيرة الخضراء وطرطوشة ودانية (٦٥) . وكانت معظم أخشاب السفن يؤتى بها من جبال طرطوشة ووادى بجاية ، وفى جزيرة سلطيش الغربية من ساحل الأندلس ازدهرت صناعة السفن الحديدية على نحو لم يكن له مثيل فى ذلك الزمن (٦٦).

وكان الأسطول التجارى الأمدلسى يزيد على ألف سفينة ، ويقوم بحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقيا وآسيا . وكانت السفن القادمة من مائة ثغر يزدحم موانى برشلونة وقرطاجة وبلنسية وملقة وقادس وإشبيلية (٦٧).

تركزت أغلبية القواعد البحرية فى إسبانيا على طول الساحل الشمالى الشرقى بين طرطوشية وبلنسية وكان ذلك للعداء المستحكم بين مسلمى إسبانيا وبين دول الفرنجة . وكانت مدينة المرية Almaria فى الجنوب الشرقى من إسبانيا ، هى القاعدة الرئيسية للبحرية الأندلسية وفيها معظم دور الصناعة ، كذلك وجد بها أسطول دائم تألف من ٢٠٠ سفينة ويليها فى الأهمية قاعدة بجاية Bovgie وطراكونة أو (طرقونة) ثم طرطوشة ولقنت شمالى مرسية وكذلك شريش وطرش وشلب وقرطاجنة (٦٨).

أسطول المحيط الأطلسي الإسلامي :

كانت له قاعدة هي الأشبونة أو لشبونة وفي كل قاعدة دار صناعة وإدارة خاصة وفي وقت السلم يرابط عدد من السفن في هذه القواعد ، وهذه تتجمع كلها في مكان واحد وقت الحرب ، ولكل سفينة قبطان مسئول عن الأسلحة والمحاربين ورئيس للبحارة (يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه[٦٩]) وكانت أجور رجال البحرية مرتفعة ويعتبر أمير البحر في دولة بني أمية بالأندلس أحد الكبار الأربعة الذين تعتمد عليه الدولة ويقال له (قسيم الخليفة) في السلطان ، فهذا يحكم البر وذاك يحكم البحر [٧٠].

البرتغال والإسبان يقتبسون الفن البحرى الإسلامى :

اقتبس البرتغال والإسبان من العرب أنواع السفن من حيث التصميم والتشغيل ، كما اقتبسوا الشراع المثلث من العرب - كما سنرى - وكذلك الخارطات الملاحية والملاحة الفلكية والإسطرلاب وآلة الربع ووردة الرياح والبوصلة الملاحية إلى غير ذلك . أضف إلى ذلك أن أهل المغرب الإسلامي كانوا يحولون السفن التي يستولون عليها من أعدائهم الأوروبيين إلى سفن إسلامية ومن ثم فإن الاقتباس من كلا الجانبين كان متاحاً في الفن البحرى .

تجهيزات السفن الإسلامية :

تميزت السفن الإسلامية فى عصر السيادة بتجهيزاتها المتفوقة وسأتناول هنا بعض هذه التجهيزات التي اقتبسها الأوروبيون عامة وإسبانيا والبرتغال بخاصة وكان لها أثرها الحاسم في نجاح حركة الكشوف الجغرافية ، وسأركز هنا على الشراع المثلث باعتباره قوة محركة للسفن فى ذلك العصر .

الشراع المثلث :

-كان الشراع المصرى القديم قائم الزوايا (مربع أو مستطيل) وكذلك كان الشراع العربى في أول الأمر ثم تحول إلى الشكل المثلث ليوفر للسفينة حرية أكبر لتفادى الشعاب المرجانية التي تزخر بها شواطيء البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وأيضاً لسهولة تحويل مسار السفينة بسبب كثرة تغير الرياح فيها . والحقيقة أن فكرة الشراع المثلث فكرة مصرية قديمة[٧١] فقد ظهر هذا الشراع فى السفن النيلية ولكن قمته كانت لأسفل أى أنه كان على شكل (مثلث مقلوب) وكانوا يستخدمونه فى السفن النيلية وفى السفن البحرية لأنه يوفر للملاحين أو

المحاربين حرية أكبر فى تحويل اتجاه السفينة لإمكان الإبحار عكس اتجاه الرياح الشمالية السائدة فى مصر فى حالة السفن النيلية أو لاختراق صفوف سفن الأعداء فى حالة السفن الحربية .

وقد انتقل الشراع المصرى ذو الشكل المثلث المقلوب إلى أحد شعوب البحر الأحمر القديمة الذى يطلق المصريون على بلادهم اسم " بونت " وظهر ذلك في رسوم على جدران مزار مقبرة ترجع لعصر الأسرة ١٨ الفرعونية (حوالى القرن ١٥ ق.م) .

وربما أخذ العرب فكرة الشراع المثلث من هذا الشكل ، ولكنهم جعلوا طرفه المدبب لأعلى وليس لأسفل كما هو الحال فى الشراع المصرى (٧٢).

تميز شراع السفن العربية بأنه مثلث ، وكان هذا الشراع هو المساهمة العربية من حيث تطوير علم بناء السفن . ويذكر بارى(٧٣) أن هذا الشراع المثلث كان مميزًا للسفن الإسلامية كما يميزهم الهلال نفسه . ولكن رغم مزاياه فله بعض العيوب وهى أن مناورة الدوران بالنسبة لهذه السفينة صعبة ، فرياح المحيط الهندى قلما تجعل السفينة فى حاجة إلى الدوران ، وإذا أراد الربان تغيير مساره بالدوران وجد صعوبة فى ذلك (٧٤).

وكان البحارة فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى قد تعلموا فن الإبحار فى وجه الريح بالأشرعة المربعة التى كانت أكثر شيوعًا فى الشمال ، من الشراع المثلث الخاص بحوض البحر المتوسط الذى كان قد جاء من الشرق الأدنى ليحل فى ذلك الجزء من البحار محل الشراع المربع القديم (٧٥).

فكانت السفن الأوروبية سنة ١٤٠٠م مزودة بشراع مربع الشكل وعندما تكون الرياح خلف السفينة تدفعها للأمام وتسير فى طريقها ، وإذا كانت الرياح عكسية تبقى السفينة فى الميناء غير قادرة على الإبحار (٧٦). وكان فى مقدور هذه السفينة حمل عدد آخر من الأشرعة ، إلا أن سفن ذلك العصر لم تزد هذه الأشرعة وظلت تسير بشراع واحد ، حاملة عددًا كبيرًا من الرجال والبضائع الضخمة ، وكانت رحلاتها لمسافات قصيرة وبرياح معتدلة ، ولم تلعب تلك السفن أي دور فى حركة الكشوف الجغرافية المبكرة لعدم صلاحيتها لهذا العمل .

أما البرتغال فقد فضلت سفنًا أخرى صغيرة شراعية ، وكان شكل الشراع مثلثًا : (Lateen Caravel) وكان للعرب فضل كبير فى هذا المجال ، مما حدا بأحد المؤرخين

الأجانب (بارى) بأن يصف فضل العرب الكبير فى هذا المجال على البرتغال بقوله : " وكان العرب هنا معلميهم أيضًا " (٧٧) : " Here Too The Arabs Were Their Teachers ".

وهناك تقرير كتبة بيللوك عن استخدام المسلمين للشراع المثلث يقول فيه : " وإبان نهضتهم فى القرن السابع ترك العرب صحراءهم واتجهوا إلى البحر ، وأصبحوا بعد وقت قصير من ركوب البحر ، كما هو الحال فى الفلسفة ، أساتذة لرعاياهم الجدد ، وأخذوا ذلك الشراع الذى وجدوه فى جميع المناطق التى قهروها ، وخففوا العارضة الأفقية وأطالوها ، كما رفعوا مقدمة الشراع عاليًا ، وشدوا أسفله إلى تحت ، وسرعان ما كان لديهم الشراع المثلث الذى ربما يبقى ، على حين ينثر كل دليل آخر على طاقتهم القاهرة . فبمثل هذا الشراع قادوا أسطولهم الأول مما جعلهم يستولون بسرعة على جزر البحر المتوسط "(٧٨) ويرى البعض أن الشراع المثلث عرف فى القرن التاسع الميلادى (٧٩).

وقد اتسمت بعض سفن المحيط الهندى باستخدامها الشراع الممتد بطول السفينة وقد مر هذا الشراع بعدة مراحل حتى وصل إلى صورته المثلثة فى السفن العربية (٨٠).

والشراع المثلث المعروف فى البحر المتوسط بالشراع اللاتينى ليس لاتينيًا على الإطلاق ، ذلك أن العرب هم الذين أدخلوه فى البحر المتوسط حيث كان الشراع المربع ذا الكفاءة الأقل أثناء هبوب الرياح ، بينما تميز الشراع المثلث من غيره بأنه يستثمر الرياح أفضل وأسرع(٨١).

ويذكر البعض أن الشراع المثلث الذى نقله العرب للبحر المتوسط عرف فى اللغات الأوروبية باسم عربى هو (الميزان) وكانت السفن المزدوجة الصارى المثلثة القلع مقصورًا على البحر المتوسط .

وميزة هذا النوع من السفن هى قدرته على الإبحار عكس اتجاه الريح ، فى حين لم يكن بوسع القرقور الضخم ذى الأشرعة المربعة الذى عرفه البحر المتوسط غير الإبحار فى اتجاه الريح . وقد اقتبس صناع السفن الأوروبيين الشراع اللاتينى وطوره ، وهو ما مكنهم فيما بعد من بناء سفن أكبر حجمًا وقادرة على عبور المحيط الأطلسى ، وعلى النهوض بغير ذلك من رحلات الاستكشاف العظيمة ، وقد تحققت أهم الإنجازات فيما بين عامى ١٤٠٠م ، ١٤٩٠م على يد صناع السفن البرتغاليين والإسبان فقد زادوا أولاً من عدد الصوارى فى مؤخرة السفن وبهذا زيد من مساحة الأشرعة بحيث باتت تكفى لدفع سفن كبيرة الحجم نسبيًا (٨٢).

وسائل الاتصال :

استخدم الحمام الزاجل على السفن الإسلامية كوسيلة اتصال سريع بين مختلف وحدات الأسطول أو مع القيادة العامة في البر ، فكان يطير لمسافات بعيدة يحمل الأخبار . كذلك كان ضمن معدات أسطول صقلية أسراب من الحمام للاتصال السريع (٨٣).

أنواع السفن الإسلامية :

اختلف شكل السفن الإسلامية من بحر لآخر ، فسفن البحر الأحمر مثلاً تختلف عن سفن البحر المتوسط وأيضًا عن سفن المحيط الهندى . فسفن البحر المتوسط ذات مسامير لذلك سميت بالمسمارية ، أم سفن البحر الأحمر فكانت تخاط بالألياف خوفًا من أن يأكل المسامير أو الخوف من جبال المغناطيس - كما اعتقد البعض - التى قد تجذب السفن للقاع (٨٤). ولقد كان لاتساع التجارة فى العالم الإسلامى فى عصر الازدهار علاوة على الصدام البحرى مع الغرب المسيحى أثره فى ظهور أنواع عديدة من السفن الإسلامية من حيث الشكل والحجم والتشغيل . ويلغ من تفنن العرب فى صناعة السفن أنهم كانوا يصنعون منها عشرات الأنواع وقد أطلق على كل منها اسم معين يختلف باختلاف حجمها وشكلها وطريقة صنعها والغرض الذى تصنع من أجله والمناطق التى تستخدم فيها .

وامتد أثر ذلك الفكر الهندسى فى العصر الحديث (٨٥)، حيث اقتبس هذا الفن الهندسى البحرى الإسلامى فى تصميم وتشغيل هذه السفن وطبقها فى السفن الحديثة نذكر بعضًا منها :

١ - سفن البحرجة : RO/RO (٨٦).

عرف هذا النوع من السفن فى العصر الإسلامى باسم : " الطريدة " ، وجمعها طرايد وطرائد وطرادات . وقد وصفها الزبيدى فقال : " الطراد ، سفينة صغيرة سريعة السير والمجرى والعامة تقول (تطريدة) وقد وضعها (النويرى السكندرى) فى قائمة السفن التى تستعمل فى البحر المتوسط ، وأضاف جديدا فى وصفها حين قال : " وأما الطرايد فإنها مفتوحة المواخير ، أى المؤخرة ، بأبواب تفتح وتغلق معتدة لحمل الخيل بسبب الحرب " (٨٧).

كما وصفها ابن بطوطة قبله بقوله : " ... وكان عندنا طريدتان مفتوحتى المواخير فيها الخيل بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرج ويخرج ... إلخ " (٨٨).

ويضعها ، ابن منكلى ، فى قائمة مراكب البحر المتوسط . ويذكر ابن مماتى : " أنها سفينة برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً . كما يذكر ابن واصل أن الطريدة كانت تحمل إلى جانب الخيل راكبين " (أى مترجلين) ويحدد ابن منكلى حمولة الطريدة بثمانين فرساً (٨٩).

وكانت سبتة فى أيام السلطان أبى الحسن المرينى مركزاً لبناء وإصلاح الطريدة ، (شكل ١٠) ومعنى ذلك أن هذا النوع من السفن عرفه الغرب والأندلس الإسلاميين ، ويؤكد الدكتور العبادى أن الطريدة كانت تستعمل فى المغرب الإسلامى والأندلس لتكون هى سفينة القائد الأعلى فى الأسطول الحربى . ويستدل من النصوص أن الطريدة لم تستعمل إلا فى نقل الخيول والفرسان فحسب ، أى أنها لا تشارك فى القتال الذى قد يدور فى البحر ، وجواز استعمال الناس لها فى أسفارهم البحرية مع ما تحمله من أمتعتهم ، فهى أشبه بالسفن التجارية التى قد تنقلب إلى نوع من المراكب الحربية المقاتلة فى وقت الحاجة (٩٠).

أما السفن الأوروبية التى استخدمت فى نقل الصليبيين - فى العصور الوسطى - فكانت تتسع الواحدة منها لثمانمائة شخص ، وكانت بعض السفن تجهز لنقل الجياد ، وكانت هذه تدخل السفينة من خلال فتحات فى جانبى السفينة ثم تعلق الجياد بأحزمة حول بطونها فى الأماكن المعدة لها . وكان الغرض من ذلك إتاحة الفرص للجياد لتحريك قوائمها وتنشيط الدورة الدموية فى أجسامها خلال تلك الرحلة الطويلة . وكان الفراغ المخصص لكل جواد هو ٧٦,٥ سنتيمتر (٩١).

وبعد ذلك اقتبس الأوروبيون من المسلمين سفن الطريدة فى العصور الوسطى (شكل ١١) واشتقوا اسمها من العربية فسموه بالإسبانية Tarida وفى الإيطالية : Tartan وفى الفرنسية: Tartane وفى الإنجليزية : Tartan (٩٢).

٢ - سفن نقل الغلال **Bulk Carrier** :

عرف هذا النوع فى السفن الإسلامية باسم : " حمالة " وجمعها " حمالات " وهى من المراكب المتخصصة فى حمل الغلال ، وكانت كذلك من ملحقات الأسطول الحربى مخصص لنقل مؤنة الجيش وزواده والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول . ويذكر ، أبو شامة ، ضخامة هذا النوع من السفن الذى يسع الواحد منها نحو ١٢٥٠ رجلاً (٩٣) أى أن هذا النوع من السفن يندرج أيضاً تحت بند " سفن الإمداد والتموين " (Supply Vessels).

٣ – سفن الروافد Feeder Vessels :

يعرف فى السفن الإسلامية باسم : قياسة وجمعها قياسات وقيايس ، وهى من سفن النقل والشحن النيلية وكانت القياسة تنقل البضائع من السفن الراسية فى الموانى إلى داخل البلاد عن طريق النيل (٩٤) . استفاد مهندسو السفن من هذه الفكرة وطبقوها على سفن صغيرة تعرف في العالم البحرى اليوم باسم سفن الروافد وهى تنقل البضائع من السفن العملاقة ذات الغاطس الكبير وتدخل إلى الموانى ومصبات الأنهار حيث يسمح لها غاطسها البسيط بالإبحار فيها .

٤ – سفن نقل الركاب Passenger Vessels :

ويطلق عليها اسم جاكر أو الذهبية والجاكر نوع من السفن المستعملة فى المحيط الهندى لنقل المسافرين ، وتزود عادة بالمقاتلة لحماية ركابه من هجمات لصوص البحر (القراصنة) ، وقد ذكره ابن بطوطة فى معرض كلامه عن سلطان قندهار بالهند بقوله : " وكان فيه خمسون رامياً وخمسون بين المقاتلة الجشية وهم زعماء هذا البحر " (٩٥).

٥ – سفن نقل الحيوانات Cattle Carriers :

وهى سفن متخصصة في نقل الحيوانات مثل الجمال والخيول وما إليها ، فمثلاً السفينة التى تنقل الجمال يطلق عليها اسم (جميلة) وهى من أنواع الزوارق الكبيرة ذات مؤخرة مربعة وهناك نوع من السفن تسمى : (قربلة وقربيلة) وتنقل الخيول وتسمى بنفس الاسم فى الإسبانية Carabla وبالفرنسية Caravella وتفسر المعاجم الفرنسية هذا النوع بأنه من السفن التركية أو الإيطالية أو الإسبانية أو البرتغالية وله أربعة صوارى وأشرع لاتينية (أى مثلثة) وتضيف هذا المعاجم أن كولومبس اكتشف أمريكا بأربعة من هذه المراكب(٩٦) .

٦ – سفن النزهة أو السياحة : Cruise Vessels :

سميت هذه السفن بأسماء متعددة مثل : الأهورة والزلال والحراقة والطيار . فقد استعملت الأهورة فى النزهات البحرية للأمراء وعند سيرها تحفها مراكب فيها الأتباع والندماء وأصحاف القصف واللهو (٩٧) . أما سفن (الزلال) وجمعها (زلالات) فهى نوع من السفن العراقية النهرية كانت معروفة فى بغداد أيام الخلفاء وكانت تستخدم فى النزهات النهرية والملاهى ولسماع الغناء (٩٨).

٧ - المعديات أو العبارات Ferries :

وقد كانت تسمى (شختور) أو (شختورة) وجمعها (شخاتير) وهى من المراكب النيلية التي استعملت في عبور الناس للنيل (من الشط للشط الآخر) كما يطلق عليها اسم : (المعادى) ، وأيضاً نجد (المعبر) وهى نوع من السفن الصغيرة يعبر على ظهرها العساكر من شاطىء لآخر أو من مكان لآخر زمن الحرب (٩٩).

٨ - السفن الحربية War Ships :

تنوعت أشكالها وأحجامها ، وجهزت بمعدات القتال المختلفة حسب الغرض الذى بنيت من أجله ولقد بلغ الصناع المسلمون ذروة الإتقان فى تشييد السفن الحربية الكبرى : كالشوانى والحراريق والبطس والبوارج والقراقير والشلنديات والغراب وغيرها ، وكانوا يتخذون فيها الأبراج العظيمة ويشحنونها بالأزواد والأسلحة وغيرها من أدوات الحرب ، وتحمل آلاف من المقاتلين وتجعل على طبقات ، يخصص كل طبقة منها لفئة من الجند (١٠٠).

٩ - السفن الفارغة والسفن المحملة :

تهتم الموانى البحرية والممرات الملاحية فى الوقت الحاضر بتعريف حالة السفينة عند دخولها الميناء فارغة (IN Ballast) أى لا تحمل أية شحنة ، أو محملة : Looded لتحديد فئة الرسوم عليها . ونجد نفس الأمر بالنسبة للسفن الإسلامية ، فقد أطلق اسم : " الخن أو الجراب " على السفينة الفارغة ، واسم " غامد " أو " آمد " أو " غامدة " و " آمدة " على السفينة المحملة .

خامساً : بعض مظاهر الاثر اللغوى العربي على اللغات الاوروبية فى فنون وعلوم البحار :

عند دراسة اللغات الأوروبية نجد العديد من الكلمات العربية بين مفرداتها وبالأخص فى الألفاظ البحرية ومصطلحات فى الملاحة وفى العلوم الجغرافية والفلكية وأسماء السفن إلى غير ذلك من العلوم بالفنون التى أبدعها المسلمون فى العصور الوسطى . وكم نحن بحاجة إلى "معجم لغوى حضارى " لمثل هذه الكلمات العربية التى اقتبسها الأوروبيون ، فهى أوثق دليل على مكانة الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى . وسأذكر هنا بعض الأمثلة فقط لهذه الكلمات :

* كلمة طن : (Ton) وهى وحدة قياس حمولة السفينة ، وجاءت هذه الكلمة من الكلمة العربية (دَن) وجمعها (دِنان) وهو وعاء ضخم للخمر ونحوها ، ويعرف الدن بأنه برميل

النبيذ . وكانت سعة السفن فيما مضى تقاس بمقدرتها على حمل عدد محدد من الدنان ، وقد تحورت الكلمة فى اللغات الأوروبية إلى (طن) ، وهى كما نرى مشتقة من كلمة (دن) . فإذا كانت السفينة مثلاً تتسع لحمل ٥٠٠ برميل نبيذ ، قلنا أن حمولتها ٥٠٠ دن . وقد استخدم الدن (الطن) كوحدة لتسجيل سعة فراغات السفينة على أساس أن الدن (الطن) ١٠٠ قدم٣ أو ٢,٣٨ متر مكعب ودخلت هذه الكلمة كافة اللغات الأوروبية .

* القرقور : وهى السفينة الطويلة العظيمة وجمعها قراقير ، دخلت اللغة الإنجليزية باسم : Carrack والبرتغالية Carcora وبالإيطالية Carraca وبالفرنسية Carraque .

* الفلك : أو الفلوكة : بالإيطالية Feluca وبالفرنسية Failauque وبالألمانية Feluke وبالإنجليزية Falluca .

* الماعون : بالإيطالية Maonna وبالفرنسية Mahonne .

* الرمث : بالفرنسية Rames .

* الميزان : ويطلق على أحد قلوع السفينة وعلى الصارى الذى يركب عليه ، بالإيطالية Mezana وبالفرنسية Maisaine وبالألمانية Basahm .

* الشباك : بالإيطالية Schibecco وبالفرنسية Chebc .

* الأمراس : وهى جمع مرس وهى حبال السفينة ، وتسمى بالإيطالية ammassa وبالفرنسية amasse . ويقول العرب (أمر السفينة) أي ربطها بالمر وهو نوع من الحبال .

* أمير البحر : بالإنجليزية admiral .

ومن أسماء الرياح وما يتصل بها مثل : السموم والرياح الموسمية ومن مصطلحات التجارة البحرية مثل كلمة العوار والحوالة والوصل والنولون (النول) ومن مصطلحات فن الملاحة مثل: الهول والرصف وكلا (أى رسا) ومنها المقلا أى المرسى ومن النجوم الملاحية مثل : الثور والرجل والمرقب والمرفق والحمل وفم الحوت والدب والذنب وابط الجوزاء وآخر النهر والديران والقائد والفايس والطائر .. إلخ كلها دخلت اللغات الأوروبية بنفس منطوقها باللغة العربية .

كشف الطريق البحرى إلى الهند :

بذلت البرتغال قصارى جهدها للتعرف على علوم العرب الملاحية والفلكية و الإفادة منها قبل أن يقدموا على مغامرتهم الملاحية الكبرى بالدوران حول إفريقيا ، وقد سبق الحديث عن إسهامات العرب والمسلمين فى كافة المجالات الفكرية والحضارية المرتبطة بالملاحة البحرية .

وتجدر الإشارة إلى دور اليهود فى إسبانيا فى عملية نقل التراث الفكرى الإسلامى للبرتغال ، ففى عام ١٤٩٢م وهو نهاية حكم المسلمين فى الأندلس ، صدر مرسوم بطرد اليهود من إسبانيا فشرد أكثر من مائة وخمسون ألف يهودى فى حين اعتنق خمسون ألف يهودى المسيحية (١٠٢).

وقد توجه يهود إسبانيا إلى البرتغال وأخذوا معهم علوم المسلمين الملاحية وجداولهم الفلكية وكانوا قد نقلوها من العربية إلى العبرية واحتفظوا لأنفسهم بأسرارها ، ومن بين هذه العلوم علم " المرشدات الملاحية " والخارطات المعروفة باسم " البروتولانات " وكانت مدرسة قشتالة تعد من المدارس الرائدة فى هذا العلم (١٠٣). كذلك لعب التجار اليهود دوراً هاماً فى نقل المعلومات العربية إلى البرتغال منذ أمد بعيد . فيحدثنا ابن خرداذبة (٨٤٦م) عن التجار اليهود الرذانية الذين كانوا يعيشون فى الأندلس ويتكلمون اللغات : العربية والفارسية والإفرنجية والصقلبية ، ويقومون برحلات بين المشرق والمغرب لهذا الغرض " براً وبحراً "(١٠٤). أضف إلى ذلك دورهم فى ترجمة العديد من الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية .

كذلك نجد من هؤلاء الجواسيس اليهود المنجورين من استطاع الحصول على خارطات عربية من المحيط الهندى وقدمها للبرتغال . فمن الثابت أن بعثة من هؤلاء التجار البرتغال وعلى رأسهم الفونسو دى بايفا : (Alfonso De Paiva) و بيرو دى كوفيلهام : (Pero de cavlham) ذهبوا إلى مصر سراً .

وسافر من القلزم إلى عدن على إحدى المراكب العربية ، ويقال أنهم أخذوا مركباً عربياً من عدن بعد أن تظاهروا بالإسلام ووصلوا إلى الهند قبل فاسكو دا جاما بعشر سنوات ، حيث زار كوفيلهام قاليقوت و جوا ، ومن هناك عاد إلى سفالة على ساحل إفريقيا الشرقى (على خط عرض ٢٠ْ جنوبياً) وعرف بذلك سر بلاد التوابل فى هذه الرحلة ، التى كان قد استقى المعلومات عنها من مصر قبل رحيله . ويقال أن كوفيلهام كان خبيراً بأغلب لغات الشرق . وعند عودته من هذه الرحلة إلى مصر ، علم بموت صديقه دى بايفا والتقى بالقاهرة بيهوديين آخرين هما : الحاخام إبراهام دى بيا ويوسف لاميجو ، وكانا هما أيضاً فى مهمة سرية خاصة من البرتغال ، لابد أنها كانت للتجسس وجمع المعلومات . وقد أبحر دى كوفيلهام مرة أخرى مع الحاخام ويوسف لاميجو إلى هرمز ومن هناك تفرقا . وقد استعان دى كوفيلهام فى هذه الرحلة بكتاب ابن بطوطة ثم ذهب من هرمز إلى زيلع ومنها إلي الحبشة . وتمكن من

العودة إلى مصر ثم إلى البرتغال . وقد أحضر معه فى هذه الرحلة خارطات ملاحية عربية من المحيط الهندى (١٠٥) . كذلك من بين الذين ذهبوا إلى لشبونة رجل يدعى " مارتن بهايم " Martin Behaim وكان خبيراً بالجداول الفلكية والملاحية وأسس فى لشبونة مدرسة للرياضيات والفلك عرفت فى ذلك الوقت باسم " الجونتا " Junta وقد ساعدت هذه الجماعة على إمداد فاسكو دا جاما فيما بعد بالجداول الفلكية الخاصة بالملاحة حول إفريقيا (١٠٦).

المعهد البحرى فى ساجرس Sagres :

أقام الأمير هنرى الملاح فى عام ١٤١٨م أول معهد أبحاث جغرافى فى العالم فى راس سانت فنسنت فى البرتغال فى ساجرس ، وبنى قلعة ومرصداً وقصراً ومبانى لحفظ الخرائط والمخطوطات ومساكن للمدرسين الذين استعان بهم وكانوا من الأقطار التى تقع على حوض البحر المتوسط ، بعضهم مسلمون وبعضهم يهود وإيطاليون ، ذلك أن الأمير هنرى قد فتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال والذهب والعاج والعبيد التى يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربى لإفريقيا ، فعزم على كشف تلك البلاد وضمها للبرتغال (١٠٧).

وأصبح لدى البرتغاليين صورة واضحة عن الطريق البحرى للهند ، فالمحيط الأطلسى متصل بالمحيط الهندى ، وهى حقيقة أكدها الجغرافيون المسلمون من قبل (البيرونى والمراكشى وابن خلدون) ، علاوة على المعلومات التى حصلوا عليها من الجواسيس اليهود ، كما سبق ذكره ، فقامت الحملات البرتغالية تكشف الساحل الغربى لإفريقيا فى مراحل متعاقبة (١٠٨). وقد ذكر العلامة الإيطالى (فرامورو) فى مصوره الجغرافى الذى وضعه عام ١٤٥٧م أن ملاحًا عربيًا أبحر حوالى سنة ١٤٢٠م من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر فى المحيط الأطلسى (١٠٩).

وفى مذكرات فاسكو دا جاما نجده يعترف بتقدم المعارف البحرية للملاحين العرب الذين قابلهم على شواطىء إفريقيا الشرقية وبدقة الآلات البحرية التى كانوا يستخدمونها وإفادته منها ، وأنه أرسل بعض هذه الآلات البحرية والمخطوطات العربية التى حصل عليها من إحدى السفن إلى الملك (مانويل) البرتغالى (١١٠).

أما المؤرخ البرتغالى ج . دى باروش (١١١) فقد ذكر أن فاسكو دى جاما التقى سنة ١٤٩٨م فى ميناء ماليندى (١١٢) بملاح مسلم يدعى المعلم كانا أو كاناكا (١١٣) وجد معه عدداً كبيراً من الخرائط والآلات البحرية . كما دهش داجاما لمعلومات الربان المسلم خاصة بعد أن

أطلعه على خرائط وآلات عربية تستعمل في رصد النجوم ، وسرعان ما أيقن فاسكو دا جاما أنه قد عثر في شخص الربان المسلم على كنز ثمين مما دفعه إلى الإبحار فوراً إلى الهند دون تباطؤ - يوم ٢٤ أبريل ١٤٩٨ - فوصل كلكتا بعد ٢٢ يوماً دون عناء . ومن المعروف أن فاسكو دا جاما لم يترك مذكرات لرحلته بخط يده ، وقد أرّخ لهذه الرحلة الكتاب البرتغال القدامي أمثال : لوبيز كاستنهيدا وخوا دي باروش Joa de Barros السابق ذكره . ومن المعلوم أن زلزالاً أصاب البرتغال في عام ١٧٥٥م ودمر جانباً كبيراً من قصر الهند في برشلونة وفقدت بسببه كثير من الوثائق الأصلية والخرائط التي كانت محفوظة في أرشيف المستعمرات البرتغالية . ومن هنا جاء اختلاف الروايات حول تفاصيل رحلة دا جاما الأولى إلى الهند ، وحول اسم الربان الذى قاده إليها (١١٤).

كشف العالم الجديد :

إن مبدأ كروية الأرض - السابق الإشارة إليه - والذى رسخه الفكر الجغرافى الإسلامى داحضاً به النظريات الأسطورية اللاهوتية للكون والأرض ، هو المبدأ الذى لم يكن من الممكن كشف العالم الجديد بدونه . فقد شهد القرن الرابع الهجرى بروز هذه النظرية في الأندلس على يد أبي عبيدة مسلم البلنسي (من أهل بلنسية) في شرق الأندلس (١١٥).

وكان استيلاء المسيحيين علي طليطلة عام ١٠٨٥م قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية وأبقى على الاعتقاد بكروية الأرض (١١٦).

وبالنسبة للنشاط الإسلامي في المحيط الأطلسي نجد أن السفن الإسلامية قد أبحرت في مياه المحيط الأطلسي ، فقد حدث بعد أن نزل أهل اسكندناوة في إسبانيا عام ٢٢٩هـ (٨٤٤م) أن كانت الأساطيل الأموية تجوب شواطىء الأطلسي وربما بلغت خليج بسكاية ، وفي سنة ٩٦٦م هاجم القراصنة الدانمركيون ساحل إسبانيا عند لشبونة وقصر أبي دانس فلقيهم الأسطول الأموى وهزمهم عند شلطيش . وفي عام ٩٩٧م جاء الأسطول بجند المنصور المشاة من ميناء الأطلسي إلى برتغال بالبحر (١١٧).

كذلك نجد رحلة قام بها يحيي الغزال إلى بلاط " ملك اسكندناوة " بعد سنة ٨٤٤م(١١٨) ونقرأ أيضاً عن خشخاش القرطبي ، الذى أقلع على متن سفن في البحر المحيط وعاد بغنائم ثمينة وأيضاً عن مغامرى لشبونة " المغررين " وقد سمى شارع باسمهم في مسقط رأسهم(١١٩). كذلك خبراً عن قيام السفن الأندلسية بصيد الحيتان في جوار إيرلندا (١٢٠).

وتذكر دائرة المعارف الفرنسية صراحة أن كولومبس اعتمد على الخرائط التى وضعها الجغرافيون المسلمون فى رحلته التى أوصلته إلى العالم الجديد (١٢١).

ويذكر البعض أن طبيب فلورنسي يدعى باولو توسكانيلى قد بعث بخطاب فى عام ١٤٧٤م لملك البرتغال " ألفونسو الخامس " يشير عليه بأنه يمكن اكتشاف طريق أقصر للهند من الطريق حول إفريقيا ، وذلك بالسفر بحراً لمسافة ٥٠٠٠ ميل غرباً . وكتب كولومبس إلى توسكانيلى وتلقى منه رداً مشجعاً ونضجت الفكرة فى ذهنه .

بعض الدراسات الحديثة التى تؤكد سبق العرب للوصل إلى العالم الجديد:

نشرت مجلة " النيوزويك " الأمريكية فى عددها الصادر فى أبريل ١٩٦٠م ، أن أمريكا كانت معروفة للعرب ، وأن الوثائق التى عثر عليها تثبت أن العرب وصلوا قبل سنة ١١٠٠م إلى عدة مواضع على الساحل الأمريكى ولا غرابة فى ذلك فإن المصادر العربية تحفظ لنا عدة محاولات إسلامية جرت للوصول إلى أمريكا منها محاولة خشخاش والفتية المغررين - السابق ذكرها .

وكثير من المفكرين العرب المحدثون والمعاصرون يؤيدون فكرة وصول العرب لأمريكا قبل كولومبس ويقولون أن كشف كولومبس لأمريكا كان على هدى من معلومات العرب السابقة ومغامرات بعضهم . وقد مال بعض الباحثين الأجانب إلى احتضان هذا الرأى . فالعالم الفرنسى " جوتيه " يقرر أن تحقيق الدوران حول إفريقيا بواسطة فاسكو دا جاما وكشف أمريكا على يد كولومبس كان متعذراً بدون ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب ، وأن هذين الكشفين العظيمين تما بعقول العرب ومواردهم وأشخاصهم تحت إمرة النصارى (١٢٣) . ويميل الدكتور زكى محمد حسن إلى الاعتقاد بأن قصة هؤلاء الأخوة لم تكن مجهولة فى العصور الوسطى ولعل كولومبس كان يعرفها ويعرف قصصاً أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضة (١٢٤).

أما عباس محمود العقاد فيرى أنه من الخرائط المرسومة والآراء النظرية التى نقلت عن العرب تلقى كولومبس صورته عن الكرة الأرضية (١٢٥) . ولكن العقاد يقف من قصة الأخوة المغررين موقفاً آخر ، حيث يشكك فيها ويعتبرها أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك (١٢٦).

وقد كتب الدكتور جيفرس الأستاذ بجامعة " ويتواتر ستراند " الأمريكية من أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف كولومبس بنحو ثلاثة قرون أو أربعة ، مستنداً إلى أن المزروعات الإفريقية دخلت إلى أمريكا على يد العرب (١٢٧).

كذلك أكد المؤرخ كوندى فى إشارات له ضمن مؤلفاته أن الأسطول الإسلامى أبحر فى القرن الرابع الهجرى من ميناء لشبونة لكشف جزر (أسورس) وبعض جزر الأنتيل ، فكان أول من مزق الحجب عن المناطق المجهولة فى المحيط الأطلسى . وقال فتزلر الألمانى : " إن العرب قاموا برحلات بحرية متعددة قبل البرتغاليين لا لكشف سواحل إفريقيا الغربية فحسب بل للولوج فى البحر أيضاً مع العلم بأن الانتشار الإسلامى فى إفريقيا بلغ غايته القصوى فى القرن الثالث الهجرى وامتد جنوبياً فى غرب القارة إلى منديجو " (١٢٨).

ابن الوردى(١٢٩) يصف أمريكا قبل اكتشافها :

عاش ابن الوردى قبل كولومبس بفترة وله كتاب فى الجغرافيا الوصفية (مؤلف فى حلب سنة ٧١٥هـ / ١٣٣٥م) يذكر أنه يوجد وراء جزر الخالدات (أى كناريا) جزائر وصفها وصفاً يكاد ينطبق على أمريكا . ويغلب الظن أن كولومبس قد استلهم هذا الكتاب ، فقد انتشرت نسخ خطية كثيرة منه فى أوروبا منذ تأليفه ، ووجدت ٩ نسخ خطية منه فى المكتبة الوطنية بباريس وحدها . وفى هذا الصدد يقول ملطبرون فى جغرافيته : " ألف ابن الوردى كتاباً فى الجغرافيا أطنب فيه الكلام عن إفريقيا وبلاد العرب والشام ، ولكنه أوجز فيما يتعلق بأوروبا والهند وشمال آسيا " (١٣٠).

وكانت جغرافيا ابن الوردى معروفة فى أوروبا منذ وقت مبكر وليس من المستبعد أن يكون كولومبس قد اطلع عليها ودرس الخرائط الملحقة بها . وقد اعترف كولومبس نفسه بأن العرب فى مصنفات بعض علمائهم هم الذين أوعزوا إليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط . إذ أورد ذلك المؤرخ الفرنسى رونان فى كتابه : " ابن رشد ومذهبه " وقال أن كولومبس قد ترك رسالة بعد وفاته يقر فيها بذلك (١٣١).

هذا وقد أكد الدكتور هوى لزلى - أستاذ علم النباتات بجامعة بنسلفانيا - وهو من أصل صينى ، مستنداً فى بحثه إلى وثائق محفوظة فى الصين ويعود عهدها للقرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين أن المسلمين وصلوا إلى السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية من الطرف الغربى للعالم الإسلامى وبالتحديد من الدار البيضاء .

وقد توصل لهذا الرأى بعد أن أنفق ثمانية أعوام فى تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات فى شتى أنحاء العالم (١٣٢).

أيضاً جاء فى مجلة " الشرق " البرازيلية أن الدكتور " برزنيو مادوريا دوبينيو " أحد كبار المسؤولين ، قد وضع تقريراً رفعه إلى حكومته أشار فيه إلى وجود مسلمين برازيليين يقطنون مجاهل ولاية " باهيا " البرازيلية منذ زمن بعيد ويعرفون باسم " الوفائيين " أو قبيلة الوفاء وعددهم كبير ، ويقول الدكتور برزنيو أن هؤلاء المسلمين دخلوا البرازيل منذ قرون قادمين إليها من إفريقيا ومن المحتمل أن يكون مسلمو المكسيك والبرازيل السابق ذكرهم من المسلمين الذين انطلقوا فى القرن الرابع الهجرى فى أكثر من مائة سفينة كشفية عبر المحيط الأطلسى غرباً ولم تعد . وقد يكون بعضها قد وصل إلى أمريكا وآثروا سكناها .

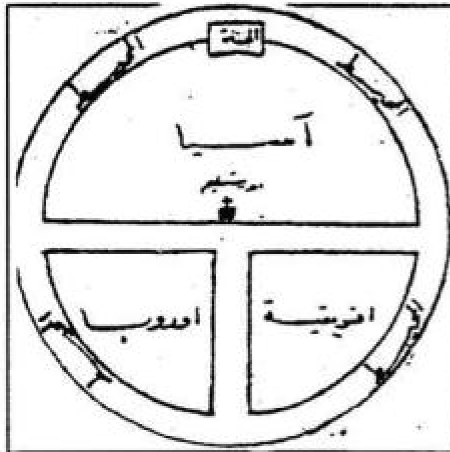
وذكر كثير من الباحثين وجود مستعمرات عربية فى إفريقيا بين سنتى ١١٥٠ - ١٢٠٠م وأن سبب وجود هذه المستعمرات يرجع إلى الانتشار العربى فى إفريقيا ، الذى بلغ غايته القصوى فى القرن التاسع الميلادى وامتد جنوباً فى غرب القارة إلى منيجو ومنها إلى (مشوكان) على خليج المكسيك (١٣٣).

وقد أيد هذه النظرية كل من الدكتور (لن شينج ينج) أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد ، والدكتور " ريتشارد ودلف " الذى قال : " الآن ينبغى على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم وليبدأوا من هذه المنطقة " ومما يؤكد هذه الدراسات وجود نبات البطاطا فى جزر الكاريبى حين وصل كولومبس وهى زراعة إفريقية الأصل . كذلك وجود زراعة الذرة واليوكا فى إفريقيا قبل مولد كولومبس بكثير وهما زراعتان معروفتان وأن القلقشندى الذى كتب صبح الأعشى قبل قرن من كولومبس يذكر عن أهل تكرور قوله : "وعندهم الذرة وهى أكثر حبوبهم " (١٣٤).

أضف إلى ذلك اكتشاف جماجم ترتبط بالمجموعة الحامية فى بعض كهوف جزر بهاما وتعود لأكثر من عشر قرون .



شكل رقم (١)
معاهد توردسيلاس سنة ١٤٩٤م
نقلاً عن : د. محمد محمود محمدين – الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١٩٤



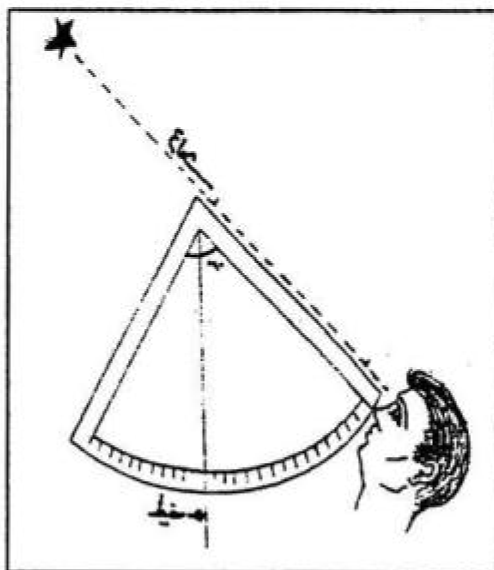
شكل رقم (٢)
خريطة العالم المعروفة باسم T in O
نقلاً عن : د. محمد محمود محمدين – الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١١٠



شكل رقم (٣) الإسطرلاب

نقلاً عن : غوستاف لوبون ، حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر

مكتبة الأسرة (٢٠٠٢) ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢



شكل رقم (٤)

الكوادرنت

نقلاً عن : د. أنور عبد العليم

المعارف البحرية ص ٢١٣ ، ٢١٤

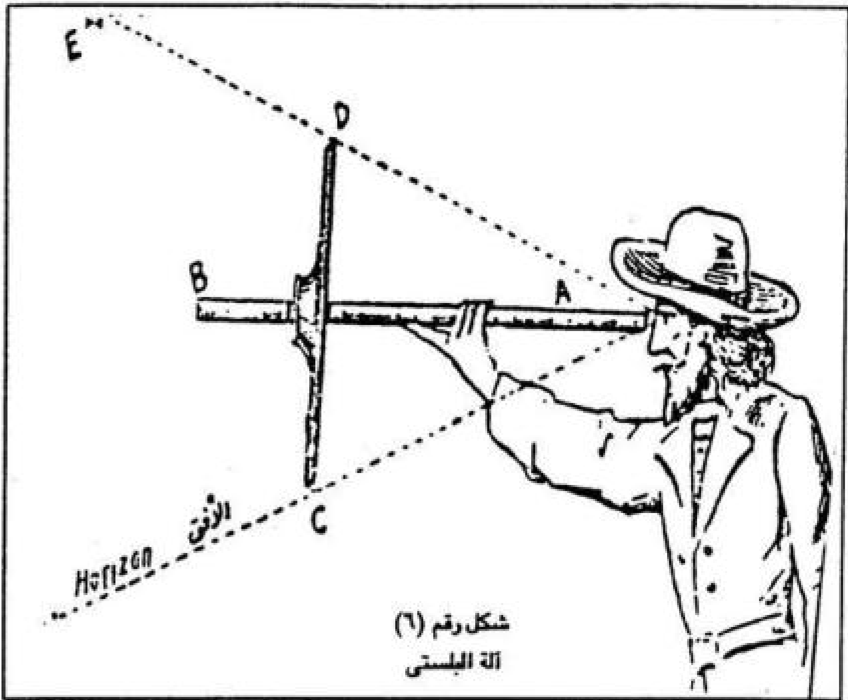


شكل رقم (٥)

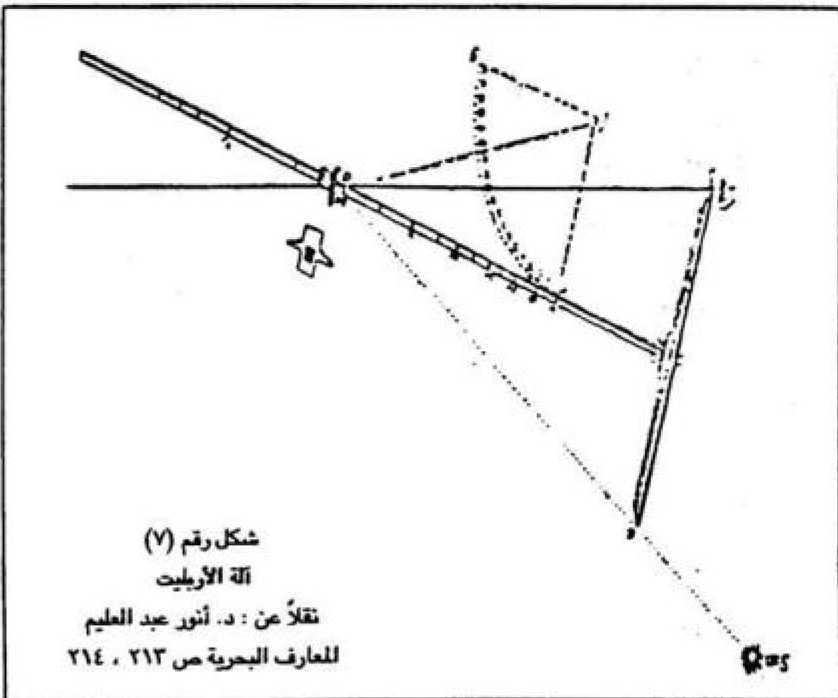
آلة الكمال

نقلاً عن : د. أنور عبد العليم

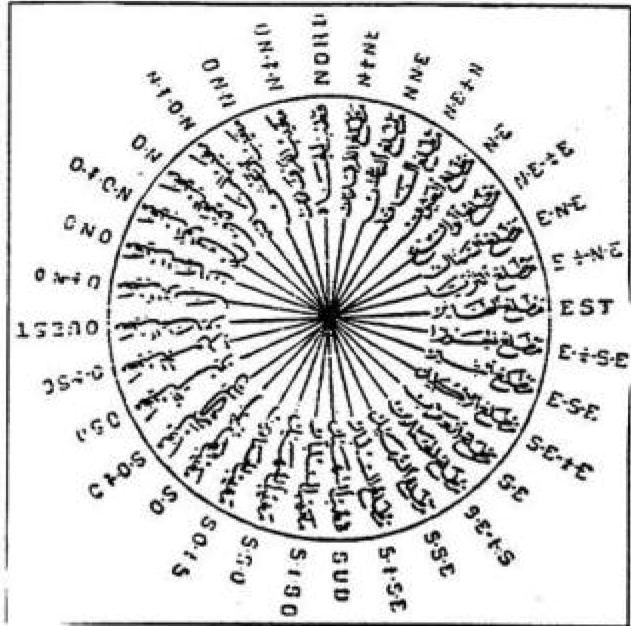
المعارف البحرية ص ٢١٣ ، ٢١٤



شكل رقم (٦)
آلة البلستى



شكل رقم (٧)
آلة الأربليت
نقلاً عن : د. أنور عبد العليم
المعارف البحرية ص ٢١٣ ، ٢١٤

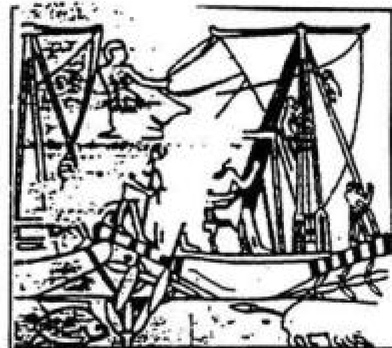


شكل رقم (٨)

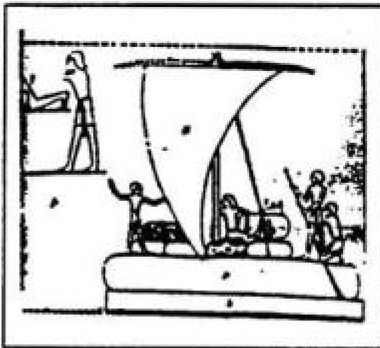
نقلاً عن : د. أنور عبد العليم

المعارف البحرية ص ٢٠٨

تقسيم وردة الرياح العربية إلى ٣٢ قسماً فلكياً ومقابل اتجاه كل قسم على البوصلة الملاحية



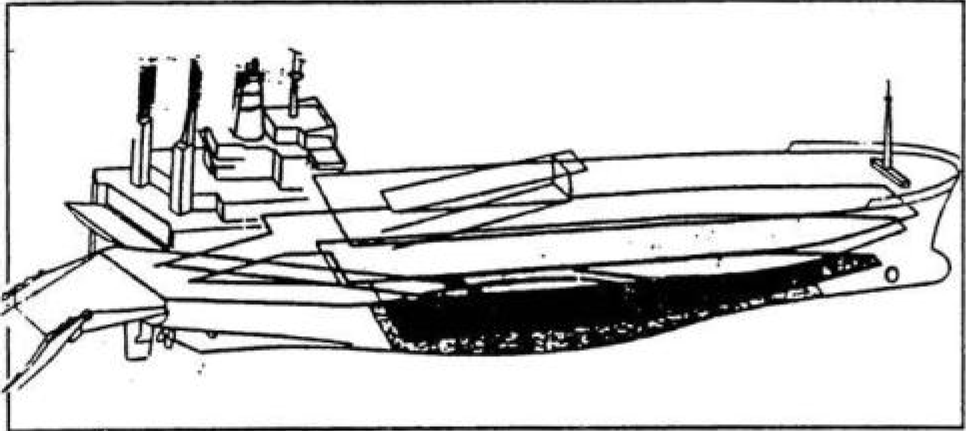
الشراع المصرى الذى على شكل مثلث مقلوب وقد ظهر فى رسوم السفن النيلية على الاثار المصرية



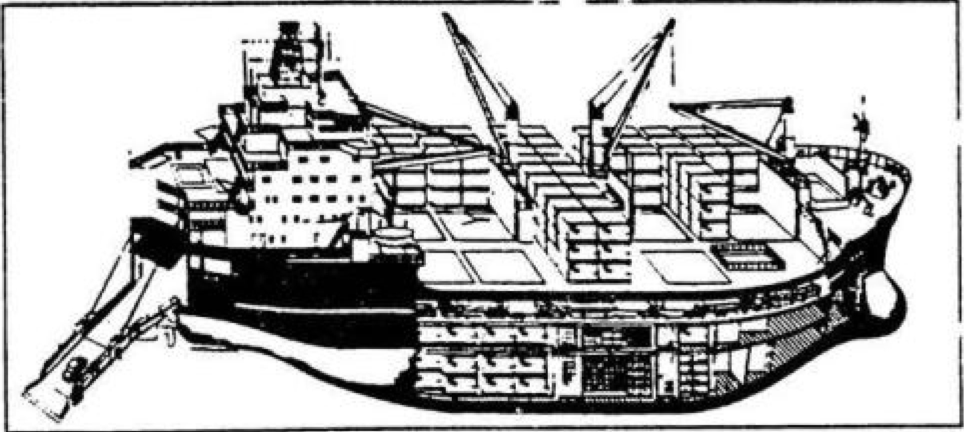
الشراع الذى على شكل مثلث مقلوب وقد استعاره الشعب الذى أطلق المصريون على بلاده الاسم "بونت" وهو من سكان الصومال ويبدو أن فكرة الشراع المثلث الذى ظهر بعد ذلك فى السفن العربية استوحيت فكرته من الشراع المصرى عن طريق هؤلاء "البونتيين".

شكل رقم (٩)

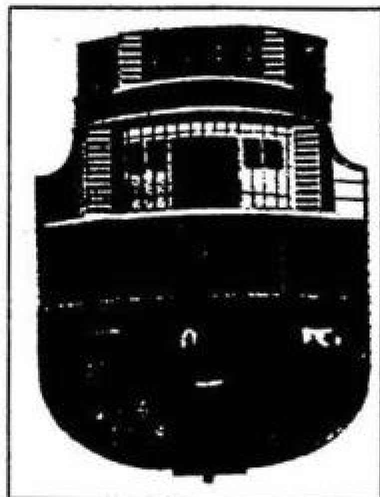
نقلاً عن د. عبد العليم عبد الحليم ، الأصول المصرية القديمة للسفن الإسلامية فى البحر الأحمر، بحث منشور فى مجلد اتحاد المؤرخين العرب عن: الحضارة الإسلامية وعن البحار (١٩٩٤م)، ص ٨٦



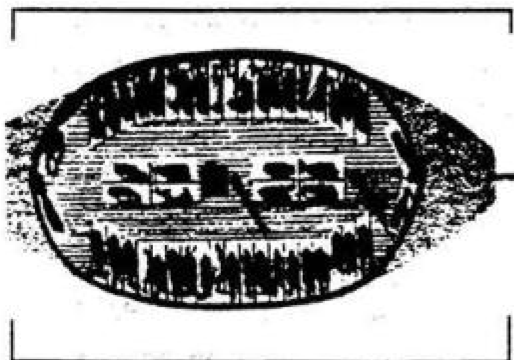
شكل رقم (١٠) ، سفينة تعرجة RO/RO
نقلاً عن مجلة : SEA TRADE عدد (مايو ١٩٩٠) ، ص ٩٥



نقلاً عن : جورجيو فينياتي
تاريخ السفن ، ترجمة أحمد الإدرفلي ، ص ٢٧ ، ٢٨



قطاع عرضى فى إحدى
سفن الحملات الصليبية



الطريقة التى كانت تصطف
بها الخيول فوق ظهر السفينة

شكل رقم (١١)
سفن بفتحات جانبية لنقل الخيل

الهوامش

١ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد ١٢ جزء ٢٣ ، ص ٥٢ .

٢ – راجع نص المرسوم في كتاب : بانيكار ، آسيا الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، دار المعارف ، ١٩٦٢م ، ص ٢٧ – ٢٨ .

3 - Parry , J.H, Europe and a wider world, London, 1966. p. 48 .

٤ – بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ص ص ٢٤ – ٢٥ .

٥ – جاري . ب . ناتشر ، الحمر والبيض والسود ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، عدد رقم (١٩١) ، ص ٤٥ .

٦ – د. نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ص ١٦١ – ١٨٥ .

٧ – توبي . أ. هف ، فجر العلم الحديث (الإسلام – الصين – الغرب) ، ط٢ ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم ٢٦٠ ، ترجمة د. محمد عصفور ، ص ٦٥ .

٨ – محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، وهو العصر الرابع من الكتاب : دولة الإسلام في الأندلس . مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٤ ، ١٩٨٧م ، ص ٤٣٩ .

٩ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع . الجزء الثالث عشر ، ص ٣٣٩ .

١٠ – د. أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ط١ الإسكندرية ١٩٦٨م ، ص ٢٤٦ : وانظر أيضاً : د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية وتطور الملاحة البحرية ، بحث منشور في مجلد : تاريخ البحرية المصرية . جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م ، ص ١٧١ .

١١ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية ، ص ١٧٢ .

١٢ – د. يسرى الجوهري ، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٧٦م ، ص ص ٦٨ – ٦٩ : وانظر الشكل رقم ٢ عن T-IN-O ، وانظر أيضاً د. محمد محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م ، ص ص ١٠٩ – ١١١ .

١٣ – د. محمد محمدين ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

١٤ – وهم كوكبة أثرت الفكر الجغرافي في العصور الوسطى ، نذكر بعضهم حسب الترتيب التاريخي : الخوارزمي ، سليمان السيرافي ، ابن خرداذبة ، ابن فضلان ، اليعقوبي ، البلخي ، البتاني ، الاصطخري ، المسعودي البكري ، ابن حوقل ، المقدسي ، الإدريسي ، ناصري خسرو ، أبو حامد الغرناطي ، الهروي ، ابن جبير ، ياقوت الحموي ، عبد اللطيف البغدادي ، ابن سعيد ، القزويني ، العبدري ، أبو الفدا ، ابن بطوطة ، ابن خلدون . راجع : مصطفى الشهابي ، الجغرافيون العرب .

١٥ – د. يسرى الجوهري ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٣٥ – ١٣٧ .

١٦ – د. محمد محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١٢٦ .

١٧ – جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، سلسلة مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م ، ص ٤٧٠ .

١٨ – د. يسرى الجوهرى ، الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ، ص ١١٠ .

١٩ – محيط الأرض = ٤٠٠٧٠كم .

٢٠ – كرونيلينو ، علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى . أستاذ بالجامعة المصرية وبجامعة بلرم بإيطاليا ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩٣م ، ص ٢٨٩ .

٢١ – كرونيلينو ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

٢٢ – كان الميل الإيطالى فى ذلك الوقت = ١٥٨٩ متراً فكان أصغر من الميل العربى بمقدار ٣٨٤ متراً فإذا ضربنا ١٥٨٩ × $\frac{٢}{٣}$ ٥٦ وجدنا أن طول الدرجة = ٨٩٧١٠٠٧ متراً وهذا المقدار أقل مما أرادته العرب بمقدار ٢٢كم . نيلينو ، المرجع السابق ، هامش رقم ٢٩٣ .

٢٣ – المرجع السابق ، ص ٢٩٣ : وانظر أيضاً : غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ و ص ٤٥٨ .

٢٤ – ليفى بروفنسال ، حضارة العرب ، ص ٤٦٢ .

٢٥ – د. محمد محمدين ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

٢٦ – د. أنور عبد العليم ، أحمد بن ماجد الملاح ، سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٣ ، القاهرة ، مارس ١٩٦٧م ، ص ٣٣ .

٢٧ – إبراهيم محمد الفحام ، فضل العرب فى ارتقاء المعارف البحرية ، ص ١٧ .

٢٨ – المرجع السابق ، ص ١٧ . ولمزيد من التفاصيل عن تطور الخرائط الملاحية عند الأوروبيين ، راجع : د. السيد حسين جلال . فضل المسلمين فى كشف الطريق البحرى للهند (١٤١٥ – ١٤٩٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية (العدد رقم ٥١٢) ، القاهرة ١٩٩٥م ، ص ص ٦٦ – ٦٩ .

٢٩ – د. السيد حسين جلال ، فضل المسلمين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩ .

٣٠ – (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) صدق الله العظيم ، الآية رقم ١٦ من سورة النحل .

٣١ – المرصد شكل من أشكال المؤسسات العلمية فى الإسلام ومن أهم المراصد مرصد مراغة فى المشرق علاوة على المراصد التى امتدت بطول العالم الإسلامى حتى الأندلس غرباً .

٣٢ – راجع فى آخر البحث (المصطلحات العربية البحرية والفلكية فى اللغات الأوربية) وراجع أيضاً كل من : الحضارة العربية ، ترجمة د. إبراهيم العدوى ومراجعة د. حسين مؤنس ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٦م ، العدد ٨٨ ، ص ١١٠ .

٣٣ – جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٩ .

٣٤ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٣٥ ، راجع ص ٧ من البحث عن آلات الرصد والقياس.

35 - Parry , op. Cit. p. 17 .

٣٦ – Ibid ولمزيد من التفاصيل عن دور اليهود في نقل العلوم الملاحية والفلكية عند العرب إلى البرتغال والإسبان ، راجع ص ١٨ ، ١٩ من البحث .

37 - Ibid .

٣٨ – انظر الشكل رقم (٣) .

٣٩ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ص ٣٢ – ٣٤ .

٤٠ – ول . ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع جزء ١٣ ، ص ص ١٨٢ – ١٨٣ .

٤١ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد ، ص ٣٤ .

٤٢ – انظر شكل رقم (٤) .

٤٣ – د. أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

٤٤ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية وتطور الملاحة المصرية في الفترة ما بين القرن التاسع والحادى عشر الميلادى ، بحث في كتاب تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤ ، ص ٢١٣ .

٤٥ – المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

٤٦ – المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

٤٧ – انظر شكل رقم (٥) .

٤٨ – المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

٤٩ – انظر شكل رقم (٦) .

٥٠ – انظر شكل رقم (٧) .

٥١ – المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

٥٢ – انظر شكل رقم (٨) .

٥٣ – وهى كلمة فارسية .

٥٤ – المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

٥٥ – المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

٥٦ – د. أنور عبد العليم ، بن ماجد الملاح ، ص ص ٣٩ – ٤٠ .

٥٧ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية ، ص ٢٠١ .

٥٨ – لفظ راهنامه في الواقع فارسي الأصل مشتق من كلمتى ، راه ، و ، نامه ، والأولى بمعنى طريق والثانية بمعنى كتاب أى ، كتاب الطريق ، ومعناه المرشد الذى يهتدى به الربابنة في البحر في معرفة المراسى وغيرها كالشعب ونحو ذلك . وقد شاع استعمال هذه الكلمات في اللغة العربية .

٥٩ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية ، ص ٢٠١ .

٦٠ - د. شوقى عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (٦٦١ - ١٤٩٨م) سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم (١٥١) ص ٦٨ .

61 - Parry, op. cit.p. 21 .

٦٢ - د. إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى ، سلسلة الألف كتاب الأول - القاهرة ١٩٦٦م ، ص ص ٦٦ - ٦٧ .

٦٣ - أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٦٤ - د. إبراهيم طرخان ، المسلمون فى أوربا ، ص ص ٧٤ - ٧٥ .

٦٥ - إبراهيم محمد الفحام ، فضل العرب فى ارتقاء المعارف البحرية . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، العدد ١١٠ ، ص ٢٧ .

٦٦ - المرجع السابق ، ص ص ٢٧ - ٢٨ .

٦٧ - ول . ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥ .

٦٨ - وجدت ٣ مدن بهذا الاسم : واحدة تقع فى إفريقيا قرب تونس الحالية ، والثانية والثالثة بالأندلس هما: قرطاجنة الجزيرة عند مدخل جبل طارق وقرطاجنة الخلفاء فى إقليم مرسية . راجع حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩م ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ : وراجع أيضًا : إبراهيم طرخان ، المسلمون فى أوربا ، ص ص ٦٤ - ٦٦ .

٦٩ - مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٨٢ .

٧٠ - أرشيبالد لويس ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

٧١ - راجع الشكل رقم (٩) .

٧٢ - د. عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الأصول المصرية القديمة للسفن الإسلامية فى البحر الأحمر ، من منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ندوة نوفمبر ١٩٩٣م ، مجلد عن الحضارة الإسلامية وعالم البحار ١٩٩٤م ، ص ص ٧٩ - ٨٠ .

٧٣ - أستاذ التاريخ البحرى بجامعة هارفارد .

74 - Parry, op. cit. p. 21 .

٧٥ - ج . فوريس ، تاريخ العلم والتكنولوجيا ، جـ١ سلسلة الألف كتاب ، ص ١٣٤ .

76 - Parry , op. cit., p. 21 .

77 - Ibid.

٧٨ - د. محمود على فهمى ، التنظيم البحرى الإسلامى فى شرق البحر المتوسط من القرن السابع حتى العاشر الميلادى ، ترجمة قاسم عبده . لبنان ١٩٨١م ، ص ١٣٢ .

٧٩ – د. شوقى عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة . مرجع سبق ذكره ، ص٥٥.

80 - K.M. Panikar, India and the Indian ocean London, 1980. p. 30 .

81 - Toussait, a., History of Indian ocean. London. 1970 , p. 59 .

٨٢ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، المجلد الثانى ، ترجمة : محمد عبد الهادى أبو ريدة ، دار الفكر العربى ، مدينة نصر ١٩٩٩ ، ص ٥٠٦ .

٨٣ – المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ، وراجع أيضًا : د. حسين مؤنس ، المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ سنة ١٩٥١ ، ص ١١٢ .

٨٤ – راجع تفاصيل هذا الموضوع فى د. سعاد ماهر ، البحرية الإسلامية ، ص ٣٦٨ : آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٢١٤ ، القزوينى ، عجائب المخلوقات ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

٨٥ – لمزيد من التفاصيل من أنواع السفن فى العصر الحديث ، راجع للمؤلف كتاب : السفينة وصناعة النقل البحرى ، دار المعارف ١٩٨٥م.

٨٦ – اختصار لكلمة : Roll on / Roll off أى الشحن والتفريغ بالعجل والدحرجة وليس عن طريق الأوناش : وهى من أحدث أنواع السفن وتتميز بسرعة الشحن والتفريغ فى الموانى وانظر شكل رقم (١٠) .

٨٧ – درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م ، ص ٨٩ .

٨٨ – رحلة ابن بطوطة ، جـ٤ ، ص ١٠٧ .

٨٩ – درويش النخيلى ، السفن الإسلامية ، ص ٨٩ .

٩٠ – درويش النخيلى ، السفن الإسلامية ، ص ٩٠ – ٩١ .

٩١ – جورجيو فينباتى ، تاريخ السفن ، ترجمة أحمد الأورفلى . الناشر : ادريتريد جينيف ، ١٩٧٦م ، ص ص ٢٦ – ٢٧ . وانظر شكل رقم (١١) .

٩٢ – درويش النخيلى ، السفن الإسلامية ، ص ٩٠ .

٩٣ – المرجع السابق ، ص ٤٠ .

٩٤ – المرجع السابق ، ص ٢١ .

٩٥ – المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

٩٧ – المرجع السابق ، ص ٧ .

٩٨ – المرجع السابق ، ص ٥٧ .

٩٩ – د.سعاد ماهر ، البحرية الإسلامية ، ص ٣٦٩ : د. أنور عبد العليم ، البحرية المصرية ، ص ١٢٦ .

١٠٠ – إبراهيم الفحام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ .

١٠١ – المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص ٣٦٤ ومختار الصحاح ، ص ٢١٢ باب الدال والقاموس المحيط للفيروزبادى جـ٣ ، فصل الدال باب النون : " وعاء ضخم للخمر ونحوها . وجمعها دنان ، والدنانة هى صناعة الدنان " . " الراقود العظيم وهو دن كبير عميق " .

١٠٢ – د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، جـ١ ، الطبعة الأولى ١٩٥٨م ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٥٢٩ .

١٠٣ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد ، ص ٤٤ .

١٠٤ – المرجع السابق ، ص ٤٢ .

105 - A.Kammerer, La Mer Rouge depuis l'entiqutie. Paris 1935. T.2.p. 43., cf. Parry, op. cit. p. 34 .

١٠٦ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٤٤ ، وراجع أيضًا د. السيد حسين جلال ، فضل المسلمين فى كشف الطريق البحرى للهند ، ص ١٧ .

١٠٧ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد التاسع عشر جزء ٢٣ ، ص ص ٥٠ – ٥٧ ; وراجع أيضًا : د. محمد محمود محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون ، ص ص ١٨٦ – ١٨٧ ، وكذلك فرجريف ، الجغرافيا والسيادة العالمية ، مرجع سبق ذكره ص ص ١١٩ – ١٢٠ .

١٠٨ – راجع بالتفصيل هذه المراحل الخمس التى بدأت من عام ١٤١٥ وانتهت فى عام ١٤٩٨ بالوصول إلى قاليقوط بالهند . وفى كتابنا : فضل المسلمين فى كشف الطريق البحرى للهند ، ص ص ١١١ – ١٣٥ .

١٠٩ – إبراهيم محمد الفحام ، فضل العرب فى ارتقاء المعارف البحرية ، ص ٤٨ .

١١٠ – المرجع السابق ، ص ٤٩ .

١١١ – فى كتابه آسيا البرتغالية ، راجع د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٤٨ .

١١٢ – يقع جنوب شمالى ممباسا ، بشاطىء إفريقيا الشرقى .

١١٣ – لفظ كانا أو كاناكا تعنى باللغة السنسكريتية " الحاسب " أو " المنجم " والمقصود هنا الخبير بالملاحة الفلكية . د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد ، ص ٤٩ .

١١٤ – المرجع السابق ، ص ص ٤٨ – ٤٩ ، وحول موضوع إرشاد أحمد بن ماجد لدى جاما ، راجع للمؤلف كتاب فضل المسلمين ، ص ص ١٣٧ – ١٥٤ .

١١٥ – د. عبد الحليم عويس ، دور العرب فى اكتشافات كولومبس ، مجلة الفجى ، ص ٥٧ .

١١٦ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ .

١١٧ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السادس ، ص ٣٠٧ .

١١٨ – وقد اختلف فى تحديد مكانها بين جتلند وإيرلنده . المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

١١٩ – المسعودى ، مروج الذهب جـ١ ، ص ٢٥٨ ، وراجع أيضًا : دائرة المعارف الإسلامية ، ص ٣٠٨ .

١٢٠ - القزويني ، عجائب المخلوقات جـ ٢ ، ص ٣٨٨ ، وتجدر الإشارة إلى أن العرب أطلقوا على المحيط الأطلسي اسم : بحر الظلمة أو الظلمات والبحر المحيط الأعظم والأوقيانوس . والبحر الغربي تمييزاً له عن البحر الشرقي .

١٢١ - ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الثاني عشر جـ٢٣ ، ص ص ١٢٦ - ١٣٠ .

١٢٢ - المرجع السابق ، ص ١٦١ .

١٢٣ - محمد كرد علي ، الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٢ ، وأيضًا : محمد عبد الغني حسن ، الجغرافيون العرب ، ص ١٦٥ .

١٢٤ - د. زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٥٠ .

١٢٥ - عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٤٧ .

١٢٦ - المرجع السابق ، ص ٥٣ .

١٢٧ - محمد عبد الغني حسن ، الشريف الإدريسي ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ .

١٢٨ - د. خالد عزب ، المسلمون واكتشاف الأمريكتين (بعد ٥٠٠ عام على اكتشاف الرسمي) دار الصحوة للنشر القاهرة ١٩٩٣ ، ص ص ٤٨ - ٤٩ .

١٢٩ - اسمه : سراج الدين أبو حفص عمر ، فقيه شافعي توفي في (سبتمبر ١٤٥٧م) وهو مؤلف كتاب : " خريدة العجائب وفريدة الغرائب " مصر ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ، ص ٤١٥ .

١٣٠ - ملطبرون ، الجغرافيا العمومية ، ص ١٤٤ ، ترجمة رفاعة الطهطاوي ، مصر ١٢٤٥هـ ، وراجع : إحسان جعفر ، ابن الوردي و سف أمريكا قبل اكتشافها مجلة الفيصل العدد ١٧٩ ، جمادى الأول ١٤١٢هـ (ديسمبر ١٩٩١) .

١٣١ - خالد عزب ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

١٣٢ - المرجع السابق ، ص ٧٧ .

١٣٣ - المرجع السابق ، ص ٧٦ .

١٣٤ - محمد رشيد الفيل ، أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، ص ٧ .

د. أحمد تونى عبد اللطيف (*)

الحياة الثقافية فى دولة سلاجقة الروم

مقدمة:

الحضارة بمعناها العام : تراث ونتاج مشترك بين الأمم المختلفة ، وبالطبع يقاس فضل كل منها بقدر ما أسهمت به فى هذا النتاج المشترك .

ولاشك فى أن الحضارة تجسيد للنشاط العقلى عند الإنسان ، وتاريخ الحضارة هو ذلك السجل لتطور هذا العقل ، ومدى فاعليته فى مختلف نواحى الحياة : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والإدارية ، والحربية ، والعمرانية .

فالحضارة إذن هى فعل تام متحرك ، مظهره أخذ وعطاء ، وباطنه تواصل بين القديم والحديث .

ومما لاشك فيه أن موقع الحضارة العربية الإسلامية من الحضارة العالمية واضح وجلى، فهى بسماتها الخاصة : كالشمولية ، والنزعة الإنسانية ، والنزعة العقلية ، والنزعة العلمية ، والشورى .. قد أضافت لبنة قوية فى صرح الحضارة العالمية ، مما حدا بأحد كتاب أوروبا (جوستاف لوبون) فى كتابه " حضارة العرب " أن يقول : " لقد اختبر العرب مسائل العلم وجربوها، وكانوا أول من أدرك هذا المنهج فى العالم، وظلوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً، وإذا قيل إن " بيكون" أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركنا المباحث العلمية الحديثة، فالإنصاف يقتضى بأن نعترف أن الفضل فى ذلك للعرب وحدهم" .

وتؤكد العالمة الألمانية " زيغريد هونكة Sigrid Hunke " هذا المعنى فسطرت كتاباً بعنوان " شمس العرب تسطع على الغرب " ضمنت فيه مباحث متعددة عن فضل العرب على حضارة الغرب .

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية دار العلوم بالمنيا .

ولقد اختص بحثنا هذا بكلماته البسيطة " الحياة الثقافية فى دولة سلاجقة الروم " تلك الدولة التى نشأت فى أرض آسيا الصغرى البيزنطية الثقافة ، المسيحية العقيدة .

وسلاجقة الروم هم فرع من الأتراك السلاجقة المتعددين كسلاجقة الشام ، والسلاجقة العظام بإيران والعراق ، وسلاجقة ركمان ، وهم أتراك اعتنقوا الإسلام على المذهب السنى .

ومما يجدر ذكره أن هذه الدولة اصطدمت بحكم وجودها فى آسيا الصغرى بالحملات الصليبية فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلادى وحاولت اجتياز أراضيها فنحدث الاحتكاك تأثيراً وتأثراً لا شك فيه .

ومن المعروف أن الحروب الصليبية تعد من المنافذ الحضارية التى انتقلت عبرها حضارة الشرق الإسلامى إلى أوروبا كغيرها من المنافذ .

ولقد ألمحت فى هذا البحث إلى دور سلاطين سلاجقة الروم فى إثراء الحياة الثقافية لبلادهم بما يلا يدع مجالاً للشك فى أنها إضافة إلى الحضارة العالمية لاسيما وبلادهم ممراً ثقافيًا بين الشرق والغرب .

وقد تمثل هذا الدور فى : تشييد المدارس نبراس العلم ومعاقل الثقافة كمدرسة "صيرجالى" وقره طاى Karatay وإينجة منارلى Inge Minareli والخاتونية ، وجيفتة منارلى Gifte Mi-nareli ، وكوك مدرسة وغيرها .

ولاشك أن هذه المدارس اضطلعت بدور كبير فى تقديم العلم إلى الطلاب الوافدين إلى تلك البلاد والذين حملوا معهم ثقافات بلادهم فأثروا وتأثروا ، أفادوا واستفادوا .

وإضافة إلى دور سلاطين سلاجقة الروم فى تشييد المدارس ، أكرموا وفادة العلماء الذين زاروا بلادهم ناقلين لها ومنها ثمرات العلم أمثال : السهروردى ت ٥٨٧هـ ، ومحيى الدين بن عربى ت ٦٣٨هـ ، وجلال الدين الرومى ت ٦٧٢هـ ، وسلطان ولد ت ٧١٢هـ ، وحسنون الرهاوى ت ٦٢٥هـ ، وابن كرابا ت ٦٣٢ هـ ، وابن الخطاب ت ٦٤٦هـ ، وتاج الدين الأرموى ت ٦٥٣هـ ، وسراج الدين الأرموى ت ٦٨٢هـ ، وصفى الدين الأرموى ت ٧١٥هـ .

فضلاً عن علماء كانوا من نتاج المنطقة مثل " صدر الدين القونوى ، ويونس إمره " .

وبنظرة سريعة على هذه الأسماء ومواطنها نلاحظ أنها جاءت من بلاد متنوعة محملة ثقافات بلادها فأفادت واستفادت ، وكان من نتاجها ظهور " صدر الدين القونوى " كثمرة لغرس محيى الدين بن عربى ، ويونس إمره كغرس لجلال الدين الرومى وولده سلطان ولد .

ولعل هذه الثقافات المتنوعة ما بين الفلسفة وعلم الكلام ، والتصوف ، والطب ، والرياضيات، والشعر ، تعد إضافة إلى حضارة سلاجقة الروم بصفة خاصة ، والحضارة الإنسانية بصفة عامة ،كدليل على الدور الإسلامي والعرب في هذه الحضارة .

الحياة الثقافية في دولة سلاجقة الروم:

لا نخطيء إذا قلنا أن الثقافة هي الوجه المشرق للدولة ، والتعبير الحقيقي عن واقعها الحضاري ، ولقد تنبه سلاطين " سلاجقة الروم " إلى تلك الحقيقة منذ أن وطئت أقدامهم آسيا الصغرى ، فهم يعلمون تمام العلم أنهم أقاموا دولتهم في بيئة بيزنطية الثقافة مسيحية العقيدة ومن هنا كان لابد لهم من التعبير عن واقعهم الحضاري الإسلامي داخل تلك البيئة البيزنطية ، فعملوا على نشر الثقافة في ربوع بلادهم - لاسيما الثقافتين العربية والفارسية عمادا الحضارة الإسلامية آنذاك - لإثبات وجودهم ، وتحقيق ذاتهم - ومما يؤيد هذا الاتجاه تشييدهم للمدارس ، وإكرامهم وفادة العلماء والمفكرين ، كما سيتضح ذلك من خلال تلك الدراسة .

أولاً : تشييد المدارس في بلاد سلاجقة الروم :

لا يخامرنا شك في أن المدارس نبراس العلم ، ومنار الثقافة الذي يبدد ظلمة الحياة ، وشعاع الفكر الذي يربط بين الماضي والحاضر ليصنع المستقبل ، ومن هذا المنطق فقد شيد سلاطين سلاجقة الروم المدارس في بلادهم لتكون أثراً ناطقاً على رقي دولتهم ثقافياً ، ودليلاً شاهداً على مواكبتها لركب الحضارة آنذاك .

ومن أشهر هذه المدارس التي يلمسها الدارس للحياة الثقافية في بلاد سلاجقة الروم ، مدرسة " صيرجالي " التي شيدت عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م بمدينة قونية في عهد السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني بن علاء الدين كيقباد الأول ، كما يتضح ذلك من نقش بمدخلها يقول نصه " رسم بعمارة هذه المدرسة المباركة في دولة السلطان الأعظم ظل الله في العالم غياث الدنيا والدين علاء الإسلام والمسلمين أبو الفتح كيخسرو بن كيقباد قسيم أمير المؤمنين الفقير إلى رحمة ربه بدر الدين بن مصلح أدام الله توفيقه ، وقفها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب أبي حنيفة النعمان سنة أربعين وستمائة " (١).

ويفهم من ذلك النص أن تلك المدرسة قد شيدت لتدريس المذهب الحنفى بمدينة قونية ، والجدير بالذكر أن ابن بطوطة[٢] فى رحلته قد أكد وجود هذا المذهب فى بلاد سلاجقة الروم إذ يقول عند زيارته لها " وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبى حنيفة " .

ونلاحظ أيضاً إلى جانب مدرسة (صيرجالى) بقونية مدرستين أخريين ، الأولى مدرسة قره طاى Karatay ويرجع تاريخ تشييدها إلى عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى، وقد سميت تلك المدرسة باسم بانيها (قره طاى بن عبد الله) والأخرى مدرسة إينجة منارلى Ince Minareli أى ذات المئذنة الرشيقة ، وقد شيدت هذه المدرسة عام ٦٥٦هـ/ ٢٥٨م فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس الثانى وأخيه ركن الدين قليج أرسلان الرابع ، ومشيدها كيلوك بن عبد الله Keluk b Abdl-la[٣].

كما نلاحظ بمدينة أرزن الروم المدرسة الخاتونية ، وتنسب هذه المدرسة التى شيدت فى عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م إلى ابنة السلطان علاء الدين كيقباد الثانى كما تقول بذلك رايس Rice[٤].

وفضلاً عما تقدم ذكره يوجد بمدينة سيواس مدرستان ، الأولي جيفتة منارلى Gifte Mi-nareli ويقصد بها المدرسة ذات المئذنتين ، وكان إنشاؤها فى عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م . والثانية كوك مدرسة بمعنى المدرسة الزرقاء ، وقد شيدت فى عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م أو ٦٧١هـ / ١٢٧٢م بواسطة كيلوك بن عبد الله ، كما أكدت ذلك رايس Rice[٥].

هذا بالإضافة إلى بعض المدارس التى رآها ابن بطوطة فى بلاد سلاجقة الروم أثناء تجواله بها وأشار إليها فى رحلته ، كمدرسة أنطالية ، وإكريدور ، وبركى وغيرها .

وهكذا رأينا انتشار المدارس فى بلاد سلاجقة الروم لتكون أبلغ دليل على عنايتهم بالثقافة .

ثانياً : أشهر العلماء الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم :

لقد وفد إلى بلاد سلاجقة الروم لفيف من العلماء الذين أثروا حياتها الثقافية إثراءً كبيراً ، نخص بالذكر منهم : شهاب الدين السهروردى ، ومحيى الدين بن عربى ، وجلال الدين الرومى فى مجال " الفلسفة والتصوف الإسلامى " وحسنون الرهاوى ، وابن كرابا ، وابن الخطاب فى مجال " الطب " ، وتاج الدين الأرموى ، وسراج الدين الأرموى وصفى الدين الهندى الأرموى أيضاً فى مجال " المنطق وعلم الكلام وأصول الفقه " . وسوف نلقى ضوءاً تاريخياً على كل من هؤلاء العلماء لنتعرف على فكرهم ، ونقف على مؤلفاتهم .

١ – شهاب الدين السهروردى ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م :

هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك الملقب بشهاب الدين السهروردى ، ولد ببلدة سهرورد على مقربة من زنجان من أعمال أذربيجان بعراق العجم فيما بين عامى ٥٤٤هـ / ١١٤٩م أو ٥٥٠هـ / ١١٥٥م . وأميرك اسم أعجمي بمعنى أمير وهو تصغير لأمير ، فالكاف التى تلحق بأخر الاسم فى الأعجمية تكون للتصغير (٧).

ويعرف السهروردى هذا فى كتب التراجم والسير (بالسهروردى المقتول) تمييزًا له عن غيره ممن تلقبوا بلقب السهروردى ، فهناك عبد القاهر بن عبد الله السهروردى ، وهو فقيه صوفى حنفى المذهب ولد بمدينة سهرورد عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م وتوفى ببغداد فى عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م ومن أشهر مؤلفاته : (آداب المريدين) ، (شرح أسماء الله الحسنى) . وهناك أيضًا شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله السهروردى فقيه صوفى شافعى المذهب ، ولد بسهرورد فى عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م وتوفى عام ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م . ومن أشهر مؤلفاته كتابا : (عوارف المعارف) ، (كشف النصائح الإمامية وكشف الفضائح اليونانية) . وقد أهداهما للخليفة العباسى الناصر لدين الله (٨).

أما السهروردى المقتول فمن أشهر أعماله كتابه (حكمة الإشراق) القائل بالنور والظلمة ، وقد تلقى حكيمنا هذا علومه الأولى فى الحكمة وأصول الفقه بمدينة مراغة من أعمال أذربيجان على الشيخ مجد الدين الجيلى كما قال بذلك كل من ياقوت(٩) وابن خلكان (١٠)، ثم تنقل السهروردى بعد ذلك بين العديد من البلدان فزار أصفهان – وفيها قرأ كتاب البصائر النصرية لابن سهلان الساوى – ومن بعدها زار بغداد وحلب وغيرها من البلدان (١١)، فحصل الكثير من العلوم ، ونهل من مناهلها الأصلية ، وتلقاها بنفسه عن شيوخها .

والجدير بالذكر أن شهاب الدين السهروردى قد تأثر كثيراً بشروح ابن سينا لأرسطو ، لكنه خالف ابن سينا فى المنهج ، فبينما كان ابن سينا يستغل التصوف فى تكملة بعض آراء أرسطو أو التوسع فيه مستعينًا ببعض نظريات الأفلاطونية المحدثة ، نرى السهروردى ينكر صراحة آراء المشائين وتسير فى كتبه جنبًا إلى جنب مع فلسفة التصوف(١٢)، مما يدل على جرأته وتحرر فكره .

وقد اتسعت ثقافة السهروردى فشملت إلى جانب العلوم الإسلامية – من فقه وأصول وعلم كلام – الحكمة اليونانية والأفلاطونية المحدثة ، فضلاً عن التصوف ومجاهدة النفس ورياضتها حتى صفت روحه وسما فكره وأصبح أوحد زمانه . قال عنه ياقوت[١٣] فى كتابه (معجم الأدباء) إنه كان " أديبًا شاعرًا حكيمًا متفننًا نظارًا لم يناظره مناظر إلا خصمه (غلبه) وأفحمه " . وقال عنه أخلص تلاميذه الشهرزورى[١٤] فى كتابه (نزهة الأرواح وروضة الأفراح) ، أنه " كان يجمع بين الحكمتين أعنى الزوقية والبحثية " . وقال عنه ابن أبى أصيبعة[١٥] فى كتابه (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) " كان أوحداً فى العلوم الحكمية جامعًا للفنون الفلسفية " .

ولقد صنف السهروردى العديد من المؤلفات التى ناهزت الخمسين مؤلفًا نذكر منها على سبيل المثال : حكمة الإشراق ، والمشارع والمطارحات والتلويحات ، واللمحات ، والألواح العمادية ، والهياكل النورية ، والمقاومات والرمز الومي ، والمبدأ والمعاد ، وبستان القلوب ، وطوارق الأنوار ، والتنقيحات فى الأصول وكلمة التصوف ، والبارقات الإلهية ، والنفحات السماوية ، ولوامع الأنوار ، والرقم القدسي ، واعتقاد الحكماء ، وكتاب الصبر ، ورسالة العشق ، ورسالة درحالة طفولية ، ورسالة المعراج ، ورسالة روزى اجماعت صوفيان ، ورسالة عقل ، ورسالة برتونامة ، ورسالة غربة غربية ، ورسالة الطير ، ورسالة غاية المبتدى ، وأدعية متفرقة ، وشرح الإشارات وغيرها [١٦].

وقد كتب السهروردى بعض هذه المصنفات باللغة العربية ، وبعضًا باللغة الفارسية ، كما ترجم إلى الفارسية ما صنفه بالعربية .

أما أشهر هذه المصنفات جميعًا فهو كتاب (حكمة الإشراق) ، وقد قسم السهروردى هذا الكتاب إلى قسمين تناول فى قسمه الأول المنطق وعده تمهيداً للقسم الثانى ، وسماه (ضوابط الفكر) وجعله فى مقالات ثلاث : الأولى فى المعارف والتعريف ، والثانية فى الحجج ومبادئها ، والثالثة فى المغالطات وبعض الحكومات بين أحرف إشراقية وبين بعض أحرف مشّائية . أما القسم الثانى فجعله بعنوان : (الأنوار الإلهية ، ونور الأنوار ومبادى الوجود وترتيبها) ، وكان هذا القسم فى خمس مقالات ، الأولى فى النور وحقيقته ونور الأنوار وما يصدر عنه أولاً ، والثانية فى ترتيب الوجود ، والثالثة فى كيفية فعل نور الأنوار ، والأنوار القاهرة ، والرابعة فى تقسيم البرازخ ، والخامسة فى المعاد والنبوات والمنامات [١٧].

كما كان للحكماء عند السهروردى مراتب على النحو التالى : حكيم إلهى متوغل فى التأله عديم البحث ، كأكثر الأنبياء والأولياء من الصوفية أمثال أبى يزيد البسطامى ، وسهل بن عبد الله التسترى ، والحلاج ، وحكيم بحاث عديم التأله وهو كالمشائين من أتباع أرسطو والفارابى وابن سينا ، وحكيم إلهى متوغل فى التأله والبحث ، وحكيم إلهى متوغل فى التأله متوسط فى البحث ، وحكيم إلهى متوغل فى التأله ضعيف فى البحث ، وحكيم متوغل فى البحث متوسط فى التأله ، وحكيم متوغل فى البحث ضعيف فى التأله (١٨).

وعلى ذلك تكون أرقى مراتب الحكماء وأسماها عند السهروردى هى مرتبة الحكيم الإلهى المتوغل فى التأله والبحث معًا ، وهو الحكيم الإشراقى الذى يجمع بين الحكمتين الذوقية والبحثية ولاشك أن تلك الصفات تنطبق على السهرورى نفسه مما أثار عليه حقد خصومه .

وأما نور الأنوار عند حكيمنا الإشراقى الذى هو مبدأ مذهبه فيقول عنه : " نور الأنوار نور محيط : لأنه يحيط بجميع الأنوار لشدة ظهوره وكمال إشراقه ونفوذه فيها لِلُطْفِهِ ، وهو قيوم لقيام الجميع به ، وهو مقدس لأنه منزه عن جميع صفات النقص ، وهو الأعظم الأعلى إذ لا أعظم ولا أعلى منه بين الأنوار جميعًا ، وهو قهار لأنه يقهر ما دونه من الأنوار ، وذلك لشدة إشراقه وقوة لمعانه ، وهو غنى مطلق إذ ليس وراءه شيء يفتقر إليه ، ولا دونه شيء يستغنى عنه ، وهو قبل هذا كله وبعد هذا كله واحد " (١٩).

وعلى ذلك يكون نور الأنوار عند السهروردى هو واجب الوجود لذاته وبقدرته وما عداه فهو واجب به مفتقر إليه .

بقى لنا بعد هذا العرض أن نقول : إن الحكيم الإشراقى الذى توقد ذهنه ذكاء وتوهج فكره علمًا زار بلاد سلاجقة الروم كما شهد بذلك تلميذه الشهرزورى(٢٠) إذ يقول فى (نزهة الأرواح) عن شيخه أنه كان : " يحب المقام بديار بكر وفى بعض الأوقات يقيم بالشام وفى بعضها فى الروم " .

ومما يجدر ذكره أن هذا الفيلسوف الكبير قد وفد إلى بلاد سلاجقة الروم فى عهد السلطان قليج أرسلان الثانى بن مسعود الأول بن قليج أرسلان الأول بن سليمان بن قتلمش ، وقد طاب له المقام بمدينة نيكسار حيث ألف فيها (رسالة برتونامه) وهى مختصر بالفارسية فى الحكمة تناول فيها السهروردى بعض الاصطلاحات ، وبرتونامه يقصد بها (كتاب الشعاع) ، وقد قدم السهروردى تلك الرسالة لوالى نيكسار آنذاك الأمير ناصر الدين بركياروق

بن قليج أرسلان الثاني ، وجدير بالملاحظة أن الأمير بركياروق هذا وأخاه ركن الدين سليمان شاه الثاني كان من مقدمي تلامذة شهاب الدين السهروردي (٢١).

وبعد أن قضى السهروردي بعض الوقت في بلاد سلاجقة الروم عاد إلى بلاد الشام وأقام بمدينة حلب ، وأثناء ذلك ناظر علماء وفقهاء تلك المدينة فبذهم جميعاً وفند آراءهم ، وعندئذ أثار هؤلاء العلماء والفقهاء حفيظة صاحب حلب - الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي - عليه فقتله بمشورة أبيه صلاح الدين في الخامس من رجب عام ٥٨٧هـ الموافق التاسع والعشرين من يوليو عام ١١٩١م (٢٢).

وعلى الرغم من مقتل السهروردي في بلاد الشام ، فإن زيارته لبلاد سلاجقة الروم وإقامته في بعض مدنها ؛ كانت بمثابة البرزخ الذي انطلقت من خلاله العديد من أنواع الثقافات العربية والفارسية واليونانية إلى تلك البلاد ، وإن كان السهروردي قد انتفى وجوده جسداً فإنه بقي روحاً وفكراً وعلماً .

٢ - محي الدين بن عربي ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م :

هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الأندلسي الملقب (بمحيي الدين) ، والشهير بابن عربي من غير أداة التعريف تمييزاً له عن القاضي أبي بكر بن العربي ، وقد ولد ذلك الصوفي الكبير - الذي شاعت شهرته في الآفاق - بمدينة مُرسية إحدى مدن شرق الأندلس في السابع عشر من رمضان عام ٥٦٠هـ / الثامن والعشرين من يوليو عام ١١٦٥م (٢٣).

وما أن بلغ ابن عربي الثامنة من عمره حتى رحل إلى مدينة إشبيلية بغرب الأندلس حيث أقام بها حوالي ثلاثين عاماً درس فيها الحديث والفقه وغير ذلك من العلوم ، كما درس قسماً من هذه العلوم بمدينة سبتة على الشاطىء المغربي المقابل لبلاد الأندلس ، وأثناء رحلته الدراسية تلك وبالتحديد في عام ٥٩٠هـ / ١١٩٤م زار مدينة تونس (٢٤)، ويبدو أن تلك الزيارة كانت تمهيداً لرحلته الكبرى إلى بلاد الشرق الإسلامي التي بدأها في عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م .

ففي هذا العام زار محيي الدين بن عربي مدينة تونس للمرة الثانية ، وأثناء إقامته بها شرع في تأليف كتابه (إنشاء الدوائر والجداول) الذي شرح فيه مذهبه في الكون بالأشكال الهندسية لكنه توقف عن إنهاء كتابه هذا وواصل سيره إلى الشرق الإسلامي ماراً بمصر حتى

بلغ الغاية من رحلته بوصوله إلى مكة ، وربما أتم كتابه إنشاء الدوائر بها ، وهناك أيضاً ألف ابن عربي العديد من كتبه كترجمان الأشواق ، ومشكاة الأنوار والدرة الفاخرة . وبعد أن قضى بمكة حوالى ثلاثة أعوام توجه إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية وذلك فى عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م ، كما زار مصر فى عام ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م ، وفى عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، عاد ثانية إلى مكة كما يقول بذلك أسين بلثيوس [٢٥].

وفى عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م توجه محيى الدين بن عربى إلى بلاد سلاجقة الروم ، ثم عاد منها إلى بغداد فى عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م ، وفى تلك الأثناء التقى مع الشيخ الصوفى الكبير شهاب الدين أبى حفص عمر بن عبد الله السهروردى صاحب كتاب (عوارف المعارف) الذى وصف ابن عربى بأنه (بحر الحقائق) كما نقل ذلك صاحب الشذرات [٢٦]. وفى عام ٦١١هـ / ١٢١٤م زار ابن عربى مكة للمرة الثالثة ، ومنها توجه فى بداية عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م إلى مدينة حلب ، وأخيراً استقر به المقام فى مدينة دمشق من بلاد الشام [٢٧].

وقبل أن نتحدث عن زيارة ابن عربى لبلاد سلاجقة الروم ، نتوقف قليلاً أمام ثقافة ذلك العالم ، وبعض آرائه ونظرياته ، وأهم مصنفاته العلمية يقول الدكتور أبو العلا عفيفى[٢٨] فى تصديره لكتاب (فصوص الحكم) لمحيى الدين بن عربى :

إن هذا الكتاب الذى " قرر مذهب وحدة الوجود فى صورته النهائية ، ووضع لها مصطلحاً صوفياً كاملاً استمده من كل مصدر وسعه أن يستمد منه ، كالقرآن والحديث وعلم الكلام والفلسفة المشائية ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة الغنوصية المسيحية ، والرواقية وفلسفة فيلون اليهودى ، كما انتفع بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية والقرامطة وإخوان الصفا ومتصوفة الإسلام المتقدمين عليه . ولكنه صبغ هذه المصطلحات جميعًا بصبغته الخاصة وأعطى لكل منها معنى جديداً يتفق مع روح مذهبه العام فى وحده الوجود " .

وهكذا رأينا كيف تعددت المصادر والمناهل التى ارتشف منها محيى الدين بن عربى ثقافته، وعلى ذلك فليس من المستغرب أن يؤتى هذا العالم الكبير بسطة فى الفكر والخيال ، وعمقًا فى الحس الروحى .

أما مذهبه الذى اعتنقه ونافح عنه كثيراً فهو (وحدة الوجود Pantheism) ويرى ابن عربى فى هذا المذهب أن الوجود كله واحد ، وأنه ليس إلا مظهراً للذات العلية ، وما التعدد

والكثرة إلا أمر قد قضت به الحواس الظاهرة ، والعقل الإنسانى القاصر عن أن يدرك الوحدة الذاتية للأشياء أو يدرك المجموع مجموع (٢٩).

ولقد نطق ابن عربي بهذا المذهب في كل مؤلفاته فيقول فى فتوحاته المكية :

لمـــــا بدأت لســت أبـديه　　علمت أني عين البـدء من فـيـه
فكنت أشهـده فـى كل نازلة　　وكان يشهدنى إذ كنت أخفيه(٣٠)

ويقول :

إن الوجود بجود الحق مرتبط　　وكلنا فيه مسـرور ومغتبط
إن الذى توجـد الأعيان همته　　هو الوجود الذى بالجـود يرتبط(٣١)

ويقول :

فليس الظهور سوى ما ظهر　　وليس البطون سوى ما استتر
فـأين الذهاب وأين الإياب　　وأين القـرار وأين المقـر(٣٢)

ويقول :

إنما الجمع وجود ليس فى الجمع افتراق　　إنما الفراق الذى فيه له بنا اتفاق
فله فى الحكم فينا مـن وجودنا اشتقاق　　ولنا عليه حكم قيده فيه انطلاق(٣٣)

وكذلك يقول ابن عربى فى كتابه (فصوص الحكم) فى قصة الإدريسى (٣٤).

فـالحق خلق بهذا الوجه فـاعتبروا　　وليس خلقًا بذاك الوجه فـادكروا
من يدر مـا قلت لم تخذل بصيرته　　وليس يدريه إلا مـن له بصـر

وهكذا نرى مذهب وحدة الوجود الذى شاع فى كل ما نطق به ابن عربى .

وأما عن مصنفات ابن عربى التى تربو على المائتى كتابًا فمن أشهرها كتابه (الفتوحات المكية) ، تلك الموسوعة الصوفية العظيمة الأثر التى جمع فيها علوم التصوف فى خمسمائة وستين بابًا ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الباب التاسع والخمسين بعد الخمسمائة من هذه الموسوعة تضمن ملخصًا كاملاً لما ورد فيها . وكذلك من مصنفاته الشهيرة كتابه (فصوص الحكم) الذى يعد من أعظم مؤلفات ابن عربى ، ويتكون هذا الكتاب من سبعة وعشرين فصلاً

يدور كل منها حول حقيقة نبي من الأنبياء ، كما هو واضح فإن هدف ابن عربي من ذلك كان البحث عن طبيعة الوجود بوجه عام ، وصلة الوجود الممكن (العالم) بالوجود الواجب (الله).

هذا بالإضافة إلى العديد من مؤلفاته التي لا تقل أهمية عن هذين الكتابين ، كتفسيره للقرآن الكريم ، ومحاضرة الأبرار ، وإنشاء الدوائر ، وعقلة المستوفز ، وعنقاء مغرب ، وترجمان الأشواق ، وكتاب الأخلاق ، وديوان في الأشعار الصوفية ، وكتاب الأمر المحكم ، وكتاب في مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ، ومشاهد الأسرار ، ورسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار (٣٥).

ويهمنا بعد هذا العرض أن نقول : أنه في عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م توجه محيي الدين بن عربي بما يحمله من علم غزير وفكر متحرر إلى بلاد سلاجقة الروم صوب مدينة قونية العاصمة، وكان ذلك في عهد السلطان عز الدين كيكاوس الأول بن غياث الدين كيخسرو الأول (٦٠٧ - ٦١٦هـ / ١٢١٠ - ١٢١٩م) ، فقوبل هناك بالحفاوة والتكريم كما أشار إلى ذلك أسين بلاثيوس(٣٦) في كتابه (ابن عربي حياته ومذهبه) إذ يقول : إن السلطان عز الدين كيكاوس الأول " خرج بنفسه لاستقبال ابن عربي بالإكبار والحفاوة " . ولم تتوقف حفاوة السلطان عز الدين كيكاوس الأول بابن عربي عند استقباله إياه وترحيبه به ، بل امتدت إلى منحه دار فخمة للإقامة بها ، مما يؤكد ما ذهبنا إليه في صدر حديثنا عن الحياة الثقافية من إكرام سلاطين سلاجقة الروم لمن ارتاد بلادهم من العلماء .

ويلاحظ أن المقام قد طاب لمحيي الدين بن عربي بمدينة قونية فألف أثناء وجوده بها كتابين هما - مشاهد الأسرار ، ورسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار - كما أنه كان في أوقات فراغه " يجتمع بالصوفية الذين يريدون الانتفاع بتعاليمه والاقتداء به " (٣٧). فبدأت أفكاره وآراؤه تنتشر بأرجاء دولة سلاجقة الروم ، وكثر طلابه الذين أخذوا العلم عنه ونهلوا من منهله ، ولعل صدر الدين القونوي كان أشهر هؤلاء الطلاب .

ولم يكتف ابن عربي لنشر مذهبه وأفكاره في بلاد سلاجقة الروم بتوافد الطلاب إليه وأخذ العلم عنه بمدينة قونية ؛ بل قام برحلة سياحية داخل تلك البلاد زار خلالها قيسارية وملطية ، وسيواس ، وأرزن الروم وغيرها (٣٨) ، وبعد أن قضى قرابة عام في بلاد سلاجقة الروم توجه عائداً إلى بغداد وذلك في عام ٦٠٨هـ / ١٢١٤م كما قلنا من قبل .

لكن فيما يبدو أن العلاقة بين محيى الدين بن عربى وعز الدين كيكاوس الأول سلطان سلاجقة الروم قد توطدت ، إذ يذكر ابن عربى[٣٩] فى كتابه (الفتوحات المكية) فى باب الوصايا ، أن كيكاوس الأول قد أرسل إليه أثناء إقامته ببغداد فى عام ٦٠٩هـ / ١٢١٢م ، رسالة يستشيره فيها فى أمور دولته ، فرد عليه فى ذلك العام برسالة مطولة ينصحه فيها نصح الأب لابنه .

وإن كان بلاثيوس[٤٠] يرى فى هذه الرسالة أن محيى الدين بن عربى قد طلب من كيكاوس الأول معاملة النصارى القاطنين بدولته معاملة تخلو من الود والتسامح ، وأن يطبق عليهم القوانين الصارمة . فإننا نرى من جانبنا أن هذا الرأى يتنافى تماماً مع مذهب وحدة الوجود الذى كان ديدن ابن عربى ، ويبدو أن بلاثيوس نظر إلى تلك الرسالة نظرة جزئية لا تتفق مع النظرة الكلية الشمولية التى يقول بها ابن عربى ، فأدت تلك النظرة إلى تركيز بلاثيوس علي السلبيات دون الإيجابيات .

فمن أقوال ابن عربى لكيكاوس الأول فى هذه الرسالة " وأنت يا هذا بلاشك من أئمة المسلمين وقد قلدك الله هذا الأمر ، وأقامك نائباً فى بلاده ، ومتحكماً بما توفق إليه فى عباده ، ووضع لك ميزاناً مستقيماً تقيمه منهم ، وأوضح لك حجة بيضاء تمشى عليها وتدعوهم إليها ، على هذا الشرط ولاك ، وعليه بايعناك " [٤١] . ومن أقواله أيضاً : " ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك ، بكفران النعم وإظهار المعاصى وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك علي الرعية الضعيفة فإن الله أقوى منك ، فيتحكمون فيهم بالجهالة والأغراض ، وأنت المسئول عن ذلك ، فيا هذا قد أحسن الله إليك ، وخلع خلع النيابة عليك . فأنت نائب الله فى خلقه وظله الممدود فى أرضه ، فانصف المظلوم من الظالم " [٤٢].

وهكذا نرى ابن عربى فى رسالته لكيكاوس الأول قد طلب منه العدل فى رعيته ومراعاة حق الله ، لأنه نائبه فى أرضه وخليفته فى عباده . وإن كان ابن عربى فى جانب آخر من تلك الرسالة قد طلب من كيكاوس الأول تطبيق الشريعة الإسلامية فى معاملة أهل الذمة بدولته ، فإن ذلك لم يكن قسوة من محيى الدين على النصارى لأن تطبيق الشريعة الإسلامية رحمة لكل من الحاكم والمحكوم .

ومما يجدر ذكره أن محيى الدين بن عربى انتقل بعد ذلك من بغداد إلى دمشق وظل مقيماً بها حتى أدركته الوفاة فى شهر ربيع الثانى عام ٦٣٨هـ الموافق اكتوبر من عام ١٢٤٠م[٤٣].

وطالما أننا قد تحدثنا عن ابن عربى وزيارته لبلاد سلاجقة الروم ، فإنه من الواجب علينا فى هذا المقام أن نشير إلى إحدى ثمار غرسه بتلك البلاد ونقصد بذلك أشهر طلابه بمدينة قونية صدر الدين القونوى ، ولنا معه وقفة يسيرة .

٣ – صدر الدين القونوى ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م :

قال عنه السبكى(٤٤) فى طبقاته هو " محمد بن اسحق الشيخ الزاهد ، صدر الدين القونوى صاحب التصانيف فى التصوف " والقونوى نسبة إلى قونية عاصمة بلاد سلاجقة الروم ولقد تتلمذ القونوى هذا على أستاذه محيى الدين بن عربى أثناء وجوده بمدينة قونية فى عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م ، ومما تجدر الإشارة إليه أن محيى الدين بن عربى كان قد تزوج من أم صدر الدين المذكور (٤٥)، وبالتالى تربى صدر الدين فى كنف محيى الدين وأخذ عنه الكثير من علمه وأفكاره .

يقول صدر الدين عن شيخه " كان شيخنا ابن عربى متمكنًا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضيين على ثلاثة أنحاء : إن شاء الله استنزل روحانيته فى هذا العالم وأدركه متجسداً فى صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التى كانت له فى حياته الدنيا ، وإن شاء الله أحضره فى نومه ، وإن شاء انسلخ عن هيكله واجتمع به . وهو أكثر القوم كلامًا فى الطريق " كما جاء فى شذرات الذهب لابن العماد (٤٦).

ومن تلك الكلمات نرى تأثر القونوى الواضح بشيخه ابن عربى فى فكرة الحلول والاتحاد .

والجدير بالذكر أن صدر الدين القونوى كان من أكبر مروجى مذهب أستاذه ابن عربى : إذ قام بإلقاء المحاضرات والدروس عنه وعن كتبه لا سيما كتابه فصوص الحكم بكل من دمشق وقونية ، وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى(٤٧) فى كتابه (الإنسان الكامل فى الإسلام) نقلاً عن شيدر فإن هذه الدروس " لقيت رواجًا هائلاً " . وبها " تأثرت شخصيتان عظيمتان من حملة لواء الشعر الفارسى فى القرن الثالث عشر (السابع الهجري) ، هما فخر الدين العراقى ، وأوحد الدين الكرمانى " .

وهكذا رأينا صدر الدين القونوى لم يكتف بإلقاء الدروس والمحاضرات عن أستاذه ابن عربى بمدينة قونية فحسب ، بل رحل إلى بلاد الشام لإلقاء المزيد من المحاضرات والدروس عن شيخه ، ثم عاد ثانية إلى قونية عاصمة سلاجقة الروم – مما كان له أعظم الأثر فى الشعر

الفارسي آنذاك . حتى قال الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه السالف الذكر أن " ثمت موجزاً رائعاً عظيم المكانة من الناحية الشعرية يتمثل فيه الأسلوب الجديد الذي أوجده مذهب ابن عربي في الشعر الصوفي الفارسي ، كتب سنة ٧١٠هـ / ١٢١٠م ويوجد له عدة مخطوطات ، ألا وهو ديوان جلشن راز لمحمود شبستري " (٤٨).

وقد صنف صدر الدين القونوي العديد من الكتب لعل من أشهرها : شروحه لفصوص الحكم ، وشرح الأسماء الحسنى ، ولطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام ، والنفحات الإلهية القدسية ، وبرزخ البرازخ ، والرسالة المرشدية في أحكام الصفات الإلهية ، والرسالة الهادية(٤٩).

هذا بالإضافة إلى كتاب (مراتب الوجود) الذي قسم فيه القونوي الوجود إلى أربعين مرتبة وجعل الأخيرة منها للإنسان الكامل الذي قال فيه " إنه الجامع للحقائق الحقية والحقائق الخلقية ، جملة وتفصيلاً ، حكماً ووجوداً ، بالذات والصفات ، لزوماً وعرضاً ، حقيقة ومجازاً . وكل ما رأيته أو سمعته في الخارج فهو عبارة عن رقيقة من رقائق الإنسان ، واسم لحقيقة من حقائق الإنسان . فالإنسان هو الحق ، وهو الذات ، وهو الصفات ، وهو العرش ، وهو الكرسي، وهو اللوح ، وهو القلم ، وهو الملك ، وهو الجن ، وهو السموات وكواكبها ، وهو الأرضون وما فيها ، وهو العالم الدنياوي ، وهو العالم الأخراوي ، وهو الوجود وما حواه ، وهو الحق ، وهو الخلق ، وهو القديم ، وهو الحادث . فلله در من عرف نفسه معرفتي إياها : لأنه عرف ربه معرفته لنفسه " (٥٠).

وعلى ضوء تلك الكلمات التي أوردها لنا الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (الإنسان الكامل) نقلاً عن مخطوط (مراتب الوجود) للصدر القونوي ، يتضح لنا سير التلميذ على درب أستاذه ، فالقونوي معتنق لمذهب شيخه ابن عربي المعروف بوحدة الوجود ولعل كلمات المخطوط التي أوردناها آنفاً تنطق بأقوى دليل على ذلك .

وفي عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م توفي الشيخ صدر الدين القونوي بمدينة قونية على رواية الذهبي(٥١) في كتابه دول الإسلام ، بعد أن أثرى الحياة الثقافية بمؤلفاته لا في بلاد سلاجقة الروم وحدها بل وفي بلاد الشام أيضاً .

نعود بعد ذلك إلى مواصلة الحديث عن أشهر العلماء الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم وأثروا حياتها الثقافية ، فنتوقف أمام جلال الدين الرومي ومآثره الخالدة .

٤ – جلال الدين الرومى :

لقد وفد جلال الدين الرومى بصحبة أبيه بهاء الدين محمد إلى بلاد سلاجقة الروم وطاب له المقام بمدينة قونية عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م ، وإثر وفاة أبيه فى عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م خلفه فى وظيفة التدريس بمدارس قونية لبعض الوقت ، ثم تحول إلى التصوف وأخذ علومه الأولى عن شيخيه : برهان الدين الترمذى ، وشمس الدين تبريزى ، وسرعان ما فاق التلميذ شيوخه وأصبح جلال الدين كعبة الزوار ومنتدى العلماء والمفكرين وقد ترك لنا جلال الدين آثاراً أدبية شعرية ونثرية مازالت تنطق ببراعته الفائقة وقدرته الفذة عبر العصور .

أما آثاره الشعرية فأشهرها على الإطلاق كتاب (المثنوى) : والمثنوى كلمة ترادف كلمة المزدوج ، وهى اصطلاح عروضى فارسى يعتمد فى التقفية على توحيد القافية بين شطرى كل بيت من أبيات المنظومة ، وقد استغرق جلال الدين الرومى فى تأليف هذا الكتاب حوالى أربعين عامًا (٥٢) . وهو كتاب فى التصوف يصور مذاهبه ويفسرها ، ويبين أسرار الوصول وسبله عن طريق سرد القصص ، وتفسير الآيات ، وإيراد الأحاديث وغير ذلك .

وهذا الكتاب الذى يعد موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقًا إلى شاطىء البحر المتوسط غربيًا ، يقع فى ستة أقسام ويضم بين دفتيه حوالى خمسة وعشرين ألفًا وستمائة واثنين وثلاثين بيتًا ، فيحتوى قسمه الأول على ٤٠٠٣ بيت ، والثانى على ٣٨١٠ ، والثالث على ٤٨١٠ ، والرابع على ٣٨٥٥ ، والخامس على ٤٢٣٨ ، والسادس على ٤٩١٦ ، ونظم الكتاب على بحر الرمل (٥٣).

وأما أشهر مصنفاته النثرية فهو كتابه (فيه ما فيه) ، وهو عبارة عن الأحاديث التى ألقاها جلال الدين على مريديه وزواره ، وما سجله المريدون الذين حضروا مجلسه وسمعوا إجاباته عما وجه إليه من أسئلة ، وجمع كلّ ذلك داخل هذا الكتاب الذى أشرنا إليه .

هذا بالإضافة إلى ما نسب إليه من أشعار قالها بالتركية تعد أول باكورة للشعر التركى فى بلاد سلاجقة الروم نذكر منها قوله " أنا اصطفيك من دون الأنام حبيبياً كما قد تعلم ، والكمد لاشك قاتلى إن لم تجد بوصال منك يحيينى . لله ما أسعدها لحظة تلك التى أراك فيها إلى جانبى ، سأتعلم لغة الترك ، وأكب على الشراب أرشفه رشفا " (٥٤).

ولاشك أن جلال الدين الرمى بأعماله الشعرية والنثرية التى كتبها باللغتين الفارسية والتركية ، قد أثرى الحياة الثقافية فى بلاد سلاجقة الروم إثراء كبيراً . وإن جلال الدين قد توفى فى عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م بمدينة قونية ، فإن ابنه سلطان ولد حمل مشعل الثقافة وكان رباناً للطريقة المولوية فى بلاد سلاجقة الروم ، إذ أنه أعلم الناس بتعاليم أبيه ومراميه ، وأقدرهم على تفسير المبهم من أفكاره ومعانيه ، فكان خير خلف لخير سلف ، ولنا وقفة مع ذلك العالم الكبير .

٥ – سلطان ولد ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م :

هو أحمد بن جلال الدين الرومى المعروف بسلطان ولد ، وقد ولد "سلطان ولد" هذا فى مدينة لارندة إحدى مدن سلاجقة الروم قبيل أن تنتقل أسرة أبيه من تلك المدينة إلى قونية العاصمة(٥٥)، وكان لمولد سلطان ولد فى تلك البيئة الثقافية أثر كبير فى تشكيل فكره وثقافته ، إذ شب منذ نعومة أظفاره على سماع العلم ، وما أن غدا طفلاً حتى أصبح من مريدى مجالس السماع التى كان يديرها والده جلال الدين زعيم المولوية . فتثقف فكره وسمت روحه ، وصفا وجدانه وأصبح من كبار الشعراء الصوفيين بدولة سلاجقة الروم ، وما أن توفى والده جلال الدين حتى خلفه ابنه ذلك الشاعر الكبير فى ريادة الطريقة المولوية فوجه أهدافها ، وقاد مجالس السماع بها ، فاستقطب العديد من سكان بلاد سلاجقة الروم الذين هرعوا إليه لأخذ الفكر الصوفى والعلم اللدنى .

وحرى بذلك الشاعر الكبير الذى نشأ فى تلك البيئة الثقافية أن يترك لنا آثاراً شعرية خالدة عالية القدر رفيعة الشأن بها مسحة من التطور ، وقد كان ذلك كما ينطق به كتابه (ولد نامه)، والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يضم بين دفتيه ثلاثة أقسام ابتداء نامه ورباب نامه وانتهاء نامه، وقد استخدم سلطان ولد فى تأليفه لهذا الكتاب اللغات الثلاث (الفارسية واليونانية والتركية) إلى جانب العربية (٥٦).

وعلى الرغم من أن أشعار سلطان ولد كانت لاتدانى أشعار أبيه جلال الدين الرومى صاحب المثنوى ، إلا أن هذه الأشعار كانت لها قيمة كبرى ؛ لأنها تعد نتاجاً فكرياً جديداً نتيجة امتزاج واختلاط الثقافات بدولة سلاجقة الروم . فالأشعار التى قرضها سلطان ولد باللغة اليونانية والمكتوبة بالحروف العربية كانت لها قيمة كبرى لا سيما لدى علماء اللغة " إذ أنها الذكرى الوحيدة للهجة الرومية فى منطقة قونية فى ذلك الوقت " . كما يقول بارتولد فى كتابه (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) (٥٧).

أما شعره التركي فيعد تثبيتًا وتقريراً للمحاولة التي بدأها أبوه - جلال الدين الذي كان أول من قرض الشعر بالتركية في بلاد سلاجقة الروم - ومن أشهر ما أنتج سلطان ولد من الأشعار التركية منظومته السماة (رباب نامه) ، التي قال عنها حسين مجيب المصري في كتابه (تاريخ الأدب التركي) أنها " تعتبر أول محاولة جدية للنظم بالتركية العثمانية ، وأقدم أثر شعري نملكه بهذه اللغة " (٥٨).

ومن أقوال سلطان ولد في تلك المنظومة " اعلم أن مولانا جلال الدين الرومي قطب الأولياء، فألق السمع إلى قوله ، وألزم نفسك أن تعمل به ، فما كلماته الغر الحسان إلا رحمات من رب العالمين ، وفيها للعين العمياء نور ترى به معالم طريقها ، وإني لأستلهم الله قدرة لي على أن أوفيه حقه من مدح وتمجيد " (٥٩). ويتضح لنا من تلك الكلمات أن سلطان ولد يمجد والده - جلال الدين - ويذكر مآثره ومحاسنه .

ومن أقواله أيضاً " أنا خالي الوفاض من نشب ولا أملك من حطام هذه الدنيا شيئًا فكيف أجود بما ليس عندي ! وما غناي إلا بتلك الكلمات التي تبصر من عمي وتهدي من ضلال ، وهي النفائس التي لا يرضى العاقل بديلاً بها " (٦٠)، وكذلك قوله في ذم الدنيا وترك زخرفها والتعلق بحب الله " زينة الدنيا وزخرفها إلى تراب ، أما الكلمات فإلى خلود واللفظ يبقى أبداً ... فلتدع ربك في صلاة باكية ، ولتضرع إليه أن يمد عليك جناحا من رحمته ، وقل له : اللهم فتح عيوني لرؤيتك واجعلني كالقطرة تسقط في البحر اللجي وتمتزج بأمواجه وأمواهه ، فتخلد خلود البحر إلى آخر الدهر " (٦١).

ومن خلال ذلك يتضح لنا اعتناق سلطان ولد لفكرة الحلول والاتحاد التي قال بها من قبله والده جلال الدين الرومي ، وقال بها أيضاً قبل ذلك كل من السهروردي وابن عربي والقونوي.

وكذلك كان لسلطان ولد مقطوعة رمزية يصور فيها صلته بالله الذي يرمز له بالنور ولقبه بالدار كما يشبه نفسه الأمارة بالسوء باللص فيقول " إن نوراً يضيء الليلة دارك ، فكأن البدر يسكنها بضيائه ، ولن تعرف الظلام بعد اليوم ، فلا ظلام مع هذا البدر . أما ذلك المتلصص الذي يبعث في ستر فسوف ينكشف أمره في النور "(٦٢) . وهي دعوة لكي يراقب الإنسان ربه في كل أعماله ، نلاحظ من خلالها قول سلطان ولد بالنور والظلمة كغيره من شعراء الصوفية السابقين .

وهكذا كان سلطان ولد مجدداً لدعوة أبيه ، سائراً على دربه ، معتنقًا لفكره وآرائه ، وقد توفي سلطان ولد بمدينة قونية فى عام ٧١٢هـ/١٣١٢م(٦٣) بعد إثرائه الحياة الثقافية بدولة سلاجقة الروم ، وتعبيره أصدق عن لغات سكانها من فرس وترك وبيزنطيين وغيرهم كما يعزى إليه وضع الشعر التركى على بداية الطريق .

ومما لاشك فيه أن جلال الدين الرومى وابنه سلطان ولد قد أسهما إسهامًا كبيرًا فى نشأة الأدب التركى فى بلاد سلاجقة الروم ؛ إذ كان لتجربتهما الأولى التى تمثلت فى قرضهما الشعر بالتركية إلى جانب العربية والفارسية أعظم الأثر فى ظهور لون خاص من الشعر معبر عن اللسان التركى داخل بلاد سلاجقة الروم ممثلاً آنذاك فى الشاعر يونس أمره ، وسوف نتوقف قليلاً عند هذا الشاعر الذى يعد شعره تطويرًا للفكرة التى بدأها جلال الدين وأرسى قواعدها ابنه سلطان ولد .

٦ - الشاعر الصوفى الكبير يونس أمره، ت بعد عام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م :

ولد يونس أمره اى (يونس العاشق) بقرية ندعى (صارى كوى) إحدى قرى بلاد سلاجقة الروم فى جهتها الغربية ، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، ولاشك أن يونس أمره هذا كان قد وقف على آراء المتصوفة التى انتشرت فى ربوع آسيا الصغرى وقتذاك . فاستفاد منها الكثير وكون فكرًا خاصًا به يدل على ذوق معين إذ قرض الشعر بالتركية الخالصة ، مما يعد نتاجًا للتجربة التى بدأها جلال الدين وابنه سلطان ولد.

وإن كان شعر يونس أمره شعبيًا لا يرقى إلى الذوق الرفيع الذى اتسم به شعر سابقيه أمثال السهروردى المقتول ، ومحيى الدين بن عربى ، وصدر الدين القونوى ، وجلال الدين الرومى ، وسلطان ولد . فإنه قد عبر عن أصدق تعبير عن اللسان التركى آنذاك فى بلاد سلاجقة الروم ، فضلاً عن أن هذا الشعر لاقى قبولاً لدى الطبقات الشعبية أكثر ما لقيه شعر من سبقه من المتصوفة .

ومن أشعار يونس أمره التى قرضها بالتركية تلك المنظومة التى يدعو فيها إلى طريقته ، ويحبب الانتماء إلى مجلسه فيقول " تعال وامضى بنا إلي الحبيب ولنكن شريكين ، تعال وليكن منك دليلى ، ووجه الحبيب قبلتنا . تعال واطرح هموم قلبك ، فَهَمّنَا لُقْيَا الحبيب وزايل معى هذه الدنيا فإنها إلى زوال . لا لا تفارقنى وإلى الحبيب سر بى . لا دوام للدنيا على حال فاصح من سباتك وانتبه من غفلتك ، وإلى الحبيب هيا بنا لنكن صفيين " (٦٤).

ويقول فى مناجاته لربه " إن سألتنى يا إلهى فهأنذا أجيبك ، أنا إن كسبت خطيئة فما ظلمت إلا نفسى ، ولا قصدت بشىء ذاتك العلية يا ربى ، الذنوب أرجاس ، وأهلها جيف دنسة، فهلا نزهت موازينك عن أن تزن أدناساً وأرجاسا ، فلو سترتها بفضل من رحمتك " . ويستطرد يونس أمره فى مناجاته لربه التى يكشف فيها أسراره ، ويبوح فيها بما فى نفسه فيقول " وإن كان الشرك إثماً كبيراً ففى يدك إنقاص الشر وزيادة الخير ، وإنقاص الخير فى يدك وزيادة الشر ، وإذا أردت لى النار فانظر إلىّ كيف احترق ! وحاشا لله أن يكون ذلك منك يا رب الأنام ، وإذا ما امتنى فصرت ترابا ، وامتلأت عينى ترابا ، فأنت عليم بنيتى نحوك لأنك عليم بذات الصدور ولا يخفى عليك ما ظهر ما بطن ، ولكن هل يستحق إنسان مثلى وهو حفنة من تراب كل هذا القيل والقال ، يا كريما ذا الجلال ، أنا لا أملك سوى ذلك من جواب ، وهذا كلامى والله أعلم بالصواب " (٦٥).

ومن خلال تلك الكلمات نرى أن يونس أمره يأمل فى غفران ربه ورضاه ، ويقول بأنه مهما ارتكب من أخطاء فإن هذه الأخطاء ظاهرة ولا تدل على حقيقته ، وما الأعمال إلا بالنيات ، وعلى ذلك فإن شاعرنا هذا يقول أيضاً بالباطن كغيره من الشعراء الصوفية الذين ارتادوا بلاد سلاجقة الروم أمثال السهروردى ومحيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى ، مما يؤكد لنا استفادة يونس أمره من هؤلاء الشعراء .

وأما أشهر ما أنتج يونس أمره من الأشعار التركية على الإطلاق فهى تلك الأبيات التسعة الرمزية فى السلوك التى اتسمت بالمنطق الإلهى وعرفت بإلهيات يونس أمره ، وقد أخفى يونس أمره قصده منها فكان ظاهرها لا يعبر عن باطنها ، وقد عدها دراويش البكتاشية الذين انتسبوا إليه دستوراً للسلوك .

يقول يونس أمره فى مطلع هذه الأبيات :

" طلعت على شجرة البرقوق وأكلت منها العنب

فنهرنى صاحب البستان قائلاً لم تأكل جوزى "(٦٦).

وهنا يعبر شاعرنا الصوفى عن الشريعة والطريقة الحقيقة : بالبرقوق والعنب والجوز ، فالبرقوق يؤكل ظاهره وما يشبه البرقوق فهو مثال لظاهر العمل ، والعنب يؤكل وتصنع منه بعض الصناعات فيعبر عن الباطن ولا يعبر عن الحقيقة لأن به قد من البذور ، أما الجوز فهو

الحقيقة لأنه يؤكل كله . ويشير شاعرنا في ظاهر كلامه إلى أن من طلب البرقوق فعليه بشجره، ومن طلب العنب فعليه بكرمه ، ومن طلب الجوز فعليه بشجر الجوز ، وأما من طلب العنب من شجر البرقوق فهو أحمق سيبذل الكثير من الجهد والعناء دون أى طائل .

وأما في باطن كلامه فيقصد شاعرنا أن من أراد معرفة صلاح علم الظاهر وفساده فعليه بكتب الفقه يقرؤها ويتعلمه منها ويعمل به ، ومن أراد معرفة صلاح علم الباطن وفساده فيرجع إلى التلقين وأصول أسماء الله والكتب التى تنير القلوب ثم يعرض ذلك على مرشده ويداوم العودة إليه حتى يسلك الطريق ، وأما من أراد معرفة ذوق علم الحقيقة وحاله ، وهو معرفة النفس التى هى معرفة الله فعليه بالرياضة الشافية بعناية المرشدين حتى تسمو روحه وتصفو نفسه . وأخيراً ينبه شاعرنا فى هذا البيت على أن من أراد أن يسلك الطريق الصحيح فعليه بالمرشد الذى يوضح له معالم الطريق ويقيه عثراته ، وقد أشار يونس أمره إلى المرشد فى هذا البيت بصاحب البستان . كما قال بذلك العالم الصوفى محمد نيازى الشهير بالمصرى الذى قام بشرح الأبيات التسعة ، وفك رموزها فى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى [٦٧].

وهكذا رأينا يونس أمره قد استخدم فى بيته السابق أشياء طبيعية ملموسة ومحسوسة للكثير من الناس ، كالبرقوق والعنب والجوز والبستان وغير ذلك . بينما كان قصده بتلك الأشياء كيفية سلوك الطريق ، فعلى الإنسان أن يأخذ كل شىء من مصدره ، والولى عنده هو الذى يقوم من سلوك المريد وبدون الولى لا يحصل المريد شيئًا ، والجدير بالذكر أن يونس أمره توفى فى أوائل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، بعد أن أثرى الحياة الثقافية فى بلاد سلاجقة الروم .

وبتلك الدراسة نكون قد أمطنا اللثام عن فكر ونتاج الفلاسفة المتصوفة الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم وأثروا حياتها الثقافية ، كالسهروردى المقتول ومحيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى ، كما تعرفنا على أشهر طلابهم الذين نشأوا فى تلك البلاد كصدر الدين القونوى تلميذ ابن عربى ، وسلطان ولد بن جلال الدين الرومى ، وكذلك تعرفنا أيضًا على نتيجة التجربة الرائدة فى نشأة الأدب التركى التى وضع فكرتها جلال الدين ، وأقرها سلطان ولد ، وعبر عنها يونس أمره . والجدير بالذكر أن القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى قد شهد أيضًا ظهور بعض مصنفات الأدب التركى ، كقصة (الشيخ صنعان) وهى

منظومة لمؤلف مجهول ، و (صلصال نامه) وهى منظومة ومنثورة لشاعر يدعى شياد عيسى ، و (دانشمند نامه) التى ألفها ابن علا بأمر الأمير عز الدين كيكاوس الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى (٦٨). مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الأدب التركى فى هذا القرن بدأ يعبر عن نفسه ويخرج إلى حيز الوجود .

وبالإضافة إلى ما تقدم ذكره من الفلاسفة المتصوفة الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم ، نتوقف قليلاً عند الأطباء الذين ارتادوا تلك البلاد وأسهموا فى إثراء حياتها الثقافية ، كحسنون الرهاوى ، وابن كرابا ، وابن الخطاب .

٧ - حسنون الرهاوى ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م :

هو " حسنون النصرانى الرهاوى الطبيب ، قرأ الطب على أطباء الرها ورحل إلى ديار بكر فلقى من كان بها بآمد وميافارقين من الحكماء ، ثم خدم الناس بطبه ، وتنقل فى البلاد بصناعته ، ورحل إلى مملكة قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق فخدم أمراء دولته ، ثم خرج عن تلك الديار إلى ديار بكر " (٦٩).

وقال عنه ابن العبرى(٧٠) فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) " كان فاضلا فى فنه علمًا وعملاً ، ميمون المعالجة ، حسن المذاكرة بما شاهده من البلاد .. وكان شيخًا بدينًا بهيًا . دخل إلى مملكة قليج أرسلان ، وخدم أمراء دولته كأمير آخور(٧١) سيف الدين واختيار الدين حسن، واشتهر ذكره ، ثم خرج إلى ديار بكر " .

وبذلك يتأكد لنا زيارة حسنون الرهاوى لدولة سلاجقة الروم فى عهد السلطان قليج أرسلان الثانى بن مسعود الأول ، وتقديمه خدماته الطبية لبعض أمراء دولته . والجدير بالذكر أن حسنون الرهاوى توفى بحلب إحدى مدن الشام فى عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م كما أكد ذلك ابن العبرى (٧٢).

٨ - ابن كرابا ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م :

أما ابن كرابا فهو أبو سالم النصرانى اليعقوبى الملطى المعروف بابن كرابا ، خدم السلطان علاء الدين كيقباد الأول ، وكان من أهل مجلسه ، وعلى الرغم من عدم براعته فى الطب إلا أنه عوض ذلك بفصاحة لسانه ، ومعرفته بشيىء من التاريخ . ويبدو أن هذا الطبيب كان له علاقة طيبة بالسلطان علاء الدين كيقباد الأول ، إذ كان يرافقه فى حملاته العسكرية ،

وعندما اعتقد ابن كرابا تغير سيده كيقباد الأول عليه فى عام ٦٢٢هـ شرب السم انتقاماً من نفسه (٧٣).

٩ – ابن الخطاب (كان فى عام ٦٤٦هـ) على قيد الحياة :

وأما ابن الخطاب فهو تقى الدين الرأس عينى المعروف بابن الخطاب – ورأس عين إحدى بلاد الجزيرة – قال عنه ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) أنه " طبيب مشهور الذكر متقن لصناعة الطب علمها وعملها غاية الاتقان " . وقد خدم هذا الطبيب كلاً من السلطان غياث الدين كيخسرو الثانى ، وابنه عز الدين كيكاوس الثانى ، ونال عندهما منزلة كبيرة حتى رفعاه إلى درجة المعاشرة والمسامرة وأقطعاه إقطاعات جزيلة والجدير بالذكر أن هذا الطبيب كان يتزيا بزى خاص وله الخدم والغلمان وبذلك تمتع بمركز مرموق فى بلاد سلاجقة الروم(٧٤).

وهكذا رأينا كيف نال الأطباء فى بلاد سلاجقة الروم مكانة مرموقة ، وكيف ارتقى هؤلاء الأطباء من مهنة الطب والاشتغال به إلى معاشرة السلاطين ومسامرتهم حتى كانوا من أهل مجلسهم .

وفضلاً عما تقدم ذكره من أن فلاسفة المتصوفة ، وعلماء الطب قد وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم ، هناك أيضاً بعض علماء المنطق وعلم الكلام الذين ارتادوا تلك البلاد وأثروا حياتها الثقافية نذكر منهم : تاج الدين الأرموى ، وسراج الدين الأرموى ، وصفى الدين الهندى الأرموى ، وسوف نعرض بالدراسة لهؤلاء العلماء حتى نقف على أشهر مصنفاتهم .

١٠ – تاج الدين الأرموى(٧٥) ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٥م :

أشار ابن العبرى(٧٦) فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) إلى أن تاج الدين أبا عبد الله محمد الحسينى الأرموى الإمام الأصولى والفقيه الشافعى كان أحد تلامذة الإمام فخر الدين الرازى ، وقد تلقى تاج الدين العلم على أستاذه الرازى وبرع فيه ، ثم رحل بعد ذلك إلى بلاد سلاجقة الروم وعلى وجه الخصوص إلى مدينة قونية العاصمة حيث نشر فكره وثقافته بتلك المدينة وبغيرها من مدن آسيا الصغرى .

والأرموى نسبة إلى أرمية من أعمال آذربيجان ، وقد كان له بعض المصنفات فى المنطق والحكمة وأصول الفقه نذكر منها على سبيل المثال كتابه (الحاصل من المحصول فى أصول الفقه) وكانت وفاة هذا الشيخ فى عام ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م(٧٧).

١١ - سراج الدين الأرموى ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٢م :

هو محمود بن أبى بكر بن أحمد بن حامد الأرموى الأذربيجانى الشافعى المعروف بأبى الثناء سراج الدين الأرموى ، ولد بمدينة أرمية فى عام ٥٩٤هـ / ١١٩٨م وحصل العلم بمدينة الموصل ثم زار دمشق وغيرها من البلدان (٧٨). وقد ذكر ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) أن سراج الدين الأرموى كان من بين تلامذة الإمام فخر الدين الرازى أيضاً - شأن تاج الدين الأرموى - قرأ العلم عليه وحصل منه الكثير ، والجدير بالذكر أن سراج الدين الأرموى هذا بعد أن قرأ كتب أستاذه الرازى وعرف مصطلحاتها رحل إلى ملطية إحدى مدن سلاجقة الروم ، وهناك التقى بعلاء الدين كيقباد الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى ، ثم انتقل إلى مدينة قونية على أثر توليه منصب القضاء بها (٧٩).

وفى تلك الآونة صنف سراج الدين الأرموى كتاب (لطائف الحكمة) باسم السلطان عز الدين كيكاوس الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى ، ثم لم يلبث أن دخل سراج الدين فى خدمة السلطان كيكاوس الثانى وارتقى على أثر ذلك فى وظيفته حتى أصبح قاضى قضاة قونية وذلك فى عام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م(٨٠).

ومن أشهر مصنفات سراج الدين الأرموى فضلاً عن كتابه السالف الذكر لطائف الحكمة - كتبه (مطالع الأنوار وشروحه فى المنطق والحكمة) ، و (شروح الإشارات والتنبيهات لابن سينا فى المنطق والحكمة) أيضاً ، هذا بالإضافة إلى كتبه : (بيان الحق) ، (وشرح الوجيز للإمام الغزالى فى الفقه) ، (والتحصيل من المحصول) (٨١).

وهكذا يتضح لنا من خلال تلك الأعمال ما قدمه سراج الدين الأرموى للحياة الثقافية بمدينة قونية خاصة وبلاد سلاجقة الروم عامة ، وفى عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م توقف هذا العطاء أثر وفاة ذلك العالم الجليل ، لكن آثاره الخالدة مازالت تشع بنورها على تلك البقاع .

١٢ - وأما صفى الدين الأرموى ت ٧١٥هـ / ١٣١٥م :

فهو محمد بن عبد الرحيم بن محمد المعروف بالشيخ صفى الدين الهندى الأرموى ، ولد فى بلاد الهند عام ٦٤٤هـ / ١٢٣٦م ، ثم رحل إلى بلاد اليمن فى عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م ، ومنها توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وبعد أدائه شعائر الحج زار مصر ومنها رحل إلى بلاد سلاجقة الروم . والجدير بالذكر أن هذا الشيخ كان تلميذاً للقاضى سراج الدين الأرموى

بقونية قرأ العلم عليه وأخذ الكثير عنه ، وفى عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٧م ترك بلاد سلاجقة الروم واتجه إلى بلاد الشام حيث أقام بدمشق ودرس فى مدارسها .

ومن أشهر مصنفاته فى علم الكلام (الزبدة) ، وفى أصول الفقه (النهاية والفائق والرسالة السيفية) ، وقد توفى هذا الشيخ بمدينة دمشق فى عام ٧١٥هـ / ١٣١٥م عن واحد وسبعين عاماً (٨٢).

وهكذا رأينا : كيف أسهم سلاطين سلاجقة الروم فى النهوض بالحياة الثقافية لبلادهم كتعبير حقيقى عن واقعهم الحضارى الإسلامى داخل آسيا الصغرى ذلك الإقليم البيزنطى ، فشيدوا المدارس ، وأكرموا وفادة العلماء وألانوا الجانب لهم ، ولم يكتفوا بذلك بل خالطوهم وكانوا من أهل مجلسهم ، ولا أدل على ذلك من الأميرين ناصر الدين بركياروق والى بيكسار ، وركن الدين سليمان شاه الثانى والى توقات اللذين كانا من تلامذة الشيخ شهاب الدين السهروردى المقتول . هذا بالإضافة إلى تحصيل بعض سلاطين سلاجقة الروم لعدد من العلوم وحبهم إياها ، فيذكر ابن الأثير(٨٣) فى كتابه (التاريخ الباهر) أن السلطان قليج أرسلان كان يعتقد مذهب الفلاسفة ، ويذكر ابن الأثير(٨٤) أيضاً فى كتابه (الكامل فى التاريخ) أن ركن الدين سليمان شاه الثانى بن قليج أرسلان الثانى كان يعتقد مذهب الفلاسفة كأبيه . وفضلاً عن ذلك كان يقرض الشعر بالفارسية السلطان : ركن الدين سليمان شاه الثانى وأخوه غياث الدين كيخسرو الأول ، وعز الدين كيكاوس الأول بن كيخسرو الأول (٨٥). ولاشك أن كل ذلك أدى إلى تقدم الحياة الثقافية فى بلاد سلاجقة الروم كما أوضحنا .

الهوامش

١ – د. زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٩٠ .

٢ – ابن بطوطة : الرحلة ٣١٢/١ .

3- Rice, The Seljuks in Asia minor, p. 258 .

د. زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٩١ – ٩٣ .

4 - Rice, The Seljuks in Asia minor, p. 261 .

5 - Ibid, p. 259 .

٦ – ابن بطوطة : الرحلة ٣١٣/١ ، ٣١٦ ، ٣١٨ .

٧ – ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٦٨/٦ .

٨ – الذهبي : دول الإسلام ١٣٦/٢ ، دائرة المعارف الإسلامية : مادة السهروردي : عبد الله حسين : التصوف والمتصوفة ، ص ٥٥ – ٥٦ .

٩ – ياقوت : معجم الأدباء ٣١٤/١٩ – ٣١٥ .

١٠ – ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٦٩/٦ .

١١ – الشهرزوري : نزهة الأرواح وروضة الأفراح (مخطوط) ورقة ٢٨٠ : دائرة المعارف الإسلامية : مادة السهروردي .

١٢ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة السهروردي .

١٣ – ياقوت : معجم الأدباء ١٩ / ٣١٤ .

١٤ – الشهرزوري : نزهة الأرواح وروضة الأفراح (مخطوط) ورقة ٢٧٧ .

١٥ – ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٦٤١ .

١٦ – ياقوت : معجم الأباء ٣١٦/١٩ : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٦٤٦ : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢٧٠/٦ : الصفدي : الوافي بالوفيات ٣٢٠/٢ : دائرة المعارف الإسلامية : مادة السهروردي .

١٧ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة السهروردي .

١٨ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة السهروردي .

١٩ – نفس المرجع والمادة .

٢٠ – الشهرزوري : نزهة الأرواح وروضة الأفراح (مخطوط) ورقة ٢٨٠ .

٢١ – كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ص ف مقدمة الكتاب بقلم الدكتور / أحمد السعيد سليمان .

٢٢ – ياقوت : معجم الأدباء ٣١٥/١٩ – ٣١٦ : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢٧٢/٦ – ٢٧٣ : الذهبي : دول الإسلام ٩٩/٢ : دائرة المعارف الإسلامية : مادة السهروردي .

٢٣ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ص ٥٥٤ ترجمة لحياة ابن عربى ؛ ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥/١٩٠؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٢٤ .

٢٤ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ٥٥٤ – ٥٥٥ ترجمة لحياة ابن عربى ؛ ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥/١٩٠ ؛ أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ص ٥٦ ؛ بطروشوفسكى: الإسلام فى إيران ، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ ؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٣٤ .

٢٥ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٥٥ – ٦٦ .

٢٦ – ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥ / ١٩٣ – ١٩٤ .

٢٧ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ص ٥٥٥ – ٥٥٦ ، ترجمة لحياة ابن عربى ؛ أسين بلاثيوس: ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٦٦ – ٧٤ ؛ بطروشوفسكى : الإسلام فى إيران ، ص ٣٢٥ .

٢٨ – د. أبو العلا عفيفى : تصدير كتاب فصوص الحكم لابن عربى ، ص ٧ .

٢٩ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن عربى .

٣٠ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ص ٢٨٨ .

٣١ – ابن عربى : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

٣٢ – ابن عربى : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

٣٣ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٣٠٦ .

٣٤ – ابن عربى : فصوص الحكم ١/٧٩ .

٣٥ – ابن عربى : الفتوحات الكية المجلد الرابع ، ص ٥٥٥ ترجمة لحياة ابن عربى ؛ د. أبو العلا عفيفى : تصدير كتاب فصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى ، ص٦؛ أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٥٣ ؛ دائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن عربى .

٣٦ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٦٦ .

٣٧ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٦٦ – ٦٧ .

٣٨ – أسين بلاثيوس : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

٣٩ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٥٤٧ .

٤٠ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٧٠ .

٤١ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٥٤٧ .أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص٧٦ .

٤٢ – ابن عربي : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٥٤٧ : أسين بلاثيوس : ابن عربي حياته ومذهبه ، ص ٧١ .

٤٣ – ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٠٢/٥ : دائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن عربي.

٤٤ – السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٤٥/٨ .

٤٥ – الزركلي : الأعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهلية والإسلام والعصر الحاضر ٢٥٤/٦ .

٤٦ – ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١٩٦/٥.

٤٧ – عبد الرحمن بدوي : الإنسان الكامل في الإسلام ، ص ٦٤ .

٤٨ – د. عبد الرحمن بدوي : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٤٩ – الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٠٠/٢ : الزركلي : الأعلام ٢٥٤/٦ .

٥٠ – د. عبد الرحمن بدوي : الإنسان الكامل في الإسلام ، ص ١٤٧ .

٥١ – الذهبي : دول الإسلام ١٧٤/٢ حوادث ٦٧٢هـ : الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٠٠/٢.

٥٢ – بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٧ : بطروشوفسكي : الإسلام في إيران ص ٣٣٠ : دائرة المعارف الإسلامية : مادة جلال الدين الرومي : د. السباعي محمد السباعي : جلال الدين الرومي وكتابه فيه ما فيه بحث لم ينشر ، ص ٢٦ .

٥٣ – جلال الدين الرومي : المثنوي (مخطوط) بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤م تصوف فارسي : حسين مجيب المصري : تاريخ الأدب التركي ، ص ٤٠ : د. السباعي محمد السباعي : جلال الدين الرومي وكتابه فيه ما فيه ، ص ٢٦ .

٥٤ – حسين مجيب المصري : تاريخ الأدب التركي ، ص ٤٥ .

٥٥ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة سلطان ولد .

٥٦ – سلطان ولد : ولد نامة (مخطوط) بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨م أدب فارسي : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص ١١٠ : دائرة المعارف الإسلامية : مادة سلطان ولد : د. رضا خسرو شاهي : شعر وأدب فارسي دكركشور هاي همساية آسيا صغير تاسدة نهم هجري ص ٥٢ – ٥٣ .

٥٧ – بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص ١١٠ .

٥٨ – حسين مجيب المصري : تاريخ الأدب التركي ، ص ٤٦ .

٥٩ – حسين مجيب المصري : المرجع السابق ، ص ٤٦ – ٤٧ .

٦٠ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

٦١ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق والصفحة .

٦٢ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

٦٣ – د. رضا خسرو شاهى : شعر وأدب فارسى دركشور هاى همسايه آسيا صغير تاسده دهم هجرى ، ص ٥٢ .

٦٤ – حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص ٥٠ .

٦٥ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق ، ص ٥٠ – ٥١ .

٦٦ – حمزة طاهر : التصوف الشعبى فى الأدب التركى مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الثانى عشر ٢/١٢٠ ديسمبر ١٩٥٠م ، حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص ٥٢ – ٥٣ .

٦٧ – حمزة طاهر : التصوف الشعبى فى الأدب التركى مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول المجلد الثانى عشر -٢/١١٧ – ١٢٢ ، ديسمبر عام ١٩٥٠م.

٦٨ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة الترك .

٦٩ – ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ١٢٢ .

٧٠ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٣ .

٧١ – أمير آخور : قال عنه القلقشندى فى كتابه (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) ٤٦١/٥ " وهو الذى يتحدث على اصطبل السلطان أو الأمير ، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل فى حكم الاصطبلات ، وهو مركب من لفظين : أحدهما عربى وهو أمير ، والثانى فارسى وهو آخور بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها خاء معجمة ثم واو وراء مهملة ومعناه المعلف والمعنى أمير المعلف " .

٧٢ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٣ .

٧٣ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٤ .

٧٤ – ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

٧٥ – لقب الأرموى : بضم الألف وسكون الراء وفتح الميم ، هذه النسبة إلى أرمية من بلاد أذربيجان ، راجع: ابن الأثير : اللباب فى تهذيب الأنساب ٣٥/١ ؛ والسيوطى : لب اللباب فى تحرير الأنساب ، ص١٠ .

٧٦ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٤ .

٧٧ – د. عبد السلام محمود أبو ناجى : الحاصل من المحصول فى أصول الفقه ، رسالة دكتوراة لم تنشر ، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر .

٧٨ – الزركلى : الأعلام ٨/٤١ – ٤٢ .

٧٩ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٤ ؛ د. عبد الحميد على أبو زنيد : التحصل من المحصول، رسالة دكتوراة لم تنشر ، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر ، ص ١٦ ، ٢٨ ، ٢٩ .

٨٠ – الزركلى : الأعلام ٨/٤٢ ؛ د. عبد الحميد أبو زنيد : التحصل من المحصول ، رسالة دكتوراة لم تنشر، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر ، ص ٣١ .

٨١ – الزركلى : الأعلام ٨/٤٢ ؛ د. عبد الحميد أبو زنيد : التحصل من المحصول ، رسالة دكتوراة لم تنشر، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر ، ص ٣٠٢ .

٨٢ – الذهبى : دول الإسلام ٢ / ٢٢١ ؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٩/١٦٢ – ١٦٣ .

٨٣ – ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، ص ١٦٠ .

٨٤ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢/٨٢ حوادث ٦٠٠ هـ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٣/١٠٥ حوادث ٦٠٠هـ .

٨٥ – كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ص ف . مقدمة بقلم الدكتور / أحمد السعيد سليمان .

د. راوية عبد الحميد حسانين شافع (*)

التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والإسبان فى الأندلس

مقدمة:

عاشت الحضارة الإسلامية على أرض الأندلس ما يزيد على ثمانية قرون ، شاركت فيها سكان إسبانيا المسيحيين حياتهم منذ لحظة الفتح وحتى النهاية ، حدث خلالها تبادل حضارى بين كل الجانبين . ولهذا كان الهدف الأساسى لهذا البحث ليس محاولة تغليب جانب حضارى على جانب حضارى آخر ، وإنما محاولة استخراج أوجه التعاون الحضارى بين حضارتين أو شعبين فُرض عليهما - سواء سلمًا أم حربًا - أن يظلا جنبًا إلى جنب فيما يزيد على ثمانية قرون . وقد آثرت أن أتناول جانبًا واحدًا ، وهو الجانب الاجتماعى الذى ارتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة الأشخاص اليومية فى المجتمع الأندلسى .

والحقيقة أن التأثيرات الاجتماعية المتبادلة فى الأندلس بين المسلمين والإسبان كانت من أبرز التأثيرات على كافة الأصعدة . وساعد كثيرًا فى انتقالها بين طوائف وجماعات المجتمع الأندلسى على اختلاف عقائده وأفراده ، تلك الحرية والتسامح الذى انتهجه ولاة وحكام الأندلس - منذ الفتح الإسلامى وحتى النهاية - تجاه تلك الطوائف من يهود ونصارى ومستعربين حيث كانوا يمارسون أنشطتهم وطقوسهم فى حرية تامة مما ساعد على امتزاج تلك الجماعات على أرض الأندلس (1) وسهل كثيرًا فى انتقال المؤثرات والعادات فى سهولة ويسر بين كافة الطوائف .

---

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة حلوان .

وكان طبيعياً أن يحدث اختلاط وتداخل بين الشعبين فى العادات الاجتماعية بصفة خاصة، حيث توحدت أساليب الحياة بينهما إلى حد كبير ، علاوة على عدم تأفف المسلمين بسبب النقل عن الحضارات الأخرى ، وذلك بما يتناسب مع شريعتهم وعاداتهم ، فكان هذا الامتزاج الواسع الذى أفرز لنا هذا المزيج الفريد بين المسلمين والإسبان فى الأندلس كما سنوضح لاحقًا فى ثنايا البحث .

وفى البداية - مع أوائل الفتح - كان طبيعياً أن تكون الغلبة للمسلمين . أما الإسبان كأمة مغلوبة فكان طبيعيًا أن تتطلع إلى الأمة الغازية التى كانت أعلى حضارة وأرقى حياة ، وأكثر تسامحًا مما سبقها من الأمم التى عاشت على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال). وفى هذا الصدد يذكر جوستاف لوبون قائلاً : " لم يكد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالتهم المعهودة فى بناء مجتمع جديد ، واستطاعوا فى أقل من قرن أن يقيموا دولة فتية ، وأن ينشئوا المدن والقرى ، ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالدول الأخرى ، ثم شرعوا يتنافسون فى تحصيل العلوم والآداب ، وفى نقل كتب اليونان والرومان إلى اللغة العربية وينشئون المدارس والجامعات التى كانت وحدها مصدر للثقافة فى أوروبا كلها " (٢).

ورغم التفوق الحضارى للمسلمين فى القرون الأولى لدولتهم فى الأندلس إلا أن المسلمين بطبيعتهم فى هذه المرحلة كانوا مقبلين على الأخذ والعطاء من الشعوب التى اختلطوا بها بصفة عامة وفى إسبانيا بصفة خاصة ، ففى إسبانيا على سبيل المثال لم يفرضوا دينهم ولكن الأوضاع الاجتماعية الظالمة فى عهد القوط - وهم حكام إسبانيا قبل الفتح الإسلامى - دفعت بأفواج كثيرة إلى الإسلام .

ومن هنا بدأت فى الأندلس منذ اللحظة الأولى عملية امتزاج جماعى واسع النطاق بين مختلف العناصر التى أصبح الشعب الأندلسى يتألف منها مما أحدث معه تبادل حضارى واسع فى كافة المجالات . برزت منها التأثيرات الاجتماعية واضحة نتيجة لروح التسامح التى تحلى بها المسلمون تجاه أصحاب الديانات الأخرى فى شبه الجزيرة .

وهكذا نتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة ، وصلت إلى الفكر الأوروبى المجاور وأثرت فيه ، فقد تغلغل الفتح الإسلامى لإسبانيا فى الحياة الإسبانية وترك فيها آثاراً عميقة مازالت تتراءى لنا مظاهرها بوضوح إلى اليوم فى اللغة والمجتمع بل وبعض العادات والتقاليد، التى يستطع لم المجتمع الإسبانى رغم مرور تلك السنوات التخلص منها نهائيًا(٣) .

وسوف نرى من خلال البحث أن هذا المزيج قد أخرج لنا مجتمعًا فريدًا فى العالم الإسلامى على عصره من حيث التداخل الاجتماعى الواضح بين كافة طوائف المجتمع الأندلسى .

أهم مجالات التبادل الحضاري الاجتماعي:

أولاً : الأعياد :

كانت الأعياد الإسلامية في الأندلس حافلة بالنشاط ومن أهمها عيد الفطر وعيد الأضحى ، فضلاً عن الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، وتقام فيها الاحتفالات الدينية وغير الدينية التى يحضرها الرجال والنساء والأطفال (٤). وخلاف الأعياد الدينية الخاصة بالمسلمين هناك أعياد أخرى وطنية كان يشارك فيها أهل الأندلس مجتمعين رجالاً ونساءً مسلمين ومسيحين مثل عيد العصير ، ويكون عيد جنى محصول العنب فى جو يسوده الغناء والمرح والرقص ، حيث كانوا يرتدون فى هذا اليوم أبهى ثيابهم وأجملها (٥).

وكانت مناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف في الأندلس مناسبة خاصة ، حيث يتبادل أهل الأندلس فيه الهدايا والحلوى ، وقد اقتبس أهل المغرب عن أهل الأندلس الاحتفال بهذا العيد وطوروا فيه بحيث أصبحت له صبغة أكثر رسمية وذلك فى وقت متأخر حوالى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) (٦).

أما عن مشاركة المسلمين لنصارى الأندلس فى أعيادهم فالثابت تاريخيًا أن المسلمين شاركوا النصارى المعاهدين والمستعربين الذين عاشوا فى ظل الحكم الإسلامى فى أعيادهم واحتفالاتهم ، وهذا من دلائل سياسة التسامح التى اتبعها المسلمون نحو أهل الذمة بالأندلس(٧).

كذلك احتفل المسلمون والمسيحيون بأعياد النصارى وخاصة أن أعياد النصارى تأتى بصف منتظمة وفق التقويم الميلادى أى فى نفس الوقت من السنة الميلادية فكان لها ميعاد ثابت . ومن هذه الأعياد الاحتفال بيوم ميلاد السيد المسيح عليه السلام (عيد الميلاد) أو عيد رأس السنة الميلادية فى الأول من يناير ، وخميس إبريل(٨) (أو خميس العهد)(٩) .

وهناك أيضًا عيد العنصرة(١٠) أو عيد المهرجان أو عيد سان خوان (عيد ميلاد سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام) وهو من التأثيرات الفارسية التى دخلت الأندلس(١١) وعنهم

أخذه النصارى والمسلمون ، مشاركين الفرس في الاحتفال به ، وكان يحتفل به في الأندلس في الرابع والعشرين من يونية ، وكان الاحتفال به يتم عن طريق إشعال نار كبيرة وإيقاد بعض الشموع ، وكان المسلمون يذهبون لرؤية هذا المنظر ومشاركة النصارى في احتفالاتهم(١٢).

وقد تمثلت التأثيرات المسيحية على المسلمين في الأندلس في اتخاذهم يوم الأحد يوم عطلة رسمية لهم وذلك تشبهًا بالنصارى والمعاهدين والمستعربين ، حيث كانت تتعطل في هذا اليوم المصالح الحكومية ، وكان أول من سن هذا التقليد قومس بن انتنيان (كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) - (٨٥٢ - ٨٨٦م) وظل هذا التقليد متبعًا في عهد المنصور بن أبي عامر (٣٢٨ - ٣٩٢هـ) (٩٤٠م - ١٠٠٢م) وطوال عصر الطوائف(١٣) وحتى دخول المرابطين إلى الأندلس .

ويذكر العزفي في " الدر المنظوم " أن مسلمي الأندلس كانوا يقلدون النصارى في الاهتمام بشراء الفاكهة وأنواع معينة من الأطعمة ويتبادلون الهدايا ، وأن أهم هذه التأثيرات المتبادلة بينهم كانت في الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح وذلك بسبب ما انتشر واعتقده الأندلسيون وخاصة المسلمون بأن من يحتفل بهذا اليوم يكون عامه الجديد مليء برغد العيش وسعة في الرزق وبلوغ الأمل(١٤) . ولاشك في أن اعتقاد مسلمي الأندلس في هذه الأشياء جاء تبريراً لمشاركتهم نصارى الأندلس في احتفالاتهم بهذه المناسبة الكبيرة .

ويعلل العزفي في موضع آخر مشاركة المسلمين للنصارى في أعيادهم بتأثير الجوار لهم ومخالطتهم لتجارهم ، وعلاقات المودة والتسامح بينهم (١٥) . ويضيف العزفي سببًا آخراً لانتشار هذه العادة (أي مشاركة النصارى في أعيادهم) بين المسلمين وهي ضغط نساء الأندلس على الرجال في الاستعداد للاحتفال وتفخيم هذه الاستعدادات ورضوخ الرجال حتى أصبحت هذه العادات راسخة لدى المسلمون (١٦).

وقد أنكر بعض المؤرخين المسلمين بالأندلس مشاركة المسلمين للنصارى في أعيادهم واعتبروها بدعة . وعلى رأس هؤلاء الطرطوشي في كتابه " الحوادث والبدع " حيث يقول : "ومن البدع اجتماع النساء بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان (أي في ليلة القدر) وكذلك على إقامة يناير (رأس السنة الميلادية المسيحية) بابتياع الفواكه كالعجم (أي نصارى إسبانيا) وإقامة العنصرة ، وخميس إبريل ، بشراء المجنبات(١٧)

والإسفنج وهي من الأطعمة المبتدعة وخروج الرجال جميعًا أو أشتاتًا مع النساء مختلطين للتفرج وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلى ، ويقيمون في الخيم للتفرج ، لا للصلاة، ودخول الحمام للنساء مع الكتابيات – أي المسيحيات واليهوديات – بغير مئزر ، والمسلمين مع الكفار في الحمام ، والحمام من البدع ومن النعيم " (١٨).

ورغم اعتراض الفقيه والمؤرخ الأندلسي الطرطوشي على مشاركة المسلمين للمسيحيين وغيرهم في أعيادهم واعتبارها نوعًا من البدع ، نرى عدم الاكتراث من جانب الأندلسيين ونراهم يأخذون كافة الاستعدادات لمشاركة إخوانهم النصارى في أعيادهم . فقد أصبحت هذه الأعياد أعياداً قومية تشارك فيها كافة طوائف الشعب أكثر منها أعياداً دينية . والذي يشاهد الاحتفالات الإسبانية الحالية في كثير من المناسبات الخاصة بهم لا يفرقها كثيراً عما كان يحدث في الماضي إبان دولة الإسلام هناك . فتذكر المؤرخة الفرنسية راشيل أرييه Rachil Arie عن الاحتفالات الغرناطية زمن المسلمين وتقول : " إن الاحتفالات الغرناطية زمن المسلمين كانت تستغرق زمنًا طويلاً من الليل ، فالساهرون في شوارع غرناطة كانوا يجتمعون متجمهرين يتجولون في طرقاتها ويتراشون بالماء المعطر ويتقاذفون بثمار البرتقال والليمون وباقات الأزهار ، وغنائهم وضجيجهم هذا كان يزعج النساك في مضاجعهم ممن يسهرون للخلوة والتعبد (١٩). وما أشبه اليوم بالبارحة فما تذكره أرييه هنا يذكرنا بعيد إسباني يحتفلون به كل عام في وقتنا الحالي وهو أن يتقاذف الناس في هذا العيد بثمار الطماطم .

ومازالت إسبانيا الحديثة متأثرة إلى اليوم بمصارعة الوحوش التي تعرف اليوم بمصارعة الثيران وهي من التأثيرات الأندلسية التي مازالت باقية إلى اليوم (٢٠). وتشير الرواية الإسبانية المسيحية إلى أن الموريسكيين (وهم المسلمون الذين ظلوا في الأندلس بعد سقوطها تحت الحكم المسيحي الإسباني ولكنهم ظلوا مسلمين متمسكين بعقيدتهم إلى أن أجبروا على التنصر فيما بعد) استمروا بعد سقوط الأندلس في أيدي النصارى الإسبان يواصلون الاحتفال بيوم عاشوراء ، وكان يقومون بصومه (٢١).

ثانيًا : فن الغناء والموسيقى :

كان للموسيقى الأندلسية تأثير كبير على مسيحي إسبانيا ، كما كان للتراث الإسباني الموسيقي تأثير واضح على الموسيقى الأندلسية كما سنوضح لاحقًا . وقد وضح هذا التأثير المتبادل بشكل كبير في مجال فن الغناء والموسيقى ، حيث بدأ في الأندلس هذا المجال

بتأثيرات مشرقية وردت إلى الأندلس ثم ما لبث أن اتخذت صورة محلية تجلت بشكل كبير فى الموشحات الأندلسية .

فبعد ظهور الموشحات والأزجال ، أو ما يعرف بالشعر الشعبى الأندلسى أصبح للموسيقى الأندلسية تأثير واضح على الموسيقى الأوروبية بشكل عام وعلى الإسبان وخاصة فى الشمال الإسبانى المسيحى بشكل خاص (٢٢). ويذكر بروفنسال Provencal أن فن الموسيقى والغناء وما يصاحبهما من حركات راقصة كان أكثر وسائل اللهو شيوعًا فى الأندلس ، فلم تكن تخلو منهم المجالس التى يعقدها علياء القوم بصفة خاصة بمدينة قرطبة Cordoba وغيرها (٢٣).

أما عن تأثير الشمال الإسبانى على فن الغناء والموسيقى الأندلسية ، فقد ساهمت النساء الجليقيات المجلوبات من الشمال الإسبانى إلى الأندلس فى نقل كثير من المؤثرات الحضارية الأندلسية ، وعلى رأسها فن الغناء والموسيقى ، إذ ساهمن فى إثراء فن الموشحات رغم كونه منتجًا أندلسيًا صرفًا ، من حيث اعتماد مؤلف الموشحات الأندلسى على الأغانى الرومانثية القديمة ، التى أتى بهؤلاء النسوة الجليقيات من بلادهن ، حيث كن يعزفن تلك الأغانى القديمة ويتغنين بها مما حدا بالوشاح الأندلسى العمل على تطويرها واستخلاص فن جديد أندلسى قلبًا وقالبًا (٢٤). ويضيف بروفنسال حول امتداد هذه التأثيرات بين الأندلسيين والإسبان قائلاً: " يخيل إلينا أن الراقصات الأندلسيات اللاتى نراهن اليوم ينشرن فى الآفاق الأنوار الغنائية المعروفة بإشبيلية ، ومالقة ، ورندة ... وغيرها ، على دقات الصنوج ، ما هن إلا سليلات لفتيات قادس Codiz (٢٥). اللاتى استطعن أن يحملن برقصهن وصلصلة صنوجهن الأغانى العذبة الأندلسية إلى آفاق بعيدة " (٢٦).

والأكثر من هذا هو أن بعض الفتيات من سبى نصارى شمال الأندلس كن يذهبن إلى المشرق الإسلامى ، ويتعلمن فن الغناء والموسيقى حتى يبرعن فيه ، ثم يعدن مرة أخرى إلى الأندلس ، وربما عدن أيضًا إلى بلاط ملوك نصارى شمال إسبانيا ، وهو شىء معقول إذا عرفنا أن كثيرًا من المغنين والموسيقيين المسلمين كانوا يذهبون إلى نبرة وقشتالة وليون وأرجون ابتداء من عصر دول الطوائف بعد أن تجزأت الدولة الأموية وأصبحت بدل قرطبة عدة قرطبات ، وتهافت ملوكها على الشعراء والموسيقيين والمغنيين الذين كان يوجد من بينهم بعض النصارى والمستعربين ، أن التأثير كان متبادلاً ، ولدينا شواهد كثيرة تدل على ميل نصارى الشمال إلى أغانى العرب وموسيقاهم(٢٧) سيلى ذكرها لاحقًا .

أما عن تأثير فن الغناء والموسيقى الأندلسي على نصارى إسبانيا فقد كان للأندلسيين فضلاً كبيراً في انتشار هذا الفن بين طبقات الشعب الإسباني وجميع طوائفه ، فيذكر ترند "أن العادات الإسلامية الموسيقية مازالت موجودة في الموسيقى الإسبانية والأوروبية ، مثال طريقة العزف المعروفة باسم Zambra (أو بالعربية زُمرة) وكلمة Zaeta أي الصيت ، وتطلق على المغني المنفرد في أعياد الميلاد المسيحية ، وسلوك السامعين عند سماعهم الغناء والموسيقى لم يتغير حيث يقاطعون العازف أو المغني معلنين إعجابهم بقولهم Ole Ole (أي الله الله) حتى أن كلمة يا ليل نا LeLi LeLi أخذها الإسبان عن مسلمي إسبانيا الأندلسيين(٢٨). ويضيف بروفنسال حول هذه الحفلات قائلاً : لقد كانت الحفلات الإسلامية مثار إعجاب شعوب وملوك الشمال الإسبان ، وكانت هذه الحفلات - كما سبق وأشرنا - تعرف باسم زمرة Zambra . وهي عبارة عن فرقة موسيقية يصحبها المغني أو المغنية وعواد وزامر وطبال وصاجات وراقصون (٢٩). ويضيف أستاذي الدكتور / العبادي أن هذه الزمرات لازالت توجد إلى اليوم لدى غجر إسبانيا في الشمال والمعروفون باسم Jitanos (٣٠).

ويذكر ابن بسام في كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " أن مسيحي الشمال الإسباني اتخذوا بعضاً من العادات الإسلامية ، ومن بينها أن تكون لهم فرقة من الموسيقيات والمغنيات ، حيث يشير أبو محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني : أنه شهد بنفسه يوماً مجلس " لسيدة مسيحية إسبانية " وهي بنت شانجة ملك البشكنس ، وزوج شانجة بن غرسية الذين ترددوا عليه في الفتنة التي حدثت عام ١١٣٢م - ٥٢٧هـ . وكان في المجلس عدة فتيات مسلمات من اللاتي وهبهن له سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين (ت ٤٠٧هـ / ١٠١٦م) أيام إمارته بقرطبة ، وأشارت ابنة شانجة إلى إحدى الجواري في تلك الفرقة الموسيقية فأخذت العود وغنت وأحسنت (٣١).

ومن الأبيات الشعرية التي غنتها الجارية الأندلسية في حضرة الأميرة الإسبانية هذه الأبيات التي أوردها ابن بسام ومنها :

خليلي ما للريح تأتي كأنما

يخالطها عن الهبوب حلوق

أم الريح جاء من بلاد أحبتي

فأحسبها ريح الحبيب تسوق

سقى الله أرضاً حلها الأغيد الذى

لتذكاره بين الضلوع حريق

أصار فؤادى فرقتين فعنده

فريق وعندى للسياق فريق (٣٢).

وتدعم تلك الأبيات الشعرية رأينا فهم مسيحى إسبانيا للشعر والموسيقى الأندلسية والاستمتاع بهما . ويؤكد هذا ما ذكره ابن بسام أيضًا فى معرض حديثه عن سقوط مدينة بربستر(٣٣) Barbastro الإسلامية . فقد كان نصارى الشمال الإسبانى يفهمون جيداً الغناء الأندلسى ، ويطربون له ، فبعد سقوط مدينة برشتر فى أيدى النصارى عام (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) طلب أحد قواد المدينة من إحدى الجوارى الأندلسيات المسلمات اللاتى تم سبيهن عقب سقوط المدينة بأن تمسك بعودها وتغنى ، وكان مع هذا القائد النصرانى ضيف من اليهود المستعربين ، جاء إلى هذا القائد ملتمساً فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهل المدينة ، ورغم أن اليهودى لم يفهم شيئًا من الأشعار التى غنتها الجارية - على حد تعبير ابن بسام - إلا أن النصرانى طرب وأظهر هذا الطرب لما سمعه من الموسيقى والأغانى الأندلسية(٣٤).

وفى كتاب أناشيد الفونسو العاشر Alfonso X صور يظهر فيها موسيقيون مدجنون ومسيحيون يمسكون بآلاتهم الموسيقية ، وبعض الآلات الوترية الممثلة فى الرسم ، تبدو محدثة وتختلف بعض الشىء عن الآلات الوترية الإسلامية المعروفة . وفى السقف الخشبى بكاتدرائية ترويل صوراً لأفراد يلبسون ثياباً مدجنة ومعهم آلة موسيقية . كما تظهر على صفحة من مخطوطة مسيحية يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) صورة امرأة ترتدى زى المدجنات تعزف على الجنك . وهناك نقش بارز مدجن الطابع يتمثل فى تابوت يرجع تاريخه إلى سنة ١٣٩٠م / ٧٩٣هـ . وكان محفوظًا فى دير نويسترا سنيورة ذى بيدرا يحمل صوراً تمثل موسيقيين (٣٥).

هذا قد أثر الشعر الغنائى الأندلسى والوشحات والأزجال الأندلسية على شعر التروبادور(٣٧) Trowbadours والتروفير والشعراء الأوروبيين المنشدين المعروفين فى اللغة القشتالية باسم Las Jughares (٣٧).

وقد تأثرت الموسيقى الأندلسية وخاصة موسيقى الصقالبة[٣٨] بالنصارى والرهبان المسيحيين وبتراتيلهم الموسيقية التى يؤدونها فى الكنائس ، فنفهم من نص أورده الطرطوشى عن الألحان والرقصات الخاصة بالصقالبة ، أنه كان لهم ألحان خاصة بهم ويقول الطرطوشى " ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعاً فقالوا : اللحن الصقلبى فإذا قرأوا قوله تعالى :{ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [٣٩] يرقصون من هذه الآية الكريمة كرقص الصقالبة بأرجلها . وفيها الخلاجيل - الجلاجل - ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل ويرجعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدى، ورقص الأرجل وكل ذلك على نغمات متوازنة [٤٠].

وقد كان الصقالبة ينظرون إلى كل موضع فى القرآن الكريم يأتى فيه ذكر النبى عيسى بن مريم عليه السلام كقوله تعالى "[إنما المسيح عيسى بن مريم][٤١] وقوله تعالى { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}[٤٢] فيمثلون أصواتهم فى قراءة القرآن على أصوات النصارى والرهبان والأساقفة فى الكنائس بإيقاعات راقصة [٤٣].

وهكذا حتى قراءة القرآن دخلتها الألحان والموسيقى تأثراً بالتراتيل التى يغنيها المسيحيون فى كنائسهم حيث يضيف الطرطوشى بأن هذه البدع فى استحداث الألحان والرقصات فشت بصورة كبيرة ، حتى إن الجوارى كن يتعلمن قراءة القرآن الكرم بالألحان والموسيقى ويتعلمن ذلك كما يتعلمن غنائهن للقصائد والأشعار .

ويتعجب الطرطوشى بشدة متسائلاً : هل هذه القراءة هى التى يقرأها الرسول ﷺ [٤٤] وبالطبع ليست هى ولكنها التأثيرات الإسبانية المسيحية التى دخلت على المسلمين حتى فى أدق تفاصيل عباداتهم بحكم الجوار بين الطرفين .

ويضيف أستاذى الدكتور / أحمد مختار العبادى حول ألحان الصقالبة السابقة الذكر ويقول : ربما كانت هذه الألحان هى الإرهاصات الأولى لما يعرف اليوم بالرقص الإسبانى الحديث المشهور بالفلامنكو Flamenco[٤٥] ومن هنا يتضح أن هذا التأثير مازال واضحاً إلى اليوم فرقصات الفلامنكو الإسبانية الحديثة ما هى إلا طوراً من أطوار الموسيقى والرقصات الإسبانية الأندلسية [٤٦].

أما عن آلات الموسيقى فيعتبر الجيتار الأوروبى فى عصرنا الحالى متطورة ومشتقة فى الأصل من العود الأندلسى .

وهناك الكثير من الآلات الموسيقية التى مازالت تحمل اللغة الإسبانية أسمائها العربية إلى اليوم مثال الجيتار أو القيثارة Guitarra ، والرباب Rabal والنفير Anafil والبنير Pan-dera والصنج Sanajas والطبل Tambal والدف أو المزهر Adufe والعـــود Aloud أو Lut (٤٧) وهذه الأسماء التى مازالت إلى اليوم فى اللغة الإسبانية خير شاهد على تأثير فن الغناء والموسيقى الأندلسية ، على إسبانيا قديمًا وحديثًا . ومن هنا نقول أن الموسيقى الأندلسية الراقية ستظل النبع الذى لا ينضب على مر الأجيال ينهل منه عشاق الذوق الرفيع ، والطرب الأصيل ، فمازالت إلى اليوم الموشحات الأندلسية تمثل الذوق الراقى ، فهو تراث عريق تركته حضارة عريقة فى أزهى عصورها فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ورغم أن الدول دالت واندثرت تظل الموسيقى الأندلسية واحدة من أبرز المؤثرات الحضارية التى خلفتها تلك الحضارة العريقة .

ثالثًا : الزى والحلى والأسماء واللغة وغيرها :

أ - الزى :

أدت العلاقات المستمرة بين المسلمين والمسيحيين بحكم الجوار والتداخل الحضارى ، أن يستخدم كلا الجانبين الأشياء نفسها من الأقمشة والأثاث وأدوات الزينة والحلى ، ولقد قام المستعربون واليهود بدور الوسيط بين شمال إسبانيا والأندلس فى الجنوب (٤٨).

وفى البداية خاصة فى أوائل الفتح الإسلامى للأندلس كان للمسلمين زيهم الخاص بهم ، حيث كانوا يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ، ويتنكبون القسى ، وكانوا يلبسون العمائم ، وبمضى الوقت كما يذكر ابن الخطيب صاروا يتشبهون بالنصارى فى أزيائهم وأسلحتهم ، يلبسون الدروع ويغوصون فى الزرد ، ويقتنون سيوف بوردو - بلدة فى فرنسا - وقسى الأفرنجة ، التى كانوا يتدربون عليها طوال الوقت ، وتركوا العمائم ، وصاروا يلبسون الكمة الهندية .

أما أمراء المسلمين وشيوخهم وقضاتهم فكانوا يلبسون القلانس ، ويتجنبون العمائم ، ويلبسها إلا ما شذ منهم (٤٩).

ويذكر بروفنسال Provencal أن تأثير المسلمين على الإسبان فى مجال الزى كان واضحًا وذلك اعتبارًا من القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، حيث دخلت أزياء قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة وسرقسطة الإسلامية فى دور أمراء المسيحيين فى شمال البلاد ، وكانت سفارات

ملوك نبرة وليون وقشتالة وبرشلونة تفد إلى بلاط قرطبة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م) . وخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) وابن أبي عامر (٣٢٨ - ٣٩٢هـ / ٩٤٠ - ١٠٠٢م) وابنة عبد الملك المظفر (ت٣٩٩هـ/١٠٠٩م) وتعود محمَّلة بأفخر الملابس والأزياء والهدايا والتحف وغيرها (٥٠). وقد جاء في النصوص التاريخية التي نقلت لتلك الفترة أن ملوك إسبانيا في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانوا يرتدون من ثياب المسلمين ، ويقلدونهم في اتخاذ الفُرش المستخدمة للجلوس ، وقد حدث عندما فُتح التابوت الذي كان يحتوي على رفات السيد القمبيطور ، بعد ذلك بمدة طويلة وفي أيام الإمبراطور شارلمان سنة ١٥٤١م / ٩٤٨هـ على وجه التحديد ، أن وجدت جثته ملفوفة في رداء عربي ومعها سيف ورمح ، وق عاش القمبيطور في القرن الخامس الهجري ، وكان يعيش مع المسلمين والنصارى ، فلا غرابة في اتخاذه الملابس العربية عندما كان حيًا أو تكفينه بها بعد وفاته (٥١). وقد تأثرت الأزياء الإسبانية بالأزياء الأندلسية تأثرًا كبيرًا فيذكر هنري بيرس Henere Pérès أن الكنابيش cum-bux(٥٢) مازالت تستخدم إلى اليوم في الريف الإسباني وبخاصة في الريف الجنوبي "الأندلس" وفي شرق إسبانيا أيضًا حيث التأثير الإسلامي مازال باقيًا في أزيائهم إلى يومنا هذا (٥٣).

وقد انتقل التأثير الإسلامي إلى داخل مقاطعة روسيليون Roussillon بجنوب فرنسا وهي من الحدود المشتركة بينها وبين إسبانيا ، حيث وجد هناك الزنار ، Zarion وهو الذي تحكم به السراويل Zaraguelles حيث تم نقله عن نساء المسلمين بالأندلس ومازال هذا التأثير أيضًا باقيًا إلى اليوم (٥٤).

ومن التأثيرات الإسلامية في مجال الزي تأثر صناعة النسيج في إسبانيا النصرانية بمثيلاتها في الأندلس الإسلامية ، حيث تدل قطع النسيج التي عثر عليها في الكنائس على ذلك، فهناك البطانة الموجودة في صندوق العاج الذي أهداه الملك فردينانتو الأول لكنيسة سان أيسيدور لحفظ سان خوان باتستا ، وسان بلامون سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م ، والنسيج عبارة عن قطعة به صور طيور وحيوانات ذات أصل عربي وعليه كتابة عربية لعل قراءاتها كالتالي :

" النفع نخرًا لمن أراد العالم الآخر "

مما يدل على أنها نُسجت صراحة لغرض كنسي بأيدي خلفاء أولئك المستعربين من نساجي الملك الذين كان أواهم ألفونسو الخامس عام ٤١٦هـ / ١٠٢٤م(٥٥).

وهكذا نرى تأثر مسيحى إسبانيا بالأزياء العربية وخاصة فى أوج مجد الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، بل إن أوروبا المسيحية جميعها وليس إسبانيا فقط ، شغفت بتلك الملابس الأندلسية شغفًا شديداً ، حتى أن عظماء وملوك المسيحيين من كثرة إعجابهم بالمنسوجات الأندلسية ، وضعوا بعد موتهم فى أكفان نفيسة من صناعة نسيج المرية Alme-ria(٥٦) مثل الأمير دون فيليب وزوجته والمؤرخ دون رودريجو خيمنث دى رادا وغيرهم (٥٧).

أما مع نهايات الحكم الإسلامى فى مملكة غرناطة نجد أن التأثير المسيحى فى الزى بدأ يفرض نفسه ، ويتضح هذا مع دخول مصطلحات جديدة على الأزياء الأندلسية ، بوجه عام ، إلى أن اندثر الزى الإسلامى بصفة نهائية مع صدور القرارات المسيحية التى فرضت على المسلمين الموريسكيين(٥٨) نساءً ورجالاً الالتزام بارتداء الزى المسيحى والتخلى عن الزى الإسلامى الخاص بهم .

هذا وقد لاحظ ابن خلدون فى مقدمته أن الزى الأندلسى على أيامه قد تأثر بزى الشعوب المسيحية المجاورة ، حيث أن المغلوب دائمًا مولع بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائدهم وأحوالهم " (٥٩).

وقد برز هذا التأثير المسيحى بصورة واضحة فى زى أهل مدينة غرناطة ، فى نفورهم من العمامة التقليدية للخاصة والعامة وتفضيلهم للقلنسوة . كما يبدو من الصورة التى وجدت للأمير أبى عبد الله محمد الصغير آخر ملوك غرناطة ، حيث تصوره وهو يرتدى قلنسوة مسيحية عالية (٦٠).

ورغم تأثر المسلمين فى أواخر عهدهم بالأندلس بالأزياء المسيحية إلا أن الأقمشة الغرناطية التى كانت تنتجها مصانع غرناطة وتعرف باسم جريناَدين Grenadine وعرفت واشتهرت بهذا الاسم فى المتاجر الأوروبية ظلت لوقت طويل تحمل اسم المدينة الإسلامية العريقة (٦١).

وقد كان من عادة سلاطين غرناطة تقديم هداياهم أيام دولتهم من منسوجات المدينة إلى ملوك أوروبا ، وكان هذا الإنتاج الغرناطى يحوز إعجاب وتقدير ملوك أوروبا وإسبانيا المسيحية(٦٢).

وفى نهاية هذه العجالة الخاصة بالزى نشير إلى بعض أسماء الملابس العربية التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية ومازال تستعمل حتى يومنا هذا ومنها كلمة جلابية Ghilaba وقميص Camisa وسروال Zaraguelle (٦٣) القطيفة Alcatifa (٦٤)، وغيرها .

ب – الحُلى :

كان معظم المشتغلين بصناعة الحُلى فى مدينة قرطبة – حاضرة الخلافة الأموية – من اليهود ، وقد كانت الحلى تصاغ على طريقتين إما الأسلوب القوطى الذى ظل يحتفظ به النصارى الإسبان ، أو الأسلوب المشرقى وخاصة الطراز العراقى (٦٥).

ويضيف بروفنسال عن الحلى الأندلسية والتأثيرات التى طرأت عليها ويقول ، إنها فى البداية خضعت للتأثيرات الإسبانية القوطية القديمة ، إلى أن بدأ تدفق الطرق التجارية فظهرت عليها التأثيرات العراقية والإيرانية بصورة أكبر(٦٦) وهو ما يدعم ما تنادى به من خلال هذا البحث فى عدم تركز الحضارة فى موطن معين ، بل تنقلها فى مشارق الأرض ومغاربها من قديم وإلى النهاية .

فلا توجد حضارة تقوم وتبتكر بذاتها لابد لها أن تتأثر بالحضارات السابقة عليها ثم تبدع وتبتكر الجديد تبعًا لقيام أهلها بها ، وهذا ما حدث مع الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى أخذت وأبدعت وأخرجت لنا خصائص جديدة تميزت بها فى سائر العصور .

ونتيجة لهذا التجديد والابتكار الذى تفردت به الحضارة الإسلامية فى الأندلس فى مجال الحُلى ، احتلت مدينة قرطبة مكانة عالية ، وتفوقت على بيزنطة فى صناعة الحلى والجواهر وذلك فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) (٦٧).

وقد كانت نساء الشمال الإسبانى يحرصن حرصًا كبيرًا على اقتناء بعض قطع الحُلى الإسلامية، ومن هذا ما حدث مع عقد الشفا أو الشبا المنسوب إلى السيدة زبيدة بنت جعفر زوجة الخليفة هارون الرشيد ، والذى دخل إلى الأندلس واشتراه الخليفة عبد الرحمن الأوسط لإحدى زوجاته . وكان هذا العقد من الأشياء التى نهبت من بغداد فى إبان الفتنة والحروب التى قامت بين الأمين والمأمون (٦٨) ويبدو أن هذا العقد الثمين حظى على شهرة واسعة مما جعل إحدى ملكات إسبانيا المسيحية تحرص على اقتنائه (٦٩).

جـ – اللغة :

يذكر ترند تأثير اللغة العربية على اللغة الإسبانية وغيرها ويقول : إن المفردات العربية التى دخلت إلى اللغة الإسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الإسبانى ، بينما دخلت إلى البرتغال حوالى ثلاثة آلاف كلمة (٧٠). ويضيف ترند أن أسماء الجبال والتلال والجزر والشواطىء

الرملية والأنهار والبحيرات والينابيع الحارة ، والسهول والحقول ، والغابات والحدائق ، والأزهار والأشجار ، والكهوف والمناجم ... إلخ . كل هذه أصبحت أعلامًا جغرافية مأخوذة عن العربية (٧١).

ومن هنا نبرز تأثر مسيحى الأندلس باللغة العربية تأثرًا كبيراً ، حيث دار صراع فكرى كبير بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت حركة الاستشهاد المسيحى فى قرطبة فى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، ما هى إلا رفضًا للثقافة الإسلامية الطاغية ، ويبرز ذلك فى شكوى القس الفارو - وهو من زعماء حركة الاستشهاد ومن كبار المحرضين عليها - وغيره من القسس من إقبال مسيحى الأندلس على الأدب والثقافة العربية وإهمالهم الثقافة والأدب اللاتينى ، حتى أن الواحد منهم كان لا يستطيع أن يكتب رسالة باللغة اللاتينية بينما كان يتبحر فى دراسة اللغة العربية وآدابها(٧٢). ولم تقتصر الشكوى من زحف اللغة العربية على المسيحيين بل امتدت إلى يهود الأندلس ، فقد أعلن ابن جبريول (٤١١ - ٤٦٢هـ / ١٠٢١-١٠٧٠م) شكواه ضد بنى نحلته من اليهود ، من أهل مدينة سرقسطة ، وأخذ يتحسر على انصرافهم عن لغتهم المقدسة (ويقصد هنا اللغة العبرية) إلى اللغة العربية ، وأطلق عليهم تسمية الجماعة العمياء ، إذ كان بعض اليهود يتكلمون - على حد تعبيره - لغة إيديوم Edom أى عجمية أهل الأندلس ، وبعضهم يستعمل لغة كيدار Kedar أى اللغة العربية ، وقد حاول بعض اليهود الذين أعلنوا سخطهم على اليهود المتكلمين باللغة العربية وتفضيلها على اللغة العبرية أن يثبتوا أن لغتهم العبرية لا تقل ثروة وجمالاً ، فأقبل بعضهم على ترجمة مقامات الحريرى إلى اللغة العبرية (٧٣) . فى محاولة لجذب يهود الأندلس بعيداً عن اللغة العربية وإلحاقهم بلغة اليهود العبرية .

وعلى الجانب الآخر بين مسلمى الأندلس فقد كان كثير من أدباء قرطبة وغيرها من حواضر الأندلس يعرفون اللغة اللاتينية أو لهجاتها الأخرى التى عرفت فى إسبانيا المسيحية باللهجات أو اللغات القشتالية والبرتغالية والقطالونية وجميعها مشتقة من اللغة اللاتينية (٧٤).

وقد تأثرت هذه اللهجات الإسبانية باللغة العربية حيث دخلت فيها آلاف آلاف من الكلمات العربية ، حيث كانت بلاد الأندلس وطنًا تتعايش على أرضه اللغة العربية واللاتينية وأصبح الناس هناك يتكلمون إلى جانب اللغة العربية التى كانت اللغة الرسمية للبلاد ، يتكلمون رطانة لاتينية دارجة يسميها ابن حزم باللطينية ، ويصفها البعض بعجمية أهل الأندلس ، وكانوا

يستخدمونها فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم ، بل إنها كانت شائعة فى بلاط الخلفاء أنفسهم [٧٥].

ومن التأثيرات الإسبانية الواضحة على اللغة العربية اقتصار استعمال اللغة العربية الفصحى على الأدب والمكاتبات الرسمية ، وتأثرت اللغة العربية العامة كثيراً بسبب المجاورة والمخالطة للإسبان ، فقد كان الأندلسيون يكثرون من الإمالة والترقيق والتفخيم ، وقد أشار ابن حزم إلى ذلك عندما تحدث عن أهل قبيلة " بلى " إلى الشمال من قرطبة وقال أنهم لا يحسنون الكلام باللطينية وكأن الكلام بعجمية أهل الأندلس شيئًا عاديًا ، وهو مد يعنى تأثر اللغة العربية باللغات المحلية الإسبانية كثيراً فى الأندلس .

ويعلل ابن حزم ذلك قائلاً : " وهكذا فى كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل تلك البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً يخفى على من يتأمله " [٧٦].

هذا وقد تأثرت الأسماء الأندلسية العربية باللغة الرومانسية الإسبانية حيث كان الاسم دائمًا ما ينتهي بالحرفين واو ونون مثل عمر (عمرون) وزيد (زيدون) وحفص (حفصون) ، ونزهة (نزهون) ... إلخ . وهو تأثير محلى إسبانى ، فمن المعروف أن حرفى on فى آخر الكلمة الإسبانية تدل على التعظيم والتضخيم والتكبير [٧٧].

وفى نهاية هذه النقطة ورغم التأثيرات الإسبانية الواضحة على اللغة العربية ظل مسلموا الأندلس متمسكين بلغتهم العربية فى محاولة أخيرة منهم للتمسك بهويتهم العربية الإسلامية إلى آخر لحظة لوجودهم فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، يبرز هذا من خلال وثائق الألخميادا وهى اللغة الرومانثية القشتالية القديمة Romana Castella (أى الإسبانية) ولكن مكتوبة بحروف عربية ولذا سميت أعجميات ، وقد ظهرت هذه اللغة بين مسلمى الأندلس أو الموريسكيين فى ظل حركة التنصير القسرى كمحاولة منهم للتمسك بماضيهم العريق [٧٨].

د - النظافة والذهاب إلى الحمامات :

وقد امتنع نصارى إسبانيا مشاركة منهم لجيرانهم مسلمى الأندلس عن كثير من العادات المسيحية واتخذوا فى عاداتهم الكثير من العادات الإسلامية ، فامتنعوا عن أكل لحوم الخنازير، وقاموا بختان أولادهم مثل المسلمين ، واتخذوا كثير من الأسماء العربية [٧٩]. ومن العادات الإسلامية التى تأثر بها مسيحى إسبانيا من المسلمين عادة النظافة بالذهاب إلى

الحمامات العامة ، فتلك عادة إسلامية الأصل ، فقد كان النصارى الإسبان قبل دخول المسلمين الأندلس لا يغتسلون فى العام غير مرة واحدة أو مرتين بالماء البارد ولا يهتمون كثيراً بنظافة ثيابهم وغيرها من العادات (٨٠).

وقد كان المسلمون مع دخولهم الأندلس قد قاموا بإنشاء العديد من الحمامات العامة للرجال والنساء ، ولكن مع نهاية الحكم الإسلامي اندثرت هذه العادة مرة أخرى نتيجة لتشدد الكنيسة ورجال الدين المسيحيين ، ضد كل ما هو إسلامى ، وبخاصة عادة الاستحمام ، حتى تلاشت من إسبانيا بصفة نهائية فى القرن السادس عشر الميلادى ، بل أكثر من هذا صدر كتاب فى فرنسا يحذر الفتيات من اتباع هذه العادة الإسلامية إلا إذا أمر الطبيب بغير هذا ، على ألا يزيد عن مرة واحدة فى الشهر مع الحذر الشديد من تلك العادة الإسلامية (٨١).

وقيل أن الملكة الكاثوليكية إيزابيلا(٨٢) كانت لا تغتسل غير مرة واحدة فى الشهر (٨٣). وقد كانت الحمامات من أهم الآثار الإسلامية التى تركها العرب فى إسبانيا عقب سقوطها ولمحو هذه العادة الإسلامية كانت أوامر ملوك إسبانيا النصارى بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين ، والأكثر من هذا تشدداً أن هناك راهبة من راهبات إسبانيا المسيحية أخذت تفخر فى مذكراتها بأنها حتى بلغت سن الستين لم يمس الماء منها غير أناملها عندما كانت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس (٨٣).

ورغم ما بالقصة من مبالغة إلا أنها توضح نبذ نصارى إسبانيا لهذه العادة الإسلامية الأصيلة .

هـ - عادات أخرى :

ومن العادات الأخرى التى أخذها نصارى إسبانيا عن المسلمين الكرم وحسن الخلق ، وتخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالمسلمين واقتباسهم منهم طباعهم النبيلة ، ومبادئ فروسيتهم التى منها مراعاة النساء والشيوخ والأطفال واحترام العهود والوفاء بالوعود ، ورقة العواطف ولين الطباع ، حتى قال بعض مؤرخى النصارى ومتدينيهم " أنه يشك فى أن المسيحية كانت تستطيع وحدها أن تأتى بمثل ذاك التأثير مهما بولغ فى كرمها وتأثيرها ، فلم يكن المسلم مدمراً أو مخرباً ، وإنما كان مبدعاً منشئاً للمدن والقصور والبساتين ، ورغم أصله البدوى القاسى ، إلا أنه كان يحب اللين والترف ويستطرف الجمال فى شتى صورة ويستطيب الحياة الناعمة "(٨٥) . وقد بلغ التسامح فى الأندلس إلى حد أن كان المسلمون يزورون كنائس

النصارى وكان النصارى يزورون قبور أولياء المسلمين لنيل البركة منهم (٨٦)، وكانت الكنائس أيضًا مفتحة الأبواب للمارة سواء من النصارى أوالمسلمين ، تغدق عليهم من كرمها وأطايب طعامها وشرابها حتى أن بعض المسلمين كانوا يبيتون فيها (٨٧) . وفي الخاتمة أود أن أذكر كلمة فرغم النهاية الفاجعة التي منى بها الإسلام والمسلمين في الأندلس بعد ثمانية قرون ونيف من الوجود والتفاعل الإسلامي على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية ، ورغم محاولات حكام إسبانيا المسيحيين طمس هوية التأثيرات الإسلامية في شبه الجزيرة مازالت هذه التأثيرات واضحة وضوح الشمس إلى اليوم في كل مجالات الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، فلم يكن من السهل محو هذه التأثيرات التي تشربت بها الحياة الإسبانية لأكثر من ثمانية قرون كاملة .

وقد بدأ هذا الدور في الحفاظ على الحياة الإسلامية والعادات والتقاليد الخاصة بالمسلمين مع الموريسكيين الذين ظلوا على إسلامهم سرًا في ظل الحكم المسيحي ، حيث احتفظوا بكثير من عاداتهم الإسلامية ، ومنها الاحتفال بمولد الطفل ، حيث يذبحون بتلك المناسبة ذبيحة تسمى العقيقة ، ويكتبون على جبهة المولود بعض الكلمات ، ويعلقون الأحجبة التي تتضمن بعض الآيات القرآنية ، ويسمى المولود باسم إسلامي ، كما يجرى له الختان في اليوم التاسع لمولده ، ثم أصبح فيما بعد العام التاسع (٨٨).

ولم تذهب حضارة المسلمين في شبه القارة الأيبيرية هباءً ، حيث شعر الإسبان بأهمية المسلمين الموجودين في الأندلس ، حتى بعد سقوط مدينة غرناطة ١٤٩٢م/٨٩٧هـ حيث يوجد الكثيرًا من المسلمين ومع الضغط الشديد وعمليات التنصير القسرى التي تعرضوا لها كانوا أمام أحد خيارين إما التنصير أو الهجرة . وبالفعل آثر البعض الهجرة فرارًا بدينه في المقام الأول، أما من بقى منهم وفي كثير من الأحيان تحت ضغط مصالحهم المرتبطة بالمكان فقد أجبروا على التنصر .

ورغم هذا شعر الإسبان بأهمية هؤلاء في بعض الأعمال الضرورية التي لا يجيدها الإسبان . وتم دمجهم بالنصارى ، وأسند إلى القليل منهم أعمالاً ذات أهمية لعدم إتقان الإسبان النصارى مثل هذه الأعمال ، وهذا السبب جعل النصارى الإسبان يتمسكون بهؤلاء الأشخاص ، وإذا تذمر أحدهم فإن محاكم التفتيش كانت تنزل به أقسى العقوبات الجسدية ، ويضعونه تحت الإقامة الجبرية ، ليزاول لهم الأعمال المطلوبة (٨٩).

ففي غرناطة على سبيل المثال أجبر المسئولون على تسخير اثنى عشر شخصًا من الموريسكيين من صناع السواقي أن يعملوا في أقنية الماء في الحمراء ، وجنة العريف ،

والمجلس الملكى ، والبيوت الخاصة ، وهى أعمال فى غاية الدقة والفنية ، ويصعب على الإسبان إتقانها . كما طلب من اثنى عشر شخصاً آخرين ممن يجيدون صناعة الجلود والحرير ، أن يقدموا الخدمات الإجبارية خاصة فى صناعة الحرير (٩٠).

وفى النهاية لا أود أن استطرد فى ذكر التأثيرات الإيجابية للحضارة الإسلامية فى الأندلس ، وإنما حاولت من خلال هذا البحث أن أوجد عوامل مشتركة بين كلا الجانبين الإسلامى والمسيحى على أرض شبه الجزيرة الأندلسية .

الهوامش

1 - Leve provencal : Histoire de L'Espagne musulmane, Tomo III, Paris 1967, 429 .

٢ - جوستاف لوبون : حضارة العرب ، تعريب : محمد عادل زعيتر ، مصر ١٩٤٥م ، ص٢٩٢ ، ٢٩٣ .

Crow (John.A.) Spain: The root and the flowers, new York, 1963, p. 56 .

٣ - أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ١١٠ .

٤ - أحمد مختار العبادى : الأعياد فى مملكة غرناطة ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، المجلد الخامس عشر ، ١٩٧٠م ، ص ١٤٠ ومايليها .

Leve Provencal : Op.Cit, tomo III, p. 437 .

Abbadi (Ahmad Mujtar Abbadi) : El reino de Granada en La Época de Muhammed V, Madrid 1973, pp. 157 , 158 .

٥ - العبادى : نفس المرجع والصفحة ؛ العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس أثر البيئة الأوروبية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى سنة ١٩٨٤م ، ص ٣٩١ ؛ أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٩٧م ، ص ١١٩ .

R.Dozy: Supplément aux Dictionnairs Arabes, Leyden 1881, Tomo I, p. 621; Heneri pérès : La poésie Andalouse en Arabe classique au siécle x1, Paris, 1953, pp. 303 - 304 .

٦ - العبادى : الأعياد فى مملكة غرناطة ، ص ١٤٨ .

٧ - العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ، ص ٣٩١ ؛ سحر عبد العزيز سالم : مظاهر الحضارة فى بطليوس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٥م ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

Fernando De La Granja : Fiestas Cristianas en Al-Andalus, Revista al-Andalus XXXIV, Madrid 1969, p.2 .

٨ - خميس إبريل أو خميس العهد ، وهو من أعياد النصارى ومن طقوسه ملء إناء بالماء، ثم ترتيل بعض أجزاء من العهد الجديد عليه ، ثم يغسل البطريرك بهذا الماء أرجل بعض الناس كما فعل السيد المسيح عليه السلام مع تلاميذه فى هذا اليوم كى يعلمهم التواضع ، ويأخذ عليهم العهد بالتواضع وعدم التفريق وبعض النصارى على مذهب معين يسمونه خميس العدس ، حيث يطبخون فيه العدس على أشكال مختلفة وفى الأندلس يسمى خميس إبريل .

- سعيد سيد أحمد أبو زيد : الحياة الاجتماعية في الأندلس ، في عصر دولتي المرابطين والموحدين (٤٨٤ - ٦٢٠هـ/١٠٩١-١٢٢٣م) كلية الآداب ، جامعة المنوفية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م ، ص ١٨٥ ، هامش ٤ .

٩ - كمال أبو مصطفى : مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣م ، ص ٨٧ .

١٠ - إقامة العنصرة ، أو عيد العنصرة ، أو عيد المهرجان ويسمى أيضًا عيد الخمسين أو حلول الروح القدس أو نزول السيد المسيح عليه السلام على تلاميذه الحواريين بعد انقضاء خمسين يومًا على رفعه أى قيامته مرة أخرى ، ويعرف في أسبانيا بعيد القديس سان خوان San Juan ومازالوا يحتفلون به إلى الآن يوم ٢٤ يونيو من كل عام .

- للمزيد راجع : أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د/ حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٢١ : أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص ١١٨ - ١١٩ .

Dozy : Op.Cit. Tomo II, p. 621 ; H Pérès : La Poésie, p. 304 .

١١ - ومن المؤثرات الفارسية المشرقية التي وصلت إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وأثرت في شعبها مسلمين ومسيحيين عيد النيروز (أى عيد الربيع) وهو عيد أول السنة الشمسية عند الفرس ، وهو عيد قديم من أعياد الفرس ، ويوافق أول قدوم فصل الربيع ، ويذكر ليفي بروفنسال أن أهل الأندلس كانوا يحتفلون به أيضاً يوم الاعتدال الربيعي في السابع عشر من مارس .

Leve Provencal : Histore, Tomo III, p. 438 .

- أما هنرى بيرس فيذكر أن عيد الربيع في الأندلس كان يحتفل به أول شهر يناير .

H. Pérès : La poésie, p. 303 .

١٢ - المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى) ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ، ١٩٨٦م ، ص ٢١٢ : العبادى : الإسلام في أرض الأندلس ، ص ٢٩١ .

Leve Provencal : Histore, T III, p. 438 .

١٣ - ابن حيان : (أبو مروان بن حيان القرطبي) ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م ، المقتبس في أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د/ محمود على مكى ، لبنان ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ١٣٨ : العبادى : الإسلام في أرض الأندلس، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ : كمال أبو مصطفى : مالقة الإسلامية ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، هامش ٦ : حمدى عبد المنعم حسين : مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية ، رسالة دكتوراه نوقشت بآداب الإسكندرية ، ١٩٨٤م ، ص ٥١٧ .

١٤ - العزفى : الدر المنظوم في مولد النبى المعظم ، نشره : فرناندو دى لاجرانخا ، مجلة الأندلس ، ١٩٦٩م ، ص ٢١ .

١٥ – العزفى : نفس المصدر والصفحة .

١٦ – العزفى : نفس المصدر ، ص ٢٨ .

١٧ – المجبنات : نوع من الفطائر الأندلسية يصنع بالجبن ، وقد يضاف إليه العسل ، وكان الأندلسيون ذوى غرام بها حتى قالوا فيها شعراً ، وقد اشتهرت مدينة شريش Jerez وهى من أعمال مدينة أشبيلية Sivlla بحسن الصنعة لأنواع كثيرة من هذه الأجبان ، حتى قيل فيها مثلاً : " من دخل شريش ولم يأكل المجبنات فهوم محروم " .

– ابن الأبار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى) ٥٩٥–٦٥٨هـ/١١٩٩–١٢٦٠م ، الحلة السيراء ، تحقيق د/ حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب (٥٨) دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٦٣م ، جـ٢ ، ص ٢٩١ ؛ المقرى : (أحمد بن محمد التلمسانى) ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م . نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د/ إحسان عباس ، ٨ مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، جـ١ ، ص ١٨٤ .

١٨ – الطرطوشى : (أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى ، ت٥٢٠هـ/١١٢٦م، الحوادث والبدع ، تحقيق محمد الطالبى ، تونس ، ١٩٥٩م ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

Leve Provencal : Histoire, T, III, p. 438 .

– أحمد مختار العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ، ص ١٠٧ ؛ عبادة عبد الرحمن كحيلة : تاريخ النصارى فى الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص ١١١ .

19 - Rachil Arie : L'Espagne musulmane au temps de Nasrides, (1232-1492), paris 1973, Vol I, p. 401 ; Miguel La fonte Al Cantara : Historia de Granada, Tomo III, Granada 1846, pp. 166 - 167 .

٢٠ – للمزيد عن الألعاب الإسلامية فى الأندلس راجع : أحمد مختار العبادى : الأعياد فى مملكة غرناطة ، ص ١٤١ وما يليها ؛ الطوخى : مظاهر الحضارة ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

٢١ – هورتزوبثت : الموريسكيون ، ترجمة عبد العال صالح ، دار الإشراق ، الدوحة ، ١٩٨٨م ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

٢٢ – للمزيد حول الموشحات الأندلسية والموسيقى الأندلسية وتأثيرهما على مسيحى إسبانيا ، راجع : عبد الرحمن الحجى : تاريخ الموسيقى الأندلسية أصولها وتطورها ، وأثرها على الموسيقى الأوروبية ، لبنان، بيروت ، ١٩٦٩م.؛ السيد عبد العزيز سالم : تأثير الأزجال الأندلسية فى الشعر الغنائى الأوروبى ، كتاب الشعب ، العدد ٥٦٤ .

– ويعتقد الأستاذ رامون منندث بيدال Roman Menendez Pidal أن الزجل الأندلسى هو الذى كون حلقة الاتصال بين الموسيقى الإسبانية الحالية ، والموسيقى الأيبيرية فى التراث ، اليونانى واللاتينى ، ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د/ السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح

الدين حلمي ، مراجعة د. لطفي عبد البديع ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ١٩٥٦م. وينكر Cruz Hernan dez أن الموسيقى الأندلسية التي كانت في المقام الأول موسيقى شرقية حملها زرياب إلى الأندلس وطورها تطويراً كبيراً ، تأثرت لها بمرور الزمن بالموسيقى المحلية والتي كانت شائعة على نطاق واسع عند المستعربين ، وأيضاً تأثرت بما أدخله البربر من موسيقاهم المغربية ، ومن هنا حدث امتزاج وتأثر بين هذه الأنواع الموسيقية فخرجت في إطار أندلسي فريد

Miguel Cruz Hernandez : El Eslam de Al-Andalus, Historia y Estructura de Surealidad Social, Madrid 1992, p. 442 .

ويضيف Hernandez بأن شبه الجزيرة الأيبيرية كان لديها وقت دخول المسلمين الأندلس ، تراث قديم من الموسيقى الشعبية والمدنية ، وأن العرب كان لهم موسيقاهم الخاصة . Cruz Heranadez : Op. Cit., p. 438 .

– ومن هنا حدث التقاء للتراث الموسيقي في كلا الجانبين على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية فخرج لنا مزيجاً خاصاً تميزت به أرض الأندلس وكان هذا المزيج هو موسيقى الفلامنكو

Hernandez : Op. Cit., p. 237 . PConto Jonda

23 - Leve Provencal : Histoire , Tomo II, p. 448 .

٢٤ – للمزيد عن فن الموشحات الأندلسية وأصولها العربية الأندلسية راجع : عبد العزيز الأهواني : الزجل في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص ٢ ، ٣ وما يليها .

٢٥ – مدينة قادس Codiz هي مدينة إسبانية قديمة أسست زمن الفينيقيين وهي مدينة بحرية ، حيث تطل على البحر المتوسط جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد كانت في العصر اليوناني القرطاجني ، أهم مدينة في شبه الجزيرة الأيبيرية ، إلى أن انتزعها الرومان من القرطاجنيين سنة ٢٠٦ ق.م. : للمزيد من التفاصيل عن مدينة قادس الإسبانية راجع : سحر السيد عبد العزيز سالم : مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٠م.

٢٦ – ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٨٧ .

٢٧ – ترند : إسبانيا والبرتغال ، من كتاب The leagcy of Eslam ، تعريب د/ حسين مؤنس ، طبع القاهرة ، ١٩٣٦م ، ص ٣١ ؛ رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف ، الناشرون دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، بدون تاريخ ، ص ٤٣٤ .

٢٨ – ترند : نفس المرجع ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

٢٩ – ليفي بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة عن أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د/ محمد عبد الهادي شعيرة ، مراجعة أ/ عبد الحميد العبادي ، القاهرة ١٩٤٧–١٩٤٨م ، ص ٢٤ ، ٧٤ ؛ أحمد محمد الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص ١٣٢ .

30 - Abbadi : El reino de Granada, p. 132 .

٣١ - ابن بسام : (أبو الحسن على بن بسام الشنتريني) ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، طبع القاهرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول ، ص ٣٨٨ : سحر السيد عبد العزيز سالم : بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الأول ، ١٩٩٧م ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

٣٢ - ابن بسام : نفس المصدر والجزء والصفحة .

٣٣ - مدينة بربشتر Barbastro ، هي مدينة حصينة تقع على بعد ٦٠كم شمال مدينة سرقسطة Zargoza، وهي تقع على أحد فروع نهر الإبرو Ebro ما بين مدينتي لاردة وسرقسطة عمودى الثغر الأعلى ، وهي الآن مدينة ومركز إدارى في مديرية وشقة Huesco وقد تعرضت بربشتر لمحنة دامية عندما استولى عليها النورمانديون في سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا نساءها ونهبوها نهباً ذريعاً.

- أحمد مختار العبادى : نصان جديدان لابن الكردبيس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث عشر ، مدريد ١٩٦٥-١٩٦٦م ، ص ٧٢ ، هامش (٦) : للمزيد حول تفاصيل المحنة التي تعرضت لها مدينة بربشتر راجع : المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، من ص ٤٤٩ إلى ص ٤٥٣ .

٣٤ - راجع القصة كاملة في : المقرى : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق أ/ إبراهيم الإبيارى ، ومصطفى السقا ، القاهرة ، ١٩٤٠م ، ١٩٤٢م ، الجزء الثاني ، ص ٥٧٥ : المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٤٥٢ .

35 - Cruz Hema dez : El Eslam de Al-Andalus, p. 441 .

سحر سالم : بحوث مشرقية ومغربية ، جـ١ ، ص ٩٤ .

٣٦ - أشعار التروبادور Trowbadours : ظهر شعر التروبادور في القرن الثاني عشر الميلادى ، في جنوب فرنسا في إقليم بروفانس ، حيث نقلوه عن جذوره الأولى بالأندلس ، وقد تأثر أيضاً بالموشحات الأندلسية العربية من حيث الوزن والدقة والخيال والموضوعات التي غالباً ما تمجد الحب العذرى العفيف البعيد عن الأوصاف الحسية ، ولذلك كانت موضوعاته مفضلة لدى فرسان العصور الذهبية بأوروبا ، ووجدوا في تلك الأشعار بغيتهم للارتقاء بالمرأة ، والتغني بها في أشعارهم ، وقد انتقلت هذه الأشعار من الأندلس إلى أوروبا في العصور الوسطى .

للمزيد عن شعر وشعراء التروبادور راجع :

Lanson : Histoire de la literature Francaise, Paris, 1916, pp. 86 , 87 .

Ramon Menendez pidal : Espana Coma El ebon enter El Cristianismo el Eslam, madrid, 1953, pp. 7 - 10 .

٣٧ - ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، مقال الشعر العربي في المغرب والأندلس ، مقال الشعر العربي في إسبانيا وشعر أوروبا في العصر الوسيط ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠م ، ص ٢٨٠ ، ٣٠٣ .

Heneri Pérès : La poésie arabe d'Andalousi et sus relations possibles avec la poésie des trowbadours, Paris, 1947, pp. 107 - 130 .

٣٨ – الصقالبة : كانوا رقيقًا أو عبيداً من سبي الشعوب السلافية بالشمال الأوربي ، ثم بيعوا إلى عرب الأندلس ، ولذا أطلق عليهم اسم الصقالبة ، ثم توسع الأندلسيون في استعمال هذا الاسم ، وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوهم من مختلف البلاد الأوروبية بما في ذلك شمال إسبانيا المسيحي ، وجيء بأغلب هؤلاء الصقالبة أطفالاً ومن الجنسين إلى مدينة قرطبة حاضرة الخلافة حيث ربي الذكور منهم تربية عسكرية إسلامية ، واستخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش ، وقد تدرجوا في الرقي بالمناصب حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة .

– للمزيد راجع : أحمد مختار العبادي : الصقالبة في إسبانيا ، لمحة عن زصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٥٣م.

٣٩ – سورة الجاثية : الآية ٣٢ .

٤٠ – الطرطوشي : نفس المصدر ، ص٥٩ .

٤١ – سورة النساء : آية ٧ .

٤٢ – سورة المائدة : آية ١١٦

٤٣ – الطرطوشي : نفس المصدر ، ص ٥٩ .

٤٤ – الطرطوشي : نفس المصدر ، ص ٥٧ .

٤٥ – أحمد مختار العبادي : في : ريخ المغرب والأندلس ، ص ٢١٢ .

٤٦ – أحمد مختار الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص ١٣٢ .

Abbadi : El reino de Granada, p. 155 .

٤٧ – للمزيد عن أدوات الطرب وآلاته الخاصة بالأندلس ، راجع : ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ٧٣٢–٨٠٨هـ/١٣٣٢–١٤٠٥م ، المقدمة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم : فن الغناء والموسيقى ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦١) ، ١٩٥٩م ، ص ٩٩ – ١٠٥ ؛ ترند : إسبانيا والبرتغال ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

وهناك أيضًا كلمة البوق Albogue التي ذكرها دوزي في معجمه حول تأثيرات الآلات الموسيقية الأندلسية في اللغة الإسبانية فقد نقلت الكلمة بنطقها ومعناها .

Dozy : Supplément, Tomo I, p. 128, 129 .

٤٨ – هنري بيرس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية ، وقيمته التوثيقية ، ترجمة د/ الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٤٩١ .

٤٩ – ابن الخطيب : (لسان الدين بن الخطيب) ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق أ/ محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، مصر سلسلة ذخائر العرب ، رقم (١٧) ، الجزء الأول ، ص ١٤٢ .

50 - Leve Provencal : la civilisation arabe en Espana, Buenos Aires, 1953, pp. 127 - 129 .

٥١ – ابن بسام : الأخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١ ، جـ٢ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ؛ رجب أحمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

Leve Provencal : Op.Cit., p. 130 - 137 .

٥٢ – الكنابيش مفردها كنبوش Cambux وهو نوع من الحجاب أو الستار تغطي به النساء وجوههن عند الخروج وقد دخلت الكلمة فى اللغة الإسبانية بنفس معناها واستخدامها .

Reinhart dozy : Dictionnare detaille des noms des vetmens ches les arabes amsterdam 1845, p. 390 .

٥٣ – هنرى بيرس : نفس المرجع ، ص ٢٤٥ .

٥٤ – للمزيد عن الزنار وأصلة راجع : . Dozy : Op.Cit., p. 196 - 198

٥٥ – للمزيد راجع : مانويل جوميث مورينو : الفن الإسلامى فى إسبانيا ، ترجمة / لطفى عبد البديع ، طبع القاهرة ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

٥٦ – كانت مصانع مدينة المرية هى المنهل الذى يستخدمه المسلمين فى المغرب والأندلس لإنتاج منسوجاتهم الفاخرة .. وظلت كذلك إلى أن استولى عليها الملك القشتالى الفونسو السابع Alfonso, VII سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧م ؛ الإدريسى : (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى) ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . ليدن ١٨٦٨م ، ص ١٩٨ .

٥٧ – مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م ، ص ٨٣ ، ٨٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : صناعة النسيج ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦٤) ، ١٩٤٩م ، ص ١٩٣ .

٥٨ – الموريسكيون Los Moriscos هم المسلمون الذين تخلفوا فى الأندلس بعد سقوط آخر الممالك الإسلامية بها وذلك بتسليم مدينة غرناطة فى يناير ١٤٩٢م ، وقد ظل هؤلاء المسلمون محافظون على دينهم وهويتهم الإسلامية ، من حيث عاداتهم وتقاليدهم وتمسكهم بطقوس دينهم فترة من الزمن إلى أن أجبروا فيما بعد على اعتناق الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى وهو مذهب الملكين الكاثوليكيين ، وهناك من أعلن نصرانيته فى الظاهر مع عدم ردته عن الإسلام ، ولهذا شك فيهم الإسبان وقرروا طردهم نهائيًا من الأندلس سنة ١٦١٣م .

– لمزيد راجع : ترند : إسبانيا والبرتغال ، جـ١ ، ص ١٧ ، هامش (١) .

٥٩ - ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

٦٠ - محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، ص ٤٥٠ ؛ أحمد محمد الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص ٧٨ .

٦١ - هـ - أ. ر. جب : الأدب من كتاب تراث الإسلام ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، الجزء الأول ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، جـ٢ ، ص ٦٢ .

٦٢ - أحمد الطوخي : نفس المرجع ، ص ٣٠٥ .

63 - Valentin Beneitez Cantero : Vocabularia Espanol Arabe Marroqui, 1949, p. 130 .

٦٤ - للمزيد حول الكلمات الخاصة بالزى العربي في الإسبانية ، راجع : ترند : إسبانيا والبرتغال ، جـ١ ، من ص٣٦ إلى ص ٤٦ .

٦٥ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الثاني ، ١٩٨٤م ، ص ١٤٤ .

66 - Leve Provencal : Hist, Tomo 1 , p. 269 .

٦٧ - الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ذو الحجة ١٤٠١هـ / أكتوبر ١٩٨١م ، ص ٣٩ .

٦٨ - ابن عذارى : (أبو عبد الله محمد المراكشي) كان حيًا سنة ٧١٢هـ : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثاني ، بيروت ، ١٩٥٠م ، ص ٩١ ؛ عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، جـ٢ ، ص ١٤٤ ؛

- Leve Provencal : Hist, Tomo 1 , p. 264 .

- Leve Provencal : la civilization, p. 67 .

٦٩ - أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

٧٠ - ترند : إسبانيا والبرتغال ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ .

٧١ - للمزيد راجع ترند : نفس المرجع ، من ص ٤٧ إلى ص ٥٠ .

٧٢ - بالنثيا : تاريخ الفكرى الأندلسي ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

٧٣ - بالنثيا : نفس المرجع ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠١ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية، ص ٤٤٨ .

٧٤ - بالنثيا : تاريخ الفكر : ص ٥٩ .

٧٥ - ابن حزم ، (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٨م ، ص ٤١٥ ؛ بالنثيا : نفس المرجع ، ص ٥٩ .

٧٦ – ابن حزم : نفس المصدر ، ص ٤١٥ .

٧٧ – الشكعة : الأدب الأندلسي ، ص ٤٦ .

٧٨ – محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع ، ص ٤٩٤، هامش (١) .

٧٩ – ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٣ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس ، ص ٤٢٣ .

٨٠ – حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين في الأندلس . من البداية إلى الحجاري ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلدان السابع والثامن ، مدريد ، ١٩٥٩/ ١٩٦٠م ، ص ٢٧٦ .

٨١ – ليوبولدو توريس بلباس : الأبنية الإسلامية الإسبانية ، ترجمة / علية الضاني ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٣م ، ص ١١٧ .

٨٢ – إيزابيلا الأولى Isabella the Catholic ملكة قشتالة ، ولدت سنة ١٤٥١م ، وهى ابنة خوان الثانى ملك قشتالة ، وقد تزوجت من فرديناند الرابع ملك أراجون سنة ١٤٩٦م . وتولت العرش بعد أن توفى شقيقها الأكبر أنريكي الرابع ، وقد أدمجت المملكتين بينها وبين زوجها وصارتا قوة هددت آخر الممالك الإسلامية التى استوليا عليها ، وعرفت هى وزوجها فى التاريخ الأوربى الوسيط بملكى قشتالة ، وأراجون أو الملكين الكاثوليكيين . للمزيد راجع : محمد عبده حتاملة : التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤/١٥١٦م) الطبعة الأولى ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ١٤ .

٨٣ – ليوبولدو توريس بلباس : نفس المرجع والصفحة .

٨٤ – لين بول : قصة العرب فى إسبانيا ، ص ١٢٠ ، ص ١٦٥ .

٨٥ – للمزيد راجع : جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٩٧ ؛ حسين مؤنس : فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، الطبعة الأولى ، ص ٤١٩ .

٨٦ – ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، جـ٢ ، ص ٣١١ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص ٢٣.

٨٧ – ابن بسام : نفس المصدر والجزء ، ص ١٩٠ ، ١٩٢ .

٨٨ – كمال أبو مصطفى : مالقة الإسلامية ، ص ٧٠ .

٨٩ – للمزيد راجع : محمد عبده حتاملة : التنصير القسرى لمسلمى الأندلس ، ص ١٠٩ .

٩٠ – محمد عبده حتاملة : نفس المرجع والصفحة .

٩١ – أحمد مختار العبادى : فى تاريخ الحضارة العربية ، الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص٩ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ - ابن الأبار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى القضاعى) ، (٥٩٥ -٦٥٨هـ /١١٩٩ -١٢٦٠م) الحلة السيراء ، تحقيق د/ حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب (٥٨) ، دار المعارف ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣م.

٢ - ابن بسام : (أبو الحسن على بن بسام الشنتريني) ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، طبع القاهرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول .

٣ - ابن حزم : (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٨م.

٤ - ابن حيان : (أبو مروان بن حيان القرطبى) ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م : المقتبس فى أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د. محمود على مكى ، لبنان ، بيروت ، ١٩٧٣م.

٥ - ابن الخطيب : (لسان الدين بن الخطيب) ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق أ/محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب (١٧) ، الجزء الأول .

٦ - ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ت ٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٥م : المقدمة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٧ - الإدريسى : (محمد عبد العزيز الشريف الفاوى) ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليدن ١٨٦٨م.

٨ - الطرطوشى : (أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م : الحوادث والبدع ، تحقيق محمد الطالبى ، تونس ، ١٩٥٩م ، وطبعة د. بشير محمد عيون ، مكتبة المؤيد ، ومكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، دمشق ، بيروت ، ١٤١٣هـ/١٩٩١م.

٩ – ابن عذارى : (أبو عبد الله محمد المراكشى) كان حيًا سنة ٧١٢هـ : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثانى ، ١٩٥٠م.

١٠ – العزفى : الدر المنظوم فى مولد النبى المعظم ، نشره فرنانو دى لاجرانخا ، مجلة الأندلس ، ١٩٦٩م.

١١ – المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى) ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثانى ، ١٩٨٦م.

١٢ – المقرى : (أحمد بن محمد التلمسانى) ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

١٣ – المقرى : أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، تحقيق أ/ إبراهيم الإبيارى ، ومصطفى السقا ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٤٠ – ١٩٤٢م .

ثانيًا : المراجع :

١ – الأهوانى : (د/عبد العزيز الأهوانى) : الزجل فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات ، القاهرة ١٩٥٧م.

٢ – بالنثيا : (أنخل جنثالث بالنثيا) : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة د. حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥م.

٣ – بروفنسال : (ليفى بروفنسال) : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د/ السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمى ، مراجعة د/ لطفى عبد البديع ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ١٩٥٦م .

٤ – « « « : سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة أ. عبد الحميد العبادى ، القاهرة ٩١٤٧–١٩٤٨م.

٥ – « « « : الشعر العربى فى إسبانيا وشعر أوروبا فى العصور الوسطى ، مقال من كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠م .

٦ – بلباس : (ليوبولدو توريس بلباس) : الأبنية الإسلامية الإسبانية ، ترجمة علية الضانى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٣م.

٧ – بيرس : (هنرى بيرس) : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ملامحه العامة ، وموضوعاته الرئيسية ، وقيمته التوثيقية ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٨ – ترند : إسبانيا والبرتغال ، من كتاب The leagcy of Eslam ، تعريب ، د/ حسين مؤنس ، طبلع القهرة ، ١٩٣٦م.

٩ – جب : (هـ.أ.ر.جب) : الأدب من كتاب تراث الإسلام ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، الجزءان الأول والثاني ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٠ – حتاملة : (د. محمد عبده حتاملة) : التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤–١٥١٦م) الطبعة الأولى ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١١ – الحجي : (د. عبد الرحمن الحجى) : تاريخ الموسيقى الأندلسية أصولها ، تطورها ، وأثرها على الموسيقى الأوروبية ، لبنان ، بيروت ١٩٦٩م.

١٢ – حسين : (د.حمدى عبد المنعم حسين) : مجتمع قرطبة فى عصر الدولة الأموية ، رسالة دكتوراه نوقشت بآداب الإسكندرية ، سنة ١٩٨٤م.

١٣ – أبو زيد : (د. سعيد سيد أحمد أبو زيد) : الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين (٤٨٤–٦٢٠هـ/ ١٠٩١–١٢٢٣م) كلية الآداب ، جامعة المنوفية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.

١٤ – سالم : (د. السيد عبد العزيز سالم) : تأثير الأزجال الأندلسية فى الشعر الغنائى الأوروبى ، كتاب الشعب ، العدد ٥٦٤ .

١٥ – » » » : فن الغناء والموسيقى ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦١) ، ١٩٥٩م.

١٦ – » » » : صناعة النسيج ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦٤) ، ١٩٤٩م.

١٧ – » » » : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، دراسة تاريخية عمرانية أثرية فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الثانى ، ١٩٨٤م.

١٨ – سحر : (د. سحر السيد عبد العزيز سالم) : مظاهر الحياة فى بطليوس الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٥م.

١٩ – » » » : مدينة قادس ودورها فى التاريخ السياسى والحضارى للأندلس فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٠م.

٢٠ – » » » : بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الأول ، ١٩٩٧م.

٢١ – الشكعة : (د. مصطفى الشكعة) : الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م.

٢٢ – الطوخى : (د. أحمد محمد الطوخى) : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٩٧م.

٢٣ – العبادى : (د. أحمد مختار العبادى) : فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .

٢٤ – » » » : فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م.

٢٥ – » » » : الأعياد فى مملكة غرناطة ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، المجلد الخامس عشر ، ١٩٧٠م.

٢٦ – » » » : الإسلام فى أرض الأندلس أثر البيئة الأوروبية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ، سنة ١٩٨٤م.

٢٧ – » » » : نصان جديدان لابن الكردبوس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث عشر ، مدريد ، ١٩٦٥ – ١٩٦٦م.

٢٨ – ، ، ، : الصقالبة فى إسبانيا ، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٣م.

٢٩ – عبد الحليم : (د. رجب محمد عبد الحليم) : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، الناشرون دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى ، دار الكتاب اللبنانى ، بدون تاريخ .

٣٠ – عنان : (أ محمد عبد الله عنان) : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٣١ – كُحيلة : (د. عبادة عبد الرحمن كُحيلة) : تاريخ النصارى فى الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

٣٢ – لوبون : (جوستاف لوبون) : حضارة العرب ، تعريب / محمد عادل زعيتر ، مصر ، ١٩٤٥م.

٣٣ – أبو مصطفى : (د. كمال أبو مصطفى) : مالقة الإسلامية فى عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣م.

٣٤ – مكى : (د. الطاهر أحمد مكى) : دراسات أندلسية عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ذو الحجة ، ١٤٠١هـ / أكتوبر ١٩٨١م.

٣٥ – مورينو : (مانويل جومث مورينو) : الفن الإسلامى فى إسبانيا ، ترجمة / لطفى عبد البديع ، طبع القاهرة .

٣٦ – مؤنس : (د. حسين مؤنس) : الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس من البداية إلى الحجارى ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد السابع والثامن ، مدريد ، ١٩٥٩م ، ١٩٦٠م.

٣٧ – فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٩م.

Third : References in foregin languages :

1 - Abbadi : (Ahmed Mujtar Abbadi) : El Reino de Granada en la Época de Muhammed V, Madrid 1973 .

2 - Arie : (Rachil Arie) : l'espagne musulmane au Temps de Nasrides (1232-1492) Paris 1973 .

3 - Al Cantara : (Miguel Lafunte Al Cantara) : Historia de Granada, Tomo III, Granada 1846 .

4 - Cantero : (Valentin Beneitez Cantero) : Vocubularia Espanol Arabe, Marroqui, 1949.

5 - Crow : (John.A.Crow) : Spain : The root and the flowers, Newyork, 1963.

6 - Dozy : (Reinhart Dozy) Supplément aux Dictionnires Arabes, leyden 1881 .

7 - " " " : Dictionnare Detaille des Noms des vetmentes ches les Arabes, Amsterdam 1845 .

8 - La Granja : (Fernando de la Granja) :Fiestas Cristianas en Al-Andaluse, Revista Al-Andalus XXXIV, Madrid, 1969 .

9 - Hernandez : (Miguel Cruz Hernandez) : El Eslam de Al-Andalus Historia y Estructura de Surealidad Social, Madrid, 1992 .

10 - Lanson : Historie de la literature Francaise, Paris, 1916 .

11 - Pérès : (Henri Pérès) : La Poésie arabe d'Andalousie et sus relations Possibles avec la Poésie des Trowbadours, Paris 1947 .

12 - " " " : :a Poésie Andalouse en Arabe Classique au siecle x1, Paris 1953 .

13 - Pidal : (Ramon Menedez Pidal) : Espana Coma El Ebon entre El Cristianismo El Eslam, Madrid, 1953 .

14 - Provencal : (Leve Provencal) : La Civilization Arabe en Espana, Buenos Aires, 1953 .

15 - " " " : Histoire de L'espagne musulmane, Tomo III, Paris, 1967 .

د. مصطفى على دويدار (*)

الطب المصري في العصر الفاطمي
وأثـره فـي الحضـارة الأوروبيـة

مقدمة :

فى الوقت الذى كان فيه الطب العربى (قبل الإسلام) بدائيًا ، يتناقله الناس شفهيًا فى غير نظام ، وهو فى الواقع طبًا شعبيًا ينحصر داخل حدود الجزيرة العربية ، كانت مصر تشهد تقدمًا كبيرًا فى هذا المجال ، وهو ما كشفت عنه البرديات الطبية القبطية مثل بردية زويجا الطبية Zoega Medical Papyrus المحفوظة فى مكتبة الفاتيكان ، وبردية شاسيناه (بردية المشايخ) Chassinat Medical Papyrus التى تعتبر واحدة من أهم المراجع الخاصة بالأدوية والعلاج الطبى ، وبردية زينون Xenon Medical Papyrus وغيرها من البرديات المصرية المنتشرة فى متاحف باريس ولندن وتورينو وبرلين وبودابست والفاتيكان (1).

ولعل هذا ما يؤكد أثر الحضارة المصرية بوجه خاص والعربية بوجه عام ، فى مجال الطب ، فى الحضارة الأوروبية والعالمية ؛ ولاشك فى أن المصريين ظلوا يتوارثون هذا التراث جيلاً بعد جيل ، خلال العصر الإسلامى ، فنبغ منهم عدد لا بأس به من الأطباء كان لهم الفضل فى نقل هذا العلم وتطويره ، ولعل ذلك هو السبب الرئيسى فى أن أغلبهم كان من أهل الذمة ، أى من سكان مصر الأصليين الذين لاقوا رعاية كبيرة واهتمامًا بالغًا

* مدرس بكلية الآداب - جامعة طنطا .

من ولاة مصر المسلمين ، فكانوا يمارسون الطب بالوراثة أو بقراءته في كتب الأقدمين ثم يباشرونه بدون قيود (٢).

وقد شهدت مصر تطوراً هائلاً في مجال الطب منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية ، وذلك علي يد عدد من العلماء من العرب وأهل الذمة ، ومن أشهر الأطباء المسلمين المصريين والعرب ، الحسن بن زيرك (ت : ٢٦٩ هـ / ٨٨٢م) طبيب مصر في عصر أحمد بن طولون ، حيث كان من جملة الأطباء المقربين لدى هذا الأمير " يصحبه في الإقامة ، وكان حاذقًا في صناعته مقدمًا فيها " (٣). ومنهم أيضًا خلف الطولوني ، أبو علي (ت ٣٠٥هـ / ٩١٧م) الذي تخصص في طب العيون وكان له فيه معرفة جيدة ، فوضع مؤلفًا طبيًا عن أمراض العيون ومداواتها ، عرف باسم " كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما " ألفه بين سنتي ٢٦٤ و ٣٠٢ هـ (٤). وفي أيام كافور الإخشيدي اشتهر أحد الأطباء العرب ويعرف باسم البالسي (؟) وكان طبيبًا فاضلاً متميزًا في معرفة الأدوية المفردة وأفعالها ، حيث ألف فيها كتابًا ، أهداه إلى كافور الإخشيدي عرف باسم " كتاب التكميل في الأدوية المفردة " (٥).

أما الأطباء من أهل الذمة الذين ذاع صيتهم قبل العصر الفاطمي ، فمنهم بليطان الطبيب القبطي ، الذي كان بطريركًا بالإسكندرية ، أيام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) ، كما أن هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) ، وهبه مالاً كثيراً لقاء قيامه بعلاج إحدى جواريه ، وكتب له منشوراً في كل كنيسة استولى عليها اليعاقبة بردها إليه فاسترد كنائس كثيرة إلى أن توفي سنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م(٦).

وفي أيام الطولونيين نبغ عدد كبير من الأقباط في مجال الطب ، ولعل السبب الرئيسي في نبوغ صيتهم ، نتج عن شغف أحمد بن طولون باصطحاب الأطباء في حله وترحاله خاصة وأنه كان يعاني في آخر أيامه من مرض عضال أدى في النهاية إلى وفاته ، ومن هؤلاء الأطباء إبراهيم بن عيسى الذي ولد بمصر وسافر إلى بغداد حيث تتلمذ بها علي يد الطبيب يوحنا بن ماسويه ، ولما عاد إلى مصر دخل في خدمة أحمد بن طولون بصناعة الطب ، وأقام بمدينة الفسطاط حتى وفاته سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٥م (٧).

ومن أطباء أحمد بن طولون الأقباط ، اشتهر سعيد بن توفيل (ت ٢٧١هـ / ٨٨٤م) الذي كان متميزًا في صناعة الطب ، يعد الدواء بنفسه في داره ، ويساعده في ذلك بعض غلمانه ،

الذين يقومون بسحق الأدوية ومزجها وإعدادها [٨]. وكان له ابن نابغ فى الطب أيضًا تميز بجمال الشكل وحسن المظهر ، فلما طلب الأمير أحمد بن طولون من سعيد بن توفل طبيبًا لحريمه ، أحضر إليه ابنه هذا ، فرفض الأمير استخدامه لجماله ، فاستبدله بغلام له يدعى هاشم كان يقوم بسحق الأدوية له فى داره ، فتمكن هاشم هذا من إعداد الأدوية التى توافق الحريم وخاصة فيما يتعلق بالشحم والحمل ، وما يحسن اللون ويغزر الشعر ، حتى قدمنه على سعيد بن توفيل [٩].

وتجدر الإشارة إلى أن عصر أحمد بن طولون شهد العديد من الأطباء المسلمين والأقباط واليهود حتى أنه فى مرضه الأخير " أمر بجمع الأطباء فجمع له أطباء البلد الموصوفون فى التقدم فى الصناعة والحذق ، وكانوا إذ ذاك متوافرين ، فكانوا يحضرون فى كل يوم بين يديه" [١٠]. ومما يؤكد وجود أطباء يهود بينهم إشارة المسعودى إلى أنه كان لأحمد بن طولون طبيبًا يهوديًا يحضر مجالسه [١١].

ومن أشهر أطباء ذلك العصر إسحق بن سليمان الإسرائيلى (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) وهو مصرى كحال ، لديه خبرة عظيمة بصناعة الطب [١٢]. وقد استمرت الحركة الطبية فى تطورها فى زمن الإخشيديين مع نبوغ عدد من الأطباء الأقباط ، ومنهم نسطاس بن جريج النصرانى الذى عاصر محمد بن طغج الإخشيد (٣٢١ - ٣٣٤هـ / ٩٣٣ - ٩٤٥م) وكانت له مراسلات مع طبيب آخر من أهل الأندلس هو خالد بن يزيد بن رومان حيث أرسل إليه رسالة فى البول [١٣].

ومن أشهر أطباء الأقباط فى العصر الإخشيدى ، البطرك افتشيوس سعيد بن البطريق (ت٣٢٨هـ / ٩٤٠م) ، فإلى جانب شغله كرسى البطركية ، واشتهاره كمؤرخ ، كان حاذقًا فى ميدان الطب وكان أخوه عيسى بن البطريق عارفًا بصناعته ، وامتاز فى جزئيات المداواة والعلاج ، وبرع فيها ، وألف كتابًا فى الطب وكناشا فى الأدوية المفردة والمركبة ؛ كما كان بارعًا فى التركيبات الصيدلية واستخداماتها فى العلاج [١٤].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصر شهدت فى هذه الفترة عدداً من الأطباء الأندلسيين الذين وفدوا إليها وأقاموا بها ومارسوا الطب ، ومن أمثلتهم أبى عبد الله محمد بن عبدون الجبلى العذرى القرطبى ، الذى اتجه إلى المشرق فى سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م ، ونزل مصر فتولى الإشراف على مارستان الفسطاط [١٥]. ومنهم أيضًا الشيخ أبى الحسن على بن صالح

الأندلسي ، الذى حضر إلى مصر وأقام بها حتى وفاته (؟) ودفن بالقرافة ، وكان يرتزق من الطب حيث تخصص فى أمراض العيون ولهذا اشتهر بالكحال ، وقد نجح في علاج بعض الحالات ، حتى أن أحد مرضاه من أهل الذمة أسلم بعد أن شفى على يديه من رمد كاد يصيبه بالعمى (١٦). ولعل هذا الحضور والرسائل المتبادلة بين الأطباء المصريين والمغاربة والأندلسيين بل والمشارقة أيضاً ، مما يؤكد على وجود تأثيرات طبية بينهم .

ومما لاشك فيه أن أطباء مصر فى عصر الولاة ودولتى الطولونيين والإخشيديين تركوا تراثاً قيماً فى هذا التخصص أفاد منه الأطباء اللاحقون وخاصة فى عصر الفاطميين ، ومما يؤكد ذلك أن إسحق بن سليمان الإسرائيلي اعتمد فى كتابه " البول "(١٧) على ما ألفه المتقدمين ، أما كتابه " الحميات " فهو لا نظير له ، قال عنه على بن رضوان (ت ٤٣٥هـ / ١٠٦١م) رئيس الأطباء فى مصر الفاطمية : " إن هذا الكتاب نافع وجمع رجل فاضل ، وقد عملت بكثير مما فيه فوجدته لا مزيد عليه ... " (١٨).

اشهر اطباء مصر فى العصر الفاطمى:

لقد شهدت مصر فى العصر الفاطمى تطوراً هائلاً فى مجال الطب ، حيث أصبحت قبلة للأطباء الوافدين إليها من المشرق والمغرب ، وهو الأمر الذى ساعد على تنوع الأفكار الطبية وثرائها ، بالإضافة إلى إسهامات الأطباء المصريين ، على اختلاف معتقداتهم ودياناتهم ، فقد اشتهر عدد كبير من الأطباء المسلمين والأقباط واليهود فى هذا العصر ، بما لا يدع مجالاً للشك فى أن هذه الفترة التاريخية شهدت نهضة طبية كبيرة ، تزعمها رجال ذوى همم وقدرات خاصة أثروا المكتبة الطبية بالعديد من المؤلفات الهامة ؛ وذلك على الرغم من أنهم لم ينالوا من الشهرة مثلما نال غيرهم من الأطباء المعاصرين لهم فى أقطار أخرى من العالم الإسلامى ، أمثال ابن سينا والرازى والزهراوى وغيرهم من أولئك الأطباء الذين اشتهروا باكتشافاتهم وإنجازاتهم العلمية ، ولعل السبب فى عدم ذيوع شهرة الأطباء المصريين فى العصر الفاطمى أن الغالبية العظمى منهم كانوا يمثلون الأطباء الممارسين ، وبعضهم ممارس جيد لا أكثر ولا أقل (١٩).

١ - الأطباء المسلمون المصريون :

ومن بين هؤلاء الأطباء يبرز عدد من الأطباء من أهل مصر المسلمين ، وإن كانوا أقل شهرة من أقرانهم من أهل الذمة إذا ما استثنينا رئيس الأطباء فى مصر فى ذلك العصر وهو

الطبيب المصرى الأشهر أبو الحسن على بن رضوان ، وفى مقدمة هؤلاء الأطباء يبرز طبيب عاش فى أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١هـ / ٩٦٦ – ١٠٢٠م) ، هو أبو بشر طبيب العظيمية ، وصفه ابن أبى أصيبعة[٢٠] بأنه كان " مشهوراً فى الدولة ، ويعد من الأفاضل فى صناعة الطب " ؛ ومنهم أيضًا على بن سليمان الذى ولد بالقاهرة وعاش فى خلافة العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ – ٩٩٦م) وولده الحاكم بأمر الله ، كما لحق أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ – ٤٢٧هـ / ١٠٢٠ – ١٠٣٥م) ، ولم يكن نابغًا فى صناعة الطب فحسب بل كان من العلماء الموسوعيين ، " متقنًا للحكمة والعلوم الرياضية ، متميزًا فى صناعة الطب ، أوحد فى أحكام النجوم " ومن مؤلفاته فى مجال الطب : " اختصار كتاب الحاوى فى الطب " و " كتاب الأمثلة والتجارب والأخبار والنكت والخواص الطبية المنتزعة من كتب أبقراط وجالينوس وغيرهما " [٢١].

ولا يخلو الأمر من اشتغال بعض الأمراء المصريين بصناعة الطب ، ومن أشهرهم المبشر بن فاتك وهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء الآمرى من أعيان أمراء مصر ، اشتهر ببراعته فى العلوم والطب ، وكان قد تتلمذ على يد الحسن بن الهيثم وعلى بن رضوان ، وألف كتابًا فى الطب [٢٢]. أما أشهر أطباء عصره قاطبة ، فهو الطبيب المصرى أبو الحسن على بن رضوان ابن على بن جعفر ، الذى ولد فى الجيزة سنة (٣٨٣هـ / ٩٩٨م) فى أسرة فقيرة ، فكان والده فرانًا ، ولذلك بدأ حياته العلمية والعملية معًا منذ صباه فى تحصيل العلم بسبب ضائقته المالية فكان يتكسب من ممارسة التنجيم والطب تارة وبتدريسهما تارة أخرى حتى توفر لديه المال الكثير فاقتنى أملاكًا فى مدينة الفسطاط وأصبحت لديه مدخرات تعينه فى شيخوخته [٢٣].

ومن الواضح أن ابن رضوان قد بلغ بعلمه فى الطب غايته ، الأمر الذى جعله يتميز على سائر أطباء مصر بل ومن وفد إليها من المشرق والمغرب ، فقربه الخليفة الحاكم بأمر الله إليه ، وجعله طبيبه الخاص ، وعينه رئيسًا للأطباء [٢٤].

وقد اعتمد ابن رضوان أسلوبًا فى معالجة مرضاه ، يقوم على المشاهدة والدلالات ، حيث ينقل عنه ابن أبى أصيبعة[٢٥] قوله : " إذا دعيت إلى مريض فاعطه ما لا يضره إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك ، ومعنى معرفة المرض هو أن تعرف من أى خلط حدث أولاً ، ثم تعرف بعد ذلك فى أي عضو هو وعند ذلك تعالجه " . كما يوصى الأطباء عند الكشف على المريض بتوجيه الأسئلة إليه ، وكذا حس مواضع المرض ، حيث يقول : أما فيما يمكن ظهوره للحس

فلا تقنع فيه حتى تشاهده بالحس ، وأما فيما يتعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة : وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة : حتى تعتبر كل واحد من العيوب ، فتعرف هل هو عيب حاضر أو كان أو متوقع أم الحال حال صحة وسلامة " ولذلك كان يوصى بفحص المريض فحصاً دقيقاً بالتفرس فى وجهه وملاحظة تنفسه ولون جلده والتأكد من سلامة عقله ، ثم التعرف على أحواله الخلقية والهمس فى أذنه لمعرفة قوة سمعه ، وأن يفحص قوة إبصاره ولسانه وقوته الجسدية ثم يفحص نبضه ومواضع كبده وكليته ثم برازه وبوله ، وعلى ذلك يقرر الدواء المناسب لحالته (٢٦).

وقد ألف ابن رضوان العديد من المصنفات الطبية ، وهى تزيد على المائة كتاب منها " كتاب شرف الطب "(٢٧) الذى يحتوى على شروط يجب أن تتوفر فى الأطباء ، رتبه ابن رضوان فى سبعة أبواب ضمنها بعض تعاليم الأوائل مثل " أبقراط " و " جالينوس " لممارسة تلك الصناعة(٢٨).

ومن اشتغل بالطب فى هذا العصر أيضاً بلمظفر بن معرف ، وهو بلمظفر نصر بن محمود ابن المعرف (٥٧١هـ / ١١٧٥م) : على أنه فيما يبدو لم يتخذ من الطب مهنة أساسية له ، وربما كانت مجرد هواية لديه حيث يقول ابن أبى أصيبعة (٢٩): " كان ذكياً فطناً ، كثير الاجتهاد والعناية والحصر فى العلوم الحكمية ، وله نظر أيضاً فى صناعة الطب والأدب وبشعر". فهو يعد من الفلاسفة الذين " درسوا الطب على جزء من المعرفة لا غنى عنه ، وسعيهم إلي استكمال المعرفة هو الذى دفعهم إلى درس الطب " (٣٠). وعلى الرغم من ذلك فقد احتفظ فى داره بمجلس كبير مشحون بالكتب ، ضمت ألوفاً فى كل فن ، كان من بينها كتباً كثيرة من كتب الطب ، ومن مؤلفاته : تعاليق فى الكيمياء وكتاب فى علم النجوم ، أما كتابه فى الطب فيعرف باسم : " مختارات فى الطب " (٣١).

ومع قرب نهاية الخلافة الفاطمية فى مصر برز على الساحة الطبية عالم ذو فضل كبير فى هذا المجال هو شرف الدين عبد الله بن على المعروف باسم " الشيخ السديد " وقد حمل عدة ألقاب تدل على علو قدره وارتفاع شأنه ومنها " رئيس الطب " (٣٢) و " شيخ الطب بالديار المصرية " (٣٣). كما كان يحمل لقب " القاضى الأجل " أما لقب " الشيخ السديد " فقد كان لقب أبيه غير أنه عرف به أيضاً ؛ وهو من بيت اشتهر بصناعة الطب ، فوالده كان " طبيباً للخلفاء الفاطميين ، مشهوراً فى أيامهم " ، وآخر من خدمهم الخليفة الآمر بأحكام الله ، حيث

يقول الابن : " ... إن أبى كان فى خدمت (الخليفة الآمر) وكان مكيناً عنده ... " ؛ وقد اصطحب الأب ابنه فى إحدى زياراته للخليفة الآمر ، واطلع الخليفة على نجابة الصبى وقدرته فى صناعة الفصد ، فصبح منذ ذلك اليوم طبيباً خاصاً للخليفة الآمر والخلفاء من بعده ، إلى أن زالت الخلافة الفاطمية ، فدخل فى خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبى (٣٤).

٢ - الأطباء الأقباط :

كان الطب من أهم الميادين التى نبغ فيها الأقباط ، لما جبلوا عليه من اطلاع على ما صنفه الأقدمون من أجدادهم ، والوافدون على مصر فى عصور مبكرة من العلماء اليونانيين الذين قدموا إلى الإسكندرية فى عصر البطالمة والرومان أمثال أبقراط وجالينوس أشهر من عملوا بالطب وصنفوا فيه العديد من المؤلفات (٣٥).

وفى العصر الفاطمى اتسعت شهرة الأطباء الأقباط ، خاصة فى ظل سياسة التسامح الدينى التى انتهجها أغلب الخلفاء الفاطميين ، ومن أشهر الأطباء المسيحيين الذين خدموا الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٦٢ - ٣٦٥هـ / ٩٧١ - ٩٧٥م) وابنه الخليفة العزيز من بعده ، الطبيب أبو سهل كيسان بن عثمان بن كيسان ، كان ماهراً فى تشخيص الداء وتحضير الدواء (٣٧٨هـ / ٩٨٨م)(٣٦) وكان أخوه أبو الحسن سهلان بن عثمان بن كيسان أكثر شهرة منه ، فقد خدم الخليفة المعز وابنه العزيز أيضاً ، " وارتفع جاهه فى الأيام العزيزية" (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) ومن مؤلفاته كتاب : " مختصر فى الطب " صنفه للخليفة العزيز بالله ، وكتاب " مختصر فى الأدوية المركبة المستعملة فى أكثر الأمراض " (٣٧).

ومنهم أيضاً يوسف النصرانى الطبيب الذى " كان طبيباً عارفاً بصناعة الطب فاضلاً فى العلوم " عينه الخليفة العزيز بالله بطريركاً على بيت المقدس سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م ، ثم مرض وعاد إلى مصر وتوفى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م (٣٨).

أما أشهر أطباء العزيز بالله ، فهو أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصرانى ، وقد وصف بأنه أشهر أطباء مصر وأحذقهم فى الطب والعلاج ، ولما توفى الخليفة العزيز وولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله دخل ابن مقشر فى خدمته وصار من خواص أطبائه (٣٩) ، وعلى الرغم من تقدمه فى علم الطب إلا أنه لم يترك مؤلفاً فى هذا المجال حيث ينكر القفطى أنه " ... لم يشتهر عنه علم فى هذا الشأن ولا يظهر له تصنيف " (٤٠) . وبعد وفاة ابن مقشر استطب الحاكم بأمر الله أبا يعقوب إسحق بن إبراهيم بن نسطاس النصرانى الذى توفى فى أيام

الحاكم بأمر الله أيضاً(٤١) غير أن ابن مقشر أعقب ولداً نبغ فى الطب وأخذ مكانة لا تقل عن مكانة والده عند الخليفة الحاكم الذى أصبح يعتمد عليه فى صناعة الطب (٤٢). فقد وصف بأنه " كان طبيب وقته ، عارفًا بالطب ... " إلا إنه كان على ما يبدو شغوفًا بشرب الخمر ، الأمر الذى عجل بنهايته ، حيث لقى مصرعه غرقًا فى بركة ماء وهو مخمور فاقد الوعى (٤٣).

ومن أطباء العصر الفاطمى برز اسم أبو سعيد بن قرقة الحكيم متولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح (٤٤)؛ وله دار وحمام اشتهرا به كانا قائمين بأول حارة زويلة بالقاهرة(٤٥). وعرف عنه أنه كان ماهراً فى علم الطب والهندسة وغيرهما من علوم الأوائل(٤٦). انتهت حياته بالقتل على يد الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤هـ / ١١٣٠ - ١١٤٩م) ، فقد روت المصادر التاريخية ، أخبار الفتنة التى نتجت عن العداوة بين الأمير حسن بن الحافظ والأمراء والأجناد الذين تخوفوا منه بسبب عظم أمره وقوة شوكته ، واجتمعوا على خلع الخليفة الحافظ سنة ٥٢٩هـ ، وأمام عظم هذه الفتنة قرر الخليفة قتل ابنه إرضاء للجند الثائرين حتى تخمد فتنتهم ، فأمر طبيبه اليهودى أبى منصور ، أن يعد جرعة من السم لولده حسن ، فامتنع الطبيب أبو منصور اليهودى عن ذلك وأقسم أنه لا يعرف طريقة إعداد مثل هذه السقية ، فأحضر الخليفة الطبيب ابن قرقة النصرانى وأطلعه على ما يريد عمله ، فأعد سماً أكره الخليفة ولده على شربه فمات فى الحال (٤٧). فلما قتل حسن وسكن الجند الثائرون قبض الحافظ على ابن قرقة وقتله بخزانة البنود ، واستولى على جميع أملاكه ؛ وأنعم على أبى منصور اليهودى الطبيب وجعله رئيساً على اليهود (٤٨).

٣ - الأطباء اليهود :

يمثل اليهود الشرقيون الذين عاشوا فى الأمصار الإسلامية ، جزء لا يتجزأ من الحضارة العربية الإسلامية ، حيث تأدبوا بأداب الإسلام ، وكتبوا باللغة العربية ، وساهموا فى إثراء التراث الإسلامى ؛ " فهم ، وإن لم يكونوا مسلمين فى الدين ، كانوا عرباً مسلمين فى الثقافة والعلوم"(٤٩) ولم يكن اليهود في مصر بمعزل عن المجتمع أو يشكلون طائفة من غير المصريين، ولا ينظر إليهم باعتبارهم أبناء جالية ذات خصائص اجتماعية ثقافية متمايزة ، بل ينظر إليهم باعتبارهم جماعة مصرية تعتنق ديناً يختلف عن دين الأغلبية ، ولاشك أن المسلمين والمسيحيين واليهود فى مصر ، شكلوا جسداً اجتماعيًا واحداً ، فقد شارك اليهود مشاركة فعالة فى الأحداث التى جرت فى مصر ، وكان لهم نصيبهم فى جميع الأنشطة ، وخاصة فى المجالات العلمية والثقافية (٥٠).

وقد تجلى دور اليهود فى الحياة العلمية والثقافية فى مصر الإسلامية فى العصر الفاطمى، وذلك تحت رعاية خلفاء اشتهروا بحسن معاملتهم لأهل الذمة بوجه عام واليهود بوجه خاص ، ففى مجال الطب لوحظ نبوغ أعداد كبيرة من الأطباء ، حتى أن أطباء الخلفاء الفاطميين من اليهود كانوا أكثر من أطبائهم من المسلمين والقبط ؛ وما من شك أنهم ساهموا بقدر وافر فى النهضة بالطب فى ذلك العصر ، سواء من ظل منهم على يهوديته ، أم من أسلم ، ونتيجة لنبوغ أكثرهم فى هذا المجال ، تولى البعض منهم رئاسة الأطباء فى مصر ، ودخلوا فى خدمة الخلفاء ، ورجال وحريم القصر الفاطمى ، وممن برز منهم فى عصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، الطبيب موسى بن إلعازار الإسرائيلى ، الذى اشتهر بالتقدم والحذق فى صناعة الطب ، وله العديد من المؤلفات الطبية منها : " الكتاب المعزى فى الطبيخ " الذى ألفه للخليفة المعز ، ومقالة فى السعال ، وكتاب " الأقربازين " ، وركب الكثير من الأدوية (٥١).

وامتداداً لهذا الطبيب اشتهر العديد من أسرته ، ما يدل على أن مهنة الطب كانت وراثية فى كثير من الأسر المصرية (مسلمين وأقباط ويهود) ، ومن هذه الأسرة اليهودية ، الطبيب إسحق بن موسى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م) وأخيه الطبيب إسماعيل بن موسى ، والحفيد يعقوب بن إسحق بن موسى ، كما كان لموسى ابن دخل الإسلام هو عون الله توفى قبل أخيه إسحق بيوم واحد ، بل إن جميعهم ماتوا فى حياة أبيهم موسى بن إلعازار (٥٢).

وبالرغم من أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد أصدر عدة تعليمات بشأن أهل الذمة (الأقباط واليهود) - ومنها أنه ألزم اليهود والنصارى سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م بشد الزنار ولبس الغيار وجعل شعارهم " شعار الغاصبين العباسيين " - إلا أنه سرعان ما أصدر عفواً شاملاً - بعد أن كثرت الشائعات - وكتب سجلاً من ثلاث نسخ للمسلمين والنصارى واليهود بالأمان والعفو عنهم (٥٣)، على أن ذلك لم يمنع من وجود الأطباء من أهل الذمة فى قصره ، فقد تقدم ذكر عدد كبير من الأطباء الأقباط الذين خدموا فى بلاطه ، أما أطباؤه من اليهود ، فقد ورد فى شعبان سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٨م أنه " خلع على صقر اليهودى وحمل على بغلة ، وقيد إليه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال وحمل معه عشرون سفط ثياب ، وأنزل فى دار فرشت وزينت ، وعلق على أبوابها وحجرها الستور ، وأعطى فيها جميع ما يحتاج إليه ، وقيل له هذه دارك ؛ فحصل له فى ساعة واحدة ما قيمته عشرة آلاف دينار ، واستقر طبيب الحاكم عوضاً عن ابن نسطاس " واستمر طبيباً خاصاً للخليفة الحاكم إلى أن توفى فى ربيع الآخر سنة

٤٠٠هـ / ديسمبر ١٠٠٩م (٥٤)، ولعل هذا التكريم الذى ناله صقر اليهودى الطبيب ما يؤكد أنه كان بارعًا فى مجال تخصصه ، وإن لم تذكر المصادر شيئًا عن إنتاجه العلمى .

وفى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله اشتهر طبيب يهودى آخر باسم غريب هو " الحقير النافع " ولعل ذلك لأنه كان يقوم بمداواة الجراح ، وهو فى غاية الخمول ; وتصادف أن عرض للخليفة الحاكم عقد فى رجله ، أخفق ابن مقشر وغيره من أطباء الخاص فى علاجه ، فأحضروا له هذا الطبيب اليهودى ، فقام بعلاجه حتى شفى فى ثلاثة أيام ، فأنعم عليه الخليفة وأعطاه ألف دينار وخلع عليه لقبه بالحقير النافع ، كما جعله من أطباء الخاص (٥٥).

ومن أشهر الأطباء اليهود الذين عاشوا فى هذا العصر الطبيب أبو كثير افرائيم بن الحسن بن إسحق بن إبراهيم بن يعقوب ، خدم الخلفاء الذين عاصرهم ومنهم الآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقد تلقى هذا الطبيب علومه فى الطب على يد رئيس أطباء مصر أبو الحسن على بن رضوان ، حيث أصبح من أجل تلاميذه(٥٦)، وفى هذا ما يدل على مدى الترابط بين أفراد المجتمع المصرى بشتى طوائفه واختلاف مذاهبه ومعتقداته الدينية حيث التزموا جميعًا بتعاليم واحدة وثقافة مشتقة من مبادىء وروح الإسلام .

وتجدر الإشارة إلى أن افرائيم بن الحسن اليهودى ، كان يمتلك مكتبة ضخمة ، تضم آلاف الكتب ، فقد قدم أحد العراقيين إلى مصر ، ليشترى كتبًا وينقلها إلى بغداد ، واتفق مع افرائيم على شراء عشرة آلاف مجلد من مكتبته الخاصة ، غير أن الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش الذى كان مولعًا باقتناء الكتب وتكوين المكتبات ، علم بهذا الاتفاق ، فأرسل إلى افرائيم جملة من المال الذى اتفق على دفعه ثمنًا لهذه الكتب ; ونقلت الكتب من مكتبة افرائيم إلى مكتبة الأفضل (٥٧). وعلى الرغم من بيع هذا العدد الضخم من الكتب ، إلا أنه عثر فى مكتبته بعد وفاته على عدد أكبر منه ، قدر بنحو عشرين ألف مجلد (٥٨). أما عن تراثه العلمى فقد ترك افرائيم عدد من المؤلفات الطبية منها : كناش(*) ضم تعاليق ومجربات ، كما استقصى فيه ذكر الأمراض ومداواتها . وكتاب : التذكرة الطبية فى مصلحة الأحوال البدنية " ألفه لنصير الدولة أبى على الحسين بن أبى على الحسن بن حمدان ، حينما خرج ثائرًا إلى الإسكندرية والبحيرة وغيرها من الأعمال(٥٩) وله أيضًا مقالة فى التقرير القياسى على أن البلغم يكثر تولده فى الصيف ، والدم والمرار الأصفر فى الشتاء (٦٠).

ومن الأطباء اليهود في العصر الفاطمي ، أبو الخير سلامة بن رحمون بن موسى ، وهو من تلاميذ افرائيم الطبيب اليهودي ، ولذلك كان " له اطلاع على كتب جالينوس والبحث عن غوامضها " حيث إنه اتبع مدرسة أصولية في علوم الطب كان يتزعمها ابن رضوان الذي كان ينادي بضرورة الرجوع إلى الأصول ومنها كتب أبقراط وجالينوس . وإلى جانب الطب كان لابن رحمون اهتمام بدراسة المنطق والعلوم الحكمية وله فيها مؤلفات عديدة ؛ وكان شيخه في هذه العلوم الأمير أبو الوفاء محمود الدولة المبشر بن فاتك : أما عن مؤلفات ابن رحمون الطبية والفلسفية فمنها : " كتاب نظام الموجودات " ، ومقالة في السبب الموجب لقلة المطر بمصر ، ومقالة في خصب أبدان النساء بمصر عند تناهي الشباب (٦١).

وقد أعقب سلامة بن رحمون ولداً ، نبغ في الطب أيضاً وصار من كبار الأطباء اليهود الذين اشتغلوا بالطب ، وصنفوا فيه ، هو مبارك الدولة بن رمون ، المصري المولد والمنشأ ، ومن مؤلفاته : مقالة في الجمرة المسماة بالشقفة والخزفة (٦٢).

أما في عصر الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله ، فقد سبقت الإشارة إلى الطبيب أبو منصور اليهودي ، وما دار بينه وبين الخليفة والطبيب ابن قرقة النصراني في شأن حسن بن الحافظ ، وقد انتهت هذه الحادثة بقتل ابن قرقة ، وتعيين أبي منصور اليهودي رئيساً لليهود ، ورئيساً للأطباء في قصر الخلافة .

كما شهدت فترة خلافة الآمر بأحكام الله نبوغ بعض الأطباء اليهود ومنهم الشيخ أبو الفضائل النسطوري المعروف بطبيب الطائفة العظيمية في الخلافة الآمرية (٦٣) . وقد ذكره المقريزي باسم الشيخ أبو الفضل ، وقد أنعم عليه الخليفة ببدلة حريري (٦٤).

وقد شهد العقد الأخير من الخلافة الفاطمية العديد من الأطباء اليهود الذين خدموا في بلاط الخلفاء ، وعاصروا أوائل الدولة الأيوبية ، وخدموا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ ومنهم أبو البيان بن المدور ، اليهودي القراء ، الملقب بالسديد الذي كان عالمًا بالطب (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) ، خدم الخلفاء الفاطميين في آخر دولتهم ، ثم دخل في خدمة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وقد ظل يعمل بالطب حتى بعد أن تقدم به العمر وأصابه الضعف، فقرر له السلطان أربعة وعشرين ديناراً تصل إليه في بيته ، واستمر على ذلك لمدة عشرين سنة، لا يبرح بيته بينما لم يتوقف عن ممارسة الطب ، كما ظل التلاميذ يترددون عليه

لدراسة الطب ، والمرضى يأتون إليه لتشخيص المرض وتوصيف الدواء ، غير أنه مع كبر سنه كان يخرج فى بعض الأحيان لتطبيب من يعز عليه جداً مثل القاضى الفاضل وابن سناء الملك وبعض الأمراء المقربين منه ، ومن كتبه " مجربات فى الطب " (٦٥).

ومنهم أيضاً الرئيس هبة الله الذى عاش فى آخر دولة الفاطميين وخدم من عاصرهم من الخلفاء بصناعة الطب ، فقرروا له الجامكية الوافرة والصلات المتوالية ، ولما انقرضت دولتهم عاش بعدهم فيما أنعموا عليه به إلى أن توفى سنة خمسمائة ونيف وثمانين من الهجرة (٦٦).

وهناك عدد من الأطباء اليهود الذين عاصروا الدولة الفاطمية ، ولكن المصادر لم تذكر أنهم دخلوا فى خدمة الخلفاء الفاطميين ، بينما تذكر أنهم دخلوا فى خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولعلهم لم يحظوا باهتمام الخلفاء الذين اعتمدوا أطباء غيرهم اختصوا بهم . وكان من بينهم الطبيب اليهودى ابن جميع وهو الشيخ الموفق شمس الرياسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن افرائيم ، من الأطباء المشهورين ، " وكان متقنناً فى العلوم جيد المعرفة بها ، كثير الاجتهاد فى صناعة الطب حسن المعالجة ، جيد التصنيف " : درس الطب على الشيخ الموفق أبى نصر عدنان بن العين زربى ولزمه مدة : وقد ولد ابن جميع فى مدينة الفسطاط ونشأ بها ، وخدم السلطان صلاح الدين ، الذى اعتمد عليه فى صناعة الطب ، وركب له الدواء : وكان لابن جميع مجلس يجتمع فيه المشتغلون بصناعة الطب : وإلى جانب اهتماماته الطبية ، اهتم بدراسة اللغة العربية ، وألف الكثير من الكتب الطبية التى امتازت بأنها " جيدة التأليف ، كثيرة الفوائد، منتخبة العلاج " . ومنها : " كتاب الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد " وكتاب " التصريح بالمكنون فى تنقيح القانون " ، ورسالة فى " طبع الإسكندرية وحال هوائها ومياهها ونحو ذلك من أحوالها وأحوال أهلها " ، ومقالة فى الليمون وشرابه ومنافعه ، ومقالة فى الراوند ومنافعه ، ومقالة فى الحديد ، ومقالة فى علاج القولنج واسمها " الرسالة السيفية فى الأدوية الملوكية" (٦٧).

ومنهم أيضاً الموفق بن شوعة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) ، وهو من أفاضل العلماء والأطباء اليهود ، فقد اشتهر بسعة علمه فى الطب ، وتخصص فى طب العيون والجراحة ، وخدم الناصر صلاح الدين ، وبالإضافة إلى الطب اشتهر بأنه كان شاعراً يكتب الشعر ويعزف على القيثارة (٦٨).

أما المهذب أبو الفضائل بن الناقد ، فقد كان طبيباً مشهوراً ، تخصص فى طب العيون أيضًا ، وكان تلامذته يلازمونه فى أكثر أوقاته ، ويقرؤون عليه حتى فى أوقات سيره لتفقد مرضاه ، إلى أن توفى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م ، وخلفه ابنه أبو الفرج الذى أسلم ، وكان مثل أبيه طبيباً وكحالاً (٦٩).

ويلاحظ مما تقدم أن غالبية الأطباء (فى مصر) كانوا من أهل الذمة (أقباط ويهود) ، فقد كان احتراف اليهود والنصارى لصناعة الطب يكاد يكون حكراً عليهم ، وهو ما لاحظه الرحالة والوافدون إليها ، فيقول أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الطبيب الأندلسى (ت ٥٢٨هـ / ٣٣ - ١١٣٤م) : " أكثر أطبائها المبرزين نصارى ويهود " (٧٠). أما الرحالة الأندلسى ابن سعيد الذى زار مصر سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٨م فى عهد السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨ - ٦٤٧هـ / ١٢٤١-١٢٤٩م) ، فقد رأى " أكثر ما يتعيش بها اليهود هى كتابة الخراج والطب " (٧١). وهو ذات الأمر الذى دفع أحدهم إلى القول :

أقــول للمــسلمين طرا | تبــغـــون فى طبنا اشــتــهــارا
هـيـهات حـاولتم مـحـالا | كـونوا إذن يهودا أو نصـارى(٧٢)

٤ - أطباء وافدون :

أ - من المشرق :

شهد العصر الفاطمى حضروا كبيراً لبعض الأطباء العرب المشارقة (من المسلمين وأهل الذمة) ، الذين توافدوا على مصر لأسباب مختلفة تعلقت فى مجملها بأهواء هؤلاء الأطباء ومآربهم ، فتباينت من طبيب إلى آخر ، فمنهم من جاء طلبًا للمال ، لما عرف عن بذخ الفاطميين وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم ولاسيما من أرباب العلم والفضل (٧٣). وربما حضر الطبيب إلى مصر بدعوة من أحد الخلفاء الفاطميين ، لعلمه وتفوقه فى مجال تخصصه ؛ غير أن السبب الرئيسى فى تقديرى إنما يرجع إلى رغبة هؤلاء الأطباء فى الاطلاع على الأصول ، والاستزادة من تعاليم الأولين ، خاصة وأن مصر على مر تاريخها القديم والوسيط شهدت نهضة وتطوراً فى مجال الطب لم تشهده حضارات أخرى ، وقد تقدم أن مصر فى عصورها الفرعونية كانت فى مقدمة الأمم فى هذا المجال ، فالطب المصرى القديم يعتبر أقدم طب عرفه التاريخ المكتوب ، ويقول المؤرخ (جابين Gaben) : " إن المصريين كانوا منجماً اغترف منه الأقدمون بكل حرية وانطلاق دون أن يذكروا فضلاً لأصحابه الأصليين وأن العقاقير وأوصافها المذكورة فى أعمال ديسقوريدس وبلينى وغيرهما كان من الواضح جداً

أنها مأخوذة عن المصريين القدماء " (٧٤). ولما كان علماء مصر وأطباؤها هم ورثة هذا التراث، والأكثر معرفة بمصادره ومعايره التي تمثلت في الأطباء اليونانيين ، فقد حرص الأطباء من المشرق والمغرب على الالتقاء بهم والأخذ عنهم ، أو تبادل المعرفة بعلوم الطب بينهم ، حتى أن طبيباً كبيراً مثل المختار بن الحسن بن بطلان جاء إلى مصر خصيصاً للقاء رئيس أطبائها أبو الحسن على بن رضوان استجابة لما أملته عليه المنافسة (٧٥).

ومن الأطباء الذين جاءوا إلى مصر من المشرق الإسلامي في العصر الفاطمي ، يبرز الطبيب أبو عبد الله محمد بن سعيد التميمي ، كان مقامه أولا بمدينة القدس ونواحيها ، تميز في صناعة الطب والاطلاع على دقائقها ، وله خبرة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة ، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير وتركيبه : وكان جده طبيباً أيضاً ، أي أنه ورث عنه صناعة الطب ، غير أنه كان حريصاً على تحصيل علومه من أكثر من مصدر ، حيث تلقى أول علومه في موطنه الأصلي بيت المقدس ، وتنقل بين مدن الشام لمواصلة دراسته ، وفي مدينة الرملة دخل في خدمة الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدي الذي كان مغرماً به ، وبما يعالجه به من الأدوية المركبة ، ثم انتقل التميمي إلى مصر وصحب الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز ، وصنف له كتاباً كبيراً في عدة مجلدات سماه : " مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء وكل ذلك بالقاهرة المعزية " (٧٦).

وفي القاهرة أيضاً التقى التميمي بأطباء مصر ، ودارت بينه وبينهم مناظرات علمية ، كما التقى بالأطباء المغاربة الذين قدموا إلى مصر في صحبة المعز لدين الله الفاطمي ، أما عن إنتاجه الفكري والعلمي فيتمثل في : " رسالة إلى ابنه على بن محمد في صنعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما فيه من أدوية ، ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعها ، وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته " . وكتاب آخر في الترياق ، " استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافعه " . وكتاب مختصر في الترياق ، ومقالة في ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه ، وعلاجه . و "كتاب الفحص والأخبار " (٧٧). ويذكر ابن العبري أنه كان بمصر في حدود سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م ، وأنه " أحكم ما علمه من علم الطب غاية الإحكام ، وكان منصفاً في مذاكراته ، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة " (٧٨).

ومن الأطباء المشارقة أيضاً الطبيب عمار بن على الموصلي (ت ٤١١هـ / ١٠٢٠م) ، الذي اشتهر بطب العيون ، فقد " كان كحالاً مشهوراً ، معالجاً مذكوراً ، له خبرة بمداواة أمراض العيون " ، ويتضح من اسمه أنه عراقي ، ولد في مدينة الموصل ، وقد سافر إلى مصر وأقام

بها ، حيث لم يشتهر في العراق مثلما اشتهر في مصر ، وخاصة في عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ، حينما دخل في خدمته ، وألف له كتاب : " المنتخب في علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد " (٧٨).

ومن الملاحظ أن الفترة التي سبقت وصول عمار إلى مصر ، شهدت نبوغ طبيب مصري متميز في طب العيون ، وهو الطبيب أعين بن أعين ، الذي عاش في خلافة العزيز بالله وتوفي سنة (٣٨٥هـ / ٩٩٥م) ؛ ومن مؤلفاته : كتاب في أمراض العين ومداواتها (٨٠). ولعل مجيء عمار بن علي إلى مصر قد ترتب على سماعه عن هذا الطبيب ، ومن المرجح أنه اطلع على كتابه في أمراض العيون وهو ما يفسر التشابه الكبير بين الكتابين .

ومن كبار مشاهير هذا العصر أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم المهندس البصري ، صاحب التصانيف في علم الهندسة ؛ الذي ذاع صيته في بغداد ، وسمع به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وكان يميل إلى الحكمة ، فتاقت نفسه إلى رؤيته ، خاصة وقد نقل عنه أنه قال : " لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالاته من زيادة ونقص... " (٨١).

وقد كان ابن الهيثم إلى جانب نبوغه في علوم الرياضيات والهندسة ، خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينه وأموره الكلية ، وبالرغم من ذلك لم يباشر أعماله ، ولم تكن له دراية بالمداواة (٨٢). أما عن مؤلفاته في مجال الطب فهي قليلة جداً بالمقارنة بمؤلفاته في العلوم الرياضية والهندسية والطبيعة ، بالإضافة إلى علم المنطق والفلسفة والآداب : ففي مجال الطب لخص كثيراً من كتب جالينوس ، فكان أهم مؤلفاته الطبية ، كتاب في تقويم الصناعة الطبية ، قال عنه : " نظمته من جمل وجوامع ما نظرت فيه من كتب جالينوس وهو ثلاثون كتاباً : كتابه في البرهان ، كتابه في فرق الطب ، كتابه في الصناعة الصغيرة ، كتابه في التشريح ، كتابه في القوي الطبيعية ، كتابه في منافع الأعضاء ، كتابه في آراء أبقراط وأفلاطون ، كتابه في المني ، كتابه في الصوت ، كتابه في العلل والأعراض ، كتابه في أصناف الحميات ، كتابه في البحران ، كتابه في النبض الكبير ، كتابه في الاسطقسات على رأي أبقراط ، كتابه في المزاج، كتابه في قوى الأدوية المفردة ، كتابه في قوى الأدوية المركبة ، كتابه في مواضع الأعضاء الآلية ، كتابه في حيلة البرء ، كتابه في حفظ الصحة ، كتابه في جودة الكيموس ورداءته ، كلامه في أمراض العين ، كتابه في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، كتابه في

سوء المزاج المختلف ، كتابه فى أيام البحران ، كتابه فى الكثرة ، كتابه فى استعمال الفصد لشفاء الأمراض ، كتابه فى الذبول ، كتابه فى أفضل هيئات البدن ، جمع حنين بن اسحق من كلام جالينوس وكلام أبقراط فى الأغذية ، ثم شفعت جميع ما صنعته من علوم الأوائل برسالة بينت فيها أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى نتائج العلوم الفلسفية . وكانت هذه الرسالة المتممة لعدد أقوالى فى هذه العلوم بالقول السبعين ، وذلك سوى رسائل ومصنفات عدة حصلت فى أيدى جماعة من الناس بالبصرة والأهواز وضاعت دساتيرها ، وقطع الشغل بأمور الدنيا وعوارض الأسفار عن نسخها ، وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء . فقد سبق مثله لجالينوس حتى ذكر فى بعض كتبه ، فقال : وقد صنفت كتباً كثيرة دفعت دساتيرها إلى جماعة من إخوانى ، وقطعنى الشغل والسفر عن نسخها حتى خرجت إلى الناس من جهتهم " (٨٣).

ولما كان ابن الهيثم مهتماً بعلم الطبيعة والبصريات ، فقد دفعه ذلك إلى دراسة العين دراسة تشريحية علمية ، ووضع الأسماء لأربعة أجزاء منها هى (القرنية والقزحية والسائل الزجاجي والسائل المائى) ، وعلل الرؤية بورود الصورة إلى كل عين على حدة ثم التحامهما فى المركز البصرى فى موضع متماثل تماماً حيث تنطبق الصورتان على بعضهما وتظهران فى شكل صورة واحدة (٨٤).

أما أشهر الأطباء المشارقة الذين حضروا إلى مصر فى هذا العصر وترك بها آثاراً علمية واضحة فهو الطبيب البغدادى أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان النصرانى ، المعاصر لرئيس أطباء مصر أبو الحسن على بن رضوان ، وقد دارت بينهما "المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ، ويسفه رأيه فيه " (٨٥).

وكان ابن بطلان قد سمع أثناء رحلته من بغداد إلى مصر عن الطبيب المصرى على بن رضوان ، فقرر الالتقاء به ، والتعرف عليه ، " فتمت بينهما صداقة سرعان ما تحولت إلى مناظرة ومشاجرة زادت نيرانها المغالبة فى المجادلات فافترقا " (٨٦).

دخل ابن بطلان مدينة الفسطاط فى مستهل جمادى الآخرة سنة ٤٤١هـ / أول ديسمبر ١٠٤٩م وأقام بها ثلاث سنوات ، وذلك فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى(٨٧) على حد قول ابن أبى أصيبعة ، الذى عاد ليقول : " ونقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان أن الغلاء عرض بمصر سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، قال : ونقص النيل فى السنة التى تليها ، وتزايد الغلاء وتبعه وباء عظيم ، واشتد وعظم فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة .. " (٨٨). ويتضح من

هذه الرواية أن ابن بطلان أقام بمصر أكثر من ست سنوات ؛ وقد اختلفت المصادر أيضاً فى تحديد تاريخ وفاة ابن بطلان ، فقد ذكر كل من القفطى وابن العبرى أنه توفى سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٣م (٨٩)، بينما يذكر ابن أبى أصيبعة أن ابن بطلان انتهى من تأليف إحدى مقالاته فى إنطاكية سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م (٩٠). أى أنه توفى بعد هذا التاريخ ؛ وهو ما يتفق مع الرأى القائل إنه عاش بعد سنة ٤٤٤هـ أكثر من عشر سنوات (٩١).

أما عن آثاره العلمية فى مجال الطب ، فهى عديدة ومتنوعة ، وتدل على أنه عالم بالمنطق والحكمة والطب ومنها : " كناش الأديرة والرهبان " ذكر فيه الأمراض العارضة لرهبان الأديرة، وكتاب " تقويم الصحة فى قوى الأغذية ودفع مضارها " ، ومقالة إلى على بن رضوان كتبها عند وروده الفسطاط سنة ٤٤١هـ جواباً عما كتبه إليه ، ونقلها كل من القفطى وابن العبري ، وقام بنشرها يوسف شاخت وماكس مايرهوف ، ضمن خمس رسائل لابن بطلان ، مطبوعات كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٧م (٩٢)، ومقالة فى " علة الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التى كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد ، كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، ومخالفتهم فى ذلك لسطور القدماء فى الكنانيش والأقربازينات وتدرجهم فى ذلك بالعراق وما والاها على استقبال سنة ٣٧٧هـ إلى سنة ٤٥٥هـ " صنفها بإنطاكية ، ومقالة فى " الاعتراض على من قال إن الفرخ أحر من الفروج بطريق منطقية " ألفها بالقاهرة سنة ٤٤١هـ . وقد نشر أيضاً ضمن مجموع (خمس رسائل) ، وكتاب " دعوة الأطباء " ألفه على غرار (كليلة ودمنة) وأهداه للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر المتوفى سنة ٤٥٣هـ ، وقد نشر هذا الكتاب الدكتور بشارة زلزل بالمطبعة الخديوية بالإسكندرية سنة ١٩٠١م عن نسخة بمكتبته وقد تصرف فيها بعض التصرف بحذف " عبارات لا يألفها ذوق الأدباء من أبناء هذا العصر " كما ذكر فى مقدمته ؛ كما نشر فى بيروت وترجم للفرنسية ، وهو كتاب هام فى تاريخ الطب والصيدلة (٩٣). قال عنه ابن أبى أصيبعة : " ونقلت من خط ابن بطلان، وهو يقول فى آخرها : فرغت من نسخها أنا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المتنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية فى أواخر أيلول سنة ١٣٦٥م ، هذا قوله ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامى من سنة ٤٥٠هـ " ، ومن مؤلفاته أيضاً كتاب " وقعة الأطباء " ، وكتاب " دعوة القسوس " ، ومقالة فى " مداواة صبى عرضت له حصاة " (٩٤).

ومن بين الأطباء المسيحيين الذين زاروا مصر ، وأقاموا بها ذكر أبو الصلت طبيباً من أهل إنطاكية ، أدركه عند دخوله مصر سنة ٥١٠هـ / ١١١٧م يسمى جرجس ، ويلقب بالفيلسوف ، جاء إلى مصر ، ومارس مهنة الطب بها ، وكانت بينه وبين ابن رحمون اليهودى خصومة ، فعمل على النيل منه والحط من قدره ، وهجاه شعراً بقوله :

إن أبا الخير على جهله ... يخف فى كفيه الفاضل

عليله المسكين من شؤمه ... فى بحر هُلك ماله ساحل

ثلاثة تدخل فى دفعه ... طلعته والنعش والغاسل (٩٥)

ومن أشهر الأطباء المسلمين الذين زاروا مصر ، ودخلوا فى خدمة خلفائها الفاطميين ، الشيخ موفق الدين أبو نصر عدنان بن منصور المعروف بابن العين زربي ، من أهل مدينة عين زربة ، مروراً ببغداد التي شهدت نبوغه فى صناعة الطب والعلوم الحكمية ، واشتهر على وجه الخصوص بعلم التنجيم ، وفى مصر حظى برعاية الخلفاء الفاطميين ، وتميز في دولتهم ، فصار من أجل المشايخ ، وأكثرهم علماً فى صناعة الطب والمنطق وغير ذلك من العلوم ؛ وتتلمذ على يديه العديد من الطلاب ، الذين تميزا جميعاً وبرعوا فى صناعة الطب (٩٦).

ومن المرجح أن دخول ابن العين زَرْبى مصر كان فى خلافة الآمر ، ولكنه استمر بعده وحظى برعاية الخليفة الظافر إلى أن توفى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م أى قبل وفاة الخليفة الظافر بيوم واحد (٩٧).

أما عن تراثه العلمي فقد امتاز بكثرته وتنوعه ، حيث صنف بمصر كتباً عديدة فى مجال الطب (٩٨). ومنها كتاب " الكافى فى الطب " بدأ فى تأليفه بمصر سنة ٥١٠هـ / ١١١٧م ، وأتمه فى ذى القعدة سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م . ومنها أيضاً : " شرح كتاب الصناعة الصغير لجالينوس " و " مجربات فى الطب " ألفه علي جهة الكناش ، وقام بجمعه وترتيبه ظافر بن تميم بعد وفاة ابن العين زَرْبى ، وله أيضاً " رسالة فى تعذر وجود الطبيب الفاضل ونفاق الجاهل " ومقالة فى " الحصى وعلاجه " (٩٩). وهناك مقالة أخرى عثر عليها الدكتور سامى حمارنه فى المكتبة الظهرية بدمشق سنة ١٩٦٤م بعنوان " مرض الشقة " وهى تدل على أن ابن العين زربى كان خبيراً بالأمراض الجلدية وعلاجها (١٠٠).

ومن الأطباء الذين جاءوا إلى مصر من بلاد الشام ، الطبيب العربى المهذب بن النقاش البغدادى المولد ، " وكان فاضلاً فى صناعة الطب " وجاءت زيارته إلى مصر بهدف الحصول

على المال ، بعد أن أقام مدة في دمشق ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته ، وقد سمع عن كرم الخلفاء الفاطميين وإنعامهم وإحسانهم إلى من يقصدهم من أرباب العلم والفضل ، وما أن وصل إلى مصر حتى التقى الشيخ أبو منصور عبد الله بن الشيخ السديد رئيس أطباء مصر ، فتلقاه بما يليق بشخص مثله وأكرمه غاية الإكرام ، وقرر له راتبًا شهريًا خمسة عشر دينارًا مصريًا ، وخصص له قاعة قريبة منه لسكناه ، وأعطاه جارية حسناء وخلعة فاخرة ألبسه إياها ، كما أعطاه بغلة من أجود دوابه بالإضافة إلى جميع ما يحتاج إليه من الكتب وغيرها . فأقام بالقاهرة على هذا الحال ، إلى أن رجع إلى الشام ، واستقر بدمشق إلى حين وفاته(١٠١).

ب – من المغرب ولأندلس :

تزايد عدد الأطباء الوافدين إلى مصر من المغاربة والأندلسيين ، مع دخول الفاطميين مصر وتأسيس دولتهم بها ، ومن الأسباب التي دفعت هؤلاء الأطباء للحضور إلى مصر ، إضافة إلي ذات الأسباب التي أدت إلى حضور الأطباء المشارقة ، إما طلبًا للعلم أو المال أو الجاه ، أو رغبة في أداء فريضة الحج ، حيث يمكثون بمصر أثناء مرورهم بها : كما كان منهم من صحب الخليفة المعز لدين الله الفاطمي عند قدومه إلى مصر ، فتذكر المصادر أنه اصطحب معه عددًا من أطباء الخاص الذين كانوا يعملون في بلاطه بالمغرب ، وأنهم صاروا محورًا لنشاط علمي مع الأطباء المصريين الموجودين آنذاك ، أو النازحين إليها من بلاد الشام (١٠٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عددًا من هؤلاء الأطباء استوطنوا مصر ، بعد أن طالت إقامتهم بها ، حتي صار الواحد منهم يعرف بالمصرى ، ومنهم أعين بن أعين المصرى (ت ٣٨٥هـ / ٩٩٥م) الذى خدم الخليفة المعز في القيروان وانتقل معه إلى مصر ، وتخصص في طب العيون (الكحالة) (١٠٣). كذلك أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبى (ت ٤٩٦هـ / ٢-١١٠٣م) الذى استغل وجوده في مصر لتعلم الطب ، وقد طالت إقامته بها حتي صار يعرف بالمصرى ؛ وتحقق له ما أراد ، وعند عودته للأندلس اشتهر وشاع ذكره عند ملوك الطوائف(١٠٤).

أما أشهر الأطباء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الشرق ومروا بمصر وأقاموا بها فترة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زُهر الأيادى الإشبيلى (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) ، دخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمنًا طويلاً ، ثم انتقل إلى بغداد وتولى رئاسة الطب بها ،

ثم بمصر ، ثم بالقيروان ، ثم عاد إلى الأندلس واستوطن مدينة دانية ، فاشتهر فى أقطار المغرب والأندلس بالتقدم فى علم الطب حتى بز أهل زمانه ، إلى أن توفى فى إشبيلية (١٠٥). وخلف أبا مروان أبناء وأحفاد نبغوا فى مجال الطب ، حتى أن أسرة " بنى زهر " تربعت على عرش الطب فى الأندلس ، ويهمنا من هذه الأسرة الابن أبى العلاء زُهر بن عبد الملك بن زهر (ت ٥٢٦هـ / ١١٣١م) الذى أخذ الطب عن أبيه ، وكان دقيقًا فى تشخيص الأمراض ، ومن أهم مؤلفاته كتاب " الإيضاح بشواهد الافتضاح فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق فى كتاب المدخل إلى الطب " ، وقد ذكر ابن أبى أصيبعة أن أحد شيوخه يدعى أبو العيناء المصرى (١٠٦)، ومن الواضح أن التواصل العلمى فى مجال الطب بين علماء مصر والمغرب والأندلس كان فى نشاط دائم .

ومن مشاهير الأطباء الأندلسيين الذين جاءوا إلى مصر الطبيب يوسف بن أحمد بن حسداى اليهودى (ت بعد ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) وهو أحد الفضلاء فى صناعة الطب ، كانت له عناية بالغة بالاطلاع على كتب أبقراط وجالينوس ، جاء إلى مصر قادمًا من الأندلس سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م بدعوة من الخليفة الآمر بأحكام الله ، واعتنق الإسلام ، وأقام فى مصر تحوطه مظاهر التكريم ، حيث قرر له الآمر راتب جار وكسوة شتوية وعيدية ورسوم ، وخصصت له دار بالقاهرة لإقامة فيها ، وكتب له منشور أورده المقريزى ، يتضمن مظاهر عديدة للحفاوة والتكريم لهذا الطبيب ، أهمها اعتماده رئيسًا للأطباء فى مصر ، كما رسم له السياسة العامة للنهوض بصناعة الطب فى مصر ، وذلك فى ذى القعدة سنة ٥١٦هـ / يناير ١١٢٣م (١٠٧).

وتعددت نشاطات ابن حسداى فى مصر ، فكان يلتقى بطلاب علم الطب ، ويقوم بالتدريس لهم ، كما كان يلتقى بأطباء القاهرة والفسطاط ، ولعل ذلك كان بغرض المناظرات العلمية ، وخصص يومين من كل أسبوع للتأليف العلمى ، واستخدم كاتبين لتبييض ما يؤلفه . وكانت هذه المؤلفات توضع فى خزائن الكتب بالقصر ودار العلم ، على شكل مراجع علمية (١٠٨).

وقد قام ابن حسداى بشرح بعض كتب أبقراط ، ومن مؤلفاته : " الشرح المأمونى لكتاب الإيمان لأبقراط المعروف بعهدة الأطباء " صنفه للمأمون أبى عبد الله محمد الآمرى ، " وقد أجاد فى شرحه لهذا الكتاب ، واستقصى ذكر معانيه وتبيينها على أتم ما يكون ، وأحسنه". وله أيضًا " شرح المقالة الأولى من كتاب الفصول لأبقراط " . وتعاليق وجدت بخطه كتبها عند

قدومه إلى الإسكندرية من الأندلس ، وفوائد مستخرجة ، واستخرجها وهذبها من شرح على بن رضوان لكتاب جالينوس إلى اغلوقن ، من القول على أول الصناعة الصغيرة لجالينوس(١٠٩).

واستمرارًا لتوافد الأطباء الأندلسيين على مصر ، جاء في سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م الطبيب أبو الصلت أمية بن أبي الصلت الداني ثم الإشبيلي (ت ٥٢٨هـ / ١١٣٤م) في أيام الخليفة المستنصر بالله ، ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي : طلبًا لبسطة العيش وثراء من المال(١١٠) من جهة ، ورغبة في الاطلاع على تراث الأقدمين من علماء الطب ، كما عبر عن ذلك بقوله : " كنت في أول جلوسي بها شديد العناية بكتب جالينوس وأبقراط ، باحثًا عن مشكلها ، فاحصًا عن مستغلقها ، فحرصت كل الحرص ، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من استفيد منه وأستزيد بمذكراته ، وأقدح خاطري بمفاوضته " (١١١).

على أن ابن أبي أصيبعة(١١٢) يذكر أن دخوله مصر كان في سنة ٥١٠هـ / ١١١٧م ، ثم عاد ليذكر أنه ألف " الرسالة المصرية " التي ذكر فيها ما رآه بمصر من هيئتها وآثارها ، ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء ، وغيرهم من أهل الأدب ، للأمير أبي طاهر بن باديس المتوفى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م وهذا ما جعل البعض يرى أنه زار مصر مرتين(١١٣). غير أن هناك ما يبعث على الشك في هذه الرواية حيث ذكر ابن أبي الصلت(١١٤) أنه التقى في مصر بالطبيب جرجس الأنطاكي ، وقد ذكر ابن العبري(١١٥) أن هذا اللقاء تم سنة ٥١٠هـ مما يؤكد أن الرسالة كتبت بعد وفاة الأمير ابن باديس . أي في زيارته الثانية لمصر التي بدأت سنة ٥١٠هـ ولم تكتب لابن باديس .

تعرض ابن أبي الصلت في رحلته الثانية لحادثة عجيبة : فقد طلب منه الوزير الأفضل أن يعمل الحيلة في رفع مركب غارق في بحر الإسكندرية ، وسخر له كافة الإمكانات اللازمة ، فعمل كل حيلته ، واجتهد قدر طاقته ، غير أنه لم يوفق وهبط المركب ثانية إلى قاع البحر ، بعد أن كبد خزانة الدولة نفقات باهظة ، مما دفع الأفضل إلى سجنه (١١٦).

أما عن حياته العلمية في مصر ، فقد عمد ابن أبي الصلت إلى لقاء الأطباء والعلماء والأدباء بها ، فغلبت عليه روح النقد خاصة للأطباء المصريين ، ولعل ما دفعه إلى ذلك إحساسه بالتفوق في هذا المجال ، فجاء نقده لاذعًا لمن وجده من الأطباء وصار يردد فيهم مقوله القائل:

مـــا خطر النبض على باله　　يومًـــا ، ولا يعــرف مــا الماء
بــل ظـــن أن الطــب دُرّاعة　　ولحـيـة كالقطن بيضـاء(١١٧)

غير أن ذلك لم يمنعه من إبداء إعجابه ، بطريقة العلاج التي كانت متبعة في المارستان لعلاج المرضى وخاصة الحالات النفسية ، حيث كان يستدعي رجل ، فيدخل على المريض ، يحكي له حكايات مضحكة ، وخرافات مسلية ، ويعرض عليه صوراً لوجه مضحكة ، فينشرح صدر المريض وتعود إليه قوته ؛ فقد رأى ابن أبى الصلت فى ذلك تنشيط للنفس وتقوية للقوى الطبيعية والبدن على دفع الأخلاط المؤذية ؛ وتمنى أن تتبع هذه الوسيلة في علاج الأمراض العضوية مع الاستظهار بحفظ الأصول (١١٨).

وقد صنف ابن أبى الصلت العديد من المؤلفات الطبية إلى جانب مؤلفاته في مجالات أخرى، ومن أهم مؤلفاته الطبية ، كتاب " الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية " وهو مختصر رتبه أحسن ترتيب ، وكتاب " الانتصار لحنين بن اسحق على ابن رضوان فى تتبعه لمسائل حنين " (١١٩).

سياسة الخلفاء الفاطميين نحو الأطباء :

لاشك أن وجود هذا العدد الكبير من الأطباء المصريين وغير المصريين فى العصر الفاطمى، يبرهن على أنهم وجدوا فى مصر راحة للإبداع فى مجال تخصصاتهم ، فمنهم من تتلمذ على أيدى علمائها وكبار أطبائها ، ومنهم من وجد فى خزائن كتبها فرصة للاطلاع على الأصول التى صنفها الأوائل من قدماء المصريين والإغريق وغيرهم ، ومنهم من مارس صناعة الطب للارتزاق وكسب المال أو بحثًا عن الرياسة والجاه بين أطباء عصره ، ولاشك أن ذلك كله تم فى ظل خلفاء حرصوا كل الحرص على الاهتمام بالطب والأطباء : ولعل ما يدعم هذا الرأى أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي كان شديد الاهتمام بأن يكون فى قصره فريق من الأطباء ، عرف باسم " أطباء الخاص " وذلك منذ أن كان مقيماً بالمغرب ، وقد اصطحب معه عدداً من هؤلاء الأطباء عند تحوله إلى مصر – كما تقدم – وقد صار خلفاؤه على هذا النهج ، وحافظوا على أطباء الخاص فى بلاطهم ، فكان هناك طبيب يعرف بطبيب الخاص ، يجلس على الدكة التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر ومعه أربعة أو ثلاثة أطباء أقل منه مرتبة لمعالجة المرضى من أقارب الخليفة وخواصه ، ويكتبون لهم تذكرة بما يلزمهم من أدوية الصيدلية الملحقة بقصر الخلافة (١٢٠).

وكان لهؤلاء الأطباء المنزلة السامية ، والمكانة المرموقة فى قصور الخلفاء ، وفى قصور وزرائهم والمسؤلين على السلطة ، ويلقون من مظاهر الاحترام والتكريم قدراً كبيراً ، بجانب ما كانوا يتقاضونه من مرتبات عالية مجزية ، فضلاً عن الهبات والصلات المتوافرة ، والدور الفخمة (١٢١).

ولم تختلف معاملة الأطباء الذميين عن نظرائهم المسلمين ، بل إن الفاطميين الذين اشتهروا بحسن معاملتهم لأهل الذمة والتسامح معهم ، اعتنوا عناية فائقة بالأطباء من أهل الذمة ، حتى أن أطباءهم من اليهود كانوا أكثر من أطبائهم المسلمين والأقباط ، وذلك منذ عهد الخليفة الأول فى مصر المعز لدين الله ، الذى حرص على الاهتمام بطبيبه اليهودى موسى بن إلعازار وأبنائه ، فلما توفى اسحق بن موسى سنة ٣٦٣هـ حزن عليه المعز حزنًا شديداً ، وذلك لما كان يتمتع به من منزلة ومكانة عنده ، بالإضافة إلى كفاءته فى تخصصه ، ثم جعل أخاه إسماعيل بن موسى فى موضعه رئيساً لأطباء الخاص (١٢٢).

وقد احتفظت المصادر العربية بالعديد من الأمثلة ، التى تدل اهتمام سائر الخلفاء الفاطميين بالأطباء ، وإكرامهم وتقديرهم المادى والمعنوى ، حتى أن الخليفة العزيز بالله ، كان يبالغ كثيراً فى حسن معاملة أطباء الخاص ، ومنهم الطبيب منصور بن مقشر ، أحد الأطباء الذميين ، وقد أصابه مرض وأراد العزيز أن يقوم بزيارته ، إلا أنه تأخر عنه ، ولما تماثل للشفاء ، كتب له العزيز رسالة شهيرة سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ، جاء نصها كالتالى : " بسم الله الرحمن الرحيم . طبيبنا سلمه الله . وأتم النعمة عليه ، وصلت إلينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة فى جسمنا ، قسم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدواً ولا حاسداً ، ورد كيد من يريد الكيد فى نحره ، وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك ، أقالك الله العثرة ، ورجوعك إلى أفضل ما عودتك من صحة الجسم وطيبة النفس ، وخفض العيش بحوله وقوته ، والسلام عليك وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم تسليماً " (١٢٣).

وإذا كانت هذه الرسالة تدل على ما كان يتمتع به بن مقشر من مكانة لدى الخليفة العزيز إلا أن ما قام به هذا الخليفة مع الأطباء الآخرين يؤكد أن هذه سياسة عامة اتخذها مع سائر الأطباء ، ومنهم الحسن بن سهلان بن عثمان بن كيسان ، الذى " ارتفع جاهه فى أيام العزيز، ولم يزل مرتفع الذكر ، محروس الجانب مقتنياً للمال الجزيل إلى أن توفي سنة ٣٨٠هـ " : ولم يتعرض الخليفة العزيز لتركته بعد وفاته ، ولم يترك أحداً " يمد يده إليها على كثرتها"(١٢٤).

واستمراراً لهذه السياسة كان الخليفة الحاكم بأمر الله يحسن إلى أطباء الخاص ويجزل لهم العطاء ، فبعد وفاة الخليفة العزيز دخل ابن مقشر فى خدمة الخليفة الحاكم ، فرصبح طبيبه والحظى عنده ، وقد أعقب منصور بن مقشر ولدا عرف أيضاً بابن مقشر الطبيب ، وصار مثل أبيه من أطباء الخاص ، بعد أن دخل فى خدمة الخليفة الحاكم ، وأصبح " مكيناً فى الدولة حظياً عند الحاكم ... وبلغ معه أعلى المنازل وأسناها وكان له منه الصلات الكثيرة والعطايا العظيمة " ، ولما مرض عاده الحاكم بنفسه ، وعند وفاته أطلق لأهله وأبنائه مالاً وافراً (١٢٥).

ومن الأطباء الذين حظوا برعاية الخليفة الحاكم الطبيب أبو يعقوب اسحق بن إبراهيم بن نسطاس النصراني فقد خلع عليه سنة ٣٩٤هـ ، وحمله على بغلتين ، وأعطاه ثياباً كثيرة وخصص له داراً بالقاهرة ، فرشت بأحسن الأثاث ؛ حتى أثرى وترك زيادة على عشرين ألف ديناراً عيناً ، سوى الثياب وغيرها (١٢٦).

وقد كان بن نسطاس يتمتع بعلاقة حسنة مع كبار رجال الدولة ، فكان يحضر مجالسهم ، ويزورهم فى قصورهم ، ويأكل على موائدهم ، وينادمهم ، وعند وفاته حزن عليه الخليفة الحاكم حزناً شديداً ، وشق عليه خبر وفاته (١٢٧).

ولم تكن هذه السياسة من قبل الخليفة الحاكم مقتصرة على الأطباء الذميين ، فقد كانت سياسة عامة شملت جميع الأطباء بشتى طوائفهم ، فعمت الأطباء المسلمين أيضاً ومنهم الشيخ السديد الأب الذى عمل في خدمة عدد من الخلفاء من بينهم الحاكم وآخرهم الآمر بأحكام الله ، وقد أصبح هذا الطبيب " مكيناً عنده رفيع المنزلة فى أيامه " (١٢٨). أما على ابن رضوان فقد جعله الخليفة الحاكم رئيساً على سائر الأطباء (١٢٩). ونتيجة لهذه السياسة الإيجابية من جانب الخليفة الحاكم تجاه الأطباء نجد أحدهم وهو الطبيب عمار بن على الموصلى يؤلف له كتاباً فى أمراض العين على نحو ما تقدم .

لقد كان الخلفاء الفاطميون جميعاً شغوفين بالأطباء ، يتتبعون أخبارهم وكلما نبغ طبيب وعلموا به ، أرسلوا فى طلبه واهتموا بأمره ، ولو كان من الوافدين على مصر مثل ابن العين زربى ، فعندما علم أحد الوزراء الفاطميين بما كان يتمتع به هذا الطبيب من العلم والفضل والتقدم فى صناعة الطب ، اشتاق إلى رؤيته والاجتماع به ، وبعد أن تم له ما أراد ؛ أعجب به واستحسن ما سمع ، وتحقق فضله ومنزلته فى العلم ، وأخبر الخليفة (لعله الآمر) بذلك ،

فأكرمه وأنعم عليه ، وأطلق له ما يليق بمثله ، واستمر عطاء الخلفاء له حتى وفاته سنة ٥٤٨هـ(١٣٠).

وعندما جاء أبو جعفر يوسف بن حسداى إلى مصر ، قادمًا من الأندلس ، احتفى به الخليفة الآمر حفاوة بالغة وأجزل له العطاء ، ثم كتب له منشورًا جاء نصه بعد البسملة : " ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره ، وأنفس ما وشحت الدول بجميل أثره ، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها ، وإظهار المعارف وإيضاح سرها ، لاسيما صناعة الطب التى هى غاية الجدوى والنفع ، وورد الخبر بأنها قرينة إلى الشرع لقوله صلى الله عليه وسلم : " العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان " خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو همته من إنماء العلوم وإشهارها ، واختصاص الدولة الفاطمية بإحياء الفضائل وتجديد آثارها ، ليبقى جمال ذلك شاهدًا لها على مر الأيام ، متسقًا بما أفشاه لها من المآثر الجمة ، والمفاخر الجسام ، لشيخنا أبى جعفر يوسف بن أحمد بن حسدية ، أيده الله ، لصرف رعياته إلى شرح كتب أبقراط التى هى كتب الطب وأوفاها وأكثرها إغماضًا وأبقاها ، وإلى التصنيف فى غير ذلك من أنحاء العلوم ، مما يكون منسوبًا إلى الأوامر العالية ، ورسم التوفر على ذلك والانتصاب له وحمل ما يكمل أولاً إلى خزائن الكتب ، وإقراء جميع من يحضر إليه من أهل هذه الصناعة ، وعرض من يدعيها واستشفافه فيما يعانيه ، فمن كملت عنده صناعته فليُجره على رسمه ، ومن كان مقصرًا فليستنهضه . واعتمدنا عليه فى ذلك لكونه مميزًا فى البراعة فى العلوم متصرفًا فى فنونها ، متقدمًا فى بسطها وإظهار مكنونها ، ولأنه يبلغ الغرض المقصود فى شرح هذه الكتب ويوفى عليه ، ويسلك أوضح السبل وأسدها إليه ، وفى جميع ما شرع له . فليشرع فى ذلك مستعينًا بالله ، منفسح الأمل بإنهاضها له ، وجميل رأينا فيه ، بعد ثبوته فى الدواوين إن شاء الله تعالى . وكتب فى ذى القعدة سنة عشرة وخمسمائة " (١٣١).

وإذا كان هذا المنشور يتضمن تفويضًا من الخليفة الآمر لابن حسداى ، بشرح كتب أبقراط ، والتأليف فى مجال الطب ، بل والقيام بتدريسه لمن يرغبون فى العمل بصناعة الطب ، إلا أنه ينطوى على تقدير عظيم لشخص هذا الطبيب ، الذى أحل على مصر ضيفًا غير عادى، يستحق المبالغة فى الحفاوة به ، وكل التقدير من الخليفة الفاطمى نفسه .

وهناك أطباء نالوا تقدير كل من عاصرهم من الخلفاء ، مثل الشيخ السديد الابن الذى خدم خمسة خلفاء بدءًا من الخليفة الآمر الذى أنعم عليه بأنعام كثيرة وخلع فاخرة وجعل له راتبًا

يقوم بكفايته على أفضل الأحوال ، وتوالت عليه الهبات بعد ذلك حتى أنه حصل فى يوم واحد على ثلاثين ألف ديناراً ، لقاء قيامه بعلاج أحد الخلفاء ، كما حصل على نحو خمسين ألف ديناراً وأكثر بالإضافة إلى أوانى الذهب والفضة التى وهبها له الخليفة الحافظ لدين الله نظير قيامه بطهارة ولديه ؛ واستمر فى خدمة الخلفاء الفاطميين ونال فى أيامهم الكثير من العطايا السنية والمنن الوافرة ، " فنال من جهتهم من الأموال الوافرة والنعم الجسيمة ما لم ينله غيره من سائر الأطباء الذين كانوا فى زمانه ، وكانت له عندهم المنزلة العليا والجاه الذى لا مزيد عليه " (١٣٢).

وهكذا ، فإنه فى ظل هذه السياسة الرامية إلى احترام العلم والعلماء ، وجد الأطباء المصريون وغير المصريين ، مسلمون وذميون فى مصر الحرية المطلقة لمزاولة نشاطهم العلمى والعملى ، وسط مظاهر الحفاوة والتقدير ، فقد كان الخلفاء يجلونهم غاية الإجلال ويجزلون لهم العطاء ، وينفقون على ما يقومون به من نقل وتأليف وشرح لكتب الأوائل بسخاء ، مما دفع العديد من الأطباء المشارقة والمغاربة والأندلسيين ، إلى المجيء إلى مصر والمساهمة فى هذه الحركة الطبية النشطة ، فجعلوا من مصر مركزاً لدراسة الطب وممارسته طوال العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) .

المناظرات العلمية بين الأطباء :

كان من الطبيعى ، فى ظل هذا العدد الكبير من الأطباء المصريين والوافدين من المشرق والمغرب ، أن تحدث بينهم لقاءات ومناظرات علمية قد تصل فى بعض الأحيان إلى حد الخصومة ، خاصة وأنهم كانوا يتنافسون لإظهار مواهبهم فى صناعة الطب ، وتفوقهم فى علومه ، وذلك من أجل الوصول إلى الرئاسة والجاه ، وإثبات تفوقهم لدى الخلفاء الفاطميين حتى ينالوا جواز المرور إلى خدمتهم ، ويحظون بعطفهم ورعايتهم وينهلون من فيض كرمهم وعطائهم ، وذلك منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر ، فنجد طبيباً مثل محمد التميمى الذى توافق مقامه فى مصر مع دخول الفاطميين ، يلتقى بالأطباء المصريين ويناظرهم ويختلط بأطباء الخاص القادمين من المغرب ويبادلهم الحوار (١٣٣).

كذلك كان الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك يحب الاجتماع بأهل مصر وعلمائها والتباحث معهم ، والاقتباس منهم ، سواء كان ذلك فى العلوم الرياضية أو الحكمية أو فى علوم الطب ، الذى اشتهر بصناعته ، وتتلمذ على أكبر أطباء مصر ورئيسهم أبى الحسن

علي بن رضوان [١٣٤]. ثم قام هو بالتدريس ، فقرأ عليه فضلاء زمانه ، الذين نبغوا فيما أخذوه عنه وأجادوا فيه [١٣٥]، واشتهر منهم الطبيب اليهودى أبو الخير سلامة بن رحمون الذى التقى به ، وتتلمذ عليه وخاصة في علم المنطق الذى تميز فيه المبشر بن فاتك [١٣٦].

على أن أهم لقاء حدث فى هذا العصر كان بين رئيس أطباء مصر أبو الحسن على بن رضوان ، والطبيب البغدادى أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن بُطلان ، وهما من أساطين الطب العربي ، ويعدان من الظواهر الهامة فى تاريخ الطب ، وقد بلغت المناظرات بينهما حد الخصومة ، بعد أن دخلت فى نطاق المهاترات الشخصية التى اتضحت من خلال الرسائل والمساجلات المتبادلة بينهما ، ومن أهمها تلك الرسالة التى بعث بها ابن بُطلان إلى على بن رضوان ؛ وتضمنت مادار بين الرجلين من وقائع وحوادث ومحاورات : احتفظ بها القفطى [١٣٧] ونشرها يوسف شاخت وماكس مايرهوف ضمن خمس رسائل لابن بُطلان وابن رضوان وقد علق القفطى على هذه الرسالة قائلاً " ولما جرى لابن بطلان بمصر مع ابن رضوان ما جرى كتب ابن بطلان رسالة يقطعه فيها ويذكر معايبه ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم علوم الأوائل ... " [١٣٨].

وفى تقديرى أن هذا العداء الذى نشب بين الشيخين ، إنما يرجع إلى عدم قدرة ابن رضوان على إدارة الحوار مع ابن بطلان ، فقد عرف عنه ، أنه شديد البأس ، قوى الإرادة ، كثير الرد على معاصريه ، وعلى كثير ممن تقدمه . " وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته " [١٣٩]. وقد ألمح ابن بطلان إلي ذلك في رسالته ، إذ يقول : " ووجدت الشيخ فى فصل من المقالة قد حمى طبعه واحتد غضبه ، ونشف ريقه ، ودرت عروقه وصرح بسبي ، ولوح باسمى ، ولم يقص فى حق الصناعة ولا رعى فى حرمة الدراعة ، ونسبنى إلى الغباء ، وقطع بأننى لم أقرأ شيئًا من علوم القدماء ... " [١٤٠]. ولعل هذا هو السبب الذى دفع ابن بطلان إلي النيل من شخص ابن رضوان الذى لم يكن جميل الصورة بل كان أسود اللون وقد ألف مقالة يرد بها على من عيره بقبح الخلقة ، بين فيها أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون وجهه جميلاً " . فانتهزها بن بطلان فرصة للنيل منه ، ولقبه " تمساح الجن " وقال فيه :

فلما تبدى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تسترا ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم ![١٤١]

وقد دارت المساجلات والرسائل بينهما على هذا النحو ، تميز فيها ابن بطلان ، لا لأنه أكثر علمًا من ابن رضوان ولكن لأنه كان " أعذب ألفاظًا وأكثر ظرفًا وأميز فى الأدب وما يتعلق به"(١٤٢) . غير أن هذه الرسائل ، وإن كانت تحتوى فى مجملها على وقائع غريبة ونوادر ظريفة ومحاولات من كلا الشيخين للنيل من الآخر ، إلا أنها كشفت عن قمتين في صناعة الطب ، كان لهما الفضل فى إثراء المكتبة الطبية بالمؤلفات القيمة ؛ ولو أن ابن رضوان أحسن استقبال ابن بطلان لكان لهما شأن آخر ، وإن اختلفا فى الرأى ؛ وكان من مظاهر الخلاف أن ابن رضوان كان يرى أن تحصيل صناعة الطب من الكتب أوثق من المعلمين وذكر ذلك صراحة فى مقدمة كتابه" النافع " بقوله : " ولما أردنا أن نتعلم هذه الصناعة التمسنا فى مدينة مصر من رأينا أن المتعلمين يقصدونه فى التعليم ... وغير المتعلمين يحمدونه ، فقصدناه وسألناه التعليم ، فأجابنا إلى ذلك ... ثم أمر أن نحفظ " مدخل حنين " وكنا نشاهد تدريسه المتعلمين قراءة ، لا يفسر مستغلقًا ، ولايزيد على أن يسمع قراءة من يقرأ حرفًا واحدًا ... لكن يصغى لقراءة المتعلم فقط ، فربما صحّف المتعلم أو زيف ، فلا يشعر هذا المعلم بذلك !! ثم رأينا المنظور إليه من أطباء هذه المدينة يجرى أمرهم فى تدريسهم هذا المجرى بعينه "(١٤٣) .

وكان رد ابن بطلان مخالفًا لما ذكره ابن رضوان ، مؤكدًا على ضرورة وجود معلم ، وقدم فصلاً فى الأسباب التى تجعل المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف (١٤٤). وخصص الفصل الثانى من رسالته إلى ابن رضوان " فى أن الذى علم المطالب من الكتب علمًا رديئًا شكوكه بحسب علمه يعسر حلها " (١٤٥).

ومن الخلافات التى جرت بينهما أيضًا ، ردود ابن رضوان على حنين بن اسحق الطبيب النصرانى ، أبو زيد العبادى ، الذى اشتهر بالبصرة وتخصص فى طب العيون ، وقام بترجمة العديد من كتب أبقراط وجالينوس فى زمن الخليفة المتوكل على الله العباسى ؛ وقد رأى ابن بطلان فى ردود ابن رضوان على آراء حنين نقدًا لاذعًا ، يتعارض مع مكانه حنين بن إسحق ، فتصدى له بقوله : إن " المؤيد حنين بن إسحق الذى منح الله البشر علوم القدماء على يده ، فالعقول فى ضيافته إلى اليوم ، يمتارون من فضله ، ويعيشون فى بره وبحسب هذا ، لم أؤثر للشيخ أن يدفع العيان ، ويخرق الإجماع ويكذب بما شهدت به الأذهان وصدق به البرهان من فضله ونور مطارح شعاعه ، ففى فعله هذا مخاز كثيرة ، منها نقض ميثاق أبقراط صاحب الصناعة الذى عهده إلى الأطباء ووصى فيه بإكرام العلماء ... " (١٤٦).

واستمراراً لهذا الخلاف الجدلي بين هذين الشيخين ، صنف ابن رضوان عدداً من الرسائل والمقالات للرد على ابن بُطلان ، وتفنيد آرائه ومنها : " مقالة في نقض مقالة ابن بُطلان في الفرخ والفروخ " و " مقالة فيما أورده ابن بُطلان من التحييرات " و " مقالة في أن ما جهله يقين وحكمة ، وما علمه ابن بُطلان غلط وسفسطة " و " مقالة في أن ابن بُطلان لا يعلم كلام نفسه فضلاً عن كلام غيره " و " رسالة إلى أطباء مصر والقاهرة في خبر ابن بُطلان" وقول له في جملة الرد عليه و " مقالة في التنبيه على ما في كلام ابن بُطلان من الهذيان"(١٤٧) .

ويبدو أن ما دار بين هذين الطبيبين كان من أهم الظواهر في العصر الفاطمي ، فنالت اهتمام المؤرخين لهذا العصر ، القدامى منهم والمحدثين ، فسجلوا العديد من جوانب الخلاف والمناظرات التي دارت بينهما ، وشهد بعضهم بأن ابن رضوان كان أكثر علمًا من ابن بطلان(١٤٨) ، وإنه " كان إمامًا في الطب والحكمة ، كثير الرد على أرباب فنه ، وكان فيه سعة خلق عند بحثه ، وله مصنفات كثيرة " (١٤٩) . بينما قلل البعض الآخر من شأن الطبيب المصري بالقول : إنه " قرأ شيئًا من الطب وشيئًا من المنطق ، وكان من المغلقين لا المحققين ... ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه ... وصنف كُتبًا لم تكن في غاية بابها ، بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة ، مستنبطة ... فأما تلاميذه فقد كانوا ينقلوا عنه من التعاليق الطبية والأقاويل النجومية والألفاظ المنطقية ما يضحك منه ... " (١٥٠) .

ولم يتوقف علي بن رضوان عند نقد معاصريه من الأطباء والحكماء ، بل انتقد جمع كبير من كبار الأطباء الذين سبقوه ، ومنهم أحمد بن إبراهيم الطبيب المغربي المعروف بابن الجزار (ت ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م) ، الذي ألف كتابًا عن أسباب انتشار الوباء في مصر ، هو " كتاب نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر ، وطريق الحيلة في دفع ذلك ، وعلاج ما يتخوف منه " وقد كان هذا الكتاب من الأسباب التي دفعت ابن رضوان إلى تأليف كتابه " دفع مضار الأبدان بأرض مصر " حيث قال في مقدمته : " وقد كان أحمد بن إبراهيم ، الطبيب المغربي المعروف بابن الجزار ، وضع في ذلك مقالة مفردة لم يستقص فيها ما يحتاج إليه من تلخيص القول واستيفاء الوصف ، في ذكر الأسباب البلدية ، وما يحدث عنها وما يُدفع به ضررها .. وخليق أن يكون عرض له النقصان من قبل أنه رجل من أهل المغرب ، لم يعاين مصر معاينة اختبار وامتحان ولكن سمع بها فقط ... بحسب ما تضمنه كلامه . وكتابنا هذا يزيد على

كتابه، بمقدار فضل قوتنا على قوته ، فى أنواع الفلسفة ، وبمقدار اختبار أرض مصر بالمشاهدة دون الخبر ، سنين كبيرة متوالية ... ومن أحب الإنصاف ، وآثر العدل ، فسيقف على صدق هذا القول ، إذا جمع بين الكتابين ، وتأملهما من غير ميل مع الهوى ... " (١٥١).

وهذا الاستهلال الذى بدأ به ابن رضوان كتابه يوضح موقفه المتشدد من الطبيب المغربى ، وإن التمس له العذر فى كونه من أهل المغرب ، لم يعاين أرض مصر ، ولم يدرس طبيعتها عن طريق المشاهدة والتجربة ، بل جاء حكمه نتيجة لسماعه بها ، مما يجعل هذا الحكم ناقصاً مغلوطاً ، وهذا الأمر يؤكد منهج ابن رضوان القائم على المشاهدة والمعاينة والتجربة ، منافياً فى ذلك ما تقدم من قول القفطى : إنه كان من المغلقين ، لا المحققين ... " (١٥٢).

وقد خصص ابن رضوان الفصل الخامس من كتاب " دفع مضار الأبدان " لتفنيد آراء ابن الجزار حول أسباب وخم أرض مصر ، ومنها " أن العلة فى مرض الذين وفدوا من المغرب إلى مصر هو كثرة اختلاف هواء مصر " ، وقد اتفق ابن رضوان معه فيما يتعلق بالمغاربة ، غير أنه نفى أن يعرض هذا لأهل مصر ، لأن أبدانهم ألفت ذلك ، ولأنهم لم ينهكهم السفر . ومن المسائل التى أخذها ابن رضوان على ابن الجزار قوله : " إن هواء أرض مصر ، فى أكثر أيام السنة ، مشاكل لهواء الخريف ، فى البرد واليبس ، والاختلاف " ، واعتبر ابن رضوان أن هذا خلاف ما عليه المحسوس فى السنة كلها ، فإن هواء مصر يرطب كثيراً فى فصل الخريف ، فضلاً عن غيره .

ومن الأقوال التى أخذها عليه أيضاً قوله : " فأكثر أمراض أهل مصر خريفية " ، حيث أن هواء مصر كما يرى ابن رضوان ، ليس خريفياً ، وإنما يتغير فى اليوم الواحد ، ليس إلى البرد والحر فقط ، وإلى اليبس ، وأكثر أوقاته رطب حتى أن الندى يوجد كثيراً فى غدوات أيام الصيف ، أما قول ابن الجزار : " إن العلة فى الوباء بمصر ، هو الضباب الكائن فى الهواء " فهو أيضاً ليس صحيحاً ، حيث يرى ابن رضوان : " إن أكثر تولد هذا الضباب بأرض مصر عند صحة الأبدان فى آخر كهيك ثم طوبة وأمشير ومن شأن الشتاء أن يكون كثير الرطوبة وإذا كان الفصل لازماً لنظامه الطبيعى والبلد ، فليس يحدث مرضاً وكثرة الضباب فى الشتاء بأرض مصر ، مما يرطب الهواء عوضاً من ماء المطر" .

وقول ابن الجزار : " إن ماء النيل مضر بكل من سكن مصر ... ضرراً محسوساً " أبعد ما يكون عن الحقيقة ، لأن النيل " هو السبب الأعظم فى سكنى هذه الأرض ، وأبدانهم قد ألفته،

فهواؤها غير مضر ، وإن كان بالحقيقة رديئًا " . ثم يختتم ابن رضوان ردوده على ابن الجزار بقوله : " وهذه الأشياء التي غلط فيها ابن الجزار ، هي التي اعتمد عليها في كتابه ؛ ولو كان ما ذكره صادقًا ، لوجب ضرورة دوام الوباء بهذه الأرض ، لأن هذه الأشياء هي دائمة لا تنقطع ، فكانت هذه الأرض تخرب ويهلك جميع أهلها . فأقاويل ابن الجزار تخالف أقوال الأوائل ، ويلزمها هذا المحال ، وأيضًا فلسنا نجد ابن الجزار في شيء من كتابه فرق بين الأمراض البلدية وبين الأمراض الوافدة ، ولكنه جعل جميعها شيئًا واحدًا . وهذا يضيع غرض كتابه . والذي أوقع ابن الجزار في هذا الغلط ، إهماله في أمر المشاكلة التي بين أبدان المصريين وبين هذه الأشياء (١٥٣).

ومن هذا النقاش يتضح رسوخ ابن رضوان في علوم الطب ، وقدرته على فهم كتب الأوائل مثل أبقراط وجالينوس ، حيث اعتمد على أقوالهم في ردوده ، ما يؤكد قدرته على ربط النصوص التي قرأها بالتجربة والمشاهدة ، مما أعطاه قدرة على فهم العلل والأسباب التي تؤدي إلى حدوث الظواهر المرضية ، والتفريق بينها من حيث النوع والكيف ، فهناك الأوبئة والطواعين ، التي تنتج عن ظواهر طبيعية وكونية ، وهناك أمراض بلدية ، لا تظهر إلا في قطر واحد لما يعتريه من أحوال مناخية وجغرافية ، وهناك الأمراض الوافدة التي تأتي من خارج البلد أو المدينة ، وهذا يتضح من خلال مؤلفات ابن رضوان الطبية العديدة .

ولما كان ابن رضوان كثير الاطلاع على مؤلفات الأطباء المعاصرين له والسابقين ، فقد كثر نقده لهذه الكتب وما ورد فيها من آراء ، وذلك على الرغم من شهرتها وعلو شأن أصحابها في مجال تخصصهم مثل حنين ابن اسحق وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، فألف عدداً من الكتب للرد عليهم ، وتفنيد آرائهم ، بطريقة علمية تعتمد على المنطق ، وذلك بما كان يتمتع به من روح منطقية علمية ، ومن هذه المؤلفات : " كتاب تتبع مسائل حنين " و " مقالة في الرد على افرائيم وابن زرعة في الاختلاف في الملل " و " كتاب في حل شكوك الرازي على كتب جالينوس" و " كتاب في الرد على الرازي في العلم الإلهي وإثبات الرسل " (١٥٤).

وإذا كانت روح النقد قد غلبت على ابن رضوان في بعض مؤلفاته ، فإنه لم يسلم من نقد أطباء آخرين سواء كانوا معاصرين له أم مطلعين على مؤلفاته بعد وفاته . ومن أشهرهم الطبيب الأندلسي زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي (ت ٥٢٦هـ / ١١٣١م) الذي انبرى للرد على ابن رضوان ، في كتاب بعنوان " الإيضاح بشواهد الافتضاح

فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحق فى كتاب المدخل إلى الطب " (١٥٥). وكذلك الطبيب أبو الصلت أمية بن أبى الصلت ، فى كتابه " الانتصار لحنين بن إسحق على ابن رضوان فى تتبعه لمسائل حنين " (١٥٦). ومن الواضح أنهم جميعًا وجدوا فى نقده لحنين بن إسحق فرصة للنيل منه .

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن ابن الصلت كان متحاملاً على جميع أطباء مصر وعلمائها، حيث يقول " فقد دثر منها كل علم وأمحى رسمه ، وجهل اسمه ، ولم يبقى إلا رعاع وغثاء ، وعامة عمياء ، وجلهم أهل رعانة ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، ... " كما قال " فلم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، وطمث أفهامهم ، وحال بين الحكمة وبينهم..." (١٥٧). ومن يطلع على مثل هذه الأقوال يدرك عدم موضوعية صاحبها فى نقد الآخرين ، ويعتبر ابن أبى الصلت محظوظًا لأنه لم يلتقى بطبيب مصر على ابن رضوان الذى عرف عنه القسوة فى الرد على منافسيه ، فسلم من نقده اللاذع . غير أنه التقى عدداً من الأطباء ومنهم ابن رحمون ، حيث انتقده بقوله : " وأشبه من رأيته منهم وأدخله فى عداد الأباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة ابن رحمون ... لم يكن بذلك فى تحقيقه واستقصائه عن لطيف العلم ودقيقه ، بل كان يكثر كلامه فيضل ، ويسرع جوابه فيزل " . وكان ذلك بعد أن التقى به ودارت بينهما مناظرة علمية ، وطرح على ابن رحمون عدة مسائل ، فجاء جوابه غير مقنع له ، فوصفه بأنا " أبان عن تقصيره ، ونطق بعجزه ، وأعرب عن سوء تصوره وفهمه " وزاد فى هجائه بقوله : " وكان يزور فصولاً طبية وفلسفة يبرزها فى معارض ألفاظ القوم ، وهى محال لا معنى لها ، وفارغة لا فائدة منها ، ثم ينفذها إلى من يسأله عن معانيها ، يستوضحه أغراضها ، فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقظ ولا تحفظ ، بل باسترسال واستعجال ، وقلة اكتراث وسوء اهتبال ، فيؤخذ منه ما يُضحك منه ويشرح الضدّ " (١٥٨).

ومما لاشك فيه أن العصر الفاطمي قد شهد نضوجًا فكريًا ، نمت فيه العلوم وأساليب الجدل المنطقى الذى صاحبه تطورًا فى صناعة الطب وعلومه ، ويرجع ذلك إلى وجود خلفاء أحبوا العلم والعلماء ، وفتحوا لهم أبواب قصورهم ، وخير دليل على ذلك ما حدث مع الطبيب الأندلسى ابن حسداى الذى لاقى ترحيبًا واهتمامًا كبيرًا – على نحو ما تقدم – بل إن الخليفة الحافظ طلب منه أن يلتقى بأطباء مصر لتبادل الآراء والأفكار ، فدارت بينه وبينهم العديد من المناظرات العلمية (١٥٩).

أماكن العلاج ودور الاستشفاء :

كان البيمارستان من أهم مراكز الطب فى العصر الإسلامى ، فقد اشتمل على مدارس الطب والمستشفيات معًا ، حيث كان الطب يدرس فيها إلى جانب علاج المرضى (١٦٠).

وقد شهدت مصر فى عصر الولاة والدول المستقلة بناء عدد من البيمارستانات ، ففى عصر الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦٢م) بنى الفتح بن خاقان مارستانًا فى خطة المعافر عرف بها ، وأصبح يقال " مارستان المعافر " (١٦١). ثم أنشأ أحمد بن طولون مارستانه الشهير سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م الذى عرف بالمارستان الأعلى أو البيمارستان العتيق بمصر (١٦٢). وفى ولاية أبو القاسم أنوجور بن محمد بن طغج الإخشيد ، بنى كافور الإخشيدى مارستانًا سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٩م عرف باسمه (١٦٣).

ومن الواضح أن كافور الإخشيدى كلف ببنائه محمد بن عبد الله الخازن (١٦٤). الذى قام بالعديد من الإنشاءات المعمارية ، وقد ذكر ابن دقماق أن الخازن بنى هذا المارستان ، وأوقف عليه الإخشيد أمير مصر جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت وغيرها ، وأن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصينى الكبار والبرانى والقدور النحاس والطشوت وغير ذلك ما يساوى ثلاثة آلاف دينار ، وقد عرف بالمارستان الأسفل تمييزًا له عن مارستان أحمد بن طولون (١٦٥). كما أن هذا المارستان قد استمر عامرًا زمنًا طويلاً ، فى الوقت الذى ضعف فيه شأن المارستان الطولونى " الأعلى " حيث نقل إلى المارستان الأسفل معظم المعدات والموجودات التى كانت بالمارستان الأعلى (١٦٦). ومن المرجح أن يكون المارستان الأسفل هو الذى عمل به الطبيب محمد بن عبدون الجبلى الذى وفد إلى مصر بعد سنة ٣٤٧هـ / ٩٦٠م ونزل فى مدينة الفسطاط ودبر مارستانها (١٦٧). كما زاره أبو الصلت أمية ابن أبى الصلت ، وأثنى عليه وعلى طريقة العلاج به وخاصة فيما يتعلق بالأمراض النفسية(١٦٨)، مما يؤكد أنه كان يوجد به قسم خاص بالأمراض العصبية والنفسية إلى جانب الأقسام الأخرى المتعلقة بالجراحة وغيرها .

ومن الواضح أن مصر قد اقتصرت على هذا البيمارستان فى العصر الفاطمى ولم يكن هناك اهتمام ببناء مارستانًا جديداً ، وربما كان السبب فى ذلك أن الخلفاء جعلوا قصورهم مقرًا لأطباء الخاص ، بينما اقتصر البيمارستان على علاج العامة والفقراء ؛ فيذكر القلقشندى أن الأطباء كانوا يجلسون بقاعة الذهب بالقصر ، فيخرج الأستاذون ويستدعون من يجدونه منهم للدخول على المرضى من أقارب الخليفة وخواصه بالقصر (١٦٩). كما كان الأطباء

يجعلون من بيوتهم " عيادات " لاستقبال المرضى وعلاجهم ، فيذكر الشيخ السديد أنه كان فى صباه ، يجلس عند باب داره ، ويقوم بعمليات الفصد لجماعة من الناس فى كل نهار (١٧٠). كذلك جعل أبو البيان بن المدور من داره مقراً لعلاج مرضاه ، وتدريس الطب لتلاميذه (١٧١). ومع ذلك فإن الأمر لم يخل من قيام الأطباء بعيادة مرضاهم فى بيوتهم ، فقد ظل أبو البيان ابن المدور يعاود مرضاه حتى تقدم به السن وضعف عن الحركة فلازم بيته وكان لا يمض إلى أحد لمعالجته فى تلك المدة إلا من يعز عليه جداً (١٧٢). كما كان أبو الفضل بن الناقد الذى اشتهر بالكحالة وطب العيون ، يركب ويدور على المرضى ، والذين يكحلهم (١٧٣).

أثر الطب الفاطمى فى الحضارة الأوروبية :

اتضح مما تقدم أن مصر شهدت نهضة طبية كبيرة ، شارك فيها كبار الأطباء المصريين والعرب ، وخاصة أولئك الذين وفدوا إليها من المشرق والمغرب والأندلس وساهموا بقسط وافر ، فى ظل خلفاء أيقنوا أهمية الطب وعلمائه ، فقدموا لهم العون والدعم ، وفتحوا لهم أبواب قصورهم ، وهيئوا أجواء مناسبة للمزيد من الإبداع ، مما أدى إلى ثراء فكرى وعلمى وعملى ، فترك أطباء ذلك العصر تراثاً ضخماً تمثل فى عدد كبير جداً من المخطوطات والمؤلفات الطبية يمكن أن يحصى بالمئات .

ولاشك أن هذه المؤلفات كان لها دورها فى التأثير فى مدارس الطب الغربى ، التى اعترف كثير من المستشرقين المنصفين بأنها مدينة إلى الحضارة العربية ، والطب العربى ، الذى بدأ يؤثر فى أوروبا منذ القرن العاشر الميلادى ، ثم اتضح أثره بعد القرن الثالث عشر ، " حيث أصبح الطب العربى قدوة انبثق منها شعاع الفكر الأوروبى فى الدراسات الطبية ، وأصبح المادة التى اعتمد عليها الأساتذة والطلاب فى كليات الطب بالجامعات التى بدأت آنذاك تظهر فى بادوا ، وبولونيا " (١٧٤). وكان من بين الأطباء العرب الذين لاقوا شهرة واسعة فى أوروبا ، الطبيبين العظيمين ابن سينا والرازى ، ومما يدل على تقدير أوروبا لهما أن كلية الطب بجامعة باريس لا تزال تحتفظ بصورتين كبيرتين لهما فى أعظم أبهائها (١٧٥).

أما الأطباء المصريين ، فقد كان لهم النصيب الوافر فى انتقال إنتاجهم الفكرى إلى أوروبا ، بفضل بعض الأطباء الرحالة الذين زاروا مصر ونقلوا مؤلفات أطبائها إلى المدن الأوروبية التى رحلوا إليها ، بعد قيامهم بترجمتها ، وعلى رأسهم قسطنطين الإفريقى أحد الأطباء المسلمين التونسيين ، الذى تعلم فى بغداد ثم عاد إلى تونس ، غير أنه تنصر وهرب إلى إيطاليا ، ودخل

سلك الرهبنة ؛ وكان قد استغل معرفته للعربية واللاتينية واليونانية ، ونقل العديد من مؤلفات العرب الطبية إلى اللاتينية ، دون أن يذكر أسماء مؤلفيها الحقيقيين ، ناسبًا تأليفها لنفسه ؛ وعلى الرغم من ذلك فإن اليقظة الأوروبية بدأت بشرارة أرسلتها ترجماته في حقل الطب ، وقد ظل أثر كتبه لفترة طويلة من الزمن في أوروبا مما حدا بالكثيرين إلى تسميته برائد الطب العربي فى أوروبا (١٧٦). فقد نقل علم العرب فى الطب والمداواة ، في سيل عرم ، إلى سالرنو، فغمرها وأخصب أرضها ، فكان الأوروبيون يحجون إليها ليتعلموا هذا التراث ، ويتلقون علاجهم بها أيضًا ، وسرعان ما انتقل هذا السيل العرم من طب العرب ، وامتد إلى جميع أنحاء أوروبا (١٧٧).

وكان قسطنطين الإفريقي قد التقى الطبيب ابن بطلان فى بغداد وحلب وإنطاكية ، وتعرف على أخبار الطبيب المصرى ابن رضوان ، ووصلت إليه مؤلفاته ، ونقلها إلى سالرنوا ، واتصل بشقيق أميرها الذى كان طبيبًا ، ودار بينهما حديثًا عن الطب والعقاقير الطبية ، فتطرق معه إلى معجزات الطب العربى وعقاقيره التى تشفى العليل فى لمح البصر وتعيد الشيخ إلى شبابه، ووعده بأن يجلب له من الشرق فى أسفاره القادمة كنوزًا من الطب العربي ؛ ثم عاد إلى مصر، ودخل مدارس الطب بها وأمضى فيها سنوات ، رجع بعدها إلى سالرنو حاملاً معه رزمة من الكتب ، دأب على ترجمتها بمساعدة بعض الرهبان ، كان من بينها كتاب حنين بن إسحق في علم أمراض العيون ، وكتاب " زاد المسافرين " لابن الجزار ، وبعض مؤلفات إسحق الإسرائيلي ، وغيرهم ؛ ولم يعد هناك طبيب فى السرنوا إلا واستقى علومه ومعارفه من مؤلفات العرب الطبية ، كما لم يكن هناك كتاب فى العلوم وخاصة الطب إلا اتضح فيه تأثير الفكر العربى (١٧٨).

ومن أهم معابر الطب المصرى فى العصر الفاطمى إلى أوروبا ، أولئك الأطباء الرحالة الذين زاروا مصر وتعرفوا على أطبائها ، ثم رحلوا إلى أوروبا ، وقد سبقت الإشارة إلى الطبيب جرجس الإنطاكي ، الذى حضر إلى مصر عقب وفاة ابن رضوان والتقى العديد من أطباء مصر المشهورين ومنهم الطبيب سلامة بن رحمون ، وإن كان قد هجاه بعد أن وقعت بينهما خصومة ، ثم عاد إلى إنطاكية حاملاً معه ذخائر هذا العصر من المؤلفات الطبية ، خاصة وأنه دأب على تعلم الطب فى مصر واشتغل به أيضًا (١٧٩). ولا شك أن إنطاكية كانت إحدى معابر الحضارة العربية إلى أوروبا ، وخاصة فى زمن الحروب الصليبية .

على أن أهم هؤلاء الأطباء قاطبة الطبيب البغدادى الشهير ابن بطلان ، وقد سبقت الإشارة إلى انتقاله من مصر إلى القسطنطينية وإنطاكية ، ولا شك أنه أخذ معه إلى جانب مؤلفاته التى حررها بمصر ، بعض مؤلفات الأطباء المصريين وخاصة غريمه على بن رضوان ، وقد انتقلت هذه المؤلفات من القسطنطينية وإنطاكية إلى جميع أنحاء أوروبا ، حتى أن مؤلفات ابن بُطلان نفسه انتشرت فى مكتبات أوروبا ، نذكر منها: " كناش الأديرة والرهبان ... " الذى توجد منه نسخة بمكتبة الفاتيكان ؛ وكتاب " تقويم الصحة ، فى قوى الأغذية ودفع مضارها " الذى نشر فى عدة ترجمات ومنه نسخة ترجمت إلى اللاتينية فى استراسبورج سنة ١٩٣١م ، ونسخة ترجمت إلى الألمانية فى استراسبورج أيضًا سنة ١٩٣٢م ، ومنه نسخة بالمتحف البريطانى وأخرى بالفاتيكان (١٨٠). وقد اعتبرت زيغريد هونكه ، كتاب ابن بُطلان " تقويم الصحاح " أنفع كتب الطب قاطبة ، عن التأثيرات المفيدة أو المضرة للمناخ والتغذية والعوارض الخارجية ، والحركة والراحة والنوم واليقظة وعن الوسائط لمكافحة ضررها (١٨١).

ولما كانت مصر قبلة للأطباء المغاربة والأندلسيين ، فقد كان لهؤلاء الأطباء نشاطهم فى نقل علوم الطب المصرى إلى الأندلس ، ومن أشهرهم ابن زهر وابن أبى الصلت ، وغيرهم من الأطباء الذين سبق حصرهم فيما تقدم ، بالإضافة إلى الأطباء الذين وفدوا إلى مصر فى العصر الأيوبى واطلعوا على ما بها من ذخائر فى علوم الطب ، ومنهم من عادوا إلى بلادهم يصطحبون معهم نسخًا من أهم المخطوطات فى الطب المصرى ، ومن أشهر الأطباء الذين وفدوا إلى مصر زمن الأيوبيين الطبيب الشهير موسى بن ميمون (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م) ، ولما كانت الأندلس من أهم معابر الحضارة العربية إلى الغرب ، فلاشك أن هناك العديد من النماذج الطبية الأندلسية التى تأثرت بالطب المصرى فى العصر الفاطمى قد انتقلت إلى أوروبا من خلالها ؛ حتى أن معظم مؤلفات موسى بن ميمون ترجمت إلى عدة لغات ومنها " مقالة فى تدبير االصحة " التى ترجمت إلى العبرية واللاتينية فى مونبلييه سنة ١٢٩٠م ، وكان معروفًا جدًا فى الغرب حيث طبع قبل عام ١٤٨٤م بفلورنسا وفى البندقية عام ١٥١٤م و ١٥٢١م وفى ليون بفرنسا عام ١٥٣٥م ؛ ومقالة فى الربو ترجمت إلى العبرية واللاتينية أيضًا (١٨٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك عدد من الأطباء اليهود ، ساهموا فى نقل الطب العربى بوجه عام ، والطب المصرى على وجه الخصوص إلى أوروبا ، وذلك باعتبارهم وسطاء بين العالمين الإسلامى والمسيحى انطلاقًا من جنوب أوروبا ، وكذلك عن طريق الأندلس ، فكانوا من

المعلمين الأوائل فى مونبيلييه وبولونيا ، ومنها وصلوا إلى فرانكفورت وفلاندر وموسكو وغيرها من المدن الأوروبية (١٨٣).

وقد عمل هؤلاء الأطباء على نقل مؤلفات أقرانهم المقيمين فى العالم الإسلامى إلى أوروبا ، مما أدى إلى اشتهار عدد كبير من الأطباء المصريين ، ومنهم إسحق بن سليمان الإسرائيلى ، الذى تخصص فى طب العيون ، وانتقلت مؤلفاته إلى أوروبا بعد أن ترجمت إلى العبرية واللاتينية ، فزصبحت من أهم المصادر الطبية فى أوروبا بنجمعها ، واستعملت كتبًا للدراسة فى سالرنو وباريس ونقل عنها بعض أطباء أوروبا (١٨٤). وكان ألدو براند السينى " الطبيب التوسكانى لدى بياترس سافوى " من أوائل المترجمين من اللاتينية إلى الفرنسية ، وكتب رسالة طبية ، جاء للقسم الثالث منها على غرار كتاب الأدوية المفردة والأغذية لإسحق الإسرائيلى (١٨٥). ومن بين الأطباء اليهود المصريين الذين اشتهروا فى أوروبا أيضًا ابن المدور وابن الناقد وغيرهما (١٨٦).

أما عن المجالات الطبية التى نبغ فيها الأطباء المصريون ، وكان لها أثرها فى الحضارة الأوروبية ، فهى عديدة ، من بينها طب العيون ، الذى كان شائعًا فى مصر " بلد أمراض العيون" وقد اشتهر عمار الموصلى فى أوروبا ، وكان كتابه فى طب العيون يعد من المصادر الرئيسية حتى القرن الثامن عشر (١٨٧). وهو فى الواقع نتاج مجهودات عربية سبقته فى هذا المجال ويرجع هذا التفوق الذى أحرزه العرب ، إلى خبرتهم فى معالجة الأمراض المستوطنة للعين مثل الرمد والتراخوما الناتجة عن الغبراء الساخنة المنتشرة فى سهول الشرق الأوسط . فمن خلال الممارسات اليومية والتقنيات والإنجازات التى كانت تتطور مع مرور الزمن ، بلغ الأطباء العرب فى طب العيون مستوى من الكفاءة لم يبلغه غيرهم حتى من الحكماء الأوائل(١٨٨).

كما استفاد الأوروبيون من الدراسات العربية فى استنباط الدواء اللازم لعلاج أنواع التسمم وتسهيل الهضم ، وكان من أبرز الأطباء الذين عاشوا فى مصر فى ظل الخلافة الفاطمية وكان له أثره فى الطب الأوروبى فى هذا المجال الطبيب محمد التميمى المقدسى الذى بذل مجهودات كبيرة فى استنباط دواء عام ضد كل أنواع التسمم ، وأوجد دواء سائغًا لستيهل الهضم برفق وفاعلية فى آن واحد ، وضمنها كتابه المسمى " مفتاح الفرج والتخفيف عن الروح " (١٨٩).

وإلى جانب المؤلفات العربية فى الطب ، نجح الأطباء المصريون فى شرح وتفسير كتب الأوائل أمثال أبقراط وجالينوس وغيرهما ، وكان رائد هذه الحركة فى مصر ، عميد أطبائها أبو الحسن على بن رضوان ، الذى اشتهر عند علماء اللاتين باسم " هالى ربوام " بسبب تعليقاته على كتاب جالينوس (١٩٠). وقد قام جيرارد الكريمونى (أحد المترجمين الإيطاليين الذين أقاموا فى طليطلة لترجمة المخطوطات الطبية العربية) بترجمة كتاب على بن رضوان : " شرح جالينوس " ثم طُبع هذا الكتاب فى فنيسيا سنة ١٤٩٥م (١٩١). والملاحظ دوماً فى كل ما كتبه ابن رضوان أنه يجعل من أبقراط وجالينوس معلمين يحترمهما ، ويعتقد أن ما كتباه هو الحقيقة ، وكل ما فعلاه عظيم وممتاز ، وكل من جاء من بعدهما لا قيمة له (١٩٢). وذلك فى الوقت الذى وجد الأوروبيون فيه صعوبة فى فهم مؤلفاتهم ، وقد شهد بذلك أحد المستشرقين فى قوله : " إن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث القدماء الذى طالما اكتنفه الغموض ونقصه التسلسل ، ومكان النقل الآلى للفقرات وتجميع المعلومات واضطراب المخطوطات الكثيرة لدى البيزنطيين ، مكان كل هذا ، صنف العرب كتباً مختصرة جامعة عظيمة التماسك ، صبوا فيها كل المواد الدراسية الخاصة ، وعرفوا كيف يقدمون العلوم فى أشكال سهلة ، وصاغوا فى لغتهم الحية التى لم تمت فيها كلمة ، تعابير علمية مثالية " (١٩٣).

ومن الأمور التى وقف أمامها الأوروبيون مشدوهين بما أحرزه أطباء العرب من تقدم فى مجالات الطب ، طرق العلاج وكيفية معاملة المرضى ، وكان لتعليمات على ابن رضوان آثارها فى تعميق دهشة الغرب ، ومنها قوله : " من واجب الطبيب أن يعالج أعداءه بالروح نفسه والإخلاص ذاته ، والاستعداد عينه الذى عالج به من أحبهم " (١٩٤). وهذا بلا شك من المظاهر الأخلاقية السائدة لدى الأطباء العرب ، وهى مستمدة من سماحة الدين الإسلامى التى شكلت فكر ووجدان وثقافة المجتمع العربى بأكمله .

كما أن ابن رضوان ، وضع تصوراً لطريقة الكشف على المرضى ، على نحو ما تقدم ، أصابت المستشرقين بمزيد من الدهشة ، حتى قالت عنه زيغريد هونكه : " ويخيل إلينا ونحن نسمع ذلك أننا أمام أستاذ فى الطب فى عصرنا الحاضر ، أنه لأمر يدعو إلى الدهشة والعجب حين نرى ما توصل إليه الأطباء العرب من معلومات قيمة فى جسهم للنبض ، وفيما استخلصوه من نتائج وأسرار لدى تحليلهم للبول " (١٩٥).

وأخـيراً ؛ فـإنه مـا من شك أن الطب المصـرى فى العـصـر الفـاطمى ، كـان له دوره فى الحضـارة العربية ، فهو جزء من الطب الذى مثل جانباً مضيئاً فى هذه الحضارة التى كانت بمثابة الشعلة التى أضاءت مصابيح العلم فى شتى أنحاء العالم ، وقد كان الطب العربى ، هو الأساس الذى قام عليه الطب الأوروبى جملة وتفصيلاً ، فقد قام الأطباء العرب بوجه عام والمصريون بوجه خاص بنقل مصنفات الأوائل وشرحها والإضافة إليها ، وهذه الإنجازات العربية انتقلت بدورها إلى أوروبا ، فوجد فيها علماؤها منهلاً خصباً ، أفادوا منها كثيراً فى إطار نهضتهم الحديثة .

الهوامش

١ - سمير يحيي الجمال : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ٣ ، (في العصر الإسلامى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ص ٣٩ ، ٢١٦ - ٢١٨ . وللمزيد من التفاصيل عن الطب المصرى القديم والبرديات الطبية مثل بردية " إدوين سميث " التى يرجع تاريخها إلى سنة ١٥٥٠ق.م، ولاتزال محفوظة بالجمعية التاريخية بنيويورك " وهى من البرديات الشهيرة فى الطب المصرى ، قال عنها العالم برستد " إنها أقدم كتاب للجراحة فى العالم ، وهى منقولة عن مؤلف أصلى يرجع إلى سنة ٣٠٠٠ق.م. انظر " بول غليونجي وزينب الدواخلي : الحضارة الطبية فى مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٦٥م : محمد دياب : الطب والأطباء في مختلف العهود الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠م : مختار رسمى ناشد : فضل الحضارة المصرية على العلوم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ٩٧ ومابعدها ؛ محمد شاكر مشعل : الدور العربى فى التراث العلمى ، جـ١ ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

٢ - أحمد عيسى : معجم الأطباء ، القاهرة ، ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م ، ص ٣٧ ؛ صفى على محمد : الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط من الفتح العربى إلى نهاية الدولة الإخشيدية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص ٦١٤ .

٣ - البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩م ، ص ٣٢١ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، جـ١ ، القسم الخاص بمصر ، تحقيق زكى محمد حسن، سيدة إسماعيل كاشف ، شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣م ، ص ١٢٣ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨١م ، ص ١٣٦ ؛ صفى على محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٣ - ٦٠٤ .

٤ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٠ - ١٤١ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٧ .

٥ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤١ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٧ ؛ صفى على محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ .

٦ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٣٥ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢١ ؛ فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى) ، جـ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

٧ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٣٦ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢١ .

٨ - البلوى : المصدر السابق ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٣٩ .

١٠ – البلوي : المصدر السابق ، ص ٣٢٣ ؛ سفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ .

١١ – المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٢م ، جـ١ ، ص ٣٩٢ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٨ .

١٢ – ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٨٧ – ٨٨ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ ؛ صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ . وقد كان إسحق بن سليمان الإسرائيلي من أهل مصر ، ثم سكن القيروان ، تتلمذ على إسحق بن عمران عندما التقى به في القيروان ، ثم أصبح طبيب الإمام أبي محمد عبيد الله المهدي صاحب إفريقية ؛ وكان دخوله القيروان في عهد زيادة الله بن الأغلب ، وتوفي في حدود سنة (٣٢٠هـ / ٩٣٢م) . ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، دراسة تراجم ونصوص ، جـ١ ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م ، ص ٤١ ؛ محمود الحاج قاسم محمد : انتقال الطب العربي إلى الغرب، معابره وتأثيره ، ط١ ، دار النفائس ، دمشق ، ١٩٩٩م ، ص ٦٨؛ جان شارل سورنيا : تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص ، ترجمة إبراهيم البجلاتي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مايو ٢٠٠٢م ، ص ٨١ .

١٣ – ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ٩٦ ؛ القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تحقيق جوليوس لابيرت ، ليبزج ، ١٩٠٣م ، ص ٣٣٧ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ ؛ محمد العربي الخطابي : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٠ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفي : الدور السياسي والحضاري للجاليات المغربية في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٩٨٧م ، ص ٤٩٣ .

١٤ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جـ١ ، تحقيق خليل المنصور ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧م، ص ٤٤٢ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ ؛ صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ .

١٥ – ابن جلجل : المصدر السابق ص ١١٥ ؛ المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٤٩م ، جـ٢ ، ص ٣١٥ ، جـ٣ ، ص ١٣ ؛ أحمد عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ٤٩٤ ؛ أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٤٦١ .

١٦ – ابن الزيات : الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى ، مكتبة المثنى ، بغداد (د.ت) ، ص ١١٩ ؛ أحمد عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ٤٩٤ .

١٧ - توجد نسخة مخطوطة من كتاب " البول " لإسحق بن سليمان الإسرائيلي بدار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، رقم ٣١١ طب .

١٨ - ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٨٧ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٥٨ - ٥٩ ؛ صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٨ . وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب " الحميات " لإسحق بن سليمان ، على ميكروفيلم ، بمعهد المخطوطات العربية ، مكتبة أحمد الثالث ، رقم ١٠٩ طب .

١٩ - علي بن رضوان : كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، تحقيق عبد المجيد دياب ، مكتبة ابن قتيبة، الكويت ، ١٩٩٥م ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٥ .

٢٠ - عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص ١٤٨؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٨ .

٢١ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ .

٢٢ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ السيوطي : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٤٢ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

٢٣ - القفطي : المصدر السابق ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ٥ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ص ٩٦ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٣٠ .

٢٤ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ ، ١٦٦ ؛ علي بن رضوان : المصدر السابق ، مقدمة التحقيق ، (د.عبد الصمد دياب) ، ص ٣١ ؛ صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦١٤ - ٦١٥ .

٢٥ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧١ .

٢٦ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق، جـ٣ ، ص ٣٣٠ .

٢٧ - توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٠ طب .

٢٨ - صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٣٦ . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة : ١٠٢ مؤلفًا من مؤلفات علي بن رضوان الطبية ، غير أن ماكس مايرهوف يرى أن ما ذكره ابن أبي أصيبعة أقل مما صنفه ابن رضوان ، وأضاف إليها ثلاثة كتب أخرى هي : " شرح كتاب المربعة لبطليموس " الذي ذكره القفطي عند ترجمته لابن رضوان ، وكتاب " كفاية الطبيب فيما صح لديَّ من التجاريب " . وهو مخطوط بمكتبة الفوطا ، تحت رقم ١٩٥٢ - ١ ؛ وكتاب " فيما يجب على الرئيس الفاضل من مصالح بدنه وأدب لبيبه وقهرمانه " وهو مخطوط بمكتبة الفوطا أيضًا تحت رقم ٢٠١٥ - ٣ . ماكس مايرهوف وجوزيف شاخت: خمس رسائل لابن بطلان وابن رضوان ، القاهرة ، ١٩٣٧م ، ص ٥٠ ؛ ابن رضوان : المصدر السابق ، مقدمة التحقيق ، ص ٤٨ ؛ وعن مؤلفات ابن رضوان انظر أيضًا ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٧ - ١٧٤ .

٢٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ .

٣٠ – ابن رضوان : المصدر السابق ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٦ .

٣١ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

٣٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٠ .

٣٣ – السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص ٤٤٢ .

٣٤ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٠ – ١٨١ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص ٤٤٢ – ٤٤٣ .

٣٥ – عن أبقراط وجالينوس انظر : القفطي : المصدر السابق ، ص ٩٠ – ٩٤ ، ١٣٢ – ١٤٢ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٤١ – ٥٦ ، ١٠٨ – ١٥٤ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق، ص ١٢١ – ١٢٣ ؛ جان شارل سورنيا : المرجع السابق ، ص ٤٦ – ٥٦ ، ٦٢ – ٦٤ .

٣٦ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ ؛ سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٨٢ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٠ .

٣٧ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ – ١٤٧ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق، جـ٣ ، ص ٣٢٤ . وقد اعتقدت إحدى الباحثات أنه ابن الطبيب كيسان بن عثمان بن كيسان ، والواضح من الاسم أنه أخيه ، ويقول ابن أبي أصيبعة : إن جثمانه انتقل إلى دير القصير " فدفن هناك عند قبر أخيه كيسان بن عثمان بن كيسان ... " انظر ما ذكرته فاطمة مصطفى : تاريخ أهل الذمة ، جـ٢ ، ص ٢٥١ .

٣٨ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٢ ؛ سلام شافعي : المرجع السابق ، ص ٨٢ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٥ .

٣٩ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الأب أنطوان صلحاني اليسوعي ، دار المشرق ، ط٣ ، ١٩٩٢م ، ص ١٨١ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ .

٤٠ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

٤١ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٤٨ .

٤٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٨ ، ٧٠ .

٤٣ – المقريزي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٠ ؛ سلام شافعي : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

٤٤ – المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ٨٠ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ . لعل المقصود بالاستعمالات هنا التركيبات الكيميائية ، ويبدو أن ابن قرقة كان متخصصاً فيها ، وهي من متطلبات دور الديباج والسلاح والسروج ، وهو ما جعل ابن تغري بردي يقول : " وكان ابن قرقة خبيراً بالاستعمالات ذكيا " ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٢ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، تحقيق محمد حلمي ، ص ١٥٤ ، هامش ٢ .

٤٥ – ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط١ ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ١٠٩ ؛ المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

٤٦ – المقريزي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

٤٧ – ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ، انتقاه المقريزي ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، (د.ت) ، ص ١٢٢ ؛ المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ١٨ ، ٦٣ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٥٣ – ١٥٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ . وقد ذكر ابن تغري بردي أن الطبيبين كانا يهوديين ، بينما أورد ابن الأثير رواية مقتل حسن بن الحافظ وذكر أن أحد الطبيبين كان يهودياً وهو الذي رفض عمل السم ، بينما كان الآخر مسلماً وهو الذي قام بإعداده ، ولم يذكر اسميهما . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ١١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٢٢ – ٢٣ .

٤٨ – ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ، المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٢٣ ؛ المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ١٨ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٥٥ ؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ ؛ سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ، دار المعرفة، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ١٠١ .

- Mourice Fargon : Les Juifs En Egypte Sepuis Les Origines Jusquace Jour, Le Caire, 1936, pp. 120 - 121 .

ويذكر ابن عبد الظاهر أن أبو سعيد بن قرقة باع الدار والحمام إلى جهة علم السعداء، ثم سكنها الكامل بن شاور ؛ ولعل الأملاك التي استولى عليها الخليفة وأمر بإرجاعها إلى الديوان ، منشآت أخرى غيرهما، كما يستفاد من ما ذكره ابن عبد الظاهر أن ابن قرقة أدرك موقف الخليفة منه وتخلص من بعض أملاكه بالبيع . ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

٤٩ – سعيد الديوة جي : الموجز في الطب الإسلامي ، ط١ ، الكويت ١٩٨٩م ، ص ٥٣ ؛ سليمان قاطنة : الطب العربي ، مجلة عالم الفكر ، جـ١٠ ، ع٢ ، يوليو – أغسطس – سبتمبر ، الكويت ١٩٧٩م ، ص ٢٧٨ . يقول مارتن بلسنر : إن الاشتغال بالعلوم الإسلامية ، لم يقتصر على المسلمين ، إذ استمر النصارى واليهود يسهمون في هذه العلوم إسهاماً نشطاً ، لدرجة أن كتاب " ينبوع الحياة " لابن جبرول

(سليمان بن يحيى ت : ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) كان يظن حتى القرن التاسع عشر أنه من تأليف عالم مسلم ، حتى كشف سالومون مونك (S.Munk) المستشرق الألماني عن هوية هذا المؤلف اليهودي الأندلسي ؛ كذلك فإن المؤلفات التي وضعها إسحق بن سليمان الإسرائيلي ، وموسى بن ميمون (ت ٦٠١هـ / ١٢٠٤م) لا تختلف عن أعمال الأطباء المسلمين . ويعزو بلسنر هذا التشابه إلى وجود تفاعل بين الأديان في العلم الإسلامي لا تقل عما كان في ذلك العلم من تفاعل بين القوميات ، على حد قوله ، ويرى أن العلم ربما كان أقل الميادين الثقافية خضوعاً لعملية " الصبغ بالصبغة الإسلامية " . كما يدعى أن هناك عداء من جانب المذهب السني الرسمي لعلوم الأوائل ، وأن هذا العداء ظل صفة مميزة للإسلام، فقد كان أهل السنة المسلمون يرون أن كل علم لا ينبع من القرآن ، لا يعتبر عقيماً فحسب ، بل يعتبر أيضاً الخطوة الأولى على الطريق المفضي إلى الزندقة . (جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد ، ط٣ ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، يونيو ، ١٩٩٨م ، ص ١٤٢) . والواقع أن هذه الادعاءات أبعد ما تكون عن الصواب ، فإن الإسلام يحث على الاستزادة من كل علم يفيد المجتمع ، ومن أى مصدر كان ، " خذ الحكمة ولا تضرك من أي وعاء خرجت " ، ولقد كان المسلمون يقبلون على النقل من الأوائل على الرغم من اختلاف الأمم والنحل ، وما كان ذلك إلا نتيجة لمرونة الفكر العربي ، وتعطشه الشديد للعلم والمعرفة ، وكثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحض المؤمنين على العلم ، فجعلت من العرب محرقاً تجتمع فيه أنوار العلم والمعرفة من كل البلاد والعقليات ، فأصبحت العقلية العربية نتاج تفاعل كل هذه العقليات والمعارف: وهناك أمثلة عديدة لتسامح الخلفاء العباسيين السنيين مع الأباء والعلماء النصارى والصابئة والبراهمة واليهود والمجوس وغيرهم ، ولهم مطلق الحرية في الاعتقاد والرأى ، وفي تأدية شعائرهم الدينية . انظر تفاصيل ذلك : سعيد الديوه جي : الموجز في الطب الإسلامي ، ص٥٢ ، والملحق الثالث في نفس المرجع بعنوان " سماحة المسلمين مع الأطباء غير المسلمين " ، ص ١١٧ - ١٢٠ ؛ سليمان قطانه : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ . وهناك دراسة قيمة قدم فيها الدكتور رشيد الجميلي رؤية واضحة لحركة الترجمة والنقل التي قام بها العرب في العصر الأموي ونشطت نشاطاً ملحوظاً في العصر العباسي ، مبيناً مراحل هذه الحركة وعوامل ازدهارها وتطورها ، وأهم أعلامها ، ومراكزها ومدارسها. رشيد الجميلي: حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي في القرنين الأول والثاني للهجرة ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي (د.ت) .

٥٠ - قاسم عبده قاسم : اليهود في مصر ، دار الشرق ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ٩ ، ٨٧ .

٥١ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص٩٢ ؛ سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، ص ٨٢ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٠ .

٥٢ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٢ .

٥٣ - المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٤٢ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٥٣ ، ٥٥ .

٥٤ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٧٣ ، ٨٣ ؛ سلام شافعي محمود : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

٥٥ – القفطي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٨١ – ١٨٢ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

٥٦ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٤ .

٥٧ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٤ – ١٧٥ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٢٥٢ .

٥٨ – فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٢ ؛

The Jewish Encyclopedia, Vol. V, New York, London, 1903, p. 62 .

* – كناش وتجمع على كنانيش ، وهو ما لم يتعدد أسفاره من المصنفات : والكناش في الطب يطلق على سفر يضم معلومات تتعلق بعلاج شتى العلل ، يرجع إليه الطبيب عند الحاجة على سبيل التذكرة ، ويطلق الكناش أيضاً في بلاد الغرب الإسلامي على سجل يقيد فيه صاحبه فوائد ومعلومات وتواريخ وغيرها ينقلها من هنا وهناك . محمد العربي الخطابي : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٥ هامش ٤ .

٥٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٥ . الحسن بن الحسين بن حمدان ، الملقب بالأمير أبو محمد ناصر الدولة التغلبي ذو المجدين ، دخل مصر في عصر الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤م) قادماً من حلب ، وقوى أمره ، فاستولى عليها ولقب نفسه بسلطان الجيوش، قتل سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م . (ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢١ – ٢٢ ، ٩٠ – ٩١) . وعن تلك الأحداث التي وقعت في عصر الخليفة المستنصر ، انظر : ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٣٨ ؛ المقريزي : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٣٦ – ٣٣٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٣٠٦ ؛ مصطفى علي دويدار : جزيرة الروضة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية حكم المماليك ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ٢٠٠١ م ، ص ١٠٥ – ١٠٨ .

٦٠ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٥ .

٦١ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٥ – ١٧٦ ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ؛ ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

٦٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٧ .

٦٣ – أبو صالح الأرمني : تاريخ الشيخ أبي صالح ، المطبعة المدرسية ، أكسفورد ، ١٨٩٤م ، ص ٥٤ .

٦٤ – المقريزي : الخطط ، جـ١ ، ص ٤١١ .

٦٥ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٠ – ١٩١ ؛ عطية القوصي : صلاح الدين واليهود، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٤ ، ١٩٧٧ ، ص ٤٤ – ٤٥ .

٦٦ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٢ .

٦٧ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٦ – ١٩٠ ؛ عطية القوصي : المرجع السابق ، ص٤٤.

٦٨ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٤ .

٦٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩١ .

٧٠ – ابن أبي الصلت : الرسالة المصرية ، ضمن كتاب نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠١ م ، ص٤٠ .

٧١ – ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، جـ١ ، الخاص بمصر ، ص ٢٨ .

٧٢ – ابن أبي الصلت : المصدر السابق ، ص ٤١ .

٧٣ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٢ .

٧٤ – محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٧٦ – ٩١ .

٧٥ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ ؛ ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة نوادر المخطوطات ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، ٢٠٠١م ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٧٣ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٥٢ .

٧٦ – القفطي : المصدر السابق ، ص ١٠٥ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ ؛ السيوطي : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٤٢ .

٧٧ – القفطي : المصدر السابق ، ص ١٠٦ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٤ .

٧٨ – ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٧٤ – ١٧٥ . وانظر أيضًا ، القفطي : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

٧٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٤٤ .

٨٠ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٣ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٧ .

٨١ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٩ ؛ ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٨٢ ؛ عبد المنعم ماجد : امرأة مصرية تتزعم مظاهرة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٤ ، ١٩٧٧ ، ص ٣٤ ؛ عبد الحميد إ. صبرا : أبو علي الحسن بن الحسين بن الهيثم الخازن ، مقالة ضمن كتاب (عبقرية الحضارة العربية ، منبع النهضة الأوروبية) ، ترجمة عبد الكريم محفوظ ، ط١ ، الدار الجماهيرية ، للنشر والتوزيع والإعلان ، بنغازي ، ١٩٩٠م ، ص ٢٣٣ .

٨٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٩ .

٨٣ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٥٨ .

٨٤ – محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٩٨ .

٨٥ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

٨٦ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ؛ ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٩٠ ؛ سامي حمارنه : الصناعة الطبية في العصر الإسلامي الذهبي ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٠ ،

ع٢، يوليو - أغسطس - سبتمبر ، ١٩٧٩م ، الكويت ، ص ٥٩٥ ؛ أندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، ط١ ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٤٧.

٨٧ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

٨٩ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٠ ؛ جـ٣ ، ص ١٦٧ .

٨٩ - القفطي : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

٩٠ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ .

٩١ - ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٧٥ .

٩٢ - القفطي : المصدر السابق ، ص ١٩٥ - ٢٠٧ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

٩٣ - ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧؛ سامي حمارنه : المرجع السابق ، ص ٣١١ - ٣١٣ .

٩٤ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ .

٩٥ - ابن أبي الصلت : الرسالة المصرية ، ص٤٢ - ٤٣ ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

٩٦ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٨ . عين زربة : وردت في معجم البلدان " عين زربى " ، ويجوز أنها من زرب الغنم ، وهو مأوها - هو بلد بالثغر من نواحي المصيصة إحدى المدن الواقعة على شاطىء جيحان من ثغور الشام ، بين إنطاكية وبلاد الروم، بالقرب من طرسوس . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ١ ، طبعة ويستنفلد ، ليبتسيك ، ١٨٦٦م ، ص ٧٦١ .

٩٧ - سامي حمارنه : الطبيب العربي ابن العين زربي وأبحاثه في العلل والعلاج ، بحث ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ علوم العرب ، جـ١ ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٩٧٧م ، ص ٦٤٢؛ الصناعة الطبية ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

٩٨ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ . وهناك عدد من الدراسات القيمة حول " كتاب الكافي في الطب " انظر : سامي حمارنه : الطبيب العربي ابن العين زربي ، مرجع سابق ، ص ٦٤١ - ٦٨٠ ؛ الصناعة الطبية ، ص ٢١٥ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

٩٩ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ .

١٠٠ - سامي حمارنه : الطبيب العربي ابن العين زربي ، مرجع سابق ، ص ٦٤٢ .

١٠١ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٢ .

١٠٢ - القفطي : المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٤ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفي : المرجع السابق ، ص ٥٩٠ .

١٠٣ - محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العربي إلى الغرب ، ص ٩٥ .

١٠٤ – ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ١ ، تحقيق شوقى ضيف ، ص ١٢٨ – ١٣٠ .

١٠٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٣ – ١٠٤ ؛ محمود الحاج قاسم : المرجع السابق ، ص ٧٤ – ٧٥ ، ٨٨ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفى : المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

١٠٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٤ – ١٠٦ ؛ محمود الحاج قاسم : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

١٠٧ – المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٩٤ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفى : المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

١٠٨ – المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

١٠٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٨٣ – ٨٤ .

١١٠ – ابن أبى الصلت : الرسالة المصرية ، تحقيق عبد السلام هارون ، مقدمة التحقيق ، ص ١٢ .

١١١ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٣٧ .

١١٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٨٦ ؛ مقدمة تحقيق الرسالة المصرية ، ص ١٢ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفى : المرجع السابق ، ص ٥٩٦ .

١١٣ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٠ .

١١٤ – مقدمة تحقيق الرسالة المصرية ، ص ١٢ .

١١٥ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

١١٦ – ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

١١٧ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

١١٨ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤٠ ؛ أحمد عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ٥٩١ .

١١٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٠ .

١٢٠ – القلشقندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٥٦٩ .

١٢١ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ – ١٨٢ ، ١٨٣ ؛ سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى ، ٩٨ .

١٢٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ – ١٤٢ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٩٩ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

١٢٣ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٨١ ؛ سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ص ٣١ .

١٢٤ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ – ١٤٧ .

١٢٥ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٨ .

١٢٦ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٤٨ ، ٧٠ ؛ سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، ص ٨٣ .

١٢٧ – ابن حجر العسقلاني : رفع الأصر عن قضاة مصر ، القسم الثاني ، تحقيق حامد عبد المجيد ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ٣٦٢ – ٣٦٣ ؛ سلام شافعي : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

١٢٨ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٨١ .

١٢٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٦٦ .

١٣٠ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٧٨ .

١٣١ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٩٤ – ٩٥ ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية (دراسة نصوص) ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

١٣٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٨٠ – ١٨١ ، ١٨٣ .

١٣٣ – القفطي : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٤ .

١٣٤ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٦٣

١٣٥ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .

١٣٦ – ابن أبي الصلت : المصدر السابق ، ص ٤١

١٣٧ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ – ٢١٥ .

١٣٨ – القفطي : المصدر السابق ص ٢٩٠ .

١٣٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٦٧ .

١٤٠ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

١٤١ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

١٤٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

١٤٣ – ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٣ .

١٤٤ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٦٧ – ١٦٩ .

١٤٥ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

١٤٦ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

١٤٧ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ . ذكرت زيغريد هونكه ، أن ابن رضوان كان يحلو له أن يهاجم غريمه في كل آن وحين ، فكتب مرة " جهل ابن رضوان معرفة بالنسبة إلى ابن بطلان ومرة أخرى " ابن بطلان يعجز عن قراءة مخطوطاته ذاتها " أو " رسالة إلى أطباء القاهرة عن الجديد لابن بطلان " وهكذا دواليك . زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب " أثر

الحضارة العربية في أوروبة " ، نقله عن الألمانية ، فاروق بيضون وكمال دسوقي ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٨٧ .

١٤٨ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

١٤٩ – ابن فكري براى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٦٩ .

١٥٠ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٤٤٤ .

١٥١ – ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ، ص ١٠١ – ١٠٢ .

١٥٢ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٤٤٤ .

١٥٣ – ابن رضوان : المصدر السابق ، ص ١٤٣ – ١٥١ .

١٥٤ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

١٥٥ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٦ .

١٥٦ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٠ .

١٥٧ – ابن أبي الصلت : الرسالة المصرية ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

١٥٨ – ابن أبي الصلت : المصدر السابق ، ص ٤١ – ٤٢ ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ – ٢١١ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٦ .

١٥٩ – راجع ما تقدم عن ابن حسداي في هذا البحث .

١٦٠ – جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، دار الهلال ، القاهرة (د.ت) ، ص ٢٠٨ .

١٦١ – ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٤ ، تحقيق لجنة إحياء التراث ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ت) ، ص ٩٩ ؛ المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٠٦ .

١٦٢ – ابن دقماق : المصدر السابق ، الجزء والصفحة ؛ المقريزي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

١٦٣ – المقريزي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٠٦ .

١٦٤ – ابن دقماق : المصدر السابق ، الجزء والصفحة . كانت وظيفة الخازن من وظائف البلاط في العصر الإخشيدي ، وصاحبها يتولى أمر خزانة الأمير ويشرف على ما في قصره ، بالإضافة إلى إدارة ممتلكاته الخاصة وهو يشبه صاحب بيت المال في العصر الفاطمي والخازندار في العصر المملوكي ، وقد شغل أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن هذه الوظيفة في عهد الإخشيد نفسه ، وكان له عدد من الأعوان والمساعدين ، وذكر الشيخ أبو صالح الأرمني أن محمد الخازن فتح إبريم من بلاد النوبة في أيام كافور ، وكانت وفاته سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م . أبو صالح الأرمني : تاريخ الشيخ أبي صالح ، ص ١٢٢ ؛ ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٦٨ ؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، سيدة إسماعيل كاشف : مصر في عصر الإخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩م ، ص ١٥١ ؛ مصطفى نويدار : جزيرة الروضة ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

١٦٥ – ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٩٩ .

١٦٦ – ابن دقماق : المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

١٦٧ – ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١١٥ .

١٦٨ – ابن أبي الصلت : الرسالة المصرية ، ص ٤٠ .

١٦٩ – القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٥٦٩ .

١٧٠ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨١ .

١٧١ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩١ .

١٧٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

١٧٣ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

١٧٤ – رشيد الجميلي : الحضارة الإسلامية وآثارها فى الحضارة الأوروبية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ، (د ت) ، ص ١٦٤ .

١٧٥ – سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٥٣ ؛ رشيد الجميلي : المرجع السابق ، ص ١٦٤ ؛ زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

١٧٦ – محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العربى إلى الغرب ، ص ٥٠ – ٥١ ، ١٠٢ – ١٠٣ ؛ كمال السامرائي : مختصر تاريخ الطب ، ط١ ، الدار الوطنية للتوزيع ، بغداد ، ١٩٨٤م ، جـ١ ، ص ٦٤٧ – ٦٤٩ ، جـ٢ ، ص ٢١٩ – ٢٢١ ؛ زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ؛ غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م ، ص ٤٩٣ .

١٧٧ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ ؛ جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٦٥ .

١٧٨ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٩٤ – ٢٩٩ .

١٧٩ – انظر ما تقدم من هذا البحث ، هامش ٩٥ .

١٨٠ – مقدمة تحقيق رسالة بن بطلان فى شرى الرقيق ، ص ٣٧٦ ؛ كمال السامرائي : المرجع السابق، جـ١ ، ص ٥٧٦ .

١٨١ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

١٨٢ – السامرائي : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٩ ؛ محمود الحاج قاسم : المرجع السابق ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

١٨٣ – جان شارل سورنيا : تاريخ الطب ، ص ٨٢ – ٨٣ .

١٨٤ – ول ديورانت : قصة الحضارة ، مج٤ ، جـ٣ ، (عصر الإيمان) ، ترجمة محمد بدران ، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ١٠٩ .

١٨٥ – محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العربي ، ص ٤٣ .

١٨٦ – جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٤٢٥ .

١٨٧ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

١٨٨ – سامي حمارنه : علوم الحياة ، بحث ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية ، ص ٢٥٦ .

١٨٩ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٣٢١ . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص ١٤٦ : هذا الكتاب باسم " مفتاح السرور من كل الهموم ، ومفرح النفس " وقد ألفه التميمي بمصر ، وأهداه لبعض إخوانه بها .

١٩٠ – سمير يحيي الجمال : الطب والصيدلة ، جـ٢ ، ص ٣٣٢ .

١٩١ – محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العرى ، ص ١٥٧ ؛ زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

١٩٢ – علي بن رضوان : دفع مضار الأبدان ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٨ – ٣٩ .

١٩٣ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

١٩٤ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

١٩٥ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ – ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ثلاثة أجزاء ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨١م.

٢ – ابن أبي الصلت : أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي (٥٢٨هـ / ١١٣٤-٣٣م) : الرسالة المصرية ، ضمن كتاب نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠١م.

٣ – ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزرى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل في التاريخ ، الجزء الحادى عشر ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩م.

٤ – ابن بُطلان : أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون البغدادى (ت : بعد سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) : رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، ضمن كتاب نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ،٢٠٠١م .

٥ – ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي (٨٧٤هـ / ١٤٦٥م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الخامس ، تحقيق محمد بك رمزى ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٣٦م.

٦ – ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان (ت : بعد سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

٧ – ابن حجر العسقلاني : القاضي شهاب الدين أحمد بن على الحافظ العسقلاني (ت٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) : رفع الإصر عن قضاة مصر ، القسم الثاني ، تحقيق حامد عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٦١م.

٨ – ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء الرابع ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، (د.ت) .

٩ – ابن رضوان : أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر المصرى (٤٥٣هـ / ١٠٦١م) : كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، تحقيق عبد الحميد دياب، مكتبة ابن قتيبة ، الكويت ، ١٩٩٥م.

١٠ – ابن الزيات : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الأنصارى (٨١٤هـ / ١٤١١م) : الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى ، مكتبة المثنى بغداد (د.ت) .

١١ – ابن سعيد : أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الأندلسى (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : المُغرب فى حُلى المغرب ، القسم الخاص بمصر (الفسطاط) ، تحقيق زكى محمد حسن ، وشوقى شيف ، وسيدة كاشف ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣م.

– المُغرب فى حُلى المغْرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م.

١٢ – ابن ظهيرة : أحد علماء القرن التاسع أو العاشر الهجرى : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩م.

١٣ – ابن عبد الظاهر : محى الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان السعدى المصرى (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩١م) : الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٤ – ابن العبرى : أبو الفرج جمال الدين جريجوريوس بن هارون الطبيب الملطى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الأب أنطوان صلحانى اليسوعى ، دار المشرق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢م.

١٥ - ابن ميسر : تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب بن راغب (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) : المنتقى من أخبار مصر ، (انتقاه المقريزى) ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى ، للدراسات الشرقية ، القاهرة ، (د.ت) .

١٦ - أبو صالح الأرمنى : أبو المكام جرجس بن مسعود (ت : أوائل ق ٧هـ / ١٣م) : تاريخ الشيخ أبو صالح المعروف بـ : كنائس وأديرة مصر ، المطبعة المدرسية ، أوكسفورد ، ١٨٩٤م .

١٧ - البلوى : أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدينى البلوى (ت : بعد نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة / ق ١٠م) : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩م.

١٨ - السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر بن حمد الشافعى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م): حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق خليل منصور ، الجزء الأول ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٧م.

١٩ - القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن عبد الواحد (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : خبار العلماء بأخبار الحكماء ، نشر جوليوس ليبرت ، ليبزج ، ١٩٠٣م.

٢٠ - القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الجزء الثالث ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٧م.

٢١ - المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين على المسعودى (ت ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ أو ٩٥٧م) : مروج الذهب ومعدن الجوهر ، الجزء الأول ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨١م.

٢٢ - المقرى : أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العيش بن محمد المقرى التلمسانى (١٠٤١هـ / ١٦٣١م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر

وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الجزءان الثاني والثالث ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٩م.

٢٣ – المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جزءان، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د.ت) .

– اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ثلاثة أجزاء : الجزء الأول، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨م. الجزءان الثاني والثالث ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ١٩٧٣م.

٢٤ – ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، طبعة وستنفلد ، ليبتسيك ، ١٨٦٦م.

ثانيًا : المراجع :

١ – أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

٢ – أحمد عبد اللطيف حنفي محمد (دكتور) : الدور السياسي والحضاري للجاليات المغربية في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٩٨٧م.

٣ – أحمد عيسى (بك) : معجم الأطباء ، القاهرة ، ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م .

٤ – أندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٤م.

٥ – بول غليونجي وزينب الدواخلي : الحضارة الطبية في مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٦٥م.

٦ – جان شارل سورنيا : تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص ، ترجمة إبراهيم البجلاتي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مايو ٢٠٠٢م.

٧ – جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، الجزء الثالث ، دار الهلال ، القاهرة ، (د.ت).

٨ – جوستاف جورينباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

٩ – رشيد الجميلي (دكتور) : حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي في القرنين الأول والثاني للهجرة ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، (د.ت) .

– الحضارة العربية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، (د.ت) .

١٠ – زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب " أثر الحضارة العربية في الأوروبية " ، نقله عن الألمانية ، فاروق بيضون وكمال دسوقي ، بيروت ، ٢٠٠٠م.

١١ – سامي حمارنه (دكتور) : الطبيب العربي ابن العين زربي ورأبحاثه في العلل والعلاج، بحث ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ علوم العرب ، الجزء الأول ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ١٩٧٩م.

– الصناعة الطبية في العصر الإسلامي الذهبي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ، يوليو – أغسطس – سبتمبر ، الكويت ، ١٩٧٩م.

– علوم الحياة ، مقالة ضمن كتاب (عبقرية الحضارة العربية ، منبع النهضة الأوروبية) ، ترجمة عبد الكريم محفوظ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ، بنغازي ، ١٩٩٠م.

١٢ – سعيد الديوة جي (دكتور) : الموجز في الطب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٩٨٩م.

١٣ – سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣م.

١٤ – سلام شافعي محمود (دكتور) : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م.

– أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

١٥ – سليمان قطانة (دكتور) : الطب العربي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ، يوليو – أغسطس سبتمبر ، الكويت ١٩٧٩م.

١٦ – سمير يحيي الجمال (دكتور) : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث ، (في العصر الإسلامي) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩م.

١٧ – سيدة إسماعيل كاشف (دكتور) : مصر في عصر الإخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩م.

١٨ – صفي علي محمد (دكتور) : الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط ، منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الإخشيدية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٩ – عبد الحميد أ. صبرا (دكتور) : أبو علي الحسن بن الحسين بن الهيثم " الخازن " ، مقالة ضمن كتاب (عبقرية الحضارة العربية ، منبع النهضة الأوروبية) ، ترجمة عبد الكريم محفوظ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ، بنغازي ، ١٩٩٠م.

٢٠ – عبد المنعم ماجد (دكتور) : امرأة مصر تتزعم مظاهرة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٤ ، القاهرة ١٩٧٧م.

٢١ – عطية القوصي (دكتور) : صلاح الدين واليهود ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٤ ، القاهرة ١٩٧٧م.

٢٢ – غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م .

٢٣ – فاطمة مصطفى عامر (دكتور) : تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي) ، الجزء الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

٢٤ – قاسم عبده قاسم (دكتور) : اليهود في مصر ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٣م.

٢٥ – كمال السامرائي (دكتور) : مختصر تاريخ الطب ، جزءان ، الدار الوطنية للتوزيع ، الطبعة الأولى ، بغداد ، ١٩٨٤م.

٢٦ – ماكس مايرهوف وجوزيف شاخت : خمس رسائل لابن بطلان وابن رضوان ، القاهرة ١٩٣٧م.

٢٧ – محمد دياب (دكتور) : الطب والأطباء في مختلف العهود الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠م.

٢٨ – محمد شاكر مشعل (دكتور) : الدور العربي في التراث العلمي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٣م.

٢٩ – محمد العربي الخطابي (دكتور) : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، (دراسة تراجم ونصوص) ، جزءان ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م.

٣٠ – محمد ماهر حمادة (دكتور) : الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، (دراسة نصوص) ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٠م.

٣١ – محمود الحاج قاسم (دكتور) : انتقال الطب العربي إلى الغرب ، معابره وتأثيره ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٩٩م .

٣٢ – مختار رسمي ناشد (دكتور) : فضل الحضارة المصرية على العلوم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م.

٣٣ – مصطفى على دويدار (دكتور) : جزيرة الروضة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية حكم المماليك ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ٢٠٠١م.

٣٤ – ول ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع الجزء الثالث عشر (عصر الإيمان) ، ترجمة محمد بدران ، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥م

35 - Mourice Fargon : Les Juifs En Egypte Depuis Les Origines Jusqu'ace Jour, Le Cairo, 1936 .

36 - " " " : The Jewish Encyclopedia, Vol. V, New York, London, 1903 .

د. محمد فهمى إمبابى (*)

مكانة علم الفلك فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية

مقدمة :

عرف العرب قبل الإسلام النجوم والكواكب السيارة ، وكانت هذه المعرفة نابعة من ملاحظتهم الدقيقة ، وخبرتهم الطويلة الناتجة عن تنقلهم المستمر وضربهم فى الصحارى سعياً وراء أماكن صالحة للإقامة فيها ، الأمر الذى يتطلب منهم معرفة بالنجوم كى يهتدوا بها فى الليل ، أو اتخذوها علامات تدل على تساقط المطر ، وعلى أوقات الحر والبرد والجفاف ومهاب الرياح (١). ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن صاعد الأندلسى بقوله : " ... وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم فى معرفة ذلك من أسباب المعيشة" (٢). ويذكر الجاحظ أن العرب عرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء " .. لأن كل من كان بالصحاح الأماليس .. مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضمه بالحياة ، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث " (٣).

ولم تكن معرفة العرب بالنجوم والكواكب قائمة على قاعدة أو على نظر عقلى أو علمى مستمد من مصنفات وضعوها لهذا الغرض ، بل إنها – كما سبق القول – قائمة على مجرد الملاحظة الدقيقة والخبرة الطويلة التى تطلبتها ظروف معيشتهم فى الصحراء (٤). وعلى رغم ذلك إلا أن العرب قد تأثروا فى هذا المجال بغيرهم من الشعوب المجاورة لهم

---

* مدرس بكلية الآداب – جامعة طنطا .

– الذين تعاملوا معهم – فاقتبسوا منهم الشيء الكثير ، وخاصة من الهنود واليونان والفرس والكلدان ، الشيء الذى أثرى معرفتهم بالإضافة إلى ما عرفوه بأنفسهم من ملاحظتهم وخبرتهم (٥). ومما يدلل على ذلك ، التأثير الكلداني – على سبيل المثال – فى معرفة العرب بالنجوم ، الألفاظ العربية الفلكية ذات الأصل الكلداني مثل لفظ " المريخ " التى تقابل لفظة "مرداخ " فى الكلدانية ، ولفظ " زحل " التى تقابل " كادن " وألفاظ " ثور " و " السرطان " و "العقرب " و " الدلو " وهم يقابلون " ثورا " و " العقرب " و " دولا " فى الكلدانية (٦). ونقل العرب عن أهل اليونان معارفهم في الفلك ، وذلك عن طريق أو بواسطة السريان – الذين كانوا الأكثر إلمامًا بعلوم اليونان – ومن هذا التراث اليوناني – على سبيل المثال – نقل سرجيس الرسعيني السرياني (ت٥٣٦م) رسالة في تأثير القمر وفى حركة القمر ، وعنه أخذها العرب(٧).

وعلى الرغم مما نقله العرب عن الشعوب المجاورة لهم من معلومات فلكية هامة ، إلا أن العرب كانوا على معرفة كبيرة ووثيقة بالفلك ، حتى إن ابن صاعد الأندلسي يذكر أن ملوك حمير كانت لهم " ... مذهب فى آثار أحكام النجوم وميل إلى معرفة طبائعها " (٨). بل إنه يذكر أن الهمذاني صاحب كتاب " الإكليل في أخبار حمير " يذكر أن معرفتهم الدقيقة بالفلك مكنتهم أن لا يستعملون أحد من قوادهم إلا بعد أن يـ " ... عرفوا مولده ووجدوا أولته من البروج والكواكب (وأنهم) ... إذا أرادوا غزو أمة من الأمم تخيروا لذلك الأوقات السعيدة والطوالع المشاكلة لمواليدهم والملائمة لنصب دولتهم ومكثوا فى ارتيادها الأزمان الطويلة حتى تمكنهم على اختيارهم ، فكانوا يبلغون بهذا حيث شاءوا من المراتب العالية " (٩). ويذكر ابن قتيبة في فضل العرب علي غيرهم ، إنهم كانوا على علم وتفرد بعلم النجوم وأسمائها وأنوائها ومطالعها ومساقطها والاهتداء بها ، ويدل علي بقوله " ... وللعرب أسجاع فى طلوع النجوم تدل على علم جم كثير كقولهم إذا طلع سهيل برد الليل ، وضيف السقم ، وكان للحوار الويل ، فإذا طلع النجم اتقى اللحم ، وخيف السقم ، وهم أيضًا أعلم الناس بمخايل السحاب ، ومناطرة ومخلفة " (١٠).

وكانت العرب فى جاهليتها تعبد النجوم والكواكب ، فكانت حمير تعبد " الشمس "(١١) وكنانة تعبد " القمر " ، وجذام " المشترى " ، وقيس " الشعرى " ، وأسد " عطارد "(١٢) وكان العرب يعتقدون أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حية ناطقة

وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله ، وأن كل ما يحدث فى قدرهم إنما هو على قدر ما كانت تجرى به الكواكب عن أمر الله ، فعظموها وقدموا إليها القرابين (١٣).

ونظراً للمعرفة الوثيقة للعرب بالفلك والنجوم ، حاجهم الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بذلك ، فقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تدعوا الناس إلى النظر فى هذا الكون وتدبر آياته ، ومعرفة أنه من صنع الله سبحانه وتعالى ، ومن هذه الآيات قوله تعالى " والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون " (١٣). وأيضاً قوله تعالى " فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " (١٥).

ومثلما اهتم العرب بالفلك قبل الإسلام ، جاء اهتمامهم به فى الإسلام ، وإن كان بصورة أكبر ، حتى أن نزعتهم العلمية فى الفلك – التى لازمت العرب منذ انتشار الإسلام – كانت تقوى مع الأيام (١٦). وجاء هذا الاهتمام الشديد بالفلك نتيجة لحاجة المسلمين الماسة إليه ، فبعض الأحكام الشرعية الإسلامية ترتبط بالظواهر الفلكية ، مثل اتجاه القبلة وأوقات الصلاة واختلافها حسب المواقع والفصول تقتضى معرفة المواقع والفصول ومعرفة الموقع الجغرافى لكل بلد من البلدان وأيضاً حركة الشمس فى البروج (١٧). إلى جانب حث الله سبحانه وتعالى للمسلمين على أنه التدبر فى أمر السماء وفى الشمس والنجوم والكواكب ، وهناك آيات كثيرة تحث المسلمين على ذلك ، ومنها على سبيل المثال ، قوله سبحانه وتعالى " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " (١٨).

ومن هنا جاء اهتمام المسلمين بهذا العلم ، فعملوا على إثراء تجربتهم الشخصية وتراثهم المتوارث فى هذا المجال بالنقل عن التراث العلمى للأمم المجاورة لهم ، فنهل العرب من التراث الهندى(١٩) عند نقلهم عن الثقافة الفارسية(٢٠) بالإضافة إلى التراث اليونانى (٢١). وقد أولى العباسيون – منذ قيام دولتهم – اهتماماً كبيراً بالفلك وبمؤلفاته ، وعملوا على ترجمتها إلى اللغة العربية ، فيذكر ابن صاعد الأندلسى أنه فى عام ١٥٦هـ / ٧٧٢م وفد على الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فى بغداد رجل فلكى من أهل الهند – لم يسميه – عالم بالحساب المعروف بالسند هند فى حركات النجوم ، وإنه التقى مع الفلكيين العاملين فى بلاد المنصور ،

فأمر الخليفة المنصور عالمه الفلكى محمد بن إبراهيم الفزارى[٢٢] أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية [٢٣].

ولم يكتف الخليفة المنصور بهذا ، بل أرسل إلى إمبراطور الروم يطلب منه إرسال بعض الكتب الفلكية اليونانية ، وطلب من علماء الفلك فى بلاطه أن يقوموا بترجمتها إلى اللغة العربية. وسار الخلفاء العباسيون من بعد على منهجه فى الاهتمام بالفلك وترجمه مؤلفاته إلى اللغة العربية ، وكان هذا واضحًا بشدة فى عصرى الرشيد والمأمون . ففى عهد الخليفة المأمون[٢٤] (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م) ظهر عدد كبير من علماء الفلك ، ومنهم أحمد بن محمد النهاوندى ، ويحيى بن أبى منصور ، وسند بن على الذى ألف مع يحيى بن أبى منصور زيجا فلكيًا [٢٥]، وغيرهم الكثير من العلماء .

وتطور علم الفلك فى المشرق تطوراً كبيراً بعد ترجمة أمهات الكتب الفارسية واليونانية فى هذا المجال ، وقد درسها العلماء المسلمون المتمون بعلم الفلك ، ثم أصلحوا أخطائها ، وأضافوا إليها الكثير مما أثرى هذا العلم وظهرت بصمات العلماء والعرب والمسلمون عليه بصورة واضحة وجلية .

علم الفلك في الاندلس في عصر الدولة الاموية (١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٥-١٠٣٠م):

حرص المسلمون بعد فتحهم للأندلس على الاهتمام بالعلوم المختلفة ، للعمل على النهضة بهذا الإقليم البعيد ، الذى لم يعرف عن أهله قبل الإسلام اهتمام بالعلم على حسب وصف ابن صاعد الأندلسى [٢٦]. وتمثل اهتمام المسلمين هذا بالعلوم الدينية واللسانية فقد دون العلوم العقلية ، حيث يذكر أحد الباحثين المحدثين أن اهتمام الفقهاء الأندلسيين اقتصر على معرفتهم باتجاه القبلة وتعين مواقيت الليل والنهار على مدار العام للتعرف على أوقات الصلوات ، والتأكد من مواقيت الأهلة لتعيين بدايات الشهور العربية فقط [٢٧]. وكانوا لا يحتاجون إلى أكثر من ذلك ، ولهذا كانوا يصفون من يتعمق فى دراسة علم الفلك بالزندقة على حسب وصف ابن حزم [٢٨].

استمر تجاهل المسلمون فى الأندلس لعلم الفلك ودراسته فترة عصر الولاة (٩٥ - ١٣٨هـ/ ٧١٣ - ٧٥٥م) ولكن مع بداية حكم الأمويين (١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٠م) تحركت نوازع العلماء الأندلسيون لدراسته والاستفادة من معارفه فى حياتهم اليومية[٢٩] .

ومن هنا نستطيع أن نحدد بداية الاهتمام بعلم الفلك فى الأندلس ببداية حكم الدولة الأموية فى

الأندلس (١٣٨هـ / ٧٥٥م) حيث رحل كثير من طلاب العلم إلى المشرق بغرض الحج وطلب العلم فيه ، فأخذوا ينهلون من العلوم فى المشرق - ومنها الفلك - ونقلوا ذلك إلى الأندلس عند عودتهم (٣٠).

تجمع المصادر والدراسات التاريخية الحديثة على أن البدايات الحقيقية لظهور علم الفلك فى الأندلس تبدأ فى منتصف القرن الثالث الهجرى / الثامن الميلادى ، وتحديداً فى عصر الأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٢هـ/٨٥٢-٨٨٥م)(٣١) ، حيث يذكر ابن صاعد الأندلسى أنه فى عهد ظهر العالم العالم أبو عبيده مسلم بن أحمد بن أبى عبيده البلنسى (ت٢٩٥هـ/٩٠٧م) المعروف بصاحب القبلة(٣٢) الذى كان عالمًا بـ ... حركات الكواكب وأحكامها "(٣٣). ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن اشتغال الناس بالعلوم الرياضية والفلكية يكاد يكون نادراً حتى زمن الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) (٣٤).

وبالعودة إلى المصادر التاريخية المتعددة ، توصل الباحث إلى أن أول ظهور لعالم أندلسى فى علم الفلك كان قبل ذلك وتحديداً فى عصر الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢هـ / ٧٥٥ - ٧٨٨م) حيث يذكر المقرى أن الأمير هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦م) استدعى من الجزيرة الخضراء(٣٥) المنجم المعروف عبد الواحد بن إسحاق المعروف بالضبى(٣٦) عندما تولى الحكم لكى ينبئه بما ظهر له فى طالعه(٣٧) . وكان الضبى مشهوراً بمعرفته بعلم النجوم والاطلاع على الحركات العلوية المنسوب إلى بطليموس ، وقد ذاعت شهرته فى مناطق واسعة فى الأندلس نتيجة لمهارته فى هذا المجال . مما يدل على أن هذا العلم - معرفة النجوم -(٣٨) كان معروفًا أيام الأمير عبد الرحمن الداخل بدليل استدعاء الأمير هشام الرضا للضبى فور توليه الحكم . ويعتبر الضبى أول منجم أندلسى ، وقد ترك لنا أرجوزة تنجيمه فى هذا المجال ، لم يبق منها إلا تسع وثلاثون بيتًا فقط!(٣٩).

يذكر المقرى أن أمراء الأندلس كانوا مهتمين بالتنجيم ، ولكنهم كانوا يتظاهرون بتجاهله خوفًا من العامة ، ولكنهم كانوا حريصين على الاطلاع عليه وتقريب العالمين به إليهم ، ومن هنا كان هذا العلم قاصراً على أهل الحكم فقط دون عامة الناس ، وذلك لأن العامة كانوا يطلقون على من يشتغل بالتنجيم لفظ " زنديق " (٤٠).

وفى عهد الأمير الأندلسى الحكم الربضى بن هشام الرضا (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦- ٨٢١م) ظهر عدد من الفلكين الأندلسيين ، ومنهم سهل بن عثمان بن أبى حبيب المالقى (٤١)، وحسن بن محمد المالقى(٤٢) اللذان أرسل إليهما الأمير الحكم - عند وصوله إلى مالقة - رسول من قبله هو أحمد بن فارس ليعرف مطلع الكواكب المسمى " سهيل " فـ " ... وصفًا له وصفه (سهيل) وقت طلوعه " (٤٣). مما يدل على معرفته بالكواكب ، وسعيه إلى الاستزادة من هذا المجال . وفى عهده أيضًا ظهر العالم الفلكى والفيلسوف الأندلسى الشهير عباس بن فرناس(٤٤) الذى وصفه ابن سعيد المغربى بأنه كان ... فيلسوفًا حاذقًا ، وشاعرًا مفلقًا ، مع علم التنجيم " (٤٥).

وهو أول فلكى أندلسى ينسب إليه اختراع آلة فلكية ، حيث ذكر أنه صنع للأمير عبد الرحمن الأوسط آلة تسمى " ذات الحلق "(٤٦) لقياس الكواكب والنجوم ، كما تبين من الأبيات التى رفقها معها إلى الأمير الأوسط (٤٧). ثم اخترع عباس له أيضًا آلة أخرى لقياس الوقت سماها ابن سعيد باسم المنقانة Manqana (٤٨). فى حين يذكر أحد الباحثين المحدثين أن اسمها الميقاتة(٤٩) ويميل الباحث إلى الأخذ بالاسم الأخير لأنه الأنسب لوظيفتها . وقد صنع عباس فى أحد حجرات منزله هيكلاً للأجرام السماوية(٥٠) وهو أول نموذج للأجرام السماوية يصنع فى الأندلس .

تميز الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى المشهور بعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ/ ٨٢١ - ٨٥٢م) بحبه الشديد للعلم وتشجيعه للعلماء ، فيذكر ابن حزم أنه أرسل عباس بن ناصح الجزيرى(٥١) إلى العراق ليحضر له الكتب العلمية من هناك ، فأحضر له نسخة من كتاب " السند هند " فى الحساب والفلك ، وكانت أول نسخة من هذا المصنف تدخل الأندلس (٥٢). وهذا أول معلومة تذكر عن كتاب فلكى يدخل الأندلس . وكان للأمير عبد الرحمن الأوسط مترجمًا خاصًا به هو عبد الله بن الشمر بن نمير القرطبى(٥٣) الذى بشره بأن الإمارة ستصير إليه عن طريق التنجيم ، ولذلك أحسن إليه عندما تولى الإمارة ، وقربه منه وجعله منجمه ونديمه (٥٤).

كانت للمنجم عبد الله بن الشمر القرطبى مكانة هامة عند الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حتى أن الأمير لم يكن عنده من المنجمين مثله - على حسب وصف ابن سعيد "(٥٥) حتى أنه عندما غضب عليه ، ورفض التنجيم والمنجمين واعتبره " مخرفة ورجم بالغيب " ، استطاع عبد الله بن الشمر أن يعيد ثقة الأمير فيه وفى التنجيم (٥٦).

وفي أعقاب انتهاء حالة الاضطراب التي سادت الأندلس من جراء الثورات التي قام بها الخارجون علي طاعة الأمويين في قرطبة ، وهي ما تعرف بعصر الطوائف الأول (٥٧)، عادت حالة الهدوء إلى الأندلس نتيجة لجهود الأمير عبد الرحمن الناصر ، فأعاد للبلاد النظام والرخاء في الداخل ، والاحترام والهيبة في الخارج ، وزادت موارد الثروة ، وشجع الزراعة والتجارة والصناعة والفنون والعلوم . ولذلك كان طبيعيًا أن يحدث تطور في مجالات العلم ، وظهرت بوادر هذا في الاهتمام الكبير بالفلك - مجال دراستنا - فظهر في عهده عدد من العلماء الفلكيين المشهورين ، ومنهم ابن السمينة يحيى بن يحيى القرطبي (٥٨). الذي كان مشهوراً بحساب النجوم ومتصرفًا في مختلف أنواع العلوم ، وتوفي سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م(٥٩). وظهر العالم أحمد بن نصر(٦٠) (ت ٣٣٢هـ / ٩٤٣م) صاحب كتاب " المساحة المجهولة " ، والعالم أبو القاسم مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن حاتم القرطبي (٢٩٣-٣٥٣هـ / ٩٠٥ - ٩٦٤م)(٦١) الذي كان مهتمًا بالتنجيم والفلك . ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن ما قام به أحمد بن نصر ومسلمة بن القاسم كان أمر مميزًا في مجال الفلك في الأندلس ، وإنه كان باكورة زرع أينع وأثمر في عهد الخليفة الحكم المستنصر(٦٢) .

وفي عهد الخليفة الناصر ظهر أيضًا العالم الفلكي والطبيب الأندلسي الشهير عريب بن سعد(٦٣) الذي وضع مؤلفًا شهيراً هو " تقويم قرطبة سنة " ٣٥٠هـ / ٩٦١م"(٦٤) وضعه سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠ - ٩٦١م ، ويعد هذا التقويم من أشهر التقاويم العربية ، حيث يذكر فيه أوقات السنة وفصولها ، وعدد الشهور وأيامها ومجاري الشمس ، بالإضافة إلى أخبار الزراعة وأوقات الفراسة ومطالع النجوم والأمطار والسنة الشمسية والأبراج ، بالإضافة إلى معلومات هامة عن أعياد النصارى (٦٥).

وفي عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر ظهرت شخصية هامة من نصارى الأندلس(٦٦) كان له اهتمام بالفلك ، وهو ربيع بن زيد(٦٧) أسقف البيرة(٦٨) الذي ألف كتابًا في التنجيم للحكم المستنصر في " تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان" وفيه ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه(٦٩) وأثبتت الدراسة التي قام بها أحد المستشرقين المحدثين أن هذا الكتاب ما هو إلا ترجمة لتقويم قرطبة لعريب بن سعد ، أضاف إليه ربيع بن زيد إضافات يسيرة (٧٠).

ورغم ما تميز به الخليفة عبد الرحمن الناصر من حب لمجالسة العلماء والفلاسفة والعناية بالكتب ، إلا أن ابنه الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) قد فاقه في

ذلك ، منذ نعومة أظفاره اطلع على العديد من العلوم – ومنها العلوم التى منع الخلفاء على عامة الناس دراستها وتدارسوها هم فى بيوتهم وقصورهم – مثل الفلسفة والتنجيم(٧١) ولذلك شب الحكم المستنصر على حب العلم والعلماء ودراسة مختلف أنواع العلوم ومنها الفلك .

وكان الخليفة الحكم يعتمد على تثقيف نفسه بنفسه ، إذ كان يحضر المصنفات من الأقاليم والمناطق النائية باذلاً فيها ما عظم من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه (٧٢).

وقد شجع الحكم المستنصر أبناء الأندلس على طلب العلم بعدد من الإجراءات التى قام بها، ومنها إقراره مبدأ إلزامية التعليم ، وخاصة فى مرحلة الكتاتيب وجعله مجانيًا ، ورفع مستوى التعليم فى المساجد ، وعمله على مكافأة المتفوقين من الطلاب ، بالإضافة إلى تشجيعه العلماء على التأليف ، مقدمًا لهم كل عون ومساعدة علمية وموجهًا إياهم إلى طبيعة العلوم التى تفتقر إليها خزائن الكتب فى الأندلس . وبالإضافة إلى بث روح التعاون بين العلماء فى التأليف(٧٣) ونتيجة لحب الحكم المستنصر للفلك والتنجيم وفد عليه أحد المنجمين المشهورين فى المشرق ، وهو المنجم أحمد بن فارس البصرى(٧٤) وكانت له مكانة هامة عند الحكم المستنصر ، حت إنه أصبح كبير المنجمين على عهده كما ذكر ابن بسام (٧٥). وقد أثمرت النهضة العلمية فى الأندلس فى عهد الخليفة الحكم المستنصر فى ازدهار علم الفلك ، وأصبحت المعلومات الفلكية تناقش علنًا فى مجالس الخلافة بعد ما كانت تناقش همسًا وخيفة بعيداً عن أعين الفقهاء (٧٦). فظهر فى عهده عدد من أشهر الفلكيين الأندلسيين ومنهم أبو بكر أحمد بن محمد بن أبى عيسى الأنصارى ، الذى وصفه ابن صاعد بأنه كان مقدمًا فى العدد والهندسة والنجوم (٧٧)، وينسب لهذا العالم الفلكى أنه – نتيجة لسياسة الحكم المستنصر العلمية – كانت له مجلس يعلم الطلاب فيه علم الفلك ، وهذه أول مرة يرد فيها ذكر ظهور مجلس يعلم الفلك للطلاب فى الأندلس .

وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر ظهر أول فلكى أندلسى ذو شأن – على حسب وصف أحد الباحثين المحدثين(٧٨) فظهر العالم الأندلسى الشهير أبو القاسم مسلمة بن أحمد الفرضى المجريطى (٧٩) القرطبى (ت٣٩٨هـ / ١٠٠٧م)(٨٠) وهو صاحب أول مدرسة فلكية هامة فى الأندلس ، جمع حوله عدد من الطلاب الذين أخذوا عنه علم الفلك ونقلوها عنه إلى طلابهم ، حتى أن ابن صاعد يذكر أنه " ... أنجب تلاميذ جلة ، ولم ينجب عالم بالأندلس مثلهم "(٨١) . وعرف مسلمة المجريطى بلقب إقليدس(٨٢) الأندلس(٨٣) . وحازت مدرسته

الفلكية من بعده شهرة واسعة ، حتى إن ابن حزم عدها من جملة فضائل أهل الأندلس [٨٤]. ويعتبره أحد الباحثين المحدثين " إمام الرياضيين الأندلسيين " وذلك لأنه أول من بدأ النهضة الرياضية والفلكية في الأندلس [٨٥].

وتنبع شهرة المجريطي من إنجازاته المتعددة في مجال علم الفلك ، التي تمثلت في رسالته المشهورة في " الاسطرلاب "[٨٦] بعنوان " أبواب لا يستغني من يروم عمل الاسطرلاب عنها "[٨٧]. وكتاب له في شرح كتاب بطليموس[٨٨] في تسطيح الأرض [٨٩]. وينسب إليه أيضًا شروح نظرية مينا لاوس[٩٠] ، وكتاب بعنوان " تمام علم العدد " أو " ثمار العدد " ، يذكر ابن صاعد الأندلسي أنه في المعاملات [٩١]. وله كتاب بعنوان " إصلاح رسالة الشكل الملقب بالقطاع "[٩٢] وله أيضًا ملخص لزيج البتاني[٩٣] سماه " تعديل الكواكب " [٩٤].

وأما أشهر أعمال مسلمة المجريطي فهو إصلاحه لزيج الخوارزمي[٩٥] إذ اهتم به اهتمامًا كبيرًا – كما يقول ابن صاعد – وحول تاريخه من التاريخ الفارسي إلى التاريخ العربي ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة[٩٦] وتوفي أعظم فلكي أندلسي في القرون الثلاثة للهجرة سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٣م[٩٧] وينسب إلى مسلمة المجريطي مصنفات عدة في الرياضة والكيمياء والفلسفة[٩٨] .

وقد ترك مسلمة المجريطي عددًا كبيرًا من التلاميذ النجباء في علم الفلك ، الذين حملوا رايته من بعده[٩٩] من أشهرهم أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني (٣٦٨ – ٤٥٨هـ / ٩٧٨ – ١٠٦٥م) من أهل قرطبة ، وقد عاش فيها عمره ، ثم فر منها أثناء الفتنة إلى سرقسطة[١٠٠] وتوفي فيها سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٥-١٠٦٦م)[١٠١] وأيضًا أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) المولود في قرطبة ، وتعلم بها على يد أستاذه المجريطي ، ثم رحل عن قرطبة عند اندلاع الفتنة إلى تونس[١٠٢] وتوفي بها ، وهو فلكي منجم مشهور ، له عد مؤلفات منها كتاب " البارع في أحكام النجوم " ، وعدة كتب في المواليد والاختيارات ودلالات النجوم والمنبات والطب بالتنجيم وغيرها من المصنفات المنسوبة إليه [١٠٣].

ومن تلاميذ المجريطي أيضًا ابن الصفار ، أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر الغافقي (٣٧٠ – ٤٢٦هـ / ٩٨٠-١٠٣٤م) من أهل قرطبة ، وقام بالتدريس فيها في علم العدد والحساب والنجوم ، ثم خرج من قرطبة فارًا عند اندلاع الفتنة إلى دانية[١٠٤] وعاش بها إلى

أن توفي سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م[١٠٥] وينسب لابن الصفار زيج مشهور مختصر على مذهب السند هند وكتاب موجز في العمل بالاسطرلاب[١٠٦] ولابن الصفار أخ يسمى محمد كان مشهوراً بالاهتمام بالفلك أيضاً ، وله اسطرلاب مشهور " ... لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنعاً لها منه" [١٠٧].

ومما يدلل على علو مكانة ابن الصفار في علم الفلك أنه ترك عدداً من تلامذته في الأندلس[١٠٨]، الذين ذاع صيتهم من بعده في علم الفلك ، ومنهم ابن البرغوث [١٠٩]، والوسطى [١١٠]، وابن شهر [١١١]، والقرشي[١١٢] والأمطش المرواني[١١٣] ، وابن العطار[١١٤] .

ومن تلاميذ المجريطي المشهورين أيضاً ، ابن السمح ، أبو القاسم اصبغ بن محمد المهدى (٣٦٩ - ٤٣٦هـ / ٩٧٩ - ١٠٣٥م) كان من أهل غرناطة ، عاش في رعاية الأمير الزيرى حبوس بن ماكس بن زيرى الصنهاجي (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)[١١٥] وكان مشهوراً في الرياضة وفي علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وكانت له أيضاً اهتمامات بالطب وبالهندسة[١١٦] وينسب إليه العديد من المؤلفات الفلكية الهامة ، ومنها كتابان في الاسطرلاب، الأول في التعريف - بطريقة صنعه ، وهو ينقسم إلى قسمين ، والكتاب الثاني في طريقة استخدام الاسطرلاب والتعرف بجوامع ثمارها . وينسب إليه أيضاً زيج مشهور ، ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند ، وهو كتابكبير مقسم إلى جزئين ، الأول في الجداول ، والثاني في وسائل الجداول ، وله كتاب أيضاً في تعديل الكواكب ، وقد توفي ابن السمح في غرناطة في يوم الثلاثاء الثاني عشر من رجب سنة ٤٢٦هـ / ٢٩ مايو ١٠٣٥م[١١٧] وترك ابن السمح عدداً من التلاميذ منهم ما انفرد بذكره ابن صاعد ، وهو أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى الناشيء المهندس[١١٨] وابن الصفار المتطبب أبو جعفر أحمد بن عبد الله[١١٩] وللمجريطي تلاميذ آخرون منهم أبو الحسن على بن سليمان الزهراوى[١٢٠] الذى كان عالماً بالعدد والهندسة ومهتماً بالطب إلى جانب الفلك الذى أخذه عن أستاذه المجريطي ، وينسب إليه كتاب في المعاملات على طريق البرهان[١٢١] وهناك أيضاً أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م) وقد وصفه ابن صاعد بأنه كان من أشراف إشبيلية ، وبها ذاع صيته في الفلسفة والهندسة والطب والنجوم [١٢٢] ومنهم أيضاً ابن الخياط أبو بكر يحيى بن أحمد (٣٦٧ - ٤٤٧هـ / ٩٧٧ - ١٠٥٥م) الذى كان أحد

المشهورين – أيام الأمويين وحتى فى عصر الطوائف – فى علم العدد والهندسة ، ثم مال إلى أحكام النجوم فبرع فيها واشتهر بها ، ودخل فى خدمة الخليفة الأموى سليمان بن الحكم بن الناصر (٣٥٤ – ٤٠٧هـ / ٩٦٥ – ١٠١٦م)[١٢٣] الملقب بالمستعين بالله أثناء الفتنة ، ثم دخل فى خدمة الأمير المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون[١٢٤] وتوفى بطليطلة سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م وقد قارب على الثمانين من العمر [١٢٥].

ومن العلماء الذين برزوا فى الأندلس فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجرى / العاشر والحادى عشر الميلادى ، عبد الله بن أحمد السرقسطى (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) الذى كان مشهوراً فى علم الهندسة والعدد والنجوم ، وقد نقل ابن صاعد عن أحد تلامذته – الذى التقى به – أنه مالقى وأنه لا أحد أحسن تصرفًا فى الهندسة منه ولا أضبط [١٢٦]. وقد اهتم السرقسطى بعلم النجوم وبدراسة حركات الكواكب ، وتوصل إلى أن هناك خطأ فى رصد تحركاتها ورد فى كتاب السند هند ، فعمل على تعديل حركات النجوم ، وقد أرسل بذلك إلى أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الإشبيلى – تلميذ مسلمة المجريطى – وتوفى السرقسطى فى بلنسية سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م[١٢٧].

ومن هؤلاء العلماء أيضًا برز العالم محمد بن أحمد بن الليث ، قاضى بلدة شريون[١٢٨] وكان متحققًا بعلم الحساب والهندسة ، عارفًا بحركات الكواكب وإرصادها ، بصيراً بالنجوم، وتوفى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م[١٢٩] وابن الليث يمثل صورة صادقة لمناخ العلم بمختلف أنواعه وفروعه الذى كان سائداً فى عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر ، فمنصب القضاء لم يمنع صاحبه من الاشتغال بالفلك ورصد الكواكب والنجوم ، على عكس ما سيحدث بعد ذلك .

وفى عهد الخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ، اضطهد حاجبه القوى المنصور بن أبى عامر (٣٦٦ – ٣٩٢هـ / ٩٧٦ – ١٠٠١م)[١٣٠] اضطهد علماء الفلك والتنجيم والرياضيات ، حتى أنه منع تدريسها ولم يستثن سوى الحساب والطب . وكان تصرفه هذا راجعًا إلى رغبته فى أن يتقرب إلى عوام الأندلس ، كما يذكر المقرى [١٣١]. ويذكر ابن عذارى ذلك ، فيذكر أن المنصور اشتهر بأنه " ... أشد الناس فى التغير على علم عنده شيء من الفلسفة والجدل فى الاعتقاد ، والتكلم فى شيء من قضايا النجوم [١٣٢]. وكان المنصور بن أبى عامر يهدف إلى التقرب إلى العامة واستخدامهم فى أثناء صراعاته المختلفة داخل الدولة[١٣٣].

ولم يكتف المنصور بن أبى عامر بتحريم دراسة الفلك ، بل إنه أقدم على إتلاف وحرق نخائر مكتبة الحكم المستنصر !(١٣٤) ومما لاشك فيه أن الكتب والمصنفات العلمية الخاصة بالفلك والتنجيم قد حرقت من جراء هذا الدمار الذى أصاب المكتبة نتيجة لكراهية المنصور للفلك والتنجيم ، وتحريمه لتدريسها . وكان هذا التصرف تقرباً للعامة ، وذلك لأن " ... كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة لقب زنديق ، وقيدت أنفاسه ، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة "(١٣٥) . ولهذا لم يبرز عالم فى الفلك فى هذا الوقت حتى من كان مهتماً به أخفى اهتمامه ، ونبغ فى مجالات أخرى ، مثل أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بالكتانى (٣٤٠ - ٤٢٠هـ / ٩٥١ - ١٠٢٩م) (١٣٦). الذى اشتهر بالطب ودخل فى خدمة المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر من بعده ، وكان " ... ذا حظ من المنطق والنجوم " (١٣٧). ولكن الغالب أنه أخفى ذلك ، ثم هاجر إلى سرقسطة مع اندلاع الفتنة فى قرطبة ، واستقر بها حتى مات فيها سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م(١٣٨).

ويذكر المقرى - نقلاً عن الحجارى - أن المنصور بن أبى عامر كان يميل إلى الفلسفة والتنجيم والفلك ، ولكنه كان يظهر عكس ذلك تقرباً للعامة ، وذلك بقوله " ... وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجارى " (١٣٩). ويرى الباحث أنه لم يرد فى أى من المصادر التاريخية التى ترجمت لحياة المنصور بن أبى عامر ما يدل على اهتمامه بالفلسفة والفلك والتنجيم ، ويرى الباحث أنه حرم دراسة الفلك والتنجيم تقرباً من العامة لكسب ولائهم فى صراعاته وحروبه سواء الداخلية أم الخارجية .

وخلف عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، الملقب بالمظفر (٣٩٢ - ٣٩٩هـ / ١٠٠١ - ١٠٠٨م)(١٤٠) أباه فى إدارة الأندلس نيابة عن الخليفة هشام المؤيد ، وكان منجم الحكم المستنصر - أحمد بن فارس البصرى قد تنبأ له عند مولده بأنه " ... لم يولد قط بالأندلس مولود أسعد منه على أبيه وعلى نفسه ، وعلى حاشيته ، نعم وعلى أهل الأندلس " (١٤١) . وقد سار المظفر على نفس سياسة أبيه المنصور فى تحريم دراسة الفلك والتنجيم ، حتى أن المصادر الأندلسية لاتذكر ظهور أى من الفلكيين أو المنجمين المشهورين فى عهده . وخلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر الملقب بشنجول (ت٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) (١٤٢) .

الذى لم يدم حكمه أو حجابته لهشام المؤيد طويلاً ، إذ سرعان ما قام عليه الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار ، الملقب بالمهدى(١٤٣) ونازعه الحكم ، مما كان سبباً فى اندلاع الفتنة فى قرطبة(١٤٤) ومنها انتقلت شراره الفتنة إلى باقى أرجاء الأندلس ، لتدخل الأندلس فى النفق المظلم الذى أدى إلى تفتت وحدة الأندلس ، وظهور دويلات صغيرة ، ومن ثم ظهور عصر الطوائف (٤٢٢ - ٤٤٨هـ / ١٠٣٠ - ١٠٩٥م) .

أثر علم الفلك فى الأندلس فى النهضة الأوروبية :

عمل الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى على الاقتباس من الحضارة الإسلامية والاستفادة مما وصلت إليه من تقدم ورقى فى مختلف العلوم والمعارف ، وذلك بترجمة هذا التراث العلمي الفريد ، وخاصة أن العلماء المسلمون نقلوا تراث العالم القديم ، سواء الفارسى أو الهندى أو اليونانى ، وقاموا على دراسته وتصحيح أخطاؤه ثم الإضافة إليه ، حتى أصبح عربياً خالصاً ، يحمل بصمات العرب وعبقريتهم .

ومن هنا بدأ عصر ترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية ، وظهرت فى القرن السابع الهجرى / الثالث الميلادى الجامعات فى أوروبا ، التى ألهبت حماس الشباب الأوروبى التواق إلى المعرفة والعلم للاغتراف من بحار المعرفة المتمثلة فى المؤلفات العربية ، وذلك بترجمتها ثم دراستها .

ونال التراث العلمى الفلكى الأندلسى فى القرون الوسطى نصيباً كبيراً من الاهتمام العلمى الأوروبى به ، فالتراث العلمى الأندلسى فى الفلك والتنجيم منذ الفتح وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى كل محل دراسة واهتمام من الغرب الأوروبى فعملوا على ترجمته من العربية إلى اللاتينية ودراسته .

وكانت مؤلفات الفلكى الأندلسى الشهير أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) من أوائل المصنفات العلمية الفلكية التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية ، فقد نقل الغرب كتابه " إصلاح زيج الخوارزمى " إلى اللاتينية ، وترجع أهمية هذا الكتاب فى أنه عرف الغرب الأوروبى بزيج الخوارزمى مع تعديلات المجريطى للأخطاء التى وقع فيها الخوارزمى(١٤٥) . وينكر أحد الباحثين المحدثين أن اعتماد المجريطى على زيج الخوارزمى هو الذى أذاع صيت الخوارزمى فى الغرب المسيحى فى العصور الوسطى عندما بدأ الغرب يعمل على نقل الفكر والمعارف العربية إلى اللاتينية(١٤٦) .

وترجم أيضاً للمجريطي كتابه " شرح كتاب بطليموس في تسطيح الكرة " من العربية إلى اللاتينية والعبرية وفقد أصله العربي ، فحفظت لنا الترجمة اللاتينية النص العربي سليماً (١٤٧) وله أيضاً ترجم كتابه " غاية الحكيم "(١٤٨) إلى اللاتينية سنة ١٢٥٢م / ٦٥٠هـ بأمر من الملك القشتالي الفونسو العاشر الملقب " بالعالم "(١٤٩) وانتشر في أوروبا باسم بكتريس picatrix وهو لاسم أبيو قراطيس وقد طبعت هذه الترجمة في لايبزج سنة ١٩٣٣م / ١٣٥٢م مع ترجمته إلى الألمانية (١٥٠) .

وترجم كتاب " تعديل الكواكب " لأبي القاسم أصبغ بن محمد المهدى (٣٦٩ - ٤٢٦هـ / ٩٧٩ - ١٠٣٤م) تلميذ المجريطي إلى اللاتينية ومنها ترجم إلى سائر اللغات ، وضاع أصله العربي ولكنه وصل إلينا عن طريق ترجمته الإسبانية (١٥١). وكذلك ترجم الغرب الأوروبي كتاب " الاسطرلاب " لأبي القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر الغافقي ، المشهور بابن الصفار - تلميذ المجريطي - إلى اللغة اللاتينية ، ووصل إلينا عن طريق ترجمته من الإسبانية إلى العربية، والتي قام بها العالم الإسباني الشهير مياس بيا كروزا Millas Vallicrosa(١٥٢).

وترجمت كتب كثيرة منها " كتاب البارع في أحكام النجوم " و " كتب في المواليد والاختيارات ودلالات النجوم والمذنبات والطب بالتنجيم " إلى اللاتينية ، وهي كلها تنسب إلى تلميذ المجريطي ، العالم الفلكي الأندلسي الشهير أبو الحسن على بن أبي الرجال الشيباني (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) (١٥٣).

كما قام الأسقف ربيع بن زيد القرطبي بترجمة تقويم عريب بن سعد " تقويم قرطبة سنة ٣٤٩هـ / ٩٦١م " إلى اللاتينية مع إضافات تهم نصارى الأندلس (١٥٤)، وقد حفظت لنا هذه الترجمة تقويم عريب بن سعد بعد ما ضاع أصله العربي ، وقام أحد المستشرقين المحدثين بترجمته إلى العربية سنة ١٨٧٣م(١٥٥).

هكذا اهتم الغرب الأوروبي في العصور الوسطى بترجمة مؤلفات علماء الفلك الأندلسيون في الفترة محل الدراسة ، وعلى قدر ما أفادت هذه الترجمات الغرب الأوروبي في الاطلاع على أهم ما توصل إليه العلماء الأندلسيون في مجال الفلك ، فقد أفادتنا هذه الترجمات في حفظ أصول هذا التراث الفلكي الأندلسي - وحتى في لغات متعددة - بعد ما ضاع أو فقد أصله العربي . الأمر الذي جعلنا نقف على مدى ما توصل إليه العلماء المسلمون من تقدم ورقي في هذا الجزء الغالي من دولة الإسلام .

الهوامش

١ – يحيى عبد الأمير شامي : النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م ، ص ٣٦ – ٣٧ .

٢ – ابن صاعد الأندلسي : كتاب طبقات الأمم ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط١ ، ١٩١٢م ، ص ٤٥ .

٣ – الجاحظ : كتاب الحيوان ، جـ٦ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سلسلة الذخائر رقم (٧٩) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، ص ٣٠ ومما يدلل على معرفة العرب الكبيرة بالنجوم ما ذكره الجاحظ بقوله أن أعرابية سئلت هل تعرفين النجوم ؟ ، فقالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً على كل ليلة . الجاحظ : المصدر السابق ، ٢ ، ص ٣١ .

٤ – ترى المستشرقة زيجرد هونكه أن تأثير النجوم على حياة العرب بالصحراء كان أكبر من تأثيرها على حياة الإغريق أو الجرمان أو إي شعب آخر ، لأن العرب قوم رحل في فضاء فسيح لا نهاية له ، وأنهم اعتبروا أن قبة السماء هي خيمتهم ، قبة زاد تألقها هواء الصحراء الجاف ، وزينتها النجوم اللوامع ، فظهرت في حلة لا أروع ولا أجمل منها . زيجرد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص ١١٥ ، عز الدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د.ت ، ص ٧٢ –٧٣ .

٥ – يحي عبد الأمير : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

٦ – يحيى عبد الأمير : نفسه ، ص ٣٧ .

٧ – أحمد أمين : فجر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص ٤٨ .

٨ – ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٤٢ .

٩ – ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

١٠ – ابن قتيبة : فضل العرب والتنبيه على علومها ، تحقيق ولين محمود خالص ، منشورات المجمع الثقافي بأبوظبي ، أبو ظبي ، ط١ ، ١٩٩٨ ، ص ١٢٧ – ١٣١ . ويذكر ابن صاعد الأندلسي أن لأبي حنيفة الدينوري كتاب هام في الأنواء يتضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح وتفضيل الأزمات وغير ذلك . ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٤٥ .

١١ – كان للشمس مكانة عظيمة عند عرب الجنوب ، حتى أنهم عبدوها ، وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم في سورة النمل في قوله تعالى : { إني وجدت امرأة تملكهم أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله } القرآن الكريم : سورة النمل ، آية رقم (٢٣ ، ٢٤) . ويذكر يحيى عبد الأمير أن العرب كان يعتبرون الشمس ملاك ذو نفس عاقلة ، وهي أصل النور في

القمر والكواكب ، وأقاموا تمثالاً يمثل الشمس عبارة عن صنم يحمل بيده جوهراً على لون النار ، وبنوا لها بيتاً كان له سدنة وحجبة ، وكانوا يقيمون فيه يصلون ويصومون ويتبركون ويشفعون وفاءً لنذرهم . عبد الأمير : النجوم في الشعر العربي ، ص ٥٧ - ٥٨ .

١٢ - ابن صاعد : طبقات الأمم . ص ٤٣ .

١٣ - المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ١٢ ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت، ط١ ، ١٩٨١م ، ص ٤٦١ ؛ محمود عرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم ، مطبعة الوادي الجديد ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٥٢ .

١٤ - القرآن الكريم : سورة ياسين ، الآيات ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ .

١٥ - القرآن الكريم : سورة الواقعة ، الآية ٧٥ ، ٧٦ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن الآيات حول الفلك وحركته وعظمة الله سبحانه وتعالى ، انظر : ابن رستة : الأعلاق النفسية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ٥ - ٧ .

١٦ - زيجريد هونكة : شمس العرب ، ص ١٩٥ ، هامش (٥٤) .

١٧ - محمد أحمد أبو الفضل : أضواء على النشاط العلمي في الأندلس ، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص ٣٧٠ .

١٨ - القرآن الكريم : سورة البقرة الآية (١٧٤) .

١٩ - يذكر ابن النديم في الفهرست أن رجلاً هندياً يدعى كنكه الهندي وصل إلى بغداد سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م وإنه التقى بالخليفة المنصور ، وإنه اتصل أيضاً بالفلكيين العاملين في بلاط المنصور ، وهذه هي أولى الإشارات إلى التأثير الهندي في علم الفلك عند المسلمين . ابن النديم : الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ ، ص ٤٢ ؛ في حين يذكر ابن صاعد أنه وصل إلى بغداد سنة ١٥٦هـ / ٧٧٣م . ابن صاعد : طبقات ، ص ٥١ ؛ جوان فيرنيه : الرياضيات والفلك والبصريات مقال نشر في كتاب تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد ، سلسلة عالم المعرفة ، رقم (١٢) ، الكويت ، ط٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ؛ وعن كنكه الهندي انظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ٧ ، ترجمة عبد الله بن عبد الله حجازي جامعة الملك سعود ، السعودية ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

٢٠ - يذكر جوان فيرنيه أنه من الصعب علينا الفصل بين الثقافة الهندية والثقافة الفارسية في بيان تأثير الثقافة الفارسية على علم الفلك عند المسلمين ، ويضرب مثالاً على ذلك في زيج الشاه Zij-Shah ولمزيد من التفاصيل انظر : جوان فيرنيه : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

٢١ - يذكر جوان فيرنيه أن التراث الأكثر تأثيراً في معرفة العرب بعلم الفلك هو التراث اليوناني ، حيث نقل العلماء العرب كتب يونانية فلكية شهيرة مثل كتاب " المجسطي Al Magest " ومؤلفات ميطن Meton، واقطين Eucteman ، وكتاب الكرة المتحركة أو كتاب " الطلوع والغروب " لـ أوطولوكس Autolycus ،

وكتاب المدخل إلى علم الفلك لجيمنيوس الروديسي Geminus of Rhodes وغيرهم من العلماء اليونانيين جوان فيرنيه : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ ، ولمزيد من التفاصيل انظر : القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت، ص ٩٥ – ٩٧ ، فتحية النبراوي : النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ٩ ، ١٩٩٩م ، ص ١٩٣ ، فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، مج ٧ ، ص ٤١ – ١٢١ ، زيجريد هونكه : شمس العرب ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .
Sabra (Abd El-hamid) : The Genius of Arah Civilization, second ed., England, 1983, p. 154 - 155 .

٢٢ – عنه انظر فؤاد سزكين : المرجع السابق ، جـ٧ ، ص ٤٥٨ .

٢٣ – يذكر ابن صاعد أن الفزارى ترجم هذا الكتاب ، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون باسم " السندهند الكبير " ، وظل هذا الكتاب مستخدماً حتى عصر المأمون ، حتى اختصره الخوارزمي وصنع منه زيجه المشهور . ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٤٩ – ٥٠ ؛ فتحية النبراوى . المرجع السابق ، ص ١٩٣ ؛ قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار العلم ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٣م، ص ١١٠ – ١١١ .

٢٤ – عنه انظر : خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم العمرى ، دار طيبة ، السعودية ، ط٢ ، ١٩٨٥م ، ص ٤٦٧ – ٤٨٠ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، د.ت ، ص٤٤٤ – ٤٧٠ ؛ ابن طباطبا العلوى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، د.ت ، ص ٢١٦ – ٢٢٩ ، القضاعى ، تحقيق جميل عبد الله المصرى ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١ ، ١٩٩٥م ، ص ٤٢٩ – ٤٤٠ ؛ ابن العمرانى : الإنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، دار العلوم ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م، ص ٩٦ – ١٠٤ ؛ ابن الساعى : تاريخ الخلفاء العباسيين ، تحقيق عبد الرحيم الجمل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ٤٧ – ٦٩ ؛ محمد مصطفى هدارة : المأمون الخليفة العالم ، سلسلة أعلام العرب رقم (٥٩) الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٦م ، ص ٢٢ – ١٤٤ .

٢٥ – الزيج وجمعها أزياج هى فرع من فروع علم الفلك ، وكلمة زيج هى ما تشبه اليوم جداول وهى تشبه فى الوقت الحاضر جداول اللوغريتمات ، وهى صناعة حسابية تعتمد على القوانين العددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته وما أدى إلى برهان الفلك فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك . ويمكن استخدام الزيج فى معرفة مواضع الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرضى من قبل حسبات حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الفلك . لمزيد من التفاصيل ، انظر : ابن الأكفانى : إرشاد المقاصد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم ، تحقيق عبد المنعم محمد عمر ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٠٥ ؛ زين العابدين متولى : الفلك عن العرب والمسلمين ، جـ٢ ، ص ٧٣ – ٧٤ .

٢٦ – ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٢ .

٢٧ – انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت ، ص ٤٤٧ .

٢٨ – المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ٤ ، تحقيق يوسف محمد البقاعي ، دار الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م ، ص ١٦٨ .

٢٩ – يذكر ابن صاعد ذلك بقوله " .... بعد أن توطد الملك لبني أمية ... فتحرك ذوو الهم منهم لطلب العلم وتنبهوا لإشارة الحقائق " . ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

٣٠ – حول الرحلة في طلب العلم ، انظر : عبد اللطيف مؤمن : رحلات الأندلسيون نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس ، مقال نشره ضمن ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس ، المغرب ، ١٩٩٣م ، ص ٢٧٣ – ٢٨٦ ؛ سعد عبد الله البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٩١ – ٩٨ .

٣١ – عنه انظر مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، تحقيق محمد زينهم ، دار الفرجاني ، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٤م ، ص ١٢١ – ١٢٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٤ ، تحقيق أحمد أمين ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ٤٩٣ – ٤٩٦ ؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٥م ، ص ١١٩ – ١٢١ ؛ ابن سماك العاملي : الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة ، تحقيق محمود علي مكي ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ١٠١ – ١٠٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦م ، ص ٢٢٨ – ٢٤٢ .

٣٢ – هو أبو عبيده مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسي : المعروف بصاحب القبلة (ت٢٩٥هـ / ٩٠٧م) ، وكان نابغًا في الحساب والفلك ، عنه انظر : ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، جـ٢ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ١٢٦ ، ترجمة رقم (١٤٢٠) ، كمال أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، د.ت ، ص ٣٠٧.

٣٣ – ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٦٤ .

٣٤ – انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٤٧ .

٣٥ – عن الجزيرة الخضراء انظر : محمد فهمي إمبابي : تاريخ مدينة الجزيرة الخضراء الأندلسية منذ سقوط الدولة العامرية وحتى استيلاء القشتاليين عليها ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، آداب طنطا ، ١٩٩٧م ، ص ٣٣ – ٤٦ .

٣٦ – المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣٢١ .

٣٧ – يذكر المقرى أن الصبى إعفائه من هذا الأمر ، ولكن بعد إصرار هشام الرضا ، حدثه بأن طالع الأمير يخبره بأنه لن يعيش أكثر من ثمانية أعوام . المقرى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢١ ، السيد سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢١٩ .

٣٨ – التنجيم : هو معرفة أثر الكواكب فى أحوال الناس ومعيشتهم وأرزاقهم ، وقد رفض العلماء العرب التنجيم ودعوا إلى بطلانه وتسخيف المعتقدين فيه ، ومنهم الكندى في رسالته " العلة القريبة الفاعلة للكون والفساد " ، وكذلك الفارابى فى رسالته " النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام النجوم " ، وكذلك ابن سينا فى رسالته " رسالة فى أبطال أحكام النجوم " ; وكذلك ابن حزم الأندلسى الذى دعى إلى الأخذ بالعقل ومحاربة الخرافات ومحاربة الآراء والأقوال فى أثر النجوم فى حياة الناس . ورغم هذا الرفض لموضوع التنجيم ، إلا أن العلماء المسلمين لم يمنعهم هذا من الاشتغال بالفلك ولكن من الناحية العلمية .

٣٩ – يذكر خوليو ساسو : أن التنبؤات التنجيمية الموجودة فى هذه الأرجوزة تستند إلى نظام الصلب اللاتينى المتأخر (طريقة أحكام الصلوب) . خيوليو ساسو : العلوم الدقيقة فى الأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، جـ٢ ، تحرير سلمى الجيوشى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٣٢١ .

٤٠ – المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢٠٨ .

٤١ – انفرد ابن عساكر وابن خميس : بالترجمة لهذا العالم المالقى ، حيث ذكراً إنه من أهل منطقة سهيل الواقعة غرب مالقة ، وإنه كان إمام مسجد أبى زيد . عنه انظر : ابن عساكر وابن خميس : إعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ص ٣٥١ ، ترجمة رقم (١٦٣).

٤٢ – لم أعثر على ترجمة له فى كتب الطبقات الأندلسية أو حتى كتب التاريخ باستثناء ابن عساكر وابن خميس فى أعلام مالقة ، ص ٣٥١ .

٤٣ – ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ٣٥١ .

٤٤ – هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس ، أصله من تاكرنا (كوره رنده) جنوب الأندلس ، ينتمى إلى أسرة بربرية وقد نشأ فى قرطبة فى أواخر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ودرس بها ، وبرع منذ نعومة أظفاره فى الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك إلى جانب الشعر والأدب والموسيقى . وظهرت عبقريته منذ عهد الأمير الحكم الربضى ، وعاصر بعده ولده الأمير عبد الرحمن بن الحكم ثم حفيده الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقد حظى بمكانة هامة لدى هؤلاء الأمراء ، وقد مدحهم بأشعاره وأدهشهم بمخترعاته . وتوفى فى أعقاب وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٧٤هـ / ٨٨٧م. عنه انظر : بن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٤ ، ص ٤٩٢ ; ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل

الأندلس ، تحقيق محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٣م ، ص ٥١١ ، هامش (٢٧٩) الحميدي : جزوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ٣١٨ ، ترجمة (٧٣١) ، الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ٤٣١ ؛ المغربي : ترجمة (١٢٤٧) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، جـ١ ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٨م ، حتى ٣٣٣ ، ترجمة (٢٣٩) ، ابن سماك العاملي : الزهرات ، ص ١٣٢ ، الزهرة (٨٦) ، محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٦٦ - ٢٧٠؛ أندلسيات ، كتاب العربي رقم (٢٠) ، الكويت ، ١٩٨٨م ، ص ٢٤ ؛ الزركلي : الإعلام ، جـ٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٩ ، ١٩٨٦م ، ص ٢٦٤ .

٤٥ - ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٣٣ .

٤٦ - ذات الحلق : هي عبارة عن عدة حلقات متداخلة ، في وسطها كرة معلقة تمثل حركة الكواكب السماوية ، وهي التي تسمى في اللغة الحديثة sphere Armillaire . عنان : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ، هامش (١) .

٤٧ - يذكر الأستاذ عنان أن عباس بن فرناس كتب أبيات شعرية أرفقها بهذه الآله - ذات الحلق - إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط موضحًا فيها وظيفتها بقوله :

قد تم ما حملتني من آلة ... أعيا الفلاسفة الجهابذة دوني
لو كان بطليموس ألهم صنعه ... لم يلشقل بجداول القانون
فإذا رأته الشمس في آفاقها ... بعثت إليه بورها الموزون
ومنازل القمر التي حجبت معًا ... دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيها بالنهار كما بدت ... بالليل في ظلماتهن الجون

عنان : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

٤٨ - ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٣٣٣ ، ترجمة (٢٣٩) ، يذكر جوان فيرنيه أن المنقانة Manqana تعتبر أول ساعة مائية صنعت في الأندلس ، وأنها أصبحت النموذج الأصلي للساعات المائية التي صنعت بعد ذلك في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكان بإمكانها تحديد أوقات الصلاة بصورة تقريبية : جون فيرنيه : العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية في الأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، جـ٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٣٠٠ ، الزر كلي : الأعلام ، جـ٣ ، ص ٢٦٤ .

٤٩ - عنان : نفسه ، ص ٢٦٧ .

٥٠ - جوان فيرنيه : المرجع السابق ، ص ١٣٠٠ .

٥١ - عنه انظر الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٤م ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ترجمة (٢٠٦) ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ،

جـ٢ ، ص ٥٠٤ ، ترجمة (٨٧٩) ، ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٣٢٤ ، ترجمة (٢٣٢) ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص٤٨ ، المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٢٦١ ؛ محمد فهمي : تاريخ مدينة الجزيرة الخضراء ، ص ٧٠ - ٧١ ، هامش (٤) .

٥٢ - ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٤٥ .

٥٣ - عنه انظر ابن الأبار : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١١٦ - ١١٨ ؛ ابن سعيد : المصدر السابق ، جـ١، ص ١٢٤ - ١٢٧ ، ترجمة رقم (٥٩) .

٥٤ - ابن سعيد : نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

٥٥ - ابن سعيد : نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

٥٦ - ابن سعيد : نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

٥٧ - لمزيد من التفاصيل عنها انظر ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٢م ، ص ١١٥ - ١٢٤ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ، ط١ ، ١٩٨٣م ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ؛ ابن حيان: المقتبس ، القطعة الخاصة بعصر الأمير عبد الله بن محمد ، تحقيق إسماعيل العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص ١٦-٤٦ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ١٢١ - ١٢٧ ؛ ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٤ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٨م، ص ٢٨٨ - ٢٩٢ .

٥٨ - عنه انظر ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٦٥ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٤٤ .

٥٩ - ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

٦٠ - عنه انظر ابن البناء المراكشي : المقالات في علم الحساب ، تحقيق أحمد سليم سعيدان ، دار الفرقان، الأردن ، ١٩٨٢م ، ص ١٥ ، المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ١٦٨ .

٦١ - عنه انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، جـ٢ ، ص ١٢٨ - ١٣٠ ، ترجمة (١٤٢٣) .

٦٢ - ابن البناء المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥ - ١٦ .

٦٣ - عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٩هـ / ٩٧٩م) مؤرخ وطبيب وفلكي أندلسي ، من أصل إسباني نصراني أسلم أباؤه واستعربوا وعرفوا ببني التركي ، استعمله الناصر على كورة أشونه سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م واستخدمه الحكم المستنصر أيضاً ، وارتفعت مكانته لدى المنصور بن أبي عامر ، وله مصنفات عدة منها تاريخه الذي اختصره من تاريخ الطبرى وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس ، وله كتاب في الطب بعنوان " كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالي والمولدين " . بالإضافة إلى تقويمه الشهير " تقويم قرطبة سنة ٣٤٩هـ / ٩٦١م" . عنه انظر ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، القسم الأول ، ص ١٤١ - ١٤٣ ، ترجمة رقم (٢٩١) ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٠٦ ، الزركلي : الأعلام ، جـ٤ ، ص ٢٢٧ .

٦٤ – نشر دوزى R.Dozy هذا التقويم تحت عنوان :
La Calendrier de Codoue de L'annee 961, Leyde, 1873 .

٦٥ – لمزيد من التفاصيل انظر ابن عبد الملك : المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ١٤١ – ١٤٢ ، ترجمة رقم (٢٩١) ، عبادة كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٣٤ ، بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، ٤٨٧ – ٤٨٨ ، هامش (٤١) .
R.Dozy : op.cit., p. 2-99 .

٦٦ –عبادة كحيلة : المرجع السابق ، ص ١١٥ – ١٣٧ .

٦٧ – ربيع بن زيد : يعرف عنه نصارى الأندلس باسم ريثموندو Recemundo ، وكان سفيراً من قبل الخليفة الناصر إلى ملوك أوروبا ، فقام بعدد من السفارات وتخلي عن منصبه كأسقف لليبرة . عنه انظر المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ١٣٨ ؛ عبادة كحيلة : نفسه ، ص ١٣٣ .

٦٨ – عنها انظر البكرى : جغرافية الأندلس وأوروبا ، تحقيق عبد الرحمن حجى ، دار الإرشاد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨م، ص ٦٤ ، ٨٤ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٩٩ ؛ الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٨ – ٢٩.

٦٩ – المقرى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٣٨ .

٧٠ – بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨ ، هامش (٤) ، عبادة كحيلة : نفسه ، ص ١٣٣ – ١٣٤ ؛ الزركلي : الأعلام ، جـ٤ ، ص ٢٢٧ .

٧١ – وائل أبو صالح : جهود الحكم المستنصر فى تطور الحركة العلمية فى الأندلس ، مقال بمجلة دراسات أندلسية ، العدد السادس ، تونس ، ١٩٩١م ، ص ٢٩ .

٧٢ – يذكر تليد الخصى – متولي خزانة الكتب للحكم المستنصر – أن عدد الفهارس لهذه المكتبة بلغ أربع وأربعون فهرساً ، في كل فهرس عشرون ورقة ، وقد بلغ عدد هذه الكتب ما يزيد على ٤٠٠,٠٠٠ ألف مجلد ، قل أن يوجد مجلد يخلو من قراءة أو تعليق أو تعقيب له علي مأبته . المراكشي : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العلمى ، دار الكتاب ، المغرب ، ط٧ ، ١٣٧٨هـ ، ص ٤٣ ، هامش (٢) ؛ عبادة كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٢١ . وقد ذكر القفطى أنه وقع فى يديه أحد الكتب التى علق عليها الحكم المستنصر بخط يديه . القفطى : أخبار العلماء ، ص ٣٩٥ .

٧٢ – لمزيد من التفاصيل انظر وائل أبو صالح : المرجع السابق ، ص ٣٢ – ٣٧ ، وقد وصف ابن صاعد ما جمعه الحكم المستنصر من مؤلفات بأنه يضاهي ما جمعه العباسيون في الأزمان الطويلة . ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٧٤ – عنه انظر فؤاد سزكين : تاريخ التراث العلمي ، جـ٧ ، ص ٥١٥ .

٧٥ – ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، قسم ٤ ، جـ١ ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ص ٥٩ . ولابن فارس نبوءة لعبد الملك بن المنصور بن أبي عامر عند مولده ، عنها انظر ما تقدم .

٧٦ – ابن البناء المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

٧٧ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٨ .

٧٨ – ابن البناء المراكشي : نفسه ، ص ١٨ .

٧٩ – مجريط Madrid : مدينة أندلسية بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وهي على مقربة من طليطلة ، وكان بها قلعة كبيرة وبها مسجد جامع . عنها انظر الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٢٣ .

٨٠ – ولد في مجريط وعاش في قرطبة وبها مات سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م ، وتعلم على يد معلم يدعى عبد الغافر بن محمد ونبغ في الهندسة . ويعتقد أنه زار المشرق بعد سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ، وهناك درس زيج الخوارزمي ورسائل إخوان الصفا ، ثم عاد إلى الأندلس وساهم في إثراء علم الفلك في الأندلس بشكل كبير . عنه انظر ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ – ٧٠ ؛ القفطي : أخبار العلماء ، ص ٣٢٦ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار النهضة العربية، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٤٤ ؛ ابن البناء المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٨ – ٢٠ ؛ انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ ؛ أمين توفيق الطيبي : العلوم العربية في الأندلس وأثرها في الحضارة الأوروبية ، مقال نشر في كتاب دراسات في التاريخ الإسلامي ، الدار الأندلسية ، طرابلس ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ص ٣٢٧ .

٨١ – ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

٨٢ – إقليدس : عالم رياضة يوناني نشأ في الإسكندرية ، وأنشأ مدرسة مشهورة بها ، وقام بتنظيم علم الرياضة في عصره وضمنه مؤلفه " الأصول " ، وترجم هذا الكتاب إلى العربية في القرن الثامن الميلادى / الثاني الهجرى ، ثم نقل من العربية إلى اللغات الأوروبية في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . القفطي : المصدر السابق ، ص ٦٢ – ٦٤ ؛ ابن المطران : بستان الأطباء وروضة الألباء ، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ٢٨٤ .

٨٣ – بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

٨٤ – يذكر بن حزم في رسالته في فضل أهل الأندلس أن علم الهندسة والعدد لم يحقق فيه الأندلسيون شهرة واسعة إلا بوجود مسلمة المجريطي ، وذلك بقوله " ... وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصد في المؤلفين فيه من أهل بلدنا . إلا أنني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول إنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة ". المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ١٧٦ .

٨٥ – زين العابدين متولي : الفلك عند العرب والمسلمين ، جـ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٦٠ ، وهناك ارتباط شديد بين الدراسات الرياضية والفلكية ، ولذلك نجد أن عدد كبير من العلماء جمعوا إلى جانب مهارتهم في الرياضيات براعة في الفلك ، وهذا راجع إلى حاجة الفلكي إلى الحساب والهندسة لمعرفة مواضع الكواكب ، فالزيج – الذى عن طريقه نتعرف على حركة كل كوكب وموضعه في فلكه – عبارة عن عملية حسابية قائمة على قوانين عددية على حسب وصف ابن خلدون ، وبالتالي فهناك ارتباط وثيق بين الحساب والفلك . ابن خلدون : المقدمة ، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٦م ، ص ٣٠٦ ؛ سعد عبد الله صالح البشرى : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، منشورات معهد البحوث العلمية ، السعودية ، ١٩٩٧م ، ص ٣٥٨ .

٨٦ – الإسطرلاب : كلمة الإسطرلاب كلمة يونانية الأصل هي " الإسطرلايون " وأطلقت على عدة آلات فلكية تنحصر في ثلاثة أنواع رئيسية بحسب ما إذا كانت تمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو أو مسقط هذا المسقط على خط مستقيم . وللاسطرلاب أنواع كثيرة منها التام والمسطح ، والطوماري ، والهلالي ، والزورقي والعقربي وغيرها من الأنواع . لمزيد من التفاصيل انظر نللينو Nallino : مادة إسطرلاب ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٢ ، انتشارات جهان ، د ت ، ص ١١٤ – ١١٨ ؛ زين العابدين متولي : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٨٠ – ٨٧ ؛ أ. فايجرت ، هـ . تسمرمان : الموسوعة الفلكية ، ترجمة : عبد القوى عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، ص ٤١ .

٨٧ – نشر العالمان الإسبانيان ج . فرنت ، وم أ. كاتالا J. Vernet & M.A. Catala هذه الرسالة في مجلة الأندلس ، العدد (٣٠) سنة ١٩٦٥م ؛ ابن البناء : المقالات ، ص ١٩ – ٢٠ .

٨٨ – عنه انظر ابن البناء : المصدر السابق ، ص ٥٧ – ٦٧ .

٨٩ – هذا الكتاب نقل إلى العربية عن طريق ترجمته من اللاتينية والعبرية ، لأن الأصل العربي فقد . ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ .

٩٠ – ابن البناء : نفسه ، ص ١٨ . وعن مينالاوس انظر : القفطي : أخبار العلماء ، ص ٣٢١ .

٩١ – ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ .

٩٢ – ابن البناء : نفسه ، ص ١٩ .

٩٣ – البتاني : هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني (٢٤٠ – ٣١٧هـ / ٨٥٤ – ٩٢٩م) أحد أعلام الفلك عند العرب وأعظم علماء عصره ، من نواحي حران على مقربة من نهر الفرات بالعراق ، ونشأ في مناخ علمي واشتهر بزيجه المعروف ، بالزيج الصباني " الذى يعتبر أحد الجداول العربية القليلة التي انتشرت في أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادى / السادس الهجرى بعد ترجمته إلى اللاتينية . وترجع أهمية هذه الجداول إلى أن حساباتها تمت بعد أرصاد دقيقة واسعة المدى . وله عدة مؤلفات فلكية هامة منها كتاب " معرفة مطالع البروج " . ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات ، وشرح أربع مقالات لبطلميوس ، بالإضافة إلى زيجه المشهور . عنه انظر القفطي : أخبار العلماء ، ص ٩٧ –

٩٨ ، ١٥٣ ، ٢٨٠ ؛ إمام إبراهيم أحمد : تاريخ الفلك ، ص ٣٩ – ٤٠ ، زين العابدين متولى : الفلك عند العرب ، جـ١ ، ص ١١٦ – ١١٩ .

٩٤ – ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٤ .

٩٥ – أبدع الخوارزمي (ت ٢٣٦هـ / ٨٥٠م) في علم الفلك ، وله أبحاث ومصنفات مبتكرة فيه وفي علم المثلثات وقد صنع زيجا – أ جداول فلكية – سماه " السند هند الصغير" جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند في تعديل الميل ، فجعل تعديله على مذهب الفرس ، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطلميوس . ولهذا الزيج أهمية كبيرة حيث كان له أكبر الأثر في الأزياج الأخرى التي صنعها علماء العرب ، إذ استعانوا به واعتمدوا عليه ، وهو ما يزال صالحاً للاستخدام حتى يومنا هذا . وللخوارزمي مؤلفات فلكية هامة منها كتاب " زيج الخوارزمي " ، وكتاب " تقويم البلدان " ، وكتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . والخوارزمي من أعظم العلماء الذين تركوا مآثر جليلة في العلوم الرياضية والفلكية . عنه انظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ٧ ، ص ١٨٤ ؛ زين العابدين متولى : الفلك ، ص ٥٤ – ٥٥ ؛ إمام إبراهيم أحمد : تاريخ علم الفلك ، ص ٣٥ – ٣٦ .

٩٦ – ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ ؛ ابن البناء : المقالات ، ص ١٨ ؛ زين العابدين متولى : المرجع السابق، ص ٦٠ .

٩٧ – ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٩ ؛ ابن البناء : المصدر السابق ، ص ٢١ ؛ بالنثيا : تاريخ الفكر، ص ٤٤٨ .

٩٨ – عنها انظر ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٩ ؛ ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ – ٢١ .

٩٩ – يذكر د. عبد المجيد نعنعي : إنه مع نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كانت مدرسة مسلمة المجريطي الفلكية قد تحولت إلى خلية نحل ناشطة في مجال تطور الدراسات الرياضية والفلكية، ولكن جاء سقوط الخلافة في قرطبة سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م ليضع حداً لهذا النشاط العلمي ، ولذلك كان على تلاميذ المجريطي أن يتفرقوا في أنحاء الأندلس بحثاً عن الأمان من أجل استكمال أبحاثهم . وقد استعادت الدراسات الرياضية والفلكية – منذ بداية عصر الطوائف – نشاطها في سرقسطة بسبب رعاية أصحابها من بنو هود لهؤلاء العلماء . ولكن سرعان ما تقدم أصحاب طليطلة من بنو ذي النون ، وأخذوا منهم المبادرة في مجال الرياضيات والفلك ، فجعلوا مدينتهم – طليطلة – القاعدة الأولى للأبحاث والمعارف ليس في الأندلس فحسب ، بل في أنحاء أوروبا في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . عبد المجيد نعنعي : الإسلام في طليطلة ، دار النهضة العربية ، لبنان ، د.ت.، ص ٢٦٠ .

١٠٠ – سرقسطة Zaragoza مدينة كبيرة في شمال شرقي الأندلس واسعة الشوارع ، حسنة الديار والمساكن ، متصلة الجنات والبساتين ، لها سور حصين بني من الحجارة ، وهي على ضفة النهر الكبير المسمى إبرة ، وهي قاعدة الثغر الأعلى . عنها انظر : العذري : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، معهد الدراسات

الإسلامية، مدريد ، ١٩٦٥م ، ص ٢١ - ٢٥ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٣١٧ .

١٠١ - كان الكرمانى أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، ولم يكن أحد يجاريه فى علم الهندسة والفلك، رحل إلى المشرق فزار أماكن عدة حتى انتهى به المطاف إلى حران ، ومنها عاد إلى الأندلس ، فاستقر فى سرقسطة . وأدخل إلى الأندلس معه من المشرق رسائل إخوان الصفا ، وهو أول من أدخلها إلى الأندلس ، ولم تكن له همة كبيرة بتعليم علم التجوم بشكل عملى ، بل إنه كان يدرسه بشكل نظرى ، الأمر الذى أثار استغراب ابن صاعد الذى اطلع على هذه المعلومة من حسداى بن يوسف الإسرائيلى الذى التقى مع الكرمانى وذاكره فى علم النجوم . وتوفى الكرمانى سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م وقد بلغ تسعون عاماً . ابن صاعد : طبقات ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ القفطى : أخبار العلماء ، ص ٣٤٣ ؛ ابن البناء : المقالات ، ص ٢١ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٦ .

١٠٢ - عنها انظر الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

١٠٣ - ابن البناء : المصدر السابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

١٠٤ - عنها انظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٦٣ ؛ الحميرى : نفسه ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

١٠٥ - عنه انظر : ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

١٠٦ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ ؛ زين العابدين متولى : الفلك ، جـ٢ ، ص ٢٨ ؛ جمال خير الله : الآلات الفلكية فى المغرب والأندلس فى العصر الإسلامى ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة الأندلسية ، آداب القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص ٢٠٠ - ٢٠٦ .

١٠٧ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ .

١٠٨ - انفرد ابن صاعد بذكر هؤلاء التلاميذ لابن الصفار عن غيره من أصحاب المصنفات العلمية الأندلسية . ابن صاعد : طبقات ، ص ٧١ ، ويذكر بالنثيا أنهم جميعاً من قرطبة . انخل بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٥ .

١٠٩ - ابن البرغوث : هو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن البرغوث (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢م) كان مهتمًا بمختلف أنواع العلوم وخاصة النحو والقرآن ، والفقه والوثائق ، بالإضافة إلى اهتمام كبير بالعلوم الرياضية وخاصة ما يتعلق بعلم الأفلاك وهيئاتها وحركات الكواكب ورصدها . وله عدد من التلاميذ - ذكرهم ابن صاعد - وهم ابن الليث ، وابن الجلاب ، وابن حى . ابن صاعد : المصدر السابق، ص ٧١ ، ٧٣ .

١١٠ - الواسطى : هو أبو الأصبغ عيسى بن أحمد الوسطى القرطبى ، الذى قام بتدريس علم الفلك فى قرطبة ، وله اهتمام بهيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وكان حيًا ومعاصراً لابن صاعد فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ .

١١١ – ابن شهر : أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن مختار بن شهر الرعيني (ت ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) ، كان مشهوراً باللغة والنحو والحديث والفقه إلى جانب إلمامه الشديد بالهندسة في النجوم ، ونظراً لمكانته وعلمه عينه زهير العامري قاضياً في دولته سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م ، ثم رحل إلى قرطبة ، وتولى منصب القضاء بها حتى مات سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م . ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ .ونستدل من توليه القضاء في قرطبة على أن النبوغ في علم الفلك لم يكن ليمنع صاحبه من تولي المناصب الدينية في الأندلس .

١١٢ – بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٥ . ولم ترد له ترجمة في كتاب التراجم ، ولم يذكره ابن صاعد في سائر تراجمه لتلاميذ ابن الصفار . ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ .

١١٣ – بالنثيا : نفسه ، ص ٤٥ . ولم يذكر ابن صاعد أيضاً ، ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ .

١١٤ – ابن العطار : محمد بن خيره العطار مولى الكاتب محمد بن أبي هريرة ، عاش في طليطلة تحت رعاية أميرها الظافر إسماعيل بن ذي النون . يذكر ابن صاعد أنه من صغار تلاميذ ابن الصفار . وكان مشهوراً في علم العدد والهندسة والفرائض بالإضافة إلى اهتمام بعلم النجوم . ابن صاعد : نفسه، ص ٧٢ .

١١٥ – عنه انظر ابن عذاري : البيان ، جـ٣ ، ص ٢٦٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، جـ١ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٣م ، ص ٤٣٢ ، ٤٧٧ ، أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، ص ٢٢٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٣٤٦ ؛ مريم قاسم طويل : مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م ، ص ١٠٥ – ١١٧ .

١١٦ – يذكر بن صاعد له العديد من المصنفات في الهندسة ومنها كتاب " المدخل إلى الهندسة " في تفسير كتاب إقليدس ، وكتاب " ثمار العدد " المعروف " بالمعاملات " ، وكتاب " طبيعة العدد " ، بالإضافة إلى كتاب الكبير في الهندسة . ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٩ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ ؛ بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٤٩ ؛ أمين توفيق الطيبي : لمحة تاريخية عن نشاط علماء العرب في مجال العلوم الرياضية والفلكية في الأندلس وصقلية (١٠٠٠ – ١٢٥٠م) ، مقال نشر في كتاب دراسات في التاريخ الإسلامي ، الدار الأندلسية ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

١١٧ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٩ – ٧٠ ؛ ابن البناء : المقالات ، ص٢١ ؛ ابن الخطيب : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٤٢٨ ، ويذكر بالنثيا أنه توفي سنة ٤٢٥هـ / ١٠٢٤م . بالنثيا : المصدر السابق ، ص ٤٤٩ ، في حين يذكر ابن صاعد أنه توفي سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م . ويأخذ الباحث بتاريخ ابن صاعد ، لأنه الأقرب إلى حياة المؤلف وإنه كان معاصراً له .

١١٨ – كان مشهوراً بعلم الهندسة والعدد ، ومهتماً بصناعة الطب في أحكام النجوم . عنه انظر ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ .

١١٩ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ .

١٢٠ – ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٥ .

١٢١ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ ، ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

١٢٢ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ ؛ القفطي : أخبار العلماء ، ص ٢٤٣ ؛ ابن أبي أصيبعة : نفسه ، ص ٤٤٦ .

١٢٣ – هو أبو أيوب سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، أمه أم ولد رومية ، اسمها ظبية ، لقب بالمستعين بالله ، ولد سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م وكان تام القامة ، أشم الأنف ، جميل الوجه ، حسن الأدب والشعر . عنه انظر : الحميدى : الجذوة ، قسم ١ ، ص ٤٩ – ٥٠ ؛ الضبي : البغية ، ص ٢٤ – ٢٦ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٦٥ ، مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٢٠٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٣ ، ص ٩١ . ويذكر ابن حزم معلومة طريفة عنه ، وهي أنه الوحيد من ولد الناصر الذى كان أسود اللون ، فكلهم فيما عداه يتميزون بالشقرة . ابن حزم : طوق الحمامة في الإلفة والآلاف ، تحقيق الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٣م ، ص ٤٨ ؛ محمد فهمي : تاريخ الجزيرة الخضراء ، ص ١١٦ ، هامش (٣) .

١٢٤ – عنه انظر ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ص ١١٨ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، ص ١٧٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٣٤٨ ، جـ٦ ، ص ٢٨٢ ؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٣٥٢ – ٣٥٤ ؛ عبد المجيد نعنعي : الإسلام في طليطلة ، ص ٢٧١ – ٣٠٥ .

١٢٥ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٨٦ ؛ عبد المجيد نعنعي : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

١٢٦ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ .

١٢٧ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ – ٧٣ ؛ زين العابدين متولي : الفلك ، جـ٢ ، ص ٢٨ – ٢٩ .

١٢٨ – شريون : حصن من حصون بلنسية ، ولم تحدد لنا المصادر الجغرافية موقعه بالتحديد ، ولم يرد ذكره سوى عند ياقوت في معجمه : عنه انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٣ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت، ص ٢٨٦ ؛ كمال أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية ، ص ٦٥ ، هامش (٢) .

١٢٩ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٣ .

١٣٠ – عنه انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، ط١ ، ١٩٤٨م ، ص ٢٩٣ ، طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، ص٩٥ ، هامش (٣) ؛ الحميدى : جذوة الاقتباس ، قسم ١ ، ص ١٣١ ، ترجمة (١٢١) الضبي : بغية الملتمس ، ص ١١٥ ، ترجمة (٢٤٢) ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، ص ٥٩ .
Beladiez (Emilio) : Al-manzor, Un Cesar Andalus, Madrid, 1959, P. 31-35 .

١٣١ – المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ ؛ بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٥٠.

١٣٢ – ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ أحمد الطاهرى : عامة قرطبة في عصر الخلافة ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ٢٠٧ .

١٣٣ – أحمد الطاهرى : المرجع السابق ، ص ١٩٨ – ٢١٢ .

١٣٤ – ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٩٢ .

١٣٥ – المقرى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٨ .

١٣٦ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٥١ .

١٣٧ – ابن أبي أصيبعة : نفسه ، ص ٤٥١ .

١٣٨ – ابن أبي أصيبعة : نفسه ، ص ٤٥١ .

١٣٩ – المقرى : نفسه ، جـ١ ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

١٤٠ – عنه انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٩٣ ؛ مجهول : ذكر الأندلس ، ص ١٩٥ ؛ النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٤٠٦ – ٤٠٧ ؛ ابن عذارى : نفسه ، جـ٣ ، ص ٣ .

١٤١ – ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٢١٢ – ٢١٣ .

١٤٢ – عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ، المعروف باسم شنجول SANCHUELO (أى سانشو العظيم) وذلك نسبة إلى أمه إبنة شانجة بن غريسة sancho Garces Ii Abarcax (٩٧٠ – ٩٩٥م / ٣٦٠ – ٣٨٥هـ) التي تزوجها المنصور بن أبي عامر وأسلمت وسمت نفسها عبده ، فأطلقت عليه لقب شنجول تدليلاً وتذكراً منا لأبيها ، ولأنه كان أشبه الناس بجده . عنه انظر ابن سعيد : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٢١٣ ؛ مجهول : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، جـ٤ ، ص ٣٢١ – ٣٢٣ .

١٤٣ – هو الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، لقب بالمهدى ، ويكنى بأبو الوليد، وكان عمره ثلاث وثلاثون سنة عندما بويع بالخلافة . عنه انظر ابن حزم : نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، تحقيق شوقي ضيف ، مثال نشر في مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، مج ١٣ ، جـ٢ ، ١٩٥١م ، ص ٤٨ ؛ طوق الحمامة ، ص ٤٩ ، هامش (٥) ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٦٤ – ٦٥ ؛ ابن عذارى : نفسه ، جـ٣ ، ص ٥١ .

١٤٤ – عن الفتنة في قرطبة ، انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، مج٨ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م ، ص ٦٨٠ – ٦٨١ ؛ ابن عذارى : نفسه ، جـ٣ ، ص ١١٣ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، مج٤ ، ص ٣٢٥؛ إبراهيم سلامة : الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الإسكندرية ، ١٩٩٣م ، ص ١٢ – ١٢٩ .

١٤٥ – ابن البناء : المقالات ، ص ١٩ . ويذكر د. الطيبى أن الإنجليزى أديلارد الباثى (نسبة إلى مدينة باث الإنجليزية) هو الذى قام بالترجمة من العربية إلى اللاتينية سنة ١١٢٦م / ٥٢٠هـ ، وأن هذه الترجمة كانت بالغة الأهمية بالنسبة لتطور علم الفلك في غرب أوروبا . أمين توفيق الطيبى : لمحة تاريخية، ص ١٩٩.

١٤٦ – ابن البناء : المصدر السابق ، ص ١٩ . ويذكر د. أحمد سليم سعيدان أن اعتماد المجريطي على زيج الخوارزمي – الذي ظهر بما يزيد على قرن ونصف قبل ميلاد المجريطي – في حين ظهرت أزياج عربية أكثر تطوراً من زيج الخوارزمي ، كان نتيجة جهل من المجريطي!، ويدلل على ذلك أن علماء المغرب قاموا بترجمة كتاب ديوسكريدس إلى العربية مع أنه ترجم في المشرق قبل ذلك بمائة عام . ابن البناء : نفسه، ص ١٩ (المقدمة) .

١٤٧ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ ؛ زين العابدين متولي : الفلك ، ص ٦٠ – ٦١ .

١٤٨ – يذكر د. سعد عبد الله البشري أنه لطول ارتباط المجريطي بالدراسات الفلكية ولكثرة اطلاعه على العديد من أسرار هذا العلم ، دفعه ذلك إلى تأليف كتابه " غاية الحكيم " وقد احتوى هذا الكتاب على شتى أنواع الخرافات والشعوذات التي كانت شائعة في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، بالإضافة إلى الكثير من المعلومات الفلكية . وقد اطلع د. البشري على هذه المخطوطة المحفوظة في المكتبة الملكية بالرباط . وتوصل إلى أن المجريطي شرع في تأليف هذا الكتاب سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ، وانتهى بالرباط ، انظر سعد عبد الله البشري : الحياة العلمية ، ص ٣٦٣ .

149 - Cronica de Alfonso X (el sabio) : Historia de espana, selecciones, Introduccion, R.Ayerbechaux y T.Porrue, Madrid, 1982, p. 11-19 .

١٥٠ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ ؛ سعد عبد الله البشري : المرجع السابق ، ص ٣٦٣ ، هامش (٣) ، إمام إبراهيم أحمد : تاريخ الفلك ، ص ٥٠ .

١٥١ – ابن البناء : نفسه ، ص ١ .

١٥٢ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢١ . وعن هذه الترجمة انظر مياس بياكروزا : كتاب العمل بالإسطرلاب وذكر آلاته وأجزائه لابن الصفار ، مقال منشور بمجلة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، مج١ ، ١٩٥٥م ، ص ٤٧ – ٧٦ .

١٥٣ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢٢ .

١٥٤ – بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨ ، هامش (٤) ؛ عبادة كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٣٤ ، نشر دوزي تحت عنوان :

Dozy (R) : Le calendrier de Cordoue de L'Annee 961. leyde, 1873 .

١٥٥ – ترجم هذا الكتاب بعد ذلك إلى الفرنسية سنة ١٩٦١م على يد شارل بلا . انظر ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، القسم الأول ، ص ١٤٢ ، هامش (٣) .

قائمة المراجع

أولاً : المصادر العربية

١ – القرآن الكريم :

٢ – ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن بكر القضاعى البلنسى (ت٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) : الحلة السيراء ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥م.

– الحلة السيراء ، جـ٢ ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥م.

٣ – ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكريم محمد بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م.

٤ – ابن الأكفانى : محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى المعروف بابن الأكفانى (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) : إرشاد المقصاد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم ، تحقيق : عبد المنعم محمد عمر ، القاهرة ، د.ت .

٥ – ابن بسام : أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (ت٥٤٢هـ / ١١٤٨م) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م .

٦ – البكرى : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى (ت٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : جغرافية الأندلس وأوروبا ، تحقيق عبد الرحمن حجى ، دار الإرشاد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨م .

٧ – ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩م) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م.

٨ – ابن البناء المراكشى : المقالات فى علم الحساب ، تحقيق أحمد سليم سعيدان ، دار الفرقان ، الأردن ، ١٩٨٢م.

٩ – الجاحظ : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : كتاب الحيوان ، جـ٦ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سلسلة الذخائر رقم (٧٩) ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م .

١٠ – ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن حزم القرطبى الأندلسى الظاهرى (ت٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٨م.

– طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، تحقيق الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥، ١٩٩٣م.

– نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، تحقيق شوقى ضيف ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، مج١٣ ، جـ٢ ، ١٩٥١م.

١١ – الحميدى : أبى عبد الله محمد بن أبى نصر (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، المكتبة الأندلسية رقم (٣) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦م.

١٢ – الحيمرى : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميدى السبتى (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠م.

١٣ – ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان القرطبى (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) :

– المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، قطعة خاصة بعصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد ، تحقيق محمود على مكى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ط١، ١٩٧٣م.

– المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، قطعة خاصة بعصر الأمير عبد الله بن محمد ، تحقيق : إسماعيل العربى ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠م.

١٤ – ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) :

– الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١، ١٩٧٤م.

– أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثاني ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٥٦م.

١٥ – ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) :

– المقدمة ، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٦م.

– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٨م.

١٦ – ابن خياط : خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، دار طيبة ، الرياض ، ط ٢ ، ١٩٨٥م.

١٧ – ابن رستة : أبو على أحمد بن عمر بن رستة (ت فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) الأعلاق النفسية ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ط١، ١٩٨٨م.

١٨ – الزبيدى : أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى النحوى الإشبيلى (ت ٣٧٩هـ / ٩٨٩م) : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٤م .

١٩ – ابن الساعى : على بن أنجب الشهير بابن الساعى (٥٩٣ – ٦٧٤ هـ / ١١٩٦ – ١٢٧٥م) : تاريخ الخلفاء العباسيين ، تحقيق عبد الرحيم يوسف الجمل ، مكتبة الأداب ، القاهرة ، ط. ١٩٩٣م .

٢٠ – ابن سعيد : أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربى (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، ١٩٧٨م.

٢١ - ابن سماك العاملي : أبي القاسم محمد بن أبي العلاء محمد بن سماك العاملي (ت النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) : الزهرات المنشورة في نكت الأخبار المأثورة ، تحقيق محمود على مكي ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ط١ ، ١٩٨٤م .

٢٢ - ابن الصفار : أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر الغافقي (٣٧٠ - ٤٢٦هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٤م) : كتاب العمل بالإسطرلاب وذكر آلاته وأجزائه ، تحقيق مياس بياكروزا ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، مج٣ ، العدد (١) ، ١٩٥٥م.

٢٣ - ابن صاعد : أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) : طبقات الأمم ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط١، ١٩١٢م.

٢٤ - الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة القرطبي (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٧م.

٢٥ . ابن طباطبا : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.

٢٦ - ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (ت ٣٢٨هـ / ٩٣٩م) : العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين ، وإبراهيم الإبياري ، وأحمد الزين ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٢٧ - ابن عبد الملك : أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت٧٠٣هـ / ١٣٠٤م) : الذيل والتكملة ، القسم الأول ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٥م.

٢٨ - ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري (ت بعد ٧١٢هـ/١٣١٢هـ) :- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٢ ، تحقيق ج.س.كولان ، وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

٢٩ - العذرى : أحمد بن عمر بن أنس العذرى المعروف بالدلائى (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٥م.

٣٠ - عريب بن سعد : أبو الحسن عريب بن سعد (ت ٣٦٦هـ / ٩٦٧م) : تقويم قرطبة ، نشره دوزى R.Dozy تحت عنوان :
Le Calendrier de Cordoue de l'annee 961, leyde, 1873 .

٣١ - ابن عساكر وابن خميس : أبو عبد الله بن على بن عبيد الله بن الخضر الغسانى ، المعروف بابن عساكر (ت ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) وأبو بكر محمد بن على بن خميس (ت بعد ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) : أعلام مالقة ، تحقيق عبد الله المرابط ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط١، ١٩٩٩م.

٣٢ - ابن العمرانى : محمد بن على بن محمد المعروف بابن العمرانى (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) : الإنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، دار العلوم، ط١ ، ١٩٨٢م.

٣٣ - ابن الفرضي : أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى الحافظ (ت ٤٠٣هـ / ١٠٦٢م) : تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣٤ - ابن قتيبة : أبي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م) : فضل العرب والتنبيه على علومها ، تحقيق وليد محمود خالص ، منشورات المجمع الثقافى ، أبو ظبى ، ط١ ، ١٩٩٨م.

٣٥ - القضاعى : القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر الشافعى القضاعى (ت ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) : عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف ، المعروف بتاريخ القضاعى ، تحقيق جميل عبد الله محمد المصرى ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١ ، ١٩٩٥م.

٣٦ – القفطي : جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت .

٣٧ – ابن القوطية : أبي بكر محمد بن عمر بن القوطية (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٢م.

٣٨ – مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ١٩٨٣م.

٣٩ – مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، تحقيق محمد زينهم ، دار الفرجاني ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٤م.

٤٠ – المراكشي : عبد الواحد المراكشي (ت القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دار الكتاب ، المغرب ، ط٧ ، ١٩٧٨م.

٤١ – المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٥هـ / ٩٥٦م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت ط١ ، ١٩٨١م.

٤٢ – ابن المطران : أبو نصر أسعد بن إلياس بن المطران (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) : بستان الأطباء وروضة الألباء ، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٣م.

٤٣ – المقرى : أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد المقرى التلمساني (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣٣م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق يوسف محمد البقاعي ، دار الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م.

٤٤ – ابن النديم : أبو عبد الله بن إسحاق بن النديم (ت ٣٨٣هـ / ٩٩٣م) : الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

٤٥ – النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

٤٦ – ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، مج ٣ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

٤٧ – اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت بعد ٢٨٢هـ / ٨٩٥م): تاريخ اليعقوبى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.

ثانيًا : المراجع العربية الحديثة :

١ – إبراهيم عبد المنعم سلامة : الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الإسكندرية ، ١٩٩٣م.

٢ – أحمد أمين : فجر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م.

٣ – أحمد الطاهرى : عامة قرطبة فى عصر الخلافة ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ط١ ،١٩٨٨م.

٤ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، مؤسسة بشباب الجامعة، الإسكندرية ، ١٩٨٦م.

٥ – أمام إبراهيم أحمد : تاريخ الفلك عند العرب ، المكتبة الثقافة رقم (٢٥) ، دار القلم ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٠م.

٦ – أمين توفيق الطيبى : دراسات فى التاريخ الإسلامى ، الدار الأندلسية ، طرابلس ، ليبيا، ط١، ١٩٩٢م.

٧ – انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت .

٨ – جمال خير الله : الآلات الفلكية فى المغرب والأندلس فى العصر الإسلامى ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة الأندلسية ، آداب القاهرة ، ١٩٩٨م.

٩ - جوان فيرنيه : العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية في الأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، جـ٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ط١ ، ١٩٩٨م.

- الرياضيات والفلك والبصريات ، مقال نشر في كتاب تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة حسين مؤنس ، وإحسان صدقي العمد ، سلسلة عالم المعرفة رقم (١٢) ، الكويت ط٢ ، ١٩٨٨م.

١٠ - خوليو ساسو : العلوم الدقيقة في الأندلس ، مقال ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، جـ٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١، ١٩٩٨م.

١١ - خير الدين الزركلي : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٩ ، ١٩٩٨م.

١٢ - زيجرد هونكه : شمس العرب تطلع على الغرب ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت، ط٣ ، ١٩٧٩م.

١٣ - زين العابدين متولي : الفلك عند العرب والمسلمين ، جزءان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م.

١٤ - سعد عبد الله صالح البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١، ١٩٩٧م.

١٥ - عبادة كحيلة : تاريخ النصارى في الأندلس ، المطبعة الإسلامية الحديثة ، القاهرة ط١، ١٩٩٣م.

١٦ - عبد اللطيف مؤمن : رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة آداب الرحلة والتواصل الحضاري ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس ، المغرب ، ١٩٩٣م.

١٧ - عبد المجيد نعنعي : الإسلام في طليطلة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ت .

١٨ – عز الدين فراج : فضل علماء العرب على الحضارة الأوروبية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د.ت .

١٩ – فايجرت (أ) وقسمرمان (هـ) : الموسوعة الفلكية ، ترجمة عبد القوى عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢م.

٢٠ – فتحية النبراوى : النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ط٩ ، ١٩٩٩م.

٢١ – فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ، جـ٧ ، ترجمة عبد الله بن عبد الله حجازى ، جامعة الملك سعود ، السعودية ، ط١ ، ١٤١٠هـ .

٢٢ – قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، دا القلم ، ط٣ ، ١٩٦٣م.

٢٣ – كمال أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية فى العصر الإسلامى ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، ط١ ، د.ت .

٢٤ – محمد أحمد أبو الفضل : دراسات فى تاريخ وحضارة الأندلس ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٩٦م.

٢٥ – محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

٢٦ – محمد فهمى إمبابى : تاريخ مدينة الجزيرة الخضراء الأندلسية منذ سقوط الدولة العامرية وحتى استيلاء القشتاليين عليها (٣٩٩ – ٧٤٤هـ / ١٠٨٨ – ١٣٤٤م) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب طنطا ، ١٩٩٧م.

٢٧ – محمد مصطفى هدارة " المأمون الخليفة العالم ، سلسلة أعلام العرب رقم (٥٩) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٦م.

٢٨ – محمود عرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم ، مطبعة الوادى الجديد ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م.

٢٩ – مريم قاسم طويل : مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م.

٣٠ – وائل أبو صالح : جهود الحكم المستنصر في تطور الحركة العلمية في الأندلس ، مقال بمجلة دراسات أندلسية ، العدد السادس ، تونس ، ١٩٩١م.

٣١ – يحيى عبد الأمير شامي : النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط١ ، ١٩٨٢م.

ثالثًا : المصادر الأجنبية :

32 - Cronica de Alfonso X (el sabio) : Historia de espana, selecciones, Introduccion, R.Ayerbechaux y Jose Porvua, Madrid, 1982.

رابعًا : المصادر الأجنبية الحديثة :

33 - Beladiez (Emilio) : Al-Manzor, Un Cesar Andalus, Escelicer , Madrid, 1959.

34 - Sabra (Abd El-hamid) : The Genius of Arah Civilization, second ed., England, 1983.

د. أحمد محمد إسماعيل الجمال (*)

دور الحضارة الإسلامية فى نهضة علم الفلك فى عصر الدولة العباسية

مقدمة :

علم الفلك : هو علم مداره الأجرام العلوية أى الشموس والسيارات وتوابعها وذوات الأذناب ، وهو قسمان : نظرى وعملى ، فالأول يعنى تلك الأجرام ويعين لنا أبعادها عن الشمس وحركاتها وفصولها وهيئاتها ، والثانى يبحث فى كيفية رصد تلك الأجرام .

ويعتبر علم الفلك من أقدم العلوم ، فقد قيل إن الإنسان رصد الكواكب من يوم وجوده لاحتياجه إلى الاهتداء بها ، وقد ارتبط علم الفلك فى بداية نشأته بالتنجيم ، والتنجيم فى أساسه قائم على معتقدات دينية مأخوذة من حضارات مختلفة ، فقد مارسه البابليون والكلدانيون والمصريون والهنود والفرس واليونان(١) .

ورد فى كتاب " الفهرست " قال أبو سهل بن نوبخت فى كتاب النهمُطان : قد كثرت صنوف العلوم وأنواع الكتب ، ووجوه المسائل المواخذ التى اشتق منها ما يدل عليه النجوم مما هو كائن من الأمور قبل ظهور أسبابها ومعرفة الناس بها . على ما وصف أهل بابل فى كتبهم ، وتعلم أهل مصر منهم ، وعمل به أهل الهند فى بلادهم ، على مثال ما كان عليه أوئل الخلق ... " (٢).

---

* مدرس التاريخ والحضارة بكلية الآداب - فرع دمنهور - جامعة الإسكندرية .

وقد اصطلح المسلمون على تعريف التنجيم بأنه علم (أو صناعة) أحكام (أو قضايا) النجوم ، أو بتعبير أوجز علم (صناعة) الأحكام . واستعمل بعض كتاب العرب منذ القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى " علم النجامة " للدلالة على التنجيم ، إلا أن علم (أو صناعة) النجوم و" علم صناعة النجوم " و" التنجيم " تدل بوجه عام على التنجيم أو علم الفلك (علم الهيئة) أو على العلمين معًا . ويُعرف المشتغل بصناعة النجوم بالأحكامى أو المنجم ، وإن كان لفظ المنجم يطلق على الفلكى كذلك ، ولم يفرق بدقة بين " المنجم " و " الفلكى" إلا فى القرن السابع عشر الميلادى .

واتبع غالب الفلاسفة وأصحاب فهارس العلوم ، ومؤلفو الكتب الجامعة تصنيف العلوم الطبيعية السبعة أو التسعة ، ووضعوه مع الطب والفراسة والكيمياء وتفسير الأحلام .. إلخ . بيد أن الفلكيين والمنجمين وغيرهم من العلماء (مثل : الفرابى ، وإخوان الصفا ، وابن خلدون) نسجوا على منوال بطلميوس واعتبروا التنجيم فرعًا من فروع " علم النجوم " . وعلم النجوم قسم من الأقسام الأربعة الكبيرة التى تنقسم إليها العلوم الرياضية . ويجب ألا نغفل القول بأن القواعد الرياضية الفلكية للحسابات التى لا غنى عنها للمنجم لم تتعرض لها إلا الرسائل الفلكية .

ويقوم التنجيم على أساس أن جميع ما يطرأ على العالم من التغيير ، يتصل اتصالاً وثيقًا بطبائع الأجرام السماوية وحركاتها ، والإنسان - من حيث هو عالم صغير بينه وبين العالم الكبير مشابهة قوية - خاضع لتأثيرات النجوم .

وعلى هذا الأساس يذكر المقريزى أن : " علم النجوم ثلاثة أقسام : (الأول) معرفة تراكيب الأفلاك ، وكمية الكواكب وأقسام البروج ، وأبعادها وعظمها وحركتها ويقال لهذا القسم : علم الهيئة . (والقسم الثانى) : علم الزيج (٣)، وعلم التقويم. (والقسم الثالث) معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج على الحوادث قبل كونها ، ويسمى هذا القسم علم الأحكام " (٤).

وعن علم الهيئة يذكر ابن خلدون فى مقدمته أن " علم الهيئة " ، وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها ، وتعددها لكل كوكب من السيارة والثابتة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ، ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها " (٥).

ويذكر في موضع آخر أنه " علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة ، ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك ، لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية " (٦).

علم الفلك في الحضارات القديمة :

علم الفلك عند البابليين والكلدانيين :

كان الفلك هو العلم الذي امتاز به البابليون ، وهو الذي اشتهروا به في العالم القديم كله ، إلا أن البابليين – في أول الأمر – لم يدرسوا النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على سير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين (٧). إلا أن البابليين بعد ذلك سرعان ما أقاموا الأسس الرياضية التي لايمكن أن يقوم فلك علمي بدونها ، وبدءوا سلسلة طويلة من الأرصاد الفلكية (٨). فصور العلماء مسارات الشمس والقمر ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا الخسوف والكسوف (٩)، وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً ، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخ الاعتدالين الربيعي والخريفي وساروا على النهج الذي سبقهم إليه السومريون ، فقسموا دائرة فلك البروج – أي مسار الأرض حول الشمس – إلى الأبراج الاثني عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى ٣٦٠ْ ، عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائية والمزولة (١٠). لهذا كان البابليون هم المؤسسون للفلك العلمي ، وأن النتائج التي حصل عليها الفلكيون الكلدانيون والإغريق من بعدهم أمكن تحقيقها بفضل استنادها إلى الأساس البابلي (١١).

فقد كان الكهنة الكلدان في معابد ما بين النهرين يقومون بتأليف أزياج فلكية للقمر والكواكب السيارة ، لكنهم لم يتموا نظاماً فلكياً منسقاً بل نموا طريقة تجريبية قوامها تدوين مواقع القمر والكواكب السيارة ، والتنبؤ بتلك المواقع أيضاً ، فكانوا يعنون بجداول القمر بوجه خاص ، لأن تقويمهم كان قمرياً صرفاً ، وكان أكبر مهامهم تعيين الرؤية الأولى للهلال الجديد(١٢).

وقد حاول الكلدان على أساس أرصاد سابقة ، أن يعينوا سلفًا أزمنة الاقتران والاستقبال، وأزمنة الرؤية الأولى والأخيرة ، وأزمنة الخسوف والكسوف . وكانت طريقتهم حسابية لا هندسية ، وانتهجوا منهج البابليين القدامى ، فاستخدموا المتواليات الحسابية فى وصف الحوادث الدورية (١٣).

وابتكر الكلدان حساب الطوالع ، كما تقوم شهرتهم على مهارتهم الخارقة فى ممارسة التنجيم وضروب أخرى من العرافة كالسحر والمعارف الخفية (١٤).

وعلى هذا الأساس يقول صاعد الأندلسى : " وكان من الكلدانيين علماء جلة وحكماء فضلاء يتوسعون فى فنون المعارف من المهن التعليمية ، والعلوم الرياضية والإلهية ، وكانت لهم عناية بأرصاد الكواكب ، وتحقق بعلم أسرار الفلك ، ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها ، وخواص المولدات وقواها ، وهم نهجوا لأهل الشق الغربى من معمور الأرض الطريق إلى تدبير الهياكل لاستجلاب قوى الكواكب وإظهار طبائعها وطرح شعاعاتها عليها بأنواع القرابين الموافقة لها ، وظروف التدابير المحفوظة لها . فظهرت منهم الأفاعيل الغريبة والنتائج الشريفة من إنشاء الطلسمات وغيرها من صناعة السحر .. ولم يصل إلينا من مذاهب البابليون فى حركات النجوم وصورة هيئة الفلك مذهب مستقصى ولا جملة كافية ، ولا عندنا من آرائهم فى ذلك ولا من أرصادهم غير الأرصاد التى نقلها عنهم بطلميوس اليونانى القلودنى فى كتاب "المجسطى " فإنه اضطر إليها فى تصحيح حركات النجوم المتحيرة إذ لم يجد لأصحابه اليونانيين فى ذلك أرصاداً يثق بها " (١٥).

وقد ذكرت المصادر العربية بعضاً من أهم علماء الفلك الكلدان ، منهم هرمس البابلى ويبدو أنه شخصية أسطورية حيث تذكر بعض الأساطير أن هرمس ، وهو الذى يخلط بعض الناس بين اسمه واسم النبى إدريس الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، والمعروف باسم " أخنوخ " عند اليهود ، كان أول من تحدث عن الأجسام الفلكية ومداراتها ، وأول من عمل على تفسير حركاتها ، وكذلك أول من أنذر بالطوفان (١٦).

ويذكر القفطى " قيل أنه مصرى أو يونانى أو بابلى ، وهو أول من استخرج الحكمة ، وعلم النجوم ، فإن الله عز وجل أفهمه سر الفلك وتركيبه ونقطة اجتماع الكواكب فيه ، وأفهمه عدد السنين والحساب ، ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك " (١٧).

ويقول عنه صاعد الأندلسي : " وأشهر علمائها عندنا وأجلهم هرمس البابلي ، وكان في عهد سقراط الفيلسوف . وذكر أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي في كتاب الألوف أنه هو الذي صحح كثيراً من كتب الأوائل في علم النجوم ، وغيره من أصناف الفلسفة مما كان فسد، وأنه صنف كتباً كثيرة في علوم شتى .. " (١٨). وله من الكتب في النجوم ، كتاب عرض مفتاح النجوم الأول ، كتاب طول مفتاح النجوم الثاني ، كتاب تسيير الكواكب ، كتاب قسمة تحويل سني المواليد على درجة درجة ، كتاب المكتوم في أسرار النجوم ويسمى قضيب الذهب(١٩).

ومن علماء الفلك البابلي أيضاً تينكلوس (٢٠)، وطينقروس(٢١) وقيطورا وله كتاب صناعة النجوم (٢٢)، ومزايا منجم بخت نصر ، وله من الكتب كتاب الملوك والدول والقرانات والتحاويل(٢٣)، واصطفن البابلي " كان عند مبعث رسول الله - ، وكان عالمًا بتسيير الكواكب ، وأحكام النجوم ، وله كتاب جليل في أحكام النجوم " (٢٤).

علم الفلك عند المصريين :

مما لاشك فيه أن حضارة وادي النيل كانت متقدمة في كثير من مجالات العلوم ومنها علم الفلك ، حيث ساعد جو مصر الصافي أثناء الليل على مراقبة السماء ، وتتبع حركات الكواكب والنجوم ، مما أدى إلى تكوين الكثير من المعلومات الفلكية التي سجلها المصري القديم ، ووصلت إلينا عن طريق النقوش والكتابات والآثار الباقية (٢٥).

كان علم الفلك المصري يحتكره الكهنة - مثلما كان في وادي الرافدين - وفي ذلك يقول ول ديورانت : " كان الكهنة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التي لا يحبون أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس . وظلوا قروناً طوالاً متتالية يتبعون مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثابتة ، وذكروا في فهارسهم نجوماً من القدر الخامس (وهي لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر نجم السماء في مصائر البشر ، ومن هذه الملاحظات أنشئوا التقويم (الشمسي) الذي أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بني الإنسان (٢٦). فقد قسموا السنة الشمسية إلى ثلاثمائة وخمس وستين يوماً ، ولتدارك الصعوبات الناجمة عن استعمال السنتين القمرية والشمسية ، قسموا السنة إلى اثنى عشر

شهراً ، وجزءوا كل شهر ثلاثين يوماً ، ثم أضافوا إلى آخر ذلك خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيها الأعياد (٢٧).

ورغم أن المصريين القدماء ككل أبناء الحضارات القديمة ، مزجوا بين الفلك الصحيح والأسطورة والآلهة ، إلا أن تاريخ الفلك المصرى القديم يتميز بظاهرة فلكية دينية رائعة فى تكوينها وهى أن المعابد المصرية بنيت على وفق مواصفات فلكية معينة ومحددة تحديداً دقيقاً ، وكذلك الهرم الأكبر الذى بنى بحيث اتجهت جوانبه بدقة إلى الجهات الأصلية الأربع مما يتماشى مع الآلات الهندسية الحديثة . ولاشك أن كثيراً من هذه المعابد قد بنى بحيث يدل على شروق نجم معين أو غروبه (٢٨). ومع ذلك فإن الأرصاد الفلكية المصرية لم تجمع لوضع نظريات فلكية ، وإنما لأغراض عملية محدودة مثل تحديد أوقات العبادة وتقديم القرابين والاحتفالات الدينية (٢٩).

علم الفلك عند الصينيين :

الحضارة الصينية حضارة عريقة ، لهذا كان للفلك فيها تاريخ طويل عميق الجذور تشابك مع الخرافات والآلهة المتعددة ، شأنه شأن كل الفلك القديم (٣٠). والسماء فى الحضارة الصينية القديمة أمر مقدس ، اهتموا بها اهتماماً كبيراً ، وبنوا لها المعابد والهياكل ، وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة فى السماء ، فأعياد السنة تحددها منازل الشمس والقمر ، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية قام على منازل الكواكب السيارة والنجوم(٣١).

ولقد عبد الصينيون أيضاً عدداً من النجوم والكواكب ، ومظاهر الطبيعة ، يذكر ياقوت الحموى من معبوداتهم السماوية سهيلاً وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدى ، ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب (٣٢). وبالإضافة إلى النجوم عرفوا الكواكب الخمسة السيارة ، والشمس والقمر وتابعوا حركاتها ومواقعها بشكل دقيق ، كما تابعوا الظواهر الكونية الغريبة كالمذنبات والتى استند عليها التنجيم عند الصينيين (٣٣). كما حققوا الكسوف الشمسى الذى ورد فى السجلات القديمة(٣٤). وتبعاً للمتابعات الدقيقة التى قام بها الصينيون للظواهر المختلفة ، فقد اهتموا ببناء المراصد لدراسة النجوم وإصلاح التقويم ، على شكل معابد ترمز للسلطة الإمبراطورية الممنوحة من السماء (٣٥). وعرف الصينيون أدوات فلكية ، فصنعوا مزاول شمسية من نوع متطور (٣٦). وعرفوا أيضاً الساعة المائية ، وعدداً من الآلات الفلكية

كـنوات الحلق وأرباع الدائرة وآلة الســدس ، والكرات الســمـاوية ، واخـتـرعـوا البـوصلة البحرية(٣٧). وهم أول من عرفوا أن السنة الشمسية هى بالضبط ٣٦٥,٢٥يوم ، وقسموا السنة إلى اثنى عشر شهراً ، يبدأ كل منها بظهور الهلال . وكانوا يضيفون شهراً آخر كل بضع سنين لكى يتفق التقويم القمرى مع الفصول الشمسية ، وقسموا اليوم إلى اثنتى عشر ساعة (٣٨).

علم الفلك عند الهنود :

جاء الفلك الهندى متأثراً بالفلك البابلى والمصرى والصينى واليونانى ، وأقدم الرسائل الفلكية وهى " السندذانتا" حوالى ٤٢٥ ق.م، كانت قائمة على أساس العلم اليونانى ، وفى سماء الفلك الهندى يبرز اسم " أريابهاتا " وهو أعظم الفلكين والرياضيين الهنود ، وقد بحث هذا الفلكى فى قصائد منظومة موضوعات مثل المعادلات الرباعية والجيب فى حساب المثلثات، وقيمة النسبة التقريبية المستعملة فى استخراج مساحة الدائرة . كما علل الكسوف والخسوف، والاعتدالين والانقلابين (فى حركة الأرض حول الشمس) وأعلن عن كروية الأرض ، ودورتها اليومية حول محورها وقال أن عالم النجوم ثابت ، والأرض فى دورانها هى التى تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفاءها فى الغرب " . وجاء بعده خلفه المشهور براهماجوبتا فنسق المعلومات الفلكية فى الهند (٣٩). ومن علماء الهند أيضاً فى الفلك كنكة الهندى (٤٠)، وجودر (٤١)، وصنجل (٤٢)، ونق(٤٣) بالإضافة إلى علماء آخرين .

وعلى هذا الأساس يذكر صاعد الأندلسى أن " للهند تحقق بعلم العدد والأحكام بصنعة الهندسة ، والخط الأوفى والقدح المعلى فى معرفة حركات النجوم وأسرار الفلك " (٤٤). وأن لهم فى علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم ، وهى مذهب السندهند ومعناه الدهر الداهر ، ومذهب الأرجبهر ، ومذهب الأركند " (٤٥).

علم الفلك عند الفرس :

كان الفرس مثل غيرهم من الشعوب القديمة لهم فى علم الفلك بداية ساذجة ، فقد عبدوا قوى الطبيعة والعناصر والأجرام السماوية (٤٦). ولكن بعد ما غزا الإسكندر الأكبر (٣٥٦ – ٣٢٣ ق.م) ملك مقدونيا منطقة الشرق وبلاد فارس ، أثرت الثقافة الإغريقية فى البلاد وتكون لدى الفرس علم فلكى خليط (٤٧)، أدى إلى تطور علم الفلك لديهم . وعنهم يقول صاعد

الأندلسي : " أن لهم معرفة ثابتة بأحكام النجوم (أي التنجيم) وبآثرها في العالم السفلي ، (يقصد الأرض) وكانت لهم أرصاد للكواكب قديمة ومذاهب في حركاتها مختلفة ، فمن ذلك المذهب الذي ألف عليه أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي تاريخه الكبير ، وذكر أنه مذهب العلماء المتقدمين من أهل فارس وكثير من علماء سائر النواحي ... وأثنى أبو معشر على هذا المذهب وقال ، أهل الحساب من فارس وبابل والهند والصين ، وأكثر الأمم ممن كان له معرفة بصناعة النجوم ، وخاصة كنكة الهندي المقدم عند جميع العلماء من أهل الهند في سائر الدهور ، مجمعون على أن أصح الأدوار أدوار هذه الفرقة ، وكانوا يسمونها " سني العالم " وبهذا الاسم كانت تسميها الأمم الخالية من أهل الصناعة على قديم الدهور : فأما أهل زماننا فإنهم يسمونها " سني أهل فارس " . وللفرس كتب جليلة في أحكام النجوم منها كتاب " صور درجات الفلك " ينسب إلى زرادشت و " كتاب التفسير " وكتاب " جاماسب " وهو جليل جداً " (٤٩).

علم الفلك عند اليونان :

إن الحضارة اليونانية هي امتداد طبيعي للحضارات السابقة ، فالأمم القديمة قدمت خلاصة تجاربها إلى اليونانيين ، وأحسن اليونانيون صنعًا بأن أعملوا عقولهم فيها فصاغوها بشكل جيد علمًا منظمًا . فعلوم اليونان الرياضية تدين بازدهارها والقوة الدافعة لها إلي مصر، ويدين الفلك اليوناني بازدهاره إلى بابل . ذلك أن استيلاء الإسكندر على بلاد الشرق أدى إلى عودة تبادل الأفكار وإلى اتساع ذلك التبادل (٥٠).

وقد تميز الفكر الإغريقي بمحاولة معرفة حقائق الأشياء الخارجية فنظروا في الكون محاولين التعرف على نظامه المتناسق ، وما يجرى فيه ليضعوا ما يستطيعون من نظريات(٥١).

وقد أوردت كتب التراجم عدداً كبيراً من علماء اليونان في ميدان الفلك مثل ميطن(٥٢) (Meton) وأقطيمن(٥٣) (Eucteman) الذين اجتمعا بالإسكندرية على أحكام الرصد ، ورصدا ما أحبا من الكواكب لتحقيق مواضعها على زمانهما (٥٤). وأطولوقوس (Autolucus) الرياضي اليوناني المشهور ، من تصانيفه كتاب الكرة المتحركة ، وكتاب الطلوع والغروب (٥٥). وثيودوسيوس الطرابلسي Teodosius of Tripoli وله من الكتب : كتاب الأكر ثلاث مقالات وكتاب المساكن مقالة وكتاب الليل والنهار مقالتان (٥٦). ومينيلاوس Menelaus ومن مؤلفاته كتاب أشكال الكرية ، وكتاب في معرفة كيفية تمييز الأجرام المختلطة

وغيره (٥٧). ومنهم أيضاً أبسقلاوس Hypsicles وله تصانيف مشهورة مثل كتاب الأجرام والأبعاد ، وكتاب المطالع ، وكتاب الطلوع والغروب مقالة (٥٨). وطيموخارس وطيمالاوس كانا عالمين بهيئة الفلك وصناعة آلات الرصد ، رصدا الكواكب فى زمانهما وحققا مواضعها ، وقد ذكر بطلميوس أرصادهما فى كتابه المسمى المجسطى (٥٩). وأرسطرخس Aristarchus المنجم اليونانى السكندرى وله كتاب جرم الشمس والقمر (٦٠). وثيون Teon الإسكندرانى وهو من أشهر العلماء بالهندسة وعلم الأفلاك صاحب كتاب الأفلاك ، ذكر فيه هيئة الأفلاك وعددها ، وكيفية حركة الكواكب ذكر مرسلاً مجرداً من البرهان على ما ذهب إليه بطلميوس فى كتاب المجسطى (٦١). ويذكر ابن النديم والقفطى أن " له من الكتب : كتاب العمل بذات الحلق ، كتاب جداول زيج بطلميوس المعروف بالقانون المسيرة ، كتاب العمل بالإسطرلاب ، كتاب المدخل إلى المجسطى بنقل قديم (٦٢).

ومن مشاهير هؤلاء العلماء أبرخس (هيبارخوس النيقى) Hipparchus العالم الرياضى العظيم الذى كان له آثار فلكية تضاهى بأهميتها آثاره الرياضية ، الذى يبدو أنه استخدم أجهزة أرصاد فلكية جيدة منها كرة سماوية تمكن من خلالها من إبداء ملاحظات على صور الكوكبات ، وعن توزيع النجوم فيها بدون إجراء عمليات حسابية ، وقد عمل أرصاداً عجيبة فى وقتها ضمن إمكانيات أجهزته . وكان أول من قسم الأجهزة الدائرية إلى ٣٦٠° (٦٣). واستطاع بفضل دراساته الرياضية للعلاقة الفلكية أن يضع جداول جيوب الزوايا ، وأن يبتكر حساب المثلثات (٦٤). وكشف عن التبادر بين الاعتدالين(٦٥) وعين مقداره ، ولكنه لم يفهم علته، بل لم يحدث فيها ، ومع ذلك يمكن اعتبار الشف عن ظاهرة التبادر أجل مآثره ، لأنه يقيم الدليل على الدقة النسبية فى أرصاده النجمية وعلى ثقة بأرصاده (٦٦).

كما أن معرفة هيبارخوس بالتبادر مكنته من التمييز بين السنة النجمية والسنة الشمسية (وهى الأقصر) . فالأولى هى الفترة الزمنية التى تستغرقها الشمس فى دورتين متعاقبتين إلى موضع نجم معين . والثانية هى فترتها بين دورتين متعاقبتين إلى موضع الاعتدال والتبادر . كما قام برصد العديد من المشاهد الفلكية ، مما دفعه إلى تصنيف جداول بالنجوم الرئيسية اعتمد فيها على الأرصاد البابلية (أو الكلدانية)(٦٧) لهذا أوشك أن يكون أعظم أصحاب النظريات الفلكية وأعظم الراصدين بين علماء الفلك الأقدمين عن بكرة أبيهم (٦٨).

ونتيجة للجهود العلمية لهذا العالم الفلكى يقول عنه القفطى أنه : " كان حكيماً عالماً من حكماء الكلدانيين (٦٩)، وكان قيماً بعلم الأرصاد وعمل آلاتها ، ورصد الرصد الحقيقى ، وبحث

فيه المباحث الصحيحة ، وأقام الحجج والبراهين المحكمة ، وعمل الآلات الجليلة ، وعليه اعتمد بطلميوس اليوناني القلوذي في أرصاده ، وكثيراً ما يذكره في كتابه المجسطي ، وله من التصانيف : كتاب أسرار النجوم في معرفة الدول والملل والملاحم ، وقد خرج هذا الكتاب إلى العربي ، ومن وقف عليه رأى كتاباً جليلاً في معناه يشهد لمؤلفه بتبحر في هذا النوع " (٧٠).

ولكن أهم فلكي هذا العصر بطلميوس القلوذي Ptolemaeus الذي ولد بمصر وعاش بالإسكندرية ، سيطر على علم الفلك والجغرافيا ، بل على العلوم التي تشمل الكون كله عند أهل الغرب وعند أهل الشرق (٧١). عنه يقول صاعد الأندلسي : " بطلميوس هذا انتهى إليه علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك ، وعنده اجتمع ما كان متفرقًا من هذه الصناعة بأيدي اليونانيين والروم وغيرهم من ساكني أهل الشق المغربي من الأرض ، وبه انتظم شتيتها وتجلي غامضها " . فتحدث عن السماء ، ووصفها وصفًا دقيقًا لهذا يقول القزويني عنه : "ومسح الأفلاك برجًا برجًا ، ودرجة درجة(٧٢) ، وثانية ثانية حتى يقول في يوم كذا وفي ساعة كذا يكون الكسوف أو الخسوف ، ويقع كما قال ، وأعجب من هذا أنه بين بالبراهين الهندسية أن ما بين السماء والأرض من المسافة كم يكون ميلاً ، وأن كل فلك من الأفلاك تحتها كم يكون ميلاً ، ودورتها كم تكون ميلاً ، وقطرها كم يكون ميلاً . ومن أعجب الأشياء وضع الإسطرلاب والتقويم ، فسبحان من علّم الإنسان ما لم يعلم ! " (٧٤).

وقد صنف هذا العالم جهوده في كتابه المعروف باسم " النظام الرياضي " Mathematki Syntaxis للنجوم . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليوناني Al-Megisté " الأعظم " وحرّف الناس في العصور الوسطى هذا اللفظ الماجسطي Almagest وهو الاسم الذي يعرف به الكتاب في التاريخ ، ولخصّ في هذا الكتاب ما كان يعرفه الأقدمون (٧٥).

والمجسطي يشتمل على ثلاث عشرة مقالة : الأولى : في المقدمات مثل البرهان على كروية السماء والأرض ، وعلى ثبوت الأرض في مركز العالم ثم ميل فلك البروج (٧٦)، ومطالع درج البروج في الفلك المستقيم . الثانية : في المباحث فيما يختلف باختلاف عروض البلدان مثل طول النهار وارتفاع القطب والمطالع في الأقاليم والزوايا الناشئة عن تقاطع دائرتين من دوائر الأفق ونصف النهار ، ومعدل النهار وفلك البروج وغيرها . الثالثة : في تعيين أوقات نزول الشمس في نقطتي الاعتدال ونقطتي الانقلاب ، ثم في مقدار السنة الشمسية وحركتي الشمس المعتدلة والمختلفة والطريقة الهندسية لبيان اختلاف الحركة بفلك خارج المركز أو بفلك تدوير ،

ثم اختلاف الأيام بلياليها وتحويل الأيام الوسطى إلى المختلفة وبالعكس . الرابعة : فى حركات القمر المعتدلة فى الطول والعرض . الخامسة : فى بيان اختلاف حركات القمر وحسابها ، ثم فى حساب اختلاف المنظر فى الارتفاع والطول والعرض . السادسة : فى اجتماعات النيرين واستقبالاتهما وكسوفاتهما . السابعة : فى الكواكب الثابتة والأشكال العارضة لها مع الشمس. الثامنة : فى جريدة الكواكب الثابتة ومواضعها فى الطول والعرض . التاسعة والعاشرة والحادية عشر : فى بيان حركات الكواكب الخمسة المتحيرة فى الطول . الثانية عشر: فى الرجوع والاستقامة والمقامات العارضة للكواكب الخمسة المتحيرة . الثالثة عشرة : فى عروض الكواكب الخمسة المتحيرة وظهورها واختفائها [٧٧].

ولبيان مدى القيمة العلمية التى حظى بها كتاب المجسطى يقول صاعد الأندلسى والقفطى: " لا يعرف كتاب ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب أحدها كتاب المجسطى هذا فى علم هيئة الفلك وحركات النجوم ، والثانى كتاب أرسطوطاليس فى علم صناعة المنطق ، والثالث كتاب سيبويه البصرى فى علم النحو العربى " [٧٨]. لهذا كان هذا الكتاب مرجعًا فلكيًا مهمًا فى العالم العربى والإسلامى والأوروبى حتى القرن السادس عشر وما فتئ التراجمة والعلماء أن أفاضوا فى ترجمته وتفسيره والتعليق عليه شرحًا ونقدًا [٧٩] .

وله أيضًا كتاب الجغرافيا وهو أول ما صنِّف فيها ويعرف بـ " جغرافية بطلميوس " ثمان مقالات ، صنفه بعد أن صنف المجسطى ، وعين فيه الأماكن بالحسابات الفلكية ورسم الخرط على الحسابات الرياضية ، وضبط الأقسام الجغرافية ، وحقق أماكنها على ما بلغ إليه العلم فى عصره ، وذكر فيه عدد المدن والجبال وما فى بطونها من المعادن ، وما على الأرض من الخلائق [٨٠]، وله كتاب الأربع مقالات فى أحكام النجوم [٨١]، وكتاب الثمرة [٨٢] . وغيره من الكتب التى ذكرها ابن النديم والقفطى [٨٣].

الفلك من خلال نظرة العرب قديمًا :

إن حظ العرب فى الجاهلية من المعارف والعلوم لم يكن وافرًا لضيق العيش ، ولبعدهم عن مراكز الحضارة ، ولشيوع الأمية ، اللهم إلا بعض ما عرفوه فى مجالات الشعر والكهانة [٨٤] والعرافة ، والقيافة [٨٥] والفراسة [٨٦] والإنسان والنجوم والأنواء [٨٧] لارتباطها الشديد بحياتهم ، وطرائق عيشهم . فقد كان أهل الوبر منهم – عرب الجاهلية – قُطَّان الصحارى

وعمار الفلوات ، كانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، وكانوا زمان النجعة ، ووقت التبدي يراعون جهات إيماض البروق ، ومنشأ السحاب ، وجلجلة الرعد فيؤمونها منتجعين لمنابت الكلأ ومرتادين لمواقع القطر فيخيمون هناك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي يقوضون لطلب العشب وابتغاء المياه ... " (٨٨).

يقول صاعد الأندلسي : " كان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواع الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوا بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم لمعرفة ذلك في أسباب المعيشة ، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم " (٨٩).

لهذا كان للنجوم وأحاديثها وتنبؤاتها تأثير كبير على حياة عرب الصحراء أكثر بكثير مما كان لها في حياة الإغريق والرومان أو أي شعب آخر . فالعرب في صحرائهم ولنقاوة سمائهم وسطوع كواكبهم ، كانوا أعرف الناس بها وأجدرهم بملاحظتها ، لكثرة ترحالهم نظراً لظروف معيشتهم ، وواقع حياتهم البدوية ، فكانوا يتخذون الليل - في أغلب الأحيان - جلباباً لطوفوا في طول البلاد وعرضها ، عبر البوادي المتشابهة المعالم ، متخذين من النجوم دليلاً ، إذ يعز كل دليل . يقول تعالى : { وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}(٩٠).

ولا ندعي القول أنهم عرفوا جميع العلوم ، وأنّى لهم ذلك ، وفي السماء بضعة آلاف من النجوم المرئية ، عرفوا منها ألفاً واثنين وعشرين نجماً على الأقل (٩١) . فأطلقوا على آحادها ومثانيها ، وما زاد على ذلك من مجموعات مميزة أسماء معروفة ، وحددوا لها أماكن ومطالع ومساقط ، لا لشيء ، إلا لحاجتهم الشديدة إليها ، والاهتداء بها في معرفة أزمنتهم وأمكنتهم(٩٢).

ومما لا شك فيه أن العرب في الجاهلية ، عبدوا فيما عبدوا ، كغيرهم من الأمم والشعوب ، بعض مظاهر الطبيعة ، ومن بينها الشمس والقمر وعدداً آخر من النجوم على أنها مستودع الأرواح الخفية وللقوى الفاعلة والمحركة لنشاط الإنسان (٩٣). لهذا قامت ديانة العرب على أساس تقديس النجوم (٩٤)، وكان الشمس والقمر محور الاعتقادات الفلكية والدينية الأولى عند البدوي لأهميتها بالنسبة إليه ، فأقام العرب لبعضها الأصنام والهياكل والبيوت ، وقربوا لها القرابين (٩٥). يقول صاعد الأندلسي : " كانت حمير تعبد الشمس ودليل ذلك حكاية الله تعالى في كتابه العزيز عن الهدهد إذ قال لسليمان عليه السلام واصفاً حال بلقيس الحميرية : { وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ... } (٩٦).. وقال هشام بن محمد الكلبي :

كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر ، وتميم الدبران (٩٧)، ولخم وجذام السهى ، وطيء سهيلاً ، وقيس العبور ، وأسد عطارد " (٩٨).

وفيما يتعلق بالتنجيم ، عرف العرب كغيرهم من الأمم التنجيم واستخدموه في حياتهم ، وربطوا بين الظواهر الفلكية والحوادث الأرضية ، فقد جمعوا ومزجوا بين المعارف الفلكية الخالصة والتنجيم والخرافات ، وهو ضرب من ضروب الكهانة والاعتقاد بتأثير الفلك على حدثان العالم والدول (٩٩). على أسس من الأحكام الغيبية ، باعتقاد هؤلاء المنجمين بأن هناك ثمة نجوماً من طبعها السعادة ، ونجوماً أخرى من طبعها النحوسة . وهم يبنون آراءهم هذه على اجتهادات تقوم في الأساس على حساب ، وتتبع دقيق لمواقع السيارات في أفلاكها ، واقترانها بعضها بالبعض الآخر ، أو حلولها في بروج معينة دون أخرى (١٠٠). مما يترك أثراً مباشراً وفاعلاً في حياة البشر ، وسلوكهم وأرزاقهم ، ويقدر لهم ما يقدر من خير وشر ، ونفع وضرر ، وفأل ونحوسة ، وذلك في أيام وليال معينة ، وساعات محددة (١٠١).

أي أن التنجيم كان رجماً بالغيب ، ونوع من الحدث والتخمين والمزاعم التي تناقض العلم ، ولذلك يكون مجافياً للعقل أن يطلق عليه لفظ علم ، والأحرى أن يطلق عليه " فن أو صناعة " كما يقول ابن خلدون (١٠٢). وصناعة التنجيم هذه تقترن جذورها الأولى بعبادة الكواكب عن الأمم السابقة (١٠٣).

موقف الإسلام من أفكار العرب حول النجوم:

تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تتحدث عن النجوم والشمس والقمر والبروج ، لا على سبيل التنجيم والكهانة والعرافة ، بل على سبيل التفكير والعلم والهداية والاعتراف بقدرة الخالق وحكمته [هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] (١٠٤). [إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ] (١٠٥). [خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ](١٠٦) . [وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] (١٠٧). [الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ] (١٠٨). [وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ...](١٠٩). [وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً] (١١٠). [وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي

السَّماءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ] (١١١). [تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا] (١١٢). [وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ] (١١٣). [وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ] (١١٤).

وعلى هذا الأساس حارب الإسلام التنجيم بشدة ، واعتبر الإيمان به ، أو العمل فيه ضرباً من الزيغ والانحراف ، ومظهراً من الشرك لأنه يقوم على أساس المشاركة لله في اطلاعه على الغيب (١١٥). وهذا ما خصّ به الله سبحانه وتعالى نفسه بقوله [عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ...] (١١٦). [عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ] (١١٧). [قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ...] (١١٨). [وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] (١١٩). [هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ] (١٢٠). [عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا] (١٢١).

ويروى عن النبي ﷺ قوله : " أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكذيب بالقدر " (١٢٢) .. وفي شرح " نهج البلاغة " ورد قوله أيضاً : " أيها الناس، إياكم والتعلم للنجوم ، إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر ... إنما المنجم كالكاهن ، والكاهن كالكافر والكافر في النار ... " (١٢٣). وعلى الرغم من نهي الإسلام عن الإيمان بالنجوم والاعتقاد بفألها ونحوستها ، فقد استمر الأخذ بهذا الاعتقاد بعد ذلك .

الأنواء وعلاقتها بالنجوم :

ومن المعارف التي شاعت عند العرب وبرعوا فيها منذ فجر جاهليتهم ، الأنواء ، وهو نوع من المعرفة له صلة وثيقة بالنجوم ذات الأنواء ، فالعرب قديماً نظروا إلى السماء ونجومها ولاحظوا تأثيرها على حياتهم على مدى السنين ، وتبدل المواسم والأمطار وأثر ذلك على حياتهم (١٢٤).

معنى لفظ النوء :

ورد في لسان العرب ، ناء بحمله ينوء نوءًا : " نهض بجهد ومشقة ... ويقال : نهض بالحمل إذ نهض به مثقلاً (١٢٥). والنوء إذا مال النجم إلى المغيب وراء الأفق عند الفجر وطلوع رقيبه، وهو نجم آخر يقابله ، من ساعته في المشرق . وسمي النوء نوءًا لأنه " إذا سقط الغارب ناء الطالع ، وذلك الطلوع هو النوء " (١٢٦). وقد يسمى النجم الطالع من المشرق رقيبًا ، كأنه يرقب سقوط الآخر في المغرب ، ويسمى الساقط في الغرب نوءًا من ناء أي سقط ومال والميل

هو النوء ، ومنه قوله تعالى : { مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } (١٢٧). ومعناها أن مفاتيحه تميلهم من ثقلها (١٢٨).

ونسب العرب إلى الأنواء عدة تأثيرات ، أعنى الأمطار والرياح والحر والبرد (١٢٩). من هنا نجد أن العرب منذ القدم من خلال تتبعهم لحركات النجوم المنتظمة ، والثابتة ، بالإضافة إلى ما اقتبسوه من الغير عن البابليين والهنود والفرس واليونان (١٣٠). أصبح لديهم نظام بدائى لحساب الزمن يتلخص فى أن الغروب مع مغرب الشمس لسلسلة من النجوم أو الكوكبات يحدد من ناحية بداية فترات تسمى النوء ، على أن مدة النوء نفسه خلالها تمتد من يوم إلى سبعة أيام ، وكانت النجوم نفسها هى التى تحدث المطر ويستسقى بها وكانت معرفة هذه الأنواء تمكن البدو والمدربين فى هذا العلم من التنبؤ بحالة الجو فى مدة معينة (١٣١).

وقد تعلم العرب من الهنود قبل الإسلام بمدة أن يميزوا منازل القمر وعددها ٢٨ منزلاً(١٣٢)، وقد أدركوا أن قائمة هذه المنازل تتفق بوجه عام مع قائمة الأنواء عندهم هم ، ومن ثم شرعوا فى الجمع بين الفكرتين ، وعدّلوا أنواءهم لتتفق مع المنازل ، وذلك بتقسيم دائرة البروج الشمسية ٢٨ قسمًا متساويًا ، ومن ثم فإن الأنواء الثمانية والعشرين التى تماثل المنازل الثمانية والعشرين ، يحددها ٢٨ نجمًا أو كوكبة من ١٤ زوج (الغروب من مغرب الشمس للواحد يقابل الشروق مع مشرق الشمس للآخر) ، وهى تحدد بداية ٢٧ فترة كل منها من ١٣ يومًا ، وفترة واحدة من ١٤ يومًا (١٣٣). ولقد قسمت هذه المنازل أو الأنواء إلى منازل ربيعية وصيفية وخريفية وشتوية (١٣٤).

خلاصة القول أنه تبين للعرب من خلال ملاحظاتهم وتتبعهم لتلك المنازل ، أن ثمة حوادث تمس حياتهم ومعالجة النخيل وهطول المطر (١٣٥)، وهبوب الرياح تحدث مع طلوع تلك النوء وسقوطها ، مما ترك عند البعض منهم انطباعاً أن هذه الحوادث ، وبخاصة المطر ، إنما هى من صنع الأنواء ذاتها ، أى من صنع النجوم الساقطة والطالعة معًا ، فى حين رأى البعض الآخر فيها مجرد علامة أو وقت ، يدلان على وقوعه (١٣٦).

ولقد وقف الإسلام من الفهم الأول للأنواء - أى الفهم القائم على الاعتقاد بأن النجوم هى علة الحر والبرد ، وسبب حدوث الأمطار والرياح - موقفًا معاديًا ، باعتباره مظهراً من مظاهر الشرك ، وأثر من آثار الجاهلية وعبادة الكواكب فى القديم . قال تعالى : { تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} (١٣٧). أى تجعلون شكر ما ترزقون به من مطر ، تكذيبكم بنعمة الله ، فتقولون

مطرنا بنوء كذا ... وسقينا بنوء كذا ... (١٣٨)، قال أبو منصور ، معناه وتجعلون شكر رزقكم الذى رزقكموه الله ، التكذيب أنه من عند الرازق ، وتجعلون الرزق من عند غير الله ، وذلك كفر، فأما من جعل الرزق من عند الله عز وجل ، وجعل النجم وقتًا وقّته للغيث . ولم يجعله المغيث الرازق ، رجوت ألا يكون مكذبًا (١٣٩).

وقد أنكر الرسول ﷺ شأن النجوم وتأثيراتها في مثل قوله : إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، وفى قوله فى الحديث الصحيح : أصبح عبادى مؤمن بى وكافر بى ، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال مُطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب (١٤٠). لأن العرب كانت تزعم أن ذلك المطر الذى جاء بسقوط نجم هو فعل النجم ، وكانت تنسب المطر إليه ، ولايجعلونه سقيًا من الله ، وإن وافق ذلك النجم المطر يجعلون النجم هو الفاعل (١٤١).

أما الفهم الآخر للأنواء ، وهو الفهم القائم على اتخاذ طلوع نجم ما أو سقوطه ، دلالة على إمكان حدوث المطر والبرد أو الجفاف ، فمن المؤكد أن الإسلام لم يحاربه أو يعارضه وذلك لأنه مجرد ملاحظات فلكية ارتبطت بآثار لها فى الطقس والجو ، قد تخطىء وتصيب ، وإن كانت أوجه الصواب أكثر ، لأنه يقوم على مراقبة صحيحة ودقيقة ومتعمقة لتلك الظواهر تتكرر دومًا بتعاقب الشهور والسنين .

لهذا يقول أبو إسحاق : وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا ، ولم يرد ذلك المعنى ، ومراده أنا مطرنا فى هذا الوقت ، ولم يقصد إلى فعل النجم فذلك والله أعلم جائز . كما جاء عن عمر – رضى الله عنه – أنه استسقى بالمصلى ثم نادى العباس : كم بقى من نوء الثريا (١٤٢)؟ فقال : إن العلماء بها يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعًا بعد وقوعها ، فوالله ما مضت تلك السبع حتى غيث الناس ، فإنما أراد عمر – رضى الله عنه – كم جرى من الوقت التى جرت به العادة أنه إذا تم أتى الله بالمطر (١٤٣).

مما تقدم يتبين أن علم الفلك يؤدى على معرفة الله . وفى هذا السياق يقول حبش الحاسب (ت حوالى ٨٦٥هـ) : " إنى وجدت الماضين قبلى قد أودعهم الله من النعمة وجعل فيه من الهداية إلى معرفته ، ما أفادهم من الألباب التى يعرفون بها فصل الخطاب حتى (يتمكنوا بفضل ذلك من) النظر فى حسن تقدير ما فى طبقات السقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، من ائتلاف أجزائه ، والتئامها ، فعلموا موارد أخباره ، وتعقبوا مصادر اعتباره ، وحكموا على من

يظن فيه بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، وأيقنوا أنه له باريًا هو أنشأه وابتداه وليس بعضه من بعض " (١٤٤).

وفى عصر الخلفاء الراشدين لم يختلف الأمر عن عصر الجاهلية فيما يتعلق بالعلوم العقلية ومنها علم الفلك ، فإنه كان زمن الفتن والحروب الداخلية وفتوح البلدان والجهاد لنشر الإسلام. فما اشتغل فيه المسلمون إلا بالسياسة والحروب والأمور الدينية مثل جمع القرآن الكريم والعلوم الشرعية ، والاهتمامات الثقافية التى دارت حوله بالإضافة إلى الشعر والأدب ، فكسدت أسواق العلم كل الكساد . ولم يزل الأمر كذلك بعد امتداد الدولة الأموية . ففى القرن الأول وأوائل القرن الثانى الهجرى ، كان المسلمون بعيدين عن علم الفلك وسائر العلوم الرياضية والطبيعية يدل على ذلك ما ورد فى مؤلفاتهم من خرافات فى ذلك العلم عن الشمس والقمر (١٤٥). وما نستثنى من ذلك إلا الأمير خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م ، حفيد الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية – الذى اهتم بالعلوم وأعنى بإخراج كتب اليونان القدماء ، وأول من تُرجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء حتى سمى حكيم آل مروان(١٤٦).

وفى هذا السياق يقول صاعد الأندلسى : " كانت العرب فى صدر الإسلام لا تُعنى بشىء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاش صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًا إليها ... فلما أراد الله تبارك وتعالى الهاشمية – أى ظهور الدولة العباسية – ، وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها . فكان أول من عُنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور ... فكان – رحمه الله – مع براعته فى الفقه وتقدمه فى علم السنن راغبًا فى علوم الفلسفة وخاصة فى صناعة النجوم ، فكان كلفًا بها محبًا لأهلها " (١٤٧).

نهضة علم الفلك فى العصر العباسى وعوامل تطوره :

مما تقدم يتبين لنا أن العرب قبل العصر العباسى لم يعرفوا شيئًا ينكر عن علم الفلك ، اللهم إلا فيما يتعلق برصد الكواكب والنجوم الزاهرة وحركاتها وأحكامها بالنظر إلى الكسوف والخسوف وعلاقتها بحوادث العالم من حيث الخط والمستقبل والحرب والسلم والمطر والظواهر الطبيعية ، وكانوا يسمون هذا العلم الذى يبحث فى مثل هذه الأمور علم التنجيم ، ومع أن الدين الإسلامى قد بين فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجرى على الأرض ، ومع أن الدين

الإسلامى قد بين فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجرى على الأرض ، إلا أن ذلك لم يمنع الخلفاء ، ولاسيما العباسيين فى بادىء الأمر أن يعنوا به ، وأن يستشيروا المنجمين فى كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية ، فإذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون فى حال الفلك واقترانات الكواكب ، ثم يسيرون على مقتضى ذلك . وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك (١٤٨)، ويراقبون النجوم ويعملون بأحاكمها قبل الشروع فى أى عمل حتى الطعام والزيارة ... (١٤٩). ومما لاشك فيه أن علم الفلك تقدم تقدمًا كبيرًا فى العصر العباسى كغيره من فروع المعرفة ، وقد كانت بعض مسائله مما يتطلب بمعرفتها المسلم : كأوقات الصلاة (علم الميقات) ومواقع البلدان المقدسة ، ووقت ظهور هلال رمضان ، وغيره من الأشهر ، أضف إلى ذلك شغف الناس بعلم التنجيم . كل هذا ساعد على الاهتمام بالفلك والتعمق فيه تعمقًا أدى إلى الجمع بين مذاهب الكلدان والهنود والفرس والسريان واليونان ، وإلي إضافات هامة لولاها لما أصبح علم الفلك على ما هو عليه الآن(١٥٠).

العوامل التى ادت إلى نهوض علم الفلك :

كان الفلكيون عمومًا متحمسين لعلمهم ، وغالبًا ما لجئوا إلى البلاغة للإشادة بميدان بحثهم، ففى مستهل " الزيج الصابى " يصف البتانى (ت ٩٢٩هـ) علم الفلك بعبارات من بينها أنه من أشرف العلوم منزلة ، وأسناها مرتبة ... وأعلقها بالقلوب ، وألمعها بالنفوس . وينعت (البتانى علم الفلك بقوا، أيضًا) أنه ميدان نشاط فيه إذكاء للذهن ، وشحذ لملكة التأمل. ولا يعترف البتانى – فى هذا الصدد – إلا بتقدم علم الشريعة وحده على علم الفلك . ثم يضيف بعد ذلك قائلاً : إن علم صناعة النجوم فيه نفع عظيم لأنه يتيح معرفة السنين والشهور ، والمواقيت ، وفصول الأزمان ، وزيادة النهار والليل ونقصانهما ، ومواضع النيرين وكسوفهما ، ومسير الكواكب فى استقامتها ورجوعها ، وتبدل أشكالها ، ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها . ويؤكد البتانى أن ذلك كله يؤدى بمن أمعن النظر وأدام الفكر فيه (إلى) إثبات التوحيد ، ومعرفة كنه الخالق ، وسعة حكمته وجليل قدرته ، ولطيف صنعه (١٥١). ويؤيد ذلك ما سبق أن أوردناه من آيات القرآن الكريم .

كما أن دراسة علم الفلك مطلوبة لارتباطها بعلم الميقات بالنسبة للعبادات ، لهذا كانت الجغرافية الرياضية أو الفلكية ميدانًا هامًا لتطبيقات علم الفلك نظرًا للحاجة إلى معرفة المواقع الجغرافية لأجل تحديد القبلة واتجاه محاريب المساجد فى كافة الأنحاء (١٥٢). ولعلم الفلك

فائدة فى ميدان الملاحة البحرية ، أو عند الضرب فى الأرض ولاسيما عبر الصحارى . فى قوله تعالى : {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ... } (١٥٣).

التنجيم والفلك فى عصر الخليفة (أبى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) :

على الرغم من إجماع أغلب المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم (١٥٤). ومهاجمة ابن خلدون له بالتصريح بأنه غير نافع ، وأنه يسبب ضرراً روحياً ومادياً للإنسان "بما تبعث فى عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها فى بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل وتحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ، ويظن اطراد الصدق فى سائر أحكامها وليس كذلك ، فيقع فى رد الأشياء إلى غير خالقها " (١٥٥). بالرغم من تلك المعارضة الصريحة نجد أن التنجيم وجد قبولاً فى ذلك العصر إلى جانب الاهتمام بعلم الفلك (أو علم الهيئة) حتى ألفت معاجم اقتصرت فى أغلبها على تراجم المنجمين (١٥٦).

كان الخليفة أبو جعفر المنصور هو أول من عُني بالفلك وقرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وبلغ شغفه بالفلك درجة جعلته يصطحب معه دائماً نوبخت الفارسى ، وكان حاذقاً باقتران الكواكب وحوادثها (١٥٧). ولهذا قبل أن يشرع الخليفة فى بناء مدينة بغداد ، طلب إليه نوبخت أن يأذن له فى درس مواضع النجوم ، حتى يحول دون التأثيرات الشريرة ، ويحسب الوقت ليعرف أنسب ساعة للشروع فى البناء . وانصرف نوبخت بالاشتراك مع يهودى فارسى كان قد دخل الإسلام وحمل اسم " ما شاء الله "(١٥٨) إلى استنطاق النجوم أسرارها وسؤالها عن الموعد المناسب ومعرفة الوقت الصحيح للقيام بالقياسات ومسح الأراضى وتخطيطها . فكان أن خرجت إلى الوجود مدينة بغداد (١٥٩).

يذكر اليعقوبى فى كتاب البلدان عند وصفه لمدينة بغداد وشوارعها أن المنصور ابتدأ بناء مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ / ٧٦٣م ووضع أساس هذه المدينة فى وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله . وأن الذين هندسوا المدينة فعلوا ذلك بحضرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزارى ، والطبرى (لعله عمر بن الفرخان الطبرى المنجم) المنجمين أصحاب الحساب(١٦٠).

ولما كبر نوبخت وضعف عن خدمة الخليفة ، طلب منه أن يحضر ولده ويعده ليقوم مقامه ، فسير له ولده أبا سهل بن نوبخت (١٦١). الذى حظى بمكانة أبيه ، فقد روى يوسف بن إبراهيم عن إسماعيل بن أبى سهل بن نوبخت عن أبيه ، أن المنصور لما حج حجته التى توفى

فيها رافقه من الأطباء ابن اللجلاج ، ومن المنجمين أبو سهل بن نوبخت (١٦٢). ولأبي سهل الفضل بن نوبخت " نقل من الفارسي إلي العربي ومعوله في علمه على كتب الفرس . وله من الكتب كتاب النهطان في المواليد ، وكتاب الفأل النجومي . كتاب المواليد ، مفرد . كتاب تحويل سني المواليد ، كتاب المدخل ، كتاب التشبيه والتمثيل ، كتاب المنتحل من أقاويل المنجمين فى الأخبار والمسائل والمواليد وغيرها " (١٦٣).

وقد أثرت الفرس تأثيراً شديداً على ابتداء اعتناء المسلمين بالإحكاميات ، ومما يدل على ذلك أن بعض المنجمين الأقدمين مثل نوبخت وعمر بن الفرخان الطبرى وغيرهما كانوا من الفرس ، وأن اصطلاحات فارسية مثل الهيلاج والكدخداه والجابختان كثيرة الوجودُ ى نفس كتب ماشاء الله (١٦٤).

وبما أن الأحكام النجومية لا تبنى إلا على معرفة الطالع وارتفاعات الكواكب عن الأفق فى الوقت المفروض مما يتطلب قياسات دقيقة ونظريات رياضية (هندسة ، حساب ، وحساب مثلثات) ، لذا كان الرصد الجيد سمة مميزة لأعمال التنجيم (١٦٥)، حيث لا يمكن إقامة الطالع وقياس الارتفاعات إلا بآلات رصدية أبسطها الاسطرلاب المسطح . لذا اعتنت العرب بعمله واستعماله فى عهد المنصور حتى قيل أن أول مسلم عمل اسطرلاباً وألف فيه كتاباً ، أبو إسحاق بن حبيب بن سليمان الفزارى(١٦٦) من فلكي المنصور . وفى هذا يقول ابن النديم عنه: " وهو أول من عمل فى الإسلام اسطرلاباً وعمل مبطحًا مسطحًا (١٦٧). وله من الكتب ، كتاب قصيدة في علم النجوم ، كتاب المقياس للزوال ، كتاب الزيج على سنى العرب ، كتاب العمل بالاسطرلاب وهو ذات الحلق . كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح" (١٦٨).

وفى عصر المنصور العباسي ازداد الاهتمام بالترجمة ومنها كتب التنجيم ، وفى ذلك يقول المسعودى : " وهو (يقصد المنصور) أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ، ومنها كتاب " كليلة ودمنة " وكتاب " السند هند " وترجمت له كتب أرسطاطاليس ، من المنطقيات وغيرها ، وترجم له كتاب " المجسطي " لبطلميوس ، وكتاب " الأرثماطيقى " ، وكتاب " إقليدس " وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية ، والفهلوية ، والفارسية ، والسريانية ، وأخرجت إلى الناس ، فنظروا فيها ، وتعلقوا إلى علمها " (١٦٩).

إلا أن الكتاب الأكثر أهمية والذى دفع إلى إرساء قواعد علم الفلك العربي الإسلامى ومن ثم تطوره وازدهاره هو مؤلف جاء من الهند ، فكانت الترجمة العربية لهذا الكتاب الرياضى

الفلكي أكبر الأثر في تشجيع الفلكيين العرب والمسلمين على مواصلة أرصادهم وأبحاثهم الفلكية ، حيث يذكر صاعد الأندلسي نقلاً عن الحسين بن محمد بن حميد المعروف بابن الأدمي (١٧٠)، أنه " ذكر في زيجه الكبير المعروف بنظم العقد أنه قدم على الخليفة المنصور في سنة ست وخمسين ومائة (٧٧٣م) رجل من الهند بالحساب المعروف بالسندهند في حركات النجوم مع تعاديل معمولة على كردجات (١٧١)، محسوبة لنصف درجة من ضروب أعمال الفلك من الكسوف ، ومطالع البروج وغير ذلك في كتاب يحتوي على اثني عشر باباً . وذكر أنه اختصر من كردجات منسوبة إلى ملك من ملوك الهند يسمى قبغّر وكانت محسوبة لدقيقة دقيقة، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب تجده العرب أصلاً في حركات الكواكب فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري ، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون " السند هند " . وتفسير السند هند باللغة الهندية " الدهر الداهر " . فكان أهل ذلك الزمان يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون " (١٧٢).

ولم ينفرد الفزاري بالاشتغال بالسندهند ، ونشر تعاليمه في زمان المنصور ، لأن علامة آخر عني أيضاً بذلك الكتاب الهندي وهو يعقوب بن طارق . وعنه يقول صاحب الفهرست أنه "من أفاضل المنجمين . وله من الكتب : كتاب تقطيع كردجات الجيب . كتاب ما ارتفع من قوس نصف النهار ، كتاب الزيج محلول في السند هند لدرجة درجة ، وهو كتابان ، الأول في علم الفلك والثاني ، في علم الدول "(١٧٣) .

ونظراً لأنه ابتدأت في هذا العصر الخطوات العملية الصحيحة للفلك العربي الإسلامي ، كان لزاماً على علم الهيئة أن يسير بخطوات ثابتة وراسخة ، لذلك رسم لنفسه منهجاً علمياً واضحاً له خصائصه ومميزاته وله علماؤه ونظرياته وتطبيقاته العلمية . فقد كان من شروط التقدم في علم الهيئة كما يذكر نلينو اثنان ، الأول : التبحر في نظرياته مع بذل الجهد في نقدها ، واعتبار ما يستخرج من علوم رياضية وطبيعية وكيماوية . والثاني : المثابرة على الأرصاد وإتقانها ، لأن الحركات السماوية لا يحاط بها معرفة مستقاة حقيقة إلا بتمادي العصور والتدقيق في الرصد (١٧٤).

ولما كانت كتب الهند والفرس قاصرة عن مقتضيات العلم السامي سواء من حيث النظريات، أم من جهة الأرصاد ، فقد احتاج العرب وقت نهضتهم العلمية إلى ما يهديهم إلى طرق البحث المستقصي في المسائل الفلكية ، ويوضح لهم كيف تثبت أصولها بالقياس

والبراهين . وافتقروا على كتب تحثهم على التفكر القائم والاعتبار الدائم ، وتحرضهم على الوصول إلى معرفة علل الظواهر ، ويشوقهم إلى علم الفلك لمجرد جلالته السنية من دون الاهتمام بمنافعه المادية . فلحسن حظهم أنهم حصلوا على مثل تلك الكتب النفيسة ، أعنى حصلوا على كتب اليونان منها أصول أقليدس التى علمتهم الطريقة الحقيقة المدققة فى وضع البراهين الهندسية ، والمجسطى لبطلميوس الذى عرفهم بتطبيق تلك البراهين على بيان الحركات السماوية ، ووضح كيفية الأرصاد ووجوب المداومة عليها ، لأن بطلميوس كما قال البتانى [١٧٥]، قد اقصى علم الفلك " من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى والعددى الذى لا تُدفع صحته ولا يُشكُّ فى حقيقته ، فأمر بالمحنة والاعتبار بعده وذكر أنه قد يجوز أن يستدرك عليه فى أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على إبرخس وغيره من نظرائه لجلال الصناعة ولأنها سمائية جسيمة ولا تُدرك إلا بالتقريب "[١٧٦].

لهذا عُنى العرب فى العصر الإسلامى بترجمة كتبه إلى العربية . ففى مدة خلافة المنصور نقل البطريق كتاب المقالات الأربع لبطلميوس فى صناعة أحكام النجوم [١٧٧]. واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين أتوا بعده فى نشر العلوم وتشجيع المشتغلين فيها ، فلقد ترجم المشتغلون بالفلك ما عثروا عليه من كتب ومخطوطات الأمم التى سبقتهم ، وصححوا كثيراً من أغلاطها وأضافوا إليها ، وفى زمن المهدى والرشيد اشتهر فى الأرصاد علماء كثيرون أمثال "ما شاء الله " [١٧٨]، وهو واحد من أقدم الشخصيات التى اقترن اسمها ببداية الجهود المنظمة لاستيعاب التراث العلمى للحضارات ، منجماً بكل ما فى الكلمة من معنى ، وكانت شهرته فى هذا الميدان عظيمة على امتداد قرون عديدة[١٧٩]. وقد ألف الكتب فى الاسطرلاب المسطح وفى ذات الحلق[١٨٠]، ضاع أصل كتابيه العربى ، ولم تنج من التلف إلا ترجمة لاتينية لكتاب الإسطرلابات والعمل بها ، طبعت فى أوربا ثلاث مرات فى القرن السادس عشر الميلادى[١٨١].

وممن اشتهر فى هذا الوقت أبو حفص عمر بن الفرخان الطبرى (توفى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٦م) أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها . والذى قال عنه أبو معشر البلخى . كان عمر بن الفرخان الطبرى عالمًا حكيمًا ، وكان منقطعًا إلى يحيى بن خالد بن برمك ، ثم انقطع إلى الفضل بن سهل[١٨٢] وزير المأمون الذى استدعاه من بلده ووصله بالمأمون فترجم له كتباً كثيرة ، وحكم بأحكام موجودة إلى اليوم فى خزائن السلطان ، وألف له

كتبًا كثيرة فى النجوم وغير ذلك من فنون الفلسفة منها : كتاب تفسير الأربع مقالات لبطلميوس من نقل ابن يحيى البطريق وغيره (١٨٣).

وإبان حياة الوزير العباسى يحيى بن خالد البرمكى (ت ١٩١هـ / ٨٠٧م) أجريت عمليات رصد فلكية فى جند نيسابور (١٨٤) قام بها أحمد بن النهاوندى الذى ألف الزيج المشتمل(١٨٥). ومن جهود هذا الوزير العناية بترجمة كتاب المجسطى لبطلميوس ، يقول ابن النديم : " هذا الكتاب ثلاث عشرة مقالة ، وأول من عُنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك ، ففسره جماعة فلم يتقنوه - يقصد من قاموا بالترجمة قبله - ولم يرض ذلك ، فندب لتفسير أبا حسان ، وسلم صاحب بيت الحكمة (١٨٦). فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ، فاختبر نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه "(١٨٧) .

ومن المحتمل أنه ترجم فى أيام هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) أو بعدها زيج بطلميوس ، حيث يذكر ابن النديم أن : " أيوب وسمعان فسرا زيج بطلميوس ، لمحمد بن خالد بن يحيى البرمكى (١٨٨).

كما اشتغل السريان أيضاً فى صناعة أحكام النجوم ، وممن اشتهر فيها منهم فى عهد الإسلام ثيوفيل (أو ثاوفيل) بن توما الرهاوى النصرانى رئيس منجمى الخليفة المهدى (١٥٨- ١٦٩هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥م) وكان خبيراً بحوادث النجوم ، وله فى أحكام النجوم إصابات عجيبة ، وقد مات قبل وفاة الخليفة بعشرين يوماً (١٨٩).

الفلك فى عصر المأمون :

بلغت رعاية الخلفاء العباسيين للعلم ذروتها فى عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨٠٩ - ٨١٣م) فقد أجمع المؤرخون على أنه لم يل الخلافة من بنى العباس أعلم من المأمون(١٩٠). فقد كان من أفاضل خلفائهم وعلمائهم وحكمائهم ، بل عده بعضهم من كبار العلماء حيث برع فى الفقه والعربية وأيام العرب والفلسفة وعلوم الأوائل(١٩١) ومهر بها . حيث يذكر المسعودى أن المأمون فى " بدء أمره .. كان يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها ، وينقاد إلى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك (وغيره) واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى درسها ، وواظب على قراءتها ، فافتن فى فهمها ، وبلغ درايتها " (١٩٤).

وعندما تولى الخلافة واستقر فى بغداد ، شكل مجلساً من أهل العلم والأدب ، للمناقشة والمناظرة ، وكان يعقد كل يوم ثلاثاء تحت رعاية الخليفة نفسه ومشاركته (١٩٣). وقد ضم المجلس علماء وأدباء من شتى الملل والنحل ، وكانوا يتناقشون فى أهم القضايا الفكرية والعلمية(١٩٤).

وازدهر فى عهد المأمون " بيت الحكمة " حتى غدا مجمعاً ثقافياً وعلمياً متكاملاً ، حيث اشتمل على قاعات للترجمة والنسخ والبحث ، والمطالعة والمناظرة ، واجتمعت فى هذا " البيت" كنوز الثقافة العربية والإسلامية مع كنوز الثقافات الأخرى ، لاسيما الفارسية والهندية واليونانية والسريانية (١٩٥). فقد تمكن المأمون من خلال مراسلاته مع أباطرة الروم من الحصول على عدد ضخم من مخطوطات التراث اليونانى . فقد بعث وفوداً عديدة من العلماء إلى آسيا الصغرى وقبرص وغيرها من بلاد الروم ، وكان من بين هؤلاء الحجاج بن مطر(١٩٦) وحنا بن البطريق(١٩٧) ويوحنا بن ماسويه(١٩٨) وغيرهم(١٩٩) . وقد اختاروا أحمالاً من تلك المخطوطات ، وجلبوها إلى بيت الحكمة فى بغداد ، بعد أن تسلم الروم أموالاً طائلة ثمناً لها . بالإضافة إلى ما تم الحصول عليه من غزوه لأنقرة وعموريه وسائر بلاد الروم، وكانت هذه المخطوطات تتعلق بالفلسفة والطب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم ، وتخير المأمون أمهر التراجمة لنقلها إلى العربية (٢٠٠).

وعكف علماء عصره على دراسة هذه الكتب ومن بينها " كتاب المجسطى ، وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه ، ثم تقدم إلى علماء زمانه بإصلاح آلات الرصد ففعلوا " (٢٠١). وهكذا أضحى المأمون قدوة يحتذى بها عندما اختط سنة حميدة بإقامته المراصد فى العهد الإسلامى ، حيث تشير المصادر التاريخية إلى عمليات الرصد التى تولى رعايتها فى الشماسية(٢٠٢) بمدينة بغداد وعلى جبل قاسيون(٢٠٣) إحدى ضواحى دمشق . وكان سند بن على واحداً من أعظم فلكى الشماسية ، واستناداً إلى القفطى ، فإنه عندما أمر المأمون بإجراء عمليات الرصد ، وكّل إلى سند مهمة الإشراف عليها وضبطها نظراً لثقة المأمون فى حدة بصر ذلك الفلكى ، كما يذكر المؤلف أن المأمون ندب سنداً لصنع أدوات فلكية فى الشماسية ، ولإجراء عمليات رصد هناك (٢٠٤). بينما يقول صاحب الفهرست أن سنداً " عمل فى جملة الراصدين ، بل كان على الأرصاد كلها (٢٠٥) . ولقد كان مرصد الشماسية جزءاً من بيت الحكمة (٢٠٦)، لهذا ارتبط بعض العلماء بهما مثل يحيى بن أبى منصور كبير المنجمين فى

عصره (٢٠٧)، وواحداً من أبرز الشخصيات التي ارتبط اسمها بالشماسية وبيت الحكمة(٢٠٨). وقد اشترك يحيى هذا مع جماعة من المنجمين ممن لهم خبرة بعلم الفلك في القيام ببعض عمليات الرصد مثل العباس بن سعيد الجوهري(٢٠٩) وخالد بن عبد الملك المروزي(٢١٠) وابنه محمد ، وسند بن علي(٢١١) ويحيى بن أكثم (٢١٢)، وعلي بن عيسى الاسطرلابي(٢١٣) ويبدو أن هؤلاء هم أعظم فلكي المأمون في الشماسية .

ويذكر البيروني أن يحيى بن أبي منصور قد رصد انقلابين شمسيين في الشماسية في سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م وذلك بحضور الخوارزمي أيضًا ، ثم جرى بعد ذلك رصد انقلابين شمسيين آخرين في سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م ، حيث أبدى المأمون على إثرهما استياءه من عمليتي الرصد اللتين أجريتا في سنة ٢١٣هـ . ولقد ترتب على ذلك بطلان عمليتي سنة ٢١٣هـ(٢١٤). ونتيجة لذلك يذكر حبش الحاسب(٢١٥) " أن المأمون - رضي الله عنه - سار بعد وفاة يحيى بن أبي منصور إلى دمشق فتقدم إلى يحيى بن أكثم والعباس بن سعيد الجوهري في اختيار رجل له معرفة ثاقبة بصناعة النجوم للرصد والمحنة ، فاختاروا له خالد بن عبد الملك (المَرْوَرُّذي) فأمر باتخاذ آلات على أحكم ما يجد السبيل إليه منها ، وأن يختبر النجوم بدير مُرَّان سنة كاملة ، ففعل ذلك خالد حتى أدرك حقيقة مواضع الشمس والقمر في الفلك ، فلما صحَّ ذلك أمر المأمون بأن يتخذ له قانون لمن أراد هذا العلم فأثبت ذلك على ما في كتاب هذا(٢١٧).

وهناك أنشطة فلكية هامة أخرى جرى القيام بها بأمر من المأمون ، ومن بينها تحديد سمت القبلة . ولما كان السبيل إلى ذلك هو معرفة الموقع الجغرافي لمكة المكرمة فإن المأمون (أصدر أمره) الخاص بتحديد خطي العرض والطول لمكة المكرمة ، ولقد أمكن تحديد هذا الأخير من خلال رصدين لخسوف القمر جرى القيام بهما في كل من بغداد ومكة المكرمة في آن واحد(٢١٨).

وقام المأمون بإرسال بعثات لقياس قوس محيط الأرض الذي يُوَتِّر زاوية قدرها درجة واحدة . وهذا القياس من أجل آثار العرب في ميدان الفلك ، ولقد ورد ذكر هذا القياس الجليل في العديد من المصادر العربية . يذكر سندُ بن علي أن المأمون أمره هو وخالد بن عبد الملك المروزي أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الأرض (أي ارتفاع القطب الشمالي) . قال فسرنا لذلك جميعًا ، وأمر علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي بن البحتري بمثل ذلك فسارا إلى ناحية أخرى . قال سند بن علي فسرت أنا وخالد بن عبد الملك

إلى ما بين وامنة (رقة واسط)[٢١٩] . وتدمر وقسنا هنالك مقدار درجة من أعظم دائرة تمر بسطح كرة الأرض فكان سبعة وخمسين ميلاً ، وقاس على بن عيسى وعلى بن البحترى فوجدا مثل ذلك ، وورد الكتابان من الناحيتين فى وقت واحد بقياسين متفقين [٢٢٠].

وفى رواية أخرى يقول ابن خلكان فى ترجمة محمد بن موسى بن شاكر الرياضى لفلكى المشهور المتوفى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م : " أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ، ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربع وعشرين ألف ميل ، كل ثلاث أميال فرسخ ... فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك ، فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى ، قال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا ، فسألوا عن الأرض المتساوية فى أى البلاد هى ؟ فقيل لهم : صحراء سنجار[٢٢١] فى غاية الاستواء، وكذلك وطآت الكوفة ، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون فى أقوالهم ، ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا إلى سنجار ، وجاءوا إلى الصحراء المذكورة ، فوقفوا فى موضع منها وأخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات ، وضربوا فى ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً ، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان . فلما فرغ الحبل نصبوا فى الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ، ومشوا إلى جهة الشمال أيضًا كفعلهم الأول ؛ ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة ، فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الأرض بالحبل ، فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثى ميل ، فعملوا أن كل درجة من درج الفلك ، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان . ثم عادوا إلى الموضع الذى ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلاً ، وتوجهوا إلى جهة الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا فى جهة الشمال : من نصب الأوتاد وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال التى استعملوها فى جهة الشمال ، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك ، وهذا إذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة وظهر له حقيقته . ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلاثمائة وستون درجة ، فضربوا عدد دروج الفلك فى ستة وثلاثين ميلاً وثلثين – أى التى هى حصة كل درجة– فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل ... فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا، وكان موافقًا لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الأوائل ، طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر ، فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا فى سنجار ، فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء فى ذلك [٢٢٢].

أما عن آلات الرصد ، فإنه يقال عن العباس بن سعيد الجوهرى وسند بن على ويحيى بن أبى منصور ، أنهم كانوا ذوى كفاية وهمّة فى تصميم الآلات ، فلقد وكل المأمون إلى الثانى والثالث صنع آلات الشماسية (٢٢٣). يذكر ابن النديم أنه غالبًا ما كانت الآلات الفلكية تصنع فى حران(٢٢٤) إبان زمن المأمون (٢٢٥).

من الواضح أن الهدف الأساسي من عمليات الرصد التى أجريت في عهد المأمون ، قد استهدفت تحديث المعطيات البطلمية ، واستنادًا إلى ابن يونس ، فإن العمل فى الشماسية وقاسيون أسفر عن اكتشاف حركة الشمس في أوجها ، بينما أسفر رصدهم للاعتدال الربيعى عن تقدير دقيق جدًا لطول السنة الشمسية ، وقياس ميل فلك البروج (٢٢٦). وقد تمخضت الأعمال التى أجريت في الشماسية وقاسيون عن نتائج ضُمنت كتابًا اسمه " الزيج الممتحن " الذى ظهر على يد يحيى بن أبى منصور وخالد بن عبد الملك المروروذى وسند بن على والعباس بن سعيد الجوهرى (٢٢٧)، وحبش الحاسب المروروذى (٢٢٨).

من هنا يتبين أن أحد الأهداف الرئيسية لجهود المأمون فى بناء المراصد يتمثل فى إعداد زيج (أى قانون) تصبح الجداول الفلكية فيه أبرز معالمه (٢٢٩). ويذكر صاعد الأندلسى أن لحبش " ثلاثة أزياج أولها المؤلف على مذهب السندهند ... وكان تأليفه لهذا الزيج فى أول أمره أيام كان يعتقد حساب السندهند ، والثانى المعروف بالممتحن وهو أشهرها له ، ألفه بعد أن رجع من معاناة الرصد وضمنه حركات الكواكب على ما يوجبه الامتحان فى زمانه – كما ذكرنا سابقًا – والثالث الزيج المعروف بالشاه (الفارسى) (٢٣٠). وله كتاب حسن فى العمل بالإسطرلاب " (٢٣١).

ومن مشاهير علم الفلك في هذا العصر أيضًا ، أحمد بن محمد بن كثير الفرغانى (٢٣٢)، أحد منجمى المأمون ، وصاحب المدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وهو كتاب عظيم الفائدة ، يتضمن ثلاثين بابًا احتوت على جوامع كتاب المجسطى بأعذب لفظ وأبين عبارة(٢٣٣)، ولعل أهم إنجازات هذا العالم تعيين أبعاد الكواكب وأقطارها ، والمقاييس التى ذكرها لمسافات الكواكب وأحجامها ، عمل بها كثيرون دون تغيير حتى زمن كوبرنيكوس(٢٣٤).

وممن اشتهر أيضًا أولاد موسى بن شاكر أحمد ومحمد وحسن ، كانت لهم همم بتحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل كان والدهم فى صحبة الخليفة المأمون ، فلما مات الأب عهد الخليفة برعايتهم إلى إسحاق إبراهيم المصعبى . وقد أشارت بعض المصادر إلى أن بنى موسى قد أشرفوا على القياسات التى استهدفت تقسيم الأرض فى سنجار والكوفة (ناقشنا

ذلك فى الحاشية ٢٢٢) ، كما عنوا بضبط لم يكن معروفًا قبلهم مبادرة الاعتدالين ، ووضعوا تقاويم الممكنة النجوم السيارة وقاسوا عرض بغداد ، وقيدوه ٢٣ْ درجة و ٢٠ً دقيقة أى برقم يصح بعشر ثوان تقريبًا . وتشير إليهم على أنهم منجمو المأمون (٢٣٥).

ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو عالم رياضي ، انقطع إلى بيت الحكمة ، منكبًا على الدراسة والبحث ، وله زيج مشهور لبلاد الإسلام " عول فيه على أوساط السندهند وخالفه فى التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ، وميل الشمس على مذهب بطلميوس(٢٣٦). وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الأول والثانى ويعرف بالسندهند" (٢٣٧).

ومنهم محمد بن عمر بن الفرخان ، يذكر القفطى : " أنه كان له اليد الطولى فى زمانه فى علم الكواكب وصناعة التنجيم ، شهد له أهل صنعته بفضله ونبله ، وصنَّف فى ذلك كتبًا منها : كتاب المقياس . كتاب المواليد ، كتاب العمل بالاسطرلاب ، كتاب المسائل ، كتاب المدخل ، كتاب الاختيارات ، كتاب المسائل الصغير ، كتاب سنى المواليد ، كتاب التسييرات (٢٣٨)، كتاب الميالات ، كتاب تحويل سنى العالم " (٢٣٩).

وكذلك عبد الله بن سهل بن نوبخت كبير منجمي المأمون (٢٤٠)، ومحمد بن موسى الجليس(٢٤١)، وابن الطبرى اليهودى المنجم الذى قال عنه أبو معشر عندما سئل عن مطارح الشعاع " فذكرها وساق الحديث إلى أن قال إن المترجمين لنسخ المجسطى المخرجة من لغة اليونان ما ذكروا الشعاع ولا مطارحه ولا يوجد ذلك إلا فى النسخة التى ترجمها ابن المتطبب الطبرى ، ولم يوجد فى النسخ القديمة مطرح شعاع بطلميوس ، ولم يعرفه التراجمة " (٢٤٢). وعبيد الله بن الحسن أبو القاسم المعروف بغلام زحل المنجم مقيم ببغداد (ت ٣٧٦هـ) من أفاضل الحسّاب والمنجمين أصحاب الحجج والبراهين ، وله اليد الطولى فيما يعانيه من هذا الشأن ، له من التصانيف ، كتاب التسييرات مقَالة ، كتاب الشعاعات مقالة ، كتاب أحكام النجوم ، كتاب التسييرات والشعاعات الكبير ، كتاب الاختيارات ، كتاب الجامع الكبير"(٢٤٣).

وفى تلك الفترة وبعدها ظهر علماء كثيرون فى علم الفلك لا يتسع المجال لذكرهم جميعًا - سوف نقتصر على ذكر أشهرهم - وهؤلاء جميعًا برعوا فى معرفة مسارات الكواكب ، وحساب الفلك والهندسة والمهارة فى صناعة آلات الرصد ، فعملوا أرصادًا أو أزياجًا أدت إلى تقدم علم الفلك أمثال ثابت بن قرة الحرانى الذى تولى الرصد ببغداد فى خلافة المأمون ، وقد أورد ابن

النديم والقفطي سرد بالعديد من المؤلفات تشهد له بتضلعه في كثير من فنون العلم ولاسيما في مجال الفلك الذي وضع فيه الكثير من المؤلفات خاصة الأرصاد ، وترجم وشرح الكثير من غوامض مسائلها ووضع أجوبة عليها (٢٤٤).

ولقد نبغ في هذا العلم أيضاً أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني(٢٤٥) الذي صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بطلميوس ، ووصل إلى نتائج جديدة لم يصل إليها أحد قبله ، وفي ذلك يقول صاعد الأندلسي : " ولا أعلم في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها " (٢٤٦). فقد أقام مرصداً خاصاً في الرقة ، حيث قام بعمليات رصد امتدت حوالي أربعين عاماً (٢٦٤ - ٣٠٦هـ / ٨٧١ - ٩١٨م) (٢٤٧).

وحدد البتاني في كثير من الدقة ميل الدائرة الكسوفية ، وطول السنة المدارية والفصول ، والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس مقيماً الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية ، واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مر الأجيال . واستنبط نظرية جديدة تشف عن شيء كثير من الحذق وسعة الحيلة لبيان الأحوال التي يرى بها القمر عند ولادته . وضبط تقدير بطلميوس لحركة المبادرة الاعتدالية . وله أرصاد جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنثرون Dunthorne سنة ١٧٤٩م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان(٢٤٨).

وهو مؤلف كتاب " الزيج الصابيء " الذي يعتبر من أهم مؤلفات الفلكيين السابقين ، نظراً لما كان لهذا الكتاب من أثر خطير في العالمين الإسلامي والأوروبي جميعاً . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد (٢٤٩).

كما راجع كثيراً من الكتب والأزياج وصحح بعضها حتى يصفه بعض الباحثين بطلميوس العرب ، وقال عنه سارطون : أنه أعظم علماء عصره ، وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات ، مما كان له أثر كبير على علم الفلك في أوروبا بعد ذلك (٢٥٠).

وكان معاصراً للبتاني عالم فلكي آخر هو أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي(٢٥١)، عنه يقول صاعد : " عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم ، وصاحب التواليف الشريفة والمصنفات المفيدة في صناعة الأحكام وعلم التعديل ، ... ومن كتبه في حركات النجوم زيجه الكبير ، والزيج الصغير " (٢٥٢).

ومن أبرز الراصدين أيضاً علي بن أماجور وأخيه أبو القاسم عبد الله بن أماجور وابنه أبو الحسن علي والمملوك الذي أعتقه (أبو الحسن واسمه) مفلح بن يوسف ، فقد أجرى الوالد وابنه ومفلح عمليات رصد طويلة ما بين ٢٧٢هـ / ٨٨٥م وعام ٣٢١هـ / ٩٣٣م - أي ما يقرب من خمسين عاماً - تمخضت عن جداول فلكية عديدة (٢٥٣).

كما كانت رعاية عضد الدولة البويهي (٣٦٧ - ٣٧٢هـ / ٩٧٨ - ٩٨٣م) لعلم الفلك عظيمة جداً ، حيث كان هو نفسه على دراية بعلم الفلك . فلقد دأب على أن يقول : " إن معلمي في حل " الزيج الشريف " ابن الأعلم (٢٥٤)- ويبدو أنه مؤلف ذلك الزيج - ومعلمي في الكواكب الثابتة وأماكنها وسيرها عبد الرحمن(٢٥٥) الصوفي "(٢٥٦) .

فقد كان الصوفي عالمًا فلكيًا شهيراً اتصل بعضد الدولة البويهي وكان منجمه الخاص ، برع بشكل خاص في معرفة صور الكواكب السماوية ، فألف كتاباً شهيراً اسمه " صور الكواكب الثمانية والأربعين " وصف فيه كواكب السماء ، وقد بين فيه أماكن النجوم ، ومحل كل نجم بمفرده وموقعه في الترتيب العام للكواكب الثمانية والأربعين (٢٥٧)، ولقد درس علماء الغرب نظريات الصوفي وقارنوا بينها وبين نظريات بطليموس ، فوجدوا أن آراء الصوفي أكثر دقة ، لهذا وصفه المستشرق الإيطالي الدوميلي بأنه من أعظم الفلكيين العرب الذين لهم سلسلة دقيقة من الملاحظات (٢٥٨).

وممن اختص بشرف الدولة بن عضد الدولة من الحكماء أبو حامد أحمد بن محمد الصاغاني (ت٣٧٩هـ) ، وكان فاضلاً في الهندسة وعلم الهيئة ، وكان ببغداد يُحكم الآلات الرصدية غاية الإحكام . ولما بنى شرف الدولة بيت الرصد في طرف بستان دار المملكة ، وتقدم برصد الكواكب السبعة واعتمد في ذلك على ويجن الكوهي ، ورصد وكتب مختصرين بصورة الرصد ، كان من شاهد ذلك وكتب خطة بتصحيح نزول الشمس في برجين أحمد بن محمد الصاغاني(٢٥٩).

أما أبو سهل ويجن بن رستم الكوهي المنجم فكان أيضاً حسن المعرفة بالهندسة وعلم الهيئة ، متقدماً فيهما . وكان رصده لحلول الشمس برجي السلطان والميزان سنة ألف ومائتين وتسع وتسعين للإسكندر (٣٧٨هـ / ٩٨٨م) . وكان من جملة من حضر هذين الرصدين من العلماء إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابيء (٢٦٠) . وله مصنفات في الهندسة والهيئة (٢٦١).
وقد أجمع كل من حضر عملية الرصد من المنجمين والمهندسين - في بستان شرف الدولة بن

عضد الدولة بالجانب الشرقي من بغداد – على دقة وسلامة الآلات المستخدمة في عملية الرصد ، وفي ذلك يقول القفطي : " سلم جميع من حضر من المنجمين والمهندسين وغيرهم ممن له تعلق بهذه الصناعة وخبرة بها تسليماً لا خلاف فيه بينهم ، إن هذه الآلة جليلة الخطر بديعة المعنى محكمة الصنعة ، واضحة الدلالة ، زائدة في التدقيق على جميع الآلات التي عرفت وعهدت ، وأنه قد وصل بها إلى أبعد الغايات في الأمر المرصود والغرض المقصود ... "(٢٦٢).

ومن هؤلاء العلماء أيضًا أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزجاني(٢٦٣) (٣٢٨ – ٣٨٨هـ / ٩٤٠ – ٩٩٨م) وهو رياضي فلكي قال عنه ابن خلكان : "الحاسب المشهور أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة ، وكان له فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها " (٢٦٤). وأجرى عمليات رصد استهدفت تحديد ميل تلك البروج ، وقام بقياس خط العرض لمدينة بغداد ، ورصد الانقلاب الخريفي في بغداد ، فضلاً عن قيامه بعمليات رصد أخرى أدت إلى تحديد الفصول (السنوية) واستخدم آلات متقنة ، فقد شاهد انحراف تمث الشمس بربع دائرة يبلغ نصف قطرها إحدى وعشرين قدمًا ، أي يبلغ من الاتساع ما يعد كبيرًا في المراصد الحديثة (٢٦٥).

أما خاتمة مشاهير ذلك العصر أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ – ٤٤٨هـ / ٩٧٢ – ١٠٩٨م) ، كان ذو مواهب جديرة بالاعتبار ، فقد كان يحسن السريانية والسنسكريتية والفارسية ، عدا العربية . اشتهر في كثير من العلوم وفاق علماء عصره وعلا عليهم وخاصة في علم الفلك ، ذهب إلى الهند في صحبة السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وأقام بها عدة سنين وعلمهم العلوم اليونانية وتعلم من حكمائهم فنونهم ، وعندما رجع من الهند ، واستقر في بلاط مسعود أخرج سفره العظيم في علوم الفلك والرياضيات " القانون المسعودي في علم الهيئة والنجوم " وسماه بذلك نسبة إلى السلطان مسعود وأهداه إليه (٢٦٦).

ويعد هذا المؤلف أهم مؤلفات البيروني في علم الفلك ، فهو موسوعة في علوم الفلك والجغرافيا والهندسة والرياضيات ، بل يعد أعظم تأليف في علم الهيئة يعفي على كل أثر كتاب صنف في تنجيم أو حساب (٢٦٧)، وهو كتاب مبسوط مطول مستوعب وضع على طريقة كتاب المجسطي لبطلميوس ، وأوفى عليه ما استقصى من مسائل العلم وبراهينها الطبيعية والهندسية وجداولها وأزياجها ، بحيث تولد فيه علم الهيئة العملي أكثر مسائل علم الهيئة النظري وطبائع الأجرام السماوية والحركات ، ويشتمل هذا المؤلف على إحدى عشر مقالة

ويلاحظ فى هذا الكتاب أن البيرونى لم يأخذ النظريات العلمية كحقائق مسلم بها ، بل أخذ ينقد ويناقش ويعيد النتائج التى ساوره الشك فى صحتها ، ويحذف ما يرى حذفه ، ويضيف من عنده ما يعتقد إضافته أو ما استنتجه من تجاربه واستوثق من صحته (٢٦٨).

ولم يكتف هذا العالم الفذ الدقيق فى أبحاثه بالرصد مرة واحدة ، بل يدفعه الحرص على دقة نتائجه إلى تكرار التجارب ، وقرر أن يصنع آلته الخاصة ليرصد بها أعماله الفلكية ، وليضع حداً لحيرته من تضارب نتائج أساطين علماء الفلك فى ذلك الوقت (٢٦٩). ولقد أفرد البيرونى باباً خاصاً فى المقالة الرابعة من القانون المسعودى لتعيين خط نصف النهار (اتجاه الشمال والجنوب) وذلك لأن الأرصاد الفلكية وما يتصل بها من تحديد الأوقات ، وتعيين اتجاهات أماكن العبادة تعتمد على معرفة الاتجاهات الأصلية ، وقد ذكر البيرونى سبعة طرق مختلفة لكيفية تعيين اتجاه الشمال والجنوب ، مبيناً مزايا ومساوىء كل منها ، وبين كيفية تعيين الوقت ومعرفة فصول السنة ، وحركة أوج الشمس ، وقياس طول السنة ، وسير القمر ، وشرح ظاهرة المد والجزر ، وأوضح الفرق بين الكسوف والخسوف ، والكواكب الثابتة والسيارة ، ومنازل القمر ، وحركات الكواكب ، وابتكر الإسطرلاب الأسطوانى ، وبسط عدة طرق لصناعة الاسطرلابات ، وابتكر كثيراً من الآلات المستعملة فى الرصد (٢٧٠).

ومن أشهر كتبه أيضاً وأغزرها مادة كتابه " الآثار الباقية من القرون الخالية " ، فهو يبحث فى اليوم والشهر والسنة عند مختلف الأمم القديمة ، وكذلك التقاويم ، وما أصاب ذلك من التعديل والتغيير (٢٧١). ووضع فى هذا الكتاب أصول الرسم على سطح الكرة ، حيث أورد فصلاً خاصاً فى تسطيح الكرة ، وبهذا ربط بين الجغرافيا الرياضية والفلكية (٢٧٢). كما شرح فى كتابه " تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن " جميع طرق الأرصاد وخطوات الحساب الممكن استعمالها فى هذا الشأن (٢٧٣).

وللبيرونى مؤلفات كثيرة جداً تفوق الحصر تبلغ فهرستها نحو ستين ورقة بخط مكتنز (٢٧٤).

مما تقدم يتبين لنا من خلال ثنايا هذا البحث أن البابليين امتازوا ببراعة فى العملية التجريبية كالرصد طويل المدى ، والحسابات الدقيقة على أسس رياضية ، وكان هذا شبه مجهول عند اليونانيين الذين كانوا يعمل معظمهم عملاً نظرياً بحتاً . وقد بقيت كذلك حتى عام ١٥٠ ق.م، حين جاء أبرخس الذى اعتمد على الأرصاد البابلية (أو الكلدانية) وقضى الليالى

في استنطاق النجوم أسرارها بواسطة آلات صنعها بنفسه ، فأمد العالم ، بعد عمل ودأب طويلين ، بتلك المعارف والمعلومات الحسابية الفريدة التي كانت بمثابة حجر الأساس ، والطريق لعلم الفلك فيما بعد .

وقد قام بطلميوس بجمع كل هذه المعلومات في كتابه الشهير " المجسطي " الذي دوّن فيه جميع معارف عصره ، فأصبح المرجع الأول والأخير في علم الفلك القديم وطغى على كل ما قد سبقه من المراجع ، فقد حوى كل شاردة وواردة في هذا العلم . ولقد بقي " المجسطي " يعد أكبر تحقيق علمي في الفلك على مر القرون .

وفي الواقع أنه لا الرومان ولا الهنود هم الذين ساهموا في تطوير هذا العلم ، وإنما كان من دواعي فخر العرب أن يفعلوا ذلك وحدهم .

وفي ظل الإسلام ، كانت حاجة العرب إلى الاستناد إلى علم الفلك قد ازدادت كثيراً لما كانت تتطلبه ضرورات الدين من رصد دائم للنجوم والكواكب في السماء لتحديد أوقات العبادة من صلاة وصوم وبداية الشهور مما دفعهم للقيام بعمليات حسابية دقيقة لمعرفة الوقت وتحديد اتجاه مكة المكرمة لمعرفة القبلة لكل ذلك اعتنوا برصد النجوم والكواكب وقاموا بحسابات وقياسات .

وبنى العرب المراصد وأشهرها مرصد المأمون في بغداد ودمشق ومرصد شرف الدولة في بغداد .

كما اهتم العرب اهتماماً بالغاً بالآلات الفلكية وما ورثوه عن اليونان كان بدائياً وأعجز من أن يساندهم في سباقهم نحو الأمجاد التي رسموها لأنفسهم . فكان أن طوروها وزادوا عليها أشياء عديدة وقدموا اختراعات أخرى تشبه المعجزات ، مبتكرين بذلك آلات مختلفة للمراقبة والقياسات ، أخذها الغرب وبقي على استعماله لها أمداً طويلاً .

فلقد كانت آلة الإسطرلاب المسطح أفضل آلة قياسية عند العرب وأكثرها منفعة واستعمالاً . ففي حين كان اليونانيون لا يعرفون عنها إلا بضعة طرق للاستعمال ، كان العرب يعرفون أكثر من ثلاث وأربعين طريقة لاستعمالها وفي القرن العاشر الميلادي وما تلاه استعمل الأوروبيون الآلات العربية .

ولم يأخذ العرب العلوم التى ورثوها عن طريق الاقتباس ، كما أنهم أيضاً لم يأخذوا الآلات العلمية ومواد العلم القريب دون مناقشة أو تحقيق فمنذ البدء أدهشوا العالم بالحرية الموضوعية والشجاعة العلمية اللتين استقبلوا بهما نتائج السلف وأقوالهم ليشبعوها نقداً وتفنيداً ، وتحقيقاً للأخطاء ودحضها ، وعملاً دائباً فى الحقل الجديد ، دون أن تغشى بصرهم غاشية صيت ذائع ، ومن غير أن يدخل الوجل إلى قلبهم اسم كبير يرهبهم ، ولعل أبلغ برهان على هذا ما نراه من عناوين لمخطوطات كانت تسعى إلى نقد الكتب والتعليق عليها ، كالفروقات بين زيج بطلميوس والزيج الممتحن التى حققها ثابت بن قرة .

لقد كانت واقعيتهم – أى العرب – العملية الشديدة تدفعهم دفعًا ثابتًا إلى القيام بتجارب واختبارات شخصية عديدة من أجل الهدف العلمى نظراً لاهتمامهم بالنتائج ومدى دقتها على خلاف الإغريق الذين كانوا يتساهلون غالباً بالدقة . ويهملون عن رضى كثيراً من الحسابات العويصة . إذ إن الأبحاث التى حققها العرب فى ميدان علم الهيئة والتنجيم تلبية لحاجاتهم اليومية ، تطورت تطوراً كبيراً حتى أصبحت أسساً جديدة لعلم الفلك .

لقد كان أهم الزيج التى دخل معظمها بلاد الغرب ، وعمل بها حتى أيام كوبرنيكوس Ko-pernikus ذاته دون قيد أو شرط لعدم توافر إمكانية القيام بعمليات رصد خاصة ، أو بتحقيق زيج خاصة كانت زيجة " الخوارزمى " و " المأمون " و " البتانى " و " ابن يونس المصرى " ، و"الزيجة الطليطلية " للزرقانى ، التى اعتمدت عليها الزيجة الألفونسية فيما بعد [٢٧٥].

يقول سيديو Sedillot : " لقد توصل فلكيو بغداد ، فى نهاية القرن العاشر ، إلى أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه إنسان فى رصد السماء وما دار فيها من كواكب ونجوم بالعين المجردة ، دون اللجوء إلى عدسات مكبرة أو منظار " ... ومن بين العرب الذين وصلت آثارهم إلى مواطن العلم الغربى بطريق مباشر ، نجد العالم الفرغانى الذى قام بقياسات طول خط الأرض المستقيم ، وكان أول من أدرك أن مدار الشمس والكواكب على مر الزمن يجرى فى اتجاه خلفى ، وكتاب " جوامع علم النجوم " للفرغانى ترجم غير مرة إلى اللاتينية " .

وقام ثابت بن قرة بقياس علو الشمس ومدة السنة الشمسية ، وقام البتانى بإكمال النتائج التى توصل إليها بواسطة قياساته الدقيقة الصحيحة لمدد السنوات الاستوائية والقطبية المختلفة ، بعد أن قام بقياس دوران الأرض حول الشمس بطريقتين مختلفتين . ثم تحقيقات للخوارزمى ، حين شرع بأبحاث حول ظهور الهلال الجديد وحول كسوف الشمس وخسوف

القمر ، وحول اختلاف المنظر من الأرض هذا وأن مقدمته للزيجة الصابئية الشهيرة قد ترجمت إلى اللاتينية ثم صدرت بالإضافة على مؤلف الفرغاني عام ١٥٣٧م في مدينة نورنبرج ، ثم طبعت ثانية كمخطوطة مفردة في مدينة بولونيا بإيطاليا عام ١٦٤٥م.

كان العرب يعتمدون في رصدهم للسماء على العين المجردة فقط ، ومع ذلك فقد تمكنوا من رؤية نقاط العديد من النجوم . هذا وقد توصل من قبل ، أبرخس العظيم ، إلى اكتشاف أكثر من ألف نجم في السماء ، ومن تحديد مواقعها فيها . ولم يجرؤ أحد على تصحيح ما أورده أبرخس إلا عبد الرحمن الصوفي (٩٠٣ - ٩٨٦م) في بغداد حوال منتصف القرن العاشر ، إذ قام بتكليف من السلطان عضد الدولة الذي بنى له مرصداً فلكيًا في حدائق قصره ، ليلة بعد ليلة برصد النجوم وعدها ، وحسب أبعادها أيضًا ، عرضًا وطولاً في السماء . فكان أن اكتشف نجوماً ثابتة عدة لم يلحظها بصر أبرخس قبله . ثم رسم خريطة للسماء بدقة كبيرة ، حسب فيها مواضع النجوم الثابتة وأحجامها من جديد .

لقد بدأعلم التنجيم بالانحسار إلى حد كبير بنفس السرعة والقوة التي أخذ فيها علم الفلك بالنمو والازدهار ، وشرع الفلكيون العرب يعتمدون في ذلك على أنفسهم منطلقين في رحاب واسعة فسيحة من التفكير الخلاق المبدع ، ولم يعد أمام التنجيم إلا الانزواء في دائرة ضيقة .

وبفضل الاعتماد على طرق رياضة متقدمة ، وخاصة علم المثلثات وبفضل العناية الفائقة في الحساب ، قدم علم التنجيم العربي زيجًا فاق كل تحقيقات علم التنجيم البابلي والهندي واليوناني في دقته وصحته .

فبواسطة العرب ، تعرفت أوروبا على أهم آثار القدامى ، وبفضل ترجماتهم للمخطوطات اليونانية وتعليقاتهم عليها ، وبفضل آثارهم الفكرية الخاصة أدخلت إلى العالم الأوروبي روح التفكير العلمي والبحث اللذين ما كانا بحاجة إلا إلى اليقظة والاهتمام حتى يظهر بالصورة التي ظهر عليها .

الهوامش

١ – دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى ، العشرين الميلادى ، تأليف محمد فريد وجدى ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧١م ، المجلد السابع ، ص ٤٨١ .

٢ – ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحق المعروف بالوراق) ، كتاب الفهرست ، تحقيق رضا تجدد بن على بن زين العابدين الحائرى المازندارى ، الطبعة الثالثة ، دار المسيرة ، طهران ، ١٩٨٨م ، ص ٢٩٩ .

٣ – علم الزيج ، هو صناعة حسابية على قوانين عددية ، كل كوكب من طريق حركته ، وما أدى إليه برهان الهيئة فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك ، يُعرف به موضع الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها ، على تلك القوانين المستخدمة من كتب الهيئة .

ولهذه الصناعة قوانين : كالمقدمات والأصول ، لها فى معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية ، وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض ، والميول وأصناف الحركات ، واستخراج بعضها من بعض يضعونها فى جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين وتسمى الأزياج . ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً .

– ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ، المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨٢م ، ص ٩٠٧ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، الكويت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص١١٢ ، وانظر : السيد آدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، الطبعة الثانية ، دار العربى البستانى ، القاهرة ١٩٨٧ – ١٩٨٨م ، ص ٨٢ ؛ وانظر أيضاً : رينهارت دوزى ، تكملة المعاجم العربية، ترجمة وتعليق د. محمد سليم النعيم ، جـ٥ ، بغداد ١٩٨٢م ، ص ٣٩٦ .

٤ – المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد القادر العبيدى) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، وضع حواشيه خليل المنصور ، الجزء الأول ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨، ص ١٣ ؛ وانظر أيضاً : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد العاشر ، إعداد وتحرير إبراهيم زكى خورشيد ، أحمد الشنتناوى ، عبد الحميد يونس ، ص ٦٩ ، ٧٤ .

٥ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٨٩ – ٨٩٠ .

٦ – ابن خلدون نفسه ، ص ٩٠٥ .

٧ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء الثانى ، ترجمة دكتور زكى نجيب محمود ، محمد بدران ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١م ، ص ٢٥٠ .

٨ – جورج سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الأول ، ترجمة محمد خلف الله ، مصطفى الأمير ، وطه الباقر ، ومحمد عبد الهادى أبو ريده ، ومحمد سليم سالم ، ورشيد الناضورى ، أحمد فؤاد الأهوانى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩١م ، ص ١٧٤ .

٩ – الكسوف والخسوف : إذا مر القمر على العقدة عند الاقتران أى وقت ميلاده فلابد من توسطه بين الأرض والشمس لأن الثلاثة أجرام تقع على خط مستقيم وهذا يسبب كسوف الشمس . ويحدث خسوف القمر من مروره فى ظل الأرض ، وهذا لا يمكن حدوثه إلا عند الاستقبال ، ففى نصف طريقه يمر فى ظل الأرض وفى النصف الثانى تحته ، فالخسوف يحدث والقمر فى إحدى العقدتين أو يقرب أحدهما . (البلخى : أبى زيد أحمد بن سهل) : كتاب البدء والتأريخ ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، منشورات محمد على ، دار الكتب العلمية ببيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ١٢٣؛ دائرة المعارف ، القرن العشرين ، المجلد السابع ، ص ٥٠٢ – ٥٠٤ .

١٠ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، والمجلد الرابع ، الجزء السابع ، ص ١٧٥ .

١١ – سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الأول ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

١٢ – سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الخامس ، ص ٢٠٩ .

١٣ – سارتون ، نفسه ، ص ٢١٠ – ٢١١ .

١٤ – سارتون ، نفسه ، الجزء الخامس ، ٢١٢ ، ٢١٤ .

١٥ – ساعد الأندلسى (أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد) : طبقات الأمم ، تحقيق حياة بو علوان ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٦٧ ، ٦٩ ، – ٧٠ ؛ وانظر أيضًا : القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن الأقضى الأشرف يوسف) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٥٠ ، ٥١ ؛ ابن العبرى (العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المالطى) ، تاريخ مختصر الدول ، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، دار الرائد اللبنانى ، الحازمية ، لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ ، ص ٧٢ – ٧٣.

١٦ – ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى) ، طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٥-٦ ؛ صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ١٠٦ – ١٠٧ ؛ القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٦ ؛ ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، تقديم وتحقيق دكتور المنجى الكعبى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣م ، ص ٤٣٦ – ٤٧٧ ؛ نيلينو ، علم الفلك ، ص ١٤٢ ، حاشية ١١ ، أيدين صابيلى ، المراصد الفلكية فى العالم الإسلامى ، ترجمة دكتور عبد الله العمر ، مراجعة دكتور عبد الحميد صبره ، سلسلة الكتب المترجمة ، ط١ ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، دار التأليف والترجمة والنشر ، الكويت، ١٩٩٥م ، ص ٩٦ .

١٧ – القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢-٣ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٩ ، وانظر أيضًا : الفهرست ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

١٨ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

١٩ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٧ ، صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٦٨ – ٦٩ ؛ سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص ٢٤٢ .

٢٠ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٩ ، صاعد الأندلسي ، نفسه ، ص ٧٤ .

٢١ – الفهرست ، ص ٣٢٩ ، صاعد الأندلسي ، ص ١٤٨ .

٢ – الفهرست ، ص ٣٢٩ .

٢٣ – الفهرست ، ص ٣٣٠ .

٢٤ – صاعد الأندلسي ، ص ٦٩ ، القفطي ، ص ٥٠ .

٢٥ – المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٣٦٠ ؛ جيمس هنري برستد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسي ، ترجمة حسين كمال ، مراجعة محمد حسنين الغمراوي ، الهيئة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م ، ص ١٠٥ .

٢٦ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ص ١٢١ ، وانظر : سليم حسن ، مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، الجزء الأول ، في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر الإهناسي ، ص ١٥٢ ، والجزء الثاني ، في مدينة مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الإهناسي ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

٢٧ – جيمس هنري بريستد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسي ، ص ٣٤ ، ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ص ١٢١ .

٢٨ – جيرالد هوكنز ، بدائع السماء ، ترجمة عبد الرحيم بدر ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٧م ، ص ٦٥، جيمس هنري برستد ، تاريخ مصر ، ص ١٠٥ .

٢٩ – رينيه تاتون وآخرون : تاريخ العلوم العام ، ترجمة دكتور علي مقلد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص ٥٦ .

٣٠ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ٢٨ .

٣١ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ٢٥٣ ؛ وانظر أيضًا : جفري بارندر ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة د. عبد الغفار مكاوي ، عالم المعرفة (١٧٣) سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ذو القعدة ١٤١٣هـ / مايو ١٩٩٣م ، ص ١٧٣ ، عبد الأمير المؤمن ، الفلك والفضاء من الخرافات والتنجيم إلى تلسكوب هابل، الطبعة الأولى ، الدار الثقافية النشر ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م ص ٣٢ .

٣٢ – ياقوت (شهاب الدين أبي عبد الله الحموي) ، معجم البلدان ، المجلد الثالث ، بدون تاريخ ، ص ٤٤١.

٣٣ – أوين جينكريتش ، علم الفلك الإسلامي ، مجلة العلوم الأمريكية للترجمة العربية ، المجلد الأول ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، تشرين الثاني ، ١٩٨٦م ، ص ١٧ .

٣٤ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ١٧ .

٣٥ – قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ١٥ ؛ نلينو ، علم الفلك ، ص ١٠٨ .

٣٦ – نلينو ، علم الفلك ، ص ١٠٢ .

٣٧ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ٢٥١ . وعن ذات الحلق يقول حاجي خليفة : هي أعظم الآلات هيئة ومدلولاً ، وتركب من حلقة تقام مقام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقام مقام المارة بالأقطاب ، تركب إحداهما في الأخرى بالتصنيف والتقطيع ، وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الأولى في محدب المنطقة والثانية في مقعرها ، وحلقة نصف النهار قطرها مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى ، ومن حلقة العرض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى فتوضع هذه على كرسي .

– حاجي خليفة (مصطفى عبد الله القسطنطين الرومي الحنفي) ، كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ، الجزء الأول ، ص١٤٦ .

٣٨ – نفسه ، ص ٢٥٣ .

٣٩ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

٤٠ – كنكه الهندي ، وله من الكتب كتاب النمو دار في الأعمار ، كتاب أسرار المواليد ، كتاب القرانات الكبير ، كتاب القرانات الصغير .

– ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ؛ صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٦٣ ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٨٤ ، ١٧٥ ؛ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي) ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ٤٣٥ ؛ جوزيف شاخت ، كليفورد بوزوث ، تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس ، د. إحسان صدقي العمد ، مراجعة فؤاد زكريا ، الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة ، عالم المعرفة (٢٣٤) سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يناير ١٩٧٨م ، ص ١٨٧ .

٤١ – جوبر الهندي ، وله من الكتب : كتاب المواليد ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ، ابن أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٣٦ .

٤٢ – صنجل الهندي ، كان من فضلاء علماء الهند ، وفضلائهم الخبيرين بعلم الطب والنجوم ، وله من الكتب كتاب أسرار المسائل ، الفهرست ، ٣٣٠ ؛ ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٣٥ .

٤٣ – نق الهندي ، وله من الكتب ، كتاب المواليد الكبير ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ، أورده ابن أبي أصيبعة باسم (شاناق) وقال عنه أنه كان بارعًا في علم النجوم حسن الكلام متقدمًا عند ملوك الهند ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٣٦ .

٤٤ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٥٢ .

٤٥ – صاعد الأندلسي ، نفسه ، ص ٥٤ – ٥٥ ؛ القفطي ، أخبار العلماء ، ص ١٧٥ .

٤٦ – أرثر كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة دكتور يحيى الخشاب ، مراجعة دكتور عبد الوهاب عزام ، (الألف كتاب الثاني) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، ص ١٩ .

٤٧ – القزويني (زكريا بن محمد بن محمد) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٢٣٤ ، عبد الأمير المؤمن : الفلك والقضاء ، ص ٤١ .

٤٨ – عنه يقول القزويني : هو وزير كشتاسف بن لهراسب ملك الفرس ، لم يعرف منجم مثله حكم على القرانات وأخبر بالحوادث التي تحدث ، وأخبر بخروج موسى وعيسى ، ونبينا عليه السلام ، وزوال الملة المجوسية وخروج الترك ونهبهم وقتلهم ، وخروج شخص يقهرهم وكثير من الحوادث بعدهم ، كل ذلك في كتاب يسمى أحكام جاماسب العجيبة : القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٣٤ ، ٥٧٢ ، نلينو ، علم الفلك ، ص ٢١٣ .

٤٩ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، وانظر أيضاً : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ – ٣٠٢ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٧٩ .

٥٠ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص ١٤٩ .

٥١ – عبد الأمير المؤمن : الفلك والقضاء ، ص ٤٥ .

٥٢ – " ميطن الإسكندري ، كان هذا الرجل إماماً في علوم الفلك ، قيماً بعلم الأرصاد ، وعمل آلاتها وأحكامها وأصولها ، وقد اجتمع هو وأقطيمن بالإسكندرية على أحكام الرصد ، ورصد ما أحبا من الكواكب لتحقيق مواضعها على زمانها ، ورصدا بالإسكندرية وكان زمانهما قبل زمن بطلميوس صاحب المجسطي بخمسمائة سنة وسبعين سنة " .

– القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١١ ؛ وانظر : صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٨٨ .

٥٣ – أقطيمن حكيم رياضي من أهل الإسكندرية في أيام اليونان ، كان عالماً بالرياضة ، محققاً للأرصاد ، خبير بعمل آلاتها ، اجتمع هو وميطن للرصد بمدينة الإسكندرية ، ورصدا وأثبتا ما تحققاه وتداوله العلماء بعدهما إلى زمن بطلميوس القلوذي الراصد بعدهما بالإسكندرية وكان زمانهما قبل زمانه بخمسمائة وإحدى وسبعين سنة " . القفطي ، ص ٥٠ ؛ صاعد الأندلسي ، ص ٨٨ .

٥٤ – القفطي ، ص ٥٠ ، ٢١١ ؛ وانظر : صاعد الأندلسي ، ص ٨٨ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٨ .

٥٥ – راجع ترجمته في ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٨ ؛ القفطي ، ص ٥٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣ – ٩ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٧٦ – ٧٧ ؛ وانظر : سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثالث ، ص ٢١٨ – ٢٢٠ ؛ جوزيف شاخت ، تراث الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٩٠ .

– وعن علم الأكر – يقول حاجي خليفة – هو علم يبحث فيه عن الأحوال العارضة للكرة من حيث أنها كرة من غير نظر إلى كونها بسيطة أو مركبة عصرية أو فلكية ، فموضوعه الكرة بما هو كرة وهي جسم

يحيط به سطح واحد مستدير في داخله نقطة يكون جميع الخطوط المستقيم الخارجة منها إليه متساوية في تلك النقطة ، مركز حجمها سواء كانت مركز ثقلها .

– حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، الجزء الأول ، ص ١٤٢ .

٥٦ – انظر ترجمة في : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٨ ؛ صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٨٨ ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٧٦ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٠٣ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٧٧ .

٥٧ – انظر ترجمته في الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ صاعد الأندلسي ، ص ٨٨ ؛ القفطي ، ص ٢١١ .

٥٨ – انظر ترجمته في : الفهرست ، ص ٣٢٦ ؛ القفطي ، ص ٥٢ .

٥٩ – انظر ترجمته طيموخارس في : القفطي ، ص ١٤٨ ؛ ابن العبري ، ص ١٠٠ ؛ وترجمة طيمالاؤس في: صاعد الأندلسي ، ص ٨٧ .

٦٠ – الفهرست ، ص ٣٣٠ ؛ ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٣٦؛ ص ٣٧ ، حاشية رقم ١٢ ؛ القفطي ، ص ٥١ ؛ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٤ ، جـ٨ ، ص ١٤٩ .

٦١ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ١٠٩ ؛ الفهرست ، ص ٣٠٠ ؛ أورد القفطي نفس المعلومات تحت اسم " فنون السكندري " ، ص ١٧٢ .

٦٢ – الفهرست ، ص ٣٢٨ ؛ القفطي ، ص ٧٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

٦٣ – سارتون ، تاريخ العلم ، جـ٥ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

٦٤ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٤ ، جـ٨ ، ص ١٥١ .

٦٥ – الاعتدالان (الربيعي والخريفي) هما نقطتا التقاطع على الدائرة السماوية لدائرتين عظماوين : دائرة المعدل (الاستواء السماوي) ودائرة فلك البروج ، ويمكن الافتراض أن الأخيرة دائرة ثابتة ولكن الأولى ليست كذلك ، فهي تنزلق رويداً ، ولذا فالاعتدالان يتحركان ، وتكون حركاتهما بالقهقرى .

– سارتون ، تاريخ العلم ، جـ٥ ، ص ١٥٢ ؛ دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد ٧ ، ص ٤٩٠ .

٦٦ – سارتون ، نفسه ، ص ١٥٥ .

٦٧ – سارتون ، نفسه ، ص ١٥٥ ، ١٥٧ .

٦٨ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٤ ، جـ٨ ، ص ١٥٢ .

٦٩ – لعله يقصد عالم بحكماء الكلدانيين .

٧٠ – القفطي : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٥٠ –٥١ ؛ وانظر : صاعد الأندلسي ، ص ٦٩ – ٧٠ ، ٨٨ ؛ العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٠٤ .

٧١ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السابع ، ص ٣٦٩ .

٧٢ – صاعد الأندلسي ، ص ٩٠ ؛ القفطي ، ص ٦٨ .

٧٣ – الدرجة : قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة من الفلك ، وفي مساحة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً، وتنقسم الدرجة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، والثانية إلى ستين ثالثة وترقى كذلك " . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٣٩ .

٧٤ – القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٧٢ .

٧٥ – انظر : الشهرزوري (شمس الدين محمد بن محمود) ، كتاب نزهة الأرواح وروضة الأفراح : تواريخ الحكماء ، راجعه وزشرف على تحقيقه دكتور محمد علي أبو ريان ، منشورات مركز التراث القومي والمخطوطات ، الطبعة الأولى ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ٤٣١ – ٤٣٢ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ ؛ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٦ ، جـ١١ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

– وعن اشتقاق لفظي المجسطي راجع : ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، والحاشية رقم ٩ ؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ، ص ٢٨٠ .

٧٦ – دائرة فلك البروج : هي دائرة عظيمة ترسمها الأرض بدوراتها السنوية حول الشمس سطحها يمر في مركز الأرض ومركز الشمس وهي مائلة على خط الاستواء ، ٢٣ درجة ، ٢٨ دقيقة ، دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد السابع ، ص ٤٩٠ .

٧٧ – راجع : البلخي (أبي زيد أحمد بن سهل) ، كتاب البدء والتاريخ ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ١١٥ ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ القفطي ، أخبار العلماء ، ص ٦٨ ، ٦٩ ؛ كشف الظنون ، جـ٢ / ١٥٩٤ – ١٥٩٦، نلينو ، علم الفلك ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

٧٨ – صاعد الأندلسي ، ص ٩١ ؛ القفطي ، ص ٦٩ .

٧٩ – صاعد الأندلسي ، نفسه ، ص ٩٠ – ٩١ . وانظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣١٨ ، ٣٢٧ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

٨٠ – نقل الكندي هذا الكتاب نقلاً رديئاً ، ثم نقله ثابت إلى العربي نقلاً جيداً . راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ؛ ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، حاشية رقم ١٠ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ ؛ كشف الظنون ، ١/ ٥٩٠ ؛ جرجي زيدان ، التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، ٩٦ .

٨١ – كتبه إلى سورى تلميذه ، نقل هذا الكتاب إبراهيم بن الصلت ، وأصلحه حنين بن إسحق ، وفسر المقالة الأولى أوطرقيوس ، وجمع المقالة الأولى ثابت وأخرج معانيها ، وفسره عمر ابن فرخان ، وإبراهيم بن الصلت والنيريزي والبتاني " . الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ القفطي ، ص ٦٩ ؛ وانظر : صاعد لأندلسي ، ص ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ .

٨٢ – هذا الكتاب فسره أحمد بن يوسف المصرى المهندس . الفهرست ، ص ٣٢٨ .

٨٣ – راجع : الفهرست ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ؛ ساعد الأندلسى ، ص ٨٨ ؛ القفطى ، ص ٦٨ – ٧٠ .

٨٤ – الكهانة : فى الحديث ، والكاهن هو الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة الأسرار ، وقد كان فى العرب كهنة كشق وسطيح وغيرهما ، فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن ورئياً يلقى إليه الأخبار ، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب ، يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهو يخصونه باسم العراف ، كالذى يدعى معرفة الشيء المسروق ، ومكان الضالة ونحوهما .

– قال الأزهرى : وكانت الكهانة قبل مبعث سيدنا رسول الله ﷺ ، فلما بعث نبينا ، بطل علم الكهانة .

– ابن منظور المصرى (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة)، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، المجلد الخامس ، ص ٣٩٥٠ ؛ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، الجزء الثانى ، ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥؛ وانظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٤ ، ٥٨٨ ، ٥٩٤ .

٨٥ – عن القيافة : يقول أبو عبيد : هو يقفو ، ويقوف ، أى يتبع الأثر . ابن منظور ، لسان العرب ، جـ٥ ، ص ٣٧٠٨ .

– فالقيافة : اسم مشتق من القفو ، وهو معنى استدلالى ، فالقائف يقارب بين الهيئات ، فيحكم للأقرب صورة ، لأن تشبيه النسل أقرب إلى تشبيه النوع ، وكذلك تشبيه الشخص إلى النوع أقرب (الجنس) واحد فهو أصل القيافة ، وهو ضرب من ضروب البحث وإلحاق النظير فى الأغلب بنظيره . وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار ، الحكم بالقيافة ، والدليل على فساد الحكم بها إلحاق النبى ﷺ الولد بأبيه حين شك فيه لعدم التشابه . المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٦٦ – ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢١٣ – ٢١٤ .

٨٦ – الفراسة ، بكسر الفاء : فى النظر والتثبت والتأمل للشيء والبصر به ، يقال إنه لفارس بهذا الأمر ، إذ كان عالمًا به . ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الخامس ، ص ٣٣٧٩ .

٨٧ – النجوم والأنواء سوف نتعرض لها فى حينها .

٨٨ – صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ١١٤ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٥٨ .

٨٩ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٢٠ – ١٢١ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٥٩ .

٩٠ – سورة الأنعام ، الآية : ٩٧ .

٩١ – القزوينى (أبو يحيى عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود القزوينى) : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، مطبوع على هامش حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، القاهرة ١٣٦٧هـ ، ص ٤٨ .

٩٢ – ابن منظور ، لسان العرب ، م٦ ، ص ٦٧ .

٩٣ – راجع : كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، جـ٤ ، الطبعة الحادية عشرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ص ٢٦ ؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي : العصر الجاهلية ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص ٢٩ ؛ محمود سليم الحوت ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م، ص٨٧ .

٩٤ – جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧١م ، جـ٨ ، ص ٤٢٣ .

٩٥ – انظر : فيليب حتي ، تاريخ العرب ، بالاشتراك مع إدوارد جورجي ، بيروت ، ١٩٦١م ، الجزء الأول، ص ١٣٤ .

٩٦ – سورة النمل ، آية : ٢٤ .

٩٧ – الدبران : هو كوكب أحمر منير يتلو الثريا ، ويسمي " تابع النجم " و " تالي الثريا " والمقصود بالنجم الثريا ، وسمي " الدبران " لاستدباره الثريا . والدبران هذا كان من أشهر النجوم التي يتشائم بها عند العرب .

– انظر : ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : الأنواء في مواسم العرب ، الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الدكن ، الهند ١١٧٥هـ / ١٩٥٦م ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

٩٨ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ١١٥ – ١١٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٥٩ .

٩٩ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٩٥ ، ٦٠٠ – ٦٠١ ، ١٠٠٦ .

١٠٠ – ابن خلدون ، نفسه ، ص ١٩٥ ، ٩٠٨ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ .

١٠١ – ابن خلدون ، نفسه ، ص ٥٩٥ – ٦٠٢ .

١٠٢ – ابن خلدون ، نفسه ، ص ١٠٠٧ .

١٠٣ – يحيى عبد الأمير الشامي ، النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي ، الطبعة الأولى ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٦٣ ؛ وانظر : نلينو ، علم الفلك ، ص ١٢٢ .

١٠٤ – سورة يونس ، آية : ٥ .

١٠٥ – سورة الصافات ، آية : ٦ .

١٠٦ – سورة الزمر ، آية : ٥ .

١٠٧ – سورة فصلت ، آية : ٣٧ .

١٠٨ – سورة الرحمن ، آية : ٥ .

١٠٩ – سورة الملك ، آية : ٥ .

١١٠ – سورة نوح ، آية : ١٦ .

١١١ – سورة الحجر ، آية : ١٦ .

١١٢ – سورة الفرقان ، آية : ٦١ .

١١٣ – سورة النجم ، آية : ٤٩ .

١١٤ – سورة البروج ، آية : ١ .

١١٥ – انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ، الكويت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١١٠ .

١١٦ – سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

١١٧ – سورة الرعد ، آية : ٩ .

١١٨ – سورة النمل ، آية : ٦٥ .

١١٩ – سورة لقمان ، آية : ٣٤ .

١٢٠ – سورة الحشر ، آية : ٢٢ .

١٢١ – سورة الجن ، آية : ٢٦ .

– وانظر أيضًا : سورة آل عمران ، الآيتان : ٤٤ ، ١٧٩ ؛ سورة الأنعام ، الايتان : ٥٠ ، ٧٣ ؛ الأعراف / ١٨٨ ؛ التوبة / ٩٤ ، ١٠٥ ؛ يونس / ٢٠ ؛ هود / ٣١ ، ٤٩ ؛ يوسف / ١٠٢ ؛ مريم / ٧٨ ؛ المؤمنون / ٩٢ ؛ السجدة / ٦ ؛ سبأ / ٣ ، ١٤ ؛ المؤمنون / ٩٢ ؛ الزمر / ٤١ ؛ الطور / ٤١ ؛ النجم / ٣٥ ؛ الحشر / ٢ ؛ الجمعة / ٨ ؛ التغابن / ١٨ ؛ القلم / ٤٧ ؛ التكوير / ٢٤ .

١٢٢ – الدميرى (كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى) : حياة الحيوان الكبرى ، نشره عبد الحميد أحمد حنفى بمصر ، المجلد الأول ، ص ١٣ .

١٢٣ – ابن أبى طالب (الإمام على) ، كتاب نهج البلاغة ، شرح ابن أبى الحديد ، دار المعرفة ، دار الكتاب العربى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، الجزء الأول ، ص ٢٠٣ ؛ يحيى عبد الأمير الشامى ، النجوم فى الشعر العربى القديم ، ص ٦٥ – ٦٦ .

١٢٤ – يحيى عبد الأمير ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .

١٢٥ – ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ٤٥٦٦ .

١٢٦ – ابن منظور ، نفسه ، ص ٤٥٦٧ .

١٢٧ – سورة القصص ، آية : ٧٦ .

١٢٨ – لسان العرب ، ص ٤٥٦٦ .

١٢٩ – لسان العرب ، ص ٤٥٦٧ ؛ وانظر : نلينو ، علم الفلك ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

١٣٠ – ابن منظور ، المصدر السابق ، م٦ ، ص ٤٥٦٧ ؛ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار التراث ، بيروت ، لبنان ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

١٣١ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص ١١٩ .

١٣٢ – قال شَمِرٌ : وقد رأيتها بالهندية والرومية والفارسية مترجمة . قال وهي بالعربية فيما أخبرني به ابن الأعرابي : ... قال ولا تستتيء العرب بها كلها وإنما تذكر بالأنواء بعضها وهي معروفة في أشعارهم وكلامهم . لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ٤٥٦٧

١٣٣ – ابن منظور ، المصدر السابق ، ص ٤٥٦٧ ؛ ابن قتيبة ، الأنواء في مواسم العرب ، ص ٩ ؛ جرجي زيدان ، تاريخ آدابَ اللغة العربية ، جـ١ ، ص ١٧٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص١١٩ – ١٢٠ .

١٣٤ – ابن منظور ، لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٧ – ٤٥٦٨ .

١٣٥ – ابن قتيبة : الأنواء ، مقدمة المصححين ، ص ح .

١٣٦ – لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ٤٥٦٨ ؛ يحيى عبد الأمير ، ص ٨٧ .

١٣٧ – سورة الواقعة ، آية : ٨٢ .

١٣٨ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ ؛ وانظر : الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد) ، مجمع الأمثال ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١م، الجزء الثاني ، ص ٢٩٥ .

١٣٩ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ .

١٤٠ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٠٦ ؛ لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ ؛ وانظر : البلخي ، البدء والتاريخ ، ص ١٢٣ ؛ المبرد في اللغة والأدب ، جـ٢ ، ص ٣٥١ .

١٤١ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ .

١٤٢ – الثريا هي ستة كواكب متقاربة جداً ، ومعها سابع خافت ، سميت بهذا الاسم لما ينجم عن مطرها من الثروة والغنى . ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٢م ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد العاشر ، ص ٣٢٨ ؛ يحيى عبد الأمير ، النجوم في الشعر العربي القديم ، ص ٩٣ .

١٤٣ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ .

١٤٤ – نقلاً عن : آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ٧٣ .

١٤٥ – نلينو ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

١٤٦ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٣ ، ٤١٩ ؛ صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ١٢٧ – ١٢٨ ، نلينو ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

١٤٧ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٥ .

١٤٨ – انظر : آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ٦٩ .

١٤٩ – جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، ص ٢١٠ .

١٥٠ – قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، ط٢ ، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٦٤ – ٦٥ ؛ حسين الحاج حسن ، حضارة العرب في العصر العباسي ، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ٩٧ .

١٥١ – نقلاً عن : آيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

١٥٢ – آيدين صاييلي ، نفسه ، ص ٦٩ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ .

١٥٣ – سورة الأنعام ، آية : ٩٧ .

١٥٤ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد العاشر ، ص ٧٤ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص ١١٠ .

١٥٥ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٠٦ .

١٥٦ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ؛ صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون وغيرها .

١٥٧ – ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٦ ؛ وانظر : المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٤.

١٥٨ – عنه انظر : الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ صاعد الأندلسي ، ص ١٥١ .

١٥٩ – راجع : اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن جعفر) ، البلدان ، مطبعة بريل ، بالأوفست ، بغداد ١٨٩٢م ، ص ٢٣٨ ؛ القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣١٤ ؛ زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا ، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري ، الطبعة السادسة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٦٨ ؛ سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٢٤٥ .

١٦٠ – اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٤١ ؛ البيروني (أبو الريحان محمد) ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ليبزك ١٨٧٨م ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ؛ نلينو ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

١٦١ – قال أبو سهل : فلما دخلت على منصور ومثلت بين يديه قيل لي : تسم لأمير المؤمنين (أي قل اسمك) فقلت : اسمي خرشاذماه طيماذاه ماباذاه خسرو أبهما شاذ . فقال لي المنصور : كل ما ذكرت

فهو اسمك (قال) قلت : نعم . فتبسم المنصور ثم قال ما صنع أبوك شيئًا فاختر منى خلتين إما أن اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماز ، وإما أن تجعل لك كنية فيقوم مقام الاسم وهو أبو سهل . قال أبو سهل : قد رضيت بالكنية . فبقيت كنيته وبطل اسمه . ابن أبى أصيبعة ، وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ١٩٦ – ١٩٧ ؛ القفطى ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢١٦.

١٦٢ – ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ١٩٦ ؛ القفطى ، ص ٢٨٥ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .

١٦٣ – الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ القفطى ، أخبار العلماء ، ص ١٦٨ – ١٦٩ .

١٦٤ – نلينو ، ص ١٤٦ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى جـ٤ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

١٦٥ – أيدين صاييلى ، ص ١٠٢ .

١٦٦ – أزرد القفطى مرة باسم إبراهيم بن حبيب الفزارى ، ص ٤٢ ؛ وباسم محمد بن إبراهيم الفزاري فى مكان آخر من نفس المؤلف ، ص ١٧٧ ؛ وانظر : صاعد الأندلسى ، ص ١٣٠ . وعن ما ورد فى ذكر الاختلافات حول اسم الفزارى وشخصيته راجع : نلينو ، ص ١٥٦ – ١٦٣ .

– وعن الفزارى هذا يقول القفطى : " فاضل فى علم النجوم متكلم فى حوادث الحدثان ، خبير ، بتسيير الكواكب ، وهو أول من عُنى فى الملة الإسلامية ، وفى أوئل الدولة العباسية بهذا النوع " . القفطى ، أخبار العلماء ، ص ١٧٧ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

١٦٧ – وفى معنى كلمة اسطرلاب زعم بعضهم أن " أسطر " معناها تصنيف و" لاب " اسم حكيم اخترع الاسطرلاب ، وهو ابن هرمس الحكيم . كما حكى صاحب المقامات الحريرية عن أبى نصر الثمين ، أنه قال : إن لاب لما رسم من الدواير الفلكية فى سطح مستو سئل عنه هرمس بأن يقول من سطر هذا أو يقول هو فى جوابه سطره لاب ولهذا سمى اسطرلاب . راجع : سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٤٣ .

– يقول ابن النديم عند الكلام عن الآلات وصناعتها : " كانت الاسطرلابات فى القديم مبطحة (مسطحة) . وأول من عملها بطلميوس . وقيل عملت قبله ، وهذا لا يدرك بالتحقيق . وأول من سطح الاسطرلاب أبيون البطريق ، وكانت الآلات تعمل بمدينة حران ، ثم نبشت وظهرت ، ولكنها زادت ، واتسع الصناع للعمل فى الدولة العباسية " . ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ .

– وأبيون (أنيون) البطريق حكيم رياضى مهندس عالم بصناعة الآلات الفلكية ، كان فى حدود مبدأ الإسلام قبله أو بعده ، فمن تصنيفه كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح ") .

– ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ؛ القفطى ، ص ٥١ .

– ويستخدم الاسطرلاب أساسًا فى تحديد ارتفاعات الكواكب عن الأفق ، وتعيين الزمن . وهو يتكون من قرص معدنى مقسم إلى درجات ، ويدور على هذا القرص مؤشر ذو ثقبين فى طرفيه ، ويعلق الاسطرلاب

من حلقته رأسيًا مع توجيه المؤشر نحو الشمس ، وعندما تمر أشعة من هذين الثقبين ، يقرأ ارتفاع الكوكب من الحد الذى يقف عليه المؤشر .

– سعيد عبد الفتاح عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١١٣ ، وانظر أيضًا : دوزى : تكملة المعاجم العربية ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ .

Arnaldez, in Arabica, Volume Spécial Publié à l'occasion du mille deux centi-aniversaire de la fondation de Bagdad, E.J. Brill, Leiden, 1962, p. 357 .

١٦٨ – الفهرست ، ص ٣٣٢ ؛ القفطى ، ص ٤٢ .

١٦٩ – المسعودى ، مروج الذهب ، الجزء الرابع ، ص ٣١٤ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م ، ص ٤٥٦ ؛ جرجي زيدان ، التمدن الإسلامى ، الجزء الثالث ، ص ١٦٢ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

١٧٠ – هو محمد بن الحسين بن حميد الشهير بابن الأدمى (كان حيًا قبل ٣٠٨ هـ / ٩٢٠م) عالم فى هيئة الأفلاك وحساب حركات النجوم ، صنف زيجه الكبير وأتمه بعد وفاته تلميذه القاسم بن محمد بن هاشم المدائنى العلوى ووسمه بكتاب " نظم العقد " وشهره سنة ٣٠٨هـ / ٩٢٠م . وهو كتاب جامع لصناعة التعديل ويشتمل على أصول علم هيئة الأفلاك ، وحساب حركات النجوم على مذهب السندهند ، وذكر فيه من حركة إقبال الفلك وإدباره ما لم ينكر أحد قبله . (ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٩ ؛ صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٣١ والحاشية رقم ١١ ، ص ١٤٦ – ١٤٧ ؛ القفطى ، ص ١٨٥ ؛ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٥٩م ، المجلد التاسع ، ص ٢٣٩ .

١٧١ – مفردها كردجة : أجمع أكثر المستشرقين على أن كردجة لفظ دخيل أصله الهندى كرمجيا Krama-jya أى الوتر المستوى . عن أصلها ومعناها راجع : نلينو ، ص ١٦٨ – ١٧١ .

١٧٢ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٣٠ ، ١٣١ – ١٣٢ ؛ القفطى ، ص ١٧٥ ، ١٧٧ ؛ وانظر : المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٤ ؛ نلينو ، ص ١٤٩ – ١٥٠ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ٦٥ – ٦٦ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١١٤ .

١٧٣ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٦ ؛ القفطى ، ص ٢٤٧ ؛ وانظر : صاعد الأندلسى ، ص ١٥١ .

١٧٤ – نلينو ، علم الفلك ، ص ٢١٤ .

١٧٥ – عن البتانى راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٨ ؛ صاعد الأندلسى ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ القفطى ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ؛ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨ – ١٩٧٨م ، المجلد الخامس ، ص ١٦٤ ؛ ترجمة رقم ٧٠٩ ؛ ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٣٠ – ١٣٣ .

١٧٦ – نلينو ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

١٧٧ – انظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٤ ؛ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٢٥٨ ؛ ابن القفطي ، ص ١٦٢ ؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ، ص ٤٩٣ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ٦٦ .

١٧٨ – عنه يقول ابن النديم : " ما شاء الله ، ابن أثرى ما شاء الله ميشى ، ومعناه يثرو ، وكان يهودياً في أيام المنصور ، وإلى أيام المأمون . وكان فاضلاً أو حد زمانه في علم الأحكام ، وله من الكتب ، كتاب المواليد الكبير ، ويحتوى على أربعة عشر كتاباً . كتاب الواحد والعشرين في القرانات والأديان والملل ، كتاب مطرح الشعاع ، كتاب المعاني ، كتاب صنعة الاسطرلاب والعمل بها ، كتاب ذات الحلق ، كتاب الأمطار والرياح ، كتاب السهمين ، كتاب المعروف بالسابع والعشرين ، الكتاب الأول ابتداء الأعمال . الكتاب الثاني على الدفع والتدبير ، الكتاب الثالث في المسائل ، الكتاب الرابع في شهادات الكواكب ، الكتاب الخامس في الحدوث ، الكتاب السادس في تسيير النيرين وما يدلان عليه ، كتاب الحروف ، كتاب السلطان ، كتاب السفر ، كتاب الأسعار ، كتاب المواليد ، كتاب تحويل سني المواليد ، كتاب الدول والملل ، كتاب الحكم على الاجتماعات والاستقبالات ، كتاب المرضى ، كتاب الصور والحكم عليها " . ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ وانظر : القفطي ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

١٧٩ – أيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١٠٩ .

١٨٠ – ذات الحلق : اسم آلة وردت في كتاب المجسطي لبطلميوس ، وفي كتاب ألفه برقلس اليوناني من علماء القرن الخامس الميلادي ، وهي تشتمل على سبع حلقات معدنية متحركة مركبة في بعضها ، يقاس بها كل ما يقاس بالاسطرلاب المسطح ، وتسمى بالفرنسية Sphére Armmillaire – نلينو ، علم الفلك ، ص ١٤٨ ؛ دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد السابع ، ص ٤٨٤ – ٤٨٥ ؛ سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٢٥١ .

١٨١ – نفس المرجع والصفحة ، كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .

– وانظر أيضاً : Dresdensi, Globus Coelestis, Arabicus, Hipseal, 1865 .

١٨٢ – من أحبار الناس في علم النجوم وأكثرهم إصابة في أحكامه ، ابن وادران ، ص ٢٠٦ ، ٢٨٢ ؛ نلينو ، ص ١٤٨ .

١٨٣ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٢ ؛ صاعد الأنجلسي ، ص ١٤٢ ؛ القفطي ، ص ١٦١ – ١٦٢ ؛ عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ٧ ، ص ٣٠٤ .

١٨٤ – جنديسابور : بضم أوله ، وتسكين ثانيه ، وفتح الدال ، وياء ساكنة ، وسين مهملة ، وألف وباء موحدة مضمومة ، وواو ساكنة ، وراء ، مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير ، فنسبت إليه ، وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الثاني ، ص ١٧٠ ؛ وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ١٩٩٢ ، ص ١٠٤ .

١٨٥ – أيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ١١٣ .

١٨٦ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٤ .

١٨٧ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٦٩ .

١٨٨ – الفهرست ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ؛ وانظر أيضاً : نلينو ، ص ٢٢٧ .

١٨٩ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ٧٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٩٩ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ ؛ نلينو ، ص ٢٢٠ .

١٩٠ – ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، تقديم وتحقيق دكتور المنجي الكعبي ، الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ١٩٩٣م ، ص ٢٥٧ ، ٤٦٦ .

١٩١ – " الأوائل " : جمع " أول " ويستخدم اللفظ اصطلاحياً للدلالية على أفكار شتى ، مثل " المعلومات الأولية " للظواهر الفلسفية أو الطبيعية ، و " القدامى " الذين عاشوا في الجاهلية وصدر الإسلام و "المخترعين الأوائل " للأشياء . دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص ١٦٥ .

١٩٢ – المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٨ .

١٩٣ – السيوطي (جلال الدين) ، تاريخ الخلفاء ، حققه وقدم له الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ، الشيخ ، محمد العثماني ، الطبعة الأولى ، دار القلم للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣٦٩ ؛ ابن وادران ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ ، ٤٦٧ .

١٩٤ – ابن وادران ، نفسه ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ ، ٤٨٥ .

١٩٥ – عادل زيتون ، العباسيون يرعون العلم والعلماء ، مقالة بمجلة العربي ، العدد ٥٠٩ ، محرم ١٤٢٢هـ / أبريل ٢٠٠١م ، ص ٧٦ ؛ مفتاح دياب ، مقدمة في تاريخ العلوم ، ص ٢٩ – ٣٠ .

– ويذكر André Miquel أن بيت الحكمة اشتهر على وجه الخصوص بأعمال المنجمين

André Miqruel, L'Islam et sa civilisation (VII-XXs), Armand Colin, 2em edition, Paris, 1977, p. 158 .

– عنه يقول ابن أبي أصيبعة الحجاج بن مطر : نقل للمأمون ومن نقله كتاب إقليدس ، ثم أصلحه ونقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني ابن ناعمة .. كان متوسط النقل وهو إلى الجودة أميل . ويذكر أنه قد قيل أن الحجاج بن مطر نقل كتاب المجسطي إلى العربية .

١٩٦ – ابن أبي أصيبعة ، ص ٢٥٧ ، ٣٠٤ ، ٣٢٧ ؛ انظر : القفطي ، المصدر السابق ، ص ٤٦ – ٤٧ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية الدكتور السيد يعقوب بكر ، والدكتور رمضان عبد التواب ، الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ٩٢ – ٩٣ .

١٩٧ – " يوحنا البطريق : الترجمان ، مولى المأمون ، أمير المؤمنين كان أميناً على الترجمة ، حسن التأدية للمعاني ، ألكن اللسان في العربية ، ترجم كثيراً من كتب الأوائل .

- ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٧ ، ترجمة رقم (٢٣) ، القفطي ، ص ٢٤٨ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٩ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، جـ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

١٩٨ - كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانيًا . قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة ، مما وجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سباها المسلمون ، ووضعه أمينًا على الترجمة ، ووضع له كتابًا حذاقًا يكتبون وخدم هارون والأمين والمأمون ، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل .

- راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٥٤ ؛ ابن جلجل ، المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ترجمة رقم (٢٢) ؛ صاعد الأندلسي ، ص ١٠١ ؛ القفطي ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ؛ مفتاح محمد دياب ، مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، الهيئة القومية للبحث العلمي ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ١٤٠١هـ / ١٩٩٢م ، ص ٦٦ .

١٩٩ - راجع : الفهرست ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

٢٠٠ - راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ؛ ابن جلجل ، المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٦٧ ؛ صاعد الأندلسي ، ص ١٠١ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ غوستان لوبون، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ ؛ عادل زيتون ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

F.E. Peters, Aristotle and the Arabs (New York : New York University Press, 1969; R. Walger, Greek into Arabic (Columbia, S.C. University of South Carolina Press, 1962); Max Mayerhof, Van Alexandria nach Baghdad, in Sitzungberichate der prüssiachen Almadenie der vrssnchaftene no. 23 (1930), pp. 389 - 429 .

٢٠١ - القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

٢٠٢ - الشماسية : بفتح أوله وتشديد ثانية ثم سين مهملة ، منسوبة إلى بعض شماسي النصارى . وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٣٦١ .

٢٠٣ - قاسيون : بالفتح ، وسين مهملة ، والياء من تحتها نقطتان مضمومة ، وآخره نون ، وهو الجبل المشرف على مدينة دمشق ، وفيه عدة مغاور وفيه آثار الأنبياء وكهوف ... " ياقوت ، نفسه ، م٤ ، ص ٢٩٥ .

٢٠٤ - القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

٢٠٥ - ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٤ .

٢٠٦ - آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١١٦ .

٢٠٧ - صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ ؛ القفطي السابق ، ص ١٤٨ ، ٢٣٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٧ ؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون .

– ويذكر ابن النديم فى أخبار آل المنجم أن أبى منصور فارسى الأصل (كما يتضح من اسمه) أبان حسيس بن ورید بن کاد ... بن یزنجرد ، وكان يحيى ابنه مولى المأمون وكنيته أبو على ، وكان أولاً متصلاً بالفضل بن سهل ، يعمل برأيه فى أحكام النجوم . فلما حدثت على الفضل الحادثة (أى نكب) اجتباه المأمون ورغبه في الإسلام فأسلم على يده واختصه . ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٦٠ ؛ وانظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص ٧٩ فى الترجمة رقم ٧٨٠ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، جـ٤ ، ص ٢٠٢ .

٢٠٨ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ١٦٢ ، ٢٣٤ ؛ ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

٢٠٩ – راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ؛ بروكلمان، المرجع السابق ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

٢١٠ – راجع نسبة إلى المروزيين نسبة إلى مرو ... وهي محلة كانت ببغداد ، متصلة بالحربية ، خربت الآن سكنها أهل مرو فنسبت إليهم . (ياقوت ، معجم البلدان ، م ٥ ، ص ٩٦) .

٢١١ – القفطي ، نفسه ، ص ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٨٧ .

٢١٢ – ابن النديم ، المصدر الابق ، ص ٢١٢ .

٢١٣ – ابن النديم ، نفسه ، ص ٣٤٢ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٤ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

٢١٤ – نقلاً عن أيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ٢٣٦ .

٢١٥ – حبشي الحاسب المروزى واسمه أحمد بن عبد الله بغدادى الدار كان فى زمن المأمون والمعتصم بعده وله تقدم فى حساب تسيير الكواكب وشهرة بهذا النوع ، وله من الكتب كتاب الزيج الدمشقى ، كتاب الزيج المأموني ، كتاب الأبعاد والأجرام ، كتاب عمل الاسطرلاب ، كتاب الرخائم والمقاييس ، كتاب الدوائر الثلاث المماسة وكيفية الأوصال ، كتاب عمل السطوح المبسوطة والقائمة والمائلة والمنحرفة . (انظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٤ ؛ القفطي ، ص ١١٧ ؛ وانظر : كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣) .

٢١٦ – دير مُران : بضم أوله " بلفظ تثنية المُرّ ... هذا الدير بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة ، وبناؤه بالجص ، وأكثر فرشه بالبلاط الملون ، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة... " (ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م٢ ، ص ٥٣٣ ، م٥ ، ص ٩٥ .

٢١٧ – حبش الحاسب ، نقلاً عن أيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١٢٠ ؛ وانظر أيضاً : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ .

٢١٨ – أيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

٢١٩ – راجع : ياقوت ، معجم البلدان ، م٣ ، ص ٦٠ .

٢٢٠ – نلينو ، علم الفلك ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

٢٢١ – سنجار : بكسر أله وسكون ثانيه ثم جيم وآخره راء ، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وهي في لحف جبل عال ... وقال حمزة الأصبهاني : سنجار تعريب سنكار ، ولم يفسره ، وهي مدينة طيبة في وسط نهر جار ، وهي عامرة جداً ، وقدامها واد فيه بساتين ذات أشجار ونخل وترنج ونارنج ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام أيضاً .

– ياقوت ، معجم البلدان ، م٣ ، ص ٢٦٢ ؛ وانظر أيضاً : القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٩٣ .

٢٢٢ – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، المجلد الخامس ، ص ١٦٢ – ١٦٣ في ترجمة ابن شاكر رقم ٧٠٨ .

– هذه الرواية صحيحة عدا الغلط الذي حدث في نسبة هذه الرواية إلى بني موسى بن شاكر ، حيث أجمع كل الفلكيين على نسبتها إلى المنجمين أصحاب الزيج الممتحن ، وليس إلى بني موسى الذين كانوا في هذا الوقت في عنفوان الشباب ولم ينالوا في العلوم والأرصاد شهرة إلا بعد موت المأمون ، كما يظهر من رواية القفطي ، فلا شك أنهم إن اشتركوا في ذلك القياس حقيقة إنما فعلوه معاونين لفلكي المأمون لا بمقام مديري الأعمال .

– راجع رواية القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ؛ وانظر : نلينو ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

٢٢٣ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ١٦٢ ، ٢٣٤ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

٢٢٤ – حران : بتشديد الراء وآخره نون .. وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور ، وهي قصبة ديار مُضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان ، وهي على الطريق للموصل والشام والروم ... وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل .

– ياقوت ، معجم البلدان ، م٢ ، ص ٢٣٥ ؛ انظر : وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، ص ١٠٥ .

٢٢٥ – ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

٢٢٦ – أيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ – ١٤٥ ؛ غوستان لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ .

Bernard Goldstein, Theory and Observation in Medieval Astronomy, Isis 63 (1972); 39 - 47; and George Saliba, Theory and Observation in Islamic Astronomy, The Work of Ibn Al-Shair, Journal for the History of Astronomy 18 (1987); 35 - 43 .

٢٢٧ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣١ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ؛ القفطي، المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٤٨ ، ١٦٢ .

٢٢٨ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٤ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ ؛ القفطي، المصدر السابق ، ص ١١٧ .

٢٢٩ – أيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

٢٣٠ – وقد انتشر زيج الشاه ومذاهبه بين عرب المشرق ، ولو لم يدرك عندهم قدر شهرة السندهند واعتمد "ماشاء الله" على ذلك الزيج ، وإن محمد بن موسى الخوارزمي جعله في زيجه تعاديل الكواكب على مذهب الفرس وأوساطها على تاريخ يزدجرد ، أما أبو معشر فقال صاعد الأندلسي وحاجي خليفة أن

زيجه الحساب من فارس وغيره أجمعوا على أن أصح الأنوار ، أنوار هذه الفرقة ويسمونها سني العالم، وأما أهل زماننا يسمونها سني أهل فارس .

– راجع : صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص٦٢-٦٣ ؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ؛ وانظر : الفهرست ، ص ٣٠٢ ؛ ابن العبري ، ص ٧٩

٢٣١ – راجع : صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص١٤٠ – ١٤١؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢؛ وانظر : الفهرست ، ص ٣٢٤ ؛ وانظر : دائرة المعارف الإسلامية ، م١٣ ، ص ٣٠٣ – ٣٠٤ .

٢٣٢ – كان أبوه محمد بن كثير الفرغاني منجمًا ، مقدمًا في صناعته . وله من الكتب ، كتاب الفصول لختيار المجسطي ، كتاب عمل الرخامات .

– ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٧ ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ١٨٨ ؛ وانظر : كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ – ٢٠٢ .

٢٣٣ – ابن صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٥٦ .

٢٣٤ – الدوميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى ، نشر دار القلم ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ١٦٧ .

٢٣٥ – لمزيد من التفاصيل راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣٠ – ٣٣١ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ – ١٤٢ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٨٦ – ٢٨٨ ؛ ابن الكان، وفيات الأعيان ، المجلد الخامس ، ض ١٦١ – ١٦٣ ، ترجمة رقم ٧٠٨ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ – ١٦٨ ؛ غوستان لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ ؛ وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، ص ١٣٠ .

٢٣٦ – صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٧٧ – ١٧٨ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٠٤ – ١١١ ؛ وانظر : كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ – ١٦٥ .

٢٣٧ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ – ١٨٨ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

٢٣٨ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد التاسع ، ص ٣٠٧ .

– التسيير : ويعرف عند أهل الغرب بـ Directio, Athacir , Atacir, atazir عمل في صناعة الأحكام محصلة أن أصحاب هذه الصناعة يفرضون كوكبًا سيارًا أو بيتًا أو موضعًا في تلك البروج ثم يقيمون ما بينه وبين كوكب آخر أو شعاعه أو بيت آخر على وجه التشبيه والتمثيل ، وغرضهم من ذلك معرفة درجة ما بينهما بمطالع خط الاستواء للاستدلال بها على ما يحدث في المستقبل من خير وشر ، وذلك بتحويل هذه الدرجة إلى جزء من أجزاء الزمان .

– دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد التاسع ، ص ٣٠٧ .

٢٣٩ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ ؛ وانظر أيضاً : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

٢٤٠ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

٢٤١ – القفطي ، نفسه ، ص ١٨٧ .

٢٤٢ – القفطي ، نفسه ، ص ١٢٨ .

٢٤٣ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ ؛ القفطي ، نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ؛ ابن العبري ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ .

٢٤٤ – راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٨٠ – ٨٤ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ٢ ، ص ١٩٦ – ١٩٨ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٢٦ – ١٢٩ ؛ وانظر : دائرة المعارف الإسلامية ، م١٠ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٧ .

٢٤٥ – نسبة إلى بتَّان : بفتح الباء الموحدة وتشديد التاء المثناة من فوقها ، وبعد الألف نون وهى ناحية من أعمال حران .

– ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٣٣٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م٥ ، ص ١٦٤ .

٢٤٦ – صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ وانظر أيضاً : ابن النديم ، المصدر السابق، ص ٣٣٨ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، م٥ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ، ترجمة رقم ٧٠٩ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ ابن العبري، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

٢٤٧ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ ؛ آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١٦٨ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

٢٤٨ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السادس ، ص ١٩٤ ؛ عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، الطبعة السابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص ٢٣٨ .

٢٤٩ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السادس ، ص ١٩٤ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول ؛ العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١١١ .

٢٥٠ – طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٣٠ – ١٣٣ .

٢٥١ – البلخى : بفتح الباء الموحدة وسكون اللام ، وبعدها خاء معجمة ، هذه النسبة إلى بلخ ، وهى مدينة عظيمة من بلاد خراسان . راجع : ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص ٤٧٩ – ٤٨٠ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م١ ، ص ٣٥٩ .

٢٥٢ – راجع باقي مؤلفاته في : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ – ٣٣٦ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ – ١٤٥ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ – ١٠٧ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ص ٣٥٨ – ٣٥٩ ، ترجمة رقم ١٣٦ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٥ – ٢١٠ .

٢٥٣ – راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣٨ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ؛ أيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٧ .

٢٥٤ – هو أبو القاسم علي بن الحسن العلوي المعروف بابن الأعلم ، وعنه يقول ابن القفطي : " صاحب الزيج رجل شريف عالم بالهيئة وصناعة التسيير ، مذكور مشهور في وقته ، وكان قد تقدم عند عضد الدولة .. " . القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

٢٥٥ – هو أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفي ، من تصانيفه : كتاب الكواكب الثابتة مصوراً ، كتاب الأرجوزة في الكواكب الثابتة مصوراً ، كتاب التذكرة ومطارح الشعاع ، ولد سنة ٢٩١هـ / ٩٠٣م وتوفي سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م . القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ – ١٥٣ ؛ وانظر : الفهرست ، ص ٣٤٢ .

٢٥٦ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٧ – ٢١٩ ؛ أيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

٢٥٧ – عبد الأمير المؤمن ، الفلك والفضاء ، ص ١١٨ .

٢٥٨ – الدوميلي ، العلوم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، ص ٢١٣ ؛ وانظر : عبد الرحمن الصوفي ، صور الكواكب الثمانية والأربعين ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ١٩ ؛ عبد الأمير ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

٢٥٩ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

٢٦٠ – عنه يقول القفطي : هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابيء ، أصله من حران ، نشأ ببغداد ، وتأنب بها ، وله اليد الطولى في علم الرياضة وخصوصاً الهندسة والهيئة ، ولما عزم شرف الدولة بن عضد الدولة على رصد الكواكب ببغداد واعتمد في ذلك على ويجن بن رستم القوهي ، كان في جملة من يحضروه من العلماء بهذا الشأن إبراهيم بن هلال وكتب بخطه في المحضر الذي كتب بصورة الرصد ، وإدراك موضع الشمس من نزولها في الأبراج ، توفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ . القفطي ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ، ٥٥ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الرابع عشر ، ص ٨٣ – ٨٥ .

٢٦١ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤١ – ٣٤٢ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ – ٢٢٢ .

٢٦٢ – القفطي ، نفسه ، ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ؛ وانظر أيضاً : آيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

٢٦٣ – وبُوزجان : بضم الباء الموحدة ، وسكون الواو والزاي ، وفتح الجيم ، وبعد الألف نون ، وهي بليدة بخراسان بين هراة ونيسابور . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص ٥٠٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م٥ ، ص ١٦٧ .

٢٦٤ – ابن خلكان ، نفسه ، ص ١٦٧ ، ترجمة رقم ٧١٠ .

٢٦٥ – آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١٨٣ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٤٧ – ١٤٩ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٧ .

– ومن أهم مؤلفات أبي الوفا البوزجاني في علم الفلك : كتاب معرفة الدائرة من الفلك ، مقالة . كتاب الكامل، وهو ثلاث مقالات ، المقالة الأولى في الأمور التي ينبغي أن تعلم قبل حركات الكواكب ، المقالة الثانية في حركات الكواكب ، المقالة الثالثة في الأمور التي تعرض لحركات الكواكب ، كتاب الزيج الواضح ثلاث مقالات ، الأولى في الأشياء التي تنبغي أن تعلم قبل حركات الكواكب . الثانية في حركات الكواكب . الثالثة في الأشياء التي تعرض لحركات الكواكب .

– ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤١ ؛ انظر : القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

٢٦٦ – ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي) : معجم الأدباء أو " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" ، المجلد الخامس ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ص ١٢٢ ، ١٢٦ ؛ ترجمة رقم (٧٩٢) ؛ وانظر أيضاً : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٢١ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، م٩ ، ص ٧؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٧٣ – ١٧٤ ؛ علي أحمد الشحات ، أبو الريحان البيروني : حياته– مؤلفاته – أبحاثه العلمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٩٢م ، ص ٧٠ – ٧١ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٨ ؛ بدر عبد الرحمن محمد ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م ، ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

٢٦٧ – ياقوت ، معجم الأدباء ، المجلد الخامس ، ص ١٢٦ .

٢٦٨ – طوقان ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ ؛ علي أحمد الشحات ، المرجع السابق ، ص ٧٨ ؛ وانظر : دائرة المعارف الإسلامية ، م ٩ ، ص ٧ – ٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، في العصور الوسطى ، ص ٢٣٩ .

٢٦٩ – علي أحمد الشحات ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

٢٧٠ – علي الشحات ، نفسه ، ص ١١٢ – ١١٧ .

٢٧١ – ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٢١ ؛ علي الشحات ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٢٧٢ – ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٢١ ؛ علي الشحات ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

٢٧٣ – علي الشحات ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

٢٧٤ – ياقوت ، معجم الأدباء ، م٥ ، ص ١٢٦ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥.

275 - E.S. Kennedy and Victor Robert, The Planetary Theory of Ibn Al-Shair, Isis 50 (1959); 227-35; Kennedy, Late Medieval Plantary Theory, Isis 57 : 365 - 78; Noel Swenflow, The Derivation and First Draft of Copernicus's Planetary Theory, Proceedings of the American Philosophical Society 117 (1973); 423 - 512; and George Saliba, Arabic Astronomy and Copernicus; Zeitschriff für Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften Band 1, 73 - 87; and Saliba, The Role of Marfāgh in the Development of Islamic Astronomy A Scientific Revolution Before the Renaissance, Revue de Synthese 4 , no. 4 (1987), pp. 361 - 373

قائمة المصادر المراجع

أولاً : المصادر العربية

- القرآن الكريم :

١ - ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم السعدى الخزرجى) ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

٢ - الأعرج الموصلى (أبى محمد عبد الله بن فخر الدين الحسينى) : سوانح القريحة فى شرح الصفيحة ، تحقيق وتعليق دكتور صباح محمود محمد ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، د.ت .

٣ - البلخى (أبى زيد أحمد بن سهل) ت ٣٢٢هـ / ٩٣٣م : كتاب البدء والتاريخ ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، جزءان فى مجلد ، الطبعة الأولى ، منشورات محمد على بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

٤ - البيرونى (أبو الريحان محمد) : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ليبزك ، ١٨٧٨م .

٥ - ابن جلجل (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) ت بعد ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥٥م .

٦ - حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله القسطنطينى الرومى الحنفى) ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٧ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م : العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى ، طبعة بيروت ، ١٩٨٢م .

٨ - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨ - ١٩٧٨م .

٩ - الدميرى (كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٤م : حياة الحيوان الكبرى ، نشره عبد الحميد أحمد حنفى بمصر ، مجلدان .

١٠ - السيوطى (جلال الدين) ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م : تاريخ الخلفاء ، حققه وقدم له الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ، الشيخ محمد العثماني ، الطبعة الأولى ، دار القلم للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١١ - الشهرزورى (شمس الدين محمد بن محمود) من أعيان القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى : كتاب نزهة الأرواح وروضة الأفراح " تواريخ الحكماء " راجعه وأشرف على تحقيقه دكتور محمد على أبو ريان ، منشورات مركز التراث القومي والمخطوطات ، الطبعة الأولى ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

١٢ - صاعد الأندلسي (أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد) ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م : طبقات الأمم ، تحقيق حياة بو علوان ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م.

١٣ - ابن أبى طالب (الإمام على) : كتاب نهج البلاغة ، شرح ابن أبى الحديد ، دار المعرفة ، دار الكتاب العربى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

١٤ - ابن العبرى (العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المالطى) : تاريخ مختصر الدول ، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، دار الرائد اللبناني ، الحازمية ، لبنان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- تاريخ الزمان ، المجموعة التاريخية ، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة ، وقدم له الأب الدكتور جان موريس فييه ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١م .

١٥ - ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) ت ١٠٨٩هـ / ١٦٨٠م : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت .

١٦ - القزوينى (أبو يحيى عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود) ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م .

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، مطبوع على هامش حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ .

١٧ - القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف) ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، د.ت .

١٨ - القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، الجزء الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

١٩ - ابن قتيبة الدينورى (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م : الأنواء فى مواسم العرب ، الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.

٢٠ - المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد القادر) : ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وضع حواشيه خليل المنصور ، أربعة أجزاء ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٢١ - ابن منظور المصرى (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة) : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

٢٢ - المسعودى (أبى الحسن على بن الحسين بن على) ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.

٢٣ - المرزوقى (أبو على) : كتاب الأزمنة والأمكنة ، طبع على نفقة الشيخ على بن عبد الله آل ثان أمير قطر ، مجهول مكان الطبع ، ١٣٢٨هـ / ١٩٦٨م .

٢٤ - الميدانى (أبو الفضل أحمد بن محمد) : مجمع الأمثال ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١م .

٢٥ - ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحق المعروف بالوراق) ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م : كتاب الفهرست ، تحقيق رضا تجدد بن على بن زين العابدين الحائرى المازندارني ، الطبعة الثالثة ، دار المسيرة ، طهران ، ١٩٨٨م.

٢٦ – ابن وادران : تاريخ العباسيين ، تقديم وتحقيق دكتور المنجي الكعبي ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ١٩٩٣م.

٢٧ – ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م : معجم البلدان ، طبعة بيروت ، د.ت ؟ معجم الأدباء ، أو : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

ثانياً : المراجع :

٢٨ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى الإسلام، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.

٢٩ – أرثر كريستنسن ، إيران فى عهد الساسانيين ، ترجمة دكتور يحيى الخشاب ، مراجعة دكتور عبد الوهاب عزام ، (الألف كتاب الثانى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م.

٣٠ – أوين جينكريتش ، علم الفلك الإسلامى ، مجلة العلوم الأمريكية ، الترجمة العربية ، المجلد الأول ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، تشرين الثانى ، ١٩٨٦م.

٣١ – أيدين صاييلى ، المراصد الفلكية فى العالم الإسلامى ، ترجمة دكتور عبد الله العمر ، مراجعة دكتور عبد الحميد صبره ، سلسلة الكتب المترجمة ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، إدارة التأليف والترجمة والنشر ، الكويت ، ١٩٩٥م.

٣٢ – بدر عبد الرحمن محمد ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاجقة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

٣٣ – جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، دار التراث ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

٣٤ – جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٠٢ – ١٩٠٦م.

٣٥ – جفرى بارندر ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة دكتور إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة دكتور عبد الغفار مكاوى ، عالم المعرفة (١٧٣) سلسلة كتب ثقافية

يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ذو القعدة ١٤١٣هـ / مايو ١٩٩٣م.

٣٦ – جواد علي ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧١م .

٣٧ – جورج سارتون ، تاريخ العلم ، مترجم ، نشر دار المعارف ، القاهرة ١٩٩١م.

٣٨ – جوزيف شاخت ، كليفور بوزورث ، تراث الإسلام ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، دكتور إحسان صدقي العمد ، مراجعة دكتور فؤاد زكريا ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، صفر ١٤١٩هـ / يونيو ١٩٩٨م.

٣٩ – جيرالد هوكنز ، بدائع السماء ، ترجمة دكتور عبد الرحيم بدر ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٧م.

٤٠ – جيمس هنرى برستد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسى ، ترجمة حسن كمال ، مراجعة محمد حسنين الغمراوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م.

٤١ – حسين الحاج حسن ، حضارة العرب فى العصر العباسى ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٤٢ – الدوميلى ، العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ، ترجمة عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى ، نشر دار القلم ، ١٩٦٢م.

٤٣ – رينهارت دوزى ، تكملة المعاجم الدينية ، الأجزاء ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ترجمة وتعليق دكتور محمد سليم النعيمى ، بغداد ، ١٩٧٨م.

٤٤ – رينيه تاتون وأخرون ، تاريخ العلوم العام ، ترجمة دكتور على مقلد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م.

٤٥ – زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية فى أوروبة ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون ، كمال الدسوقى ، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى ، الطبعة السادسة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٤٦ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، الكويت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٤٧ – سليم حسن ، مصر القديمة ، الأجزاء ١ ، ٢ ، ١٤ ، الجزء الأول : في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الإهناسي ، الجزء الثاني : في مدنية مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الإهناسي ، الجزء الرابع عشر : الإسكندر الأكبر وبداية عهد البطالمة في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م .

٤٨ – السيد أدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، الطبعة الثانية ، دار العرب للبستاني، القاهرة ، ١٩٨٧ – ١٩٨٨م.

٤٩ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٩م.

٥٠ – شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي : العصر الجاهلي ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٠م.

٥١ – عادل زيتون ، العباسيون يرعون العلم والعلماء ، مقالة بمجلة العربي ، العدد ٥٠٩ ، محرم ١٤٢٢هـ / أبريل ٢٠٠١م .

٥٢ – عبد الأمير المرتضى المؤمن ، الفلك والفضاء من الخرافات والتنجيم إلى تلسكوب هابل، الطبعة الأولي ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

٥٣ – عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الطبعة السابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

٥٤ – علي أحمد الشحات ، أبو الريحان البيروني : حياته – مؤلفاته – أبحاثه العلمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م.

٥٥ – عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٥٩م.

٥٦ – غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م.

٥٧ – فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بالاشتراك مع إدوارد جورجي ، بيروت ، ١٩٦١م.

٥٨ – قدرى حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطبع ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٥٩ – كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، نقله إلى العربية الدكتور السيد يعقوب بكر ، الدكتور رمضان عبد التواب ، الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م.

٦٠ – كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى ، الطبعة الحادية عشر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٨م.

٦١ – كارلو نلينو ، علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، ملخص المحاضرات التى ألقاها بالجامعة المصرية ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت .

٦٢ – محمود سليم الحوت ، فى طريق الميثولوجيا عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٦٣ – مفتاح محمد دياب ، مقدمة فى تاريخ العلوم فى الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، الهيئة القومية للبحث العلمى ، دار الكتب الوطنية ، بنغازى ، ١٤٠١هـ / ١٩٩٢م.

٦٤ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١م.

٦٥ – وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ١٩٩٢م.

٦٦ – يحيى عبد الأمير شامى ، النجوم فى الشعر العربى القديم حتى أواخر العصر الأموى، الطبعة الأولى ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

67 - André Miquel, L'Islam et sa Civilisation, (VII, XXs) Armand Colin, 2ém edition, Paris, 1977 .

68 - Bernard Goldstein, Theory and Observation in Medieval Astronomy, Isis 63(1972) .

69 - Dresdensi, Globus Coelestis, Arabicus, Hipseal, 1865 .

70 - E.S. Kennedy and Victor Robert, The Planetary Theory of Ibn Al-Shair, Isis 50 (1959) .

71 - F.E. Peters, Aristotle and the Arabs (New York : New York University Press, 1969; R. Walger, Greek into Arabic (Columbia, S.C. University of South Carolina Press, 1962); Max Mayerhof, Van Alexandria nach Baghdad, in Sitzungberichate der prüssiachen Almadenie der vrssnchaftene no. 23 (1930) .

72 - George Saliba, Theory and Observation in Islam Astronomy, The Work of Ibn Al-Shatir, Journal for the History of Astronomy 18 (1987) .

- Arabic Astronomy and Copernicus; Zeitschriff für Geschichte der Arabisch - Islamischen Wissenschaften Band 1 .

- The Role of Marfägh in the Development of Islamic Astronomy A Scientific Revolution Befor the Renaissance, Revue de Synthese 4 , no 4 (1987) .

73 - Kennedy, Late Medieval Planetary Thory, Isis 57 : 365-78; Nole Swenflow, The Derivation and First Draft of Copernicus's Planetary Theory, Proceedings of the American Philosophical Society 117 (1973) .

74 - Pralica, Volume Special Publié à l'occasion du mille deux centiéme anniversaire de la fondation de Baghdad, E.J. Brill, Leiden 1962 .

75 - Roger Arnaldez, in Arabica, Volume Spécial Publié à l'occasion du mille deux centiéme aniversaire de la fondation de Baghdad, E.J. Brill, Leiden, 1962 .

د. نادية مرسى السيد صالح (*)

علم الجغرافيا عند العرب وأثره فى غرب أوروبا

إن فضل العلماء العرب كبير فى مجال علم الجغرافيا ، فكانوا فيه رواداً ، وكثرت مصنفاتهم وكتبهم ، التى تمثل مرحلة بارزة فى تاريخ الفكر الجغرافى وتطوره ، واستمر الرحالة الأوروبيون يعتمدون كثيراً على المصادر الإسلامية فى معلوماتهم . كما اخترع العرب أجهزة ووضعوا خرائط ساعدت المستكشفين على أن يطوفوا بالعالم من الشرق والغرب . كما كان العرب حلقة وصل بين القديم والحديث ، فحافظوا على التراث الحضارى القديم ، وأضافوا إليه ، وقاموا بتصحيح بعض المفاهيم والأخطاء التى وقع فيها الإغريق .

ويهدف موضوع البحث إلى توضيح أثر الفكر الجغرافى العربى على الفكر الأوروبى ، وكيف ساهمت كتابات العرب فى اتساع المعرفة الجغرافية لدى الغرب الأوروبى ، ودفع حركة الكشوف الجغرافية ، التى كانت أساساً من الأسس التى قامت عليها النهضة الأوروبية فى العصر الحديث .

واللفظ اليونانى " جغرافيا " يستعمل للدلالة على صورة الأرض ، ويستخدم دون أداة التعريف ، نسبة إلى عنوان كتاب بطلميوس القلوذى Claudius Ptolomoeus ، وظل هذا المعنى شائعاً فى العصور الوسطى (١) .

---

* مدرس - كلية الآداب - فرع بنى سويف - جامعة القاهرة.

وعلى أرض مصر نشأ وتقدم علم الجغرافيا وما يتصل به من علوم الرياضة والفلك ، ففى الإسكندرية عاش فى عصر البطالمة مؤسس علم الجغرافيا ارتوستنيز Eratosthenes اليونانى (فى القرن الثانى قبل الميلاد) ، فألف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون أو رواه قواد الإسكندر وغيرهم ، وقدر محيط الكرة الأرضية تقديراً قريباً من الصواب . وبطلميوس القلوذى – الذى عاش فى الإسكندرية فى أواسط القرن الثانى للميلاد – وألف كتاباً وافياً فى الجغرافيا عين فيه الأماكن بالحسابات الفلكية ، ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الأقسام الجغرافية وحقق أماكنها على ما بلغ إليه العلم فى عصره (٢) .

وفى القرون الأولى من العصر المسيحى تعرضت أوروبا لغارات القبائل الجرمانية ، وما ترتب عليها من الفوضى والاضطراب ، وحلت بأوروبا نكسة حضارية وساد التأخر والجهل عدة قرون ، بسبب سيطرة الكنيسة ومحاربة العلم ، وتأثير التعاليم المسيحية على البحث الجغرافى، بالإضافة إلى صعوبة المواصلات ، الأمر الذى جعل بعض المؤرخين يطلقون على المدة من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلادى فى أوروبا " العصور المظلمة " .

وفى أوروبا العصور الوسطى كانت الجغرافيا التى تدرس بين جدران الأديرة ، تعتمد على المراجع القديمة ، وعلى الأحكام النظرية (٣) ، وقد انعدمت تماماً قواعد المنهج العلمى ، وأثقل العقل الأوروبى بالمفاهيم الجغرافية الزائفة التى ألقاها الآباء المسيحيون ، والأفكار العتيقة للجغرافيين اليونان والرومان من أمثال استرابو وبطلميوس . وأن أى شىء آخر يتعارض مع هذه الأفكار يكون من الصعب قبوله ، ويكون مآله الرفض والهجوم بعنف (٤) .

وكانت معرفة الناس بالعالم المحيط بهم معرفة ضئيلة لم تكن تتعدى السواحل الشمالية للقارة الإفريقية وجزء صغير من ساحلها الشمالي الغربي . وكان الناس فى ذلك الوقت يعتقدون أن حدود العالم لا تتجاوز الصحراء الكبرى ، وأن المحيط الأطلنطى يمتد إلى ما لا نهاية . وأن هذا المحيط مأوى للوحوش والشياطين ، وأنه لا يمكن للجنس البشرى أن يتوغل أو يخوض غماره . واعتقدوا أيضاً فى وجود صخور فى البحر تجذب إليها السفن إذا ما اقتربت منها ، وأن فى تلك الصخور قوة خارقة تمكنها من اقتلاع مسامير تلك السفن وإغراقها . واعتقدوا أيضاً فى استحالة عبور خط الاستواء لأنه من أبواب جهنم (٥).

فى الوقت الذى ساد التأخر العلمى فى أوروبا ، وسيطرت فيه الأوهام على الأوروبيين ، شهد الشرق الإسلامى نهضة حضارية ، فقد جاء الإسلام ، وقام المسلمون بحركة الفتوحات

الإسلامية ، وأصبحوا سادة كثير من المناطق التى كانت فى الماضى مهاد المدنية والحضارة . وأسس المسلمون زمن الخلفاء دولة مترامية الأطراف تمتد من منطقة جبال البرنية وحتى الهند.

وانكب العرب فى العصور الوسطى على تحصيل العلم والتأليف فيه ، وبدءوا أولاً بترجمة المؤلفات اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية وغيرها ، ثم عدلوها ورتبوا علومها ، وأضافوا إليها ما جاء به الإسلام وما حصلوا عليه بتجاربهم وطبعوه بالطابع العربى ، وتميزت الحضارة الإسلامية بطابعها العالمى ، وقامت بدور بارز بين الحضارات القديمة وحضارات العصر الحديث ، والذى تمثل فى النقل والترجمة والإضافة والتفسير . وعمل المسلمون الأوائل على بعث الروح الإغريقية القديمة على طابع العمل الجغرافى ، وإغناء الفكر الجغرافى ، وربطوا بين العلم القديم والعلم الحديث (٦).

ونشطت حركة الترجمة إلى العربية وخاصة فى العصر العباسى ، وقام الخلفاء العباسيين بتشجيع البحوث العلمية ، وراحوا ينقلون إلى العربية أمهات الكتب المعروفة فى اللغات الأخرى، واستخدموا المترجمين من كل البلاد دون نظر إلى جنسياتهم أو عقائدهم ، وبلغت هذه النهضة العلمية أوجها فى عصر الخليفة أبو العباس عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) الذى أخذ يجمع الكتب من كل جهات العالم مهما بلغ ثمنها ، وكان المترجمون يتقاضون وزن الكتب ذهبًا (٧). وبفضل الترجمات التى وضعها العرب حفظت مخطوطات مفقودة . فإن أوروبا لم تطلع على جغرافية بطلميوس قبل انتقالها إليها عن طريق الثقافة العربية ، وأنها وصلت إلى الأوروبيين مزيدة منقحة بما أضافه إليها الجغرافيون المسلمون (٨).

ومن الكتب التى ترجمت إلى العربية كتاب الجغرافيا لمارينوس الصورى (حوالى ٧٠ - ١٣٠م) (٩). وكانت كتب بطلميوس السكندرى من أهم المصادر التى حرص العرب على الاستفادة منها ، وخاصة كتابه " جامع الرياضيات He Mathematike Syntaxis " ، الذى اشتهر بعد ذلك باسم Magiste وعربه العرب أيام المأمون إلى " المجسطى " (١٠)، ومعناها "الكتاب الأعظم" . وعنهم أخذ علماء أوروبا فى العصور الوسطى ذلك الكتاب باسمه العربى Almageste ، وقد جمع بطلميوس فيه كل النتائج التى وصل إليها سابقوه من الفلكيين الإغريق . وضاع الأصل اليونانى وبقيت الترجمة العربية ، فلم تعرف أوروبا الكتاب إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى من خلال الترجمات العربية ، حينما نقله إلى اللاتينية من العربية العالم الإيطالى خيرارد القرمونى Gerardo de Cremona (١١١٤ - ١١٧٨) فى عام ١١٧٥م(١١).

ولبطلميوس كتاب آخر " دليل الجغرافيا " Geographike Huphegesis " الذى عرفه العرب باسم " جغرافيا " فقد ترجم إلى العربية أكثر من مرة فى العصر العباسى بواسطة ثابت بن قرة ثم ترجمه محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٢٣٦ هـ / ٨٥٠م) الذى استفاد منه فى وضع كتابه " صورة الأرض " . وترجم كتاب جغرافية بطلميوس إلى اللاتينية حوالى عام ١٤١٥م ، ثم نشر فى روما فى عام ١٤٧٨م ، ولم ينشر نصه الإغريقى إلا فى عام ١٥٣٣ فى مدينة بازل بسويسرا بتحقيق ارازموس ، أما قبل ذلك فقد كان عماد الناس فى الرجوع إليه على ترجمات لاتينية عملت مباشرة أو عن العربية (١٢).

وكان بطلميوس فلكياً ورياضياً أكثر منه جغرافياً ، ومن ثم فإن جغرافيته تمثل فى جوهرها جداول فلكية لعروض وأطوال النقاط الرئيسية المعمورة فى العالم ، ولكنه لا يعطى أى تفاصيل عن المناخ أو السكان أو النبات والحيوان ، وقد أكمل العرب ذلك بمعلوماتهم الواسعة عن نواحي المعمور ، ويبدو أن هدف بطلميوس كان رسم صورة الأرض لا وصفها (١٣). وزودت جغرافية بطلميوس بخرائط أعطت صورة مفصلة للعالم مثلما كان معروفاً لليونانيين . وقد جمع بطلميوس معلوماته من التجار والرحالة الذين وصلوا إلى الإسكندرية (١٤).

وقد أمر المأمون سبعين رجلاً من علماء الجغرافيا بوضع كتاب فى الجغرافيا ، فصنفوا كتاباً أفاد منه ولاة الأقاليم فى الدولة العباسية ، إذ كان أشبه بدليل أرشدهم إلى مختلف البلاد والأمم . وتضمنت مناظرات الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) مناقشات جغرافية هامة خاصة بالرياح وأنواعها واتجاهاتها ، والحرارة والبرودة ، وتأثرهما بالتضاريس من حيث الارتفاع والانخفاض والقرب أو البعد من البحر ، وفصول السنة (١٥).

ويعتبر بطلميوس معلم الجغرافية الأول فى العصور القديمة ، وتأثرت الجغرافيا العربية فى عهدها الأول بجغرافية اليونان ، وخاصة بمؤلفات بطلميوس ، واتخذ المسلمون منها مثالاً احتذوه فى كتاباتهم الجغرافية ، نذكر منهم أبو يوسف يعقوب الكندى (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) فى كتابه المسمى " رسم المعمور من أقطار الأرض " ، وكان الكندى من رؤساء حملة العلم اليونانى (١٦)؛ وجعفر بن أحمد المروزى (ت ٢٧٤هـ / ٨٨٧م) فى كتابه " المسالك والممالك "؛ وأبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله ابن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٣م) فى كتابه " المسالك والممالك " ، ويعترف هذا المؤلف بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها وممالكها على ما كتبه بطلميوس فى ذلك (١٧)؛ وأحمد بن أبى يعقوب بن واضح اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)

فى كتابه " البلدان " ؛ وأحمد بن محمد بن الطيب السرخسى (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م) فى كتابه " المسالك والممالك " ؛ ومحمد بن موسى الخوارزمى فى كتابه " صورة الأرض " الذى وضعه حوالى منتصف القرن التاسع للميلاد (١٨). وتناولت هذه الكتب وصف الأقاليم الإسلامية ومدنها ، وذكر مسالكها والطرق المؤدية إليها وحاصلاتها ومناخها .

وكان علم الجغرافيا عند العرب يقوم على أسس علمية ، وعلى الوصف العملى لسطح الأرض وطرق التجارة وطبوغرافية المدن والقرى ومواضع الجبال والأنهار والوديان والبحيرات والبحار والصحارى وما شابه ذلك (١٩).

ويرى بعض الباحثين الغربيين أن الإغريق سبقوا العرب فى وضع أساس علم الجغرافيا ، وأن دور العرب فى ميدان العلوم دور نقل ولا زيادة ، نقلوا من اليونان وغيرهم ، ولم يزيدوا فيه شيئًا من عند أنفسهم . ولكن لم يكن العرب مجرد نقلة للتراث اليونانى بل أنهم أقبلوا عليه ناقدين فاحصين ، وخلقوه خلقًا جديداً ، فأضفوا عليه معرفتهم الخاصة وعلمهم الشامل ، ولم يكتفوا بالنقل والسماع ، ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الأقطار شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوه وصححوا كثيرًا من أخطاء بطلميوس (٢٠).

هذا إلى أن أوروبا مدينة للعرب بحفظ معلومات الإغريق الجغرافية ، وهذه المعلومات لم يعرفها الأوروبيون إلا من الكتب العربية فى أواخر العصور الوسطى ، ولكن إذا كان العرب اعتمدوا على معلومات الإغريق فى أول أمرهم ، إلا أنهم لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فصححوا ما وقع فيه جغرافيو الإغريق من أخطاء ، كمواقع المدن الكثيرة التى عينها الإغريق مخالفًا للواقع ، وأضاف العرب من عندهم الشىء الكثير إلى محصول المعرفة الجغرافية (٢١).

وكانت المؤلفات الجغرافية العربية مؤلفات شمولية ذات طابع مختلط أى تلك التى تحتوى قسمًا نظريًا مع معطيات خطوط الطول والعرض ، وقسمًا وصفيًا فى صيغة توصيف الجزء المأهول للكرة الأرضية . ويشيد الكاتب الروسى خالدوف بدور العرب فى تطوير علم الجغرافيا فيقول : " إن علماء الخلافة استطاعوا أن يقدموا مساهمة هائلة فيه ، وأن يطوروه ليس فى المجال النظرى بقدر ما طوروه فى المجال العلمى " (٢٢).

واهتم العرب بالمعارف الجغرافية والفلكية اهتمامًا خاصًا منذ أقدم العصور ، لارتباطها بحياتهم بحكم ظروف بيئتهم ، ليستعينوا بذلك على الترحال فى الصحراء المترامية الأطراف . وفى إسلامهم بحكم اتساع رقعة الدولة وضرورة الوقوف على أحوال البلاد ومعرفة الطرق

والمسافات ، ويحكم اعتماد بعض العبادات الشرعية على أحوال جغرافية وفلكية ، كأمر توجيه المساجد عند بنائها نحو مكة وتعيين القبلة عند الصلاة . ومن هنا جاء الاهتمام بعلمى الفلك والجغرافيا والربط بينهما مما أدى فى النهاية إلى تفوق العرب فى علم الجغرافيا (٢٣).

وكان الحج يهيىء للمسلمين المعرفة الجغرافية ، وكان له أثراً كبيراً فى دفع الكتاب الرحالة إلى تدوين ما لاحظوا أو رأوا كابن جبير وابن بطوطة ، وكان هناك أدلاء عارفون بالطرق ومسالكها بفضل التجربة والمشاهدة . وكانت الكتب التى وضعت عن المزارات الإسلامية أوفى كثيراً من الكتب التى صنفت عن المزارات المسيحية . يضاف إلى ذلك أن الإسلام حث على طلب العلم ، فقد كان المسلمون ينتقلون في طلب العلم والمعرفة من قطر إلى آخر (٢٤).

وفوق هذا ، فإن التوسع السياسي للعرب قد أتاح لهم فرص جمع المعلومات والملاحظة وتسجيل تجاربهم فى البلاد المختلفة التى خضعت لهم أو كانت مجاورة للدولة العربية الإسلامية ، كما انتقلت المعرفة الجغرافية الهندية والفارسية واليونانية إلى العرب .

كما كان للتجارة أثر كبير فى التوغل الإسلامى والحصول على معلومات قيمة عن طريق التجار المسلمين . فقد جاب العرب البلاد من شرقى آسيا إلى مجاهل إفريقية ، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوروبيون بها فى العصور الوسطى . فإن التجار المسلمين كانوا قد بلغوا بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين بلاد الصين بحراً وبراً ، ووصلوا إلى جزيرة زنجبار وأقاصى شواطىء إفريقيا جنوبياً ، وتوغلوا إلى روسيا شمالاً ، وإلى عمود هرقل وشواطىء الأطلنطى غرباً (٢٥).

وفى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، بلغت الجغرافيا العربية أوجها ، وقد ترك لنا الرحالة العرب وصفاً دقيقاً لمختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وشاركهم هذا الفضل الحجاج والتجار سواء وفدوا عن طريق البر أو البحر ، وتميزت جغرافية العرب فى تلك المرحلة بالجغرافيا الوصفية ، التى اهتمت بوصف الممالك والبلدان ، وقوامها المشاهدة والمقارنة والتحقيق .

وكان أبو إسحق إبراهيم بن محمد الأصطخرى أول ممثل لنمط المسالك والممالك بوضعه جغرافية شاملة لدار الإسلام فى مؤلفه الذى ظهر حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، والمعروف باسم " مسالك الممالك " ، ثم أبو القاسم محمد بن حوقل بوضعه

لكتابه " صورة الأرض " الذى ظهر حوالى عام ٣٧٨هـ / ٩٨٨م . وأبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) بوضعه لكتابه " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " ، وقد وضع المقدسى قوانين الرحالين وقواعد السفر فى كتابه .

وقد حقق العلامة الهولندى دى غويه De Goeje مؤلفات الأصطخرى وابن حوقل والمقدسى ثم ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر واليعقوبى وابن رستة وابن الفقيه ونشرها بالتعاقب فى السلسلة التى عرفت باسم " الخزانة الجغرافية العربية " فى ليدن بين عامى ١٨٧٠ - ١٨٧٧ . وتمثل هذه المدرسة درجة عالية فى البحث المبنى على الاختيار الشخصى والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل والتأليف الجغرافى الناضج الذى استمر ثلاثة قرون (٣٦).

ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس للهجرة تطورت الكتابة الجغرافية من وصف المشاهدات إلى عمل معاجم لوصف البلدان على حروف المعجم مثل كتاب أبو عبيد البكرى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) " معجم ما استعجم " ، وهو أول معجم جغرافى فى تاريخ التأليف الجغرافى عند العرب ؛ و " معجم البلدان " لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) ؛ و " الروض المعطار فى خبر الأقطار " لابن عبد المنعم الحميرى - جمعه عام ٨٦٦هـ) شاملاً العالم الإسلامى كله ، ونشر المستشرق ليفى بروفنسال القسم الخاص بالأندلس بعنوان " صفة جزيرة الأندلس " .

ولم يفت الجغرافيون المسلمون أن يتحدثوا عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد التى عرفوها ، وطرقها ومسالكها ، ووصفوا المجتمعات الإسلامية ، ومراكز الاستقرار البشرى وعلاقتها بما حولها من الأرض ، ومصادر الثروة المعدنية من باطن الأرض . وقد تبغ فى جغرافية علم طبقات الأرض على بن سينا (ت ٩٨٠هـ / ١٠٣٦م) - ويشتهر فى الغرب باسم Avixenna - ، وظل كتابه عن المعادن هو المرجع الأول لأوروبا ودراستها لعلم طبقات الأرض حتى القرن الثامن عشر (٢٧) . وأبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (ت بعد سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) وقد تناول فى مؤلفاته مثل " الهند " و " كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر " عدة موضوعات مثل علم المعادن ، وعلم طبقات الأرض (٢٨).

كما تناول الجغرافيون العرب فى مؤلفاتهم أيضاً الجغرافية الطبيعية والفلكية مثل زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) فى كتابه " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " . ويتحدث فى الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ، فوصف المعالم البارزة من

جزر وجبال وبحار وأنهار وينابيع . وكان يقصد بالعلويات ما يتعلق بالسماء وأبراجها ، والكواكب ومداراتها ، والشمس والقمر ، وما يتصل بذلك من علم الفلك . وأشار القزويني في كتابه إلى المد والجزر وعلاقة ذلك بالقمر ، وتحدث عن الأيام والشهور والسنوات والفصول والفوارق بينها . أما المخلوقات السفلية في نظر القزويني فهي الأشياء الأرضية فتحدث عن النار والهواء والماء والتراب ، كما تحدث عن الرياح (٢٩).

واتسعت المعلومات الجغرافية لدى العرب ، فعرفوا أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا ، كما عرفوا إفريقيا الشمالية وساحل إفريقيا الشرقي إلى قرب مدار الجدي . ولم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت حدود العالم كما عرفه اليونان (٣٠).

واكتسب العرب معارف الإغريق والرومان عن الأراضي والبحار ، وفاقوهم إذ كانوا أكثر تعرفًا على مناطق أخرى كانت المعلومات عنها لا تزال محفوفة بالغموض . فمعلومات استرابو وبطلميوس عن الأقاليم الواقعة حول بحر قزوين والجهات التي تمتد إلى الشمال الشرقي من البحر الأسود كانت ضئيلة للغاية . بينما الجغرافيين العرب كان عندهم معلومات صحيحة عن هذه المناطق الشمالية في روسيا وشمال أوروبا بسبب التبادل التجاري ، والدليل على ذلك هو وجود عملات عربية هناك (٣١). فالتجار العرب صعدوا نهر الفولجا بسفنهم حتى بلاد البلغار . وقد وجدت كميات من النقود الفضية العربية في الأقاليم الواقعة في قلب روسيا ، على المجرى الأعلى والأسفل لنهر الفولجا وروافده الجنوبية ، وفي أقاليم البلطيق وأن هذه النقود تحمل تاريخ صنعها ، ويرجع أقدم هذه النقود إلى القرن السابع . وأوفدت بعثات كثيرة من بغداد إلى هذه المنطقة ، وفي عام ٣١٠هـ / ٩٢١م ذهب ابن فضلان (أحمد بن عباس بن رشيد بن حماد) مبعوثًا من الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى بلاط البلغار بالفولجا ، وكانت كتابته عن أقاليم الفولجا – قزوين أول مصدر موثوق به عن تلك الأصقاع ، وهو أقدم نص عربي عن روسيا في العصور الوسطى ، وأورد هذا الوصف ياقوت الحموي في معجمه في مادة "بلغار"(٣٢).

وفيما يتعلق بإفريقيا فقد أعطى العرب وصف مفصل عن داخل إفريقيا في مؤلفاتهم وقد أفادت معلوماتهم الرحالة والمستكشفين الجغرافيين الأوروبيين في عصر النهضة . فقد اقتصرت معرفة الإغريق والرومان على الجزء الساحلي من إفريقيا ، ولم تعرف أوروبا داخل

إفريقيا إلا عن طريق الكتابات العربية ، فقد وقفت الظروف الطبيعية لسطح القارة حائلاً أمام توغل الأوروبيين فيها ، فاقتصر علمهم على سواحلها ، في حين كان الجزء الأكبر من النصف الشمالي للقارة معروفاً للعرب نتيجة النشاط التجارى مع تلك الجهات ، وظلت كتاباتهم هى المرجع الوحيد عن جغرافية هذه المناطق ، ومن هذه المصادر ما كتبه الحسن بن أحمد المهلبى صاحب الكتاب الجغرافى المتعلق بالسودان " المسالك والممالك " كما سمى " بالعزيزى " نسبة إلى الخليفة الذى أهداه إليه (٣٣)، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفاً دقيقاً ، وقد ألفه عام (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ؛ للخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م) . كما توصل البيرونى إلى معلومات قيمة عن إفريقيا الجنوبية وموزبيق (سفالة الزنج) عن طريق التجار المسلمين . وقد أمدنا الإدريسى بعد ذلك فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بمعلومات عن النيجر فى الجزء الواقع أعلى تمبكتو وعن إقليم منابع النيل فى كتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " (٣٤).

وتوغل الرحالة المغربى محمد بن عبد الله بن بطوطة (ت ١٣٧٨م / ٧٧٩هـ) فى قلب الصحراء الكبرى ، وفى أعماق السودان ووصل فى تجواله جنوبياً حتى مدينة مالى ، وعرج فى طريقه على مدينة تنبكتو وكوجو على نهر النيجر ، وقد ظن أنه نهر النيل الأكبر أو هو فرع من فروعه ، وظل هذا القول مأخوذاً به حتى استكشفت منابع النيل . ويعتبر ابن بطوطة صاحب الفضل الأول فى استكشاف هذه المنطقة بطريقة مفصلة ، وهو يقدم لنا معلومات عن ممالكها وأحوالها هى فى الواقع أوفى معلومات وصلتنا عنها فى ذلك العصر المبكر . وإن الرواد الأوروبيون لم يستطيعوا النفاذ إلى تلك المنطقة واستكشافها قبل أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وبالرغم مما تذكره التواريخ الأوروبية من أن الرحالة الإنجليزى منجو بارك ، والرحالة الفرنسى رينيه كابيه ، هما أول من اكتشف أعالى نهر النيجر وقبائله وشعوبه ، فإن الحقيقة هى أن الفضل الأول فى هذا الاكتشاف يجب أن ينسب إلى ابن بطوطة(٣٥).

ووضع الحسن بن محمد الوزان الزياتى (ت ٩٤٤هـ / ١٥٢٧م)(٣٦) - الذى عرف فى أوروبا باسم ليو الإفريقى Leo Africanus - كتاباً باسم وصف إفريقيا عالج فيه بالدراسة المفصلة جغرافية النصف الشمالى من القارة . عنى فيه بالأخص بوصف أنحاء المغرب وبلاد السودان وممالك إفريقية السوداء فى منطقة النيجر ، وقد كان لليو الإفريقى تأثير قوى على

العلم الأوروبي . وغدا مصنفه المشهور " وصف إفريقيا " إلى جانب رحلة ابن بطوطة ، وثيقة نفيسة أخرى تلقي أضواء جديدة على جغرافية هذه المناطق وتاريخها وأحوالها الاجتماعية(٣٧).

وعلى هذا النحو نرى أن كشف النقاب عن كثير من أنحاء إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء أمام أنظار أوروبا عن طريق المصادر الإسلامية قد أدى بالباباوات إلى إيفاد الرهبان الذين تعلموا العربية إلى تلك الوجهة . كما أدى إلى تطلع البرتغال إلى بلوغ مياه الشرق الأقصى لتحقيق كسب عاجل من التجارة ومن ذهب ساحل غينيا وفقًا لما صورته المعرفة الناشئة عن وصف المسلمين لهذه المناطق (٣٨).

أما بالنسبة لآسيا ، لم تكن لدى اليونان أية فكرة عن السأحل الشرقي لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية . هذا بينما كانت أعمال الجغرافيين والرحالة المسلمين قد كشفت عن الكثير من قلب القارة الآسيوية وسواحلها حتى أرخبيل الملايو ، وكانت المعلومات التى جمعها العرب قد أفادت الرحالة الأوروبيين في عصر النهضة . وقد دون سليمان التاجر - وأصله من سيراف الواقعة على الخليج الفارسي - عام ٢٣٧هـ / ٨٥١م وصف رحلاته إلى الصين وسواحل الهند، وقد نشرت عام ٣٠٦هـ / ٩٢٠م ، على يد أبى الحسن السيرافى فى كتاب " سلسلة التواريخ " . وهذا الكتاب أقدم وصف باللغة العربية للصين وسواحل الهند ، فقد كتب سليمان المدن بأسمائها العربية (٣٩) . وعالج الجغرافيون أمثال ابن خرداذبة والأصطخرى والمقدسي بمزيد من المعلومات عن الهند . وعرف العرب الطريق البرى الذى يخترق آسيا الوسطى - بلاد الترك المعروفة بتركستان - إلى الصين . وقد وصف ابن خرداذبة الطريق إلى الهند والصين . ثم فى منتصف القرن السادس الهجرى يقدم لنا الإدريسي وصفًا دقيقًا فى تلخيصه لأقاليم بلاد الترك فى كتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " . وتشير الدكتورة سيجريد هونكه إلى فضل العرب في معرفة القارة الآسيوية فتقول : " إن عالم الإسلام كان قد كشف عن مجاهل القارة العظيمة " (٤٠).

وما كادت تتوارد أنباء ظهور التتار على مسرح التاريخ فى مراعى آسيا الوسطى - حتى أوفدت البابوية المبعوثين إلى هناك لتحويل هؤلاء الوثنيين إلى المسيحية ، وتوجيه حماستهم للقضاء على الإسلام ، مثل رحلات كاربينى عام ١٢٤٥م وروبروك عام ١٢٥٣م ثم رحلات ماركو بولو عام ١٢٧١م . ومعظم هؤلاء الرحالة الرهبان الذين ساروا إلى مجاهل آسيا

كمبشرين أو سفراء من قبل البابوية أو ملوك أوروبا ، كانوا أكثر شغفًا بمهمتهم الدينية منهم بالمعلومات الجغرافية . فلم يضيفوا شيئًا إلى المعرفة الجغرافية من الوجهة العملية (٤١).

ومن الرحالة الذين وصفوا المجتمعات الآسيوية في العصور الوسطى ، ماركو بولو البندقي، وابن بطوطة ، ويكمل كل منهما الآخر في معرفة الشرق الأقصى . وكانت رحلات ابن بطوطة الواسعة أطول بكثير مما سافره الرحالة البندقي ماركو بولو ويرجع الفضل إلى ابن بطوطة في تعريف الأمم الشرقية والإسلامية بعضها بأحوال بعض . وتعتبر رحلته من أهم المصادر الجغرافية لأنحاء آسيا الوسطى والصين . وبدأ ابن بطوطة رحلته من مغرب الأرض إلى مشرقها واجتاز مجاهل إفريقيا الشرقية وكثيرًا من الأقطار والجزائر الآسيوية الجنوبية . وقد وصل ابن بطوطة الهند عام ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م ، وشغل منصب القضاء في مدينة دلهى ، ثم ذهب إلى الصين ووصل إلى جزر ملديف Maldive ومنها عبر إلى سيلان وزار البنغال والهند الشمالية ، ومن هناك اتجه إلى كانتون بالصين (٤٢).

وكانت رحلات ابن بطوطة التي أطلق عليها " تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار " من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث الغرى في دراسة الأقطار والأمم الإفريقية والآسيوية ، وأحوالها الاجتماعية ؛ في القرن الرابع عشر الميلادى ، وأفاد ابن بطوطة علم الجغرافيا بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس .

كذلك عنى العرب في الأندلس والمغرب عناية كبيرة بالجغرافيا وما يتصل بها من علوم الرياضة والفلك . وظهر بينهم جغرافيون لا يقلون شأنًا عن جغرافي المشرق . وقد أفادت إسبانيا والبرتغال من علم العرب وخبراتهم . واشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بالرحلة والأسفار ، وظهر من بينهم عدد من الرحالة الذين زاروا كثيرًا من نواحي المعمورة ، وسجلوا ما شاهدوه وعاينوه ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية وفيرة عن العالم المعروف في ذلك الوقت. وكان وصف وطنهم جزيرة الأندلس يحتل مكانًا بارزًا في مؤلفاتهم . وبينما تميز الجغرافيين المشارقة بالدقة في وصف الطرق والبلاد وتقدير المسافات ، فالجغرافيين الأندلسيين قد تحدثوا بالتفصيل عن خطط الأندلس ومسالكها ومدنها وكورها وأنهارها وجبالها ، وأشاروا إلى الزروع والمحاصيل والمنتجات والصناعات والمتاجر . كذلك اهتموا بضبط أسماء الأماكن الجغرافية ضبطًا صحيحًا بحيث يتفق نطقها العربي مع نطقها الإسباني . لأن معظم أصول هذه التسميات الجغرافية إسبانية وليست عربية . ومن أمثلة ذلك قولهم طليطلة بضم الطاء

الأولى والثانية ، ونهر تاجه بضم الجيم وسكون الهاء وإشبيلية بكسر الهمزة واللام وتخفيف الياء ثم هاء تأنيث ، ولبله بكسر اللام أو فتحها ، وغرناطة بفتح الغين ، وكورة بضم الكاف ومعناها الناحية . ولم تقتصر دقة الأندلسيين على رسم الأعلام والتثبت من نطقها ، بل تتجلى دقتهم أيضًا فى محاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الإغريقية ، لتفسير معناها حسبما هو موجود لديهم فى كتابات الإغريق والرومان (٤٣).

فقد تحرى البكرى فى كتابه المسالك والممالك الدقة فى رسم الأعلام الجغرافية وتفسير بعض أصولها اللاتينية مثل قوله : " واسم طليطلة باللاتينى تولاطو ومعناها فرح ساكنها لحصانتها " . وقد ثبت أن من مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل المنكب وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى . وقوله عند الكلام عن إشبيلية : " ورأيت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى إسبالى ومعناها المدينة المنبسطة " (٤٤).

وقد نشطت حركة الكتابة الجغرافية فى المغرب والأندلس فى عصر مبكر ، ولاشك أن الجغرافيين الأندلسيين قد استفادوا من الكتب الجغرافية القديمة فى وصف تلك البلاد ، إذ نجد اسم هروشيش Horosius – وهو راهب إسبانى المولد والنشأة عاش أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الميلادى – فى مؤلفاتهم وخاصة عند العذرى والبكرى وابن خلدون ، والذى عرف كتابه باسم Adversus Paganos Historiarum Libri Septem أى " كتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين " ، الذى يبدأ بمقدمة جغرافية وافية يوجز فيها وصف المعمور على أيامه ، وهو مع إيجازه أصبح فيما بعد أساسًا من أسس الوصف الجغرافى لشبه الجزيرة الأندلسية (٤٥).

وقد أخذ الجغرافيون الأندلسيون عن هروشيش هذه الآراء المتصلة بهيئة شبه الجزيرة الأيبيرية ، ثم أضافوا ما تجمع لهم من مادة جغرافية دقيقة مبنية على الخبرة والرحلة والمشاهدة . ونجد عنده نفس الخلط بين الصحيح وغير الصحيح الذى وجدناه عند استرابون وبطلميوس ، فقال مثلاً أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب تقريبًا . كذلك يذهب دوزى وسيمونيت إلى القول بأن الجغرافيين الأندلسيين كانوا على معرفة بكتاب " أصول الكلمات " للقديس أيزيدورو الإشبيلى (ت ٦٢٦م) ، وأن البكرى نقل عنه أوصاف بعض النواحى مثل الجزء الخاص بوصف جزائر فرطناطش المسماة بالسعادات أو الخالدات أو جزر كناريا (٤٦).

وقد ازدهرت المدرسة الجغرافية فى الأندلس أيام الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) برعايته وتشجيعه ، فكان يستجلب كتب اليونان واللاتين ويأمر بترجمتها . ومن الكتب التى ترجمت فى عهده كتاب هروشيش ، وقام بترجمته قاضى النصارى وترجمانهم بقرطبة وقاسم بن أصبغ (ت ٩٥١م / ٣٤٠هـ) (٤٧).

وقد كتب أحمد بن محمد الرازى (ت ٣٤٤هـ / ٩٥٥م) المشهور فى أوروبا باسم Elrasis - وهو من تلاميذ قاسم بن أصبغ - كتابه " أخبار ملوك الأندلس " على غرار كتاب هروشيش، ووسعه وأضاف إليه (٤٨)، تناول فيه وصف جغرافى مختصر للأندلس الإسلامى . وق اعتمد الأسبان على جغرافية الرازى حتى القرن الثالث عشر فى حل الكثير من مشاكل التنظيم الإدارى التى اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين . ومما يؤيد ذلك أن الرازى أورد فى جغرافيته هذه بعد ذكر الأنهار والجبال تقسيمها الكنسى ، وهو المعروف بقسمة قسطنطين(٤٩) . وقد أخذ الرازى ما يخص إسبانيا منه عن إحدى القوائم التى تبين ذلك التقسيم ، والتى كانت متداولة فى إسبانيا على أيام العرب . وإن هذه القوائم اللاتينية كلها كانت قد شاعت قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . فعندما استولى الملك خايمه الغازى Jaime el Conquistador على بلنسيه عام ١٢٣٩م ثار النزاع بين أسقفيتى طليطلة وطركونة حول تبعية إقليم بلنسية لأيهما ، ولم ينحسم النزاع إلا بعد الرجوع إلى عدة كتب وأحدها كتاب الرازى ، وتبين منه أنه فى تقسيم قسطنطين لإسبانيا إلى ست مناطق (كنسية) يتبع إقليم بلنسية أسقفية طليطلة (٥٠).

ومن أشهر جغرافى الأندلس الشريف الإدريسى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) الذى يمثل قمة علم الجغرافيا عند المسلمين . استدعاه الملك روجار الثانى النورماندى ملك جزيرة صقلية (١١٠١ - ١١٥٤م) ، وأغدق عليه هباته وعطاياه ، وأنزله فى أحسن منزل ، وكلفه بوضع مصور جغرافى للمعمورة . وكون لجنة كبيرة من جغرافى صقلية لتكون فى خدمة الإدريسى . فوجه الإدريسى كثيراً من أعضاء هذه اللجنة لزيارة أماكن من العالم عينها لهم ، لجمع معلومات جغرافية . ووضع نموذجًا للأرض على شكل كرة من الفضة ، ونقش فيها صور الأقاليم السبعة التى هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى العصور الوسطى فوق الكرة الفضية خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ (٥١). وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوروبيين فى العصور الوسطى ، ولاسيما العلامة البندقى مارينو سانوتو (١٢٦٠ - ١٣٣٨) ، الذى استرشد بها فى معظم خرائطه.

وألف الإدريسي كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ، وقد سمى كذلك " كتاب رجار" وأهداه إلى ملك صقلية روجر الثاني ، شرح فيه ما رسمه على الكرة الفضية من أشكال فلكية وما رسمه من معالم جغرافية بالمصور الجغرافي الذى وضعه للمعمورة ، من بلدان وبحار وجبال وأنهار ... إلخ . واستغرق هذا العمل الجغرافي نحو خمس عشرة سنة . وقد سجل الإدريسي فيه ما شاهده ، وما استقاه من بحوث الجغرافيين القدماء ولا سيما بطلميوس ، ومن أسلافه الجغرافيين المسلمين مثل اليعقوبي وابن خرداذبه والمسعودى وابن حوقل ، واعتمد فضلاً عن ذلك على تقارير الرسل والمبعوثين ، الذين أوفدهم الملك رجار إلى مختلف البلدان الأوروبية (٥٢). وكان هذا الكتاب الذى صنفه الإدريسي عوناً للجغرافيين الغربيين في توسيع معارفهم العامة ، كما كان عوناً للمستكشفين البرتغاليين في القرن الخامس عشر على ارتياد الأماكن المجهولة ، وهو مزود بأكثر من أربعين خريطة ، وترجم إلى اللاتينية فى أوروبا حيث اعتمد عليه الأوروبيون أكثر من ثلاثة قرون (٥٣).

ويمثل الإدريسي مدى تفوق العرب فى علم الجغرافيا ، فيقول كراتشكوفسكى : " وتكليف روجر عالماً عربياً بالذات وضع وصف للعالم المعروف أنذاك ، لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية في ذلك العهد ، وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق " (٥٤).

وكان منهج الإدريسي منهج مشاهدة وقياس ومقارنة ، ويعتبر الإدريسي أول من تصدى لعمل جغرافية كاملة للكرة الأرضية معتمداً على أساس علمى تجريبى ، ووفق فى ذلك إلى حد كبير . وقد بنى جغرافيته على مفهومات علمية صحيحة مثل كروية الأرض وخط الاستواء والأقاليم المناخية التى تتدرج من ذلك الخط إلى القطب واستطراق بحار العالم الكبرى بعضها إلى بعض (٥٥).

بالإضافة إلى ذلك ، أن الجزء الذى كتبه الإدريسي عن إسبانيا الشمالية وبقية نواحى أوروبا ، فقد وصفها وصفاً دقيقاً ، وخاصة الطرق المؤدية إلى شنت ياقب ، حتى لقد فاق فى وصفه لهذه الطرق أدلة الرحلات التى كانت معتمد حجاج المسيحية إلى ذلك المزار الكبير ، فقد حدد بدقة الطرق المؤدية من جنوب فرنسا إلى شنت ياقب عبر ممرات جبال الألب (٥٦).

وهناك عدد كبير من الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين أسهموا فى بناء علم الجغرافيا أو فى زيادة المعلومات الجغرافية فى العصور الوسطى . وظلت كتبهم أساساً لدراسة ذلك العلم فى أوروبا عدة قرون . وكانت أساساً من الأسس التى قامت عليها النهضة

الأوروبية فى العصر الحديث (٥٧). ولكن على الرغم من هذا النفور فقد تأثرت المؤلفات الجغرافية الأوروبية بالمعرفة المستقاة من المصادر العربية .

ويعتبر فن الخرائط مكملاً لعلم الجغرافيا ، وقد ارتبط علم الخرائط العربي منذ القدم باسم بطلميوس ، وقد جمع بطلميوس كل المعلومات الجغرافية فى عصره ، وبنى عليها خريطته التى ظلت مرجعاً يرجع إليها الرحالة والجغرافيون عدة قرون . ومع أن العرب لم يتقدموا فى فن عمل الخرائط تقدمهم فى وضع المؤلفات الجغرافية ، فقد كانوا أصحاب الفضل فى الحفاظ على تراث الأقدمين .

ورغم أن خرائط اليونان والرومان كانت هى الأساس الذى اعتمد عليه العرب لرسم الخرائط فى العصور الوسطى إلا أنهم أضافوا إليها وأصلحوا فيها كثيراً . ولقد طرحوا الرأى البطلميوسى القائل بقيام اتصال بين إفريقيا وجنوب شرقى آسيا وباعتبار المحيط الهندى بحراً مقفلاً تحيط به الأرض من جميع الجهات (٥٨).

وأصلح الجغرافيون العرب جداول بطلميوس للمدن وأضافوا إليها أسماء أجزاء من العالم لم تكن معروفة فى العهدين اليونانى والرومانى . ومن الإضافات التى أضافها العرب إلى هذا العلم أنهم أظهروا فى خرائطهم لأول مرة العلامات الأرضية التى تمثل الجبال والغابات والأنهار وغيرها من مظاهر السطح ، وهى عناصر تعتبر متممة للخريطة . وأدخل العرب فى العصور الوسطى التحسينات على رسم الخرائط بإدخال الأسلوب الرياضى عليها ووضع خطوط الطول والعرض . فجاءت خرائط العرب أرقى من خرائط بطلميوس ، كما استخدم العرب الخرائط فى تعليم الجغرافية بالمدارس كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية (٥٩).

وبمضى الوقت أخذت خرائط العرب طابعًا يختلف عن خرائط القدامى ، وأصبحت ذات طابع إسلامى محض بعيد عن التأثير بخرائط اليونانى والرومان ، وساعدهم على هذا اتساع رقعة أملاكهم . وكان محمد بن موسى الخوارزمى - الذى عاش فى عصر المأمون - من أول صانعى الخرائط ، ألف كتابه " صورة الأرض " موضحاً بالخرائط ، وهو أول مصور جغرافى عربى للدولة العربية بأقاليمها فى القرن التاسع الميلادى . وفى عهد الخليفة المأمون جمع علماء عصره ، وأمرهم بوضع خريطة للعالم ، فوضعوا له خريطة دقيقة كانت أفضل مما تقدم من دراسات فى جغرافية العالم على عهد بطلميوس وغيره من علماء اليونان ، ويسميها المسعودى "الصورة المأمونية" . ويذكر أن الأرض قد صورت فيها على طريقة بطلميوس ، صور فيها

العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهى أحسن مما تقدمها من جغرافية بطلميوس وجغرافية مارينوس وغيرهما (٦٠).

ووضع أبي زيد أحمد البلخي (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) أول أطلس عربي ألحقه بكتابه " صور الأقاليم " الذى لم يصل إلينا نصه الأصلي ، ولكن وصل إلينا برواية أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الأصطخرى فى كتابه " المسالك والممالك " ، الذى اعتمد اعتماداً كثيراً على كتاب البلخي . وتتميز هذه الفترة (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) بأن الخرط التى رسمها هؤلاء الجغرافيون - البلخي والأصطخرى وابن حوقل والمقدسي - كانت إنتاجاً عربياً خالصًا ، وقد أطلق كونراد ميلر K.Miller فى كتابه Mappae Arabicae عليها " أطلس الإسلام " (٦١). الذى يمثل قمة الكارتوغرافيا Cartography عند العرب ، أى فن رسم المصورات الجغرافية أو الخارطات .

ورسم الإدريسي خريطة للعالم المعروف فى عصره ، أكثر دقة من خريطة بطلميوس ، وهى محتوية على منابع النيل والبحيرات الاستوائية التى لم يكتشفها الأوروبيون إلا فى العصر الحاضر . وقد اعتمد الإدريسي على خريطة بطلميوس ، لأنها تشمل الأرض كلها ، وأخذ بنظرية الأقاليم السبعة . ولكن بطلميوس كان يتصور الأرض مسطحة ، وقد رسم خريطته على هذا الأساس ، بينما بنى الإدريسي جغرافيته على أسس علمية صحيحة فرسم خريطته على أساس كروية الأرض وخط الاستواء والأقاليم المناخية التى تتدرج من ذلك الخط إلى القطب(٦٢).

وكان بطلميوس يكتفي بتقسيم الأرض إلى أقاليم أى مناطق عرضية ، والمنطقة الواحدة تدور حول الكرة كلها دون حدود ، مما يصعب معه توقيع الأماكن والأعلام الجغرافية بالدقة . بينما قسم الإدريسي محيط الكرة طولاً إلى عشرة أجزاء متساوية بخطوط تبدأ من قطب الكرة الأعلى وتنتهى عند قطبها الأسفل ، على طريقة خطوط الطول اليوم ، وبهذا حصل على مستطيلات ، كل منهم يضم مساحة معينة من الأرض وما يقع فيها من الأقطار والمعالم الجغرافية . وقد اتخذ الخط الرئيسي ذلك الخط المار بالجزائر الخالدات فى المحيط الأطلنطى متابعاً فى ذلك بطلميوس . وقد كانت الأطوال قبل الإدريسي أطوالاً فلكية لا جغرافية ، وتصور الفلكيين أن خطوط الطول مستقيمة متوازية (٦٣).

أما بالنسبة لتوزيع البلاد على خطوط العرض ، فقد تبين للإدريسي أن بطلميوس لم يستوف نواحي المعمورة من ناحية ، وأخطأ في وضع نواح في غير أقاليمها من ناحية أخرى، وينتهي في الشمال إلى الجزر البريطانية ، في آخر الإقليم السادس ، واعتبرها أقصى المعمورة ، ولا يضع بعد ذلك شيئًا على الخريطة ، لأنها بحسب ما انتهى إليه علمه بلاد شديدة البرودة لا تسكن . فأكمل الإدريسي الجزر البريطانية وبلاد شمال أوروبا حتى فنلاندا وشمال الروسيا وبلاد اللاب Lappland ووضع ذلك كله في الإقليم السابع . وفيما يتصل بجنوب خط الاستواء ، نجد جغرافية بطلميوس لا تذكر شيئًا جنوب خط الاستواء ، قائلاً أن وراء ذلك بلاداً غير مسكونة بسبب شدة الحرارة، فصوب الإدريسي ذلك ، ومد العمران إلى جنوب خط الاستواء ، ليضع فيه جزيرة سرنديب وما وصل إلى علمه من جزائر بحر الهند ، ثم منابع النيل ومنابع نهر النيجر ، وهو عنده نيل السودان (٦٤).

وفي الوقت الذي كان فيه فن الخرائط عند العرب يقوم على أسس علمية ، كانت الأساطير ذات الطابع الديني من الملامح الأساسية في رسم الخرائط في أوروبا العصور الوسطى . وكان معروفًا في كثير من الأديرة حسب رواية الكتاب المقدس أن خريطة العالم عبارة عن قطعة من الأرض تحيط بها المياه وفي وسطها تقع الجنة (٦٥) . وكانت المدارس الكنسية في أوروبا التي تعلم الجغرافيا ، دائمًا ما تعارض ما يأتي به العلم ، وبدت الخرائط بعيدة كل البعد عن الحقيقة مثل خرائط بزالتر Psalter (نحو ١٢٠٠م) ، هتيرفورد Heterford (نحو ١٢٨٠م) ، مارينو سانوتو Marino Sanoto (١٣٢١م) ، خريطة بورجيا للعالم Borgian (١٤٥٠م) ، وخريطة إست Este (١٤٥٠م) ، خريطة فرامورا لإفريقيا Fara Maura (١٤٥٩م) (٦٦).

ولكن على الرغم من الأغلال اللاهوتية التي تعرقل رسامي الخرائط في أوروبا ، فإنهم لم يستطيعوا أن يتجاهلوا الخطوات الواسعة آلتي خطاها جيرانهم المسلمون في مجال المعرفة الجغرافية . وقد ظهر أثر الجغرافيا العربية في رسم الخرائط على التفكير الأوروبي ، ويبدو هذا واضحًا في خريطة العالم التي قام بإعدادها مارينو سانوتو في كتابه " الأرض المقدسة " Opus Terrae Santae بين عامي ١٣٠٠ و ١٣٢١م ، وكان مقصده الأساسي من ورائها استثارة حرب صليبية جديدة ، ومحاصرة العالم الإسلامي حصاراً اقتصادياً (٦٧)، ويرى كراتشكوفسكي أن الخريطة ليست سوى تكرار لجميع الخطوط الرئيسية المميزة لخارطة العالم

فى " أطلس الإسلام " مع اختلاف بسيط هو أن مركز الأخير مكة أما الأخرى فكان مركزها بيت المقدس (٦٨). كما أن خريطة إست يبدو فيها تأثير العرب واضحًا ولا تدين بشىء إلى "بطلميوس " (٦٩).

وقد بحث الدكتور حسين مؤنس فى كتابه " تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس " حقيقة الخرائط المنسوبة إلى بطلميوس ، وتوصل إلى أن هذه الخرائط التى تنسب إلى بطلميوس والمتداولة الآن بين الناس ليست أصيلة ، وإنها فى الغالب منقولة عن خرائط الإدريسى ، وأن خرائط بطلميوس ضاعت ولم يعثر عليها ، كما توصل إلى أن الخرائط التى نشرها إيرازموس ومن جاء بعده من الذين تولوا نشر جغرافية بطلميوس وخرائطها ابتكروا هذه الخرائط ورسموها على أساس من خرائط الإدريسى (٧٠).

ومن الخرائط المرسومة والآراء النظرية التى نقلت عن العرب تلقى كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخيل أن الأرض كثمرة الكمثرى المستطيلة ترتفع قمتها فى الهند وترتفع لها قمة أخرى مقابلة لها فى مكان آخر يشبه إقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه . وكانت الخريطة التى أوحت إليه هذه الفكرة مباشرة خريطة الكردينال بطرس الإيلى التى سماها صورة الدنيا Imago mundi واعتمد فيها على المصادر العربية ونشرها فى أوائل القرن الخامس عشر قبل رحلة كولمبس بنحو ثمانين سنة ، وهو فضل يحسب للعرب فى كشف العالم الجديد (٧١).

ومما سبق يتضح أن الخرائط العربية كانت أفضل كثيراً من خرائط أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى ، إذ أن الخرائط العربية قامت على أساس علمى تجريبى ، بينما كانت خرائط أوروبا تعبر عن الأساطير ذات الطابع الدينى .

وقد عرف ربابنة البحر والملاحين من العرب الخرائط العلمية الملاحية التى كان أهل البحر يستعملونها ويسيرون بمقتضاها ، والمعروفة باسم بورتلانى Portolani ، وأصل هذه الرسوم البحرية يرتبط فى العالم العربى بتلك الرحلات البحرية التى أوغلت فى المياه المفتوحة للمحيط الهندى والشرق الأقصى (٧٢). وذكر المقدسى أن هذه الخرائط كانت تستعمل فى الملاحة فى المحيط الهندى فيقول : " وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشـؤا ، من ربانيين واشاتمة – أى ملاحيها – ورياضيين ووكلاء وتجار ، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره .... ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها " (٧٣).

وكان ملاحو المحيط الهندى فى أواسط القرن العاشر يسافرون اعتماداً على كتب المسالك والخرائط البحرية ، التى كانت وقتئذ بدائية ناقصة ثم تحسنت بعد ذلك فى عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م بواسطة المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى (الإفريقى) ، الذى وضع أصول المصورات البحرية العربية ، بعد أن قام برحلة - حوالى عام ٤٠٠هـ - فى مركب الهندى دبوكره Dabawkarah وطاف بسواحل أفريقيا الجنوبية . وستسمى خرائط المسالك البحرية فى مصطلح الملاحين فيما بعد رحمناش أو (رهمانيات) Rahmanach التى عملت فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى (٧٤).

ولم تقتصر معرفة الخرائط البحرية واستعمالها على ملاحى المشرق من المسلمين ، بل عرفها ملاحوهم فى البحر المتوسط ، وهناك خبر عن ملاح أندلسى يعرف بالشيخ القادسى ، كان ماهراً فى هذه الشئون وله بها معرفة واسعة . ويبدو أن الإدريسى رجع إلى أمثال هذه الخرائط البحرية فيما يتصل بحوض البحر المتوسط ، وذلك عندما يتتبع شواطىء إفريقية الشمالية أو ساحل المحيط الأطلنطى فى أوروبا (٧٥).

ومنذ أوائل القرن الرابع عشر بدأ ظهور الرسوم البورتولانية وتداولها فى الموانى الإيطالية، وكانت تتميز بالدقة ، وينسب فضلها إلى الملاحين الإيطاليين والقطلونيين ، وأقدم نموذج منها وهو كارت بيزا Carte Pisan (حوالى عام ١٣٠٠م) ، ثم عرفها القطلان ومن أحسن نماذجها: الأطلس القطلونى سنة ١٣٧٥ Catalan Atlas ، وجاء فيه لأول مرة الوضع الصحيح للصين، بجانب رسم شبه جزيرة الهند على شىء من التقريب . كما صارت ميورقة مركزاً مشهوراً لفن رسم الخرائط ، وكان بعض رسام الخرائط من اليهود ، الذين استفادوا من الخبرة الفنية للمسلمين ، وصوروا بالرسم على خرائطهم الجزر الأطلنطية وخاصة جزر كناريا التى اكتشفها الإيطاليين فى القرن الرابع عشر . ويبدو أن الخرائط البورتولانية الأوروبية متأثرة إلى حد كبير بالرسوم الملاحية العربية التى سبقتها وكانت تستعمل فى الملاحة العربية فى المحيط الهندى على نطاق واسع ، كما يبدو فيها أثر الكتابات الجغرافية العربية واضحًا أيضًا(٧٦)، مما يؤكد أن أصلها عربى ، وأن الملاحون الإيطاليون والقطالونيون قد انتفعوا بما رسمه الإدريسى فى القرن الثانى عشر .

وقد استمر استعمال هذه الرسوم البحرية الإسلامية ، وأقر ماركو بولو (ت ١٣٢٤م) أنه استقى معرفته بساحل سيلان والمياه المجاورة من الرسوم البحرية لملاحى هذه البحار ،

واستخدم كثيراً من أسماء المواضع والجهات برسمها العربي والفارسي (٧٧). كما أن فاسكو دي جاما أخذته الدهشة حينما أطلعه الربان العربي – ابن ماجد – على خارطة ملاحية عربية للساحل الهندي بكامله ، المرسومة بشكل عام كما عند المغاربة ، بخطوط الطول والعرض (٧٨). ويقول سير توماس رو Sir Thomas Roe في سنة ١٦١٥ : أنه قابل في مدغشقر المعلم إبراهيم الذى أصلح له لوحة رسمه (٧٩).

وبرغم وضوح الأثر العربي في الخرائط الأوروبية ، فإن الأوروبيين بعد مطلع عصر الكشوف قد تنكروا لفضل العرب عليهم في علم الجغرافيا ، وتجاهلوا ذكر أية معلومات مستقاة من مصادر عربية (٨٠).

وقد انتقلت الكتب المخطوطة العربية إلى غرب أوروبا ، وذلك عبر التجار والرهبان الجوالين والدبلوماسيين والمغامرين (٨١) ، كما نشطت حركة الترجمة في أوروبا في القرنين الحادى عشر والثاني عشر من الكتب العربية ، وانتقلت معارف المسلمين إلى العبرية واللاتينية ثم إلى كثير من لغات أوروبا القومية . وأدى ذلك إلى تأثير الفكر الجغرافي الإسلامي على جغرافية عصر النهضة .

وغزت العلوم العربية من الأندلس إلى أوروبا الغربية ، فقد كانت الأندلس من أهم مراكز التقاء الحضارتين العربية والغربية ، حيث اتصل عالم الإسلام بأوروبا ، وكانت جامعاتها مقصد طلاب العلم من أنحاء أوروبا لقربها من الغرب . وصارت طليطلة مركزاً للثقافة الإسلامية في القرن الحادى عشر ، واستمر لها هذا المقام بعد الغزو المسيحي عام ١٠٨٥م ، فكان بلاط ألفونسو السادس مصطبغاً بالثقافة الإسلامية ، وازدهرت حركة الترجمة في مدرسة طليطلة ، وترجمت إلى اللاتينية عدداً كبيراً من مؤلفات العرب في العلم والفلسفة (٨٢).

وكانت صقلية أيضاً من المسالك التى نفذت منها الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب ، وقد ارتفع شأن بالرمو بالجغرافيين ، وعمل ملوك النورمان على الإفادة من علوم العرب فاجتذبوا إلى بلاطهم أشهر العلماء العرب ، وقامت صلات ودية بين المسيحيين والمسلمين خلال القرن الثاني عشر أدت إلى اتصال الثقافتين الإسلامية والغربية ، وذيوع المعرفة الجغرافية على نطاق واسع . كما أسس ملوك النورمان جامعة نابلى لنشر الكتب العربية في العالم الغربي بعد ترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، وانكب الأوروبيون على دراسة علوم العرب وفنونهم والإفادة منها ، وأدى ذلك إلى تمهيد الطريق إلى النهضة الأوروبية (٨٣).

كما اتصلت أوروبا بالعلم العربى فى بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية ، التى كانت ميداناً للقاء الغرب والشرق . فقد كان للحروب الصليبية نتيجة هامة من ناحية ازدياد حصيلة المعلومات الجغرافية فى الغرب الأوروبى ، وأن ذلك قد تم عن طريق التجارب العملية لا عن طريق الاطلاع على كتب الجغرافيين من العرب التى كان يجهلها الغرب إبان العصور الوسطى(٨٤). ووضعت كتابات تضمنت كثيراً من المعارف عن الشرق ، وكان وصف الطرق المتعددة بين بيت المقدس والغرب الأوروبى هو المحور الأول لتلك الكتابات التى وضعت فى ذلك العصر . وظهرت خرائط جغرافية مفصلة لمعالم حوض البحر المتوسط منذ أواخر القرن الثالث عشر – مثل خريطة العالم Mappa Mundi التى وضعت فى دير هيرفورد Hereford سنة ١٢٨٠م – والتى تتصف بعدم الدقة (٨٥).

وهكذا تواردت آراء الجغرافيين العرب من هنا وهناك وبطرق عدة على أوروبا دون انقطاع، وتأثرت المؤلفات الجغرافية الأوروبية بالمعرفة المستقاة من المصادر العربية . وهذا يوضح ما كان للفكر العربى من أثر فى الغرب الأوروبى ، وبدور العرب فى الحفاظ على التراث الحضارى القديم ، وفى نقل العلوم القديمة من المشرق والمغرب إلى الغرب الأوروبى . وبدون أفكار الإغريق والرومان القديمة ، وبدون أفكار العرب فى العصور الوسطى ، ما كان يمكن للنهضة الأوروبية أن تضع أصول الحضارة الحديثة .

وإلى جانب الجغرافية الوصفية ، تفوق العرب فى الجغرافية الفلكية Gosmography وكانت تسمى وقتذاك Astronomical Geography ، وصححوا الكثير من المعلومات الإغريقية ، كما أن العرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعييناً مضبوطاً فى الخرائط فصححوا بذلك أخطاء علماء اليونان ، كما قاموا بقياس محيط الأرض فى عهد الخليفة المأمون فى برية سنجار بشمالى العراق وتوصلوا إلى أن مقدار درجة واحدة من وجه الأرض ستة وخمسون ميلاً (٨٦). وتشهد الدكتورة سيجريد هونكه بتفوق العرب فى الجغرافيا الفلكية ، فتقول بأنهم نجحوا فى قياس أطوال وأعراض كثير من المدن قياساً دقيقاً ، وإن أخطأت مقاييس بطلميوس فى تقدير الدرجات فإن العرب لم يختلفوا إلا فى دقيقة أو اثنتين(٨٧).

ولاشك أن تقدم العرب فى العلوم الرياضية ساعد على تفوقهم فى علم الفلك الذى عنوا به عناية كبيرة ، ووضع فى عهد المأمون الجداول الفلكية المسماة " الزيج الممتحن " (٨٨) قد

أعدتها مجموعة من الفلكيين . والزيج هى جداول فلكية وضعها العرب يستدل بها على حركة الكواكب السيارة . وهذا الخلط بين مفهوم الزيج والجغرافية ناشئ عن ارتباط موضوعى الفلك والجغرافية عند المسلمين فى أوائل اشتغالهم بالعلم الجغرافى ، وهو ناتج أيضاً عن أخذ الكثيرين منهم بآراء الهنود والفرس فى علم الفلك وعن الخلط بين موضوعى كتابى بطلميوس فى الفلك " المجسطى " وفى الجغرافية (٨٩).

ومن فلكى العرب كثيرون مثل محمد البتّانى (٣١٩هـ / ٩٢٩م) وقد ذاع صيته فى أوروبا تحت اسم Albategnius الذى صحح بعض أخطاء بطلميوس السكندرى ووصل إلى نتائج جديدة فى المباحث الفلكية ، على أن أهم مؤلفاته هو كتاب " الزيج الصابى " الذى كان له أثر كبير فى علم الفلك عند العرب ، وفى تقدم هذا العلم فى أوروبا فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية أكثر من مرة فى القرن الثانى عشر ، كما أمر ألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) بترجمته من العربية إلى الإسبانية فى القرن الثالث عشر ، ثم نشر فى أوروبا عدة مرات فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وما بعدهما . وكان هذا الكتاب دائرة معارف ضخمة حدد فيها البتانى تقسيم دائرة الفلك وارتفاع القطب الشمالى ومعرفة زيادة النهار ومعرفة سمت الارتفاع والظل من دائرة الأفق ومعرفة عروض البلدان ، ومعرفة ارتفاع الشمس وقت انتصاف النهار ، ومعرفة ارتفاع الكواكب ، وطول السنة الشمسية ، كل ذلك جاء فى كتاب البتانى مزوداً بالجداول التوضيحية(٩٠).

ومحمد الفرغانى - الذى عاش فى القرن التاسع - من أهم مصنفاته " كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم " ، وقد أرفق بكتابه هذا جدولاً يبين الأماكن الهامة موزعة وفقاً للأقاليم السبعة من الشرق إلى الغرب مع تحديد مواقعها الجغرافية . وقد ترجم كتاب الفرغانى إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، كما ترجم فى القرن الثالث عشر إلى لغات أوروبية أخرى (٩١).

وكان البيرونى فلكياً مرموقاً وعالماً جليلاً ، زار الهند وأقام بها ودرس علومها واتقن لغتها . وألف عدة كتب مثل كتاب " القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم " و " الآثار الباقية عن القرون الخالية " ، وكتب فى عدة موضوعات فلكية مثل قياس وتحديد خطوط الطول والعرض ومسافات البلدان ، ودوران الأرض حول محورها ، وأنه سلم بحركة الشمس حول الأرض. كما ابتكر الاصطرلاب الأسطوانى الذى لم يقتصر استعماله على رصد الكواكب والنجوم ، وإنما

كان يستخدم كذلك فى تحديد أبعاد الأجسام البعيدة وارتفاعاتها عن سطح الأرض (٩٢). وكانت آراء البيرونى ومروياته فى علمى الجغرافية والفلك شائعة بين الأوروبيين (٩٣).

وكان الملك ألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون ، قد شغف بعلم الفلك الذى اتقنه العرب ونبغوا فيه بينما كانت أوروبا حتى ذلك الوقت تجهل هذا العلم تمامًا ، فقد جمع فريقًا من العلماء العرب فأصدروا " الزيج الألفونسى " أى الجداول الفلكية الخاصة بمنازل الشمس والقمر والكواكب والنجوم . وهى مجموعة ملاحظات أخذت فى طليطلة ، وقد نسخت منها صور لمساعدة الملاحين الإسبان ، وكثر استعمالها فى أوروبا بضعة قرون (٩٤).

وجداول ألفونسو هى فى الواقع من وضع الفلكى العربى أبو إسحق إبراهيم بن يحيى الزرقالى الذى اشتهر فى الدوائر العلمية بنسبته " الزرقالى " وفى أوروبا الوسيطة باسم Arzchal . عاش فى طليطلة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى تقريبًا ، وكان للزرقالى دورًا رئيسيًا فى وضع " جداول طليطلة " . وقد ترجم الطبيب الملكى دون إبراهام كتابه إلى اللغة القشتالية فأخذ منه جميع فلكى أوروبا فى دراساتهم (٩٥).

ومن بين أعمال الزرقالى العلمية حسابه لطول البحر المتوسط إلى ما يقرب من الواقع . وكان بطلميوس قدره باثنين وستين درجة ، ثم اختزلها محمد بن موسى الخوارزمى إلى ٥٢ درجة ، فاختزلها الزرقالى فى " جداول طليطلة " إلى ٤٢ درجة أى ما يعادل طوله الحقيقى بالتقريب(٩٦).

وكان الرأى منقسمًا فى أوروبا العصور الوسطى بشأن كروية الأرض ، فهناك آراء شتى تتراوح فى تصنيفها بين تصورات الراهب الرحالة كوزماس Comas وبين تردد العقل المسيحى فى قبول وجهات النظر الوثنية . فكوزماس فى كتابه " الطبوغرافيا المسيحية " ، يصور هيئة الأرض مسطحة مستطيلة ذات زوايا قائمة ، يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ضعف عرضها من الشمال إلى الجنوب ، ويكتنفها المحيط ، وأن هناك جبلاً شاهقًا فى الشمال، تلعب الشمس الصغيرة من خلفه لأجل أن يتعاقب الليل والنهار بانتظام ، ومن وراء المحيطات الشاسعة ينبسط الفردوس العظيم . كانت هذه هى الأفكار السائدة قبل المسيحية عن الأرض(٩٧). وقد اعتبر القديس أوغسطس استدارة الأرض مسألة لا يمكن التسليم بها . وكان الفكر الأوروبى غير مستعد لقبول فكرة كروية الأرض ، نتيجة الجهل الناشئ عن الجمود الدينى (٩٨). هذا فى الوقت الذى يُجمع فيه العرب على حقيقة كروية الأرض .

وسبحانه الذى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، والذى يناسب تكور كل من الليل والنهار على الآخر كروية الأرض لا تسطحها . وقد أجمع الجغرافيون العرب على أن الأرض كرة سابحة فى الفضاء مثل ابن خرداذبة وابن رستة والمسعودى ، فيكتب ابن خرداذبة " أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة فى جوف الفلك كَالْمُحَّةُ فى جوف البيضة"(٩٩).

وابن رسته الذى صنف كتاب " الأعلاق النفيسة " عام ٢٩٠هـ / ٩٠٣م ، أشار إلى دوران الأرض حول محورها ، فيكتب ابن رسته " أن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة ، أجوف دوراً ، والأرض مستديرة أيضًا كالكرة ، مصمتة فى جوف الفلك ، قائمة فى الهواء يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها ، فهى فى وسطها كالمح فى البيضة " (١٠٠).

وأتى ابن رسته بالبراهين على كروية الأرض فقال : " وكذلك أجمعت العلماء على أن الأرض أيضًا بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من فى نواحى الأرض فى وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية من الأرض ، قبل طوعها على المواضع المغربية، وغيبوبتها عن المشرقية أيضًا قبل غيبوبتها عن المغربية . ويتبين ذلك من الأحداث التى تعرض فى العلو ، فإنه يرى وقت للحدث الواحد مختلفًا فى نواحى الأرض ، مثل كسوف القمر ، فإنه إذا رصد بين بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب ، فوجد وقت كسوفه فى البلد الشرقى منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً ، أقول وجد ذلك الوقت فى البلد الغربى على أقل من ثلاث ساعات ، بقدر المسافة بين البلدين ، فتدل زيادة الساعات فى البلد الشرقى على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربى " (١٠١).

ويذكر المسعودى (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) فى كتابه مروج الذهب : " أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك " ، وأثبت كرويتها من دورانها حول الشمس ، فالشمس تشرق من المشرق ، ويعم الضوء نصف الكرة الشمالى ، ويعم الظلام نصف الكرة الجنوبى ، وهى تغرب من الغرب ، حيث يشمل ضوؤها نصف الكرة الجنوبى ، ويظلم النصف الشمالى (١٠٢).

ويذكر المسعودى أيضًا فى كتابه " التنبيه والإشراف " ، أن مغيب الشمس يختلف بحسب اختلاف البلدان فيكون مغيبها فى بلاد المشرق قبل مغيبها فى بلدان المغرب . كما كان طلوعها فى المشرق قبل طلوعها فى المغرب (١٠٣).

فإن آراء المسلمين عن كروية الأرض قد هيأت لعقولهم تصور بلوغ جنوب شرقى آسيا وبلاد الصين عن طريق الإبحار غرباً (١٠٤)، قبل إبحار الأوروبيين غرباً فى المحيط الأطلنطى فى القرن الخامس عشر .

ولو بقى الرأى الغالب على أهل أوروبا عن تسطيح الأرض كما كان قبل شيوع كتب الجغرافيين من العرب – مع إنكار الكنيسة للقول باستدارتها ودورانها – لكان من المتعذر أن يسنح فى فكر كولمبس خاطر السفر إلى الغرب للوصول إلى الأقطار الآسيوية ، ولكن العرب أشاعوا هذه الحقيقة فى الكتب الجغرافية التى كتبوها (١٠٥).

وكان الرأى السائد فى أوروبا يعتبر أن الأرض كوكب ثابت فى مركز العالم ، أخذاً بالنظام البطلميوسى ، وقد تابعهم فى ذلك الجغرافيون العرب الأوائل ، ولكن الشك فى سكون الأرض أخذ يخامر فيما بعد بعض الجغرافيين المسلمين من أمثال أبى سعيد السنجاوى وقطب الدين الشيرازى (١٢٣٦ – ١٣١١م) وأبى الفرج الشامى ، وألمحوا إلى دورة الأرض اليومية ، وقالوا بإمكان حدوث حركة الأرض حول الشمس . وبذلك سبق التفكير العربى الإسلامى التفكير الأوروبى بعدة قرون ، وفتح الطريق أمام إصلاح كوبرنيكوس فى عام ١٥٤٣م (١٠٦).

لقد توفر للعرب الآلات الدقيقة التى اخترعوها أو نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا فيها أو عولجت بمزيد من التحسينات . ومن أهم أدوات القياس التى استخدمها العرب البوصلة أو الإبرة المغناطيسية ، وقد استخدموها فى أسفارهم قبل أن يستخدمها الأوروبيون ، ويصف المقريزى (ت عام ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) فى كتابه الخطط الإبرة بأنها قطعة رقيقة من الحديد المغطس مجوفة علي شكل سمكة ، فإذا وضعت فى الماء ، تطفو فوق سطحه ، ودارت السمكة تستقبل القطب الجنوبى بفمها . ويذكر المقريزى أن الملاحين فى بحر الهند كانوا يستدلون على الجهات الأصلية عندما لا يرون النجوم ليلاً باستخدام البوصلة . فإذا عرفوا جهتى الجنوب والشمال ، تبين منهما المشرق والمغرب ، وللإشارة إلى القطب الجنوبى دلالة خاصة بالنسبة للملاحة فى المحيط الجنوبى ، فإن من استقبل الجنوب صار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره . فيقصدون حينئذ جهة الناحية التى يريدونها " (١٠٧).

واستخدمت البوصلة بواسطة الصينيين والعرب لمدة طويلة ، ولم تستخدم فى أوروبا قبل القرن الرابع عشر (١٠٨) . وتعددت الآراء حول مخترعيها ، فمنهم من يقول بأنها من مخترعات الصين ، وفى ذلك يقول شوموفسكى " ونقلت الملاحة العربية من الخبرة البحرية الصينية

البوصلة (الحقة) ، وطورتها ، واستخدم العرب البوصلة مثلهم مثل الربابنة من السكان الأصليين فى الشرق الأقصى ، فى ظروف السماء الغائمة " (١٠٩)؛ وأرجعها بعضهم إلى اليونان ، ويرجح البعض الآخر اختراع العرب لها ، فقال جوستاف لوبون فى كتابه عن الحضارة العربية بأنها اختراع عربي أصيل وهو قول له قيمته ، فإن أعوزته أدلة الجزم القاطع لم تعوزه أدلة الترجيح (١١٠). إن الأقوال التى ترجع بها إلى مخترعات الصين يشوبها كثير من الشك ، ومثلها الأقوال التى ترددها بين الرومان واليونان ، ولم يكن باب الاقتباس مغلقًا بين الصين والعرب فى فنون الملاحة ، إذ كانت السفن تغدو وتروح زمنًا طويلاً قبل الإسلام بين الحيرة العربية وموانئ الصين (١١١).

ويرجح خوان بيرنيث خينيس أن العرب عرفوا البوصلة فى القرن الحادى عشر ، ولكنهم احتفظوا بسر تركيبها الذى كان يسمح لهم بمزاولة التجارة البحرية دون منافسيهم ، إلا أنه من الثابت أن النصوص لم تشر إلى البوصلة حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر ، وذلك عندما أشار " محمد الوافى " فى كتابه " جوامع الحكايات " إلى أن ربانًا ضل طريقه فى الخليج الفارسي أثناء عاصفة هوجاء ، ولم يهده إلى الطريق إلا إبرة على شكل سمكة ؛ وهناك بيلق القبشاقي (ت حوالي عام ١٢٨٢) الذى يروى في كتابه " كنز التجار فى معرفة البحار " - كتبه عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م - أنه فى أثناء الرحلة التى قام بها فى شرق البحر المتوسط ، لاحظ أن الملاحين يستعملون البوصلة أداة للتوجيه ، كما كانوا يجعلون مكة فى الجنوب المغناطيسي ، بمعنى أنه إذا اتجهت الإبرة نحو الجنوب فإنها تسمى القبلة " الجنوب " (١١٢).

ولما كان الإدريسي قد استخدم خرائط الملاحة التي قامت على أساس من استعمال البوصلة فلابد أنه عرف البوصلة واستخدمها في تحديد الاتجاه فى رسوم هذه الخرائط البحرية . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الفكرة التى تنسب اختراع البوصلة فى أوروبا إلى رجل إيطالي اسمه " فلافيو جيويا " فى القرن الرابع عشر إنما هى فكرة خاطئة ؛ لأنه من الثابت أن أوروبا عرفت البوصلة فى أواخر القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ؛ وأنها عرفتها عن طريق العرب الذين استعملوها قبل ذلك وذكرها الإدريسي فى مؤلفاته . ويكفى أن البوصلة احتفظت باسمها العربى فى كثير من اللغات الأوروبية(١١٣) .

وإذا كان الثابت أن البوصلة اختراع صينى ، إلا أن فضل العرب يتركز فى نقطتين : الأولى أنهم كانوا أول من استخدم البوصلة على نطاق واسع فى الملاحة ، والثانية أنهم هم

الذين نقلوا ذلك الاختراع إلى أوروبا وعلموا الأوروبيين استعمال البوصلة . ذلك أن الصينيين كانوا ضعافًا فى الملاحة ولم نسمع عن قيامهم برحلات بحرية بعيدة عن شواطئهم ، ولذلك لم يستخدموا البوصلة فى الملاحة . وذلك بخلاف العرب الذين أثبتوا أنهم ملاحين مهرة فأسرعوا إلى التفكير فى استغلال البوصلة فى الملاحة (١١٤).

ولما كانت البوصلة لا توضح سوى الاتجاه ، فقد استخدم العرب الاسطرلاب فهو دليل الملاحين فى عرض البحار والمحيطات . والاسطرلاب آلة فلكية أخذها العرب عن الإغريق ، وأدخلوا عليها كثيراً من التحسينات ، تستعمل فى تعيين ارتفاع الشمس والنجوم ، ثم أمكن استخدامه فى حساب الوقت وكذلك البعد عن خط الاستواء . وقد استخدمه كثير من البحارة فى عرض البحار لمعرفة المكان وخط الطول والعرض ، واستمر استخدامه فى تلك العهود حتى اكتشاف " آلة السدس " . وهو يتألف من قرص معدنى مقسم إلى درجات تعين زاوية ارتفاع النجم أو الشمس ، ويدور على هذا القرص مؤشر ذو ثقبين فى طرفيه ويعلق الاسطرلاب من حافته رأسيًا مع توجيه المؤشر نحو الشمس . وعندما تمر أشعة الشمس من هذين الثقبين يقرأ ارتفاع النجم من الحد الذى يقف عليه المؤشر . وظلت قيمة الاسطرلاب عظيمة للملاحين أيضًا حتى حلت محله اختراعات حديثة فى القرن السابع عشر الميلادى (١١٥).

وقد مهر العرب فى صناعة الاسطرلاب ، وحفظ التاريخ اسم الفزارى (ت ٧٩٦م) مخترع هذا الجهاز فى القرن الثامن . ويقال أن الفزارى كان أول من صنع اسطرلابًا من العرب ، وقد عمل فى هذا الميدان أيضًا النيرزى (ت ٩٢٢م) ، والزرقالى (ت ١٠٨٨م) ، وقد كان لصفيحة الزرقالى أبعد الأثر فى أوروبا(١١٦) .

وقد صنع الجوقندى (ت ٣٨٢هـ / ٩٩٢م) الذى عاش فى بلاط فخر الدولة البويهى جهازًا عرف باسم " سداسى الفخرى " يستخدم فى معرفة ارتفاعات الأماكن ، وكان هذا أساس الجهاز الحديث المعروف باسم جهاز السداسى أو " صندوق سكستان " . وكان فى مرصد شرف الدولة فى بغداد (حوالى ألف ميلادية) كثير من مهرة صناع الأجهزة العلمية الدقيقة اشتهر منهم الصاغانى ورستم الكوهى . وقد عرف الأوروبيون الاسطرلاب من المصادر العربية(١١٧).

وبوصول هذه المعلومات والنتائج التى توصل إليها العرب فى علم الفلك إلى أوروبا أخذ اهتمام الأوروبيين يزداد بذلك العلم . وبفضل هذه الأدوات والخبرات والمعلومات التى قدمها

العرب ، أصبح الأوروبيون فى أوائل العصور الحديثة مزودين بجميع المؤهلات البحرية اللازمة لتحقيق مشروعاتهم الكشفية منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد شاهد الرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما هذه الأجهزة التى أدهشته بدقتها ، عندما دار حول رأس الرجاء الصالح ، عام ١٤٩٨ ، وقابل شمال موزمبيق سفنًا عربية تحدث عنها قائلاً " إن ربابنتها يملكون بواصل لتوجيه السفن ، وأجهزة للمراقبة ، وخرائط بحرية " (١١٨).

وقد أدى تقدم فن الملاحة البحرية العربية إلى دفع حركة الكشوف الجغرافية ، ويعتقد بعض المؤرخين أن الكشوف الجغرافية بدأت من القرن الخامس عشر ، وأن الفضل فى هذه الكشوف يرجع إلى الأوروبيين فقط . والواقع أن الأوروبيين وإن كانوا قد قاموا بكشوف جغرافية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فإنما أتموا جهوداً سابقة لشعوب الشرق ، واستفادوا من جهود وخبرة هذه الشعوب فى نشاطهم الكشفى .

فقام المصريون القدماء بمحاولات كشفية فى حوض النيل ، وفى البحر المتوسط حيث وصلوا إلى كريت ، وفى البحر الأحمر حيث وصلوا إلى الصومال . كما قام الفينيقيون بكشوف واسعة ، إذ ارتادوا الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، ثم امتد نشاطهم إلى الجزء الغربي ، وأنشئوا المستعمرات على سواحله ، ومنها مستعمرة قرطاجنة بشمال إفريقية ، بل إنهم جاوزوا البحر المتوسط ، ونفذوا إلى المحيط الأطلنطى . فقد قام الفينيقيون بتكليف من نخاو (٦٠٩ - ٥٩٤ ق.م) فرعون مصر برحلة استكشافية سارت حول إفريقيا ، وأبحر الفينيقيون وساروا جنوباً مارين ببلاد الصومال وكينيا إلى ساحل ناتال الحالية ، ثم أقلعوا إلى رأس الرجاء الصالح ، وساروا حول الساحل الجنوبي ، وواصلوا العودة متجهين شمالاً فى محاذاة ساحل إفريقيا الغربى حتى مضيق جبل طارق ، ومن ثم ساروا فى البحر المتوسط فى محاذاة الساحل الإفريقى حتى وصلوا إلى الدلتا (١١٩). وقد دفع النشاط التجارى اليمنيين إلى معرفة الطرق البحرية الموصلة إلى الهند وماوراءها .

وبعد أن كون العرب الدولة العربية الإسلامية ، جابوا كثيراً من جهات البر والبحر فى آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وسجلوا أخبارهم ومعارفهم عنها للإفادة منها . ففي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، بلغ التجار والرحالة المسلمون بلاد الهند والصين براً وبحراً ، وسجل لنا بعضهم وصفاً عن هذه البلاد . وقد كتب الرحالة ابن خرداذبة فى عام ٨٤٦م دليلاً للتجارة والمسافرين ، للاسترشاد به فى رحلاتهم البحرية من بلاد العرب إلى الهند والصين . واستقرت جماعات إسلامية فى بعض موانى الصين ومنها " كانتون " قبل أن يصل إليها البرتغاليون

بأكثر من أربعة قرون . وعرف العرب كذلك جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) والملايو ، ونزلوا أراضيها للتجارة ، واستقرت بها جاليات من العرب قبل وصول البرتغاليين والهولنديين إليها بثلاثة قرون.

كذلك وصل التجار العرب إلى سواحل إفريقيا الشرقية حتى أقصى الجنوب قبل أن يصل إليها البرتغاليون بعدة قرون ، بل إن فاسكو دى جاما قام برحلته الطويلة حول إفريقيا فى آخر القرن الخامس عشر ، واستعان بأحد البحارة العرب المقيمين فى ساحل إفريقيا ليرشده إلى الهند .

ومن شمال إفريقيا وصل العرب إلى السودان ، وعرفوا طرق القوافل الهامة عبر الصحراء الكبرى ، ووصلوا إلى حوض السنغال وحوض النيجر ومشارف ساحل غانة . وقد سجل لنا ابن بطوطة بعض مشاهداته فى تلك الجهات فى القرن الرابع عشر الميلادى .

إن البحارة العرب فى القرون الوسطى لم يكونوا جميعهم من أصل عربى ، ولم يكونوا مسلمين فقط ، فكان فى عداد نوتية السفن البربر والأقباط والفرس وحتى الهنود (١٢٠) . وقد أشاد بفضل العرب فى فنون البحر والملاحة فى العصور الوسطى بعض المستشرقين ، ويقول الجغرافى الألمانى تيوفيل فريدريخ إيرمان (ق ١٨) عن الإبحار العربى " فى تلك الأزمان عندما كانت كل أوروبا ما تزال غارقة فى سباتها ، عندها اعتبر العرب أمة المهارة المحبة المتمرسة بالتجارة البحرية " (١٢١).

كان المحيط الهندى قد صار سبيلاً مطروقًا لدى البحارة العرب ، وكان إقلاع السفن يتأثر مباشرة بتغير الفصول ، فالرياح الموسمية تجلب معها فصل الأمطار بما فيه من زوابع عاتية وطقس ردىء ، كما كانت هناك أعاصير متتالية تتبع اتجاه الرياح الموسمية ، ومن أجل ذلك كان إبحار السفن فى مياه بحر العرب وما جاورها – سواء صوب الشمال أو الجنوب – يعتمد على اتجاه الرياح الموسمية . وكان العرب أعلم الناس وأخبرهم بالأنواء ومهاب الريح والمد والجزر ، ويتحدث المسعودى مثلاً عن الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ومواعيد هبوبها وأثرها فى الملاحة ، فيقول : " ولكل من يركب البحار – بحر الصين والهند وفارس وعمان – من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون فيها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً ، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها إبان هيجانه وأحوال ركوده " (١٢٢).

وكان الربابنة العرب يعرفون جيداً حوض البحر الأحمر ، الذى مخروه بسفنهم المحملة بالبضائع والحجاج بموانى اليمن والحجاز ، واتسعت هذه الممارسة إلى حد كبير فى عهد الخلافة وهناك خارطة تفصيلية دقيقة للبحر الأحمر مرسومة فى المخطوطة الأساسية لأحمد بن ماجد (١٢٣).

ومن الربابنة المهرة الذين قادوا السفن بين شبه الجزيرة العربية وإفريقيا برزت شخصيات محمد بن عمر ، ماجد بن محمد وأحمد بن ماجد (١٢٤)، وهم يمثلون ثلاثة أجيال من أصل الإرشاد البحرى النجدى ، الذى يعود فى نسبه إلى مركز شبه الجزيرة العربية .

واستخدم العرب البوصلة التى كانت دليل الملاحين الذين يقصدون سيلان أو بحار الصين ، كما استعملوا الاصطرلاب فى ركوب البحر ، وآلات فلكية دقيقة لرصد حركات الكواكب والنجوم ، وتوصلوا إلي استحالة قياس حركات النجوم من على المركب ، نظراً لحركة الأمواج والرياح ، واستخدموا مواقع النجوم للتعرف على الجهات الأصلية فى عرض البحر (١٢٥). فعندما يكون الجو صحواً ، فإن الاتجاه بالنظر إلى النجوم ليلاً أو إلى الشمس نهاراً ، ولكن عندما يغيم الجو يستعين الربابنة بالإبرة التى تشير إلى الجنوب ، كما عرف العرب دلائل الاقتراب من اليابس (١٢٦).

ونقل الأوروبيون إلى لغاتهم كثيراً من أسماء النجوم العربية ، كما انتقلت كثير من المصطلحات البحرية والتجارية إلى اللغات الأوروبية بنطقها العربي . فمن المصطلحات البحرية admiral من أمير البحر ، Tare من طرح السفينة ، arsenal من دار الصناعة ، felouque من الفلك ، Calfate هو الجلفطة ، Risk من كلمة رزق (١٢٧). فرياح الموسم يسميها الفرنسيون Musson ، والإيطاليون Mousone . والنواتية يسميهم الفرنسيون Nauton-niers . والملاحون العرب يسمون ضجيج البحر بالهول ، فقال الفرنسيون – قياساً على ذلك – Houle . وربط العرب مراكبهم بالحبال أو الأمراس أو المرار (جمع مر) ، فسمى الإيطاليون الحبل Amarrage كما قالوا Amaner وتوسع الفرنسيون فقالوا Amarra (١٢٨).

ومن المؤلفات الجغرافية عن الملاحة البحرية العربية هناك مغامرات التاجر سليمان التى قام بها إلى الهند والصين فى القرن التاسع ، والمعلومات التى أمدنا بها أبو زيد السيرافى عن الهند وإفريقيا فى بداية القرن العاشر فى كتاب " سلسلة التواريخ " (١٢٩).

وهناك أيضًا سليمان بن أحمد بن سليمان المهرى ، وكان معاصرًا لابن ماجد ، وله كذلك بعض المؤلفات فى الملاحة كتبت فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، منها كتاب " العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية " ، وفى هذا الكتاب تناول فصول من علم الفلك البحرى ، والطرق البحرية فى بحر العرب ومياه شرقى إفريقيا وسواحل خليج البنغال والملايو والهند الصينية ، والطرق خلال كثير من جزر المحيط الهندى ، والرياح الموسمية فى المحيط الهندى . وقام بترجمة كتاب المهرى سيدى على بن الحسين المتوفى عام ١٥٦٢م وهو من أمراء البحر الأتراك (١٣٠).

وقد ترك ابن ماجد وثائق هامة للملاحة فى البحار الشرقية ، أهمها كتاب " الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد " . وفرغ من كتابته عام ١٤٩٠م / ٨٩٥هـ ، وهو مؤلف فنى ضخم يتناول أصول الملاحة ، وقد جمع فيه خبراته الواسعة التى اكتسبها عن هذه البحار من تجاربه الشخصية وممن سبقوه . ونشره المستشرق الفرنسى جبرائيل فران عام (١٩٢١ - ١٩٢٣م)، ويشمل الكتاب اثنى عشر فصلاً ، يتحدث فيها ابن ماجد عن نشأة الملاحة والإبرة المغناطيسية ، وصفات الربان والمتطلبات المهنية والأخلاقية للمرشد البحرى ، والمحطات القمرية (النجوم والبروج ودائرتها القمرية) ، وجهات دائرة الرياح ، ويتحدث الجغرافيين والفلكيين القدماء ، والطرق البحرية فى المحيط الهندى ، ورصد النجوم ، وخطوط عرض عدد من الموانى فى المحيط وبحر الصين الغربى ، وعلم العلائم أى حساب دلائل الاقتراب من اليابس ، وسواحل إفريقيا وآسيا ، وأهم عشر جزر فى العالم ، والرياح الموسمية ، ودليل البحر الأحمر ويذكر بالتفصيل مراسيه وشطآنه وشعابه . وقد قيم غبرائيل فران كتاب " الفوائد " بأنه عمل إبداعى متقن لمجموعة معارف عن البحر فى العصور الوسطى ، ومؤلفه وصف البحر الأحمر بدقة وتفصيل لا يفوقه أى عمل أوروبى فى مجال الملاحة (١٣١).

وكانت الكتب العربية البحرية دليل الإبحار البعيد المدى وليس إبحار المساحلة ، تتضمن جدولاً للمرافئ الصغيرة والكبيرة المنتشرة على مختلف سواحل المحيط الهندى مع تثبيت أبعاد المسافات عنها وارتفاع الكوكب المحدد فوقها . وتتناول كتب الإرشاد البحرى الوصف التفصيلى للمجرى مع التنويهات الضرورية لنقاط تبديل المسار ، وذكر أنواع من الرياح الموسمية الإقليمية ، وفترات الإبحار التقويمية المتعلقة بها . وحددت الملاحة تواريخها على أساس أيام السنة الشمسية (النيروز) ، على خلاف مجال الحياة السياسية والمدنية ، التى كانت جميع أحداثها تؤرخ وفقًا للتقويم القمرى (١٣٢).

وكان للعرب في المغرب والأندلس نشاط بحرى في المحيط الأطلنطي الذى اقترن في أذهانهم " ببحر الظلمات " . وارتادت سفنهم جزر المحيط الأطلنطي القريبة من شواطىء إفريقية الغربية . وقام المسلمون بمحاولات عديدة للكشف فيه أكسبتهم معرفة بجزر آزور وكناريا . كل هذا قبل أن يصل الأوروبيون إلى تلك الجهات في العصر الحديث .

وهناك نصوصاً كثيرة تدل على أن خروج المسلمين من إسبانيا في اتجاه الغرب أو الجنوب بمحاذاة إفريقية كان أمراً كثير الحدوث . قال خوان بيرنيت في مقالة عن الأصل العربى للخرائط الملاحية : " بأن معلومات ملاحي المحيط الهندى عن السواحل الإفريقية الأطلنطية لا ترجع فقط إلى المعلومات التى أمدهم بها البرتغال بعد رحلة فاسكو دى جاما . وإنما من الممكن أن يكون ملاحو الأندلس والمغرب في الزمن القديم كما يقول ابن ماجد . قد وصلوا المحيط الهندى بعد أن طافوا بإفريقية ووصلوا رأس الرجاء الصالح . وزارت سفنهم بعد ذلك سفالة في بلاد الزنج وهي تقع على خط عرض ٢٠ جنوبياً . أى أنها قريبة نسبياً من الطرف الجنوبي لإفريقيا . وكانت سفن المسلمين المشارقة تفد على هذا الميناء ابتداء من القرن التاسع الميلادى (٣هـ) على الأقل . وهناك كانوا يلتقون بإخوانهم المقبلين من الأندلس والمغرب(١٣٣).

ويروى لنا المسعودى أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه . ومن نجا منهم . ومن تلف وما شاهدوا منه . وما رأوا . وإن منهم رجلاً من أهل الأندلس يقال له خشخاش . وكان من فتيان قرطبة وأحداثها . فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم في مراكب استعدها في هذا البحر المحيط . فغاب فيه مدة ثم عاد بغنائم واسعة . وخبرة مشهورة عند أهل الأندلس(١٣٤).

ورحلة سليم الأسوانى (حوالى ٣٦٤ هـ / ٩٧٥م) الذى وصل إلى قلب إفريقيا عن طريق المحيط الأطلنطي (١٣٥).

وقد أمدنا الإدريسي بالخبر المشهور الذى رواه عن هذا النفر من أهل مدينة الحمّة الأندلسية . الذين خرجوا من ثغر أشبونة (حوالي القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) في مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفى لأشهر . وساروا في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه . ولهم بأشبونة موضع بقرب الحمة منسوب إليهم. يعرف بدرب المغررين . ووصلوا إلى جزيرة الغنم . ثم ساروا بعد ذلك جنوبياً حتى وصلوا جزيرة أخرى بعد اثني عشر يوماً . فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفاف البحر . فأنزلوا بها . فرأوا فيها رجالاً شقراً زعراً شعورهم سبطة . فاعتقلوا في بيت ثلاثة أيام . ثم

دخل عليهم رجل يتكلم باللسان العربى وأعلمهم أنه ترجمان الملك . وقد أخبروا الملك أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار ويقفوا على نهايته ، واستمروا فى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الرياح الغربية ، فمر بهم زورق وجرى بهم فى البحر ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى البر عند مدينة أسفى فى أقصى المغرب ، ثم عادوا إلى أشبونة (١٣٦). ويرجح الدكتور حسين مؤنس أن الجزيرة الأولى التى وصلوا إليها هى إحدى جزر أزور (أى الجزائر الزرقاء) ، وأن الجزيرة الأخرى هى إحدى جزر كناريا ، أى جزر السعادات (١٣٧).

وهناك أيضاً رحلة ابن فاطمة (ت ٧٣١ هـ / ١٣٣١م) التى وصل فيها إلى ما بعد الجبل الأبيض (رأس برانكو Branco) بمحاذاة ساحل إفريقيا الغربى (١٣٨).

كانت هذه محاولات العرب لاستطلاع المحيط الأطلنطى ، ولكنهم لم يصلوا منه إلى نهاية ، وانتهوا إلى جزائر الأزور وكشفوا سواحله إلى أقصى الجنوب ، وتؤكد أن العرب كانوا أسبق من البرتغاليين فى اقتحام المحيط الأطلنطى .

واتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن العرب عرفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كولمبس ، واشهر من قال بذلك الأب أنستاس مارى الكرملى صاحب البحوث الطويلة فى مشتقات الألفاظ وتواريخها ، وأشار إلى أن العرب سبقوا سائر الأمم فى معرفة تيار الخليج الحار فى المحيط الأطلنطى ، وأن كولمبس عاد من أمريكا بذهب مخلوط بالنحاس على النحو الذى يخلط به أهل غانة الإفريقية ، وأن لغات الهنود الحمر تشتمل على كلمات عربية . ولكن القول بوصول العرب إلى العالم الجديد يحتاج إلى أدلة أقوى من هذه الدلائل . وينكر الأب أنستاس الكرملى أن كولمبس كان مديناً بالفضل فى معرفة العالم الجديد لمراجع من القرن الخامس الميلادى ، وبذلك ينكر فضل العرب فى الكشوف الجغرافية (١٣٩).

وكان تقدم فن الملاحة البحرية ورسم الخرائط فى إيطاليا نتيجة اتصال الإيطاليين بالعرب ، قد أفادت منه إسبانيا والبرتغال فى نشاطهما فى ميدان الكشوف الجغرافية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فقد تقدمت فنون الملاحة وأدواتها ، وتحسنت صناعة السفن فى أوروبا ، واستخدم البحارة البوصلة والاسطرلاب ، والخبرة بالرياح وتيارات مياه المحيط ، وشجاعة ومهارة القواد والملاحين ، وجشع رجال الدولة والتجار من أجل الذهب والسيادة ، ورغبة رجال الكنيسة والعلمانيين لنشر العقيدة المسيحية . كل هذه العوامل دفعت المخاطرين مبكراً فى مياه الأطلنطى (١٤٠). بالإضافة إلى اتساع المعرفة الجغرافية ، وانتشار بعض

الأفكار الجديدة مثل كروية الأرض ، كما أن المغامرات البحرية السابقة للعرب فى المحيط الأطلنطى ، كانت ضمن الحوافز التى شجعت البحارة البرتغاليين ، وفى مقدمتهم الأمير هنرى الملاح ، على القيام برحلاتهم البحرية فى المحيط الأطلنطى منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى .

وكان بلاط الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠م) - ابن حنا ملك البرتغال - قد صار مركزًا لدراسة الملاحة والجغرافية (١٤١). وقام البرتغاليون بعدة محاولات للوصول إلى الهند ، ولكنهم واجهوا صعوبات كثيرة فى الوصول إليها . ففى عام ١٤٤٦م سار البرتغاليون بقيادة الأمير هنرى بمحاذاة ساحل إفريقيا الغربى ، ووصلوا إلى مصب السنغال وساحل غانا(١٤٢).

وفى عام ١٤٨٨م سار بارثميوديياز Bartholmeu Dias فى محاذاة الساحل الإفريقى الغربى إلى جنوب إفريقيا وإلى منطقة أطلق عليها اسم رأس العواصف C.Offtormentoso، ولكنه أطلق عليه اسم رأس الرجاء الصالح ، ولاحظ دياز أن ساحل القارة ينحرف فى اتجاه الشمال الشرقى فعاد إلى أشبونة (١٤٣).

وفى عام ١٤٩٧ خرج فاسكو دى جاما من أشبونة قاصداً الهند ، ووصل إلى رأس الرجاء الصالح ودار حوله ، ثم اتجه شمالاً فى محاذاة شاطىء إفريقيا الشرقى ، حتى بلغ مالیندی Malindi فى مملكة كامبيا (كينيا الحالية) . وطلب من ملك ماليندى ربانا يقوده إلى الهند ، ونصحه ملك ماليندا بالاستعانة بربان عربى خبير بالمحيط والملاحة فيه . ويروى المؤرخ البرتغالى جواو دا باروش (من القرن السادس عشر) - مؤرخ رحلة فاسكو دى جاما - أن فاسكو دى جاما قد سر أثناء حديثه مع الملاح العربى ، الذى أطلق عليه باروش اسم المعلم فانا أو قانا Malemo Cana - أى أستاذ الملاحة التنجيمية - من سعة معلومات مرشده ، وخاصة عندما أطلعه هذا الملاح على خريطة الساحل الهندى بكامله ، مرسومة على غرار خرائط المسلمين المبين بها درجات الطول والعرض مفصلة غاية التفصيل . وعرض فاسكو دى جاما على الملاح العربى الإسطرلاب الخشبى الكبير الذى أحضره معه وغيره من الإسطرلابات المعدنية التى يقاس بها ارتفاع الشمس . ولم يبد المسلم أية دهشة لدى رؤية هذه الأدوات ، وأخبره أن الربابنة العرب فى البحر الأحمر يستخدمون أجهزة من النحاس مثلثة الشكل ومزاول لقياس ارتفاع الشمس والنجم القطبى الذى يسترشدون به كثيراً فى الملاحة ، كما يهتمون بعدد من النجوم . ولهذا الغرض يستخدمون جهازًا آخر أطلعه عليه وهو مؤلف من ثلاثة ألواح (١٤٤).

وبعد هذا الحوار وغيره مع المرشد العربي ، أمر فاسكو دى جاما بالإبحار إلى الهند على الفور ، مصطحباً معه الملاح العربي ، ليعاونه في عبور مياه المحيط الهندى ، وكان ذلك في الرابع والعشرين من أبريل ١٤٩٨م ، ووصل ساحل الهند الغربي في اليوم السادس والعشرين للإبحار من ماليندا ، أى في العشرين من مايو ، ونزل مدينة قاليقوط الهندية (١٤٥).

ويختلف الكتاب حول اسم الربان العربي المسلم الذى أرشد فاسكو دى جاما إلى الهند ، ولكنهم يجمعون على أنه عربياً . ولاشك أن ماليمو كانا هو نفسه أحمد بن ماجد . ويؤيد هذه الرواية نص عربي ورد في كتاب " البرق اليماني في الفتح العثماني " لقطب الدين النهرواني (١٥١١ - ١٥٨٢م) ، وذكر اسم الربان هو أحمد بن ماجد ، الذى وضع خبرته تحت تصرف البرتغاليين ، ونصحهم قائلاً : لا تقربوا الشاطيء عند هذا الجزء (الشاطيء الشرقي لإفريقيا إلى الشمال من مالندى) بل أديروا الدفة رأساً صوب البحر المفتوح فتبلغوا الشاطيء (شاطيء الهند) وتكونوا في حمى من الأمواج . فلما اتبعوا هذه الإرشادات نجا كثير من السفن إلى بحر الهند الغربية (١٤٦).

وهذا دليل على أن العرب لم يقتصروا على المساحلة في إبحارهم ، وأن الملاح العربي ابن ماجد هو صاحب الفضل في وصول البرتغاليين إلى الهند . وكانت نتيجة هذه المعاونة فرض السيطرة البرتغالية على المحيط الهندى ، وتحطيم الإبحار العربي ، وانتزاع التجارة من أيدى العرب ، والتى كانت الهدف الأساسي للكشوف البرتغالية .

ونقلت عبر البحر من الشرق إلى أوروبا بضائع الهند وأهمها الأحجار الكريمة والذهب والتوابل ، بالإضافة إلى المخطوطات العربية وكان من ضمنها كتب الإرشاد الملاحية والخارطات البحرية . واعتماداً على معطياتها تم تصميم الخارطة البرتغالية الجغرافية للمحيط الهندى في القرن السادس عشر ، وكذلك توصيفات المرشدين المزامنة لها لهذا الحوض (١٤٧).

ويعود الفضل في نجاح حملات الأمير البرتغالى فاتح سواحل الخليج العربي المعروف ألفونسو البوكيركى Alfonso de Albuquerque ، إلى الخارطة البحرية التى صممها الربان البحرى عمر ، والتى انتقلت إلى أيدى البرتغاليين عن طريق ربان عربي أخر وقع أسيراً في شواطيء سوقطرة ، وقد أرسل البوكيركى مع تقريره لبلاط أشبونة (لملك البرتغال) في عام ١٥١٢م نسخة عن الخارطة الأخرى للطرق البحرية في المحيط الهندى ، التى نفذها أحد البحارة من جاوة موضح عليها رأس الأمنية الطيبة (الرجاء الصالح) ، والبرتغال والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر ملوقة Matacca (ملوك) فالممرات الملاحية إلى الصين (١٤٨)

وبينما كان البرتغاليون يتلمسون سبيلهم إلى الهند ، أواخر القرن الخامس عشر ، عن طريق الدوران حول إفريقيا ، تقدم البحار الإيطالي كريستوفر كولمبس إلى ملكي إسبانيا إيزابيلا وفرديناند ، بفكرة إمكان الوصول إلى الشرق بالإبحار غرباً . وكان كولمبس يؤمن بكروية الأرض ، ولكنه كان يعتقد - معتمداً على خريطة بطلميوس - أن المسافة بين إسبانيا والهند ، من ناحية الغرب قصيرة ، فقد حدد بطلميوس محيط الأرض أصغر من الحجم الحقيقي (١٤٩). وأدرك كريستوفر كولمبس أن البلاد التي زارها ماركو يمكن الوصول إليها بالإبحار ناحية الغرب (١٥٠).

ويمكننا القول أنه كان لبطلميوس وللعرب فضل كبير في الكشف الذي حققه كولمبس. فكان خطأ بطلميوس في تحديد محيط الأرض ، قد أعان كولمبس على تدعيم اعتقاده في الوصول إلى آسيا في أيام قلائل . واستمد كولمبس فكره عن كروية الأرض من الفكر العربي ، ومن المؤلفات العربية وخاصة في الجغرافية والفلك ، وأثبت صحة النظرية العربية بكروية الأرض . ولكن الأوروبيين سجلوا قصة الكشوف الجغرافية دون أن يشيروا إلي فضل العرب عليهم .

ثم أكدت رحلة ماجلان عام ١٥١٩م على أن الأرض كروية ، وأن حجم الكرة الأرضية أكبر بكثير مما تصور الناس (١٥١).

ويمكن القول بأن هذه الحملات الصليبية البحرية المتأخرة والتي يطلق عليها اسم الكشوف الجغرافية أدت إلى سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندي واحتكارهم تجارة الشرق ، وتقويض مركز العرب التجاري ، كما أتاحت للأوروبيين فرصة تكوين المستعمرات ، وانتعاش الحالة الاقتصادية في أوروبا .

وبعد هذا العرض المتقدم في الصفحات السابقة ، يتضح أن فضل العرب على العلم الجغرافي في العصور الوسطى يفوق في الحقيقة كل ما كتب أو قيل إلى يومنا هذا ، وقد تخصص عدد من المستشرقين في دراسة الجغرافية العربية ، واعترفوا بجهود العرب في اتساع المعارف الجغرافية في العصور الوسطى ، واعترف بعضهم بتأثير الفكر العربي على الفكر الأوروبي في هذا المجال . ففي الوقت الذي حلت فيه الخرافات والأوهام على الفكر الأوروبي ، كان العرب يجوبون البحار ، ويترجمون كتب الجغرافيين القدماء ، ويضيفون إليها ، ويصنفون في علم الجغرافيا .

وكان العرب والمسلمون فى العصور الوسطى هم حلقة الوصل بين القديم والحديث ، فحافظوا على التراث القديم وأضافوا إليه ما تجمع لديهم من المعرفة الجغرافية ، واستمرت جهودهم فى تطوير الفكر الجغرافى حتى عصر النهضة والكشوف الجغرافية . وقامت الحضارة الإسلامية بدور هام بين الحضارات القديمة وحضارة العصر الحديث والربط بين القديم والحديث . واستمدت الحضارة الأوروبية الحديثة أصولها من الحضارة الإغريقية والرومانية القديمة ، والحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى .

كان للعرب دور ملحوظ فى الجغرافيا الوصفية التى تتناول وصف البلاد والمدن والأنهار والجبال وحالة السكان ، كما كتبوا فى المسالك والممالك أو كتب تقويم البلدان . وقد ربط العرب بين الجغرافية والفلك ، وكانت لهم محاولات فى الجغرافيا الرياضية الفلكية ، وخاصة فى تحديد الطول والعرض ومسافات البلدان ، وأصلحوا جداول بطلميوس للمدن وأضافوا إليها بأسماء أجزاء من العالم لم تكن معروفة فى العهدين اليونانى والرومانى مثل اتصال الهند بالصين . أما عن فن الخرائط ، فقد حفظ العرب التراث القديم ، وأسهموا فيه أيضاً بنصيب ملحوظ ، على أن مسألة تصميم الخرائط لم تكن يسيرة .

لقد أعطى العرب وصفاً كاملاً لجميع البلدان من إسبانيا وحتى تركستان ومداخل الهند ، وتعداداً دقيقاً للمراكز السكانية مع توصيفات للمساحات الزراعية والصحارى ، وأماكن تواجد الثروات الباطنية ، وتجاوزت معلوماتهم بشكل واسع حدود العالم المعروف من قبل اليونانيين . ويقيم علم الاستشراق المعاصر المؤلفات الجغرافية العربية بأنها " غنية ومتنوعة ، علمية حيناً وشعبية وتقنية حيناً آخر ، وخرافية ومسلية ووعظية ، أنها تعطى تجمعاً للمواد يصعب أن نجد مثلاً له فى ذلك العصر " (١٥٢).

ولايزال كثير من المؤلفات العربية المرجع الوحيد الذى يمكن أن يستمد منه أوصاف كثير من بقاع الأرض التى كان للعرب الفضل الأول فى ارتيادها . ومن هذه المراجع كتاب البيرونى " وصف الهند " ، وكتاب ياقوت الحموى " معجم البلدان " ، وكتاب رحلة ابن بطوطة . كما تأثرت الكتابات الغربية بما كتبه العرب مما يؤكد وصول دروس العلم العربى إلى الغرب .

فقد كان هناك اتصال مثمر بين أوروبا وعالم الإسلام فى العصور الوسطى . فكان هناك الصراع والقتال الذى استمر قروناً عديدة ، ولكن أيضاً ترتب عليه الاتصال التجارى ، والذى يسر مرور البضائع وكذلك الآراء والمعارف والمعلومات عن العالم المعروف وقتذاك . فيقول فيشر

اتسعت معلومات الصليبيين فى الجغرافيا سواء بسبب الحروب الصليبية نفسها أو نتيجة للرحلات التبشيرية التى أعقبتها (١٥٢).

أما عن فضل العرب فى ميدان الكشف الجغرافى ، فقد سبق العرب الأوروبيين فى كشف مجاهل القارة الإفريقية ، ومعرفة منابع النيل ، كما اكتشف العرب أسرار الملاحة فى المحيط الهندى وجزر الهند الشرقية وشواطىء الصين ، وقاموا بعدة محاولات للكشف فى المحيط الأطلنطى . ولاشك أن ما كتبه الجغرافيون العرب فى صقلية والأندلس قد أفاد المكتشفون الأوروبيون ، وقد ظهر أثر الفكر العربى واضحاً فى خرائط الملاحة الأوروبية ، وبرغم ذلك ينكر بعض الكتاب الغربيين جهود المسلمين فى البعث الجغرافى فى أوروبا .

ولما ارتبطت الملاحة بالتجارة ، كما ارتبطت التجارة بحركة الكشوف ، فقد سارت التجارة وراء كشف طريق رأس الرجاء الصالح . فى الوقت الذى كان نجم العرب قد أخذ فى الأفول ، بسبب ما دب فى صفوفهم من الانقسام المذهبى والسياسى ، وبسبب العزلة التى فرضها الأتراك العثمانيون منذ القرن السادس عشر . " وتلك الأيام نداولها بين الناس " .

الهوامش

١ – كرامرز ، دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى ، مركز الشارقة ، ١٩٩٨م ، جـ١ ، مادة جغرافيا ، ص ٣٠٢١ .

٢ – جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، دار الهلال ١٩٥٨م ، ص ١١٢ .

٣ – هونكه ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على أوروبا ، ترجمة فؤاد حسنين على ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

٤ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان ، دار القلم بالقاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٣٦ .

٥ – محمد محمود السروجي ، معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، الإسكندرية ١٩٦٧م ، ص ٥٠ .

٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ٢٢ – ٢٤ .

٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٤ – ٢٥ .

٨ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثامنة ١٩٦٩م ، ص ٤٩ .

٩ – مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جغرافيا ، جـ١٠ ، ص ٣٠٧٠ .

١٠ – قام بترجمة المجسطي الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب (ت ٢٢٠هـ) ، وقيل في رواية أخرى أن سهل بن ربان الطبري (ت٢٣٦هـ) هو الذي قام بترجمته ، وراجعه الحجاج ، ثم تولى مراجعته بعد ذلك حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ) ثم ثابت بن قرة (ت ٢٨٩هـ) ومن بعدهما محمد بن جابر بن سنان القباني . نفيس أحمد ، المرجع نفسه ، هـ١ ، ص ٢٦ .

11 - Newton, Travel and Travellers of the Middle Ages, London, 1930, p. 4 ;

– كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة من الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، ١٩٦٣م ، ص ٧٩ .

١٢ – كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٧٩ – ٨٠ ; Newton, op. cit., p. 4 .

١٣ – كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٨٠ .

14 - Newton, op. cit., p.3 - 4 .

١٥ – المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار التحرير للطبع والنشر ، ١٩٦٦م ، جـ٢ ، ص ٢٨٦ – ٢٨٨ .

١٦ – أدم متز ، الحضارة الإسلامية ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص٥.

١٧ – ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله) ، المسالك والممالك ، السلسلة الجغرافية ، تحقيق محمد مخزوم ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٨م ، ص ١٣ .

18 - Mieli, A., La Science Arabe, Leiden, 1938, p. 79 .

١٩ – خالدوف ، الثقافة الكتبية ، دراسات في تاريخ الثقافة العربية ، ترجمة أيمن أبو شعر ، معهد الاستشراق ، موسكو ١٩٨٩م ، ص ٣٢٠ .

٢٠ – جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، ص ٥ ، ١١٢ ؛ هونكه ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

٢١ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م ، ص ٤٣ – ٤٤ .

٢٢ – خالدوف ، الثقافة الكتبية ، ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

٢٣ – زكريا هاشم ، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٥٢٥ .

٢٤ – نفيس أحمد ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

25 - Newton, op. cit., pp. 89 - 90 .

٢٦ – المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه محمد مخزوم ، بيروت ١٩٨٧م ، المقدمة ص ٧ – ٨ .

٢٧ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .

٢٨ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٢٥٦ .

٢٩ – كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٣٦١ .

٣٠ – كراتشكوفسكي ، المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

31 - Newton, op. cit., p. 112 .

٣٢ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٣١ – ٣٣ ؛ هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥م ، جـ١ ، ص ٧٤– ٧٥ – ٧٧ – ٧٨ .

٣٣ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ١٠ ، هـ ٦ .

٣٤ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٣٤ – ٣٦ .

٣٥ – صموئيل نيسنسون ووليام دي ويت ، سير ملهمة من الشرق والغرب ، ترجمة إسماعيل مظهر ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٤ ؛ محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧م، ص ٣٢٨ ، ٣٥٥ – ٣٥٦ .

٣٦ – الحسن بن محمد الوزان الزياتي : نشأ في غرناطة قبل سقوطها عام ١٤٩٢م ، وتنقل مع أهله إلى مراكش . وأثناء عودته من الإسكندرية إلى بلاده عام ١٥٢٠م ، وفي خليج قابس ، أسره بعض

القراصنة من جزيرة صقلية ، وسلموه إلى البابا ليون العاشر في روما ، وأدرك البابا قيمته العلمية ، فبادر بعتقه وشمله بعطفه ورعايته ، واضطر تحت ضغط البابا إلى اعتناق المسيحية ، وحمل اسمه ، وأطلق عليه جوفاني ليوني أو يوحنا الأسد . وسمح البابا لليون الإفريقي بأن يدرس اللغة العربية وعلوم الشرق في روما وبولونيا ، فقام بنفسه بترجمة كتابه " إفريقيا " إلى اللغة الإيطالية أثناء إقامته بالفاتيكان في خدمة البابا ليو العاشر . ولم يلبث الوزان أن ضاق ذرعاً بمعيشته في أوروبا ، وعاد إلى إفريقيا عام ١٥٢٨م ، وعاد إلى دينه ، وتوفي بتونس . محمد عبد الله عنان ، تراجم إسلامية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٣٥٤ – ٣٧٢ .

٣٧ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٤٥٠ – ٤٥٤ .

٣٨ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٠٨ ، ٢٢٨ – ٢٣٩ .

39 - Mieli, A., of. Cit. pp. 79 - 80 , 115 ;

– مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جغرافيا ، ملحق ، جـ١٠ ، ص ٢٠٨٩ – ٢٠٩٠ .

٤٠ – فضل العرب على أوروبا ، ص ٢٩٥ .

٤١ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٣٢ – ٢٣٥ .

٤٢ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٤٢٣ – ٤٢٤ .

٤٣ – أحمد مختار العبادي ، الإسلام في أرض الأندلس ، عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٤م ، ص ١١٣ .

٤٤ – أحمد مختار العبادي ، المرجع نفسه ، ص ١١٤ .

٤٥ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ١٨ – ٢٠ .

٤٦ – أحمد مختار العبادي ، نفسه ، ص ١١٤ .

٤٧ – حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٣٧ .

٤٨ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٣٩ – ٤٠ .

٤٩ – قسمة قسطنطين ، المراد به تقسيم إسبانيا إلى مناطق كنسية تتبع كل منها لأسقفية على رأسها أسقف ، وهو تقسيم عام للعالم المسيحي كله وضعه رجال الدين من النصارى بعد صدور منشور ميلان ٣١٣م . وهذا التقسيم الكنسي هو الذي أصبح فيما بعد أساساً للتقسيم الإداري للدول التي قامت في أوروبا بعد انتهاء الغارات الجرمانية واستقرار كل جماعة من الجرمان في ناحية وإنشائهم دولة فيها . وقد حافظ العرب في الأندلس على هذا التقسيم ولم يدخلوا عليه تعديلاً إلا بالقدر الذي اقتضته الظروف الخاصة بنظام دولتهم . حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٨٤ .

٥٠ – حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٧١ – ٧٢ .

٥١ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٢٨١ .

٥٢ – كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٢٨١ – ٢٨٣ .

٥٣ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، ص ٤٤ .

٥٤ – تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٢٨٣ .

٥٥ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٢٠٥ .

٥٦ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٧٤ .

٥٧ – لمزيد من التفاصيل انظر ، حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي .

٥٨ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

٥٩ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ١٤٠ .

٦٠ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٨٦ .

٦١ – كرامرز ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٠ ، مادة جغرافيا ، ص ٣٠٣٢ – ٣٠٣٣ .

٦٢ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

٦٣ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

٦٤ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

٦٥ – هونكه ، نفسه ، ص ٢٩٥ .

٦٦ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

٦٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

٦٨ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٢٦ .

٦٩ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

٧٠ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ٢٣٣ – ٢٣٥ ، ٦٠٦ .

٧١ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٥١ .

٧٢ – نفيس أحمد ، نفسه ، ٢٢٤ .

٧٣ – المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٢٤ .

٧٤ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، ص ١٠ .

٧٥ – مؤنس ، تاريخ الجغرافية ، ص ٢٦٩ ، ٢٧١ .

٧٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ ؛
Abulafia, Abulafia, The Westeren Mediterranean Kingdoms, London, 1997. pp. 129 - 130 .

٧٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٥ .

٧٨ - شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٤٠٢ .

٧٩ - نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٦ .

٨٠ - نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٣١ .

٨١ - خالدوف ، دراسات في تاريخ الثقافة العربية ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٨٢ - ج . ب . ترند ، إسبانيا والبرتغال ، فصل في كتاب تراث الإسلام ، عربه حسين مؤنس ، جـ١ ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٥٤ - ٥٥ .

٨٣ - نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٨٤ - إيرنست باركر ، الحروب الصليبية ، فصل في كتاب تراث الإسلام ، عربه علي أحمد عيسى ، جـ١ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٤٢ .

٨٥ - سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، الطبعة السادسة ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ١٠١٣ - ١٠١٤ .

٨٦ - المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٦٦ .

٨٧ - فضل العرب على أوروبا ، ص ٢٩٣ .

٨٨ - لفظ زيج جمعه أزياج وزيجات ، وهو لفظ فارسي يطلق على الجداول الفلكية والجداول الجغرافية ، وهي تتضمن أطوال وعروض المواضع الجغرافية . كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٧٥ ، ١٠٥ .

٨٩ - نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٤٨ ؛ حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٣٦٢ .

٩٠ - سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٩١ - كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٨٥ - ٨٦ .

٩٢ - نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ١٦٠ ، ١٩٤ .

٩٣ - عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٥١ .

٩٤ - ج . ب . ترند ، إسبانيا والبرتغال ، جـ١ ، ص ٦٠ - ٦١ .

٩٥ - كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ١١١ ؛ هونكه ، فضل العرب على أوروبا ، ص ١٠٦ ، ١١١ .

٩٦ - كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٨٥ .

٩٧ - نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٢٠ - ٢٢ .

٩٨ - نفيس أحمد ، نفسه ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

٩٩ - ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥ .

١٠٠ - ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، بيروت ١٩٨٨م ، الطبعة الأولى ، ص ١١ .

١٠١ – ابن رسته ، نفسه ، ص ١٥ .

١٠٢ – المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٦٥ .

١٠٣ – المسعودى ، التنبيه والإشراف ، طبع في ليدن ١٨٩٣م ، ص ٤٦ .

١٠٤ – نفيس ، نفسه ، ص ٢٢٣ .

١٠٥ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٥٢ – ٥٣ .

١٠٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

١٠٧ – خطط المقريزى ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، دار التحرير للطبع والنشر ، جـ١٠ ، ص ٣٩٤ .

108 - John Steward Collid, Chridtopher Columbus, New York, 1977, pp. 25-26 .

١٠٩ – شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ترجمة أيمن أبو شعر ، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ، معهد الاستشراق ، موسكو ١٩٨٩م ، ص ٤٠٠ .

١١٠ – العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٥٠ .

١١١ – العقاد ، نفسه ، ص ٤٩ – ٥٠ .

١١٢ – خوان بيرنيت خينيس ، هل هناك أصل عربي لفن الخرائط البحرية ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الأول ١٩٥٣ نقلاً عن حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٢٧١ – ٢٧٢ .

١١٣ – جورج يعقوب ، أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى ، ترجمة فؤاد حسين على ، القاهرة ١٩٤٦م ، ص ٢٩ – ٣٠ ؛ سعيد عاشور ، فضل العرب ، ص ٤٦ .

١١٤ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، ص ٤٦ .

١١٥ – كريستى ، تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة زكى محمد حسن ، ١٩٨٣م ، ص ١٩ – ٢٢ ؛ محمد جمال الدين الفندى ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٤٦ ، مادة الفلك ، ص ١٥٢ .

١١٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ١٨٢ – ١٨٣ ؛ شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٤٠٠ .

١١٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ١٨٢ .

١١٨ – شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٤٠٢ .

١١٩ – زكى على ، مصر في العصور القديمة ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٥٢م ، ص ١٠٩ .

١٢٠ – شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٣٩٥ .

١٢١ – نقلاً عن شوموفسكي ، نفسه ، ص ٣٦٤ .

١٢٢ – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ١ ، ص ٨٤ – ٨٥ .

١٢٣ – شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ .

١٢٤ – ولد شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي عام ١٤٤٠ في جولفار بإقليم عمان ، وهي مرفأ عربي لا يفصله عن هرمز سوى بغاز ، وينتسب لأسرة تشتهر برجال البحر والملاحة . وكان أبوه ربانا . ودرس ابن ماجد علوم الحساب العربي والهندي والزنجي ، وكتب مجموعات منوعة من كتب الإرشاد البحري ، وتوفي بعد عام ١٥٠٠ بقليل . شوموفسكي ، نفسه ، ص ٣٩٧ .

١٢٥ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٣٣ .

١٢٦ – عصام الدين عبد الرؤوف ، تاريخ الفكر الإسلامي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

١٢٧ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب ، ٥٩ : عاشور ، فضل العرب ، ص ٤٧ .

١٢٨ – جمال الدين الرمادي ، مادة فتوح العرب في أوروبا ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، ١٩٥٩م ، ص ٢٣١ .

١٢٩ – مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٠ ، مادة جغرافيا ، ص ٢٠٨٩ – ٢٠٩٠ .

١٣٠ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٣٧ .

١٣١ – جبرائيل فران ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٢٠ ، مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد ، ص ٦٣١٤–٦٣٢٠ : شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٣٩٨ .

١٣٢ – شوموفسكي ، نفسه ، ص ٤٠٠ – ٤٠١ .

١٣٣ – نقلاً عن حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٢٧٨ .

١٣٤ – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ١ ، ص ٩٠ – ٩١ .

١٣٥ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٧٨ .

١٣٦ – الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بريل ، ليدن ١٨٦٤م ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ؛ بروفنسال ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميري ، ص ١٦ – ١٨ .

١٣٧ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

١٣٨ – مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جغرافيا ، جـ١٠ ، ص ٢٠٩٩ .

١٣٩ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٥٤ – ٥٨ .

140 - Cantor, Norman F., Western Civilization, London, 1969, vol. 1. p. 513 .

141 - Collis, J., S., op. cit. p. 23 .

142 - Canto, op. cit., p. 514 .

١٤٣ – محمد محمود السروجي ، معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٥٨ .

١٤٤ – جبرائيل فران ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٢٠ ، مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد ، ص ٦٣١٠ – ٦٣١١ .

١٤٥ – شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٤٠٦ .

١٤٦ – جبرائيل فران ، نفسه ، ص ٦٣٠٩ – ٦٣١٠ .

١٤٧ – شوموفسكي ، نفسه ، ص ٤٠٦ .

١٤٨ – شوموفسكي ، نفسه ، ص ٤٠٢ .

149 - Cantor, op. cit., Vol, 1, p. 518 .

١٥٠ – جون ولتن ، ستة من رواد الكشف الجغرافي ، ترجمة رمزي يسى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٦ .

١٥١ – محمد محمود السروجي ، المرجع نفسه ، ص ٦٢ – ٦٤ .

١٥٢ – خالدوف ، دراسات في تاريخ الثقافة العربية ، ص ٢٧١ .

١٥٣ – فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة ١٩٧٦م ، ص ١٩٢ ، ١٩٤ .

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثانى عشر - المجلد الأول
مارس ٢٠٠٤ م

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من أراء علمية .
* تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
* تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

* * * *

* جميع المراسلات تكون باسم السيد الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدواني - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

في إطار اهتمامات مجلة المؤرخ العربي - كأحد إصدارات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة - وتنفيذاً لرسالتها التي أنشئت من أجلها باعتبارها نافذة علمية وثقافية متاحة، تقدم الجديد دائماً في الدراسات التاريخية للمؤرخ والباحث والمفكر والمثقف، من خلال بحوث علمية، ودراسات جادة منتقاة، في ثوب قشيب ومعالجة رصينة، واستقراءات مستجدة.

يصدر العدد الثاني عشر من مجلة المؤرخ العربي (مارس ٢٠٠٤) متضمناً مجموعة من البحوث التاريخية تحمل عناوين لموضوعات متعددة ومتميزة في علم التاريخ كتبها باحثون أكاديميون من الجامعات العربية.

وألقت البحوث المنشورة الأضواء على موضوعات جديدة في تاريخ بلاد اليمن بصفة خاصة، والجزيرة العربية بصفة عامة، فضلاً عن موضوعات هامة عن طريق التجارة الخارجية لبلاد المغرب والأندلس، وعن الوكالات التجارية، وعن دور الهنود في الحياة الثقافية في مكة المكرمة والمدينة المنورة زمن سلاطين المماليك، والمعاهدة السعودية البريطانية التي عقدت في عام ١٩٢٧م، وغير ذلك من الموضوعات.

ولعل هذه البحوث، وما اشتملت عليه من آراء وأفكار تكون إضافة علمية للمكتبة التاريخية العربية، وعوناً للباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية للوطن العربي.

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير

أ.د/ سعيد عبد الفتاح عاشور

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

الدوافع الحقيقية لغزو الأحباش لليمن فى القرن السادس الميلادى فى ضوء النقوش اليمنية القديمة

إن الشائع فى المراجع القديمة من مسيحية وإسلامية أن الغزو الحبشي لليمن والذى حدث فى القرن السادس الميلادي (وبالتحديد فى الربع الأول منه)، إنما كان نتيجة دوافع دينية وبالتحديد نتيجة صراع بين أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية وتعرض مسيحيي نجران للموت حرقا على يد ملك حمير اليهودي.

فبالنسبة للمراجع المسيحية فإن أهم وأشمل مرجع فى هذا الموضوع هو ما يسمى "كتاب الحميريين وقد ألفه بالسريانية قسيس مجهول حوالى عام ٥٢٥ ميلادية ووردت فيه حادثة الحرق هذه فى فصل بعنوان حرق البيعة دياكليروس نجران وأبنائها وسمائر الذين أحرقوا هناك" (moberg 1924,p. 68 .) .

وبالنسبة للمراجع الإسلامية فكلها تعتمد على ما ورد فى الآيات ٤- ٧ من سورة البروج ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .

* - أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية .

غير أننا إذا تأملنا فى طبيعة الصراع بين اليمنيين والأحباش ورجعنا إلى الوراء فى التاريخ لتتبع أخبار هذا الصراع منذ بدايته فى النقوش اليمنية القديمة، نجد أنه بعيد عن الدوافع الدينية وانما هو فى الأساس نتيجة دوافع اقتصادية، وربما كانت أحداث الحرق المشار إليها فى كل من كتاب الشهداء الحميريين والقرآن الكريم مجرد أسباب وقتية مباشرة لتبرير إحدى حملات الأحباش على اليمن فى القرن السادس الميلادى .

وأول دليل على انتفاء الدوافع الدينية للصراع بين اليمنيين والأحباش أنه بدأ فى العصور الوثنية أى فى وقت لم تكن المسيحية أو اليهودية قد دخلت اليمن، بل وكان اليمنيون والأحباش يعبدون إلهًا رئيسيا واحدا هو إله القمر وبنفس الاسم الذى أطلقه عليه السبئيون وهو.. إيل مقه " إلى جانب الآلهة اليمنية الثانوية الأخرى وهى الشمس" ذات حميم " والزهرة " عثتر" (اليونسكو ١٩٨٥ ص ٣٥٧).

وقد يبدو هذا التشابه بين آلهة اليمن وآلهة الحبشة مستغربا، ولكن هذا الاستغراب يزول إذا علمنا أن الحضارة الحبشية ترجع فى أصلها إلى الحضارة اليمنية عندما هاجر اليمنيون السبئيون، أى فى عصر دولة سبأ، إلى اليمن فى القرن السابع قبل الميلاد (أو بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد) ونقلوا معهم مظاهر حضارتهم من ديانة وعمارة ونحت ولغة وكتابة (عبد المنعم عبد الحليم٢٠٠٣، ص ٢٩- ٥٨)، ثم تمكنوا من تأسيس دولة اتخذت من مدينة " أكسوم " (الواقعة على بعد ٩٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب الغربى من ميناء مصوع) عاصمة لها (الخريطة رقم ١) وقد ازدهر هذه الدولة وبدأ اسمها يتردد فى النقوش فى القرن الثالث الميلادى (اليونسكو١٩٨٥، ص ٣٦٩) ولكن بمرور الزمن ذابت هذه الحضارة فى الخضم الحبشى ولم يتبق منها سوى الكتابة أو بالتحديد الخط المسند الذى مازال الخط الحبشى يشبهه حتى اليوم وكان هذا التشابه من العوامل التى ساعدت علماء النقوش السامية على حل رموز الخط المسند وقراء النصوص اليمنية القديمة (عبد المنعم عبد الحليم ٢٠٠١، ص ١١٢-١١٦).

الأدلة على عبادة إله القمر فى اليمن من نقوش الملوك اليمنيين الذين حاربوا الأحباش، وفى الحبشة من بلاد الحبشة نفسها:

أول ملك يمنى تصدى للأحباش هو الملك السبئى ". شاعر أوتر" (٢٠٥- ٢٣٠ ميلادية) وقد دون أخبار حروب هذا الملك ضد الأحباش قائد عمل تحت إمرته يدعى أبكرب- أحرس وجاء فى النقش الذى دونه (ويعرف فى علم النقوش اليمنية القديمة برقم (Ja 635) ما يلى :

(سطررقم ١-٣)

أ ب ك رب/ أ ح رس/.... هـ ق ن ى / أ ل م ق هـ /.... ص ل م ن/

أبكرب أحرس .... قد قربانا (للإله) أيل- مقه تمثالا

ذ ذ هـ ب ن / لأنه أعاد سيده شاعر أوتر سالمًا من الحرب.........

من البرونز المذهب " " " " " " " " ....

(سطر ٢) ع ل ى / أ ح ب ش ن

ضد الأحباش (Jamme 1962, pp. 136 - 137)

وفى عهد الملك ايلشرح يحضب (٠٢٤٠ - ٢٦٠ ميلادية) فى النقش رقم Ja 577 إشارة إلى مساعدة الإله أيل- مقه " للملك فى حربه ضد الأحباش فى نجران كما يلى:

(سطر ٨)

وح م دم/ ب ذت/ هـ وش ع هـ م و/ أ ل م ق هـ/ ب وض ع/

وشكرا لأن سيدهم أيل- مقه (ساعد فى) إخضاع

ش ع ب ن/ ن ج رن/ ب ع ب ر/ أ ح ب ش ن

شعب نجران المتحالف مع الأحباش (Jamme 1962, pp. 76-78)

أما الأدلة على عبادة إله القمر السبئى.. أيل- مقه" فى الحبشة، فهو وجود نصوص تشير لهذه العبادة فى منطقة ملازو" الواقعة إلى الجنوب من" أكسوم " (الخريطة رقم ١) والعثور على محراب وموائد قرابين مكرسة له فى منطقة " عدى- قلامو" الواقعة إلى الشرق من أكسوم (الخريطة رقم ١) (اليونسكو ٩٨٥ ام، ص ٣٥٧).

وبالإضافه لذلك عثر فى الحبشة على اثار كثيرة عليها الرمز الى"لوف لإله القمر اليمنى وهو القرص والهلال مثل محارق البخور وموائد القرابين كما صور هذا الرمز عكى قمم المسلات التى ترجع للقرن الثالث الميلادى (وهو عصر غزو الأحباش لليمن كما ذكرنا) مثل مسلات مدينة " مطرا " الواقعة على بعد ٥٠٠ كيلومترا إلى الشمال الشرق من مدينة أكسوم (عبد المنعم عبد الحليم ٢٠٠٢، ص ٤٠ والأشكال ١١، ١٢، ١٨ والخريطة رقم ٢).

وقد ظلت الآلهة اليمنية تعبد فى الحبشة حتى منتصف القرن الرابع الميلادى. ديان كان قد حدث بعض التغيير فى أسمائها عندما اعتنق الملك الحبشى الاكسومى عيزانا (٣٢٥- ٣٦٠ ميلادية) الديانة المسيحية (موسكاتى ٥٧ ٩ ١، ص ٥ ١ ٢).

من كل هذا يتبين أن تضرع اليمنيين إلى آلهة وثنية لنصرتهم فى حربهم ضد الأحباش وأنها نفس الآلهة التى عبدها الأحباش، ينفى أن تكون الأسباب الدينية- كما حدث ظاهريا فى القرن السادس الميلادى- هى الدوافع لغزو الأحباش لليمن، ديانما تكمن هذه الدوافع وراء الأهداف الاقتصادية .

فما هى الأهداف الاقتصادية؟

يمكننا أن نتعرف على هذه الأهداف إذا علمنا أن المناطق الرئيسة التى دارت فيها الحروب بين اليمنيين والأحباش تقع عند مداخل وعلى مسارات ومخارج الطرق التجارية، التى كانت تخترق الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها، فالمداخل هى موانى الجنوب مثل ميناء المخا ومنطقة باب المندب، ومسار الطريق التجارى القادم من هذه المناطق بالإضافة إلى أن ميناء عدن يمر بأهم مركز تجارى وهو مدينة " ظفار " (بفتح الظاء) أما مخرج الطريق فهو يقع عند مدينة نجران (الخريطة رقم ٢). وسوف نلاحظ من تتبع الصراع بين الأحباش واليمنيين فى النقوش اليمنية طوال العصور ابتداء من عصر الملك شاعر أوتر فى أوائل القرن الثالث الميلادى حتى آخر غزو حبشى لليمن فى عام ٥٢٥ ميلادية، أن الحملات الحبشية استهدفت هذه المناطق. فعبر هذا الطريق وهو الفرع الغربى للطريق التجارى العظيم (الذى يطلق عليه

أحيانا طريق الذهب والبخور والذى يسمى جزؤه المار بالمملكة العربية السعودية حتى اليوم "درب البخور" كانت تمر تجارة السلع الثمينة القادمة من القارة الإفريقية المسماة سلع الترف مثل الذهب والعاج والأبنوس وريش النعام وغيرها، وتصب هذه التجارة فى مدينة نجران التى ينتهى عندها فى شمال اليمن، الطريق التجارى الرئيسى بعد أن يكون قد مر بعواصم دول حضرموت وقتبان وسبأ ومعين والتحم بالطريق الغربى القادم من عدن وظفار فى مدينه "تمنع" عاصمة دوله قتبان (الخريطة رقم ٢) وهذا الطريق الرئيسى يبدأ من الميناء المسمى قديما" ق ن أ " الواقع على ساحر البحر العربى " ومكانه الحالى ميناء. " بئر على" وتطل عليه أطلال حصن يسمى حالتا " حصن الغراب س (الخريطة رقم ٢)، فكانت تتجمع فى هذا الميناء سلع الترف القادمة من الهند إلى جانب سلعة البخور المجلوبة من منطقة " ظفار ١" (بضم الظاء) فى جنوب دولة حضرموت القديمة (حاليا فى دولة عمان)، وتصب هذه السلع الثمينة كلها فى مدينة نجران فى شمال اليمن ومنها تنقل نحو الشمال إلى منطقة البحر المتوسط حيث توجد الإمبراطوريات والإمارات الغنية فى مصر والعراق والشام وآسيا الصغرى ثم فيما بعد فى بلاد اليونان والرومان والتى كان حكامها وأغنياؤها يدفعون أغلى الأثمان فى سبيل الحصول عليها (عبد المنعم عبد الحليم ٢٠٠١، ص ٧– ٩).

من هنا كان تطلع الأحباش للسيطرة على مداخل هذه السلع القريبة منهم فى جنوب غرب اليمن ثم على مخرجها من اليمن فى مدينة نجران.

وقد عكست النقوش اليمنية أخبار حملات الأحباش للسيطرة على هذه المناطق ابتداء من أوائل القرن الثالث الميلادى وحتى أوائل القرن السادس.

فمن عصر الملك شاعر أوتر (٢٠٥ – ٢٢٠ ميلادية) جاء فى النقش ٤ ٦٣٦على إشارة إلى حرب شنها هذا الملك لطرد الأحباش من مدينة ظفار كما يلى:–

[نقش بالخط المسند]

(سطر ٣٥) وف ت أول و / أح ب ش ن / ب ن / خ ل ف / ظ ف ر

فانسحب الأحباش من منطقة ظفار

(Jamme 1962, p. 132-133)

وفى النقش رقم Ja 35 من عصر الملك شاعر أوتر أيضا إشارة إلى محاربة هذا الملك للأحباش فى مدينة نجران كما يلى:

(سطر ٢٣- ٢٤)

خ ل ف / هـ ج رن / ن ج رن / ب ع ل ى / ض ب أت / أح ب ش ن

(فى) منطقة مدينة نجران ضد محاربى الأحباش

(Jamme 1962, p. 136-137)

ويبدو أن حملات شاعر أوتر ضد الأحباش فى مدينة ظفار أدت إلى طردهم منها نهائيا فإن النقوش خلت من الإشارة إلى حروب ضدهم فى هذه المدينة فى عهد الملك أيل- شرح يحضب أحد الخلفاء المباشرين للملك شاعر أوتروهو أنشط هؤلاء الخلفاء فى شن الحرب ضد الأحباش، ومما يؤيد ذلك أن الملك أيل- شرح يحضب تتبع الأحباش فيما وراء منطقة ظفار إلى الساحل حيث حاصرهم فى وادى سردد الذى يصب فى البحر الأحمر شمال ميناء الحديدة بأربعين كيلومترا ويبدو أن الأحباش تقهقروا أمام حملات أيل- شرح يحضب وتمركزوا فى وادى" سهام " الواقع جنوب ميناء الحديدة بعشرة كيلومترات (الخريطة رقم ٢) ويسجل النقش Ja 574 لهذه الأحداث كما يلى:

(سطر ٥- ٦) ب س رن / س رد د / ب ع ل ى / أح ز ب / ح ب ش ت /

فى وادى سردد ضد فرق المحاربين الأحباش

(سطر ٤) ح رب / ب ق رهـ م و / ب س رن / ذس هـ م

حارب مستوطناتهم فى وادى سهام

(Jamme 1962, p. 60-61)

ويعد حروب الملك أيل- شرح يحضب اختفت أخبار الحروب ضد الأحباش من النقوش اليمنية ويبدو أن هذا الملك طردهم نهائيا من مستوطناتهم الساحلية فى وادى سهام كما جاء فى السطر ٤ من النقش الأخير فانتهى بذلك وجودهم فى اليمن حتى عادوا للظهور فى القرن السادس الميلادى.

وقبل أن نتناول ما ورد فى النقوش اليمنية عن غزو الأحباش لليمن فى القرن السادس الميلادى نلخص ما عرضناه فى النقاط التالية:-

أولاً: أن غزوات الأحباش قبل القرن السادس الميلادى أى فى المرحلة الوثنية كانت تستهدف أساسا المراكز التجارية الرئيسية فى الجنوب الغربى لليمن (أى المناطق المواجهة لبلادهم على الجانب الشرقى للبحر الأحمر) وأهم هذه المراكز مدينة ظفار، ثم مخرج التجارة من اليمن فى مدينة نجران وما حولها.

ثانيًا: لم يكن الدافع لهذه الغزوات دينيا فقد كان الأحباش فى القرن الثالث الميلادى يعبدون نفس الآلهة التى تعبدها اليمنيون الذين يحاربونهم وفى مقدمتها الإله " إيل- مقه إله القمر.

ثالثًا: بناء على ذلك فإن دوافع غزو الأحباش لليمن فى القرن الثالث الميلادى كانت اقتصادية.

أدلة استمرار الدوافع الاقتصادية لغزو الأحباش لليمن فى القرن السادس الميلادى:

تتمثل هذه الأدلة فى ثلاثة نقوش سجلها قائد يدعى " شرح- أيل- يقبل" عمل تحت إمرة الملك الحميرى الذى تصدى للأحباش المسمى فى هذه النقوش " يسف أسار " أو يوسف أسار يثار".

والاسم الأول " يوسف " يطابق الاسم الأول الذى أطلقه عليه الكتاب المسلمون وهو" يوسف ذو نواس" .

والنقوش الثلاثة مؤرخة بسنة واحدة هى سنة ٦٣٣ حميرية التى تعادل سنة ٥١٨ ميلادية وهى محفورة على الصخر فى منطقتين إحداهما تدعى " جبال الكوكب " (ويعرف هذا النقش فى علم النقوش اليمنية برقم Ry 508) الواقعة على بعد ١٥٠ كيلومتراً شمال مدينة نجران

(الخريطة رقم ٣) وهذا النقش مؤرخ بالشهر الحميرى المسمى فى النقش " ذو قيظن" الذى يعادل شهر يونية (سنة ٥١٨ ميلادية كما ذكرنا). والنقشان الآخران محفوران على الصخر فى المنطقة المسماة " بئر حما " الواقعة على بعد ٩٠ كيلومترا إلى الشمال من مدينة نجران (الخريطة رقم ٣) ويعرفان فى علم النقوش اليمنية بأرقام Ry 507 و Ja 1028 ، والنقشان مؤرخان بالشهر الحميرى المسمى فى النقش " ذو مذرأن " الذى يعادل شهر يولية (سنة ٥١٨ ميلادية). (و Ry و Jaهما اختصار اسمى العالمين اللذين ترجما هذه النقوش ونشراها وهما G.Ryckmans و A.jamme على التوالى).

وواضح من سياق هذه النقوش الثلاثة أن الأحباش ركزوا هجماتهم- كما فعلوا فى القرن الثالث الميلادى- ضد المداخل المؤدية إلى المراكز التجاريه وهى باب المندب وميناء المخا وفى أهم المراكز التجارية فيما وراء هذه المداخل وهو مدينة " ظفار" ثم حاولوا القبض على التجارة الثمينة عند مخرج الطريق التجارى فى منطقة نجران وما حولها ولذلك نجد أن الملك الحميرى.. يوسف أسار يثار ". يحاول إيقاف الهجمات الحبشية عند بداياتها فقاد بنفسه الحرب ضد الأحباش فى مناطق المداخل أى باب المندب وميناء المخا وحرمان الأحباش من أهم المراكز التجارية فيما وراء هذه المداخل وهو منطقة مدينة ظفار وهى نفس الخطة التى اتبعها أسلافه (أى شاعر- أوتر وايل- شرح يحضب) فى القرن الثالث الميلادى بينما عهد الملك الحميرى إلى القائد " شرح- أيل يقبل " الذى دون النقوش الثلاثة المذكورة بقيادة الحرب ضد الأحباش فى مخرج الطريق التجارى وهو مدينة " نجران " ومجاوراتها (وهو أيضاً نفس الميدان الذى تصدى فيه الملكان المذكوران فى القرن الثالث الميلادى للأحباش).

ونقوش القرن السادس الميلادى المذكور تشرح مسار هذه الحروب كما يلى:

جاءت أول إشارة إلى الحرب ضد الأحباش فى النقش رقم Ry 508 المحفور على الصخر فى منطقة جبال الكوكب الواقعة على بعد ١٥٠ كيلومترا إلى الشمال من مدينة نجران كما يلى:-

(سطر ٣) ع ل ى / أح ب ش ن / ب ظ ف ر / ود هـ رو / ق ل س ن

ضد الأحباش بظفار واقتحموا الكنيسة

كما جاءت الإشارة إلى انتشار الصراع إلى المناطق الممتدة من ساحل البحر (حيث نزل الأحباش إلى البر) مثل ميناء المخا ومنطقة باب المندب كما يلى:-

(سطر ٢)

وح رب / م خ ون (سطر ٨) .... ول ص ن ع ت / س س ل ت / م دب ن

وحارب المخا ولتحصين سسلة (باب) المندب

ويستخلص من العبارة الأخيرة أن الحميريين مدوا سلسلة (معدنية) عند مضيق باب المندب لعرقلة وصول سفن الأحباش إلى البر (أو بتعبير أدق قوارب نقل الجنود الأحباش من السفن الكبيرة إلى البر نظراً لأنها منطقة ضحلة بالنسبة لهذه السفن ذات الغاطس العميق).

أما الإشارة إلى محاربة الأحباش فى نجران فقد جاءت كما يلى:-

(سطر ٦)

وب ن / ذ ك ى هـ و / م ل ك ن / ل ق ون / ع ل ى / ن ج رن / ب ن/

وبناء على تزكية الملك للحرب ضد نجران مع

ق وم / ب ن / أزان

زعماء بنى يزن (Ryckmans 1953 b, p.280f.)

واضح من هذا النص أنه يشير إلى تكليف الملك الحميرى يوسف أسار يثأر إلى القائد "شرح- أيل- يقبل" (كاتب النقش) بقيادة حملة بالاشتراك مع زعماء قبيلة " يزن " لشن الحرب ضد الأحباش فى نجران فى أقصى شمال اليمن بينما كان الملك يقود بنفسه الحرب فى الجنوب الغربى من اليمن.

والنقش الثانى الذى يحمل رقم Ry 507 المحفور على الصخر فى منطقة بئر حما الواقعة على بعد ٩٠ كيلومتراً إلى الشمال من نجران والمؤرخ بشهر "مذرأن" (يولية) سنة ٦٣٣

حميرية (٥١٨ ميلادية) أى بعد شهر واحد من كتابة نقش جبال الكوكب Ry 508 – هذا النقش (Ry 507) ، بعد أن يذكر اسم الملك الحميرى بصيغته الكاملة وهى : ي وس ف / أس ا ر/ ى ث أ ر، يشير إلى مهاجمة الملك لمدينة ظفار وميناء المخا وتحصين باب المندب بسلسلة كما يلى:–

(سطر ٤)

وهـ رج و / أح ب ش ن / ب ظ ف ر..... (سطر ٥) وهـ رج و /.........

وقتلوا (أى الملك قتل) الأحباش فى ظفار وقتلوا ....

ب م خ ون.... (سطر ٩) وى صـ ن ع ت/ س س ل ت/ م دب ن

فى المخا وحصنوا سلسلة (باب) المندب

(Ryckmans 1953a, p.295.)

(يلاحظ أن النصوص اليمنية تستخدم صيغة الجمع لتعظيم الملك)

ثم يشير النقش إلى تكليف الملك للقائد شرح– إيل– يقبل بقيادة حلف من قبيلته وقبيلة همدان والبنو لمهاجمة نجران كما يلى:

(سطر ٩)

ش رح : أل / ذى زأن / ...... ك ى دن / ب ش ع ب / ذ هـ م دن/

شرح – أيل (يقبل) نويزن عندما توجه مع قبيلة همدان

وأع رب ن / ب ع ل ى / ن ج رن / ث و / ى ق هـ ن / م ل ك ن

والبنو ضد نجران كما أمر الملك

وهكذا يتكرر التلازم في الحرب في منطقة المخا وباب المندب حيث يقع مدخل الأحباش إلى اليمن وفي منطقة ظفار المركز التجاري الغني وفي نجران مخرج التجارة الثمينة من اليمن.

ونفس الأمر يتكرر في النقش الثاني في منطقة بئر حما (رقم Ja 1028) وهو كما قلنا مؤرخ بشهر " مذرأن " (يولية) أيضاً سنة ٦٣٣ حميرية (٥١٨ ميلادية) مثل نقش بئر حما الأول (Ry 507) وبونه نفس القائد شرح- إيل- يقبل كاتب النقشين Ry 508 و Ry 507 وقد ورد فيه اسم الملك الحميري مطابقا لاسمه في نقش بئر حما الأول وهو " يوسف أسار يثأر " .

ويدل تدرج أماكن هذه النقوش من الشمال (منطقة جبال الكوكب ١٥٠ كيلومتراً شمال نجران) إلى الجنوب (منطقة بئر حما ٩٠ كيبومتراً شمال نجران) على تحصن الحميريين بقيادة " شرح- أيل- يقبل " في المناطق الجبلية البعيدة عن متناول الأحباش المتمركزين في نجران، ثم تحركهم نحو الجنوب في اتجاه نجران كلما حققوا انتصاراً على الأحباش. وينفرد نقش بئر حما الثاني (Ja 1028) عن النقشين السابقين بما يرويه من معلومة جديدة فبعد أن يكرر انتصار الملك الحميري " يوسف أسار يثأر " على الأحباش في كل من ظفار والمخا وتحصين منطقة باب المندب وانتصار القائد " شرح - أيل - يقبل " في نجران (الأسطر ٣ و ٦ و ٧)، يذكر المعلومة التالية:

(سطر ٨-٩)

وك س ب أت م / أود هـ / ذ ق ف ل و / أب ت هـ م و / ب ث ل ث

والحملة (بلغت) نهايتها عندما رجعوا لبيوتهم بعد ثلاثة

ع ش ر / أورخ ن (Jamme 1966, pp. 39-42)

عشر شهراً

هذه المعلومة تساعد على التعرف على المدة التي استغرقتها المعارك وتاريخ بدء هذه المعارك فإذا اعتبرنا أن نهاية هذه المدة توافق شهر يولية سنة ٥١٨ ميلادية وهو تاريخ تسجيل القائد

شرح– أيل– يقبل للنقش ، ورجعنا إلى الوراء ثلاثة عشر شهراً ، فإننا نصل إلى شهر يونية أو شهر يولية سنة ٥١٧ ميلادية كبداية لهذه المعارك.

وهناك أهمية أخرى لهذا النقش هي ورود في مقدمته (سطر ٢) اسم القائد الذى سيقود فلول الحميريين بعد الانتصار النهائى للأحباش وهو القائد سميفع أشوع " وهو فى الغالب أخ القائد " شرح– أيل– يقبل " الذى دون النقوش الثلاثة.

فقد جاء فى نقش يعرف بنقش " حصن الغراب " (ورقمه RES 2633) محفور على الصخر المطل على ميناء " قنا " المسمى حاليًا " بئر على " (المذكور سابقا كمدخل للفرع الشرقى من الطريق التجارى) جاء فى هذا النقش ما يلى:–

(سطر ١)

س م ى ف ع / أش وع / وب ن ى هـ و /....... (سطر ٦) س ط رو / ذن /

سميفع أشوع وأبنـــاؤه .... سطروا (نقشوا) هذا

م س ن دن / ب ع ر ن / م وى ت .... (سطر ٨– ٩) ك س ت ص ن ع و/

النقش بالحصن (المسمى) ماوية عندما تحصنوا

ب هـ و / ك ج ب أ و / ب ن / أرض/ ح ب ش ت / وأس ى و/

به عندما عادوا من أرض الحبشة وأرسل

أح ش ن / زوف ت ن / ب أرض / ح م ى رم / ك هـ رج و / م ل ك

الأحباش الحملة بأرض حمير عندما قتلوا ملك

ح م ى ر م / وأق ول هـ و / أح م ر ن ن

حمير وأمرائه الحميريين

(المقصود بعبارة "أرض الحبشة" في النقش، المنطقة من اليمن التي احتلها الأحباش وهي كما تبين من هذه الدراسة أنها الجزء الممتد من نجران شمالاً إلى المراكز التجارية في وسط اليمن وجنوبه).

وينتهي النقش بتاريخ تسجيله كما يلي:

(سطر ١٠)

ورخ هـ / ذح ج ت ن / ذل أرب ع ى / وس ث / م أ ت م / خ رف ت م

تاريخه ذو الحجة لأربعين وست مائه سنة

(وسنة ٦٤٠ حميرية المذكورة في هذا السطر تعادل سنة ٥١٨ ميلادية كما ذكرنا سابقا)

وما يهمنا من هذا النقش أنه يبرز حقيقة هامة وهي موقع ميناء "قنا" كمكان للجوء الحميريين هرباً من الأحباش فالواضح أنه ليس بسبب بعده فقط عن منطقة الاحتلال الحبشي ولكنه وهو الأهم يقع عند مدخل الفرع الشرقي للطريق التجاري الرئيسي الذي يتحكم في تجارة الترف القادمة من الهند وفي سلعة البخور التي تتجمع في هذا الميناء (بعد نقلها من منطقة "ظفار" الواقعة إلى الغرب من هذا الميناء) ويبدو أن اختيار سميفع أشوع ورفاقه لهذا الموقع كان من بين أهدافه حرمان الأحباش المحتلين لليمن من مصدر الثروة التي تتدفق من هذا الميناء بالإضافة إلى ضمان مورد اقتصادي له ولرفاقه أثناء هروبهم من وجه الأحباش .

وهكذا حتى في وقت الهزائم والمحن كان للتجارة الثمينة دور في توجيه الأحداث التاريخية فالدوافع الاقتصادية هي غالباً- إن لم يكن دائماً- هي أقوى الدوافع .

من كل ما عرضنا من نقوش يتبين أن غزوات الأحباش لليمن فى المرحلة الوثنية فى القرن الثالث الميلادى عندما كان الأحباش واليمنيون يعبدون نفس الالهة، كانت أهدافًا اقتصادية تستهدف المراكز التجارية الرئيسة وهى ظفار فى الجنوب الغربى لليمن ونجران فى شماله التى لم تكن فى تلك المرحلة مركزًا دينيًا رئيسًا تحمل اسم " كعبة نجران " كما سميت فيما بعد فى المرحلة المسيحية. ونفس هذه الأهداف الاقتصادية كانت الدوافع لغزو الأحباش لليمن فى المرحلة المسيحية فى القرن السادس الميلادى، فقد تركزت غزواتهم فى نفس المراكز التجارية فى القرن الثالث الميلادى، ولم تكن الأسباب الدينية إلا مظهرًا يغلف الأهداف الاقتصادية الحقيقية.

المراجع ومصادر النقوش

- اليونسكو , ١٩٨٥

- اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثانى، حضارات إفريقيا القديمة، إشراف جمال الدين مختار.

- عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠١

- عبد المنعم عبد الحليم سيد، الآثار الباقية في الجزيرة العربية من عصور ما قبل الإسلام، الإسكندرية.

- عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٣

- عبد المنعم عبد الحليم سيد، "تطور الصلات بين اليمن والأحباش وأثرها فى حضارة الأحباش " بحث منشور فى مجلة المؤرخ العربي، إصدار اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد الحادى عشر لسنة ٢٠٠٣ ، ص ٢٩- ٥٨.

- موسكاتي ١٩٨٥

- موسكاتي، سبتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، القاهرة، ١٩٨٥ م.

Jamme 1962

= Jamme, A; Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore .

- **Jamme 1966**

= Jamme, A; Sabaean and Hasaen Inscriptions from Saudi Arabia, Rome.

- **Kitchen,** K. A; Documentation for Ancient Arabia, Part I, Liverpool, 1994 .

- اعتمدنا على هذا المرجع فى كتابة تواريخ حكم ملوك اليمن.

- **Moberg 1922**

= Moberg, A. The Book of the Himyarites, Lund.

- **RÉS**

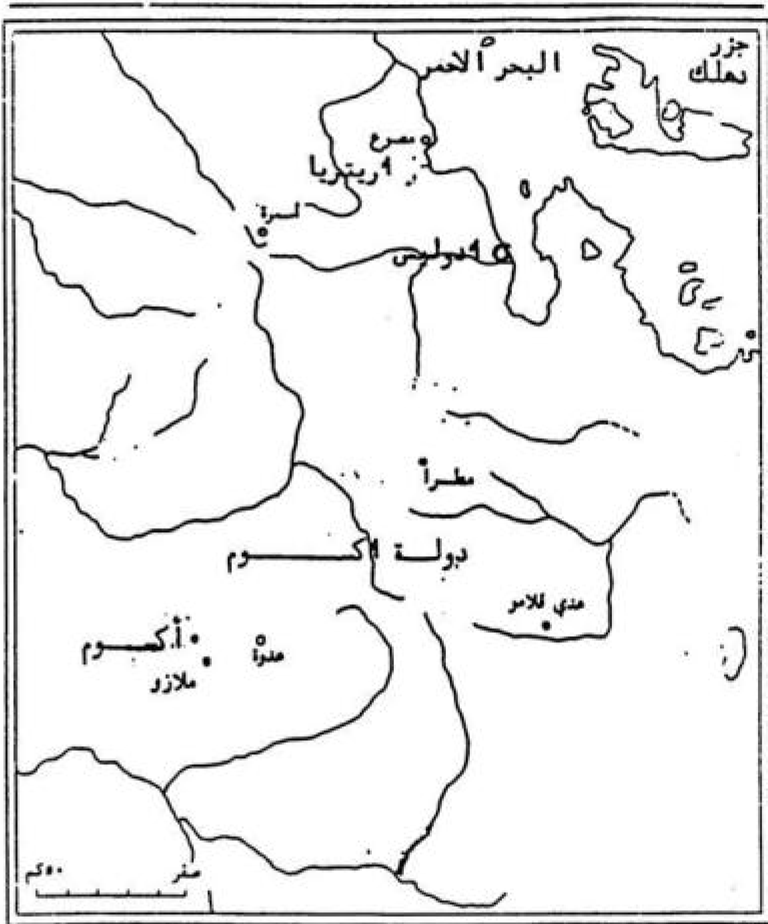
= Répertoire d'Épigraphie Sémitique, Paris.

- **Ryckmans 1953 a**

= **Ryckmans, G.,** " Inscriptions Sud-Arabes", Le Muséon, 66, p. 295 f

- **Ryckmans 1953 b**

= **Ryckmans, G.,** " Inscriptions Sud-Arabes", Le Muséon, 66, p. 280 f



خريطة رقم (١)

بيان مراكز عبادة إله القمر السبئى – مقة

فى دولة أكسوم بالحبشة فى القرن الثالث الميلادى

(خريطة رقم (٢))

بيان مسار الطريق التجارى العظيم بفرعيه الشرقى والغربى وعواصم الدول اليمنية القديمة ومواقع الحروب بين اليمنيين والأحباش فى القرنين الثالث والسادس الميلاديين

– مواقع هذه الحروب موضحة بخطين متوازين أسفل اسم الموقع .



(خريطة رقم (٢)

بيان مواقع جبال الكوب وبئر حما بالنسبة لموقع مدينة نجران حيث دون القائد " أيل – شرح يقبل " النقوش الثلاثة التى تروى أخبار الصراع ضد الأحباش

د. أحمد أمين جمعة الشربتلى(*)

اليمن ودورها فى النشاط الحضارى

١ - البحر الأحمر وأهميته والدول المطلة عليه :

تعريف البحر الأحمر :

يرجع تسمية البحر الأحمر بهذا الاسم أنه قد اشتق من التغيرات اللونية في مياهه ، فعادة يكون لون البحر أزرق مائل إلي الخضرة ولكن البحر الأحمر نتيجة لوجود نسبة كبيرة من الطحالب التي يميل لونها إلى الأحمر بسبب عملية التمثيل الضوئي النشطة - بفضل المادة المكونة لأنسجتها - وهذه الطحالب عادة تكون قريبة من سطح البحر فينعكس لونها على مياهه فتظهر مائلة إلى الإحمرار [١].

وقد عرف البحر الأحمر منذ القدم (ببحر القلزم) ويبلغ طوله من السويس شمالاً حتى مضيق باب المندب حوالى ١٣٠٠ ميل (٢١٠٠ كيلو متر) ويبلغ متوسط عرضه حوالى ١٩٠ ميلاً بحرياً[٢] ، ويصل أقصى عرض له حوالى مائتين وثلاثين ميلاً . أما مساحته فتبلغ حوالى ١٦٩,٠٠٠ ميلاً مربعاً ، وتحيط به من الجانبين سلاسل من الجبال [٣].

---

* - دكتوراه فى الحضارات الآسيوية (فنون وعمارة وآثار إسلامية) معهد الدراسات والبحوث الآسيوية- جامعة الزقازيق .

وإذا استعرضنا تاريخ البحر الأحمر فإن أهميته فى العصور القديمة والوسطى ليست بأقل من أهميته العظمى فى عالم اليوم . فقد كان هذا البحر يمثل طريقًا من أهم طرق التجارة العالمية في تلك العصور ، ولم يكن يضعف من أهميته هذه وجود الطرق البرية المحيطة به والتى كانت تصل بين الشرق والغرب وإنما كانت تبرز هذه الأهمية تمامًا حينما تتدهور تلك الطرق بينما يظل البحر الأحمر يزدهر بالحركة والنشاط على مر السنين .

الأهمية الجغرافية للبحر الأحمر :

لقد اكتسب البحر الأحمر أهمية استراتيجية واقتصادية كبرى للعالم كله حيث يمثل طريقًا بحريًا هامًا منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، والبحر الأحمر بما فيه من جزر منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان بحرًا عربيًا إسلاميًا لكونه ضمن دار الإسلام التى شملت جميع شواطئ البحر الأحمر .

ومن هذا المنطلق فإن البحر الأحمر كان ولا يزال عاملاً للتنافس والتدخل الخارجي والصراعات المختلفة على مر العصور . كما إن خصائصه الاستراتيجية أغرت كثيرًا من الدول القوية بمحاولة السيطرة عليه مما جعله موقعًا للتنافس والصراعات الدولية والإقليمية قديمًا وحديثًا (٤).

ويتميز البحر الأحمر بين بحار العالم بموقعه الفريد لأنه من أهم البحار التى تربط بين العديد من البحار والقارات والأقاليم ، بل هو أهم أجزاء السلسلة الفقرية فى الاستراتيجية البحرية التى تمتد من المحيط الهندى ثم الخليج العربى ثم البحر الأحمر فالبحر الأبيض المتوسط ثم المحيط الأطلسى (٥).

كما يتميز البحر الأحمر بأهميته العالمية وموقعه الفريد إذ إنه يقع عند ملتقى قارات العالم الثلاث أسيا وإفريقيا وأوروبا ، كما أنه يشكل حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية وقد ظل هذا البحر على مدى العصور المتعاقبة عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به بعضها ببعض ، إذ كان طريقًا للملاحة بينها ووسيلة لتسهيل التبادل التجارى والحضارى بين شعوب العالم (٦).

وقد نظر العلماء إلى حوض البحر الأحمر المتوسط باعتباره نقطة البدء لعبور الأجناس ، والالتقاء الأول فيما بينها على الصعيد الديمغرافى والحضارى وذلك بعد رحلة طويلة دامت آلاف السنين قبل أن تتشكل خارطة الأمم التى نراها اليوم . وقد ظلت شواطئ البحر الأحمر

رغم ذلك ، وفيةً لمبدأ التكافل بين البشر الذى سار عليه أجدادهم الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ وتمسكوا من جانبهم بشرف الحفاظ على دور الوساطة بين حضارة الأمم وتأمين سلامة سريان التجارة العالمى وتبادل الإنتاج الفكرى والحضارى(٧).

ملامح البحر الأحمر :

والواقع أن التحديد الجغرافى للبحر الأحمر من السويس إلى باب المندب هو تحديد مرتبط بالظاهرة الجغرافية البارزة الموجودة فى جنوبه وهو مضيق باب المندب ، أما البحر الأحمر تاريخيًا فلا يمكن فصله عن خليج عدن وميناء عدن والساحل الصومالى ، كما لا يمكن فصله عن قناة السويس شمالاً ، فإذا ما نظرنا إلى خريطة البحر الأحمر بصورة عامة نجد أن أهم الملامح البارزة فيه هى قناة السويس ومضيق باب المندب وخليج عدن ، بينما تبرز عدة جزر متناثرة على طول البحر الأحمر تختلف درجة أهميتها من مجموعة لأخرى ، وهناك عدد من الموانئ الهامة على طول سواحل هذا البحر بالإضافة إلى ميناء عدن (٨).

ويعتبر البحر الأحمر بمثابة حوض ضيق مستطيل من المياه يميل محوره فى اتجاه شمال شمال غرب إلى جنوب جنوب شرق ، حيث يفصل هذا البحر سواحل شبه الجزيرة العربية عن السواحل الإفريقية ، ويتفرع فى الشمال إلى خليجى السويس والعقبة ، وتفصلهما شبه جزيرة سيناء ، كما يتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط عن طريق قناة السويس التى تمر بممر البحيرات المرة وبحيرة التمساح ويتصل بخليج عدن والمحيط الهندى فى الجنوب عن طريق مضيق باب المندب (٩).

وقد ظل البحر الأحمر عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به ببعضها البعض وبغيرها من دول العالم فكان بذلك وسيلة تسهل عملية الاتصال والتبادل الحضارى والتجارى بين الدول المحيطة به ، كما أنه فى نفس الوقت يمثل المخرج الوحيد لبعض دوله الساحلية ، وبجانب الاستفادة من العمليات التجارية والملاحية فى البحر الأحمر كان أيضًا مصدراً للإثراء عن طريق فرض الرسوم الجمركية(١٠) منذ القدم .

ومن المعروف أن البحر الأحمر من حيث طريقة تكوينه الجيولوجى الفريد قد تكون على طول خط عميق انفلقت فيه القشرة الأرضية وانفصل شرقها من غربها فإذا به بحراً أخدودياً عميقًا له جرف قارى بالمعنى العلمى ، كما إن البحر الأحمر هو أكثر أجزاء الأخدود الإفريقى اتساعًا وأكبرها عمقًا ، وتحدد سواحله خطوط الصدوع من الجانبين كما تمتد الجبال والتى

تمثل جوانب الأخدود المرتفعة على كلا جانبي البحر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب تاركة بينها وبين خط الساحل سهولاً ساحلية ضيقة تتركز بها مؤثرات البحر الأحمر المناخية من حيث ارتفاع درجات الحرارة وارتفاع معدلات الرطوبة النسبية (١١). وقد نشأت الصخور الهشة لليمن وشرق إفريقيا نتيجة للانبعاثات البركانية (١٢).

مناخ البحر الأحمر :

يعتبر مناخ البحر الأحمر من أكثر بحار العالم ارتفاعاً فى درجات الحرارة والملوحة ، أما المنطقة الشمالية منه فمعتدلة نسبياً . وتزداد حرارة سطح البحر باتجاه الجنوب والغرب وتقل الملوحة والحرارة من الشمال إلى الجنوب . أما الرياح فهى موسمية غير مستقرة وتختلف حركة التيارات البحرية بين الشتاء والصيف (١٣). وينتج عن هذه الظروف المتمثلة فى ارتفاع درجة الحرارة وارتفاع ملوحتها وصفائها - بسبب عدم وجود أنهار تصب فى البحر - توفر الظروف الملائمة لنمو حيوان المرجان ، وتنتشر الحواجز والحلقات المرجانية فى كل أنحاء هذا البحر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، كذلك الحواجز المرجانية على طول السواحل وموازية لها .

أهم الدول المطلة على البحر الأحمر :

تطل على البحر الأحمر الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والسودان وساحل الداناكل وساحل الصومال من الغرب ، والبحر الأحمر حوض شريطي الشكل يفصل بين كتلتين من القشرة الأرضية هما شبه الجزيرة العربية وكتلة شمال إفريقيا وهو يتصل من الشمال بالبحر المتوسط عبر قناة السويس ومن الجنوب بالمحيط الهندى عبر مضيق باب المندب (١٤). ويتفرع البحر الأحمر إلى ذراعين الشمالي الشرقى هو خليج العقبة (١٥).

ويوجد عند التقاء خليج العقبة والبحر الأحمر مضيق تيران الغربي وهو الممر المائى الوحيد الصالح للملاحة وهو موازى لساحل سيناء شمال شرم الشيخ ، أما مضيق تيران الشرقى فتكاد تسد مجراه الصخور والحواجز المرجانية ولا يتجاوز عرضه ٨٠٠ متر . أما خليج السويس فيبلغ طوله من مدينة السويس حوالى ١٧٥ ميلاً ويتراوح اتساعه ما بين ١٠ - ١٢ ميلاً (١٦) . ويتوجد فى قمته العديد من الجزر والنتوءات الصخرية التى تجعل الملاحة فيه صعبة إلى حد كبير وتفصل بين خليج العقبة والسويس شبه جزيرة سيناء .

ونظراً لشكل البحر الأحمر المستطيل وشبه المقفل فإن له مداً وجزراً خاصان به يسيران غالبًا في اتجاه عقرب الساعة ولكن ميعاد المد والجزر يختلف باختلاف الأماكن بل وقد لا يرتفع الماء أو ينخفض في بعض المناطق (١٧).

أهم جزر البحر الأحمر :

توجد فى البحر الأحمر مئات الجزر التى تقع بالقرب من ساحليه الشرقي والغربى والقليل منها تقع بعيداً عن السواحل ، ومعظم هذه الجزر ضيق المساحة ، ونظراً لطبيعة البحر الأحمر الأخدودية وما صاحبها من نشاط نارى فإن بعض هذه الجزر من الصخور مما يدل على هذا النشاط النارى وخاصة الصخور البركانية فى عدد من جزر البحر الأحمر . ويوجد حوالى ٣٧٩ جزيرة على البحر الأحمر معظمها جزر صغيرة جداً بمعدل ١ ، ٢ جزيرة كل ميل مربع من السطح المائى (١٨). ومعظمها يقع فى الجزء الجنوبى من البحر . وأهم هذه الجزر هى بريم ومويلة الواقعتان داخل مضيق باب المندب وتتلوهما جزيرتا تيران وصنافير الواقعتان عند مدخل خليج تيران المفضى إلى خليج العقبة ، وتقع جزر جوبال عند مدخل السويس وأكبر جزيرة عند خليج السويس هى جزيرة شدوان .

وهناك جزيرة حالب أيضاً تقع فى خليج عصب عند الطرف الجنوبى من الساحل الإريترى وهى تلى جزيرة بريم وفى شمال جزيرة حالب جزيرة فاطمة ويقع أرخبيل حنيش شمال حالب وأكبر جزر هذا الأرخبيل هى جزيرة حنيش الكبرى وجزيرة زقر التى تتميز بقيمة استراتيجية عالية بفضل ارتفاعها الذى يتيح إمكانية مراقبة ورصد الأنشطة البحرية التى تجرى فى المياه المحيطة بها .

ويعد حوض البحر الأحمر وجزره المرجانية الرائعة وشواطئه الرملية الجميلة ومدنه الحالمة نقلة حضارية هامة بالنسبة لعلماء الأجناس وطبقات الأرض ، وقد نظر العلماء إلى حوض البحر الأحمر باعتباره نقطة بداية لعبور الأجناس المختلفة من شتى بقاع العالم .

ويجدر الإشارة هنا إلى أن طريق الخليج العربى لم تنجح فى منافسة طريق البحر الأحمر وهذا يعود إلى أن طريق البحر الأحمر أقصر مسافة من طريق الخليج العربى إضافة إلى صعوبة طريق الخليج المتمثلة فى المرحلة البرية القاسية التى كانت تقطعها قوافل التجارة فى أعالى دجلة والفرات إلى حلب وفيها إلى موانئ البحر المتوسط ، كما أن الملاحة فى الخليج كانت تتعرض لأخطار القرصنة (١٩).

ويمكن تصنيف أهمية البحر الأحمر واليمن فى الآتى :

١ - الأهمية التاريخية السياسية من حيث أن البحر الأحمر كان همزة الوصل بين إقليم اليمن وبين العالم المحيط به وبالأخص الأقطار العربية والإفريقية ، والعالم الخارجى فى الشرق والغرب .

٢ - الأهمية الاستراتيجية من حيث أن اليمن يسيطر على المنفذ الجنوبى للبحر الأحمر المعروف بباب المندب والذى يقع بين الزاوية الجنوبية الغربية لشبه جزيرة العرب وبين إفريقيا ويربط البحر الأحمر بخليج عدن والمحيط الهندى . وتشطر جزيرة ميون اليمنية هذا المجرى المائى إلى قناتين ، قناة شرقية عرضها حوالى ميلين وعمقها أقل من مائة قدم ، وقناة غربية عرضها تسعة أميال وربع وعمقها يقارب ألف قدم . وتجرى الملاحة عملياً عبر القناة الغربية على طريق يبعد مسافة ميلين عن جزيرة ميون وسبعة أميال عن الساحل الإفريقى .

٣ - الأهمية الاقتصادية : فقد كان للبحر الأحمر الأثر الكبير فى الحركة التجارية النشطة لليمنيين عبر العصور التاريخية المختلفة . كذلك الدور الكبير الذى لعبوه فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب كما أن وجود الثروة السمكية فى هذا البحر قد أدى إلى انتشار القرى الصغيرة على الساحل والتى يعمل سكانها فى صيد الأسماك (٢٠).

٢ - اليمن جغرافياً وأهمية موقعها عند المدخل الجنوبى :

الشخصية الجغرافية لليمن :

لكل دولة من دول العالم شخصيتها الجغرافية التى تميزها عن غيرها من سائر الدول والتى نتج عنها تفاعل دؤب على مر العصور بين الإنسان والبيئة . واليمنيون كشعب دؤب فى كفاحه استطاعوا أن يستثمروا البيئة التى عاشوا فيها فوق أرض اليمن إلى درجة أثارت الإعجاب وأن يبنوا لهم فيها حضارة من أعرق الحضارات وأقدمها وأن يحملوا هذه الحضارة إلى شعوب أخرى كانت تعيش خارج حدودهم فكانوا بحق رسل حضارة وثقافة لهم شخصيتهم الجغرافية البارزة .

أهمية الموقع الجغرافى لليمن :

تتميز اليمن بموقع جغرافى على جانب عظيم من الأهمية فوقوعها فى الطرف الجنوبى من الجزيرة العربية عند نقطة تقترب فيها القارة الأسيوية من قارة إفريقيا ولا يفصل بينها إلا

شقة بحرية ضيقة هي بوغاز باب المندب جعلها حلقة اتصال بين القارتين ومعبراً تجتازه الجماعات البشرية على مر العصور ابتداء من عصر ما قبل التاريخ حتى اليوم فعن هذا الطريق عبرت الجماعات الإفريقية إلى جنوب الجزيرة العربية ومنه تسربت على طول السواحل الجنوبية لقارة آسيا (٢١).

وتطل اليمن على بحرين هامين هما البحر العربي وخليج عدن اللذان يجاورانها من ناحية الجنوب والبحر الأحمر الذى يجاورها من ناحية الغرب . وكان هذان البحران ولا يزالان طريقاً للملاحة الدولية تمر به التجارة بين الشرق والغرب وهو طريق رئيسي من الدرجة الأولى وطالما تنافست على التحكم فيه الدول العظمى من أيام البطالمة إلى وقتنا الحاضر .

أما البحر الأحمر فيربطها بالعربية السعودية والحبشة كما يربطها بمصر وبلاد الشام وارتباطها بالسعودية ارتباط قديم وكانت الصلات دائمة بين موانئ موزع والمخا والحديدة وبين ميناء جدة ، فكثير من الغلات الزراعية كانت تنقل من اليمن إلى السعودية عن طريق البحر وكذلك وفود الحجاج التى تأتى إليها كل عام .

تقع اليمن بين خطى عرض ١٢° ، ١٩° شمالاً وبين خطى طول ٤٢° ، ٥٣° شرقاً . أما الموقع الجغرافى لليمن فقد أعطاها استراتيجية كبيرة ، فهى تطل على جهتين هما : البحر الأحمر فى الغرب وخليج عدن والبحر العربي والمحيط الهندى فى الجنوب ، وكذلك فإن اليمن تحتل نقطة التقاء جغرافى هامة بين قارتى آسيا وإفريقيا(٢٢) .

وقد جعل هذا الموقع الجغرافى لليمن وضعاً يؤهلها للتحكم فى الملاحة البحرية من وإلى البحر الأحمر ، مما هيأ لها أن تلعب دوراً فى تاريخ التجارة الدولية القديمة ، فمن مظاهر استغلال اليمنيين لموقع بلادهم هو إرساء العديد من الصلات البشرية والاقتصادية مع العالم الخارجي مثل مصر وسواحل شرق إفريقيا وجنوب شرق آسيا .

والواقع أن ارتباط اليمن بمصر كان ارتباطاً وثيقاً منذ العهدين المعينى والسبأى ، فكانت تجارة البخور والمر رائجة فى مصر والتى كانت تحملها القوافل اليمنية قديماً وكانت تجد طريقها إلى مصر بعد مياه البحر الأحمر وكانت تتلقاها الموانئ المصرية العديدة التى قامت على سواحل البحر الأحمر منذ الأزمان القديمة .

أما ارتباط اليمن بالحبشة فيتمثل بصورة واضحة فى خضوع الحبشة يوماً لحكم اليمن وخضوع اليمن لحكم الأحباش وهو ارتباط وثيق يدل عليه الأعداد الكبيرة من اليمنيين الذين يعيشون الآن فى الحبشة ، ومن الأحباش الذين يعيشون الآن فى اليمن .

الأهمية الاستراتيجية لليمن :

الواقع أن أهمية موقع اليمن الجغرافي أعطاها إمكانية التحكم في بوغاز باب المندب هذا المضيق الذي يفصل بين اليمن والحبشة ، وقديماً أعطى هذا المضيق نوعًا من الارتباط بين اليمن والحبشة ، كما أن باب المندب كان بمثابة المعبر الذي ظلت تجتازه الجماعات البشرية على مر العصور ، والموقع الجغرافي اليوم لا يقل أهمية عنه بالأمس حيث ازدات أهميته بعد افتتاح قناة السويس ثم اكتشاف البترول في منطقة الخليج العربي وأخيراً في اليمن . كل هذا ساعد على الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لليمن (٢٣).

ويعد البحر الأحمر جزءًا من المحيط الهندي الذي يربط القارتين الآسيوية والإفريقية ففي جنوب آسيا ربط المحيط الهندي بين اليمن والحضارة وبين بلاد الهند وسيلان وأندونيسيا بل ربطهم ببلاد الصين . وعن هذا الطريق كانت تحمل التجارة بينها ومن زمن قديم وعنه انتشر الإسلام في البلاد الآسيوية على يد العناصر اليمنية والحضرمية .

أما في إفريقيا ربط المحيط الهندي بين اليمن والعمانيين وبين الإفريقيين على طوال الساحل الشرقي ابتداء من الرأس الإفريقي في الصومال عبر زنجبار حتى موزمبيق ومدغشقر، ومما يزيد من أهمية الموقع البحري لليمن أنها تتحكم في بوغاز باب المندب الذي تمر به كافة السفن العالمية التي تمر بقناة السويس . والواقع أن هذه السفن جميعًا تمر في المياه الإقليمية لدولة اليمن (٢٤).

والواقع أن اليمنيين نجحوا نجاحًا عظيمًا في استغلال موقعهم الجغرافي سواء في تلك الجبهة البحرية التي جعلت منهم بحارة مهرة ، والجبهة البرية التي جعلت منهم حملة لتجارة القوافل وحماة لها . وهكذا تحكموا في التجارة البحرية والبرية وجنوا منها أرباحاً طائلة كانت الرخاء الذي نعم به اليمنيون زمانًا طويلاً ثم علاقاتهم الواسعة بمواطن الحضارات القديمة ومهبط الديانات السماوية جعل اليمنيين يحتضنون الديانات السماوية التي ظهرت في شمال الجزيرة العربية .

وقد احتكر التجار اليمنيون التجارة لفترة طويلة تقدر بـ ١٥ قرنًا من الزمان ، وكان المحيط الهندي مجالاً واسعاً للتجارة حيث امتد نشاط التجار اليمنيين إلى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) وماليزيا ، حيث أسسوا مراكز تجارية عظيمة لا سيما في جزيرة جاوة .

واستفاد الملاحون اليمنيون من حركة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية شتاءً والرياح الموسمية الجنوبية صيفًا ، فقد كان لهم رحلتان سنويًا ، رحلة الصيف إلي جنوب آسيا ورحلة الشتاء وهي رحلة العودة إلى اليمن .

لماذا سمي اليمن بهذا الاسم :

لقد اختلف الإخباريون في تفسير مدلول اسم اليمن : فإن الكلبي يعلل تسميتها بهذا الاسم بأن أقطن بن عابر(*) نزل في موضع اليمن فقال العرب تيمن بنور يقطن . وذكر ابن عباس أن اليمن سميت يمنًا لأنها تقع علي يمين الكعبة وهو اليمن بخلاف الشام الذي سمي شامًا لوقوعه علي شمال الكعبة . وقيل أيضًا أن اليمن سمي يمنًا ليمنه والشام شامًا لشؤمه . ويرد ياقوت على ذلك : " يتامن الناس فسموا اليمن ، لأن الكعبة مربعة ، فلا يمن لها ولا يسار، فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين ، وكذلك الجهات الأربع إلا أن يريد بذلك من يستقبل الركن اليماني فإنه أجلها ، فإذا يصح "(٢٥) .

والواقع أن بلاد اليمن لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ولا بهذا المعني أو بذاك فقد ورد اسم اليمن في نصوص سبأ القديمة باسم يمنات ويمنيت ، ومن البديهي أن اسم اليمن اشتق من يمنات . ولعل يمنات تعني اليمن والخير ، فلقد كانت بلاد اليمن في أقدم عصورها التاريخية بلاداً كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى أنها عرفت لذلك السبب باليمن الخضراء (٢٦).

٣ – اليمن عبر العصور التاريخية :

أ – الدور الإسلامي :

عندما جاءت رسالة النبي صلي الله عليه وسلم وقام بتبليغها ، كان الأوس والخزرج وهما من القبائل اليمنية التي استوطنت المدينة في أرض الحجاز أول من آمن به وتعده في نشر

(*) قال قوم : سمي باليمن بن أقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح النبي عليه السلام ، وهو قطر المبارك عظيم البركة جاءت فيه الآثار النبوية على الناطق بها أفضل الرضوان منها : " الإيمان يمان والكعبة يمانية لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن " وقوله صلى الله عليه وسلم : " جاءكم وفد اليمن أرق قلوبًا وألين أفئدة " . وفائدة هذا الحديث أن من رق قلبة ولان فوائده كان أسرع قبولاً للإيمان ، ولذلك إنهم آمنوا بوصول معاذ بن جبل ، وشاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم . (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٧) .

الإسلام وعندما داى النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد وقام بغزواته المعروفة بل وعندما دعا خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم من بعده إلى القيام بالفتوحات الإسلامية المختلفة كان اليمنيون هم أول من لبى نداء الجهاد وأبلوا في سبيله بلاء حسنًا (٢٧).

والواقع أن انتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية ومن بعد ذلك فى البلاد الإسلامية الواسعة يدين بالكثير إلى جهود القبائل اليمنية التى تحمست له وبادرت إلى رفع رايته فى كل مكان . وليس ذلك غريبًا على المجتمع اليمنى ، فتلك هى طبيعته لأنه شعب متدين منذ القدم ، فلقد احتضن الديانات السماوية جميعًا وتحمس لها كما احتضن من قبل عبادة الكواكب والنجوم . ففى عهد الحضارات اليمنية القديمة عبد اليمنيون الشمس والقمر وأقاموا لها المعابد ، ثم بعد ذلك عبدوا الأصنام وأقاموا لآلهتها النصب والتماثيل (٢٨).

واعتنق اليمنيون اليهودية والمسيحية كذلك ، إلى أن ظهرت دعوة الإسلام لبى النداء اليمنيون من كان يقيم منهم فى اليمن نفسها أو خارجها . وكان سبيلهم فى ذلك إما الجهاد أو التجارة ، ففى سبيل الجهاد أسهم اليمنيون ، وهم شعب محارب بطبيعته ، فى فتح الشام تحت قيادة خالد بن الوليد ، وفى فتح العراق تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ، وفى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص ، وفى فتح شمال إفريقية وبلاد المغرب وأسبانيا تحت قيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وفى هذه الفتوح جميعًا كان للمعينيين دورهم الهام .

ومن القبائل اليمنية الرئيسية التى أسهمت إسهامًا فعالاً فى الفتوح الإسلامية قبائل حمير وهمدان وفدج والأزد والأشاعر وزبيد ومراد .

ومنذ مئات السنين قبل ظهور الإسلام لم تكن تعرف فى شبه جزيرة العرب دولة أو مجموعة من الدول باسم اليمن . كانت الأسماء السائدة فى المراجع القديمة القبائل الحاكمة أو ذات السلطان العريض ، فعرفت دولة معين ودولة سبأ ودولة حمير فى جنوب شبه جزيرة العرب وعرفت دولة الأنباط فى غربى شبه الجزيرة إلى الشمال والكلدنيون أو بنى خالد فى شرقى شبه الجزيرة العربية (٢٩).

والدراسة الأركيلوجية الحديثة لإقليم مأرب تبين أن ملوك دولة سبأ فى القرن الرابع قبل الميلاد كان من بين ألقابهم (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمانات أى اليمن) ولكن موقع اليمن والمنطقة التى أطلق عليها هذا الاسم كانت غير معروفة (٣٠).

اليمن المهد الأول للحضارة :

كانت اليمن الحقل الصالح لولادة الإنسان الأول، ولنا أن نتخيل تحت أضواء نواميس التكوين أن اليمن شهدت تطورات هذا الإنسان بخطى منظمة نحو مدنية العالم القديم التي تركت لنا الكتب المقدسة ، منها قصة آدم ونوح عليهما السلام والطوفان والسفينة وما حملته من كل زوج اثنين وأن قوم نوح اتخذوا آلهة ودا وسواعًا ويغوث ويعوق ، وغمرة الماضي بطوفان النسيان ، ماعدا ما حفظته الكتب المقدسة المسجلة لعروبة ذلك العهد بأسمائه وتقاليده وحضارته (٣١).

وقد عرفت بلاد اليمن قديماً بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور ، وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة في مصر الفرعونية ، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمني والصومالي مع البخور في المعابد ، كما كانوا يستخدمونه في تحنيط جثث الموتى . وبالإضافة إلى قيام أهل اليمن بتصريف منتجاتهم الوطنية فقد كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر ، فعن طريق اليمن كانت لآلئ الخليج الفارسي ، والتوابل والسيوف الهندية والحرير الصيني والعاج والذهب الأثيوبي تصل إلى مصر والشام والعراق(٣٢).

وكانت لمواسم التجارة ارتباطًا وثيقًا باليمن لتميزها بموقعها التجاري الهام بأسواق موسمية معروفة مكانًا وزمانًا داخل اليمن أو خارجها ، بالإضافة إلى الأسواق المحلية ، وكانت طرق القوافل التجارية تخترق اليمن شمالاً وجنوباً وشرقًا وغرباً ومن ثم كانت لقريش رحلتا الشتاء والصيف الدورية التي لم تختلف عنها إلا بعد أن نشب الصراع بين الإسلام وبين قريش ممثلة للجاهلية العربية ، بالإضافة إلى شخصيات قرشية تجارية هامة كانت ذات علاقة وطيدة بشخصيات تجارية يمانية (٣٣).

والواقع أن الأسواق التجارية ليست للبيع والشراء فحسب بل كانت منتديات عامة تجري فيها كل شئون القبائل التجارية والسياسية والإدارية والأدبية والاجتماعية .

وللعلماء في وصف اليمن وما فيه من آثار ومصنفات جمة ، ليس هذا موضع إيرادها . ومدينة اليمن صنعاء ، لأنها كانت في الصدر الأول والعصر المتقدم كرسي ملك التبابعة ، فكل من ملك حضرموت إلى حجة ، وما وراء ذلك سمي تبعًا ، ووقع اصطلاح أهل ذلك العصر أن

كل من ولي مصر سمي فرعون ، وكل من ولي فارس سمي كسرى ، وكل من ولي الروم سمي قيصراً ، وكل من ولي اليمن سمي تبعاً ، وكل من ولي الحبشة سمي النجاشي (٢٤).

ونظراً لاختلاف التضاريس في اليمن ، فإن هناك تبايناً كبيراً في الأحوال المناخية فعلى الهضبة تنخفض درجات الحرارة شتاءً إلى أقل من ٥ْ مئوية حيث يتكون الصقيع أما في الصيف فتكون درجات الحرارة مرتفعة وذلك بسبب قربها من خط الاستواء .

وتصل كمية الأمطار التي تسقط سنوياً على هضبة اليمن إلى ما يزيد على ٢٠ بوصة ولكنها قد تصل إلى ٤٠ بوصة في القمم العليا حيث تسقط الأمطار بغزارة وتتميز المنطقة الزراعية في اليمن بمحصولين رئيسيين هما البن والذي تزرع اشجاره على مرتفعات تصل إلى ١٦٠٠ متر – والقات التي أصبحت شجرته منافساً خطيراً للبن، والقات Gatha adulis شجرة تشبه شجرة الشاي إلى حد كبير والذي يصل طولها إلى ٣ أمتار وتمضغ أوراق هذا النبات التي تحتوي على سائل شديد التخدير مثل الكحول ، وينتشر مضغ القات في اليمن بين كل فئات الشعب ، ولذلك تنتشر زراعته في مساحات واسعة في البلاد ، وقد وجد طريقه كسلعة تصدير إلى الخارج ، ومن هنا بدأ كمنافس شديد لشجرة البن (٢٥). وخاصة أن زراعته لا تحتاج إلى مجهود كبير بعكس البن ، ورغم زراعته في كل مناطق اليمن إلا أنها تتركز حول منطقة تعز في الجنوب الغربي .

الملاحة والتجارة البحرية في اليمن :

المصريون هم أول من شق عباب البحر الأحمر طلباً للبان والمر وسلع أخرى وتعد أقدم تلك الرحلات حين أرسلت الملكة حتشبسوت بعثتها الشهيرة إلى بلاد بونت وهي البعثة التي خلدتها نقوش دير البحري في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد .

والواقع أن الرحلات البحرية في ذلك الوقت كانت تغلب عليها صفة الاستطلاع وتحف بها مخاطر جمة ، ولم تصبح بديلاً للتجارة البحرية التي أحكم اليمنيون قبضتهم عليها ، كانت محاولات الإبحار القديمة في البحر الأحمر تهدف ، فيما يبدو إلى اختصار الطريق البري بين مصر وبعض أجزاء من إفريقيا الشرقية لاستجلاب بضائعها المرغوبة ، ومن هنا جاءت مشاريع ربط النيل بالبحر الأحمر . أما السلع العربية والشرقية فكانت تأتي بحراً إلى مينائي قنا وعدن ثم تحمل على الجمال براً إلى سواحل فلسطين (٢٦).

ومن ثم فإن أى نشاط بحرى لليمنيين فى ذلك الوقت لابد وأنه كان محصوراً بالضرورة فى الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر وفى البحر العربى والخليج العربى لجلب البضائع الإفريقية والشرقية إلى موانئهم ثم نقلها إلى الشمال على قوافلهم ، وهكذا فلم تؤثر محاولات استخدام البحر الأحمر من قبل الشعوب الأخرى على تلك التجارة ومن بينها محاولة داريوس (٥٨٥ – ٤٢١ ق.م) إعادة شق القناة التى تربط النيل بالبحر الأحمر إبان احتلال الفرس لمصر [٣٧].

لقد ظلت اليمن خلال القرون الأربعة الأخيرة على الأقل تشكل قلعة حصينة أرضاً وشعباً وتراثاً ، امتنعت على كل المحاولات التى بذلك للسيطرة أو التأثير فيها ، سواء من جانب قوى إسلامية أو عربية أو حتى أوروبية غربية . ووقفت بذلك موقفاً فريداً ربما اقتصر عليها دون غيرها من بلدان العالم العربى الحديث من مشرقه إلى مغربه [٣٨].

ب – الدور الحضارى :

اليمن مركز من مراكز الحضارات القديمة فى العالم :

فى الألف الثانى قبل الميلاد قامت حضارة راقية فى أرض اليمن ، كانت تركز على التجارة فى المقام الأول ثم على الزراعة ، أما عن المراحل التى سبقت ذلك والتى تدرجت فيها هذه الحضارة العريقة وتطورت حتى بلغت أوجها ، فقد وصلت الحضارة اليمنية إلى أوج عظمتها فى بداية الألف الأول قبل الميلاد فى عهد الملكة بلقيس عندما تم لقاؤها مع نبى الله سليمان ، وكانت هذه الحضارات معاصرة للحضارات القديمة التى قامت فى مصر والعراق وللحضارتين الإغريقية والرومانية فقامت بينهم جميعاً صلات تجارية وثيقة كان اليمنيون هم حملتها .

وأولى الحضارات اليمنية ازدهرت فى عهد المعينيين فيما بين عامى ١٤٠٠ و ٨٥٠ ق.م. وكان قيامها على مشارف الصحراء فى الطريق الشرقى فى أرض اليمن فيما يعرف حالياً بوادى الجوف حيث يمتد طريق القوافل التى كانت تحمل التجارة من جنوب الجزيرة إلى مراكز الحضارات القديمة فى الشمال [٣٩].

وبعد المعينيين حمل السبأيون شعلة الحضارة اليمنية فيما بين عامى ٨٦٥ ، ٥٤٠ ق.م. وكانوا كالمعنيين حملة التجارة وحماة لها ، فازدهرت فى عهدهم ازدهاراً عظيماً ونهضت فى ظلها حركة الإنشاء والتعمير كما نهضت الزراعة التى كانت تعتمد على قنوات الرى وإقامة السدود التى يعتبر سد مأرب العظيم أهمها [٤٠].

وبعد السبأيين تعهد الحميريين الحضارة القديمة فيما بين عامى ١١٥ ق.م. و ٥٢٥ م فتتابعت ازدهارها ولكنها فى أواخر أيامها أصابها الوهن والاضمحلال ، وفقدت التجارة أهميتها بعد أن هجرت طريق القوافل الذى كان يمتد عبر الأرض اليمنية وتحولت إلى طريق البحر الأحمر على يد البطالمة والرومان كما تدهورت الزراعة بعد انهيار سد مأرب العظيم ، وهكذا تعرضت بلاد اليمن للغزو الخارجى على يد الأحباش تارة والفرس تارة أخرى (٤١).

دولة معين :

تعتبر دولة معين من أقدم الممالك اليمنية وأكثرها جهالة عند المؤرخين الإسلاميين لعدم ورود ذكرها فى القرآن الكريم ، أما المؤرخين اليونانيون فلم يعرف مما سجلوه عنها إلا القليل ، وقد بقى تاريخ هذه الدولة مجهولاً حتى عام ١١٤٧ هـ / ١٧٦١م ، حينما بدأ المستشرقون يتعاقبون على اليمن سعياً وراء البحث ودراسة الآثار اليمنية القديمة وفى مقدمتها كارستن نيبور الدنماركية ، والدكتور ستيرن الإنجليزى ، ثم الضابط الإنجليزى جميز ويليد وغيرهم .

وقد عثر هؤلاء المستشرقون على نقوش معينة مكنتهم من معرفة بدء قيام هذه الدولة واستمرار بقاءها ، وتاريخ انقراضها وأبانت دراستهم من النصوص التى عثروا عليها فى خرائب الجوف وكخربة (معين) و (براقش) و (كمنا) و (نشق) و (ناعط) و (هران) وأن مدينة قرناو كانت العاصمة الأولى لدولة معين وأن مدينة (معين) كانت العاصمة الثانية ، وتقعان فى المنطقة الشرقية مما يلى الجوف (٤٢).

وقد أشار هاليفى الذى عثر على أكثر من ثمانين نقشاً معينياً إلى أن هذه المنطقة هى أغنى بقعة فى الجزيرة العربية بالآثار . وذهب المستشرق فيلبى إلى أن عدد ملوك معين ٢٢ ملكاً ويتكون من خمس سلالات وأن الحكم فيها كان وراثياً .

وكانت دولة معين أقرب الدول الجنوبية اتصالاً بالمناطق الشمالية فى شبه الجزيرة العربية ، ونشأت فى الجوف الجنوبى فيما يمتد بين حدود حضرموت وبين نجران ، وانتفعت معين بسهل متسع يمده بالخصوبة ومياه الرى وادى الخارد وفروعه .

واتخذت الدولة المعينية عاصمتها فى مدينة (قرناو « خربة معين الحالية ») فى شرق الجوف وقد ثبت مستطيلة فى مساحة صغيرة نسبياً وتبلغ مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخم ذى مدخلين تحميهما الأبراج الحجرية وبقى جزءاً من البرجين الذين يحفان بمدخلها الشرقى وقام إلى جانب العاصمة معبد كبير رددت النصوص المعينية اسمه وهو معبد

(رصغم) ولا زالت بقية من أعمدته ونقوشه وزخارفه قائمة تشهد بكفاءة أصحابها حتى الآن[٤٣].

وقد تعاقبت على حكم معين خمس أسرات حاكمة لم تحتفظ النصوص الباقية بألقاب حكامها الأوائل ولكن يرجح الباحثون أن سلطاتهم بدأت بنفس الصيغة الدينية التى ظهرت عند جيرانهم فتلقب كل منهم بلقب (مزود) ربما يعنى من يزود المعبد بقرابينها ، واعتمد هذا الترجيح على بقاء مزود ضمن ألقاب حكام معين المتأخرين بعد أن تلقبوا بألقاب الملوك [٤٤].

ومنذ عام ١٩٧٥م صدر عن مركز الدراسات الشرقية بمدينة (نابولى) الإيطالية مدونة للنقوش المعينية جمعها ونسقها عالم إيطالى اسمه (جيوفانى جاربينى) وتضم تلك المدونة (٤٦٧) نقشاً هى كل حصاد نقوش منطقة الجوف ، وقبل هذا الجهد المفيد بحوالى مائة عام تمكن العالم الفرنسى (جوزيف هاليفى) من زيارة الجوف ونقل إلى المهتمين أول أخبار عن آثار الجوف ونقوشه ولأول مرة فى العصر الحديث بدأت معين تحتل مكانها فى صفحات تاريخ اليمن القديم دولة وحضارة [٤٥].

واستناداً إلى قلة عناية المؤرخين العرب مقارنة بما ذكروه عن سبأ وحمير استنتج العالم النمساوى (جلازر) فى مطلع هذا القرن أن سبب ذلك هو تقادم العهد على دولة معين ولذلك فمعين هى أقدم الدول اليمنية القديمة ، ودعم رأيه ذاك بما ورد فى نقش صراوح السيئ فى ذكر مدن نشان ونشق وغيرها من الجوف منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، ورسخ هذا الرأى الرحالة الإنجليزى " فيلبى " فى منتصف هذا القرن عندما نشر قوائم ملوك معين وافترض القرن الثانى عشر قبل الميلاد بداية لذلك .

وقد تعود الناس بعد ذلك على الأخذ برأى " جلازر " وبقيت معين فى أذهانهم إلى اليوم أقدم الدول اليمنية القديمة . ونشر عالم ألمانى معنى بدراسة اليمن القديم ونقوشه منذ فترة قريبة مقالاً تناول معين ، واعتبر أن كتابة " تاريخ معين " أشد تعقيداً من كتابة تاريخ أية دولة يمنية قديمة ، ومن أسباب ذلك صعوبة إزاحة الاعتقاد الشائع بأن معين أقدم الدول اليمنية القديمة ، على أن السبب الرئيسى هو توقف الكشف الأثرى فى منطقة الجوف [٤٦].

دولة سبأ :

بعد انقراض دولة معين قامت على أنقاضها دولة سبأ أو مملكة سبأ[٤٧] وقد سميت باسم مؤسسها الأول عبد شمس سبأ بن يشجب يعرب بن قحطان بن عابر[٤٨] وهو الذى بنى السد

المعروف بسد مأرب " العرم " وسمى سبأ لكثرة سبيه(٤٩) وهذا هو النسب الصحيح لسبأ حسبما ذهب إليه الكثير من المؤرخين الإسلاميين وغيرهم ، وأكد على ذلك عثور بعض المستشرقين على هذا النسب حرفيًا منقوشًا في صحيفة من النحاس في إحدى الخرائب اليمنية حسبما أثار الدكتور جواد على في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) (٥٠).

ويعتبر تاريخ سبأ هو عمود التاريخ اليمني القديم ، وتكوينه السياسي الكبير وما تلك الدول التي ذكرت معها سوى تكوينات سياسية معاصرة لفترات سبأ ، انفصلت منها أحيانًا واندمجت فيها أحيانًا أخرى مثل دولة معين وأوسان وقتبان وحضرموت ودويلات المرتفعات ، أو اتحدت معها لتكون دولة واحدة كدولة حمير .

وأقدم الشواهد التاريخية تذكر سبأ ، وأطول صراع وأعنفه دار في اليمن قديمًا كان حول اللقب الملكي : ملك سبأ وذى ريدان وعندما حسمت حمير الصراع في أواخر القرن الثالث الميلادى لم يسم ملوكها أنفسهم بملوك حمير وإنما بملوك سبأ وذى ريدان ، وذو ريدان هم حمير ، ورغم أن حمير كانت هي الغالبة على حكم اليمن إلا أن سبأ تصدرت ألقاب ملوكهم تأكيدًا لتلك الحقيقة .

ويرجع تاريخ سبأ إلى عام ٧٢٠ ق.م. في نص أشورى في عهد الملك سرجون الثاني الذى أشار فيه أنه تسلم هدية من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب من " يثامر " الذى هو المكرب السبئى المعروف يثع أمر ، كما ورد ذكر المكرب كرب إيل في نص أشورى آخر يعود إلى عهد سنحاريب أى حوالي عام ٦٩٥ ق.م. وذكر فيه أنه حين احتفل بوضع حجر أساس " بيت أكيتو" وقد يكون معبدًا أو حصنًا أو قصرًا ، استقبل مندوبًا عن الحاكم السبئى " كريبي إيلو " حمل إليه الهدايا من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب (٥١).

والواقع أن الشواهد المنقوشة من حضارة سبأ لاتزال قليلة ولا تغني بحاجة الباحث كما أن الدلائل الأثرية الموجودة مازالت قاصرة خاصة إذا علم أن حصيلة العلماء من معلومات أثرية هي نتيجة مسح غير كامل وقد وجدت عن طريق الصدفة .

ويعتبر أقدم ذكر لسبأ ورد في التوراة وبصيغ مختلفة حوالي ٢٣ مرة منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، وتشير الدلائل الحبشية إلى أن هجرة بعض قبائل اليمن إلى الحبشة وإبان الدولة السبئية كانت في حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد ، وذكرت سبأ بعد ذلك في النقوش اليمنية القديمة وفى القرآن الكريم ، وارتبط ذكرها دائمًا بالرخاء والشهرة .

ويرجع جمهور العلماء أن النبى سليمان عليه السلام قد عاش فى حوالى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، وبناء عليه فإن زيارة ملكة سبأ له ، والمعروفة باسم بلقيس لابد وأن تكون تمت فى ذات العصر .

وقد ارتبطت بسبأ معظم الرموز التاريخية القديمة لليمن ، فسبأ عند النسابة هو أبو حمير وكهلان ومنها تسللت أنساب أهل اليمن جميعاً ومهما اختلف الناس فى الأنساب إلا أنها ولا ريب جزء هام من علوم الإنسان التى إن جانبه الصواب أحياناً فهى تعكس رغم ذلك صدى مفيداً لمسار التاريخ . وبلقيس هى عند الجميع ملكة سبأ ، وهجرة أهل اليمن ارتبطت بسبأ والبلدة الطيبة التى أشار إليها القرآن الكريم هى فى الأصل أرض سبأ ، وأكثر من ذلك أن أبرز رموز اليمن التاريخية هو سد مأرب قد اقترن ذكره بسبأ وكان تكريمه فى القرآن الكريم بالذكر سبباً فى ذيوع ذكر قوم سبأ وحاضرتهم مأرب فى التاريخ الإسلامى .

أما مأرب فكانت أشهر مدينة يمنية قديمة وهى عاصمة سبأ لقرون طويلة ، وموقعها فى السهل السبئى على مشارف صحراء صيهد يتحكم بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان والذى كان يمتد من ميناء قنا إلى ساحل المحيط الهندى عبر حضرموت إلى نجران ومنها إلى ددان (العلا اليوم) ثم إلى غزة على ساحل البحر المتوسط وتدل الخرائب والاثار المنتشرة والتى تكتنف قرية مأرب الصغيرة ، على الضفة اليسرى من وادى (ذنه)، على ضخامة المدينة القديمة وعظمته ، تلك المدينة التى اعتبرها بطليموس الجغرافى الإسكندرى وسط الإقليم المنافى الأول على الأرض ، وكانت مساحة المدينة حوالى كيلو متر واحد مربع ويحيط بها سور عرضه متر تقريباً وثمانية أبواب هى نفسها أبواب المدينة (٥٢).

وسد مأرب قديم قدم ازدهار حضارة سبأ الذى يرتبط بتلك القدرة الفنية الرائعة على إقامة السد السهيد ، وآثاره الباقية تدل على أن بناء السد مر بمراحل عديدة ، وأنه تجدد مع الزمن ، وكان جدار السد متماسكاً وضخماً مما جعل بعض الناس يروون عن بنائه أجمل الأساطير فقالوا أن بنائيه هم العمالقة من قوم عاد ، (ضخامة حجارته) مثل لقمان بن عاد وذلك فى سالف العصر والزمان .

ويعتبر سد مأرب أشهر آثار اليمن وأروع عمل هندسى منذ القدم فى الجزيرة العربية وقد بنى بين مازمى الجبلية البلق الشمالى والبلق الجنوبى على وادى ذنه ميزاب اليمن الشرقى .

ووادى ذنه هو أعظم أودية مشرق اليمن كما هو وادى مور أعظم ودية مغربية ، حيث تتجمع مساقط المياه فى المرتفعات الشرقية من ناحية رداع وزمار ومراد وخولان وغيرها ، وتأتى هذه السيول التى تكون عادة موسمية في فصلى الربيع والصيف .

وقد كرم الله تعالى السد فى القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سورة سبأ : آية ١٥ ، ١٦] صدق الله العظيم .

ومن المدن القديمة باليمن مدينة صنعاء وقد ذكر ابن حوقل " أنها كانت ديار ملوك اليمن فيما تقدم " والمعروف أن السبأيين بعد حملة أيليوس جالوس على اليمن نقلوا عاصمتهم من مأرب إلى ذمار (٥٣). وصرواح من المدن التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ اليمن القديم ، وتقع بين صنعاء ومأرب ، وينسبون بناءها إلى سليمان بن داود (٥٤). وقد اتخذ السبئيون مدينة صرواح بادئ ذى بدء حاضرة لهم ، وفيها أقاموا المعابد للإله (القمر) ثم انتقلوا فيها إلى مأرب . ومعبد صرواح الكبير اليوم من أهم آثار اليمن القديمة ، أقيم فى القرن الثامن قبل الميلاد عندما كانت صرواح حاضرة لمكربى سبأ على يد المكرب يدع إيل ذريح(٥٥) ومعين ، وكانت فى العصور القديمة حاضرة للمعنيين وإحدى مدينتين معينيتين هامتين ثانيهما براقش التى كانت تسمى بيثل وكانت تقع فى بلاد الجوفى ولم تكن تسمى بهذا الاسم وإنما كانت تعرف باسم قرنا أو قرنه ومازال موضع معين يضم كثيراً من الآثار القديمة .

دولة حمير :

تعتبر حمير آخر الدول اليمنية القديمة حكماً وأخلدها ذكراً ، فقد اتفق المؤرخون أن عصر " ملوك سبأ وذى ريدان " والعصر التالى له والمعروف بعصر ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت " هما العصران اللذان برز فيهما الحميرين على مسرح الأحداث فى بلاد العرب الجنوبية ولذلك اصطلحوا على تسمية هذين العصرين بعصرى الدولتين الحميرية الأولى والحميرية الثانية .

١ – الدولة الحميرية الأولى : " ملوك سبأ وذى ريدان (١١٥ ق.م. – ٣٠٠م) :

مؤسس هذه الدولة بنو ال شرح يحضب الذى ينسب إليه الإخباريون بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن(٥٦) وفى عصر هذه الدولة كانت الحملة الرومانية المعروفة بحملة اليوس

جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق.م. للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها ملوك سبأ ، واستغلال ثروات اليمن وتطهير البحر الأحمر من القراصنة وكان فشل حملة اليوس جلوس السبب في قيام الرومان بتغيير خططهم السياسية نحو بلاد العرب ، فعدلوا نهائياً عن فتح هذه البلاد عسكرياً وبدا الضعف يدب في كيان دولة سبأ وذى ريدان وتطلع البطالمة ومن بعدهم الرومان إلى احتكار الطريق التجارى عبر البحر الأحمر والتخلص بذلك من اعتمادهم على تجارة العرب في اليمن وحضرموت (٥٧).

٢ – الدولة الحميرية الثانية " ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت (٣٠٠م – ٥٢٥م) :

مؤسس هذه الدولة شمر يهرعش المعروف عند الإخباريين بشمر يرعش بن ناشر النعم تلقب عام ٢٩٠م بملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت ، وشمر هذا عند الإخباريين هو تبع الأكبر(٥٨) الذى ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ صدق الله العظيم(٥٩) .

وذكروا أنه زحف بجيوشه إلى أرمينية ، وهزم الترك ، وهدم المدائن بدينور وسنجار ودخل مدينة السغد وهدمها فسميت شمركند أو شمر كنداى عند الفرس ، والتى عربت إلى سمرقند.

وقد شيدت مدينة ظفار عاصمة للدولة الحميرية حيث اتخذت تقويماً خاصاً بها يبدأ عام ١١٥م قبل التقويم الميلادى ولكن النقوش المتوفرة لا تؤرخ به سوى منذ القرن الأول الميلادى ولا نعرف حتى يومنا هذا ، هذه الحادثة التاريخية التى بدأت حمير تؤرخ لها ومبلغ علمنا أن حمير كانت في الأصل قبائل تتبع الدولة القتبانية ومناطقها الأصيلة كانت ضمن أراضى دولة قتبان .

وفى القرن الأول بعد الميلاد برزت حمير كقوة ضاربة في اليمن حيث بسطت نفوذها على أراضى شاسعة كانت ضمن سيطرة قتبان وسبأ وادعت سيطرتها على مناطق سبأ الرئيسية ويعتقد أن أول ذكر في النقوش الحميرية عثر عليه في حضرموت ويعود إلى القرن الأول الميلادى ، ويروى ذلك النقش أن الحضرميين صدوا حملة على المناطق الجنوبية مما يوحى بأن حمير آنذاك كانت قد وسعت سيطرتها حتى بلغت السواحل الجنوبية ، ثم خرجت حمير منتصرة في صراع القوى الذى احتدم بين الأسر المتعددة في اليمن في نهاية القرن الأول الميلادى ودام حوالى مائة وخمسون سنة (٦٠).

من أهم مظاهر الحضارة اليمنية القديمة :

١ – سد مأرب :

إن روعة وضخامة سد مأرب بنجزائه تدعوا إلى الشك فيما إذا كان قد بدا هكذا منذ عهد سمه على ينوف ، وعهد يثع أمرين ، وقد تعرضت جدران السد أكثر من مرة للهدم نتيجة لتراكم الإرساب خلفها ، وأيضاً بتأثير عامل الزمن فى مبانيها ، وسجل عدد من السبئين عدد مرات الإصلاح التى تمت فى عهدهم وكان على سبيل المثال أن أعيد بناء الهويس الشمالى فى عهد الملك " ثاران يهنعم بن نمار على يهد " وابنه " ملكى كرب الذى كان يشاركه فى الحكم وذلك فى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى (٦١).

أما مأرب فتقع عند ملتقى طرق تجارة القوافل القديمة الواردة من بيجان وحضرموت وموانئ البحر العربى ، فضمنت لنفسها موارد اقتصادية كبيرة من التجارة وقامت فى الوقت نفسه عند النهاية الشمالية الشرقية لتل يمتد نصف كيلو متر مربع ويعرض ٣٥٠ متراً ما كفل لها بعض الحماية الطبيعية (٦٢).

وكانت الأمطار الغزيرة تسقط على المرتفعات فى مواسمها وتجرى على هيئة سيول شديدة أحياناً فى عدة وديان وينتهى بعضها إلى فتحة طبيعية كبيرة توسطت بين جانبى جبل بركانى مرتفع يسمى جبل البلق ، وهو جبل بين الصحراء وبين المرتفعات فى منطقة مأرب .

وتعد فكرة بناء السد التى استغلها السبئيون من أجل ثلاثة أغراض هامة ، وهى أن يقللوا من اندفاع السيول إلى وادى اذنة وما يمكن أنْ تؤدى إليه من بوار الزرع وتدمير القرى فى مواسم الأمطار العنيفة ، وأن يحولوا دون ضياع أغلب مياه السيول فى جوف الأرض حين تجاوز هذا الوادى ، وأن يرعوا مستوى مياه الرى عدة أمتار عن طريق فتحات جانبية يسهل التحكم فيها .

وهكذا يميل الرأى إلى تعديل الفكرة القديمة عن الغرض من السد وهى فكرة تخزين المياه خلف بحيرة صناعية أو نحوها نظراً لوجود بيئة يمكن أن تشرب أرضها المياه بسهولة ويسر. وظل سد مأرب يؤدى أغراضه حتى عهد أبرهة فى عام ٥٧٠م أى بعد بداية ما وصلنا عنه بأكثر من أحد عشر قرناً ، ثم انهار حوالى عام ٥٧٥م بما وصفه القرآن الكريم فى سورة سبأ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [الآيات ١٥ – ١٨] وأقام السبئيون سدوداً أخرى محلية فى عهود متفرقة فى المناطق التى تصلها مياه السهل بعيداً عن منطقة مأرب(٦٣) .

٢ – كتابة المسند :

فى الواقع أن خطوط الكتابات القديمة التى سبقت الخط العربى فى شبه الجزيرة العربية تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين مجموعة شاعت فيها كتابة المسند ، وكتابة استخدمتها الدول العربية الجنوبية المتحضرة قديماً ، سبأ وقتبان ومعين وحضرموت وأوسان ثم شاركتها فيها بعض الإمارات والجماعات العربية الشمالية فى شبه الجزيرة وما يتصل بها جنوب الشام ، بعد أن صور كتبتها فى أشكال حروفها بما يتفق مع مدى اتفاقهم لها وربما يناسب مخارج ألفاظهم تعديلات عفوية أحياناً وتعديلات مقصودة أحياناً أخرى . وهكذا خرجوا منها بخطوط إقليمية يمكن التمييز فيها أيضاً بين خطوط فرعية محلية اختلفت فيما بينها اختلافات قليلة ، ثم مجموعة أخرى من الخطوط اعتمدت أساساً على قواعد الكتابة الآرامية ، وكتب بها فرق أخرى من الدول والإمارات العربية الشمالية بعد أن قام كتبتها بتحويرها تحويراً مختلفاً إلى حد ما (٦٤).

وتضمنت كتابة المسند تسعة وعشرون حرفاً لم نعرف أسمائها القديمة ولا ترتيبها القديم حتى الآن ولكن تشابهت أصوات ثمانية وعشرون حرفاً منها أصوات حروف الهجاء الحالية .

٣ – الفن المعمارى :

لقد أنشئ معبد صرواح الكبير لمعبود دولتها الأكبر الذى أطلق عليه اسم (المقة) كان لفظ (ال) أو (إيل) عند العرب الجنوبية وعند شعوب سامية وقديمة أخرى فى العراق وفى الشام يدل على معنى الإله ثم استخدم بهذا المعنى مثل أسماء إسماعيل وجبرائيل وميكائيل وهلم جر. أما العناصر المعمارية الظاهرة تألفت فى معبد (المقة) فى صرواح من جزئين ضخمين أحدهما مستطيل واسع ، والآخر يتصل به ويبدو هيئة البيضاوى الناقص وتضمن أحد نصوص المعبد اسم الكرب يدع إيل ذراع وذكر أنه سور معبد (المقه) ويميل الدارسون إلى تاريخ عهد هذا المكرب نحو ٦٦٠ق.م. ويبدو أنه لم يشيد المعبد كله ، إنما بدأ بتوسيع معبد صغير قديم لمعبود قومه وعمل على تسويره (٦٥).

الصيغة الدينية التى استعان بها المكربون فى تدعيم حكمهم جعلتهم يولون اهتماماً كبيراً لمعابد معبوداتهم ، إظهاراً لتقواهم الشخصية ، وتأكيداً لصلتهم الروحية بهذه المعبودات ، عملاً على كسب ولاء رجال الكهنوت وبعض المدنيين أيضاً عن طريق تخصيص المرتبات العينية لهم من عائدات هذه المعابد .

وقد أنشئ معبد " معرب " فى قرية المساجد ببلاد مراد وعلى بعد ٢٧كم من مأرب الحالية ، من أجل " المقه " أيضاً وقد أقيم الجزء الداخلى من المعبد الذى تألف من بهو أعمدة بقيت منها ثلاثة ألوان ، ويعقبه إلى الداخل فناء كبير تقوم فى أواسطه مقصورة العبادة الرئيسية وتحمل سقفها أربعة أعمدة فى صفين ، بينما يتقدم المقصورة صفة ذات ستة أعمدة ولاتزال هذه المجموعة المعمارية فى المعبد تحتفظ بروعتها على الرغم مما لحق بها من تهدم ، وهى التى لا تزال عليها أكثر من ما تبقى من آثار الأمم القديمة ونتيجة لبناء أغلبها من الأحجار الصلبة ، ومحافظة القدماء عليها بالترميم جيلاً بعد جيل ، كما تعتبر الآثار الموجودة من أصدق الدلالات على مدى الإمكانيات الفنية فضلاً على المعتقدات الدينية لهم (٦٦).

الهوامش

١ – خديجة الهيصمي : سياسة اليمن في البحر الأحمر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص ٦ .

٢ – الميل البحرى = ١٨٥٢متراً = ١,٨٥٢ كيلو متراً – الميل البحرى المربع = ٣,٤٣٤ كيلو متر مربع – العقدة البحرية = ١ ميل بحرى – الميل البحرى = ١٦٠٩ متراً = ١,٦٠٩ كليو متراً – الميل البحرى المربع = ٢,٦ كيلو متر .

٣ – نبيل أحمد حلمى : أمن البحر الأحمر والقرن الإفريقي ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٤ أكتوبر ١٩٧٨م ، ص ٨١ .

٤ – عبد الله عبد المحسن سلطان : البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م ص٣ .

٥ – أحمد محمد بن بريك : اليمن والتنافس الدولي في البحر الأحمر ، دار الثقافة العربية ، ط١ ، ٢٠٠١ ، ص ١٣ – ١٤ .

٦ – محمد الشعيبي : اليمن (الظواهر الطبيعية والمعالم الأثرية) ، دراسة تطبيقية ومنهجية ، دار الكتب العامة ، صنعاء ١٩٩٨م ، ص ٥٦ .

٧ – عبد اللطيف بن محمد الحميد : البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني خلال الحرب العالمية الأولى ، ط١ ، الرياض ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ١١ .

٨ – أنور عبد العليم : البحار والمحيطات ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٤م ، ص ٢٥٣ – ٢٦٧ .

9 - Farid Abdel Magid, the Red sea prospect stability , London, 1992 , p. 72 .

10 - R.W. Girdier, the sea. Ageopotyeal Background, New York, Hot Brnes, 1984, p. 48 .

١١ – أمال شاور : الإطار الجغرافي في البحر الأحمر ومجموعاته الجزرية ، جزر البحر الأحمر ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٢٥ .

١٢ – أجيه يونان جرجس : البحر الأحمر ، مضايقه بين الحق العربي والصراع العالمي ، القاهرة ، ١٩٧٧م، ص ١٢ .

١٣ – على حميد شرف : الجزر والفنارات اليمنية في البحر الأحمر (خليج عدن – البحر العربي) ، دار التوجيه المعنوي ، اليمن ، ط٢ ، ٢٠٠٢ ، ص ٣٢ .

١٤ – أحمد شقيله : الاستراتيجيات في البحر الأحمر ، مجلة معين ، صنعاء ، ١٩٩٠م ، ص ١٣ .

١٥ – عبد البارى اللجم : خليج العقبة ومضائق تيران ، الموصل ، ١٩٧٨م ، ص ٥ .

١٦ – محمود توفيق محمود : البحر الأحمر فى الاستراتيجية الدولية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٧ ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ٢٨ .

١٧ – خديجة الهيصمى : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

١٨ – محمود توفيق محمود : المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، دراسة فى الجغرافية السياسية والجيوبولتيكس ، الرياض ، دار المريخ ، ١٩٨٣م ، ص ٢٨ .

١٩ – فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ١٨٣٩م – ١٩١٨م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٢٢ .

٢٠ – السيد عليوة : سياسة اليمن فى البحر الأحمر ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٤ ، أكتوبر ١٩٧٨م ، ص ٩٦ .

٢١ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، جـ٣ ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص ٨ .

٢٢ – عبد الله محمد أحمد : جغرافية اليمن الطبيعية ، المنتدى الجامعى للنشر والتوزيع ، صنعاء ، اليمن ، ط٢ ، ٢٠٠٢ ، ص ٦ .

٢٣ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٢٤ – محمد متولى، محمود أبو العلا : المرجع السابق ، ص ٧ .

٢٥ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، مؤسسة شباب الجمعة ، ط١ ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص ٨٩ .

٢٦ – تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى : بهجت الزمن فى تاريخ اليمن ، محمد أحمد السنباتى، دار الحكمة اليمنية ، صنعاء ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٧ .

٢٧ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

٢٨ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٢٩ – نفس المرجع ، ص ٧ .

30 - Wenner M.W. Modern vemen (1918 - 1966) Beltimore, 1967, p. 72 .

٣١ – عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحى : اليمن (الإنسان والحضارة) منشورات المدينة ، بيروت، ١٩٨٥م ، ص ٣ .

٣٢ – فتحى محمد أبو عيانة : دراسات فى جغرافية شبه جزيرة العرب ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٦م ، ص ١٤٦ .

٣٣ - صالح أحمد العلي ك محاضرات في تاريخ العرب ، ج-١ ، بغداد ، ١٩٥٩م ، ص ١٥ .

٣٤ - عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع : تاريخ اليمن في الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، دار الفكر ، صنعاء ، اليمن ، ط٢ ، ١٩٩٩م ، ص ٤٥ .

٣٥ - تاج الدين عبد الباقي ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

٣٦ - محمد عبد الله بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، مؤسسة الدينية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ١٧٩ .

٣٧ - نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٣٨ - ادجار أوبلانس : اليمن (الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م) ، ترجمة وتعليق عبد الخالق محمد لاشين، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٠ ، ص ٥ .

٣٩ - محمد متولي ، محمود أبو العلا : المرجع السابق ، ص ١٩ .

٤٠ - نفس المرجع .

٤١ - نفس المرجع .

٤٢ - عبد الله حسن الشيبة : دراسات في تاريخ اليمن القديم ، مكتبة الوعي الثوري للطباعة والنشر ، ط١، تعز ١٩٩٩م ، ص ٤٤ .

٤٣ - نفس المرجع ، ص ٤٥ .

٤٤ - نفس المرجع .

٤٥ - يوسف محمد عبد الله : أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، دار الفكر ، سورية ، ط٢ ، ١٩٩٠م ، ص ٢١٢ .

٤٦ - نفس المرجع .

٤٧ - ابن رستة : الأعلاق النفيسة ملندن ، ١٨٩٢م ، ص ١١٣ .

٤٨ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة سبأ ، ص ١٨١ .

٤٩ - نفس المصدر : مجلد ٥ ، مادة مأرب ، ص ٣٤ .

٥٠ - تاج الدين عبد الباقي : نفس المرجع ،

٥١ - عبد الله حسن الشيبة : المرجع السابق ، ص ١٢ .

٥٢ - يوسف محمد عبد الله : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

٥٣ - صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، جـ١ ، بغداد ، ١٩٥٩م ، ص ٢٤ .

٥٤ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة صرواح ، ص ٤٠٢ .

٥٥ – أحمد فخري : اليمن ، بحث في المؤتمر الثالث للآثار العربية المنعقدة في فاس ١٩٥٩م ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢٣٤ .

٥٦ – الهمداني : الإكليل ، جـ٨ ، تحقيق د/ نبيه أمين فارس ، ١٩٤٠م ، ص ١٩ .

٥٧ – فيليب حتي : تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع ، ص ٦٩ – ٧٢ .

٥٨ – السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

٥٩ – سورة الدخان ، الآية ٣٧ .

٦٠ – يوسف محمد عبد الله ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

٦١ – نفس المرجع ، ص ٢٥٠ .

٦٢ – عبد الله الشيبة ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٦٣ – نفس المرجع ، ص ٩١ .

٦٤ – نفس المرجع ، ص ١٠٠ .

٦٥ – نفس المرجع ، ص ٨٢

٦٦ – نفس المرجع ، ص ٨٩ .

أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي (*)

بنو الزيلعي العقيليون (أصحاب اللحيّة) وانتشارهم في تهامة اليمن وجنوب غرب المملكة العربية السعودية

مدينة اللحيَّة - الموقع والتاريخ :

اللحية (تصغير لِحْيَة) مدينة ساحلية تقع إلى الشمال من الحديدة بمسافة ١٢٠كم، وهي من الموانئ المعروفة في أقصى الشمال الغربي للجمهورية اليمنية، وتعد من مغاصات اللؤلؤ الشهيرة في شرقي البحر الأحمر، وإلى الشرق منها سلسلة جبال الملح الممتدة من الصُلَيْف وجبل القُمَّة وغيرها، ومن هذه السلسلة يستخرج معدن الملح الحجري الذي تشتهر به تهامة اليمن(١). وإليها يصب وادي مَوْر المشهور والمعروف باسم : ميزاب تهامة الأعظم(٢)، ولايضاهيه في العظم إلا وادي بَيْش في منطقة جازان بجنوب غرب المملكة العربية السعودية(٣). واللُّحَيَّة مدينة غير مسورة، ولكنها محاطة بآكام مرتفعة عليها اثنتا عشرة قلعة من بناء الأتراك العثمانيين ، بين كل قلعة وأخرى حوالي من ٢٠٠ إلى ٢٥٠م ، ولكل منها باب مرتفع يصعد إليه بسلالم ، بعضها متحرك(٤). وهي في الوقت الحاضر مديرية تتبع لواء الحُدَيْدَة ويتبعها من المراكز الإدارية وادي مَوْر ، والزَّعْلِيَّة، والبعْجِيَّة (٥)، ويربطها بالطريق الرئيسي الواصل بين المملكة العربية السعودية واليمن عبر تهامة- طريق فرعي طوله ستون كيلو مترا يتجه إليها غربًا من مفرق المُعَرَّس الواقع على بعد ٨٦ كم

* قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب- جامعة الملك سعود - الرياض .

شمال شرق مدينة الزَّيْديَّة[٦]. وهذه الأخيرة مدينة تهامية معروفة تقع على وادى سُرْدُد إلى الشمال الشرقى من مدينة الحديدة بمسافة ٦٥كم [٧]. ويجتازها الطريق الواصل إلى الحديدة من منفذ الطُّوال الحدودى بالمملكة العربية السعودية.

كانت اللحية منذ مطلع العصور الحديثة من الموانئ الرئيسية فى شمال اليمن على البحر الأحمر [٨]، وكانت معبراً للقوات العثمانية القادمة إليها من الحجاز [٩]. تلك القوات التى سببت لمدينة اللحية معاناة طويلة لاتقل عن معاناتها من حروب أخرى طويلة سنأتى إلى ذكرها بعد.

وقد زارت اللحية البعثة الملكية الدنماركية فى عام ١٧٦٣م (١١٧٦هـ) فوصلتها فى ٣٠ ديسمبر ١٧٦٢م (١١٧٦هـ)[١٠]، واستقبلت فيها استقبالاً كريماً أثر فى نفس كارستن نيبور العضو الوحيد من أعضائها الذى بقى حيًا، وكتب عنها فيما بعد [١١]. لقد طابت لأعضاء الفريق الإقامة فيها، والتنقل بين أرجائها، والاختلاط بسكانها الذين تقبلوا هؤلاء الوافدين الغرباء، وأكرموهم، وقدموا لهم مختلف التسهيلات [١٢]. وقد وصف نيبور اللحية وصفًا دقيقًا عرض فيه لموقع اللحية، وتحصيناتها الدفاعية، وطبيعة مينائها، وتأثره برياح الشتاء والصيف التى تتحكم بدرجة كبيرة فى عمق غاطسه وضحالته تبعًا لحركتى المد والجزر [١٣]. وعرض نيبور كذلك لوصف بيوت اللحية، ومواد البناء المستخدمة فيها، كما عرض لمواردها المائية المتمثلة فى عدة آبار تقع خارج المدينة، وزود نيبور ما قدمه من وصف لمدينة اللحية بمُصورين نادرين، أحدهما خريطة لمدينة اللحية، والآخر صورة أو رسم لمينائها من جهة البحر[١٤].

ومثل ما عانت اللحية من غزوات العثمانيين على اليمن عانت كذلك من الحروب التى اجتاحت المنطقة فى النصف الأول من القرن الماضى؛ فقد قصفتها مدافع الأسطول الإيطالية من البحر فى سنة ١٩١٢م (١٣٢٩هـ) خلال الحرب الإيطالية التركية[١٥].

وبعد ذلك بحوالى ست سنوات أى فى سنة ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) تعرضت اللحية للضرب من قبل الأسطول البريطانى بوصفها آخر المواقع البحرية اليمنية التى ظلت بأيدى الأتراك العثمانيين فى اليمن خلال الحرب العالمية الأولى [١٦]. وتعرضت فى الوقت نفسه لغزو برى من قبل القوات الإدريسية المتحالفة مع الإنجليز إلى أن أسلمت قيادها للقوات الغازية من البحر، ثم من البر. وقد أثرت هذه الحرب وخصوصاً البحرية منها على الكتلة العمرانية لمدينة اللحية، ولاتزال آثار تلك الحروب على مساكن المدينة ومرافقها العامة بادية حتى اليوم كما سيأتى.

تلت هذه الحروب حروب أخرى اصطلت بها اللحية، ومنها حرب الإمام يحيى مع الأدارسة بين عامى ١٣٤٣-١٣٤٤هـ / ١٩٢٥-١٩٢٦[١٧]، ثم حربه مع الملك عبد العزيز فى عام ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م [١٨]. تلك الحرب التى انتهت بتوقيع معاهدة الطائف بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى حميد الدين فى ٦ صفر عام ١٣٥٣هـ/ ١٩ مايو ١٩٣٤ م. وبموجب تلك المعاهدة انسحبت القوات السعودية من تهامة اليمن بما فيها مدينة اللحية التى انتقلت تبعتها من المملكة العربية السعودية إلى اليمن.

مشيخة اللحية وعمران المدينة :

تجمع المصادر والمراجع المتاحة على أن عمران مدينة اللحية يرجع إلى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى حينما استوطنها الفقيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى الذى شهدت المدينة فى زمانه إقبالاً كبيراً من تلاميذته ومريديه، وأصبحت من أكثر المدن ازدهاراً فى وادى مور، ومن أفضلها اتساعًا حتى وفاته فى عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤ - ١٣٠٥م كما سيأتى، ثم تطور عمران المدينة وازدهارها فى عهود ذريته الذين تقلَّبوا على مشيخة اللحية حتى وقت ليس ببعيد.

على أننا قبل الدخول فى الحديث عن ذرية الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى، وتولى بعضهم مشيخة اللحية، وانتشار آخرين فى أمكنة أخرى بعيدة فى اليمن، والمملكة العربية السعودية، وكذلك الحديث عن الكتلة العمرانية للمدينة بما فى ذلك المسجد الجامع المنسوب إليه- يحسن بنا أن نعرض لترجمة الشيخ الزيلعى، وما كان عليه حاله فى حياته، ثم تراثه بعد مماته.

تلقى الشيخ الزيلعى فى صغره القراءة والفقه على يد الشيخ حسان «صاحب الحَرُوزْ» المعروفة فى بلاد الطَّرَف من أعمال مديرية بُرَع بمحافظة الحديدة ، ثم قرأ كتب الغزالى، وبرع فى علم السلوك «التصوف» [٢٠]. بعد ذلك انتقل إلى اللحية، وبنى بها مصلى لايزال موضعه معروف فى مؤخرة مسجده بالركن الغربى لجامعه الكبير المعروف حاليًا باللحية[٢١] . ثم انتقل بعد ذلك إلى قرية المَحْمُول ، إحدى قرى وادى مور على ساحل المحالب بالقرب من اللحية، وبنى فيها زاوية معروفة حتى وقتنا الحاضر [٢٢]، ثم عاد إلى اللحية، وبنى بها مقدمة مسجده الجامع «وهو بناء عجيب لم ير مثله فى الناحية» على رأى المؤرخ اليمنى ابن الأهدل [٢٣]. ولهذا يعرف الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى فى معظم الكتب التى عرضت لسيرته بصاحب اللحية والمحمول[٢٤] .

ترجم للزيلعي كثيرون من مؤرخي اليمن الذين عرضوا لسيرته، ومنهم الجندى (ت حوالى ٧٣٠هـ / ١٣٢٩-١٣٣٠م) الذى ينعته بالفقيه الصالح، ويصفه بأنه كان «كبير القدر، شهير الذكر، معروفًا بالعلم والعمل ، صاحب كرامات ومكاشفات »[٢٥]. ويمثل هذه النعوت التى يطلقها الجندى على الفقيه الزيلعي تابعه مؤرخ يمنى آخر هو الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م)[٢٦]. والظاهر أنه ينقل عن سابقه بالحرف. أما ابن الأهدل (ت ٨٨٥ / ١٤٨٠م) فيفرد لترجمة الزيلعي حيِّزًا واسعًا في كتابه : علماء اليمن، حينما ينعته بالفقيه الصالح العلامة، وبأنه «كان مشهورًا بالعمل والورع والزهد والعبادة والكرامات »[٢٧]، ثم يتحدث عن بعض كراماته، وعن نفوذه الروحى وعن مسجده فى اللحية، وزاويته بالمحمول ، ويذكر بأنه كان يطعم مائة فقير منهم ستون فى اللحية، وأربعون فى المحمول [٢٨]. وممن ترجم للشيخ الزيلعى من مؤرخى اليمن أبو العباس الشرجي (ت ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م) فى كتابه : طبقات الخواص ، وعنه يقول : «هو أبو العباس أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى الهاشمى من عباد الله الصالحين، ومن أعظمهم مجاهدة وعبادة وزهادة »[٢٩]. ويقول عنه الوشلى فى كتابه: نشر الثناء الحسن: «والذى قرَّره غير واحد من المؤرخين أن الزيلعى عقيلى منسوب إلى عقيل بن أبى طالب، أخى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فهم قرشيون هاشميون أولاد عمنا عقيل بن أبى طالب الذى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم وهل ترك لنا عقيل من دار؟»[٣٠]، ثم يتحدث الوشلى عن علمه وصلاحه وعلو قدره، كما تحدث عنه، وعن نسبه وذريته، وفضلهم فى رسالة أخرى له عنوانها : إرهاف السيف الصقيل فى فضل بنى عقيل[٣١]. أما محمد بن أحمد العقيلى فيتناول سيرة الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى بمثل ما يتناولها سابقوه من الثناء عليه، وعلى عمله، وصلاحه ، وزهده ويقول عنه «إنه من العُبَّاد المتقين الذين تَزَيَّد الكاتبون فى سيرتهم ، وغلوا فى شخصياتهم، والغلو ضلال مبين»[٣٢].

وممن عرض لترجمة الفقيه أحمد بن عمر الزيلعى من الكتاب المُحْدثين أحمد بن على الراجحى العقيلى فى كتابه : العقيليون فى المخلاف السليمانى وتهامة، وهو كتاب جامع لبنى عقيل بمن فيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى وذريته ، وقد فصل فى نسب الشيخ وترجمة حياته، وانتشار ذريته فى اليمن وخارجها ، وكتابه هذا من المراجع الأساسية المهمة لهذا البحث[٣٣]. وممن ترجم للزيلعى من الكتاب المحدثين كذلك، زين رشيد الشافعى حيث عرض لنسب الشيخ، وحياته فى اللحية والمحمول، ولبعض من ذريته، خصوصًا من هم منهم فى جازان ومحافظة القنفذة[٣٤] . أما على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين فقد أورد فى كتابه: الأغصان لشجرات أنساب قحطان وعدنان جداول قيمة لذرية الشيخ أحمد بن عمر

الزيلعي [٣٥]. وآخر من عرض من الكتاب المحدثين لذكر الشيخ الزيلعي، وأورد سلسلة نسبه وترجم لبعض أحفاده - عاتق بن غيث البلادي في كتاب له بعنوان : بين مكة وبرك الغماد- رحلات ومشاهدات[٣٦].

يتضح مما سبق أن الفقيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي كان من عباد الله الصالحين، وأنه كان له مريدون كثيرون في زمانه ، وأن مدينة اللحية شهدت في عصره نمواً وازدهاراً خولها لأن تكون من أكثر المدن ازدهاراً في تلك الناحية. أما عن صلاح الشيخ الزيلعي، وتمرسه في العبادة فخير ما نسجله عنه هنا شهادة مؤرخ كان قريباً جداً من عصره ، هو الجندي المؤرخ اليمني المعروف الذي يذكر أنه قدم عليه في الجَنَد أحد الفقهاء الملازمين للشيخ الزيلعي فسأله عن سيرته في العبادة، فقال عن الشيخ الزيلعي (رحمه الله) : «كان يخرج في الثلث الأخير من الليل إلى المسجد فلا يزال مصلياً تالياً للقرآن حتى الفجر ، فيركع ثم يصلي الفرض، ثم يشتغل بالذكر حتى تطلع الشمس، ثم يركع الضحى ، ثم يقبل على أصحابه فيعظهم، ويتكلم معهم بالحكمة حتى يرتفع النهار، ثم يقوم إلى البيت، فيدعو الناس للغذاء فلا يزالون يتغذون فوجاً فوجاً إلى الزوال، ثم يتوضأ ويخرج إلى المسجد فيصلي التحية حين يدخله ، فإذا ثبت عنده الزوال صلى الظهر بعد الأذان والسنة، ثم يشتغل بالذكر والتلاوة حتى يصلي العصر، ثم يقبل على الناس يعظهم ويرشدهم ساعة، ثم يدخل داره، ويستدعي الناس فيعشيهم إلى الغروب، ثم يدخل المسجد فيصلي المغرب، ثم يمكث حتى يغيب الشفق فيصلي العشاء، ويمكث في المسجد إلى الثلث الأول، ثم يدخل داره، فهذا دأبه مدة حتى توفي»[٣٧]. وقد تواتر ذكر هذه القصة عند كثير من المؤرخين اليمنيين الذين جاءوا بعد الجندي، ونقلوا عنه، كما نقلوا عنه كثيراً من كرامات الشيخ الزيلعي ومكاشفاته[٣٨]. تجدر الملاحظة إلى أن هؤلاء المؤرخين الذين تناولوا سيرته، ونسبوا إليه مثل هذه الكرامات والمكاشفات التي لا تكون لأحد من البشر مهما بلغ من التقوى والصلاح- كانوا ينطلقون من روح عصرهم، وتقاليد زمانهم الذي كانت تسوده بعض الغيبيات التي لم يعد يتقبلها عصرنا هذا. وقد أعرضنا عن ذكرها في هذا البحث لكونها من الشركيات المنافية للعقيدة الخالصة لله وحده . ولانملك إلا أن نسأل الله سبحانه وتعالى السلامة من كل قول أو عمل يؤدي إلى الشرك به جلّت قدرته ووحدانيته. كما نسأله المغفرة والرحمة للشيخ الزيلعي مما قد يكون لحقه من غلو المغالين، وجهل الجاهلين الذين اعتقدوا فيه والعياذ بالله اعتقاداً باطلا، كما اعتقدوا في آخرين غيره من صلحاء اليمن الذين وصلت إلينا أخبارهم، وسير حياتهم (رحمهم الله جميعاً وغفر لهم) .

وقد امتد النفوذ الروحي للشيخ الزيلعي من وادي مور في شمال اليمن إلى وادي خَلَب في جنوب غرب المملكة العربية السعودية حاليًا، وكان له تلامذة ومصاحبون أخيار تعلموا القرآن والفقه على يديه، واستفادوا من حلقاته التي كان يعقدها في مسجده الجامع ومنهم: الفقيه عمر بن السكول العَبْسي، والفقيه سُمَيل النزاري، والفقيه إبراهيم الشامي، والفقيه أحمد الأنبع، والفقيه سالم من أهل السالمية، وأحمد بن يعقوب البحر من بني العجيل بقرية الحادث، والفقيه محمد بن مهنا (والد عبد الله المقدم المعروف) (٣٩). وتأثر به كثيرون من أهل وادي خَلَب خاصة منهم بنو أيوب، وبنو الأعوص، وبنو العجمي، وبنو السيَّقل وغيرهم(٤٠). وللشيخ الزيلعي عدد من المؤلفات أشهرها : ثمرة الحقيقة ومرشد السالك إلى الطريقة ، ونزهة الجليس، وكتاب الوداع (٤١). وله فتاوى على مسائل كان يقول فيها : الجواب عند علماء الشريعة كذا، وعند علماء الظاهر كذا ، وعند الباطن كذا (٤٢).

توفي الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي- كما قدمنا- في عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤-١٣٠٥م عن نيِّف وسبعين سنة، ودفن باللحية بجوار مسجده الجامع من الناحية الشمالية الغربية (٤٣)، وقبره هناك يوصف بالبركة وبكثرة الزوار الذين يأتونه من أماكن بعيدة حاملين معهم أصناف الطعام والسمن والبخور والنقد على حد قول المؤرخين الذين تناولوا سيرته، ومنهم الأهدل الذي يستشهد على قوله بهذه الأبيات (٤٤):

وكم ترى من وافدٍ للزيلعي ... من كلِّ فجٍ ومكانٍ شاسعِ

بالنقدِ والتمرِ والطعامِ ... والسمنِ والبخورِ والأنْعَامِ

إذا دعوا قالوا بحقِّ الزيلعي ... وحلْفهم كذاك لا والزيلعي

وهذا الكلام، إن كان قد وقع من بعض الجهال، فهو شرك عظيم ، إذ لايجوز الحلف إلا بالله سبحانه وتعالى، وكذلك النذور التي أشارت إليها المصادر لا تجوز لغير الله وحده ، وما كان منها لسواه فهي باطلة ، ولعل ما كان يحمل إلى قبر الشيخ الزيلعي، أو إلى زاويته ومسجده الجامع من طعام، ومن نقود وخلاف ذلك إنما يقع في باب الصدقة على الفقراء المقيمين هناك، وكذلك على طلاب العلم، وعلى القائمين بأمور الجامع سواء من أبناء الزيلعي، أو من سواهم من أهل تلك الناحية :

ذرية الشيخ الزيلعي ومن آلت إليه المشيخة منهم :

توفي الشيخ الزيلعي (رحمه الله) عن أربعة عشر ولداً ذكراً كانوا جميعاً- كما تصفهم المصادر- أبناء أخيار أهل علم وتقى وعبادة وزهادة لا يخلو موضعهم من قائد يعرف بالخير، ويشار إليه بالتقى والصلاح مقتفين في ذلك أثر والدهم، ومحافظين على تراثه ، ومن أشهرهم العباس، وبه يكنى والده، ثم إبراهيم ، وأبوبكر ، وعمر، وعلي، وعيسى، ومحمد ، وعثمان، وموسى، وعبد القادر، وعبد الغفار ، وعبد الأول ، وقادري، والمقبول(٤٥) . وللزيلعي أعقاب من تسعة من أبنائه في حدود ما وصل إلينا، وهم : إبراهيم، وأبوبكر وعمر، وعلي، وعيسى، وموسى، وعبد القادر، وعبد الغفار، وعبد الأول (٤٦). وقد تفرقت ذرية هؤلاء على مدى القرون بين اليمن ومنطقة جازان بما في ذلك جزر فرسان، ثم في منطقة عسير ، ومحافظة القنفذة بمنطقة مكة المكرمة ، وبصورة خاصة في أودية حلى ويبّة وقَنُوْنا ، ثم في مكة نفسها، ومحافظة جدة، ومنطقة المدينة المنورة ، واختلف انتساب هؤلاء من مكان إلى آخر ، فمنهم من حافظ على نسبة جدهم الأبعد، وهو عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقال لهم «العقيليون» وهؤلاء يكثرون في منطقة جازان .

ومنهم من حافظ على نسبة الجد الأقرب، وهو أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي، فيقال لهم «بنو الزيلعي»، وآل الزيلعي، وهؤلاء كثر في اليمن، وفي المملكة العربية السعودية ، وبصورة خاصة في منطقة جازان، ومحافظة القنفذة ومنطقة المدينة المنورة، ومنهم من انتسب إلى الفقيه، فيقال لهم «الفقهاء» والواحد منهم «فقيه» ومن أبرزهم فقهاء حَلِيْ ، وفقهاء قَوْز أبي العير بمحافظة القنفذة، وفقهاء مَمَلّح ببلاد بني شهر بمنطقة عسير. ومنهم من انتسب إلى المشيخة فيقال لهم «الشيوخ» والنسبة لواحدهم «الشيخ» ، وهؤلاء يكثرون في اليمن، وفي جدة ومنطقة المدينة المنورة . وهناك فئات أخرى من عقب الشيخ الزيلعي اشتهر كل منها بنسبة خاصة بها، خلاف ما ذكر، ومن هؤلاء آل عثمان، والرواحجة ، والهراملة، والمتاحمة ، وآل السَّيْقَل (٤٧).

أما مشيخة اللحية وتوابعها بعد وفاة الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي فقد آلت إلى ابنه أبي بكر بن أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي، وكان وجيهاً، عظيم القدر، مكرماً عند الناس حتى قيل بأنه استوهب من بعض القبائل نحو أربعة عشر قتيلاً فوهبوها له قبل أن ينزل عن دابته (٤٨). فلما توفي خلفه في المشيخة ابن أخيه محمد بن عيسى بن أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي فظل فيها حتى وفاته في عام ٧٨٨هـ / ١٣٨٤م(٤٩)، فخلفه ابنه أبوبكر بن محمد بن عيسى المعروف

بصاحب الخال حتى وفاته فى عام ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م(٥٠). وهكذا ظل عقب محمد بن عيسى هذا هم المتوارثون لمشيخة اللحية وتوابعها حتى عصر الناس هذا(٥١).

التراث العمرانى لمدينة اللحية:

حينما عزمت على إعداد هذا البحث وضعت فى اعتبارى إفراد جامع الشيخ الزيلعى، وكذلك الكتلة العمرانية القديمة المجاورة له بجزئية خاصة تركز على دراستها دراسة أثرية معمارية ، إلا أن الزميل الدكتور عبد الرحمن حسن الجار الله، عضو هيئة التدريس بقسم الآثار- جامعة صنعاء الذى التقيته فى الندوة العالمية لتاريخ الجزيرة العربية المنعقدة فى جامعة الملك سعود بالرياض فى الفترة من ١٠-١٢ شعبان ١٤٢٤هـ / الموافق ٦-٨ أكتوبر ٢٠٠٣م أخبرنى أنه أجرى مسحًا معماريًا لمدينة اللحية القديمة، وأنه فى سبيله إلى إعداد دراسة مفصلة عن عمران اللحية بما فيها جامع الشيخ الزيلعى، فعدلت عن الفكرة مفسحًا له المجال، ومؤملاً أن تكون دراسته أكثر تخصصاً وشمولية للتاريخ العمراني لمدينة اللحية مما كنت سأفعل فالدكتور جار الله ابن اليمن، وقريب الدار للحية، ، وأعرف بها وبدروبها ، وبثقافة أهلها مني. وسأكتفى هنا فقط بإيراد صورة وصفية ظاهرية عَجْلَى عن التراث العمراني للحية، وبصورة خاصة الحي القديم، وجامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى المتصل به من الجنوب الشرقى.

وقبل الدخول فى هذه الصورة الظاهرية العجلى لعمران اللحية تجدر الاشارة إلى أن المواد الخام المستخدمة فى مساكن اللحية تتوزع بين الحجر الجبلى المقدود من التلال الجبلية القريبة، ومن الطوب الأحمر، وهو قليل جداً مقارنة بذلك الذى يستخدم فى مساكن زبيد وبيت الفقيه على سبيل المثال، والحجر البحرى المقدود من الشعاب المرجانية التى تنمو فى البحر، وهو الأكثر شيوعًا فى مساكن اللحية ، وميزته أنه خفيف الوزن، سهل التشكيل والاستخدام، وبه تبني الأقواس والعقود والثريات والدخلات غير النافذة، ومنه تستخرج النورة بعد حرقه فى محارق خارج البلدة(٥٢). وهى تستخدم مع كسر الأحجار الصغيرة بين المداميك لربط البناء، وكذلك فى اللياسة، وتبييض المنازل بلون البياض الغالب على منازل اللحية ذات البناء التقليدى الموروث. وهناك قسم رابع للمواد المستخدمة فى البناء التقليدى فى اللحية هو القش المستخدم فى بناء العُشاش (مفرد عُشة) ، وهى مساكن شعبية دائرية الشكل أو مربعة تبنى بالأعواد والجريد والأخشاب المتخذة فى الغالب من شجر الأثل، وتكسى من الخارج بطبقة من نبات المرخ، أو الحلفاء، أو القصبى أو الضَّرَم (الثمام) وتكسى من الداخل بطبقة من فضلات البقر المكسوة- بعد جفافها- بطبقة أخرى من الطين الأصفر المجلوب من الأطيان الزراعية المتوافرة

فى بطون الأودية، ثم تُبَيَّض من الداخل بالجص أو النورة، وهذا النوع من المساكن ينتشر فى أطراف مدينة اللحية ، أو فى القرى القريبة منها (٥٣).

ويهمنا من عمران اللحية ذلك الجزء القديم الذى يقع بجوار جامع الشيخ الزيلعى من الغرب والشمال الغربى ، وهذا أشرنا إلى أنه تضرر كثيراً من المدفعية البريطانية التى دكّت المدينة من البحر على التوالى فى سنتى ١٩١٢م (١٣٢٩هـ)، ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) ، ولم يبق منه إلا خرائب بعضها أكوام من الحجارة ، وبعضها جدران متهدمة لاتزال بقاياها شاخصة حتى زيارتى الأخيرة للمدينة فى ٢٣ رجب عام ١٤٢٤هـ / ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣م (٥٤). وتتكون منازل اللحية فى الغالب من دور واحد أو دورين، ويغلب على المنازل ذات الدور الواحد طراز «المُرَبَّعَة» المنتشرة على طول مدن الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى كل من مَيْدى، وجازان، والقنفذة إلى الوجه فى شمال غرب المملكة العربية السعودية.

وتتكون المربعة- كما هو الحال فى مدينة القنفذة التي لا تزال صورة المربعة فيها حاضرة فى ذهنى - من غرفة واحدة كبيرة يتسع صدرها لأربعة أو خمسة أسِرَّة خشبية من النوع السائد فى تهامة ، ولها بابان نافذان على فناء فسيح، وباب ثالث ينفذ على غرفة صغيرة ملحقة بالمربعة تسمى الخزانة، ويلحق بالمربعة ملاحق أخرى أكبرها المجلس الذى لاتقل مساحته على مساحة المربعة فى الغالب ، وتُزَيَّن المربعة من الداخل بمختلف زخارف البناء من عقود وثريات ونحوها (٥٥)، وكذلك أبوابها يُعنى بصناعتها وزخرفتها على نحو يعطيها شخصيتها المستقلة ، وطابعها التهامى المميز، ولا تقتصر العناية بالبناء وبزخرفته على المربعات وملحقاتها ، وإنما بالأبنية ذات الطابقين والثلاثة والتى تبني فى الغالب من الأحجار البحرية المقدودة من الشعاب المرجانية ، أو من الجبال القريبة من اللحية، والتى هى ذات طبيعة مرجانية كذلك (٥٦).

وكما يتضح من الخرائب الباقية فإن أبنية اللحية تُلَيَّسُ من الداخل بالنورة، أو الجص ، ويدخل الجص أحيانًا فى تشكيل عقود الزينة التى تتصدر بعض منازل اللحية الفارهة(٥٧). أما أرضيات المبانى فكانت تبلط بطبقة مرصوفة من الطين ، أو بالأسمنت بعد شيوع استخدامه فى البناء فى فترات لاحقة.

جامع الشيخ الزيلعى:

يقع جامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى على ربوة فى الجنوب الشرقى من المدينة ،

ويطل عليه من الشرق تل جبلي تعلوه إحدى القلاع العثمانية[٥٨]، وهو من الجوامع الكبيرة في المديرية، ويتكون من جزئين أمامي وخلفي، فالجزء الأمامي المجاور للمقبرة من الشرق، يبدو أنه أحدث من الجزء الخلفي المقبّب ، أو أنه هدم وأعيد بناؤه على نحو جعله خاليًا من القباب التي تعلو الجزء المكمل له من الجنوب. أما الجزء الخلفي فيكمل الجزء الأمامي من جنوبيه، ويمتد غربيًا إلى مسافة تقترب من طول المسافة المكملة للجزء الأمامي. ويتكون من رواقين تعلوهما قباب ضحلة تشبه تقريبًا تلك القباب العثمانية التي تعلو جامع الأشراف بمدينة أبي عريش بمنطقة جازان[٥٩]، وجامع النّبس بالأحساء بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية [٦٠]. ويفضي هذا الرواق من الغرب إلى الزاوية التي كان يتهجّد فيها الشيخ الزيلعي ثم إلى بناء رحب تعلوه قبة كبيرة [٦١]، ويبدو أن هذا البناء كان مخصصًا للعلامة أو لمكان الدرس الذي كان الشيخ الزيلعي ومن جاء بعده من أبنائه وحفدته يعقدون فيه حلقات الدروس لطلاب العلم، وقيل بأن حلقات الدروس كانت تعقد في جانب من الرواقين الغربيين المقببين، وأن القبة الكبيرة المذكورة ما هي إلا قبة ضريحية أنشئت لتكون مدفنًا لصاحبها فُعدل عن ذلك بعد بنائها ، أما اليوم فتستخدم مغسلة للموتى، ويتوسط رواق القبلة في تلك الجهة الخارجة عن كتلة الجامع من الغرب، محراب مقوس تقع بخلفه في جدار صغير تعلوه شرفات متقنة الصنع، وإن كانت في الوقت الحاضر قد سقطت إحدى تلك الشرفات والباقيات بحاجة إلى صيانة [٦٢]. ويبدو أن هذا الجدار الصغير أقيم فقط من أجل بناء المحراب في وسطه، لأنه لا يمتد كثيراً إلى شرقي المحراب أو غربيه، وإنما يصل بين قائمتي أحد العقود في بائكة واحدة من بوائك الرواق. أما باقي البوائك فهي مفتوحة تمامًا إلى الناحية الشمالية من تلك الجهة[٦٣]. ولا نعرف على وجه الدقة واليقين وظيفة هذا المحراب، ولعله كان يستخدم مع الرواق الذي يليه، للصلاة في الأيام القائظة طلبًا للهواء البحري الذي يهب من خلال هذا الجزء المفتوح على الرواق، وعلى المصلين فيه .

ويلحق بالجامع منارة (مئذنة) غير عالية نسبيًا تقع في زاويته الشمالية الغربية مما يلي سور المقبرة، وهي طراز محلي فريد يصعب تصنيفه، وإن كنا نميل إلى أنها يمنية الطابع لوجود أشباه كثيرة لها في جوامع اليمن ومساجدها[٦٤]. والجامع بجميع أقسامه بما فيه المئذنة مكسو باللون الأبيض، وتتخلله من الداخل زخارف معمارية، وأشرطة كتابية تتصدر حنايا العقود في كل بائكة من بوائك الرواق المقبب [٦٥]، وهي كثيرة ، وتتضمن بعض الآيات القرآنية والأدعية المختارة بعناية لتناسب المقام[٦٦].

وتقع مقبرة الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي (رحمه الله) في محيط الجامع إلى الشمال الغربي منه، وهي مسورة، وغير كبيرة في مساحتها، وليس بها قباب مشرفة ، وإنما هي عبارة عن جدران غير مرتفعة تشبه الأحواض المستطيلة الشكل ، ويقع قبر الشيخ الزيلعي في وسطها، وليس له ما يميزه عن سائر القبور سوى خشبة مركوزة في وسط القبر(٦٧)، أما باقي القبور المحيطة بقبر الشيخ الزيلعي فهي ليست كثيرة، ويقال إنها لأبيه، وأمه وزوجاته، وأبنائه(٦٨). ويروي أحمد بن علي العقيلي نقلاً عن إمام الجامع، أو القَيِّم الذي يقوم عليه ، أنه سأله عن التبرك بقبر الشيخ والنذر عنده هل لا يزال كما كان سابقًا؟ فأخبره القيم أنه لم يحصل شيء من هذه لا في عهده، ولا عهد والده الذي كان قيِّمًا للجامع قبله (٦٩). ولا شك أن هذا الخبر هو مدعاة للحمد والشكر لله تعالى على بطلان تلك البدع الزائفة.

يتضح مما سبق أن الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي هاشمي النسب طالبي الأصل من ذرية عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه كان من عباد الله الصالحين ، ومن العلماء الذين برزوا في حقل اهتمامه وهو الفقه وعلم التصوف، وأنه كان له تلامذة ومريدون تعلموا على يديه، واقتدوا به في علمه وطريقته في العمل والعبادة. وكان للشيخ الزيلعي وجاهة ونفوذ امتد من وادي مور في جمهورية اليمن إلى وادي حَلْي في المملكة العربية السعودية. كما كان له ذرية أخيار صلحاء ساروا على سنن والدهم، وقاموا بتراثه العلمي والروحي في اللحية والمحمول، وسائر المناطق التي امتد إليها نفوذ والدهم الروحي، وظلت مشيخة اللحية، وقَوَامة جامع الشيخ الزيلعي بها في أيديهم حتى اليوم.

كما يتضح ما طرحه الله سبحانه وتعالى من بركة في ذرية الشيخ الزيلعي (رحمه الله) الذين تكاثرت أعدادهم ، وانتشرت ذرياتهم في رقعة جغرافية شملت أجزاء واسعة من اليمن والمملكة العربية السعودية، وبرز منهم علماء أخيار ، وأولياء صالحون تَرَكَّنوا وتشَيَّدوا أمكنة كثيرة في جزر فرسان وجازان، وجدة، والصالحي، وحلي ، ويَبَّة بمحافظة القنفذة- منطقة مكة المكرمة ، وكذلك بمنطقة عسير، ومنطقة المدينة المنورة.

ويتضح كذلك رجوع عمران اللحية إلى اتخاذها داراً من قبل الشيخ الزيلعي، ثم ذريته من بعده ؛ فعلى أيديهم نمت وازدهرت وتطورت حتى غدت من المدن الساحلية المهمة في تهامة ، وإن كانت الحروب والإهمال قد أثرت في عمارتها التي يعم الخراب والدمار أجزاء واسعة منها في وقتنا الحاضر.



اللوحة رقم (١) مجموعة من العشش المبنية من القش فى إحدى القرى القريبة من اللحية



اللوحة رقم (٢) جامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى تطل عليه إحدى القلاع العثمانية من الشرق ، وحوله مجموعة من البيوت القديمة فى اللحية : قائمة ومهدمة



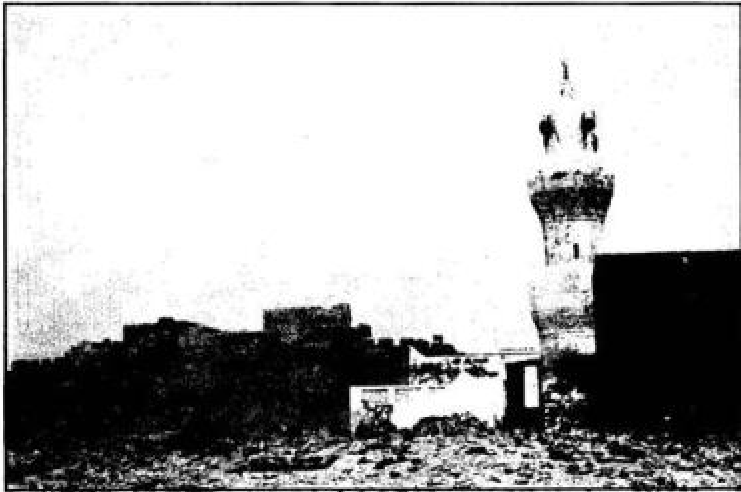
اللوحة رقم (٣) مجموعة من البيوت القديمة المتهدمة فى اللحية يتوسطها
جدار شاخص تظهر فيه أقواس معقودة من الجص



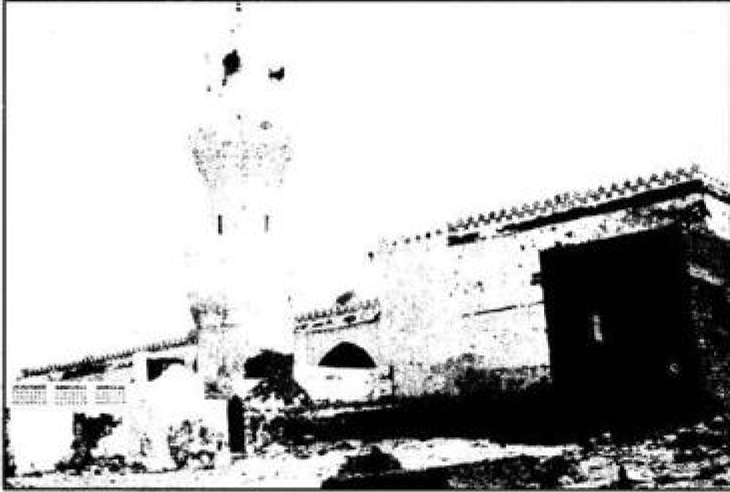
اللوحة رقم (٤) بعض المنازل المتهدمة فى اللحية ، وفيها يظهر أسلوب البناء بالأحجار
المرجانية وأشكال العقود وبقايا لياسة الجدران وتبييضها بالنورة



اللوحة رقم (٥) بقايا قوس مبنى من الأحجار المرجانية فيه أثر النورة ظاهر بين الأحجار



اللوحة رقم (٦) إحدى القلاع العثمانية فوق تل جبلى تطل من الشرق
على جانب من جامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى



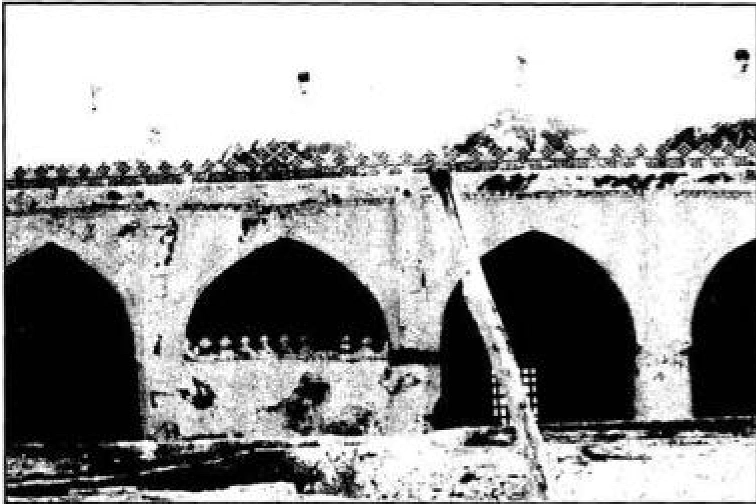
اللوحة رقم (٧) جانب من جامع الشيخ الزيلعى تبدو فيه المئذنة والقبة الكبرى ، وبعض القباب الضحلة التى تظلل رواقية المقببين. وإلى يسار المئذنة جانب من سور المقبرة



اللوحة رقم (٨) أحد رواقى الجامع المقببين من الداخل ، وفى الصورة مؤذن الجامع مع الباحث



اللوحة رقم (٩) المحراب الذى يتصدر الجزء الغربى المقبب من جامع الشيخ الزيلعى ، ويرى فى الصورة سقوط إحدى الشرفات فى الجدار القصير الذى يتصدر المحراب نفسه



اللوحة رقم (١٠) صورة الجدار الذى يتوسطه المحراب من الخلف ويرى فى الصورة أنه ليس جدارا كاملا وانما يصل فقط بين عنودى إحدى البوائك فى الرواق على حين أن باقى البوائك مفتوحة وتطل من الشمال على المقبرة المسورة



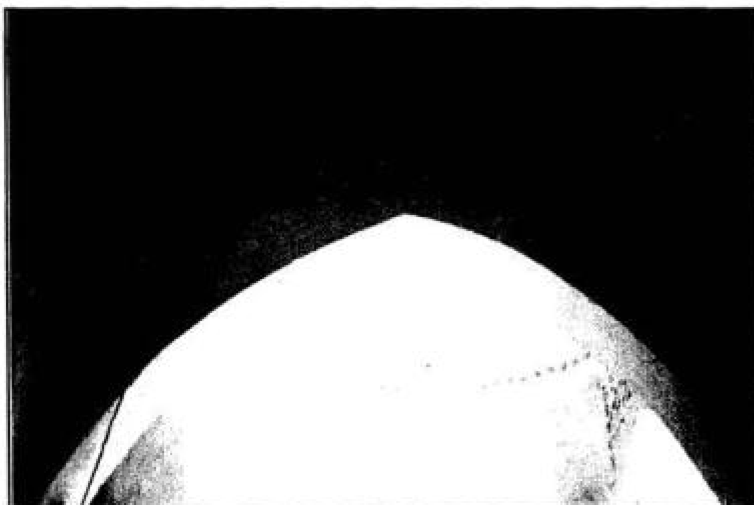
اللوحة رقم (١١) الشاحة التى تحتلها المقبرة المسورة فى الطرف الشمالى الغربى من مساحة المسجد ،وفى وسطها قبر الشيخ الزيلعى معلم بخشبة مركوزة فى وسطه



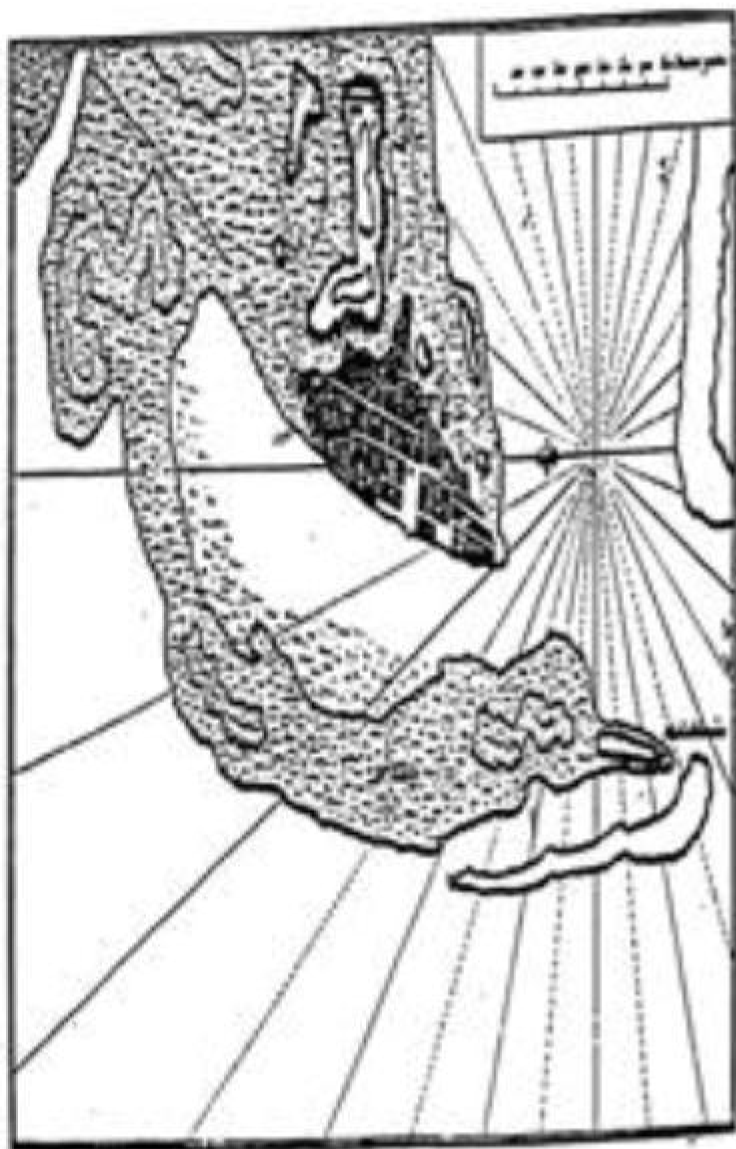
اللوحة رقم (١٢) بعض عقود أروقة المسجد الجامع المقببة تعلوها كتابات قوامها آيات قرآنية وأدعية تناسب المقام.



اللوحة رقم (١٢) كتابة بخط الثلث تعلو أحد الأقواس المقببة ، وقراءتها :
(فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين



اللوحة رقم (١٤) كتابة بخط الثلث تعلو أحد الأقواس المقببة ، وقراءتها :
" يا أمان الخائفين ويارجاء السائلين "



شكل رقم (٢) ميناء اللحية بريشة بورنفايند عن كتاب: من كوبنهاجن إلى صنعاء لتوركيل هانسن

الإحالات والمصادر والمراجع

١- المقحفي، إبراهيم أحمد: معجم البلدان اليمنية، صنعاء ، دار الكلمة للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢ م، ج٢ ، ص ص١٣٧٠-١٣٧١ .

٢- المرجع نفسه، ص ١٣٧١ ؛ الحجري ، مجموع البلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن علي الأكوع، ط (١) ، صنعاء ، وزارة الإعلام والثقافة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج٣ ، ص٦٧٩ .

٣- العقيلي ، محمد بن أحمد ؛ المعجم الجغرافي للبلاد السعودية- مقاطعة جازان، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ج١ ، ص٦١ .

٤- الصايدي ، أحمد قايد ، المادة التاريخية في كتاب نيبور عن اليمن، ط١ ، بيروت، دار الفكر المعاصر ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص٢٢٠ .

٥- المقحفي، معجم البلدان اليمنية، ج٢، ص١٣٧١؛ الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٣ ، ٦٧٩ .

٦- المقحفي ، معجم البلدان اليمنية ، ج١ ، ص٧٥٥ .

٧- انظر العمري، حسين بن عبدالله ؛ مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، ط (١) دمشق، دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م، ص٢٥٨ .

٨- المرجع نفسه، ص٣٣٤ .

٩- هانسن ، توركيل، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة أحمد محمد الرعدي، بيروت، دار العودة، ١٩٨٢م، ص ص٢١١-٢١٨-٢٢٧ .

١٠- الصايدي، المادة التاريخية في كتاب نيبور عن اليمن، ص٥٣ ، وانظر أيضاً في المرجع نفسه ص٩ .

١١- هانسن ، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ص ص٢١٨-٢٢٧ ، الصايدي، المادة التاريخية في كتاب نيبور عن اليمن، ص٥٣ ، ص٥٤ .

١٢- الصايدي، المرجع نفسه، ص٢٢٠ .

١٣- المرجع نفسه والصفحة نفسها، وانظر شكل رقم (١)، وشكل رقم (٢) .

١٤- الريحاني، أمين، ملوك العرب، ط (١) ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المجلد الأول، ص٣٧٦ .

١٥- العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ط٢ ، دار المنار، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٠٥ .

١٦- الريحاني، ملوك العرب، المجلد الأول، ص٣٧٢ .

١٧- سالم، السيد مصطفى ، تكوين الحديث، ط (٢) ، الإسكندرية ، مكتبة سعيد رأفت / ١٩٧٠م، ص ص٢٧٨-٢٨٢؛ الواسعي ، عبد الواسع بن يحيي، تاريخ اليمن، ط٣ ، صنعاء الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص٣٢٨ .

١٨- سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ص٣٩٥-٤٠١؛ السيد ، عصام ضياء الدين؛ عسير في العلاقات السياسية السعودية اليمنية، ط١(١) ، القاهرة ، دار الزهراء، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ص ص٢٧٩-٢٨٩ .

١٩- السيد، تكوين اليمن الحديث، ص٤٢٣، وانظر نص المعاهدة في المرجع نفسه، ص ص٥٤٤-٥٥٨ ؛ الواسعي، تاريخ اليمن، ص ص٣٩١-٤٠٣ .

٢٠- العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ص١٠١ .

٢١- المرجع نفسه والصفحة نفسها .

٢٢- الشرجي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد اللطيف ، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ط (١) ، صنعاء الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ص ص٧٤-٧٥ ؛ العقيلي، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني تهامة، ص١٠١ .

٢٣- الأهدل، الحسين بن عبد الرحمن بن محمد، علماء اليمن، مخطوط المكتبة البريطانية، رقم Or. 1345 ورقة ١١٦أ.

٢٤- المصدر نفسه، ورقة ١١٥ب.

٢٥- الجندي، أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب السكسكي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط (١) صنعاء ، وزارة الإعلام والثقافة ، ج٢، ص٢١٧ .

٢٦- الخزرجي ، علي بن حسين الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيوني عسل، القاهرة، مطبعة الهلال ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، ج١، ص٣٦٥ .

٢٧- الأهدل ، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ١١٥ب .

٢٨- المصدر نفسه، ورقة ١١٦ب.

٢٩- الشرجي. طبقات الخواص ، ص٧٤ .

٣٠- الوشلي، إسماعيل بن محمد ، نشر الثناء الحسن على بعض أرباب الفضل والكمال من أهل اليمن وذكر الحوادث الواقعة في هذا الزمن، تحقيق الحسين إبراهيم المقحفي، ط (١)، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

٣١- الوشلي، السيد إسماعيل بن محمد، إرهاف السيف الصقيل للرد على من أنكر فضل آل عقيل، مخطوط، ص ص٣-٦ .

٣٢- التصوف في تهامة ، ط (٢) جدة، دار البلاد، ص١٥٧ .

٣٣- انظر: ص١٠١ والصفحات التي بعدها .

٣٤- الروض الزاهر في سيرة التاريخ والنسب الظاهر للأسر القرشية العدنانية بمنطقة جازان، ط١ الرياض. ١٤٢٠هـ / ١٩٩٥م ص ص٣٥٢-٣٥٧ .

٣٥- ط (٢) ، الرياض ، مكتبة العزيزية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ص ص٣٦٧-٣٨٢ .

٣٦- ط (١) مكة المكرمة ، دار مكة للنشر والتوزيع ، ص ص٥٤-٦٠ .

٣٧- الجندي، السلوك ج٢ ، ص٣١٨ .

٣٨- انظر على سبيل المثال: الأهدل، علماء اليمن، مخطوط ورقة ١١٧أ؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية ، ج(١) ص٣٦٥ ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ص٧٥-٧٦ ؛ الوشلي، نشر الثناء الحسن، ج٣ ص ص٥٦-٦٠ ، وانظر هذه القصة كذلك في العقيلي، محمد بن أحمد ، التصوف في تهامة، ص١٥٧ .

٣٩- الأهدل ، علماء اليمن، مخطوط ، ورقة ٤٩ب ، العقيلي، محمد بن أحمد، التصوف في تهامة، ص١٥٨ ؛ العقيلي، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ص ص١٠٢-١٠٣ .

٤٠- العقيلي ، محمد بن أحمد ، التصوف في تهامة، ص ص١٥٨-١٥٩ .

٤١- العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة ، ص١٠٢ .

٤٢- الأهدل، علماء اليمن، مخطوط ، وقة ٤٦ أ.

٤٣- المصدر نفسه والورقة نفسها.

٤٤- انظر العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ص١٠٣ ، نقلاً عن الأهدل في كتابه ، بهجة القلوب، ص١٩ .

٤٥- الأهدل ، علماء اليمن، مخطوط ، ورقة ١٤٧أ العقيلي، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ص ص١٠٣-١٠٤ .

٤٦- العقيلي، المرجع نفسه، ص١٠٤ .

٤٧- عن انتشار ذرية الزيلعي وأماكن سكانهم ، انظر : العقيلي، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ص١٠٩ ، والصفحات التي بعدها في أمكنة متعددة، ولمزيد من المعلومات انظر ، الوشلي ، نشر الثناء الحسن، ج٣ ، ص ص٦٠-٦٧ .

٤٨- الأهدل ، علماء اليمن ، مخطوط ، ورقة ١٤٧أ ؛ الوشلي، نشر الثناء الحسن ، ج٣ ، ص٦٠ .

٤٩- الأهدل ، علماء اليمن، ورقة ١٤٨أ، ١٤٨ب .

٥٠- العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة ، ص١٨٥ .

٥١- المرجع نفسه والصفحة نفسها، شيخ اللحية من أحفاد الفقيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي (رحمه الله) في وقتنا الحاضر هو السيد محمد بن عيسى بن إبراهيم بن مقبول العقيلي الزيلعي .

٥٢- الصايدي ، المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن، ص٢٢٠ .

٥٣- المرجع نفسه والصفحة نفسها؛ وانظر اللوحة رقم (١) رافقني في هذه الرحلة الأخ العزيز الأستاذ بروجي بن أحمد المتحمي المعلم بمدرسة عبد الملك بن مروان بالحبيل (حي قنبور) ، وتحمل كثيراً من المشاق ، ودلني بمعرفته على كثير من المواقع في اليمن، فله الشكر والعرفان.

٥٤- انظر اللوحات ذوات الأرقام ٢، ٣، ٤، ٥ .

٥٥- انظر اللوحة رقم (٣) .

٥٦- انظر اللوحة رقم (٥) .

٥٧- انظر اللوحة رقم (٣) .

٥٨- انظر اللوحات ذوات الأرقام ٢، ٦، ٧ .

٥٩- Philby , H.St.J.B., Arabian Highlands, " New York Corenell University Press, 1976 , p. 577 , Figure 55 .

٦٠- عن مشاهدة شخصية ، وهو من المساجد التاريخية المهمة بالأحساء، ولم يأخذ حقه من الدراسة حتى الآن .

٦١- انظر العقيلي، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، وانظر كذلك اللوحة رقم (٧) .

٦٢- انظر اللوحة رقم (٩) .

٦٣- انظر اللوحة رقم (١٠) .

٦٤- انظر اللوحة رقم (٧) .

٦٥- انظر اللوحة رقم (١٢) .

٦٦- انظر اللوحة رقم (١٣) واللوحة رقم (١٤) .

٦٧- انظر اللوحة رقم (١١) .

٦٨- العقيلي، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة .

٦٩- المرجع نفسه، والصفحة نفسها .

د. أحمد محمد إسماعيل الجمال (*)

طرق التجارة الخارجية للمغرب والأندلس

خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى
(عصر الموحدين)

أولاً : الحياة الاقتصادية فى عهد الموحدين:

أسس الموحدون دولتهم على أسس مركزية قوية، وانعكست تلك الصورة على الوضع الاقتصادى الذى تميز بالتطور الذى شمل جميع القطاعات الاقتصادية نتيجة للظروف الطبيعية الملائمة ، وسيادة الأمن والاستقرار ، باستثناء فترات قصيرة نتجت عن بعض الفتن والثورات .

وقد تعددت مصادر الثروة الاقتصادية فى المغرب والأندلس. ففى المجال الزراعى: شهد العصر الموحدى جهوداً كبيرة لتوفير المياه للزراعة وذلك بتنظيم وسائل الرى والصرف ، بإنشاء الجسور والقناطر والسدود وحفر الترع والقنوات التى لاحصر لها فى مختلف الأنحاء[1] ، فى مراكش وسلا والرباط[2] ، وفاس وسبته [3]، بالمغرب ، وفى أشبيلية[4] بالأندلس. وترتب على مشاريع الرى استصلاح واستغلال أراضى كثيرة فى الفترة الموحدية (القرن السادس الهجرى) . وأغلب الظن أن هذا الجهد الموحدى شجع الناس على الزراعة، فلخذوا يستثمرون أراضى لم تكن زراعية من قبل ففى أشبيلية شملت الزراعة

* مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ، فرع دمنهور .

حتى مناطق الحلفا[٥]، وفي سهول فاس انتشرت الزراعة حتى في الأماكن المالحة بعد إصلاحها [٦]، وعمت الزراعة سهول البلاد الغربية كلها بعد أن كانت مقفرة[٧].

من هنا نجد أن الدولة الموحدية أولت الزراعة عناية خاصة، فأمر عبد المؤمن أهل البلاد الغربية بالعودة إلى أوطانهم وفلاحتها [٨]، وتذكر المصادر أن الزراعة قد اتسعت في المغرب كله ، وعمّ الرخاء والهناء أهله، خاصة في خلافتي يوسف والمنصور[٩]. وتوصف الزراعة في المغرب الأقصى خلال القرن السادس الهجري بالنمو والازدهار ، وبكونها تجاوزت مستوى الاكتفاء الذاتي وانتقلت إلي مرحلة تصدير العديد من المنتجات الزراعية نحو الأندلس وأفريقية، نتيجة وجود فائض في الإنتاج خصوصاً الحبوب والسكر، وبعض الفواكه المجففة والقطن والكتان والنيلج وغيرها [١٠].

كان القمح من أهم المنتجات الزراعية بالمغرب وأهم مناطق إنتاجه منطقة السوس[١١] وتامسنا [١٢]، وتادلا [١٣]، والسايس [١٤]، ومنطقة الهبط [١٥]، وسجلماسة[١٦]. وتحتل منطقة تامسنا المرتبة الأولى في إنتاجه يدل على ذلك أثمانه الرخيصة جداً في المنطقة، وتصديره إلى الخارج عبر موانئ كثيرة مثل أسفي ومازغان وفضالة ، وانفا [١٧].

أما قصب السكر فتنتشر زراعته بالمغرب في وادي السوس، وتارودانت[١٨]، وعلى طول وادي نفيس [١٩]، وبضواحي قرية بليونش [٢٠]، ويذكر الإدريسي أن قصب السكر في السوس يعتبر أكثر الأنواع حلاوة وكثرة ماء ، وانتشاره في المنطقة يمتد على مساحة واسعة طولاً وعرضًا بشكل لايوجد مثله في غيره من الأماكن، ويحول محليًا إلى سكر، وشهرة سكر السوس تعم بتصديرهعدة مناطق خارج المغرب خاصة وأنه أحسن الأنواع في الطيب والصفاء[٢١].

أما بالنسبة للقطن تعتبر أشبيلية أهم منطقة لزراعته بالأندلس ، حيث يذكر الحميرى أن القطن يجود بأرضها فيعم بلاد الأندلس[٢٢]، ويؤكد ذلك ياقوت : «ومما فاقت (إشبيلية) به غيرها من نواحي الأندلس زراعة القطن، فإنه يحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب»[٢٣].

كما اشتهرت الأندلس بزراعة الزعفران Azafran وأهم مناطق زراعته في بياسة [٢٤]، وبسطة [٢٥]، وباغة [٢٦]، (من أعمال غرناطة) وبلنسية [٢٧]، وإفراغة [٢٨]، وطليطلة [٢٩]، والمعروف أن الأندلس كانت من أبرز مناطق إنتاج الزعفران في العصور الوسطى، وكانت له

أهمية كبيرة فى التجارة العالمية نظراً لاستخداماته العديدة فى الصباغة والطيب والطعام والعقاقير الطبية(٣٠).

ومن ناحية الثروة الغابية: اشتهرت المغرب والأندلس بغاباتهما الكثيفة وأخشابهما الجيدة التى تغطى مساحات كبيرة من المناطق الجبلية، ولكن غابات الأندلس تميزت بأخشابها المتنوعة الجيدة التى تعددت مجالات استخدامها، ومن أهمها أشجار الصنوبر(٣١) الذى استخدم لجودته فى بناء السفن وصواريها وصناعة الأثاث. كما اشتهرت قرطاجنة فى شرق الأندلس بنبات الحلفاء الذى استخدم فى صناعة الحصر والقفاف والسلال، وكان يصدر عن طريق ميناء لقنت Alicante إلى جميع بلدان حوض البحر المتوسط(٣٣).

أما من ناحية الثروة الحيوانية فنظراً لاختلاف البيئة الجغرافية بالمغرب فقد ظهر اختلاف فى توزيع ثرواته الحيوانية فى بيئاته المختلفة ، لقد كانت منطقة الأغنام والأبقار فى البلاد الشرقية هى جبل زغوان وبونة وشرشال والجزائر وجيجل وقسنطينة، وفى البلاد الغربية هى تلمسان وجبال غمارة وسهولها الغربية ومنطقة فاس تادلا والسهول الساحلية الغربية والسوس وسجلماسة ودرعة (٣٤). وتجدر الإشارة إلى أن الأبقار والأغنام كثرت فى البلاد الغربية، وكثيرا ما كانت تصدر إلى سواحل الأندلس الشرقية من تلمسان ، وإلى السواحل الغربية الأندلسية من سهول البلاد الغربية الساحلية عبر مرسى فضالة(٣٥).

كم اشتهرت المغرب والأندلس بوفرة ثرواتها المعدنية التى تكثر فى جبالهما وسهولهما، وإلى البكرى والإدريسى يرجع الفضل الأعظم فى إلقاء الضوء على الأماكن التى توجد بها الثروات المنجمية ونظام استغلال المناجم فى القرن الخامس والسادس .

ومن أهم المعادن فى المغرب والأندلس: الذهب حيث ذكر الجغرافيون أن الذهب يوجد فى بلاد السودان بكثرة (٣٦)، وكانت ترد منه إلى المغرب كميات كثيرة، وقد أولى الموحدون منذ قيام ثورتهم اهتماماً خاصاً لضمان تأمين تدفق ذهب السودان عندما سارعوا بالاستيلاء على مدينة سجلماسة (٣٧)- المركز الرئيسى لتجارة الذهب ومرور قوافله(٣٨) - سنة ٥٣٥هـ ١١٤٠م أى قبل الاستيلاء على العاصمة ماركش فضمنوا بذلك تحكمهم فى ذهب السودان كما تعددت مناطق إنتاج الفضة فى المغرب(٣٩)، والأندلس (٤٠). وكذلك مناجم الحديد(٤١) والنحاس (٤٢). ومن أجود أنواع النحاس ذلك الذى يستخرج من منجم داى بسهل تادلا ، فهو «نحاس خالص لايعدله غيره من الناحس بمشارق الأرض ومغاربها لقى رواجا كبيرا لأن لونه يميل إلى البياض، ويدخل فى لحام الفضة ولايتشرح إذا طرق (٤٤).

أما الملح فكان يستخرج من أماكن عديدة بالمغرب والأندلس سواء من البر أو البحر. والنوع الأول هو الملح الصخرى كان أهم منطقة يستخرج منها فى المغرب السوس [٤٥]، وقد أشار إليه البكرى باعتباره أهم سلعة يصدرها إلى بلاد السودان ويستبدل به الذهب [٤٦]، كما كان يستخرج أيضا من ملاحة قرب فاس طولها ثمانية عشر ميلا[٤٧]، وتم اكتشاف مناطق أخرى منتجة للملح فى العصر الموحدى، الأولى فى بلاد حاحة Hea والأخرى فى بلاد تاجموت قرب مراكش[٤٨].

وفى الأندلس اشتهرت سرقسطة بالملح الصخرى حيث كان يوجد بها الملح الذرمانى (الذرانى) الأبيض الأملس ، وهو ملح معدني متبلور ، ولايوجد بموضع آخر فى الأندلس مثل هذا النوع من الملح [٤٩]، كذلك كان الملح يستخرج من منجم فى لوشة Loja من أعمال غرناطة[٥٠]. أما الملح البحرى- كان يستخرج من ساحل المرية[٥١]. ومن قصر أبى دانس[٥٢].

بالإضافة إلى ذلك كان يستخرج من البحار والأنهار بعض المواد النفيسة مثل المرجان والعنبر والصدف سواء فى المغرب والأندلس[٥٣] وكان العنبر يستخدم فى صناعة العطور والطيب [٥٤].

كذلك استخرج الشب Jebe فى العصر الموحدى من السوس بالمغرب[٥٥] ومن لبلة فى الأندلس ، والزاج Aceche- حامض كبريتى - من لبلة[٥٦] وأشبيلية[٥٧]، وقد استخدم المسلمون الشب والزاج فى الطب والصباغة وتثبيت الألوان[٥٨].

بالإضافة إلى كل هذه الثروات اشتهرت الأندلس بوجود معادن أخرى مهمة كالرصاص[٥٩] الذى يستخدم فى عمل أنابيب لتوصيل المياه إلى قصور الخلفاء والأمراء والخاصة [٦٠]. كذلك كان يصنع منه صنوج الموازين، وكان يصب أحيانا فى أقراص الأعمدة الضخمة لتتماسك فيما بينها [٦١].

كما اشتهرت المغرب والأندلس بمناجم الزئبق الذى كان يطلب فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى والمسيحى [٦٢]. وتتوفر بالأندلس الكحل وهو من المعادن الهامة التى تدخل فى صناعة العقاقير الطبية[٦٣].

واشتهرت الأندلس كذلك بكثرة مقاطع الرخام والأحجار اللازمة لأغراض البناء والتشييد[٦٤].

مما تقدم يتضح أن أراضى الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس كانت غنية بالثروات الزراعية والمعدنية وغيرها. وقد أدى ذلك إلى ازدهار الصناعات بكافة أنواعها. وبالتالى نشطت حركة التجارة الداخلية بالمغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجرى. وقد بدأ هذا الازدهار منذ قيام الدولة المرابطية إلا أنه بلغ أوجه فى عهد قوة الدولة الموحدية نتيجة وجود عدة عوامل شجعت على التجارة الداخلية من أهمها :

١- حالة الاستقرار والأمن التى نجح الموحدون فى إرسائها فى كافة أرجاء دولتهم . كما أن اتساع رقعة الدولة الموحدية أفسح المجال للحركة التجارية بين مدن المغرب والأندلس وشجع التجار الذين كانوا يخضعون فى هذه المناطق لحكومة واحدة على التنقل بحرية تامة مما ساعد على تنشيط حركة التجارة من بيع وشراء وتبادل منتجات (٦٥).

٢- إلغاء عبد المؤمن بن على للمغارم والقبالات والمكوس التى فرضها المرابطون فى أواخر عصرهم(٦٦) . كما حرص الموحدون على تسبيل الجسور دون قبالة ولا إجازة عمالة(٦٧). ولتنشيط الحركة التجارية قام الخلفاء فى بعض الأحيان بإسقاط الضرائب السابقة مما كان له أثره فى تنشيط حركة البيع والشراء(٦٨).

٣- تشجيع الموحدين لحرفة التجارة حيث تقوم الدولة بإقراض طلبة الحضر أموالاً يتاجرون فيها ثم يردون السلف(٦٩).

٤- اهتمام الموحدين ببناء الفنادق فى مدن مغربية وأندلسية كثيرة ، حيث يشغل الفندق مكانة هامة فى العمران الاقتصادى(٧٠).

٥- عمل الموحدون على تمهيد الطرق فى جميع أنحاء دولتهم ببناء الجسور وتشييد المنازل لنزول التجار وتجهيز الصهاريج توفيراً للماء(٧١).

وهكذا أدى اتساع الدولة الموحدية إلى تعدد وتنوع المنتجات الزراعية والمعدنية والصناعية مما ساهم بشكل واضح فى رواج حركة التجارة بين مختلف المدن.

ثانيا : التجارة الخارجية خلال القرن السادس الهجرى :

كان للانتعاش الذى أصابته التجارة الداخلية فى المغرب والأندلس فى أغلب فترات عصر الموحدين أثر بعيد فى تنشيط حركة التجارة الخارجية ، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت على نشاط التجارة الخارجية منها اتساع رقعة الدولة الموحدية، وإقرار الأمن والنظام وحماية طرق القوافل من اللصوص والعابثين بالأمن (٧٢).

كما إن استيلاء الموحدين على الأندلس أدى إلى فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان، مما كان يعني تمهيد الطريق إلى أسواق أوروبا عن طريق موانئ شرق الأندلس[٧٣]. وقد لعب الأسطول الموحدى دوراً هاماً فى تأمين تجارة المغرب الصادرة إلى الأندلس أو إلى الأسواق العالمية الأخرى سواء فى غرب أوروبا أو فى منطقة البحر المتوسط أو المشرق الإسلامى ، ذلك أن البحرية القوية تستطيع حماية السفن التجارية من خطر القراصنة وتأمين الطرق البحرية والسهر على حمايتها [٧٤].

العلاقات التجارية للمغرب مع السودان الغربى :

كان اكتشاف الذهب فى أفريقيا السوداء الغربية حدثاً له أهمية كبرى فى الحضارة الإسلامية والمنجزات التى تعتز بها . لهذا ترجع العلاقات التجارية للمغرب مع بلاد السودان إلى قرون عدة قبل العصر الموحدى.

ويشكل الذهب البضاعة الرئيسية المربحة التى يستوردها تجار القوافل المغاربية من بلاد السودان الغربى [٧٥]، حيث يستخرج من منطقة الغابات الاستوائية الموالية للصحراء من الناحية الجنوبية ، وهى المنطقة التى تحكمها الممالك الزنجية خصوصاً مملكة غانة [٧٦]. ويؤكد الإدريسى أن مدينة غانة أكبر مدينة فى السودان وأكثرها سكاناً وأوسعها تجارة حيث كانوا يستخرجون الذهب ويستبدلونه بالملح [٧٧]. ويذكر صاحب الاستبصار أنها مقصد «المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى»[٧٨].

ولهذا كانت البيوت التجارية المغربية فى محطات القوافل فى الجنوب تحتفظ بشبكة من المراسلين والوسطاء الذين يعملون لشراء الذهب لحسابها بالمقايضة الصامتة، مع قبائل السود التى تشتغل فى التقاط الذهب[٧٩]. وهذه التجارة هائلة الحجم والنطاق. فابن حوقل (القرن العاشر الميلادى) يذكر أنه شاهد بنفسه وثيقة تجارية تبلغ قيمتها اثنين وأربعين ألف دينار[٨٠]. وهذا المصدر تؤيده مصادر أخرى وتنوه بالثراء الفاحش الذى كان من حظ التجار الذين يعملون فى التبادل مع السودان[٨١].

بالإضافة إلى الذهب كان المغرب يجلب أيضاً بضائع نفيسة من السودان مثل العنبر من مدينة أوليل[٨٢] وأودغشت [٨٣]، وبعض أنواع الجلود من المناطق الصحراوية ، مثل جلود الماعز من منطقة غدامس [٨٤]، وجلود اللمط التى تجلب من غرب الصحراء من نول لمطة أودغشت – وتعتبر من أكثر أنواع الجلود متانة ، حيث تصنع منها الدرق اللمطية المفضلة لدى

الجيوش الموحدية (٨٥). كما كان يجلب أيضًا جلود الفنك، والصمغ من أودغشت، والرقيق السوداني (٨٦). بالإضافة إلى العاج الذى كان يجد رواجًا خاصا فى أسواق المدن المغربية، ويعتبر العاج من المواد التي يصدرها التجار المغاربة إلى المدن الأوروبية (٨٧). كما يستورد الشب من سجلماسة (٨٨)، يتم استعماله كمادة قابضة وفي صناعة المنسوجات ، وتصدر هذه المادة أيضا إلى المدن والبلاد الأوروبية(٨٩).

كان معدن الملح خلال العصر الوسيط أهم بضاعة يحملها التجار المغاربة إلى بلاد السودان ، فقد كان له مكانة في المبادلات التجارية وهو ما يتضح من رواية البكرى إذ يقول: «ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يومًا تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن تنتال ... ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سلجماسة ، وغانة وسائر بلاد السودان . والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة»(٩٠).

ويشير ابن حوقل إلى الثمن الذى كان يباع به الملح في السودان ، حيث يذكر أن حمل الملح، أى ما يحمله الجمل الواحد كان ثمنه في غانة ما بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ دينار (٩١). وحمل الجمل، حسب بعض الباحثين المعاصرين يتراوح بين ١٢٥ ، ١٥٠ كيلو جرام ، الشئ الذى يثير تعليق «ديفيس» بقوله : «إننا إذن أمنام ملح يساوى ثمنًا غاليًا جداً ، فإذا قدرنا أن الدينار يزن في قيمته المتوسطة ٣,٨٠ جرام، يكون حمل الجمل يساوى في حده الأدنى ٧٦٠ جرامًا من الذهب، وفي حده الأعلى ١١٤٠ جرامًا » (٩٢). ولكن نظرًا لانعدم الملح في بلاد السودان، كان لابد من جلبه من الشمال ومن ثم نشأ التبادل بين الملح والذهب، وصعد ثمن الأول إلى تلك الأسعار الخيالية(٩٣).

وتشير المصادر الجغرافية إلى أن التجار المغاربة كانوا يقومون بتصدير الحنطة والفواكه والزبيب وأدوات النحاس والحديد، والعطور والسلاح وأدوات الترف، والأنسجة النفيسة والزرابي والودع والثياب الفاخرة في اتجاه أفريقيا الغربية(٩٤).

وهذه السلع كلها، ليست ذات قيمة في حد ذاتها ولكن قيمتها تزداد بسبب المسافات الطويلة والسفر المضنى الذى يتطلبه نقلها إلى البلدان التى تحتاج إليها ولاتملكها . وهكذا كانت الواجهة الجنوبية الغربية حيوية للاقتصاد النقدى فى العالم الإسلامى(٩٥).

العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس ومدن أوروبا الجنوبية:

العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس :

لم تكن العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس وليدة القرن السادس الهجرى، بل كانت قائمة قبل ذلك، إلا أنها شهدت تطوراً كبيراً منذ التدخل المرابطي في الأندلس. ولما قامت الدولة الموحدية تطورت المبادلات التجارية تطوراً أكبر نظراً لاهتمامهم بتشجيع النشاط الاقتصادى. هذا بالإضافة إلى عامل القرب بين سواحل المغرب الأقصى والسواحل الجنوبية للأندلس.

كانت الأندلس فى عهد الموحدين أكبر مستفيد من ذهب السودان بعد المغرب الأقصى نظراً للعدد الكبير من دور السكة التى استمرت فى نشاطها نتيجة لاستمرار تدفق ذهب السودان إلى الأندلس، واشتهرت العملة الموحدية المعروفة باسم «الدويلة» ووصلت إلى معظم بلدان وإمارات أوروبا الغربية[٩٦].

كما كانت المغرب تصدر إلى الأندلس الجلود اللمطية [٩٧]، والجلود الغدماسية والسكر السوسى [٩٨]، والتمر[٩٩]، والنيلة، والشب ، والنحاس [١٠٠]، وأدوات سروج الخيل، والخيول[١٠١]، والأغنام[١٠٢]، والصمغ [١٠٣]، والصوف [١٠٤].

وعلى الرغم من أن المغرب قد شهدت عملية تصنيع كبيرة فى العصر الموحدى، فقد كانت تستورد من البلاد الأندلسية مصنوعات كثيرة نتيجة الزيادة المستمرة فى عدد السكان، حيث كان يجلب من الأندلس المصنوعات الجلدية والفخارية والزجاجية [١٠٥]، وأدوات الموسيقى[١٠٦]، والمصنوعات المعدنية خاصة المذهبة منها [١٠٧]، والوشى المذهب، والبسط [١٠٨]، والورق الشاطبى [١٠٩]، والزيت[١١٠]، والقرمز والزعفران[١١١] والتين المجفف ، واللوز والزبيب [١١١٢]. ومن المواد الخام الأولية التى كانت تصدرها الأندلس القطن الإشبيلى [١١٣]وحرير غرناطة[١١٤]، ونبات الحلفاء الذى اشتهرت به لقنت وقرطاجنة [١١٥]، وأخشاب طرطوشة[١١٦] ويابسة[١١٧].

ومن المعادن الزئبق ، والزنجفر [١١٨]، والكحل [١١٩]، والكبريت الأحمر الذى كان يصل إلى بلاد الهند[١٢٠].

وكانت للمنسوجات الأندلسية شهرة كبيرة فى جميع أنحاء العالم فى العصور الوسطى[١٢١].

العلاقات التجارية مع مدن أوروبا الجنوبية :

بدأ التعامل بين المغرب والمدن الإيطالية منذ القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، ولكن يبدو أن ذلك التعامل كان بطريقة غير مباشرة، وبدون اتفاقات رسمية، لهذا تأخر التعامل التجارى الرسمى بين المغرب والإمارات الإيطالية إلى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، إذ تم توقيع أول معاهدة تجارية مع المرابطين سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م(١٢٢). وبعد قيام الدولة الموحدية بدأت عملية تنسيق أسس التعامل التجارى بين المغرب وإمارتى جنوة وبيزة بتوقيع مجموعة من المعاهدات خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى(١٢٣).

كانت إمارة جنوة من أكثر الإمارات الإيطالية تعاملا مع المغرب، وأول معاهدة تم توقيعها تعود إلى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٣م(١٢٤). وفى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م تم توقيع معاهدة أخرى نصت على توسيع إطار التعامل التجارى بين الطرفين، حصل بموجبها تجار جنوة على امتيازات تجارية مهمة فى مقدمتها السماح لهم بالتعامل مع كل الموانئ التجارية التباعة للموحدين(١٢٥). كما نصت المعاهدة على المقادير الجمركية التى سيؤديها تجار جنوة على معاملاتهم حيث حددت فى ١٠ ٪ من قيمة المعاملات (١٢٦). وفى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٨م تم تجديد هذه الاتفاقية ، وأطلق عليها اتفاقية سلام، حيثنصت على إعطاء كل الضمانات من طرف الموحدين فى البحر وفى الموانئ التابعة للموحدين ، لتجار جنوة، قصر ممارسة أعمالهم التجرية، وأعطى الموحدون لهم حق إقامة فنادق، فى كل من سبتة والعرائش (١٢٧).

مما تقدم يتضح أن المعاملات التجارية كانت نشيطة بين الموحدين وجمهوريات المدن الإيطالية خلال القرن السادس الهجرى، وكان لجنوة وبيزا مركز الصدارة بين المدن الأخرى فى التعامل مع المغرب (١٢٩).

صادرات المغرب والأندلس إلى المدن الأوربية والبلدان الأخرى :

نظراً لتوافر الإنتاج الزراعى والصناعى والمعدنى للمغرب فى العصر الوسيط، كانت تقوم بتصدير العديد من ذلك الإنتاج. ولعل الجلود كانت أكثر السلع تصديراً إلى جنوة وبيزا ولمباردى وفرنسا (١٣٠)، وكذلك الأصواف إلى جنوة وبيزا أيضاً (١٣١). ويصدر الشب السوسى والنيلة والدرعية والسكر السوسى إلى أوروبا (١٣٢). والزيت الصفاقسى إلى بلاد الروم وصقلية وإيطاليا (وسواحل أوروبا) ومصر (١٣٣)، وكان التمر السوسى يصل إلى أوروبا (١٣٤)، والنحاس إلى أوروبا والسودان(١٣٥).

كانت الأندلس تصدر العديد من منتجاتها ومن أهمها الزعفران[١٣٦]، والتين [١٣٧]، والسكر[١٣٨]. الزيت[١٣٩].

ومن المعادن التي تصدرها الأندلس الكحل[١٤٠] والكبريت الأحمر الذى كان يصل الهند والشام والعراق وأقطار أخرى[١٤١].

وكانت للمنسوجات الأندلسية شهرة كبيرة في جميع أنحاء العالم فى العصور الوسطى، حيث كانت تصدر الديباج والأقمشة الكتانية[١٤٢] والحلل الموشية [١٤٣]، والبسط التنتلية [١٤٤]، واشتهرت مالقة بصناعة الفخار المذهب العجيب الذي كان يجلب منها إلى أقاصى البلاد فى أوروبا وإنجلترا [١٤٥]، والكاغد من شاطبة[١٤٦].

كانت الأقمشة خاصة المذهبة والمنقوشة ترد إلى المغرب من مصر[١٤٧] والعراق[١٤٨] وخراسان[١٤٩] واليمن والشام [١٥٠]، ويستورد الفستق والجوز والبندق من صقلية [١٥١]، والسيوف من بيزة [١٥٢]، والنحاس من بيزا وجنوة أيضا [١٥٣]. كما كان القطن والكتان والحرير تستورد من جنوة وبيزا أو عن طريقهما من المشرق [١٥٤]، ومواد الصباغة من إسبانيا أو أوروبا أو الهند [١٥٥]، والجواهر والياقوت من الهند والخليج الفارسي[١٥٦]، والرقيق من السودان[١٥٧].

كانت الأندلس تستورد نوعا من الحديد من إسبانيا المسيحية، يعرف بالشلق ، كان يجلب للأندلس من مملكة قشتالة ، وهو حديد أسود تصنه منه الآلات الحربية[١٥٨].

وكانت الاسكندرية باب المغرب والأندلس إلى الشرق، وعن طريقها كانت تجلب إلى الأندلس منتجات الهند والسند والعراق خاصة من الطيب والتوابل والجواهر [١٥٩]. ومن النوبة والحبشة والسودان كانت الأندلس تستورد الذهب وأنياب الفيلة [١٦٠]، وعن طريق الأندلس كان ذهب السودان يصل إلى إسبانيا المسيحية والمدن الإيطالية [١٦١]، وكان يجلب من مكة إلى الغرب الإسلامي كل ما يخرج من بلاد الهند خاصة العود والمسك[١٦٢]، ولم تقتصر علاقات الأندلس التجارية على بلاد المشرق، بل امتدت حتى شرق أوروبا، فكان يجلب من فنلندا ثياب الملف[١٦٣].

والحقيقة أن حركة التجارة الخارجية سواء كانت تتعلق بالتصدير أو الاستيراد قد ساعدت إلى حد كبير على ازدهار الاقتصاد فى عصر الموحدين.

ثالثًا : الطرق التجارية عبر بلاد المغرب:

كان المغرب الأقصى بحكم موقعة الجغرافي فى أقصى غرب البحر المتوسط ، يعتبر من أهم المحاور الأساسية لمرور القوافل التجارية الرابطة بين الأندلس ومدن أوروبا الجنوبية من جهة والصحراء ، وبلاد السودان من جهة ثانية.

المسالك البرية :

كانت مراكش خلال العصر الموحدى، المدينة الرئيسية التى تربط الاتصال بالتجارة الصحراوية (١٦٤)، عبر مجموعة من المدن الجنوبية التى تشكل بوابة الصحراء، فمن هذه المدينة ينطلق محوران رئيسان من المسالك التجارية . محور مراكش سجلماسة ، ومحور مراكش تامدولت عبر تارودانت (١٦٥)، وكلاهما طريقان جبليان يمران بمجموعة من المنازل كمحطات ثانوية(١٦٦).

المحور الأول: كانت سجلماسة أولا وقبل كل شئ مدينة تجارية ، ويعود الفضل فى ازدهارها وتقدمها وتوافد التجار عليها من كافة الأنحاء إلى نشاطها التجارى، ومركزها الحساس فى مفترق مسالك تجارية شهيرة فى تاريخ التجارة المغربية فى العصر الوسيط. ولعلنا لانبالغ إذا قلنا أن سجلماسة كانت مركزا تجاريا عالميا فى ذلك العصر.

وكان محور التجارة الرئيسى ينطلق من مراكش عبر تادلا ثم سجلماسة حيث يلتقى بطريقين آخرين أحدهما قادم من فاس عبر قلعة مهدى والمزى ثم تساغموت ثم إلى أمغاك على نحو ستين ميلا ومنها تدخل إلى سجلماسة (١٦٧). والثانى من وجدة إلى سجلماسة عبر أجرسيف (١٦٨). ومن سجلماسة تبدأ طرق التجارة فى اتجاهين ، اتجاه غربى نحو تامدولت ومنها إلى أودغشت (١٦٩)، واتجاه غربي جنوب يمر عبر قرى درعة نحو غانة وولاته (١٧٠). هذا بالإضافة إلي طريق من تلمسان فى اتجاه الجنوب الغربى نحو سجلماسة ، تمر القوافل بقلعة ابن جاهل، وهى قلعة منيعة كثيرة الثمار والأنهر، ويتصل بها جبل تارنى، وهو وما يليه جبال معمورة إلى مدينة تيزيل، وهى أول الصحراء، ومنها يسافر إلى مدينة سجلماسة وإلى وارجلان (١٧١). ويعتبر هذا المحور أكثر المسالك التجارية حركة خلال العصر الوسيط.

المحور الثانى : ينطلق من مراكش نحو تامدولت مارا بتارودانت، وإيجلى(١٧٢). وفى تامدولت يتفرع طريقان صحراويان الأول نحو نول لمطة، ومنها يسير بمحاذاة الساحل الأطلسى فى اتجاه الجنوب حيث ينتهى عند مدينة أوليل(١٧٣) الساحلية الواقعة شمال نهر

السنغال، بينما يسير الطريق الثاني من تامدولت مخترقًا وسط غرب الصحراء نحو أودغشت[١٧٤].

أما مسالك المنطقة الوسطى الشمالية فكانت تربط بين الجهات الوسطى الداخلية والعالم الخارجي المحيط بالمغرب الأقصى من الناحيتين الشمالية والشرقية إما برًا أو بحرًا فضلا عن اتصالها بمسالك الواجهة الجنوبية السابقة. الذكر وتتمحور هذه المسالك حول المدن المغربية الكبرى مثل مراكش وسلا وفاس.

فمن مدينة مراكش ينطلق طريقان رئيسان في اتجاه الشمال. **الأول** : طريق كان يربط بين أغمات وفاس عبر تادلا [١٧٥]. وكان أهم ممر يربط شمال المغرب الأقصى بجنوبه الغربي، إلا أن بناء مدينة مراكش أدى إلى إحداث طريق ثان يربط مدينة مراكش بمدينة سلا [١٧٦]، ومن ثم أصبح الطريق الرئيسي الذي يربط مراكش بمنطقة الغرب في اتجاه الأندلس من جهة وفاس والمغرب الأوسط من جهة ثانية.

وهكذا ، أصبحت مدينة سلا خلال القرن السادس الهجري أهم ميناء تجاري[١٧٧] للمغرب على المحيط الأطلسي ، فمن مدينة سلا تنطلق أربع طرق : الأول: نحو مراكش عبر منطقةتامسنا [١٧٨]، والثاني: نحو تادلا[١٧٩] وهو طريق قديم، والثالث : يربط سلا بمدينة فاس عبر مكناسة [١٨٠]، والرابع : يربط سلا بمدينة سبتة[١٨١] عبر مجموعة من المدن والمراكز الحضرية كقصر عبد الكريم والبصرة ، ويغلب عليها الطابع العسكري دون التقليل من أهميته التجارية.

أما فاس فقد ظلت طوال العصر الوسيط أهم مدينة مغربية تتمحور حولها مجموعة من المسالك التجارية متعددة الاتجاهات نحو سجلماسة ثم مراكش عبر تادلا ، وسلا عبر مكناسة. أما المسالك الأخرى المنطلقة من فاس فتتخذ ثلاثة اتجاهات من فاس إلى وجدة وتلمسان[١٨٢] عبر مجموعة المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق [١٨٣]، وفي اتجاه سبتة ينطلق طريق أساسي يربط فاس بمدن الشمال الغربي، وكان يخترق جبال غمارة من وسطها قبل قيام دولة المرابطين [١٨٤]. إلا أنه نتيجة لتوتر العلاقات بين قبائل غمارة والمرابطين ثم الموحدين، أدى إلى تغيير الطريق وأصبح يمر نحو الغرب عبر البصرة وقصر عبد الكريم ثم نحو الشمال في اتجاه سبتة وطنجة[١٨٥].

وآخر الطريق الرئيسة المنطلقة من فاس ، تتجه نحو الشمال إلى موانئ البحر المتوسط[١٨٦] شرق منطقة غمارة، وعلى مصب نهر ملوية، مثل مرسى تابحريت[١٨٧]، ونكور ،

ويادس وغيرها من المراسى التى لها اتصال بالعالم الخارجى كالأندلس، ومدن أوروبا الجنوبية ومراسى المغرب الأوسط وأفريقية.

المسالك البحرية بالمغرب :

قبل القرن السادس الهجرى كانت التجارة البحرية للمغرب الأقصى تتم انطلاقا من موانئ البحر المتوسط [١٨٨]، نظرا لسهولة عملية توقف السفن بسبب ضعف حركة الأمواج والتيارات البحرية، ونظرا لسهولة عبور البحر المتوسط والقرب النسبى للموانئ والمدن الأوربية ، ومن أهم هذه الموانئ سبتة، وطنجة وتابحريت، وغساسة وغيرها من موانئ شرق جبال غمارة. ويبدو أن المعاملات التجارية لهذه الموانئ كانت تتم بالأساس مع موانئ الأندلس [١٨٩].

وفى عهد الموحدين حدث تغيير للطرق البحرية فى المغرب الأقصى، إذ أصبحت موانئ الساحل الغربى الأطلسى تستحوذ على قسط مهم من المبادلات التجارية [١٩٠]، ولكن دون التقليل من أهمية الموانئ الشمالية وقد حافظت سبتة على المركز الأول فى مجال المعاملات نظرا لقربها النسبى من الأندلس [١٩١]. بينما فى الواجهة الغربية ظهرت سلا كأهم ميناء للمغرب على المحيط الأطلسى[١٩٢] استقطب اهتمام التجار الأندلسيين[١٩٣] والجنويين على وجه الخصوص ، وإلى جانبها ظهرت أهمية موانئ أنفا وآسفى [١٩٤]، ومازيغان[١٩٥].

إن الاهتمام بالمواصلات البحرية يعكس اهتمام الدولة الموحدية كقوة بحرية، بدأت تفرض سيطرتها على شواطئ بلادها الواسعة والمياه المجاورة لها .

ويظهر اهتمام الموحدين بالبحر والتجارة البحرية من خلال فرض الأمن على السواحل[١٩٦]، وإلغاء الحواجز التى تعرقل العمليات التجارية [١٩٧]، وتشجيع دور صناعة السفن التجارية [١٩٨]، مما أدى إلى توسيع مجال المعاملات التجارية مع دول عالم البحر المتوسط.

وبالنسبة للطرق البحرية الرابطة بين الموانئ المغربية وأوربا والأندلس [١٩٩]، يلاحظ أن موانئ الشمال المتوسيطة ترتبط بصفة عامة بشرق الأندلس ، ومدن إيطاليا وجنوب فرنسا[٢٠٠]، عبر ميناء سبتة باعتبارها أهم ميناء تجارى فى شمال المغرب إبان العصر الموحدى، تنطلق منه السفن التجارية نحو موانئ مالقة والمرية، ثم جزر البليار ودانية وبرشلونة ليصل إلى الموانئ الفرنسية مثل مونبلييه وماريليا [٢٠١]، وبموازاة هذا الطريق يسير طريق آخر من سبتة إلى المدن الإيطالية ، خاصة بيزا وجنوة[٢٠٢].

وفي الواجهة الغربية ، تنطلق مسالك أخرى من موانئ سلا وانفا وفضالة وأسفى، إما فى اتجاه سبتة ثم موانئ شرق الأندلس وجنوب أوروبا[٢٠٣] وإما نحو جنوب وغرب الأندلس كإشبيلية ولشبونة[٢٠٤].

الطرق التجارية عبر بلاد الأندلس :

أشارت الكتب الجغرافية إلى الطريق البرى الذى كان يربط الغرب الإسلامى ببلاد المشرق، فيذكر الإدريسى أن الأندلسيين فى رحلاتهم البرية للمشرق كانوا يعبرون المضيق أولاً إلى قصر مصمودة بالمغرب الأقصى على ساحل البحر[٢٠٥] ومنه يتجهون إلى سبتة أو فاس ثم إلى تاهرت ثم القيروان ثم إلي مصر [٢٠٦]، ومنها كان المرء يتجه إلى الشام والعراق والأراضى المقدسة بالحجاز.

وكانت الرحلات البحرية فى العصور الوسطى شاقة وخطيرة للغاية حتى بالنسبة للطرق البحرية المألوفة في حوض البحر المتوسط. وتوضح رحلة ابن جبير في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م الطريق البحرى الذى يربط الأدلس بالمشرق، فقد عبر المضيق من ثغر طريف إلى قصر مصمودة ، ومنه إلى سبتة ، حيث أقلع من هناك في مركب رومى (من جنوة) متجهًا إلى الإسكندرية، فسار بمحاذاة الساحل الشرقى للأندلس فى دانية، ثم اتجه ناحية جزيرة يابسة ، وبعد ذلك ميورقة ثم منورق فسردانية ثم صقلية فإقريطش (كريت) ومنها إلى الإسكندرية، ثم زار الأراضى المقدسة وذلك بعد أن استقل مركبًا من ميناء عيذاب على البحر الأحمر إلى جدة[٢٠٧].

وكان الأندلسيون بعد وصولهم إلى إقريطش يتجهون فى بعض الأحيان إلى قبرص ثم عكا، ومنها يأخذون الطريق البرى إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام[٢٠٨]. إلا زن هذا الطريق البحرى كان محفوفًا بالمخاطر ، فكثيراً ما كانت السفن تتعرض للعواصف العاتية التى تنتهى بتحطيمها ويهلك ركابها غرقًا ، ولهذا كان الرحالة البحريون يلتمسون طريقًا طويلاً ولكنه أكثر أمانًا ، فكانت سفنهم تخرج من موانئ الأندلس إلى ساحل المغرب الأوسط أو ساحل العدوة (المغرب الأقصى)، ومن هناك تسير بحذاء الساحل الأفريقى وترسو عند ثغوره المطلة على بحر المغرب حتى تصل إلى خليج سرت، ومن هناك تتابع الساحل الليبى وبرقة حتى تصل إلى الاسكندرية[٢٠٩]. وكان طريق الرحلة هذا يستخدم لنقل الركاب للحج والتجارة أيضًا وكان ميناء الإسكندرية هو المرسى الطبيعى الكبير لنزول التجار والمسافرين من أهل الأندلس والمغرب خاصة وأنه كان يوجد خط ملاحى منتظم يصل بين المرية والإسكندرية [٢١٠].

أما فى حالة رغبة هؤلاء التجار السفر نحو المحيط الهندى فإنه يتعين عليهم فى هذه الحالة السير بحرًا حتى ميناء الفرما ومنه يعبرون الصحراء إلى القلزم ثم يبحرون من جديد نحو مسقط فى عمان حيث يمكن مواصلة السفر على ظهر أى مركب إلى بلاد الهند والصين[٢١١].

والمعرف أن المدن الإيطالية مثل جنوة وبيزا والبندقية احتكرت النقل البحرى فى غرب البحر المتوسط فى عصر دولتى المرابطين والموحدين، وكان لتلك المدن التجارية الأثر الكبير على سير التجارة الأوروبية عامة، وكان تجار هه المدن يتولون نقل بضائع الشرق الخاصة التوابل والمنسوجات إلى الغرب مما ساعد على انتعاش الحياة الاقتصادية فى غرب البحر المتوسط[٢١٢].

ومن أهم المراكز والموانئ التجارية بالأندلس:

(أ) **المرية** : كانت المرية من أهم المراكز التجارية البحرية فى الأندلس منذ عصر الخلافة الأموية، وبلغت أوج ازدهارها فى عصر المرابطين وكانت- كما يذكر الرازى- باب الشرق ومفتاح الرزق [٢١٣]، ويضيف الإدريسى أنه : «كانت تقصدها مراكب البحر من الإسكندرية والشام وأنه لم يكن بالأندلس أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخاراً[٢١٤].

وقد استمر النشاط التجارى فى عصر الموحدين، فيذكر الشقندى أنها كانت حط مراكب النصارى ومجتمع ديونهم ومنها كانت تتوزع بضائعهم على سائر الأنحاء، وفيها كانت تشحن البضائع التى تصلح لهم. وقد عادت تلك الامتيازات الممنوحة للنصارى بالنفع على الدولة، إذ كانت تفرض على هؤلاء التجار ضريبة العشور[٢١٥].

وكانت لمدينة المرية علاقات تجارية مزدهرة بمختلف مناطق العالم خاصة الإسكندرية وبلاد المشرق وإيطاليا وفرنسا وقلطونية ، إذ كانت تصدر المنسوجات الحريرية وزيت الزيتون والأوانى الخزفية [٢١٦]، بينما كان يجلب إليها الحنطة من المغرب[٢١٧].

(ب) **مالقة**: كانت مالقة من الثغور الأندلسية الهامة المطلة على البحر المتوسط وذلك لموقعها الجغرافى الممتاز على طرق المواصلات البحرية ولكونها من القواعد التجارية الرئيسة، وأهم المحطات البحرية سواء لشحن السفن أو تفريغها أو لإصلاح ما تتعرض له من أعطاب، وكذلك لوفرة إنتاجها الزراعى ونشاطها التجارى والصناعى[٢١٨].

(ج) إشبيلية : بلغت إشبيلية أوج تطورها وازدهارها فى عصر الموحدين حيث اتخذوها حاضرة لهم فى الأندلس وذلك منذ تبعية الأندلس لدولتهم ، وكان يوسف بن عبد المؤمن قد اهتم بتجميلها وتعميرها وتحصينها وأولاها عنايته .

وكان مرسى إشبيلية ينخر بحركة تجارية دائبة، حيث إن موقعها الجغرافى على الوادى الكبير ساعد على دخول السفن التجارية القادمة من بلاد الفرنج ورسوها بإشبيلية[٢١٩] ، ثم تعود تلك السفن محملة بمنتجات إشبيلية خاصة الزيوت التى كانت تصدر إلى كل البلدان المسيحية والإسلامية[٢٢٠]. ولهذا كانت إشبيلية سوقًا تجارية هامة فى هذا العصر[٢٢١].

(د) مرسية: كانت مرسية فى عصر الموحدين- كما ذكر الشقندى- حاضرة شرق الأندلس، واشتهرت بوفرة منتجاتها الزراعية . ولقيت بضاعتها رواجًا كبيرًا فى مختلف الأنحاء خاصة الحلل الموشية والبسط والحصر التى تغلف بها الحيطان[٢٢٢]. وكان لمرسيه مرسيان تعتمد عليهما فى حركة الصادر والوارد، أحدهما قرطاجنة الحلفاء وكان مرسى ترسو به السفن الكبيرة والصغيرة، والآخر مرسى لقنت الذى يجوز منه التجار إلى أفريقية، كما كان يتجهز منه بالحلفاء إلى مختلف البلدان على سواحل البحر المتوسط[٢٢٣].

من خلال هذا العرض يتضح لنا أن سياسة الدولة الموحدية الداخلية والخارجية شجعت على ازدهار حركة التجارة بصفة عامة والتجارة الخارجية بصفة خاصة وذلك نتيجة اتساع أرجاء الدولة وتوافر أغلب المواد الخام الزراعية والمعدنية وازدهار الصناعة مما أتاح السبيل لازدهار حركة التبادل التجارى مع العالم الخارجى ولاسيما عبر البحر المتوسط.

الهوامش

١- انظر : ابن غالب الأندلسي (أبو عبدالله محمد بن غالب البلنسي) ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية ، المجلد الأول، الجزء الثاني، نوفمبر ١٩٥٥م، ص٢٨٨؛ الإدريسي (الشريف أبو عبدالله محمد ابن محمد بن عبدالله إدريس الحموي) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، المجلد الثاني ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، د.ت ، ص٥٤٦، ٥٥١، ٥٧٩؛ ابن صاحب الصلاة (عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي) ، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٧م، ص١٦٦-١٦٧ ، ٤١٥؛ كذلك راجع : السيد عبد العزيز سالم، العمارة المدنية بالأندلس، دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ١٩٥٩م ، ص١٤٨-١٥٠ .

٢- البيذق (أبوبكر علي الصنهاجي) ، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، بولس كنز الكتبي، باريس ١٩٢٨م، ص١١٣ ؛ ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص٣٥٨-٣٥٩؛ الزهري (أبو عبدالله محمد بن أبي بكر) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، د.ت ، ص١١٥-١١٦؛ ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي)، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر كارل يوحن تورنبرج ، طبع في مدينة أوبسالة بدار الطباعة المدرسية ، ١٨٤٣م، ص١٢٥، ١٧٦؛ ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الرابع طبع بالتصوير عن مخطوطة رقم ٢٧٩٧ / ٢: أحمد الثالث، طوبقا بوسراي، استانبول ، أصدره فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت ، ألمانيا الاتحادية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص٨٨ .

٣- مؤلف مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٨٠؛ ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص٤٠، ٤٦ .

٤- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٧٧ ، ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين ، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت ، ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، ١٩٨٥م، ص١٦٥؛ سالم ، العمارة المدنية بالأندلس ، ص١٤٨ .

٥- انظر : ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي) ، رسالة في القضاء والحسبة نشرها الأستاذ ليفي بروفنسال ضمن كتاب بعنوان «ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب» ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م، ص٣٥-٣٦ .

٦- ابن أبي زرع ، روض القرطاس، ص١٧ .

٧- راجع : عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٨٤ .

٨- ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد بن عبدالملك) جزء من كتاب «نظم الجمان في أخبار الزمان» تحقيق الدكتور محمد على مكي بمساهمة من المركز الجامعي للبحث العلمي، إشراف مولاى الحسن للبحوث، جامعة محمد الخامس، الرباط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، د.ت ، ص١٧٥ .

٩- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢١٠؛ ابن عذاري، البيان ، قسم الموحدين ، ص٩٩؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٤٢ .

١٠- أحمد محمد إسماعيل الجمال، دولة الموحدين في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م) ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص٣١٠ .

١١- الإدريسي : نزهة المشتاق، ص٢٢٨؛ الحميري (أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م، ص٣٣٦ .

١٢- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١؛ ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، الطبعة الأولى ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٣٧ .

١٣- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤٢ .

١٤- الإدريسي، نفسه، ص٢٤٣ ، وما بعدها ؛ مجهول الاستبصار، ص١٨٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤٣٤ .

١٥- الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٣٦ ؛ مجهول، الاستبصار، ص١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

١٦- الإدريسي: المصدر السابق، ص٢٢٦؛ مجهول، الاستبصار ، ص٢٠١؛ الحميري، الروض المعطار ، ص٣٠٥ .

١٧- الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٣٩ ، ٢٤٠، ٢٤١؛ ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا، ص٢٣٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٧ .

١٨- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٨؛ مجهول ، الاستبصار ، ص٢١٢ ؛ ابن القطان ، نظم الجمان، ص٢١٢؛ ابن سعيد كتاب الجغرافيا، ص١٢٣ الحميرى ، الروض المعطار، ص٣٢٩ .

١٩- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٩؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٢٧ .

٢٠- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٢٨ .

٢١- الإدريسي: نفسه، ص٢٢٧، ٢٣٠ ؛ مجهول ، الاستبصار ، ص٢١٢؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٢٣٠ .

Abdel- Hamid (Saad Zaghloul), Abou Yosuf Yaqub Almansur l'Almohade (1184-1199), These Doctorat , Faculté des lettres , Université Paris , 1951 , p. 165 .

٢٢- الحميرى ، المصدر السابق ، ص٥٩ .

٢٣- انظر : ياقوت (شهاب الدين أبوعبدالله الحموى) ، معجم البلدان، المجلد الأول ، طبعة بيروت، ١٩٥٥م، ص١٩٥؛ العذرى (أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس المعروف بأبى الدلائى) ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى، مدريد ١٩٥٠م، ص٩٦؛ ابن غالب ، فرحة الأنفس، ص٢٩٣؛ مؤلف مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، نشر وتحقيق لويس مولينا ، مدريد، ١٩٨٣م، ص٦٢ .

٢٤- الإدريسي ، نزهة المشتاق ص٥٦٩ ؛ ابن غالب، ص٢٨٤ ؛ ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) : المغرب فى حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٧١؛ أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر)، تقويم البلدان، تحقيق دى سلان ، باريس ١٨٤٠م، ص١٧٧؛ الحميرى، الروض المعطار، ص١٢٦؛ المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى)، نفطح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الجزء الرابع، ص٢٠٤ .

٢٥- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، مجموعة رسائل، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص٨٦ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٦؛ القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص٢٢٦ .

٢٦- ابن غالب ، فرحة الأنفس، ص٢٨٣ ؛ المقرى ، نفح الطيب، ج١، ص١٤٢ .

٢٧- العذرى ، ص١٧؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان، مجلد١ ، ص٤٩٠؛ القزوينى (زكريا بن محمد بن

محمد) ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩، ص١٥٢؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٣؛ المقرى، نفح الطيب ، ج١، ص١٦٨ .

٢٨- مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٢ .

٢٩- مجهول ، نفسه، ص٤٧ .

٣٠- انظر : ابن فضل الله العمرى، مسالك الأمصار، السفر الرابع، ص١١٠؛

Heyd, Histoire du Commerce de Levante au Moyen Age, T. II, Amestesdam, 1967 , pp. 668-669;

كمال السيد محمد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادى فى عصر دولتي المرابطين والموحدين ، مركز الإسكندرية للكتاب، د.ت، ص١٢٧-١٢٨ .

٣١- انظر: الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٥٤٣، ٥٥٥ ؛ ابن غالب، ص٢٨٦ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٤ ؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٢٤٤،٢٤٧، ٢٤٨ ، ٤٧٧ .

٣٢- انظر : ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٥ ، ص٤٢٤؛ الحميرى، المصدر السابق، ص٦١٦؛ الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٥-١٣٥٨هـ، الجزء الثالث، ص١٨ ؛

Imamuddin (S.M) The Economic History of Spain Under the Umayyads. Dacca, 1963, p. 128 .

٣٣- انظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٥٨؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٥١١ .

٣٤- البكرى (أبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز) ، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، من كتاب «المسالك والممالك» نشر دى سلان De Slane بعنوان : Description de L'Afrique Septentrion-al، الجزائر ١٩١١م، ص١٠٧، ١٠٩، ١٤٧؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٢٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ؛ مجهول، الاستبصار، ص١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ، ص١٢٥؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٤٣٤ ، ٥٤٤ .

٣٥- الإدريسى : نزهة المشتاق، ص٢٣٩ ، ٢٤٠، عز الدين موسى، النشاط الاقتصادى، ١٩٨-١٩٩ .

٣٦- البكرى، المغرب ، ص١٥٩ ؛ العمرى، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص٩٤ .

٣٧- عن سجلماسة يقول العمرى نقلاً عن ابن سعيد: «وأهلها مياسير ولهم متاجر إلى بلاد السودان، قال ولقد رأيت صكًا فيه حق على رجل من سجلماسة لآخر من أهلها باثنين وأربعين ألف دينار، ومدينة

سجلماسة آخر العمران ليس قبليها عمران بل منها يدخل التجار إلى بلاد السودان بالملح والنحاس والودع ويعودون بالذهب». (العمري، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص٩٤) .

٣٨- العمري ، نفسه ، ص٩٣؛ وانظر : المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غويه، مكتبة المثنى ببغداد، ليدن، ١٩٠٦م ص٢٣١ .

٣٩- المراكشي: المعجب ، ص٣٦١-٣٦٢؛ الاستبصار ، ص١٨٥؛ ابن الأبار (أبو عبدالله محمد القضاعي البلنسي)، كتاب التكملة لكتاب الصلة ، طبعة عزت العطار الحسيني، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٥٦٠؛ ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص١٤٧؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٣٩ .

٤٠- الاصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي) ، كتاب المسالك والممالك ، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٧م، ص٣٦؛ العذري ، نصوص من ترصيع الأخبار، ص٢؛ البكري، جغرافية الأندلس، ص١٢٩؛ الإدريسي م نزهة المشتاق، ص٥٧٤؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، ص٣٠ ، ٤٢ ، ٥٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤٤٠؛ المقري، نفح الطيب، ج١ ، ص١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ٤٥٥ .

٤١- البكري ، المغرب ، ص٥٦؛ المراكشي ، المعجب، ص٣٦٢ .

٤٢- الزهري، كتاب الجغرافية، ص١١٦، ١١٧ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤١ ؛ المراكشي، المعجب ، ص٣٦٣ .

٤٣- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤١ .

٤٤- الإدريسي، نفسه، ص٢٤١ ؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص١١٦، ١١٧ .

٤٥- البكري ، المغرب، ص١٧١ .

٤٦- البكري، نفسه، ص١٧١؛ العمري، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص٩٤ .

٤٧- ابن أبي زرع ، روض القرطاس، ص١٧؛ الجزنائي (أبو الحسن علي) زهرة الآس في بناء مدينة فاس، طبعة الفرد بل، الجزائر، ١٩٢٢م، ص٣٥ .

٤٨- ابن عذاري ، البيان ، قسم الموحدين، ص٥٨؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص٢٤٩ .

٤٩- انظر : العذري، ص٢٢؛ ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٨٧؛ المقري، نفح الطيب ، ج١، ص١٥٠ .

٥٠- مشاهدات ابن الخطيب ، ص٩٣ .

٥١- مشاهدات ابن الخطيب ، ص٨٢ .

٥٢- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان) ، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، بيروت، ١٩٧٣م، هامش ٥٩٩، ص٦٤٦-٦٤٧؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٤٤ .

٥٣- راجع : المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٢٣٩؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٢٩؛ ابن غالب، ص٢٩١؛ ياقوت، معجم البلدان، مجلد١، ص١٩٥ ، ٢٤٠؛ القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٥٥؛ ابن سعيد المغرب ، ج١، ص٣٨٠ ؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٧؛ الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص٣٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص٣٣٩، ٣٤٧ .

٥٤- انظر: القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٢، ص١١٨-١١٩ .

٥٥- الزهري ، كتاب الجغرافية، ص١١٧ .

٥٦- العذري، ص١١٠ ؛ ابن غالب ، ص٢٩١؛ الحميري، الروض المعطار، ٥٠٧؛

Imamudin (S.M.), The Economic Hisotry , p. 167-168 .

٥٧- العذري، ص١١٠؛ ابن غالب ، ص٢٩١؛ القزويني، ص٥٥٥؛ ابن سعيد ، المغرب، ج١، ص٣٣٩ ؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، ص٥٩؛ المقري، نفح الطيب ، ج١، ص٢٠١ .

58- Villvé, La Industria, p. 216, 217 .

٥٩- العذري، ص٢ ؛ ابن غالب، ص٢٨٣؛ المراكشي (عبد الواحد بن علي) ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ص٣٦٣؛ القزويني، ص٥٠٢؛ ابن سعيد المغرب، ج٢ ، ص٢٢٨؛ ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق الأستاذ محمد عبدالله عنان، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٩٨؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٥٠ .

٦٠- السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة: دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية في العصور الوسطى، الجزء الأول، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧١- ١٩٧٢م ، ص١٨٨ .

٦١- السقطي المالقي (أبو عبدالله محمد بن أبي محمد)، كتاب في آداب الحسبة، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، والأستاذ ج.س. كولان، المطبعة الدولية، باريس، ١٩٣١، ص١٢ .

٦٢- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٥٨١ ؛ الحميري ، الروض المعطار، ص٦ ؛

Lévi Provençal (E.V.), España Musulmana Traducción por Garcia Gomez en (Historia de España) T.V, Madrid 1957 , p. 174'

سالم ، قرطبة ، حاضرة الخلافة، ج٢، ص١٤٦ .

٦٣- البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١٢٩-١٣٠ ؛ الزهري، ص٩٦؛ القزويني، ص٥٠٥، ٥٤٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص١١٣؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٣٨ .

٦٤- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٦٧؛ المقري، نفح الطيب ، ج١، ص١٦٧ .

٦٥- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٨٠م، ص٢٦٦ .

٦٦- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٣٥ .

٦٧- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص١٦٦؛ ابن عذارى، البيان: قسم الموحدين، ص١٦٥ .

٦٨- المن بالإمامة، ص٢٦٦ .

٦٩- ابن القطان، نظم الجمان ، ص١٣٧-١٣٨ ؛ ابن عذارى، البيان ، قسم الموحدين، ص٨١ .

٧٠- مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص١٨٩ ؛ سالم ، العمارة المدنية، ص١٤٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة الأسطول الأندلسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص١٦٩ .

٧١- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٥٢-٢٥٦: ابن أبي زرع ، روض القرطاس، ص١٤٣ .

٧٢- انظر : ابن عذارى ، البيان، ج٤، ص٤٦: حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية، ص٢٧٥ .

٧٣- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية، ص٢٨٦: كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٢٣٧ .

٧٤- سالم، تاريخ مدينة المرية، ٤٩-٥٠ ؛ أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٦٨م، ص٣٢١ ؛ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين «صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤٠١ .

٧٥- ياقوت ، معجم البلدان، ص١٩٢ .

Saad Zaghloul, Abou Yusof Yaqub Almansur, p. 186 .

يذكر ديفيس أن الذهب من أهم المواد التجارية السودانية التي احتاج إليها الغرب الإسلامي في خلال العصور الوسطى ، نظراً لعلاقته بالمجال النقدي، ويعتبر أن الذهب هو المحرك الفعلي في العلاقات التجارية بين الشمال الأفريقي وغرب أفريقيا.

J. Devisse, les Route de Commerce et échanges en Afrique Occidentale en Relation avec la Méditerranée Essai sur le Commerce Africain Médievval du XV. au XVI Siécle. Revue d' Histoire Economique et Social, 1972, p. 49 .

٧٦- البكرى ، المغرب ، ص١٨٤؛ ياقوت معجم البلدان، المجلد الثاني، ص١٢-١٣ ، والمجلد الرابع، ص١٨٤؛ مجهول ، الاستبصار ، ص٢١٩-٢٢٦ .

٧٧- الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص١٨، ٢٣، ٢٤ ، ٢٥، ٢٩٦ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، سعد زغلول عبد الحميد، أحمد مختار العبادى، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، الكويت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٣٦٩م؛

Manny (Raymond), Tableau Geographique de l'ouest Africain au moyen âge. I.F.A.N., No. 61 , 1961 , p. 300 .

٧٨- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣ ؛ الحميرى، الروض المعطار ص٤٢٥ .

٧٩- ياقوت ، معجم البلدان، ج٢، ص١٢-١٣ .

٨٠- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبي) ، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت ، ص٦٥ .

٨١- البكرى ، المغرب، ص٨٦ ، ١٧٦؛ ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا، ص٩٣؛ الاستبصار، ص٢٢٦ ؛ الحميرى ، الروض المعطار، ص٤٢٦ ؛ محمد زنيبر، تجارة القوافل في المغرب ، مجلة المناهل، العدد ٣٨ ، سنة ١٩٨٩ ، ص١٢٧؛ موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن ٢ إلى القرن ٥ هـ (٨-١١م) ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الطبعة الثالثة، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ص٢٣٦

٨٢- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص٩٠؛ وانظر : البكرى، المغرب، ص١٧٦؛ حسن حافظى علوى، التبادل التجارى بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في العصر الوسيط، مجلة المناهل، تصدرها وزارة الشئون الثقافية ، الرباط، المغرب، العدد التاسع والثلاثون ، السنة السادسة عشرة، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، ص٢٦٤ ، ٢٦٥ .

٨٣- البكرى، المصدر السابق، ص١٦٩؛ مجهول، الاستبصار ، ص٢١٦ .

٨٤- الاستبصار ، ص١٤؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٤٢٧ .

٨٥- البكرى، المصدر السابق، ص١٧٦؛ الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٢٢٤؛ الاستبصار ص٢١٤ .

٨٦- البكرى ، المصدر السابق، ص١٥٨؛ علوى، المرجع السابق، ص٢٦٦ ؛

Saad Zagloul, Op. cit., pp. 186-187 .

٨٧- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص١١٤؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٧ .

٨٨- البكرى، المغرب، ص١٨٣؛ الاستبصار، ص٢٢٥؛ ابن سعيد كتاب الجغرافية، ص١١٧ .

٨٩- ابن سعيد ، نفسه، ص١١٤؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٧ .

٩٠- البكرى، المغرب، ص١٧١؛ الاستبصار، ص٢١٤؛ علوى ، التبادل التجارى بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، ص٢٥٦-٢٦٢ .

٩١- ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٩٠ .

92- Devisse (Jean), Tegdaoust I, Recherches sur Aoudoghost , Paris, 1970, p. 112 .

٩٣- محمد زنبير ، تجارة القوافل، في المغرب ص١٢٦ .

٩٤- البكرى ، المغرب، ص١٥٨ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٢٣٢؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٨، ١٢٤ ، ١٢٧؛ الحميرى، الروض، ص٤٦ ، ١٣٤ ؛ علوى، التبادل التجارى، ص٢٥٧ ، ٢٦٣ .

٩٥- موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول (من القرن الثانى إلى القرن الخامس الهجرى/ الثامن إلى الحادى عشر الميلادى) ترجمة وتعليق: اسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، ص٣٢٧ .

96- Martinez (Pedro) Islam y cristianidad en la economia mediterranea de la baja edad media, Moscu, 1970,p.8;

أمين الطيبي، النقود العربية، المجلة الفرنسية للعلوم الاجتماعية ، العدد ٦٧لسنة ١٩٨١م.

٩٧- الزهرى ، ص١١٧-١١٨ ؛ الاستبصار ، ص٢١٢-٢١٣، ٢١٦ .

٩٨- الزهرى، كتاب الجغرافيا، ص١١٧ .

٩٩- العمرى، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص٩٣ .

١٠٠- الزهرى، ص١١٧ .

١٠١- الزهرى، ص١١٣-١١٤؛ ابن سعيد ، المغرب، ج٢ ، ص٢٤٦ .

١٠٢- الاستبصار ، ص١٧٩ .

١٠٣- البكرى ، المغرب ، ص١٥٨ .

١٠٤- الزهرى ، ص١١٣-١١٤ .

١٠٥- الزهرى ، كتاب الجغرافيا ، ص٩٣؛ العمرى ، مسالك الأبصار ، السفر الرابع، ص١٠٨ .

١٠٦- المقرى، نفح الطيب، ج٣ ، ص٢١٣ .

١٠٧- المقري، نفح الطيب، ج١ ، ص٢٠١ ؛ العمري، مسالك الأبصار، السفر الرابع ، ص١٠٨ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٢١٩ .

١٠٨- المقري، نفح الطيب ، ج١، ص٢٠١ .

١٠٩- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٥٥٦؛ ياقوت ، معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٩ .

١١٠- الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٢٣٩ .

١١١- العمري ، مسالك الأبصار ، السفر الرابع، ص١١٠؛ المقري، نفسه، ج١، ص١٤١؛ هايد (ج)، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤، ص١١٠ .

١١٢- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٤٣، ٥٦٥ ؛ العمري، نفسه، ص١٠٨ ؛ الزهري، كتاب الجغرافيا، ص٩٤ .

Robles (F.Guillen), Malaga Musulmana, Malaga, 1947 , p. 292 .

وانظر أيضا الرازي : وصف الأندلس؛

Lévi Provençal (E.V) La description de L'Espagne, d'Ahmed Al- Razi , Al- Andalus, vol XVII, Fasc I , Madrid, 1953 , p. 68 .

١١٣- العذري ، ص٩٦؛ ابن غالب الأندلسي ، ص٢٩٣؛ ياقوت معجم البلدان، مجلد١، ص١٩٥ .

١١٤- انظر: الرازي ، وصف الأندلس في : Lévi Provençal, Description, p. 68

١١٥- الإدريسي: نزهة المشتاق ، ص٥٥٨ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥١١ .

١١٦- مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٥ .

١١٧- الزهري، كتاب الجغرافية ، ص١٢٨ .

١١٨- الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٨٦؛ ابن غالب، ص٢٨٩؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص٣٦، ٨٧ .

١١٩- ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٢، ص٣٦٠ .

١٢٠- الزهري، كتاب الجغرافية ، ص٩٩؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص٣٢٣ .

١٢١- كمال أبومصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٣٤٢ ، ٣٤٣، ٣٤٤ .

122- Mas- Latrie (L.), Traité de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec des Arabes de l'Afrique Septentrionale au Moyen- Age, Paris , 1965 , pp. 37-49 .

١٢٣- هايد (ج)، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم دكتور عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٩١م، ص٤٨ ؛

Saad Zaghloul, Abou Yusof- Yaqub Almansur, p. 189 .

124- Mas- Latrie, Op. cit., pp. 47, 49 , 89 , 108 .

125- Kruger, (Hilmar C.), Genoese Trade with North Monnier in the Twelfth Century , Speulum, A Journal of Medieval Studies, vol . VIII, n..9, July, 1933, p. 379 ;

عبد الهادى التازى ، الموجز فى العلاقات الدولية، الرباط، ١٩٨٤، ص٥١ .

126- Mas- Latrie, Op. cit., p. 47 , 49, 89 , 108 .

١٢٧- التازى، الموجز فى العلاقات الدولية، ص٥١ .

128- Mas- Latrie , Op. cit., p. 52 .

١٢٩- ناصح محمد، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب فى العصر الوسيط القرن ٦هـ / ١٢م نموذجا ، بحث لنيل درجة دبلوم الدراسات العليا فى التاريخ ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، ١٩٨٧-١٩٨٨م، ص٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢ .

130-Amari (M.), Diplomi Arabi del Archivo fiorentio , v. I, Firenze, Le African 1863, p. 76; kruger (H.C.), The Wares of Exchange in the Genoese- African Trafic of the Twelfth Century , Speculum 1937, XII, n. 1, pp. 68 , 71 ; Kruger (H.C.), Genose Trade..., p. 385 .

131- Amari (M.), Diplomi Arabi, p. 48; kruger (H.C.), The Wares of Exchange, p. 72 .

١٣٢- الزهرى، كتاب الجغرافية ، ص١١٧ : هايد (ج) تاريخ التجارة فى الشرقى أدنى فى العصور الوسطى، ج٤، ص٦٢ .

١٣٣- البكرى، المغرب ، ص٢٠ : الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٨١: الاستبصار، ص١١٦-١١٧ .

١٣٤- الإدريسى، نزهة المشتاق ، ص٢٢٦: الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٩ .

١٣٥- الزهرى ، نفسه ، ص١١٧-١١٨: . Kruger (H.C.), The Wares of ..., p. 70

١٣٦- انظر : الإدريسى، نزهة المشتاق ، ص٥٥٢، ٥٦٩ : الحميرى، الروض المعطار ، ص٦٠٦: المقرى، نفح الطيب، ج٤ ، ص١٧٩ .

١٣٧- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٤٣ ، ٥٦٥ ؛ الحميري ، المصدر السابق، ص٥١٧ ؛ العمري، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص١٠٨ ؛ المقرى، نفح الطيب، ج١، ص١٥١؛

Robles Malaga Musulmana, p. 292 .

١٣٨- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥، ص٢١٨ .

١٣٩- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٤١ ؛ الزهري، كتاب الجغرافية ، ص٨٩، ٩٣ ، ١٣٢ ؛ المقرى، نفح الطيب، ج٣، ص٢١٣ .

١٤٠- ياقوت ، معجم البلدان، م٢ ، ص٣٦٠ .

١٤١- الزهري ، كتاب الجغرافية ، ص٣١ ، ٩٦ ، ٩٩ .

١٤٢- ابن حوقل ، صورة الأرض، ص١١٤ .

١٤٣- الإدريسي ، ص٥٦٢ ؛ الزهري، ص٣١ ؛ المقرى، نفح الطيب، ج١، ص٢٠١ .

١٤٤- المقرى، نفسه،ج١، ص٢٠١ ، ج٣، ص٢٢١ .

١٤٥- نفسه ج١، ص٢٠٢؛

Dunning (G.C), A Group of English and Imported Medieval Pottery , Lesnes Abbey , Kent : and the Trade in Early Hispano - Moresque Pottery to England Antiquaries Journal, 1961, v. 41 , p. 1-12 .

١٤٦- انظر الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٥٦؛ ياقوت ، معجم البلدان ، م٢ ، ص٣٠٩: كمال أبو مصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٣٤٤، ٣٤٥ .

١٤٧- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٣٢٨؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص٥٠ .

١٤٨- كتاب الجغرافية، ص١١٤ .

١٤٩- نفسه، ص٦٠ .

١٥٠- نفسه ، ص١١٤ .

١٥١- نفسه، ص١٣١ .

١٥٢- نفسه، ص٧٨ .

١٥٣- نفسه، ص٧٨ ؛ Mas Latrie , Traité de paix, p. 48 .

١٥٤- كتاب الجغرافية ، ص٧٨ ؛

Kruger , The Wares of Exchange..., p. 60; kruger, Genoese Trade..., p. 386 ,388 .

١٥٥- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٥٥٣؛ كتاب الجغرافيا، ص٧٨ .

156- Kruger (H.C.), The Wares of Exchange..., p. 66 .

١٥٧- انظر: الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٢٢؛ الاستبصار ، ص٢١٥-٢١٦؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص٣٢٩ .

١٥٨- الزهري، كتاب الجغرافية، ص١٠٤ .

١٥٩- الزهري، نفسه، ص٥٠؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية ، ١٩٨٢م، ص٢٥٨ .

١٦٠- الزهري ، ص١٢٢، ١٢٤؛ أرشيبالد لويس ، القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة : الأستاذ أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٦٠ .

161- Pedro Martinez, Islam, Y Cristianidad en la Economia Meditierranea de la Baja Edad Media Moscu , 1970 , p. 8'

كمال أبو مصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٣٤٧ .

١٦٢- الزهري، ص١٩، ٢٠، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٦:

Kruger (H.C), Genoese Trade, pp. 385-388 .

١٦٣- «وهي ثياب حسنة العمل من الصوف غير أنهم- أي الفلنديين- يتقنون صنعها حتى تباهي ثياب الخز» (الزهري ، كتاب الجغرافية، ص٧٦) .

١٦٤- الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٢٢٣، ٢٢٤ ، ٢٢٥: الاستبصار، ص٢٠٨-٢٠٩، ٢١٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٤٠، ٥٤١ .

١٦٥- البكري ، المغرب ، ص١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ؛ الاستبصار، ص٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

١٦٦- عن تلك المسالك التجارية ومحطاتها راجع : حسن حافظي علوي، التبادل التجاري بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في العصر الوسيط، مجلة المناهل ، تصدرها وزارة الشئون الثقافية ، الرباط المغرب، العدد التاسع والثلاثون، السنة السادسة عشرة، مطبعة فضالة المحمدية ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ص٢٢٥-٢٥٥؛ عبد الرحمان التليلي، وصف المدن المغربية من كتاب صورة الأرض لابن حوقل ، الكراسات التونسية ، مجلد ٣٤، عدد ١٣٧-١٣٨ ، الثالثة والرابعة لسنة ١٩٨٦، عدد خاص «المدن ومجتمعات الحضر في المغرب»، ص٢٠ .

١٦٧- البكري ، المغرب ، ص١٤٦ وما بعدها ؛ الاستبصار ، ص١٩٣؛ الحبيب الجنحاني ، المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣-٤هـ/ ٩-١٠م) الدار التونسية للنشر، ١٩٧٧م، ص١٧٩ .

١٦٨- البكري، المغرب ، ص٨٨؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٢٤٩ ؛ الاستبصار، ص١٣٩ .

١٦٩- البكري، المغرب، ص١٥٦ وما بعدها .

١٧٠- البكري، نفسه، ص١٦٣ وما بعدها .

١٧١- نفسه، ص٧٧ .

١٧٢- نفسه، ص١٦٠-١٦٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٦-٢٣٣ ؛ الاستبصار، ص٢١١، ٢١٢ ، ٢١٣ ؛ الحميرى الروض المعطار، ص١٢٨ .

١٧٣- البكري، المغرب، ١٧١، ١٧٢ ؛ الاستبصار ، ص٢١٤ ، ٢١٥ .

١٧٤- البكري ، المغرب ، ص١٥٦ وما بعدها ؛ الاستبصار، ص٢١٣ .

١٧٥- البكري ، المغرب ، ص١٥٤ ، ١٥٥ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤١، ٢٤٢ .

١٧٦- الإدريسي ، نفسه، ص٢٣٦-٢٣٩ .

١٧٧- نفسه، ص٢٣٩ ؛ الاستبصار ، ص١٤٠-١٤١؛ الحميري، الروض المعطار، ص٣١٩ .

١٧٨- الإدريسي ، نفسه ، ص٢٣٦-٢٣٩ .

١٧٩- نفسه، ص٢٤٦-٢٤٢ .

١٨٠- نفسه، ص٢٤٢ .

١٨١- نفسه، ص٢٣٩، ٥٣٠، ٥٣١؛ الاستبصار ، ص١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ، ص١٣٨ .

١٨٢- البكري، المغرب، ص٨٨؛ الإدريسي، نزهة المشتاق ، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨ ؛ الاستبصار ، ص١٨٦ .

١٨٣- الاستبصار، ص١٨٦ .

١٨٤- البكري ، المغرب، ص١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٥٣٢ .

١٨٥- البكري، المغرب، ص١٠٩ وما بعدها ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤٤، ٢٤٥، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠؛ الاستبصار، ص١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

١٨٦- البكري ، المغرب، ص٨٨؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٤٧، ٢٤٨ .

١٨٧- كان ميناء تابجريت على شاطئ البحر المتوسط من الموانئ الشهيرة التي استعملت في تصدير البضائع الواردة من سجلماسة ، يقول عنها الحميرى : «وهي محط السفن ، ومقاصد لقوافل سجلماسة وغيرها» (الحميرى، الروض المعطار، ص١٢٧) .

١٨٨- البكري، المغرب ، ص٨٠، ٨٢، ٨٦، ٨٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٢٧-٥٣٤؛ الاستبصار، ص١٣٥، ١٣٦ ، ١٣٧، ١٣٨؛ ابن سعيد كتاب الجغرافيا، ص١٣٩، ١٤٠ .

١٨٩- البكري، المصدر السابق، نفس الصفحات الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٥٢٧ ، ٥٢٨، ٥٢٩ ؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ، ص١٣٩-١٤٠، جاك كاني، دراسات عن منطقة الشمال المغربي، مجلة البحث العلمي، الأعداد ١٩ (٢٠، ٢١) ، ٢٢، ٢٣، ٢٤) .

١٩٠- البكري، المغرب، ص٨٦، ٨٧ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٢٣٨-٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٥٣٠، ٥٣١؛ الاستبصار، ص١٣٨، ١٣٩ ، ١٤٠، ١٤١؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٣٧، ١٣٨، ١٣٩ .

١٩١- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٢٨ ، ٥٢٩ ؛ الاستبصار، ص١٣٧ ، ١٣٨ ؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٣٩ ؛ ابن عذاري، البيان ، قسم الموحدين، ص٥٥، ٦١؛ الحميري، الروض المعطار ، ص٣٠٢ .

١٩٢- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٢٣٩ ؛ الاستبصار، ص١٤٠، ١٤١ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص٣١٩ .

١٩٣- الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٣٩ .

١٩٤- نفسه، ص٢٤٠ .

١٩٥- نفس المصدر والصفحة؛ ابن سعيد كتاب الجغرافيا، ص١٣٧ .

١٩٦- مجموعة رسائل موحدية، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال ، الرباط، ١٩٤١م، ص٦٠٥ .

١٩٧- الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٣٥، ٢٣٦ .

١٩٨- الإدريسي، نفسه ، ص٥٢٩ .

١٩٩- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص٨٣، ٨٩، ١١٧ ، ١١٩؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٣٩ ، ٢٤٠، ٥٢٧ وما بعدها .

٢٠٠- الإدريسي، نفسه، ص٥٢٧ وما بعدها .

٢٠١- نفسه، ص٥٢٧ وما بعدها؛ ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص١٣٨-١٣٩ .

٢٠٢- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) ، رحلة ابن جبير ، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٨،٩ .

٢٠٣- الإدريسي ، المصدر السابق، ص٥٢٧ وما بعدها ؛ رحلة ابن جبير، ص٨، ٩ .

٢٠٤- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص١٣٩؛ ناصح محمد، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب في العصر الوسيط ، ص٤٧٢ ، ٤٧٣ .

٢٠٥- انظر: الإدريسي ، المصدر السابق، ص٥٢٩ .

٢٠٦- انظر : الاصطخري، المسالك والممالك، ص٣٧ ؛
Lévi Provençal, España Musulmana , T. V, p. 193; Imamaudin , The Economic History , p. 266 .

٢٠٧- انظر : رحلة ابن جبير ، ص٨-١٢ ، ٤٩ ؛ خوان بيرنيت ، هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط الملاحية، دكتور أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري بمدريد ، العدد الأول، ١٩٥٣م، ص٧٥ .

٢٠٨- الأوسي المراكشي (أبو عبدالله محمد بن عبد الملك الأنصاري) ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس ، القسم الثاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥ ك، ص٦٨٩-٦٩٠، ترجمة رقم ١٢٩٨ .

٢٠٩- انظر: أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض التوسط، البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة ، د.ت ص٦٠-٦١ .

٢١٠- بيرنيت ، المرجع السابق ، ص٧٥ ؛ سالم، تاريخ مدينة المرية، ص٨٩ .

٢١١- بيرنيت ، نفس الصفحة ؛ كمال أبو مصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٢٤٩-٢٥٠، ٢٥١ .

٢١٢- هايد (ف) ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الجزء الأول، ص١٠٩-١١٢ .

٢١٣- انظر: ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ج٢ ، ص١٩٣؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص١٧٧ .

٢١٤- الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٦٢؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢٨ ،٧٣ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٨٣ .

٢١٥- المقري ، نفح الطيب، ج١، ص١٦٢-١٦٣، ج٣ ، ص٢٢٠ .

٢١٦- ياقوت ، معجم البلدان ، م٥ ، ص١١٩؛ المقري، المصدر السابق، ج١، ص٢٠١ ، ٢٠٢ ؛ سالم تاريخ مدينة المرية، ص١٧١،٨٩ .

٢١٧- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥، ص١١٩؛ كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص٢٥٢-٢٥٣، ٢٥٤ .

218- Robles, Malaga, p. 337 .

٢١٩- ياقوت ، معجم البلدان، م١، ص١٩٥ .

٢٢٠- الإدريسي ، المصدر السابق، ص٥٤١ ؛ الحميري، ص٥٩، ٢٣٩-٢٤٠؛ المقري، ج١، ص١٥٩ .

٢٢١- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق ، ص٢٥٥ .

٢٢٢- انظر : المقري، نفح الطيب، ج٣، ص٢٢١ .

٢٢٣- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٥٨ .

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

(أ) المصادر العربية:

١- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر) ، تقويم البلدان، تحقيق دى سلان، باريس، ١٨٤٠م.

٢- ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر كارل يوحن تورنبرج، طبع فى مدينة أويسالة بدار الطباعة المدرسية ، ١٨٤٣م .

٣- ابن الأبار (أبو عبدالله محمد القضاعي البلنسى) ، كتاب التكملة لكتاب الصلة طبعة، عزت العطار الحسيني، الجزء الثانى، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٤- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد) ، الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، المجلد الأول، القاهرة ١٩٧٣م.

٥- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد) ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، مجموعة رسائل ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣م.

٦- ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك) ، جزء من كتاب «نظم الجمان فى أخبار الزمان» تحقيق الدكتور محمود على مكى بمساهمة من المركز الجامعي للبحث العلمي، إشراف مولاى الحسن للبحوث، جامعة محمد الخامس، الرباط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، د.ت.

٧- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت.

٨- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى) ، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٩- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان) ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود على مكى، بيروت، ١٩٧٣م.

١٠- ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٧٠م.

١١- ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) المغرب فى حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المعارف ، القاهرة،

١٩٨٠م.

١٢- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي) ، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني، تحقيق الدكتور عبد الهادى التازى، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٧م.

١٣- ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي) ، رسالة فى القضاء والحسبة، نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال ضمن كتاب بعنوان «ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

١٤- ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين ، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

١٥- ابن غالب الأندلسي (أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي) ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية ، المجلد الأول، الجزء الثانى، نوفمبر ١٩٥٥م.

١٦- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، السفر الرابع ، طبع بالتصوير عن مخطوطة رقم ٢٧٩٧ / ٢ أحمد الثالث، طوبقا بوسراى، استانبول ، أصدره فؤاد سزكين ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية فى إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

١٧- الإدريسى (الشريف أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله إدريس الحموى) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، المجلد الثانى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

١٨- الأوسى المراكشي (أبو عبدالله محمد بن عبد الملك الأنصارى) ، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الثانى، تحقيق الدكتور إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، ١٩٦٥م.

١٩- الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي) ، كتاب المسالك والممالك،

مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٧م.

٢٠- البكرى (أبو عبدالله عبدالله بن عبد العزيز) ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، من كتاب «المسالك والممالك» نشر دى سلان De Slane بعنوان Description de L'Afrique Septentrional، الجزائر، ١٩١١م.

٢١- البيذق (أبو بكر على الصنهاجي) ، كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، بولس كتنر الكتبى، باريس ١٩٢٨م.

٢٢- الجزنائى (أبو الحسن على) زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، طبعة الفرد بل، الجزائر، ١٩٢٢م.

٢٣- الحميرى (أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م.

٢٤- الزهرى (أبو عبدالله محمد بن أبى بكر) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

٢٥- السقطى المالقى (أبو عبدالله محمد بن أبى محمد) كتاب فى آداب الحسبة، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال والأستاذ ج.س . كولان، المطبعة الدولية، باريس ، ١٩٣١ .

٢٦- العذرى (أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس المعروف بنبى الدلائى) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار فى غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى، مدريد، ١٩٦٥م.

٢٧- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٨- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الجزء الخامس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م .

٢٩- المراكشى (عبد الواحد بن على) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربى العلمى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.

٣٠- المقدسى (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشارى) ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق دى غويه، مكتبة المثنى ببغداد، ليدن، ١٩٠٦م.

٣١- المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) نفح الطيب من غصن

الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الأجزاء الأول والثالث والرابع .

٣٢- مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، نشر وتحقيق لويس مولينا، مدريد ١٩٨٣م.

٣٣- مؤلف مجهول كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ١٩٥٨م.

٣٤- مجموع رسائل موحدية، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال ، الرباط، ١٩٤١م.

٣٥- ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى) معجم البلدان، المجلد الأول، طبعة بيروت، ١٩٥٥م.

(ب) المراجع العربية والمعربة :

١- أحمد محمد إسماعيل الجمال، دولة الموحدين في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م) رسالة دكتوراه (غير منشورة)، الإسكندرية ، ١٩٩٨م.

٢- أحمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة، د.ت.

٣- أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الإسكندرية ، ١٩٦٨م.

٤- أرشيبالد لويس، القوى البحرية التجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة : الأستاذ أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٥- أمين الطيبى ، النقود العربية ، المجلة الفرنسية للعلوم الاجتماعية ، العدد ٦٧ لسنة ١٩٨١م.

٦- الأميرشكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٥-١٣٥٨هـ، الجزء الثالث.

٧- الحبيب الجنحانى، المغرب الإسلامى: الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣-٤هـ / ٩-١٠م) الدار التونسية للنشر ١٩٧٧م.

٨- السيد عبد العزيز سالم ، العمارة المدنية بالأندلس، دائرة معارف الشعب ، العدد (٦٤)، ١٩٥٩م.

٩- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٨٢م.

١٠- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، قاعدة الأسطول الأندلسى، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية، ١٩٨٤م.

١١- السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية فى العصور الوسطى، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١-١٩٧٢م.

١٢- جاك كانى، دراسات عن منطقة الشمال المغربى، مجلة البحث العلمى، الأعداد ١٩ (٢٠، ٢١) ، ٢٢، ٢٣، ٢٤ .

١٣- حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين «صفحة مشرفة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى» ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٤- حسن حافظى علوى : التبادل التجارى بين المغرب الأقصى والسودان الغربى فى العصر الوسيط، مجلة المناهل ، تصدرها وزارة الشئون الثقافية ، الرباط، المغرب ، العدد التاسع والثلاثون ، السنة السادسة عشرة، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

١٥- حسن على حسن، الحضارة الإسلامية فى المغرب الأندلسى ، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٨٠م.

١٦- خوان بيرنيت ، هل هناك أصل عربى إسبانى لفن الخراط الملاحية، دكتور أحمد مختار العبادى ، مجلة المعهد المصرى بمدريد، العدد الأول، ١٩٥٣م.

١٧- سعيد عبد الفتاح عاشور : سعد زغلول عبد الحميد، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، الكويت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٨- عبد الرحمن التليلى ، وصف المدن المغربية من كتاب صورة الأرض لابن حوقل، الكراسات التونسية ، مجلد ٣٤ ، عدد ١٣٧-١٣٨ ، الثالثة والرابعة لسنة ١٩٨٦ ، عدد خاص «المدن ومجتمعات الحضر فى المغرب».

١٩- عبد الهادى التازى، الموجز فى العلاقات الدولية، الرباط ١٩٨٤ .

٢٠- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى، دار الشروق، بيروت ، ١٩٨٣م.

٢١- كمال السيد محمد أبومصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادى فى عصر دولتى المرابطين والموحدين، مركز الاسكندرية للكتاب، د.ت .

٢٢- محمد نزبير ، تجارة القوافل فى المغرب، مجلة المناهل ، العدد ٣٨ ، سنة ١٩٨٩ .

٢٣- موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول (عن القرن الثانى إلى القرن الخامس الهجرى/ الثامن إلى الحادى عشر الميلادى) ترجمة وتعليق : إسماعيل العربى، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

٢٤- ناصح محمد، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب فى العصر الوسيط القرن ٦هـ / ١٢م نموذجا، بحث لنيل درجة دبلوم الدراسات العليا فى التارخ ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الرباط ، ١٩٨٧-١٩٨٨م.

٢٥- نعيم زكى فهيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م.

٢٦- هايد (ج) تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة : أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم دكتور عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٩١م.

(ج) المراجع الأجنبية:

1- Abdel- Hamid (Saad Zaghloul) Abou Yusof Yaqub Almansur l'Almohade (1184-1199) . These Doctorat , Faculté des Lettres, Université de Paris , 1951 .

2- Amari (M.) Diplomi Arabi del Archivo fiorentio, v. I , Firenze, Le Monnier 1863 .

3- Devisse (Jean), Tegdaoust I, Recherches sur Aoudoghost , Paris , 1970 .

4- Dunning (G.C.), A Group of English and Imported Medieval Pottery , Lesnes Abbey, Kent: and the Trade in Early Hispano - Moresque Pottery to England , Antiquaries Journal, 1961, v.41 .

4- Heyd (W.), Histoire du Commerce de Levante au Moyen age .T. II, Ansterdam , 967 .

6- Imamuddin (S.M), The Economic History of Spain Under the Umayyades. Dacca, 1963 .

7- J. Devisse, Les Route de Commerce échanges en Afrique Occidentale en Relation Avec la Médiiterranée , Essai sur le Commerce Africain Médieval du XV , au XVI e.s. Revue d'Hitoire Economique et Social, 1972 .

8- kruger (H.C.) The Wares of Exchange in the Genoese- African Traffice of the Twelfth Century Century . Speculum 1937, XII, n.I.

د. كرم الصاوى باز(*)

الحركة التجارية فى العصر المملوكى وأهميتها كحلقة وصل بين مراكز البحر الأحمر ومدغشقر وجزر القمر

فى الفترة من (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

مقدمة :

تشير هذه الدراسة إلى ازدهار الحركة التجارية فى العصر المملوكى كحلقة وصل واتصال بين مراكز البحر الأحمر وساحل أفريقيا الشرقى (١)، خلال الفترة من منتصف القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر الميلادى تفتحت فيها الثقافة البحرية السواحلية بتأثير القوى الاقتصادية الإسلامية على ساحل شرق أفريقيا وجزر القمر ومدغشقر (٢). إذ أفرزت هذه العلاقة حركة واسعة من التبادل على هذه الجزر وطول ساحل سفاله (٣).

لقد استقرت جاليات إسلامية فى أرخبيل القمر وبعض المناطق من مدغشقر؛ لتؤثر فى قيام الوكالات التجارية السواحلية مع احتفاظ القمريون بالتقاليد الثقافية لبلادهم الأصلية(٤).

أما أهل مدغشقر ، فعلى الجنوب الشرقى وهو أبعد المناطق من مراكز إشعاع الحضارة السواحلية . فقد قسم ضمن المجموعة الملجاشية ، وهى التى احتفظت بسماتها المتميزة ، وبالمقابل فى الشمال الغربى اتخذت هذه الجماعات طابعًا إسلاميًا متأثرين

* مدرس بقسم التاريخ معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة .

بعلاقتهم مع مراكز البحر الأحمر، إخوانهم فى الدين : لتسهم هذه العلاقة فى إفراز وكالات تجارية على نفس الأصالة، تؤكدها طبيعة أنسابهم وشيمهم وتقاليدهم(٥).

وتبرز هذه الدراسة تشابه وكالات البحر الأحمر مع وكالات الشمال الغربى الملجاشى ووكالات جزر القمر سواء فى ملامحها أو فى نمط عيش سكانها؛ وهذا ما أكدته الدراسة الأركيولوجيه للأطلال المتبقية من القلاع المحصنة والمساجد والدور العتيقة التى لاتزال موجودة فى أنجوان بأبوابها المزدانة بزخارفها ذات الطابع الإسلامى؛ كما تشهد مؤثرات وكالات البحر الأحمر الحضارية فى المحطات التجارية فى موتسامودو ، وأوانى ودومونى ، وسيما(٦).

أن وكالات مدغشقر وجزر القمر هى حالة من الترابط والتكامل بين مراكز البحر الأحمر وشرق أفريقيا. فهى مثال واضح من الامتزاج البيولوجى والثقافى .

والحقيقة أن هناك عدداً من الدراسات التى تناولت الحركة التجارية لدى مراكز البحر الأحمر، وخاصة مصر خلال فترة العصور الوسطى سواء الأركيولوجيه والتاريخية على سبيل المثال:

أ.د. آمال العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى «جامعة القاهرة» كلية الآثار ١٩٧٤ (٧).

أ.د. مجاهد توفيق الجندى: أهم الوكالات فى مدينة القاهرة ودورها الحضارى وهى دراسة بالغة الأهمية (٨).

وهناك دراسة شاملة لتجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى أ.د. محمد عبد الغنى الأشقر ، صادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب وهى دراسة وثائقية (٩).

وهناك دراسة للمستشرق شتيك (Chittic . N.) تبرز انتشار الأنشطة التجارية من ساحل مقدشيو إلى ساحل سفاله منذ القرن العاشر الميلادى؛ وهذا ما أكدته هذه الدراسة من أثر وكالات البحر الأحمر فى بمبا وزنجبار ومدغشقر وجزر القمر(١٠).

CF : Chittick , H.N. (1974) Kilwa : an islamix trading city on the east african coast , 2 vol (Nairobi: British institute in eastern africa .

وقد تناولت هذه الدراسة النقاط التالية :

أولاً : الحركة التجارية فى البحر الأحمر وانتقالها إلى ساحل شرق أفريقية ؛ وجزر القمر ومدغشقر .

ثانيًا : دور التجار المسلمين الاقتصادى والثقافى على ساحل شرق أفريقة ، ومدغشقر وجزر القمر.

ثالثًا: أثر الحركة التجارية فى انتقال التأثيرات السياسية والاقتصادية على ساحل شرق أفريقية.

رابعًا : انتقال التأثيرات عبر ساحل شرق أفريقيا إلى مدغشقر وجزر القمر.

الخاتمة .

أولا : الحركة التجارية في البحر الأحمر وانتقالها إلى ساحل شرق أفريقية ؛ جزر القمر ومدغشقر :

إن عصر دولة سلاطين المماليك فى مصر ، الذى امتد إلى أكثر من ثلاثة قرون. من الأيوبيين إلى العثمانيين، أى من ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م إبراز لدور مصر الريادى دائمًا [١١]؛ فالمماليك أوجدوا فى مصر حكما يعتبر أقوى حكم فى العالم كله فى وقتهم، إذا قورن بحكم أى دولة إسلامية أخرى فى أفريقيا أو آسيا أو أوربا[١٢]. فقد أصبحت مصر فى عهدهم دولة عظمى ، احتلت الصدارة فى حكم العالم الإسلامى أجمع ، وجعلوا القاهرة قاعدة لإمبراطوريتهم الواسعة ، كما أن مصر فى عهدهم أصبح لها أيضًا الريادة الحضارية العظمى فى الإسلام، التى هى امتداد لريادة مصر الحضارية عبر العصور ، الممتدة إلى آلاف السنين قبلهم ؛ وإن اتخذت فى عهدهم الطابعين العربى والإسلامى. مما يجعلنا نقرر أن الحضارة الإسلامية منذ ظهورها لم تبلغ أوج ازدهارها إلا فى مصر، فى عهد دولة سلاطين المماليك بالذات. فيقول المؤرخ الكبير ابن خلدون فى مقدمته: عن عصر دولتهم فى مصر: «وليس أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم. وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع»[١٣].

حقًا ليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى أيام المماليك، من وجود كلمات كثيرة تدل على اتساع نشاطها التجارى والصناعى فى مصر، مثل : دكاكين [١٤]، وحوانيت ، ومخازن ، وقياسر (أو قيساريات) . وخانات [١٥]. ووكالات [١٦]، وفنادق [١٧]، وهذه الأخيرة كانت أكثرها. وتتكون من عدة طوابق ؛ عبارة عن غرف مختلفة ومخازن [١٨]. لها فناء داخلى، يحتوى على البضائع والدواب ؛ يسكنها غالبًا التجار الأجانب[١٩] يرأسهم القناصلة - مفردها

قنصل – وهم كبار الفرنج [٢٠]. فكانت الفنادق توجد فى كل إنحاء المدن المصرية ، من الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى أسوان [٢١]. كذلك كانت شون القاهرة [٢٢]؛ اعتبرت من أغرب الغرائب ؛ فهي مخروطية الشكل: أكثر ارتفاعًا من برج اشبيلية بالأندلس. ولا تزال بعض المبانى التجارية المملوكية باقية إلى الآن وبأسمائها ، تزينها النقوش العربية ، والرسوم الهندسية . والقوالب الخشبية . وحتى نشاطها التجارى لايزال مستمرا إلى وقتنا الحاضر. مثل : خان الخليلى [٢٣]. وهو سوق ظهر من أيام المماليك .

وقد ترتب على الازدهار الاقتصادى أن القاهرة عاصمة البلاد: وبجوارها الفسطاط [٢٤]. اتسعتا اتساعًا كبيرًا. حيث كانت تجمعها أسوار مشتركة، ولاسيما بعد إنشاء حى القلعة أيضًا ، بحيث تخصص للكتابة عن القاهرة مؤرخون كبار؛ آخرهم فى عصر المماليك آق بغا الخاصكى، كاتب السلطان قنصوه الغورى ، الذى ألف كتابه[٢٥] : التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة ؛ بعد خمسين سنة من كتاب المقريزى المشهور باسم الخطط والآثار، الذى لم يعرف قبله كتاب فى قيمته، لما يشتمل عيه من معلومات مفصلة عن تاريخ : حارتها، وخططها– أى الأحياء– وأزقتها. ودروبها ، وخوخها ؛ ورحابها– أى ميادينها– وأسواقها ، وسويقاتها، وظواهرها – أى ضواحيها وأحكارها . وهذه الأخيرة هى الميادين المقفولة[٢٦].

ولدينا وصف مسهب من قبل الرحالين والجغرافيين للقاهرة، فالرحالة ابن بطوطة يرى أن القاهرة كثيرة الحيوية ؛ بالنسبة لمدن أخرى . فيذكر ثلاثين ألف ركوبة للتأجير وأن بها مطاعم كثيرة؛ ومن الأقمشة ما هو ليس فقط من صنع مصر والشرق ، وإنما من إيطاليا والسند[٢٧]. كذلك الرحالة طافور يقول إن أروع ما فى القاهرة سوقها ، الذى تعرض فيه أكداس هائلة ، وكميات ضخمة ، من شتى البضائع الواردة من الهند، ولا سيما اللآلى والأحجار الكريمة والتوابل والبضائع . وكل مشموم طيب الرائحة ؛ إذ ليس فى القدرة تعداد جميع السلع التى يؤتى بها إلى هنا من الهند. ثم توزع فى أنحاء العالم؛ فالقاهرة هى السوق الرئيسى لجميع تلك الأنواع [٢٨].

ومن المحقق أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر– وهى من أكبر المدن التارية والصناعية– مدن أخرى فى طول البلاد وعرضها ؛ تعتبر وكالات ومراكز اقتصادية نشطة . فنذكر الإسكندرية العظمى[٢٩] ودمياط ؛ وقد أصبحتا أكثر موانئ البحر الأبيض حيوية . وكذا البرلس ورشيد[٣٠]، حيث كان يصلها التجار الأجانب أيضًا؛ وعيذاب أعظم موانئ ساحل

البحر الأحمر[٣١]، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع. ونذكر في الصعيد قوص [٣٢]؛ قرب أسوان التي أصبحت قصبة ، ووصفت على أنها مدينة عظيمة بسبب ورود تجار أفريقيا إليها[٣٣]، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وأنها محط التجار القادمين من عدن ، كما نذكر أخميم مدينة هامة في الصعيد بعد قوص ؛ وقد بلغت عمارة الصعيد . في وقت المماليك أن من يمر من القاهرة إلى أسوان يجد في كل بلدة دور الضيافة[٣٤].

هذا المال المتدفق نتيجة للفهم الواعي لمسائل الاقتصاد وقتذاك ، قد مهد للرخاء والبذخ الذي عاشته الطبقة المملوكية بالذات؛ وعلى رأسها السلطان حتى أنه من كثرة الأموال كانت له خزانه خاصة، عرفت بخزانة الخاص[٣٥].

فقد أصبحت القلعة مقر حكمهم تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة ؛ بنيت في عهد سلاطين مختلفين. نذكر منها: القصر الكبير[٣٦] والقصر الأسود [٣٧]؛ والقصر الأبيض [٣٨]، والقصور الجوانية[٣٩] وعددها ثلاثة ؛ والقصر الأبلق [٤٠]. الذي به ثلاثة قصور ، والقصر المعروف بالأشرفية [٤١]. كما يوجد فيها دور خاصة بالحريم ومساكن المماليك السلطانية وأمرائهم بنسائهم وأولادهم ولعلها كانت في أبراجها ، التي سميت بأسماء منها البرج الأحمر[٤٢].

كذلك وجدت في القلعة أبنية متعددة لخزن ما يحتاج إليه سكانها وأبهة السلاطين، ففيها خزائن واسعة أو خانات [٤٣]. استخدمت في خزن البضائع أو في صنع الأشياء، وقد تأكد ثراؤها من وصف المؤرخين المسهب لمحتوياتها الثمينة التي جلبت من جميع بقاع الدنيا أو صنعت في مصر، وفيها حوانيت وأسواق وميادين ووكالات ضخمة كثيرة ؛ بحيث أصبحت القاهرة درة في جبين الشرق ، فهي المدينة ذات الألف مئذنة . فكان لهذه المباني موظف خاص يشرف عليها اسمه : شاد العمائر [٤٤]. ومعظمها تحمل علامات «رنك»[٤٥] السلاطين : أو من بنوها من أمراء المماليك.

وترجع أهمية الوكالات في العصور الوسطى إلى طبيعة القاطنين فيها في تجارة الكارم. فقد كانت بمثابة مراكز للتخزين والبيع والشراء، لذلك انتشرت الوكالات في مصر وعلى طول شواطئ البحر الأحمر[٤٦]. أما بالنسبة لوكالات الأجانب فقد تطورت إلى أبنية تؤدي معنى الحي ؛ حيث أصبح لكل جالية حي خاص بها يضم وكالتها. فقد كان لجاليات البنادقة حي في الإسكندرية يضم وكالتهم، يحتفظ فيها التجار بسلعهم ويدفعون عنها رسوما للدولة ويمارسوون حياتهم بحرية أوسع [٤٧].

وقد ترتب على انتعاش الحركة التجارية فى مصر بظهور تجارة التوابل لتعنى تاجر البهار، مصر نفسها، فكان يطلق عليهم عمومًا اسم: الكارم أو الكاريمى[٤٨] أو الكارمية- جمع كارمي- فكانوا أشبه بنقابة تجارية لهم رئيس اسمه : رئيس الكارمية أو وكيل التجار؛ أو حتى شهبندار التجار؛ حيث كانت هذه الرياسة في أسر معينة [٤٩]. ولعل اللفظ «كارم» قد أتى من اسم «كانم» الواقعة في السودان الأوسط ؛ بسبب أن تجاراً من هذا البلد عاشوا فى مصر، وتمصروا على مر الأجيال وتخصصوا بهذه التجارة ، فكانوا يبيعونها للتجار الأجانب [٥٠]؛ وأصبحت الكارم تطلق على أى تاجر يشتغل بتجارة التوابل بما فيهم النصارى واليهود[٥١]. ممن عاشوا فى مصر، حيث لدينا وثائق الجنيزة الخاصة باليهود، التى تشتمل على أسماء عائلات يهودية مغربية عاشت في مصر واشتغلت بهذه التجارة[٥٢].

وفى أول أمر: فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة؛ فكان الموظف الذى يشرف على جبايتها فى مصر سمي : ناظر تجار الكاريمى [٥٣]؛ أو مستوفى البهار والكارم، بل ولأهمية هذه التجارة؛ قد تضاف إلى تخصصات الوزير [٥٤]. الذى هو على رأس الإدارة ، بما فيها شئون المال. كذلك عمد بعض السلاطين إلى احتكار هذه التجارة عن طريق هؤلاء التجار[٥٥] ؛ أو عن طريق متخصصين ؛ يقيمون في موانئ مصر الكبرى مثل : الإسكندرية العظمى أو دمياط والبرلس ورشيد وعيذاب؛ وهذه الأخيرة كانت أعظم موانئ ساحل البحر الأحمر ؛ بسبب أن مراكب الهند تحط فيها البضائع [٥٦]. أما فى خارج مصر فى الإمبراطورية المملوكية. فقد كانت عدن؛ هى المرسى العظيمة من بلاد اليمن لهذه التجارة [٥٧]، ووجد فيها موظف مملوكى كبير اسمه : شاد الكريمى [٥٨]؛ ولقد وصف المؤرخ ابن فضل الله العمرى؛ حركتها التجارية حيث كان يأتيها التجار من الصين والهند والسند والعراق والبحرين ومصر والزنج والحبشة؛ فيحمل منها حمل الفلفل الذى يساوى خمسين ديناراً فى القاهرة ويباع فى الاسكندرية بثلاثين ومائة ديناراً. فقد كان سلاطين المماليك يحكمون اليمن بطريق مباشر، إذ كان همهم الأول أن يسيطروا على باب المندب [٦٠]؛ وساعد على ذلك أن طبيعة بلاد اليمن، انقسم بين حكام محليين متعددين، فكانوا يرسلون أسطولهم إلى زبيد، إحدى موانئ اليمن التجارية الهامة للمرابطة فيها، ولكن ظهر لحكام اليمن المحليين ميل للاستقلال عن سلطة المماليك؛ بحيث أصبحوا يكاتبون ملوك الصين [٦١]، ويتاجرون فى الفلفل لحسابهم [٦٢]. ومع ذلك فلدينا رسالة بتاريخ ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م من أمير سيلان- السيلان- إلى قلاوون، يبين

فيها أنه رفض أن يتاجر مع أمير من اليمن ليحجز كل تجارته لسلطان مصر ، ويطلب منه ارسال التجار المصريين وحدهم [٦٣].

وعلى كل حال، لما انحسر تدريجيا نفوذ دولة سلاطين المماليك فى اليمن فإن برسباى جعل ميناء جدة يحل محل عدن [٦٤]، وأصبحت أعظم مراسى الدنيا فى تجارة البهار [٦٥]، ووجدت فيها حامية مملوكية عسكرية وناظر وشاد لهذه التجارة. وأصبح متوليها يعرف بنائب جدة، ولقبه : نائب السلطنة الشريفة بالأقطار الحجازية ، يقيم فى مكان اسمه : دار النيابة وله سلطة مكاتبة ملوك الهند وغيرهم [٦٦]. ولأن حركة الملاحة فى المحيط الهندى ارتبطت بحركة الرياح الموسمية [٦٧] فقد أقيمت الفنادق لمبيت التجار فى الموانئ التى كان بها كثير من زوجات وعائلات تجار الكارم.

انتقلت الحركة التجارية من مصر ذات الرصيد الحضارى إلى موانئ الساحل الأفريقى، فكانت مقدشيو تعد من الموانئ المهمة على بحر الهند كما يسميه المقريزى وعندها تجارات الصومال والحبشة والسودان وشرق أفريقيا [٦٨]. لذا وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة أهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها [٦٩]. ومنها تحمل إلى مصر وغيرها على يد تجار الكارم [٧٠] وإلى الجنوب من مقدشيو، كانت توجد مالندى وهى فى تنزانيا الآن؛ وكان أهلها مسلمين وكثر فيها تجار الكارم الوافدون عليها لأنها كانت مركزًا تجاريًا لسلع داخل القارة التى كانت ترد إليها لتتولى هى القيام ببيعها إلى تجار الكارم من مصر [٧١]. وبالقرب من لندى وجدت أيضًا ممبسه وهى التى تحوى ميناء ضخم ترسو فيه السفن لجلب الحديد والنحاس والفضة على يد تجار الكارم [٧٢]. أما عن كلوة التى أصبحت بمثابة المركز الرئيسى لتجارة الذهب الذى كانت تحصل عليه بمبادلته بالأقمشة، فقد لعبت كلوة بمؤسساتها التجارية دور الوسيط التجارى بين منتجات داخل القارة وبين تجار الكارم الوافدين إليها [٧٣].

وإذا تركنا الساحل الشرقى لأفريقيا نجد قبالته إلى الشرق جزيرة مدغشقر [٧٤]؛ وهى حلقة من حلقات الاتصال لمكانتها التجارية وخاصة أشجار الصندل ووفرة العنبر فكانت مقصدا لسفن الكارم [٧٥] وعند مدخل خليج عدن جزيرة سقطرى التى عرفت بالعنبر [٧٦]، لذلك ازدهر الساحل الأفريقى ونمت تجارته بفضل تأثيرات الوكالات التجارية عبر البحر الأحمر، التى تمتعت بمعاملة حسنة؛ وكان لتحول التجارة عبر البحر الأحمر بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م أثر فى بزوغ ظفار كميناء مهم، حيث تحتل موقعًا يساعد على الاستفادة

من الطريق التجارى للبحر الأحمر. فهى ميناء داخل المحيط الهندى، يصلح لرسو السفن فى طريقها للبحر الأحمر وهى قادمة من الشرق(٧٧).

أما عن مراكز البحر الأحمر الشرقية (٧٨). فإذا عبرنا بحر «بربره» خليج عدن (٧٩)؛ نجد أن عدن هى الميناء الواقع بالقرب من مدخل الخليج ، وقد أطلق اسمها على الخليج فيما بعد(٨٠)؛ فهى مجمع تجارات عالمى للمحيط الهندى والبحر المتوسط، وأن كان ذلك لم يمنع بعض السفن الضخمة من المرور فى البحر الأحمر حاملة سلع الكارم لتصل إلى جدة(٨١).

واحتوت مدينة زبيد (شمال عدن) على تجار من الحبشة والحجاز والعراق ومصر، تعمرها فنادقها ووكالتها التجارية. كما كان لموقع بلاد الحجاز على البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام شمالاً واليمن جنوبياً وبمصر براً وبحراً أثر فى نشاط تجارة الكارم من اليمن وعبر بلاد الحجاز حتى وصلت إلى أراضى الشام ومصر والعراق واليمن والحبشة(٨٢).

ومن المراكز التى خدمت تجارة الكارم جدة التى تعتبر من أشهر الموانئ الحجازية وقد اشتهرت بأنها ميناء مكة على البحر الأحمر (٨٣). واستمرت الصلة التجارية قوية بين مصر وميناء ينبع حتى أن بعضاً من سكان هذا الميناء كانوا من الأسر المصرية الكارمية التي انتقلت إليه من صعيد مصر للتجارة(٨٤) كما خصصت السلطات المملوكية ميناء ايله (العقبة الآن) لمرور سلع الكارم القاصدة إلى الشام بعد سقوط القسطنطينية فى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م واقتصر ميناء الطور على سلع القاهرة(٨٥).

وإذا انتقلنا إلى مراكز البحر الأحمر الغربية نجد زيلع ، التي يروى ابن بطوطه أنها «مدينة البرابرة» ، وهم طائفة من السودان ، وأهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها ومنها تحمل إلى مصر على يد تجار الكارم(٨٦).

وكذلك كان ميناء زيلع مركز تجمع تجارة الحبشة والنوبة، وهناك أيضاً ميناء بربره القريب من زيلع الذى كان يتردد عليه فى مواسم تجارة الكارم حوالى ١٥٠٠٠ تاجر وكانت تتبع حاكم الحبشة (٨٧)، وكانت دهلك وهى قبالة مصوع بالقرب من ساحل البحر الأحمر الغربى وغرب مدينة حلى من بلاد اليمن- وكانت تعد من مملكة الحبشة المسلمة التى يدارى ملكها صاحب اليمن (٨٨).

ولعب ميناء سواكن دوراً مهمًا لتجارة الكارم (٨٩)، وهو الميناء المعد لتصريف منتجات الحبشة وبلاد النوبة والسودان . وكان من نتائج حملة السلطان بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م انهيار نفوذ سواكن وكثر تردد المسلمين فيها لدرجة أوجبت على السلطان استخراج الزكاة منهم. كما ورد ذكر ميناء سواكن في أثناء الصراع بين مينائي عدن وجدة فكانت سوء معاملة الرسول باليمن سببًا في توجه سفن الكارم إلى جدة، فتوجهت السفن إلى ميناء سواكن ودهلك غير أن المعاملة التي لقيها التجار لم تكن خيراً مما لقيها التجار في عدن وجدة فتوجهت السفن إلى ينبع . وكانت تصل متاجر سواكن إلى مصر بطريق البحر الأحمر(٩٠).

ولقد ارتبط ظهور عيذاب في العصر الفاطمي كميناء لتجارة الكارم بتطور الملاحة في البحر الأحمر في الفترة من سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م إلي عصر السلطان برسباى في سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م أى السنة التي خربت فيها ، وحلت محلها ميناء جدة(٩١).

ثانيًا : دور التجار المسلمين الاقتصادى والثقافى على ساحل شرق أفريقية، ومدغشقر وجزر القمر:

التقت سفن البحر الأحمر مع سفن المحيط الهندى، في رابطة تجارية متناسقة متداخلة منتظمة مكملة لبعضهما البعض (٩٢)، تصل مرافئها بمدنها، وبرز العرب المسلمون سادة التجارة البحرية في هذا المحيط ، بحيث كانوا تجار ومتجر عالم المحيط الهندى في تلك العصور، مارسوا التجارة في حرية الانتقال واستقرار. ولم يد المحيط أمانه واستقراره إلا بوصول البرتغاليين وما تلاهم من شرار المستعمرين (٩٣).

ويذكر دافيدسون "Davidson" أن إنتاج إقليم الزنج بأفريقيا يتركز في سن الفيل والذهب وخشب الصندل الأصفر ، وفى كل عام تأتي سفن التجار العرب إلي ساحل شرق أفريقيا للتجارة في هذه السلع (٩٤)، وإن كان د. طرخان يرى أن المجتمع الذى نشأ حول المستعمرات الحربية في ساحل شرق أفريقية لم يكن عربياً بحتًا. فقد ظل العرب كغيرهم من المستعمرين فى أفريقيا وغيرها من القارات يكونون طبقة أرستقراطية . وتعيش بجوار الهنود الذين كان لهم نشاط ملحوظ في الأعمال المالية والتجارية (٩٥).

ومنذ حوالى ٥٤٥هـ / ١١٥٠م أبحر العرب العمانيون والهنود والشيرازيون على طول الشاطئ الأفريقي (٩٦). كما حظى الوافدون من الديبل فى الهند بأهمية سياسية فى زنجبار

ويمبا[٩٧]. والأرجح أن الهنود كانوا يقومون بدور الصيارفة والملاحين [٩٨]، وقد وجد فاسكو داجاما في شرق أفريقيا بحارة من كمباى بالهند يرشدون أنفسهم بنجوم فى الشمال والجنوب [٩٩]. كما كان لهم أجهزتهم الملاحية التى ابتكروها بأنفسهم وكان ذلك عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م[١٠٠]. إن سيادة العرب الملاحية على المحيط الهندى ومعرفتهم بأسرار الملاحة، ومواكبة ذلك لانتشار الإسلام على سواحل وجزر المحيط الهندى، ووجود الجاليات الإسلامية فى أغلب مدن وموانئ المحيط «وكان دورها الرئيسى فى تلك المناطق هو الوكالات التجارية[١٠١] » جعلت الهنود وغيرهم ينسحبون من الميدان تاركين لفارسه الأوحد الذى تحمل عناء ومخاطر التجارة العالمية عن الهنود الذين جاءتهم بضائع العالم إلى بلادهم كما حملت سلعهم دون ركوب البحر ومكابدة المخاطر [١٠٢]. والمأثورات الشفاهية لها دلالتها [١٠٣]، ويمكنها أن تسد بعض الثغرات فى التاريخ عندما تنعدم الوثائق وتسكت المصادر؛ بالإضافة إلى دلالات المأثورات الشفاهية فإن التأثير الثقافى فى اللغة السواحلية يدل على مدى عمق الصلة بين دول المحيط [١٠٤]. ففى كثير من مفردات اللغة السواحلية دليل على تلك الصلة. فنجد على سبيل المثال فى إحدى حكايات الحب الشهيرة فى زيلع مركزًا تجاريًا هامًا فى العصور الوسطى- أن الخط الأساسى فى الحكاية يرتبط بالتجارة ومخاطرها فتصف تلك الحكاية أهوال المحيط التى يقابلها البحارة ومدى ما يتعرضون له من مخاطر ولهفة أحبائهم عليهم كذلك نجد صدى لمخاطر التجارة والملاحة في المحيط الهندى فى الأغنيات الشعبية وتقول كلماتها :

قد عادت السفن التجارية التى أبحرت .

من سوريا وزنزبار

أين السفن التى أبحرت إلى بومباى

هل تحطمت أم غرقت ؟

ويغنى الفتى أغنية تشير إلى الدور الذى تلعبه الرياح فى التجارة:

أنا مثلك أريد العودة فى الوقت المحدد، ولكن رياح الشتاء الشريرة.

قد سجنتنى بعيداً [١٠٥].

ويصور المقطعان التاليان من أغانى البحر حالة التجارة فى المحيط أفضل تصوير. لايستطيع الذاهب من شرق أفريقيا العودة فى موعد محدد ويعود التاجر من الهند بثروة وخبرة عظيمة[١٠٦].

وعلى الرغم من عدم وجود قوى ملاحية أفريقية تشارك فى تجارة المحيط، إذ لم تشر المصادر إلى سفن أو تجار أفريقية . إلا أن السواحل الأفريقية استمدت حيويتها ونشاطها وازدهارها بمشاركتها فى حركة التجارة العالمية باعتبارها المكان الذى تخرج منه المنتجات الأفريقية . ولم يقتصر دورها على التصدير فقط بل استوردت أيضًا كثير من المنتجات العالمية. وفضلا عن هذا كله كانت وسيطًا فى كل هذا بين الساحل والداخل . وبرزت المدن على الشاطئ الأفريقى متميزة بحضارة سواحلية تعكس مزيجًا من الحضارة العربية والفارسية والأفريقية وقد ساعدت تلك المدن التى تعددت ككيلوة وماليندى ومقدشيو وغيرها على ازدهار تجارة ما وراء البحار ونحوها ، على أن السمة الغالبة على تلك المدن كانت سمة الوسيط التجارى. فلم تشارك فى عملية النقل التجارى، كما لم تقم بعمليات البيع والشراء فى الموانئ الأخرى؛ واقتصر دورها فقط علي استقبال المنتجات أو السلع التجارية من أسواق وموانئ المحيط ، وأيضًا من وكالات مصر وغالبًا ما كان يقوم تجار من مختلف البلدان بالعمليات التجارية؛ وكان الدور الرئيسى فى عملية التجارة التى قامت به تلك المدن هو جلب منتجات داخل القارة إلى الساحل وأهمها : العاج وأصداف السلاحف والذهب وغيرها (١٠٧).

وكان ازدهار الحركة التجارية فى شرق أفريقية مع استقرار العديد من العناصر العربية بهدف تنشيط الرواج التجارى بدليل ما عثرنا عليه من نقوش دهلك التى وصلتنا منها أعداد كبيرة: إذ أن بعض النقوش عبارة عن آيات قرآنية شريفة وحكم وأدعية وبعضها الآخر غير مؤرخ (١٠٨)، ومنها نقش يتضمن اسم عبدالله بن سلام ، وبعضها نقوش مؤرخة ومنها نقش باسم شــهــرة (ت ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م) ونقش باسم الســيــد نعــيم (ت ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م)(١٠٩).

وهناك نقوش أخرى تشير أسماء أصحابها إلى أنهم من ذوى الأصول المسيحية وأنهم اعتنقوا الإسلام ومنها نقش باسم إبراهيم (كذا) بن يعقوب (ت ٦٢٢هـ / ١٢٦٤م) (١١٠).

ومما لاشك فيه أن وجود هذه النقوش إنما يؤكد وجود جماعات إسلامية مستقرة فيها بدليل وجود هذه الجبانة التى اكتشفت فيها تلك القبور فضلاً عن اكتشاف بعض المساجد فى تلك المنطقة ومنها مسجد Manakllou (١١١).

كذلك اكتشف عدة قبور بها نقوش شاهدية في جنوب «تجرى» ومنها نقش مؤرخ ب ٨ ذى القعدة عام ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م، مما يشير إلى وجود جماعات إسلامية مستقرة فى تلك

المنطقة[١١٢].

أما عن الهجرة الشيرازية فقد اختلف حول تاريخ وصولها إلى شرق أفريقيا فيرى البعض أنها كانت في النصف الثاني من القرن ٤هـ / ١٠م وبالتحديد في عام ٣٦٥هـ / ٩٧٥م[١١٣]. ويرى هتشنز استناداً إلى بعض التواريخ المحلية أنه كانت فيما بين عامي ٤٤٧-٤٩٤هـ / ١٠٥٥-١١٠٠م [١١٤]، بينما يرى فريق ثالث أن تلك الهجرة لم تحدث إلا في أواخر القرن ٦هـ/ ١٢م[١١٥].

والحق أن الأدلة المستمدة من النقوش الأثارية وبخاصة النقوش الإنشائية تثبت وتؤكد رأى هتشنز ومنها النقش الإنشائي لمسجد كيزمكازى الواقعة جنوب زنجبار، ويتضمن هذا النقش الصيغة التالية «بأمر الشيخ السيد ابن عمران مقوم الحسن بن محمد اطال الله حياته المديدة، اللهم اقض على اعدائه، تم بناء هذا المسجد في يوم الأحد من شهرى ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة[١١٦] ويدل تاريخ هذا النقش المهم وهو سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م - على وجود سلطنة كلوة الشيرازية خلال النصف الثاني من القرن ٥هـ / ١١م، وهو ما يتفق مع الروايات التاريخية؛ إذ تشير هذه الأخيرة إلى العلاقات الوثيقة بين كلوة وزنجبار في تلك الفترة.

فبعد أن هاجرت الجماعة الشيرازية إلى شرق أفريقيا وأسست سلطنة كلوة فى الربع الثالث من القرن ٥هـ / ١١م، حدث أن أغارت على كلوة قبائل البانتو الوثنية مما اضطر السلطان الشيرازى- الحسن ابن على أو ابنه على بن الحسن إلى الفرار والهروب إلى زنجبار، لكنه سرعان ما عاد إلى كلوة ثانية بعد فترة قصيرة ، وأخذ يعمل على توسيع قاعدة ملكة ودائرة نفوذه على حساب جيرانه فى الساحل الشرقى لأفريقيا [١١٧]، وعلى ضوء ذلك فمن المرجح أن منشئ هذا المسجد كان نائبًا عن سلطان كلوة فى حكم زنجبار وهو ما يؤيده ورود كلمة مقوم فى النقش وهى تعنى فى اللغة السواحلية ملك أى ملك زنجبار التابع لسلطان كلوة فى ذلك الوقت وهو الحسن بن محمد ومن المرجح أنه أحد أحفاد الحسن بن على أو ابنه على بن الحسن والذى يبدو أن عهده لم يكن مستقراً بدرجة كبيرة بدليل ورود عبارة «اللهم أقض على اعدائه» فى النقش الانشائى للمسجد. ومهما يكن من أمر فإنه قدر لسلطنة كلوة هذه أن تزدهر ازدهاراً كبيراً ولاسيما خلال القرنين ٧-٨هـ / ١٣-١٤م وهو ما تتفق عليه المصادر التاريخية والآثارية على السواء[١١٨].

كذلك تغلغل التجار المسلمون إلى داخل موزمبيق الحالية وزيمبابوى وقد أكدت ذلك المصادر الأثارية وبخاصة الخزفية الفارسية والصينية التى عثر عليها فى زيمبابوى مما يشير إلى وجود علاقات تجارية خلال القرنين ٧-٨ هـ / ١٣-١٤م مع المدن الساحلية وخاصة مع كلوة ومراكزها الأمامية فى الجنوب مثل سفاله(١١٩).

وإذا كانت النقوش الأثارية المتوافرة لدينا حتى الآن تعد قليلة بالنسبة لغالبية شرق أفريقيا كما سبق القول، إلا أنها ليست كذلك بالنسبة لأرخبيل دهلك حيث عثر على أعداد كبيرة من النقوش وبخاصة النقوش الشاهدية فى جبانة دهلك كبير وهى محفوظة حالياً فى العديد من المتاحف مثل المتحف الوطنى فى مودان بإيطاليا، ومتحف فرديناندو ومارتينى فى أسمرة بإرتريا ، ومتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، ومتحف تريفيزو بإيطاليا ، ومتحف بارلودوك بفرنسا، ومتحف السودان القومى بالخرطوم ، ومتحف الجمعية الأسيوية بالبنغال ، ويرجع تاريخ أقدم النقوش المؤرخة إلى عام ٢٩٩هـ/ ٩١١م وأحدثها إلى عام ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م، وهى مكتوبة بلغة عربية سليمة من الناحية النحوية وتتضمن عدة آيات قرآنية شريفة وفقاً للصيغ والمضامين المعروفة فى الأقاليم العربية الإسلامية المجاورة ، كما تتيح لنا هذه النقوش أن نعيد بصورة جزئية تكوين سلالة سلاطين دهلك وأسماءهم خاصة منذ القرن ٥هـ / ١١م(١٢٠) ومن المعروف أن دهلك كانت أول رأس جسر يقيمه المسلمون على الساحل الشرقى لأفريقيا، وتفصيل ذلك أن قراصنة البحر من الأحباش كانوا يغيرون على جدة، وقيل أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث فى عام ٢٠هـ / ٦٤٠م علقمة بن مجزر المدلجى فى مائتى رجل حملهم فى أربعة مراكب لتأديب القراصنة ، وقيل أنها كانت فى عام ٣١هـ / ٦٥١م أى فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد عرفت باسم غزوة الأساودة ، ومن الواضح أن الغرض من ذلك كان يتمثل فى تأمين البحر الأحمر حيث أن هذه الغزوة لم تسيطر على أى بقعة أفريقية (١٢١)، وعاود هؤلاء الأحباش الإغارة مرة ثانية على جدة فى خلافة عبد الملك بن مروان وبالتحديد عام ٨٣هـ / ٧٠٢م فما كان من الخليفة إلا أن أرسل حملة قوية نجحت فى السيطرة على أرخبيل دهلك على مقربة من مصوع ، وبذلك نجح المسلمون فى أن تكون لهم فى البحر قاعدة مهمة قامت بدور كبيرة سواء فى انتشار الإسلام أو فى الحركة التجارية.

كذلك اتخذت دهلك كمنفى خلال العصرين الأموى والعباسى حيث نفى إليها الأحوص الشاعر فى خلافة سليمان بن عبدالملك (٩٧-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م) بسبب قصائده الهجائية

والفقيه عراك بن مالك في خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ / ٧١٩-٧٢٣م)، كما نفى إليها الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٣-٧٤٢م) في أواخر عهده بعض الشخصيات التي لم تذكر المصادر أسماؤها وقيل أنهم ما كانوا يضعون أقدامهم على الجزيرة حتى توفى هشام وبويع الوليد الثاني، وفي العصر العباسي الأول نفى إليها ولد عبد الجبار والي خراسان في عام ١٤١هـ / ٧٥٨م أي في خلافة المنصور، وكانت دهلك على علاقة وثيقة بالدول الإسلامية المستقلة في اليمن وبصفة خاصة الدولة الزيادية والدولة النجاحية، وفي بداية ق ٤هـ / ١٠ قامت في جزر دهلك دولة إسلامية مستقلة اضطلعت بدور بالغ الأهمية في انتشار الإسلام في تلك المنطقة عامة وفي الحركة التجارية خاصة وتشير إحدى وثائق الجنيزة القاهرية إلى أن أحد التجار من منطقة طرابلس بليبيا وكان يسمى اللبيدي- نسبة إلى لبيدة- توقف في دهلك لأغراض التجارة وهو في طريقه من مصر إلى الهند وذلك قبل عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م [١٢٢]. وليس أدل على كثرة الوافدين من العرب المهاجرة إلى دهلك. واستقرارهم بها من تلك النقوش الشاهدية الكثيرة التي عثر عليها في دهلك والمحفوظة في العديد من المتاحف كما سبق القول.

وبعض هذه النقوش غير مؤرخة، ولكن يمكن حصر تاريخها فيما بين القرنين ٢-٤هـ / ٨-١٠م، وقد انتسب الأشخاص المنقوشة أسماؤهم على هذه النقوش إما إلى القبيلة أو الموطن أو المهنة كما أن بعضهم لم ينتسب إلى هذا أو ذاك، وحسبنا أن نذكر من بين هؤلاء وأولئك كل من فاطمة ابنة أحمد بن سعد المكي (ق ٢هـ / ٨م)، وأم أبو العباس محمد بن أحمد بن سعد المكي (ق٢ هـ / ٨م)، وعبيد بن يحيى بن عبيد الصائغ (ق ٢-٣هـ / ٨-٩م) وإبراهيم بن محمد بن سعد البغدادي (أواخر ق٢ هـ / ٨م)، وحمدونة ابنة المتوكل بن زيد (ق ٣هـ / ٩م)، ويعقوب بن يوسف بن إبراهيم المزني (أواخر ق ٣هـ / ٩م) ومحمد بن يعقوب بن يوسف المزني (ق ٤ هـ / ١٠م)، وإسماعيل بن أحمد المزني (أواخر ق٣ هـ / ٩م)، وعيسى بن محمد بن عيسى المزني (أواخر ق٣ هـ / ٩م)، وسداد بن عثمان بن عبدالله (ق ٣هـ / ٩م)، وعلى بن بشر زاد الفارسي (ق ٣هـ / ٩م)، أو أوائل ق٤ هـ/ ١٠م)، وأم خديجة ابنة أحمد بن عبد الرحمن (ق٣هـ / ٩م)، ورقية ابنة محمد ابن أحمد عبد الرحمن (ق٣هـ / ٩م)، وأم الزنجي محمد بن على بن الحسين ابن على الصفار (أواخر ق٣ هـ/ ٩م)، وأم أبي العباس بن فضل ين العباس بن الوليد (ق٤ هـ / ١٠م)، وأحمد بن أيوب محمد بن سليمان (ق٤ هـ / ١٠م)، وعائشة ابنة أحمد بن عبيد (ق ٤ هـ / ١٠م)، وأم إبراهيم ولد محمد بن

عثمان بن يحيى (ق٤هـ / ١٠م) وأم أحمد الرومي بن علي بن الحسين الصفار (ق٤هـ / ١٠م) وأم حرمية مولاة إسحاق بن إبراهيم البلاقي (ق٤ هـ / ١٠م) ، ويحيى بن الحسين المطرني (ق ٤ هـ / ١٠م) ويونس وقاسم ابني إدريس بن يعلوم (ق٤ هـ / ١٠م) ورقية ابنة عبد الرحمن بن محمد (ق ٤ هـ / ١٠م) ويحيى بن زكريا المدني (ق٤ هـ / ١٠م) وصفية ابنة ابراهيم بن غسان (ق٤ هـ / ١٠م) وأحمد بن عبيد البصري (ق٤هـ / ١٠م) ، ويوسف بن اسماعيل (ق٤ هـ / ١٠م) وأبي عبيدالله مصعب الزبيري (ق٤ هـ / ١٠م) ، و... بن مسلم القيسي (ق٤هـ / ١٠م)وأبي الحسن علي بن وصيف مولى يوسف بن اسحاق النجار (ق٤ هـ / ١٠م) وأم شعلان مولاة أحمد بن سعد الملكي (ق٤ هـ / ١٠م) ، ويحيى بن الحسين المصري (ق ٤ هـ / ١٠م) ، وفاطمة ابنة الحسن بن عيلان (ق٤ هـ / ١٠م) وأبي علي الحسن بن أحمد بن شكر (ق ٤ هـ / ١٠م) .

أما النقوش المؤرخة ، والتي تنحصر فيما بين عامي (٢٩٩-٩٤٦هـ / ٩١١-١٥٣٩م) كما سبق القول، فلا تختلف دلالات نسبة الأشخاص عن نفس الدلالات المشار إليها في النقوش غير المؤرخة وحسبنا أن نذكر منها كل من : يحيي بن عثمان بن عبدالله (ت ٢٩٩هـ / ٩١١م)، وأبو محمد عبدالله بن عباس (ت ٣٠٨هـ / ٩٢٠م) ، وأبي زكريا يحيي بن يعقوب بن يوسف المزني (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٣م) ، وأبي سعيد عثمان بن يحيي بن عثمان (ت ٣٢٣هـ / ٩٣٤م) وأم فاطمة أم ولد يحيي بن عثمان بن عبدالله (ت ٣٢٦هـ / ٩٣٧م) ، وفاطمة ابنة يحيي بن عثمان بن عبدالله (٣٢٦هـ / ٩٣٧م)، وفاطمة ابنة إسماعيل بن إبراهيم المزني (ت ٣٢٦هـ / ٩٣٧م)، وإسماعيل بن محمد بن أحمد الشامي القرشي (ت ٣٣٣هـ / ٩٤٤م)، وأبو عبدالله محمد ابن إسماعيل بن محمد بن أحمد الشامي القرشي (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) ، ووالدة محمد بن القاسم الوبار (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م)، وعبدالله بن يحيي (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م)، وحسناة ابنة حفص بن عمر بن حفص بن عمر اليماني (ت٣٦٩هـ / ٩٧٩م) و ... بن السرافي (ت ٣٨٩هـ / ٩٩٨م، وعبد الواحد بن الحسين الزيات (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) ، وخديجة ابنة الحرمي (ت٤٠٧هـ / ١٠١٦م)، ويحيى بن عبدالعزيز بن عمر البصري (ت ٤١٠هـ / ١٠١٩م) ، أم الخير ابنة العباس بن الفضل الحجازي (ت ٤١٦هـ / ١٠٢٥م) ومحمد بن موسى بن محمد القيسي (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، وكعب بن خليفة بن عبدالله بن محمد القيسي (ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) وخديجة ابنة عبدالله إبراهيم بن أحمد العثماني (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) ، وأبو محمد إسماعيل بن الحسين محمد بن هرون البصري (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) وحسناء ابنة عبد

الواحد بن الحسين ابن على الزيات (ت ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) ، أحمد بن عبدالله بن أحمد النجار (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) ومحمد بن اسحق بن جيدا (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) والحسين بن خليفة بن عبيدالله بن محمد القيسي (٤٣٨هـ / ١٠٤٦م)، وفاطمة ابنة محمد الخياط (ت ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م)، وعيسى بن على الغساني (ت ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م) ، وأم شعيب مولاة الحسين بن عبدالله بن أحمد الكندى (ت ٤٦٤هـ / ١٠٧١م)، والمبارك مولى عبدالواحد البغدادى (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م) وأم محمد بن إقبال مولى أحمد بن محمد التفليسى (ت ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م)، وعثمان بن عاصم البسطامى (ت ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م)، وعثمان بن غانم البسطامى(ت ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، وعبدالملك بن عيسى الأغماتى (ت ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م) ، والوليد مفرج مولى خلف بن البناء (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) وزينب ابنة الحسين بن إسماعيل بن عبدالله الجبيلى (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) ومحمد بن حسن بن عبد الرحمن بن محمد بن راشد الأندلسى البلنسى (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) ، وعلى بن الحسين بن على بن شعيب (ت ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) ، وعنبر مولى عبد الكريم بن إبراهيم بن محمد الملكى (ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) ، ومحمد ابن الحسين بن محمد بن الحسين الشعرانى (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م)، وولد بن سلامة بن سعيد الحرانى (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) وفاطمة ابنة مفرج مولى خلف بن مرزوق البناء (ت ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م)، وسليمان بن محمد ... القيسى (ت ٤٨٤هـ / ١٠٩١م)، وأحمد بن محمد... المزنى (ت ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) و ... بن على الجبلى (أو الجبلى) العكى (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) والعريف محمد ابن منبه بن سبيث الدهلكى (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م) ، والفقيه مسلم بن عيسى بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد بن يحيى العكى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) والشيخ سالم بن محمد بن حسن بن عبدالله الشحرى (ت ٦٠٧هـ / ١٢١٠م)، والناخذا رزق الله بن عبدالله الحبشى القرواشى (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م) ، وأم ... حسن مولاة محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد يحيى العكى (ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م)، والشاب التلميذ الزاهد أبى عبدالله محمد بن الشيخ سليمان بن نصر الكاتب بدهلك (ت ٦٣٢هـ / ١٢٤٣م) والشيخ الكبير أبو الحسن على ابن عيسى المنينى (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ، والشيخ سليمان بن نصر الكاتب بجزيرة دهلك (ت ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م)، وصفية ابنة على بن عيسى المدنى (ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م)، وجمال الدين محمد بن سعيد التهامى (ت ٨١١هـ / ١٤٠٨م) وغيرهم [١٢٣].

هذا فضلا عن أسماء سلاطين دهلك وأمهاتهم وأولادهم وأسماء بعض الوزراء والقواد ١٠ الموالى.

وهكذا، وعلى ضوء تلك النقوش الشاهدية، نستطيع أن نرسم صورة صادقة للمجتمع العربي الإسلامي بجزيرة دهلك فمن حيث تركيبته السكانية، كان هذا المجتمع يتكون في أغلب عناصره من أبناء القبائل العربية المهاجرة إليه من الجزيرة العربية وهو ما يتضح من نسبة هؤلاء إلى القبيلة أو الموطن مثل المزني والمكي والمدني أو المديني والحجازي والقيسي واليماني والقرشي والحرمي والكندي والعكي والشحري والتهامي. وقد جذبت الجزيرة إليها أنظار الكثيرين من أبناء الأقطار العربية والإسلامية الأخرى الذين وفدوا إليها من مختلف تلك الأقطار، ومن المرجح أنه كان وراء ذلك ازدهار الحركة التجارية بجزيرة دهلك مما دفع هؤلاء إلى القدوم إليها والاستقرار فيها، وهو ما يتضح من نسبة هؤلاء إلى مواطنهم الأصلية التي وفدوا منها مثل المصري من مصر والغساني والحراني والشامي من بلاد الشام والبصري والبغدادي من العراق والفارسي والسيرافي والبسطامي والتفليسي من إيران وآسيا الوسطى والسوسيي (إما من السوس بإقليم خوزستان أو عربستان الفارسي أو من إقليم السوس بالغرب الأقصى سواء السوس الأدنى أو السوس الأقصى وكان بينهما مسيرة شهرين على حد قول ياقوت الحموي في معجمه أو من سوسة في تونس وهو ما رجحته شنايدر). والأغماتي من المغرب الأقصى والبلنسي من بلنسة بالأندلس وغير ذلك.

ومن حيث الحرف والوظائف المختلفة تطالعنا هذه النقوش بأسماء الكثير منها مثل الصفار والصائغ والنجار والبحار والويار والخياط والزيات والبناء والكاتب والعريف والفقيه وغير ذلك، وهو ما يدل على أن الجزيرة كانت تتمتع بقدر كاف من الاكتفاء الذاتي فيما يتعلق بالحرف والصناعات المرتبطة بالحياة اليومية لسكانها.

هكذا ساهم العرب بحركتهم التجارية في الملاحة عبر ساحل شرق أفريقيا ووصولاً إلى مدغشقر وجزر القمر في منظمة مشتركة مع العناصر الوطنية من الأفارقة.

ثالثًا : أثر الحركة التجارية في انتقال التأثيرات السياسية والاقتصادية على ساحل شرق أفريقية:

شجعت الحركة التجارية التي وصل تأثيرها ساحل شرق أفريقيا والجزر الحيوية في مدغشقر وجزر القمر على زيادة الاتصال بين سكان هذه المناطق التي تنامي اقتصادها بشكل فعال [١٢٤]، فبرزت هذه العلاقات التجارية تشكل جزءا من عملية عالمية. وتكون في واقع الأمر فرعًا من الطريق التجاري الكبير الذي يربط الشرق بالغرب، وعلى هذا الطريق لم تكن الموانئ

الأفريقية الشرقية تمثل نقاطاً نهائية. فقد كان الطريق مستمراً إلى مدغشقر [١٢٥]؛ ولاجدال فى أنه كانت هناك علاقات بين الساحل وبين الأقاليم المحتوية على الذهب فى الداخل قرب بحيرة نياسا، فمن هناك كان يأتى الذهب الذى ينقل إلى كيلوه [١٢٦].

وابتداء من القرن الرابع عشر، خضعت بعض المناطق التى تحتوى على الذهب فى سوفاله لسلطة سلاطين كيلوه الذين كانوا يعينون حكامها [١٢٧] وتشهد الاكتشافات الأثرية فى منطقة الساحل على قدم هذه الصلات التى تمثلها الوكالات التجارية، ولاشك أن المناطق الحاوية للذهب قرب الزمبيزى (فى أراضى زامبيا) كانت هى الأولى التى أقيمت معها علاقات تجارية، وهو الأمر الذى يدل عليه اكتشاف أصداف الودع (الغورى) التى كانت تبادل بالذهب والعاج فى غوكوميرا وكولومو[١٢٨].

وفى أراضى كينيا الحالية فى منطقة أنغاروكا دلت الحفريات على وفرة أصداف الودع الغورى فى قرية تجارية بالإضافة إلى الحلى الزجاجية (القرنين الخامس عشر والسادس عشر من نفس النمط الذى وجد فى كيلوه وفى مدن الساحل الأخرى[١٢٩].

وهناك شاهد مباشر على وجود حركة تجارية لها صلة مع المناطق الداخلية؛ فيخبرنا الإدريسى (الذى يرجع إلى القرن الثانى عشر) بقوله : «نظرا لأنه ليس لديهم دواب فإنهم كانوا ينقلون حمولاتهم بأنفسهم، فقد كانوا يحملون بضائعهم على رؤوسهم أو على ظهورهم حتى يبلغوا مدينتى ممباسا وماليندى وهناك يبيعون ويشترون [١٣٠].

لعبت أصداف الودع (الغورى) دوراً فى عملية التبادل كنقود فى هذه العلاقات التجارية، وهذا ما يؤكده عمليات الحفائر الأركيولوجية حتى فى داخل القارة الأفريقية[١٣١] ومثلما عثر على الخرز الزجاجية والبلورسلين الصينى، واكتشف أنواع جديدة من القطع المعدنية فى المناطق التى كانت منها التجارة أشد كثافة وأكثر تعاملا : ويرى شتيك "Chittick" أن صناعة النقود عرفتها كيلوه ومقدشيو إذ ظهرت فى كيلوه مع وصول الأسرة الشيرازية إلى السلطة والتى يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثانى عشر: وكانت قطع النقود هذه من البرونز ومن الفضة . وحمل المثال الوحيد من النقود التى عثر عليها فى مقدشيو عكس قطع النقود التى وجدت فى كيلوه تاريخا هو ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م[١٣٢] وعثر على قطع من النقود فى كثير من المراكز التجارية الكبيرة فى كيلوه كيسوانى ومافيا وفى كيلوه فى جزيرة جوانى وفى جزر زنجبار وبمبا ، كما نجد بضعة نماذج لها فى كينيا مما تعكس هذه القطع النقدية صورة الوكالات التجارية فى الساحل وفى الجزر المجاورة لها ؛ وتوضح كبر حجم العمليات

التجارية[١٣٣].

لقد كانت التجارة وهى أكبر مصدر للربح هى سبب ثروة مدن شرق أفريقيا وأساس التطور الاجتماعي والثقافي للمجتمع السواحيلي، وقد أتاحت التجارة بحكم طبيعتها ذاتها للسواحليين الاتصال بحضارات مختلفة والاقتباس منها وتعني بذلك الحضارات العربية والفارسية والهندية[١٣٤].

كانت سلع التجارة التى تجذب مجتمعات البحر الأحمر من المدن الساحلية كثيرة ومتنوعة؛ ولكن أهمها العاج وأصداف السلاحف والعنبر والبخور والتوابل والذهب والحديد[١٣٥].

وكانت موانئ شرق أفريقيا تعرف منذ بواكر تاريخها بصادراتها التى كان معظمها يتألف من المنتجات الطبيعية كالعاج الذى وصلت صادرته حتى الصين[١٣٦] والعنبر وجلود الفهود. وأصداف السلاحف . وقد بدأ تصدير الذهب من المناطق الجنوبية فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى؛ واشتهر ساحل بندار بصادراته من البخور والعطور والزيوت العطرية مثل البلسم والمر[١٣٧].

ومع نزول الهجرات العربية إلى مدغشقر وجزر القمر أخذوا يصدرون الأواني المصنوعة من الحجر إلى كيلوه وماندا وما وراءهما [١٣٨].

وكان الفلفل والزنجبيل والقرفة من التوابل المطلوبة فى الأسواق العالمية هذا بالإضافة إلى الهيل والخولنجان والاهليلج وكلها دخلت بصفة أساسية فى صناعة العقاقير الطبية وفى الأغنية والمشروبات [١٣٩]. ومن الأخشاب ذات الرائحة الذكية والتى شاع استعمالها بكثرة خشب الصندل الذى كثر في جزر المحيط الهندى بمدغشقر وجزر القمر؛ بالإضافة إلى اللؤلؤ والجواهر [١٤٠]؛ وما يزال عدد كبير من الأسئلة مطروحًا على بساط البحث كيف كانت تجمع المنتجات التى تصدرها المناطق الساحلية والجزر نحو مجتمعات البحر الأحمر، وكيف كان يتم طوال تلك القرون تنظيم تجارة العاج؛ وتجارة جلود الحيوانات فهل كانت توجد وكالات تجارية مترابطة لنقل تلك المنتجات ومن هم الوسطاء الذين كانت تمر عبرهم، وما هى المنتجات التى كانت فى مقابل ذلك تصل إلى داخل القارة انطلاقا من الساحل الشرقي وجزر القمر ومدغشقر .

أكدت الدراسات الحديثة حول نشاط الحركة التجارية فيما بين مدغشقر وجزر القمر والساحل الشرقي من القارة بوصول العديد من التأثيرات إلى هذه الجزر، وقيام مدغشقر والقمر بتوزيع الأدوات المصنوعة من حجر الصوّان إلى ساحل كيلوه [١٤١].

رابعا : انتقال التأثيرات عبر ساحل شرق أفريقيا إلى مدغشقر وجزر القمر:

مع ازدهار التجارة بساحل شرق أفريقيا ، وتفتح الثقافة البحرية السواحلية، ترددت جماعات من المسلمين القادمين من هذا الساحل الشرقي من أفريقيا على جزر القمر ومدغشقر وأقيمت حركة من التبادل بين ضفتي قنال الموزمبيق (١٤٢). كما أوضحنا سابقًا، وكانت هذه العلاقات على أحسن ما يرام، ومع استقرار الجاليات من السكان المسلمين في أرخبيل القمر وفي بعض المناطق من مدغشقر والقمر (١٤٣). وهم يحتلون جزءًا بمثابة مراحل بين الحركة التجارية السواحلية القائمة على ساحل أفريقيا الشرقي، وبين مدغشقر ، محافظة على تقاليدها الثقافية المحلية، أما في مدغشقر ذاتها فلابد من التنبه إلى وجود فوارق جزئية ، فالجنوب الشرقي، وهو أبعد المناطق عن مراكز إشعاع الحضارة السواحلية ، قد أدمج تدريجيًا ضمن المجموعة الملجاشية مع احتفاظه ببعض السمات المتميزة ، وبالمقابل في الشمال الغربي استمر سليلو الجماعات التي اتخذت الطابع الإسلامي : وهم الذين بقوا على صلة وثيقة بإخوانهم في الدين تجار جزر القمر ووكالات أفريقيا ، ما زالوا يحافظون حتى الآن على أصالة حقيقية تضفيها عليهم أنسابهم وشيمهم وتقاليدهم بصفتهم من مرتادي البحار(١٤٤).

وتتحدث روايات قمرية وملجاشية عن وصول أجدادهم الأوائل وهم المنتسبون إلى أصول عربية . هاجروا نتيجة الضغط السياسي والعقائدي. وتشير رواية قمرية أن مسلمين سينين وصلوا إلى جزيرة أنجوان حوالي القرن الرابع عشر : بفعل الهجرة من بلاد فارس هربًا من هيمنة الزيديين (١٤٥). وتعكس هذه الروايات تعلق هذه الأطراف بالانتساب إلى أشهر مراكز الإسلام بغية التمكن من فرض نفسها وإبراز أصالتها العربية والإسلامية في آن واحد(١٤٦).

ولئن كانت الروايات الشفاهية تلح على الأسباب الدينية في تفسيرها لرحيل جماعات من العرب فسرعان ما كان لجانبية جزر القمر ومدغشقر تأثير قوى جدًا على استقطاب العديد من المهتمين بتجارة العالم السواحيلي . بيد أن دراسة الرحلات البحرية العربية في غرب المحيط الهندى، ومعرفة وكالات الشرق الأفريقي ووجود تقاليد ثقافية في جزر القمر، وفي شمال غرب مدغشقر وهي ما تتشابه مع تقاليد العالم السواحيلي ، وما تم اكتشافه في مواقع شرق الجزيرة وجنوب شرقها من آثار تشهد شهادة ساطعة على وجود علاقات تجارية بين

البلد والموانئ الأفريقية(١٤٧).

لقد عرفت المدن والجزر الموزعة على الساحل الأفريقي الممتد من مقدشيو إلى سفالة حركة تجارية حتى من قبل استقرار جاليات إسلامية. وهذه الموانئ المتجهة نحو البحر أكثر من اتجاهها نحو الداخل . والتي أخذ ازدهارها يبرز بداية من القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد لعبت الوكالات التجارية دور محطات بين الجزيرة العربية- بل بين الهند- من ناحية، ومدغشقر وجزر القمر من ناحية أخرى، زد على ذلك أن العديد من النازحين المسلمين الذين كانوا يقدمون إلى هذه البلاد كانوا متشبعين كثيراً بالثقافة السواحلية؛ وكان دورهم أساسياً في نشر الإسلام في الجزيرة(١٤٨).

وتتشابه وكالات الشمال الغربي الملجاشي ووكالات القمر مع مدن الساحل لشرق أفريقيا، سواء في ملامحها أو في نمط عيش سكانها ، والأطلال المتبقية مع القلاع المحصنة وآثار الجوامع والدور العتيقة التي لا تزال موجودة في أنجوان بأبوابها المزدانة بزخارفها : لتشهد كلها بحياة طبعها الإسلام بعمق . كما تشهد بالحضارة العربية في المحطات التجارية في موتسامودو، وأواني ودوموني وسيما (١٤٩). وقد خلف البرتغاليون على الرغم من آرائهم الاستعمارية ، أوصافاً مهمة لحياة موانئ شمال غرب مدغشقر في بداية القرن السادس عشر من ذلك أنهم كتبوا في حديثهم عن محطة نوزي لانجاني، إحدى المحطات التجارية الأكثر أهمية : «إن سكانها (سكان لولانجانة) يتألفون من مسلمين هم أكثر تمدناً وأكثر ثراء من الذين يقطنون كل النقط الأخرى من الساحل ، لأن مساجدهم وجل منازلهم كانت مبنية من الحجر الجيرى ولها سطوح على طريقة كيلوة وممبسة(١٥٠) وقد اكتشف في موقع ماهيلاكا بقايا من تحصينات شبيهة بتحصينات الساحل الشرقي من أفريقيا. وقامت بالخلجان العميقة التي تكثر في الشاطئ الشمالي من الجزيرة مثل خلجان امبازينداڤا . وما هاجيمبا. وبونيا سلسلة من الوكالات التجارية (ماهيلاكا ، وسادا، ونوزى، ولانجاني، ونوزى بونيا) لها علاقات متينة بجزر القمر وبأفريقيا وتساهم في الثقافة البحرية السواحلية(١٥١).

وعلى الرغم من المنافسة الأوروبية بداية من القرن السادس عشر فقد ظلت الجاليات الإسلامية تمارس دورها في نشاط مدغشقر .

أما عن جزر القمر وبخاصة جزيرة أنجوان فقد استقبلت إندونسيين وبانتو، فإن هؤلاء قد اكتسحتهم موجات متعاقبة من الداخلين في الإسلام. أصلهم من ساحل شرق أفريقيا(١٥٢).

وتؤلف جاليات المسلمين في شمال غرب مدغشقر جماعة الأنتالاوتسيه وهي جماعة

والخلاصة :

تشهد هذه الفترة المنوطة بالدراسة أن ساحل شرق أفريقيا وجزر القمر ومدغشقر قد بلغا مرحلة من الازدهار بد أن أرسيت الوكالات التجارية وهي التي انتقلت من موانئ البحر الأحمر خلال فترة الرواج الاقتصادى عصر دولة سلاطين المماليك؛ وهى التى احتضنت التجارة الكارمية خلال فترة ثلاث عقود من الهيمنة الاقتصادية ؛ انعكست علي موانئ الساحل الغربي فى البحر الأحمر فى سواكن ومصوع وعصب . وأصبح ميناء عيذاب واحدا من أعظم موانئ العالم من حيث عدد المترددين عليه، وهو ما جعل دولة سلاطين المماليك تولي الاهتمام بالتوجه المصري نحو الجنوب وأقصد به أمن البحر الأحمر من النظرة الإقليمية واحتواء مملكة المقرة المسيحية فى سياسة الردع العسكرى دون موادعة أو أمان فى بقط لا جدوى منه .

وتنشط الحركة التجارية عبر ساحل عدن ومنطقة شرق أفريقيا وصولاً إلى ذهب سفاله فقد كان لذهب سوفاله الذى تشرف عليه كيلوه الصدارة فى تلك التجارة؛ حيث قدر الإنتاج طيلة هذه القرون بعشرة أطنان سنوياً؛ وكانت المراكب تحمل إلى الساحل منتجات شتى تؤكد المصادر أهميتها ومن ضمنها الودع الغورى والملابس والحلى المصنوعة من الزجاج إذ كانت تباع للأفارقة بأثمان مرتفعة .

إذا كان عصر دولة سلاطين المماليك يمثل أوج الازدهار لتجارة الشرق الإسلامى فقد مثلته هذه الحركة التجارية التى أرست القواعد والأسس التى قامت عليها وكالات المحيط الهندى التى أرسيت فيها أسس ثقافة أفريقية، بنيت عليها بعد ذلك الثقافة السواحلية الغنية. لقد بدأ التطور السياسى والاجتماعى لشعوب الساحل الناطقة بالبانتو يتأثر بقيام التجارة الدولية فى المحيط الهندى؛ وقد تجلى القدر الأكبر من هذا التأثير فى المجال الاقتصادى، حيث أخذت الحياة السياسية والثقافية والدينية تتشرب الأفكار والقيم التى جاء بها المهاجرون من البلدان الإسلامية.

أثبتت الدراسة أنه فى عصر دولة سلاطين المماليك حافظت على إحكام قبضتها على شبكة الطرق البحرية الحيوية فى البحر الأحمر إلى مناطق الساحل الشرقى من القارة وجزر المحيط الهندى وبقدر نجاحها فى الهيمنة الاقتصادية واحتواء تجارة الكارم، فقد أسهمت فى وجود طبقة من التجار الأفارقة مسلمين كانوا أو غير مسلمين لعبوا دوراً فى أسباب التواصل بين

منطقة المحيط الندى ومجتمعات ساحل البحر الأحمر ؛ حتى وصول البرتغاليين واحتكارهم لتجارة التوابل .

وتبرز أهمية جزر القمر ومدغشقر فى أنها مزيج من الأفارقة والعرب ، فإن الثقافة المحلية توحد بينهم بفضل الدين الإسلامى .

كما اعتبرت تلك الجزر بمثابة وكالة تجارية لعبت دوراً اقتصادياً فى الوساطة التجارية بين تجارة المحيط الهندى ومراكز البحر الأحمر وخاصة مصر وشبه الجزيرة العربية.

ملاحق البحث

الخرائط والأشكال التوضيحية

شكل رقم (١) : التجارة الداخلية وعبر المحيط للمدن الساحلية بشرق أفريقيا بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر

المصدر : ف . ف . ماتفييف : ص ٤٦٦

شكل رقم (٣)

مدغشقر : اتجاهات الهجرة والاستيطان . المصدر : ف . ليزوالبلوماندروزو ، بمعاونة ت . راجاونا وباستخدام أطلس

مدغشقر . س . لياش وأطلس شعوب مدغشقر (ف . رامياندرازوا) .

ملاحظات : وصلت أخر موجات الأندونيسيين بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وكانت القاعدة الرئيسية للشعوب المسلمة (سواحيلي وعرب) في جزر القمر ومنها داروا حول الجزيرة عن طريق الشمال .

عن : ليزوالبلو ماندروز : مدغشقر والجزر المجاوره ، م. الرابع ، اليونسكو ١٩٨٨ ، ص ٥٩٦

شكل (٤) الجماعات الإثنية في مدغشقر

المصـــدر : أخـــذت هـــذه الخريطة عن خريطة مدغشقر الوارده في Early Kingdoms in Madagascar, 1500 - 1700

ك . كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندي . اليونسكو ١٩٩٧ ، م . الخامس ، ص ٩٣٩

هوامش البحث

١- يحتل البحر الأحمر الشقة المائية الضيقة التي تفصل بين آسيا وأفريقية، ويقع في أخدود ممتد من جنوبي سورية إلى تنجانيقا ؛ ويمتد مسافة طولها ١٥٠٠ ميل، ويتراوح عرضه ١٩٠ ميل عند مصوع و١٤ ميلا في منطقة باب المندب ويصل عمقه في بعض المواضع أكثر من ٦٠٠٠ قدم انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ، ج١، ص١٦ ؛ عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة بالقاهرة، ١٩٧٦، ص١٠، ١١ ؛ محمد حسين الزبيدي : هجرة العرب والمسلمين إلى شرق أفريقيا، بدايتها الأولى، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث والعشرون، ١٩٨٣، ص١٠٤ ؛ انظر تعريف أرض الزنج ومنطقة ساحل شرق أفريقية السر سيد أحمد العراقي : أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة أم درمان الإسلامية، العدد الثاني ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤ م، أم درمان، ص٢٥؛ المؤلف نفسه : معالم الحضارة الإسلامية في ساحل شرق أفريقيا في العصور الوسطى، مجلة دراسات أفريقية ، المركز الإسلامي الأفريقي بالخرطوم، العدد الثاني، ١٩٨٦ ، ص٨٣ .

٢- من المرجح أن العرب هم أصحاب تسمية جزر القمر، فيذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» أن «القمر بالضم ثم السكون: جمع أقمر ، وهو الأبيض الشديد البياض، ومنه سمي القمري من الطير.. وقمر بلد بمصر والقمر أيضاً جزيرة في وسط الزنج ، وليس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها، فيها عدة مدن وملوك ، كل واحد يخالف الآخر. انظر : الحموي : معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ج٤ ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ ، ص٤٥٠؛ السيد فليفل : التطور التاريخي لجزر القمر، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ٢٠٠٢، ص٤٧ ؛ وجزيرة قنبلو أو مدغشقر هي نفسها جزيرة الأقجية التي أشار إليها الإدريسي الذي عاش في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد وقال إن «أهلها أخلاط وإن الإسلام غلب عليها» انظر : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نسخة مصورة بجامعة القاهرة بدون تاريخ، ص٣٤ .

٣- يذكر أن ابن فاطمه بلغ ساحل سفالة الزنج، وعرف جيداً جزيرة مدغشقر انظر:

Ferraud, G., Relation de voyages et textls Geographigues Arabes, Persans et turks relatifs a l'Extreme - Orieut du XIII siscles paris 1914, pp. 217-320 .

أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب، العدد ١٣، ط . عالم المعرفة الكويت، ١٩٧٩، ص٧٤ .

٤- أن سكان جزر القمر الأربعة : نجازيجا (أنجزيجة) وأنجوان ومايوت وموهيلي ، مزيج من العرب والجاويين والشيرازيين والأفارقة ، وقد نزلها عرب المنائرة وغيرهم من قبائل عمان، وحضرموت واليمن؛ انظر : سعيد المغيري: جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر ، مصر ١٩٧٩ ، ص٣٠٤ -٣٠٥ ؛ انظر الخريطة شكل رقم (٢) .

٥- انظر : ف. ايزوافيلو ماندروزو : مدغشقر والجزر المجاورة من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ، المجلد الرابع اليونسكو. دراسات ووثائق ، ط بيروت ١٩٨٨ ، ص ص٦٠٢-٦٠٣ ؛ وانظر أيضا : ماساو وهنرى و. موتورو : ساحل أفريقيا الشرقي وجزر القمر ، اليونسكو، المجلد الثالث، الطبعة الثانية ١٩٩٧، في ٦٧٦ .

٦- انظر الخريطة شكل رقم (٤٠٣) بملاحق البحث ؛

Verin, P., : les antiquites de l'ile d' Anjauan, B AM (1967 a) v 45, I, pp. 69-80.

٧- آمال العمرى : المنشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكي، جامعة القاهرة، كلية الآثار ١٩٧٤، (مخطوط رسالة دكتوراه) ؛ أبي حامد المقدسي الشافعي: الفوائد النفيسة الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، تحقيق آمل العمرى، ط . هيئة الآثار ١٩٨٨، ص١١-٣٧ .

٨- مجاهد توفيق الجندى: أهم الوكالات في مدينة القاهرة ودورها الحضارى، مجلة المؤرخ العربي، العدد التاسع، المجلد الأول مارس ٢٠٠١م، ص٤٤٩ .

٩- محمد عبد الغني الأشقر : تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

١٠- Chittick, H.N. (1974), kilwa an Islamix trading city on the East African coast, 2 vol (Nairobi : British Institute in Eastern Africa.

١١- قامت دولة سلاطين المماليك نتيجة لهزيمة حملة لويس التاسع على مصر في منتصف القرن الثالث عشر، ثم تدعم وجودها نتيجة للانتصار على المغول في معركة عين جالوت بعد ذلك بعشر سنوات ؛ ومنذ ذلك الحين بدأت تفرض سيادتها على المنطقة العربية لقتال الصليبيين ثم اكتسبت مكانتها بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة انظر: قاسم عبده قاسم: علاقة مصر بالحبشه في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م) : (العرب في أفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر)، دار الثقافة ١٩٨٧، ص٥٨ .

١٢- قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك . الطبعة الثانية ١٩٨٣، ص١٦-١٧ .

١٣- ابن خلدون: المقدمة، ط. القاهرة ١٣٢٢ / ١٩٠٤ ، ص٤٥٣ .

١٤- عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، دراسة شاملة للنظم السياسية، ج١ ، الأنجلو المصرية ١٩٧٩، ص١٢٣ .

١٥- القيساريات من الأبنية التي شاع استعمالها في مصر في العصر المملوكي للأغراض التجارية . إذ أن قياسر التجار للكسب واستثمار الأموال، وتعلوها الرباع للتجار والصناع . كما أنها مسقوفه . وهي غير السوق الذي لايشترط فيه أن يكون مسقوفًا : وفي القياسر تنتشر المصانع الصغيرة ، وإن كانت كذلك تعرض السلع للبيع بالجملة ولكل فئة من التجار أو الصناع مكان معين، وقد ظهرت في الشام قبل مصر ولعلها مأخوذة من كلمة قيصرية Cesaire ومن أشهر القيساريات: قيسارية الشرب وقيسارية الفاضل وقيسارية بيبرس وقيسارية بكتمر . نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣، ص٢٩٥-٢٩٦ ؛ صالح لمعي مصطفى: التراث الإسلامي المعماري في مصر بيروت ١٩٧٥، ص٧٥ ؛ كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠، ص٥٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، الإسكندرية، منشأة المعارف ١٩٨٦، ص٢٠٩ ؛ مجاهد توفيق الجندي: أهم الوكالات في مدينة القاهرة ودورها الحضاري، مجلة المؤرخ العربي ، العدد التاسع، المجلد الأول ٢٠٠١ ، ص٤٩٧ (حاشية ١٧) . ويشير المقريزي أن القياسر لابد أن تكون مسقوفة أما التي لايبنى فوقها مساكن فتكون مكشوفة . الخطط ج٢ ، ص٨٨ ، ٨٩ ؛ محمد عبد الغني الأشقر : مرجع سابق، ص٢١٢ .

١٦- «الوكالات» ظهرت مبانيها لأول مرة في عهد الفاطميين لتعني أماكن للتجار الشرقيين ، وكثرت في أيام المماليك وإحداها كانت تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة للنوم فوق المخازن، والأسواق مجموعة من حوانيت قد احتوى إحداها على اثني عشر ألف حانوت . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٣٢٢ ؛ ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر. ج١ ، الأنجلو المصرية ١٩٧٣، ص١٧١: نفسه : نظم دولة سلاطين المماليك ، ج١ ص١٢٣ ؛ رفعت موسى محمد: الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، الدار المصرية اللبنانية ، ط. أولى ١٩٩٣، ص٥٢ وما بعدها . انظر شكل رقم (٥) بملحق البحث .

١٧- اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandnkeium نقلت إلى اللغة الإيطالية لتدل على المبنى الذي أسفله مخازن وأعلاه حجرات نوم لسكنى الأجانب . انظر: الخطط، ٣ ، ص١٤٩ وما بعدها ؛ نعيم زكي: مرجع سابق ، ص٢٩٠: صبحي لبيب : التجارة الكارمية المجلة التاريخية المصرية، المجلد، ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص١٢ .

١٨- أما الأجانب من العرب والشرقيين فكانت لهم فنادق في القاهرة وأهمها : فندق الملك السعيد بدار الرمان وتعلوه رباع واسعة، وفندق عمارة حيث نزل تجار الشام، وفندق دار التفاح لتجارة التجزئة في سلع الفاكهة الواردة من الشام والتي تصله من وكالة قوصون وحوانيت الفنادق مسقوفة ، وكذلك فندق مسرور ظل باقيًا حتى أواخر العصور الوسطى، وللتجار الكارمية فندق بالقاهرة على شاطئ

النيل تجاه الفسطاط، وقد أوقف الفندق لسكناهم انظر: المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص١٥٢؛ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ط. بولاق ١٨٩٣ ، ج٤ ص٤٠ ؛ محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون، القاهرة ١٩٤٧ ، ص٣٢٦ ؛ نعيم زكي : مرجع سابق، ص٢٩٣ .

١٩- لم يكن للأجانب فنادق بالقاهرة ، والحالة الوحيدة التي سمح فيها بإقامة فندق كان لتجار بيزا عام ١١٥٤ ، كما كان للسياح والحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة وكذلك التجار خان خاص لمبيتهم وليس فندقًا بالمعنى المعروف بالإسكندرية وبه مكان لأمتعتهم وسلعهم وقلة هذه الأبنية للأجانب بالقاهرة ترجع إلى أن السلاطين كانوا يحرمون عليهم شراء التوابل والسلع الشرقية من أسواق القاهرة لذا لم يكن هناك داع لوجودهم فترة طويلة بالقاهرة . انظر : بيبرس المنصوري الدواداري : التحفة المملوكية في تاريخ الهجرة: نشر Pomer ١٩٦٠ ، وتوجد نسخة خطية وهي الجزء التاسع بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٨ ، ٢٤ ، وحققته زبيدة محمد عطا ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص٤١؛ ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك، ص٢٩٣ .

٢٠- ابن بطوطة : الرحلة، ط. القاهرة ١٩٦٦ ، ص١٣٦ .

٢١- انظر ماجد : التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك، ص٢٩٣ .

٢٢- زبدة، ص٢٨ .

٢٣- نسبة إلى الأمير جهاركس الخليلي ت ٧٩١ / ١٣٣٩ أحد أمراء برقوق : الخطط، ٢، ص٩٤ ، ١٥٠؛ نعيم زكي : طرق التجارة ، ص٢٩٥ .

٢٤- انظر Guest and Richmond Miesr in the fifteent century , J.R.S; 1903 , p. 79 .

ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٦ ، ص٢٤ ؛ وانظر أيضا ما ذكره عن مدينة القاهرة ص٢١-٢٥ .

٢٥- انظر : أق بغا الخاسكي (كاتب السلطان الغوري) : التحفة الفاخرة في ذكر رسوم خطط القاهرة ، مخطوط (في B.N) برقم ٢٢٦٥ .

٢٦- يصف بيلوتي الكريتي Pilote de crete مدينة القاهرة بأنها أكبر مدينة في الدنيا ، انظر : Dopp (P.H) L'Egypt au commencement du quanzieme siede (le Caire 1650), p. 3 .

٢٧- ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢١-٢٥ .

٢٨- طافور : رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ١٩٦٨ ، ص٩٧ ؛ قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص٣٢ .

٢٩- رحلة ابن بطوطة ، ص٣١ ؛ المقريزي: الخطط ، ج١ ، ص١٦٢ .

٣٠- انظر : ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج٥ ، صفحات ٢٥-٢٦ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٧١ ، ٨١-٨٢ ، ٩٩-١٠١ .

٣١- أحمد السيد دراج: عيذاب ، مجلة نهضة أفريقيا، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٨ ، العدد التاسع والعاشر، ص٥٥ ؛ بشير إبراهيم بشير: الفاطميون والبحر الأحمر مجلة كلية الآداب ، جامعة الخرطوم، العدد الأول ١٩٧٢ ، ص١٤٩ ، ١٥٠؛ كرم الصاوى باز: ممالك النوبة فى العصر المملوكى اضمحلالها وسقوطها وأثره فى انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م؛ رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٩١، ص١٤ ، ٤٧ .

٣٢- إقليم قوص فى العصر الإسلامى مترامى الأطراف تبلغ مساحته فى الطول كما يقول الادفوى - مسيرة اثنى عشر يومًا سير الجمال السير المعتاد، وأما عرضه فثلاث ساعات وأكثر وأقل بحسب العامر من الأماكن ويمتد شرقًا حتى يصل إلى البحر الأحمر ، وغربًا حتى الواح أى (الواحات) ويتجه شمالاً حتى مرج بنى هميم المتصل بأراضى جرجا من عمل أخميم وينتهى جنوبًا بمدينة أسوان. انظر: الادفوى: الطالع السعيد - الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، نشر سعد محمد حسن القاهرة ١٩٦٦، ص٧-٩ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق جورج سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣ ، ص١٠٨ ، ١٠٩؛ عبدالله كامل مرسى عبده: المنشآت التجارية والصناعية بمدينة قوص منذ العصر العثمانى حتى نهاية القرن ١٣هـ / ١٩م مجلة المؤرخ العربى العدد ٩ المجلد الأول ٢٠٠١ ، ص٣١٧ ؛ محمد عبده الحجاجى : قوص فى التاريخ الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص١٥ .

٣٣- رحلة ابن بطوطة ، ص٣١؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج١ ، بيروت ١٩٥٧ ، ص١٩١ .

٣٤- ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، ص٢٩٦ .

٣٥- ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك مخطوط فى (BN) برقم ١٠٤٨٦٠ ورقة ٩٠ ب .

٣٦- انظر: ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٢ ، بولاق ١٣١٢هـ، ص٢٤ .

٣٧- الخطط، ٢ ، ص١٣٣ ، ١٤١ .

٣٨- ماجد : مرجع سابق، ص٢٩٦ .

٣٩- الخطط ، ٣ ، ص١٣٣ .

٤٠- بنى فى ٧١٣ / ١٣١٣ ، وانتهى من بنائه فى ٧١٤ / ١٣١٤ نفسه، ٢ ص٢٣٢ ، ٢٤٠-٢٤١ .

٤١- الخطط ، ٢ ص٢٤٢ بناه الأشرف خليل فى عام ٦٩٢ / ١٢٩٣ .

٤٢- نفسه، ٣ ، ص٣٣١ ؛ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ط. القاهرة ١٩١٣ ، ج٣، ٣٦٨؛ زبدة ، ص١٢١ .

٤٣- الخطط، ٣ ، ص٣٣٢ ؛ جمع خاناه وهو اسم فارسى غلب عليها نفسه، ٣ ص٣٣٣ .

صبح ٤، ص٩ ، وبتفصيل انظر دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، ٢ ، ص١٥ وما بعدها مثل الشراب خاناه ، والطشت خاناه، والسلاح خاناه ، والطبلخاناه، والشكار خاناه والحوائج خاناه .

٤٤- الخالدي: بهاء المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الإنشا، مخطوط(B.N) ، برقم ٤٣٩ ؛ ونسخة مصورة، دار الكتب المصرية برقمي ٢١٠٣١ ، ٢٤٠٤٥ ، ورقة ١٢٩ أ.

٤٥- الرنك : وجمعه رنوك وهو الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . ويقول القلقشندي: «ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه بحسب ما يختاره ويؤثره ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السكر وشئون الغلال والأملاك والمراكب وغير ذلك : صبح الأعشى ، ص ، ص٦١ ، ٦٢ ؛ محمود نديم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ ، ص٢١٦ .

٤٦- انظر: عطية القوصي : وثائق الجنيزة وأهميتها في دراسة تاريخ مصر الإسلامية ، مقال بمجلة جامعة القاهرة ، بالخرطوم العدد ٥ ، ١٩٧٤ ، ص١٨٥-١٩٠ ؛ نفسه : أضواء جديدة على تجارة الكارم، المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ ، ص٣٣ ؛ أيمن فؤاد سيد : عرض كتاب مجتمع البحر الأحمر المتوسط لجواتين، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب- جامعة القاهرة العدد ١، ١٩٨٨ ، ص٢٤٥-٢٤٩ .

٤٧- انظر : نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ، ص٢٨٧ ؛ صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ، ص١٢ .

٤٨- تسميهم الكتابات بالتعميم التجار المسلمين وبالتخصيص التجار المصريين . الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٠، ٣٥ ، ص٢٢٣ ، ابن حجر : ابناء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي القاهرة ١٩٦٩، ج٣ ، ص٤٢ .

٤٩- شوقي ضيف : العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية في عصر سلاطين المماليك، ماجستير ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٤٥؛ أحمد عبد الحميد خفاجي : طبقة التجار في مصر المملوكية، مجلة كلية الآداب ، جامعة طنطا ، العدد ١٩٨٢ ، ص٦٥ .

٥٠- زين العابدين عبد الحميد السراج : دولة كانم الإسلامية، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٦٤ ؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٢٠٩ ؛ Lewis B: The Fatimids and the Raute to india, RFSE unin, Istambul , 1949

x 1 p. 53 .

ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، القاهرة ١٩٧٨ ، ص٧٣ .

٥١- عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف ، القاهرة ١٩٧٢، ص١٥٢-١٨٠ .

٥٢- ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، لندن ١٨٨٩، هـ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ويذكر أنهم في العصور الوسطى كانوا يركبون البحر الشرقي (البحر الأحمر) من القلزم إلى الجار وجده ثم يمضون إلى السند والهند : ; Goitein : Jews and Arabs their Contacts through the Ages, New York , 1955 , p. 115 .

انظر عطية القوصي : مرجع سابق، ص٥٢ .

٥٣- صبح ، ص ص٣٢ .

٥٤- نفسه .

٥٥- . A.S. Atiya, the Crusades in later Middle Ages London 1938 , pp. 115 , 174 كرم حسن العلي: نيابة دمشق في نهاية عهد المماليك ، رسالة ماجستير معهد البحوث والدراسات العربية، ١٧٨، ص٢٢٥ .

٥٦- القلقشندي: صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٦٨ : المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٣٢٧ : ماجد : التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، ص٢٨٤ .

٥٧- صبح ، ص٥ ، ص١٠ ، ١١ ، المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشه ، ص٣٥ : ابن الديبع : بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق عبدالله الحبشي، اليمن ١٩٧٩، ص٣ .

٥٨- صبح ، ١١ ، ص٣٢٠ .

٥٩- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في أخبار ملوك مالك الأمصار، ج٥ ، ورقة ٩٨ .

٦٠- صبح ، ٨ ، ص٧٦ ، ٧٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبر القطر اليماني، ج٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

٦١- نقولا زيادة : الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦، ص١٨١ : محمد زيتون: الصين والعرب، القاهرة ١٩٦٤، ص١٢٠ .

٦٢- انظر : محمد عبد الغني الأشقر : مرجع سابق، ص٣٦٣ : ماجد : المرجع نفسه، ص٢٨٥ .

٦٣- صبح ، ٨ ، ص٧٦ ، ٧٧ .

٦٤- الخطط، ١ ، ص٣٢٧ .

٦٥- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٧٠، ج١٤ ص٣٦٧ ، ٣٦٩ .

٦٦- يستدل على ذلك من نقش على جامع جاني بك الذى تولاها في الفترة من ٨٤٦-٨٤٩، ١٤٤٢-١٥٤٥ . انظر : ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المعروف بتاريخ

المستبصر نشرة أوسكار لوفجرين، ١٩٥٤، ص٥١، القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤ ص٢٥٨؛ عبد القادر الجدي: السلاح والعدة في تاريخ جده ، ١٩٧٧، ص٧٨ .

٦٧- أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص١٥٩؛ شوقي عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ، ص٩١، ٩٢ وما بعدها .

٦٨- المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص٣٥؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٨، ص١٢٨ .

٦٩- الرحلة، ص١٦٩، ١٧٠ ، بدر الدين الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤١ .

٧٠- زين العابدين عبد الحميد السراج : الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مدن الساحل الصومالى فيما بين القرنين ٦-٨هـ / ١٢-١٤م، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة، ١٩٨٦، ص٩٦-٩٧ .

٧١- المغيرى: جهينة الأخبار، ص٨٦ ؛ محمود العوبرى: ساحل شرق أفريقيا فى فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى دار المعارف، ط. ١٩٨٦، ص١١٨ .

٧٢- ممبسة أو ممباسة كانت في العصر الوسيط تعرف باسم غنفويا، وهو اسم سواحيلى، وكانت تسمى أيضا باسم امفتيا ومعناها حرب، وربما لكثرة حروبها مع المدن الأخرى، وذكر أن الذى سماها ممباسة البرتغاليون على اسم قائد من قوادهم ، انظر سعيدى المغيرى، ص٨٤ ووردت فى وثيقة كلوة العربية ص٢٧، ٣٠، ٣٤ باسم منفسة.

٧٣- لمزيد من الدراسة انظر : كرم الصاوى باز : كلوة مركز الثقافة العربية عهد أسرة المهدلى العربية. بحث قدم ضمن ندوة المراكز الثقافية والعلمية فى العالم العربى عبر العصور ٢٠٠١م.

٧٤- ماركو بولو : رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مصر ١٩٧٧، ص٣٢٩ ؛ أنور عبد العليم، مرجع سابق، ص٧٣ .

٧٥- ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية القاهرة ١٢٩١هـ، ج٣ ، ص ١٣٤؛ نعيم زكى: مرجع سابق، ص٢٣٠ .

٧٦- ماركوبولو : مصدر سابق، ص٣٢٧ ، المغيرى: جهينة الأخبار، ص١٥؛ الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص١٦٢ .

٧٧- CF: Cuest . R " Zufarin in the Middle ages in Islamic culture 1935 , vol , p. 407 .

٧٨- انظر : أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار، ص٨٢-٨٤ .

٧٩- انظر: المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١ ط ١٢٨٣ هـ، ص٨٧ ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ، ص٣٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج٨ ، ص١٢٨ .

٨٠- أبو مخرمة : تاريخ ثغر عدن، ط ليدن ١٩٣٦ ، ج١ ، ص٥٦-٥٧ .

٨١- العمري: مسالك الأبصار، ج٥ ، ورقة ٩٨ .

٨٢- القلقشندى : صبح الأعشى، ج٥ ، ص٩، ١٠؛ ابن الديبع: بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبدالله الحبشي ، اليمن ١٩٧٩ ، ص٣ .

٨٣- ابن المجاور : صفة بلاط اليمن، ص٥١ ، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٧٥ ، ٤٧٦ ؛ محمد عبد الغني: مرجع سابق، ص٢١٢ .

٨٤- صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٧٥، ٤٧٦ .

٨٥- القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣ ، ص٣٩٢ .

٨٦- ابن بطوطة: الرحلة ، ص١٩٦ .

٨٧- نعيم زكي : طرق التجارة ، ص١٤٢ ، محمد محمد أمين: العرب والدعوة الإسلامية فى الصومال فى العصور الوسطى، مقال بمجلة الدارة، العدد٢ ، ١٩٨٤ ، ص٢١٤؛ محمد عبد الغنى : مرجع سابق، ص٢١٦ .

٨٨- أبي الفدا: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠، ص٣٧٠ ، القلقشندى: صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٣٦ .

٨٩- CF: Y.Kanal, Ed , Monumenta cartpgraphica Africa et Aegyptie tome, LV, Fax1, p. 108 .

٩٠- المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ، ص٥٥٠، ٥٥٨ ؛ صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص٢٩؛ بشير إبراهيم بشير : عيذاب حياتها الدينية والأدبية مجلة الدراسات السودانية ، العدد ٢، يوليو ١٩٧٩، ص٥٩ .

٩١- رحلة ابن جبير ، ص٤٣-٤٤ ؛ خطط المقريزى: ج١ ، ص٢٠٤ ؛ صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص١٩ ؛ نفس المؤلف: سياسة مصر التجارية ص١٣٩؛ توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط، المجلة التاريخية المصرية، العدد السادس ١٩٥٧ ، ص١٩ .

٩٢- طافور : رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، مصر ١٩٦٨٧، ص٩٧ ؛ شوقى عثمان : مرجع سابق، ص٢٠٦ .

٩٣- انظر: فاروق عثمان أباظه : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، الاسكندرية ١٩٨٨، ص١١٣ .

٩٤- بازل دافيد سون: أفريقيا تحت أضواء جديدة. ترجمة جمال أحمد ، بيروت، ص ٢٦٣، ٢٦٤ ، جورج

فاضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص٢٢٦ ، Basil Davidson, the lost cities of Africa, USA, 1959, p. 190 .

٩٥- أخذ د. طرخان هذه الفقرة كوبلاند في كتابه East Africa and its invaders ولم يحاول الرد عليها، فالعرب لم يكونوا غزاة لشرق أفريقيا، حيث لم نجد في المصادر التاريخية ما يفيد وصول قوة حربية عربية إلى الساحل الشرقي، كما لم نجد بها ما يدل على انعزال العرب الذين استقروا بالشاطئ عن الأفريقيين. بل تخبرنا تلك المصادر بأنه حدث تزاوج بين العرب وأهل الساحل، كما اعتنقوا ديانة العرب واستعاروا خططهم ورسما لهم، فالإسلام يوحد بين الأمم والأجناس لايفرق بينهما، كما يذيب الفوارق بين الطبقات فالأفضلية في الإسلام للتقوى لا للجاه والسلطة.

انظر: إبراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة، مجلة الجمعية التاريخية، عدد ٨، سنة ١٩٥٩، ص٤٤؛ شوقي عثمان : مرجع سابق، ص٦٣ .

٩٦- Richard W. Hull, Munyakare African civilization before the Batururee New York , p. 66 .

٩٧- زنجبار : كلمة عربية محرفة أصلها بر الزنج. ويقال لها باللغة السواحلية (أنغوجاء) وهي كلمة مركبة من كلمتين أنغو ومعناها بالعربية (المنسف) و (وجاء بمعنى امتلأ وهي جزيرة تبعد عن البر الأفريقي بمسافة خمسة وعشرين ميلاً، وجنوب الجزيرة الخضراء (بمبا) بحوالي ٣٢ إلى ٣٥ ميلاً ، وشمال دار السلام بمسافة ٢٩ ميلاً، ويبلغ طولها ٥٢٤ ميلاً وعرضها ٢٤ ميلاً، ومساحتها ٦٤٠٠ ميلاً مربعًا، وكانت تسمى في القرون الوسطى، منشونيا أو منشونياسي ولايعرف معنى هذا الاسم انظر: سعيد المغيري: جهينة الأخبار، ص١٥ ، ١٦؛ سليمان الشيباني : مملكة زنجبار ، بدون تاريخ ، ص١٨ ، ٥٩؛ انظر الخريطة شكل رقم (٢) .

٩٨- انظر : ما تقييف : تطور الحضارة السواحلية ، اليونسكو، المجلد الرابع ، ١٩٨٨، ص٥٤٢ .

٩٩- انظر : بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ط ص٣٧ : Radah kunud Indian Shipping , Bombay , ND, p. 143 .

١٠٠- انظر : شوقي عثمان : مرجع سابق، ص٦٥ .

١٠١- سليمان عبد الغني المالكي : دور العرب وتأثيرهم في شرق أفريقيا ، (ندوة العرب في أفريقيا) القاهرة ١٩٨٧، ص١٣٠؛ حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ط. دار الفكر العربي، ص٣٥٩ .

١٠٢- شوقي عثمان : مرجع سابق ص٦٨ .

١٠٣- يان فانسنيا: المأثورات الشفاهية، ترجمة أحمد مرسي، القاهرة ١٩٨١، ص٤٥ .

١٠٤- Musa H.L. Galaal, Histarical Relations between the Horn of Africe and the Persian Gulf and the Indian ocean islans through islam, in histarical Relations across the Insian ocean, unesco 1980, pp. 26-30 .

١٠٥- يان فانسنيا : المأثورات الشفاهية، ص٢٩، ٣٠ .

١٠٦- Musa H.L. : Ibid, pp. 25-26 .

١٠٧- انظر : ف ف ناتفيف : تطور الحضارة السواحلية، ص٤٥٣ ، ٤٥٤ .

١٠٨- انظر : محمد حمزة إسماعيل : النقوش الأثارية مصدراً للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، المجلد الأول، مكتبة زاهر الشرق ٢٠٠٢ م، ص١٣٥ . انظر ملحق بحث شكل (٦)، (٧) .

١٠٩- نفسه ، ص١٣٦ . انظر شكل (٨) بملحق البحث .

١١٠- Ravaisse , P., Steles et inscriptions Arabe du Harrar in, Azais, Cinq Annees, pp. 288-292 , 296-297 , 300 , 303 , 707 , Pis , xxv - xxix ; Trimingham in Ethiopia , oxford (1952), p. 63 .

انظر شكل (٩) بملحق البحث .

١١١- Azais , p., Cinq Annees de Recherches Archeologiques en Ethiopie, Paris , 1931 , pp. 283-309 .

١١٢- محمد حمزة : مرجع سابق، ج١ ، ص١٣٦ .

١١٣- رأى المؤرخ البرتغالي دي باروس عن جيان: وثائق تاريخية وجغرافية من أفريقية الشرقية، ترجمة يوسف كمال القاهرة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٧ م، ص ص٨٤-٨٦ ، ٩٤ .

١١٤- Hichens, W., Islam in East Africa in Islam to day , London 1962 , p. 117 .

وانظر : المغيري : جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٧٩، ص٤٠ .

١١٥- Marsh , Z, Kingsnorth , G.W, A history of East Africa, An introductory Survery 4ed combridge (1972), pp. 21-22 .

١١٦- محمود العويري: ساحل شرق أفريقية في فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٦، ص٢٨ ؛ محمد حمزة : نفسه ، ص١٣٦-١٣٧ .

١١٧- المغيرى: جهينة الأخبار، ص ص٤٠-٤٢ ، الحويرى : ساحل شرق أفريقية، ص١١٥ .

١١٨- ابن بطوطه : الرحلة ، ج٢، ص١٢١-١٢٣ ، محمد حمزة : نفسه، ص١٢٧ ،

Garlake, P.S. the Early Islamix Architecture of the east African Coast Nairobi , London 1966, pp . 15-112 .

Chittick , N., Kilwa , an Islamic trading city of the East African Coast , 2 vols Nairobi , (1974), vol, 1, pp. 27-254 , vol 11, pp. 259-296 ; the Coast of East Africa, in : The African Iron Age Edited by , P.L., Shinnie , oxford , clarendon 1971 , pp. 108-141 .

١١٩- الفاسى ، محمد هريك ، إيفان، مراحل تطور الإسلام وانتشاره فى أفريقيا، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو المجلد الثالث ، ١٩٩٤ ، ص١١٠ .

١٢٠- انظر : تشيرى: العلاقات بين أثيوبيا (الحبشة) والعالم الاسلامى، مجلد ٣، ص٣٦٨ (تاريخ أفريقيا العام) : محمد حمزة ، نفسه، ص١٣٩ .

١٢١- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج٤ القاهرة ١٩٦٤ ، ص١١٢-١١٣ ؛ ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ج٦ ، بيروت ١٩٩٢ ، ص٢٩٥-٢٩٦ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، مجلد ٢ ، بيروت ١٩٨٧، ص٥٦٦ ؛ محمد حمزة : نفسه، ص١٣٨ .

١٢٢- ابراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية فى الحبشة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٨، القاهرة ١٩٥٩، ص٣٢٨-٣٩١ .

١٢٣- Combe, Repertoire , Tome 1, No 2526 , 2528 , 2554 , 2615 , 2633 , 2634 , 2660 , 2667 , 2676 , 2695 , 2696 , 2697 , 2770 , 2771 , 2782 , 2786 , 2747 , 2754 , 2759 , 2763 , 2766 , 2768 .

وعن إقليم السوس ومواضعه فى شرق وغرب العالم الإسلامى انظر كل من مادة السوس ومادة السوس الأقصى فى دائرة المعارف الإسلامية المصرية.

انظر الأشكال رقم (١٠ ، ١١) (١٢، ١٣) بملحق البحث .

١٢٤- انظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، ١٩٩٨ ، ص٢٣١ وما بعدها، انظر الخريطة شكل رقم (١) .

١٢٥- كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندى اليونسكو ، المجلد الخامس ١٩٩٧ ، ص٩٣٧ ، ٩٣٨ .

١٢٦- CF: Reusch R.: History of East Africa, New York 1961 , p. 125 Freeman : The history of the African Oxford 1962 , p. .88.

١٢٧- ترمنجهام : الإسلام في شرق أفريقيا، الانجلو المصرية، ط١ ، ١٩٧٢ ، ص٩، محمود الحويري: مرجع سابق ، ص١١٨ ؛ ف.ف ماتفييف : مرجع سابق، ص٤٦٤ .

١٢٨- ماتفييف: مرجع سابق، ص٤٦٤ .

١٢٩- CF. Kirkman , J.S. (1954) , the Arab city of Gedi : excavations at the great Mosque architecture and finds, London , oup , pp. 72-79 .

١٣٠- الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط. بيروت ١٩٨٩، ص٦٠ ، ٦١ ، ريتشارد هول : إمبراطوريات الرياح الموسمية ، ترجمة كامل يوسف حسين، الطبعة الأولى ١٩٩٩، ص٥٩ .

١٣١- Chittick, H.N. (1965)) , the Shirazi colonisation of East Africa, J A H. 6,3, pp. 275-94 .

١٣٢- CF. Chittick H.N (1974) Kilwa an Islamic trading city on the East of African coast , p. 131 .

١٣٣- انظر : ف ف . ما تفييف : مرجع سابق، ص٤٦٤ .

١٣٤- تيشارد هول : مرجع سابق، ص٦٦ ، ٦٧ .

١٣٥- المقريزي : السلوك ، ج١ ص٨٩٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣، ص٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ج٤ ص٣٢ ، ج٥ ص٢٨٠ ، ٢٨١ .

١٣٦- تشانغ زون بان : الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ، مسقط ١٩٨١، ص١٢-١٣ .

١٣٧- ابن المجاور: تاريخ المستنصر ، ج١ ، ص١١٦ ١١٧ .

زين العابدين: مرجع سابق، ص١٠٠ ، ١٠١ .

١٣٨- ر. ك كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندي، ص٩٣٦ ، ٩٣٧ .

١٣٩- نعيم زكي : مرجع سابق، ص٢٠٠، ٢٠١ .

١٤٠- زين العابدين : مرجع سابق، ص١٢٣ .

١٤١- ج. ديفيس ،. لبيب : أفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، اليونسكو المجلد الرابع، ص٦٥٤ ، ٦٥٥ .

١٤٢- انظر : Chittick : Op. cit, p. 21-38 .

١٤٣- ايزوافيلو مانتروزو : مدغشقر والجزر المجاوره ، من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، اليونسكو ١٩٨٨ المجلد الرابع ص٦٠٢ .

١٤٤- المرجع نفسه ، ص٦٠٢ ، انظر الغريطة شكل رقم (٤) .

١٤٥- Robineau , C (1962) " L, Islamaux Comors : Une etude culturelle de' l;ile d' An-jougn " in p. Verin , Arabes et islamises a Madagascar et dans l'ocean indien (Tra-nanrive , Revue de Madagascar , pp. 39-56 .

١٤٦- نلاحظ أن الميل إلى الانتساب إلى أصل عربي شريف ظاهرة عند جل الأسر الحاكمة التي أسلمت في أفريقيا الشرقية ، وبلاد السودان.

١٤٧- انظر: باكولي دومينيكيني- راميارمانانا : مدغشقر اليونسكو، المجلد الثالث ١٩٩٧، ص٧٧٦، ٧٩٩ .

١٤٨- انظر ايزوافيلو مانديروزو : مرجع سابق، ص٦٠٤ .

١٤٩- . Poirier C. (1954) : Terre d' Islam en mer malgache B.A.M., pp. 71-116

١٥٠- ايزوافيلو مانديروزو : مرجع سابق، ص٦٠٤ .

١٥١- انظر : ب فيرين، في اليونسكو، «تاريخ أفريقيا» العام دراسات ووثائق ، رقم ٣، ١٩٨٠ .

١٥٢- كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندي، ص٩٣٨ وما بعدها: انظر الغريطة شكل رقم (٣) .

١٥٣- Mollat, M (1980) Histarical Cantacts of Africa and Madagascar with south and south east Asia : The role of the Indian Ocean , in unesco (1980) pp. 45-60 , G.S.P. FREEMAN - GRENVILLE: The Medieval History of the Coast of tanganyika, London oxford university press 1962, p. 80-98 .

د. كرم حلمى فرحات (*)

الكتابة التاريخية والنقد التاريخى فى مخطوطة

التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان

للقاضى محمد بن يحيى الأندلسى ت ٧٤١هـ

مقدمة :

إن التاريخ الإسلامى هو تاريخ هذا الدين الواحد وهو الإسلام ، بل هو تاريخ تطبيق هذا الدين، ومن هنا تأتى العلاقة بين التاريخ والدين وهى علاقة وثيقة ... فالتاريخ الإسلامى يروى لنا تاريخ العقيدة الصحيحة.

إن الذين يكتبون ويدرسون التاريخ بمعزل عن العلوم الشرعية الإسلامية يجردون الدراسات التاريخية من التصور العقدى الإسلامى ، بل ويقطعون الصلة الوثيقة بين التاريخ والدين، رغم أن التاريخ هو خادم للدين وعلومه الشرعية.

فالتاريخ الإسلامى هو تاريخ تطبيق الشريعة الإسلامية التطبيق الواقعى طالما كان بها الالتزام ، إنه تاريخ الأمم والشعوب التى كانت تعيش بالإسلام وعلى الإسلام ، وكل انحراف عن الطريق السوى أصاب هذا التاريخ كان نتيجة للانحراف عن تلك الشريعة الربانية فدراسة التاريخ هى دراسة للإسلام من الناحية التطبيقية ، وهى دراسة للذين أحسنوا له؛ وللذين أساءوا إليه من داخل الأمة أو خارجها .

نحن بصدد كتاب التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان «رضى الله عنه» للقاضى محمد بن يحيى الأندلسى. صنفه فى سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان «رضى الله عنه»،

---

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية معهد الدراسات والبحوث الآسيوية جامعة الزقازيق.

فى وقت غابت فيه الأقلام التى تكتب عن سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، وما حاك بفترته من فتن، ليس فى وقت المؤلف فحسب ، ولكن فيما كان قبله وبعده. حيث عاش هذا المؤلف فى القرن الثامن الهجرى.

إن المسلمين- بل الإنسانية كلها- فى أشد الحاجة اليوم إلى معرفة فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرم معدنهم ، وأثر تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وما كانوا عليه عن علوّ المنزلة التى كانوا بها الجيل المثالى الفذ فى تاريخ البشر.

لقد سارع للدفاع عن الصحابى الجليل عثمان بن عفان رضى الله عنه القاضى محمد ابن يحيى فى كتابه «التمهيد والبيان» ليكشف به عن نور الحق وخذل الباطل ، فأضاء المصباح بعد ما كاد يخبو.

لقد جهل كثير من الناس الحقيقة التى تنبح على مائدة الخونة والمتآمرين على الإسلام والمسلمين ، فسعى هؤلاء المتآمرون ليضللوا الجيل المسلم وينفروه من سيرة الإسلام الأولى .

إن الفتنة التى أدت إلى قتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، قد أدت إلى نتائج وخيمة، أدت إلى انقسام المسلمين، وسفك الدماء والتحزب والتشيع ، وتفرقة الكلمة بعد قتله ، فاقتتل المسلمون للأخذ بثأره حتى قُتل من المسلمين الألوف .

جاء موقف المؤلف من الأحداث التاريخية موقفًا مشرفًا ، حيث وقف موقف المؤرخ ، وتحمل مسئوليته وساعده على ذلك أنه قاضى، وحاز شرفًا كثيرًا من العلوم الشرعية واللغوية ، ويضرب المثل بالمؤرخ الذى يسير فى منهجه التاريخى بروح وعقل القاضى ، فما بالنا والمؤلف محمد بن يحيى يشغل منصب القضاء ، وقد أرّخ سيرة للخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

تلك الفترة العصيبة فى أحداثها وقف كثير من المؤرخين حيالها فى حيرة وتردد أما القاضى محمد بن يحيى فقد استعرض الأحداث واستنتج منها ما يبنى حكمه عليه كقاضٍ نزيه يملك القوة العلمية والقدرة العقلية .

لعل هذا الكتاب من أنفس المصادر بين أيدينا ، حيث يصور لنا حقيقة تلك الفترة، فى وقت كاد أعداء الإسلام أن يصوروها صورة مشينة تعكس تشويهًا وتشويشًا على الإسلام والمسلمين ، وتظهر الخليفة عثمان بن عفان فى صورة تجعل المسلم يصدّ عنه .

لكن المؤلف عرض لنا مادة تاريخية استنفرها من بين بطون الكتب ، ستتيح لكثير من المؤرخين فرصة ذهبية كي يعودوا إلى ما كتبوه فيراجعوه ويصححوا فيه، ويضموا إليه ما يمدهم به من معلومات جديدة عن الأحداث التى أحاطت بخلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه، ونحن نعرف أن أحداث هذه الفترة لاتزال غامضة فى كثير من جوانبها ، لقلة ما نشر من الكتب عن سيدنا عثمان وقتله .

لقد بدى لى من خلال الدرس والتحقيق أهمية هذا الكتاب وطريقة المؤلف فى الكتابة التاريخية والنقد التاريخى، وكيف أنها بالمقام الأول تتعلق بالناحية العقائدية والناحية العملية، لا الناحية النظرية ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب فى بيان كثير من أوجه الحق ودحض الباطل وإبطال تدابير أهل السوء، وبيان تبرئة سيدنا عثمان رضى الله عنه مما دبرته يد الإثم والفساد من اليهود وأعوانهم .

يعتبر هذا الكتاب محاولة لتحليل الأحداث التاريخية التى دس فيها المتآمرون سمهم وشرهم، ومعرفة الأسباب التى نتج عنها مقتل الشهيد عثمان رضى الله عنه.

وقد اشتمل هذا البحث على بيان مدى أهميته. ودراسة عصر المؤلف محمد بن يحيى الأندلسى سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو العلمية، ومدى مشاركته فى الحياة السياسية والعلمية، كما اشتمل على دراسة المؤلف ومكانته العلمية والاجتماعية ومنصبه القضائى. وكذلك اشتمل على مجهوداته فى الكتابة التاريخية ، والداعى إلى تأليف الكتاب، ومحتوى الكتاب وتنظيمه، والنسق التعبيرى للكتاب ، ومدى أهميته، والمصادر التى اعتمد عليها المؤلف فى كتابة المخطوط من حيث نوعها والإسناد إليها وطريقة النقل منها .

كما اشتمل على النقد التاريخى للمؤلف من ناحية الكشف عن العامل الرئيسى فى توجيه الأحداث، ووصف الأحداث ، واستحسان التصرف ، والإفصاح عن عاطفته، والسخرية من التصرف ، ومواطن العبر والعظات، والتعليل والترجيح .

ثم اشتمل هذا البحث أيضا على وصف دقيق للمخطوطة.

عصر المؤلف

الحياة السياسية :

عاش القاضي محمد بن يحيى بن عامى (٦٧٤هـ - ٧٤١هـ) بالأندلس، بولاية «مالقة» فى ظل مملكة «غرناطة» تحت سيطرة الدولة النصرية، التى تنسب إلى أبى عبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس الخزرجي المعروف بابن الأحمر.

استطاع محمد بن الأحمر أن يُنْشِئَ مملكة، ويحتفظ بها مع نفير من رجال الأندلس، تحت شعار « لاغالب إلا الله»، واستمرت مملكة غرناطة هذه مدة تبلغ قرنين ونصف رغم صغرها وقلة عدد سكانها، محافظة على ما بقى للمسلمين من سلطان سياسى ووجود حضارى معطاء.

وهذه المدة كانت مملوءة بالصراع مع دول أسبانيا النصرانية، ورغم ذلك فكانت ثابتة ومواجهة للقوة العددية النصرانية، وبإمكانياتها المحدودة واجهت الإمكانيات الواسعة ، مما جعل ذلك مثاراً للاستغراب والتعجب .

فى الوقت الذى كانت فيه مملكة غرناطة تمثل جانبا إسلاميا قويا يحكمها بنو الأحمر، كانت دول أسبانيا النصرانية تمثل جانبا مضاداً لها، متمثلة فى مملكة «قشتالة» و «نبارة» و«ليون» و«أرغون» و«البرتغال» .

ففى عهد «فرغانة» كانت ثلاث ممالك فى أسبانيا النصرانية «البرتغال» و«أرغون» و«قشتالة» ، وكانت قشتالة أقواهم ، فبجيوشها وملكها «فِرْانده» الثالث ومن معهم كان سقوط قرطبة سنة ٦٣٢هـ ، وأشبيلية سنة ٦٤٦هـ وجباية سنة ٦٤٣هـ ، وانتقلت عاصمة «قشتالة» من «طليطلة» إلى «إشبيلية» وبجيوش ملك «أرغون» جايمش الأول كان سقوط بلنسية ٦٣٦هـ . كانت هاتان الدولتان «قشتالة» و«أرغون» تتعاونان فى مهاجمة الأندلس والقضاء على الدولة الإسلامية، فى حين أن البرتغال كانت تعمل على ضم الأراضى الأندلسية الواقعة جنوبها فى ولاية الغرب (١).

الصراع بين بنى الأحمر وسلطات أسبانيا النصرانية:

كانت سلطات أسبانيا «النصرانية بعد قيام مملكة غرناطة أكثر عنفًا فى مصارعتها بالنسبة لمسلمى «غرناطة»، وإن كانت الأحداث الداخلية فيها تشغلها لوقت ما، لكن «غرناطة» لم تكن تخلو من هذا المظهر ، ورغم ذلك فإن أية دولة من دول أسبانيا النصرانية منفردة كانت أقوى من مملكة غرناطة نظراً لإمكانيتها العسكرية فى العدة العدد والمورد.

كان محمد بن الأحمر – مؤسس مملكة «غرناطة» – يحاول تجنب الاصطدام بأسبانيا النصرانية ، وقد أوغل في ذلك أحياناً إلى درجة شاذة ومهينة في سنة ٦٦٠هـ ، حيث قامت قوات أسبانيا النصرانية باعتدائها على مملكة غرناطة أيام محمد بن الأحمر، استطاعت قوتها بمساعدة المجاهدين من الغرب ردّها وهزيمتها .

لكن هذه البادرة أثارت «الفونس العاشر » ملك «قشتالة» إلى مضاعفة الجهد، فقام بهجمات عديدة أسقط من خلالها بعض الحصون، فتجدد طلب الغوث من عدوة المغرب ومناطق إفريقية أخرى حتى تونس، ثم عقدت سنة ٦٦٥هـ المسالمة بين «غرناطة» والفونس العاشر، تنازل ابن الأحمر له عن عديد من المناطق والحصون(٢). هكذا ذهبت المناطق الأندلسية في فترة وجيزة– حوالي ثلث قرن– ساقطة بيد جيوش أسبانيا النصرانية .

وفي سنة ٦٧١هـ عاد الفونس العاشر إلى مهاجمة الأراضي الأندلسية ، فوجه ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الخالق الملقب بالمنصور يطلب النجدة ، لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر أيام ولده محمد الثاني المعروف بالفقيه، وكان هذا السلطان أوحد الملوك جلالة وصرامة وحزماً ، قام بالأمر بعد أبيه وباشره الوزير أيام حياته مجرى على سنن من اصطناع أجناسه ومداراة عدوّه وإجراء صدقاته، وفي عهده طما عليه بحر من الفتنة ، وتكاثر عليه الثوار، وارتجت الأندلس فثبت لزلزالها وبذل من الدهاء والاحتيال ما أظفره بخلو جوه (٣).

في هذا العهد كان عصر القاضي محمد بن يحيى المالقي صاحب هذه الدراسة، ففي عهده وصل الجيش المريني للنجدة، وقوامه خمسة آلاف، عبر إلى جزيرة «طريف» في ذي الحجة سنة ٦٧٣هـ ، ثم لحق به السلطان في صفر من السنة التالية، وجرت لهم أحداث مع جيوش «قشتالة» فكانت المعركة الهائلة في يوم السبت الخامس من ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ عند مدينة «إستّجة» جنوب غرب «قرطبة» ، وكان جيش «قشتالة» يفوق جيش المسلمين تحت إمرة القائد القشتالي الشهير «ألدون نونيو دي لارا» صهر ملك «قشتالة» الفونس العاشر (٤)، وكان استعداد هذا الجيش القشتالي كبيراً في العدد والعدة ، مقبلاً على الحرب بقوة وأمل وقيادة مجرية مهرة في الحرب وخططها وما عرفت الهزيمة قبل ذلك (٥)، ولكن المسلمين جاهدوا صابرين محتسبين وباشر أمير المسلمين المريني القتال بنفسه ومعه ابنه يوسف على المقدمة، وقد نزل الأمير أبو يوسف عن فرسه وتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، ولما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده

واستعد للقتال ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين، الذّابون عن حماه ، والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم ومشهد جسيم ، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها وجدّوا في طلابها، وأنزلوا النفاس في أثمانها ، ألا إن الجنة تحت ظلال السيوف ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾(٦) ، فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً، ومن عاش رجع إلى أهله سالمًا غانمًا مأجوراً حميداً ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.(٧) فلما سمعوا منه هذه المقالة تاقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضا للوداع ، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلهم قد طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول : عباد الله، إياكم والتقصير فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحى القيوم(٨).

لقد حازت الجيوش الإسلامية المغربية والأندلسية نصراً حاسمًا في هذه المعركة ، وتشتت شمل الجيش القشتالي، وقتل قائده ، وترك القائد المريني بالأندلس ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند «قشتالة» ومن معهم(٩).

وفي سنة ٦٧٧هـ عبر السلطان يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الثانية، وتوغل بجيشه في أراضي «قشتالة» والتقى بابن الأحمر ، ثم عاد السلطان يعقوب المنصور إلى المغرب، ولكن ابن الأحمر كان يتوجس من السلطان المريني فتصرف تصرفًا شاذًا حيث تحالف مع ملك «قشتالة» الذى أنزل قواته في الجزيرة الخضراء تبعًا لذلك، مما جعل السلطان المريني المنصور يرسل ابن الأمير أبا يعقوب في أسطول ضخم في أوائل عام ٦٧٨هـ ويلتقي مع الأسطول البحرى القشتالي ويهزمه ، واضطرت القوات القشتالية إلى ترك الجزيرة الخضراء(١٠).

أرسل السلطان المنصور إلى ابن الأحمر في وجوب التفاهم خشية على مصير المسلمين في الأندلس من هذا المسلك ، ثم التفاهم وعقد التحالف وصفا الجوُّ ، وبموجب هذا الوفاق أصبحت «مالقة» لبني مرين لتكون محطة وقاعدة للقوات المرينية التي تعبر إلى الأندلس للجهاد فيه، كما نزحت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها ، وقد عُرفت هذه المجموعة بمشيخة الغزاة (١١).

وفي سنة ٦٨١هـ خرج «شايخة» على أبيه «الفونس العاشر» الذى عرف عنه ميله للعلم

وفي سنة ٦٨١هـ خرج «شايخة» على أبيه «الفونس العاشر» الذي عرف عنه ميله للعلم وكانت له صلات مع علماء الأندلس، مما أثار السخط على ولده في مملكته[١٢]. ولكن السلطان المنصور المريني لم يهدأ حتى عبر إلى الأندلس لمعاونة «ألفونس» ، ولكن «ألفونس» هرع للقائه فرهن تاجه عند السلطان وأمره بالمال والجيش [١٣]، ثم توفي «ألفونس» المريني في سنة ٦٨٤هـ ، وكان عبور السلطان المنصور إلى بلاد الأندلس للمرة الرابعة في سنة ٦٨٤هـ واشتبك مع جيوش «قشتالة» في البر والبحر، ورغب القشتاليون في السلم فوفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء وفد وعقد معه السلم[١٤].

وفي سنة ٦٨٥هـ توفي أبو يوسف يعقوب المريني المنصور قبل أن يعود إلى المغرب بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس وورث حكم المرينيين ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب، وأصبح له شأن في الجهاد في الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمي غرناطة تحت زعامة محمد ابن الأحمر الفقيه الذي كان ذا نشاط واضح في هذا الميدان ومهتما به[١٥].

وفي ليلة الأحد ثامن شعبان من عام ٧٠١هـ توفي محمد بن الأحمر الفقيه وهو على مصلاه متوجها لأداء فريضته على أتم الأحوال [١٦]. وخلفه ولده أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع ، لأنه خُلع في سنة ٧٠٨هـ ليتولى الحكم أخوه نصر، وفي عهده ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة ، وما فيه من إبداع وجمال وظرف وتنجيد وترقيش ، وغزى الجيش لأول مرة مدينة «المنظر» فاستولى عليها عنوة فتملك من اشتملت عليه، ومن جملتهم العلجة صاحب المدينة من أفراد عقائل الروم ، فقدمت الحضرة في جملة من السبي، وكان هذا الفتح عظيماً والصيت لأجله بعيداً .

وفي يوم عيد الفطر من عام ٧٠٨هـ تمت الحيلة عليه، أحيط به وهو زمن مصاب بعينه، حيث جاءت طائفة من كبار الدولة ففتكت بوزير أبي عبدالله محمد المخلوع وأتوا بأخي السلطان واسمه «نصر» ونصبوه للسلطنة ، ثم هاجموا منزل السلطان محمد المخلوع وجعلوا عليه الحرس، وسال من الغوغاء البحر، فتعلقوا بالحمراء يسألون عن الحادثة ، فشغلوا بنهب دور الوزير الكائنة بالربض وبها من مال وذخيرة وكتب وأثواب وسلاح وفرش وآنية وخرثي[١٧]، ما يفوق الوصف فكانت الفجيعة في إضاعته على المسلمين عظيمة ، وانطلقت عليه الأيدي الخبيثة وفي آخر اليوم المذكور أدخل على السلطان قوم من الفقهاء، أشهدهم بخلع نفسه ونقل إلى القصر المنسوب إلى السيد بخارج الحضرة، أقام به يسيراً، ثم إلى مدينة «المنكب»[١٨].

وتولى الحكم أخوه نصر الذى فى عهده ساءت العلاقات مع بنى مرين وجرت الأحداث الداخلية فى مملكة غرناطة ، ثم أرغم «نصر» على التنازل فى سنة ٧١٣هـ ليتولى الحكم أبو الوليد إسماعيل بن مزج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد، وكان هذا السلطان وافر العزم، وطّد الأمن وأشاع الاستقرار وأعاد عهد الجهاد، وحين عاد القشتاليون إلى مهاجمة الأراضى الإسلامية استنجد أبو الوليد بالسلطان المرينى الذى رفض المساعدة نتيجة لعدم استجابة أبى الوليد لمطالب معينة. ولكن المواجهة كانت حاسمة بين الجيش الإسلامى والجيش القشتالى الذى حركته نزعة صليبية ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٧١٨هـ حيث حدثت معركة قرب مدينة غرناطة فى حرب غير متكافئة تماماً، لكن المسلمين الموجودين فى الصفوف ، كانوا الصفوة المختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء الذى أخلص وجنده النية لله مجاهدين مستشهدين ، فكان نصراً حاسماً[١٩].

وفى سنة ٧٢٥هـ اغتيل أبو الوليد إسماعيل الغالب بالله سلطان غرناطة، فخلفه ولده أبوعبدالله محمد بن إسماعيل بن فرج، وكان معدوداً فى نبلاء الملوك وأبناء الملوك، صرامة وعزّة وشهامة وجمالاً وخصلاً ، وأُخذت له البيعة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب عام ٧٢٥هـ [٢٠]. وفى عهده استطاع المسلمون استعادة جبل طارق بمساعدة بنى مرين سنة ٧٣٣هـ بعد أن احتله القشتاليون أيام «فرانده» الرابع منذ سنة ٧٠٩هـ [٢١].

وفى عهد أبى عبدالله محمد بن إسماعيل بن فرج تولى الأحكام الشرعية شيخنا الإمام العلم الأوحد خاتم الفقهاء وصدر القضاة العلماء محمد بن يحيى المالقى موضوع هذه الدراسة ، وقد استمر له الحكم إلى تمام مدة هذا السلطان وصدراً من أيام أخيه بعده[٢٢]، إلاّ أن سلطان غرناطة أغتيل عندما توغرت عليه صدور رؤساء جنده المغاربة ، وكانت وفاته يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى الحجة عام ٧٣٣هـ [٢٣]. فورثه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول أبو الوليد إسماعيل الذى كان من أبرع ملوك بنى الأحمر بعيد الهمة ، عالى الخلال شاعراً عالمًا وحامياً للعلوم والفنون، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء منشآت كثيرة[٢٤].

وقعة «طريف» التى مات فيها المؤلف :

حدثت هذه الوقعة فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف الأول بالقرب من «طريف» ولذا سميت بوقعة «طريف» تجهز على إثرها المسلمون لرد القشتاليين ومن معهم ، وكان المرينيون بقيادة سلطانهم أبى الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب ، والأندلسيون بقيادة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف الأول[٢٥]. نشبت المعركة بين الطرفين فى سابع جمادى الأول سنة

٧٤١هـ . واستعمل فيها نوعاً من المدافع تقذف النيران (٢٦)، وقد نما هذا النوع من السلاح مستعملا فيما بعد (٢٧)، لكن المسلمين خسروا هذه المعركة ، وارتكب القشتاليون المناكر في المعسكر الإسلامي وغنموا ما فيه.

وقد حضر هذه المعركة عدد من العلماء الأكابر والأعلام، واستشهد بعضهم ، من بين هؤلاء العلماء القاضي محمد بن يحيي المالقي صاحب هذه الدراسة ، الذي فُقد في مصافها وتحت لواء جهادها ، رابط الجأش مجتمع القوى إلى أن نال الشهادة (٢٨). وذلك ضحى الاثنين السابع من جمادى الأول عام سبعمائة وواحد وأربعين من الهجرة من غير عقب من الذكور(٢٩). ومن هؤلاء أيضا: أبو محمد عبدالله بن سعيد السلماني والد الوزير والأديب لسان الدين ابن الخطيب ، وقد فُقد يوم الوقيعة الكبرى بظاهر «طريف»(٣٠) .

وأبو القاسم محمد بن جزي ، وهو أحد شيوخ ابن الخطيب ، وصاحب «المزلفات»، وكان فقيهاً حافظاً ، قائما على التدريس مشاركا في فنون كثيرة في العربية والفقه والأصول والقراءات والأدب والحديث، وكان حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، قريب الغور صحيح الباطن، فُقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم يوم «طريف»(٣١).

كذلك ابن مرزوق أحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب (٣٢)، وصديق ابن خلدون(٣٣)، وهو عالم فاضل، غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة متسع الرواية، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويقول شعراً، ويقيد ويؤلف ، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع و لا هياب(٣٤).

أثر القاضي محمد بن يحيي في أحداث عصره:

رغم هذه الأحداث والاضطرابات السياسية في عهد القاضي محمد بن يحيي، إلا إنه لم يكن سلبياً تجاهها، بل كان إيجابيا متفاعلاً معها ، متأثراً بها ومؤثراً فيها.

فمن تأثره بها أنها كشفت عن معدنه الأصيل، وأبرزت لنا معالم شخصيته في نصرة الحق وتفريق مجتمعات أرباب البدع، وشدد على أهل الأهواء بالسجن والأدب على سبيل في ذلك كله، من إتباع السّنة وإطراح الأهواء وخفض الجناح لأهل الخير، وملازمة للاقراء مع التعليم وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً(٣٥).

وأما أثره في الأحداث، فقد استمر على عمله من الاجتهاد، ورغبته في الجهاد حيث كان بين المسلمين المجاهدين يوم وقعة «طريف» يشحذ البصائر، ويشير على الأمير أن يكثر من

قول «حسبنا الله ونعم الوكيل» وهو رابط الجأش مجتمع القوى غير هياب إلى أن استشهد في تلك الموقعة(٣٦).

الحياة الاجتماعية :

عاش القاضي محمد بن يحيي في ولاية «مالقة» بالأندلس تحت حكم بني الأحمر في مملكة غرناطة، في منطقة تتسم من قبل مجئ محمد بن يحيي هذا، بعدم الاستقرار ؛ نظراً للصراع المتمثل في الحروب الصليبية، وشدة ضغط النصارى على المسلمين وزيادة عن ذلك تفرق المسلمين أنفسهم. غير أن قدوم بني الأحمر ومحاولتهم جمع الشمل ، وتوحيد أكبر قدر من مدن الأندلس لإنشاء دولة قوية وإيجاد مجتمع مترابط ، يقف الجميع في وجه العدو الصليبي، كل ذلك كان أمراً واجباً ولا بد وأن يحدث ، وقد تحقق ذلك لمدة تفوق عصر المؤلف إلى ما بعد وفاته بكثير من السنوات، ورغم ذلك فإن المجتمع لم يخلُ من الصراع والاضطراب والاستعداد للحروب وتحمل الهزيمة وغير ذلك من الأمور التي تعطي المجتمع صبغة المجتمع غير المستقر .

وهذا المجتمع يضم بين جنبيه أصحاب ديانات مختلفة، منهم المسلمون ومنهم النصارى وهاتان الفئتان لايخفى أمرهما على أحد لما بينهما من الصراع. كما يوجد أيضاً اليهود، وقد أخذ السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل أمير المؤمنين بالأندلس يهود الدونمة بالتزام سمة تشهرهم ، وشارة تميزهم ، وليوفى حقهم في المعاملة التي أمر بها الشارع في الخطاب والطرق، وهي شواشي صفر (٣٧).

لقد حفل مجتمع الدولة النصرية بعدد من الفئات والطوائف المختلفة التي تمثل المجتمع كله بشتى جوانبه.

أما عن مظاهر الحياة الحياة الاجتماعية فكانت تعكس صورة المجتمع أو جانبا كبيراً من حياته فوجود مجالس الطرب والغناء والشراب تعد ظاهرة اجتماعية ، ولكن القائمين على أمر البلاد لا بد وأن يكون لهم موقفا إيجابيا من مثل هذه المظاهر ، حتى تسود المجتمع روح الجدية والاستقامة ، وهذا ما كان موجوداً في عصر القاضي محمد بن يحيى المالقي ، فقد أشفق السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف الخزرجي ت ٧٢٥هـ على هذه الظاهرة ، واشتد في إقامة الحدود وإراقة المسكرات ، وحظر تجلي القينات للرجال في الولائم، وقصر طربهم على أجناسهم من الناس (٣٨).

كما كان لأهل البدع وجود في تلك الفترة ، فاشتد السلطان إسماعيل بن فرج عليهم، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة(٣٩).

إن أحوال المجتمع الذى عاش فيه القاضى محمد بن يحيى المالقى من حيث الدين وصلاح العقائد ، أحوال سيئة، والنحل فيه معروفة ، ومذاهبهم على مذهب الإمام مالك بن أنس، وطاعتهم للأمراء محكمة، وأخلاقهم أبية فى معانى المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير، وقوتهم البر الطيب عامة العام، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضعفة والبوادى والفعلة الفلاحة الذرة الرفيعة. كما يدخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام إلى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرّمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك(٤٠).

والمرأة فى ذلك العصر عُرف عنها الهيئة الطيبة وجمالها العظيم وطيب النشر، وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المحاورة(٤١).

وامتزاج العرب بالبربر بالأندلسيين أدى إلى امتزاج حضارى، هذا الامتزاج أدى إلى تبادل كثير من التقاليد والعادات الاجتماعية .

ووجه العرب فى بلاد الأندلس نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون فأكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافى والمساجد فى كل مكان. كما كان تأثير الفن المعمارى العربى فى فن عمارة النصارى الذى حل محله فى أسبانيا عظيما إلى الغاية ، وكان النصارى يستخدمون العرب قبل إجلائهم فى إقامة المبانى أو الاصلاح ، فنشأ عن نماذج الفنيين ظهور الفن الجديد(٤٢).

وكانت الإمامة الثقافية للعرب فى البلاد، وأما العوام فكانوا من البربر ومن سكان البلاد القدماء، وكان باب المناصب مفتوحًا للنصارى، وكان النصارى يستخدمون فى الجيش غالبًا ، ولم يكن توالد المسلمين والنصارى غير قليل (٤٣).

الحياة العلمية :

اتضح من الحديث عن الحالة السياسية فى عصر القاضى محمد بن يحيى مدى الاضطراب السياسى والصراع بين المسلمين ونصارى الأندلس، ورغم هذا، فإن الحياة العلمية كان لها كيانها ومكانتها فى بلاد الأندلس ، وبخاصة مدينة «مالقة» «وغرناطة» هاتان المدينتان اللتان عاش فيهما القاضى محمد بن يحيى، وتولى منصب القضاء فيهما.

اهتمام كبار الدولة بالحياة العلمية :

كان الاهتمام بالناحية العلمية أمرًا ملموسًا من جانب كبار الدولة ، كالسلطان نصر بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٢٢هـ ، فقد كان محبًا للعلم وأهله (٤٤)، آخذًا بحظ وافر من

علم الفلك ، وله باع في خط التقاويم الحسنة والجداول الصحيحة وصناعة الآلات العجيبة(٤٥).

وقد اهتم أيضا السلطان يوسف بن اسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف ت ٧٥٥هـ ببناء المدارس العجيبة التي يعدها الناس بكر المدارس (٤٦).

ومما يدل على مدى الاهتمام بالناحية العلمية، أن السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٠١هـ كان يؤثر العلماء على شتى مناحي تخصصاتهم من الأطباء والمنجمين والحكماء والكتاب والشعراء(٤٧). وكان السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠هـ يصغي إلى الشعر ويثب عليه الشعراء، وكان يعرف مقادير العلماء(٤٨). وكذلك السلطان أبو الحجاج يوسف الأول أبو الوليد إسماعيل، الذى كان من أبرع ملوك الدولة النصرية، كان بعيد الهمة عالي الخلال، شاعراً عالمًا وحاميا للعلوم والفنون (٤٩).

كما كان العلماء يحتلون مكانة عظيمة يحظون بها عند أمير المسلمين بالأندلس، فقد كان الفقيه الجليل أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ت ٦٩٩هـ يحتل خطوة لطيفة عند أمير المسلمين(٥٠).

وكذلك اهتم أصحاب الأموال المترفين بالعلم والعلماء ، فبنى محمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري، ت ٧٥٤هـ مدرسة عظيمة غرب المسجد الأعظم ووقف عليها الرياع، وابتنى غيرها من المساجد (٥١).

طائفة من العلماء:

عاش القاضي محمد بن يحيي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وكانت هذه الفترة بالنسبة للأندلس- - وخاصة غرناطة- من حيث التفكير والأدب فترة نضج وازدهار، حيث ظهرت طائفة من كبار المفكرين والشعراء الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسي في أعظم صوره(٥٢).

كان الاهتمام بالعلم في هذا العصر أمراً ملموساً، وكان انتشار العلوم بأنواعها يحتل مكانة مرموقة في بلاد الأندلس، فكان العصر عصر رواج للعلم، سواء العلوم الدينية أو اللغوية أو العقلية، وكانت الحركة العلمية نشطة ترعرع في ظلها العلم، ووجدت طائفة من جهابذة العلماء، امتلأت بأخبارهم ومآثرهم المصادر والمراجع الأندلسية.

ففي اللغة والأدب والشريعة مثل أبو عبدالله الفخار، شيخ النحاة في عصره، وأبو القاسم محمد بن علي الحسيني، والمحدث شمس الدين بن جابر الوادي آشي، وأبو عبدالله مرزوق،

والقاضي أبي البركات بن الحاج البلفيقي. وكذلك في الأدب والشعر، أبي عبدالله بن الحكيم اللخمي، وأبي الحسن بن الجياب. وفي الطب والفلسفة ، حكيم العصر الشيخ أبو زكريا يحيى بن هذيل.

وفي التاريخ لسان الدين بن الخطيب وغيرهم ، كثير ، ومن بين هؤلاء العلماء الذين أضاؤا بعلمهم الأندلس وغير الأندلس ، القاضي محمد بن يحيى المالقي صاحب هذه الدراسة ، الذي استفاد من العلماء، وتكونت شخصيته العلمية التي جعلته يحتل مكانة رفيعة بين أقرانه من العلماء، وأصبح عارفاً بالأحكام والقراءات والحديث والأنساب، والعربية واللغة والعروض والفرائض والحساب(٥٣).

لقد راجت العلوم الشرعية واللغوية والعقلية في عصر القاضي محمد بن يحيى المالقي ببلاد الأندلس، مما كان لها أكبر الأثر في حياته العلمية، وقد شارك فيها وأسهم بنصيب كبير بمجالسه العلمية في علوم مختلفة وبتأليفه كتاب. «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان» الذي نحن بصدد الحديث عنه وعن منهج المؤلف فيه.

الموسوعية في العلم:

كثير من العلماء خلال القرنين السابع والثامن الهجريين اللذين عاش فيهما القاضي محمد ابن يحيى لم يكتفوا بعلم واحد أو اثنين، بل حازوا شرف كثير من العلوم والفنون، مثل : ابن جزي أحمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ت ٧١٥هـ ، كان له مشاركة حسنة في فنون متنوعة من فقه وعربية وأدب وحفظ وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة (٥٤). وكذلك أحمد بن محمد بن أحمد بن سعدة العامري ت ٦٩٩هـ ، كان مشاركاً في كثير من الفنون، جزلاً مهماً ريان من العربية ، وقد قرأ الفقه وأصوله، وكان صدراً في الفرائض والحساب، وألف في التاريخ كتاباً عن تاريخ قومه (٥٥). وأحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيى الجزلي ت٧٦٥هـ ، كان من صدور أهل العلم والتفنن تضلع بصناعة العربية، عارفاً بالفروع والأحكام ، والطب، والأدب، قائم على العربية والقراءة ، حسن الخط(٥٦). وأحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان المالقي ت ٧٦٣هـ، بقية الأعلام أديب من الأدباء ، ناظم ناثر عارف ثاقب الذهب ، إمام الفرائض والحساب والأدب والتوثيق ، ذاكراً للتاريخ واللغة ، شارك في الفلسفة والتصوف، كلف بالعلوم الإلهية(٥٧). والحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص القرشي ت ٦٩٩هـ، كان متفنناً في عدة معارف، أخذ من كل علم سنى بحظ وافر ، حافظاً للحديث والتفسير ، ذاكراً للأدب واللغة والتواريخ ، شديد العناية بالعلم، حسن اللقاء لطلبة العلم(٥٨).

ويُعد القاضي محمد بن يحيى المالقي، صاحب هذه الدراسة من الموسوعيين أيضا ، فقد كان من صدور العلماء عارفًا بالأحكام والقراءات عرافًا بالحديث تاريخًا وإسنادًا وجرحًا وتعديلاً ، حافظًا للأنساب والكنى، قائمًا على العربية، مشاركًا في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب [٥٩].

دراســـة المؤلف

اسمه ونسبه [٦٠]:

هو أبو عبدالله محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد بن أبي بكر[٦١] بن سعيد الأشعري المالقي [٦٢]. ويعرف بابن أبي بكر، من ذرية بلج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد بن أبي بردة، واسمه عامر بن أبي عامر بن أبي موسى، واسمه عبدالله بن قيس صاحب رسول الله ﷺ ، وقد ذكره الإمام ابن حزم[٦٣] في جملة من دخل الأندلس من العرب [٦٤].

ولادته ونشأته :

ولد محمد بن يحيى في أواخر ذي الحجة من عام أربعة وسبعين وستمائة[٦٥]. وقد لازم – قبل سن التكليف– صهره الشيخ الفقيه الوزير أبا القاسم بن محمد بن الحسن، وقد قرأ عليه بمنزله القرآن الكريم وتأدب معه [٦٦]. إن هذا كله يعطينا تصويراً عن نشأته بين أحضان العلم والعلماء فأول ما سمعت أذنيه كتاب الله عز وجل ، وأول ما شبّ تأدب في بيت علم وسلطان ، وشمله أهل العلم بعنايتهم ورعايتهم .

رحلاته وشيوخه :

منذ نعومة أظفاره قرأ ببلدة «مالقة» القرآن الكريم على الوزير أبي القاسم بن محمد بن الحسن وتأدب معه وكان يقرأ بمنزله ثم أخذ عن الراوية أبي عبدالله محمد بن عباس الخزرجي، والخطيب الولي أبي الحسن بن فضيلة ، والأستاذ أبي الحسن بن اللباد المدني، ورحل إلى مدينة «سبتة» فأخذ بها عن أبي علي بن أبي التقي طاهر بن ربيع، وأبي فارس عبد العزيز الهواري، وأبي إسحاق التلمساني وأبي عبدالله بن الخضار والمقرئ أبي القاسم بن عبد الرحيم، والأستاذ أبي بكر بن عبيدة، كما رحل إلى أهل المشرق فأجازه الإمام شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي بمصر، كما سمع الراوية المحدث أبا المعالي أحمد بن إسحاق القوصي بمصر مع جماعة من المصريين والشاميين وغيرهم.

ثم رحل وعاد إلى بلده «مالقة» وقد سار سباق الحلبات معرفة بالأصول والفروع العربية واللغة والتفسير والقراءات[٦٧].

مكانته العلمية:

مما لاشك فيه أن المنزلة العلمية والمكانة الاجتماعية التي تبوأها الوزير أبو القاسم بن محمد بن الحسين من جهة، وعنايته بالقاضي محمد بن يحيي ورعايته منذ البداية وتأديبه له من جهة أخرى، كان لها أكبر الأثر وأوضحه في تكوين شخصية القاضي محمد بن يحيى المالقي العلمية، ونبوغه مبكراً ، مما جعله يحتل مكانة رفيعة بين أقرانه من العلماء في العصر الذي عاش فيه مما يدل على مدى اتساع ثقافته ونبوغه في فنون العلم المختلفة والمتعددة، التي برع فيها ، فنال بها إعجاب شيوخه والمتعلمين والمستمعين وغيرهم، فهو عارف بالأحكام والقراءات ، وفي الحديث تاريخا وإسناداً وتعديلاً وتجريحاً حافظاً للأنساب والأسماء والكنى.

وكان قائما على العربية مشاركًا في الأصول والفروع، واللغة والعروض والفرائض والحساب، وكان مخفوض الجناح ، حسن التخلق، عطوفا على الطلبة ، محبا للعلم والعلماء، مجلاً لأهله [٦٨].

تصدر في فنون العلم، وكان حريصًا على الاستفادة فنفع وأدب وخرج وهذّب ، لم يزل ملازمًا أيام قضائه للإقراء مع التعليم. وكان لايتكلم بغير العلم إلا عن ضرورة ، وبقى كذلك زمانا، ويدّرس بالمسجد القريب من منزله احتسابًا ، ثم تقدم ببلاده للوزارة ناظراً في أمور العقد والحل ، ومصالح الكافة[٦٩].

مكانته الاجتماعية:

إلى جانب المكانة العلمية التي تمتع بها القاضي محمد بن يحيي المالقي، كانت له مكانته الاجتماعية المرموقة في نفوس معاصريه ، وكل من عرفه أو ارتبط معه بوشيجة من علم أو عمل، فقد أثنى عليه مترجموه ، ووصفوه بكثير من عبارات المدح والثناء والتخلق بجميل الصفات ، والإكثار من النصح للآخرين، والصبر على الإسماع من غير ملل ولاضجر، هذا، بجانب الإشادة بأخلاقه وفضله وزهده وورعه وديانته، والحق كذلك ، فقد كان - رحمه الله- قاضيا وعالمًا فاضلاً ، فقد ذكره القاضي المؤرخ أبو الحسن بن الحسين فقال: كان أبو عبدالله بن أبي بكر صاحب عزم ومضاء، وحكم صادع وقضاء.

كان له مع كل قرار صولة ، وعلى كل رابع لايعرف ذرة، فأحرق قلوب الحسدة والصب، وأعز الخطة بما أزال عنها من الشوائب ، وذهب وفضفض كواكب الحق بمعارفه ، ونفذ في المشكلات، وثبت في المؤهلات واحتجَّ وبكتُ وتفقَّه ونكّت [٧٠].

تُوليه القضاء:

تولى محمد بن يحيى الأحكام الشرعية ، وهو ملقب بكلمة الإمام العلم الأوحد، خاتمة الفقهاء ، وصدر القضاة العلماء، فاستمر في منصبه طيلة تولى الأمير محمد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد في الدولة النصرية بالأندلس، واستمر له الحكم إلى تمام مدته، وصدراً من أيام أخيه بعده، يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف(٧١) .

لقد ولى القضاء ببلده «مالقة» فأعز الخطة، وترك العداوة وإنفاذ الحق (٧٢). ملازمًا للقراءة محافظًا للأوقاف ، حريصا على الإفادة.

ثم ولى القضاء والخطابة بغرناطة ، في العشر الأول لمحرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، فقام بالوظائف وصدع بالحق وجرح الشهود فزيف منهم ما ينيف على السبعين عددا، واستهدف بذلك إلى معاداة ومناضلة خاض ثبجها وصارم تيارها، غير مبال بالمغبة ، ولاحافل بالتبعة، فناله لذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله.

وربما نحا في بعض أحكامه أنحاء مصعب بن عمران، أحد القضاة قديما بقرطبة ، فكان لايقلد مذهبًا ، ويقضي بما يراه صوابا، وإذا قلنا عن القاضي محمد بن يحيى المالقى إنه كان في شدائد أحكامه أشبه علماء وقته بسحنون بن سعيد، لم يكن في ذلك ببعيد، فإنه أدب الناس على الحلف بالأيمان اللازمة ، وأنكر سوء الحال في الملابس، وفرق مجتمعات أرباب البدع، وشدد على أهل الأهواء بالسجن والأدب ، على سبيل في ذلك كله من اتباع السنة وإطراح الهوى له، وخفض الجناح لأهل الخير(٧٣).

وفاته :

فُقد القاضي محمد بن يحيى في مصاب المسلمين يوم المناجزة «بطريف» شهيداً محرضاً(٧٤) . تلك الموقعة العظيمة التى نشبت بين الجيوش الأسبانية المتحدة بقيادة الفونس الحادى عشر ملك «قشتالة» وبين الجيوش المغربية بقيادة السلطان أبي الحجاج يوسف الأول سلطان غرناطة بالقرب من «طريف» وعلى ضفاف نهر «سالادو» الصغير(٧٥). وقد زعموا(٧٦) أن بغلة كان عليها كبّت به، وأفاق رابط الجأش ، مجتمع القوى، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه . وقال: انصرف هذا يوم الفرح، إشارة إلى قول الله عز وجل، في الشهداء: «فرحين بما آتاهم الله من فضله»(٧٧)، وذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جمادى الأول عام واحد وأربعين وسبعمائة(٧٨).

يعتبر كتاب «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» من أعظم مجهودات القاضي محمد ابن يحيى المالقي، حيث قصد بهذا الجهد وجه الله عز وجل دفاعاً عن الصحابي الجليل عثمان ابن عفان رضي الله عنه، ورد كيد الكائدين وحقد الحاقدين في نحورهم، وإبطال كل افتراءاتهم.

فرغ القاضي محمد بن يحيى من جمع هذا الكتاب وتأليفه في يوم الثلاثاء خامس عشر ذي القعدة من سنة تسع وتسعين وستمائة[٧٩].

فكلمة «التمهيد» تعني التهيئة للحديث عن مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه وبسط الأمور المحيطة به، وذلك بذكر أبواب عدة عن حياة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، متمثلة في ستة أبواب، ويأتي الحديث عن مقتله في الباب السابع. أما كلمة «البيان» فتعني إظهار الحق وكشف حقائق الأمور حول مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد جاء التصريح في مقدمة المخطوطة بموضوعها، فقال المؤلف: فهذا كتاب أذكر فيه مصرع الإمام عثمان بن عفان، وأحواله وبعض سيرته، وقد جاء التصريح في الصفحة الأخيرة من المخطوطة بيان باسم الكتاب بنصه المعروف المثبوت وهو «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» وهذه هي النسخة الوحيدة للمخطوطة، وهي مزيدة، وليس بها صفحة العنوان، ولكن فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية قد اعتمد على هذا الاسم وذكره[٨٠].

وبعد الاطلاع على مصادر ومراجع متعددة تبيّن صحة نسب كتاب «التمهيد والبيان» للقاضي محمد بن يحيى، فقد ذكره البغدادي، «صاحب هدية العارفين»[٨١]. والزركلي صاحب كتاب «الأعلام» [٨٢]. كما ذكره عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين»[٨٣] والبغدادي في كتابه «إيضاح المكنون» [٨٤]، وكارل بروكلمان في تاريخه [٨٥].

الدّاعي إلى تأليف الكتاب:

أوضح المؤلف في مقدمة الكتاب أنه ألف هذا الكتاب لكي يذكر مصرع الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأحواله وسيرته، بمنهج يتوخى فيه العدل من غير ميل أو تعصب [٨٦]. خاصة أن هذا الموضوع يمس خليفة من الخلفاء الراشدين، وصحابيًا جليلاً من العشرة المبشرين بالجنة، وصحابيًا عظيمًا تزوج اثنتين من بنات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وصحابياً من الصحابة الذين اعتمد عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في كتابة الوحي.

إن كثيراً من البحوث قد تردد خلافات عفى عليها الزمن، وتوجه اتهامات باطلة تجاه الخليفة عثمان بن عفان ، في حين أن الصحابة الكرام أسمى أخلاقًا وأصدق إخلاصًا لله، وترفعًا عن خسائس الدنيا من أن يختلفوا للدنيا . خاصة وأن الأيد الخبيثة في العصر الأول قد عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه ، وهذه الأيد الخبيثة ما زالت فيما بعد تصور الوقائع بغير صورتها الحقيقية، بل تلبسها ثويا غير ثوبها الحقيقي، مما يشوه صورة هؤلاء الأنجم في سماء العظمة والشموخ والقدوة الحسنة التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

لقد كتب المؤلف كتابه هذا- وكأني به- ليكون بيانًا لما كان عليه هذا الصحابي الجليل من صفات الكمال، وادحاضا لما ألصق به ، وليكون صيحة مدوية من صيحات الحق، توقظ المسلمين إلى هذه الدسيسة التي دسها عليه أعداؤه ومبغضوه من اليهود ومن الذين ضلوا الطريق وساروا خلفهم.

محتوى الكتاب وتنظيمه :

تعتبر المادة العلمية لكتاب « التمهيد البيان» سيرة للخليفة عثمان بن عفان، وعرض للاتهامات التي ألصقت به ، ومناقشتها وبيان وجه الحق والصواب والتعرض لمصرعه وقوى الشر التي دبرت المؤامرات فأودت بحياة الخليفة عثمان رضي الله عنه . وقد سار المؤلف في عرض مادة الكتاب متوخيًا العدل ، كما قال وكما اشترط في مقدمة الكتاب بلا ميل أو تعصب ، وكانت مادته على النحو التالي:

اشتملت مادة الكتاب على نقول من المصادر والمراجع التي سبقت المؤلف، وأحيانا من ثقافته بدون مصدر، ويظهر ذلك في كثير من عرضه لمادته ، حيث عرض بابًا موجزًا تحدث فيه عن نسب الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذكر أولاده وزوجاته ، ونسب كل أبنائه وبناته إلى كل أم ينسبون لها .

كما تعرض لبعض المواقف التي صحبته في زواجه من ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر بعض الآيات التي نزلت في ذلك، مثل قوله عز وجل: «تبت يدا أبي لهب وتَبَّ»(٨٧)، وذكر أخباراً عن إسلامه رضي الله عنه وعن هجرته، أحيانا يذكرها بسندها عن الكتاب الذي نقل منه، وأحيانًا بدون سند، كما ذكر كيف تمت له البيعة بالخلافة، وقصة الشورى التي أعدها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد مهد لذلك بالحديث عن مقتل سيدنا عمر بن

الخطاب رضى الله عنه، من بين روايات كتب الحديث الستة الصحيحة خاصة صحيح البخارى ذاكراً خبر قتله على يد أبي لؤلؤة المجوسي ، غلام المغيرة بن شعبة واسمه «فيروز» .

كما أنه أتى بمادة علمية فى هذا الأمر من بعض المصادر التى أصبحت فى هذه الأيام بعيدة عن أيدى الباحثين، بسبب فقدها ، مثل كتاب الفتوح الكبير لسيف بن عمر التميمى.

ولم ينس المؤلف أن يذكر لنا مادة علمية تحتوى على فضائل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، من أصح الكتب كالبخارى ومسلم. فذكر بشارة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالشهادة ، وقد بشره بذلك كعب الأحبار ، ولاينسى أن يزين مادته بأبيات الشعر، كما زينها من قبل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة عن الصحابة الكرام.

كما ذكر ما قد صنعه سيدنا عثمان رضى الله عنه حين ولى أمر الخلافة معتمداً فى ذلك على المادة العلمية التى ذكرها سيف بن عمر في كتابه «الفتوح الكبير» من ذكر للولاة فى الكوفة وخراسان وما وراء النهر وغير ذلك. وتعرض أيضا لذكر الكتب التى كتبها سيدنا عثمان رضى الله عنه إلى عمّاله فى أول خلافته ، وكذلك إلى أمراء الجنود، وإلى عمال الخراج، وإلى العامة. وذكر أيضا من الأمور التى اتخذها عثمان رضى الله عنه- وكان أول من فعل ذلك- دور الضيافة بالكوفة.

كما اشتمل الكتاب الذى بأيدينا علي الأمور التى خاض فيها أصحاب النفوس المريضة، والتى نقموا بها على سيدنا عثمان رضى الله عنه كاستعمال عبدالله بن أبى سرح على مصر، وإتمام سيدنا عثمان رضى الله عنه الصلاة «بمنى» والزيارة فى مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم ، والمنافرة بين سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود، وولاية الوليد بن عقبة على الكوفة، وتعرض أيضا لمن قدح فى أمر الوليد بن عقبة ، وحديث المصاحف وتحريقها ، وغير ذلك من الأمور التى نقمها هؤلاء المغرضون على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

واشتمل هذا الكتاب أيضا على مادة علمية تعدّ من أهم ما يكون، وهى التحرك الأول لقوى الشر فى شأن سيدنا عثمان رضى الله عنه من بين أفرادها: مالك الأشتر، والأسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس، وصعصعة وعبدالله بن سبأ اليهودى وأصحابه ، وبداية نشر فكره اليهودى الذى هو بمثابة الشرارة الأولى فى إحداث الفتنة الكبرى، التى حصدت أعداداً كبيرة من المسلمين وعلى رأسها مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، والحديث عن خبر بعض هؤلاء الفسقة الفجرة كخبر يزيد بن قيس ، والأشتر والكميل بن زياد وعسير بن ضابئ ،

وحكيم بن جبلة وحمران بن أبان. ثم تحدث عن أبي ذر رضي الله عنه وخروجه إلى الربذة، وما دار حوله من أقوال مختلفة وما دار من نقاش حول بعض الآيات القرآنية وبيان وجه الصواب فيها.

وتحدث أيضا عن الفتنة التي طلت برأسها ونشبت في مصر بقدوم ابن السوداء – عليه لعنة الله– إلى مصر وبث سُمه الناقع فيها. ثم ذكر بعض الأخبار عن انحراف محمد بن أبي حذيفة ، وعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر من الخليفة عثمان رضي الله عنه.

ومن المادة العلمية المهمة أيضا في هذا الكتاب ما ذكره المؤلف حول الذين ساروا إلى سيدنا عثمان رضي الله عنه وحاصروه ، نتيجة لما بعثه ابن السوداء من دعاة الفساد إلى البلد، وقلب بهم الرّعية وبث فيهم الحقد والضغينة.

وذكر أيضا مكاتبة السبئية لأشياعهم من أهل الأمصار بالثورة والتمرد على أمرائهم ، ثم ذكر ما كتبه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الأمصار من كتب تحثهم على السمع والطاعة، وذكر المؤلف في ذلك ثلاثة كتب .

كما احتوى الكتاب أيضا على خبر حصار سيدنا عثمان رضي الله عنه، وخروج أهل مصر، وخروج أهل الكوفة ، وخروج أهل البصرة، وما دار بين الخليفة عثمان رضي الله عنه وبين الثوار الخارجين على الشرعية والمفارقين للجماعة والشاقين عصى الأمة. كما تعرّض للأحداث التي تمت أثناء حصار سيدنا عثمان رضي الله عنه كمنع الماء عنه، وتعرض أيضًا لذكر الاختيار الصعب الذى اختاره سيدنا عثمان رضي الله عنه وهو بذل نفسه دون دماء المسلمين ، ثم تعرض بعد ذلك لحادث القتل وما دار حوله من أقوال وما دار حوله من خلاف حول من قتل الخليفة ومن اشترك في قتله، والصلاة عليه ودفنه، والتعرض لذكر من قُتل معه من العبيد ، وما أصاب الناس من ندم بعد قتله .

كما احتوت المادة العلمية الحديث عن عمره ومقدار خلافته، وبيان الوجه الصحيح في ذلك، وولاة البلاد في زمانه ، والحديث عن صفته ولباسه وخضابه وتختمه، يث يستطرد المؤلف الحديث عن سيرته وفضائله، والمواقف التي تشهد له بالصلاح وعمل الخير، وبذل ما في وسعه لخدمة الإسلام والمسلمين كتزويجه من ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم، وشرائه بئر رومة للمسلمين، ومبايعة النبي عنه يوم بيعة الرضوان، وبيان السبب في تخلفه عن هذه البيعة .

ثم تحدث عن حياته واحترام النبي صلى الله عليه وسلم إياه، ومناشدة الخليفة رضي الله عنه طلحة والزبير وهو محصور ، ومحاورة الخليفة لابن مسعود وعمار رضي الله عنهم جميعًا.

كما تحدث عن بشارة النبى صلى الله عليه وسلم لعثمان رضي الله عنه بالجنة والحديث عن فضل عثمان بعد أبى بكر وعمر رضى الله عنهم، وذكر مصاهرة عثمان رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم، والحديث عن تجهيزه رضى الله عنه لجيش العسرة، والحديث عن أن عثمان رضى الله عنه برئ من الفتن وأنه يُقتل مظلوماً .

يتناول الحديث أيضا ذكر الخلاف فى أمر قتلة سيدنا عثمان وخاذلته ، وينقل لنا هذا الأخبار عن الجاحظ مستنداً إلى كثير من أبيات الشعر لمختلف الشعراء، ويتناول عذر سيدنا عثمان رضى الله عنه عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما تحتوى المادة العلمية لهذا الكتاب على أمور قلّ من سبق المؤلف فى ذكرها ، وهى الجواب على الأسباب التى نقمها المفسدون على سيدنا عثمان رضى الله عنه، والاعتذار لسيدنا عثمان - عليه رضوان الله .

تناول القاضى محمد بن يحيى فى مادته الحديث عن الأخذ بثأر عثمان رضى الله عنه ، ممن باشر قتله أو أعان عليه، فذكر لنا مقتل مالك بن الأشتر ومقتل محمد بن أبى بكر، وكنانة ابن بشر التجيبى.

تعرض المؤلف لمقتل طلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام رضى الله عنهما وقتل عمار بن ياسر ومقتل عمرو بن الحمق الخزاعى ، وعمير بن ضابئ، وكميل بن زياد ، وجماعة ممن غزا عثمان رضى الله عنه ، وقتل حرقوص بن زهير.

وذكر أيضا تعظيم شأن قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه، وما روى فى ذم قتلة عثمان رضى الله عنه.

كما تناول فى حديثه عن موقف الرافضة من قتل سيدنا عثمان ، وجعل يوم قتله عيداً لعنهم الله. ثم ختم مادته العلمية بالحديث عن الرافضة ومعايبهم والرّد على الغلاة منهم، وبيان إفراطهم فى على بن أبى طالب رضى الله عنه. كما ذكر أقوال كثير من العلماء فى كفر الرافضة من وجوه كثيرة، وأنهم يتعاطون أشياء خارجة عن الشريعة ، كما ذكر أقوال العلماء فى أن الرافضة يشبهون اليهود فى كثير من الأعمال والأقوال. وذكر بابا فى معايب الرافضة، وقبح مذهبهم، مستعيناً فى ذلك بكتب الجاحظ ، وكذلك مكابرتهم وادعائهم التقية ، وغلوهم فى على بن أبى طالب رضى الله عنه وفى ذريته، وقولهم بتناسخ الأرواح وغيره، وكذبهم على أهل البيت وتحريفهم للقرآن، وتفسيرهم له بآرائهم الفاسدة وخرافاتهم ، وذكر أمثلة من تفسيرهم

لآياتُ الله عز وجل واستخدام آرائهم المنحرفة . ثم ذكر أيضا مناظرة الرافضة واختلافهم في الإمام، وختم كتابه بقوله «إن هواهم كله كفر بالله العظيم وغلوهم وإفراطهم».

هذه هي مادة الكتاب التي صنفها القاضي محمد بن يحيى في مجملها ، أما عن حيث المحتوى فقد احتوت على مادة تاريخية من أقوال المؤرخين المشهورين ، ومادة حديثية من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وأبيات ليست بالقليلة من الشعر العربي ، وزين ذلك كله بذكر آيات كريمات من كتاب الله عز وجل في كثير من صفحات الكتاب .

النسق التعبيري للكتاب :

لم يبتدع القاضي محمد بن يحيى أسلوباً خاصاً للكتابة، وإنما جرى التدوين ضمن الأسلوب المرسل الأدبي في عرض الأخبار والروايات والتعليقات، وتحليلاته للمواقف التي تحتاج إلى تدخل منصف منه، فاختار العبارة المناسبة للتعبير وتميز عرضه بالسهولة واليسر، ولم يعن بالصنعة البيانية والألفاظ الصعبة ، وقد تذوق الشعر وأورد منه، عدداً كثيراً من الأبيات.

قد يختلف القاضي محمد بن يحيى في عرض مادته عن الموارد التي نقل منها وقد دفعه هذا الأمر في أغلب الأحيان إلى إعادة صياغة المادة التاريخية المنقولة عن المؤلفات السابقة عليه بأسلوبه الخاص ، ولم ير في ذلك ضيراً طالما قد توخى الدقة والأمانة في نقل معاني الأقوال لاسيما تلك التي تؤثر في قيمتها إعادة الصياغة. ألزم المؤلف نفسه بنقل النصوص بألفاظها في الحالات التي تستحق ذلك وتتطلبها كالفوائد الحديثية في أواخر الأحاديث مثل: أخرجه مسلم في صحيحه ، أو أخرجاه البخاري ومسلم، أو هذا حديث قريب من هذا الوجه[٨٨] .

كما نقل الرسائل التي بعث بها الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى عماله في أول خلافته ، وكذلك إلى أمراء الجنود، وإلى عمال الخراج وإلى العامة[٨٩] . وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة ، وبعض القطع النثرية التي هي من أقوال الصحابة رضى الله عنهم ، والقصائد الشعرية كما في رثاء سيدنا عثمان رضي الله عنه . وكذلك المناقشات والحوار الذي دار بين سيدنا عثمان وبين الثائرين عليه من أهل مصر والكوفة والبصرة. والروايات المسندة التي نقلها عن ابن سعد، والتي نقلها عن الآجرى من كتاب الشريعة.

وكذلك في أبيات الشعر ويوردها يذكر أصحاب الأبيات كأن يقول : قال حسان بن ثابت[٩٠]. أو روى كعب بن مالك الأنصاري، أو قال الوليد بن عقبة [٩١]. وقليلاً ما يمتنع عن ذكر صاحب الأبيات ولكن يذكر المتمثل بها، وقليلاً ما يسوق أبياتاً على لسان الهاتف أو الجن أو صوت الجن[٩٢]. كما أتى بشعر على لسان بعض النساء مثل: عاتكة بنت زيد [٩٣]. في رثائها للزبير بن العوام رضي الله عنه.

قليلاً ما نجد من العلماء من صنّف كتاباً في سيرة سيدنا عثمان رضي الله عنه منفردة دون أن يشركه مع باقي الخلفاء أو يشرك باقي الخلفاء معه فتكون سيرة ذاتية محيطة به من شتى الجوانب، ورغم قلة من كتبوا- وأنهم لم يتجاوزوا أصابع اليد الواحدة- إلا أن أكثر مصنفاتهم قد فقدت وكلهم سابقون على المؤلف ، ومعظم من كتب عن سيدنا عثمان ، كتب عنه ضمن شخصيات الخلفاء أو الصحابة رضوان الله عليهم.

يعتبر هذا الكتاب سجلاً خالداً يخلد سيرة سيدنا عثمان رضي الله في المجتمع الإسلامي، التي قد ضاعت عند كثير من أفراد هذا المجتمع ، بسبب ما أحدثه اليهود من فتنة كان سيدنا عثمان رضي الله عنه هو ضحيتها ، فالكتاب يعطي القارئ الحقيقة الناصعة حول موقف اليهود من الإسلام والمسلمين ، ويظهر حقيقة هذه الفتنة ويوضح الصواب في كثير من الأمور التي غمضت على كثير من المسلمين وغيرهم، فيما يقرب من اثنتي عشرة نقطة ، أو فرية قد ألصقها اليهود بسيدنا عثمان رضي الله عنه، وتبعهم في ذلك ضعاف النفوس وضعاف الإيمان من المسلمين .

وقد ألزم المؤلف نفسه في كثير من المواضع بتعريف أسماء البلدان، أو تفسير بعض معاني الكلمات أو بيان المقصود من بعض الكلمات مثل كلمة «السبئية» فيقول : هم قوم يسبون عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وينسبون إلى عبدالله بن سبأ [٩٤]. كما يذكر معنى كلمة «نهابير» أي شدائد، وذلك داخل المتن وليس آخره[٩٥]. كما ألزم القاضي محمد بن يحيى نفسه في بعض المواضع أن يُعَرِّف لنا ألقاباً لأعلام وردت في النص الذي نقله أو في أبيات الشعر التي نقلها ، كما ورد في بيت كعب بن مالك الذي يقول فيه:

ورفاعة العمري وابن معاذهم   وأخو المشاهد من بني العجلانا

فيقول محمد بن يحيى القاضي : والعمري: رفاعة بن عبد المنذر، وابن معاذ أسعد بن معاذ، وأخو المشاهد معن بن عدي[٩٦]. كما فسّر لنا بعض الأماكن مثل: «حش كوكب» فيقول : وهو حائط لرجل من أهل المدينة اسمه «كوكب»[٩٧].

أهمية المخطوطة :

إن إخراج أى مخطوطة إلى حيِّز الطباعة والدراسة والتحقيق من كتب العلماء السابقين، الذين هم على قدر وافر من العلم، يُعد فى ذاته هدفًا يجب أن يحرص عليه من يسَّر الله له أن يعمل فى مثل هذا المجال، كما يُعتبر إيجاداً للصلة بين حاضرنا المتوثب وماضينا التليد.

إن دراسة مثل هذه الكتب وتحقيقها واستخراجها ، هو استخراج لفوائد عديدة، تلقي الضوء على ماضى الأمة، أو تنير السبيل أمام مستقبلها ومستقبل أبنائها ، وخاصة إذا كان موضوعها من الموضوعات التى لاكتها الألسنة وشوهها المغرضون ، ووضعوا فيها سُمهم ليضللوا شباب الأمة .

هذه المخطوطة تعتبر وعاءً لبعض الكتب والمصادر التى نقل منها القاضى محمد بن يحيى، واستمد منها مادة كتابه، وهذه الكتب قد أضاعتها يد الحدثان مثل كتاب الفتوح الكبير لسيف ابن عمر التميمى (٩٨)، وكتاب تاريخ الجورقانى (٩٩)، وكتاب المقتل لعبد الرزاق الرسعنى(١٠٠)، وكتاب السنة لمحمد بن نصر المروزى(١٠١). فإن وجود نصوص هذه الكتب بين دفتيّ كتاب «التمهيد والبيان» يعطيه الأهمية من حيث المحافظة على نصوص كتب مفقودة.

تكمن أهمية هذه المخطوطة فى أنها تعكس حالة من حالات الإفك والافتراء التى وجهها اليهود وعلى رأسهم عبدالله بن سبأ تجاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وتعدد المطاعن التى وجهت إليه، ومدى الردود التى ردّ بها المؤلف على كل فرية قدمها اليهود افتراء على سيدنا عثمان رضى الله عنه (١٠٢). إنها ردود مقنعة مستندة على أدلة ومستنبطة بعقل واع وبقلب عامر بالإيمان، محب لصحابة النبى صلى الله عليه وسلم، لا يقوم بمثلها إلا قاض عُرضت عليه الأقوال المتضاربة ، ثم يأتى هو فيبين بعلمه وحسه الحقيقة من الزيف والصواب من الخطأ.

تأتى أهمية هذه المخطوطة ومكانتها الفريدة فى أن مؤلفها قاض مسلم لديه القدرة على بيان الغث من السمين ، عارف بالأحكام والقراءات وفى الحديث تاريخا وإسناداً ونقادة من أهل الجرح والتعديل، حافظا للأنساب والكنى، مشاركًا فى الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب (١٠٣).

توخى المؤلف فى كتابه هذا العدل والإنصاف من غير ميل ولاتعصب ذاكرًا ما نقله الأئمة والعلماء فى كتبهم وتواريخهم، ولم ينته الأمر على ذلك بل أنه تدخل بعد ذلك فى بيان الصحيح

من غيره، وبيان ما هو حق وما هو باطل ، مما يصح أن يُقال وما لايصح ، وقد التزم بما ألزم به نفسه في مقدمة الكتاب من توخي كل أمر فيه عدل وإنصاف من غيره[١٠٤].

ومما يزيد هذا الكتاب أهمية، أن من تناول أمر سيدنا عثمان بن عفان وقتله كالقاضى أبى بكر بن العربى، لم يفرد له كتابًا بذاته وإنما جعله ضمن ردوده على أفعال اليهود ومؤامراتهم ضد الإسلام منذ خلافة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وأن القاضى ابن العربى لم يقنعه الرد المستفيض فى إبطال مزاعم اليهود وإفكهم تجاه سيدنا عثمان رضى الله عنه، أما القاضى محمد بن يحيى صاحب كتاب التمهيد والبيان فقد استفاض فى ردوده على الطاعنين فى سيدنا عثمان رضى الله عنه .

كما تظهر أهميته أيضا فى أن القراء يجدون فيه مُثلاً عُليا يعزّ وجودها فى دنيا الواقع، لأن الإنسان يجب أن يعيش ولو لمدة يسيرة فى مستوى رفيع من الخلق والإيمان، وإن لم يتيسر له ذلك، فهو حريص على أن يقرأ أخبار سيدنا عثمان رضى الله عنه، ويصغى إلى كلماته ويتبصر أفعاله، وينهل من بحر حلمه وكرمه وتضحياته فى سبيل الله.

أما من حيث ردّ القاضى محمد بن يحيى على الأسباب التى نقمها الرافضة والملحدون قال: اعلم رحمك الله أن الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان رضى الله عنه وتعللوا عليه بأشياء فعلها لا تثبت لهم عليه بها حجة ، مثل افترائهم أن ابن مسعود رضى الله عنه أنكر على عثمان رضى الله عنه فى أمر المصاحف وتحريفها، فالجواب : أن ابن مسعود دونه فى الفضل والمرتبة ، فكان عثمان رضى الله عنه أعلم بما فعل، ولأن الرجل كان يقول للرجل، قراءتنا خير من قراءتك ، فأزال عثمان رضى الله عنه هذا الخلاف وجمعهم على قراءة واحدة، وكان زيد بن ثابت قد تولى أمر المصاحف ، ولو كان ذلك متوجهًا إلى عثمان رضى الله عنه لكان ذلك طعنًا على من قبله من الصحابة.

وقد روى أن عليًا رضى الله عنه قال : عن ملأ منا- أصحاب رسول الله – فعل ذلك عثمان- ولو كان هذا الفعل منكرًا ، لكان الإمام علىٌ قد غيره وما صار الأمر إليه، فلما لم يغيره علم أن عثمان رضى الله عنه، كان مصيبًا فيما فعل . فإن قيل : إنه اعتدى بتوليه الوليد بن عقبة ، وإن الوليد سكر فصلى بالناس الفجر ركعتين ثم التفت فقال: أزيدكم؟ فالجواب : أنه قد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة ففسق فأنزل الله «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» فليس يلحق عثمان رضى الله عنه إلا ما لحق رسول الله صلي الله عليه وسلم.

وولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدامة بن مظعون «البحرين» فشرب الخمر متؤلا ، فجلده عمر رضى الله عنه وقدامة بدرى من أولى السابقة والفضل وكذلك عثمان رضى الله عنه.

وولى عليٌّ رضى الله عنه المختار بن أبي عبيد «المدائن» فأتاه بصرة، فقال : هذه من أجور المومسات ، فقال على رضى الله عنه: قاتله الله ، لو شق عن قلبه لو جد مله حب اللات والعُزى، وهو أفسق من الوليد فأخذ المختار المال ولحق بمعاوية رضى الله عنه . وكان الإمام على رضى الله عنه يلقى من ولاته وعماله الأمر الشديد فكان يقول : وليت فلانا فأخذ المال، ووليت فلانا فخانني إلى غير ذلك ذكر . هذا الكلام أبو نعيم فى «كتاب الإمامة».

فإن قيل أن عثمان أتم الصلاة أربعًا بمني وأنكر ذلك ابن مسعود وأبو ذر ، فالجواب أنه قد اعتذر عن ذلك ، قال : ذاك رأى رأيته ، ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعاه ووافقاه ، فقيل لهما فى ذلك، فقالا: الخلاف شر. وقد روى عن جماعة من الصحابة إتمام الصلاة فى السفر، منهم عائشة وسلمان وأربعة عشر من الصحابة رضوان الله عليهم. والذى حمل عثمان على إتمام الصلاة أنه بلغه أن قومًا من الأعراب شهدوا الصلاة معه بمنى فرجعوا إلى قومهم ، فقالوا: الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان بمنى. فلأجل ذلك صلاها أربعًا ليعلمهم ما بنوا به الخلاف والاشتباه .

وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أمر الحج، وأن يجمعوا بين الحج والعمرة فى أشهر الحج، وخالفه ابنه عبدالله وقال: سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبع ، وتابعه أبوموسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقامته على الإحرام حتى دخل مكة معتمرًا حتى فرغ من المناسك ، ولم ينكروا ذلك على عمر رضى الله عنه، ولو كان منكرًا لما تابعوه على رأيه .

فإن قيل : إن عثمان رضى الله عنه أعطى من مال الصدقة و وفر أقرباءه، فالجواب : أن عثمان رضى الله عنه أعلم ممن أنكر عليه، والإمام إذا رأى المصلحة فى فعل شئ فعله، فلا يكون إنكار من جهل المصلحة فى ذلك حجة على من عرفها ، فإنه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفونه، فقد فرق الرسول صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر فى المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة وترك الأنصار لما رأى فى ذلك من المصلحة، حتى قالوا: تقسم غنائمنا فى الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم، وجهلوا ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم من

المصلحة وذلك أعظم مما فعله عثمان رضى الله عنه، ولأن مال المؤلفة قلوبهم من الغنيمة. فلا يلزم عثمان رضى الله عنه من أنكر عليه إلا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل الذى أعطى رسول الله كان من الخمس ، قيل له : لو كان من الخمس لما أنكرت الأنصار ذلك، ولما قالت : غنائمنا ، ولقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أعطيتهم من مال الله.

ألا تراه استمال قلوبهم بقوله : ألا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون برسول الله إلي بيوتكم ؟ قالوا رضينا والحديث مشهور .

فإن قيل : بأن عثمان رضى الله عنه ضرب عمّاراً ، قيل : هذا لايثبت ولو ثبت فإن للإمام أن يؤدب بعض رعيته بما يراه وإن كان خطأ .

ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم اقتص من نفسه وأقاد، وكذلك أبوبكر وعمر رضى الله عنهما أدبًا رعيتهما باللطم والدِّرة وأقادا من أنفسهما وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فجرحه ، فرفع قميصه وقال : تعال فاقتص ، فعفا عنه .

وجاء رجل إلى أبى بكر رضى الله عنه يستحمله فلطمه ، فأنكر ذلك الناس فقال أبوبكر رضى الله عنه، إنه استحملنى فحملته ، فبلغنى أنه باعه ، ثم قال له: دونك فاستقد ، فعفا عنه. وضرب عمر رضي الله عنه جارية لسعد بالدِّرة فساء ذلك سعداً فناوله عمر رضى الله عنه الدرة وقال له : اقتص فعفا .

فإن قيل عثمان رضى الله عنه لم يقد من نفسه، قيل له : كيف ذلك، وقد بذل من نفسه مالم يبذله أحد خصوصا يوم الدار، فإنه قال : يا قوم ، إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلىٌ فى قيد فضعوهما ، وقد ذكرنا أن عماراً تقاذف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان رضى الله عنه حد القذف. فإن قيل : أعطى عثمان رضى لله عنه من بيت المال من ليس له فيه حق ، قيل : لايثبت ذلك عنه . وكيف نقبل هذا وعثمان رضى الله عنه من أكثر الناس مالاً، وأكثرهم عطية ومعروفًا ، مع أن العصر لايخلو من جُهّال يقولون مالايعلمون ، فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا قسمًا ، فقال له رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فغضب ثم قال : رحم الله موسى، لقد أوذى بأكثر من ذلك فصبر.

وقسم صلى الله عليه وسلم يوم حنين تبراً ، فقال له رجل: أعدل يا محمد فقال له : ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل! فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلقى من الجُهال هذا، فكيف بعثمان رضى الله عنه ؟ .

فإن قيل : إنه ولى أقوامًا لايستحقون الولاية ، منهم الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر وغيرهم، قيل : فمن أين لكم أن هؤلاء لم يعدلوا ؟ ولئن جاز لكم ادعاء الفسق فى ولاة عثمان رضى الله عنه لجاز ذلك فى ولاة عمر وعلى رضى الله عنهما . فقد ولى عمر رضى الله عنه المغيرة بن شعبة البصرة فرمى بما لايثبت وولى أبا هريرة البحرين، فقالوا : خان مال الله ، وولى قدامة البحرين فشرب الخمر متأولا ، وولى على الأشتر وأمره ظاهر ، وولى أبا مخنف فأخذ المال وهرب .

فلم خصصتم عثمان رضى الله بالطعن مع أن النبى صلى الله عليه وسلم ولى زيد بن حارثة فطعن الناس فيه حتى قام خطيبًا منكرًا عليهم فيما طعنوا عليه، وقالوا فيه وفى أسامة ابنه ، والحديث مشهور.

وإنما طعن الناس على عثمان على أنه لَيِّن وحَيِيٌّ، وكثر فى أيامه من لم يصطحب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن جهل فضل الصحابة . فإن قيل : فقد نفى أبا ذر إلى الربذة فرداً، قيل لم يكن ذلك نفيًا ، وإنما كان ذلك تخييرًا له ، لأنه كان كثير الخشونة ، ولم يكن يدارى من الناس ما يدارى غيره، فخيَّره عثمان رضى الله عنه، بعد استئذانه فى الخروج من المدينة ، فاختار الربذة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم، وذلك أنه كان بالشام، فجرى بينه وبين معاوية مناظرة فى هذه الآية : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله ، فقال معاوية : هى فى أهل الكتاب، وقال أبو ذر : هى فيهم وفينا ، فكتب معاوية رضى الله عنه إلى عثمان رضى الله عنه فى ذلك، فكتب إلى أبى ذر : أن أقدم على، قال فقدمت عليه فانثال على الناس كأنهم لم يعرفونى. فشكا ذلك إلى عثمان رضى الله عنه، واستأذنه فى الخروج من المدينة فخيره ، فاختار نزول الربذة لما يلقى من الناس واجتماعهم عليه، فخاف الافتتان بهم، وهذ هو الصحيح.

فأما الرافضة فيضعون عليه أشياء لا أصل لها ، فإن جُعل إشخاص أبى ذر رضى الله عنه من الشام وحبسه بالمدينة طعنًا على عثمان رضى الله عنه ، قيل : الأئمة إذا حنثوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا على حسمه.

وقد فعل عمر رضي الله عنه مثل ذلك ، فقد حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لأجل أحاديث حدثوا بها الناس، ومنعهم من الخروج ، ومنعهم من لبس أشياء كانت لهم مباحة خوفًا أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده، فيرتكب بذلك ما ليس له ، مع أن للإمام أن ينفي أقوامًا إذا خاف الافتتان بهم، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفى نصر بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة ، حين قالت : هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

ونفى الإمام على رضي الله عنه النعمان عن ملأ من الصحابة ، ونفى حسان أيضا والله أعلم.

فإن قيل: إن جماعة وافقوا على حصره وقتله ، فقد روى أن حذيفة وعمارًا قالا : قتلناه كافرًا ، وأن طلحة كان فيمن حصر، وأن عليًا أعان على قتله، وأن الناس خذلوه وأسلموه ، إلى غير ذلك من الأمور ، قيل : هذا لايصح عن حذيفة ، وإنما المنقول عنه خلاف ذلك، وإنما هذا من كلام الرافضة وإن نقل ذلك فإنه لايخلو أحد من الصحابة من حاسد وممن يبغضه ، فكيف بعثمان رضي الله عنه وهو من أهل السابقة والفضل والكمال !

والطعن على عثمان طعن على من تقدمه ، وأما طلحة فإنه كان يقول يوم الجمل: اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى .

وأما عليّ رضي الله عنه فإنه قال غير مرة : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . وقال : والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله. ولما بلغه قتله قال : اللهم إني لم أرض بقتله ولم آمر به .

وقال فيه : كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين .

وسئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن عثمان رضي الله عنه فقالت : قُتل مظلومًا ، لعن الله قاتله، أقاد الله من ابن أبي بكر، وساق الله إلى أغر بني تميم هوانا، وأهرق الله دماء ابن بديل ، وساق الله إلى الأشتر سهمًا من سهامه ، فوالله ما من القوم أحد إلا أصابته دعوتها.

وأما ترك الصحابة الإنكار على من حصره ، فلقد ناصحوا عنه ولم يظنوا أن الأمر يبلغ إلى قتله ، وإنما ظنوا أنها تكون معتبة، ومع ذلك فإن عثمان رضي الله عنه كان يعزم عليهم

ليكفوا عن القتال ، ولقد ، أنكروا وبالغوا في الإنكار، منهم علي، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن سلام، وابن عمر، وأبو هريرة، والمغيرة والزبير، وابن عامر، وحمل الحسن بن علي يومئذ جريحاً ، ولبس ابن الزبير الدرع مرتين، رضي الله عنهم أجمعين.

وعن أبي عون: لقد قتل عثمان رضي الله عنه وإن في الدار لسبعمائة رجل منهم، والحسن وابن الزبير رضي الله عنهما، ولو أذن لهم لضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة، وأما طلحة بن عبيد الله، فإنه انصرف ولم يكن فيمن حصره ، كيف وهو يلعن قاتله مع عائشة رضي الله عنها صباحًا ومساءً ، وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه، فكيف يعينون عليه ويطلبون بدمه ! هذا خلف . ومع هذا فينبغي الكف عما شجر بين الصحابة ، والاستغفار لهم والإمساك عما نسب إليه من الرذائل، وكذلك أتباع الأنبياء، إنما تذكر محاسنهم التى مدحوا عليها ويمسك عما سواها .

فإن قيل : إن عثمان رضي الله عنه حمى الحمى ومنع منه الناس.

قيل : إن المصريين جاءوا إلى عثمان رضي الله عنه، فقالوا : ادع بالمصحف فدعا به ففتحوا سورة يونس هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالا) فقالوا له : أرأيت ما حميت من الحمى ، الله أذن لك؟ أم على الله تفترى؟ فقال : هذه الآية نزلت في كذا وكذا، وأما الحمى فقد حمى الأئمة قبلي لإبل الصدقة ، فلما زادت إبل الصدقة زدت في الحمى ، فجعلوا لا يأخذونه بآية إلا قال : نزلت في كذا وكذا حتى أخذ عليهم ألا يشقوا عصا المسلمين، فأقبلوا راجعين إلى بلادهم راضين، فرأوا في الطريق غلامًا معه كتاب فرجعوا إليه، فقال : إني لم آمر به ولاشعرت به فحاصروه باغين عليه ظالمين له.

وقد حمى النبى صلى الله عليه وسلم نقيع الخضمات لخيل المسلمين . وقال البخاري: بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم حمى النقيع ، وحمى عمر رضي الله عنه السَّرف والربذة، واستعمل على الحمي مولى له يُدعى هنيئًا فلم يبثت على عثمان رضي الله عنه ذنب ، ولو ثبت لما استحق بذلك القتل وانتهاك الحريم وشق العصا وتفريق الجماعة ، ولكن الله أكرمه بالشهادة وألحقه بالنبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه في الجنة، حافظا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، في خلع القميص.

لقد حظي قاتلوه بالخزي واللعنة وانتهاك حرمة المدينة في الشهر الحرام ، فإن قيل: فقد رويتم عن النبي أنه ذكر فتنة تكون بعده، وقال في عثمان رضي الله عنه : فاتبعوا هذا

وأصحابه فإنهم على هدى، فأخبرنا من أصحابه . قيل: أصحابه أصحاب رسول الله المشهود لهم بالجنة، المذكور بعضهم فى التوراة والإنجيل، الذين من أحبهم سَعِدَ ومن أبغضهم شقى، مثل على بن أبى طالب، وطلحة والزبير، وسعد وسعيد وغيرهم، من الصحابة ممن كان فى وقتهم رضى الله عنهم ، فإنهم كلهم أنكر قتله، وكلهم استعظم ما جرى على عثمان رضى الله عنه، وشهدوا على قتلته أنهم فى النار، وهم الذين تجمعوا وتألبوا عليه مثل عبدالله بن سبأ وأصحابه الذين أشقاهم الله بقتله ، حسداً منهم له، وبغيًا عليه وإرادة الفتنة، وأن يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لما سبق عليهم من الشقاء فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من العذاب الأليم.

واجتهد الصحابة فى نصرته والذب عنه، وبذلوا أنفسهم دونه ، فأمرهم بالكف عن القتال، وقال : إنى أحب أن ألقى الله سالمًا مظلوما ولو أذن لهم لقاتلوا عنه.

مصادر الكتاب

أولاً أنواع المصادر:

تعدّ المؤلفات السابقة على المؤلف البنية الأساسية والمورد الرئيسي لمادة الكتاب، خاصة وأن المؤلف لم يعاصر الأحداث، مما يدل على مدى تأثره بالسابقين ومدى استفادته منهم. فعند الحديث عن مصادر المؤلف نستشعر سعة اطلاعه وكثرة علومه ، ونلاحظ أن هذه المصادر تتمثل فى نوع معروف متداول بين أيدى الباحثين على مدى العصور.

ونوع آخر يتمثل فى المصادر أو الكتب السابقة منها ما هو عام ومنها ما هو خاص . أما النوع المعروف المتداول على مر العصور ، كصحيح البخارى وصحيح مسلم(١٠٥) وقد نقل عنهما المؤلف فى عدة مواضع، وهما أصح كتابين بعد كتاب الله عز وجل وينقل عنهما المؤلف دون أن يتصرف أو زيادة أو نقصان ، وهذا أمر مُسلم به عند الأخذ من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «من جهّز جيش العسرة فله الجنة»(١٠٦). وأمثال هذين الكتابين من كتب السنة مثل كتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل (١٠٧)، وكتاب السنن لأبي داود (١٠٨)، وجامع الترمذى (١٠٩)، وكتاب السنن للنسائى(١١٠).

فقد نقل المؤلف على سبيل المثال من كتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل حديث ذكره سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه، وأو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً فيقتل بها، فوالله ما أحببت أن لى بدينى بدلاً بعد أن هدانى الله، ولا زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلوننى؟»(١١١).

أما النوع المتمثل فى الكتب السابقة التى تتصل بموضوع الكتاب منها ما هو متداول، ومنها ما ليس متداولاً، ومنها ما هو متخصص في نفس الموضوع، ومنها ما هو شامل للموضوع وموضوعات أخرى شتى ، وكثيراً ما أثبت المصادر التى نقل منها فى متن الكتاب، وتعد طريقة من طرق تسجيل المصادر المنقول منها. فقد صرح فى نقله من تلك المصادر. مثل كتاب الفتوح لسيف بن عمر مصرحًا بهذا النقل حتى وصل عددها إلى أربعة عشر موضعًا، وذلك غير الروايات والأخبار التى نقلها منه دون أن يصرح بذلك.

ومثل كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد حيث نقل منه فى سبعة عشر موضعًا ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. وقد صرح أيضا فى نقله من مصادر عامة أخرى ضمت فى طياتها الحديث عن سيدنا عثمان رضى الله عنه وعن سيرته وخلافته وقتله، وغير ذلك مثل : كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى، وكتاب الإرشاد لأبى عبدالله محمد بن محمد بن المعروف بالمفيد فيه الشيعة، وقد نقل منه ليقيم على الشيعة – من كتابهم– الحجة ويدحضهم بمنطوقهم».

وقد صرح أيضا فى نقله من كتاب البيان والتبيين فى عدة مواضع متفرقة . أما الكتب المتخصصة فى الكتابة حول الخليفة عثمان بن عفان وحول قتله تكاد تكون ناقصة ولم يصرح بالنقل منها إلا من خلال كتابين اثنين وهما: كتاب المقتل لعمر بن شبة النميرى ٢٦٢هـ ، وكتاب المقتل لعبد الرزاق الرسعنى ت ٦٦٠هـ، وقد نقل منها فى عدة مواضع.

فالناظر فى مصادر القاضى محمد بن يحيى التى استفاد منها يجد بالفعل مدى هذه الاستفادة ، خاصة وإن منها ما ضاع ولم يعد بين أيدينا الآن، فقد استفاد القاضى محمد بن يحيى من المصادر الآتية:

كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد [١١٢]، والفتوح الكبير لسيف بن عمر[١١٣] ، وكتاب الشريعة للآجرى [١١٤]، وتاريخ الجورقانى[١١٥] وتاريخ الطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير[١١٦] وكتاب الإرشاد لابن عقيل [١١٧]، وتفسير الزمخشرى [١١٨]، وكتب الجاحظ[١١٩] وكتاب الأمة لأبى نعيم[١٢٠] وصحيح البخارى وصحيح مسلم[١٢١] وجامع الترمذى [١٢٢]، وسنن أبى داود[١٢٣] وسنن النسائى [١٢٤] والجمع بين الصحيحين للحميدى[١٢٥] ومسند الإمام أحمد بن حنبل[١٢٦] وجامع المسانيد لابن الجوزى [١٢٧]وكتاب الأطراف لأبى مسعود الثقافى[١٢٨]، وكتاب المقتل للرسغى[١٢٩] وكتاب المقتل لابن شبة [١٣٠]، وكتاب السنن للالكائى[١٣١] وكتاب السنة للمروزى[١٣٢].

ثانيا : الإسناد إلى المصادر:

لم تكن طريقة القاضى محمد بن يحيى فى الإسناد إلى المصادر واحدة، وإنما كانت متنوعة ، كأن يصرح بعنوان الكتاب واسم مؤلفه، أو يصرح باسم المؤلف دون عنوان الكتاب، أو يصرح بعنوان الكتاب دون اسم المؤلف ، أو يهمل الإسناد إلى المصدر وينقل متتابعًا دون أن يُصرح ، وذلك على النحو التالى:

أ- الإسناد إلى المصدر مصرحاً بعنوان الكتاب واسم مؤلفه : كأن يقول : ذكر سيف بن عمر فى كتاب الفتوح (١٣٣)، وروى محمد بن سعد فى كتاب الطبقات(١٣٤)، وروى أبوبكر محمد بن الحسين الآجرى فى كتاب الشريعة (١٣٥)، وذكر الإمام أحمد فى المسند(١٣٦)، وذكر عمر بن شبة فى مقتله (١٣٧)، وروى الإمام البخارى فى صحيحه(١٣٨) وروى مسلم فى صحيحه(١٣٩)، وذكر ابن الأثير فى تاريخه (١٤٠)، وذكر الحافظ ابن الجوزى فى جامع المسانيد(١٤١)، قال ابن عقيل فى كتاب الإرشاد(١٤٢)، وذكر الحميدي فى الجمع بين الصحيحين(١٤٣)، وذكر أبو نعيم فى كتاب الأمة (١٤٤).

ب- الإسناد إلى المصدر مصرحاً باسم المؤلف دون ذكر الكتاب كأن يقول : روى سيف بن عمر التميمى (١٤٥)، وروى ابن سعد ، أو قال ابن سعد (١٤٦)، وروى أبوبكر الآجرى، أو قال محمد بن الحسين الآجرى(١٤٧)، وروى الإمام أحمد بإسناده (١٤٨)، وروى البخارى بإسناده(١٤٩) وقال الجاحظ(١٥٠).

ج- الإسناد إلى المصدر مصرحاً بعنوان الكتاب دون اسم مؤلفه ويمثله قوله : روى صاحب «الفتوح» عن خليد بن زفر ومجالد قالا : استخلف عثمان رضى الله عنه لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين (١٥١). وقوله أيضا : «هكذا ذكر صاحب الفتوح»، فالمؤلف يذكر قولته السابقة هذه بعد الانتهاء من ذكر الرواية (١٥٢)، فيتضح لنا أن هذه الطريقة فى الإسناد إما أن يذكر اسم الكتاب فى أول الرواية أو يذكره فى آخرها .

د- وفى إسناده إلى المصدر أيضا نجد أنه يهمل الإسناد إلى المصدر فلم يصرح فى مواضع كثيرة بالنقل عن مصدر معين ، وإنما نجده ينقل فى كثير من المواضع عن مصدر معين نقلا متتابعاً ، وذلك من خلال متابعته فى المادة العلمية نلاحظ ذلك جيداً، فلا يذكر اسم الكتاب ولا اسم المؤلف وإنما ينقل دون التنويه عن ذلك كما حدث في نقله من كتاب تاريخ الطبرى، حيث وجدت كثيراً من الروايات التى قال بها القاضى محمد ابن يحيي قد نقلها من الطبرى(١٥٣)، وكذلك نقل من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد(١٥٤) وكتاب الشريعة للآجرى(١٥٥).

ثالثاً : طرق النقل من المصادر :

١- سلك المؤلف طريقة ذكر الخبر أو الأثر أو الحديث بأسانيده فى كثير من الأحيان ، وقد يذكر تخريجه كأن يقول : رواه مسلم فى صحيحه(١٥٦)، أو أخرجاه يقصد بذلك الإمام

مسلم والإمام البخارى فى صحيحيهما ، أو أخرجه البخارى فى صحيحه [١٥٧]، وفى بعض الأحيان يذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ذكر درجته.

٢- كما أنه ينقل عن الكتب السابقة عليه نقلاً إذا أردنا وصفه نقول: إنه ينقل الخبر أو الرواية بسندها إلى صاحب الكتاب الذى نقل منه أو إنه ينقل الخبر أو الرواية من غير سند، وقد جعل له بصمة واضحة فى كتابه حيث شارك برأيه فى المقارنة بين الأحداث والأخبار واختلاف الروايات والتواريخ، ولهذا ليس بصعب عليه كرجل ممارس لمنصب القضاء عنده القدرة على فحص الآراء واستنباط الحقائق والوصول إلى رأى صائب صحيح.

٣- من طريقته فى النقل عن الكتب السابقة عليه والتى صرح بالنقل منها، فبالمقارنة بين النص الأصلى والنص الذى نقله نلاحظ أنه أحيانا يسقط من النص الأصلى بعض الكلمات، وأحيانا يزيد عليه ، فنص ابن الأثير فى تاريخه الكامل فى التاريخ[١٥٨] يقول: «وأقبل علىّ وطلحة والزبير فدخلوا على عثمان رضى الله عنه يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون ، وكان عند عثمان رضى الله عنه نفر من بنى أميّة فيهم مروان ابن الحكم، فقالوا: كلهم لعلىّ : أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع ، والله لئن بلغت الذى تريد لتمرن عليك الدنيا فقام مغضبًا وعاد هو والجماعة إلى منازلهم ، وصلى عثمان بالناس بعدما نزلوا به فى المسجد ثلاثين يوما، ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس أميرهم الغافقى، وتفرق أهل المدينة فى حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يجلس أحد ولا يخرج إلا بسيفه ليتمنع به ، وكان الحصار أربعين يومًا ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح».

أما نص المؤلف الذى نقله عن ابن الأثير هو : «وذكر ابن الأثير فى تاريخه أنه لما جاء علىّ وطلحة والزبير إلى عثمان رضى الله عنه يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون ، وكان عنده نفر من بنى أمية ، فقال كلهم لعلىّ رضى الله عنه: أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع ، فقام مغضبًا ، وعاد هو والجماعة إلى منازلهم، وصلى عثمان رضى الله عنه ثلاثين يوما ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس أميرهم الغافقى وتفرق أهل المدينة ولزموا بيوتهم ودام الحصار أربعين يوما، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح ومنعوه الماء[١٥٩].

فبمقارنة النصين نلاحظ أن المؤلف في الأسطر الأولى حاول أن يصوغ لنا معنى نص ابن الأثير وبدون أن ينقل نقلاً حرفياً، ثم حذف جملة كاملة وهي: «والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا»، ثم حذف بعد ذلك: « بالناس بعد ما نزلوا به في المسجد»، ثم في نهاية النص حاول اختصاره أيضا كما حدث في أوله وفي نهاية نصه نجد أنه أضاف «ومنعوه الماء» وهي لم تكن في النص الأصلي لابن الأثير.

٤- وفي نقله من طبقات ابن سعد لم يكن مطابقًا للأصل، بل تصرف في بعض الكلمات، وذلك على النحو التالي: جاء في نص ابن سعد[١٦٠]: «فجاء رويجل كأنه ذئب ، فاطلع من باب ثم رجع ، فجاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً حتى انتهى إلى عثمان فأخذ بلحيته ، فقال بها حتى سمع وقع أضراسه فقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك، فقال: أرسل لي لحيتي يا ابن أخي، أرسل لي لحيتي يا ابن أخي، قال: فأنا رأيت استعداء رجل من القوم بعينه، فقام إليه بمشقص حتى وجأ به في رأسه، قال : ثم قلت : ثم مه ؟ قال: ثم تغاووا والله عليه حتى قتلوه «رحمه الله» .

وجاء في نص القاضي محمد بن يحيى [١٦١]: «إنهم لما دخلوا على عثمان رضي الله عنه جاء رويجل كأنه ذئب، فاطلع في الباب ثم رجع فجاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً حتى انتهى إلى عثمان رضي الله عنه، فأخذ بلحيته فقال بها حتى سُمعت وقع أضراسه ، فقال:

ما أغنى معاوية ، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك ، فقال: أرسل لي لحيتي يا ابن أخي، أرسل لحيتي يا ابن أخي، قال : فاستعدى عليه رجل من القوم بعينه فقام إليه بمشقص حتى وجأ به في رأسه، ثم اعتوروا عليه فقتلوه».

بالنظر في النصين السابقين نلاحظ مدى تصرف القاضي محمد بن يحيى وعدم دقته في النقل كما في كلمة « من باب » عند ابن سعد، ومقابلها عند القاضي محمد بن يحيى «في الباب» وفي كلمة «سمع وقع أضراسه» عند ابن سعد، ومقابلها عند القاضي «سمعت وقع أضراسه» وفي كلمة «فأنا رأيت استعداء رجل» عند ابن سعد، ومقابلها عند القاضي محمد بن يحيى «فاستعدى عليه»، وفي كلمة «ثم تغاوو والله عليه حتى قتلوه» ومقابلها عند القاضي «ثم اعتوروا عليه فقتلوه».

٥- وفى نقله من كتاب الشريعة للآجرى يختصر النص بما لايخل بمعناه أو ترتيبه ، فقد جاء فى نص الآجرى [١٦٢]: «لما قُتل عثمان رضى الله عنه، بكى عليه كثير من الصحابة ، ورثاه كعب بن مالك الأنصارى، وقد تقدم ذكرنا له ولزم قوم بيوتهم ، فما خرجوا إلا إلى قبورهم ، وبكت الجن، وناحت عليه».

وجاء فى نص القاضى محمد بن يحيى[١٦٣] : «لما قُتل عثمان رضى الله عنه، بكى عليه كثير من الصحابة ولزم قوم بيوتهم، فما خرجوا إلا إلى قبورهم» .

وبالنظر فى النصين نجد القاضى محمد بن يحيى فى نقله لم يلتزم الدقة بل اختصر النص من الآجرى فحذف منه : «ورثاه كعب بن مالك الأنصارى» وحذف أيضا «وبكت الجن وناحت عليه».

٦- وفى بعض نقوله التزم القاضى محمد بن يحيى الدقة فى النقل دون نقص أو زيادة أو تغيير فى اللفظ واختلاف فى الترتيب من كتاب الشريعة للآجرى، فقد جاء فى نص الآجرى[١٦٤] : «عن ابن المبارك عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال : بلغنى أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان رضى الله عنه جنّوا ، قال ابن المبارك: وكان الجنون لهم قليلاً . وفى نص القاضى محمد بن يحيى[١٦٥]: «عن ابن المبارك عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال : بلغنى أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان رضى الله عنه جنّوا ، قال ابن المبارك : وكان الجنون لهم قليلا». فبالنظر فى النصين نجد أن القاضى محمد بن يحيى التزم الدقة فى النقل.

النقد التأريخى عند القاضى محمد بن يحيى

القارئ لكتاب التمهيد والبيان للقاضى محمد بن يحيى يرى أنه مؤرخ على درجة كبيرة من الوعى لما يثبته فى مؤلفه عن مصادره ، وإنه رُزق من الله عز وجل حساً تأريخياً مرهفا ، كانت له انعكاساته النقدية فى ثنايا ما عالجه فى كتابه من موضوعات والكشف عن مواطن العبرة والعظة، ونقد الاتهامات التى وجهت للخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبيان سبب هذه الاتهامات ، كما تظهر معالجاته فى وصف الحوادث واستحسانه لبعض التصرفات والإفصاح عن مدى عاطفته تجاه الصحابة الكرام خاصة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، كما يظهر حسه التأريخى من خلال بيان مواطن العبرة والعظة من خلال كتاباته، وكذلك بيان

مواطن السخرية من بعض التصرفات التى لاتتفق ومنهج الإسلام، بحيث يمكن تصنيف النقد التأريخى على النحو التالى:

١- الكشف عن العامل الرئيسى فى توجيه الحوادث : فعلى سبيل المثال يمثله قوله(١٦٦) : «اعلم رحمك الله ، أن الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان رضى الله عنه، وتعللوا عليه بأشياء ، أن الرافضة لهم عليه بها حجة ، تنكر منها طرفًا وننكر الجواب عنها بحسب الإمكان فنقول : فإن قيل : إن ابن مسعود أنكر على عثمان رضى الله عنه فى أمر المصاحف وتحريقها.

فالجواب : أن ابن مسعود دونه فى الفضل والمرتبة ، فكان عثمان رضى الله عنه أعلم بما فعل ، ولأن الرجل كان يقول للرجل : قراءتنا خير من قراءتك، فأزال عثمان رضى الله عنه هذا، ولو كان ذلك متوجها إلى عثمان رضى الله عنه لكن ذلك طعنا على من قبله من الصحابة.

وقد رُوِى أيضا : أن عليًا رضى الله عنه قال : فعل ذلك عثمان. ولو كان مُنكرًا لكان علىّ غيَّره لما صار الأمر إليه ، فلما لم يغيره علم أن عثمان رضى الله عنه كان مصيبًا فيما فعل.

وهكذا فإن القاضى محمد بن يحيى قد كشف وجه الحق فيما وُجِّه إلى الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه من تهمة باطلة ، وكشف النقاب عن العامل الرئيسى وراء هذه التهمة وغيرها ، وهو الطعن الموجه من الرافضة والملاحدة. وعلى سبيل المثال أيضا: يكشف لنا القاضى محمد بن يحيى الطعن الموجه من الرافضة ضد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، يمثله فى ذلك قوله الرافضة (١٦٧): إن إشخاص أبى ذر رضى الله عنه من الشام وحبسه بالمدينة طعنًا على عثمان رضى الله عنه .

والجواب فى ذلك : الأئمة إذا خشوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا إلى حسمه ، وقد فعل مثل ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حين حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لأجل أحاديث حدثوا بها الناس، ومنعهم من الخروج ، ومنعهم من لبس أشياء كانت لهم مباحة خوفًا أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده، فيرتكب بذلك ما ليس له ، مع أن للإمام أن ينفى أقوامًا إذا خاف الافتتان بهم ، فقد نفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، نصر بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته .

وعلى سبيل المثال أيضا: يكشف لنا القاضى محمد بن يحيى عن نقده التأريخى فى كشف العامل الرئيسى فى توجيه الأحداث حيث قال: اعلم رحمك الله أن شأن قتل عثمان عظيم ،

وأساس الفتنة التي جرت من بعده من الحرب بين علي رضى الله عنه وبين عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم، وما بين علي رضى الله عنه وبين معاوية بن أبي سفيان إلى غير ذلك من الفتن والاختلاف (١٦٨).

٢- وصف الحوادث : يتمثل ذلك في وصف الحوادث بأمانة مطلقة رغم تزييف الروافض لها، ولكنه بعد عرضها يقوم ببيان مدى البهتان والتزييف في تلك الحوادث والرد عليها، ويمثل ذلك: ما نقموه على عثمان رضى الله عنه من الأمور التي حدثت في خلافته مثل: استعمال عبدالله بن أبي سرح على مصر (١٦٩)، وإتمام عثمان رضى الله عنه الصلاة «بمنى»(١٧٠) وذكر المناقرة بين سعد وابن مسعود (١٧١). وذكر ولاية الوليد بن عقبة «الكوفة»(١٧٢) وحديث المصاحف وتحريفها (١٧٣) وغيرها من الافتراءات كثير.

٣- استحسان التصرف : ويتمثل هذا الاستحسان على سبيل المثال في جواب القاضي محمد بن يحيى الذي ردّ به على الطاعنين في عثمان رضى الله عنه، عندما أنكروا عليه أمر المصاحف وتحريفها .

فقال: إذا كان ابن مسعود أنكر على عثمان رضى الله عنه في أمر المصاحف، فإن ابن مسعود دون عثمان رضى الله عنه في الفضل والمرتبة فكان عثمان رضى الله عنه أعلم بما فعل(١٧٤) ولما جاء علي في مركز الخلافة ولم يغير ما فعله عثمان ، عُلم أن عثمان رضى الله عنه كان مصيباً فيما فعل (١٧٥).

ويتمثل هذا الاستحسان في ردّه على منْ أنكر إعطاء عثمان من مال الصدقة ووفر أقرباءه، فقال القاضي محمد بن يحيى(١٧٦)، إن عثمان رضى الله عنه أعلم ممن أنكر عليه ، والإمام إذا رأى المصلحة في فعل شئ فعله، فلا يكون إنكار من جهل المصلحة في ذلك حجة على من عرفها فقد فرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر، في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة ، وترك الأنصار لما رأى في ذلك من المصلحة ، فلا يلزم عثمان رضى الله عنه من أنكر عليه إلا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤- الافصاح عن عاطفته : وهي عاطفة دينية قوية ، تقف وراءها عقيدة إيمانية سليمة، تقدر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأسف لما يُلصق بهؤلاء الصحابة الكرام من اتهامات وافتراءات ، ولكنه لايتوانى في أن يرد كيد الكائدين . ومن ذلك : رده على من قال إن عثمان أعطى من بيت المال منْ ليس له فيه حق ، فقال : لايثبت ذلك . وكيف نقبل هذا وعثمان رضى الله عنه من أكثر الناس مالاً، وأكثرهم عطية ومعروفاً؟(١٧٧).

وتتمثل العاطفة الدينية عند القاضي محمد بن يحيى في الدفاع عن مقتل سيدنا عثمان رضى الله عنه متهمًا أصحاب الفتنة وعلى رأسهم عبدالله بن سبأ حيث قال: وهم الذين تجمعوا وتألبوا عليه مثل عبدالله بن سبأ وأصحابه الذين أشقاهم الله بقتله حسداً منهم له، وبغيًا عليه وإرادة الفتنة، وأن يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم (١٧٨)..

كما تتجلى عاطفته الدينية في إيمانه بأن السمع والطاعة لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين أمر واجب ، وذلك عندما يدافع عن المسلمين الذين منعهم عثمان رضى الله عنه من أن يدافعوا عنه، يقول القاضي محمد بن يحيى في ذلك: إن القوم كانوا أهل طاعة لإمامهم، وقد وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل، وقد فعلوا ما يجب عليهم بقلوبهم وألسنتهم ، وعرضهم لنصرته على حساب طاقتهم، فلما منعهم من نصرته علموا أن الواجب عليهم السمع والطاعة له ولايسعهم مخالفته، وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان رضى الله عنه(١٧٩).

إن عاطفة القاضي محمد بن يحيى لتقوده إلى الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن صحابته الكرام، حيث تقول الرافضة عن اليوم الذى قُتل فيه عثمان رضى الله عنه هو يوم عيد الغدير الذى آخى فيه النبي بين الصحابة وآخى بين نفسه وبين على رضى الله عنه، فردّ القاضي محمد بن يحيى ذلك بقوله ، قلت : ليس الأمر كما زعموا ، فإن اليوم الذى آخى النبي صلى الله وسلم فيه بين الصحابة كان حين قدم المدينة مهاجراً في صدر الإسلام ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ليؤلف بينهم فيتحابوا (١٨٠).

كما تتمثل عاطفته الدينية في قوله : اعلم رحمك الله إنه يجب على كل مسلم أن يحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ويترحم عليهم ويستغفر لهم، ويتوسل إلى الله تعالى بهم، ويشكر الله على توفيقه لذلك، ويمسك عما شجر بينهم فإنه لايبحث عن ذلك إلا مبتدع جاهل منكب عن طريق الرشاد(١٨١).

٥- السخرية من التصرف : يتمثل ذلك في قول القاضي محمد بن يحيى عن الثوار الذين ثاروا على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه : هؤلاء القوم كانوا بغاة»(١٨٢).

كما يسخر القاضي محمد بن يحيى من الرافضة عندما ذكروا أموراً شنيعة في سبب خروج أبى ذر الغفارى من المدينة إلي الربذة ، يقول القاضي محمد بن يحيى: كل ما قاله الرافضة في ذلك هو من أكاذيبهم ، قبحهم الله تعالى(١٨٣). ويرد القاضي محمد ابن يحيى على بعض أقوال الشيعة : «بأن عليًا رضى الله عنه ضرب البحر بقضيب في يده فغاض الماء حتى بدت الحيتان في قعر الفرات». فيقول القاضي محمد بن يحيى: وهذا خبر كذب محال

قط، ما جرى [١٨٤]. ويقول القاضي محمد بن يحيي: وهذا خبر كذب محال قط، ما جرى[١٨٤].

ويقول القاضي محمد بن يحيي : اعلم أن الغالية من الرافضة ينتحلون أشياء يخالفون فيها إجماع الأمة في الأصول والفروع وينسبونها إلى أهل البيت، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويفسرون بما تهوى أنفسهم وإنهم في ذلك كاليهود الذين بدلوا التوراة ، وحرفوها واشتروا بها ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون[١٨٥].

٦- مواطن العبر والعظات : يأتي على رأس مواطن العبر والعظات قول القاضي محمد بن يحيي: ينبغي الكف عما شجر بين الصحابة ، والاستغفار لهم والإمساك عما نسب إليه من الرذائل ، وكذلك أتباع الأنبياء ، وإنما نذكر محاسنهم التي مدحوا عليها ويمسك عما سواها. ومن بين هذه العبر أيضا قول القاضي محمد بن يحيي في أمر الصلاة خلف المصريين الذين ثاروا على الخليفة عثمان رضي الله عنه، فقد كره الناس الصلاة خلفهم ما خلا سيدنا عثمان رضي الله عنه، وقد ذكر أكثر من خبر في ذلك، وهذه الأخبار تدل على جواز الصلاة خلف البغاة والمتغلبين ، لأن هؤلاء القوم كانوا بغاة[١٨٦]. ومن بين العبر والعظات أيضا: أنه يجوز انتفاع الواقف بوقفه لأن سيدنا عثمان رضي الله عنه كان يستقي من بئر رومة ويشرب منها وهو الذي أوقفها للمسلمين[١٨٧].

٧- التعليل والترجيح : ويتمثل ذلك في ترجيح الأمور وذكر الصحيح منها، واستنباط الأحكام ، كما ذكر القاضي محمد بن يحيي في قضية قتل الهرمزان فقال: والصحيح أن عبيدالله بن عمر لم يقد منه[١٨٨]. كما يتمثل ذلك في قول القاضي محمد بن يحيي أمام اختلاف الروايات كالاختلاف الذي حدث حول تاريخ مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه، فقال: قتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة بعد العصر، ودفن ليلة السبت هذا هو الصحيح[١٨٩].

وفي نهاية الخبر الذي يتحدث عن مقتل كنانة بشر الذي كان ممن دخل على عثمان رضي الله عنه وباشر قتله ، فرأي يقول : إنه قتل يوم لقاء جيش محمد بن أبي بكر وعلى مقدمته كنانة بن بشر، وجيش عمرو بن العاص ، ورأي آخر يقول : إنه قتل يوم الدار، والقاضي محمد بن يحيي يرجح الرأي الأول على الثاني فيقول : والأول أصح[١٩٠].

وصف المخطوطة

توجد نسخة واحدة لهذه المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣ تاريخ م ، في ٢٤٨ صفحة، ولم يصل لعلمنا أي خبر عن وجود نسخة أخرى. وهي نسخة قديمة في مجلد بقلم معتاد قديم ليس عليها تاريخ نسخ، ولكن من ورقها ونوع خطها يبدو أنها قديمة في

مجلد، كتبت منذ أكثر من مائتى سنة عن النسخة الأصلية وقد تم مراجعتها وتصحيحها على الأصل وقد صرح بذلك من راجع النسخة التى بين يدى فى هامش الصفحة ٩٨، حيث قال : بلغ سماعا ومقابلة وتصحيحاً بنسخة الأصل نفعنا الله تعالى، وكذلك فى هامش الصفحة ١٤٢ حيث قال : بلغ مقابلة وتصحيحاً بنسخة الأصل.

النسخة كاملة من المقدمة إلى الخاتمة، جاء فى الصفحة قبل الأولى ختم كبير فى وسط الصفحة مكتوب فيه: الكتبخانة الخديوية المصرية، وفى أسفل الصفحة استصحاب للكتاب حيث مكتوب : استصحبه الحقير عقب ... الله له . ومكتوب بأسفل الصفحة من جهة الشمال: ثم انتقل إلى ... العبد الفقير إلى الله السيد ... سعد ... عفى الله عنه .

وبأعلى من جهة اليمين مكتوب ثمانية أسطر تحوز على نصف الصفحة من الجهة اليمنى مكتوب فيها : عن ابن أخى عبدالله بن سلام، فقال عثمان رضى الله عنه : ما جاء بك ؟ قال : جئت فى نصرك قال: «أخرج إلى الناس، فقال «أيها الناس إن لله سيفاً مغموراً وإن الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم بهذا الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله الله فى هذا الرجل، إن تقتلوه ، فوالله إن قتلتموه ليطيرون جيرانكم الملائكة وليسلّن الله سيفه المغمور عليكم فلا يغمدنه إلى يوم القيامة، قالوا : «اقتلوا اليهودى فقتلوه» أخرجه الترمذى.

فما قتل نبى قط إلا قتل به سبعون ألفاً، ولاخليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً ... تفسير ... فى سورة النور.

أما الورقة الأولى فقد بدأت بالبسملة دون العنوان أو ذكر له أو للمؤلف ، ولكن العنوان والمؤلف ذكرا فى الصفحة الأخيرة.

كتبت النسخة بخط قديم معظمه معجم يسير على الرسم الإملائى العثمانى (فالهمزة) يكتبها (ياء) كما فى كلمة «عائشة» يكتبها «عايشة» وأحيانا يحذف الألف الزائدة كما فى كلمة «معاوية» يكتبها «معوية» كما أنه يكتب الاسم المقصور الذى نهايته ألف لازمة فى النطق وتكتب ياء يكتبها ألفاً كما فى كلمة «الأذى» يكتبها «الأذا» .

ضُبط الكتاب بالنقط فى الفصل بين الأقوال، وبالشكل لبعض الكلمات المشكلة وغيرها ، كما نجد ما يلتبس من الأعلام والبلدان.

العناوين وأسماء الأبواب والفصول بقلم معتاد بنفس درجة قلم باقى الكتاب غير أنه بالمداد الأحمر.

على هامش المخطوطة تعليقات ومعاني كلمات واستدراكات واستكمال لبعض الكلمات الساقطة من المتن وهي بمداد يخالف مداد المتن من حيث نوع الخط وجودته، ويضع المصحح فوق تلك الكلمات رمز (صح)، كما في هامش الصفحة ١٦، ٣٨، ٤٤، ٤٧ ، ٧٧ وذلك على سبيل المثال.

كما يوجد شطب لبعض الكلمات داخل المتن سواء كانت مكررة أو خطأ أو حدث بها سبق قلم فنجد المصحح يتداركها فيشطبها ويكتب الصحيح فوقها كما في الصفحة ١٨، ١٩، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٣ .

في معالجة السقط من أصل الكتاب من بين السطور فيكتبه المصحح في الهامش سواء كان السقط في أول السطر أو وسطه أو آخره، فيكتب خطًا بموضع النقص صاعدًا إلى تحت السطر الذي فوقه ثم ينعطف جهة الهامش المسجل عليه السقط، وبعد أن يذكر السقط سواء كان كلمة أو مجموعة كلمات فإنه يكتب بعده كلمة (صح) كرمز للتصحيح .

وفي نهاية الكتاب بالصفحة رقم ٢٤٨ يقول المؤلف : آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأتباعه وسلم تسليما دائمًا كثيرًا كثيرًا.

ومكتوب بأسفل الصفحة : «وفرغ من جمعه وتأليفه الفقير إلى الله محمد بن يحيى بن أبي بكر، غفر الله له ولوالديه ، ولجميع المسلمين، وذلك في يوم الثلاثاء خامس عشر ذي القعدة من سنة تسع وتسعين وستمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

أما السطر الأخير فمكتوب فيه عنوان الكتاب وهو «نجر كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

الخاتمة

تمخض هذا البحث عن نتائج كشفت النقاب عن الكتابة التاريخية والنقد التاريخي عند القاضي محمد بن يحيى الأندلسي من خلال كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان ، وهذه النتائج من الممكن أن تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالجانب المنهجي عند المؤلف، وقسم يتعلق بالمادة العلمية التي تحتوى عليها المخطوطة.

القسم الأول: يتضح لنا أن المؤلف قد ألزم نفسه بمنهج عادل يتوخى فيه العدل من غير ميل أو تعصب أو هوى وقد صدق مع نفسه في التزامه بالمنهج الذى صرّح به.

استطاع المؤلف أن يعرض مادته العلمية بعبارة مناسبة ، وسهولة في العرض ولم يكن صاحب اهتمام بالصنعة البيانية أو الألفاظ الصعبة.

استطاع هذا المؤلف أن يخلد سيرة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث يعطى حقيقة ناصعة لحياة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

نوّع المؤلف في مصادره فجاءت مصادر معروفة ومشهورة ككتب الحديث الشريف ، ومصادر تتمثل في الكتب السابقة عليه، ومصادر عامة.

كما أن المؤلف استطاع أن يستفيد بمصادر كثيرة تحت يده فجاء الإسناد عنده متنوع كأن يصرح باسم الكتاب دون ذكر مؤلفه ، أو ينقل من المصادر السابقة دون أن يصرّح مع إهمال الإسناد.

أما طرق النقل فقد توصلنا إلى أن المؤلف قد نقل مادته العلمية بعدة طرق كأن يذكر الحديث أو الأثر بأسانيده ، وأحياناً يذكر تخريج الحديث. كما ينقل عن الكتب السابقة مصرحًا به أحيانا وخافياً له أحيانا أخرى. وأما من حيث النص المنقول فأحيانا ينقله بأكمله دون نقص أو زيادة ، وأحيانا أخري يتصرف في النص عن طريق الحذف أو الاختصار.

لقد استطاع المؤلف أن يكشف عن العامل الرئيسي في توجيه الأحداث الصعبة التي أدت إلى قتل الخليفة عثمان رضي الله عنه فكانت الرافضة وراء الأحداث .

وصف الأحداث وبيّن الحقيقى منها والمزيف على يد ولسان الرافضة. كما كان حسن التصرف في الرد على الروافض والملاحدة وهم يطعنون في سيرة الخليفة عثمان بن عفان .

كان المؤلف في بعض المواقف يظهر سخرية من تصرف الرافضة وأقوالهم الآثمة الموجهة ضد الخليفة عثمان رضى الله عنه.

كما استطاع أن يظهر لنا مجموعة من العبر والعظات من خلال هذا الكتاب. كذلك استطاع المؤلف أن يعلل ويرجح فى كثير من الأمور، ويستنبط الأحكام.

القسم الثاني: ويتناول العديد من النتائج التى ظهرت من خلال الحديث عن كتاب التمهيد والبيان ومن خلال معايشتي له وقراءته قراءة جيدة والقيام على تحقيقه وهي:

إن هذه الفتنة التي قتل فيها سيدنا عثمان بن عفان قد صح الإخبار بها عن رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه دعا الناس إلى أن يكونوا مع الخليفة عثمان بن عفان ، وذكر أن عثمان على الهدى والحق هو وأصحابه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم بيّن أن عثمان رضى الله عنه مقتول فيها، وهو وقتها على الحق صابراً على القتل الذى هو قضاء الله وقدره.

إن ما تناقلته المصادر من معايب ألصقت بعثمان ، ما صح صدوره من الخارجين عليه ومنها مالم يصح، ومنها ما اشتهر.

إن شخصية عبدالله بن سبأ شخصية حقيقة دلت على وجودها الروايات الصحيحة.

إن عقيدة أهل السنة والجماعة عدم الخوض فى أحداث هذه الفتنة ويجب الدفاع عن الصحابة الكرام بالحق والعدل .

إن سيدنا عثمان بذل أقصى ما وسعه حتى يقنعهم ويرجعهم عما كانوا يصرون عليه، وكذلك الصحابة بذلوا الكثير والكثير للدفاع عن عثمان رضى الله عنه .

إن محمد بن أبى بكر لم يشترك فى التحريض وأنه لم يقتل عثمان رضى الله عنه وكل ما روى في اتهامه باطل لا صحة له .

قد ترتب على قتل عثمان رضى الله عنه فتن ومحن كثيرة، وأن الخروج على إمام المسلمين مضارة كثيرة ويترتب عليها الكثير من المفاسد.

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر بعونك الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه
المنتخبين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وسلم تسليما كثيرا
أما بعد فهذا كتاب أذكر فيه مقتل الإمام الشهيد ذي النورين
عثمان بن عفان وأحواله وبعض سيرته متوخيا للعدل في
ذلك من غير ميل ومعتمدا على ما نقله الأئمة العلماء في
كتبهم وتواريخهم مثل طبقات أبي عبد الله محمد بن سعد وكتاب الفتوح
لسيف بن عمر التميمي وكتاب الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري
وكتاب المقتل لابن عمر بن شبة النميري وكتاب التاريخ للشيخ
عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري وغيرهم من الكتب المشهورة
الموثوق بصحتها وبالله تعالى أستمد المعونة فيما قصدته فهو
حسبي ونعم الوكيل وقد جعلته اثني عشر بابا الباب الأول
في ذكر نسبه ومولده وأزواجه الباب الثاني في ذكر إسلامه
وهجرته الباب الثالث في ذكر بيعته وقصة الشورى الباب
الرابع في ذكر الخوض في أمره وما نقموه عليه من الأمور التي حدثت
في خلافته الباب الخامس في ذكر من سار إليه وحصره الباب
السادس في ذكر ما قيل له في الخلع وما قال لهم الباب السابع في
ذكر قتله وموضع قبره الباب الثامن في مبلغ سنه ومدة خلافته الباب
التاسع في ذكر صفته ولباسه الباب العاشر في

الصفحة الأولى من المخطوطة

فعند ذلك قال [illegible]

[illegible] كله لعزة الله العظيم [illegible]

نعوذ بالله من الكفر والله اعلم .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين

والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه

وأزواجه وذرياته وأتباعه وسلم

تسليماً دائماً كثيراً كثيراً .

وفرغ من جمعه وتأليفه الفقير الى الله محمد بن يحيى بن أبي بكر غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . وذلك في يوم الاثنين خامس عشر ذي القعدة من سنة تسع وتسعين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم عدد

٦٩٩ هـ

تم كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

الهوامش

١- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص٨٧-٨٨ .

٢- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص٤٩ .

٣- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٣٨ .

٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٦٥ ؛ والمقرى : نفح الطيب ١ / ٤٤٩ ، ٤ / ٣٨٥ .

٥- القاسى : على بن أبى زرع : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص١٤٨ .

٦- سورة التوبة: من الآية (١١١) .

٧- سورة آل عمران: من الآية (٢٠٠) .

٨- القاسى على بن أبى زرع : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص١٤٩ ، ١٥٠ .

٩- القاسى على بن أبى زرع: الذخيرة السنية ص١٥٩ .

١٠- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٤٥ .

١١- المقرى: نفح الطيب ٤ / ٣٨٥ ؛ ولسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٦ ، ٣٨ ، وابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ٧ / ٧٧١ .

١٢- محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص١٠٤ .

١٣- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ٤ / ٣٩٣ ؛ ولسان الدين بن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٦٤ .

١٤- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ٤ / ٣٩٣ ، ولسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٦٣ ؛ ومحمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١٠٦ .

١٥- عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص٥٤١ .

١٦- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٤٥ .

١٧- الخرشى : متاع البيت .

١٨- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٥٠، ٥٤ .

١٩- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١١٨ ، ١٧١ .

٢٠- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٧٧ .

٢١- عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى ص٥٤٢ .

٢٢- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٨٢ .

٢٣- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٨٤ .

٢٤- محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص١٢٥ .

٢٥- محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص١٢٥ ؛ ولسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام ٢ / ٣٠٤ . ٣٠٦ ؛ والإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ٥٤١، والمقرى : نفح الطيب ٥ / ٨٠ .

٢٦- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١٢٧ .

٢٧- محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية ص٢٨٢ .

٢٨- النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٨٣،١٨٤ .

٢٩- النباهي : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص١٤٦، ١٤٧ .

٣٠- المقرّى : نفح الطيب ٥ / ١٧ .

٣١- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٥١٦ ، ٥٢٦ ، وأزهار الرياض ٣ / ١٨٧ .

٣٢- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٣٩٠ .

٣٣- ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته ص٤٩ .

٣٤- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٣٩١ .

٣٥- النباهي : تاريخ قضاة الأندلس، ص١٧٩ .

٣٦- النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص١٨٣-١٨٤ .

٣٧- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ٣٨٨ .

٣٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ٣٨٨ .

٣٩- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٧٦ .

٤٠- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة /١ ١٣٤ - ١٣٧ .

٤١- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ١٣٩ .

٤٢- غرستاف لوبون : حضارة العرب، ص٢٧٤ ، ٥٤٣ .

٤٣- غوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٧٦ .

٤٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ٣ / ٣٣٤ .

٤٥- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ٥٧ .

٤٦- لسان الدين بن الخطيب: الدولة النصرية ص٩٦ .

٤٧- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٥٧ .

٤٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٤٥ .

٤٩- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١٢٥ .

٥٠- لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ١٦٤ .

٥١- لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٣ / ١٩١ .

٥٢- محمد عبدالله عنان: مقدمة الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ١٧ .

٥٣- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

٥٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ١٥٧ ، ١٥٨ .

٥٥- المصدر السابق : ١ / ١٦٤ .

٥٦- المصدر السابق ١ / ١٨٠ .

٥٧- المصدر السابق ١ / ٢٢٢ .

٥٨- المصدر السابق ١ / ٤٦٤ .

٥٩- المصدر السابق ٢ / ١٧٦ .

٦٠- انظر ترجمته عند: لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦-١٨٠؛ واللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص٨٢ ، ٩١ ؛ وابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة ٤ / ٢٨٤ ، وأبو الحسن النباهى الأندلسى : تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٧-١٨٤ ؛ والتنبكتى أحمد بن بابا: نيل الابتهاج ص٢٣٤ ، وابن فرحون المالكى: الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ص٢٣٤ ؛ والسيوطى: بغية الوعاة ص١١٤ ؛ وابن العماد: شذرات الذهب ٦ / ١٣٢ ؛ والزركلى: الأعلام ٨ / ٩؛ والبغدادى : هدية العارفين ٢ / ١٥٠ ؛ وعمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ٣ / ٧٧٠ .

٦١- عند النباهى : فى تاريخ قضاة الأندلس «محمد بن بكر» ص١٧٨ .

٦٢- نسبة إلى بلدة «مالقة» وهى مدينة بالأندلس عامرة ، من أعمال «مريّة» سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٥ / ٤٣ .

٦٣- ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص٣٩٨ .

٦٤- لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

٦٥- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٨٠ .

٦٦- النباهى: تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٨ .

٦٧- النباهى: تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٨ ، ١٧٩ .

٦٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

٦٩- النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٨ ، ١٧٩ .

٧٠- لسان الدين ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٧ ، ١٧٨ .

٧١- لسان الدين بن الخطيب: اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص٨٢ ، ٩١ .

٧٢- المقصود : ترك إهدار الحق، أو بعبارة أخرى: الحرص على إقامته.

٧٣- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦، ١٧٧ .

٧٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٨٠ .

٧٥- بد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسى ص٥٤٣، ٥٤٤ .

٧٦- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٢٨٧ .

٧٧- سورة آل عمران ، من الآية (١٧٠) .

٧٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٨٠ .

٧٩- المخطوطة : الصفحة الأخيرة جاء بها هذا التاريخ الذى يثبت الوقت الذى فرغ فيه المؤلف من كتابة هذه المخطوطة.

٨٠- فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية رقم ٢٣ / م تاريخ .

٨١- البغدادى : هدية العارفين ٢ / ١٥٠ .

٨٢- الزركلي: الأعلام ٨ / ٩ .

٨٣ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ٣ / ٧٧٠ .

٤- البغدادى : ايضاح المكنون ١ / ٣٢٢ .

٨٥- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٢ / ٢٥٩ ، ٢٩٠ .

٦- انظر الصفحة الأولى من المخطوطة.

٧- سورة المسد: من الآية الأولى.

٨٨- انظر المخطوطة ص١٠، ١١، ١٥ .

٨٩- المخطوطة ص٢٣، ٢٤ .

٩٠- المخطوطة، ص٢٠٢ ، ٢٠٣ .

٩١- المخطوطة ص١٩٣-١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢، ٢٠٣ .

٩٢- المخطوطة : ص٢٠٤ .

٩٣- المخطوطة ، ص٢١٠ ، ٢١١ .

٩٤- المخطوطة ص٦١ .

٩٥- المخطوطة ص١١٧ .

٩٦- المخطوطة ص١١٢ .

٩٧- المخطوطة ص١٤٠ .

٩٨- المخطوطة ص٧، ١٧، ١٩، ٢١، ٤٣، ٦٢، ٦٨، ١٠٧، ١١٧ ، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٣ .

٩٩- المخطوطة ص٢٢٠ .

١٠٠- المخطوطة ص١١ ، ٢٢٤ .

١٠١- المخطوطة، ص١٦٢ ، ١٦٤ .

١٠٢- المخطوطة ص١٧٥ ، ١٩٢ .

١٠٣- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

١٠٤- المخطوطة الصفحة الأولى.

١٠٥- المخطوطة ص ٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٢ .

١٠٦- الحديث رواه البخارى فى صحيحه باب فضائل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

١٠٧- المخطوطة ص٣٥ ، ٣٦، ١٣٧، ١٤٩-١٥١، ١٥٣-١٥٦، ١٥٩-١٦٤ ، ٢٢٢، ٢٤٠ .

١٠٨- المخطوطة ص١٦١ .

١٠٩- المخطوطة ص١٤٩ .

١١٠- المخطوطة ص١٤٨ .

١١١- الحديث رواه الإمام أحمد فى المسند ١ / ٦١ ، ٦٥ .

١١٢- المخطوطة ص٤، ١٠٥، ١١٤، ١٢٢-١٢٥، ١٣٢-١٣٧ .

١١٣- المخطوطة ص٧، ١٧، ١٩، ٢١، ٤٣، ٦٢، ٦٨، ١٠٧، ١١٧، ١٣٤ .

١١٤- المخطوطة ص١٢-١٦، ١٤٧، ١٦٢ ، ٢٠٣، ٢١٨-٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦ .

١١٥- المخطوطة ص٢٢٠ .

١١٦- المخطوطة ص١٠٥، ١٣٧ .

١١٧- المخطوطة ص٢٢٦ .

١١٨- المخطوطة ص٢٤٥ .

١١٩- المخطوط ص١٦٩، ٢١٢، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١-٢٤٤ ، ٢٤٦، ٢٤٧ .

١٢٠- المخطوطة ص١٧٦ .

١٢١- المخطوط ص١٠ ، ١٤٩ ، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٢ .

١٢٢- المخطوطة ص١٤٩ .

١٢٣- المخطوطة ص١٦١ .

١٢٤- المخطوطة ص١٤٨ .

١٢٥- المخطوطة ص١٧٤ .

١٢٦- المخطوطة ص٢٦، ٣٥، ١٣٧، ١٤٩، ١٥٠-١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١-١٦٤، ٢٢٢ .

١٢٧- المخطوطة ص٢٦ .

١٢٨- المخطوطة ص١٧٤ .

١٢٩- المخطوطة ص١١، ٢٢٤ .

١٣٠- المخطوطة ص٢٠٣ .

١٣١- المخطوطة ص٢٢٩، ٢٣٣ .

١٣٢- المخطوطة ص١٦٢، ١٦٤ .

١٣٣- المخطوطة ص١٩ .

١٣٤- المخطوطة ص١٠٥، ١٣٢، ١٣٦ .

١٣٥- المخطوطة ص١٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٨، ٢٢٦ .

١٣٦- المخطوطة ص٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٩، ١٥١ ، ١٥٣، ١٥٥ ، ١٥٦، ٢٢٢، ٢٤٠ .

١٣٧- المخطوطة ص٢٠٣ .

١٣٨- المخطوطة ص١٥١ ، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٠ .

١٣٩- المخطوطة ص٣٥ .

١٤٠- المخطوطة ص١٠٥ ، ١٣٧ .

١٤١- المخطوطة ص٢٦ .

١٤٢- المخطوطة ص٢١١ .

١٤٣- المخطوطة ص١٧٤ .

١٤٤- المخطوطة ص١٧٦ .

١٤٥- المخطوطة ص٧، ١٧، ٤٣، ٦٢، ١٠٧، ١١٧، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٣ .

١٤٦- المخطوطة ص٤، ١٢٢، ١٣، ١٢٥، ١٣٧ .

١٤٧- المخطوطة ص١٣، ١٤، ١٦، ١٤٧، ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦ .

١٤٨- المخطوطة ص٢٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٥ .

١٤٩- المخطوطة ص١٤٩ ، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩، ١٨٢ .

١٥٠- المخطوطة ص٢١٢، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٤٠-٢٤٧ .

١٥١- المخطوطة ص٢١ .

١٥٢- المخطوطة ص٢٥ .

١٥٣- المخطوطة ص٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٧ .

١٥٤- المخطوطة ص٦ ، ٧، ١٠ ، ١١ .

١٥٥- المخطوطة ص١٢، ١٣، ١٤ .

١٥٦- المخطوطة ص٢٥، ١٥١ .

١٥٧- المخطوطة ص١٠، ١١، ١٥ .

١٥٨- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٣ / ١٦١ .

١٥٩- المخطوط ص١٠٤- ١٠٥ .

١٦٠- ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ / ١ / ٥١ .

١٦١- المخطوطة ص١٣٢ .

١٦٢- الآجرى : كتاب الشريعة ٣ / ١٧٦ .

١٦٣- المخطوطة ص٢٠٣ .

١٦٤- الآجرى: كتاب الشريعة ٣ / ١٧٧ .

١٦٥- المخطوطة ، ص٢١٨، ٢١٩ .

١٦٦- المخطوطة ص١٧٥-١٧٦ .

١٦٧- المخطوطة ص١٨٠ .

١٦٨- المخطوطة ص٢١٧ .

١٦٩- المخطوطة ص٢٦ .

١٧٠- المخطوطة ص٢٦، ٢٧ .

١٧١- المخطوطة ص٢٧، ٢٨ .

١٧٢- المخطوطة ص٢٩ .

١٧٣- المخطوطة ص٤٢، ٤٣ .

١٧٤- المخطوطة ص١٧٥ .

١٧٥- المخطوطة ص١٧٦ .

١٧٦- المخطوطة ص١٧٧ .

١٧٧- المخطوطة ص١٧٨، ١٧٩ .

١٧٨- المخطوطة ص١٨٣ .

١٧٩- المخطوطة ص١٨٥ .

١٨٠- المخطوطة ص٢٢٢ .

١٨١- المخطوطة ص٢٢٧ .

١٨٢ المخطوطة ص١١٣ .

١٨٣- المخطوطة ص٦٨ .

١٨٤- المخطوطة ص٢٣٣ .

١٨٥ المخطوطة ص٢٤٣ .

١٨٦- المخطوطة ص١١٣ .

١٨٧- المخطوط\ ص١٤٩ .

١٨٨- المخطوطة ص١٩ .

١٨٩- المخطوطة ص١٣٧ .

١٩٠- المخطوطة ص٢٠٦ .

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير ت.٦٣٠هـ: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.

٢- الإدريسي : أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ.

٣ بروكلمان : كارل تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٣ .

٤- البغدادي: إسماعيل باشا ١٣٣٩هـ : هدية العارفين ، طبعة وكالة المعارف الجلية، استامبول ط٣، سنة ١٩٥١م.

٥- التنبكتي : أبو العباس سيدي أحمد : بهامش كتاب الديباج المذهب لبرهان الدين اليعمرى المدنى المالكي ، طبعة الفحامين ، مصر ت ١٣٥١هـ .

٦- ابن حجر العسقلاني: أحمد بن على بن محمد بن على ت ٨٥٢هـ : الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة، طبعة حيدر آباد، الهند، ت ١٣٥٠هـ .

٧- الحجي: د. عبد الرحمن على: التاريخ الأندلسي، طبعة دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٣ .

٨- ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦هـ : جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف سنة ١٩٨٢ .

٩- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد ت ٧٧٦هـ : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبدالله عنان، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤ .

وأعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ. ليفى بروفنسال ، طبعة دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦ .

واللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تصحيح محب الدين الخطيب، طبعة القاهرة ت ١٣٤٧هـ .

١٠- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١ .

١١- الزركلي : خير الدين ت ١٣٩٧هـ : الأعلام، طبعة دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠ .

١٢- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ: بغية الوعاة، طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ .

١٣- د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٤- عنان : محمد عبدالله : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة ١٩٦٦م.

١٥- غوستاف لوبون : حضارة العرب ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، طبع ، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.

١٦ الفاسي: على بن أبي زرع : الذخيرة السنية في تاريخ الدول المرينية، طبعة الرباط، ١٩٧٢ .

١٧- ابن فرحون : برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد ت ٧٩٩هـ : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، طبعة مصر، ١٣٥١هـ .

١٨- كحالة : عمر رضا : معجم المؤلفين ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣ .

١٩- المقرى: أحمد بن محمد المقرى التلمساني ١٠٤١هـ: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠-١٩٤٢ .

ونفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٨ .

٢٠- النباهي: على بن عبدالله بن محمد بن محمد الجزامي المالقي أبو الحسن ت ٧٩٣هـ:

تاريخ قضاة الأندلس، ضبط وشرح وتعليق الدكتورة مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٥ .

والمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

٢١- ابن النديم : محمد بن إسحاق البغدادي ت ٣٨٥هـ : الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت سنة ١٩٧٨ .

٢٢- ياقوت : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموى ت ٦٢٦هـ : معجم البلدان، طبعة دار الفكر، دار صادر ، بيروت بدون تاريخ .

د. خليفة بن عبد الرحمن المسعود(*)

نظرة خادم الحرمين الشريفين ودعمه لمجلس التعاون الخليجي

(١٤٠٢-١٤٢٢هـ/ ١٩٨٢-٢٠٠٢م)

مقدمة :

أنهى مجلس التعاون لدول الخليج العربية عشرين عاماً من مسيرته الحافلة بالأحداث والمنجزات حظى خلالها بدعم كبير من قبل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، مما ساهم بشكل كبير فى مواصلة المجلس لمسيرته ووصوله إلى درجة كبيرة من النمو والعطاء. ولم يكن ذلك الدعم إلا وليد النظرة التفاؤلية للملك فهد تجاه المجلس والأهداف المتوخاة منه؛ من هنا فقد حاولت إبراز تلك النظرة وذلك الدعم من خلال موضوع هذا البحث.

وقد بدأت البحث بإعطاء لمحة سريعة عن ظروف إنشاء المجلس والعوامل التي أدت وساهمت بذلك ، ومن ثم حاولت إبراز نظرة الملك فهد تجاه المجلس والأهداف المؤمل تحقيقها لدول الخليج بل والأمة العربية بأسرها وتتضح تلك النظرة عبر أقواله وتصريحاته المتعلقة بالمجلس منذ تأسيسه حيث تم الحديث عن هذه النظرة عبر جوانبها المختلفة سياسياً وأمنياً وعسكرياً واقتصادياً .

وبعد ذلك تحدثت عن دعم الملك فهد للمجلس عبر عقدين من الزمن؛ هذا الدعم الذى كان له الأثر الأكبر فى مسيرة المجلس جاء من خلال محاور متنوعة منها المادى والسياسى والأمنى والعسكرى والاقتصادى وخدمة الإنسان وبيئته بالإضافة إلى المحور الثقافى.

* أستاذ التاريخ الحديث المساعد ورئيس قسم العلوم الاجتماعية بكلية المعلمين فى الرس.

ثم تناول البحث بعد ذلك النظرة المستقبلية للملك فهد تجاه المجلس وهي نظرة دقيقة صادقة شاملة قوامها النقد والتقييم المتجرد من الأهواء سعياً للوصول بالمجلس إلى درجة أكبر من النمو والتكامل .

نبذة تاريخية عن ظروف إنشاء المجلس:

مجلس التعاون لدول الخليج العربية تجمع عربي إقليمي وجد في عالم اتسم بالمتغيرات الحادة، وجاء ليضاهي تجمعات مماثلة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، ومما ساهم بإيجاد هذه المنظومة وجود مسيرة وحدوية لدى دول المجلس تعود في جذورها إلى الفترة التي أعقبت استقلال دول الخليج العربية وبداية مواجهتها المعترك السياسي العالمي.

ومن هنا فقد أدركت دول الخليج العربي أهمية وحدتها كسبيل لبقائها ومواجهة التحديات المحيطة بها من كافة الجوانب لاسيما السياسية والعسكرية والاقتصادية ولاشك أن وجود تشابه في التكوين الاجتماعي لدول الخليج العربي وصلات القربى بين الغالبية العظمى من قبائلها وأسرها قد زاد من الشعور بالرغبة الملحة للوحدة، وفوق ذلك وجود رابطة الدين واللغة والعادات والتقاليد والمصير المشترك.

ومن المؤكد أن الظروف السياسية التي شهدتها منطقة الخليج العربي في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين حيث ظهرت المتغيرات السياسية في إيران وما سبق ذلك من الغزو الروسي لأفغانستان ؛ بالإضافة إلى اشتعال فتيل الحرب العراقية الإيرانية كان لذلك كله دورٌ مهمٌ في مسارعة دول الخليج العربية لإتمام الوحدة، كما أن وجود اتفاقيات ثنائية بين هذه الدول خلال الفترة السابقة لقيام المجلس قد سهل من مهمة قيامه، وذلك بتحويل الاتفاقيات الثنائية إلى جماعية بين تلك الدول، بالإضافة إلى أن وجود بعض المؤسسات والمنظمات الاقتصادية والإعلامية والثقافية المشتركة قد زاد من الروابط بين دول المنطقة وسهل من وحدتها (١).

وحين أسهمت العوامل الداخلية والخارجية عربية وإقليمية في تدعيم تلك الوحدة بدأت بوادر ظهور منظومة تضم تحت لوائها دول الخليج العربي فجاءت خطوات متتابعة أبرزها احتضان مدينة الرياض مؤتمراً ضم وزراء خارجية المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين وعُمان ، وذلك في رجب ١٤٠١هـ / فبراير ١٩٨١م، تم خلاله الاتفاق على قيام مجلس التعاون الخليجي، وبعد ما يقارب ثلاثة أشهر من ذلك الحدث شهدت مدينة أبو ظبي عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة ميلاد المجلس وذلك بتوقيع قادة

دول الخليج العربى الست على النظام الأساسى للمجلس ؛ فكان ذلك بداية فعلية لقيامه ؛ خاصة أن البيان الختامى للمؤتمر المنعقد فى أبوظبى قد أوضح ما يربط دول المجلس من روابط تجعل وحدتها أمراً حتمياً، وقد تكون النظام الأساسى للمجلس من اثنتين وعشرين مادة، كما تم تشكيل أجهزة المجلس ومؤسساته الإشرافية والتنفيذية ، وصاحب ذلك إصدار النظام الداخلى للمجلس الأعلى الذى تكون من تسع عشرة مادة، وتكون النظام الداخلى للمجلس الوزارى من تسع وثلاثين مادة، كما تم عقد اتفاقية اقتصادية موحدة؛ وبذلك ظهر مجلس التعاون لدول الخليج العربى كنموذج من نماذج العمل العربى المشترك على المستوى الإقليمى، ومنذ ذلك الوقت أصبح المجلس تنظيماً دولياً رسمياً حيث تم إيداع وتسجيل نسخ من نظامه لدى الجامعة العربية والأمم المتحدة بقرار من المجلس الوزارى أحد أجهزة مجلس التعاون لدول الخليج العربى(٢).

نظرة خادم الحرمين الشريفين تجاه المجلس والأهداف المنوطة به:

كانت المملكة العربية السعودية من أبرز الدول التى دعمت إنشاء المجلس ودعت المؤتمر الذى شهد بوادر ظهوره لحيز الوجود، وكان للملك فهد الذى كان آنذاك ولياً للعهد دور مهم فى تذليل الصعاب التى لازمت ظهور المجلس ، وحين تولى مقاليد الحكم حرص على ترؤس وفد بلاده لاجتماعات دول المجلس وإثراء جلساته بالنقاش الصريح والحوار البناء وذلك تأكيداً لنظرته تجاه المجلس وفكرة إنشائه والأهداف المؤملة منها والتى أوجزها بقوله : «لقد جاء إنشاء هذا المجلس ترجمة صادقة وأمينة لتعاون حقيقى قائم بارز بين الدول الست تجسيداً للروابط العميقة والوثيقة بين هذه الدول استجابة لرغبات وتطلعات شعوبها نحو التعاون والتكاتف والتعاضد، والعوامل الكفيلة بنجاح التعاون بين هذه الدول هى عوامل راسخة ومتأصلة فى التربة الخليجية فالأصول الدينية والحضارية والثقافية واحدة، والامتداد الجغرافى والتاريخى واللغوى واحد ، كل ذلك يجعل من التعاون والتنسيق منطلقاً أساسياً نحو تحقيق الأهداف النبيلة التى وضعها المجلس، وأن استمرار الدول الست فى السير على هذا الطريق بخطى واثقة سيحقق فى النهاية وبمشيئة الله الوحدة الحقيقية المترسخة فى وجدان كل مواطن فى هذه المنطقة ...»، كما أدرك أهمية المرحلة والظروف التى دعت لتكوين المجلس ليكون مصدر قوة ودعم للدفاع عن البلاد العربية بأسرها حيث قال: «إن صحة وسلامة هذا العضو من الجسم العربى الواحد هى مصدر قوة وعزة ومنعة لذلك الجسم ولاسيما فى هذه المرحلة

الحرجة التي تمر بها أمتنا العربية وقد أحاطت بها التحديات من كل جانب وتقاذفتها أمواج المخاطر من كل حدب وصوب ...»(٣).

وقد ركز الملك فهد على مسألة أمن دول المجلس باعتباره الوسيلة الحقيقية لتوفير الرخاء لشعوب دوله، والأمن في مفهوم الملك فهد أمن شامل للجوانب الاجتماعية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية ويتضح ذلك بقوله :

«ومما لاشك فيه أن تحقيق رخاء شعوب المنطقة يتطلب من دولها توفير عناصر أساسية أخرى لابد منها وهي الأمن والاستقرار والسلام للمنطقة كلها مع ما يتطلبه ذلك من حرص مستمر على إيجاد الوسائل الكفيلة بالدفاع عن منجزاتها ومكتسباتها وفق سلم الأولويات التي تتطلبها أهمية المرحلة التي تم التوصل إليها على هذه الأصعدة جميعها تشكل إضافة قيمة من أجل تحقيق الأهداف المنشودة ..»(٤). ثم يعود ليؤكد أن المجلس ليس بمعزل عن وحدة العالمين العربي والإسلامي : «إننا نعمل مع أشقائنا في الخليج العربي وفي العالمين الإسلامي والعربي من منطلق حرصنا الدائم على أن تظل هذه المنطقة منطقة أمن وسلام ورخاء بعيداً عن التيارات الهدامة والمبادئ المنحرفة التي طالما جرت على الشعوب الويلات ...»(٥).

ويحدد الملك فهد نظرته الداعمة لمهام المجلس لا تنظيراً بل كواقع فعلي إذ يطبق مبادئ ومهام المجلس على الأحداث التي تشهدها الساحة وذلك لتحقيق الغاية المنشودة من تأسيس المجلس من الجوانب المختلفة.

أ- نظرته لدور المجلس في أمن وسلامة المنطقة:

يرى الملك فهد بأن الأمن الخليجي كل لا يتجزأ ، وأن مجلس التعاون قد بدأ مسيرته وسط أجواء عاصفة وفي مواجهة تحديات فُرضت على المنطقة وحولتها إلى بؤرة توتر وصراع إقليمي؛ ولذلك فلابد من تظافر جهود دول المجلس لتحقيق انطلاقة تمكنها من احتواء الأزمات التي تواجهها منطقة الخليج والقضاء على الحروب المحيطة بها أو المشاكل التي نشبت بين بعض دول المجلس من جهة ودول الجوار الأخرى كما حدث في الحرب العراقية الإيرانية أو خلال أزمة الخليج الناجمة عن غزو العراق لدولة الكويت، أو كما حدث من منازعات بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران بشأن بعض الجزر وغيرها من المشاكل(٦)، ولذلك يؤكد الملك فهد بأنه : «لابد من وضع مسألة أمن المنطقة في مكان الصدارة وإن اهتمام دولنا يدفعنا صوب التعاون في هذا المجال الذي يعتمد كياننا وحياتنا وتوطيد الأمن والاستقرار في بلداننا

والسـلام فى منطقتنا فـلابد من أن يتـحـقق مـزيد من التنسـيق العـسكرى والأمنى بين دول المجلس..»[٧].

ويبين الملك فهد من منظور أمني عميق وخلال كلمة ألقاها في جمـادي الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م بمناسبة انعقاد الدورة الثامنة للمجلس في الرياض بأن مبدأ القوة ليس حلاً للمشاكل التي تقع بين دول المنطقة وجيرانها لأن المقياس للقوة فى العصر الحديث ليس بعدد السكان ، ولابد أن يسود مبدأ المنطق والعقل والحكمة والتعقل، كما يرى أن من حق كل دولة الدفاع عن نفسها بما تملك من قوة «وربما تستعين بدول أخرى ومن حقها أن تستعين بدول ولكن لا أريد أن يصل الأمر لهذا الحد ...»[٨].

وهذه المقولة أكدت بلاشك سلامة فكر الملك فهد السياسى وحكمته فى اتخاذ قرار الاستعانة بالدول الصديقة بعد سنتين من حديثه هذا حينما اعتدت العراق على دولة الكويت وحشدت حشودها على حدود المملكة العربية السعودية؛ فكان لذلك القرار دور فى إخراج المنطقة من ذلك الخطب الذى ألم بها وإعادة الحكومة الشرعية للكويت.

وفي الوقت ذاته شدد الملك فهد على أن بناء القوة الدفاعية لبلدان المجلس، أمر فى غاية الأهمية ولذلك فإنه أولى اهتمامه لتطوير قوات درع الجزيرة وتعزيزها عدة وعدداً بحيث تصبح قوة فى إطار أمنى متكامل فضلاً عن إنشاء نظام للإنذار المبكر وتنسيق العمل بين شبكات الرادار فى جميع دول مجلس التعاون[٩].

ب- نظرته لدور المجلس من الجانب الاقتصادى:

يتبين منظور الملك فهد لمجلس التعاون الخليجى فى الجانب الاقتصادى من خلال تأكيده على ضرورة إيلاء هذا الجانب اهتماماً كبيراً لتحقيق الرخاء لشعوب بلدان المجلس وضرورة إعطاءه مزيداً من الجهد ليتحقق استكمال تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية الموحدة وإزالة أية عقبات تعترض تطبيقها ، وتعميق وتوسيع ممارسة مواطني دول المجلس لحقوق المواطنة الاقتصادية وإقامة السوق الخليجية الموحدة[١٠].

ويرتفع الملك فهد بفكره ونظرته الكبيرة تجاه اقتصاديات المجلس حينما يلغى الفوارق ويتخلى عن حب الذات فيرى دول المجلس دولة واحدة اقتصادياً حين يقول: «أنا من الناس الذين يفضلون أن يروا مصنعاً مكتوباً عليه مصنع دول الخليج فى جدة، وأرى مصنعاً مكتوباً عليه أيضاً ذلك فى الكويت وفى الإمارات وعمان وقطر والبحرين .. ونرى رأس مال وطنياً مشتركاً من جميع دول الخليج ليس من الحكومة وإنما من المواطنين . هذه الروابط المالية

دائمًا تدعم الصلات بين مواطني دول الخليج وتدفعها للأمام [١١]. ومما لاشك فيه أن هذه العبارات تؤكد النظرة الشمولية تجاه اقتصاديات المجلس وضرورة العمل لاندماج دوله في تجمع اقتصادي موحد.

ج- نظرته لدور المجلس من الجوانب الاجتماعية والثقافية:

لقد أكد الملك فهد أن الجانب الاجتماعي والثقافي لدول المجلس هو جزء أساسي من اهتماماته بل هو محور مركزي تنبني عليه قوة دول المجلس ونموها ويتبين هذا بقوله إن الجانب الاجتماعي والثقافي هو : «محور اهتمامنا منذ قيام المجلس فإننا نأمل أن يحظى بمزيد من العناية بعد أن تم السير بخطوات نافعة في مجالات التعاون والتبادل الثقافي وتمتع الطلبة في دول المجلس بمعاملة المواطنين ، وكذلك الحال بالنسبة لشؤون التعاون في مجالات الصحة والعلاج وشؤون التعاون في المجالات المتعددة الأخرى....»[١٢].

ويخلص الباحث من خلال ما سبق إلى أن نظرة الملك فهد تجاه مجلس التعاون تنطلق من أسس عظيمة الأهمية من أبرزها .

- أن الإسلام هو منبع التفكير وهو العروة الوثقى لوحدة دول المجلس ولكل أعماله التعاونية.
- أن التعاون الخليجي هو جزء لايتجزأ من التضامن العربي والتآخي الإسلامي.
- أن هناك عوامل وحدة جمعت شعوب منطقة الخليج منها الدين واللغة والأصول العرقية والعادات الاجتماعية الواحدة، والتاريخ المشترك والجوار الجغرافي، وأن المجلس جاء ليكرس تلك العوامل ويرسخها .
- أن قيام المجلس ما هو إلا تلبية لآمال وتطلعات وطموحات شعوب المجلس لرغبتها وميولها الحقة نحو التعاون المثمر في كافة الجوانب.
- أن مجلس التعاون يجب أن يكون اسمًا على مسمى بحيث تكون صفة التعاون ملازمة لكل ما يتخذ من قرارات مع ضرورة التشاور في كل أمر تطبيقًا لمبدأ الشورى في الإسلام.
- أن شعوب مجلس التعاون هي حجر الزاوية في كل ما يتخذ من قرارات إذ أن الهدف من إنشاء المجلس حفظ مصالح وحقوق هذه الشعوب.
- أن مجلس التعاون يجب ألا ينغلق على نفسه بل لابد أن يكون حلقة داخل منظومة

التكتلات الإقليمية والدولية الهادفة إلى إسعاد الشعوب وحفظ أمنها ورخائها واستقرارها ، وأن لا يقتصر دور المجلس على حل مشاكل دوله بل لا بد من مساهمته بحل مشاكل الشعوب العربية والإسلامية ، وكذلك المشاكل الدولية ومنها على سبيل المثال قضية فلسطين.

- أن وجود بعض المشاكل فيما بين دول المجلس أمر وارد ولذلك فإن دور المجلس هو المعول عليه في القضاء على تلك المشاكل والخلافات ، وضرورة حصر هذه المشاكل داخل نطاق المجلس.

- أن دول المجلس تقف على قدم المساواة مع بعضها البعض من حيث حقوقها وواجباتها المنوطة بها فى هذا المجلس وما تمثله من دور فى المنطقة.

- أن دور المجلس يجب أن يتصف بالشمولية فى رعاية جوانب الحياة المختلفة دون استثناء ولهذا لابد من عناية كاملة بالجوانب الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية إذ أن جميع تلك الجوانب تصب فى مصلحة شعوب دول المجلس ولاغنى لهم عن أى منها ، كما أن شمولية دور المجلس يجب أن تنعكس على الأمة العربية والإسلامية باعتبارها الهدف الأسمى لكل وحدة[١٣].

دعم الملك فهد لمجلس التعاون فى المجالات المختلفة :

إزاء هذه النظرة التفاؤلية للملك فهد تجاه المجلس ، فقد عمل الكثير لدعمه ومساندته مادياً ومعنوياً لتحقيق أهدافه وتحويل الأسس النظرية إلى واقع ملموس للوصول إلى المبتغى: فبالإضافة إلى ما تقدمه المملكة العربية السعودية من دعم مالى سنوى للمجلس مقاسمة مع دول المجلس الأخرى ، فإن هناك جوانب دعم إدارية ومالية للمجلس اختص بها الملك فهد، ولقد أوضح السيد عبدالله بشارة أمين عام المجلس عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ذلك الموقف الداعم بقوله : «إن الملك فهد يطبق المثل القائل إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطنع إليك فانشره...»، حيث أشار الأمين العام إلى الدعم اللا محدود من قبل الملك فهد للمجلس وقال : «باسم الجميع أحييكم يا خادم الحرمين الشريفين لعطائكم ووفائكم ورعايتكم للمجلس منذ ولادته حتى انطلاقته ، أعبر لكم ولسمو ولى عهدكم الأمين وحكومتكم الرشيدة عن الامتنان الذى لا يوصف والتقدير الذى لا يقاس.. يقول العرب من هان عليه المال تعلقت به الآمال، وكنا فى الأمانة العامة نسأل فنعطى ونطمع فنرضى، جزى الله من أعطى كل خير..»[١٤].

ولعل أبرز الشواهد التاريخية على الدعم المادى السخى من قبل الملك فهد للمجلس هو ذلك الصرح العظيم الذى تبرع به ليكون مقراً للمجلس فى الرياض؛ حيث شيد المبنى على مساحة مائة وستة وعشرين ألف متر مربع ومساحة مبانيه أربعة وثلاثين ألف متر مربع وصمم بشكل هندسى إسلامى وفاءً للبيئة واحتراماً للتراث ، وقسم إلى أربعة أجزاء: الأول : قاعة كبرى للاجتماعات وقاعات تستوعب اثنى عشر اجتماعاً فى وقت واحد ، وتسهيلات ممتازة، وغرف للقاءات الجانبية . الثانى: مبنى يضم المكتبة ، وقاعة الكمبيوتر على أحدث طراز ، يفى بحاجة الأمانة لأجيال قادمة. الثالث : مبنى مكاتب الموظفين ، رائع فى مظهره ، يفى بحاجة الأمانة حتى أربعين سنة قادمة . الرابع: سكن الأمين العام يغطى حاجة من يسكنه ويوفر له امتيازات رائعة(١٥).

ولأن الملك فهد لم يرغب بإعلان التكلفة المالية للمشروع ، فقد خلت كلمة الأمين العام آنذاك من ذكر المبلغ حيث اكتفى بالقول «والتكلفة سخاء..»(١٦). والواقع أن تنفيذ المشروع قد تكلف نحو أربعمائة مليون ريال قدمها خادم الحرمين الشريفين ، كهدية إلى المجلس وأبناء الخليج، وتم تنفيذ المشروع بزمن لم يتجاوز تسعة وعشرين شهراً (١٧).

وقد تم افتتاح المبنى يوم الأحد السابع من جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٩٨٧م بحضور قادة دول المجلس، حيث ألقى الأمين العام للمجلس آنذاك السيد عبدالله بشارة كلمة أشاد فيها بذلك الدعم السخى من قبل الملك فهد حيث قال: «يشرفنى أن أتحدث باسم المجلس كأمين عام طوقه يا خادم الحرمين الشريفين سخاؤكم .. لقد وعدتم فوفيتم وعملتم مع إخوانكم قادة دول المجلس لتطوير حلم القدماء إلى أمل الآباء ليتوج عملاً شامخاً وهو منحتكم للأبناء..» ثم أضاف قائلاً : «... والمبنى هو هدية خادم الحرمين الشريفين إلى جيل المجلس ومنحة من المملكة العربية السعودية تودعها بثقة فى جيل الوفاء الذى يعى سخاء هذه الأرض وهو سخاء ينير الأمل بأن الغد يفوق الحاضر .. لقد قلنا بأن المجلس هو كائن تكبر قامته كل يوم هذا المقر يعطى لمن يراه فكرة عن قامة المجلس بعد جيلين وبرهاناً على أنه بالهمة وحدها يصبح الحلم واقعاً ... هذه مناسبة أدخلت المجلس حقبة جديدة من التاريخ، أشكركم على كل شئ:...»(١٨).

وانطلاقاً من ذلك الدعم المادى السخى، والذي صاحبه دعم معنوى ، فقد قدر للمجلس وعلى مدى عقدين من الزمن ومن العمل الخليجى المشترك أن يخطو خطوات واسعة ، ويقفز

قفزات كبيرة نحو تحقيق أهدافه في مختلف المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والقانونية والإعلامية والتعليمية.

أ- جهود الملك فهد في دعم المجلس من الجانب السياسي والأمني:

عمل الملك فهد جاهداً من خلال مجلس التعاون لإنهاء حالة الحرب بين العراق وإيران ، والتي استمرت طوال الثمانينيات من القرن العشرين، ورغم إدراكه لصعوبة التوفيق بين البلدين المتحاربين بشكل أعجز العديد من الهيئات الدولية والبعثات الإسلامية والأمين العام للأمم المتحدة إلا أنه لم ييأس وكان من خلال جلسات مجلس التعاون يحاول طرح الوساطات بين الجانبين لإدراكه لخطورة تلك الحرب التي ستكون كما قال: «خسارة على الجميع إن كانت الدولتين المتجاورتين أو ربما دولنا الخليجية ودولنا العربية والإسلامية كل ما أتمناه أن يوفقنا رب العزة والجلال لأفضل الطرق وأنسبها لإنهاء هذه الحرب بأسرع وقت ممكن إذا أمكن ذلك...»(١٩).

وحين قامت العراق باحتلال جارتها الكويت مع مطلع التسعينات من القرن العشرين كان لخادم الحرمين الشريفين دور بارز في إخراج منطقة الخليج بل والعالم بأسره من تلك الأزمة وذلك باتخاذ قراره التاريخي بالاستعانة بالدول الشقيقة والصديقة للدفاع عن المملكة وشقيقتها الكويت، ورغم أن هذا الموضوع واسع البحث إلا أننا نشير إلى أن ذلك القرار كان له دور مهم جداً في الحفاظ على مسيرة مجلس التعاون الذي أكد قدرته على التحدي حين التف قادته وشعوبهم للدفاع عن بلدان الخليج؛ ولهذا فإن أول قمة عقدت بعد إزالة الاحتلال العراقي للكويت قد عقدت على الأرض المحررة للربط بين مسيرة المجلس وعودة أحد أعضائه إليه؛ ولقد أعرب الملك فهد عن تفاؤله بمناسبة عقد تلك القمة قائلا: «ومن حسن الطالع أن يأتي هذا الاجتماع للقمة الثانية عشرة في الكويت المحررة وطبيعي أن تطغى مشاعر التفاؤل بما ينتظر أن تسفر عنه هذه القمة وهي تنعقد في أجواء مابعد التحرير والقضاء على العدوان، فلتكن هذه القمة إذن قمة الانطلاقة الجديدة لمسيرة التعاون لدول الخليج العربية، انطلاقة في كل الاتجاهات التي حددتها المسيرة من خلال مواثيقها الأساسية....»(٢٠).

ومنذ أن أقدمت إيران على احتلال الجزر الثلاث أبو موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى المتنازع عليها مع دولة الإمارات العربية المتحدة فإن الملك فهد وجه نداءاته المتكررة من خلال المجلس إلى إيران بالقبول بحل النزاع بالطرق السلمية من خلال الحوار الجاد والمباشر مع دولة الإمارات العربية المتحدة أو القبول بإحالة القضية إلى محكمة العدل الدولية ونبذ سياسة

فرض الأمر الواقع بالقوة المتنافي مع أمن واستقرار المنطقة ومع مبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة ومبادئ حسن الجوار واحترام سيادة ووحدة أراضي دول المنطقة(٢١).

ولأن خادم الحرمين الشريفين يؤمن بأن القضية الأساسية للعرب والمسلمين هي قضية فلسطين فقد حرص من خلال مجلس التعاون لدول الخليج العربي على بذل المساعي لإيجاد حلّ يحفظ للفلسطينيين حقوقهم المسلوبة ؛ فبعد أن أعلن مشروعه للسلام ودعى لتوحيد الصف العربي خلال مقررات القمة العربية الثانية عشر المنعقدة في مدينة فاس في المغرب سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ولقى موافقة القادة العرب بالإجماع على ذلك المشروع كأساس لسلام شامل في الشرق الأوسط لم يلبث الملك فهد أن سارع الخطى لمناقشة الموضوع الفلسطيني خليجيًا في قمة المنامة، ثم جاءت القمة الخليجية في مدينة الدوحة ليواصل فيها دوره مع قادة دول مجلس التعاون للمساهمة بحل قضية فلسطين وتوحيد الصف العربي لدعم الشعب الفلسطيني(٢٢)، وهو ما عاد ليؤكده في القمة الرابعة عشر في الرياض عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م حيث عبر عن أمله الكبير في أن تكون اتفاقية أوسلو الموقعة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل خطوة أولى صحيحة في سبيل التوصل إلى حل عادل ودائم وشامل للنزاع العربي الإسرائيلي(٢٣) موضحًا ذلك بقوله : «قضيتنا الأولى تحرير القدس تنتظر منا الاعتصام بحبل الله جميعًا كي يعود أبناء فلسطين إلى وطنهم مع حقهم في تقرير المصير..(٢٤)». واستمر الملك فهد مصرًا على أن قضية العرب والمسلمين الأولى هي قضية فلسطين متخذًا من مجلس التعاون أداة فاعلة لحل تلك القضية.

ومع انعقاد القمة الثانية والعشرين للمجلس في سلطنة عمان عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م أوضح أن من أبرز اهتمامات المجلس قضية فلسطين وأن «دول المجلس ستتواصل جهودها- بحول الله وقوته- عبر كل القنوات من أجل حفز الإرادة الدولية لتفعيل دورها لتطبيق الشرعية ذات الصلة وإن شاء الله لن يضيع حق وراءه مطالب سواء طال الزمن أم قصر...»(٢٥).

وفي الوقت الذي عمل الملك فهد من خلال مجلس التعاون لإيجاد الحلول الناجحة للقضية الفلسطينية فإنه لم يتجاهل المشاكل السياسية الناشئة داخل البيت الخليجي نفسه ويحاول بكل قوة إقناع أطرافها باللجوء للحكمة والتفاهم وحلها داخل إطار المجلس، ومنها ذلك الخلاف الذي نشب بين دولتي قطر والبحرين على بعض المناطق الحدودية حيث قال عن هذا الخلاف : « بالنسبة لدول الخليج وإن كان هناك بعض المشاكل الطارئة مثل ما هو موجود بين البحرين وبين قطر فهي مشكلة موجودة ولكن اعتقد أن الحكمة بالنسبة للقادة في البحرين

والقادة في قطر جديرة أن تحل هذه المشكلة بالطرق المحببة للنفوس...» ثم يحاول التقريب بين وجهات نظر أطراف الخلاف مبيناً أن «أى مشاكل تطرأ بالنسبة لدول الخليج مع بعضها البعض دائمًا تحل بالطرق الودية، ولدول الخليج سياسة معينة هى ألا تتدخل فى شؤون أحد ولاتسمح لأحد أن يتدخل فى شؤونها...»[٣٦]. ولقد أثمرت تلك الجهود عن حل ذلك الخلاف وعودة الصفاء إلى العلاقات بين الدولتين.

غير أن الدعم السياسى الأبرز الذى يمثله الملك فهد لمجلس التعاون هو ذلك التعامل المرن مع الدول أعضاء المجلس فيما يتعلق بترسيم الحدود، إذ أنه يدرك تمامًا حساسية وضع الحدود غير المرسومة بين الدول، واحتمال كونها مصدر نزاع مستقبلى بين الجيران، وإذا كان وجود الملك فهد فى قمة الهرم السياسى للمملكة العربية السعودية كفيل بتذليل كل مشكلة حدودية مع دول المجلس لما عرف عنه من حكمة وقدرة على احتواء الأزمات إلا أنه أيقن أن ترك الأمر عائمًا أمرٌ محذور ، ولذلك فإنه ركز جهوده بالتعاون مع أشقائه فى الكويت وعمان والإمارات العربية المتحدة وقطر من أجل تحقيق إنجاز غير مسبوق بالاتفاق على ترسيم الحدود فيما بين المملكة وتلك الدول.

وتبرز نظرة الملك فهد حول هذا الأمر من خلال الابتعاد عن التصعيد الإعلامى المرتبط بالحدود والتركيز على العمل بصمت وتجاوز العقبات التى تواجه طريقه للوصول إلى الهدف المنشود إذ لم يكن هدفه الاحتفاظ بهذا الجزء أو ذاك من الأرض بقدر ما كان هدفه الوصول إلى حل يرضى الجميع مع ضمان حقوق شعبه وعدم التفريط بمكتسباته .

وتبعًا لهذا التوجه فقد تم الانتهاء من ترسيم الحدود السعودية العمانية بعد أن ظل موضوع الحدود مقلقًا للبلدين وبقية بلدان المنطقة لمدة طاولت القرن العشرين غير أن قادة البلدين أدركوا ضرورة التفاهم والانتهاء من ترسيم الحدود، وقد تم ذلك عبر اتفاقية حفر الباطن الموقعة فى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م بين الملك فهد والسلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان[٣٧]، وكان لتلك الاتفاقية دور كبير في ترسيخ العلاقات بشكل أكبر بين الطرفين وجعلها تنمو من حسن إلى أحسن[٣٨].

وواصل الملك فهد جهوده للانتهاء من ترسيم الحدود وحل إشكالاتها مع بقية دول المجلس حيث شهد العام ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م عقد قمة ثنائية سعودية قطرية فى المدينة المنورة تم خلالها الاتفاق على ترسيم الحدود بين البلدين بعد أن بقيت تلك المشكلة تلقى بظلالها على العلاقة بين الجانبين مدة طويلة، وتتابع بعد ذلك التفاهم الودى بين الملك فهد وقادة دول المجلس

الأخرى للانتهاء من المشاكل الحدودية المعلقة حيث شهد العام التالى اتفاقًا بين المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة على إجراء بعض التعديلات الحدودية بما يرضي الطرفين(٢٩).

وتلاشت المشاكل الحدودية مع دولة الكويت حينما تم توقيع اتفاقية ترسيم الخط الحدودى فى المنطقة المغمورة المحاذية للمنطقة المقسومة سابقًا بين البلدين حيث وقع الطرفان ممثلان بوزيرى خارجيتيهما على الاتفاقية وذلك فى ربيع الأول ١٤٢١هـ / يوليو ٢٠٠٠م فى مدينة الكويت، وقد صادق مجلس الشورى السعودى على الاتفاقية بعد سبعة أيام من توقيعها ثم وافق مجلس الوزراء عليها فى اليوم التالى مما يدل على ترحيب الجهات السياسية الرسمية فى المملكة بتلك الاتفاقية ، وفى الثامن من شهر جمادى الأولى ١٤٢١هـ أصدر الملك فهد مرسومًا ملكيًا يوافق بموجبه على الاتفاقية المبرمة وملحقها الأول الذى يوضح ملكية البلدين للثروات الطبيعية فى المنطقة المغمورة(٣٠).

والحقيقة التى لابد من إثباتها أن تلك الاتفاقات لم تكن لتتم لولا حرص الملك فهد ومرونته وتجاوزه لكثير من العقبات والإشكالات التى كانت سببًا فى بقاء المشاكل الحدودية بين المملكة وشقيقاتها دول المجلس معلقة لفترة طويلة؛ يتضح ذلك من خلال تتبع ملفات مشاكل الحدود وسبب بقائها مغلقة كل تلك الفترة وكيف كان للملك فهد الدور الأكبر فى الوصول إلى حل يرضى جميع الأطراف ليصل فى نهاية الأمر إلى إنهاء مشكلة تاريخية، وكل ذلك نابع من إيمانه بأن مجلس التعاون يجب أن يتجاوز تلك الإشكالات ولأنه ركيزة من أهم ركائز العمل المشترك فى سبيل تحقيق آمال وطموحات شعوب الخليج نحو مستقبل أفضل (٣١).

ب- جهود الملك فهد فى دعم المجلس من الجانب الأمنى :

أما فى مجال التعاون الأمنى فقد أولى خادم الحرمين الشريفين عنايته واهتمامه بموضوع الأمن على كافة الأصعدة وتفاعل مع التطورات التى يشهدها العالم وكان له السبق بإعلان نبذه لظاهرة الإرهاب وسبق الجميع بتوجيه دعوة فى عام ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م لعقد مؤتمر دولى لمناقشة ظاهرة الإرهاب مع عدم الخلط بينه وبين حقوق الشعوب فى الدفاع عن وجودها (٣٢).

وقد أثبتت وقائع الزمن صدق مرئياته حول هذا الجانب بما عانته كثير من دول العالم خلال السنوات التالية من هذه الظاهرة، ولذلك فإنه أعاد دعوته لمحاربة الإرهاب من خلال مجلس التعاون خلال دورته الثانية والعشرين فى مسقط عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م حين قال : «إن

الإرهاب فى المصطلح السياسى الإعلامى المعاصر هو فى حقيقته إفساد فى الأرض وديننا يحرم ذلك .. ولذا فمن الطبيعي التعاون من أجل اجتثاث جذوره تفادياً لشروره وهذا ما كنا ومازلنا نطالب به ونلح فى طلب التعاون لمعالجته حتى لايستفحل خطره والمملكة العربية السعودية وأخوتها دول مجلس التعاون تسهم بكل ما تستطيعه لدعم وتعزيز الجهود الدولية فى هذا الصدد على شرط أن يتوافق ذلك مع شريعتنا الإسلامية السمحة ومع ما توصى به الشرعية الدولية ليتسنى المضى قدماً لما فيه خير البشرية..»[٣٣].

ولقد أولى الملك فهد موضوع التعاون الأمنى أهمية كبيرة بالتعاون مع قادة دول المجلس مدركًا أن الخطط التنموية والتطور والازدهار لايمكن أن تتحقق إلا فى ظل من الأمن والاستقرار ؛ ولذا عمل المجلس على تأسيس لجنة وزراء الداخلية فى دول المجلس والتى تتابع عبر اجتماعاتها الدورية المهام والمسئوليات الأمنية فى دول المجلس، وقد أثمرت تلك اللجنة عن بعض الإنجازات ومنها : إقرار الاتفاقية الأمنية لدول المجلس وكذلك الاستراتيجية الأمنية الشاملة التى شكلت الإطار العام للتعاون الأمنى بين الدول الأعضاء، بالإضافة إلى كثير من الإنجازات الجماعية والثنائية حول الجوانب الأمنية المختلفة[٣٤].

ج- جهود الملك فهد فى دعم المجلس من الجانب العسكرى:

فى الشأن العسكرى اعتبر الملك فهد الاعتداء على دولة خليجية هو اعتداء على كل دول المجلس ولذا فإن موقفه التاريخى من العدوان العراقى على دولة الكويت خير مثال لهذا التوجه ، وتبعاً لذلك حرص الملك فهد على وضع ترتيبات عسكرية من شأنها تحمل مسئولية الدفاع عن دول المجلس فتم إقرار العديد من الوثائق والدراسات المتعلقة بالسياسة الدفاعية والتصور الاستراتيجي ومجالات التعاون العسكرى الأخرى، ومن هنا برزت فكرة إنشاء قوة درع الجزيرة (التدخل السريع) سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م لإجراء التمارين العسكرية بين دول المجلس، وتم تكوين لجنة عسكرية عليا من قبل وزراء الدفاع لمتابعة موضوع الدفاع الجماعى مع التركيز الشديد على تطوير قوة درع الجزيرة وبنائها: حيث وضعت تحت إشراف قيادة جيش المملكة العربية السعودية ، وقد بدأت تلك القوة تؤتى أكلها مع مطلع التسعينات من القرن العشرين حيث ساهمت بحرب تحرير الكويت والدفاع عن الأراضى السعودية ضد الغزو العراقى ، كما تم العمل على إيجاد حزام التعاون العسكرى، وتوحيد موضوعات المساحة العسكرية[٣٥]، بالإضافة إلى متابعة تنفيذ مشروع التغطية الرادارية والإنذار المبكر بين مراكز عمليات القوة الجوية والدفاع الجوى لدول المجلس وتوحيد عدد كبير من مناهج الدورات

العسكرية وتبادل الزيارات والخبرات والتدريب بين الكليات والمعاهد والمدارس العسكرية في دول المجلس [٣٦].

د- جهود الملك فهد في دعم المجلس من الجانب الاقتصادي:

لأن الاقتصاد هو عصب الحياة فإن الملك فهد إضافة إلى ما سبق أن طرحه من رؤى وجهود لدعم اقتصاديات دول المجلس اتبع القول بالعمل من خلال جهوده الكبيرة في هذا الجانب ؛ منها على سبيل المثال إعلانه عن تخصيص حصص من أسهم شركة سابك السعودية للمساهمة بها من قبل دول الخليج والهدف من ذلك إيجاد التصاق مالي بين دول المجلس إذ أنه يرى «أن الالتصاق المالي أقوى من الالتصاقات السياسية والاجتماعية لأن رأس المال إذا اشترك مع بعضه ربط الأمم بعضها ببعض برباط قوي جداً وأصبحت كلها تدافع عن رأسمالها...»[٣٧].

وهذه النظرة الاقتصادية الكبرى للملك فهد يكرسها لا لخدمة حكومات دول المجلس فحسب بل لأفراده فيطرح نفسه الفكرة قائلاً وهو يعبر عن أمله بأن : «... نرى رأسمال مشترك وطني من جميع دول الخليج ليس من الحكومات وإنما من المواطنين ، هذه الروابط المالية دائمًا تدعم الصلات بين مواطني دول الخليج وتدفعها إلى الأمام.. فلا شك أنه من العمليات المفيدة جداً أن يوجد ترابط بين دول الخليج من الناحية الاقتصادية...»[٣٨].

وإذا كانت هذه نظرة الملك فهد لخدمة اقتصاد دول المجلس فليس من المستغرب أن يسعى المجلس بكل السبل للعمل الاقتصادي المشترك خلال عقدين من الزمن ولهذا فإن المجلس وضع من أولوياته وعبر نظامه الأساسي تحقيق العديد من الأهداف الاقتصادية [٣٩]، كما هدف المجلس إلى إيجاد الاتفاقية الاقتصادية الموحدة والتي تم التوقيع عليها في الرياض في ١٥ / ١ / ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م وضمت سبعة فصول وثمانية وعشرين مادة تهدف في مجملها إلى الرقي بالجانب الاقتصادي والتنسيق المشترك فيما بين دول المجلس بهذا الشأن وهي شاملة لجميع الجوانب الاقتصادية [٤٠].

وقد بين الملك فهد حرصه على دعم هذه الاتفاقية ومتابعة مراحل تنفيذها معبراً عن هذا الاهتمام بقوله : «لقد خطت الاتفاقية الاقتصادية الموحدة، خطوات واسعة نحو التنفيذ في مجالات التعاون الاقتصادي بما يجعل منطقتنا منطقة اقتصادية موحدة ونموذجًا للتكامل الاقتصادي ومن الأمثلة على ذلك رفع الحواجز الجمركية وحرية انتقال رؤوس الأموال وانتقال

الأشخاص والعمالة وإعطاء الأفضلية في المشروعات الحكومية في الدول الأعضاء للمنتجات الوطنية وغير ذلك من مجالات التعاون الاقتصادي»(٤١).

كما تم وضع استراتيجية تنموية شاملة بعيدة المدى لدول المجلس تمتد لخمس وعشرين سنة تبدأ من عام ٢٠٠٠م وحتى ٢٠٢٥م، وتهدف إلى تحقيق التنمية في المحاور المتعددة ومنها المحور الاقتصادي والتعاون في مجاله بين دول المجلس لكي يتم تحقيق النمو الاقتصادي بشكل متصاعد عبر سنوات هذه الاستراتيجية ، وقد تم اعتماد هذه الاستراتيجية في الدورة التاسعة عشر للمجلس الأعلى المنعقد في أبوظبي عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م(٤٢).

وكذلك تم إيجاد الاستراتيجية الموحدة للتنمية الصناعية والإطار العام للاستراتيجية السكانية لدول المجلس وكذلك السياسة الزراعية المشتركة لهذه الدول. وتعمل تلك الاستراتيجيات والسياسات لتحقيق المساواة بين مواطني المجلس في كثير من المجالات الاقتصادية كالمعاملات الضريبية والجمركية والتجارية وغيرها (٤٣)، ولا مجال للحديث عن منجزات اقتصادية للمجلس لكن أبرز ما تحقق في هذا الشأن بدء العمل بالاتحاد الجمركي لدول مجلس التعاون اعتباراً من العام ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م بدلاً من العام ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، حسبما كان مقرراً من قبل، إضافة إلى العمل على إيجاد عملة خليجية موحدة بدءاً من عام ١٤٣٠هـ / ٢٠١٠م (٤٤)، وقد أشاد الملك فهد بالتقدم الذي تم في هذا الشأن خلال القمة الخليجية الثانية والعشرين في مسقط والمنعقدة في شوال ١٤٢٢هـ/ ديسمبر ٢٠٠١م معتبراً إياه «.. نقلة نوعية ومهمة وضرورية في إطار سعي الدول الأعضاء لتحقيق التكامل الاقتصادي بينها ونحن على ثقة- إن شاء الله- أننا ستتمكن جميعاً من التخلص من المعوقات أولاً بأول وسنصل بإذنه تعالى إلى التكامل المنشود في الوقت المناسب...»(٤٥).

د- جهود الملك فهد في دعم المجلس من الجوانب الإنسانية والعلمية والإعلامية:

بدعم مباشر من الملك فهد حقق المجلس العديد من الإنجازات على صعيد خدمة شؤون الإنسان والبيئة ، والشؤون القانونية المختلفة ، والشؤون الإعلامية ومراكز المعلومات خاصة فيما يتعلق بالحاسب الآلي والإحصاءات الرسمية للدول الأعضاء وإصدارها عبر نشرات سنوية شاملة ، وكلها إحصاءات شاملة لجوانب حياة الإنسان الخليجي، ولايبتعد ذلك عن الجانب الثقافي والعلمي ، الذي حرص مجلس التعاون على الرفع من مكانته وشأنه ، ولذا فقد تم العمل على إيجاد مكتبة متخصصة في شؤون مجلس التعاون وغير ذلك من كتب ودوريات

عربية وأجنبية ومطبوعات حكومية ودوريات متخصصة وفقًا لاحتياجات العمل والباحثين في الأمانة العامة لدول المجلس، مع توفير المعلومات على أقراص ممغنطة وفقًا لاحتياجات القطاعات والإدارات المعنية في الأمانة العامة إضافة إلى استخدام الشبكة الدولية (الانترنت) في أعمال البحث ، وفي الإطار الثقافي والعلمي أيضًا فإن الأمانة العامة وبدعم من دول المجلس قد رعت ونظمت الكثير من الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية (٤٦)، كما تمت مساواة طلاب دول المجلس في الاستفادة من التعليم قبل الجامعي واعتبار الشهادات والوثائق الدراسية الصادرة من كل دولة خليجية مماثلة للشهادات الصادرة من بقية دول المجلس، إضافة إلى مساواة طلاب دول المجلس في الاستفادة من التعليم العالي بحيث تكون أفضلية القبول لمواطني دول المجلس بعد مواطني الدولة نفسها ، والمساواة في المعاملة بعد الدراسة، وكذلك في خدمة الطلاب فيما يتعلق بالعلاج والسكن والرسوم والمكافآت وغيرها (٤٧)، وإلى جانب ذلك فهناك المنح الدراسية المتبادلة بين جامعات دول المجلس لأبناء تلك الدول حيث تقدم الجامعات والكليات والمعاهد السعودية العديد من المنح الدراسية لأبناء دول المجلس.

غير أن من أبرز جوانب دعم الملك فهد للمجال العلمي خليجيًا هو العمل على إيجاد الجامعة الخليجية الموحدة متمثلة بجامعة الخليج العربي ومقرها البحرين حيث تعتبر تلك الجامعة وحدة علمية ثقافية لأبناء دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ضمن منظومة الوحدة بين أبناء دوله التي تشترك في دعم الميزانية المالية للجامعة التي حظيت بدعم كبير من الملك فهد وكان له الفضل- بعد الله- في استمرارية الجامعة وذلك حينما عصفت بها أزمة مالية كادت أن تؤدي إلى إلغاء مشروعها الأساسي سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م مما دعا المسئولين في الجامعة لإبلاغ الملك فهد بمعاناتها المالية ؛ ورغم ما كانت تعيشه المنطقة آنذاك من ظروف تمثلت بالاحتلال العراقي للكويت وما تطلبه الموقف حينذاك من إجراءات اقتضت مبالغ ونفقات مالية كبيرة هددت اقتصاد المنطقة بأسرها إلا أنه سارع بدعم الجامعة وإخراجها من أزمتها (٤٨).

وإزاء ذلك الدعم المتواصل من خادم الحرمين الشريفين تجاه الجامعة ، فقد خصصت كرسيًا علميًا يحمل اسمه، ولاشك أن هذا الكرسي العلمي يعطي عراقة للجانب الأكاديمي والعلمي في هذه الجامعة (٤٩).

نظرة خادم الحرمين المستقبلية تجاه المجلس:

عرف عن الملك فهد بن عبد العزيز تفاؤله بمستقبل مجلس التعاون يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى ، بل أنه راهن على المستقبل المشرق الذى ينتظر المجلس وفى ذلك يقول : «أن صيغة مجلس التعاون كمجتمع ليست مهددة بعدم الاستمرار لأن الشأن الخليجي لشعوب هذه المنطقة هو شأن يدرس ويهيأ جيداً من قبل الأجهزة المختصة فى الدول الأعضاء ثم يأتى القادة ليجددوا فى لقاءاتهم مشاعر الألفة والمحبة بينهم... نعم إن مجلس التعاون مستمر ومتطور بإذن الله تعالى وهدفنا أن نصل فيه إلي الأهداف التى اتفقت عليها الدول المؤسسة له ولا شك أنها حريصة عليها .. وسنؤكد للعالم أجمع أن هذا التجمع أقوى من ظنون الذين لايريدون له الاستمرار...»(٥٠).

لقد رأى الملك فهد أن الأزمات التى حلت بالمنطقة قد أثبت تماسك المجلس ودوله وأن مسؤولية الحفاظ على هذا المجلس منوطة بجميع دوله فيقول : «.. إننا جميعاً مسؤولون عن هذا الصرح الذى بنيناه والذى نطالب اليوم بترسيخه والحفاظ عليه..»(٥١).

وابتعد الملك فهد عن المفهوم الضيق لعلاقات دول المجلس حين أكد أن التباين فى وجهات النظر بينها تجاه بعض القضايا لايعنى أنه خلاف، وأن الاختلاف فى الرأى داخل المجلس لا يصل إلى الطرق المسدودة، كما أكد على ضرورة احترام آراء الدول ووجهات نظرها فى أى قرار ، وأن يترك الوقت الكافى لاقتناع الجميع وتشاورهم فى أى أمر، ورأى أن التباين فى الرأى قد يؤدى إلى تصحيح المسار بشكل أفضل مطبقًا بذلك مبدأ (اختلاف الرأى لايفسد للود قضية)، ومن هنا فإنه قطع الطريق على إثارة الخلافات بين دول المجلس فيؤكد قائلاً : «من الخطأ أن يتصور أحد أنه قادر على المتاجرة بخلافاتنا أو النفخ فيها لأنها خلافات الأشقاء داخل البيت الواحد .. فَمَنْ يظن أنه قادر على المتاجرة بها أستطيع أن أقول بإنه مخطئ ... إننا لانريد أن نتيح أى فرصة لأى أجنبى خارج لُحْمتنا أن يستغل رؤيتنا للصورة التى يجب أن نحل بها خلافاتنا فى هذه المنطقة .. فتباين وجهات نظرنا سيبرز بين حين وآخر وبين طرف وآخر وهى تباينات تنحصر فقط بين المختلفين حولها ولاتصيب كيان تجمعنا..»(٥٢).

ومن المؤكد أن تمسك الملك فهد بهذا التكتل وعمله الدؤوب لتطويره منبثق من إيمانه العميق بأن العصر عصر التكتلات الاقتصادية مهما كانت المستجدات السياسية والهدف الأبعد لهذا التكتل الخليجى أن يكون درعًا للأمة العربية والإسلامية وحماية لها من الابتزاز و الاحتكار والتجويع (٥٣).

كما أكد أن إقامة هذا التكتل دليل على حكمة الرأى وحسن التقدير ، وأنه جاء فى الوقت المناسب، وأن المستقبل سيكون أفضل عن طريق الأخذ بالطرق العلمية المدروسة باعتبار المجلس: «كيان حيوى يأخذ بالأسباب لكل ما يندرج فى مفهوم التطوير الإيجابى ، وأن المجالس الوزارية المتخصصة ذات الصلة تخصص حيزًا عريضاً من خلال اجتماعاتها الدورية المنتظمة لتفعيل آليات عمل المجلس والاستفادة من التجارب العملية والمستجدات وما يستنبط من طروحات العلماء والمفكرين ، ومن ضمن أولئك ما ينبثق عن المجلس الاستشارى الأعلى الذين هم صفوة من ذوى الرأى الحصيف ، ولذا فإن عملية تطور آليات عمل المجلس مستمرة...». ولذا فإنه أكد على ضرورة التفاؤل بمستقبل المجلس موضحاً أن هناك العديد مما ينتظر شعوب دوله من البرامج والفرص الاستثمارية والاقتصادية التى يعول عليها ضمن برنامج الشراكة الاقتصادية ، وإذا توفرت لدول المجلس تلك القفزة الاقتصادية تيسر لها النهوض بكل أعبائها، مع ضرورة تجنب تلك الدول الوقوع فى الأخطار الناجمة عن سوء التقدير وضرورة الالتزام بالسياسات الرشيدة ، ورغم هذا التفاؤل الذى أبداه الملك فهد بمستقبل المجلس ودوله ، إلا أنه أوضح بأن التقويم الناجح هو أساس البناء ، لذلك فهو وبنقد موضوعي وبشفافية هادفة أكد أن المجلس لم يتمكن بعد من تحقيق أحلام أبناء الخليج ، ولكنه يراهن بأن قادة دول المجلس ، لن يدخروا وسعاً فى سبيل تحقيق تلك الأحلام وذلك بالمضى فى نهج قويم مصدره توجيه سياسى معتدل ومنهج أخلاقى رفيع(٥٤).

وقد أكد سياسة الملك فهد تلك الأمير عبدالله بن عبد العزيز فى كلمته التى ألقاها بمناسبة انعقاد القمة الثانية والعشرين للمجلس فى مسقط حيث بين أن هناك تأخر فى منجزات المجلس خاصة فيما يتعلق بتحقيق الوحدة الاقتصادية ، ومعاهدة الدفاع المشترك ، اللتين يعول عليهما قادة دول المجلس لاتخاذهما منطلقًا للدفاع المشترك عن الأمة العربية وقضاياها وتخليص الفلسطينيين مما يلحق بهم من قمع دموى على يد إسرائيل. كما أكد الأمير عبدالله أيضًا على ضرورة محاسبة النفس وتوجيه اللوم لها قبل غيرها، وحث دول المجلس على الاستفادة من أخطاء الماضى والابتعاد عن الشكليات والعمل للمستقبل عبر قنوات اقتصادية ومناهج دراسة موحدة وقنوات عربية وإسلامية ، تستطيع مجتمعة معالجة مشاكل الأمة بأسرها(٥٥).

إن ذلك النقد الذاتى الموضوعى الصريح هو الطريق السليم لمواصلة مسيرة المجلس وهو ما آمن به الملك فهد ليكون النهج الذى يجب السير فيه لتحقيق الأهداف المرسومة التى اتفقت

عليها الدول المؤسسة له، ومن هذا المنطلق عاد الملك فهد للتأكيد بأن المجلس «مستمر ومتطور- بإذن الله- حتى نؤكد للعالم أن هذا التجمع أقوى من ظنون الذين لايريدون له الاستمرار وبإذن الله سنحافظ على هذا التجمع حتى لو اختلفنا حول بعض القضايا لأن الخلاف يزيل في بعض الأحيان الشوائب ويطور القرار حول الشأن المطروح وسنسير لتأكيد أن هذا التجمع وجد ليبقى وأنه سيستمر...»(٥٦).

الخاتمة

من المؤكد أن تلك الانطلاقة القوية لمجلس التعاون لدول الخليج العربية لم تكن وليدة الصدفة بل كانت ثمرة لتخطيط مدروس ساهم بإبرازه خادم الحرمين الشريفين منذ أن كان وليًا للعهد في بلاده، وحين تولى الحكم حمل على عاتقه دعم المجلس وتحقيق مطالبه المادية والسياسية رغبة بإبرازه ككيان وتكتل منبثق من الوحدة العربية وعاملاً لتحقيق مصالح الأمة العربية بأسرها خاصة أن الملك فهد قد أكد بأن المجلس ليس موجهًا ضد أحد وأنه مرحلة تعاون ضمن التعاون العربي عامة وسيكون سندًا ودرعًا للأمتين الإسلامية والعربية ومتعاونًا مع المجتمع الدولي للمحافظة على الأمن والسلم الدوليين وتجنيب مجتمعاته كل ما يؤثر على رخائها واستقرارها .

وبما أن الملك فهد قد أولى أمن الخليج الأهمية القصوى فإنه رأى في هذا التكتل دعامة أساسية لتحقيق ذلك الأمن، ولأنه حريص على توفير الرخاء الاقتصادي لأبناء دول الخليج العربي فقد رأى أن المجلس طريق لتكتل اقتصادي يغني بلدان الخليج وشعوبها عن الغير ويكفل لها الحياة الهانئة، ومن هذين المنطلقين وما يتفرع عنهما من جوانب لم يكن مستغربًا أن يعلن «أن المملكة العربية السعودية تضع كل قدراتها لخدمة دول المجلس وتتطلع معها إلى بناء العنصر الخليجي البشري القادر على الاستفادة من كل معطيات العصر بما يتلائم مع عقيدته الإسلامية الصحيحة وعاداته وتقاليده.. وقد بذلنا من الجهود والمساعي مع إخواننا قادة دول مجلس التعاون ما هو معلوم للجميع ...»(٥٧). وإذا كان المجلس بهذا الدعم من قبل الملك فهد قد حقق الكثير من المنجزات فإن المشوار لايزال طويلاً لتحقيق المزيد بالتعاون والدعم من كافة قيادات دول المجلس مع إخلاص النية ووحدة الصف والهدف.

ورغم بعض الآراء التي تقلل من دور المجلس إلا أن الواقع يؤكد أنه وعبر عمره القصير قد حقق كثيراً من الإنجازات خاصة في المجالات الإدارية والاقتصادية والتنموية بشكل عام، و لا

يضير المجلس إن تأخر في متابعة ما خطط له من أهداف في المجال العسكري إذ أن هذا الجانب تحديداً يجب التعامل معه بحذر ومرونة حسب مقتضيات الظروف السياسية والعسكرية المحيطة بالمنطقة، والعالم عامة مع الابتعاد عن المجازفة وسوء التوقيت الذى قد يؤدى إلى نتائج وخيمة على بلدان المنطقة ووحدتها .

وبنظرة فاحصة لسيرة المجلس بعد عقدين من الزمن- هما أيضًا مسيرة الملك فهد فى حكم بلاده- نرى أن هناك تلازمًا بينهما أدى إلى أن يكون اهتمام الملك فهد موجهًا بشكل كبير لدعم هذا المجلس الذى ولد متزامنًا مع تحمله لأعباء الحكم ومسؤولياته في المملكة العربية السعودية.

الهوامش

١- مجلس التعاون لدول الخليج العربية- نظامه وهيكله التنظيمي وإنجازاته من إصدارات الأمانة العامة للمجلس في الرياض : ط٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، ص ص١٨-٢٠ ؛ محمد حسن العيدروس ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط١، القاهرة : عين للدراسات والبحوث ، ١٩٩٦م، ص ص٣٠٩-٣١١ .

٢- انظر: النظام الأساسي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية الصادر عن الأمانة العامة للمجلس ، إصدار الأمانة العامة للمجلس في الرياض : ط٦، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ص٥ وما بعدها ، وكذلك : مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، نظامه وهيكله - مصدر سابق، ص ص٢١-٨٥ .

٣- من كلمة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الخامس لدول الخليج العربية بدولة الكويت سنة ١٤٠٥هـ ، انظر : المنظور الفكري لخادم الحرمين الشريفين (المواقف) ، إصدار وزارة الإعلام، ط١ ، الرياض، الوكالة الأهلية للإعلام، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص٩٧ .

٤- من كلمة خادم الحرمين الشريفين قبيل انعقاد القمة السادسة لمجلس التعاون عام ١٤٠٦هـ . انظر : خالد بن محمد القاسمي : فهد بن عبد العزيز قائد ومسيرة ، ط١ ، دمشق : دار الجيل للطباعة والنشر، ١٩٩٥م، ص١٤ .

٥- من حديث خادم الحرمين الشريفين بمناسبة اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية جدة ١١ / ٢ / ١٤٠٩هـ ، موقع دارة الملك عبد العزيز على الانترنت : WWW. darah. org . sa

٦-من حديث خادم الحرمين الشريفين بمناسبة انعقاد القمة الثانية عشر لدول مجلس التعاون في الكويت ١٤١٢هـ / ١٩٩١م . موقع كلمات الملك فهد على شبكة الانترنت : .WWW. mypag. ayna. com وكذلك عادل رضا : فهد بن عبدالعزيز الإنسان- الملك . القاهرة: دار أخبار اليوم. د.ت. ن، ص٣٤٦ .

٧- موقع كلمات الملك فهد على شبكة الانترنت : WWW. mypag . ayna . com

٨- نفس المصدر .

٩- عادل رضا: المصدر السابق، ص٣٤٦، وللمزيد عن النظرة السعودية تجاه أمن الخليج وسبل تحقيقه ، انظر : الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز : أمن الخليج العربي من منظور وطني، ط١ أبوظبي ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث ، ١٩٩٧م، ص ص٥-٣٨ .

١٠- من حديث الملك فهد للقمة الثانية عشر ١٤١٢هـ / ١٩٩١م . موقع كلمات الملك فهد على شبكة الإنترنت : .WWW. mypag . ayna. com

١١- جريدة المدينة المنورة العدد ٦٧٣٩ ، ٧ / ١ / ١٤٠٦هـ .

١٢- موقع كلمات الملك فهد على شبكة الإنترنت : WWW. mypag . ayna . com

١٣- من تصريحات خادم الحرمين الشريفين. جريدة أم القرى، السنة (٦٠) العدد (٢٩٤٠) ٢٦ / ١ / ١٤٠٣هـ، ص١، ٢٤ .

١٤- نص كلمة الأمين العام عبدالله بشارة في افتتاح مبنى الأمانة العامة لمجلس التعاون في الرياض، الأحد ٧ جمادى الأولى ١٤٠٨هـ ، من إصدارات الأمانة العامة، ص٤، ٦ .

١٥- المصدر السابق، ص٦ .

١٦- نفس المصدر والصفحة .

١٧- هاشم عبده هاشم : الدور السعودي في الخليج . ط١ . دم الإسراء للخدمات الإعلامية، ١٤١٤هـ، ص١٥٠ .

١٨- كلمة الأمين العام عبدالله بشارة. مصدر سابق، ص ص٣-٧ وانظر ملحق رقم (١) .

١٩- من كلمة خادم الحرمين الشريفين في الدورة الثامنة للمجلس في الرياض ١٤٠٨هـ:

موقع كلمات الملك فهد على شبكة الإنترنت : WWW. mypag . ayna . com

٢٠- من كلمة خادم الحرمين الشريفين في الدورة الثانية عشر للمجلس في الكويت ١٤١٢هـ نفس المصدر السابق.

٢١- موجز إنجازات مجلس التعاون لدول الخليج العربي. إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية . الرياض ٢٠٠٠م، ص١٤ .

٢٢- كمال الكيلاني: فهد بن عبدالعزيز ومسيرة دولة . ط١ ، الرياض : شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ص١٠١-١١٨ .

٢٣- من كلمة خادم الحرمين الشريفين في افتتاح الدورة الرابعة عشر للقمة الخليجية ، رجب ١٤١٣هـ/ ديسمبر ١٩٩٣م . المنظور الفكري لخادم الحرمين الشريفين ص١٠٤ .

٢٤- من كلمة وجهها الملك فهد إلى الأمة الإسلامية بمناسبة عيد الفطر المبارك عام ١٤٠٧هـ .

موقع دارة الملك عبد العزيز على الإنترنت : WWW. darah . org. sa

٢٥- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية ١٤ شوال ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٢ ، الأحد ١٥ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٢٦- من حديث خادم الحرمين الشريفين إلى مركز تليفزيون الشرق الأوسط في لندن ، ٩ / ٥ / ١٤١٢هـ. المنظور الفكري، مصدر سابق، ص١٣٧ .

٢٧- مشارى بن عبد الرحمن النعيم : الحدود السياسية السعودية البحث عن الاستقرار. ط١ . بيروت : دار الساقى ، ١٩٩٩م، ص ص٨٧-٩١ .

٢٨- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية ١٤ شوال ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٤٢، الأحد ١٥ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٢٩- مشارى النعيم: المرجع السابق، ص٨٥-٨٦ .

٣٠- المرسوم الملكى رقم ٢٠ وتاريخ ٨ / ٥ / ١٤٢١هـ. وقرار مجلس الوزراء رقم ٨٨ وتاريخ ٨ / ٤ / ١٤٢١هـ ، وكذلك نص الاتفاقية المبرمة وملحقها حول الثروات الطبيعية والمرفقة بالمرسوم الملكى. المصدر: معهد الإدارة العامة . قسم الوثائق.

٣١- من تصريحات خادم الحرمين الشريفين . جريدة أم القرى. السنة (٦٠) العدد (٢٩٤٠) ٢٦ / ١ / ١٤٠٣هـ، ص١ .

٣٢- من خطاب ألقاه خادم الحرمين الشريفين فى الأمم المتحدة بنيويورك ٢٠ / ٢ / ١٤٠٩هـ .

موقع دارة الملك عبد العزيز على شبكة الانترنت : WWW. darah. org. sa

٣٣- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية ١٤ شوال ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٢، الأحد ١٥ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٣٤- موجز إنجازات مجلس التعاون لدول الخليج العربية، مصدر سابق، ص ص٢٦-٢٩ .

٣٥- حيى جمعة الهاملى «التعاون العسكرى فى دول مجلس التعاون لدول الخليج العربى» ضمن كتاب مستقبل مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ط١ . أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ١٩٩٩م، ص٤٩ : البيانات الختامية لدورات المجلس الأعلى. إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية فى الرياض. ط٤ . د.ت.ن، ص١٩٦ .

٣٦- موجز إنجازات مجلس التعاون، ص٣٦ .

٣٧- حوار خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز مع أساتذة وطلبة جامعة الملك عبد العزيز. انظر وثائق للتاريخ من إصدار وزارة الاعلام، ط١، الرياض شركة العبيكان ١٤٠٥هـ، ص١١٦ .

٣٨- المصدر السابق، ص١١٧ .

٣٩- انظر المادة الرابعة من النظام الأساسى لمجلس التعاون. النظام الأساسى. من إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون فى الرياض، ص٦ .

٤٠- THE UNIFIED ECONOMIC AGREEMENT . Cooperation Council for the Arab States of the Gulf- Secretariat General Riyadh, 1988. pp. 3-10 .

٤١- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص٩٢ ؛ من حديث لخادم الحرمين الشريفين جريدة الشرق الأوسط، العدد ٢١٩٤، ٨ / ٣ / ١٤٠٥هـ .

٤٢- استراتيجية التنمية الشاملة بعيدة المدى لدول مجلس التعاون (٢٠٠٠-٢٠٢٥) إصدار الأمانة العامة للمجلس. الرياض، ١٩٩٩م ، ص ص٥، ٢١-٢٩ .

٤٣- موجز إنجازات مجلس التعاون، مصدر سابق ص٣٧ وما بعدها .

٤٤- جريدة الرياض السنة ٣٨ ، العدد ١٢٢٤٣، الاثنين ١٦ شوال ١٤٢٢هـ ، ص١ .

٤٥- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية . جريدة الرياض، السنة ٣٨ ،العدد ١٢٢٤٢، ١٦ شوال ١٤٢٢ هـ، ص١ .

٤٦- موجز إنجازات مجلس التعاون ، ص ص ٧٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢- ١٣٤ .

٤٧- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق، ص٨٣ .

٤٨- لقاء مع رئيسة جامعة الخليج الدكتورة رفيعة غباش. جريدة الرياض (٢) ، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٨، السبت ٢١ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٤٩- وقد افتتحت الجامعة بعد ذلك (كراسي علمية) باسم بقية قادة دول مجلس التعاون ، المصدر السابق، ص١ .

٥٠- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق، ص١٠٥، نقلاً عن حديث لخادم الحرمين الشريفين في جريدة السياسة الكويتية العدد ٨٦٢٩ في ٢٨ / ٥ / ١٤١٣هـ .

٥١- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص١٠٦ ، من حديث خادم الحرمين الشريفين لجريدة الشرق الأوسط العدد ١٩ ، ٧٧٥ ، ٤ / ٦ / ١٤١٢هـ .

٥٢- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص١١٠-١١١ .

٥٣- وفاء فايد : الأمة الإسلامية في عصر خادم الحرمين الشريفين. د.م.ن، د.ن ١٤٠٩هـ، ص٨٠ .

٥٤- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية. جريدة الرياض، السنة ٣٨ ، العدد ١٢٢٤٢، ص١ .

٥٥- من كلمة الأمير عبد الله بن عبدالعزيز إلى القادة الخليجيين في قمة مسقط ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٣، الاثنين ١٦ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٥٦- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص٩٢ : من حديث لخادم الحرمين الشريفين. جريدة الندوة، العدد ١٠٢٣٨ ، ٢٧ / ٦ / ١٤١٣هـ .

٥٧- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق، ص٩٥ : من حديث لخادم الحرمين الشريفين. جريدة الرياض ، العدد ٧٦١٢٠، ٣ / ٥ / ١٤٠٨هـ .

مصادر البحث

أ- وثائق :

- مرسوم ملكى رقم م / ٢٠ بتاريخ ٨ / ٥ / ١٤٢١هـ .
- قرار مجلس الوزراء رقم ٨٨ وتاريخ ٨ / ٤ / ١٤٢١هـ .
- نص الاتفاقية الحدودية بين المملكة العربية السعودية والكويت ٣٠ / ٣ / ١٤٢١هـ .
- اللوحة التذكارية لمقر الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

ب- الدوريات :

- جريدة أم القرى.
- جريدة الرياض .
- جريدة الشرق الأوسط.
- جريدة المدينة .
- جريدة الندوة.

ج- مصادر مطبوعة (بالعربية) :

- استراتيجية التنمية الشاملة بعيدة المدى لدول مجلس التعاون (٢٠٠٠-٢٠٢٥م) إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون فى الرياض، ١٩٩٩م.
- البيانات الختامية لدورات المجلس الأعلى (من الدورة الأولى حتى الحادية والعشرين) إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون فى الرياض ، ط٤، ٢٠٠١م .
- رضا ، عادل : فهد بن عبد العزيز الإنسان .. الملك، القاهرة: دار أخبار اليوم، د.ت.ن.
- آل سعود، الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز: أمن الخليج العربى من منظور وطنى . ط١ . أبو ظبى، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ١٩٩٧م.
- العيدروس ، محمد حسن: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط١، القاهرة ، عين للدراسات والبحوص، ١٩٩٦م.
- فايد ، وفاء : الأمة الإسلامية فى عصر خادم الحرمين الشريفين. د.م.ن.د.ن، د.ت.ن.
- القاسمي ، خالد بن محمد : فهد بن عبد العزيز قائد ومسيرة ، ط١ . دمشق: دار الجيل للطباعة والنشر، ١٩٩٥م.

- الكيلاني ، كمال : فهد بن عبد العزيز ومسيرة دولة . ط١ . الرياض : شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- مجلس التعاون لدول الخليج العربية- نظامه وهيكله التنظيمي وإنجازاته- من إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون في الرياض، ط٢ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

- المنظور الفكري لخادم الحرمين الشريفين (المواقف) . إصدار وزارة الأعلام في المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١ . الرياض : الوكالة الأهلية للأعلام، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٢م.

- موجز إنجازات مجلس التعاون لدول الخليج العربية. إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون في الرياض، ٢٠٠٠م.

- نص كلمة الأمين العام عبدالله بشارة في افتتاح مبنى الأمانة العامة لمجلس التعاون في الرياض . إصدار الأمانة العامة، الأحد ٧ جمادى الأولى ١٤٠٨هـ .

- النظام الأساسي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية. إصدار الأمانة العامة في الرياض، ط٦ ، ١٩٩١م.

- النعيم ، مشاري عبد الرحمن: الحدود السياسية السعودية (البحث عن الاستقرار) ط١ . د.م.ن، الإسراء للخدمات الإعلامية ، ١٤١٤هـ .

- وثائق للتاريخ . من إصدار وزارة الإعلام، ط١ ، الرياض ١٤٠٥هـ .

د- البحوث :

- الهاملي، حبي جمعة : «التعاون العسكري في دول مجلس التعاون» ضمن كتاب: مستقبل مجلس التعاون لدول الخليج العربية. ط١ . أبو ظبي : مركز الإمارات للدراسات والبحوث ، ١٩٩٩م، ص ص٤٩-٥٢ .

هـ- مواقع إنترنت :

- WWW. mypag. ayna . com.
- WWW. darah . org. sa.

و- مصادر بغير العربية:

- THE UNIFIED ECONOMIC AGREEMENT. . Cooperation Council for the Arab States of the Gulf - Secretariat General, Riyadh, 1988 .

د. يسرى أحمد زيدان (*)

دور الهنود فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين

زمن سلاطين المماليك

مقدمة :

ارتبطت شبه القارة الهندية منذ بداية الفتح الإسلامى لها بعلاقات وثيقة ببلاد الحرمين الشريفين ، وأخذت هذه العلاقات فى نمو دائم، وازدياد مستمر، حتى بلغت الذروة زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٤٩-١٥١٧م) (١) وإشرافهم على الحرمين الشريفين(٢).

وقد كان لحكام الهند وعلمائها دوما دور ثقافى فى مكة المكرمة(٣) والمدينة المنورة ، أثروا من خلاله الحياة العلمية والثقافية بهاتين المدينتين المقدستين إثراء ملموساً ، وصل مداه أثناء تبعيتها لحكم سلاطين المماليك .

ولم يقف التأثير الثقافى للهنود عند حدود الحرمين الشريفين ، وإنما تعدى ذلك إلى باقى المدن والبلاد الإسلامية الأخرى مثل : مصر(٤) والشام(٥)، وغيرهما. لكنه ظهر واضحًا فى الحرمين بسبب مكانتهما الدينية، وارتباط مكة المكرمة بشعيرة الحج وبسنة مجاورة البيت العتيق ، الأمر الذى أدى إلى تدفق علماء الهند إليها بأعداد كبيرة : مساهمين فى الحياة الثقافية والتعليمية ، فكان منهم القضاة ، والأئمة ، ومعلمو الحديث النبوى الشريف، والفقه، والقراءات واللغة والبلاغة بجمع فروعها، وغير ذلك. وكان منهم أيضا المؤدبون والنساخ ، وغيرهم.

---

* الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة.

ولم تقتصر مشاركة الهنود فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين زمن سلاطين المماليك على العلماء فحسب. وإنما ساهم فيها حكام الهند أنفسهم من خلال إنشاء المدارس والوقف عليها، وبناء الأربطة . وهكذا فإن للهنود دوراً مهمًا فى الحياة الثقافية بمكة والمدينة زمن المماليك، ذلك الدور الذى توزعت أخباره وتفرقت مادته بين بطون الكتب التاريخية، وبخاصة كتب التراجم منها، وجاء هذا البحث ليظهر هذا الدور ، وليجمع شتات ما تفرق فى المصادر التاريخية متصلاً بهذا الموضوع.

أولاً : إسهامات ملوك الهند فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين:

شارك ملوك الهند مشاركة فاعلة فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين، وكانوا هم أنفسهم من المتلقين للعلم، القارئين له، النابغين فيه، ومن ثم أدركوا أهمية تنشيط الحياة العلمية وتوفير احتياجاتها ومقوماتها الأساسية. ومن أبرز المشتغلين بالعلم من الملوك: أعظم شاه غياث الدين بن اسكندر شاه بن شمس الدين ملك الهند ببنجالة ، (ت ٨١٤هـ / ١٤١١م) وكان له حظ فى العلم والفهم والخير [٦]. ومحمد بن فنتر ملك بنجالة[٧] وتوفى سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م . كما كان ملوك كلبرجه[٨] من بلاد الهند يقرأون العلم على أساطينه الهنود ومنهم: علاء الدين محمد البخارى الهندى الذى أقرأ بعض ملوك الهند العلم [٩]، وراجح ابن داود الهندى وقرأ عليه العلم صاحب كلبرجه [١٠]. كما أن صاحب كنبايه بالهند كان يستمع إلى الحديث النبوى من أحد المحدثين لسنين عديدة[١١].

وهكذا كان لعلماء الهند صلة وثيقة بالعلم وأهله، ومن ثم فلا غرابة فى أن تتجه أنظارهم صوب مركز من مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى زمن المماليك مساهمين فى تنشيط الحياة الثقافية به من خلال عدة أمور منها :

إنشاء المدارس بالحرمين الشريفين:

عرفت بلاد الحرمين الشريفين عدداً كبيراً من المدارس زمن سلاطين المماليك نذكر منها : المنصورية والمجاهدية والأفضلية[١٢] والرسولية [١٣]، وغيرها [١٤].

أ- المدرسة البنجالية الغياثية بمكة المكرمة :

يعود انشاء هذه المدرسة البنجالية الغياثية بمكة المكرمة إلى صاحب بنجالة الملك أعظم شاه بن اسكندر شاه بن شمس الدين، غياث الدين أبو المظفر سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م حيث أرسل فى هذه السنة هدية طائلة لصاحب مكة مع رسوله ياقوت الغياثى ومعه رسالة تتضمن

نية ملك الهند فى بناء مدرسة بمكة المكرمة ، وشراء وقف لها . وقد اشترى ياقوت الغياثى دارين متلاصقتين مجاورتين للمسجد الحرام لبناء المدرسة فى مكانهما ، كما اشترى ياقوت الغياثي من أمير مكة السيد حسن بن عجلان[١٥] حديقتين لتكونا وقفًا على المدرسة ، «وما رضى فى ذلك إلا باثنى عشر ألف مثقال» [١٦]. وقد انتهى من العمل فى بناء هذه المدرسة فى جمادى الأولى سنة أربع عشرة وثمانمائة من الهجرة [١٧].

وقد تم تدريس الفقه علي المذاهب الأربعة فى هذه المدرسة، وكان مدرسوها عند الفراغ منها هم القضاة الأربعة بمكة المكرمة : القاضى الشافعى جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة، والقاضى الحنفى شهاب الدين أحمد بن الضياء الهندى[١٨]، والقاضى المالكى تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى الفاسى، والقاضى الحنبلى سراج الدين عبد اللطيف بن أبى الفتح الفاسى[١٩].

أما عن أوقافها فقد قسمت خمسة أقسام: قسم للمدرسين الأربعة بالسوية بينهم، وثلاثة أقسام للطلبة، وهم ستون نفرًا : عشرون من الشافعية ، وعشرون من الحنفية، وعشرة من المالكية، وعشرة من الحنابلة بالسوية بينهم، والقسم الخامس يقسم أثلاثا: قسمان لسكان المدرسة وهم عشرة رجال، وقسم لمصالحها من العمارة والزيت والمياه وغير ذلك. وأوقف أيضا على مصالح المدرسة دار مقابلة اشتريت بخمسمائة مثقال[٢٠].

وقد أعيد بناء المدرسة البنجالية عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م . وكان بناؤها مرتفعا لكنه لم يعل على بيت الله المعظم. وللسخاوى ثناء على هذه المدرسة ضمنه كتابه «وجيز الكلام»[٢١].

ومن أبرز من درس بهذه المدرسة البنجالية الغياثية بمكة المكرمة إضافة إلى ما سبق [٢٢]: عبد الوهاب تاج الدين بن ظهيرة[٢٣] (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) وعبد القادر بن محمد الفاسى المكى الحنبلى[٢٤] (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، ومحمد الجلال أبو السعادات بن ظهيرة [٢٥].

أما أبرز طلبة المدرسة البنجالية : محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عطية الملقب بالجمال، وهو من الطلبة الشافعية بالمدرسة [٢٦]. وعلى بن أحمد الماردينى [٢٧]. وهذان الطالبان كانا من سكان هذه المدرسة.

ب- المدرسة البنجالية الغياثية بالمدينة المنورة :

بنى هذه المدرسة بالمدينة المنورة بانى المدرسة البنجالية بمكة المكرمة غياث الدين أبو المظفر صاحب بنجالة بالهند فى عام ٨١٣هـ / ١٤١٠م نفسه . وكان هذا السلطان قد ندب

حاجى إقبال مولى خان جهان[٢٨] وزير صاحب الهند الغياث بصدقة لأهل المدينة النبوية وهدية لأميرها جماز بن منصور، وأمر حاجى إقبال بعمارة مدرسة للسلطان الهندى بالمدينة المنورة، وشراء وقف لها بها [٢٩]. وكانت هذه المدرسة بمكان يقال له: الحصن العتيق عند باب السلام[٣٠]. وكان هذا الحصن العتيق منزلاً لأمراء المدينة ثم انتقل إلى السلطان غياث الدين شراء ؛ حيث أقيم فيه المدرسة البنجالية[٣١].

جـ- المدرسة الكلبرقية بمكة المكرمة:

أنشئت هذه المدرسة سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦م مكان دار لأمير مكة الشريف بركات بن حسن الحسنى عند *باب الصفا أحد أبواب المسجد الحرام*[٣٢] بأمر من سلطان كلبرجه شهاب الدين أبى المغازى أحمد شاه[٣٣].

وقد استمر العمل فى هذه المدرسة حتى سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٧م بدليل قول ابن فهد فى هذه السنة : «وفيها شرع الهنود فى عمارة المدرسة الكلبرقية، واستمرار فى عمارتها طوال السنة»[٣٤]، وأوقف على هذه المدرسة الكلبرقية بيت بقعيقعان[٣٥]، وأثبت وقفية المدرسة الكلبرقية والنظر عليها للشيخ علاء الدين البخارى الهندى بشهادة الهنود على صاحب كلبرقة، وولى الشيخ علاء الدين تدريس المدرسة الكلبرقية وصحبته الشيخ جلال الدين عبد الواحد المرشدى ، وأن يقرر الشيخ عبد الواحد فيها أربعين طالبًا من أى مذهب كان ، وتدريس أى فن أراد ، من تفسير وفقه ونحو وغير ذلك بالمدرسة المذكورة ، وطلب الشيخ علاء الدين القضاة والفقهاء والطلبة لحضور إجلاس الشيخ عبد الواحد بالمدرسة المذكورة ، فحضروا . وخلع على الشيخ عبد الواحد خلعة . وبعد الفراغ من الدرس فرق على الحاضرين بعض الأزر[٣٦].

ومن العلماء الذين قاموا بالتدريس فى هذه المدرسة : عبد الواحد بن إبراهيم بن أحمد المكى الحنفى (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) [٣٧]. كما أن أحد المقادسة وهو ناصر الدين المقدسى نزل مكة وأدب الأطفال بها مدة ، وناب فى المدرسة الكبرقية فى إقراء عشرة من القراء كل يوم[٣٨]. وتوفى سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م. كما أن بعض الهنود الكلبرجيه نزلوا مكة وسمعوا بها العلم[٣٩].

وقد قام ملك كلبرجه بالاهتمام بطلبة هذه المدرسة وأرسل إليهم المال والهدايا ، ومن ذلك ارساله بالهدايا إلى الفقيه علاء الدين البخارى ليفرقها على الطلبة الملازمين له وغيرهم[٤٠]. وهناك أخبار أخرى عن هداياه وعطاياه للعلماء[٤١]، ولذلك لانستبعد أن يكون ملك كلبرجة قد اهتم أيضا بطلبة وأساتذة مدرسته بمكة المكرمة من حيث العطاء والإهداء.

د- المدرسة البنجالية بمكة المكرمة:

ذكرت بعض مصادرنا[٤٢] التاريخية أن هناك مدرسة كبيرة بمكة المكرمة بناها ملك بنجالة من الهند وهو محمد بن قنو الجلال أبو المظفر (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ولم ترد معلومات أخرى سوى هذا الخبر الذى يشير إلى هذه المدرسة.

هـ- المدرسة الكلبرجية[٤٣] بالمدينة المنورة:

أنشأ هذه المدرسة بالمدينة المنورة سلطان كلبرجه بالهند شهاب الدين أبو المغازى أحمد شاه فى السنة التى توفى فيها ، أى سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م، وبنيت فى موضع دار كانت لجعفر بن يحيى البرمكي.

و- المدرسة الخلجية[٤٤] بمكة المكرمة :

بنى هذه المدرسة صاحب مندوه من الهند محمود بن مغيث الخلجى بمكة المكرمة عند باب أم هانئ ، وقرر فى مشيخة التدريس والحديث بها إمام الحنفية الشمس البخارى. ولدينا خبر عن أحد الذين تولوا مشيخة المدرسة الخليجية للخلجى محمود صاحب مندوه [٤٥]. ويبدو أن هناك أموالاً كانت مخصصة لهذه المدرسة للإنفاق على مصالحها ، ويفهم هذا مما ذكره السخاوى من أن رجلاً يدعي مفتاح الحبشى الكمالى بن ظهيرة توفى تحت العقوبة الزائدة سنة ٨٨٧هـ- ١٤٨٢م بسبب ما أشيع من اختلاسه للأموال الخلجية التى كان أميناً عليها.

ز- المدرسة الكنبايتية فى مكة المكرمة :

ورد خبر واحد عن هذه المدرسة ذكره ابن فهد[٤٧] هو : «فيها- سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م- كملت عمارة المدرسة الكنبايتية» وجاء هذا الخبر فى أثناء حديثه عن مكة المكرمة وتاريخها.

وكنبايه بلد هندى له ملك مسلم، قرأ عليه الحديث النبوى أحمد بن محمد المعروف بابن المرجانى ، عندما توجه إليها من مكة سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م فأقام بكنبايه وقرأ الحديث عند ملكها ، وأثابه عليه[٤٨] إلى أن توفى هذا العالم المحدث هناك سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م كما ورد خبر عن سفر على بن محمد ابن الكريم من مكة سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م إلى كنبايه[٤٩]. كما عُمل سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م باب بكنبايه من بلاد الهند وأهدى إلى أمير مكة أحمد بن عجلان[٥٠]. وقد قدم صاحب كنبايه هدية لأمير مكة حسن بن عجلان سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م، وأرسل فى الوقت نفسه خياما لتنصب حتى يستظل بها المصلون يوم الجمعة الذين لم يكونوا يستظلون بشيئ عند سماع الخطبة بالمسجد الحرام [٥١].

ومما سبق يتبين وجود صلة بين مكة المكرمة وبين مدينة كنبايه الهندية، مما يؤكد أن المدرسة التى عرفت بالكنبايتيه تعود إلى ملك كنبايه المسلم الذى بناها سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢ بمكة المكرمة .

وهكذا بنى ملوك الهند عدداً من المدارس بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، وإن كانت مدارس مكة المكرمة قد فاقت مدارس المدينة المنورة. وما من شك فى أن هذه المدارس قد قامت بدور مهم فى إثراء الحياة العلمية والثقافية بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، ويعود الفضل فى ذلك إلى الهنود الذين أسسوا هذه المدارس.

ثانيًا – إسهامات الهنود فى إنشاء الأربطة :

عرفت بلاد الحرمين الشريفين عدداً كبيراً من الأربطة خلال تبعيتها لحكم المماليك ، وشهدت هذه الأربطة حركة علمية واسعة، كما ضمت خزائن للكتب أوقفها العلماء على هذه الأربطة. ومن أبرز هذه الأربطة : رباط رامشت [٥٢]، ورباط ربيع [٥٣]، ورباط المسدرة[٥٤] ورباط غزى[٥٥] ، ورباط الموفق [٥٦]، ورباط الخوزى [٥٧]. وغيرها[٥٨] من أربطة بمكة المكرمة. وقد أدت هذه الأربطة دورها فى إقراء الطلبة العلم[٥٩]. ومن أبرز أربطة المدينة. رباط دكالة[٦٠] وغيره[٦١].

وقد عرف أحد الأربطة بمكة باسم رباط الهنود[٦٢]. كما كان بها رباط نسب إلى سعيد الهندى [٦٣]. وهو أحد الفقهاء الهنود الذين درسوا الفقه على المذهب المالكى، وكان له تلاميذ[٦٤] . كما أن صاحب كلبرجه أحمد بن شاه، شهاب الدين أبو المغازى قد أنشأ بمكة «رباطًا هائلاً»[٦٥].

على أن هناك خبرا لابد من إيراده هنا لاتصاله بالهنود بمكة، وهو أن محمد بن إسحاق الشيرازى المعروف بغياث الدين الأبرقوهى قد أنشأ رباطًا بمكة قبالة باب الصفا سنة إحدى وسبعين وسبعمائة للهجرة لسيده السلطان شاه شجاع صاحب بلاد فارس ، وأوقف عليه الأوقاف «وفى هذا الرباط حجر مكتوب فيه : أن الواقف شرط أن يسكنه الفقراء الأعاجم المجردون المتقون دون الهنود و من لا سكن له بمكة »[٦٦] . ولم أجد فى المصادر التى اطلعت عليها ما يفسر عدم سكنى الهنود لهذا الرباط ، فلعل ذلك يرجع إلى كثرة الأربطة المخصصة للهنود بمكة والتى انشأوا هم أنفسهم بعضا منها . أما بالمدينة المنورة فقد أقام بها الخادم

الهندى ريحان أحد خدمة المسجد النبوى رباطين حسنين عم النفع بهما. وكان ريحان الهندى مشهوراً بكثرة المعروف والمآثر الحسنة بالمدينة المنورة[٦٧].

ثالثًا : إسهامات الهنود فى العلوم الدينية:

شهدت الهند خلال فترة البحث نشاطًا علميًا واسعًا ، دلّ عليه نبوغ عدد كبير من العلماء الهنود فى كافة المجالات: الدينية واللغوية والأدبية والتجريبية وغيرها. فعلى سبيل المثال برع محمود بن محمد المقرئ فى النحو والصرف والأصلين والمنطق والعروض، واعتمد عليه فى تدريس هذه العلوم في الهند[٦٨]. كما اشتهر مخدوم بن برهان الدين الهندى الأحمد آبادى بالعلم فى المعانى والبيان ، وأقرأ الطلبة فى بيته الذى جعله مدرسة [٦٩]. كذلك عُرف محمد بن التاج الحنفى بالتقدم فى علم الهيئة والكلام [٧٠]. ولعل قول السخاوى عن أحد علماء الهند راجح بن داود : «اشتغل فى بلاده بنفسه على أكابر علمائه فى فنونهم»[٧١]. مما يؤيد ما ذهبت إليه[٧٢] من وجود نشاط علمي واسع بالهند خلال فترة البحث.

وقد تبوأ العلماء الهنود مكانة علمية مرموقة في المشرق الإسلامي واشتهروا بتدريس العلوم الدينية وغيرها. فعلى سبيل المثال كان بمصر منهم خلال فترة البحث : محمود الهندى[٧٣]، والبرهان الهندى[٧٤] والسراج الهندى[٧٥] والجلال الهندى[٧٦] وغيرهم[٧٧]وكان منهم بالشام : عطاء الله الدروالي الهندى[٧٨] والبدر الهندى[٧٩] وعبد الرحمن بن على الهندى[٨٠] والسراج الهندى[٨١] وغيرهم[٨٢].

أما فى مكة المكرمة فقد أدى هؤلاء العلماء الهنود دوراً مهما فى تدريس العلوم الدينية للمكيين وغيرهم، وبرزت أسرة هندية فى هذا المجال هى أسرة بنى الضياء، وكان نبوغها فى مجال الفقه وأصوله بصفة خاصة. وتعود هذه الأسرة الهندية إلى محمد بن محمد بن سعيد ابن عمر بن على الهندى الحنفى الملقب بضياء الدين (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٧م) وكان قد نزل المدينة المنورة أولاً ، وأقام بها مدة يدرس، ثم سكن مكة المكرمة وتولى تدريس الفقه على المذهب الحنفي «وكان عارفًا بمذهبه وأصوله ، مع مشاركة فى العربية وغيرها»[٨٣]. ومن أبرز تلاميذه محمد بن محمد، ضياء الدين الهندى فى مكة إمام الحنفية بها : عمر بن محمد أبى بكر المكى الملقب بالسّراج ، المتولى لإمامة الحنفية بمكة من سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م إلى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م وقد أخذ الفقه[٨٤] عن الشيخ ضياء الدين الهندي. ومحمد بن على بن محمد بن داود المكى المعروف بالزمزمى[٨٥] (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) .

وللشيخ ضياء الدين الهندى ابن هو الشهاب بن الضياء، أحمد بن محمد ابن سعيد الهندى الحنفى الذى تولى قضاء مكة على المذهب الحنفى[٨٦] سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م وعرف بابن الضياء الهندى (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م). وقد اعتنى ابن الضياء الهندي بالعلم كثيراً، وكانت له في الفقه نباهة، ودرس، وأفتى، وكان يدرس الفقه بالمسجد الحرام وبالمدرسة البنجالية والزنجبيلية[٨٧] والأرغونية [٨٨]، وناب عن عقود الأنكحة عن العز النويرى، ثم فى الأحكام عنه أيضاً سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م إلى أن استقل بقضاء مكة ، وكان أول حنفي استقل بها [٨٩]. ومن بين الذين تلقوا العلم عن ابن الضياء من المكيين: القاضى الشافعي أحمد بن محمد بن الجلال أبو السعادات، وكان يتولى أموال الأيتام والغائبين بمكة، ثم أضيف إليه النظر فى الحرم، إلى غير ذلك من وظائف [٩٠].

ومن أسرة ابن الضياء أيضاً: محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن الشهاب، المعروف كأبيه بابن الضياء (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) وكان متقدماً فى العلوم الدينية واللغوية، وضرب فيها بنصيب وافر وناب فى القضاء بمكة، ثم استقل به بعده، وأضيفت إليه نظر الحرم والحسبة[٩١] وصنف عدة مؤلفات فى الفقه والتفسير ، وفى فضائل المسجد الحرام، وفى شعيرة الحج وغير ذلك [٩٢]. «وكان إماماً علامة متقدماً فى الفقه والأصلين والعربية، مشاركا فى فنون حسن الكتابة والتقييد، عظيم الرغبة فى المطالعة والانتقاء بحيث بلغنى- السخاوى- عن أبي الخير بن عبد القوى أنه قال : أعرف أزيد من خمسين سنة، وما دخلت إليه قط إلا ووجدته يطلع أو يكتب » [٩٣]. وقد حدث ودرس وأفتى وصنف ، وأخذ عنه بعض الأئمة[٩٤].

ومنهم محمد الرضى أبو حامد بن الضياء الحنفى (ت ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م) شقيق السابق، تفقه بأبيه، وأخذ النحو عنه ، وعن غيره ، ودرس الأصول والمعانى والبيان ، وناب فى القضاء عن أبيه ثم عن أخيه ثم بعد موته استقل به، وكتب فى الفقه، ودرس أفتى ، وممن أخذ عنه المحيوى المالكى أيضاً [٩٥].

وهناك غيرهم [٩٦]ممن ساهموا فى تدريس العلوم الدينية وغيرها بمكة الكرمة ، وأخذ المكيون وغيرهم[٩٧] هذه العلوم عن هؤلاء الهنود من هذه الأسرة العلمية.

ومن العلماء الهنود الذين نبغوا فى أصول الفقه بمكة:

العز أبو بكر بن عطا الله الهندى وأخذ عنه الفقيه المكى محمد بن إبراهيم الحنفى[٩٨] . كما أخذ عالم الحجاز ورئيسه إبراهيم بن علي الملقب بابن ظهيرة أصول الفقه عن أحد العلماء

الهنود (٩٩). وممن كان لهم دور بها أيضاً حسين بن أحمد بن ناصر الحنفي، وكان يدرس بالمسجد الحرام، مقابل مدرسة عز الدين عثمان الزنجبيلي، ودرس بالمدرسة المذكورة ، وتولى وقفها، وناب في الحكم عن قاضي مكة جمال الدين بن ظهيرة وعنه في العقود أيضاً، وكان يُذاكر بمسائل من مذهبه (١٠٠). ومنهم، أبو على محمود بن على الهندى الأصل، ويعرف بالهندي، وهو عن تصدر في القراءة والرواية (١٠١). والمحب محمد بن محمد الهندى الحنفى (ت ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م) وكان شديد التعصب للمذهب الحنفي على حساب الشافعي(١٠٢). وبرز مكى بن سليمان الهندى في تأديب الأطفال بمكة(١٠٣) من سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م، فعلم دوراً بعد دور، وكان حافظاً للقرآن الكريم، وللشاطبيه وللقراءات (١٠٤)، وتوفى سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م.

أما عن دور العلماء الهنود بالمدينة المنورة ، فلقد كان للعلامة ضياء الدين الهندى الحنفى دور بالمدينة قبل مكة، حيث أقام بالمدينة سنين «يدرس ويفتى »(١٠٥) وكذلك كان للبهاء الهندى الحنفى دور في تدريس الفقه والأصول والعربية بالمدينة النبوية المباركة، وقد كان ينقطع في الحرم الشريف غالب نهاره للتدريس والإفادة، مع محبته للطلبة، والحرص على إفادتهم، حتى إنه إذا تأخر مجئ الطالب، جاءه في بيته، وقد قرأ عليه بعض الطلبة جميع الكافية لابن الحاجب بحثاً في بيته ليلاً «وكان في الأصلين والفقه والعربية إمام زمنه مع حلم وعقل راجح وحسن خلق»(١٠٦). وقد قيل عن العالم الهندى راجح بن داود الأحمد ابادى الحنفى : «اشتهرت بالمسجد الشريف فضيلته وتقررت أوصافه وفطنته»(١٠٧) مما يبين دوره العلمي بمسجد النبي ﷺ .

وبعد فهؤلاء أهم من كان لهم دور في تدريس العلوم الدينية بالحرمين الشريفين، وتبين من خلال العرض السابق الدور المهم لعلماء الهنود في تدريس الفقه على المذهب الحنفى بصفة خاصة ، وظهر أن هؤلاء العلماء علموا العلوم الدينية لمكيين ومدنيين تبوأوا مناصب علمية مرموقة بالحجاز بعد تلقيهم العلم على أساطينه، ومن بينهم العلماء الهنود.

وكان لهؤلاء العلماء الهنود وظائف دينية مهمة في الحرمين الشريفين منها : القضاء واشتهرت أسرة بنى الضياء بهذا المنصب الجليل بمكة المكرمة حتى قيل عنهم : «قضاة مكة»(١٠٨). كما نبغ هنود آخرون في القضاء من غير هذه الأسرة الهندية، ومنهم : شاذى الهندى قاضى الحنابلة بمكة(١٠٩). وناب بعضهم عن القضاة في الحكم في بعض القضايا وفي

عقود النكاح [١١٠]. كما ناب آخرون في الإمامة بالحرم المكي[١١١] بل أم بعضهم بمقام الحنفية به ومنهم محمد بن محمد الهندى الكابلى الحنفى ، وكان شيخًا مباركًا كتب بخطه كثيراً ووقف جملة » [١١٢]. بل إن هندى الأصل هو أحمد بن سعد ناب بمكة عن أميرها السيد بركات ثم عن ولده [١١٣].

رابعًا : إسهامات الهنود فى العلوم اللغوية والبلاغية:

بالرغم من أن الهنود أعاجم إلا أن بعضهم برز فى العلوم اللغوية والبلاغية بصفة خاصة، حتى أن أحدهم وهو عبد الرحمن بن على الهندى وصف بأنه كان فصيحًا مفوهًا[١١٤]. ولذلك عندما كان يمتنع مقرئ الحرم المكى العفيف الدلاصى عن إقراء العجم لكونهم- فى نظره- لايخرجون الحروف من مخارجها، اجتمع به هندى وصف بالعلامة ، وقرأ عليه[١١٥]. ومن أبرز العلماء الهنود فى هذين المجالين: أحمد بن محمد الشهاب بن الكمال الهندى الحنفى (ت ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) وكان عالمًا بالنحو والصرف وآداب البحث ، والهندسة والحساب أيضًا[١١٦]. والبرهان الهندى وكان ماهراً فى النحو والمعانى والبيان، وتتلمذ عليه فى هذه العلوم عالم الحجاز ورئيسه إبراهيم بن على المكى الملقب بابن ظهيرة (ت ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) الذى انتهت إليه رئاسة الحجاز دينًا، وفضلا وعقلا وشهامًا[١١٧]. وإبراهيم الهندى الحنفى، الذى أخذ عنه بمكة البرهان بن ظهيرة العربية والمعانى والبيان[١١٨].

هذا بالإضافة إلى الضياء الهندى والبهاء الهندى وقد سبق الحديث عن دورهما بمكة والمدينة فى المجال الدينى، وكانا فى الوقت نفسه من علماء العربية الأفذاذ.

خامساً : إسهام للهنود فى نسخ الكتب :

ذكرت مصادرنا التاريخية اثنين من الهنود كان لهما دور كبير فى نسخ الكتب بمكة المكرمة عن أصحابها ، الأول منهما: محمد بن محمد بن محمود الهندى وكان يخدم الشيخ عبدالله اليافعى، ويكتب له تصانيفه ، كما خدم القاضى أبا الفضل النويرى ولازم درسه ومجالسه وقرأ عليه[١١٩]. والثانى منهما: نجيب الدين الهندى وكتب بخطه كثيراً من كتب العلم[١٢٠]، وتوفى بمكة بعد التسعين وسبعمائة بيسير. وهناك هندى ثالث بمكة هو محمد بن محمد بن عمر الهندى وقيل عنه «كتب بخطه كثيراً»[١٢١].

وبعد ... فهؤلاء هم أبرز العلماء الهنود الذين كان لهم دور فعال ومؤثر فى الحياة الثقافية والتعليمية بالحرمين الشريفين إبان تبعيتها لسلاطين المماليك. وبالإضافة إلى هؤلاء العلماء كان هناك عدد آخر من الهنود تلقوا العلم على أساطينه بالحرمين الشريفين دون أن يكون لهم بهما

دور ثقافي أو تعليمي [١٢٢]، وإنما كانوا جزءاً من الحركة العلمية بمكة المكرمة والمدينة المنورة في هذه الفترة التاريخية.

وقد كان للعلماء الهنود وجود دائماً في المناسبات الثقافية، ومنها بيع خزائن الكتب، وحدث هذا الأمر مرة بمكة [١٢٣]. كما اقتضت العلاقة الثقافية بين بلاد الحرمين الشريفين أن تتبادل أخبار وفيات العلماء بين الجانبين [١٢٤]، بل وربما امتد ذلك ليشمل وفيات التجار المترددين على الهند من الحجاز[١٢٥].

والارتباط بين الحرمين الشريفين والهند كان يجد من يغذيه ويقويه عن طريق رسم وكتابة صفة الكعبة المشرفة وإهدائه للناس بالهند [١٢٦]. الأمر الذى كان يزيد من الارتباط العاطفي الروحي بمكة المكرمة بصفة خاصة.

ومن الملاحظ أن جل العلماء الهنود كانوا على المذهب الحنفي، وأن بعضهم[١٢٧] تعصب له تعصبا جعله يذم باقي المذاهب وعلى رأسها المذهب الشافعي ، وهذا - بدون شك- مما يؤخذ على هؤلاء العلماء. كما يتضح أن دور هولاء العلماء الهنود بمكة المكرمة كان أشد وضوحاً منه بالمدينة المنورة، والسبب واضح كل الوضوح وهو ارتباط مكة المكرمة بشعيرة الحج والعمرة وبسنة مجاورة البيت العتيق ، ولذا فإن العلماء الهنود كانوا أكثر عدداً بمكة عن المدينة، ومن ثم ظهر دورهم بمكة أشد وأقوى وأوضح.

الخلاصة

قام الهنود (ممثلون فى الملوك والعلماء) بدور مهم بالحرمين الشريفين زمن سلاطين المماليك، وتمثل هذا الدور فى إقامة المدارس التى بلغ عددها سبعًا : خمس منها بمكة المكرمة واثنتان فى المدينة المنورة، وظهر هذا الدور أيضًا من خلال إنشاء الأربطة التى لعبت دوراً علميا وثقافيا كدور المدارس، وكانت هذه الأربطة تحتوى على خزائن الكتب ، ويقيم بها طلبة العلم والمدرسون . ونبغ العلماء الهنود فى العلوم الدينية واللغوية والبلاغية بصفة خاصة، وكان دورهم بالحرمين الشريفين يتمثل فى تدريس هذه العلوم والمعارف بالحرمين وبالمدارس وبالأربطة ، وأحياناً فى بيوتهم أو بيوت طلبة العلم وقد قام بهذا أحد الهنود بالمدينة المنورة . إضافة إلى ذلك فقد اشتهر بعض طلبة العلم من الهنود بنسخ الكتب . وتبوأ العلماء الهنود مناصب دينية عديدة منها: القضاء وإمامة الحرم المكى. واتضح من خلال المصادر أن دور الهنود بمكة المكرمة كان أقوى وأظهر منه بالمدينة المنورة ، ويرجع ذلك إلى ارتباط مكة المكرمة بفريضة الحج أو بشعيرة العمرة، وبسنة مجاورة البيت العتيق.

ولم يقتصر دور العنصر الهندى على الجانب الثقافى والعلمى بالحرمين الشريفين، بل كانت له أدوار أخرى[١٢٨] تمت الإشارة إليها فى ثنايا البحث.

الهوامش

١- تعاقب على الحكم بالهند خلال فترة البحث عدد من الأسر المسلمة هي مماليك الغوريين (٦٠٣-٦٨٩هـ/ ١٢٠٦-١٢٩٠م) والخلجيون (٦٨٩-٧٢٠هـ / ١٢٩٠-١٣٢٠م) وآل تغلق (٧٢٠-٧٩٩هـ/ ١٣٢٠-١٣٩٦م) والمغول الذين اجتاحوا الهند سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م وحكموها لمدة ثلاثة قرون، وفي أيامهم استقلت إمارات عن حكمهم في دهلي حاضرة المسلمين بالهند، وأبرز هذه الإمارات والولايات المنفصلة عن حكم المغول: إمارة البنغال والكجرات والدكن وغيرها . وقد ارتبطت هذه الإمارات المستقلة بالعلاقات الثقافية مع بلاد الحجاز وغيرها، كما أن سلاطين هذه الإمارات المستقلة هم الذين ساهموا في إثراء الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين . وللوقوف على ملوك «بنجالة» راجع الفاسي العقد الثمين ج٤ ص١٠٤ و١٠٨ ؛ الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ج٣ ص٢٩٧ ، وص٣٦٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ ؛ السخاوي : وجيز الكلام ج٢ ص٥٢٤ و٥٤٣ والضوء اللامع ج٢ ص١٦٦ و٣١٣ ، ج٨ ص٢٨٠ و٢٩٣ ، ج١٠ ص٢١٤ ؛ التحفة اللطيفة ج١ ص١٩٢ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء ج١ ص٧٠٢ . ولمعرفة أمراء كجرات راجع السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص٩١ وج١٠ ص١٤٤ . ولمعرفة ملوك كلبرجه راجع السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص١٨٣ و٢٢٢ ، ج١٠ ص١٤٤ و١٤٧ والتحفة اللطيفة ج١ ص١٦١ ؛ السمهودي: وفاء الوفاء ج١ ص٦٩٦ ؛ الصيرفي: نزهة النفوس ج٣ ص٣٢٤ . وراجع أيضا ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ج٣ ص٢٨-٢٩ وابن أيبك : كنز الدرر ج٩ ، ص٢٢ و ٢٩٩ و ٣٤٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ، ص٦١-٩٨ وج١٠ ص١٢٩ .

٢- وللوقوف على العلاقات التجارية بين مكة والهند بصفة خاصة راجع النجدي: السحب ج٢ ص٨٨٢ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٤ ص٣٢١ وج٨ ص١٠٣ وراجع ج٥ ص١٧٥ وج٧ ص١٢٥ ، وراجع أيضا الفاسي: العقد الثمين ج٢ ص٧٨ وج٤ ص١٤٥ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ج٤ ص٨٤٣ . عن التجارة مع الهند بصفة عامة راجع السخاوي: الضوء ج١ ص٦٩ ، ج٧ ص١٣٣ ، ج١٠ ص١٣٦ و١٥٤ ؛ وجيز الكلام ج٣ ص١٢٤٨ ؛ الصيرفي: نزهة النفوس ج٣ ص١٤٥ ؛ السلفي: معجم السفر ص٤٣ و ١٩٨ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج٨ ص١٨٦ ؛ السيوطي: بغية الوعاة ج١، ص٦٦ .

٣- كان هذا التأثير قديماً قبل فترة البحث بقرون، والدليل على ذلك دور عدد من العلماء الهنود بمكة ، ومنهم على سبيل المثال : محمد بن إبراهيم الديبلي (ت ٣٢٦هـ) ووصف بأنه محدث مكة. راجع الفاسي: العقد الثمين ج١ ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٥ ص٩ . وبدليل وقف الملك

'العادل بهاء الدين محمد ملك الغور والهند سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م رباط ابن غنايم بمكة المكرمة علي الصوفية . راجع الفاسي : العقد الثمين ج١ ص١٢٢ وج٢ ص٢٢٣ وابن فهد: اتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٥٧٠-٥٧١ .

٤- انظر السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص١٥ و٣٦٧ ، ج٢ ص٤٤، ٢٣١ ، ج٣ ص٣٠٢ ، ج٤ ص١٥٠ ج٥ ص٦٩ ، ج٨ ص٨٤ ، ٨٥ ص١٢٧ ،ج١٠ ص٥٢ .

٥- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج٤ ص٥٩-٦٠، ١٠٣ ،ج٧ ص٢٢٣ ،ج٩ ص٢١٨ ،ج١٠ ص٣٠ ص٦٩ . وراجع النعيمي: الدارس ج١ ص١٣٠ .

٦- ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ والسخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ ، وجيز الكلام للسخاوي ج٢ ص٤١٧ والتحفة اللطيفة ج١ ص١٩٢ .

٧- عندما توفي أعظم شاه غياث الدين ملك بنجالة سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م ملك ابنه حمزة بعده، فثار عليه مملوكه شهاب وقتله، فتسلط عليه ملك غير مسلم اسمه فنو قتل شهابا، وثار ابن فنو على أبيه فقتله، وأسلم وتسمى بمجد ، وتلقب بجلال الدين، وأقام هذا السلطان الهندى المسلم محمد بن فنو شعار الإسلام في بلده، وجدد ما خربه أبوه من المساجد ونحوها، واختار مذهب الإمام أبي حنيفة مذهباً له، وارتبط بعلاقات سياسية مع المماليك بمصر، واعتنى بمكة المكرمة ، فبنى بها مدرسة ، وتصدق بأموال على أهلها سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م . راجع ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ : الصيرفي : نزهة النفوس ج٢ ص٢٩٧ والسخاوى : الضوء اللامع ج٨ ص٢٨٠ وراجع ج٢ ص١٦٦ ؛ وجيز الكلام ج٢ ص٥٣٤ . وذكر السخاوى في «الضوء اللامع» ج٨ ص٢٩٣ أنه رأى شيئاً من كتبه.

٨- من أبرز ملوك كلبرجه السلطان شهاب الدين أحمد أبو المغازى (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) الذى أقام في المملكة أربع عشرة سنة، وقام من بعده ابنه ظفر شاه واسمه أحمد، ووصف بأنه من خير ملوك زمانه. وكان لهذين الملكين وزير قائم بدولتهما هو خلف بن حسن بن مهيوف واشتهر بحب العلماء والإحسان إليهم، ووصفته المصادر بأنه أحد أفراد العالم في زمانه لما عليه من دين وورع وكرم وشجاعة . راجع الصيرفي: نزهة النفوس ج٣ ص٣٢٤ : السخاوى : الضوء اللامع ج٣ ص١٨٣ : الفاسى : العقد الثمين ج٨ ص٢١٠ .

٩- السخاوى : الضوء اللامع ج٩ ص٢٩١ ، ص٢٩٤ .

١٠- السخاوى : الضوء اللامع ج٣ ص٢٢٢ ، ص٢٢٣ .

١١- السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٠٥ .

١٢- راجع الفاسي : العقد الثمين ج١ ص٢٠١ - ٢٠٧ ، ص٤٣١ ، ٤٣٢ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٣٥ .

١٣- راجع الفاسي : العقد ج١ ص٤٣١ .

١٤- الفاسي : العقد ج١ ص٢٠١ ، ٤٣١ ، ص٤٥٤ ، ج٦ ص٣٤ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٥ ص٩٢، ج٩ ص٢٢٣ ، ج١٠ ص١٦٠ ؛ التحفة اللطيفة ج١ ص٩٤ و١٠٦ و ١١١ و ١١٢ و ١٤٦ و ١٧٧ و ٢٤٩و ٤٢٤ و ٤٥٨ وج٢ ص٦٦ و٨٦ و ١٧١ و ١٩٨ ، ٤٦٣ و ٥٦٢ ؛ ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٣٦ .

١٥- راجع ترجمته عند الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص٨٦-١٣٨ ، ج٣ ص١٣٤ . ومن بعض الأمراء الآخرين لمكة زمن البحث راجع ج٤ ص١٦٦-١٧٤ ، ٤٠٣-٤٢٤ ، ج٦ ص٥٨-٧٢ ، ٢٠٦-٢١٦ كما ترجم السخاوى في «التحفة اللطيفة» لأمراء المدينة.

١٦- الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٠٨ ، راجع ج١ ص١١٧ ؛ ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٤٨٥-٤٨٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ وذكر أنه صرف على المدرسة وأوقافها اثنى عشر ألف مثقال مصرية انظر ج١٠ ص١٦٤ . ومن هذه المدرسة راجع ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ وابن تغرى بردى: المنهل الصافى ج٢ ص١٨٢ ؛الفاسي : شفاء الغرام١ ص٣٢٨ و٣٢٩ .

١٧- راجع الفاسي: العقد الثمين ، ج١ ص١١٧ .

١٨- القاضي الحنفي شهاب الدين أحمد بن الضياء الهندى تولى قضاء مكة سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م وفي السنة نفسها تولى قضاء المالكية القاضي تقى الدين محمد بن أحمد الفاسي راجع ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٢٩٨ .

١٩- راجع ابن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص٤٨٥-٤٨٦ ، السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ ؛ الفاسي : العقد الثمين ج١ ص١١٧ .

٢٠- ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٤٨٦ .

٢١- السخاوى : وجيز الكلام ج٣ ص١٠٧٤-١٠٧٥ .

٢٢- راجع الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٥٥-٥٧ ؛ السخاوى: التحفة اللطيفة ج١ ص١٤٦ وابن تغرى بردى : المنهل ج٢ ص١٨٢ .

٢٣- السخاوى : الضوء اللامع ج٥ ص١١٣ .

٢٤- السخاوى : الضوء اللامع ج٤ ص٢٨٧ .

٢٥- السخاوى : الضوء اللامع ج٩ ص٢١٤ .

٢٦- السخاوى: الضوء اللامع ج٨ ص٧٤ ؛ الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص١٢٤ .

٢٧- الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص١٣٨ ؛ انظر السخاوى : الضوء اللامع ج٥ ص١٧٤ .

٢٨- عنه راجع السخاوى : الضوء اللامع ج١٠ ص٢٤٠ .

٢٩- الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص١٠٩

٣٠- السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ .

٣١- السمهودى: وفاء الوفا ج١ ص٧٠٢ و٧٠٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٣٦٨ ؛ السخاوى: التحفة اللطيفة ج١ ص١٩٢ .

٣٢- راجع ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٦٤٣ ، ج٤ ص٤٥ .

٣٣- راجع ترجمته عند الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان ج٣ ص٣٢٤ ؛ الفاسى : العقد الثمين ج٨ ص٢١٠ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج١٠ ص١١٧ .

٣٤- ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٢٤ .

٣٥- قعيقعان : جبل بمكة يشرف على المسجد الحرام من جهة الشمال والشمال الغربى ، ويعرف بأسماء عدة ، فالجزء المشرف على المعلاة يسمى بجبل العبادى، وجبل السليمانية، أما الجزء الجنوبى فيسمى بجبل هندى. ومن هذه الأسماء جبل القرارة وجبل فلفلة من جهة الشامية ، وكل هذه الأجزاء تمثل جبل قعيقعان . هامش (٢) ص٢٥ ج٤ من كتاب ابن فهد: اتحاف الورى .

٣٦- راجع ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٢٥-٢٦ .

٣٧- السخاوى : الضوء اللامع ج٥ ص٩٣ .

٣٨- السخاوى : الضوء اللامع ج٧ ص٢٣ .

٣٩- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج١٠ ص٢٠٢ ، ج٣ ص١٢٧ ، ج٥ ص٥٧ .

وبالعكس هناك مكيون سافروا إلى كلبرجه من بلاد الهند . راجع السخاوى : الضوء اللامع ج١ ص٢٨١ وج٥ ص١٧٥ ؛ الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص٧٨ وج٤ ص١٣٧-١٣٨ ، راجع النجدى : السحب الوابلة ج٢ ص٥١٢ . كما أن هناك علماء مصريين دخلوا كلبرجه من الهند . راجع

السخاوى: وجيز الكلام ج٢ ص٤٨٢ .

٤٠- السخاوى : وجيز الكلام ج٢ ص٤٩٨ .

٤١- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٣ ص٢٢٢ .

٤٢- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج٨ ص٢٨٠ ؛ وجيز الكلام ج٢ ص٥٢٤-٥٢٥ .

وربما عرفت هذه المدرسة بالبنجالية الجديدة تمييزا لها عن البنجالية الغياثية . راجع السخاوى: الضوء ج٨ ص٧٤ ؛ الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص١٢٤ .

٤٣- راجع السمهودى : وفاء الوفاء ج١ ص٦٩٦ والسخاوى: التحفة اللطيفة ج١ ص١٦١ وهناك حديث عن القناديل التى أرسل بها صاحب كلبرجه للمسجد النبوى .

٤٤- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج١٠ ص١٤٨ . ويذكر أن صاحب منلوه من الهند توفى سنة بضع وسبعين وثمانمائة من الهجرة ، وأنه كان مشهوراً بالكرم والصدقة وبمشيشة هائلة له بمكة انقطعت بعد موته . راجع ص١٤٩ .

٤٥- السخاوى : الضوء اللامع ج٩ ص٢٢٣ . وهو محمد بن محمد الحسنى الحنفى.

٤٦- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج١٠ ص١٦٦ .

٤٧- ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٤٤٣ .

٤٨- السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٠٥ .

٤٩- السخاوى: التحفة اللطيفة ج٢ ص٣٧٦ ، راجع خبراً آخر عند السخاوى: السابق ج٥ ص١١٣ .

٥٠- ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٣٤٥ ويذكر هنا أن هناك علاقة تجارية قد قامت بين كنباية وميناء مكة المكرمة ، ميناء جدة، راجع السخاوى: وجيز الكلام ج٣ ص١٢٤٨ .

٥١- الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص١٠٤ .

٥٢- راجع الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص٣٥٠ ، ٤١٤ ج٤ ص١٥٥ ، ٢٥٤ ، ٣٨٥ والسخاوى: الضوء ج١٠ ص٤٥ .

٥٣- راجع الفاسى: السابق ج٦ ص٢٣١ ، ٤٥٦ والسخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٢٠٥ وص٢١٠ و ٢٣٠ ج٥ ص٧٦ ، ٢٣٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ،ج٦ ص١٤٦ ، ج٧ ص١٠٥ ، ج٩ ص٢٢ . ونصت المصادر على احتواء هذا الرباط على الكتب الموقوفة على العملية التعليمية به .

٥٤- راجع الفاسى : السابق ج٤ ص٢١٨ ، ج٦ ص١٣١ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٨ ص٥٨ .

٥٥- الفاسي: السابق ج٦ ص٤٥٦ .

٥٦- الفاسي : السابق : ج١ ص٤٥٤ ، ج٦ ص٢٠٤ . ونصت المصادر على وجود كتب به مفهرسة . الضوء اللامع ج٣ ص٣١٢ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢١٧ ، ج٥ ص١٤٣ ، ج٧ ص٢٥٢ ، ج١٠ ص٥٥ ، ١٢٣ .

٥٧- السخاوي: الضوء اللامع ج٥ ص١٧٤ ، ج٧ ص٢٥٣ ونصت المصادر على وجود كتب به .

٥٨- ومنها رباط الصفا وبه كتب حسنة . السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص١١٥-١١٦ ورباط الغرازين. الفاسي : السابق ج٤ ص١٧٤ ، وراجع للوقوف على كل هذه الأربطة الفاسي : السابق ج١ ص١١١٧-١١٨ ، ص١٢١-١٢٣ .

٥٩- راجع السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص٢٤٨ .

ويذكر هنا أن كثيراً من الفقهاء كانوا يسكنون هذه الأربطة ، راجع على سبيل المثال السخاوي: السابق ج١ ص٣٠٨ ، ج٥ ص١٧٤ ، ص٢٣٦ ، ج٧ ص١٠٥ والفاسي: العقد الثمين ج٢ ص٤١٨ ، ج٦ ص١٣٦ .

٦٠- السخاوي: الضوء اللامع ج٨ ص٨٨ .

٦١- راجع السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ، ٢٨٥ ، ج٢ ص١٨٣ ، ٢٢٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٣٠٩ ، ٣٥٨ ، ٣٧٩ ، ٤٧٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩ .

٦٢- الفاسي: العقد الثمين ج٦ ص٣٤ .

٦٣- الفاسي: العقد الثمين ج١ ص١٢١ .

٦٤- راجع السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢٥٧ و٣٠٣ .

٦٥- الفاسي : العقد الثمين ج٨ ص٢١٠ .

٦٦- راجع الفاسي: العقد الثمين ج١ ص٤٠٩-٤١٠ .

ويذكر هنا أن للشيخ غياث الدين معرفة بالطب ، وله فيه مؤلفات حسنة، وقد انتفع به الناس في ذلك بمكة كثيرا ، وكان يقدم الأدوية للناس، وتوفي بمكة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م . راجع الفاسي: السابق ص٤١٠ .

٦٧- السخاوي : التحفة اللطيفة ج١ ص١٦١ .

٦٨- راجع السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢٢٢ وراجع ج١٠ ص١٤٨ .

٦٩- راجع السخاوي: السابق والصفحة نفسها وج١٠ ص١٥٠ .

٧٠- راجع السخاوي: السابق ج٣ ص٢٢ .

٧١- السخاوي: السابق ج٣ ص٢٢ ؛ راجع الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٧٦ ؛ الكتبي: فوات الوفيات ج١ ص٣٥٩ .

٧٢- راجع السخاوي : السابق ج١٠ ص٢٩٨ ؛ راجع ج٢ ص١٦٦-١٦٧ .

٧٣- راجع السخاوي : السابق ج٥ ص٦٩ ، ج٨ ص٨٤ ، ج١٠ ص٥٢ .

٧٤- راجع السخاوي: السابق ج١ ص٣٦٧ ، ج٨ ص٨٥ .

٧٥- راجع ابن حجر : الدرر الكامنة ج٥ ص٢٤٨ وإنباء الغمر ج١ ص٢٧ والسخاوي: السابق ج١ ص٣٢٥ ، ج٢ ص٢٣١ ، ج٤ ص١٥٠ ، ج١٠ ص٣٠ .

٧٦- راجع السخاوي: السابق ج٨ ص١٢٧ .

٧٧- راجع السخاوي: السابق ج١ ص١٥ ، ج٢ ص٤٤ ، ج٣ ص٣٠٢ وراجع الصفدي: الوافي ج٣ ص٢٣٩ ؛ المقريزي: المقفى ج٦ ص٦٨ ؛ درر العقود ج١ ص٢١٩ ، ٤٢٠ .

٧٨- السخاوي: الضوء اللامع ج٤ ص٦٠ .

٧٩- السخاوي: السابق ج١٠ ص٦٩ .

٨٠- السخاوي : السابق ج٤ ص١٠٢ وقد وصف هذا الصفدي بأنه كان فصيحاً مفوهاً .

٨١- السخاوي : السابق ج٧ ص٢٣٢ وج١٠ ص٣٠ . ويذكر هنا أن هناك عالمين هنديين عرفا بالسراج . راجع الضوء اللامع ج٩ ص٢١٨ .

٨٢- راجع النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٣٠ .

٨٣- راجع الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٢٩١-٢٩٢ ؛ السخاوي: وجيز الكلام ج١ ص٢٤١ .

٨٤- الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٢٥٥-٢٥٦ .

٨٥- السخاوي: الضوء اللامع ج٩ ص١٥ .

٨٦- ابن حجر : إنباء الغمر ج٣ ص٢٩٨ .

٨٧- تنسب هذه المدرسة إلى الأمير فخر الدين المعروف بالزنجبيلي، أحد أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكانت هذه المدرسة عند باب العمرة . راجع الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٢٤ ؛ السخاوي : الضوء اللامع ج٣ ص١٣٧ .

٨٨- راجع الفاسي: العقد الثمين ج١ ص١١٧-١١٨ .

٨٩- السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص١٤٦ ؛ الضوء اللامع ج٢ ص١٧٩ ؛ والمقريزي: درر العقود ج٢ ص٤٢٩-٤٣٠ ؛ راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص١٨٢ .

٩٠- السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص١٩١ .

٩١- السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص٨٥ .

٩٢- راجع هذه الكتب المؤلفة في المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

٩٣- السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص٨٥ .

٩٤- السخاوي: السابق نفسه والصفحة نفسها ، ج٩ ص١٩١ .

٩٥- السخاوي : الضوء اللامع ج٧ ص٨٦ .

٩٦- راجع السخاوي : السابق ج٧ ص٨٦ .

٩٧- راجع السخاوي: السابق ج٢ ص١٦٧ ، ج٣ ص١٣٧ ،ج٤ ص١٨٧-١٨٨ .

٩٨- راجع السخاوي: السابق ج٦ ص٢٤٢ .

٩٩- السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص٨٨ .

١٠٠- راجع الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٨٧-١٨٨ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٣٧ .

١٠١- السخاوي : وجيز الكلام ج٢ ص٧٤٢ .

١٠٢- السخاوي: وجيز الكلام ج١ ص٢٨٣ .

١٠٣- كان تعليم الأطفال وتأديبهم معروفا بمكة على نطاق واسع زمن المماليك ، وكان يتم بالحرم الشريف تحت مآذنه وعند أبوابه راجع الفاسي: العقد الثمين ج١ ص٤١٣ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ج٢ ص٣١٤ ،ج٤ ص٨٥ ، ج٨ ص١٧ ، ص٩٥ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص١٠٩ ، ج٣ ص١٠٢ وج٥ ص٨٩ ، ج٩ ص١٣٤ ، ١٦٦ ، ١٨٢ كذلك عُرف هذا التعليم للأطفال بالمدينة المنورة . راجع السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص٢٣-٢٤ . والتحفة اللطيفة ج١ ص٩٤ ، ٤٥٢ ، ج٢ ص١٣٥ ،٣٥٩، ٥٠٥ .

١٠٤- السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص١٦٩ .

١٠٥- الفاسي: العقد الثمين ج٢ ص٢٩١ .

١٠٦- السخاوى: التحفة اللطيفة ج٢ ص٣٥٢-٣٥٣ ؛ راجع ترجمة مختصرة له عند الفاسى : العقد الثمين ج٦ ص٢٥٤ .

١٠٧- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٧ ص٢٢٣ . ونذكر هنا أن هنديا كان أحد خدام المسجد النبوى، وكان فى الوقت نفسه عالمًا. راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٣ ص١٧٣ .

١٠٨- السخاوى: وجيز الكلام ج١ ص٢٤١ .

١٠٩- السخاوى: الضوء اللامع ج٣ ص٢٩٠ .

١١٠- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٧٩ ،ج٣ ص١٣٧ ، ج ص٥٣ : التحفة اللطيفة ج١ ص١٤٦ .

١١١- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٨ ص٥٦ ؛ الفاسى: العقد الثمين ج٨ ص٢٨ ، ج٨ ص١٦٣ .

١١٢- الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣١٩ .

١١٣- السخاوى: الضوء اللامع : ج١ ص٣٠٤ .

١١٤- السخاوى: الضوء اللامع ج٤ ص١٠٣ .

١١٥- راجع الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص٣٤٠-٣٤٢ .

١١٦- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٦٧ ، ١٧٥ .

١١٧- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج١ ص٨٩ وراجع من ص٨٨-٩٩ .

١١٨- الفاسى : العقد الثمين ج٨ ص١٩٠ .

١١٩- راجع الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣٢١ .

١٢٠- راجع الفاسى: السابق ص٣٤٠-٣٤٢ .

١٢١- الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣١٩ .

١٢٢- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص٢٠٧ ، ٣٢١ ،ج٣ ص١٢٧ ، ١٣٤ ص٢٣٢ ، ج١٠ ص٢١ ص٢٠٣ ؛ الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣٢٠-٣٢١ ، ص٣٢٢ ، ص٣٣٢ .

١٢٣- راجع الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٢٩٢ .

١٢٤- راجع ابن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص٢٤٧ وفيات سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م.

١٢٥- السخاوي: الضوء اللامع ج٨ ص١٠٣ .

١٢٦- الفاسي: العقد الثمين ج١ ص٤١٢ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص١٣٣ .

١٢٧- منهم الضياء الهندي. راجع الفاسي: السابق ج٢ ص٢٩٢ ؛ السخاوي: وجيز الكلام ج١ ص١٤١ . والمحب محمد الهندي. راجع السخاوي: وجيز الكلام ج١ ص٢٨٣ . وتجب الإشارة هنا إلى أن أحد حكام الهند من المشهورين بالعدل وتقريب العلماء وهو غياث الدين الغوري الملقب بقسيم أمير المؤمنين كان يكره التعصب المذهبي ويقول : «التعصب في المذاهب قبيح». الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢١ ص٣٢١ . الأمر الذي يؤكد ظهور هذا التعصب بالهند على نطاق واسع مما جعل حاكم الهند الغوري يذمه .

١٢٨- منها على سبيل المثال ما قام به الملوك الهنود من إرسال الأموال لأهالي الحرمين الشريفين ، فضلا عن إرسال الهدايا لأمراء مكة وأئمة الحرم وقضاة مكة . راجع في ذلك الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٠٤ و، ١٠٨ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص٣١٢ ؛ج٣ ص١٨٣ ، ٢٢٢ وج٨ ص٢٨٠ ؛ وجيز الكلام ج٢ ص٤٩٨ وابن فهد: اتحاف الورى ج٤ ص٤٤ . وجدير بالذكر هنا إلى أن هناك إشارات في المصادر عن أدوار العامة من الهنود بالحرمين الشريفين ومنها إشارة السخاوي (الضوء اللامع ج٣ ص١٥٣) إلى أحد الهنود البنائين الذين مارسوا هذه الصناعة بمكة وهو حسين بن عمر الهندي وتوفى سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م إلى غير ذلك من إشارات عديدة لم يعرض إليها الباحث لأنها خارج نطاق بحثه .

المصادر

ابن أيبك (أبوبكر بن عبدالله ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) :

١- كنز الدرر وجامع الغرر ج٩ تحقيق هانس رويرت . المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة.

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) :

٢- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م):

٣- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة. تحقيق محمد سيد جاد الحق . دار الكتب الحديثة.

٤- إنباء الغمر بأبناء العمر . تحقيق د. حسن حبشى. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) :

٥- سير أعلام النبلاء. تحقيق عدة محققين مؤسسة الرسالة - بيروت .

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٣٩٦م) :

٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . دار مكتبة الحياة . بيروت .

٧- وجيز الكلام فى النيل على دول الإسلام . تحقيق بشار عواد وعصام الحرستانى وأحمد الخطيمى. مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م.

٨- التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة. دار الكتب العلمية . بيروت. لبنان ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

السلفى (الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد . ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) :

٩- معجم السفر . تحقيق عبدالله البارودى. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ١٩٩٣م / ١٤١٤هـ .

السمهودى (نور الدين على بن أحمد ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

١٠- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. دار إحياء التراث العربى. بيروت . لبنان .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م):

١١- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . المكتبة العصرية. صيدا ، بيروت .

الصفدى (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م):

١٢- الوافى بالوفيات ج٣ اعتناء س. ديدرينغ.

ابن الصيرفى (على بن داود ت ٩٠٠هـ) :

١٣- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان تحقيق د. حسن حبشى. دار الكتب ١٩٧٠م.

الفاسى (محمد بن أحمد الحسنى ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) :

١٤- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى. دار الكتاب العربى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٥- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين . تحقيق عدة محققين مطبعة السنة المحمدية.

ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) :

١٦- تاريخ ابن الفرات ج٨ تحقيق د. قسطنطين زريق ود. نجلاء عز الدين.

ابن الفهد (محمد بن محمد بن محمد بن فهد ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) :

١٧- اتحاف الورى بأخبار أم القرى. تحقيق د. عبد الكريم على بار. السعودية ، جامعة أم القرى. مركز إحياء التراث الإسلامى. مكة المكرمة.

ابن قاضى شهبة (قضى الدين أبو بكر أحمد ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م) :

١٨- تاريخ ابن قاضى شهبه . تحقيق عدنان درويش دمشق ١٩٧٧م.

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :

١٩- صبح الأعشى فى صناعة الانشا . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

الكتبى (محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) :

٢٠- فوات الوفيات . تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر بيروت .

المقريزى: (أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) :

٢١- المقفى الكبير تحقيق الأستاذ محمد اليعلاوى دار الغرب- بيروت.

٢٢- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة. دراسة وتحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين. عالم الكتب - بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

النجدى (محمد بن عبدالله بن حميد) :

٢٣- السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة . تحقيق بكر عبدالله أبوزيد ود. عبد الرحمن العثيمين. مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

النعيمى (عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م) :

٢٤- الدارس فى تاريخ المدارس. تحقيق جعفر الحسنى .

د. محمد بهاء الدين محمد متولى (*)

المعاهدة السعودية البريطانية

(جـدة ١٩٢٧م)

مقدمة :

يتحفظ بعض الباحثين فى دراسة المعاهدات ، بزعم أنها مجرد وثائق منشورة تحمل فى ثناياها كل ما يمكن أن يقال بشأنها . لكن الأمر يختلف جوهريا عن هذه الرؤية ، فالمعاهدات رغم كونها وثائق منشورة تشير في ذاتها إلى مضمونها ، فإنها تشغل ركنا أساسيا في الدراسات التاريخية، لما تمثله من أهمية مستمدة من قيمتها كعهود أو مواثيق تنظم العلاقات بين الدول فى مراحل تاريخية حاسمة؛ وتتحكم بدرجة أو بأخرى فى نواح هامة من مجالات العمل الداخلي والخارجي. كما أن الظروف التى تدفع التفكير فى بلوغ معاهدة ما، والتفاوض الذى يلى ذلك، وما يتزامن معه من مناورات سياسية أو عسكرية ونشاط دبلوماسي مكثف في مناقشة مواد وشروط المعاهدة المزمعة هى أمور توجب بدورها التركيز على دراسة المعاهدات ، إذ تأتى بمثابة مرآة تعكس أسلوب تفكير كل طرف وتعبر عن حقيقة نواياه واتجاهاته . ليس ذلك فحسب بل أن تتبع المعاهدة فى مجال التطبيق أمرا يستحق الرصد، ولايجب أن تقل النظرة إليه عن النظرة إلى المعاهدة ذاتها ، فهو يدخل المعاهدة فى النسيج العام للأحداث ، ويظهر حيويتها وتأثيرها . من ثم ، فإن هذه الأهمية متعددة الجوانب يجب أن تدفع إلى دراسة المعاهدات وتقييمها ، كى تحتل المكانة التى تليق بها فى الدراسات المتخصصة ، وتسد نقص هام تعانى منه المكتبة التاريخية العربية.

---

* كلية التربية - العريش - جامعة قناة السويس.

من هذا المنطلق تأتي دراسة المعاهدة السعودية البريطانية المعروفة باسم «معاهدة جدة ١٩٢٧» تلك المعاهدة التي كانت محور العلاقات السعودية البريطانية في مرحلة ما بعد ضم الحجاز ١٩٢٥، وهي من أدق مراحل قيام الدولة السعودية الحديثة، التي آثر الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود على عاتقه أن ينهض بأعبائها. وقد اتسمت تلك العلاقات بخصوصية شديدة بسبب هيمنة بريطانيا على معظم المنطقة العربية؛ بما في ذلك الخليج العربي من جهة ، وحاجة النظام السعودي لاعتراف ودعم دولي من جانب هذه القوة العظمى ؛ يساعده في اجتياز العقبات التي تعترض سبيله من جهة أخرى. ونصت المعاهدة ولأول مرة في التاريخ السعودي الحديث على اعتراف صريح باستقلال الدولة الناشئة استقلالا تاما، بجانب بنود أخرى عبرت عن درجة كبيرة من الاستقلالية والسيادة في إدارة شئون البلاد. فأشاع ذلك جوا من الثقة والاستقرار داخليا ، وانعكس خارجيا في اعتقاد المجتمع الدولي بقدرة الدولة السعودية على البقاء، فتمهد السبيل للتقدم بخطوات راسخة نحو التحديث. وقد وصفت المعاهدة دون مبالغة بأنها شهادة ميلاد للدولة السعودية في محيط الأسرة الدولية، وخطوة هامة في مرحلة تحول تاريخية حاسمة نحو بناء دولة عصرية. بالإضافة إلى ذلك، فقد أمنت المعاهدة مصالح بريطانيا في دولة باتت تسيطر على طريقين من أهم طرق المواصلات للهند؛ ضمت الحجاز الذي يطل على البحر الأحمر وبه الأماكن الإسلامية المقدسة؛ والإحساء ذات الموقع الاستراتيجي المتميز على الخليج؛ ونجد ذات الثقل البشري والاقتصادي. وجاء ذلك خلال فترة عصيبة كانت فيها الجزيرة العربية موضع تنافس دولي قوي. ونظرا للدور الهام الذي اضطلعت به المعاهدة، فقد جددت مرتين لمدة سبع سنوات الأولى في ١٩٣٦ والثانية في ١٩٤٣ . بذلك تكون قد ظلت في حيز التنفيذ حتى بداية عهد العلاقات السعودية الأمريكية المتميزة.

تنبع أهمية المعاهدة أيضا من أنها المرة الأولى في تاريخ العرب المعاصر التي يتفاوض فيها جانب عربي مع بريطانيا في جو تسوده ندية وتكافؤ . فكل طرف كان على نفس القدر من الحاجة للآخر، ورغم الهوة الساحقة بينهما عند بدء التفاوض. وسبقت المفاوضات وتزامنت معها مشاورات مكثفة من كافة الأجهزة السياسية البريطانية المعنية على اختلاف ميولها واهتماماتها ، مما دل على أهمية المعاهدة للجانب البريطاني. كما أن المفاوضات ذاتها اشتملت على تبادل واسع لوجهات النظر بين الطرفين، فألقي الضوء على فكر كل طرف وحقيقة نواياه، والمصالح الأساسية التي سعى إليها . وتسببت المفاوضات في تنازلات متتالية

من الجانب البريطاني نزولا إلى مطالب ابن سعود ، ومثلت في مرحل ما قبل التوقيع نموذجا لحالة نشاط غير عادى استهدفت فرض شروط التفاوض التى حملها كل طرف . في مجال التطبيق كان تأثير معاهدة جدة ملموسا في معظم الأحداث الجسام التى مرت بها الدولة السعودية. وقد نفعت حينا وأخرت حينا، لكن يبقى أنها باتت جزء ليتجزأ من التاريخ السعودى وأخيرا ، فإنه رغم تلك الأهمية المتنوعة قلما تلقى المراجع والبحوث التي تناولت تاريخ المملكة العربية السعودية بضوء كاف على المعاهدة ربما اقتناعا برؤية المتحفظين من الباحثين ، أو بسبب التركيز على مراحل نمو وتطور المملكة خلال الحقبة التي وقعت فيها .

معاهدة دارين ١٩١٥

في صيف ١٩١٤ وجدت بشبه الجزيرة العربية ثلاث قوى محلية رئيسة : الحكم السعودى في نجد بوسط الجزيرة ، آل الرشيد في جبل شمر، الشريف الحسين بن على في الحجاز . ووقعت جميعها في دائرة السيادة التركية. غير أن تركيا لم تمارس نفوذا قويا سوى على ابن رشيد ، الذى كان أقربهم خضوعا إليها وتحالفا معها. بينما كان عبد العزيز آل سعود نسبيا أقوى هؤلاء الحكام وأكثرهم استقلالا نظرا لاستقرار سلطته، وتمتعه بتأييد قبلي واسع النطاق[١].

كانت بريطانيا الأقوى في منطقة الخليج، بتفوق بحرى وتجارى وعسكرى ملموس: وسلسلة من معاهدات وقعت مع مشايخ وحكام المنطقة ، أطلق عليها معاهدات الحماية، لأنها نصت على توفير الحماية لأطرافها مقابل التبعية لبريطانيا، وآخرها مع الشيخ مبارك آل الصباح حاكم الكويت ١٨٩٩ [٢]. ولم يكن وسط الجزيرة العربية يهم بريطانيا بنفس الدرجة نظرا لعدم وجود مصالح استراتيجي أو اقتصادية تسترعي الاهتمام، ولأنها قدرت ترك شئونه لتركيا حرصا على حسن العلاقات[٣].

بنشوب الحرب العالمية الأولى في خريف ١٩١٤ تبنت الدوائر السياسية البريطانية فكر تشجيع الحكام المحليين على دخول الحرب ضد تركيا . وأبدت حكومة الهند اتجاها أكيدا نحو توطيد العلاقات مع ابن سعود باعتباره صاحب ثقل سياسى واضح في منطقة الخليج ، ورنت إلى إمكانية مشاركته على نحو فعال في الحرب ، بينما ناشدته الدولة العثمانية العون، فارتفعت أسهمه بسبب هذا التنافس، وأصبح في وضع يسمح له بتحديد الاتجاه السياسى المناسب . ثم لعبت ظروف الحرب دورا في اتجاه بريطانيا للاستفادة من جهود ابن سعود

أثناء الحملة على العراق، بينما خشي الأخير من احتلال موانئ الإحساء باعتبارها أملاكا تركية لو أبدى تقاعسا فى التعاون مع بريطانيا . لكن ابن سعود رأى قبل أن يقدم على قبول فكرة التعاون أنه بحاجة إلى معاهدة تقر فيها بريطانيا بأن الإحساء ونجد بلاد مستقلة تحت حكمه، مع ضمان بحمايته من أى اعتداء يقع عليه من أية دولة أخرى. وأبدى نوكس S.Knox المقيم السياسى فى الخليج استعداد بلاده لعقد معاهدة بالمفهوم السابق مقابل تعاون فى عملية الاستيلاء على البصرة . غير أن ابن سعود لم يشأ أن يقحم نفسه فى الحرب دون ترو، كما أن الاعتبارات الإقليمية صعبت المهمة التى كلف بها، فتوقفت الاتصالات فترة بهدف كسب الوقت وانتظار ما سوف تسير إليه الأمور[٤].

فى منتصف ديسمبر ١٩١٤ التقى شكسبير Shakespeare الوكيل السياسى فى الكويت بابن سعود، بهدف التأكد من استجابته لمطلب المشاركة فى الحرب. واتخذ الأخير موقف المساومة، وحاول تحقيق أهداف ذاتية ؛ مثل مهاجمة الحجاز أو حائل . وفى أوائل ١٩١٥ كتب شكسبير تقريرا مستفيضا ، احتوى على شرح للموقف السياسى فى نجد؛ مصحوبا ببعض التوصيات ، أهمها توقيع معاهدة حماية وتحالف صريحة توفر لابن سعود على المدى الطويل الأمن ضد أية محاولات انتقامية من جانب تركيا . وتضمن التقرير مقترحات ابن سعود بشأن المعاهدة ؛ التى لم تخرج عن ضمان باستقلال نجد والإحساء تحت الحكم السعودى؛ مع تحديد للحدود النجدية وضمان بسلامة تلك الحدود؛ مقابل عدم التعامل مع أية قوة أجنبية غير بريطانيا ؛ وتعهد بمقاومة عمليات تهريب السلاح والدفاع عن الرعايا البريطانيين فى نجد وملحقاتها[٥].

فى تلك الآونة ، أشارت التطورات إلى قرب طرد الأتراك من الخليج والجزيرة العربية، وتيقن المسئولون البريطانيون فى الهند ولندن على حد سواء بأن تلك المسألة سوف تجعل ابن سعود حاكما قويا ذا سلطة راسخة فى هاتين المنطقتين؛ وأنه لايجب تقييم العلاقة معه فى ضوء ما يمكن أن يقدمه من خدمات فى ظل الظروف الراهنة التى تواكب مرحلة الحرب؛ إنما إلى مدى ما يمثله من تهديد أو فائدة للمصالح البريطانية فى مرحلة السلام المقبلة. وطبقا لهذا التصور ولمقتضيات الأمن فى الخليج بدا مهما أن تجرى ترتيبات محددة مع ابن سعود، أهمها إدخاله فى نظام معاهدات الحماية . فوضع اللورد هاردنج Lord Hardinge نائب حكومة الهند مسودة معاهدة اختلفت عن نظيرتها التى وضعها ابن سعود فى عدة أمور هام ، منها :

أ. جعل وراثة العرش بإشراف وموافقة بريطانية . ب) رهن المساعدة البريطانية حالة وقوع اعتداء خارجي بعدم وجود اعتداء مسبق من جانب ابن سعود . ج) تأجيل بحث مسألة الحدود إلى وقت لاحق [٦].

في فبراير ١٩١٥ شرع كوكس Sir Percy Cox المقيم السياسي الجديد في الخليج وضابط الاتصال السياسي للقوات الهندية المشاركة في الحملة على الخليج في التفاوض مع ابن سعود، وتمكن الأخير من رد بعض ما ورد بمسودة هاردنج فألغى شرط موافقة بريطانيا المسبق على من يتولى الحكم واقتصر فقط على الاعتراف بمن تختاره الأسرة المالكة السعودية، كما جعل مساعدة بريطانيا دون قيد، بينما فشل في إلزام بريطانيا بوضع حدود سياسية معترف بها لنجد [٧]. وأخيرا وقعت معاهدة في جزيرة دارين أو تاروت المواجهة للقطيف في ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ ، وهي معروفة باسم «معاهدة دارين أو القطيف ١٩١٥» [٨]. ولاشك أن المعاهدة كانت جزءاً من تدابير بريطانية مختلفة لمواجهة تقلبات الحرب، لكنها ظلت محورا للعلاقات السعودية- البريطانية حتى معاهدة جدة ١٩٢٧ ، وكانت نواة نفوذ بريطاني متزايد بوسط الجزيرة العربية.

العلاقات السعودية- البريطانية ١٩١٥-١٩٢٥ :

على أي حال ، لم يصبح ابن سعود رهنا للسياسة البريطانية ، فثقته لم تكن كاملة . والثابت أنه كان يعمل علي رعاية مصالحه في كل الاحتمالات . كذلك كان يخشى موقف الشريف حسين بعد انتهاء الحرب ، خاصة وأنه لمس بوضوح قدر المعاملة الممتازة التي يلقاها من الجانب البريطاني [٩]. وربما لهذا السبب لم يقدم على محاربة ابن رشيد حتى لايغضب تركيا حليفته أو يتخذ منه سندا لو هاجمه الحسين. وقد ذكر فلبي Philby في مذكراته ، أنه وجد صعوبة شديدة في إقناع ابن سعود بمهاجمة ابن رشيد [١٠]. ومع يناير ١٩١٧ تلقى ابن سعود معونة مالية قدرت بنحو ٥٠٠٠ جنيه استرليني شهريا ، بجانب كميات من الأسلحة ، استعدادا للمشاركة في خطة طموحة للتخلص من كافة القوى الموالية لتركيا خاصة ابن رشيد في حائل [١١].

أثر انتهاء الحرب، جرت اتصالات ومشاورات مكثفة بين ابن سعود والمسئولين البريطانيين في الخليج حول أطماع الملك حسين في نجد ، والتنافس حول المواقع الاستراتيجية الحدودية ، ومشكلات القبائل في مناطق الحدود، وسبل التعاون في الحملة ضد ابن رشيد . وفي أثناء ذلك

تبين أن تيارا قويا داخل الإدارة البريطانية يؤيد ابن سعود . وذكر جورج كيستون George K. من الخارجية ، أن المسئولين بمكتب الهند «زرعوا كراهية شديدة لحسين وعدم ثقة به وتأييدا كبيرا لابن سعود في الأوساط اللندنية»[١٢] وفي نهاية ١٩٢١ حسم ابن سعود مسألة القضاء على آل الرشيد في حائل بعد أن ظلت معلقة ما يقرب من سبعة أعوام . واعترفت بريطانيا رسميا به حاكما على نجد وملحقاتها، وأقرنت اسمه بلقب «سلطان نجد»[١٣].

لم يكد ابن سعود يفرغ من آل الرشيد حتى واجهته مشكلات حدودية مع العراق بعد أن تقاربت خطوط التماس . وجرت مفاوضات بإشراف بريطاني لوضع حدود ثابتة والقضاء على أسباب الخلافات والنزاعات بين القبائل . وتعرض ابن سعود لضغوط من جانب كوكس، الذي كان يعمل بإيحاء من شركات رأسمالية في لندن اهتمت بالتنقيب عن البترول في جنوب العراق. وأخيرا وقعت اتفاقية المحمرة نهاية ١٩٢٢ بين العراق وسلطنة نجد، جاءت مطابقة في شروطها لوجهة نظر بريطانيا . ونظرا لأنها لم تبحث في صميم مشكلات القبائل لم توقف النزاعات الحدودية [١٤].

تفاقمت الأمور بين نجد والحجاز مع بداية ١٩٢٣ ، بينما شهدت الحدود بين نجد وكل من العراق وشرقي الأردن توترا شديدا بسبب تحركات القبائل، وربما بسبب تفاقم العداء بين الملك حسين وبين ابن سعود. واعتقدت بريطانيا أن بالإمكان وضع تسوية شاملة لمشاكل المنطقة . فدعت إلى عقد مؤتمر بالكويت تحت إشرافها ، يحضره ممثلون عن كل من نجد والعراق وشرقي الأردن والحجاز. ووضح منذ البداية ، أن بريطانيا تهتم بمشكلات الحدود بين العراق وشرقي الأردن مع نجد ، وترنو إلى ترسيم ثابت لها أكثر من حرصها على إيجاد حل للمشكلات المعقدة بين نجد والحجاز . لهذا فهي لم تكن جادة في دعوة حسين بينما بدت أكثر جدية عند دعوة ابن سعود. وفي حين قبل ابن سعود– بعد بضغط شديد وعلى مضض– المشاركة في المؤتمر بوفد رسمي ، رفض حسين كل الدعوات التي وجهت إليه، ولما عاد وقبل كان وقت بحث المشكلات قد فات ، ولم يعد لتمثيله في المؤتمر أهمية تذكر[١٥].

انعقد المؤتمر بصور متقطعة على ثلاث مراحل، وأنهى أعماله أوائل مايو ١٩٢٤، ولم يسفر عن نتائج محددة على كافة الأصعدة تنائج ، بسبب تمسك وفدا العراق وشرقي الأردن بحل المشكلات المعلقة بين نجد والحجاز، ولم ينجح المسئولون البريطانيون رغم تدخلهم في صميم المشكلات القبلية والحدودية في التوصل إلى اتفاق وظلت مسألة الحدود معلقة. بيد أن إصرار

الملك حسين على عدم الحضور عمق من اتجاه بريطانيا نحو ترك مصيره لابن سعود، ووقف أى دعم أو مساندة له. كما أن المؤتمر ذاته أظهر بوضوح استحالة التعايش السلمى بين نجد والحجاز، وأنه لم يبق إلا القتال كى يحسم النزاع (١٦).

ومنذ احتدام النزاع بين ابن سعود وحسين أعلنت بريطانيا الحياد، ثم لم يلبث أن امتد هذا المبدأ إلى كل ما يتعلق بمستقبل حكم حسين. وكان حياد بريطانيا يعنى التخلى عن حماية الحجاز فى وقت تفاقمت فيه مبررات الصدام مع نجد . وقد تمسكت بريطانيا بموقفها الحيادى السلبى حتى أواخر عهد المملكة الحجازية ، ولم يشفع عندها أى من الالتماسات التى قدمها كل من له رغبة فى بقاء المملكة الحجازية رغم علاقاتهم الوطيدة بها. ثم قامت بقطع المعونة عن كل من حسين وابن سعود فى أبريل ١٩٢٤ . وجاءت تلك الخطوة إيذانا لابن سعود للإعداد للزحف على الحجاز ، فقد كان بحاجة إلى موارد مالية تعوض ما فقده بسبب قطع المعونة(١٧). هكذا كانت الظروف كلها مواتية لابن سعود للقضاء على الحكم الهاشمى فى الحجاز ليس فقط لموقف بريطانيا الحيادى، إنما أيضا لتفوق عسكرى وسياسى وإدارى واضح امتاز به الجانب السعودى .

تثبيت الحدود بين نجد وكل من العراق وشرقى الأردن

أثناء سير العمليات العسكرية فى الحجاز، أصدر ابن سعود تعليمات إلى الفرقة الثانية من قوات الإخوان(١٨) التى كانت ترابط على حدود شرقى الأردن بالتوغل داخل وادى السرحان الواقع شمال الحجاز . ونجحت القوة السعودية فى امتلاك ممر على شكل رأس حربة ، يفصل بين الأردن والعراق وعلى مقربة من الحدود السورية (١٩) وفى ١٠ أكتوبر ١٩٢٥ زار جلبرت كلايتون G. Clayton الرئيس السابق للمكتب العربى بالقاهرة مسرح العمليات على رأس بعثة خاصة، حيث التقى بابن سعود، وأجرى معه مباحثات مكثفة استغرقت ما يقرب من شهر على مدار ١١ جلسة ، تناولت مسألة الجلاء عن وادى السرحان ، وأوضاع القبائل النجدية الحدودية، والتوصل إلى اتفاق بشأن حدود ثابتة ونهائية مع العراق وشرقى الأردن . وقد سمح كلايتون بإقليم الكاف ، واشترط ألا يتم تحويله إلى قاعدة عسكرية . ولم يكن إقليم الكاف يحتل نفس الأهمية الاستراتيجية لوادى السرحان ، فهو يحقق سيطرة محدودة على الممر الرئيسى الذى يربط بين العراق وشرقى الأردن ، وعندما أصر ابن سعود فى الجلسة الأخيرة على الاحتفاظ بوادى السرحان هدد كلايتون بوقف المفاوضات (٢٠).

وربما تبين لابن سعود أن تأزم العلاقات مع بريطانيا فى تلك المرحلة الحاسمة من حصار ما تبقى من مدن الحجاز الهامة خاصة جدة أمر غير مرغوب ، فما كان منه إلا أن وافق على مقترحات المبعوث البريطاني، وتعهد بالانسحاب من وادى السرحان ، وعدم المطالبة بالعقبة بوصفها جزءا من الأراضى الحجازية ، على أن يبحث مصيرها فى مفاوضات مقبلة ، وتعهدت بريطانيا بدورها بعدم إثارة مسألة استيلاء ابن سعود على الحجاز. وتناولت المفاوضات كذلك إمكانية وضع معاهدة جديدة بين البلدين ، تؤكد ما تم التوصل إليه . وتشير التقارير البريطانية أن ابن سعود هو الذى طلب ذلك ، وأنه أبدى حرصًا على أن تشمل المعاهدة بندا يجيز له استيراد الأسلحة «لأنها ضرورة من ضروريات الحياة في نجد» . وأنه طلب مساعدة مالية لتعويض القبائل التي منعت من التحرك فى مناطق الحدود(٢١).

فور انتهاء المحادثات فى أول نوفمبر ١٩٢٥، وقعت اتفاقية بحرة بين نجد والعراق، كامتداد لاتفاقية المحمرة. وأشرف كلايتون على وضع بنودها . وذكر فى ديباجتها ضمان بريطانيا تنفيذ ما ورد بها . ووقع عليها بصفته مندوبا عن حكومة العراق(٢٢) .

فى اليوم التالى وقعت اتفاقية جدة على غرار الاتفاقية السابقة بين نجد وشرقى الأردن وركزت الاتفاقية بدورها على ترسيم دقيق للحدود، وإلزام نجد بعدم الاعتداء على أراضى شرقى الأردن. كما اهتمت بتنظيم علاقة الدولتين في وادى السرحان وحقوقهما فيه، وتجارة نجد مع سورية (٢٣). والاتفاقيتان، رغم ما اعتراهما من سلبيات أثرت على قوة سلطنة نجد، كانتا خطوة هامة فى طريق إنشاء الدولة السعودية الحديثة، وأظهرتا بجلاء أسس المصالح المتبادلة بين نجد وبريطانيا .

ضم الحجاز وتكوين دولة جديدة:

نجم عن ضم الحجاز نهاية ١٩٢٥ تغير جوهرى فى وضع ابن سعود، إذ جاء بمثابة أهم خطوة على الإطلاق فى تكوين الدولة السعودية الحديثة، وتنمية علاقاتها الخارجية ، لاسيما مع بريطانيا . ومع بداية العام التالى أعلن ابن سعود ملكا على الحجاز وسلطانا على نجد وملحقاتها ، وسارعت بريطانيا إلى الاعتراف رسميا بالمملكة الجديدة، كما اعترفت بها دول أخرى مثل: فرنسا والاتحاد السوفيتي وسويسرا (٢٤).

فى مارس ١٩٢٦ وقع ابن سعود اتفاقية تجارة وصداقة مع فرنسا بصفتها الدولة المنتدبة على سورية ولبنان ، نظمت العلاقات التجارية مع هذين البلدين (٢٥). وبتأثير ضم الحجاز ،

توطد الحكم السعودي في عسير ، فوقع الملك عبد العزيز بن سعود اتفاقية مكة في ٢١ أكتوبر مع حاكم عسير حسن الإدريسي، مكونة من ١١ مادة ، وتشبه في نصوصها معاهدات الحماية التي وقعتها بريطانيا مع حكام الخليج[٣٦].

ثم أعلن ابن سعود أوائل ١٩٢٧ ملكا على نجد، ولقب «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها »[٣٧]. ومن ثم أصبح قادرا من الناحية الرسمية على تمثيل مصالح المملكة بشقيها الحجازي والنجدي، وأضفى طابعا من الشرعية على جهوده الرامية إلى إحداث طفرة اجتماعية واقتصادية وبناء مؤسسات دولة متماسكة ومستقرة[٢٨] . لكن ظل نشاط الإخوان السياسي والديني مشكلة مزمنة ونقطة ضعف في حكم ابن سعود حتى توقيع معاهدة جدة ١٩٢٧ . وقد وافقت بريطانيا على كافة التطورات الداخلية بالنسبة لمشكلة الإخوان [٢٩]. وتسببت المشكلة في خلق ظروف صعبة لابن سعود أثناء المفاوضات التي سبقت توقيع المعاهدة .

اعتبارات توقيع معاهدة جديدة:

لاشك، أن هذه التطورات جعلت ابن سعود يعتقد أن الوقت أصبح مناسبا كي يسعى إلى معاهدة جديدة مع بريطانيا تنهي علاقة التبعية والخضوع التي فرضتها معاهدة دارين ١٩١٥ فبقاء تلك المعاهدة ربما يعني أنها تطلق على الحجاز كما تطبق على نجد ، ومن غير المناسب أن يكون حاكم الأراضي الإسلامية المقدسة يتعامل مع بريطانيا بهذه الدرجة من الخضوع. كما بدا لابن سعود أن تلك المعاهدة تحد من قدرته على إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الأخرى ، في ظل مرحلة تقتضي توسيع دائرة اتصالاته وعلاقاته، ليس فقط بسبب قدوم رعايا مسلمين من كافة الدول إلى الحجاز في أعداد كبيرة لأداء مناسك الحج إنما لأهمية تلك الاتصالات في تنمية العلاقات الاقتصادية [٣٠]. فضلا عن أنه باعتباره حاكما جديدا لبلاد واسعة النطاق ويواجه مشكلات داخلية وحدودية تتزايد بسرعة كان بحاجة إلى إعادة صياغة علاقاته الودية مع بريطانيا بأسلوب يؤمن وضعه الجديد الذي اكتسبه بضم الحجاز ويناسب متطلبات المرحلة المقبلة.

أما بالنسبة للجانب البريطاني، فقد تعددت الاعتبارات التي دعت إلى إنهاء معاهدة دارين واستبدالها بأخرى تتفق وظروف التغيير الذي طرأ على الدولة السعودية . فالوضع الجيوبوليتيكي الناشئ عن سيطرة ابن سعود على طريقين من أهم طرق المواصلات البحرية والجوية إلى الهند (الخليج العربي والبحر الأحمر) حتم إعادة تأمين المصالح البريطانية في

دولته. كما أن امتداد حدود تلك الدولة إلى بلاد تخضع للحماية البريطانية مثل : شرقى الأردن والعراق والكويت، وما شكله هذا التماس الحدودى من تحديات أمام الإدارة البريطانية مثل: التوتر الناجم عن الخلافات السياسية ، وغارات قبائل الحدود، ومحاولات التدخل السعودى فى شئون هذه البلاد، تطلب وضع معاهدة جديدة تمثل قيدا إضافيا ملزما بعدم الاعتداء أو التدخل فى الشئون الداخلية لهذه البلاد، وتأكيدا للاتفاقيات السابقة سواء بشأن الحدود السياسية أو لضمان هدوء القبائل [٣١].

ورغم أن البترول لم يكن قد اكتشف فى منطقة نجد أو فى أى مكان آخر على طول سواحل الجزيرة العربية على الخليج العربى فإن الاحتفاظ بصداقة ابن سعود كان مهما لبريطانيا لوجود شواهد تشير إلى وجود النفط بكميات كبيرة فى بلاده، ولأن هذه البلاد وقعت قريبة من مناطق هامة فى إنتاج البترول فى كل من العراق وإيران[٣٢].

وأصبح من المهم عقد معاهدة جديدة لوقف انجذاب ابن سعود نحو دول أوروبية أخرى مثل: إيطاليا والاتحاد السوفيتى، وكلتاهما ازدادتا اهتماما بالتطورات الأخيرة فى جزيرة العرب. وكان واضحا منذ أبريل ١٩٢٥ أن إيطاليا تحاول دعم مركز الإمام يحيى باليمن ، وجرت بالفعل مفاوضات حول توقيع معاهدة بين روما وصنعاء ، فى نفس الوقت الذى راح فيه الإمام يزيد من ضغطه على الإدريسى فى محاولة لإخضاعه[٣٣]. بينما ازداد القلق مع بداية عام ١٩٢٦ إزاء إمكانية تأسيس علاقة وطيدة بين ابن سعود والاتحاد السوفيتى بسبب الأعداد الكبيرة التى يستقبلها الحجاز من البلاد الإسلامية الواقعة تحت السيادة السوفيتية ، مما يعنى تحوله إلى بؤرة مناوئة للغرب وساحة للدعاية القوية ضد الاستعمار [٣٤]. ويذكر أن الاتحاد السوفيتى قام خلال هذا العام بمحاولات مدروسة لتوثيق صلاته بابن سعود، وزعزعة ثقته فى الحكومة البريطانية[٣٥].

وأخيرا ، فإن معاهدة جديدة تغير وضع ابن سعود من خاضع إلى حليف من شأنها أن تخفف حساسية الموقف الذى أصبحت عليه بريطانيا، التى ستبدو فى نظر العالم الإسلامى ، لو استمر العمل بالمعاهدة السابقة ، دولة تفرض حمايتها على الأماكن الإسلامية المقدسة مما يشكل إهانة لرعاياها المسلمين لاسيما فى الهند، ويؤدى إلى إثارة مشاعرهم[٣٦].

لقد تناولت المشاورات والاتصالات المكثفة التى سبقت التوصل إلى المعاهدة الجديدة مجمل الاعتبارات التى أدت إليها . لكن تبقى الاعتبارات السابقة الأساس فى حسم الموقف تماما،

وبعضها لم ينل نصيبا كافيا من الضوء رغم أهميته، لأنه تعلق بمصالح سعودية أو بريطانية محضة ، لم تكن تهم الطرف الآخر ، ومن ثم لم تشكل نقاط اتصال بين الطرفين أثناء التفاوض . منها على سبيل المثال: للجانب السعودي: تأمين ما تحقق من مكاسب ميدانية ، تنمية العلاقات الخارجية . للجانب البريطاني: مستقبل التنقيب عن البترول، وقف تغلغل النفوذ الأجنبي ، الارتكاز على الدولة السعودية في التصدي لمخططات الدول الاستعمارية في الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر والخليج العربي.

الدخول في أجواء معاهدة جدة ١٩٢٧ :

كان ضم الحجاز أهم خطوة في اتجاه التفكير الجدي في وضع معاهدة جديدة. ففي أوائل ١٩٢٦ كتب اللورد أيروين Irwin نائب الهند «... لاشك أن امتلاك ابن سعود للحجاز جعله في مركز جديد مختلف تماما عن ذلك الذي كان عليه وقت أن وقعت معاهدة ١٩١٥، وأن ما كان ملائما أنذاك لم يعد ملائما الآن ... وأن ثمة شعور بالخطر ينتاب ابن سعود بالسماح لأية قوة مسيحية بأي شكل من الامتياز أو بوضع حماية لها في الحجاز، مثل ذلك الذي تجيزه مواد تلك المعاهدة... وأن هذا الأمر على وجه الخصوص يفكر فيه ابن سعود ويضعه ضمن الاعتبارات التي تدفعه إلى تغيير تلك المعاهدة .. كذلك يجب أن يدفعنا انتقال ملكية الحجاز إلي ابن سعود إلى التفكير في مشاعر مسلمي الهند، الذين قد يثيرهم وجود حماية بريطانية على الحجاز حال استمرار تطبيق معاهدة ١٩١٥ . «وأضاف أيروين أن كلايتون قد أشار في رسالة عاجلة في منتصف ديسمبر ١٩٢٥ في أعقاب لقائه بابن سعود وإبداء الأخير رغبته للمرة الأولى في وضع معاهدة جديدة ... أن معاهدة ١٩١٥ لاتنطبق إلا على إقليم نجد فقط .. وحمل ابن سعود على الإبقاء عليها بعد ضم الحجاز يسبب له مشكلات تفوق قدراته .. وبقاؤها قد يحدث قلاقل في الهند تنجم عن سوء فهم بأن شروطها تمتد إلى إقليم الحجاز .. وحكومة الهند معنية تماما بمنع سوء الفهم»[٣٧].

وأعدت وزارة المستعمرات في ١١ أغسطس مسودة معاهدة تضمنت كافة الأمور التي يمكن أن تشملها المعاهدة المزمع عقدها ، غير أن ثلاثة منها أثير حولها جدل عميق : توفير الحماية للحجاج البريطانيين. أمن الخليج. الامتيازات الأجنبية في الحجاز [٣٨].

كتب أيروين إلي بيركنهد Birkenhead سكرتير الدولة لشئون الهند حول انطباعاته بشأن النقطتين الأولى والثانية قائلا « .. نحن هنا ندرك أن من الصعب إن لم يكن مستحيلا أن يقبل

ابن سعود شرطا يقضى بضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية لرعايانا من الحجاج المسلمين، بل أن من الصعب حال افتراض قبول هذا الشرط أن يكون قيد التنفيذ الفعلى. ولكن بالنظر إلى حالة السخط والألم التى تنتشر فى الهند بسبب تعصب الوهابيين أثناء الحج فإنه يجب علينا أن نشدد على أهمية إدراج مثل هذا الشرط .. ويبدو أمرا خطيرا لو أن حكومة بريطانيا فى ظل ما حدث فى حج هذا العام تجاهلت تأمين حرية ممارسة الشعائر الدينية . وأنه دون ورود مثل هذه المادة أو العبارة أو على الأقل تبادل خطابات مؤكدة على مضمونها وقت التوقيع أو أى شئ آخر يمكن لنا نشره على الملأ فإن توقيع المعاهدة مع ابن سعود ربما يكون ذا تأثير سيئ على مسلمى الهند. واتفق معك بوجوب أن تشمل المعاهدة الجديدة مادة تضمن استقلال مشيخات الخليج التى لها ارتباطات معنا بما فيها «مسقط» ... وأشعر مثلك بأن حذفها قد يعنى تشجيع ابن سعود على الاعتداء، وبأن ابن سعود لن يمانع فى إدراجها إذ لم تتجاوز حدود المادة ٦ من معاهدة ١٩١٥ ... والرأى فى الهند أن الاستفاضة فى المادة الخاصة بأمن الخليج أمر غير ضرورى.. »[٣٩] هكذا شغل موضوعا توفير حماية للحجاج البريطانيين وأمن الخليج جزءا من تفكير المسئولين قبل غيرهما . وبالنسبة للأول بدا الحرص أكثر وضوحا على ضرورة أن يتم ذلك فى شكل معلن يطمئن الرأى العام فى كل من بريطانيا والهند.

ثم فى ٦ أكتوبر ١٩٢٦ عقد اجتماع هام بوزارة المستعمرات شغل جانبا منه موضوع المعاهدة ، وظهر اهتمام خاص ببحث المادة ٦ من مسودة المعاهدة المنوه عنها آنفا، وتتعلق بموضوع تطبيق الامتيازات الأجنبية على الحجاز. وكانت قد صيغت بأسلوب متشدد للغاية: منح السلطات البريطانية امتيازات واسعة : إلى حد أنها جعلت تنفيذ الأحكام التى تصدر ضد رعايا بريطانيين رهن بموافقة الحكومة البريطانية. وتوقع جوردان S.R. Jordan القنصل البريطانى العام فى جدة الذى حضر الاجتماع معارضة جادة من ابن سعود على مادة بهذه الصياغة ، وأشار أنها موضع خزى لايستطيع أن يقبله ، واقترح كإجراء عملى يحقق ما تصبو إليه المادة ٦ «أنه حالما يتعرض أى بريطانى لخطر التقاضى أو المحاكمة أمام القضاء المحلى وفقا لأحكام الشريعة، فبإمكان القنصل البريطانى الإسراع بالاتصال بابن سعود وتسوية الأمر بأن يتم وقف الإجراءات لفترة ما تكفى لقيامه ببحث الموضوع. ثم يتم تدبير الأمر على نحو يوقف المحاكمة تماما». مع ذلك فقد خيم على الاجتماع اقتناع بأن هذه المادة تمثل الحد الأدنى، وأن أية تنازلات تطرأ عليها تشكل سابقة خطيرة ، قد تدفع بلاد

أخرى مثل مصر وإيران تمارس فيها الامتيازات على نطاق واسع إلى محاولة القضاء عليها. ثم خيم قلق واضح على المجتمعين لاحتمال فشل المفاوضات بسبب هذه المسألة(٤٠).

خلال الشهر ذاته قام الأمير فيصل بن عبد العزيز بزيارة إلى بريطانيا لبحث المصالح المتبادلة ، صحبه خلالها عبد الله الملوجي القائم بأعمال الخارجية السعودية وجوردان، استغرقت ما يقرب من ثلاثة أسابيع ، اجتمع خلالها بملك بريطانيا الذى أحسن استقباله(٤١). وأثناء الزيارة ناقشت معه حكومة لندن مسألة المعاهدة الجديدة. وقدم فيصل تصوره بشأن أهمية المعاهدة، فأشار إلى ضرورة تغيير العلاقة القائمة بما يتفق والأوضاع الجديدة التي خلقتها عملية ضم الحجاز وتنمية المصالح المتبادلة . وكشف المسئولون البريطانيون- بدورهم- عن حرصهم على إعادة تقييم العلاقات بين البلدين وتفهمهم لضرورة وضع معاهدة جديدة تناسب ظروف ضم الحجاز . لكن مشاورات فيصل في لندن لم تتطرق إلى بحث تفصيلات بنود المعاهدة لأنه لم يكن مخولا من قبل والده بذلك(٤٢).

عدلت المسودة التي كانت قد أعدت أوائل أكتوبر ١٩٢٦ بما يتفق ووجهات النظر المختلفة ، ثم قدمت لابن سعود لأول مرة في نوفمبر التالي. وتضمنت ثلاثة مطالب هامة. الأول: الاعتراف بضم كل من العقبة ومعان إلى شرقي الأردن، وورد ذكره ضمن ملحق خاص في مسودة المشروع . الثاني : الاعتراف بوضع بريطانيا في فلسطين والعراق وشرقي الأردن بموجب نظام الانتداب . الثالث : الامتناع التام عن الاعتداء أو التدخل في شئون إمارات الخليج العربي الخاضعة للحماية البريطانية (٤٣). والأخير وضع بهذه الصيغة بضغط من حكومة الهند ومكتب الهند بلندن، اللذان اعتقدا في أهميته لحماية منطقة الخليج الاستراتيجية باعتبارها من أهم الطرق إلى الهند. وبنيت وجهة النظر الهندية على أن المصالح البريطانية تكون في مأمن أكثر بإلزام ابن سعود باعتراف صريح بأن إمارات الخليج تحت الحماية البريطانية المباشرة؛ وتعهد صارم بعدم الاعتداء عليها ، وأن غير ذلك يتيح له حرية التعامل معها والتدخل في شئونها ، فيصبح زعيما للمنطقة . أما الخارجية فقد بدت متساهلة نسبيا في هذا الأمر. إذ لم تر أن باستطاعة ابن سعود تهديد أمن الخليج لقلة إمكانته وحرصه على صداقة بريطانيا(٤٤).

تضمنت المسودة البريطانية أيضا مادة تطالب بوقف تجارة الرقيق، والاعتراف بالسلطات الممنوحة للقنصل البريطاني في جدة بمتابعة أحوال العبيد، وحمايتهم ، وعتق من يرغب منهم في التخلص من العبودية ، وتوفير حياة كريمة لهم. والسماح للأسطول بتفتيش السفن التي

تحمل العلم السعودى لمراقبة تجارة الرقيق . احتلت تلك النقطة أهمية أخرى لدى الجانب البريطاني لما تمثله من أهمية اقتصادية فى إطار الفكر الاستعمارى القائم على الاستغلال، وفحواه إبقاء العناصر البشرية بمواطنها الأصلية حتى تستخدم فى عمليات الاستثمار المقدرة فيها . وما تعكسه من مظاهر الهيمنة والسيادة. ولما لها من تأثير على الرأى العام الذى يعارض بقوة مسألة الرق . وعزز ذلك الموقف أن بريطانيا وقعت فى سبتمبر ١٩٢٦ على معاهدة فى إطار عصبة الأمم تلزم الدول الأعضاء على التعاون فى مقاومة الرق، وبذل الجهود للقضاء التام على الرق فى كل أشكاله. وقد ذكر شكبيرجن Shackburgn سكرتير الدولة للشئون الخارجية «.. أن حق عتق الرق كان مهما، لأن كثيرا من الناس الذين أصبحوا أرقاء كانوا حجاجا وفدوا من نيجيريا المستعمرة البريطانية . وقد مارسه القنصل فى جدة بشكل فعال خلال الأثنى عشر شهرا الماضية (من سبتمبر ١٩٢٥ إلى أغسطس ١٩٢٦) وتمكن من عتق ٩٧ عبدا»[٤٥].

وأخيرا فإن المسودة البريطانية فى مادتها رقم ٦ ركزت على ما أسمته الرغبة فى الاعتراف المتبادل للطرفين بالوضع الدولى لرعايا كلا منهما، ولم يكن لرعايا ابن سعود وضع دولى متميز أو على الأقل مساو للوضع الدولى لرعايا بريطانيا. وعموما ، كان المقصود بهذه المادة ، أولئك الأشخاص الذين يتمتعون بامتيازات تفرضها الحماية ، ويتصادف وجودهم على أرض الطرف الآخر. ووضعت هذه المادة بدلا من نظيرتها، الخاصة بالامتيازات الأجنبية التى وردت فى مسودة أكتوبر ١٩٢٦ . وواضح أنه قد طرأ عليها تعديل جوهرى رغم أنها اعتبرت طبقًا لاجتماع أكتوبر ١٩٢٦ تمثل الحد الأدنى. ويلاحظ أنها لم تشتمل على بنود معينة تجسد الامتيازات ، ولم ترد فى شكل شرط يلزم قبوله على غرار ما حدث بالنسبة للشروط الثلاثة الأولى، إنما كمجرد رغبة . ويعزو السبب فى ذلك- من وجهة النظر البريطانية - إلى الاعتقاد برفض ابن سعود لأى تلميح لهذه الامتيازات ، والثقة فى قدرة القنصل البريطانى بجدة على ضمان وحماية الوضع المتميز للرعايا البريطانيين فى الحجاز ؛ حتى ولو افتقرت المعاهدة إلى بنود امتيازية ذات طابع رسمى ؛ وهو ما يشير إلى الأخذ بوجهة نظر جوردان بالاعتماد على النفوذ الشخصى للقنصل فى هذه المسألة. هذا بجانب استقرار الرأى على أن أى شكل من أشكال الإعلان الرسمى للامتيازات فى معاهدة ذات طابع دولى وإقليمى هام قد يثير دولا أوروبية أخرى ترغب فى ممارسة حقوقا سيادية فى الحجاز، كما أن الحكومة البريطانية أرادت أن تترك الباب مفتوحا لإمكانية تأكيد الحقوق السيادية فى الحجاز فى المستقبل. ومع ذلك فالمادة رغم التعديل تأتى بإشارة ضمنية إلى الامتيازات التى كانت تمارسها بريطانيا فى الحجاز قبل ضمه[٤٦].

مفاوضات ابن سعود- جوردان :

فى أوائل نوفمبر ١٩٢٦ كلفت الحكومة البريطانية جوردان. بالتفاوض مع ابن سعود، وسلمته نسخة من مسودة المعاهدة للاسترشاد بها، وزود بتعليمات واضحة ؛ بأنه ليس مطالبا بالالتزام التام بالشروط الدقيقة الواردة بها سوى فى أمرين: الأول: حق القنصل فى تحرير وعتق الرقيق ؛ الثاني: عدم المساس بمسألة الحدود بين شرقى الأردن والحجاز، ويقصد بذلك موضوع العقبة ومعان. بجانب أمر صريح بعدم التعهد بدفع أية أموال فى شكل معونة أو قروض لابن سعود لاعتبارات تتعلق بأزمة مالية تمر بها بريطانيا وخشية أن يفسر تقديم الأموال لابن سعود خاطئا من العناصر المعادية بأنه محاولة بريطانية تستهدف تعزيز السيطرة على الأراضى الإسلامية المقدسة(٤٧).

جرت نهاية نوفمبر مفاوضات مكثفة فى وادى العقيق حضرها ممثلون عن الجانبين . وأعلن الجانب السعودى رسميا فيما بعد أن المفاوضات كانت للنظر فى بعض الأمور المعلقة بين جلالة الملك والحكومة البريطانية ، وفى جملتها المنهوبات التى نهبتها قبائل شرقى الأردن من رعايا سعوديين ، فى محاولة واضحة لنفى أية صفة سياسية هامة عنها (٤٨).

على أى حال، لم تكن المفاوضات سهلة. فقد رفض ابن سعود الاعتراف رسميا بأى وضع متميز لبريطانيا فى فلسطين وشرقى الأردن والعراق، أو التنازل عن العقبة ومعان أو عن أية قبائل وأراض تطالب بها حكومة شرقى الأردن وتقع فى نطاق أراضى الحجاز أو نجد(٤٩) .
وسعت مصادر بريطانية إلى تبرير موقف ابن سعود فنكرت ، أن معارضته لنظام الانتداب لم تستند إلى إنكار لحقوق السيادة البريطانية ، إنما لأن توقيع اتفاقيتى بحرة وحدة كفيلتان بضبط العلاقات مع العراق وشرقى الأردن، وأن قبوله الإشراف البريطانى على الاتفاقيتين كان بمثابة اعتراف بوضع بريطانيا المتميز فى كلتا البلدين ، وأنه لايفند أو يناقش امتلاك شرقى الأردن للعقبة ومعان، لكن ليس لديه النية أن يقبل هذا الموقف رسميا ، حتى لايبدو وكأنه يسلم أجزاء من أراضى إسلامية مقدسة إلى دولة مسيحية(٥٠).

رفض ابن سعود البند الذى يمنعه من الاعتداء أو التدخل فى إمارات الخليج الخاضعة للحماية البريطانية ، وذكر أن هذه العبارة غير مناسبة ، وتتعارض مع وضعه وهيبته كحاكم مستقل ، وأن لفظ «التدخل» يحتمل أكثر من تفسير واسع ، وفعليا يتعذر تنفيذه.

رفض أيضا السماح للقنصل البريطانى فى جدة بتحرير العبيد، لأنه امتياز يجحف

حقوقه السيادية في بلاده ويؤثر على مركزه ووضعه كحاكم مستقل. كما أبدى اعتراضا قويا على السماح للأسطول البريطاني بتفتيش السفن السعودية ومراقبة السواحل، واعتبر أن ذلك انتقاصا صارخا للسيادة الداخلية في بلاده[٥١].

كما اعترض على تلك المادة التي تطلب الاعتراف المتبادل بالوضع الدولي للرعايا المشمولين بالحماية . وقد فهم بسهولة ، أن هذا الشرط يعني إقرارا ضمنيا أو تأكيدا مستترا على شرعية الامتيازات الأجنبية وقانونيتها في بلاده . وأبدى استعداده لقبول هذه المادة في ظل شرط أساسي يؤكد خضوع رعايا كلتا الدولتين للقوانين المحلية والتزامهم بأحكام القضاء المحلي أثناء إقامتهم في مقاطعات تابعة للدولة الثانية [٥٢]. وكان ابن سعود قلقا إزاء مسألة الامتيازات في الحجاز ، لأن نسبة كبيرة من المسلمين الهنود ذوى الرعوية البريطانية يترددون عليه باستمرار، وبقاء الامتيازات يجعلهم خارج سلطته. وقد قاسى منهم كثيرا منذ ضم الحجاز، خاصة وأنهم تدخلوا في عدة أمور سياسية : مثل محاولة إقامة حكومة مستقلة للحجاز تمثل فيها مختلف القوى الإسلامية.

بجانب هذه الاعتراضات طالب ابن سعود بإدخال أربعة بنود صريحة لم يشملها المشروع البريطاني . الأول : ينص بوضوح على استقلاله التام كحاكم لكل من نجد والحجاز . والثاني: ألا تعترض بريطانيا أو تعوق شراءه للسلاح والذخيرة . وقد كان ابن سعود مهتما بهذه المسألة لتوطيد دعائم حكمه وحماية بلاده، خاصة أن بريطانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى خلال صراعه الأخير مع الملك حسين قامت بفرض نوع من الحظر على تصدير السلاح والذخيرة إلى الجزيرة العربية. الثالث: أن تساعده بريطانيا في الحصول على أموال وقف الحرمين في مصر وفلسطين والعراق والهند . الرابع : الاعتراف بسيادة بلاده على ذلك الجزء من سكة حديد الحجاز الواقع في فلسطين وشرقي الأردن، باعتبار أنه من الأمور التي تخص العالم الإسلامي، وأن حكومة الحجاز هي السلطة الوحيدة التي ينبغي أن تشرف على هذا الطريق الحديدي الهام. وطالب بريطانيا بالمساهمة بما قيمته ٥٠ ألف جنيه استرليني ، بجانب كميات معقولة من الأدوات والمعدات الحديدية، حتى يكون قادراً على إصلاح الأجزاء المعطلة منها؛ والإسراع بالبدء في تنظيم حركة القطارات استعدادا لموسم الحج القادم[٥٤].

الواقع أن معظم ما ورد بمشروع المعاهدة عبر عن مصالح استعمارية سافرة، لايمكن لأى حاكم وطني قبولها. فالشرط الأول قصد به منع ابن سعود عن توجيه أية انتقادات ضد

بريطانيا بسبب نظام الانتداب عامة، والوضع في فلسطين وتأييد الحركة الصهيونية خاصة، وهو بمثابة اعتراف بالأمر الواقع وبالمركز المتميز لبريطانيا في هذه البلاد مما يجعله خائنا لقضية استقلال العرب. والثاني أثار مسألة العقبة ومعان، اللتان أصر ابن سعود على عدم الاعتراف بتبعيتهما لشرقي الأردن. والثالث يقيد حركة ابن سعود في منطقة الخليج، ويمنعه من الدفاع عن مصالحه الحيوية.

وواضح ، أن ابن سعود سعى من جانبه إلى بلوغ أقصى فائدة ممكنة من التفاوض دون تقديم تنازلات جوهرية . ولم يكن من المتوقع أن تستجيب بريطانيا إلا لمسألة الاعتراف به حاكما مستقلا . بيد أن هذا التفاوض المبكر كشف عن وجود هوة ساحقة بين الطرفين. وربما كان المشروع البريطاني مجرد عملية جس نبض للوقوف على مدى صلابة ابن سعود ومعارضته للأمور الجوهرية التي تحرص بريطانيا على تحقيقها .

بيد أن المفاوضات فشلت بسبب المغالاة في المطالب البريطانية . لم يلبث جوردان بعد ثلاثة أسابيع أن علق المحادثات . وأعد ابن سعود مذكرة وافية حملت وجهة نظره في كل ما دار في اللقاءات التي جرت معه ، ثم قام فلبي بترجمتها وتسليمها لجوردان . ولما عاد الأخير إلى بلاده أعد تقريرا تفصيليا ضمه مذكرة ابن سعود، مع تحليلات أخرى حول أسباب فشل المفاوضات . وأثنت لندن على حسن تصرف جوردان، ورأت أن فشل المباحثات جاء أفضل من توقيع معاهدة تنسجم والموقف الذي اتخذه ابن سعود. وظهر أن الحفاظ على الوضع الراهن بصورة مؤقتة هو الأنسب [٥٥].

أدى هذا الموقف إلى تبادل مكثف لوجهات النظر بين مسئولين في الخارجية ومكتب الهند وحكومة الهند [٥٦]. وبينما كان مكتب الهند يميل إلى قطع المحادثات، فإن الخارجية رغبت في الاحتفاظ بباب التفاوض مفتوحا ، وهو الاتجاه الذي حظى بتأييد قوى من جانب جوردان وأنطونيوس، والذي كانت له الغلبة بعد أن قبله على مضض مكتب الهند. ففي رسالة بعث بها بيركنهد إلى إلى جوردان في ٢٠ فبراير ١٩٢٧ أيد وقف المفاوضات بشكل مؤقت، مع إمكانية التشاور بشكل غير رسمي مع ابن سعود لأجل الوصول إلى رأى نهائي بشأن ثلاثة أمور: أمن الخليج، موضوع الامتيازات في الحجاز، العقبة ومعان[٥٧].

احتلت اعتراضات ابن سعود جزءا كبيرا من المشاورات بحثا عن مخرج ، لاسيما بشأن مسألة العقبة ومعان ، وبحثت البدائل لو سلمت المدينتان لابن سعود ، ومنها تعزيز شرقي الأردن بقوات ضخمة، والذي سيكون إجراء ضروريا للدفاع عنه [٥٨]. غير أن الرأى الغالب

كان ضرورة الاحتفاظ بالعقبة لأنها الميناء الوحيد لشرقى الأردن، ولأهميتها فى الحفاظ على السيادة البحرية فى البحر الأحمر، طبقا لما استقر عليه وقت وضع المسودة الأولى فى أكتوبر(٥٩). فى النهاية تقرر إدخال تعديلات للمرة الثانية على مسودة أكتوبر ١٩٢٦، لاسيما البنود التى أثارت اعتراض ابن سعود بشدة ، مع الإقلال قدر الإمكان من التفاصيل ، إذ قدر أنها تثير مزيدا من الصعوبات ، وتطيل أمد التفاوض .

فى فبراير ١٩٢٧ وضعت المسودة الجديدة، التى أصبحت بعد استطلاع رأى حكومة الهند المشروع الأساسى الذى صيغت عليه المعاهدة . وحملت المسودة تنازلات وإضافات جوهرية على أمل أن تؤدى إلى اتفاق (٦٠). يمكن تلخيصها فيما يلى:

* وضع نص يقر بالاستقلال التام والكامل لابن سعود كحاكم لكل من نجد والحجاز .
* حذف مطلب الاعتراف بالانتداب على فلسطين وشرقى الأردن والعراق .
* حذف مطلب الاعتراف بملكية شرقى الأردن للعقبة ومعان، والاكتفاء فى هذا الصدد حسب ما ورد بتقرير جوردان – بموافقة ابن سعود على إبقاء الوضع الراهن بالنسبة للمدينتين كما هو انتظارا لتسوية نهائية، مع الامتناع عن الدخول فى نزاع مع شرقى الأردن حول هاتين المدينتين.
* وضع نص يلزم كل طرف بأن يستعمل كل ما لديه من وسائل وفقا لترتيبات خاصة ، ليمنع مقاطعاته من أن تستخدم كقاعدة لأنشطة معادية أو غير مشروعة توجه ضد مصالح الطرف الآخر. والنص جاء بديلا ولو جزئيا عن مطلبى: ملكية شرقى الأردن للعقبة ومعان، الاعتراف بالانتداب البريطانى. واستهدف تأمين الوضع الأمنى للإدارة البريطانية فى البلدان العربية الخاضعة للانتداب وتلك الواقعة تحت الاحتلال المباشر، وهو هام لبريطانيا ، لأنها خشيت روح العداء التى أبداها الإخوان الوهابيون ، وتقاعس ابن سعود فى قمع أية أعمال عدائية من جانبهم .
* وضع نص يؤكد خضوع رعايا بريطانيا للقضاء المحلى إذا ما نشبت منازعات مع سكان محليين. وجاءت هذه الإضافة كمحاولة أخيرة لإرضاء ابن سعود، وحسم موضوع الامتيازات . ولأنها لا تشير صراحة إلى تطبيق القوانين المحلية فهى تبقى على شكل ولو مظهرى أو غامض للامتيازات [... الأفضل النص على المساواة التامة بين رعايا بريطانيا والوطنيين أمام القضاء المحلى وتطبيق كافة القوانين والنظم

الداخلية ؛ الجنائية وغيرها على الرعايا الذين يتصادف وجودهم في بلد الطرف الآخر] وتقرر التعويل على قدرة القنصل في ممارسة نفوذ قوى لمنع الإضرار برعايا بريطانيا، مع تذكير ابن سعود بأن بريطانيا لاتقبل المساس بحقوق رعاياها حتى ولو لم يرد بذلك بندا في المعاهدة.

* تعديل مادة وقف تجارة الرقيق ، فتضمنت تعهدا بالتعاون التام مع حكومة بريطانيا بكل الوسائل للقضاء على تجارة الرقيق. وجاءت المادة بهذا الشكل أخف وطأة من سابقتها. وألحق بالمادة اقتراحا في شكل توصية بأن يتم بحث مسألة تخويل القنصل في جدة صلاحية عتق الرقيق وتحريرهم بمشاورات جانبية بغية التوصل إلى اتفاق مناسب . وألغى بذلك موضوع تفتيش السفن، ومراقبة السواحل (٦١).

تبقى بعد وضع المسودة استطلاع رأى حكومة الهند في المادتين ٦،٣ (الأولى تتعلق بأمن الخليج ، والثانية تتعلق بموضوع الامتيازات في الحجاز) بالإضافة إلى موضوع أموال الوقف حتى تصبح مشروعا نهائيا. تأخر رد الهند ما يقرب من شهر، إذ بعث أيروين إلى بيركنهد برسالة مستفيضة في ٢٢ مارس ١٩٢٧ تبين بدقة موقف حكومته. فبالنسبة إلى المادة ٣ قبلتها الهند كما وردت بالمسودة . أما المادة ٦ المتعلقة بالامتيازات فقد أبدت تفهمها للصعوبات التى تعترض وضع نص واضح بشأنها في معاهدة رسمية، وترى أن مثل هذا النص (الوارد بالمسودة) لايمثل عمليا قيمة كبيرة، ومع ذلك فإنها تقبله. وبشأن أموال الوقف قدرت الهند أن وضع تعهد يلزم بريطانيا بها أمر لايمثل أدنى فائدة ، بل هو مجرد تسليم بطموحات ابن سعود دون مسوغ منطقى، وأوصت بحذف هذا التعهد . أخيرا أفصح أيروين عن شعوره بأن المسودة بهذا الشكل قد لاترضى ابن سعود ، وأنه من وجهة النظر الهندية «.. نحن نقر بوجوب استئناف المفاوضات، وإذا كتب لها الفشل إن كان مقدرا لها ذلك فيجب أن يكون من الطرف الآخر!»(٦٢).

يتضح مما سبق، أن بريطانيا الأكثر حرصا على التوصل إلى معاهدة جديدة ، فقد جاء المشروع الجديد مغايرا تماما لسابقه بالتنازل عن بعض النقاط التى كانت أساسية من قبل، وإبداء مرونة في البعض الآخر. ولاغرو في ذلك، فاشتداد التنافس الدولى على مناطق النفوذ في الشرق الأدنى، وسرعة نمو الدولة السعودية؛ وتوجهها نحو عاقات خارجية مفتوحة ساعد دون شك على هذا التحول(٦٣).

مفاوضات ابن سعود- كلايتون :

تأخر التفاوض ما يقرب من شهرين، رغم إنهاء مشروع المعاهدة الجديد قرب نهاية فبراير، بسبب استطلاع رأى حكومة الهند. وربما لتسوية بعض الأمور الشائكة التى قد تعوق المفاوضات، والبحث عن شخص مناسب يتولاها ، والتريث انتظارا لما ستسفر عنه التطورات الداخلية في الدولة السعودية ، حيث عاني ابن سعود من تجاوزات الإخوان خلال تلك الفترة[٦٤].

في أبريل ١٩٢٧ كلف جلبرت كلايتون بإحالة المشروع لابن سعود، والتفاوض ، وإنهاء موضوع المعاهدة بأقصى سرعة ممكنة. وكلف بالمهمة لأن لديه سجل حافل بالنشاط والخدمة المتميزة في الشرق الأوسط ، ولأنه في سنة ١٩٢٥ قاد بنجاح مفاوضات اتفاقيتي بحرة وجدة. وحمل تعليمات محددة بالتركيز على الأمور الجوهرية ، وعدم الإفراط في مناقشة المسائل الفرعية «فربما يتم تسويتها على نحو أيسر بعد توقيع المعاهدة» ، وبأن هذا المشروع يمثل أدنى حد ممكن من التنازلات التي يمكن أن تقدمها الحكومة البريطانية ، وأن على ابن سعود أن يقبلها أو يرفضها إجمالا [٦٥].

في ١٠ مايو ١٩٢٧ بدأت المفاوضات في جدة بين ابن سعود وكلايتون. وبعد فترة وجيزة تسربت شائعات عن محاولة التأثير على موقف ابن سعود ودفعه إلى تحالف غير متكافئ ، وتكتم الدوائر السياسية السعودية تفاصيل المفاوضات ، وسعى ابن سعود لأخذ إعانة مالية مقابل الموافقة على عدة شروط تجعل أملاكه تحت الحماية البريطانية . ولا يمكن تجاهل دور الإخوان في نشر الشائعات ، خاصة وأنهم تشككوا في نوايا ابن سعود وسعيه للحصول على السلاح حتى يتمكن من السيطرة عليهم[٦٦].

شهدت معظم مواد المشروع جدلا، جاء قويا حينا . وتعرض بعضها لتغيير أو حذف وبدا واضحا أن الحكومة البريطانية لاتعول كثيرا على المعاهدة الرسمية في حسم أمور معينة هي: عتق الرقيق، العقبة ومعان ، أمن الخليج. فقد اعتبرتها أمورا شائكة يصعب التوصل فيها إلى التزامات نهائية أو دقيقة ، وفضلت تركها لاتفاقات ثنائية أو لالتزامات أدبية تشملها مذكرات متبادلة ، أو أن يتم حسمها فيما بعد حسبما تقضى إليه تطورات كل أمر منها . واعتمدت بقوة على قدرة كلايتون في تحقيق استجابة ملائمة من جانب ابن سعود بالنسبة لهذه الأمور، واعتبر التوصل إلى اتفاق بشأنها ينسجم والرؤية البريطانية مهام جانبية مكلف بها . ولاشك

أنها استهدفت من وراء هذا الأسلوب أولا: إنهاء مسألة المعاهدة ، ثانيا : رفع الحرج عن ابن سعود داخليا وخارجيا عند حدوث أية تنازلات من جانبه .

كانت المادة الخاصة بالامتناع عن القيام بأى عمل عدائى أو تدخل فى شئون حكام إمارات الخليج الخاضعة للحماية أولى المواد التى تعرضت لتغيير. فقد سعى كلايتون إلى إقناع ابن سعود بحتمية وضع هذا التعهد، وقدم له نسخ من معاهدات الحماية الموقعة مع هؤلاء الحكام ، كمحاولة للتأكيد على أهمية الدور البريطانى فى الدفاع عن أمنهم. فأشار ابن سعود إلى مساس هذه المادة بمكانته كحاكم مستقل وهيبته فى المنطقة، وقبل كلايتون استبدال هذا النص بآخر أقل حدة وأكثر ضعفا ، يدعو ابن سعود «بأن يعمل على الاحتفاظ بعلاقات صداقة وسلام مع حكام الساحل» . حقيقة أن النص الأول كان أكثر انسجاما للمعايير الأمنية البريطانية ، إلا أن الأوضاع الإقليمية عامة ، بجانب الثقة المتوفرة فى ابن سعود ، وخصوصية العلاقات البريطانية السعودية جعلت كلايتون يتسم بالمرونة فى هذه النقطة . ومن وجهة نظره أن هذا الالتزام الأدبى تدعم ببند صريح فى المعاهدة يطلب من كلا الطرفين حظر استخدام أراضيه كقواعد لأنشطة غير قانونية ضد الطرف الآخر. ويذكر أن كلايتون تصرف فى هذا الأمر بموجب تعليمات صريحة من الخارجية بأن يقبل هذا التعديل كملاذ أخير [٦٧]. بينما ظلت حكومة الهند ومكتب الهند غير مقتنعين ، واتهما كلايتون بأنه لم يكن قادرا على تأمين حماية أكبر لإمارات الخليج، وأن قبوله وضع هذا النص قد يعرض أمن الخليج للخطر[٦٨]. يذكر أن بيركنهد لم ينس إحساسه بالضيق من التعديل الذى طرأ على نص المادة، رغم مرور أكثر من شهرين على التوقيع المبدئى الذى تم فى ٢٠ مايو ١٩٢٧، فقد كتب ويكلى L.D. Wakely سكرتير الدولة للشئون الخارجية على لسان بيركنهد إلى أيروين فى ٢٢ يوليو التالى مشاركا إياه إحساسه باليأس ، لأنه كان من الصعب استبدال نص المادة ٦ من المعاهدة الموقعة بنظيره الذى ورد بالمسودة التى قدمها جوردان أو بذلك الذى ورد بالمشروع الأصلى الذى حمله كلايتون. وأضاف ويكلى «أنه بدءا من الصفحة السادسة من تقرير كلايتون عن المحادثات يستشف أنه نجح إلى حد بعيد فى توضيح موقف بريطانيا توضيحا تاما فيما يتصل بعلاقاتها بأمراء الخليج »، وأنهى رسالته بسؤال أشبه بالتمنى مفاده «.. هل بالإمكان إثارة الموضوع مرة أخرى بمناسبة التوقيع النهائى على المعاهدة!»[٦٩].

بشأن المادة المتعلقة بالاعتراف المتبادل بالوضع الدولى لرعايا كل طرف من الطرفين، وهى الشق الأول فى موضوع الامتيازات الأجنبية؛ والمادة الأساسية التى قصدت من ورائها بريطانيا الاحتفاظ بجوهر هذه الامتيازات ، والتى حلت محل مادة الامتيازات فى المسودة السابقة ، فقد استبدل مصطلح «الوضع الدولى» بكلمة «جنسية»، وهى أكثر تعميما وأقل إشارة إلى الامتيازات الأجنبية . كما أضيف شرط يقضى بسريان أحكام القانون الدولى الذى ينظم العلاقات بين الدول المستقلة على العلاقة بين البلدين. هذه الإضافة أرضت ابن سعود لأنها- من وجهة نظره بجانب كلمة «جنسية» - تجعل حقوق رعايا كل طرف فى بلد الطرف الآخر مسألة يحكمها القانون الدولى الذى بطبيعته يفرض المساواة ولايعترف بالامتيازات . من ثم فإن أى خلاف ينشب مآله التحكيم العادل ، وهو ما يؤدى إلى إسقاط الامتيازات إن وجدت على أرض الواقع بمرور الزمن أو بالتقادم. بينما كان كلايتون مرنا فى هذه المسألة، لأن الإضافة غامضة من وجهة نظره، ولم تشر فعليا أو يفهم منها ضمنيا أنها تتعلق بالامتيازات الأجنبية (٧٠).

عند التعرض للمادة الجديدة الخاصة بموضوع خضوع رعايا بريطانيا للقضاء الوطنى ؛ وهى الشق الثانى الذى أضيف إلى موضوع الامتيازات كمحاولة لإرضاء ابن سعود، طلب الأخير موافقة الحكومة البريطانية كتابة على كافة الإجراءات التى ستتخذها حكومته لإلغاء الامتيازات الأجنبية كلية، بما فى ذلك تطبيق كافة القوانين والنظم المحلية على رعايا بريطانيا الذين يتصادف وجودهم فوق أراضى سعودية ؛ ومحاكمتهم فى كل الأحوال طبقا للقضاء المحلى. غير أن كلايتون شرح أن بلاده قدمت بالفعل تنازلا جوهريا ، عندما ضمنت المشروع هذه المادة التى تخضع الرعايا البريطانيين للقضاء المحلى إذا ما تورطوا فى نزاعات مع رعايا سعوديين. كما أنها لاتقبل إطلاقا تطبيق القوانين والنظم المحلية على رعاياها أو محاكمتهم طبقا للقضاء المحلى فى حالات لايوجد فيها تورط مع رعايا سعوديين . عند هذه النقطة اقترح ابن سعود حذف هذا النص برمته (٧١).

بالتأكيد، كان ابن سعود يشك تماما فى أن بريطانيا وضعت هذه المادة كمحاولة مستترة لتأكيد مبدأ الامتيازات فى ظل إيماءة بوقف جزء معين منها . وبمعنى آخر، فإنه رأى أن إيقاف العمل بأحد مظاهر الامتيازات يؤكد بمفهوم المخالفة وجود ما تبقى منها .

يذكر، أن ابن سعود أبدى ترددا واضحا بشأن موضوع الامتيازات فى مجمله، فقد سبق

ورفض مادة الاعتراف بالوضع الدولي أثناء مفاوضاته مع جوردان إلا لو أضيف شرط خضوع رعايا بريطانيا للقضاء المحلي ، لكنه عاد ورفضه على النحو السابق، ثم قبل المادة بإضافة شرطا جديدا يقضي بسريان أحكام القانون الدولي. ويعكس ذلك حرصا شديدا إزاء المواد التي تتحدث عن وضع متميز لبريطانيا في بلاده.

لعل أهم المواد التي شهدت جدلا شديدا ، تلك الخاصة بإلزام كل طرف بأن يستعمل كل ما لديه من وسائل وفقا لترتيبات خاصة، ليمنع مقاطعاته من أن تستخدم كقاعدة لأنشطة معادية أو غير مشروعية توجه ضد مصالح الطرف الآخر. وبينما قدم كلايتون تنازلا في مجال الامتيازات الأجنبية، قدم تنازلا أهم في إطار هذه المادة، وربما تجاوز ما كان لديه من تعليمات صريحة بوجوب موافقة ابن سعود على هذه المادة برمتها . فقد وافق على عبارة بديلة، بأن يتعهد كل من الفريقين بأن يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الآخر، وبأن يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للأعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلم والسكينة في بلاد الفريق الآخر[٧٢]. اختلفت الصياغتان في أربع نقاط « أ) كلمة «يسعى» بدلا من كلمة «يستعمل» ، والأولى أخف إلزاما لأن «السعي» لا يتطلب بالضرورة استخدام القوة (ب) حذف «وفقا لترتيبات خاصة»، وهي قد تفيد التشاور مع الطرف الآخر، ومن ثم فإنها تمثل قيدا (ج) حذف «أنشطة معادية»، والاكتفاء «بغير مشروعة»، وجعلت المجال متاحا أكثر في التعامل مع قضايا الأمة العربية ذات الطابع القومي، فكلمة «معادية» كلمة مطاطة قد تفسر علي أكثر من وجه ، بينما «غير مشروعة» مقيدة بالأحوال التي يمنع فيها القانون أفعالا معينة بذاتها . د. «مصالح الطرف الآخر» استبدلت بعبارة «السلم والسكينة في بلاد الفريق الآخر» «وبدورها تعطي حرية أكثر في العمل، فقد يأتي النشاط غير ماسا بالسلام والهدوء لكنه مؤثر على مصالح الطرف الآخر. بشكل عام ، جاء التعديل، ولو أنه مقيدا إلى حد ما، في صالح ابن سعود، إذ أتاح له حرية أكثر في التعامل مع القضايا ذات الطابع القومي. بينما نظر كلايتون إلى التعديل على أنه قليل القيمة، باعتبار أنه لايؤثر كثيرا على روح المادة، كما أنه رأى أن ابن سعود لايستطيع الإضرار بمصالح بلاده في البلدان الخاضعة لهيمنتها المباشرة وغير المباشرة ، لأنه لايريد أن يسئ إلى علاقاته الطيبة مع بريطانيا ، ولايملك قدرة مادية أو معنوية تكفل له القيام بذلك بشكل مؤثر [٧٣].

كذلك شهد الاقتراح المتعلق بموضوع عتق الرقيق مباحثات مكثفة . وأوضح كلايتون أن حكومته لاتطلب إلغاء الرق في الأراضي السعودية ، لأنها تدرك تماما صعوبة اتخاذ هذا

الإجراء العنيف ، الذى ربما يتسبب فى ثورة داخلية أو تمرد سياسى يصعب السيطرة عليه. ثم ذكر أن الرأى العام فى بريطانيا يعارض بشدة الرق، ويستحيل على الحكومة البريطانية أن تتخلى عن دورها الهام والثابت منذ فترة طويلة فى عتق الرقيق . وأصر ابن سعود على اعتراضه السابق بتحرير الرقيق فى بلاده عن طريق موظفى قنصلية أجنبية، ووصف ذلك بأنه تدخل غير مقبول فى شئونه الداخلية . وألمح ، أنه ربما يكون أكثر استعدادا لتقبل إجراءات العتق ، لو أن بريطانيا قدمت له تعويضا ماليا مناسبا ، وتركت مسألة العتق لإجراءات داخلية تتخذها السلطات السعودية . ورد كلايتون، أن حكومته ليس باستطاعتها إطلاقا أن تقبل مثل هذا الالتزام ، لأنه يعادل مبدأ التسامح ، ويمثل سابقة خطيرة ربما تؤدى إلى تشجيع أى نظام آخر إلى الاقتداء بها ، فيرى فى إجراءات العتق مناسبة جيدة للحصول على مساعدات . بيد أن ابن سعود قبل أن يأتى نصا فى المعاهدة، يتعهد فيه بالتعاون التام بكل ما لديه من وسائل مع حكومة بريطانيا للقضاء على تجارة الرقيق. كما قبل تخويل القنصل البريطانى صلاحية عتق الرقيق شريطة أن يلجئوا إلى القنصلية ، وألا يتعرض للرقيق الملكى بأية شكل من الأشكال، وأن يعمل القنصل طبقا لروح الود التى تسود العلاقات المتميزة بين البلدين(٧٤). ينكر أنه بالنسبة للشق المتعلق بصلاحيات القنصل لم يرد بشأنه نص فى المعاهدة ، طبقا لما ورد بالمسودة.

تناولت المفاوضات أربعة أمورا أخرى لم يشملها المشروع الجديد. الأول: ضمان عدم حدوث تعدى على العقبة ومعان. وكان كلايتون قد كتب رسالة لابن سعود قبل بدء المفاوضات، بين فيها وجهة نظر بلاده، واستهلها بتذكيره بأن بريطانيا كانت ولاتزال تصر على اعتبار العقبة ومعان جزءا من شرقى الأردن، وأنها ترى أن الحدود مع الحجاز تبدأ جنوبى العقبة . وأعقب ذلك أن كتب ابن سعود خطابا أكد على موقفه السابق بعدم الاعتراف الصريح بتبعيتهما لشرقى الأردن، ثم أقر بالإبقاء على الوضع الراهن كما هو ريثما يتم إيجاد حل نهائى للمشكلة(٧٥).

الثانى: موضوع شراء الأسلحة. وقد وافق كلايتون على السماح لابن سعود بشراء أسلحة دون قيود محددة. ورغم أن تسليحا جيدا للجيش سعودى قد يجعله قادرا على تهديد مصالح بريطانية هامة فى الشرق الأوسط فإن كلايتون استبعد وقوع مثل هذا التهديد. أولا : بسبب حرص ابن سعود الدائم على صداقة بلاده. ثانيا : بموجب اعتقاد بأن السلاح لن يستخدم إلا للدفاع عن الأراضى السعودية إذا ما تعرضت لاعتداء؛ ولترسيخ سلطة ابن سعود فى الداخل،

وهى أمور تحرص عليها بريطانيا . ثالثا : لأنه قادر على شراء السلاح من أى مكان آخر، إن لم يشتريه من بريطانيا . رابعا : إقناع ابن سعود بشراء الأسلحة من شركات بريطانية ، وبالتالى فإنه يمكن للحكومة البريطانية أن تمارس نوعا من الرقابة على الصفقات ، وتحقق قدرا من النفوذ مع استمرار ابن سعود فى الاعتماد على هذه الشركات فى مجال استمرار المد والتزويد بالأسلحة والذخيرة ، بجانب اعتماده على الجيش البريطانى فى مجال التدريب ولو لزم الأمر(٧٦).

الثالث : موضوع المساعدة فى الحصول على أموال الوقف المخصصة للحرمين، ورفض كلايتون إقحام بريطانيا فى أمر كهذا باعتبار أنه موضوع إسلامى يتحتم تسويته بين الدول الإسلامية . وأضاف أن بلاده سوف تلتزم بسياستها التقليدية القائمة منذ أمد بعيد بعدم التدخل فى المسائل الدينية، وأنه لايعقل مثلا أن تفرض حكومته طلبا على الهند بدفع أموال الوقف لابن سعود ، كما أن إسهام بريطانيا فى جمع أموال الوقف قد يفسر على أنه تدخل فى شئون الحجاز ، فيثير رعاياها المسلمين فى الهند وخارجه . يذكر أن حكومة الهند أبدت اعتراضا شديدا على هذا الطلب، وبموجب ذلك نصح كلايتون باتخاذ هذا الموقف (٧٧). كما أن موقف كلايتون انسجم مع موقف فيصل ملك العراق، الذى عارض بقوة تسليم أموال الوقف العراقية لابن سعود ، لأسباب مختلفة سياسية وشخصية(٧٨). بيد أن ابن سعود لم يتمكن من تفنيد الذرائع التى طرحها كلايتون ، وتعين عليه قبول الموقف البريطانى .

الرابع : رفض كلايتون طلب ابن سعود باعتراف بريطانيا بسيادته على هذا الجزء من سكة حديد الحجاز الواقع فى فلسطين وشرقى الأردن. وبيّن أنه مسألة تهم فرنسا التى تسيطر على أجزاء من الخط الحديدى تمر عبر الأراضى السورية . ومن ثم لايمكن أن يرد مثل هذا الأمر فى معاهدة ثنائية بين ابن سعود وبريطانيا . علاوة على ذلك، تذرع كلايتون بأن سكة حديد الحجاز كانت من أملاك الدولة العثمانية ، وأنه طبقا لشروط معاهدة السلام الموقعة فى لوزان Lausanne عام ١٩٢٣ تؤول ملكيتها إلى كل الدول التى تقع أجزاء من الخط الحديدى فى أراضيها كل بحسب حصتها(٧٩).

إعلان المعاهدة:

فى ٢٠ مايو ١٩٢٧ وقعت المعاهدة مبدئيا ، وأطلق عليها «معاهدة جدة ١٩٢٧». وبعد أسبوع أعلنتها الحكومة السعودية فى صورة بيان مقتضب نشرته جريدة أم القرى، جاء به: «وصل السير جلبرت كلايتون والمستر جوردان المعتمد البريطانى السابق فى جدة والمستر

جورج أنطونيوس وكيل إدارة المعارف بفلسطين إلى جدة. للبحث فى وضع معاهدة تضمن الصداقة وحسن التفاهم بين الحكومتين على أساس احترام السيادة القومية والسلطان القومى المطلق. ودامت المفاوضات مدة عشرة أيام، وأنتجت معاهدة على الأساس المتقدم. وقد وقعها سمو الأمير فيصل نائب جلالة الملك باسم الحجاز ونجد وملحقاتها والسير جلبرت كلايتون باسم الحكومة البريطانية. وستكون المعاهدة مبرمة بعد توقيع ملكى بريطانيا والحجاز عليها»(٨٠).

ثم أقرت المعاهدة رسميا فى ١٧ سبتمبر ١٩٢٧ . ونشرت أم القرى نصها باللغة العربية فى العدد التالى مباشرة ، مرفقا به أربعة ملاحق، فى صورة خطابات رسمية بعث بها كلايتون إلى ابن سعود مع رد من الأخير .

الأول: يتناول الرد على اقتراح من جانب ابن سعود بوضع مادة فى المعاهدة تشترط على الحكومة البريطانية عدم الممانعة في شراء وتوريد الأسلحة وغيرها من اللوازم الحربية . وجاء به «أن بريطانيا ترى أن هذه مسألة لاتحتاج إلى ذكر فى المعاهدة. وأن كلايتون مفوض بإبلاغه رفع الحظر المفروض على تصدير الأدوات الحربية إلى جزيرة العرب، وأن ابن سعود يستطيع أن يطلب ما يحتاج إليه من شركات بريطانية بمقتضى اتفاقية الاتجار بالأسلحة (١٩٢٥) .

الثانى : يتعلق بموضوع العقبة ومعان ويبين فيه كلايتون موقف بلاده بشأن الحدود بين شرقى الأردن والحجاز، وطلب وضع رسالته ضمن ملاحق المعاهدة . وقد جاء رد ابن سعود واضحا بأن يرى أن تسوية هذه المسألة فى الظروف الراهنة أمر متعذر ، وأنه مستعد لإبقاء الحالة على ما هى عليه، مع وعد بعدم التدخل في إدارتها إلى أن تحين الظروف المناسبة لتسوية نهائية . ثم أعلن أنه لايقبل إضافة رسالة كلايتون بشأن هذا الموضوع ضمن ملاحق المعاهدة .

الثالث : جاء بخصوص مسألة تجارة الرقيق . وقد أكد كلايتون إصرار بلاده على ممارسة حق عتق الأرقاء، وأشار إلى أنه حق قديم مارسه قناصل بريطانيون من قبل، وبموجبه يمكن للقنصل أن يطلق سراح أى عبد يتقدم إليه من تلقاء نفسه، ويطلب تحريره وإعادته إلى مسقط رأسه. وأن بريطانيا تنأى بنفسها أن يكون هدفها التدخل فى شئون المملكة الحجازية النجدية. كما أنها على استعداد أن تعيد النظر فى حق العتق إذا ما تبين للطرفين أن التعاون

المنصوص عليه في المادة السابعة من المعاهدة قد أدى إلى تدابير عملية كافية لإبطال حق الاعتاق . ورد ابن سعود أنه يثق بأن المعتمد البريطاني في جدة سيكون محافظا على روح التفاهم التي تحكم هذا الموضوع الذي قد يؤثر على الحالة الإدارية والاقتصادية، ولايدع مجالا للمبالغة في هذا الموضوع الشائك.

الرابع : بشأن تسليم ممتلكات الحجاج من رعايا جلالة ملك بريطانيا الذين يتوفون بأرض الحجاز إلى المعتمد البريطاني في جدة. وأكد فيه كلايتون أن الغرض من إدخال هذه المادة هو : أولا: وضع المعاملة المتبعة الآن على أساس رسمي. ثانيا: أن تقدم لبريطانيا تأكيدات تمكنها من إعلان أسس المعاملة المتبعة الآن لجميع المسلمين في البلاد البريطانية . ثم أكد كلايتون أن هذه المادة لاعلاقة لها بالتصرف في مخلفات غير الحجاج، التي لاتزال تخضع لقواعد المقابلة بالمثل ، التي هي أساس التعامل التقليدي المعتاد بين البلاد المستقلة . وأكد ابن سعود في رده أن هذا هو المتبع بالفعل في بلاده(٨١).

اشتملت المعاهدة على ديباجة ، وإحدى عشرة مادة . ويكاد يتطابق النصان العربي والإنجليزي في مضمونها . الديباجة جاءت في شكل إعلانين عن ملكي الحجاز ونجد وبريطانيا العظمى عن رغبتهما في وضع معاهدة تعمل على توطيد العلاقات الودية السائدة بين البلدين.

أما المواد، فالأولى: تنص على اعتراف بريطانيا بالاستقلال التام المطلق لصاحب الجلالة ملك نجد والحجاز. الثانية : عن سيادة السلم والصداقة بين الدولتين ، والتعهد باستخدام الوسائل المتاحة لمنع الأعمال غير المشروعة . الثالثة : عن تسهيل أداء فريضة الحج لجميع الرعايا البريطانيين. الرابعة : تختص بتسليم مخلفات من يتوفى من الحجاج المشمولين بالحماية البريطانيين للمعتمد البريطاني في جدة. الخامسة: تشير إلى اعتراف متبادل بجنسية رعايا كل من الدولتين في بلد الطرف الآخر، على أن تراعي قواعد القانون الدولي السائد بين الحكومات المستقلة. السادس: تعهد ابن سعود بالمحافظة على علاقات الود والسلم مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العماني الذين لهم معاهدات خاصة مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية . السابعة : تعهد ابن سعود بالتعاون بكل ما لديه من الوسائل مع صاحب الجلالة البريطانية في القضاء على الاتجار بالرقيق . الثامنة: شكلية تختص بوجوب إنهاء كافة الأمور التي تجعل المعاهدة سارية المفعول ، مع بيان أن مدة العمل بها هي سبع سنوات قابلة للتجديد بشكل تلقائي ، مع حق كل طرف في إبداء رغبته في إنهاء العمل بها قبل انتهاء مدتها

بستة أشهر، وتعتبر منتهية في هذه الحالة بعد انقضاء مدتها . التاسعة : تنص على إنهاء العمل بمعاهدة دارين ١٩١٥ . العاشرة : شكلية خاصة بتدوين المعاهدة باللغتين العربية والإنجليزية، مع التنويه أن للنصين قيمة واحدة، وعند وقوع خلاف حول تفسير أى بند أو جزء يرجع إلى النص الإنجليزى . الحادية عشرة : شكلية تتعلق بتاريخ التوقيع فى ٢٠ مايو ١٩٢٧ (٨٢).

بإعلان المعاهدة رسميا تعرضت لانتقادات وتأييد من كلا الجانبين . فمؤرخون وكتاب عرب رأوا، أن المادة الثانية بمثابة إجهاض لأية دعوة مناهضة للاستعمار فى الحجاز ونجد، وهو أمر غير جائز شرعا، وأن ابن سعود لايستطيع الوفاء بهذه المادة. كما قيل أنها بنيت على عدم المساواة لأن بريطانيا لاتستطيع منع خصوم الحكم السعودى للحجاز فى الهند من ممارسة دعايتهم الموجه ضد ابن سعود. بينما أثنى على موقف الأخير من مسألة العقبة ومعان، وقيل أن إصراره على عدم الاعتراف بضم المدينتين لشرقى الأردن نبع عن رغبة فى مقاومة النفوذ البريطانى ومنعه من الاقتراب إلى الأراضى الحجازية المقدسة. واضح أن معظم الآراء التى انتقدت المعاهدة أو أثنت عليها تأثرت بطابع قومى عربى أكثر من تأثرها باعتبارات تتعلق بمستقبل الحكم السعودى ذاته(٨٣).

فى المقابل رأى مؤرخون بريطانيون أن المعاهدة كانت أمرا حتمياً فرضته اعتبارات إقليمية ودولية، لكنها لم تضمن الحد الأدنى من المصالح البريطانية. وذكروا أن التنازلات التى وقعت أدت إلى إرباك السياسة البريطانية فى المنطقة. وتمثلت أهم الانتقادات فى عدم وجود نص واضح يلزم ابن سعود بعدم اتخاذ بلاده ساحة للأنشطة المعادية للمصالح البريطانية ، وضعف الماة ٦ المتعلقة بأمن الخليج، وعدم الاحتفاظ بالامتيازات كما كانت قبل ضم الحجاز(٨٤). وأيا كانت الانتقادات التى قد تبدو هامة من وجة نظر قائليها، فهى أمر طبيعى تتعرض له أغلب المعاهدات التى من هذا النوع.

المعاهدة فى مجال التطبيق :

بيد أن هذه الانتقادات لم تؤثر فى وضع المعاهدة واستمرار العمل بها وتوطيد دعائم العلاقات السعودية البريطانية. وحتى بداية الأربعينات شهدت العلاقات نشاطا دبلوماسيا يقوم على التفاهم والتعاون، وبدا تأثير المعاهدة قويا خلال هذه الفترة.

في أعقاب التوقيع المبدئي عينت بريطانيا ف. هـ استون F.H. Stone قنصلا جديدا لها في مملكة نجد والحجاز. في تلك الأثناء تزايدت حوادث توغل الأجانب لا سيما من الأمريكيين في أراضي الحجاز لممارسة النشاط التبشيري، فشارك القنصل الجديد بجهد ملحوظ أثمر عن تدخل المندوب السامي البريطاني في فلسطين لمنع دخول الأجانب الحجاز دون تصريح . ويرجح ، أن هذا الجهد ساعد في وضع حد للنشاط التبشيري، إذ لم يرد ذكر شيئا عن مثل هذا النشاط فيما بعد . ولاشك أن موقف القنصل انسجم مع روح المادة الثانية التي تقضي بمنع الأعمال غير المشروعة في أرض الطرف الآخر (٨٥).

كما تعاون ابن سعود إيجابيا مع بريطانيا في اتخاذ إجراءات حازمة ضد النشاط الشيوعي في الحجاز واليمن، دون أن يعر التفاتا للعلاقات التجارية الهامة مع الاتحاد السوفيتي، وذلك التزاما بروح المادة الثانية أيضا (٨٦).

خلال تلك الفترة دخلت المعاهدة في اختبار حقيقي أثبتت خلاله قوتها وفائدتها للحكم السعودي. ففيما بين عامي ١٩٢٨ / ١٩٢٩ دأب هنري دوبس H. Daubs المندوب السامي في العراق على بناء الحصون على الحدود العراقية السعودية لمنع توغل الإخوان، مما أثار الأخيرين ، الذين تعددت هجماتهم على قبائل عراقية في مناطق الحدود. فاضطر ابن سعود للتدخل تطبيقا للمادة الثانية أيضا . وتحرج مركزه كثيرا بعد أن رفض قادة الإخوان الانسحاب من مناطق الحدود، ودبروا ثورة ضده وسارعت بريطانيا بتقديم دعما هاما عندما وافقت على صفقة بيع أسلحة لابن سعود بقرض مالي طويل الأجل قيمته ٢٠٩٥٨ جنيها استرلينيا ، كي يحكم قبضته على الداخل (٨٧). ثم دفعت حكومة العراق إلى إزالة نقطة حراسة شهيرة على الحدود كانت تسمى «بوسيه» حتى توفر له دعما معنويا في مواجهاته مع الإخوان، لاسيما بعد تزايد حدة الانتقادات التي وجهت إلى المعاهدة، التي وصفت بأنها جاءت في صالح بريطانيا وحلفائها على حساب قوة واستقلال نجد والحجاز . كذلك استجابت بريطانيا لطلب ابن سعود بمنع العراق والكويت من إيواء الإخوان المتمردين . لكنها لم تستجب لطلب تقدم به سنة ١٩٣٠ بضم أربعة مناطق تقع شرقي الإحساء باعتبار أنها تابعة لإمارات الخليج الواقعة تحت الحماية (٨٨). على أي حال، فالمساندة التي قدمت لابن سعود مكنته من وقف ثورة الإخوان وإعادة تثبيت سلطته .

أفضت التطورات السابقة إلى تطوير العلاقات الدبلوماسية في عام ١٩٣٠، فرفعت بريطانيا قنصليتها إلى سفارة ، وعينت أندروبن Androben مفوضا لدى المملكة ، كما عين الشيخ حافظ وهبه وزيرا مفوضا لدى بريطانيا (٨٩).

كان من المتوقع ، أن تشهد الأربعينات دعما أكثر للعلاقات السعودية البريطانية. غير أن الواقع سار فى غير هذا الاتجاه. إذ سرعان ما تبنى أندروين سياسة تسببت فى خلق توتر بين البلدين. فقد دأب على محاولة توطيد نفوذ بلاده بأسلوب اتصف بالصلف والجمود واتخذ فى ربيع سنة ١٩٣٢ موقفا كاد يعصف بالعلاقات بين البلدين، وقيل أن ذلك كان بسبب تخويله كقنصل حق عتق الرقيق الذين يلجئون إلى السفارة. فقد لجأ عبد كان قد أهدى إلى ابن سعود إلى السفارة فى جدة، وطلبت الحكومة السعودية إعادته لأنه من عبيد الملك، الذين يجب عدم قبولهم طبقا للاتفاق الثنائى بين كلايتون وابن سعود، فما كان من أندروين إلا أن رفض ونقل العبد إلى إحدى البوارج البريطانية . وآثر ابن سعود الهدوء وأمر بعدم استعمال القوة فى منع ركوب العبد، وتفادى بذلك أزمة خطيرة . ثم بعثت الخارجية السعودية بمذكرة احتجاج حادة إلى الحكومة البريطانية، لم يكن لها تأثير ثم أقدمت بريطانيا على تضمين شرط فى معاهدة روما الموقعة مع إيطاليا ١٩٣٨، يمنع الأخيرة من ممارسة أى نشاط سياسى داخل أراضى ابن سعود. وبطبيعة الحال، لعبت معاهدة جدة دورا هاما فى تضمين هذا الشرط .

وكانت معاهدة روما تدعو أيضا إلى تحقيق التوازن بين يحيى وابن سعود، ونصت على منع تدخل الأخير فى شئون عسير مقابل منع تدخل إيطاليا فى شئون المملكة النجدية الحجازية . فأبدى ابن سعود رسميا تحفظه إزاء معاهدة روما ، وعدم الاعتداد بأية شروط تحد من حرية بلاده فى التصرف ، إذ رأى فيها محاولة استعمارية مكشوفة لتقسيم البلاد المطلة على سواحل البحر الأحمر، ووضع نجد والحجاز ضمن مناطق النفوذ البريطانى [٩٦]. الواقع، أن بريطانيا لم تستبعد نشاطا إيطاليا مكثفا يدفع الإمام يحيى حاكم اليمن لعداء ابن سعود والاستيلاء على عسير التى كانت موضع تنافس محتدم وخاضعة وقتذاك لنفوذ سعودى قوى. وقد وجب عليها التزاما بروح معاهدة جدة مساندة ابن سعود، إلا أنها لم تفعل، وآثرت التعامل مع الأزمة فى إطار مصالحها الاستعمارية العليا ، وظلت تحرص على تطبيق معاهدة روما ، وتنكرت بذلك للمكاسب الإقليمية التى حققها ابن سعود فى عسير، وأبدت اعتراضها على أية تسويات تبرم مع اليمن دون تشاور مسبق[٩٧].

شهدت فترة الأربعينات أيضا مواقف إيجابية من جانب ابن سعود إزاء قضية فلسطين فقد ساعد فى حركة النضال العربى فى فلسطين رغم الحظر الوارد بها بشأن منع القيام بأعمال غير مشروعة فى مناطق واقعة تحت سيادة الطرف الآخر[٩٨].

أثناء الحرب العالمية الثانية، مارست بريطانيا ضغوطا على ابن سعود حتى لايسمح بظهور نشاط ألماني في بلاده ووقفت ضد تأسيس مفوضية ألمانية في جدة بزعم عدم وجود مصالح تستوجب وجودها . كما قدمت إليه مساعدة قدرت بنحو ٤٠٠ ألف جنيه استرليني دعما لجهوده في مساندة الحلفاء. ولعب ابن سعود بالفعل دورا بارزا في الحفاظ على الاستقرار في الجزيرة لصالح بريطانيا والحلفاء[٩٩]. لكن ربما كان هذا الدور نابعا من خوف على مستقبل البلاد أكثر من كونه حرصا على تنفيذ بنود معاهدة جدة أو الولاء لبريطانيا.

يذكر، أن معاهدة جدة جددت رسميا مرتين لمدة سبع سنوات، مع إدخال تغييرات ثانوية. الأولى سنة ١٩٣٦، في أعقاب اجتماع عقد بوزارة الخارجية السعودية بجدة في ٣ أكتوبر حضره يوسف ياسين وزير الخارجية ورِيد بولارد R. Bullard الوزير البريطاني المفوض، حيث اتفق على تجديد المعاهدة مع إدخال التعديلات الآتية: تنازل بريطانيا عن حق عتق الأرقاء الذين يلجأون إلى القنصل في جدة . السماح للحكومة السعودية بشراء أسلحة بريطانية حسب الأنظمة الخاصة بتصدير السلاح المعمول بها في بريطانيا وقت التصدير. قيام الحكومة السعودية ببيع مخلفات الحجاج البريطانيين أو بعضها بناءً على طلب الحكومة البريطانية وتسليم قيمتها للمفوضية البريطانية بجدة . جعل اللغة العربية مساوية للغة الإنجليزية في النص والتفسير. احتفاظ الحكومة السعودية بموقفها بالنسبة للعقبة ومعان[١٠٠]. الثانية سنة ١٩٤٣، حيث أشير إلى تجديدها بشكل تلقائي ما لم يخطر أحد الطرفين الآخر برغبته في إنهائها خلال ستة أشهر قبل حلول موعد التجديد [١٠١].

خاتمـــــة

لاشك ، أن ابن سعود كان حاكما إقليميا واقعيا، سعى لتحقيق هدف أسمى هو إعادة ملك أجداده، وتوطيد دعائم قوية. تعامل مع الأحداث بقدر كبير من التريث والحكمة وفهم تماما أبعاد اللعبة السياسية فى المنطقة، فسار على نهج معتدل فى التعامل مع بريطانيا كقوة عظمى، لم يستهن بقدراتها وتأثيرها ، ولم يستسلم لأطماعها ولم يضع ثقة كاملة فى سياستها تجاهه. آمن بدوره فى خدمة قضايا الأمن القومى العربى بالقدر الذى يتفق وحماية وضعه الإقليمى. قدرت بريطانيا حكمته السياسية وتفهمه لكثير من مشكلات المنطقة . امتازت علاقته بالمسئولين البريطانيين الذين قدر له الالتقاء بهم بقدر من الاحترام المتبادل ، فكان ذلك داعيا لنجاح اتصالاته معهم.

من المؤكد أن ابن سعود لم يرض عن معاهدة دارين ١٩١٥، التى جعلته تابعا لبريطانيا وخاضعا لحمايتها. فقد وقعها فى ظروف طارئة نجمت عن الحرب، وظل يتحين الفرصة للتخلص منها. ولما نجح تدريجيا فى توسيع رقعة ملكه ، بضم جبل شمر ١٩٢١، والحجاز ١٩٢٥ ، وفرض الحماية على عسير ١٩٢٦ تغير وضعه الإقليمى، وتطلع إلى تغيير علاقة التبعية التى فرضتها تلك المعاهدة. أما بريطانيا فإنها لم تستطع أن تتجاهل طبيعة ومغزى التغير الذى طرأ عليه، ورأت بدورها أن معاهدة دارين لاتكفى وغير مناسبة . وبدت أكثر قلقا على مصالحها فى الحجاز ونجد لو استمر العمل بالمعاهدة السابقة، وخشيت من تحول ابن سعود إلى قوة أخرى خارجية تسانده أو من تغلغل النفوذ الأجنبى فى بلاده لو تعنتت فى مسألة تغيير المعاهدة.

من الثابت ، أن ضم الحجاز جاء سببا مباشرا فى السعى إلى تغيير العلاقة القائمة بين الطرفين ، ووضع معاهدة جديدة . فالفكرة نبتت لأول مرة عند زيارة كلايتون الأولى إلى الحجاز أثناء حصار جدة فى نوفمبر ١٩٢٥ . ثم سارعت الخارجية بوضع مسودة معاهدة لم تستند إلى دراسة متأنية تحت وطأة معاناة الحجاج البريطانيين أثناء موسم ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) . لذا فقد طرأ عليها تغييرات قبل أن تقدم لابن سعود بعد استطلاع رأى أولئك الذين لهم صلات وثيقة به ويعرفون اتجاهاته ومواقفه . ثم جرت مفاوضات مكثفة على مرحلتين: الأولى: بين ابن سعود وجوردان فيما بين نوفمبر وديسمبر ١٩٢٦ . الثانية: بين ابن سعود وكلايتون خلال أبريل ومايو ١٩٢٧ . قامت المفاوضات على أساس مسودتين مختلفتين الأولى حملها جوردان والثانية كلايتون، ورفضت الأولى بالكامل، أما الثانية فقد كانت امتدادا

للأولى بعد إدخال تعديلات جوهرية تناسبت ورد فعل ابن سعود وما أبداه من مطالب، وجرى عليها هى الأخرى أثناء التفاوض تعديلات تكاد تكون جوهرية.

خلال مرحلة التفاوض أثبت ابن سعود أنه خصم عنيد ومفاوضا شديد المراس، استطاع أن يفرض نسبيا كلمته خلال رحلة التفاوض منذ أن بدأها مع جوردان، لاسيما فى الأمور التى بدا إصراره عليها قويا مثل: عدم الاعتراف بالانتداب البريطانى على العراق وفلسطين وشرقى الأردن، أو بتبعية العقبة ومعان لشرقى الأردن، وعدم التعهد بأية صورة بالامتناع عن مهاجمة إمارات الخليج. بجانب نجاحه فى منع أية إشارة إلى وجود امتيازات أجنبية فى بلاده، رغم أنه فى هذا الوقت كان لبريطانيا مركزا إقليميا مرموقا وشرعيا فى مجال الامتيازات فى عدد من البلدان الإسلامية مثل: مصر وإيران.

أظهر ابن سعود حرصا شديدا إزاء التلاعب بالألفاظ التى تتبعها الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا. ولعله استفاد من درس الحسين وتعهدات بريطانيا إليه إبان ثورة ١٩١٦، فلم يقبل أية عبارات تحمل تورية أو معنى ضمني يؤثر في مستقبل بلاده. كذلك فإنه أظهر حرصا على الأمن القومى العربى، فلم يقبل أية إشارة تفيد موافقته على نظام الانتداب أو أى وضع متميز لبريطانيا فى المنطقة العربية.

خضعت ثلاث مواد فقط (الثانية، السادسة ، السابعة) من بين الإحدى عشرة مادة لنقاش وتبادل فى الرأى . بينما الأخرى لم يحدث بشأنها جدل، لأنها لم تكن موضع خلاف أو لأنها مواد شكلية سهل الاتفاق عليها. كذلك حوت المفاوضات موضوعات هامة لم يرد بشأنها نصوصا محددة فى المعاهدة بينما وردت فى ملاحقها ، أبرزها : العقبة ومعان ، شراء الأسلحة، تحرير الرقيق. ورغم الاتفاق على أن يكون تخويل القنصل حق تحرير الرقيق الذين يلجئون إليه اتفاقيا ثنائيا غير معلن إلا أن كلايتون ضمنه خطابه الذى مثل جوهر الملحق الخاص بتجارة الرقيق ، لكن الخطاب ورد ابن سعود تجاهلا منع القنصل من عتق الرقيق الملكى حال توجههم إلى القنصلية ، وهو الأمر الثابت فى المفاوضات التى سبقت التوقيع. بذلك تكون هذه الجزئية هى الأمر الوحيد الذى لم يبرز رسميا فى المعاهدة أو ملاحقها ، ويعتبر بمثابة اتفاق سرى.

فى مجال التطبيق ، ساهمت المعاهدة إلى حد بعيد فى الاحتفاظ بعلاقات ثنائية وطيدة. وكانت المادة الثانية التى تحدثت سيادة السلم والصداقة بين الدولتين، والتعهد باستخدام الوسائل المتاحة لمنع الأعمال غير المشروعة أكثر المواد تطبيقا .

لقد ظلت العلاقات السعودية البريطانية تتسم في معظم مراحلها منذ توقيع معاهدة جدة بروح الصداقة والتعاون . وظل ابن سعود يعترف لبريطانيا بمركز ممتاز حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية. حيث أخذ النفوذ البريطاني يخبو تدريجيا ، ويقل تأثير المعاهدة، حتى توقف العمل بها مع بداية الستينات ، مع تفاقم النزاع حول واحة البوريمي بين المملكة العربية السعودية ودولتي الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان .

نتائج عامة :

أفرزت دراسة معاهدة جدة ١٩٢٧ نتائج عامة تنطبق على غيرها من المعاهدات . تأتي تلك النتائج بمثابة مسلمات أو قواعد ثابتة أو اعتبارات تؤثر في كل حالة مشابهة ، فهي قواعد عامة مجردة تصلح للتطبيق على الحالات المشابهة . يمكن ذكرها فيما يلي :

* يظهر الاتجاه إلى عقد معاهدة عندما يصبح لدى طرفين أو أكثر مصالح متبادلة كل منهم يسعى إلى تحقيقها أو الحفاظ عليها، أو أن تكون العلاقات في حاجة إلى تنظيم أو إعادة تنظيم بالقدر الذي يحافظ على هذه المصالح المتبادلة.

* يتحكم في المفاوضات التي تسبق بلوغ معاهدة ما اعتبارات هامة : مثل مدى ما يتمتع به الطرف المفاوض من أوراق ضغط تتمثل في اعتبارات استراتيجية أو أمنية أو اقتصادية أو غيرها، قدرته على المناورة والإقناع، الظروف الدولية والإقليمية المحيطة.

* يتوقف نجاح التفاوض على درجة الحرص في نجاحه ، وهي بدورها تتوقف على قوة الاعتبارات التي تدفع إلى الاتفاق .

* تتأثر مرحلة التفاوض بالخطوط الفاصلة أو الحمراء . وهي خطوط تفصل بين ما يمكن التنازل بشأنه ومالايمكن . أو بمعنى آخر تحدد مجال التنازلات المتاح لكل طرف أن يعمل في إطاره . وتكون المفاوضات أكثر اقترابا من النجاح كلما اتسع مجال التنازلات .

* يصعب أن تأتي معاهدة تتمتع برضاء كافة الأطراف ، فهي بطبيعتها تحمل تنازلات من أطرافها ، تكون بدورها مثار انتقادات شديدة.

* يعتبر إرجاء البت في الأمور الحساسة إحدى وسائل الخروج من مأزق تحديد المواقف، وهو تدبير شائع يتخذ عند عقد المعاهدات، وكثيرا ما يحمل ضررا للطرف الأقل قوة.

* غالبا ما تلجأ الدول الأقوى إلى تفادى الاعتراف بحدود سياسية دقيقة، إذ يفرض عليها التزامات قوية يحد من قدرتها على المناورة . كما أن تجاهل وضع حدود سياسية دقيقة أو الاعتراف بها إن كانت قائمة يترتب عليها نتائج وخيمة بالنسبة للطرف الأقل قوة.

نتائج خاصة :

أفرزت المعاهدة نتائج خاصة مستمدة من موادها، وما أفضت إليه من تأثير على مستقبل الدولة السعودية؛ وعلى مصالح بريطانيا وسياستها تجاهها . ومن النتائج الخاصة برزت مجموعة لها صلة بالطرفين وتخص المعاهدة ذاتها. بينما أمكن استنباط نتائج أخرى تخص كل طرف على حدة.

نتائج تتعلق بالمعاهدة ذاتها :

* كانت معاهدة جدة أساس ضبط العلاقات السعودية البريطانية بصفة عامة. وفي مرحلة ما قبل الحرب بين عامي ١٩٣٢-١٩٣٨ ، التى شهدت توترا بين البلدين، كانت بمثابة سياج حمى العلاقات من تصدع كان متوقعا ، خاصة مع التزام كل طرف بأسس الصداقة وحسن التفاهم. كما لعبت المعاهدة نفس الدور أثناء سنوات الحرب.

* لم تكن معاهدة جدة معاهدة تحالف صريحة، فهى لم تضمن مادة تشير إلى تحالف أو اتخاذ مواقف موحدة فى أحوال الحرب أو توتر العلاقات . ولم يرد بها ما يشير إلى تأسيس قواعد عسكرية أجنبية ، أو ما يجعل الاتجاهات الخارجية لابن سعود مرتبطة بمواقف العداء أو الصداقة التى تكون عليها بريطانيا مع الدول الأخرى.

* المرونة التى اتسمت بها المعاهدة وغموض بعض النصوص عاملان ساهما فى منح قدر من حرية التصرف للطرفين دون أن يكون فى ذلك خرقا لبنودها .

* لم تلعب المعاهدة أى دور فى مشكلات الحدود، التى تفاقمت خطورتها مع تصاعد عمليات التنقيب عن النفط وظهوره بكميات كبيرة فى الحدود الشرقية، لافتقار المعاهدة بشكل متعمد من الجانبين لمادة تتعلق باعتراف صريح بحدود الدولة السعودية.

* لا يرجع عدم توثيق العلاقات السعودية مع إيطاليا وألمانيا لاعتبارات تتعلق بالمعاهدة بقدر ما يرجع إلى تحفظ سببه القلق إزاء الطموحات الإمبريالية الفاشية ومعارضة قوية اجتماعية ودينية للشيوعية.

نتائج تخص الجانب السعودى:

* إلغاء معاهدة دارين التي كانت تقر بالتبعية لبريطانيا .

* الاعتراف بالاستقلال التام والكامل لملكة نجد والحجاز.

* إلغاء الامتيازات الأجنبية فى أرجاء الدولة بشكل فعلى.

* الاعتراف بالجنسية الحجازية النجدية، ومعاملة الحائزين لها فى البلاد البريطانية بمثل المعاملة التي يعمل بها الرعايا البريطانيون فى المملكة الحجازية النجدية، مع الأخذ بأحكام القانون الدولى العام.

* إدارة الشئون الخارجية في المملكة النجدية الحجازية بحرية كبيرة واتخاذ مواقف سياسية مناوئة للسياسة البريطانية بدرجة مناسبة.

* لم تتضمن المعاهدة ما يشير إلى تفضيل بريطانيا اقتصاديا ، بذلك كانت الدولة السعودية حرة في اتباع ما تراه ملائما ، خاصة بالنسبة لامتيازات التنقيب عن البترول .

* رفعت القيود عن عمليات شراء السلاح، بجانب أن الدعوة إلى شرائه من شركات بريطانية كانت مجرد رغبة غير ملزمة.

* أتاحت المعاهدة فرصة طيبة لابن سعود كي يواصل جهوده في دعم مركزه كحاكم لدولة جديدة، وفي توطيد سلطته والحفاظ على هيبته، وتدعيم مؤسسات الدولة الناشئة بصورة أفضل مما سبق ، وسار فى طريق الاعتماد على أفراد أسرته حتى يسد النقص فى مجال القيادة ، فجاء ذلك مدعما لظهور أسرة عربية حاكمة.

* لم تمنع المعاهدة ابن سعود من اتخاذ ما يناسبه من مواقف بحسب رؤيته الذاتية. ليس فقط فى إطار الدفاع عن مصالح سعودية محضة إنما أيضا فى المحيط العربى .

نتائج تخص الجانب البريطانى :

* لم ترق مكاسب بريطانيا إلى المستوى الذى كانت تتمناه من وراء المعاهدة. سواء بأن تكون من نوع الاتفاقيات التنازلية (اتفاقية الحماية) ، أم بأن تساهم فى الاحتفاظ بالوضع المهيمن فى الشرق الأوسط، خاصة إذا ما أدت الظروف فى المستقبل إلى تقييد وجودها المادى والمعنوى فى المنطقة.

* تعاملت بريطانيا مع المعاهدة بما يتفق ومصالحها الخاصة ، سواء فيما يتصل بالسياسة السعودية ذاتها أو فى مواجهة الأخطار الخارجية . فتارة أيدت ابن سعود وتارة أخرى وقفت ضد طموحاته .

* ساهمت المعاهدة بشكل نسبي فى احتفاظ بريطانيا بمركز تجارى متفوق فى الحجاز، من خلال شركات التجارة والتأمين والشحن والصرافة وما شابه ذلك، والتى كانت أكثر عددا من نظيرتها التى تتبع أية دولة أخرى.

* لم تحقق المعاهدة الضمان الأمثل لبريطانيا بالنسبة لأمن الخليج. فقد طالب ابن سعود بتعديل الحدود، وسار فى إطار علاقات طبيعية مع حكام المنطقة، لم تستطع بريطانيا أن تسيطر عليها .

الهوامش

١- ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود بمدينة الرياض عام ١٨٧٦ في خضم صراع حاد على السلطة بين أفراد أسرته. وتوفر له منذ استيلائه على الرياض كيان سياسي أشبه ما يكون بالمشيخة ، وهي وإن - كانت أقل إلى حد كبير سياسيا وإداريا عن الدولة ، وتفتقر إلى ولاء يقوم على أسس قومية أو وطنية - إلا أنه كان يتمتع برصيد تاريخي ضخم وزعامة روحية في المنطقة قوت مركزه كثيرا . راجع جوزيف كوستنر: العربية السعودية (من القبلية إلى الملكية) ١٩١٦-١٩٣٦ ، ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٨ . حول تاريخ الأسرة السعودية منذ أن استقرت بالكويت إلى تحرير الرياض ١٩٠٢ ، وشخصية وحياة عبد العزيز . راجع : رأفت غنيمي الشيخ : تاريخ العرب المعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٥ ، الطبعة الأولى، ص١٦٥ ، ١٦٩ ؛ صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٥ ، ص١٨٩ ، ١٩٠ . أحمد عبد الغفور عطار، صقر الجزيرة ، مطابع المؤسسة العربية ، جدة، ص١٣٣- ١٣٤ .

٢- Toller , G.: The Birth of Saudi Arabia , R. Hale, London, 1976 , pp. 17-19 .

راجع : . J.B. Kelly : Britain and the Persian Gulf 1795- 1880 , London 1968 , p. 113

٣- ظلت العلاقات العثمانية - البريطانية حتى صيف ١٩١٤ ودية نوعا ، وقد عقدت بريطانيا في العام السابق معاهدة صداقة مع الدولة العثمانية، وامتنعت عن التدخل في شئونها في حائل والإحساء وما جاورهما . جمال زكريا قاسم: الخليج العربي [دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٩١٤-١٩٤٥)] دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٣، ص٣١٥ .

٤- حول موقف بريطانيا خلال الحملة على العراق ودور ابن سعود في الحرب انظر: نازك زكي إبراهيم: التكوين السياسي والاجتماعي للمملكة العربية السعودية (١٩٠٢-١٩٣٢) ، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٨٦ ، ص٩٧، وما بعدها . وانظر:

Philby, H.St. J.B: Saudi Arabia , R. Hale , New York, 1955 , p. 234-235.

٥- التقي شكسبير بابن سعود في معسكره بمنطقة زلفي التي تبعد عن الرياض ١٥٠ ميلا . ويطلق على هذا الاجتماع «اجتماع العقير الثاني» تمييزا له عن الاجتماع الأول الذي عقد نهاية ١٩١٣ . ويذكر أن شكسبير لعب دورا هاما في مساندة ابن سعود، وقد قابله عدة مرات بعد اجتماع العقير الأول، وتوطدت علاقته به .

أنظر: . Graves P. H., Life of Sir Percy Cox , F.A. Praeger , London 1941 , p. 104 , 105

J. Barker , The Neglected War [Mesopotamia 1914-1918] Hale , London 1967 , p. 221 .

انظر تقرير تفصيلي عن رحلة شكسبير إلى منطقة زلفي في:

I.R.O. [India Record Office], L / P& S / 10 / 387 , Shakespeare to Cox, 4 Jan. 1915 , p. 9/5 / 15 .

٦- I.R.O. L / P&S / 10 / 387 , From Hardinge to India Office , 22 Jan . 1915 , p. 350 / 15 .

٧- حول سير المفاوضات بين ابن سعود وكوكس بشأن المعاهدة، ورد فعل كل طرف ، والعوامل الإقليمية والدولية التي أثرت على موقف كل منهما . انظر:

F.O. [Foreign Office] 371 / 882 / 9, IS / 18 / 113 , Memorandum on British commitments to Ibn- Saud February 1915 , pp. 2- 4 &

I.R.O.L P&S / 10 / 387 , from Cox to Government of India , 3 Jan. 1919, p. 668 / 16 .

الوثيقة الثانية تحوى رواية كاملة لما وقع أثناء المفاوضات مع ابن سعود حول التوقيع النهائي في دارين .

٨- انظر نص المعاهدة في: حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، القاهرة ١٩٦٧ ، الطبعة الخامسة ، ص٢٥٠ ، ٢٥١ . ووردت أيضا ضمن مجموعة وثائق هامة أخرى في :

J.C. Hurewitz: The Middle East and North Africa in world Politics, A documentary Record II, New Haven , Yale University Press, England 1975 , 2 d . ed . p. 57 .

٩- منذ ظهور الإمارة السعودية والحسين يشعر بقلق حقيقي خشية حدوث توسع سعودي في بلاده . ثم ازداد التنافس بوضوح مع دخول ابن سعود في دائرة النفوذ البريطاني، وساهم تبدل ولاء القبائل خاصة في مناطق الحدود في زيادة حدة الخلاف . ثم لم تلبث العلاقات أن ازدادت توترا أثناء الحرب، لما أبداه الملك حسين من رغبة في السيطرة على أمراء الجزيرة العربية لاسيما بعد نجاح الثورة العربية. نازك زكي إبراهيم ، المرجع السابق، ص١١٩ وما بعدها .

١٠- كان فلبي يشغل منصب سكرتير كوكس في بغداد. واستطاع أن يلعب الدور الذي لعبه شكسبير من قبل، ونظرا لطول مدة علاقته بابن سعود استطاع أن يحتل مكانة مرموقة لديه ويكون موضع ثقته. راجع: خيرى حماد: أعمدة الاستعمار البريطاني في الوطن العربي [الحلقة الأولى (عبد الله فلبي)]، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٥ ، الطبعة الثانية ، ص١٣٧ وما بعدها.

١١- استمرت المعونة حتى مارس ١٩٢٤ . وكانت هامة لابن سعود نظرا لأن دخله السنوي أثناء تلك الفترة لم يتجاوز مائة ألف جنيه استرليني . وقد خصصت في الأصل لمدة ٦ أشهر ، واستمرارها كان مخالفة مالية واضحة . وجميع الإدارات البريطانية كانت تعلم ذلك، لكنها سكتت تقديرا لمصالح

بريطانية ملحة استدعت استمرار الدفع. حول تاريخ المعونة البريطانية لابن سعود وتطورها وأهم المبالغ الإضافية التى حصل عليها. راجع جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص٨٧ وما بعدها .

١٢- F.O., 371 / 6442 , Tel . No 96. from Sir George Keystone to Allenby, 32 July 1919 .

١٣- انظر تفاصيل الهجوم على حائل وموقف بريطانيا . جوزيف كوستنر ، المرجع السابق ، ص٨٢ وما بعدها

Philby H. St. J.B. op. cit., pp. 278-283 .

١٤- بشأن اتفاقية المحمرة وملابساتها. انظر:

موضي بنت منصور بن عبد العزيز : الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت (١٣٤٢هـ / ١٩٢٣-١٩٢٤م) دار الساقي ، بيروت، لبنان ١٩٩٢ ، الطبعة الأولى، ص١٠٩ وما بعدها .

١٥- بشأن ظروف دعوة ابن سعود والشريف حسين للمؤتمر وموقف كلا منهما، وشروط ابن سعود لحضور المؤتمر : الكتاب الأخضر (مؤتمر الكويت) ، سلطنة نجد، الرياض، بدون تاريخ ، ص٤ وما بعدها كذلك راجع : موضي بنت منصور بن عبد العزيز، المرجع السابق، ص١١٢ وما بعدها .

١٦- نفس المصدر ، ص١٣٤ وما بعدها .

١٧- راجع : حافظ وهبه : خمسون عاما فى جزيرة العرب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٠، الطبعة الأولى ، ص٥٦ وما بعدها .

Philby, H. St. J.B . Arabian Jubilee, Hale, London 1952 , p. 62 .

١٨- يطلق لفظ «الإخوان» على أتباع المذهب الوهابى الذى انتشر فى نجد. ونظام الإخوان يقوم على الاستقرار في «الهجر» (قرية يتجمع داخلها الوهابيون) يمارسون فيها الزراعة والعمل العسكرى بعد أن يتخلوا عن أسلوب حياتهم البدوى التقليدى . وأقيم أول «هجر» فى الأرطاوية بنجد عام ١٩١٢ . وبقدر ما استفاد ابن سعود من الإخوان في دعم سلطته وتكوين دولته تعرض لمشكلات من جانبهم أثناء جهوده لإقامة دولة عصرية . راجع " جوزيف كوستنر ، المرجع الساق ، ص٥٧ ، ١٠٢ .

١٩- Philby , H.St. J.B: Saudi Arabia , op. cit. p. 245 .

٢٠- L/ P&S / 10 / 1144 , From Sir Gilbert Clayton [Head of the British Diplomatic Mission to Ibn Saud in autumn of 1925] to Leopold Emery [Secretary of State for The Colonies] , 25 Nov. 1925 , p. 747 / 25 .

٢١- L/ P&S / 10 / 1144 , From Sir Gilbert Clayton to Leopold Emery , op. cit.,p. 749/ 25 .

حول موضوع زيارة جلبرت كلايتون للحجاز . راجع : بنو اميشان : عبد العزيز آل سعود (سيرة بطل ومولد مملكة) ، ترجمة : عبد الفتاح يس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٥ ، ص١٨٤-١٨٩ .

Philby, H.St. J.B : Saudi Arbia , op. cit. p. 245 .

٢٢- وزارة الخارجية السعودية : مجموعة المعاهدات [(١٣٤١-١٣٥٠هـ / ١٩٢٢-١٩٣١م)] مطبعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٩٣١ ، الطبعة الأولى، ص١٣ .

٢٣- نفس المصدر، ص١٨ .

٢٤- أمين الريحاني : تاريخ نجد وملحقاته ، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٥٤ ، ص٤٥٥ .

٢٥- وقعت هذه الاتفاقية في ١٩ مارس ١٩٢٦ . وزارة الخارجية السعودية ، مجموعة المعاهدات ، المصدر السابق، ص١٩، ٢٠ .

٢٦- نفس المصدر، ص٢٣ ، ٢٤ . وكان الإمام يحيى إمام اليمن قد انتهز الحرب الدائرة بين نجد والحجاز وسعى إلى ضم عسير ونجح فى انتزاع ميناء الحديدة. وتسبب ذلك فى قلق بريطانيا التى اعتبرت الوجود اليمنى فى عسير تهديدا خطيرا لمصالحها ، خاصة وأنها تأكدت أن الاستيلاء على الحديدة تم بمساعدات إيطالية هامة . انظر : عصام ضياء الدين سيد: عسير (فى العلاقات السياسية السعودية- اليمنية ١٩١٩: ١٩٣٤)، دار الزهراء للنشر، القاهرة ١٩٨٩ ، الطبعة الأولى، ص١٧١-١٧٢ .

٢٧- أم القرى ، العدد ١١١ ، ٢٤ رجب ١٣٤٥ (٢٨ يناير ١٩٢٧) .

٢٨- راجع : صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها ، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٢ ، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، ص٣٨٤ .

٢٩- الواضح ، أن مشكلة الإخوان الرئيسة تمثلت في معارضة أسلوب ابن سعود في تحديث الدولة سواء من حيث العلاقات الخارجية مع الدول الأوروبية أو من حيث استخدام التكنولوجيا الحديثة أو فرض هيبة الدولة على مواطنيها . راجع : جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص١٢٣-١٢٨ .

٣٠- بشأن مدى التغير الذى طرأ على وضع ابن سعود على الصعيد الدولي بضم الحجاز ، وشعوره بقوة مركزه وأهميته في نظر المسلمين . راجع : جلال يحيى : العالم العربي الحديث (الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين)، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠ ، الطبعة الأولى ، ص٦٢ .

٣١- L/ P&S / 10 / 1165 , from Sir Gilbert Clayton to sir John Shuckburgn [The Under Secretary of State Assistant for the Colonies] , 21 April, 1926 , p. 1436 / 26 .

٣٢- ظهر اهتمام غير مسبوق قبيل الحرب العالمية الأولى بإمكانية استخراج النفط من نجد بكميات كبيرة، بدرجة تجعلها منافسا خطيرا لحقول النفط الفارسية العراقية . وتحدثت دوائر اقتصادية

، بريطانية فى صيف ١٩١٤ عن منح شركة النفط الإنجليزية الفارسية امتياز التنقيب عن البترول .
انظر:

F.O. 371 / 11065 No. 251 From Sir Jeffry Stanley [Representative of the Anglo - Persian Oil Company] to Foreign Office , 12 March 1914 .

٣٣- كانت الحكومة البريطانية فى شهر أبريل ١٩٢٦ قد وجهت إنذارا شديد اللهجة عن طريق الحكومة الإيطالية إلى الإمام يحيى لوقف تدابير عسكرية استهدفت إنهاء الحماية السعودية على عسير .
انظر:

F.O. 371 / 12236 , E 1712 / 180 / 270 , From Sir R. Graham [The British Ambassador in Rome] to Sir Austin Chamberlain [Secretary of State for Foreign Affairs] , 6 April 1926 .

٣٤- F.O 371 / 11437 , E 180 / 180 / 91 , From Lord Irwin (Viceroy of India] to Lord Birkenhead [Secratery of State for India], 5 Jan . 1926 . [انظر الملحق رقم ١]

٣٥- راجع : Stephen Page : The USSR and Arabia [The development of Soviet policies and attitudes towards the countries of the Arabian Peninsula 1955- 1970] Yale press, London 1971 , pp. 16-18 .

٣٦- جوزيف كوستنر ، المرجع السابق ، ص١٧٥ .

٣٧- F.O. 371 / 11437 , p. 111 / 180 / 91 , from Lord Irwin to Lord Birkenhead , 5 Jan , op.cit. 1926

٣٨- انظر الملحق رقم ٢ F.O . 371 / 11438 , E 3850 / 180 / 91 , from Irwin to Birkenhead, Aug. 1926. 27

٣٩- Ibid .

٤٠- F.O. 371 / 11438 , E 5347 / 180 / 91 , Memorandum by Victor Mallet [Secretary of Eastern Department of Foreign Office] , 13 Oct. 1926 . [انظر الملحق رقم ٣]

٤١- Toynbe . A.J.: Survey of international affairs [Documents on international affairs] Oxford [U.P.] Publication of R.I.I.A., London 1929 , p. 285 . 1928 - 1925

٤٢- L / P&S 10/ 1155 , Memorandum by Colonial Office (British Interests on Arabia] , 26 Nov. 1926 , p. 2723 / 26 .

٤٣- L/ P&S / 10 / 1166 , Interdepartmental Conference holding on 17 Jan . 1927 , p. 476-/ 27 .

٤٤- Ibid , p. 478 / 27 .

٤٥- يذكر أن الدستور العثماني الصادر في عام ١٩٠٨ منع الاتجار في الرقيق في جميع أنحاء الدولة العثمانية، لكن ذلك لم يكن له تأثير في البلدان العربية بما فيها نجد والحجاز . وكانت الأخيرة سوقا رائجا للرقيق وقت بدء مفاوضات جوردان مع ابن سعود . وقد تضمنت جميع معاهدات الحماية الموقعة مع أمراء الخليج نصوصا تهدف إلى مقاومة تجارة الرقيق. ومارست البحرية البريطانية هيمنة تامة على سواحل الخليج، وساهمت كثيرا في إضعاف هذه التجارة. حول هذا الموضوع، راجع :

Bullard S.R., Britain and The Middle East , Hale Press, London , 1952 , p. 28 .

وحول موقف بريطانيا من مقاومة تجارة الرقيق في نجد والحجاز ورسالة شكبيرجن انظر:

L/ S&P / 10 / 1166 , From Shuckburgn, to Wakely [The Under Secretary of State for Foreign Affairs] , 11 , Dec. 1926 , p. 4363 / 26 .

٤٦- F.O. 371/ 11438 , E 5347 / 180 / 91 , Memorandum by Victor Mallet , 13 Oct. 1926 , op.cit.

٤٧- L/ P&S / 10 / 1165 , From Lancelot Oliphant [Head of the Eastern Department of Foreign Office to Jordan, 3 Nov. 1926, p. 4003 / 26 .

٤٨- كان يعاون جوردان في مفاوضاته جورج أنطونيوس ، وهو عربي مسيحي شغل منصبا في حكومة فلسطين بعد إقرار الانتداب . وشارك فيها من الجانب السعودي عبدالله الدملوجي مدير الشئون الخارجية والشيخ يوسف ياسين مدير المطبوعات. انظر : أم القرى العدد (١٠٦) ، ١٩ ربيع الثاني ١٣٤٥ (٢٤ ديسمبر ١٩٢٦) .

٤٩- عملت بريطانيا على ضم العقبة ومعان إلى شرقي الأردن حتى تبعد أي تهديد سعودي آخر. لكن ظل ابن سعود ينظر إلى العقبة ومعان على أنها أرضا حجازية تتبع دولته، ورفض بإصرار كل الضغوط التي مورست عليه لانتزاع اعتراف منه بتبعيتهما لشرقي الأردن انظر:

بنو اميشان ، المرجع السابق، ص١٨٠ ، ١٨١ أمين الريحاني، المرجع السابق ، ص٣٤١ : صلاح الدين المختار ، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٣٠٦ ، ٣٠٧ .

٥٠- وضع وصف شامل لفحوى المحادثات التي دارت بين ابن سعود وجوردان في رسالة تفصيلية إلى السير أوستن تشمبرلين وزير الخارجية انظر:

L/ P&S / 10 / 1166 , from Jordan to Austin Chamberlain, 26 Dec . 1926 , p. 494 / 26 .

٥١- Ibid ., p. 494 / 26 .

٥٢- Ibid., p. 495 / 26 .

٥٣- احتلت أموال وقف الحرمين أهمية في مصادر الدخل السعودي. وهي مخصصات ثابتة ، وضعت في أوقات مختلفة من جانب بعض الدول الإسلامية مثل مصر وإيران. ولما استولى ابن سعود على الحجاز رفضت تلك الدول إحالة أموال الوقف إليه. وقد بلغت في مصر وحدها أواخر حكم الأشراف ما يقرب من ٦٠ ألف جنيه استرليني سنويا ، بينما قدر الإجمالي بمبلغ يزيد عن مليون جنيه استرليني. انظر:

خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، ص٢٣١ .

٥٤- L/ {&S / 0 / 1166 , From Jordan to Austin Chamberlain, 26 Dec. 1926 , op. cit., p. 496 / 26 .

٥٥- L/ P&S / 10 / 1166, Interdepartmental Conference, 13 Jan . 1927 , p. 476 / 27 .

٥٦- عقدت اجتماعات متتالية في إطار الحكومة البريطانية لبحث موضوع العلاقات مع ابن سعود ، وصعوبات توقيع معاهدة جديدة معه . ويبدو أن الأمر شغل حيزا كبيرا من النشاط السياسي مع أوائل ١٩٢٧ لدرجة أن عدد الاجتماعات بلغت ثلاثة في غضون أسابيع (١٣، ١٩ يناير، ٤ فبراير):
L/ P&S / 10 / 1166, Interdepartmenta Conference , op. cit, 13 Jan, 19 Jan . 1927 , 4 Feb . 1927 , p.p. 476 to 491 / 27 .

٥٧- [انظر الملحق رقم ٤] F.O. 371 / 12244 , E 13554 / 180 / 91 , from Birkenhead to Jordan , 20 Feb. 1927 .

٥٨- L/ {&S / 1166 , Tel. From Lord Plumer [The high commissioner in Palestine] to Shuckburgn 20 Jan . 1927 , p. 831 / 27 .

٥٩- L/ S&P / 10 / 1165 [Transjordan's claim to Akaba and Maan] Memorandum by Victor Mallet, 26 Oct. 1926 , p. 4104 / 26 .

٦٠- جاء ذكر التعديلات التي تضمنها المشروع الجديد في الاجتماع الذي عقد في ٤ فبراير ١٩٢٧ انظر:
L/ P&S / 10 / 1166 , Interdepartmental Conference, Op. cit, 4 Feb. 1927 , pp. 487 to 491 / 27 .

٦١- F.O. 371 / 11438 , E 13566 / 180 / 91 , Memorandum by Lancelot Oliphant , 12

Mar. 1927 .

٦٢- انظر الملحق رقم ٥ F.O. 371 / 12244, p. 1318 / 165 / 92 , From Irwin to Birkenhead, 22 Mar. 1927 .

٦٣- حدث في أثناء توقف المفاوضات تقارب سعودي فرنسي. ففي لقاء وصف بأنه ودي للغاية التقى الأمير فيصل بن عبد العزيز بالقنصل الفرنسي في جدة، وبحث العلاقات الثنائية، ومنح الأمير نيشان شرف فرنسي من رتبة «قومندور». انظر: أم القرى، العدد (١١٨)، ١٥ رمضان ١٣٤٥ (١٨ مارس ١٩٢٧) .

٦٤- تعرض ابن سعود لضغوط وقلاقل شديدة من جانب الإخوان بسبب استمرار سياسة التحديث وتأكيد هيمنة الدولة، وموقفه الودي تجاه بريطانيا وغيرها من القوى الأوروبية. وقد وصفوا مفاوضاته مع جوردان بأنها «مفاوضات مع الكفرة» واتهموه بأنه باع نفسه للإنجليز. ورغم حساسية العلاقة بين ابن سعود والإخوان فإنه نجح خلال فترة توقف المفاوضات في وقف تجاوزاتهم ، والتعامل معهم بقدر من الحكمة والتهديد في آن واحد. راجع : جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص١٧٤ وما بعدها .

٦٥- L/ P&S / 10 / 1166 , From Chamberlain to Clayton , 14 Apr. 1927 , p. 2156 / 27 .

٦٦- أنكرت إدارة الشئون الخارجية هذه الأخبار ووصفتها بالكاذبة . مقال بعنوان «مفتريات باطلة». أم القرى (العدد ١١٧)، ١٥ رمضان ١٣٤٥ (١٨ مارس ١٩٢٧) .

٦٧- وصفت مفاوضات كلايتون مع ابن سعود التي تمت في شهر مايو ١٩٢٧ في جدة بدقة شديدة في رسالة بعث بها كلايتون إلى تشمبرلين وزير الخارجية في ٦ يونيو ١٩٢٧ . انظر:

L/ P&S / 10 / 1166, From Gillbert Clayton to Austin Chamberain , 3 June 1927 , pp. 3269- 3275-27 .

٦٨- L/ P&S / 10 / 1166, From Irwin to Birkengead, 18 July 1927 , p. 3608 / 27 .

٦٩- الملحق رقم ٦ F.O. 371 / 12245 , E 13334 / 180 / 92 , Letter from Wakley to Lord Irwin, 22 July 1927 .

٧٠- Ibid. , p. 3272 / 27 .

٧١- L/ P&S / 10 / 1166, From Gilbert Clayton to Austin Chamberlain , 3 June, 1927 , op. cit., p. 3271 / 27 .

٧٢- Ibid., p. 3272 / 27 .

٧٣- Ibid., p. 3273 / 27 .

٧٤- L/ P&S / 10 / 1166 , From Gilbert Clayton to Austin Chamberlain , 3 June 1927 ,

op. cit. p. 3275 / 27 .

٧٥- F.O. 371 / 12245 , E 3334 / 119 / 91 From Gilbert Clayton to Wakely , 22 June 1927 .

جدير بالذكر أن موضوع العقبة ومعان قد تم حله في سنة ١٩٦٥ ، عندما اعترفت المملكة العربية السعودية بالمدينتين كمقاطعتين أردنيتين ، في إطار اتفاقية ترسيم الحدود بين البلدين . انظر:

Kirk , J. : The Saudi - Jordanian Treaty of 1965 , Middle East Journal , Middle East Institute, U.S.A. vol . XX, 3, Summer 1968 , pp. 346-348 .

٧٦- كان موضوع السماح لابن سعود بشراء الأسلحة قد اتفق عليه داخل الإدارة البريطانية أثناء الاجتماع الذي عقد ١٧ يناير ١٩٢٧، انظر:

L/ P&S / 10 / 1166 , Interdepartmental Conference holding on 17 Jan . 1927 , op.cit , p. 476 / 27 .

٧٧- F.O. 371 / 12244, E 1467 / 119 / 91 , From Irwin to Birkenhead, 22 Mar. 1927 .

٧٨- L / P&S / 10 / 1166 , From Sir Henry Dobbs [High Commissioner for Iraq] to Leopold Emery , 7 Mar . 1927 , p. 1175 / 27 .

٧٩- L/ P&S / 10 / 1166 "Note on Ibn - Saudi's Proposals Regarding the Hejaz Railways", Report putting by Colonial Office, 26 Jan, 1927 , p. 831 / 27 .

٨٠- أم القرى ، العدد (١٢٩) ، ٢٦ ذي القعدة ١٣٤٥ (٢٧ مايو ١٩٢٧) .

٨١- انظر: أم القرى، العدد (١٤٥)، ٢٤ ربيع أول ١٣٤٦ (٢٣ سبتمبر ١٩٢٧)، ص٢٠٢ .

٨٢- وردت المعاهدة بالكامل باللغة العربية في : وزارة الخارجية السعودية، مجموعة المعاهدات ، المصدر السابق ، ص٣٣، ٣٤ . ووردت بجريدة أم القرى الناطق الرسمي باسم الحكومة السعودية العدد السابق (٢٣ سبتمبر ١٩٢٧) . كما وردت باللغة الإنجليزية (النص المعتمد من الجانبين) في:

Public Record Office , Treaty Series [1927] , No. 25, Cnd. 2951.

كما نشر النص الإنجليزي في: J.C. Hurewitz, op. cit, under number 88, pp. 383 .

وانظر نص المعاهدة باللغتين العربية والإنجليزية (الملحق رقم ٨٧) .

٨٣- راجع صلاح الدين المختار، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٤٥٦ .

٨٤- J.B. Kelly , Eastern Arabia Frontiers, London 1964 , 123-133 .

D.C. Watt, The Foreign Policy of Ibn - Saud 1936 - 1939 , Article, Journal of the

Royal Center Asian Society , vol II April 1963, pp. 158-159 .

٨٥- يذكر أن الفترة التي أعقبت توقيع المعاهدة شهدت تزايدا ملحوظا في محاولات التبشير داخل الحجاز، وتعددت حالات التسلل من ناحية الحدود الأردنية الفلسطينية. وقد ورد ذكر بعض حالات التسلل من جانب أشخاص أمريكيين، مع رد فعل السلطات البريطانية، في رسالة احتجاج أخري أرسلها مدير إدارة الشئون الخارجية لملكة الحجاز ونجد إلي الوزير الأمريكي المفوض في مصر في ١٨ ديسمبر ١٩٢٧ . انظر:

Department of State, U.S.A., Tel . No 224 / 1 KH., From the Director of Foreign Affairs of the Kingdom of Higas and Najd to the American Minister in Egypt, Dec. 18, 1927 .

٨٦- Stephen Page , op. cit . p. 21 .

٨٧- تمت الصفقة على مرحلتين الأولى في يناير ١٩٢٨ وبلغت نحو ٣٠٠٠ بندقية متطورة وذخيرة ضخمة، والثانية كانت في صيف ١٩٢٩ وتجاوزت هذا المعدل بقليل . راجع : خير الدين الزركلي، المرجع السابق الجزء الثاني، ص٢٩٨ & جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص١٨٨ وما بعدها .

٨٨- J.B.Kelly , Eastern Arabia Frontiers , op. cit. p 125 .

٨٩- أم القرى ، العدد (٢٦٤) ، ٣ شعبان ١٣٤٨ (٣يناير ١٩٣٠) .

٩٠- انظر : حافظ وهبة ، خمسون عاما في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص٩٥-٩٩ .

٩١- Stephen Longrigg: Oil in the Middle East [Its Discovery and Development] , London 1961 Second ed. pp. 107-108 .

٩٢- كان ابن سعود قد سعي إبان الأزمة الاقتصادية التي انعكس أثرها على بلاده إلي مساعدة بريطانيا للتنقيب عن البترول، كما سعي إلي عقد قرض، لكنه فشل . فجرت اتصالات مع رجل أعمال أمريكي يدعي شارلز كراين Charles Crane أسفرت عن اتفاق التنقيب عن البترول في المقاطعات الشرقية نهاية مايو ١٩٣٢، كما وافقت الشركة الأمريكية على منح ابن سعود قروضا كان في أمس الحاجة إليها . انظر: سليم طه التكريتي : صراع البترول في الخليج العربي، دار الحرية، بغداد ١٩٨٩ ، ص١٠٢، ١٠٣ .

٩٣- للإطلاع علي مزيد من التفاصيل حول الخلاف الحدودي مع قطر شرقي نجد ١٩٣٤، ورد فعل السلطات البريطانية ، والأسانيد السعودية بشأن تعيين الحدود. انظر:

وزارة الخارجية السعودية : عرض حكومة السعودية [التحكيم لتسوية النزاع بين مسقط وأبوظبي وبين

المملكة العربية السعودية] الرياض ١٩٥٥ ، الجزء الثاني، الملحق ١٥ ص٢٨١ .

٩٤- Bullard S.R., op.cit., p. 28 .

٩٥- حافظ وهبه ، خمسون عاما فى جزير العرب ، مرجع سابق، ص١٠٦ .

٩٦- أم القرى ، العدد ٧٥٠ ، ٨ ربيع أول ١٣٥٨ (٢٨ أبريل ١٩٣٩) .

٩٧- ينكر أن بريطانيا فى غضون الفترة التي واكبت توقيع معاهدة جدة ، اعترفت بمعاهدة مكة ١٩٢٦ بين ابن سعود والإدريسى حاكم عسير ، التى وضعت المنطقة تحت الحماية السعودية ، وأيدت كافة الإجراءات التي اتخذها ابن سعود دعما لمركزه فيها . لكنها عادت فيما بعد وتنكرت لمطالبه فى عسير تحت ضغط التنافس الاستعمارى الدولى. انظر : عصام ضياء الدين السيد : عسير ، المرجع السابق ص١٩٥ وما بعدها .

٩٨- حول موضوع جهود ابن سعود فى الدفاع عن حقوق العرب فى فلسطين ووقف سياسة بناء الوطن القومى اليهودى بجناحيها الرئيسيين: الهجرة اليهودية ، تهويد الأرض . راجع :

جان جاك بيريبي: جزيرة العرب، ترجمة : نجدة هاجر، أمين العز، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٦٠ ، ص٦٢ &

John Marlowe, The Persian Gulf in the twentieth century , Yale Press, London , 1962 , p. 10/8 D.C. Watt, op. cit., p. 159 .

٩٩- حول العلاقات السعودية البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية. راجع :

وليامز سيتون: بريطانيا والدول العربية ١٩٢٠-١٩٤٨ ، ترجمة : أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة ١٩٥٢ ، ص١٩٥ . Bullard, op. cit, p. 82 &

Kirk , J., The Middle East in the war , R.Hale London 1952 , p. 352 and the next pages .

١٠٠- أم القرى، العدد (٦١٧) ، ٢٣ رجب ١٣٥٥ (٩ أكتوبر ١٩٣٦) (بلاغ رسمى رقم ١٣) .

١٠١- نفس المصدر، العدد (٩٨١) ، ٤ شوال ١٣٦٢ (٣ أكتوبر ١٩٤٣) .

مصادر البحث

أولا : وثائق غير منشورة بلغة أجنبية :

British Documents [Public Record Office].

Foreign Office [F.O] , 371 No .: *

(882 / 9, IS/ 18 / 113) , (11065 No. 251), (11437, E 180 / 180 / 91) (11437, p. 111 / 180 / 91) , (11438 , E 3850 / 180 / 91) , (11438, E 5347 / 180 / 91), (11438 , E 13566 / 180/ 91), (12236 , E 1712 / 180 / 270) , (12244 , E 1467 / 119-91), (12244 , E 13554 / 180/ 91), (12245 , E 3334 / 119 / 91) , (12245, E 13334 / 180 / 92) .

India Record Office [I.R.O] L/ P&S / 10 No . : *

(387), (1144), (1155) , (1165) , (1166) .

ثانيا : وثائق منشورة

* باللغة العربية :

١- سلطنة نجدة :

- الكتاب الأخضر : مؤتمر الكويت، صدر بأمر سلطان نجد، الرياض، بدون تاريخ .

- جريدة أم القرى: الجريدة الرسمية الناطقة باسم حكومة سلطنة نجد والحجاز، أسبوعية.

تصدر كل جمعة الأعداد : ١١١ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٩، ١٤٥، ٢٦٤ ، ٦١٧ ، ٧٥٠ ، ٩٨١ .

٢- وزارة الخارجية السعودية :

- مجموعة المعاهدات (١٣٤١-١٣٥٠هـ / ١٩٢٢-١٩٣١م مطبعة أم القرى، مكة المكرمة ١٩٣١، الطبعة الأولى .

- عرض حكومة السعودية : التحكيم لتسوية النزاع بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية ، الرياض ١٩٥٥، ثلاثة أجزاء .

* بلغة أجنبية :

British Documents:

Documentary Record II, By , J.C. Hurewitz, The Middle East and North *

Africa in World Politics, New Haven, Yale University Press, England 1975 , Second Edition.

* Public Record office , treaty Series 1927 , No . 25 , Cnd . 2951 , Asian society , vol . II, April 1963 .

* Survey of International Affairs [documents n Internatinal affairs 1925-1928 , By Toynbee A.J., Oxford (U.P.) Publication of R. I.I.A., London 1929 .

American Documents [Department pf State]

* Foreign Relations of the United States, (1928) Three Volume, Washington, 1943 .

ثالثا : مراجع عربية

* أحمد عبد الغفور عطار : صقر الجزيرة ، مطابع المؤسسة العربية ، جدة ١٩٦٤ .

* أمين الريحاني: تاريخ نجد وملحقاته، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٥٤ .

* جلال يحيي: العالم العربي الحديث (الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين)، ، الطبعة الأولى دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠ .

* جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤-١٩٤٥ ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٣ .

* حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين، الطبعة الخامسة القاهرة ١٩٦٧ .

حافظ وهبه: خمسون عاما في جزيرة العرب، مطبعة مصطفى الحلبي ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦ .

* خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، أربعة أجزاء بيروت ١٩٧٧ .

* خيرى حماد : أعمدة الاستعمار البريطاني فى الوطن العربى [الحلقة الأولى (عبد الله فلبى)]، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٥ .

* رأفت غنيمي الشيخ : تاريخ العرب المعاصر ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٥ .

* سليم طه التكريتي: صراع البترول في الخليج العربي، دار الحرية، بغداد ١٩٨٩ .

* صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ، دار مكتبة الحياة بيروت، الطبعة الثانية ، الجزء الثاني ١٩٧٢ .

* صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٥ .

* عصام ضياء الدين السيد : عسير (في العلاقات السياسية السعودية اليمنية ١٩١٩-١٩٣٤) ، دار الزهراء للنشر، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٩ .

*موضي بنت منصور بن عبد العزيز : الملك عبد العزيز، ومؤتمر الكويت ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣-١٩٢٤م دار الساقي،الطبعة الأولى بيروت لبنان ١٩٩٢ .

* نازك زكي إبراهيم : التكوين السياسي والاجتماعي للملكة العربية السعودية ١٩٠٢-١٩٣٢ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٦ .

رابعا : مراجع أجنبية مترجمة:

*بنو أميشان : عبد العزيز آل سعود (سيرة بطل ومولد مملكة) ، ترجمة عبد الفتاح يس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٥ .

* جام جاك بيربي : جزيرة العرب، ترجمة نجدة هاجر، أمين العز، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٠ .

* جوزيف كوستنر : العربية السعودية من القبلية إلى الملكية ١٩١٦-١٩٣٦ ، ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٦ .

* وليامز سيتون: بريطانيا والدول العربية ١٩٢٠-١٩٤٨ ، ترجمة : أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة ١٩٥٢ .

خامسا : مراجع أجنبية :

* Bullard S.R ., Britain and the Middle East , Hale Press, London 1952 .

* Graves P.H., Life of Sir Percy Cox, F. A. Praeger , London 1941 .

* D.C. Watt, the Foreign Policy of Ibn - Saud 1936-1939, Article, Journal of the Royal Center .

* J.Barker , the Neglected War [Mesopotamia 1914-1918] Hale , London 1967 .

J.B . Kelly , Britain and the Persian Gulf 1795-1880 , London , 1968 . *

J.B. Kelly , Eastern Arabia Frontiers , London 1964 , 123-133 . *

John Marlowe, The Persian Gulf in the twentieth century, Yale Press, London, 1962 .

Kirk, J., The Middle East in the war , R. Hale, London 1952 . *

Philby , H. St. J.B ., Arabian Jubilee, Hale London 1952 . *

Philbu , H. St. J.B , Saudi Arabia R. Hale New York , 1955 . *

*Stephen Longrigg, Oil in the Middle East [its Discovery and Development] London 1961 , Second Ed.

Stephen Page, the USSR and Arabia [the development of Soviet policies * and attitudes towards the countries of the Arabian Peninsula 1955-1970] Yale press, London 1971 .

Toeller, G., The Birth of Saudi Arabia, R. hale , London, 1976 . *

سادسا : دراسات بلغة أجنبية :

Kirk J. , The Saudi - Jordanian Treaty of 1965 , Middle East Journal , Middle East Institute , U.S.A. vol. XX, 33, Summer 1968 .

ملاحق

الملحق رقم [١]

١٣

PJM/JRL/IA. (111 groups) 82. P84 51 10

COPY OF TELEGRAM.

(COPIES CIRCULATED)

From Viceroy, Foreign and Political Department, to Secretary of State for India.

Dated Viceroy's Camp, Shillong, 8th January, 1926.

Received 8th January, 1926, 7-35 p.m.

XX

E 8012

21/C. Joddah telegram, 171. Presumably Bin Saud, in his public reference to his relations with Great Britain, spoke deliberately merely as the ruler of Nejd and not as the holder, permanently or temporarily, of the Hedjaz. His possession of the Hedjaz has clearly brought about a completely different situation from that which the 1916 Treaty was designed to cover. What was then appropriate is no longer appropriate when applied to Moslem Holy Land, and Bin Saud's consciousness of the danger to himself of admitting any Christian Power to any sort of exclusive or protectorate position in the Hedjaz, such as is accorded to Great Britain by Articles 2, 3 and 4 of his Treaty, is possibly at the back of his desire for a new Treaty; vide Clayton's letter dated 16th December to London Colonial Office. Point is no doubt clear to His Majesty's Government; question is of importance in India because, though it appears beyond question that the existing Treaty only applies to territories possessed by the Sultan Nejd at the time of signing that Treaty, Ibn Saud's public utterances above referred to, as reported, may give rise in India to the misconception that the terms of the Treaty may be taken to cover territories in the Holy Land now acquired by him. It is most desirable, as far as India is concerned, to avoid any such misconception by the Moslem public.

الملحق رقم [٢]

HFR/FHM/JPL/MS. (149 Groups) 16 157

COPY OF TELEGRAM.

(COPIES CIRCULATED)

From Viceroy, Foreign and Political Department, to Secretary of State for India.

Dated Simla, 27th August, 1926.

Received 27th August, 1926, 1.0 p.m.



II

14978. Your telegram No.2246. We are in agreement with you that we should try to get some form of restrictive article included in the new treaty, guaranteeing the integrity of the Gulf Chiefs (including Muscat) with whom we have treaty relations, and, like you, feel that Bin Saud would be unlikely to reject such an article if it did not go beyond the scope of Article 6 of the 1915 Agreement, and that its omission now might encourage aggression. We recognise that it may be difficult and perhaps impossible to make Bin Saud agree to the inclusion in the new treaty of a clause guaranteeing freedom of religious observance for our Moslem pilgrims, and that, even if he does, it may be difficult and perhaps impossible for him to implement his undertaking, but in view of the indignation and distress in India over Wahabi intolerance during the Haj, we wish again to emphasise the importance we attach to the inclusion of such a clause. We are chiefly concerned with the effect on public opinion of the publication of new treaty with their iconoclast, without something to balance it. It would indeed be serious matter for our Moslems if His Majesty's Government, in negotiating a treaty with experience of this year's Haj before them, were to make no attempt to secure freedom of religious observance. Without such freedom, they are beginning to think that they might as well not go on the Haj at all, and they will

be

الملحق رقم [٣]

187

Memorandum by Mr. Mallet.

At the inter-departmental conference held at the Colonial Office on October 6 to consider the provisions of the proposed new treaty with Ibn Saud, of which the Colonial Office are shortly going to send us the minutes, careful consideration was given to the proposal that this treaty should contain a clause defining the extent of extraterritorial privileges to be enjoyed by British subjects and protected persons in the Hejaz.

An article (No. 6) had accordingly been inserted in the draft treaty prepared by an earlier inter-departmental conference held on August 11, the text of which was as follows:-

"His Majesty the King of the Hejaz and Sultan of "Nejd agrees that in all cases which arise in Nejdi and "Hejazi territories and in which a British subject or "person enjoying the protection of His Britannic Majesty "is plaintiff or defendant, a British consular "representative shall be entitled to attend the Nejdi "or Hejazi courts during the hearing of the case, and "where the British agent wishes to make diplomatic "representations on grounds of equity to His Majesty "concerning any such case, judgment shall be adjourned "and shall not be executed while such representations "are being made, and in no case shall the execution of "judgment proceed except after permission of His Majesty."

This draft article was the subject of a minute by Mr. Malkin on E 4266/180/91, in which he explained that it did not grant capitulatory or extraterritorial rights in matters of jurisdiction, as these rights are usually understood, at all. Mr. Malkin expressed the opinion that

الملحق رقم [٤]

It is requested that in any further communication on this subject the under-mentioned letter and number may be quoted, and the reply addressed to—
The Under Secretary of State for India,
Political Department,
India Office,
London, S.W. 1.

P. 831.

146

200

INDIA OFFICE,
WHITEHALL,
LONDON, S.W. 1.

2[illegible]th February 1927.

Sir,

I am directed by the Secretary of State for India to acknowledge the receipt of your letter No.[illegible]/27, dated the 17th February, with reference to the negotiations for a revision of the treaty with Ibn Saud, King of the Hedjaz and Sultan of Nejd.

I am to say in reply that, in view of the difficulties raised by Ibn Saud and of the doubt whether, even with the concessions now proposed to be made to him, it will be possible to conclude a treaty, the Earl of Birkenhead is inclined to the view that a friendly agreement to discontinue the negotiations for the present would be on the whole the best course.

But he does not press this view, and if the negotiations are to be continued, he would desire to reserve a final expression of opinion, especially as regards Articles 3 and 4 of the revised draft treaty, until he has received the views of the Government of India.

Subject to these reservations, Lord Birkenhead agrees generally with the conclusions of the Inter-Departmental Conference and with the views expressed in your letter under reply. In particular

The Under Secretary of State,
[illegible] Office.

الملحق رقم [٥]

R.JR/IA. (165 groups) 1318.

P1394
218
192

COPY OF TELEGRAM.

From Viceroy, Foreign and Political Department, to Secretary of State for India.

(COPIES CIRCULATED)

Dated New Delhi, 22nd March, 1927.

Received 22nd March, 1927, 1-30 p.m.

IMPORTANT.

860-S. Foreign and Political Department.

Your telegram dated 28th February, 637. Treaty negotiations with Ibn Saud.

We are commenting by telegram on the two Articles, of which final text is before us, and on the general questions of renewal of negotiations and Haramain-Waqfs, without waiting for fuller consideration of papers sent by mail of 17th, on which we may have further observations to offer.

Article 3. We accept the present form in default of more definite undertaking.

Article 6. We should have liked to secure as effective protection as possible for our Nationals (see our telegram dated 12th July, 1926, 1213-S,)but we realise the difficulties attendant upon attempting to get capitulatory rights recognised in Treaty, and after all, in practice, such recognition might have little value. We are, therefore, prepared to accept this Article.

As to Waqfs, we consider that, if proposed undertaking means anything at all, it would be dangerous, and, if nothing, would only raise Ibn Saud's hopes to no purpose. We, therefore, recommend that it should not be given.

We share your doubts of treaty being concluded, even with concession(s)now proposed, and even from purely Indian standpoint are inclined to suggest that His Majesty's Government should resume negotiations and let breakdown come, if come it must, from the other side.

الملحق رقم [٦]

1

E 3304 | 195

29 JUL 1927

It is requested that in any further communication on this subject the under-mentioned letter and number may be quoted, and the reply addressed to—
The Under Secretary of State for India, Political Department, India Office, London, S.W. 1.

P. 3608.

INDIA OFFICE,
WHITEHALL,
LONDON, S.W. 1.

22nd July, 1927.

Sir,

1. With reference to your letter of the 5th July, No.T.8102/2724/381, relative to the Ibn Saud Treaty, I am directed by the Secretary of State for India to forward, for the information of the Secretary of State for Foreign Affairs a copy of a telegram from the Government of India. The Secretary of State agrees with the Government of India that, so far as India is concerned, the Treaty may be ratified by His Majesty the King.

...ted 18th July, 1927. on paper T9102.

2. The Earl of Birkenhead shares the Government of India's disappointment that it was not found possible to secure the insertion, in lieu of Article VI of the signed Treaty, of the original or at least of the first alternative draft of the Article. From page 6 of Sir Gilbert Clayton's record of the conversations it would appear that he made the position of His Majesty's Government in relation to the Persian Gulf chiefs sufficiently clear to Ibn Saud, though not perhaps in precisely the manner contemplated by paragraph 8 of his instructions. Lord Birkenhead doubts whether in any case it would be desirable, even if it were considered possible, to raise the question again now by proposing an exchange of notes, but he would be glad to have

Flag A.

Flag B.

Sir

The Under Secretary of State,
FOREIGN OFFICE.

الملحق رقم [٨٤٧]

أم القرى

[illegible]

معاهدة جدة

بين جلالة ملك بريطانيا وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

(بسم الله الرحمن الرحيم)

[illegible]

(بسم الله الرحمن الرحيم)

[illegible]

(المادة الأولى)

[illegible]

(المادة الثانية)

[illegible]

(المادة الثالثة)

[illegible]

(المادة الرابعة)

[illegible]

(المادة الخامسة)

[illegible]

(المادة السادسة)

[illegible]

(المادة السابعة)

[illegible]

(المادة الثامنة)

[illegible]

(المادة التاسعة)

[illegible]

[illegible]

(١)

[illegible]

(٢)

[illegible]

تبادل قرارات الإبرام

[illegible]

(٣)

(٤)

سكة حديد الحجاز

حوادث محلية

ام القرى

الشركة السعودية

88. TREATY (JIDDAH): BRITAIN AND KING 'ABD AL-'AZIZ OF THE HIJAZ AND OF NAJD AND ITS DEPENDENCIES
20 May 1927

(Ratifications exchanged, *Jiddah*, 17 September 1927)
[Great Britain, *Treaty Series* (1927), no. 25, Cmd. 2951]

* *Saudi Arabia.*

ART. 1. His Britannic Majesty recognises the complete and absolute independence of the dominions of His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies.

ART. 2. There shall be peace and friendship between His Britannic Majesty and His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies. Each of the high contracting parties undertakes to maintain good relations with the other and to endeavour by all the means at its disposal to prevent his territories being used as a base for unlawful activities directed against peace and tranquillity in the territories of the other party.

ART. 3. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes that the performance of the pilgrimage will be facilitated to British subjects and British-protected persons of the Moslem faith to the same extent as to other pilgrims, and announces that they will be safe as regards their property and their person during their stay in the Hejaz.

ART. 4. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes that the property of the aforesaid pilgrims who may die within the territories of His Majesty and who have no lawful trustee in those territories shall be handed over to the British Agent in Jeddah or to such authority as he may appoint for the purpose, to be forwarded by him to the rightful heirs of the deceased pilgrims; provided that the property shall not be handed over to the British representative until the formalities of the competent tribunals have been complied with and the dues prescribed under Hejazi or Nejdi laws have been duly collected.

ART. 5. His Britannic Majesty recognises the national (Hejazi or Nejdi) status of all subjects of His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies who may at any time be within the territories of His Britannic Majesty or territories under the protection of His Britannic Majesty.

Similarly His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies recognises the national (British) status of all subjects of His Britannic Majesty and of all persons enjoying the protection of His Britannic Majesty who may at any time be within the territories of His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies; it being understood that the principles of international law in force between independent Governments shall be respected.

ART. 6. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes to maintain friendly and peaceful relations with the territories of Kuwait and Bahrain, and with the Sheikhs of Qatar and the Oman Coast, who are in special treaty relations with His Britannic Majesty's Government.

ART. 7. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes to co-operate by all the means at his disposal with His Britannic Majesty in the suppression of the slave trade.

ART. 8. The present treaty shall be ratified by each of the high contracting parties and the ratifications exchanged as soon as possible. It shall come into force on the day of the exchange of ratifications and shall be binding during seven years from that date. In case neither of the high contracting parties shall have given notice to the other six months before the expiration of the said period of seven years of his intention to terminate the treaty it shall remain in force and shall not be held to have terminated until the expiration of six months from the date on which either of the parties shall have given notice of the termination to other party.

ART. 9. The treaty concluded between His Britannic Majesty and His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies (then Ruler of Nejd and its then Dependencies) on the 26th December, 1915, shall cease to have effect as from the date on which the present treaty is ratified.

ART. 10. The present treaty has been drawn up in English and Arabic. Both texts shall be of equal validity; but in case of divergence in the interpretation of any part of the treaty the English text shall prevail.

ART. 11. The present treaty shall be known as the Treaty of Jeddah.

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثالث عشر - المجلد الأول
مارس ٢٠٠٥ م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثالث عشر - المجلد الأول

مارس ٢٠٠٥م

تم الجمع والإخراج الداخلي والخارجي في :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
٥ شـارع ترعة المريوطية - عمارات شركة الخليج
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية .
* البحوث التي تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من أراء علمية .
* تصدر مؤقتًا سنويًا في مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
* تخصص أقسام في المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها في حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
* يأتي ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمني بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

* * * *

* جميع المراسلات تكون باسم السيد الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدواني - الحي الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

تعتبر مجلة (المؤرخ العربى) من أهم إصدارات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . وهى مجلة علمية تاريخية تستهدف الحقيقة التاريخية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية أو فكرية . ولا تنشد البحوث والدراسات المنشورة بها سوى إلقاء الأضواء الكاشفة على تاريخ الأمة العربية وعلاقتها بالدول المجاورة فى إطار علمى ، أساسه المنهج النقدى التاريخى الذى وضع قواعده شوامخ المؤرخين العرب ومنهم عبد الرحمن بن خلدون وأحمد بن على المقريزى وغيرهما .

ويشرفنى أن أقدم العدد الثانى عشر من مجلة المؤرخ العربى ويحتوى على مجموعة من البحوث والدراسات المتميزة المتنوعة : منها دراسة جديدة عن الطرق التى اتبعها المصريون القدماء فى بناء الأهرامات ، ودراسة عن مناهج البحث التاريخى عند مؤرخى المدينة المنورة فى القرنين الأول والثانى الهجريين (السابع والثامن الميلاديين) ، وبحث عن العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وفى تاريخ العصور الوسطى الإسلامية نجد دراسة جديدة عن رؤى الهلال فى مصر والشام والحجاز فى عصر سلاطين المماليك ، وبحث عن تاريخ الوقف فى الحجاز فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى . وفى تاريخ العرب الحديث يجد الباحث دراسة وثائقية عن الثورات فى غرب السودان فى السنوات ١٣٠٢ - ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٥ - ١٨٨٨م ، ودراسة عن موقف ثورة يوليو ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر من حركة التحرر فى ليبيا .

ويحتوى العدد أيضًا على دراستين أثريتين أولاهما دراسة عن الكتابات العربية على شواهد وتراكيب القبور العثمانية ، والثانية دراسة عن السيوف الأندلسية وأشهر نماذجها .

ولا شك أن هذه البحوث والدراسات الجديدة التى يسعد اتحاد المؤرخين العرب نشرها فى العدد الثانى عشر من مجلة المؤرخ العربى ستكون إضافة علمية للمكتبة التاريخية العربية ، وعونًا للدراسين الباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية فى الوطن العربى .

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير

أ.د/ سعيد عبد الفتاح عاشور

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

أ . د . عبد المنعم عبد الحليم سيد (*)

الطرق التى اتبعها المصريون القدماء فى بناء الأهرام فى ضوء الأدلة الأثرية وروايات الكتاب الكلاسيكيين

ملخص البحث :

أثارت المقدرة الفائقة التى اشتهر بها المصريون القدماء فى رفع الكتل الضخمة من الحجارة إلى الارتفاعات الشاهقة وخاصة الأهرامات دهشة كثير من المؤرخين القدامى والباحثين المعاصرين وقد صمتت الآثار المصرية ولم تقدم أية معلومات مباشرة عن طرق رفع هذه الكتل الضخمة ولكن بعض المؤرخين القدماء من أمثال هيرودوت وغيره قدموا تفسيرات لهذه المشكلة ولو أنها غامضة، كما حاول الباحثون فى العصور الحديثة الكشف عن هذا الغموض بالحفائر والأبحاث التى أجروها فى مناطق الأهرام وغيرها .

ومن أشهر الذين تناولوا هذه المشكلة من المؤرخين القدامى :

١ - المؤرخ اليونانى هيرودوت الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ويتلخص رأيه فى أن المصريين استخدموا " آلات من خشب " فى رفع الكتل الحجرية فوق درجات الهرم ، وأنهم بدأوا البناء فى الأجزاء العليا من الهرم ثم انتهوا من البناء فى الأجزاء السفلية .

* - أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ - كلية الآداب - جامعة الأسكندرية

٢ - المؤرخ ديودور الصقلى الذى زار مصر فى القرن الأول قبل الميلاد (٥٩ - ٥٧ ق.م) ويقول أن المصريين استخدموا تلالاً من الرمل أو من الملح لرفع الأحجار إلى المستويات العالية من الهرم ثم تخلصوا من تلال الملح بعد انتهاء العمل بتحويل مياه الفيضان عليها لإذابتها .

٣ - المؤرخ الرومانى بلينى من القرن الأول الميلادى وروايتـه تؤيد رواية ديودور فى بناء المصريين لتلال الملح كما ذكر رواية أخرى تتلخص فى أن المصريين بنوا قناطر من اللبن لهذا الغرض .

أما الباحثون الذين درسوا هذه المشكلة فى العصور الحديثة بعد إجراء الحفائر واعتمدوا على الأدلة الأثرية فمن أشهرهم :

١ - فلندرز بترى فى مقالـه " The building of pyramid " المنشـور فـى مجـلة " Ancient Egypt, 1930" .

وتتلخص آراؤه فى أن المصريين استخدموا المنحدرات Ramps فى رفع الأحجار وكانوا يرصون الحجارة مبتدئين من مركز الهرم ومتجهين نحو جوانبه (أى من الداخل إلى الخارج) وأنهم بنوا الكسوة من الداخل أيضاً .

٢ - سومرز كلارك وركس انجلباك وقد استعرضا فى كتابهما " فن البناء المصرى القديم" Somers Clarke & Rex Engelbach; Ancient Egyptian masonry, 1930 .

استعرضا مختلف الآراء حول هذا الموضوع وانتهيا إلى تأييد فكرة المنحدر التى كان فلندرز بترى أول من نادى بها ولكنهما اختلفا مع بترى فى إضافة تعديل إلى رأيه فى أن المصريين كانوا يقيمون ثلاثة جسور لمشى العمال حول الهرم وكانوا يبنون أحجار الكسوة من الخارج وليس من الداخل .

٣ - المرحوم سليم حسن وقد أشار إلى استخدام المصريين للمنحدرات ومعرفتهم استخدام البكر نظراً لعثوره على بكرتين أثناء حفائره فى الجيزة . وقد نشر آرائه فى كتابه مصر القديمة جـ١ كما سنوضح بعد .

٤ - إدواردز I.E.C. Edwards وقد أخذ بفكرة المنحدرات التى أعلنها بترى ولكنه أضاف إليها تعديلاً فى نقطتين هما :

أ – أن المصريين كانوا يبنون منحدراً واحداً Ramp للوصول إلى أعلى نقطة فى الهرم ولكنهم كانوا يبنون حول جوانبه الثلاث الأخرى ثلاث مماش للعمال وقد اتفق فى ذلك الرأى مع الجلباك وكلارك .

ب – أن بناء أحجار الكسوة (فيما عدا كسوة المدماك السفلى) كان يتم من خارج الهرم وليس من الداخل كما قال بترى . وقد نشر إدواردز آراءه هذه فى كتابه :
The Pyramids of Egypt (1947) .

وترجم إلى اللغة العربية ونشر فى مجموعة الألف كتاب بعنوان " أهرام مصر " فى عام ١٩٥٦.

وفيما يلى تفصيل لما أجملنا :

أولاً تفسير الآلات الخشبية التى وردت فى رواية هيرودوت :

كان المؤرخ اليونانى هيرودوت هو أول من أشار إلى الطريقة التى اتبعها المصريون القدماء فى رفع الأحجار الضخمة إلى أعلى لبناء الهرم وذلك أثناء حديثه عن الهرم الأكبر إذ يقول :

" بنى (الهرم) أولاً على هيئة سلالم يسميها البعض " درجات " والبعض الآخر هياكل . وبعد تشييده بهذا الشكل رفعوا الأحجار الباقية بواسطة آلات مصنوعة من ألواح خشبية قصيرة ، وكانوا يرفعون الأحجار من الأرض إلى الطبقة الأولى من الدرجات . وبعد رفع الحجر إلى هذه الطبقة كان يوضع على آلة أخرى قائمة على الطبقة الأولى ، ومنها يرفع إلى الدرجة الثانية ويوضع فى آلة أخرى . وكانت هناك آلات بعد الدرجات ، أو لعلها كانت آلة واحدة سهلة الحمل ، كانوا ينقلونها من طبقة إلى أخرى كلما جروا الحجر ، ومن الواجب التحدث عن الطريقتين ، إذ يقال بكلتيهما ، ثم – أولاً – بناء أعلى جزء من الهرم ، ثم بعد ذلك بنوا الأجزاء السفلى بالتدريج ، وأخيراً أكملوا الأجزاء السفلى التى على الأرض " (محمد صقر خفاجة ١٩٦٦ فقرة ١٢٥ ص ٢٥٢) .

وقد وجد تفسير لرواية هيرودوت عن الآلات الخشبية عندما عثر فى ودائع الأساس فى معبد حتشبسوت بالدير البحرى على ما يمكن أن نطلق عليه " هزاز " (شكل ١) (Clarke & Engelbach 1930, fig. 89) . يتكون من قطعتين من الخشب مقوستين من أسفل ومثبتتان إلى بعضهما بعصى أو عيدان من الخشب وهو بذلك يشبه الكرسى الهزاز ، وكان

لم تكن قد اكتشفت بعد فى تلك الأيام وأغرب ما فى الأمر أنه بالرغم من أن عملية البناء قد أجريت فى منطقة رملية كلها ، فليس هناك من أثر للتلال ، أو لعملية صقل الأحجار حتى أنه ليبدو وكأن البناء لم تقمه تدريجيًا يد الإنسان بل كأن أحد الآلهة أقامه دفعة واحدة وسط الرمال المحيطة به . ويحاول بعض المصريين أن يصوروا هذا الأمر كأنه إحدى العجائب فيقولون أن التلال صنعت من الملح والنطرون ولما أطلقت مياه النهر عليها أذابتها وأزالتها نهائيًا دون أن يكون للإنسان ضلع فى الأمر . والواقع أن هذه الرواية عارية من الصحة تمامًا . فإن العدد العظيم من العمال الذين أقاموا هذه التلال الرملية أرجعوها بأنفسهم إلى ما كانت عليه من قبل . (وهيب كامل ١٩٤٧ ، فقرة ٦٣ ، ص ١١٥) . وقد أورد المؤرخ بلينى (القرن الأول بعد الميلاد) رواية مشابهة لرواية ديودور إذ يقول " وإن أصعب مسألة هى أن تعرف كيف أمكن رفع مواد البناء إلى مثل هذا الارتفاع العظيم " . وترى بعض المصادر أنه كلما ارتفع البناء كوموا إلى جانبه تلالاً كبيرة من الملح والنطرون التى ذابت أكوامه بعد الفراغ من البناء بواسطة جرى ماء الفيضان من تحتها . ويعتقد البعض أن قناطر قد بنيت من اللبن وأنه عندما تم الهرم انتفع بهذا اللبن فى إقامة الأكواخ التى يسكنها القرويون وأوساط الناس (محرم كمال ١٩٣٦ ، ص ٨٣) .

ومن الواضح - كما ذكرنا سابقًا - أن ديودور وبلينى يقصدان " بالتلال " المنحدرات " وإن كان الناس فى زمانهما قد تداولوا هذه الرواية بطريقة خيالية عندما ذكروا لهما أن هذه التلال كانت من الملح والنطرون !! .

وإزاء ذلك تتفق جمهرة المؤرخين على تصديق رواية كل من ديودور وبلينى إذا كانا يعنيان بالتلال " المنحدرات أو المزالق Ramps فى رفع الأحجار إلى المداميك العليا .

ومن أبرز العلماء الذين أخذوا بهذا الرأى فى العصر الحديث العالم الأثرى فلندرز بترى Flinders Petrie (Petrie 1930, p. 33ff) ثم المعماريان الأثريان كلارك وانجلباك (Clarke & Engelbach 1930, p. 117 ff) وكذلك المهندس الفرنسى لوير (Lour 1952, p. 141ff) وقد نهج على منوالهم أغلب الباحثين سواء منهم الأجانب أو العرب . ويشير الدكتور أحمد فخرى إلى ذلك فى قوله " وإذا فحصنا بعض المبانى الأثرية التى لم يتمه المصريون من إتمامها فإننا نستطيع التأكيد من أنهم لجأوا إلى عمل جسور وطرق صاعدة من التراب والحصى لمثل هذا الغرض وأنهم كانوا يبنون جدرانًا من اللبن (على جانبيه) حتى

يثبت التراب الحصى فى مكانهما ثم يزيلون ذلك كله عندما يتم البناء .. وقد وضح لنا من الاكتشافات الأثرية فى سقارة أن القدماء أقاموا هذا الطريق الصاعد عندما كانوا يبنون الهرم المدرج الذى لم يتم وهو الهرم الذى بدأه الملك " سخم - خت " خليفة الملك زوسر كما سنذكر بعد . وقد بقى هذا الطريق الصاعد فى مكانه لأن الهرم لم يتم بناؤه ونستطيع القول بأن المصريين استخدموا هذه الطريقة نفسها عند بناء الأهرامات فيما بعد . وتشييد الطرق الصاعدة عمل كبير ومجهود ضخم لا يكاد يقل عن تشييد الهرم نفسه . وكثيراً ما عنى المعماريون والمشتغلون بالدراسات الأثرية بهذا الموضوع وناقشوه فى بحوثهم وتتفق الأغلبية العظمى منهم على أنه لم يبن أى هرم من الأهرامات دون إقامة الطرق الصاعدة (أحمد فخرى ١٩٦٣ ، ص ١٧٦) .

ويلاحظ أن ما ورد فى وصف الدكتور أحمد فخرى عن بناء جدران من اللبن على جانبى الطرق الصاعدة (المنحدر) لتدعيمه ، يمكن أن يفسر عبارة " قناطر اللبن " الواردة فى رواية بلينى المذكورة سابقًا .

ومن أدق وأحدث الدراسات فى موضوع المنحدرات تلك التى وردت فى كتاب إدواردز " أهرامات مصر " فقد تناول طريقة رفع الأحجار بالدراسة التفصيلية وربطها بطرق بناء الهرم وكسوته . ويستهل إدواردز حديثه فى هذا الموضوع قائلاً : " ولعدم وجود البكرة وهو اختراع لم يُعرف فى مصر قبل عصر الرومان - لم يكن أمام المصريين إلا طريقة واحدة لرفع الأوزان الثقيلة وذلك ببناء منزلقات من الطوب اللبن والطين ترتفع إلى أعلى من مستوى الأرض إلى أى ارتفاع يريدونه فإذا أرادوا مثلاً بناء حائط قصير فإن أحجار كل مدماك بعد المدماك الأسفل كانت ترتفع إلى المنسوب المطلوب على منزلق يبنى ملاصقًا للجدار وبطوله كله ، وعند إضافة مدماك تالٍ إلى البناء يلزم أن يرتفع المنزلق ويمتد أيضًا لكى يبقى الانحدار دون تغيير (شكل ٤) . وفى النهاية عندما يبلغ الجدار أقصى ارتفاعه يزال المنزل وتسوى السطوح الخارجية للأحجار التى لم تصقل سطوحها من قبل . يصقلونه طبقة بعد طبقة متجهين إلى أسفل فى الوقت الذى يقللون فيه ارتفاع المنزلق . ويمكننا أن نرى مثالاً لهذا المنزلق ملاصقًا للصرح الأول الذى لم يكمل بناؤه فى معبد الكرنك (ملاحظة : صور هذا المنحدر منشورة فى

(Clarke & Engelbach 1930, Figs. 87, 88) ولئن كان هذا المثال من العصور المتأخرة (المعروف أن بقايا المنحدر الذى يلاصق هذا الصرح يرجع إما إلى العصر البوبسطى أو العصر الأثيوبى) فإن مما يثبت أن هذه الطريقة نفسها كانت متبعة قبل ذلك فى العصور القديمة مما عثر عليه من بقايا المنزلقات عند هرم أمنمحات الأول فى اللشت وعند هرم ميدوم . كما تبدو فى الصور المأخوذة من الجو بقايا واضحة من المنزلقات مازالت تحت رمال دهشور (إدواردز ١٩٥٦ ، ص ٣٢٠) .

والواقع أن إدواردز أصدر كتابه هذا فى عام ١٩٤٧ (بالإنجليزية) أي قبل ظهور كشف جديد على جانب كبير من الأهمية أثبت وجود المنحدرات منذ بداية الدولة القديمة (الأسرة الثالثة) وهو كشف محمد زكريا غنيم عام ١٩٥٣ - ١٩٥٤ لهرم لم يتم بناؤه فى سقارة سماه " الهرم الدفين " The Buried Pyramid ويسميه بعض الأثريين " الهرم الناقص " وينسب هذا الهرم للملك " سخم - خت " خليفة زوسر . وقد وجد زكريا غنيم إلى جواره بقايا المنحدر الذى كانت ترفع عليه الأحجار إلى المداميك العليا (محمد زكريا غنيم ١٩٦١ ، ص ١١٨) (وقد أضاف المرحوم الدكتور أحمد فخرى الذى راجع الترجمة العربية لكتاب إدواردز التى صدرت عام ١٩٥٦ بعنوان " أهرام مصر " - أضاف هذه المعلومة فى ص ٨ - ٩ من هذه الترجمة وسوف نوضح تفاصيل كشف محمد زكريا غنيم فيما بعد) .

الاعتراضات على نظرية المنحدرات :

قد تبدو هذه النظرية غير مقبولة عندما نفحص قطاعاً رأسياً فى بعض الأهرامات مثل هرم الملك سا - حو - رع من الأسرة الخامسة . ويظهر من فحص هذا القطاع أنه بعد بناء قلب الهرم إلى أقصى ارتفاعه بنيت عدة كسوات سميكة كانت كل منها تقل فى الارتفاع عن التى قبلها ابتداء من الوسط . ويميل كل من الكسوات إلى الداخل بزاوية مقدارها ٧٥ تقريباً (شكل ٥) .

ويبدو من الملاحظة الظاهرية للبناء ، أنها تستلزم زحزحة المنحدرات إلى الخلف لكى تفسح المكان لبناء الكسوات التالية مما يترتب عليه ضياع كبير للعمل فى حين أننا نعلم أن المصريين كانوا منظمين للعمل بدرجة فائقة ولكن الدراسة الدقيقة لهذه الطريقة فى البناء ، أثبتت أن هذه الكسوة كانت تبنى كلها فى وقت واحد ، وكان الغرض منها تدعيم البناء وضبط شكله المربع.

كيفية بناء المنحدرات ونظامها :

شرح إدواردز هذه الخطوة فى استخدام المنحدرات فقال : " كان المصريون يبنون منزلقًا أو منحـدراً Ramp واحداً بطول جانب واحد من الهرم أطلق عليه اسم منزلق التموين أو منزلق الإمـداد Supply ramp لاستخدامه فى نقل ما يلزم من حجارة وغيرها (شكل ٦) . وكلما ارتفع الهرم ازداد منزلق التموين فى الارتفاع فإذا كانت زاوية ميل الهرم ٥٢° وبهذا يتفادون أى انهيار جانبى . أما جوانب الهرم الثلاثة التى لم تغط بمنزلق التموين فقد كان أمام كل منها جسراً أو ممشى كان فى أعلاها يسمح بمرور الرجال ومواد البناء يطلق عليه " جسر المشى " أو ممشى العمال (شكل ٧) Foot -hold embankment ونظراً لأن هذه الجسور الثلاثة لا تستخدم لرفع الأحجار من الأرض فإن درجة ميلها على السطح الخارجى يمكن أن تكون منحدرة بقدر ما تسمح به المتانة اللازمة . وكانوا يبلطون سطح المنحدر والجسور ببراطيم أو عروق من الخشب Baulks of timber لتكوين طرق متينة تتحمل مرور الزحافات وهى محملة بكتل الأحجار وقد عثر على بعض منها فعلاً فى اللشت (إدواردز ١٩٥٦ ، ص ٣٢٠) .

والواقع إن هذا الرأى الذى أعلنه إدواردز فى كتابه عن منزلق التموين وجسور المشى سبقه إليه أثريان معماريان هما كلارك والجلباك وذلك فى كتابهما عن « فن البناء فى مصر القديمة » الذى نشـراه عـام ١٩٣٠ (Clarke & Engelbach 1930, p. 117-119) وقـد أشـار إدواردز نفسـه إلى أنه استقى معلوماته فى هذا الموضـوع عنهمـا (إدواردز ١٩٥٦، ص ٣٢٢) .

كما أن فلندرز بترى أخذ بفكرة منحدر التموين قبل كلارك والجلباك بسنين عديدة ولكنه لم يذكر شيئًا عن جسور المشى (Petrie 1930, p. 35) وهذا ما دعاه إلى القول بأن المصريين كانوا يركبون حجارة الكسوة فى أماكنها من ناحية الهرم وقد خالفه إدواردز قائلاً أنها بنيت من الخارج أى بالإرتكاز على منحدر التموين وجسور المشى (وسنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد) .

كيف أثبتت الكشوف الأثرية وجود المنحدرات ؟

أثبت زكريا غنيم فى كتابه الهرم الدفين نتائج كشوفه حول هرم " سخم - خت " فى سقارة وهو هرم لم يتم بناؤه (لذلك يسميه بعض العلماء الهرم الناقص) ومنها يتبين عثوره على منحدر التموين فى الجانب الغربى من هذا الهرم (زكريا غنيم ١٩٦١ ، ص ١١٨) وهو أقرب

الجوانب إلى المحجر . وكذلك عثر على جسور المشى فى ثلاثة جوانب من البناء ، وقد نشر صورة شمسية لمنزلق التموين وجسور المشى للهرم المذكور (زكريا غنيم ١٩٦١ ، ص ١١٤ و شكل ٢٥) .

وقد سبقت الإشارة إلى العثور على بقايا المنحدرات عند هرم أمنمحات الأول فى اللشت وعند هرم ميدوم واحتمال وجود منزلقات تحت رمال دهشور . وفضلاً عن ذلك يشير الدكتور أحمد فخرى إلى وجود بقايا منحدرات وجسور هضبة الجيزة فالطريق الذى يصعد فوقه زوار الهرم الأكبر فى الناحية الشمالية من الهضبة ليس إلا جسراً مكوناً من الرديم الذى تبقى مما تخلف عن العمل . وكذلك الجزء الذى على حافة الهضبة الشرقية إلى الشمال من الطريق الموصل بين معبدى الهرم الأكبر . ومازالت هناك أيضًا بقايا جسر صاعد آخر على مسافة طويلة من الجهة الجنوبية من الطريق الموصل بين معبدى الهرم الأكبر . وقد بنيت فوقه بعض منازل الجزء الغربى من بلدة نزلة السمان (أحمد فخرى ١٩٦٣ ، ص ١٧٨) . هذا ولاشك أن الزائر لمنطقة أبى الهول يلاحظ بجوار التمثال طريق صاعد يؤدى إلى هرم خفرع ، فربما كان الطريق الذى كانت تنقل عليه كتل كسوة هرم خفرع التى كانت تجلب بالسفن من منطقة طرة على الضفة الشرقية للنيل .

الأدلة على استخدام المنحدرات فى رفع الكتل الحجرية من الرسوم والنصوص المصرية:

لقد أمدتنا الرسوم المصرية نفسها برسم لمنحدر على جدران مقبرة الوزير رخميرع فى سقارة (الأسرة ١٨) ولو أنه لم يستخدم فى بناء هرم ولكنه استخدم فى رفع كتلة عتب علوى لقاعة أعمدة (شكل ٨) فيظهر فى هذا الشكل المنحدر وقد شيد من الطوب اللبن الذى ظهرت قوالب الطوب فيه على أشكال مستطيلات رفيعة رفعت فوقها كتلة الحجر التى ستستخدم لتسقيف قاعة الأعمدة المكونة من ثلاثة أعمدة وقد تكوّن كل عمود من أربعة مكعبات (ذات اللون الأبيض) شيد بينها جسران من اللبن رسمت بنفس طريقة رسم المنحدر لاشك أنه جسور المشى التى يقف عليها العمال لتركيب مكعبات الأعمدة (Newberry, 1900, fig. 86, p. 92) .

والمنحدر بهذا الشكل وكتلة الحجر التى تسحب عليه وجسرا المشى بين الأعمدة لاشك تطابق تمامًا المنحدر وجسور المشى التى كانت تشيد فى ملاصقة الهرم لرفع الكتل الحجرية عليها .

أما النصوص فقد ورد فى بردية أنسطاسى الأولى نص هيراطيقى يشير إلى بناء منحدر جاء فيه : " لقد عمل منحدر طوله ٧٣٠ ذراعًا وعرضه ٥٥ ذراعًا ويحتوى على ١٢٠ قسمًا

ملئت بالبوص وعروق الخشب ويبلغ ارتفاعه إلى قمته ٦٠ ذراعًا وارتفاع وسطه ٣٠ ذراعًا ونهايته ١٥ ذراعًا وقاعدته خمسة أذرع أما مقدار اللبن اللازم له ... " (Gardiner 1911, XIII) .

كيفية استخدام المنحدر وجسور المشى فى بناء قلب الهرم :

وصف إدواردز هذه العملية قائلاً : " لنتصور أن هرمًا من الأهرام قد بنى إلى نصف ارتفاعه النهائى ، ففى هذه الحالة لا يمكن أن يظهر شىء من مبانى الهرم لأى شخص واقف على الأرض لأن ثلاثة من الأوجه الخارجية ستكون مُغطاة كلها بجسور مشى العمال وسيحجب منزلق التموين الوجه الرابع . أما السطح العلوى من الهرم فسيكون أشبه برصيف مربع Plat-form معد لوضع المدماك التالى فوقه . وأول ما يُسحب من الأحجار إلى هذا الرصيف هى الكتل الحجرية الداخلية Core-Blocks المجلوبة من المحاجر المحلية تترك جوانبها وسطوحها العلوية خشنة ولكن تسوى سطوحها السفلى (شكل ٩) واللحامات التى ترتكز عليها bed-ding-joints وتؤخذ هذه الأحجار إلى وسط الرصيف وتوضع إلى جوار بعضها البعض ، وتترك غالبًا الفراغات الناتجة من عدم انتظام جوانبها دون ملئ وكانوا يعنون بأن يمتد المدماك الجديد new course فى كل الاتجاهات الأربعة بحيث يبقى دائمًا فى شكل مربع تقريبًا . وعلى مسافات منتظمة يجعلون جوانبه متساوية تمامًا فى الطول بإضافة كسوة داخلية inter-nal casing من أحجار طرة الجيرية توضع مباشرة فوق نظيرتها من الكسوة فى أرضية الرصيف (شكل ١٠) . وكانت الناحية الخارجية من هذه الكسوة تقطع بزاوية مقدارها حوالى ٧٥ درجة ولكنها تترك دون صقل ، وأخيرًا تزاد مساحة المدماك الذى انتهى وضع أحجاره حتى لا يبقى من الرصيف الأصلى سوى شريط ضيق على حوافه الخارجية الأربعة دون تغطية.

وعندما يصل العمل إلى تلك المرحلة تُضاف كتل حشو Packing blocks من الأحجار الجيرية مع العناية الفائقة باللحامات joints بين الأحجار .

ففى الهرم الأكبر وضعت كتل الحشو بطريقة تجعلها تميل ميلاً خفيفًا إلى الداخل نحو وسط كل مدماك فنتج عن ذلك انخفاض يمكن ملاحظته متجهًا من أعلى إلى أسفل فى وسط كل وجه من أوجه الهرم . ولا توجد هذه الظاهرة فى أى هرم آخر .

كيفية استخدام المنحدر وجسور المشى فى بناء كسوة الهرم :

عندما يتم بناء قلب الهرم لا يتبق إلا أن تضاف الكسوة الخارجية outer-casing من أحجار طرة الجيرية . ويستلزم هذا العمل الدقة التامة ، لأن أى عيب فى وضع الأحجار لا

يشوه المظهر الخارجي للأثر فحسب ، بل يؤدي حتماً إلى عدم انتظام الشكل الهرمي ، وعلاوة على ذلك يجب أن تكون زوايا اللحامات مضبوطة وملتصقة جداً ما أمكن . ولكى يقتصدوا في الوقت ويحصلوا علي أعلى ما يمكن من الدقة كانوا يعهدون بتوضيب اللحامات الصاعدة rising joints في هذه الكتل (وهي اللحامات بين الكتل المتجاورة في نفس المدماك) إلى أمهر البنائين ينجزونها على الأرض قبل نقل الكتل من مكانها (وقد ثبت انجاز هذه الأعمال على الأرض من ترقيم كتل سقف حجرة الملك في الهرم الأكبر) ويمكن ملاحظة دقة هذه الطريقة في اللحامات الصاعدة المائلة Oblique rising joints لأحجار الكسوة الخارجية المذكورة (شكل ١٠) .

وربما يتم على الأرض أيضًا إعداد زوايا اللحامات بين الأوجه الخلفية لأحجار الكسوة وبين الأوجه الأمامية لكتل الحشو حتى إذا ما وصلت كل كتلة من كتل الكسوة في النهاية إلى أعلى البناء تكون شبه تامة إذ لم يبق منها دون صقل سوى الوجه الخارجي المنحوت طبقًا لزاوية الهرم . وتركب الكتل مكانها على أن يصقل الوجه الخارجي فيما بعد أي بعد الانتهاء من بناء الهرم حتى قمته . (إدواردز ١٩٥٦ ، ص ٣٢٥ وما بعدها) .

كيفية استخدام المنحدر وجسور المشي في تركيب أحجار الكسوة في مكانها :

في الواقع يعتبر وضع كتل الكسوة الخارجية عملاً صعبًا خصوصًا إذا كانت كتلاً كبيرة تزن الواحدة منها أكثر من عشرة أطنان ويصف إدواردز هذه العملية بأن البنائين كانوا يجلبونها على زحافتها إلى أقصى نقطة ممكنة فوق جسر المشي ، أي في مكان يواجه مباشرة المكان المقرر وضعها فيه في البناء ثم تنزل الكتلة على جانبها من الزحافة لتستقر على عوارض خشبية Battens موضوعة فوق أحجار الكسوة السفلى المناظرة (أي في المدماك الأسفل) وبينما تكون الكتلة في ذلك الوضع ، تبسط طبقة رقيقة من المونة على كل من وجهها الأسفل والوجه المجاور للكتلة الأخرى والغرض من ذلك إيجاد نوع من التشحيم يساعد على تصحيح وضع الكتلة بعد استقرارها في مكانها لكي تلتحم تمامًا مع كتل الكسوة المجاورة لها والتي تحتها وتنطبق أيضًا مع كتلة الحشو الواقعة خلفها .

ولسنا نعرف تمامًا الطريقة التي اتبعت لتثبيتها في مكانها ولكن من المحتمل أن تثبيتها كان يتم بدفعها فوق براطيم أو عروق من الخشب Baulks مربوطة بحبال إلى بعضها وتركز على هذه العروق عتلات أو روافع Levers ثم يحركونها إلى الوراء ولتيسر استخدام هذه

العتلات كان البناءون أثناء قطع السطح الخارجي للكتلة يتركون بروزات Bosses (شكل ١١) فيه وبهذه الطريقة تحرك كتلة الكسوة حتى تصبح على حذاء الخط تمامًا . وقد استطاع المصريون بهذه الطريقة الوصول إلى منتهى الدقة فى اللحامات بين أحجار الكسوة فيقول بترى أن متوسط سمك هذه اللحامات لا يزيد على ١/٥٠ من البوصة !!.

استخدام المنحدر وجسور المشى فى صقل أحجار الكسوة من أعلى إلى أسفل :

يبدأ العمل بعد ذلك فى صقل الجوانب الأربعة الخارجية للهرم بادئين بحجر القمة متجهين إلى أسفل . وهى العملية التى قصدها هيرودوت بقوله أن البناء كان يسير من أعلى إلى أسفل والتى أثارت فيما مضى حيرة الباحثين فالمقصود بقوله هذا صقل كسوة الهرم (وإن كان هناك رأى آخر يتفق مع رواية هيرودوت تمامًا وهو أن كتل أحجار الكسوة بكاملها كانت تضاف بعد إتمام بناء جسم الهرم الذى تكون درجاته فى داخل الصندوق الضخم المشيد باللبن تشبه شكله اليوم بعد أن نزعت كل أحجار الكسوة على يد حكام مصر عبر العصور للاستفادة بها فى مبانيهم) ، وكلما تقدم العمل فى صقل الكسوة فى درجة من درجات الهرم يزال منحدر التمرين وجسور المشى من أمام الدرجة الواقعة أسفل هذه الدرجة فتظهر بذلك درجة جديدة من أحجار الكسوة يبدأون فى صقلها هى الأخرى وهكذا يسير العمل . ولكى ينجز العمل بسرعة أكبر فمن المحتمل ألا تجرى عملية تخفيض المنحدر وجسور المشى تدريجيًا بل فى طبقات تبلغ ارتفاع كل منها بضعة أقدام حتى يمكن إقامة سقالات من الخشب بدلاً منها (من المؤكد أن المصريين عرفوا السقالات كما يدل على ذلك رسم سقالات فى مقبرة رخميرع المذكور سابقًا) وبهذا يستطاع استخدام عدد كبير من العمال يعملون على مناسيب مختلفة فى وقت واحد .

أوجه الاختلاف بين آراء بترى وآراء إدواردز بخصوص بناء كسوة الهرم :

تختلف النتائج التى أثبتها إدواردز فى كتابه عن استنتاجات فلندرز بترى (Petrie 1930, p. 33-39) الذى يعتقد أن المصريين بنوا منحدراً واحداً (أى أنه لم يذكر شيئًا عن جسور المشى التى ذكرها إدواردز) ولذلك اختلفت طريقتهم فى بناء كسوة الهرم الخارجية (طبقًا لآراء بترى) . فبينما يقول إدواردز أن المصريين ارتكزوا على جسور المشى فى بنائها وركزوا عليها العتلات لتثبيت هذه الأحجار فى أماكنها ، وإنهم لم يصقلوها من الخارج إلا بعد إتمام الهرم كله بادئين من أعلى ومنتهين بالجزء الأسفل ، يقول بترى أن أحجار الكسوة

كانت تصقل تمامًا قبل نقلها إلى أماكنها وكانت توضع فى مكانها بتحريكها من الداخل أى أن الكسوة توضع أولاً فى كل مدماك ثم يُملأ وسط الهرم بعد ذلك . وبهذه الطريقة يلزم إقامة منزلق واحد فقط ويتم إنجاز أوجه الهرم الثلاثة حال وضع أحجار كسوتها . وقد دعم بترى وجهة نظره بقوله : " أن هناك فرقًا بسيطًا فى الزاوية بين كتل الكسوة عند تلاحمها مما يثبت أن الأوجه لم تصقل منذ أن بنيت معًا " .

ويرد إدواردز على ذلك ، بأن نظرية بترى تنطبق على كسوة المدماك السفلى من الهرم الأكبر (وهى أحجار الكسوة الوحيدة الباقية فى ذلك الهرم حتى اليوم) ولكن تعميمها على المداميك العليا غير مقبول . فجميع الأحجار التى ينطبق عليها قول بترى موجودة فى المدماك السفلى وتحتها أرضية ناعمة ورصيف Pavement من أحجار طرة الجيرية تبرز إلى خارج الهرم نحو قدمين (برستد ١٩٢٩م ، ص ٧٤ وشكل ٦٦)

وعلاوة على ذلك فإن هذه الأحجار بالذات أى أحجار المدماك الأسفل من الكسوة ربما وضعت قبل غيرها من أحجار قلب الهرم لكى تحدد حجم واتجاهات قاعدة الهرم ، وذلك لأنه يمكن عمل التعديلات البسيطة فى وضع أحجار كسوة هذا المدماك إذا ما كانت طليقة من الأمام والخلف أى إذا بنيت قبل بناء باقى الأحجار الداخلية من كتل حشو وغيرها . وأن أى خطأ عند بناء القاعدة بسبب الخطأ فى الأثر كله ربما أخل بنظام شكله (إدواردز ١٩٥٦، ص ٣٣١) .

وهكذا يوافق إدواردز على رأى بترى فى أن أحجار الكسوة الخارجية بنيت من الداخل ولكن ذلك فى المدماك السفلى فقط أما المداميك الأخرى فقد شرح طريقة بنائها من الخارج.

ويسوق إدواردز دليلاً على أن أحجار الكسوة فى المداميك الواقعة فوق المدماك السفلى كانت توضع من الأمام (أى من خارج الهرم بالإرتكاز على المنحدر وجسور المشى) بأمثلة من الأهرامات التى لم يتم صقل كسوتها . ومثال ذلك هرم منكاورع حيث نجد أن الحجر الجيرى الذى استعمل فى كساء الجزء الأعلى كان تام الصقل . ولكن أحجار الجرانيت التى تكسو الأجزاء السفلى لم يتم صقلها ، وبهذا تحددت النقطة التى وقف عندها العمل . وأن وضع الأحجار من الأمام يستلزم ترك الأوجه الخارجية للأحجار في حالة خشنة إلى أن توضع فى مكانها ثم يصقل بعد ذلك من أعلى إلى أسفل كلما أزيلت جسور المشى والمنحدر وهكذا يؤيد أحجار كسوة هرم منقرع نظرية المنحدر وجسور المشى (إدواردز ١٩٥٦ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢) .

تفسير المصطلحات المعمارية الواردة فى هذا البحث :

١ - Ramp منحدر - منزلق - طريق صاعد .

٢ - Supply - ramp منحدر التموين - منزلق التموين - منحدر الإمداد : وهو المنحدر الرئيسى الواصل بين أعلى البناء وبين الأرض ويستخدم فى تموين أو إمداد المشتغلين بالبناء فوق الهرم بالحجارة والأدوات اللازمة للبناء بنقلها على زحافات يجرها الرجال .

٣ - Foot-hold embankment = جسور المشى - جسور مشى العمال - مماشى العمال : وهى الجسور الثلاثة التى تحيط بأوجه الهرم الأخرى (أى باستثناء الوجه الذى يلاصقه منزلق التموين) وتستخدم لانتقال العمال ونقل الكتل الحجرية وخاصة أحجار الكسوة الخارجية كما تستخدم فى تركيز الروافع التى تثبت هذه الأحجار فى أماكنها .

٤ - Core-blocks = كتل القلب أو قلب الهرم : وهى كتل من الحجر الجيرى تكون قلب الهرم وكانت تسوى من سطوحها العليا والسفلى فقط بينما تترك أوجهها الجانبية دون صقل .

٥ - Packing-blocks = كتل الحشو : وهى كتل من الحجر الجيرى المحلى تفصل بين أحجار قلب الهرم غير المصقولة وبين أحجار الكسوة الخارجية المصقولة فى المدماك الواحد . لذلك كانت تصقل من الناحية المواجهة لأحجار الكسوة .

٦ - Platform = رصيف : يطلق على السطح العلوى للهرم أثناء بنائه ويتخذ شكل الرصيف نتيجة رص الأحجار فيه ابتداء من مركز الهرم نحو الخارج حتى حدود كتل الحشو .

٧ - Internal casing = التكسية أو الكسوات الداخلية : وتتكون من أحجار طرة الجيرية الناعمة التى تقطع من الخارج بزاوية ٧٥ وتترك هذه الأوجه دون صقل ، وترص على مسافات منتظمة من مركز الهرم نحو الخارج والغرض منها جعل جوانب الهرم متساوية فى الطول وحفظ شكله المربع .

٨ - Outer casing = التكسية أو الكسوة الخارجية : وهى أحجار الكسوة الظاهرة فى الهرم من الخارج وتتخذ من أحجار طرة الجيرية الناعمة وتصقل من جميع

سطوحها وتلاصق كتل الحشو من الداخل . وجانبها الخارجى يميل بزاوية ميل الهرم .

٩ - Joints = لحامات : وهى الخطوط الفاصلة بين الأحجار .

١٠ - rising-joints اللحامات الصاعدة : وهى الخطوط الرأسية الفاصلة بين الأحجار .

١١ - Oblique rising-joints = اللحامات الصاعدة المائلة : وهى الخطوط الفاصلة بين الجوانب الخارجية لأحجار الكسوة الخارجية للهرم . وأوجه هذه الأحجار مائلة بزاوية ميل الهرم .

١٢ - Pavement = الرصيف السفلى : وهو العتب اللى ترتكز عليه كسوة المدماك السفلى فى الهرم وهو ظاهر فى الهرم الأكبر ويبرز إلى الخارج بمسافة قدمين تقريباً .

١٣ - Course = مدماك - طبقة - درجة من درجات الهرم (طبقًا لارتفاع أحجار الكسوة الخارجية) .

١٤ - Rockers-Cradles = هزازات : وهى القطع الخشبية التى تشبه هزازات الكرسى وتستخدم فى " هز " قطعة الحجر لرفعها باستخدام الخوابير wedges التى على شكل ألواح مشطوفة من أحد جوانبها .

١٥ - Baulks = عروق أو براطيم (من الخشب) .

١٦ - Bedding -joints = اللحامات السفلية : وهى الفواصل بين الأحجار العليا والسفلى التى ترتكز عليها كتل الأحجار .

١٧ - Levers = روافع - عتلات .

١٨ - Battens = عوارض خشبية .

١٩ - Bosses = عقد بارزة - بروزات .

٢٠ - Sleepers = فلنكات .

المصادر والمراجع

استخدمنا فى كتابة عناوين هذه المصادر والمراجع ، النظام الحديث فى المؤلفات الأوروبية والأمريكية (وأيضاً فى بعض الدوائر العلمية العربية) المعروف باسم Harvard Referenc-es System والذى يتلخص فى الإشارة إلى المرجع فى متن البحث باسم المؤلف وسنة الطبع ورقم الصفحة فقط ولذلك أصبح نظاماً عالمياً نظراً لتميزه عن النظام التقليدى القديم السائد فى بعض المؤلفات العربية – تميزه بمرونته وعدم إهدار وقت وجهد القارئ فى تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المصادر والمراجع ، فضلاً عن المساحة التى يوفرها نتيجة لاختصاراته وكتابة الاختصارات فى متن البحث .

١ – أحمد فخرى ١٩٦٣ : الأهرامات المصرية ، القاهرة .

٢ – إدواردز ١٩٥٦ : إدواردز ، أ.أ.س، أهرامات مصر ، ترجمة مصطفى عثمان ومراجعة أحمد فخرى ، القاهرة .

٣ – برستد ١٩٢٩م : برستد ، جـ.هـ، كتاب تاريخ مصر ، ترجمة حسن كمال ، القاهرة .

٤ – محمد زكريا غنيم ، ١٩٦١م : الهرم الدفين ، تأليف محمد زكريا غنيم (بالإنجليزية) وترجمة زكى سوس ومراجعة جمال الدين مختار ، القاهرة .

٥ – محرم كمال ١٩٣٦م : محرم كمال ، تاريخ الفن المصرى القديم ، القاهرة .

٦ – وهيب كامل ١٤٩٧، وهيب كامل ، ديودور الصقلى فى مصر ، القاهرة .

٧ – محمد صقر خفاجة ١٩٦٦م ، هيرودوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صقر خفاجة وشرح أحمد بدوى ، القاهرة .

8 - Clarke & Engelbach 1930. Clarke, Somers & Engelbach, R.; Ancient Egyptian Masonry. Oxford.

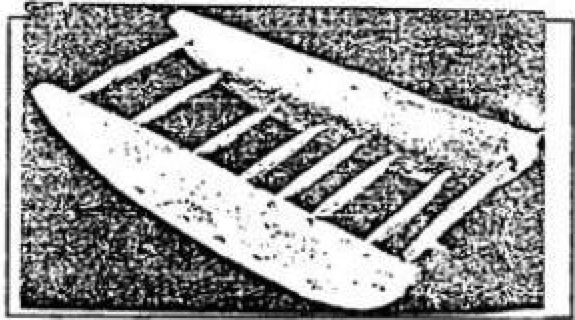
9 - Gardiner 1911, Gardiner, A.; Egyptian Hieratic Texts, London.

10 - Landström 1970, Landstrom, Björn; Ships of the Pharaohs, New York.

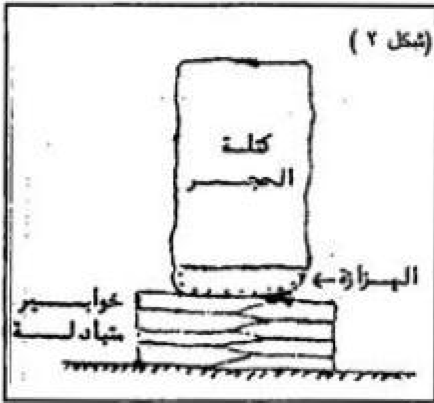
11 - Lauer 1952, Lauer,J.f.; Le Probéme des Pyramides de L'Egypte, Paris.

12 - Newberry 1900, Newberry, P.; The Life of Rakhmara, London.

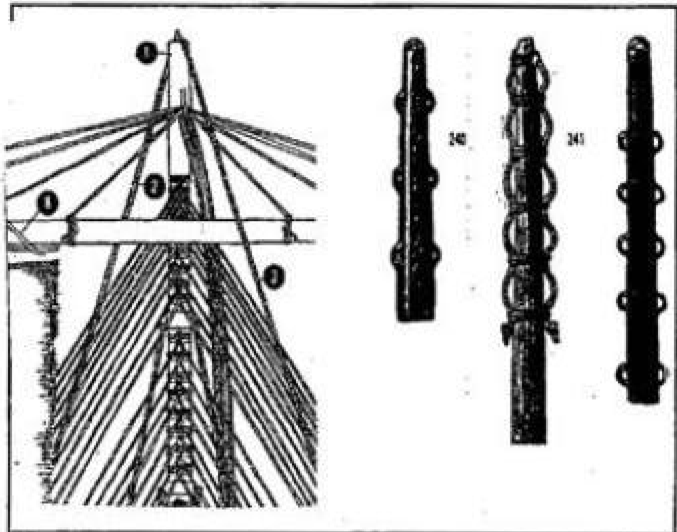
13 - Petrie 1930, Petrie, M.F.; "The Building of a pyramid" Ancient Egypt, Part II, London.



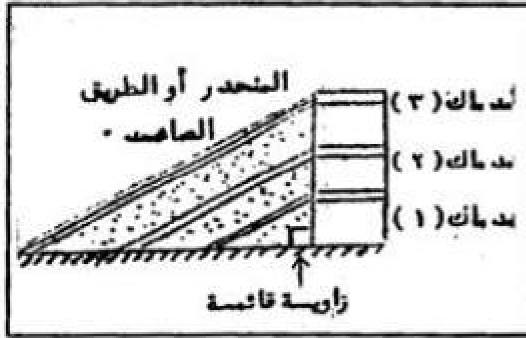
(شكل ١) الهزاز الذى وجد بين ودائع أساس معبد حتشبسوت فى الدير البحرى
(Clarke & Engelbach 1930, fig.89)



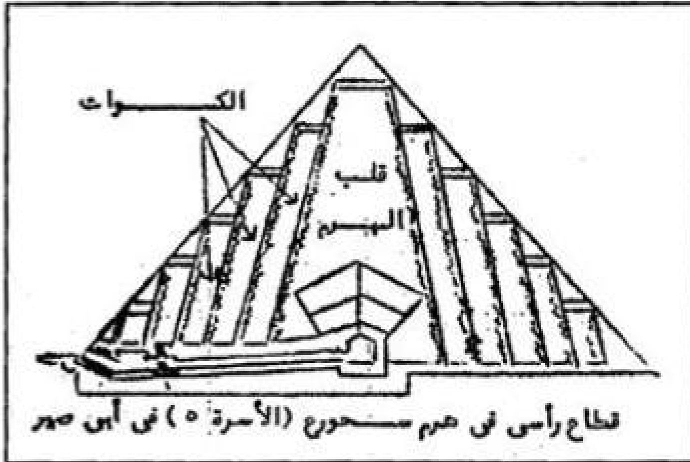
(شكل ٢) يوضح كيفية استخدام "الهزازات" فى دفع كتلة الحجر



(شكل ٣) قمم صوارى السفن كما رسمت على الآثار المصرية ويلاحظ وجود عراوى من الحبال لتمرير حبال رفع الشراع بدلاً من البكرة التى لم يستخدمها المصريون القدماء فى رفع الأثقال
(Landström 1970, fig 239-244)

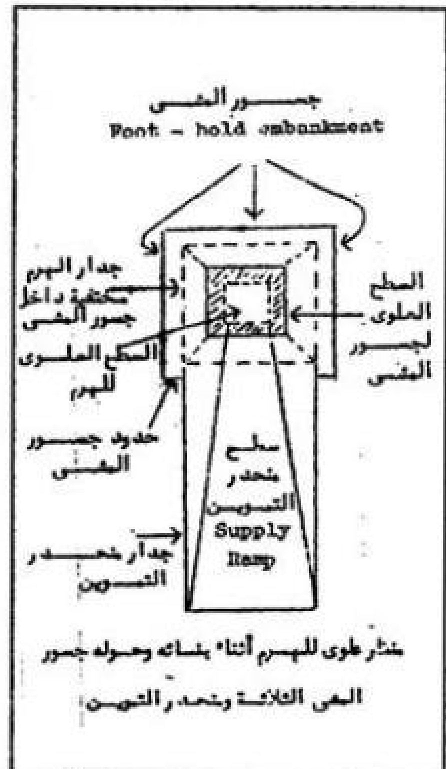


(شكل ٤) شكل يوضح مراحل تعلية المنحدر
أمام المداميك وامتداده للمحافظة على درجة الانحدار

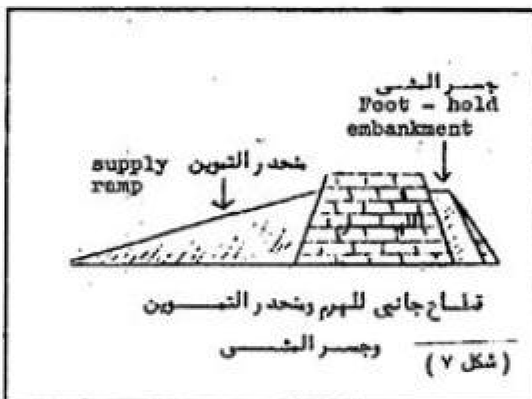


قطاع رأسي في هرم سحورع (الأسرة ٥) في أبي صير

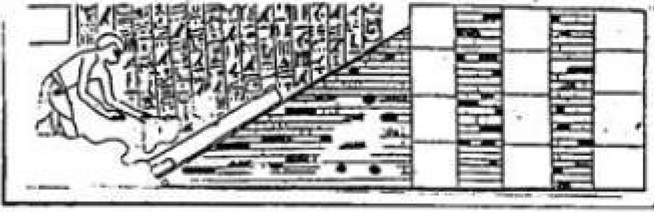
(شكل ٥) يوضح طريقة إضافة الكسوات الداخلية



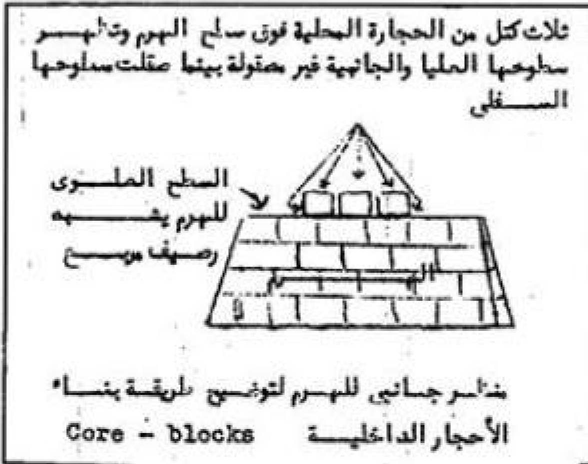
(شكل ٦)
كيفية بناء المنحدرات ونظامها



شكل (٧)
قطاع جانبى للهرم ومنحدر التموين وجسر المشى

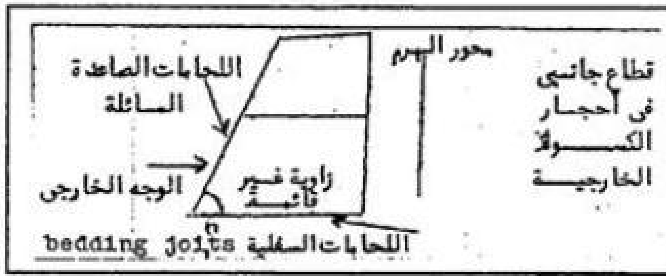


(شكل ٨) المنحدر المرسوم على جدار مزار مقبرة رخميرع في طيبة الغربية والغرض منه كما هو واضح فى الرسم رفع كتلة العتب العلوى إلى أعلى قاعدة الأعمدة ، وقد ميز الرسام المصرى القديم المنحدر وجسور المشى بالمستطيلات الرفيعة إشارة إلي قوالب اللبن .

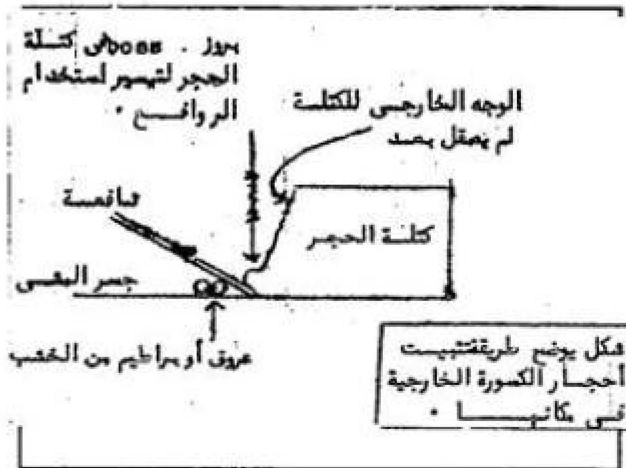


(شكل ٩)

منظر جانبي للهرم لتوضيح طريقة بناء الأحجار الداخلية
Core - blocks



(شكل ١٠)
قطاع جانبي في أحجار الكسوة الخارجية



(شكل ١١)
شكل يوضح طريقة تثبيت أحجار
الكسوة الخارجية في مكانها

د. عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح (*)

دراسة نقدية وتحليلية لمناهج البحث التاريخى لدى مؤرخى المدينة

فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى

تقديم :

نقتصر فى هذا البحث - بشىء من التجوز - على دراسة مؤرخى المدينة فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى من خلال تسليط الأضواء على نتاجهم التاريخى ، ومناهجهم التى اتبعوها فى تدوين مؤلفاتهم . مع القيام بتحليلها ونقدها .

وسوف نعالج - خلال الفترة الزمنية المحددة ما أمكن - مؤرخى المدينة فى (طور النشأة) ، ويتم تناولهم من خلال الجزئيتين التاليتين :

١ - عصر الصحابة : وفيه نقوم بدراسة الصحابيين : سهل بن أبى حثمة ، وعبد الله بن عباس من خلال الترجمة لهما ، وبيان إسهامهما فى حركة التأليف التاريخى ، لاسيما ابن عباس الذى قمت بتجميع ما تيسر لى من بقايا مروياته التاريخية ، ثم محاولة استنباط منهجه العام من خلالها ، مع تحليل ونقد ما يحتاج منها إلى نقد وتحليل .

---

* - مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

٢ - عصر ما بعد الصحابة : وفيه تتم دراسة أبرز مؤرخى المدينة من الجيل التالى للصحابة وفق المنهج المذكور سلفًا . وتضم هذه المرحلة : عروة بن الزبير ، وعاصم بن عمر ابن قتادة ، وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

وأخيرًا ، أحب أن أنوه إلى أن هذا البحث يتلوه بحث مكمل له ، أواصل فيه دراسة مؤرخى المدينة فى المرحلة التالية فى (طور النمو والازدهار) ، وهو يغطى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، إن شاء الله .

مؤرخو المدينة فى طور النشأة :

١ - فى عصر الصحابة :

يرى الدكتور فؤاد سزكين أن التاريخ - كسائر العلوم الأخرى - قد مرَّ بمراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة السماع من الرواة الذين يقصون الأحداث التاريخية الأولى ، وعنهم ينقل الناس شفاهًا .

الثانية : مرحلة تم فيها حفظ المرويات الشفهية ، ثم استعين على تثبيتها بتدوينها بين فترة وأخرى ؛ خشية النسيان والضياع .

الثالثة : مرحلة نقل العلم للآخرين ، مع الحرص على نقل الروايات التاريخية بطريق شفهى ، يتم فيه سماع التلميذ من الأستاذ ؛ حتى لا تُندَس مرويات محرفة تُشَوِّه الحقائق التاريخية الثابتة . ومن هنا فالروايات الشفهية مقدمة فى وثاقتها على تلك التى نُقلت من صحف مدونة (١).

والحق أن التقسيم السزكينى السابق غير دقيق ؛ لأنه يفصل بين أمور لا يتصور الفصل بينها ؛ فالمشافهة ، والتدوين ، والنقل للآخرين ، كل ذلك يتم فى آن واحد ، كما سنبين بعد قليل . وكذلك يؤخذ على سزكين أنه لم يوضح الفترة الزمنية التى استغرقتها المراحل السابقة ، فأتى كلامه مرسلاً غير محدد ، كما أن هذه التقسيمات - إن وجدت بالصورة التى يفترضها - فلابد أنها استغرقت وقتًا ليس بالقصير ، وهو ما يتنافى مع قوله فى موضع آخر: إن كتابة التاريخ - على وجه الخصوص - كانت مبكرة (٢).

وعلى كل ، فالثابت لدينا أن المسلمين اهتموا - منذ وقت مبكر جداً - بتدوين الأحداث التى جرت فى حياة النبى ﷺ ، سواء تلك التى وقعت بالمدينة ، أم تلك الإنجازات التى أنجزها

المسلمون فى ربوع الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة . ولاريب أن ذلك أتى فى إطار اهتمام بعض الصحابة بتدوين أحاديث النبى ﷺ بكل ما تشتمل عليه من أقوال ، وأفعال ، ووقائع ، وأحداث . ولا غرو فى ذلك ؛ لأن الصحابة هم أجدر وأقدر الناس على إعطاء صورة شاملة متكاملة صادقة لما كانت عليه الأوضاع فى تلك الفترة .

وثمة شواهد تاريخية - هى ومضات تضىء لنا جنبات هذا الموضوع - تدلل على صدق ما تقدم ، منها ما يلى :

أ - الصحابى سهل بن أبى حثمة[٣] الأنصارى الخزرجى المدنى رضى الله عنه :

هو صحابى صغير السن ، ولد سنة ثلاث من الهجرة / ٦٢٤هـ ، وذلك يعنى بلوغه سن الثامنة عند وفاة النبى ، فكان صبيًا مميزًا ، حفظ عنه بعض الأحاديث ، وروى عن بعض الصحابة أحاديث أخرى . ومن الصحابة الذين روى عنهم : زيد بن ثابت ، ومحمد بن مسلمة. توفى فى خلافة معاوية (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٧٩م) [٤].

يبدو أن هذا الصحابى دون عن كبار الصحابة شيئًا من حياة الرسول ﷺ ومغازيه ، فطالع ذلك حفيده محمد بن يحيى بن سهل ، الذى عبر عن ذلك بقوله : "وجدت فى كتب آبائى"[٥]. ولم يقتصر الأمر على ذلك ؛ إذ إننا بتتبع عدد مرويات هذا الحفيد ، ألفيناه يروى عن أبيه عن جده أحيانًا [٦] ، ويروى عن عمه محمد بن سهل بن أبى حثمة أحيانًا أخرى[٧]. وقد احتفظ لنا بجانب منها بعض مؤرخى السيرة النبوية فى مصادرهم الباقية ، مثل : الواقدى [٨] ، ومحمد بن سعد كاتبه [٩].

ب - عبد الله بن عباس رضى الله عنه :

هو ابن عم رسول الله ﷺ . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، ودعا له الرسول بالفهم فى القرآن . وكان يسمى البحر والحَبْر ؛ لسعة علمه . وكان أحد الصحابة المكثرين فى الرواية ، وأحد فقهاء المدينة المشهورين . روى عن النبى ﷺ ، وأبى بكر ، وعثمان ، وعلى ، وغيرهم. ويتضح من استعراض حياته أنه مكى المولد ، مدنى المقام . توفى بالطائف سنة ٦٨هـ / ٦٨٧م [١٠].

علومه ومعارفه :

حصّل ابن عباس علومًا نافعة كثيرة ، تميز بها على أقرانه ومعاصريه ، وكان يجلس لتعليم الناس علومًا شتى . فكان يدرس الفقه لطلاب العلم فى الأسبوع يومًا ، ويجعل للتأويل (

التفسير) يوماً ، وللشعر يوماً ، ويوماً لأيام العرب ، وللمغازى يوماً . وما رئى عالم - قط - جلس إليه إلا أقر له بالعلم الغزير والفهم العميق ، وما سأله سائل إلا وجد عنده علماً[١١].

يعد التاريخ من العلوم الأساسية التى برع فيها ابن عباس ، وفهمها حق الفهم ، فأدرك قيمة (التوقيت) وأهميته فى واقع الناس ، وحياتهم العملية ، ولفت أنظارنا إلى إشارة القرآن إلى الأهلة (جمع هلال) ، باعتبارها وسيلة لمعرفة الناس مواقيتهم [١٢]، حيث يستعينون بها فى معرفة أوقات صومهم وفطرهم ، وحساب عدة نسائهم ومدة حواملهم ، ووقت سداد ديونهم ، ودفع أجور أجرائهم [١٣]. وذلك يعنى أنه أصاب كبد الحقيقة ، عندما تنبه إلى أن معرفة توقيت الأحداث أمر أساسى وأصيل فى فهم التاريخ .

لزم ابن عباس كبار الصحابة - بعد وفاة النبى - من المهاجرين والأنصار ، وأخذ يسألهم عن مغازى رسول الله ﷺ ، وما نزل من القرآن فى ذلك ، فكان لا يأتى أحداً منهم إلا سُرَّ به؛ لقرابته من رسول الله ﷺ [١٤]. ولاشك أنه قد تجمع لديه قدر كبير جداً من الروايات التاريخية ، خاصة ما يتصل منها بالعصر النبوى . ولدينا نص مهم يفيد أن ابن عباس كانت لديه مدونات خاصة به . سجل فيها كثيراً من مروياته . ويبدو أن هذه الصحف كانت من الكثرة بحيث بلغت حمل بعير ، وانتقلت إلى كريب مولى ابن عباس[١٥] بعد وفاته غالبًا ، ثم انتقلت - بطريقة أو بأخرى - إلى مؤرخ المغازى المشهور موسى بن عقبة (ت ١٤١ هـ / ٧٥٨م) . وكان على بن عبد الله بن عباس[١٦] إذا احتاج إلى كتاب منها ، كتب إلى كريب أن يبعث إليه به ، فينسخه ، ثم يعيد إليه إحدى النسختين [١٧].

جانب من مرويات ابن عباس التاريخية :

لابن عباس رضى الله عنه تأثير بعيد المدى لأجيال ممتدة ، بل لقرون تالية ، حيث أفاد منه كثير من المؤرخين ، على رأسهم : الإمام الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢م) ، وذلك فى جوانب شتى من التاريخ ، مثل : بدء الخلق ، والتاريخ القديم بما فيه تاريخ الأنبياء ، وتاريخ الشعوب العربية البائدة . وكذلك نقل عنه الطبرى ما يتصل بأحداث السيرة النبوية حتى وفاة الرسول ﷺ ، وبعض الأحداث المرتبطة بتاريخ الخلفاء الراشدين ، والأمويين حتى سنة ٦٠هـ / ٦٧٩م[١٨]. ويمكن بيان ذلك فى رؤوس موضوعات على النحو الآتى :

* بدء الخلق : مدة الزمان (الدنيا) من البداية حتى النهاية سبعة آلاف عام[١٩] - خلق السموات والأرض والشجر والجبال وغيرها ، وأيام الأسبوع التى تم فيها ذلك ، ونفى ما زعمه

اليهود عن الله عز وجل أنه استراح في اليوم السابع (يوم السبت) [٢٠]- كان إبليس من أشراف الملائكة ، وكان خازنًا على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وسلطان الأرض[٢١].

من أحداث السيرة النبوية :

عمرو بن أسد عم السيدة خديجة وتزويجه إياها رسول الله ؛ لأن أباها مات قبل حرب الفجار [٢٢]- روايات منسوبة لابن عباس مختلفة فيما بينها تدور حول سن رسول الله عند البعثة ، والمدة التي مكثها في مكة بعد أن أوحى إليه [٢٣]- دعاء الرسول ومناشدته ربه وتضرعه الشديد إليه أن ينصره في غزوة بدر ، وموقف أبي بكر من ذلك ، وما أنزل من قرآن آنذاك[٢٤] - مشاورة الرسول أبا بكر وعمر بشأن أسرى بدر [٢٥]- توجيهات الرسول للمسلمين في أحد قبيل المعركة ، وتحديد أهم قادة المسلمين على الخيل ، وشخصية حامل اللواء [٢٦]، وعدد المسلمين المبايعين تحت الشجرة في الحديبية[٢٧] - إرسال الرسول كتاباً مختوماً بخاتمه إلى كسرى مع عمر بن الخطاب [٢٨]- عمرة القضاء، وإظهار المسلمين قوتهم أثناء الطواف حول الكعبة ، وتعليق ابن عباس على تلك الرواية[٢٩] - نص مطول عن موقف العباس لدى مقدم جيوش المسلمين لفتح مكة ، وخطوات إسلام أبي سفيان [٣٠]- ما رواه عن أخيه الفضل فيما يتعلق بخروج الرسول إلى المسلمين في مرض الموت ، وما أثر عنه من كلمات صادقات ، وعظات بالغات [٣١]- ابن عباس وروايته بنفسه ما حدث يوم الخميس السابق على وفاة الرسول ، حين أراد أن يكتب للمسلمين كتاباً ثم تراجع عن ذلك[٣٢]- غُسْل رسول الله ، ومن قام بذلك من المسلمين [٣٣].

من تاريخ الراشدين :

(أبو بكر الصديق يكلف أفراداً من القبائل المحيطة بالمدينة بحماية قبائلهم بعد خروج أسامة بن زيد بجيشه [٣٤]- اعتراض بعض القادة في اليمن على خروج الأسود العنسي[٣٥]- ما استقر عليه رأي عمر بن الخطاب والصحابة بخصوص أرض السواد بعد إتمام الفتوح الإسلامية بالعراق [٣٦]- نهي عمر أناساً من قريش يتخذون مجالس خاصة بهم من دون الناس : خشية التحزب والتناحر [٣٧]- بيان أول ما أنكر الناس على عثمان ، حيث أتم الصلاة في منى ولم يقصرها [٣٨]- حديث أبي ذر إلى عثمان بشأن وجوب أخذ الصدقات من القادرين ، وعدم الاكتفاء بجمع الزكاة المفروضة عليهم ، واختلافه وتعديه بالقول والفعل على

كعب الأحبار الذى عارضه فى مجلس عثمان ، وتدخل الخليفة فى الأمر (٣٩)- حديث ابن عباس عن حصار المصريين للخليفة عثمان ، وحقيقة موقف على ابن أبى طالب منه ، وظروف الحج عام مقتل عثمان (٤٠)- كراهية ابن عباس مجئ علىّ : كى يبايعه الناس : لئلا يصيبه مكروه ، لكنه لم يستجب (٤١)- عدم استجابة علىّ لنصح وتدبير ابن عباس(٤٢)- ابن عباس على ميمنة جيش علىّ الخارج إلى البصرة (٤٣)، وولايته عليها بعد ذلك (٤٤)- اشتراك ابن العباس إلى جانب علىّ بصفين(٤٥) - ابن عباس يقبل تمثيل علىّ فى التحكيم ، لكن الخوارج يرفضون (٤٦)- مناقشة ابن عباس للخوارج وحجته عليهم(٤٧)- اعتزال ابن عباس العمل لعلىّ بعد الخلاف معه (٤٨)، واستشهاد الإمام علىّ أثناء وجود ابن عباس فى مكة) (٤٩).

من تاريخ بنى أمية : مدح ابن عباس سياسة وحكمة معاوية بن أبى سفيان(٥٠) - استجابة لنصح ابن عمر بمبايعة يزيد بن معاوية بعد أن كان أحد المعارضين لولايته (٥١)- نصح ابن عباس للحسين بن على ألا يخرج إلى الكوفة ، وقراءته المستقبلية للأحداث التى يمكن وقوعها وترتبها على خروجه من الحجاز (٥٢).

بعض من مرويات ابن عباس : تحليل ، ونقد :

غطت مرويات عبد الله بن عباس جوانب عديدة عبر فترة زمنية طويلة ممتدة من التاريخ من لدن خلق الكون والإنسان حتى بداية خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ / ٦٧٩ - ٦٨٣م). ولا شك أن مصادره التى استقى منها الأحداث اختلفت باختلاف الحقبة التى يعالجها. فالتاريخ القديم استقى بعض رواياته من الإسرائيليات (٥٣)، فصار عرضة للنقد ؛ لأنه يخالف المنطق وواقع الحياة كما فى الرواية التى تحدد عمر الدنيا بسبعة آلاف عام ، فهى بيِّنة الخطأ دون جدال . وبخصوص الرواية التى فصلت خلق الكون والإنسان ، ووزعت المخلوقات على أيام الأسبوع من الأحد حتى الجمعة ، فقد ثبت أنها من الإسرائيليات (فى سفر التكوين) (٥٤)، وكذلك ما ورد فيها عن استراحة الله فى اليوم السابع (السبت) على حد زعم اليهود (٥٥).

ولاشك أن الرواية غير مقبولة ؛ خاصة جزءها الأخير الذى يتنافى مع جلال وكمال الذات الإلهية . وما جاء فى الرواية عن استواء الله على العرش ، فهو مقبول بشرط ألا يساوى الاستراحة فى المفهوم اليهودى (٥٦). ذلك المفهوم الذى يدحضه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ } (٥٧).

أما الرواية التى تجعل الشيطان من الملائكة المقربين ، فهى غير صحيحة ؛ لأنه كان من الجن بنص قرآنى قاطع صريح يقول فيه الله عز وجل : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } (٥٨).

اهتم ابن عباس بالتدقيق فى نقل الروايات ، فبعضها يرويه عن أخيه الفضل ، كما فى الرواية الخاصة بموعظة رسول الله ﷺ ، وقد خرج يتوكأ على الفضل ، يعظ المسلمين موعظة بليغة صادقة ، فهى موعظة مُوَدِّع . وبذلك لمس ابن عباس هدفًا من أهداف التاريخ (العظة والاعتبار) . وأحيانًا يروى لنا حدثًا رآه بنفسه ، كما هو الحال فى الرواية التى أرخها بيوم الخميس السابق على وفاة الرسول ﷺ ، حين أراد أن يكتب للأمة كتابًا ؛ كى لا تضل بعده، ثم تراجع لتنازع البعض عنده ، فاكتفى بتوجيهات ونصائح محددة للأمة . وقد يشارك ابن عباس فى صنع الأحداث بنفسه ، ويكون طرفًا مؤثرًا فيها ، فتبلغ درجة عالية من المصداقية، كما هو الحال مع الروايات المرتبطة بخلافة على رضى الله عنه ، وحكم الأمويين.

شخصية ابن عباس حاضرة وواضحة فى بعض المرويات التاريخية المنسوبة إليه ، فهو يدقق وينتقى ويختار أصحها ، كما هو الشأن فى الرواية التى تناولت زواج الرسول من السيدة خديجة ، وأن الذى تولى تزويجها ، عمها لا أبوها مع ذكر السبب . وكذلك تعليقه على هرولة الرسول والمسلمين فى ثلاثة أطواف حول الكعبة فى عمرة القضية ، حيث لفت الأنظار إلى أمر يتفق مع علمه وفقهه ، فقال : ظن الناس أن ذلك خاص بالنبى وصحبه ، وأنهم فعلوا ذلك؛ لينفوا عن أنفسهم ما قالته مكة عن ضعف أبدان المسلمين . فلما حج الرسول حجة الوداع ، التزم الكيفية نفسها ، فمضت السنة بها (٥٩).

ثمة بعض جوانب القصور فى الروايات المذكورة ، منها : إيراده روايات تذكر أن رسول الله أوحى إليه وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وقضى فى مكة عشر سنوات بعد البعثة . وهذه روايات مرجوحة تخالف المتواتر المعروف الذى ورد فى روايات أخرى نسبت إلي ابن عباس أيضًا ، وفيها أنه أوحى إليه فى سن الأربعين ، ومكث بمكة بعدها ثلاثة عشر عامًا . ولم يرد ترجيح منه للروايات الصحيحة . ويؤخذ عليه – أيضًا – ما نُسب إليه عن عدد من بايعوا الرسول تحت الشجرة فى الحديبية بأنه ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون . والمشهور ما رواه جابر بن عبد الله بقوله : " كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة " (٦٠). وفى رواية أخرى لجابر أيضًا : " كنا – أصحاب الحديبية – أربع عشرة مائة " (٦١). وجدير بالذكر أن البخارى أورد

رواية أخرى عن جابر ، قال : كنا خمس عشرة مائة (٦٢). وقد علق ابن حجر على هذا الخلاف بقوله : كانوا أكثر من ألف وأربعمائة . فمن قال : ألفًا وخمسمائة ، جبر الكسر . ومن قال : ألفًا وأربعمائة ألغاه . ورجح البيهقى أنهم كانوا ألفًا وأربعمائة . وعلى كل ، فالأمر قائم على التخمين كما يرى البعض (٦٣). لكن لم يتجاوز العدد ألفًا وخمسمائة على نحو ما جاء فى رواية ابن عباس موضع النقد . وأخيراً ، فإن ابن عباس ذكر رواية شاذة ، عندما جعل عمر بن الخطاب مبعوث الرسول إلى كسرى . والثابت والمتواتر لدى البخارى (٦٤)، والطبرى(٦٥) أن مبعوث الرسول إلى كسرى هو (عبد الله بن حذافة السهمى) .

٢ - فى عصر ما بعد الصحابة :

قام صحابة رسول الله ﷺ بدورهم خير قيام ، حيث نشروا العلم الذى تلقفوه عن النبى فى حياته ، وتتلمذ على أيديهم عدد من التلاميذ (من التابعين وغيرهم) النابهين ، الذين استوعبوا مروياتهم وحفظوها ، ودونوها ، ونقلوها إلى من بعدهم . وسوف نتناول عدداً من أبرز مؤرخى المدينة فى ذلك العصر على النحو الآتى :

أ - عروة بن الزبير بن العوام المدنى :

هو إمام المدينة وعالمها ، وأحد فقهائها السبعة المبرزين ، ويعد فى الطبقة الثانية من تابعى أهل المدينة . ولد سنة ثلاث وعشرين من الهجرة / ٦٤٣م . روى عن أبيه قليلاً ؛ لصغر سنه، وحدّث عن أمه أسماء بنت أبى بكر ، ولازم خالته عائشة (رضى الله عنها) ، وتفقه بها . روى عنه أولاده ، والزهرى ، ويزيد بن رومان ، ويزيد بن أبى حبيب ، وغيرهم . كان زاهداً عابداً صابراً على قضاء الله فى فقد ابنه ، وقطع رجله . له اهتمام بالحديث ، والفقه ، والمغازى ، والتاريخ . وكان ثقة مأمونًا ثبتًا . توفى (رحمه الله) سنة ٩٤ هـ / ٧١٢م ، وهى التى تعرف بسنة الفقهاء ؛ لكثرة من مات منهم فيها (٦٦).

مؤلفه فى المغازى :

تكاد تُجمع المصادر المختلفة على أن عروة بن الزبير كان له مصنف فى المغازى ، وأنه أول من ألف فيها كتابًا (٦٧). وللأسف ضاع هذا الكتاب - ضمن كثير مما ضاع من تراثنا التاريخى - وبقيت منه اقتباسات كثيرة نقلها عنه العلماء . وقد قام الدكتور محمد مصطفى الأعظمى بجمع ما تيسر له من بطون كتب الحديث والسيرة ، والتاريخ برواية ابن لهيعة ، عن

أبى الأسود ، عن عروة ، مقارنًا إياها - فى الحواشى - برواية موسى بن عقبة عن الزهرى ، مرتبًا ذلك - فيما يتصل بالمغازى - ترتيبًا زمنيًا دقيقًا ، ذاكراً مزيداً من المصادر - فى الحواشى - التى تتناول الجزئية نفسها ، التى نقلها عروة بن الزبير لنا . وجمع ذلك كله فى كتاب سماه : (مغازى رسول الله) (٦٨).

من بقايا كتاب عروة بن الزبير :

روى الزهرى عن عروة ، عن عائشة (رضى الله عنها) : أن أول ما ابتدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة ، ثم حبِّب إليه الخلاء بغار حراء ، ثم أحداث نزول جبريل ملك الوحى وارتعاد النبى ﷺ منه ، وما أوحى به إليه ، ثم عوده إلى بيته ، وتخفيف زوجته خديجة عنه ، والكلمات الواثقة المشجعة التى قالتها له ، وما قاله ابن عمها ورقة بن نوفل لها ، عندما حدثته عما وقع لزوجها محمد رسول الله ﷺ (٦٩).

روى أبو الأسود ، عن عروة ، عن عائشة : أن خديجة سألت رسول الله ﷺ عن مصير ورقة بن نوفل فى الآخرة ، فقال : رأيته عليه ثياب بياض ، فأحسبه لو كان من أهل النار ، لم يكن عليه ثياب بياض (٧٠).

روى هشام بن عروة ، عن عروة : أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يحدثه كيف دعا الرسول قومه إلى الإسلام ، وكيف عادوه لما ذكر أصنامهم ، ثم تآمرهم عليه وعلى من أسلم ، حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة ، ومكث سنوات يتحمل هو وأصحابه الأذى ، حتى فشا الإسلام فى مكة ، ودخل فيه رجال من أشرافهم (٧١).

ما رواه عروة عن عائشة أن الصلاة - فى الأصل - كانت ركعتين ، ثم صار تمامها فى الحضر أربعًا ، وفى السفر ركعتين (٧٢).

روى يزيد بن رومان عن عروة أن عظماء المستهزئين من قريش كانوا خمسة من ذوى السن والشرف فى قومهم ، وهم : الأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل ، والحارث بن الطُّلاطلة (٧٣).

سأل عروة بن الزبير عبد الله بن عمرو عن أكثر ما رأى قريشًا ، أصابت من رسول الله ﷺ، فيما كانت تظهر من عداوته ، فأخبره ابن عمرو أن الرسول لما نال من آلهتهم ، غمزوه ولمزوه ، فهددهم ، فأصابهم الرعب . لكنهم جاءوا فى اليوم التالى ، فخنقه أحدهم ، حتى

جاء أبو بكر رضى الله عنه ، ودافع عنه ، فانصرفوا (٧٤).

روى هشام بن عروة ، عن عروة ، عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب : أن رسول الله أمر أن يبشر خديجة زوجته (رضى الله عنها) ببيت من قصب (لؤلؤ مجوف) ، لا صخب فيه ، ولا نصب(٧٥) (ولا تعب) - وعن وفاتها : روى الزهرى عن عروة : أنها توفيت قبل الهجرة من مكة إلى المدينة قبل أن تفرض الصلاة (٧٦).

روى أبو الأسود عن عروة مدة مكث الرسول بمكة بعد بيعة العقبة الثانية ، ثم تآمر المشركين عليه لقتله ، وما نزل من قرآن بخصوص ذلك التآمر ، وما أمر به الرسول عليًا ، ثم خروجه مع أبى بكر ، وذهاب المشركين فى طلبهم فى كل وجه (٧٧).

روى عروة عن امرأة من بنى النجار : أن بلال بن رباح كان يصعد فوق بيتها بالمدينة لأذان الفجر ؛ لأنه من أعلى البيوت المحيطة بالمسجد ، فيأتى لأذان الفجر كل غداة وقت السحر ، فيجلس منتظرًا طلوع الفجر ، فإذا رآه دعا قائلاً فى كل ليلة : " اللهم إنى أحمدك ، وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك " (٧٨).

تناول عروة غزوة بدر ، فذكر أن عدد قتلى المشركين بلغوا تسعة وأربعين ، وكان الأسرى تسعة وثلاثين ، بينما استشهد من المهاجرين ستة ، ومن الأنصار ثمانية (٧٩) ، وعن غزوة أحد : أورد عدد المسلمين والمشركين فيها ، وذكر رجوع بعض المنافقين من الطريق (٨٠) ، وقتل الرسول أبيٌّ بن خلف (٨١) ، وعدد من مات فى أحد (٨٢) ، ثم عودة الرسول بالمسلمين إلى المدينة بعد هزيمتهم ، وسيرهم فى أزقتها وبها النواح والبكاء فى الدور على الشهداء ، وتعليق الرسول فى أسى : " ولكن حمزة لا بواكى له " ، ورد فعل ذلك القول على الأنصار ، ونسائهم (٨٣).

روى عن أبى هريرة أحداث غزوة ذات الرقاع ، ومشروعية صلاة الخوف بها (٨٤)- رصد الحالة المعنوية التى بدت عليها إحدى نساء بنى قريظة رغم توقعها القتل بعد قليل من الوقت(٨٥)- حادثة الإفك - كما يرويها عروة عن عائشة - بتفاصيلها منذ خروج النبى بها فى غزوة بنى المصطلق إلى أن برأها الله مما قاله المنافقون (٨٦)- ما كتب به عروة إلى ابن أبى هنيدة صاحب الوليد بن عبد الملك بشأن امتحان المؤمنات المهاجرات من مكة إلى المدينة(٨٧)- ما كتب به عروة إلى عبد الملك بن مروان جوابًا عن سؤال مفاده : هل أغار خالد بن الوليد يوم فتح مكة ؟ وبأمر من غار ؟ (٨٨)- غزوة الطائف وتوقيتها والاتفاق المعقود بين المسلمين

وأهل الطائف (٨٩)- توقيت بدء مرض وفاة الرسول (٩٠)، واللحظات الأخيرة في حياته ﷺ كما يرويها عروة عن عائشة زوج النبي (٩١).

من مرويات عروة عن تاريخ الراشدين ، والأمويين :

(من أعمال أبي بكر العاجلة عقب توليه الخلافة : إنفاذ بعث أسامة بن زيد إلى الروم(٩٢)- توقيت وفاة فاطمة بنت رسول الله (٩٣)- أبو بكر وتنقله بين السُّنْح والمدينة ، وقبيل وفاته قام برد ما حصل عليه من راتب خلال مدة خلافته إلى بيت مال المسلمين (٩٤)- مرض أبي بكر وظروف وفاته (٩٥)- خطبة عمر بعد توليه الخلافة (٩٦)- عدد من زحف بهم رُستم في القادسية للقاء سعد بن أبي وقاص (٩٧)- روايته شعراً قيل عمن فر من لخم وجذام بعد انضمام بعضهم للمسلمين في حرب الروم (٩٨)- رواية هشام بن عروة عن والده قيادة عبد الله بن الزبير جمل عائشة في موقعة (الجمل) ، وتبادله الاشتباك مع الأشتر النخعي من جيش عليّ (٩٩)- جمع عمر بن عبد العزيز والي المدينة عشرة من فقهائها على رأسهم عروة ، وخطب فيهم ، وطلبه إعانته على الحق ، وثناؤهم عليه) (١٠٠).

مرويات عروة بن الزبير : تحليل ، ونقد :

من الملاحظ أن كثيراً من النصوص التاريخية وردت إلينا منسوبة إلى عروة بن الزبير بالإسناد الآتي : (ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة) . وهذا يعني أن أبا الأسود روى كتاب المغازي لعروة ، وعن طريق أبي الأسود رواه مؤرخ مصر ابن لهيعة (ت ١٧٤ هـ / ٧٩٠م)(١٠١) بعد دخول أبي الأسود مصر سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م (١٠٢). وفي بعض الروايات يروي عنه ابنه هشام ، وفي روايات أخرى يروي عنه الزهري (١٠٣)، ويزيد بن رومان (١٠٤)، وهم من الثقات .

أما عروة ، فكثيراً ما يروي عن خالته السيدة عائشة ، وهي من العدول الثقات ولاشك ، وتزداد مصداقية روايتها ، عندما ينقل عنها ما يتصل بها بطريقة غير مباشرة (مثل : تبشير خديجة بالجنة) . أو ما تُعد المحور الأساسي الذي تدور حوله الأحداث (مثل : رواية حادثة الإفك) ، أو عندما تكون الوحيدة التي يمكن أن تنقل عنها رواية بعينها بحكم صلتها بالنبي (مثل : الرواية التي تصف لحظات الرسول الأخيرة في دنيا الناس) . وقد يروي عن صحابي شهد الواقعة (كروايته عن ابن عمرو أشد ما رآه من إيذاء المشركين لرسول الله) ، وربما روى عن امرأة مجهولة لنا ، لصلتها بالحدث ومعاينتها إياه يوميًا ، وثقته بها (كما في رواية

امرأة أنصارية من بنى النجار ما يتصل بأذان بلال بن رباح لصلاة الفجر من فوق دارها) .

اصطبغت بعض رواياته بالصبغة الفقهية ؛ لأنه من كبار فقهاء المدينة فى عصره ، فاهتم بذكر الملامح والخلفيات الفقهية المرتبطة بأحداث السيرة كعدد ركعات الصلاة فى الحضر والسفر ، ومشروعية صلاة الخوف فى غزوة ذات الرقاع .

استخدام الآيات القرآنية لدعم الحدث التاريخى : ففى دفاع أبى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، وتخليصه من يدى خانقه ذكرت آية قرآنية ، وردت على لسان أبى بكر ، حرص عروة على إثباتها فى الرواية وهى : { أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } (١٠٥).

إبراز الانعكاسات النفسية للشخصيات : وهو ما لحظناه فى دعاء بلال بن رباح لقريش بالهداية ؛ حنينًا إلى مكة التى كان يعيش فيها ، ويرجو العودة إليها ثانية (١٠٦). وكذلك شديد حزن الرسول على استشهاد حمزة غريباً بعيداً عن وطنه مكة ؛ مما دفع الأنصار لإحضار نسائهن للبكاء على حمزة ، فنهاهن الرسول عن النواح .

الحرص على ذكر مواقيت الأحداث التاريخية : وذلك أمر مهم ؛ إذ بغيره لا يعد التاريخ تاريخًا . وكان عروة دقيقًا فى تحديد تلك المواقيت ، فذكر أن خديجة توفيت فى مكة قبل فرض الصلاة (أى : قبل رحلتى الإسراء ، والمعراج) ، ثم حدد ذلك التاريخ بطريقة أوضح فى إجابته عن سؤال كتب إليه به عبد الملك بن مروان يسأله : متى توفيت السيدة خديجة ؟ فقال : إنها توفيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين ، أو قريبًا من ذلك (١٠٧). وكذلك كان دقيقًا فى القول بوفاة السيدة فاطمة بعد النبى بستة أشهر ، وهو ما رجحه الواقدى بقوله: وهو أثبت عندنا (١٠٨).

وأخيراً ، فهناك بعض المواضع التى انتفت فيها الدقة من رواية عروة ، مثل قوله : اشتكى رسول الله وجعه الذى توفاه الله به فى عقب المحرم (١٠٩). وهذا يعنى أنه ظل مريضًا طيلة شهر صفر ، وأيامًا من ربيع الأول حتى وفاته فى الثانى عشر منه على نحو ما هو معلوم . وليس هذا التوقيت صحيحًا ؛ لأن علته لم تطُل كل هذا الوقت ؛ بدليل أنه لم يُصل بالناس أيامًا معدودات قبيل وفاته . ولذا فالأرجح عندى ما قاله الواقدى : إن وجعه بُدئ به لليلتين بقيتا من صفر (١١٠)، أو فى أول شهر ربيع الأول(١١١) على نحو أدق .

وكذلك لم يكن عروة على صواب ، عندما زعم أن قتلى المشركين فى بدر كانوا تسعة وأربعين ، وأسراهم تسعة وثلاثين ؛ لأن الصحيح المتواتر أنهم سبعون قتيلاً ، وسبعون أسيرا(١١٢).

ب - عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأنصارى المدنى :

هو أحد العارفين الذين برعوا فى الحديث النبوى الشريف ، فأخرج له أئمة الحديث ما رواه عن أبيه ، وعن جابر بن عبد الله ، وجدته الصحابية رُميثة ، وأنس بن مالك ، وغيرهم . روى عنه ابن إسحاق ، وبُكير بن الأشج ، وغيرهما . وكان جده قتادة أحد فضلاء الصحابة ، الذين حظوا بحب رسول الله ؛ إذ دعا له - يوم أحد - فرُدت عينه عليه (١١٣).

وفد عاصم على الخليفة عمر بن عبد العزيز فى بلاد الشام فى دين لزمه ، فقضاه عنه عمر، وأمر له بمعونة . وعلم أنه راوية للعلم ، وله باع فى المغازى والسيرة النبوية ، فأمره أن يجلس فى مسجد دمشق ؛ ليحدث الناس بالمغازى ، وفضائل الصحابة ، ففعل . والغالب أنه عاد إلى المدينة بعد أداء مهمته سريعاً ، وتوفى بها سنة ١٢٠هـ / ٧٣٧م (١١٤).

جانب من مرويات عاصم بن عمر :

روى عن رجال من قومه أن سبب دخولهم الإسلام ما كان اليهود يخبرونهم به من قرب زمان آخر الأنبياء ، وأنهم سيؤمنون به ، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم ، وما نزل من قرآن بهذا الشأن (١١٥)- حدّث عاصم عمن لا يتهم ، عن عمر بن عبد العزيز : أنه حدّث عن سلمان الفارسى بما يتعلق بجانب من رحلته إلى الإيمان ، وما رأى عليه أحد الصالحين بالشام من بركة وصلاح ودعاء مستجاب لذوى الأسقام بالشفاء ، وقول الرسول له فى النهاية : لئن كنت صدقتنى يا سلمان ، لقد لقيت عيسى بن مريم (١١٦)- قول ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة العقبة الثانية نبّه العباس بن عُبادة بن نضلة الأنصارى الحاضرين بأنهم يبايعون رسول الله على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وسبب موقف العباس بن عبادة هذا (١١٧)- حدّث عاصم بن عمر أنه لما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة حلّ رسول الله محله فى نقابة بنى النجار ، والسبب وراء ذلك (١١٨)- حدّث عاصم بن عمر أن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد مع رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد، وحصار الرسول لهم حتى نزلوا على حكمه ، وتدخل عبد الله بن أبى حليفهم الخزرجى رأس النفاق بشدة لدى رسول الله ، وأنقذهم من القتل(١١٩) - حدّث عاصم أن وفد عضل والقارة

قدم على رسول الله بعد أحد (١٢٠)- ذكره تفاصيل مقتل خبيب بن عدى فى يوم الرجيع(١٢١)- روايته شعراً عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه فى غزوة بنى لحيان(١٢٢)- روى عن محمود بن لبيد ، عن أبى سعيد الخدرى غضب الأنصار من توزيع الرسول غنائم هوازن فى قريش وقبائل العرب ، وحرمان الأنصار منها ، وما دار من حوار بينهم وبين الرسول بخصوص هذا الأمر (١٢٣)- روى عاصم محاولة أحد الأنصار قتل الشاعر كعب بن زهير بن أبى سُلمى المزنى بعد أن جاء الرسول تائباً مؤمناً ، ومنع الرسول إياه ، وساق قصيدته (بانت سعاد) التى ألقاها بين يدى الرسول ، وأثر هذه القصيدة (١٢٤)- ساق عاصم روايات عن النفاق والمنافقين فى المدينة ، كشفت ما كان مستوراً) (١٢٥).

التحليل ، والنقد :

من الملاحظ أن المادة التاريخية - فى ضوء ما تتبعت - تركز تركيزاً شبه كامل على الفترة المدنية ، وتبدأ تحديداً بالسنوات الأخيرة للرسول فى مكة ، حيث اللقاءات التى عقدها مع بعض أهل المدينة (١٢٦) ، حتى هجرته وأصحابه إليهم ، وتنتهى برواية ترجع إلى السنة العاشرة للهجرة (١٢٧). وثمة رواية وحيدة يتجاوز فيها عاصم بن عمر عصر النبوة إلى عصر الخلفاء الراشدين ، وهى تتعلق بسنة خمس وثلاثين من الهجرة / ٦٥٥م ، وينقلها لنا الواقدى ، فيما حدثه به محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر ، عن محمود بن لبيد ، الذى تناول اقتراب الثائرين على عثمان من المدينة ، ونزولهم (ذا خُشُب) ، وطلب الخليفة عثمان إلى علىّ بن أبى طالب أن يردهم ، وخروجه فى ثلاثين صحابياً إليهم ، وتحدثه هو والصحابى محمد بن مسلمة إليهم ، وأقنعوا بالرجوع من حيث أتوا ، وطلب ابن مسلمة من زعيمهم عبد الرحمن بن عديس البلوى أن يتقى الله ، ويَرُدّ من قِبله عن الخليفة ؛ فقد وعد أن يرجع عما أثارهم وحركهم نحو المدينة ضده . واتجه الثائرون إلى بلادهم ، بينما عاد وفد الصحابة إلى المدينة (١٢٨). ولا أدرى ما إذا كانت هذه الرواية الوحيدة الفريدة دالة على اهتمام عاصم بن عمر بتسجيل تاريخ الراشدين - علمًا بأنه لم يُشتهر عنه سوى العلم بالمغازى ومناقب الصحابة - أم لا .

كان عاصم بن عمر يستخدم الإسناد فى مروياته التاريخية ، مع ملاحظة أن أسانيده - أحياناً - لا تخلو من مجهولين غير معروفين لنا كقوله : حدّث عاصم بن عمر عمن لايتهم ، وعن (رجال من قومه) . وفى أحيان كثيرة لا يذكر أسانيده ؛ مما يصعب على الدارسين اختبار صحتها .

دعم ما يروى من أحداث تاريخية بذكر الآيات القرآنية المرتبطة بها نزولاً كقوله (تعالى) بحق اليهود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(١٢٩) . وكذلك يذكر بعض الأشعار المصاحبة للأحداث كشعر كعب بن مالك فى غزوة بنى لحيان ، وقصيدة (بانت سعاد) التى أنشدها كعب بن زهير بين يدى رسول الله ، عندما أتاه تائباً مؤمناً .

اهتمامه بالتركيز على بعض الروايات التى تفصل بعض الأمور المهمة ، وتكشف بعض الأحداث ذات الدلالات الرائعة ، مثل : تفصيل القول بشأن خُبيب بن عدى ، وما يتمتع به من أخلاق المسلم الفاضل ، وإيمان الفرد الذى لا يتزعزع ، وتقديم حب الرسول على نفسه التى بين جنبيه . وكذلك ما يتصل بالنفاق والمنافقين الذين افتضح أمرهم بعد هزيمة أحد ، وفى طريق العودة من غزوة تبوك وتآمرهم على رسول الله ، وكذلك رصد مواطن الضعف البشرى التى لا يخلو منها إنسان ، وتمثل ذلك فى احتجاج الأنصار على حرمانهم الغنائم ، وقصر توزيعها ومنحها لمن هم دونهم إخلاصاً وتفانياً وجهاداً ، ومحاورة الرسول لهم عقلانياً عاطفياً فى آن واحد ، فسلموا له فى النهاية ، وأحسوا بخطئهم وتسرعهم وقصور فهمهم .

وأخيراً ، لم يكن عاصم بن عمر يقف سلبياً أمام الروايات التى يسردها ، لكنه - فى بعض الأحيان - كانت تظهر شخصيته وتعليلاته ، وتعليقاته ، كما فى تعليله رفض تولية نقيب لبنى النجار بعد موت نقيبهم أسعد بن زرارة ، وجعل من نفسه ﷺ نقيباً لهم ؛ فهم أخواله . وقد كره الرسول أن يخص بالنقابة بعضهم دون بعض . وصارت نقابة الرسول عليهم مثل افتخار واعتداد لهم على قومهم(١٣٠) . وكذلك علل مقالة العباس بن عبادة بن نضلة لقومه من الخزرج فى بيعة العقبة الثانية بأنه أراد الاستيثاق من القوم ، والاطمئنان إلى صدق مواقفهم من مناصرة الرسول ﷺ(١٣١) . وعلق عاصم على ما جاء فى قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) من قوله : (إذا عَرّد السُّود التنابيل)(١٣٢) بأنه يريدنا معشر الأنصار ؛ لما كان صاحبنا صنع ما صنع ، وخص المهاجرين من قريش من صحابة الرسول بالمدح ؛ مما أغضب الأنصار عليه ، فأنشد قصيدة أخرى بعد إسلامه يمدحهم فيها ؛ فهم أهل لكل خير(١٣٣) . ويؤخذ على عاصم أنه قد يروى الرواية وفيها رائحة الخرافة والأسطورة ، فلا يردها ولا يعلق عليها ناقداً ، كتلك التي زعمت على لسان الرسول ﷺ - وهو ما لا يصح عندى - أن سلمان الفارسى لقى عيسى بن مريم ، ورآه يشفى الناس من أسقامهم . ومعلوم أن هذا محال ، وأن

عيسى رفعه الله إليه ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (١٣٤)، ولا ينزل إلى الدنيا ثانية إلا فى وقت حدده المولى عز وجل قرب قيام الساعة آخر الزمان .

جـ - عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى المدنى :

يعد عبد الله صاحب المغازى من أكبر شيوخ محمد بن إسحاق ، حيث روى عنه مغازيه . وكانت لأسرته مكانة مرموقة فى العلم ؛ فجده عمرو بن حزم صحابى جليل ، ووالده أبو بكر صاحب الجهد الوافر فى جمع الحديث النبوى الشريف ، وكان قاضيًا مشهوراً ، وواليًا على المدينة للخليفة عمر بن عبد العزيز . وكانت لآل حزم حلقة فى المسجد النبوى بالمدينة . ولد عبد الله سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م . روى عن أبيه ، وخالة أبيه عَمرة بنت عبد الرحمن ، وأنس بن مالك ، وعروة بن الزبير ، والزهرى ، وغيرهم . وروى عنه الزهرى أيضًا ، وابن إسحاق ، ومالك ، وابن أخيه عبد الملك بن محمد بن أبى بكر ، وغيرهم . كان عبد الله ثقة كثير الحديث عالمًا . توفى سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م(١٣٥).

من بقايا مروياته التاريخية :

فى السيرة النبوية : (مكان وزمان وظروف وفاة السيدة آمنة أم النبى ﷺ (١٣٦)- وصية عبد المطلب جد النبى إلى أبى طالب عمه ، وكفالته له ، وخروجه معه للتجارة ، حتى خاف عليه بعد لقائه بأحد رهبان الشام (١٣٧)- ما رواه عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف أن ملكًا دخل على كسرى إمبراطور فارس يأمره بالإسلام فى وقت محدد ثلاث مرات على مدار ثلاث أعوام ، فرفض ، فكان ذلك إيذانًا بضياع ملكه ، وقتله عى يد ابنه(١٣٨)- ما قاله الرسول لنقباء الأنصار الاثنى عشر بعد بيعة العقبة الثانية (١٣٩)- إسلام سعد بن مُعاذ بن حُضير وما بذله مصعب بن عُمير من جهود لنشر الدعوة بالمدينة(١٤٠)- نزول الصحابة المهاجرين على إخوانهم الأنصار فى دورهم بعد الهجرة (١٤١)- سعد بن معاذ واقتراحه بناء عريش للنبى القائد فى بدر وسبب ذلك (١٤٢)- الملائكة ودورها فى غزوة بدر(١٤٣)- مغانم المسلمين فى خيبر (١٤٤)، وعبد الله بن رواحة خارص خيبر(١٤٥)- غزوة مؤتة وصراع جعفر بن أبى طالب مع النفس والدنيا ، وتغلبه عليهما(١٤٦) - ما عاناه المسلمون المشاركون فى غزوة مؤتة من استنكار المجتمع ، واستهجان مراقـنهم(١٤٧)- موقف الرسول وزوجة جعفر بن أبى طالب لما بلغهما استشهاده فى مؤتة(١٤٨)- وصف دقيق للهيئة التى ظهر عليها الرسول عند دخوله مكة فاتحًا (١٤٩)- أحد

شهداء المسلمين وعدد قتلى المشركين أثناء دخول خالد بن الوليد مكة مع جيش الفتح(١٥٠)- بطولة أم سليم زوج أبى طلحة فى حنين(١٥١) - روايته عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة (رضى الله عنها) ما يتصل بتحديد الوقت الذى دفن فيه رسول الله ﷺ)(١٥٢).

فى تاريخ الراشدين :

(روى عن عمرة أن فاطمة بنت النبى (رضى الله عنها) لما توفيت ، صلى عليها العباس، ونزل هو والفضل وعَلىّ قبرها (١٥٣)- الجرم الذى ارتكبه الفجاءة فى حق الخليفة الصديق وعامة المسلمين والعقوبة التى أنزلت به ، وما قيل من شعر بهذه المناسبة (١٥٤)- الأشعث بن قيس وعفو الصديق عنه (١٥٥)- خالد بن سعيد بن العاص وتباطؤه فى مبايعة الصديق ، وتحريضه عليًا وعثمان عليه ، وموقف أبى بكر وعمر منه بعد ذلك (١٥٦)- عمر ابن الخطاب وموقفه من المسلمين العائدين إلى المدينة بعد هزيمة الجسر أمام الفرس سنة ١٣هـ(١٥٧)- وصف حال جند المسلمين الرثة وحرج موقفهم أمام جموع الفرس بقيادة رستم فى القادسية(١٥٨)- صلاة سهل بن حُنيف ثم على بن أبي طالب بالمسلمين أثناء حصْر الثائرين للخليفة عثمان سنة ٣٥هـ(١٥٩) - عدد من رءوس معارضى عبد الملك بن مروان قطعها الحجاج سنة ٧٣هـ ، وعُلقت بالمدينة ، ثم أرسلت إلى الخليفة الأموى) (١٦٠).

الملامح العامة لمنهج عبد الله بن أبى بكر التاريخى (*):

اهتم عبد الله بن أبى بكر بتسجيل أحداث السيرة النبوية ، وامتدت اهتماماته إلى تاريخ الراشدين ، فتناول بعض أحداث الردة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ولمحة خاطفة عن موقعتى : الجسر ، والقادسية فى عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وخبراً من نهاية عصر عثمان رضى الله عنه وخبر وحيد من العصر الأموى يرجع إلى سنة ٧٣هـ ، حين قضى الحجاج سيف عبد الملك البتار على خصومه ومناوئيه . ويعنى ما تقدم أن عبد الله بن أبى بكر لم تنحصر جهوده فى التأليف التاريخى عند تدوين السيرة النبوية فحسب ، لكن رواياته المحدودة للغاية التى بقيت بين أيدينا من عصرى الراشدين والأمويين تدلل على أن السيرة نالت القسط الأوفر من عنايته ، وحظيت باهتمام المؤرخين الآخرين ، فأكثروا النقل عنه ، بينما لا ندرى سر عدم احتفاظهم بنصوص كافية مقتبسة منه تعود إلى عصرى الراشدين والأمويين . ومما يلفت النظر أنه رغم اهتمامه بحياة النبى ﷺ منذ البداية ، حيث تناول طفولته ، ووفاة والدته ، وجده ، وكفالة عمه له ، فإننا نفاجأ بعد ذلك بعدم وجود روايات

تاريخية له بين أيدينا تؤرخ للعصر المكى . وأول ما تطالعنا رواياته بعد ذلك تبدأ بأحداث بيعة العقبة الثانية ، ثم تغزر وتتوالى فى سرد أحداث العصر المدنى خاصة سراياه وغزواته ، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنه ركز على هذا العصر ، ورتب أحداثه على السنين (١٦١).

لم يعتن عبد الله بن أبى بكر بذكر أسانيد مروياته غالبًا ، وفى أحيان قليلة يذكر من نقل عنه الرواية ، مثل : عمرة بنت عبد الرحمن ، وقد يذكر من نقلت عنها عمرة وهى السيدة عائشة . ومن هنا لا يستطيع الباحثون دراسة موارده التى نقل عنها مادته التاريخية ، ويكتفى بدراسة مضامين رواياته .

تقل نسبة إيراد الأشعار المصاحبة للحدث التاريخى فى مروياته عن سابقيه من مؤرخى المدينة (١٦٢)، وفى الوقت نفسه احتفظ لنا بوثيقة تاريخية مهمة ، يبدو أن أسرته كانت تحتفظ بها لديها ، وهى رسالة رسول الله ﷺ التى أرسلها مع جدهم الأكبر عمرو بن حزم ، حين أرسله إلى اليمن مع وفد بنى الحارث بن كعب ، وفيها يعلمهم معالم الإسلام وشرائعه ، ويحدد لهم ما يؤخذ من صدقاتهم (١٦٣).

تعرض عبد الله بن أبى بكر لبعض الأمور الغيبية ، بعضها عليه دليل قاطع كالملائكة التى تمثلت فى صورة بشر ، وشاركت المسلمين فى قتال المشركين فى بدر كما جاء فى القرآن الكريم (١٦٤)، والحديث النبوى الصحيح (١٦٥). لكن يؤخذ عليه إيراده رواية خرافية - رغم أنها مسندة - تشير إلى دخول ملك على كسرى يدعوه إلى الإسلام . وهذا كلام مشكوك فى صحته ، فإقامة الحجة عليه لا تحتاج إلى هذا كله ، وقد علم كسرى بأخبار بعثة النبى ، وأرسل إليه الرسول فى العام السادس الهجرى عبد الله بن حذافة السهمى - كما ذكرنا من قبل - بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، فأبى ، ومزق الكتاب ، فدعا الرسول عليه أن يمزق الله ملكه ، وقد كان (١٦٦).

الدقة والشمول فى العرض التاريخى : وتلك ميزة مركبة تتفرع إلى عدة فروع لوحظت من خلال فحص بقايا روايات عبد الله بن أبى بكر . فدقته تتضح فى تحديد الوقت الذى دُفن فيه رسول الله ، والدليل عليه (١٦٧). وكذلك فى تحديد قتيل ثالث للمسلمين كان فى خيل خالد ابن الوليد عند فتح مكة ، وأعداد من قُتل من المشركين فى ذلك اليوم (١٦٨). أما العرض الشامل المتكامل ، فيتضح فى التفاصيل الكثيرة التى أوردها (١٦٩)، فزادت الحدث التاريخى وضوحًا ، وكشفت عن جوانب حضارية جديدة فيه ، مثل : شدة حماس المجتمع

الإسلامي التي ظهرت في القسوة على العائدين من غزوة مؤتة ، حتى إن بعضهم كان لا يخرج للصلاة جماعة في المسجد ؛ لما يلقاه من صياح الناس (١٧٠). وكذلك شدة تأثر الجند المسلم بعد هزيمة الجسر ، حتى طيب عمر بن الخطاب خواطرهم ، ونفى عنهم الفرار من المعركة ، وجعل رجوعهم إلي المدينة تحيزاً إلى فئة المسلمين ، وقال لهم : أنا فئتكم(١٧١). وكذلك اهتم بسياسة مصعب بن عمير وحكمته في نشر الإسلام بالمدينة حتى أسلم كبراؤها كسعد بن معاذ ، وأسيد بن حُضير ، وإرساء الرسول قواعد الحكم اللامركزي - الذي سيظهر بعد ذلك - بالمدينة من خلال تعيين النقباء الاثنى عشر من الأنصار ، وجعلهم كفلاء (ضامنين) ومسئولين عن عشائرهم أمام الرسول (١٧٢)، فهم - فيما بعد - يُصرفون شئون قبائلهم ، والرسول يتابع السياسة العامة للدولة الإسلامية ، وهم وسطاء بينه وبين عامة الرعية . كما اهتم عبد الله بن أبي بكر ببيان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وأورد نماذج منها ، فابن مسعود نزل على معاذ بن جبل (١٧٣)، وعثمان كان أخًا لأوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت (١٧٤)، وهكذا . كما اهتم ببيان كيفية توزيع الرسول لمغانم خيبر . وتم تسليط بعض الأضواء على سمات المرأة الاجتماعية والنفسية ، فأشار إلى شجاعة وبسالة أم سليم في غزوة حُنين ، واهتمام أسماء بنت عميس بتنظيم وتنظيف ورعاية بيتها وأبنائها ، ثم تفجر مشاعرها الإنسانية الحزينة الملتاعة بعد ما رأت الرسول يبكي ، ويخبرها باستشهاد زوجها جعفر بن أبي طالب في سرية مؤتة (١٧٥). واهتم عبد الله بن أبي بكر بجانب العبرة والعظة في أحداث التاريخ ، فوصف الرسول وصفًا دقيقًا وهو داخل مكة فاتحًا على ناقته ، وإنه ليضع رأسه حتى ليكاد عُثنونه يمس واسطة الرحل ؛ تواضعًا لله ، حين رأى الفتح العظيم الذي أكرمه الله به (١٧٦).

وفي عصر الراشدين أتى بعدد من الأحداث التاريخية التي بينت فلسفة سياسة الصديق بين العقوبة الشديدة ، والعفو عند المقدرة في موقفه المتباين من الفجاءة المخادع القاتل سافك دماء المسلمين ، وبين الأشعث بن قيس الذي رأى في مقاومته خالد بن الوليد عصبية وحمية أكثر منها خروجًا وعصيانًا ، فرأى أن العفو عنه وضمه إلى صفوف المجاهدين فيه خير للمسلمين . وأتى بمثال من الوحشية والقهر في سياسة الأمويين على يد الحجاج بن يوسف ؛ لأجل إرهاب المعارضين الآخرين ، وانتزاع بيعة الخليفة منهم (١٧٧).

القدرة على إبداء الرأى والتعليق : وذلك نجده فى رواية أوردها الطبرى عن الواقدى رواها له الثورى ، وتنتهى إلى الشعبى ، حيث قال : إن إسرافيل قرن بنبوة رسول الله ثلاث سنين ، يسمع صوته ، ولا يرى شخصه ، ثم اتصل به بعد ذلك جبريل عليه السلام . فكأن الواقدى شك فى صحة ذلك ، فسأل محمد بن صالح بن دينار ، الذى نفى ذلك ، مستدلاً بما سمعه من عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، حيث كانا يحدثان فى المسجد ، ورجل عراقى يقول لهما هذا ، فأنكراه جميعًا ، وقالاً : " ما سمعنا ولا علمنا إلا أن جبريل هو الذى قُرن به ، وكان يأتيه بالوحى من يوم نُبى إلى أن توفى ﷺ " (١٧٨).

وثمة رأى آخر أبداه عبد الله بن أبى بكر – سبق أن رأينا خلافه لدى عاصم بن عمر فيما مضى – حيث علل مقولة العباس بن عبادة بن نضلة للأنصار فى بيعة العقبة الثانية بأنه قال ما قال : ليؤخر القوم تلك الليلة ؛ رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبَىّ بن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم (١٧٩). والحق أن رأى عبد الله بن أبى بكر رأى مرجوح ؛ لأن الأنصار حرصوا على إخفاء بيعتهم عن ابن أبَىّ ، وعن غيره من المشركين ؛ كى لا يُفضح أمرهم . وقد أثبتت الأحداث – بعد ذلك – نفاق ابن أبَى الشديد ، وعداءه اللانهائى للإسلام ولرسوله (١٨٠).

الحواشي

١- تاريخ التراث العربي (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) جـ١ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

٢ - المرجع السابق ،جـ١ ، ص ٧٦ .

٣ - حُرِّف هذا الاسم إلى (خيثمة) في (التاريخ العربي والمؤرخون ، للدكتور شاكر مصطفى ، ط٢ ، دار العلم للملايين ببيروت) ، جـ١ ، ص ١٥١ .

٤ - راجع ترجمته في : (تهذيب التهذيب لابن حجر ، ط. دار الفكر - بيروت) ، جـ٤ ، ص ٣١٨ ؛ وتقريب التهذيب لابن حجر (ط. دار المعرفة - بيروت) جـ١ ، ص ٣٣٥ ؛ والإصابة لابن حجر (ط. دار الجيل - بيروت) ، جـ٣ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

٥ - الطبقات الكبرى لابن سعد (ط. دار صادر - بيروت) جـ١ ، ص ٣٣٢ . وقد عاصر هذا الحفيد خلافة المهدى العباسى ، وتوفى سنة ١٦٦هـ / ٧٨٢م . (المصدر السابق ، ط . دار الكتب العلمية - بيروت) ٥ /٤٨٠ - ٤٨١ .

٦ - راجع - مثلاً - روايته عن مكان توزيع غنائم غزوة بدر في (المغازي للواقدى ، ط٣ - عالم الكتب بيروت) جـ١ ، ص ١٠٠ ، وروايته المطولة عن بيعة العقبة الثانية في (طبقات ابن سعد ، ط. دار الكتب العلمية) جـ١ ، ص ١٧١ - ١٧٣ .

٧ - كما هو الحال - مثلاً - في روايتين تتصلان بالغنائم والأسرى في غزوة بدر (المغازي للواقدى جـ١ ، ص ١٠٠ ، ١٣٩) . وهذا العم المذكور يكنى بـ (أبي عُقَير) ، ويروى عن أبيه . وجعله ابن سعد في الطبقة الثانية من تابعى المدينة . (الطبقات الكبرى ، ط. دار الكتب العلمية) جـ٥ ، ص ٢١٤ .

٨ - يمكن مراجعة المزيد من هذه الروايات في (المغازي) للواقدى جـ١ ، ص ١٨ ، ٧٨ ، ١١٤ ، ١٩٩ ، وغيرها .

٩ - الطبقات الكبرى (ط. دار الكتب العلمية) جـ١ ، ص ١٧١ - ١٧٣ ، ٣٨٠ .

١٠- راجع ترجمته في : (وفيات الأعيان لابن خلكان ، ط. دار صادر - بيروت) ، جـ٣ ، ص ٦٢ - ٦٤ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، وتقريب التهذيب لابن حجر ١ /٤٢٥.

١١ - طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) جـ٢ ، ص ٢٨١ ، وأسد الغابة لابن الأثير (ط. دار الشعب) ، جـ٣ ، ص ٢٩٢ .

١٢ - يشير بذلك إلي قوله (تعالى) { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } (سورة البقرة : ٢/جزء من الآية ١٨٩) .

١٣ - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى (ط٢ - مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣م) ، ص ٤٠٣ .

١٤ - طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) ، جـ٢ ، ص ٢٨٣ .

١٥ – هو كريب بن أبي مسلم ، يكنى : أبا رشدين . أدرك زمن عثمان بن عفان . حدث عن ابن عباس ، وأسامة بن زيد ، وأم سلمة ، وغيرهم . كان ثقة حسن الحديث . توفى بالمدينة سنة ٩٨هـ / ٧١٦م أواخر خلافة سليمان بن عبد الملك الأموى .. (سير أعلام النبلاء للذهبى ، ط. مؤسسة الرسالة جـ٤ ، ص ٤٧٩ – ٤٨٠ ، وتهذيب التهذيب ٣٨٨/٨) .

١٦ – روى عن أبيه ، وأبي سعيد الخدرى ، وابن عمرو ، وأبي هريرة ، ولد ليلة قتل على بن أبي طالب سنة ٤٠هـ . كان يدعى السجاد ؛ لكثرة صلاته . توفى سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م . (المصدر السابق ٣١٢/٧-٣١٣) .

١٧ – هاكم النص على النحو الآتى : قال موسى بن عقبة : " وضع عندنا كريب حمل بعير ، أو عدل بعير من كتب ابن عباس . فكان على بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب ، كتب إليه : ابعث إلىّ بصحيفة كذا وكذا ، فينسخها ، ويبعث إليه إحداهما " . (طبقات ابن سعد ، ط. دار الكتب العلمية جـ٥ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ ، وتقييد العلم للخطيب البغدادى ، ط٢ ، دار إحياء السنة ص ١٣٦ ؛ وسير أعلام النبلاء للذهبى ٤٨٠/٤) .

١٨ – حصر الدكتور شاكر مصطفى عدد المرات التى ورد فيها اسم ابن عباس من خلال الروايات التاريخية المنقولة عنه فى (تاريخ الطبرى) بـ ٢٨٦ مرة ، بدءاً من الجزء الأول حتى الخامس . (التاريخ العربى والمؤرخون جـ١ ، ص ١٥٠) .

١٩ – تاريخ الطبرى (ط. دار المعارف بالقاهرة) ١٠/١ .

٢٠ – المصدر السابق ٢٢/١ – ٢٣ .

٢١ – السابق ٨١/١-٨٢ . يمكن مراجعة الإحالات المرتبطة بـ (تاريخ الأنبياء) فى (السابق جـ ١٠ ، ص ٣١٠ (قسم الفهارس) .

٢٢ – السابق ٢٨٢/٢ .

٢٣ – ثمة روايات تفيد أن الرسول أنزل عليه القرآن وهو ابن ثلاث وأربعين سنة . وأقام بمكة بعد النبوة عشر سنوات . (السابق ٢٨٣/٢ – ٢٨٤) . وهناك روايات أخرى ذكرت أنه أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة . (السابق ٢٨٤/٢ – ٢٨٥) .

٢٤ – صحيح البخارى (ط. عالم الكتب) : كتاب المغازى ، باب (قصة غزوة بدر) جـ٥ ، ص ١٨٠ (رقم ٥) . والقرآن المنزل بتلك المناسبة قوله تعالى : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } (سورة القمر: ٥٤/الآية ٤٥) .

٢٥ – تاريخ الطبرى ٤٧٤/٢ – ٤٧٥ .

٢٦ – المصدر السابق ٥٠٨/٢.

٢٧ – السابق ٦٢١/٢ .

٢٨ - السابق ٢٨١/٤ - ٢٨٢ .

٢٩ - السابق ٢٤/٧ .

٣٠ - السابق ٥٢/٣ وبعدها .

٣١ - السابق ١٨٩/٣ - ١٩٠ .

٣٢ - صحيح البخاري ، كتاب (المغازي) ، باب (مرض النبي ووفاته) جـ٦ ، ص ٢٩ .

٣٣ - تاريخ الطبري ٣ / ٢١١ - ٢١٢ .

٣٤ - المصدر السابق ٣ / ٢٢٥ .

٣٥ - السابق ٢٢٩/٣ .

٣٦ - السابق ٣ / ٦١٧ - ٦١٨ .

٣٧ - السابق ٢١٣/٤ - ٢١٤ .

٣٨ - المصدر السابق ٤ / ٢٦٧ .

٣٩ - السابق ٢٨٤/٤ .

٤٠ - السابق ٤٠٥/٤ - ٤٠٧ .

٤١ - السابق ٤ / ٤٢٧ .

٤٢ - السابق ٤ / ٤٤١ .

٤٣ - السابق ٤ / ٤٤٥ .

٤٤ - السابق ٥ / ٩٣ .

٤٥ - السابق ٥ / ١٣ .

٤٦ - السابق ٥ / ٥١ .

٤٧ - السابق ٥ / ٦٤ - ٦٥ ، ٦٧ .

٤٨ - السابق ٥ / ١٤١ - ١٤٢ .

٤٩ - السابق ٥ / ١٤٣ .

٥٠ - السابق ٥ / ٣٣٧ .

٥١ - السابق ٥ / ٣٠٣ (معارضته تولية يزيد بن معاوية العهد سنة ٥٦هـ) ، ص ٣٤٣ (استجابته لابن عمر سنة ٦٠هـ) .

٥٢ - السابق ٥ / ٣٨٣ - ٣٨٤ .

٥٣ - الإسرائيليات - في نظر إحدى الباحثات - هي كل ما دخل التراث الإسلامي - خاصة في مجال التفسير - من روايات لها أصل ومصدر يهودي يمكن الوقوف عليه . أما ما ليس له أصل لديهم ، ولا

يقبله العقل أو المنطق ، وكان من رواياتهم ، أو عمن أسلم منهم فهو من الخرافات والأساطير . (الإسرائيليات فى تفسير الطبرى . ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) للدكتور آمال محمد عبد الرحمن ، ص ٢٦ .

٥٤ - الكتاب المقدس (العهد القديم) : سفر التكوين : الإصحاح الأول : الآيتان والفقرتان ١-٢ ، ص ١-٣ (طبعة كتاب الحياة ، من الترجمة التفسيرية ، د.ت) .

٥٥ - المصدر السابق ، سفر التكوين : الإصحاح الأول : الآية ٣ ، ص ٣ .

٥٦ - ذكرت د. آمال محمد عبد الرحمن أن (الاستواء) فى المفهوم الإسلامى يقابله (الاستراحة) فى المفهوم اليهودى . (الإسرائيليات فى تفسير الطبرى ، ص ١٤٨ . وقد يظن البعض أنهما مصطلحان متساويان ،. وهما ليسا كذلك ؛ لأن استواء الله على العرش من الأمور الغيبية التى لا نعرف حقيقتها، ونسلم بوقوعها ، ونفوض أمر العلم بها إلى الله . أما الاستراحة عندهم ، فمفهومها مادى يتمشى مع نظرتهم إلي طبيعة الإله ، حيث يجوز عندهم أن يصاب بتعب ونصب ، وأن يُوصف بما يوصف به البشر ، وهو مرفوض تماماً من وجهة نظر الإسلام .

٥٧ - سورة ق : ٥٠/الآية ٣٨ ، وبداية الآية ٣٩ .

٥٨ - سورة الكهف : ١٨ / من الآية ٥٠ .

٥٩ - تاريخ الطبرى ٣ / ٢٤ .

٦٠ - تاريخ الطبرى ٦٢١/٢ . ويؤكد ذلك حديث البراء بن عازب ، وجابر بن عبد الله - وكلاهما شارك فى الحديبية - فى (صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة الحديبية) ٢٥٩/٥ (رقم ١٨٠) ، ٢٦١ (رقم ١٨٤) .

٦١ - تاريخ الطبرى ٦٢١/٢ . ورد بها الرقم محرفاً هكذا : أربعة عشر ومائة . والصواب ما ذكرته بالمتن . والحكمة من العدول إلى هذه الطريقة فى صياغة العدد الإشارة إلى أن الجيش انقسم إلى مئات حسب قبائلهم ، أو خصائصهم . (فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ، ط . المكتبة السلفية) ٧ / ٤٤٤ .

٦٢ - صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة الحديبية ٢٦٠/٥ (رقم ١٨٢) .

٦٣ - فتح البارى ٧/ ٤٤٠ ، ٤٤٤ .

٦٤ - صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب (كتاب النبى إلى كسرى وقيصر) جـ٦ ، ص ٢٧ (رقم ٤١٦) .

٦٥ - تاريخ الطبرى ٦٤٤/٢ ، ٦٥٤ .

٦٦ - راجع ترجمته فى : (طبقات ابن سعد ، ط . دار الكتب العلمية ١٣٦/٥ - ١٣٩ ؛ والزهد لأحمد ابن حنبل ، ط. دار الكتب العلمية ، ص ٣٧١ ؛ وجمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار (تحقيق محمود شاكر) ، ص٢٧٨ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ ؛ وسير أعلام النبلاء للذهبى ٤٢١/٤؛ وتهذيب التهذيب ١٦٣/٧) .

٦٧ - تاريخ الإسلام للذهبي (مجلد المغازي تحقيق : محمد محمود حمدان) ص ٣٠٢ ، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٥٠ ؛ والوافي بالوفيات للصفدي (ط. ألمانيا) ٧/١ ؛ والبداية والنهاية لابن كثير (ط. مكتبة المعارف - بيروت) ١٠١/٩ ، وكشف الظنون لحاجي خليفة (ط . دار الفكر - بيروت) جـ٢، رقم ١٧٤٧.

٦٨ - حدد الدكتور الأعظمي في تقديمه لهذا الكتاب هدفه ومنهجه ، فقال في ص ٥٥ : هدفي هو جمع مغازي عروة بن الزبير برواية أبي الأسود عنه ، وذلك على وجه العموم . هذا ، وقد تم نشر الكتاب في مكتب التربية العربي بالرياض سنة ١٩٨١م.

٦٩ - صحيح البخاري ، بيان كيفية الوحي جـ١ ، ص ٣-٥ (رقم ٣) ؛ وتاريخ الطبري جـ٢ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

٧٠ - حسن ابن كثير إسناد هذا الحديث (البداية والنهاية ، ط. مكتبة المعارف - بيروت) ، جـ٣ ، ص ٩ .

٧١ - تاريخ الطبري ، جـ٢ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

٧٢ - السيرة النبوية لابن هشام (ط٢ - طبعة مصطفى الحلبي ١٩٥٥م) القسم الأول ، ص ٢٤٣ .

٧٣ - المصدر السابق ٤٠٨/١ - ٤٠٩ .

٧٤ - السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٩/١ - ٢٩٠ ؛ وتاريخ الطبري ٣٣٢/٢ - ٣٣٣ ؛ والبداية والنهاية (ط. مكتبة المعارف) ٤٦/٣ .

٧٥ - السيرة النبوية لابن هشام ٢٤١/١ . وورد الحديث بالمضمون نفسه تقريباً ، وبلفظ مقارب من طرق أخرى في (صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب تزويج النبي خديجة وفضلها) جـ٥ ، ص ١٢١ - ١٢٢ (أرقام ٣٠٤ - ٣٠٥ ، ٣٠٧ - ٣٠٨) .

٧٦ - المعرفة والتاريخ للفسوي (م . الإرشاد - بغداد) جـ٣ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ؛ والبداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) ١٢٧/٣ .

٧٧ - البداية والنهاية (ط. مكتبة المعارف) ٣ / ١٨٣ .

٧٨ - سيرة ابن هشام ٥٠٩/١ .

٧٩ - تاريخ الإسلام للذهبي (مجلد المغازي بتحقيق محمد حمدان) ، ص ٨٣ ؛ والبداية والنهاية (ط. مكتبة المعارف) جـ٣ ، ص ٣٠٠ .

٨٠ - تاريخ الإسلام (مجلد المغازي بتحقيق حمدان) ص ١٣٣ - ١٣٤ .

٨١ - المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

٨٢ - السابق ، ص ١٦١ .

٨٣ - البداية والنهاية (ط. مكتبة المعارف) ٤٨/٤ .

٨٤ - تاريخ الطبرى ٢ / ٥٥٦ - ٥٥٧ .

٨٥ - سيرة ابن هشام ٢٤٢/٢ ، وتاريخ الطبرى ٥٨٩/٢ .

٨٦ - تاريخ الإسلام للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق : حمدان) ، ص ٢٢٥ - ٢٢٩ .

٨٧ - سيرة ابن هشام ٣٢٦/٢ - ٣٢٧ .

٨٨ - تاريخ الطبرى ٥٥/٣ - ٥٦ .

٨٩ - المصدر السابق ٨٢/٣ - ٨٣ .

٩٠ - السابق ١٨٥/٣ .

٩١ - السابق ١٩٩/٣ .

٩٢ - تاريخ الإسلام للذهبى (طبعة بتحقيق : حسام الدين القدسى) جـ٣ ، ص ١٠٠ .

٩٣ - تاريخ الطبرى ٢٤٠/٣ .

٩٤ - تاريخ الطبرى ٤٣١/٣ - ٤٣٢ .

٩٥ - المصدر السابق ٤١٩/٣ - ٤٢٠ .

٩٦ - السابق ٢١٤/٤ - ٢١٥ .

٩٧ - السابق ٥٠٥/٣ .

٩٨ - السابق ٥٧١/٣ .

٩٩ - السابق ٥٢٥/٤ - ٥٢٦ .

١٠٠ - السابق ٤٢٧/٦ - ٤٢٨ .

١٠١ - يمكن مراجعة علاقة المؤرخ المصرى ابن لهيعة بمدرسة الحجاز التاريخية فى كتابى : (معالم الثقافة الإسلامية ، طبعة : دار الكتب العلمية ببيروت) ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

١٠٢ - هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل بن الأسود القرشى ، يتيم عروة (نشأ فى بيته) ، وأخو هشام ابن عروة من الرضاع . أوصى أبوه عروة به قبل وفاته . يعد أبو الأسود من صغار التابعين ، وفى زمرة العلماء الثقات . روى عن عروة ، وعكرمة . روى عنه الزهرى ، وهشام ابن عروة ، ومالك ، وابن لهيعة. نزل إلى مصر آخر سلطان بنى أمية . توفى سنة بضع وثلاثين ومائة . (التاريخ الكبير للبخارى، ط . الهند ١٤٥/١/١ ؛ الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (ط.الهند) ٣٢١/٢/٣ ؛ والانتقاء لابن عبد البر (ط. دار الكتب العلمية) ، ص ٢٦ .

١٠٣ - فضل ابن معين كليهما فى الرواية عن عروة ، ولم يفاضل بينهما . (تهذيب التهذيب ٤٥/١١).

١٠٤ - هو مولى آل الزبير بن العوام ، كان عالمًا كثير الحديث ثقة . توفى سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م . (طبقات ابن سعد ، ط. دار الكتب العلمية) ٤١٢/٥ ؛ وتهذيب التهذيب ٢٨٤/١١ .

١٠٥ - سورة غافر : ٤٠/ من الآية ٢٨ .

١٠٦ - بدليل أنه كان إذا أفاق من الحمى التى أصابته والصحابة لدى مقدمهم المدينة ، كان يضطجع بفناء البيت ، ويصيح قائلاً متشوقاً إلى مكة وجبالها ، وبلادها ، ونباتها ، وآبارها وأسواقها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة　　بفخ وحولى اذخر وجليل ؟

وهل أردن يوماً مياه مجنة　　وهل يبدون لى شامة وطفيل ؟

(سيرة ابن هشام ١/٥٨٩) .

١٠٧ - تاريخ الطبرى ٣/١٦٣ . وأضاف قائلاً : " ونكح عائشة متوفى خديجة . كان رسول الله رأى عائشة مرتين ، يقال له : هذه امرأتك (وعائشة يومئذ ابنة ست سنين) " . والمقصود أنه عقد عليها فى هذه السن ، ولما كان معلوماً أنه دخل بها فى المدينة وهى بنت تسع سنين ، فتكون خديجة قد توفيت بالفعل - قبل الهجرة بثلاث سنين .

١٠٨ - المصدر السابق ٣/٢٤٠ .

١٠٩ - السابق ٣ / ١٨٥ .

١١٠ - السابق ٣/١٨٥ .

١١١ - سيرة ابن هشام ٢/٦٤٢ .

١١٢ - قال البراء بن عازب : " أصاب النبى وأصحابه من المشركين يوم بدر أربعين ومائة : سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً ، وأصابوا منا يوم أحد سبعين " . (صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب فضل من شهد بدراً) جـ٥ ، ص ١٨٩ (رقم ٣٥) .

١١٣ - راجع ترجمته فى : طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) جـ٥ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ؛ والتاريخ الكبير للبخارى (ط. الهند) ٣/٢/٤٧٨ ؛ وميزان الاعتدال للذهبى (ط ١ - عيسى الحلبى) ٢/٣٥٥ ؛ وسير أعلام النبلاء ٥/٢٤٠ - ٢٤١ .

١١٤ - طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) ٥/٣٣٧ .

١١٥ - سيرة ابن هشام ١/٢١١ .

١١٦ - المصدر السابق ١/٢٢١ - ٢٢٢ .

١١٧ - السابق ١/٤٤٦ ؛ وتاريخ الطبرى ٢/٣٦٣ - ٣٦٤ .

١١٨ - سيرة ابن هشام ١/٥٠٧ ؛ وتاريخ الطبرى ٢/٣٩٨ .

١١٩ - سيرة ابن هشام ٢/٤٧ - ٤٨ .

١٢٠ - المصدر السابق ٢/١٦٩ .

١٢١ - السابق ٢/١٧٢ - ١٧٣ .

١٢٢ - السابق ٢/٢٨٠ .

١٢٣ - السابق ٢ / ٤٩٨ - ٥٠٠ .

١٢٤ - السابق ٥٠٣/٢ - ٥١٤ .

١٢٥ - السابق ٥٢٤/١ ، ٥٢٢/٢ - ٥٢٣ .

١٢٦ - بدءاً من دعوة الرسول لسُويد بن صامت المدني في مكة ، واستحسانه ما سمع من القرآن (السابق ٤٢٥/١ - ٤٢٧ ؛ وتاريخ الطبري ٣٥١/٢) ، ومروراً بلقائه مع الأوس والخزرج (سيرة ابن هشام / ٤٢٨/١ ، ٤٤٦ ؛ وتاريخ الطبري ٣٥٣/٢ ، ٣٦٣ - ٣٦٤) .

١٢٧ - حيث لقاء الرسول بوفد بني عامر بن صعصعة وفيهم : عامر بن الطفيل (المصدر السابق ١٤٤/٣).

١٢٨ - تاريخ الطبري ٣٥٩/٤ - ٣٦٠ . ذا خشب : وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة . (معجم البلدان لياقوت ، ط. دار الكتب العلمية) ، جـ٢ ، ص ٤٢٦ .

١٢٩ - سورة البقرة : ٢ / الآية ٨٩ .

١٣٠ - سيرة ابن هشام ٥٠٧/١ - ٥٠٨ .

١٣١ - المصدر السابق ١ / ٤٤٦ .

١٣٢ - تمام البيت : يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ...... ضرب إذا عرد السود التنابيل

فهو يمدح المهاجرين في الشطر الأول من البيت والأبيات التي قبله ، ويعرض بالأنصار في الشطر الثاني ، فيجعلهم سوداً جبناء قصاراً يفرون من الميدان . (السابق ٥١٢/٢ - ٥١٣) .

١٣٣ - السابق ٥١٤/٢ - ٥١٥ .

١٣٤ - سورة النساء : ٤ / الآية ١٥٨ .

١٣٥ - يمكن مراجعة ترجمته في : (طبقات ابن سعد ، ط. دار الكتب العلمية ، جـ٥ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ ؛ والثقات لابن حبان (ط. الهند) ، جـ٧ ، ص ١٠ ؛ وسير أعلام النبلاء ٣١٤/٥ - ٣١٥ ؛ وتهذيب التهذيب ١٤٤/٥) .

١٣٦ - سيرة ابن هشام ١٦٨/١ ، وطبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) ، جـ١ ، ص ٩٣ - ٩٤ ؛ وتاريخ الطبري ١٦٥/٢ - ١٦٦ .

١٣٧ - المصدر السابق ٢٧٧/٢ - ٢٧٨ .

١٣٨ - السابق ١٩١/٢ .

١٣٩ - سيرة ابن هشام ٤٤٦/١ ، وتاريخ الطبري ٣٦٣/٢ .

١٤٠ - المصدر السابق ٣٥٧/٢ - ٣٦٠ .

١٤١ - طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية - بيروت) جـ٣ ، ص ٤١ ، ١١٢ ، ٢٩٢ .

١٤٢ - سيرة ابن هشام ٦٢٠/١ - ٦٢١ ؛ وتاريخ الطبري ٤٤٠/٢ .

١٤٣ - سيرة ابن هشام ٦٣٣/١ .

١٤٤ - تاريخ الطبرى ١٩/٣ .

١٤٥ - المصدر السابق ، ٣ /٢٠ .

١٤٦ - طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) ٤ / ٢٨ .

١٤٧ - سيرة ابن هشام ٣٨٢/٢ - ٣٨٣ .

١٤٨ - المصدر السابق ٣٨٠/٢ - ٣٨١ .

١٤٩ - السابق ٤٠٥/٢ .

١٥٠ - السابق ٢ / ٤٠٨ .

١٥١ - السابق ٢ / ٤٤٦ - ٤٤٧ .

١٥٢ - تاريخ الطبرى ٢١٧/٣ .

١٥٣ - طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) ، جـ٨ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

١٥٤ - تاريخ الطبرى ٢٦٥/٣ (أحداث سنة ١١هـ) .

١٥٥ - المصدر السابق ٣ / ٣٣٩ (أحداث سنة ١١ هـ) .

١٥٦ - السابق ٣٨٧/٣ - ٣٨٨ (أحداث سنة ١٣ هـ) .

١٥٧ - تاريخ الطبرى ٣ / ٤٥٩ .

١٥٨ - المصدر السابق ٥٧٥/٣ (أحداث سنة ١٤ هـ) .

١٥٩ - السابق ٤٢٣/٤ .

١٦٠ - السابق ١٩٢/٦ - ١٩٣ .

* - راجع (المغازى الأولى ومؤلفوها) ليوسف هوروفتس (ط. مصطفى الحلبى ١٩٤٩م من الترجمة العربية لحسين نصار) ص ٤٢ - ٤٤ .

١٦١ - راجع - مثلاً - روايات فى أحداث سنتى ٧ ، ٨ هـ فى (تاريخ الطبرى جـ٣ ، ص ١٠ ، ٢٠ ، ٢٢ ، وغيرها) .

١٦٢ - راجع الأشعار الواردة فى : سيرة ابن هشام ٣٧٧/٢ ، ٤٠٨ ؛ وتاريخ الطبرى ٢٦٥/٣ .

١٦٣ - سيرة ابن هشام ٥٩٤/٢ - ٥٩٦ ، وتاريخ الطبرى ١٢٨/٣ - ١٢٩ (وأضاف ص ١٣٠ قول الواقدى : توفى رسول الله وعمرو بن حزم عامله بنجران) .

١٦٤ - مثل قوله (تعالى) : [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ] . (سورة الأنفال : ٨ / الآية التاسعة) .

١٦٥ - مثل : حديث رفاعة بن رافع قال : جاء جبريل إلى النبى ، فقال : " ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال: من أفضل المسلمين (أو كلمة نحوها) . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة " . (صحيح

البخاري ، كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدراً) جـ٥ ، ص ١٩٣ (رقم ٤٠) . وفي حديث ابن عباس أن النبي قال يوم بدر : " هذا جبريل أخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب " . (المصدر السابق ، الكتاب ، والباب نفسهما ، جـ٥ ، ص ١٩٣ (رقم ٤٣) .

١٦٦ - تاريخ الطبري ٢/٦٥٥ - ٦٥٦ (وعند الواقدي - فيما ينقل الطبري عنه - قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع لست ساعات مضت منها) .

١٦٧ - روى محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر : أنه دخل عليه ، فقال عبد الله لامرأته فاطمة : حدثي محمداً ما سمعت من عمرة بنت عبد الرحمن . فقالت : سمعت عمرة تقول : سمعت عائشة تقول: دُفن نبي الله ليلة الأربعاء ، وما علمنا به حتى سمعنا صوت المساحي " (المصدر السابق / ٣/٢١٧) . والمساحي : جمع مسحاة ، وهي المجرفة من الحديد . والميم زائدة ؛ لأنه من السَّحْوِ بمعنى : الكشف والإزالة . (لسان العرب لابن منظور ، ط. دار المعارف بالقاهرة ، مادة : س . ح . و) جـ٣ ، ص ١٩٦١ .

١٦٨ - من المسلمين : سلمة بن الميلاء (من جهينة) ، ومن المشركين حوالي اثنى عشر ، أو ثلاثة عشر رجلاً . (سيرة ابن هشام ٢/٤٠٨) .

١٦٩ - قد يُحجم عبد الله بن أبي بكر عن ذكر معلومة يعرفها لسبب ما . مثال ذلك : رجلان من بني ساعدة خالفا توجيهات النبي عند العودة من (تبوك) ، ولم يخرجا معاً في الليلة التي أمر فيها النبي بعدم خروج أحدهم إلا ومعه صاحب له . ذكر ابن إسحاق أن هذه الرواية رواها عن عبد الله بن أبي بكر، عن عباس بن سهل بن سعد الساعدي . وذكر عبد الله لابن إسحاق أن عباساً سمى له الرجلين ، لكنه استودعه إياهما (استأمنه على اسميهما) ، فأبى عبد الله أن يسميهما لابن إسحاق . (المصدر السابق ٢/٥٢١ - ٥٢٢) .

١٧٠ - كان الصبيان يشتدون في مطاردة الجيش العائد من مؤتة ، والناس يحثون عليهم التراب ، ويصيحون بهم : يا فرار ، فررتم في سبيل الله ! فيدافع الرسول عنهم بقوله : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار ، إن شاء الله (تعالى). (السابق ٢/٣٨٢ - ٣٨٣) .

١٧١ - قال عمر لهم : " لا تجزعوا يا معشر المسلمين ، أنا فئتكم ، وإنما انحزتم إليَّ ؟ (تاريخ الطبري ٣/٤٥٩) .

١٧٢ - قال الرسول للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي (يعني : المسلمين) . (سيرة ابن هشام ١/٤٤٦) .

١٧٣ - طبقات ابن سعد (ط. دار الكتب العلمية) جـ٣ ، ص ١١٢ .

١٧٤ - المصدر السابق ٣/٤١ .

١٧٥ - سيرة ابن هشام ٢ / ٣٨٠ - ٣٨١ .

١٧٦ - المصدر السابق ٢/٤٠٥ . والعثنون : ما نبت على الذقن ، وتحته سُفلاً ، والجمع : عثانين . (المعجم الوسيط ، ط. مجمع اللغة العربية ، مادة : ع . ث . ن) جـ٢ ، ص ٦٠٥ . واللقن : مجمع

اللحيين من أسلفهما . واللحيان : العظمان اللذان فيهما الأسنان . (المرجع السابق : مادة : ل . ح . ى) ٨٥٣/٢ .

١٧٧ - تاريخ الطبرى ١٩٢/٦ . وقد عاصر عبد الله بن أبى بكر هذه الحادثة . ولعله رأى رءوس عبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن صفوان ، وعُمارة بن عمرو بن حزم ، وهى معلقة بالمدينة قبل أن تُرسل إلى عبد الملك بن مروان .

١٧٨ - المصدر السابق ٢ / ٣٨٦ - ٣٨٧ .

١٧٩ - سيرة ابن هشام ٤٤٦/١ .

١٨٠ - المصدر السابق ١ / ٤٤١ .

قوائم المصادر والمراجع(*)

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس : العهد القديم (التكوين) . طبعة كتاب الحياة (ترجمة تفسيرية) ، د.ت.

أولاً : المصادر :

- ابن الأثير (عز الدين على بن محمد الجزرى ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، مطبوعات دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٠م ، تحقيق ، وتعليق : محمد إبراهيم البنا ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمود عبد الوهاب فايد .
- البخارى (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩م) : التاريخ الكبير : الطبعة الأولى ، مطبعة : دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٦١هـ . عنى بتصحيحه ، وتعليق حواشيه : الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليمانى .
- صحيح البخارى: طبعة عالم الكتب – بيروت ١٩٨٥م.
- ابن أبى حاتم (عبد الرحمن الرازى ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨م) : الجرح والتعديل : الطبعة الأولى ، مطبعة : مجلس دائرة المعارف العثمانية – الهند ١٣٧١هـ /١٩٥٢م .
- حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله القسطنطينى ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٨م) : كشف الظنون من أسامى الكتب والفنون : طبعة : دار الفكر – بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ابن حبان (محمد بن حبان بن أحمد البستى ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٥م) : الثقات : الطبعة الأولى . مطبعة : مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٩٧٣ – ١٩٨٣م.
- ابن حجر (أحمد بن على بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) : الإصابة فى تمييز الصحابة : الطبعة الأولى . دار الجيل – بيروت ١٩٩٢م . تحقيق ، وفهرسة على محمد البجاوى .

---

* – تم وضع القرآن الكريم على قمة المصادر المستخدمة فى هذا البحث وبعده الكتاب المقدس ، ثم رتبت المصادر وفق لقب المؤلف (أو اسمه المشهور) مع مراعاة الترتيب الهجائى ، وعدم اعتبار الزوائد من أمثال : (ابن – ابنة – أب – أم – ال) . أما المراجع فرتبت ترتيباً هجائياً راعى الاسم الأول ، فالثانى، وهكذا .

- تقريب التهذيب : دار المعرفة - بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م . حققه ، وعلق حواشيه ، وقدم له : عبد الوهاب عبد اللطيف .
- تهذيب التهذيب : الطبعة الأولى ، دار الفكر - بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى : طبع ، ونشر : المكتبة السلفية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م . ترقيم ، وترتيب ، ومراجعة : محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب ، وقصى محب الدين الخطيب .
- ابن حنبل (أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥م) : الزهد : طبع ، ونشر : دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٧٦م.
- الخطيب البغدادى (أبو بكر أحمد بن على بن ثابت البغدادى ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠م) : تقييد العلم : الطبعة الثانية . نشر : دار إحياء السنة النبوية ١٩٧٤م ، تحقيق ، وتعليق : يوسف العش .
- ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأبناء الزمان : دار صادر - بيروت ، د.ت : تحقيق : د. إحسان عباس .
- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م) : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (التاريخ الكبير) : مطبعة المدنى ، ومطبعة القدس ، القاهرة ، د.ت . عنى بتحقيق النص ، وتحرير الحواشى : حسام الدين القدسى .
- وتوجد طبعة أخرى فى مجلد واحد بعنوان (المغازى) . الطبعة الأولى . الناشرون : دار الكتب الإسلامية ، ودار الكتاب المصرى بالقاهرة ، ودار الكتاب اللبنانى ببيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م. ، تحقيق وتقديم وفهرسة : محمد محمود حمدان .
- سير أعلام النبلاء : الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٥م ، أشرف على تحقيق الكتاب ، وخرج أحاديثه : شعيب الأرنؤوط .
- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال : الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة (عيسى الحلبى) ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م . تحقيق : على محمد البجاوى .

– الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب القرشى الأسدى (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩م) : جمهرة نسب قريش وأخبارها . مطبعة : المدنى ١٣٨١هـ . شرح ، وتحقيق : محمود محمد شاكر .

– السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ : الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة (نشره : فرانز روزنتال) ١٩٨٣م . ترجمة دكتور صالح أحمد العلى .

– ابن سعد (محمد بن سعد كاتب الواقدى ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤م) : الطبقات الكبرى : طبعة دار صادر – بيروت ، د.ت. وتوجد طبعة أخرى نشر : دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٠م . دراسة ، وتحقيق : محمد عبد القادر عطا .

– الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) : الوافى بالوفيات : الطبعة الثانية . دار النشر : فرانز شتاينر – فيسبادن بألمانيا ١٣٨٠هـ / ١٩٦٢م باعتناء : هلموت ريتر .

– الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) : تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) : الطبعة الخامسة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

– ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبى ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) : الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء : طبع ، ونشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، د.ت .

– عروة بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى (ت ٩٤ هـ / ٧١٢م) : مغازى رسول الله : الطبعة الأولى . منشورات : مكتب التربية العربى لدول الخليج – الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م . نسخة مستخرجة جمعها ، وحققها ، وقدم لها : دكتور محمد مصطفى الأعظمى .

– الفسوى (أبو يوسف يعقوب بن سفيان ت ٢٧٧هـ / ٨٩٠م) : المعرفة والتاريخ : مطبعة الإرشاد – بغداد ١٩٧٤م ، تحقيق : دكتور أكرم ضياء العمرى .

– ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : البداية والنهاية : نشر : مكتبة المعارف – بيروت ١٩٦٦م .

- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ / ١٣١١م) : لسان العرب : طبعة دار المعارف بالقاهرة ، د.ت ، تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف

- ابن هشام (عبد الملك بن هشام البصرى ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ هـ) : السيرة النبوية : الطبعة الثانية - مصطفى الحلبى ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . تحقيق ، وضبط ، وشرح ، وفهرسة : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .

- الواقدى (محمد بن عمر بن واقد الواقدى ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢م) : المغازى : الطبعة الثالثة ، عالم الكتب - بيروت ١٩٨٤م ، تحقيق : مارسدن جونس .

- ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) : معجم البلدان : الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٠م . تحقيق : فريد عبد العزيز الجندى .

ثانياً : المراجع :

- أمال محمد عبد الرحمن ربيع : الإسرائيليات فى تفسير الطبرى - دراسة فى اللغة والمصادر العبرية . طبعة : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

- شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون . الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩م.

- عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح : معالم الثقافة الإسلامية فى القرنين الأولين من الهجرة ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٢م.

- فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى . طبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م ، نقله إلى العربية : محمود فهمى حجازى ، فهمى أبو الفضل .

- نخبة من العاملين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط . الطبعة الثالثة ، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥م.

- يوسف هورفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها . الطبعة الأولى ، مطبعة : مصطفى الحلبى ١٩٤٩م ، ترجمة : حسين نصار .

د. صلاح خليل إبراهيم سلام (*)

ابن دحية حلقة وصل بين المشرق والمغرب فى المجال الثقافى

أما بعد .. فإن لشخصية ابن دحية مكانة عظيمة ، فهو من أقطاب علماء العالم الإسلامى فى العصور الوسطى الذين سطع نجمهم واتسعت شهرتهم وسخروا جهودهم لنشر الثقافة الإسلامية ، ووقفوا حياتهم على طلب العلم وتدريسه فى مختلف بلاد العالم الإسلامى [1].

وبعد ، ستكون هذه الدراسة التى تصحب فيها ابن دحية الذى برع فى معظم فنون العلم والمعرفة ، تشهد بذلك كتب التراجم التى حفلت بالحديث عن حياته واجتهاده ، كما يشهد هذا التراث الذى تذخر به المكتبة الإسلامية ، والذى يعطى للقارئ بعض الضوء عن ابن دحية ودوره فى مجالات الحديث وأصول الفقه والأدب . وستكون هذه الصحبة فى عدة محاور :

الأول : الحالة السياسية والثقافية فى عصر ابن دحية .

الثانى : التعريف بابن دحية .

* - مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة حلوان .

الثالث : شيوخه الذين تلقى عليهم العلم .

الرابع : الأستاذ والمعلم .

الخامس : إحصاء لمؤلفاته .

السادس : حمل المغاربة وأهل المشرق لعلم ابن دحية .

أولاً : الحالة السياسية والثقافية في عصر ابن دحية :

ومن المفيد قبل أن نبدأ الحديث عن ابن دحية أن نلقى بعض الضوء على العصر الذى عاش فيه . فقد شهدت الفترة من العقد الخامس من القرن السادس الهجرى الذى ولد فيه ابن دحية إلى أن توفى فى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى كثيراً من الصراعات والتحولات السياسية والفكرية والعقائدية (٢). ونحن لن نؤرخ للعصر الذى عاش فيه ابن دحية تأريخاً بمعناه المنهجى المعروف ، وإنما سنعمد إلى إبراز ما نراه من أحداث كان لها أثرها فى تكوين شخصية ابن دحية سواء كانت سياسية أو فكرية أو عقائدية .

ومن هذه الظواهر المؤثرة : أن بداية هذا العصر صادف انهيار وسقوط دولة المرابطين، ووافق ذلك قيام دولة الموحدين فى حكم بلاد المغرب والأندلس (٣)، وقد أنشأ هذه الدولة الفقيه محمد بن تومرت الهرغى المصمودى مهدى الموحدين الذى رحل إلى المشرق وتتلمذ فيه على الأشعرية وغيرهم (٤)، ورجع مع أصحابه نحو مسقط رأسه بالمغرب الأقصى ، وقد سجل البيذق تفاصيل هذه الرحلة ، وسجل أحداثها صغيرة وكبيرة ، وكان ابن تومرت وهو فى طريقه يجد فى تغيير المنكر مركزاً على عيبين أخلاقيين يبدو أنهما كانا متفشيين بالمغرب : اختلاط الرجال بالنساء ، ومعاقرة الخمر(٥) وما يصاحبها من اللهو والطرب (٦).

ويبدو أن مواعظ ابن تومرت كانت تلقى أحياناً بعض التأييد الشعبى ، كما كان احتكاكه بالحكام فى كل من الأسكندرية والمهدية وبجاية ومراكش وأغمات قد عمق فى نفس ابن تومرت فكرة الثورة والتغيير الشامل ، وقد عبر عنها بوضوح حينما " خلع مبايعة على بن يوسف عن أعناق تابعيه وأصحابه ، وأعلن للجميع بخلعه " (٧). فنظم ثورة واسعة ضد دولة المرابطين وفقهائهم المالكية وتبعه كثيرون ، وكان الهدف الذى يريد تحقيقه واضحاً أمامه وهو جعل هذا المجتمع يعيش الإسلام الصحيح : عقيدة تقوم على التوحيد الخالص الذى ينتفى معه كل مظهر للشرك والتشبيه ، وسلوك فردى واجتماعى يخضع لأوامر الشرع ونواهيه، وحكم

عادل يسهر على تطبيق الشرع وتحقيق مصالح الرعية ، وكان الطريق إلى هذا الهدف واضحاً: عمل سياسى لتنظيم أصحابه وإحكام أعدادهم وضمان المناصرين له والمنتمين إليه ، وعمل عسكري للقضاء على السلطة المرابطية الحائلة دون هدفه ، وعمل تربوى لبث أفكاره . وشرع ابن تومرت فى ترويج فكرة المهدية حيث لم تكن أمراً غريبًا على أهل السوس موطن ابن تومرت فقد ألفوها من الدعوة الشيعية التى وصلت إلى أطراف المغرب ، خاصة وقد كانت تروج بالمغرب بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ ، تتنبأ بظهور المهدى المنتظر فى بلاد المغرب ، وقد ساهم هذا العامل الدينى فضلاً عن العامل الفكرى فى تدعيم دعوة المهدية [٨] .

وتم الإعلان عن المهدية فى موكب مشهود حضره كافة الأتباع الذين بايعوا ابن تومرت على أنه المهدى وأن يكونوا يداً واحدة على القتال والدفاع وتم ذلك فى شهر رمضان سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م[٩] ، وعمد المهدى إلى الطعن فى المرابطين وبيان أنهم أهل الباطل ، وهم مفسدون فى الأرض ، وإمعاناً فى تحقير المرابطين اصطنع لهم ألقاباً مشينة مثل " الزراجنة " تشبيهًا بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجان ، لأنهم بيض الثياب سود القلوب ، ومثل " الحشم " لتلثمهم كما يتلثم الحشم ، وكان اللقب الذى صار أكثر انتشاراً هو "المجسمون" فهم غير مخلصين لحقيقة التوحيد ، بما يخالط تصورهم من تشبيه وتجسيم للذات الإلهية [١٠] .

وعندما وثق ابن تومرت من تأثير دعوته فى النفوس وامتناع الناس بها انتقل إلى المرحلة التالية فإذا هو يعلن أن جهاد الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر . ويذكر المراكشى[١١] أن المهدى قد أوصى أصحابه عندما بعثهم إلى المرابطين قوله : " اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين ، الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى أماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم فى الدين ، لكم ما لهم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا ، فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم " ولما لم يجبه المرابطون إلى دعوته إذ يعتبرون أنفسهم على الحق ويعتبرونه على الباطل ، جعل يغزوهم ابتداء من سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م[١٢] .

وبدأ منازلة المرابطين سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م ، غير أن ابن تومرت توفى سريعاً فخلفه عبد المؤمن بن على " ٥٢٤ - ٥٥٨هـ " وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة ، وقد استطاع القضاء على دولة المرابطين وفتح مراكش سنة ٥٤١هـ ، وأصبح عبد المؤمن بعد فتحها سيد

المغرب كله ، إذ أن المدن والقبائل فى المغرب كله حتى طنجة وسبتة سارعت إلى الدخول فى طاعة الموحدين (١٣).

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن عبد المؤمن بن على بدأ يوجه أنظاره شمالاً عبر مضيق جبل طارق نحو الأندلس ، ولم يلق صعوبة فى ضم الأجزاء الغربية من الأندلس إذ سارع أمراء هذه المناطق بإعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين ، وكانت ولاية شريش فى طليعة هذه الولايات ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، ولذا سمى أهلها بالسابقين الأولين ، كذلك انضم إلى الموحدين فى السنة التالية على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين الذى كان قد استقل بمدينة قادس ، كذلك انضمت أشبيلية إلى الموحدين وسافر وفد من أعيانها برئاسة القائد أبى بكر ابن العربى إلى مراكش لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن على . أما الإقليم الشرقى من الأندلس فقد عارض أمراؤه فكرة الوحدة مع المغرب ومثال ذلك مدينة المرية التى استقل بها أهلها إلى أن سقطت سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م فى يد ملك قشتالة وليون ألفونسو السابع الملقب بالسليطين ، وتمكنت جيوش الموحدين من استعادة المرية سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م(١٤).

وما يقال عن المرية يقال أيضًا عن الجزر الشرقية (البليار) التى استقل بها محمد بن غانية وأولاده من بعده ، ولم تخضع هذه الجزر لسلطان الموحدين إلا فى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م أيام الخليفة الناصر . كذلك استقل بشرق الأندلس محمد بن سعد بن مردنيش ، وقد أساء إلى رعيته ، يؤيد ذلك ابن الخطيب عندما ذكر أن المغارم عظمت فى بلاده التى شملت على حد قوله (مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية ، ثم اتسع نطاق ملكه فولى جيان " ابده وبياسة " وبسطة ووادى أش وملك قرمونة ونازل قرطبة واشبيلية ، وكاد يستولى على جميع بلاد الأندلس ، فولى صهره ابن همشك مدينة جيان وأبدة وبياسة وضيق منها على قرطبة . واستولى على استجة ، ودخل غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة وثار عليه يوسف بن هلال من أصهاره) (١٥).

أما عمال ابن مردنيش فقد ظلموا الرعية وأثقلوا كاهل أهل هذه البلاد بكثير من الضرائب. وتشير النصوص إلى أن ابن مردنيش أمر بمصادرة أموال كل من يترك بلده أمام الغزو وتؤول هذه الأموال إلى المخزن . ثم أخذ أمر ابن مردنيش فى الإدبار حيث هزم أمام قوات الموحدين فى موقعة فحص الجلاب سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م وسقط عدد كبير من الحصون التابعة له فى أيدى الموحدين . وقد عقد الموحدون العزم على ضم شرق الأندلس إلى بقية

الأندلس ، وكان انفصال ابن همشك عنه حيث توجه ابن همشك إلى قرطبة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م فاستقبله واليها السيد أبو إسحق إبراهيم استقبالاً حافلاً وهناك أعلن ابن همشك الدخول في طاعة الموحدين (١٦).

ومن ثم بدأ سلطان ابن مردنيش يضمحل بخروج قادته وكبار رجال دولته عليه وانضمامهم إلى الموحدين ، وانتهز الموحدون هذه الفرصة للقضاء على ابن مردنيش وبدأوا فى تنفيذ خططهم سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م وشارك ابن همشك فى ذلك . ولما أيقن ابن مردنيش بقرب نهايته اشتد عليه المرض فلم يلبث أن توفى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م وتكتم أقاربه خبر وفاته وتشاوروا معًا واتفق الجميع على أن يعلنوا طاعتهم لخليفة الموحدين أبى يعقوب يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠هـ) (١٧).

ويستشف من خلال النصوص أن أبا الحجاج يوسف بن مردنيش كان حاكمًا على شرق الأندلس بموافقة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، ولكن يبدو أنه كان تحت نظر أبى حفص عمر حتى وفاته ، واستمر واليًا على بلنسية ودانية وشاطبة تحت إشراف السيد أبى عبد الله والى شرق الأندلس . وفى سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م ولى الخليفة الناصر السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور على شرق الأندلس حتى سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م(١٨).

ومهما يكن من أمر فإن الموحدين قد عبأوا كل دعاتهم وأنصارهم للقيام بالدعاية اللازمة للخلافة الموحدية فى العالم الإسلامى ، ففى كتاب البيذق نجد بابًا عن أصحاب المهدى المقيمين في مصر وقد بلغ عددهم ٥١ رجلاً ذكر المؤلف أسمائهم واحداً واحداً ثم قال " بأنهم كانوا للمهدى بمثابة أعضائه وجسده سامعين لقوله ، مجيبين لأوامره مؤمنين بدعوته " . ويدل هذا على أن المهدى كان له أنصاره ودعاته الذين عملوا على نشر دعوته فى مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامى (١٩). وفى كتاب نظم الجمان لابن القطان يذكر مساوئ الخلافة الفاطمية ويصور محاسن الخلافة الموحدية ، ويذكر أن الأخيرة هى الأجدر بحكم العالم الإسلامى . أما ابن جبير فقد طاف بأنحاء المشرق الإسلامى وقال بأن المصريين كانوا يترقبون مجئ الموحدين لدرجة أن بعض فقهائهم قد أعد خطبًا مناسبة لإلقائها بين يدى الخليفة الموحدى عند قدومه(٢٠).

واستمرت فكرة الوحدة الإسلامية مسيطرة على فكر خلفاء الموحدين ولاسيما فى عهد الخليفة يعقوب المنصور الذى ينسب إليه المراكشى تصريحات تدل على رغبته فى الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه (٢١).

وتنبغى الإشارة هنا إلى أن ابن دحية قد عاصر أواخر الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م فى مصر والشام ، ويبدو أن صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية قد حاول توثيق علاقته بالموحدين رغم تبعيته للخلافة العباسية ، فأرسل سفيراً من قبله وهو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، ومهما يكن من أمر هذه السفارة فإن صلاح الدين لم يلقب يعقوب المنصور بلقب أمير المؤمنين فى الخطاب الذى أرسله إليه مع ابن منقذ على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية معناه الاعتراف بصدق العقيدة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الخلاف السياسى بين الأيوبيين والموحدين لم يحل دون تنقل الطلاب والعلماء بين المشرق والمغرب ، وكان ابن دحية من بين هؤلاء العلماء الذين ظهروا فى عصر الدولة الأيوبية خاصة زمن الملك الكامل (٢٢).

أما الخلافة العباسية فقد ضعفت بسبب تفاقم سلطان بنى بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين قرابة قرن ، وكان بنو بويه قد اعتنقوا الإسلام على المذهب الشيعى وتعصبوا له حتى أنهم أرغموا أهل السنة على الاشتراك فى أعياد الشيعة ، وإزاء ذلك طلبت الخلافة العباسية مساعدة الأتراك السلاجقة السنيين فزحف تغرلبك إلى بغداد سنة ٤٤٧هـ فحل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة العباسية . على أن عصر السلاجقة العظام قد أفل بموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وتقاسم ملك السلاجقة دول كثيرة تعرف بدول الأتابكة ، ومن دول الأتابكة أتابكة دمشق وأتابكيات الموصل والجزيرة وسوريا وأذربيجان وفارس مما مهد السبيل لاسترداد بعض الخلفاء العباسيين بعض ماكان لهم من سلطان وأتاح الفرصة للصليبيين لشن حروبهم على البلاد الإسلامية كما مهد السبيل للمغول لاجتياح بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق وسقطت عاصمة الخلافة فى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م(٢٣).

أما فى الأندلس والمغرب فإن الدولة الموحدية كانت فى آخر عهدها آيلة إلى السقوط والضعف وبلغت حركة الاسترداد النصرانية أشدها وكانت تنتقص من بلاد الأندلس حصناً بعد حصن ، ومدينة إثر مدينة ، والخارجون على الدولة من المتمردين بدأوا يطلون برؤوسهم فى بداية القرن السابع الهجرى (٢٤). ومصر والشام كانت لا تقل عن بلاد الأندلس والمغرب وبغداد من حيث التمزق السياسى ، فالصراع قائم على أشده بين أبناء صلاح الدين الأيوبى منذ أن توفى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م وبين أبنائه وعمهم العادل وبين أبناء العادل بعده وأبناء

صلاح الدين (٢٥). هذه لمحة خاطفة تبين الحالة السياسية فى عصر ابن دحية وما ساده من هدوء واضطراب ، ولا شك أن هذا كله كان له تأثير نفسى على ابن دحية فقد رحل مع والده من الأندلس إلى المغرب وتنقل بعد ذلك بين البلدين ورحل إلى معظم دول العالم الإسلامى حسبما سنذكره فى موضعه .

أما من الناحية الفكرية فإن الدولة الموحدية التى امتدت من الأندلس شمالاً إلى قلب الصحراء جنوبًا ومن المحيط الأطلنطى غربًا إلى طرابلس شرقًا فقد شهدت العلوم والفنون والعمارات فى عهدها ازدهاراً مشهوداً ، وقد شغف أمراء هذه الدولة بالعلم وأول هؤلاء عبد المؤمن بن على فقد اهتم بالعلم منذ الصغر ، وكان " فقيهًا عالمًا بالجدل والأصول ، حافظًا لحديث النبى ﷺ ، مشاركًا فى علوم كثيرة الدينية والدنيوية ، وعلوم النجوم ، واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات " (٢٦). كما كان عبد المؤمن مشجعًا على العلم عاملاً على نشره بين الناس وخاصة الصبيان يؤيد ذلك رواية لإبن القطان إذ يقول : " ومن مكارمه العظيمة رضى الله عنه حضه الناس على العلم ، وارادته لهم ولبنيهم ما يريده لنفسه ولبنيه ، واستدعاؤه الصبيان الصغار من أبناء إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان إلى حضرته العلية ليعلمهم ويحفظهم القرآن ، وحديث النبى ﷺ " (٢٧).

ومما تجدر الإشارة به هنا أن الشيخ العالم أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء كان مدرسًا وأستاذاً لأبناء عبد المؤمن بن على فى مراكش وذلك حوالى سنة ٥٤٠هـ ودولة الموحدين فى إقبالها ، وعرف قدره ومكانته من العلم أبو يعقوب بن عبد المؤمن فقربه إليه وكان هذا العالم أستاذاً لابن دحية مما يشير إلى انتقال ابن دحية إلى المغرب فى سن مبكرة وتلقيه العلم فى حضرة مراكش ضمن من استدعاهم الخليفة الموحدى (٢٨).

ومما لا شك فيه أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (ت ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م) لم يكن أقل من أبيه علمًا واحترامًا للعلماء ، وأكثر اهتمامه كان بالقرآن والحديث (٢٩). ولما جاء أبو يوسف يعقوب المنصور واصل نفس السياسة التى انتهجها أبوه وجده ، ومن مظاهر ذلك أنه استدعى العلماء ورواة الحديث من مختلف الأمصار وأمرهم بتدريس حديث الرسول ﷺ ، كما ازدهرت دراسة الأصول وممن اشتهر فى تفسير القرآن وعلومه أبو الحسن على بن أحمد بن الحسن الحرانى (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ، وكان يلقى فى التعليم قوانين تتنزل فى علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام ، وعلى تلك القوانين وضع كتابه المسمى " مفتاح الباب المقفل على

فهم القرآن المنزل » (٣٠). كما اشتهر في الحديث وعلومه كثير من العلماء، ومن هؤلاء : أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي ، وكان هو وأخوه أبو عمرو (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣١م) من العلماء المتفقهين على طريقة التأصيل إذ يذكر ابن خلكان أنهما كانا مجتهدين ينتهجان منهج استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع (٣١).

ومما تجدر ملاحظته أن المذهب الظاهرى وجد فى عهد الموحدين مجالاً للازدهار بالإندلس وللظهور فى المغرب وهو ما لم يحدث فى العهد المرابطى وكان هذا التقارب بين الموحدين والظاهرية عنصراً منشطاً لحركة الحوار بين منهج الفروع والتقليد ، وبين منهج الاجتهاد والتأصيل .

من المعروف أن الدولة الأيوبية كانت دولة إسلامية ، وقد تميز العصر الأيوبى بطابع الجهاد والكفاح ضد الصليبيين ، ومن ثم انعكست تلك الصورة فى نفس الشعراء والكتاب فى جميع أنحاء الشرق العربى ، فانطلقت ألسنتهم وأقلامهم تشيد بأعمال البطولة وتمدح أبطال الدولة الأيوبية المدافعين عن الإسلام . وكان صلاح الدين الأيوبى ملماً بأحكام الشريعة وأصولها وله مساجلات مع الفقهاء والعلماء ، وكان يتذوق الشعر . وما يقال عن صلاح الدين يقال عن أخيه العادل الذى كان يميل إلى العلم والعلماء ، ونخص منهم العالم الفيلسوف فخر الدين الرازى الذى صنف له بعض كتبه وأرسلها له من خراسان . وكان الملك المؤيد مسعود ابن صلاح الدين حاكم اليمن مغرماً باقتناء الكتب ، كذلك الملك عيسى بن العادل صاحب دمشق الذى وهب لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعة ، كما أنه طلب من الأديب الفارسى قوام الدين الفتح بن محمد البندارى الأصفهانى ترجمة كتاب " الشهنامة" لأبى القاسم الفردوسى (والشهنامة ملحمة شعرية فارسية تقص أخبار ملوك الفرس القدماء وأساطيرهم حتى الفتح العربى) . وهذه النهضة العلمية والأدبية كان لها مراكز حضارية يشع منها نور العلم والمعرفة مثل مجالس الملوك والمدارس التى أنشأها صلاح الدين فى مصر وخارجها فى كل من القدس ودمشق ، ونذكر المدرسة الكاملية التى بناها الكامل محمد بن العادل فى القاهرة بين القصرين ، وكانت تسمى أيضاً بدار الحديث الكاملية وكان شيخها زمن الملك الكامل العالم أبا الخطاب عمر بن دحية (٣٢).

وهكذا يمكن القول أن هذا العصر كان عصر ازدهرت فيه مختلف فروع العلم ، وأن هذا العصر الذى عاش فيه ابن دحية برز فيه كثير من العلماء فى فروع العلم نذكر منهم أبو بكر

محمد ابن زهر الذى برع فى الطب واللغة " ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م" (٣٣)، وعبد الله بن يوسف بن محمد البغدادى وكان عالمًا بالطب " ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م" (٣٤). وظهر فى هذا العصر فقهاء ولغويين كباراً نذكر منهم الفرج بن الجوزى والإمام الفخر الرازى الذى يعتبر مجدد علم الكلام فى القرنين السادس والسابع " ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م " ، وابن الحاجب المتوفى " سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م" وما قام به من جهود فى النحو والفقه والأصول ، وغير هؤلاء كثير لم نذكرهم لأننا نمثل ولا نستقصى (٣٥). ويمكن القول من خلال النصوص التاريخية أن هذا العصر من الناحية الثقافية كان مزيجًا من المنحنيات العقائدية والفكرية ، فقد برزت ظواهر طائفية من شيعة وذميين أدت إلى صراع فكرى ومادى(٣٦).

ثانيًا : التعريف بابن دحية :

١ - اسمه ونسبه :

يعطينا ابن خلكان شجرة نسب ابن دحية تفصيلاً إذ يقول : هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن محمد الجميل بن فرح بن خلف بن قومس بن مزلال بن بدر بن أحمد بن دحية بن خليفة بن فروة الكلبى ، المعروف بذى النسبين ، الأندلسى ، البلنسى ، الحافظ(٣٧).

وهذه الرواية فى النسب لابن خلكان تختلف فى نقطتين مع ثلاث روايات أخرى فى النسب، الأولى للأوسى المراكشى ، والثانية لابن العماد ، والثالثة للغبرينى . أما الأوسى المراكشى فهى فى ترتيب النسب وتحقيقه ، فهو يذكر : " عمر بن حسن بن على بن محمد بن فرج بن خلف بن قومس بن مزلال بن ملال بن بدر بن أحمد بن دحية الكلبى " ، مما يوضح اختلاف اسم فرح كما هو فى رواية ابن خلكان أما فى رواية الأوسى فيذكر فرج بن خلف بدلاً من فرح ، كذلك يختلف عن ترتيب ابن خلكان والذى ذكر اسم دحية بن خليفة بن فروة الكلبى. ويبدو أن الأمر اختلط على الأوسى المراكشى الذى يذكر أيضًا كما يذكر ابن خلكان أنه قد نقل نسبه على هذه الصورة من خطه(٣٨).

ويذكر ابن العماد : " أبو الخطاب عمر بن حسن بن محمد الجميل بن فرج بن خلف الكلبى الدانى " . ونقطة الخلاف الأولى هى فى النسب بعد " عمر بن حسن بن محمد " ، ونقطة الخلاف الثانية هى فى اسم فرج بن خلف كما ذكرها الأوسى المراكشى(٣٩). أما الغبرينى فيذكر " أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحية الكلبى " مختصراً نسبه (٤٠).

ومن هذه النصوص يتضح مدى الخلاف فى الترتيب والأسماء . مما يجعلنا نظراً لهذا الخلاف نميل إلى تفضيل النسب إلى ابن خلكان حيث نقل هذا النسب وقيده وضبطه من خط يد ابن دحية (٤١).

وذكر نسبه إلى " دِحْيَة الكَلْبِي " صاحب رسول الله ﷺ وسفيره إلى قيصر الروم(٤٢) ، كما يرفع نسبه إلى أمه أمة الرحمن بنت أبى عبد الله بن أبى البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فهو ذو النسبين (٤٣).

أما نسبه إلى ابن دحية فقد اختلف المؤرخون فى ذلك فابن العماد ينفى نسبه إلى دحية حين ترجم له (٤٤)، ولم يخرج صاحب " تذكرة الحفاظ " عن ذلك (٤٥)، وقد علق ابن حجر العسقلانى بعد ما ساق نسبه ... إذ يقول : فهذا نسب باطل بوجوه .. أحدهما : أن دحية لم يُعقب . الثانى : أن على هؤلاء لوائح البربرية . وثالثها : بتقدير وجود ذلك ، قد سقط منه آباء ، فلا يمكن بينه وبينه عشرة أنفس (٤٦). غير أن فريقًا آخر من المؤرخين يؤكد صحة نسب أبو الخطاب عمر ابن الحسن إلى دحية الكلبى ومن هؤلاء ابن خلكان ، وابن الزبير(٤٧)، وابن كثير (٤٨)، والمقرى (٤٩).

٢ – مولده ووفاته :

ولد أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية كما يذكر المقرى فى ذى القعدة سنة سبع – أو ثمان وأربعين وخمسمائة (٥٠)، ويقول ابن خلكان : وكانت ولادته فى مستهل ذى القعدة سنة أربع – أو ثمان – وأربعين وخمسمائة ، كما يذكر أن ابن أخى ابن دحية قال : " سمعت عمى أبا الخطاب غير مرة يقول : ولدت فى مستهل سنة ست وأربعين وخمسمائة " (٥١). وكذلك يذكر ابن كثير بل ذكر أيضًا نقلاً عن ابن خلكان أنه ولد سنة ست أو تسع وأربعين وخمسمائة(٥٢).

ورغم اختلاف النصوص فى تحديد زمان مولد ابن دحية ، إلا أن النصوص تحدد لنا بصورة جازمة سنة وفاته فقد كانت فى يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عن سبع وثمانين سنة (٥٣)، مما يشير إلى أن مولد ابن دحية كان سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، وهو قول يتفق مع قول ابن تغرى بردى (٥٤). أما ابن الزبير فلم يحدد سنة وفاته إذا يقول : " توفى قبل سنة ٦٤٠هـ " (٥٥). وقد دفن بالقاهرة بسفح جبل المقطم (٥٦).

أما المكان الذى ولد فيه فإن المترجمين له اختلفوا اختلافًا كبيراً فى ذلك ، فابن الأبار والذهبى وابن العماد يقولون عنه : " الدانى الأصل السبتى "(٥٧). أما ابن الزبير فى صلة الصلة فيذكر أنه " من أهل سبتة " (٥٨). أما ابن تغرى بردى ترجم له روايتين ، قال فى أولهما : " أبو الخطاب بن دحية المغربى " (٥٩). وذكره فى ثانيتهما بلقب : " أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على البلنسى " (٦٠).

وبهذا اللقب " البلنسى " ذكره العمرى في مسالك الأبصار وابن خلكان فى وفيات الأعيان والمقرى فى نفح الطيب (٦١). أما صلته بدانية فأبوه الحسن بن على ، كان تاجراً بها وينقل الذهبى عن ابن مسدى (٦٢): " كان والد أبى الخطاب تاجراً يعرف بالكلبى ، بين الفاء والباء - وهو اسم موضع بدانية ، كان أبو الخطاب يكتب أولاً : الكلفى ، والكلبى معًا ، إشارة إلى الموضع وإلى النسب " (٦٣).

أما المقرى فيقول : " وولّى قضاء بلد أصوله دانية مرتين " (٦٤). ويستشف من هذه الرواية أن ابن دحية ولد فى دانية وهذا يؤكد ما ذهب إليه ابن العماد والذهبى وصاحب كتاب الحلل السندسية (٦٥). أما سبتة فإنها كانت مقر لانتقال أسرته إلى بلاد المغرب ، ويبدو أن لإقامته بالمغرب بصفة عامة وسبتة خاصة لفترة زمنية طويلة ، كانت وراء تلقبه بالسبتى . ويبدو أن هذا كان مألوفًا ، قال عبد الله بن المبارك (٦٦): " من أقام فى بلدة أربع سنين نُسب إليها " (٦٧).

ومهما يكن من أمر فقد وضح لنا أن ابن دحية الأندلسى السبتى من أسرة عربية ، والذين ترجموا له قالوا بأنه يكنى بأبى الخطاب ، والمعروف أن الكنى لا تكون إلا لذوى المكانة من القوم ، قال الزمخشرى فى ربيع الأبرار : " إن الكنى لم تكن لشىء من الأمم إلا للعرب ، وهى من مفاخرها ، والكنية إعظام ، وما كان يؤهل لها إلا ذو الشرف فى قومه " (٦٨). فلا شك أن ابن دحية كان له من المكانة ما يؤهله لذلك ، والرحيل إلى المغرب ومصر والشام والعراق والمشرق كان عادة لطلب العلم أو الحج ، ونلاحظ من خلال الروايات أن أخاه عثمان كان يكنى بأبى عمر وكان حافظًا " للغة العرب قيمًا بها " ، وكان من ذوى المكامة دليلنا على ذلك أن الملك الكامل حينما عزل أخاه أبا الخطاب عمر بن الحسن عن دار الحديث الكاملية ، رتب مكانه أخاه أبا عمر عثمان بن الحسن ولم يزل بها إلي أن ترفى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م(٦٩).

ثم ننتقل إلى معرفة بداية تلقى ابن دحية للعلم ونشأته فيه . ولمعرفة ذلك ينبغى معرفة المؤسسات التى كانت مهيأة للتعليم فى زمن ابن دحية ونظامها وسير التعليم فيها ، فإن ذلك يعيننا على التعرف على حالة التعليم بصفة عامة ، ومن ثم على فهم مرحلة ابن دحية الطالب والمعلم .

من المعروف فى دولة الإسلام أن المسجد كان المكان الطبيعى للتعليم ، وقد استمر هذا الوضع إلى ما بعد القرن الرابع الهجري . وفى عصر ابن دحية كانت المساجد فى بلاد الأندلس أهم المراكز الثقافية ، وكان المسجد الجامع سواء فى دانية أو بلنسية أو شاطبة وإشبيلية وقرطبة يؤلف قلب المدينة الإسلامية النابض ، وكان يقام فى المسجد حلقات الدروس فى علوم الدين واللغة . كما كانت هناك مساجد ثانوية أخرى يرجع أنها كانت مراكز تقام فيها حلقات الدروس ، وتشير النصوص إلى أن بعض العلماء كانوا يدرسون للطلبة فى دورهم . ولم تكن بالأندلس وقتذاك مدارس كالتى كانت بمصر (٧٠).

ثم بدأت تظهر أماكن أخرى لتلقى العلم بجانب المساجد والجوامع مثل بيوت الطلبة ودور المشايخ خاصة فى مراكش عاصمة الدولة الموحدية ببلاد المغرب . أما المراكز الثقافية فى مصر فبجانب المساجد انتشرت المدارس فى مصر وبلاد الشام والعراق ، ومن بين تلك المدارس نذكر المدرسة الكاملية وكان ابن دحية أول من ولى مشيختها وكانت تعرف بدار الحديث الكاملية التى أنشأها الملك الكامل سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، وكانت مخصصة للحديث ولمذهب الإمام الشافعى (٧١).

ويبدو من خلال النصوص التاريخية أن هذه المدارس كانت تتميز بعدة مميزات ، أولها أنها كانت شبه مستقلة ففضلاً عن اعتبارها مكان لإلقاء الدروس كان يلحق بها مكان لسكنى شيوخ المدرسة وأساتذتها وتلاميذها المرتبين فيها . وتحتوى على مسجد للصلوات الخمس وخزانة كتب يرجع إليها الشيوخ والتلاميذ . وهذه المدارس لم تكن تخضع فى إنشائها إلى الدولة كما هو الحال فى المفهوم الحالى للمدارس ، وإنما كان تأسيسها راجع إلى تبرع القادرين عليها من المسئولين والأمراء والسلاطين (٧٢).

وكان لهذه المؤسسات التعليمية نظام من حيث التمويل الذى كان أساسه كله الأوقاف ، فتعتمد المدرسة فى أجر شيخها أو شيوخها ورواتب طلابها . أما من ناحية التسيير فنلاحظ من خلال النصوص أن هناك نوعان من التسيير ، فقد يكون التسيير من المؤسس وأسرته من

بعده فيعين المؤسس المدرسين وقد يكون التسيير متروكًا لشيخ المدرسة ، وقد يعمد شيخ المدرسة إلى تعيين كتاب معين ليدرس به العلم ويطلب من التلاميذ أن يكون عمدتهم فى المادة المدروسة (٧٣).

فى جو هذه المؤسسات ونظامها وتسييرها من مساجد ومدارس تعلم ابن دحية ودرس . ولكن فى أى جوامع أو مدارس من هذه المؤسسات تعلم ؟ من خلال تتبعنا وسيرنا مع ابن دحية فى مراحل حياته التعليمية بدا لنا منها مرحلتان :

المرحلة الأولى : مرحلة التلقى ، ومن خلال النصوص نجد أن هذه المرحلة إلي حد سن العشرين لابن دحية مجهولة عندنا بحيث لا نعرف عن حياته فى هذه المرحلة الأولى شيئًا ، إلا ما كان من استنتاجات استنتجناها من خلال النصوص المتعلقة بأسرته . فقد عرفنا عن الأسرة أن الأب كان من التجار المياسير ، فقد علم أولاده على الاطلاع على مختلف فنون العلم حتى صاروا يشار إليهم بالبنان . ونخمن أن بداية تعليمه كان فى دانية ، ونخمن أن والد ابن دحية حين بلغ أولاده القدرة على المزيد جسمًا وعقلاً ألحقهم بالمؤسسات التعليمية التى تزخر بها بلاد الأندلس ثم سمح لهم بالانتقال إلى بلاد المغرب ، خاصة وأن دانية وبلاد شرق الأندلس كانت خاضعة لابن مردنيش وعماله الذين أثقلوا كاهل الرعية بكثير من الضرائب وصارت دانية وشرق الأندلس مسرحًا للفتن والاضطرابات حتى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م حيث أعلن أبو الحجاج يوسف بن مردنيش طاعته لخليفة الموحدين أبى يعقوب يوسف . ونرجح أن ابن دحية انتقل مع أسرته إلى بلاد المغرب هربًا من تلك الفتن ، وفى نفس الوقت كان الخليفة الموحدى يشجع العلم ويعمل على نشره بين الناس وخاصة العلماء والصبيان وكان والد ابن دحية من هؤلاء العلماء الذين اهتموا بالعلم والمشاركين فى الحركة الثقافية فى الأندلس وبلاد المغرب (٧٤).

ويستشف من خلال النصوص التاريخية أن ابن دحية قد رحل إلى بلاد الأندلس قبل سنة ٥٦٤هـ يؤيد ذلك قول ابن دحية أنه لقى بالمغرب بحضرة مراكش سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م أبا عبد الله بن حبوس ثم دخل عنده فى داره بمدينة فاس بدرب السراجين فأخذت عنه وسمعت منه، وفى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م لقى بمدينة مراكش الفقيه الأصولى اللغوى النحوى أبا بكر العبدرى ، وقد شرح كتاب " الجمل " (٧٥). مما يدل على أنه كان وهو ابن العشرين يملك من النبوغ ما أهله لأن يتلقى العلم ، فأخذ عن هذا وذاك وسمع منهما فى مثل هذه السن .

أما المرحلة الثانية وأعنى بها مرحلة التدريس فيبدو أنه بدأ التدريس عندما شب عن الطوق وحصل ما حصل من العلم فأصبح أهلاً للعمل . ويبدو أنه قد بدأ التدريس فى بجاية التى استوطنها زمن أبى عبد الله بن يومور ، وكان والده أبو على ابن يومور تلميذاً لابن دحية(٧٦). وقد قتل ابن غانية أبا على بن يومور بعد هزيمة الموحدين فى معركة " عمرة " سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م(٧٧). ثم درس ابن دحية فى تونس سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، يؤيد ذلك رواية للذهبى إذ يقول : " سمع بالأندلس أبا القاسم بن بشكوال وأبا عبد الله بن مجاهد وأبا بكر بن الجد وأبا عبد الله بن زرقون وأبا جعفر اللمتونى ، وأبا القاسم بن حبيش وطبقتهم ، وكان بصيراً بالحديث معنيًا بتقييده مكبًا على سماعه ، حسن الخط معروفًا بالضبط ، له حظ وافر من اللغة ومشاركة فى العربية وغيرها ، ولى قضاء دانية ثم صرف لسيره نقمت عليه ، فرحل عنها وحمل بتلمسان عن قاضيها ابن أبى حيون وحدث بتونس فى سنة خمس وتسعين وحج وكتب بالمشرق وبأصبهان وبالعراق ونيسابور " (٧٨).

ثالثًا : شيوخه الذين تلقى عليهم العلم :

أول هؤلاء الشيوخ هو أبو محمد عبد الله قاسم بن شقريق الرعينى ، كان أديبًا كاتبًا شاعراً ، وكان رأس العدول بسبتة . قال ابن دحية : " أنشدنى كثيراً من شعره " ، وتوفى فى سبتة سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م وقد شهد ابن دحية جنازته (٧٩). ويعد الفقيه المحدث أبو بكر محمد بن خير من أوائل الذين أخذ عنهم ابن دحية بمسجده بإشبيلية سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م علم الفقه والنحو ، توفى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م(٨٠).

ومنهم الوزير الكاتب الناظم الناثر أبو يحيى أبو بكر بن عبد الغنى المعروف بابن الجنان، وقد لقيه ابن دحية بمدينة مراكش سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م(٨١). ومنهم الفقيه أبو الحسن على بن الحسين ويعرف باللواتى من فاس ، كان فقيهًا محدثًا وروى عن أبى جعفر بن باق وحدث بالموطأ ، وقد توفى بمدينة فاس سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م(٨٢).

ونذكر من شيوخ ابن دحية الفقيه القاضى بمدينة دانية أبو عبد الله محمد وهو ابن الفقيه القاضى بسبتة أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى ، سمع من أبيه ومن ابن العربى وتوفى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م(٨٣). ويذكر ابن دحية من شيوخه ابن سعيد الأوسى إذ يقول : " كان شيخًا جليلاً ، محدثًا ، فقيهًا ، فاضلاً ، أصيلاً . لقى قاضى الجماعة، أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد مؤلف كتاب المقدمات " ، وقد أجاز هذا الفقيه لابن دحية ولأخيه الحافظ أبى عمرو جميع رواياته . وقد توفى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م(٨٤).

وقد أخذ ابن دحية عن أبى محمد القاسم بن عبد الرحمن صاحب لواء العربية ، إذ يذكر فى المطرب أنه لقيه بمدينة مالقة فسمع عليه وأجاز له ولأخيه الحافظ أبى عمرو ، وكان هذا الشيخ " إمام أهل زمانه فى الحرف والفعل والإسم ، والحد والرسم ، والتنكير والتعريف ، والصرف والتصريف ، ويذهب كل مذهب فى التعليل . ويفضل رأى عمرو أبى بشر ، والخليل"، وقد توفى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م(٨٥).

ومن شيوخ ابن دحية الفقيه الأستاذ اللغوى النحوى ، أبو العباس أحمد بن على بن محمد الكنانى - يعرف بابن سيد - من أهل إشبيلية ، وكان من أهل البلاغة والشعر ، والنظم والنثر، ختم كتاب سيبويه مرتين على الأستاذ النحوى أبى القاسم بن الرماك . توفى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م(٨٦).

أما الشيخ أبو موسى عيسى بن عمران الزناتى المتوفى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، فقد قال عنه ابن دحية : " جماعة من شيوخى رحمهم الله ، فأولهم وأفضلهم ، قاضى الجماعة ومعدن البراعة ، المتفنن فى جميع العلوم ، والمحسن إلى كل مجهول ومعلوم ، الفقيه الزناتى ، الذى فاق متقدم الفقهاء الأوائل " . ويذكر ابن دحية أنه قد قرأ عليه ولازمه أعواماً عديدة ، وأجاز له ولأخيه الحافظ أبى عمرو جميع ما رواه وجمعه (٨٧).

ومن أعلام هذا العصر الذين كان لهم دور كبير فى تعليم ابن دحية الأستاذ المحدث الفقيه أبو القاسم السهيلى والمتوفى سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م . فقد ذكر ابن دحية أنه قرأ عليه دقائق النحو وأسراره ، وغوامض علم الأصول وأغواره ، ومعانى القرآن الكريم (٨٨).

ومن شيوخ ابن دحية الوزير أبا بكر محمد بن أبى العافية ، وكان من رواد الحديث وفحول الشعراء ، سمع منه وأجاز له ولأخيه أبى عمرو جميع ما رواه ونظمه ونثره ، وقد توفى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م(٨٩). وقد أخذ ابن دحية عن الوزير الكاتب أبو الحكم على بن محمد بن عبد الملك ، ويعرف أبوه بابن المرخى ، وهو من أهل قرطبة ، وكان أبوه قد بذّ أهل وقته فى الكتابة والأدب ، واللغة وأنساب العرب . فأخذ ابن دحية عن أبى الحكم جميع ما رواه عن أبيه وعن غيره من شيوخ قرطبة ، وقد توفى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م(٩٠).

ومن شيوخ ابن دحية ابن مغاور الشاطبى المتوفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م ، فقد روى عنه بعض شعر بن شاطر السراقسطى ، قال فى المطرب : " وأنشدنى الوزير بليغ شرق الأندلس أبو بكر بن مغاور فى منزله بمدينة شاطبة ، قال : سمعت القاضى الشهيد الإمام أبا على حسين بن محمد الصدفى يقول : سمعت الفقيه الإمام الأديب أبا زيد عبد الرحمن بن شاطر السرقسطى ينشدنا لنفسه :

قد كنت لا أدرى لأية علـة … صار البياض لباس كل مصاب

حتى كسانى الدهر سحق ملاءة … بيضاء من شيبى لفقد شبـابى

فبذا تبين لـى إصابة من رأى … لبس البياض على نوى الأحباب(٩١)

وقال فى موضع آخر : " وأنشدنى الوزير الكاتب الناظم الناثر أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بمنزله بمدينة شاطبة قال : أنشدنا الفقيه الأجل ، العالم الأكمل ، الزاهد الأفضل ، قاضى القضاة ، وعلم الرواة ، أبو محمد بن حسين الصدفى يعرف بابن سكرة ، قال أنشدنا الفقيه الأجل أبو زيد عبد الرحمن بن شاطر السرقسطى لنفسه ، وكان نسيج وحده ، وشاعر بلده :

ولائمة لى إذ رأتنى مشمراً … أهرول فى سبل الصبا خالع العذر

تقول تنبه ويك من رقده الصبا … فقد دب صبح الشيب فى غسق الشعر(٩٢)

أما أبو بكر محمد بن زهر والمتوفى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م فقد أجاز لابن دحية فى جميع تصانيف أسلافه وتصانيفه ، وكان أبو بكر محمد شخصية فذة فى مجال الثقافة " وكان شيخنا الوزير أبو بكر بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطلب عذب معين . كان يحفظ شعر ذى الرُمة ، وهو ثلث لغة العرب ، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب " (٩٣).

ونذكر من شيوخ ابن دحية الفقيه المحدث الأصولى النحوى اللغوى أبو إسحق إبراهيم الحمزى من أشير بالمغرب (٩٤)، والفقيه القاضى المحدث النحوى أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجى بمدينة غرناطة (٩٥)، وأبو جعفر أحمد ابن عبد الرحمن بن مضاء اللخمى إمام النحويين (٩٦)، والقاضى أبو الحسن على بن أحمد البال الأمتى فارس الفقه والنحو والشعر (٩٧).

ولا غرو فقد كان ابن دحية متفرغاً للعلم والتدريس ، فحينما يمم وجهه شطر تونس أخذ عن ابن أبي حيون قاضي تلمسان (٩٨). ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ : " وسمع بمصر من البوصيري وطبقته ، وسمع مسند الإمام أحمد من الميداني " (٩٩).

ويذكر الأوسى المراكشي رواية يعدد فيها شيوخ ابن دحية في بلاد الأندلس والمغرب إذ يقول : " روى بالأندلس وما صاقبها من بر العدوة عن أبي إسحق بن قرقول ، وآباء بكر : ابن الجد ، وابن خير ، وعبد الرحمن بن مغاور ، وأبوى جعفر : ابن البلنسي وابن مضاء ، آباء الحسن : صالح الأوسى ، واللواتي وابن أبي قنون ، وأبي الحسين بن أبي ، وأبي خالد بن رفاعة ، وآباء عبد الله : ابن بشكوال والبيساني وابن حميد وابن زرقون وابن الصقر وابن عبد الله بن حباسة وابن عميرة والقباعي وابن المجاهد وأبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز وأبي العباس بن سيد ، وآباء القاسم : ابن بشكوال وابن حبيش وابن رشد الوراق ، وآباء محمد : ابن عبيد الله وابن فرج وابن مغيث وعبد الحق بن بونه والقاسم بن دحمان وأبي الوليد الحسن ابن المناصف " (١٠٠).

ومما لاشك فيه أن المشرق شكل مرحلة هامة من مراحل ابن دحية التي أثرت في حياته الثقافية ومن روى عنه ، فقد رحل إلى مصر وبلاد الشام والعراق وبلاد فارس وغيرها ، ثم عاد إلى مصر . يؤيد ذلك للأوسى المراكشي إذ يقول : " وتجول بالبلاد المشرقية وأصبهان وبغداد ، وواسط وخراسان ونيسابور وسراس وصموس وجرجان وساوه وواه وشيراز ودمشق وبيت المقدس وغيرها . وكانت رحلته في طلب الحديث أخذ فيها عن أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن أبي الفضل الناصحي وأبي جعفر الصيدلاني وأبي الفتح بن محمد بن خالويه وأبي الحسن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الشيرازي وأبي سعد عبد الله بن عمر بن الصفار وأبي بكر وأبي القاسم منصور بن أبي المعالي عبد المنعم بن أبي ابركات عبد الله محمد بن أبي الفضل الصاعدي الفراوي وأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي وغيرهم " . ويذكر المقري أيضاً بعض شيوخ ابن دحية في المشرق إذ يقول : " وببغداد من أبي الفرج بن الجوزي ، وبأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني " معجم الطبراني " ومن غيره ، وبنيسابور من أبي سعيد ابن الصفار ومنصور بن الفراوي والمؤيد الطوسي ، وحصل الكتب والأصول " . ويقول ابن العماد : "وبنيسابور صحيح مسلم بعلو بعد أن كان حدث به الغرب بالإسناد النازل للأندلسي وكان يقول أنه حفظه كله " (١٠١).

ويذكر الأوسى المراكشى رواية فى غاية الأهمية إذ يذكر أن ابن دحية عندما عاد إلى مصر من رحلته العراقية صار له بها عند الكامل جاه عظيم وحظوة علية ومكانة كبيرة بعد العهد بمثلها ، ونال بها دنيا عريضة حتى ليذكر أنه هم بتنصيبه خليفة ، وبعثه رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ، فتلقاه الناصر أحسن تلق ، وقضى مآربه التى توجه رسولاً إليه بسببها ، وأجل قدره وأجزل صلته ، وأنفذه رسولاً إلى بعض ملوك العجم وراء النهر ، فنهض بذلك وأحسن السفارة فيه ، وعنى هناك بلقاء بقايا شيوخ العلم بتلك البلاد ، وناظرهم وظهر شفوفه عندهم وتبريزه وبعد صيته وبعد أمره واستفاض فوائد تلك البلاد ومصنفات علمائها ما لا عهد لأهل بغداد به ثم استقر بالقاهرة (١٠٢).

لقد سردنا أسماء بعض شيوخ ابن دحية ولم نفصل القول فيهم لأن تراجمهم معروفة ، ويمكن الرجوع إليها فى مظانها . ونتنقل الآن إلى محاولة معرفة ابن دحية الأستاذ والمعلم الذى طال عمره وعاش ما يقرب من سبع وثمانين سنة . هؤلاء هم بعض الشيوخ الذين استطعنا أن نجمعهم ، تكون عليهم ابن دحية وعلى غيرهم من الفقهاء والأدباء والشعراء ، وهم ينتمون إلى مختلف بلاد المغرب والأندلس حتى أصبح أحد الأعلام المشهورين ، والأئمة المذكورين ، وكان له بواسطة هؤلاء الأعلام والشيوخ سند فى العلم فى الفقه والأصول ، وله معرفة بالتفسير فضلاً عن النحو والشعر .

رابعًا : ابن دحية الأستاذ والمعلم :

لقد سبق لنا أن قلنا بأن ابن دحية كان معتنيًا بالعلم والأخذ عن الشيوخ ، يؤيد ذلك ابن الزبير إذ يقول : " روى بسبتة عن أبى محمد بن عبيد الله وغيره ، ودخل الأندلس وأخذ بها عن جملة أشياخ منهم : الحافظ أبو بكر بن الجد ، وأبو عبد الله بن زرقون ، وأبو العباس بن خليل ، وجماعة غيرهم ، ورحل إلى المشرق فاستوطن مصر وعلا بها صيته ، وشهر ذكره ، وكان معتنيًا بالعلم ، مشاركًا فى فنون منه ، مجتهدًا ، معتنيًا بالأخذ عن الشيوخ ، ذاكرًا للتاريخ ، والأسانيد ، ورجال الحديث والجرح والتعديل ، سنيًا مجانبًا لأهل البدع ، سريًا فاضلاً ، عرفنى بحاله وحال أخيه أبى عمرو عثمان - الشيخان أبو الحسن الغافقى وأبو الخطاب بن خليل - وكانا قد صحباهما طويلاً ، وخبراهما جملة وتفصيلاً" (١٠٣).

ويقول ابن شهبة : " كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء ، متفننًا فى الحديث والنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها ، حصل ما لا حصل غيره من العلم " . ويقول المقرى : " كان

من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ، استوطن بجاية فى مدة أبى عبد الله بن يومور ، وروى بها وأسمع ، وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حُوشى اللغة عنده مستعملاً غالبًا ، ولا يحفظ الإنسان من اللغة حوشيها إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظة من مستعملها ، وكان قصده - والله تعالى أعلم - أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب وانفردوا بالطريق الآخر ، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس ، وكذا الشيخ أبو الخطاب بن دحية له رسائل ومخاطبات كلها مغلقات مقفلات ، وكان - رحمه الله تعالى - إذا كتب اسمه فيما يجيزه أو غير ذلك يكتب " ابن دحية ودحية معًا المتشبه به جبريل وجبرائيل " ، ويذكر ما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة فى جبريل ، ويقول عند فاطر السموات والأرض ، وهذا فرع انفرد بن عمن عداه من أهل العلم"(١٠٤) .

ويقول أيضًا : " وحصل الكتب والأصول ، وحدث ، وأفاد ، وكان من أعيان العلماء ، ومشاهير الفضلاء ، متقنًا لعلم الحديث ، وما يتعلق به ، عارفًا بالنحو واللغة ، وأيام العرب وأشعارها" (١٠٥).

وهذه الإمامة فى العلم وما تبعها من سند فيما كان فيه ابن دحية إمام فى فنون شتى جعلته يكون مقصوداً من طالبى العلم فى بجاية وفى تلمسان وتونس ومصر وبلاد المشرق(١٠٦)، هذه أول الصفات للأستاذ والمعلم . أما ثانى الصفات فهو تشبثه بسمت العلماء ، وهذه الصفة مهمة بالنسبة للمتصدر للعلم . فقد وصفه ابن الزبير حين ترجم له : "بالثقة والعدالة والسراوة والاعتناء التام " (١٠٧).

فإذا أضيف إلى هذا حسن الخلق والاعتناء بطلبة العلم كان ذلك هو المنتهى . ولعلنا نفهم اعتنائه بطلبه العلم ونبوغه فى مجالات العلم المختلفة ، أنه قام بالتدريس فى قوص قبل أن يستأديه العادل لولده الكامل (١٠٨)، وأسكنه القاهرة ، فنال بذلك دنيا عريضة ، ثم زادت حظوته عند الكامل ، وأقبل عليه إقبالاً عظيمًا ، وكان يعظمه ويحترمه . ويذكر المقرى رواية يستشف منها أن ابن دحية قد بلغ مكانة لم يصل إليها أحداً من العلماء والشيوخ عند الكامل مثل ابن دحية ، إذ يقول : " ثم زادت حظوته عند الكامل وأقبل عليه إقبالاً عظيمًا ، وكان يعظمه ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، حتى كان يسوى له المداس حين يقوم"(١٠٩).

ويبدو أن الملك الكامل عندما استقل بمصر بعد وفاة أبيه العادل سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، قد آثر أستاذه ابن دحية حين عهد إليه برئاسة دار الحديث الكاملية التى أنشأها سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م(١١٠). وكانت ثانى مدرسة أنشأت للحديث ، وكانت أول دار للحديث على وجه الأرض لنور الدين محمود بن زنكى بدمشق (١١١).

وثمة مثال ثان لتقدير الكامل لآل ابن دحية أنه حينما عزل أبا الخطاب عمر بن الحسن عن دار الحديث الكاملية ، ويبدو أن ذلك نتيجة لتقدم أبى الخطاب فى السن ، فقد توفى فى سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م وذلك فى نفس العام الذى عزل فيه . يؤيد ذلك رواية للمقرى يذكر فيها : " ولم يزل ابن دحية على قرب من السلطان إلى حين وفاته ، وبنى له داراً للحديث ، وهى الكاملية بين القصرين ، فلم يزل يحدث بها إلى أن مات " (١١٢). وقد أسند الملك الكامل شياختها إلى أخيه أبى عثمان بن دحية الذى توفى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م ، ثم جعلها إرثًا فى آله فولاها شرف الدين ابن أبى الخطاب ، بعد أن وليها الحافظ عبد العظيم المنذرى(١١٣).

وقد تحدث المؤرخون عن تغير الكامل على ابن دحية ، وعزله إياه عن دار الحديث الكاملية، فيقول ابن العماد : أن ابن دحية كان متهمًا بعدم الدقة فى إسناد الأحاديث وروايتها ، " ويقع فى أئمة الدين فترك الناس كلامه وكذبوه ولما انكشف حاله للكامل أخذ منه دار الحديث وأهانه " (١١٤).

وقال ابن واصل : " كان أبو الخطاب ، مع فرط معرفته بالحديث ، وحفظه الكثير منه متهمًا بالمجازفة فى النقل ، وبلغ ذلك الملك الكامل ، فأمره أن يعلق شيئًا على كتاب " الشهاب " ، فعلق كتابًا تكلم فيه على أحاديثه وأسانيده ، فلما وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع منى ذلك الكتاب ، فعلق لى مثله ، ففعل ، فجاء فى الثانى مناقضة للأول ، فعلم الملك الكامل صحة ما قيل عنه ، ونزلت مرتبته عنده ، وعزله عن دار الحديث أخيرًا ، وولى أخاه أبا عمرو عثمان " (١١٥).

وقال ابن نقطة كان أبو الخطاب موصوفًا بالمعرفة ، إلا أنه كان يدعى أشياء لا حقيقة لها ، وقد ذكر لى أبو القاسم ابن عبد السلام ، قال : " نزل عندنا ابن دحية فقال " إنى أحفظ صحيح مسلم والترمذى ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذى ومثلها من المسند ومثلها من

الموضوعات ، فجعلنا فى جزء ، ثم عرضت عليه حديثاً من الترمذى فقال : ليس بصحيح ، وآخر فقال : لا أعرفه ، ولم يعرف منها شيئاً ، فأفسد نفسه بذلك " (١١٦). ويزيد الذهبى فى تذكرة الحفاظ : " كان مدلساً ، يستعمل حدثنا فيما هو إجازه ، لم ألق من يحدثنى عنه . وسمعنا بإجازته من الحافظ شرف الدين الحنبلى " (١١٧).

ومما لا شك فيه أن ابن دحية كان معتكفاً على التعليم ، وأدى اعتكافه هذا إلى الابتعاد عن الأضواء السياسية والقضائية . فلم يتولى منصباً سياسياً أو قضائياً خلال فترة إقامته فى مصر وبلاد المشرق ، كما فهمنا من كلام مترجميه . فابن دحية لم يعتزل الحياة العلمية حتى أقعدته السن ، ومما لا شك فيه أن مترجميه بين معتقد ومنتقد وهكذا جرت العادة فى حق الغريب المنتسب للعلم . فإبراهيم السنهورى ممن انتقد وعادى ابن دحية ، لكن نلحظ من جهة أخرى أن بعض المترجمين أشاروا إلى عدم صحة رأيه (١١٨).

يؤيد ذلك رواية للذهبى إذ يقول : " قرأت بخط الضياء عندما ذكر ابن دحية أنه قال : لقيته بأصبهان ، ولم أسمع منه شيئاً ، وأخبرنى إبراهيم السنهورى بأصبهان أنه دخل المغرب، وأن مشايخه كتبوا له جرحه وتضعيفه ، وقد رأيت أنا منه غير شئ مما يدل على ذلك ، وبسببه بنى السلطان الكامل دار الحديث الكاملية بالقاهرة وجعله شيخها " (١١٩).

ومن الجدير الإشارة هنا إلى بعض البلاد الإسلامية التى درس فيها ابن دحية وأخذت عنه، نذكر منها المغرب ، مصر ، والشام ، العراق ، خراسان ، أصبهان ، نيسابور (١٢٠).

ويبقى بعد هذا أن نحاول معرفة بعض العلوم التى كانت تشمل أكثر من فرع من فروع العلم وقام بتدريسها أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية .

أولاً : العلوم الدينية " الشرعية " :

١ - علم الحديث الشريف : ومن المعروف أن ابن دحية كان على المذهب الظاهرى ، والكامل كان على المذهب الشافعى ، وعلى الرغم من ذلك أسند الملك الكامل شياخة دار الحديث التى أنشأها إلى ابن دحية . مما يشير إلى أن الأخير كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ، بذ أهل زمانه فى هذا العلم ، يؤيد ذلك رواية للغبرينى إذ يقول : " وارتحل إلى المشرق فى دولة بنى أيوب ، فرفعوا شأنه ، وقربوا له مكانه ، وجمعوا له

علماء الحديث ، وحضروا له مجلسًا أقروا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولى الضبط والاتقان والتفهم ، وذكروا أحاديث بأسانيده حولوا متونها ، فأعاد المتون المحولة وعرف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هى عليه من متونها الأصلية " (١٢١). ومن تلاميذه فى علم الحديث الحسن بن أحمد بن عبد الرحيم البيسانى وابن الآبار (١٢٢).

٢ - **الفقه** : يعد علم الفقه من أهم العلوم الشرعية التى اشتغل بها المسلمون ، وأساسه هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، فمن خلالهما يتم استنباط الأحكام الشرعية وفق ما تتطلبه الأمور المختلفة لحياة كل إنسان مسلم . وقد اشتهر من مذاهبه أربعة مذاهب هى : الشافعى ، المالكى ، الحنفى ، والحنبلى . وصارت هذه المذاهب هى المشهورة فى معظم الدول الإسلامية ، فضلاً عن بعض المذاهب الأخرى مثل مذهب الظاهرى . ومن خلال النصوص نجد أن المذهب الشافعى كان يحتل الصدارة فى التدريس من قبل العلماء فى مصر والشام والحجاز، وهذا العلم برع فيه ابن دحية ، فنجد كثيراً من طلاب هذا العلم من مذهبه وغير مذهبه يقصدونه سواء فى بلاد المغرب ومصر وبلاد الشام والعراق وأصبهان ونيسابور . يؤيد ذلك رواية لابن النجار إذ يقول : " وحصل الكتب ، والأصول ، وحدث ، وأفاد " . وقد أجاز عنه كثير من الطلاب خاصة من بنى الملجوم والفاسيين (١٢٣).

ثانيًا : **علوم اللغة** : وهو من أهم الفنون التى برع فيها ابن دحية ودرسها لطلابه . قال العمرى وهو خير من وفى ابن دحية وصفًا بأنه : " وقف للإطلاع على كل ثنية ، وهتف للاستطلاع بكل قضية ، وقاد نافر اللغة حتى جعل الغريب قريبًا ، والحوشى ربيبًا ، وأتى بها إلى الحاضرة قسراً من باديتها ، وقهراً لها فى تأديتها ، فعادت إلى الحسنى ورق كلامها ، ودق حتى خفى إلمامها ، وله رسائل حوشية كتبها لتدل على غزارة مادته ، وإثارة جادته ، وقد أضربت عن ذكرها صفحًا ، ولم اسمع لها صدحًا ، لثقل وطأتها على الأسماع ، وشدة منافرتها للطباع ، كأنها كلام النائم ، ونقيق الضفادع فى الليالى العواتم ، تظن أنها ليست مركبة من الحروف ، ولا دالة على معنى معروف ، على أن له فى آخر ما يخف ، ولكنه مما لا يسف ، ولا يندى ورقه ولا يرف ، فلذلك أيضًا ألغيتها ، وأعرضت عنها فما أردتها ولا ابتغيتها "(١٢٤)

وأما صاحب عنوان الدراية فيقول : " وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حوشي اللغة عنده مستعملاً غالبًا عليه . ولا يحفظ الإنسان من اللغة حوشيها إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظة من مستعملها . وكان قصده - والله أعلم - أن يتفرد بنوع يشتهر به دون غيره من الناس ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب ، وانفردوا بالطريق الآخر، لأنهم انفردوا به واشتهروا فيه ، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس ، وكذا الشيخ أبو الخطاب ابن دحية الكلبي " (١٢٥).

ويظهر لنا بوضوح أن ابن دحية كان يدرس النثر ويقرض الشعر . ومن شعر أبى الخطاب عمر بن دحية قصيدة يذكرها الغبرينى قال : كتب إلى السلطان الملك الكامل أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب هذه القصيدة :

مـــالى أســـائل بـرق بارق عنكم ... من بعد ما بعدت ديارى منكم
ويحنى الأضلاع بل وادى الغضـا ... من مهجتى يـا راحلين نزلتم
فمحلكم قلبى وأنتم بالحشـا ... لا بالعقيق ولا برامـة أنتم(١٢٦)

ومن الفنون التى كان يدرسها علم المناظرة والجدل ، ونجد نصًا على ذلك يفيدنا فى أنه كان أستاذاً لهذا العلم ، فقد تناظر فى دمشق مع الشيخ تاج الدين الكندى (١٢٧). كذلك كان أستاذاً فى علم التاريخ ، ومن أبرز تلاميذه الذين أخذوا عنه محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى ويعرف بابن الآبار وأبى على الصدفى (١٢٨).

والخلاصة أن ابن دحية هذا العالم كان له مريدون ، وأصحاب مختصون به . فقد تعددت مؤسسات التدريس والعلوم التى كان يدرسها ، وتقاطر عليه طلاب العلم من كثير من الجهات التى أقام بها ، حتى استقر به المقام فى مصر وأسس له الكامل مدرسة دار الحديث التى تولى مشيختها حتى توفى سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م ، فكانت لهذه المدرسة أثرها فى تلاميذه وتلاميذ تلاميذه سواء فى المشرق أو المغرب . يؤيد ذلك رواية لابن الزبير إذ يقول فى ترجمته لابن دحيه : " وقد أخذ الناس بعد عن أبى الخطاب المذكور " (١٢٩).

خامساً : مؤلفاته :

فأما مؤلفاته فنتبين أنها كثيرة ، وهى تحتاج إلى دراسة وتنقيح . ونذكر من هذه المؤلفات:

١ - الآيات البينات فى ذكر ما فى أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات (١٣٠).

٢ - الابتهاج فى المعراج (١٣١)

٣ - استيفاء المطلوب فى تدبير الحروب (١٣٢)

٤ - الإعلام المبين فى المفاضلة بين أهل صفين (١٣٣)

٥ - أنوار المشرقين فى تنقيح الصحيحين المشرقين (١٣٤).

٦ - تاريخ الأمم فى أنساب العرب والعجم (١٣٥).

٧ - التحقيق فى مناقب أبى بكر الصديق (١٣٦).

٨ - تعليق على شهاب الأخبار فى الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية(١٣٧).

٩ - تنبيه البصائر فى أسماء أم الكبائر(١٣٨).

١٠ - التنوير فى مولد السراج المنير (١٣٩).

١١ - سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب (١٤٠).

١٢ - شرح أسماء النبى ﷺ (١٤١).

١٣ - الصارم الهندى فى الرد على الكندى (١٤٢)

١٤ - عصمة الأنبياء (١٤٣)

١٥ - العلم المشهور فى فضائل الأيام والشهور (١٤٤)

١٦ - مرج البحرين فى فوائد المشرقين والمغربين (١٤٥)

١٧ - المستوفى من أسماء المصطفى (١٤٦)

١٨ - مصنف فى رجال الحديث (١٤٧)

١٩ - النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس(١٤٨)

٢٠ - نهاية السول فى خصائص الرسول (١٤٩)

٢١ - وهج الجمر فى تحريم الخمر (١٥٠)

٢٢ - خطب (١٥١)

٢٣ - المطرب من أشعار أهل المغرب (١٥٢).

سادساً : حمل المغاربة وأهل المشرق لعلم ابن دحية :

لقد تبين لنا من دراستنا لشخصية ابن دحية أصله الأندلسى المغربى أنه كان فى بداية حياته مجتهداً فى طلب العلم ، متنقلاً بين مدن الأندلس وبلاد المغرب ، مصاحبًا للعلماء والشيوخ وأئمة الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر وسائر العلوم الأخرى . وقد أجاز له معظم هؤلاء العلماء والشيوخ فأخذ الخير كله ، خاصة العلوم الشرعية ، فأى خير أفضل من العلم ؟ وأى علم أفضل من العلم بشرع الله الذى هو سبب النجاة فى الدنيا والآخرة .

وكذا رحل ابن دحية إلى مصر حاملاً مع ما أجازه له شيوخه فى بلاد المغرب سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م ، ثم رحل إلى بلاد المشرق ليستزيد من مدارس العلم فى تلك البلاد حاملاً معه علوم شيوخه المغاربة والأندلسيين ، فكان حلقة وصل بين المشرق والمغرب . وكانت له فى تلك البلاد التى أقام بها مناظرات علمية فاستفاد وأفاد ولقى من الفقهاء والمحدثين والنحويين والشعراء ، فسمع منهم وأخذ عنهم .

وقد عرف بالمشرق حقه ، ولما قدم مصر من المشرق ، عرف الملك الكامل حقه ، فاجتمع عليه اشتمالاً ، فبنى له دار للحديث الكاملية وأسند إليه مشيختها إلى أن توفى ، فكان ابن دحية علامة الزمان لهذه المدرسة ، فارس لتدريس الحديث والفقه ، والأصول والقراءات والتفسير ، كما كان له مناظرات بين علماء عصره ، يجيب وينفرد بأقوال يخرجها بفهمه أو عن رأيه ، ويرد على نظرائه ، ونظراً لنبوغه وواسع اطلاعه يذكر صاحب عنوان الدراية أن ملوك دولة بنى أيوب جمعوا له جميع علماء الحديث ، وحضروا له معهم مجلسًا للمناظرة ، وانتهت هذه المناظرة بإقرار الجميع بإمامة ونبوغ ابن دحية (١٥٣).

ولشهرته أخذ عنه كثير من التلاميذ والعلماء لا يحصون سواء فى المشرق أو المغرب ، ممن كانوا يفدون على المدن التى رحل إليها ابن دحية ، أو أخذوا عن هذا العالم الفقيه من إمام آخر ، أو طالب علم من الذين درسوا على ابن دحية ، وغيرهم ممن سمعوا وعلى رأس هؤلاء جميعًا ابن الزبير وابن الأبار وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (١٥٤).

كما روى عنه ابنه شرف الدين أبو الطاهر محمد وابن أخيه ، وبالأندلس أبو الحسين عبيد الله بن عاصم الدائرى ، وبسبتة أبو العباس بن محمد المرورورى ، وبتونس أبو عبد الله بن عيسى بن المناصف ، وبالقاهرة أبو إسحق بن أحمد بن الواعظ المراكشى وأبو الفضل أبو القاسم بن على بن عبد العزيز بن البراء التنوخى المهدوى نزيل تونس ، وأبو الوليد إسماعيل ابن الطراب ، وأبو محمد حسن بن القطان وغيرهم (١٥٥).

الهوامش

١- ابن الزبير : صلة الصلة ، تحقيق د. عبد السلام هراس والشيخ سعيد أعراب ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، المغرب ، ١٩٩٣ - ١٩٩٤م ، ق٤ ، ص ٧٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (د.ت) ، جـ٦ ، ص ٢٩٥ .

٢ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م ، جـ٣ ، ص ١٢٣ .

٣ - ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتانى وآخرون ، دار الثقافة للنشر ، الدار البيضاء ١٩٨٥م ، ص ١٦-٢٧ .

٤ - المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٢٥١ .

يذكر المراكشى أن ابن تومرت كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى فى أكثر المسائل إلا فى إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة فى نفيها ، وكان يبطن شيء من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء ، ص ٢٤٧ ، ٢٥٥ .

٥ - البيذق : أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧١م ، ص ٢١ - ٢٢ .

٦ - المصدر السابق ، ص ٢٤ .

٧ - المصدر السابق ، ص ١٣ - ٣١ ؛ عبد المجيد النجار : المهدى بن تومرت ، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٣م ، ص ١١٢ .

٨ - المراكشى : نفس المصدر ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

٩ - البيذق : نفس المصدر ، ص ٢٤ ؛ المراكشى : نفس المصدر ، ص ٢٥٥ .

١٠ - البيذق : نفس المصدر ، ص ٣٥ ، ٣٨ ؛ عبد المجيد النجار : نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

١١ - المراكشى : نفس المصدر ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

١٢ - ابن عذارى : نفس المصدر ، ص ١٦ وما بعدها ؛ المراكشى : نفس المصدر ، ص ٢٦٠ - ٢٦١؛ ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، تاريخ بلاد المغرب والأندلس فى عهد الموحدين ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

١٣ - ابن عذارى : نفس المصدر ، ص ٢٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٢م ، ص ٦٩٢ - ٧٠١؛ حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار الرشاد ، ١٩٩٢م ، ص ٢١٦.

Conde J.A. : History of The Dominion of the Arabs in Spain, Translated by Mrs. Jonathan Foster, London, Vol. II, p. 446 ; Jacinto Bosch Vila: Los Aloravides, Archivum, Emilio Molina Lopez, 3rd ed., 1998, p. 276-277 ; Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, London, 1974, p. 164 .

١٤ - أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، ص ٢٣٠ .

Francisco Garcia Fitz: Relaciones Politicas Y Guerra. La experiencia Castellano-Leonesa Frente al Islam. Siglos XI-XIII, Universidad de Sevilla, 2002, p. 103 .

١٥ - ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عنان ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٤م، م٢ ، ص ١٢٦ .

١٦ - ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٠٢ - ٣٠٥ .

١٧ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق أ.ليفى بروفنسال ، جـ٢ ، دار المكشوف ، لبنان ، ١٩٥٦م ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ ؛ سحر السيد عبد العزيز سالم : شاطبة الحصن الأمامى لشرق الأندلس فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٥م ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

١٨ - ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ١٢٤ ؛ سحر سالم : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

١٩ - البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، ص ٦٦ .

٢٠ - ابن القطان : نظم الجمان فى أخبار الزمان ، ص ١٦٩ ؛ ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٥٠ ، ٥١.

٢١ - المراكشى : المعجب ، ص ٢٨٤ .

٢٢ - أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١٦ - ١١٩ .

٢٣ - أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق د. حسين مؤنس ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٨م ، جـ٣ ، ص ٢٣٣ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، جـ٤ ، ص ٦٠ - ٩٠ ؛ إبراهيم أيوب : التاريخ العباسى ، ص ١٩٩ - ٢٠١ .

٢٤ - ابن عذارى : نفس المصدر ، ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

Francisco Garcia Fitz: Relaciones Politicas Y Guerra. La experiencia Castellano-Leonesa Frente al Islam. Siglos XI-XIII, Universidad de Sevilla, 2002, p. 131 .

٢٥ – ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ص ١٢٠ .

٢٦ – ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس، ١٩٦٧م ، ص ١٠٦ .

٢٧ – ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٣٩ .

٢٨ – الأوسى المراكشى : الذيل والتكملة ، تحقيق د. محمد بن شريفة ، ق١ ، ص ٢١٢ – ٢٢١ .

٢٩ – المراكشى : المعجب ، ص ٣٥٥ .

٣٠ – الغبرينى : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م ، الطبعة الأولى ، ص ١٤٥ .

٣١ – ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص ١١ .

٣٢ – المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٨٨م ، م٢، ص ١٠٢ .

٣٣ – ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق أ. إبراهيم الإبيارى ود. حامد عبد المجيد ، ص ٢٠٦ .

٣٤ – عبد السلام الركيلى : الإمام الشهاب القرافى ، ص ٧٥ .

٣٥ – المقرى : نفس المصدر ، ص ١٠٤ ؛ عبد السلام الركيلى : نفس المصدر ، ص ٨٠ .

٣٦ – الغبرينى : عنوان الدراية ، ص ٢٠٢ ؛ أبو الفدا : نفس المصدر ، ص ٢٣٤ ؛ ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ص ٣٤٥ .

٣٧ – ابن خلكان : نفس المصدر ، ص ١٢١ .

٣٨ – الأوسى المراكشى : الذيل والتكملة ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .

٣٩ – ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٤م ، م٥ ، ص ١٦٠ .

٤٠ – الغبرينى : نفس المصدر ، ص ١٥٩ .

٤١ – ابن خلكان : نفس المصدر والصفحة .

٤٢ – دحية الكلبى صاحب رسول الله ﷺ ، أرسله إلى قيصر الروم بكتاب النبى فقال له دحية : هل تعلم أكان المسيح يصلى ؟ قال : نعم ، قال : فإنى أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له ، ويدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح فى بطن أمه ، وقد دُفن ابن دحية فى مرج بنى عامر من عمل جنين

فى بلاد الشام . انظر : ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ص ٤٥٨؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، م٢ ، ص ١٤٣ ، ١٤٥؛ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه د. يوسف على طويل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، جـ١ ، ص ١٢٥ ؛ جـ٤ ، ص ١٦٠ ؛ جـ٦ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

٤٣ - ابن خلكان : نفس المصدر ، ص ١٢١ ؛ الدجلى : الفلاكة والمفلكون ، تقديم د. زينب محمود الخضيرى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، أكتوبر ٢٠٠٣م ، الذخائر (١٠) ، ص ٨٨ .

٤٤ - يذكر ابن العماد نقلاً عن ابن عنين إذ يقول :

دحية لم يعقب فكم تنتمى ... إليه بالبهتان والإفك

ما صح عند الناس فيه سوى ... أنك من كلب بلا شك

نفس المصدر ، ص ١٦٠ .

٤٥ - الذهبى : تذكرة الحفاظ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الثالثة ، ص ١٤٢١-١٤٢٢.

٤٦ - ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ، مطبعة مجلس دائرة المعرف النظامية الكائنة فى الهند بمحروسة حيدر آباد الدكن ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ، جـ٤ ، ص ١٥٦ .

٤٧ - ابن الزبير : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

٤٨ - ابن كثير : البداية والنهاية ، حققه وراجعه وعلق عليه محمد عبد العزيز النجار ، مؤسسة الأهرام ، دار الغد العربى ، الطبعة الأولى ، العدد ٦٩ ، م٧ ، ص ١١٦.

٤٩ - المقرى : نفح الطيب ، م٢ ، ص ٩٩ .

٥٠ - نفس المصدر ، ص ١٠٣ .

٥١ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٢٣ .

٥٢ - ابن كثير : نفس المصدر ، ص ١١٧ .

٥٣ - السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ١٩٤٩م ، جـ١ ، ص ١٤٩؛ المقرى : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

٥٤ - ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٢٩٥ .

٥٥ - ابن الزبير : نفس المصدر ، ص ٨٩ .

٥٦ - المقرى : نفس المصدر، ص ١٠٣ .

٥٧ – ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة ، طبعه وعلق عليه ألفريد بل وابن أبي شنب ، المطبعة الشرقية بالجزائر ١٩١٩م، ص ١٨٣٢؛ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ص ١٤٢١ – ٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، م٥ ، ص ١٦٠.

٥٨ – ابن الزبير : نفس المصدر، ص ٧٨ .

٥٩ – ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٩٥ .

٦٠ – نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

٦١ – ابن خلكان : نفس المصدر ، ص ١٢١ ؛ العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكى باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٤م ، ص ١٤٥ ؛ المقرى : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

٦٢ – ابن مسدى هو المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى الأندلسى ، ويعرف بابن مسدى ، وهو من الأئمة المشهورين فى المشرق والمغرب ، قُتل غيلة بمكة سنة ٦٦٣هـ . انظر الذهبى : تذكرة الحفاظ ، ص ١٤٤٨؛ المقرى : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

٦٣ – الذهبى : نفس المصدر ، ص ١٤٢٢.

٦٤ – المقرى : نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

٦٥ – الذهبى : نفس المصدر ، ص ١٤٢٢ ؛ ابن العماد : نفس المصدر ، م٥ ، ص ١٦٠ ، شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، دار الفكر العربى ، دار الكتاب الإسلامى ، د.ت ، جـ٣ ، ص ٣٢٥ .

٦٦ – هو عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوى ، ويكنى أبا عبد الرحمن ، الإمام الحافظ المجتهد الزاهد ، والمولود بمرو سنة ثمانى عشرة ومائة ، ومات بهيت سنة إحدى وثمانين ومائة ، له تفسير للقرآن ، وكتاب السنن فى الفقه ، وكتاب الجهاد وكتاب البر والصلة . لمزيد من التفصيل انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، قرئ على د. طه حسين ، أخرجه معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب (١٩) ، جـ٨ ، ص ٣٧٨ .

٦٧ – ابن العطار : تحفة الطالبين فى ترجمة الإمام النووى ، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد ، كلية الشريعة – جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ١٩٥١م ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية ، ص ٢٢ .

٦٨ – الركيلى : الإمام الشهاب القرافى ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغربية ، ١٩٩٦م ، الجزء الأول ، ص ١٤٦.

٦٩ – المقرى : المصدر السابق ، م٢ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

٧٠ – المقريزى : الخطط المقريزية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٩٦م ، جـ٢ ، ص ٣٦٣ ؛ كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية ، ٢٠١ – ٨ .

٧١ - نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٢١١ ؛ ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٥٨ ، ٢٩٥ ؛ المقرى : نفس المصدر ، ص ١٠٠ ، ١٠٢ ؛ المقدسى : الروضتين فى أخبار الدولتين ، مطبعة وادى النيل ، القاهرة ، ١٢٨٨هـ ، جـ٢ ، ص ٢٤٥ ؛ محمد المنونى : تاريخ الوراقة المغربية ، المملكة المغربية - جامعة محمد الخامس ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢ ، ١٩٩١م ، ص ٣٤ - ٣٦ ؛ يوسف إبراهيم الزاملى : الأوضاع السياسية فى بيت المقدس وانعكاساتها على الحياة العلمية والثقافية بدمشق فى فترة الحروب الصليبية ، مجلة اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، العدد التاسع ، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ .

Ambrosio Huici Miranda: Historia Politica Del Imperio Almohade, Instituto General Franco, 1956, Editora Marroquf, Tetuan, p. 212; Historia Politica Del Imperio Almohade, Tomo II, Estudio Prliminar Emilio Molina Lopez Vicente Carlos Navarro Oltra, 2000, p. 476 .

٧٢ - المقريزى : نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٢٠٨ - ٢٢٠ .

٧٣ - نفس المصدر ، ص ٢١١ - ٢٥٨ .

٧٤ - لعله يريد كتاب الجمل فى النحو للزجاجى أبى القاسم عبد الرحمن بن إسحق سنة ٦٣٩هـ وللجرجانى عبد القادر المتوفى سنة ٤٧٤هـ . ابن دحية : المصدر السابق ، ص ١٩٨ ، ١٩٩

٧٥ - المصدر السابق ، ص ١٩٩ ؛ الأوسى المراكشى : الذيل ، ص ٢١٦.

٧٦ - المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٩٩ .

٧٧ - ابن عذارى : البيان ، ص ١٨٧ .

٧٨ - الذهبى : المصدر السابق ، ص ١٤٢٠ - ١٤٢١.

٧٩ - ابن دحية : نفس المصدر ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠

٨٠ - نفس المصدر ، ص ٦٢ .

٨١ - نفس المصدر ، ص ٩٤ .

٨٢ - نفس المصدر ، ص ١٥٤ .

٨٣ - نفس المصدر ، ص ٨٧ .

٨٤ - توفى ابن رشد سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م ؛ نفس المصدر ، ص ٢١١-٢١٣.

٨٥ - عمرو بن بشر هو سيبويه عمرو بن عثمان ، توفى سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م ؛ والخليل هو الخليل بن أحمد، توفى سنة ١٧٥هـ / ٧٩١م ؛ نفس المصدر ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

٨٦ - هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ، اقرأ النحو والأدب بإشبيلية إلى أن توفى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ؛ نفس المصدر ، ص ٢٠٠ .

٨٧ – نفس المصدر ، ص ٤٣ – ٤٥ .

٨٨ – نفس المصدر ، ص ٢٣٠ .

٨٩ – نفس المصدر ، ص ٨١ – ٨٢ .

٩٠ – نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

٩١ – ابن دحية : المصدر السابق ، ص ٨٠ .

٩٢ – الشاطبى : دراسة وتحقيق محمد بن شريفة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٤م ، ص ١٩ ، ٧٧ ، ٢٢٧ ؛ المقرى : المصدر السابق ، م٣ ، ص ٣٣٦ .

٩٣ – ابن دحية ، نفس المصدر ، ص ٢٠٦ ؛ المراكشى : المعجب ، ص ١٤٢ .

٩٤ – ابن دحية ، نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

٩٥ – نفس المصدر ، ص ٧٧ .

٩٦ – نفس المصدر ، ص ٩١ ، ١٨٧ .

٩٧ – نفس المصدر ، ص ١٨١ .

٩٨ – الذهبى : المصدر السابق ، ص ١٤٢١ .

٩٩ – نفس المصدر والصفحة .

١٠٠ – الأوسى والمراكشى : الذيل ، ص ٢١٦ – ٧ .

١٠١ – المصدر السابق ، ص ٢١٧ ؛ المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ص ١٠٤ ؛ ابن العماد : المصدر السابق ، م٥ ، ص ١٦٠ .

١٠٢ – الأوسى : نفس المصدر ، ص ٢١٨ .

١٠٣ – ابن الزبير : المصدر السابق ، ق٤ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

١٠٤ – المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ص ٩٩ ؛ ابن العماد : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

١٠٥ – نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

١٠٦ – نفس المصدر ، ص ١٠٠ ؛ محمد بركات البيلى : بجاية مركز ثقافى هام فى بلاد المغرب الإسلامى فى القرنين السادس والسابع الهجريين . بحث نشر فى مجلة اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، العدد التاسع ، ص ١٠٩ – ١١١ .

١٠٧ – ابن الزبير : نفس المصدر ، ص ٧٩ .

١٠٨ – نفس المصدر ، ٧٩ ؛ السخاوى : الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة ، تحقيق د. جودة هلال وأحمد محمود صبح ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م ، ص ١٥ – ٢٢ .

١٠٩ – المقرى : نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

١١٠ – السيوطى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٢ .

١١١ – المقريزى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢١١ .

١١٢ – المقرى : نفس المصدر ، م٣ ، ص ١٣٦ .

١١٣ – المقريزى : نفس المصدر ، ص ٢١١ .

١١٤ – ابن العماد : نفس المصدر ، م٥ ، ص ١٦٠ .

١١٥ – الذهبى : نفس المصدر ، ص ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ؛ الدجلى : المصدر السابق ، ص ٨٨ ؛ المقرى : نفس المصدر ، م٣ ، ص ١٣٧.

١١٦ – الذهبى : نفس المصدر ، ص ١٤٢٢؛ الدجلى : نفس المصدر ، ص ٨٨ ؛ المقرى : نفس المصدر، م٣، ص ١٣٧ .

١١٧ – الذهبى : نفس المصدر ، ١٤٢٢ .

١١٨ – إبراهيم السنهورى هو أبو إسحق إبراهيم بن خلف بن منصور الغسانى الدمشقى المعروف بالسنهورى . روى عن أبى القاسم بن عساكر وابن اليمن الكندى وأبى المعانى الفراوى وأبى الطاهر الخشوعى وغيرهم ، وكانت له رحلة إلى بلاد المغرب والأندلس وبلاد المشرق . المقرى : المصدر السابق ، م٣ ، ص ١٣٥ – ١٣٧ .

١١٩ – نفس المصدر والصفحة .

١٢٠ – يذكر العماد بن كثير أن ابن دحية وضع حديث فى قصر صلاة المغرب ، لكنه لم يقف على إسناده . الذهبى : المصدر السابق ، ص ١٤٢١؛ المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ص ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ؛ م٣ ، ص ١٣٨.

١٢١ – الغبرينى : المصدر السابق ، ص ١٦١ .

١٢٢ – ابن الأبار : المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى ، الناشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ١٩٠؛ الغبرينى : نفس المصدر ، ص ١٦٢ .

١٢٣ – المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

١٢٤ – ابن الزبير : المصدر السابق ، ص ٧٩ ؛ العمرى : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

١٢٥ – الغبرينى : نفس المصدر ، ص ١٦٢ .

١٢٦ – نفس المصدر والصفحة .

١٢٧ – المقرى : نفس المصدر ،م٢ ، ص ١٠٠ ؛ ابن العماد : المصدر السابق ، م٥ ، ص ١٦٠ .

١٢٨ – ابن الأبار : نفس المصدر ، ص ١٩٠ ، ١٩٣ .

١٢٩ - ابن الزبير : نفس المصدر ، ص ٧٩ .

١٣٠ - المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ص ١٠٤ .

١٣١ - السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت ، مطبعة ابن سينا ، القاهرة ، ١٩٨٩م ، ص ٩١ .

١٣٢ - ابن دحية : المصدر السابق ، ص هـ .

١٣٣ - الذهبى : نفس المصدر ، ص ١٤٢١ ؛ المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ١٠٤ .

١٣٤ - ابن دحية : نفس المصدر والصفحة .

١٣٥ - نفس المصدر والصفحة .

١٣٦ - نفس المصدر والصفحة .

١٣٧ - نفس المصدر والصفحة .

١٣٨ - نفس المصدر ، ص (و) .

١٣٩ - ابن كثير : المصدر السابق ، م٧ ، ص ١١٧ .

١٤٠ - ابن دحية : نفس المصدر والصفحة .

١٤١ - المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ص ١٠٤ .

١٤٢ - ابن دحية : نفس المصدر والصفحة .

١٤٣ - نفس المصدر .

١٤٤ - المقرى : نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

١٤٥ - ابن دحية : المصدر السابق ، ص (ز) .

١٤٦ - نفس المصدر ، ص (ح) .

١٤٧ - نفس المصدر والصفحة .

١٤٨ - المقرى : المصدر السابق ، م٢ ، ص ١٠٤ .

١٤٩ - ابن دحية : نفس المصدر والصفحة .

١٥٠ - نفس المصدر ، ص ٢١٩ .

١٥١ - نفس المصدر ، ص (ط) .

١٥٢ - نفس المصدر والصفحة .

١٥٣ - المقرى : نفس المصدر ، م٢ ، ص ١٠٠ ؛ ابن العماد : المصدر السابق ، م٥ ، ص ١٦٠

١٥٤ - ابن الزبير : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

١٥٥ - الأوسى المراكشى : نفس المصدر ، ٢١٧ - ٢١٨

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى) " ت٦٥٨هـ / ١٢٦٠م"
 - التكملة لكتاب الصلة ، طبعه وعلق عليه ألفريد بل وابن أبى شنب ، المطبعة الشرقية بالجزائر ١٩١٩م.
 - المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى ، الناشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م.
- ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى) "ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م" : الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى ، بيروت .
- الأوسى المراكشى (أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى الأوسى المراكشى) : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، تحقيق د. محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، ١٩٨٤م.
- البيذق (أبى بكر بن على الصنهاجى) : أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧١م.
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى) " ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م" : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (د.ت) .
- ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى) " ت ٦١٦ هـ / ١٢٢٠م " : رحلة ابن جبير ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٠٨م.
- ابن حجر العسقلانى (الإمام الحافظ شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى) " ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م " : لسان الميزان ، مطبعة مجلس دائرة المعرف النظامية الكائنة فى الهند بمحروسة حيدر آباد الدكن ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات الطبعة الثانية ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م.
- ابن حزم الأندلسى (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى) : جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العالمية ، لبنان ، ١٩٨٣م.

- ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب) : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عنان ، الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٤م
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ، تحقيق أ.ليفي بروفنسال ، جـ٢ ، دار المكشوف ، لبنان ، ١٩٥٦م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) " ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م" : وفيات الأعيان ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م.
- الدجلى (الإمام العلامة الورع الزاهد خاتمة الحفاظ والمحدثين مولانا شهاب الملة والدين أحمد بن على الدجلى) : الفلاكة والمفلكون ، قدمها د. زينب محمود الخضيرى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، أكتوبر ٢٠٠٣م ، الذخائر (١٠) .
- ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن بن على الظاهرى الأندلسى البلنسى المعروف بابن دحية الكلبى) " ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م " : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق أ. إبراهيم الإبيارى و د. حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٣٣م.
- ابن أبى دينار (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى) " ت ١١١٠هـ / ١٦٩٨م" : المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٧م.
- الذهبى (الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى) " ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م " : تذكرة الحفاظ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن – الهند ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الثالثة .
- سير أعلام النبلاء ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، قرئ على د. طه حسين ، أخرجه معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف ، ذخائر العرب (١٩) .
- ابن الزبير (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى العاصمى الغرناطى) " ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م " : صلة الصلة ، تحقيق د. عبد السلام هراس والشيخ

سعيد أعراب ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، المغرب ، ١٩٩٣ - ١٩٩٤م.

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى) " ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م " : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت ، مطبعة ابن سينا ، القاهرة ١٩٨٩م.

- الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة ، تحقيق د. جودة هلال وأحمد محمود صبح، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.

- السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى الشافعى) " ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م " : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ١٩٤٩م.

- الشاطبى (أبو بكر بن مغاور الشاطبى) " ت ٥٨٧ هـ / ١١٩١م " : ابن مغاور الشاطبى ، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٤م.

- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن صاحب الصلاة) " ت ٥٩٤ هـ / ١١٩٨م " : المن بالإمامة ، تاريخ بلاد المغرب والأندلس فى عهد الموحدين ، تحقيق د. عبد الهادي التازى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.

- ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى المراكشى) " كان حيًا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م " : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق محمد إبراهيم الكتانى وآخرون ، دار الثقافة للنشر ، الدار البيضاء ١٩٨٥م.

- ابن العطار (علاء الدين أبى الحسن على بن إبراهيم بن داود) " ت ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣م " تحفة الطالبين فى ترجمة الإمام النووى ، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد ، كلية الشريعة - جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ١٩٥١م ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية .

- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى) " ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م " : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الفكر ، بيروت - لبنان ، ١٩٩٤م.

– العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) " ت ٧٤٣ هـ / ١٣٤١م " : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكى باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٤م.

– الغبريني (العالم العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني) " ت ٧١٤ هـ / ١٣١٤م " : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م ، الطبعة الأولى .

– أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على) " ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م " : المختصر في أخبار البشر ، تحقيق د. حسين مؤنس ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٨م.

– ابن القطان : نظم الجمان في أخبار الزمان ، نشر محمود مكى ، الرباط ١٩٦٤م.

– القلقشندى (أحمد بن على القلقشندى) " ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م " : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه د. يوسف على طويل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

– ابن كثير (الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ، الدمشقى) " ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م " : البداية والنهاية ، حققه وراجعه وعلق عليه محمد عبد العزيز النجار ، مؤسسة الأهرام ، دار الغد العربى ، الطبعة الأولى ، المجلد السابع ، العدد ٦٩ .

– المراكشى (محيى الدين عبد الواحد بن على التميمى المراكشى) " ت ٦٤٧ هـ / ١٢٧٥م" : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٣م.

– المقدسى (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى) : الروضتين في أخبار الدولتين ، مطبعة وادى النيل ، القاهرة ١٢٨٨هـ .

– المقرى (الشيخ أحمد بن المقرى التلمسانى) " ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م " : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٨٨م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزى) " ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م " : الخطط المقريزية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٩٦م.

ثانياً : المراجع العربية :

- إبراهيم أيوب : التاريخ العباسى ، دار الكتاب العالمى ، ١٩٨٩م.
- أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
  - فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٢م.
- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٢م.
- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار الرشاد ، ١٩٩٢م.
- سحر السيد عبد العزيز سالم : شاطبة الحصن الأمامى لشرق الأندلس فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٥م.
- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٢م.
- شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، دار الفكر العربى ، دار الكتاب الإسلامى ، د.ت .
- عبد المجيد النجار : المهدى بن تومرت ، دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٣م.
- كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية ، مركز الإسكندرية للكتاب .
- محمد بركات البيلى : « بجاية مركز ثقافى هام فى بلاد المغرب الإسلامى فى القرنين السادس والسابع الهجريين » . بحث نشر فى مجلة اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٢٠٠١م ، العدد التاسع .
- محمد المنونى : تاريخ الوراقة المغربية ، المملكة المغربية - جامعة محمد الخامس ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢ ، ١٩٩١م.
- الوكيلى (الأستاذ الصغير بن عبد السلام الوكيلى) : الإمام الشهاب القرافى ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغربية ، ١٩٩٦م.

- يوسف إبراهيم الزاملي : « الأوضاع السياسية في بيت المقدس وانعكاساتها على الحياة العلمية والثقافية بدمشق فترة الحروب الصليبية » ، مجلة اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٠٠١م ، العدد التاسع .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

Ambrosio Huici Miranda: Historia Politica Del Imperio Almohade, Instituto General Franco, 1956, Editora Marroquf, Tetuan.

- Historia Politica Del Imperio Almohade, Tomo II, Estudio Prliminar Emilio Molina Lopez Vicente Carlos Navarro Oltra, 2000.

Conde J.A. : History Of The Dominion of the Arabs in Spain, Translated by Mrs. Jonathan Foster, London, Vol. II .

Francisco Garcia Fitz: Relaciones Politicas Y Guerra. La experiencia Castellano-Leonesa Frente al Islam. Siglos XI-XIII, Universidad de Sevilla, 2002.

Jacinto Bosch Vila: Los Aloravides, Archivum, Emilio Molina Lopez, 3rd ed., 1998 .

Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, London, 1974 .

د. يسرى أحمد زيدان (*)

رؤى الهلال ومشاكلها فى مصر والشام والحجاز عصر سلاطين المماليك

تقديم :

يتناول هذا البحث ظاهرة رؤية الهلال فى عصر سلاطين المماليك بمصر والشام وبلاد الحجاز ، والاختلاف الناتج عن تعدد الرؤية الواحدة ، والآثار المرتبة عليه . وسيتم تناول هذا البحث عن طريق بيان الضوابط العملية المعمول بها - فى تلك الفترة - للتحقق من الرؤية الصحيحة للهلال ، ومعرفة طوائف الرائين الراعين للهلال ، وأماكن الرؤية ، وخطوات الإعلام بها ، ودراسة الرؤى المختلفة للهلال الواحد ، وأسباب هذا الخلاف ، وموقف أهل التقاويم منه ، وأثر هذا الخلاف فى مصر والشام والحجاز ، حيث إن هذه البلاد تأثرت بما حدث من خلاف حول رؤى هلال رمضان وشوال وذى الحجة بوجه خاص .

أولاً : الضوابط العملية المحققة للرؤية الصحيحة :

ترتبط كثير من العبادات والشعائر والمعاملات والأحكام الشرعية برؤية الأهلة ، ومن ثم يشترط فيمن يرونها : العدل والأمانة ، والبعد عن ارتكاب الكبائر أو الإصرار على

* - أستاذ مساعد- قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

الصغائر [١]، والإعلام بتحقق الرؤية : فالهلال اسم لما يهل به ، أي يصات به ، والتوصيت لا يكون إلاّ مع إدراكه ببصر أو سمع [٢] .

وقد حرصت الدولة بسلاطينها وقضاتها عصر سلاطين المماليك على التحقق من الرؤية الصحيحة للأهلة ؛ فألزمت القضاة الأربعة بتحري الأهلة من الأماكن المرتفعة في آخر يوم التاسع والعشرين من كل شهر عربي [٣]، ولم تقبل إلاّ رؤية الثقات من الرائين [٤]. وعند انفراد عدد قليل بالرؤية كان السلطان نفسه في أحيان كثيرة يتحقق منها بسؤال من رأى الهلال ، ففي سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣١م تراءى السلطان الأشرف برسباي ومعه جمع من الناس هلال شهر رمضان من مكان مرتفع بالقلعة ، فخفي عليهم وشهد به اثنان بعد العشاء فاستدعاهما السلطان وامتحنهما بأن فرّق بينهما وألزمهما بأن يشيرا إلي الجهة التي رأيا فيها الهلال ، ففعلا ولم يخطئا ، فمضى الأمر بصحة رؤيتهما [٥]. وحدث أن السلطان الأشرف برسباي تراءى هلال رمضان أيضًا سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م ومعه مماليكه من فوق القلعة، وتراءاه الناس من أعلى المآذن والأسطح بالفسطاط والقاهرة فلم يره أحد ، واتفق ذلك مع قول المشتغلين بالتقاويم بعدم إمكانية رؤيته ، وبينما كتب القضاة بعدم الرؤية تكاد تجهز لنشرها بنواحي مصر ، حضر رجل مخبراً برؤية الهلال ، فاستصحبه المحتسب بإشارة من المحدث المؤرخ ابن حجر إلى السلطان فسأله عن رؤيته للهلال ، فثبت الرجل وصمم على رؤيته، فسأل السلطان عنه ، فأثنوا عليه ، فأمر بإثبات الهلال ، ونودي في الليل بصوم الناس من الغد [٦].

وفي سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م تراءى الناس هلال ذي الحجة بعدة أماكن بالقاهرة ، فلم يخبر أحد برؤيته إلا شذوذاً ، يقول الواحد منهم : إنه رأى الهلال ، فإذا حوقق أنكر فلما بلغ السلطان الظاهر جقمق أن أحد خواصه رأى الهلال استدعاه فاعترف برؤيته ، نودي في مصر على من رأى الهلال بأداء شهادته لدى القاضي الشافعي ، فسارع كل من كان رآه في تلك الليلة إلى الشهادة بذلك [٧].

وفي سلطنة السلطان جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م) أيضًا حدث خلاف حول رؤية هلال شهر رمضان بمصر سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م وشاع بين الناس أن اثنين من أهل قليوب رأيا هلال رمضان ، فاجتهد القاضي الشافعي في تحرير هذا الخبر وأرسل إلى قليوب بطلب الرجلين [٨].

وقد كان السلطان يتدخل فى بعض الأحيان عند حدوث الاختلاف حول الرؤية لإثبات الشهر أو عدمه بناء على الأدلة والقرائن الصحيحة ورؤية الشهود ، وحدث هذا من السلطان قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٥م) فى سنة (٨٧٦هـ / ١٤٧١م) بحضور المؤرخ ابن الصيرفى [٩].

كما كان السلطان يعاقب المقصرين من القضاة بالعزل عند ثبوت تقصيرهم وإهمالهم[١٠]، كذلك عوقب المتفرد برؤية هلال دون أن يأتى بآخر ، ومن هؤلاء ابن عمر الطباخ مؤدب الأبناء بالقاهرة (ت ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩م) الذى سجن لانفراده برؤية هلال رمضان حتى أتى بمن يشهد به معه [١١]. وهذا نوع من التشدد الزائد[١٢] الذى لم يلتزم به سلاطين المماليك وقضائهم دومًا ، حيث قبلوا فى مرات قليلة[١٣] شهادة الواحدة ، ومنها سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م ، في حين أنهم ردوها كثيراً [١٤]. كما رفضوا شهادة الجماعة من الناس فى بعض الأحيان[١٥].

وبالمثل كان الوضع فى بلاد الشام والحجاز من حيث اشتراط العدلين فى الرؤية والتحقق من ذلك ، ومن حيث رد شهادة الرائين عند الشك فيهم ، وقام بذلك قضاة الشام[١٦] ، والحجاز[١٧].

يتضح مما سبق أن رؤية أهلة الشهور العربية ، وبخاصة المرتبطة منها بالصوم أو الحج ، حظيت باهتمام الدولة المملوكية ، وهو ما كان مقرراً ومعمولاً به قبل سلطنتهم أيضًا [١٨]، فعنيت باختيار وتحديد أماكن الرؤية الصحيحة - وسيأتى تفصيل ذلك . وبالتحقيق مع الرائين للهلال للوصول إلى الحقيقة فى ذلك ، وبحث فى عدالتهم ، وعاقبت المهملين من القضاة ومن تشكك فيه من الرائين ، واجتهد القضاة فى تحرى الهلال فى كل بلاد القطر الواحد ، وأولت تبليغ الرؤية للناس اهتمامًا كبيراً . وإذا كانت الروايات التى تؤكد ما ذهبت إليه واستخلصته من المصادر تتصل معظمها بدولة المماليك الثانية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧م) فإن ذلك فى صالح الفكرة المأخوذة من الجزئية السابقة ، إذ أن دولة المماليك الأولى (٦٤٨ - ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢م) كانت أكثر استقراراً من الدولة الثانية ، وأشد تنظيمًا وأكفأ إدارة ، وهذا يعين على التحقق من الرؤية الصحيحة للأهلة ، وإن كانت المصادر المملوكية لم تسعفنا بأية تفصيلات خاصة بهذا الموضوع لتؤكد ما ذهبت إليه .

وبالرغم من الجهد المبذول فى عصر سلاطين المماليك للتأكد من الرؤية الصحيحة للأهلة إلا أنه فى بعض الأحيان - قد وقع ما يخالفه بسبب محاولة بعض القضاة مجاملة بعض السلاطين بالباطل ، أو بسبب إهمال بعض القضاة من التحقق من الرؤية والإهمال فى تبليغها؛ الأمر الذى أدى إلى وقوع الخلاف وحدوث الاضطراب ، ونتج عنه بعض الآثار السياسية والاجتماعية والدينية ، وهو ما سوف يظهر فى حينه من هذا البحث .

ثانيًا : طوائف الرائين للأهلة :

كان الناس فى مصر الإسلامية يطلبون هلال شهر رمضان خاصة بأنفسهم ، وحدث خلاف حول رؤية هلال رمضان فى أثناء ولاية عبد الله بن لهيعة للقضاء (١٩)، حيث رآه رجلان فقط لم يُعرفا ، ومن ثم لم يتبين مدى عدالتهما ، فعزم القاضى ابن لهيعة (ت ١٧٤ / ٧٩١م) على الخروج بنفسه فى نفر من أهل الصلاح ، فطلبوا الهلال ، فكانوا يتحرونه بالجيزة " فهو أول القضاة حضر طلب الهلال " (٢٠).

وتطور الأمر بعد ذلك حيث كان قاضى مصر - قبل جعلهم أربعة -(٢١) يترا ءى مع الناس هلال شهرى رجب وشعبان احتياطًا لشهر رمضان بجامع محمود(٢٢) وأول من فعل هذا أبو عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد المالكى (ت ٣٢٩هـ - ٩٤٠م) المتولى قضاء مصر من قبل الخليفة القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣م) بعد الثلاثمائة (٢٣).

وفى عصر المماليك وقع تحرى رؤية الأهلة على كاهل القضاة أيضًا ، فكان القضاة الأربعة يتحرونها فى آخر كل شهر عربى ، لرؤية الهلال بأنفسهم (٢٤)، وأحيانًا كانت الرؤية مقتصرة على بعض القضاة فقط : لانشغال البعض ، أو لغيابهم بسبب أداء الحج (٢٥)، وشارك القضاة أحيانًا بعض السلاطين فى الرؤية (٢٦)، وكذلك بعض مماليك السلاطين(٢٧)، وبعض الجند (٢٨)، وبعض المشايخ والمؤرخين (٢٩)، كما شارك الناس فى جمع كثيف فى رؤية الهلال، وبخاصة هلال رمضان وشوال وذى الحجة (٣٠)، وتحرت النساء أحيانًا الأهلة السابقة(٣١).

وبالمثل كان الوضع ببلاد الشام وبالحجاز ، حيث إن القضاة والناس(٣٢) كانوا يتراءون الأهلة بصفة عامة ، وأهلة العبادات بصفة خاصة . وشارك الحجاج المتوجهون إلى بلاد الحجاز لأداء الحج فى رؤية هلال ذى الحجة خاصة ؛ وجدت هذا كثيراً ، ومن ذلك : هلال ذى الحجة سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م إذ رآه قاضى مكة بحضور قاضى القضاة عز الدين بن جماعة وغيره

من حجاج مصر والشام والعراق (٣٤). وهلال ذى الحجة سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤م حيث رآه جمع كثير من القادمين إلى مكة براً وبحراً ، وبعض من كان بمكة (٣٥).

وقد كان القضاة فى مصر والشام وبلاد الحجاز يكتفون أحياناً برؤية الشهود أو المؤقتين(٣٦)؛ فالأولون شاركوا فى رؤية الهلال مع القضاة منذ القرن السابع الهجرى(٣٧). وفى مصر انفرد أحد الشهود - الذين يتكسبون فى الدكاكين ويأخذون على الشهادة جعلاً - برؤية هلال رمضان سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م بالرغم من المحاولات الحثيثة لرؤيته التى لم تثمر عن رؤيته ، واتفق هذا مع ما ذكره أصحاب التقاويم من عدم إمكانية رؤية الهلال لأنه يقع مع جرم الشمس (٣٨). أما فى بلاد الحجاز فلدينا خبر ذكره السخاوى(٣٩) خاصاً بعلى بن أحمد المكى وكان " أحد شهود القيمة بمكة والمتصدين لرؤية الهلال بها " .

والآخرون وهم المؤقتون فإنهم قد كثروا فى عصر المماليك ومنهم بمصر : ابن الغزولى الميقاتى (ت ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦م) وكان إمام عصره فى علم الميقات ووضع الآلات الميقاتية ، ورئيس المؤذنين بجامع آقسنقر(٤٠) والطولونى ومدرسة السلطان حسن (٤١). ومحمد ناصر الدين المصرى وكان إمام عصره فى الزيجات والتقاويم " وكان هو وابن الغزولى شيخا عصرهما فى علم المواقيت ، لكل منهما طائفة تتعصب له ، والعجيب أنهما توفيا قريباً" (٤٢). وأبو الفداء إسماعيل بن إبراهيم القاهرى (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م) وهو ممن تميز فى الميقات مع التقويم (٤٣). وبرز منهم ببلاد الشام : أبو إسحاق المواقيتى (ت ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤م) وكان رئيس المؤذنين بجامع بنى أمية بدمشق ، ووكان يعرف علم الميقات (٤٤). وبرز منهم ببلاد الحجاز حسين بن على البيضاوى المكى المعروف بابن الزمزمى (ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) وانتهت إليه رئاسة التقاويم ببلاد الحجاز : مكة والمدينة وإليه يرجع المكيون فى علمى الميقات والحساب " (٤٥).

وكان القضاة أحياناً يتركون لهؤلاء المؤقتين مهمة صعود المنارات والأماكن العالية لتحرى رؤية الأهلة ، ومنها هلال شهر رمضان ، ومن رآه منهم جاء أو جيئ به إلى هؤلاء القضاة(٤٦). وحدث هذا بمصر وذكره السخاوى فى أثناء حديثه عن رؤية هلال شهر رمضان سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤١م وألمح إلى أن القضاة بمصر أصبحوا يكتفون برؤية هؤلاء المؤقتين(٤٧). ومما يؤيد رأى السخاوى أن اختلافاً كبيراً حدث بمصر سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م حول رؤية شهر ربيع الأول ، وشهد جماعة من المؤقتين عند القاضى الشافعى برؤيته ليلة الأحد ، فما قبل

القاضي الشافعي شهادتهم ، وصعد يوم الاثنين لتهنئة السلطان بالشهر ورفقته قاضي القضاة والمؤرخ الصيرفي ، فلما جلسوا وهنأوا السلطان بالشهر ، ذكر أن الشهر من البارح وقد رآه الليلة وهو كبير ، فرد القاضي المالكي بقوله : " الكبر ما هو شرط " وأثبت القاضي الشافعي الشهر كما قال السلطان (٤٨).

وبطبيعة الحال كان ترك القضاة لوظيفة من وظائفهم المهمة عاملاً أساسيًا من عوامل وقوع الخلاف حول الرؤية ، ومن ثم وقوع الخلاف حول الصوم أو الفطر ، وفي تحديد وقفة عرفة وعيد الأضحى . وسيأتي بيان ذاك في مكانه من البحث .

ثالثًا : أماكن رؤية الأهلة :

تحري الرا ءون للأهلة بمصر والشام والحجاز رؤيتها من عدة أماكن تمكنهم من التحقق من الرؤية أو من عدمها ، وأبرز هذه الأماكن بمصر : المدرسة المنصورية(٤٩) بخط بين القصرين بالقاهرة (٥٠). والقبة المنصورية(٥١) - الواقعة تجاه المدرسة السابقة - ، والقلعة(٥٢) ، والجوامع(٥٣) ، والمدارس(٥٤) ، وأسطح البيوت(٥٥) ، وغير ذلك من أماكن مرتفعة(٥٦) في القاهرة والفسطاط .

ورؤي الهلال أيضًا بعدة بلاد سوى القاهرة والفسطاط منها :

الجيزة (٥٧)، وقليوب(٥٨) ، وسرياقوس(٥٩) ، وبلبيس(٦٠) ، ومنوف(٦١) ، والمحلة(٦٢) ، وفي الصعيد(٦٣) ، وغيرها .

كما تحري الرا ءون للهلال بالشام بدمشق من المآذن(٦٤) ، وبحلب(٦٥) ، وببعض القرى(٦٦) والضواحي(٦٧) الشامية .

أما عن أماكن رؤيته ببلاد الحجاز ، فلدينا أخبار عن رؤيته بمكة المكرمة من أعلى جبل أبي قبيس (٦٨)، ولدينا خبر آخر يتصل بتحريه بجدة (٦٩).

تعقيب :

اشتركت طوائف عديدة في تحري أهلة الشهور العربية ، وبخاصة هلال رمضان وشوال وذي الحجة ، وكان العبء الأكبر في الرؤية واقعًا على عاتق القضاة ، ولكنهم ركنوا - أحيانًا - إلى المؤقتين ، واكتفى هؤلاء القضاة بقبول أو رفض رؤية المؤقتين ، وكان هذا التوجه من هؤلاء القضاة تفريطًا في حق من حقوقهم الأساسية ، وأدى هذا التفريط إلى حدوث الاختلافات حول

الرؤية فى بعض الأحيان . وقد أحسن اختيار الأماكن الملائمة للتحقق من الرؤية الصحيحة ، ولم تقتصر هذه الرؤية على عواصم الأقاليم الإسلامية فحسب ، بل امتدت إلى العديد من البلاد الأخرى فى القطر الواحد . ولم يعتمد القضاة فى تحديد أوائل ونهايات الشهور العربية على أرباب التقاويم(٧٠) الذين لم تصدق كثير من توقعاتهم ، ولم تتحقق كثير من تنبؤاتهم ، ومنها ما تنبأ به محمد بن عبد الجبار المعروف بابن الدويك (ت ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩م) من تقصير النيل فى بعض السنين ؛ فجاء النيل جيداً (٧١)، ومنها ما أجمع عليه أهل التقويم سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م من حدوث قران نحس فى آخر شهر رمضان من هذا العام ، يتبعه حدوث ما لا يحمد عقباه على السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م) ، فلم يقع شىء مما توقعه هؤلاء المشتغلون بالتقاويم ، ومضى شهر رمضان والسلطان في خير وسلامة وعافية ، وشهد بذلك المؤرخ ابن تغرى بردى الذى كان ملازماً له ، وعقب على ذلك بقوله : " فلعمرى لو كان أهل هذا الشأن اشتغلوا عوضًا عن هذا الفن بصناعة من الصنائع والحرف التى تتعاناها العامة لكان خيراً لهم وأقوم من هذا الكذب المحض، والاختراق فى علم الغيب إلى يوقعهم فى موبقات الآثام) (٧٢). وحدث مثل هذا أيضًا سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م فى سلطنة السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٥م) مما استوجب توبيخ ابن تغرى بردى لهم أيضًا واتهامهم بالكذب فى الشهر الواحد المرة والمرتين ، وأنهم دائمون مستمرون فى كذبهم ، والناس - مع هذا - يترددون إليهم ويسألونهم مع عرفانهم بعد معرفتهم ، وقد دونت ملاحظات ابن تغرى بردى فى كتاب " إنباء العصر " لابن الصيرفى (٧٣). ومن أمثلة الخطأ فى توقعاتهم أيضًا هو إجماعهم بالقاهرة على حدوث كسوف كلى للشمس فى يوم مذكور ، ولم تكسف الشمس فى ذلك اليوم(٧٤) من عام سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م فى سلطنة الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠ - ١٥١٦م) .

ولهذا كله لم يضع القضاة حسابات أرباب التقاويم وملاحظاتهم فى الاعتبار ؛ بالرغم من صواب رأيهم في بعض الأحيان .

رابعًا : الإعلام بالرؤية ومظاهر الاحتفال بها :

حرصت الدولة الإسلامية فى عهود حكامها جميعًا على تبليغ الرعية بنتائج رؤية الأهلة ، وبخاصة التى يترتب عليها نوع من العبادات . وفى عصر سلاطين المماليك كانت نتيجة رؤية

الهلال تكتب ، وترسل بها إلى مدن وقرى القطر الواحد ؛ ففى مصر على سبيل المثال كانت الكتب تتبادل بين عاصمتها وجميع مدنها البحرية والقبلية بنتائج رؤية الأهلة (٧٥). ولدينا بعض روايات يفهم منها مدة تبادل خبر الرؤية بين القاهرة وبعض المدن المصرية الأخرى ؛ ففي سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣م لم ير هلال رمضان بالقاهرة ، وأكل من بها حتى الظهر فقدم الخبر من " بلبيس " برؤيته ، فنودى بالإمساك من بعد الظهر (٧٦). وحدث أيضًا سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م أن تراءى الناس هلال رمضان بالقاهرة وما حولها فلم يروه ، فلما كان بعد صلاة العشاء بثلث ساعة حضر كتاب من نائب الحكم بثبت رؤيته ، فنودى بالصيام ، ووصل كتاب آخر من نائب بلبيس فى أول النهار بمثل ذلك ، وكتاب آخر من نائب الحكم بمنوف بمثل ذلك ، وورد فى أثناء النهار (٧٧). وهناك خبر آخر وفيه أنه فى سنة ٨٧٦هـ / ١٤٨١م لم ير هلال ذى الحجة بالقاهرة ليلة السبت ، فكان أوله يوم الأحد ، ولكن وصل الخبر من "المحلة" في يوم الثلاثاء برؤيته ليلة السبت ، وعليه فأول ذى الحجة يوم السبت لا الأحد(٧٨).

وهكذا تبودلت الكتب بين المدن المصرية للتحقق من رؤية الهلال من عدمها ، وهو الأمر الذى حدث أيضًا بين المدن الشامية (٧٩)؛ بل إن الكتب المتضمنة نتيجة رؤية هلال رمضان وشوال وذى الحجة بصفة خاصة كانت تتبادل بين مصر والشام (٨٠). كما أن ثمرة رؤية هلال ذى الحجة وأخبار الحجاج كانت تصل إلى مصر فى أربعة عشر يومًا (٨١)، وأحيانًا فى اثنى عشر يومًا (٨٢). كما كان الحجاج الشوام يرسلون إلى ذويهم كتبًا تتضمن أخبارهم ، وربما احتوت هلال ذى الحجة ، وكانت هذه الكتب تبعث من تبوك إلى دمشق وتستغرق سبعة أيام وأحيانًا ثمانية أيام على الأكثر ، وفى بعض الأحيان تستغرق أقل من ذلك (٨٣).

أما عن الإعلام بالرؤية داخل البلد الواحد ؛ فإن ذلك الإعلام قام به تواب المحتسبين الذين ينادون فى الأسواق والشوارع والحارات بالصوم والإمساك أو الفطر (٨٤). وكان المؤذنون يساهمون فى إعلام الناس بشهر رمضان بصفة خاصة ؛ حيث يسحرون الناس بالمآذن(٨٥)، ويعلمونهم أيضًا بنهايته (٨٦). كما كان إنارة المآذن أيضًا إعلامًا للناس بدخول الشهر الفضيل ، ومظهراً من مظاهر استقباله (٨٧).

ومن مظاهر استقبال رمضان أيضًا - إضافة إنارة المنائر - احتفاء السلطان المملوكى بالقضاة ونوابهم ومشايخ الإسلام ، وغيرهم ممن يتوجهون إلي السلطان لتهنئته بالشهر الكريم،

وكان السلطان يكرمهم ويفيض عليهم بالخلع (٨٨).ولم تتخلف هذه العادة طوال العصر المملوكى عند أول رمضان وبداية كل شهر عربى (٨٩).

أما فى بلاد الشام فكان الأمراء والقضاة والمشايخ يهنأون بأوائل الشهور العربية وبخاصة رمضان ، وبالأعياد(٩٠) وكانت القلعة بدمشق تشهد الفرحة برمضان وبالعيدين ، ومنها تنطلق إلى البلد ، كما كانت هذه المظاهر المبهجة تلاحظ عند دور الأمراء بالشام (٩١). وفى صباح يوم العيد يتقدم المؤذنون خطيب العيد بالتكبير (٩٢). وجرت العادة أن يعد الناس بالشام أصنافًا من " الطبيخ " بعد رؤية هلال العيد (٩٣).

ومن المؤكد أن مظاهر استقبال شهر الصوم والعيدين كانت واحدة فى البلاد الإسلامية فى تلك الفترة ، ولدينا خبر خاص بمكة يستفاد منه حرص المؤذنين فى شهر رمضان وليلة العيد على إنشاد المدائح النبوية وغيرها فى المنائر ليلاً ، والاهتمام بإيقاد مشاعل المقامات بالمسجد الحرام فى هذه المناسبات الدينية السابقة وغيرها (٩٤).

وهكذا ، قدمت لنا مصادرنا التاريخية الخاصة بهذه الفترة - محل الدراسة - أخبارًا عن الوسائل التى يمكن من خلالها الإعلام بدخول الأشهر العربية وعلى رأسها رمضان وشوال وذى الحجة ، وعرضت لنا روايات أمكننا التعرف من خلالها على المسافة الزمنية بين بعض البلاد وبين عاصمة ذلك البلد ، وأشارت بعض المرويات التاريخية الخاصة ببعض مظاهر استقبال رمضان والعيدين ، ولم أحاول أن أحمل النص المروى أكثر مما يتحمل ويدلل ، كما اعتمدت على هذه المرويات والأخبار الواردة فى مصادرنا فى معالجة هذه القضية وباقى جزيئات البحث دون مبالغة أو افتيات على النص التاريخى ، فكانت معالجتى لمباحث البحث اعتمادًا على الأخبار والروايات المتاحة فحسب .

خامسًا : أبرز المشكلات المتصلة ببداية رمضان ونهايته وبعيد الفطر :

بالرغم من حرص الدولة المملوكية - كما رأينا - بمؤسساتها المختلفة على تحرى الأهلة والدقة فى التحقق من رؤيتها من عدمها ، إلا أن هناك عددًا من المرات خلت من التحرى الصحيح والدقة المطلوبة ، فوقع الخلاف وحدث الشك ، وهناك حالات أخرى شهدت مثل هذا الخلاف والريبة وتسبب فيها سوء الفهم لبعض الأمور . ومن المرات التى حدث فيها الشك فى بداية رمضان ، ما حدث سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م حيث صام الناس فيها أول رمضان ، وكان يوم جمعة " على اختلاف وشك شديد "(٩٥) وفى سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م ترامى السلطان

الأشرف برسباى ومماليكه والناس جميعًا هلال رمضان من فوق القلعة ومن أعالى المآذن والأسطح بالقاهرة والفسطاط ، ليلة السبت وكان عدد الرائين يقدر بالألوف ، ولم ير أحد هلال رمضان ، وانفض الجمع ليلاً ، وإذا برجل يتكسب فى حوانيت الشهود بتحمل الشهادة يجيئ إلى قاضى القضاة الشافعى ، ويشهد برؤية الهلال ، فيأمر به القاضى أنه يشهد برؤيته أمام السلطان ، فلما مثل بين يديه ثبت وصمم على رؤيته للهلال ، وكان الرجل حنبلياً ، وهو قريب لنديم السلطان ، ولى الدين بن قاسم " فسأل السلطان عنه ، فبالغ فى الثناء عليه عند السلطان ، عندئذ أمر السلطان بإثبات الهلال وأثبت بعض نواب قاضى القضاة الحنبلى بشهادة هذا الشاهد أول رمضان ، نودى فى الليل بصوم الناس من الغد على أنه أول رمضان، فأصبح الناس صائمين ، وتوالت الكتب فى جميع أراضى مصر ، ومن البلاد الشامية وغيرها ، بأنهم تراءوا الهلال ليلة السبت فلم يروه وأنهم صاموا يوم الأحد (٩٦).

وذكر المقريزى(٩٧) أن الناس تراءوا هلال شوال من القلعة وبالقاهرة والفسطاط وما حولهما ليلة الاثنين(٩٨) التى هى بزعم الناس أو بزعم الشاهد(٩٩) أنها أول ليلة من شوال ، فلم ير الناس الهلال بالرغم من عددهم الذى لا يحصيه إلا خالقهم ، وبالرغم من اكتمال الهلال عدة ثلاثين يومًا ، وبالرغم من توافر الدواعى لرؤيته ، فالسماء خالية من الغيوم ، والخلائق متطلعة لرؤيته ، ولكن لم ير أحد منهم الهلال ، وإذا ببعض نواب القضاة يزعمون رؤيته وبشهادة من رآه ، وعليه فإن يوم الاثنين أول شهر شوال " فكانت حادثة لم تدرك قبله مثلها".

ويضيف ابن حجر(١٠٠) أن الناس تراءوه ليلة الأحد(١٠١) ولم يروه أيضًا .

ولكن ابن حجر المعاصر للمقريزى يذكر أن من زعم أن الناس خرجوا للترائى فقد وهم وإنما شاع أن بعض الناس تراءى فلم ير شيئًا ، واتفق أن غالب الجهات المتباعدة وكثيراً من المتقاربة عيدوا يوم الاثنين (١٠٢).

ونحن هنا أمام خبر واحد يختلف فيه مؤرخان معاصران له ، وهما من المؤرخين الكبار : فالمقريزى يقول : " فكانت حادثة لم تدرك قبلها مثلها ، وهى أن الهلال بعد الكمال مدة ثلاثين يومًا لا يراه الجم الغفير الذى لا يحصى عددهم إلا خالقهم مع توفر دواعيهم على أن يروه ، وقد خلت السماء من الغيم ، وجرت العادة أن يتساوى الناس فى رؤيته "(١٠٣) وابن

حجر يقول : " ومن زعم أن الناس خرجوا للترائى فقد وهم ، وإنما شاع أن بعض الناس ترا ءى فلم ير شيئًا ، واتفق أن غالب الجهات المتباعدة وكثيراً من المتقاربة عيدوا يوم الاثنين"(١٠٤).

وهما يتفقان فى بداية الخبر حول رؤية هلال رمضان واتفاق أرباب التقاويم باستحالة رؤيته، ويختلفان فى نهاية الخبر حول رؤية هلال شوال اختلافًا واضحًا ، وقد ذكر ابن حجر اسم من رأى هلال رمضان هو " ولد شهاب الدين أحمد بن قطب الدين محمد الشيشينى " وقد ترجم له السخاوى فى " الضوء اللامع "(١٠٥) فذكر أن على بن أحمد بن محمد الشيشينى المحلى الأصل القاهرى الشافعى ، ولد بالقاهرة ، ونشأ بها وحفظ القرآن ، ودرس الفقه والحديث ، واستقر فى تدريس الحنابلة ، وأنه انفرد برؤية هلال رمضان سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م مع إجماع أهل الميقات على أنه يغيب مع غيبوبة الشمس ، فأرسل به شيخ السخاوى ، ويعنى هنا " ابن حجر " إلى السلطان ليعلمه بذلك فسأل عنه ، فأثنوا عليه لكون قريب جليسه الولوى بن قاسم ، فأمر بعمل ما يقتضيه الشرع ، فأقام الشهادة عند قاضى الحنابلة وحكم بمقتضى شهادته ، ثم إن الناس ما عدا ابن حجر وبقية رفقته ترا ءوا هلال شوال بعد استكمال ثلاثين استظهاراً ، فلم يروه " ولم يكن اتفق أن غالب الجهات المتباعدة ، وكثيراً من المتقاربة عيدورا كذلك وكأنهم رأوه أولاً أو آخر ، وبالجملة فنعم صاحب الترجمة".

وهكذا يؤكد السخاوى على دين الشاهد ، ويثنى عليه ، ولكنه يذكر ما يدعم رواية المقريزى من ترائى الناس لهلال شوال وعدم رؤيتهم له ؛ الأمر الذى يوقع فى الحيرة . وهنا أشير أيضًا إلي أن ابن الصيرفى(١٠٦) نقل عن المقريزى روايته كاملة ، ونقل تعليقه ولم يفته أن يبين أن المقريزى شيخه .

وعلى أية حال فطبقًا لرواية المقريزى التى نقلها أيضًا ابن الصيرفى فإن هذا الحدث قد ترك أثره فى الناس ؛ حيث إنهم أكثروا من التحدث فى حق القضاة والفقهاء ؛ وذلك لقبول القضاة لشهادة الشاهد ، وأنشد بعض هؤلاء الغاضبين على القضاة والفقهاء قول الشاعر:

كنا نفر من الولاة الجا ... ئرين إلـــى القضـــاة

والآن نحـن نفـر مـن ... جور القضاة إلى الولاة(١٠٧)

وهكذا ، عبر الناس عن سخطهم على القضاة والفقهاء ، لأنهم - فى نظرهم - لم يتأكدوا من رؤية الهلال ، وقبلوا رؤية شاهد من الشهود الذين يتكسبون بشهادتهم طبقًا لرواية

المقريزى - وإن شهادته لم تكن صحيحة بدليل عدم رؤية هلال شوال بعد اكتمال رمضان ثلاثين يوماً .

ومن الحالات التى ذكرتها المصادر ويستفاد منها عدم الدقة فى تحرى الهلال والأمانة فى رؤيته والإعلام به لتحقيق مآرب من مآرب بعض القضاة ما حدث سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م وفيها يذكر ابن الصيرفى أن قاضى القضاة الشافعى والمالكى - ما خلا قاضى القضاة الحنفى والحنبلى - توجها إلى المنصورية قلاوون لرؤية هلال شوال ، ويعلق على ذلك بقوله : " ولم ير الهلال وهو المقصود الأعظم لئلا تكون خطبتان فى يوم واحد فيكون ذلك بزعمهم على السلطان غير مشكور ، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله " (١٠٨).

وهذه حالة من الحالات التى حاول فيها بعض القضاة تملق السلطان بالباطل ، حيث حاولوا ألا يكون العيد يوم جمعة لئلا تجتمع خطبتان فى يوم واحد ؛ لأن فى ذلك نذير شؤم على السلاطين ، مع أن هؤلاء السلاطين لا يعتقدون هذا المعتقد ، ولا يؤمنون بهذه العادة من التطير بخطبتين فى يوم واحد ؛ ولذلك فإن السلطان جقمق لما بلغه هذا الأمر سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م أنكره وأظهر الحنق على من ينسب إلى ذلك ، وبين خطأ ما شاع بين الناس بهذا الشأن (١٠٩). وهذا التشاؤم الذى شاع بين الناس ليس له أصل (١١٠)، ويُرد عليه بأنه فى سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م جاء عيد الفطر يوم جمعة وكانت أولى سنوات حكم السلطان الأشرف برسباى (١١١)، واستمر فى سلطنته حتى سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م .

وهناك حالات أخرى رفض فيها القضاة رؤية الناس للهلال بدون بيان أسباب الرفض كما جرت العادة (١١٢)، ومنها ما حدث فى مصر سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م حيث تحدث الناس برؤية هلال شوال ليلة الجمعة ، وعليه فإن يوم الجمعة هو أول أيام عيد الفطر المبارك هذه السنة ، إلاّ أن القاضى الشافعى لم يعول على رؤية الناس ، وظهر - بعد ذلك - أن أوله بمكة الجمعة ، وكذلك فى دمشق التى ثبت فى أثناء صلاة الجمعة أن العيد فى اليوم نفسه ، وحكم القاضى الشافعى بدمشق بذلك وأمر الناس بالنداء بالصلاة جامعة ، وصلى بالناس صلاة العيد قضاء، ثم خطب بعدها (١١٣).

وواضح أن رؤية الناس لهلال شوال فى هذه السنة صحيحة ، وأنه لا عذر للقاضى الشافعى فى رد شهادتهم ، اللهم إلاّ إذا كان قد راعى ما يشيعه الناس عن النذير الشؤم اللاحق بالسلطان عند اجتماع خطبتين فى يوم واحد .

ويستفاد من الخبر السابق ومن غيره أن العادة جرت بالشام أن يُصلى العيد بالجوامع لا بمصلى العيد عند تأخر ثبوته إلى منتصف النهار ، وحدث بدمشق على سبيل المثال سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م حيث صلى الناس بالجامع الأموي بدمشق ، ورفض معظمهم الصلاة فى مصلى العيد (١١٤).

ولعل فى هذا إعلاناً عن الضيق والتذمر لوجود خلل منع من علمهم بالعيد في وقته ؛ وهذا يفهم من قول ابن كثير : " وتغضب الناس على المؤذنين ، وسجن بعضهم " (١١٥).

ولم تكن الحالة السابقة الأولى لخطأ أحد القضاة ، فلقد سبقت بتقصير آخر حدث بمصر أيضاً سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦م وفيها تراءى الناس هلال رمضان لليلة الاثنين فلم يره ، ثم بعد الانفصال تحدث برؤيته ، وجاء كتاب قاضى الخانقاة السرياقوسية بالإعلام برؤيته ، ولكن بدون ما يقتضى اعتماده ، وصام أهل الخانقاه ومتوف لثبوته عند قاضيها ، بل صام أكثر أهل البلاد ، وكان هذا تقصير من قاضى الخانقاة السرياقوسية (١١٦).

وقد تسبب الشهود أحياناً فى حدوث البلبلة والاختلاف ، ومن أمثلة ذلك شهادة شاهدين فى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م أن أوله يوم الاثنين ، فقبل النائب فى الحكم شهادتهما ، وعند استطلاع هلال رمضان لم ير ليلة الثلاثين منه ، ولا ليلة الأربعاء ، ثم غاب ليلة الخميس مع مغيب الشفق " وكثر كلام الناس فى الشهادة الماضية " (١١٧).

وهكذا ، فإن الاختلاف حول بداية شهر الصوم ونهايته تسبب فيه تقصير بعض القضاة وتملق بعضهم للسلطان باطلاً ، وشهادة بعض الشهود غير الصحيحة ، وترك هذا الاختلاف أثره على الناس حيث أبدوا تبرمهم وأظهروا غضبهم على القضاة والفقهاء الذين ساهموا – أحياناً – فى حدوث الخلط والجدل حول بداية الصوم أو بداية الفطر (١١٨).

وهناك حالات أخرى لم يكن لأحد دور فى حدوث الاختلاف فيها ، بل حدث بسبب الغيوم(١١٩) المطبقة التى استمرت أياماً فى بعض الأحيان ؛ ومنها الغيوم التى حالت دون رؤية هلال رمضان سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ، بمصر (١٢٠)، وسنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م بها أيضاً حيث لم ير هلال رمضان لشدة الغيوم ليلة الأربعاء فكان أوله الخميس بالعدد ، وكذا كان أوله بجميع بلاد الشام إلا بيروت وصيدا (١٢١). وقد كان القضاة يأخذون بالحساب عند قوة الغيوم واستمرارها لعدة أيام(١٢٢)، أما إذا كشفت أخذ بالرؤية ، وللنويرى خبر يتصل بدمشق خاص بهذا المعنى يقول فيه : " ومن غريب الاتفاق فى رؤية الهلال أن الناس بدمشق طلعوا

إلى المئذنة لارتقاب هلال رمضان ، والحاكم يومئذ بالشام قاضى القضاة شهاب الدين الحموى ، وكانت الغيوم قد عمت السماء ، فطلع الناس للعادة مع تحققهم أنهم لا يرون شيئًا ، فاتفق عند ارتقابهم مطلع الهلال انفراج دائرة الغيم ظهر من تحتها الهلال ، فلما عاينه الناس التأم الغيم لوقته ، وصام الناس عن رؤية ويقين " (١٢٣). وهناك خبر آخر ذكره السخاوى(١٢٤) عن كشف الغيم عن هلال شوال سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م .

وهناك أخبار أخرى تتصل بعدم رؤية الهلال بمكة المكرمة بسبب الغيوم ، لكنها تخص هلال ذي الحجة (١٢٥).

جملة القول أنه وقعت خلافات حول تحديد بداية هلال شهر رمضان ونهايته لأسباب مختلفة: أولاها في نظري تقصير بعض القضاة في تحري الهلال بأنفسهم وترك ذلك الأمر للناس أو للشهود ؛ ففي كل مرة شهد القضاة الهلال وتحروه بأنفسهم لم تحدث أية مشكلة(١٢٦)، لكن المشكلة كانت تنتج عن تفريط القضاة في واجبهم نحو استطلاع الهلال وانفراد الأحاد بالرؤية دون التواتر فيها . وثانيها - عندي - مراعاة بعض القضاة لأوهام مشاعة وأقوال مرسلة ؛ الغرض منها التقرب من السلاطين بالباطل ، وهم برآء من هذه الأقوال غير المحققة . وثالثها وآخرها شهادة بعض الشهود غير الصحيحة . وقد تعرض القضاة لتقصيرهم - أحيانًا - إلى سخط الناس عليهم ، ونقدهم لهم . كما ترتب على تأخير الإعلام بعيد الفطر تأخير الفرحة والسرور به (١٢٧).

سادسًا : أبرز المشكلات المتصلة ببداية ذى الحجة وبوقفة عرفة :

شارك الحجاج المتوجهون لأداء شعيرة الحج في رؤية هلال ذى الحجة ، وأخبر الرائون القضاة المصاحبين لهم بنتيجة الرؤية ، وكانت هذه المشاركة مفيدة في بعض الأحيان ، ومسببة للخلاف والمشكلات في أحيان أخرى اختلفت فيها رؤى هؤلاء الحجاج مع رؤية المكيين للهلال ، أو اختلفت فيها رؤية حجاج بلد عن رؤية حجاج بلد آخرين . ونتج عن هذا الخلاف الوقوف بعرفة يومين متتاليين احتياطيًا في العديد من المرات . كما ساهمت شيوع فكرة التطير من خطبتين في يوم واحد في حدوث البلبلة والاضطراب في تحديد بداية الشهر الحرام وفي تعيين يوم عرفة والعيد .

ومن السنوات التى وقف فيها الحجاج بعرفة يومين حيطة بسبب الاختلاف حول بداية شهر ذي الحجة : سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م (١٢٨)، ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م(١٢٩) و٦٩٢هـ /

١٢٩٢م[١٣٠] و ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م[١٣١] و ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥م وفيها يقول ابن الجزرى[١٣٢] " وأخبرنا الحجاج أن الوقفة كانت يوم الأحد ، وكانوا يوم السبت أيضاً بعرفة احتياطاً ؛ بسبب رؤية الهلال وما يحصل فيه من الاختلاف ، ونعم ما فعلوا " .

وفى سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م كانت الوقفة فيها يوم الجمعة ؛ لأنه ثبت ذلك عند قاضى مكة بحضور قاضى القضاة عز الدين بن جماعة وغيره من حجاج مصر والشام والعراق ، وكان يوم عرفة بمصر والإسكندرية يوم الخميس ، فأنكر الشيخ علاء الدين على بن عثمان التركمانى الحنفى على القاضى عز الدين بن جماعة ، وأفتى أن حج الناس فاسد ويلزم من وقف بالناس يوم الجمعة بعرفة جميع ما أنفقه الحاج من الأموال ، وأنهم يجب على الحجاج كلهم أن يقفوا محرمين لا يطئوا نساءهم ولا يمسوا طيبًا حتى يقفوا بعرفة مرة أخرى ، وشنع بذلك عند الأمراء ، وأظهر الحزن على الناس والأسف على ما أنفقوه من أموالهم ، فشق ذلك على الأمير طُقَيْتمرُ الدوادار من أجل أن زوجته حجت فيمن حج ، وأخذ فتوى ابن التركمانى الحنفى ، فغضب الشافعية وأنكروا مقالته وردوها ، وطلب ابن جماعة عقد مجلس فى ذلك بحضور ابن التركمانى الحنفى لإعلامه بمخالفة فتواه لما هو مدون فى كتب الحنفية فمنعه الناس من ذلك مخالفة الخلاف[١٣٣].

وواضح من الخبر السابق أثر الخلاف حول الرؤية لدى بعض فقهاء الحنفية وعلى الحجاج بطبيعة الحال ، وكان من الأولى الأخذ بالأيسر فى هذه القضية ، لأنه كما يذكر ابن تيمية[١٣٤] إذا أخطأ الناس كلهم فوقفوا فى غير يوم عرفة أجزأهم اعتباراً بالبلوغ ، فلو أن الناس وقفوا بعرفة فى اليوم العاشر خطأ أجزأهم الوقوف بالاتفاق وكان ذلك اليوم يوم عرفة فى حقهم ، ولو وقفوا الثامن خطأ ففيه خلاف ، والأظهر - كما يرى شيخ الإسلام - صحة ذلك أيضاً ، وهو أحد القولين فى مذهب مالك وأحمد وغيرهما .

واستمر وقوف الناس بعرفة يومين بعد ذلك أيضاً ومنه فى الأعوام التالية :

٧٥٧هـ / ١٣٥٦م[١٣٥] و٨١٢هـ / ١٤٠٩م وفيه وقف الناس بعرفة يومين وأوقفت المحامل فى اليوم الأول بعرفة على مقتضى رؤية أهل مكة لذى الحجة[١٣٦]. ويذكر المؤرخ الفاسى[١٣٧] الذى كان يحج فى العام السابق أن إقامة الناس يومين بعرفة كان برأى أمير الحج الذى وجد أن هلال ذى الحجة ثبت عند القاضى الحنفى بمكة بينما لم يثبت عند أهل مكة، فاقترح أن يتوجه الحجاج فى اليوم الثامن ، يوم التروية بحسب رؤية أهل مكة إلى عرفة وأن

يقيم الناس بها يوماً آخر ، ففعل ذلك ، وتعرض أهل الفساد للحاج فى توجههم من عرفة إلى منى ونهبوهم وقتلوهم فى ليلة النحر ، ولم يستطع معظم الحاج ومعهم تقى الدين الفاسى المبيت بمزدلفة إلى الصباح ، فرحلوا منها اتقاء لخطر المفسدين .

وحدث اختلاف كبير فى تعيين الوقفة فى عام ٨١٧هـ / ١٤١٤م لأن جمعًا كثيراً من القادمين إلى مكة فى البر والبحر ، وبعضًا من بمكة ذكروا أنهم رأوا الهلال لذى الحجة ليلة الاثنين ، ولم ير ذلك غالب أهل مكة ولا غالب الركب المصرى ، فتم الاتفاق على أن الناس يخرجون إلى عرفة فى بكرة يوم الثلاثاء تاسع ذى الحجة على مقتضى من قال برؤيته ليلة الاثنين ، وأن يقيموا بعرفة ليلة الأربعاء ويوم الأربعاء ، فوقع ذلك وسار معظم الحاج إلى عرفة بعد طلوع الشمس من غير نزول بمنى ، فبلغوها بعد دخول وقت العصر ، وتخلف غالب المكيين وأهل اليمن بمكة إلى وقت الظهر وتوجهوا إلى عرفة من غير نزول بمنى ، فلما كانوا بالمأزمين ، مأزمى عرفة الذى يسميه الناس المضيق خرج إليهم اللصوص فقتلوا وجرحوا ونهبوا ، ونجا مؤرخنا تقى الدين الفاسى أيضًا هذه المرة من الضرر حيث كان قريبًا ممن أصابهم الله بهذا الابتلاء (١٣٨).

وهكذا ، فإن تخلف بعض حجاج مكة واليمن عرضهم للقتل والنهب وذلك لأن القسم الكبير من الحجاج كانوا قد سبقوهم إلى عرفة يصحبهم الحراس الذين كانوا يحرسون الحجاج، وتأخر البعض منهم جعلهم مطمعًا للصوص والمفسدين لقلة عددهم قياسًا لباقى الحجاج ، ولضعف الحراسة لهم .

وفى سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م وقع اختلاف بمكة أيضًا حول تحديد الوقفة ، إذ إن شخصاً من المغاربة - ذكر أنه من أهل العلم والدين وزكى - رأى هلال ذى الحجة ليلة الخميس ، وتأكدت هذه الرؤية برؤية أخت كاتب السر وزوجة الظاهر جقمق السلطان المملوكى ، وعليه فيكون يوم الجمعة يوم الوقوف بعرفة ، لكن القاضى الشافعى لم ير الهلال ليلة الخميس لذا طلب أن يتوجه الحجاج إلى عرفة يوم السبت والوقوف بعرفة نهاراً احتياطًا ، فرد كاتب السر أنه لا يمكن فعل ذلك لاسيما بعد أن أخبرته أخته زوجة السلطان برؤيتها للهلال ، ثم لما وصل الركب الشامى ذكروا أن قاضى محملهم ثبت عنده بشهادة من يثق به أنه رأى هلال ذى الحجة ليلة الخميس " فوقف الناس يوم الجمعة ولم تطمئن قلوب غالب الناس بالوقوف يوم الجمعة " والله أكرم من أن يرد هذا الوفد العظيم خائبين (١٣٩).

وهنا نجد القاضي الشافعي لا يأخذ بالرؤية التى أكدها الوفد الشامى ، وربما لم يتأكد من تزكية الرائين للهلال ؛ لأن مذهبه يوجب عليه الأخذ برؤية عدل واحد للهلال ، ونرى أيضًا - فى الخبر السابق - أثرًا لهذا الاختلاف فى نفوس الحجاج لم تطمئن قلوبهم بالوقوف يوم الجمعة بعرفة .

ووقف الناس بعرفة أيضًا يومين سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م لاختلاف وقع فى بداية الشهر(١٤٠)، وكذلك فى سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م بسبب زعم بعض الشاميين من الحجاج رؤية الهلال ليلة الخميس ، وهو ما لم يثبت لدى المكيين فبات الحجاج بعرفة ليلة السبت احتياطًا(١٤١).

وقد أدت الغيوم الكثيفة فى بعض الأحيان إلى وقوف الحجاج بعرفة يومين أيضًا بإشارة من قاضى مكة (١٤٢)، وحدث هذا سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م .

وهكذا ، اضطر الحجاج فى عدد من المرات إلى الوقوف بعرفة يومين كاملين أو الوقوف بها ليلة عرفة وفى نهارها لأخذ الحيطة بسبب الاختلاف حول بداية شهر ذى الحجة ، وهناك سنوات لم تحدث فيها أية خلافات وأجمع الحجاج جميعًا على تحديد وقفة عرفة منها سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م وفيها يذكر النويرى أن الناس وقفوا بعرفة يوم الجمعة بغير خلاف بينهم(١٤٣)، ومنها سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨م وفيها يشير ابن فهد إلى وقوف الناس بعرفة اتفاقًا منهم (١٤٤)، وغير ذلك من سنوات لم تشر المصادر إلى وقوع خلاف فيها .

ولم يكن الخلاف حول تحديد يوم عرفة وعيد الأضحى المبارك مقصورًا على مكة المكرمة وإنما امتد إلى مصر والشام وسببه هنا تحاشى خطبتين فى يوم واحد والتطير من هذا ؛ ففى سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م شهد جماعة بمصر برؤية هلال ذى الحجة ليلة الأربعاء ، فلم يقبل القاضى شهادتهم وردهم بينه وبين القاضى الحنفى ، وبلغ السلطان الأشرف برسباى ذلك ، وأنه ارتقب الهلال ليلة الخميس فغاب قبل العشاء فاستدلوا بذلك على بطلان شهادة من شهد برؤية ليلة الأربعاء ، فضحى جماعة من الناس يوم الجمعة اعتمادًا على من رأى ليلة الأربعاء، وانتشر الأمر وكثر عدد من ينتسب إلى الرؤية ، واتهم من لم يقبل شهادة رؤيته ليلة الأربعاء بأنهم فعلوا ذلك محاباة للسلطان على ما جرت به العادة من تطيرهم بخطبتين فى يوم واحد ، وكثرت الشناعة بسبب ذلك ، وعيد جماعة يوم الجمعة وصلوا فى بيوتهم العيد، وعيد جمهور

الناس يوم الجمعة ، واتفق أهل الشام والقدس وما حولهما على أن أول ذى الحجة يوم الأربعاء.(١٤٥).

ونحن هنا أمام تشكك من الناس فى بعض القضاة بسبب الرؤية ، وقد يكون هؤلاء القضاة محقين فى عدم قبولهم للرؤية ، لكن حدوث هذه المحاباة من قبل قضاة آخرين - كما يبدو - جعل الناس بمصر لا يثقون فى رأى القضاة فى السنة السابقة ، وجعلهم يعيدون يوم الجمعة ويصلون فى بيوتهم العيد ، منعاً للصدام ، وتحاشياً للمشكلات ، والأمر الطيب هنا أن الدولة المملوكية لم تعرض لمن صلى العيد يوم الجمعة وأفطر بعد صيام يوم عرفة ، وعيّد يوم الجمعة أيضاً ، وربما كانت مظاهر الاحتفال بالعيد من هؤلاء محدودة جداً .

وحدث فى سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م أن كان الغيم مطبقاً لمدة ثلاث ليال بدأت بالثلاثاء وانتهت بالخميس وذلك عند ارتقاب هلال شهر ذى الحجة ، ولكن حضر شخص من أهل "مرصفا " وأخبر برؤيته ليلة الثلاثاء ، وعرفه بعض النواب بأنه سبقت منه الشهادة بالزور بحيث منه منها ، لكن القاضى لم يأخذ برأى نوابه ، وطلب شاهداً آخر فجاء شاهد من نمط الأول ، فأخذ القاضى برؤية هذين المزورين ليكون العيد يوم الخميس لا يوم الجمعة لتوهم التشاؤم بذلك مما ليس له أصل (١٤٦) وإن كانت الأخبار قد وردت من مكة بعد ذلك تشير إلى أن الوقفة كانت يوم الأربعاء أيضاً (١٤٧).

اتضح مما سبق أنه حدثت خلافات حول بداية شهر ذى الحجة ، ومن ثم حول تحديد وقفة عرفة ، بسبب تعدد الرؤى ، واحتاط الحجاج لذلك فوقفوا يومين بعرفة وأصول الشريعة كلها مستقرة على أن الاحتياط ليس بواجب ولا محرم " (١٤٨). وامتد هذا الخلاف إلى مصر والشام للسبب السابق نفسه أو بسبب تحقيق أغراض معينة ؛ فيحدد بداية الشهر من أجل هذه الأغراض وتلك المآرب . ونتج عن هذا اعتراض الناس ومخالفتهم لرأى صاحب الغرض والهوى. ولاحظ بعض المؤرخين الاختلاف حول تحديد بداية شهر ذى الحجة عند تدوين بعض الأحداث ، أو تعيين بعض الوفيات ، ومن ذلك ما ذكره الفاسى(١٤٩) متصلاً بهذا الأمر بقوله: " منها - أحداث سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م - أنه فى يوم الجمعة ثانى ذى الحجة على مقتضى رؤية أهل مكة لهلال ذى الحجة ، وهو الثالث منه على مقتضى رؤية أهل مصر واليمن لهلال ذى الحجة سنة أربع وعشرين خطب بمكة للملك الظاهر ططر " . ومنه ما ذكره ابن تغرى بردى(١٥٠) متعلقاً بوفاة العلامة الحنفى محب الدين الأقصرانى سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م فى

يوم الجمعة ثالث ذى الحجة على حساب تأريخ مكة ، ورابع ذى الحجة على حسب ما أرخ بديار مصر .

وقد ترك الخلاف حول شهر المحرم أثراً أيضاً ، أشار إليه الفاسى وهو يعين تاريخ وفاة داود بن موسى الفاسى المالكى ، نزيل الحرمين ، بالمدينة النبوية سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م فى أول المحرم منها على مقتضى رؤية الناس لهلال المحرم فى غير الحرمين ، وفى آخر شهر ذى الحجة لسنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦م تبعاً لرؤية المحرم بمكة والمدينة (١٥١).

كما ترك الخلاف حول الأهلة أثراً فى تحديد الأشهر النواقص ، ظهر هذا الخلاف من خلال حديث ابن تغرى بردى عن أول ذى الحجة سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م يقول : " أوله الأحد ، كان هذا الشهر والذى قبله نواقص لأن أول شوال كان الجمعة ، وأول ذى القعدة السبت ، بل أرخه بعض الناس الأحد ، فيكون ذو القعدة على حكم من أرخه الأحد ثمانية وعشرين عاماً "(١٥٢).

وهكذا لمسنا جوانب من تأثيرات الاختلاف حول بداية بعض الشهور العربية على بعض الظواهر والحوادث التاريخية .

ويستخلص الباحث من الدراسة أن المصادر المملوكية انفردت بالحديث عن ظاهرة رؤية الأهلة وما صاحبها من مشاكل أو آثار فى مصر والشام وبلاد الحجاز ، وتبين من خلالها حرص الدولة المملوكية على تحرى الأهلة ، وبخاصة هلال رمضان وشوال وذى الحجة ، واختارت الأماكن المناسبة لارتقاب الأهلة ، ووضعت ضوابط تحقق الرؤية الصحيحة للهلال ، وبذلت جهداً كبيراً فى تبليغ نتيجة الرؤية للناس ، ولكن القضاة الموكول بهم قبل غيرهم استطلاع الهلال تركوا هذا الأمر فى بعض الأحيان للمؤقتين ؛ فحدث خلاف فى بعض المرات حول رؤية الهلال ، وقام بعض القضاة بمحاولة مجاملة بعض السلاطين بالباطل فحاولوا ألا يكون العيد يوم جمعة لئلا تجتمع خطبتان فى يوم واحد ، وهذا - كما شاع - نذير شؤم على السلاطين ، وقابل الناس أخطاء هؤلاء القضاة بنقدهم أحياناً ، وبمخالفة رأيهم أحياناً ، كما أدى الاختلاف حول تحديد يوم العيد إلى تأخر مظاهر الاحتفال به ، وصلاة الناس بالبيوت لا بمصلى العيد . وترك الخلاف حول تعيين بداية ذى الحجة أثراً على الحجاج الذين وقفوا يومين بعرفة فى العديد من السنين ، احتياطاً لئلا يفوتهم هذا الركن المهم من أركان الحج ، وقد أثر هذا الخلاف أيضاً على بعض تأريخ الحوادث التاريخية والوفيات للمشاهير والأعلام.

الحواشى

١- راجع عن شروط رؤية الأهلة ، وهلال رمضان خاصة كتاب " الفقه على المذاهب الأربعة " لعبد الرحمن الجريرى ، ص ٤٨ - ٥٢٢ .

٢ - راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جـ٢٥ ، ص ١١٣ .

٣ - راجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦١ ؛ وابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٤٠٦ .

٤ - راجع ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ١٠ ، ص ١٦٦ ؛ ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٢، ص ٧٧ ، جـ٣ ، ص ١٠٣٠ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٠ .

٥ - ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٤٧٥ .

٦ - راجع المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٥ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٥١٨ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٥ ، ص ١٨٨ .

٧ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٢٢٨ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٢٢٣ .

٨ - السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٢٥٩ .

٩ - راجع ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٣٣٢ .

١٠ - راجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٠ .

١١ - راجع السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٨ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

١٢ - روى أبو داود (سنن أبى داود جـ٢ ، ص ٧٥٤ - ٧٥٦) عدة أحاديث عن شهادة رجل واحد برؤية هلال رمضان وقبول النبى ﷺ لشهادته . وعلق المحقق (ص٧٥٦) على ذلك بأن الشافعى فى قول له رأى قبول شهادة الواحد العدل فى رؤية هلال رمضان ، وهو قول أحمد بن حنبل وأبو حنيفة ، بينما رأى مالك عدم قبول رؤية هلال رمضان إلا برؤية شاهدين عدلين . راجع سنن ابن ماجة جـ١ ، ص ٥٢٩ . أما هلال شهر شوال فإن الحنفية والمالكية والحنابلة اشترطوا للرؤية شهادة عدلين بينما اكتفى الشافعية بشهادة العدل الواحد . راجع عبد الرحمن الجريرى : الفقه على المذاهب الأربعة ، ص ٥٥٢ . وسبب هذا الخلاف هو أن بعض الفقهاء ذهبوا إلى أن رؤية الهلال من باب الإخبار فيكفى فيه الواحد ، بينما رأى البعض أنها من باب الشهادة بدليل أن الرائى يقول : " أشهد أنى رأيت الهلال " كما فى سائر الشهادات ، ومن ثم ينطبق على هذه الشهادة أحكام الشهادات . ولكن بعض الفقهاء ، ذهب إلى أن رؤية هلال رمضان خصوصًا من باب الإخبار ، راجع تعليق محقق سنن أبى داود جـ٢ ، ص ٧٥٣ و ٧٥٤.

١٣ - راجع المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٥ ؛ وابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٥ ، ص ١٨٨ .

١٤ – راجع على سبيل المثال ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٦٧ .

١٥ – راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٥٢ ؛ السخاوى : وجيز الكلام جـ٢ ، ص ٥٤٨ ، وجـ ٣ ، ص ٩٦٠ ؛ وراجع ابن حمصى : حوادث الزمان ، جـ١ ، ص ٢١٩ و جـ٣ ، ص ٤٤ .

١٦ – راجع ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٣ ، ص ١٠٣٠ ؛ ابن الحمصى : حوادث الزمان جـ١ ، ص ٢١٩ و جـ٢ ، ص ٧٧ و جـ٣ ، ص ٤٤ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن شهبة ، جـ٣ ، ص ٦٦٦ .

١٧ – راجع تقى الدين الفاسى : العقد الثمين ، جـ٦ ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

١٨ – راجع على سبيل المثال الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٧٠ و ٥٢٤ وابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، القسم الأول ، ص ٥٠ والقسم الثانى ، ص ٢٩٢ .

١٩ – تولى ابن لهيعة قضاء مصر سنة خمس وخمسين ومائة من الهجرة ، من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ؛ الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٦٨ ؛ وراجع ابن حجر : رفع الإصر ، القسم ، ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

٢٠ – راجع الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٧٠ ؛ وابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، القسم الثانى ، ص ٢٩٢ .

٢١ – قرر الظاهر بيبرس أربعة قضاة بمصر منذ سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م ، وهم شافعى ، مالكى ، وحنفى ، وحنبلى ، واستمر الأمر على ذلك حتى نهاية العصر المملوكى . راجع المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٠١ .

٢٢ – جامع محمود بسفح جبل المقطم ، ينسب لمحمود بن سالم بن مالك من أجناد السرى بن الحكم أمير مصر بعد سنة مائتين من الهجرة ، ومحمود هذا كان جندياً وبنى هذا المسجد الجامع . راجع المقريزى: الخطط جـ٢ ، ص ٢٩٦ .

٢٣ – راجع ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر جـ١ ، ص ٤٧ – ٥٠ . وراجع السخاوى : التبر المسبوك جـ١ ، ص ٦١ – ٦٢ وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفاطميين عندما استولوا على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م لم يأخذوا برؤية الهلال فى الصوم والفطر ، بل اعتمدوا على الحساب ، ولذا هدد جوهر الصقلى من حاول التماس هلال شوال سنة ٣٥٨هـ ، وأعلن زوال الاعتماد على الرؤية . (راجع المقريزى : المقفى جـ٣ ، ص ١٠١ و ص ١٠٤ والخطط جـ٢ ، ص ٢٨٦ ، و٢٣٩ ، ٣٤١ واتعاظ الحنفا جـ ١ ، ص ١١٦) وصار الهلال بالعدد شهراً ثلاثين وشهراً تسعاً وعشرين فى الصيام والفطر وغير ذلك . راجع ابن حجر : رفع الإصر ، ترجمة أبى الطاهر الذهلى محمد بن أحمد ، ونقل هذه الترجمة فن كست فى ملاحق " الولاة والقضاة " للكندى ص ٥٨٤ . وذكر الدكتور جمال الدين الشيال أن المذهب الشافعى لا يقيد أتباعه عند صيام رمضان بضرورة رؤية الهلال ، ورأيهم فى ذلك أن التعبد فى دخول الصوم والخروج منه بالرؤية والحساب جميعًا ، فهما كالظاهر والباطن ، إذا أشكل الأمر فى أحدهما التمس فى الآخر ، فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد ، والحساب كالباطن لأنه معقول ، وهو يستعمل من أول كل سنة ، ثم

يراعى طلوع الهلال ، فإن وافق الحساب الرؤية فقد اتفق الظاهر والباطن ، وإن وفى الحساب ولم يطلع الهلال علم أنه غم أو وقع فى نظره إخلال . راجع تعليقه فى اتعاظ الحنفا جـ١ ، ص ١١٦ . وأقول : إنه لمن دواعى العجب أن يهتم الفاطميون اهتماماً كبيراً برصد الكواكب ولا يهتمون بتحرى الهلال ، راجع الخطط جـ٢ ، ص ٤٤٤ .

٢٤ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ١١٠ ؛ وراجع ابن الصيرفى : نزهة النفوس جـ٣ ، ص ٢٨٦، وإنباء الهصر ، ص ٢٦٥ ؛ وراجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦١ ؛ وراجع الخطط، جـ٢ ، ص ٤٥٥ .

٢٥- راجع ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٢٦٥ و ص٤٠٦ ؛ السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٢ ، ص ٧٦٦ .

٢٦ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ٣ ، ص ٤٧٥ ؛ وابن الصيرفى : فى نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦.

٢٧ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٤٧ و ص ٥٢ ؛ وانظر ابن الصيرفى : السابق والصفحة نفسها .

٢٨ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٢٣٧ .

٢٩ - راجع ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٢٦٥ ؛ وراجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٢٣ .

٣٠ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ٣ ، ص ٤٧٥ ، ٥١٨ و جـ٤ ، ص ١٨٤ و ٢٢٧ و ٢٢٨ ؛ ابن الصيرفى فى : نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٣٨٩ و جـ٣ ، ص ٢٨٦ ؛ السخاوى : وجيز الكلام جـ٢ ، ص٥٤٨ ، جـ٣ ، ص ١٠٩٨.

٣١ - السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، و ص ٣٠٥ .

٣٢ - عن بلاد الشام راجع ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ ؛ ابن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ٢٠٣ ، وراجع أيضًا جـ٣ ، ص ٤٤ . وعن بلاد الحجاز راجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦١ ؛ الفاسى : شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ٤٠٥ .

٣٣ - عن بلاد الشام راجع النويرى : نهاية الأرب جـ٣٣ ، ص ١٨٦ وجـ ٣٢ ، ص ٥٨ ؛ ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٣ ، ص ١٠٣٠ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، جـ٣ ، ص ٦٦٦ ؛ السخاوى : وجيز الكلام جـ٣ ، ص ١٠٩٨ ؛ ابن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ١ ، ص ٢١٩ ؛ راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٢ ، حوادث سنة ٨٠٢هـ ، ص ١١٠ . وعن بلاد الحجاز راجع ابن فهد: اتحاف الورى جـ٣ ، ص ١١٣ وص ٤٧٢ وجـ٤ ، ص ٣٥٠ ؛ وراجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٦ ، والفاسى: العقد الثمين ، جـ١ ، ص ١٩٨ .

٣٤ - ابن فهد : اتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ٢٣٣ .

٣٥ - راجع الفاسى : شفاء الغرام جـ٢ ، ص ٤٠٩ ؛ ابن فهد : اتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ٥١٩ .

٣٦ - يذهب هيل في كتابه (العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية) ترجمة د. أحمد فؤاد باشا ، ص ٦٢ - ٦٣ إلى أن " علم الميقات " جزء أساسي من الممارسة الفلكية الإسلامية ، حيث إن الفترات الزمنية المسموح بها شرعاً للصلوات الخمس تحدد بدلالة الموقع الظاهري للشمس في السماء بالنسبة إلى الأفق المحلي ، وهذه الأوقات تتغير على مدار العام وتعتمد على خط العرض المحلي . وفي القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ظهر نظام " المؤقت " كفلكي محترف مسؤول بالدرجة الأولى عن تنظيم أوقات الصلاة ، وظهر في الوقت نفسه فلكيون بلقب " ميقاتي " تخصصوا في تحديد الوقت الفلكي . وكان تحديد أوقات الصلاة قبل القرن السابق من مهمة المؤذن .

٣٧ - لدينا خبر ذكره ابن واصل في " مفرج الكروب " جـ٤ ، ص ١٧٣ " لخروج جماعة الشهود لتراءي الهلال بدمشق مع قاضي القضاة بها جمال الدين المصري (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) .

٣٨ - راجع المقريزي : السلوك ، جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٥ - ٩١٦ ؛ ابن الصيرفي : نزهة النفوس ، جـ٣، ص ٢٨٦ .

٣٩ - السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٥ ، ص ١٦٨ .

٤٠ - عنه راجع المقريزي : الخطط جـ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

٤١ - ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ، جـ٣ ، ص ٢٠٩ .

٤٢ - ابن قاضي شهبة : السابق ، جـ٣ ، ص ٢١٠ ، وعنه راجع ابن الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص ١٤٨ .

٤٣ - راجع السخاوي : وجيز الكلام جـ٣ ، ص ١١٠١ ؛ وراجع أخبار أخرى لدى ابن قاضي شهبة : السابق، جـ٤ ، ص ٥١ ؛ السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٥ ، ص ١٠٨ و جـ٨ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ووجيز الكلام جـ٢ ، ص ٣٩٢ .

٤٤ - المقريزي : المقفى ، جـ١ ، ص ٢٨٠ .

٤٥ - السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص ١٥١ - ١٥٢ ، وراجع وجيز الكلام جـ٢ ، ص ٧٣٠ .

٤٦ - راجع السخاوي : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦١ .

٤٧ - راجع السخاوي : السابق ، جـ١ ، ص ٦٠ - ٦١ .

٤٨ - رراجع الصيرفي : إنباء الهصر ، ص ٣٣٢ .

٤٩ - ذكر المقريزي في " الخطط جـ٢ ، ص ٣٧٩ " أن المدرسة المنصورية بخط بين القصرين بالقاهرة أنشأها هي والقبة الملك المنصور قلاوون الألفي (٦٧٨ - ٦٨٩هـ) وهي والقبة داخل المارستان المنصوري الكبير.

٥٠ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ٤ ، ص ١١٠ ؛ ابن الصيرفي : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ .

٥١ - راجع ابن الصيرفي : إنباء الهصر ص ٤٠٦ و ص ٤١٥ ، وراجع أيضاً ص ٢٥٤ ؛ السخاوي : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦١ .

٥٢ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ٣ ، ص ٤٧٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ص ٩١٥ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ .

٥٣ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ٤ ، ص ٢٢٧ ؛ وراجع المقريزى : السلوك جـ٤ قسم ٢ ، ص ٩١٥ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٢٢٣ .

٥٤ - ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ .

٥٥ - المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٥ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ .

٥٦ - كان الهلال يُرى قبل عصر المماليك من جبل المقطم وأشار إلى ذلك الكندى فى " الولاة والقضاة ص ٣٧٠ " ونقل المقريزى فى " الخطط جـ٢ ، ص ٤٥٥ " عن القضاعى (ت ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م) أن قضاة مصر كانوا يخرجون لنظر الأهلة كل سنة من " دكة القضاة " المرتفعة عن المساجد بجبل المقطم. ولعل الرؤية - فى العصر المملوكى - كانت من هذا المكان أيضاً وإن لم ترد روايات تدلنا على ذلك.

٥٧ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ٤ ، ص ٢٣٨ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، طباعة الكليات الأزهرية، ص ٢١٧ .

٥٨ - ابن حجر : إنباء الغمر جـ٤ ، ص ٢٣٨ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٢٥٩ .

٥٩ - السخاوى : وجيز الكلام جـ٣ ، ص ١٠١١ . وعن سرياقوس راجع المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٢١ .

٦٠ - ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ١٠٨ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، طباعة الكليات الأزهرية ، ص ٢١٧ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٣٨٩ ؛ وراجع المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، قسم ٢، ص ٨١٥ .

٦١ - ابن حجر : السابق والصفحة نفسها ؛ السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠١١ .

٦٢ - ابن حجر : السابق ، جـ٤ ، ص ١٨٤ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٠ .

٦٣ - السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٢ ، ص ٧٦٦ .

٦٤ - راجع النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣٢ ، ص ٥٨ .

٦٥ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٠ ، جـ٣ ، ص ٢٣٧ .

٦٦ - راجع ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٣ ، ص ١٠٣٠ ؛ ابن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ١، ص ٢١٩ .

٦٧ - راجع ابن الحمصى : السابق والصفحة نفسها .

٦٨ - راجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦١ ؛ الفاسى : العقد الثمين ، جـ٦ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣؛ وراجع جبال مكة لدى ابن فهد : اتحاف الورى ، جـ٤ ، ص ١٣٢ - ١٦٧ ، و ١٧٥ - ١٨٥ ، ١٩٠ - ٢٠٤ .

٦٩ - راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠٩٥ .

٧٠ - يبحث أرباب التقاويم فى حركات الكواكب والنجوم ، وتحديد طول السنة الشمسية ، واستخراج التقويم من الزيج وعمل الجداول الفلكية وغير ذلك . راجع الصفدى : الوافى بالوفيات جـ٢ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ، جـ٢١ ، ص ٢٨٢ ؛ المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٥ ؛ السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٢ ، ص ٧٣٠ . ويذكر هنا أن الملك الظاهر بيبرس كان مولعاً بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم . راجع الكتبى : عيون التواريخ ، جـ٢١ ، ص ١٥٣ ؛ ابن الفرات ، جـ٧ ، ص ٨٦ .

٧١ - راجع ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ١٠ ، ص ٩٤ .

٧٢ - ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، جـ٢ ، ص ٣٣٥ .

٧٣ - ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٧٤ - راجع ابن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ١٦١ .

٧٥ - راجع المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٦ ؛ وراجع ابن الصيرفى نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ .

٧٦ - راجع ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص ٣٨٩ ؛ وراجع المقريزى : السلوك جـ٣ ، قسم ٢ ، ص ٨١٥ .

٧٧ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

٧٨ - راجع ابن الصيرفى : إنباء الغمر ، ص ٤٣٦ ؛ وراجع خبر آخر ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٣ ، ص ٧٧٨ .

٧٩ - راجع ابن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ١ ، ص ٢١٩ .

٨٠ - راجع المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٦ ؛ وراجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٢ ، ص ٧٦٦ .

٨١ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٢٢٨ ؛ السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٢٢٤ .

٨٢ - راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ٩٦٠ .

٨٣ - راجع ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٣ ، ص ٦٦٢ و ٨٥٥ وقارن بينها وبين ص ٩٢٥ .

٨٤ - راجع ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ وإنباء الهصر ، ص ٤٠٦ .

٨٥ - راجع النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣٣ ، ص ١٨٦ .

٨٦ - راجع ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص ١١٨ ؛ وراجع ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

٨٧ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٤٧ . ويذكر هنا أن المآذن كانت تنار فى عدة مناسبات دينية فى مصر وبلاد الشام منها عند استقبال هلال رمضان ، وفى النصف من شعبان ، وعرف هذا المظهر فى بلاد الأندلس أيضاً . راجع النويرى : نهاية الأرب جـ٣٢ ، ص ٥٨ . كما كانت مشاعل المقام

بالمسجد الحرام توقد أيضاً فى ليلة هلال شهر رجب وربيع الأول وفى العشر الأخير من رمضان وفى ليلة العيد ، وينشد المؤذنون المدائح النبوية وغيرها ليلاً فى المنائر بمكة المكرمة . راجع ابن فهد : اتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ٥٢٧ .

٨٨ - راجع ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٢٥٤ و ٤٠٦ .

٨٩ - راجع ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ١١٧ و ٢٨١ و ٢٩٠ و ٣١٦ و ص ٣٣٥ و ٣٤٣ و ٣٥٩ و ٣٧١ و ٣٩٥ و ٤٢٧ و ٤٣٦ و ٤٨٧ و ص ٥١٢ . وحضر المؤرخ ابن الصيرفى معظم هذه اللقاءات مع السلطان ، وذكر ذلك فى كتابه السابق .

٩٠ - راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٢ ، ص ٧٦٦ .

٩١ - راجع ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ٧٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص ١١٨ .

٩٢ - ابن الجزرى : السابق ، جـ٢ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

٩٣ - ابن الجزرى : السابق ، جـ٣ ، ص ٨٧٢ .

٩٤ - راجع ابن فهد : اتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

٩٥ - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، جـ٧ ، ص ١٥٤ .

٩٦ - راجع المقريزى : السلوك جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩١٥ - ٩١٦ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٥١٨ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

٩٧ - المقريزى : السابق ، ص ٩١٦ .

٩٨ - ليلة الاثنين أى يوم الأحد ليلاً وهو الثلاثون من رمضان بناءً على أن رمضان بدئ يوم السبت بشهادة الشاهد .

٩٩ - راجع هذه العبارة عند ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٨٧ .

١٠٠ - ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٥١٨ .

١٠١ - ليلة الأحد أى يوم السبت ليلاً وهو التاسع والعشرون من رمضان بناء على أن رمضان بدئ يوم السبت بشهادة الشاهد .

١٠٢ - ابن حجر : السابق والصفحة نفسها .

١٠٣ - المقريزى : السابق والصفحة نفسها .

١٠٤ - ابن حجر : السابق والصفحة نفسها .

١٠٥ - راجع السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٥ ، ص ١٨٨ .

١٠٦ - راجع ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ٣ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

١٠٧ - راجع المقريزى : السابق ، ص ٩١٦ ؛ ابن الصيرفى : السابق ، ص ٢٨٧ .

١٠٨ - ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٢٦٥ .

١٠٩ - راجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٢٢٣ .

١١٠ - راجع السخاوى : التبر المسبوك طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ، ص ١٨٦ .

١١١ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٥٢ ولكن ابن حجر يذكر أن أول عيد فطر جاء يوم جمعة أول سنة تقرر فيها الأشرف برسباى كانت سنة ٨٢٨هـ ، والصحيح أنه توفى سنة ٨٢٥ هـ . وراجع السخاوى وجيز الكلام جـ٢ ، ص ٥٤٨ .

١١٢ - كان القضاة يرفضون شهادة من لم يزكون أو من لم يأتوا بشهادة آخر . راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٦٧ ؛ ابن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ١ ، ص ٢١٩ .

١١٣ - راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠٩٨ .

١١٤ - راجع ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ٧٧ ؛ وراجع النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣٣ ، ص ١٨٦ ؛ وابن الكثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص ١١٨ .

١١٥ - ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص ١١٨ .

١١٦ - راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠١١ .

١١٧ - راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ .

١١٨ - للوقوف على رؤية هلال رمضان وشوال فى مصر والشام والحجاز فترة البحث راجع النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣٣ ، ص ١٨٦ ؛ ابن الجزرى : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ٧٧ و ٢٩٧ - ٢٩٨ ، جـ٣ ، ص ٨٧٢ ؛ المقريزى : السلوك جـ٣ ، قسم ٢ ، ص ٨١٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٤ ، ص ١١٨ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ١١٠ ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ و ٤٧٥ ، جـ٤ ، ص ٤٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٦٢ ، ١٨٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، جـ٣ ، ص٢٤٥ ؛ والسخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٠ - ٦٢ و ٢٥٩ ونسخة المكتبات الأزهرية ، ص ٢١٧ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٣٨٩ .

١١٩ - يذكر هنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أفطر فى رمضان فى يوم ذى غيم ، ورأى أنه قد أمسى وغابت الشمس ، فجاء رجل فقال : قد طلعت الشمس . فقال عمر : الخطيب يسير وقد اجتهدنا . وفى رواية أنه قال : ما نبالى ونقضى يومًا مكانه . وفى رواية أنه لم يقض . ورجح البيهقى رواية القضاء لورودها من جهات متعددة . راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠٩٦.

١٢٠ - راجع السخاوى : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٠ .

١٢١ - راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠٩٥ - ١٠٩٦ .

١٢٢ - راجع ابن الحمصى : حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ٢٠٢ ، وراجع خبراً آخر خاص بالغيوم التى استمرت ثلاثة أيام لدى السخاوى : التبر المسبوك طباعة مكتبة الكليات الأزهرية ص ١٨٦ ، ويذكر هنا أيضًا أن أهل مكة صاموا سنة ٨٩٣هـ اعتماداً على العدد لعدم تحدث من يوثق برؤيته حول هلال رمضان . راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠٣٧ .

١٢٣ - النويري : نهـاية الأرب ، جـ٣٢ ، ص ٥٨ ، وذكـر أنه نقل هذا الخـبـر عـمن يثق به ، ولكنه -النويري- لم يعلم سنة حدوثه .

١٢٤ - راجع السخاوي : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ١٠٩٨ .

١٢٥ - راجع السخاوي : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٦ .

١٢٦ - راجع على سبيل المثال ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ ، جـ٤ ، ص ٤٧ ، ٢٣٨ ، ٨٤٢؛ السخاوي : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن الصيرفي : إنباء الهصر ، ص ٣٣٢ ، وقارن بين ما سبق وبين ص ٤٠٦ و ٤١٥ حيث في الصفحتين الأخيرتين رؤية الهلال قام بها القضاة ومن ثم لم تحدث أية مشكلة . على العكس من الصفحات السابقة لدى ابن حجر وابن الصيرفي .

١٢٧ - راجع على سبيل المثال النويري : نهاية الأرب ، جـ٣ ، ص ١٨٦ ؛ السخاوي : وجيز الكلام جـ٣ ، ص ١٠٩٨ ؛ ابن الحمصي : حوادث الزمان ، جـ١ ، ص ٢١٩ .

١٢٨ - الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جـ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن فهد : اتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ١١٣ .

١٢٩ - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، جـ٧ ، ص ٢٦٠ .

١٣٠ - ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ١٢٤ .

١٣١ - ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ١٨١ .

١٣٢ - ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان ، جـ٢ ، ص ١٠٣ .

١٣٣ - ذكر المقريزي في : السلوك جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٢٥ حدوث ذلك الاختلاف سنة ٧٤٨ هـ ، في حين أن ابن فهد في: اتحاف الورى جـ٣ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ذكر حدوث الاختلاف السابق سنة ٧٤٧هـ .

١٣٤ - ابن تيمية : فتاوى ابن تيمية ، جـ٢٥ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ، ٢٠٢ ، وأشار الإمام ابن تيمية أيضاً أنه إذا أخطأت طائفة من الناس - وليس كل الناس - في يوم الوقوف بعرفة لم يجزأهم هذا الخطأ ، كما أنه إذا انفرد برؤية ذي الحجة واحد من الناس لم يجزأ له ، أن يقف بعرفة قبل الناس لمخالفته للجماعة . راجع ص ١٠٨ ، وص ٢٠٥ .

١٣٥ - راجع ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ٢٧٠ .

١٣٦ - راجع الفاسي : العقد الثمين ، جـ١ ، ص ١٩٨ ؛ ابن فهد : السابق ، جـ٣ ، ص ٤٧٢ .

١٣٧ - الفاسي : شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ٤٠٥ .

١٣٨ - راجع الفاسي : العقد الثمين ، جـ١ ، ص ٢٠٠ ؛ شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ ؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ٥١٩ .

١٣٩ - راجع السخاوي : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٣٠٥ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ٤ ، ص ٢٦١ .

١٤٠ - راجع ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ٤ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

١٤١ – راجع السخاوي : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ٩٦٠ وقد حدث هذا الأمر من قبل سنة ٨٤٣هـ : راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ١٣١ .

١٤٢ – راجع السخاوي : التبر المسبوك ، جـ١ ، ص ٦٦ .

١٤٣ – النويري : نهاية الأرب ، جـ٣٢ ، ص ٣٣٢ .

١٤٤ – ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ٥٦٢ .

١٤٥ – راجع ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص ٥٢ – ٥٣ .

١٤٦ – راجع السخاوي : التبر المسبوك طباعة مكتبة الكليات الأزهرية ، ص ١٨٦ .

١٤٧ – لم تكن وقفة عيد الأضحى واحدة فى بعض المرات ، بل كانت فى يوم بمكة ، وفى يوم آخر بمصر والشام ، من ذلك مثلاً سنة ٨٢٣ هـ (راجع المقريزى : السلوك جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٥١٩) وسنة ٤٢٨هـ (راجع المقريزى : السلوك ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص ٧٠٠) وسنة ٨٦٨ هـ وفيها كان العيد يوم الاثنين بمصر والشام ، بينما وقف فيه الحجاج بعرفة (راجع السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٢ ، ص ٧٦٦) وراجع فى ذلك أيضاً السخاوى : وجيز الكلام ، جـ٣ ، ص ٩٠٨ ؛ ابن الصيرفى : إنباء الهصر، ص ١١٥ .

١٤٨ – ابن تيمية : فتاوى ابن تيمية ، جـ٢٥ ، ص ١٠٠ .

١٤٩ – الفاسى : شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ٤١٢ .

١٥٠ – ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، جـ٢ ، ص ٥٤٨ .

١٥١ – الفاسى : العقد الثمين ، جـ٤ ، ص ٣٦١ .

١٥٢ – ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، جـ٢ ، ص ٤٥٧ .

١٥٣ – اطلعت على مصادر كثيرة خاصة بتاريخ الأمويين والعباسيين والأيوبيين ، وبتاريخ المغرب والأندلس فلم أجد تناولاً لهذه الظاهرة إلا فى المصادر المملوكية الخاصة بتاريخ المماليك ، اللهم إلا خبراً واحداً متصلاً بالأندلس سنة ٧٠٢هـ خاصاً بحدوث مشكلة فى الصوم فى هذه السنة بسبب الغيوم الكثيفة التى تراكمت – كما جاء عدة شهور – فلم يتمكنوا من رؤية هلال رمضان إلا بعد بدايته بأربعة أيام . راجع النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣٢ ، ص ٥٨ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) :

١ – حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين ، عالم الكتاب .

٢ – المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، جـ١٠ ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٩م .

ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ / ١٢٢٧م) :

٣ – مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدى . جـ٢٥ مصور عن الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ .

ابن الجزرى (شمس الدين محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) .

٤ – تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه . تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى . المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) :

٥ – رفع الإصر عن قضاة مصر . تحقيق حامد عبد المجيد ومحمد المهدى أبو سنة .

٦ – إنباء الغمر بأبناء العمر . تحقيق حسن حبشي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

ابن الحمصى (شهاب الدين أحمد بن محمد ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م) :

٧ – حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران . تحقيق عبد السلام تدمرى، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

أبو داود (سليمان بن الأشعث ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨م) :

٨ – سنن أبي داود . دار الحديث . حمص . سورية .

السخاوى (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) :

٩ – التبر المسبوك في ذيل السلوك ، جـ١ تحقيق نجوى مصطفى ولبيبة إبراهيم . مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ونسخة أخرى طباعة مكتبة الكليات الأزهرية .

١٠ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان.

١١ - وجيز الكلام فى الذيل على دول الإسلام . تحقيق بشار عواد وعصام الحرستانى وأحمد الخطيمى . مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

الصفدى (خليل بن أيبك ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) :

١٢ - الوافى بالوفيات . دار صادر ، بيروت .

ابن الصيرفى (على بن داود ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) :

١٣ - إنباء الهصر بأنباء العصر ، تحقيق حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢م.

١٤ - نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان . تحقيق حسن حبشى . وزارة الثقافة ١٩٧٠م.

الفاسى (محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) :

١٥ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق عمر عبد السلام تدمرى . دار الكتاب العربى .

١٦ - العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) :

١٧ - تاريخ ابن الفرات جـ٧ ، تحقيق قسطنطين زريق .

ابن فهد (النجم عمر بن فهد ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) :

١٨ - إتحاف الورى بأخبار أم القرى . تحقيق فهيم محمد شلتوت وعبد الكريم باز ، مطبوعات جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

ابن قاضى شهبة (تقى الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م) :

١٩ - تاريخ ابن قاضى شهبة . تحقيق عدنان درويش . دمشق ١٩٧٧م .

الكتبى (محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) :

٢٠ - عيون التواريخ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ، منشورات الجمهورية العراقية ١٩٨٤م.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) :

٢١ - البداية والنهاية ، مكتبة المعارف - بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٨٣م.

الكندى (محمد بن يوسف ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) :

٢٢ – الولاة والقضاة ، تهذيب رفن كست . مؤسسة قرطبة ، الهرم .

ابن ماجة (محمد بن يزيد ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨م) :

٢٣ – سنن ابن ماجة . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . دار الفكر – بيروت.

المقريزى (أحمد بن على ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) :

٢٤ – المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوى . دار الغرب الإسلامى ، لبنان.

٢٥ – السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة و سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب المصرية .

٢٦ – الخطط . طبعة بولاق .

٢٧ – اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، تحقيق جمال الشيال . القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

النويرى (أحمد بن عبد الوهاب ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) :

٢٨ – نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٣٢ ، تحقيق فهيم شلتوت، مطبعة دار الكتب والوثائق بالقاهرة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

ابن واصل (محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) :

٢٩ – مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب، جـ٤ ، تحقيق حسانين محمد ربيع، دار الكتب المصرية .

ثانيًا المراجع :

عبد الرحمن الحريرى : ٣٠ – كتاب الفقه على المذاهب الأربعة . دار الفكر ، بيروت ، لبنان.

هـيـل : ٣١ – العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية ، ترجمة أحمد فؤاد باشا . عالم المعرفة ، العدد ٣٠٥ يوليو ٢٠٠٤م.

د. عبد اللطيف بن محمد الحميد(*)

تاريخ الوقف فى المملكة العربية السعودية ق ٨ هـ - ١٤ هـ

مدخل :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ؛ وبعد :

فقد امتن الله عز وجل على الأمة الإسلامية بخصائص انفردت بها عن سائر الأمم توثق الروابط وتحقق التكافل بين الأغنياء والفقراء والموسرين والمعوزين ، وتجزل المثوبة للفريقين مع الاحتساب والنية الصالحة . ومن جملة هذه الخصائص الزكاة والصدقة والوقف والوصية وغيرها .

والوقف سنة نبوية ، وهدى راشدى ، سار على منواله الصحابة والتابعون والسلف الصالح ، ومن اقتدى بهم وسلك منهجهم على مر العصور والأزمان .

والوقف والتحبيس والتسبيل بمعنى واحد ، وهو لغة : الحبس عن التصرف .. وشرعًا له فى المذاهب الفقهية تعاريف متعددة : فالوقف عند أبي حنيفة : هو حبس العين على حكم ملك الواقف ، والتصدق بالمنفعة على جهة الخير ؛ وعند الجمهور والشافعية والحنابلة :

* - أستاذ مشارك - قسم التاريخ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض .

هو حبس مال يمكن الانتفاع به ، مع بقاء عينه بقطع التصرف فى رقبته من الواقف وغيره، على مصرف مباح موجود أو بصرف ريعه على جهة بر وخير تقربًا إلى الله تعالى ؛ وعند المالكية : هو جعل المالك منفعة مملوكة ولو كان مملوكًا بأجرة ، أو جعل غلته كدراهم لمستحق بصيغة مدة ما يراه المحبس (١).

ويتنوع الوقف إلى خيرى وأهلى . فالخيرى : هو ما يصرف فيه الريع ابتداءً على جهة من جهات البر ... والأهلى : هو ما يكون الاستحقاق فيه أول الأمر على معين واحداً أو أكثر ثم بعده على جهة بر (٢).

وقد أوضح الشيخ مصطفى الزرقا - رحمه الله - أن هناك شبهًا قويًا فى الموضوع بين الوقف والوصية ، وأن أحكام الوقف تستقى من الوصايا إلا ما افترق من بعض الوجوه فى الموضوعين ، ككون الوقف من الشخص فى صحته نافذاً فوراً من كل المال ، أما وصيته فمضافة إلى ما بعد الممات ، ومقيدة بثلث المال ، وأن لا تكون لأحد الورثة إلا بإجازة البقية، ونحو ذلك (٣).

ويقرر الدكتور محمد الكبيسى أن نظام الوقف فى الشريعة الإسلامية قد لاقى خلافًا بين الفقهاء فى أكثر مسائله .. فكان البحث فيه مجالاً فسيحًا للرياضة الفكرية ، وميدانًا رحبًا للوقوف على مسلك الفقهاء وطرق معالجتهم للقضايا (٤).

كما يشير من جهة أخرى إلى المخالفات التى وقع فيها بعض المسلمين فى الميراث .. وليس فى ذلك عيب على الوقف ونظامه ، وإنما جاء التطبيق العملى لهذه الأحكام خارجًا أحيانًا عن الأهداف التى شرعت لأجلها (٥).

والوقف من التبرعات المندوبة لقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾(٦) ، وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾(٧)؛ ولقوله ﷺ فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال " أصاب عمر بخيبر أرضًا ، فأتى النبى ﷺ فقال : أصبت أرضًا لم أصب مالاً قط أنفس منه ، فكيف تأمرنى به ؟ قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها ، فتصدق عمر ، أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث فى الفقراء والقربى والرقاب وفى سبيل الله والضيف وابن السبيل ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير متمول فيه " (٨).

وأول وقف فى الإسلام هو مسجد قباء الذى أسسه النبى ﷺ حين قدم مهاجراً إلى المدينة؛ ثم المسجد النبوى بناه الرسول ﷺ بعد أن اشترى أرض المسجد من غلامين يتيمين أنصاريين، وجعله وقفًا للمسلمين إلي قيام الساعة ... وكذا وقف النبى ﷺ سبعة حوائط بالمدينة. وتتابعت أواقف الصحابة رضوان الله عليهم، فأوقف أبو بكر وعمر وعثمان وعلى أوقافًا وأحباسًا للفقراء والمساكين وفى سبيل الله وابن السبيل. ودوّن الرواة أوقافًا أخرى للزبير، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وعائشة، وأسماء، وأم سلمة، وأم حبيبة، وصفية بنت حيى، وسعد بن أبى وقاص، وخالد بن الوليد، وسعد بن عبادة رضوان الله عليهم أجمعين(٩).

وفى العهدين الأموى والعباسى ازدهرت الوقوف فشملت تأسيس دور العلم والإنفاق على طلابه والقائمين عليه، وإنشاء دور العبادة والملاجئ والمكتبات. وصار للأحباس دواوين مستقلة ترعاها الدولة الإسلامية ويديرها القضاة والمفتون (١٠).

وفى العهدين المملوكى والعثمانى تضاعفت الأوقاف واهتم السلاطين والأمراء والوجهاء اهتمامًا ملحوظًا بالأوقاف على الحرمين الشريفين وطرق الحج والخدمات العامة الدائمة(١١).

ويشير المؤرخ التركى المعاصر يلماز أوزتونا إلى أن جميع منجزات المؤسسات الاجتماعية قد شيدت بفضل مؤسسة الأوقاف بمشاركة السلاطين والولاة وبقية المواطنين .. وتنوعت الأوقاف فى مجالات تفوق التصور ومنها : تجهيز الفتيات الفقيرات، ووصف الأزقة، وتأمين حاجة البارود لإحدى القلاع، وسداد ديون السجناء المعسرين، وعلى رأس المؤسسات الوقفية الخيرية : الجوامع، والمساجد، وسبيل الماء، والمدارس، ومؤسسات إطعام الفقراء، والمستشفيات، والخانات، والحمامات، ودور العجزة، والمصانع وغيرها(١٢).

ومع إطلالة القرن الرابع عشر الهجرى بدأ أفول الكثير من الأوقاف الإسلامية، ويعزو شكيب أرسلان - رحمه الله - ذلك إلي انحطاط القوة السياسية الإسلامية، وتلاعب النظار بالأوقاف، واستبداد بعض الحكومات بأوقاف المسلمين، وغلبة الدول المستعمرة على القسم الأكبر من العالم الإسلامى (١٣).

وقد شهدت العقود الأخيرة بحمد الله وعيًا دينيًا وصحوة إسلامية صاحبها انتعاش للأوقاف وإحياء لنشاطها من خلال المؤسسات الوقفية الرسمية فى البلاد الإسلامية، وعقد المؤتمرات والندوات المتخصصة، ونشر المؤلفات والأدبيات المتعلقة بنظام الوقف.

أنماط الوقف فى التاريخ المحلى السعودى :

من المعلوم سلفًا أن المجتمعات الإسلامية تتباين فى بيئاتها وظروفها التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية .. فيأتى التباين فى طبيعة الأوقاف وفق الظروف المحلية والمعطيات الذاتية ، مع الاتفاق فى المبادئ والأسس والضوابط الشرعية .

والمجتمع السعودى - وبخاصة فى وسط الجزيرة العربية - كان يعيش فى بيئة معزولة نسبيًا ، نائيًا عن الحواضر الإسلامية الكبرى التى كانت تنعم بالمبرات الخيرية الوقفية ؛ تحيطه ظروف قاسية مناخيًا واقتصاديًا . ومع كل هذا فإن مبدأ العمل الخيرى والوقف لم يغب عن أذهان القادرين والموسرين ، وفق الإمكانات المتاحة التى يغلب عليها وتتخذ جانب البساطة .

وسيتطرق الحديث هنا عن الأوقاف فى المجتمع السعودى فى مرحلتين : المرحلة الأولى قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ، والمرحلة الثانية : ما بعد الدعوة ، وما صاحب ذلك من وعى وتصحيح لبعض الأمور المتعلقة بالأوقاف من وجهة نظر شرعية .

المرحلة الأولى :

يمكن القول أن بلدة أشيقر(١٤) تعد نموذجًا مثاليًا لازدهار الوقف فى التاريخ المحلى السعودى فى المرحلة الأولى قبل قيام دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وقد أمدتنا الوثائق والصكوك الوقفية التى حفظتها الأجيال ، وأعاد نسخها النسّاخ ، أن أقدم وثيقة وقفية تعود إلى أوائل القرن الثامن الهجرى فى هذه البلدة ، وهى وقفية صبيح(١٥) المشهورة، ونصها(١٦) :

" بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . هذا ما وقف وحبّس وأبّد العبد الفقير إلى الله سبحانه الحاج صبيح عتيق عقبة حيطانه فى عكل على بير الفطقى ولهن من الماء ثلاث وقعات ونصف على بير الفطقى بحدودهن وحقوقهن أرضهن ونخلهن ومائهن وفنائهن وكل حق هو لهن داخل فيهن أو خارج عنهن . يحدهن من الغرب سور القرية ، ومن الشمال البير وطريق المسلمين ، ومن الشرق حريط أبا شقير . ومن الجنوب الجفرة والقطيعة والأحيمرى وقفًا حبسًا مؤبدًا محرمًا بجميع محارم الله تعالى التى حرم الله بها الزنا والربا وشرب الخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق وقفًا قائمًا على أصوله جاريًا على رسومه قائمًا على سبله ماض لأهله جائزًا لهم ، لايزده مرور الأيام والأزمنة إلا

تأكيداً ولا يكسبه تقلب الأوقات إلا تمهيداً وتأبيداً ، ولا يحله تطاول أمد ولا تقادم عهد ، وكلما تطاول عليه زمان أبده ، وكلما أتى عليه عصر جدده وأكده . لا يزال ذلك كذلك مادامت الدنيا وأهلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وليجدد فى كل عصر ذكره وتسمع الأسماع ما ذكر فيه من تجديد حكمه لينقله الخلف من السلف ، ولا يتعرض لإبطاله التلف وتنقبض عنه الأطماع الكاذبة وتقصر عن تناوله الأيدى الظالمة ، لا يزال هذا الأمر جارياً فى هذا الوقف المذكور علي شرائطه المذكورة والأحكام الموصوفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وولى الوقف المذكور إمام الجامع وله سدس حايط ونصف سدس حايط ، فإن كان الإمام فيه ضعف فيساعده المصلح من آل عقبة ، وإن ترك الإمام الولاية وكان الولى غيره فليس له شيء ويبدأ الولي بعمارة الوقف وكلما يزيد فى نمائه ، ثم ما حصل منه فيخرج منه دلو وحبلها على بير العصامية ، فإن تعطلت بير العصامية جعلت على بير غيرها مما ينتفع به المسلمون ، وفيه أيضًا ستون صاعًا تكون لمن يموت أكفانًا ولم يخلف ما يكفنه من أهل عكل وأهل الفرعة وأهل شقرا ، وما فضل بعد ذلك أطعمه الولى فى شهر رمضان المعظم ويكون سماطًا فى ليالى الجمعة وليالى الخميس وليالى الاثنين ، ويفرق منه ثلاثون صاعًا على الأرامل اللاتى يستحين ويشتهين ، ولا حرج على من حضره فى الأكل منه سواء كان غنيًا أو فقيراً أو بدويًا أو حضريًا، وإن أصاب الناس مجاعة فى غير شهر رمضان أطعمه الولى فى ذلك الوقت إذا رأى الصلاح فى ذلك ، ولا حرج على الولى ومن حضره فيما يأكلون عند الجذاذ . ولا يحل لأحد من خلق الله تعالى يؤمن بالله واليوم الآخر أن يعترض هذا الوقف بظلم أو نقصان ولا تغيير ولا تحريف ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه بقول أو عمل أو مشورة فالله حسيبه وطليبه ومجازيه ومعاقبه ومسايله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم الطامة يوم الحسرة يوم الندامة يوم يعض الظالم على يديه يوم الواقعة يوم الآزفة يوم الراجفة يوم الحاقة ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلي السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون يوم العرض يوم النشور يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا ، يوم يقول الكافر يا ليتنى كنت ترابًا ، يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا ، يوم نقول لجهنم هل امتلأت

وتقول هل من مزيد ، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وعلى المتعرض لهذا الوقف لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً ولا صلاة ولا نفلاً ، وعجّل الله فضيحته فى الدنيا وضاعف له العذاب فى الآخرة ، وجعله من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ... "

وقد أصبحت وقفية صبيح تلك مصدر إلهام لأهالى بلدة أشيقر ، نسج على منوالها الواقفون على مرّ الأجيال .. ومن ذلك الأمثلة الآتية :

- وقف صقر بن قطامى بن صقر عام ٩٤٠ هـ . وقد نص الواقف على أن وقفه " وقفًا مؤبدًا منجزاً شرعياً ثابتاً لازمًا على مذهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل .. " (١٧).

- وقف رميثة بن قضيب عام ٩٨٦ هـ " ... أرضه ونخله وأثله بحدوده وحقوقه ومائه وقائه وكافة منافعه الداخلة فيه والخارجة منه ... حكمه فى الأكل من غلته حكم وقف صبيح.. " (١٨).

- وقف صالح بن إبراهيم بن عيسى عام ١٣٠١هـ " .. وقف ما فى ملكه وتحت تصرفه وهى أرضه المسماة بالنميلات خارج عنه سدسها وقف الأرض المذكورة على صوام أشيقر على صفه وقف صبيح .. " (١٩).

وفى الجملة فإن أوقاف أهالى أشيقر عديدة ومتنوعة وموثقة من لدن علماء البلدة ونسّاخها. فمنها ما كان لصوام رمضان ولعمّار المساجد ولأئمتها ولمسارجها ولمدرسة البلدة ولدلاء السقيا (٢٠). ولطلبة العلم بما يحتاجون إليه من مصاحف وكتب ؛ إلى جانب عشرات الأوقاف المخصصة للضيوف القادمين إلى البلدة (٢١).

وعلى مر الأجيال حرص وكلاء الأوقاف والقائمين عليه على استثمار الوقف وضمان إحيا ءه عن طريق عقود المغارسة الزراعية .. ويوضح ذلك نص الوثيقة الآتية :

" ... أن عبد الله بن سليمان بن عياف حال كونه وكيلاً على أوقاف الصوام التى فى أشيقر غارس على بن عبد الرحمن الرزيزا على العقار الموقوف على الصوام فى أشيقر وقف رميثة بن قضيب .. غارسة على عرف البلد الجارى بالنصف للعامل ونصف لأهل الأرض وهم الصوام ... " (٢٢).

ومن النماذج الوقفية القديمة فى المملكة فى بلدة مقرن[٢٣] فى الرياض وقف جليلة بنت عبد المحسن بن سعيد سنة ٩٦٩ هـ ونصها : " أن جليلة بنت عبد المحسن بن سعيد وقفت خمس حديقتها المسماة بالكبيشية الكائنة فى مقرن مشاعاً ، وشهرتها تغنى عن حدها ، وهى يومئذ فى ملكها على أختها مريم ، وعلى نسلها وما تناسلوا .. " (٢٤).

المرحلة الثانية :

بظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى بدأت ملامح نهضة دعوية كان لها أثرها الكبير فى تصحيح العقيدة والأوضاع المخالفة للشريعة ، وتصحيح بعض المسائل الفقهية فى أوضاع الأوقاف فى نجد[٢٥].. كمنع نسل البنات من الاستفادة من الوقف ، وحصر الوقف على الورثة ، واستثناء غلة الوقف مدة الحياة (٢٦).

ويمكن أن نشير هنا إلى نماذج وقفية من مدن وقرى متعددة فى مرحلة ما بعد ظهور الدعوة الإصلاحية .. ففى شقراء (٢٧)، أوقف الشيخ محمد بن عبد الله الأمير المتوفى سنة ١٢٣٢هـ كتبه (٢٨). وأوقف الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين المتوفى سنة ١٢٣٧هـ سلاحه فى سبيل الله وكتبه ومنها : مسند الإمام أحمد وصحيح البخارى ومفتاح دار السعادة وإعلام الموقعين ومختصر الشرح الكبير والموطأ (٢٩). وكذا أوقف محمد بن عبد الله بن ناصر كتبه فى ١٣٣٨هـ (٣٠). وأوصى عبد العزيز بن إبراهيم الجميح بثلث تركته وقفًا يجعل فى أرض ونخل قادم فى غلته عشرون وزنه تمر للصوام فى رمضان فى المسجد الجامع بشقراء ، وعشر وزان للقراء والمساكين ، وخمسة عشر وزنه لسراج المسجد الجامع ، وخمس وزان لسراج مسجد الحسينى ، وعشر وزان للإمام فى المسجد الجامع ، وسبع وزان للمؤذن ، وعشر وزان لمعلم القرآن فى المدرسة إلخ (٣١).

وقد تجاوزت سبل الوقف فى هذه البلدة إلى وقف الآلات المتداولة فى المجتمع مثل وقف حمد بن يحيا[٣٢] الذى أوصى بوقف " المنحاز " و " المقرصة " و " القفان " و " الكلاّب مقلاع الضروس " .

وفى المجمعة[٣٣] أوقف عبد الرحمن بن إبراهيم بن جماز أرضًا ونخلاً على مسجد الحزم تصرف غلته أثلاثًا لإمام المسجد وصوام رمضان ولسراج ودلو المسجد (٣٤).

وفى عنيـــزة[٣٥] أوقف محمد العبد الله الخشاش داره على ابنته ثم ذريتها ما تعاقبوا وتناسلوا [٣٦]. وهناك وصايا أخرى لبعض آل بسام جمعت فى نصوصها بين الوقف والوصية[٣٧].

وفى مدينة الرس[٣٨] جملة من الأوقاف محصورة فى وثيقة واحدة، مما يعنى حرص الأهالى وعلماء البلدة على تدوين وجمع الأوقاف القديمة والتالية فى سجل موحد [٣٩]. وقد سارت على هذا النهج العديد من البلدان مثلما ذكرنا فى أوقاف بلدة أشيقر.

وقد يكون من المستحيل حصر الأوقاف وتعدادها فى المدن والقرى فى المملكة العربية السعودية نظراً لقدم بعضها، واتساع رقعتها .. ولكن يمكن إعطاء نماذج وقفية من خلال الجداول الآتية :

جدول رقم (١)
نماذج وقفية من بعض مدن وقرى المملكة العربية السعودية (رجال)

م	اسم المدينة	صاحب الوقف	نوع الوقف	تاريخ الوقف
١	مكة المكرمة	عاشور مورده	سكنى	
٢	المدينة المنورة	البوصة والنشير	سكنى تجارى	
٣	صبيخ (الرياض)	غانم بن أبى نهيد	زراعى	ق ١٠هـ
٤	الرياض	الإمام فيصل بن تركى	دار الأيتام	١٢٥٩هـ
٥	الرياض	الأمير محمد بن فيصل بن تركى	كتب	١٢٨٧هـ
٦	أشيقر	الحاج صبيح	أرض ونخيل وماء وإطعام	أوائل ق٨هـ
٧	أشيقر	صقر بن قطامى بن صقر	أرض ونخيل وماء وإطعام	٩٤٠ هـ
٨	أشيقر	رميثة بن قضيب	أرض ونخيل وماء وإطعام	٩٨٦ هـ
٩	أشيقر	صالح بن إبراهيم بن عيسى	أرض ونخيل وماء وإطعام	١٣٠١هـ
١٠	شقراء	محمد بن عبدالله الأمير	كتب	١٢٣٢هـ
١١	شقراء	عبدالعزيز بن عبدالله الحصين	سلاح وكتب	١٢٣٣ هـ
١٢	شقراء	عبدالعزيز بن إبراهيم الجميح	أرض ونخل	١٢٨٨هـ
١٣	عنيزة	محمد العبدالله الخشاش	دار	١٣٣٦هـ

م	اسم المدينة	صاحب الوقف	نوع الوقف	تاريخ الوقف
١٤	الرس	جملة أوقاف أهالي البلدة	زراعية	ق١٢-١٤هـ
١٥	المجمعة	عبدالرحمن بن إبراهيم بن جماز	أرض ونخل	١٣٠٧هـ
١٦	جلاجل	آل مجحد	أرض ونخل	قبل ١٢٦٣هـ
١٧	ثرمداء	عبدالله بن سليمان الدريبي	نخل	قبل ١٣١٢هـ
١٨	مرات	جملة أوقاف أهل البلدة	أسبال صوام مسجد البلدة	ق١٢-١٤هـ
١٩	الأحساء	رشيد المجاحفة	أوقاف على مسجد	ق١٢هـ
٢٠	الطائف	مبارك بن حمود بن علي	وقف على مسجد ابن عباس	-
٢١	عسير	محمد طاهر عبدالخالق الحنفي	كتب	-
٢٢	حائل	حمود بن حسين الشغدلي	كتب	١٣٩٠هـ

المصدر : وثائق أوقاف الصوام بأشيقر ؛ وثائق الدارة ، كتاب الفواكه العديدة لابن منقور ؛ كتاب تاريخ المساجد والأوقاف في الرياض لابن عساكر.

جدول رقم (٢)
نماذج وقفية من بعض مدن وقرى المملكة العربية لسعودية (أوقاف المرأة في نجد)

م	اسم المدينة	صاحب الوقف	نوع الوقف	تاريخ الوقف
١	مقرن (الرياض)	جليلة بنت عبدالمحسن بن سعيد	أرض ونخيل	٩٦٩ هـ
٢	الرياض	نورة بنت الإمام فيصل بن تركي	كتب	١٢٧٦ هـ
٣	الرياض	الجوهرة بنت مساعد بن جلوي	كتب	١٣٣٧هـ
٤	الرياض	حصة بنت أحمد السديري	كتب	ق ١٤هـ
٥	أشيقر	عائشة بنت محمد بن حسن	أثاث منزلي	ق ١١هـ
٦	أشيقر	مريم بنت محمد بن قاسم	أرض ونخل وأثاث	ق ١٢هـ
٧	شقراء	نورة بنت إبراهيم الجميح	أرض ونخل	١٢٨٧ هـ
٨	البير	نصرة بنت إبراهيم	دار ونخل	١٢٢٨ هـ
٩	الدرعية	سارة بنت علي بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب	كتب	ق ١٣هـ
١٠	الغاط	لطيفة بنت مقحم عبدالوهاب المقحم	مصحف شريف ونخل	—
١١	المجمعة	شايعة بنت عبد الجبار	نخل	ق ١٤هـ
١٢	حائل	طريفة بنت عبيد بن علي بن رشيد	كتب	١٣١٤ هـ

المصدر : الفواكه العديدة لابن منقور ؛ بحث إسهام المرأة في وقف الكتب للدكتورة دلال الحربي ؛ وثائق الدكتور أحمد البسام في عنيزة .

واقع الوقف ومجالاته منذ عهد الملك عبد العزيز :

بعد دخول الحجاز فى عهد عبد العزيز ، واكتمال توحيد المملكة العربية السعودية ، وانبلاج عهد جديد من الاستقرار والنماء .. ازدادت العناية بالأوقاف تنظيماً وإدارة وتطويراً .

وكانت للحرمين الشريفين أوقاف كثيرة فى بلاد العالم الإسلامى يرسل ريعها مع الحجيج كل عام ، فأنشأ الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٤هـ إدارات للأوقاف فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة ، وصدر مرسوم ملكى فى سنة ١٣٥٤هـ بربط إدارات الأوقاف بمدير عام مقره مكة ، ثم تحولت إدارة الأوقاف العامة بعد الملك عبد العزيز إلى وزارة للحج والأوقاف[٤٠].

وقد زودتنا جريدة أم القرى فى أعدادها الصادرة منذ عام ١٣٤٤هـ بمعلومات تاريخية عن شؤون الأوقاف آنذاك ، ففى ذلك العام استلم مندوب أغوات الحرم الشريف غلة الأوقاف المخصصة لهم فى الأحساء وفى البصرة [٤١]. وفى عام ١٣٤٥هـ بلغت إيرادات أوقاف الحرمين الشريفين فى مصر مبلغاً يزيد على سبعة وأربعين ألف جنيه مصرى [٤٢]. كما وردت الإشارة إلى استلام ريع أوقاف الحرمين الشريفين من فلسطين[٤٣] وتونس[٤٤].

وصدر فى عام ١٣٥٠هـ نظام يعنى بالمطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين بالطرق الممكنة المشروعة فى أي جهة كانت ، عن طريق إنشاء جمعية مختصة بهذا الأمر مقرها مكة المكرمة[٤٥].

وقد تكفلت الحكومة السعودية فيما بعد بالصرف على شؤون الحرمين من تعمير وفرش ورواتب للعاملين بهما ، ورصدت موارد أوقاف الحرمين لإقامة مشاريع إنمائية لتنمية أوقاف الحرمين[٤٦] .. فقامت وزارة الحج والأوقاف بإنشاء الفنادق والعمارات السكنية الإنمائية على بعض الأراضى الموقوفة على الحرمين [٤٧].

وقد بلغ عدد الأوقاف فى المدينة المنورة فى بحث منشور عام ١٤٠٥هـ ثمانية وستين وقفاً ، تختلف فى عدد المواقع التابعة لها ، فمثلاً أوقاف الحرم يتبعها ٤٣٤ موقعاً ، يليها الأوقاف الخيرية التى تشرف عليها إدارة الأوقاف وتضم ٣٧٨ موقعاً . وتشغل مواقع الأوقاف عامة من الأبنية والمزارع نحو ٣٤٪ من مساحة المدينة المنورة [٤٨]. وهى نسبة عالية تدل على المكانة التى أولاها المسلمون للأوقاف فى تاريخنا الماضى والحاضر .

وقد حاز الطريق الذى يسلكه الحجاج والمعتمرين بين مكة وجدة على عناية الملك عبد العزيز - رحمه الله - بإنشاء أسبلة عرفت بأسبلة الملك عبد العزيز لتوفير مياه الشرب والسقيا ومنها

سبيل بئر أم القرون وسبيل حداء وسبيل بئر المقتلة وقد تم تشييد هذه الأسبلة فى عام ١٣٦١هـ[٤٩].

ويتتبع القرارات والضوابط المنظمة لشؤون الأوقاف منذ عهد الملك عبد العزيز نجد تطوراً ملحوظاً فى العناية بالأوقاف . فقد صدر فى عام ١٣٤٩هـ قرار مجلس الشورى المصدق بالمرسوم الملكى بالموافقة على القاعدة المتبعة فى عمل استحكامات الدور والمبانى بالاستفسار من مديرية الأوقاف وغيرها من الجهات المختصة عما إذا كان لها علاقة تمنع من إجراء الاستحكام . وصدر قرار آخر لمجلس الشورى فى عام ١٣٥٠ هـ يتضمن إشراف مديرية الأوقاف على الأوقاف المسجلة بالمحكمة [٥٠].

وصدر فى عام ١٣٨٦ هـ نظام مجلس الأوقاف الأعلى والمجالس الفرعية[٥١] .. ونظراً لأهمية مضامين هذا النظام ودلالاته نشير إلى نصه هنا مع ملاحظة أن ما أنيط بوزير الحج والأوقاف قد انتقل إلى وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد منذ عام ١٤١٤هـ:

نظام مجلس الأوقاف الأعلى والمجالس الفرعية الصادر عام ١٣٨٦هـ :

القسم الأول : مجلس الأوقاف الأعلى

المادة الأولى :

يقصد بالأوقاف الخيرية حيثما وردت فى هذا النظام تلك التى تتولى شؤونها وزارة الحج والأوقاف فى الحال والاستقبال .

ويتولى وزير الحج والأوقاف نظارة الأوقاف المذكورة مع مراعاة الأحكام الواردة فى هذا النظام .

المادة الثانية :

ينشأ مجلس أعلى للأوقاف يشكل على النحو التالى :

١ – وزير الحج والأوقاف – رئيساً .

٢ – وكيل الوزارة لشؤون الأوقاف – عضواً ونائباً للرئيس .

٣ – عضو شرعى يعينه سماحة رئيس القضاء عضواً .

٤ – وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطنى أو من ينيبه عضواً .

٥ - ثلاثة من أهل الرأى والخبرة يرشحهم وزير الحج والأوقاف - أعضاء ويصدر بتعيينهم أمر ملكى .

المادة الثالثة :

يختص مجلس الأوقاف الأعلى بالإشراف على جميع الأوقاف الخيرية بالمملكة ويوضع القواعد المتعلقة بإدارتها واستغلالها وتحصيل غلاتها وصرفها وذلك كله مع عدم الإخلال بشروط الواقفين وأحكام الشرع الحنيف وله فى سبيل ذلك :

١ - وضع خطة لتمحيص وحصر وتسجيل الأوقاف الخيرية داخل المملكة وإثباتها بالطرق الشرعية ورفع أيدى واضعى اليد عليها بوجه غير شرعى ولتنظيم إدارتها .

٢ - وضع خطة عامة لاستثمار وتنمية الأوقاف وغلاتها بعد دراسة وضعيتها فى كل جهة وتكوين فكرة وافية عنها بالتفصيل .

٣ - وضع خطة عامة للتعرف على جميع الأوقاف الخيرية الموجودة خارج المملكة باسم الحرمين الشريفين أو أية جهة وحصرها فى سجلات نهائية والحصول على الوثائق المثبتة لها وتلى أمورها والمطالبة بغلاتها طبقًا لشروط الواقفين .

٤ - وضع القواعد العامة لتحصيل واردات الأوقاف الخيرية والصرف منها فى قيد عمليات التوريد والصرف فى السجلات اللازمة .

٥ - وضع قواعد ثابتة للإنفاق بموجبها على أوجه البر والإحسان سواء من الواردات المذكورة أو مما هو معتمد فى الميزانية لهذا الغرض وأحكام الشرع .

٦ - إعادة النظر فى جميع المخصصات الحالية باسم البر والإحسان على ضوء القواعد المذكورة آنفًا لإجازة ما يتفق معها وإلغاء ما عداه .

٧ - النظر فى طلبات استبدال الأوقاف الخيرية وفق مقتضيات المصلحة قبل إجازتها من الجهة الشرعية المختصة .

٨ - وضع نماذج موحدة للعقود على اختلافها .

٩ - وضع التقديرات المالية السنوية لواردات ومصروفات غلال الأوقاف الخيرية والتصديق على حسابتها الختامية على أن تتمشى فى ذلك مع السنة المالية للدولة فى خصوص أجور العقار .

١٠ - وضع القواعد الواجبة لتأجير أعيان الأوقاف بما فى ذلك الحكرمات على أن تراعى أحكام الشرع الحنيف ومقتضيات المصلحة العامة وأية تعليمات تصدرها الدولة فى خصوص أجور العقار .

١١ - اعتماد المشروعات المقترح تنفيذها من أموال الأوقاف الخيرية واعتماد تكاليفها إذا زادت القيمة على مائة ألف ريال بعد التأكد من سلامة المشروع وتكامله وفائدته ومن إمكانية الإنفاق عليه .

١٢ - رفع تقرير سنوى عن وضعية الأوقاف الخيرية ومنجزاتها إلى رئيس مجلس الوزراء.

المادة الرابعة :

١ - يجتمع مجلس الأوقاف الأعلى مرة على الأقل كل شهر وذلك بناء على دعوة من وزير الحج والأوقاف مصحوبة بجدول الأعمال ولا يصح الاجتماع إلا بحضور خمسة على الأقل من أعضائه بما فيهم الرئيس أو نائبه .

٢ - يعقد المجلس اجتماعاته فى مقر وزارة الحج والأوقاف بالرياض وله أن يعقدها خارج الرياض عند الاقتضاء .

٣ - يصدر المجلس قراراته بالأغلبية المطلقة لعدد الأعضاء الحاضرين وعند التساوى يرجح الرأى الذى يؤيده الرئيس .

٤ - يعين موظفو السكرتارية اللازمون لأعمال المجلس وسجلاته بصفة دائمة ضمن موازنة وزارة الحج والأوقاف .

٥ - للمجلس الاستعانة بمن يرى لزوم الاستعانة بهم من الخبراء والمستشارين عند نظر أية مسألة من المسائل المعروضة عليه كما أن له التعاقد مع من تدعو الحاجة إلى التعاقد معهم وفق القواعد التى يضعها .

تصرف لكل عضو من أعضاء مجلس الأوقاف الأعلى بما فيهم الرئيس مكافأة مقطوعة مقدارها ٣٥٠ ريال ثلاثمائة وخمسون ريالاً عن كل اجتماع يحضره على أن لا يتجاوز مجموع المكافأة السنوية خمسة آلاف ريال لكل عضو كما يصرف لكل عضو من الأعضاء أجور وبدلات السفر المقررة فى نظام موظفى الدولة فى حالة عقد اجتماعات المجلس المذكورة خارج المقر الرسمى لوظيفته الأصلية على أن لا يجمع بين الحصول على الأجور أو البدلات المذكورة والحصول عليها من جهة أخرى .

القسم الثاني : الأوقف الفرعية :

المادة الخامسة :

١ - تنشأ بقرار من مجلس الأوقاف الأعلى مجالس أوقاف فرعية فى المناطق على أساس متطلبات واقع الأوقاف وتجمعها والإجراءات اللازمة لتحقيقها واستغلالها ومصلحتها من جميع الوجوه .

٢ - يشكل مجلس أوقاف فرعي على الوجه الآتى :

١ - مندوب عن وزير الحج والأوقاف - رئيساً .

٢ - مدير الأوقاف عضواً ونائباً للرئيس .

٣ - عضو شرعي يعينه سماحة رئيس القضاء عضواً .

٤ - رئيس البلدية عضواً .

٥ - مدير المالية عضواً .

٦ - و ٧ - اثنان من أهل الرأى يرشحهما وكيل الوزارة لشؤون الأوقاف عضوين .

ويصدر قرار بتعيينهما من وزير الحج والأوقاف .

المادة السادسة :

يختص مجلس الأوقاف الفرعي بالصلاحيات التى يحددها مجلس الأوقاف الأعلى بما فى ذلك :

١ - دراسة طلبات الاستبدال المتعلقة بعقارات الأوقاف الخيرية الواقعة فى منطقته ثم رفعها مشفوعة بالرأى لمجلس الأوقاف الأعلى .

٢ - اعتماد المشروعات المقترح تنفيذها من أموال الأوقاف الخيرية على ألا تتجاوز قيمتها مائة ألف ريال .

٣ - دراسة المعاملات التى يرجع البت فيها إلى صلاحية مجلس الأوقاف الأعلى قبل عرضها عليه على أن يرفعها مشفوعة بنتيجة دراسته لها ورأيه فيها .

٤ - وضع التقديرات المالية السنوية لواردات ومصروفات غلال الأوقاف الخيرية الواقعة فى المنطقة على أن يرسلها إلى مجلس الأوقاف الأعلى قبل بداية السنة المالية بثلاثة أشهر على الأقل .

٥ - مراجعة الحسابات الختامية السنوية لواردات ومصروفات غلال الأوقاف المذكورة وتدقيقها ثم إرسالها مشفوعة بنتيجة المراجعة والتدقيق للمجلس الأعلى .

٦ - أية دراسات وإجراءات أخرى يعهد إليه بها مجلس الأوقاف الأعلى وفق التعليمات التي يضعها لذلك .

٧ - إعداد تقرير سنوي عن وضعية الأوقاف الخيرية في منطقته ورفعه لمجلس الأوقاف الأعلى في موعد غايته ثلاثة أشهر قبل انتهاء السنة المالية .

المادة السابعة :

١ - يجتمع مجلس الأوقاف الفرعي بدعوة من رئيسه مرة على الأقل كل شهر ولا يصح الاجتماع إلا بحضور ستة على الأقل من الأعضاء بما فيهم الرئيس أو نائبه .

٢ - يعقد المجلس الفرعي اجتماعاته في مقر إدارة الأوقاف بالمنطقة .

٣ - يصدر المجلس الفرعي قراراته بالأغلبية المطلقة لعدد الأعضاء الحاضرين عند التساوي يرجح الرأي الذي يؤيده الرئيس .

٤ - يتولى سكرتيرية المجلس مدير إدارة الغلال في المنطقة ويعاونه في ذلك أحد موظفي إدارة أعمال المجلس ومسك السجلات اللازمة لها نظير مكافأة يحددها مجلس الأوقاف الأعلى على أن لا يتجاوز راتب شهرين لكل منهما عن كل سنة .

٥ - وللمجلس الفرعي بعد حصول على موافقة مسبقة من المجلس الأعلى وفق القواعد التي يضعها الاستعانة بمن يرى لزوم الاستعانة بهم من الغير والمستشارين عند نظر أية مسألة من المسائل المعروضة عليه والتعاقد مع من تدعو الحاجة إلى التعاقد معهم .

٦ - تصرف لكل عضو من أعضاء مجالس الأوقاف الفرعية بما فيهم الرئيس مكافأة مقطوعة مقدارها ١٥٠ ريالاً عن كل اجتماع يحضره على أن لا يتجاوز مجموع المكافأة السنوية ٢٢٥٠ ريالاً في السنة لكل عضو .

القسم الثالث : أحكام عامة

المادة الثامنة :

لا يجوز لأعضاء مجالس الأوقاف ومن له صلة بالإشراف على استثمارات الأوقاف استئجار أعيان الأوقاف الخيرية إطلاقاً .

المادة التاسعة :

لمجالس الأواقف الاطلاع على ما ترى لزوم الاطلاع عليه من وثائق وسجلات الوقفية وإيراداتها ومتصرفاتها بحسب الاقتضاء .

المادة العاشرة :

لايخل أحكام هذا النظام بصلاحيات ديوان المراقبة العامة المقررة نظاماً فى مراقبة حسابات الأوقاف على أن يقدم أية ملاحظات له على مجلس الأوقاف الأعلى .

المادة الحادية عشرة :

لا يخل شيء من أحكام هذا النظام بالأحكام الشرعية الراجبة الاتباع فى كل ما يتعلق بالأوقاف الخيرية الواردة فى صكوكها .

المادة الثانية عشرة :

تؤدى المكافأة المقررة فى هذا النظام من البند المختص فى موازنة وزارة الحج والأوقاف.

المادة الثالثة عشرة :

تكون اللوائح التنظيمية التى يعدها مجلس الأوقاف الأعلى بمقتضى هذا النظام نافذة المفعول بعد إقرارها من مجلس الوزراء .

المادة الرابعة عشرة :

يلغى هذا النظام جميع الأوامر والمقرارات والأنظمة والأحكام التى تتعارض معه ويعمل به من تاريخ التصديق عليه ونشره .

وفى عام ١٣٩٣هـ صدر قرار مجلس الوزراء بالموافقة على مشروع لائحة تنظيم الأوقاف الخيرية المتعلقة بالحصر والتمحيص والتسجيل (٥٢).

وعلى هذا النحو فإن الأوقاف الخيرية العامة يقوم بالتصرف فيها وفق المقتضى الشرعى بيعاً وشراءً وتأجيراً ثلاث جهات إدارية على مستويات تدرجية ، وهى إدارة الأوقاف فى منطقة الوقف ، والمجلس الفرعى للأوقاف فى المنطقة ، والمجلس الأعلي للأوقاف (٥٣).

وقد قامت وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ممثلة فى وكالة الوزارة لشؤون الأوقاف بتحديد مسميات شرط الواقف فى جميع مناطق المملكة(٥٤) على النحو التالى:

جدول رقم (٣)
مسميات شرط الواقف فى جميع مناطق المملكة

م	أ	ب	ج	د
١	على المسجد الحرام	المسجد النبوى		
٢	على مسجد	تعمير مساجد	ترميمها	المقابر
٣	على إمام ومؤذن مسجد		سراج مسجد	
٤	على الفقراء والمساكين	فقراء الحجاج	حجاج معينين	فقراء معينين
٥	على أضحية	الجهاد	مدرسة لتحفيظ القرآن	للفقراء والعوائل التى لا تجد سكناً
٦	على صوام مسجد	لطلبة العلم	الأيتام	على مدرسة
٧	على تفطير الصوام	للحج عنه	على تسوية لبن للقبور	
٨	على بئر	على وظيفة تدريس	سكنى العازبات من النساء	
٩	أعمال خير وبر	على ذريته	على مكتبة	
١٠	رباط	بدون تحديد	لمن يرغب من المسلمين	
١١	سكنى النساء الفقيرات والأرامل	سقاية المواشى		
١٢	وقف على وقف معين			
١٣	موقوفة على نفس الواقف			
١٤	بعضها تكون مناصفة على ذريته ووجوه الخير			

المصدر : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، وكالة الوزارة لشئون الأوقاف ، الرياض .

ويبدو أن تنظيم شئون الأوقاف فى عهد الملك عبد العزيز بشكل رسمى بدأ فى الحجاز قبل بقية مناطق المملكة ، بسبب وفرة أوقاف الحرمين الشريفين وأهميتها وقدمها منذ فجر الإسلام. وعلى هذا النحو لم توجد جهة رسمية قبل عام ١٣٨٢هـ مسئولة عن الأوقاف داخل مدينة الرياض بل كانت الأوقاف بيد أصحابها (٥٥).

وبالاطلاع على متن فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - مفتى المملكة ورئيس القضاة فيها ، وبخاصة ما يتعلق بالأوقاف(٥٦) نجد أن الشيخ قد أفتى فى أكثر من خمسين وثلاثمائة مسألة وقفية من أنحاء المملكة خلال المدة من ١٣٧٥هـ إلى ١٣٨٩هـ . وفى ذلك دلالة على وفرة الأوقاف وشيوعها إلى وقتنا الحاضر .

سبل تطوير الوقف وتفعيله دعوياً وتنموياً :

من خلال عرض تاريخ الوقف فى المملكة منذ القرن الثامن الهجرى إلى وقتنا الحاضر تتضح جملة من الحقائق وأبرزها :

- ازدهار الأوقاف ماضياً وحاضراً فى مدن وقرى المملكة وبخاصة فى الحجاز ثم بقية المناطق .

- تنوع الأوقاف وتعددها ، وفى مقدمتها الوقوف الزراعية ثم وقوف الكتب والأسلحة والأدوات والدور ومأوى الأيتام وغيرها .

- توجيه معظم مصارف الأوقاف وغلالها إلى ذرية الواقفين ، وإلى صوام شهر رمضان وأئمة ومؤذنى مساجد بلدان الواقفين .

- أن الوعى بأهمية الوقف وثوابه لم يكن قاصراً على الرجال وإنما كان منتشراً بين النساء اللائى أوقفن أوقافاً كثيرة ومتنوعة (انظر الجدول الخاص بأوقاف النساء) .

- حرص المجتمع وأفراده على توثيق الصكوك الوقفية وحفظها ، وتكرار نسخها خشية التلف . وبذلك حفظت لنا الأجيال وثائق مضى عليها قرون عديدة .. وفى ذلك دلالة على أن الأمية السائدة آنذاك لا تنافى وجود نسبة من المتعلمين فى المجتمع السعودى.

- أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية كان لها أثر بارز فى تصحيح مسار الوقف وتنويعه ، ونشر العلم بوقف الكتب التى كانت عزيزة المنال وبخاصة فى وسط الجزيرة العربية .

- أن عهد الملك عبد العزيز شهد تطوراً ملحوظاً فى تنظيم الأوقاف وتفعيلها .

والآن وقد نعمت معظم بلاد العالم الإسلامي ولله الحمد ومنها بلاد الحرمين الشريفين المملكة العربية السعودية بنعمة الاستقرار والرخاء الاقتصادى والوعى الدينى ، فإن الباحث

يوصى بجملة من الاقتراحات لتطوير الوقف وتفعيله دعوياً وتنموياً مستوحاة من التطبيقات العملية لمسيرة الوقف فى تاريخنا الإسلامى والمحلى على النحو الآتى :

- إحياء الدراسات والبحوث المتعلقة بالأوقاف ، وإقامة الندوات العلمية على غرار ما تقوم به وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف وفقها الله ، من أجل ترسيخ مفهوم الوقف لدى أفراد الأمة .

- توضيح صور الوقف ونماذجه لراغبى الوقف ، وبخاصة بين الموسرين من أبناء المسلمين .. إذ يحصل الخلط بين الوصية والوقف ، بل إن البعض يعتقد أن تطبيق الوقف مرتبط بالوفاة .

- أن تطوير الظاهرة الوقفية وتفعيلها دعوياً وتنموياً وفق أسس شرعية مرهون بالالتزام بالجوهر والثوابت ، ثم السعى لمواكبة العصر وحاجاته فيما يحقق المصلحة العامة للمجتمع والأمة .. فعلى سبيل المثال كان المسجد الموقوف يبنى بالمواد الشائع استعمالها قديماً ، فأصبح من الضرورى الالتزام بطرق البناء الحديثة ؛ وتأسيس الكتاتيب تغير فى شكل المدارس العصرية ؛ ووقف الكتب المخطوطة تحول إلى وقف الكتب المطبوعة وهكذا .

- ضرورة فتح آفاق جديدة للوقف تستفيد من معطيات المدنية الحديثة فى مجال التقنية من أجل تسهيل وصول خدمات الوقف فى مجالات الدعوة والإعلام والاقتصاد وخدمة المجتمع والأمة .

الهوامش

١- وهبة الزحيلي ، الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٩هـ ، ص ١٣٣ - ١٣٥

٢ - حمد فراج حسين ، أحكام الوصايا والأوقاف في الشريعة الإسلامية ، دار المطبوعات الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧م ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

٣ - مصطفى أحمد الزرقا ، أحكام الأوقاف ، دار البيارق ، عمان ، ١٤١٨هـ ، ص ٢١ .

٤ - محمد عبيد عبد الله الكبيسي ، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٣٩٧هـ ، جـ١ ، ص ٣ .

٥ - المرجع السابق ، ص ٣٥ .

٦ - آل عمران : ٩٢/٣ .

٧ - البقرة : ٢٦٧/٢ .

٨ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، رقم الحديث (٢٧٧٢) ٤٦٨/٥ .

٩ - الخصاف ، أحكام الأوقاف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٠هـ ، ص ٥ - ١٥ ؛ مصطفى أحمد الزرقا ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١ - ١٢ ؛ عبد الله بن محمد الحجيلي ، الأوقاف النبوية ووقفيات بعض الصحابة الكرام ، بحث في ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية ، مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة المنورة ، محرم ١٤٢٠هـ ، ص ٢١ - ٣٤ .

١٠ - محمد عبيد عبد الله الكبيسي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ - ٣٩ .

١١ - راشد بن سعد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ، ١٤١٤هـ ، ص ٣١ - ٣٢ .

١٢ - يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، مؤسسة فيصل للتمويل ، استانبول ، ١٩٩٠م ، جـ٢ ، ص ٤٩١ - ٤٩٣ .

١٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، تأليف لوثروب ستودارد ، تعريب عجاج نويهض ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٤هـ ، جـ٣ ، ص ٧ ؛ وكتاب : الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، مكتبة المعارف ، الطائف ، ١٣٩٧هـ ، ص ١٣١ - ١٣٥ .

١٤ - أشيقر : بلدة عامرة شمالي قرى الوشم ذات نخيل ومزارع ، أنجبت طائفة من العلماء الأعلام ، وتعد مركزاً من مراكز العلم في الماضي . انظر : عبد الله بن محمد بن خميس ، معجم اليمامة ، الرياض ، ١٣٩٨هـ ، جـ١ ، ص ٨٠ - ٨٣ .

١٥ - الحاج الشيخ صبيح مولى وعتيق عقبة بن راجح ، كان يقيم مع سيده في بلدة أشيقر فانصرف للعلم والعبادة والزهد ، فأعتقه عقبة بعد أن اطلع على أحواله وكراماته . انظر : عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، علماء نجد خلال ثمانية قرون ، دار العاصمة ، ١٤١٩هـ ، جـ٢ ، ص ٥٥٨ - ٥٦٠ .

١٦ - ديوان أوقاف الصوام بأشيقر ، صورة من الأصول الموجودة لدى عبد الله بن عبد العزيز العباد بأشيقر. وثيقة وصية صبيح .

١٧ - ديوان أوقاف الصوام بأشيقر ، وثيقة وقفية صقر بن قطامي بن صقر .

١٨ - المصدر السابق ، وثيقة وقفية رمية بن قضيب .

١٩ - المصدر السابق ، وثيقة وقفية صالح بن إبراهيم بن عيسى .

٢٠ - المصدر السابق ، إثبات جملة ما في أشيقر من الأوقاف ، كتبها محمد بن عبد اللطيف الباهلي ثم نسخها عبد العزيز بن عبد الله بن عامر في ١٣١٠هـ .

٢١ - المصدر السابق ، إثبات وقف أهل أشيقر للضيف كتبها محمد بن عبد اللطيف الباهلي ثم نسخها عبد العزيز بن عبد الله بن عامر . وانظر وثيقة وقف حسن بن علي .. ثم نسخها للمرة الرابعة سنة ١٢٤٨ وفيها إشارة إلى وقفه مصاحف وكتب على طلبة العلم من ذريته .

٢٢ - المصدر السابق ، وثيقة مؤرخة في محرم ١٣٠٨هـ .

٢٣ - مُقرن : أحد حيين كبيرين كانا يحكمان منطقة حجر اليمامة قبل أن يبرز اسم الرياض ، ويقع جنوب غرب الرياض . عبد الله بن خميس ، معجم اليمامة ، ص ٣٨٤ .

٢٤ - أحمد بن محمد المنقور ، الفواكه العديدة في المسائل المفيدة ، الرياض ، ١٤٠٧هـ ، جـ١ ، ص ٤٧٨.

٢٥ - أحمد بن عبد العزيز البسام ، أوضاع الأوقاف في نجد قبل الدعوة الإصلاحية وموقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب منها ، مجلة الدارة ، العدد ١ ، السنة ٢٤ ، ١٤١٩هـ ، ص ٢٠ .

٢٦ - انظر آراء وفتاوى الشيخ محمد وعلماء الدعوة في الأوقاف في كتاب : الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، جمع عبد الرحمن بن محمد القاسم ، الطبعة الخامسة ، ١٤١٦هـ ، جـ٧ ، ص ٥ - ٧٨ ؛ وانظر : كتاب الوقوف من مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، تأليف الإمام أحمد بن محمد بن هارون الخلال ، دراسة وتحقيق : عبد الله بن أحمد الزيد ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١٠هـ .

٢٧ - شقراء : قاعدة إقليم الوشم ، مدينة عامرة متقدمة ، اشتهرت بتجارتها وارتياد الناس لها ، ولها ماض عريق في الحفاظ على العقيدة والغيرة على المبدأ . عبد الله بن خميس ، معجم اليمامة ، جـ٢ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

٢٨ - وثائق يوسف المهنا بشقراء ، وثيقة وصية محمد بن عبد الله بن حمد الأمير .

٢٩ - المصدر السابق ، وثيقة وصية عبد العزيز بن عبد الله الحصين ، مؤرخة في ١٢٣٣هـ .

٣٠ - المصدر السابق ، وثيقة وقف محمد بن عبد الله بن ناصر ، محررة في ١٢٣٨هـ.

٣١ – المصدر السابق ، وثيقة عبد العزيز بن إبراهيم الجميح ، محررة فى ٧ رجب ١٢٨٨هـ .

٣٢ – المصدر السابق ، وثيقة وقف حمد بن يحيى . (ب.ت) .

٣٣ – المجمعة : بلدة عامرة قاعدة إقليم سدير سميت بذلك لأنها ملتقى أودية ؛ وقد أنجبت هذه البلدة العديد من العلماء والرجال المشهورين . عبد الله بن خميس ، معجم اليمامة ، جـ٢ ، ص ٣٣٣ – ٣٣٥.

٣٤ – وثائق دارة الملك عبد العزيز ، وثيقة وقف عبد الرحمن بن إبراهيم بن جماز ، مؤرخة فى ذى الحجة ١٣٠٧هـ

٣٥ – عنيزة : ثانى أهم مدينة فى منطقة القصيم بعد قاعدته بريدة ، كان لها شهرة فى مجال التجارة مع الكويت والعراق . انظر : د. محمد بن عبد الله السلمان عنيزة ، سلسلة هذه بلادنا ، الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، الرياض ، ١٤١٠هـ ، ص ١٣ – ١٧ .

٣٦ – وثائق الدكتور أحمد البسام ، وثيقة وقف محمد العبد الله الحشاش ، مؤرخة فى ٢٤ شوال ١٣٣٦هـ.

٣٧ – المصدر السابق ، وثيقة وصية على السليمان المحمد البسام مؤرخة فى غرة جمادى الأولى ١٢٧٩هـ.

٣٨ – الرس : مدينة رئيسة من مدن القصيم ، وتقع جنوب غربى المنطقة فى منتصف المسافة بين المدينة المنورة والرياض . انظر : عبد الله حمد الرشيد ، الرس ، سلسلة هذه بلادنا ، الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، الرياض ، ١٤٠٣هـ ، ص ١٣ .

٣٩ – وثائق دارة الملك عبد العزيز ، بيان أوقاف الرس وأطرافه ، منطقة القصيم .

٤٠ – خير الدين الزركلى ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٢م، جـ٣ ، ص ١٠٥٧.

٤١ – جريدة أم القرى ، العدد ٤٠ ، فى ١٣٤٤/٣/١٤هـ.

٤٢ – جريدة أم القرى ، العدد ٩٥ ، فى ١٣٤٥/٤/١هـ .

٤٣ – جريدة أم القرى ، العدد ٤٨٨ ، فى ١٣٥٣/١/٦هـ .

٤٤ – جريدة أم القرى ، العدد ٤٩٣، فى ١٣٥٣/٢/١١ هـ .

٤٥ – جريدة أم القرى ، العدد ٣٨٥ ، فى ١٣٥٠/١٢/٢٣ هـ .

٤٦ – محمد شوقى إبراهيم ، الأراضى الوقف فى المدينة المنورة ، مجلة الدارة ، العدد ٢ ، السنة ١٠، محرم ١٤٠٥هـ ، ص ٤١ .

٤٧ – أسعد حمزة شيره ، ورقة ميدانية مقدمة للحلقة الدراسية لتثمير ممتلكات الأوقاف فى البنك الإسلامى للتنمية بجدة ١٤٠٤هـ ، جدة ، ١٤١٥هـ ، ص ٣٢٦ .

٤٨ – محمد شوقى إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ .

٤٩ - عادل محمد نور غباشي ، أسبلة الملك عبد العزيز على الطريق بين مكة وجدة ، مجلة الدارة ، العدد ٣ ، السنة ١٩ ، ١٤١٤هـ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

٥٠ - الأوقاف في المملكة العربية السعودية ، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، الرياض ، ١٤١٩هـ ، ص ١١٤ .

٥١ - جريدة أم القرى ، العدد رقم ٢١٤٨ ، في ١٣٨٦/٧/٢٨هـ .

٥٢ - انظر نص القرار في ملاحق البحث .

٥٣ - الشيخ عبد الله بن سليمان المنيع ، الوقف من منظور فقهي ، بحث مقدم في ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية ، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد ، المدينة المنورة ، محرم ١٤٢٠هـ ، ص ١٠ - ١١ .

٥٤ - وكالة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف لشؤون الأوقاف ، مسميات شرط الواقف في جميع مناطق المملكة .

٥٥ - مراسلة متبادلة بين الأوقاف وأمانة مدينة الرياض ، ١٣٨٧ هـ ، نقلاً عن كتاب : راشد بن محمد عساكر ، تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الرياض ، الرياض ، ١٤٢٠هـ ، ص ٣٣٤ .

٥٦ - محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ، مطبعة الحكومة ، مكة المكرمة ، ١٣٩٩ هـ ، جـ٩ ، ص ٣٥ - ٢٠٨ .

الملاحق

أ - مراسيم تنظيمية

قرار مجلس الوزراء الموقر ذو الرقم (٨٠)

المؤرخ في ١٣٩٣/١/٢٩هـ

بالموافقة على مشروع لائحة تنظيم الأوقاف الخيرية

الجزء الأول " الحصر والتمحيص والتسجيل "

وزارة المالية والاقتصاد الوطني

لائحة لتنظيم الأوقاف الخيرية

الجزء الأول

الحصر والتمحيص والتسجيل

التعريف

١ - يقصد بالأوقاف الخيرية في تطبيق هذه اللائحة كل من الأوقاف العامة ، كأوقاف الحرمين الشريفين ، وأوقاف المساجد ، وأوقاف الأربطة ، والمدارس وغيرها من الأوقاف الموقوفة على جهات خيرية عامة ، والأوقاف الخاصة التي تزول إلى جهات انتفاع عامة بعد انقراض الموقوف عليهم من الذرية والأشخاص المحددين بذاتهم ، كأقارب الواقف ، أو من لهم صلة به ، أو من رغب الواقف أن يقف عليهم بذاتهم .

٢ - يتولى مدير الأوقاف في كل بلدة الإشراف المباشر على الأوقاف الخيرية في تلك البلدة، ورعايتها ، والدخول في الدعاوى المتعلقة بها ، وتأجيرها ، وصيانتها ، واستلام غلالها ، والإنفاق منها ، أو صرفها في أوجه الخير حسبما نص عليه شرط الواقف ، وذلك في حدود الصلاحيات والقواعد التي يحددها مجلس الأوقاف الأعلى .

٣ - تبقى الأوقاف الخيرية الخاصة تحت أيدي نظارها الشرعيين المحددين في شرط الواقف، أو الذين صدر الأمر من المحاكم الشرعية بتعيينهم .

٤ - يكون لدوائر الأوقاف الحق في الإشراف والمراقبة العامة على الأوقاف الخيرية الخاصة المراقبة التي من شأنها حفظ الوقف ، والمساعدة في تنفيذ شرط الواقف ، ووضع اليد

على الوقف بعد موافقة الحاكم الشرعي ، وذلك حين انقراض المستحقين فيه ، ومآله الشرعي إلى جهات خيرية عامة ، وعليها أن تضع في سجلاتها المعلومات اللازمة لضمان تحقيق ذلك .

٥ - يراعى أن يتم وفق القواعد المقررة بيع واستبدال أعيان الأوقاف ضعيفة الغلة ، أو التي لا غلة لها ، أو التي يخشى عليها بسبب وضعها تعرضها للضياع ، كالأشقاص الصغيرة ، ولهذا الغرض يتم حصر هذه الأعيان من قبل دوائر الأوقاف المختصة ، وترفع بنتيجة الحصر تقريراً لمجالس الأوقاف المختصة وفقًا للنموذج ذي الرقم (١) المرفق ، وذلك خلال الشهر الأول من السنة المالية) .

٦ - تحصر جميع مسميات أعيان الأوقاف ، لغرض تنظيم تسجيلها تحت المسميات المبينة أدناه ، ويرمز لكل مسمى بالرمز الموضح أمامه .

أ - عمارة (ع) ويقصد بالعمارة كل مبنى بني على نظام الشقق ، ويؤجر على هذا النظام، أو يؤجر جميعه لأي غرض آخر ، ويفهم من ذلك أنه يشتمل على أكثر من وحدة سكنية واحدة ، ويدخل تحت هذا المسمى الفنادق ، والمدارس ، والمستشفيات .. إلخ .

ب - دار (ر) ويقصد بالدار كل بيت ، أو مبنى يشتمل على وحدة سكنية واحدة ، ويدخل في هذا المسمى (الفلل) و (العزل) ... إلخ .

جـ - دكان (ك) ويقصد بالدكان كل مبنى خصص للتأجير لغرض التجارة بالبيع ، أو الشراء عموماً ، ويشمل ذلك بيع الخدمات ، ويدخل في المسمى (المخزن) و (المغازة) و (المعرض) ... إلخ .

د - أرض زراعية (ز) ويقصد بها كل أرض بها زرع ، أو غرس يكون له غلة ، أو تكون معدة لذلك ، ويدخل في المسمى (البستان) أو (الأراضي الزراعية أو (البلاد الزراعية) و (الركيب) و (المزرعة) .

هـ - أرض (ج) ويقصد بها كل أرض جرداء ليس لها غلة من غرس ، أو كل أرض عليها دار خربة متساقطة ، لا تغل الأرض منها ، ويدخل في ذلك (الأرض الفضاء) و (الحوش) و (الخرابة) .

أما ما لا يدخل من الأعيان الموقوفة تحت أي رمز من الرموز أعلاه فيثبت بالاسم الكافي لتعيينه كقهوة وحمام .

التسجيل :

٧ - تستعمل إدارات أوقاف الفروع السجلين التاليين :

أ - دفتر حصر وتسجيل صكوك أعيان الأوقاف الخيرية العامة (نموذج رقم ٢) .

ب - دفتر حصر أعيان الأوقاف الخيرية الخاصة (نموذج رقم ٣) .

وتستعمل إدارة الحصر والتسجيل بوزارة الحج والأوقاف السجل التالي :

بطاقة حصر عموم أعيان الأوقاف (نموذج رقم ٤) .

٨ - لغرض استعمال السجلات الموضحة في (٧) أعلاه تتخذ الإجراءات التالية :

أ - تقسم المملكة إلى خمس مناطق وقفية كالآتي :

١ - المنطقة الغربية .

٢ - المنطقة الوسطى .

٣ - المنطقة الشرقية .

٤ - المنطقة الجنوبية .

٥ - المنطقة الشمالية .

وتوضح حدود كل منطقة بقرار من وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .

ب - يكون بمناطق الأوقاف مراكز رئيسة حسب تجمعات الأوقاف ترتبط بكل منها فروع المدن الصغيرة والقرى المجاورة .

جـ - تخصص مجموعة من الأرقام المتسلسلة لكل منطقة من المناطق المشروحة في (أ) على النحو التالي ، على أن تكون أرقام كل منطقة خاصة بها لا يشاركها فيها أية منطقة أخرى .

اسم المنطقة المجال الرقمي المتسلسل لها :

الغربية	١	١٩,٩٩٩
الوسطى	٢٠,٠٠٠	٢٩,٩٩٩
الشرقية	٣٠,٠٠٠	٣٠,٩٩٩

الجنوبية .... ٤٠,٠٠٠ .... ٤٩,٩٩٩

الشمالية .... ٥٠,٠٠٠ .... ٥٩,٩٩٩

د - تخصص لكل مدينة فى المنطقة مجموعة أرقام مسلسلة من مجموعة أرقام المنطقة المشروحة أعلاه .

هـ - يعطى كل واقف فى المدينة رقمًا من المجموعات المتسلسلة المخصصة لكل مدينة والمشروحة فى (د) بحيث يكون الرقم خاصًا بذلك الواقف .

٩ - يفتح فى الإدارات والفروع فى الوزارات ملف خاص لكل عين موقوفة تحفظ فيه صورة من الصك ، أو الوثيقة المتعلقة بالوقف وأساس أو صورة جميع المكاتبات والمعاملات التى أدت إلى وصول الوقف إلى يد دوائر الأوقاف والمعاملات التى تحدد الوقف وتوضح معالمه ، وتتعلق بوضع اليد عليه من قبل المعتدين ، أى أن هذا الملف فقط لحفظ المعاملات التى تدل على الوقف ، وتحفظ كيانه ، فلا تدخل فيه المعاملات الخاصة بتأجيره أو استثمار غلاله ، ويحمل الملف رقم الحصر الموضوع فى البطاقة أو السجل .

كما تأخذ الملفات - على قدر الإمكان - ألوانًا مختلفة لغرض تمييز نوع العين .

١٠ - يجب أن لا تخلط ملفات الأوقاف الخيرية العامة بملفات الأوقاف الخيرية الخاصة، فهذه تحفظ بخزائن خاصة بها بعيدة عن الاستعمال إلا إذا اقتضى الأمر الرجوع إليها فى تحقيق أمر له علاقة بالوقف ، ويكون ذلك بإذن من مدير إدارة الأوقاف .

١١ - تعتبر جميع ملفات الوقف غير قابلة للتداول والاطلاع من أية جهة خارج نطاق القائمين على حفظها والمسؤولين فى دوائر الأوقاف إلا بإذن خاص من وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .

١٢ - يتكون رقم الحصر الذى تشتمل عليه السجلات الموضحة فى المادة السابعة أعلاه من رقم الواقف المذكور فى الفقرة (د) المادة (٨) أعلاه ، ومن الرمز الدال على نوع العين المذكور فى المادة (٦) أعلاه يليه رقم تسلسل العين الموقوفة فى سجل حصر أعيان الأوقاف .

١٣ - يراعى فى تسجيل أوقاف شخص معين ، وفى استعمال رقم الحصر اتباع ما يلى:

أ - أن يلازم رقم الحصر العين الموقوفة فى جميع المخابرات التى لها علاقة بتلك العين.

ب - أن تأتى خلف بعضها فى التسجيل ، ثم يلى ذلك تسجيل أوقاف شخص آخر ، وهكذا .

جـ - أن يوضع الرقم على باب العين الموقوفة فى قطعة من المعدن ، أو الألمنيوم .

د - أن لا يتغير رقم الحصر مهما كانت الظروف وحتي لو انقرضت عين الوقف ، أو أزيلت ، واستبدلت بعين أخرى يجب نقل هذا الرقم إلى العين الجديدة ، ليلازمها ، مع ملاحظة تسجيل المعلومات الجديدة عن العين الجديدة .

هـ - أن يوضع الرقم على الملف الخاص بالوقف .

و - أن يوضع الرقم فى عقد تأجير العين ، وعقد صيانتها .. إلخ .

الحصر :

١٤ - تقوم وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بحصر الأوقاف الخيرية على النحو التالى :

أولاً :

أ - تكون لجان فى كل منطقة من مناطق المملكة ويفضل أن تكون أكثر من لجنة فى بعض هذه المناطق كالمنطقة الغربية التى تكثر الأوقاف بمدنها الكبيرة .

ب - تكون بقرار من وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد لجان التسجيل على النحو التالى :

١ - مندوب عن الأوقاف .

٢ - مندوب عن المحكمة الشرعية .

٣ - واحد من أرباب الخبرة .

وللجان أن تستعين بمهندس ، أو مساح من البلدية ، أو من مصلحة الأشغال العامة ، كما لها أن تستعين بكاتب كفء من موظفى المنطقة ، وبمصور فوتوغرافى ، أو فوتوستاتى ، أو مايكروفيلمى ، متى دعت الحاجة .

حـ - تتولى اللجان - كل لجنة فى منطقتها - الاتصال بالمحاكم على سجلاتها للوصول إلى صكوك الأعيان الموقوفة ، وأخذ صورة كل صك ، وصورة لكل صيغة وقف ، إن وجدت على شكل وثيقة أو صك ، وتتولى كذلك ملاحظة أخذ أية معلومات إضافية تجدها عن هذا الوقف خصوصاً فيما يتعلق بالمعلومات الأساسية المشروحة فى دفاتر الحصر والتسجيل المقترحة آنفاً .

د - تستعمل فى التصوير - متى ما كان ذلك ممكناً - آلة التصوير المايكروفلمى .

هـ - يتم تصديق صور صكوك الأوقاف الخيرية ووثائقها من قبل الحاكم الشرعى .

و - تسلم هذه الصور بعد تصديقها إلى إدارة الأوقاف ؛ لتتولى عملية فرزها ، وتطبيقها على المعلومات المسجلة عنها فى الأوقاف .

ثانياً :

أ - تقوم إدارة الأوقاف بالتأكد من وجود الأعيان فى سجلاتها ، وتستعمل لذلك جدول الحصر ، نموذج (٥) بالنسبة لأعيان الأوقاف الخيرية العامة .

ب - تقوم الجهة المختصة قسم الحصر والتسجيل فى الأوقاف - بملء حقول جدول الحصر بالمعلومات التى يمكن الحصول عليها من سجلاتها ، ومن سجلات المحاكم بالحبر الأزرق، وترك فراغات تحت الحقول التى لا يوجد لها معلومات .

جـ - تعطى صورة من جدول الحصر المشار إليه فى (أ ، ب) أعلاه بعد ملء الفراغات الممكن ملؤها فيه من واقع السجلات إلى لجنة الوقوف المذكورة فى ثالثا - أدناه - لتتولى ملء الفراغات فى الجدول بالحبر الأحمر بعد الوقوف الفعلى على الأعيان على النحو المشروح فى ثالثا أدناه .

ثالثاً :

أ - تؤلف بقرار من وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد لجان الوقوف فى كل منطقة من مناطق المملكة على النحو التالى :

١ - مندوب عن الأوقاف .

٢ - مندوب عن المحكمة .

٣ - مهندس .

ولها أن تستعين بمسّاح ، وبكاتب كفء من قبل إدارة الأوقاف .

ب - تتولى اللجنة ما يأتي:

١ - الوقوف الفعلي علي أعيان الأوقاف الواردة في جداول الحصر من قسم الحصر والتسجيل .

٢ - ملء جداول الحصر بالمعلومات المطلوبة من واقع وقوف اللجنة على الأعيان .

٣ - تحديد الأعيان الموقوفة على نسختين من الخارطة المسحية للمدينة تحديداً دقيقاً وإرسالها لدائرة الأوقاف لتعليق واحدة منها في قسم الحصر ، وإرسال الأخرى إلى الوزارة لحفظها لديها كمرجع لدراستها .

٤ - إعادة النظر في صحة معلومات هذه الخارطة بعد كل خمس سنوات .

٥ - تقديم جداول الحصر بعد ملئها إلى قسم الحصر والتسجيل في دائرة الأوقاف ، ليتولى موظف التسجيل تسجيلها بعناية في الدفاتر المعدة لذلك ، ثم حفظها .

رابعاً :

أ - يطلب وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد من وزارة المالية والاقتصاد الوطني أن تتضمن استمارات الإحصاء على حقل يوضح نوع العين ملكاً ، أو وقفاً عندما تجرى عمليات إحصاء المساكن والمؤسسات .

ب - تتولى لجنة التسجيل بإدارة الحصر والتسجيل مراجعة المعلومات التي تحتويها استمارات الإحصاء مع المعلومات الموجودة بالسجلات من أن أعيان الوقف لم يطرأ عليها تغيير ، أو أنها محفوظة من أيدي العبث .

١٥ - تحدد بقرار من وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المكافآت المناسبة لأعضاء اللجان المذكورة أعلاه محسوبة على أساس عدد أعيان الأوقاف التي تولوا إجراءاتها .

١٦ - تجرى الاتصالات اللازمة مع وزارة العدل لاتخاذ ما يلي :

أ - إرسال وقفية وصورة صكوك الأوقاف التي تسجل لديها مستقبلاً لإدارات الأوقاف .

ب - عدم إصدار حجة استحكام لأية عين قبل الحصول على تأكيد من دائرة الأوقاف في الجهة يفيد عدم وجود علاقة وقفية لها ، وذلك بموجب النموذج ذي الرقم (٦) المرفق.

جـ - إخراج حجة استحكام للأعيان الموجودة بسجلات الأوقاف والتي لم تثبت وقفيتها في سجلات المحاكم .

ب - وثائق وقفية :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

هذا ما وقف وحبس وأبد العبد الفقير إلى الله سبحانه

الحاج صبيح عتيق عقبه حيطانه في عكل على بير الغطغ

ولهن من الماء ثلاث وقعات ونصف على بير الغطغ

بحدودهن وحقوقهن أرضهن ونخلهن وما تحوي

وتمائهن وكل حق هو لهن داخل فيهن أو خارج عنهن

يحدهن من الغرب سور القرية ومن الشمال البير

وطريق المسلمين ومن الشرق حويط اباشقير ومن

الجنوب الحفرة والقطيعة والاحيمري وقفا حبسا

مؤبدا محرما بجميع محارم الله تعالى التي حرم الله بها الزنا

والربا وشرب الخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل

النفس بغير حق وقفا قائما على أصوله جاريا على رسومه

قائما على سبيله ماض لأهله جائز لهم لا يزده مرور الأيام

والأزمنة إلا تأكيد ولا يكسبه تقلب الأوقات إلا تمهيد و

تأبيد ولا يحله تطاول أمد ولا تقادم عهد وكلما تطاول

عليه زمان أبلاه وكلما أتى عليه عصر جدده والله

لا يزل كذلك كذلك ما دامت الدنيا وأهلها حتى يرث

الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وليجدده في

كل عصر ذكره ويسمع الأسماع ما ذكر فيه من تجديد حكمه

لينقله الخلف من السلف ولا يتعرض لإبطاله التلف و

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اوصى به عبد العزيز بن ابراهيم الحميد أنه يشهد ان لا اله الا الله
وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وان عيسى
عبد الله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه وان الجنة
حق وان النار حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله
يبعث من في القبور واوصى بثلث تركته وقف يجعل
في اضحا ونخل وقادم في غلته عشرين وزنة تمر للصوام في رمضان
في المسجد الجامع في شقرا وعشرين وزنه تفرق في العشر الاواخر من
رمضان على الفقرا والمساكين والضا خمسة عشر وزنه لسراج المسجد
الجامع في الضا خمس وزان لسراج مسجد الحسيني والضا عشرين وزنة
للامام في المسجد الجامع وسبع وزان للموذنه والضا عشرين وزنه لمعلم
القران في المدرسه والضا في قادم فيه حجة له بنفسه مرة ولا يحجها الا
ثقة بقراءة معروفة يفعل الولي فيها المشروع جعاله وتفقد [illegible]
نفقة له اذا فسخ صح والضا اضحيتين دائمات كل سنه طبيخ واحدة له وحدها
ضحية لوالديه والضا خمس وزان ثم الامام مسجد الحسيني وخمس وزان لموذنه
وان صار الوقف [illegible] تزيد يجعل عن عشر الوزان خمسة الصواع لهم
خمس الوزان صاع ونصف وان [illegible] الولي شي من املاكنا يصلح للوقف فيثمنه
يجعل في الثلث وما تحتاج المذكور فعلى ان احتاجت وانها احتاجت
اولاده او اولادهم فهم احق به [illegible] الوالد فعلى الحاج [illegible] واخواته
[illegible] ذرية [illegible] وذرية محمد بن [illegible] في اولادهم
شرط الحاكم [illegible] شهد به [illegible]
[illegible] عفو الله ورحمته [illegible] سليمان بن عبد الرحمن [illegible]
[illegible] وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

٧ رجب ١٣٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

صدر ما ذكر من النصب والتقديم لمحمد
ابن عبد الرحمن فصح ولزم العمل به املاه
علي بن محمد العبد القادر
سامحه الله تعالى

موجبه هو انه لما كانت نظارة المسجد المسمى بمسجد رشيد بن حسين الجاحد واوقافه
منصوصة بنص الوقف على الاذرية وذريتهم وكان الموجود من الذرية
فاطمة بنت عبد الله آل رشيد و صالح بن احمد الاشقر واخواته مريم ولطيفه واحمد بن حسين
بن شمس والخويه محمود رشيد وحسن بن سعد العزيز بن عريض والشيخ محمد بن عبد الرحمن
الكرود فنصبوا جميعا الرجل محمد بن عبد الرحمن الكرود اماما في مسجد جدهم المذكور
حيث انه من اهل الامامة ومن اهل العفة والامانة يؤم المصلين في المسجد المزبور
الصلوات الخمس والتراويح والكسوف والخسوف وعينوا له اهل النظارة من غلة
الوقف وللمؤذن والذي يجذب الماء من البير للمصلين وللحصل الموضوعة للمصلين
والدلو والرشا بستة وخمسين سالمة من النوائب مع جميع البستان الذي بغرب
للمسجد ثم بعد صدور ما ذكر نصب صاحب النظر في المصلح المرسوم اسمه وختمه
اعلاه الكتاب تقبل الله مواد نيته بالحسنات يوم المآب ما نصبه اهل النظارة على
المسجد واوقافه ولياته حيث اهليته لذلك ثم ليعلم بانه اذا اتى اهل رشيد بن حسين
للامامة فهو شريك مع محمد في الامامة والمعين بينهما يكون لدى من يقف عليه معلوما وصحيح
وجرى ما ذكر وحرر في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٧ هجرية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد وقفت نوره بنت ابرهيم الجحي جميع ارثها من ابيها وامها وهو
معروف مشهور في قصور شرى و في الغيضه و اثيثيه و العيينه
والحميديه وقفت الجميع على الضعيف من ذريتها ثم بعدهم على الاقرب
المحتاج وتادم فيه اضحيتين دوام واحده لها وواحده لوالديها
واستثنت غلته مدة حياتها اشهد على ذلك كاتبه احمد بن ابرهيم
بن عيسى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

١٢٨٧

٣ ذ

بسم الله الرحمن الرحيم

(أبو الكلف)

هذا ما أوصى به العبد الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ابرهيم بن جمازا أنه يشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته
ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق (وأن الساعة آتية لا ريب فيها) وأن الله يبعث من في القبور
وأوصى من بعده من أخوانه وأهله بما أوصى به ابرهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله
اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وأوصى بثلث ماله تقرباً إلى الله
وطلباً لثوابه يشترى به نخل أو أرض يصير وقفاً على مسجد الحزم المعروف في الجعيه
تصرف غلته أثلاثاً ثلث لإمام المسجد المذكور وثلث للصوامة يفطرون به
في شهر رمضان وثلث يجعل أثلاثاً ثلثاً منه لسراجه وثلثيه لدلوه جعل
ذلك غلته وقفاً مؤبداً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين
فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم وقد وكل
على إنفاذ ثلثه وتحصيله دراهم ثم يشتري به عقاراً أخاه أحمد بن عثمان بن دهش
وأخاه دهش شهد على ذلك عبد الله بن محمد بن ربيعه ومحمد بن عبد المحسن بن حمد
بن صالح وشهد به وكتبه محمد بن عبد الله بن ناصر حرر في ذي الحجة سنة ١٣٠٧ وصلى الله
على محمد وآله وصحبه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

اقر عندي محمد العبد الله الحشاش بانه وقف داره الكاينه بالجزيره
معروفه دار جنة علي محمد الحشاش ومن سليمان العبد الله الأصقع
ودار جنة علي سليمان من الطيار ومحمد [illegible] امن قبله وشمال
دار فاروق ومن شرق دار اسماعيل ومن جنوب دار الشيخ يحيى
وقف محمد داره المذكوره على بنته حصه ثم بعدها ذريتها
ثم ذريتهم ما تعاقبوا وتناسلوا الى يوم القيامه وجعل
فيها اضحية له ولوالديه ووالديهم فان وجدوا فيضحوا
وان عجزوا فلا حرج عليهم وجعل لها ان تقي كل من بعدها
من ذريتها من ترا صلاحه وهي مقبوضة لا منازع لها
ولا معارض وذلك في صحة من عقل الموقف وبدنه
شهد على اقراره محمد المنصور العمير وشهد به كاتبه عبد الله
بن عبد الرحمن التركي وصلى الله على محمد وسلم حرر في ٢٤ شوال سنة ١٣٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] عبد العزيز بن عبد الله [illegible]

اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله وان الساعة آتية لا ريب فيها

وان الله يبعث من في القبور [illegible] ان يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم

ويطيعوا الله ورسوله ان كانوا مؤمنين [illegible] ابراهيم [illegible] يا بني

ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون [illegible]

[illegible]

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا [illegible] ١٢٤٩

[illegible]

مصادر البحث ومراجعه

أولاً : وثائق :

١ - ديوان أوقاف الصوام بأشيقر ، مجموعة وثائق عبد الله بن عبد العزيز العياف . أشيقر.

٢ - وثائق الدكتور أحمد البسام بعنيزة .

٣ - وثائق دارة الملك عبد العزيز بالرياض .

٤ - وثائق يوسف المهنا بشقراء .

٥ - جريدة أم القرى ، مكة المكرمة .

ثانياً : الكتب والبحوث :

- أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني (الخصَّاف) ، كتاب أحكام الأوقاف ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .
- أحمد بن عبد العزيز البسام ، أوضاع الأوقاف في نجد قبل الدعوة الإصلاحية وموقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب منها ، مجلة الدارة ، العدد١ ، السنة٢٤ ١٤١٩هـ .
- أحمد بن على العسقلاني ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، دار الريان للتراث القاهرة ، ١٤٠٧هـ .
- أحمد بن محمد المنقور ، الفواكه العديدة في المسائل المفيدة ، الرياض ، ١٤٠٧هـ.
- أحمد بن محمد هارون الخلال ، كتاب الوقوف من مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، دراسة وتحقيق عبد الله بن أحمد الزيد ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١٠هـ .
- أحمد فراج حسين ، أحكام الوصايا والأوقاف في الشريعة الإسلامية ، دار المطبوعات الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧م.
- أسعد حمزة شيره ، ورقة ميدانية مقدمة للحلقة الدراسية لتثمير ممتلكات الأوقاف في البنك الإسلامي للتنمية بجدة ، ١٤٠٤هـ ، جدة ، ١٤١٥هـ .
- خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٢م.

- دلال بن مخلد الحربي ، إسهام المرأة في وقف الكتب في منطقة نجد ، ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية ، مكتبة الملك عبد العزيز ، المدينة المنورة ، محرم ١٤٢٠هـ .

- راشد بن سعد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، ١٤١٤هـ .

- راشد بن محمد بن عساكر ، تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الرياض ، الرياض، ١٤٢٠هـ .

- شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي للوثروب ستودارد ، تعريب عجاج نويهض ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٤هـ ؛ وكتاب : الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، مكتبة المعارف ، الطائف ، ١٣٩٧هـ .

- عادل محمد نور غباشي ، أسبلة الملك عبد العزيز على الطريق بين مكة وجدة ، مجلة الدارة ، العدد ٣، السنة ١٩ ، ١٤١٤هـ .

- عبد الرحمن بن محمد القاسم ، الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ.

- عبد الله بن سليمان المنيع ، الوقف من منظور فقهي ، بحث مقدم في ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية ، مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة المنورة ، محرم ١٤٢٠هـ .

- عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة ، ١٤١٩هـ.

- عبد الله بن محمد الحجيلي ، الأوقاف النبوية ووقفيات بعض الصحابة الكرام ، بحث في ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية ، مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة المنورة ، محرم ١٤٢٠هـ .

- عبد الله بن محمد بن خميس ، معجم اليمامة ، الرياض ، ١٣٩٨هـ .

- عبد الله محمد الرشيد ، الرس ، سلسلة هذه بلادنا ، الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، الرياض ، ١٤٠٣هـ .

- محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ، مطبعة الحكومة ، مكة المكرمة ، ١٣٩٩هـ .

- محمد بن عبد الله السلمان ، عنيزة ، سلسلة هذه بلادنا ، الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، الرياض ، ١٤١٠هـ .

- محمد شوقي إبراهيم ، الأراضي الوقف في المدينة المنورة ، مجلة الدارة ، العدد ٢ ، السنة ١٠ ، محرم ١٤٠٥هـ .

- محمد عبيد عبد الله الكبيسي ، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٣٩٧هـ .

- مصطفى أحمد الزرقا ، أحكام الأوقاف ، دار البيان ، عمان ، ١٤١٨هـ .

- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، الأوقاف في المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٤١٩هـ .

- وهبة الزحيلي ، الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٩هـ .

- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، مؤسسة فيصل للتمويل ، إستانبول ، ١٩٩٠م.

أ.د. الشريف محمد بن حسين الحارثي (*)

الصارم الحديدي لبتر علاقة أمراء مكة الأشراف بالمذهب الشيعي الزيدي دراسة تاريخية تحليلية نقدية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

الهدف من الدراسة :

١ - إخضاع الروايات التاريخية عن زيدية أمراء مكة الأشراف للتحليل والنقد العلمي.

٢ - إثبات سلامة فطرة أشراف الحجاز ونقاء معدنهم من الدخيل نسبًا ومعتقدًا في الجملة .

منهج الدراسة :

لن تكون الدراسة لمناقشة القضية من زاوية عقدية أو فقهية ، وستنحصر الدراسة في الجانب التاريخي ، ولأمراء مكة تحديداً ؛ وستكون الدراسة موجزة ؛ معبرة ؛ قائمة على مدخل وسبعة صوارم .

---

* - باحث تاريخي - مكة المكرمة .

وتختتم بالصارم السابع الذى يعرض تاريخيًا لتحول أشهر علماء المذهب الشيعى الزيدى منذ القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر الهجرى لمنهج أهل السنة والجماعة ؛ ليكون خاتمة الصوارم .

المدخل :

إن من المتعارف عليه لدى كل باحث فى التاريخ عامة ، وتاريخ الفرق والمذاهب خاصة ؛ أن كل مذهب أو فرقة تحتاج لتنمو وتزدهر في منطقة ما من العالم إلى مركز دعوى وقاعدة فكرية، وأتباع ودعاة مخلصين يتبنون فكر المذهب أو الفرقة .

ومن الملاحظ لقارئ التاريخ أن المذهب الشيعى الزيدى الذى دخل الحجاز بتأثير من الفاطميين العبيديين (أصحاب المذهب الشيعى الإسماعيلى الباطنى) منذ عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م تقريبًا على حكام مكة الأشراف ، فدخلت عبارة (حى على خير العمل) في الآذان بالحرم المكى الشريف . ثم بمساعدة فعلية عسكرية من الصليحيين حكام اليمن (وهم شيعة إسماعيلية) ، فرض التوجه الشيعى على حكام مكة ، وتولى الحكم أبو هاشم " محمد بن جعفر " عام ٤٥٥هـ ، بدعم من محمد بن على الصليحى وأمر الشريف بالدعاء للفاطميين ، وتوالى الدعم الشيعى اليمنى لحكام مكة لمد نفوذهم السياسى والدينى من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى حتى زوال هذا المذهب فى منتصف القرن الثامن الهجرى من الحجاز[١] .

ولن يفوت المطلع على التاريخ أن دعاة يمنيين من أمثال ابن حوشب وابن فضل وغيرهما كانت لهم اليد الطولى في نشر الدعوة الإسماعيلية الشيعية الباطنية فى مناطق عدة فى العالم الإسلامى قبيل قيام الحكم الفاطمى العبيدى فى المغرب ومصر [٢] .

بالرغم من ذلك لم يتحقق للمذهب الشيعى الزيدى فى الحجاز بحدوده الجغرافية المتعارف عليها من العقبة شمالاً إلى القنفذة جنوبًا بسراته وتهامته مركز دعوى أو قاعدة فكرية ، ولا أتباع ودعاة مخلصون من أهل الحجاز للصوارم التالية :

الصارم الأول :

تجذر الإسلام الصافى والسنة الصحيحة (المحجة البيضاء) فى أفهام وألباب كثير من أهالى الحجاز ، وما أشراف الحجاز إلا جزء من هذا الكل . قال رسول الله ﷺ : " غلظ

القلوب والجفاء في المشرق والإيمان في أهل الحجاز " رواه مسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام : " إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها " رواه مسلم .

فأثبتت البيئة الحجازية عامة والبيئة المكية خاصة على مدى التاريخ نفوراً وازدراء للمذاهب الشيعية وأتباعها ومحاصرتهم والحط من شأنهم . وشكلت البيئة العلمية في الحرم المكي (إمامة وخطابة وتدريساً) بيئة طاردة للمذهب الشيعي الزيدي بل وأجبرت علماء هذا المذهب الشيعي برغم محدوديتهم وقلة عددهم وضآلة شأنهم على مدى التاريخ على الاستتابة والعودة لمنهج أهل السنة ، وشاركهم في هذه النظرة الرحالة المغاربة ، فلا يشير مؤرخو مكة والرحالة المغاربة للتواجد الزيدي على محدوديته إلا بنفور وازدراء ، والنصوص التاريخية التالية خير شاهد :

عندما يشير المؤرخ المكي الشهير تقي الدين الفاسي إلي زيدية الشريف قتادة ، يذكرها على استحياء ، وينسبها لغيره ، وكأنه ولاشك ينكرها ، وتأباها نفسه لذلك الأمير الشريف(٣).

وهي لا شك غير ثابتة اعتقاديًا ؛ ولا تقوم عليها حجة قوية أو دليل وبرهان ، وذلك ما سيتبين لنا بشكل صارم في القادم من الصوارم .

في سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م تقريبًا ، قال الفاسي : " وصل العسكر المصري متوجهًا إلي اليمن ، وعند وصولهم إلى مكة هرب إمام الزيدية إلى وادي مر ، فأقام به . وما رجع إليها إلى وقت الحج ، وعاد بعد الموسم إلى ما كان يفعله . وإمام الزيدية المشار إليه رجل شريف، كان يصلي بالزيدية بين الركن اليماني والحجر الأسود ، فإذا صلى الصبح وفرغ ، دعا بدعاء مبتدع وجهر به صوته ، ويدعوا في آخره للإمام محمد بن المطهر بن يحيى بن رسول صاحب اليمن . وكان يفعل ذلك بعد صلاة المغرب أيضاً " . انتهى (٤).

يذكر الفاسي في العقد الثمين : " أن أبا القاسم بن محمد المعروف بابن الشقيف كبير الزيدية في مكة عُقد له مجلس بحضرة القاضي عز الدين بن جماعة ، واستتيب فيه ، وأشهد على نفسه ، وكتب بخطه أنه تبرأ إلى الله تعالى من اعتقاد البدع الزيدية ، والإمامية ، وغيرهم ، وأنه يواظب على الجمعة والجماعة ، وإن خرج عن ذلك فعليه ما تقتضيه الشريعة المطهرة ، وذلك في رمضان سنة خمسين وسبعمائة ... ومات ابن الشقيف من سنة ستين وسبع مئة بمكة .. " (٥).

قال التقي الفاسي : " وأما حدوث صلاة الأئمة عى هذه الصفة ، فلا أعلم في أي وقت كان، ثم نقل ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانا موجودين مع الشافعي سنة أربع مئة وسبع وتسعين ، وأن الحنبلي لم يكن موجوداً ، وإنما كان إمام الزيدية " .

ثم قال : " ووجدت ما يدل على أن الحنبلي كان موجوداً في عشر الأربعين وخمسمائة " . والله أعلم (٦).

يقول ابن جبير في رحلته ، عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م تقريباً ، عن أئمة الحرم المكي : "وللحرم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة الزيدية . وأشراف أهل هذه البلد على مذهبهم ، وهم يزيدون في الأذان : " حي على خير العمل " إثر قول المؤذن : " حي على الفلاح " وهم روافض سبابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم ، ولا يجمعون مع الناس إنما يصلون ظهراً أربعًا ، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها " (٧). والرحالة ابن جبير يردد ما شاع في زمانه من تبني الأمراء للمذهب الشيعي الزيدي دون أن يطرح دليله على ذلك ، ولعل مرد ذلك أن حديثه عن الحرم المكي ولم يكن عن الأمراء ، ليتتبع مدى حقيقة اعتناقهم للمذهب الشيعي الزيدي .

لم تشر الباحثة عائشة باقاسي في دراستها العلمية المطبوعة بعنوان : (بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٦٧ - ٦٤٨)(٨) عند حديثها عن الحياة العلمية في بلاد الحجاز عامة ومكة خاصة عن دور علمي ما لعلماء الزيدية في تلك الفترة التاريخية .

لم يشر الدكتور سليمان عبد الغني مالكي في دراسته العلمية المطبوعة بعنوان : (بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة في بغداد من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السابع الهجري) إلى دور ما للزيدية في الحياة العلمية في الحجاز عامة وفي مكة خاصة (٩).

لم يتحدث علي بن حسين السليمان في دراسته العلمية القيمة المطبوعة بعنوان : (العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) عند حديثه عن الدور الديني والعلمي في الحجاز إلى دور علمي ولو محدود للزيدية في اليمن ، عدا ما تمت الإشارة إليه من إمامة في الحرم منبوذة محصورة لم تكن ذات شأن ولم تلق القابلية من أهل مكة ، بما أبرزته النصوص التاريخية الواردة في الدراسة .

الصارم الثاني :

امتداد المذهب الشيعي إلى بعض مناطق الحجاز لا يعنى التغلغل والتمكن والسيطرة بل كانت المطامع السياسية لحكام اليمن الشيعة الإسماعيلية والشيعة الزيدية وراء بث أفكارهم ودعواهم كسباً لأمراء ووجهاء الأشراف في الحجاز ، وتراوح ولاء أمراء مكة بين مصر واليمن تبعاً لحجم الأعطيات التى تصلهم من أى من الدولتين .

وقد حرص حكام اليمن على فرض سيطرتهم على الحجاز بما تمتلكه بلادهم من المحاصيل الزراعية ؛ كالحبوب التى تصل للحجاز على شكل قوافل من قبائل السر ، ونتيجة لانقطاع هذه الحبوب تحدث المجاعات فى الحجاز (١٠).

وسبقت الإشارة إلى أن محمد بن على الصليحى اليمنى الشيعى الإسماعيلى الذى أقام دولة له باليمن ، سيطر على مكة بقوة عسكرية ، عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م تقريباً ، وفرق فى أهلها وحجاجها الأعطيات والهبات وأزال حكومة الأشراف السليمانيين ، وأحل محلهم حكومة الأشراف الهواشم مقابل إعلان الدعاء للحاكم الفاطمى الشيعى الإسماعيلى ، وتلته تدخلات حكومات اليمن الأيوبية والرسولية ، والرسيين الزيدية .

ولعل ما يهمنا من أئمة الرسيين الزيدية (المنصور : عبد الله بن حمزة) إمام الزيدية من عام ٥٩٦ - ٦١٤هـ / ١١٩٩-١٢١٧م تقريباً ، وهو بهذا التاريخ مزامن للشريف قتادة الذى حكم مكة من عام ٥٩٧ - ٦١٧هـ / ١٢٠٠ - ١٢٢٠م تقريباً ، وقد قضى هذا الإمام الشيعى الزيدى فترة حكمه فى صراع مع الأيوبيين لتثبيت الدعوة الزيدية فى اليمن ، وهو أول من فرض الضرائب من الأئمة الزيدية ، واضطهد وقتل العدد الكبير من مخالفيه من أتباع فرقة المطرفية وكفرهم واستباح حرماتهم ، وجعل حكمهم حكم الكفار المحاربين ، وقد ذكر ذلك فى كتاب صغير كتبه إجابة على عدة مسائل من بينها مسألة المطرفية وانتهاك حرماتهم وسبيهم لأن أكثرهم عوام لا يعرفون إلا جملة الإسلام ، وأجاب بأنهم كفار طبايعية .

وقد جرت بينه وبين أبى القبائل من فقهاء الشافعية فى ذى جبلة مراسلات طويلة ، حتى أن أبا القبائل ألف كتاب الخارقة فى مجلد يفند فيه آراء هذا الإمام الشيعى الزيدى (١١).

وينقل سنواك رأياً متحيزاً لأحد المؤرخين اليمنيين يفسر سبب رفض الشريف قتادة الذهاب إلى بغداد لملاقاة الخليفة الناصر العباسي ، بزعم اهتمامه بالعائلة الزيدية بزعامة المنصور عبد

الله بن حمزة في اليمن ، وبدعوى المعاضدة للأسرة الحاكمة في اليمن ، لكن ستوك يفند هذا الرأي بقوله : " يبالغ الكتاب اليمنيون في بعض الأحيان بأهمية تاريخ بلادهم السياسي على المسرح الخارجي . لدى مخطوطة عن تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري تحتوى على ملحق من اثنتين من العديد من رسائل الإمام المؤيد : إحداهما أرسلها إلي الشاه الفارسي عباس ، والثانية أرسلها إلي الأشراف في مكة . وفي كلتي الرسالتين يطلب الإمام مساعدته ضد الأتراك . ويستطيع المرء أن يتصور أنه لم يقم أحد من هؤلاء بمد يد العون للإمام " . بل وينقل ستوك وصية سجلها الفاسي ومن تلاه من مؤرخي مكة للشريف قتادة يوصي بني عمه الأشراف في محنته مع الخليفة العباسي وخشيته من معاقبته له على رفض القدوم عليه : بالتزام مكة قائلاً : " يا بني الزهراء عزكم إلي آخر الدهر مجاورة هذه البنية { الكعبة } والاجتماع في بطحائها ، واعتمدوا بعد اليوم ، أن تعاملوا هؤلاء القوم بالشر يوهنوكم من طريق الدنيا والآخرة ، ولا يرغبوكم { أو يروعوكم ، أو يرعبوكم } بالأموال والعدد والعُدد ، فإن الله قد عصم أرضكم بانقطاعها ، وإنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس " ، ويعتبرها ستوك تفسر حقيقة موقف الشريف قتادة ، وأنه لم يفكر في دعم أو التعاطف مع الإمام الشيعي الزيدي ، بل يفكر في مصالحه هو وبني عمه في مكة فقط (١٢).

كما أن المصادر التاريخية المكية لم تشر لهذا الإمام الشيعي الزيدي بصلة تستحق الذكر بمكة وأمرائها إطلاقاً . وبذلك تنصرم الأقوال والمزاعم لبعض مؤرخي الزيدية في علاقة الشريف قتادة بالإمام الشيعي الزيدي عبد الله بن حمزة ، التي لا تقوم على دليل قاطع ، ولا تعدو كونها تخرصات وأوهاماً لا تصمد أمام النقد العلمي .

وما تردده كتب مؤرخي الزيدية مشكوك فيه وقائم على المبالغة والتضخيم لأدوار أئمة المذهب الزيدي ، كعبد الله بن حمزة ، وأنه إمام للشريف قتادة وبايعه الشريف على ذلك ، ولكني أتساءل لماذا لم يكن الشريف قتادة هو إمام لعبد الله بن حمزة ، خاصة وأن الأخير أصغر سناً في فترة تزامنهما في الحكم ، وكليهما شريف حسني ، ومكة أفضل وأولى بالقيادة والإمامة من صعدة أو صنعاء .. أليس كذلك !؟ .

ولكن لا غرابة في ذلك : فمن المعلوم بداهة والمسلم به لدى المؤرخين عامة ومؤرخي الفرق خاصة أن : (كل أقلية مذهبية أو دينية) تستميت في تضخيم دورها خشية الذوبان والزوال!

وقد تطابقت أيضاً أقوال المؤرخين مع قول التجيبي (الرحالة المغربي القاسم بن يوسف السبتي التجيبي المتوفى عام ٧٣٠هـ) في رحلته المسماة : (مستفاد الرحلة والاغتراب) عند تحدثهم عن حاجة مكة وأمرائها للدعم الاقتصادي خلال حوادث سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م تقريباً . وقد أشار الفاسي إلى هذه الناحية بقوله : إن الدافع لأبي نمي ، في الدعاء لصاحب اليمن على منابر المسجد الحرام عظم صلته ، وهو أمر لا يقدم عليه أمير لمكة المكرمة إلا بعد معرفة عميقة بمدى الفائدة العائدة عليه من ذلك . وهو أمر ليس بجديد في علاقاتهم مع الدول المجاورة لهم وخصوصاً أن مكة المكرمة عانت من تنافس الدولتين العباسية والفاطمية في بسط نفوذهما على الحجاز لصبغ حكمها بالصبغة الشرعية . فترى أن ولاء أشراف مكة المكرمة تبع لصاحب أكبر صلة ، وهو المقدم لذلك في الخطبة والدعاء على المنابر (١٣).

الصارم الثالث :

الزعم بتقبل بعض أشراف ينبع ومن انطلق منها لإمارة مكة للمذهب الشيعي الزيدي لا يتعدي كونه (عباءة سياسية) أو (واجهة سياسية) تحقق لهؤلاء الوجهاء والأمراء والمتنافسين والمتصارعين على السلطة في مكة أهدافهم ومراميهم ، بدافع سياسي اقتصادي بحت . ولم تشكل ينبع بحال من الأحوال إطلاقاً (قاعدة فكرية) أو (مركزاً دعوياً) للمذهب الشيعي الزيدي في الحجاز .

والنصوص التاريخية التالية خير شاهد :

يقول سنوك : " غير أنه من المؤكد أن سادة مكة في الحياة العملية كانوا يغيرون اتجاهاتهم السياسية بسرعة الريح ، وهم أكثر سطحية في اعتقاداتهم الدينية ، حيث لم يكونوا على مستوى عالٍ من الثقافة والعلم .. " (١٤).

ومن البداهة أن نعلم أن سبب تغيير أمراء مكة اتجاهاتهم السياسية بسرعة الريح يعود لضعف الموارد الاقتصادية لبلادهم ، واهتمام بل إلحاح الحكومات المجاورة للحجاز للسيطرة على الأراضي المقدسة بما تملك من العتاد والعدد والعدة ، ولو اسمياً .

أما سطحية اعتقاداتهم الدينية يعود لمنشاهم الريفي ، فقد كان الشريف قتادة رحمه الله وقومه ظواعن بادية ، ومتدينون بالفطرة ، لا يغالون في المذهبية ، وجل اهتمامهم بالفروسية والشجاعة والكرم ، والتطلع للإمارة في كل زمان ومكان .

يعلق السباعي علي وضع أمراء مكة بقوله : " ويجب ألا يفوتنا أن نفوذ هذه الدول ما كان ليشوب استقلال مكة إلا بمقدار ما تدفو إليه ضرورة الدعاء على المنبر وقبول المنح والعطايا ولعل أشراف مكة كانوا معذورين فى هذا فقد استقلوا بمكة وليس فى تعدادها وما يتبعها ما يكفى لإعداد جيش قوى يدافع عنهم وليس فى مواردها ما يكفى لبعض نفقاتها . لهذا لا مناص لهم من مهادنة الأقوياء وقبول المنح والهدايا من هؤلاء مرة ومن أولئكم أخرى "(١٥).

ويقول الدكتور محمد جمال الدين سرور : (ولم يكن لدى أمراء مكة والمدينة القوة التى تمكنهم من درء الأخطار عن بلاد الحجاز ، كما أن موارد تلك البلاد كانت لا تكفى لسد حاجة أهلها ... حتى أن المقدسى لما زار بلاد الحجاز فى القرن الرابع الهجرى وصفها بالفقر وقلة العلم ، كما أن الرحالة الفارسى ناصر خسرو لاحظ حين زيارته لمكة فى القرن الخامس الهجرى قلة عدد سكانها ، وقد عددهم بألفين ، وقال : " إن فريقًا من أهلها اضطروا إلى الرحيل عنها فرارًا من المجاعات " (١٦).

الصارم الرابع :

ولعل أبرز ما يبطل دعوى اعتناق أمراء مكة الأشراف المذهب الشيعى الزيدى ، هو التساؤل التالى : كيف لم يتمكن أمراء الأشراف من إقناع أهالى مكة وما حولها بمذهبهم وهم أمراؤهم ، وفى الأثر (الناس على دين ملوكهم) ؟؟!!! ، والجواب واضح وجلى لأن الأمراء الأشراف أنفسهم ليست لديهم القناعة العقدية (الاعتقادية) الكافية بهذا المذهب ، إنما كان (لبوسًا سياسيًا) ، يحقق لهم مصالح سياسية واقتصادية ملحة ، وجسر عبور لتصل إليهم أعطيات حكام اليمن الشيعة والحصول على دعمهم ومساندتهم ، أو اتقاء شرهم وخشية امتداد نفوذهم . بينما بقى أهل مكة وما حولها من المدن والقرى بعامتهم ووجهائهم وعلمائهم وقضاتهم ومؤرخيهم على مذهب أهل السنة من (شوافع وأحناف ومالكية وحنابلة) .

والنصوص التاريخية التالية خير شاهد :

ينقل السباعى عن أبى المحاسن فى النجوم الزاهرة : " إلا أن الأذان بحى على خير العمل ظل على أمره عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م تقريبًا فى مكة متابعة للمذهب الشيعى فانتدب العباسيون الشريف أبا طالب لإقناعه فناظره أبو هاشم طويلاً إلى أن قال له هذا أذان أمير المؤمنين على بن أبى طالب فقال له أبو طالب : إن ذلك لم يصح عنه وإنما فعله عبد الله بن عمر فى بعض أسفاره فما أنت وابن عمر ؟ فأسقطه أبو هاشم من الأذان " (١٧).

ويذكر الرحالة المغربي القاسم بن يوسف السبتي التجيبي المتوفى عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م تقريبًا ، في رحلته المسماة : (مستفادة الرحلة والاغتراب) الذي وصل مكة عام ٦٩٦هـ أن الشريف أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة صاحب مكة وينبع (سني المذهب) ، وهو ما لم يشر إليه أحد من المؤرخين كالفاسي مثلاً (١٨).

فدخل السيد عطيفة عند وصول المرسوم الكريم ، وأخرج إمام الزيدية إخراجًا عنيفًا ، ونادي بالعدل في البلاد ، وحصل بذلك سرور عظيم للمسلمين" (١٩).

ويشير الفاسي بوضوح إلي سنية وشافعية الشريف عجلان بن رميثة بن أبي نمي الذي تولى إمارة مكة عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م تقريبًا ، بل وثنائه على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وحين حضره الموت أوصى قاضي مكة أبا الفضل النويري ، بأن يتولى غسله والصلاة عليه مع فقهاء السنة (٢٠).

خاصة إذا علمنا أن زيدية ذلك الوقت تلعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وتكفره تكفيراً صريحًا والعياذ بالله ؛ وهو الذي نص عليه عبد الله بن حمزة في " المجموع المنصوري"(٢١).

... في ليلة الثامن عشر من جمادي الآخرة من سنة ست وأربعين وسبعمائة - بعد المغرب منها / ١٣٤٥م تقريبًا دُعي للشريف عجلان على زمزم ، وقطع دعاء والده رميثة ، ومات يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة سنة ست وأربعين وسبعمائة بمكة ، وطيف به وقت صلاة الجمعة ، والخطيب على المنبر ، قبل أن يفتتح الخطبة ، وسكت الخطيب حتى فرغوا من الطواف به . وكان ابنه عجلان يطوف معه ، وجعله في مقام إبراهيم وتقدم أبو القاسم بن الشقيف الزيدي للصلاة عليه ، فمنعه من ذلك قاضي مكة شهاب الدين الطبري ، وصلى عليه بحضرة عجلان، ولم يقل شيئًا ، ودفن بالمعلاة عند القبر الذي يقال إنه قبر خديجة بنت خويلد رضي الله عنها... " (٢٢).

ومن باب بطلان دعوى اعتناق أمراء مكة الأشراف للمذاهب الشيعي الزيدي ، يذكر الرحالة المغربي (ابن بطوطة) أثناء وجوده بمكة عام ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م تقريبًا : اسم أحد الأشخاص الذين تولوا منصب المحتسب ، وهو إمام الحنابلة محمد بن عثمان ، فإلى جانب قيامه بالحسبة ناب في القضاء أيضًا ، ويبدو أن أمير مكة المكرمة يقوم بحماية المحتسب ؛ فمتولي هذا المنصب يتم تعيينه وفق أمر الأمير ، ويعطى عمامة في حضور عدد كبير من الناس ضمانًا لعدم التعرض له بسوء (٢٣).

فلماذا لم يعين الأمير شيعياً زيدياً .. ؟!! .

ولما خطب بعض الزيدية لإمام اليمن بينبع غضب شريف مكة من ذلك وكتب للسلطان به . وسبب ذلك وجود عين من أهل صنعاء المهاجرين إلى تلك الديار يقال له : " حسين النحوى". قال المؤرخ الزيدى وهو يثبت خوف أهل ينبع من علم الشريف بذلك ، وقد ابتلوا بذلك الجاهل الزيدى المتهور ، فقال - وهو يثبت عدم رضا الأشراف بالمذهب الزيدى بشهادة الزيدية - : "ولما علم بقية أهل البلاد أشفقوا من إشراف الشريف على ما فعلوه ، وسعوا فى ترك الخطبة فتركت ، وكان الشريف قد توعدهم بمساعدة أميرهم ، فإنه كتب عليهم سجلاً وأراد رفعه إلى السلطان ، وكتب الشريف إلى أهل المدينة بذلك ... " (٢٤).

وفى أحداث سنة ١٠٨٢هـ من ذى الحجة / ١٦٧١م تقريبًا : (وهذا اليوم أرسل مولانا الشريف قاصداً البيضاء من جهة اليمن يأمر الأمير فرحان صاحب حج اليمن بالعودة من هناك، وأن لا يدخل مكة . فرد الحج من يلملم .

وبلغنا أن الإمام القائم فيها وهو المتوكل على الله إسماعيل .. وتعب فقهاء الزيدية ، وقصدوا الإمام المذكور بالقصائد التى فيها ما يشق عليه من العتاب " و التحريض على أخذ مكة ") (٢٥).

الصارم الخامس :

تسببت هذه الروايات الواهية التى لا تصمد أمام التحليل والنقد العلمى ، فى تشويه سمعة أمراء مكة الأشراف تدريجيًا ، وقد تسبب فى رواجها شيعة اليمن الزيدية ، مما أظهر هؤلاء الأمراء كأقلية مذهبية شيعية وسط محيط سنى كبير فى الحجاز ، بما عبر عنه المؤرخون والرحالة عند حديثهم عن صفات بعض أمراء مكة يثنون عليهم ويرون أنهم يصلحون للخلافة لولا أنهم (زيدية) . ويعدونها مثلبة فى هؤلاء الأمراء . والنصوص التاريخية التالية خير شاهد :

" وقد أثنى على أبى نمى (الأول) غير واحد من العلماء ، مع ذكرهم لشىء من أخباره ، منهم الحافظ الذهبى ، لأنه قال : فى سير أعلام النبلاء فى ترجمة أبى نمى : شيخ ضخم أسمر عاقل سايس فارس شجاع محتشم ، تملك مدة طويلة ، وله عدة أولاد ، وفيه مكارم وسؤدد . وذكره لى أبو عبد الله الدبالى ، فأثنى عليه وقال : " لولا المذهب لصلح للخلافة ؛ كان زيديًا كأهل بيته " (٢٦).

الصارم السادس :

منذ منتصف القرن الثامن الهجرى أخذ المذهب الشيعى الزيدى فى الذوبان والزوال من مكة المكرمة وقبيل سقوط دولة المماليك وغلب المذهب الشافعى على أهل مكة وأمرائها ، ويليه المذهب الحنفى .

واختفى وجوده أى إمام الزيدية فى الحرم - فى وقت وجود ابن بطوطة الذى زار مكة سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م تقريباً ضمن رحلاته المتعددة إذ أنه لم يذكر وجود للفرقة الزيدية .

والغالب أنه لم يعد للمذهب الزيدى مكان بالحرم المكى ومما يؤيد ذلك الإجراءات التى اتخذت للحد منه والتى اكتملت بعدما وصل مرسوم من السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م إلى الشريف عطيفة يستنكر فيه وجود إمام زيدى بالحرم فأصدر إليه أمراً بمنعه فنفذ الشريف الأمر . ولم يعد أتباعه يجهرون بشعائرهم .. " [٢٧].

يقول سنوك : " ولما كانت نواة الشعب (أى المكى) منذ العصر العباسى تدين بالمذهب الشافعى ، فإن القاضى الشافعى هو الذى يتقلد المرتبة العليا ، وخاصة منذ أن تخلى الأشراف عن اتجاهاتهم الشيعية (منذ منتصف القرن الثامن الهجرى) وأصبح يعرف باسم قاضى مكة أو قاضى القضاة [٢٨].

ويقول سنوك : " إن هؤلاء الأشراف الآن - يقصد القرن العاشر الهجرى - على المذهب الشافعى [٢٩].

لم يذكر المؤرخ المكى على بن عبد القادر الطبرى : (صاحب الأرج المسكى فى التاريخ المكى) ، المتوفى ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م تقريباً ، عند حديثه عن المقامات وأئمتها فى زمانه إلى أى إمام زيدى . مما يؤكد انقطاع الزيدية من الحرم المكى على ضآلة وجودها فى السابق [٣٠].

ويقول سنوك : " وقد وجدوا - أى أمراء مكة الأشراف - أنفسهم فى عام ١٦٧٢م / ١٠٨٣هـ مضطرين لإرجاع الزيديين القادمين لأداء فريضة الحج . وكذلك فإن الزيديين المقيمين فى مكة قد تحولوا إلى المذهب الحنفى .." [٣١].

لم يشر إبراهيم رفعت باشا فى كتابه : من قريب أو من بعيد لوجود زيدى فى مكة عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م تقريباً [٣٢].

يذكر صاحب الرحلة الحجازية (محمد لبيب البتنونى) عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م تقريباً من عوائد أشراف مكة أن كبرا هم يرسلون أولادهم فى نعومة أظفارهم إلى البادية وخصوصاً قبيلة عدوان التى توجد شرق الطائف ، وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها رسول الله ﷺ ، فينشئون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من أشعارهم ، وأخذوا عوائدهم وطباعهم ، وأحسن ما تراه فيهم من الفروسية والحرية فى القول والفعل .. " (٣٣).

ولعلنا نتسا ئل لماذا لم يرسل الأشراف أولادهم إلى اليمن وتحديداً المناطق الزيدية ؟!!!.

لأن زمن الحاجة إلى شيعة اليمن الزيدية وأعطياتهم ولى إلي غير رجعة ، وعاد الأشراف إلى محيطهم الاجتماعى الحجازى الصرف ، ليكونوا جزءً من هذا الكيان العريق بإسلامه وسنيته ، ويكتسب أبناؤهم من باديته العروبة والأخلاق والفروسية الحجازية المحلية .

الصارم السابع :

ما بال كبار علماء الزيدية تحولوا لمنهج أهل السنة والجماعة ومنهم :

الإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير (٧٧٥-٨٤٠ / ١٣٧٣ - ١٤٣٦م تقريباً) .

يقول الإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير فى كتابه (الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم ﷺ) : " وسبب إيثارى لذلك ، (لمنهج أهل السنة) وسلوكى تلك المسالك : أنَّ أول ما قرع سمعى ، ورسخ فى طبعى : وجوب النظر ، والقول : (بأنَّ من قلد فى الاعتقاد فقد كفر) ، فاستغرقت فى ذلك حدة نظرى ، وباكورة عمرى ، ومازلت أرى كل فرقة من المتكلمين تداوى أقوالاً مريضة ، وتقوى أجنحة مهيضة ، فلم أحصل على طائل ، وتمثلت بقول القائل :

كلٌ يداوى سقيماً من مقالته ... فمن لنا بصحيح ما به سقم

فرجعت إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وقلت : لابد أن يكون فيها براهين وردود على مخالفى الإسلام ، وتعليم وإرشاد لمن اتبع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

وزال ما كنت به مبتلى ، وأنشدت متمثلاً :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

والقاضى محمد بن محمد بن داود النهمى ، رفيق ابن الوزير فى الطلب .

والحسن بن أحمد بن محمد بن على بن صلاح الجلال (ت ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م) .

ومحمد بن على بن قيس (ت ١٠٩٦هـ) ، ويحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠هـ) ، وصالح بن مهدى المقبلى (ت ١١٠٨هـ) ، ومحمد بن إسماعيل الأمير الصنعانى (ت ١١٨٢هـ) ، وهو وارث علوم ابن الوزير ، وشارح كتبه .

ومحمد بن على الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ) ، ومحمد بن عبد الملك الآنسى (ت ١٣١٦هـ) ، وأحمد بن عبد الله الجندارى (ت ١٣٣٧هـ) ، وعبد الله بن محمد العبزرى (ت ١٣٦٤هـ) ، وحسين بن أحمد بن قاسم الحوثى (ت١٣٨٦هـ)(٣٤).

وكذلك الشيخ مقبل بن هادى الوادعى (ت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م تقريبًا) ، الذى أسس (دار الحديث بدماج) عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م ، الواقع بمحافظة صعدة - قرية دماج - باليمن، وقد أثمرت هذه الدار عدداً من المراكز لأهل السنة والجماعة فى اليمن وخارجه .

إضافة إلى أسر معاصرة هاشمية وغير هاشمية عريقة من أصول يمنية ، توارثت اعتناق المذهب الزيدى ، وكتب الله لهم الانتقال إلى منهج أهل السنة والجماعة ، وتستوطن حاليًا عدداً من المدن الحازية بالمملكة العربية السعودية : (كآل الحوثى ، وآل المؤيد ، وغيرهم ..).

وقد كانت اليمن حتى العصر العباسى الأول تدين بالمذهب السنى المالكى منها والحنفى ، ونظراً لبعدها عن مركز الخلافة ، وطبيعة البلاد الجبلية الوعرة فقد لجأ لها الخارجون عن الدولة محاولين الاستقلال ، ونشر مذاهبهم بعيداً عن رجال السلطة . وأدى ذلك إلى انتشار المذاهب الشيعية بها - الإسماعيلية والزيدية - فى المناطق الجبلية الوعرة . مما أدى إلى تفكك وحدة البلاد السياسية وقيام الدويلات المتصارعة بها . كما انتشر المذهب الشافعى فى القرن الرابع الهجرى فى المنطقة الواقعة بين صنعاء وعدن . ومازال أهل السنة هم الأكثر عدداً فى اليمن فى عصرنا الحاضر (٣٥).

لأنهم وكما قال عنهم المصطفى الحبيب سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله ص : " أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوبًا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية " رواه البخارى ومسلم .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

الحواشى

١- ترجمة إأبى هاشم ، رقم ١٢٨ ، عند تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى فى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، توزيع مكتبة عباس أحمد البازوج٢ ، ص ١٣٣ . والنجم عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مطابع جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بأم القرى ، جـ٢، ص ٤٦٩. وأحمد السباعى : تاريخ مكة، الطبعة الثامنة ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، ص ٢٠٢ - ٢١٦؛ محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، دار الفكر العربى ، ص ٢٠ - ٢١؛ وعواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، الرياض ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ص ٢٤٩ - ٢٥١ .

٢ - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م ، مكتبة النهضة المصرية ، جـ٤، ص ١٩٧ .

٣ - جـ٥ ، ص ٤٧٣ ، ترجمة رقم "٢٣٣٧" .

٤ - النجم عمر بن فهد : إتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ١٧٩ ؛ على بن تاج الدين بن تقى الدين السنجارى : منائح الكرم فى أخبار مكة والبيت وولاة الحرم ، حققه جميل المصرى وآخرون ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، جـ٢ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

٥ - جـ٦ ، ص ٣١٣ ، ترجمة رقم "٢٩٧٨" .

٦ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق سعيد عبد الفتاح وآخرين ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، ص ٤٤٢ ، والسنجارى : منائح الكرم ، جـ٢ ، ص ٤١٦ .

٧ - دار صادر ، ص ٧٨ .

٨ - الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، دار مكة ، منشورات نادى مكة الثقافى ، ص ١٠١ - ١١٦ .

٩ - الرياض ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، ص ١٨٣ - ٢٣٦ .

١٠ - سنوك هورخرونيه : صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة على عودة الشيخ ، وتعليق محمد السريانى ومعراج نواب مرزا ، مكتبة الدارة المنورة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ص ١٦٣ ، جميل حرب محمود حسين : الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، جدة ، تهامة، الكتاب الجامعى ، ص ١١٩ .

١١ - جميل حرب : الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ، ص ٢١٧ ؛ نقلاً عن مخطوطة " أنباء الزمن فى تاريخ اليمن " ليحيى بن الحسين (ت ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م) ، بدار الكتب المصرية ، رقم ١٣٤٧ تاريخ.

١٢ - صفحات من تاريخ مكة ، ص ١٧٦ ، والعقد الثمين ، جـ٥ ، ص ٤٦٩ ، ترجمة الشريف قتادة .

١٣ - عواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ، ص ١٦٨ ؛ العقد الثمين ، جـ٢ ، ص ١٥٥ ، ترجمة الشريف أبي نمي الأول ، رقم ١٤٤ .

١٤ - صفحات من تاريخ مكة ، ص ١٦٤ .

١٥ - تاريخ مكة ، ص ٢١٣ .

١٦ - النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ٢٩ .

١٧ - تاريخ مكة ، ص ٢٠٣ .

١٨ - عواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ، ص ١٥٩ .

١٩ - النجم عمر بن فهد : إتحاف الورى ، جـ٣ ، ص ١٨٢ - ١٨٤ ؛ والعز عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، جـ٢ ، ص ١١٨ .

٢٠ - انظر : ترجمة الشريف عجلان بالعقد الثمين ، رقم ١٩١٨ ، جـ٥ ، ص ١٩٧ .

٢١ - المجموع المنصوري : لعبد الله بن حمزة ، (كتاب : العقد الثمين في تبيين أحكام الأئمة الهادين) ، ورد اللعن والتكفير الصريح في عدد من المواضع ، خاصة تحت عنواني (حكم المخالفين لأمير المؤمنين ، وحكم معاوية وأتباعه) في الجزء الأول والثاني .

٢٢ - العز عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، جامعة أم القرى ، جـ٢ ، ص ٩٦ .

٢٣ - عواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ، ص ١٩٧ .

٢٤ - عبد الإله بن علي الوزير : تاريخ اليمن المسمى (طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى) ، تحقيق محمد بن عبد الرحيم جازم ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، دار المسيرة، بيروت ، ص ١٥٨ .

٢٥ - منائح الكرم ، جـ٤ ، ص ٣٢٠ .

٢٦ - الفاسي : العقد الثمين ، ترجمة أبي نمي الأول رقم ١٤٤، جـ٢ ، ص ١٥٧، والعز بن فهد : غاية المرام ، جـ٢ ، ص ٢٧ .

٢٧ - عواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ، ص ٢٤٩ .

٢٨ - صفحات من تاريخ مكة ، ص ٢١٣ .

٢٩ - صفحات من تاريخ مكة ، ص ٢٠٧ .

٣٠ - تحقيق أشرف أحمد الجمال ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ص ١٧٤ .

٣١ - صفحات من تاريخ مكة ، ص ٢٣٤ .

٣٢ - مرآة الحرمين ، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ، جـ١ ، ص ٢٥٢ .

٣٣ - الرحلة الحجازية : الطبعة الثالثة ، مكتبة المعارف ، ص ٤٨ .

٣٤ - ابن الوزير : الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ص ، اعتنى به علي بن محمد العمران ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة ، جـ١ ، ص ١٢ - ١٤ .

٣٥ - جمل حرب : الحجاز واليمن ، ص ٨٣ .

أولاً : علاقة الخليفة بالقبائل .

ثانياً : ثورات القبائل على الدولة المهدية .

ثالثاً : ثورة الأمير يوسف بن السلطان إبراهيم فى دارفور والقضاء على الثورة .

الخاتمة .

تمهيد :

ظلت القبائل بغرب السودان تدين بالطاعة والولاء لرؤسائها على الرغم من دعوة المهدى لهم للانضمام لحركته على أساس الحماس الدينى والمصلحة المشتركة فى إنهاء الحكم المصرى فى السودان ، وكان مشايخ القبائل ، أشد ما يكونون استمساكاً بسلطاتهم وحقوقهم القبلية وأبعد ما يكونوا رغبة فى التنازل عنها خصوصاً للخليفة لأنهم يعدونه واحداً منهم ويعدون أنفسهم أنداداً له (١).

وكانت البلاد وقتذاك تنقسم قسمين : قسم يؤكد العهد الجديد ويتألف من الجماعات التى استفادت من هذا العهد ومن أتباعهم وقسم من الساخطين الذين كانوا يتحسرون على أيام الفوضى التى كانت سائدة أيام المهدى . ومع أن الخليفة عبد الله نجح فى تركيز كل سلطات الدولة فى يديه ، فإنه لم يشأ أن يغمض عينيه عن هؤلاء الساخطين (٢).

وكانت قبيلة الرزيقات التى قامت بدور فى قلقلة الإدارة المصرية فى دارفور قد أسدت أجل الخدمات للقضية المهدية بقيادة شيخ القبيلة (مادبو على) فما أن استقر زقل فى الفاشر خلفاً لسلاطين (Slatin) حتى عاد المادبو لبسط نفوذه على إقليم شكا .

فلما خرج زقل من الفاشر فى طريقه إلى الاعتقال والسجن فى باره ، خلف فى الفاشر الأمير (يوسف بن سلطان إبراهيم) وكان عامل المهدية آنذاك فى شكا محمد الشيخ محمد كرقساوى شقيق كرم الله عامل بحر الغزال ، فلما رأى مادبو ، أن الأمير يوسف الفور قد تبوأ عرش أجداده فى الفاشر ، بات يحلم بالعهد الذهبى الذى كان يعيش فيه الرزيقات منذ أثنى عشر عاماً حين كانوا يسيطرون على الحدود الواقعة بين بحر الغزال ودارو قبل أن يغزو الزبير باشا ديارهم (٣).

أولاً: علاقة الخليفة بالقبائل :

بدأت العلاقات بين الخليفة و (مادبو Madbo) فى التوتر حينما أرسل إليه الخليفة فى ٤ ذى الحجة ١٣٠٢هـ الموافق ٢٢ سبتمبر ١٨٨٥م يذكره بكثرة منشوراته التى بعثها إليه للقدوم

إلى أم درمان منذ أن كان الخليفة بالأبيض وأوضح له أن ترقفه عن الهجرة لأسبب له وأن تخلفه من عوامل تخلف قبيلة الرزيقات عن الهجرة [٤].

وكان الخليفة قد طلب من (محمد خالد) عمل دارفور فى ٢٨ شوال ١٣٠٢هـ الموافق ١٠ أغسطس ١٨٨٥م سرعة الحضور إلى أم درمان ومعه كبار أهالى دارفور[٥] ثم طلب من (مادبو على) الهجرة إلى البقعة بكافة جماعته مع محمد خالد ، وأوضح له الخليفة أنه يستهدف فتح مصر [٦].

ورفض مادبو تنفيذ أوامر الخليفة ، وهنا وجد الخليفة نفسه فى موقف دقيق ، إذا لم يكن ثمة مبرر عن الاستعانة ضد مادبو بقوات عامل شكا (محمد شيخ محمد كرقساوى) وهو من الدناقلة ، وبجيوش الأمير يوسف الفوراوى . وكان الخليفة يخشى أن يزداد نفوذهما بعد القضاء على المادبو وقبيلة الرزيقات ، ثم ينقلبان عليه فى النهاية ، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار - لذلك اتجه الخليفة إلى معالجة ثورة المادبو بالحكمة والتعقل ، خاصة وأن كرقساوى أزعج الخليفة بتقاريره عن المحاولات التى يبذلها المادبو لكى يستميل إليه رجال الجيش الذين تحصنوا فى جبال النوبا بعد مقتل محمود عبد القادر .

فكتب الخليفة إلى مادبو فى ٨ شوال ١٣٠٣هـ الموافق ٢١ يوليو ١٨٨٥م يلومه على ما بلغه من نقضه العهد ومجاهرته بعداوة المهدية ، ويطلب منه إذا كان ما بلغه عنه غير صحيح - أن يسرع بالاتصال بمحمد شيخ محمد كرقساوى ، ويظهر له صدقه وإيمانه ثم يتوجه توّاً إلى البقعة مؤكداً له أنه قد أوصى محمد شيخ بأن يتولى العناية بأهله وعشيرته أثناء غيابه . وفى النهاية أنذره الخليفة بسوء العاقبة إن صح ما بلغه عنه وتمادى فى عصيانه[٧].

وفى نفس الوقت أرسل الخليفة إلى عثمان آدم عامل الأبيض ويطلب منه إرسال خمسة أو ستة صناديق جبخانة إلى كرقساوى لمطاردة مادبو [٨]. ولم يكتف الخليفة بذلك ، بل أرسل فى الوقت نفسه كتاباً بتاريخ شوال ١٣٠٣هـ الموافق يوليو-أغسطس ١٨٨٥م إلى كافة الرزيقات يخطرهم بعزل المادبو من الإمارة لأنه طغى ونقض عهد الله ورسوله ومهدية وعهد خليفته ، وأمرهم بسد الطريق عليه كى لا يهرب وبعد القبض عليه يرسل إلى العاصمة إن تاب وأسلم وإلا يقطع دابره [٩].

ونشب القتال بين مادبو ومحمد شيخ ولم يشأ الخليفة أن يترك شيئاً للظروف ، فبادر باستدعاء كرم الله شقيق محمد شيخ من بحر الغزال ووصل (كرم الله) إلى شكا فى محرم

١٣٠٤هـ / أكتوبر ١٨٨٦م فسار على نفس السياسة التى اتبعها فى بحر الغزال ، فسلب القرى ونهبها وأحرقها واسترق أهلها ، واضطر الناس للالتفاف حول مادبو لحماية بلادهم ، وواصل الخليفة محاولاته لاستمالة المادبو ، لأنه ربما كان يخشى مغبة انتصارات الأخوين كرقساوى وبالتالى استفحال نفوذهما فى الغرب ، فأرسل إلى المادبو فى ٢ صفر ١٣٠٤هـ الموافق ٣١ أكتوبر ١٨٨٦م ، يكرر عليه طلبه فى الهجرة إلى أم درمان ، ويؤمنه ويعفو عنه(١٠).

وقد تمكنت قوات كرقساوى من أن تنزل بالمادبو هزيمة كبيرة فر بعدها إلى جهة بنى هلبه، وبعث الخليفة إلى يوسف إبراهيم عامل دارفور ، يبلغه ذلك ويأمره بضبط المادبو وإرساله لمحمد شيخ محمد أو قتله ومنعه من الالتجاء إلى القبائل إذ أن كل من يأويه يصير خارجاً عن الدولة (١١).

وكتب أيضاً إلى زعماء الرزيقات يطلب منهم مساعدة كرقساوى ومحاربة بنى هلبة حتى يسلموا المادبو (١٢)، وكتب فى نفس المعنى(١٣) إلى كافة قبائل دارفور(١٤) أما بنى هلبة فقد حذرهم من دخول المادبو إلى بلادهم وأخبرهم بأنه يعلم بتواطئهم معه وتعصبهم لمحاربة الأنصار وإيواء المادبو ومعارضة مندوبى الأخوين كرقساوى فإذا كان هذا صحيحاً فينبغى عليهم تسليم المادبو فوراً وإلا فعليهم أن يحصلوا عليه أينما كان . أو يحل بهم الدمار .

واضطر بنو هلبة - فيما يبدو - إلى التخلى عن المادبو الذى قرر أن يلجأ إلى جبل (مرة) فى دارفور .

وفى ٦ ربيع آخر ١٣٠٤هـ الموافق ٢ يناير ١٨٨٧ كتب الخليفة إلى محمد الشيخ محمد كرقساوى يبلغه أن المادبو ضبط بجهة الدور (قرب الفاشر) على يد جماعة يوسف إبراهيم ، وأنه ينبغى إرسال كامل عائلة المذكور وجميع أمواله وأملاكه معه ، وليكن هو مثلاً بالحديد فى رجليه ورقبته (١٥).

ثانياً : ثورات القبائل على الدولة المهدية :

بادر الإخوان كرقساوى بترحيل المادبو إلى أم درمان ، وفى الأبيض اعترض طريقه (حمدان أبو عنجه) وأعدمه بناءً على ثأر شخصى قديم بينهما منذ عهد ما قبل الخليفة ، وأرسلت رأسه إلى الخليفة الذى وافق أبا عنجه على هذا الإجراء (١٦).

ثم أبلغه فيما بعد أن رأس المادبو علقت فى الجامع فى أم درمان[١٧] وكانت ثورة المادبو فى ذروتها حين استقر رأى الخليفة على الخلاص من (صالح الكباشى) أكبر مناوئ لسلطة الخليفة وأشدهم خطراً نظراً لاتصاله بالسلطات المصرية والإنجليزية .

وفى وادى حلفا قال (أورفالدر) أنه كان أكبر شخصية تعارض المهدية ونفوذها ، وكانت قبيلة صالح بك فضل الله ود سالم ، وهو شقيق الشيخ (التوم) زعيم الكبابيش الذى أعدم فى الأبيض ، تمتلك قطعاناً كبيرة من الإبل والأغنام ، وتنزل الصحراء الواقعة بين دنقلة وكردفان ، وكان رجال القبيلة فيما مضى يدفعون للحكومة ضريبة سنوية تبلغ حوالى مائة ألف ريال ، كما كانوا يتولون أعمال النقل والتجارة بين مديريتى كردفان ودنقلة ، وخلال حصار الأبيض قدم الشيخ صالح وأخوه ، التوم فضل سالم على المهدى ومعهما هدايا من الإبل ، ومع ذلك فإن العلاقات لم تتحسن بين الكبابيش والمهدية ، إذ وضع التوم فى الأغلال وأعدم فى الأبيض فجأة [١٨].

وانتقم صالح بك لمقتل شقيقه ، فقدم معونة كبيرة من الإبل إلى حملة الإنقاذ بقيادة (ولزلى) ، فلم يكن غريبًا أن يستقر رأى الخليفة على الخلاص من هذا الثائر الذى يسيطر على الطرق الصحراوية بين مصر العليا وغربى السودان ، فقد جاء فى صحف القاهرة الصادرة فى مارس ١٨٨٧م إنه هاجم فى جهة أبو خلوات قافلة مكونة من خمسمائة من الإبل تنقل الحبوب من دنقلة إلى الخرطوم [١٩]. فضلاً عن أن الكبابيش كانوا يقومون بتزويد السلطات الإنجليزية والمصرية بمعلومات قيمة عن أحوال السودان [٢٠]، أضف إلى ذلك أن وجودهم فى شمال كردفان كان يمثل تهديداً خطيراً للجناح الغربى للدولة الجديدة [٢١].

وقيل إن الكبابيش كانوا يطمعون من قديم فى الاستيلاء على مديرية دنقلة الغنية ، فلم تكن ثورة هذه القبيلة لإسقاط الخليفة عبد الله التعايشى بقدر ما كانت لأخذ دنقلة لأنفسهم[٢٢].

إلا أن صالح بك كان قد أصيب بالضعف بسبب انضمام كثير من أتباعه إلى صفوف المهدية ، بل واشترك بعضهم فى القتال ضده ولما أدرك نيات عبد الله التعايشى العدوانية أرسل فى طلب المعونة من الحكومة المصرية فى أوائل عام ١٨٨٧م ، وبعث بخمسين عبداً إلى حلفا حيث سلمتهم الحكومة مائتى بندقية (رمنجتون) وأربعين صندوقاً من الذخيرة ومائتى جنيه نقداً لمحاربة الأنصار [٢٣].

وفى ذلك الوقت قدم إلى أسوان تاجر يدعى (خوجال دفع الله) من الجعليين مندوباً عن أمراء كردفان ويحمل كتاباً إلى الخديوى توفيق يشكون فيه من أحوال كردفان ، ويطلبون اتخاذ الترتيبات اللازمة لإعادة دخول البلاد تحت سلطة الحكومة الخديوية [٢٤].

وأجابت الحكومة المصرية بأنها ، وإن كانت ترغب فى إجابة هؤلاء الأمراء إلى مطالبهم فإن ذلك يقترن بعوائق[٢٥] ويبدو أن خوجال هذا هو الذى أطلع المغامر الروسى (كارل نوفلد Karl Nofeld) على وفرة الصمغ فى كردفان ، وتدهور أسعاره ، فطمع فى العمل بتجارة الصمغ وريش النعام ، وقد زار قبل سفره قائد جيش الاحتلال الجنرال (ستيفنسون) مما يبعث على الاعتقاد أنه كان ينوى التجسس أيضاً لحساب السلطات الإنجليزية .

وكان الخليفة قد كتب إلى (صالح فضل الله سالم) زعيم الكبابيش فى ١٠ رجب ١٣٠٣هـ / الموافق ١٤ أبريل ١٨٨٦م يعده بالأمان وحسن المعاملة والتكريم إذا هاجر إليه[٢٦] ولكنه صالحاً أكتفى بأن أرسل للخليفة هدايا من الإبل والخيل ، وأكرم رسله ، فكرر عليه الخليفة العفو والأمان وقال إنه لا يهمه الأموال التى يجمعها باسم الخليفة ، لأنه عازف عنها فالغاية هى الرعاية والهداية إلى الله [٢٧].

ورفض صالح الحضور ، فكتب الخليفة إلى كافة من كانوا مع (صالح فضل الله سالم) من كبابيش وحمر وخلافهم " يبلغهم أن صالحاً قد أصبح خارجًا عليه وعلى ملة الإسلام ووجب لذلك ضربه وإن عليهم أن يتدبروا أمرهم[٢٨] وكان (عبد الرحمن النجومى) قد بلغه نبأ وصول اتباع صالح إلى حلفا ، وعودتهم بالأموال والأسلحة والذخائر ، فبعث بقوة لاحتلال (آبار سليمة) فى طريق درب الأربعين والتى لابد وأن يمر بها الكبابيش ، وفعلاً باغت المهديون القافلة وفتكوا بها أسروا بعض الرجال ومنهم كارل نوفلد[٢٩] ونقل الجميع إلى دنقلة حيث أعدم الرقيق ، وأبقى على الكبابيش استمالة لقبيلتهم ، أما نوفلد فقد أرسل إلى أم درمان وبقى أسيراً فيها حتى عام ١٨٩٨م.

وقد كان وقوع القافلة فى الأسر أكبر ضربة وجهت إلى (صالح الكباشى) . وأسند الخليفة مهمة القضاء عليه إلى (عثمان آدم) عامله فى الأبيض ، فكتب إليه فى ٢٨ محرم ١٣٠٤هـ الموافق ٢٧ أكتوبر ١٨٨٦م أن يطلب إلى دار حامد بألا يتركوا صالح الكباشى يدخل دارهم ، ويحذرهم من الذين يعاملونه أو يتركونه بجوارهم أو يبيعوا له المعايش ، ليكونون عرضة لعذاب شديد [٣٠]، ولم يكن (سيماوى تماح) شيخ قبيلة دار حامد فى حاجة إلى

هذا التحذير ، فقد كان له ثأر قديم عند صالح ، إذ أن والد صالح قد قتل والد سيماوى وعمه.

ثم حذر الخليفة عثمان آدم من أن يتوصل صالح لأخذ المعاش من أى جهة من جهات كردفان (٣١) . وفى ٢٣ ربيع آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٩ يناير ١٨٨٧م أبلغ الخليفة (أبا عنجة) بضرورة إثارة القبائل ضد صالح لمنعه من الوصول إلى أراضى قبيلته (٣٢) .

وكتب الخليفة إلى كافة قبائل حمر يبلغهم أن صالح الكباشى من أعداء الله وأنه مصر على الإعراض عن طريق المهدى ، وأمرهم بشن الغارة عليه حتى يهلك ، أو يقبض عليه ويسلم للأنصار " لإيصاله بطرفنا " (٣٣) . وألح الخليفة على عثمان آدم بسرعة إنجاز أمر صالح لأهميته(٣٤) ولم يكن الخليفة راضيًا عن الإجراءات التى اتخذها عثمان ضد صالح فكتب إليه فى رجب ١٣٠٤ هـ الموافق ١٧ أبريل ١٨٨٧م يؤكد له أهمية القضاء على صالح ، ويلفت نظره إلى أن السرية التى وجهها ضده ليست كافية ، وإنه الأولى تعيينى الجيش الكافى لروعه ويكون من الأنصار أهل الهمم العالية مع إعطائهم السلاح الكافى والجبخانه اللازمة (٣٥) .

ويبدو أن صالحًا استطاع أن يستميل إليه بعض القبائل للقتال ضد المهدية فقد كتب الخليفة إلي عثمان آدم فى ٢٤ رجب ١٣٠٤هـ الموافق ١٨ أبريل ١٨٨٧م يقول إنه بالنظر لمداخله صالح مع قبائل العربان بجهة الغرب كالزيادية والميدوب وحمر وغيرهم ، فقد استصوبنا أن تحرر إنذارات لهم بالتحذير عن موالاته (٣٦) .

وأبلغ عثمان الخليفة أنه عين (سيماوى تمساح) و (العطا أصول) لمطاردة صالح ، وقد وافق الخليفة على ذلك(٣٧) وبلغت حملة الجيش الموجه ضد صالح ٨٥٩ مقاتلاً ومن الخيول ٦٦٦ والجبخانة ٢٩ صندوقًا ولم يكتف الخليفة بالجيش الذى أرسله عثمان آدم ضد صالح ، فأرسل من عنده أيضًا سرية بقيادة محمد نوباوى وإسماعيل الأمين وجاد الله بليلوا لاقتفاء أثر صالح(٣٨) وبذلك يتعرض الكبابيش لهجوم ذى ثلاث شعب : الشعبة الأولى من الغرب بقيادة سيماوى تمساح والعطا أصول ، والثانية من الجنوب بقيادة محمد نوباوى وزملائه والثالثة من الشمال بقيادة عبد الرحمن النجومى .

ولكن الخليفة سرعان ما غير رأيه وطلب من (محمد نوباوى) و (إسماعيل الأمين) العودة والاكتفاء بجهود عثمان الذى أنيطت به وحده مهمة القضاء على صالح(٣٩) . ومازالت

قوات عثمان تطارده حتى وقع أسيراً فى ١٧ مايو ١٨٨٧م رغم المقاومة الباسلة الت أبداها ، وقد عرضوا عليه أن ينقل إلى أم درمان فرفض وتقدم سيماوى تمساح صاحب الثأر القديم واعتبر رأسه وبعث بها إلى أم درمان وأرسل الخليفة إلى عثمان آدم يبلغه أنه تسلم رأس صالح ورأس كاتبه وأنهما علقتا فى الجامع لتكونا عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على طاعة الخليفة (٤٠).

وأرسل أيضاً إلى سيماوى تمساح وكافة من معه يشكرهم على جهودهم فى قطع دابر صالح ويحذرهم من الاستيلاء على الغنائم ، وطلب منهم تسليمها إلى عثمان آدم (٤١). وفى نفس اليوم أرسل إلى عثمان آدم يأمره بتجريد الكبابيش من أموالهم ونسائهم فيما عدا نساء غير المحاربين منهم (٤٢).

ويبدو أن جماعة عثمان تمادت فى نهب قبائل الكبابيش وسلبهم بل واعتدت أيضًا على القبائل المجاورة ، فقد شكا الخليفة إلى عثمان من أن جماعته المعينة لجمع غنائم صالح لم تقف على حدود جهاتها ، بل تمادت حتى وصلت إلى الجهات المقاربة (لأم درمان)(٤٣).

وعلم الخليفة بوجود مكاتبات بين صالح وبعض المقيمين فى أم درمان ، فطلب من عثمان آدم الاستقصاء عن ذلك ، وإبلاغ الخليفة عنها عاجلاً بوجه السرعة (٤٤).

ويعتبر مقتل صالح أكبر ضربة أصابت الكبابيش ، فقد نقل عدد كبير منهم إلى الأبيض حيث أعدموا ، وقيل أن عثمان أعدم منهم مائة رجل دفعة واحدة وألقى بجثثهم فى الآبار ، أما الإبل والأغنام التى كانت فى حوزتهم ، فقد أرسلت إلى بيت مال العموم فى أم درمان ، وذبحت النياق وبيع الرأس بريالين ، وقضى المهديون على هذه الثروة الحيوانية التى كانت مصدراً من مصادر الرخاء فى البلاد ، وكادت أن تختفى فى هذه القبيلة التى كانت يوماً ما مهيبة الجانب (٤٥).

الأمر الذى لاشك فيه هو أن ثورة صالح الكباشى والمادبو شيخ الرزيقات ، كشفت عن التهديد الخطير الذى تتعرض له سلطة الخليفة من جانب شيخ شيوخ القبائل ، لذلك فإن سياسة الحكومة اتجهت إلى التخلص منهم عن طريق إذكاء المنافسات القديمة والعداوات التقليدية فيما بينهم وفقًا للسياسة الرومانية المعروفة (فرق تسد) (Oivide Et Empra) وبذلك تطمئن إلى أنه لن تقوم بينهما رابطة أو اتحاد يجمع بينهما للاتفاق على عمل مشترك ضد الخليفة والدليل على ذلك أن الخليفة كتب إلي (عثمان آدم) عامله فى الغرب . يطلب منه

أن يوقع بين قبيلتى الرزيقات والهبانية من جهة وبنى هلبه من جهة أخرى وكتب لهم يقول اقطعوا المودة بينهم (الرزيقات والهبانية) .

والدليل الثانى ما جاء فى كتابه إلى (عثمان آدم) أيضًا وأعلم أيها المكرم إنا قد ألزمنا أخاكم أحمد فضيل بأن يريحكم من جهة عربان الحمر ويشتغل بضربهم وتشتيتهم والاستحصال عليهم بأى وجه كان ، فليكن معلومًا ذلك ، وانظروا على أية حال الكيفية التى تحصل العداوة والخلاف بين الرزيقات والحمر وافعلوها لأن فى عدواتهم مساعدة فى الاستحصال عليهم وإن كان كيدهم ضعيف على أية حال ، وفى عداوة الرزيقات للحمر ثمرة كبيرة ، ومتى وصلت الجيوش لهم وضربتهم ، فإن الهارب منهم لايدخل دار الرزيقات لحصول العداوة ، فأسعوا فيما ينفرهم من بعضهم(٤٦) .

والدليل الثالث قوله فى كتاب موجه إلى عثمان آدم " فأكد عليهم (أى على الرزيقات) بقطع المخالطة مع عربان الحمر ، وحتم عليهم أن كل من يجدونه معهم من الحمر يضبطوه ويحضروه لكم ، ولا يكن بينهم بوادر ولا اتصال(٤٧) .

وكان من رأى (عثمان آدم) تسليط الرزيقات على الحمر فيقتلوهم ويأخذوا أموالهم دون عقاب عليهم ووافق الخليفة على ذلك (٤٨).

وكانت الحكومة قد استعانت ضد صالح الكباشى بقبيلة دار حامد لما كان بين شيخها سيماوى تمساح (المعروف باسم جريجر) وصالح من ثأر قديم ، فليس هناك إذن وجه للمقارنة بين سياسة الحكومة هذه إزاء القبائل والسياسة التى كانت تسير عليها الإدارة المصرية السابقة التى كانت تعتمد أصلاً على السلطات الطبيعية فى البلاد مثل الشياخات والنظارات المختلفة وتتخذ منها صلة بينها وبين القبائل والجماعات .

وكان الدناقلة وغيرهم من القبائل النيلية (أولاد البلد) مثل الجعليين وغيرهم قد ساهموا مساهمة فعالة لا تقل - إن لم تزد - عن مساهمة البقارة وقبائل الغرب فى إرساء قواعد النظام الجديد لذلك كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم أنهم أصحاب الفضل فيه (٤٩).

لذلك ليس غريبًا أن يطلب الخليفة من عثمان آدم إرسال كافة أولاد البلد بالفاشر إلى أم درمان(٥٠).

ثم كتب إليه فى ٢٢ ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق ٨ ديسمبر ١٨٨٧م يحذره من عربان الرزيقات والهبانية وعموم عربان هذه الجهات ويطلب منه تقصى أحوالهم (٥١).

فبعث عثمان فى ٢ جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٦ يناير ١٨٨٨م تقريراً وافيًا عن الأحوال فى دارفور وموقف القبائل من حكومة الخليفة . وقال عن الرزيقات " إننا نطالبهم للجهاد فلم يحضروا بل أغاروا على ديم شكا واستولوا منه على الرقيق " ووعد عثمان الخليفة بالالتفات إليهم بعد الانتهاء من أمر الفوركى " حتى يصيروا عبرة لغيرهم ماداموا تمادوا على الطغيان".

وقال عن الهبانية إنهم أحسن حالاً ، بدليل أن ثمانين من فرسانهم يعملون تحت إمرته . أما التعايشة ، فلم يحضر منهم أحد ، وبلغه أن شيخهم (الغزالى ولد أحمد) خاف وهرب إلى جهة برقوبنساه وأغراه شخص يسمى أبو شقرات من أولاد الطاهر التيجانى . أما بنو هلبه، فقد حضروا جميعًا ، وتحدث عثمان عن الزيادية فقال ، إنهم أشد الناس فى العصاوة وأخيراً بلغ الخليفة أن عربان الحمر والمسيرية الذين سبق إرسالهم جميعهم ارتحلوا لمحلاتهم وجاهروا بالعصيان (٥٢).

وفى هذا التقرير دلالة واضحة على أن حكومة الخليفة فى أوائل عام ١٣٠٥هـ لم تكن تتمتع بأية سلطة أو نفوذ فى دارفور ، وأن القبائل لم تكتف بأنها لم تلق بثقلها فى جانب القضية المهدية فحسب بل إن بعض منها جاهر بالعداء للحكومة الجديدة ولم يسكت الخليفة من جانبه ، فبعد أن تسلم تقرير (عثمان آدم) سالف الذكر شرع فى إعداد الجيوش وتوجيهها لإخضاع دارفور فكتب إلى عثمان آدم فى ٢ جماد آخر الموافق ١٥ فبراير ١٨٨٨م يقول :

" بالنظر لما بلغنا من جهتكم من عصاة دارفور ، شرعنا الآن فى توجيه السرايا نحوها .... وهم بنى جرار والشايقية والجميعاب وغيرهم من أولاد البحر ويذهبون بطريق الزهد والبركة لتشتيت شمل الذين جاهروا بالعصيان ثم بعد ذلك يستكشفون حال الرزيقات فإذا كانوا على حالهم السابق من الإعراض عن الدين وعدم سماعهم أوامرنا بانضمامهم إليكم . يضربونهم حتى يقطعوا دابرهم حيث أن الإمهال حصل لهم كثيراً وأظن حصل لهم غرور"(٥٣).

وحذر (عثمان) سلطان برقو وأمره بمنع دخول رؤساء القبائل لبلاده،(٥٤) وقد أرسل الخليفة ثلاث سرايا لمعاونة عثمان بقصد تحقيق دخول كافة من بها (أى بدارفور) من قبائل العربان وغيرهم تحت الطاعة كرهًا أو طوعًا أو قتلهم وتطهير الأرض منهم " (٥٥).

وكانت السرية الأولى تحت قيادة (حامد ولد مجبور) ووجهتها الفاشر وكانت السرية الثانية تحت قيادة (أحمد فضيل) وهى مسئولة عن التعامل مع الرزيقات والحمر .

أما السرية الثالثة فكانت تحت قيادة محمد قيلى) ووجهتها الفاشر عن طريق الوسط وكانت تحمل الجبخانة (٥٦).

وقد رد عثمان آدم بأنه لولا أن دين الله منصور لما قدرنا على دارفور لأن قبائل كثيرة لجأت إليها وجهاتها متسعة " وأضاف إنه لابد من توجيه سرية تقيم بجهة (كبكابية) لإدخال أهالى تلك الجهات فى الطاعة " فضلاً عن جهات دار الريح التى لم تصل إليها يد أحد قبلنا كالبديات والقرعان وخلافهم من أعالى زغاوة المجاورين الذين قيل عنهم إنهم يعبدون الأصنام (٥٧).

ولم ينتظر عثمان وصول السرايا التى بعث بها الخليفة إليه ، بل بادر بالاتصال بقبيلة الرزيقات وطلب منهم الحضور إليه بكامل خيولهم ورجالهم مع إحضار كافة الأسلحة النارية من الأشخاص الذين اكتسبوها من كرم الله ومن (ديم شكا) وهددهم بالهلاك إذا لم يذعنوا كما طلب من الهبانية الحضور وإحضار كافة أسلحتهم النارية وخيول ، أما الزيادية فقد حضر مشايخهم وأقاموا معه ، وطلب منهم إحضار كافة خيولهم ورجالهم مع عائلاتهم بالفاشر وأمرهم بإخراج الزكاة (٥٨).

وكتب الخليفة إلى عثمان يبلغه أن " الرزيقات والهبانية أمرهم سهل ووقتما يصير الالتفات إليهم (بعد الانتهاء من أمر الفور) يدخلون تحت الطاعة (٥٩).

أما بخصوص الحمر فقد أبلغه الخليفة " أنه ألزم أحمد فضيل بأن يريحهم من جهة عربان الحمر ويشتغل بضربهم وتشتيتهم " (٦٠).

ولكن الأمر لم يكن بمثل هذه السهولة التى تصورها الخليفة . فقد كتب إليه (عثمان آدم) فى ٢٦ ذى الحجة ١٣٠٥هـ يبلغه أن الرزيقات بالغوا فى الإعراض عن المهدية ، بل وشرعوا فى الإغارة على الجهات فما من جهة إلا ومدوا إيديهم عليها وتشجع أهالى قمر ومسلات ، واتحدوا معهم ودخلوا فى زمرتهم وانضم إليها الهبانية الذين تخلوا عن الهجرة وبقية الحمر الذين هربوا من أحمد فضيل بعد أن حاربهم فى جهة (٦١).

ولذلك فإن كافة القبائل صارت ناظرة إليهم بل إن جهات الصعيد (بنى هلبة وبرقد وقمر ومسلات) رفعوا رؤوسهم بسببهم وقد اضطر عثمان إزاء ذلك إلى توجيه قوة كبيرة بقيادة

(فضل النبى) حملت معها من الجبخان ٣٤ صندوقًا وخرجت من الفاشر يوم ٢٥ ذى الحجة ١٣٠٥هـ وكانت التعليمات الموجهة إلى فضل النبى تنص على إنذار هذه القبائل فإن اذعنت واستسلمت ، تحضر جميعها إلى الفاشر بأموالها وعيالها وإن اعرضت فليس هناك سوى القتل(٦٢). وطلب عثمان من فضل النبى أنه بعد أن يضرب الرزيقات يتحول إلى دار الصعيد (بنى هلبة وبرقد وقمر ومسلات) .

ولكن الأمور لم تلبث أن تطورت فى غير مصلحة المهدية ، فهزم عبد القادر فى دار تاما أمام أنصار أبى جميزة فى محرم ١٣٠٦هـ / سبتمبر ١٨٨٨م وتوالت الهزائم على قواد المهدية، واضطر عثمان إلى تركيز كل قواته فى الفاشر استعداداً لمجابهة أبى جميزة ، فعاد فضل النبى إلى الفاشر ، وسرعان ما لحق به أحمد فضيل الذى كان يقاتل الحمر .

وبعد الانتهاء من أمر أبى جميزة ، تحول عثمان إلى القبائل الثائرة فخرب ديارهم وتركها قاعًا صفصفا .

ولا يتم الحديث عن علاقة حكومة الخليفة بقبائل دارفور دون الإشارة إلى قبيلة التعايشة وهم أهل الخليفة وعشيرته ، ويقول شقير إن الخليفة كتب إليهم يستحثهم على الهجرة إلى أم درمان بخيلهم وإبلهم ومواشيهم ليعزز بهم ملكه ويأمن بهم غدرات الزمان (٦٣).

ويؤيد فى ذلك المؤرخ الفرنسى (ديجارك) (Dujarric) الذى قال أن الخليفة كان يأمل فى أن يخلق حول عرشه وشخصه شعبًا مخلصًا له يمكن أن يعتمد عليه فى التنظيم المدنى والعسكرى للدولة (٦٤).

فى حين يرى البعض أن هدف الخليفة من وراء استدعاء التعايشة قد أسىء فهمه ، فهو لم يكن يهدف إلى إغراق خيرات المناطق القريبة من النيل على أقاربه من القبائل الرحل ، بقدر ما كان يود أن يضع تحت رقابته هذه القبائل التى اشتهرت بميلها إلى الفوضى (٦٥).

وبالفعل حدث أثناء صدام الخليفة بالأشراف عام ١٨٩١م ، أن تبودلت الطلقات النارية بين الطرفين ، فانتهز فرسان التعايشة هذه الفرصة ، وتفرقوا فى أنحاء العاصمة يسلبون وينهبون، ويقتحمون الدور ويعتدون على الرجال والنساء ، واضطر الخليفة إلى أن يرسل شقيقه يعقوب شخصيًا ليضع حداً لهذا الاضطراب (٦٦).

ففى ١٦ ربيع ثان ، ١٣٠٥ هـ الموافق أول يناير ١٨٨٨م طلب الخليفة من عثمان آدم إرسال القبائل المشكوك فى ولائها للحكومة إلى أم درمان وذكر من بينها التعايشة وكان

عثمان فعلاً قد أرسل لزعماء القبائل للاجتماع به فى شكا ، ولكن التعايشة لم يستجيبوا لهذه الدعوة ، بل إن شيخهم (الغزالى أحمد خواف) قتل رسل عثمان الذين وعدوه بالأمان(٦٧). وفى ٢ جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٦ يناير ١٨٨٨م أبلغ عثمان الخليفة إنه علم أن الغزالى هرب لجهة برقو بنسائه وأمواله .

وغضب الخليفة بسبب مسلك الغزالى ، فأرسل إلي عثمان آدم فى ٢٠ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ٤ مارس ١٨٨٨م ثلاث مكاتبات لكافة التعايشة وللغزالى (ولصالح حوه) زعيم جناح التعايشة المعارض للغزالى والمؤيد للمهدية .

وجاء فى كتاب الخليفة لكافة التعايشة إنه يغفر لهم سيئات الماضى بشرط أن ينضموا إلى عثمان ، أما الغزالى فقد عزل من مشيخة القبيلة ، وأن عليهم أن يعتزلوه وألا ينضموا إليه ، وطلب الخليفة من عثمان إرسال الكتاب الموجه إلى الغزالى إن كان لا يزال فى ضلاله وجاء فيه أنه لابد أن يذكر إنه زار الخليفة فى الأبيض وبايع المهدى ، ونظراً لأنه قد بلغ الخليفة أنه نقض البيعة ، وأنه فر بعد أن هاجم أفراد قبيلته الموالين للمهدية ، فينبغى عليه أن ينضم إلى عثمان آدم ، وإلا أدخل كرهاً إن لم يأت طوعاً أما الكتاب الثالث الموجه إلى صالح حوه ، فقد تضمن أمراً من الخليفة بالقبض على الغزالى والانضمام بجماعته إلى عثمان(٦٨).

وفى ٣ رجب ١٣٠٥ هـ الموافق ١٦ مارس ١٨٨٨م أبلغ عثمان آدم الخليفة أن الغزالى مازال مصراً على الإعراض رغم المكاتبات الكثيرة التى أرسلها إليه وأضاف أن التعايشة لا يمتثلون مالم يستسلم المذكور أو يخرج من الدار(٦٩).

فأمر الخليفة فى ١٢ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ٢٥ مارس ١٨٨٨م بأن يهتم بأمر التعايشة وأن يوجه إليهم جيشاً بعد الانتهاء من أمر الفور ، نظراً لأنهم متصلون بدار برقو ، وطلب الخليفة من عثمان إذكاء روح العداء بينهم وبين بنى هلبه وكافة القبائل الموالية لجهتهم(٧٠).

وفى ٢٥ رجب ١٣٠٥ هـ الموافق ٧ أبريل ١٨٨٨م طلب الخليفة من عثمان أن ينذر الغزالى إنذاراً نهائياً وبإدخاله هو وجماعته تحت القبض كرهاً إن لم يأتوا طوعاً(٧١).

وأبلغ عثمان الخليفة عزمه على توجيه الختم موسى لدار التعايشة لتخريبها (٧٢). وأخيراً تقدم متخصصون من طرف الغزالى بمكاتبة منه إلى عثمان يبدى فيها الندم على فعلته السابقة ويطلب الأمان ، وذكر أن صالح حوه هو المسئول عن هروبه وطلب إبلاغه بعدم التعرض له ،

وصلت أيضًا إلى عثمان مكاتبه من صالح تحذر من الاستماع إلى اعتذار الغزالي لأنه غش وخداع وأنه خالف لما اتضح له إنجلاء الفور وذهابهم بالكلية .

وإزاء ذلك كتب عثمان إلى الغزالي يؤمنه بشرط الحضور بكامل رجاله وخيوله وفى نفس الوقت طالب صالح حوه بالمثل وأكد عليه بعدم التعرض للغزالي (٧٣).

وكان الخليفة قد أمر عثمان فى ١٩ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ٣ مارس ١٨٨٨م إرسال سرية إلى دار التعايشة لتخريبها وإحضار أهاليها ، على أن تتألف السرية من رزيقات وهبانية وبنى هلبة وفلاتة وغيرهم من العربان ، وإباحة أموال تلك الدار للعربان المتوجهين ماعدا الخمس لبيت المال أما الأحرار والعبيد والذكور والسلاح والخيول ، فهذا كله يذهب إلى أم درمان .

ورد عثمان فى ٨ شعبان ١٣٠٥هـ الموافق ٢١ أبريل ١٨٨٨م إنه يأمل فى وضع يده على التعايشة فى القريب إذا كان ربنا هداهم وحضروا قبل قيام السرية وكذلك الغزالي حضر ، فستعاملهم بما يولفهم وتسعى في ترحيل باقيهم الذين بالدار . وفى أسفل الرسالة كتب عثمان حاشية مفادها إنه قد نبه على سلطان برقو بمنع التعايشة من دخول داره وإن الختيم موسى والبشاري ريده سوف يتوليان قيادة السريا المتجهة للتعايشة (٧٤).

وبالفعل خرجت السرايا ، وما أن وصلت إلى دار بنى هلبة حتى حضر أغلب التعايشة ومن ضمنهم الغزالي وصالح وغيرهم من الرؤساء ، واستسلموا للسرية فطلب الخليفة التأكيد عليهم بأن من يقابلهم بالامتثال يقبلوه ويؤلفوه ومن يعرض يعاملوه بحسب حاله (٧٥).

ولم ينس الخليفة أهل عشيرته فى هذه المحنة ، فسرعان ما ألغى تعليماته السابقة الواردة فى كتابه إلى عثمان المؤرخ ١٩ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ٣ مارس ١٨٨٨م والتى أباح فيها دار التعايشة للمهاجمين ، وطلب من عثمان فى شوال ١٣٠٥هـ الموافق – يونيو – يوليو ١٨٨٨م الرفق بهم وألا يؤخذ منهم شيء من أموالهم (٧٦).

وقد حرص الخليفة على أن يؤكد الدافع الدينى لترحيل جموع التعايشة من ديارهم إلى أم درمان ، فادعى أن المهدى أبلغه أن دار التعايشة لا يسكنها أصحابى إلا إذا توجهوا لغزو (٧٧).

وتحركت القبيلة نحو الشرق بكامل نسائها وأطفالها وقطعانها وفى ربيع ثان ١٣٠٦هـ كانت قد وصلت إلى (باره) وقد عين الخليفة عبد البارى عبد الوكيل وشقيقه السنوسى ومحمد عثمان خالد لتسهيل عملية النقل إلى (شباشه) على النيل الأبيض ، ومن هناك نقلتهم الوابورات إلى أم درمان (٧٨).

وبذلك لم يكن للثورة المهدية فى السودان آثار سياسية فحسب بل وأنثوجرافية أيضاً(٧٩).

وقد ساعد نزوح التعايشة إلى أم درمان وخضوعهم للخليفة على تهذيب خشونتهم ، وقد أخذوا بأساليب الحضارة بدرجة تدعو إلى الإعجاب ، فشيدوا لأنفسهم مساكن لائقة ، ولبسوا أفخر الثياب ، وعمل الخليفة على صقل عاداتهم وأخلاقهم ، فاعتدلت لهجتهم ، ولم تعد مجالاً للتندر عليها والسخرية منها من جانب أولاد البلد (٨٠).

ولكن هل كان التعايشة أو بعضهم على الأقل راضيين عن هذا الوضع ؟ .

نجد فى وثائق المهدية رسالة من الخليفة إلى عثمان آدم فى رمضان ١٣٠٦هـ الموافق ٣ مايو ١٨٨٩م يطلب منه البحث عن التعايشة (الهاربين) وإحضارهم بالقوة (٨١).

وفى رسالة ثانية ٧ ذى القعدة ١٣٠٦هـ الموافق ٦ يوليو ١٨٨٩م يقف على عزم عثمان توجيه الختيم موسى لدار التعايشة لتخريبها لكى لا يفكروا فى العودة إليها (٨٢).

وفى رسالة ثالثة فى ١٥ جماد أول ١٣٠٧هـ الموافق ٧ يناير ١٨٩٠م يعجب من أمر هؤلاء التعايشة الذين رغم إكرامهم فى أم درمان لايزالون فى نفور وهروب إلى جهة الغرب قاصدين الوصول إلى ديارهم فاجتهد فى أمرهم وحرر للجهات بضبطهم وإحضارهم (٨٣).

والخلاصة إن سياسة الخليفة فى الداخل كانت تنحصر فى السيطرة المطلقة على أهل السودان والاحتفاظ بهذه السيطرة لنفسه ، ولتحقيق هذا الغرض كانت الخطوة الأولى فى برنامجه السياسى هى تحطيم القوى التى يمكن أن يشتم منها أية معارضة لحكومته ، فقلم أظافر الأشراف واستبدل العمال بآخرين من أقاربه وأتباعه الذين يثق بهم ، ثم حطم الزعامات القبلية التى يمكنها أن تنافسه معتمداً فى ذلك على ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى : قلب الشياخات القبلية المتوارثة وتعيين عمال من عنده بدلاً منها كما فعل عندما عين (إبراهيم صابون) عاملاً على قبيلة المسيرية

القاعدة الثانية : إذكاء روح العداوة والمنافسة التقليدية بين زعماء القبائل للخلاص منهم.

القاعدة الثالثة : نقل القبائل المشكوك في ولائها إلى أم درمان لتكون تحت رقابته المباشرة(٨٤).

ثالثًا : ثورة الأمير يوسف بن السلطان إبراهيم في دارفور :

خلف محمد خالد في الفاشر في أوائل عام ١٨٨٦م الأمير يوسف بن السلطان إبراهيم عقب استدعاء الخليفة له بالحضور إلى أم درمان .

وقد تاقت نفسه إلى الاستقلال بالبلاد عن المهدية ، لذلك فإنه لما سلم المادبو على شيخ الرزيقات إلى حكومة الخليفة لم يكن ذلك عن إيمان بقضية المهدية ، بقدر لهفته على إخراج كرم الله كرقساوى ، الذى جاء فى إثر المادبو من بلاده(٨٥) وكان الخليفة قد وصلته أنباء بأن يوسف جمع حوله حاشية من أعضاء البيت المالك الفوراوى السابق ، إذ كتب أبو عنجة إلى الخليفة يبلغه أن رسله الذين أرسلهم إلي يوسف عيونًا عليه بناءً على أوامر الخليفة أبلغوه أن يوسف اتخذ لنفسه لقب (سلطان) وأنه أعاد للبلاد نظام الحكم الذى كان سائدًا أيام أجداده(٨٦) . وكان محمد كرقساوى شقيق كرم الله قد كتب إلى الخليفة في فبراير ١٨٨٧م بما لا يخرج عن ذلك (٨٧) .

ووجد الخليفة نفسه فى موقف بالغ الحرج ، فإن القضاء على المادبو على أفسح المجال فى دارفور ليوسف وكرم الله ، ولم يكن فى صالح الخليفة أن يوطد أحد منهما سلطته في هذه العمالة البعيدة ، ويبدو أن الخليفة كان وقتئذ يخشى ازدياد نفوذ كرم الله فى دارفور وانفراده بالسلطة أكثر من خشيته من استقلال الأمير يوسف ببلاد آبائه وأجداده ، والدليل على ذلك أن (أبا عنجة) كتب إلى الخليفة فى ٢٤ جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ٢٠ مارس ١٨٨٧م يقول إن المير يوسف شكا إليه من أن كرم الله أثقل كاهل أهالى دارفور بالضرائب مع عدم قدرتهم على دفع أي شيء بسبب استنزاف موارد البلاد فى عهد محمد خالد ، وأنه بناء على تفويض الخليفة لحمدان ، قد كتب إلى كرم الله يأمره برفع أياديه عن دارفور ، وأن تكون أعماله بالمشورة مع يوسف ، وأن يقتصر على العمليات العسكرية ضد قبيلة بنى هلبة الذين آووا المادبو ، وقد أيد الخليفة هذه الإجراءات (٨٨) ، ولكنه مع ذلك كتب إلى يوسف يطلب منه الحضور إلى أم درمان لتجديد العهد(٨٩) ، وقد بعث يوسف رده إلى عثمان آدم يعتذر بأعذار واهية لعدم استطاعته الحضور إلى أم درمان من مضمنها خروج جهاته من يده ، وتحريك عربان

الماهرية والعريقات والمحاميد والميدوب وغيرهم ، ويرجو الترخيص له بالنضال لحين نهاية هذه الحركات ورد عليه عثمان بضرورة المهاجرة إلى أم درمان فى أول شهر ذى القعدة ، وقد أيد الخليفة هذا الرد .

ولكن يوسف لم يكتف بعصيان أوامر الخليفة له بالهجرة - فإنه لما وصله كتاب من الخليفة بتاريخ ١٠ فبراير ١٨٨٧م بأن يكون على وفاق مع كرم الله الذى عينه عاملاً على (داره) ثار يوسف وطرد كرم الله منها (٩٠). وانسحب كرم الله إلى شكا ، وبدأ يفرض الإتاوات على قبيلة الرزيقات ، فقاموا قومة رجل واحد وحاصروه هو وأخاه (محمد شيخ محمد) فى شكا ، بعد أن اعتدوا عليه . ولم يكن الخليفة ينوى إغاثة الأخوين كرقساوى ، لولا اهتمامه بمن تحت قيادتهم من الجهادية من ناحية ، وخوفه من أن ينضم الرزيقات من ناحية أخرى فكتب إلى عثمان يطلب منه أن يحول بينهما (٩١).

ولم يشأ الخليفة أن يقف موقف المتفرج من الأحداث الجارية فى دارفور حيث تتصارع ثلاث قوى هى : الفور والرزيقات والأخوين كرقساوى ، فأرسل إلى عثمان آدم عامل المهدية فى كردفان فى ٩ ذى القعدة ١٣٠٤هـ الموافق ٢٩ يوليو ١٨٨٧م يبلغه إنه بسبب الحركة بين الفور وكرم الله فإن الجهة (أى دارفور) لا يتأتى ثباتها إلا بتعيين جيش من الأنصار فى هذه الجهة، وفى هذا دلالة كافية على عدم ثقة الخليفة فى جيش الأخوين كرقساوى ، ولذلك كما يقول اقتضى نظرنا أن تتعين لدارفور أنت وكافة جماعتك لجل إسكات الحركات الكبابيش والذين يقرب البحر للحضور إلى الأبيض وحين يتكامل عددهم ، يوكل عنه وكيلاً بالمركز ويحضر إلى أم درمان (٩٢).

وذهب عثمان إلى أم درمان حيث تلقى تعليمات الخليفة ، وعاد إلى الأبيض فوصلها فى ليلة الجمعة ٢٧ ذى الحجة ١٣٠٤هـ (٩٣). ولاشك أن الخليفة أوكل إليه مهمة تقليم أظافر الكرقساوية والقضاء على ثورة يوسف ، كما رسم له السياسة التى ينبغى عليه إتباعها إزاء القبائل العربية فى دارفور . وقد حذره الخليفة من عربان الرزيقات والهبانية وعموم عربان هذه الجهات وأمره بالتفحص عن أحوالهم وأن يحول بين الرزيقات والفور ، وأمره بعدم ائتمانهم ما لم يسلموا زمام أمرهم تسليمًا لا يشوبه نفاق أما بنو هلبة والتعايشة فمأمول بهم الإنقياد وخصوصًا بنى هلبة لداعى العداوة مع الفور (٩٤).

وكان الأمير يوسف قد بعث إلى الخليفة بمكاتبات ، لا نعلم عنها شيئًا وأن كانت على الأرجح لا تخرج عن كونها تكراراً للاعتذارات السابقة عن عدم استطاعته الحضور إلى أم درمان ، ولنترك للخليفة مهمة رواية أخبارها فى كتابه إلى عثمان آدم بتاريخ ٢١ ذى الحجة ١٣٠٤ الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٨٧م الرسل القادمون من يوسف إبراهيم عامل الفاشر .... حررنا لهم رد الجوابات .... وأعلمنا يوسف بتوجيهكم إلى جهته ، وحيث أنهم متوجهون بجهتكم فينبغى أن تعملوا الطريقة التى توجب لتأخيرهم معكم لحين ما تقوموا من كردفان لكى يكون ذلك بوسيلة مستحسنة لئلا يفهموا من أمركم شيئًا (٩٥).

وبمعنى آخر لم يشأ الخليفة أن يبلغ يوسف بحضور عثمان آدم مقدمًا كى لا يستعد لملاقاته.

وتمت الاستعدادات للزحف الكبير فى محرم ١٣٠٥هـ الموافق سبتمبر / أكتوبر ١٨٨٧م وغادر عثمان الأبيض فى ٢٣ محرم ١٣٠٥هـ الموافق ١١ أكتوبر ١٨٨٧م(٩٦). متوجهًا إلى (الأضية) حيث اكتملت جميع قواته التى بلغت ١٢٥١٢م نفراً والخيول ٩٤٩ والأسلحة النارية ٢٩١٠ (٩٧).

ولم تكن هناك حاجة لاستبقاء قوة فى كردفان بعد أن سادها الهدوء النسبى فإن صالح الكباشى كان قد انتهى أمره وقبيلة الجوامعة تلقت أمراً بالهجرة إلى أم درمان ، أما بلاد الجمع فقد باتت خاوية وفى ربيع أول ١٣٠٥هـ أى قبل وصول عثمان إلى شكا بيوم واحد ، حضر محمد شيخ محمد كرقساوى : وأطلعناه على أمركم بضمه هو وأخيه كرم الله إلينا فقبله غاية القبول ... استلمنا البازنقر والجهادية ، ووزعناهم على رايات الجهادية لأن تركهم بمركز شكا لا نفع فيه سيما وإذا تركناهم يفرون لجهة أخرى (٩٨).

ولم يكن الخليفة فى حاجة إلى إثارة عداء الأخوين كرقساوى فى هذه المرحلة الحرجة ، فكتب إلى عثمان فى ٢٣ ربيع أول ١٣٠٥هـ يوصيه بحسن المعاشرة مع كرم الله وأخيه(٩٩). ولم يعد الكرقساوية فى الواقع قوة يخشى بأسها بعدما نزل بهم من خسائر فادحة على أيدى الرزيقات ، فقبل أن يقوم عثمان من شكا حضر كرم الله وانضم بكامل قواته إلى عثمان(١٠٠). وبلغت قوة الأنصار ١٧١٥٩ جندياً(١٠١) . وسار عثمان - قاصداً داره ووقعت بينه وبين جنود الأمير يوسف ثلاث اشتباكات ، سقطت داره على أثرها فى أيدى الأنصار فى ١١ ربيع ثان ١٣٠٥هـ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٨٨٧م(١٠٢).

ولما علم يوسف بسقوط داره خرج من الفاشر قاصداً الوصول إلينا ومحاربتنا ثم راجعوه جماعته ، فالتزموا له بأنهم يخرجونا عن دارهم وحلفوا له على المصحف على عدم الهروب ورجع وأرسل المخذول زايد .. وبلغ عدد جيشهم عشرين ألفًا وسلاحهم ثلاثة آلاف وخيولهم ألفين وكسور " وهزم الفور يوم السبت غاية ربيع آخر ١٣٠٥هـ وطاردهم الأنصار وقال عثمان إنهم قتلوا منهم " زيادة عن خمسة آلاف " (١٠٣).

واشترك فى هذه المعركة التى تعرف باسم (واقعة داره) فى وثائق المهدية ضمن قواد المهدية البشارى ومحمد بشارة والختيم موسى وعبد الله دليل وكرم الله شيخ محمد كرقساوى.

وكان الخليفة قد وجه إلى كافة أهالى دارفور عامة فى ٦ محرم ١٣٠٥هـ الموافق سبتمبر ١٨٨٨م منشوراً يبلغهم فيه إنه بناء على ما حصل من الارتباك ، فإنه يرسل لهم عثمان آدم ليصلح أمورهم ويوقف التعدى عليهم (١٠٤).

وفى ١٢ ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق ٢٨ نوفمبر ١٨٨٧م أبلغ عثمان آدم إنه بالنظر لعدم صفاء يوسف إبراهيم وكونه على الخيانة .. فقد حررنا منشوراً عامًا لكافة أهالى دارفور بعزله من الإمارة وأعلمناهم بتعينكم عاملاً عموميًا على كافة الجهات الغربية " (١٠٥).

ورسم الخليفة لعثمان السياسة الواجب عليه اتباعها فى دارفور فأبلغه إنك ندبت لتلك الجهة لأجل هداية من فيها إلى الله تعالى فيلزم أن تشد حيلك فى ذلك وتولف على الدين وتحبيهم فيك وتوصلهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتنبه على كافة الجيش بالاستقامة وملازمة الصلوات ... وعدم مد أيديهم إلى حقوق الناس (١٠٦).

وتكشف هذه الوثيقة عن أن الخليفة كان ينوى القضاء على الآثار السيئة التى خلفها كرم الله ورجاله ، واستمالة القبائل كى لا تلقى بثقلها إلى جانب الفور فى هذه الفترة الحرجة .

ثم طلب الخليفة من عثمان آدم أن يتنى بجهة داره لإصلاح جهاتها وإدخالها تحت الطاعة وتمييز الطائع من العاصى من القبائل ... ومعرفة باطن الأهالى ثم يتوجه بعد ذلك إلى الفاشر (١٠٧).

ولكن يوسف لم يسكت على الهزائم التى لحقت بجيوشه ، فخرج بنفسه لملاقاة (عثمان) واشتبك الطرفان فى ١١ جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق ٢٥ يناير ١٨٨٨م جنوبى الفاشر فى

موقعة تعرف فى الوثائق المهدية بموقعة (وادى بيره) وفيها تمزق جيش الفور إرباً وهرب يوسف إلى جبل مرة ، الملجأ التقليدى ولسلاطين الفور المهزومين ، وهناك كتب إلي سلطان البرقو يطلب منه إمداده بالبارود (١٠٨).

وأرسل عثمان على الفور إلى سلطان البرقو يبلغه أخبار دارفور ويؤكد عليه بمنع دخول أحد من المنافقين فى داره كالمخذول يوسف وغيره من رؤساء القبائل (١٠٩).

وأعقبت موقعة (وادى بيره) سقوط الفاشر فى أيدى المهدية ، وطلب الخليفة من عثمان أن يضع جثته جهة الفاشر وأن الأمر فى تلك الجهات أعنى دارفور ونواحيها مفوض إليه تفويضاً تاماً (١١٠).

وبادر عثمان إلى القضاء على يوسف قبل أن يستفحل أمره فى جبل مرة ويجتمع عليه الفور مرة أخرى ، فخرج من الفاشر عصر الجمعة ٢٠ جماد أول ١٣٠٥ هـ الموافق ١٨٨٨/٢/٣م قوة بقيادة الختيم موسى ومعه عبد القادر والعطا أصول وأحمد مالك وفضل الله وكيل البشاري(١١١). لمطاردة يوسف ، ورغم أن القوة لحقت به فى وادى عزوم ، فإنها فيما يبدو لقيت فى ذلك مشقة كبيرة بدليل أن عثمان كتب إلى الخليفة لم تذق العيش اثنى عشر يوماً (١١٢). وقد بعث الخليفة إلى عثمان ٢٥ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ٧ أبريل ١٨٨٨م يبلغه بوصول رأس يوسف (١١٣).

وبذلك عادت دارفور مرة أخرى إلى حظيرة المهدية عام ١٨٨٨م أى فى نفس السنة التى أحرز فيها أبو عنجة نصراً مؤزراً على الأحباش .

وهكذا استطاع الخليفة القضاء على هذه الثورات فى غرب السودان التى عادت إلى حظيرة الدولة المهدية لتواصل مسيرة نشر الإسلام ودعوته فى هذه الجهات من غرب السودان بل وفى السودان الغربى كله .

الخاتمة :

من العرض السابق لموقف المهدية من القبائل في السودان وخصوصاً فى الغرب تتضح لنا بعض النتائج التى ترتبت على دور المهدية خاصة فى عهد عبد الله التعايشى من هذه القبائل، والتى لولا هذا الدور الحازم من هذه القبائل المعارضة لفقدت الدعوة الكثير من أتباعها ، ولما

استطاعت مواصلة هذا الدور الجهادى فى غرب السودان ، ولقد ترتب علي هذا الموقف من المهدية مت يلى :

أولاً : أن الدعوة المهدية واجهت معارضة من جانب بعض القوى التى لازالت تتمسك بالتغيرات القبلية وترفض الانضواء تحت زعامة إسلامية عامة لكن التعايشى وقف لهذه القوى بالمرصاد ، ولم يتوقف عن محاربتها وإرضاخها وضمها إلى حظيرة الدولة وبالتالى نجحت الدعوة فى القضاء على هذه الثورات مهما بلغت قوتها .

ثانيًا : أن الدولة المهدية آمنت بضرورة فرض نظام واحد على الجميع دون تمييز أو محاباة ، وكل من خرج عن هذا النظام لقى مقاومة عنيفة من أتباع التعايشى الذى حافظ على الدعوة ، ولذا فإن من أهم نتائج هذا البحث التصدى لهذه القوى المعارضة والذى انتهى بإخضاعها وما كان له من أثر فى انضواء الجميع تحت لواء المهدية وراياتها .

ثالثًا : أفادت الدراسة أن وثائق المهدية تحوى الكثير من المراسلات والمكاتبات التى تتعلق بدقائق أمور المهدية الداخلية والخارجية ، ومن الإطلاع على هذه الوثائق الخاصة بموقف المهدية من ثورات القبائل أتضح الدور الكبير الذى بذله التعايشى للحفاظ على وحدة الدولة .

رابعًا : أوضحت الدراسة أن موقف الخليفة من ثورة الأمير يوسف بن السلطان إبراهيم فى دارفور تجسد الدور الكبير الذى قام به الخليفة واتباع المهدية للتصدى لهذه الثورة لأنه كان على علم تام أن محاولة انفصال دارفور إذا نجحت فسوف تقلص نفوذ المهدية فى غرب السودان وهو أهم معامل هذه الدعوة ، ولذا كانت محاولات الخليفة الجادة للقضاء على هذه الثورة ، وعدم السماح للسلطان يوسف بالانفصال ونجح فى هذا بشكل أنهى الثورة ، وأوضحت الدراسة أن الدولة المهدية حافظت على وحدتها لم تسمح لأى تأثر بالإنفصال وبالطبع أدى هذا إلى تكامل وحدتها طول فترة التعايشى حتى تم القضاء عليها على أيدى الإنجليز واستشهاد الخليفة عام ١٨٩٨م.

ملحق رقم (١)

الحالة فى السودان

أن الحالة العامة فى السودان تدعو إلى إمعان النظر وطويل التفكير وتأمل التدبير ، فالشعب تكتنفه الخطار من جميع نواحيه حيث تحارب الحكومة أفراده ، فى أرزاقهم لتشغلهم بالجوع عن حل قضيتهم الوطنية فضلاً عما جرت من سياسة الإفقار والتجهيل ، ولولا إيمان عميق بالله والوطن وتعلق أكيد بعرش مصر لوهنت العزائم وخارت القوى من شدة ما تكيد حكومة السودان للشعب العزل من صفوف التشريد والتعذيب ، فالإنجليز فى السودان لا يألون جهداً فى رعاياتهم لذلك - والرد الطبيعى عليهم أن تقابلهم مصر بالمثل فتخير موظفيها ويتغلغلون فى أوساطه يشاركونه السراء والضراء ويقاسمونه أفراحه وأتراحه على السواء فيحرصون على تفهم رغبات وآماله وآلامه حتى يشعر السودانيون من إخوانهم المصريين فى الخرطوم وغيرها أن هم الأجزاء منهم لهم رسالة وطنية غير الاعتصام بالأبراج العالية .

دار الوثائق المركزية بالخرطوم وثيقة رقم ٢٤٦ .

ملحق رقم (٣)

دفتر رقم ٢١ عابدين صادر تلغرافات

صورة التلغراف العربي الشفرة رقم ٢٢٨ ص ٣٢ بتاريخ ١٥ ذي القعدة ١٣٠٥ ارادة سنية الى حكمدار السودان بالناصر .

علمنا مضمون تلغرافكم المؤرخ ١٢ شوال ٩١ اما البند الثاني بان السير لاستكمال السياح لحالاتها الى امير بارقو تمهيدا من عادة السياحين لتسهيل امر سياحتهم ولا يتيسر بغير شروط معه كما بلغتم وعلى فرض حصول ذلك فلا يعول عليه وانما يحسن لمجرد تمكنه من غرضه في السياحة واما ما تستأذنوا عنه نحو تحرير مكاتبة الى امير بارقو بان يدفع شيء معزز الى الحكمية كما كان جاري مع امير دارفور سابق ويعين اميرا على بارقو من اولاده من بعده بطريق التوارث فهذا لا يكون فيه تغيير فايدة لان مقصدنا ضبطها هي ودارفور ونصبها على دار تمر ليمكننا النجمين ادارة الجهة خصوصا وانكم ذكرتم بان بارقو وان كانت صغيرة لكنها كثيرة العمران خصبة الاراضي وبها انهر متعددة واهاليها متمدنة وهي امتة بمفتاح الغرب السوداني ثم بصير ضبط الفرقة المذكورة بمضبطة بارقو .. فيقتضي ان يبذل كامل جهده في اقرب وقت قبل نزول الامطار .. وان تراءى لكم صلاحية في اجري بعد ترطيق وسايط مثل جلب اقارب امير بارقو الذي قطعه جد امير دارفور سابقا المقيمين مابين بارقو ودارفور وتعهدهم بان القصد تسليم زمام ادارة تلك الجهة اليهم وتعلقوا آمالهم بذلك في يخرجوا من طاعة امير بارقو ويقع الخلاف بينه وبين الاهالي فلا بأس ان رايتم موافقة ذلك لان لايخلو الحال من ان لهما اتباع بكثرة بل يمكن ان يوجد اهالي بارقو يميلون اليهم بحيث يسهل ضبطها في اقرب وقت وبعدها يصير مكاتبة امير بارقو بانه لدواعي تبعية بلاده الى دارفور يجب عليه الامتثال لاوامر الحكمية ولاقامة عسكرنا في بلده وان يؤدي لها مبلغ جسيم مع زيادة تكليفه باموال لا يتحملها بحيث يترتب عليها عدم تحمله وجسارته على المحاربة فعند ذلك تدخل الفرقة المذكورة في بلاده قهرا عنه وتجرى ضبطها واجهدوا الجد ، الحاجز ما لاجراء النافعة .

ملحق رقم (٢)

محفظة ١٩ بحر برا – وثيقة رقم ١٣٣ بتاريخ
١٧ الحجة ١٣٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

انه الى من تعطرت الارجاء بشذى ثناه ، ولهج من كل وصف جميل حد انتهائه على البهجة ماضى العزم فى كل مهمة صاحب الدولة المبجلة والطلعة التى هى بالسعد مقرونة ذى المعارف التى انتعشت بها الارواح انتعاشا حضرة سعادة افندينا الخديوى اسماعيل باشا جعل الله الوجود بوجوده ، ولازالت مشتملة على رعاياه هواطل كرمه وجوده آمين • فبعد اهداء تحيات سنية وابداء تسليمات عنبرية للجناب الذى تضوع اريج ذكره فلم يحده ، بتبجيل ولا تشبيه وطلعة شموس الفضل بلا غيم ولا تمويه ينهى الى الحضرة انه قد ورد على الفقير الداعى لها بالخير كتاب كريم رقم من بديع المعانى بالدر النظيم فوضعته على الراس تعظيما واجلالا ولثم بطويه احتفاء واحتفالا والامر الذى اشارت اليه السعادة وعدت عليه السيادة *يجب على العاجز ان يستفرغ الوسع فيه وان يرشد اليه بمل• فيه قضاء لمد جب التدريف وامتثالا للامر الشريف والا نحن لا يملك لنفسه نفعا ولا يستطيع ضرا دفعا الى يكون مجيرا ولغيره نصيرا خصوصا فى هذه الاعوام التى يكثر فيها التجاسر على الخاص والعام فالمأمول من سعادة الخديوى ايده الله بنصر لا يتناهى مدده مجزا لا يملى جديده ، ان يوصى علينا اهالى سهوه ومن يرد اليها مأمورا من شريف دولته ليتم بذلك ما اسداه الينا من سوابغ منته وان يعين المأمورين بها تعريهم بهنا الاطماع فيكتفون بالالحاح من وجه السؤال الشاح كما سيطلع على ذلك الجناب الكريم فى كتبهم المصاحبة لهذا الرقيم واذا تعذر مطلوب احدهم او تعسر بعد بذل الجهد فى تحصيله ولم يتيسر وما حصل له كدر وتجمعنا منه الضرر فالمرغوب ما يوجب السلامة والراحة فى ظل دوحة العدل والسماحة هذا وصالح دعائنا مبذول على الدوام للسعادة الخديوية والانجال الكرام واطيب السلام واسماه واكمله وانماه يهدى الى تلك الحضرة العظمى ومن لاذ بالجناب المنجه الاسمى ما لاح بدر تمام وفاح مسك ختام •

ختم

حرر فى ١٧ الحجة ١٣٠٥

محمد المهدى

ملحق رقم (٤)

دفتر صادر ٣ ص٤٩ رقم ٢١٠ بتاريخ ١٣٠٥ من الخليفة الى يوسف ابن شريف

بسم الله الرحمن الرحيم .. وبعد فمن عبد ربه الخليفة المهدى عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى حبيبه فى الله المكرم محمد يوسف بن شريف عامل المهدى على كانة برقو ونواحيها نعلمك اعطاك الله بالخير وصرف عنك السوء والضير ان الله .... فانه كلا شىء فى جنب رضاء رب العالمين لاسيما فى هذا الزمن الذى جاء فيه الحق بظهور المهدى المنتظر عليه السلام وزهق الباطل باقامة احكام الاسلام واثناء حضورى على علم من امر المهدية فقد كنت بادرت بالتصديق والاذعان لاوامرها السنية وورد كتابك بذلك للمهدى عليه السلام فحظى لديه بالقبول والاكرام وتحرر لك منه بالحث على اقامة الدين واحياء الاثر النبوى بجهتك بين العالمين وكذا مكاتبتك الى خبراء قبيلك المحررة منكم لمحمد خالد لما كان بدار فور بعد انتقال المهدى عليه السلام بانكم مازلتم على عهدكم وتمسككم بالمهدية وقيامكم باوامرنا المرضية وانه سترسل مخصوصا من طرفك لمقابلتنا وتجديد العهد لك عن يدنا قد وصلت بطرفنا وفهمناها ولكن من وقت ما كاتبك المهدى عليه السلام بل وقت وصول مكاتباتك المذكورة بطرفنا قد مضت مدة لم ياتنا منك رسول ولا جواب ولا سمعنا منك بقيامك فى المهدية ظاهرا عملا بما تحرر لك فى الكتاب مع انتظارنا لذلك وترقبنا لحصول ما هنالك فلما طال علينا المطال واستغربنا انقطاع اخبارك وما انت عليه من الاحوال دعانا داعى المحبة والشفقة عليك الى مخاطبتك ثانيا فكاتبناك فى تاريخ ٢٣ شوال ١٣٠٤ بحثك على القيام بامر المهدية والانتداب لاحياء السنة المحمدية وعدم انقطاع اخبارك عنا وفتح طريق الهجرة لكل من يرغب القدوم الينا فقد مضت من ذلك مدة لم يأتنا الرد منك وما علمنا السبب الذى دعا لقطع اخبارك عنا بالكلية مع قرب جهتك منا وحلالتها لحدود المهدية اهل كان ذلك من عدم وصول المكاتبات اليك ام من اعراضك من طريق الرشاد وتوجهك لغيره. ا مع انك من اهل العقل الثاقب الذين يعلمون ان العبرة بصلاح العواقب وتعلم لديك ان امر المهدية الاهى لا طاقة لاحد بمناوئته ولا بد من انتشار سطوته فى

جميع الافاق بمقتضى قدرة الطاء الخلاق فكل من صدق واعرض فقد خسر دينه ثم لابد من خزيه في القبضة واشد النكد والعاقل مثلك مع وفور علمه وغزارة فهمه لا يليق به ان يضرب صفحا عن القيام باوامر المهدية ويرغب عن سلوك طريقتها المرضية فتدارك ايها الحبيب نفسك قبل الفوات ... والنظر لكونك من المتشرفين لدينا بالخير لسابق تصديقك فقد حررنا لك هذا بحسب ذلك مكاتبتنا لك ان كنت على حسب ظننا بك فبادر بالاجابة الداعي وقم بتأييد امر المهدية بجهتك وافتح طريق الهجرة لكل من يرغبها واجعل اخبارك متصلة بنا في كل وقت وحين وكل من اتساك فارا من المهدية فلا تأويه بجهتك ولا تقبله كائنا من كان ومن اى جنس يكون وبالاخص ان كان من الغرب او العرب فلا تقبله مطلقا بل اضبطه وارسله ... فان فعلت ذلك فقد حزت حظا من ضمن اعوان المهدية ونلت غاية الاكرام والعزة ... وان لا بان اعرضت عن العمل باشارتنا اتيت احدا من اعداء المهدية ورجعت الى مخالفتنا كانت الجاني على نفسك ولابد من قدوم حرب الله لجهتك فيكون هلاكك انت وأتم من معك من المستضعفين وهذا ما لزم اعلامك به وبه الكفاية ولترد لنا منك هذه الافادة فانا في انتظار لذلك والوصية بيننا تقوى الله والسلام ٠

ملحق رقم (٥)

مهدية ١/٤/١/٢/١٩٤ هـ ١٠ صفر ١٣٠٢ أ - محمود احمد الى النطيلة

... سيدى ان يوسف البرقاوى وان كانت عداوته لله ورسوله وخلفيه واعراضه كبير لكنه بخ له الله تعالى، فى كل سنة بل فى كل وقت يدبر له حيله فى الغش ويجوسا فى الخداع والمكر يستخف بهما عقول اهالى الغرب ويخدعهم ومن ذلك انه فى هذه الايام قد اشاع بجهات الغرب جميعها ان ولد السنوسى ارتحل من محله بما معه من الجيوش وانه قادم اليهم لاجل محاربة الانصار وانه لدى وصوله فمن يجده طائع الانصار يقتله بل اشاع لهم ان ولد السنوسى قال كل من يحارب الانصار من أجل الغرب فلدى وصوله يفصل فيه ماينفصل الى غير ذلك من الاراجيف والاشاعات التى يرتاح بها باله لا اراحة الله تعالى ثم ان بدون تاريخه ورد لنا جواب من المكرم ادريس بن ابراهيم بجهة نوره يذكر ان البرقاوى ارسل له مخصوص اثنين من تامة الاعاجم وصحبهما مظروف بوسطنا فقد حجزهم عنده وارسل لنا المظروف ولدى الاطلاع عليه وجدنا مضمونه انه رد لجوابنا الذى حررناه له اخيرا ورفعنا صورته لجنابكم بالبوستة السابقة ومآل جوابه الاعراض عن الدين وانه تبع الى ولد السنوسى متحججا بامر المهدى عليه السلام وبنائه بعض المنافات لما حررناه له وبالجملة فليس فى جوابه ثمرة وحسب المسح لنا ابتداء ان البرقاوى ارسل ذات جواباتنا لولد السنوسى ويرد له الرد من هناك وارسله الينا كما من فحوى كلام الجواب يعلم انه ليس بكلام البرقاوى ذات برايه واجل ..

والسلام ...

الختم

ملحق رقم (٦)

مهدية ١٢/١ المجلد الثاني ورقة ١٢٦ بتاريخ
١٦ رمضان ١٣٠٥
من عثمان آدم الى الخليفة

انه قد كان اخبرناكم عما جرى لنا في اسماعيل عبد النبي المسلاتي باسباب تأنيه عن الحضور بطرفنا وما كاتبناه به من طلبه عندنا حتما فالان بعد توجهنا لداره قد حضر المذكور بالفاشر مع عدة رجال من اهله ونزلوا عند الحبيب عبد القادر دليل وحضروا وقابلنا معه والاولى عندنا عدم عودته في هذه الايام لتفريق السرايا فان كان يوافق بحضوره طلبه بطرف سيادتكم حتما في بعد ان يتشرف بالمقابلة فما تريد موافق نحو فالامر له مفوض سيدي.
والسلام

ملحق رقم (٧)

..

مهدية ١/٢/١ ـ المجلد الثاني وثيقة ١٢٠ ـ ١٧ رمضان ١٣٠٥

من عثمان آدم الى الخليفة

ينهي للسيادة انه قد سبق اعلامكم من عدم ورود خبر من جهة الى ريشة السلاوي والان ورد لنا خطاب من المذكور يذكر به وصول الاوامر اليه وانه قبلها غاية القبول وامتثل لامر المهدية ويذكر انه على شرط قبلها غاية القبول ويرسل اولاده لمقابلتنا ويعتذر في سجنه لرسلنا ويذكر انهم ارادوا أن يهربوا منه نظرا لذلك سجنهم ثم اطلقهم وارسلهم لآخرها ذكره بجوابه ..

ملحق رقم (٨)

محفظة ١/١٢ المجلد الثالث وثيقة ٩٦ بتاريخ ٢٦ شوال ١٣٠٥

من عثمان آدم الى الخليفة

نبدى للسيادة ان امركم الكريم فى ٦ شوال ١٣٠٥ الذاكرين به أن ادريس القراوى اذا حضر الينا نفيدكم عما نراه فى احواله قد تشرفنا بوروده وعلم الحال اننا كنا حررنا لسيادتكم بان المذكور قادم لنحونا وانه بالطريق وقد ظهر لنا خلاف ذلك حيث لم يقم من وطنه ولا تحرك ولا نفسه فى الحضور وانما مكاتبته لنا من باب الغش والخداع والان تواترت الاخبار من جهته بانه جمع له حربا وشرع فى الغارة على اطراف الديار الموالية له وارسل باقى الفور المخلصين الذين كانوا بالجبال متحزبين كمثل جمعه ابو دنيهس والوزير آدم بوش وغيرهم من العبيد بسنة وحضروا اليه واتحدوا معه ولما تبالغ هذا الخبر للحبيب العطا اصيل وهو بجهة الفراويه تحرك لنحوهم وعزم على الوصول اليهم وضربهم وكتب لنا بذلك فتمناه من القدوم اليهم وجهنا صارقيام الاحباب عبد القادر دليل وجماعة مجهزين بما معهم من الاسلحة والخيل والحرابة وبلغ عدد جيشهم سبعة آلاف وخمسماية ... وجرجوا من هنا يوم الاثنين الموافق ٢٢ الجارى وقدمنا عبد القادر دليل وامرناهم بحسن سيرهم لكاتبه والاستكشاف عن خبر القراوى واحزابه بمعرفة محل وجودهم بقصد وهم يضربوهم ويشتتوا شملهم بعد ان ينذروهم ..

ملحق رقم (٩)

--

مهدية ١/١٤ المجلد الثاني وثيقة ١٠ بتاريخ ٨ صفر ١٣٠٢

محمود احمد الى الخليفة

... لا يخفى علمكم ما عليه اهالى الغرب الخمسة الذين هم القصراوى والتاماوى والمسلاتى والسلاوى والرقارى من النفاق والمكر والخداع والتربص بالدين وشدة العداوة لاصحاب المهدى ونظرا لذلك لما نعلمه من شدة عداوتهم وان ما يجرى معنا من المكاتبات والمراسلات هى حيل وتدابير لقصد كشف الاخبار فقط ومع ذلك متوهمين بانها السبب الاكبر فى عمار ديارهم وتأخير الانصار عنهم زعما منهم باننا لا نعلم حقايقهم فقد راينا بحسب المصلحة الدينية من الواجب المحتم علينا قطع مواصلاتهم ومراسلاتهم وتحرير الانذارات اللازمة لهم قياما للحجة عليهم وكل من لم ينقاد ويترك الفساد يسهل الايقاع به وهلاكه بقدرة الله تعالى وعلى ذلك انذرناهم الجميع فى هذه الايام وحررنا لكل منهم ما يليق بحاله ووعظناهم بان من لم ينقاد فلا عهد له عندنا ولا امان ثم فى هذه الايام قد تأكد عندنا بان المسلاتى ....

التعلم

سيدى ان اهالى الغرب الذين ذكرناهم قد تحقق لنا انهم لا تنفع فيهم المدارجات وقد صار فكرنا نحوهم وليس لنا تأخير عنهم الا صدور الاذن من جنابكم ومتى حصلت الاشارة فيهم ان شاء الله قريبا تنطوى جهاتهم بما عسى ما بيها من الضلال والسلام ..

ملحق رقم (١٠)

--

مهدية ١/١٤ المجلد الثاني وثيقة ١٥٥ بتاريخ ٢٧ شعبان ١٣٠٢

محمود أحمد الى الخليفة

نهدي سيدي ان رؤساء العرب المعرضين مثل القمراوي والتامامي والمسلاتي وغيرهم فالجميع لم يكن لاعراضهم وتصميمهم على الحرب وشدة العكر سبب سوى اغراءات البرقاوي ومكاتباته ومراسلاته ولولا ذلك لكانوا من مدة رجعوا الى اتباع المهدية واقلع كل منهم من الاستعداد بجهته ولكن البرقاوي جعل نفسه انما لهم ناصحا ومرشدا واضلهم بذلك ضلالا مبينا كما وقد لحوش القمراوي بجهة الشلالق وجدنا في معسكره شيئا من مكاتبات البرقاوي المذكور وغيره ما كشف اسرارهم واستقصينا بمطالعتها اخبارهم جميعا ووجدناه يحرضهم فيها على القتال ...

ملحق رقم (١١)

دفتر صادر ٥ الامارات ص ٦ في ٧ رمضان ٢ .٣ ١ تحرير من
المهدي عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه في الله وصفيه دعوته على اقامة الدين حيات بن سعيد طوقه الله بكل وصف حميد وجعله من اهل التكريم والتمجيد آمين ايها الحبيب عالك الطف سلام واشرف تحية واوفى اكرام ثم انه لا يخفى على جليل فهمك ان ظهورنا في هذا الآوان بالمظهر النبوي من اعظم منن الله على اهل هذا العصر فيجب على كل مؤمن ومؤمنة شكرها والقيام بواجب امرها ومن تمام الشكر بذل المهج والارواح محبتنا في نصرة الدين وضاء برب العباد ومعاونتنا على البر والتقوى حسبما امر الله تعالى وحيث انه تعالى قد اجزل عليكم النعمة بحسن اتباعنا وجعلكم من خاصة اعواننا فيجب عليكم القيام بامر الله ورسوله وامرنا ببذل غاية المجهود وفي انجاز دعوتنا بالجهات الغربية واستنفار الناس لاداء فريضة الجهاد والهجرة لاعلاء كلمة الله واذلال اعداء الله ولما كان ذلك يتوقف على تحزب المسلمين وتجمعهم واتفاق الكلمة في ما بينهم وهو يتوقف على جعل الامر لرجل منهم يكون اهلا لتدبير امورهم وحسن ارشادهم وجلب مصالحهم ودفع مضارهم وقد رأينا توفر تلك الشروط فيك فقد اخترنا تعيينك عاملا من طرفنا على كافة أهل سكت الذين كانوا تابعين لجدك عثمان بن فودى رضي الله عنه ومنتمين اليه وكذا على كافة من يرغب الانضمام عليك من غيرهم واوجبنا على المذكورين طاعتك وامتثال أوامرك بما امرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر فتحمل اعباء هذا الامر واجتهد في استنفار الناس الهجرة الذناك في مبايعتهم بالنيابة عنا وفي اقامة الحدود عليهم بحسب حكم الكتاب والسنة وفي العزل والتولية كذلك وفي جهاد كل من يخالف أمر الله ورسوله وينكر مهديتنا من بعد تقديم الانذار اليه وتكريره ان امكن وعدم حصول

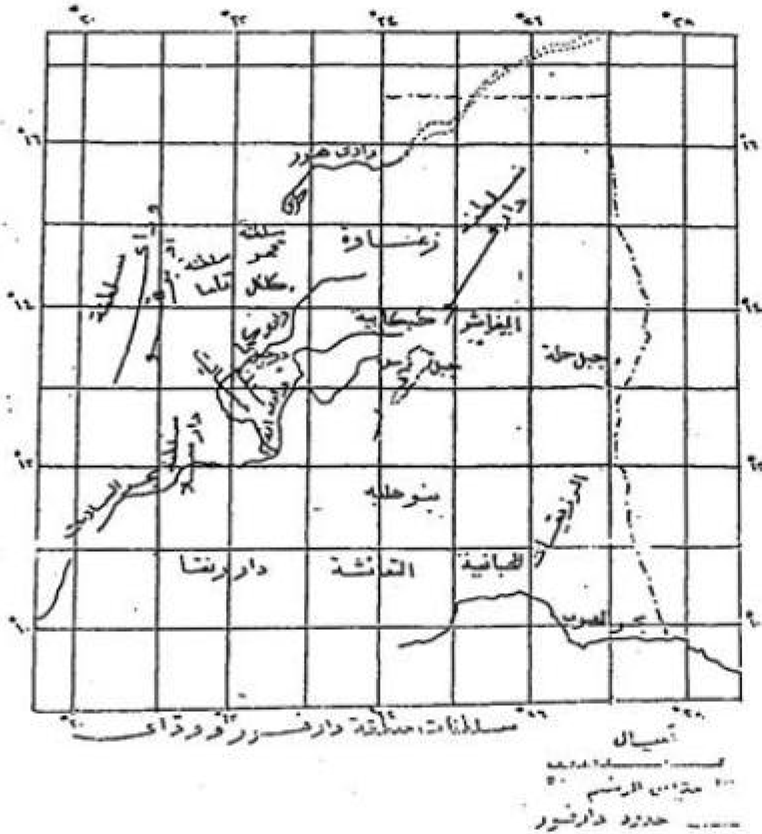
الاذعان منه بكل ما فيه اصلاح للدين فانت مأذون فى اجرائه وقد تحررت منا الاوامر الكتابية لامراء صكت واتباعهم جميعا بالانذار والدعوة الى الله تعالى واخطارهم عن توليتك عاملا منا عليهم وناهى مرسوله لصوبكم مع صحبت رسولكم المبارك محمد العربى نهيتهى ليقابلها لهم وقابلتهم بموجبها ولما ان الحبيب محمد الامين احمد قسمه قابلنا وتبرنا بالنور النبوى وصحبنا حتى حسنت تربيه على يدينا فقد استحسنا تعيينه عاملا على كافة جهات على وحررنا له منهم الامر بذلك وبازرناك به وجعلناه تحت امرك ونهيك ومن ضمن عمالنا المنضافين اليك حيث انك عاملنا العمومى على كل من اجاب دعوتنا على يدك فاستوص بهذا الحبيب خيرا واجعله لك عونا وعضدا ومساعدا واعتذر به فانا قد اشركناك به على انفسنا وليكن منكم الجميع بذل غاية الوسع فى الدلالة على الله وابلاغ الدعوة لعباد الله وتستنفارهم للهجرة الينا على حسب الامكان بالفور وحاصل وصيتى لكم التقوى التى هى خير الزاد والمحابة فى الله والمعاضدة والموافقة على الحق وان تكونوا على جناح السفر للدار الآخرة وترفضوا هذه الدار وتصبروا على مافيها من المرارة والاكدار اذ لا يخفى عليكم ان المزايا تعظم بتحمل البلايا ولولا ان المخاطب امثالكم لاطلت العبارة فى هذا الشأن ولكن مثلك من تكفيه الاشارة ولا يحتاج الى تطويل العبارة ادام الله رشادك وختم لك بالحسنى وزادك ووفقنا واياك على ما يرضيه بجاه سيدنا محمد وتابعيه ثم ان امارتنا لك ايها الحبيب انما هى على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيرت او بدلت فلا امارة لك هذا وانه والسلام .

ملحق رقم (١٢)

--

دفتر صادره امارات س٣ ١ وثيقة ٥١ تحرر من الخليفة — امر صورته الى الحبيب اللـــه ابن فـــار بتاريخ ٦ القعدة ١٣٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدى عليه السلام الخليفة عبد الله محمد خليفة الصديق الى حبيبه المكرم حبيـب الله ابن فار تولاه امين ٠ بعد السلام عليكم ورحمة وبركاته اوصيك اولا بتقوى اللـه ثم اعلمك ايها الحبيب انه على حسب حسن الظن بك وشاهد الخير فيك ومشاهدتك لخليفة الله فى أرضه عليه السلام وسماعك لمذاكرته ومنشوراته وتعليمه لك امراطسى اهل موشى قد جعلناك عاملا عليهم لتدلهم على الله وتجاهد بمن آمن منهم من كفر واعرض من الانابة الى الله باتباع المهدية التى هى الدين الخالص فتوجه اليهم حميدى على بركة الله وحيث لك لهم ذكرهم بما معك من المنشورات وما سمعته من المذاكرة وادلهم الى رب البريات واخبرهم بما رأيته وسمعته من الكرامات وكن فيهم حاكما بالشرع عاملا بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنشورات المهدية التى هى عين السنة النبوية وايعهم بالنيابة عنا فانا اذناك فى ذلك ولفظ البيعة هو ان تقل بايعنا الله ورسوله ومهديه وخليفته على يدك على توحيد الله وان لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزن ولا نأت ببهتان ولا نعصى المهدى عليه السلام وخليفته فى معروف ولا نفر مـن الجهاد وعلى زهد الدنيا وتركها وبذل النفس والمال فى سبيل الله وكن متحدا مع عاملنا محمد الامين احمد منضما عليه سامعا لامره ونهيه ممتثلا له فى جميع اوامره ونواهيه فى مـا يرضى الله وامارتنا هذه لك على شرط اتباع الكتب والسنة فان غيرت أو بدلت فلا امارة لك ٠ هذا والسلام ٠


وادي هور
زغاوة
كبكابية
الفاشر
جبل مرة
بنوحلبه
دار رنقا
التعايشة
الحبانية
الرزيقات
بحر العرب
سلطنات منطقة دارفور وودّاي
أميال
مقياس الرسم
حدود دارفور

١٥

مقياس الرسم

بحيرة تشاد

كوكا

دكوة

باقرمي

وداي

شاري

بحر السلامات

بحيرة ايرو

دار رونغا

ادماوا

باتقي

نقلا عن : Emile Gentil, La chute de L'Empire De RABAH, Paris 1902. P. 309.

الحواشي

١- محمد فؤاد شكري : مصر والسودان ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٤٢٥ .

2 - Dujarric. G.L'etat mahdiste du Soudan . Paris 1901, pp. 223 - 224 .

3 - Holt. P.M. The Mahdest state in the Sudan. Oxford, 1958, p. 134 .

٤ - الخليفة إلى الماديو على ٤ ذى الحجة ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٥/٩/٢٢م دفتر صادر الخليفة رقم (٢) ، ص ١٣٥ وثيقة ٤٣١ .

٥ - الخليفة إلى محمد خالد ٢٨ شوال ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥/٨/١٠م دفتر صادر الخليفة رقم ٢ ص ٣ ، وثيقة ٦ .

٦ - الخليفة إلى الماديو على ٦ ذى القعدة ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٥/٨/١٧م دفتر صادر الخليفة رقم ٣ ص ٨ وثيقة ٢٣ .

٧ - الخليفة إلى الماديو على ٨ شوال ١٣٠٣هـ الموافق ١٨٨٥/٧/٢١ دفتر صادر الخليفة رقم ١٠ ص ٢٠ (وثيقة ٦٦) .

٨ - الخليفة إلى عثمان آدم ٢٥ رمضان ١٣٠٣هـ الموافق ١٨٨٦/٦/٢٧م المهدية ١١/١ ملف ١ وثيقة ١٩ .

٩ - الخليفة إلى كافة الرزيقات شوال ١٣٠٣هـ الموافق يوليو - أغسطس ١٨٨٥م ، دفتر صادر الخليفة رقم ٨ ص ٥٦ وثيقة ١٥١ .

١٠ - الخليفة إلى الماديو ٢ صفر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١٠/٣١م دفتر صادر الخليفة رقم ٢ ، ص ١٥ ، وثيقة ٤٤ .

١١ - الخليفة إلى الماديو ٢ صفر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١٠/٣١م دفتر صادر الخليفة رقم ٢ ، ص ١٥ ، وثيقة ٤٤ .

١٢ - الخليفة إلى يوسف إبراهيم ٢٥ صفر ١٣٠٤ هـ الموافق ١٨٨٦/١١/٢٣م دفتر صادر الخليفة رقم ١٠ ص ٩٣ ، وثيقة ٢٥٠ .

١٣ - الخليفة إلى كافة قبائل دارفور ٢٦ صفر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١١/٢٤م دفتر صادر الخليفة رقم ١٠ ، ص ٩٥ ، وثيقة ٢٥٨ .

١٤ - الخليفة إلى كافة بنى هلبة عموماً ٢٥ صفر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١١/٢٣ دفتر صادر الخليفة رقم ٣ ، ص ١٩ ، وثيقة ٥٠ .

١٥ - الخليفة إلى محمد كرقساوى ٦ ربيع آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/١/٢م دفتر صادر الخليفة رقم ١٠ ص ١٠٨ وثيقة ٣٠٤ .

١٦ - الخليفة إلى ابن عنجة جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/١م المهدية ١/٢٥ ملف ٤ ، وثيقة ٣٢١ . وأيضًا الخليفة إلى أبي عنجة ٦ جماد آخر ١٣٠٤ الموافق ١٨٨٧/٣/٢م المهدية ١/٢٥ ملف ٤ وثيقة ٣٢٥ .

١٧ - الخليفة إلى أبي عنجة ٢٠ جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/١٦م المهدية ١/٢٥ ملف ٤ وثيقة ٣٣٢ .: انظر أيضًا : شقير ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص ٤٥٤ وأيضًا :

Holt. Op. Cit. p. 135 ; Duarrec. Op. Cit., p. 329; Slatin. R.C.. Fire and Sword in the Sudan. London, 1896, p. 416 .

١٨ - أحمد أمين : المهدى والمهدوية ، القاهرة ١٩٥١م ، ص ١٧٥ .

* DuJarric. G.Op.Cit, p. 225 .

١٩ - العدد ٣٧٠ من جريدة القاهرة الصادرة فى ٢ مارس ١٨٨٧م.

٢٠ - انظر ملحق الوثائق .

٢١ - محمد فؤاد شكرى : مرجع سابق ، ص ٤٢٧ .

22 - Holt, Op. Cit., p.136 .

٢٣ - نعوم شقير ، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية - القاهرة ١٩٠٣م ، الجزء الثالث ، ص ٤٥٦.

24 - Ohrwalder, Op. Cit., p. 250 .

٢٥ - جريدة القاهرة ٣ فبراير ١٨٨٧م.

٢٦ - الخليفة إلى صالح فضل الله سالم ١٠ رجب ١٣٠٣هـ الموافق ١٨٨٦/٤/١٤م دفتر صادر الخليفة رقم ٣ ص ١٢ وثيقة ٣٧ .

٢٧ - الخليفة إلى صالح فضل الله سالم غاية صفر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١١/٢٨م دفتر صادر الخليفة رقم ٣ ص ٢٠ وثيقة ٥١ وأيضًا الخليفة إلي صالح فضل الله ١٥ ربيع آخر ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧/١/١١م دفتر صادر الخليفة رقم ٣ ، ص ٢٠ ، وثيقة ٥٢ .

٢٨ - الخليفة إلى كافة من كانوا من صالح ٢ شعبان ١٣٠٤هـ ١٨٨٧/٤/٢٦م دفتر صادر الخليفة رقم ٣ ص ٢٣ وثيقة ٥٧ :

Ohrwalder. Op.Cit., pp. 366 - 71: Slatin, Op. Cit., p. 417 .

٢٩ - النجومى إلى الخليفة ٢٠ شعبان ١٣٠٤ هـ الموافق ١٨٨٧/٤/٢٦م المهدية ١/١ ملف ، وثيقة رقم ١/٦ وقد وصل (نويفلد) إلى أم درمان فى ٧ مارس ١٨٨٧م (طبقًا لرواية أورفالدر) ، ٧ مايو (طبقًا لرواية سلاطين وأثبتت أوراقه أنه روسى الجنسية خريج جامعة ليبزج) وأشيع أنه قدم لإنقاذ سلاطين مما زاد غضب الخليفة عليه ، فألقى به فى السجن أربعة أعوام ، ثم عمل فى معمل تكرير ملح البارود فى دار الإرسالية القديمة بالخرطوم وكتب عن أسره كتابه المعروف . انظر :

A prisoner of the Khaleefa. London 1899; Ohrwalder. Op. Cit., pp. 366 - 71 ; Slatin. Op. Cit., p. 417 .

٣٠ - الخليفة إلي عثمان آدم ٢٨ محرم ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١٠/٢٧م المهدية ١/١١ ملف ٢ وثيقة ٤٠ .

٣١ - الخليفة إلي عثمان آدم ٤ ربيع آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١٢/٣١م المهدية ١/١١ ملف ٢ وثيقة ٦٢ .

٣٢ - الخليفة إلى بن عنجة ٢٣ ربيع آخر ١٣٠٤هـ ١٨٨٧/١/١٩م المهدية ١/٢٥ ملف ٤ وثيقة ٢٨٣ .

٣٣ - الخليفة إلى كافة قبائل حمر ١٤ رجب ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٤/٨م المهدية ١/١١ ملف ٢ وثيقة ٩٨ .

٣٤ - هامش رقم ٥ ص ٣٢٧ .

٣٥ - الخليفة إلى عثمان آدم ٢٣ رجب ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٤/١٧م المهدية ١/١١ ملف ٢ وثيقة ٩٧.

٣٦ - الخليفة إلي عثمان آدم ٢٤ رجب ١٣٠٤هـ ١٨٨٧/٤/١٨م المهدية ١/١١ ملف ٢ وثيقة ٩٩ .

٣٧ - الخليفة إلى عثمان آدم ١٤ رجب ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٤/٨م دفتر صادر الخليفة رقم ١١ ص ١٥٠ وثيقة ٤٣٣ .

٣٨ - الخليفة إلي عثمان آدم ١١ شعبان ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٥/٥م المهدية ١/١١ ملف ٢ وثيقة ١٠٤ .

٣٩ - الخليفة إلي عثمان آدم ٤ رمضان ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٥/٢٧م المهدية ١/١١ ملف وثيقة ١١٤.

٤٠ - الخليفة إلي عثمان آدم ١٣ رمضان ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٦/٥ دفتر صادر الخليفة رقم ١١ ، ص ١٩١ ، وثيقة ٥١٩ .

٤١ - الخليفة إلى سيماوى تمساح ١٣ رمضان ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٦/٥م دفتر صادر الخليفة رقم ١١، ص ١٩٤ ، وثيقة ٥٢٣ .

٤٢ - الخليفة إلي عثمان آدم ١٣ رمضان ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٦/٥ دفتر صادر رقم ١١ ، ص ١٨٩ ، وثيقة ٥١٧ .

٤٣ - الخليفة إلى عثمان آدم ١٧ ذى القعدة ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٧/٢٧م المهدية ١/١١ ملف رقم ٢، وثيقة ١٣٦ .

٤٤ - الخليفة إلي عثمان آدم ٥ شوال ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٦/٢٧م المهدية ١/١١ ملف رقم ٢ ، وثيقة ١٢٠ .

٤٥ – زاهر رياض : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٥١ – ٥٣.

٤٦ – الخليفة إلى عثمان آدم ٢٥ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٧م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة رقم ٧/٢٦٤ .

٤٧ – الخليفة إلى عثمان آدم ١٤ جماد أول ١٣٠٥هـ ١٨٨٨/١/٢٨م المهدية ١١/١ ملف ٤ وثيقة رقم ٢/٢١٣ .

٤٨ – الخليفة إلى عثمان آدم ١٩ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/٤م المهدية ١/١ ملف ٣ وثيقة رقم ٢٨١ .

٤٩ – مكى شبيكة : السودان فى قرن ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٢٠ .

Ohrwalder, Op. Cit., p. 393 .

٥٠ – عثمان إلى الخليفة ٢٢ ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١٢/٨م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة٤٦ .

٥١ – الخليفة إلي عثمان آدم ١٩ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/٣م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٥/٢٤٣ .

٥٢ – عثمان آدم إلى الخليفة ٢ جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/١/١٦ المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٦.

٥٣ – الخليفة إلي عثمان آدم ٢ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٢/١٥م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢١٦ .

٥٤ – الخليفة إلى عثمان آدم ١٤ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٢/٢٧م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٢٤ .

٥٥ – الخليفة إلي عثمان آدم ١٧ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/١م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٢٨ .

٥٦ – الخليفة إلى عثمان آدم ١٧ جماتد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/١م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٢٨ وأيضاً . وثيقة ٢٣٠ نفس المصدر .

٥٧ – عثمان آدم الخليفة ٨ شعبان ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٢١م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٩٢ .

٥٨ – عثمان آدم إلى الخليفة ١٨ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/٢م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٧٢ .

٥٩ – الخليفة إلي عثمان آدم ١٢ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/٢٥م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ١/٢٥٨.

٦٠ – الخليفة إلى عثمان آدم ٢٥ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٧م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٧/٢٦٤ .

٦١ - لم توضح الوثيقة اسمها تماماً .

٦٢ - عثمان آدم إلى الخليفة ٢٦ ذي الحجة ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٩/٤م المهدية ١٢/١ ملف ١/٢ وثيقة ١/١٩٩.

٦٣ - عثمان آدم إلى الخليفة ٢٧ ذي الحجة ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٩/٥م المهدية ١٢/١ ملف ١/٢ وثيقة ٢/١٩٩ .

64 - Dujarric, Op.Cit, p. 222 .

65 - Holt, Op. Cit., p. 142 .

66 - Ohrwalder, Op. Cit., p. 404 .

67 - Holt , Op. Cit., p. 142 .

٦٨ - عثمان آدم إلى الخليفة ٢ جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/١/١٦م المهدية ١٢/١ ملف وثيقة ٦٠.

٦٩ - الخليفة إلى عثمان آدم ٢٠ جماد ثان ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/٤م المهدية ١٢/١ ملف ٣ وثيقة ٢٤٤ .

٧٠ - عثمان آدم إلى الخليفة ٣ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/١٦م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٧٣ .

٧١ - الخليفة إلى عثمان آدم ٢٥ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٧م المهدية ١١/١ ملف رقم ٣ وثيقة ٥/٢٤٦ .

٧٢ - الخليفة إلى عثمان آدم ٧ ذي القعدة ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٧/١٥م المهدية ١/١ ملف ٣ وثيقة ٢/٣٣٩ .

٧٣ - عثمان آدم إلى الخليفة ٨ شعبان ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٢١م المهدية ١٢/١ ملف وثيقة ٩٣.

٧٤ - عثمان آدم إلى الخليفة ٨ شعبان ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٢١م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٩٧ .

٧٥ - الخليفة إلي عثمان آدم ٩ شوال ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٦/١٩م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٣/٢٨٦ .

٧٦ - الخليفة إلى عثمان آدم شوال ١٣٠٥هـ الموافق يونيو / يوليو ١٨٨٨م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٣/٢٨٦ .

٧٧ - شقير : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٦١٤ .

٧٨ - الخليفة إلى أبي عنجة ٢٩ ربيع ثان ١٣٠٦هـ الموافق ١٨٨٩/١/٢م المهدية ٢٦/١ ملف ١/٦ وثيقة ١/٤٤٧ .

79 - Dehersin, Op. Cit., p. 399 .

80 - Ohrwalder, Op. Cit., pp. 394 -5.

محمد بهاء الدين العمرى : الحركة المهدية وانعكاساتها على العلاقات المصرية السودانية ، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٤٩ .

٨١ - الخليفة إلي عثمان آدم ٢ رمضان ١٣٠٦هـ الموافق ١٨٨٩/٥/٣م المهدية ١١/١ ملف ٤ وثيقة ١/٣٢٩ .

٨٢ - الخليفة إلى عثمان آدم ٧ ذى القعدة ١٣٠٦هـ الموافق ١٨٨٩/٧/٦م المهدية ١١/١ ملف ٤ وثيقة ٢/٢٣٩ .

٨٣ - الخليفة إلى عثمان آدم ١٥ جماد أول ١٣٠٧هـ الموافق ١٨٩٠/٧/٥ المهدية ١١/١ ملف ٥ وثيقة ١/٣٩٠ .

٨٤ - الخليفة إلى قبيلة المسيرية ٢١ جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/١٧م دفتر صادر الخليفة رقم ٨ ص ١١٤ وثيقة رقم ٢٥٦ .

- الخليفة إلى قبيلة الرزيقات ٢١ جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/١٧م دفتر صادر الخليفة رقم ٨ ص ١١٥ وثيقة رقم ٢٥٨ .

- الخليفة إلى قبيلة الهبانية ٢١ جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/١٧م دفتر صادر الخليفة رقم ٨ ص ١٥٥ وثيقة رقم ٢٥٩ .

- الخليفة إلى قبيلة بنى هلبة ٢١ جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/١٧م دفتر صادر الخليفة رقم ٨ ص ١١٥ وثيقة رقم ٢٦٠ .

- الخليفة إلى قبيلة التعايشة ٢١ جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/١٧م دفتر صادر الخليفة رقم ٨ ص ١١٥ وثيقة رقم ٢٦٢ .

85 - Holt , Op. Cit., p. 136 .

٨٦ - الخليفة إلى أبى عنجة ٢٥ جماد أول ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٢/١٩م المهدية ٢٥/١ ملف وثيقة ٣١٤ .

- شوقى عطا الله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٢١ .

٨٧ - شقير : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

٨٨ - الخليفة إلي ابن عنجة غاية جماد آخر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٣/٢٦م المهدية ٢٥/١ ملف ٤ وثيقة رقم ٣٤٦ ، انظر أيضاً دفتر صادر الخليفة رقم ١١ ص ١٤٥ ، وثيقة رقم ٤١٧ .

٨٩ - الخليفة إلي عثمان آدم ٢٢ شعبان ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٥/١٦م المهدية ١١/١ ملف ٢ وثيقة ١١٠ .

٩٠ - الخليفة إلى عثمان آدم ٧ ذى القعدة ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٧/٢٧م المهدية ١١/١ ، ملف ٢ وثيقة١٤١ .

٩١ – الخليفة إلى عثمان آدم ١٤ صفر ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٦/١١/١٢م المهدية ١١/١ ملف ٢ وثيقة ١٧٦ .

٩٢ – الخليفة إلي عثمان آدم ٩ ذى القعدة ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٧/٢٩م المهدية ١١/١ ملف ٢ وثيقة رقم ١٤٨ .

٩٣ – عثمان آدم إلى الخليفة ٢٧ ذى الحجة ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٩/١٦م المهدية ١٢/١ ملف ١ ، وثيقة ١٤ .

٩٤ – عثمان آدم ٢٣ ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١٢/٨م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة رقم ٤٦.

٩٥ – الخليفة إلي عثمان ٢١ الحجة ١٣٠٤هـ الموافق ١٨٨٧/٩/١٠م المهدية ١١/١ ملف ٢ وثيقة ١٥٢ .

٩٦ – عثمان آدم إلى الخليفة ٢٢ محرم ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١٠/١٠م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٣١ .

٩٧ – عثمان آدم إلى الخليفة ٢٢ صفر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١١/٩م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة رقم ٣٧ .

٩٨ – عثمان آدم إلى الخليفة ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق نوفمبر / ديسمبر ١٨٨٧م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٢٥. وقد وجد عثمان عند محمد شيخ محمد كرقساوى : ٤٣٦ من البازنقر وأسلحتهم بأجناسها ٦٨ بندقية ، جهادية ١٧٢ وأسلحتهم ٤٧ بندقية لأن أسلحتهم أرسلت إلى الفليلة لأخوانهم المشتبكين مع الرزيقات أما أولاد العرب ٣٧ وأسلحتهم ٢٤٠ منها ١٠٠ رمنتون .

٩٩ – عثمان آدم إلى الخليفة ٢٣ ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١٢/٩م المهدية ١٢/١ ملف وثيقة ٥ وكان الخليفة قد كاتب البازنقر والجهادية الذين مع كرم الله وأخيه بالانضمام إلى عثمان كما طلب من الأخوين أيضاً الانضمام لعثمان والانصياع لأوامره : انظر الخليفة إلى عثمان آدم ٣ محرم ١٣٠٥هـ المهدية ١١/١ ملف ٢ وثيقة ١٥٨.

١٠٠ – عثمان آدم إلى الخليفة ربيع آخر ١٣٠٥هـ الموافق نوفمبر / ديسمبر ١٨٨٧م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٥٥ . وكان مع كرم الله من الجهادية ١٨٧ والبازنقر ٥٤٢ وأولاد العرب ٥٨٥ والخيول ٣٥٩ وجملة السلاح ١١٤٧ .

١٠١ – الخليفة إلى عثمان آدم غاية ربيع ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١٢/١٥م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٠٨ .

١٠٢ – الخليفة إلى أبى عنجة ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧ – ١٨٨٨م المهدية ٢٦/١ ملف ، وثيقة ٢١٣ .

١٠٣ – عثمان آدم إلى الخليفة ٢ جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/١/١٦م المهدية ١٢/١ ملف رقم ٢ وثيقة ٥٦ .

١٠٤ – الخليفة إلى كافة أهالي دارفور عامة ٦ محرم ١٣٠٥هـ الموافق ٢٤ سبتمبر ١٨٨٧م دفتر صادر الخليفة رقم ١٦ ص ١ وثيقة ٢ .

١٠٥ - الخليفة إلى عثمان آدم ١٢ ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١١/٢٨م المهدية ١١/١ ملف ٢ وثيقة ١٩٣ .

١٠٦ - الخليفة إلى عثمان آدم ١٢ ربيع أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٧/١/٢٨م المهدية ١١/١ ملف ٢ وثيقة ١٩٢ .

١٠٧ - الخليفة إلي عثمان آدم ١٤ جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/١/٢٨م المهدية ، ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢١٠ .

١٠٨ - عثمان آدم إلى الخليفة جماد أول ١٣٠٥هـ الموافق يناير / فبراير ١٨٨٨م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٦٧ .

١٠٩ - الخليفة إلي عثمان آدم ١٤ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٢/٢٧م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٢٤ .

١١٠ - الخليفة إلي عثمان آدم ١٩ جماد آخر ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٣/٣م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٤٢ .

١١١ - عثمان آدم إلى الخليفة جماد أول ١٣٠٥هـ يناير / فبراير ١٨٨٨م المهدية ١٢/١ ملف ٢ وثيقة ٦٧.

١١٢ - الخليفة إلي عثمان آدم ٢٥ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٧م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٦٢ .

١١٣ - الخليفة إلي عثمان آدم ٢٥ رجب ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨/٤/٧م المهدية ١١/١ ملف ٣ وثيقة ٢٩١ .

Slatin, Op. Cit., pp. 247 - 8 ; Cocheris, Op;.Cit., p. 337; Dujarric, Op. Cit., pp. 244-5; Holt, Op. Cit., pp. 137 - 136 .

انظر أيضاً : شقير : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٤٥٨ - ٤٦٠ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : وثائق :

الوثائق الآتية موجودة فى قسم المحفوظات بوزارة الداخلية السودانية بالخرطوم .

١ - المراسلات الرسمية لحكومة الخليفة فى مجموعة " المهدية " الخليفة عبد الله إلى عبد الرحمن النجومى ١٣٠٢ - ١٣٠٦هـ المهدية قسم ١ صندوق١ .

٢ - عبد الرحمن النجومى إلي الخليفة ١٣٠٢ - ١٣٠٦ هـ المهدية قسم ١ صندوق ١٥ .

٣ - عمر صالح إلى الخليفة ١٣٠٦ - ١٣١٣هـ المهدية قسم ١ صندوق ٢٣ .

٤ - الخليفة إلي عثمان أدم ١٣٠٥ - ١٣٠٦ هـ المهدية قسم١ صندوق ١١ .

٥ - عثمان أدم إلى الخليفة ١٣٠٥ - ١٣٠٦هـ المهدية قسم ١ صندوق ١٢ .

٦ - عثمان دقنه إلى الخليفة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م المهدية قسم ١ صندوق ٣١ .

٧ - الخليفة إلى حمدان أبى عنجة ١٣٠٢ - ١٣٠٦هـ المهدية قسم ١ صندوق ٢٥ ، ٢٦ .

٨ - دفتر صادر الخليفة ويحوى صور المراسلات الصادرة عن ديوان الخليفة من سنة ١٣٠٢ إلي سنة ١٣٠٦، (١٨٨٥ - ١٨٨٩م) وهو فى ١٧ جزء فى مجموعة المهدية قسم ٣.

٩ - تاريخ حياة يوسف ميخائيل ملكية مجموعة Miscellaneous قسم ٢ قطعة ٤ وهو عبارة عن مذكرات لشخص عاصر الأحداث فى أم درمان أيام المهدى والخليفة عبد الله " وقد كتبها بعد سقوط حكومة الخليفة بحوالى ثلاثين عاماً " .

وثائق منشورة :

- الوثائق التى طبعت بوزارة الحربية البريطانية وهى تحوى موجزاً لكل الأحداث التى جرت فى عهد المهدية فى كل مديرية كما كانت تضم أيضاً بعض الوثائق والرسائل والأوراق العامة ، وتحمل اسم . Abr. Ire Intellingence Report, Egypt, Nos, 1-59

- وبعد فتح السودان وسقوط حكومة الخليفة ، صارت تحمل اسم :

Sudan Intelligence Report. Nos. 60-101 (Abbr. Sit) .

ثانياً : المراجع العربية :

١ - أحمد أمين : المهدى والمهدوية ، القاهرة ١٩٥١م.

٢ – بهاء الدين العمرى : الحركة المهدية وانعكاساتها على العلاقات المصرية السودانية ، القاهرة ١٩٩٤م.

٣ – شوقى عطا الله الجمل : تاريخ السودان وادى النيل وعلاقته بمصر ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٨٠م.

٤ – محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، القاهرة ١٩٥٧م.

٥ – مكى شبيكة : السودان فى قرن ، القاهرة ١٩٤٧.

٦ – نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ، القاهرة ١٩٠٢م (ثلاثة أجزاء) .

ثالثًا : أبحاث نشرت فى دوريات :

– جريد الأهرام سنة ١٨٨٦م.

– جريدة الأهرام سنة ١٨٨٧م.

رابعًا : المراجع الأجنبية :

1 - Dujarric. G., l'Etat Mahdiste du Soudan, Paris, 1901 .

2 - Holt. P.M. : The Mohdist State in the Sudan , Oxford 1958 .

3 - Rossignoli, p., I miei dodici anni in prigionia in mezzo ai dervisei del Sudan, Mondovi 1898.

4 - Slatin, R.C., Fire and sword in the Sudan, London, 1896.

5 - Theibald, A.B., The Mahdiya, London, 1951 .

د. مصطفى حبشى محمد زهران(*)

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وموقف مصر الحيوي من حركة التحرر فى ليبيا

أ - المقدمة :

إن مصر التى شاء لها القدر أن تكون فى أفريقيا وترتبط بها بروابط الموقع ووحدة النضال والتحرر من الاستعمار والمصلحة المشتركة ، وترتبط بأكثر أقاليمها بروابط الحنين والنيل والحضارة والثقافة والجنس ، لذا فقد قامت مصر بواجبها نحو هذه القارة على مدار عصور التاريخ وشاركتها على الدوام الآمال والآلام .

فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون مصر فى أفريقيا ولذلك كانت ولا تزال وستظل تشعر بإفريقيتها وبالتزامها حيال تلك القارة على مدار الزمان وفى مختلف عصور التاريخ . حقاً أدخلها البحر المتوسط فى نطاقه الحضاري مدة طويلة ، كما شغلتها قارة آسيا واحترتها فى نطاقها قروناً طويلة من الزمان ، ولكن شعب مصر كان يشعر بإفريقيته حريصاً عليها فخوراً بها . ولقد فرضت الظروف على مصر أن تتحمل أكبر العبء وأن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى جهاد النهوض بشركائها وأشقائها فى هذه القارة ، ولقد قامت

* - المعهد العالى للدراسات الأدبية بالإسكندرية

براجبها نحو الوطن الإفريقى على مدار عصور التاريخ ، قامت بهذا الواجب نحو إفريقيا التى ولدت فيها من تلقاء نفسها ودون أن تهدف إلى مصلحة شخصية أو تتوخى منفعة ذاتية ، ويرجع هذا إلى روابط وثيقة العرى وأواصر بعيدة عن الانفصام تربط بين مصر وإفريقيا .

وقد دأب الاستعمار على تشكيك كل شعوب القارة فى تراثها ولغتها وآدابها ومواهبها وقواها الخلاقة متشدقًا بأنه ليس هناك لغات أو ثقافة أو شعوب أو حضارة متجددة سوى فى الغرب ، ولهذا نجحت ثورة ٢٣ يوليو فى تفنيد تلك المزاعم حينما نجحت فى إنجاب مثقفين ثوريين اشتركوا بدور فعال فى الإعداد للثورة وفى القيام بها ، ثم فى بناء المجتمع الجديد والإنسان الجديد بعد امتزاج وانصهار أبناء القارة فى بوتقة الكفاح الوطنى .

فقامت مصر بمجهودات موفقة وأدت رسالة عجز غيرها عن أدائها . وبالتالى أعطت هذه المجهودات ثمرتها . لذا أصبح لزامًا على من يعرف أن يذكر من لا يعرف بذلك الدور المهم والحيوى الذى قامت به ثورة ٢٣ يوليو فى إفريقيا قاطبة .

وأمام ندرة المصادر والمراجع التى اهتمت بالكتابة عن تفعيل دور الثورة المصرية تجاه الشقيقة ليبيا ، فقد حاولت إثراء مادة البحث من مصادر شتى تنوعت بين الكتب والدوريات العلمية التى حوت بين طياتها سطوراً معدودة .

ورغم ذلك ، لم أتردد فى المضى فى البحث ، وشجعنى على ذلك خبرتى السابقة عن ليبيا أثناء عملى فى جامعة التحدى بسرت لمدة ثلاث سنوات يحدونى فى ذلك الواجب العلمى والشعور القومى بين مصر وليبيا .

ويتكون البحث من **ثلاثة محاور** رئيسة تسبقها المقدمة وتعقبها **الخاتمة** ونتائج البحث .

خُصص **المحور الأول** عن الجذور التاريخية بين مصر وليبيا .

وتناول **المحور الثانى** صدى ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ على قارة إفريقيا بصفة عامة وليبيا بصفة خاصة .

وبرهن **المحور الثالث** على تفعيل دور الثورة المصرية على الشقيقة ليبيا فى شتى المجالات.

أما **الخاتمة** فقد تناولت نتائج هذه الدراسة ورصد عدد من الملاحظات .

ب - الجذور التاريخية بين مصر وليبيا :

من المعروف جغرافياً أن إقليم غرب مصر متجانس مع ليبيا بوجه عام في صفاته الطبيعية، وفي مميزاته البشرية . والصلات بين سكان ليبيا وسكان مصر قديمة ترجع إلى ما قبل الأسرات. وقد عرف الفراعنة أهل ليبيا واتصلوا بهم منذ أول عهدهم سواء في الأسرة الثالثة أو في عهد الدولتين الوسطى والحديثة ، وتطور ذلك إلى عهد رمسيس الثالث وبعد ذلك غزا قمبيز ملك الفرس برقة بعد أن استولى على مصر ، ثم حكم البطالمة مصر وبرقة معاً ، ثم انتقل القطران معاً إلى حكم الرومان في سنة ٣١ ق.م. وقد نشأ عن الاختلاط بين المصريين والليبيين من قديم الزمان أن أصبح سكان غرب الدلتا والصحراء الغربية لا يختلفون عن سكان ليبيا نفسها[١].

ثم أن العلاقات المتصلة بين سكان الوادي وأهل الغرب الذين يسمون في النصوص بالليبيين ، وهي علاقات سلام حيناً وعلاقات حرب حيناً آخر ، قد أدت إلى اختلاط بشري بين المصريين وأهل المغرب ، بل أن بعض الأسر التي حكمت مصر في العصور القديمة كانت من أولئك الليبيين ، مما يسمح لنا بأن نستنتج أن الاختلاط كان قوياً متصلاً بين الجانبين ، وإن حضارة مصر امتدت حتى شملت أولئك الأقوام ونقلتهم من البداوة الصرفة المطلقة إلى الاستقرار والسير في مدارج العمران ، حتى بلغوا منه مبلغاً مكن لهم من إقامة الدول .

ومن الثابت - على أي حال - أن الحدود السياسية الغربية لمصر في العصور القديمة والوسطى تصل إلى إقليم برقة ، وقد كان هذا الإقليم جزءاً من مصر إلى أواخر العصور الإسلامية استمرت هذه التبعية السياسية ، وأن خفيت في فترات ؛ فأما الفترات التي خفيت فيها فالعصر الطولوني أو عصر دولة المماليك ، والسبب في ذلك أن الأخطار كانت تهدد مصر من ناحية الشرق تهديداً متصلاً ، فانصرفت عن الغرب بكيانها كله انصرافاً يكاد يكون تاماً ، ولكن حكام مصر ظلوا يشعرون - مع ذلك - أن برقة جزء داخل في مملكتهم ، بدليل أن صلاح الدين الأيوبي أرسل أحد إخوته ليستطلع الأحوال في برقة وليمهدها له ، حتى يلجأ إليها آل صلاح الدين إذا اختلفوا اختلافاً خطراً مع نور الدين زنكي [٢].

وبعد الفتح العربي سنة ٦٤٢م تحولت كل من مصر وليبيا إلى بلاد عربية يتكلم أهلها اللغة العربية ويدينون بالدين الإسلامي ، وقد ساعدت هجرات القبائل العربية إلى كل من مصر وليبيا على تجانس القطرين إلى حد بعيد وعلى توطيد أركان العروبة بينهما .

وفى العصر العثمانى سنة ١٥٥١م ، كان القطران تحت حكم الدولة العثمانية واستمرت الروابط بينهما إلى أن احتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١م ، وعملت على فصلها عن البلاد العربية والإسلامية وخاصة مصر من أجل الإمعان فى استنزاف ثرواتها الطبيعية والبشرية[٣].

أيضاً كانت مصر سوقاً رائجاً لبعض المنتجات الليبية ، فكانت برقة تصدر عدداً كبيراً من الجمال إلى مصر ، وكانت تأتى الماشية إلى بنغازى عن طريق عدة طرق سواء من الساحل أو الداخل [٤].

وقد اختلط الدم المصرى بالدم الليبى بمصاهرة بعض القبائل مثل بنى هلال وبنى سليم اللتين هاجرتا من مصر إلى ليبيا فى القرن الحادى عشر بعد الميلاد ، وبعد ذلك بعدة قرون بدأت بعض فروع قبيلة بنى سليم تعود إلى مصر مرة أخرى . ومن فروع هذه القبيلة الفوايد وقبيلة الجوازى اللتان رحلتا إلى محافظة الفيوم فى مصر ومن فروعها أيضاً قبيلة أولاد على التى دخلت الأراضى المصرية وسكنت الجهة الممتدة من السلوم إلى الإسكندرية والبحيرة . لذا تكاد لا توجد قبيلة فى برقة إلا ولها فروع فى مصر [٥].

وفى العصر الحديث توطت العلاقات بين الشقيقتين مصر وليبيا أيام السيد محمد بن على السنوسى[٦] مؤسس الطريقة السنوسية الذى انتقل إلى القاهرة سنة ١٨٢٠ أيام محمد على وأقام فى الأزهر مدة طويلة يتعلم ويعلم ويناقش ويجادل وينشر فى الناس عقيدته التى تدعو إلى إصلاح العالم الإسلامى ، وسرعان ما انتشرت بعد ذلك الزوايا السنوسية فى مصر وليبيا والتى جسدت مركز إشعاع روحى وسياسى [٧].

وأثناء الاحتلال الإيطالى لليبيا فى نهاية سنة ١٩١١ سارعت مصر بتقديم المعونة المادية والمعنوية للبلاد ، وتشكلت اللجان المصرية العديدة لجمع التبرعات ، كما تألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة الشيخ على يوسف ، وقررت إنشاء عدة مصحات متنقلة داخل ليبيا .

وتبارى الشعراء فى مصر من أجل إشعال حماس أبناء البلاد فى تكثيف جهدهم وجهادهم للتصدى للعدو . واستنكرت صحافة مصر بشدة احتلال إيطاليا لليبيا ، بل تطور تعضيد مصر لشقيقتها ليبيا فى تدفق أبناء مصر إليها لحمل السلاح إلى جانب إخوانهم هناك ، وفى طليعة هؤلاء المصريين عزيز المصرى ومعه بعض الرموز الأخرى ، والذى عين قائداً لمنطقة بنغازى حينئذ وقد أظهر هو ورفاقه بسالة فائقة ضد الإيطاليين ، وتضخمت المسئولية أمامه عندما التف حول أبنائه وأصبح قائداً عاماً للعرب ضد الإيطاليين [٨].

وأيضاً سطع نجم عبد الرحمن عزام الذى تجرى فى عروقه الدماء المصرية من أجل استكمال مسيرة الكفاح فى ليبيا ، حيث نجح فى استقطاب العديد من الخلايا الوطنية وتوجيه الضربات المؤلمة إلى إيطاليا ، وازداد ولاء عزام بأبناء ليبيا وتوج ذلك بتعيينه مستشاراً للجمهورية الطرابلسية التى حجّمت قوة إيطاليا فى ليبيا ، وبالتالى حصول أبناء البلاد على مكاسب كثيرة حدّت من نشاط إيطاليا الاستعمارى (٩).

وظلت بعد ذلك الأسلحة المصرية تتدفق إلى ليبيا عبر الحدود المشتركة بين البلدين ، وتهيأ المصريون بتقديم النفس والنفيس لإخوانهم فى ليبيا من أجل ردع إيطاليا ، وقد تألم المصريون كثيراً لإعدام البطل الليبى عمر المختار ، وازدادت مساندتهم وتعضيدهم لأبناء ليبيا من أجل إعطائهم دماء جديدة (١٠).

وبدأت مصر فى فتح ذراعيها لاستقبال المهاجرين الليبيين الذين لجأوا إليها من قهر الإيطاليين وكان فى طليعتهم السيد محمد إدريس السنوسى ، وذللت مصر أمامه جميع العقبات وفتحت له قنواتها المسموعة والمقروءة لاستقطاب الرأى العام حول قضية ليبيا وتبلورت فى مصر جمعية أخرى سنة ١٩٤٣ بزعامة أحمد السويحلى ، عملت على ضخ المعونات المادية والمعنوية لأبناء ليبيا ، بالإضافة إلى دورها الإعلامى الكبير من أجل مساندة الشعب الليبى ضد التعنت الإيطالى ، وازداد تفعيل الدور الإعلامى المصرى بفضل جهود الشيخ طاهر أحمد الزاوى الذى دعا إلى شحذ الهمم فى مواجهة إيطاليا ، حيث كان لدعوته صدى كبير سواء فى الداخل أو الخارج (١١).

وقد اشتعل حماس العرب عندما أصدر المهاجرون الطرابلسيون فى مصر كتاباً بعنوان "فجيعة العرب فى طرابلس الغرب" أظهروا فيه مآسى إيطاليا المتنوعة ضد أبناء البلاد ، وبالتالى تدفقت المعونات على أبناء البلاد فى مصر التى عملت على تفعيلها لخدمة الحركة الوطنية فى ليبيا بإعطاء دماء جديدة لأبناء البلاد والتى أسفرت عن إخراج الإيطاليين نهائياً من ليبيا فى فبراير ١٩٤٣ وهى تجتر مرارة الهزيمة (١٢).

ويلاحظ ذلك الكبرياء الإيطالى الذى لا حد له والذى يجدد ويحيى صلف روما وقياصرتها أولئك الذين اعتبروا الأجناس الأخرى شعوباً همجية كتب عليها أن تكون فى خدمة روما وأبنائها . فالحكم الإيطالى يفرض التسليم بلا قيد ولا شرط ويرى أن الأهالى لا يقنعهم شىء سوى استعمال القوة التى تصحبها العدالة .

وكانت فرنسا تسخر من اعتزاز الإيطاليين بأنفسهم وغرورهم البالغ وهذا واضح من كلمات جرازياني حين استولت إيطاليا على فزان والكفرة . ونشر الفرنسيون حين استولوا على فزان عام ١٩٤٣ أشعاراً تنم عن سخريتهم من الإيطاليين الذين ولوا الأدبار يومذاك .

ويكتفى أن اقتبس عن المحاضرة سالفة الذكر ترجمة لبعض كلمات (قرلبى) أحد القواد الإيطاليين فى حملات فزان إذ قال " إن حق إيطاليا من الناحية الدولية فى امتلاك المستعمرة حق ثابت لا نزاع فيه وأن عناد الأهالى ما هو إلا ثورة يحركها بعض الرجال المتعطشين إلى السلطة تقودهم أطماعهم الذاتية فليس هناك روح قومية أو حركة وطنية تحركها عواطف عالية أو روح جماعية وإنما هناك أطماع وأغراض وأهواء فلنضرب ضرباً قاسياً ".

وعمل جرازيانى على أن ينفذ خطته لاحتلال فزان فأعد قوات صغيرة متفرقة مستقلة وإن كانت مجموعات القوات فى النهاية تهدف لتحقيق غاية واحدة ، ويوصى بعدم السماح للعرب بالانسحاب أو الراحة . ويسخر من عزيمة العرب التى تبدو قوية فى أول الأمر ثم تضعف وتهبط فى النهاية ويرى أن العربى مقاتل بطبعه يعتمد على التضليل لتفريق قوة العدو كما تساعده الطبيعة الإفريقية التى تسبب الإعياء للجيوش الأوروبية .. وينقص هؤلاء العرب فى رأى القائد الإيطالى المغرور الإلمام بالوسائل الفنية العديدة التى كانت تستخدم فى الحرب الحديثة فى ذلك الوقت .

وعندما دعي جرازيانى لتولى الأعمال الحربية ترنم بمقطوعة من شعر " فيرجيل " معناها أن الشعب الرومانى يجب أن يذكر أنه سوف يدعى لحكم الشعوب فليعف عمن يدين له وليخضع القوى لسلطانه .. وهذا ترديد من روما الإلهى فى حكم الشعوب " .

وقبل أن تترك هذه الكلمات التى صارت أثراً بعيداً والتى تعدو للسخرية ولا تتفق مع أبسط الحقوق يجب أن نلاحظ أن هؤلاء المجانين بالعظمة أو هؤلاء المصابين "بالميجالومانيا " لم يكونوا شخصيات مسرحية تمثل جنون العظمة أو تمثل مأساة من مآسى أحد قياصرة الرومان، وإنما هى شخصيات كان لها واقع وكانت تقود جيوشاً وتبيد السكان العرب فى العقد الثانى والثالث والرابع من القرن العشرين .

وكان فى إمكان هؤلاء القواد الإلمام بشىء من التاريخ ليعرفوا أن هذا الشعب العربى عرف الحضارة وكان له صوت مسموع فى التاريخ وأنه ليس مجموعة من القبائل البدائية الهمجية التى تدرس كنماذج للمجتمع البدائى .. ولو أن هؤلاء القواد كانوا قد نالوا نصيباً من الثقافة

المتحررة ليعرفوا أن للإنسان حقوقاً .. أن الغريب حقًا فى أمر هؤلاء وأمثالهم أنهم عاشوا فى العقد الثالث والرابع من هذا القرن .. ولم يكن عليهم أن ينتظروا أكثر من سنوات قليلة ليعلموا أن هناك حقوقًا ما للإنسان ، وأن الدول المغلوبة على أمرها إنما هى فى وضع مؤقت وأن إدارة شئونها يعتبر مسئولية دولية بحيث ترعى رفاهية هؤلاء السكان لتمنحهم الحكم الذاتى أولاً .. أقول لم يكن بينهم وبين الفترة التى أعلنت فيها هذه المبادئ أكثر من سنوات قليلة ليدركوا ما جاء بميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ ، وأن أقسى أنواع الاستعمار الحديث لم تصرح على الأقل بمثل هذه الأحاديث البشعة فى حد ذاتها . وكان الاضطهاد العنصرى يعمل عمله فى نفوس هؤلاء الذين وضعوا الغرب في أحط مكان فى إطار النظام الاجتماعى .. ولم يكن هذا الاضطهاد ناجمًا عن اللون ، وإنما من جنون العظمة الرومانى الذى سرعان ما انهار(١٣).

وتقاطر بعد ذلك أبناء ليبيا فى المهجر إلى البلد الأم ، وأعقب ذلك نقل معسكرات التدريب السنوسية من القطر المصرى إلى ليبيا . وغدت القوات السنوسية نواة لجيش وطنى استعداداً للجولة الثانية من الكفاح ضد الإدارة الإنجليزية والفرنسية التى مارست التحكم والسيطرة على البلاد (١٤).

وتجدد دور مصر مرة أخرى بالاهتمام بالقضية الليبية ، خاصة ضد العدو المشترك بينهما وهو انجلترا ، وظهر ذلك الدور الإيجابى فى ١٢ سبتمبر ١٩٤٥م عندما قدمت مصر مذكرة إلى مجلس وزراء خارجية الدول الكبرى فى لندن طالبت فيها ضرورة تقرير مصير أبناء ليبيا ومنحهم الاستقلال الكامل (١٥).

وعلى أثر ذلك تألفت فى القاهرة فى غضون شهر مارس ١٩٤٧ هيئة من الزعماء الليبيين أطلق عليها اسم (هيئة تحرير ليبيا) واستقلالها بحدودها الطبيعية أى من الحدود المصرية إلى الحدود التونسية والجزائرية وإلى الصحراء الكبرى جنوبًا ، والتعاون مع الجامعة العربية والتفاهم فى حل ما يحقق هذا الاستقلال ويصونه واستتباب الأمن داخل ليبيا .

وقد بسطت مصر على الوجه الأكمل أمام المؤتمر الأسانيد التاريخية والبراهين السياسية والاقتصادية التى تثبت حق شعب ليبيا فى المكان والمكانة ، وتم عرض صيغة البيان على هيئة الأمم المتحدة فى ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ التى وافقت على استقلال البلاد بالتنسيق مع دول الجوار فى فترة انتقالية أقصاها أول يناير ١٩٥٢ ، وقد باركت مصر هذا البيان بل شكلت

لجان كثيرة من أجل المساعدة فى بلورة الكيان الليبى وترسيم حدوده وتذليل العقبات مع دول الجوار (١٦).

ج – صدى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على أفريقيا عامة وليبيا خاصة :

وجاء فجر الحرية للقارة الأفريقية يوم قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فى مصر تلك الثورة التى كانت من القوة والإحكام بحيث سببت ما يشبه التحول للاستعمار الأوروبى فى أفريقيا كلها وكان جمال عبد الناصر عمليًا منهجيًا فى سياسته الأفريقية فقد مد يد العون إلى ليبيا وهو ألصق الأقاليم الأفريقية بمصر وألقى بكل ثقل الثورة فى الميزان حتى اضطرت إيطاليا للجلاء عن هذا الجزء العربى الحيوى. ومن منطلق ذلك وقف العالم كله يترقب نتيجة الصراع الحتمى بين هذه الثورة الوليدة وبين الاستعمار وأنصت الأفريقيون إلى جمال عبد الناصر وهو يقول فى قوة لم يألفوها من قبل " على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل وإلا فليقاتل حتى الموت دفاعًا عن بقائه " .

وفى ذلك تحددت رسالة مصر الثورة نحو أفريقية عامة وليبيا خاصة ووضحت معالمها ورسم الرئيس خطوطها العريضة فى كتابه فلسفة الثورة فقال (لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقية، لا نستطيع لسبب هام وبديهى هو أننا فى أفريقيا ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع ألينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق القارة " (١٧).

عندما زحفت قوات (الضباط الأحرار) من معسكراتها الصحراوية فى فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ واتخذت القاهرة رأس جسر لتحرير مصر ثم لتحرير الأشقاء من دول القارة خاصة ليبيا بحكم الامتداد الطبيعى والتجاور المكانى والمجال الحيوى بينهما بالإضافة إلى الروابط الأيديولوجية والجنسية (١٨).

لذا لم تكن أفريقيا فى ذلك الحين خامدة مستكينة للاستعمار بل كانت الروح الوطنية تغلى فى أعماق الغابات وعلى قمم الجبال وعلى رمال الصحراء الليبية وبذلك غدا الشمال الأفريقى يهتز بما فوقه من بنيان ضد الحكم الإمبريالى بفضل سواعد أبناء أفريقيا (١٩).

ومع بداية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أخذ الموقع الجغرافى لمصر فى أفريقيا أبعاده الجيوبوليتيكية والفكرية وبالتالى جاءت كلمات فلسفة الثورة لتقول (إننا فى أفريقيا ونحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة نجسد همزة الوصل بالعالم الخارجى كله . إن النيل شريان الحياة لوطننا تضخ ماءه من قلب أفريقيا وإن ليبيا الشقيقة تتاخم مصر من حيث الموقع وتربطنا بها جذور تاريخية ضاربة منذ القدم) [٢٠].

وقد كانت الحركات الثورية المنبثقة من ثورة يوليو والتى اجتاحت القارة الأفريقية من أدناها إلى أقصاها لم توجد بمحض المصادفة وإنما سبقتها مراحل طويلة من التهيؤ النفسى والتضج العاطفى والتصور الخيالى والتخطيط العقلى الذى امتزج بالتفاعل مع روح الثورة[٢١].

ولأن ثورة يوليو الأفريقية قد ولدت ونشأت ونمت وترعرعت بين التجارب والمحن فى الماضى ، فإنها أدركت تمام الإدراك ضخامة مهمتها وأهمية دورها الذى يجب أن تقوم به فى تحقيق أهداف أبناء القارة وسلكت روح الثورة أساليب شتى لمواجهة الاستعمار الأوروبى فى أفريقيا من واقع التجربة والممارسة ، ووفقًا لمتطلبات حركة التحرير الأفريقية قلبًا وقالبًا ، وتنوعت هذه الأساليب بالدعوة السلمية الموجهة إلى الدول الإمبريالية تارة ، وشحذ الهمم بالكفاح المسلح تارة أخرى والذى يعقبه ممارسة الضغوط الفعالة على المستعمر بحمل عصاه الغليظة والرحيل من الأراضى الأفريقية . ومن هذه الروافد المنبثقة عن ثورة يوليو المصرية تكوّن نهر متدفق بالتقاء أبناء القارة معًا تحت مظلة الكفاح الثورى ذات المدى الواسع ، وأضحت تلك الروافد ظواهر تاريخية ضخمة شاخصة إليها الأبصار بما كان لها من صدى إقليمى وعالمى [٢٢].

وتتويجًا لذلك فقد فتحت مصر أبوابها للقادة الوطنيين من أبناء ليبيا فاتخذوا منها ملجأ وملاذًا ، لذلك وجد السنوسيون فى مصر ما افتقدوه فى بلادهم من معطيات الأمن والأمان ، بالإضافة إلى الدعم المادى والمعنوى ، وظلت مصر بذلك مركز إشعاع للمقاومة الوطنية لليبيين، فيها يعقدون مجالسهم الوطنية ، ويقيمون معسكرات التدريب للخلايا الوطنية استعدادًا لسحق الجيوب الإمبريالية من البلاد ، زد على ذلك موقف مصر الرائد فى اجتماعات الجامعة العربية ولجانها ، وأيضًا فى هيئة الأمم المتحدة وتوجت تلك المواقف الإيجابية إلى فتح أبواب الاستقلال أمام ليبيا [٢٣].

ويؤكد الرئيس عبد الناصر على ذلك قائلاً : " لابد أن تبقى فعالية الثورة الأفريقية وحيويتها المتوهجة نبراساً لشتى أبناء القارة لرفع هاماتهم بين الأمم " (٢٤).

وانطلق أبناء أفريقيا فى مقاومة الاستعمار بأقلامهم وأجسامهم وحناجرهم يقتحمون طريق الشوك بأقدامهم العارية للقضاء على معاقل الاستعمار فى كل صوب وحدب ، لذا كان الفتى صاحب الجسم النحيل ، والعينين المتوقدتين ، والعزيمة القوية ، وهو السنوسى الذى وضع أمام عينيه ضرورة تخليص ليبيا من بين أنياب الإمبريالية الأوروبية حتى لا تظل بلاده منبطحة تحت أقدام الهيمنة الغربية التى سبق لها تشتيت الشباب الوطنى بين المعتقلات والمنفى ، وتلا ذلك الإمعان فى استنزاف ثروات البلاد الطبيعية والبشرية ، وبالرغم من ذلك لم تنطفئ شعلة الكفاح الوطنى ، فقد نبتت فى كل مدينة ليبية خلايا وطنية تستلهم روح المقاومة من الشرارة المصرية (٢٥).

وبالتالى لاحت بوادر الزحف الوطنى من برقة بحكم التجاور مع مصر ، ثم تغلغلت فى طرابلس وفزان ، وعلى الفور سُمعت هدير الأحداث فى تلك المدن ، فلانت قبضة المستعمر تدريجياً ، وتعانقت الكوادر الوطنية المبعثرة يجمعها هدف واحد هو تحرير البلاد (٢٦).

لذا كانت هذه هى الخطوة البارزة لتعظيم دور الثورة المصرية حينما اندلعت شرارتها من الباب الشمالى للقارة الأفريقية ، واقتحم الباب جمال عبد الناصر ورفاقه الذين اشرأبت أعناقهم نحو النصر ، وتفجرت بعد ذلك مبادئ التحرر من الظلم والتأخر على المستوى الداخلى والخارجى فى أفريقيا (٢٧).

وبالتالى تعد إمكانيات مصر العسكرية أحد مقومات سياستها تجاه أبناء القارة ، خاصة أشقائها سواء فى الشرق أو الغرب ، ولذا لم تتردد مصر فى تقديم النفس والنفيس لهؤلاء الأشقاء بعد أن أصبحت مصر مركز إشعاع ثورى بما لها من ثقل كبير فى مجال تصفية الاستعمار فى قارة أفريقيا (٢٨).

إن الثورة المصرية قد بدأت من الأرض الأفريقية ، لذا أصبح الطريق أمامها ثابتاً ممهداً فسيحاً ، وقد فعلت ذلك على مرأى من شقيقاتها فى القارة الأفريقية ، وبالتالى نهج أبناء القارة نفس المسلك ، لأن ثورة ٢٣ يوليو فى مصر لم تكن منذ نشأتها بمعزل عن الشعوب التى تجمعها أرض أفريقيا وعن الآلام التى تقاسيها تلك الشعوب(٢٩).

ولن تكن الثورة رغم ما كان يحيط بها من أعداء ، وما يكتنفها من أخطار تكتفى (بالمشاركة الشعورية) مع الشعوب الأفريقية ، وإنما كانت تؤمن منذ البداية بوحدة النضال الأفريقى وقد عبر عن ذلك جمال عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة حينما قال (إنه لا يستطيع أن يقف موقف المتفرج فى الصراع الدائر بين خمسة ملايين أوروبى دخيل ومائتى مليون أفريقى متأصل) (٣٠).

وكان جمال عبد الناصر عملياً منهجياً فى سياسته الأفريقية ، فقد مد يده إلى ليبيا بحكم التجاور المكانى والروابط الأزلية بين القطرين من أجل زلزلة القواعد الأجنبية الجاثمة على صدر البلاد ، لذا أصبحت ليبيا فى طليعة الدول الأفريقية المستقلة الثلاث فى عام ١٩٥٢م.

وظلت الثورة المصرية تضخ مبادئها على شتى ربوع القارة من أجل تحطيم الحواجز البالية المصطنعة التى أقامتها الدول الاستعمارية لتفريغ وإجهاض قواها الوطنية ، وكان لتلك المبادئ صدى كبير سرى بين شتى ربوع القارة ، إلا أن المستعمر وأعوانه المأجورين نبذوا تلك المبادئ السامية للثورة (٣١).

وعندما فتحت مصر ذراعيها لشتى أبناء القارة من أجل مباركة وتأييد زعيم الثورة ، تقاطرت على مصر العديد من الرموز الأفريقية التى تشبعت بأفكار الثورة المصرية المتوثبة ، وبالتالى نقل تلك الأفكار إلى بلادهم للسير على منوالها حتى ظلت تلك المبادئ تجسد معول هدم للأنظمة الإمبريالية ، خاصة المحاولات المسمومة التى يتقرب بها أذناب الاستعمار وفى طليعتهم إسرائيل من أجل الهيمنة على شعوب القارة (٣٢).

د - تفعيل دور الثورة المصرية فى ليبيا :

ليس هناك ما هو أصدق من حديث التاريخ ، فإذا أدرنا فكرنا إلى أبعد نقطة فيه وجدنا عملية امتزاج رائع بين القطرين (مصر - ليبيا) وعملية انعطاف ضاربة الجذور فى أعماق الحياة هنا وهناك فنحن إذا تتبعنا التاريخ وجدنا مقدار هذا الانعطاف والترابط بين القطرين(٣٣).

وبعد أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر زادت الروابط وتوثقت العلاقات بينها وبين ليبيا لدرجة كبيرة ومن مظاهر ذلك عقد اتفاقية ثقافية بين البلدين فى ٢٥ يونيه ١٩٥٣ وقد تبودلت وثائق التصديق على هذه الاتفاقية بالقاهرة فى ١٧ يونيه ١٩٥٤ وأهم ما فيها المادة الثالثة التى تنص على الآتى :

نظراً لأن الطرف الثانى (ليبيا) طبق مناهج التعليم المصرية فى بلده لذا يتولى الطرف الأول (مصر) تقديم المعونة الفنية اللازمة لتمكين الطرف الثانى من تحقيق سياسته التعليمية فيما هو آتى :

١ - يتعهد الطرف الأول بتزويد الطرف الثانى بما يحتاج إليه من المدرسين والأساتذة الفنيين لمختلف المعاهد التعليمية العامة والفردية التى يتفق عليها الطرفان على أن يخطر الطرف الثانى الطرف الأول باحتياجاته قبل بدء العام الدراسى بمدة ستة أشهر ، ويعير الطرف الأول الطرف الثانى اثنين من الموظفين ليرأسا البعثة التعليمية المصرية فى ولايتى طرابلس وبرقة على أن يتحمل الطرف الأول المرتب الأصلى المقرر لهما بمصر ويتحمل الطرف الثانى المرتبات الإضافية التى تمنح للموظفين المنتدبين للعمل بليبيا وفقاً للقواعد التى يتفق عليها بين الطرفين .

٢ - يقبل الطرف الأول الطلاب والتلاميذ الليبين فى معاهده وكلياته الجامعية بالفرق الدراسية المناسبة وفقاً لشروط الالتحاق بتلك المعاهد والكليات مع منحهم مجانية التعليم على أن يبلغ الطرف الأول قبل بدء العام الدراسى الجديد بستة أشهر لتدبير الأماكن اللازمة .

٣ - يمد الطرف الأول الطرف الثانى بالمعونة الفنية التى يطلبها لتنظيم امتحاناته العامة وعلى هذا الأساس ، ونظراً لأن مناهج الدراسة ومدتها ونظام الامتحانات موحدة فى بلاد الطرفين المتعاقدين ولاشتراك المدرسين المصريين المنتدبين فى الامتحانات العامة التى يعقدها الطرف الثانى ، فإن الطرف الأول يعترف بمعادلة الشهادات العامة التى يمنحها الطرف الثانى لنظائرها من شهادات حكومته .

٤ - يقوم الطرف الأول بتيسير تزويد الطرف الثانى بما يحتاج إليه من الكتب الدراسية والثقافية المطبوعة فى مصر ، وكذلك بالأدوات والأجهزة المصنوعة بها على أن يخطر الطرف الأول بالعدد اللازم من كل كتاب قبل أول يناير من كل سنة ، وتنفيذاً لهذه المعاهدة ترسل مصر كل عام عدداً كبيراً من أساتذتها ومدرسيها للتدريس فى جامعات ومعاهد ومدارس ليبيا كما يلتحق كل عام عدد كبير من الطلاب الليبيين بالجامعات والمعاهد المصرية

وتدعيماً للصلات الثقافية بين مصر وليبيا ، أنشأت وزارة التربية والتعليم فى عام ١٩٥٥ مركزاً ثقافيًا فى كل من بنغازى وطرابلس ، يضم كل مركز مكتبة حديثة تحوى آلافًا من الكتب العلمية والثقافية والفنية ، وقاعة للمحاضرات والندوات العلمية والعروض السينمائية وقاعة للأطفال وأخرى للموسيقى .

ولاشك أن هذه المراكز قد أدت رسالة ثقافية مهمة ، وعُدّت تتويجاً لتدعيم أواصر الصداقة بين الشقيقتين (مصر - ليبيا) وتفعيلاً للدور الإيجابى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وما لبث أن سارعت مصر بعقد اتفاق تجارى مع حكومة ليبيا وقع بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٥٦ وسرى مفعوله فى ١٤ فبراير ١٩٥٧ ، وتمخض عنه زيادة صادرات مصر إلى ليبيا خاصة من المنسوجات القطنية [٣٤].

وسارعت الشقيقة ليبيا بالوقوف بجانب مصر عندما وقع عليها العدوان الثلاثى فى أكتوبر ١٩٥٦ ، فأصدر وزير الخارجية الليبى بياناً أشار فيه إلى أن ليبيا ستتخذ جميع الإجراءات الكفيلة بمنع استخدام القواعد البريطانية فى ليبيا ضد مصر .

وعلى الفور اتصلت الحكومة الليبية بالحكومة البريطانية وحصلت منها على تأكيد بذلك، كما احتجت الحكومة الليبية على هذا الاعتداء ، وبعث رئيس الوزراء رسالة إلى رئيس الوزراء البريطانى يطالبه بالإقلاع عن العدوان الآثم على الشقيقة مصر .

وتضمن خطاب العرش الذى ألقى فى افتتاح البرلمان الليبى يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٥٦ ما يلى: " إن حكومته قد أبدت استنكارها الشديد للعدوان الذى تعرضت له مصر الشقيقة ، وتؤكد إنها لا تدخر وسعًا فى تأييد أى دولة عربية فى نضالها من أجل حماية استقلالها وكرامتها ، وأشار الخطاب إلى منع استخدام القواعد البريطانية فى ليبيا للعدوان على مصر، واستمراراً لذلك تعمقت الروابط والصلات بين القطرين الشقيقين (مصر - ليبيا) بفضل معطيات ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ المتدفقة والمتجددة [٣٥].

نتائج البحث :

١ - ألقى هذا البحث الضوء على هوية مصر الأفريقية ومدى تعانقها وترابطها بأبناء القارة من قديم الأزل . بل أن تلك الروابط قديمة قدم التاريخ ذاته فكان لمصر النصيب الأكبر في جهاد النهوض بشركائها في هذه القارة .

٢ - تناول هذا البحث مدى الترابط بين الشقيقتين (ليبيا - مصر) على مر العصور التاريخية من تلقاء نفسها وبفطرتها التي براها الله عليها .

٣ - أبرز هذا البحث مدى الانصهار والامتزاج الكامل بين القطرين (المصرى - الليبي) والذي سبقه شدة وصلابة تأصلهما في الموقع الجغرافي الفريد وهو في حد ذاته رأس مال ضخم لكليهما .

٤ - برهن هذا البحث على نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي والذي يعد تتويجًا لتحرير الإرادة العربية والأفريقية من التبعية الأوروبية . بعد أن جسدت تلك الثورة مشعل النور للشعوب الأفريقية قاطبة .

٥ - أكد هذا البحث على عزيمة الضباط الأحرار القوية وعلى رأسهم الرئيس جمال عبد الناصر قائد الثورة في تفعيل دور الثورة على مختلف ربوع القارة الأفريقية . وبالتالي تجاوبت أصداء الحرية في شتى جنبات القارة فاستمعت النداء وهبت شعبًا بعد آخر تلحق الركب .

٦ - أثبت هذا البحث مدى عمق واتساع مبادئ الثورة المصرية التي نجحت في سحب البساط من تحت أقدام الإمبريالية بعد أن أصبحت تجسد معول هدم في تفتيت صروحها وتبديد أحلامها . وبالتالي أصبحت مع الحرية على الاستعمار بعد أن ساندت كل وثبة تحرر في أفريقية وكانت وراء أكثر أحداث القارة التحررية .

٧ - برهن هذا البحث على تعاظم دور ثورة يوليو في التفاعل الحقيقي والاحتكاك الإيجابي قلبًا وقالبًا بين أبناء أفريقيا بصفة عامة والشقيقتين (ليبيا - مصر) بصفة خاصة . بحكم التجانس في الزمان والمكان وبالتالي تأييد مصر حكومة وشعبًا بقوة وإصرار الشعب الليبي .

٨ - أكد هذا البحث على دور ثورة يوليو المصرية في تأصيل ذاتية أبناء القارة بعد استقطابهم في بوتقة النضال من أجل تحقيق هدف واحد وهو الحرية . حيث أنها لم

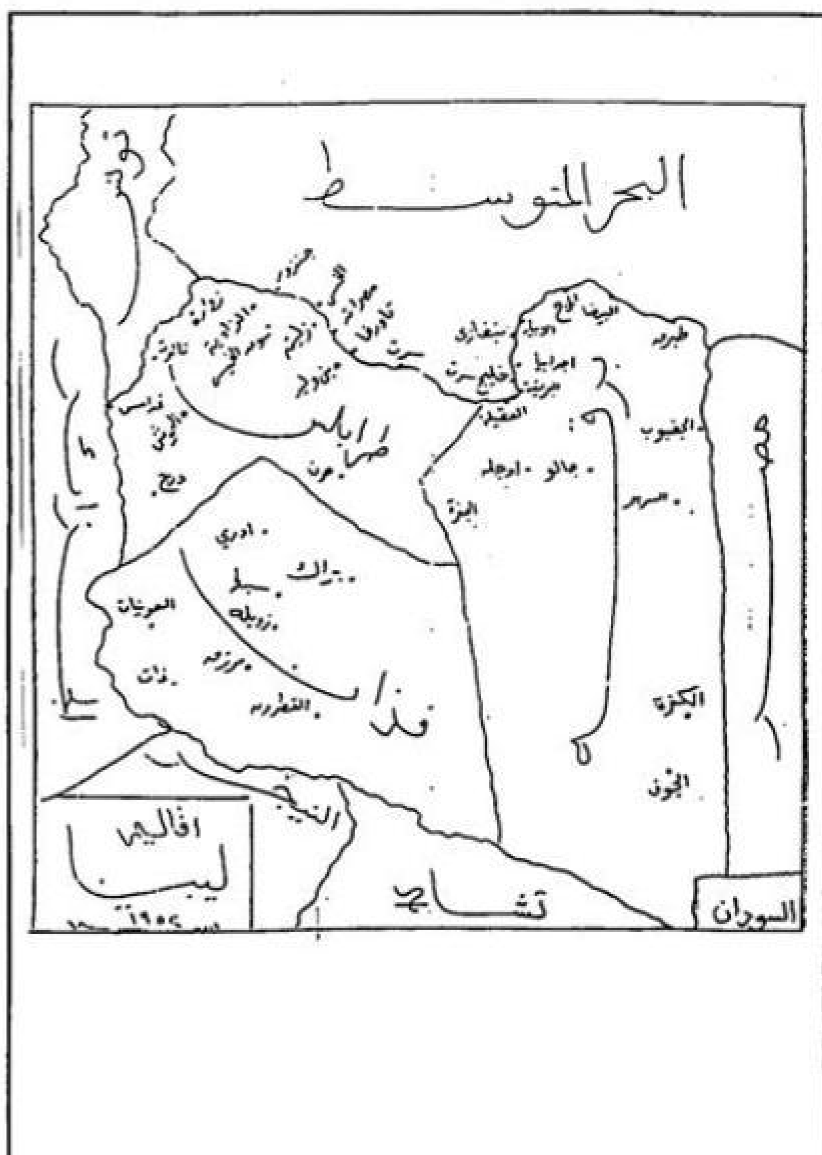
تبخل بأن تعطى غيرها مما عندها من معطيات الحرية بتضافر شتى القوى المادية والمعنوية .

٩ - عالج هذا البحث مدى اعتناق أبناء ليبيا لمبادئ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعد أن أضحت مرآة صادقة لهم بلورت أمانيهم وحققت أحلامهم . بحكم كونها السند القوى والقاعدة النضالية الكبرى بعد أن بدأت مراحل الثورة تغلى ونداء الكفاح يعلو فى أفريقية الأمر الذى جعل الاستعمار يخضع مرغماً تحت وطأة الكفاح المشترك .

١٠ - أثبت هذا البحث دور الثورة الحيوى والفعال فى النهضة الشمولية التى تغلغلت داخل الكيان الليبى خاصة تجفيف منابع الإمبريالية التى داست حرمة البلاد .

١١ - ألقى البحث الضوء على الكوادر والكيانات الوطنية فى كلا القطرين (المصرى - الليبى) والذين جرت فى عروقهم الدماء الأفريقية بعد أن سعوا سعياً حثيثاً من أجل النهوض ببلادهم على ضوء فعاليات الثورة المصرية .

١٢ - تناول البحث النجاح المتدفق لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر وليبيا بعد أن أصبحت سلاح حيوى وفعال اشرأبت إليه الأعناق خاصة فى إبرام المعاهدات بين مصر وليبيا بحكم كوننا جزء لا يتجزأ من غرب أفريقية أو هو جزء منا بل إننا وإياه جزء من الوطن العربى الكبير ونحن أيضاً أخوة لأب وأم تفرق بنا المكان وجمعتنا وحدة العاطفة ووشيجة النسب وآصرة الدين ولحمة اللغة حتى غدا الباب مفتوحاً بين القطرين .



أقاليم ليبيا

الهوامش

١- حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢ .

٢ - مصطفى عبد الله بعيو : تاريخ ليبيا - القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٢ .

3 - Harris, Norman, Europe and Africa, London 1927, p. 10 .

٤ - حسين مؤنس ، مرجع سابق ، ص ٧ .

٥ - محمد بن مسعود ، ليبيا الحديثة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٢ .

٦ - إدريس السنوسى : ولد فى ١٢ مارس عام ١٨٩٢ فى ولاية جغبوب على الحدود المصرية الليبية وقد ولد جده الشيخ محمد على بن السنوسى فى الجزائر حيث أسس الأسرة السنوسية عام ١٧٨٨ - ١٨٦٠. والسنوسيون لهم أصول فى الجزيرة العربية ، وقد جاءوا إلى الصحراء وحطوا رحالهم فيها ، ثم استقروا بين الواحات المنتشرة فى الداخل . وعندما أصبح محمد إدريس السنوسى شابًا يافعًا أرسله أبوه إلى المدرسة، بعدما حفظ القرآن . وقام إدريس برحلة إلى السودان فى قافلة كبيرة من الجمال وهناك بجيئه خبر وفاة والده فيحزن لذلك كثيراً ثم يتوجه إلى الأراضى الحجازية مع بعض أعوانه لأداء فريضة الحج. وعاد إدريس إلى ليبيا ماراً بمصر . وفى الإسكندرية قضى وقتًا طيبًا وطويلاً . وقد أصبح إدريس السنوسى خليفة للسنوسيين المنتشرين فى الصحراء بعد وفاة والده . وعندما قامت الحرب العالمية الأولى حارب السنوسيون إلى جانب الأتراك والألمان ، أى ضد الإيطاليين وظلت الحرب مشتعلة الأوار لمدة سنوات . وبعدما انتهت الحرب حاول الإيطاليون استمالة إدريس السنوسى فدعوه فى عام ١٩٢٠ إلى روما لحضور حفل تتويج الملك إيمانويل ولكن الفاشية بقيادة موسلينى استولت على الحكم فى إيطاليا. وكان موسولينى يطمح فى إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة وكان هذا يعنى ببساطة السيطرة على الساحل الآخر من حوض البحر المتوسط سيطرة كاملة . وحينما تمكنت القوات الإيطالية من احتلال ليبيا خرج السنوسى منها وعاش فى مصر ٢١ عامًا كاملة . وخلال الحرب العالمية الثانية وقف إدريس السنوسى مع الحلفاء ضد المحور . فلما انتهت هذه الحرب بهزيمة إيطاليا وألمانيا كان من الطبيعى أن يعود السنوسى إلى ليبيا . وفى الثانى من ديسمبر عام ١٩٥٠ نودى بإدريس الأول ملكًا على ليبيا ثم ارتقى العرش رسميًا فى عام ١٩٥١ . انظر : مجلة نهضة أفريقيا ، القادة الأفارقة ، العدد ٦٢ ، مارس ١٩٧٠، ص ٣٩ .

7- Bartlett, Vernon, Struggle for Africa, London, 1953, p. 8 .

٨ - محمد عبد العزيز الحق ، هذه هى ليبيا ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ٢٤ نوفمبر ، ١٩٥٩م ، ص ١٤.

٩ - محمد بن مسعود ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

10 - Harris, Norman, Op.Cit. p. 13 .

١١ - محمد فؤاد شكري ، تاريخ ليبيا العام ، طرابلس ١٩٦٠، ص ٣٦ .

12 - Writing Clork, After independence in Africa, Africa affairs, Volume. 61, No. 243, April, 1962, p. 126 .

١٣ - المسألة الليبية : تقرير مجلس الدول العربية ، مارس ١٩٥٠ ، ص ١٢ ، ص ١٣ .

١٤ - عبده بدوي ، أضواء على ليبيا المعاصرة ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد الرابع عشرة ، يناير ١٩٥٩، ص ٢٤ .

١٥ - عبده بدوي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

١٦ - محمد مصطفى بازامة ، الاحتلال الإيطالي لليبيا ، سلسلة التاريخ الليبي ، بنغازى ١٩٦١ ، ص ٨٤ .

١٧ - الرئيس جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، القاهرة ١٩٥٤ .

١٨ - على إبراهيم عبده ، مصر وأفريقيا فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٧٥ .

١٩ - عبد المنعم الحضرى ، الشعوب الأفريقية ، مجلة أفريقيا ، العدد ٤٨ ، أكتوبر ١٩٦١ ، ص ٦ .

20 - Willing. Clark, op. cit. p. 127 .

٢١ - عبد المنعم الحضرى ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

٢٢ - هدى هنرى ، أفريقيا فى القاهرة ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ٤٨ ، أكتوبر ١٩٦١ ، ص ٤٢ .

23 - Bartlett, Vernon, Op. Cit, p. 15 .

٢٤ - محمد عبد العزيز إسحق ، ثورة ٢٣ يوليو فى أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ٢٧ ، ١٩٦٢ ، ص ٢٩ .

٢٥ - عبد المنعم الحضرى ، مرجع سابق ، ص ٩٠٨ .

26 - Crahites, Pierre, the winning of The Libya, London, 1960, p. 5 .

٢٧ - محمد عبد العزيز إسحق ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

٢٨ - شوقى عطا الله الجمل ، دور مصر فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٨٤، ص ١٣٣ .

٢٩ - على إبراهيم عبده ، مرجع سابق ، ص ٨٤ .

٣٠ - محمد عبد العزيز إسحق ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

31 - Willing, Clark, Op. Cit, p. 128 .

٣٢ - عبد العزيز كامل ، الرئيس يتحدث عن أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ١٨ ، مايو ١٩٥٩ ، ص ٦ .

٣٣ - محمد مصطفى بازامة ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

٣٤ - وزارة الخارجية المصرية ، محاضر المحادثات السياسية والمذكرات المتبادلة بين الحكومة المصرية والحكومة الليبية ، مارس ١٩٥٦ ، نوفمبر ١٩٥٧ ، رقم ٧٧/٥ .

٣٥ - المصدر السابق .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : وثائق منشورة :

١ – وزارة الخارجية المصرية – محاضر المحادثات السياسية والمذكرات المتبادلة بين الحكومة المصرية والحكومة الليبية (مارس ١٩٥٦ – نوفمبر ١٩٥٧) ، رقم ٥/٧٧ .

٢ – تقرير مجلس جامعة الدول العربية ، المسألة الليبية ، مارس ١٩٥٠ .

ثانياً : مراجع عربية :

١ – جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، القاهرة ١٩٥٤ .

٢ – حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، القاهرة ١٩٥٥ .

٣ – شوقى عطا الله الجمل ، دور مصر في أفريقيا ، القاهرة ١٩٨٤م.

٤ – على إبراهيم عبده ، مصر وأفريقيا فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٦٢م.

٥ – محمد بن مسعود ، ليبيا الحديثة ، القاهرة ١٩٥٧م.

٦ – محمد فؤاد شكرى ، تاريخ ليبيا العام ، طرابلس ١٩٦٠.

٧ – محمد مصطفى بازامة ، الاحتلال الإيطالى لليبيا ، بنغازى ١٩٦١.

٨ – لجنة الثقافة والإعلام ، أضواء على أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٠م.

ثالثاً : مراجع أجنبية :

1 - Bartlett, Vernon,Struggle for Africa, London, 1953 .

2 - Crabites, Pierre, The winning of the Libya, London, 1960 .

3 - Harris, Norman, Europe and Africa, London, 1927 .

رابعاً : أبحاث منشورة فى دوريات علمية باللغة العربية :

١ – عبده بدوى ، أضواء على ليبيا المعاصرة ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد الرابع عشر ، يناير ١٩٥٩.

٢ – عبد العزيز كامل ، الرئس يتحدث عن أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ١٨ ، مايو ١٩٥٩.

٣ – عبد المنعم الحضرى ، الشعوب الأفريقية ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ٤٨ ، أكتوبر ١٩٦١ .

٤ – محمد عبد العزيز إسحق ، هذه هى ليبيا ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ٢٤، نوفمبر ١٩٥٩ .

٥ – محمد عبد العزيز إسحق ، ثورة ٢٣ يوليو فى أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ٣٧، يناير ١٩٦٢ .

٦ – هدى هنرى ، أفريقيا فى القاهرة ، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد ٤٨ ، أكتوبر ١٩٦١ .

خامساً : أبحاث منشورة فى دوريات علمية باللغة الأجنبية :

1 - Willing, Clark, After independence in Africa, Africa affairs, Volume 61 , No. 243, April, 1962 .

د.عائشة عبد العزيز محمد التهامى (*)

الكتابات العربية على بعض شواهد وتراكيب القبور العثمانية

مما لاشك فيه أن دراسة شواهد القبور الإسلامية قد كشفت النقاب عن أهميتها الكبرى فى علم الآثار ، حيث أنها تُعد بحق توثيقًا تاريخيًا وتسجيلاً أثريًا ، لكل بلد من بلدان العالم الإسلامى ، ومن ثم فهى أصدق قيلاً وأقوى دليلاً ، فى تمثيل حضارة كل عصر من العصور الإسلامية بجميع جوانبه السياسية والاجتماعية والدينية (1).

وقد تميزت مصر على مر عصورها التاريخية والإسلامية ، بكثرة ما عُثر عليه من شواهد قبور(2) بباطن أرضها ومن خلال حفائرها . وتلك الشواهد هى الألواح الحجرية أو الرخامية التى تُوضع فوق القبر للدلالة على من يرقد فى هذا القبر أو من دُفن فى هذا اللحد، ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، بأقدم شاهد قبر من الحجر الجيرى ، نُقش عليه كتابة باسم ابن حجر ومؤرخ سنة ٣١هـ ، وهو يمثل أقدم كتابة علي الحجر فى مصر الإسلامية(3) .

وبالرغم من إجماع آراء الفقهاء ، واتفاق أغلبية العلماء على كراهية العناية بتشييد القبور والكتابة عليها ، والتأنق بها من الناحية الزخرفية ، فإن المسلمين لم يلتزموا بما

* - كلية السياحة والفنادق - جامعة القاهرة - فرع الفيوم .

رسمه لهم علماء الإسلام ، وفقهاء الدين ، على العكس زادت عنايتهم ، بزخرفة الشواهد[٤] حتى أنها تُعد بحق - بما نُقش على ألواحها ، وكُتب على تراكيبها - سجلاً حافلاً بالأحداث التاريخية والحياة السياسية والمكانة الاجتماعية والقوة الاقتصادية ، والنصوص التذكارية ، والعبارات الدعائية ، والألقاب الفخرية ، والأنساب العائلية ، ومن ثم أثر كل هذا وانعكاسه على الناحية الفنية [٥].

ويحتفظ مُتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، بمجموعة كبيرة من شواهد القبور الإسلامية التى ترجع إلى عصور مختلفة ، بينما يظهر جلياً واضحاً التأنق الزخرفى والثراء المادى ، فى تلك الألواح الرخامية [٦]، لشواهد القبور العثمانية ، وسوف أتناول ثلاثة نماذج منها ، بالبحث والدراسة ، حيث يحتوى على كتابات بخط الثُلث ، باللغة العربية وبعض الكلمات التركية .

وخير مثال لشواهد القبور العثمانية التى أرخت النصف الثانى من القرن ١٢هـ / ١٨م ، تاريخياً وسياسياً وانعكاس هذا فنياً ، هو تلك المقبرة بتركيبتها [٧]، والمكونة من أربعة شواهد رأسية ذات أشكال مختلفة وزخارف متنوعة (لوحة ١) .

وقد لعبت الكتابة بخط الثُلث دوراً رئيساً فى زخرفة شواهد وتركيبة تلك المقبرة العثمانية وخاصة الخط الجلى أو الجليل الذى تداخلت حروفه بامتداد وتشابكت كلماته باستطالة ، وهذا النوع من الخط يدل على مدى ما وصل إليه الفنان العثمانى من اهتمام كبير ، وعناية فائقة في تحسين فن الخط ومزاولته بتعظيم وتكريم وقدسية ، لما له من مكانة سامية ، عند الخطاطين العثمانيين [٨]، وبالفعل أن فن الخط لم ينل عند أمة من الأمم من العناية والتقدير بقدر ما ناله عند المسلمين عامة والعثمانيين خاصة [٩].

ويذكر أن واحداً من هؤلاء الخطاطين العثمانيين جمع كل ما تخلف من برى أقلامه طوال حياته وأوصى أن تحرق هذه البقايا ويُغلى على نيرانها الماء الذى يُعد لغسله بعد مماته ، كل هذا يعطى دلالة واضحة علي أن الفنان والخطاط العثمانى اعتبر الخط فناً قدسياً ، لا يقدم عليه إلا إذا تطهر وتوضأ ، ولاسيما إذا كان مقبل على كتابة أسماء الله [١٠].

ويتجلى فن هذا الخط واضحاً وأنامل ذلك الخطاط ظاهرة فى سطور شاهد هذا القبر الرأسى المستطيل الشكل ، حيث نقشت كلماته فى خمسة أسطر ، داخل بحور صغيرة مستطيلة الشكل أيضاً (لوحة ٢) .

السطر الأول : هذا قبر المرحوم محمد جلبى

السطر الثانى : ابن المرحوم رضوان كتخدا [١١].

السطر الثالث : عز بان[١٢] جلفى[١٣] توفى إلى

السطر الرابع : رحمة الله فى ٢٢ شهر

السطر الخامس : رمضان سنة ١١٧٢

ويلاحظ أن هذا الشاهد ينتهى من أعلى بعقد ثلاثى مفصص ، يتدلى من أعلاه زخرفة نباتية قوامها زهرة اللالة Lale أو شقائق النعمان Tulip التى أكثر الأتراك العثمانيون من استخدامها فى موضوعاتهم الزخرفية ، وخاصة شواهد القبور ، لما لها من مكانة دينية ومعتقدات قدسية ، حيث أن شكلها يتكون من نفس حروف لفظ الجلالة " الله " تلك الزهرة التى كثر استخدامها فى القرن ١٢ هـ / ١٨م وتنوعت أشكالها وتباينت أحجامها [١٤].

ويلاحظ أن هذا الشاهد ينتهى من أسفل بعنصر زخرفة الزهرية التى يخرج منها أفرع تحمل أوراق نباتية ، كما تحمل الأفرع أزهاراً ، منها زهرة القرنفل Koranfil ، التى عشقها الأتراك عشقًا مما جعل الفنانون ، يرسمونها على جدران مساجدهم ومشاهدهم وأضرحتهم وقبورهم ، إلى جانب زهرة اللاله[١٥].

ومما هو جدير بالذكر أن عنصر زخرفة الزُهرية أو المزهرية ظهر على معظم الفنون المعمارية والتحف التطبيقية فى مصر فى العصر العثمانى [١٦]، بينما ترجع أصول هذا العنصر لزخرفة الزهرية التى يخرج منها أفرع نباتية وأوراق تنتهى بزهور ، لبداية العصر الإسلامى وأقدم مثال لها ظهر على زخرفة فسيفساء قبة الصخرة[١٧] سنة ٧٣هـ / ٦٩١ - ٦٩٢م .

وخلاصة الأمر أن هذا الشاهد ، لقبر المرحوم محمد جلبى ابن المرحوم الأمير رضوان كتخدا عزبان الجلفى الذى قيل فى مدحه الكثير من كلمات الشعر وبديع النظم يذكر منها الجبرتى[١٨] هذه المقامة البديعة :

نسجت بمنوال البديع مقامه ... وتزركشت بالحسن والإبداع رقت

حواشيها ووشى طروزها ... بجواهر الترصيع والإبداع

رغدت بحلى مديح رضوان العلى ... طرل المدى تجلى على الأسماع

كما تتجلى فى نقوش هذا الشاهد المثمن الشكل لتلك المقبرة أيضاً تسعة أسطر من الكتابة بخط الثلث مؤرخ منها ألقاب وأنساب بعض أمراء نهاية القرن ١٢هـ / ١٨م ، وهى:-

السطر الأول : أمير اللواء[١٩] عليك أهلك قد بكت

السطر الثانى : والصبر تاء والمنام قليل

السطر الثالث : والدمع سال على الخدود من الجفا

السطر الرابع : والجسم من داء الفراق عليل

السطر الخامس : لكن لك العفو العميم مؤرخ

السطر السادس : قد قر فى الجنات إسماعيل[٢٠]

السطر السابع : أخى المرحوم (أ)مير اللواء على بيك[٢١]

السطر الثامن : أمير الحاج[٢٢] سابقاً توفى

السطر التاسع : فى شهر رمضان سنة ١١٩١

ومما هو جدير بالذكر أن أسطر شاهد قبر أمير اللواء إسماعيل ، أخو اللواء على بيك أمير الحاج ، جاءت مؤثرة ومفعمة بالكثير من كلمات الرثاء والصبر والإتاء ، ونحيب البكاء وسيل الدموع وداء الجسد من علة فراق الأهل ، ولكن سلواهم أنه فى جنات الخلد ، ونعيم الآخرة وعفو المولى عز وجل ، ويزخرف نهاية هذا الشاهد أوراق نباتية وزهرة القرنفل ، وتنتهى قمته بشكل مقبب ، أما قاعدته يزخرفها ورقة ثلاثية مقلوبة لأسفل وزهرة اللاله .

ويلاحظ أن كلمات رثاء هذا الشاهد المؤرخ سنة ١١٩١هـ ، قد أرخت حروفها بحساب الجُمل والسنين كما يلى : -

قد (ق = ١٠٠ + د = ٤) = ١٠٤ .

قر (ق = ١٠٠ + ر = ٢٠٠) = ٣٠٠ .

فى (ف = ٨٠ + ى = ١٠) = ٩٠ .

الجنات (ا = ١ + ل = ٣٠ +ج=٣+ن=٥٠+ا=١+ت = ٤٠٠) = ٤٨٥

إسماعيل (ا=١+س=٦٠+م=٤٠+ا=١+ع=٧٠+ى=١٠+ل=٣٠) ٢١٢

بحساب الجمل يكون المجموع = ١١٩١

ويتفق هذا التارخ لوفاة اللواء إسماعيل بحساب الجمل مع تاريخ ما نُقش على شاهد قبره وتُعد كلمات هذا الشاهد مختلفة كثيراً عن الشاهد السابق ، فى رثاءها وأنينها ووصف حالة الأهل ، بالإضافة إلى التأريخ وحساب جملها ، بينما كان شاهد قبر المرحوم محمد جلبى (أى الرجل المتصوف الفقير إلى الله) مجرد إشارة ، إلى قبر صاحبه دون أى رثاء أو خلافه ، ولكنهما كانا متفقان فى نسبة الأول إلى أبيه ونسبة الثانى إلى أخيه دلالة على أن كل منهما ، نسب نفسه سواء إلى الأب أو الأخ لشهرة الأب والأخ ، ومكانتهما الاجتماعية فى الدولة آنذاك ، لذا فقد نُسبا إليهما زيادة فى التعريف بشخصيتهما .

وهناك شاهدان رأسيان آخران[٢٣] لنفس المقبرة سابقة الذكر ، ولكنهما يحملان أدعية قرآنية وعناصر زخرفية (لوحة ٣) فالشاهد الثالث يقع مائلاً أمام الشاهد الأول ، وهو ذو أربع أوجه مستطيلة الشكل ، يزخرف الجزء العلوى منه رسم على هيئة غطاء رأس عثمانى ذو زخارف هندسية بسيطة ، تُلف حول عُمامة[٢٤] مطوية بشكل يبدو طبيعيًا بزخارف نباتية ، أما الجزء السفلى - وهو يمثل ثلثى ارتفاعه - من الوجه الداخلى يزخرفه شكل مشكاة ، يتدلى من أعلاها سلسلتان تحصران بينهما وريده ، وتنتهى ببدن على هيئة مشكاة مملوكية[٢٥] تتكون من كتابة متعاكسة ، تُقرأ طرداً وعكسًا لعبارة البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " وهذا النوع من الخط المثنى أو الكتابة المعاكسة قد عُرف وانتشرت طريقة تقابله أى " طرد وعكس " منذ العصر المملوكى فى عمائره ، وأشهر ما نُفذ منها على العمائر، تلك الموجودة داخل محراب مدرسة الأمير قجماس الأسحاقى (٨٨٦هـ / ١٤٨١م) ، بالدرب الأحمر بصيغة " عمل عبد القادر النقاش " [٢٦].

ويكشف هذا الخط الذى يسميه العثمانيون " اينه لى " أو الكتابة المرآتية ، عن مهارة الخطاط العثماني وعبقريته ، إذ هو يكتب العبارة الواحدة مرتين بحيث يمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار ، ومن اليسار إلى اليمين [٢٧]، فهو يمزج بين حروفها ، بحيث يخرج من هذا المزج شكلاً زخرفيًا جميلاً ، بالرغم من أن البعض يرى أن هذه صورة معقدة للخط العربى، ولكنها ذات رؤية جمالية وأصول فنية [٢٨].

ونخلص من هذا أن الخطاط قد بلغ حداً كبيراً من التمكن فى كتابة الخط الثلث رغم أن هذا الخط يخضع لمعايير فنية ونسب ثابتة وقواعد دقيقة فى كتابة حروفه ، وقد أراد الخطاط أن يُعلن عن مهارته ، رغم كل هذه القيود ، بالجمع بين أصول وقواعد هذا الخط وبين الطابع الزخرفى الجمالى (٢٩).

وكما وُجدت هذه الخطوط الكتابية المتعاكسة ، بشكل زخرفى وجمالى على شواهد القبور العثمانية ، فقد استخدمت أيضاً فى زخرفة الفنون التطبيقية والعمائر الاجتماعية ، وخير مثال لظهورها فى التحف التطبيقية ، تلك القطعة من نسيج الحرير - التى يحتفظ بها متحف الفن الإسلامى بمدينة القاهرة من العصر العثمانى - ذات الكتابة المتعاكسة بعبارة " وهو الحى الباقى سبحان الله " فى شكل مشكاة تتدلى سلاسلها من أعلى عقد مدبب (٣٠).

وخير مثال لاستخدام تلك الكتابة المتعاكسة فى العمائر الاجتماعية للأسبلة العثمانية بمحراب سبيل السلطان محمود (أثر رقم ٣٠٨) ، حيث شكل الخطاط المشكاة التى تتدلى من عقد المحراب من أحرف كتابية متعاكسة ، عبارة البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " مكررة مرتين (٣١).

أما الشاهد الرابع الذى يقع ماثلاً أمام الشاهد الثانى ، تنتهى قمته بشكل مخروطى ، أسفله أشكال هندسية بسيطة ، ويتدلى من أعلى بدن الشاهد - من جهة الداخل - سلاسل لمشكاة ذات خطوط متعاكسة لعبارة " وما توفيقى إلا بالله " فى الجزء العلوى للمشكاة بينما الجزء السفلى لبدن المشكاة ، زخرف بخطوط متعاكسة لعبارة البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " ، كما فى الشاهد الثالث .

بيد أن الجهات الثلاث للشاهدين الثالث والرابع ، زُخرفت ببعض الأدعية الدينية بخط الثلث نقرأها فى أربعة أسطر كما يلى :

السطر الأول : لا إله إلا الله محمد رسول الله

السطر الثانى : كل من عليها فان

السطر الثالث : ويبقى وجه ربك ذو ا

السطر الرابع : لجلال والإكرام

بينما نقرأ نفس العبارات الدينية فى الشاهد الثالث فى ثلاثة أسطر بخط الثلث أيضًا وهى:

السطر الأول : لا إله إلا الله محمد رسول الله

السطر الثاني : كل من عليها فان ويبقى وجه ربك

السطر الثالث : ذو الجلال والإكرام

أما تركيبة المقبرة(٣٢) التي تحمل هذه الشواهد الأربعة (لوحة ٤) ، فإن النحات لم يغفل نحتها وزخرفتها بثلاث مناطق عرضية ، زُخرفت الوسطى منها بخطوط كتابية لآية الكرسي داخل بحور صغيرة ، يفصل بين كل بحرين زخرفة نباتية ، ملتفة بالجوانب الأربعة للتركيبة ، يعلو هذه المنطقة الكتابية ، منطقة أقل عرضًا ، عبارة عن إطار أو شريط رفيع تحتوي على زخرفة نباتية لزهرة اللاله متكررة بشكل منتظم ، ملتفة أيضًا بالجوانب الأربعة.

أما المنطقة السفلى فهي الأكبر وتحتوي على ثلاث دوائر مندمجة ، داخل كل منها رسم وريده ، مركزية ثمانية البتلات ، تتداخل مع أخريتين متفرعتين ، يتوسط كل دائرتين من الدوائر الثلاث السابقة ، مزهرية أو شكل فازة تخرج منها أفرع نباتية تحمل أزهار اللاله والقرنفل وعباد الشمس وأوراق رمحية بأسلوب واقعي قريب من الطبيعة محفوراً حفراً بارزاً على الرخام(٣٣).

ومما هو جدير بالذكر ، أن تلك الرسوم النباتية بعناصرها الزخرفية ، كانت محببة للفنان العثماني في زخرفة رسوم جدران مساجده ومشاهده وأضرحته وقبوره ، نخلص من هذا بأن الفنان اختار من مملكة الأزهار ، زهرة القرنفل وزهرة اللاله ، ومن أوراق الشجر اختار الشكل لرمحي(٣٤).

أما الجانب الأيمن لتركيبة المقبرة ، فقد نُحت على شكل عقد مدبب (لوحة ٥) ، ذو إطار زخرفي رفيع ، لزهرة اللاله متكررة بانتظام ، وأسفل هذا الإطار مساحة عقد ، نُقش داخلها عبارة تُناسب مقولة " لكل مقام مقال " وهي " كل شيء هالك إلا وجهه " ، على أرضية خضراء يليها المنطقة الوسطى الرئيسية ، نُقش عليها بداية آية الكرسي " بسم الله الرحمن الرحيم " " الله لا إله إلا هو الحي " داخل بحرين صغيرين بينهما زخرفة نباتية بسيطة.

ويوجد أسفل الجانب الأيمن لتركيبة تلك المقبرة ، منطقة عريضة يتوسطها دائرة ، نُقش داخلها عبارة " أقبلت على رب كريم " ، مكررة ثلاث مرات بانتظام ، حيث تتقابل ألفاتها

ولاماتها فى مركز الدائرة ، مما أضفى على الخطوط شكلاً جماليًا مريحًا للعين ، حيث أن كلماته تتناسب مع موضعها ومكانها ، بينما على جانبى هذه الدائرة ، عنصر زخرفة المزهرية بنفس مكوناتها .

أما الجانب الأيسر لتركيبة المقبرة السابقة (لوحة ٦) ، فإن زخرفتها تماثلت تمامًا مع الجانب الأيمن اللهم إلا فى عبارة مساحة العقد العلوى ، فقد كتبت باللغة التركية ، وهى " روحيحون فاتحة " ، تنتهى حروفها ببعض الزخارف النباتية البسيطة ، وتلك العبارة تُعنى الفاتحة على روحه والمنطقة الوسطى لذلك الجانب نُقش عليها آخر آية الكرسى " يعلم ما بين أيديهم " " وما خلفهم ولا يحيطون " ، داخل بحرين صغيرين بينهما زخرفة نباتية بسيطة .

وخلاصة القول بعد استعراضنا لشواهد القبور الثلاثة موضوع الدراسة نستنتج أن : -

- تعد دراسة شواهد القبور العثمانية بتراكيبها الرخامية توثيقًا تاريخيًا وتسجيلاً أثريًا ، حيث حفلت بالأحداث السياسية والأوضاع الاجتماعية والحياة الاقتصادية لفترة زمنية مؤرخة ومعلومة .

- على الرغم من إجماع أراء الفقهاء واتفاق معظم العلماء ، على كراهية العناية بتشييد القبور والكتابة عليها والتأنق فى زخرفتها ، إلا أن المسلمين من فنانين وخطاطين وخاصة فى العصر العثمانى ، حرصوا فى تشييد شواهد قبورهم وتراكيبها على التأنق الزخرفى والتشكيل الجمالى .

- سجلت شواهد القبور العثمانية الكثير من النصوص التذكارية ، والعبارات الدعائية ، والألقاب الفخرية والأنساب العائلية .

- يعتبر خط الثلث الأب أو الجد لكل ما جاء من أنماط الخطوط العثمانية ، وقد اقتصر استخدامه على العبارات الدعائية والآيات القرآنية والأعمال الدينية فى شواهد القبور ، وبلغ أكمل وجه وأكمل مرحلة فى القرن ١٠هـ / ١٦م.

- لعبت الزخرفة النباتية دوراً مكملاً ومُجملاً للخط الثلث على شواهد القبور العثمانية ، ممثلة فى أزهار اللوتس والمراوح النخيلية والأفرع والأوراق النباتية ، وأزهار القرنفل والورود وزهرة الرمان والسوسن .

- لقد استعمل الفنان فى زخارفه لشواهد القبور العثمانية وتركيباتها الرخامية الأسلوب الواقعى من حيث العناصر النباتية الممثلة طبيعيًا أصدق تمثيل ، هذا إلى جانب أسلوبهم المحور الممثل فى زخارف الطراز الرومى والهاتاى .

- لقد لعبت المزهرية (الزُهرية) الممتلئة بالأزهار الطبيعية كالورود وزهرة اللاله والقرنفل والبراعم والنوار دوراً رئيسًا فى زخرفة التراكيب الرخامية لشواهد القبور العثمانية علاوة على صور المناظر الطبيعية مما شاع فى فنى الباروك والركوكو ذو التأثير الأوروبى.

- لقد استخدم الفنان حساب الجُمل في تأريخ شواهد القبور العثمانية ، إلى جانب ذكر التاريخ الهجرى ، وأحيانًا يكتفى بكتابة تاريخ الوفاة فقط .

- لقد لعبت زخرفة العُمامة دوراً مهمًا فى معرفة نوع شاهد القبر فى العصر العثمانى ، فشاهد قبر السيدة يُرمز له بشكل عمامة أنثوية ، وشاهد قبر الرجل يُرمز له بشكل عُمامة أكبر ، وخاصة لو كانت لرجل دين ويشغل منصبًا وظيفيًا مهمًا كالقاضى والمفتى .

- لقد تبوأت الآيات القرآنية ممثلة فى آية الكرسى والأدعية الدينية ممثلة فى طلب الرحمة والمغفرة لصاحب المقبرة ، إلى جانب العبارات الرثائية ، ممثلة فى الدمع والصبر والسلوان والفراق والتحبيب .

- لقد لعبت زخرفة الخطوط المتعاكسة ممثلة فى البسملة و " أقبلت على رب كريم " و " هو الحى الباقى سبحان الله " ، بتداخل على هيئة مشكاة مملوكية ، دوراً جماليًا وشكلاً فنيًا ، أضفى نوعًا من الترابط والتعانق بتوظيف الخطوط فى الأشكال الجمالية التى تُناسب المكان ، وكذلك نوع من الرمزية فى المشكاة التى هى مصدر النور والضوء من وحشة القبر وأنس المكان.

- زخرفة الكتابة المتقابلة فى مركز الدائرة بأسماء الخلفاء الراشدين ، هذا علاوة على اسم الرسول (ص) أضفى على زخرفة الشاهد جلالاً فنيًا وبُعداً جماليًا .

الهوامش

١- مصطفى شبحه ، شواهد قبور إسلامية ، ص ٩ .

٢ - مما هو جدير بالذكر أن لفظ مشاهد (مشهد) قد استخدم لأول مرة عند الشيعة منذ مقتل الحسين بن علي رضى الله عنهما ، حينما أخفوا الرأس لكى لا تستخدم فى التشهير بالخليفة يزيد بن معاوية، ومن ثم ثار باقى آل بيت الإمام على ضد خلفاء بنى أمية ، وخشى آل بيت على أن يظهروا قبورهم حتى لا تنبش ، ولهذا أخفوها ، فلما هدأت الأمور أظهر الشيعة قبور الأئمة السابقين ، وسموها مشاهد لأن الجميع شهدوا على صحة دفن الإمام فى هذا المكان ، ومن هنا جاءت تسمية مشهد على القبور .
مصطفى شبحه ، المرجع السابق ، ص ١٠ .

٣ - سعاد ماهر ، مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى ، ص ٢٢ ، لوحة ٤ .

٤ - مصطفى شبحه ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠ - ١١ .

٥ - مايسة داود ، الكتابات العربية على الآثار الإسلامية ، ص ٧٧ .

٦ - والرخام Marble ضرب بلورى من الحجر الجيرى متماسك مذكوك لدرجة تسمح بصقله صقلاً شديداً ، ويكون عادة أبيض أو رمادياً ، ويقتصر وجود الرخام فى مصر في الصحراء الشرقية ، كما سُجل وجوده فى عدة أماكن فى هذه الصحراء ، وفى موضع قريب من ساحل البحر الأحمر يوجد نوع من الرخام الرمادى السكرى اللون ، وأيضًا فى جبل الرخام الذى يقع شرق أسنا فى الطريق بين النيل والبحر الأحمر يوجد نوع من الرخام عديم اللون استعمل فى العهود الإسلامية .

- لوكاس ، المواد والصناعات ، ص ٦٦٦ .

٧ - رقم السجل : ٦٨٩٨ ، طول تركيبة المقبرة : ١٣٩سم ، ارتفاعها من الجهة الأمامية : ٥٠سم ، ارتفاعها من الجهة الجانبية : ٦٦,٥سم . شاهد قبر المرحوم محمد جلبى ، طوله : ٤٠سم ، ارتفاعه ٢٠,٥سم .، شاهد قبر المرحوم اللواء إسماعيل ، طوله : ١٢٠سم ، ارتفاعه : ٦٠سم . لم يسبق نشره.

٨ - اعتماد يوسف المصرى ، مساجد بغداد فى العصر العثمانى ، ص ١٥٧ ، ١٥٣ .

٩ - محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى العصر العثمانى ، ص ١٦٧ - ١٧٧ .

10 - Arsevan, Les Arts Decoratifs Turce, p. 336 .

١١ - كتخدا ، بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء فى التركية ، كتخدا من الفارسية كد خدا ، والكلمة الفارسية من كلمتين " كد " بمعنى البيت و " خدا " بمعنى الرب والصاحب ، فالكتخدا هو فى الأصل رب البيت ، ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك ، ويطلقها الأتراك على الموظف المسئول والوكيل المعتمد فى خدمة الباشا وصحيفته ويذكر أحد الرحالة الفرنسيين بمصر آنذاك عن الكتخدا

(الكخيا) " بأنه هو رئيس الحزب وأنه كان له نفوذ كبير فى القاهرة ولابد لأى أوروبى أو أجنبى أن يحصل على إذن من كخيا العزب " .

- شفيق غربال ، ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية، ص ١٥ ؛ أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص ١٧٦ ؛ Oliver, Voyages Dan's L'empire Ottoman L'Egypte, p. 225 ؛ إلهام الذهبى ، مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، ص ١١٢ - ١١٣ .

١٢ - عزبان ، من العربية عزب من لازوج له ، صارت فى التركية اسم جمع وعلمًا على طائفتين من الجند العثمانى أحدهما بحرية " عزبلر " والأخرى برية ، وكانوا يؤخذون فى القرنين ٩-١٠هـ/١٥-١٦م ، من بين أشداء الشباب الترك بمعدل شاب من كل عشرين أو ثلاثين بيتًا ، وكانوا يتولون أداء خدمات التشريف للباشا وحراسة القلعة .

- شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ١٨ ؛ أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ Granger, Le Sieur : Relation du Voyage fait en Egypte, p. 18 .

١٣ - رضوان كتخدا الجلفى ، هو مملوك على كتخدا الجلفى ، تقلد كتخدائية باب عزبان بعد قتل أستاذه بعناية عثمان بيك ذو الفقار ، وهو الذى عمر باب القلعة الذى بالرميلة المعروف بباب العزب ، وتولى رضوان بك إمارة الحج ، بعد أن صفا له الجو . الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، جـ١ ، ص ٢٥١ ؛ جرجى زيدان ، مصر العثمانية ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

١٤ - سعاد ماهر ، الخزف التركى ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

١٥ - سعاد ماهر ، المرجع السابق ، ص ١١٨ .

١٦ - ربيع خليفة ، البلاطات الخزفية فى عمائر القاهرة العثمانية ، ص ٢٨٧ ؛ محمود الحسينى ، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

17 - Papadopoulo, El Exandre, Islam and Muslim Art, p. 65, Pl. 14 .

١٨ - الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٨٨ .

١٩ - أمير اللواء ، الأمير فى اللغة ذو الأمر والتسلط ، وهو من ألقاب الوظائف ، التى استعملت كذلك كألقاب فخرية ، ويرجع استعماله كاسم وظيفة إلى عصر النبى (ﷺ) ، وقد أطلق أمير اللواء فى العصر العثمانى بمصر على من تسهل التجاريد وقاد العسكر ، انظر : حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار ، ص ١٧٩ - ١٨٠؛ محمد أبو بكر الرازى ، مختار الصحاح ، ص ٦٠٩.

٢٠ - ويذكر الجبرتى فى أحداث ١١٩١هـ ، بأنه فى هذه السنة قد مات الأمير إسماعيل بيك الصغير ، وكان له خمسة أخوة على بك وإسماعيل بك هذا وسليم أغا وعثمان وأحمد ، ولما تأمر على بك كان أخوته بإسلامبول وعندما تسامعوا بإمارة أخيهم بمصر ، حضر إليه إسماعيل وأحمد وسليم ، وعمل إسماعيل عند أخيه على بك وقد كان إسماعيل بك عاقلاً حكيماً كوالده قاسم عيواظ بك ، الذى كان

حاكماً عادلاً وأباً حكيماً . تاريخ الجبرتي ، جـ٢ ، ص ٢٥ ؛ جرجي زيدان ، مصر العثمانية ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٢١ - بيك ، لفظ تركي بمعنى الكبير ، ويلاحظ أن استعمال " بك " كلقب كان يلحق بالاسم ، وبك لقب أو رتبة ظهرت في العصر العثماني ، وكان يبلغ عدد بكوات مصر في ذلك العصر اثنا عشر ، كان ثلاثة من هؤلاء البكوات فقط هم الذين لهم حق حضور ديواني الحكومة وهم الكتخدا ، وأمير الحج ، والدفتر دار .. ويذهب ابن بطوطة بأن معنى بك هو الملك . ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٨٤ ؛ حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

٢٢ - أمير الحاج ، اسم وظيفة عُرفت منذ عهد النبي (ﷺ) وسار الخلفاء والولاة على هذه السُنة ، وعُرفت في العصر العباسي باسم أمراء الحاج ، وهذا الاسم مؤلف من مقطعين ، أمير بمعنى رئيس أو قائد ، وحاج وهو قاصد مكة المكرمة مسئولاً عن الحاج في أثناء موسم الحج ، وعرفت هذه الوظيفة في العصر الفاطمي بصيغة " أمير الحج " ، وقد برزت هذه الوظيفة في مصر في العصر العثماني ، وكانت من أجل الوظائف الدينية . انظر : شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ١٥ ، ٦١ ؛ حسن الباشا ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

٢٣ - الشاهد ذو العمامة الملفوفة طوله : ٧٩سم ، قطره : ٥١سم - الشاهد ذو العُمامة المذهبة ، طوله : ١٢٨سم ، قطره : ٦١سم .

٢٤ - عُمامة : لقد عرف العرب العُمامة منذ القدم ، ويذكر مؤلف مجهول في مخطوطة " أن السُنية في القلنسوة كونها منخفضة لا مرتفعة كما يلبسها بعض المتكلفين ، ويُذكر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها " أن الرسول ﷺ ، كان يلبس قلنسوة بيضاء لاطئة أي ملاصقة للرأس " ، ويذكر أدى شير عن القلنسوة فيقول : يحتمل أن يكون مُعربة عن الفارسية لكلمة بوش وهو مركب " كله أي رأس ، ومن " بوش " أي غطاء ، والقلنسوة مأخوذة عن الفرنسية Qulunse ، وعن الفارسية كلاه . مؤلف مجهول ، رسالة بدعة القلنسوة ، ورقة ٧٨ ؛ أدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ١٢٨ ؛ دوزي ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ص ٢٥١ .

٢٥ - مشكاة ، جمعها مشكاوات ، وهي الكوة في الجدار ، وكان يوضع فيها وسيلة الإضاءة من مسرجة أو قراية أو شمعة أو مصباح ، وهي كلمة حبشية من الألفاظ غير العربية ، لذلك فهي تُجمع بطريقتين لكونها أعجمية فتجمع جمع مؤنث سالم على " مشكاوات " كما تجمع جمع تكسير " مشاكي " ، وقد كان سلاطين المماليك وأمراؤهم وأثرياؤهم يهدونها إلى المساجد ، لتزين وتضيء تلك المنشآت الدينية تقرباً إلى الله ، بل لعل الفنان المسلم أراد أن يُجسم ما جاء في سورة النور آية ٣٥ ، من قوله تعالى {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ} . ابن سيدة ، المخصص ، مجـ٥ ؛ الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، جـ٤ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٢٦ - حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، جـ١ ، ص ٢٦٤ .

٢٧ – محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى العصر العثمانى ، ص ١٧٨ – ١٨٠ .

٢٨ – هدايت تيمور ، جامع الملكة صفية ، ص ١٠٩ .

٢٩ – مايسة داود ، الكتابات العربية على الآثار الإسلامية ، ص ٦٨ .

٣٠ – عائشة التهامى ، النسيج فى العالم الإسلامى ، ص ١٧٢ ، صورة ٢٩ .

٣١ – محمود الحسينى ، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ، ص ١١٣ ، لوحة ١٣٩ .

٣٢ – طول تركيبة المقبرة : ١٣٩ سم ، ارتفاعها من الجانبين : ٦٦,٥سم ، ارتفاعها من الواجهة : ٥٠سم.

٣٣ – لقد وجد شكل الفازة أو المزهرية بهذا الأسلوب الواقعى فى زخرفة مجموعة من الأسبلة العثمانية من أمثلتها :

* سبيل السلطان مصطفى (أثر رقم ٣١٤) لوحة ١٥٢ ، ١٥٣ .
* سبيل السلطان محمود (أثر رقم ٣٠٨) لوحة ١١٧.
* سبيل رقية داود (أثر رقم ٣٣٧) لوحة ١٥٧ .

محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

٣٤ – محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

مراجع الدراسة

أولاً : المصادر المخطوطة والمطبوعة :

- مؤلف مجهول : رسالة فى بدعة القلنسوة ، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية ، رقم ١٧٦ ، ورقة ٧٨ ، رسالة رقم ١٠٧ .
- ابن بطوطة : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الجبرتى : تاريخ الجبرتى ، أربعة أجزاء ، دار الأنوار المحمدية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

ثانياً : المراجع العربية :

- أحمد السعيد سليمان (دكتور) : تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، دار المعارف ، ١٩٧٩م.
- أحمد مطلوب (دكتور) : معجم الملابس فى لسان العرب ، مكتبة لبنان ناشرق ، ١٩٩٥م.
- ابن سيدة : المخصص ، مجلد ٥ .
- أدى شير : كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٠٨م.
- اعتماد يوسف لقصيرى (دكتور) : مساجد بغداد فى العصر العثمانى – مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الاثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١م.
- إلهام محمد على ذهنى (دكتور) : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، تاريخ المصريين ٥٢ ، ١٩٩٢م.
- الفيروز أبادى : القاموس المحيط ، جـ٤ .
- جرجى زيدان : مصر العثمانية ، تحقيق د. محمد حرب ، كتاب الهلال ، العدد ٥١٧ ، ١٩٩٤م.
- حسن الباشا (دكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، أجزاء ، القاهرة، ٦٥-١٩٦٦م
- الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، الدار الفنية للنشر ، ١٩٨٩م.
- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان ، ١٩٤٦م.

- دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ترجمة د. أكرم فاضل ، بغداد ، ١٩٧١م.
- ربيع خليفة (دكتور) : فنون القاهرة في العهد العثماني ، نهضة الشرق ، ١٩٨٥م.
- سعاد ماهر (دكتور) : مدينة أسوان وآثارها في العصر الإسلامي ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية ، ١٩٧٧م.
  - الخزف التركي ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية ، ١٩٧٧.
- شفيق غربال (دكتور) : ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، مجلة كلية الآداب، مج ٤ ، جـ١ ، مايو ١٩٣٦م.
- شمس الدين سامي : قاموس تركي ، دار سعادت ، ١٣١٧هـ / ١٣١٥ (ورقة
- عائشة التهامي (دكتور) : النسيج في العالم الإسلامي منذ القرن (٨-١١هـ / ١٤-١٧) ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٩٩٤م.
- عبد السميع الهراوي : لغة الإدارة العامة في مصر في القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٣م.
- قاموس اللغة الفارسية : الدر أرى اللامعات في منتخبات اللغات ، جمعه ورتبه محمد على الإنسى .
- لوكاس (ألفريد) : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة د. زكي إسكندر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩١م.
- ماير (ل.أ) : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢م.
- مايسة داود (دكتور) : الكتابات العربية على الآثار الإسلامية من القرن الأول حتى أواخر القرن الثاني عشر للهجرة (٧-١٨م) ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩١م.
- محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) : الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م.
- محمد أبو بكر الرازي : مختار الصحاح ، القاهرة ١٩٩٢م.

- محمود الحسينى (دكتور) : الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٨٨م.
- مصطفى بركات (دكتور) : الألقاب والوظائف العثمانية ، دراسة فى تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) ١٥١٧ - ١٩٢٤م ، دار غريب ٢٠٠٠م.
- مصطفى عبد الله شيحه (دكتور) : شواهد قبور إسلامية من جبانة صعده باليمن ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨م.
- هدايت تيمور : جامع الملكة صفية ، مخطوطة رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٩٧٧م.

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- Arsevan, Les Arts Decoratifs Turc .
- Ashtor, Histoire des prix et des salaries, dans L,Orient Medivale.
- Granger, Le sieur : Relation du Voyage fait en Egypte par le sieur Granger de l'annee 1730, Paris 1765 .
- Olivier, C. Voyages dans l'empire Ottoman, de L'Egypte.
- Papadopoulo, El Exandre, Islam and Muslim Art, London, 1982 .
- Wiet, Catalogue du Musee Arabe du Cairo, 1930 .

د. كمال عنانى إسماعيل (*)

السيوف الاندلسية فى ضوء المصادر العربية وصورها المرسومة وأشهر نماذجها الباقية

ازدهرت صناعة السيوف فى بلاد الأندلس وبخاصة فى مدينة برذيل(1) والمرية(2) علاوة على مدينة طركونة التى اختصت بإنتاج نوع من السيوف يعرف باسم القلجورية يتميز بوزنه الخفيف الذى لايزيد عن رطلين .

كما اكتسبت مدينة طليطلة شهرة واسعة فى صناعة السيوف لاسيما فى عصر الطوائف فى ظل حكم بنى ذى النون ، حيث صار إنتاجها يصدر إلى كافة أنحاء أسبانيا الإسلامية والمسيحية (3).

وجدير بالذكر أن نشاط مدينة طليطلة فى مجال السيوف كان امتداداً لما كان عليه هذا النشاط فى فى العصر القوطى السابق على الفتح الإسلامى . حيث يشير المقرى إلى ما أصابه طارق بن زياد عند فتحه لهذه المدينة من مغانم بقوله : " ورأيت فى بعض كتب التاريخ أنه وجدت فى طليطلة حين فُتحت من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك وجد فيها ألف سيف ملوكى " (4).

---

* - أستاذ مساعد بقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

وعلى الرغم من أنه لم يصل إلينا أية نماذج من السيوف الأندلسية قبل عصر بنى نصر إلا أن ما زودتنا به المصادر العربية من أوصاف لها ، فضلاً عن صورها الممثلة فى صور المخطوطات والرسوم الجدارية وعلى بعض الفنون التطبيقية مثل العلب العاجية يكفى لإعطاء صورة واضحة لما كانت عليه مكونات وأشكال السيوف فى تلك الفترة السابقة على عصر بنى نصر .

فبالنسبة لمكوناتها فهى تتألف فى الغالب من جزئين رئيسيين هما النصل والمقبض . والمقصود بالنصل هو البدن الفولاذى الحاد الذى يطعن به . أما المقبض فهو ما يقبض به على السيف ، ويعلوه فى الغالب قطعة من الحديد تعرف بالقبيعة ، وهى التى تكسبه الشكل المقبول وتزيد من ثقله وتجعله متزناً فى قبضة المحارب ، ويدنوه قطعة أخرى من الحديد معترضة على فم الغمد لها طرفين ينتهيان بقطعتين بارزتين ، وتسمى هذه القطعة الشاربان أو واقية السيف حيث تقى المحارب من طعنات الخصم . هذا عن مكونات السيوف بشكل عام .

أما عن أشكال السيوف وزخارفها فى بلاد الأندلس ، فتوضح الصور المرسومة لها بأنها اتخذت فى عصر الخلافة صورتين : الأولى (٥). ظهرت فى الفترة من عام " ٣٥٩هـ - ٣٦٠هـ / ٩٦٩ - ٩٧٠م " . أى فى عهد الخليفة الحكم المستنصر وفيها يتميز السيف بنصله العريض والمستقيم فى استطالة(٦) وقبيل نهايته يتحول هذا النصل إلى حدين (٧) ، ويتوسط صدره شطبة واحدة(٨) تبدأ من أسفل واقية المقبض بمسافة قليلة وتنتهى قبل الثلث الأخير من نهاية النصل . أما المقبض فيتكون من قبيعة كروية تتصل بشاربين أو واقية هلالية الشكل عن طريق حديدة ملفوفة المقطع تمثل موضع قبضة اليد . أما الصورة الثانية لأشكال السيوف فترجع إلى نهاية عصر الخلافة حيث انتشرت فى الفترة من عام " ٣٩٥ - ٣٩٦هـ / ١٠٠٤ - ١٠٠٥م " وفيها نلاحظ أن النصل قد صار أقل طولاً وطرفه أكثر تدبباً(٩). ومع استمرار السيوف ذوات الشطبة الواحدة خلال تلك الفترة . إلا أن الجديد الذى نلحظه أن الفنان زود بعض الأنصال أحياناً بشطبتين تمتدان مباشرة أسفل الواقية ، وأن تميزت بأنها أقل امتداداً من نظائرها فى أنصال السيوف ذات الشطبة الواحدة حيث نراها هنا تنتهى فى امتدادها عند منتصف النصل تقريباً . أما واقية المقبض فقد حافظت على شكلها الهلالى وإن كانت القبيعة لم تعد كروية الشكل بل اتخذت هيئة قلب . وبمقارنة أشكال السيوف الخلافية بنظائرها المسيحية المصنوعة على شاكلتها نجد ثمة تشابه واضح بينهما لاسيما من حيث شكل النصل

العريض والواقيات الهلالية ، وهو الأمر الذى يؤكد صحة ما ذكرته بعض المصادر من أن السيوف الإسلامية الأندلسية قد صممت على غرار السيوف المسيحية [١٠]، ويؤكد هذا التشابه نموذج مرسوم لأحد السيوف المسيحية موضح فى شكل (٣) وإذا كانت المصادر العربية قد أغفلت ذكر نوعية المواد التى كانت تصنع منها السيوف الأندلسية ، إلا أنه بالقياس يمكن أن نرجح بأن مواد تلك السيوف الأندلسية كانت تصنع من نفس نوع مواد صناعة السيوف المسيحية التى كانت تصنع من نوعين من الحديد هما الحديد الصينى الشرقان والرقاهية [١١].

هذا عن أشكال السيوف فى عصر الخلافة ؛ أما عن زخارفها فلم تسعفنا الصور المرسومة بأى نماذج لها . ومع ذلك فإن أوصاف ابن حيان المقتضبة لتلك الزخارف تشير إلى مدى الاعتناء بترصيعها بالأحجار الكريمة والشرائط الذهبية والفضية حيث أشار فى أكثر من موضع إلى تلك الزخارف بقوله : " الحلية المرصعة بالجواهر الفاخرة و «ثقيل الحلية »[١٢] و « حلية فاخرة »[١٣] و « حلية ذهب » و « حلية فضة مذهبة » و « فضة مذهبة مزينة بنيل» "[١٤] . ولاشك أن ما نقله ابن حيان عن زخارف تلك السيوف هو أصدق صورة وضعت عنها لأن ابن حيان كان معاصراً لزمن إنتاج تلك السيوف وهو عصر الخلافة . فضلاً عن أن أوصافه مع اقتضابها تشير إلى تنوع الأساليب الزخرفية المستخدمة فى تحلية سيوف هذا العصر . فقد نفذت تلك الزخارف بطرق متعددة منها الترصيع بالأحجار الكريمة والتكفيت والتنزيل بالذهب والفضة والتطعيم بمادة النيلو .

كما زخرفت بعض مقابض السيوف فى عصر عبد الرحمن الناصر بتشكيلات نباتية قوامها قشور الصنوبر المنفذة بأسلوب الحفر الغائر . ونستدل على استخدام هذه الزخرفة مما ذكره المقرى نقلاً عن الحجارى عن بعض سيوف عبد الرحمن الناصر بقوله : " وبعض سيوف الأندلس محفورة صدر الرئاس على صورة قشور الصنوبر إلا أن تلك ناتئة وهذه محفورة"[١٥].

وإلى جانب الأوصاف التى زودتنا بها المصادر العربية لزخارف تلك السيوف أمدتنا أيضاً بتعابير دقيقة لأنواعها المختلفة مثل " سيف صارم "[١٦] و" سيف ضروب "[١٧] كما نعتت أغمادها بأوصاف تنم عن نوعيتها مثل " غمدة سفن "[١٨] و " سفن حرت بنصل " [١٩].

أما عن سيوف عصر الطوائف فلم يصلنا من رسومها الأمثال واحد يرجع إلى أواخر ذلك العصر (٤٨٤ - ٥٠٣هـ / ١٠٩١ - ١١٠٩م) [٢٠]، ومن خلال هذا الرسم يمكن القول بأنه على الرغم من أن سيوف عصر الطوائف تعتبر استمراراً للطابع الخلافى ، إلا أنها تميزت

باستطالة نصولها وتدبب أطرافها بحيث اتخذت شكل مثلث أضلاعه الجانبية تميزت بشدة استطالتها مع ملاحظة أن تلك الانصال ذات شطبة على غرار نظائرها التى ترجع إلى بداية عصر الخلافة .

وتمثل مقابض السيوف فى عصر الطوائف أحد العناصر الرئيسة التى نلمس فيها مدى تطورها عن مثيلتها الخلافية . ويتجلى هذا التطور فى نزعة الفنان نحو التماس القيم الجمالية فى تشكيل تلك المقابض حيث عمد إلى تشكيل القبيعة فى هيئة زهرة لوتس ثلاثية البتلات تقوم على قاعدة مستطيلة . أما الواقية فلم يلتزم فيها الفنان بالشكل الهلالى التقليدى ، إنما جعلها مستطيلة أطرافها تتجاوز قليلاً النصل .

وإذا انتقلنا إلى عصر دولتى المرابطين والموحدين نجد أن سيوف هذين العصرين قد اختلفت عن نظائرها السابقة التى ترجع إلى عصرى الخلافة والطوائف حيث تميزت بأربع أنماط أو طرز رئيسة . الأول ممثل فى شكل (٥) ويظهر فيه النصل مثلث الشكل مستقيم الهيئة ذات حدين وطرفه شديد التدبب . ومن أهم مظاهر التطور فى أنصال هذا الطراز اشتمالها على ثلاث شطب فى أحد وجهيه موزعة اثنين جانبيين يمتدان مع بدن النصل كما لو كانت أطراف مزدوجة . أما الشطبة الثالثة فمركزية متموجة .

والواقع أن تعدد شطب نصل السيف فى هذا الطراز يدل على مدى العناية بجعله متيناً فمن المتفق عليه فنياً أنه كلما تعددت الشطب قل وزن النصل وزادت قوته (٢١).

وتمتاز مقابض هذا الطراز بروعة تكوينها الزخرفى فالقبيعة اتخذت شكل رأس طائر أشبه برؤوس النسور رقبته التى تمثل موضع قبضة اليد تتدرج نحو الداخل فى انحناء مقعر . بحيث تؤلف فى جملتها مع الواقية شكل منشورى، أما الطراز الثانى الممثل فى شكل (٦) فيظهر فيه النصل سميك وعريض وذو حدين وشطبة واحدة متموجة تمتد من فم الغمد إلى الثلث الأخير من طرفه الذى ينتهى برأس أقل تدبباً من نظائرها فى النماذج السابقة .

أما المقبض فيمتاز ببساطة تكوينه فقبيعته تتخذ شكل كروى أما واقيته فهى على نمط الواقيات الخلافية هلالية الشكل ، وأن تميزت هنا بأنها مفلطحة .

أما الطراز الثالث الممثل فى شكل (٧) فيختلف عن الطراز الثانى فى ضيق مساحة النصل وقلة سمكه وفى اشتماله على شطبة واحدة مستقيمة وليست متموجة . أما مقبضه

فرغم احتفاظه بالشكل الكروى للقبيعة التى ظهرت في الطراز الثانى . إلا أن واقيته اتخذت شكل اسطوانى مجوف يتفق مع حركة معصم اليد أثناء الطعن .

وفى الطراز الرابع والأخير الممثل فى شكل (٨) نلاحظ أن أوجه الخلاف بينه وبين أشكال السيوف فى الطرز السابقة تنحصر فى أن نصله تحول إلى نصل طويل شديد الاستطالة لاسيما فى النصف الثانى المتصل بالواقية . وفى أن طرفه ازداد حجمًا ومال إلى الاستدارة بدلاً من الشكل المدبب . كما نلاحظ أيضًا أنه على الرغم من اتساع سطح النصل ذى الحدين وازدياد سمكة فى هذا الطراز إلا أنه لم يشتمل على أى شطب أو قنوات .

أما عن زخارف السيوف التى ترجع إلى عصرى المرابطين والموحدين فلا نستطيع التعرف عليها لأنه لا المصادر العربية ولا صورها المرسومة تفصح عن ماكانت عليه زخارف تلك الفترة.

سيوف عصر بنى نصر :

يعتبر عصر بنى نصر العصر الذهبى لصناعة السيوف الأندلسية إذا امتدت شهرة سيوف هذا العصر إلى جميع أنحاء أسبانيا المسيحية والإسلامية ، فأقبل ملوك قشتالة على اقتنائها حيث أكدت المدونات المسيحية ، على أنها كانت من أفضل ما يهادى به ملوك بنى نصر نظائرهم من ملوك قشتالة ؛ فالسلطان محمد الرابع أهدى الملك ألفرنسو الحادى عشر بمناسبة عقد معاهدة سلام بينهما سيف محفوظ فى غمد مطلى بالذهب .. ، كما أرسل السلطان يوسف الثالث إلى خوان الثانى جملة هدايا كان من أبرزها سيوف مصنوعة من الفضة الخالصة[٢٢]. وقد واظب ملوك أسبانيا المسيحية على اقتناء تلك السيوف والاحتفاظ بها جيلاً بعد جيل حتى بداية القرن الحالى وهو الأمر الذى يوضح نظرة هؤلاء الملوك لتلك السيوف لا باعتبارها أداة للقتال وإنما بما تمثله من قيم ومعان فضلاً عن ثمانة مادتها وليس أدل على ذلك من أن جميع السيوف التى وصلتنا كانت بحوزة عدد من الملوك المسيحيين مثل الملك ديجو فرنانديث ملك قرطبة فضلاً عن عدد كبير منها قد احتفظ بها ملوك قطالونية ونسبوها لأنفسهم وظلت محفوظة لديهم حتى عام ١٩٠١م بدير Nevda إلى أن انتقل بعضها فى عام ١٩٠٦م إلى المتحف الحربى ، وظل بعضها محفوظًا لدى ابن الملك ألفونسو الثالث عشر إلى أن تم نقلها إلى القصر الملكى بمدريد عام ١٩٢٧م[٢٣].

ولاشك أن الفنانين فى عصر بنى نصر قد شاهدوا ما أحرزته صناعة السيوف خلال هذا العصر من تنوع وازدهار فأعجبوا بها وراق لهم استعمالها كأحد الوسائل الزخرفية لتزين جدران بعض قاعات وقباب قصورهم على نحو ما نراه فى قاعة الملوك بقصور الحمراء وفى أحد قاعات قصر البطل (٢٤).

والواقع أن لهذه الرسوم أهمية كبيرة فى دراستنا للسيوف الغرناطية فمن خلالها يمكن القول أنه على الرغم من احتفاظ السيوف الغرناطية فى شكلها العام بما كانت عليه سيوف العصور السابقة . إلا أن تفاصيل مكوناتها قد طرأ عليها تطوراً واضحاً لاسيما فى أشكال الشوارب أو الواقيات التى اتخذت أشكال منحنية متجاوزة لنصف الدائرة ، وقد امتدت العناية بأشكال السيوف الغرناطية إلى الاهتمام بزخرفتها بشتى أنواع الزخارف حيث أكدت حوليات الفونسو الحادى عشر رقم (٢٣٥) أن أكثر السيوف الغرناطية كانت مزدانة بخيوط الذهب والفضة ومرصعة بأجمل أنواع المينا الزجاجية (٢٥).

ولحسن الحظ وصلت إلينا مجموعة من سيوف عصر بنى نصر أيدت ما ورد بشأن زخارفها المدونة سالفة الذكر حيث استخدم فى تحليتها أساليب كثيرة كالتكفيت بخيوط الذهب والتطعيم بالنيلو والطلاء بالمينا والتخريم والطرق والترصيع بقطع من العاج (٢٦). ووقد أطلق مؤرخو الفن الأوربيون على هذه المجموعة من الأسلحة اسم espadas de Jinetas بمعنى سيوف الفرسان (٢٧). كما اشتهرت أيضاً في معظم المراجع الأوربية والعربية الحديثة باسم سيوف أبو عبد الله . ولاتزال هذه التسمية معتمدة إلى الآن فى المتاحف المحفوظة بها . غير أن هذه التسمية الأخيرة التى تنسب تلك المجموعة من السيوف إلى السلطان أبى عبد الله آخر ملوك بنى نصر لا تقوم على أى سند تاريخى أو فنى . فلم تشر المصادر العربية إلى أن هذا السلطان كان له سيوف خاصة به أو سيوف دُعيت باسمه . كما أن تلك السيوف المنسوبة إليه تخلو من أية نقوش تشير إلى أن هذا السلطان قد أمر بصناعتها أو أنها قد صنعت فى عهده. علاوة على ذلك فإن عهد هذا السلطان لم تتألق فيه الفنون الصناعية أو المعمارية علي أى وجه من الوجوه بل على العكس كان عهد ركود فنى وانقسام ونزاع بين أفراد البيت النصرى(٢٨) وعلى هذا فإننى استبعد تسمية تلك السيوف بسيوف أبو عبد الله . وارجح أن السبب فى اشتهارها بهذه التسمية يرجع إلى أنها سلبت جميعًا فى عهد هذا السلطان فى موقعة اللسانة (٢٩). كما أرجح أيضًا أنها صنعت فى الفترة الممتدة من القرن ٨-٩هـ /

١٤-١٥م. على أساس أن معظمها يشتمل على شعار بنى نصر الكتابى "ولا غالب إلا الله تعالى " والذى ظهر خلال تلك الفترة فى معظم إن لم يكن فى كل المنشآت المعمارية والفنون الصناعية الى ترجع إلى عصر بنى نصر [٣٠]. ولذا فإننى أرى أنه من المناسب تسمية تلك المجموعة من السيوف باسم سيوف بنى نصر أو السيوف النصرية علاوة على تسميتها بسيوف الفرسان على أساس أنها تحمل شعار أسرة بنى نصر سالف الذكر . وأنها من النوع الذى كان يستعمله الفرسان على النحو الذى سوف نوضحه فيما بعد .

والنماذج التى وصلت إلينا من تلك السيوف يبلغ عددها عشرة نماذج علاوة على نموذج من النوع المعروف بسلاح الشيش . وهى موزعة على عدد من متاحف أسبانيا وخارجها مثل متحف مدينة كاسل والمكتبة الوطنية بباريس .

وفى نطاق تتبعى لتلك المجموعة من السيوف النصرية التى وصلت إلينا لاحظت أنها مرت بسلسلة من التطور خلال عصر بنى نصر الذى امتد لفترة تقترب من قرنين من الزمان أو أكثر قليلاً . ولذا فقد قمت بتقسيمها إلى ثلاث مجموعات تمثل طرز فنية مختلفة من حيث أساليب تشكيلها ووسائل زخرفتها وأوضحت خصائص كل مجموعة على النحو التالى .

أ – المجموعة الأولى :

تضم هذه المجموعة أربعة سيوف وقبل أن نتناول كل منها بالدراسة ينبغى الإشارة إلى أنها اتسمت بعدة خصائص فنية نوجزها فيما يلى :

١ – تمتاز هذه المجموعة بنصولها العريضة التى تشتمل على شطبات يتراوح عددها ما بين شطبة واحدة إلى ثلاث شطبات .

٢ – تتخذ الواقية بشواربها أو ذراعيها المتدبن أسفل فم الغمد شكل حدوى ينبث من قلب أو صدر الواقية الذى يتخذ شكل هندسى مخموس، رأسه مفصصة يبلغ عدد فصوصها خمسة فصوص، أوسطها أكبرها وهو على شكل عقد شديد الانكسار ؛ أما الفصوص الأربعة الجانبية الموزعة بمعدل فصين فى كل جانب، فقد اتخذ كل منهما شكل ربع دائرى بحيث تؤلف الفصوص فى مجموعها شكل عقد خماسى الفصوص من النوع الذى انتشر فى عمائر بنى نصر لا سيما فى قصور الحمراء .

٣ – تشكلت جوانب الواقية يميناً ويساراً من رأس حيوان خرافى فمه مفتوحة أشبه بشكل التنين ، بدنه يمثل ذراعى شوارب الواقية التى تنتهى بلفيفة دائرية ، وقد امتازت رؤوس الحيوان هنا بطابعها التجريدى المحور عن الطبيعة بحيث بدت كما لو كانت عنصر زخرفى وليس تشكيلى .

٤ – تمتاز الجوانب الداخلية لأذرع الشوارب أو الواقية المحصورة بين النصل والذراع بأنها مشكلة من أسلاك رفيعة رمادية اللون رتبت فى شكل شبكة مفرغة العيون .

٥ – امتازت القبيعة أو الطربوش فى مقابض تلك المجموعة بأنها دائرية المقطع ومسطحة البدن، يتوسطها إطار مركزى يعرف بالزر أو الكبسولة Boton اعتاد الصناع شغله بنص كتابى وطلاء أرضيته بالمينا الرمادية أو السوداء اللون . وغالبًا ما يتوج القبيعة أو الطربوش فى طراز هذه المجموعة سن قصير شبه دائرى المقطع أو منشورى .

٦ – على عكس معظم مقابض السيوف المشرقية منها و المغربية التى كانت تصنع فى الغالب من العاج أو الأبنوس أو الخشب النفيس (٣١). نجد أن جميع مقابض سيوف تلك المجموعة مصنوعة من المعدن الخالص . وقد أولى الصانع موضع قبضة اليد عناية خاصة فجعلها لوزية الشكل ناعمة الملمس بحيث تؤدى وظيفتها على نحو جيد فى قبضة المحارب .

٧ – من المرجح نسبة تلك المجموعة من السيوف إلى منتصف القرن ٨هـ/١٤م . ويحملنا على هذا الظن مقارنتها بأشكال السيوف المرسوم على جدران قصر البرطل(٣٢) المؤرخة بتلك الفترة حيث تكشف تلك المقارنة عن تطابق كل منهما من حيث الشكل. فضلاً عن اشتمالها على شعار بنى نصر الكتابى " ولا غالب إلا الله تعالى " الذى شاع ظهوره فى تلك الفترة على كافة الفنون المعمارية والصناعية التى تنسب إلى عصر بنى نصر .

٨ – أما عن أمثلة السيوف الأربعة الى تضمها تلك المجموعة والتى تمثلت فيها الخصائص سالفة الذكر فهى :

١ – سيف محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس (٣٣). وقد كان هذا السيف قبل أن يجد طريقه إلى مكان حفظه الحالى بحوزة إسكافى من أهل غرناطة ابتاعه لشخص يدعى ديبان Debiyen الذى أهداه إلى المكتبة المذكورة فى عام ١٨٦٢م(٣٤).

ويتألف السيف من نصل طويل مصنوع من الفولاذ يبلغ طوله ٩٥,٧سم وهو من النوع المستقيم ذي الحدين ينتهي بطرف قصير مدبب جوانبه مقوسة تقوسًا طفيفًا ، وتتميز صفحتى النصل باشتمالهما على ثلاث شطب علاوة على الجوهر[٣٥] الذى يتألف من بقع سودا ، على شكل النسيج الشبكي فوق أرضية ملونة بلون سماوي بدرجتيه الفاتح والداكن على نحو يذكر بالجوهر الذى يشغل أنصال السيوف الدمشقية . ويستوقف النظر هنا وجود رسم أسفل أحد شطب النصل الثلاثة قوامه رأس كلب صغير ذو رقبة صغيرة بمؤخرتها وبأعلى الرأس خطوط إشعاعية قصيرة . ويمثل هذا الشكل رنك أو شارة صانع غرناطى يدعى خوليان كان متخصصًا فى صناعة السيوف [٣٦].

هذا عن نصل السيف ، أما عن مقبضه فمصنوع من الفضة ومحلى بعدة أساليب فنية منها التطعيم بالنيلو[٣٧] والترصيع بفصوص المينا[٣٨] ذات ألوان متباينة تتراوح ما بين اللون الأبيض والرمادى والبنى الداكن .

ومن حيث زخارف هذا المقبض فقد بالغ الفنان فى تفاصيل عناصره الزخرفية الموزعة بانتظام بوجه وظهر أجزاء المقبض . فالقبعة تزدان من خارجها بعناصر نباتية متماثلة تظهر فى شكل لفائف متماسة بداخلها عناصر نباتية دقيقة التكوين تتخذ شكل محارة مضلعة لولبية . وفى قلب القبعة إطار دائرى بداخله شعار بنى نصر الكتابى " ولا غالب إلا الله تعالى " موزعًا بوجهى القبعة . وقد نفذ على أرضية نباتية مطلية بمينا سوداء ، ويزدان سطح السن أو السفود الذى يتوج رأس القبعة أو الطربوش بنفس العناصر النباتية التى تزين جوانب القبعة ، وأن ظهرت اللفائف هنا متشعبة ومتراكبة فى خط أفقى . أما عن موضع قبضة اليد فيشغله نص كتابى بالخط النسخى نطالع فيه شعار بنى نصر الكتابى " ولا غالب إلا الله تعالى" على مهاد من التوريقات النباتية المرسومة فوق أرضية مطلية بالميناء السوداء . ومن أهم ما يميز حروف كتابة هذا الشعار كبر حجمها مع المبالغة فى إضفاء الطابع الزخرفى فى رسم بعض الحروف . ونذكر منها على سبيل المثال والتخصيص حرف الواو الذى أفرغ فيها الخطاط عبقريته الفنية فبدت فى صورة زخرفية بحتة فاتخذت شكل حرف U ونفس الشيء نجده أيضًا فى حروف اللام التى حرص فيها الخطاط على مد قائمة ساق الحرف امتدادًا رأسيًا بحيث ظهر الحرف مشابهًا لرقم ٧ . مع ملاحظة أن كل من قائمى الحرف قد انتهى من أعلى بحد واحد مما يعبر عن حرص الخطاط على أحداث التناسق والتعادل فى توزيع سيقان الحروف ، كما زاد من

جمال هذا الحرف أنه اشتمل بداخله على زهرة نباتية محورة عن الطبيعة تشبه بقية التوريقات التى تتخلل أرضية الحروف فقد ملأت تلك التوريقات الفراغات واتخذ بعضها أشكال مراوح نخيلة من شحمتين امتازت بطابعها التجريدي [٣٩]. أما عن زخارف القسم الأوسط من المقبض فقرامها خطوط من فصوص المينا البيضاء تتداخل فيما بينها بحيث ينتج من هذا التداخل أشكال من أطباق نجمية بداخلها تشكيلات نباتية تسود فيها أوراق محورة عن الطبيعة .

أما عن واقية المقبض أو شواربه فقد ازدانت بمجموعة من العناصر الزخرفية المنفذة بأساليب متعددة منها فصوص المينا ذات اللون البنى والأسود والأبيض ، والتى نظمها الفنان بأسلوب هندسى قوامه تشكيل رباعى يتألف من أربع خطوط منحنية تضم بداخلها زهرة أشبه بزهرة اللوتس تنبت من ساق مستقيمة قصيرة . وقد انتشر هذا التشكيل على نطاق واسع بمسطح بدون قلب الواقية بحيث اختلط التوريق والتزهير بالضلوع والدوائر التى اتخذت شكل فروع نباتية شبه مستديرة . كما شغل الفنان قلب الواقية بشعار بنى نصر الكتابى الذى نراه محصوراً داخل مستطيل، أرضيته مطلية بالمينا السوداء .

وأما عن زخارف ذارعى الواقية اللذان يتخذان شكل جناحى طائر فقد اظهر الفنان براعة فائقة فى تزين هذا الجزء من الواقية . فزخارف الشبكية اتخذت تشكيلاً قوامه حلقات دائرية[٤٠] بداخلها أزهار محورة متعددة البتلات تتفق فى تشكيلها الدائرى مع صور الحلقات المحصورة بداخلها كما ازدانت الجوانب الخارجية لأذرع الواقية بأشكال معينات من فصوص المينا البيضاء يملأها حلقات مفرغة مترابطة أشبه ببراعم دائرية تتوزع فى انتظام وتماثل داخل أشكال المعينات . ونفس الشىء يتكرر فى العديد من أجزاء الواقية ، وقد اتخذت جوانب الواقية هيئة رأس كائن خرافى ، ورغم التجريد الواضح فى تشكيل هذا الكائن فإن الفنان استفاد من مهارته فى فنون الترصيع والتنزيل والتكفيت فى تجسيد بعض أعضاء هذا الكائن . فشكل أسنانه بفصوص من المينا البيضاء، وفصص شفته السفلى وذهب حدقة عينيه وزود فكه السفلى بفص من المينا اتخذ شكل قريب من أشكال قرون الفلفل التى تمتد لتنتهى من أسفل بسن مدبب [٤١].

ولهذا السيف جراب[٤٢] مصنوع من الخشب مكسو بالجلد طوله ٩٥سم ويحلى بدن هذا الجراب أربع قطع من الفضة موزعة واحدة فى كل من طرفاه العلوى والسفلى وثنتان قرب

منتصف الجزء الأوسط العلوى من الجراب [٤٣]. وقد ازدانت تلك القطع بزخارف متنوعة قوامها أنصاف مراوح نخيلية تقوم على ساق رأسية قصيرة، ينبثق منها فصان غير متماثلين العلوى يتميز باستطالته وانثناء طرفه العلوى فى شكل عكاز والسفلى اتسم بقصره . وتترابط الفصوص العكازية فى أوضاع متقابلة بحيث تؤلف أشكال تشبه فى استدارتها صور بيض النعام التجريدية ، وعلاوة على تلك المراوح ظهرت سيقان نباتية ملفوفة تمتد فى شكل قلوب نباتية تتألف من أنصاف مراوح نخيلية مجوفة تتفرع فى شكل باقة تتخذ فى أعلاها شكل عقد منكسر متجاوز . وتتوزع تلك الزخارف على كل من جانبى القطع المعدنية يميناً ويساراً بحيث تحصر مثلثه يضم بين رؤوسها المدببة شكل مستطيل قاعدته بداخله شعار بنى نصر الكتابى موزع على صفحتى الجراب على النحو التالى (ولاغا) فى الصفحة الأولى . وفى الصفحة الثانية (لب إلا الله تعالى) . وقد نفذت حروف هذا الشعار على أرضية نباتية مطلية بالمينا السوداء . واستكمالاً لزخارف تلك القطع استعان الفنان بشبكة من أسلاك الفضة المنفذة بأسلوب التكفيت تتألف من أشرطة متموجة مجدولة، تنتصب رأسياً وتمتد أفقياً داخل جامات بيضية بحيث تكون حروف شعار بنى نصر الكتابى " ولا غالب إلا الله تعالى ".

ويسترعى النظر فى القطعة الثانية من أعلى من مجموع القطع الأربعة سالفة الذكر وجود حلقتين الغرض منهما تعليق السيف حول الرقبة بحيث يتدلى على الصدر عن طريق شريط من الحرير ينفذ فى تلك الحلقات على نحو يذكر برسوم صور الأشخاص المثلة فى قبة قاعة الملوك بقصر الحمراء .

٢ - سيف محفوظ فى المتحف الوطنى بمدينة كاسل بألمانيا[٤٤] ويبلغ طول السيف بما فى ذلك مقبضه ٩٧سم ، ويتألف من نصل مصنوع من الفولاذ ومقبض من البرونز المذهب والمطعم بفصوص المينا متعددة الألوان . ويتسم السيف بجلال الشكل وجمال النسب فنصله من الجوهر الذى يتميز بخطوطه الملونة بلون رمادى داكن على غرار جواهر السيوف الهندية والفارسية ، ويتشكل جوهر هذا السيف من خطوط ناعمة متداخلة على شكل النسيج الشبكى الذى يقسم صفحتى النصل إلى مسافات قصيرة متساوية ترسم بقع عريضة مستطيلة . ويتحول نصل هذا السيف قبيل الطرف إلى نصل ذى حدين طرفه مدبب وعليه شطبة واحدة عريضة . كما يشتمل هذا النصل قرب الثلث العلوى منه على ختم دائرى يتضمن نقش كتابى موزع على أربعة

خطوط أفقية ، وحروف هذا النقش غير مقروءة لدقتها وصغر حجمها . وربما يمثل هذا الختم شعاراً للصانع أو المصنع الذى أنتج هذا السيف .

أما عن مقبض هذا السيف فلا يكاد يختلف فى تفاصيل تكوينه عن مقبض السيف السابق ، وإن كانت زخارفه قد تميزت بسيادة الأشكال النجمية مثمنة الرؤوس[٤٥] المموهة بمينا مختلفة الألوان يغلب فيها اللون الأسود مع اللونين الأحمر والأخضر ، وتتجلى سيادة تلك الأشكال فى كل من قلب الواقية وعلى موضع قبضة اليد المخروطية ، وفى الإطار الدائرى المركزى للقبعة الأسطوانية المسطحة ، وتظهر تلك الأشكال النجمية مترابطة فيما بينها عن طريق أشكال نجمية مثمنة الرؤوس أيضًا ولكنها مذهبة مما أحدث تناوبًا رائعًا فى ألوان تلك التشكيلات النجمية ، التى ازدانت أحيانًا بأزهار نباتية ذات برعم دائرى أو لوزى مغلق ، وأحيانًا أخرى بنوع من الجامات رباعية الفصوص . ويستلفت النظر فى زخارف هذا المقبض أيضًا أن شواربه قد تشكلت من أسلاك ملفوفة تميزت بتعددها وتراكيبها بحيث رسمت فى مجموعها وحدات زخرفية متماثلة قوامها تفريعات نباتية مفرغة . كما ازدانت الجوانب الخارجية من الشوارب أو ذراعى الواقية بلفائف رقيقة نقشت عليها أوراق تتخذ شكل أنصاف مراوح نخيلية رقيقة تمتد من أعلى اللفائف بحيث تبدو كما لو كانت مستقلة عنها . كما ازدانت تلك اللفائف أيضًا بتشكيلات هندسية مجدولة وعناصر ملتوية خطافية الشكل . وقد نفذت كل هذه الزخارف على أرضية مموهة بالمينا .

ولهذا السيف جراب طوله ٨٥،٥سم[٤٦] مصنوع من الخشب المكسو بالجلد والمحلى بقطع برونزية مذهبة ملبسة فى طرفى الجراب وفى الثلث الأخير منه . فضلاً عن دلاية من نفس المادة البرونزية ، وكل هذه القطع مموهة بالمينا السوداء . ومع أن كسوة هذا الجراب جاءت عاطلة من الزخارف فإن الفنان وفق فى إحداث تناوب بين لون هذا الجراب المصبوغ باللون البنى الفاتح المائل للإصفرار وبين ألوان الحليات البرونزية المذهبة الملبسة بكسوة الجراب الجلدية . كما وفق أيضًا فى جعل زخارف تلك الحليات وألوانها شبيهة إلى حد التطابق بألوان وزخارف مقبض السيف . وأن تميزت تلك القطعة بأن ثنتان منها قرب الثلث الأخير من الجراب ينتهيان من أعلى وأدنى بأسلاك مزدوجة من البرونز المذهب، تتألف من عدة فصوص متراكبة تقوم على إطار من أسلاك مضفورة تدور باستدارة بدن الجراب ، ويشغل ما بين الفصوص ويتصل بها أسلاك مجدولة تحصر بينها توريقات نباتية تتلاقى عند برعم كمثرى ، وتتفرع من ساق

قصيرة من وسط هذا البرعم بحيث يتعذر على غير المدقق تميز شكلها الحقيقى . ويستلفت النظر فى شكل هذه الزخارف أنها قد نفذت فى مجموعها على نحو يقر بها إلى شكل شجرة الحياة ، ومالت فى معظمها نحو الاستدارة والدقة والاتقان فى تنفيذها بحيث كونت فى مجموعها شكلاً زخرفيًا رائعًا أهم ما يتميز به التماثل والتعقيد المبالغ فيه . ويستلفت النظر فى حليات هذا الجراب وجود أربع حلقات تتصل بالقطعتين اللتين تحليان الثلث العلوى من الجراب عن طريق اللحام معلق فيها حلقات فى شكل دبلة كان يوضع فيها دلايات معدنية من نفس مادة حليات الجراب تبقى منها واحدة تميزت بثراء زخرفى رائع ، فبدنها محلى بأشكال نجمية مثمنة على غرار الأشكال التى تسود جميع القطع المعدنية فى الجراب ، وفى مقبض السيف كما تميزت أيضًا بأن حافتها الخارجية قد تشكلت من أسلاك مزدوجة ملفوفة تنتهى من أعلاها ببراعم مفصوصة ثلاثية ومزدوجة تنبثق من سيقان تلتف داخل الأسلاك الملفوفة التى تميزت بأن لفائفها المستديرة قد حوت بداخلها توريقات نباتية أطرافها شبه مغلقة تتفرع على جانبى ساق رأسى محورى .

وتشهد زخارف تلك القطع فى مجموعها على مدى ما وصلت إليه زخارف الحليات المعدنية فى عصر بنى نصر من تعقيد وتطور كما ساعدت بعض زخارف هذا السيف وجرابه على تأريخه، ففى رأى أحد مؤرخى الفن أن الأشكال النجمية الموزعة بجميع القطع المعدنية تشبه نظائرها التى ظهرت فى شبكات المعنيات الجصية المفرغة ببهو الأسود بقصور الحمراء(٤٧) ، وعلى هذا يمكن القول بأن هذا السيف يرجع إلى عهد السلطان محمد الخامس الغنى بالله الذى تنسب إليه مجموعة مبانى بهو الأسود .

٣ - سيف مصنوع من الفضة المذهبة محفوظ فى كنيسة سان تيلمو دى سان سبستيان(٤٨) . وفيه نلاحظ تشابه واضح بينه وبين النموذجين السابقين لاسيما النموذج الأول . فالواقية اتخذت فى تشكيلها طابعًا له ذاتيته بحيث يمكن أن يطلق عليه الطابع النصرى ، ويتميز هذا الطابع بأن الواقية تشكلت فى هيئة رأس لحيوان خرافى يتدلى من فمه المفتوح إحدى ذراعيها ، وتشكيل الواقية على هذا النحو يمثل نموذجًا ظل متبعًا فى تشكيل مقابض السيوف النصرية على هيئة رؤوس لحيوانات خرافية أو حقيقية . تزدان فى كل من جانبى ذراعيها برأس لحيوان خرافى يتدلى من فمه المفتوح أحد أذرع الورقية . كما أن طربوش الواقية اتخذ الشكل الأسطوانى المألوف ذى الإطار المركزى . أما النصل فعريض ذى حدين ،

وعلى صفحته شطبة واحدة عريضة (٤٩). وعلى غرار النموذجين السابقين تركزت زخارف هذا السيف فى مقبضه وجرابه ، فالمقبض ازدان بتوريقات نباتية مموهة بمينا متعددة الألوان وزعت بانتظام على قلب الواقية وموضع قبضة اليد والتشبيكات المفرغة المحصورة بين ذراعى المقبض والنصل . ويحتفظ هذا السيف بجرابه المصنوع من الخشب والمكسو بالجلد والمحلى بقطع معدنية مزدانة بتوريقات نباتية قوامها أنصاف مراوح نخيلية مصبعة تدور فى تلاحم بأعلى وأدنى تلك القطع . وقد نفذت كل هذه الزخارف سواء على النصل والمقبض أو الحليات المعدنية بأسلوب الطرق .

٤ - سيف محفوظ فى متحف المتروبوليتان بنيويورك(٥٠) ينسب إلى آخر أمراء بنى سراج(٥١) ويختلف هذا السيف عن النماذج سالفة الذكر فى أن نصله مصنوع من النحاس المذهب ، ويتميز هذا النصل بأنه طويل ومستقيم يتحول قبيل الطرف إلى نصل ذى حدين وعليه ثلاث شطب . ومقبض هذا السيف من البرونز وعليه آثار تذهيب ، وفيه زخارف من فروع نباتية مطلية بالمينا ذات لون أزرق على أرضية سوداء ، ويخرج من تلك الفروع أزهار مطلية باللونين الأبيض والأحمر الشفاف . وتمتد هذه الزخارف لتكسو قبعة المقبض وواقيته والجزء المركزى منه فضلاً عن شريط كتابى يدور حول زهور متعددة البتلات مطلية بلونين أبيض وأحمر قاتم ، وإلى جانب هذه الزخارف النباتية والكتابية ظهر أيضاً فى زخارف ذراعى الواقية حلقات دائرية مطلية بلون أسود تتضمن زهيرات مذهبة ومكفتة بالفضة . وإذا انتقلنا إلى جراب هذا السيف نجد أن معظم هذه الزخارف قد تكررت على الحليات النحاسية المذهبة الموزعة على بدن ذلك الجراب .

المجموعة الثانية :

يمثل هذه المجموعة سيفين تميزا بعدة خصائص فنية نوجزها فيما يلى :

١ - تتسم أنصال تلك المجموعة باستطالتها واتساعها وانتهائها برأس مقلطح يحمل حدين كما تشتمل على شطبة واحدة عريضة تبدو فى شكل قناة شديدة الانحدار تجاوزت فى امتدادها منتصف بدن النصل الذى تميز بشكله المسحوب بحيث يتضخم بدنه المستطيل من أعلى ويستدق من أسفل .

٢ - تميزت الواقية فى مقابض هذه المجموعة بأنها أقل حجماً وأكثر دقة من مثيلتها فى المجموعة الأولى . كما اختلفت عنها فى تفاصيل مكوناتها ، ويتضح وجه الخلاف بينهما فى

أنها هنا اتخذت شكل حرف U مقلوب منتظم الجوانب بدلاً من الشكل الحدودى الذى يميل فى انحناء نحو الخارج ، الأمر الذى ترتب عليه أن أصبحت المسافة المتروكة بين النصل وذراعى أو شوارب الواقية فى المجموعة الأولى أكثر اتساعًا مما هو عليه فى المجموعة الثانية التى بدت لشدة استقامتها كما لو كانت ملتصقة بحدي النصل . كما نلاحظ أيضًا أن قلب الواقية هنا اتخذت شكل معين ضلوعه مسننة أو مفصصة بدلاً من الشكل المخموس فى المجموعة الأولى.

٣ - استبدلت رؤوس الحيوانات الخرافية فى هذه المجموعة ، التى كانت تمثل رأس تنين بجوانب الواقية فى المجموعة الأولى برؤوس فيلة، يتدلى من فم كل منها زلومة تمثل إحدى ذراعى الواقية .

٤ - انتقلت الشبكات السلكية المفرغة فى هذه المجموعة إلى خارج الأذرع أو الشوارب فى حين كانت من المجموعة الأولى محصورة بين النصل والأذرع من الداخل .

٥ - اتخذت القبيعة أو الطربوش فى مقابض هذه المجموعة شكل كروي بدلاً من الشكل الاسطوانى المسطح . واتسمت رؤوس تلك القبيعات بشكلها المخروطى الذى يستدق من أعلى ويتضخم فى استدارته من أسفل بدلاً من الشكل المتشورى فى المجموعة الأولى .

٦ - استحدث الفنان أسلوبًا جديداً في زخرفة موضع قبضة اليد، يعتمد على تطعيم القسم الأوسط منه بالعاج فى حين كانت تخلو نماذج المجموعة الأولى من هذا الأسلوب .

٧ - اعتمدت مقابض هذه المجموعة فى زخارفها على أسلوب التكفيت بخيوط الذهب بدلاً من أسلوب الترصيع والطلاء بالمينا ، الذى اعتمدت عليه زخارف نماذج المجموعة الأولى، وقد تجسدت تلك الخصائص فى نموذجين من السيوف النصرية هما :

١ - سيف محفوظ فى المتحف الحربى بمدينة مدريد(٥٢) ينسب إلى الأمير على العطار(٥٣) يتألف من نصل مستقيم يتميز باستطالته وانتهائه برأس عريض، يتحول قبيل الطرف إلى نصل ذى حدين، بحيث يضمن سلاح جيد للقطع والطعن معًا وعلى هذا النصل شطبة واحدة عريضة مجوفة .

وقد أولى الفنان زخارف مقبض هذا السيف عناية خاصة، بحيث يمكن القول بأن مقابض السيوف فى تلك المجموعة اتجهت فى تطورها نحو الزخرفة البحتة ، ويلاحظ هذا التطور في تطعيم موضع قبضة اليد بكسوة عاجية، احتشدت بعناصر زخرفية عديدة، قوامها أنصاف

مراوح نخيلية، تتألف من فصين متفرعين على نحو متماثل من ساق لولبية الشكل تحصر بداخلها شكل هندسى مسنن أشبه بأشكال التروس . وعلى جوانب تلك التشكيلات المروحية تتفرع خطوط دقيقة، تحيط بأوراق مستديرة وأزهار مدببة الشحمات، موزعة بالتناوب داخل وخارج الفصوص المروحية، فبدت فى شكل شبكة زخرفية مفرغة . وعلاوة على تلك الزخارف النباتية التى غلب عليها الطابع الهندسى والمنفذة بأسلوب الحفر البارز توجد أشرطة كتابية محصورة داخل أطر بطاقية، نطالع فيها بالخط النسخى عبارة (الملك الدائم والعز القائم) . ونفس هذه الزخارف نجدها تزين كل من قلب وذراعى الواقية فضلاً عن بدن القبيعة مع اختلاف بسيط يتمثل فى أنها نفذت بأسلوب التكفيت بخيوط الذهب بدلاً من أسلوب الحفر البارز . كما اتخذت جوانب أذرع الواقية صورة رأس فيل زلومته تمثل شوارب أو ذراعى الواقية .

٢ - سيف محفوظ فى مجموعة بيدال(٥٤) يتكون من نصل عريض ذى حدين يشبه فى تكوينه نصل السيف السابق ، وإن اختلف عنه فى بعض التفصيل من حيث أن الجوهر قد ظهر على نصل هذا السيف على هيئة خطوط دقيقة سوداء ، وأن شطبته بدت عريضة مسطحة وليست مجوفة .

ويستلفت النظر فى هذا النصل وجود رنك يتكون من حلقتين متداخلتين، تضمان حروف وطلاسم الغرض منها على الأرجح هو حفظ السيف وحمايته من الضياع ولكى يؤدى عمله فى يد صاحبه على خير وجه . وفى رأى أحد مؤرخى الفن أن هذا الرنك من نوع الرنوك الشخصية التى تشير إلى صانع يدعى خوليان كان متخصصاً فى صناعة السيوف زمن بني نصر (٥٥).

أما عن مقبض هذا السيف فمصنوع من الفولاذ المذهب ، ورغم احتفاظه فى شكله العام بنفس مكونات مقبض السيف السابق ، إلا أنه يختلف عنه شكلاً وزخرفة ، فبالنسبة للشكل نجد أنه يميل فى مجموعه إلى الضخامة، كما أن موضع قبضة اليد تحولت إلي قطعة واحدة مركبة فى فم الغمد، تأخذ شكل مخروطى مسطح عاطل من الزخرفة . أما بالنسبة للزخرفة فأقل ثراء وتنوعًا وجمالاً من نظائرها على مقبض النموذج السابق(٥٦) حيث تغلبت البساطة على الحلية التى أصبحت خالية من التكلف ، واقتصرت الزخارف على أشرطة متداخلة فى أوضاع أفقية ورأسية، تؤلف فى مجموعها أشكالاً دائرية مفصصة على الواقية وأخرى دائرية بالقبيعة . ويشغل منتصف بدن القبيعة شريط كتابى بالخط النسخى تطالع فيه شعار بنى نصر

الكتابى " ولا غالب إلا الله تعالى " وتمتاز حروف هذا النقش بأنها منفذة داخل إطار مستطيل قاعدته مثلثة .

ومن العناصر التشكيلية المهمة فى زخرفة هذا المقبض جوانب واقيته المشكلة على هيئة رؤوس فيلة أفواهها فاغرة يتخللها لفائف من أسلاك دقيقة . فضلاً عن الاهتمام بتزيين الشبكية التى تمثل امتداداً لزلومة رأس الفيل بأشرطة متقاربة قوامها حلقات مشقوقة تشكل بقعاً مستديرة أو مستطيلة وخطوط قصيرة ومتوازية مدخونة بلون رمادى يميل إلى البياض .

المجموعة الثالثة :

تضم هذه المجموعة أربعة سيوف تتلخص سماتها الفنية فيما يلى :

١ - تعد أنصال هذه المجموعة بوصفها آخر المجموعات التى تتناولها الدراسة استمراراً وافياً للشكل الذى ظهرت عليه أنصال السيوف الأندلسية منذ عصر الخلافة وحتى نهاية عصر بنى نصر من حيث المحافظة على الشكل المستقيم ذى الحدين والطرف المدبب أو نصف الدائرى ، ومع ذلك وعلى الرغم من الإبقاء على الروح المحافظة التى جمعت بين فنون الأندلس فى مجال صناعة السيوف فإن الصانع النصرى المعروف بمهارته الفنية قد أدخل بعض التحسينات فعلى عكس النماذج السابقة تميزت أنصال تلك المجموعة بخفه وزنها مما أضفى عليها مظهراً من الرشاقة .

٢ - طرأ تطور واضح فى شكل وزخرفة مقابض هذه المجموعة إذ استدارت شواربها واستعرضت فى انتظام بدلاً من الشكل الملفوف . كما اشتقت منها عناصر زخرفية متعددة تنوعت أشكالها واختلفت مواضع توزيعها عن نظائرها السابقة . فالعنصر الحيوانى الذى ظل يمثل عنصراً رئيساً فى زخرفة شوارب الواقية انتقل من جوانبها إلى نهاية أطرافها واتخذ صورة جديدة قوامها شكل حية كاملة ملفوفة تضم بين بدنها ورأسها من الخارج الشبكية .

٣ - امتازت الواقية فى سيوف هذه المجموعة بجمالها ودقة تنفيذها مع إبرازها فى صورة جديدة قوامها شكل جامة مفصصة فصوصها موزعة ضمن تشكيل هندسى رائع تنتظم بداخله فى تناسق وتوازن وحرية وحدات زخرفية متنوعة تتسم بتعدد عناصرها وتداخلها فيما بينها سعياً لشغل الفراغات العارية .

٤ - على الرغم من أن قبيعات تلك المجموعة ظلت محتفظة بشكلها الكروى الذى ساد فى مقابض المجموعة الثانية . إلا أنها هنا جنحت فى تشكيلها نحو الزخرفة الخالصة فبدت

أكثر ثراء . أما الحلية البارزة التى تتوج قمة القبيعة فقد تميزت بدنها المستدق الذى يميل إلي الاستطالة .

٥ - اعتمدت زخارف مقابض هذه المجموعة على تطعيم بعض أجزائها بالعاج فضلاً عن ترصيعها بمعظم ألوان المينا التى تميزت بدقة تفاصيلها وتنوع موضوعاتها الزخرفية . أما عن أمثلة السيوف التى تتمثل فيها السمات سالفة الذكر فهى :

١ - سيف محفوظ فى المتحف الحربى بمدريد ينسب إلى السلطان محمد الثانى عشر المعروف بأبى عبد الله (٥٧).

ويبلغ طول هذا السيف بما فى ذلك مقبضه ٦٧سم يتكون من نصل مستقيم يحمل جوهر يتألف من حبات دقيقة متقاربة المسام ألوانها رمادية تميل إلى اللون الأبيض الفاتح على نحو يذكر بشكل الجوهر الدمشقى الذى شاع ظهوره على أنصال السيوف الإسلامية(٥٨). ويتوسط نصل هذا السيف شطبة واحدة تميل فى انحدار نحو الداخل ، وتمتد من أعلى النصل لتتجاوز منتصف البدن بقليل ، كما تشتمل أيضاً على رنك على شكل حرف S محصور داخل نصفى دائرة يمثل طابعًا محببًا استهواه صناع السيوف النصرية فى تزيين أبدان أنصالهم مع تنوع مظهر هذا الرنك من نموذج إلى آخر .

أما المقبض فيحف به يمينًا ويساراً واقية فى شكل جامه منفصة، تقتصر فصوصها على ثلاث جوانب أما الجانب الرابع الذى يمثل قاعدة الواقية فعبارة عن حشوه مستقيمة مسطحة، ويعكس هذا الشكل الزخرفى للواقية وشواربها - التى بدت فى شكل خطافى أو لولبى رشيق لم يلتزم فيه الفنان بالشكل المعهود فى شوارب الواقيات السابقة - مدى التطور الذى تعرضت له مقابض هذه المجموعة إذ تألفت من بدن أفعى ذى عنق غليظ وفم مفتوح، وفق الفنان فى تشكيلها فى وضع يوحى بالحياة والحركة بحيث تجذب النظر برشاقتها وتدرجها فى توازن وتماسك مع البدن الأوسط من المقبض، الذى يمثل موضع قبضة اليد المطعم بحشوة من العاج يعلوها إطار هرمى منشورى الشكل ويدنوها آخر أسطوانى . وينتهى المقبض بقبيعة أو طربوش كروى يتوجه سن أو رأس أنبوبى مستدق للغاية .

أما عن زخارف هذا السيف التى تتركز بصفة أساسية كما هو مألوف فى مقبضه، فقد تعرضت لتطور واضح المعالم، فالفنان انتهج نهجًا جديداً فى تقسيم سطح المقبض إلى حشوات زخرفية تجمع بين الانسجام والتنوع ما بين عناصر نباتية وهندسية وكتابية ورسوم من الكائنات الحية المتمثلة فى شكل الأفعى ، وقد رصعت جميعها بفصوص المينا متعددة الألوان التى

يسود فيها اللون الأبيض والأحمر والأخضر، فضلاً عن اللون الأسود الذى استعان به الفنان كمهاد لتلك الزخارف .

ومن خلال الدراسة التحليلية لزخارف هذا المقبض نلاحظ رغم اختلافها لكنها تنبثق من فكرة فنية واحدة قوامها تفوق العناصر الهندسية على ما عداها من عناصر نباتية وكتابية وصور الكائنات الحية حيث تألفت تلك الزخارف من صلبان ذات مربعة كبيرة الحجم، احتشدت أرضيتها بخطوط دقيقة نفذت بطريقة التطعيم بالمينا وتقوم على سيقان رفيعة متموجة تتفرع منها ثمار وأزهار تملأ الفراغات التى تخلفت من تقاطع ضلوع الصلب(٥٩) بحيث تؤلف تشبيكة رائعة متكررة . وفى مركز تلك الصلبان الكبيرة صلبان صغيرة تظهر فى شكل معين أضلاعه غير مترابطة بحيث تتحول صورة الشكل المصلب إلى شكل حرف V معتدلاً ومقلوبًا بالتناوب . وبالإضافة إلى أشكال الصلبان نرى أيضًا عناصر نجمية تتألف من ثمانية رؤوس وأخرى سداسية الرؤوس نفذت فى مجموعها على نحو يقربها من شكل جامة تألفت من ستة رؤوس مدببة . وهكذا لعب هذا التكوين النجمى ذا الرؤوس المدببة دوراً مهمًا فى زخرفة الواقية وامتاز بتنوع صوره حيث ظهرت صور أخرى له شواربها بدت فى بعضها مكونة من ثلاثة أرباع نجمة خماسية الرؤوس تقوم على قاعدة أفقية مستقيمة وفى بعضها الآخر تألف من أنصاف نجوم مخموسة الرؤوس تتفق فى شكلها مع صورة أنصاف الجامات المفصصة ، وتضم كل هذه التشكيلات الهندسية بداخلها توريقات نباتية يغلب عليها الطابع التجريدى حيث استعان بها الفنان كأطر تحصر بداخلها وتمتزج معها الزخارف الهندسية مع مراعاة الانسجام القائم على التماثل بين فصوص الأوراق النباتية التى اكتسبت رقة ورشاقة من انثناءاتها وانتصابها وتقابلها وتدابرها . وقد زاد من جمال تلك الزخارف أنها جميعًا مطلية بألوان المينا المتباينة التى نميز فيها بوضع اللون الأبيض والأحمر والأخضر على أرضيتها السوداء .

وتمتزج الزخارف الكتابية مع التشكيلات الهندسية بما تضمنه من زخارف نباتية فتملأ فضاء منحنياتها داخل أطر بطاقية تمتد رأسيًا وأفقيًا لتضم بداخلها نقش كتابى بالخط النسخى نطالع فيه سورة الإخلاص . وبالتدقيق فى حروف هذا النقش نلاحظ أنها تتسم بقصرها واستقامتها وامتدادها فى زوايا حادة يابسة على نحو يقربها من حروف الخط الكوفى: وهى على هذا النحو تبدو أقل ثراء وتنوع فى حركاتها من نظائرها الممثلة على مختلف المنتجات الفنية والمعمارية التى ترجع إلى عصر بنى نصر فنهايات الحروف لا أثر فيها

للزخرفة كما أن بعضها مفقودة أو مشوه النهايات ، وربما جاء ذلك نتيجة حرص الخطاط على تنفيذها بحيث تخضع لاتجاهات الأشرطة البطاقية المحصورة داخلها رأسياً وأفقياً .

وتزدان الشبكة الزخرفية المفرغة التى تؤلف جوانب ذراعى الواقية بزخارف نباتية قوامها سيقان ملفوفة فى شكل أنصاف دوائر لولبية، تخرج منها أنصاف مراوح نخيلية مطلية باللونين الأحمر والأبيض على غرار السيقان الملفوفة التى تنبت منها . ويسترعى النظر فى تلك التشكيلات النباتية أنها منفذة بأسلوب هندسى حيث استفاد الفنان من اللفائف والتفريعات النباتية فى إحداث تشكيلات هندسية عبارة عن حلقات دائرية بداخلها أزهار وتوريقات نباتية موزعة على نحو متماثل فى أوضاع متقابلة ومتدابرة .

أما القسم الأوسط من المقبض والذى يمثل موضع قبضة اليد فمطعم بحشوة عاجية منقوشة بزخارف رائعة[٦٠] نميز من بينها أشكال جامات سداسية الضلوع[٦١] معقودة الرؤوس . وتتقاطع تلك الجامات فى إدناها مع أطر تتألف من خطوط مزدوجة منكسرة ، وقد تولد من هذا التقاطع أشكال بطاقية تملأها عبارات كتابية لا تؤلف صيغ متكاملة فهى ذات طابع زخرفى بحت . ويلتف حول تلك الجامات بداخلها وخارجها صور زخرفية متنوعة فمن الداخل نرى ورقات أكنش تتألف من أربع شحمات مفصصة تتفرع من ساق محورية منثنية وتضم بداخلها جامة رباعية الفصوص تشغلها من الداخل محارة مفصصة تتخذ شكل مروحى يشبه شعاع الشمس . وفى خارج تلك الأطر والجامات نلاحظ وجود أنواع أخرى من أزهار نباتية تتألف من ثمان بتلات وأخرى ثلاثية . فضلاً عن ثمار الخرشوف . كما يدور بتلك الحشوة العاجية من أعلاها وأدناها خطوط هندسية متداخلة تؤلف فيما بينها خراطيش بطاقية تتضمن نقوش كتابية بالخط النسخى[٦٢]. فضلاً عن أقراص دائرية من الفضة تكسو سطوحها زخارف منفذه بأسلوب الحفر ، ومطلية باللون الأبيض والأحمر والأسود ، وقوام تلك الزخارف فى الطوق العلوى سيقان نباتية متموجة تمتد على شكل قلوب نباتية يتوسطها نقش كتابى حروفه منفذة باللون الأحمر على أرضية مطلية باللون الأخضر نطالع فيه سورة الإخلاص موزعة على النحو التالى :

(قل هو / الله / أحد الله / الصمد لم) يليها على التناوب

(لم يلد ولم يو ...لد ولم يـ ... / ... كن له كفواً أحد)

أما الطوق السفلى فتكسوه تشكيلات نباتية نفذت بشكل جديد يتميز بوضوح فى الصورة ورشاقة الحركة ، فالتكوين النباتى تفرع من ساقين ملفوفين فى تموج يرتبطان عن طريق عقد

صغيرة أقرب ما تكون إلى الخواتم الدائرية ، وقد ضمت تلك السيقان داخل لفائفها وعلى كل من جانبيها توريقات مختلفة عنى بها الفنان عناية خاصة إذ أضاف إليها العديد من الحزوز والتفصيلات التى تتمثل فى أشكال الثمار الرمحية والمستديرة والبراعم الرقيقة المرتبطة بتوريقات صغيرة مستوحاة من سعف النخيل وأزهار عباد الشمس ، ولم يكتف الفنان بما أضفاه على السيقان من تنوع فى تموجاتها بل نوع كذلك فى شكل تلك السيقان التى ظهرت مشدوخة الوسط ، ويتخلل زخارف التوريقات الرمحية التى تؤلف فيما بينها أشكال قلوب نباتية أو حنايا مجوفة نقوش كتابية نطالع فيها عبارة (الله خير حافظ) .

أما قبعة هذا السيف فتعد من الأمثلة الرائعة التى استخدمت كعنصر تشكيلي وزخرفى فى آن واحد حيث اتخذت هى والسن أو السفود المخروطى الذى يتوجهها شكل قنينة رشيقة الشكل رائعة الزخرفة حيث ازدانت بكل أنواع التزويق من أدناها إلى أعلاها ، وتعتبر العناصر الهندسية من العناصر الملفتة للنظر فى زخارف هذه القبعة ، ففى كل جانب من جوانبها شكل نجمى مثمن الرؤوس يضم بداخله توريقات نباتية تشبه مثيلتها بالواقية إلى حد التطابق . ويحف بهذا الشكل النجمى من الخارج خطوط معقوفة تؤلف شكل رقم ٧ أو حرف V موزعة فى زوايا القبعة الأربعة تزدان بعناصر نباتية تشبه نظائرها فى صلبان الواقية ، وقد امتلئ الفراغ الواقع بين هذه الوحدات الهندسية بأطر بطاقية عبارة عن حشوات لوليبة يشغلها نص كتابى مكرر نطالع فيه سورة الإخلاص على أرضية من حبيبات صغيرة مذهبه . أما السفود أو السن الذى يتوج القبعة فقد احتشد بتوريقات نباتية متموجة تتناوب فيما بينها داخل سيقان زجاجية حفر بداخلها شعار بنى نصر الكتابى " ولا غالب إلا الله تعالى " .

ومن الملاحظ أن الفنان جنح فى تشكيلاته النباتية نحو التجريد فبعدت عن أصولها وظهرت فى هيئة أشرطة وبراعم مطلية باللون الأبيض تدور فى جميع الاتجاهات بحيث لا تترك فراغاً دون أن تملأه بالتفريعات الموزعة فى اتزان وتعادل بشكل يوحى بشجرة الحياة ولكن بصورة تجريدية (٦٣).

ولايزال هذا السيف محتفظاً بجرابه أو غمده المصنوع من الخشب المكسو بالجلد ويبلغ طوله ٧٧سم ، وقد حلى بأربع قطع من الفضة المذهبة مطلية بمينا متعددة الألوان وزعت على البدن . علاوة على قطعتين من الفضة تتدليان من كل من جانبى الجراب تقوم أحدهما وهى السفلية بدور زخرفى والأخرى تستخدم فى تعليق شريط من الحرير يدور بالكتف والرقبة ، وقد ازدانت

جميع هذه الحليات بعناصر هندسية متنوعة وكسيت الفراغات الواقعة بينها بصفائح من الفضة تلتف فى شكل ضفائر مزدانة بعناصر زخرفية قوامها أوراق تمثل ثمار الخرشوف وأنصاف مراوح نخيلية صيغت بصورة تجريدية وخطوط هندسية متقاطعة .

٢ - سيف محفوظ فى المتحف الوطنى بمدريد (٦٤):

مصنوع من الفولاذ مقبضه من اللاطون ويبلغ طوله بما فى ذلك مقبضه ٩٥سم ، وأول ما نسجله من ملاحظات على نصل هذا السيف أن شطبته العريضة تبدأ من منتصف البدن وتصل إلى نهاية طرفه المدبب ، وقد نقش عليها خاتم يمثل شعار للصانع خوليان(٦٥) مشكل على هيئة حلقتين متداخلتين حفرت عليهما نقوش تمثل علامات أو إشارات ليس لها أى معنى ، وتخلو من أى طابع زخرفي. ويبدو من أسلوب توزيع تلك النقوش أنها من نوع الشعارات الخاصة ذات الدلالة الرمزية أو الوظيفية التى شاع ظهورها على التمائم والتعاويذ الأندلسية منذ عصر الإمارة وحتى نهاية عصر بنى نصر (٦٦).

أما المقبض فتمثل مكوناته مرحلة مهمة من مراحل تطور أشكال مقابض السيوف فى عصر بنى نصر . فواقيته رغم أنها تحتفظ فى شكلها العام بالشكل الذى ظهرت عليه فى المثال السابق غير أنها اختلفت عنها فى شكل الفصوص التى تكتنف جوانب قلب الواقية حيث نلاحظ أنهما يتفقان فى القاعدة العامة للتشكيل أي من حيث وجود فصوص متتالية تدور بجوانب قلب الواقية ولكنهما يختلفان فى بساطة تكوين الفصوص وتماثلها فى واقية هذا السيف كما نلمس فى ذراعى هذه الواقية تطوراً واضحًا فى شكل الشبكية التى ظهرت هنا لأول مرة مكونة من أسلاك دائرية مفرغة فى تراكب بحيث اتخذت فى مجموعها شكل مثلث مدرج كأسنان المنشار ، وهى على هذا النحو تختلف عن كل أشكال شبكات الأذرع السابقة واللاحقة عليها . ويضاف إلى ذلك أن أذرع الواقية نفسها التى تحتضن الشبكية من الخارج قد اختلفت عن نظائرها السابقة فى أنها أصبحت أقل حجمًا وأكثر نحافة ، وتميزت بأنها اتخذت شكل خطافى مجوف الوسط ومدبب الرأس. أما عن بقية أجزاء المقبض الممثلة فى موضع قبضة اليد والقبيعة فتتشابه إلى حد التطابق مع نظائرها السابقة وإن كانت هنا قد تميزت بأن موضع قبضة اليد قد خلت من الكسرة العاجية ومالت فى شكلها العام إلى الشكل اللوزى المخطروطى المقطع . وقد اختلفت أيضًا زخارف أجزاء هذا المقبض عن نظائرها فى أجزاء المقبض السابق من حيث أسلوب تنفيذها وعناصرها الزخرفية فهى منفذة هنا بأسلوب

التطعيم بخيوط مذهبة ومموهة بالمينا التى يغلب عليها اللون الأزرق والبنى. أما عناصرها فقد عمد الفنان إلى الاستعانة بحلقات دائرية متقاطعة تربطها عقد صغيرة بحيث تبدو كما لو كانت أشرطة مجدولة من الدوائر الموزعة فى أوضاع أفقية ورأسية وقد تولد من تقاطع تلك الدوائر أشكال معينات مسننة الرؤوس . ويشغل تلك الحلقات الدائرية نقوش كتابية بالخط النسخى موزعة على النحو التالى : فى منتصف قبضة اليد تطالع عبارة (الملك القايم / والعز الدائم) . وفى الطوق الهرمى العلوى منها عبارة (لا بقاية / إلا بالله / العالى) . وفى الطوق الأسطوانى السفلى نقرأ (القيمة كلها لله هو العلى) . أما القبيعة فنطالع فيها عبارة (لا بقاية إلا بالله القايم) . وتقوم كل هذه الزخارف الهندسية والكتابية على مهاد من التوريقات النباتية المحورة عن الطبيعة نميز من بينها أنصاف مراوح نخيلية وأزهار الزنبق(٦٧) .

٣ – سيف محفوظ فى المتحف الحربى بمدريد(٦٨) كان قبل أن تنتقل ملكيته إلى المتحف المذكور من مقتنيات الكردينال دون فرناندو شقيق الملك فيليب الرابع . وقد اصطلح على تسمية نصل هذا السيف بين بعض مؤرخى الفن اسم الفلامنكو Flamenco (٦٩) ، والواقع أنه ليس لهذه الكلمة أى مدلول فنى . كما أن معناها اللغوى فلمنكية غجرى أو مكتنز اللحم متورد الخد(٧٠) لايضيف شيئًا من شأنه أن يعيننا على معرفة المقصود من هذه التسمية . وفى تصورى أن هذه التسمية ربما قصد بها أن نصل هذا السيف هو الوحيد من بين جميع الأنصال الأندلسية الذى يتميز بأن صفحته منقوشة بخطوط متداخلة متباينة فى تموجات هندسية تؤلف فى مجموعها شكل النسيج الشبكى . وعلى هذا فربما استخدم هذا المصطلح للتعبير عن تلك الظاهرة من الخطوط ، والإشارة إلى ما يمتاز به نصل هذا السيف من ضخامة على اعتبار أن كلمة فلمنكة تعنى الشىء المكتنز كما سبقت الإشارة .

وعلى أية حال فإن تلك الخطوط تعد من الظواهر الفريدة التى انفرد بها نصل هذا السيف من بين النصال السابقة كما اختلفت عنها فى عدم اشتمال صفحته على أية شطبات ، وإن اتفق معها فى أنه من نوع النصال العريضة المستقيمة ذى الحدين . وفى اشتماله على رنك أو خاتم الصانع خوليان الذى ظهر على نصل السيف السابق ، وإن تميزت الحلقتان الدائرتان اللتان تمثلان هيئة هذا الشعار بكبر حجمهما واتساعهما .

أما عن مقبض هذا السيف فرغم وجود أوجه شبه وثيقة بينه وبين مقبض السيف السابق من حيث التزام الفنان بتشكيل جوانب الواقية على هيئة فصوص متعددة غير أن أشكالها هنا قد

بدت فى صورة زخرفية بحتة لا تعدو أكثر من خط ملتوى مقسم إلى عدة فصوص تنتهى فى أدناها بخط مثلث وفى أعلاها بقاعدة مستطيلة ، وهكذا اتجهت واقيات السيوف فى عصر بنى نصر فى تطورها نحو الإشراف والتفنن في استخدام الفصوص المتباينة كحليات زخرفية . ونفس الشيء أيضاً بالنسبة للذراعى الواقية فبعد أن كانت كما فى المثال السابق مجرد بدن مسحوب خطافى يتضخم فى أعلاه ويستدق فى أدناه وينثنى فى طرفه أصبحت هنا عبارة عن سيقان مستقيمة تنحنى جوانبها الخارجية وتنبت منها ورقتين ثلاثيتا الشحمات تمثل أنصاف مراوح نخيلية . وفى ذلك تأكيد على الاتجاه الزخرفى الذى سارت فيه مكونات مقابض السيوف حيث استلهم الفنان صورها من عناصر هندسية ونباتية تميزت برشاقتها ودقة تنفيذها على عكس صورتها فى بعض الأمثلة السابقة التى استوحاها الفنان من صور الكائنات الحية .

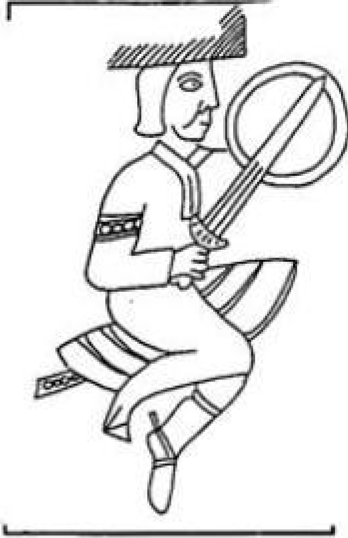
ومن مظاهر التطور التى نلمسها فى تشكيل مقبض هذا السيف أن موضع قبضة اليد قد اختلفت من حيث الشكل عن كل نظارها من السيوف السابقة . ويلاحظ هذا الاختلاف فى أن الصانع عمد إلى تجزئتها إلى ثلاثة أجزاء أسفلها قاعدة ناقوسية وأعلاها غطاء ناقوسى أيضاً ثم يصل بين الجزءين بدن كروى مفتوح بعد أن كانت تتألف فى معظم المقابض السابقة من قطعة واحدة لوزية أو مخروطية . أما عن زخارف مقبض هذا السيف فقد تفرقت فيه الزخارف النباتية حيث سادت فيه أشكال سيقان متداخلة بداخلها توريقات نباتية متراكبة فى أوضاع متقابلة ومتدابرة . وقد تشابكت تلك الوحدات النباتية فيما بينها داخل إطار واحد محزوز ، وإلى جانب تلك الزخارف النباتية نلاحظ وجود عناصر هندسية اقتصر ظهورها على قلب الواقية وهى عبارة عن حلقة دائرية كبيرة مكونة من أسلاك ملفوفة تحصر بداخلها أربع دوائر مفتوحة قليلاً تكاد تكون مغلقة موزعة فى تراكب بحيث تشبه فى مجموعها شكل السلسلة المجدولة . وقد نفذت كل هذه الزخارف بأسلوب الحفر البارز وطليت باللون الأحمر والأزرق والأخضر فضلاً عن اللون الأبيض الذى طليت به النجمة سداسية الرؤوس فى مسطح وجه القبيعة والتى فقدت طابعها حيث استدقت رؤوسها وأصبحت أقرب إلى شكل الترس وتوزعت حول رؤوس هذا الشكل النجمى زهور أو بتلات ملساء تجريدية مدهونة بنفس اللون .

٤ - سيف محفوظ فى مجموعة الكونت لوس ماركيس دى كومبنتيخار[٧١] يبلغ طوله بما في ذلك مقبضه أم [٧٢]. ويتكون من نصل مستقيم ذى حدين مصنوع من الفولاذ يحمل توقيع أو شعار الصانع خوليان ومقبض مصنوع من الفضة .

وأهم ما يستلفت النظر فى هذا السيف أن مقبضه قد انفرد بثلاث ظهور فنية غير مسبوقة أولها الاستعانة لأول مرة بصورة الكائنات الحية كعنصر زخرفى ضمن عناصره الزخرفية حيث ازدان كل من قلب الواقية وذراعيها بأشكال طواويس ظهرت على قلب الواقية فى هيئة طاوسين متدابرين يفصل بينهما حلقة دائرية مزيلة بزيل ببيض وعلى ذراعيها صورة طاوسين ظهورهما متدابرة .

والظاهرة الثانية تشهد على أن صناع السيوف النصرية قد أصابوا أبعد حدود التوفيق فى تنويع عناصرها الزخرفية . ويتجلى ذلك فى الاستعانة بكتابات تشبه خط الطغراء تشغل كل من الطوقين المعدنين اللذين يكتنفا موضع قبضة اليد وربما تشير تلك الكتابات إلى توقيع الصانع خوليان الذى تكرر على وتيرة واحدة على سطح الطوقين المعدنيين .

أما الظاهرة الثالثة فتتمثل فى الشبكة المفرعة التى تحيط بذراعى الواقية فمع أن الشكل العام لها به ثمة شبه بأشكال الشبكات السابقة ، إلا أن الفنان أتبع طريقة جديدة فى تشكيلها تقوم على تقسيمها إلى قسمين الأدنى أصم يقوم على توريق نباتى مروحى الشكل والعلوى مفرغ فى شكل عيون صغيرة . كما يظهر الفرق جلياً بين زخارف أجزاء هذا المقبض وأجزاء المقابض السابقة فى تزيين قبعته بإطار دائرى مطلى باللون الأسود يضم شريط مجدول فى هيئة عيون صغيرة نفذت بأسلوب ينم على أن فن التخريم غير المثقوب قد اكتمل نضجه الفنى فى المخرمات الدقيقة التى احتشدت بها معظم أجزاء المقبض فى رشاقة لا نظير لها . كما ازدان السفور البارز الذى يتوج تلك القبيعة بأشرطة مشدوخة على هيئة رقم (٧) .





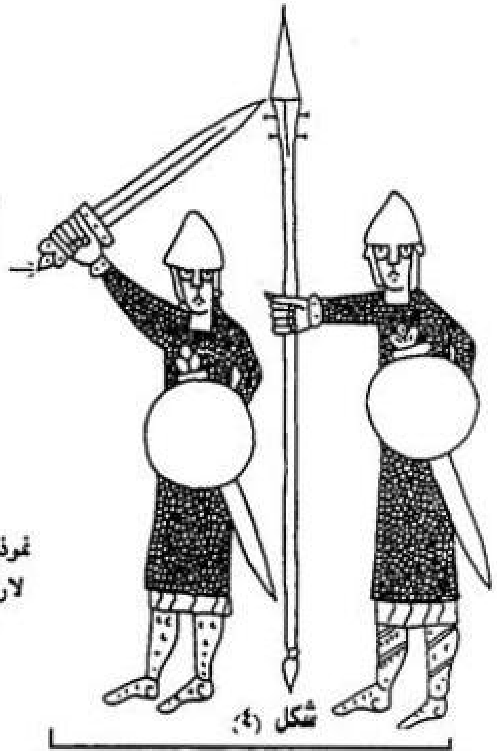
شكل (١)
رسم توضيحي لفارس يحمل سيف يزين علبة من العاج الأندلسي (مؤرخ بسنة ٣٥٩ - ٣٦٠هـ/ ٩٦٩-٩٧٠م . (عن توريس قرناندس)

شكل (٢)
رسم توضيحي لمحارب بأزياء حربية يحمل سيف يزين علبة من العاج تنسب إلى عبد الملك بن المنصور مؤرخة بسنة ٣٩٥-٣٩٦هـ/١٠٠٤-١٠٠٥م (عن توريس قرناندس)

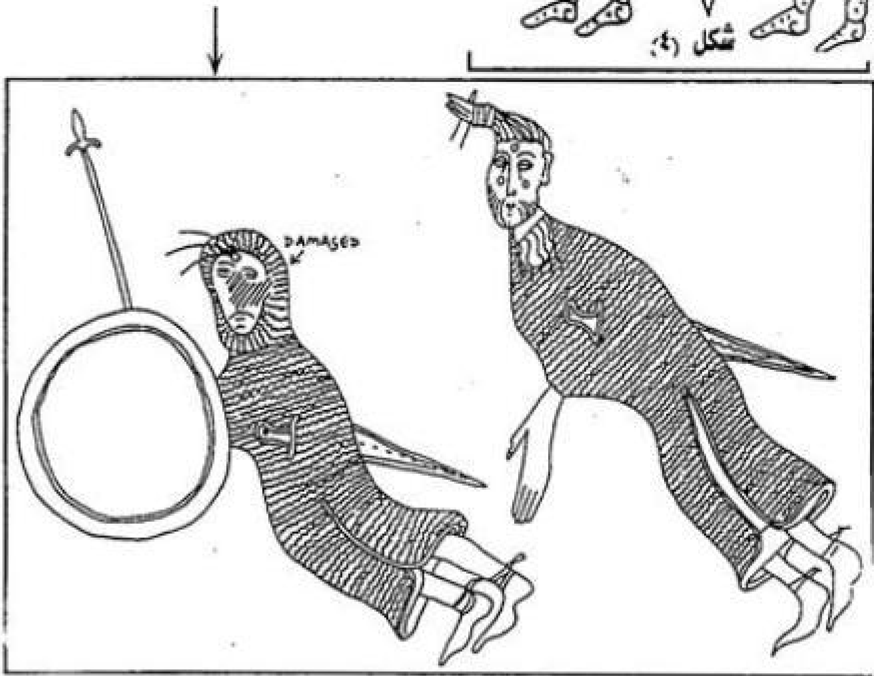


شكل (٣)
رسم توضيحي لسيف يمثل الشكل العام للسيوف المسيحية ، حوالي القرن ٧هـ / ١٣م (من مخطوط مدونات ألفونسو العاشر (عن توريس قرناندس)

شكل (٤)
رسم توضيحي لجندي في ثياب حربية يزين قطعة من نسيج الحرير محفوظة في المتحف البريطاني . بلندن من صناعة الأندلس . القرن ٥هـ/١١م (عن توريس فرناندس)

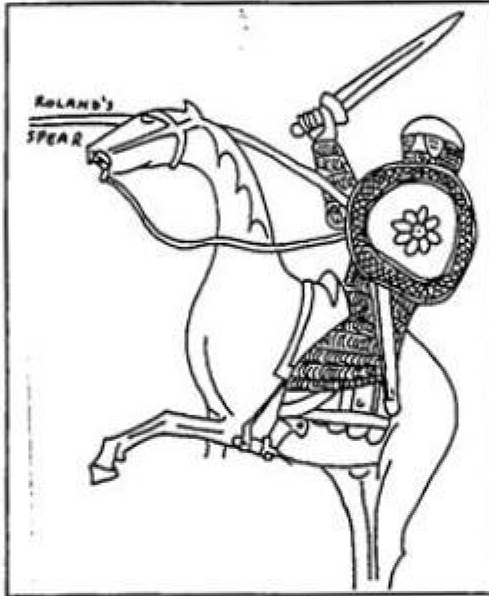


شكل (٥)
نموذج لزخارف جدارية كشفت عنها حفائر مدينة لارده . محفوظة في متحف الفن القديم بمدينة لارده . القرن ٦هـ/١٢م (عن بافون)

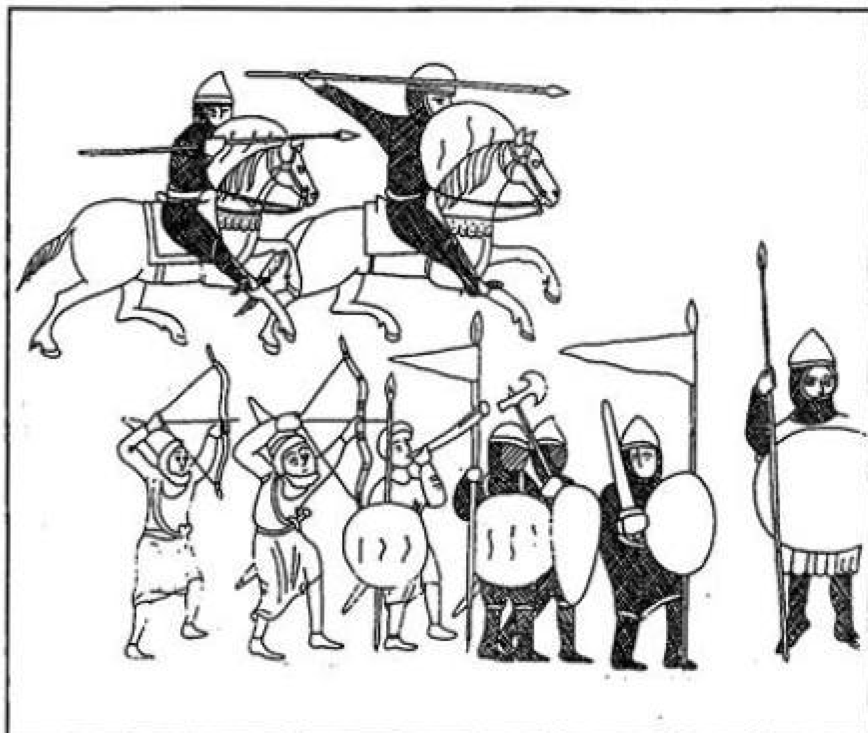




شكل (٦)
رسم توضيحى لمحارب جدارية يشهر سيفه بزين جلدة مخطوط محفوظ فى مكتبة الأسكوريال بمدريد
(عن توريس فرناندس)

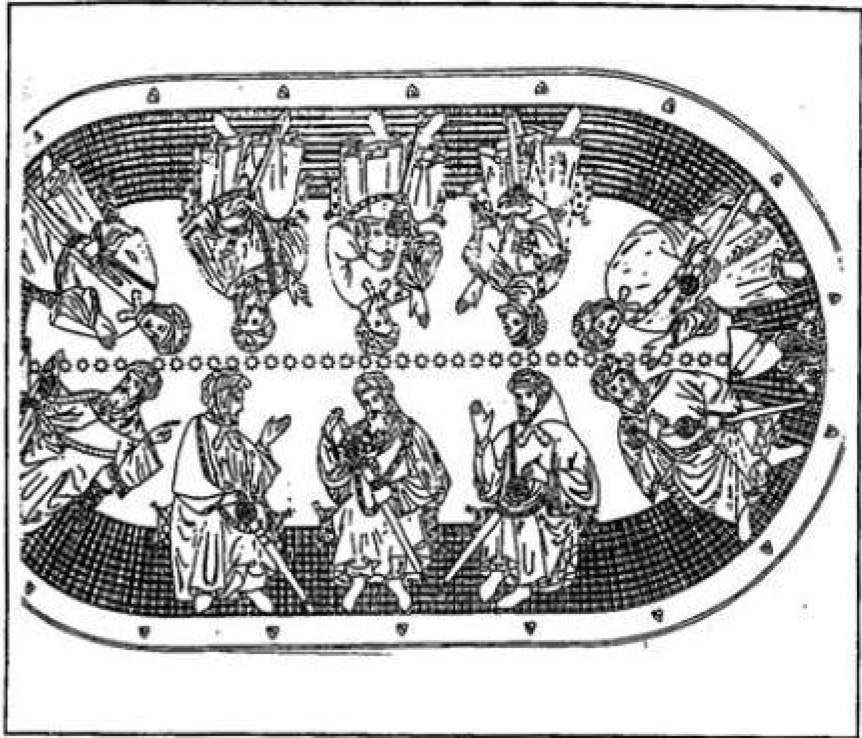


شكل (٧)
رسم توضيحى لفارس يمتطى ويشهر سيفه
بزين أحد تيجان الأعمدة المحفوظة فى كاتدرائية سارنكة
(القرن ٦هـ / ١٢م) (عن بورتس)



شكل (٨)

صورة تمثل منظر الخروج لأحد المعارك الحربية من محفوظ ألفونسو العاشر المحفوظ فى مجموعة مرجان بمتحف المتروبوليتان بنيويورك القرن (٦هـ / ١٢م) (عن توريس فرناندس)



شكل (٩)

صورة تمثل عشرة من ملوك بنى الأحمر فى مجلس حرب بأزيائهم الحربية

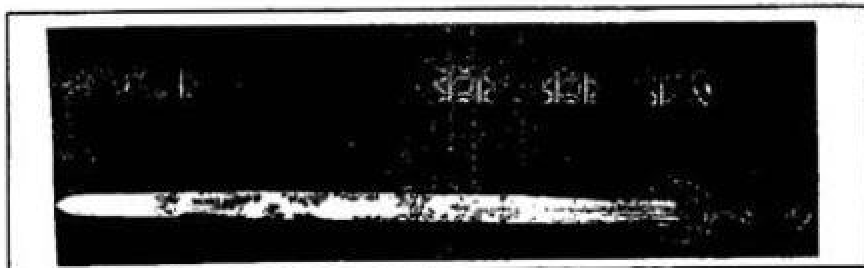
تزين قبة قائم الملوك بقصر الحمراء

(عن مورينو)

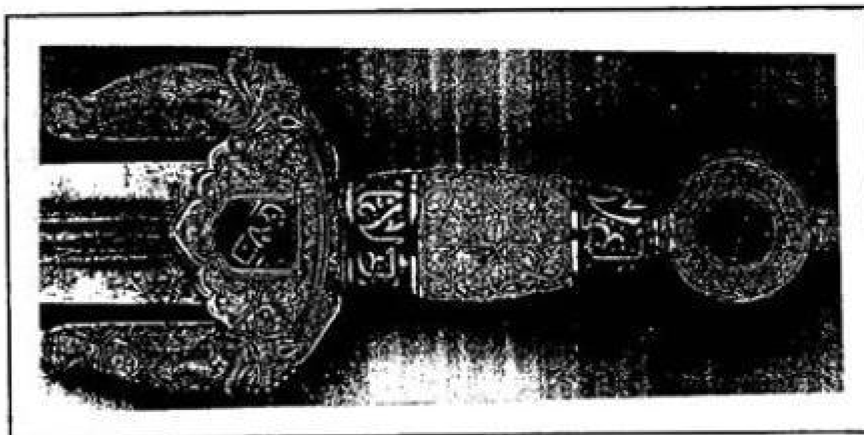


شكل (١٠)

رسم تفصيلى يمثل مشهد لحملة حربية تزين جدران قصر البرطل



لوحة (١ - أ)



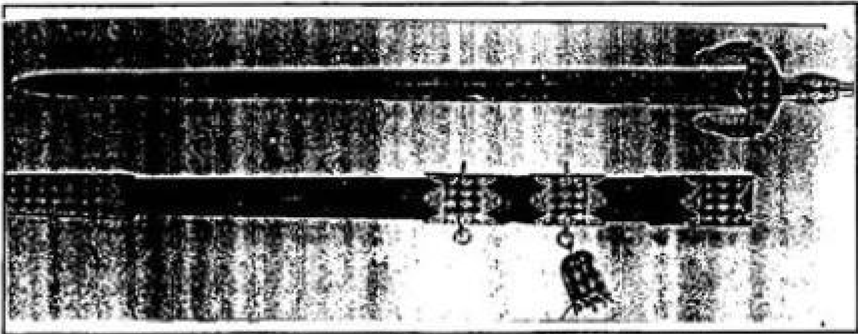
لوحة (١ - ب)

سيف محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس (عن كتالوج الأندلس)



لوحة (٢)

جراب السيف المحفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس (عن كتالوج الأندلس)

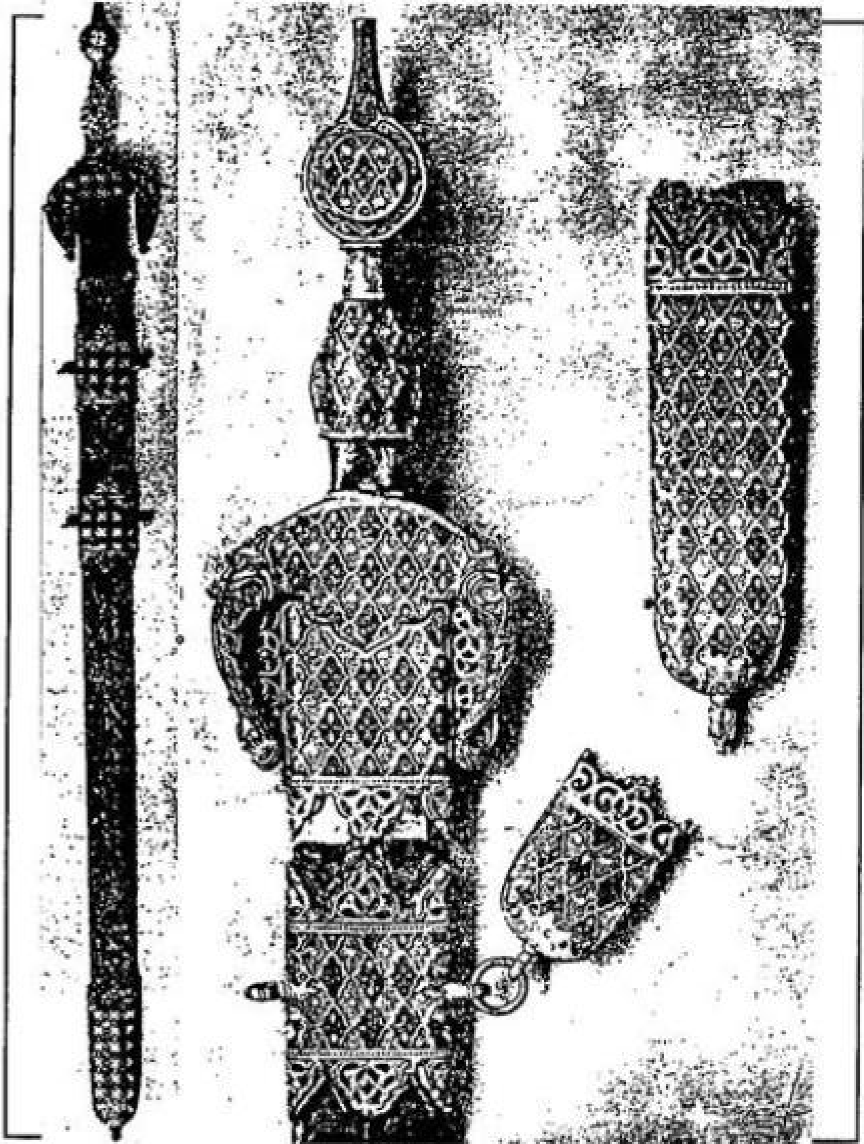


لوحة (٣)

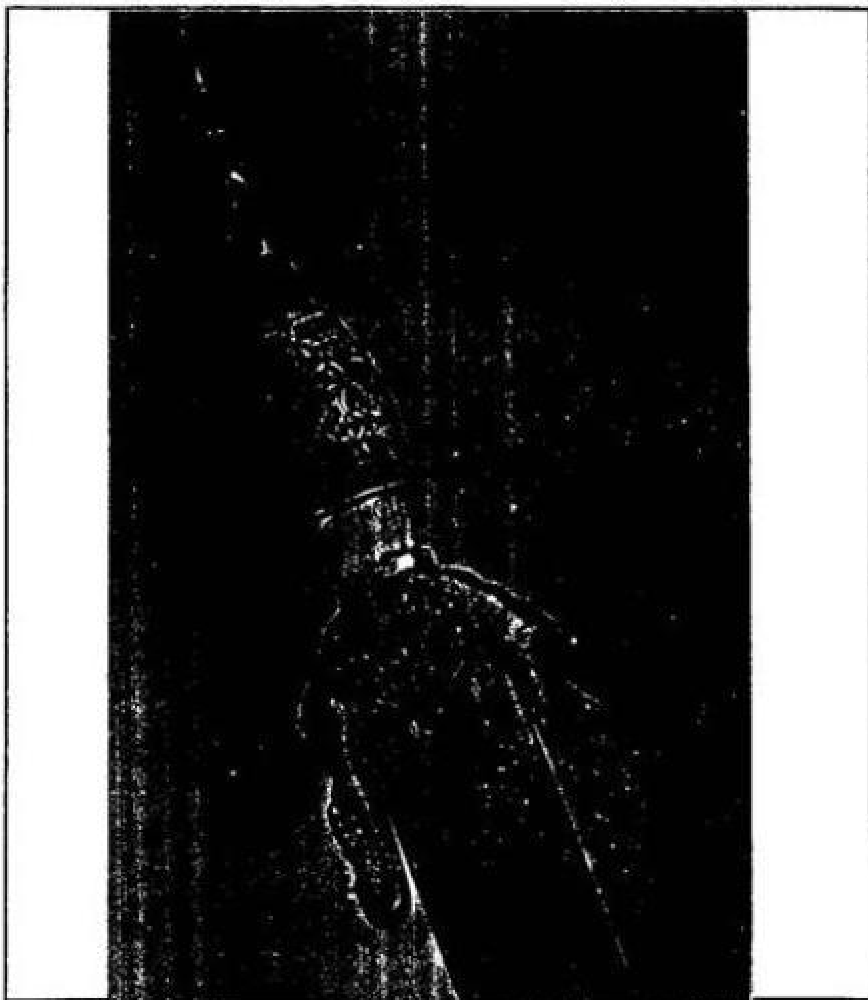
سيف محفوظ فى المتحف الوطنى بمدينة كاسل بألمانيا (عن كتالوج الأندلس)



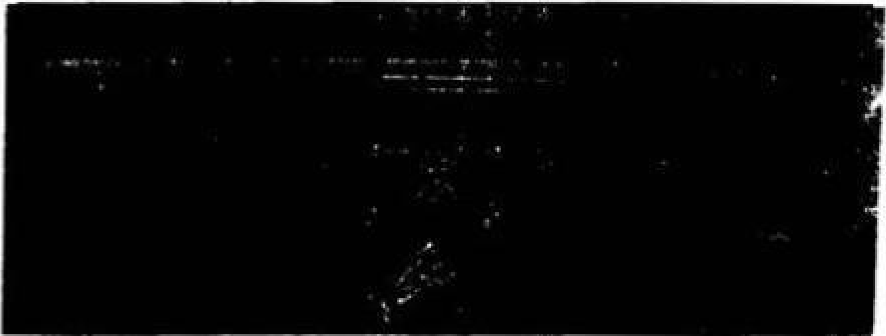
لوحة (٤)
سيف مصنوع من الفضة المذهبة محفوظ فى كنيسة
سان تيلمودى سان بستيان عن عوريس فرناند



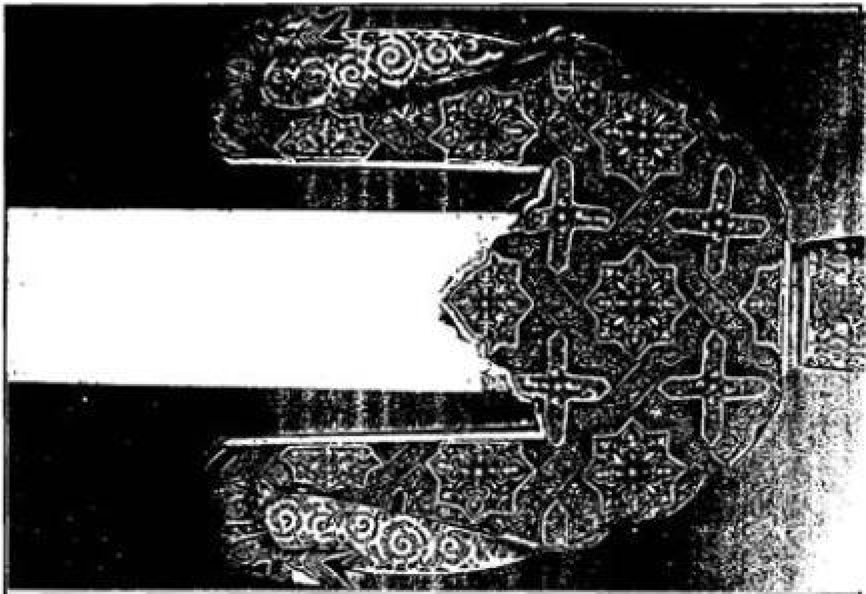
لوحة (٥)
سيف محفوظ فى متحف المتربوليتان بنيويورك
(عن توريس فرنانديس)



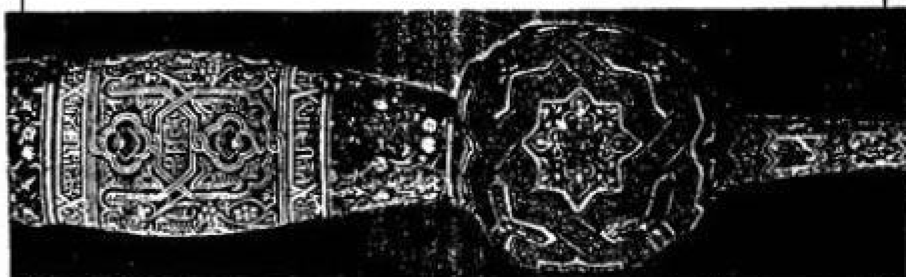
لوحة (٦)
سيف محفوظ فى المتحف الحربى بمدينة مدريد
(تصوير الباحث)



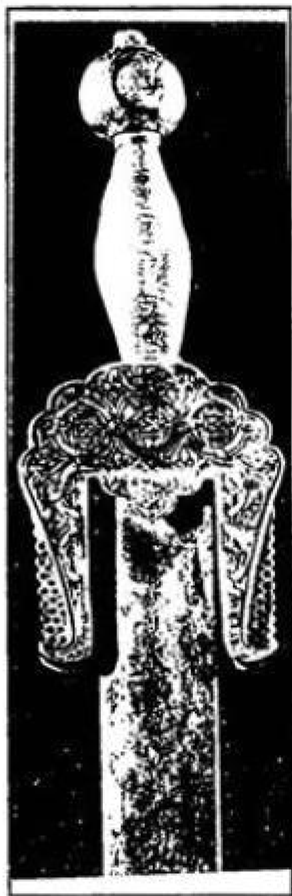
لوحة (٧ - أ)



لوحة (٧ - ب)



لوحة (٧ - ج)
سيف محفوظ فى المتحف الحربى بمدريد ينسب إلى السلطان أبى عبد الله
(تصوير الباحث)



لوحة (٨)
سيف مصنوع من الفولاذ محفوظ فى المتحف
الوطنى بمدريد
(تصوير الباحث)



لوحة (٩)
سيف محفوظ فى متحف الحربى بمدريد . والمعروف باسم فلامنكو
(عن توريس فرناندس)



لوحة (١٠)

سيف محفوظ فى مجموعة الكونت لوس ماركيس دى كومنتخار

(عن توريس فرنانديس)

الهوامش

١- المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٦م ، جـ١ ، ص ٢٠٢ حيث الإشارة إلى ما اكتسبته مدينة برذيل من شهرة فى صناعة السيوف البرذليات المشهورة بالجودة .

٢ - ابن حيان أبو مروان حيان بن خلف حيان القرطبى : المقتبس من أنباء أهل الأندلس . تحقيق : بدرو بور شالميتا و كورينطى ، محمود صبح . نشر المعهد الأسبانى العربى ، مدريد ١٩٧٩، ص ٢٢٣ ؛ ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ، مجموعة من رسائله ، نشر د. أحمد مختار العبادى ، مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٨٠م ، ص ٨٢ - ٨٣ .

٣ - عبد المجيد نعنعى : الإسلام فى طيطلة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢٢٣ . ومما كان سيساعد هذه الصناعة على التقدم وفرة المواد الأولية فى الجبال القريبة من مدينة طليطلة لاسيما الحديد والنحاس. وهما معدنان أساسيان لصناعة السلاح (راجع : الإدريسى «الشريف محمد بن عبد العزيز » : صفة المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر المكتبة الثقافية الدينية ، بورسعيد ، بدون تاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٥٢ .

٤ - المقرى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٨٩٦ .

٥ - شكل (١) = شكل

٦ - أنصال السيوف إما مستقيمة أو مقوسة ، وقد عرف الساسان ٢٢٦م - ٦٣٦م السيوف المستقيمة كما استعملت فى العصر الجاهلى ، وفى صدر الإسلام . ومن الراجح أنها قد نشأت فى آسيا وأن شعوبها ذات الحضارات القديمة مثل الآشوريين والبابليين قد استعملوها ، وكان يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أقدام بما فيه المقبض (سعاد ماهر : الفنون الإسلامية) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ١٤٠ .

٧ - كما تنوعت أشكال السيوف تنوعت أطرافها فهى إما ذات حد واحد أو حدين ، والمقصود بالأولى أن نصل السيف يتحول قبيل الطرف إلى نصل ذو حدين بزاوية واضحة ، وأن طرفه يزداد تدريجياً (أما الثانى فيكون حده مسارياً لامتداد نصله مع مراعاة أن انحناء خط النصل يتفق مع حركة معصم اليد) سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ ، الأسلحة الإسلامية " السيوف والدروع " ، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ١٤١١هـ ، ص ٢٠ .

٨ - الشطبة وجمعها شطب ، وهى طرائق السيف أو قنواته وقد فسرها البيرونى بقوله (والشطب من السيوف الذى فيه طرائق ، كالجداول معمولة فربما كانت مرتفعة وربما كانت منحدرة . وهذا الانحدار

الذى ذكر لايكون إلا إذا كانت الجدول واحداً . وأما إذا كانت الجداول أكثر من واحد فالمرتفع هو بين كل جدولين) (البيرونى أبو الريحان محمد بن أحمد) : الجماهر فى معرفة الجواهر ، بيروت ، عالم الكتب ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، جـ ١٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

- ويبدو أن الهدف من عمل هذه الشطوب أو القنوات فى نصل السيف هو تخفيف ليونته وتقليل وزنه مع زيادة قوته فكلما ضاقت الشطوب أو القنوات كان النصل متيناً (عبد الرحمن زكى ، السيف فى العالم الإسلامى ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٥٧م ، ص ١٧٧) .

٩ - شكل ٢ .

١٠ - ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبى) : كتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، جـ٥ ، تحقيق بدرو شالميتا ، كوريتطى ، د. محمود صبح : نشر المعهد الأسبانى العربى للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب بالرباط ، مدريد ١٩٧٩م ، ص ٢٦٨ .

١١ - عبد الرحمن زكى : أنواع السيوف الإسلامية ومميزاتها عند المؤلفين العرب ، مجلة المعهد المصرى ، المجلد الخامس ، العدد (٢٢١) مدريد ١٩٥٦م ، ص ٥٣ .

١٢ - ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

١٣ - ابن حيان : المقتبس (القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر ، نشر عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٨٣م ، ص ١٢٨ .

١٤ - نفس المصدر ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

١٥ - المقرى : جـ٣ ، ص ٥٨٥ .

١٦ - ابن حيان : المقتبس ، نشر الحجى ، ص ١٤٣ .

١٧ - نفس المصدر ، ص ١٢٨ ، ٢٨٠ .

١٨ - نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

١٩ - نفس المصدر ، جـ٢ ، نشر بدرو شالميتا ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ؛

- Garcia Gomez (Emilio) : Notas Soblre la Topografia Cardobesa en Las anales de Al Hakam, II, Parisa Raz. Al-andalus, Vol, III, 1965, Fasc, 2 , p. 164 .

٢٠ - شكل رقم (٤) .

٢١ - الأسلحة الإسلامية ، معرض مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ص ٢٧ .

22 - Balbas (Leopoldo Torres) : Ars Hispaniae T.IV: Art Almohade, arte Nasari, arte Mudejar, Madrid, 1949, p. 231 .

- السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، إسكندرية ١٩٨٥، ص ٢٧٣ .

23 - Migon (Gaston) : Manuel d' art Musulman, Les arts Plastiques etI ndustriels. Tom. I, Paris, 1927. pp. 240-242 .

٢٤ - شكل (٩)

25 - Torres (J. Ferrandis) : Espadas Granadinas De La Jineta (Archivo Espanol de Art. N, 55. Enero, Febrero, Madrid, 1943, p. 142 .

26 - Torres Ferrandis, Op. Cit, p. 152 .

27 - Soler (Alvaro) : Conservador Meal Armeria, Madrid, Catalogue Alandalus, The Metropolitan Museum of Art, New York, 1992, p. 288 .

٢٨ - تعاقب على عرش غرناطة بعد وفاة السلطان محمد الخامس فى عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١م عدد من السلاطين الضعاف اضطربت خلال عهودهم الأوضاع الداخلية لمملكة غرناطة بسبب الثورات المتكررة والانقلابات السياسية وقد بلغ من سوء الأوضاع السياسية فى مملكة غرناطة أنه قد تعاقب على عرشها خلال القرن ٩هـ / ١٥م ما يقرب من اثنا عشر سلطاناً (أحمد محمد الطوخي : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر . نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٧م ، ص ٤٤) .

٢٩ - فى عام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م وقع السلطان أبو عبد الله بن محمد أسيراً فى يد الأسبان بعد هزيمته فى موقعة اللسانة التى دارت بين المسلمين والنصارى ثم أطلقوا سراحه بعد أن قضى فى أسره فى بلاط الملكين الكاثوليكيين زهاء ثلاثة أعوام وعاد إلى غرناطة بعد أن أملوا عليه كل شروطهم . وربما أخذ منه سلاحه وثيابه الملكية يومئذ عنواناً لظفر النصارى وتذكاراً من هذا الأسير الملكى (لمزيد من التفاصيل . راجع مؤلف مجهول " نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر أو تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب . تحقيق . ألفريد البستانى ، وترجمة كارلوس كيروس ، العرائش ١٩٤٠م ، ص ١٠ - ١٢ كذلك راجع عبد الحميد العبادى . المجمل فى تاريخ الأندلس . القاهرة ١٩٥٨م ، ص ١٩٢ ، محمد بن عبد الله عنان : الاثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال : القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٦م ، ص ٢٦٤ .

30 - Puertas (Antonio Fernandez) : La Fachada del Palacio de Comares. Granaa, Mcmlxxx. P. 84 .

٣١ - عبد الرحمن زكى : النقوش والكتابات على السيوف . مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٨ .

٣٢ - شكل (١٠) .

- اسم البرطل الذى أطلق على هذا القصر يعنى الظلة التى تقوم على بائكته الواقعة بين برج السيدات والمصلى الصغير الملحق به Torres Balbas Las Casas del Partal de la Alhambra de Granaa) ويؤكد الأستاذ توريس بلباس على أن هذا القصر ويرجع المعروف (Al-Andalus, V, XIV, 1942, p. 186

ببرج السيدان قد شيدا فى عهد أبى الوليد إسماعيل خامس سلاطين بنى نصر (٧٢٣ - ٧٢٥هـ / ١٣١٤-١٣٢٥م) أو قبل عهده بسنوات قليلة (Torres Balbas : Cronlogia Real de La Alham- bra. Alandalus, V. XXIV, 1959, p. 402) وتتمثل الزخارف المذكورة على إحدى دور ثلاثة كانت تتصل بقصر البرطل ، والتى اصطلح على تسميتها بين مؤرخى الفن باسم قاعة الرسومات نسبة لزخارفها الجدارية المرسومة والتى تصور موضوعات متباينة بعضها يسجل مناظر من الحياة اليومية وبعضها الآخر يمثل مشهداً لحملة حربية . وتعد هذه الزخارف من بين الموضوعات الزخرفية المختلفة التى انتقلت إلى الأندلس من المشرق . Torres Balbas: Las Casas del Partal, p. 190; Ibid: Ars Hispani- ae, T, IV; Arte Almohade, art Nasari, art Mudejar. P. 124 .

- ولمزيد من التفاصيل عن هذا القصر راجع : كمال عنانى إسماعيل : عمارة القصور الإسلامية فى الأندلس وتطورها . مخطوط رسالة دكتوراة ، إسكندرية ١٩٩٥م ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

٣٣ - لوحة (١ - أ)

34 - Babelon (Ernest) : Guide illustre Au Gabinet de Medailles et Antiques de La Biblio- theque Nationale, Paris, 1900, p. 276 ; Ferrandis Torres: Op, Cit., p. 157 ; Tarres Balbas: Op. Cit., p. 233 .

٣٥ - الجوهر مصطلح فنى يستخدم فى مجال صناعة أنصال السيوف للتعبير عن ظاهرة الخطوط المتداخلة والمتباينة الألوان والأشكال والأوضاع على صفحات النصل فهى خطوط ناعمة متداخلة على شكل النسيج الشبكى أو هى على شكل يقسم النصل إلى مسافات قصيرة متساوية أو على شكل عقد متناسقة متقاربة . وربما تكون على شكل خطوط عريضة تشكل بقعاً مستديرة أو مستطيلة وأحياناً خطوط متعرجة أو متوازية . ويرجع هذا الاختلاف ، إما إلى التغير فى نسب الشوائب الداخلة فى الخليط الفولاذى للنصل أو إلى التغير فى الطرق الحرارية من أسقاء أو إحماء ، وتبطين وتحكم فى درجات حرارة كل منها ، وينقسم الجوهر إلى ثلاثة أنواع رئيسة هى الجوهر الدمشقى والجوهر الفارسى والجوهر الهندى .. ولكل نوع منها سمات تميزه عن الآخر . (لمزيد من التفاصيل ، راجع : الأسلحة الإسلامية ، معرض الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ص ١٦ - ١٨) ؛ سعاد ماهر : السيف المنسوب إلى الرسول ﷺ ، والموجود بمشهد الإمام الحسين رضوان الله عليه ، مجلة كلية الاثار ، جامعة القاهرة . يناير ١٩٧٦م ، ص ٢٣ .

36 - Ferreandis Torres: Op. Cit, p. 152 .

٣٧ - النيلو عبارة عن مادة معدنية سوداء تتكون من مسحوق الرصاص والنحاس والبورق والكبريت وملح النشادر ويتم مزج هذه المواد معًا على هيئة سائل يصب وهو ساخن فى الأماكن المحفورة من التحفة ثم يتم صقلها فيظهر لمعانها .

- راجع : زكى حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٠م، ص ٢٣٢ ، وقد ظهر أسلوب الزخرفة بالنيلو فى الأندلس لأول مرة على التحف المعدنية فى منتصف

القرن ٤هـ / ١٠م أي في عصر الخلافة . ومن الغريب أن هذا الأسلوب في الزخرفة اختفى من زخارف المعادن لاسيما البرونزية قرابة ثلاثة قرون ونصف ثم عاد للظهور في عصر بني نصر بنفس خصائصه الفنية التي كان عليها في عصر الخلافة (حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية في الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وحتى سقوط مملكة بني الأحمر : مخطوط رسالة دكتوراة، إسكندرية، ١٩٩٦م ،ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

٣٨ - المينا : مادة كالزجاج نصف شفافة تستخدم فقط لزخرفة المعادن وتتركب من مسحوق الرصاص والنحاس والبورق والكبريت وملح النشادر تمزج معاً فيتكون منها سائل يصب وهو ساخن في الأماكن المحفورة على التحفة . وإذا ما برد لونها الأسود يصقل حتى يظهر لمعانه : محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني ، القاهرة ١٩٨٧م ، ص ١٤٩ . ويمكن إعطاء المينا ألواناً مختلفة بأن يضاف إليها بعض الأكاسيد فنستطيع مثلاً أن نحصل بأكاسيد القصدير على المينا البيضاء، وبأكسيد الكوبالت على المينا الزرقاء، بأكسيد النحاس على المينا الخضراء (كريستان أرنولد بريجز : الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الأوروبية : ترجمة د. زكي حسن . (من بحوث كتاب تراث الإسلام جـ١ ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٣٥ حاشية (١) ، وقد بدأ استعمال المينا في زخارف التحف المعدنية الأندلسية لاسيما الذهبية منها في منتصف القرن ٤هـ / ١٠م . راجع : حنان مطاوع : المرجع السابق ، ص ٤٠٤) .

٣٩ - حظيت أشكال المراوح النخيلية بنوعيها البسيط والمركب بقبول واسع النطاق لدى فناني عصر بني نصر ، وبرزت في زخارف المعادن على نحو رائع وبصورة متطورة عن صورتها في كل العصور السابقة حيث ظهرت لها أشكال متنوعة بلغت اثنى عشر شكلاً مرت خلال مراحل تطورها بسبع مراحل (لمزيد من التفاصيل عن المراحل التي مرت بها أشكال المراوح النخيلية على التحف المعدنية في عصر بني نصر ، راجع : حنان مطاوع : المرجع السابق ، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ، وتمثل الزخرفة الموجودة على مقبض هذا السيف المرحلة السابعة من مراحل تطور المراوح النخيلية والتي جنحت فيها نحو التجريد الواضح حيث بلغت أقصى درجات نحافتها وأصبحت تثير بشكلها إعجاب المتأمل فيها . ويجدر بنا الإشارة إلى أن هذا النوع من الزخرفة النباتية لاقى رواجاً كبيراً في زخارف المنشآت والتحف الأندلسية . ومن المحتمل أنه انتقل إلى الأندلس مباشرة من الفنون المشرقية الإسلامية الأموية والعباسية أو عبر القيروان في عصر الأغالبة .

40 - Maldonado (Basilio Pavon) : Influjas Occidentales en el art de Califato de Cordoba. Alandalus, V, XXXIII, 1967, p. 219 .

٤١ - لوحة (١ - ب).

٤٢ - لوحة (٢)

43 - Alvaro Soler : Conservador Real armeria Madrid, (Catalogue Alandalus), p. 286. No 61 .

٤٤ - لوحة (٣) .

٤٥ - شغلت الأشكال النجمية مكاناً مهماً فى زخارف المعادن الأندلسية ، وامتازت بتنوع صورها وتعدد رؤوسها التى تراوحت ما بين خمسة إلى عشرة رؤوس ، وقد ظهر هذا التكوين النجمى الذى يتألف من ثمانية رؤوس لأول مرة على المعادن الأندلسية فى عصر الطوائف ولم يتابع ظهوره إلا فى عصر بنى نصر وخلال هذا العصر طرأ تطور واضح على هذا التشكيل النجمى حيث ظهرت النجمة المثمنة مفرغة داخل شكل نجمى ثلاثى أو رباعى الرؤوس أو داخل خطوط مزدوجة مترابطة تؤلف فى مجموعها شكلاً شبيه بطبق نجمى (حنان مطاوع : المرجع السابق ، ص ٤٦١ .

46 - Alvaro Soler : Conservado real armeria , pp. 286 - 287 .

47 - Ferrandis Torres : Espadas Granadinas, p. 162 .

٤٨ - لوحة (٤) .

49 - Ferrandis Tarres: Op. Cit., p. 162 .

٥٠ - لوحة (٥) .

51 - Cossan (Le Barande) : Le Cabinet d'armes de Maurie, de Talleyrand, Perigord, Duc. De Dimo, Paris, 1901, p. 53 .

- وبنو سراج Abencerrages ينسبون فى الأصل إلى قبيلة قضاعة اليمنية ، وقد عهد إليهم الأمويون حراسة سواحل إقليم بجانة فى شرق الأندلس وقد ظهر اسم هذه الأسرة فى القرن ٩هـ / ١٥م حينما لعبت المنافسة بينهم وبين أسرة الثغريين دوراً خطيراً فى سياسة غرناطة . أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٩٧م ، ص ٢٣٢ (حاشية٣) .

٥٢ - لوحة (٦) .

٥٣ - الأمير على العطار الذى ينسب إليه هذا السيف هو بطل من أبطال الصراع الأخير بين المسلمين والنصارى وكان يرتبط بملك غرناطة السلطان أبى عبد الله برباط المصاهرة إذ كان السلطان متزوجًا بابنته مريم . وقد أبدى القائد على العطار بسالة نادرة فى الدفاع عن مدينة لوشة التى كان قائداً لحاميتها عندما هاجمها النصارى فى عام ١٤٨٢م ، وكان يومئذ فى الثمانين من عمره ، ورغم شيخوخته كان أشجع وأبرع فرسان الأندلس . وقد أخذ السيف المذكور فى معركة اللسانة التى خاضها ضد النصارى مع السلطان ابن عبد الله وأسر فيها معه .

(Fernandez) Francisco Gonzalaz: Espadas Hispano - arabes en Museo Espanol de Autigueda des Vol, 5. Madrid, 1875, p. 390 ; Torres Balbas: Ars Hispaniae, p. 233 .

محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية ، ص ٦٤ ؛ عبد الرحمن زكى : صناعة السيف الإسلامى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، ص ١١٨ .

وإذا كان عدداً من مؤرخي الفن قد اتفقوا على أن هذا السيف ينسب إلى القائد على العطار الذى سلبه منه النصارى فى معركة اللسانة فإن الأستاذ فرناندس توريس يرى أنه لا ينسب إلى القائد المذكور وأن شخص يدعى لوكاس أورتادو قد عثر عليه بالقرب ن منطقة بنميا Benamey وسلمه لشخص آخر يدعى لويس فرنانديث الذى قام بتسليمه إلى دير سان خرنيمو بقرطبة ثم انتقل هذا السيف بعد ذلك إلى المركز القومى للعلوم والفنون وظل به حتى عام ١٨٤٣م ثم انتقل أخيراً إلى المتحف الوطنى بمدريد .

Ferrandis Torres : Espadas Granadinas de La Jineta, p. 156 .

٥٤ – صاحب هذه المجموعة هو القائد دون بيدرو بيدال Don Pedro Pidal وإليه ينسب هذا السيف الذى أهداه إليه الملك فرناندو الكاثوليكى عام ١٥١٣م .

- Ferrandis Torres : Espadas Granadinas, p. 158 ; Torres Balbas : Ars Hispaniae, p. 233 .

55 - Ferrandis Torres : Op. Cit., p. 159 . fig .

56 - Torres Balbas ; Op. Cit., p. 233 .

٥٧ – لوحة (٧ أ) .

٥٨ – تنقسم الجواهر إلى ثلاثة أنواع رئيسة هى الجوهر الدمشقى والفارسى والهندى ولكل نوع منها عدد من الأنواع . وكان الأوروبيون قد شاهدوا أثناء الحروب الصليبية النصول الإسلامية المجوهرة فى أسواق دمشق ، وكان من بينها النصول الدمشقية والفارسية والهندية غير أنهم أطلقوا اسم الجوهر الدمشقى Wave Damask على كل هذه الجواهر ظناً منهم أنها تصنع جميعًا بدمشق . ولكن لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة سمات خاصة يتميز بها . فالجوهر الدمشقى يتسم بكثرة تموجاته التى تشبه البقع الهندسية المحكمة وألوانه المائلة إلى البياض وعدم قابليته للصدأ ولدانته وتركيبه الذى يتألف من حبوب ناعمة متقاربة المسام رمادية اللون مع ميلها إلى البياض كما أنه إذا طرق نصله ظهر فيه الجوهر حسنًا عكس الأنواع الأخرى فإنه كثيراً ما يمحى (الأسلحة الإسلامية : معرض مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ص ١٦ – ١٨) .

٥٩ – كانت الصلبان المعقوفة من الموضوعات الزخرفية المهمة فى الفن الإغريقى والرومانى والساسانى والبيزنطى (فريد شافعى : العمارة العربية فى عصر الولاة (٢٤هـ – ٣٥٨م) (٦٣٩هـ / ٩٦٩م) . نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م ، ص ٢١٧ .

– وقد انتقل هذا الشكل الزخرفى إلى الفن الإسلامى المشرقى حيث نراه فى زخارف قصر خربة المفجر ومنه انتقل إلى الأندلس حيث تمثل بصورة واضحة فى زخارف تشبيكات النوافذ وواجهات الأبواب بجامع قرطبة التى ترجع إلى عصر الإمارة كما لاقى هذا التشكيل الزخرفى رواجًا كبيراً فى عصر الخلافة حيث نراه بكثرة فى زخارف عقود مدينة الزهراء . واستمر عنصراً شائعاً فى الزخارف الأندلسية حتى عصر بنى نصر إذ نراه ممثلاً فى زخارف قصور الحمراء .

- Pavon Maldonado ; el arte Hispano Muslman en su decoracion Geometrica. Instituto Hispano arabe de Cultura, Madrid, 1975, Table I.

– وقد واصلت أشكال الصلبان المعقوفة فى الزخارف الهندسية الأندلسية تطورها وتنوعت صورها بحيث فقدت صلتها بأصولها القديمة من ذلك على سبيل المثال هذا الشكل الذى يبدو فيه الصليب وقد احتوى بداخله على أشكال مربعات كما ظهر بشكل معين بداخله معين أصغر تأخذ ضلوعه شكل متدرج ويعلو رأسه ويزين قاعدته الشكل المعقوف الذى يبدو على هيئة حرف V معدولاً ومقلوبًا على التناوب . وهذا الشكل المعقوف الذى شاع ظهوره فى فنون الأندلس منذ عصر الخلافة وحتى نهاية عصر بنى نصر انتقل إلى مصر فى العصر الفاطمى ممثلاً فى زخارف إحدى نوافذ جامع الأزهر بصورة تشبه صورته التى ظهر عليها فى إحدى تشبيكات النوافذ بقبة المحراب وبنيقات عقود جامع قرطبة وإن كان فى هذه الأمثلة الأندلسية قد تناوبت فيه قطع الحجارة وقوالب من الآجر .

- Salem (Alsayid Abdel Aziz) : De Nuevo Sobre La influencia de la Andalus el arte Muslman de Egipto Cuadernos de La Alhambra 1979 - 1981, Vol, 15p, 12 .

– وفى رأى الأستاذ جورج مارسيه أن أصل هذا الشكل كان بالعراق نظراً للتشابه الواضح بينه وبين نماذج أسفر عنها البحث الأثرى فى مدينة الفسطاط .

- Marcais (Gorges) : Manuel d' art. Muslman, T, I. Paris, 1926, p. 285 .

– فى حين يرى الأستاذ مالدونادو أن أصل هذا التشكيل الزخرفى يرجع إلى الفن الرومانى والبيزنطى وأنه انتقل إلى الفن الأندلسى وانفرد به دون الفن الأموى المشرقى والعباسى وأن ما كشفت عنه حفائر الفسطاط مجرد نماذج أندلسية ترجع إلى القرنين السادس والسابع للهجرة أى أن هذا الشكل انتقل إلى الفسطاط من الأندلس .

- Maldonado : Op.Cit., p. 45 .

– حنان عبد الفتاح مطاوع : الزخارف المحفورة على الحجر رخام فى عصر الدولة الأموية بالأندلس وعصر دويلات الطوائف . مخطوط رسالة ماجستير ، الإسكندرية ١٩٩١م ، ص ٦٨ – ٦٩ .

٦٠ – لوحة (٧ ب) .

٦١ – تمثل هذا العنصر فى زخارف المعادن الأندلسية على صورتين الأولى ظهر فيها فى شكل جامة سداسية الاضلاع ترتبط من أعلى وأسفل عن طريق رأس مثلث متساوى الأضلاع ، وقد تجلى ذلك فى التحف المعدنية التى ترجع إلى أواخر عصر الطوائف وبداية عصر المرابطين أما الصورة الثانية فيظهر فيها على شكل خراطيش بطاقية تتألف من خطين متوازيين ينتهى الطرف العلوى لكل منهما بخط مائل بحيث يلتقيان فى نقطة مدببة تمثل رأس المثلث . وقد تمثلت تلك الصورة على المعادن الأندلسية لأول مرة فى القرن ٦هـ / ١٢م ولم تواصل ظهورها إلا فى القرن ٨هـ / ١٤م وأوائل القرن ٩هـ / ١٥م (راجع حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس ، ص ٤٢٦).

٦٢ - تطالع فى الخراطيش الأربعة العلوية منها ما نصه (بسم الله القدرة لله ولا إله إلا هو الغبطة لله الواحد) . وفى الأربعة السفلية منها (لله لأنه / أول مره لا يعلمون بالله الجاهلون / وتذرهم فى طغيانهم) وأهم ما تسجله من ملاحظات علي هذا النقش أن الفنان الذى نفذ حروف الكتابة قد نظمها على نحو يفتقر إلى الدقة حيث وقع فى أخطاء لغوية كثيرة . أما نتيجة حرصه على الناحية الجمالية وقد وفق فى هذا على حساب أخطائه اللغوية التى تتمثل فى فصل حروف الكلمات وعدم وجود ترابط فى معانى الكلمات نتيجة عدم درايته بقواعد الكتابة الصحيحة وهو الأمر الذى يرجع بأنه لم يكن عربياً حيث شاع فى الفنون النصرية بوجه عام وفن صناعة السيوف بوجه خاص الاستعانة بفنانين من غير العرب فى صياغة فنون العصر النصرى .

- Ferrnandez Y Gonzalez : Espadas Hispano arabes, p. 395 ; Ferrandis Torres : Espadas Granadinas, p. 159 .

٦٣ - لوحة (٧ ج) .

٦٤ - لوحة (٨) .

65 - Fernandez Y Gonzalez : Museo Espanol de antiguedades, T, V, p. 398 .

٦٦ - لعل النشاط الخاص بصياغة هذا النوع من التعاويذ أو التمائم قد بدأ منذ عهد الإمارة حيث أمدتنا حفائر مدينة البيرة بنموذج منها فى شكل طلسم مصنوع من الرصاص عبارة عن لوح دائرى قطره ١٠سم.

- Manual Gomez Moreno : Casas Grandas de art Y Arqueologio. Granada. Sin Fecha. p. 209 Not, 216 .

- ولدى المتحف الأثرى بغرناطة تميمة برونزية دائرية الشكل منقوشة بكتابات سحرية ترجع إلى عصر بنى نصر . حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوط مملكة بنى الأحمر ، ص ٨٧ .

٦٧ - لعبت الدوائر المتقاطعة دوراً رئيساً فى مجال الزخارف الهندسية الإسلامية فى شرق وغرب العالم الإسلامى وهذا التشكيل يرجع إلى أصول رومانية بيزنطية ، كما عرفه الفن القبطى والفن الإسلامى فى المغرب الأوسط زمن الرستميين .

- Torres Balbas : Art Hispano Musulman Hasta LA Caida del Cali Fato de Cordoba: en Historia de Hispana dirigida Por don roman Mendez Pidal, T,V Madrid, 1957, p. 409 .

- وقد انتشر هذا التشكيل على نطاق واسع فى الفنون الأندلسية منذ عصر الدولة الأموية وحتى نهاية عصر بنى نصر . وخلال تلك الفترة تنوعت صوره من ذلك صورته التى تألفت عناصر التشكيل الهندسى من دوائر متقاطعة تربطها عقد دائرية صغيرة تبدو كما لو كانت أشرطة مجدولة من الدوائر Maldonado : La decoracion Geometrica, pp. 88 - 89 ، وهذا الشكل المعقد للدوائر يرجع فى أصله

إلى الفن البيزنطى ومنه انتقل إلى الفن الأموى حيث نشهده فى زخارف قصر خربة المفجر وقصر الطوبة ثم انتشر فى الأندلس فى عصرى الإمارة والخلافة حيث تمثل فى إحدى تشبيكات النوافذ بباب استيبان بجامع قرطبة . Torres Balbas: Op. Cit., p. 40 - fig 211 ، وقد بدأ ظهور هذا النوع من الحلقات الدائرية المعقودة على المعادن الأندلسية منذ القرن ٣هـ / ٩م وحتى القرن ٨هـ / ١٤م (حنان مطاوع : التحف والصناعات المعدنية ، ص ٤٥٧ – ٤٥٨) .

٦٨ – لوحة (٩) .

69 - Valencia de Don Juan : Catalogo Historica des Criptivo de La Mealarmeria, Madrid, 1898, p. 210 ; Ferrandis Torres : Espades Granadinas, p. 156 .

70 - F. Carrient : Nuevo Diccionario Espanol - arabe. Madrid, 1988. p. 579 .

٧١ – لوحة (١٠) .

72 - Ferrandis Torres : Op. Cit, p. 157 .



مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الرابع عشر

مارس ٢٠٠٦م

إهداء العدد الرابع عشر

إلي المؤرخ الجليل

الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
(١٩٩٢ـ ٢٠٠٥)

اعترافاً بفضله وعطائه ، وتقديراً لريادته وجهوده

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

يدين المشتغلون فى ميدان الدراسات التاريخية فى مصر والعالم العربي بالشكر والعرفان بالجميل لأستاذهم الجليل المؤرخ القدير الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور؛ لما قدمه خلال أكثر من خمسة وأربعين عاماً من كتب ومؤلفات وبحوث ودراسات وتحقيقات أثرت المكتبة التاريخية العربية، وفتحت آفاقاً جديدة لجميع المشتغلين فى هذا الميدان الذي يدين له بالريادة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى إنشاء اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة، وجهوده المتميزة المثمرة فى تقدم الاتحاد خلال رئاسته له لمدة تزيد علي ثلاثة عشر عاماً (١٩٩٢ - ٢٠٠٥)، حتي أصبح الاتحاد بيت المؤرخين العرب يجتمعون دوما فى ندوته السنوية لإثراء البحث التاريخي ببحوثهم ودراساتهم الجديدة. واحتلت مجلة المؤرخ العربي وحصاد الندوة السنوية مكانة متميزة فى المكتبة التاريخية العربية. وكان من الواجب إهداء هذا العدد من مجلة المؤرخ العربي إلي سيادته اعترافاً بفضله وعطائه وتقديراً لريادته وجهوده فى حمل أمانة اتحاد المؤرخين العرب لسنوات كثيرة.

ويصدر العدد الرابع عشر من مجلة المؤرخ العربي (مارس ٢٠٠٦) متضمناً مجموعة من البحوث والدراسات التاريخية تحمل عناوين لموضوعات جديدة ومتميزة فى علم التاريخ، كتبها باحثون من الجامعات العربية. وألقت البحوث المنشورة أضواء كاشفة علي موضوعات لم تدرس من قبل فى تاريخ الدولة البيزنطية، والخلافة العباسية، وانتشار الإسلام فى الأناضول، وفى تاريخ بلاد الأندلس، وتاريخ الهند وغير ذلك من الموضوعات التي تفتح آفاقاً جديدة للباحثين فى علم التاريخ، وتحثهم علي دراسة المزيد من البحوث التاريخية بهدف الخروج بها من الإقليمية إلي العالمية.

ومن المعروف أن معظم الجامعات العربية تتميز بعدد كبير من شوامخ المؤرخين فى شتي فروع التاريخ، احتلوا مكانة عالية بين المشتغلين فى هذا العلم. لذلك كان من الطبيعي الاستفادة من علمهم وخبراتهم عند الشروع فى

تطوير مهام اتحاد المؤرخين ومسئولياته وإصداراته وأنشطته العلمية والثقافية وغيرها. ولذلك قام مجلس إدارة الاتحاد بتكليف كل عضو من أعضاء مجلس الإدارة بمهام معينة محددة، وأعاد تشكيل هيئة تحرير مجلة الاتحاد علي النحو التالي:

- أ.د. حسنين محمد ربيع	رئيس الاتحاد - الإشراف العام
- أ.د. زبيدة محمد عطا	رئيس هيئة التحرير
- أ.د. عفاف سيد صبرة	نائب رئيس هيئة التحرير
- أ.د. مصطفي عقيل الخطيب	عضواً - دولة قطر
- أ.د. حامد زيان غانم	عضواً - جمهورية مصر العربية
- أ.د. عبد الكريم الحاج كريم	عضواً - المملكة المغربية
- أ.د. عفيفي محمود إبراهيم	عضواً - جمهورية مصر العربية
- أ.د. حياة ناصر الحجي	عضواً - دولة الكويت
- أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي	عضواً - المملكة العربية السعودية
- أ.د. أحمد عبد الكريم حلواني	عضواً - الجمهورية العربية السورية
- أ.د. إسماعيل محمد البشري	عضواً - المملكة العربية السعودية
- أ.د. خالد خليفة آل خليفة	عضواً - دولة البحرين

هيئة المستشارين:

- أ.د. سيدة إسماعيل كاشف	جمهورية مصر العربية
- أ.د. إسحاق عبيد تاوضروس	جمهورية مصر العربية
- أ.د. جمال زكريا قاسم	جمهورية مصر العربية
- أ.د. جاب الله علي جاب الله	جمهورية مصر العربية

ونظراً لأن مجلة المؤرخ العربي مجلة علمية محكمة تصدر سنوياً، وضع مجلس الإدارة شروطاً للنشر علي النحو التالي:

١ - يقبل للنشر البحوث والدراسات التي تتميز بالأصالة والجدية والمنهجية العلمية.

٢ - تخضع الأعمال المقدمة للتحكيم العلمي السري ولا ترد أصول الأعمال المقدمة للمجلة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.

٣ - يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر لأية جهة أخري. والآراء الواردة فى المجلة تعبر عن رأي كاتبها.

٤ - يرد عنوان البحث فى رأس الصفحة الأولي، متبوعاً باسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.

٥- تتراوح صفحات العمل المقدم للنشر بين خمس عشرة صفحة وثلاثين صفحة. ونقدم الأعمال مكتوبة علي الكمبيوتر من ثلاث نسخ علي ورق كوارتو (A4)، مع تقديمها مسجلة علي اسطوانة مدمجة CD وفق برنامج Word، ومساحة الكتابة بالصفحة ١٢×١٩ سم، والهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد فينهاية العمل، وبنط العناوين الرئيسية ١٦ أسود ، وبنط العناوين الفرعية ١٤ أسود بينما بنط النص ١٤، وبنط الهوامش ١٢، والمسافة بين السطور AUTP. وترفق الصور والأشكال أصلية والرسومات وغيرها من الإيضاحات علي ورق كلك، قابلة للاستنساخ مباشرة.

٦- يراعي فى إعداد قائمة المراجع ما يلي :

أ - تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر مع بيان الطبعة.

ب - مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدورية، ثم رقم المجلد والعدد وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.

جـ- الرسائل الجامعية يتم تسجيل اسم صاحب الرسالة وعنوانها والجامعة التي أجازتها واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.

٧- توجه جميع المراسلات الخاصة بالنشر فى المجلة إلي رئيس التحرير علي عنوان أمانة الاتحاد.

وترحب هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربي بالبحوث والدراسات القيمة للباحثين فى التاريخ من سائر الجامعات العربية لنشرها. كما يرحب مجلس إدارة الاتحاد بالآراء والأفكار والنقد البناء لتحقيق الأهداف القومية للاتحاد، ولضمان جودة البحوث التاريخية لمواكبة المتغيرات الجديدة والتصدي لتحديات العصر.

والله من وراء القصد إنه نعم المولي ونعم النصير

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

كلمة رئيس التحرير

مع صدور العدد الجديد من مجلة اتحاد المؤرخين ومع وجود لجنة تحرير جديدة مكونة من د. زبيدة عطا ، د. عفاف صبره ود. عفيفى محمود، بالإضافة إلى مشاركة كبار الأساتذة المتخصصين فى المجالات التاريخية المنوعة ومن جميع دول الاتحاد كمستشارين لتحرير المجلة، بحيث تستفيد المجلة من الخبرات العلمية المتميزة فى تكامل الإصدار والتحكيم ومقترحات التطوير، ولقد تم تحكيم بحوث العدد ومراجعتها من قبل لجان متخصصة، ولدينا العديد من الأفكار الجديدة، ستطرح على مجلس الاتحاد. أولها تكريم خاص لرجل حمل عبأ هذا الاتحاد لم يبخل بجهده ووقته رغم مشاغله، وأستاذنا الأستاذ الدكتور سعيد عاشور هو أستاذ جيل كامل من المؤرخين فى مصر والعالم العربى ندين له بالفضل كملعم وأستاذ وأب للجميع ولقد عاصرنا جميعا جهوده مع بداية الاتحاد، وحرصه على نجاح واستمرارية الاتحاد فله من الجميع جزيل الشكر والأمتنان مع الدعاء له بالشفاء ليعود لتلاميذه ومحبيه.

وهناك عدد من المقترحات مطروحة على مجلس إدارة الاتحاد كإقامة برنامج ندوات وسيمنارات. وستقوم المجلة بطرح وتلخيص لتلك الأنشطة الثقافية المنوعة للاتحاد.

ونحن نرجوا كل زميل عضو فى الاتحاد إذا كانت لديه أفكار جديدة لتطوير المجلة أو مقترح معين أن يتفضل بإرساله إلى عنوان الاتحاد باسم رئيس تحرير المجلة.. فتعدد الآراء يثرى أى عمل.

أ.زبيدة عطا

رئيس تحرير المجلة

المحتويات

صفحة

د.طارق منصور (*)

فتوح الشام وفلسطين فى ضوء حولية ثيوفانيس المعترف: دراسة فى إيديولوجية المؤلف تجاه الإسلام

مرت فترة من الوقت من عمر بيزنطة نضب فيها معين التاريخ لمدة قرنين من الزمان(١)، وهى الفترة التي انهمكت فيها الإمبراطورية البيزنطية في صراع طويل، شديد المراس، مع القوة الإسلامية الصاعدة، طوال القرنين السابع والثامن الميلاديين. ويعود المؤرخون إلى أقلامهم وصحائفهم ثانية مع القرن التاسع الميلادي، حيث تصلنا مدونة الراهب ثيوفانيس المعترف Theophanes the Confessor (٧٦٠-٨١٨م/١٤٣-٢٠٣هـ) الذى دون الأحداث فيها منذ عام ٢٨٤م وحتى عام ٨١٣م/١٩٨هـ، وسار في تدوينه على النظام الحولي، شأنه في هذا شأن سلفه يوحنا مالالاس(٢). وقد كتب ثيوفانيس مدونته باللغة اليونانية الدارجة فيما بين عامي ٨١٠، ٨١٤ م، وتعتبر استكمالاً لتلك التي كتبها صديقه جورج السينكلوس George Synkellos؛ واعتمد في كتابتها على مجموعة من المصادر التاريخية التي فقد معظمها، ولم تصلنا بصورة مباشرة(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن ثيوفانيس كتب مدونته التاريخية متأثراً بتحيز الرهبان القاطع، بيد أنه كان يحتفظ لنفسه بحكمه على الأشياء. ولا يزال عمله هو المرجع الثقة الوحيد عن القرون السابقة لعصره عن تاريخ بيزنطة،(٤) وقد اعتمد عليه بعض من المؤرخين الذين جاءوا بعده، ومن أشهرهم قسطنطين بورفيروجنيتوس (٥).

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب ، جامعة عين شمس، مصر.

ويحتل الراهب البيزنطي ثيوفانيس أهمية بالغة في الكتابة التاريخية البيزنطية لعدة أسباب:

أولاً: عاش ثيوفانيس في فترة غامضة من تاريخ الدولة البيزنطية (القرنين ٨-٩م) لم تصل إلينا منها مدونات تاريخية تعكس حقيقة تاريخها وعلاقاتها بالأمم المجاورة في ذلك الوقت، باستثناء كتابات رجال الدين المسيحي، التي غلب عليها الطابع الديني والخطابي المضاد للإسلام (٦).

ثانياً: تعتبر رواية ثيوفانيس الرواية الأكثر أهمية من المؤرخين البيزنطيين الآخرين، لاسيما وأنها ذات قيمة تاريخية عالية، خاصة فيما يتعلق بتاريخ العلاقات العربية البيزنطية، في الفترة من ظهور الإسلام وحتى عام ٨١٣م/١٩٨هـ (٧).

ثالثاً: اعتمد كثير من المؤرخين البيزنطيين والغربيين ممن جاءوا بعد ثيوفانيس على رواية الأخير، نظرا لأنها اعتمدت على عدد من الكتابات التاريخية المفقودة، والتي تعود إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين (٨).

رابعاً: تعتبر رؤية ثيوفانيس لحياة الرسول ﷺ وللفتوحات الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين انعكاساً لبعض المصادر التاريخية السابقة عليه.(٩) لاسيما المصادر السريانية، التي نقل عنها ثيوفانيس أفكاراً مشوشة عن الإسلام إلى بيزنطة. فقد اعتمد في هذا الصدد وبصورة أساسية على ما كتبه يوحنا الدمشقي، بالإضافة إلى ديونيسيوس التلمحري.(١٠) ولا نبالغ إذا قلنا أن هذه الرواية بأفكارها المشوهة عن الإسلام لا زالت تلوكها ألسن الرهبان في أوروبا حتى الآن، وساعدت على عدم بيان الصورة الحقيقية للإسلام في الغرب الأوروبي.

وتأتي هذه الدراسة لا لتنقل رواية ثيوفانيس بهذا الصدد إلى العربية وتناقشها فحسب، مقارنة بالمصادر التاريخية الأخرى، بل لتبحث في إيديولوجية المؤلف تجاه الإسلام؛ ولتبحث عن أسباب خروج روايته عن الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام وفلسطين زمن الرسول والخلفاء الراشدين بالشكل الذي سنعرضه، وإلى أي مدى أثر في كتابات المتعاقبين عليه من المؤرخين البيزنطيين.

وإذا اتجهنا نحو رؤية ثيوفانيس للفتوحات الإسلامية، ولكي نفهم إيديولوجية هذا الراهب تجاه الإسلام، علينا أن نناقش أولاً حديثه عن الرسول الرسول ﷺ لأنه سيساهم كثيراً في استيعاب رؤيته للفتوحات الإسلامية في بلاد الشام، والتي تعكس رؤية أحد رجال الدين البيزنطيين؛ حيث يبدأ ثيوفانيس حديثه، تحت أحداث عام ٦٢٩-٦٣٠م/٨-٩هـ، بذكر ما يلي عن الرسول الذي جعله حاكماً للعرب لمدة تسع سنوات: «في هذا العام توفي محمد، زعيم العرب ونبيهم المزيف، بعد أن عين أبا بكر، وهو أحد أبناء قبيلته، ليخلفه في الرئاسة..»(١١) وهنا يبدأ ثيوفانيس حديثه باتهام الرسول الرسول ﷺ

بزيف نبوته، وهو موضوع سيعود إليه فيما بعد، ويجعل وفاته في عام ٦٢٩-٦٣٠م/٨-٩هـ، والصحيح أنه توفي في عام ١١هـ/٦٣٢م:(١٢) كما أن الرسول الرسول ﷺ لم يعين أبا بكر الصديق خليفة له، بل تم اختياره من قبل المسلمين في اليوم الذي توفي فيه الرسول الرسول ﷺ في سقيفة بني ساعدة،(١٣) إتباعاً للمنهج القرآني «وأمرهم شورى بينهم».(١٤) ثم ينتقل ثيوفانيس للحديث عن أصل ونسب الرسول الرسول ﷺ حيث يقول:

«...وأعتقد أنه من الضروري أن أتحدث عن أصل هذا الرجل. فهو ينحدر من قبيلة واسعة الانتشار جدا، وهي من نسل إسماعيل بن إبراهيم، حيث يعتبر نزار، وهو من نسل إسماعيل، أباهم جميعا. وقد رزق ولدين هما مضر وربيعة. ورزق مضر قريشا، وقيسا، وتميما، وأسدا، وآخرين غير معروفين. وقد سكنوا جميعهم صحراء مدين (١٥)، حيث عاشوا في خيام، وعملوا في تربية الماشية. وكان هناك أيضا آخرون يعيشون في أماكن بعيدة وليسوا من قبيلتهم، بل من الحميريين Homerites الذين كانوا يعرفون باسم العمالقة Amanites (١٦). وكان بعض هؤلاء يتاجرون في إبلهم»...(١٧) وفي هذا المقام يتفق ثيوفانيس مع المؤرخ الأرمني سيبيوس، الذي عاش في القرن السابع الميلادي وعاصر حركة الفتوحات الإسلامية، حيث يشير سيبيوس أيضاً إلى نسب الرسول ويعود به إلى أبناء إسماعيل عليه السلام.(١٨) غير أن ثيوفانيس، على الرغم من أن مصدره يعود إلى بدايات القرن التاسع الميلادي، إلا أنه يقدم تفصيلات أكثر من سيبيوس، مؤرخ القرن السابع الميلادي. ومن المحتمل أن ثيوفانيس اعتمد على مصادر شرقية في الحصول على معلومات دقيقة إلى حد كبير عن أصل العرب ونسب رسول الله (صلى الله عليه وسلم): وهو، حسب المصادر العربية، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب، وينتهي نسبه إلى إسماعيل عليه السلام بن الخليل إبراهيم.(١٩) وقد اتفق النساب على أن مضر وربيعة هما من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.(٢٠) وهو ما يتفق مع رواية ثيوفانيس، التي يضيف فيها أنهم كانوا يعملون بالرعي والتجارة. ثم ينتقل ثيوفانيس للحديث عن فترة شباب محمد قائلاً:

«ولأن محمد كان معدماً ويتيماً فقد قرر الدخول في خدمة امرأة ثرية، كانت من أقاربه، وتدعى خديجة، كأجير عندها على أن يعمل في تجارة القوافل ما بين مصر وفلسطين. ورويداً رويداً أصبح جريئاً وحظي بمكانة عند هذه السيدة، وكانت آنذاك أرملة. فاتخذها زوجة له، وامتلك إبلها وثروتها...» (٢١) وفي هذا الصدد لا يحيد ثيوفانيس عما نعرفه عن اشتغال الرسول ﷺ بتجارة السيدة خديجة، ثم زواجهما بعد ذلك. غير أنه يحاول تصوير محمد الرسول ﷺ في صورة أنه تزوجها حتى يستولي على أموالها، وأنه هو الذي قرر الدخول في خدمتها: على عكس المؤرخين المسلمين الذين يذكرون أنها هي التي أرسلت في طلبه ليخرج

بمالها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، بعد أن سمعت عن صدقه وأمانته.(٢٢)ولا يوجد دليل تاريخي على أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يخرج بالتجارة إلى مصر، كما زعم ثيوفانيس، بل كان يخرج بها إلى فلسطين والشام؛ واشتغال الرسول بالتجارة مؤكد عند سيبيوس أيضاً، الذي يشير صراحة إلى أنه كان تاجراً (٢٣).

وقد تزوج محمد ﷺ السيدة خديجة بنت خويلد بعد ذلك، وكان عمره آنذاك خمسة وعشرون عاماً، وهي تكبره بخمسة عشر عاماً أو بعشرين عاماً على الأقصى، أي كان عمرها آنذاك أربعون أو خمسة وأربعون عاماً.(٢٤) ولزواجه من السيدة خديجة بنت خويلد قصة، حسب المصادر العربية، تثبت أن محمداً ﷺ لم يسع للزواج منها، كما صور ثيوفانيس، بل هي التي طمعت في الزواج منه وأرسلت تخطبه لنفسها، فبعد أن ذهب محمد ﷺ بتجارتها إلى الشام مع غلامها «ميسرة» باعا ما حملا معهما، واشتريا بما عادا به، وربحا ربحاً عظيماً. ولما عادا إلى مكة سمعت خديجة من ميسرة الكثير عن أمانة محمد ﷺ وما رأى منه، فسرت لذلك سروراً عظيماً، وأرسلت إليه تخطبه لنفسها، حيث قالت له: «يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك»، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ «أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً».(٢٥) وذهب محمد مع أعمامه إلى عمها عمرو بن أسد، فخطبوها منه فزوجه منها.(٢٦) غير أن اليعقوبي يذكر رواية مختلفة، وإن كانت تعكس أيضاً أن السيدة خديجة هي التي رغبت في الزواج منه، حيث يقول: (٢٧) «...روى بعضهم عن عمار بن ياسر أنه قال أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد، كنت صديقاً له فإنا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة إذا بخديجة بنت خويلد وأختها هالة، فلما رأت رسول الله جاءتني هالة أختها فقالت: يا عمار ما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلت والله ما أدري فرجعت فذكرت ذلك له فقال ارجع فواضعها وعدها يوماً نأتيها فيه ففعلت. فلما كان ذلك اليوم أرسلتْ إلى عمرو ابن أسد وسقته ذلك اليوم، ودهنت لحيته بدهن أصفر وطرحت عليه حبراً، ثم جاء رسول الله في نفر من أعمامه تقدمهم أبو طالب...»وقد توفيت عن عمر يناهز الخامسة والستين.(٢٨) وهكذا لا يصيب ثيوفانيس في هذا الجزء من روايته حول زواج محمد ﷺ من السيدة خديجة، والذي لا نجد له أثراً في رواية سيبيوس، الذي يتناول بعد ذلك بالقول بعضا من تعاليم الإسلام، بل ويستشهد بالآية القرآنية «إن ينصركم الله فلا غالب لكم» (٢٩) في نهاية حديثه عن الرسول ﷺ.(٣٠)

وينتقل ثيوفانيس بعد ذلك ليشن هجوماً على الرسول ﷺ متهماً إياه بعدد من الاتهامات الباطلة، منها أنه كان على اتصال باليهود والهراطقة من المسيحيين، والمقصود هنا إما الأريوسيين، الذين كانوا على مذهب أريوس الباطل من وجهة نظر الكنيسة، والذي يقضي بأن المسيح عليه السلام ليس من جوهر الأب، ومن ثم ليست له صفة الإلوهية، بل مخلوق تسري عليه قوانين الخليقة؛ وهو المذهب الذي خرج على أيدي الأسقف المصري أريوس عام ٣١٨م، ولاقى انتشاراً واسعاً في بلاد الشام، لاسيما فلسطين، وآسيا الصغرى؛ (٣١) أو النساطرة،

ممن كانوا على مذهب نسطور، الذي نادى بأن السيدة مريم ينبغي أن تُكنى بوالدة المسيح، وليس والدة الإله، لأنها لم تلد إلها، بل ولدت إنسانا هو إله لله.(٣٢) ولهذا سيجعل ثيوفانيس ورقة بن نوفل، راهباً منبوذاً، بسبب هرطقته المسيحية. وبهذا يحاول أن يوحي للقارئ بأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إنما نقله عن اليهود والمسيحيين الأريوسيين أو النساطرة في فلسطين، أثناء رحلاته التجارية إلى بلاد الشام؛ ومن ثم فديانته هذه هرطقة جديدة. والاتهام الباطل الآخر الذي يتهم به الرسول ﷺ هو أنه كان مصاباً بالصرع، وفي هذا المقام يقول:

«...وعندما قدم إلى فلسطين رافق يهوداً ومسيحيين، وتعلم منهم أموراً محددة من الكتاب المقدس. وبالإضافة إلى ذلك فهو مصاب بالصرع. وعندما تيقنت زوجته من هذا صدمت بشدة؛ وبقدر ما كان لهذه السيدة من مكانة بين قومها، تزوجت مثل هذا الرجل، الذي لم يكن فقيراً فقط بل مريضاً بالصرع أيضاً. وقد حاول أن يخدعها قائلاً: 'إنني أرى دائماً ملاكاً يدعى جبريل، ولست بقادر على تحمل رؤيته، وإنني أخر وأسقط.' والآن كانت (خديجة) تعرف راهباً يعيش قريباً من المكان، وهو أحد أصدقائها (قد نفي بسبب مذهبه المنبوذ)، وقصت عليه كل شيء، بما في ذلك اسم الملاك. ورغبة منه أن يرضيها قال لها: «إنه نطق بالحق، لأن هذا هو الملاك الذي نزل على كل الرسل» وعندما سمعت كلمات هذا الراهب المزيف، كانت أول من آمن بمحمد وأخبرت نسوة قبيلتها بأنه كان نبياً. ومن ثم انتشر الخبر من النسوة إلى الرجال، وكان أبو بكر أولهم، الذي تركه كخليفة له. وقد انتشرت هذه الهرطقة في منطقة يثرب، ثم لجأ إلى الحرب: في البداية كانت سراً لمدة عشر سنوات، وبالحرب عشر أخرى، وجهراً تسع سنوات... (٣٣)

وهكذا، يحاول ثيوفانيس أن يؤكد على مسألة علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود والمسيحيين أثناء رحلاته التجارية إلى فلسطين، ليوحي للقارئ بأنه استقى منهم أخبار النبيين السابقين، وغير ذلك من المسائل اللاهوتية، وهو بهذا ينحرف بالرواية التاريخية عن تلك الواردة في بعض المصادر العربية عن الراهب الذي استضاف أبو طالب وابن أخيه محمد عندما خرجا للتجارة في فلسطين، وكان هذا قبل البعثة النبوية بسنوات طويلة، حيث كان عمره آنذاك تسع سنوات أو اثنتا عشرة سنة، حيث يقول الطبري في هذا المقام:

...خرج (أبو طالب) به معه فلما نزل الركب بُصرى (٣٤) من أرض الشام، وبها راهب يقال له بُحيرى في صومعة له، (٣٥) وكان ذا علم من أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة ... راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون يتوارثون كابراً عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيري صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك أنه رأى رسول الله وهو في صومعته عليه غمامة تظله من بين القوم ثم أقبلوا حتى نزلوا في ظل شجرة قريبا منه فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله حتى استظل تحتها، فلما رأى

ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فدعاهم جميعاً، فلما رأى بحيرى رسول الله جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته؛ فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا سأل رسول الله عن أشياء في حالة يقظته وفي نومه، فجعل رسول الله يخبره فيجدها بحيرى موافقة لما عنده من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، ثم قال بحيرى لعمه أبي طالب ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، فقال له بحيرى ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي، قال فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به، قال صدقت ارجع به إلى بلدك، واحذر عليه من يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن له شأن عظيم. فأسرع به إلى بلده، فخرج به عمه سريعاً حتى أقدمه مكة. وقال هشام بن محمد خرج أبو طالب برسول الله إلى بصُري من أرض الشام وهو ابن تسع سنين...» (٣٦)

وتذكر المصادر العربية (٣٧) أنه عندما شب محمد صلى الله عليه وسلم عن الطوق صار يخرج بالتجارة، وقد خرج بتجارة السيدة خديجة مع غلامها ميسرة إلى الشام حيث مرا على صومعة راهب، «فنزل رسول الله في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان يدعى نسطور،(٣٨) فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.» وهكذا، لم تقابلنا غير هاتين الروايتين عن رؤية محمد صلى الله عليه وسلم لبعض رهبان الشام وهو في طريقه للتجارة من مكة إلى الشام، ولا يوجد ما يثبت أنه استمع لهم أو نقل عنهم، ومن ثم فلا سند يجعل رواية ثيوفانيس حقيقة؛ ومن ثم لا يستطيع الباحث أن يعول على روايته في هذه النقطة، والتي يبدو أنه نقلها عن مصدر سرياني، بصورة واضحة، حيث نجد يوحنا الدمشقي، أحد رهبان دير القديس سابا ببيت المقدس، يردد فكرة اتصال الرسول ﷺ بورقة بن نوفل، الأريوسي المذهب، الذي ساعده على دراسة العهدين القديم والجديد، والإعداد لظهور مذهبه أو دعوته.(٣٩)

جدير بالذكر أن حديث ثيوفانيس هذا نجد صداه عند بعض المؤرخين المحدثين، حيث يردد ستراتوس، على سبيل المثال، رواية ثيوفانيس السابقة؛ بل ويضيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى معرفته الأولية عن المسيحية من الراهب بَحيرى، المونوفيزي المذهب، وعن اليهودية من اليهود العرب؛ وأنه تعلم أموراً بعينها عن العقيدة المسيحية منه وكذلك أجزاء من العهدين القديم والجديد.(٤٠)

أما قصة اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع، فقد ابتكرها المستشرقون للطعن في واقعة الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ حتى يستطيعوا القول أن ما كان يقوله إنما صدر عن شخص مريض، تفوه به أثناء نوبة الصرع.(٤١) إن الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ كانت تنتابه شدة من الوحي،(٤٢) وقد عاد إلى السيدة خديجة وهو يرتجف، عندما نزل عليه الوحي أول مرة، ويقول لها زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، حينئذ أخذ يقص

عليها ما حدث. وعلى أثر ذلك اتجهت السيدة خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وهو شيخ كبير في السن، كان يدين بالمسيحية، متبحرا في العلوم الدينية،(٤٣) لتقص عليه ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم. وهنا بشرها ورقة بن نوفل بأن هذه أعراض الناموس الأكبر (٤٤) الذي نزله الله من قبل على موسى. وعلى الفور عادت إلى محمد فأخبرته بقول ورقة.(٤٥) ويخطئ ثيوفانيس في روايته السابقة بقوله أن ورقة بن نوفل «كان أحد أصدقاء السيدة خديجة»، والصحيح أن ورقة بن نوفل كان ابن عمها،(٤٦) كما أن الصداقة بالمفهوم البيزنطي بين الرجل والمرأة لم تكن منتشرة في بيئة محافظة كبيئة العرب.(٤٧) غير أنه يتفق مع الرواية العربية في القول أنها أول من آمنت به من النساء، ومن الرجال كان أبو بكر الصديق(٤٨)، وأن الإسلام انتشر في يثرب المدينة فيما بعد دخول الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، والتي انتشر منها بعد ذلك إلى كل أرجاء الجزيرة العربية.

أما عن مسار الدعوة فقد أصاب ثيوفانيس في القول أنها كانت سرية في البداية، وقد نجم صلى الله عليه وسلم عن هذه المرحلة إسلام ستين شخصاً كان أغلبهم من وجهاء قريش. ثم تأتي مرحلة الجهر بالدعوة بناء على أمر الله سبحانه وتعالى، بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية في مكة،(٤٩) لا عشراً كما قال ثيوفانيس، وتستمر مرحلة الجهر بالدعوة حتى فتح مكة ٨هـ/٦٣٠م، ثم وفاة الرسول ﷺ ١١هـ/٦٣٢م.(٥٠) غير أن ثيوفانيس يجعل مغازي الرسول ﷺ مرحلة مستقلة ويجعلها بعد مرحلة الدعوة السرية، وهذا أمر يشوبه شيء من عدم الصحة، نظراً لأن مرحلة الجهر بالدعوة صحبتها معارك وغزوات عدة داخل وخارج الجزيرة العربية في سبيل نشر الإسلام؛ ومن ثم فإن الدعوة الإسلامية انتشرت على مرحلتين هما الدعوة سراً، ثم جهراً بدءاً من عام ٦١٣م/٩ ق.هـ. ومن الأخطاء التي انزلق إليها ثيوفانيس أيضاً أن جعل مدة الدعوة إلى الإسلام تسعة وعشرون عاماً، بيد أن الدعوة الإسلامية منذ أن نزّل الوحي على الرسول ﷺ عام ٦١٠م/١٣ق.هـ وحتى وفاته عام١١هـ/٦٣٢م كانت جملتها ثلاثة وعشرون عاماً تقريباً؛ حيث كان عمر الرسول وقت نزول الوحي عليه أربعون عاماً (٥١) وتوفي عن عمر يناهز الثالثة والستون.(٥٢)

على أية حال ينتقل ثيوفانيس في هجومه بعد ذلك على الرسول ﷺ بمحاولة الربط بينه وبين اليهود، حتى يقول أنه ورث عداء اليهود للمسيحيين. وفي هذا الموضوع يقول:

«... وفي نفس الوقت ذاع صيته في الخارج، وكان كل شخص مرتعدا (منه) وعند مطلع ظهوره اعتقدت فئة من اليهود أنه المسيح (٥٣) الذين ينتظرون ظهوره، ومن هنا انضم له بعض قادتهم ودخلوا دينه، بينما تخلوا عن دين موسى، الذي رأى الله. وكان عدد هؤلاء اليهود عشرة، وقد ظلوا معه حتى مقتله. ولكن عندما وجدوا أنه يأكل لحم الإبل أدركوا بالفعل أنه ليس من يعتقدون بظهوره،(٥٤) وأصبحوا في حيرة فيما عليهم فعله، فهم يخافون أن يرتدوا عن دينه؛ ولقنته تلك الفئة الضالة مبادئ غير مشروعة ضدنا، نحن المسيحيون، وقد ظلوا معه...» (٥٥)

ويبدو أن ثيوفانيس يتحدث هنا عن رهط من الخزرج التقى بهم الرسول ﷺ ذات يوم وهم في طريقهم للحج عام ٦٢٠م/١٠ من النبوة، عند العقبة، وكان عددهم ستة عند البعض أو سبعة وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك بن العجلان، وعامر بن عبد حارثة، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابيء، وجابر بن عبد الله بن رباب، وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام وتلا عليهم القرآن فقبلوا ذلك منه وأثر في قلوبهم ثم عادوا إلى المدينة، حيث ذكروا لقومهم أمر النبي ودعوته إلى الإسلام فأسلم كثيرون منهم.(٥٦) حتى إذا كان العام التالي ٦٢١م/١١ من النبوة لقي الرسول اثنى عشر رجلاً من الأنصار عند العقبة وبايعوه بيعة عرفت باسم بيعة العقبة الأولى أو بيعة النساء.(٥٧) ويبدو أن ثيوفانيس خلط هنا بين الأوس والخزرج وهما من القبائل العربية المقيمة في يثرب، وبين قبائل اليهود، التي كانت مقيمة هناك أيضاً وتُناصر الأوس والخزرج، فقد كان بنو قريظة وبنو النضير حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج.(٥٨) ومن الأخطاء التي وقع فيها ثيوفانيس قوله:«...وبقوا معه حتى مقتله أي الرسول .. وهذا غير صحيح لأن الرسول توفي وهو على فراشه، بعد فترة من المرض، ولم يقتل كما يذكر ثيوفانيس في هذا الموضع.(٥٩) ويبدو هنا أن هذه العبارة خطأ في الترجمة انزلق إليه سيريل مانجو وروجر سكوت، والمقصود كما يقول كدرينوس، الذي يسير على نهج ثيوفانيس، أنهم «...بقوا معه حتى الموت».(٦٠)

وأخيراً ينتقل ثيوفانيس للهجوم على القرآن الكريم نفسه من خلال مفهوم الجنة في الإسلام، وهي قضية دينية خاض فيها المستشرقون المحدثون، وكالعادة فإننا نقابل ثيوفانيس كواحد من أقدم الكتاب المسيحيين الذين أثاروا هذه القضية في الجدل بين المسيحية والإسلام. ولا نود الخوض في هذه القضية الجدلية بين أنصار الفريقين حتى لا نخرج عن الإطار التاريخي لموضوع البحث.(٦١)

على أية حال، يستهل ثيوفانيس روايته عن هذه الفتوحات من خلال حديثه عن سرية مؤته التي وقعت في عام ٨هـ/٦٢٩م، عند قرية مؤتة، على أطراف الشام الجنوبية، غير أنه يضعها في العام الأول من عهد أبي بكر الصديق، في عام ٦٣٠م/٩هـ.(٦٢) ويقص ثيوفانيس روايته عن غزوة مؤتة على النحو التالي:

«كان محمد، الذي توفي منذ عهد قريب، قد عين أربعة من الأمراء لقتال هؤلاء العرب الذين كانوا يدينون بالمسيحية، وقد وصلوا عند قرية تسمى موخايا Mouchaea ، حيث كان يعسكر عندها الفيكاريوس Vicarius ثيودور، على أمل أن ينقض على العرب يوم تقديمهم القرابين لأصنامهم. وعندما علم الفيكاريوس بهذه الأخبار من رجل قرشي Koraishite يدعى Koutabas،(٦٣) كان يعمل لحسابه، جمع كل حشود قواته من حراس الصحراء؛ وعندما تأكد من ذلك العربي عن اليوم وساعة الهجوم المرتقبة، قام بمهاجمتهم بنفسه عند قرية تسمى مؤتة Mothous، وقتل ثلاثة من قادتهم وأباد معظم الجيش. وتمكن واحد من هؤلاء الأمراء ويسمى خالد، ويدعونه سيف الله ، من الهرب.» (٦٤)

عند هذه النقطة يتوقف حديث ثيوفانيس عن غزوة مؤته، ولنأت إلى تحليل هذه الرواية التي تحتوي على عدة أخطاء تاريخية. فقد وقعت الغزوة في عهد الرسول ﷺ في عام ٨هـ/٦٢٩م وليس في عهد أبي بكر الصديق أو في عام ٩هـ/٦٣٠م.(٦٥) ويشير ثيوفانيس إلى أن سبب غزوة مؤته كان قتال العرب المسيحيين القاطنين بالشام. ولا نعرف هل كان يقصد الغساسنة هنا أم من؟ غير أن الرواية العربية تشير إلى أن سبب هذه الغزوة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أرسل رسوله الحارث بن عمير الأزدي إلى عامل هرقل (٦١٠-٦٤١م) على بُصرى يدعوه للإسلام، غير أن رجلاً من الغساسنة يدعى شرحبيل بن عمرو الغساني قتل رسولَ رسولِ الله ﷺ. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن أمر بتجهيز حملة عسكرية وضع على رأسها زيد بن حارثة، وقد اشترك فيها أيضاً جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد وغيرهم. وعلى أثر هذا العمل أصبحت المواجهة حتمية بين المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام. وهنا يقدم ثيوفانيس معلومة مهمة تشير إلى تعاون ما، تم بين قريش وبين ثيودور، الوالي البيزنطي بالشام، حيث زودوه بأخبار الجيش الإسلامي الخارج لقتال البيزنطيين؛ وهي معلومة تبدو حقيقة، لاسيما وأن التجارة والعداء لمحمد ﷺ كانا العاملان اللذان يجمعان بين قريش والبيزنطيين بالشام. ومن ثم رابطت القوات البيزنطية بالآلاف عند مآب، عندما وصلتها الأنباء بتحرك الجيش الإسلامي ووصوله إلى معان، حيث تحركت والتقى الطرفان عند مؤتة. وقد قام الوالي ثيودور بهجوم ناجح ضد الجيش الإسلامي وقتل من قادته زيد بن حارثه وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، عدا خالد بن الوليد، الذي تمكن من النجاة بجزء من الجيش والعودة به إلى المدينة سالماً.(٦٦) وهذا فيه اتفاق بين ثيوفانيس والمصادر العربية.

وهكذا، فإن سبب غزوة مؤتة كان تأديب والي بُصرى والثأر لمقتل رسول الله، وليس الإغارة على العرب المسيحيين، كما ادعى ثيوفانيس؛ أو ربما بسبب مقتل والي معان، فروة بن عمرو الجذامي، الذي كان قد دخل الإسلام وأقام علاقات مع المسلمين دون الحصول على إذن من بيزنطة.(٦٧) ومع هذا تعتبر رواية ثيوفانيس عن غزوة مؤته هي الشاهد الفريد الواضح باليونانية عن المعركة والوضع الذي كان قائماً شرقي نهر الأردن، بعد استعادة السلطة البيزنطية هناك؛ (٦٨) كما أنها تقدم الدليل الحي على سبب هزيمة المسلمين في مؤته، وهو ما تصمت عنه المصادر العربية. ولا نعرف السبب الذي جعل ثيوفانيس يخلط بين العرب المسلمين وبين القبائل العربية، التي كانت تهاجم فصائل منها حدود الشام الجنوبية من حين لآخر، لسبب أو لآخر، سواء المسيحية منها أو المشركة. ويشير ثيوفانيس إلى نقطة مهمة أيضاً وهي العرب الذين كانوا يعملون لصالح بيزنطة، وإلى التعاون الذي كان قائماً بينهم وبين البيزنطيين ضد المسلمين.

وفي موضع آخر يشير ثيوفانيس إلى أن «. . .بعض العرب المجاورين للبيزنطيين كانوا يتقاضون رواتباً قليلة من الأباطرة مقابل حراسة التخوم القريبة من الصحراء. . .» (٦٩) وبهذا كان من الطبيعي أن يظهر من بين العرب الحدوديين من يعمل لصالح البيزنطيين ويبلغهم بتحركات القوات الإسلامية، مما جعل البيزنطيين يعدون العدة جيداً للقوات الإسلامية عند

مؤتة. ويشير أيضاً إلى أن هذه الرواتب قد انقطعت في عهد الإمبراطور هرقل، على أثر الأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بها البلاد آنذاك، فقد ذهب ذات يوم أحد خصيان الإمبراطور لتسليم الرواتب للجند بالشام، وعندما قدم العرب ليحصلوا على رواتبهم، طبقا للعادة، قام هذا الخصي بطردهم قائلا لهم: «إن الإمبراطور يستطيع بالكاد دفع رواتب جنوده، وهي الأقل بكثير مما يمنحه لهؤلاء الكلاب». (٧٠) وكان من نتيجة ما فعله هذا الخصي أن انقلب هؤلاء العرب على الإمبراطور البيزنطي، وقرروا التعاون مع ذويهم من بني جنسهم، حيث قادوهم إلى إقليم غزة الغني، الذي يعد بوابة الصحراء إلى جبل سيناء. (٧١) وهكذا، يشير ثيوفانيس إلى نوع من التوتر في العلاقات بين القبائل العربية الحدية، التي كانت تعمل على مراقبة وحماية حدود بيزنطة الشامية الجنوبية، مقابل هذه الرواتب، (٧٢) وبين الإمبراطور البيزنطي، مما سيكون له أكبر الأثر عند دخول المسلمين إلى بقية أنحاء بلاد الشام.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن من هم هؤلاء العرب الذين كانوا يتلقون رواتبا قليلة من الإمبراطور وأشار إليهم ثيوفانيس؟ هل هم الغساسنة أم قبائل عربية أخرى حدية؟

من المعروف أن الحارث بن جبلة كان أول أمراء بني جفنة وأعظمهم شأناً بلا منازع وقد اختاره الإمبراطور جستنيان (٥٢٧–٥٦٥م) حوالي عام ٥٢٨م ليكون بجانبه ضد المنذر ملك الحيرة. ولقد رفع جستنيان الحارس إلى مرتبة الملوك وبسط سيادته على كثير من قبائل العرب بالشام حتى يقيم خصماً قوياً في وجه المنذر ملك الحيرة؛ (٧٣) بل أصبح سيداً على كل القبائل العربية من الفرات حتى البحر الأحمر. (٧٤) وتقول المصادر البيزنطية أن الإمبراطور أسبغ على الحارث لقب بطريق Patricius (٧٥) Phalarch او رئيس قبيلة Phlarch (٧٦) ويبدو أن إمارة الغساسنة قد بلغت شأناً عظيماً في عهد الحارث بن جبلة، ليس بسبب الألقاب البيزنطية الشرفية التي حملها، ونفهم هذا من عبارة وردت عند يوحنا الافسوسي عندما أراد خدم الإمبراطور جستين الثاني (٥٦٥–٥٧٨م) أن يخيفونه، بعد أن أصيب بلوثة عقلية جعلته يهذى ويصرخ، فقالوا له «اهدأ، هاهو الحارث بن جبلة قادم إليك»، عندئذ أسرع جستين الثاني ليختبئ أسفل السرير ويتشبث بأحد أركانه. (٧٧)

لقد أصبح الغساسنة قوة ذات شأن تعمل كمعاهدين لبيزنطة، فرضت سيادتها على كل القبائل العربية القاطنة بالشام. وقد لعبوا دورا مهما في الحياة الاقتصادية في تلك المنطقة في القرن السادس الميلادي، حيث كان طريق التوابل الواقع غربي شبه الجزيرة العربية واحدا من الشرايين العظمى للتجارة العالمية آنذاك، والذي كان يعيش حوله الغساسنة، لاسيما عند الطرق التجارية المؤدية إلى مدينة بُصرى وغزة (٧٨).

وقد حالف الغساسنة البيزنطيين محالفة الند للند ضد الفرس والعرب المغيرين علي أطراف دولتهم واشترطوا أن يمدوهم بثلاثين أو أربعين ألفاً إذا حاربهم العرب، وأن يمدوا البيزنطيين بعشرين ألفاً من المقاتلين إذا تحاربوا مع الفرس. غير أن التوتر أصاب العلاقات البيزنطية الغسانية على عهد المنذر بن الحارث بن جبلة (٥٦٩ – ٥٨٢م). لعدة أسباب منها الاضطهاد الدينى الذى مارسه جستين الثانى ضد المسيحيين المونوفيزيين، الذين كان ينتمى إليهم الغساسنة (٧٩)

ومن ناحية ثانية كان الإمبراطور جستين الثانى قد دبر مؤامرة للتخلص من المنذر بن الحارث، كان مصيرها الفشل (٨٠) مما جعل الغساسنة يشقون عصا الطاعة على البيزنطيين لمدة ثلاث سنوات. وكان الإمبراطور جستين الثانى قد غضب على المنذر بن الحارث بن جبلة وقطع عنه الإعانة المالية التى كان يرسلها إليه من القسطنطينية، إلا أن بعد اجتماع المنذر بالبطريق جستنيان ممثل الإمبراطور جستين الثانى، تم التفاهم بين الطرفين وعادت المياه بينهما إلى سالف عهدها(٨١).

بيد أنه عندما توفي الإمبراطور جستين الثاني عام ٥٧٨م حاول خليفته الإمبراطور تيبريوس (٥٧٨-٥٨٢م) أن يكسب ولاء الغساسنة تلبية لمقتضيات الحرب ضد الفرس. وقد زار المنذر بن الحارث القسطنطينية في عهد هذا الإمبراطور، حوالي عام ٥٨٠م، بصحبة اثنين من أبنائه، حيث استقبله الإمبراطور وأكرم وفادته. غير أنه عندما عاد المنذر إلى بلاد الشام شك تيبريوس في ولاءه متهما إياه بالاتصال بالفرس، فدبر مؤامرة تمت بنجاح في إحدى كنائس حوران عام ٥٨١م، وحمل المنذر أسيراً إلى القسطنطينية حيث أدين بالخيانة ونفي إلى صقلية. وفي نفس الوقت أصدر تيبريوس الأمر بوقف المعونات المالية السنوية التي كانت بيزنطة تمنحها للغساسنة.(٨٢)

وقد كان لهذا السلوك البيزنطي تجاه حلفائهم من العرب أكبر الأثر في التوتر بين الطرفين، حيث شق النعمان بن المنذر بن الحارث بن جبلة عصا الطاعة على الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م)، غير أن الأخير تمكن بالحيلة والغدر من القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية أيضاً. وقد أعقب هذا حالة من الفوضى والاستياء بين عرب الشام تجاه البيزنطيين، الذين فقدوا ولاء عرب الشام لهم.(٨٣) ويمكن القول أن الغساسنة كما وقفوا بجانب البيزنطيين في حروبهم ضد الفرس في عهد الإمبراطور جستنيان الأول ومن بعده الإمبراطور تيبريوس (٥٨٧-٥٨٢م) وموريس (٥٨٢-٦٠٢م)، (٨٤) لعبوا نفس الدور أيضاً في عهد الإمبراطور هرقل في حروبه ضد المسلمين إلى أن فتحت أراضيهم وأسلم معظمهم.(٨٥)

وهكذا، قد يبدو للوهلة الأولى أن ثيوفانيس كان يقصد «بالعرب الحدوديين» الذين قطع هرقل الرواتب عنهم الغساسنة، خاصة وأن الأحداث التاريخية تعكس لنا أن العلاقة بين البيزنطيين والعرب الغساسنة لم تكن على ما يرام طوال الوقت، بل كثيراً ما كان يشوبها التوتر الذي وصل في أكثر من مرة إلى حد شق عصا الطاعة على بيزنطة. غير أن موقف جبلة بن الأيهم الغساني إلى جانب هرقل في معركة اليرموك، وإصراره على قتال المسلمين، كما سنرى، يشير إلى أنهم ليس هم العرب الذين قصدهم ثيوفانيس، الذين انقلبوا على هرقل وساعدوا أبناء ذويهم عند دخولهم إلى غزة. وهذا يدفعنا للقول أنه ربما قصد قبائل عربية أخرى، كانت تعيش على أطراف الشام، وليس الغساسنة، أصحاب السيادة العربية في بلاد الشام، والقيادة العسكرية العظمى التي أسسها جستنيان هناك تحت سيادتهم منذ عام ٥٣٠م؛ (٨٦) والتي جمعت تحت قيادتها قبائل لخم وجذام وبلقين وبلي العربية، وهي قبائل من قضاعة وغسان.(٨٧) ومن المحتمل أن تلك القبائل التي أشار إليها قد أقامت في تجمع خاص بها بالقرب من غزة.(٨٨)

على أية حال، ينتقل ثيوفانيس بعد ذلك إلى عهد أبي بكر الصديق، فيشير تحت أحداث عام ٦٣١-٦٣٢م. إلى حملة عسكرية أرسلها أبو بكر الصديق، في العام الثاني من حكمه، بقيادة أربعة من القادة المسلمين، إلى الحيرة وإقليم غزة، الذي استولوا عليه، بعد أن أرشدتهم عناصر عربية [عن طرقه ومسالكه.] وقد صل القائد البيزنطي سرجيوس ومعه ما يقرب من ثلاثمائة جندي من قيصرية فلسطين، بصعوبة بالغة، لصد المسلمين؛ فدخل في معركة معهم، كان هو أول قتلاها، وانتهت بهزيمة جنوده. وبعد هذا الانتصار المبهر عاد المسلمون إلى ديارهم سالمين فائزين محملين بالغنائم والأسرى.(٨٩)

وعند مناقشتنا لهذه الرواية، إذا أقررنا بأنها تنتمي إلى عهد أبي بكر الصديق، استناداً إلى تعيينه أربعة من قادة المسلمين من أجل الفتوح الخارجية في الشام والعراق، فإن التاريخ الذي وضعه ثيوفانيس هنا خاطئ تماماً، لأن الرسول ﷺ توفي في عام ١١هـ/٦٣٢م.(٩٠) وهو نفس العام الذي تولى فيه أبو بكر الصديق الحكم.(٩١) وهنا يغفل ثيوفانيس الحديث عن غزوة تبوك ٩هـ/٦٣٠م، وحملة أسامة بن زيد بن حارثة على مشارف الشام عام ١١هـ/٦٣٢م؛ (٩٢) وينتقل مباشرة إلى الحديث عن بدايات الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق، مستهلاً روايته عنها بالحديث عن دخول يزيد بن أبي سفيان إلى حدود الشام الجنوبية، أو بالتحديد إلى إقليم غزة، على حد ذكره، دون أن يذكر اسم يزيد صراحة، كواحد من القادة الأربعة الذين أخرجهم أبو بكر الصديق لتولي حركة فتوح الشام والعراق.

جدير بالذكر أن حملة أسامة بن زيد على مشارف الشام، عند مؤتة، انتهت بانتصاره وعودته سالماً غانماً في أولى سني عهد أبي بكر الصديق؛ غير أن الإمبراطور هرقل حشد جيوشه في منطقة البلقاء على الحدود بين العرب والبيزنطيين، ولما علم أبو بكر بهذا أعد جيشاً ضخماً دعى له جميع المقاتلين المسلمين في الجزيرة العربية، عام ١٣هـ/٦٣٤م، وولى إمرة هذا الجيش إلى أربعة من القادة، ولكل قائد منهم منطقة معينة يتجه إليها على النحو التالي: (٩٣)

أبو عبيدة بن الجراح، ووجهته حمص ومركز القيادة في الجابية.
عمرو بن العاص ووجهته فلسطين.
يزيد بن أبي سفيان، ووجهته دمشق
شرحبيل بن حسنة، ووجهته منطقة الأردن.

وطبقا للرواية العربية فقد أمرهم أبو بكر الصديق بأن يتعاونوا سوياً، وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وأن يدعم الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك.(٩٤) وقد رسم أبو بكر الصديق الخطة لأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، والتي سارا بمقتضاها إلى فلسطين عن طريق أيلة، حيث نزل عمرو بن العاص بمنطقة وادي عربة أو غمر العربات؛ أما يزيد وشرحبيل بن حسنة فكان عليهما أن يسلكا طريق تبوك، ومنها يتجه كل منهما إلى المدينة المكلف بفتحها.(٩٥)

وتتفق رواية ثيوفانيس في هذا الخصوص مع الرواية العربية، بينما يجعل أغابيوس المنبجي جيشاً من هذه الجيوش الأربعة قد أرسل لقتال نصارى العرب.(٩٦)

وجدير بالذكر أن المؤرخ الأرمني جيفوند، مؤرخ القرن الثامن الميلادي، يشير إلى أن أهل فلسطين هم الذين دعوا العرب للإسراع بمساعدتهم وتخليصهم من اضطهاد البيزنطيين الديني، وأنه عقب تحرير أراضيهم سيشتركان في إدارة البلاد معاً. ومن ثم تشجع العرب، بناءً على هذا الاقتراح، وقرروا فتح فلسطين.(٩٧) غير أن الثابت من خلال المصادر العربية وحولية ثيوفانيس أيضاً أن خطة الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة العربية كانت تتبع منهجاً منظماً يهدف إلى نشر الإسلام وضم تلك البلاد إلى دار الإسلام، وقد خرجت الجيوش الأربعة طبقاً لهذه الخطة. وربما قصد جيفوند هنا القبائل العربية التي انقلبت على هرقل وقررت مساعدة العرب في فتح فلسطين؛ ولو صح هذا الافتراض تصبح هناك صلة بين رواية جيفوند وثيوفانيس بهذا الصدد.

وتجدر الإشارة إلى أنه وقعت عدة اشتباكات متفرقة بين المسلمين والبيزنطيين، أولها كان اشتباكاً بين القوات الإسلامية بقيادة يزيد بن أبي سفيان والقوات البيزنطية بقيادة سرجيوس، بطريق فلسطين، بقرية من قرى إقليم غزة يقال لها داثن، وانتهت بهزيمة البيزنطيين وانسحابهم إلى غزة. وبينما يزيد يطارد فلول البيزنطيين جاءه خبر أن حشوداً بيزنطية اجتمعت في وادي عربة، جنوب البحر الميت، فسَيّر إليها قائداً من قواده يسمى أبو أمامة الصدي الباهلي، حيث تمكن من الإيقاع بهم وقتل أحد قوادهم.(٩٨) ويعلق المؤرخ الأمريكي «والتر كيجي» على انتصار المسلمين على البيزنطيين في داثن أنه أزاح كل حاجز عسكري جدي من طريق المسلمين، حيث أصبح الهجوم على جنوبي فلسطين وفقا لإرادة المسلمين.(٩٩)

وهكذا، تتفق رواية ثيوفانيس مع الرواية العربية في تعيين أبي بكر الصديق لأربعة من القادة المسلمين على رأس القوات الإسلامية المتجهة إلى الفتوح خارج الجزيرة العربية، بينما يذكر ثيوفانيس اسم «سرجيوس»، قائد القوات البيزنطية في فلسطين، الذي قتله المسلمون آنذاك.(١٠٠)

على أية حال، ينفرد ثيوفانيس دون المصادر المعاصرة بالقول أنه بعد «هذا الانتصار المبهر عاد المسلمون إلى ديارهم سالمين فائزين محملين بالغنائم والأسرى»؛ ويشير أيضاً إلى أن سبب عدم توغل قوات يزيد بن أبي سفيان في إقليم غزة، كان بسبب وقوع زلزال آنذاك وظهور ظواهر ضوئية في السماء، كانت تتحرك هالاتها من الجنوب إلى الشمال، لمدة ثلاثين يوما، وهو ما أشار إليه أغابيوس المنبجي أيضاً.(١٠١) بيد أن الواقع كان غير ذلك، فقد كان يزيد بن أبي سفيان معنياً بفتح دمشق وليس التغلغل في إقليم غزة، وهو جزء من أرض فلسطين، المكلف بفتحها عمرو بن العاص وليس يزيد بن أبي سفيان؛ ومن ثم كان عليه التوجه لتنفيذ ما أمره به أبي بكر الصديق، وليس العودة إلى الجزيرة العربية، وهو الجزء الذي لم يصب فيه ثيوفانيس.

ويعود ثيوفانيس إلى القول أن أبا بكر الصديق توفي في عام ٦٣٢م/١١هـ، بعد أن حكم عامين ونصف العام، وتولي عمر بن الخطاب الحكم بعده. بيد أن روايته عن الفتوح الإسلامية

لبلاد الشام في هذه الفترة يشوبها الخلط والتشويش، مثلما أصاب روايته التاريخية عن تاريخ وفاة أبي بكر الصديق. وفي هذا المقام يذكر ثيوفانيس ما يلي: (١٠٢) «مات أبو بكر الصديق في هذا العام، بعد أن تولى الحكم لمدة عامين ونصف العام، وخلفه عمر في السلطة. وقد أرسل (حملة ضد الجزيرة العربية) واستولى على مدينة بُصرى وغيرها من المدن. وتقدم الجيش حتى وصل إلى الجابية. وقد التحم معهم ثيودور، شقيق الإمبراطور هرقل، غير أنه هزم منهم، ومن ثم جاء إلى هرقل في الرها. وقد عين الإمبراطور قائداً آخر يدعى بانيس وأرسل السَكيلاريوس (١٠٣) ثيودور (١٠٤) على رأس جيش الروم ضد العرب.(١٠٥) وعندما جاء إلى حمص، قابل حشداً كبيراً من العرب، حيث قتلهم وقتل معهم أميرهم؛ وطارد البقية الباقية منهم حتى وصلوا إلى دمشق؛ وعسكر هناك عند نهر بردي. أما هرقل فقد ترك بلاد الشام بعد أن أخذ الصليب المقدس معه من بيت المقدس، وعاد إلى القسطنطينية. وقد وجه بانيس والسَكيلاريوس ثيودور من دمشق إلى حمص على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل، وهم الذين طاردوا العرب من حمص إلى دمشق».

بهذا الوصف أنهى ثيوفانيس تقريباً حديثه عن الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام في عهد أبي بكر الصديق، ثم انتقل إلى عهد عمر بن الخطاب؛ وكان حديثه كالعادة مشوشاً وبه بعض الأخطاء التاريخية، ويحتاج إلى الفحص التاريخي الدقيق، حتى نستخلص منه الحقيقة. يتحدث هنا ثيوفانيس عن فتح بُصرى، والجابية وغيرها من المدن دون تحديد، ثم موقعة اليرموك. وتظهر أولى أخطاء ثيوفانيس في تاريخ وفاة أبي بكر الصديق ومدة حكمه، حيث جعل وفاته في عام ١١هـ/٦٣٢م، وهو العام الذي توفي فيه الرسول ﷺ وليس أبي بكر الصديق. ومن المعروف أن أبا بكر الصديق حكم لمدة عامين وثلاثة أشهر وعشرة أو اثنتا عشرة يوم، وليس عامين ونصف العام، وتوفي عام ١٣هـ/٦٣٤م.(١٠٦)

أما عن الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام في روايته السابقة فمن المعروف للمؤرخين، طبقا للمصادر العربية، أنه عندما كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين كان أبو عبيدة بن الجراح يجاهد بجيوشه في بلاد الشام محاولاً فتح مدنها، لكن بالرغم من بسالة القوات الإسلامية إلا أنها عجزت عن صد قوات الروم، خاصة الحملة التي أرسلها أبو عبيدة إلى مدينة بُصري. وأمام هذا كله راسل أبو عبيدة بن الجراح الخليفة ليمده بالمدد والمساعدات العسكرية، فأرسل الخليفة أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد يأمره بترك العراق والتوجه إلى بلاد الشام لمساعدة الجيوش الإسلامية التي كانت تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح. وترك خالد ابن الوليد المثنى بن حارثة في العراق، وأخذ شطراً من جنده وتوجه إلى بلاد الشام، حيث وصل إلى بُصري وعليها شرحبيل بن حسنة ويزيد بن معاوية وأبو عبيدة بن الجراح، وقد اشترك معهم في حصارها؛ واستطاعوا بعد قتال شديد مع القوات البيزنطية بالشام أن يستولوا على مدينة بُصرى بفضل مساعدة واليها رومانوس الذي اعتنق الإسلام، والذي دلهم على سرداب للدخول منه إلى المدينة.(١٠٧) وبهذا تتفق رواية ثيوفانيس عن فتح المسلمين لبُصرى مع الرواية العربية، والتي يتفق مؤلفوها على تمكن المسلمين من السيطرة على المدينة التجارية المهمة جنوب بلاد الشام.

وقد تمكن المسلمون بعد سقوط بُصرى من التغلغل في بطون الشام، حيث ذهب خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح لنجدة عمرو بن العاص، الذي كان موجودا بوادي عربة (غمر العربات)، حيث اجتمعت الجيوش الإسلامية جميعاً عند أجنادين والتحمت مع القوات البيزنطية بقيادة ثيودور، أخو الإمبراطور هرقل، وليس روبيس كما يذكر الواقدي،(١٠٨) في يوليو ٦٣٤م/جمادي الآخر ١٣هـ، غير أنها منيت بهزيمة ثقيلة من المسلمين؛ (١٠٩) الأمر الذي أصاب البيزنطيين بالإحباط وجعلهم ينسحبون نحو دمشق وحمص وغيرهما. وهنا يشير المؤرخ الأرمني سيبيوس إلى واقعة أجنادين ويبين كيف انقض العرب على البيزنطيين وأعملوا فيهم السيف.(١١٠)

ويشير ثيوفانيس في هذا الجزء من الأحداث إلى انسحاب القوات البيزنطية شمالاً وتحصنها بأسوار المدن، وبالطبع لحقت بها الجيوش العربية، حيث التقت بها عند الجابية، ودار القتال بين الطرفين، كمرحلة تمهيدية من نهاية القتال، أدت في المطاف إلى معركة اليرموك. وفي هذه المرحلة من القتال عند الجابية، التي ربما تولاها ثيودور أخو الإمبراطور هرقل، الذي هزم فيها مما اضطره إلى الانسحاب والذهاب إلى هرقل في الرها، حسب رواية ثيوفانيس،(١١١) ربما لمناقشة الوضع العسكري معه. وتبدو هنا إشكالية تاريخية وهي أن البلاذري (١١٢) يذكر أن هرقل كان مقيماً في حمص آنذاك، وليس الرها كما يذكر ثيوفانيس، ولما انهزم البيزنطيون في أجنادين وبلغه الخبر نقل مقر إقامته إلى أنطاكية. ونظرا لتضارب الروايات حول هذا الموضوع فسوف نرجئ نقاشها إلى ما بعد الانتهاء من الحديث عن معركة اليرموك.

وتجدر الإشارة إلى أن هرقل أقصى أخيه ثيودور عن الجيش وأرسله إلى القسطنطينية، بعد أن بلغه نبأ سبه له،(١١٣) أو بسبب هزيمته أمام المسلمين. ومن ثم أدخل تعديلاً في القيادة العامة للقوات البيزنطية حيث أرسل السكيلاريوس ثيودور، المعروف باسم ترايثيريوس Trithyrios ، أي أمين الخزانة، بدلاً من أخيه ثيودور لقيادة الجيوش في الشرق؛ (١١٤) كما عين معه في القيادة العامة أيضاً بانيس، على حد قول ثيوفانيس، الذي ينفرد بذكر اسمه.(١١٥) ولا شك أن التعديل الذي أدخله ثيوفانيس في القيادة العامة للقوات البيزنطية في الشام كان دليلاً على خطورة الموقف العسكري هناك، وتحرج موقف البيزنطيين أمام العرب.

وعندما علم المسلمون بتجهيزات هرقل العسكرية وتعديله في القيادة، أتفق القادة المسلمون على التجمع بجيوشهم في اليرموك(١١٦)، حتى تتوحد قواتهم ضد القوات البيزنطية(١١٧). وقد أوصى الإمبراطور هرقل أحد قادته ويدعى باهان أو ماهان، وهو أرمني الأصل، بالاتصال بالمسلمين لطلب الصلح، فأرسل إليهم جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة ليفاوضهم، وكان المسلمون مازالوا تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح الذي رفض مطالب البيزنطيين، إلا بعد استيلائه على بلاد الشام وفلسطين. كما أرسل أبو عبيدة

رسلاً إلى جبلة بن الأيهم يؤنبونه لانضمامه إلى البيزنطيين ضد بني جلدته، وينصحونه بأن يكف عن قتال المسلمين وينضم إليهم؛ غير أن هذا لم يزده إلا مكابرة.(١١٨) وهذا النوع من المفاوضات بين الطرفين والذي أشار إليه الواقدي، مؤكد عند سيبيوس، مؤرخ القرن السابع الميلادي، في الوقت الذي أغفله ثيوفانيس، حيث يقول سيبيوس أن العرب هم الذين أرسلوا سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل يطالبونه فيها بالتنازل لهم عن الأراضي التي احتلتها بيزنطة حتى يعم السلام بين الطرفين، وإلا سيقوم العرب باجتياحها، واستعادتها بالقوة.(١١٩) ويوضح سيبيوس وجهة نظر العرب في ذلك بقولهم لهرقل «أن الله منحنا هذه البلاد كملكية متوارثة لإبراهيم، ولأبنائه من بعده. ونحن أبناء إبراهيم. وإنه لشيء كثير أن تستولي علي بلادنا. فلترحل في سلام، وإلا سنطالبك بكل ما استوليت عليه». وقد رفض هرقل هذا، ولم يول هذه الرسالة أي اهتمام في الرد باستثناء قوله لهم «هذه البلاد ملك لي، أما ميراثكم فهو الصحراء، فلتذهبوا في سلام إلى بلادكم».(١٢٠) وهكذا تعكس الروايات الأخيرة كيف أن العرب كانوا ينظرون إلى بلاد الشام على أنها أرض عربية، ينبغي أن تعود إليهم. وهكذا يمكن أن تصبح هذه الرؤية عاملا جديدا من العوامل التي دفعت المسلمين لفتوح الشام.

على أية حال، عندما وصل خالد بن الوليد من العراق إلى اليرموك، بناءً على أمر أبي بكر الصديق، تولى القيادة هناك حيث رتب الجيوش الإسلامية على النحو التالي: أبو عبيدة بن الجراح على قلب الجيش، وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة؛ في الوقت الذي جهز فيه هرقل ما يقرب من سبعين ألف مقاتل لمواجهة العرب. (١٢١) وفي هذه المرحلة الحرجة من تاريخ معركة اليرموك جاء البريد من المدينة إلى خالد بن الوليد فأبلغه بنبأ وفاة أبي بكر الصديق في ليلة النصف من جمادى الثاني عام ١٣هـ/٦٣٤م، وخلافة عمر بن الخطاب، كما أبلغه بنبأ عزله عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح؛ (١٢٢) غير أن خالد أخفى كل هذه الأخبار،(١٢٣) حرصاً على وحدة المسلمين، إلى أن تنتهي المعركة. ودارت رحى القتال بين الجانبين وظلت دائرة سجالاً بينهما إلى أن جاء يوم الواقوصة/الياقوصة، الذي اشتد فيه القتال بين المسلمين والبيزنطيين، وفيه خسر البيزنطيون آلافاً من خيرة جنودهم؛ وانتهت المعركة بهزيمة البيزنطيين هزيمة ساحقة.(١٢٤)

وتجدر الإشارة إلى أن جبلة بن الأيهم الغساني اصطحب معه عدداً من أتباعه ومن الأسر العربية التابعة له وعبر الحدود إلى أراضي الدولة البيزنطية، وهو متأثر أشد الأثر لفقدان نفوذه بضياع موطنه بلاد الشام(١٢٥). وتقول الرواية العربية أن عمر بن الخطاب عرض عليه الإسلام وأداء الصدقة فأبى ذلك وقال أقيم على ديني وأؤدي الصدقة فقال عمر إن أقمت على دينك فأد الجزية فانف منها. فقال عمر ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث إما الإسلام وإما أداء الجزية وإما الذهاب إلى حيث شئت فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفا(١٢٦).

وعلى الرغم من أن ثيوفانيس لا يسرد كل هذه التفاصيل إلا أنه يشير في الجزء الأول من روايته عن الفتوح الإسلامية للشام إلى أن هرقل أخذ الصليب المقدس من بيت المقدس وترك بلاد الشام وكر عائداً إلى القسطنطينية.(١٢٧) ويضع هذا الحدث خطأً قبل انتهاء معركة اليرموك، ويغفل القول أن هرقل ذهب من حمص إلى أنطاكية، قبل فراره النهائي إلى القسطنطينية.(١٢٨)

وفي هذه المرحلة من الفتوح يزودنا ثيوفانيس بتفاصيل جديدة عن أسباب هزيمة البيزنطيين في اليرموك، تختلف نسبياً عن التي نستشفها من المصادر العربية، حيث يقول: «وفي هذا العام (٦٣٣-٦٣٤م) انطلق جمع غفير من السراقنة (١٢٩) من الجزيرة العربية، وشنوا حملة على إقليم دمشق. وعندما علم بانيس بهذا، أرسل رسالة إلى السكيلاريوس الإمبراطوري، يطلب فيها منه أن يأتي بجيشه لنجدته، حيث كان يرى أن عدد العرب كثيف جداً. لذلك لحق السكيلاريوس ببانيس وانطلقوا من حمص لمواجهة العرب. وبدأ اليوم الأول من المعركة في يوم الثلاثاء الموافق الثالث والعشرون من شهر لوُز (= يوليو) حيث هزمت قوات السكيلاريوس. وهنا أعلنت قوات بانيس التمرد وأعلنت الأخير إمبراطوراً، حيث لعنوا هرقل. وعندئذ انسحبت قوات السكيلاريوس، وهنا انتهز العرب الفرصة واشتبكوا في القتال. وعندما هبت رياح جنوبية في اتجاه الروم، لم يستطيعوا مواجهة العدو بسبب التراب، وهزموا. وألقى الروم أنفسهم في مضايق نهر اليرموك Heirmouchthas، حيث هلك الجميع، وكان تعداد جيش القائدين معاً ٤٠,٠٠٠. وعلى أثر هذا النصر الباهر تقدم العرب صوب دمشق واستولوا عليها؛ بالإضافة إلى إقليم فينيقيا، حيث استقروا هناك، ووجهوا حملة ضد مصر.» (١٣٠)

وقد انهزمت القوات البيزنطية لعدة أسباب، طبقا لرواية ثيوفانيس، وهي:

١- الحالة النفسية المتردية التي أصابت قوات بانيس على أثر هزيمة قوات السكيلاريوس.

٢- العاصفة الترابية التي هبت عليهم وكانت مواجهة لهم، مما أعاق تقدمهم في القتال ضد المسلمين.(١٣١)

٣- انسحاب قوات السكيلاريوس من الميدان، على أثر تمرد بانيس وقواته؛ وربما كان هذا خوفا من اتهام هرقل له بالخيانة إذا استمر في مشاركتهم على هذا النحو.

٤- لعب التمرد الذي تزعمه بانيس دوراً سلبياً فت في عضد القوات المشتركة وأدى إلى إضعافها.

٥- ويضيف المؤرخ الأرمني سيبيوس، مؤرخ القرن السابع الميلادي، أسباباً جديدة لم يذكرها ثيوفانيس منها غزارة رمال أرض المعركة، حتى أن الجندي البيزنطي كان يغوص فيها حتى ركبتيه، في الوقت الذي أخذ المسلمون يطاردون البيزنطيين فيه.

٦- كما يضيف سيبيوس أن ارتفاع درجة حرارة الشمس كانت من الأسباب التي أودت بالبيزنطيين، حتى أن قتلاهم بلغوا الألفين على حد ذكره.(١٣٢)

٧- وهناك معلومة مهمة ذكرها سيبيوس يمكن أن نستنتج منها تكتيك جديد استخدمه المسلمون لإرهاب البيزنطيين في الميدان، ويعتبر عاملاً من العوامل التي ساعدت على انتصار المسلمين؛ حيث تربص فيلق من جيوش المسلمين في كمائن للبيزنطيين، ونصبوا خيامهم حول معسكرهم، ثم أحاطوا معسكرهم وخيامهم بالجمال، بعد أن قاموا بربط أرجل الجمال بالحبال ببعضها البعض؛ (١٣٣) وذلك حتى لا تتحرك الجمال وتبدو في شكل مهيب يرهب البيزنطيين الذين لم يكونوا قد اعتادوا عليها في المعارك قبل ذلك.

٨- أخيراً يذكر سيبيوس أن البيزنطيين قابلوا القوات الإسلامية وهم مشاة في أرض رملية، بعد أن خارت قواهم بسبب سيرهم لمسافات طويلة قبل لقائهم بالمسلمين.(١٣٤)

٩ - أما المؤرخ الأرمني جيفوند، مؤرخ القرن الثامن الميلادي، فيضيف أن البيزنطيين وقعوا في خطأ فادح، وذلك عندما تركوا خيولهم وأمتعتهم في معسكرهم وابتعدوا عنه لمسافة.١٣٥وربما أدى هذا إلى الفوضى التي وقعت بين صفوفهم، والتي نجم عنها خلل أيضا في التكتيكات الحربية، فأعطى بذلك الفرصة للقوات الإسلامية للتسلل بين قوات الفرسان والمشاة البيزنطيين، وتنزل بهم الهزيمة الساحقة.(١٣٦) وهو الأمر الذي لم يشر إليه ثيوفانيس.

١٠- أما البطريرك نقفور فيسوق أسباباً تختلف عن الأسباب التي ساقها ثيوفانيس للهزيمة وتتمثل في عدم إطاعة ثيودور لأوامر هرقل، حيث أمره الأخير بعدم الدخول في معركة مع المسلمين؛ (١٣٧) وهو ما يتفق مع ما ذكره سيبيوس أيضاً من قوله أن هرقل أسرع بحشد سبعين ألفا من قواته وأسند قيادة الجيش إلى واحد من طواشيته المخلصين وأمره بالزحف نحو بلاد العرب. وأصدر أوامره للجند بألا يخوضوا حرباً ضد العرب، بل عليهم اتخاذ موقف الدفاع لحين اكتمال تعبئة القوات البيزنطية.(١٣٨)

١١- كما يشير نقفور أيضاً إلى سبب مهم وهو الثقة الزائدة عن الحد التي كانت عند القوات البيزنطية، حيث كانوا يؤمنون أن النصر سيكون في جانب الإمبراطور هرقل.(١٣٩)

وهكذا، لم يفلح ثيوفانيس في إجمال الأسباب التي أدت إلى هزيمة البيزنطيين في اليرموك أمام المسلمين، بل نجد أن الأسباب التي ساقها المؤرخ الأرمني سيبيوس تعتبر أكثر أهمية من التي ذكرها ثيوفانيس، وربما الأكثر واقعية أيضاً. كما أغفل ثيوفانيس ذكر الفرقة الأرمنية التي شاركت في القتال إلى جانب القوات البيزنطية. والتي كانت تحت قيادة جيورجيوس.(١٤٠)

على أية حال، لم يحالف ثيوفانيس الصواب عندما قال: «في هذا العام (٦٣٣-٦٣٤م) انطلق جمع غفير من السراقنة من الجزيرة العربية، وشنوا حملة على إقليم دمشق». بينما واقع الأحداث يقول أن المسلمين كانوا آنذاك بالشام، ولم يعودوا إلى الجزيرة العربية حتى ينطلقوا منها ثانية. غير أن ثيوفانيس يكشف حقيقة مهمة وهي أن ثيودور الذي كان يقود القوات البيزنطية في اليرموك كان أمين الخزانة الإمبراطوري (السكيلاريوس) وليس ثيودور شقيق هرقل.

وجدير بالذكر أن ثيوفانيس أشار إلى أن معركة اليرموك حدثت عام ٦٣٣-٦٣٤م/١٢-١٣هـ (١٤١). أما المصادر العربية فقد انقسمت إلى مجموعتين تقول أولهما أنها وقعت في عام ١٥هـ/٦٣٦م(١٤٢)، وتذكر ثانيهما أنها وقعت عام ١٣هـ/٦٣٤م، وهي السنة التي جاء فيها كتاباً من عمر بن الخطاب إلى خالد بن الوليد، وهو في اليرموك مع المسلمين، يعلمه بنبأ موت أبي بكر الصديق وينحيه عن قيادة الجيوش. (١٤٣) فيشير البلاذري (١٤٤) إلى أن نبأ موت أبي بكر الصديق وصل إلى المسلمين وهم مرابطون في الياقوصة، عند اليرموك. أما اليعقوبي (١٤٥) فيؤكد على أن أول شيء فعله عمر بن الخطاب بعد توليته الحكم أن رد سبايا أهل الردة وأرسل كتاباً إلى أبي عبيدة بن الجراح يخبره بنبأ وفاة أبي بكر الصديق ويعقد له ولاية الشام بدلاً من خالد بن الوليد. أما الطبري (١٤٦) فيذكر أن المسلمين كانوا في الواقوصة على ضفة اليرموك، عندما طلبوا المدد من أبي بكر الصديق، في عام ١٣هـ/٦٣٤م، والذي أرسل بدوره إلى خالد بن الوليد في العراق يستحثه على مؤازرة إخوانه في الشام؛ وقد توفي أبو بكر الصديق في ذلك العام، بعد وصول خالد إلى اليرموك. ويحدد ابن الجوزي (١٤٧) التاريخ بدقة أكثر عندما يقول: «كانت وقعة اليرموك في سنة ثلاث عشرة وكانت أول فتح فُتِحَ على عمر بعد عشرين ليلة من أبي بكر رضي الله عنه». أما أغابيوس المنبجي (١٤٨) فيقول أن عمر ابن الخطاب وجه جيوشه في أول سنة من حكمه إلى البلقاء وافتتح بُصرى ومدناً كثيرة وحصوناً، وهو ما تم بمساعدة خالد بن الوليد قبيل اتجاهه إلى اليرموك مباشرة.

وإذا كانت معظم المصادر العربية تتفق على أن نبأ وفاة أبي بكر الصديق وصل إلى المسلمين وهم باليرموك، أي عام ١٣هـ/٦٣٤م، فليس من المعقول أن يظل المسلمون يحاربون ثلاث سنوات في اليرموك، أي حتى عام ١٥هـ/٦٣٦م، وهو الرأي الذي تأخذ به كوكبة أخرى من المؤرخين؛ لاسيما وأن ثيوفانيس يقول أن المعركة بدأت بين الطرفين في «يوم الثلاثاء الموافق الثالث والعشرون من شهر لوْز (=يوليو)».

وفي ختام هذه القضية فإنه من الناحية التكتيكية العسكرية لا يمكن للقوات العربية أن تصول وتجول في فتوح الشام إلا بعد انكسار قوات العدو تماماً، أي قوات الجيش البيزنطي المتأهب لقتالها، وهو ما تم بصورة حاسمة في اليرموك؛ وهو ما يؤكده ثيوفانيس بقوله: «...وعلى أثر هذا النصر الباهر تقدم العرب صوب دمشق واستولوا عليها، بالإضافة إلى إقليم فينيقيا، حيث استقروا هناك...»، (١٤٩) أو كما يقول سيبيوس أن العرب قسموا قواتهم

إلى ثلاثة جيوش، يذهب إحداها لفتح مصر، والثاني إلى الشمال، أي إلى شمال الشام، لقتال البيزنطيين، والثالث إلى فارس.(١٥٠) وبناءً على هذا قد يكون من الأنسب، طبقاً لهذه الشواهد التاريخية، أن تكون معركة اليرموك قد وقعت عام ١٣هـ/٦٣٤م وليس عام ١٥هـ/٦٣٦م أو عام ٦٣٣-٦٣٤م/١٢-١٣هـ.

وتشير المصادر العربية أيضاً إلى اثنين من القادة البيزنطيين في اليرموك، وهما ماهان أو باهان والسقلار أو السقلار أو الصقلار،(١٥١) لعبا دوراً في الأحداث السابقة بين البيزنطيين والمسلمين؛ (١٥٢) وتعكس هذه المصادر أن المؤرخين المسلمين فهموا أن السقلار هو اسم لقائد بيزنطي. بيد أن السقلار (السكيلاريوس) كان لقباً وظيفياً للقائد البيزنطي ثيودور، وهو اللقب الوظيفي الذي يذكره ثيوفانيس مقروناً باسم ثيودور؛ بينما يمكن اعتبار اسم باهان تصحيف لاسم القائد البيزنطي بانيس. وهكذا يصحح ثيوفانيس الخطأ الوارد في الرواية العربية، وأن ثيودور هو السكيلاريوس ثيودور وليس تذراق (ثيودور) أخو هرقل.(١٥٣)

ونعود الآن إلى إشكالية أين كان هرقل أثناء هذا الصراع بين البيزنطيين والمسلمين في بلاد الشام؟

يذكر ثيوفانيس في الجزء الأول من روايته عن فتوح الشام أن هرقل كان موجوداً في الرها عندما جاءه ثيودور، عقب هزيمته في الجابية. ثم يقول أن هرقل أخذ الصليب المقدس ورحل من بيت المقدس إلى القسطنطينية؛ (١٥٤) ثم يعود ويستكمل حديثه في أحداث السنة التالية عن موقعة اليرموك. أما المؤرخ البيزنطي كدرينوس فيسير على نفس رواية ثيوفانيس دون تغيير.(١٥٥) ونأتي إلى المؤرخين المسلمين حيث يقول الواقدي (١٥٦) أن هرقل رحل من أنطاكية إلى القسطنطينية بحراً، بعد سقوط أنطاكية. أما البلاذري (١٥٧) فيذكر أن هرقل كان بحمص عندما وقعت موقعة أجنادين ١٣هـ/٦٣٤م، ولما هزم البيزنطيون فيها رحل هرقل إلى أنطاكية ليقيم فيها، وقد ظل بالأخيرة حتى بعد هزيمة اليرموك يستنفر البيزنطيين وأهل الجزيرة لقتال المسلمين في فحل بيان.(١٥٨) غير أنه يعود للقول أن هرقل هرب من أنطاكية إلى القسطنطينية عقب هزيمة قواته في اليرموك، على أساس أنه يضع اليرموك في عام ١٥هـ/٦٣٦م.(١٥٩) ويأخذ الطبري والدمشقي بنفس رأي البلاذري، أي هروب هرقل من أنطاكية إلى القسطنطينية بعد هزيمة اليرموك.(١٦٠) أما ابن الجوزي (١٦١) فيذكر أن هرقل جعل مدينة حمص بينه وبين المسلمين، بعد هزيمة اليرموك، مما يشير إلى تحركه إلى أنطاكية آنذاك. وأخيراً يذكر ابن الأثير(١٦٢) أن هرقل كان مقيماً في حمص عند هزيمة قواته في اليرموك. ويتفق ابن الأثير والنويري (١٦٣) مع ثيوفانيس وكدرينوس وميخائيل السورياني (١٦٤) على أن هرقل كان آنذاك في الرها، التي رحل منها عبر سميساط، ثم عبر دروب الأناضول عائداً إلى القسطنطينية. وعندما كان يمر قبالة الشام قال قولته المشهورة: «السلام عليك يا

سورية سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً...» أو حسب رواية أخرى: «عليك يا سورية السلام، ونعم هذا البلد للعدو».(١٦٥) ويحدد ابن الأثير (١٦٦) تاريخ رحيل هرقل من الرها إلى القسطنطينية عام ١٥هـ/٦٣٦م أو ١٦هـ/٦٣٧م بعد فتح العرب لقنسرين. ويتفق المؤرخان رفيق العظم (١٦٧) ووالتر كيجي (١٦٨) في الرأي مع ابن الأثير وثيوفانيس والنويري وميخائيل السورياني، ويشيران إلى أن ذهاب هرقل إلى الرها هو الأصوب، حيث أتاح هذا له الوقت الكافي آنذاك ليرتب دفاعاته في الأناضول ضد العرب، ويشرف على انسحاب قواته من بلاد الشام؛ على عكس المؤرخ اليوناني أندرياس ستراتوس الذي يعتقد أن الرها تصحيف لغوي لحمص، حيث تكتب الأولى Edessa، والثانية Emesa.(١٦٩)

وأياً كان الخلاف بين المؤرخين فإنه من المحتمل أنه مع اشتداد المعارك بين البيزنطيين والمسلمين في الشام أن يكون هرقل قد أقام في حمص بعد عودته من الحج في بيت المقدس عام ٦٣٠م.(١٧٠) وحتى هزيمة قواته في أجنادين؛ وعند تقدم المسلمين نحو وسط الشام، نحو حمص ودمشق، اتجه هرقل إلى أنطاكية، على حد ذكر البلاذري، والتي أدار منها معركة اليرموك. وعندما هزمت قواته في اليرموك، أرسل المدد العسكري من أنطاكية إلى قنسرين، ليحول دون سقوطها في أيدي المسلمين؛ حيث أرسل أحد البطارقة ومعه جبلة بن الأيهم الغساني في مدد عسكري إلى قنسرين.(١٧١) غير أنه بسقوط قنسرين في أيدي المسلمين، اضطر هرقل إلى أن ينقل مقر القيادة إلى الرها، حاضرة إقليم الجزيرة، ليرتب دفاعاته في الأناضول ضد العرب، ويشرف على انسحاب قواته من بلاد الشام، على حد قول والتر كيجي؛ خاصة وأن أبا عبيدة بن الجراح أرسل عياض بن غنم ليتتبع فلول البيزنطيين الهاربة شمالاً نحو ملطية، فصالحه أهلها على الجزية ثم انصرف. ولما سمع هرقل بذلك بعث إلى مقاتلتها ومن فيها فساقهم إليه وأمر بملطية فحرقت.(١٧٢) وعندما تأكد له توجُه المسلمين بعد ذلك نحو الدروب المؤدية إلى الأناضول، كان عليه الإسراع بترك الرها والعودة إلى القسطنطينية على وجه السرعة؛ حيث أمر عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح، بعد فتحه أنطاكية، بالتوجه لفتح الدروب،(١٧٣) وهي المنطقة الفاصلة بين شمال الشام وجنوب الأناضول، والمؤدية إلى قلب آسيا الصغرى البيزنطية، وبالفعل أرسل ميسرة بن مسروق بسرية إلى الدروب، حيث التحم مع البيزنطيين في موقعة مرج القبائل.(١٧٤) وبناءً على كل هذا يمكن تتبع القيادة البيزنطية للعمليات الحربية في بلاد الشام، في الفترة من ٦٣٠م–٦٣٧م، على النحو التالي:

بيت المقدس حمص أنطاكية الرها سميساط القسطنطينية

وبعد هذا النصر الباهر الذي أحرزه المسلمون في اليرموك، وبينما كان أبو عبيدة بن الجراح يتتبع فلول البيزنطيين الفارين إلى فحل بيان، جاءته الأخبار بمدد عسكري بيزنطي متجهاً من حمص إلى دمشق، فتعذر عليه أخذ قرار حاسم حيال قتال البيزنطيين في فحل بيان

أم التوجه إلى دمشق. ومن ثم راسل أبو عبيدة بن الجراح الخليفة عمر بن الخطاب الذي رد عليه ينصحه بأن يبدأ بفتح دمشق لأنها حصن الشام وبيت ملكهم، وفي نفس الوقت يشغل أهل فحل بيان ببعض الفرسان المسلمين حتى يصرفهم عن أمر دمشق. وبالفعل توجه أبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق في المحرم من عام ١٤هـ/٦٣٥م (١٧٥) بعد أن ترك مجموعة من الجنود المسلمين يحاصرون فحل بيان. وتمكن أبو عبيدة بن الجراح ومن معه من القادة المسلمين من فتح دمشق، ودخولها بعد أن صالحه أهلها.(١٧٦) وقد انسحبت القوات البيزنطية إلى الوراء نحو حمص، على أثر ضغط القوات الإسلامية عليها.(١٧٧) والتي سيفتحها المسلمون فيما بعد.

وبعد النصر الذي أحرزه المسلمون في دمشق وفتحهم لها، بدأ القادة المسلمون يوجهون قواتهم نحو فتح بقية بلاد الشام، لاسيما المدن الساحلية، والتي أشار إليها ثيوفانيس بقوله أن المسلمين استولوا على إقليم فينيقيا. وقد استولى المسلمون على فحل بيان، وبيسان، وطبرية، بفلسطين؛ بالإضافة إلى جميع مدن الأردن. ثم زحف أبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد إلى حمص، حيث صالح أهلها، على مثل ما صالح به أهل دمشق، ثم قصد بعلبك وحماة وشيزر فسالمهم أهلها. وواصل أبو عبيدة الفتح حتى وصل معرة النعمان، ففتحها صلحاً. وقد عهد أبو عبيدة بن الجراح إلى عبادة بن الصامت بفتح سواحل بلاد الشام، ففتحها عنوة: ثم افتتح انطرسوس، وجبلة عنوة أيضاً. أما أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد فقد سارا إلى قنسرين، حيث صالح أهلها مثل صلح حمص، وهناك أسلم بعض أهلها. ثم رحل أبو عبيدة بن الجراح إلى حلب ومعه عياض بن غَنم، فافتتحها صلحاً؛ وزحف من هناك شمالاً نحو أنطاكية، واشتبك مع أهلها، وانتهى القتال بأن صالحوه على الجزية في عام ١٦هـ/٦٣٧م، على حد ذكر المصادر العربية.(١٧٨) ومن جملة هذه الأحداث يذكر ثيوفانيس، تحت أحداث عام ٦٣٦-٦٣٧م، فتح أنطاكية، الواقعة في شمال بلاد الشام. وهو العام الذي قام فيه عمر بن الخطاب بتعيين معاوية بن أبي سفيان والياً على كل المنطقة، من مصر إلى الفرات؛ (١٧٩) وبهذا يكون العرب قد تقدموا بفتوحاتهم حتى أطراف الشام الشمالية طبقاً للمصادر العربية والبيزنطية. وهكذا، تتطابق رواية ثيوفانيس حول نشاط المسلمين في هذه المرحلة من فتوح الشام مع الرواية العربية، من فتحهم دمشق وكل فينيقيا وأنطاكية. وتنبغي الإشارة إلى أن التاريخ الذي وضعه ثيوفانيس لولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام غير صحيح، والصحيح أن عمر بن الخطاب ولاه على الشام عام ١٨هـ/٦٣٩م، بعد أن هلك واليها يزيد بن أبي سفيان، وقبله أبو عبيدة بن الجراح في طاعون عَمواس.(١٨٠)

وأخيراً ينتقل ثيوفانيس للحديث عن فتح بيت المقدس على أيدي المسلمين، حسبما يلي: «في هذا العام (٦٣٤-٦٣٥م) غزا عمر فلسطين، بعد حصار المدينة المقدسة لمدة عامين، استولى عليها باستسلامها له؛ نظراً لأن صفرونيوس، أسقف بيت المقدس، حصل على وعد بالعفو عن كل فلسطين. ودخل عمر المدينة المقدسة مرتدياً رداءً بالياً من شعر الإبل، في مظهر

شيطاني، وبحث عن معبد اليهود – الذي بناه سليمان – (١٨١) حتى يجعله مكان عبادة لدينه الهرطوقي. وعندما رأي صفرونيوس هذا قال 'حقاً ما قيل أيام النبي دانيال أن خرابا بغيضا سيحل بالمكان المقدس.' وبمزيد من الدموع ناح حامي التقوى على الشعب المسيحي...» (١٨٢)

ومن خلال النص السابق نجد أن ثيوفانيس قد صور عمر بن الخطاب على أنه غزا فلسطين، والثابت من المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص هو الذي كان مكلفاً بفتح فلسطين من البداية، كما سبق وأوضحنا، وأن أبا عبيدة بن الجراح وبقية القادة المسلمين اشتركوا في حصار بيت المقدس، بعد أن فرغوا من اليرموك وما حولها من مدن شامية، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية، جاء عمر بن الخطاب إلى فلسطين، بناء على طلب أهل إيلياء (بيت المقدس)، وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس، الذين اشترطوا على أبي عبيدة بن الجراح أن يأتي عمر بنفسه ليمنحهم كتاب الصلح والأمان، ويتسلم إيلياء. (١٨٣) وعلى هذا، استجاب عمر بن الخطاب إلى طلب أهل إيلياء، وقدم إلى الشام، وهناك اجتمع بقادة المسلمين في الجابية، ثم اتجه إلى إيلياء، حيث منح أهلها، وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس، كتاب أمان. (١٨٤) على عكس سيبيوس الذي يشير إلى أن سكان بيت المقدس حل بهم الرعب من العرب فأخذوا الصليب المقدس وأوعية كنائس الرب وهربوا بها في قارب إلى القصر [الإمبراطوري] في القسطنطينية، وأن هذا وقع عند دخول العرب إلى بيت المقدس، حيث سألهم سكانه عهداً. (١٨٥) ويعمد ثيوفانيس إلى القول أن معبد اليهود، الذي اندثر منذ زمن بعيد، (١٨٦) كان لا يزال قائماً، ويلقي بواحدة من الاتهامات، التي لا زالت تُلصق بالمسلمين حتى عصرنا الحديث، وهي تحويل هيكل سليمان عليه السلام إلى مسجد لهم، ويحاول تصوير عمر بن الخطاب على أنه مغتصب لواحد من أماكن اليهود بالمدينة؛ (١٨٧) في وقت لو شاء عمر فيه أن يصلي داخل الكنيسة لفعل، وليس خارجها؛ وهو الذي أعطى صفرونيوس وكل أهل إيلياء كتاب أمان جامع شامل؛ كما أن هذا الاتهام لا يستقيم مع شخص كعمر بن الخطاب، الذي وضع القواعد المنظمة لمعاملات أهل الذمة في الإسلام. (١٨٨)

وفي هذا المضمار يفند سيبيوس، مؤرخ القرن السابع الميلادي، رواية الأخير، حيث يؤكد على عدم وجود هيكل سليمان من أساسه عند فتح العرب لبيت المقدس، وذلك عندما يقول: «...أنهم (أي اليهود) خططوا لإعادة بناء هيكل سليمان في بيت المقدس...» (١٨٩) وبالرغم من شهادة سيبيوس المهمة إلا أنها تشير إلى أن اليهود «...وجدوا دعماً من العرب لبعض الوقت...»، (١٩٠) في الوقت الذي أقر فيه عمر بن الخطاب في كتابه إلى أهل إيلياء، ألا يسكن أحداً من اليهود معهم. (١٩١) وقد جاء إجراء عمر هذا متماشيا مع مرسوم كان قد أصدره الإمبراطور هرقل، عندما كان في بيت المقدس، يقضي بعدم اقتراب اليهود من بيت المقدس لمسافة ثلاثة أميال. (١٩٢) ويبدو أن اليهود طلبوا بعد ذلك وساطة عمر بن الخطاب عند البطريرك صفرونيوس ليسمح لهم بدخول بيت المقدس، حيث استجاب البطريرك لوساطة عمر بن الخطاب فسمح لخمسين عائلة يهودية فقط، في الوقت الذي طلب اليهود فيه دخول مائتي عائلة، وفي النهاية سمح عمر بن الخطاب لسبعين عائلة منهم فقط. (١٩٣)

على كل حال، من الثابت أن عمر بن الخطاب، بعد أن انتهى من عقد الصلح مع أهل إيلياء، ذهب إلى موقع المسجد الأقصى ليلاً فدخله وصلى في محراب داوود، ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة وتقدم فصلى بالناس بسورة «ص»، في الموضع الذي صلى فيه الرسول ﷺ، (١٩٤) ثم انصرف بعد أن حدد القبلة به.(١٩٥) وعلى هذا فإن التفسير الأقرب إلى الواقع هو أن عمر بن الخطاب ذهب إلى موقع المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين،(١٩٦) الذي يحوي محراب داوود، وحائط البراق،(١٩٧) والصخرة التي عرج منها الرسول ﷺ (١٩٨) حتى يصلي فيه. وربما لم يدرك ثيوفانيس، أو من نقل عنهم، مدى قدسية هذه الأماكن وأهميتها الرفيعة عند المسلمين ليحرص عمر ابن الخطاب ومن معه من المسلمين على زيارتها.

ونأتي إلى وصف ثيوفانيس لمظهر عمر بن الخطاب عند قدومه إلى بيت المقدس بأنه «مظهر شيطاني»، فنجد أنه في هذا لا يشذ عن الكتاب البيزنطيين وبعض الكتاب من المسيحيين الشرقيين، في وصفهم للمسلمين عامة، كمحاولة لتفسير العجز الذي أصابهم أمام المد الإسلامي الناجح في بلاد الشام، لاسيما الفترة من ٦٣٢-٦٣٨م. فنرى على سبيل المثال البطريرك صفرونيوس، بطريرك بيت المقدس، يصف «سيف المسلمين بالبربرية والتوحش... وقد امتلأ بكل أنواع الوحشية الشديدة». كما يصف المسلمين في موضع آخر بأنهم كفرة، ومتوحشون، ومتعطشون للدماء، وأنهم أنذال وأعداء للرب؛ (١٩٩) أما ماكسيموس المعترف فيصفهم بأنهم شعب بربري.(٢٠٠)

وفي ختام هذا الجزء من رواية ثيوفانيس عن فتح بيت المقدس ينبغي تصحيح التاريخ الخاطئ الذي وضعه ثيوفانيس لفتح بيت المقدس وهو٦٣٤-٦٣٥م/١٣-١٤هـ، بينما تشير بعض الروايات العربية إلى أن بيت المقدس فتحه المسلمون في عام١٥هـ/٦٣٦م (٢٠١) أو ١٦هـ/٦٣٧م، والأخير هو الغالب بين جمهرة المؤرخين.(٢٠٢)

ويعود ثيوفانيس ثانية إلى الحديث في موضع آخر عن موضوع عمر بن الخطاب واليهود عندما يقول تحت أحداث عام ٦٤٢-٦٤٣م ما يلي: «في هذا العام شرع عمر في بناء معبد في بيت المقدس، غير أن البناء لم يعلو وظل يسقط. وعندما استفسر عن السبب في هذا قال له اليهود: إذا لم تنزع الصليب الموجود فوق الكنيسة الواقعة على جبل الزيتون، فإن البناء لن يعلو. ولهذا السبب أزيل الصليب من هناك، وهكذا ارتفع بنيانهم. ولهذا السبب أنزل أعداء المسيح العديد من الصلبان».(٢٠٣)

وهكذا، ألقى ثيوفانيس ظلال الاتهام ثانية على عمر بن الخطاب، من خلال محاولته القول أنه كان يعمل بمشورة اليهود، الذين حثوه على النيل من مقدسات المسيحيين في بيت المقدس، حتى يتسنى له إقامة بناء ما. وهذا بطبيعة الحال يخالف العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب على نفسه للبطريرك صفرونيوس وكل أهل إيلياء، بتأمين المسيحيين على أنفسهم وكنائسهم وأموالهم وألا يسكن أحداً من اليهود معهم في بيت

المقدس؛ (٢٠٤) ومن ثم فإن رواية ثيوفانيس هنا لا أساس لها من الصحة. غير أننا ينبغي أن نتساءل عن ماهية هذا البناء الذي يشير إليه ثيوفانيس وشيده عمر بن الخطاب.

يشير المؤرخون إلى أن عمر بن الخطاب ذهب إلى الشام أربع مرات، اثنتين في عام ١٦هـ/٦٣٧م، الأولى منهما عندما ذهب لتسلم بيت المقدس، والثانية ليس لدينا أخبار عنها؛ واثنتين أثناء طاعون عَمواس وبعده، غير أن انتشار الطاعون هناك حال دون الزيارة فعاد إلى المدينة؛ ثم ذهب ثانية إلى الشام بعد انتهاء طاعون عَمواس، لينظر في أمور الناس بعد هذا المصاب الأليم الذي دهمهم.(٢٠٥) غير أنه لا يوجد دليل تاريخي على تشييد عمر بناء ما أثناء زياراته هذه للشام. فمن أين إذن جاء ثيوفانيس بهذه الرواية الغريبة؟

وإذا فحصنا رواية سيبيوس الأرمني التي تقول: «أنهم (أي اليهود) خططوا لإعادة بناء هيكل سليمان في بيت المقدس... وعند المكان المسمى قدس الأقداس، أقاموا المعبد مع قاعدة، ليصبح مكاناً لصلاتهم. غير أن العرب حقدوا على اليهود وطردوهم من المكان، وجعلوا المكان نفسه موضعاً خاصاً لصلاتهم. ومن ثم فقد بنى اليهود معبداً آخر في مكان ما لعبادتهم...» (٢٠٦) فإن روايته تشير إلى محاولة يهودية لإعادة بناء هيكل سليمان، ربما في موقع المسجد الأقصى، الذي كان عمر بن الخطاب قد حدد القبلة فيه وجعلها نحو الكعبة عند قدومه إلى فلسطين في المرة الأولى، ومن ثم استولى المسلمون على هذا البناء ومنعوا اليهود من هذه المحاولة، التي يشير سيبيوس إلى أن اليهود شرعوا فيها مستغلين تسامح المسلمين مع أهل الذمة. ومع ذلك لا يمكننا الثقة في رواية سيبيوس في هذا الخصوص. ويمكن القول أن عمر بن الخطاب قد قام ببناء مسجد للمسلمين عند الصخرة المقدسة، التي عرج منها الرسول،(٢٠٧) حيث سأل عن الصخرة المقدسة، عندما ذهب إلى بيت المقدس في المرة الأولى، فدلوه عليها؛ (٢٠٨) فإذا القمامة أو الكناسة تغطيها،(٢٠٩) فبدأ بنفسه في إزاحة القمامة عنها، وقد اقتدى به من رافقه من المسلمين وشاركوه العمل؛ وبهذا ظهرت الصخرة المقدسة على سطح الأرض ثانية، وأمر المسلمين ألا يصلوا بها حتى يصيبها الماء ثلاث مرات،(٢١٠) وبنى هناك مسجداً للمسلمين شرقي المسجد الأقصى.(٢١١)

وإلى جانب رواية سيبيوس التي تقدم جزءاً مقنعاً من الحقيقة، وهو محاولة اليهود إعادة بناء هيكل سليمان ثانية، إلا أن هناك رواية لأحد الرهبان غاية في الأهمية تؤكد رواية سيبيوس من أن اليهود هم الذين تعدوا على كنيسة جبل الزيتون ونزعوا صليبها. ولهذا، حسَب تفسير الرواية، سقط البناء الذي عُمل لإقامة الهيكل، وكان هذا في عهد الإمبراطور قنسطانز (٦٤١-٦٦٨م).(٢١٢) ولعل ما يؤكد ذلك أن عمر بن الخطاب، بعد أن رتب الأمر مع بطريرك بيت المقدس بشأن اليهود، سمح لسبعين عائلة فقط بدخول بيت المقدس.(٢١٣)

ولذلك من المحتمل أن تكون رواية الراهب المجهول صحيحة أكثر من روايتي ثيوفانيس وسيبيوس، وأن اليهود الذين سُمح لهم بدخول بيت المقدس قد حاولوا بناء هيكل سليمان ثانية، وأنهم تحرشوا بالمسيحيين هناك، بعد أن حرموهم زمناً من دخول بيت المقدس، مما أدى إلى تدخل المسلمين فأوقفوا البناء، أو استولوا عليه حسب رواية ثيوفانيس، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية يتطابق التاريخ الذي وضعه ثيوفانيس لهذا الحدث، ٦٤٢-٦٤٣م، مع رواية الراهب المجهول، الذي يضعها في عهد الإمبراطور قنسطانز.

ويحاول ثيوفانيس في موضع آخر إبراز أن صفرونيوس كان ذا قلب رحيم عندما يقص رواية لم نقرأ عنها في المصادر الأخرى من أنه أشفق على عمر بن الخطاب من بساطة ملابسه ومظهره، عندما جاء إلى بيت المقدس في المرة الأولى، وحاول صفرونيوس أن يعطيه ملابس من عنده غير أن عمر رفضها، مما جعل صفرونيوس يحثه على ارتدائها لحين غسيل ملابس أمير المؤمنين، الذي أعادها إليه ثانية.(٢١٤) ولا يستطيع المرء أن يجزم ماذا أراد ثيوفانيس أن يقول من وراء هذه الرواية، هل أراد القول أن صفرونيوس كان رحيماً، حتى مع أعدائه، أو أن البيزنطيين رحماء مع أعدائهم؟ على أية حال، بفحص المصادر العربية تقابلنا رواية تمت إلى هذا الموضوع بصلة، وتدحض رواية ثيوفانيس تماماً، يقول فيها الواقدي:(٢١٥) «... لما هم [عمر بن الخطاب] بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم، فقال له المسلمون يا أمير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جواداً ولبست ثياباً بيضاً؟ قال ففعل. قال الزبير أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشر درهماً، وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخلق، دفعه إليه أبو عبيدة، وقدم إليه برذون أشهب من براذين الروم. فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به، فلما نظر عمر إلى البرذون وأفعاله نزل عنه مسرعاً وقال: أقيلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة، فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل من العجب والكبر، وأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر، ولقد كاد أن يهلكني ثوبكم الأبيض وبرذونكم المهملج؛ ثم إن عمر رضي الله عنه نزع ما كان عليه ثم عاد إلى لبس مرقعته...» وبناءً على هذه الرواية الأخيرة للواقدي، إذا كان عمر بن الخطاب قد رفض لبس ما أشار عليه به أصحابه من قادة المسلمين، فليس من المقبول أن يفعل ذلك بواسطة عدوه.

وفي موضع آخر يشير ثيوفانيس أيضاً إلى أن عمر بن الخطاب أمر بعمل إحصاء لكل البلاد المفتوحة، وقد شمل الإحصاء كل السكان والحيوانات والزروع، وذلك تحت أحداث عام ٦٣٨-٦٣٩م/١٧-١٨هـ.(٢١٦) أما في عام ٦٤٠-٦٤١م/١٩-٢٠هـ فقد فتح معاوية قيصرية فلسطين (٢١٧) بعد حصار دام سبع سنوات وقتل ٧,٠٠٠ من الروم فيها؛ (٢١٨) وهو ما يشير إليه المؤرخون المسلمون، ويجعلونه في عام ١٥هـ/٦٣٦م.(٢١٩) أو ١٩هـ/٦٤٠م، ويؤكدون على أنه كانت هناك مقتلة عظيمة من الروم.(٢٢٠) وإذا صح تاريخ ١٩هـ/٦٤٠م الذي يضعه الواقدي وخليفة بن خياط، فإن رواية ثيوفانيس تتفق معهما في تاريخ الواقعة، غير أنها تختلف معهما في ماهية القائد المسلم الذي فتحها، حيث عندهما عمرو بن العاص. والحقيقة أن

هناك تضارب في الروايات العربية حول شخصية الفاتح لقيصرية فلسطين، وقد رصد البلاذري (٢٢١) هذا الخلاف بقوله: « . . .قال قائلون فتحها معاوية، وقال آخرون بل فتحتها عياض بن غنم بعد وفاة أبي عبيدة وهو خليفته، وقال قائلون بل فتحها عمرو بن العاص، وقال قائلون خرج عمرو بن العاص إلى مصر وخلف ابنه عبد الله. فكان الثبت من ذلك. والذي اجتمع عليه العلماء أن أول الناس الذي حاصرها عمرو بن العاص نزل عليها في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فكان يقيم عليها ما أقام، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوهم سار إليهم فشهد أجنادين وفحل والمرج ودمشق واليرموك ثم رجع إلى فلسطين فحاصرها بعد إيلياء، ثم خرج إلى مصر في قيسارية، وولى يزيد ابن أبي سفيان بعد أبي عبيدة، فوكل أخاه معاوية بمحاصرتها، وتوجه إلى دمشق مطعونا فمات بها. . .» وهكذا، طبقا لرواية البلاذري، والتي تتفق مع غالبية آراء الرواة العرب، وكذلك ثيوفانيس، فإن من أتم فتح قيصرية فلسطين هو معاوية بن أبي سفيان وليس عمرو بن العاص.

على أية حال، يشير سيبيوس، تعقيباً على هذه المرحلة من الفتوحات الإسلامية، إلى أن المسلمين صارت لهم السيادة على المنطقة من مصر إلى جبل طوروس الكبير، ومن البحر الغربي إلى ميديا (فارس) وخوزستان.(٢٢٢) أما جيفوند فيقول أن العرب بعد انتصارهم وفتحهم بيت المقدس، وفرضهم الجزية على السكان والكنائس هناك، صاروا سادة على فلسطين وبلاد الشام.(٢٢٣)

والآن، يلوح سؤال في الأفق وهو: من أين استقى الراهب البيزنطي ثيوفانيس معلوماته التاريخية عن المسلمين، من عهد الرسول إلى عصر الفتوحات الإسلامية؟

لا يقدم ثيوفانيس أية معلومات مباشرة توضح المصادر التي اعتمد عليها، سواء أكانت خطية أم شفهية. بيد أنه يمكن أن نستخلص بعض الخيوط التي قد تساعدنا على الإجابة على هذا التساؤل.

أولا: لنبدأ بتحليل بعض الأسماء العربية التي أوردها ثيوفانيس، حسب الجدول التالي:

الاسم بالعربية	الاسم كما ورد عند ثيوفانيس
مضر	Moudaros
ربيعة	Rabias
قريش	Kourasos
قيس	Kaisos
أسد	Asados
محمد	Mouhamed
خديجة	Chadiga
أبو بكر	Aboubacharos
قرشي (صفة)	Koraishite
خالد	Chaled
عمر	Oumaros
عثمان	Outhman
عفان	Phan
معاوية	Mauias
حبيب	Abibos
أبو الأعور	Aboulauar
علي	Ali
المسيح	Messaih
تميم	Themimos

وبنظرة متفحصة للجدول السابق نستنتج، بعد حذف نهاية الاسم اليوناني الوارد هنا، os أو as، والمميزة لحالة الفاعل أو المبتدأ في اليونانية، سنجد أن كل الأسماء الواردة عند ثيوفانيس قد كتبها بصورة صحيحة تماماً كما تكتب بالعربية؛ على عكس الكتاب المسلمين الذين صحفوا الأسماء البيزنطية عند نقلهم إياها إلى العربية، وخلطوا بين الألقاب وأسماء الأعلام؛ وهذا ببساطة بسبب جهلهم بتلك اللغة، حيث كانوا يستخدمون التراجمة في معاملاتهم مع البيزنطيين. وهذه الملاحظة اللغوية إن دلت على شيء فإنها تدل على أن ثيوفانيس اعتمد على مصدر شرقي، كان كاتبه يجيد العربية؛ لاسيما وأن تداول ونسخ المخطوطات كان من الأشياء المعتادة في الأديرة آنذاك.

ثانياً: اتفاق ثيوفانيس مع المصادر الشرقية المسيحية في عدد من الأحداث التي عرضناها، وتشوش روايته في أحيان أخرى، ولا يعني هذا أنه اعتمد على مصادر عربية، بل يعني أنه اعتمد على مصادر شرقية كتبت باليونانية،(٢٢٤) يشن فيها كُتابها هجوماً عنيفاً على الإسلام بصفة خاصة، وعلى المسلمين بصفة عامة، مثل خطب صفرونيوس وكتابات يوحنا الدمشقي وأنستاسيوس السيناوي وماكسيموس المعترف وثيودور أبو قرة وغيرهم ممن كتبوا باليونانية.(٢٢٥)

ثالثاً: تتفق رواية ثيوفانيس مع سيبيوس الأرمني في محاولة الربط بين الرسول ﷺ واليهود والهراطقة من المسيحيين، وكذلك بين عمر بن الخطاب واليهود، وإثارة قضية استيلاء المسلمين على هيكل سليمان من اليهود كذباً، مما قد يعني أن هذه القضايا كانت متداولة بين الرهبان دون التحقق منها.

رابعاً: تتفق رواية ثيوفانيس مع يوحنا الدمشقي في كثير من التفاصيل عن المسلمين، لاسيما عند حديثه عن الرسول ﷺ (٢٢٦) ومن الممكن أيضا أن يكون ثيوفانيس قد اعتمد على مصادر بيزنطية أيضاً سابقة عليه، فقدت ولم تصل إلينا.

وهكذا، نستطيع القول أن ثيوفانيس اعتمد على مصادر مسيحية شرقية عند حديثه عن المسلمين، ربما كان كُتابها معاصرون لأحداث الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام، ويعرفون العربية.(٢٢٧)

ونأتي الآن إلى قضية مهمة وهي: إلى أي مدى كان لرواية ثيوفانيس عن الرسول وخلفائه أبو بكر وعمر بن الخطاب وفتوحاتهم في الشام، أثر على من جاء بعده من المؤرخين البيزنطيين؟ أو بمعنى آخر هل عاشت رواية ثيوفانيس بعد وفاته عام ٨١٨م/١٩٨هـ، بين أروقة التاريخ البيزنطي أم ماتت بموته؟

وللإجابة على هذا التساؤل سنأخذ مثالاً من المصادر البيزنطية يعود إلى القرن العاشر الميلادي، وهو كتاب «عن الإدارة الإمبراطورية» لقسطنطين بورفيروجنيتوس (٩١٣-٩٤٤م)، حيث يبدو تأثر الأخير بثيوفانيس بصورة واضحة. ويتميز قسطنطين بورفيروجنيتوس بأنه

يذكر صراحة في أكثر من موضع أنه نقل عنه، ويظهر هذا التأثر في كثير من كلامه عن الرسول ﷺ وعن الخلفاء الراشدين.(٢٢٨) وفي هذا المقام يكرر قسطنطين بورفيروجنيتوس نفس كلام ثيوفانيس عن الرسول ﷺ، حيث يقوم بسبه واتهامه بالكفر، وأن العرب يدعونه رسولاً، ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن سلسلة أنسابه. ويتطابق في كلامه مع ما قاله ثيوفانيس تماماً.(٢٢٩)

وبعد انتهاء قسطنطين بورفيروجنيتوس من حديثه عن نسب محمد ينتقل للحديث عن موضوع زواجه من السيدة خديجة، قائلاً:

«... ولأن محمد كان معدماً ويتيماً فقد قرر الدخول في خدمة امرأة ثرية، كانت من أقاربه، وتدعى خديجة، كأجير عندها على أن يرعى إبلها ويتاجر لها في مصر بين الأجانب، وفي فلسطين. ورويداً رويداً أصبح أكثر جرأة في الحديث وحظي بمكانة عند هذه السيدة، وكانت آنذاك أرملة، فاتخذها زوجة له.» ثم ينتقل بالحديث بعد ذلك عن موضوع نبوة محمد ومحاولة الربط بينه وبين اليهود والمسيحيين الأريوسيين، ويسير فيه على نهج ثيوفانيس أيضاً بقوله: (٢٣٠) «والآن، أثناء زياراته لفلسطين اختلط باليهود والمسيحيين، حيث اعتاد إتباع أمور بعينها من مذاهبهم وترجماتهم للكتاب المقدس...» ويستكمل قسطنطين بورفيروجنيتوس حديثه، متبعاً ثيوفانيس، حيث يثير مسألة اتهام محمد صلى الله عليه وسلم بالصرع وأنه أخفى مرضه عن زوجته السيدة خديجة، وقصة نزول الوحي عليه، وتفسير ورقة بن نوفل لما رآه النبي(٢٣١) غير أنه يشير صراحة أن ورقة بن نوفل كان أريوسياً.(٢٣٢) على عكس ثيوفانيس الذي يقول أنه «قد نفي بسبب مذهبه المنبوذ».(٢٣٣) وهنا يتأكد ما قلناه في بداية صفحات البحث من محاولة هؤلاء الكتاب الربط بين الحركة الأريوسية ورؤية الإسلام للمسيح عليه السلام بصفة خاصة، ومن ثم فالإسلام عندهم هرطقة منبوذة، مثلما لفظت الأريوسية ونبذت من الكنيسة بسبب قضية جوهر المسيح.

وينتقل قسطنطين بورفيروجنيتوس للحديث عن مسألة إيمان السيدة خديجة بالرسول ﷺ، ونشرها خبر النبوة بين نسوة القبيلة، وإيمان أبي بكر الصديق به. غير أن قسطنطين بورفيروجنيتوس يضيف أن السيدة خديجة توفيت بعد ذلك، وأن الرسول ﷺ أصبح مرموقاً وثرياً جداً، بعد أن ورث أموالها. ويتفق مع ثيوفانيس في القول: «وقد انتشرت هذه الهرطقة في منطقة يثرب»؛ غير أن قسطنطين يظهر حنقه صراحة عندما يجعل من الذين اتبعوا الرسول (رجالاً مجانين وضالين.(٢٣٤) وأخيراً يتفق قسطنطين بورفيروجنيتوس مع ثيوفانيس في قولهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم «قد علم أتباعه أن من يقتل عدواً أو يقتله عدو يدخل الجنة».(٢٣٥)

وفي الفصل السابع عشر من كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية» ينقل قسطنطين بورفيروجنيتوس حديث ثيوفانيس صراحة، عندما يُعنون هذا الفصل بـ «من حولية ثيوفانيس طيب الله ثراه».(٢٣٦) ويردد في هذا الفصل حديث ثيوفانيس عمن بايعوا الرسول

صلي الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، فيما عرف باسم بيعة العقبة الأولى، والذين يعتبرهم يهوداً، لا عرباً مشركينَ، وأنه تعلم منهم بعض العادات، وأنهم كانوا يعتقدون بأنه جاء لهم إلى أن شاهدوه يأكل لحم الإبل.. .إلى آخر حديث ثيوفانيس الذي تقدم ذكره.

أما حديث قسطنطين بورفيروجنيتوس عن الفتوحات الإسلامية فإنه يتفق مع ثيوفانيس في قوله أن غزة فتحت في عهد أبى بكر الصديق، بيد أنه يختلف معه في مدة حكم أبي بكر، والتي جعلها ثلاث سنوات.(٢٣٧) وينقل قسطنطين بورفيروجنيتوس حديث ثيوفانيس عن عمر بن الخطاب، ولكن باقتضاب وبنفس أخطاء ثيوفانيس التاريخية، مشيراً إلى مسألتين رئيسيتين هما التوكيد على كتاب الأمان الذي منحه عمر بن الخطاب لسكان بيت المقدس من المسيحيين، ودور صفرونيوس فيه، والثانية مسألة اتهام عمر بن الخطاب بالاستيلاء على هيكل سليمان واتخاذه مسجداً للمسلمين.(٢٣٨)

وهكذا، من خلال رواية قسطنطين بورفيروجنيتوس يبدو جلياً التأثير المباشر لتاريخ ثيوفانيس على من جاء بعده من المؤرخين البيزنطيين، الأمر الذي ساهم كثيراً في ترسيخ العداء البيزنطي للمسلمين طوال القرون الوسطى، بل وتعداه إلى الغرب الأوربي أيضاً، حيث تعترف الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج أن هذه المعتقدات الخاطئة التي تعود إلى العصور الوسطى لازالت عالقة بذهن المواطن الأوربي البسيط حتى الآن.(٢٣٩)

وعند هذا الحد من البحث رأينا الإطار الأيديولوجي الذي سار فيه ثيوفانيس في حديثه عن الرسول وغزواته على أطراف الشام وفتوح الشام وفلسطين في عهد أبي بكر وعمر، والتي احتوت على كثير من الأخطاء التاريخية وغلفتها روح العداء والكراهية للإسلام.

والسؤال الذي يطرح نفسه في ختام البحث: لماذا كن ثيوفانيس كل هذا العداء في صدره للإسلام ورسوله أكثر من غيره من المؤرخين البيزنطيين سواء المعاصرين له أو السابقين عليه؟ والإجابة على هذا السؤال قد تبدو سهلة في ظاهرها، وتكمن في أنه راهب بيزنطي كره الإسلام والمسلمين. غير أنه إذا قارنا بين رواية ثيوفانيس وبين بعض روايات رجال الدين المسيحي الشرقيين، ممن حرر العرب كنائسهم من نير القسطنطينية، أمثال المؤرخ الأرمني سيبيوس، الذي عاش في القرن السابع الميلادي وعاصر الفتوحات الإسلامية،(٢٤٠) أو أغابيوس المنبجي، أو سنكسار الكنيسة المصرية سيساهم كل هذا في استجلاء الحقيقة والإجابة على السؤال المطروح.

يتفق سيبيوس مع ثيوفانيس والمصادر العربية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وامتهانه بالتجارة، ويبدو من روايته اعتداله في الحديث عن الرسول ﷺ، على عكس ثيوفانيس، مما يشير إلى أنه نال شيئا من المعرفة الصحيحة عن الإسلام ورسوله، بحكم أنه عاش في القرن السابع الميلادي/الأول الهجري، وعاصر الفتوحات الإسلامية لأرمينية؛ وفي هذا الصدد يقول: «في ذلك الوقت ظهر رجل معين من العرب، وهو رجل من نسل أبناء إسماعيل، اسمه محمد، ويعمل تاجراً. وأخذ ينشر بينهم الموعظة عن طريق الصدق، بأمر

كلفه به الله، وعلمهم محمد أن يؤمنوا برب إبراهيم، خاصة منذ أن أصبح على دراية بتاريخ موسى. ولأن الأمر صدر من عال، فقد أمر الجميع أن يجتمعوا معا وأن يتحدوا بالإيمان. وقد تحولوا إلى الله الحي، الذي ظهر لأبيهم إبراهيم، بعد أن تخلوا عن تبجيل الأشياء التافهة. وقد استن لهم محمد قوانين بألاّ يأكلوا الجيفة، وألا يشربوا الخمر، وألا يتحدثوا بالأكاذيب، وألا يزنوا».(٢٤١)

بيد أنه في نهاية هذا الجزء من الرواية يبدأ في الإشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اكتسب شيئاً من المعرفة عن تاريخ اليهود، وهو ما ردده ثيوفانيس، ثم يدعي سيبيوس أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ يحث المسلمين على الاستيلاء على فلسطين، لأنها الأرض التي وعد بها بني إسرائيل، وهم من بعدهم؛ فقال لهم: «...لقد وعد الله بأن هذا البلد لإبراهيم ولابنه من بعده، من أجل الخلود.(٢٤٢) وما وعد به تحقق عندما أحب الله بني إسرائيل. والآن، من ناحية ثانية، فإنكم أبناء إبراهيم، سوف يتحقق هذا الوعد الذي قطعه الله لإبراهيم ولابنه فيكم. لذا، أحبوا رب إبراهيم، واذهبوا وخذوا البلد الذي منحه الله لأبيكم إبراهيم. إن ينصركم الله فلا غالب لكم.» (٢٤٣) وهو بهذا يمهد للقول أنه كان هناك تعاون مشترك بين العرب واليهود فيما بعد ضد المسيحيين في بيت المقدس، بل يصل به الحد أنه يجعل ألفاً من اليهود يعملون في الجيش الإسلامي المنطلق صوب فلسطين في عهد أبي بكر. وفي هذا الجانب لا يحالف سيبيوس الصواب، لأنه لم يثبت أن الرسول تعاون مع اليهود، بل على العكس فقد قام بطردهم من المدينة، ثم تم إخلاء الجزيرة العربية منهم فيما بعد في عهد عمر بن الخطاب.(٢٤٤) وهكذا، تتسم رواية سيبيوس بالاعتدال إلى حد كبير على عكس ثيوفانيس.

أما أغابيوس المنبجي فيقول: «تحرك العرب بيثرب ورأسوا عليهم رجلاً يقال له محمد بن عبد الله، فصار لهم رئيساً وملكاً، ودبرهم عشر سنين، واجتمع إليه أهله وأقاربه وقومه فأخذهم بالإيمان بالله وحده لا شريك له ورفض عبادة الأوثان وأفرد الله وحده بالعبادة وأمرهم بالختانة وترك شرب الخمر، ولا يأكلون لحم الخنزير ولا الميتة والدم وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فمن قبل ذلك سلم ونجا، ومن رفضه وامتنع منه حاربه، وقتل صناديد العرب من قومه وغيرهم، وفتح مدنا كثيرة للأمم المطيفة به. وأتاه النصارى من العرب وغيرهم فأمنهم وكتب لهم كتباً، وكذلك ساير الأمم المخالفين له، أعني اليهود والمجوس والصابئة وغيرهم، فبايعوا له على أن يؤدوا له الجزية والخراج. وأمر أمته بالإيمان بالأنبياء والرسل وما أنزل الله عليهم، وأن يؤمنوا بالمسيح بن مريم ويقولوا أنه رسول الله وكلمته وعبده وروحه وبالإنجيل، والجنة والنار، والحساب...وفرض عليهم الصوم والصلوات الخمس وغير ذلك...» (٢٤٥)

هذا عن رواية أغابيوس المنبجي عن عهد الرسول ﷺ، أما روايته عن فتوح الشام في عهد خلفائه فلم يضف جديداً في الأحداث سوى أن هرقل بعد أن تأكد من فشل قواته في صد

المسلمين، وأن القوات الإسلامية دخلت بلاد فارس، وكان إذاك بأنطاكية، كتب إلى سكان مصر والشام والجزيرة وأرمينية يأمرهم ألا يحاربوا العرب ولا يقاوموا أمر الله.٢٤٦وهذه الرواية الأخيرة بطبيعة الحال رواية ضعيفة لا تتسق مع الأحداث التاريخية التي وقعت بعد ذلك.

وهكذا تتسم رواية أغابيوس المنبجي بالاعتدال أيضاً، مقارنة بالروايات البيزنطية، عند حديثه سواء عن الرسول أو الفتوح الإسلامية لبلاد الشام، علماً بأن منبج كانت تحت السيادة الإسلامية.

وإذا أخذنا رواية سنكسار الكنيسة المصرية، والتي يسير عليها ساويرس بن المقفع أيضاً،(٢٤٧) سنجد أنها تتسم بالاعتدال مقارنة بالروايات البيزنطية، وإن كانت مقتضبة، حيث تقول: (٢٤٨) «...وبعد أيام قليلة ثار واحد اسمه محمد، فرد عبادة الأوثان من العربان إلى معرفة الله، انه واحد وأن يشهدوا ويقولوا أن محمد رسوله. وكانت أمة (العرب) مختونة بالجسد، غلف القلوب، ولهم ناموس، يصلوا قبلي شرقي موضع يسمى الكعبة. وملك محمد هذا وصحبه دمشق والشام، وعبر الأردن وبين النهرين...» (٢٤٩)

والآن إذا قارنا بين أيديولوجية ثيوفانيس، وهو رجل دين مسيحي شرقي، تجاه المسلمين، وبين روايات رجال الدين المسيحي الشرقيين الآخرين، الذين ذكرناهم على سبيل المثال، سنجد أولاً: أن هناك فريقان من رجال الدين المسيحي الشرقيين، فريق يتسم بالاعتدال كسيبيوس وجيفوند وأغابيوس المنبجي وساويرس بن المقفع وسنكسار الكنيسة المصرية، وفريق يتسم بالتعصب لبيزنطة والتحامل على الإسلام، كيوحنا الدمشقي وأنستاسيوس السيناوي وثيودور أبو قرة ومكسيموس المعترف وغيرهم، وينضم ثيوفانيس إلى الفريق الثاني من رجال الدين المسيحي الشرقيين. لكن ما يميز ثيوفانيس عنهم هو صفة «البيزنطي» التي تجعله معتداً بنفسه، يرى كسائر البيزنطيين، أنه واحد من أبناء أمة مصطفاة، وأن الآخرين برابرة.(٢٥٠)

والعامل الثاني والمتعلق بصفته كبيزنطي أنه واحد من أبناء أمة جريحة، نزف دماؤها على فراش الكبرياء البيزنطي فلم تجد طبيباً لها بين ثنايا التاريخ سوى أمثال ثيوفانيس ويوحنا الدمشقي وثيودور أبو قرة، ليحاولوا تعليل الإخفاق البيزنطي في الدفاع عن بلاد الشام ومصر وبقية البلاد التي فتحها المسلمون، من خلال الهجوم العنيف على الإسلام وعلى رموزه أمثال الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين. حيث لم يجدوا تفسيراً يقدمونه للتاريخ ولأبناء وطنهم يفسر أسباب هزيمة القوات الإمبراطورية، التي لم يمض على دحرها للفرس، أعداؤهم التقليديون، سوى بضعة أشهر، على أيدي قوات عربية خرجت من صحراء الجزيرة العربية؛ وكيف تمكن هؤلاء العرب في بضع سنين من غزو آسيا الصغرى وإلحاق الضرر بها،(٢٥١) بل وتهديد القسطنطينية نفسها أكثر من مرة،(٢٥٢) وهو الأمر الذي لم يحدث منذ أمد طويل، منذ دق الجرمان أبواب القسطنطينية في العصر البيزنطي الباكر، والذي أصاب البيزنطيين بصدمة شديدة. فقد أظهر مكسيموس المعترف، فيما بين ٦٣٤-٦٤٠م، مشاعر الصدمة والاشمئزاز من تقدم الفتوح العربية.(٢٥٣) وفي نفس الوقت نسي هؤلاء المؤرخون

البيزنطيون كيف لعب الضغط الديني الذي كانت تمارسه القسطنطينية وبعض أباطرتها على الكنائس الشرقية ورجال الاكليروس فيها، دوراً جعل السنكسار السكندري يسب اللعنات والشتائم على الإمبراطور هرقل ونوابه في البلاد، ويفسر هزائمه، بفرح شديد، تفسيراً دينياً يتمثل في عقاب الرب، وهو نفس الاعتقاد الذي آمن به صفرونيوس، بطريرك بيت المقدس.(٢٥٤) ولم تعكس رواية السنكسار السكندري وفريقه من الاكليروس حنقاً على المسلمين أو شحنة من الغضب كتلك التي نفثها ثيوفانيس في كتاباته عنهم.

والعامل الثالث الذي ساهم في عداء ثيوفانيس للمسلمين هو اتجاهاته الأيقونية، حيث كان ثيوفانيس من مناصري الأيقونات، مما جعله يشن هجوماً شديداً على الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري وابنه قسطنطين الخامس بصفة خاصة؛ حيث يُعتبر ليو الثالث الأيسوري شرقي المولد، هذا من ناحية؛ ومن ناحية ثانية يتهمه بأنه تأثر بتحريم الصور عند المسلمين، خاصة عندما أصدر يزيد بن عبد الملك مرسوما في عام ٧٢٣م يقضي بإزالة جميع الأيقونات من الكنائس الخاضعة للسيادة الإسلامية؛ (٢٥٥) ومن ثم شن ليو الثالث هجوماً على الصور المقدسة في الكنائس البيزنطية بدءاً من عام ٧٢٦م.(٢٥٦) وكان من نتائج سياسة ليو الثالث الدينية هذه أن جنت عدداً كبيراً من المعارضين له، لاسيما من رجال الدين أمثال البطريرك جرمانوس، بطريرك القسطنطينية، ويوحنا الدمشقي.(٢٥٧) وهذا العامل كفيل بأن يجعل ثيوفانيس لا يكن عداء للأباطرة الأيقونيين فحسب بل للمسلمين أيضاً، فيتناولهم بشيء من غلظة الحديث المصحوبة بمغالطات تاريخية وبألفاظ غير لائقة واتهامات باطلة.

أما العامل الرابع والأخير فيكمن في أن ثيوفانيس، كغيره من البيزنطيين، لم يكن يعرف الكثير عن الإسلام؛ ولهذا لم يعتبره ديانة،(٢٥٨) بل اعتبره هرطقة مسيحية، مثله مثل يوحنا الدمشقي وثيودور أبو قرة، اللذان اتسما ببطء فهم الدين الإسلامي، واعتبراه مزيجاً من تعاليم الكتاب المقدس، العهدين القديم والجديد، والمذهب الأريوسي؛ (٢٥٩) أو كدرينوس الذي قال أن الرسول ﷺ «أخذ عن اليهود عقيدة الله الواحد، وعن الأريوسيين كون الكلمة والروح القدس مولودين، وعن النساطرة طقوساً جديدة، وجعل لنفسه منها ديناً جديداً...» (٢٦٠) ويقر ستراتوس هنا بأن الغرب الأوربي أساء أيضاً فهم رسالة الدين الجديد، وأستخف بقوته تماماً، حيث اعتقد الجميع هناك، كالبيزنطيين، أنه هرطقة مسيحية جديدة.(٢٦١)

هوامش الدراسة

١) رنسمان، س، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة، ١٩٦٢)، ص ٢٩٥.

٢) انظر: The Chronicle of Theophanes, Eng. trans. H. Turrtledove (Pennsylvania 1982)

وتوجد ترجمة أفضل وأحدث من السابقة، وهي التي سنعتمد عليها، انظر:

Theophanes the Confessor, Chronographia, Eng. trans. C. Mango and R. Scott (Oxford 1997).

٣) D. Nicol, A Biographical Dictionary of the Byzantine Emperors (London 1991), 127.

٤) رنسمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٩٦.

٥) طارق منصور، قطوف الفكر البيزنطي، ج١، الأدب (القاهرة، ٢٠٠١)، ص ١٥-١٦.

٦) تعتبر كتابات البطريرك صفرونيوس، والمدعو ميثوديوس، وأنطونيوس الخوزبيتي، وماكسيموس المعترف، وأنستاسيوس السيناوي، ويوحنا الدمشقي من الكتابات اليونانية السابقة على ثيوفانيس، في القرنين السابع والثامن الميلاديين، غير أنها غلب عليها الطابع الجدلي الهجومي على الإسلام. انظر D.

Constantelos, "The Moslem Conquests of the Near East as Revealed in the Greek Sources of the Seventh and Eighth Centuries", Byz. 42(1972), 328-333.

قد بنيت كتاباتهم على الهجوم على قضايا دينية إسلامية مثل مسألة وحدانية الله، والقضاء والقدر، وقدر الإنسان، وتجسيد المسيح وصلبه، مكانة مريم العذراء واستخدام الأيقونات أو الصور الدينية. انظر:

J. L. Boojamra, "Christianity in Greater Syria: Surrender and Survival", Byz. 67(1997), 160.

٧) Constantelos, The Moslem Conquests of the Near East, 334, 335.

٨) A. S. Proudfoot, The Sources of Theophanes for the Heraclian Dynasty, Byz. 44(1974), 367ff.

٩) Idem.

١٠) انظر: Proudfoot, The Sources of Theophanes, 384, 386-387, 396-397.

١١) Theophanes, Chronographia, 464.

١٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، (بيروت، ١٤٠٧هـ)، ص ٢٢٤ وما بعدها؛ محمد رضا، محمد رسول الله (بيروت، ١٩٧٥)، ص ٣٥٢-٣٥٤. عن تفاصيل وفاة الرسول انظر: ابن اسحق، السيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المهدي، (بيروت، ٢٠٠٤)، ص ٧٠٦-٧٢٣.

١٣) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ٧١٤-٧١٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ج٤ (بيروت، ١٩٧٥)، ص ٢٢٥-٢٢٨؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٢٣-١٢٧؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٢٣٣-٢٣٦؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ج٤ (بيروت، ١٩٩٢)، ص ٦٤-٦٨؛ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق زينب إبراهيم القاروط (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٥٠-٥٢؛

السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي ومحمد العثماني (بيروت، د.ت.)، ص ٥٥-٥٨؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٣٩٠-٣٩٦.

١٤) سورة الشورة، آية ٣٨.

١٥) صحراء مدين المقصود بها أرض مدين، وكانت تقع شمال الحجاز وحتى أطراف الشام الجنوبية. وأهل مدين نزل فيهم النبي شعيب عليه السلام. انظر: محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم (الإسكندرية، ٢٠٠٤)، ص ١٩٢-١٩٤.

١٦) عن الآراء التي دارت حول أصل العمالقة وكذلك الحميريين انظر: بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، ص ١٧٦-١٨٣، ٣٣٥-٣٦٨.

١٧) Theophanes, Chronographia, 464.

١٨) Sebéos, Histoire d, Héraclius, trad. Fran F. Macler (Paris, 1904), 95, Schéos History, Eng. trans Rebort Bedrosian (New York 1985), chap. XXX in http://rbedrosian.com/seb 9.htm

١٩) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٧-٢٠٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ٤٩٧-٥١٥؛ بيومي مهان، تاريخ العرب القديم، ص ٤٠٠-٤٠١؛ مونتجمري واط، محمد في مكة، ترجمة عبد الرحمن الشيخ وحسين عيسى، مراجعة أحمد شلبي، الألف كتاب الثاني (القاهرة، ٢٠٠٢)، ص ٨٩؛ تهذيب سيرة بن هشام، هذبها عبد السلام هارون (القاهرة، ١٣٧٤هـ)، ص ١٧.

٢٠) انظر: ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة، ١٩٦٢)، ص ١٠؛ محمد رضا، محمد رسول الله، ص ١٠.

٢١) Theophanes, Chronographia, 464.

٢٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ص ١٧١-١٧٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ج١ (بيروت، ١٩٩٥)، ص ٥٦٩؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٤٩.

٢٣) Sebéos, Histoire d, Héraclius, 95, Sebeos, History, chap.XXXin http://rbedrosian.com/seb9.htm Héraclius,95

٢٤) تختلف بعض الأقوال حول سن رسول الله وقت زواجه من السيدة خديجة، فمنهم من يقول إحدى وعشرون عاماً، أو خمسة وعشرون عاماً، أو ثلاثون عاماً. بيد أنه صار من المتفق أنه تزوجها وهو ابن خمسة وعشرون عاماً. انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢ (بيروت، د.ت.)، ص ٢٠؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق طه محمد الزيتي، ملحق على كتاب الإصابة في تمييز الصحابة (القاهرة، ١٩٦٨)، ص ٦٨-٦٩. وكذلك يقول بعض المؤرخين أن عمر خديجة كان أربعون عاما. انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٢١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٥٦٩. بينما يذكر مونتجمري واط أن عمرها لابد وأن يقل عن الأربعين عاماً، بحكم أنها أنجبت للرسول سبعة أبناء، ولا يعقل أن تكون قد أنجبت الابن السابع وهي فوق الخمسين من عمرها. انظر: واط، محمد في مكة، ص ٩٩-١٠٠).

٢٥) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٢٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ص ١٧٢-١٧٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٢١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٥٦٩.

٢٦) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٣٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٧٤؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٥٠؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي قبل البعثة وبعده، ج١-٢ (بيروت، ١٩٩١)، ص ٤٨؛ محمد الصادق عرجون، محمد من نبعته إلى بعثته (الرياض، ١٩٨٣)، ص ٣٤٣-٣٤٤.

٢٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٠-٢١؛ محمد الصادق عرجون، محمد من نبعته إلى بعثته، ص ٣٤٢-٣٤٣.

٢٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٣٥؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ص ٧٥.

٢٩ القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية ١٦٠.

٣٠) Sebéos, Histoire d, Héraclius, 95-96 Sebeos History, chap XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm

٣١) راجع: رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ج٢(القاهرة، ١٩٨٢)، ص ١٥٥-٢٥٤؛ ج٣ (القاهرة، ١٩٨٣)، ص ٤٩-٣١٠؛ لوريمر، ج.، تاريخ الكنيسة (القاهرة، ١٩٨٨)، ص ٣٩-٨٢.

٣٢) انظر: عبد المنعم جبري، المسيح عند اليهود والنصارى والمسلمين وحقيقة الثالوث (دمشق، ٢٠٠٥)، ص ١٧٦-١٧٩.

٣٣) Theophanes, Chronographia, 464-465.

لقد علق البطريرك نقفور على هذه المرحلة من مراحل نشر الدعوة الإسلامية بقوله: «بدا العرب (المسلمون) بالظهور في تلك الفترة في يثرب، كما كانت تسمي (وهي إحدى بلاد العرب السعيدة) وحاولوا أن يبسطوا سلطانهم على القرى القاحلة المجاورة». انظر:
Nikephoros Patriarch of Constantinople, Short History, Eng. trans. C. Mango, CFHB 13 (Washington, D.C. 1990), 64-76

٣٤) كانت بُصرى تقع خلف نهر الأردن، وهي من أعمال دمشق، وقصبة كورة حوران. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١ (بيروت، ١٩٥٥)، ص ٤٤١؛ السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية (القاهرة، ١٩٦٠)، ص ١١٥.

٣٥) كان بَحيرى راهباً من رهبان بلاد الشام. وقد اتخذ له صومعة عند بُصرى، على الطريق الموصل من الجزيرة العربية إلى الشام، وكان يأمر الناس بنبذ الأصنام وعبادة الله. انظر: محمد الطيب النجار، السيرة النبوية (القاهرة، ١٩٩٩)، ص ٢٩. وقد تفضل الأب د. سهيل قاشا السرياني بالتوضيح لي أن اسم بَحيرى أو بَحيرا هو اسم سرياني يعني المتبحر في العلم، وقد طرد من الدير بسبب أعتناقة الركوسية، وهي من المذاهب الكنسية الخارجة التي تناهض الصليب والأيقونات، فاتخذ له الصومعة المشار إليها. وهناك مصدر بالسريانية عن سيرة هذا الراهب. وتجدر الإشارة إلى أن ا.د. سهيل زكار قد شكك في وجود هذا الراهب من الأساس، واعتبر أن سيرته مفتعلة وغير حقيقية.

٣٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥١٩. لمزيد من التفاصيل عن الراهب بُحيرا ومحمد (انظر: ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٢٢-١٢٤؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٦٥-١٦٧.

٣٧) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٢٨-١٢٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٧٢؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٢١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٥٦٩.

٣٨) محمد عرجون، محمد من نبعته إلى بعثته، ص ٣٣٢.

٣٩) Constantine Porphyrogenitus, De Administrando Imperio, ed. R. Jenkins and Others, vol. II (London 1962), 71.

٤٠) A. N. Stratos, Byzantium in the Seventh Century, Eng. trans. H. T. Hionides, II (Amsterdam 1972), 3.

٤١) تعود بدايات هذا الاتهام إلى فترة باكرة كما نرى، حيث يلقي به الراهب البيزنطي ثيوفانيس (القرن٨-٩م). جدير بالذكر أن أعراض الصرع لا تتطابق مع الحالة التي كان عليها الرسول (وقت أن هبط عليه الوحي لأول مرة وهو مختلياً بنفسه في غار حراء، كعادته التي دأب عليها. فقد نزل عليه ملاك، لم يكن يعرف وقتها من هذا، على عكس ما يدعي ثيوفانيس أن الرسول ذهب إلى خديجة وأخبرها باسمه وهو جبريل. والمصروع تعتريه النوبة فجأة فيقطع الكلام ويسقط مغشياً عليه وتثبت حدقة عينه ويفقد السيطرة على نفسه؛ وقد يصاب بأذى من جراء وقوعه على الأرض، وتتقلص عضلات الوجه والفك، وهي كلها أعراض لم تثبت أي منها إطلاقاً على الرسول ﷺ. انظر: محمد رضا، محمد رسول الله، ص ٣٥٩.

٤٢) ورد عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله (كيف يأتيك الوحي؛ فقال: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيُفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً» انظر صحيح البخاري، باب بدء الوحي، حديث رقم ٢؛ صحيح مسلم، حديث رقم ٤٣٠٤؛ سنن الترمذي، حديث رقم ٣٥٦٧؛ سنن النسائي، الافتتاح، حديث رقم ٩٢٤.

٤٣) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٦٣.

٤٤) كلمة الناموس التي استخدمها ورقة بن نوفل تعني الشريعة أو الكتاب الموحى به، والمقصود هنا التوراة؛ وهي كلمة يونانية الأصل. انظر: واط، محمد في مكة، ص ١٢٠.

٤٥) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٦٧-١٧٠، ١٧٦-١٧٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢١٥-٢٢٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٣١-٥٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١،

ص ٥٧٤-٥٧٧؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج١-٢، ص ٥٠-٥٥؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٥٧-٦٠. جدير بالذكر أن بعضا من المؤرخين المذكورين هنا يذكرون أن السيدة خديجة اصطحبت رسول الله وذهبت به إلى ورقة بن نوفل.

٤٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٢٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٥٧٦؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٥١.

٤٧) كانت الصداقة بين الرجل والمرأة، سواء متزوجة أو غير متزوجة، من الأمور الشائعة في بيزنطة، وقد يصل الحد أنها تستضيف صديقها في بيتها، حال غياب زوجها عن البيت؛ بل وتشبع معه شهوتها. لمزيد من التفاصيل انظر: عبد العزيز رمضان، المرأة في الإمبراطورية البيزنطية (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص ١٨٠-١٨٢.

٤٨) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ١٧٧-١٧٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣١؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٣٧؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٦١، ٦٣.

٤٩) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٤.

٥٠) انظر: تهذيب سيرة بن هشام، ص ٦٥ وما بعدها؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج١-٢، ص ٥٩ وما بعدها؛ محمد رضا، محمد رسول الله، ص ٧٧-٨٤.

٥١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢١٦٥؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٥٧٤؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٥٧.

٥٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١١٤؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٤٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ٤٤.

٥٣) من اللافت للنظر هنا أن ثيوفانيس استخدم الكلمة العربية «المسيح Messiah» في النص، مما يوحي أنه اعتمد على مصدر شرقي في هذه المعلومات. لأن اسم المسيح في اللغة اليونانية التي يكتب بها ثيوفانيس ينبغي أن يكون خريستوس «Xristos» وليس بالصيغة العربية.

٥٤) أحلت الشريعة اليهودية ذبح الحيوانات وأكلها، والتي لها أظافر مشقوقة كالأغنام والماعز والبقر، وحرمت لحوم الإبل لأن لها خفا، وليس أظافر، وهي نجسة عند اليهود؛ كما حرمت ذوات الوبر كالأرانب، كما حرمت أكل الطيور آكلة اللحوم كالنسر والعقاب والحدأة والبومة وغيرها. انظر: عطا أبو رية، اليهود في ليبيا وتونس والجزائر (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص ٢٠٩.

٥٥) Theophanes, Chronographia, 464.

٥٦) بن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٥٥ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٣٧؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٢٠-٢٥؛ واط، محمد في مكة، ص ٢٨٣.

٥٧) روى «عبادة بن الصامت قال كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة، فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم. . .فلما انصرف عنه القوم بعث معهم رسول الله مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين فكان يسمى مصعب بالمدينة المقرئ.» لمزيد من التفاصيل انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٥٦-٥٨؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٣٨؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٥٨-٥٥٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٦١٠-٦١١؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٣٢-٣٤؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ١١٤-١١٦؛ محمد رضا، محمد رسول الله، ص ١٢٣؛ محمود شيت خطاب، الرسول القائد (بيروت، ١٩٧٤)، ص ٦٦.

٥٨) محمد عزة دروزة، اليهود في القرآن الكريم (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٤٢. تجدر الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ قال قبل وفاته: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان»، وقد قال عمر بن الخطاب: من كان عنده عهد من رسول الله فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء؛ فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله منهم»، بل أن هناك حديث منسوب إلى الرسول ﷺ يقول فيه: «أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب». انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١، ٧٧؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ١٤١. في موضع آخر يقول الطبري أن الرسول قال عند وفاته «لا يترك بجزيرة العرب دينان». انظر: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٢٤٠؛ محمد عزة دروزة، اليهود في القرآن الكريم، ص ٣١.

٥٩) عن مرض ووفاة الرسول انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص ٢١٢- ٢١٣، ٢١٨، ٢٢٢-٢٢٤؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ج١ (دمشق، ١٣٩٧هـ)، ص ٩٤-٩٦؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١١٣-١١٤؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ٢٢٤-٢٤٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ١٨٢-١٩٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، ج٥ (القاهرة، ١٩٩١)، ص ٢٢٣-٢٥٨؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك، ج٤، ص ١٥-٥٠؛ Stratos, Byzantium in the Seventh Century, II, 29; A. S. Ali, A Short History of the Saracens (New Delhi 1981), 18-19.

٦٠) Cedrenus, Compendium Historiarum, ed. J. P. Migne, PG 121(Turnholti n.d.), col. 807.

٦١) يقول ثيوفانيس: «. . .وقد علم أتباعه أن من يقتل عدوا أو يقتله عدو يدخل الجنة، وأن هذه الجنة كانت جنة طعام وشراب سرمدي ونكاح نساء، وبها نهر من الخمر والعسل واللبن، والنساء بها لا يشبهن النساء هنا، بل نساء مختلفات، وفيها يدوم النكاح طويلا والمتعة دائمة؛ وأشياء أخرى تعج بالخلاعة والحماقة؛ كما علمهم أن على الرجال أن يتعاطفوا مع بعضهم البعض ويساعدوا أولئك المظلومين».

Theophanes, Chronographia, 465. Cf. also Constantelos, The Moslem Conquests of :انظر the Near East, 334.

٦٢) Theophanes, Chronographia, 466.

٦٣) يعتقد مانجو وسكوت أن هذا الاسم ربما يكون قتبة. انظر: Theophanes, Chronographia, 467, n. 6.

٦٤) Ibid., 466.

٦٥) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ٥٠٤-٥١٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٧-٢١؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ٨٦-٨٧؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٦٥؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ١٤٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المغازي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت، ١٩٩٠)، ص ٤٨٠؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٢٧١؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، البيزنطيون والعالم الإسلامي (القاهرة، ٢٠٠٣)، ص ٣٩؛ والتر كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ترجمة نيقولا زيادة (بيروت، ٢٠٠٢)، ص ١١٨.

٦٦) ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ٥٠٤-٥١٠؛ الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، ج٢ (لندن، ١٩٦٦)، أعيد طبعه في (بيروت، ١٩٨٤)، ص ٧٥٥-٧٦٩؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ٢٧١-٢٧٥؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ١٤٩-١٥٢؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٣١٨-٣٢١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، المغازي، ص ٤٧٩- ٤٩٩؛ عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم في عصر النبوة (القاهرة، ١٩٩٧)، ص ٨٧-١٠٢؛ ليلى عبد الجواد، الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل وعلاقاتها بالمسلمين (القاهرة، ١٩٨٥)، ص ٣٤٥-٣٤٩؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد (القاهرة، ٢٠٠١)، ص ٤١٠-٤١١؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٣٩-٤٠.

٦٧) كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١١٤.

٦٨) كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١١٨.

٦٩) Theophanes, Chronographia, 466.

٧٠) Idem.

٧١) Idem.

٧٢) كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١٣٩.

٧٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج١(القاهرة، ١٩٩٦)، ص ٣٧.

٧٤) I. Shahid, Ghassanid and Umayyed Structures: a Case of Byzance après Byzance in La Syrie. de Byzance á L'orient Méditerranéen, Paris, Institut du Monde, Arabe, 11-15 Septembre 1990 (Damas 1992), 299.

٧٥) كان هذا اللقب، الذي يعني النبيل أو الشريف آنذاك، من الألقاب الإمبراطورية الشرفية الرفيعة جدا. وقد أسس الإمبراطور قسطنطين الأول من البداية طبقة تحمل اسم البطارقة، ظلت قائمة حتى العصر البيزنطي المتأخر. وقد فتح جستنيان باب البطرقية على مصراعيه، حيث زاد عدد البطارقة في عهده بدرجة ملحوظة. انظر: J. B. Bury, The Imperial Administrative System in the Ninth Century (London 1911), 27-28.

٧٦) نولدكة، ثيودور، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة قسطنطين زريق (بيروت، ١٩٣٣)، ص ١١–١٢؛ بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٥٦٧–٥٦٨؛ علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام (القاهرة، د.ت.)، ص ٨٩؛ أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج١(بيروت، ١٩٥٥)، ص ٢٠٢–٢٠٣.

٧٧) يوحنا الأسيوي، تاريخ الكنيسة، الكتاب الثالث، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب (القاهرة، ٢٠٠٠)، ص ٣٢.

٧٨) Shahid, Ghassanid and Umayyed Structures, 302-303.

٧٩) طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٢٤.

٨٠) عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ٤٣–٤٤.

٨١) انظر: محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي، عصر جوستنيان (القاهرة، ١٩٨٩)، ص ١٦٦–١٧١؛

P. Ure, Justinian and his Age (London 1951), 68, 74-75.

عن أسباب تصدع العلاقة بين المنذر والإمبراطور جستين الثاني انظر: يوحنا الأسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ٩٠–٩٣؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٠٣.

٨٢) نولدكة، أمراء غسان، ص ٢٥–٣١؛ بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٥٧٢–٥٧٤؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٢٥.

٨٣) عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ٤٤–٤٥.

٨٤) عن تفاصيل حروب الغساسنة مع موريس ضد الفرس وفي عهد تيبريوس انظر: يوحنا الأسيوي، تاريخ الكنيسة، ص ٦٢–٦٥، ١٠٦–١٠٧؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٠٣–٢٠٦.

٨٥) ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٧٢ ؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ٣٧.

٨٦) Shahid, Ghassanid and Umayyed Structures, 302.

٨٧) الواقدي، فتوح الشام، ج١، (بيروت، د.ت.)، ص ١٧٠؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٣٠؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٢٧.

٨٨) كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١٣٩-١٤٠.

٨٩) Theophanes, Chronographia, 467. Cf. also Agapius de Menbidj, Kitab al-'Unvan, Histoire Universelle, ed. et trad. fran. A. Vasiliev, PO 8(Paris 1912), 468-469.

٩٠) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ٩٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٨٦؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٤٢.

٩١) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٠٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٨٩-١٩٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، عهد الخلفاء الراشدين، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت، ١٩٨٧)، ص ٥-١٤.

٩٢) عنهما انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ج٣، ص ٩٨٩-١٠٧٦، ١١١٧-١١٢٧؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ٩٢، ١٠٠-١٠١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ١٤٩-١٥٢، ١٨٢، ١٩٩-٢٠٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٣٦٢-٣٦٥، ج٤، ص ٧٣-٧٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، المغازي، ص ٦٢٧-٦٤٣، ٧١٣-٧١٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٩-٢١.

٩٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٣٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٣١-٣٣٣، ٣٣٥؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١١٥-١١٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٥٢-٢٥٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص ٨١؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٤؛ السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب: تاريخ الدولة العربية، ج٢ (الإسكندرية، ١٩٩٣)، ص ٢٠١-٢٠٢، Stratos, Byzantium in the Seventh Century, II,137.

٩٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق لجنة تحقيق التراث (بيروت، ١٩٩٣)، ص ٢٦٤.

٩٥) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت، ١٤١٣هـ)، ص١١٦؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص٢٠١-٢٠٢.

٩٦) Agapius de Menbidj, Kitab al-'Unvan, 468.

٩٧) Ghévond, Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Armenie, trad. Fran. G. V. Chahnazarian (Paris 1856), 2.

انظر أيضا: فايز نجيب اسكندر، الفتوحات الإسلامية لأرمينية (الإسكندرية، ١٩٨٠)، ص ١٧.

٩٨) البلاذري، فتوح البلدان، ١١٧؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٤١؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٠٢؛ كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١٣٧، ١٤٢-١٤٣.

٩٩) كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١٤٧.

١٠٠) Chronique de Michael le Syrien, ed. et trad. fra. J. B. Chabot, II (Paris 1904), 413; Stratos, Byzantium in the Seventh Century, II, 49.

١٠١) Theophanes, Chronographia, 467; Agapius de Menbidj, Kitab al-'Unvan, 469.

١٠٢) Theophanes, Chronographia, 468.

١٠٣) السكيلاريوس: لقب وظيفي بيزنطي كان يعني أمين الخزانة الإمبراطورية، التي كانت تتلقى الفائض المرسل من المقاطعات الإمبراطورية. وقد تولى السكيلاريوس في القرن السابع الميلادي بصفة خاصة المهام المالية للوزراء، الذين كانوا يديرون المقاطعات؛ حيث أصبحت الخزانة وزارة مهمة. انظر:

Bury, The Imperial Administrative System, 85.

١٠٤) كان السكيلاريوس ثيودور واحداً من خصيان الإمبراطور هرقل، ممن نالوا الحظوة عنده حتى أصبح أميناً للخزانة الإمبراطورية. انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٢٨.

١٠٥) عند هذا الحد تتفق رواية ثيوفانيس مع رواية البطريرك نقفور. انظر:

Nikephoros, Short History, 69.

١٠٦) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١١٩–١٢١؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٣٥، ٣٤٨؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٢٩–١٣١؛ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص ٥٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص ٨٧؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٥؛ رفيق بك العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام (القاهرة، ١٩٢١)، ص ١٣٧؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٠٧؛ عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون (بيروت، ١٩٧٩)، ص ١٠٨. يجعل اليعقوبي مدة حكمه سنتين وأربعة أشهر. انظر: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٣٨.

١٠٧) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص ٢٧–٣٣؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٠؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٤٦؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٧٣–٧٤؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٥؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٠٣–٢٠٤؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٤٣–٤٤؛ كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١٦٣؛ Chronique de Michael le Syrien, II, 417; G. Cedrenus, Compendium Historiarum, col. 815; Stratos, Byzantium in the Seventh Century, II, 52, 53-54.

١٠٨) فتوح الشام، ج١، ص ١٨.

١٠٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٠–١٥٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٤٧؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٢٣؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٤–١٨٥؛ كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص١٤٨–١٥١.

١١٠) تخطيء الترجمة الانجليزية لسيبيوس بجعلها اسم ثيودسيوس بدلا من ثيودور، طبقا للترجمة الفرنسية. انظر:
Sebèos, Histoire d' Hèraclius, 96: Sebeos History,chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm

١١١) Theophanes, Chronographia,468; Cedrenus, Compendium Historiarum, col. 815.

١١٢) فتوح البلدان، ص ١٢٠، ١٢١.

١١٣) ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٦٦.

١١٤) Nikephoros, Short History, 69.

١١٥) Theophanes, Chronographia,468; Cedrenus, Compendium Historiarum, col. 815.

١١٦) كان نهر اليرموك ينبع من مرتفعات حوران ويصب في نهر الأردن جنوبي بحيرة طبرية. وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بنهر الأردن يكون في الطرف الشمالي شرجاً على شكل نصف دائرة يحيط بسهل متسع. انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٦؛ Ali, A Short History, 37.

١١٧) طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٤٥.

١١٨) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص ١٦٧-١٦٩؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٦.

١١٩) فايز نجيب اسكندر، المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس (صنعاء، ١٩٩٣)، ص ٢٤.

١٢٠) Sebèos, Histoire d' Hèraclius, 96; Sebeos, History,chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm

١٢١) Idem.

١٢٢) يذكر البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٢، أن المسلمين كانوا آنذاك في الواقوصة يوم وفاة أبي بكر. انظر أيضا: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٥٩؛ ١٢٣١٠ Ali, AShort Hisory, 38.

١٢٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٣٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٦٠؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٠٧؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٦.

١٢٤) لمزيد من التفاصيل عن موقعة اليرموك انظر: الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٦٠ وما بعدها؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٠-١٤٢؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٣٥-٣٣٩؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١١٨-١٢٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٥٤-٢٦٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٣٩-١٤٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ص ٨-٢١؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٥-١٨٧؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٧١-٣٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٠٥-٢٠٨؛ عبد

الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٩٥-١٠٢؛ فايز نجيب اسكندر، المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس، ص ٢٤-٢٦؛ كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١٦٧-١٧٥؛ Nikephoros, Short History, 69; Cedrenus, Compendium Historiarum, col.815. Cf. also D. Nicolle, Yarmuk 636 AD. the Muslim Conquest of Syria (London 1994), 65-83.

١٢٥) كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ٢٣٢-٢٣٣؛ Nicolle, Yarmuk 636 AD, 86.

١٢٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٢.

١٢٧) Theophanes, Chronographia, 468.

١٢٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٢؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (بيروت، ١٩٥٨)، ص ١٠٢؛ Stratos, Byzantium in the Seventh Century, II, 73.

١٢٩) أطلقت المصادر البيزنطية لفظة السراقنة على العرب، لاسيما القاطنين شبه الجزيرة العربية؛ وكان يرادفها أيضا مصطلح الإسماعيليون، نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم، أو الهاجريون، نسبة إلى السيدة هاجر زوج الخليل إبراهيم. ويقول بعض المؤرخين أن السراقنة نسبة إلى السيدة سارة، زوج الخليل إبراهيم؛ والبعض الآخر يقول أنها تعني البدو سكان الخيام، كمعنى لغوي حرفي. وهو المعنى الذي أطلق أيضا على الغساسنة في الشام، على الرغم من أنهم كانوا أكثر تطورا وحضارة وثقافة من بني ذويهم في شبه الجزيرة العربية. (انظر: **Shahid, Ghassanid and Umayyed Structures, 299.**) وبعد ظهور الإسلام وانتشاره ظلت المصادر البيزنطية تطلق نفس المسميات القديمة على المسلمين، ونعتتهم بصفات لاذعة. عن المسميات والصفات التي أطلقتها المصادر البيزنطية على العرب انظر:

Constantelos, The Moslem Conquests of the Near East,327; E.Jeffreys, The Image of the Arab in Byzantime Literature The 17th International Byzantine Congress,Washington, 1986 (New York 1986), 306 ff; A. Savvides, Some Notes on the Terms Agarenoi, Ismaelitai and Sarakenoi in the Byzantine Sources Byz. 67(1997), 89-96.

١٣٠) Theophanes, Chronographia,469-470.

١٣١) F.R. Trombley, "Military Cadres and Battle during the Reign of Heraclius" in The Reign of Heraclius (610-641) Crisis and Confrontation, eds. G. J. Reinink and B. H. Stolte (Leuven-paris 2002), 250.

١٣٢) Sebèos, Histoire d' Hèraclius, 97-98; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm; Trombley, Military Cadres,250.

فايز اسكندر، المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس، ص ٢٥. يلاحظ أن المؤرخ الأرمني جيفوند نقل عن سيبيوس معظم أسباب هزيمة البيزنطيين في اليرموك. انظر: Ghévond, Histoire des guerres et des conquêtes des arabes en Armenie, 3.

١٣٣) Sebèos, Histoire, d' Hèraclius, 97; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

١٣٤) Idem

فايز اسكندر، المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس، ص ٢٤-٢٥.

١٣٥) Ghévond, Histoire des guerres et des conquêtes des arabes en Armenie, 3.

١٣٦) انظر: كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص ١٧٤.

١٣٧) Nikephoros, Short History, 69.

١٣٨) Sebeos' Histoire, d' Hèraclius, 96-97; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

فايز اسكندر، المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس، ص ٢٤.

١٣٩) Nikephoros, Short History, 69.

١٤٠) فايز اسكندر، المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس، ص ٢٥-٢٦.

١٤١) Theophanes, Chronographia,469-470.

١٤٢) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص ٢١٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٤ (بيروت، د.ت.)، ص ١٣٨، ١٩٦؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٣٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٢؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٢٨؛ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، ص ٩١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٨١، ٣٤٢؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، ج١(الكويت، ١٩٤٨)، ص ١٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٣٩؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٣؛ الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١ (بيروت، د.ت.)، ص ٢٧؛ محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية (القاهرة، ١٩٧٩)، ص ٤٤-٤٥؛ فايز نجيب اسكندر، الفتوحات الإسلامية لأرمينية، ص ٢١؛ عائشة أبو الجدايل، الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي، ص ٢٠٢؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٤٦.

Nicolle, Yarmuk 636AD, 75; W.E.Kaegi, "Reflections on the Withdrawal of the Byzantine Armies from Syria", in: La Syrie de Byzance a L'Islam VII-VIII Siècles, actes du colloque International, Lyon-Maison de I'Orient Mèditerranèen, Paris, Institut du Monde Arabe, 11-15 Septembre 1990 (Damas 1992), 365; Idem, Byzantum and the Early Arab Conquests (Cambridge 1997), 114ff.

١٤٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٥٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٥٢ وما بعدها؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٧٦-٧٧؛ Ali, A Short History، ٧٣.

١٤٤) فتوح البلدان، ص ١٢٢. يبدو هنا أن البلاذري نقل عن مصدرين مختلفين، حيث عاد وقال أن معركة اليرموك وقعت عام ١٥هـ/٦٣٦م. انظر: فتوح البلدان، ص ١٤٢.

١٤٥) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٣٩.

١٤٦) تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٣٤-٢٣٥.

١٤٧) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٢٣.

١٤٨) Agapius de Menbidj, Kitab al-'Unvan, 469.

١٤٩) Theophanes, Chronographia,470.

١٥٠) Sebeos' Histoire, d' Hèraclius, 98; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

١٥١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٤٠، ٣٦٠، ٤٢٨؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٢٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٥٥.

١٥٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٣٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص١٤٠.

١٥٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٣٤.

١٥٤) Theophanes, Chronographia, 468.

١٥٥) Cedrenus, Compendium Historiarum, col. 815.

١٥٦) فتوح الشام، ج١، ص ٣٠٩.

١٥٧) فتوح البلدان، ص ١٢٠، ١٢١. انظر أيضاً: L. I. Conrad, :Heraclius in Early Islamic Keygma", in the Reign of Heraclius (610- 641) Crisis and Confrontation, eds. G.J. Reinink and B. H. Stolte (Leuven- Paris 2002), 131.

١٥٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٢.

١٥٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٢.

١٦٠) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٥٩؛ الدمشقي، شذرات الذهب، ج١، ص ٢٧.

١٦١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٢٢.

١٦٢) الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٦٢.

١٦٣) الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٣٤١؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، ١٩٧٥)، ص ١٦٤.

١٦٤) **Chronique de Michael le Syrien, II, 424. Cf. also Kaegi, Reflections on the Withdrawal of the Byzantine Armies from Syria, 266.**

١٦٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٢؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٨٢-٣٨٤؛ عائشة سعيد أبو

الجدايل، الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي دراسة في التطورات والتغيرات (الرياض، ١٩٩٥)، ص ٢٠٢.

١٦٦) الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٣٤١.

١٦٧) رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٥٩-٢٦٠.

١٦٨) Kaegi, Reflections on the Withdrawal of the Byzantine Armies from Syria, 266.

١٦٩) Stratos, Byzantium in the Seventh Century, II, 56.

١٧٠) Kaegi, Byzantium and the Early Arab Conquests, 74-83.

١٧١) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص ١٢١.

١٧٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٢٨.

١٧٣) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص ٣١١.

١٧٤) الواقدي، فتوح الشام، ج٢، ص ٥-١٦.

١٧٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ٣٥٩؛ ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص ٩١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٢٣؛ الدمشقي، شذرات الذهب، ج١، ص ٢٦؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٢٠-٢٢١؛ عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢٠٧-٢٠٨. يشير أغابيوس إلى أن خالد بن الوليد هو الذي قام بفتح دمشق وبقية مدن الشام. انظر: Agapius de Menbidj, Kitab al-'Unvan, 470; Constantelos, The Moslem Conquest of the Near East, 326.

١٧٦) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٧-١٣٠؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٤٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٤٢-١٤٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٧٨-٢٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٠٨-٢٠٩. لمزيد من التفاصيل حول فتح العرب لدمشق، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ٢٧-٣٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص١٢٣-١٢٥؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢١٧-٢٢٦؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٧-١٨٨؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٦٨-٣٧١، ٣٧٩-٣٨١.

١٧٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٦-١٣٧.

١٧٨) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٦-١٤٠؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٣٤-١٣٥؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٥٩ وما بعدها؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٤٤-١٤٥، ١٩٠-١٩١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٨٠-٢٨١، ٣٣٩-٣٤٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٢٨، ١٦٢؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٣٥-٢٣٩، ٢٥٨-٢٥٩، ٢٦١-٢٦٦؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص ٢٠٩-٢١٠؛ عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢٠٩-٢١٤. يرى قسطنطيلوس وبوجامرا أنها فتحت عام

٦٣٨م. انظر:

Constantelos, The Moslem Conquest of the Near East, 326; Boojamra, Christianity in Greater Syria, 153.

١٧٩) Theophanes, Chronographia, 473; Agapius de Menbidj, Kitab al-Unvan, 470

١٨٠) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٣٨، ١٥٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٤٠١؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج٢، عصر الخلفاء الأمويين (القاهرة، ١٩٧٦)، ص ١٧.

١٨١) أي المسجد الأقصى، وقد بناه داوود عليه السلام، على أساس قديم، بأمر من الله تعالى، ثم أكمل البناء سليمان عليه السلام على الصورة التي كانت من عجائب الدنيا. وقد زينه بالذهب والفضة والدر والياقوت والمرجان وشتى أنواع الجواهر في شتى أرجائه. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ١٧٣-١٧٤؛ المقدسي، أبي المعالي، فضائل بيت المقدس، تحقيق أيمن نصر الدين الأزهري، (بيروت، ٢٠٠٢)، ص ١٧-٢٧ المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (القاهرة، ١٩٩١)، ص ١٦٨؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج ١، ص ١١٣-١٢٦؛ المقدسي، شهاب الدين، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق أحمد الخطيمي، بيروت، ١٩٩٤)، ص ١٣١-١٥١.

١٨٢) Theophanes, Chronographia, 471-472.

١٨٣) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص ٢٢٩-٢٣٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٤؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٢٨-٢٣١.

١٨٤) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص ٢٣٨-٢٤٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٤-١٤٥؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٤٧؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٤٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٧٤-٨٠؛ Cedrenus, Compendium Historiarum, col. 815 انظر أيضا: المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٥٣-٦٢. وطبقا لهؤلاء المؤرخين كان نص هذا الكتاب كالتالي: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منها الروم. . . إلى نهاية الكتاب. وقد شهد على هذا العهد خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وذلك في عام ١٥هـ/٦٣٦م. انظر أيضاً: السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٣٢-٢٣٣؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ١٦١-١٦٢؛ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة (القاهرة، د.ت.)، ص ٢٨٦-٢٨٧؛ عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢١٤-٢١٨؛ جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية، ص ٤٦. وجدير بالذكر هنا أن عمر بن الخطاب لم يشأ أن يتخذ من كنيسة قسطنطين مسجداً،

حيث صلى خارجها، حتى لا يتخذها المسلمون الصلاة في الكنائس سنة من بعده، وبهذا يخالفون عهده مع أهل الذمة. انظر: Ali, A Short History, 39-40.

١٨٥) Sebéos; Histoire, d' Hèraclius, 98; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

١٨٦) جدير بالذكر أن هيكل سليمان، أو المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام، قد دمر ثلاث مرات قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، أولها على أيدي الملك نبوخذ نصر، عام ٥٨٨-٥٨٧ ق.م، وقد أعيد بناء المعبد عام ٥٢٠-٥١٥ ق.م؛ وثانيها في عهد انطيوخس الرابع، ملك السلوقيين، بعد قمع الفتنة التي قام بها اليهود عام ١٧٠ ق.م، وقد أعيد بناءه للمرة الثانية على أيدي هيرودوس، الذي أصبح حاكما على اليهود عام ٤٠ ق.م، بمساعدة الرومان. ومما يؤكد وجود الهيكل في مستهل القرن الأول الميلادي ما ورد في إنجيل متى من قيام السيد المسيح بتطهير الهيكل من مواضع التجار به، حيث قال: «بيتي بيت الصلاة يدعى. وانتم جعلتموه مغارة لصوص» انظر إنجيل متى (القاهرة، ٢٠٠٠)، الإصحاح ٢١، ص ٣٠؛ انظر أيضا، الإصحاح ٢٣، ص ٣٤. وثالثها في الستينات من القرن الأول الميلادي، على أيدي القائد الروماني تيتوس، على أثر ثورة قاموا بها ضده؛ ثم قام الإمبراطور هادريان بهدم ما تبقى منه وحرث مكانه، وأصدر مرسوماً في عام ١٣٢م يفرض بموجبه عدة قيود على اليهود منها تحريم دخولهم بيت المقدس عدا مرة واحدة في العام ليسمح لهم بالبكاء أمام خرائب الهيكل؛ ومن ثم لا دليل تاريخي على وجود هيكل سليمان بالقدس أو على وجوب اتخاذ اليهود من المسجد الأقصى مصلى لهم، كما يصور ثيوفانيس. انظر: المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٢٩-٥٠؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ١٢٤-١٢٦؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ١٤٩-١٥٠؛ عادل حسن غنيم، حائط البراق أم حائط المبكى (القاهرة، ٢٠٠١)، ص ٧-٨، ٢١-٢٢؛ زبيدة عطا، اليهود في العالم العربي (القاهرة، ٢٠٠٣)، ص ٣٣-٣٧.

١٨٧) انظر أيضا نفس الاتهام في: Cedrenus, Compendium Historiarum, col. 815.

١٨٨) تجدر الإشارة إلى أن عمر بن الخطاب أقر مجموعة من الشروط التي تعنى بتنظيم العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة، ومعاملات أهل الذمة داخل المجتمع الإسلامي، وهي تعرف باسم «الشروط العمرية». وتنقسم هذه الشروط إلى ستة أقسام الأول منها: في أحكام البيع والكنائس والصوامع وما يتعلق بذلك. الثاني: في أحكام ضيافتهم للمارة بهم وما يتعلق بذلك. الثالث: فيما يتعلق بضرر المسلمين والإسلام. الرابع: فيما يتعلق بتغيير لباسهم وتمييزهم عن المسلمين في المركب واللباس وغيره. الخامس: فيما يتعلق بإظهار المنكر من أفعالهم وأقوالهم مما نهوا عنه. السادس: في أمر معاملتهم للمسلمين بالشركة ونحوها. وهذه الشروط منشورة في: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، ج٣ (الدمام، ١٩٩٧)، ص ١١٥٩-١٤٥٧.

١٨٩) Sebéos; Histoire, d' Hèraclius, 102; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

١٩٠) Idem.

١٩١) انظر هامش رقم ١٨٤ من البحث.

١٩٢) تاريخ ملوك القسطنطينية، مخطوط مجهول المؤلف، دار الكتب المصرية، رقم ١٦٤٩ تيمور، ورقة ٩٧.

١٩٣) زبيدة عطا، اليهود في العالم العربي، ص ٧٨.

١٩٤) الواقدي، فتوح الشام، ص ٢٤٣؛ المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٦٢؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٢٧.

١٩٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٥٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٩٣؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٤٠-٢٤١؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٤٩-٢٥١؛ عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢١٧-٢١٨.

١٩٦) كان المسجد الأقصى قبلة المسلمين في أول الدعوة، ثم أمر الله الرسول ﷺ بتحويل القبلة بعد ذلك نحو المسجد الحرام بمكة المكرمة، وذلك بسبب قول اليهود «يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا». فقال الرسول لجبريل: وددت أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود. فقال جبريل إنما أنا عبد فادع ربك وسله، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء ينتظر أمر الله، فنزلت عليه الآية التالية: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام» (سورة البقرة، ١٤٤)، فوجه نحو الكعبة. ويُذكر أن الرسول ﷺ صلى ركعتين من الظهر بالمسلمين في مسجده نحو قبلة المسجد الأقصى ثم أمر أن يتوجه نحو المسجد الحرام فاستدار ودار معه المسلمون. انظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ٦٣-٦٤؛ المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ١٢٢-١٢٨؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ١٧-١٨؛ محمد رضا، محمد رسول الله، ص ١٤٦؛ عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٨٩.

١٩٧) حائط البراق هو الحائط الذي يحد الحرم القدسي الشريف من الغرب، وعنده ربط الرسول ﷺ البراق عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. انظر: المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ١٥٣؛ عادل غنيم، حائط البراق أم حائط المبكى، ص ١٩. وهو جزء من سور المسجد الأقصى الذي بناه داوود وسليمان عليهما السلام. السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ١٩١- ١٩٥.

١٩٨) أسري بالرسول ﷺ ذات عشاء، قبل الهجرة بسنة، على البراق من مكة إلى بيت المقدس فوجد هناك إبراهيم وموسى وعيسى وعدداً من الأنبياء معهم، حيث صلى بهم، ثم عُرج به إلى السموات العلى، حيث رأى من آيات ربه الكبرى ما رأى، وفرضت عليه الصلاة فكانت خمسين صلاة في اليوم، ثم سأل ربه التخفيف فوضعها عنهم إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة؛ ثم عاد إلى بيت المقدس ومنها إلى مكة. وقد صار لغط بين أهل قريش عندما حدثهم الرسول ﷺ بما وقع له، ولم يصدقوه إلا بعد أن وصف لهم بيت المقدس تماماً كما يعرفونه. لمزيد من التفاصيل انظر: ابن اسحق، السيرة النبوية، ص ٣٠٩-٣١٣؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٢-٣٩؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٦؛ الطبري، تاريخ

الرسل والملوك، ج١، ص ٥٣٦-٥٣٧؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٢٥-٣٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٥٧٨-٥٨١؛ المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ١٥٣-١٦٠؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ١٦٥-١٧٥؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ٢٦٥-٢٦٨؛ تهذيب سيرة بن هشام، ص ١٠١-١٠٦؛ محمد رضا، محمد رسول الله، ص ١١٤-١٢١؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ص ١٢٨-١٣٠.

١٩٩) Constantelos, The Moslem Conquests in the Near East, 328-330.

٢٠٠) Ibid., 332.

٢٠١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٩٣؛ جمال الدين سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية، ص ٤٦.

٢٠٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٣٥؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٤٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٤٧، ٣٤٩؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٤٠؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٢١٠-٢١١؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٨٤-٣٨٨؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٤٨-٤٩؛ Boojamra, Christianity in Greater Syria, 152-153. يقول البلاذري أن إيلياء فتحت عام ١٧هـ/٦٣٨م. انظر: فتوح البلدان، ص ١٤٤، ويأخذ برأيه المؤرخ اليوناني قونسطنطيلوس. انظر: Constantelos, The Moslem Conquest of the Near East, 326.

٢٠٣) Theophanes, Chronographia, 476.

٢٠٤) انظر هامش رقم ١٨٤ من الدراسة.

٢٠٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٨٥-٤٨٧، ٤٩٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٠٠-٤٠٣؛ عبد الوهاب النجار، الخلفاء الراشدون، ص ٢١٩-٢٢١.

٢٠٦) Sebéos; Histoire, d' Hèraclius, 102; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

٢٠٧) زبيدة عطا، اليهود في العالم العربي، ص ٧٨.

٢٠٨) تشير إحدى الروايات التاريخية إلى أن عمر بن الخطاب سأل صفرونيوس عن موضع الصخرة، وأن الأخير اصطحبه معه ليدله عليها. غير أن صفرونيوس ضلله فذهب به مرة إلى كنيسة القيامة وأخرى إلى كنيسة صهيون وأخيرا ذهب به إلى مسجد بيت المقدس؛ حيث عرفه عمر بن الخطاب من وصف الرسول له. انظر: المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٦٣-٦٧؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٣٦؛ ج٢(القاهرة، ١٩٨٤)، ص ١٧٧؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ١٦٥-١٦٧.

٢٠٩) حاول البيزنطيون تشييد كنيسة لهم فوق الصخرة المقدسة، غير أن البناء سقط أربع مرات، وطبقا لنصيحة أحد الشيوخ أشار عليهم بالبناء في موضع آخر، بعد أن أخبرهم أن مكان هذه الصخرة ملعون وأن القدس نزع منه وتحول إلى الموضع الذي بنوا عليه كنيسة القيامة. وهكذا بدأوا في تقطيع

الصخرة المقدسة ليبنوا من حجارتها الكنيسة، وبعد أن فرغوا من البناء جعلوها موضعا للقمامة نكاية في اليهود. انظر: المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٤٥-٤٨؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ١٢٨-١٣٠؛ ج٢، ص ١٧٦؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ١٥١-١٥٣. وهذا جعل بعض المؤرخين المسلمين يطلقون على هذه الكنيسة اسم كنيسة قمامة، لقربها من تلك المزبلة.

٢١٠) المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٦٦؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ١٦٧.

٢١١) انظر: المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٦٣-٧١؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٣٧-٢٣٨؛ ج٢، ص ١٧٧-١٧٩؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ١٦٧-١٦٨؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٥٢.

٢١٢) تاريخ ملوك القسطنطينية، مخطوط مجهول المؤلف، ورقة ٩٩. تقول الرواية حرفيا: «... وفي السنة الثانية من ملكه (أي قنسطانز) عمر الهيكل بأورشليم ولم يثبت البنا، الذي ابتناه، لكنه وقع، والعلة لأجل أن اليهود أخذوا الصليب الذي كان في الكنيسة فوق جبل الزيتون...»

٢١٣) زبيدة عطا، اليهود في العالم العربي، ص ٧٨.

٢١٤) Theophanes, Chronographia, 472.

٢١٥) فتوح الشام، ج١، ص ٢٣٩-٢٤٠. انظر أيضا: السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج١، ص ٢٣٢؛ المقدسي، مثير الغرام، ص ١٦٠.

٢١٦) Theophanes, Chronographia, 474.

٢١٧) كانت قيصرية من أهم مدن فلسطين بعد بيت المقدس، حيث كانت تحوي في القرن السادس عددا من الكنائس مثل كنائس سانت أوفيميا، وسانت ماري الصغرى، وسان أنستاسيوس الفارسي، وكنيسة المسيح الأكثر قدسية، وقلعة ذات سجن، وبرايتوريوم وغيرها من المنشآت. انظر:
W. E. Kaegi, The Israel Exploration «Some Seventh-Century Sources on Caesarea», Journal 28 (1978), 179.

٢١٨) Theophanes, Chronographia, 475.

٢١٩) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٥٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٩١.

٢٢٠) الواقدي، فتوح الشام، ج٢، ص ٣٦؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ١٤١.

٢٢١) فتوح البلدان، ص ١٤٦؛ عائشة أبو الجدايل، الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي، ص ٢٠٢

٢٢٢) Sebéos; Histoire, d' Hèraclius, 101; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

٢٢٣) Ghévond, Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Armenie, 4.

٢٢٤) J.W. Watt,"The Portrayal of Heraclius in Syriac Historical Sources" in The Reign of Heraclius (610-641) Crisis and Confrontation, eds. G. J. Reinink and B. H. Stolte (Leuven-Paris 2002), 74.

٢٢٥) عن هذه الكتابات انظر:

A, Khoury, Les thèologiens byzantins et l'Islam(Paris 1969), 47 ff; A. Abou-Seada, Byzantium and Islam (9th- 10th)A Historical Evaluation of the Role of Religin in Byzantine-Muslim Relations, ph.D. Dissertation (Birmingham 2000), 19 ff.

٢٢٦) Proudfoot, The Sources of Theophanes, 396-397.

٢٢٧) لمزيد من التفاصيل عن مصادر ثيوفانيس انظر:

Proudfoot, The Sources of Theophanes, 367-439; N. Pigulevskaya, "Theophanes, Chronographia and The Syrian Chronicles," JOP 16(1967), 55ff.

٢٢٨) Constantine Porphyrogenitus, De Administrando Imperio, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. J. H. Jenkins, I (Budapest 1949), chap. 14, 76-79.

٢٢٩) Ibid.,77

٢٣٠) Idem

٢٣١) Ibid., 77-79.

٢٣٢) Ibid., 79.

٢٣٣) Theophanes, Chronographia, 464-465.

٢٣٤) Constantine Porphyrognetius, DAI, I, 79.

٢٣٥) Idem., Theophanes, Chronographia, 465.

٢٣٦) Constantine Porphyrognetius, DAI, I, 80-83.

٢٣٧) Ibid., chap. 18, 83.

٢٣٨) Ibid., chap. 18-19, 83.

انظر أيضا محمود سعيد عمران، إدارة الإمبراطورية البيزنطية للإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٧٧.

٢٣٩) انظر: كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عنان (القاهرة، ١٩٩٨)، ص ١٧-١٩.

٢٤٠) تتجلى أهمية رواية سيبيوس في أنه عاش في القرن السابع الميلادي ومن عدد المؤرخين الأرمن الذين نقلوا عنه بعد ذلك وتأثروا بكتاباته، مثلما تأثر المؤرخون البيزنطيون بحولية ثيوفانيس المعترف. لمزيد من التفاصيل عن أهمية سيبيوس التاريخية في التاريخ الأرمني انظر: فايز اسكندر، المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس، ص ١٧-٢٢.

٢٤١) Sebéos' Histoire, d' Hèraclius, 95; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

٢٤٢) سفر التكوين، الإصحاح ٧/١٢.

٢٤٣) Sebeos' History, d' Hèraclius, 95-96; Sebeos' History, chap. XXX, in http://rbedrosian.com/seb9.htm;

٢٤٤) عن محمد ﷺ واليهود انظر: محمد عزة دروزة، اليهود في القرآن الكريم، ص ٢٨-١٢٨.

٢٤٥) Agapius de Menbidj, Kitab al-'Unvan, 456-457.

٢٤٦) Ibid., 471.

٢٤٧) Severus ibn Al -Muqaffa', Alexandrinische Patriarchen Geschichte, ed. C. F. Seybold, Band III (Hamburg 1912), 99.

٢٤٨) History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, ed. and Eng. trans. B. Evetts, vol. II, PO I(Paris 1907), 402-403.

٢٤٩) يشير ساويرس بن المقفع إلى نقطة مهمة حيث يرد الهزائم التي لقيها البيزنطيون من المسلمين لـ «أمانتهم (أي البيزنطيين) الفاسدة والمحرمات التي قبلوها بقبولهم (قرارات) مجمع خلقدونية من الآباء الأوائل». انظر: Severus ibn Al -Muqaffa', 99. وبهذا يعكس الصراع الديني الذي كان قائماً بين كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية قبل دخول العرب إلى مصر. ويشير السنكسار السكندري إلى سياسة التسامح التي اتبعها عمرو بن العاص مع المسيحيين المصريين، حيث جد في طلب عودة الأنبا بنيامين ثانية إلى كنيسته، التي اختفى عنها زهاء عشر سنين، على أثر سياسة هرقل الدينية الجائرة، ليدير بيعته وسياسة طائفته، وقد منحه كتاب أمان. وعندما عاد إلى الإسكندرية تهللت أسارير المصريين المسيحيين وفرحوا بقدومه. انظر: History of the Patriarchs, II, 496.

٢٥٠) راجع: رأفت عبد الحميد، الإمبراطورية البيزنطية، ج١، العقيدة والسياسة (القاهرة، ٢٠٠٠)، ص ٢٦٦-٢٦٧.

٢٥١) عن غزوات العرب في آسيا الصغرى في القرنين السابع والثامن الميلاديين انظر:
H.Ahrweiler, "L' Asie Mineure et les invasions Arabes VII-IX, RH227/I (1963), 1-32.

٢٥٢) يشير المؤرخون إلى أن العرب هاجموا القسطنطينية ثلاث مرات، حيث أرسل معاوية حملته الأولى ضد القسطنطينية في عام ٦٦٨م/٤٨هـ، بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري، وكانت حملة استكشافية. انظر: Theophanes, Chronographia,492. انظر أيضاً إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ١٦٢ - ١٦٥؛ صلاح العاوور، «المحاولات العربية لفتح القسطنطينية في العصر الأموي» مجلة المؤرخ العربي، عدد ٨(٢٠٠٠)، ص ٣٨١؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٨٨-٨٩. أما الحملة الثانية فكانت في عهد معاوية أيضا، ويجعلها البعض تستمر

لمدة سبع سنين. انظر: Theophanes, Chronographia, 493 - 495; Nikephoros, Short History, 85-87.
Cf. also M. Canard, Les expéditions des arabes contre Constantinople, JA 208 (1926), 77-80.

«إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص١٧٢-١٧٨؛ صلاح العاوور، المحاولات العربية لفتح القسطنطينية، ص ٣٨٠-٣٨٥؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ٩٠-٩٤؛ أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحري في البحر المتوسط، العصر الوسيط (القاهرة، د.ت.)، ص ١٦؛ إبراهيم العدوى، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط (القاهرة، ١٩٥٧)، ص٤٨-٥٥. أخيراً فإن الحملة الثالثة قام بها مسلمة بن عبد الملك عام ٧١٧م/٩٩هـ. انظر: Theophanes, 545-550; Nikephoros, 117ff; ابن كثير البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٢٣ - ٢٢٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٢، ص ٣٣١ - ٣٣٢؛ كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق (بغداد، د. ت.)، ٢٤-٣٣. انظر أيضاً، Canard, Les expèditions, 94 ff; R. Guilland, "L' expèditions de Maslama Contre Constantinople", Al-Mashreq (Bierut 1955), 89-112.

انظر أيضاً: وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، (الإسكندرية ،١٩٨١)، ص ١٢١ - ١٧٥؛ ليلى عبد الجواد، «دور البلغار في مواجهة حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية»، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٦(١٩٩١)، ص ٨٣-١١٤؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، ص ١٠٥ - ١١٤ ؛ صلاح العاوور، المحاولات العربية لفتح القسطنطينية، ص ٣٨٦- ٣٨٩.

٢٥٣) W.E. Kaegi, :Initial Byzantine Reflections to the Arab Conquest",Ch Hist 38/2 (1969), 142

٢٥٤) Ibid.,139.

اعتقد المدعو ميثوديوس أن نجاح العرب في فتوحاتهم إنما يعود إلى أخطاء البيزنطيين، لاسيما تجاوزاتهم الجنسية بصفة خاصة. انظر: Ibid., 143.

٢٥٥) Jeffreys, The Image of the Arabs in the Byzantine Literature, 316; D.J Sabas, "Eighth Century Byzantine anti-Islamic Literature", BSL 57 (1996), 229-230.

٢٥٦) انظر: Theophances, Chronographia, 563-565; Boojamra, Christianity in Greater Syria, 155. Cf. also L. Brèhier, La querelle des images VIII-IX siècles (Paris 1904); E.J. Martin, AHistory of the Iconoclastic Controversy (London 1930).

انظر أيضا: السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٧٧. يسرد زوناراس بالتفصيل قضية تأثر ليو الثالث بما فعله يزيد بن عبد الملك، الذي قام بتحطيم الصور الدينية من الكنائس الواقعة في ظل الخلافة الإسلامية؛ وعلى هذا فقد وصفه بالطاغية وغيرها من الألفاظ الشديدة اللهجة، كما يذكر أن يزيد فعل هذا تحت تأثير يهودي. انظر: I. Zonaras, Epitomae Historiarum, ed. M. Pinderi, CSHB, III (Bonn 1897), 257 ff.; Boojamra, Christianity in Greater Syria, 155.

٢٥٧) السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٨١.

(٢٥٨ Constantelos, The Moslem Conquests of the Near East, 350.

(٢٥٩ Meyndorff, Byzantine Views of Islam. Ibid., 352-353; Jeffreys, The Image of the Arabs in the Byzantine Literature, 317; J. DOP 18(1964), 119-121.

(٢٦٠ Cedrenus, Compendium Historiarum, col. 809.

(٢٦١ Stratos, Byzantium in the Seventh Century, II, 33.

د. هانىء عبدالهادى البشير (*)

دور الأرمن فى الجيش والحياة السياسية للدولة البيزنطية

من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن العاشر الميلادى

ورثت بيزنطة عن الإمبراطورية الرومانية الكثير من النظم السياسية والحضارية، كما ورثت عنها أيضا مبدأ التعددية العرقية وظلت حريصة على التآلف بين سكانها، حتى بعدما غلب عليها الطابع اليونانى فى القرن السابع الميلادي . ومع أن البيزنطيين كانوا أشبه بالصينيين ـ فى العصر الحديث ـ فى ازدراء الأجانب بشكل عام ، ومع أن المصادر البيزنطية وصمت الشعوب الأخرى بصفات سيئة ، كالأسكيثيين والبرابرة وغيرها (١) ،إلا أنه من الناحية الرسمية رفضت بيزنطة مبدأ التميز العنصري . ولم تكن اليونانية أمرا مستحيلا؛ لأنها ليست عملية جينات وراثية ، وإنما كانت مسألة ثقافة ؛ فمن يتحدث اليونانية ويعيش على الطريقة اليونانية ويعتنق النصرانية على المذهب الأرثوذكسي، كان يعد يونانيا . وبناء على ذلك فقد أصبح العديد من غير اليونانيين يونانيين، وخصوصا أولئك الذين التحقوا بالجيش البيزنطى ودافعوا عن الإمبراطورية، وأولئك الذين شاركوا بفاعلية فى الحياة السياسية للدولة البيزنطية؛ حيث إن الوظائف المختلفة كانت متاحة لكل من يملك الموهبة ، دون النظر إلى أصله . ولذلك كان هناك العديد من الأسماء اللامعة لقادة عسكريين كبار، وأباطرة عظماء، قادوا بيزنطة وحكموها، وهم من أصول غير يونانية (٢) .

وتناقش هذه الدراسة الدور الفعال الذى لعبه أبناء الشعب الأرمنى فى الجيش وفى الحياة السياسية للدولة البيزنطية، وذلك فى ضوء اعتبارين أساسيين: **الأول**؛ أن الأرمن ـ على

*-أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد ـ كلية الآداب ـ جامعة حلوان .

وجه التحديد ـ شكلوا العنصر الأكبر والأقوى بين المجموعات العرقية المتنوعة في الدولة البيزنطية . والثاني : أن العلاقة بين الجيش والحياة السياسية هي علاقة وثيقة ؛ فكثيرا ما اتخذ الجيش معراجا للمشاركة في الحياة السياسية ، وللوصول إلى سدة الحكم في الدولة البيزنطية ، ولم لا ؟ والأساس هو أن يكون الإمبراطور رجل حرب ورجل سياسة في آن واحد .

على أي حال ، أسهب المؤرخ البيزنطي جنسيوس Genesius (٣) في الحديث عن التعددية العرقية في الدولة البيزنطية عند سرده لأحداث ثورة السلافي توماس (٨٢٠ ـ ٨٢٣م)

قائلا : « شملت قوات هذا الثائر أعدادا من الساراكين Saracenes (المسلمين) والهنود Indians والمصريين والأشوريين Assyrians والميديين Medes والأفخاذ Abasgians وZichs والوندال Vandals و Getae واللانAlans و Chaldoi والأرمن . . . وغيرهم » (٤) . ولم تختلف هذه التعددية كثيرا في الفترة السابقة أو اللاحقة لثورة توماس ، كما لم يكن هؤلاء الأتباع ـ على اختلافهم ـ سلبيين ، وإنما شاركوا بقوة في شتى مناحي الحياة ، وبرزوا أكثر في ساحة القتال وفي إدارة شئون الإمبراطورية (٥) .

هنا يبرز أبناء الشعب الأرمني أكثر من أي شعب آخر ، فموقع بلادهم الجغرافي وطبوغرافيتها وأهميتها الاقتصادية الكبيرة كان له أثره البالغ على تاريخهم (٦) ؛ فقد تنافس الفرس والبيزنطيون للاستيلاء على بلادهم منذ فترة مبكرة من الزمن ، ولم يتركوها حتى قسمت بينهم في القرن الخامس الميلادي (٧) ، بيد أن تأرجح الأرمن بين هاتين القوتين كان درءا لخطرهما أو من أجل الحصول على استقلال بلادهم ، واستماتتهم في الدفاع عنها أكسبهم خبرة عسكرية وسياسية كبيرة وجعلهم جنودا من الطرازالأول (٨) . لذلك لا عجب أن نجد العنصر الأرمني يحظى بمنزلة رفيعة في جيوش الإمبراطور جستنيان الأول ؛ فقد حارب الجنود الأرمن في إفريقية وفي إيطاليا وعلى طول الحدود الشرقية ، كما شكلوا جزءا من حرس القصر الإمبراطوري . وقد ذكر المؤرخ بروكوبيوس وحده أسماء عدد كبير من القادة الأرمن بينهم القائد العظيم نارسيس Narses (٩)

وجدير بالذكر ، أن الإمبراطور البيزنطي موريس ، كان أول إمبراطور أدرك مكانة الأرمن وأهمية أرمينية كمصدر من مصادر تجنيد المرتزقة اللازمين لدعم الجيش البيزنطي (١٠) ، بعدما أجبرته الظروف على ذلك ؛ ففقدان بيزنطة مصدرين من مصادر تجنيدها وهما : العنصر الجرماني ، الذي ترك شبه جزيرة البلقان في القرن الخامس واتجه نحو الغرب الأوربي ، وإقليم الليريا : بعدما أصبح عرضة هو وإقليم تراقيا لغارات السلاف والآفار بشكل مستمر ، جعل موريس يتجه نحو الأرمن أكثر من غيرهم ، أملا في أن يخلصه الاعتماد عليهم في الوقت ذاته من المشاكل التي كانوا يثيرونها ضده في بلادهم(١١) .

يؤكد ذلك ، الرسالة التي أرسلها الإمبراطور إلى كسرى فارس ، يطلب تأييده فيما عقد العزم عليه ، قائلا : « إن الأرمن أمة خرقاء حمقاء ، يعيشون بيننا ويشكلون مصدرا للقلاقل والمتاعب ، وسوف أجمع أولئك الذين تحت إمرتي وأرسلهم إلى تراقيا ، وأرسل أنت من عندك

إلى الشرق، فلو ماتوا هناك فلن يكونوا سوى أعداء ماتوا، أما لو حدث العكس وقاتلوا فسيقتلون الكثير من الأعداء، وفى كلا الأمرين سنعيش جميعا فى سلام. أما لو ظلوا فى بلادهم فلن ننعم بأي هدوء» (١٢) . لكن الفرس لم يوافقوا موريس على هذا الأمر، لذلك عندما أصدر أوامره بتجنيد بعض الأرمن وترحيلهم إلى تراقيا كي يدافعوا عنها ضد السلاف والآفار وشدد على سرعة التنفيذ ، فر جانب منهم إلى بلاد فارس ، واستقبلهم كسرى وأجزل لهم العطاء أملا فى جذب المزيد من الأرمن الذين أرادوا ترك جانب موريس . لكن موقف كسرى هذا لم يثن موريس عن خطته وقام فى عام ٥٩١م بتجنيد جيش هائل فى أرمينية ،جعله تحت قيادة الأرمنى موشيل ماميكونيان Musele Mamiconian ونقله إلى تراقيا للدفاع عنها . غير أن سياسته السيئة تجاه أرمينية البيزنطية وإجباره بعض أبنائها على الرحيل عنها إلى تراقيا، أدى إلى استياء هؤلاء الجنود ، فتقاعسوا عن أداء المهمة الملقاة على عاتقهم، فحاقت بهم الهزيمة ، وأسر قائدهم موشيل ماميكونيان وقتل ، فأصدر موريس أوامره بتعبئة جيش جديد من الفرسان الأرمن ، قوامه حوالى ألفا فارس وإرساله إلى تراقيا. ومع ذلك لم تكف هذه القوات لتحقيق كل ما كان يتطلع إليه الإمبراطور من وراء تجنيدهم. ولذلك أصدر مرسوما آخر فى عام ٦٠٢م ، يعلن فيه عن حاجته لحوالى ثلاثين ألفا من الفرسان الأرمن ويتم تجنيدهم من خلال ثلاثين ألف عائلة أرمينية يتم تهجيرها للاستقرار فى تراقيا؛ وهو ما يعنى أن كل أسرة كان عليها أن تخرج أحد أبنائها ليكون جنديا فارسا مقابل منحها قطعة أرض فى وطنها الجديد ، وأن موريس كان يسعى لتوسيع نظام الولايات العسكرية فى تراقيا. وبالفعل أرسل موريس قائده المدعو بريسكوس Priscus لتنفيذ هذا المرسوم، لكن مقتل موريس فى ذلك العام حال دون إتمام مهمته (١٣) . غير أنه لم تتوقف عجلة الاعتماد على الأرمن بعدما حركها موريس .

ظل الأرمن طوال العصر البيزنطى الأوسط - من القرن السابع حتى االقرن العاشر الميلادى - يشكلون عنصرا مهما فى الجيش البيزنطى ؛ ساعد على ذلك توافدهم على الإمبراطورية جماعات وأفرادا ، فمدينة القسطنطينية كان لها جاذبية وإغراء لا سبيل إلى مقاومتهما ، فإن ألمت بالقوم أزمة كان الملجأ الطبيعى الذى يهرعون إليه هو القسطنطينية. والقسطنطينية هى الموئل الذى يرجو فيه المغامرون من أبنائهم أن يجمعوا الثروات . وإلى القسطنطينية كان يفد أمراؤهم وينالهم العزة والكرامة من استقبالهم بالبلاط . وكان الكثيرون منهم يتخذون لهم زوجات من البيزنطيات . ولم يحدث قط أن جنسا آخر هاجر بمثل هذا النطاق الواسع وهذا الأثر القوى كالأرمنى ، فلم يبق بأرمينية من الأرمن إلا أولئك الذين كانوا ذوى نزعة قومية قوية ، ولكل هذا نفذ الأرمن إلى كل الدوائر البيزنطية . وكانت الكنيسة هى الدائرة الوحيدة التى لم ينفذوا إليها - باستثناء ثيوفيلاكت فى القرن العاشر الميلادى - نظرا لعدم الاطمئنان إليهم ، فالسلطات الكنسية البيزنطية كانت لا تحب من يغيرون عقيدتهم ولاتطمئن إلي تغييرهم مذهبهم (١٤).

على أي حال، فى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠- ٦٤١م) ، الذى يرجح أنه من أصل أرمنى،

ازداد الاعتماد على الأرمن وخصوصا بعدما ظهر نظام الثيمات (الثغور)(١٥) ، الذى أنشأ هرقل بموجبه أول ثغر برى فى آسيا الصغرى هو ثغر الأرمنياق Armemiacs (١٦)، وكانت مهمته الدفاع عن الحدود الشمالية الشرقية ضد أى هجوم يأتيها من الشرق أو الشمال الشرقى. وسمى هذا الثغر بهذا الاسم بسبب كثرة عدد الأرمن الذين كانوا يشكلون جانبا كبيرا من سكانه وخصوصا فى المناطق الشرقية منه ، وهى المناطق التى انفصلت فيما بعد وشكلت ثغور خالديا Chaldia وكولونيا Colonia وسيباستيا Sebasteia ، بل إن أراضى ثغور كولونيا وسيباستيا وقع أغلبها ضمن حدود أرمينية الصغرى ، ولذلك كانت اللغة السائدة هناك هى الأرمينية على الرغم من التقدم الذى حققته الثقافة اليونانية آنذاك . ومن ثم لا عجب أن شكل الأرمن عصب القوات العسكرية لثغر الأرمنياق ، وقد اعتمد هرقل على كتائب منهم فى حربه ضد الفرس . من ناحية أخرى ، شارك الجنود من أبناء الجالية الأرمينية بالقسطنطينية ـ أثناء غيابه ـ فى الدفاع عنها ضد حصار السلاف والآفار لها فى عام ٦٢٦م (١٧) .

تتضح أيضا أهمية العنصر الأرمنى فى الجيش البيزنطى ، من خلال بعض الأشخاص الذين ينحدرون من أصل أرمنى واحتلوا مناصب عسكرية كبيرة ، ومن أبرز هؤلاء ، القائد الأرمنى مانويل Manuel . فقد أنعم هرقل عليه بلقب Praefectus Augustalis تقديرا له على خدماته . وكان للقادة العسكريين الأرمن نفس صلاحيات الإمبراطور فى ميدان القتال . أحدهم وهو فاهان Vahan أعلنته قواته إمبراطورا فعلا قبيل معركة اليرموك عام ٦٣٦م . ورغم فشل هذا المخطط واعتزال فاهان الحياة العسكرية إلى حياة الرهبنة فى شبه جزيرة سيناء (١٨) ، فقد انخرطت كتيبة من الأرمن فى صفوف الجيش البيزنطى فى معركة اليرموك ضد المسلمين ، ويقال إن انسحاب الأرمن من ميدان القتال فى هذه المعركة كان سببا فى هزيمة الجيش البيزنطى ، إلا أن فى هذا القول الكثير من المبالغة (١٩) .

وكان النبلاء الأرمن فى القسطنطينية على درجة كبيرة من النفوذ حتى إنهم تآمروا للإطاحة بهرقل ؛ ليضعوا ابنه غير الشرعى المدعو أتالاريخوس Atalarichos على العرش ، ولكن باءت هذه المؤامرة بالفشل(٢٠). وفى ٦٤١م كان الأرمنى فالنتينوس أرساكيدسValentinus Arsacidus هو الذى ساعد قنسطانز الثانى على اعتلاء العرش عقب وفاة والده . وتولى فالنتينوس إمرة القوات فى الشرق ، مما شجعه على التآمر للاستيلاء على العرش ، ولكن باءت محاولاته بالفشل وتم إعدامه . وهناك اثنان أيضا من القادة العسكريين الأرمن خدما الإمبراطورية فى عهد قنسطانز الثانى ، هما : سابور Sabour الملقب بـ Aparasitgan ، الذى كان أول استراتيجوس لثغر الأرمنياق وثار فى وقت ما ضد الإمبراطور قنسطانز الثانى ، وثيودور رشتونى Theodore Rushtuni، الذى عينه قنسطانز الثانى قائدا عاما للقوات الأرمينية وأنعم عليه بلقب شرفى رفيع هو لقب بطريق Patricius ، ولكنه انحاز بعد ذلك إلى جانب المسلمين ضد البيزنطيين (٢١).

وبعد مقتل قنسطانز الثانى فى صقلية عام ٦٦٨م ، نشب هناك عصيان مسلح بقيادة الأرمنى ميزيزوس Mizizius ، الذى أعلن نفسه إمبراطورا . ومع أنه عجز عن تثبيت نفسه وباء تمرده بالفشل ، إلا أن البعض يرى أنه يمكن اعتباره من الأباطرة ذوى الأصل الأرمنى الذين اغتصبوا العرش البيزنطى لفترة وجيزة . ولما حاول ابنه حنا John من بعده أن يحذو حذوه، قام بالتمرد على الإمبراطور قسطنطين الرابع ، كان مصيره القتل على أيدي الإمبراطور (٢٢) . ومن هنا يتضح أن الأرمن كان لهم تواجد ملحوظ فى الدولة البيزنطية طوال القرن السابع الميلادى .

وهناك الكثيرون من الأرمن، الذين خدموا الإمبراطورية البيزنطية أيضا فى القرن الثامن الميلادي؛ منهم باردانس Bardanes، الذى تولى العرش البيزنطى فترة عامين تقريبا(٧١١-٧١٣م) وكان أكثر اتصالا وارتباطا بوطنه أرمينية من أفراد أسرة هرقل . ومنهم أيضا أرتافاسدوس Artavasdos ، الذى تولى قيادة ثغر الأرمنياق وساعد ليو الثالث الأيسورى على تولى العرش البيزنطى عام ٧١٧م ، وعرف له ليو فضله فزوجه من ابنته ومنحه لقب كوروبلاط Curopalates ، لكنه لم يحفظ الجميل ، وحاول ارتقاء العرش البيزنطى ، فثار ضد صهره قسطنطين الخامس - ابن ليو الثالث - فى العام الأول من حكمه (عام ٧٤١م) . وهاجمت قواته بثغر الأرمنياق الإمبراطور قسطنطين الخامس عند مروره عبر أراضى هذا الثغر على رأس قواته متجها لمحاربة المسلمين ، وأوقعت به الهزيمة ، وتمكن أرتافاسدوس من دخول القسطنطينية وأعلن نفسه إمبراطورا، وكان عضده فى إحكام سيطرته على العاصمة أرمن آخرون، وهم ابن عمه تيريداتس Teridates والبطريق Vahtan وشخص ثالث يدعى أرتافاسدوس أيضا . وخلال الفترة الوجيزة التى حكم فيها أرتافاسدوس القسطنطينية قام بتتويج ابنه نقفور إمبراطورا مشاركا فى الحكم ، وجعل ابنه الآخر نيقتاس Nicetas حاكما لثغر الأرمنياق الذى كان جنوده الأرمن خير نصير له فى ثورته ، التى لم تستمر طويلا ، حيث باءت بالفشل فى عام ٧٤٣م(٢٣) .

إن قيام الأرمنى أرتافاسدوس وأتباعه بهذه الثورة لم يدفع قسطنطين الخامس للتخلى عن الأرمن ، وإنما سار على درب أسلافه فى الاعتماد عليهم لدعم جيوشه : حيث كانوا ضمن قواته ، التى حاربت العباسيين بعد ذلك ، وتحديدا فى عام ٧٥٦/٧٥٧م . ففى المواجهة التى جرت بين البيزنطيين والعباسيين عند قبادوقيا فى ذلك العام ، نجح الأمير العباسى صالح بن على فى أسر بعض القوات الأرمينية من جيش قسطنطين الخامس (٢٤) .

يلاحظ أيضا أن الأرمن شغلوا مناصب قيادية مرموقة فى عهد قسطنطين الخامس، ومن أبرز قادتهم تادجات أنتزيفاتزيك Tadjat Andzevatzik ، وكان رجلا عسكريا تمتع منذ نشأته فى أرمينية بالعديد من السلطات السياسية والعسكرية والاجتماعية ، وذلك لأسباب مختلفة؛ منها الصراع على السلطة ، وتوتر العلاقات بين العرب والأرمن، وإغراء الخدمة فى بيزنطة.

وقد رحل إلى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس(٢٥). والتحق بالجيش البيزنطي وتدرج فى وظائفه العسكرية حتى أصبح قائدا كبيرا، وأثبت موهبة فذة إبان الحملات التى خاضتها بيزنطة ضد البلغار ، ثم لفتت شجاعته نظر الإمبراطور ليو الرابع بعد ذلك ، فكرمه وعينه ستراتيجوسا لثغر البقلار .Bucellarii (٢٦)

لم يكن تادجات أنتزيفاتزيك هو الأرمنى الوحيد اللامع فى عهد ليو الرابعLeo IV (٧٧٥-٧٨٠م) بل كان هناك أيضا الأرمنى أرتافازد ماميكونيان Artavasd Mamiconian ، الذى كان هو وتادجات أنتزيفاتزيك ـ وهما الاثنان من ناخارارات الأرمن Armenian Nakharars -(٢٧) من بين قادة الحملة التى شنها البيزنطيون ضد المسلمين فى سميساط عام ١٦٠هـ/٧٧٦م ، ونتيجة لكفاءة الأول عينه هو الآخر ستراتيجوسا لثغر الأناضول .) Anatolikon (٢٨)وظل تادجات أنتزيفاتزيك يؤدى خدمات جليلة للإمبراطورية حتى عام ٧٨٢م ، وهو العام الذى فر فيه لاجئا إلى العباسيين، وكان ذلك خيانة منه فى حق الجيش البيزنطى، قلبت الأوضاع رأسا على عقب ؛ إذ لم يفقد البيزنطيون تفوقهم أو فرصة إملاء شروطهم على هارون الرشيد فحسب، بل فقدوا أيضا أبرز قادتهم العسكريين (٢٩) . ومن مجموع هذه الحملة والحملة اللاحقة التى شنها البيزنطيون فى عام ٧٧٨م ضد العباسيين على مقربة من مدينة حلب وشارك فيها أعداد من الأرمن من ثغرى الأرمنياق والأوبسيق، تتضح مكانة القادة الأرمن وأهميتهم بين غيرهم من القادة الآخرين (٣٠) .

يذكر أيضا أن هناك اثنان من الأرمن هما: Varaz -Titrots، الذى تولى قيادة ثغر الأرمنياق بعد ذلك، وجريجورى ابن موصولاك Mousoulak، قائد ثغر الأوبسيق، قدما خدمات جليلة للإمبراطورية فى عهد الإمبراطور ليو الرابع، فقد شكلا هما وأرتافازد ماميكونيان وتادجات أنتزيفاتزيك أربعة من بين خمسة قادة ، قادوا الجيوش البيزنطية فى حربها الضروس مع أعدائها طوال عهد الإمبراطور ليو الرابع (٣١). وهناك الكثيرون من الأرمن ممن ورد ذكرهم فى عهد كل من قسطنطين السادس والإمبراطورة إيرين ؛ فلقد شارك القائد الأرمنى بارداس Bardas، الذى كان يوما ما قائدا لثغر الأرمنياق ، فى مؤامرة كان هدفها إضاعة حق قسطنطين السادس الشرعى فى وراثة ملك أبيه لصالح عمه نقفور. وهناك البطريق الذى حمل أيضا اسم بارداس، ولقى حتفه فى الحملة التى شنها قسطنطين السادس ضد البلغار عام ٧٩٢م (٣٢)

أما الاسم الأرمنى باردانس Bardanes ، فقد ظهر بوضوح فى عهد كل من قسطنطين السادس وإيرين ونقفور الأول، بعدما اشتهر عدد من الأرمن حاملى هذا الاسم؛ فمنهم باردانس البطريق ورئيس حرس القصر Domesticus Scholarum، وباردانس قائد عام ثغر التراقسيون، وباردانس الملقب بـ Turk قائد عام ثغر الأناضول، والذى حاول الاستيلاء على العرش، وباردانس المسمى Anemas وحامل لقب سباثاريوس Spatharios . ذاع أيضا صيت اسم أرسابير Arsaber؛ ذلك أن البطريق الأرمنى ارسابير كان ينعم بلقب كويستور Quaestor

فى عهد الإمبراطور نقفور الأول ، وتم اختياره من قبل أتباعه فى عام ٨٠٨م ليجلس على العرش الإمبراطورى بدلا من نقفور الأول ، ولكن المؤامرة لم تكلل بالنجاح ، بيد أن فشلها لم يحل دون أن تتزوج ثيودوسيا Theodosia ـ ابنة أرسابير ـ من ليو الخامس الأرمنى فيما بعد (٣٣).

هكذا ذاعت شهرة العنصر الأرمنى فى الإمبراطورية البيزنطية إبان القرنين السابع والثامن الميلاديين ، خصوصا أن القادة الأرمن الذين خدموا الإمبراطورية إبان تلك الفترة، اعتنقوا المذهب الأرثوذكسى وارتبطت مصالحهم بمصالح الإمبراطورية . ويلاحظ هنا أن الأرمن تبوءوا مراكز مرموقة بما فيها المنصب الإمبراطورى ذاته .

ظل الأرمن حريصين طوال القرن التاسع الميلادى على تبوء المراكز المهمة فى الدولة البيزنطية : اتضح ذلك من خلال عائلة السكليرى Skleroi ـ ذات الأصول الأرمينية ـ التى ذاعت شهرتها فى القرن التاسع الميلادى ، وكان أبرز أعضائها ليو سكليروس Leo Skleros ، الذى حكم البلوبونيز Peloponnesus فى بداية ذلك القرن (٣٤) . كما اتضح ذلك أيضا من خلال بعض الشخصيات الأخرى ومن بينها ، ليو الخامس ـ قائد ثغر الأناضول ـ الذى اشتهر بليو الخامس الأرمنى. فقد خطط بذكاء لاعتلاء العرش البيزنطى : حيث فر مع عدد من أتباعه من أرض معركة فرسينيكيا Versinicia الشهيرة عام ٨١٣م ـ شمال أدرنة ـ فحاقت الهزيمة بالجيش البيزنطى أمام البلغار ، وتنازل الإمبراطور ميخائيل الأول عن العرش إثر هذه الهزيمة ، فاعتلاه ليو الخامس الأرمنى فى شهر يوليو عام ٨١٣م (٣٥) . ورغم الخلافات حول أصل ليو الخامس، فالأرجح أنه أرمنى الأصل ، استقر فى بيدرا Pidra ـ بثغر الأناضول ـ ثم التحق ـ كشأن غيره من الأرمن ـ بالجيش البيزنطى لتحقيق طموحاته ، فأدى به ذلك فى النهاية إلى العرش البيزنطى . وبذلك يكون ليو الأرمنى قد رأس عائلة ذات طابع أرمنى ، اتضح ذلك من خلال الأسماء الأرمينية التى حملها مختلف أفرادها (٣٦) .

وكان ميخائيل الثانى، الذى أطاح بليو الخامس، وحل محله على العرش فى عام ٨٢٠م، نصف يونانى، جاء من أسرة متواضعة من عمورية ،ونجح فى تأسيس أسرة مالكة هى الأسرة العمورية، التى دخلتها ـ هى الأخرى ـ الدماء الأرمينية ووقعت تحت تأثير الأرمن: فالإمبراطورة ثيودورا زوجة ثيوفيل ـ ابن ميخائيل الثانى والوصية على العرش ـ كانت ترجع إلى أصل أرمنى على الأقل من جانب والدها . وبذلك يكون ابنها ميخائيل الثالث ـ الوريث الشرعى للعرش ـ أرمنى فى جانب من أصله(٣٧) .

على صعيد آخر، شارك الجنود الأرمن وبشكل كبير فى الحرب التى خاضها الجيش البيزنطى فى صقلية عام ٨٢٩/٨٣٠م ، على عهد الإمبراطور ثيوفيل : ذلك أن البطريق الأرمنى ثيودوت Theodote، قاد فى ذلك العام جيشا كبيرا ـ أغلب جنوده من الأرمن ـ متجها نحو جزيرة صقلية. لكن حاقت بهم الهزيمة أمام عرب أفريقية عند أحواز قصريانة. وقتل الكثيرون بما فيهم البطريق ثيودوت نفسه. وسارعت فلولهم للاحتماء بقصريانة(٣٨) .

أما على مستوى الأفراد، فقد اشتهر في عهد ثيوفيل، الأرمني ألكسيس موسيلي بعدة ألقاب منها ، بطريق وبروقنصل وماجستر ، ثم زوجه ثيوفيل من ابنته مارياMaria وأصبح قيصرا . وقد خدم ألكسيس الإمبراطورية في مواقع مختلفة، حيث قاد جيشا قويا في عام ٨٣٦/٨٣٧م لقمع ثورة أثارها السلاف في تراقيا ، ثم أرسله ثيوفيل بعد ذلك ـ في خضم صراعه مع المسلمين ـ إلى صقلية، لكنه لم يبق بها زمنا طويلا، بعدما كاد له البعض واتهم بالاتصال بالعرب وإضمار نية خيانة الإمبراطور. وزاد من مباعدة الإمبراطور إياه أن امرأته بنت ثيوفيل ماتت، ولذا استدعاه ثيوفيل إلى القسطنطينية ونزع أملاكه وسجنه. لكن أعيدت لألكسيس حظوته، وساهم عام ٨٣٨م في رفع الحصار الذي فرضه الأغالبة على حصن كفالوا على شاطئ جزيرة صقلية الشمالي، شرقي بلرم(٣٩).

بعد وفاة ثيوفيل، وخلال الفترة الأولى من عهد ميخائيل الثالث ـ عندما كان ما يزال قاصرا كان المنصب الإمبراطوري تحت سيطرة والدته ثيودورا، سليلة الأرمن. وكان يعاونها مجلس وصاية يتكون معظمه من أفراد أسرتها، إضافة إلى اللغثيث ثيوكتيستوس Theoctistos، الذي لا نعرف عن أصله أي شيء، وظل هذا الوضع لما يقرب من أربعة عشر عاما . وكان مقتل ثيوكتيستوس عام ٨٥٦م فرصة لظهور بارداس ـ أخو ثيودورـ على مسرح الأحداث بقوة، وأصبح هو الحاكم الحقيقي للدولة حتى وفاته عام ٨٦٦م . في نفس الوقت عهدت ثيودورا لأخيها الآخر بتروناس Petronas ببعض المسؤوليات التي أثبت فيها جدارة ملحوظة، وقد تم تعيين ابنه ماريانوس Marianos فيما بعد واليا للعاصمة في عهد باسيل الأولى المقدوني(٤٠). هناك أيضا أعضاء آخرون من أسرة ثيودورا شغلوا بعض المناصب المهمة في الدولة، فقد كان والدها مارينوس Marinos يشغل منصب درانجاريوس وتورمارخ Turmarch أيضا. كما حمل قسطنطين بابوتزيكوس Constantine Babutzikos، زوج أختها صوفيا، لقب ماجستر، وكان في يوم من الأيام درانجاريوس المراقبة ، كما كان من بين الاثنين والأربعين ضابطا، الذين أسرهم الخليفة العباسي المعتصم عندما استولى على عمورية عام ٨٣٨م. أما زوج أختها الآخر المدعو أرشافير ArSavir فكان هو الآخر بطريقا وماجسترا وهما لقبان عظيمان الشأن في المجتمع البيزنطي، وكان كل من بابوتزيكوس و أرشافير أرمينيا. أما ولدي ارشافير، ستيفن Stephen وبارداس، فقد حملا لقب ماجستر، وتزوج الأخير من ابنة قسطنطين كونتوميتس Constantine Contomytes، الذي كان يحكم صقلية إبان عهد ميخائيل الثالث، في حين كان ستيفن أحد أعضاء مجلس الوصاية طوال فترة قصور قسطنطين السابع (٤١) .

هكذا شغلت عائلة ثيودورا الأرمينية العديد من المناصب المهمة في أوقات مختلفة ، وتمكنت من السيطرة على الدولة . على أنه من الأنصاف القول إنه كان هناك أرمن آخرون ـ سواء أكانوا على صلة أم لا بالأسر الحاكمة ـ لعبوا دورا مهما في الحياة السياسية والعسكرية للإمبراطورية البيزنطية في القرن التاسع الميلادي . فقد كان لليو الخامس الأرمني، ابن أخ يدعى جريجوري بتروتوس Gregory Petrotos، بمرتبة قائد عام، لكن نفاه خليفته على العرش ـ ميخائيل الثاني ـ إلى جزيرة قبرص، واستطاع جريجوري بتروتوس الهرب

والانضمام إلى قوات السلافي توماس في ثورته ضد ميخائيل الثاني ، وعندما حاول أن يتخلى عن توماس ويرجع لميخائيل الثاني، قتله توماس بغتة (٤٢) . أما الأرمني مانويل، فقد كان أكثر شهرة وعرف بـ Amalicites: حيث تولى مناصب عدة منها بروتوستراتور Prtostrator، وقائدا عاما للأرمنياق ، وقائد حرس القصر، وبطريقا، وماجسترا . وخدم الإمبراطورية في عهد كل من ميخائيل الأول وليو الخامس الأرمني وميخائيل الثاني وثيوفيل . ويرى البعض أن مانويل هذا ربما يكون عم الإمبراطورة ثيودورا ، لكن يصعب التأكد من هذا الأمر ، نظرا لقلة المعلومات الخاصة بسيرة مانويل وحياته المهنية (٤٣) .

لابد أيضا من الإشارة إلى الأرمني قسطنطين ماناكس Constantine Maniakes ، جد المؤرخ الشهير جنسيوس . فقد شغل منصب درانجاريوس المراقبة ثم أصبح لغثيث في عهد ميخائيل الثالث ، وكان صديقا لباسيل - إمبراطور المستقبل - في مستهل حياته . كذلك كان ابنه توماس - والد جنسيوس - بطريقا وأصبح مستشار الإجراءات Logothete of the course في بداية القرن العاشر إبان فترة الوصاية على قسطنطين السابع (٤٤) . وهناك أيضا ، الأرمني ثيوفيليتزيس Theophilitzes ، رجل البلاط الثري، الذي استقبل باسيل الأول - إمبراطور المستقبل - عندما جاء لأول مرة إلى القسطنطينية إبان عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث ، وأنعم عليه بإحدى الوظائف التي تقدم بها للبلاط الإمبراطوري (٤٥) .

وكيفما كان الأمر ، فهناك شبه أجماع بين المؤرخين على تسمية الفترة من النصف الثاني للقرن التاسع وحتى النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، بعصر التوسع والفتح ، وهي الفترة التي ظهر خلالها الأرمن بروح جديدة ، وقدموا دماءهم لبيزنطة، فأنجبت أسرة تربعت على عرش الإمبراطورية قرابة قرنين من الزمان هي الأسرة المقدونية، التي يعزوها بعض المؤرخين إلى أصول أرمينية. وكان مجيئها إلى الحكم هو خير دليل على ازدياد مكانة العنصر الأرمني في البلاط الإمبراطوري (٤٦) ؛ ذلك أن باسيل مؤسس هذه الأسرة، الذي كان يتكلم الأرمينية كلغته الأولى كما كان أبوه أرمينيا، كان هو المحرض الأول على جريمتي قتل القيصر بارداس عام ٨٦٦م، والإمبراطور ميخائيل الثالث عام ٨٦٧م. وما كان له أن ينفذ بمفرده كل مخططاته للوصول إلى العرش البيزنطي، ولكن ساعده على ذلك عدد من رفاقه الأرمن ، كان أبرزهم أخوه ماريانوس، وسيمباتيوس Symbatios - مستشار الإجراءات وزوج ابنة القيصر بارداس - وبارداس أخو سيمباتيوس وغيرهم (٤٧) . وبالتالي فإن أغلب من اشتركوا في إنهاء عهد الأسرة العمورية، كانوا أرمن، واعتلى العرش باسيل الأول سليل الأرمن ليؤسس أسرة عرف عصرها في تاريخ الدولة البيزنطية بالعصر الذهبي .

ازداد عدد الأرمن بشكل كبير في الإمبراطورية البيزنطية عقب تولي باسيل الأول الحكم . ويرجع ذلك إلى أمرين : الأول ، توسع الإمبراطورية ناحية الشرق . والثاني ، حركة الأرمن ناحية الغرب. فقد نجح الإمبراطور باسيل الأول ، بعد صراع ضروس مع البيالصة Paulikiani (٤٨)في عامي ٨٧١، ٨٧٢م ، في قتل زعيمهم كريزوشير Chrysochier والاستيلاء على عاصمته

تفريك Tephrike ، فضم بذلك مساحة كبيرة لأراضي الإمبراطورية (٤٩) . وبما أن النحلة البوليصية نشأت وتطورت في أرمينية ، فإن أغلب أتباعها كانوا من الأرمن . وبعدما انتصر باسيل الأول عليهم لم يستمر في إهانتهم أو إذلالهم بل تغاضى عما فعلوه ، وأقام بعضهم على الحدود الشرقية للإمبراطورية في مواجهة المسلمين . كما أدخل الكثيرين منهم في الخدمة العسكرية ضمن قوات الجيش الإمبراطوري. وها هو دياكونيتزز Diaconitzes الصديق المخلص لكريزوشير يقوم بعد عدة سنوات بمآثر بطولية رائعة دفاعا عن الوجود البيزنطي في إيطاليا . كما التحق بعض رفاقه بالقوات البيزنطية ليخدموا في أماكن أخرى . أيضا قدم زعيم مدينة لوكانا Lokana ـ إحدى المدن البوليصية. كورتيكيوس Kourtikios هو وأتباعه خدمات عديدة للإمبراطورية البيزنطية (٥٠) .

ثم ظهر نوع من التقارب بين الأرمن والبيزنطيين ، خلال الفترة من عهد ليو السادس Leo VI (٨٨٦م) حتى عصر الإمبراطور باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م) ، رغم ما تم لبيزنطة من السيطرة على آمد ، وميافارقين ، ونصبين ، وإنطاكية التي كانت خاضعة للأرمن (٥١) ، وكان لهذا التقارب أثره المباشر على النفوذ الأرمني؛ حيث ازداد قوة وخاصة في البلاط الإمبراطوري. فلقد أصبح الأرمني ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes الوزير الأول بعد اعتلاء ليو السادس العرش البيزنطي ، وحمل ألقاب ماجستر والماجستر الأول Protomagistros واللغثيث المسئول عن الشئون العامةLogothete ton dromou ، وأشار له الإمبراطور في اثنين من قوانينه (الأول ، والثامن عشر) بالماجستر المسئول عن الدواوين المقدسة Magistros ton thein offikion . ثم بلغ هذا الرجل قمة نفوذه في الحكومة والقصر بعد زواج ليو السادس من ابنته زوي زاوتزسZoe Zautzes عام ٨٩٨م ، حيث أنعم عليه الإمبراطور بلقب والد الإمبراطور Basileopator (٥٢)، وصارت مقاليد الحكومة في يديه . وقد كان لمباركته احتكار اثنين من كبار تجار القسطنطينية ، وهما ستاوراكيوس Stauracios وكوزماس Cosmas امتياز التجارة مع بلغاريا وإيعازه لهما بنقل سوق التجارة مع البلغار من القسطنطينية إلى تسالونيكا ، دور رئيس في اشتعال الحرب بين بيزنطة وبلغاريا عام ٨٩٤م ، وهي الحرب التي قادها على الجانب البيزنطي، القائد الأرمني بركوب كرينيتس Procope Crinites . (٥٣)

خلال عهد ليو السادس أيضا ، وفي أطار الجهود البيزنطية للتوسع ناحية الشرق ، تم إقناع الزعيم الأرمني مانويل بالتخلي عن منطقة تكيس Tekis الأرمينية ـ الواقعة بين أعالي الفرات Euphrates وشيميزيك ـ شو Cimiz gezek Su ويحدها من الجنوب أرساناسArsanas ـ وضمها إلى الأراضي البيزنطية . وفي مقابل ذلك نقل مانويل بصحبة أبنائه الأربعة إلى القسطنطينية ، حيث أغدقت عليهم كل مظاهر التكريم ؛ فلقد أسند لاثنين من أبنائه وهما ليو بانكراتوكاس Leo Bankratoukas وياخنوكاسIachnoukas منصبان قياديان مهمان : الأول ، عين قائدا لثغر البقلار ، والثاني ، حاكما عسكريا في نيقوبوليس Nicopolis ، غرب مدينة كولوني بآسيا الصغرى . أما الاثنان الآخران وهما مودافار Moudaphar ويوحنا ، فقد تم منحهما إقطاعا من أراضي التاج الإمبراطوري في المناطق المجاورة لطربيزون Trebizond ، كما أنعم عليهما ببعض الألقاب

الشرقية . ثم ضمت بعد ذلك منطقتان هما : كلزين Kelzene ـ استقطعت من خالديا Chaldia، وكاماشا Kamacha ـ استقطعت من كولونياColoneia ـ وكلاهما أرمنى ، إلى الأراضى التى أخذت من مانويل ، وتم تنظيمهم فيما بين عامى ٨٩٩ـ٩١٢م ليشكلوا جميعا ثغرا عسكريا واحدا ، هوثغر ما بين النهرين Mesopotomia ، وكان ثغرا أرمينيا عن بكرة أبيه(٥٤) .

فى غضون ذلك أيضا ، تحرك عدد لا بأس به من زعماء الأرمن غربا واستقروا فى بعض المناطق الواقعة على طول صعيد توشا ـ شو Tocha-Su ، حيث كانت تقع قلعة ليكاندوس Lykandos القديمة ، على طول صعيد نهر كارمالاس Karmalas ، حيث توجد قلعة تزاماندوس Tzamandos ـ على مقربة من الطريق الذى يربط بين قيصرية Caesarea وجورون Gurun ويمر عبر ملطية Melitene ـ وكان أكثر هؤلاء الزعماء عداء هو المدعو ملياس Melias . بيد أن ملياس التحق بالخدمة العسكرية للإمبراطورية وقاتل فى صفوف الجيش البيزنطى ضد البلغار فى موقعة بلغاروفيجون Bulgarophygon الشهيرة عام ٨٩٦م . غير أن البيزنطيين ـ لأسباب مجهولة ـ غضبوا عليه وفر لاجئا إلى العرب فى ملطية . ثم عاد ملياس ومعه أربعة آخرون من الزعماء الأرمن إلى الدولة البيزنطية ، بعد عفوها عنه ، وتولى كل منهم حكم إحدى المناطق الحدودية السابقة . بيد أن ملياس كان أكثرهم نشاطا . فاستصلح منطقة نفوذه ووطن فيها الأرمن ، وأعاد بناء قلعة ليكاندوس وأسس حصن تزاماندوس الجديد . فمنحه البيزنطيون لقب بطريق ثم ماجستر ، واستكمل هو استصلاح المناطق المجاورة له فى عام ٩١٤م حتى أصبحت تشكل ثغر ليكاندوس ، وكان هو أول استراتيجوس لهذا الثغر . وظل ملياس يخدم الإمبراطورية بإخلاص هو وأتباعه الأرمن ، حتى وفاته عام ٩٣٤م؛ وهو العام الذى كان ملياس وأتباعه عاملا رئيسا فى الاستيلاء على ملطية والبلاد المجاورة لها لصالح الإمبراطورية البيزنطية (٥٥) .

جدير بالذكر ، أن خدمات الأرمن للدولة البيزنطية فى القرن العاشر ، لم تقتصر على ملياس وأتباعه ، وإنما شهد القرن نفسه أيضا دورا كبيرا للأرمن ـ سواء أكانوا جنودا مشاة أم فرسانا أم قادة ـ فى كل الحملات المهمة التى خاضها الجيش البيزنطى ضد أعدائه . وهى الحملات التى تشهد على خبرة الأرمن العسكرية ومهارتهم القتالية ، مما يدحض القول بأن أعدادهم الكبيرة كانت هى مؤهلهم الوحيد للالتحاق بالجيوش البيزنطية .

فقد شكل الأرمن ثلث فرسان الحملات البيزنطية التى وجهت إلى كريت فى عامى ٩١١ , ٩٤٩م . وكبدوا قوات سيف الدولة الحمدانى خسائر جسيمة فى عام ٩٥٣م ، عندما تصدوا لها دفاعا عن أحد الممرات الجبلية بدروب آسيا الصغرى . أيضا كانت غالبية الجيش متعدد الجنسيات ـ من الأرمن والترك والروس والبلغار وغيرهم ـ الذى قاده بارداس فوقاس Bardas Phokas ـ والد نقفور فوقاس وإمبراطور المستقبل ـ ضد سيف الدولة الحمدانى عام ٩٥٤م ، وكان قوامه نحو خمسين ألف جندي ، من الأرمن . لذا كانت الخسائر فى صفوفهم أكثر من غيرهم جراء الهزيمة التى حاقت بالجيش البيزنطى (٥٦). شارك الأرمن أيضا فى الجيش الذى قاده نقفور فوقاس عام ٩٦٠ـ٩٦١م

لفتح جزيرة كريت، ودلل المؤرخ ليو الشماس Leo Diaconus على ذلك، حينما ذكر أن نقفور فوقاس، كي يشجع جنوده في إحدى الوقائع المغمورة بكريت، عرض مكافأة ماليه لكل من يأتي منهم برأس جندي من الأعداء، وأن جنود الكتيبة الأرمنية كانوا أكثر حماسا من غيرهم(٥٧). كما حارب الأرمن في البلقان عام ٩٧١م ضمن قوات حنا تزيمسكس John Tzimiskes (٥٨)خلال حربه في بلغاريا ضد الروس، وصمد المشاة الأرمن بإصرار إلى جانب حنا تزيمسكس، في وقت فر فيه بعض البيزنطيين من أرض المعركة، ونجح هؤلاء الأرمن في اختراق السياج الذي كان يحتمي فيه الروس، مما كان له أثره في تغيير مجرى الصراع لصالح البيزنطيين. وحارب الأرمن أيضا إلى جوار الإمبراطور باسيل الثاني في حربه ضد البلغار عام ٩٨٦م، ويقال إنهم أنقذوا الإمبراطور أثناء انسحابه السريع من بلغاريا في ذلك العام (٥٩)، لكن ذلك نوع من المبالغة.

ويبدو دور الأرمن أكثر وضوحا في الحياة السياسية والعسكرية للإمبراطورية البيزنطية إبان القرن العاشر الميلادي، حينما يتقصى الباحث أباطرة وقادة الإمبراطورية خلال ذلك القرن، فهناك ثلاثة أباطرة، كانوا من أقدر أباطرة ذلك القرن، صحيح أنهم لم يكونوا نسلا شرعيا للسلالة المقدونية، لكنهم كانوا ينتمون إليها واحترموا حقوق أفرادها في العرش الإمبراطوري، رغم أن أحدهم حاول بالفعل أن يفرض سيطرة أسرته على العرش. اثنان من هؤلاء الأباطرة هما رومانوس ليكابينوس Romanos Le Kapenos (٩١٩ - ٩٤٩م)، وحنا تزيمسكس، كانا من أصل أرمني (٦٠).

بالنسبة للأول وهو رومانوس ليكابينوس، اختلف المؤرخون حول محل ولادته، فيرى بعضهم أنه ولد في منطقة ثغر الأرمنياق، في حين يرى بعضهم الآخر أنه ولد في منطقة لاكاب «Laqabin» Lakap - الواقعة بين سميساط Samosata وملطية بآسيا الصغرى - والتي اتخذ منها كنيته، فأصبح يعرف برومانوس ليكابينوس. وفي كل الأحوال، كان والده ثيوفيلاكت Theophylact - سواء أكان جنديا بسيطا، مثلما يرى البعض، أم فلاحا، مثلما يرى البعض الآخر - أرمنيا. واستطاع الابن عن طريق الجهد والمثابرة وتحمل الصعاب، إلى جانب بعض المعارف في البلاط الإمبراطوري والكفاءة العسكرية، أن يشق طريقه في الوصول إلى قيادة الأسطول البيزنطي، حيث أصبح أدميرالا Admiral - درانجاريوس - لذلك الأسطول، وهو المنصب الذي مكنه من إحكام سيطرته على الصراع الدائر حول السلطة، حينما كان قسطنطين بورفيروجنيتوس ما يزال قاصرا. ثم نجح في أن يزوج ابنته هلنا Helena في عام ٩١٩م من قسطنطين بورفيروجنيتوس - رغم أنه كان ما يزال في الرابعة عشرة من عمره - وهو الزواج الذي حصل بموجبه رومانوس ليكابينوس على لقب والد الإمبراطور. وفي العام التالي أنعم عليه قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس بلقب قيصر Caesar، ثم جعله إمبراطورا مشاركا.

وبناء على ذلك أصبح القروي الأرمني إمبراطورا وأصبحت أبنته زوجة إمبراطور، هو نفسه حفيد لأرمني آخر (٦١). ليس هذا فقط، فقد كان لرومانوس ليكابينوس أربعة أبناء، رفع ثلاثة منهم وهم: كريستوفر Christopher وستيفن Stephen وقسطنطين Constantine إلى العرش

ليكونوا أعوانا له. أما الرابع وهو ثيوفيلاكت ، فقد عينه في عام ٩٣١م بطريركا لكنيسة القسطنطينية، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . وكان هذا هو الاستثناء الوحيد في تاريخ كنيسة القسطنطينية، أن يعتلي كرسيها أرمني الأصل. وهكذا يمكن القول : إن الدولة والكنيسة أصبحتا في قبضة أبناء وأحفاد الأرمني ثيوفيلاكت، الذي تزوجت حفيدته من الحفيد الوحيد للإمبراطور باسيل الأول . وعلى الرغم من أن ابن ثيوفيلاكت وأحفاده، قد زالت عنهم السلطة فيما بعد ، فإن حفيدته ـ لكونها زوجة قسطنطين السابع ـ ظلت إمبراطورة ومنحت الإمبراطورية إمبراطورها التالي، الذي أنجب فيما بعد الإمبراطور الشهير باسيل الثاني (٦٢) .

يختلف الأمر بعض الشيء بالنسبة لحنا تزيمسكس ، إذ لا يوجد خلاف بين المؤرخين حول محل ميلاده أو أصله . فلقد ولد في منطقة Khozan الأرمينية ، التي حملت اسمه بعد ذلك وعرفت بـ Ceme Skacagh ـ وتعني مسقط رأس تزيمسكس ـ وينحدر من ناحية أبيه ، الذي لا نعرف اسمه ، من نفس أسرة القائد الأرمني الشهير يو حنا كوركواز.John Curcuas أما جده فكان القائد ثيوفيل ، الذي اشتهر خلال الحرب مع العرب إبان عهد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، واتصل من ناحية والدته بأسرة فوقاس الشهيرة في القرن العاشر . وبذلك ينتمي حنا تزيمسكس ـ أعظم أباطرة بيزنطة العسكريين في القرن العاشر ـ لأسرة أرمينية عريقة استطاعت أن تجعل لنفسها مكانة رفيعة بين الطبقة العسكرية الراقية في بيزنطة ، وخصوصا بعد ما نجح يوحنا تزيمسكس عن طريق المصاهرة في الاتصال بعائلات أخرى عريقة ؛ ذلك أن زوجته الأولى ماريا Maria ، كانت من عائلة سكليروس الأرمينية الشهيرة ، وكانت زوجته الثانية ثيودورا ، ابنة الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس وزوجته الأرمينية هلنا . وقد أضفى زواجه من ثيودورا ، الشرعية عليه لشغل المنصب الإمبراطوري ، وإن كان التاريخ لا يمكن أن يبرئه من جريمة اغتياله للإمبراطور نقفور فوقاس ، من أجل العرش (٦٣) .

الإمبراطور الثالث هو نقفور فوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) ، وكان رجلا عسكريا من الطراز الأول. وكان نقفور ينتمي إلى عائلة فوقاس الشهيرة التي جاءت من قبادوقيا بآسيا الصغرى ، حيث ساد العنصر اليوناني هناك . إلا أن بعض المؤرخين يرون أن أسرة فوقاس هذه، ربما كانت أرمينية الأصل كغيرها من العائلات الأرمينية الأخرى، التي جاءت من آسيا الصغرى إلى مدينة القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي، مستندين في ذلك إلى اسمين شهيرين، أحدهما أرمني، وهو بارداس ، وآخر بيزنطي، وهونقفور، أطلقتهما الأسرة على مر الأجيال على بعض أبنائها، وهوما يعني أن نقفور فوقاس كان نصف أرمني على الأقل (٦٤) . لكن هذه المبررات غير مقنعة، ويصعب الأخذ بها لمجرد وجود بعض الأسماء الأرمينية بين أبناء أسرة فوقاس .

إلى جانب الأباطرة ذوي الأصول الأرمينية ، فهناك بعض الأسر الأرمينية التي ذاعت شهرتها في الدولة البيزنطية . ومن أشهرها ، أسرة موسيلي التي اشتهرت منذ بداية القرن التاسع الميلادي والتي تزوج ابنها القائد ألكسيس موسيلي من ابنة الإمبراطور ثيوفيل ، وحمل ألكسيس بعد ذلك لقب درانجاريوس الأسطول البحري ، بيد أنه قتل في الحرب مع

البلغار قرب نهاية القرن التاسع الميلادى . فى وقت آخر ، زوج رومانوس ليكابينوس ابنة له من أحد أبناء عائلة موسيلى بغية تقوية العنصر الأرمنى فى أسرته ، وكانت ثمرة هذا الزواج هى الماجستر رومانوس موسيلى ، حاكم ثغر الأوبسيق طوال عهد الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس . بيد أن اتساع ممتلكاته بشكل كبير فى منطقة Philomelion ، أقلق الإمبراطور باسيل الثانى فيما بعد ، ولذلك أمر بمصادرتها . كما ينتمى إلى هذه الأسرة أيضا ، الأرمنى ألكسيس الذى شغل منصب حاكم قبرص إبان عهد الإمبراطور باسيل الأول (٦٥) .

وتجدر الإشارة إلى أن أسرة موسيلى لقبت أيضا بالكرينيتس Krenitae ، لكننا لا نعلم إذا كان هذا اللقب شملها كلها ، أم كان قاصرا على فرع منها ؟ وفى الحالتين هناك عدد من القادة الكرينيتس krenites المشهورين . منهم القائد بركوب كرينيتس ، الذى قتل فى الحرب مع البلغار عام ٨٩٤م . والبروتوسباثاريوس Protospatharius أروتراس Arotras حاكم البلوبونيز Peloponnesus وهلاس Hellas إبان عهد رومانوس ليكابينوس . وأبيسالوم Abessalom ، الذى شارك فى المحاولة الفاشلة التى قام بها قسطنطين دوكاسConstantine Ducas - القائد العام للجيش البيزنطى بآسيا الصغرى - عام ٩١٣م للاستيلاء على العرش ، وتم سمل عينيه ونفيه . وهناك باسكال Paschal حاكم لمبارديا Longobardia خلال عهد رومانوس ليكابينوس ، الذى تم إرساله مبعوثا رسميا إلى هيو بروفانس Hugh of Provence للتفاوض معه بشأن زواج الابن الأصغر لقسطنطين بروفيروجنيتوس من ابنته . وأخيرا هناك كرينيتس آخر حمل لقب بروتوسباثاريوس وكان مترجما للإمبراطور رومانوس ليكابينوس أثناء مفاوضاته مع زعماء إقليم طارون Taron الأرمنى . ويدل ذلك على أن هؤلاء الأرمن رغم استقرارهم فى الدولة البيزنطية منذ فترة طويلة ، كانوا ما يزالون يتحدثون الأرمينية (٦٦) .

هناك أسرة أرمينية أخرى كان لها شأن عظيم فى الحياة السياسية والعسكرية للدولة البيزنطية، هى أسرة السكليرى Skleroi الشهيرة. فلقد خدم البطريق نيقتاس سكليروس Nicetas Skleros فى عهد الإمبراطور ليو السادس، وعهد إليه الإمبراطور بمهمة تحريض المجريين ضد القيصر البلغارى سيميون عام ٨٩٥م، وهى مهمة أداها بنجاح كبير . كان من أشهر أفرادها بارداس سكليروس Bardas Sklerosالذى ظل قائدا عاما للقوات البيزنطية فى الشرق طوال عهد يوحنا تزيمسكس ، ثم ازدادت شهرته إبان الثورة التى قام بها ضد الإمبراطور باسيل الثانى عام ٩٧٦م . ويلاحظ أيضا أن هذه الأسرة ارتبطت بعائلات أخرى ذات نفوذ قوى عن طريق المصاهرة . فقد تزوجت ماريا أخت بارداس من يوحنا تزيمسكس ، فى حين تزوج قسطنطين أخو بارداس من إحدى بنات أخى الإمبراطور فوقاس (٦٧) .

أما أسرة كورتيكيوس ، فمؤسسها هو الأرمنى كورتيكوس، زعيم مدينة لوكانا ، الذى ساعد بركوب كرينيتس فى حملته ضد القيصر البلغارى سيميون عام ٨٩٤م . صحيح أن كورتيكيوس قتل فى هذه المعركة ، لكنه قد أسس لأسرته مكانة مرموقة فى الحياة العسكرية والسياسية فى الدولة البيزنطية . فقد شارك أحد أبنائه فى دعم قسطنطين دوكاس فى محاولته الفاشلة للاستيلاء على العرش عام ٩١٣م ، ولقى هذا الابن حتفه خلال هذا التمرد . وهناك مانويل كورتيكيوسManuel

Kourtikos الذى ساعد فى عزل رومانوس ليكابينوس عام ٩٤٤م وأنعم عليه قسطنطين السابع بعد ذلك بلقب بطريق ودرانجاريوس الحراسة . يأتي بعد ذلك ميخائيل كورتيكيوس Michael Kourtikos الذى انحاز لبرداس سكليروس فى تمرده ضد الإمبراطور باسيل الثانى عام ٩٧٦م . واستمر هذا الدور المميز لأسرة كورتيكيوس طوال القرن الحادى عشر الميلادى أيضا(٦٨) .

كانت أيضا أسرة كوركواز الأرمينية ، من الأسر الثرية التى استوطنت الإمبراطورية منذ فترة من الزمن ، ومما لاشك فيه أن سليلها يوحنا كوركواز كان أكفأ قائد بيزنطى فى ميدان القتال خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . ويذكرفى هذا الشأن أن يوحنا كوركواز كان له جد يحمل نفس الاسم وتمتع بلقب دومستق Domestic فى عهد الإمبراطور باسيل الأول ، لكنه تآمر بعد ذلك ضد الإمبراطور نفسه . أما يوحنا كوركواز ـ الحفيد ـ فقد ارتفع شأنه مع اعتلاء رومانوس ليكابينوس العرش ؛ حيث تم تعيينه قائدا عاما للقوات البيزنطية فى الشرق عام ٩٢٣م ، وظل يخدم فى هذا المنصب بكفاءة طوال اثنتين وعشرين سنة ، قضى معظمها فى الحرب مع المسلمين ، كما تمكن خلالها من جذب المزيد من أخوانه الأرمن تحت قيادته ليخدموا فى جيش الإمبراطورية البيزنطية . لكن أقيل يوحنا كوركواز من منصبه عام ٩٤٤م ، وحل محله أرمنى آخر هو البطريق بانثريوس Pantherios ، أحد أقارب رومانوس ليكابينوس . ومع ذلك ظل أحفاد يوحنا كوركواز يلعبون دورا بارزا فى الحياة العسكرية والسياسية للدولة البيزنطية طوال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين. وما يمكن أن يذكر هنا للأرمن هو أننا لن نبالغ إذا قلنا ، إنه يوم أن كان رومانوس ليكابينوس قابعا على عرش الإمبراطورية ، وابنه ثيوفيلاكت متربعا على رئاسة الكنيسة ، ويوحنا كوركواز قائدا أعلى للجيوش، كانت الإمبراطورية بأكملها فى أيد أرمينية (٦٩) .

خلاصة القول، شكل الأرمن عنصرا رئيسا من العناصر التى اعتمد البيزنطيون عليها فى جيوشهم إبان فترة العصر البيزنطى الأوسط ، واستطاعوا من خلال الجيش أن يلعبوا دورا كبيرا فى الحياة السياسية ، بيد أن الشيء الذى يلفت النظر ، هو أن الاعتماد على الأرمن كان سلاحا ذا حدين . ففى الوقت الذى كان فيه الأرمن جنودا مهرة وقفوا إلى جوار البيزنطيين فى الذود عن إمبراطوريتهم الشاسعة وأثبتوا كفاءة عسكرية كبيرة ، كانوا أيضا غير نظاميين وخونة. وهو أمر لم يغفله البيزنطيون ، لكنهم غضوا الطرف عنه لحاجتهم الماسة إليهم .

فمن خلال بعض بنود المرسوم الذى صدر فى عهد الإمبراطور نقفور فوقاس بشأن الجنود الأرمن (٧٠)، يتضح من الوهلة الأولى كيف حاول نقفور فوقاس ، وهو الإمبراطور القوى الحازم، أن يظهر تسامحه تجاه عدم انتظام الجنود الأرمن وفوضتهم ، طالما أنهم ظلوا يشكلون الرافد الرئيس لدعم جيوشه الغازية . إلا أن هذا التسامح جلب له سخط شريحة كبيرة من المجتمع البيزنطى ؛ لأن انفلات الجنود الأرمن وعدم جدارتهم بأى ثقة كان لا يخفى على أحد، بل ومضربا للمثل ، لاسيما وأن نقفور فوقاس نفسه سبق أن حذر من انفلاتهم وأعرب عن قلقه من توليهم دوريات حراسة الحدود (٧١) . وهناك حوادث عديدة لأعمال همجية ارتكبها الأرمن خلال بعض حملاته العسكرية ، أكدت كلها أن الشكاوى من انفلات الأرمن لم تأت من

فراغ . ففى عام ٣٥١هـ/٩٦٢م وعقب استيلاء نقفور فوقاس على عين زربى Anazarba ، وإعطائه الأمان لمن يرغب من أهلها الرحيل عنها بسلام ، قام أحد الجنود الأرمن بالاعتداء على إحدى النساء المسلمات ، مما أثار حفيظة المسلمين وانتقموا منهم . فأغضب ذلك نقفور فوقاس وثأر هو الآخر للأرمن ، بقتل حوالى أربعمائة من المسلمين . حدثت اعتداءات للأرمن مرة أخرى عند طرسوس عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م ، لكن فى هذه المرة أوقع نقفور فوقاس بالجنود الأرمن – الذين خالفوا أوامره واعتدوا على أهل طرسوس – أشد العقاب (٧٢) . كما تثبت قبل ذلك أحداث حملة البيزنطيين على كريت عام ٩٤٩م ، مدى افتقار الجنود الأرمن للنظام . وهو أمر ناقشه المؤرخ اليونانى نيقولاس إيكونوميدس Oikonomedès,N عند سرده لأعداد القوات التى شاركت فى هذه الحملة ، ومن بينها قوة أرمينية ساهم بها ثغر Charpezikion الأرمنى (٧٣) .

كان من أشد مساوئ الأرمن ـ فى نظر البيزنطيين ـ أنهم خونة ؛ فهم كانوا دائما على استعداد للبقاء طالما أن الأمور تسير وفق رغبتهم ، والانقلاب أيضا على البيزنطيين إذا سارت الأمور على غير مصالحهم . ولعل هذا يفسر سبب كره البيزنطيين لهم ، فهم حلفاء خونة ، يميلون دائما للتحريض وإثارة الفتن والثورات داخل الإمبراطورية بسبب نزعتهم القومية ومآربهم الشخصية ، فبالإضافة إلى ما ذكر عن تورطهم فى المؤامرات والفتن خلال القرون من السابع حتى التاسع ، وقفوا فى القرن العاشر الميلادى إلى جوار الأرمنى بارداس سكليروس فى ثورته الأولى (٩٧٦-٩٨٠م) ضد الإمبراطور باسيل الثانى Basil II ـ (٩٧٦-١٠٢٥م) وقدموا له الدعم اللازم ، حتى أعتبر البعض أن تمرد بارداس سكليروس كان تمردا قوميا أرمينيا . ولذلك كان الثمن الذى دفعه الأرمن غاليا ، فعندما هزمت قوات باسيل الثانى فيالق سكليروس ، قام بذبح كل الأسرى الأرمن دون شفقة لأنهم كانوا المحرك الأول لهذه الثورة (٧٤) . ومع ذلك يبدو أن هذا العقاب لم يكن رادعا لهم ، فهناك ما لا يقل عن ٢٥ حالة قام فيها الأرمن بتحريض ودعم حركات العصيان فى الإمبراطورية البيزنطية بين عامى ٩٧٦ ـ١٠٢٣م فقط (٧٥).

أخيرا ، ما الذى يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة ؟

أولا : إن أعداد الوافدين الأرمن إلى الإمبراطورية البيزنطية ، سواء أكانوا مهاجرين أم لاجئين، كانت كبيرة. لكنها كانت مرهونة ـ فى الوقت ذاته ـ بالسيادة البيزنطية على أرمينية، بمعنى أنها كانت تزداد فى الفترات التى كانت تخضع فيه أرمينية للدولة البيزنطية، والعكس صحيح .

ثانيا : احتل الأرمن المركز الأول بين العناصر الأجنبية التى اعتمدت عليها الدولة البيزنطية فى إعداد وتجهيز جيوشها الجرارة ، مما أعطاهم الفرصة لتحقيق طموحاتهم فى الجيش وفى الحياة السياسية بالدولة البيزنطية ، لفترة ناهزت أربعة قرون .

ثالثا : كان الأرمن متقلبين فى ولائهم للدولة البيزنطية ، وإن هذا الأمر كان ممقوتا من جانب البيزنطيين واستنكروه عليهم ، لكن من وجهة نظر الأرمن ، كان ذلك نوعا من حفظ الذات والإبقاء على الهوية ، وسط مجتمع حاول تذويبهم واستيعابهم بشتى الوسائل . ولذلك لم يسهم الاتصال الوثيق بين البيزنطيين والأرمن فى إزالة العداء الكامن بينهم ، وبناء عليه، لن نبالغ إذا قلنا إن الأرمن كانوا معول هدم مثلما كانوا أداة بناء فى الدولة البيزنطية.

الهوامش

١ – انظر على سبيل المثال :

Theophanes ., The Chronicle Theophanes confessor ,Byzantine and Near Eastern History ,A 284-813, trans with Introduction and Commentary by Mango ,C and Scott,R,with the assistance of Greatrex G,(Oxford,1997)pp.45,100,159,180.

تجدر الإشارة إلى أن الباحث اتبع فى حواشى هذه الدراسة نظام المختصرات الذى ورد بشأنه دليل تم نشره فى دورية

٢– Dumbarton Oaks Papers,26(1972) pp.362 -365,27(1973)pp .329-339.

Browning,R., "The Continuity of Hellenism in The Byzantine world: Appearance or reality ? In History, language an literacy in the Byzantine Word,(London ,1989),p .120 ; Lopez,R., Foreigners in Byzantium and the world around it : Economic and Institutional Relations ,XIV(London,1978),p342 ;Charanis,P.,Observations on the demography of the Byzantine Empire In13th International Congress of Byzantine Studies (Oxford,1966)p.19.

٣ـ عاش جنسيوس فى القرن العاشر الميلادى وألف بإيعاز من الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyergenitus ، كتابا يحمل عنوان Historia de rebus Constantinoplitonis ، غطى فيه أحداث الفترة بين عامى ٨١٣ـ ٨٨٦م، واعتمد فيه على بعض شهود العيان من أقاربه العاملين فى البلاط الإمبراطورى، كما أتيحت له فرصة الاطلاع على بعض الكتب الهامة والمخطوطات بالقصر الإمبراطورى، انظر :

Nicol., Abiographical Dictionary of the Byzantine Empire (London, 1991), P.42.

انظر أيضا: محمد عثمان: ثورة توماس الصقلبى فى الإمبراطورية البيزنطية(٨٢١–٨٢٣م/٢٠٥–٢٠٧هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة طنطا (١٩٩٢م)، ١٥؛ طارق منصور : قطوف الفكر البيزنطى، ج١، الأدب (القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص١٧–١٨.

٤– Genesius.,Historia,CSHB ed Niebuhrii,B(Bonn,1834),p.33.

توماس سلافى الأصل ، وكان أعرجا بساق واحدة مهذب الأخلاق ، نجح فى استمالة القلوب إليه . وكانت ثورته ذات طابع دينى وسياسى واجتماعى ، وهدف من ورائها الاستيلاء على القسطنطينية واعتلاء عرشها، انظر : هانى البشير: «تطور البحرية البيزنطية ونشاطها العسكرى خلال القرنين الثامن والعاشر للميلاد»، مجلة التاريخ والمستقبل ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ـ جامعة المنيا (يوليو ٢٠٠٣م) ص١٨٦ حاشية رقم ٢. ولمزيد من التفاصيل ، انظر: محمد عثمان : ثورة توماس الصقلبى .

٥– Charanis., The Armenians in the Byzantine Empire, (Lasbon, 1963), pp 12,21: observations. pp 17,19

٦ – فايز اسكندر:الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١–٤٠هـ/٦٣٢–٦٦١م) (الإسكندرية ١٩٨٣م) ج ١، ص٩٦ . حاشية رقم ١٤٦ .

٧– نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب / حسين مؤنس ، محمود يوسف زايد (القاهرة، ١٩٥٠م) ص٤٥ .

بموجب الاتفاق على تقسيم أرمينية ، كانت أرمينية الشرقية ـ وعاصمتها ديسوند ـ من نصيب الفرس، أما أرمينية الغربية ـ وعاصمتها ثيودوسيوبوليس Theodosiopolis ـ فكانت من نصيب البيزنطيين، انظر: عاطف مرقص بطرس: «الأرمن وعلاقاتهم بالبيزنطيين والمسلمين، ١٠٧١ـ١١٧١م/٤٦٣ـ٥٦٧ هـ»، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، ١٩٨٦م، ص١٢٨ .

٨– وسام فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ٣٢٤– ١٠٢٥م ، ج١، (الإسكندرية ، ١٩٨٢)، ص ١٠٠ : عاطف مرقص : الأرمن ، ص ١٢٨ـ١٢٩، ١٣١ .

٩– Procopius.,De Bello Gotthico II ,pp.410,494,636;Charanis.,Ethnic,p.31,note no.47

١٠– Baynes,N., "The Sucessors of Justinian" in CMH, Vol.II, ed Bury (Cambridge,1980), p.283

كان الجيش البيزنطي يتألف ـ في جانب منه ـ من سكان الإمبراطورية، ويعتبر هذا العنصر الوطني جند الدولة وعدتها . لكن إلى جانب هذا العنصر، استخدمت الحكومة الإمبراطورية الجند المرتزقة، وبفضل ما اشتهر به الإمبراطور من البذل والسخاء، هرعت إلى القسطنطينية جموع كثيرة من الأجانب، فصار فى الجيش البيزنطى جنود أجانب من أصول مختلفة، وارتفع شأن عدد كبير منهم، حيث تولوا الكثير من المناصب العسكرية العالية. انظر: السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ٣٢٣–١٠٨١م، (القاهرة، ١٩٦٠م)، ٣٨٤ـ٣٨٥.

١١– Ostrogorsky, G.,History of the Byzantine State,Eng. trans., by Hussey.J (oxford ,1956) , pp.73,79; Charanis,P., Ethnic Changes in the Byzantine Empire in the Seven Century» DOP,(Cambridge,1957),p.32.

انظر أيضا : وفاء عبد الحميد محمد : الإمبراطور موريس ٥٨٢ – ٦٠٢م ، أحوال الإمبراطورية البيزنطية في عهده ، رسا لة ماجستير لم تنشر بعد ، (كلية الآداب – جامعة عين شمس، ١٩٨٨م) ٩٥ ،١٠٣؛ وسام فرج: دراسات ، ١٠٠؛ السيد الباز العريني : الدولة ، ٩١– ٩٢

١٢– Sébeôs., Histoire d'Heraclius , traduite de l'Armenien et annotée par Frédéric Marcler (paris, 1904)pp.30-31; Charanis., The Armenians,pp.14-15.

انظر أيضا : عاطف مرقص : الأرمن ، ص١٣٢؛ وفاء عبد الحميد : موريس ، ص ١٨٢ .

١٣– Sébeôs.,Heraclius,pp.35,54-55;F.E. Shlosser.,The Reign of the Emperor Maurikios(582 - 602),(Athens,1994),p.116; Charanis.,Ethnic,pp.32-33;The Armenians, p.15.

انظر أيضا : وفاء عبد الحميد : موريس ، ص ١٠٤-١٠٦.

يرى البعض أن الإمبراطور فوقاس نوّلاً ، ربما يكون هو الذى أصدر الأمر بنقل ثلاثين الف من الأرمن إلى تراقيا، انظر: Shlosser., Maurikios,p.116,note no.114.

١٤- رنسمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمه/ عبد العزيز توفيق جاويد ،وراجعه / زكى على، (القاهرة ، ١٩٩٤م) ص ٢١٦ ، ٣٥٣.

١٥- كلمة ثيم Theme (Θεμα) اليونانية تقابل فى المصادر العربية تعبير جند/بند، وكانت تعنى فى الأصل قسما من الجند أو فرقة من الجيش تقيم فى إقليم ما، ثم تطورت بمرور الوقت وأصبحت تطلق على المجموعة الحربية والإقليم الذى تتمركز فيه. ونظام الثيمات بهذا الشكل، هو نظام دفاعي بحت ، وضع أساسه الإمبراطور هرقل، حينما سعى لإنقاذ البقية الباقية من إمبراطوريته فى آسيا الصغرى. ثم سار خلفائه على نهجه فى سياسته الدفاعية وتوسعوا فى إنشاء الثغور المختلفة، حتى سار فى الإمبراطورية البيزنطية مع نهاية عهد أسرته حوالى ست ثغور فى مناطق مختلفة: ثلاث منها فى آسيا الصغرى واثنان فى البلقان وواحد فى البحر . وكانت كلها من أجل الدفاع والوقوف فى مواجهة الأعداء، انظر:

هاني البشير : الدولة البيزنطية، ٦٤١-٧١١م (القاهرة ٢٠٠٢م) ص ٤٦ حاشية رقم ١.

١٦- ConstantinusPorferogenitus.,De Thematibus,ed., Pertusi,(Vatican,1952),p.117; Charanis., TheArmenians,p.19.

كان ثغر الأرمنياق يضم ستة أقاليم هي:إقليم قبادوقيا الأولفِفلكىف ة ،إقليم قبادوقيا الثانى Cappadocia II، إقليم أرمينية الأول Armenia I، إقليم أرمينية الثانى Armenia II، إقليم Pontus Polemoniakos، إقليم . Elenopontos وهو بهذا الشكل على هيئة مثلث اثنان من زواياه على البحر الأسود، واحدة عند سينوب Sinope، والأخرى قرب شرق ترابيزون Trabizond، أما الثالثة فتقع إلى الجنوب من الطوانة Tyana تقريبا، انظر :

Diehl,Ch., "L' Origine du regime des Themes dans L' Empire Byzantin," dans Etudes Byzantines (Paris,1915),p.278; A., Stratos.,Byzantium in the Seventh Century, 1(602-634) translated by Marc Ogilvie-Grant,I(Amsterdam,1968),p.278;Charanis.,The Armenians,p.19.

انظر أيضا : ليلى عبد الجواد إسماعيل: الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، (القاهرة ، ١٩٨٥م)، ص ١١٧-١١٨؛ طارق منصور محمد: الجيش فى الإمبراطورية البيزنطية، من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادي، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، (كلية الآداب ببنها ١٩٩٣م) ص ٢٣٧ .

لمزيد من التفاصيل عن الخلافات حول تاريخ نشأة ثغر الأرمنياق، انظر :

Charanis., The Armenians,p.19

انظر أيضا : ليلى عبد الجواد : هرقل ، ص ١١٥-١١٦ : طارق منصور: الجيش ، ص ٢٣٦.

١٧- Chronicon Paschale ., 283 - 628AD , translated with notes and introduction by Michael Whitby and Mary Whitby,(Cambridge,1989.),p.178,Charanis.,The Armenians,p.02.

انظر أيضا : ليلى عبد الجواد : هرقل ، ص١١٨.

١٨- Theophanes., The Chronicle, .P 470; Charanis., Ethnic,p.34.

١٩ – فايز اسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن، فى ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى المعاصر «سبيوس» (١١-٤٠هـ/ ٦٣٢-٦٦١م) صفحة مشرقة من تاريخ الفتوحات الإسلامية (صنعاء، ١٩٩٣م)، ص٢٥.

٢٠- Sébeôs.,Heraclius,pp.93-94; Nikephoros Patriarch of Constantinople., Short History, Text, trans,and Commentary By Cyril Mango , (Washington,1990), p.73; Charanis., The Armenians,p21.

انظر أيضا : ليلى عبد الجواد : هرقل ، ص ٤١٦.

انفرد البطريرك نقفور بين المصادر البيزنطية بذكر هذه المؤامرة ، انظر :

Nikephoros., Short History,P.73.

أما المؤرخ الأرمنى سبيوس فقد اشتملت روايته على عدد من نبلاء الأرمن ، انظر :
Sébeôs., Heraclius,pp.93-94

٢١- Sébeôs ,Heraclius,pp.103 - 104; Theophanes.,The Chronicle,pp.475-476;Kaegi, "The Byzantine Armies and Iconoclasm" BS,27(Prague,1966),p.50.

انظر أيضا : فايز اسكندر : المسلمون والبيزنطيون، ص ٣٤حاشية رقم ٦٠؛ هانئ البشير: الدولة ، ص ٧١حاشية رقم ٣ ؛ طارق منصور : الجيش، ص ٢٣٨.

والاستراتيجوس هو الرئيس الأعلى للثغر من الناحيتين الإدارية والعسكرية ،وكان بمثابة نائب الإمبراطور فى ثغره، وكانت فترة حكمه تتراوح بين ثلاث وأربع سنوات ، انظر: هانئ البشير : البحرية، ص ١٥٢، حاشية رقم ٢.

٢٢- Theophanes.,The Chronicle,p.491; Zonaras, Epitomae Historiarum Libri, CSHB, (Bonn, 1897), T.III.p .222; Cedrenus., Compendium Historiarum,I, CSHB (Bonn,1897), pp.764 -764; Duchesne., Le Libre Pontificalis ,1 (Paris,1955) ,p.346; 395-867 328; Charanis., Ethnic,p.34.

٢٣- Theophanes., The Chronicle, pp. 575,578; Nikephoros., Short History, P.133; Charanis, Ethnic, pp.34-35.

انظر أيضا : السيد الباز العرينى : الدولة ، ص ١٨٣-١٨٤ .

ولمزيد من التفاصيل عن ثورة أرتفاسدوس ، انظر : وديع عبد الله : العلاقات السياسية بين

بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي (٧٤١-٨٢٠م/١٢٤-٢٠٥هـ) .(الإسكندرية ، ١٩٩٠م)، ص ١٢٧-١٣١ .

٢٤- Theophanes ., The Chronicle,p.594.

انظر أيضا : وديع عبد الله: العلاقات، ص ١٥٠ .

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة ، انظر : وديع عبد الله : العلاقات، ص ١٤٩-١٥٠ .

٢٥- وديع عبد الله : العلاقات ، ص ١٧٦حاشية رقم ٤ .

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة ، انظر : وديع عبد الله : العلاقات ، ص ١٧٦- ١٧٨ .

٢٦- Gevond .,Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie ,tr.from Armenian by G.V.Chahnazarian(Paris,1856),pp.150,153;Theophanes.,The Chronicle,p.623; Adontez.,L' Âge et L' Origine d' Empereur Basile I' dans Etudes Armeno -Byzantines, (Lisbonne,1965)p.91; Charanis., Ethnic,p.35.

انظر أيضا : وديع عبد الله : العلاقات، ص ١٧٦حاشية رقم ٤ .

ثغر البقلار من الثغور البرية، وهناك خلافات بين المؤرخين حول تاريخ نشأته، يرى بعضهم أنه أنشأ في عهد الإمبراطور ليو الثالث، في حين يرى بعضهم الآخر أنه أنشأ في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس ، وكان هذا الثغر يشكل جزءا من ثغر الأوبسيق قبل أن يصبح ثغرا مستقلا، وكان قائده يحمل لقب ستراتيجوس Strategos ، انظر :

Theophanes .,The Chronicle ,p.608;Taktikon Uspenskij(842-843 A.D.,Texte,Trad & com , par N.Oikonomidès , dans : les listes des préséance Byzantines des IX - X Siécles, (Paris, 1972)p. 48; Ostrogorsky., State, p.140.

ولمزيد من التفاصيل ، انظر : طارق منصور : الجيش ، ص٢٤٨-٢٥١.

٢٧- المقصود بناخارارات الأرمن هم الطبقة الأرستقراطية القوية ، انظر : وديع عبد الله: العلاقات، ص ١٧٦حاشية رقم ٤.

٢٨- Theophanes .,The Chronicle , p.623; Adontez.,Basile I,p.92;Charanis.,Ethenic,p.35.

انظر أيضا: وديع عبد الله: العلاقات، ص ١٧٦؛ طارق منصور: الجيش، ص ٢٣٥حاشية رقم١.

تعني كلمة Anatoli الشرق، وثغر الأناضول من الثغور البرية الشرقية، وقد شغل موقعا متوسطا من آسيا الصغرى . أنشأه الإمبراطور هرقل لمواجهة الضغط العسكري العربي، وهو أكبر أعمال الروم وفيه مدينة عمورية وعدد بروجها أربعة وأربعون برجا، وتنتهي حدوده عند الأوبسيق في الغرب وسلوقية من الجنوب وقبادوقيا من الشرق والبقلار من الشمال، وعدد جنوده نحو خمسة عشر ألف رجل. وقد ظل قائد ثغر الأناضول - القائد الأول في الدولة - هو القائد العام بآسيا الصغرى حتى القرن التاسع الميلادي، بل لقد كان حتى القرن العاشر الميلادي نفسه ذا مكانة سامية فوق المعتاد في سلك الموظفين، انظر :

ابن خرداذبة: المسالك والممالك ويليه ـ نبذة من كتاب الخراج ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، (بغداد ، د ـ ت) ، ص ١٠٧؛ قدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج ، ملحق من كتاب المسالك لابن خرداذبة (بغداد ، د ـ ت) ، ص٢٥٨؛ رنسمان: الحضارة ، ص ١٦٤؛ طارق منصور: الجيش ، ص٢٣٢ـ٢٣٣ ، انظر أيضا : Vasiliev.,A History of the Byzantine Empire, 324 -1453, (Madison,1952),p.228; Bréhier., Les Institutions de L' Empire Byzantin, (Paris, 1949),p.349.

ولمزيد من التفاصيل ، انظر : طارق منصور : الجيش ، ص٢٣١ـ٢٣٥ .

٢٩– وديع عبد الله : العلاقات ، ص٢١٩ .

ولمعرفة الخلافات بين المؤرخين حول أسباب فرار أنزيفاتزيك إلى العباسيين ، انظر : وديع عبد الله: العلاقات ، ص ٢٢٦ .

٣٠– وديع عبد الله : العلاقات ، ص١٨١حاشية رقم ٤ .

ولمزيد من التفاصيل عن حملة عام ٧٧٨م ، انظر : وديع عبد الله: العلاقات ، ص١٨١–١٨٤ .

٣١– Adontez.,Basile I,pp.91-92; Charanis., Ethnic,p.35,note no.79.

٣٢– Theophanes ., The Chronicle , pp.627,643; Charanis., The Armenians,p.22.

لمعرفة تفاصيل الحملة التي شنها قسطنطين السادس ضد البلغار عام ٧٩٢م ، انظر: هاني البشير: بيزنـــطة وبلغاريا (٦٨١– ١٠١٨م) ، القاهرة ٢٠٠١م ، ص ٧٥–٧٦ .

٣٣– Theophanes.,The Chronicle,pp.605,651,657,659,663,671;Bury.,Ahistory of the Eastern Roman Empire,From the fall of Irene to the accession of Basil I,(London,1912)pp.14,68,72; Charanis., The Armenians,p.22.

٣٤– Charanis., Ethnic,p.36.

٣٥– Theophanes ., The Chronicle , p. 684; Theophanes Continuatus , Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monchus Continuatus, CSHB ed Bekker. I, (Bonn, 1838)pp. 14-15; Anonymus., Vita Leonis Armeni, PG, edMigne, CVIII, (Paris 1864) Cols, 1014-1015 Zanoras, Historiarum, T.III, P.317.

لمزيد من التفاصيل عن معركة فرسينيكيا ، انظر : هاني البشير : بلغاريا ،ص ٩٧–٩٩ .

٣٦– Charanis.,The Armenians,p.23;Adontz. "Sur L' origine de Leon V,empereur de Byzance" dans,Etudes Armeno-Byzantines(Lisbonne,1965)pp.37-46.

٣٧– Charanis ., The Armenians,p.23 ; Ostrogorsky., State p.195.

٣٨– ميكيلي أماري : تاريخ مسلمي صقلية ، إعداد/ د / محب سعد إبراهيم ، ج ١ (فلورنسا ، ٢٠٠٣م) ص٣٤٩؛ فازيلييف: العرب والروم ترجمة د/ محمد عبد الهادي شعيرة ، مراجعة د/ فؤاد حسين علي ، (القاهرة ، د – ت) ، ص ١١٦ .

٣٩- Symeon Magister ac Logothete ,Symeon Continuatus , In : Theophanes Continuatus ,CSHB, ed, Bekker.I, (Bonn,1838), p.630; Theophanes Continuatus.,pp.107-109;

انظر أيضا : فازيلييف : العرب ، ص ١٢٢-١٢٣ , ١٣٠ .

٤٠- Georgius Monachus Continuatus in Theophanes Continuatus' CSHB' ed BekkerI, (Bonn,1838), p.815; Charanis ., The Armenians,pp.23-24; Adontez.,Basile I ,p. 65.

انظر أيضا : هاني البشير : بلغاريا ، ص ١١٨ حاشية رقم ٢ .

٤١- Charanis., The Armenians, pp.24. ;Bury., Eastern, P.271.

٤٢- Theophanes Continuatus.,p.57; Charanis ., The Armenians,pp.24-25.

٤٣- Bury.,Eastern,pp.27,46,81,144,149,155,258; Charanis., The Armenians,p.25.

٤٤- Georgius Monachus,p.835; Charanis ., The Armenians,p.25.

٤٥- Adontz., Basile I, pp.58-59; Charanis., The Armenians, p.25-26

٤٦- عاطف مرقص : الأرمن ، ص ١٣٥؛ وسام فرج : دراسات، ص ٢٤٩، ٢٥٢.

٤٧- Adontz., Basile I,p.80; Nicol.,Byzantine,p.16; Charanis , The Armenians,p.24.

انظر أيضا : السيد الباز العريني : الدولة ، ص٢٨١؛ وسام فرج : دراسات، ص ٢٥٣.

٤٨- اشتق البيالصة أسمهم من الصيغة اليونانية المشتقة هي الأخرى من الاسم بولياني Pauliani أي بولص حنا، وهي صيغة أرمينية الأصل. وينحدر البيالصة من المانيين Manichaeans - أي أتباع ماني - وشكلوا إحدى الجماعات التي خالفت أفكارها ومعتقداتها الدينية صميم العقيدة الأرثوذكسية. كما أنهم الجماعة الوحيدة التي شذت عن غيرها - من الجماعات المارقة في آسيا الصغرى باستخدامها السلاح لنشر أفكارها والدفاع عنها . ويعتبر الكتاب الذي كتبه بطرس الصقلي Petrus Siculus ويحمل عنوان: Historia Manichaeorum qui et Pauliciani dicuntur أي «تاريخ المانيين المدعوين بالبيالصة» لدحض أفكارهم ومعتقداتهم ، هو المصدر الرئيس لتاريخ البيالصة، وتم نشره في مجموعة الآباء اليونانيين Patrologia graeca ثم قامت مؤخرا المؤرخة الفرنسية جويلار بترجمته إلى اللغة الفرنسية، انظر :

Petrus Siculus, Historia, PG.104 (Paris , 1864) cols.1240-1349; Pierre de Sicile ,Histoire des Pauliciens , trad par Gouillard.J, TM,4(Paris,1970) pp.3-67.

انظر أيضا: هاني البشير: البيالصة في آسيا الصغرى في ضوء مصنف بطرس الصقلي، مجلة المؤرخ المصري، (كلية الآداب - جامعة القاهرة العدد الرابع والعشرون يناير ٢٠٠١م) ص٤٧، ٧٠.

٤٩- Vita Basilli,pp.290-291; Cedrenus., Historiarum, II, pp.209 -210; Runciman., Le Manichéisme Medieval, L'Heresie Dualiste dans le Christianisme, trad par Petrement S., Marty.J, (Paris, 1949) pp44-45.

هانئ البشير : البيالصة ، ص٦٥-٦٦.

٥٠- Cedrenus .,Historiarum, II,p.206 ; Ramsay, The Historical Geography of Asia (Amesterdam,1962) ,p.342; Runciman., Manichéisme,p.45; Charanis.,TheArmenians,p.28.

انظر أيضا : هانئ البشير : البيالصة ،ص ٦٦.

٥١- عاطف مرقص : الأرمن ، ص ١٣٦.

٥٢- Ostrogorsky., State,p.215.

انظر أيضا: وسام فرج: الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس "٨٨٦ – ٩١٢م" الأبعاد الدينية والدلالة السياسية، (الإسكندرية، ١٩٩١ م)،ص ٣٦ ، ٤٥ حاشية رقم ١٣؛ هانئ البشير : بلغاريا، ١٢٦ حاشية رقم ٣.

كان الزواج من زوى زاوتزس هو الزواج الثانى للإمبراطور ليو السادس، وذلك بعدما ماتت زوجته الأولى ثيوفانو Theophano، ثم تزوج بعد ذلك للمرة الثالثة من إيودوكيا بايانا Eudocia Baiana بعدما توفت زوى زاوتزس عام ٩٠٠م . ولما توفت إيودوكيا بايانا عام ٩٠١م، تزوج للمرة الرابعة من محظية له هى زوى الثانية، مع أن عدد مرات الزواج المسموح بها بسبب الطلاق أو الوفاة محدد بثلاث مرات فقط، أما الزواج الرابع فكان محرما تماما. انظر:

Oikonomidès.,Leo VI's Legislation of 907 Forbidding Fourth Marriag:An Interpolation in the Procheiros Nomos (IV, 25- 27) « DOP ,30(Cambridge - Mass,1976), pp.174 - 193.

انظر أيضا: وسام فرج : الزواج الرابع ، ص٣٣-٥٢.

٥٣- Leo Grammaticus.,Chronographia ,CSHB ed. ,Niebuhrii. F(Bonn,1842),pp. 266-267 ; Bréhier.,Le Mond Byzantin ,Vie et Mort de Byzance, (Paris,1969),pp.128-129.

انظر أيضا : هانئ البشير : بلغاريا، ص ١٢٦.

ولمزيد من التفاصيل ، انظر :هانئ البشير: بلغاريا، ص ١٢٦-١٢٨.

٥٤- قسطنطين السابع: إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق د/محمود سعيد عمران، (بيروت، ١٩٨٠م) ،ص ١٩٠-١٩١ ، انظر أيضا :

Constantine VII Porphyrogenitos, D e Administrando , ed&com by Jenkins and Others, by Jenkins and Others,vol.2, (London,1962),190; Charanis ., The Armenians,p.29.

٥٥- قسطنطين السابع : إدارة ، ص١٩١-١٩٣. انظر أيضا :

Constantine VII Porphyrogenitos , De Administrando ,II,p.191;Runciman.,The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign,(Cambridge,1963),pp.137,139, 141,Charanis ., The Armenians,pp.30-31.

٥٦- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حققه أبى الفداء عبد الله القاضى، ج ٧ ط٢ (بيروت، ١٩٩٥م)، ص ٢٥٠؛ السيد الباز العريني: الدولة، ص ٣٦٦ , ٣٦٨ . انظر أيضا :

Eric McGeer, The Legal Decree of Nikephoros II Phokas Concerning Armenian Stratiotai In Peace and war in Byzantium,Essays in Honor of George T.Dennis,S.J.ed by T.Miller and J.Nesbitt,(Washington,1995),p.134; Charanis ., The Armenians,p.33.

٥٧- Leo Diaconus. ,Historia, CSHB ed Hase.C(Bonn, 1828),p.14; Eric Mcgeer.,Decree,p. 134.

٥٨- ورد حنا تزيمسكس فى المصادر العربية باسم ابن أبى الشمشقيق، وهذا قريب من الصيغة الأرمينية Chemshkik أو Chemshgig التى جعلها البيزنطيون تزيمسكس، انظر :

ابن الأثير: الكامل ج٧، ص٢٨٤ , ٢٨٨ , ٣٢١؛ السيد الباز العريني: الدولة، ص٤٥٠، حاشية رقم ٣.

٥٩- Eric McGeer.,Decree,p.134; Charanis ., The Armenians,p.34.

٦٠- Charanis ., The Armenians,pp.34-35,3

٦١- Symeon Magister ac Logothet., P.731; Theophanes Continuatus., p.419; Georgius Monachus Continuatus, p.890; Runciman., Romanus Lecapenus, pp.55, 63; Charanis., The Armenians. 36.

٦٢- Liudprand of Cremona., De Legatione Constantinopolitana in The Works of Liudprand of Cremona., ed,BGG, Coulton and Eileen Power, Eng. Trans,by. F.A.Wright (London,1930), p.274; Runciman., Romanus Lecapenus, p.76; Ostrogorsky, State, p.241; Charanis., The Armenians, p.36.

انظر أيضا : رنسمان : الحضارة ، ص٢١٥؛ السيد الباز العرينى : الدولة ،٣٤٦.

٦٣- Leo Diaconus., Historia,pp.99,117; Treadgold., A history of the Byzantine State and Society, (California,1997),p.505; Charanis., The Armenians,pp.36-37.

انظر أيضا : السيد الباز العريني : الدولة، ص٤٥٠.

٦٤- Charanis., The Armenians,pp.37-39.

٦٥- Theophanes, ConTinuatus., pp.401,443; Charanis., The Armenians,pp.40-41.

٦٦- قسطنطين السابع : إدارة ، ص١٥٨ ، انظر أيضا :

Adontz., Les Taronites en Armènie et Byzance dans Armeno-Byzantines (Lisbonne, 1965), p. 202; Theophanes Continuatus., p.358; Charanis., The Armenians, p.42.

٦٧- Symeon Magister ac Logothet., p.701; Leo Grammaticus, Chronographia, p.268; Cedrenus, Historiarum ,II, p.292; Charanis, The Armenians,p.42.

٦٨- Cedrenus., Historiarum ,II,pp.273,280; Caaranis., The Armenians,pp.44-45.

٦٩- Theophanes Continuatus., pp. 426,428; Runciman., Romanus Lecapenus, pp.135- 150; Vasiliev, A History, p306; Charanis, The Armenians, p.40.

انظر أيضا : عاطف مرقص : الأرمن ، ص ١٣٦.

٧٠- نتيجة لهجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى الأراضى البيزنطية، خلال أول عقدين من القرن العاشر الميلادى واستقرارهم بالثغور البيزنطية، وخاصة الأرمنى منها، صار أبناء هؤلاء الأرمن يشكلون فئة كبيرة بالجيش البيزنطى، مما أوجب على القيادة البيزنطية سن المراسم والقوانين التى تنظم شئونهم. وكان من بين هذه المراسم، مرسوما أصدره الإمبراطور نقفور فوقاس، كان هدفه إيضاح مسألتين أساسيتين: الأولى، العقوبات والقيود المفروضة على الجنود الأرمن؛ كى تقوى لدى هؤلاء الجنود الحياة العسكرية التى وهنت. والثانية، إمكانية نقل الإقطاع العسكرى الخاص بالقاتل، إلى أسرة القتيل عوضا لها عن الضحية. واشتمل هذا المرسوم على عدد من البنود التى توضح هاتين المسألتين، وقد قام مؤخرا ي.ك حكامه بترجمة هذا المرسوم إلى الإنجليزية ونشر بعض بنوده وعلق عليها، انظر :

Eric McGeer.,Decree,pp.123-137.

٧١ - Eric McGeer.,Decree,pp.132,135.

٧٢- ابن الأثير : الكامل ، ج٧ ، ص ٢٧٣.

انظر أيضا : Eric McGeer.,Decree,p.135.

٧٣- Oikonomedès., L' Organisation de la frontier Orientale de Byance aux Xe-XIe siècle et le Taktikon de L' Escorial dans Actes du XIVe Congrès International des Etudes Byzantines I (Bucarest,1974) ,pp.29 8-299.

٧٤ - Treadgold., Society , p.517;Eric McGeer.,Decree,p.136;Charanis.,The Armenians pp. 33-34.

انظر أيضا : وسام فرج : الإمبراطور باسيل الثانى «سفاح البلغار» (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) ، العوامل التى أثرت على السياسة فى عصره ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الأول (القاهرة، ١٩٨٢ م) ، ص ١٧٣ ؛ السيد الباز العرينى : الدولة ، ص٥٠٣ .

لمعرفة تفاصيل تمرد بارداس سكليروس، انظر :

Psellus., The Chronographia of Michael Psellus ,English Translation by Sewter . E (London, 1953),pp.13-15 .

انظر أيضا : وسام فرج : باسيل الثانى، ص ١٧١-١٨١؛ السيد الباز العرينى: الدولة، ٤٩٩-٥١٢.

٧٥ - Eric Mc Geer, Decree, P.136.

قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولا : المصادر والمراجع الأجنبية :

Adontz.,Basile I Armeno	N. Adontz., "L' âge et L' origine de lempereur Basile I dans Etudes - Byzantines, (Lisbonne, 1965) PP.47-110.
Adontz.,	N. Adontz.,Sur L'origine de Leon V,empereur de Byzance, dans, Etudes Armeno-Byzantines (Lisbonne, 1965) pp.37-46.
Adontz.,	N. Adontz., Les Taronites en Arménie et ? Byzance dans Armeno-Byzantines(Lisbonne,1965)pp.197-264.
Anonymus., Migne,CVIII,-	Anonymus Incert Auctoris , Vita Leonis Armeni, PG, ed (Paris,1864) ,Cols,1009-1038.
Baynes.,	N. Baynes.,The Sucessors of Justinian,CMH, vol.II,ed Bury (Cambridge,1980) .
Bréhier.,	L.Bréhier.,Les Institutions de LEmpire Byzantin, (Paris, 1949).
Bréhier.,	L. Bréhier., Le Mond Byzantin,Vie et Mort de Byzance, (Paris,1969).
Browning.,	R.Browning.,The continuity of Hellenism in the Byzantine world: Appearance or reality? in history, language an literacy in The Byzantine World., . (London, 1989).,
BSL	Byzantinoslavica , (Prague)
Bury., Eastern	J. Bury.,A History of the Eastern Roman Empire , From the Fall of Irene to the accession of Basil 1, (London, 1912).
CMH	Cambridge Medieval History,(Cambridge) .
Cedrenus., Historiarum	G.Cedrenus.,Compendium Historiarum,vol.1, CSHB, (Bonnae,1897).
Charanis., Observations	P. Charanis., Observations on the demography of the Byzantine Empire, In 13th International congress of Byzantine Studies (Oxford,1966) .
Charanis., The Armenians	P.Charanis., The Armenians in the Byzantine Empire, (Lasbon,1963).

Charanis., Ethnic	P. Charanis., Ethnic Changes in the Byzantine Empire in the Seven Century, Dop. (Cambridge,1957) .
Chronicon Paschale.,	Chronicon Paschale ., 283 - 628AD, translated with notes and introduction by Michael Whitby and Mary Whitby,Cambridge,1989.
ConstantineVII Porph.,	Constantine VII Porphyrogenitus., De Thematibus, ed, Pertusi,(Vatican,1952)
ConstantineVIIPorph., De Administrando II	ConstantineVII Porphyrogenitus.,Constantine VII Porphyrogenitos ,De Administrando Imperio ,ed&com by Jenkins and Others, vol.2, London, 1962.
CMH	Cambridge Medieval History,(Cambridge) .
CSHB	Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae,(Bonn, 1838),ff.
Duchesne.,	Duchesne.,Le Libre Pontificalis,vol.1,(Paris,1955) .
Dop	Dumbarton Oaks Papers .
Eric McGeer.,	DecreeEric McGgeer., The Legal Decree of Nikephoros II Phokas Concerning Armenian Stratiotai In Peace and war in Byzantium,Essays in Honor of George T.Dennis,S.J.ed by T.Miller and J.Nesbitt, (Washington, 1995)pp.123-137.
Genesius.,	Genesius., Historia, CSHB, ed Niebuhrii, B(Bonnae, 1834) .
Georgius Monachus	Georgius Monachus Continuatus in Theophanes Continuatus, CSHB, ed Bekker.I , (Bonn,1838) , pp.761-924 .
Gevond.,	Gevond., Histoire des guerres et des Conquêtes des Arabes en Arménie,tr.from Armenian by G.V.Chahnazarian (Paris,1856),pp
Kaegi.,	W. Kaegi.,The Byzantine Armies and Iconoclasm, BSL, 27 (Prague,1966),pp.48- 70 .
Leo Diaconus.,	Leo Diaconus.,Historia, CSHB, ed, Hase.C (Bonn, Historia 1828),pp.3-178 .
Leo Grammaticus.,	Leo Grammaticus.,Chronographia, CSHB ed Niebuhrii. F (Bonn,1842) .
Liudpran of Cremona	Liudprand of Cremona De Legatione Constantinopolitana, In The Works of Liudpran of Cremona., ed,BGG,Coulton and Eileen Power, Eng. Trans,by. F.A.Wright (London,1930)pp.233-277 .

Lopez.,	R.Lopez.,Foreigners in Byzantium and the world around it: Economic and Institutional Relations ,XIV (London,1978) .
Nicol., Byzantine	D. Nicol.,Abiographical Dictionary of the Byzantine Empire (London ,1991) .
Nikephoros Patriarch	Nikephoros Patriarch., Short history of Constantinople ,Text,trans., and Short history commentary by Cyril Mango, (Washington,1990) .
Oikonomedès.,	N. Oikonomidès., L' Organisation de la Frontier Orientale de Byance aux Xe-XIe siècle et le Taktikon de L' Escorial dans Actes du XIVe Congrès International des Etudes Byzantines I (Bucarest,1974),pp.285-302
Oikonomidès.,	N. Oikonomidès.,« Leo VI's Legislation of 907 Forbidding Fourth Marriage : An Interpolation in the Procheiros Nomos (IV,25- 27) «DOP,30 (Cambridge - Mass,1976) , pp.174 - 193 .
Ostrogorsky., state	G. Ostrogorsky.,History of the Byzantine State,Eng trans by Hussery . J (Oxford,1956) .
PG	Patrologia Graeca,(Paris,Trunholti) .
Procopius., Gotthico	Procopius., De Bello Gotthico,II(Bonn,1833).
Psellus., Translation	M. Psellus.,The Chronographia of Michael Psellus, English by Sewter . E, (London, 1953).
Petrus Siculus.,	Petrus Siculus., Historia, PG.104 (Paris ,1864) cols. 1240-1349.
Pierre de Sicile.,	Pierre de Sicile. , Histoire des Pauliciens , trad par Gouillard J, TM,4 (Paris,1970) pp.3-67.
Ramsay.,	W.Ramsay.,The Historical Geography of Asia Minor. (Amesterdam, 1962) .
Runciman., Manichéisme	S.Runciman.,Le Manichéisme Medieval,L'Heresie Dualiste dans le Christianisme, trad par Petrement. S., Marty.J, (Paris, 1949) .
Runciman., Romanus Lecapenus.	S.Runciman., The Emporer Romanus Lecapenus and his Reign, (Cambridge,1963)
Sébèos.,Heraclius	Sébèos.,Histoire d'Heraclius,Traduite de l,Armenien et annotee par Frederic Macler,(Paris,1904) .

Shlosser.,Maurikios	F.E. Shlosser.,The Reign of the Emperor Maurikios (582 - 602) (Athens,1994) .
Stratos.,	A. Stratos.,Byzantium in the Seventh Century, I (602-634) translated by Marc ogilvie- Grant (Amsterdam, 1968) .
Symeon Magister ac Logothete ,	Symeon Magister ac Logothete , Symeon Continuatus In:Theophanes Continuatus,CSHB ed Bekker.I (Bonn,1838)- pp.603-760.
Taktikon Uspenskij.,	Taktikon.,Uspenskij (842-843A.D.,Texte,Trad & com, par N. Oikonomidès,dans : les Listes des préséance Byzantines des IX-X siécles,(Paris,1972),pp.41-63.
Theophanes., The Chronicle	The Chronicle of Theophanes Confessor , Byzantine and near Eastern History A284-813, trans with Introduction and Commentary by Mango, C and Scott,R,With the assistance of Greatrex.G, Oxford , 1997.
Theophanes Continuatus.,	Theophanes Continuatus.,Ioannes Cameniata,Symeon Magister ,Georgius Monchus Continuatus , CSHB ed Bekker.I, (Bonn,1838), pp.3-481.
TM	Travaux et Memoires .
Treadgold., Society	W. Treadgold.,A History of the Byzantine State and Society, (California,1997) .
Vasiliev.,A history	A.Vasiliev.,A History of the Byzantine Empire, 324 -1453 (Madison,1952).
Vita Basilli	Constantine Porphyrogenitus.,Historia de Vita et Rebus Gestis Basilli Inclyti Imperatoris,ed. I.Bekker, In: Theoph Cont, CSHB, (Bonn,1838) ,pp.211-353.
Zonaras., Historiarum	I.Zonaras.,Epitomae Historiarum libri,CSHB,(Bonnae,1897)

ثانيا : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

ابن الأثير ، الكامل(ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ابو الحسن على بن ابى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى الملقب بعز الدين: الكامل فى التاريخ، حققه أبو الفداء عبد الله القاضى، ١٠ج، ط٢ (بيروت، ١٩٩٥م).

ابن خرداذبة (ت. فى حوالى عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله: المسالك والممالك ويليه ـ نبذة من كتاب الخراج، لأبى الفرج قدامة بن جعفر (ت. ٣٢٠هـ/٩٣٢م)، (بغداد، د ـ ت) .

قسطنطين السابع، إدارة إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران، (بيروت، ١٩٨٠م) .

قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) أبو الفرج قدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج، ملحق مع كتاب المسالك لابن خرداذبة، بغداد (د . ت).

السيد الباز العريني، الدولة الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م (القاهرة، ١٩٦٠) .

رنسمان، الحضارة الحضارة البيزنطية ، ترجمة/عبد العزيز توفيق جاويد ، وراجعه/ زكى على (القاهرة، ١٩٩٤) .

طارق منصور محمد الجيش فى الإمبراطورية البيزنطية ، من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادي، رسالة ماجستير لم تنشر بعد (كلية الآداب ببنها، ١٩٩٣م).

طارق منصور محمد قطوف الفكر البيزنطى ، ج١، الأدب، القاهرة ٢٠٠٢م .

عاطف مرقص بطرس الأرمن وعلاقاتهم بالبيزنطيين والمسلمين، ١٠٧١-١١٧١م/٤٦٣- ٥٦٧هـ. رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب - جامعة عين شمس، ١٩٨٦.

فايز اسكندر الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١-٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م) ج١ (الإسكندرية ١٩٨٣م).

فايز اسكندر المسلمون والبيزنطيون والأرمن، في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبيوس (١١-٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م) صفحة مشرقة من تاريخ الفتوحات الإسلامية (صنعاء، ١٩٩٣م).

فازيلييف، أ.أ العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة فؤاد حسين على، (القاهرة ، د - ت).

ليلي عبد الجواد إسماعيل الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، (القاهرة، ١٩٨٥م).

محمد عثمان — ثورة توماس الصقلبى فى الإمبراطورية البيزنطية (٨٢١-٨٢٣م/ ٢٠٥ -٢٠٧هـ) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة طنطا (١٩٩٢م) .

ميكيلى أمارى — تاريخ مسلمى صقلية، إعداد محب سعد إبراهيم، ج١ (فلورنسا، ٢٠٠٣م) .

نورمان بينز — الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، محمود يوسف زايد (القاهرة، ١٩٥٠م).

هانى البشير — بيزنطة وبلغاريا، ٦٨١-١٠١٨م(القاهرة ، ٢٠٠١م) .

هانى البشير — البيالصة فى آسيا الصغرى فى ضوء مصنف بطرس الصقلى، مجلة المؤرخ المصرى، العدد الرابع والعشرون، يناير ٢٠٠١م، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ص٤٥ - ٨٨.

هانى البشير — الدولة البيزنطية، ٦٤١-٧١١م (القاهرة، ٢٠٠٢م) .

هانى البشير — تطور البحرية البيزنطية ونشاطها العسكري خلال القرنين الثامن والعاشر للميلاد، مجلة التاريخ والمستقبل، قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة المنيا (يوليو، ٢٠٠٣م).

وسام فرج — دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤ - ١٠٢٥م (الإسكندرية، ١٩٨٢).

وسام فرج — الإمبراطور باسيل الثانى «سفاح البلغار» (٩٧٦ - ١٠٢٥ م)، العوامل التى أثرت على السياسة فى عصره. ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الأول (دار المعارف)، (القاهرة، ١٨٨٢ م) ، ص ١٦٨ - ٢٠٢.

وسام فرج — الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس «٨٨٦ - ٩١٢» «الأبعاد الدينية والدلالة السياسية»، (الإسكندرية، ١٩٩١ م).

وديع فتحى عبد الله — العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامى (٧٤١ - ٨٢٠ م/١٢٤ - ٢٠٥ هـ)، (الإسكندرية، ١٩٩٠ م) .

وفاء عبد الحميد — «الإمبراطور موريس ٥٨٢ - ٦٠٢م ، أحوال الإمبراطورية البيزنطية في عهده» رسالة ماجستير لم تنشر بعد (كلية الآداب - جامعة عين شمس، ١٩٨٨م)،

د. محمد أحمد الشعرى (*)

العلاقة بين إقليم خوارزم والخلافة العباسية

إبان خلافة المقتفى لأمر الله ٥٣٠-٥٥٥ هـ

من خلال رسائل رشيد الدين الوطواط (ت٥٧٣ هـ)

دراسة وثائقية تحليلية مقارنة

المقدمة

هذا بحث يتناول العلاقة بين إقليم خوارزم والخلافة العباسية إبان خلافة الخليفة المقتفى لأمر الله ٥٣٠-٥٥٥ هـ وذلك من خلال رسائل رشيد الدين الوطواط صاحب ديوان الإنشاء فى إقليم خوارزم وأحد المقربين لخوارزم شاه أتسز والى خوارزم آنذاك، وهذا الرسائل تعد من الوثائق التاريخية المهمة التى توضح بجلاء طبيعة العلاقة بين أحد أقاليم الدولة الإسلامية - خوارزم - وبين دار الخلافة العباسية فى بغداد والتى ظلت تحتفظ بقدر من هيبتها .وقد كتبت هذه الرسائل بناء على رغبة أتسز والى خوارزم، وذلك لتوطيد علاقته مع الخلافة العباسية بعد أو وصلت علاقته مع السلاجقة إلى نقطة اللاعودة ثم لإيجاد الشرعية اللازمة لحكم خوارزم مستقلا بها عن سلطان السلاجقة.

*- مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة بجامعة الأزهر.

وينقسم هذا البحث إلى ثلاثة محاور:

الأول: يتناول الأجواء العامة للخلافة العباسية إبان فترة هذه المراسلات والأحداث العامة فى إقليم خوارزم وطبيعة علاقة الإقليم مع السلاجقة التى تميزت فى بداية حكم أتسز ٥٢١ هـ بأنها كانت ودية للغاية ثم دور العداء بين الطرفين الذى يبدأ من سنة ٥٢٩ هـ تقريباً وحتى وفاة أتسز سنة ٥٥١ هـ باستثناء الفترة الأخيرة من حكمه من سنة ٥٤٨-٥٥١ هـ.

الثانى: تحدثت فيه عن شخصية كاتب هذه الرسائل والمجالات التى نبغ فيها من خلال أوثق المصادر التى تحدثت عنه ثم أثبت نصوص هذه الرسائل موضحاً بعض كلماتها ثم الدافع من وراء هذه المكاتبات للخليفة العباسى وتحديد الإطار الزمنى التقريبى لهذه المراسلات.

وفى المحور الثالث: تناولت تحليل هذه الرسائل موازنا بين ما جاء فى ثناياها وما ورد فى المصادر التاريخية المعاصرة وخاصة كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى «ت ٦٣٠ هـ» فقد تضمن معلومات وافية حول الوقائع والأحداث التى دارت بين خوارزم والسلاجقة وقد وضح التطابق فى كثير من الأمور بين ما جاء من الرسائل وما اثبته أبن الأثير فى كتابه إضافية الإشارات التى وردت فى بعض المصادر الأخرى ككتاب الحسينى: زبدة التواريخ وقد استعنت أيضاً ببعض الدراسات الحديثة التى تناولت تلك الفترة وتحدثت عن أهم أحداث تاريخ خوارزم وتاريخ السلاجقة حينذاك. ثم خلصت فى النهاية إلى بعض النتائج.

المحور الأول:

الأجواء العامة للخلافة العباسية وإقليم خوارزم إبان فترة المراسلات

- أهم ملامح الخلافة العباسية إبان النصف الأول من القرن السادس الهجري
- الأوضاع العامة في إقليم خوارزم

- أهم ملامح الخلافة العباسية إبان النصف الأول من القرن السادس الهجري:

لعل أهم ما يميز الخلافة العباسية - بصفة عامة - إبان تلك الفترة خضوعها لسلطان السلاجقة منذ أن بسطوا سلطانهم على مركز الخلافة في سنة ٤٤٧ هـ(١) وعلى الرغم من أن بعض الخلفاء العباسيين قد ضاقوا ذرعاً من أمال السلاجقة وأظهروا هذه الضيق خاصة في خلافة المسترشد بالله (٥١٣-٥٢٩ هـ) (٢) إلا أن الأوضاع ظلت كما هي. فالسلاجقة عملوا على أن تكون الخلافة اسمية فكل أمور الدولة تقريباً في أيديهم لأن القوة الفعلية معهم فهم الذين يولون الخليفة ويتحكمون في ولاية العهد .ولعل أبرز مثال يوضح تسلط السلاجقة على الخلافة - إبان فترة الدراسة ما قام به السلطان السلجوقي مسعود (٣) عندما اختار للخلافة المقتفي لأمر الله ابن المستظهر (٤) وطلب من الخليفة كتابة محضر يتضمن خلع الراشد ابن أخي الخليفة من الخلافة وولاية العهد(٥).

وزيادة من السلاجقة في الحرص والسيطرة على الخلفاء اتبعوا سياسة المصاهرة لزيادة أواصر الارتباط بينهم وبين الخلفاء وتأمينا لسيادتهم وهيمنتهم في ذات الوقت فنجد أن الخليفة المستظهر بالله (ت ٥١٢ هـ) (٦) قد تزوج من خاتون بنت ملكشاه على صداق قدره مائة ألف دينار (٧) أما أخر خلفاء العباسين الذين تزوجوا من السلاجقة فهو الخليفة المقتفي لأمرا لله، فقد تزوج بفاطمة بنت السلطان محمد السلجوقي وذلك في شهر رجب سنة ٥٣١ هـ وهي أخت السلطان مسعود (٨). ورغم حرص السلاجقة على مصاهرة الخلفاء العباسيين إلا أن زواج المقتفي لم يحل دون الخلافات والنزاعات بينه وبين السلاجقة، وزاد الأمر سوء إبان خلافة المقتفي ما أقدم عليه مسعود عندما جرد قصر الخليفة مما تحت يده، فأخذ الدواب والأثاث والذهب والستور، ويقال أن مبايعة السلاجقة للمقتفي كانت مشروطة بألا يكون عند الخليفة خيل ولا اله سفر ولما طلب مسعود مزيدا من الأموال إجابه الخليفة أنه لا يمتلك درهما واحداً وأنه - أي مسعود - أخذ جيمع ما في دار الخلافة بما في ذلك الأثاث، فمن أين يأتي بالمال؟ وأن الخليفة عاهد الله تعالى إلا يأخذ درهما من الناس ظلما أو بغير حق، وهذا الخبر يوضح إلى أي حد وصل استبداد السلاجقة وتسلطهم على الخلفاء، والتضييق عليهم لكي لا تقوم للخلفاء قائمة، ولا شك في أن مثل هذه الأحداث قد ساعدت على زيادة الضيق والتبرم، إلا أن الخلفاء غالبا ما كانوا يخضعون لهذا التسلط، نظراً لعدم وجود القوة اللازمة تحت أيديهم إلا أن المقتفي عمل على التخلص من هذا الاستبداد بتكوين

جيش خاص للخلافة(٩)، وهى خطوة مهمة فى طريق الخلافة، ومكنت الخليفة أيضاً فيما بعد من الدفاع عن بغداد.

وبذلك يمكن القول بأن المقتفى قد بدا حركة إصلاحية تهدف لعودة هيبة الخلافة مرة أخرى، وقد نجح فى ذلك إلى حد بعيد خاصة بعدما علم بوفاة مسعود سنة ٥٤٧ هـ والتى كانت وفاته بداية نهاية سيطرة السلاجقة على العراق (١٠)، فسارع الخليفة عندئذ بطرد شحنة بغداد مسعود بلال (١١)، وصادر داره وديار أصحاب السلطان بجميع ما فيها، وعزل رجال السلطان وعين غلمانا من الروم والأرمن وجعلهم أمراء، وسيطر الخليفة على بلاد العراق من أقصى الكوفة إلى طريق خراسان ونواحى حلوان... فسيطر على ما لم يسيطر عليه خليفة عباسي من ذى قبل منذ أن سيطر السلاجقة على السلطة فى الدولة العباسية (١٢)، وهذه الأحداث تعطى صورة واضحة عن طبيعة علاقة الخلفاء بالسلاجقة.

الأوضاع العامة فى إقليم خوارزم:

يرجع نسب الأسرة الخوارزمية إلى عبد تركى يدعى أنوشتكين (١٣)، اشتراه أحد أمراء السلاجقة وعُمل ساقيا للسلطان السلجوقى ملكشاه (١٤) فظهرت منه نجابة وكفاءة فى عمله، فترقى فى المناصب حتى وصل إلى وظيفة «الطشت دار» (١٥) وجريا للعادة فى مكافئة السقاة والحجاب والحراس بإقطاعات من الأرض، تم إقطاع انوشتكين إقليم خوارزم (١٦) وظل حاكما مخلصاً للسلاجقة حتى وفاته سنة ٤٩٠ هـ ونظراً لوفائه للسلاجقة عينوا ابنه قطب الدين محمد بن انوشتكين (١٧) على خوارزم وتلقب بلقب خوارزم شاه (١٨) وقام قطب الدين ببذل جهود جليلة فى إدارة شئون الإقليم، وقرب إليه أهل العلم والدين والصلاح ومن ثم عظم شانه، ونال منزله عظيمة عند الخوارزميين وعند سلاطين السلاجقة (١٩)، وعندما آلت سلطنة السلاجقة إلى سنجر (٢٠) «أقره على إقليم خوارزم، وقد أخلص خوارزم شاه للسلطان سنجر فقربه إليه واستمرت ولايته على خوارزم لأكثر من ثلاثين عاماً، لم يخرج فيها عن طاعة السلطان، وعمل على وحدة السلاجقة وترابطهم واستقرار الأوضاع فى إقليم خوارزم أيضاً، مما هيأ له أن يقوم بدور عظيم فى حماية الإقليم من غارات الترك (٢١) وظل على ولائه للسلاجقة حتى وفاته سنة ٥٢١ هـ وعرفاناً بالجميل قام السلطان سنجر بإسناد ولاية إقليم خوارزم إلى ابن خوارزم شاه، علاء الدين أتسز (٢٢)، الذى أظهر كفاءة عالية فى تثبيت دعائم حكم الإقليم ونشر الأمن فى البلاد، ومد ظلال الأمن وأفاض العدل، فقر به السلطان سنجر إليه واعتمد عليه وكان دائماً يستصحبه فى أسفاره وحروبه (٢٣). ويمكن تقسيم طبيعة العلاقة بين السلطان سنجر وأتسز على مرحلتين:

الأولى: سادت فيها الثقة والمودة بين الطرفين ،وأظهر خلالها أتسز إخلاصا كبيراً للسلطان السلجوقي، وزاد هذه العلاقة قوة عندما أخمد أتسز المؤامرة التى تعرض فيها السلطان سنجر للقتل فى ٥٢٤ هـ عندما هجم عليه جماعة من أنصار والى سمرقند محمد أرسلان خان، فقبض أتسز عليهم وأنقذ السلطان من شرهم (٢٤)، وفى هذه الحادثة قد زادت من ثقة السلطان فى أتسز وجعلته يعتمد عليه فى حروبه التى خاضها ضد ابن أخيه مسعود سنة ٥٢٦ هـ (٢٥) وتمتد مرحلة الود هذه من سنة ٥٢١-٥٢٩ هـ .ويبدو أن هذه الثقة الكبيرة كانت نقمة على أتسز إذا أثارت عليه حفائظ بعض رجال الدولة السلجوقية (٢٦)، فعملوا على بث العداوة بين السلطان وبين أتسز وكانت هذه العداوة بداية المرحلة الثانية فى العلاقة بين الطرفين، وتمتد هذه المرحلة من سنة ٥٣٠-٥٥١ هـ - وهى السنة التى مات فيها أتسز وهذه المرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة العداء الصريح بين الجانبين، فقد قام جماعة من المقربين للسلطان سنجر بالعمل على التفريق والعداوة بين الطرفين، ولما أحس أتسز بتغير السلطان نحوه، عاد إلى خوارزم وأعلن العصيان، وقرر تأسيس دولة مستقلة له فى إقليم خوارزم، وعمل أيضاً على توسيع رقعة دولته على حساب السلاجقة، وهذه الفترة هى التى دارت خلالها المراسلات مع الخلافة العباسية، والتى كان على رأسها الخليفة المقتفى وقد شهدت هذه الفترة معارك طاحنة بين خوارزم شاه أتسز والسلطان السلجوقى.(٢٧)

وانتهت معظم هذه المعارك لصالح السلاجقة، إلا أن أتسز كان يسارع بالاعتذار وإعلان الولاء للسلاجقة، ثم يعود مرة أخرى إلى عصيانه(٢٨)، ورغم أن السلطان سنجر كان يعلم نوايا أتسز إلا أنه كان يؤثر الصلح نظرا لكثرة المعارك التي خاضتها الجيوش السلجوقية مع القوي المحيطة والمجاورة لها (٢٩) وهذه المعارك كانت فى جملتها تصب لمصلحة أتسز الذى ازداد موقفه قوة بعد انتصاره على السلاجقة سنة ٥٤٣ هـ،(٣٠) وكان من نتيجة ذلك أن قام السلطان سنجر بكتابة منشور لعلاء الدين أتسز يتضمن ولايته لخوارزم - معنى ذلك اعتراف السلطان باستقلال الإقليم وخضوعه لأتسز - وسير له الخلع، فبقى أتسز فى ولايته حتى وفاته سنة ٥٥١ هـ (٣١) وفى العام التالى توفى السلطان سنجر لتنتهى هذه العلاقة، إلا أن وفاة سنجر كانت إعلانا لنهاية قوة السلاجقة فى المشرق، فبدأ الضعف يدب في أوصالها، فى الوقت الذى قامت فيه القوى الجديدة المتمثلة فى البيت الخوارزمى لتأخذ دور السلاجقة فاستقلوا بالإقليم وبدأوا فى السيطرة على بعض أملاك السلاجقة حتى تاخمت أملاكهم مع أراضى الدولة العباسية، بل هددوا حاضرة الخلافة العباسية وحاولوا السيطرة عليها ولم ينجحوا فى ذلك وعادوا إلى بلادهم(٣٢).

المحور الثانى:

رسائل رشيد الدين الوطواط إلى الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله

كاتب الرسائل هو محمد بن محمد بن عبدالجليل بن عبدالملك . . بن سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، رشيد الدين المعروف بالوطواط الأديب الكاتب الشاعر صاحب ديوان الإنشاء(٣٣) فى إقليم خوارزم.

من نوادر الزمان وعجائبه، وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل زمانه فى النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب، طار فى الآفاق صيته، وسار فى الأقاليم ذكره كان ينشئ فى حالة واحدة بيتا بالعربية وبيتا بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا (٣٤).

هكذا قال عنه أقرب الرجال عهدا به، وهو ياقوت الحموى ت ٦٢٦ هـ الذى أثنى على الرجل وذكر مقتطفات كثيرة من شعره ورسائله عندما ترجم له، كما أورد ياقوت أيضاً بعض مراسلات «الوطواط» مع فضلاء عصره فى عدة مواطن من كتابه «معجم الأدباء»(٣٥) وقد تفرد ياقوت بذكر ترجمة الوطواط وعنه أخذ السيوطى فى البغية، والحاج خليفة فى كشف الظنون

ولد رشيد الدين فى مدينة بلخ(٣٦)، ما بين سنتى ٤٨٠، ٤٨٧ هـ (٣٧) وبلخ آنذاك من أعظم مدن خراسان إذا امتازت بكثرة مدارسها وجوامعها ومكتباتها التى كانت مقصدا للفضلاء والعلماء (٣٨) وكان رشيد الدين صغير الجسد، ضعيف البنيان، وربما أطلق عليه الوطواط لأجل ذلك، يقول دولتشاه: أنه كان ضئيل الجثة حاد اللسان ولذلك أسموه الوطواط وهو طائر معروف فى الفارسية باسم فرستوك (٣٩.) أما عن نشأة الوطواط العلمية فقد التحق بنظامية بلخ (٤٠) وكان شيخه الإمام أبو سعد الهروى (٤١) الذى أكثر رشيد الوطواط من ذكره، معترفا بفضله، وقد سجل الوطواط ذلك فى إحدى رسائله لشيخه وذكر فيها سوابق أياديه، وجعل نفسه رهنا لحقوق أستاذه ومربيه(٤٢) وبعد أن فرغ الوطواط من تحصيل مرحلته العلمية فى بلخ، وبرغ خلالها فى الإنشاء باللغتين العربية والفارسية رحل إلى خوارزم والتحق بخدمة ملكها « أبو المظفر علاء الدولة أتسز بن قطب الدين محمد خوارزمشاه» وظل إلى أخريات عمره فى خدمة ملوك خوارزم إلى أن ادركته الوفاة سنة ٥٧٣ هـ (٤٣). ولما كان أتسز قد ولى خوارزم بعد أبيه فى سنة ٥٢١ هـ فإن رشيد الدين التحق به فى نفس التاريخ إذ أنه أشار فى أحد قصائدة عندما أقصى لفترة قليلة عن خدمة أتسز سنة ٥٤٨ هـ – أنه أمضى ثلاثين سنة فى خدمته(٤٤).

تولى رشيد الدين رئاسة دار الإنشاء – ديوان الإنشاء – طوال مدة حكم أتسز على خوارزم، باستثناء الفترة التى أقصى فيها، ثم فى فترة أبناء أتسز حتى قبيل وفاته سنة ٥٧٣ هـ، وكان فى نفس الوقت كاتبه الخاص وأكبر كتاب الدولة ومستودع سر أتسز فقد كان صاحبه فى سفره وحضره، وكانت المودة والألفة مؤكدة وثيقة، محكمة الأساس بينه وبين مولاه، وكان

أتسز يحس بكثير من المتعة فى محاورته مع كاتبه ولم يكن يبتعد عنه ساعة من الساعات حتى أنه أمر ببناء قصر له مجاور لقصره فكان يتحدث معه من خلال النوافذ(٤٥).

وقد عاش الوطواط بجور أتسز إبان عهد المودة مع السلاجقة ٥٢١-٥٣٠ هـ وإبان فترة العداء بينهما واستخدم الوطواط بلاغته وأدبه فى الدفاع عن أتسز، وفى رده على السلاجقة(٤٦).

ومن الأمثلة التى تدل على ذلك وتبين إلى أي حد كان الوطواط يستخدم بلاغته وأسلوبه ما دار إبان حصار السلطان السلجوقي سنجر لقلعة هزارسب سنة ٥٤٣ هـ مع أنورى شاعر السلطان (٤٧)، وتدل ردود الوطواط في هذه المواقف على مدى ما تمتع به من قريحة أدبية، مكنته أن يكون اللسان الناطق والمعبر عن أتسز وإقليم خوارزم.

من أهم المجالات التى برع فيها الوطواط، مراسلاته الأدبية التى تعبر عن طبيعة عصره وهذه المكاتبات كان يرسل بها الوطواط إلى كبار أدباء وعلماء وفضلاء عصره، وذلك فى أسلوب أدبى رفيع، وتعطى رسائل الوطواط مع رجال زمانه صورة واقعية عن طبيعة علاقة العلماء مع بعضهم البعض (٤٨) فمن جملة مراسلاته ما أورده ياقوت الحموى فى إحدى كتاباته لأبى القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشرى (٤٩) وفيها:

لقد حاز جار الله دام جماله　　فضائل فيها لا يشق غباره

تجدد رسم الفضل بعد اندارسه　　بآثار جار الله فالله جاره

أنان من لفظتى الأقدار من أوطانى ومعاهد أهلى وجيرانى، إلى هذه الخطة التى هى اليوم بمكان جار الله أدام الله دولته جنة للكرام، وجنة من نكبات الأيام، كانت قصوى منيتى وقصارى بغيتى أن أكون أحد الملازمين لسدته الشريفة، التى هى مخيم السيادة، ومقبل أفواج السادة من الفى فيها عصاه حاز فى الدارين مناه، ونال فى المحلين مبتغاه، ولكن سوء التقصير، أو مانع التقدير حرمنى تلك الخدمة وحرم على هذه النعمة، والآن أظن، وظن المؤمن لا يخطئ، أن آفل جدى هم بالإشراق، ودابل إقبالى أقبل على الإيراق، فقد أجد فى نفسى نورا مجددا يهدينى إلى جنته ومن شوقى داعيا موفقا يدعونى إلى حضرته (٥٠).

هذا غير باقى المراسلات المتنوعة إلى علماء زمانه في بلاد ما وراء النهر ودار الخلافة العباسية وكبار رجال الدولة فيها (٥١).

مؤلفات الوطواط :

ذكر صاحب معجم الأدباء جملة من مصنفات الوطواط نذكر منها: حدائق السحر فى دقائق الشعر - باللغة الفارسية (٥٢) وديوان شعر، وديوان رسائل عربى (٥٣) وديوان رسائل فارسى وكتاب تحفة الصديق من كلام أبى بكر الصديق «رضى الله عنه» وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب «رضى الله عنه» وغير ذلك (٥٤) أما المراسلات موضوع هذه الداسة

فجاءت ضمن مكاتبات الوطواط ضمن مجموعة رسائله وقد دارت هذه المكاتبات خلال الفترة الممتدة من سنة ٥٣٩: سنة ٥٥١ هـ وهى تلقى الضوء على طبيعة الأوضاع بين خوارزم والخلافة من ناحية، وتوضح أهم الأحداث التى نشبت بين خوارزم والسلاجقة، وكما أسلفنا فإن الفترة من ٥٣٠ - ٥٥١ هـ تميزت فى مجملها بالعداء المستحكم بين السلاجقة وخوارزم وشهدت المنطقة عدة معارك بين الجانبين وبلغ مجموع الرسائل الموجه إلى الخلافة العباسية خمس رسائل.

ولعل الدافع الأساسى لهذه المراسلات أن أتسز أراد إضفاء الشرعية اللازمة لحكمه من خلال موافقة الخليفة على استقلال الإقليم، فهو قد أعلن العصيان على السلاجقة ولم يكن له قنوات اتصال بالخلافة لأن ولاءه كان للسلطان السلجوقى، فلما تباينت الأهداف أراد أتسز أن يحصن نفسه بموافقة الخليفة على استقلاله، واستغل أتسز ضيق الخلافة من تصرفات بعض سلاطين السلاجقة - والتى نوهنا عن بعضها فيما سبق - فكاتب الخلافة ليجد العون الصادق لتحقيق أهدافه وأهداف الخلافة أيضاً التى سعت للعمل على إضعاف قوى السلاجقة.

على كل حال فهذه المراسلات تلقى الكثير من الضوء على الأحداث التى دارت فى خوارزم آنذاك وتكشف كذلك عن الأحداث التى تعرض لها سلطان السلاجقة والقوى الخارجية التى شاركت فى الأحداث التى دارت هناك.

الدافع وراء هذه الرسائل:

قبل أن نتناول هذه الرسائل بالتحليل من الناحية التاريخية، ينبغى أن نشير بداية إلى الدافع الذى أدى بأتسز لمكاتبة دار الخلافة. فالمعلوم أن العلاقة بين إقليم خوارزم والخلافة العباسية قبل هذه الرسائل، كانت داخلة فى نطاق علاقة السلاجقة بالخلافة، لأن خوارزم إقليم تابع للسلاجقة، تدين بالولاء للسلطان السلجوقى فعلاقتها بهذه الصورة مع الخلافة العباسية كانت نفس علاقة السلاجقة بالخلافة.

أما الدافع وراء هذه الرسائل فيكمن فى المتغيرات التى شهدتها العلاقة بين أتسز، والسلطان السلجوقى سنجر، فقد طرأت عدة متغيرات سلبية بينهما وصلت إلى العداء والاقتتال بين الفريقين ففى سنة ٥٣٣ هـ ذكر أبن الأثير أنه فى شهر محرم من هذه السنة سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه أتسز بن محمد، وسبب ذلك: أن سنجر بلغه أن أتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه، وترك الخدمة له، وأن هذه الأمر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه، فأوجب ذلك قصده وأخذ خوارزم شاه أتسز فجمع عساكره وتوجه نحوه...(٥٥). فمن خلال هذه النص الذى أورده أبن الأثير يظهر أن السبب الرئيسى الذى أدى للقتال بين الجانبين يرجع إلى أن السلطان ساوره الشك نتيجة لما علم - أن أتسز يريد أن يخرج عليه، فأوجب ذلك قتاله، ورغم أن أتسز منذ أن ولى خوارزم سنة ٥٢١ هـ

لم يفكر في هذا الأمر، إلا أن غضب السلطان على أتسز، وسعي الوشاة للسلطان بذلك أدى للقتال.

على كل حال فالقتال الذي دار في سنة ٥٣٣ هـ قد أنتهى بهزيمة أتسز وفراره فقام سنجر بإقطاع الإقليم إلى غياث الدين شاه ولد أخيه محمد، ورتب له وزيرا، وإتباعا وحاجبا وعاد إلى مرو في جمادي الآخرة من نفس السنة، فكانت فرصة أتسز لدخول خوارزم وطرد جند السلطان منها - خاصة أن أهالي خوارزم كانوا يكرهون جند السلطان السلجوقي - فعملوا على مساعدة أتسز - وبعد أن ثبت أتسز في موقعه جرد جيشا وحارب به السلاجقة ودخل خراسان واستباحها وكان ذلك في سنة ٥٣٦ هـ (٥٦) ثم كانت الموقعة التي حاصر فيها السلطان قلعة هزاراسب وهي الموقعة ألتي وردت في ثنايا الرسالة الأولى خلال سنة ٣٥٨ هـ والتي انتهت باعتذار أتسز للسلطان سنجر. (٥٧)

من ناحية أخرى كان أتسز يعلم أن الخلافة ضاقت بتصرفات السلاجقة نتيجة لعملهم على إضعاف الخلافة، وتجريد الخليفة من وسائل القوةً حتى للدفاع عن نفسه، وقد ظهر هذا الأمر واضحاً إبان خلافة المقتفي الذي تم تجريد قصره من الأثاث ومطالبته المستمرة بالأموال، ذكر السيوطي أن السلطان مسعود بعد أن أظهر العدل ومهد بغداد أخذ جميع ما في دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور وسرادق، ولم يترك في إصطبل الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية بغال برسم الماء.. «ثم أورد كلاما للمقتفي في رده على مسعود عندما طالبه ببعض الأموال حيث قال «ما رأينا أعجب من أمرك! أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى وأن الراشد ولى ففعل ما فعل، ورحل وأخذ ما تبقى ولم يبق إلا الأثاث، فأخذته كله وتصرفت في دار الضرب، وأخذت التركات والجوالي فمن أي وجه حق نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها، فإني عاهدت الله إلا أخذ من المسلمين حبة ظلما (٥٨) فهذه الأمور قد أدت إلى كراهية الخلافة للسلاجقة، ومن ثم تلاقت أهداف أتسز والخلافة في إضعاف السلاجقة، أو القضاء على سيطرتهم وهو ما وضح في ثنايا هذه الرسائل.

أما النطاق التاريخي الذي دارت خلاله هذه المراسلات فهو بعد عام ٥٣٨ هـ، حيث ورد في الرسالة الأولى وصف للمعارك التي دارت بين السلاجقة وأتسز حول قلعة هزاراسب.

أما الهدف الرئيسي من هذه الرسائل فقد بدا واضحا ما ورد في آخر الرسالة الأولى أن أتسز يريد أن يستقل بخوارزم وأن يلى أمرها كولاية تابعة للخلافة، تأخذ شرعيتها من الخليفة العباسي.

المحور الثالث:

تحليل الرسائل ومقارنتها بما ورد فى المصادر التاريخية المعاصرة

تحليل نص الرسالة الأولى

تضمنت الرسالة الأولى بعد حمد الله سبحانه وتعالى والثناء عليه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم الدعاء للخليفة وذكر مآثر وجهود خلفاء العباسيين العديد من النقاط نجملها فيما يلى:

أولاً: حرص أتسز على إثبات الخضوع والولاء الكامل للخليفة، ولهذا لم يرد ذكر اسمه صراحة فى هذه الرسائل، وإنما يذكر اسم العبد، للدلالة على إثبات ولائه للخلافة.

ثانياً: تحدث أتسز بعد ذلك عن الجهود العظيمة التى قام بها آباؤه، فى التزامهم لمذاهب السداد، والمحاماة عن خطة الدين وبيضته، وخاصة حال أبيه قطب الدين محمد خوارزم شاه، الذى عاش ثمانين سنة كان فى أغلبها يوقف أمواله ويصرف أعماله على تمهيد قواعد الخيرات وتشييد أركان الحسنات.

ثم ذكر الدور الجهادى لوالده (٥٩) فى جهاد الترك ومواطن الشرك، حتى نام أهل خراسان وخوارزم مطمئنين آمنين فى أنفسهم وبيوتهم، كما كان مدة حياته أمينا ومدافعا عن آل سلجوق.

ثالثاً: الإشارة إلى تولية أتسز مكان والده بعد وفاته فى سنة ٥٢١هـ وأنه قام مقام والده وسد مسده وركب مركبه وذهب مذهبه، وهى إشارات لمدى إخلاص أتسز مع السلاجقة كما كان والده، وأيضا لتوضيح دوره الجهادى والبطولى فى الذب عن المسلمين والدفاع عنهم وملازمته للسلاجقة وحمايته لهم.. ولو سأل سائل عن موقف العبد فى مساعدتهم، ووقائعه فى معاضدتهم لحكتها خطة جند (بلد على نهر سيحون) وروتها بقعة سمرقند، وخبرت بها أرض العراق، وحدثت عنها الآفاق (٦٠).

رابعاً: ذكر أتسز بداية الشقاق مع السلطان سنجر، فبعد أن استمرت العلاقة حوالى تسع سنوات على أحسن حال، ظهر التغير والتبدل.. ولما حان وقت المجازاة قابل هذا الذى هو أكبر تلك القبيلة سناً وحرمة وأعظم تلك العشيرة جاهاً وحشمة، حسنات العبد وأسلافه بما قابل من استئصال بقاعه، واستباحة دماء أتباعه وأشياعه، واحترام رعاياه الذين هم ودائع الله عند الرعاة، وأمانات الواجب صونها على الرعاة(٦١). فأتسز يحكى للخليفة ما حدث من السلطان سنجر لرعاياه، فبعد ما أظهر الولاء والطاعة لسنجر، وكان ينتظر الجزاء الحسن نظير ما قدم، إلا أن ما حدث لأتباعه من قبل السلطان أدى به لإعلان العصيان على السلطان(٦٢)، فهذه وجهة نظر أتسز فى بيان سبب الشقاق بينه وبين السلطان.

إلا أن «أبن الأثير» يذكر فى السياق نفسه - فى حوادث سنة ٥٣٣ هـ أن السلطان سنجر سار إلى خوارزم لمحاربة أتسز، وسبب ذلك أن سنجر بلغه أن أتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه، وترك الخدمة له، وأن هذا الأمر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه، فأوجب ذلك قصده(٦٣). وقد انتهت هذه الواقعة باعتذار أتسز وطلب العفو من السلطان سنجر الذي وافق على ذلك(٦٤) ومن خلال ما أورده أتسز فى رسالته الأولى إلى الخليفة، وما ذكره أبن الأثير يمكن القول بأن أتسز رأى أن مكانته قد انخفضت عند السلطان، ففكر فى الخروج عليه والاستقلال بما تحت يده، ولو كان ذلك على حساب أملاك السلطان السلجوقى، وربما عجل بذلك ما حدث لبعض أتباعه من قبل رجال السلطان، إضافة إلى ذلك استغل أتسز ما تعرض له السلطان من هجوم من القبائل المجاورة وخاصة «الخطا»، فعمل على انتهاز هذه الفرصة لكى يستقل بالإقليم.

خامسا: تسلط الإسماعيلية، فيذكر أتسز بعد ذلك ما أحدثه الإسماعيلية - الباطينة (٦٥) بالسلاجقة، ويلمح فى نبرة لا تخلو من المتشفى إلى أن ما حدث للسلاجقة يعد عقابا لما فعلوه مع أتباعه، ولا ينسى أن يذكر الخليفة بما حدث لكل من الخليفة المسترشد (٦٦)، والخليفة الراشد (٦٧) من قبل هذه الجماعة، وكأنه يحمل مسئولية ما جرى لهم على السلاجقة، إلا أن ما جرى من الإسماعيلية فى بلاد خراسان وما وراء النهر لم يسلم منه أحد.

وصفوة القول بالنسبة للإسماعيلية أن الفترة السابقة لهذه الرسائل والمعاصرة لها، شهدت تسلطا كبيرا من قبل هذه الطائفة فى خراسان وما وراء النهر، وقد ذكر غير واحد من المؤرخين لهذه الفترة الكثير من البلايا التى أصابت السلاجقة وغيرهم من المسلمين على أيدى هذه الجماعة نذكر منها:

١- فى ٥٢١ هـ استشهد معين الملك وزير السلطان السلجوقى سنجر على يد الباطنية، مما ترتب عليه زيادة العداوة بين السلطان سنجر والإسماعيلية، وقاد السلطان بنفسه جيشا كبيرا لمحاربتهم(٦٨).

٢ - فى ٥٢٨هـ اجتمع مع العساكر السنجرية مع الأمير أرغن، وحصروا القلعة المسماة كردكوه بخراسان وهى للإسماعيلية - بعدما شغبوا على الأهالى - وضيقوا على أهلها، وطال حصرها وعدمت عندهم الأقوات، فأصاب أهلها تشبح، وكاد الأمير أن يفتح هذه القلعة لولا وصول مدد إلى حبسه الإسماعيلية داخل القلعة(٦٩)

٣- فى ٥٣٤ هـ قتل المقرب جوهر، وكان من أقرب المقربين إلى السلطان سنجر على أيدى الإسماعيلية (٧٠).

٤- وفي عام ٥٣٤ هـ أيضا قام الإسماعيلية بقتل الكثير من كبار عسكر السلطان سنجر، بعد أن احتالوا عليهم وارتدوا ملابس نسائية (٧١) وغير ذلك من الفظائع التى ارتكبتها هذه الجماعة ومما لا شك فيه أن ما قام به الإسماعيلية قد أثر تأثيرا كبيرا على السلاجقة، وأضعف قواهم، وكان ذلك من الدوافع التى جعلت السلطان سنجر يهادنهم، ريثما يستعيد قواه

ويخرجهم من بلاده، وقام بقتالهم عدة مرات، وأبلى فى هذا الشأن بلاء حسنا، إلا أن هزيمة سنجر ٥٤٨هـ من الغز أصاب السلاجقة إصابة بالغة، إذ سرعان ما وهنت قوتهم، فوجدت الإسماعيلية الفرصة وفرضوا سطوتهم على بعض أملاك السلاجقة بعد أن قتلوا الكثير من المسلمين، واستمروا كذلك حتى ٥٥٢هـ عندما اجتمع عليهم رستم بن على بن شهريار وحاصرهم فى قلعة الموت، وهجم عليهم وأحدث فيهم قتلا كثيرا، فأصابهم الوهن كنتيجة لهذا الهجوم، وقل بأسهم عن العباد(٧٢)

وخلاصة الأمر أن أتسز ظن أن ما قام به الإسماعيلية من جرائم ضد السلاجقة كان عقابا لهم ولاشك فى أنه غير مصيبا فى ذلك لأن هذه الطائفة كانت وبالا على المسلمين عامة، وكانت تستلزم توحد المسلمين وتجمعهم، للتخلص من شرورهم.

سادسا: تحدث أتسز بعد ذلك فى رسالته الأولى للخليفة عن الحرب التى دارت رحاها بين السلطان سنجر، الجيش الخوارزمى حول قلعة هزاراسب وهذه القلعة قد حاصرها السلطان سنجر لمدة خمسة أيام دون قتال، ثم دارت الحرب بين الفريقين عشرين يوما، قتل فيها العدد الكثير من الجانبين ولم ينته هذا القتال إلا بعد أن تم تخفيف الحصار من قبل سنجر، ثم رحيله عنها دون أن يحقق انتصارا كاملا على أتسز، واتجه السلطان - حسبما ذكر أتسز - للطواف فى القرى حتى ترك خوارزم دون أن يحقق مراده(٧٣).

وما أورده أتسز فى هذا الموضوع يتطابق بصورة ما مع ما ذكره المؤرخون المعاصرون وإن اختلفت نهايته عما ذكره أتسز فابن الأثير يذكر هذه الحادثة بقوله: إن السلطان سنجر سار بما كره إلى خوارزم، فجمع خوارزم شاه أتسز عساكره، وتحصن بالمدينة، ولم يخرج منها لقتال، لعلمه أنه لا يقوى على قتال سنجر، وكان القتل يجرى بين الفريقين من وراء السور، فاتفق فى أحد الأيام أن هجم أحد أمراء سنجر على الجانب الغربى من البلد، وكان منقال التاجى - أحد أمراء سنجر - هجم من الشرق، فانهزم منقال عند البلد، وبقى الأمير وحده، واستدفى حفظه، فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه، عزم على العودة إلى مرو ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما، فاتفق أن خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة، ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد، فأجابه إلى ذلك وأصلحا وعاد سنجر إلى مرو، وأقام خوارزم شاه بخوارزم(٧٤)

أما الحسينى، فذكر أن السلطان سنجر وصل لقلعة هزاراسب ورماها بالمنجنيقات وطال الحصار حتى استقر الأمر على أن يأخذ سنجر ما أخذه أتسز من مرو(٧٥) وأن يقف بإزاء السلطان من شرقى جيجون وينزل بحيث يرى ويقبل الفرض، وعاد سنجر إلى خراسان(٧٦) والشاهد فى الأمر أن الصلح الذى تم بين الطرفين قد أورده من أرخو لهذه الفترة إلا أن أتسز لم يتعرض لذكر هذا الصلح فى رسالته للخليفة، فهو لا يريد أن يظهر أمام الخليفة بالضعف.

على كل حال فهذه ليست المرة الأولى التى يعرض فيها أتسز الصلح على السلطان ويسعى إليه، فقد سبق له الاعتذار فى سنة ٥٣٣ هـ عن بعض أفعاله (٧٧).

ويبدو أن السلطان قد يأس من إصلاح أتسز، وعلم أنه لن يعود إلى سابق عهده إلا أنه وافق على الصلح، لكيلا يفتح على نفسه جبهات عديدة أخرى، خاصة أن قبائل الخطا كانت تترقب هذه الأحداث لكى تثب على أملاك السلطان والإسماعيلية تقف للسلطان بالمرصاد، فيبدو أن السلطان أثر تهدئة الأمور مع أتسز، ورضى بالاعتذار المقدم منه، وعاد إلى خراسان.

سابعا: موقعة ٥٤٢هـ بين أتسز والسلطان سنجر.

ثم يتابع أتسز سرد باقى الأحداث للخليفة ويذكر ما حدث مع السلطان فى آخر مواقعه معه، وهى الحرب التى نشبت بين الطرفين سنة ٥٤٢ هـ فأتسز قد استشار العلماء والفقهاء لكى ينازل السلطان، فأقروه على ما نوى عليه، فعقد العزم على خوض القتال مع السلطان وهى الموقعة الأخيرة بين الجانبين والتى راح ضحيتها مالا يحصى عدده من الجنود ويبدو أن سير هذه المعركة كان فى صالح السلطان أيضا إذا استولى على قلعة هزاراسب بعدما حاصرها لمدة شهرين(٧٨) إلا أن المعركة فى نهاية الأمر لم تنته لصالح أحد الطرفين بصورة كاملة بل انتهت كسابقتها بالصلح بين الطرفين بعد أن قام أتسز بالاعتذار للسلطان سنجر الذى أصابه الملل من كثرة حروبه مع أتسز، فعاد إلى خراسان وقد استقر رأيه على الاعتراف بأتسز واليا مستقلا على خوارزم.(٧٩)

وكان هذا الاعتراف من السلطان سنجر تصرفا عاقلا، لأنه أدرك أن أتسز لن تصفو نفسه له، كما أن إقليم خوارزم بذلك يشكل حائطا منيعا بينه وبين قبائل الخطا فأراد سنجر أن يعيد استقرار جيشه ريثما يتهيأ له الوقت المناسب لمقاومة أعدائه وهزيمتهم إلا أن الأمور التالية لذلك لم تكن فى صالح السلاجقة ففى سنة ٥٤٨ هـ تعرض السلطان سنجر وجيشه لهزيمة قاسية من الغز(٨٠) ووقع أسيرا لديهم حتى استطاع أن يهرب من أسره بعد وفاة زوجته تركان خاتون.(٨١)

ولاشك فى أن هذه الهزيمة أثرت تأثيرا كبيرا فى كيان الدولة السلجوقية إذ تعرضت مرو ونيسابور وغيرها من أمهات المدن إلى هجمات متتالية من الغزو فى نفس الوقت حاول السلطان جمع شتات جنده وتكوين جيش جديد إلا أن الأحوال التى وجدها فى البلاد أصابته بالغم والهم والمرض إلى أن توفى سنة ٥٥٢هـ (٨٢)، على كل حال فإن الرسالة تعرضت فى أحد أجزائها لما دار بين السلطان وأتسز فى موقعة سنة ٥٤٢ هـ مع ذكر بعض المبالغات التى تظهر قوة جيش خوارزمشاه، وقد وضحنا ما انتهت إليه هذه الموقعة التى يمكن أن نقول عنها أنها كانت بداية النهاية لقوة السلاجقة التى انهارت بعدما حدث لها من هزيمة أمام الغز.وبذلك تهيأت الفرصة المناسبة لأتسز لكى يقوم بأمر خوارزم ويعمل على تثبيت دعائمها لتكون القوة الجديدة والبديلة عن السلاجقة.

ثامنا: أتسز يطلب مرسوما بولايته على خوارزم.

بعد أن استعرض أتسز الأحداث التى دارت بينه وبين السلطان سنجر وصل من خلال هذه الرسالة إلى مبتغاه الذى يتمثل فى طلب مرسوم من الخليفة يقره فيه على خوارزم لإضفاء

الشرعية اللازمة لهذه الولاية، والتى تمثل الخلافة الجهة الشرعية لإصدار مثل هذا المرسوم كما أن أتسز رأى أن يملأ الفراغ السياسى فى المنطقة الذى نتج عن ضعف السلاجقة فنراه يقول فى آخر الرسالة الأولى..

ويرجو العبد من حسنات تلك الحضرة الزاهرة أن يصدر عنها باسمه، منشور برسمه على ولاية خوارزم جانبيا: شرقيها وغربيها وما ينضاف إليها وينعطف عليها من بلادها وجبالها وقفارها.. بالتوقيع بالإشراف الأعلى ليكون ذلك مرغمة لأنوف الحاسدين ومكسرة لقلوب القاصدين وتنقطع بيمن ذلك العهد أطماع العدو من ديار العبد وبلاده وتندفع عنها أسباب شره وفساده(٨٣)

وهكذا يختم أتسز رسالته الأولى للخلافة بطلب منشور رسمى بولايته لكى يستطيع صد الأعداء عن مهاجمة بلاده وليكون عونا لأمير المؤمنين فى هذه البلاد.

تحليل الرسالة الثانية

أما الرسالة الثانية التى بعث بها أتسز للخليفة المقتفى فقد جاءت مختصرة قياسا بالرسالة الأولى. فقد بدأها أتسز بحمدالله والثناء عليه وبالصلاة على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ثم تناول ما يلى:

أولا: حرص أتسز على تقديم فروض الولاء والطاعة واجتهد فى الدعاء للخليفة ولإثبات طاعته له وأكد على ذلك بذكر كلمة العبد بدلا من اسمه.

ثانيا: ابدى أتسز اعتذاره الشديد عن عدم تمكنه من زيارة مقر الخلافة ورؤية الخليفة، بسبب العوائق التى تعترضه فى خوارزم ويأتى فى مقدمتها: أن خطة العبد لصيقة ببلاد الشرك من ديار الترك والعبد فى أكثر أوقاته وأغلب حالاته مشغول بمحاربة أعداء الدين، ومقارعة أحزاب الشياطين للذب عن الإسلام(٨٤).

فأتسز بهذا الكلام يوضح للخليفة صعوبة موقفه فى خوارزم بسبب تربص الأعداء به وهم قبائل الخطا الوثنية المجاورة لإقليم خوارزم، فرغم السياسة السلمية التى كانت سائدة بين الطرفين إبان حرب أتسز وسنجر ٥٣٣ هـ إلا أن الخطا بعد أن استطاعوا هزيمه السلطان سنجر فى موقعة قطوان سنة ٥٣٦ هـ (٨٥) اشتد أمرهم فى السنوات التالية، ولم يصبحوا قوة متحالفة مع أتسز بل أصبحوا خطرا حقيقيا عليه، فقد بسطوا سلطانهم على بلاد ما وراء النهر، وأصبحوا مجاورين لإقليم خوارزم ويهددون أمنه ويطمعون فى أراضيه واتجهوا بالفعل إلى الأ راضى التابع لخوارزم والواقعة غرب نهر جيجون وهددوا بقوة مدن سرخس ومرو ونيسابور، ونهبوها، وذلك دفع خوارزم شاه إلى دفع جزية سنوية قدرها ثلاثين ألف دينار، بالإضافة إلى مجموعات من الخيل والماشية وبذلك أمن أتسز هذا الجانب، إلا أنه لا يستطيع ترك الإقليم خشية عودة الخطا. واستمرت سياسة المهادنة مع الخطا حتى وفاة أتسز سنة ٥٥١هـ ولم تحرر بلاد ما وراء النهر منهم إلا فى سنة ٦١٢ هـ على يد علاء الدين محمد بن تكش(٨٦)

ثالثا: تضمنت الرسالة بعد ذلك الشكر الجزيل للخليفة لأنه خلع على العبد وأقره على ما تحت يده وبذلك تحقق هدف أتسز وأصبح واليا مستقلا على الإقليم، يدين بالولاء للخلافة فقد اعترفت الخلافة بحكمه وأقرته على ما تحت يده، وهذا ما كان يسعى إليه. وقد اتضح ذلك في قول أتسز. وأما الخلع الحاصلة للعبد والتشريفات الواصلة إليه من المواقف المقدسة قدسها الله، فقد هزت عطفه وشدت من أزره، وأطلعت نجوم فجره بعد أفولها، وكللت رياض عيشه بعد ذبولها وعرضها العبد على كل حاضر وباد ونادي عليها في كل محفل وناد، ولم يبق أحد من أئمة خوارزم وعلمائها وخطبائها إلا دعا للمواقف المقدسة على ذرى الأعواد(٨٧)

فهو يصف السعادة الغامرة التى عمت خوارزم من هذا الخلع ويشكر الخليفة على جميل صنعه، ويلاحظ أن أتسز فى هذه الرسالة لم يتطرق إلى أى أحداث بينه وبين السلاجقة مما يدل على هدوء الأوضاع بينهما وأن هذه الرسالة كتبت بعد سنة ٥٤٣ هـ. بعدما أقر سنجر باستقلال أتسز فى خوارزم(٨٨).

حول الرسالة الثالثة والرابعة

فى الرسالة الثالثة نجد أن أتسز كرر – بعد المقدمة – معظم ما أورد فى الرسالة الثانية وأهم النقاط التى اشتملت عليها الرسالة الثالثة: –

١– أوضح أتسز ولاءه التام للخليفة العباسى المقتفى لأمر الله، وأشار إلى جهاد خلفاء بنى العباس، ودورهم فى الدفاع عن ديار الإسلام.

٢– أشار أتسز بعد ذلك إلى عدم تمكنه من زيارة الخليفة، واعتذر بشدة عن ذلك بسبب موقع إقليم خوارزم المتاخم للأعداء».. فخوارزم حماها الله ثغر واقع فى نحر الكفر وراءها أعداء من الكفار شداد الأنياب، حداد الأظافر، والعبد يغزوهم كل سنة كرتين فى فصلين مختلفين(٨٩).

٣– فأتسز يشير إلى الأهمية الحيوية لإقليم خوارزم، كثغر مهم من ثغور الإسلام، ووجوده فى الإقليم أمر ضرورى، بسبب تربص الأعداء به، خاصة بعد الضعف العام الذى أصاب السلاجقة.

ثم يختم أتسز هذه الرسالة بالدعاء للخليفة، وأنه طوع أمره فيما يطلبه منه.

أما الرسالة الرابعة:

فجاء مضمونها مطابقا للرسالة الثالثة من حيث إثبات الولاء والطاعة للخليفة. ثم بيان أهمية إقليم خوارزم وحرص خوارزم على التواجد هناك، ثم اعتذاره عن عدم زيارة الخليفة. وأشار أتسز فى هذه الرسالة إلى أنه انتهز الفرصة المناسبة فى ذلك العام وقام أداء حجة

الإسلام، ثم عاد مسرعا إلى خوارزم، ولم تتعرض الرسالتان لأى أحداث مع السلاجقة مما يدل على استمرار الهدوء بين الطرفين.

الرسالة الخامسة

أما الرسالة الخامسة والأخيرة التى كتبها أتسز للخليفة المقتفى فقد تضمنت - بعد المقدمة - العديد من النقاط المهمة والتى تتمثل فيما يلي:

أولا: كرر أتسز بيان أهمية إقليم خوارزم، كثغر معروف من ثغور الإسلام، وقصر معمور من قصور الشرائع والأحكام، ثم بين ما يقوم به من دور جهادى للدفاع عنها، وأنه لم يأل جهدا فى سبيل حمايتها، والزود عنها، وأنه فى سبيل تأمينها يتوغل فى بلاد الشرك، وفى بحبوحة ديار الترك، لصيانة مواطن المسلمين من مكائدهم(٩٠).

وأتسز يسوق هذه المبررات فى إطار اعتذاره للخليفة، لأنه لم يتمكن من زيارته، وهو محق فى ذلك، بسبب الأوضاع العامة التى كانت سائدة هناك، فقبائل الخطا تنتهز أى فرصة للانقضاض على أطراف خوارزم، بل تحاول أن تسيطر على الإقليم بأسره، لذا كان من الضرورى أن يظل أتسز فى الإقليم لحماية خوارزم(٩١).

ثانيا: أشار أتسز بعد ذلك إلى ما حل بخطة خراسان التى هى سرة بلاد إيران، واستيلاء العصاة عليها إضافة لما أصاب بلاد ما وراء النهر، التى هى غرة ديار نوران، من استعلاء الطغاة، فعذب الراكع والساجد، وخربت المدارس والمساجد، وسفكت الدماء المحرمة، وأهلكت النفوس المكرمة، حتى مالت دعائم الدين..(٩٢)

وأتسز فى هذا الجزء من الرسالة يصف الكوارث التى حلت بخراسان، وبلاد ما وراء النهر، وما عاناه المسلمون هناك: وتفصيل هذا الأمر حسبما أورده ابن الأثير فى أحداث سنة ٥٤٨ هـ - والذى جاء مطابقا مع ما ذكره أتسز فى رسالته:

«فى هذه السنة فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز، وهم طائفة من الترك مسلمون، كانوا بما وراء النهر، فلما ملك الخطا - الوثنيين - أخرجوهم منه، فقصدوا خراسان، وكانوا خلقا كثيرا، فأقاموا بنواحى بلخ، يرعون فى مراعيها.. فأراد مقطع بلخ إبعادهم، فصانعوه بشيء بذلوه له، فعاد عنهم فأقاموا على حالة حسنة، لا يؤذون أحدا، ثم إن قماج مقطع بلخ أمرهم بالخروج عن بلده، فامتنعوا وانضم بعضهم إلى بعض، واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك، فسار قماج إليهم فى عشرة آلاف فارس، فجاء إليه أمراؤهم، وسألوه أن يكف عنهم، ويتركهم فى مراعيهم، ويعطونه من كل بيت مائتى درهم، فلم يجيبهم إلى ذلك، وشدد عليهم فى الانتزاح عن بلده، فعادوا عنه واجتمعوا، وقاتلوه فانهزم قماج، ونهبوا ماله ومال عسكره، وأكثروا القتل فى العسكر والرعايا، واسترقوا النساء والأطفال، وعملوا كل عظيمة، وقتلوا الفقهاء، وخربوا المدارس، وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو، وبها السلطان

سنجر، فأعلمه الحال، فراسلهم سنجر بتهديدهم وأمرهم بمفارقة بلاده، فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم، ويتركهم في مراعيهم، فلم يجبهم إلى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد، واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس وقصدهم، ووقع بينهم حرب شديدة، فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا، وتبعهم الغز قتلا وأسرا، فصار قتلى العسكر كالتلال، وقتل قماج، وأسر السلطان سنجر، وأسر معه جماعة من الأمراء، فأما الأمراء فضربوا أعناقهم، وأما السلطان سنجر فإن أمراء الغز اجتمعوا وقبلوا الأرض بين يديه، وقالوا: نحن عبيدك، لا نخرج عن طاعتك فقد علمنا أنك لم ترد قتالنا، وإنما حملت عليه، فأنت السلطان، ونحن العبيد، فمضى على ذلك شهران أو ثلاثة ودخلوا معه إلى مرو، وهي كرسي ملك خراسان، وطلبها منه بختيار - أحد قادة الغز - إقطاعا، فقال السلطان هذا دار الملك، ولايجوز أن تكون إقطاعا لأحد، فضحكوا منه، وحنق له بختيار بفمه، فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو، وتاب عن الملك، واستولى الغز على البلاد، وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله، وولوا على نيسابور واليا، فقسط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم، وعلق في الأسواق ثلاثة غرائز.

وقال: أريد ملء هذه ذهبا، فثار عليه العامة، فقتلوه ومن معه، فركب الغز ودخلوا نيسابور، ونهبوها نهبا مجحفا وجعلوها قاعا صفصفا، وقتلوا الكبار والصغار، وأحرقوا وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها. . ويعلق ابن الأثير على هذه الأفعال بقوله: ويتعذر وصف ما جرى منهم بتلك البلاد جميعا، ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغز، غير هراة ودهستان، لأنها كانت حصينة فامتنعوا(٩٣)

ويبدو من رسالة أتسز وما رواه ابن الأثير مدى ما تعرضت له خراسان من تدمير طال كل شيء وكانت البلية الأخرى في أسر السلطان سنجر.

ثالثا: نتيجة لهذه الأحداث أشار أتسز على الخليفة في رسالته الخامسة، ضرورة توحد جميع المسلمين فهو يستنجد بالخليفة بصفته الرئيس الروحي لمعظم بلاد العالم الإسلامي، واقترح أتسز أن يكون هذا التوحد تحت راية أحد سلاطين المسلمين الاقوياء المؤمنين، وهو: السلطان الاعظم غياث الدنيا والدين أبو الشجاع محمود بن محمود بن ملكشاه- السلجوقي - قسيم أمير المؤمنين (٩٤). واقترح أتسز ورؤيته للأحداث كانت صائبة إلى حد كبير، إلا أن الشقاق الذي كان موجودا بين السلاجقة والسلطان محمد حال دون ذلك.

ولم ييأس أتسز من المحاولة الجادة التي عرضها للصلح بين الطرفين وتحدث عن سبب الشقاق وأرجعه إلى عاملين:

الأول: إما أن يكون الخصام من قبل السلطان، وفي هذه الحالة يقوم أتسز بإزالة السوء، وإعادة السلطان لجادة الصواب، ورده إلى طاعة المواقف المقدسة المكرمة، قدسها الله وكرمها، وخدمة المقار المشرفة المعظمة شرفها الله وعظمها(٩٥).

الثاني: أما السبب الذى رأى أتسز أنه عامل فى خصام الخليفة والسلطان: تدخل أصحاب الأغراض السيئة الذين أوجدوا عند خدم المواقف المقدسة قدسها الله مجال التخليط والتضريب، فتمكنوا من اختراع الأباطيل وابتداع الأكاذيب، وذلك الأمر يرجى من كرم وعطف أمير المؤمنين مع السلطان، وألا يصغى الخليفة لمثل هذه الأقاويل(٩٦)

ومما لا شك فيه أن هذه المصالحة التى عرضها أتسز تحمل وجهة نظر سديدة، وهى حرصه على بلاد المسلمين والعمل على استقرار الأوضاع بها، بعدما رأى ما حل بالبلاد الإسلامية آنذاك، فالأحداث آنذاك كانت تستدعى هذا الصوت العاقل، لتوحد المسلمين تحت راية واحدة لمجابهة هذه الأخطار.

ورغم إلحاح أتسز الشديد على أهمية هذا الأمر وضرورته، إلا أنه لم ينتج عن شيء، بل حدث ما هو أسوأ، إذ قام السلطان محمد سنة ٥٥١ هـ بحصار مدينة بغداد وبالتحديد فى شهر ذى الحجة، أى بعد وفاة أتسز فى تاسع جمادى الآخرة سنة ٥٥١ هـ، نتيجة إصابته بالفالج(٩٧)

رابعا: ثم ختم أتسز رسالته بإظهار الولاء والطاعة للخليفة المقتفى، وأنه طوع أمره، ثم دعا للخليفة مع الرجاء بالعمل على تحقيق ما دعا إليه.

ويبدو من تتابع الأحداث أن رؤية أتسز التى عرضها فى الرسالة الخامسة كانت دقيقة، لذا نراه يلح فى طلب وحدة المسلمين، بعدما حل بخراسان وما وراء النهر، وبداية تصدع وانهيار البيت السلجوقى فى خراسان.

والمرحلة التى يتحدث عنها أتسز كانت بين عامى ٥٤٨، ٥٥١ هـ وهذه الفترة نلمح خلالها تقاربا شديدا بين أتسز والسلاجقة بصفة عامة سواء فى خراسان أو فى العراق، بل كان هناك تحالفا عسكريا بين سلاجقة خراسان وخوارزم شاه أتسز والخاقان محمود بن محمد الذى ولى سلطنة سلاجقة خراسان بعد أسر خاله السلطان سنجر، كانا يقصدان الغز، فيقاتلانهم فيمن معهما، فكانت الحرب بينهم سجالا(٩٨)

وشاهد الأمر أن أتسز السلطان كان متضامنا مع السلاجقة، يحارب معهم العدو المشترك الذى عاث فى تلك البلاد فسادا، واستمر الأمر على ذلك إلى أن استطاع السلطان سنجر أن يتخلص من أسره فى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة أى بعد وفاة خوارزم شاه أتسز، الذى تميزت سنوات حكمه الأخيرة بالعمل على توحيد صفوف المسلمين.

الخاتمة

صفوة القول أنه من خلال استعراض هذه الرسائل، ومقارنتها بالروايات التاريخية الواردة في المصادر المعاصرة يتبين ما يلي:

أولا: أوضحت الرسائل مدى التقارب الشديد بين كل من الخليفة العباسي المقتفي وخوارزم شاه أتسز وذلك لتلاقي أهداف الطرفين في الحد من سطوة السلاجقة أو التخلص منهم، وأن العلاقة التي سادت بين الطرفين آنذاك كانت ودية إلى حد بعيد. بينت هذه الرسائل أن الخلافة العباسية كانت تحتفظ بقدر كبير من الهيبة في نفوس المسلمين، فعلى الرغم من أن الخلافة كانت تعاني من فترات ضعف متتابعة إلا أن المحاولات الإصلاحية التي بذلت في هذا الصدد كان لها دورا كبيرا في استعادة أكبر قدر من هيبة الخلافة وقد شهدت تلك الفترة جهودا مخلصة من المقتفي لتحقيق ذلك الهدف.

ثانيا: أظهرت الرسائل أيضا أن الخلافة العباسية دعمت أتسز في أهدافه، وقد وضح ذلك من خلال الإشارة الواردة في الرسالة الثانية، والتي أقرت أتسز على ما تحت يده، وخلع عليه الخليفة الخلع، ومما يدل على عمق العلاقة بين خوارزم شاه أتسز ودار الخلافة تتابع الرسائل، ثم المكاتبات المعاصرة بين الوزير الوطواط وكبار رجال الدولة العباسية.

ثالثا: شهدت هذه الفترة أخطارا عظيمة من الطائفة الإسماعيلية، التي تسببت في مقتل العديد من المسلمين، وكانت عاملا مهما في ضعف السلاجقة والخوارزميين في نفس الوقت.

رابعا: نلحظ أيضا من خلال هذه الرسائل مدى أهمية إقليم خوارزم كثغر حيوي من ثغور الإسلام، استطاع أن يقف أمام الأعداء المجاورين له وبخاصة قبائل الخطا والغز.

خامسا: وضحت هذه الرسائل مجمل المعارك التي دارت بين خوارزم والسلاجقة في الفترة الممتدة من ٥٣٢ سنة إلى سنة ٥٤٢ هـ وقد حاول أتسز في هذا الجانب إظهار قوته العسكرية أمام الخليفة وأنه وقف أمام السلاجقة موقفا بطوليا وهذا الجانب لا يخلو من مبالغة أتسز في سرد هذه الوقائع لأن معظمها كان في صالح السلطان سنجر، وكانت تنتهي باعتذار أتسز وأسفه عما بدر منه.

سادسا: نوهت الرسائل بالأحداث الجسام التي ألمت بخراسان وما وراء النهر، بداية من ٥٤٨ هـ وهي السنة التي شهدت انهيار قوة السلاجقة وهزيمتهم من الغز، وأسر السلطان سنجر، وما تبع ذلك من اجتياح خراسان ومرو وغيرهما من أمصار العالم الإسلامي، التي كانت تمثل مراكز ثقافية وعلمية هناك.

سابعا: تضمنت الرسالة الأخيرة دعوة أتسز لوحدة المسلمين تحت قيادة واحدة، واقترح على الخليفة أن يتجمع المسلمون تحت راية السلطان محمد بن محمود السلجوقي، نظرا للأخطار العظيمة التي تحيط بالمسلمين، والتي تتطلب وحدة كاملة للوقوف أمامها.

ومما يدل على عمق العلاقة بين أتسز والخليفة العرض الذي تقدم به والمتضمن الوساطة بين السلطان والخليفة وعقد صلح بينهما، لكي تكون القوى الإسلامية متوجهة إلى هدف واحد إلا أن هذه الفكرة لم يكتب لها النجاح، فقد أصيب أتسز ومرض مرضا شديدا مات على إثره ٥٥١ هـ وفي نفس العام حاصر السلطان بغداد.

على كل حال فالرسائل المذكورة قد كشفت عن طبيعة العلاقة بين الخليفة وخوارزم شاه أتسز، وبينت إلى حد بعيد أهم الأحداث التي دارت آنذاك.

الهوامش

(١) شهد عام ٤٤٧ هـ دخول جيوش السلاجقة بغداد بعد أن أزال طغرلبك السلجوقي كل خطر يأتي من البويهيين وعمل على إزالتهم نهائيا من فارس والعراق، ودخل طغرلبك بغداد واستقبل بها استقبالا حافلا واعترف به الخليفة العباسي القائم بأمر الله سلطانا على جميع المناطق التي تحت يده.

عن هذه الأحداث راجع ابن الأثير (أبي الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني ت ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ٨/ ٢٩٠.

(٢) الخليفة المسترشد بالله أبومنصور الفضل ابن الخليفة المستظهر ولي العهد وتمت مبايعته بالخلافة سنة ٥١٣ هـ واستمر إلى أن قتل سنة ٥٢٩ هـ كان المسترشد فاضلا وبدأ يعمل إبان خلافته على استرداد نفوذ وهيبة الخلافة العباسية وإسقاط نفوذ السلاجقة وأظهر عدم رضاه عنهم لسوء أفعالهم حيث قال: «فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» قام المسترشد بأعمال إصلاحية في المجتمع جعلت العلماء والفقهاء يؤيدونه فأغلق بيوت الفسق وحوانيت الخمر وتتبع المفسدين وقام ببناء سور بغداد لحمايتها من محاولات الاعتداء أنظر: نظامي عروض السمرقندي (ت ٥٥٢هـ) جهار مقالة (المقالات الأربع) تحقيق محمد عبدالوهاب القزويني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ط الأولى ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص ٣١؛ ابن الأثير: الكامل م٨/ ٣١٤، ابن طباطبا محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا (ت٧٠٩هـ) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر - بيروت (د.ت)ص ٣٠٢.

(٣) السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، غياث الدين أبوالفتح السلجوقي نشأ بالموصل واستقل بالسلطنة سنة ٥٢٨ هـ وقدم بغداد وكان عادلا لينا كبير النفس، فرق مملكته على أصحابه، كان شديد على خلفاء بني العباس المعاصرين له، وجرت بينه وبين الخليفة المسترشد حربا شديدة انكسر على أثرها جيش الخليفة، وجرت بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر منازعة ثم تصالحا. (ت٥٤٧هـ) انظر ابن الجوزي (أبا الفرج عبدالرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ)، المنتظم، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢، ١٣/ ٢٥٠؛ الذهبي محمد بن أحمد عثمان ت (٧٤٨هـ). سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنوؤط وآخر، بيروت مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ ٢٠/ ٣٨٤.

(٤) الخليفة المقتفي لأمر الله أبوعبدالله محمد بن المستظهر من أفاضل خلفاء العباسيين، وكان عفيفا عن أموال الرعية. انظر ابن الاثير، الكامل ٨/ ٤٨٠؛ ابن طباطبا، الفخري، ٣١٠؛ السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ت٩١١). تاريخ الخلفاء، بيروت، دار التراث (د.ت) ٤٠٣.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ٤٠٣؛ محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية»، دار المعرفة (بيروت) ٢ ط ٤ سنة ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م، ص ٣٠٨.

(٦) الخليفة المستظهر بالله أبوالعباس أحمد ابن الخليفة المقتدي بالله ولي الخلافة سنة ٤٨٧هـ، كان كريما وصولا حسن الخلق، استمر في الخلافة حتى وفاته سنة ٥١٢ هـ

انظر ابن طباطبا: الفخرى ٣٠٠، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ٤٠٥

(٧) الحسينى (صدر الدين على بن ناصر توفى حوالى سنة ٥٧٥ هـ): أخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ)، تصحيح: إقبال، لاهور، جامعة البنجاب، سنة ١٩٣٣، ١٧١.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ٣٥٦/٨.

(٩) حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٩٥، ٤٨٢.

(١٠) عصام الدين عبدالرءوف: الحياة السياسية فى بلاد الجبل ويزد فى عهد الكاكاوية الديالمة، بحث منشور فى مجلة المؤرخ العربى، العدد ١٨ بغداد ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م، ١٠٣. يحيى حمزة: الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر (٤٩٠ – ٥٥٢هـ ١٠٩٦ – ١١٥٧هـ) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط الأولى سنة ١٤٢٤ / ٢٠٠٤ م، ص١٤٨.

(١١) مسعود بلال: تولى شحنة بغداد أثناء حكم السلطان مسعود فى بغداد، وهو من الخدم الخصيان الحبشيين الذين وصلوا إلى مناصب مرموقة فى الدولة. انظر: الحسينى، زبدة التواريخ، ص٢٤١.

(١٢) يحيى حمزة: الدولة السلجوقية، ١٥٢.

(١٣) كان أنوشتكين مملوكا لدى إحدى أمراء السلاجقة المسمى بلكباك، اشتراه من رجل من غرسستان فسمى أنوشتكين غرشجة، وظل فى خدمة بلكباك حتى تم إقطاعه إقليم خوارزم.

ابن واصل الحموى (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ): مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة، القاهرة، ط ١٩٦٠م، ٣٥/٣.

(١٤) السلطان جلال الدنيا والدين أبوالفتح ملكشاه بن ألب أرسلان سلطان السلاجقة الذى امتدت سلطنته شرقا إلى إقليم ما وراء النهر وغرباء حتى البحر المتوسط وآسيا الصغرى، استمر فى سلطنة أكثر من تسع عشر عاما وتوفى سنة ٤٨٥هـ.

انظر الحسينى: زبدة التواريخ، ١٤٧؛ ابن الأثير، الكامل ٧٣/٨.

(١٥) الطشت دار أحد المناصب التى يتولاها الغلمان فى الطشت خاناه والمقصود بذلك : بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذى تغسل فيه الأيدى، والطشت الذى يغسل فيه القماش.

أنظرالقلقشندى (أبوالعباس أحمد بن على ت٨٢١ هـ) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١١/٤، ١٠.

(١٦) إقليم خوارزم: يقع غرب الصغد وهو الإقليم المعروف اليوم باسم «خيوه» ويشمل على دلتا نهر جيحون. البكرى (عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسى ت٤٨٧هـ) معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت (د.ت) ٥١٥/٢؛ ياقوت بن عبدالله الحموى (ت٦٢٦ هـ): معجم البلدان، تحقيق وستنفيلد ليبسك، مطبعة الجامعة سنة ١٨٧٠ م، ٢ م ٣٩٥.

(١٧) قطب الدين محمد بن أنوشتكين أكبر أبناء انوشتكين، أرسله والده إلى مدينة مرو ليتلقى آداب الرئاسة ورسوم الإمارة فعرف بالعلم والأدب، وتدرب على أصول الحكم، ويعد محمد هذا من مؤسسى الدولة الخوارزمية.

ابن الأثير: الكامل، ٢٦٨/٨؛ ابن الوردى (أبوحفص عمر بن الوردى ت ٧٤٩): تاريخ ابن الوردى «تتمة المختصر فى أخبار البشر»، المطبعة الحيدرية، النجف، سنة ١٩٦٩، ١٤/٢.

(١٨) خوارزم شاه: أى ملك خوارزم، البيرونى (أبوالريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ) : الآثار الباقية من القرون الخالية، تحقيق خليل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٤.

(١٩) الحسينى : زبدة التواريخ، ١٧٧؛ ابن الأثير : الكامل ٢٨٩/٨.

(٢٠) السلطان سنجر السلجوقى ابن ملكشاه بن الب أرسلان، أقام فى السلطنة نيفا وستين سنة، وكان نفوذه واسعا، إذ اشتمل سلطانه على خراسان وأكثر أقاليم إيران والعراق، وهو من أعظم سلاطين السلاجقة (ت٥٥٢هـ) ابن الأثير : الكامل، ٢٢٣/٨، ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد ت ٦٨١): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٦٩ م، ص٢.

(٢١) ذكر ابن الأثير أن جماعة من ملوك الأتراك اجتمعوا واتجهوا إلى خوارزم للاستيلاء عليها وكان محمد غائبا عنها، فلما سمع بذلك عاد إلى خوارزم مسرعا واستنجد بالسلطان سنجر الذى عاونه فى ذلك، فهرب الأتراك من أمام خوارزم شاه محمد أنظر: الكامل ٢٦٩/٨

(٢٢) علاءالدين اتسز بن قطب الدين محمد خوارزم شاه - صاحب خوارزم - تملك على خوارزم وتوسع فى رقعة أملاكه وعمل على توطيد حكمه وزيادة قوته، كان أتسز عادلا محببا إلى رعيته، وهو الذى وطد دعم الدولة الخوارزمية (ت٥٥١هـ).

انظر ابن الأثير : الكامل، ٢١٠/٨؛ الذهبى، سير أعلام النبلاء ٣٢٢/٢٠.

(٢٣) ابن الأثير : الكامل ٢٦٩/٨.

(٢٤) عن هذه المؤامرة والدور البطولى لأتسز، راجع ابن الأثير: الكامل، ١٨٤/٨.

(٢٥) عبدالمنعم حسانين : سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط ٢ سنة ١٣٨٠، ١١٦.

(٢٦) يحيى حمزة : الدولة السلجوقية، ١٧٠.

(٢٧) عن المعارك التى دارت بين الخوارزميين وبين السلاجقة، راجع ابن الأثير: الكامل، ٣٦٤/٨؛ نافع العبود: الدولة الخوارزمية - «نشأتها وعلاقتها مع الدولة الإسلامية، ونظمها العسكرية والإدارية (٤٩٠ - ٦٢٨هـ) بغداد، مكتبة الجامعة، سنة ١٩٧٨، ٢٢، ٤٥؛ حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول «غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية»، دار الفكرالعربى، القاهرة (د.ت)، ص٢٢ وما بعدها.

(٢٨) ابن الأثير : الكامل ٤٨/٩؛ ابن الوردى، تتمة المختصر / ٦٧.

(٢٩) كانت الدولة السلجوقية آنذاك محاطة بالعديد من القوى ذات الأطماع التوسعية، كقبائل الخطا «القرخطائية» والغوريين ودارت معارك عنيفة بين السلطان السلجوقي سنجر وهذه القوى، وهذه المعارك كانت من أسباب عدم تمكن سنجر من القضاء على جيش أتسز، وخاصة بعد هزيمة سنجر في موقعة قطوان سنة ٥٣٦ هـ.

(٣٠) عبدالمنعم حسانين: سلاجقة إيران والعراق، ١١٨؛ يحيى حمزة : الدولة السلجوقية.

(٣١) ابن الأثير : الكامل، ٢١/٩.

(٣٢) الحسيني : زبدة التواريخ، ٣١٣؛ صبري سليم : الأتراك الخورازميين، ٢١؛ حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول، ص٥٧، ٥٨.

(٣٣) ديوان الإنشاء: أول ديوان عرف في الإسلام، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكاتب ملوك الدول لدعوتهم إلى الإسلام وكان يكتب له جماعة من الصحابة منهم أبوبكر، وعلي، وزيد بن ثابت، ومعاوية رضي الله عنهم. وفي عصر الدولة الأموية كان للكتابة كاتب مختص بها ومن أشهر كتاب العصر الأموي: عبدالحميد الكاتب وفي العصر العباسي كان الإنشاء - الرسائل - يضاف إلى الوزارة تارة وتارة يعهد به لكاتب مختص وهو الأغلب - وعرف بديوان الإنشاء أو الرسائل، وعرف صاحبه باسم صاحب ديوان الإنشاء وكان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ويخاطب بالأجل وكان يقال له كاتب الدست الشريف وإليه تسلم المكاتبات الواردة مختومة. القلقشندي : صبح الأعشى، ٤٩٠/٣.

(٣٤) أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (ت٦٢٦): معجم الأدباء، تحقيق إحسان عبدالرحمن، دار الغرب الإسلامي - بيروت ط١ سنة ١٩٩٣ ، ٢٦٣١/٦؛ السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن بي أبكر ت٩١١هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة مطبعة الحلبي، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م، ١/١٥م.

(٣٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ٣٧/١، ٣٦، ٣، ٩٦٢/٣.

(٣٦) بلخ: أم البلاد الخراسانية، ورابع أرباع خراسان، وما كان من هذا الربع خارج حد قصبته انقسم إلى قسمين الغربي منها في الجوزجان والشرقي منها في طخارستان، تكلم اليعقوبي عنها وقال: أنها مدينة خراسان العظمى. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان، ٤٧٩/١؛ كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة فرنسيس وكركيس عواد، مؤسسة الرسالة - بيروت ط٢ سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ ، ٤٦٢.

(٣٧) كتب عطا ملك الجويني مؤلف تاريخ جهانكشاي عند ذكره لأحوال السلطان تكس بن ايل أرسلان خوارزمشاه (٥٦٨ - ٥٨٩) إن تكس ذهب إلى خوارزم في يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٦٨ هـ فجلس على سرير الملك، فاقبل الشعراء والبلغاء على تهنئته وانشدوه خطبهم وأشعارهم وكان من بينهم الوطواط الذي كان في خدمة آبائه، جلبوه محمولا في محفة، لأنه كان قد تجاوز الثمانين من عمره.

وهذا النص يدل على أن سن رشيد الدين الوطواط فى ٥٦٨ هـ قد اربى على الثمانين وعلى هذا يكون تاريخ مولده سابقا على سنة ٤٨٧، ولما كان الوطواط لم يصل إلى التسعين فى هذه السنة فلاشك أنه لم يولد قبل سنة ٤٨٠ هـ فيكون مولده محصورا بين سنتى ٤٨٠، ٤٨٧ هـ.

راجع مقدمة إبراهيم أمين الشواربى لكتاب الوطواط: حدائق السحر فى دقائق الشعر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، وقد قام الشواربى بتعريب حدائق السحر من الفارسية إلى العربية.

(٣٨) إبراهيم الشواربى : مقدمة السحر، ٣

(٣٩) انظر تاريخ جهانكشاى – سلسلة جب التذكارية – ليدن ١٩١١م –٢/١٢: ١٨ نقلا عن الشواربى، مقدمة حدائق السحر ٤.

(٤٠) المدارس النظامية: أسس هذا النظام الوزير السلجوقى نظام الملك وقد شهدت أمصار العالم الإسلامى إبان القرن الخامس الهجرى تأسيس العديد من هذه المدارس وكانت بلخ إحدى المدن التى أقيمت فيها مدرسة نظامية أما عن التحاق الوطواط بالنظامية فى بلخ، فقد أورد ذلك فى رسالته لشيخه الهروى – الوطواط – رسائل ٢/ ٣٠ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١، ٣٩٨.

(٤١) أبوسعد الهروى: محمد بن أحمد أبى يوسف القاضى ولد بهراق ونشأ بها وسمع من رجال عصره، ولى القضاء بهمدان سنة ٤٨٨ هـ، من آثاره: شرح أدب القضاء للعبادى، وسماه بالإشراف ت(٥١٨هـ).

انظر عمر كحالة: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، (د.ت) ٩/ ٣٠

(٤٢) مما جاء فى رسالة الوطواط لشيخه الهراوى

كتاب وفى الأحشاء وجد على وجد ... إلى الصدر مولانا الأجل أبى سعد

أشم طويل البـاع أصبح رافعـــا ... إلى قمم الأفـلاك ألـوية المجـد

مرآة بنى الإسـلام عقد جواهـــر ... وفيهم أبو سعد كواسطة العقــد

سقى الله أيامنا بالعقيق، ودهورنا باللوى وأعوامنا بالخليصا وشهورنا بالحمة، فإن معانى هذه الكلمات لألفاظ المسرات كالمعانى جنينا فيها ثمار أطيب الأمانى، ومن أشجار وصال الغوانى، لا بل سقى مواقفنا ببلخ فى المدرسة النظامية واجتماعنا فى المجالس الأمامية:

مجالس مولانا أبى سعد الذى ... به سعد الأيــــام والديـن والدنــــــيا

همام حوى يوم الفخار بنـانه ... على رغم أناف العدى والدين قصب العليا

الإمام أبوسعد، وما أدراك ما الإمام أبوسعد، سعد كله، خير قوله وفعله، صاحب جيوش الفصاحة، ومالك رقاب البلاغة، وناظم عقد المحامد، وجامع شمل المكارم وناشر أردية الفضل والكرم، وعامر أبنية الأدب والحكم.

لله در أما كله أدب بفضله تتحلي العجم والعرب

الله يعلم وأن شط المزار وشحطت الديار لا أقطع أكثر أوقاتي ولا أزجي أغلب ساعاتي إلا في مدح معاليه، ولا كنت أحصي من صنائعه عشرا وكيف لا أبالغ في ثنائه ولا أواظب على دعائه وهو الذي رفع قدري، وشرح للأدب صدري وسقاني كؤوس العلم، وأحشائي صادية وكساني حلل الفضل وعوراتي بادية، اغترفت ما اغترفت من بحاره، واقتطفت من اقتطفت من ثماره.. راجع نص الرسالة عند الوطواط : رسائل، ٣٠/٢٩/٢.

(٤٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ٢٦٣٢/٦

(٤٤) والأبيات التي توضح ذلك بالفارسية هي

سي سال شدكة بنده بصف نعال در بونست مدح خوان وتو برتخت مداح خواه
دائد خداي عرس كه هركز نايستاد جوين بنده مدح خواني درهيج باركاه
اكنون دلت زنبده سي ساله شد ملول دردل بطول مدت بايد ملال راه
ليكن مثل زنند جو مخدوم شد ملول جو يد كناه وبنده ببجاره بي كناه

ومعنى الأبيات لقد مضت ثلاثون عاما منذ وقفت بالباب في صف النعال وكنت مداحا للملك وكان الملك على عرشه راغباً في مدحي. واله العرش يعلم أن احدا مثلي لم يقف مادحا في قصر من القصور ولكن قلبك الآن أصبح متعبا من خادمك الذي أمضى في خدمتك ثلاثين سنة والملل يتطرق إلى القلوب بطول المدة والملازمة وقد ضربوا الأمثال فقالا عندما يحل المخدوم يبحث لخادمه عن ذنب ويكون الخادم المسكين لا ذنب له.

ففي الأبيات ذكر الوطواط أن مدة خدمته لاتسز وصلت إي ثلاثين سنة على وجه التقريب لا التحديد لأنه ولي منصبه سنة ٥٢١ هـ وهذه الحادية سنة ٥٤٨هـ على كل حال فأتسز قد أعاد كاتبه بعد أن استعطفه كثيرا إلى منصبه.

الوطواط : حدائق السحر تعريت إبراهيم الشواربي، ٤، ٥

(٤٥) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صار بيروت، دت: حدائق السحر، ١٠.

(٤٦) انظر الوطواط : حدائق السحر١٠.

(٤٧) في جمادي الأخرة سنة ٥٤٢هـ. خرج مع السلطان سنجر إلى خوارزم وحاصر قصبة هزاراسب وقلعتها مده شهرين وكان الشاعر «أنوري» في خدمته فكتب الرباعي التالي على سهم من السهام وألقاه على هزاراسب:

أي شاه همه ملك زمين حسب تراست وزادلت وإقبال جهان كسب تراست
أمروز بيك حمله هزاراسب بكير فردا خوارز موصد هزاراسب ترست

ومعناه أيها المليك إن ملك العالمين رهن لإشارتك وبدولتك وإقبالك قد كسبت العالم فاليوم أقدم بحمله واحدة وخذ هزاراسب فغدا ستأخذ خوارزم ومائة شبيهة بهزاراسب أى مائة ألف جواد، وكان الوطواط حاضرا مع سيدة اتسز فى هزاراسب فأجاب على الرباعى ببيت واحد كتبه على سهم طوح به إلى جيوش السلطان

كر خصم تو أى شاه بود رستم كرد   يك خرز هزاراسب تو تنوانب برد

ومعناه فلو قدر وكان خصمك هو البطل المعروف رستم فأنه لن يسطيع أن يأخذ حمارا واحدا من بين هزاراسب أو جيادك الألف.

فلما علم السلطان ببيت الوطواط غضب غضبا شديدا وأقسم أن يمزقه إلى سبعة أقسام وعندما سيطر السلطان على الوضع أمر بالمبالغة فى البحث عنه وأرسل المنادين فى طلبه وأخذ الوطواط يفر من مكان إلى مكان ولكنه أدرك فى النهاية إلا راحة له ولا استقرار مع كثرة التنقل والفرار فتوسل إلى بعض الأكابر أن يشفعوا له لدى سنجر ولكن واحد منهم لم يجرؤعلى ذلك فالتجأ الوطواط إلى منتخب الدين بديع الكاتب وكان يجمع بين منصب الإنشاء والمنادمة فلما كانت صلاة الفجر ألقى منتخب الدين درسه فى الوعظ على مسامع السلطان حتى وصل الحديث إلى ذكر الوطواط فوقف منتخب الدين وسأل السلطان إلا كان على استعداد لأن يجيبه إى ملتمس واحد يسأله منه فوعده السلطان بتحقيق ما يطلب فقال أن الوطواط طائر ضعيف لايحتمل جسده التقطيع الى سبعة أجزاء فهل يكتفى السلطان بتقطيعه إلى جزأى اثنين فضحك سنجر وعفا عن الوطواط أنظر :الوطواط حدائق السحر٩،٨.

(٤٨) انظر الوطواط : رسائل ج٢ احتوى الجزء الثانى من الرسائل على مكاتبات قيمة من الوطواط إلى :كبار رجال عصره.

(٤٩) محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري: زمشخر قرية من عمل خوارزم، الخوارزمى العلامة النحوى كبير المعتزلة صاحب الكشاف والمفصل رحل وسمع ببغداد وعنه أخذ خلق وروى عنه جماعة وكان رأسا فى البلاغة والعربية والمعانى والبيان وله نظم جيد «ت٥٣٨م» الذهبى : سير أعلام النبلاء، ١٥٣/٢٠

(٥٠) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ٢٦٣٢/٦

(٥١) راجع بعض المراسلات عند الوطواط : مجموعة الرسائل ، ج٢

(٥٢) هو الكتاب الذى ألفه الوطواط لأبى المظفر خوارزم شاه اتسز وعارض به كتاب ترجمان البلاغة لفرحى الشاعر الفارسي، وقد عرب هذا الكتاب أ/إبراهيم الشواربى.

انظر ياقوت الحمو ى- ٢٦٣٢/٦

(٥٣) هو مجموعة من الرسائل التى اشتملت على الرسائل المرسلة للخليفة العباسى المقتفى، وكبار رجال الحكم فى الدولة العباسية.

(٥٤) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ٢٦٣٢/٦؛ السيوطى، بغية الوعاة، ٢٣٠/٢.

(٥٥) الكامل ، ٣٠٩/٩

(٥٦) ابن الأثير: الكامل ، ٣٠٩/٩

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ٣٢٩/٩

(٥٨) تاريخ الخلفاء ، ٤٠٤ ، محمد حمادة : الوثائق السياسية والإدارية ، ٤٤١؛ محمد الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ٤٤٧ : ٥٩٠ ، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب ، ط الأولى ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م ، ١٤٦.

(٥٩) ذكر المؤرخون المعاصرون لهذه الفترة أن قطب الدين محمد بن أنوشتكين والد أتسز كان كريم الأخلاق محبا للعدل ، مقربا لأهل العلم ، وعندما ولى خوارزم ظهرت كفايته وشهامته ، مما جعل السلطان سنجر يعظمه ويجله ويعرف له قدره ، ومن أعماله الجهادية التي تحسب له ما أورده ابن الأثير من قيام جماعة من ملوك الترك بالهجوم على خوارزم وقطب الدين محمد غائب عنها ، فلما سمع بالخبر بادر إلى خوارزم وطلب المدد من السلطان سنجر فسار إليه في عساكره ، لكن محمدا لم ينتظر وقرر مهاجمة الأتراك في خوارزم ، فهربوا من أمامه وكفى خوارزم شاه شرهم ، ومما يذكر لمحمد أيضا محاولته تأديب قبائل الخطأ سنة ٤٩٠هـ إلا أنه لم ينجح في ذلك نجاحا تاما ، وشاهد القول أن والد اتسز كان من المخلصين والمجاهدين ، إذ استمر ثلاثين سنة ولم يخرج فيها عن طاعة السلطان ، وكان يسعى دائما ويعمل من أجل وحدة السلاجقة حتى وفاته سنة ٥٢١هـ.

وهذه الأعمال هي التي ذكرها اتسز في رسالته وهو يتحدث عن مآثر والده وجهوده.

انظر: ابن الأثير: الكامل ، ١٠/٩؛ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ١٨/٢؛ يحيى حمزة : الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ، ١٦٩؛ صبري سليم : الأتراك الخوارزميون في الشرق الأدنى الإسلامي ، ١٩.

(٦٠) ذكر ابن الأثير أن أتسز ولى خوارزم بعد وفاة أبيه ، فمدّ ظلال الأمن وأفاض العدل ، وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه ، وقصد بلاد الأعداء ، وباشر الحروب ، فملك مدينة منقشلاغ ، أما السلطان سنجر فقد عظمه واعتضد به واستصحبه معه في أسفاره وحروبه ، فظهرت منه الكفاية والشهامة ، فزاده تقدما وعلوا ، وهو ابتداء ملك خوارزم شاه.

وما ذكره ابن الأثير مطابق تماما لما ورد في نص الرسالة من قيام أتسز بواجبة خير قيام.

أنظر: الوطواط : الرسائل ٦؛ ابن الأثير : الكامل ١٠/٩ ، ١١.

(٦١) يشير أتسز إلى بداية الخلاف وهو قيام السلاجقة بعدم حفظ حقوق أتباعه ورعيته ، وعدم صيانة واجبهم. انظر: الوطواط : الرسائل ، ٧.

(٦٢) الوطواط : رسائل ، ٧.

(٦٣) الكامل ، ٣٠٩/٩.

(٦٤) ابن الاثير – الكامل ٣١٠/٩ ؛ يحيى حمزة: الدولة السلجوقية ، ١٧١

(٦٥) الشيعة الإسماعيلية – يقولون أنهم من شيعة آل علي، ويعتقدون في سبعة أئمة آخرهم : إسماعيل بن جعفر الصادق، من مبادئهم الأساسية: إيمانهم بالإمامة، لاعتقادهم عجز العقل البشرى عن معرفة الله عز وجل، ومن ثم يجب على الناس اختيار إمام لهم يقوم بإرشادهم، ومن أسس مذهبهم أن للعقيدة ظاهرا وباطنا، فأولوا أحكام الشرع وأصبح لكل فرع من العبادات باطنا، فأطلق عليهم الباطنية، وقد ازداد نفوذهم في خراسان إبان سيادة البويهيين، ٣٣٤ – ٤٤٧ هـ ومع بداية سيطرة السلاجقة من سنة ٤٤٧ هـ ضعف نفوذهم، لتعقب السلاجقة لهم، ثم ازداد نفوذهم على يد الحسن بن محمد بن الصباح ٥٥٧ هـ الذي كان يدعو لإمامة نزار ابن المستنصر بالله الفاطمي، وعرفوا باسم الإسماعيلية النزارية، وازدادت قوتهم بعد أن اتخذوا من قلعة الموت مقرا لدعوتهم.

عن الباطنية، وما أحدثته في بلاد المشرق الإسلامي راجع: الشهر ستأتي (أبي الفتح محمد بن عبدالكريم ت٥٤٨هـ) الملل والنحل، بيروت، الكتب العلمية (د.ت) ، ١٩٢؛ الغزالي أبي حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) فضائح الباطنية، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ، ١١، ١٢، سبط ابن الجوزي يوسف بن عبدالرحمن (ت٦٥٤هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد: الدكن، ١٩٥٢ ، م٨/٣٦٨؛ خير الدين الزركلي، الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج٢/٢١٣

(٦٦) الخليفة المسترشد بالله: أبوالفضل بن المستظهر، كان ذا أهمية عالية وشهامة زائدة، وأقدام رأي، ضبط أمور الخلافة ورتبها، وأحيا رسمها، وشيد أركان الشريعة، وباشر الحرب بنفسه، قتلته الباطنية وهو في حماية السلطان مسعود في ٥٢٩هـ.

ابن الأثير : الكامل ٩/٢٨٣؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٣٩٧.

(٦٧) الراشد بالله أبوجعفر منصور بن المسترشد الخليفة العباسي، كان فصيحا أديبا ، شجاعا، حسن السيرة جمع السلطان مسعود العلماء فأفتوا بخلعه إذا ثبت فسقه، قتل في أصفهان سنة ٥٣٢هـ.

ابن الأثير : الكامل ، ٩/٣٠٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٤٠١.

(٦٨) ابن الاثير : الكامل، ٩/٢٤٤؛ ابن كثير أبوالفدا إسماعيل بن محمد بن عمر (٧٧٤هـ) : البداية والنهاية، دار الفكر العربي، بيروت ١٢/١٩٨

(٦٩) ابن الأثير : الكامل ٩/٢٧٦.

(٧٠) الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، ١١٣؛ ابن الأثير . الكامل ، ٩/٣١٤.

(٧١) أبوالفدا إسماعيل بن محمد بن عمر (ت٨٣٢) : المختصر في أخبار البشر، بيروت، الكتب العلمية، (د.ت)، ١٥٣.

(٧٢) عن هذه الأحداث انظر: ابن الأثير : الكامل ٩/٤٥٦؛ ابن الكثير : البداية والنهاية، ١٢/٢٣٦؛ عصام الدين عبدالرؤوف: الدول الإسلامية المستقلة في المشرق، دار الفكر، القاهرة ، ٢٣٥؛ يحيى حمزة: الدولة السلجوقية ، ٢٠٧ وما بعدها.

(٧٣) الوطواط : الرسائل، ١٣.

(٧٤) انظر الكامل، ٩/٣٧٣.

(٧٥) قام خوارزم شاه بهجوم كبير على خراسان فى سنة ٥٣٦ هـ مستغلا انشغال السلطان سنجر فى قتاله ضد الخطا، ثم هزيمتهم فى قطوان وكان أثر هذا الهجوم جسيما فى نفس سنجر لأن أتسز قد استولى على خزائن السلطان الموجودة فى مرو، ونقل صناديق جوهره، وتعرض العلماء لنكبات عظيمة من جراء هذا الهجوم، وضاعت خلاله الكثير من كتب العلم، ومنها مكتبة حكيم حسن قطان وغيرها من المكتبات، وهذا السبب هو الذى أدى إلى قيام السلطان بحصار خوارزم وقلعة هزاراسب سنة ٥٣٧، ٥٣٨ هـ وانتهى باعتذار أتسز كعادته.

عن هذه الحادثة أنظر الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ٩٣٠؛ ابن الأثير: الكامل، ٩/٣١١.

(٧٦) أخبار الدولة السلجوقية، ٩٦.

(٧٧) ابن الأثير: الكامل، ٩/٢٩٠.

(٧٨) الوطواط: ٨ – ٩.

(٧٩) عبدالمنعم حسانين، سلاجقة إيران والعراق، ١١٧.

(٨٠) الغز قبائل تركية كانت تسكن فى أقصى تركستان على حدود الصين، انتقلوا إلى بلاد ما وراء النهر أيام الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله سنة ٥٣٠ هـ وأعلنوا إسلامهم وكانوا فى طاعة السلطان السلجوقى سنجر ونظرا لسوء تصرف بعض أمراء السلاجقة وظلمهم للغز، امتنعوا عن تقديم ما كان مقررا عليهم من أغنام وماشية للسلطان، وزاد تمردهم بعد أن قاوموا جيش الأمير قماج وقتله، فأدى ذلك إلى خروج السلطان بنفسه لقتالهم، ونتيجة لاستهانة جيش السلطان بهم، دارت الدائرة على السلاجقة، وانطلق الغز فى بلاد السلاجقة بعد أن هزموا جيش السلطان.

ابن الأثير: الكامل ٩/٣٧٠؛ القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد، ٣٣٠.

(٨١) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٧٢؛ يحيى حمزة: الدولة السلجوقية، ١٩٠.

(٨٢) ابن الأثير: ٩/٣٨٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٢٣٧.

(٨٣) الوطواط: رسائل ١٣.

(٨٤) الوطواط: رسائل ١٥.

(٨٥) عن هذه الواقعة راجع: ابن الأثير: الكامل، ٩/٣٦٠.

(٨٦) ابن الأثير: الكامل، ١٠/١٥٧؛ عصام الفقي: الدولة المستقلة فى الشرق، ١٠٠.

(٨٧) الوطواط: الرسائل، ١٥.

(٨٨) يحيى حمزة: الدولة السلجوقية، ١٧٦

(٨٩) الوطواط: رسائل، الرسالة الثالثة، ١٧.

(٩٠) الوطواط: الرسائل الخامسة، ٢١.

(٩١) على الرغم من بقاء أتسز في خوارزم ودفاعه عنها إلا أن بعض أطراف خوارزم وقعت تحت أيدي الخطا، مما حذا بأتسز أن يفاوضهم، ويدفع لهم جزية محددة مقابل أن يتركوا ما سيطروا عليه. أنظر: عصام الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، ١٠٠.

(٩٢) الوطواط: الرسائل، ٢٣.

(٩٣) الكامل، ٩/٣٨٤، ٣٨٥.

(٩٤) ولي محمد هذا سلطنة السلاجقة في العراق بعد وفاة عمه مسعود سنة ٥٤٧هـ، والقبض على أخيه ملكشاه من قبل خاص بك أحد قادة السلاجقة، وكان خاص بك هذا يريد القبض على السلطان محمد، ليتولى سلطنة السلاجقة إلا أن السلطان محمد فطن لذلك وقبض على خاص بك ومن معه ثم قتلهم، وخطب له بالسلطنة.

ابن الأثير: الكامل، ٩/٣٧٤، الزركلي، الإعلام، ٧/٨٦.

(٩٥) الوطواط: الرسائل «الرسالة الخامسة» - ٢١.

(٩٦) الوطواط: الرسائل «الرسالة الخامسة» -٢٢.

(٩٧) ابن الأثير: الكامل، ٩/٤٠٦، ٤١٠.

(٩٨) ابن الأثير: الكامل، ٩/٣٨٦.

قائمة المصادر والمراجع

ابن الأثير: (أبوالحسن على بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزرى ت٦٣٠هـ)

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

البكرى (عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسى ت ٤٨٧هـ)

٢- معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا - عالم الكتب - بيروت (د.ت)

البيرونى (أبوالريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ)

٣- الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: خليل أحمد. دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٠هـ.

ابن الجوزي (أبوالفرج عبدالرحمن بن على ت ٥٩٧هـ)

٤- المنتظم، دار الكتب العلمية: بيروت - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

حسانين: عبدالمنعم محمد

٥- سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط ٢، ١٣٨٠هـ

الحسينى (صدر الدين على بن ناصر «المتوفى حوالى ٥٧٥هـ)

٦- أخبار الدولة السلجوقية «زبدة التواريخ»، تصحيح: محمد إقبال: لاهور «جامعة البنجاب» ١٩٩٣م

حمادة: محمد ماهر

٧- الوثائق السياسية والإدارية «العصر العباسي»، مؤسسة الرسالة: بيروت ط٣ ١٩٨٢م.

حمدي: حافظ أحمد

٨- الدولة الخوارزمية والمغول «غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية»، دار الفكر العربى، القاهرة (د.ت).

حمزة: يحى

٩- الدولة السلجوقية فى عهد السلطان سنجر «٤٩٠: ٥٥٢هـ - ١٠٩٦: ١١٥٧م» مكتبة الثقافة: القاهرة ط الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

الخضرى: محمد بك

١٠- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية»، دار المعرفة: بيروت لبنان - ط٤ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

ابن خلكان (أبوالعباس أحمد بن محمد ت ٦٨١ هـ)

١١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس - دار صادر - بيروت ١٩٦٩م.

الذهبي: (أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ت٧٤٨هـ)

١٢- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

الزركلي خير الدين

١٣- الإعلام «قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت ط ٤، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.

الزهراني محمد

١٤ - نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية «٤٤٧ : ٥٩٠هـ»، مكتبة الطالب، مكة المكرمة، ط الأولى ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

سبط ابن الجوزي (يوسف بن عبدالرحمن ت٦٥٤هـ)

١٥ - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٥٢م.

سليم صبري

١٦- الأتراك الخوارزميون في الشرق الأدنى الإسلامي (٦٢٨: ٦٤٤هـ).

السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ٩١١ هـ).

١٧ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،

تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٤٨هـ - ١٩٦٤م.

١٨- تاريخ الخلفاء، دار التراث: بيروت (د.ت)

الشهر ستاني: (أبوالفتح محمد بن عبدالكريم ت ٥٤٨هـ)

١٩ - الملل والنحل، دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت)

ابن طباطبا: (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا ت ٧٠٩هـ)

٢٠- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر: بيروت لبنان (د.ت)

عبود: ناقع

٢١ - الدولة الخوارزمية: نشأتها وعلاقاتها مع الدول الإسلامية، ونظمها العسكرية والإدارية (٦٢٨ - ٤٩٠هـ)، مكتبة الجامعة، بغداد ١٩٧٨م.

عروض (نظامي السمر قندي ت ٥٥٢هـ)

٢٢ - جهار مقالة «المقالات الأربع»، تحقيق محمد عبدالوهاب القزويني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط الأولى، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م.

الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ)

٢٣ - فضائح الباطنية، تحقيق عبدالرحمن بدوي، القاهرة ١٣٨٣هـ.

ابوالفدا (إسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ)

٢٤ - المختصر في أخبار البشر دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)

الفقي: عصام الدين عبدالرؤوف

٢٥ - الحياة السياسية في بلاد الجبل ويزد في عهد الكاكوية الديالمة

بحث منشورة فى مجلة المؤرخ العربى عدد ١٨، بغداد ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.
٢٦ - الدول المستقلة في المشرق، دار الفكر، القاهرة (د.ت).
القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ).
٢٧ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت (د.ت).
القلقشندي (أبوالعباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ)
٢٨ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، دار الكتب بيروت، القاهرة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣م.
ابن كثير (أبوالفدا إسماعيل بن عمر ت٧٧٤هـ).
٢٩- البداية والنهاية، دار الفكر بيروت، القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨م.
كحالة: عمر رضا
٣٠- معجم المؤلفين: «تراجم مصنفي الكتب العربية»، دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان - «د.ت»
ليسترنج: كي
٣١- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة «بيروت» ١٤٠٥هـ.
محمود: حسن أحمد، أحمد الشريف
٣٢ - العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٥م.
مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٣٣ - المعجم الوسيط، القاهرة: مطبعة المجمع - ط ٣ ١٩٧٢م.
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم الحموى ت ٦٩٧هـ)
٣٣ - مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب
تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة، ط الأولى القاهرة ١٩٦٠م
ابن الوردى (زين الدين أبوحفص عمر بن مظفر بن عمر ت ٧٤٩هـ)
٣٤- تتمة المختصر فى أخبار البشر «أخبار ابن الوردى»، المكتبة الحيديرة - النجف ١٩٦٩م
الوطواط (رشيد الدين محمد بن محمد العمري ت ٥٧٣هـ)
٣٥ - حدائق السحر فى دقائق الشعر
نقلة إلى العربية، إبراهيم الشواربى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٤م.
٣٦- مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط «جمعها: محمد أفندى فهمى»
مطبعة المعارف - القاهرة ١٣١٥هـ.
ياقوت (أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى ت ٦٢٦هـ)
٣٧ - معجم البلدان، تحقيق: وستنفيلد، ليبسك، مطبعة الجامعة ١٨٧٠م
تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامى - ط الأولى ١٩٩٣

د. سعاد عبدالله محمود عبدالله (*)

بنو البريدي
ودورهم المالي والسياسي في الخلافة العباسية

المقدمة :

تتناول هذه الدراسة أخبار أسرة من الأسرات التي برز نجمها خلال القرن الرابع الهجري. حيث شهد هذا القرن، وما تلاه ضعف الخلافة العباسية. ومن ثم تطلع الكثير إلى الاستئثار بالنفوذ والسلطة كلاً في منطقته . بل ومحاولة الوصول إلى الإنفراد بالسيطرة على الخليفة والخلافة معاً. ومما يدل على الضعف السياسي والانهيار الشديد الذي أصبحت عليه الخلافة العباسية صعود نجم جماعات ليس لها أي شأن. أو ثقل سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تطلع بعض موظفي الدولة في عدد من الولايات - خاصة في جنوب العراق - إلى الدخول في حلبة الصراع ومحاولتهم تحقيق طموحات سياسية ، ومكانة اقتصادية مستغلين ضعف الخليفة ، وحالة الفوضى التي عليها البلاد.

ومن هنا ظهر بنى البريدى على مسرح الأحداث السياسية فى الحقبة من سنة ٣١٥ – ٣٤٩هـ / ٩٢٧ – ٩٦٠ م. مستغلين ضياع النفوذ السياسى للخلافة . وعدم وجود شخصية سياسية تبسط نفوذها على مناطق الجنوب . فأخذوا برغم قله عددهم يتطلعون إلى إحراز مكاسب ، ولم يكتفوا بذلك بل تطلعوا للسيطرة على الخلافة، ومحاولة الاستئثار بها من خلال حربهم للخليفة، ومحاولتهم الاستيلاء على المناصب الرفيعة بها - خاصة الوزارة – وعلى الرغم من قلة عددهم وقلة سنوات ظهورهم إلا أنهم ضربوا مثالاً واضحاً وبارزاً في كيفية الصراع والتنافس بين كافة القوى السياسية الكبيرة والصغيرة، دونما إلتفات منهم إلى قدسية الخلافة، ومكانتها ، وهيبة الخليفة.

---

*- مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة حلوان

كذلك تبرز أهمية البريديين، في إنهم كانوا السبب المباشر في سيطرة البويهيين، على الخلافة العباسية، ودخولهم بغداد . فمما لا شك فيه أن البويهيين كانوا سيتوجهون إلى العراق آجلاً أم عاجلاً. إلا أننا لا نستطيع أن نغفل ما ترتب على استنجاد أبي عبد الله البريدي بهم في حربه ضد توزون ،إذ لا يجانبنا الصواب إذا قلنا إن ذلك كان من الأسباب التي عجلت بقصدهم العراق ، ومن ثم سيطرتهم على الخلافة في الحقبة التالية.

ومما يلفت النظر، في تاريخ هذه الأسرة ، إنها لم تكن أسرة متوارثة ولكنها ظهرت في آن واحد .وأيضا لم يظلوا كثيرا فقد تولى الأخوة الثلاثة في ذات الوقت فضلاً عن تأثر مكانتهم برضاء الخلفاء والأمراء في بغداد عنهم.

ولما مات أبو عبد الله البريدي خلفه ابنه أبي القاسم ، وقد شهد عهده ضعف هذه الأسرة، وتلاشى أثرها . والدليل على ذلك انعدام ذكر أخبارها، في كافة المصادر التاريخية المعاصرة لهذه الحقبة، أو اللاحقة لها.ويرجع ذلك بالقطع إلى عدم تأثيره في السياسة آنذاك ، وعلى نهاية الأسرة، بوفاته سنة ٣٤٩هـ - ٩٦٠م. والذي ذكر في المصادر كلها ، فيما لا يتجاوز السطر. وبذلك فقد انتهى دور آل البريدي من الساحة السياسية للدولة العباسية.

بداية ظهور البريديين (١)

كان أول من ظهر منهم هو أبو عبد الله بن محمد البريدي فكان إنساناً مغموراً وعادياً يؤدي ما كلف به من أعمال، ويمتثل لأوامر أمرائه. كما ظل هو وأخويه شأنهم شأن صغار الموظفين يتولون بعض المناصب التي يكلفون بها دون سعي إليها. وفجأة ذاع صيت أبو عبد الله أثناء وزارة على بن عيسى (٢). فيأت خبره بأنه تذمر من إغفال الوزير له ولأخيه حيث أسند إليهما الولايات الأقل شأناً.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت أخبار البريديين تتردد في معظم مصادر التاريخ، تتناول أعمالهم، ومواقفهم السياسية تجاه الخلافة العباسية، وترصد طموحاتهم لاسيما أبي عبد الله في الحصول على المناصب الرفيعة حتى بلغ به الأمر التطلع للسيطرة على الخلافة.

ولقد برز نجم أبي عبد الله في سنة ٣١٥ هـ /٩٢٧ م عندما أسند إليه الوزير على بن مقلة (٣) ضمان الضياع الخاصة واقطاع الوزراء . بينما كان أبو يوسف يتولى لعلي بن عيسى الخراج برامهرمز (٤) سهلها وجبلها. وقد استاء أبو عبد الله من ضآلة ما كلف به من أعمال الأهواز (٥). وما حولها في حين أسند للجميع أجل الأعمال. لذلك اعترض على هذا وأعلن عصيانه (٦).

وأخذ أبو عبد الله البريدي في تتبع أخبار الوزارة . كما أرسل أخاه أبا الحسين إلى بغداد ، وأمره أن يخطب له ، في أعمال الأهواز، وما يجرى معها. وعمل على التقرب إلى الوزير الجديد، ليسند إليه كافة الولايات الجنوبية وإطلاق يديه فيها(٧).

ولما بقي أبو علي بن مقلة في الوزارة . سار أبو الحسين إلى أبي أيوب السمسار ، وبذل له عشرين ألف دينار في مقابل تولية البريديين الأعمال الجنوبية. فتقلد أبو عبد الله الأهواز جميعها عدا السوس (٨). جنديسابور (٩) وتولى أخاه أبا الحسين الفراتية(١٠) . وأبي يوسف الخاصة والأسافل .وقد شرط عليهم أن يكون المال في ذمة أبي أيوب حتى يتصرفوا في الأعمال (١١) .كما استعان علي بن مقلة بأبي عبد الله البريدي في القيام ببعض الأعمال الأخرى ، لخدمة الخلافة أو الوزارة فأمره بالقبض على عامله علي بن أبي السلاسل . فتوجه إلى تستر (١٢) . واستولى من جهبذه على عشرة آلاف دينار ، فضلا عن أخذه صكوك بنفقات باطلة منه. كذلك أخذ من كاتبه ألفي دينار ، ومن خليفته ثلاثة آلاف دينار ، ومن حاجبه ألفي دينار .لم يكتف أبو عبد الله بما استولى عليه من أموال طائلة بل سعى للحصول على المزيد (١٣). مما أدى إلى تخوف ابن مقلة من ازدياد نفوذه فعمل على عزله من الأعمال ، وعين مكانه أبي محمد الحسين بن أحمد المادرائي(١٤) ، للإشراف على عماله. أخذ أبو عبد الله في إثارة القلاقل ضد أبي محمد فسد عليه الطرق ، واستولى على كل الرسائل قبل وصولها إلى بغداد. لذلك اضطر أبو علي إلى إعادته رغم كرهه له (١٥) بينما يذكر ابن الأثير في شأن هذا الخبر ، أن ابن مقلة عندما علم ، بدهاء البريدي ، ومكره وقلة دينه وتهوره جعل أبا محمد الحسين بن أحمد المادرائي مشرفا عليه إلا أن ذلك لم يفت في عضد أبي عبد الله ، فلم يهتم به ، ولم يلتفت إليه (١٦).

وقبيل صرف ، أبا الحسن علي بن عيسى عن الوزارة بعدة أيام كتب إلى أبي عبد الله البريدي ، يأمره باستخراج كافة الأموال ، الموجودة ببيت مال الأهواز. خاصة بعد أن تجمعت به أموال الجهات ، والولايات التابعة. والتي بلغ مقدارها ألفي ألف ومائتي ألف درهم. فضلا عما حصله من الأموال المتأخرة والتي جاءته بعد صرف أبا الحسن فلم يتمكن من أخذها (١٧) .فلما تولي أبو علي بن مقلة أنفذ إليه أبو عبد الله البريدي ، سفاتج (١٨) بثلاثمائة ألف دينار ممن تبقى من مال الأهواز لمودة كانت بينهما (١٩) .

مصادرة البريديين والقبض عليهم:- قرر الخليفة المقتدر بالله (٢٠) القبض على البريديين الثلاثة. فأرسل إلى أحمد بن نصر القشوري (٢١) كتاباً يأمره فيه بالامتثال لأمره في القبض عليهم ، ووضعهم في داره ، وحذره من إطلاقهم إلا بتوقيع يأتيه بمثل الخط الذي في توقيعه ، بالقبض عليهم ، ووعده نظير ذلك برفع درجته وليحظى برضاه. ولقد أسرع أحمد بن نصر بالتوجه بنفسه إلى دار أبي عبد الله ، وأنفذ حاجبه أبا يعقوب إلى دار أبي يوسف. وأرسل أحمد بن مقبل إلى دار أبي الحسين ، وذلك للقبض عليهم جميعاً في آن واحد .ولكن لم يجدهم ، وذلك لخروجهم قبيل وصول هؤلاء حيث كان الخبر تسرب إليهم ، فركبوا طيارتهم(٢٢) بدعوة رغبتهم في زيارة مسجد الرضا (٢٣) المتصل بالشاذروان (٢٤) في الأهواز ثم قصدوا البصرة(٢٥).

ولما علم أبو نصر بذلك ، غضب وقرر إرسال أبا يعقوب ، وغلمانه ورائهم للقبض عليهم. وقد تصادف ذلك مع شدة الرياح ، مما حال بين البريديين وبين المسير. فنجح أبو يعقوب في اللحاق بهم والقبض عليهم(٢٦) .

حاول أبو عبد الله البريدي، أغراء أبي يعقوب .فعرض عليه خمسين ألف دينار مقابل إطلاقهم، لكنه رفض . ثم سأله أن يفرج عن أحد أخويه نظير عشرين ألف دينار فرفض أيضا . وقام بتسليمهم إلى أحمد بن نصر ،الذي حبسهم في داره(٢٧).وقد تحايل أبو عبدالله البريدي على أحمد بن نصر القشوري بإدعائه وصول كتاب من الوزير يأمر فيه بإطلاقهم ، وإقراره والنظر في الأعمال، وأعطى الكتاب لأحد رجاله ، ليدفعه إلى أحمد . فلما اطلع عليه اكتشف تزويره وافتضح أمره، وذلك لعدم مطابقة الخط به بخط الخليفة . والتزاماً منه بتنفيذ أوامر الخليفة بعدم خروجهم إلا برسم الخط ذاته في كتاب القبض(٢٨).فلما فشلت هذه المحاولة، شغب أهالي الأهواز فقاموا باضطرابات، وثورات طالبوا فيها بإطلاق سراح البريديين، فهددهم القشوري بقتل الثلاثة وإرسال رأسهم إلى الخليفة إذا لم يتفرقوا(٢٩).

وقد أتهم القشوري البريديين بتأليب الناس ضده حتى لا ينكشف تزويرهم ، ومحاولتهم الهرب. لذلك اعتذر البريديون عما فعلوه، وأمروا رجالهم بالانصراف(٣٠).ولم يمض على ذلك وقت طويل، حتى أرسل الخليفة رسولا لاصطحابهم إلى بغداد. كما أوكل بهم من يصادر جميع أموالهم حتى يكسر شوكتهم ، ويضعف نفوذهم. فبلغ ما صودروا به أربعمائة ألف دينار، وقد فاق هذا المبلغ توقع الخليفة حيث ظن إنهم لا يمتلكون الكثير من الأموال(٣١).

ويقال أن: أبا عبد الله البريدي انتهز الفرصة، بحاجة الخليفة إلى الأموال فأعطاه أكثر مما طلب ، حتى يعتقد الخليفة علو قدره، فيسعى إلى تجديد الصنيعة عنده حتى يحصل منه على مزيد من الأموال. كذلك هدف البريدي إلى خلاصهم مما فيه، وعودتهم إلى أعمالهم. خاصة بعد نجاحه أيضا في استمالة بعض رجال الخلافة إلى جانبه ، حيث حرصوا على مداراته وخدمته(٣٢) .

استمر البريديون في التودد إلى الخلافة بعد خروجهم من السجن، وعملوا على تلبية كل طلباتها - خاصة إمدادها بالمال - وذهبوا من وراء ذلك إلى إثبات قدراتهم وكفاءتهم عند الخليفة . لذلك اختصوا بدفع الضمانات(٣٣).

ولقد أتت هذه السياسة ثمارها وجنى البريديون نظير ذلك. فقلد الخليفة المقتدر أبا يوسف يعقوب بن محمد البريدي أعمال البصرة من الخراج والضياع والمراكب، وكافة وجوه الجبايات بها مقابل نفقات البصرة (٣٤) ووضع مقدار ثلاثون ألف دينار ، بتحويلها على مال الأهواز (٣٥) .لم يستمر أبو يوسف ، في مباشرة هذا العمل، فتربص به أبو الفتح الفضل بن جعفر(٣٦) فاستكثر ضم البصرة والأهواز، لتحصيل الأموال المقررة على أبي يوسف. فقرر النظر في الأعمال، وتسييرها بنفسه، وقام بضبط الأمور وأطلع أبي يوسف عليها.فلم يستطع إنكار شيئاً مما أخرجه. فأسند له أعمال إضافية. فأمره بتخصيص ألف رجل زيادة لحفظ السور وتسديد كافة النفقات المتعلقة بذلك .بالإضافة إلى إرساله ستين ألف دينار إلى بيت مال بغداد (٣٧) وظل تضييق الخناق علي البريديين من قبل الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر وغيره ، ونالت هذه المرة أبا عبد الله البريدي فالزم بدفع مائة ألف دينار. كما أرسل إليه

أيضا ابن مقلة لإبعاده عن بغداد حتى لا ينافسه في الوزارة(٣٨) فقام البريدي بإرساله إلى شيراز (٣٩).

ورغم كل الصعوبات التي احيطت بالبريديين إلا أنهم ظلوا حريصين على التقرب من الخلافة، والمشاركة في الأحداث الهامة، وبقوا على توددهم لكبار رجال الدولة خاصة ممن لهم نفوذ، حتى يكونوا سنداً قوياً لهم في المستقبل. لذلك وقفوا إلى جانب أبي الحسين بن عمر (٤٠) أثناء محنته مع الخليفة، وأبي بكر ابن قرابة(٤١) فقدم له أبو يوسف ، ثلاثة آلاف دينار ليفتدى بها نفسه، أو يختفي عن أعين الخليفة كما توسطوا له ، عند الخليفة حتى عفي عنه، وقلده قاضي القضاة وقد جلب موقفهم عداء أبي بكر بن قرابة، فذهب لحربهم عندما خالفوا أمر الخليفة (٤٢) ولم يلبث أن صودروا للمرة الثانية ، وعزلوا عن أعمالهم، على يد ابن مقلة حيث صادرهم على ستمائة ألف دينار، واعتقلهم محمد بن خلف (٤٣) في داره حيث خصص لكل واحد منهم مكانا منفردا حتي لا يجتمعون. ويقال أن: السبب في نكبتهم ، تقاعسهم عن الوفاء ، بما عليهم من أموال، وما عليهم من التزامات. في حين نجح محمد بن خلف في أن يستولى منهم على عشرين ألف دينار بالقوة كما الحق بأبي يوسف وأبي الحسين الكثير من الأذى. بينما أخذ أبو عبد الله في التودد إليه، خاصة بعد أن استولى ابن خلف على كافة أعمالهم بأمر ابن مقلة.ولقد أوهم أبو عبد الله ابن خلف إنه يعمل تحت إمرته ، ويقوم بمال النواحي بالزيادة التي بذلها ، وظل أبو عبد الله على ذلك حتى عفا عنه(٤٤)

لم يأل أبو عبد الله جهداً، في التقرب أيضاً ، لأبي بكر بن قرابة فأرسل يعرض نفسه للانخراط في خدمته، ومده بالأموال لذلك طلب أبو بكر إخراجه من الحبس وقدومه إليه (٤٥)

ولما خرج أبو عبد الله من الحبس أخذ في تدبير مؤامرة للتخلص من ابن خلف حتى يتمكن من استعادة أعماله. فتآمر مع خادمه إسحق بن إسماعيل على أن يبقى بداره، ولا يباشر له أعمال. حتى يخرج أبو عبد الله البريدي مع ابن قرابة . وعندها يذكر لابن خلف إن ابن مقلة يبغضه وينافسه، ويتهمه بطلب الوزارة وإنه يريد من ذلك استنفار الأعداء ضده، وأخذ أموالهم بحجة حربه له. كما أوهمه أن أبا عبدالله البريدي ضمنه بثلاثمائة ألف دينار(٤٦).

استمر أبو عبد الله البريدي في تنفيذ مؤامرته،ضد ابن خلف فسعى به عند ابن مقلة، وخوفه منه بإنه يسعى إلى الوزارة، وأشار عليه بطرده. وقد ظل أبو عبد الله، مقيما بالأهواز، لانتظار ما تسفر عنه المواجهة بين ابن مقلة ، وابن خلف(٤٧) .

نجحت سياسة أبو عبد الله في إعادتهم إلى أعمالهم، واستقامت الأمور لهم. وأصبح لهم الكلمة العليا لدى ابن مقلة. وقاموا بكثير من الأمور، إرضاء لابن مقلة منها في سنة ٣٢١هـ / ٩٤٢ م قيام أبو يوسف بالوساطة بينه وبين أبي الخطاب (٤٨) وقرر أمره على عشرة آلاف دينار. كما أخذ خط أبي عبد الله بحمل ثلاثة آلاف دينار شهريا ، وخط أبي يوسف وأبي الحسين، بألف وخمسمائة دينار شهرياً(٤٩).

حرص أبو عبد الله كذلك على توطيد علاقته بالخليفة القاهر(٥٠) . فأخذ في مساعدة الخلافة في حربها ضد الخارجين عليها ،وتقديم الجيوش وإنفاق الأموال لحرب عبد الواحد بن المقتدر. ومما يجدر ذكره أن أبا عبدالله هدف من وراء ذلك كله، إبعاد كل المتنافسين عن الأهواز ، وغيرها من البلاد المجاورة حتى ينفرد ببسط نفوذه عليها كلها. ولأجل ذلك أيضا قام أبو عبدالله ،بعرض مبالغ كبيرة لضمان البلاد. كما قدم مساعدة مالية للخلافة، مقدارها ثلاثين ألف دينار(٥١) . ووعد أن يضمن السوس نظير ألف دينار ، وتستر مقابل عشرين ألف بشرط أن يتولى الأهواز . فأجيب إلى ما طلب(٥٢).

كذلك صار أبو عبدالله نائبا للوزير ،في كل الأمور ببلاد الأهواز وجنوب العراق. ثم دخل البريدي تستر، بعد رحيل محمد بن ياقوت (٥٣) عنها ، فأساء إلى أهلها ، واشتط في تحصيل الأموال بشتى الوسائل، منها كبس اليهود ومعظم التجار، وأخذ ما بدور الصيارف من مال فتجمع لديه مائة ألف دينار (٥٤) .

وسرعان ما اختفى البريديون فجأة مرة أخرى من الساحة السياسية بعد استبعاد ابن مقلة، وذلك لخوفهم من نقمة الخليفة ورجاله. فقلد أبو جعفر الكرخي (٥٥) – الوزير الجديد – أعمالهم إلي غيرهم وظلوا مبعدين حتى توسط لهم، إسحاق بن إسماعيل ، فأخذ لهم أماناً من الوزير .وقد كلم الوزير الخليفة في أمرهم ، بانه أعادهم إلى أعمالهم ، وردهم إلى ضمانهم بالبصرة والأهواز، وقد أطمعه في زيادة مال الضمان منهم(٥٦) .

وعندما رشح الخليفة القاهر للوزارة أبي العباس الخصيبي (٥٧) سأله عن رأيه في أمر البريديين. فأشار عليه بضرورة القبض عليهم قبل إعلان توليه الوزارة. حتى يتمكن من استخراج كافة أموالهم. فأرسل القاهر إلى سابور الخادم للقبض على بني البريدي(٥٨) .

كان بنو البريدي قد احتاطوا كثيراً ، فقاموا بإرسال جواسيسهم لتتبع سابور، وأصحاب القاهر. فلما بلغهم ما قرره الخليفة ضدهم اختبئوا، ولم يعثر لهم على أثر عندما كبس رجال الخليفة دورهم (٥٩) .

ثم تم القبض على أبي يوسف البريدي ،وأرسل إلى دار الوزير فأحسن وفادته ، وكتب الخليفة للوزير بمصادرته ومصادرة أخويه. وكان الخليفة القاهر حريص على مصادرة، أبا يوسف أولاً ، وذلك لكثرة أمواله (٦٠).وقد رفض أبو يوسف أمر المصادرة عندما عرضه الوزير عليه، وشرط على الوزير تنفيذه إذا ظل في الوزارة. وأما إذا عزل عنها فلا حاجة له في مصادرته من أجل الخلافة. وبينما كان أبو يوسف في دار الوزير إذا برجال الخليفة يقومون بالقبض على الوزير ، ومعه أبي يوسف ، وإرسالهما إلى بغداد(٦١).حبس أبو يوسف ببغداد. وتعرض لشتى أنواع التعذيب. وقد لحق به الكثير من الأذى منها مطالبته باثنى عشر ألف ألف درهم (٦٢).

تجددت الوساطة للإفراج عن البريديين . فنجحت في أخذ كتب الأمان بخط الخليفة، لأحمد وعلى. ولما شهد القضاة علي كتاب الأمان اطمئن البريديون من جديد. ثم أخذ أبو عبد

الله في العمل، على تقوية مركزه، هو وأخويه فأخذ مواثيق عدة وعهود من الوزير، وكبار رجال الدولة، بعدم تعرضهم للمصادرة والحبس مرة أخرى. من ذلك أيضاً معاتبته لأبي العباس الخصيبي لتقاعسه عن نصرتهم والدفاع عنهم لدى الخليفة. رغم خدماته الكثيرة التي قدمها له، وقت محنته مع الخليفة ، فطالبه برد الجميل له، من خلال تثبيت أقدامهم في الأعمال والدفاع عنهم. وقد دافع الخصيبي عن البريديين ،وتعزيز مكانتهم ، لدى الخليفة خاصة أبي عبد الله ، حيث أثنى عليه، وعلى سعة صدره وطاعته الشديدة. فكان ذلك سبباً في إطلاق سراح أبي يوسف من حبس الخليفة. كذلك نصح الخصيبي أبا عبد الله بزيادة الأموال للخليفة ألفي ألف درهم ،فوافق أبو عبد الله شرط إطلاق أيديهم لجمع المال(٦٣).

سعى أبو عبد الله كذلك إلى توطيد علاقته، بأبي بكر محمد بن رائق (٦٤) والتي أسفرت عن تعاونهما ، حيث أشار ابن رائق ، على أبي عبد الله، بالخروج مع رجاله ، للاستيلاء على الأهواز في حين خرج هو عن البصرة حتى لا يظهر اتفاقهما. كذلك أشهد ابن رائق على البريدي بالضمان فاستخلف البريدي أبا الحسن محمد بن حمد الواسطي بينما أقام هو بالنعمانية (٦٥) للنظر في أعمال الموفقي ثم قصد بغداد(٦٦) .

لم يتمتع البريديون بحريتهم كثيراً إذ سرعان ما انقلب الخليفة عليهم. وقرر مصادرتهم والقبض عليهم فبينما كان أبو عبد الله وأخيه يسيران بالسوق في انتظار خروج الخصيبي جاءهم الخبر، فقاموا بالاختباء في أنهار الأهواز حتى خلع القاهر وتوليه الراضي بالله(٦٧) .

تنفس البريديون الصعداء بخلافة الراضي بالله فأسرع أبو يوسف بإرسال الكتب إليه لاسترضائه. كما عاود ابن مقلة تضمين أعمال الأهواز للبريديين ، وأخذ خطوطهم بمائه ألف دينار فقلد أبا عبد الله خوزستان، وقلد أخوته البصرة، والسوس، وجنديسابور، وكور دجلة، وبادوريا ،والأنبار ، وبهرير وقطربل، ومسكن (٦٨)

بدأت مرحلة جديدة في حياة أبي عبد الله البريدي عند ظهور مرداويج الزياري(٦٩) وحربه بالعراق ضد ياقوت بن محمد والخلافة العباسية. فلما نزل ياقوت وابنه الأهواز بعد أن كلفه الخليفة بحرب مرداويج عمل أبو عبد الله كاتباً لياقوت . بالإضافة إلى ما تحت يديه من أعمال الخراج، والضياع بالأهواز، وصار أخوه أبا الحسين نائبا له ولياقوت ببغداد(٧٠).

كذلك اشترك البريدي في حرب مرداويج ،فأرسل جيشا قوامه أربعة آلاف رجل، بقيادة مؤنس غلامه، إلى عسكر مكرم(٧١) لتضييق الخناق على جيش مرداويج ، إلا أن مؤنس هزم أمامه (٧٢).

وعندما واصل ياقوت الحرب ضد علي بن بويه(٧٣) ، خلفا لمرداويج– بعد وفاته - حرص أبو عبدالله البريدي ، على دعم ياقوت حتى تبقى الأهواز وواسط بيده . فزحف إلى عسكر مكرم بنفسه، كما أمده بثلاثمائة ألف دينار(٧٤). ولما هزم ياقوت، ونجح ابن بويه في التوجه إلى رامهرمز، عندئذ خاف أبو عبدالله ، لاقتراب ابن بويه ، من الأهواز فأسرع إلى مراسلته وتم الصلح بينهما(٧٥).

أخذ نجم أبو عبدالله البريدي يلمع منذ سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤م فعلت مكانته، وشأنه بشكل كبير(٧٦). وكان قد استقر به المقام في أسافل الأهواز يدبر أمورها حتى عينه ياقوت كاتبا لابنيه، فخرج معه إلى واسط وظل في خدمتهما حتى تم القبض عليهما. وقد استعان ابن مقلة بأبي عبد الله البريدي لكي يبرر لياقوت إقدامه على القبض عليهما، ومبررا هذا نتيجة لثورة الناس ببغداد، ومطالبتهم بالقبض عليهما. وعندما عرض ابن مقلة على ياقوت، فتح فارس من ابن بويه. قام البريدي بإخراج بعض رجاله، ليكونوا في خدمة ياقوت. كما عين له كاتباً حتى يظل هو مقيماً بالعراق(٧٧).

أسرع البريدي بدخول الأهواز عبر الماء. ثم لحق به أخيه أبي يوسف حيث ادعى هو وأخيه أبي الحسين، عجزهم عن تحصيل أموال، مما تحت أيديهم من ضمانات، لسنتي ٣٢٢-٣٢٣ هـ / ٩٣٣-٩٣٤م. وذلك لاستيلاء بعض رجال مرداويج على المال سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣م. بينما ظلم بعضهم الناس، فلم يتمكنوا من الزراعة، وتعطل الأمور بتلك النواحي في السنة التالية. ولما بلغ هذا الأمر ابن مقلة أرسل للتأكد من صحته. وكان البريديون قد استولوا على الأموال بالفعل، ولكن احتفظوا بها لأنفسهم، فلما تمت خديعتهم للخلافة. استأثروا بالأموال، وقد قدرت بنحو أربعة ألف ألف دينار. مما أدى إلى ثرائهم، ومن ثم تطاولهم على الخلافة(٧٨).

كذلك عمد أبو عبد الله البريدي، إلى إبعاد ياقوت عن الأهواز وجنوب العراق، فعرض عليه التوجه إلى أرجان (٧٩) لفتحها.

استفحل أمر أبو عبد الله البريدي إلى حد تجرئة على الخلافة ذاتها، فقرر عدم إرسال أي أموالاً إليها. مدعيا صعوبة تحصيلها أيضا وقام بإرسال كتاب في هذا المعنى إلى الخلافة. فاستوحش لذلك الوزير ابن الحسين بن علي بن مقلة. مما اضطره إلى الرد بكتاب يأمره فيه بإرسال المال، على وجه السرعة، وبعث له ابن الكوفي(٨٠). ورغم فشل ابن الكوفي في مهمته، وخوفه من البريدي ومحاولته النجاة من بطش أبي عبد الله به. أخذ أبو عبد الله في اصطناعه، بهدف إفساد الأمر على الوزير، وإيقاع الفتنة بينه، وبين ابن رائق، لذلك أمده بالمال المطلوب لتحقيق هذا الأمر(٨١).

لم يكتف ابن الكوفي بذلك بل زين لأبي عبد الله الخروج على الخلافة، فحط من شأنها أمامه. كما وضح له مدى ضعفها فضلاً عن إظهاره عيوب ابن رائق وياقوت وغيرهما. وقد وجد هذا الأمر هوى لدى أبي عبد الله. لما فيه من تطابق لطموحه وتطلعه إلى السلطة (٨٢) لذلك علت مكانة ابن الكوفي عند البريدي حتى إتخذه مستشاراً له، وصار من أهم المقربين له. ويصور ابن الكوفي نفسه المكانة الرفيعة التي حظى بها أثناء مقامه لدى البريدي قائلاً: «.. ما مر لي عيش أطيب من عيش مع البريدي فإني أقمت عنده نحو سنة غير متصرف، ولا داخل تحت تبعه، ولا تعب بنظر في عمل، ولقد عاشرني أجمل عشرة ووصل إلى منه عينا وورقا ومن قيمة العروض التي أنفذها إلى خمسة وثلاثون ألف دينار.» (٨٣).

وقد استشاط ابن مقلة غضبا بما فعله الكوفي عند أبي عبد الله البريدي ، فأرسل كتابا إلى البريدي يطالبه بإبعاد الكوفي ،وأن يعود هو إلى طاعته ويبقى ، على المودة بينهما ، ويسرع في إرسال الأموال لحاجته إليها(٨٤).

تآمر أبو عبد الله البريدي ضد ياقوت:- كان ياقوت ، قد هزم أمام علي ابن بويه بأرجان ، فاضطر للعودة إلى عسكر مكرم .انتهز أبو عبدالله البريدي حرج موقف ياقوت ،فعمل على القضاء عليه ، والاستحواذ على ما بيده من أعمال. فنصحه بالبقاء في عسكر مكرم ، بحجة الراحة ولتدبير الأمر له. بينما هدف أبو عبد الله ، من وراء ذلك عدم ملاقاته(٨٥) .كذلك توجه أبو يوسف لمقابلة ياقوت لدعمه ، وللوساطة بينه وبين أخيه. كما خصص له خمسين ألف دينار ليجهز بها جيشه إلى أن يكتب أبو يوسف للخليفة ، يخبره بشأنه وجنده (٨٦).كذلك وضح أبو يوسف لياقوت اضطراب رجاله ، الموجودين بالأهواز ضده لمطالبتهم بالمال. وإنهم يثيرون القلاقل ، ويمنعون الأموال من الوصول إليه. مما اضطر أبو عبدالله إلى ترك الأهواز ، لقيامهم بالشغب ضده(٨٧).

فلما ازدادت حالة ياقوت سوء ، خاصة بعد ترك كثير من القواد له. كتب إلى البريدي يعلمه بما حدث ، ويؤكد على تمسكه به ككاتب ، وأن يصبح مدبر أمره. كما فوض إليه النظر في كافة أموره ، ومنها التعامل مع هؤلاء الفارين(٨٨).

قتال أبو عبد الله لياقوت:- واصل أبو عبد الله البريدي تدبير المكائد ضد ياقوت – رغم ثقة الأخير به - حيث تآمر مع رسوله ، على أن يبين لياقوت ضرورة ، إخراج جنده إلى عبد الله البريدي ، ليصلح له أمرهم لصعوبة قدومه بنفسه لكثرة اشغاله . كذلك أشار عليه بإرسالهم إليه على دفعات حتى يسهل عليه تأديبهم. لم يتردد ياقوت ، في قبول هذا الرأي وأسرع في إرسال الجند فقام أبو عبد الله باختيار أحسنهم ، ليظلوا معه في حين رد الآخرين إلى ياقوت بعد أن كسرهم ، وأسقط من أرزاقهم (٨٩) .

وعندما شعر بعض رجال ياقوت بسوء نية البريدي تجاهه فحذروه منه ، وأشاروا عليه بالتخلص منه قبل ازدياد نفوذه ، فلم يستمع إليهم وظل على ثقته التامة به ، وبرر لأبي عبد الله استئثاره ببعض رجاله ليعدهم له ، ويردهم إليه وقت الحرب. وقد تحرج موقف ياقوت بعد تضييق جنده الخناق عليه مطالبين بأرزاقهم. فكتب إلى البريدي يطالبه بإرسال أموالاً لإنفاقها عليهم فلم يرسل له شيئاً(٩٠).ظل البريدي يماطله حتى اضطر ياقوت للخروج بنفسه إلى الأهواز لمقابلته ، ولقد حرص ياقوت على المودة للبريدي ، فاصطحب معه قليلاً من الجند لئلا يستوحش البريدي منه ، ويظن مجيئه للحرب. وإنما قصد كاتبه ومدبرشئونه (٩١).

فلما سمع أبو عبدالله بقدومه خرج لاستقباله ، وأحاطه بالود والطاعة ، وأنزله في داره ، وقام على خدمته . لكن في نفس الوقت عمل البريدي على إثارة الجند ضده. فما كاد ياقوت ينتهي من طعامه ، حتى ثاروا بالباب يريدون قتله. فطلب أبو عبد الله منه الرحيل كي ينجو بنفسه ، فخرج ياقوت مسرعاً عائداً إلى عسكر مكرم (٩٢) .ثم كتب له البريدي أيضا أن الجند

ما زالوا ثائرين، وإنه فشل في إصلاحهم ،أو صرفهم . لذلك فهو يخشى عليه منهم حتى لا يقصدونه. خاصة وإنه مقيم بالقرب منهم، لذلك عليه أن يترك عسكر مكرم، ويتوجه إلى تستر لبعدها عن الأهواز ،وكان قد أرسل إلي عامل تستر أن يخصص له خمسين ألف دينار.(٩٣)

رأى كثير من رجال ياقوت – وعلى رأسهم غلامه مؤنس - أن أبا عبد الله قد استفحل أمره بشكل يثير القلق عليه. لذلك أخذ مؤنس يحثه على ضرورة التخلص منه، وقتاله ، حتى لا يتمكن من التطاول عليه، وتحقيق مآربه السياسية في الوصول إلى السلطة، والانفراد بالحكم فيجب طرده من الأهواز فإذا لم يستطع عليه التوجه إلى بغداد لرئاسة جنده هناك، وأن ياقوت عليه فعل ذلك لأنه الأمير، وأبي عبد الله مجرد كاتبا عنده. ورغم كل ذلك لم تتغير ثقة ياقوت بأبي عبد الله، والدليل على ذلك، رده على مؤنس بقوله: « لا تقل في أبي عبد الله هذا فلو كان لي أخ ما زاد على محبته ». (٩٤)

فلما رأى مؤنس تقاعس يا قوت عن مواجهة البريدي وانخداعه فيه.قرر الخروج بنفسه لحرب البريدي – حفاظا على سيده - على رأس ثلاثة آلاف رجل، قاصدا الأهواز ، وفتحها ثم تسليمها إلى ياقوت فظن ياقوت خيانة مؤنس له فأرسل إلى صاحب الشرطة بعسكر مكرم، يعلمه أن مؤنس خرج مخالفاً، ومعادياً له، ويأمره بحربه ومنعه من الخروج حتى يلحق به. (٩٥) .اضطر مؤنس إلى البقاء ريثما يجيء ياقوت. في حين جهز البريدي جيشا بقيادة غلامه أبي جعفر الجمال، وبه الكثير من جند ياقوت الذين انضموا إليه فلما وصل ياقوت إلى معسكر مكرم، وعلم بما قام به أبو عبد الله مكث مكانه وتحاشى مقابلة جيشه. (٩٦)

كما تأزمت أحوال ياقوت، خاصة وإنه رفض مواجهة البريدي، وظل على ضعفه تجاهه. مما أدى إلى خروج أكثر جنده إلى أبي عبد الله، ومع ذلك لم يحرك ساكنا ، ولم يستمع لرأي رجاله مرة أخرى في التخلص من البريدي خوفا من ازدياد قوته، بانضمام جنده للبريدي، ومع ذلك اكتفى بقوله:« إلى كاتبنا يمضون ،وإذا كانت هذه نياتهم لنا فما الانتفاع بهم». (٩٧)

كذلك تحرج موقف ياقوت بسبب قبض الخليفة الراضي بالله ،على ابنيه(٩٨) محمد والمظفر في الخامس من جمادى الأولى سنة ٣٢٣ هـ /٩٣٤م ولمدة أسبوع وقد مات محمد في الحبس ثم أطلق المظفر فسار إلى أبيه. (٩٩)

عندما تأكد أبو عبد الله من قوته وضعف يا قوت تظاهر باستمراره على الولاء والطاعة له. فبعث له رسالة أكد له فيها إنه كاتبه وما زال على عهده له ، وإنه لا يتطلع إلى منافسته في الإمارة، وتمادى أبو عبد الله في شرح سوء حالته لياقوت بسبب كثرة الجند عنده، وشغبهم عليه، إلى حد خوفه ،على حياته منهم، لذلك فهو لا يرغب في وجودهم عنده. وذهب أبو عبد الله في إظهار ، ولائه لياقوت إلى حد مطالبته بمصاهرة لتوطيد العلاقة بينهما بتزويج ابنته من أبي العباس احمد بن ياقوت (١٠٠) . وقد قبل ياقوت جميع ما قاله وطلبه أبو عبد الله ثم نزل بتستر حيث التقى بابنه المظفر ، فأشار على أبيه بالخروج لمقابلة

الخليفة، وشكره على إرساله له .واقترح عليه الإقامة بدير العاقول (١٠١) . حتى يأذن له الخليفة في الدخول، وبذلك يتم له ما يريد – خاصة التقائه باتباعه -وإذا فشل في ذلك قصد الموصل (١٠٢). وإلا توجه إلى الشام.(١٠٣)

ولما رفض ياقوت اقتراح ابنه خرج المظفر إلى البريدي حيث أحاطه بالرعاية بهدف أضعاف جانب أبيه. كما وعده بتعينه اسفهلار (١٠٤)عسكره وتسليمه تدبير أموره . مما اغري المظفر ، وتوجه إليه بالاهواز. (١٠٥) وكذلك احتاط البريدي . وعمل على الاستعداد لخوض حربه ضد يا قوت. فخاف أن يميل أصحاب ياقوت إليه، أثناء القتال، أو ينادوا بشعاره فيهلك. لذلك أرسل إلى ياقوت ، يحذره على لسان الخليفة ، ويأمره بترك مكانه ، وعليه التوجه إلى بغداد مع خمسة عشر غلاماً فقط أو أن يتوجه إلى بلاد الجبال ، فيتقلدها . وأدعي إنه كلف بحربه ، وإخراجه إذا رفض (١٠٦)

وأخيراً فطن ياقوت ، إلى خداع البريدي له ، وطمعه فيه فتعلل له حتى يستمهله شهراً، للاستعداد للخروج فرفض البريدي ، بحجة عدم مخالفة أمر الخليفة ، وأسرع بتوجيه عساكره إلى الاهواز. (١٠٧) وقد أخذ ياقوت، في إرسال الجواسيس عنده ليأتوه بأخبار البريدي، فنجح أبو عبد الله، في استمالة أحدهم ، وإغرائه بالمال نظير إخباره ياقوت أن البريدي وأصحابه وصلوا إلى عسكر مكرم، وتفرقوا بالدور هناك . فلما ابلغ الجاسوس ياقوت بذلك. توهم ياقوت انه سيظفر به في سهولة ويسر ، ورتب مع مؤنس على أن يسيروا ليلاً، من تستر فيصبحوا بعسكر مكرم ، فيكبسوا جيش أبي عبد الله . وصور ابن مسكوية تفاؤل ياقوت، وقناعته بهزيمة أبي عبد الله بقوله:« ظفرنا والحمد الله بعدونا، وكافر نعمتنا فنسير من تستر وقت عتمة ، ونصبح عسكر مكرم، والقوم غارون في الدور فنكبسهم، ونشردهم ونمتد إلى الأهواز فلا يثبت لنا البريدي بل يكون همه الهرب لوجهه . فقال مؤنس: «ارجو أن يكون هذا صوابا ».(١٠٨)

فلما وصل ياقوت ، لم يجد أحداً. فتأكد من خيانة جاسوسه ، فظل مقيماً حتى ظهرت طلائع عسكر البريدي عند العصر. ومن ثم بدأت الحرب، بين الطرفين وكان أبو عبد الله، قد احتاط قبل دخوله الحرب. فجهز جيشاً أخر قوامه ثلاثة آلاف رجل لمساعدة الجيش الأساسي في تضييق الخناق، وحتى يكون كمينا ضد ياقوت(١٠٩). سولقد نجح ياقوت في هزيمة البريدي في بداية المعركة، وكاد أن ينتصر على أبي جعفر الجمال. وفجأة خرج كمين البريدي. فهزم ياقوت ورجاله. وفر هارباً بعد ترك دابته، ونزع سلاحه وثيابه ، ثم لجأ إلى رباط (١١٠). وتشير المصادر إلى إمكانية نجاة ياقوت، حال دخوله الرباط، لعدم تتبع جيش أبي عبد الله البريدي له إلا انه بقي بجوار الحائط، فظفر به بعض رجال البريدي فحزوا رأسه (١١١). وعندما سمع الجمال بخبر قتل ياقوت، قبض على المظفر، وأرسله إلى بغداد (١١٢). كذلك أرسل البريدي إلى تستر من حمل الجواري، والأموال الخاصة بياقوت. مما أدي إلى ازدياد قوة ونفوذ أبي عبد الله البريدي. (١١٣)

وعقب وفاة ياقوت ثار رجاله ببغداد ، فاجتمعوا لدي الخليفة الراضي ، واتهموه بالقبض على أبناء ياقوت بدون ذنب وحبسهما ، فضلا عن تحريضه لأبي عبد الله بقتل ياقوت . حاول الخليفة تبرئة نفسه بتقديم خطابات البريدي إليه، والتي يشكو فيها من تصرفات ياقوت ، ورد ياقوت عليها . كذلك وعدهم بعزل البريديين ، وإرسال جيشاً لحربهم. (١١٤)

عندما سمع أبو عبد الله بخبر ثورة رجال ياقوت خشي على نفسه . وعلى أخيه أبي الحسين أن يقتلوه لإقامته ببغداد . كما كتب أبو يوسف له أن يحتاط لنفسه منهم . فضلا عما قام به من استعدادات قوية لدخوله وأبي عبد الله بغداد فرصدوا لذلك جميع ما تحصلوا عليه ، من أموال بما تحت أيديهم من أعمال. (١١٥)

حرص أبو عبد الله منذ تخلصه من ياقوت . على التقرب من الخلافة، والمشاركة في أحداثها . كذلك تحرك سريعاً متجها إلى البصرة ليتم الأمر له . وقرر إذا فشل في السيطرة عليها أن يقصد عمان (١١٦) ويستنجد بصاحبها يوسف بن وجيه . ومنها يتجه لفارس (١١٧) لطلب المساعدة من على بن بويه . أو يقصد صاحب خراسان .(١١٨) بينما تشير المصادر أن عبد الله صار مستوليا على خوزستان ، والأهواز ، وقام بقطع الأموال عن الخلافة. (١١٩)

كذلك صار أبو عبد الله البريدي أحد أطراف السياسة العباسية . ومن أهم المنافسين للسيطرة عليها ، فكان هو وابن رائق ، وبجكم (١٢٠) مثلث السيطرة على الخلافة . وتسيير دفة الأمور بها ورسم سياستها . وأخيراً أتي أبو عبد الله البريدي فارس عن طريق البحر لاجئا إلى على بن بويه ، لنصرته في الحرب أمام ابن رائق وبجكم، ولا نتزاع الأهواز منهما وكان البريدي عقب هزيمته أمام ابن رائق قد ترك أخويه بالبصرة . وخرج بمفرده. (١٢١)

استقبله على بن بويه ، استقبالا حافلاً ، وأكرم وفادته كذلك قطع البريدي ، له الوعد بتمكينه من العراق ، وإرسال الأموال إليه نظير ما يمده به من جند . فشرط عليه ابن بويه ، ترك ابنيه رهينه عنده فوافق البريدي. (١٢٢)

جهز على بن بويه ، جيشاً كبيراً بقيادة أخيه أبي الحسين ، للخروج مع أبي عبد الله . فلما اقترب الجيش . عاد بجكم إلى الاهواز لمنع الديلم من دخولها في حين قصد ابن رائق واسط (١٢٣). ثم التقي الجيشان بالقرب من رامهرمز .

مسير الراضي وابن رائق لحرب البريدي ؛ لما رأي ابن رائق حرج موقفه ، وعلو مكانة البريدي . حاول تضييق الخناق عليه . وإضعاف قوته . بادعائه أن أبا عبد الله خارج على الخليفة ويسعي للانفراد بحكم واسط والبصرة وغيرهما . ففي سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م. أشار ابن رائق على الراضي بالانحدار معه إلى واسط. فيقترب من الاهواز. ويراسل البريدي. فإما الطاعة أو حربه. (١٢٤) ولما علم البريدي بقدومهما فزع فزعاً شديداً خاصة بعد استلامه رسالتين أحدهما من الخليفة والأخرى من ابن رائق . وقد عدد الخليفة في رسالته مساوئه واصفاً إياه بسوء الأخلاق ، وإفساد الجيوش والعصيان ضده.

حاول أبو عبد الله استرضاء الخليفة ، فجدد ضمان الأهواز ، كل سنة بثلاثمائة وستين ألف دينار على أن يحمل منها قسط كل شهر . واتفق على تسليم الجيش إلى قائد لهم . ويخرج به إلى فارس ، لحرب ابن بويه إذا رفضوا العودة لبغداد. لقلة الأموال بها ، أو خشيتهم من الأتراك ، والقرامطة (١٢٥) . فقبل منه ذلك . مقابل بقائه في الولاية.(١٢٦)

لم تلبث أن توترت العلاقة بينهما مرة أخرى . بسبب نكث أبو عبد الله البريدي لوعوده .فلم يرسل اى شيئا من الأموال المفروضة بالإضافة إلى تأليب الجند على جعفر بن ورقاء ، الذي أرسله ابن رائق ليتسلمه منه .حيث قام بإثارة الجند ضده ، فشغبوا عليه وطالبوه بالأموال قبل الذهاب معه . فتظاهر البريدي بحمايته حتى لا يقتل على أيديهم ،فتخف عنده ثم أخرجه ليلاً فعاد إلى بغداد خائباً (١٢٧). في حين أن ابن رائق قد عنى بأبى الحسين البريدي قبيل خروجه مع الخليفة من بغداد فخلع عليه هو وأمه ، وكان تحت رعايته حتى أخرجه إلى واسط .(١٢٨)

ويبدو أن أبا عبد الله البريدى تحالف مع أبي بكر بن مقاتل، ويتضح ذلك من خلال تأييد أبى بكر لبقاء البريدى في ولايته ، واقتراحه على ابن رائق باتخاذ البريدي كاتبا ، أو وزيرا له ، وبذلك يضم جند البريدي إلى جنده .

وافق ابن رائق على تقريب البريدي إليه، وفى نفس الوقت أخذ في الاحتياط منه والاستعداد لحربه، إذا ما تمرد عليه بانتزاع الإمارة والكتابة منه ، وتجريده من جيشه ، وضمه إلى بجكم ليفتح به فارس وأصبهان .

أرسل ابن مقاتل للبريدي بترشيحه للوزارة، فأنفذ البريدي أحمد بن على الكوفي نائبا عنه فيها، وقدم البريدي عشرة آلاف دينار مكافأة لابن مقاتل، ثم سعى أبو عبد الله بضمان البصرة لأخيه أبي يوسف فشرط ابن رائق قبوله بأن يضع معه ثقات بها.(١٢٩)

وكان أبو عبد الله قد وطن علاقته ببعض الوجهاء من أهالي البصرة، فكانوا يحضرون إليه بالأهواز، وزينوا له التغلب على البصرة لسوء معاملة واليها ، من قبل ابن رائق لهم. لذلك فرح أهلها عند سماعهم بخبر ولاية البريدى لهم (١٣٠)، خاصة بعد أن خفف عنهم الأموال المفروضة، فضلا عن إلغائه جميع ما قرره عامل ابن رائق فتمسك أهالي البصرة به، ووعدوه بمساعدته ضد ابن رائق (١٣١). وقد تمادى أبو عبد الله في إظهار حرصه على مصالح أهالي البصرة بقوله: «أنه سيبلغ هذا ابن رائق فينكره، ويوحشه منى ويصير سببا للعداوة بينى، وبينه والله ما أبالى أن يعاديني أخواى أبو يوسف وأبو الحسين،وابني أبو القاسم في صلاحكم».(١٣٢)

الخلاف بين ابن رائق والبريدى : لم يدم الود بين ابن رائق، والبريدي فحدث الخلاف بينهما سريعاً في نفس السنة ٣٢٥ هـ / ٩٤٦م .

بدأت الوحشة بينهما بضم أبى عبد الله جنود ابن رائق الذين اسقط أرزاقهم فقربهم البريدى إليه ، وأوغر صدرهم ضده ، وإذا كان البريدي برر له ما قام به ، لأنه اضطر إلى

قبولهم لخوفه منهم. كذلك تذرع بهم ، لقطع الأموال عن الخلافة ، بحجة منعهم لها . ومما زاد الوحشة بينهما معرفة ابن رائق ما خاطب به البريدي ، أهل البصرة من سوء سياسة ابن رائق وواليه واضطهادهما لهم فضلا عن تغلب البريديين على الأهواز ، والبصرة ، وواسط (١٣٣).

لذلك تحول ابن رائق ، عن البريديين ، وأخذ يكيد لهم فاتهم نائب البريدى ببغداد ، وهم بالقبض عليه لولا تدخل ابن مقاتل له .كما أرسل إليه يعاتبه على ما سبق وطلب منه رد الحجرية (١٣٤) إليه أو طردهم إلى الجبل. حاول البريدي استرضاء ابن رائق فعلل له دخوله البصرة لحمايتها من خطر القرامطة وأن أهلها متمسكون به ، لأنهم كرهوا واليه لتعسفه بهم، وأن إبقائه على الحجرية لصلتهم برجال جيشه وقد وعده بتفريقهم. (١٣٥)

إعلان الحرب بين ابن رائق والبريدي ؛ اسند ابن رائق ، إلى بجكم حكم الأهواز وأمره بحرب البريدى فجهز بجكم جيشاً بقيادة بدر الخرشى ووجهه إلى السوس فلما علم البريدى أرسل له جيشا بقيادة غلامه أبي جعفر الجمال بلغ تعداده عشرة آلاف فوقعت الحرب بينهما بظاهر السوس وهزم فيها جيش البريدي. (١٣٦)

رأى البريدي ضرورة حرب بجكم مرة أخرى فأعد جيشاً قوامه ستة آلاف رجل سيرهم مع قائده الجمال . ومما يجدر ذكره أن جيشه ، كان خائفاً من ملاقاة جيش بجكم ، خشية هزيمتهم مرة ثانية وقد هزموا بالفعل دون قتال. (١٣٧)

لذلك أخذ أبو عبد الله وأخويه ، جميع أموالهم وركبوا في أحدى السفن فغرقت بهم ، إلا أن الغواصين ، أنقذوهم فاضطر إلى إرسال بعض من الأموال إلى بجكم لترضيته ثم توجهوا إلى البصرة ، فأقاموا بالأبلة (١٣٨) واستعدوا من جديد ، لتجهيز المراكب ، للهرب بها ، إذا اضطروا لذلك في حين دخل بجكم الأهواز ، وكتب لابن رائق بالفتح .(١٣٩)

لم يستسلم البريدي ، للهزائم المتوالية ، أمام بجكم فأخذ يعد العدة للحرب فلما وصل إلى الأبلة سير غلامه اقبال ، إلى مطارا (١٤٠) للاشتباك مع جيش بجكم . كذلك احتاطوا لأنفسهم فجهز سفناً أخرى حتى يهرب بها إلى عمان واستمر أيضا ، في إرسال الإمدادات إلى جيشه .ونجح اقبال في السيطرة على الكلا (١٤١) . ففي هذه المرة انتصر جيش البريدى ، وأسر جماعة من جيش بجكم لذلك بقى البريديون في البصرة (١٤٢) فلما علم ابن رائق بهزيمة جيشه أمام البريديين جهز جيشا إلى المذار (١٤٣) لمحاربتهم في الماء والبر، وسير بدرا الخرشى إلى البصرة فانهزم ، وأسر أيضا قائده أحمد بن خاقان ، فأحسن البريدي إليه ، لذلك وعده ابن خاقان بعدم حربه نظير إطلاق سراحه ولقد قرر ابن رائق الخروج بنفسه على رأس جيش ليتوجه إلى واسط ثم البصرة، وكتب لبجكم أن يلحق به حتى يتمكنا من تضييق الخناق على جيش البريدي وهزيمته .

بدأ ابن رائق بإحكام سيطرته على واسط ثم نجح عسكره في الاستيلاء على الكلا من يد

البريديين .(١٤٤) وأعقب ذلك هروب أبو عبد الله إلى جزيرة أوال (١٤٥). وترك أخيه أبي الحسين في البصرة بعسكره لحمايتها ، فلما وصل ابن رائق وبجكم للقتال بالبصرة ، وقف أهلها إلى جانب أبي الحسين ، ودافعوا عن بلدهم واستماتوا في قتالهم ، وذلك لكرههم الشديد لابن رائق فالحقوا الهزيمة به. فكان ذلك سببا في إنقاذ البريديين. (١٤٦)

وقد قام أبو عبد الله بالتوجه من أوال قاصدا علي بن بويه. لطلب المساعدة منه وأطماعه في العراق ، لضعف الخلافة بها. وترك ابنيه أبا الحسن محمد، وأبا جعفر الفياض رهينة لديه فقام ابن بويه بإرسال أخيه أبي الحسين أحمد بن بويه معه لفتح الأهواز . فلما وصل الخبر لابن رائق أرسل بجكم لحمايتها نظير وعده بحكمها. (١٤٧) كذلك كثف رجال البريدي الهجوم على جيش ابن رائق، فقصد بعض رجال البريدي معسكره ليلا، وصاحوا فيه فظن ابن رائق وجنده أن البريديين سيطروا على المكان ، فهزموا بدون قتال، فدخل بعضهم واسط في حين قام ابن رائق بحرق سواده وآلاته لئلا يظفر بها البريدي، ثم توجه إلى الأهواز وبقى بها أياما ثم عاد إلى واسط لملاقاة عسكره الذين فروا إليها . (١٤٨)

صمم ابن رائق على مواصلة قتال البريديين في هذه النواحي فجدد لبجكم أمر الأهواز وأطلق يده لحربهم حتى التخلص منهم . (١٤٩)وكانت جيوش أبو الحسين بن بويه والبريدي قد نزلت أرجان، فأسرع بجكم لملاقاتها ، ولكن هزم بسبب كثرة الأمطار ، وفشل جنوده في مواصلة القتال فاضطر العودة إلى الأهواز بعد أن قطع قنطرة أربق (١٥٠) . ثم أعد جيشاً جديداً و توجه إلى عسكر مكرم و اشتبك مع ابن بويه لمدة ثلاثة عشر يوما، وانتهت بهزيمته للمرة الثانية . فلما سمع بجكم بذلك خرج من الأهواز ، بعد اعتقال اغلب سكانها وأخذ أموالهم وسار بجميع جنده إلى واسط ، وكذلك اقترح على ابن رائق الخروج إلى بغداد لينجو بنفسه من ثورة الجند عليه (١٥١). في حين بقى هو وجنده بواسط

في تلك الأثناء واصل ابن بويه والبريدي زحفهما تجاه الأهواز بغية الاستيلاء عليها . كما أرسل ابن بويه جواسيسه إليها فأخبروه بخلوها من الجند على أثر خروج بجكم عنها ، وكانا مقيمان بالقرب من شاطئ نهر المسرقان (١٥٢). ونزل أبو عبد الله بدار بها ، فأقبل عليه أهل الأهواز للتهنئة بالنصر(١٥٣).ثم لم يلبث أن سئم البريدي الاستمرار مع أبي الحسين أحمد بن بويه فلم يخرج معه ، بل ظل مقيما

بالأهواز لمدة خمسة وثلاثين يوما ، ومنها فرهاربا منه في الماء متوجها إلى الباسيان(١٥٤). حيث أقام بها مع كاتبه (١٥٥). ويجدر القول أن: هروب أبي عبد الله البريدي يرجع إلى خشيته من تسلط ابن بويه وطمعه في الأعمال ، فضلا عن فتح البلاد باسمه، فتخوف من ضياع طموحه، وحرج موقفه معه. إذا ما فقد أعماله هووأخويه فرأى من الصواب الاعتماد على نفسه، والعمل بمفرده، لإعادة السيطرة علي ما كان بيدهم من أعمال في الأهواز، وخوزستان والبصرة، حتى يحول بين ابن بويه وبسط نفوذه عليها.

وكان قد زاد شعور أبو عبد الله بالخوف من أطماع آل بويه ، عندما حاولوا إبعاده عن هذه المناطق، أو تشتيت جنده، وتفريقهم عنه بشتى الطرق حيث طالبوه بتجهيز عسكره وإخراجه من البصرة، وإرساله إلى أصبهان (١٥٦). لكي يساعدهم في حرب وشمكير الزياري (١٥٧). كذلك طالبوه ، بإنفاذ رجال الماء لديه إلى حصن مهدى (١٥٨) ، ليختاروا منهم من يسير إلى واسط. ففطن البريدي إلى إنها مؤامرة لعزله عن جنده حتى يسهل القضاء عليه بالإضافة إلى ذلك استمرار إهانة واحتقار الديلم له .(١٥٩)

أسرع البريدي بإرسال غلامه أبى جعفر الجمال إلى الباسيان، وأمره بالتوجه منها إلى البصرة ليلتقى به. كما أرسل إلى أحمد بن بويه يطلب منه إخلاء الأهواز والبصرة له، لتحصيل الأموال المقررة عليهما لإرسالها إلى على ابن بويه وفقا لاتفاقه معه على إرسال ثمانية عشر ألف ألف درهم .(١٦٠)

سارع ابن بويه ، بترك الأهواز له خوفا من غضب أخيه على حتى لا يظن إنه السبب في تأخير الأموال له فقام البريدي بترك الباسيان والذهاب إلى نباتاذر ، وأرسل نائبا له إلى سوق الأهواز ، كذلك احتاط البريدي لنفسه أكثر، فطلب من ابن بويه مغادرة مكانه حتى لا يكون قريبا منه فلا يأمن هجومه في أى وقت وعرض عليه الذهاب ، إلى السوس كي تبعد المسافة بينهما ، وقد استقر الحال علي أن يحمل البريدي له ثلاثين ألف دينار حتى يخرج. ولقد حرص أحمد بن بويه على إطلاع أخيه على تصرفات البريدى وهروبه منه حتى لا يغضب عليه . (١٦١)

وعندما لاحظ رجال ابن بويه تغير البريدي . أخذوا يحذروه من مغبة إطلاق يده،وذلك لاتباعه معه نفس الأسلوب الذي اتبعه مع ياقوت ، فهو يريد إبعاده إلى السوس ، ومن ثم استقطاب رجاله وجنده الواحد تلو الآخر مع إحكام قبضته على البلاد . ثم يقوم بالقبض عليه وتسليمه إلى بجكم أو ابن رائق . (١٦٢) خاف أحمد بن بويه هذا الأمر ، لذلك رفض الخروج من عسكر مكرم فرد البريدي ، بالقبض على رسله ، ودبت الوحشة بينهما .(١٦٣)ولما علم بجكم بما حدث بين البريدي وابن بويه أسرع بالاستيلاء على السوس وجند يسابور .

وبقيت الأهواز بيد البريدى ، فتحرج لذلك موقف ابن بويه خاصة بعد مفارقة بعض جنده له، ومطالبة الباقي بالعودة إلى فارس .(١٦٤)

عندما علم على بن بويه بسوء حرج أخيه ، قام بنجدته فأسرع بإرسال عدة جيوش في آن واحد ، بغية السيطرة على أكبر عدد من مدن العراق . وقد نجحوا في ذلك ، حتى سيطروا على سوق الأهواز نفسها ، ونزلوا دار أبى عبد الله البريدي ، واستقامت لهم الأمور فيها (١٦٥)

وقد تواكب ذلك مع محاولة ابن رائق إعادة السيطرة على جنوب العراق فقلد أحد رجاله أعمال الخراج والضياع بكور الأهواز . لذلك أخذ في الاستعداد لحرب ابن بويه، وطرده من الأهواز ، وللحيلولة أيضا دون انفراد بجكم بالأمر فيها . (١٦٦) ولاجل ذلك سعى ابن رائق

إلى الصلح مع البريدي في مقابل تسليمه واسط وضمانها بستمائة ألف دينار في السنة. ونجح في أخذ خط الراضي بالله للبريديين بالرضا عنهم ، كما ارسلت لهم الخلع ، على أن يقيموا الدعوة ، لابن رائق بالبصرة ، ويحاولوا فتح الأهواز وردوا على ذلك بضمان مبلغ ثلاثين ألف دينار للخلافة، فردت إليهم جميع ضياعهم .(١٦٧)

خاف بجكم على نفسه ، من وراء هذا الإتفاق واستشار أصحابه ، فيما يفعله ، فرأوا أن يبدأوا بالبريدي ثم ابن رائق . (١٦٨) فانتهز بجكم الفرصة بخروج جيش البريدي إلى واسط فخرج بعسكره قاصدا البصرة لمحاربته.و بادر أبو عبد الله بتجهيز جيش عدته عشرة آلاف رجل ، قلده غلامه أبى جعفر الجمال فاشتبكوا وهزم البريدي ، فاكتفى بجكم بذلك ، حيث استهدف فقط ، إذلال البريديين ، ومنعهم عن ابن رائق ، لإتاحة الفرصة له في السيطرة على الخلافة.(١٦٩)

ورغم ذلك كله ظل بجكم حريص على عدم عدواته للبريديين ، فأرسل كتابا سريعا للبريدي يعتذر له عما حدث من قتال بينهما ويلومه على بدئه الحرب. فضلا عن تحالفه مع ابن رائق بغرض هزيمته ثم سعى للتقارب بينهما ، فوعده بتقلد واسط - في حال سيطرته على الخلافة - كذلك طلب المصاهرة بينهما حتى تكون سبباً في توطيد العلاقة بينهما .(١٧٠) رد البريدي بالموافقة على جميع طلبات بجكم. كما تمادى في إظهار طاعته له فكتب له كتابا بخطه يتعهد فيه بجميع ما عقد بينهما في حضرة الشهود، واشهد على نفسه بالالتزام بما فيه. كما أرسل إليه ثلاثة آلاف دينار . (١٧١)

وتشير المصادر أن كلا منهما كان يريد التخلص من الآخر، ولكن الظروف لم تكن مناسبة آنذاك فاضطر كل منهما أن يصانع الآخر، حتى تحين الفرصة وقد صور بجكم ذلك بقوله :« فانه كاذب في جميع ما قاله ، وحلف عليه ولكن نقبل ذلك منه لحاجتنا إلى قبوله ».(١٧٢)

كذلك توثق الصلح بينهما مرة أخرى بعد سيطرة بجكم على الخلافة سنة ٣٢٧هـ/ ٩٤٨م وتجدد ضمان أعمال واسط ، بستمائة ألف دينار في السنة .(١٧٣)

وتواكب ذلك مع علو نجم أبى عبد الله البريدي لدى الخلافة والخليفة. ففي السنة ذاتها استوزره الراضي ليتق شره، فأرسل له الخلع والتقليد فامتنع البريدي في بادئ الأمر، ثم تقلدهما وخلفه بالحضرة عبد الله بن على النفرى (١٧٤). ثم توطدت العلاقة كثيرا بين بجكم وأبى عبد الله البريدي حيث تزوج بجكم من سارة ابنة البريدي بحضور الخليفة الراضي ، وعلى صداق مائتي ألف درهم .(١٧٥)

مسير أبي على بن بويه إلى واسط وعودته عنها : وسبب ذلك تهديد أبى عبد الله البريدي لأبى الحسين حيث أرسل البريدي جيشا إلى السوس وقتل قائدا من الديلم ، وتحصن عامل الخراج فيها بقلعتها فخاف أبو الحسين أن يسير البريدي من البصرة إلى الأهواز، فبعث يستنجد بأخيه أبى على وهو على مشارف إصطخر (١٧٦). فأسرع لنجدة أخيه ، وكان أبو

الحسين قد اضطر للخروج من السوس متجها إلى الأهواز ، ثم واسط بغرض الاستيلاء عليها. فلما وافى أبو على السوس نزلها ومنها قرر المسير إلى واسط طمعا فيها ، ولكن جنده ثاروا ضده لتأخر صرف رواتبهم منذ سنة ، فخرج مائة منهم واستأمنوا للبريدي .(١٧٧)

النزاع بين البريدي وبجكم : دب بسبب نقض أبي عبد الله البريدي الاتفاق بينه وبين بجكم. وكان بجكم بعد مصاهرتهما اقترح أن يخرج إلى بلاد الجبال في حين يتوجه البريدي إلى الأهواز لطرد ابن بويه عنها والسيطرة عليها . (١٧٨) ولأجل ذلك أرسل له حاجبه في خمسمائه رجل ، لدعم قوته كما دفع إليه أبى زكريا السوسى ليحثه على الخروج بنفسه على رأس الجيش .(١٧٩)

ولقد أورد ابن الأثير وآخرون القصة . أن البريدي هو الذي أشار على بجكم بقوله : « فأرسل إليه البريدي يشير عليه بأن يسير إلى بلاد الجبل لفتحها والاستيلاء عليها ويعرفه أنه إذا سار إلى الجبل سار هو إلى الأهواز واستنقذها من يد ابن بويه فاتفقا على ذلك ».(١٨٠)

تقاعس البريدي عن الخروج إلى الأهواز. فأخذ يتذرع بالحجج وكلما أتاه كتاب من بجكم يحثه على سرعة الخروج ومعرفة أحواله ادعى أمام رجال بجكم بالخروج. ولما رأى أبو بكر السوسى رفضه الخروج .قام بإطلاع بجكم على نواياه واعلمه إنما يريد أن يرحل بجكم إلى بلاد الجبال ،فيتهيأ هو للذهاب إلى بغداد والاستيلاء على كل ثروته والعودة إلى واسط. فلما علم بجكم بذلك أسرع بالعودة إلى بغداد ، للحيلولة دون وصول البريدي إليها ولحفظ أملاكه بها.(١٨١)

وعندما سمع البريدي بخبر عودة بجكم إلى بغداد تضايق وعمل على القبض على أبى بكر بالبصرة ، ثم عدل عن ذلك وطلب منه الوساطة له عند بجكم لإزالة الوحشة بينهما. فلما وصل بجكم إلى واسط. أرسل البريدي السوسى إليه للقيام بما أمره وهيأ له كافة الإمدادات. كما جعل معه خمسين غلاما، وبينما أبو زكريا في طريقه إلى بجكم إذ أتاه رسولا من قبله يبلغه برسالة من بجكم يطالبه فيها بالقدوم سراً إليه ،فأخفى أبو زكريا أمر الرسول وأدعى أمام رجال البريدي بأنه خادم بيته ببغداد ابلغه بأمر خاص .(١٨٢)

ندم البريدي على التسرع في إرسال أبى زكريا ، وأرسل في طلبه لكنه فشل في القبض عليه، وقد وصل أبو زكريا آنذاك إلى الزعفرانية(١٨٣). فوجد بها بجكم وسعى للصلح بينهما وإعادة بجكم إلى بغداد . فرفض بجكم كل محاولات الصلح، وصمم على التوجه لحرب البريدي فانحدرا معاً إلى واسط ، وعمد بجكم إلى تكتم خبر قدومه ليفاجئ البريدي فضبط الطرق ، وحال دون وصول اى كتاب للبريدي حتى لا يأت به خبر تحركه ضده . نجح بجكم في الوصول إلى واسط فقبض على أبى جعفر بن شيرزاد لأنه السبب في الصلة بينهما وأخذ منه مائة وخمسين ألف دينار . كذلك اسقط اسم البريدي من الوزارة بعد سنة وأربعه أشهر من تقلدها.(١٨٤) وكان أبو عبد الله البريدى عندما جاءه خبر قدوم بجكم إلى واسط قد أسرع بالخروج منها إلى البصرة .(١٨٥)

مقتل بجكم : ففي سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م . أرسل البريدي جيشا من البصرة إلى المذار. فأنفذ له بجكم جيشا بقيادة توزون (١٨٦) . فاقتتل الجيشان طويلاً وهزم توزون أول الأمر ، فاستنجد ببجكم فأسرع بالخروج منتصف رجب متوجهاً إلى المذار. ثم لم يلبث توزون أن انتصر فارسل يبشر بجكم. ثم قتل بجكم فجأه على يد أحد الاكراد عندما حاول أخذ أموالاً منهم(١٨٧)

وكان البريدى قد قرر الخروج مع أخويه من البصرة، خاصة بعد أن راسل بجكم أهلها ورحبوا به فخشي البريديون على أنفسهم، وكانوا بمطارا استعداداً للخروج فوصلهم نبأ مقتل بجكم فانفرج أمرهم وزال الخطر .(١٨٨)

كما زادت قوة البريدى بعد مقتل بجكم، وذلك لإنضمام الديلم في جيش بجكم بعد مقتله إليه، وكان عددهم نحو ألف وخسمائة رجل، وكانوا من أقوى جنده فقربهم البريدي إليه ، وقد قويت شوكته منذئذ لكثرة عدد جنده ، حيث بلغ تعداده سبعه آلاف رجل (١٨٩). حيث تجرأ به فخرج من واسط قاصدا البصرة . في شهر شعبان لقصد الخلافة . فلما علم الخليفة المتقى (١٩٠) . بخروج البريدى وجنده راسلهم ، بعدم القدوم وأن يظلوا بواسط فطالبوه بأموال ليرضوا فأرسلها لهم .(١٩١)

دخول البريدي بغداد : لم تستمر الأمور كثيراً بين البريدي والخليفة. ورأى الخليفة ضرورة حربهم لكسر شوكتهم، وتشجع على ذلك بعد أن وعدوه الأتراك بالمساعدة، شرط إطلاق الأموال وتعيين رئيساً لهم فوافقهم على ما طلبوه ، وخرج معهم إلى نهر ديالى (١٩٢). بينما عاد رسول الخلافة برد البريديين على الخليفة ، ومطالبتهم مزيداً من الأموال ، بحجة إنفاقها على جند الديلم لضمان ولاءهم، وعدم خروجهم إلى بغداد أو ثورتهم ضد الخلافة. وذيل البريدي طلبه بتهديده بقصد بغداد إذا لم يرسل الخليفة ما طلبه من مال .(١٩٣)

لم ينتظر البريدي الرد بل أسرع بالخروج من واسط باتجاه بغداد، فلما اقترب ثار الأتراك البجكمية (١٩٤) . واستأمن بعضهم إليه في حين خرج بعضهم إلى الموصل .(١٩٥) دخل البريدي بغداد ثاني عشر رمضان في كثير من السفن ،ولقيه أعيان الناس والكتاب . كما أحسن المتقى استقباله ، وجعله في ضيافته لعدة أيام وظل الناس على خدمته ، كخدمة الخليفة. وكان معه أخيه أبى الحسين وأبنه أبى القاسم وأبى جعفر به شيرزاد .(١٩٦) ترتب على وجود البريدي ببغداد ، معاناه أهلها حيث خافه الناس وعسفهم، وطمع في أموالهم، ففر أصحاب الثروة بها خوفا منه .(١٩٧) كذلك خاطبه الناس بالوزير مع وجود الوزير ، أبى الحسين بن ميمون وقد سعى أبوعبدالله بإثارة الديلم ضده ، وتهديده بالقتل للتخلص منه. وانتهى الأمر بقبض البريدي عليه فانفرد بالوزارة، واستأثر بالأمور. وقد تحاشى البريدي ملاقاة الخليفة طوال قيامه بالوزارة، ولم يكتف البريدي بما بلغه من نفوذ ورعاية من الخلافة. فظل حريصاً على طلب المال من الخليفة وحتى عندما أعطاه مائة وخمسين ألف دينار لم يرض بها ، وأرسل في طلب خمسمائة ألف أخرى (١٩٨). فلما رفض المتقى طلبه أرسل إليه يتهدده بسوء العاقبة على يد الجند ويذكره بما جرى لأسلافه على أيديهم .(١٩٩)

سارع الخليفة بتلبية حاجته من المال. ومما يجدر ذكره أن البريدي كان يحرض الجند الديلم للثورة والشغب على الخليفة حتى يدفع الأموال لهم. فما لبث أن انقلب الأمر عليه خاصة بعد أن أعطاه الخليفة كافة الأموال. فانصرف شغب الجند إليه .(٢٠٠) فبدأت الثورة ضده . بتحالف الجند الترك . والديلم فقرروا قصده وحربه بغرض الاستيلاء على ما لديه من أموال. كما أحرقوا دار أخيه أبي الحسين وعاونهم في ذلك العامة أيضا. لبغضهم للبريديين فوثبوا على أصحابه بالجانب الغربي. فلما سمع أبو عبد الله بذلك هرب وأخيه وأبنه في الماء إلى واسط. فنهب الجند داره ودور قواده واستولوا على كافة الأموال بها. وبخروج البريدى من بغداد . زالت عنه الوزارة بعد أربعة وعشرين يوما فقط .(٢٠١)

وعندما أسندت الوزارة إلى أبي شجاع كورنكيج (٢٠٢). أرسل جيشاً بقيادة اصبهان الديلمى لحرب البريدي. وكان أبو يوسف قد خرج من البصره باتجاه واسط .فلما علم وأخويه بانحدار الديلمى إليهم توجهوا جميعا إلى البصرة(٢٠٣)

وفى غضون ذلك كان ابن رائق قد سيطر على بغداد في السنة ذاتها وأسند إليه منصب « إمرة الأمراء » فكان ذلك سبباً في توقف الحرب ضد البريديين. واستعادتهم نفوذهم مرة أخرى. حيث استغل أبو عبد الله هذا الأمر فخطب لابن رائق بالبصرة. وكتبوا اسمه على أعلامهم. كما حاول السيطرة على واسط. فقام بإرسال أخويه فدخلاها وأخرجا الديلم منها .(٢٠٤)

لم تدم علاقة الود طويلاً . بين البريديين وابن رائق. وذلك لعدم حملهم المال المقرر من واسط والبصرة فقرر الخروج بنفسه إليهم. فهربوا إلى البصرة وسرعان ما تمت الوساطة بينهما على أن يجدد لهم ضمان باقي الأموال بواسط مما يقدر بمائة وسبعين ألف دينار. على أن تصل إلى ستمائة ألف دينار سنويا فيما بعد. فرضي ابن رائق بهذا وخرج إلى بغداد .(٢٠٥)

ثم ساءت العلاقة بينهما مرة أخرى بعد أن استأمن الأتراك إلى البريدي. عقب شغبهم على ابن رائق. فلما انضموا إليه قوى جانبه مما اضطر ابن رائق إلى مداراته. فكاتبه بالوزارة وخطب له بها .(٢٠٦)

وزارة البريدي :أسند ابن رائق الوزارة للبريدي في منتصف ربيع الأول سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م وأنفذ إليه الخلع. فاستخلف البريدي أبا جعفر بن شيرزاد ببغداد.

ثم تجددت الوحشة بينهما عندما علم ابن رائق بقدوم البريدي إلى بغداد. فرد ابن رائق على ذلك بإزالة اسمه من الوزارة. وإعادة أبا اسحق القراريطى كما لعنهم على كافة المنابر ببغداد (٢٠٧)

لم يفت في عضد البريدي. ما أتخذه ضده ابن رائق بل عزم على التوجه إلى بغداد. فاخرج أمامه أخيه أبي الحسين من واسط بكافة الجيش والعلماء لقصد بغداد . بينما ركب الخليفة المتقي وأبنه وابن رائق . الوزير الجديد والجيش فساروا مع الظهيرة وبين أيديهم المصاحف . والقراء واستنفروا العامة لقتال البريديين . كذلك لعنوهم يوم الجمعة على

منابر بغداد .(٢٠٨) وكذلك عزم ابن رائق على التحصن في دار الخلافة .فقام بإصلاح ما بها ، وسد أكثر أبوابها ، وحصن سورها تحصيناً قوياً . بوضع العرادات والمنجنيقات (٢٠٩)، كما حصنها من ناحية دجلة . واستمر في استنفار العامة لقتالهم . فلما كان يوم الاثنين ، للنصف من جمادى الأخر عبر أصحاب أبي الحسين البريدي ، نهر ديالي ، فنشبت الحرب بين الطرفين ، واستمرت إلى الظهر . في حين بقيت الحرب بينهما في الماء حتى يوم السبت لتسع بقين من جمادى الآخر . ثم انتهت بهزيمة ابن رائق ونجاح الديلم من جيش البريدي في السيطره على دار الخلافة . وقتلوا كل من وجدوه بها ،ونهبوها ونهبوا دور الحريم . (٢١٠)

وكان المتقي وأبنه وابن رائق قد فروا إلى الموصل .كما اختفي الوزير . في حين أقام أبو الحسين البريدي في دار الخلافة عدة أيام ثم أخذ كورتكين من السجن ، وأرسله إلى أخيه أبي عبد الله بواسط . (٢١١)

لم يلبث أن انتقل أبي الحسين إلى دار مؤنس التي كان يسكنها ابن رائق . كذلك قلد توزون الشرطة ، في الجانب الشرقي ببغداد ونوشتكين(٢١٢) الجانب الغربي بها . وقد احتاط أبو الحسين إزاء هؤلاء القادة ، ليضمن ولائهم وطاعتهم للبريديين .فأخذ منهم رهائن - خاصة توزون - قواد ونساء وأولاد ، وأرسلهم إلى أبي عبد الله بواسط . (٢١٣)

ظل الديلم يثيرون الفوضى ببغداد ، فقاموا بالسلب والنهب ، فترك الناس دورهم بسبب الغلاء . كما فرضت المكوس (٢١٤). في الأسواق . ووقعت الحرب بين العامة والديلم . فقتل الكثير من العامة لذلك ساءت الأحوال بكافة أنحاء بغداد بسبب ظلم البريديين ، وتعسفهم في معاملة الناس . (٢١٥)

وفجأة وقع التحاسد بين أبي الحسين البريدي والقواد . حيث تحالف توزون، ونوشتكين ، والأتراك ، على كبس أبي الحسين . ولكن باءت محاولتهم بالفشل بسبب تنازعهم فيما بينهم . ولما علم أبو الحسين بهذه المؤامرة، سعي إلى تقريب الديلم إليه فدعاهم إلى داره ، للتقوي بهم في مواجهة أعدائه . فلما قصد توزون داره حاربه الديلم ،وأغلقوا الأبواب للحيلولة دون دخوله ففطن توزون إلى غدر نوشتكين به . لذلك هرب ومعه كثير من الأتراك إلى الموصل . وأعقب ذلك اضطراب العامة وقتالهم البريديين . (٢١٦)

وعندما وصل توزون ، ورجاله إلى ابن حمدان (٢١٧)، تقوي بهم وضمهم إلى جانبه لمساعدتهم الخليفة ، وابن رائق على حرب البريديين وإعادتهما إلى بغداد . (٢١٨)

وقد أتت هذه الحادثة بشيء من التغيير لدي ابن الاثير فيقول : « عندما اضطربت الأمور ببغداد بعد استيلاء أبي الحسين البريدي عليها . كذلك هروب بعض الجند من البريدي والتحاقهم بالخليفة المتقي . فضلا عن توجه توزون والأتراك ، ومسيرهم نحو الموصل فضمهم ابن حمدان إلى جانبه للإستعانة بهم في الحرب إلى جانب المتقي» . (٢١٩)

عودة المتقي إلى بغداد وهروب البريدي عنها : أخذ أبو الحسين في الاستعداد لملاقاة ابن حمدان والخليفة ولكنه فر هارباً من بغداد عندما سمع باقترابهما. مما أدى إلى اضطراب العامة بها، ونهب بعضهم بعضا . مما دفع الناس إلى التسلح في الطرقات طوال اليوم . وكانت مدة سيطرة البريدي عليها قرابة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً . (٢٢٠)

ولما كان المتقي ومن معه ، قد وصلوا إلى تكريت (٢٢١) . في طريقهم إلى الموصل. أرسل يحث ابن حمدان على حرب البريديين، فأمده بأخيه على ابن عبد الله بن حمدان في جيش كثيف (٢٢٢) . وبينما تأخر الجيش في الوصول إلى بغداد آنذاك، تقابل بهم عند تكريت، وصحبهم حتى الموصل .كما بقي على بن حمدان على خدمة الخليفة وأبنه وابن رائق وقدم لهم كافة ما يحتاجونه من الميرة والثياب، الفرش، والأموال. كذلك توجه لملاقاتهم أبو محمد الحسن بن حمدان فعبر إلى الجانب الشرقي ثم خرج إلى نواحي معلثايا (٢٢٣) ، بسبب توتر العلاقة بينه وابن رائق، فترددت الرسل بينهما لأجل الصلح . فتم بعد أن توثق كل منهما بالإيمان والمواثيق. « حتى انس أبو محمد ، وعاد فنزل في الشرقي، بإزاء الموصل ».(٢٢٤)

لم يدم الصلح بينهما طويلا، فقد أمر ابن حمدان غلمانه بقتل ابن رائق ، دون سابق إنذار. فلما نجح في التخلص منه أسرع بكتابة رسالة إلى المتقي، وضح له فيها سبب قتله له. متذرعاً بمحاولة ابن رائق التخلص منه. ورد المتقي، بثقته فيه ، وأمره بالمجئ إليه فخلع عليه ولقبه ناصر الدولة، وعلى أخيه سيف الدولة وجعله أميراً للأمراء .(٢٢٥)

وعندما دخل المتقي وناصر الدولة وأخيه بغداد على رأس الجيوش، استقبلهم العامة استقبالا حافلا . لخلاصهم من البريديين . كذلك رأي بنوحمدان ضرورة التوجه إلى واسط لتعقب البريديين ، وقتالهم وتواكب ذلك مع خبر خروج أبي الحسين البريدي من واسط متوجها إلى بغداد لقتالهم . فلما سمع الناس ذلك اضطربوا . كما أسرع المتقي بالعبور إلى الزبيدية (٢٢٦). ليحتمي بناصر الدولة . كذلك أرسل نسائه إلى سامراء .(٢٢٧)

أقام ناصر الدولة، بالمدائن (٢٢٨) . وسير أخاه سيف الدولة وابن عمه لقتال البريدي، فالتقيا بقرية على بعد فرسخين جنوب المدائن يوم الثلاثاء آخر ذي القعدة ، واستمرت الحرب بينهما حتى الرابع من ذي الحجة، وفيها انهزم جيش الحمدانيين ، وتقهقر سيف الدولة عائدا إلى المدائن، فقام ناصر الدولة بردهم مرة أخرى للحرب وأمده بجميع جنده(٢٢٩)

عاود سيف الدولة قتال أبا الحسين البريدى وهزمه وأسر جماعة من أعيان أصحابه. فضلا عن قتل بعض قواده فولى البريدي مهزوما إلى واسط . في حين اكتفى سيف الدولة بهزيمته للبريدي ولم يتبعه ، وذلك لتعب جنده ، وكثرة الجرحى به .(٢٣٠)

كذلك عاد الخليفة ونسائه إلى بغداد مرة أخرى ، بالإضافة إلى عودة الكثير من سكانها في حين دخلها ناصر الدولة في ثالث عشر من ذي الحجة ، ومعه اشهر قواد البريدي أسرى

وعلي رأسهم البرانس .(٢٣١) ثم قام سيف الدولة بالتوجه إلى واسط للقضاء على البريديين. لكنه لم يعثر عليهم لخروجهم إلى البصرة ،فنزل بها هو وجيشه وكافة من معه من الأتراك والديلم .(٢٣٢)

ونستشف مما سبق أن أبا عبد الله البريدي رغم حرصه على دخول بغداد، والسيطرة عليها كان أكثر حرصا على ألا يقوم هو بذلك ،فنجده يسير أخيه لتحقيق هذا الأمر. مما يفسر حرص أبى عبد الله البريدي على أمرين هامين أولهما : الحفاظ على حياته وقوته ثانيهما : عدم التعرض لغضب وثورة الخليفة والناس ببغداد بشكل مباشر. حتى يبقى حيا ليحقق طموحه السياسي الكبير الذي يرمى إلى السيطرة على الخلافة بأي وسيلة .

دخل البويهيون في دائرة الصراع ، بين الخليفة والبريديين فأتى الأمير أبو الحسين أحمد بن بويه ، إلى عسكر جعفر (٢٣٣) ، المجاور للبصرة بدعوى أن الخليفة كاتبه في حرب البريدي، واستمر على حربهم حتى استوحش بعض جنده، وانضم بعضهم إلى البريدي ، فقرر العودة إلى الأهواز الخاصة، بعد أن استأمن إليه أيضا جماعة من عسكر البريدي .(٢٣٤)

وتزامن هذا مع تصميم سيف الدولة حرب البريديين . فقصد البصرة لطردهم عنها ، والاستيلاء عليها ، لكنه لم يستطع القيام بهذا الأمر. لعدم توافر الأموال عنده ، وعدم إرسال أخيه إمدادات له . (٢٣٥)

لم ييئس البريدي من تكرار هزائمه أمام الخلافة، وظل حريصا على تحقيق طموحه في الاستيلاء عليها. فلما وقع نزاع بين توزون وخجخج من أجل الإمارة . قصد البريدي واسط فأرسل توزون لحربه خجخج وعسكر في نهر أبان (٢٣٦). حتى يتمكن من التصدي لأصحاب البريدي .كما أسرع البريدي أيضا فأرسل رسولا إلى توزون يهنئه بالإمارة ويسأله ضمان واسط ، وقد أحسن توزون وفادته لكن لم يجبه إلى تضمين واسط، متذرعا بعدم استقرار الأمر له ، وخشيته من بنى حمدان، ووعده بالنظر في الضمان عند تحسن أحواله . وقد حرص توزون على إرسال جاسوسا يتعقب أخبار رسول البريدي لدى عودته ، فما لبث أن عاد إليه بخبر إجتماع الرسول مع خجخج . وان خجخج أعلن له عن رغبته في الانتقال للبريدي ، والعمل معه فقام توزون بالقبض عليه وسمله . (٢٣٧)

لم يبق توزون بواسط كثيرا ،حيث اضطر للخروج منها قاصدا بغداد، لطرد سيف الدولة فترك كيغلغ بها. فانتهز أبو عبد الله البريدي الفرصة، وأسرع في الوصول إليها فدخلها أواخر رمضان سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ، وقام بحرقها ونهب ما فيها من غلا ت وغيره . وعجز كيغلغ ، وأصحابه في التصدي له ، فتركوها قاصدين بغداد. فانفرد البريد ى بها . ثم أسرع توزون متوجها إليها لاستردادها منه . وكان قد لجأ إليه أبى جعفر بن شيرزاد بعد هروبه من البريدي، فقربه توزون وأسند إليه كافة أموره (٢٣٨). وتزامن ذ لك مع مسير يوسف بن وجيه صاحب عمان في مراكب كثيرة قاصداً البصرة ، ومحاربة البريديين أيضا ، فانتصر عليهم لكثرة أسلحته وملك الابلة . واشرف البريديون على الهلاك ، وكاد أبن وجيه أن يستولى على

البصرة . ولم ينقذ البريديين من مصيرهم هذا سوى نجاح أحد ملاحيهم في إحراق سفن ابن وجيه ونهب ما بها من أموال .مما أدى إلى هزيمته وعودته عنها في محرم٣٣٢هـ – ٩٤٣م(٢٣٩).

النزاع بين المتقى وتوزون :- أثار تحالف ابن شيرزاد و توزون مخاوف الوزير أبو الحسين بن مقلة ، معتقداً أن ابن شيرزاد عينا للبريدي عليه ، وعلى الخليفة وأخذ في نفس الوقت يثير مخاوف الخليفة من مغبة أن يقوم بخلعه وتسليمه للبريدي (٢٤٠).

خاف الخليفة المتقى من هذا الأمر ، وأسرع يطلب من ناصر الدولة بن حمدان انفاذ جيشاً إليه ليصحبوه إلى االموصل. وكان ابن شيرزاد قد دخل بغداد في الخامس و العشرين من محرم سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ومعه ثلاثمائة رجل، والتقى بالخليفة فور وصوله . وحاول ابن مقلة حمل الخليفة للقبض عليه دون جدوى . وأخذ ابن شيرزاد في الاستبداد بالأمور في بغداد. كما أطلق القراريطي من الاعتقال . ومارس أعمال الوزارة ، فنظر فيما ينظر فيه الوزير(٢٤١)

ولما وصل الجيش الذي ارسله ناصر الدولة للخليفه بقيادة ابن عمه ، إلى بغداد نزل بباب حرب، وخرج المتقى له مع نسائه ووزيره ، وأعيان بغداد.في حين اختفى ابن شيرزاد .(٢٤٢) وعندما خرج المتقى من بغداد ظهر ابن شيرزاد بها ، فظلم الناس وعسفهم، وصادرهم ثم أرسل لتوزون بواسط يعلمه بما جرى .(٢٤٣)

فلما علم توزون بما حدث قام بارسال جيش قوامه ألف رجل، تحت قيادة موسى بن سليمان للوصول إلى بغداد حتى يلحق به، بينما ظل هو بواسط حتى ضمنها للبريدي ، وزوجه ابنته ثم خرج قاصدا بغداد فدخلها . وأسند الشرطة إلى أحد غلمانه .(٢٤٤)

وكان المتقى قد وصل إلى تكريت حيث إنحدر إليه سيف الدولة. كما أرسل في استدعاء ناصر الدولة بنفسه، فوافاه بتكريت في الحادي والعشرين من ربيع الأخر، ثم انتقل المتقى إلى الموصل في حين ظل ناصر الدولة بها .(٢٤٥) وسار توزون نحوتكريت فاشتبك مع سيف الدولة أسفلها، واستمرت الحرب بينهما لعدة أيام ، وأسفرت عن هزيمة سيف الدولة ورحيله وأخيه إلى الموصل. بينما عاد توزون لبغداد لشغب أصحابه بها .(٢٤٦) ثم تكررت الحرب بينهما مرة ثانية، وفيها هزم سيف الدولة في شعبان، وتتبعه توزون وعندما وصل سيف الدولة إلى الموصل . خرج ومعه ناصر الدولة والخليفة إلى نصيبين (٢٤٧) . بينما دخل توزون الموصل ومعه ابن شيرزاد .

ثم خرج المتقى إلى الرقة (٢٤٨). حيث لحق به سيف الدولة. وقد أرسل المتقى رسالة إلى توزون أوضح له أن أسباب غضبه عليه، والوحشة بينهما يرجع إلى توطيد علاقته وصلته بالبريديين ،وإذا أراد أرضاء الخليفة ويعود لبغداد عليه أن يصالح سيف الدولة وناصر الدولة .فتم الصلح وعقد الضمان على ناصر الدولة، لما تحت يده من بلاد لمدة ثلاث سنوات وعاد توزون إلى بغداد. بينما بقى المتقى عند بنى حمدان بالموصل ثم ساروا منها إلى الرقة (٢٤٩)

كما برز في ذلك الوقت ابن بويه من الأهواز متجهاً إلى واسط بعد سماعة بخروج توزون منها إلى الموصل .وكان البريدي ما زال يطمعه في ملك العراق. كما وعد بمساعدته بعسكر الماء لفتحها لكنه لم يف بوعده. بينما عاد توزون من الموصل إلى بغداد ثم أسرع منها قاصداً واسط لحرب ابن بويه، فالتقيا في سابع عشر ذي القعدة بقباب حميد .واستمرت الحرب بينهما عدة أيام انتهت بهزيمة جيش ابن بويه وأسر أربعة عشر قائداً ، فضلا عن انضمام كثير من الديلم لتوزون. فقصد ابن بويه السوس، ولحق به من نجا من جنده وعاد توزون إلى بغداد .(٢٥٠) وقد عاد معز الدولة في نفس السنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م لدخول واسط فلما دخلها خرج من كان بها من أصحاب البريدي إلى البصرة .(٢٥١)

قتل أبو عبد الله البريدي لأخيه أبي يوسف ، بدأ التنافر والتحاسد يقع بين البريديين. فتوترت العلاقات بينهم، وكان ذلك سبباً مباشراً لضعف قوتهم ، ومن ثم زوالهم بعد فترة وجيزة من ذلك .

وكانت الأحوال قد ضاقت على أبي عبد الله، واطرب رجاله وثاروا ضده ، وساءت أحواله أكثر بعد حصار سيف الدولة ثم توزون له. فلما نفد ماله قام جنده بالانضمام إلى أخيه أبي يوسف لكثرة ماله، فضلا عن اقتراض أبي عبد الله منه المرة بعد الأخرى، فكان أبو يوسف يعطيه أقل مما يطلب، وأخذ يشير في جلساته إلى سوء تدبير أخيه وجنونه وتهوره. وزادت الوحشة بينهما، بعد ان علم أبو عبد الله بنية أبي يوسف في القبض عليه والانفراد بالأمر. ووصل الأمر إلى حد بيع أبي عبد الله له بعض الجواهر النفيسة ،فتعمد بخس ثمنها مع استمراره في ذكر عيوب أبي عبد الله، والإشارة إلى فضله فيما حظي به أبي عبد الله من نفوذ، وذلك لحسن تدبيره .(٢٥٢)

لذلك قرر أبو عبد الله البريدي قتل أخيه أبي يوسف فاستمر لعدة أيام ، يرسم خطة كيفية التخلص منه. فأقام غلمانه بطريق مسقوف بين داره بالأبله والشط. وحينما أقبل أبو يوسف من الشط ودخل بالطريق حيث كان يتربص الغلمان له فوثبوا عليه بالسكاكين وقتلوه، وظل يستغيث بأبي عبد الله فلم يحرك ساكناً بل كان يسبه قائلا: «إلى لعنة الله» (٢٥٣).

خرج أبو الحسين عند سماعه استغاثة أبي يوسف، فلما تذمر وعاتب أبي عبد الله على فعلته هدده بالقتل أيضا وقام بدفنه .(٢٥٤)

وعندما سمع الجند بالخبر ، ثاروا وشغبوا لاعتقادهم إنه ما زال حيا فقام أبو عبد الله بنبش قبره، وأخرجه لهم وألقاه بالطريق فلما رأوه سكنوا فأعاد دفنه .(٢٥٥) وعقب ذلك انتقل أبو عبد الله البريدي إلى دار أخيه أبي يوسف ، واستولى على ما بها لكنه لم يجد أموالا بها،وذلك لانكسارها على الناس، .(٢٥٦)

بينما يصور ابن الجوزي حادثة القتل بقوله : « وفي هذه السنة قتل أبو عبد الله البريدي أخاه أبا يوسف ، وكان أبو يوسف يتكبر على أخيه ويؤذيه ودفنه بالأبله من غير أن غسله أو

كفنه وأخذ من ماله ألف ألف ومائتي ألف دينار وعشرة آلاف ألف درهم وأخذ من الكسوة والفرش والآله قيمة ألف ألف دينار وألف رطل ند وعشرين ألف رطل عود منها الفا رطل هندي وصادر العمال على ألف ألف دينار ».(٢٥٧)

وفاة أبو عبد الله البريدي ، كانت وفاته بالبصرة بعد أسبوع من مرضه بالحمى في شهر شوال سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م ، بعد قتله لأخيه بثمانية أشهر وثلاثة أيام .(٢٥٨)

فلما مات قام أخوه أبو الحسين مقامه لصغر سن أبنه أبو القاسم . وقد انقسم جند أبى عبد الله عليه حيث رفض بعضهم خاصة الديلم الانضمام إليه، وكانوا يميلون إلى قائدهم يانس غلام أبي عبد الله، وكان لا يميل إلى أبي الحسين للعداء بينهما . كذلك عمد أبو الحسين الإساءة لأكثر الجند خاصة الديلم والأتراك فتذمروا وثاروا ضده .وعندما شعر يانس بنية الجند تجاهه ، حاول استغلال ذلك بقتله ، وتولية أبي القاسم مكانه فمضى إلى أبي القاسم يطلب منه مالا ليعطيه للجند حتى ينضموا إليه، ويعقدوا له الرئاسة .كذلك اتفق يانس مع الجند على الإطاحة بابي الحسين وتولية أبي القاسم خاصة بعد أن ضمن لهم الاحسان منه (٢٥٩).

سار الجند الموجودين بنهر الأمير(٢٦٠) إلى مقر أبي الحسين البريدي ، بمسماران فكبسوه وهو نائم لكنه نجا بنفسه فخرج متنكراً إلى الجعفرية (٢٦١). وكاتب القرامطة للاستنجاد بهم، واستجاربهم، فظل مقيماً لديهم ما يقرب من شهر على وعد أن يمدوه بجيش للرجوع إلى البصرة والإمارة . وكان أبو القاسم قد استولى على البصرة ، وتولى الأمر بها(٢٦٢).

ثم خرج أبو الحسين ، بصحبة اثنين من إخوة أبي طاهر القرمطي على رأس جيش كبير، قاصداً البصرة لاستردادها، وكان أبو القاسم قد حفظ البصرة واحكم تحصيناتها. كما حفظها بالرجال ، وعمل الدفاعات عنها فاضطروا إلى حصارها طويلاً. وأخيراً فشلوا في اختراقهاوالاستيلاء عليها، وسرعان ما تذمر القرامطة من المقام هكذا. فكاتبوا أبا القاسم وسعوا في الصلح بينه وبين عمه، فوافق أبو القاسم بعد أن احتاط لنفسه ودخل أبو الحسين البصرة ثم غادرها إلى بغداد لمقابلة توزون .(٢٦٣)

طمع يانس غلام أبي عبد الله في الرئاسة وعزل أبى القاسم، وأخذ يسعى لتحقيق هدفه فتحالف مع بعض القادة الديلم منهم روستاباش، ولكن روستاباش حسد يانس ، وحاول الاستئثار بالأمر .وأوكل أحد الديلم لقتله فرماه عند خروجه فجرح في ظهره ، وسار إلى خراب قريب من دار أبي القاسم فظل مختفياً . ولما سمع الديلم بهذه المؤامرة ثاروا انتقاماً ليانس، فهرب روستاباش خوفاً منهم. كذلك فزع أبو القاسم من هذا الأمر ،وهدد بالخروج من داره فهدأ الجند من روعه ، وعرف مكان يانس فحمله إلى داره ، وعالجه ثم قبض عليه بعد عدة أيام ، وصادره على مائة ألف دينار ثم قتله . وانفرد بالرئاسة .(٢٦٤)

دخول أبو الحسين البريدي بغداد ومقتله ، وقد سبقت الإشارة إلى خروج أبى الحسين إلى بغداد فدخلها سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م مستأمناً لتوزون فأمنه وأنزله أبو جعفر ابن شيرزاد في

دار بجواره واكرمه. أخذ أبو الحسين في حث توزون على مساعدته في استرداد البصرة، نظير ضمانها له بمبلغ كبير .كذلك تقابل بالخليفة المستكفى بالله (٢٦٥). بحضور توزون وابن شيرزاد وخلع عليه .(٢٦٦)

وعندما سمع أبو القاسم عن تحركات عمه ببغداد، وسعيه لاسترداد البصرة سارع بتحسين علاقته مع توزون وابن شيرزاد ، وحمل لهما الأموال فأقراه على ما بيده ، وأرسلا له الخلع فقطع الطريق على عمه (٢٦٧). ولما فشل أبو الحسين في العودة إلى البصرة نظراً للتدابير التي أخذها ضده أبو القاسم .عندئذ قام بالوقيعه بين توزون ، وابن شيرزاد فرأى أن يكتب لتوزون في القبض على ابن شيرزاد. فاكتشف ابن شيرزاد المؤامرة فاستوحش من أبي الحسين ، وتوزون ،وبقى بمنزله لم يغادره في حين أخذ توزون يرسل له كل يوم يترضاه، وأخيراً صالحه على أن يتخلصا من أبي الحسين ، وسعى في ذلك ابن شيرزاد انتقاماً منه . فلما كان يوم السبت السابع من ذي الحجة، أرسل من قبض عليه واحضر إلى دار حاجب توزون فضرب ضرباً مبرحاً، ثم نقل إلى دار الخليفة ، وقام ابن شيرزاد بشتمه وذكر عيوبه ، وأعماله وأعاد ابن شيرزاد تجديد الحكم القاضي بإهدار دمه، حيث كان أبو عبد الله محمد بن موسى الهاشمي قد أخذ في أيام ناصر الدولة فتوى الفقهاء والقضاه باحلال دمه، فوافقه جميع القضاة والفقهاء على اهدار دمه فأمر الخليفة المستكفى بضرب عنقه فصلب أياما ثم انزل واحرقت جثته ونهبت داره .(٢٦٨)

وبمقتل أبي الحسين البريدي انتهى دور الإخوة الثلاثة ومن ثم قل الدور السياسي بل تلاشى للبريديين. وذلك لعدم وجود نسل لهم باستثناء أبي القاسم بن أبي عبد الله البريدي وبعض من إخوته وأبنائه لم يكن لهم دورا سياسيا أو ماليا . كذلك لم يكن لأبي القاسم نفس القدر والقوة التي لأبيه وأعمامه ، ولهذا لا نجد تاريخاً وأحداثا مسلسلة له اللهم إلا بعض الإشارات العابرة انطوت على ذكر تبعيته في بعض الأحيان للبويهيين، الذين سيطروا على الخلافة في عهده. كما نلمس ذلك من خلال ذكر وفاته، حيث جاءت الإشارة عنها فيما لا يتجاوز بضع كلمات .

وقد صور ابن الأثير ذلك عند حديثه عن مقتل أبي الحسين البريدي قائلا: « وكان هذا آخر أمر البريديين وكان قتله منتصف ذي الحجة » .(٢٦٩)

أبو القاسم البريدي ، ويبدو أن أبا القاسم بن أبي عبد الله البريدي ظل حريصا على البقاء بالبصرة، فجدد ضمانها من توزون عند قدومه إلى واسط هو والخليفة لحرب معز الدولة، فأجابه توزون إلى ذلك وسلمها له .(٢٧٠)

كذلك ظل أبو القاسم هو صاحب النفوذ في المنطقة،وخير دليل على ذلك بسط سلطانه ونفوذه على كافة مناطق الأهواز وخوزستان والبطائح. بل ودخول أغلب أمراء هذه النواحي في حمايته خوفاً من بطش أمراء البويهيين، مثال ذلك عندما حاول عمران بن شاهين الانفراد بحكم البطيحة خشي على قوته من حرب الخلافة له، لذلك استأمن إلى أبي القاسم فقلده حماية الجامدة .(٢٧١)

ولما سيطر معز الدولة على الخلافة رأى أبو القاسم ضرورة الحصول على رضا الخلافة ومعز الدولة معاً فكان يرسل نواباً عنه من حين لآخر .(٢٧٢) ومع ذلك شهدت العلاقة بينه و بين معز الدولة كثيراً من التوتر منها محاولة معز الدولة السيطرة على أعمال البريدي بجنوب العراق. ولكن تم التوسط والصلح بينهما ، وتسلم ابن البريدي واسطا وضمن البقايا بها ألف وستمائة ألف دينار. كما استخلف أبا القاسم عيسى بن على بن عيسى .(٢٧٣)

لم يدم الصلح بينهما طويلاً ففي سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م تجددت الخلافات بينهما، فأرسل معز الدولة جيشاً كبيراً إلى واسط وسير أبو القاسم جيشاً من البصرة في الماء فالتقيا ودار قتال بينهما، انتهي بهزيمة ابن البريدي وأسر منهم نحو مائتي رجل من وجوه الديلم.(٢٧٤)

كذلك سار الخليفة المطيع (٢٧٥)، ومعز الدولة في أوائل سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م إلى البصرة لأخذها من أبى القاسم البريدي .

وسبق أبو جعفر الصيمرى (٢٧٦). في الماء فملك مسماران ، ودخل دار البريدي بعد مناوشات بسيطة، في حين وصل معز الدولة والخليفة إلى الدرهمية فاستأمن إليه جيش البريدي كله وهرب هو إلى هجر (٢٧٧). وملك معز الدولة البصرة، واقطع المطيع بعض ضياعها . وقبض على جميع قواد البريدي بها، وأخرج أمواله وودائعه واستولى على خزائنه. كما أحرق جميع آلات الماء في الشذاآت والطيارات والزبازب(٢٧٨). واستدعى لؤلؤا من بغداد ، وقلده أعمال البصرة والحرب .

وفى العام التالي وقع الصلح بين الطرفين فدخل أبو القاسم في الأمان إلى بغداد. وتقابل مع معز الدولة وقبل الأرض بين يديه، فأنزله معز الدولة داراً قريبه منه ، وأ قطعة ضياعاً بمائه وعشرين ألف درهم، ورد له ضيعته المعروفة بفروخا باذمن بادوريا .(٢٧٩)

وقد ظل أبو القاسم على مكانته في مناطق البصرة وواسط على وجه الخصوص. كما حرص على توطيد علاقته بمعز الدولة في كثير من الأحيان ، وصور صاحب التكملة ذلك قائلا: « وأنزله معز الدولة داراً حسنه على دجله وأطلق له ضياعه القديمة التي كانت لأبيه في السواد ، وأقطعه اقطاعا بعشرة آلاف دينار ورسمه بمنادمته ، ولم يزل مصونا مكرما مجتمع الشمل مع اخوته وولده متمتعا بملاذه وأوطاره إلى أن توفى ».(٢٨٠)

وفاته ، توفى أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن البريدي في سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م (٢٨١) . وبموته انتهى خبر البريديين من الساحة السياسية للدولة العباسية كذلك لم يأت عنهم أى خبر بمصادر التاريخ المعاصرة لهم أو اللاحقة بعد هذا التاريخ .

الهوامش

(١) أوردت كتب التاريخ تعريفات عدة عن نسب البريديين منها : هم ثلاثة أخوة «أبو عبد الله، وأبو الحسين، وأبو يوسف يعقوب. وكانوا كتاباً على البريد» (ابن تغردي بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، طبعة دار الكتب المصرية، ص٢٦٢) «وأما البريديون فهم ثلاثة من الكتاب: أبو عبد الله، وأبو الحسين، وأبو يوسف. وكان أبوهم كاتباً على البريد بالبصرة فتغلبوا على الأهواز، وجرت لهم قصص، ثم اختلفوا وتمزقوا». (الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق عمر تدمري، ج ٣، بيروت ١٩٩٤، ص٤٦). في حين يأت ابن الاثير بتعريف أخر لنسبهم حيث يقول : البريدي بالباء الموحدة والراء المهملة منسوب إلى البريد وكان جده يخدم يزيد بن منصور الحميري. فنسب إليه والأول اصح (ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، دار الكتب، ببيروت، ط٦، ١٩٨٦، ص١٩٤) بينما أورد اليافعي اسمه «أبو عبد الله اليزيدي» نسبة إلى يزيد بن منصور الحميري (اليافعي: مرآة الجنان، تحقيق عبد السلام الهواس، ج٢، طبعة دار الفكر، لبنان ١٩٩٥، ص١٩٩٦) وجاء في كتاب سمط النجوم. عبد الله اليزيدي واخوته (العاصمي: سمط النجوم العوالي، تحقيق عادل احمد وآخرون، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨، ص٤٩٢)

(٢) على بن عيسي بن داود الجراح وزير المقتدر بالله والقاهر بالله. ولد سنة ٢٤٥هـ وكان صدوقاً فاضلاً عفيفاً في ولايته كثير المعروف، واصله من الفرس وتوفي سنة ٣٣٥هـ (ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٦، طبعة دار صادر ، بيروت، ص٣٥)

(٣) محمد بن على بن الحسين بن عبد الله أبو على المعروف بابن مقلة. ولد ببغداد سنة ٢٧٢هـ وزر لثلاث خلفاء المقتدر، القاهر، والراضي تعرض للاعتقال والأذي وأخذ خطه بالف ألف دينار، ثم اطلق وعاد إلى الوزارة ولم يلبث أن اعتقل ثانية وقطعت يده ولسانه، ومكث بالسجن حتى مات في شوال ٣٢٨هـ (نفس المصدر السابق ،ص٣٠٩ ، ٣١١) .

(٤) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، تجمع النخل والجوز والاترنج وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان (ياقوت : معجم البلدان، مج٣، دار صادر، بيروت، ص ١٧).

(٥) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس بالاقليم الثالث واهلها معروفون بالبخل (نفس المصدر السابق ، مج١ ، ص٢٨٥) .

(٦) مسكويه: تجارب الامم، نشر امدروز ،ج١، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ص١٥٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٩٣ .

(٧) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ، طبعة دي غوية ، ليدن ١٨٩١م ، ص٥٠.

(٨) السوس : بلدة بخوزستان . بضم اوله وسكون ثانية ، فيها قبر النبي دانيال (ياقوت : معجم البلدان ، مج٣ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١) . .

(٩) جند يسابور : مدينة بخوزستان بناها سابور بن اردشير ،واسكنها سبي الروم وطائفة من جنده (نفس المصدر ، مج٢ ، ص١٧٠) .

(١٠) الفراتية : وهي المنطقة ما بين فرات البصرة والابلة (نفسه : مج٤ ، ص٢٤٢)

(١١) مسكويه : نفس المصدر والصفحة .

(١٢) تستر : بالضم ثم السكون اعظم مدينة بخوزستان على مكان مرتفع وبها قبر البراء بن مالك الأنصاري(ياقوت:نفس المصدر ،مج٢ ،ص ٢٩ , ٣٠)

(١٣) مسكويه: نفس المصدر والصفحة. ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ج٣، دار الفكر ، بيروت ،الطبعة ٣، ١٩٩٦ ، ص٤٩٥.

(١٤) أبو محمد الحسين بن أحمد المادرائي عمل كاتباً وهو ينتمي إلى أسرة مشهورة عمل افرادها في مناصب رفيعة خاصة بمصر على عهد الطولونيين تعرض هو وأخوته للمصادرة أكثر من مرة ، توفى في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة (الهمداني : التكملة ، ص١٦٢)

(١٥) مسكويه : نفس المصدر ، ص١٥٩؛ ابن كثير : البداية والنهاية، مج ٦ ، ج١١ ، دار المعرفة، بيروت ، ط ٦ ، ٢٠٠١ ، ص ٢٠٣.

(١٦) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص١٩٤ . عريب بن سعد : نفس المصدر، ص٥٤ .

(١٧) الهمداني : تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق البرت يوسف كنعان ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١ ، ١٩٥٨ ، ص٦٦ ، مسكويه : نفس المصدر ، ص ١٨٦ .

(١٨) سفاتج : مفردها (س . ت . ج) تعريبها سفتة وهي كلمة فارسية معناها ورقة مالية أو خطاب ضمان يضمن لحاملها حصوله على ما يدون بها من مال (دهخدا : لغت نامه مج٢٩، دانشكاه تهران ، تهران ١٣٤٩هـ . ش . ص٥٣٠) .

(١٩) مسكويه : نفس المصدر ، ص١٨٧ .

(٢٠) المقتدر بالله : أبو الفضل بن المعتضد عهد إليه بالخلافة بعد وفاة المكتفي سنة ٢٩٥هـ. ولصغر سنه قرر الوزير العباس بن الحسن خلعه، ولكن المقتدر استمالة فرجع عن ذلك وقد قتل سنة ٣٢٠هـ (السيوطي: تاريخ الخلفاء ، تحقيق طه عبد الرءوف وآخرون ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة، ص ٣٢٩ ، ٣٣٤).

(٢١) أحمد أبو نصر القشوري : كان متولي أعمال المعاون بالاهواز كما عين خلفاً لأبيه حاجبا للخليفة المقتدر (مسكويه: نفس المصدر، ص ٢٠٥) .

(٢٢) طيارتهم : ضرب من السفن مفردها طيار (الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ج٥ الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص٧٩).

(٢٣) مسجد الرضا : بناه علي بن موسي الرضا عند اجتيازه هذه المنطقة في رحلته من المدينة يريد خراسان لمبايعة الخليفة المأمون له بولاية العهد . (ياقوت : نفس المصدر، مج١ ، ص ٢٨٥).

(٢٤) الشاذروان : بناء حسن عجيب متقن الصنعة معمول من الصخر المهندم يحبس الماء على انهار عدة (نفسه) .

(٢٥) البصرة : سميت بصرة لغلظها وشدتها تم تمصيرها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وبها الكثير من الخصال (ياقوت : نفس المصدر ، مج١ ،ص٤٣٠، ٤٣٩)

(٢٦) الهمداني : تكملة تاريخ الطبري ، ص٧٣؛ مسكويه: نفس المصدر ، ص٢٠٦

(٢٧) مسكويه: نفسه المصدروالصفحة . النويري : نهاية الارب ، تحقيق احمد كمال زكى، ج٢٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٨٠.

(٢٨) عريب : نفس المصدر ، ص٦١ .

(٢٩) مسكويه : نفس المصدر ، ص٢٠٧؛ الهمداني : نفس المصدر السابق .

(٣٠) نفسه .

(٣١) نفس المصدر ص ٢٠٨ ، ابن دحية : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تحقيق عباس العزاوي ، بغداد ، ١٩٤٦ ، ص ٨٨ .

(٣٢) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣٣) الهمداني : نفس المصدر ، ص ٧٦ .

(٣٤) مسكويه : نفس المصدر ، ص٢٢٣ .

(٣٥) عريب : نفس المصدر ، ص ٦٦؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢١٩ .

(٣٦) أبو الفتح الفضل بن جعفر تولي الوزارة للخليفة المقتدر لمدة خمسة اشهر وتسعة وعشرين يوما ولما قتل الخليفة استتر كما ولي الوزارة للخليفة الراضي (ابن الجوزي: المنتظم، ج٦، ص٨٦، ٢٨٩) .

(٣٧) مسكويه : نفس المصدر ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٣٨) الهمداني : نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٣٩) شيراز : بالكسر وآخره زاي بلد عظيم مشهور ، قصبة بلاد فارس . وقد ذمها البشاري بضيق الدروب وقلة احترام اهل العلم والادب (ياقوت : نفس المصدر ، مج٣ ، ص٣٨٠) .

(٤٠) أبو الحسين عمربن أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب ولاه المقتدر منصب قاضي القضاة منتصف رمضان سنة ٣١٠هـ وكان من قبل يخلف أباه على القضاء بالجانب الشرقي، وسائر ماكان له وكان سنه حينئذ عشرين سنة وتولي قضاء كثير من الأعمال بعد ذلك (ابن الجوزي : نفس المصدر، ص ١٦٧) .

(٤١) أحد المقربين إلى الخليفة المقتدر وكان يقوم باقراض الخليفة والوزراء وغيرهم بربح درهم في كل دينار اتسم بالجشع وجمع المال كما قام بتأليب الخليفة على الوزير هارون ابن الحال الذى انقلب عليه وصادره ثم نجى من الحبس عقب قتل المقتدر وقد قبض عليه الخليفة القاهر أيضاً وصادر

جميع أملاكه وهدمت داره وأراد قتله إلا أن القاهر خلع فتوجه إلى البريديين ثم إلى معز الدولة ووقع في الأسر وصودرت كل ثروته حتى اضطر إلى أن يخدم ناصر الدولة ومات بالموصل (مسكويه : نفس المصدر ، ص٢١٣ : ٢٣٣) .

(٤٢) مسكويه : نفس المصدر ، ص ٢٣٠ .

(٤٣) محمد بن خلف : ولاه ابن مقلة سنة ٣٢١هـ كافة أعمال البريديين بعد عزلهم عنها . كما ولاه أعمال المعاون في هذه المناطق وكان يتسم بالشدة (مسكويه : نفس المصدر ، ص ٢٤٦).

(٤٤) نفس المصدر السابق : ص ٢٤٧ .

(٤٥) نفسه : ص ٢٤٨ .

(٤٦) نفسه : ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٤٧) الهمداني : التكملة ، ص ٨٤ . عريب : نفس المصدر ، ص ٧٠ .

(٤٨) أبو الخطاب بن أبي العباس بن الفرات عمل مدة طويلة بالدواوين ثم اعتزل العمل سنة ٣٠١هـ. قبض عليه الوزير على بن مقلة وطالبه بثلاثة آلاف دينار (مسكويه: نفس المصدر، ص ٢٥١) .

(٤٩) نفسه : ص ٢٥٣ .

(٥٠) الخليفة القاهر : أبو منصور محمد المعتضد تولي سنة ٣٢٠هـ وأول ما فعله مصادرة أبناء المقتدر وتعذيبهم وضرب أم المقتدر حتى ماتت سمل وخلع سنة ٣٢٢هـ (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٧) .

(٥١) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .

(٥٢) مسكويه : نفس المصدر ، ص ٢٥٥ .

(٥٣) محمد بن ياقوت : علا نجمه حتى صار متحكماً بأمور الخلافة فتولي الحجابة للراضي وخلع عليه، وتولي رئاسة الجيش وادخل يده في أمر الدواوين، وبلغ من نفوذه أن لا يقبل إلا توقيعه في أمور الولاية أو العزل والاطلاق (ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ليدن، ١٦٢٥م ، ص ٢١٣) .

(٥٤) مسكويه : نفس المصدر ، ص ٢٥٧ .

(٥٥) أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي : تولي الوزارة للخليفة القاهر لمدة ثلاثة أشهر وأثني عشر يوماً، وللراضي سنة ٣٢٤هـ . كان على علاقة طيبة بالبريديين على عهد القاهر خاصة (هلال الصابي : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، نشر امدروز ، ليدن ١٩١٢، ص ١٦٨). وهناك لبس كبير في سرد هذه القصة لدى مسكويه حيث يوردها على أن الوزير هو نفسه صاحب الأعمال في أثناء وزارته فيقول : « كان بنو البريدى بعد استتار ابن مقلة والجماعة استتروا فقلد الوزير مكانهم على أعمالهم أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخى فتوسط اسحاق بن اسماعيل أمرهم فأخذ لهم امانا من الوزير » (مسكويه : نفس المصدر ، ص ٢٧٠) .

(٥٦) الهمداني: نفس المصدر ، ص ٨٦ .

(٥٧) أبو العباس الخصيبي : وزر للمقتدر وقد نفاه ابن مقلة إلى عمان ثم عاد ووزر للقاهر ، ونظر في الدواوين وقلدها من استصلحه ونصب ديواناً للمبيع ، وصادر الناس وقبض على الكثير (مسكويه : نفس المصدر ، ص٢٧٣) .

(٥٨) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص٧٦.

(٥٩) عريب : نفس المصدر ، ص٧٩ .

(٦٠) مسكويه: نفس المصدر ، ص٢٧١ ، ابن دحية: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، ص٩٣.

(٦١) مسكويه : نفس المصدر: ص٢٧٣ .

(٦٢) الهمداني : نفس المصدر ، ص٩٣ .

(٦٣) مسكويه: نفس المصدر ، ص٢٧٤ .

(٦٤) ولي أمر عدة ولايات في بداية عصر الراضي منها واسط وأعمالها حتى سنة ٣٢٤ هـ فأرسل له الراضي يعرض عليه إجابته إلى ما كان بذله من القيام بالنفقات وارزاق الجند ببغداد فأسرع بدخولها فقلده الراضي إمارة الجيش وجعله «أمير الأمراء» وولاه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين وأمران يخطب له على جميع المنابر وبطلت الدواوين والوزارة وأصبح ابن رائق بيده الأمور جميعها (ابن الأثير : نفس المصدر ، ص ٢٥٤) .

(٦٥) النعمانية : بالضم كأنها منسوبة إلى رجل اسمه النعمان بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة معدودة من أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته وأهلها شيعة غالية كلهم (ياقوت : معجم البلدان ، مج ٥ ، ص٢٩٤) .

(٦٦) مسكويه: نفسه .

(٦٧) الراضي : أبو العباس محمد بن المقتدر تولى سنة ٣٢٢هـ حتى وفاته ربيع الأخر سنة ٣٢٩هـ (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٩ ، ٣٤٠) .

(٦٨) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز وليس بها جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتاخم تستر وجنديسا بور وأرضها اشبه شيء بأرض العراق وهوائها وصحتها (ياقوت :نفس المصدر ، مج ٢ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥)

■ كور دجلة : يقصد به أعمال البصرة ما بين ميسان إلى البحر كله يقال له كوردجلة (نفسه: مج٤ ، ص٤٨٩)

■ بادوريا : طسوج من كورة الاستان بالجانب الغربي من بغداد وقيل كل من استقل من الكتاب ببادوريا استقل بديوان الخراج ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة (نفسه : مج١ ، ص٣١٧) .

■ الانبار : بفتح اوله . مدينة قرب بلخ وهي جوزجان وبها كان مقام السلطان ولها مياه وكروم وبساتين كثيرة (نفسه ، ص٢٥٧) .

■ قطربل : تقع بجانب بادوريا فكل ما كان شرقي السراة ضمن بادوريا وما كان في غربيها فهو قطربل (نفسه ، ص٣١٧) .

■ مسكن : بالفتح ثم السكون وهو موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق (نفسه: مج٥، ص ١٢٧) .

■ واسط : بين الكوفة والبصرة اسسها الحجاج بن يوسف وهي في الإقليم الثالث (نفسه : ص ٣٤٧)

■ الصلح: بالكسر ثم السكون كورة فوق واسط لها نهر يستمد من دجلة علي الجانب الشرقي يسمي فم الصلح كانت بها منازل الحسن بن سهل (نفسه: مج٣، ص٤٢١)

■ المبارك:قرية بين واسط وفم الصلح ينسب إليها كور منها فم الصلح جميعه (نفسه: مج٥، ص٥١)

(٦٩) مرداويج الزياري : قائد من قواد الديلم انقلب على قائده اسفار بن شيرويه وقتله وملك مكانه واساء السيرة باصبهان وانتهك الحرمات (ابن الجوزي : المنتظم، ج٦ ، ص٢٠٧).

(٧٠) عريب:الصلة ، ص٨٣؛ الهمداني: التكملة ، ص٨٩.

(٧١) عسكر مكرم : بضم الميم بلد مشهور من نواحي خوزستان نسبة إلى مكرم بن معزاء الحارث (ياقوت : معجم البلدان ، مج٤ ، ص ١٢٣) .

(٧٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٣٠٣.

(٧٣) علي بن بويه : زعيم ال بويه ومؤسس دولتهم لقب بعماد الدولة ارتفع قدره لحلمه وشجاعته، وكان اكبر اخوته ركن الدولة ومعز الدولة . ويقال إنهم من ولد يزدجرد بن شهريار انخرطوا في جيش ما كان بن كاكي ثم انتقل علي بن بويه إلي خدمة مرداويج عند هزيمة ما كان، ومن ثم أخذت تعلو مكانته (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص٢٣٠ ، ٢٣١).

(٧٤) مسكويه : نفسه .

(٧٥) Muir , Sir William : The Caliphate , Edinburge , 1970 , P.P.73 - 75

(٦٧) العاصمي : سمط النجوم ، ص٤٩٢

(٧٧) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٤٧؛ Muir : OP. CIT, P 76

(٨٧) الهمداني : نفس المصدر ، ص٩٦؛ النويري : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٢٩ .

(٧٩) أرجان : مدينة كبيرة كثيرة الخير بها نخيل وزيتون وهي برية بحرية سهلية جبلية (ياقوت: نفس المصدر ، مج١ ، ص١٤٣)

(٨٠) عبد الله بن الكوفي : تولى عدة مناصب رفيعة منها الكتابة للأمير بجكم (ابن الأثير: نفس المصدر ، ص ٢٢٧)

(٨١) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٢٧؛ هلال الصابي : تحفة الأمراء ، ص٢١٣ .

(٨٢) نفسه

(٨٣) نفسه : ص ٣٢٨

(٨٤) نفسه : ص٣٢٩

(٨٥) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص ٢٥١

(٨٦) الهمداني : نفسه .

(٨٧) الكتبى : عيون الأخبار ، أحداث سنة ٣١١ – ٣٥٩ ، مخطوط بدار الكتب ، ص ٢٨١ .

(٨٨) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٤٨٧ .

(٨٩) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص ٢٥٢ .

(٩٠) الكتبى : نفس المصدر ، ص ٢٨٣

(٩١) Schaban. M.A: The Abbasid Revoluion of the Social and Political, 1960, P63.

(92) Kremer : The Orient under the Calphate, vol 2, Calcuta, 1920, P89.

(٩٣) مسكويه: نفس المصدر ، ص ٣٤٣

(٩٤) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٥٣

(٩٥) الهمداني : التكملة ، ص ٩٧

(٩٦) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٤٤ ، Kremer : Op. cit, PP 94,95

(٧٩) نفسه : ص ٣٤٥

(٩٨) ويرجع السبب في القبض عليهما إلى قلق الوزير ابن مقلة من تحكم ياقوت في المملكة بأسرها فسعى به إلى الخليفة وكان محمد بن ياقوت مرشحاً للحجابة للراضي (ابن الأثير : نفس المصدر ، ص ٢٤٧)

(٩٩) نفسه : ص ٢٥٣ . الخضرى : تاريخ الدولة العباسية ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٠٤ ، النويرى: نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٢٩ .

(١٠٠) مسكويه : نفس المصدر ، ص ٢٤٥

(١٠١) دير العاقول : بين مدائن كسرى والنعمانية بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخاً على شاطئ دجله (ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ص ٥٢٠)

(١٠٢) الموصل : مدينة مشهورة إحدى قواعد بلاد الإسلام ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهى باب العراق ومفتاح خراسان (نفسه : مج٥ ، ص٢٢٣)

(١٠٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، حـ٣ ، ص٤٨٨

(١٠٤) اسفهلار : كلمة مكونة من لفظين إحدهما فارسي وهو (أسفه) ومعناه المقدم والثاني تركي وهو (سلار) بمعنى العسكر والكلمة تعنى « مقدم العسكر » (القلقشندى : صبح الأعشي في صناعة الانشا ، ح٣ ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، ص٤٨٣) .

(١٠٥) مسكويه : نفسه . عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة الريان، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص٦٢ .

(١٠٦) ابن الأثير : نفسه . Kremer : The Orient , vol2 , P99.

(١٠٧) لسترنج كي: بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص١٢١.

(١٠٨) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٤٦

(١٠٩) مجهول : الحدائق والعيون ،ج٦ ،مخطوط بدار الكتب المصرية ،ص١٩٣.

(١١٠) الرباط : في الأصل الإقامة على جهاد العدو ، وأيضا ملازمة ثغر العدو وكان ذلك اول نشأتها في الدولة الإسلامية ثم أصبحت تنتشر داخل الدولة الى جانب الخانقاوات حيث إتخذها الصوفية مكانا للتعبد والانقطاع على الناس . (ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ص١٥٦١) .

(١١١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ص٣٨ ، ..Muir : The Calphate, P 81

(١١٢) مسكويه : نفس المصدر ، ص ٣٤٧.

(١١٣) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٥٤؛ ابن طباطبا : الفخري ، ص ٩٨.

(١١٤) الصولي : أوراق الراضي والمتقى ، نشر هيوارث ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، ص١٢٤

(١١٥) الكبتى : عيون الأخبار ، ص ٢٨٤.

(١١٦) عمان : بضم أوله على ساحل بحر اليمن والهند في الإقليم الأول تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع (ياقوت : نفس المصدر ، مج٤ ، ص١٥٠).

(١١٧) فارس : ولاية واسعه وإقليم فسيح أول حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهه ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران (نفسه : ٢٢٦).

(١١٨) خراسان : بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق أزاد وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراه ومرو (نفسه : مج٢ ، ص ٣٥٠).

(١١٩) مسكويه : تجارب الأمم، ج١، ص٣٤٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مج٦، ج١١، ص ٢١٩.

(١٢٠) بجكم : كان من غلمان أبى على العارض ثم وزيراً لمكان بن كاكى ثم فارقه مع رفاقه والتحق بمرداويج وكان ممن قتله وسار إلى العراق واتصل بابن رائق ثم تطلع للاستيلاء على الحضرة فعادى ابن رائق وتقلد إمرة الأمراء مكانه سنة ٣٢٦هـ

(ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٦٦).

(١٢١) الهمدانى : التكملة ، ص٩٩؛ الدورى : دراسات في العصور العباسية ، ص٦٢.

(١٢٢) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٥٦.

(١٢٣) مجهول : الحدائق والعيون ،ص ١٩٥، الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٩٢٣، ص٢٥١؛ النويرى : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٤٠ .

(١٢٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، مج١ ، ج٢، مكتبة المتنبى، القاهرة ، ص٨٤؛ ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٤، ج١١ ، بيروت، ١٩٨٩، ص١٣٤؛ الخضرى: تاريخ الدولة العباسية ، ص٣٠٦.

(١٢٥) القرامطة : كان ابتداء أمرهم فيما زعموا أن رجلا ظهر بسواد الكوفة سنة ثمان وسبعين ومائتين يتسم بالزهد وكان يدعى قرمط يقال لركوبه على ثور كان صاحبه يدعى كرميه فعرب وقيل بل اسمه حمدان ولقبه قرمط يقال : وزعم أنه داعية لأهل البيت للمنتظر منهم (ابن خلدون: نفس المصدر ، ص٤١٩).

(١٢٦) الصولى : نفس المصدر ، ص١٣٤.

(١٢٧) عريب : الصلة ، ص١٠٠ : ابن خلدون : نفس المصدر ، ص٥٠٠.

(١٢٨) الصولي : نفسه ؛ الهمداني : نفس المصدر ، ص٩٩.

(١٢٩) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٦٠؛ الخضرى : نفس المرجع ، ص٣٠٦.

(١٣٠) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٥٩ ، Schaban : The Abbasid, P39 .

(١٣١) الكتبى : عيون الأخبار ، ص٢٨٥.

(١٣٢) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٦٤؛ النويرى : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٤٠ .

(١٣٣) العاصمى : سمط النجوم ، ص٤٩٢؛ الذهبى : تاريخ الإسلام ، ص٤٤.

(١٣٤) الحجرية : فرقة من عسكر الخلافة مسماه بهذا الاسم على ما هو اصطلاح الملوك في تلقيب كل جماعة من العسكر تمييزاً لهم عمن عداهم (ابن خلدون : نفس المصدر ، ص٤٨٨) والحجرية نفر مقيمون في حجر منفردة لكل حجرة منها اسم يخصها(القلقشندي:صبح الاعشي، ج٣، ص٤٧٧).

(١٣٥) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٥٩.

(١٣٦) الهمداني : التكملة ، ص١٠٣ ، ١٠٤؛ الذهبى : تاريخ الإسلام ، ص٤٤ ، ٤٥ ، أبوالفدا : المختصر في أخبار البشر ، مج١ ، ج٢ ، ص٨٥ ، ٨٦.

(١٣٧) مسكويه: نفس المصدر ، ص٣٧؛ النويرى : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٤٠ .

(١٣٨) الأبله : بضم أوله بلده على شاطئ البصرة العظمى وهى أقدم من البصرة (ياقوت : نفس المصدر، مج١ ، ص٧٧).

(١٣٩) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص٣١٥؛ النويرى : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٤١.

(١٤٠) مطارا : وهي مطاره من قرى البصرة على ضفة دجلة والفرات في ملتقاهما بين المذار والبصرة (يا قوت : نفسه ، مج٥ ، ص١٤٧).

(١٤١) الكلا : حي مشهور من أحياء البصرة كانت تصل إليه المراكب من الابله عن طريق نهر معقل وفيه دار الرزق(النويري :نهاية الأرب، ج٢٣، ص١٤١).

(١٤٢) ابن العماد : شذ رات الذهب ، مج٤ ، ص١٣٧ .

(١٤٣) المذار : في ميسان بين واسط والبصرة وهى قصبة ميسان بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام بها قبر عبد الله بن علي بن أبى طالب (نفسه : مج٥ ، ص٨٨).

(١٤٤) عريب : الصلة ، ص١٠٣.

(١٤٥) أوال: جزيرة حسنة بها مدينة كبيرة تسمى البحرين وهى عامرة حسنة خصيبة كثيرة الزروع والنخل وفيها عيون ماء كثيرة ومياهها عذبه (الإدريسي : نزهه المشتاق في اختراق الآفاق، عالم المكتب، بيروت، ط١ ، ١٩٨٩، ص٣٨٧.

(١٤٦) الهمداني : التكملة ، ص١٠٥؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص٢٦٢.

(١٤٧) مجهول : الحدائق والعيون، ص١٩٥؛ الذهبي : نفس المصدر ، ص٤٥.

(١٤٨) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٤٧؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٦٠ .

(١٤٩) نفسه : ص٣٧٥؛ الهمداني : نفس المصدر ، ص١٠٦.

(١٥٠) أربق : بالفتح ثم السكون من نواحي رامهرمز من نواحي خوز ستان (ياقوت : نفس المصدر، مج١ ، ص١٣٧).

(١٥١) ابن العماد: نفسه؛ الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٢٦١.

(١٥٢) المسرقان: نهر بخوزستان عليه عدة قرى وبلدان ونخل يسقى ذلك كله مبدؤه من تستر (ياقوت : نفس المصدر ، مج٥ ، ص١٢٥).

(١٥٣) مسكويه: نفس المصدر ، ص٣٧٩.

(١٥٤) الباسيان : مدينة وسطه في الكبر عامرة يشقها نهر فيصير نصفيه وهى فرجة حسنة من داخلها وخارجها وبين باسيان وحصن مهدى مرحلتان (الادريسي : نفس المصدر ، ص٣٩٥).

(١٥٥) الكتبي : عيون الأخبار ، ص٢٨٦ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، ص٤٨.

(١٥٦) اصبهان : مدينة عظيمة مشهورة من نواحي الجبل في آخر الإقليم الرابع (ياقوت : نفس المصدر ، مج١ ، ص٢٠٦).

(١٥٧) وشمكير الزياري : أخو مرداويج وكان نائباً عنه في حكم بلاد الجبال ولما قتل مرداويج قصدته عساكره وأطاعته وأقام بالري. (ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٤٦).

(١٥٨) حصن مهدي : بلد من نواحي خوزستان (ياقوت : نفسه، مج٢ ، ص ٢٦٦).

(١٥٩) مسكويه : تجارب الأمم ، ط ، ص٣٨٠ ، ٣٨١ ، النويري : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٤٣.

(١٦٠) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٦٣ .

(١٦١) مسكويه : نفسه.

(١٦٢) عريب : الصلة ، ص١٠٦.

(١٦٣) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٦٤.

(١٦٤) نفسه.

(١٦٥) مسكويه : نفس المصدر ، ص٣٨٣.

(١٦٦) نفسه ، دائرة المعارف الإسلامية ، مج٣ ، بيروت ، ص٦١٣ .

(١٦٧) الهمداني : التكملة ، ص١١٣ ، عريب : نفس المصدر ، ١٠٨.

(١٦٨) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة .

(١٦٩) عريب : نفس المصدر ، ص١٠٩.

(١٧٠) الذهبي : نفس المصدر ، ص٥٥؛ النويري : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٤٤ .

(١٧١) مسكويه : تجارب الأمم، ج١ ، ص٣٨٥ ; النويري : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٤٥.

(١٧٢) نفسه : ص٣٨٦.

(١٧٣) الهمداني : التكملة ، ١١٣ ، ص١١٤؛ الذهبي : نفسى المصدر والصفحة .

(١٧٤) ابن تعزى بردى : النجوم الزاهرة، ج٣ ، ص٢٦٤؛ توفيق اليوزبكي : الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية ، بغداد، ١٩٧٠ ، ص٧٦ ، ٨٧.

(١٧٥) ابن الجو زى : المنتظم ، ج٦ ، ص٣٠٠.

(١٧٦) اصطخر : مدينة وسطة وسعتها مقدار ميل من أقدم مدن فارس واشهرها بينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخا (ياقوت : نفس المصدر ، مج١ ، ص٢١١).

(١٧٧) مسكويه : نفس المصدر ، ص٤١١.

(١٧٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ص٥٠٦.

(١٧٩) مسكويه ، نفس المصدر ، ص٤١١ .

(١٨٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مج٦. ج١١، ص٢٨٨.

(١٨١) مسكويه : نفس المصدر ، ص٤١٢.

(١٨٢) نفسه : ص٤١٣.

(١٨٣) الزعفرانية : قرية قرب بغداد تحت كلواذى (يا قوت : نفس المصدر ، مج٣ ، ص١٤١).

(١٨٤) الهمداني : نفس المصدر، ص١١٦؛ ابن العماد : نفس المصدر ، ص١٤٣.

(١٨٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٥٠٦.

(١٨٦) توزون : برز نجمه في خلافة المتقي وصار بيده مقاليد الأمورفجعله المتقي أمير الأمراء ثم قام بسمل الخليفة وتولية المستكفى (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ،ج٦، ص٢٩١).

(١٨٧) مسكويه : تجارب الأمم ، ج٢ ، ص٩ ، ١٠ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦ ، ص٣٢٠ ، ٣٢٢ ، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ، مج١ ، ج٢ ، ص٨٩.

(١٨٨) مسكويه : نفسه ، ص١٠؛ النويري : نهاية الارب ، ج٢٣ ، ص١٥٦ .

(١٨٩) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى عبد الحميد ، ج٤، دار المعرفة ، بيروت ، ص٣٤٠.

(١٩٠) المتقى : أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الراضي سنة ٣٢٩هـ وهو ابن أربع وثلاثين وقد كحله توزون وتم خلعه سنة ٣٣٣ هـ (ابن العميد : تاريخ المسلمين، ص٣٥٦).

(١٩١) مسكويه : نفسه ، ص١٣؛ ابن طباطبا : الفخري ، ص٩٨ .

(١٩٢) نهر ديالى :نهر كبير قرب بغداد وهو نهر تامرا بعينه او نهر بعقوبة الأعظم

(ياقوت: معجم البلدان ، مج٢ ، ص٤٥٠) .

(١٩٣) مسكويه : نفسه ، النويري : نفسه ، ص١٥٧ .

(١٩٤) البجكمية : فرق الجند التابعة للأمير بجكم (ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٧٩)

(١٩٥) ابن الأثير : نفسه؛ النويري : نفسه ، ص١٥٨ .

(١٩٦) أبو جعفر بن شيرزاد ارتقى في عدة مناصب بالدولة حتى صار كاتبا لتوزون فكان أمر الحكومة في يديه (الصولي ، أخبار الراضي ، ص٢٠١) ، مسكويه : نفس المصدر ، ص١٥.

(١٩٧) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة ، ابن كثير : نفسه ، ص٢٣٦.

(١٩٨) الهمداني : نفس المصدر ، ص١٢٣؛، مسكويه : نفسه ، ص١٦.

(١٩٩) الماوردي : نفس المصدر ، ص٢٦٠.

(٢٠٠) ابن العماد : شذرات الذهب ، مج٤ ، ص١٥٧ ، النويري : نفسه ، ص١٥٩ .

(٢٠١) هلال الصابي: تحفه الأمراء ، ص٢٣٤ ، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى، ج٣، النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة ١٢ ، ١٩٨٧ ، ص٣٠.

(٢٠٢) أبو شجاع كورتكيج : يعرف أيضا بكورتكين الديلمى وهو أحد الجند الديلم استولى على الأمور ببغداد ودخل على المتقى بعد خروج البريدي فقلده أمرة الأمراء وخلع عليه (ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٨٠) .

(٢٠٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ن ج٦ ،ص٢٨٠؛ هلال الصابى : تحفة الأمراء ، ص٢٣٦.

(٢٠٤) مسكويه : تجارب الأمم ، ج٢ ، ص١٩ ، ٢٠.

(٢٠٥) نفسه : ص٢٣ : الكتبي : عيون الأخبار ، ص٢٨٨.

(٢٠٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج٣ ، ص٥١١؛ توفيق اليوزبكي : الوزارة ، ص٨٤.

(٢٠٧) هلال الصابي : نفسه؛ النويري : نهاية الأرب ، ص١٦٣ .

(٢٠٨) مسكويه : نفسه .

(٢٠٩) المنجنيقات : من أدوات الحرب استخدمها المسلمون على نطاق واسع منذ حكم الأمويين (النويري : نفس المصدر ، ج٥ ، ص٧٩) .

(٢١٠) مسكويه : نفس المصدر ، ص٢٤؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، مج٤ ، ص١٦٧.

(٢١١) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٨٣؛ ابن تغري : النجوم الزاهره ، ج٣ ، ص٢٧٤.

(٢١٢) نوشتكين : قائد من الأتراك البجكمية عمل تحت إمرة بجكم حتى قتل فرحل من بغداد هو وزملائه توزون وخجخج ، وساروا إلى الموصل . وعندما تولى ابن رائق الأمر ببغداد ثاورا ضده مع الجند الأتراك ثم انضموا إلى أبي عبد الله البريدي الذي تقوى بهم (مسكويه : نفسه ، ص١٩ : ٢٥) .

(٢١٣) مسكويه : نفسه ، ص٢٥؛ النويري : نفسه ، ص١٦٤ .

(٢١٤) المكوس : نوع من الضرائب تفرض على بضائع التجار داخل البلاد و المدن وكانت تحسب من العشر والزكاة (المقدسي : أحسن التقاسيم معرفة الأقاليم ، طبعة دى غوية، ليدن، الطبعة الثانية ، ١٩٠٦ ، ص١١٢).

(٢١٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، ص٥١٢؛ النويري : نفسه ، ص١٦٥.

(٢١٦) مسكويه : نفسه ، ص٢٦.

(٢١٧) الحمدانيون: نجحوا في إقامة دولتهم بالموصل أواخر القرن الثالث الهجري ويرجع نسبهم إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية كانت علاقتهم عدائية بالخلافة بادئ الأمر ثم سرعان ما أصبحوا ملاذا للخلفاء والمدافعين عنهم، وعلى رأسهم أبى محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان، الذي عينه الخليفة المتقي أميراً للأمراء، وخلع عليه وعقد له لواء ولقبه ناصر الدولة وذلك في مستهل شعبان من سنة ٣٣٠ هـ وخلع على أخيه علي ولقبه سيف الدولة (مسكويه : نفس المصدر، ص٢٨).

(٢١٨) الهمداني : التكملة ، ص١١٩ ، الدوري : دراسات في العصور العباسية ، ص٧٢

(٢١٩) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٨٥ ، Muir : The Caliphate, P85

(٢٢٠) مجهول: الحدائق والعيون، ص٢١٤؛ الصولي : أخبار الراضي والمتقي ، ص١٦٥

(٢٢١) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل لها قلعه حصينة (ياقوت : معجم البلدان، مج٢، ص٣٨)

(٢٢٢) كمال الدين عمر : بغيه الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، ج٥ ، دار الفكر، بيروت، ص٢٤٣٤؛ الهمداني : نفسه ، ١٢٨.

(٢٢٣) معلثايا : بالفتح ثم السكون بليد له ذكر في الأخبار المتأخرة قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل (ياقوت : نفسه ، مج٥ ، ص١٥٨)

(٢٢٤) الهمداني : نفسه؛ مسكويه : نفس المصدر ، ص٢٧.

(٢٢٥) النويرى : نفسه ، ص١٦٦؛ ابن تغري : نفس المصدر ، ص٢٧٥.

(٢٢٦) الزبيدية : محلتان ببغداد الأولي في الجانب الغربي قرب مشهد موسى بن جعفر في قطعية أم جعفر والثانية محلة أسفل مدنية السلام منسوبة إليها أيضا وهى في الجانب الغربى أيضا (يا قوت: نفسه ، مج ٣ ، ص١٣٢) .

(٢٢٧) سامراء : سر من رأى : مدينة بين بغداد وتكريت على شرقى دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا (نفسه: ص١٧٣) .

(٢٢٨) المدائن : طولها سبعون درجة وثلث وعرضها ثلاث وثلاثون درجة ونصف بناها انو شروان بن قباذ وأقام بها هو ومن كان بعده من ملوك بنى ساسان إلى أيام عمر بن الخطاب (نفسه : مج ٥ ، ص٧٤).

(٢٢٩) اليافعي : نفسه؛ الهمداني : نفسه .

(٢٣٠) مسكويه : نفسه ، ص٣٠ ، Muir : OP. Cit, PP.88,90.

(٢٣١) الهمدانى : نفسه ، ص١٢٩؛ كمال الدين : نفس المصدر السابق.

(٢٣٢) (مسكويه : نفس المصدر السابق؛ النويرى : نفسه ، ص١٦٧ .

(٢٣٣) عسكر جعفر: وهى عسكر أبي جعفر قرية بالبصرة (ياقوت : نفس المصدر ، مج٤ ، ص١٢٣).

(٢٣٤) مسكويه : نفسه ، ص٣٧.

(٢٣٥) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٩٠؛ النويرى : نفسه ، ص١٧١ .

(٢٣٦) نهرأبان : أحد روافد نهر دجله يستخدمه المتوجه من الكوفه إلى القادسية بعد اجتياز واسط (الادريسي : نزهه المشتاق ، ص٣٨٣).

(٢٣٧) مسكويه : نفس المصدر ، ص٤٢.

(٢٣٨) مسكويه : نفس المصدر ، ص٤٥؛ النويرى : نهاية الأرب ، ص١٧١ .

(٢٣٩) الهمدانى: التكملة ، ص١٣٥؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص٥١٥.

(٢٤٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٩٠ .

(٢٤١) مسكويه : نفس المصدر ، ص٤٨ ، ابن دحية : النبراس ، ص١٢٣.

(٢٤٢) نفسه. ، النويرى : نفسه ، ص١٧٢ .

(٢٤٣) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٩٥.

(٢٤٤) الهمدانى : نفس المصدر ، ص١٣٦.

(٢٤٥) ابن الأثير : نفسه؛ النويرى : نفسه ، ص١٧٣ ، ١٧٤.

(٢٤٦) مسكويه : نفسه؛ ابن خلدون : نفس المصدر ، ص٥١٦.

(٢٤٧) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها

وفى قراها أربعون ألف بستان (ياقوت : معجم البلدان ، مج٥ ، ص٢٨٨).

(٢٤٨) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام (نفس المصدر: مج٣، ص٥٨).

(٢٤٩) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة؛ المسعودي: مروج الذهب ، جـ٤ ، ص٣٤١.

(٢٥٠) الهمداني : نفس المصدر ، ص١٣٨.

(٢٥١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص٢٨٢.

(٢٥٢) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٢٩٦؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون ، ج١٥ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ص١٠٩.

(٢٥٣) مسكويه : نفس المصدر ، ص٥٣؛ الهمداني : نفس المصدر ، ص١٤٥.

(٢٥٤) نفسه ، النويري : نفسه ، ص١٧٤.

(٢٥٥) ابن الأثير : نفسه .

(٢٥٦) نفسه .

(٢٥٧) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦ ، ص٣٣٦؛ النويري : نفسه ، ص١٧٤.

(٢٥٨) الذهبي : نفس المصدر ، ص١١٠ ، ١١١؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، مج ٦ ، ج١١، ص٢٤٧.

(٢٥٩) مسكويه : نفس المصدر، ص٦٠ ؛ الهمداني : نفس المصدر ، ص١٤٦.

(٢٦٠) نهر الأمير : بالبصرة حفره المنصور ثم وهبه لابنه جعفر فكان يقال نهر أمير المؤمنين ثم نهر الأمير (ياقوت : نفس المصدر ، مج٥ ، ص٣١٨) .

(٢٦١) الجعفرية : منسوبة إلى جعفر محلة كبيرة مشهورة في الجانب الشرقي من بغداد (ياقوت : معجم البلدان ، مج٢ ، ص١٢٢).

(٢٦٢) الكتبي : عيون الأخبار ، ص٢٩٠.

(٢٦٣) مسكويه: تجارب الأمم ، ج٢ ، ص٦٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ، أحداث سنه ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ص٢٢.

(٢٦٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص٢٩٧.

(٢٦٥) المستكفى بالله : أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بن المعتضد بويع له بالخلافة عند خلع المتقى في صفر سنة ثلاث وثلاثين خلع أيام معز الدولة وسملت عيناه في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٤٤ ، ٣٤٥).

(٢٦٦) مسكويه : تجارب الأمم ، ج٢، ص٧٩؛ الهمداني : التكملة ، ص١٤٥.

(٢٦٧) نفسه ، نفسه

(٢٦٨) نفسه : ص٨٠.

(٢٦٩) ابن الأثير :الكامل في التاريخ ، ج٦، ص٣١١؛ دائرة المعارف الإسلامية، مج٣ ، ص٦١٤.

(٢٧٠) نفسه : ص٣١٢.

(٢٧١) الكتبي : عيون الأخبار ، ص٢٩٣.

(٢٧٢) مسكويه : نفس المصدر ، ص٨٦؛ الهمداني : نفس المصدر ، ص١٤٧.

(٢٧٣) نفسه : ص٨٨.

(٢٧٤) نفسه : ص١١١.

(٢٧٥) المطيع: أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة عند خلع المستكفي في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقرر له معز الدولة كل يوم مائة دينار فقط ولما اشتد عليه المرض دعاه سبكتكين الحاجب في سنة ثلاث وستين لخلع نفسه وتسليم الأمر إلى ولده الطائع لله (السيوطي : نفس المصدر ، ص ٣٤٥ ، ٣٥٠).

(٢٧٦) أبو جعفر الصيمري : وزير معز الدولة أسند إليه حرب عمران بن شاهين بالبطائح وتوفي بالجامدة أثناء حصاره لها (ابن الأثير : نفس المصدر ، ص٣٣١ ، ٣٣٤).

(٢٧٧) هجر : بفتح أوله وثانية في الإقليم الثاني مدينة وهي قاعدة البحرين (ياقوت : نفس المصدر ، مج٥ ، ص٣٩٣).

(٢٧٨) الشذاآت والزبارب :هي انواع من السفن ومفردهم شذا، الزبزب(ابن منظور:لسان العرب ، ج٤ ،ص٢٢٢١, ١٨٠٢).

(٢٧٩) مسكويه : نفس المصدر ، ص١١٢؛ الهمداني : نفس المصدر والصفحة .

(٢٨٠) الهمداني : نفسه؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ص٣٩.

(٢٨١) مسكويه : نفس المصدر ، ص١٨١؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، مج٦ ، ج١١ ، ص٢٨٢.

ملحق (١)

جزء من قصيدة لأبى الفرج الأصفهانى في تقلد البريدي الوزارة يتضح منها مدى الفساد والأذى الذى طال الدولة العباسية رغم قصر مدتها .

وهى قصيدة طويلة جاء في أولها :-

يا سماء اسقطى ويا أرض ميدى — قد تولى الوزارة ابن البريدى
جل خطب وجـــل أمر عضــــال — وبداء اشاب رأس الوليد
هدركن الإسـلام وانهتك المـلك — ومحت أثارة فهو مودى
اختلـقت بهجة الزمـــان كما أخ — لق طول الزمان وشى البرودى
يا لقومى لحر صـدرى وعولـى — وعليلى وقلبى المعمود
حين سار الخميس يوم خمـيس — في البريدى في ثياب سود
سودت أوجه الورى وعلـــتهم — اذ علته بذلة وهمود
قد حباه بها الإمـام اصطـفـاء — واعتمادا منه بغير عميد
خلع تخـــلـــع العلـــى والـــواء — عقدة حل عروة المعقود
كان أولى من لبسه خلـع الملك — بغل يسوده وقيود

وختامها بقوله :

في سبيل الإســــلام خير سبيل — محو رسم الإسلام والتوحيد
لا يســرن غافل بعــد هـــــذا — بوليد ولا يرع لفقيد
فاستهلى يا عين بالدمـــع سحـا — وقليل أن تزرفى وتجودى

من كتاب التكملة للهمدانى

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الاثير : (ت ٦٣٠هـ / ١٣٢٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم .
الكامل في التاريخ (بيروت - الطبعة السادسة - ١٩٨٦م) .

- الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموى (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (عالم الكتب - بيروت - الطبعة الاولى - ١٩٨٩م) .

- ابن الجوزى : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن أبى الحسن على المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (دار صادر - طبعة مصورة عن الدائرة العثمانية حيدر أباد ١٣٥٩هـ) .

- الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلى
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت - ١٩٨٩ م) .

- ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ - - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون (بيروت - الطبعة الثالثة 1996 -م).

- ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن دحية الكلبى
النبراس في تاريخ بنى العباس تحقيق عباس العزاوى (بغداد ١٩٤٦م) .

- الذهبى : (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان
تاريخ الإسلام، تحقيق عمر تدمرى (بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٩٤م)
سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة - بيروت).

- السيوطى : (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين
تاريخ الخلفاء، تحقيق ياسر صلاح وآخرون (المكتبة التوفيقية - القاهرة).

- الصولى : (ت ٣٣٥هـ - ٩٤٦م) أبو بكر محمد بن يحيى
أخبار الراضى والمتقى نشره هيوارث دن (القاهرة١٩٣٥م).

- ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى
الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (دار المعارف - القاهرة ١٩٩٥م) .

- العاصمي: (ت ١١١١هـ/ ١٩٦٩م) عبد الملك بن حسين بن عبد الملك: سمط النجوم العوالى، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون (دار الكتب العلمية - بيروت-١٩٩٨م) .

- عريب بن سعد القرطبى : (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٦ - ٩٧٧م)

صلة تاريخ الطبرى.

- ابن العميد : (ت ٦٧٢/ ١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس بن العميد

تاريخ المسلمين (ليدن ١٦٢٥م) .

- أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه

المختصر في اخبار البشر. (مجلدان ٤ أجزاء - مكتبه المتنبى القاهرة (١٩٩٨)

- القلقشندى : (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أبو العباس احمد

صبح الأعشى في صناعة الإنشا. نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية .

- الكتبى : (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن احمد الحلبى

عيون الأخبار في حقائق الأخبار. أحداث من سنة ٣١١هـ - ٣٥٩هـ. مخطوط بدار الكتب المصرية - تحت رقم ٨٥١١ تاريخ .

- ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م) عماد الدين أبو الفدا

البداية والنهاية. (بيروت 2001 -م) .

- كمال الدين: كمال الدين عمر بن أحمد بن أبى جرادة

بغية الطلب في تاريخ حلب. تحقيق سهيل زكار (دار الفكر - بيروت).

- الماوردى : (ت ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى
الأحكام السلطانية ((القاهرة ١٩٢٣م).

- مجهول: الحدائق والعيون. مخطوط بدار الكتب المصرية - تحت رقم ٨١١٤ تاريخ .

- أبو المحاسن : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. (نشر دار الكتب المصرية).

- المسعودى : (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٥م) أبو الحسن على

مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيى (٤ أجزاء - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الرابعة) .

- مسكويه : (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) أبو احمد بن محمد

كتاب تجارب الامم. (جزءان - نسخه مصورة عن طبعة أمدرو - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة).

- المقدسى : (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨ م) شمس الدين أبى عبد الله بن أحمد بن أبى بكر الشامى
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة دي غوية - ليدن - الطبعة الثانية ١٩٠٦ م) .

- ابن منظور : جمال الدين محمد

لسان العرب. (دار المعارف - القاهرة).

- النويري : (ت٧٣٢هـ - ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق احمد كمال زكى (الجزء الثالث والعشرون - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٠م) .

- هلال الصابى: (ت٤٨٨ هـ / ١٠٥٦م) أبو الحسن بن أبى إسحاق ابراهيم الكاتب

تحفه الامراء في تاريخ الوزراء، نشر امدرو (ليدن ١٩١٢).

- الهمدانى : (ت ٥٢١هـ / ١١٢٧م) محمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمدانى ابو الفضل

تكملة تاريخ الطبرى، تحقيق البرت يوسف كنعان (المطبعة الكاثوليكية - بيروت - الطبعة الاولى ١٩٥٨ - م) .

- اليافعى : (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) أبو محمد عبد الله بن اسعد بن على بن سليمان

مرآة الجنان (٤ أجزاء - دار الكتاب الإسلامى - القاهرة ١٤١٣ هـ).

- ياقوت : (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى

معجم البلدان، (٥ مجلدات - دار صادر - بيروت).

ثانيا : المراجع العربية والأجنبية

- حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، (مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية عشر ١٩٨٧م) .

- الخضرى، محمد بك الخضرى : تاريخ الدولة العباسية، (بيروت ٢٠٠٤م) .

- الدورى . عبد العزيز الدورى : دراسات في العصور العباسية المتأخرة، (بغداد ١٩٤٥ م).

- لسترنج . كى : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة فرنسيس وكوركيس عواد (مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٥م) .

- اليوزبكى. توفيق : (الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية) (بغداد١٩٧٠م).

- دائرة المعارف الإسلامية : (المجلد الثالث - بيروت) .

- دهخدا : لغت نامه (المجلد التاسع والعشرون - دانشكاه تهران - تهران ١٣٤٩هـ .ش)

- Kremrer. Alfred von : "The Orient under the Caliphate" vol2, Clacutta, 1920.

- Muir.Sir William : "The Caliphate" Edinburg, 1970.

- Schaban. M.A : "The Abbasid Revolution of the Social and Political" 1960.

د. عبدالحميد حسين محمود (*)

إقليم أسفيجاب من الفتح الإسلامى إلى أواخر القرن الرابع الهجرى

يعد إقليم أسفيجاب أهم ثغور الإسلام فى الجناح الشرقى للدولة الإسلامية، لأنه يمثل الحد الفاصل بين المسلمين والترك من ناحية، وبين البيئة الزراعية والصحراوية من ناحية أخرى. وخصوصية هذا الإقليم جعلته بؤرة للصراع المستمر. وكان هذا لا يخفى على حكام المسلمين وامرائهم بخراسان وبلاد ما وراء النهر؛ فعملوا بكل الوسائل الممكنة بإتباع سياسة الحرب واللين معا. لكسب ولاء قبائل الترك الساكنة على حدود هذا الإقليم وحولوهم من صف العدو إلى صف الحليف الذى يذب الخطر التركى عن ديار الإسلام.

ومما دفعنى إلى دراسة هذا الموضوع هو أن الحدود الإسلامية التركية فى بلاد ما وراء النهر -التركستان- لا تزال فى أمس الحاجة إلى دراسات تبرز دور الثغور الإسلامية فى نشر الإسلام وفى جذب الترك إلى دار الإسلام . واتبعت فى هذه الدراسة المنهج التاريخى فى التأريخ للعمليات الحربية التى دارت بين المسلمين والترك لفتح بلاد ما وراء النهر عامة وأسفيجاب خاصة .كما عولت على المنهج الوصفى فى وصف مدن أسفيجاب المختلفة من خلال مشاهدات وكتابات الرحالة والجغرافيين العرب.

ولقد عالجت فى هذه الدراسة موقع إقليم اسفيجاب الجغرافى ومدنه الثغرية والأربطة ثم انتقلت إلى الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية.فى ضوء المعلومات المتاحة فى المصادر التاريخية ،والجغرافية ،وكتب الطبقات والتراجم،وهى أقل من القليل. مما شكل أهم عقبة واجهت الباحث فى الدراسة، ومن المنطقى أن نعترف بذلك .

*-استاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية التربية - جامعة الفيوم.

أولاً :موقع أسفيجاب الجغرافى

ثغر أسفيجاب(١) أو أسبيجاب(٢) من أهم ثغور الترك(٣) ببلاد ما وراء النهر(٤) على الحدود التركية. وأسفيجاب اسم يطلق على الناحية أي الإقليم وسوف ندرس فى هذا البحث الإقليم ككل – وقصبته باسمه. وأسفيجاب تقع على حدود الإسلام الشمالية التى تفصل بين المسلمين والترك(٥) لذا كانت أهم ثغور الإسلام مصداقا لذلك قول اليعقوبى (٦) (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) الذى وصفها بـ «الثغر الأعظم» الذى يحمى الحدود الإسلامية من خطر الترك. وهو ثغر جليل ودار جهاد قدر عدد أربطته بألف وسبعمائة رباط (٧). وهذا الرقم كبير مقارنة ببلاد ما وراء النهر الأخرى. وكانت السلطات الإسلامية تدرك أهمية هذا الثغر فى حماية الحدود الإسلامية فى أقصى شمال العالم الإسلامى؛ فتم أعفاء سكانه من دفع الخراج. مصداقا لذلك قول الإصطخرى (٨) : «وليس بخراسان وما وراء النهر بلد لا خراج عليه إلا أسفيجاب. وما يقع من المدن فى نواحيها بذخكث، وسبانبكث، والطراز، وشلجى، وأطلخ، وكدر، وستكند، وشاوغر، وصبران، ووسيج». وسبب أعفاء أسفيجاب وبلدانها من الخراج؛ ليتمكن أهلها يومذاك من انفاق مقدار الخراج على شراء السلاح ومستلزماته والمعونة من أجل حماية بلادهم من خطر الترك(٩). وهم عدة قبائل الغز(١٠) والتغزغز(١١)، والخرلخية(١٢)، والكيماك) (١٣).

واشتمل إقليم أسفيجاب على عدة مدن وقرى. على حد قول صاحب حدود العالم(١٤) : «ناحية على الحد بين المسلمين والكافرين وهى واسعة عامرة... وفيها مدن ونواح ورساتيق كثيرة». ويضيف ياقوت الحموى (١٥): «ولاية واسعة وقرى كالمدن». وقال عنه أبو الفداء (١٦): «صقع جليل من اصقاع ما وراء النهر».

وكانت حدود أسفيجاب تشمل جميع الأراضى الممتدة شرقا إلى وادى تلاس بما فى ذلك الوادى نفسه والمنطقة الممتدة صوب الشمال الغربى إلى سوران «صبران» (١٧).

وذكر المقدسى أن أسفيجاب كورة من الكور الست فى بلاد ما وراء النهر وهى فرغانة، وأسفيجاب، والشاش، وأشروسنة، والصغد، وبخارى .(١٨) فى حين أن الإصطخرى(١٩) وابن حوقل(٢٠) يد مجون أسفيجاب وبعض بلدانها إلى الشاش. واختلط الأمر على الأدريسى (٢١) فى حسم المعالم الجغرافية للشاش وإيلاق وأسفيجاب بقوله: «فكلها تتقارب أعمالها وتتداخل أكوارها».

أما أبو الفداء لم يكلف نفسه عناء التحرى فى مدن الشاش، ولم يتحقق منها على وجه الدقة؛ ولذلك أغفل ذكرها، لأن غالبية أسمائه إعجمية(٢٢). فما بالنا بإقليم أسفيجاب الأبعد من الشاش.

واشتمل إقليم أسفيجاب على عدة مدن هى :

١- أسفيجاب : هى قصبة الإقليم تقع على حوض نهر أريس. وهو أحد روافد نهر سيحون اليمنى .(٢٣) وموقعها حاليا قرية سيرام الحالية التى تبعد نحو ثمانية أميال شرقى جمكنت

(٢٤) والظاهر أن مدينة أسفيجاب قد تغير اسمها بعد الغزو المغولي إلى سيرام (٢٥) وتبلغ مساحة أسفيجاب نحو الثلث من تنكث (٢٦) ووردت أيضا بنكث (٢٧) وهي حاليا طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان. وقد اهتم الروس بها منذ أن استولوا على خانية بخارى عام ١٩٢٢م. وكانت طشقند تتبعها وأهملوا بخارى وسمرقند لأنهما أكثر استعصاء على الإذابة) (٢٨).

أما عن خطط أسفيجاب فهي كمثل بقية مدن ما وراء النهر القديمة تتألف من:

أ- المدينة (الشهرستان) ب - القلعة (القهندر) ج- الربض (الضاحية)

ولقد حل الخراب بالقهندز وبقيت المدينة والربض عامرين. وكان يلتف سور على المدينة الداخلة. وعلى الربض أيضا سور يحيط به مقدار فرسخ (ثلاثة أميال) والربض عامر بالمياه والبساتين. ومباني أسفيجاب من طين.

وللمدينة أربعة أبواب هي : باب نوجكث، وباب فرخاد، وباب سراكونه، وباب بخارى. والأسواق تمتد في المدينة والربض. أما دار الإمارة والحبس والجامع في المدينة الداخلة(٢٩).

وفسر بارتولد شدة الاستحكامات في أسفيجاب وسائر مدن ما وراء النهر، لحمايتها من غارات البدو المتكررة(٣٠)

٢- فاراب(٣١) أو باراب : من مدن أسفيجاب اسم يطلق على الناحية والمدينة (٣٢)وهي على تخوم بلاد الترك على مقربة من بلاساغون(٣٣) وتقع على ضفة نهر سيحون الشرقية(٣٤). وهي مدينة كبيرة عليها حصن فيه الجامع. ولها أسواق وأرباض وبالحصن حوانيت(٣٥) وتحفل فاراب بالغياض والمزارع في غربي الوادي وتسقى من نهر الشاش (٣٦) وقصبة فاراب مدينة كدر(٣٧) على حد قول الإصطخرى(٣٨) وابن حوقل(٣٩). أما المقدسي فيعطي قصبة الكورة نفس الاسم الذي تحمله الكورة ويقول إنها كبيرة تخرج نحو خمسين ألف رجل للجهاد وحماية الحدود الإسلامية)(٤٠)

ووصف صاحب حدود العالم (٤١) أهلها «مقاتلون أبطال» وكان بفاراب قوات لحمايتها، يقول ابن خرداذبة(٤٢) (ت ٣٠٠هـ/ ١٢-٩١٣م) : «فيها مسلحة للمسلمين ومسلحة للأتراك الخرلخية» وسكن في منطقة المراع الخصبة الواقعة بين فاراب وكجندة نحو ألف بيت من الترك الذين دخلوا في الإسلام(٤٣).

٣- طراز : من مدن أسفيجاب(٤٤) الثغرية على الحدود التركية(٤٥). وطراز ثغر تقع على شط سيحون(٤٦) في آخر حدود الإسلام في مواجهة الترك الخرلخية(٤٧) وبين أهل طراز والترك الخرلخية في أكثر الأوقات حروب وغارات وعندما تتوقف وتعقد الهدنة كانت بينهم التجارات والمعاملات بالأمتعة والسائمة والأوبار وغير ذلك(٤٨)

وطراز مدينة جليلة كثيرة البساتين مشتبكة العمارة يحيط بها خندق وأربعة أبواب ولها ربض عامر على باب المدينة(٤٩). ولطراز نهر كبير وهي طيبة التربة عذبة الماء لطيفة الهواء كثيرة الخيرات(٥٠) ويقع جامعها في وسط الأسواق وهي متجر للمسلمين من الأتراك(٥١).

٤- ولاسكون ، من ثغور الترك خلف نهر سيحون قريبة من كاشغر(٥٢).

٥- شلجي ، احدي ثغور الترك من نواحي طراز على حدود التركستان على نهر سيحون(٥٣). وصفها المقدسي(٥٤) بقوله: «وهي صغيرة كثيرة الغرباء بها عشرة آلاف اصفهاني ولها قهندز الجامع خارج منه. وهي بيت الجبال لهم نهر في وسطه سبع قري»

٦- بلاج وبروكت، من ثغور التركمانيين الذين دخلوا في الإسلام(٥٥). وأسند مهمة الدفاع عن هذين الثغرين إلى المهاجرين من أهل المفاوز والبراري، الذين دخلوا في الإسلام. وكانوا أهل بأس ومنعة في القتال ضد أبناء جلدتهم الذين ظلوا على الوثنية(٥٦).

٧- شغلجان ، كانت مدينة شغلجان ثغراً في وجه الكيماك وعلى هذه المدينة حصن(٥٧).

٨- سوران (أوصبران) ، تقع خلف نهر سيحون على طرف البرية(٥٨) من الثغور الإسلامية الهامة المواجهة للاتراك الغز والكيماك. لذا كانت سوران عليها سبع حصون بعضها خلف بعض(٥٩) وقيل أن سوران كانت ملتقى للأتراك الغز، الذين يأتون لعقد الصلح والهدنة والتجارات «إذ انعقد الصلح بينهم» (٦٠). وترتب على احتكاك الغز مع التجار المسلمين أن دخل كثير منهم في الإسلام(٦١).

٩- شلج ، من بلاد طراز وقيل قرية من قرى طراز تشبه بليدة. وهي إحدى ثغور الترك. وهي مستقر للأتراك أهلها مسلمون(٦٢).

١٠ سبانيكث أو اسبانيكث ، قصبة كورة كنجدة(٦٣) تقع غرب أسفيجاب. وكانت مدينة حصينة بها مسجد جامع ومعظم مبانيها في الربض(٦٤) وصفها صاحب حدود(٦٥) العالم بقوله : «مدينة نزهة ذات نعمة وثراء».

١١- ستكند ، مدينة تحتوى على منبر وهي مجمع الأتراك(٦٦) الذين دخلوا في الإسلام من مختلف قبائلهم وأبرزهم قوم من الغزية والخرلخية وهما من القبائل القوية التي لها بأس ومنعة في الأتراك(٦٧).

١٢ جكل ، عدها صاحب حدود العالم من الخلخ وتقترب حدودها الشرقية والجنوبية من بلاد الخلخ والغربية حدود التخس، وشمالها بلاد الخرخيز «ولأهلها الأموال الهائلة وهم أهل خيام... يعبد قسم منهم الشمس والنجوم، وهم حسنو الطباع محبون للاختلاط بغيرهم، ذوو شفقة وملكهم منهم» (٨٦).

ثانياً : الأربطة

حفلت مدن إقليم أسفيجاب بكثرة الأربطة. وقد جاءت كلمة رباط من قوله تعالى: «صابروا ورابطو» (٦٩). ومن قوله تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم. وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون»(٧٠). وللأربطة أهمية حربية فى مدن الثغور فى درء خطر العدو فى البلاد التى تجاور بلاد العدو. وإلى جانب أهمية الرباط الحربية وجدت له أهمية علمية فى أوقات السلم لا تقل عن المسجد فكان من مؤسسات العلم في الإسلام(٧١). وكانت تلك الأربطة تستخدم للدفاع والهجوم معاً ومن هذه المراكز سينتشر الإسلام فى سهوب آسيا الوسطى(٧٢) وكان العلماء والشعراء الذين يفضلون حياة التشقف والراحة يلجأون إلى هذه الأربطة للتفرغ والدرس(٧٣).

والرباطات من الناحية المعمارية هي نقاط عسكرية حصينة أشبه بالقلاع، يحيط بها سور عظيم. وفي داخل كل رباط غرف لسكنى المرابطين ومخازن للأسلحة والمؤن وأماكن لربط الخيول. كما يوجد فى الرباط برج عال، مهمته رصد تحركات العدو والإخبار عنها(٧٤).

وكان أهل بلاد ما وراء النهر يرغبون في بناء الأربطة يقول الأصطخري(٧٥): «وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبل الجهاد ووجوه الخير الا القليل منهم . وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلا بها من الرباطات».

ولما كانت مدينة أسفيجاب من أهم ثغور الإسلام، فقد حفلت بالأربطة فكان بها ألف وسبعمائة رباط للمطوعة. ومن أشهرها رباط النخشبين، ورباط السمرقنديين، ورباط قراتكين(٧٦) الذى كان حاكما على أسفيجاب فى عهد نصر بن أحمد الساماني(٧٧).

وكان لجامع أسفيجاب أربعة أبواب على كل باب رباط وهى : باب نوجكث، وباب فرخان، وباب شاكرانة، وباب بخاري(٧٨). ووجدت الأربطة أيضا فى مدن خراخراف(٧٩)، واذخكث(٨٠)، وفى ميركى خارج الحصن بنى الامير عميد الدولة فائق خارج الحصن رباطا(٨١).

ثالثا :دور أسفيجاب السياسى

حمل العرب لواء الإسلام وخرجوا من جزيرتهم الفسيحة الواسعة، وانساحوا إلى كل الجهات يرفعون راية الإيمان، ويرفضون العبودية إلا لله(٨٢).

وأسفرت حركة الفتوحات الإسلامية فى بلاد فارس زمن الراشدين عن عدة هزائم لحقت بالفرس على يد العرب فى القادسية، وحلوان، والمدائن ونهاوند، وطاردتهم الجيوش الإسلامية حتى تم فتح قم، وقاشان، والرى وجرجان، وطبرستان وازالوا دولتهم فى عام (٣١هـ/٦٥١م) وخضعت إيران كلها تقريبا للحكم العربى عدا مناطق بلخ، والغور ومناطق شط بحر الخزر وجيلان، وطبرستان(٨٣).

وكان نهر المرغاب آخر أرض الإسلام حين استسلمت إيران. وكان المرغاب الحد الشمالي الشرقي لإيران الساسانية. أما ما بين المرغاب وجيحون الذى هو حد ما وراء النهر كان واقعا تحت نفوذ الترك. والظاهر أن العرب اتخذوا حدودهم عند نهاية العالم الفارسي شرقاً. فإنهم لم يتجاوزا هذه الحدود ولا المنطقة المجاورة إلى ما وراء النهر قبل عهد الوليد بن عبد الملك إلا مرات معدودات عبور المستكشف الموهم جاره أنه يقظ على حماية أرضه وعلى صيانة هيبته ونفوذه(٨٤).

وقام بتلك الفتوحات الحكم بن عمرو الغفاري(٨٥) ثم عبد الله بن زياد في سنة (٥٤هـ/ ٦٧٣-٦٧٤م) (٨٦) وسعيد بن عثمان بن عفان في سنة (٥٦هـ/٦٧٥م) (٨٧) وسلم بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية. وموسى بن عبد الله بن خازم(٨٨). وفي خلافة عبد الملك بن مروان قام ولاة خراسان بفتح بلاد ما وراء النهر حيث عبر أمية بن عبد الله)(٨٩)، والمهلب بن أبي صفرة(٩٠).

ولقد ثبت الحكم الإسلامي في بلاد ما وراء النهر على يد قتيبة بن مسلم الباهلي. فقام بغزو الطالقان، والصغانيان وعقد مع أهلها صلحا. وفتح بيكند عنوة سنة (٨٧هـ/٧٠٥-٧٠٦م) وواصل قتيبة زحفه سنة (٨٨هـ/ ٧٠٦-٧٠٧م) نحو تومشكت ورامثنة، وكرمنية(٩١). وفتح بخارى سنة (٩٠هـ/ ٧٠٨-٧٠٩م).

وكان سقوط بخارى في يد العرب إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من السيادة العربية في تلك المنطقة(٩٢) حيث قامت في بخارى إدارة عربية منظمة. واستولى قتيبة على شومان(٩٣)، وكش، ونسف في سنة (٩٢هـ/ ٧١٠-٧١١م). وفي سنة (٩٣هـ/٧١١م) غزا خوارزم وعقد صلحاً مع أهلها يدفعون لقتيبة بموجبه عشرة آلاف رأس وواصل قتيبة زحفه إلى سمرقند. وفرض عليها الحصار فا اضطروا إلى التسليم وعقدوا صلحا مع قتيبة. كما سقطت كابل، وفرغانة في يد قتيبة(٩٤). وواصل قتيبة زحفه إلى الشاش ففتحها سنة (٩٥هـ/ ٧٠٨-٧٠٩م) ثم واصل زحفه شمالاً لفتح أسفيجاب(٩٥). ويبدو أن المسلمين فقدوا السيطرة على ثغر أسفيجاب بعد ذلك يقول البلاذري(٩٦) (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) «غلبت الترك وقوم من أهل الشاش عليه».

وسلكت الدولة الإسلامية مع الترك الساكنين على الحدود الشرقية للعالم الإسلامي علاقات حربية وسلمية معاً، ولكن جانب السلم يفوق جانب الحرب، ففي حين كانت الدولة تسعى إلى فرض حلفها على الترك والتغلب بالحرب كانت تدعوهم إلى الإسلام والدخول في عداد أهله، وكانت كذلك تتبع معهم سياسة خاصة عملية مرنة. وهي إشراكهم في الدفاع عن حدود الإسلام. ولقد نجحت هذه السياسة مع الترك في زمن يسير للتجنيد، حتى أصبحوا بعد قرن واحد يؤلفون نواة الجيش الذى تعتمد عليه الخلافة، وأصبحوا من خير رعايا الدولة الإسلامية(٩٧).

ومن الجدير بالذكر، أن سياسة إشراك الترك في الجهاد بصفة مستمرة يبرهن على أنه سياسة مرسومة، وأن من الشعوب من لا يتنازل عن الحرب في سهولة. والراجح أن هذه الحقيقة لم تغب عن فطنة العرب، فأشركوا الترك في غزواتهم ضد الترك، واستغلوا بهذا

سيوفا كان ممكنا أن ترفع على رؤوسهم. وتخففوا من بعض الأعباء(٩٨).

وكان الخليفة المأمون يكتب إلى عماله على خراسان أن يغزوا من لم يكن على الإسلام من أهل ما وراء النهر، ويفرض لمن أراد الفرض من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم، ويستميلهم بالترغيب، فإذا وردوا بابه، شرفهم وأسنى أرزاقهم وصلاتهم(٩٩).

وفى خلافة المعتصم بالله العباسى سار على سياسة المأمون فى التعامل مع الترك حتى صار جل جنده من أهل ما وراء النهر، من الصغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش واستقطب ملوك بلاد ما وراء النهر ورحب بهم فى دار الخلافة ببغداد. وجنى المسلمون ثمار هذه السياسة حيث غلب الإسلام على تلك البلاد. وصاروا يغزون من وراءهم من الأتراك(١٠٠) وفى عصر الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢٠-٨٧٢م) أخذت ثغور بلاد ما وراء النهر بعداً إسلامياً يأتيه المجاهدون والمتطوعة ليسهموا فى الجهاد ضد الأتراك. واستطاع الطاهريون حماية الحدود الإسلامية من مرو إلى خوارزم، وأشروسنه، وكاشغر، وأسفيجاب، وفرغانة. وحافظوا على الثغر الشرقى(١٠١).

واستمرت سيطرة الترك والشاش على أسفيجاب قرابة من قرن وربع من الزمان، وأعاد فتحه نوح بن أسد السامانى فى سنة (٢٢٤هـ/٣٨-٨٣٩م) وأعاد أيضا فتح البلاد التى نقضت الصلح وهى كاسان، وأورشت زمن الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) (١٠٢) ورغب فى تحصين أسفيجاب وبنى حولها سوراً يحيط بكروم أهله ومزارعه(١٠٣). ليحميها من غارات الترك وذلك على غرار السور الذى بنى من قبل بالشاش. وظلت ولاية أسفيجاب حتى القرن الرابع الهجرى تحت حكم اسرة تركية منفصلة، وحظيت بامتيازات كبرى على حد قول بارتولد من بينها الأعفاء من الخراج مقابل حماية الثغر من هجمات الترك. وكان حاكم أسفيجاب يرسل فى كل عام إلى حكومة السامانيين بأربعة دوانق، وهو مبلغ ضئيل للغاية ومكنسة بدلا من الخراج؛ كدليل على تبعيته وولائه(١٠٤).

ولما قامت الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ/ ٨٧٤-٩٩٩م) بذلت جهوداً كبيرة فى سبيل الدعوة إلى الإسلام، ونشر رايته فى ربوع البلاد التى تخضع لسيطرتهم، فكانوا يغتنمون كل فرصة تتاح لهم؛ لتحقيق هذه الغاية كان السامانيون يشنون حروبا كثيرة ضد الأتراك وصبغت هذه الحروب بالطابع الدينى فى عهد إسماعيل بن أحمد(١٠٥).

وسار إسماعيل بن أحمد فى سنة (٢٨٠هـ/٨٩٢م) على رأس جيش إلى بلاد الترك للاستيلاء على مدينة طراز وفتحها وأسلم ملكها مع كثير من الدهاقين، وتليت الخطبة فيها باسم الخليفة العباسى المعتضد بالله، وعاد الأمير إسماعيل بغنائم كثيرة(١٠٦).

ولم ينس الترك ما حل بهم على يد الأمير إسماعيل فاستعدوا لجولة ثانية فى سنة (٢٩١هـ/ ٩٠٣-٩٠٤م) ولكن إسماعيل جمع جيشاً كبيراً من المتطوعة وسيره لقتال الترك وأنزل بهم هزيمة ساحقة(١٠٧). ومما يقف دليلاً على أن حكومة السامانيين كانت لا تزال تتمتع ببعض النفوذ

فى بلاد الترك تلك الرواية التى تشير إلى تشييد رباط بأمر فايق أحد القادة الترك بالبلاط السامانى قرب ميركى(١٠٨). وقد تعودت القبائل الرحل المجئ فى أعداد كبيرة إلى مدن الثغور الإسلامية بغرض المتاجرة وذلك لحاجتهم الدائمة إلى منتجات المناطق الزراعية، ولعجزهم آنذاك عن الحصول عليها عن طريق الإغارة بسبب سطوة الدولة السامانية(١٠٩).

وعلاوة على ما تقدم؛ هاجرت جماعات من قبائل الغز أوطانها لسبب لم نعرفه، ونزلت بموافقة الدولة السامانية بعض مناطق أسفيجاب الصالحة للمرعى مقابل التعهد بحراسة الحدود ضد غارات الترك الآخرين، كما نزل التركمان (الغز) المناطق الغربية والجنوب الغربى من أسفيجاب(١١٠). وعلى الرغم من ذلك لم يكتف إسماعيل بن أحمد السامانى (٢٧٤-٢٩٥هـ/ ٨٩٢-٩٠٧م) بموقف الدفاع . وإنما أصر على نهج سياسة الهجوم . ففى سنة (٢٩٣هـ/ ٩٠٥-٩٠٦م) شن هجوما على الترك. وتمكن من فتح بعض المناطق من بلادهم(١١١).

وحدث فى عهد الأمير إسماعيل بن أحمد أن شق عصا الطاعة والى أسفيجاب ودعاه إسماعيل إلى الحضور عنده، فرفض وبعث إليه إسماعيل أحد قواده مع مجموعة من الحشم، لكى يحضروه بالقوة. ولكن والى أسفيجاب قبض عليه وأخذ أسلحتهم وأمتعتهم. وأعاد إسماعيل الكرة مرة ثانية إلى والى أسفيجاب بجيش من أتباعه ولم يلبث أن هزم هذا الجيش. وبعد ذلك صمم إسماعيل على تأديب والى أسفيجاب فأعد جيشا وسيره إليه ونجح فى هذه المرة فى أسره وأمر إسماعيل بن أحمد بتنفيذ حكم الإعدام فيه فى الميدان أمام جميع الناس ليكون عبرة لمن يحاول التمرد على البلاط السامانى(١١٢).

وكانت قبضة الدولة السامانية قوية فى أسفيجاب وبلاد ما وراء النهر الأخرى وخراسان. وخير برهان على ذلك أنه لما قدمت رسل ملك الصين وهم أربعة مشايخ من مشايخ الصين لمطالبة الأمير نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١هـ/ ٢٢-٩٢٣م) بخراج سبعة وعشرين سنة وإقامة الدعوة له؛ كتب نصر بن أحمد إلى حكام فرغانة، وخجندة، وأشروسنة، وسمرقند، والشاش، وأسفيجاب، وصغد، وفاراب؛ بتسهيل مهمة الوفد الصينى القادم إلى بخارى(١١٣).

وكان حاكم أسفيجاب يتمتع ببعض النفوذ لدى الترك المقيمين فى الجزء الشرقى من مقاطعة سيردريا، والجزء الغربى من منطقة بدى صو، الذين يدينون بالطاعة للسامانيين. وأما ملك التركمان الذى كان يقيم بمدينة أردوا فكان يبعث بالهدايا إلى صاحب أسفيجاب(١١٤).

وشهدت أسفيجاب فى سنة (٣١٠هـ/ ٩٢٢-٣٢٩م) فرار محمد بن الحسين بن مت إليها على أثر هزيمته وحليفه إلياس بن إسحاق بن أحمد الذى انسحب إلى فرغانة بعد فشل خطتهما فى حصار نصر بن أحمد السامانى فى سمرقند. حيث تمكن قائده أبو عمرو محمد بن أسد فى ألفين وخمسمائة رجل كمنوا خارج سمرقند، وانقضوا على إلياس بن محمد وحليفه محمد بن الحسين «فانهزم الياس وأصحابه فوصل إلياس إلى فرغانة. ووصل ابن مت إلى أسفيجاب ومنها إلى طراز فكوتب دهقان الناحية التى نزلها وأجمع وقبض عليه وقتله وانفذ رأسه إلى بخارى»(١١٥).

رابعا:النشاط الاقتصادى

١- الزراعة

يشوب الغموض التام موضوع ملكية الأرض فى منطقة أسفيجاب. فلم تهتم أمهات المصادر المعتمدة فى التأريخ لهذه الناحية. فى حين وردت إشارات مختلفة عن مناطق أخرى من بلاد ماوراء النهر كالضياع السلطانية التي تخص خلفاء الدولة العباسية .وكانت ضياع واسعة ووجدت ملكيات خاصة .علاوة على أراضى الأمراء والقواد الذين امتلكوا الضياع بأساليب مختلفة ،كما نضيف أيضا ضياع النبلاء المحليين فى ايران ودهاقنيها .وأراضى الفلاحين من أهالى القرى الذين يشكلون الغالبية العظمى من الملاك(١١٦).

أما عن النشاط الفلاحى فى أسفيجاب فقد وفرت لنا المصنفات الجغرافية معلومات عن طبيعة ارض أسفيجاب وخصوبتها مصداقا لذلك قول ابن حوقل(١١٧): «ذات خصب واسعة» وهو نفس الوصف الذى ذكره الحميرى(١١٨): «أرض مستوية ذات خصب» وحفلت منطقة فاراب (باراب) بالغياض والمزارع(١١٩). وأشار ياقوت الحموى(١٢٠) إلى نمو العمران الفلاحى بقوله: «كانت أسفيجاب من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشجرا ومياه جارية ورياضا مزدهرة» (١٢١). وقد وصف المقدسى فواكه أسفيجاب واصفا إياها: «نفيسة طيبة» وامتد الخصب والنماء إلى نواحى أسفيجاب فقد ذكر المقدسى(١٢٢) عن أطلخ : «أكثرها بساتين والغالب على رساتيقها الأعناب». وكذلك كانت المنطقة الممتدة من فاراب (باراب) إلى كنجدة عامرة بالمزارع والمراع الخصبة والتى يقيم حولها قبائل من الأتراك الغزية الذين أسلموا وهم مقيمون يشتغلون بالرعى(١٢٣) ووجدت بأسفيجاب عدة أنهار هى نهر خورلوغ(١٢٤)، ونهر كبير يجرى على باب طراز(١٢٥). وكان نهر شلجى يجرى فى وسط سبع قرى)(١٢٦). كما وجد نهر بكل من سوس وكول(١٢٧). وإلى جانب الأنهار وجدت بعض العيون المائية فى ابارجاج «هذه تل عظيم حوله ألف عين ماء تجتمع فى نهر واحد» على حد قول قدامة بن جعفر(١٢٨)

٢- الصناعة

اشتهرت أسفيجاب بصنع الثياب البيض بكثرة(١٢٩) علاوة على صناعة السلاح والسيوف(١٣٠). وحرفة الدباغة القائمة على جلود الماعز(١٣١).

٣- التجارة :

كانت أسفيجاب وبلدانها بمثابة محطات تجارية بين مجتمعين :أولها زراعى فى المناطق الخاضعة للمسلمين، وثانيها صحراوى تسكنه القبائل التركية الضاربة هناك. ومصداق ذلك قول صاحب حدود العالم(١٣٢): «وبها بضائع كثيرة تجتمع بها التجار من الآفاق».

وذكر أحد الباحثين أن مناطق التخوم فى آسيا الوسطى استقر بها بعض التجار الأثرياء الذين يستخدمون شبكة واسعة من العلاقات التجارية وقد زاد استقرار الحكم الإسلامى نشاط هؤلاء التجار كما اتسع نطاق تبادل السلع و الأفكار والطرق(١٣٤). كما كان تجار طراز

يرحلون إلى أصبهان واعتقد السمعانى(١٣٥) ذلك : «وبأصبهان سكة معروفة يقال لها سكة طراز وظنى أن التجار الذين كانوا من طراز يجيئون من طراز ينزلون بها فنسبت إليهم».

ومن أشهر مراكز التجارة فى أسفيجاب :

١- كدر قصبة فاراب(١٣٦).

٢- طراز متجر الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام(١٣٧).

٣ - صبران وهى مدينة فى طرف البرية وهى «مدينة يجتمع بها الغزية للصلح والهدنة والتجارات»(١٣٨).

٤ ـ سوران وميران حيث كان الغز يأتون لتلك المدينتين للتجارة وعقد معاهدات الصلح(١٣٩).

٥ - سيكول الواقعة على الحدود بين الخلخ وجيكل قريبة من بلاد المسلمين وهى عامرة وفيرة الخيرات وفيها التجار(١٤٠).

الأسواق :

تمثل الأسواق بؤرة النشاط التجارى فى أسفيجاب. ووصف الإصطخرى(١٤١) كثرة البضائع فى أسواقها بقوله : «أسواق مشحونة». ومن أشهر أسواق أسفيجاب سوق الكرابيس (سوق القطانيين(١٤٢) وكان يفرض على هذا السوق ضريبة شهريةقدرها نحو سبعة آلاف درهم، يصرف عائدها على شراء الخبز والأدام للضعفاء(١٤٣). وكان سوق مدينة وده نوجكث يستمر لمدة ثلاثة أشهر أيام الربيع، وبلغ سعر اللحم المخلع أربعة أمناء بدرهم(١٤٤).

وتنقسم أسواق أسفيجاب حسب موقعها إلى ثلاثة أقسام هى :

١- أسواق يتوسطها الجامع

وجدت تلك الأسواق فى مدن وسيج(١٤٥)، ويلاج(١٤٦)، وبروخ(١٤٧)، وجكل، وبرسخان(١٤٨)، وبهلو، وطراز(١٤٩).

٢ - أسواق بعيدة عن الجامع

وجد هذا النوع فى جمشلاغو(١٥٠)، وشاوغر(١٥١).

٣ - أسواق فى الربض

وجدت بعض الأسواق فى الربض فى مدينة اطلخ(١٥٢)، وكان ربض أنخكت «عامراً به الأسواق» ومعظم أسواق فاراب فى الربض(١٥٣).

٤ - أسواق على النهر كما هو الحال فى مدينة خورلوغ (١٥٤).

وفى العصر الإسلامى انتقلت التجارة من الربض الواقع خارج المدينة إلى داخل المدينة بالتدريج إلى الأحياء التى يقيم فيها الصناع والتجار فى وسط المدينة(١٥٥).

ولقد التزمت المصادر الصمت عن أنواع تلك الأسواق ومساحتها وتنظيمها والسلع المختلفة وأسعارها ونظام التعامل فيها والإشراف الحكومى عليها.

طرق التجارة

ارتبطت أسفيجاب بمدن ما وراء النهر الأخرى بشبكة هائلة من الطرق هى :

١- طريق خراسان

كان هذا الطريق يواصل اتجاهه شمالاً من سمرقند ويعبر نهر السغد، ومنه يصل إلى زامين(١٥٦) حيث يتفرع إلى طريقين هما :

أ- طريق إلى فرغانة

يبدأ هذا الطريق من زامين إلى سباط ومنها إلى أركند إلى شاركت إلى خنجدة إلى قرية كند إلى سوخ إلى باخسان فى وسط بلاد فرغانة(١٥٧).

ب- طريق الشاش :

كان هذا الطريق يتجه شمالاً من زامين إلى الشاش وسيحون الأسفل(١٥٨).

٢- طريق من الشاش إلى أسفيجاب

يبدأ هذا الطريق من مدينة الشاش إلى معدن الفضة بايلاق، ثم يمضى إلى بلانكنك ومنها إلى باب الحديد ،ومنها إلى كبال ثم إلى غركرد (تمركرد) ومنه فى مفازة إلى أسفيجاب إلى شاواب(١٥٩) ووردت شاراب عند ابن خرداذبه(١٦٠) فى مفازة فيها نهران عظيمان أحدهما مادا والآخر يورث ومن شاواب إلى بدوخكت(١٦١) إلى تمتاج ومنه إلى ابارجاج(١٦٢) وهى تل حوله الف عين تجرى إلى المشرق تسمى بركواب – أى الماء المقلوب صيده (١٦٣) – ثم يعبر النهر فعن يمينه طريق يتجه إلى شاوغرا إلى جويكث فى البرية ثم إلى طراز(١٦٤). ووصف الأدريسى(١٦٥) المسافة ما بين بذخكت إلى طراز بقوله: «لا رباط بينهما ولا عمارة هناك». ومن طراز إلى كويكت ومنها إلى ملك كيماك مسيرة ثمانين يوما يحمل منه الطعام(١٦٦). ومن طراز إلى نوشجان السفلى(١٦٧) ووردت عند الإدريسى(١٦٨) (برسخان السفلى) ثم على كصرى باش(١٦٩) ووردت باش عند ابن خرداذبه(١٧٠) والأدريسى(١٧١). فى جبال عن يمينها وعن يسارهم قم وهى جرمة(١٧٢) ذكرها الإدريسى(١٧٣) (جرمية) وهى أول بلاد الترك الخرلخية(١٧٤). الذين شتون فى مراعيها(١٧٥). وقم بين طور وكولان ناحية الشمال(١٧٦) ومنها إلى كول شوب ثم إلى جبل شوب إلى كولان ثم إلى بركى ونهر بركى يخرج من جبلها فيمر ببلاد إيلاق ويصب فى نهر الشاش ومنها إلى أشبرة(١٧٧) وردت أسبرة عند ابن خرداذبه(١٧٨). ثم إلى توزكت ومنها إلى خرنجوان ثم إلى حول وسارغ ومنها إلى مدينة خاقان التركش ثم إلى نوكت ومنها إلى كبان وإلى نوشجان الأعلى وهو حد العين على بعد مسيرة خمسة عشر يوما للقوافل فى المراعى(١٧٩).

وطريق آخر يتجه شمالا إلى أسفيجاب وعندها يتشعب، فكان يذهب من أسفيجاب غربا إلى فاراب لعبور سيحون، ومنها نحو الشمال أيضا بحذاء ضفته اليمنى إلى صبران وإلى اليمين من أسفيجاب شرقا كان يذهب طريق آخر إلى خراز ومنها إلى بركى أو ميركى آخر مدينة إسلامية فى بلاد الترك(١٨٠).

صادرات أسفيجاب

كان يصدر من أسفيجاب بعض السلع ويأتى فى مقدمتها الرقيق التى شاركت فى تجارته مدن أخرى كفرغانة وسمرقند وخوارزم :

١- الرقيق الترك

يجلب الرقيق الترك من البلدان المحيطة ببلاد ما وراء النهر وفى هذا الصدد يقول الإصطخرى(١٨١) وينقل عنه ابن حوقل(١٨٢): «وأما الرقيق فإنه يقع إليهم من الأتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم. وينقل إلى الآفاق من بلادهم وهو خير رقيق يحيط بالمشرق كله» ويرى ابن حوقل أن الرقيق التركى المجلوب إلى خراسان ليس فى أنواع الرقيق ما يضاهيه فى الثمن والجمال ورأى العبد منه يباع بخراسان بثلاثة آلاف دينار ويضيف ابن حوقل أنه لم يسمع قط بهذا الثمن إلا بالنسبة إلى الرقيق الماهر فى صنعة الغناء(١٨٣).

ومن المعروف أن الدولة السامانية استخدمت الرقيق لتدعيم حرسها وكتائب جندها فقد ذكر ابن الزبير فى الذخائر والتحف أن المركب التى أقامها نصر بن أحمد بن نوح السامانى (٣٠١-٣٣٢هـ/ ٩١٣-٩٤٣م) لاستقبال رسل ملك العين سنة (٣٢٧هـ/٩٣٨م) كانت مناسبة لوصف ما اقتناه السامانيون بإقليم ما وراء النهر من رقيق لتكوين حرسهم الخاص ولتعزيز فرق الجند.

وكانت تجارة هذا الرقيق على أشدها فى العراق مركز الخلافة العباسية فقد تم الاعتماد عليهم بدلاً من العرب والفرس(١٨٤).

بعض صادرات أسفيجاب إلى البلدان الأخرى

مسلسل	البلد	السلع المصدرة
١	أسفيجاب	اللبود والأغنام(١٨٥) والثياب البيض وآلات السلاح والسيوف والنحاس والحديد.
٢	شلجي	الفضة(١٨٦)
٣	طراز	جلود الماعز(١٨٧)
٤	سوتاخ	الأقواس الجيدة(١٨٨)

خامسا:الحياة الاجتماعية

وعلى صعيد الحياة الاجتماعية فقد استقر فى الإقليم زمن الدراسة عناصر سكانية مختلفة هى : الترك ،والفرس ،والعرب ،والرقيق.

١ ـ الترك شعوب بدوية هيأ موقعهم المتوسط فى القارة الآسيوية ، ارتباطهم بعلاقات وطيدة بمن جاورهم من أهل الحضارات القديمة ،كالصين شرقا وإيران والرومان غربا(١٨٩).

والترك أجناس وعدة ممالك فمنها الخرلخية ،والتغزغز ،وتركش ،وكيماك ،وغز .ولكل جنس من الترك مملكة منفردة، ويحارب بعضهم بعضا، وليس لها منازل ولا حصون .وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر وأغشيتها لبود وهم أحذق قوم بعمل اللبود لأنها لباسهم(١٩٠) وحدد الإصطخرى(١٩١) منازل وديار ومضارب القبائل التركية فى مدن بلاد ما وراء النهر الثغرية فى أسفيجاب وفرغانة وخورازم : «أما من خورازم إلى ناحية أسفيجاب الترك الغزية ،ومن أسفيجاب إلى أقصى فرغانة الترك الخزلخية

واشترك الترك فى بعض العادات والتقاليد وكذلك فى نوع الحياة الرعوية، ولما كانت براريهم موطن الخيل ،فقد ربطوا حياتهم بحياتها .ومن المعروف أن الترك رعاة فقد اعتمدوا فى طعامهم على أكل اللحوم (١٩٢) ويتغذون على الألبان (١٩٣) وعرف الترك شراب العسل لكثرته فى بلادهم(١٩٤) .

وصور ابن فضلان(١٩٥) فى الرحلة العادات والتقاليد والحياة والأخلاق فى مختلف البلاد التى مر بها أو أقام فيها وكان دقيق الملاحظة .وأفاض فى عادات شعوب الترك فشرح حال الزواج ،والمهر ،وشروطه ،وأوضاع السكنى، والمأكل، والمشرب ،ووفاء الدين وحال المدين، والضيافة ،واستقبال الزائرين، والغرباء وهذا الوصف عز وجوده فى كتب الرحالة والجغرافيين العربية الأخرى التى اكتفى جلها بذكر قبائل الترك .(١٩٦)

ولا بأس أن تكون بعض هذه العادات سادة فى منطقة الدراسة.ومن الصعب القول أن هذا الوصف ينطبق على إقليم أسفيجاب .خشية من التعميم الذى يفسد خصوصية الدراسة.

وانفرد المقدسى(١٩٧) بوصف أهل أسفيجاب بقوله: «أنهم عاغة وفيهم سلامة وفى قلوبهم غلظة معجبون بمذهبهم وأنفسهم سواء اسيت أم حسنت إليهم أهل الرساتيق خير من أهل القصبة تراهم فيها سباعا وفى غيرها نعاجا».ونفتقر إلى المعطيات التاريخية الكافية لمناقشة أو الرد على وصف المقدسى .

وتأثر الترك الذين دخلوا فى الإسلام فى الأحتفال بالأعياد الإسلامية فقد أحتفلوا بعيد الأضحى يقول ابن الأثير(١٩٨): «وضحوا يوم الأضحى بعشرين ألف رأس غنم وكفى الله المسلمين شرهم».

٢ـ الفرس

دخل الفرس بلاد ما وراء النهر منذ زمن بعيد ،ودارت حروب طاحنة بين الفرس والترك تبادلا النصر والهزيمة كلا الطرفين.وعلى الرغم من التوتر الحربى بين الفرس والترك ،فقد ترك بعض المؤثرات الفارسية فى بلاد ما وراء النهر منها اللغة الفارسية والديانات .وساهم الفرس بدور كبير فى فتح بلاد ما وراء النهر(١٩٩).

وهذا يذكرنا بدور البربر فى فتح الأندلس ،ونعترف أن المصادر صمتت عن بعض المعلومات عن الوجود الفارسى فى أسفيجاب.

٢ـ العرب

بدأ العرب فى محاولات استقرارهم فى بلاد ما وراء النهر عندما وصل موسى بن عبدالله بن خازم إلى تلك المنطقة فى بخارى وسمرقند(٢٠٠) وزاد عدد العرب فى ولاية قتيبة بن مسلم عندما فتح بخارى عام (٩٠هـ) وقد لجا قتيبة إلى زيادة العرب فى مدينة بخارى ،وخورازم ،وفرغانة،والشاش(٢٠١) .

ومن الطبيعى أن بعض قبائل العرب نزحت إلى أسفيجاب للمرابطة والجهاد .غير أن المصادر ضيعت علينا تفاصيل أقسام تلك القبائل من عدنانية وقحطانية وفروعهما.فلم نجد لها وصفا فى كتب الأنساب التى اتيح لى الأطلاع عليها.

كما أستقر فى بعض مدن أسفيجاب بعض المهاجرين من شلجي بلدة من نواحى طراز الذين عدهم المقدسى(٢٠٢) بـ «عشرة آلاف اصفهاني».كما سكن فى أسفيجاب الرقيق الترك الذى وصف ب «خير رقيق يحيط بالمشرق كله» على حد قول الإصطخرى(٢٠٣)

يجلب من الشمال وكان الإقليم معبر هام لمرور هذا الرقيق إلى بلاد ما وراء النهر والبلدان الإسلامية الأخرى.

سادسا:الحياة الثقافية

وفى ميدان العلم برزت مكانة إقليم أسفيجاب بوضوح فى مختلف فروعه .فكانت ملاذاً لكثير من العلماء الذين خرجوا طواعية من بلاد ماوراء النهر الأخرى . ومن سائر العالم الإسلامى من أجل المرابطة والزود عن ديار الإسلام فى هذا الثغر النائى الذى يمثل أهم منطقة على الحدود الفاصلة بين المسلمين والترك.نذكر منهم على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ أبو القاسم عبدالله بن عجيف الفقيه الشومانى(٢٠٤) .وأبو محمد بن عبدالله بن محمد بن محمود بن عبيد السمرقندى (ت٣٤٣هـ/٩٥٤ ـ ٩٥٥م)(٢٠٥).

وأهتم امراء الدولة السامانية بالعلم اهتماماً كبيراً ويتجلى ذلك فى قول المقدسى(٢٠٦): «من رسوم السامانيين انهم لايكلفون اهل العلم تقبيل الأرض ولهم مجالس عشيات شهر رمضان للمناظرة بين يدي السلطان».وتحفل كتب الطبقات والتراجم بشواهد تبرز تقدير أمراء الدولة السامانية للعلماء والأدباء نذكر منها على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ موقف إسماعيل بن أحمد

الساماني من أهل العلم والعلماء(٢٠٧) وأيضا خروج الأمير نصر بن أحمد الساماني من سمرقند ليستقبل العالم أبا الهيثم خالد بن أحمد بن خالد الذهلي سنة (٢٦٤هـ /٨٧٧م) (٢٠٨).

ولم يقتصر تشجيع العلماء على أمراء الدولة السامانية ،وإنما امتد إلى أصحاب الجاه والنفوذ الذين كانوا ينفقون على العلماء ويبروهم مثل أبو محمد عبد السيد بن محمد بن عطاء النسفي الوسيجي الملقب بسعد(٢٠٩).

أما عن أماكن نور العلم في أسفيجاب يأتي في مقدمتها المسجد الذي يمثل مركزاً ثقافيا لشرح تعاليم الإسلام(٢١٠) .وعلى الأخص في هذه المنطقة النائية عن دار الخلافة والتي يتكلم أهلها باللسان التركي .ومما يبرهن على أهمية المسجد هناك كثرتها في ربوع الأقليم نذكر منها على سبيل المثال مساجد فاراب(٢١١)، وطراز(٢١٢)، وسبانيكث(٢١٣)، ووسيج(٢١٤)، وشاوغر وسوران، وبلاج، وبروخ(٢١٥).

كما كانت الأربطة من مؤسسات العلم في أسفيجاب ،كما هو الحال في أرجاء العالم الإسلامي فهي أماكن للمرابطة وملازمة الثغر لحراسة الحدود الإسلامية، وتقوم بدورها في ميدان العلم (٢١٦). ولاغرو ان تأثيرها كان قويا بين الجنود المرابطين في هذه الرباطات؛ فقد كانوا يتدرسون القرآن الكريم، والحديث، والفقه، والعلوم الأخرى(٢١٧).

وحفل اقليم أسفيجاب بنخبة هائلة من العلماء في مختلف فروع العلم. ففي علم اللغة برز إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت ٣٥٠هـ /٩٦١م) مصنف كتاب «ديوان الأدب في اللغة» وهو أول معجم عربي مرتب حسب الأبجدية والذي كتب لاحد الأمراء السامانيين، ووضع الفارابي كتابه على ستة (٢١٨) أقسام الأول :السالم والثاني :المضاعف والثالث :المثال وهو ماكان في أوله واو أوياء والرابع ذوات الثلاثة وهو ماكان في وسطه حرف من حروف العلة .والخامس ذوات الأربع وهو ماكان آخره حرف علة .والسادس الهمزة .وكل قسم من هذه الأقسام الستة أسماء وافعال يورد الأسماء أولاً ثم الافعال بعدها .كما ألف الفارابي أيضا كتاب بيان الأعراب ،وكتاب شرح أدب الكاتب (٢١٩).

ونبغ في علم اللغة إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م) وهو ابن أخت إسحاق بن إبراهيم الفارابي، وإسماعيل من مدينة فاراب تميز بالذكاء والفطنة وبرع في علم اللغة والأدب، رحل إلى العراق وتتلمذ على أبي على الفارسي ،وأبي سعيد السيرافي ،وسافر إلى الحجاز وطوف ببلاد قبيلتي ربيعة ومضر، ثم قفل عائداً إلى خراسان، ونزل بالدمغان عند واحد من أعيان الكتاب هو أبو على الحسين بن على وسمع منه .ولم يلبث أن رحل ا إلى نيسابور وعكف على التدريس والتأليف وتعلم الخط وكتابة المصاحف والدفاتر(٢٢٠).

ومن أشهر مؤلفاته كتاب «الصحاح في اللغة»(٢٢١) الذي امتدحه أبو محمد إسماعيل بن محمد النيسابوري، الذي حاز على نسخة منه بخط الجوهري

هذا كتاب الصحاح سيد ما ... صنف قبل الصحاح في الأدب
يشمل أنواعه ويجمع ما ... فرق في غيره من الكتب (٢٢٢)

وقد بنى الجوهرى معجمه على حروف الهجاء عند ترتيب الفصول، وهو أول معجم رتبت مادته اللغوية من أولها إلى آخرها بحسب الأصل الأخير للكلمة مع مراعاة الأصل الأول أيضا .وقد تميز «الصحاح فى اللغة» بمراعاة الحرف الأخير فى الترتيب العام، وهذا النظام يسعف الأدباء والشعراء فى الحصول على مجموعة من الكلمات ذات القافية الواحدة عند ممارستهم الكتابة المسجوعة، وفى تعلم القصائد الطوال .كما تميز الكتاب بمراعاة الترتيب أيضا فى اوائل الكلمات، بحيث تأتى هى الأخرى مرتبة أبجديا ،والاهتمام بضبط الحروف كان من سمات الكتاب(٢٢٣) ومن مزايا كتاب «الصحاح» إشارته إلى الضعيف والمنكر والمتروك والردىء والمذموم من اللغات .وبين الكلمات المعربة وأشار إلى أسانيدها ،كما أشار إلى المولد وتفرد بذكر كثير من مسائل النحو والصرف وعنى بفقه اللغة المتصل باختلاف دلالات الألفاظ وتغيرها، ونبه إلى المشترك وهو مااتفق لفظه واختلف معناه (٢٢٤) ومن مصنفات الجوهرى الأخرى كتاب «فى العروض سماه عروض الورقة» وكتاب «المقدمة فى النحو»(٢٢٥).

ومن علماء اللغة يحيى بن أحمد أبو زكريا الفارابى صاحب كتاب «المصادر فى اللغة» وتتلمذ على يديه جماعة من العلماء من أهل فاراب وماوراء النهر، وروى الحديث عن أبى عبدالرحمن عبدالله بن عبيدالله بن شريح البخارى والحسن بن منصور (٢٢٦).

وفى علم الحديث (٢٢٧) برز بعض العلماء من أهل أسفيجاب أو ممن رحل إليها نذكر منهم : أبو الوليد أبان بن نشهل البصرى الذى دخل سمرقند وخرج منها غازياً إلى اسفيجاب وتوفى بها(٢٢٨).وأبو على الحسن بن منصور بن عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن أحمد الإسفيجابى (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠ ـ ٩٩١م) من طلبة العلم فى الحديث وانتقده بشدة أبو سعد الإدريسى بقوله: «كان الحسن بن منصور هذا راغبا فى طلب الحديث، كتب الكثير، وقيل أنه يزيد فى الرقم ويسرق الحديث ويحدث عمن لم يراهم .وكان يروى عن ظفر بن الليث الإسفيجابى مجاهد بن أعين الفرغانى من أهل العراق وخراسان»(٢٢٩).

ويعد أبو نصر محمد بن طرخان الفارابى (ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠ ـ٩٥١م) من ابرز علماء أسفيجاب الذين ضربوا بسهم وافر فى الحضارة الإسلامية فى مختلف ميادين العلم فهو فيلسوف، وفلكى، ورياضى، وطبيب، ومؤرخ مشهور، وأعظم فلاسفة المسلمين(٢٣٠). وامتدحه ابن أبى أصيبعة (٢٣١): «كان فيلسوفا كاملاً، وإماماً حافظاً قد أتقن العلوم الحكيمة، وبرع فى العلوم الرياضية زكى النفس، قوى الذكاء». ومن أشهر مؤلفات الفارابى: شرح كتاب المجسطى لبطليموس، وشرح كتاب البرهان لارسطوطاليس، وشرح كتاب الخطابة لارسطوطاليس حيث شرح المقالة الثانية والثامنة من كتاب الجدل لارسطوطاليس. وله كتاب فى السياسات المدنية ويعرف بمبادىء الموجودات .وكتاب فى الخطابة كبير يقع فى عشرين مجلداً، وكتاب فى التأثيرات العلوية (٢٣٢). كما كتب مقالاً عن حركة الفلك بالإضافة إلى كتب «الجمع بين الحكمين» وأراء أهل المدينة الفاضلة وغيرها كالموسيقى وتصنيف العلوم وساعدت معرفته للغة التركية والفارسية والإغريقية والسريانية إطلاعه على مصادر معرفية متنوعة.(٢٣٣)

وقال البيهقى(٢٣٤): «وقد رأيت فى خزانة كتب نقيب النقباء بالرى من تصانيفه مالم يقرع سمعى اسمه واكثر مارأيته كان بخطه وخط تلميذه أبي زكريا يحيى بن عدي».

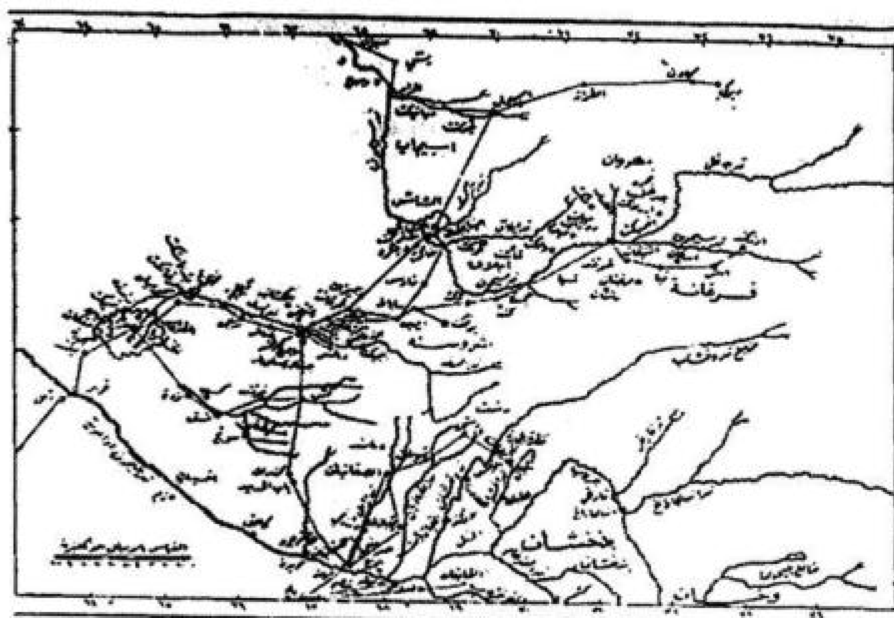
وكان محمد بن طرخان الفارابى المعلم الثانى، ولم يكن قبله أفضل منه فى حكماء الإسلام وتتلمذ عليه ابن سينا(٢٣٥).

الخاتمة

أثبتت الدراسة أن إقليم أسفيجاب ومدنه الثغرية من أهم ثغور الإسلام قاطبة .حيث يقع فى مواجهة خصم عنيد حرفته الأولى فن القتال ، ونجحت الدولة الإسلامية وأمرائها فى خراسان وبلاد ما وراء النهر فى التعامل مع الترك بإتباع سياسة الحرب واللين معا. كما اهتمت بحماية أسفيجاب وتحصينها .فتم أعفاء أهلها من ضريبة الخراج؛ كى يستفيدوا منه فى تجهيز السلاح والعدة .

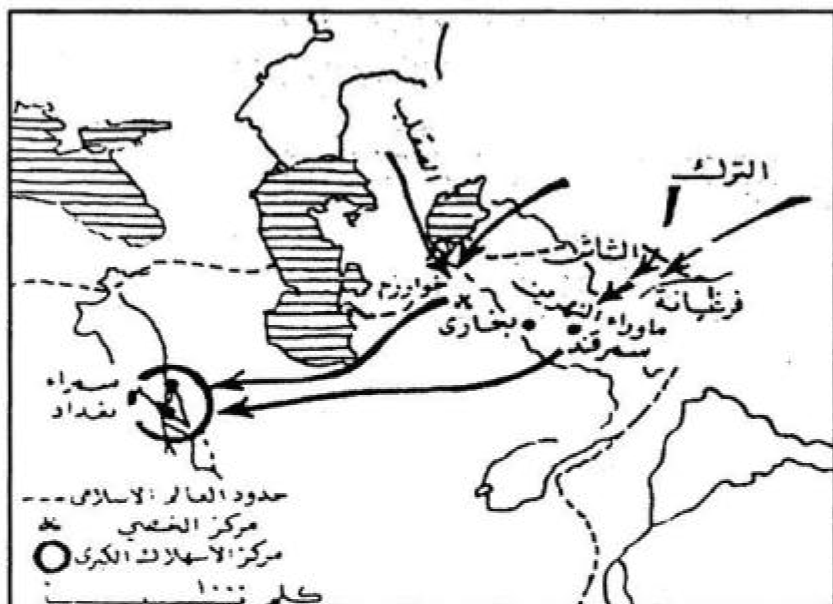
وأظهرت الدراسة أهمية أسفيجاب فى النشاط الأقتصادى حيث تقع بين بيئتين الأولى زراعية .والثانية صحراوية .وهذا الوضع الجغرافي يحتم ضرورة التبادل بين المنتجات أمرا لاغني عنه ، مها اختلفت العرقيات والديانات.ولقد هيأ هذا الوضع فرصة طيبة للمسلمين للاختلاط بالترك عن قرب ؛ لعقد المعاهدات التجارية ، وشرح مبادىء الإسلام .وبرز هنا دور التجار المسلمين الذين حملوا مشاعل الدعوة الإسلامية وفى جهات أخرى من العالم .

ولقد انخرط أهل أسفيجاب فى الحياة الإسلامية ؛ فبنيت المساجد فى سائر مدن الأقليم وعمرت المدن بالأسواق وظهرت ملامح الحياة الإسلامية والتأثير الإسلامي بوضوح.وخرج من الأقليم نخبة بارزة من العلماء فى مختلف فروع العلم كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية .ولم يقتصر الأمر عند حد التأليف بالعربية وإنما وضع بعض العلماء معاجم هامة فى علم اللغة من أشهرها كتاب الصحاح فى اللغة للجوهرى.



خريطة: بلاد ماوراء النهر

المصدر لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية خريطة رقم (٩)



خريطة التجارة فى الرقيق التركى

موريس لومبار :الإسلام فى مجده الأول ،ص٢٩٧.

الهوامش

(١) أسفيجاب بكسر الألف وسكون السين وكسر الفاء، وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها وفتح الجيم وفي آخرها الباء المنقوطة: السمعاني: الأنساب، الجزء الأول، تحقيق / عبد الله عمر البارودي، الطبعة الأولى، دار الجنان، بيروت ١٩٨٨م، ص ١٠٢؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، الجزء الأول، دار صادر، بيروت ١٩٨٠م، ص ٥٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الرابع، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٨م، ص ٤٤١. «إسفيجاب». حدث خلاف بين الرحالة والجغرافيين وعلماء اللغة حول قراءة أسفيجاب. فقد وردت «اسبيثاب» عند اليعقوبي: البلدان، ليدن ١٨٩٣م، ص٣١٥. وذكرها قدامة بن جعفر «اسبياب»... وأسبيشاب» قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتاب، شرح وتحقيق / محمد حسن الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١م، ص ٤٠٩. ووردت كلمة «أسفيجاب» عند كل من:

السمعاني: المصدر السابق، جـ١، ص ١٠٢. ياقوت: معجم البلدان، الجزء الأول، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ١٧٩؛ القلقشندي: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٤١؛ بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية / صلاح الدين عثمان، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١م، ص ٢٩٠؛ علي اكبر داهخدا: لغة نامة، جلد دوم تحقيق / محمد معين وسيد جعفر، تهران ١٣٧٢هـ، ص ١٩٦٦. وذكر أيضا في (ص ١٧٦٠) أسبيجاب اسم مدينة فيما وراء النهر تسمى بالتركية شبران وهو نفس الاسم التركي الذي عرفت به أسفيجاب.

وانظر أيضا: إبراهيم الدسوقي شتا: المعجم الفارسي الكبير، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٩١. وذكر أيضا في (ص١٠٢) أسفيجاب اسم بلدة في تركستان. ومن الملاحظ في حروف الهجاء الفارسية أن الباء المثلثة في بعض الأحيان تقلب «فاء».

(٢) وردت كلمة «أسبيجاب» عند: الإصطخري: المسالك والممالك، ليدن ١٩٢٧م، ص ٣٣٣؛ ابن حوقل: صورة الأرض، الطبعة الثانية، ليدن ١٩٣٨م، ص ٥١٠؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩١م، ص٧٢. كما ووردت عند صاحب حدود العالم «إسبيجاب»

– مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق / يوسف الهادي، الطبعة الأولى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٩١.

وذكرت أيضا «أسبيجاب» دون الهمزة انظر: الأدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت)، ص ٧٠٤؛ الذهبي: سير اعلام النبلاء، الجزء السادس عشر، تحقيق / اكرم البوشي، الطبعة الحادية عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٦م، ص ١٣٢؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ٧٠٤؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه / إحسان عباس، بيروت (د.ت)، ص ٥٦؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة / كوركيس عواد، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٥م، ص ٥٢٧.

واسبيجاب هو الاسم التركي وأسفيجاب هو الاسم العربي؛ لأن اللغة التركية ليس فيها فاء.

القلقشندي: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٤١.

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص ٤٩٥؛ القلقشندي : مصدر سابق، جـ٤، ص٤٤١.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١، ص٥٦؛ أبو الفداء : المصدر السابق، ص ٤٩٥؛ القلقشندي : مصدر سابق، جـ٤، ص ٤٤١؛ السيوطي : لب اللباب في تحرير الأنساب، الجزء الأول، تحقيق / محمد أحمد عبد العزيز وآخرون، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م، ص ٥٦.

(٥) مجهول : حدود العالم، ص ٩١.

(٦) اليعقوبي : المصدر السابق، ص ٢٩٥.

(٧) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(٨) المسالك والممالك، ص ٣٣٣؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٥١٠؛ ياقوت : المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٩؛ علي اكبر دهخدا : مرجع سابق، جـ٢، ص ١٩٦٦.

(٩) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٩.

(١٠) تقع بلاد الغز بين الخزر والكيماك. (ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، الطبعة الثانية، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة (د.ت، ص ٨) والغزطائفة من التركمان عاشوا في بلاد ما وراء النهر واعتنقوا الإسلام. (أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٥م، ص ١٣٥) وهم قبائل رحل يعيشون في بيوت شعر. (ابن فضلان : رسالة ابن فضلان، حققها وعلق عليها / سامي الدهان، الطبعة الثانية، دمشق ١٩٧٨م، ص ١٢٢).

(١١) يحد بلاد التغزغز من الشرق بلاد الصين ومن الجنوب بلاد التبت والخلخ ومن الغرب والشمال بلاد الخرخيز. وكان الخرخيز قديما من التغزغز والتغزغز قبائل رحل ينتقلون من مكان لآخر بحثا عن العشب والكلأ. ويربون الأغنام، والبقر، والخيول. (مجهول: حدود العالم، ص ٦١-٦٢).

(١٢) تقع بلاد الخرلخية شمالي بلاد التبت وغربي بلاد التغزغز وبها أمم عظيمة من الترك وأعظم مدنهم تسمى خاقان الخرلخية وهي مدينة حصينة. (ابن الوردي : المصدر السابق، ص٨٩)

(١٣) الكيماك قبائل كثيرة يعيشون في الخيام ويتنقلون بحثا عن العشب والكلأ والماء صيفا وشتاء وتجارتهم السمور والأغنام وطعامهم في الصيف الحليب وفي الشتاء اللحم القديد. وملك الكيماك يدعى خاقان. ويحد بلاد الكيماك من الشرق قسم من بلاد الخرخيز، وجنوبها نهر أرقش وأتل وإلى غربها بلاد الخفجاخ (مجهول : حدود العالم، ص ٦٨).

(١٤) مجهول : حدود العالم، ص ٩١.

(١٥) معجم البلدان، جـ١ ، ص ١٧٩.

(١٦) تقويم البلدان، ص ٤٩٥.

(١٧) بارتولد : تركستان ، ص٢٩٢. محمد على البار : المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر العصور، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الشروق، جدة ١٩٨٣م، ص ٤٩٨.

(١٨) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٦٠-٢٦١.

(١٩) المسالك والممالك ، ص ٢٩٥.

(٢٠) صورة الأرض ، ص ٤٧٤.

(٢١) نزهة المشتاق ، جـ٢، ص ٧٠٩.

(٢٢) أبوالفداء : المصدر السابق، ص ٤٨٧- ٤٩٥.

(٢٣) لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٢٧؛ محمود شيت خطاب : بلاد ما وراء النهر، سلسلة فتوح البلدان الإسلامية، الطبعة الرابعة، دار قتيبة، دمشق ١٩٩٠م، ص ٥٦.

(٢٤) لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٢٧.

(٢٥) بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٠؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٢٧.

(٢٦) الإصطخري: المصدر السابق، ص ٣٣٣؛ أبو الفداء : المصدر السابق، ص ٤٩٥.

(٢٧) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١٠؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٢٨) محمد على البار: المرجع السابق، جـ٢، ص ٥١٣.

(٢٩) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١٠؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩١؛ لسترنج: المرجع السابق، ص ٥٢٧؛ محمد على البار : مرجع سابق، جـ٢، ص ٤٩٧؛ محمود شيت خطاب: المرجع السابق، ص ٥٦؛ قحطان عبد الستار الحديثي: ارباع خراسان الشهيرة، جامعة الموصل (د.ت)، ص ٥٢٤.

(٣٠) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة / أحمد السعيد سليمان، سلسلة الألف كتاب الثاني رقم (٢٣٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٥٥.

(٣١) تقع فاراب حاليا بجمهورية قازاخستان؛ محمد على البار : المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٩٧. وفاراب بفتح الفاء والراء المهملة بين ألفين وفي آخرها باء موحدة. أبو الفداء: المصدر السابق، ص ٤٩٣؛ القلقشندي: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٤٠.

(٣٢) لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(٣٣) ياقوت: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٢٥؛ على اكبر دهخدا : المرجع السابق، جـ١٠، ص١٤٩٢٥.

(٣٤) بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٢؛ محمود شيت خطاب: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣٥) المقدسي . المصدر السابق، ص ٢٧٣؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٢؛ لسترنج: المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(٣٦) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١١؛ الإدريسي : المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٠٥.

ياقوت : المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٢٥؛ القزويني : المصدر السابق، ص ٦٠٣.

ابو الفداء : المصدر السابق، ص ٤٩٣؛ القلقشندي : مرجع سابق، جـ٤، ص ٤٤٠.

(٣٧) يتشكك بارتولد في كدر هذه هل هي مدينة اترار أو فاراب المتأخرة. بارتولد: مرجع سابق، ص ٢٩٢-٢٩٣. واطرار مدينة على حدود الترك على بئر سيحون قرب فاراب والبعض يطلق عليها أترار. ياقوت : مصدر سابق: جـ١، ص ٢١٨.

(٣٨) الإصطخري : المصدر السابق، ص ٣٤٦.

(٣٩)ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١٠.

(٤٠) المقدسي : المصدر السابق، ص ٣٧٣؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٢؛ لسترنج: المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(٤١) مجهول : حدود العالم، ص ٩١؛ على اكبر دهخدا : المرجع السابق، جـ١٠، ص ٤٦٤٢.

(٤٢) المسالك والممالك، ص ٣١.

(٤٣) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١١.

(٤٤) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٦٢؛ أبو الفداء : المصدر السابق، ص ٤٩٦.

(٤٥) السمعاني :المصدر السابق، جـ٣، ص ٢٦٠؛ القلقشندي: المصدر السابق، جـ٤، ص٤٤١.

(٤٦) الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطرسبرج ١٨٦٥م، ص ٢٢١.

على اكبر دهخدا : المرجع السابق، جـ٩، ص ١٣٥٨٤.

(٤٧) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١١؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٣٠.

(٤٨) الأدريسي : المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٠٥.

(٤٩) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٧٤؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٣٠.

(٥٠) القزويني : المصدر السابق، ص ٥٤٤؛ على اكبر دهخدا: المرجع السابق، جـ٥، ص ٥٧٥٥.

محمد على حيدر: الدويلات الإسلامية في الشرق، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٤م، ص ١٨٧.

(٥١) الإدريسي : المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٠٥؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ص ٤٩٧؛ محمود شيت خطاب : المرجع السابق، ص ٥٩.

(٥٢) السمعاني : المصدر السابق، جـ١، ص ٣٠٧.

(٥٣) ياقوت : المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٨.

(٥٤) أحسن التقاسيم، ص ٢٧٥.

(٥٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٧٤؛ بارتولد : مرجع سابق، ص ٢٩٤.

(٥٦) بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٥٧) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٤؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٥٨) ياقوت : المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٩١.

(٥٩) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٤؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٣؛ لسترنج: المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(٦٠) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١١؛ الإدريسي : المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٠٥؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٢٩؛ محمود شيت خطاب : المرجع السابق، ص ٥٨.

(٦١) محمد على البار : المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٩٨.

(٦٢) ابو الفداء : المصدر السابق، ص ٤٩٧.

(٦٣) ابن حوقل :المصدر السابق، ص ٥١٠.

(٦٤) بارتولد : تركستان ، ص ٢٩٢.

(٦٥) مجهول : حدود العالم، ص ٩١.

(٦٦) أطلق صاحب حدود العالم، ص ٩١ على هؤلاء الترك الأشية. انظر أيضا الإدريسي : مصدر سابق، جـ٢، ص ٧٠٥.

(٦٧) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١١؛ بارتولد : تركستان، ص ٢٩٣.

(٦٨) مجهول : حدود العالم، ص ٦٧.

(٦٩) سورة ال عمران : (الآية ٢٠٠).

(٧٠) سورة الأنفال : (الآية ٦٠).

(٧١) موريس لومبار :الإسلام في مجده الأول،ترجمة/ إسماعيل العربي ،منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م، ص٦٦.

(٧٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت) ص ٤١٤ – ٥٤.

(٧٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، الجزء الرابع، الطبعة السابعة، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٤٣٧.

(٧٤) عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، الطبعة الأولى، رياض الصالحين، الفيوم ١٩٩٤م، ص ١٧٢.

(٧٥) المسالك والممالك، ص ٢٩٠.

(٧٦) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٣؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٧٧) بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٧٨) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٢–٢٧٣.

(٧٩) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(٨٠) نفسه، ص ٢٧٤.

(٨١) نفسه، ص ٢٧٥؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٣٠.

(٨٢) محمود شاكر : تركستان الصينية (الشرقية) مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩م، ص ٩-١٠.

(٨٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، الجزء الأول، الطبعة الثامنة، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٧٩-١٨١.

(٨٤) محمد عبد الهادى شعيرة: الممالك الحليفة أو ممالك ما وراء النهر والدولة الإسلامية إلى أيام المعتصم، مجلة كلية الآداب - جامعة الملك فاروق الأول، المجلد الرابع، ١٩٤٨م، ص ٤٠.

(٨٥) البلاذري: فتوح البلدان، الجزء الثالث، تحقيق / صلاح الدين المنجد، النهضة المصرية، القاهرة (د.ت)، ص ٥٠٦.

(٨٦) البلاذري: المصدر السابق، جـ٣، ص ٥٠٧؛ الطبري: تاريخ الطبري، الجزء الخامس، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ الكرديزي: زين الاخبار، ترجمة / عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٨٢م، ص ١٧٢.

(٨٧) البلاذري : المصدر السابق، جـ٣، ص ٥٠٧-٥٠٨؛ الكرديزي : المصدر السابق، ص ١٧٣.

Gibb : The Arab Conquests in Central Asia, London, 1933, p.20.

(٨٨) البلاذري: المصدر السابق، جـ٣، ص ٥١٠.

شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول الهجرى، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٥٢م ص ١٥٢.

(٨٩) الكرديرى : المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٩٠) البلاذري : المصدر السابق، جـ٣، ص ٥١٣-٥١٤.

(٩١) البلاذري : مصدر سابق، جـ٣، ص ٥١٦-٥١٧.

- Frye : The Heritage of Persia, London, 1969, p. 246.

- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م، ص ١٠٥-١٠٩.

(٩٢) حسن أحمد محمود : الإسلام فى آسيا الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٤٨.

(٩٣) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية، ترجمة / محمد عبد الهادى أبو ريدة، مراجعة / حسين مؤنس، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٤١٤.

(٩٤) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق / أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية،

مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧م، ص ٣٠٠. Frye : op. cit., p. 246.

(٩٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق، ص ٣٠٧؛ الطبرى : المصدر السابق، جـ٦، ص ٤٩٢؛ ابن الأثير : المصدر السابق، جـ٤، ص١٣٢.

(٩٦) فتوح البلدان ، جـ٣، ص ٥١٩؛ قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ٤٠٩.

Denis sinor:The Cambridge History of early Inner Asia Cambridge Universty Press,1990, p.352.
Frye : The Golden Age of Persia, London, p.82., Hakkiand and Yildiz: The Turks Adoption A of Islam History of Turkish-Islamic States. translated By Hmet ,Ankara,1994, p.36.

(٩٧) محمد عبد الهادي شعيرة : المرجع السابق، ص ٣٩.

(٩٨) محمد عبد الهادي شعيرة : المرجع السابق، ص ٦٣.

(٩٩) قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ٤١٢.

(١٠٠) نفسه، ص ٤١٣.

(١٠١) محمد عبد العظيم أبو النصر: تاريخ المسلمين وحضارتهم فى آسيا الوسطى، مطبعة الأهرام ههيا (محافظة الشرقية) ٢٠٠١م، ص ٧٣-٧٤.

(١٠٢) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ٣، ص ٥١٩.

(١٠٣) البلاذرى : المصدر السابق، جـ٣، ص ٥١٩؛ قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ٤٠٩؛ ابن الأثير : المصدر السابق، جـ٥، ص٢٥٩.

(١٠٤) بارتولد : تركستان، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(١٠٥) محمد على حيدر : المرجع السابق، ص ١٢٢.

(١٠٦) النرشخى : تاريخ بخارى، ترجمة / أمين عبد المجيد بدوى وآخرين، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة (د.ت) ص ١٢٣؛ سعيد نفيسي: أحوال وأشعار رودكى، المجلد الأول، طهران ١٩٣٠م، ص ٣٦٠؛ برتولد اشبولر: تاريخ إيران در قرون تحسين إسلامى، المجلد الثانى، الطبعة الأولى، ترجمة / مريم مير أحمدى، شركة انتشارات علمى وفرهنكى، تهران ١٩٩٠مي، ص ٦٤.

- Hakk iand and Yildiz : op.cit., p. 36.

(١٠٧) ابن الأثير : مصدر سابق، جـ٦، ص ١٠٩.

- النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، الجزء الخامس والعشرون، تحقيق م محمد على البجاوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣٣٧.

(١٠٨) بارتولد : المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(١٠٩) بارتولد : المرجع السابق، ص ٣٩٣.

(١١٠) بارتولد : المرجع السابق، ص ٣٩٣.

(١١١) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ٦، ص ١١٥.

(١١٢) سعيد نفيسي : المرجع السابق، جـ١، ص ٣٣٣-٣٣٥.

(١١٣) ابن الزبير: كتاب الذخائر والتحف، تقديم ومراجعة/ صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، الكويت ١٩٨٤م، ص ١٤٠-١٤١.

– إحسان ذنون الثامري : الحياة العلمية زمن السامانيين، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠١م، ص ١٥.

(١١٤) بارتولد : تركستان، ص ٣٦٣.

(١١٥) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ٦، ص ١٧٠.

(١١٦) قحطان عبدالستار الحديثي :دراسات في التنظيمات الأقتصادية لخراسان أولاً : الزراعة، مجلة الخليج العربي السنة ١٥ المجلد ١٩ العدد ١جامعة البصرة١٩٨٧م، ص٦٦ ـ ٦٧.

(١١٧) صورة الأرض، ص ٥١٠.

(١١٨) الروض المعطار، ص ٥٦.

(١١٩) الإدريسي :المصدر السابق، ج٢، ص ٧٠٥.

(١٢١) معجم البلدان، جـ١، ص ١٧٩.

(١٢٢) أحسن التقاسيم، ص ٢٧٣.

(١٢٣) نفسه ، ص ٢٧٥.

(١٢٤) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(١٢٥) الإدريسي : المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٠٥.

(١٢٦) المقدسي : المصدر سابق، ص ٢٤٧.

(١٢٧) نفسه ، ص ٢٧٥.

(١٢٨) نفسه، ص ٢٧٥.

(١٢٩) قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص١٠٠ ـ ١٠١.

(١٣٠) قحطان عبد الستار الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية لخراسان في القرن الرابع الهجري الصناعة – مجلة المؤرخ العربي، المجلد التاسع عشر، العدد ٣ لسنة ١٩٨٧م، ص ١٢١.

(١٣١) نفسه، ص ١٣٠.

(١٣٢) المقدسي ،ص٣٢٥ .محمود شيت خطاب : المرجع السابق، ص ٦٠.

(١٣٣) مجهول : حدود العالم، ص ٩١.

(١٣٤) موريس لومبار: المرجع السابق، ص٦٥.

(١٣٥) السمعاني: المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٠.

(١٣٦) مجهول :حدود العالم ، ص ٩١.

(١٣٧) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١١؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٣٠؛ محمود شيت خطاب : المرجع السابق، ص ٥٩.

(١٣٨) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ٥١١؛ ياقوت :المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٩١.

(١٣٩) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٤؛ ياقوت: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٤٢؛ بارتولد: مرجع سابق، ص ٢٩٣؛ لسترنج : مرجع سابق، ص ٥٢٩؛ على أكبر دهخدا : مرجع سابق، جـ٩، ص ١٣٠٩٨.

(١٤٠) مجهول : حدود العالم، ص ٦٧.

(١٤١) المسالك والممالك، ص ٣٣٣.

(١٤٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٧٣. بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩١؛ لسترنج : مرجع سابق، ص ٥٢٧.

(١٤٣) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(١٤٤) نفسه ، ص ٢٧٤.

(١٤٥) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٣؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(١٤٦) نفسه، ص ٢٧٤؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(١٤٧) نفسه، ص ٢٧٥.

(١٤٨) نفسه ، ص ٢٧٣.

(١٤٩) نفسه ، ص ٢٧٤؛ بارتولد : المرجع السابق، ص ٢٩٣؛ لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(١٥٠) نفسه ، ص ٢٧٥.

(١٥١) نفسه ، ص٢٧٤.

(١٥٢) نفسه ، ص ٢٧٣.

(١٥٣) نفسه ،ص٢٧٢

(١٥٤) المقدسي : المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(١٥٥) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة / حمزة طاهر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٦٧.

(١٥٦) زامين بلدة بنواحي سمرقند من أعمال اشروسنه وهي على طريق فرغانة إلى الصغد. وبها ماء جار وبساتين وكروم ومزارع. أبو الفداء : مصدر سابق، ص ٤٩٣.

(١٥٧) الادريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، ص ٧٠١.

(١٥٨) لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٣١.

(١٥٩) ابن خردانبه : المسالك والممالك، ليدن ١٩٣٨م، ص ٢٧. قارن قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠١.

(١٦٠) نفسه ، ص٢٧

(١٦١) وردت بذخكت عند الإدريسي : المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٠٨.

(١٦٢) ابن خردانبه :المصدر السابق، ص ٣٨. قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠١.

(١٦٣) نفسه ، ص ٣٨.

(١٦٤) ابن خردانبة : المصدر السابق، ص ٣٩؛ قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ١٠١.

(١٦٥) الإدريسي : المصدر السابق، ص ٧٠٩.

(١٦٦) ابن خردانبة : المصدر السابق، ص ٣٨.

(١٦٧) نفسه، ص ٣٨. قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ١٠١.

(١٦٨) نزاهة المشتاق، جـ٢، ص٧١٤.

(١٦٩) قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ١٠١.

(١٧٠) المسالك والممالك ، ص ٣٩.

(١٧١) نزهة المشتاق، جـ٢، ص ٧١٤.

(١٧٢) قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص١٠١.

(١٧٣) نزهة المشتاق ، جـ٢ ، ص٧١٤.

(١٧٤) قدامة بن جعفر : المصدر السابق، ص ١٠١.

(١٧٥) ابن خردانبه : المصدر السابق، ص ٣٨؛ الأدريسي: المصدر السابق، جـ٢، ص ٧١٤.

(١٧٦) نفسه، ص ٣٩.

(١٧٧) الإدريسي : المصدر السابق، جـ٢، ص ٧١٥.

(١٧٨) ابن خردانبه : المصدر السابق، ص ٣٩.

(١٧٩) نفسه ، ص ٣٩؛ الإدريسي :المصدر السابق، جـ٢، ص ٧١٥.

(١٨٠) لسترنج : المرجع السابق، ص ٥٣١.

(١٨١) المسالك والممالك، ص ٢٨٨.

(١٨٢) صورة الأرض، ص ٤٦٥.

(١٨٣) توفيق عامر : الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق، جـ٢، تونس ١٩٩٦م، ص ٤٧٧-٤٧٨.

(١٨٤) توفيق بن عامر: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ٣٨٩.

(١٨٥) مجهول : حدود العالم، ص ٩١.

(١٨٦) بارتولد : تركستان، ص ٣٦٥-٣٦٦.

- محمد حسن عبد الكريم الغمادي : خراسان في العصر الغزنوي ، الأردن، ص ١٤٩.

(١٨٧) محمود شيت خطاب : المرجع السابق، ص ٦٠.

(١٨٨) مجهول : حدود العالم، ص ٩١.

(١٨٩) حسن التقاسيم ، ص٣٣٩.

(١٩٠) سعد زغلول عبد الحميد :الإسلام والترك في العصر الإسلامي الوسيط،المختار من مجلة عالم الفكر (١)دراسات إسلامية، الكويت١٩٨٤م، ص١٤٧.

(١٩١) اليعقوبي : المصدر السابق، ص٢٩٥.

(١٩٢) المسالك والممالك، ص. أحمد فؤاد سيد:الإسلام والثقافة العربية في بلاد ماوراء النهر الإسلامية آسياوالقوقاز، دار الغد العربي ، القاهرة١٩٩٦م، ص٤٨.

(١٩٢) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق، ص١٩٣

(١٩٣) اليعقوبي: المصدر السابق، ص٢٩٥.

(١٩٤) سعد زغلول عبدالحميد: المرجع السابق، ص١٩٤

(١٩٥) رحلة ابن فضلان، ص٤٢.

(١٩٦)اليعقوبي: المصدر السابق، ص٢٩٥.

(١٩٧) أحسن التقاسيم، ص٢٧٣.

(١٩٨) الكامل في التاريخ، ج٨، ص٣٨ - ٣٩.

(١٩٩) محمد أحمد محمد جوده :الحياة الأقتصادية والاجتماعية في بلاد ماوراء النهر من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة السامانية ،رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية الآداب جامعة عين شمس٢٠٠٤م، ص١٦٧.

(٢٠٠)البلاذري ،المصدر السابق، ج٣، ص٥١٠.

(٢٠١) .البلاذري ،المصدر السابق، ج٣، ص٥١٠.

(٢٠٢) أحسن التقاسيم، ص٢٧٥.

٢٠٣) المسالك والممالك، ص٢٨٨

(٢٠٤) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، تحقيق/ يوسف الهادي ، الطبعة الأولى، تهران ١٩٩٩م، ص٣٠١.

(٢٠٥) نفسه، ص٣٢٠.

(٢٠٦) عبدالله رازي: تاريخ كامل ايران از تأسيس مادتا انقراض قاجاريه، الطبعة العاشرة، دار شر اقبال، طهران ١٣٧٢هـ . ش، ص١٧٥.

ـ البناكتي : تاريخ بناكتي روضة اولى الالباب فى معرفة التواريخ والأنساب ، تصحيح/ جعفر شعار ، سلسلة انتشارات انجمن آثار على ، تهران ١٣٣٨هـ .ش ، ص٢١٨ .

(٢٠٧) ياقوت : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٧١ .

(٢٠٨) أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة١٩٧٧م ، ص١٠٢ .

(٢٠٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص٢٧٣ .

(٢١٠) نفسه ، ص٢٧٤ .

(٢١٢) بارتولد: تركستان ، ص٢٩٢ .

(٢١٣) المقدسى : المصدر السابق ، ص٢٧٣ .

(٢١٤) نفسه ، ص٢٧٤ .

(٢١٥) إحسان ذنون الثامري: المرجع السابق ، ص٦٣ ـ ٦٤ .

(٢١٦) عبدالبارى محمد الطاهر : المرجع السابق ، ص١٧٣ .

(٢١٧) ذكر حاجى خليفة أن الكتاب على خمسة أقسام الأول فى الأسماء والثانى فى الأفعال والثالث فى الحروف والرابع فى تصريف الأسماء والخامس فى تصريف الأفعال .

– حاجى خليفة :كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، المجلد الأول ، دار الفكر ، المكتبة الفيصلية ، مكة (د ـ ت) ص٧٧٥ .

(٢١٨) ياقوت : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٥٩ .

(٢١٩) الثعالبى : يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، الجزء الرابع شرح وتحقيق/مضير محمد قميحة ، الطبعة الأولى ، بيروت١٩٨٣م ، ص٤٦٨ .

ـ ياقوت : معجم الأدباء ، الجزء الثانى ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ـ ت) ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

– السيوطى بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، دار الفكر بيروت١٩٧٩م ، ص٤٤٦ .

(٢٢٠) حقق هذا الكتاب الاستاذ أحمد عبدالغفور عطار على نفقة السيد عباس الشربتلى فى ستة أجزاء وخرجت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢م . كما قام بنشرهذا الكتاب أيضا فى جزئين الشيخ عبدالله العلايلى من اعداد وتصنيف نديم مرغشلى ، وأسامة مرغشلى ، الطبعة الأولى ، دار الحضارة العربية ، بيروت١٩٧٤م .

(٢٢١) الثعالبى: المصدر السابق ، ج٤ ، ص٤٦٨ ـ ٤٦٩ . ياقوت: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٠٧ .

(٢٢٢) عبدالبارى محمد الطاهر: مرجع سابق ، ص٣٤٩ . إحسان ذنون الثامرى: مرجع سابق ، ص١٣٢ .

(٢٢٣) إحسان ذنون الثامرى: المرجع السابق، ص١٣٢.

(٢٢٤) ياقوت : المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٧.

(٢٢٥) نفسه، ج٥، ص٦١٢.

(٢٢٦) يتناول علم الحديث دراسة ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله ومأقر عليه من أفعال لم ينكرها عليهم ،وينقسم إلى قسمين الأول : علم دراسة الحديث ويشمل دراسة متن الحديث والثانى : علم رواية الحديث ويتناول دراسة سند الحديث المروى

– أحمد عبدالباقى : معالم الحضارة العربية فى القرن الثالث الهجرى ،مركز دراست الوحدة العربية ، بيروت(د ـ ت) ص١٧٨.

(٢٢٧) النسفى : المصدر السابق، ص٩٠.

(٢٢٨) السمعانى :المصدر السابق،ج١،ص١٠٢،ياقوت : معجم البلدان ،ج١،ص١٨٠.

(٢٢٩) محمد على البار: المرجع السابق ، ج٢، ص٥٠١.

(٢٣٠) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، الجزء الثالث، دار الثقافة، بيروت (د ـ ت) ص٢٢٣.

(٢٣١) نفسه، ج٣، ص٢٣٢. ابن النديم : الفهرست، المكتبة التوفيقية، القاهرة(د ـ ت) ص٣٦١.

(٢٣٢) محمود إسماعيل :سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ،طور الأزدهار (٣)الطبعة الأولى،سينا للنشر ،القاهرة ٢٠٠٠م،ص١٢٩.

(٢٣٣) البيهقى : تاريخ حكماء الإسلام، نشر وتحقيق / محمد كرد على مطبعة الترقى، دمشق١٩٤٦م، ص٣١.

(٢٣٤) نفسه، ص٣٠.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

– ابن أبى اصيبعة (أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة السعدى ت ٦٦٨ هـ /١٢٦٩ م: عيون الانباء فى طبقات الأطباء، ٣ أجزاء ، دار الفكر، بيروت.

– البيهقى: (ظهير الدين) تاريخ حكماء الإسلام، نشر وتحقيق /محمد كرد على مطبعة الترقى، دمشق١٩٤٦م.

– ابن الأثير : (عز الدين أبى الحسن على بن احمد بن ابى الكرم ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢ م)

– الكامل فى التاريخ، ١٠ أجزاء، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

- اللباب في تهذيب الأنساب ، الجزء الأول، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.

- الإدريسي (أبوعبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨م): نزهة المشتاق في أختراق الآفاق، جزءان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت) .

- الاصطخري (أبو القاسم إبراهيم بن محمد توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى): المسالك والممالك، ليدن ، ١٩٢٧ م .

- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، ثلاثة أجزاء، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة د.ت.

- الثعالبي: (ابو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م): يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، المجلد الرابع، شرح و تحقيق / مضير محمد قميحة، الطبعة الأولى، بيروت١٩٨٣م.

- حاجى خليفة (مصطفى بن عبدالله القسطنطينى الرومى): كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، المجلد الأول، دار الفكر، المكتبة الفيصلية، مكة (د ـ ت)

- الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م)

الروض المعطار فى خبر الأقطار، حققه/ إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٤م .

- ابن حوقل (أبو القاسم أحمد النصيبى توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ النصف الأول من القرن العاشر الميلادى): صورة الأرض، الطبعة الثانية، ليدن ، ١٩٣٨ م.

- خليفة بن خياط (توفى سنة ٢٤٠هـ/٩٥١م): تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٧م.

- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م): المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩ م

- الدمشقي: (أبو الفضل جعفر بن على ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م): كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة، مطبعة المؤيد ، مصر ، ١٣١٨ هـ .

- ابن الزبير (القاضى الرشيد بن الزبيرمن علماء القرن الخامس الهجرى) كتاب الذخائر والتحف، تقديم ومراجعة صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، الكويت١٩٨٤م.

- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):

سير اعلام النبلاء، الجزء السادس، تحقيق/أكرم البوشى، الطبعة الحادية عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٩٦م.

– السمعانى (أبو سعيد عبد الكريم محمد بن منصور ت ٥٦٢ هـ / ١٢١٦ م الأنساب، الجزء الأول، تقديم وتعليق/ عبد الله عمر البارودى، الطبعة الأولى، دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨ م.

– السيوطى (الحافظ جلال الدين عبدالرحمن ت٩١١هـ/١٥٠٥م)

بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية، دار الفكر بيروت١٩٧٩م.

– لب اللباب فى تحريرالأنساب، الجزء الأول، تحقيق محمد احمد عبدالعزيز وآخرون، الطبعة لأولى، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٩١م.

–الطبرى (محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢–٩٢٣م): تاريخ الطبرى، ١٠ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٦٦٤م.

– أ بو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢ هـ /١٣٣١م): تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠ م.

– ابن فضلان: (أحمد بن العباس بن راشد): رسالة بن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ،حققها سامى الدهان ،الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٨م.

– قدامه بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر بن زياد ت ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م) الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسن الزبيدى ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١ م .

– القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د.ت).

– القلقشندى (شهاب الدين أبو العباسى أحمد بن على ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م): صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ١٤ جزاء، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨ م .

– الكرديزى (أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمد ت٤٤٣هـ/١٠٥١–١٠٥٢م): زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٢ م.

– المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثالثة ، مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩١ م .

– مجهول: (مؤلف مجهول كتبه عام ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م):

حدود العالم من المشرق إلى المغرب ، تحقيق / يوسف الهادي، الطبعة الأولى ، دار الثقافة للنشر، القاهرة ، ١٩٩٩ م .

– المقريزى : (تقى الدين احمد بن علي عبدالقادر ت٨٤٥هـ/١٤٤١م):

المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والأثار، الجزء الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة(د.ت)

- ابن النديم : (محمد بن إسحاق ت٣٨٣هـ/٩٩٣م): الفهرست، المكتبة التوفيقة، القاهرة (د ـ ت)

- النرشخي: (أبو بكر محمد بن جعفر ت٣٤٨هـ/٩٥٩ ـ ٩٦٠م): تاريخ بخاري، ترجمة / أمين عبدالمجيد بدوي وآخرون، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة(د ـ ت)

- النسفي (نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد ٥٣٧هـ/١١٤١ـ١١٤٢م):

القند في ذكر علماء سمرقند، تحقيق يوسف الهادي ، الطبعة الأولى ، مركز نشر التراث، طهران١٩٩٩م

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهابي؛ ت ٧٣٢ هـ /١٣٣١م)

نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الخامس و العشرون ، تحقيق / محمد على البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

- ابن الوردي : (سراج الدين ابى حفص عمر)

خريدة العجائب وفريدة الغرائب، الطبعة الثانية، مطبعة عيسى البابى الحلبى، القاهرة (د.ت).

- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)

معجم البلدان، ٥ أجزاء ، دار صادر ، بيروت(د. ت). .

- معجم الأدباء، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت(د ـ ت) .

- اليعقوبي : (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر وهب بن واضح): البلدان، ليدن ١٨٩٣م.

ثانيا : المراجع العربية:

- إبراهيم الدسوقي شتا : المعجم الفارسي الكبير، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة١٩٩٢م .

- إحسان ذنون الثامري : الحياة العلمية زمن السامانيين، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت٢٠٠١م.

- أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية، الطبعة الخامسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة١٩٧٧م.

- أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (د . ت).

- أحمد فؤاد سيد:الإسلام والثقافة العربية في بلاد ماوراء النهر الإسلامية آسياوالقوقاز، دار الغد العربي ، القاهرة١٩٩٦م.

- أحمد كمال الدين حلمي :السلاجقة في التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٠م.

– بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان، الطبعة الأولى، الكويت ،١٩٨١ م .

– تاريخ الترك فى أسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، سلسلة الألف كتاب الثانى رقم (١٣٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٩٦م.

– تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة (د . ت) .

– توفيق عامر: الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق، الجزءالثانى، المجلد ٧ تونس، ٦٩٩١م .

– حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، الجزء الأول، الطبعة الثامنة، الهيئة المصرية، القاهرة١٩٩٦م، الجزء الرابع ،الطبعة السابعة، النهضة المصرية، القاهرة١٩٩٤م.

– حسن أحمد محمود : الإسلام فى أسيا الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢ م .

– شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول الهجرى، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٥٢م.

– عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، الطبعة الأولى، مكتبة رياض الصالحين ، الفيوم ١٩٩٤م.

– فلهوزن : تاريخ الدول العربية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، ومراجعة حسين مؤنس، الطبعة الثانية لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٨م.

– قحطان عبد الستار الحديثى :ارباع خراسان الشهيرة ،جامعة الموصل(د ـ ت)

– لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة كوركيس عواد، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٥م.

– محمد حسن عبد الكريم الغمادى : خراسان فى العصر الغزنوى ، الأردن .

– محمد عبدالعظيم الصوفى :تاريخ المسلمين وحضارتهم فى آسيا الوسطى ،مطبعة الأهرام ههيا (محافظة الشرقية)٢٠٠٠م

– محمد على البار : المسلمون فى الاتحاد السوفيتى عبر العصور ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، دار الشروق جدة ١٩٨٣م.

– محمد على حيدر : الدويلات الإسلامية فى الشرق ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

– محمود إسماعيل :سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ،طور الأزدهار (٣)الطبعة الأولى ،سينا للنشر ، القاهرة ٢٠٠٠م.

– محمود شيت خطاب : بلاد ما وراء النهر، الطبعة الرابعة، دار قتية، بيروت، ١٩٩٠ م.

– محمود شاكر :تركستان الصينية (الشرقية) مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩م.

– موريس لومبار :الإسلام فى مجده الأول،ترجمة / إسماعيل العربى ،منشورات دار الأفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م.

ثالثا: الدوريات والرسائل العلمية

– قحطان عبد الستار الحديثى : دراسات فى التنظيمات الاقتصادية لخراسان فى القرن الرابع الهجرى – الصناعة – مجلة المؤرخ العربى، المجلد التاسع عشر، العدد ٣ لسنة ١٩٨٧م.

– قحطان عبدالستار الحديثى :دراسات فى التنظيمات الأقتصادية لخراسان أولاً :الزراعة مجلة الخليج العربى السنة ١٥ المجلد ١٩ العدد ١جامعة البصرة١٩٨٧م،

– سعد زغلول عبد الحميد :الإسلام والترك فى العصر الإسلامى الوسيط، المختار من مجلة عالم الفكر (١)دراسات إسلامية، الكويت١٩٨٤م.

– محمد أحمد محمد جوده :الحياة الأقتصادية والاجتماعية فى بلاد ماوراء النهر من الفتح الإسلامى إلى سقوط الدولة السامانية ،رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية الآداب جامعة عين شمس٢٠٠٤م

– محمد عبدالهادى شعيرة : الممالك الحليفة أو الممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية إلى أيام المعتصم ، مقال بمجلة كلية الآداب – جامعة فاروق الاول (الاسكندرية) العدد الرابع ١٩٤٨م.

رابعاً: المراجع الفارسية

– بروتولد شبولر : تاريخ إيران در قرون تحسينين إسلامي ، جلد دوم ، ترجمة / مريم مير أحمدي ، تهران ، ١٣٦٩ هـ . ش .

– البناكتى :تاريخ بناكتى روضة اولى الالباب فى معرفة التواريخ والأنساب، تصحيح جعفرشعار ، سلسلة انتشارات انجمن آثار على، تهران ١٣٣٨هـ

– عبدالله رازى: تاريخ كامل ايران از تأسيس مادنا انقراض قاجاريه، الطبعة العاشرة، دار شر اقبال، طهران ١٣٧٢هـ .ش.

– سعيد نفيسي: أحوال واشعار رودكى، المجلد الأول، تهران، ١٣٠٩ هـ . ش .

–على أكبر دهخدا : موسوعة لغت نامه، الجزء الثالث، تهران، ١٣٤٧ هـ . ش

خامساً : المراجع الأجنبية :

(1) Denis Sinor:The Cambridge History of early Inner Asia Cambridge Universty press,1990

(2) Frye : The Golden Age of Persia ,London.

(3) Frye:The Heritage of Persia , London,1969.

(4) Gibb: The Arab Conquests Central Asia, London

(5) Hakki and and Yildiz :The Turks Adoption of Islam History of Turkish - Islamic States.translated by Ahmet ,Ankara,1994.

د. منى سعد محمد الشاعر (*)

الفتح السلجوقى لآسيا الصغرى ودور السلاجقة في نشر الإسلام بالأناضول

السلاجقة: أصلهم ونشأتهم

ينتمي السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق الذي ينحدر أصله إلى قبيلة قنق، إحدى قبائل الغـز التركية التي كانت تسكن الصحراء الواسعة والسهوب الممتدة من حدود الصين شرقا إلى شواطئ بحر الخزر غربا(١)، وقد تحركت تلك القبائل على شكل هجرات نحو الجنوب الشرقي، وازدادت كثافتها أثناء حكم السامانيين، وكان الدافع الحقيقي وراء هجرة تلك القبائل من موطنها الأصلي ازدياد عدد السكان وضيق مساحة الأراضي العشبية التي كانت تسكنها (٢)؛ وقد ظلت تتدفق هجرة القبائل التركية وتتركز في وسط آسيا خاصة حول شواطئ نهر جيحون(٣) قبل وبعد الفتح الإسلامي(٤)، وعندما فتح السامانيون وسط آسيا في القرنين الثالث والرابع الهجريين- التاسع والعاشر الميلاديين- بسطوا نفوذهم عليها، وبدأوا يعملون على نشر الإسلام بين سكانها، فانتشر الإسلام بينهم على نطاق واسع خاصة بين الأتراك الغـز(٥).

*-أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد بكلية الدراسات الإنسانية- جامعة الأزهر بالقاهرة

ويبدو أن أول من دخل الإسلام من الأتراك الغُزّ هو «دقاق»، وكان وزيرا للخاقان «بيغو»- أحد خانات التركستان الوثنيين- فاعترض على الغارات التي كان يقوم بها بيغو على الأراضي الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، مما يدل على أنه كان قد دخل في الإسلام، وحسن إسلامه(٦).

وقد خلف سلجوق بن دقاق أباه في رئاسة قبيلة«قنق»، وبرزت عليه إمارات النجابة والنباهة فقربه بيغو إليه وعينه قائدا للجيش، وعندما أطاعه أفراد قبيلته وانقادوا له أثار ذلك حفيظة زوجة بيغو فأوعزت إلى زوجها بقتله(٧)، ولما علم سلجوق بذلك غادر سهوب القرغيز ببلاد التركستان ومعه قبيلته وأتباعه إلى المنطقة التي توجد فيها مدينة «جند» في الوادي الأدنى لنهر سيحون ببلاد ما وراء النهر(٨).

ولقد ساعد اضطراب الأوضاع في بلاد ما وراء النهر على تهيئة الوضع لمشاركة السلاجقة ودخولهم في الأحداث السياسية الجارية آنذاك، إذ أدى الصراع المحتدم بين السامانيين والقراخانيين لبسط نفوذ السيادة والسيطرة على تلك البلاد إلى استعانة السامانيين بقوة سلجوق بن دقاق التي كانت تزداد وتتنامى بسبب زيادة أتباعه ممن دخلوا الإسلام على يديه، فاستجاب سلجوق لدعوة السامانيين وساعدهم في حربهم ضد القراخانيين حتى تحقق لهم النصر(٩).

ولاشك أن وقوف السلاجقة مع السامانيين ضد القراخانيين كان له أثره الطيب في نفوس السامانيين، لذلك سمحوا لسلجوق وجماعته بالاستقرار بالقرب من شاطئ نهر جيحون مقابل تعهده بحراسة المناطق الحدودية؛ مما ساعد على استكمال هجرة السلاجقة من التركستان استقرارهم في تلك المناطق؛ لذلك اتخذ سلجوق من مدينة جند قاعدة له؛ وقد اتبع سلجوق وأتباعه الدين الإسلامي على المذهب الحنفي، وهو المذهب الرسمي للدولة السامانية، حتى أصبح هذا المذهب سائدا بعد ذلك في دولتهم(١٠)، كما تحمس السلاجقة بشدة للإسلام فأخذوا يعملون جنبا إلى جنب مع السامانيين في مهاجمة الترك الوثنيين الذين كانوا يهددون أرض الإسلام في محاولة للقضاء على شرهم(١١)؛ كما عمل السلاجقة بعد استكمال فتح بلاد التركستان على نشر الإسلام بشكل كبير بين الأتراك الوثنيين(١٢)، وأخذوا يعملون على تحرير المدن الإسلامية التي كانت تدفع ضريبة لكفار التركستان الوثنيين(١٣)، وبذلك استطاع سلجوق أن يرضي المسلمين في بلاد ما وراء النهر بما قام به من نشر الإسلام بين أبناء جلدته(١٤).

ولكن لم تسر الأمور على وتيرة واحدة، إذ سرعان ما انهارت الدولة السامانية في عام ٣٨٩ هـ/ ٩٩٨ م(١٥)، وتوزعت أملاكها بين القراخانيين والغزنويين، إلا أن السلاجقة كانوا قد ازداد عددهم ونظموا أنفسهم مما مكنهم من إنشاء قوة عسكرية نظامية يخشى بأسها، فضلا عن أنهم واصلوا جهودهم في نشر الإسلام متمسكين بأهداب الدين والغيرة عليه، وتقربوا من علماء المسلمين مما جمع الناس حولهم، فزاد من حبهم حتى توطد وجودهم في بلاد ما وراء

النهر(١٦): ثم تطورت الأحداث حتى دخل السلاجقة في صراع مع القراخانيين والغزنويين، تمخض عنه سيطرة السلاجقة على بلاد ما وراء النهر وخراسان وإعلان قيام السلطنة السلجوقية في عام ٤٢٩هـ /١٠٣٧م، على يد أول سلاطينها السلطان طغرلبك(١٧).

وعلى الرغم من إعلان السلطنة السلجوقية في عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م، إلا أنها لم تتوطد إلا بعد إنزال هزيمة ساحقة بالغزنويين في موقعة دندانقان في رمضان من عام ٤٣١ هـ/ يونية ١٠٤٠ م، تقلص على أثرها وجود الغزنويين في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وفي المقابل امتد نفوذ السلاجقة ليشمل معظم شرق الدولة الإسلامية، ثم توسعت غربا حتى امتد نفوذها إلى بغداد ومن ثم سيطرتها بعد ذلك على أجزاء كبيرة من غرب الدولة الإسلامية، حتى امتد نفوذها وسيطرتها على بلاد الشام(١٨)؛ وبذلك أصبحت سلطنة السلاجقة من القوى المؤثرة في أحداث العالم الإسلامي في تلك الآونة، كما كان لوجودها وامتداد نفوذها وتوسعها أثره البالغ في إعادة توازن القوى في الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين آنذاك.

الفتح السلجوقي لآسيا الصغرى

أ- مقدمات الفتح:

تمثل منطقة آسيا الصغرى أو الأناضول(وهما مترادفان لإقليم واحد)، شبه الجزيرة الفسيحة الممتدة من بحر إيجة وبحر مرمرة غربا إلى نهر الفرات شرقا، ويحدها من الشمال البحر الأسود وفي الجنوب البحر المتوسط وبلاد الشام، وتنفصل عن أوربا بواسطة مضيقي البسفور والدردنيل وبحر مرمرة، وهي المنطقة التي تمثل في الوقت الحاضر الجزء الرئيسي من الجمهورية التركية(١٩).

وقد سكن آسيا الصغرى أثناء الحكم البيزنطي العديد من العائلات البيزنطية التي كانت تمثل الأرستقراطية البيزنطية وهم من كبار عائلات ملاك الأراضي الزراعية الذين كانوا يتولون قيادة جيوش الأقاليم؛ وكان المسلمون يطلقون على أقاليم الدولة البيزنطية اسم بلاد الروم لذا عرفت آسيا الصغرى عندهم ببلاد الروم(٢٠).

ولقد حاول المسلمون طوال العصرين الأموي والعباسي فتح منطقة آسيا الصغرى، وبسبب ذلك دخلوا في حروب طويلة مع الروم البيزنطيين، وبذلوا جهودا مضنية في الجهاد ضد الإمبراطورية البيزنطية، وحققوا على أثرها نجاحات عظيمة في مجال الفتوح(٢١)، إلا أن الفتح الحقيقي لآسيا الصغرى وانتشار الإسلام بها لم يتحقق إلا على يد الأتراك السلاجقة مما جعل أحد المؤرخين الغربيين يقول:« لقد حمل السلاجقة راية الإسلام إلى آسيا الصغرى بينما لم يستطع العرب القيام بذلك» (٢٢)

ولقد كان لظهور السلاجقة على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أثر كبير على العلاقات الإسلامية البيزنطية، حيث

تبدل الموقف السياسي والعسكري عندئذ، فبعد أن كانت الدولة البيزنطية تجد على حدودها دولة إسلامية ضعيفة منقسمة على نفسها مذهبيا وسياسيا إذا بها تواجه بقيام سلطنة قوية متماسكة مكنت المسلمين من استئناف التوسع على حسابها، في الوقت الذي دخلت فيه الدولة البيزنطية حالة من الركود والضعف بعد زوال الأسرة المقدونية في عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م وما تبع ذلك من صراع بين الطبقتين العسكرية والمدنية (٢٣).

وفي تلك الآونة استطاع السلاجقة أن يحققوا وحدة العالم الإسلامي التي دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي والزعامة السياسية للسلطان السلجوقي، فبدأ السلاجقة يعملون على التوسع الإسلامي عبر آسيا الصغرى يدفعهم إلى ذلك عدة دوافع يأتي على رأسها الدافع الديني، حيث أدرك السلاجقة العظام أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، لذلك عملوا على مواصلة الجهود الإسلامية الأولى من أجل الفتح الإسلامي ونشر الإسلام على أكبر رقعة ممكنة في آسيا الصغرى؛ ولاشك أن هذا الهدف أضفى على حروبهم ضد البيزنطيين طابعا جهاديا دينيا مما أكسبهم عطف المسلمين جميعا؛ وقد حرص السلطان السلجوقي طغرلبك أن يجعل أتباعه من الأتراك دائما تحت تصرفه حتى يتمكن من توجيههم في حملاته المستمرة ضد الإمبراطورية البيزنطية ومواصلة الجهاد ضدهم(٢٤)، ويؤكد ذلك ابن الأثير فيقول: إن«خلقا كثيرا من الغز مما وراء النهر قدموا عليه(أي على طغرلبك) فقال لهم أن بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا» (٢٥).

وتؤكد تلك الرواية أن الغرض من الحملات التي كان يوجهها السلطان طغرلبك إلى الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى كان جهادا في سبيل الله من أجل نشر الإسلام بين النصارى؛ كما نستنتج من هذه الرواية دافعا آخرا دفع السلاجقة إلى التمدد والتوسع تجاه آسيا الصغرى وهو الدافع الاقتصادي، فبعد انسياح أعداد كبيرة من الأتراك- الذين دخلوا في الإسلام على يد السلاجقة- في العراق وفارس ضاقت بهم الأرض، الأمر الذي جعل السلطان طغرلبك يوجههم للجهاد ونشر الإسلام في بلاد الروم والتوسع خلالها (٢٦).

يضاف إلى ذلك الباعث السياسي المتمثل في استيلاء البيزنطيين على إقليم أرمينية، التي كانت تمثل بعدا سياسيا وعسكريا كبيرين في علاقة المسلمين بالبيزنطيين، ولم تفرط الدولة الإسلامية على مر العصور في تلك البلاد حتى انتزعتها الأسرة المقدونية في عهد الإمبراطور باسيل الأول (٢٥٣- ٢٧٣هـ/ ٨٦٧ - ٨٨٦ م)، وارتبطت أرمينية في عهد ملكها آشوط الأول من الأسرة البجراطية بنوع من التحالف والعلاقات الودية مع البيزنطيين لذلك أصبحت دولة حاجزة ضد تحرك المسلمين في إقليم أرمينية وآسيا الصغرى(٢٧). وفي الواقع كانت تبعية أرمينية للبيزنطيين مزعزعة بسبب انقسام الأرمن فيما بينهم، مما أدى إلى تناوب الطرفان الإسلامي والبيزنطي على البلاد إلى أن خضعت أرمينية للبيزنطيين في عهد باسيل الثاني (٣٦٥- ٤١٦هـ/ ٩٧٦- ١٠٢٥م) بمقتضى معاهدة بين حنا سمباد الحاكم الأرميني والإمبراطور

البيزنطي في عام ٤١٢ هـ /١٠٢١م نصت على أن يحكم حنا سمباد أرمينية طوال حياته وبعد وفاته تنتقل تبعيتها إلى الإمبراطورية البيزنطية؛ وقد لجأ حنا سمباد إلى ذلك بسبب ما تعرضت له بلاده من غارات مستمرة من قبل السلاجقة والأبخاز(٢٨). فضلا عن تهديد أخيه أشوط وانتشار الفتن والحروب الداخلية التي شهدتها البلاد؛ وسار سنحاريب ملك الفاسبوراكان على نهج حنا سمباد، فبعد أن أدرك أنه ليس بوسعه أن يقاوم السلاجقة تحالف مع البيزنطيين وحصل في مقابل ذلك على سيواس(٢٩).

لاشك أن السيطرة البيزنطية على معظم أرمينية أصبحت كالحاجز أمام تقدم المسلمين في آسيا الصغرى، الأمر الذي جعل طغرلبك أول سلاطين السلاجقة يرى ضرورة كسره تمهيدا للتوغل داخل الأراضي البيزنطية ونشر الإسلام في أقاليم آسيا الصغرى (٣٠).

ب- محاولات السلاجقة استرداد أرمينية وفتح آسيا الصغرى:

قام السلاجقة بعدة محاولات من أجل استرجاع إقليم أرمينية من أيدي البيزنطيين إلى السيطرة الإسلامية، وكانت أولى تلك المحاولات في عام ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م على عهد السلطان طغرلبك السلجوقي، إذ أغار إبراهيم ينال القائد السلجوقي على أرمينية إبان حكم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع موناموكوس (٤٣٣- ٤٤٧ هـ / ١٠٤٢- ١٠٥٥م) فوصل إلى ملاذ كرد(٣١)، وتابع سيره حتى وصل إلى أرزن(٣٢) وقاليقلا(٣٣)، بل امتد في غاراته حتى وصل إلى طرابيزون على شاطئ البحر الأسود، مدمرا خلال غاراته القرى والضياع والقلاع التي واجهته، وحصل على الكثير من الغنائم والسبايا.

ولقد ألحق إبراهيم ينال بأرزن- وهي إحدى المدن التجارية الأرمينية الغنية التي عرفت بثرائها- كارثة كبيرة حين لقي مقاومة عنيفة من أهلها مما اضطره إلى إشعال النيران فيها، فهلك معظم سكانها وأسر من بقي منهم وبيعوا في أسواق الرقيق؛ وتعد تلك الواقعة أحد الأسباب الرئيسة في انهيار الوطن الأرميني(٣٤)؛ وإزاء ما حل بالأرمن في أرزن نهض البيزنطيون لقتال إبراهيم ينال، وساندهم أمير الأبخاز الذي يعتبر من الموالين للإمبراطور البيزنطي، وتقابل الفريقان واشتد بينهم القتال، وتمكن القائد المسلم إبراهيم ينال من تحقيق النصر على البيزنطيين وحلفائهم، ووقع أمير الأبخاز في الأسر مع جماعة من البطارقة «واستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوها، وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس، وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء»(٣٥).

ومما تجدر الإشارة إليه أن السلطان طغرلبك لم يكن مستعدا في تلك الآونة لفتح باب العداء على مصراعيه مع البيزنطيين، لذلك أمر بإطلاق سراح أمير الأبخاز الموالي للبيزنطيين بعد مفاوضات جرت بينه وبين الإمبراطور البيزنطي انتهت بعقد هدنة بينهما في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)؛ ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع لم يكن مستعدا هو الآخر لفتح أي صراع مع السلاجقة، ففي تلك الفترة كانت قبائل البشناج(٣٦) تهاجم الأقاليم

الأوربية التابعة لبيزنطة في بلغاريا وتراقيا، مما اضطر الإمبراطور إلى نقل أفضل الوحدات العسكرية البيزنطية من آسيا الصغرى إلى تلك الأقاليم المضطربة لوقف هجمات البشناج على أراضيه في أوربا(٣٧). لذلك حاول أن يعمل على استرضاء السلاجقة، فأمر بإصلاح مسجد القسطنطينية، والدعاء فيه للسلطان طغرلبك(٣٨)؛ ويقول ابن الأثير في هذا الصدد «وعمّر ملك الروم الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وعمّر منارته وعلق فيه القناديل وجعل في محرابه قوسا ونشابة وأشاع المهادنة»(٣٩).

وعلى الرغم من الهدنة التي تمت بين السلاجقة والبيزنطيين إلا أن غارات السلاجقة على البلدان الأرمينية التي سيطر عليها البيزنطيون لم تنقطع، ففي عام ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م (وهو نفس العام الذي عقدت فيه الهدنة بين السلطان الإمبراطور) أغار السلاجقة على إقليم قارس من نواحي تفليس(٤٠)؛ وعندما علم السلطان طغرلبك بوفاة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع في عام ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤م قام بحملة قادها بنفسه على الأراضي الأرمينية ووصل إلى أرزن، وهاجمت قواته الأقاليم الواقعة بين مدينة أرزن وبحيرة وان(٤١)، أي أنه هاجم المناطق التي استولى عليها البيزنطيون من قبل ومنها أرجيش(٤٢) وباركري(٤٣) وغيرها من الأعمال حتى وصلت غاراته إلى مدينة باسين من أعمال أرزن، ثم توجه إلى ملاذ كرد، وشدد عليها الحصار، ولكن تمكنت القوات البيزنطية بقيادة باسيليوس حاكم المدينة من إحراق آلات الحصار التي ضربتها القوات السلجوقية حول المدينة وصدها، مما اضطر السلطان طغرلبك إلى رفع الحصار عنها والعودة في اتجاه أذربيجان، ودمر أثناء عودته كل ما صادفه من قرى ومزارع، بل أنه أبقى في المنطقة بعض قواته لمواصلة الغارات عليها (٤٤).

وفي عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧م اضطربت الأوضاع داخل الإمبراطورية البيزنطية أثر الثورة التي أشعلها إسحاق كومنين ضد الإمبراطور ميخائيل السادس، فتغير الموقف العسكري لصالح السلاجقة، إذ نجح الثوار في سحب القوات البيزنطية من المناطق الأرمينية لمساعدة إسحاق كومنين في ثورته فأصبحت المراكز الحدودية شاغرة من أية مقاومة جدية(٤٥)؛ ولاشك أن سحب القوات البيزنطية من المناطق الحدودية لمساعدة إسحاق كومنين في ثورته ضد الإمبراطور ميخائيل السادس قد أعطى فرصة كبيرة للسلاجقة، إذ ما لبث القائد السلجوقي قتلمش بن أرسلان(٤٦) أن اجتاح بقواته مناطق واسعة في آسيا الصغرى، شملت العديد من المناطق منها قبادوكيا، وملطية(٤٧)؛ كما أغار على الأقاليم الواقعة عند ملتقى فرعي نهر الفرات، ولم يكتف عند هذا، بل توغل في جوف آسيا الصغرى، وفتح قونية(٤٨) وأقسرا(٤٩) وأعمالهما(٥٠).

وتوالت غارات السلاجقة على الأراضي البيزنطية، ففي عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م توغل السلاجقة في عمق الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى وذلك في بداية عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوكاس (٤٥١ - ٤٥٩ هـ/ ١٠٥٩- ١٠٦٧ م) حتى وصلوا إلى مدينة سيواس فهاجموها، وأنزلوا بالبيزنطيين هزيمة ساحقة، ثم عادوا محملين بالكثير من

الغنائم (٥١). واستمرت تلك الغارات على أرمينية وآسيا الصغرى التابعة للإمبراطورية البيزنطية حتى وفاة السلطان السلجوقي طغرلبك في يوم الجمعة الثامن من رمضان عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وإن كانت في معظمها حملات استطلاعية للمنطقة إلا أنها قد نجحت في التمهيد لمد النفوذ السلجوقي لآسيا الصغرى(٥٢).

وبعد وفاة السلطان طغرلبك تولى ابن أخيه ألب أرسلان عرش السلطنة (٥٣)، وقد كان السلطان ألب أرسلان سياسيا محنكا بعيد النظر، فقد سار على خطه عمه من أجل نشر الإسلام بين الممالك المسيحية، لذلك رسم خطة لإحكام سيطرة السلاجقة على العالم الإسلامي مع زيادة توسع سلطنتهم في البلاد المعادية للإسلام خاصة الأقاليم المسيحية المجاورة- بلاد الأرمن والروم البيزنطيين بآسيا الصغرى- على أن يتوافق العمل السياسي والعسكري معا وصيغتهما بالطابع الديني، مما أكسب السلاجقة تعاطف العالم الإسلامي معهم، الأمر الذي ساعد على استقرار حكمهم وامتداد نفوذ دولتهم في أرجاء البلاد الإسلامية والتوسع في البلاد المسيحية المجاورة (٥٤).

يتضح مما سبق أن خطة السلطان ألب أرسلان كانت تعمل على توحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية وحكمها بواسطة السلاجقة، ومن أجل ذلك نهج السلطان ألب أرسلان نهجا جديدا في سياسته مع الإمبراطورية البيزنطية مؤداه الاستقرار الدائم للسلاجقة في قلب آسيا الصغرى، أي في قلب الإمبراطورية البيزنطية؛ ولكي يحقق هدفه هذا كان عليه أن يسارع بفتح الأقاليم المسيحية المجاورة في أرمينية وبلاد الكرج(٥٥)؛ لذلك أقدم السلطان ألب أرسلان أولا على خطوة هامة لتأمين ظهره تمثلت في توثيق علاقاته بكل من السلطنتين الغزنوية والخانية عن طريق المصاهرة حتى يتفرغ لغزو البيزنطيين وهو مطمئن؛ ويقول ابن كثير في هذا الصدد: «وكتب كتاب ولده على ابنة الخان الأعظم صاحب ما وراء النهر وزفت إليه، وزوج ابنه الأخر بابنة صاحب غزنة واجتمع شمل المُلكين السلجوقي والمحمودي»(٥٦).

وفي عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م بدأ السلطان ألب أرسلان في تنفيذ مخططه من أجل الجهاد ونشر الإسلام، لذلك أعد حملة كبيرة قادها بنفسه ضد الأقاليم النصرانية المجاورة لحدود دولته، فتوجه بجيشه نحو جنوب أذربيجان ومنها اتجه غربا لفتح بلاد الكرج والمناطق المجاورة للإمبراطورية البيزنطية؛ وكان سكان الكرج يكثرون من الإغارة على أذربيجان مما جعلهم مصدر قلق لسكان المنطقة، لذلك عبر الجيش السلجوقي نهر الرس(٥٧) في طريقه إلى بلاد الكرج، وأثناء سيره وجه ألب أرسلان بعض القوات بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك لمهاجمة بعض الحصون الأرمينية التابعة للبيزنطيين، فهاجمت القوات السلجوقية حصن سرماري(٥٨) وتمكنت من فتحه مع جملة من القلاع القريبة منه (٥٩)، ومنه إلى مدينة مريم نشين- وكان بها الكثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى- ففتحتها أيضا، ثم انضمت تلك القوات بعد ذلك إلى قوات السلطان ألب أرسلان وساروا جميعا على سبيزشهر ففتحوها،

ومنها إلى مدينة أعال لال الحصينة ففتحوها بعد مقاومة شديدة من أهلها، ثم اتجهوا إلى ناحية قارس، وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما سيل وردة ونورة، فخرج أهلها مذعنين بالإسلام، فخرّبوا البيع، وبنوا المساجد، ثم سارت القوات السلجوقية إلى مدينة آني، وهي مدينة حصينة بين خلاط وكنجة، فتمكن السلطان ألب أرسلان من فتحها، ودخلها ونظم أحوالها وولى عليها واليا من قبله، ثم سار عنها بعد أن ترك فيها حامية إسلامية كبيرة للذود عنها(٦٠).

ولاشك أن ما قام به السلطان ألب أرسلان يمثل بداية الاستقرار السلجوقي في أرمينية وانتشار الإسلام بالممالك المسيحية المجاورة(٦١)، مما سهل الطريق أمام السلاجقة للوصول إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية، فهاجم السلطان ألب أرسلان قبادوقيا، وقام بإرسال بعض القوات لمهاجمة عمورية(٦٢) وقونية، وقيليقية(٦٣) وقيصرية(٦٤) في آسيا الصغرى؛ ومضت القوات السلجوقية في زحفها حتى وصلت ملطية وفرجيا في عام٤٦٠هـ / ١٠٦٧م، واكتسحت في طريقها أقاليم آسيا الصغرى اكتساحا جارفا، الأمر الذي أعجز الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوكاس عن التصدي لذلك المد السلجوقي العارم(٦٥).

ج- معركة ملاذكرد وبداية الاستقرار الإسلامي في آسيا الصغرى:

شكل الفتح السلجوقي لبلاد الكرج ومعظم الأراضي الأرمينية، وأجزاء من آسيا الصغرى تحديا كبيرا للبيزنطيين، فقد أدرك الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجنيس(٤٦٠-٤٦٣هـ/ ١٠٦٨- ١٠٧١م)- الذي خلف الإمبراطور قسطنطين العاشر دوكاس في عرش الإمبراطورية- أن السلطان ألب أرسلان يصبغ غزوه للبلاد التابعة للإمبراطورية البيزنطية بصبغة الجهاد الديني، مما جعله يغلب الطابع الإسلامي على البلاد المفتوحة، الأمر الذي جعل نشوب حرب بين المسلمين والبيزنطيين أمرا لا مفرّ منه (٦٦)؛ لذلك حاول الإمبراطور البيزنطي أن يوقف زحف السلاجقة صوب بلاده، فقام بالضغط عليهم بتوجيه عدة حملات عسكرية في الفترة من ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩م إلى ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م،(٦٧) توجهت منها حملتان إلى حلب وأعمالها التابعة آنذاك لحكم المرداسيين(٦٨).

وقد نجح البيزنطيون في الحملة الأولى فى الاستيلاء على أرتاح(٦٩) وبالس وفي الحملة الثانية استولوا على منبج(٧٠)؛ وبعد أن حقق رومانوس بعض أمانيه في أطراف بلاد الشام توهم أنه بهذا قد حد من تحركات السلاجقة، لذا واصل حملته العسكرية الثانية حتى وصل إلى ملاذ كرد، وعاث في أطرافها فسادا إلا أنه انسحب منها عائدا إلى بلاده بسبب قلة المؤن(٧١).

وعلى الرغم من النجاح الجزئي الذي حققه البيزنطيون في شمال الشام إلا أن هذا لم يحد من مواصلة ضغط السلاجقة على الأراضي البيزنطية وتوغلهم في أرجائها، لذلك اضطر رومانوس إلى القيام بحملته الثالثة لوضع حد لذلك التفوق السلجوقي في الأراضي

البيزنطية(٧٢)؛ فعندما عاد رومانوس من حملتيه السابقتين على بلاد الشام وضع نصب عينيه استرداد المناطق التي سيطر عليها السلاجقة في آسيا الصغرى خاصة في قيصرية وقبادوقيا بالإضافة إلى محاولة الاستيلاء على بعض الأراضي الإسلامية لشحنها بالجند واتخاذها مراكز أمامية لمواجهة أي تحرك سلجوقي في المستقبل. فترك جزءا من جيشه بالقرب من ملطية تحت قيادة فيلاريت الأرميني، وأمره أن يعترض طريق السلاجقة. غير أن السلاجقة استطاعوا إنزال الهزيمة بقوات فيلاريت وفتحوا ملطية. وانسابت جموعهم في قلب آسيا الصغرى، ونهبوا قونية(٧٣).

وعندما علم الإمبراطور البيزنطي رومانوس بتلك الهزيمة التي حلت بقواته وما أصاب مدينة قونية إثر اجتياح السلاجقة لها. تقدم بقواته آملا في وقف الزحف السلجوقي. لكن لم يكن بوسعه التصدي لهم. لذلك عاد إلى القسطنطينية في عام ٤٦٣هـ /١٠٧١م لإعداد جيش آخر لمواجهة السلاجقة. فجهز جيشا وجعل على قيادته القائد مانويل كومنين الذي خرج بجيشه في نفس العام إلا أنه لم يكن أحسن حالا مما أصاب جيش الإمبراطور وقواته. إذ أنزل السلاجقة به هزيمة ساحقة قرب سيواس ووقع القائد البيزنطي في الأسر(٧٤).

مما تجدر الإشارة إليه أن السلطان السلجوقي ألب أرسلان سار في تلك الإثناء إلى حلب وتمكن من إخضاعها. حيث أعلن أميرها رشيد الدولة محمود بن نصر المرداسي تبعيته للسلاجقة. فخلع عليه ألب أرسلان وأبقاه على حكم حلب(٧٥)؛ وأثناء ذلك استغل الإمبراطور البيزنطي فرصة وجود السلطان ألب أرسلان في بلاد الشام وانشغاله بمحاولة تقليص الوجود الفاطمي فيها وإخضاعها لسلطانه فأعد حملة في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م لاسترداد أرمينية ووقف غارات السلاجقة على آسيا الصغرى(٧٦). وخرج الإمبراطور على رأس تلك الحملة التي كانت تتكون من جيش كبير كان معظمه من الروم، والإفرنج، والنورمان، والروس، والبجناك، والكرج(٧٧) «وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاءوا في تجمل كثير وزيّ عظيم وقصد بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذ كرد»(٧٨)؛ و كما يتضح من تركيبة عناصر الجيش البيزنطي يظهر جليا أن معظمه كان من العناصر المأجورة، أي من الجنود المرتزقة. فرغم كثرتهم العددية إلا أنها كانت تفتقر إلى التجانس والنظام(٧٩). وتتشكك في بعضها البعض. خاصة ما كان يدور بين البيزنطيين والأرمن والترك من شك وريبة(٨٠).

وبعد أن وصل الإمبراطور البيزنطي رومانوس إلى أرمينية. أعد عدته. فقام بشحن حصونها بالجند قبل قدوم السلاجقة إليها. وجهز بعض الفرق لمهاجمة الجيش السلجوقي ومحاولة تطويقه عند دخوله أرمينية من الجنوب، ثم تابع الإمبراطور زحفه ببقية القوات إلى قيصرية بآسيا الصغرى. ولكن بعد أن أتم ذلك قرر الإمبراطور الانسحاب فجأة والعودة إلى القسطنطينية. بل حاول قبل عودته أن يتوصل إلى اتفاق مع السلطان ألب أرسلان(٨١).

وعلى الجانب الآخر لم تكن الأمور على ما يرام بالنسبة للسلاجقة في تلك الآونة. فقد كان السلطان ألب أرسلان في موقف شديد الحرج إذ أن جزءا كبيرا من جيشه قد تقاعس عن

الاستمرار في مواصلة القتال بسبب تأخير أرزاقهم أثناء حصار حلب؛ وبينما كان السلطان في طريق عودته إلى بلاده عن طريق الفرات بعد إخضاعه حلب وصلت إليه رسل الإمبراطور البيزنطي تعرض عليه الصلح على أن يتنازل الإمبراطور للسلطان عن منبج وأرجيش وملاذ كرد، فضلا عن أنه أرسل إليه هدية(٨٢).

ويوضح ابن العبري ذلك العرض، فيشير إلى أن الإمبراطور عرض على السلطان ألب أرسلان أن يتنازل له على منبج، مقابلَ أن يتنازل السلطان للإمبراطور على أرجيش وملاذ كرد بالإضافة إلى ضريبة مالية سنوية يدفعها السلطان للإمبراطور(٨٣)؛ ويعتبر هذا التوضيح لشروط الصلح التي عرضها ابن العبري أكثر دقة، ذلك لأن منبج في تلك الآونة كانت في أيدي البيزنطيين منذ أن استولى عليها رومانوس في الحملة الثانية التي شنها على بلاد الشام، في حين كانت أرجيش وملاذكرد خاضعتين للسلطان ألب أرسلان؛ ويشير ابن العبري إلى أن السلطان قبل ذلك العرض، بل وتنازل للإمبراطور عن جميع الأراضي الخاضعة للسلاجقة في أرمينية (٨٤).

لاشك أن السلطان ألب أرسلان قد وافق على عرض الصلح بسبب تقاعس بعض القوات كما ذكر من قبل، فضلا عن أنه لم يكن على أهبة الاستعداد لمواجهة الجيش البيزنطي الكبير الذي كان يقوده الإمبراطور بنفسه، خاصة وأن قواته أيضا كانت قد أنهكت في الحملة على حلب.

ومما يلفت الانتباه إليه ذلك العرض الذي عرضه الإمبراطور البيزنطي على السلطان ألب أرسلان رغم كثر قوات الإمبراطور واستعداده المسبق للحملة والذي تذكره بعض المراجع دون التعليق، بل يتعجب بعض المؤرخين المحدثين من موقف الإمبراطور، ويرجعون ذلك إلى أن تسارع الأحداث عطل تنفيذ الاتفاقية المبرمة(٨٥).

والحقيقة الواضحة من الأحداث تشير إلى أن عرض الصلح الذي عرضه الإمبراطوز على السلطان ألب أرسلان إنما كان من قبيل المراوغة حتى يضيع الوقت على السلطان السلجوقي، فلا يستطيع أن يعد قواته الإعداد اللازم لمواجهة الحملة الكبيرة التي أعدها الإمبراطور؛ ولم تطل مدة تلك المراوغة من الإمبراطور، فبعد أن تأكد من عدم استعداد السلطان السلجوقي لمواجهته توجه بقواته صوب خلاط و ملاذ كرد محاولا الاستيلاء عليهما(٨٦).

وعندما علم السلطان ألب أرسلان بالهجوم البيزنطي على أرمينية وكثرة حشود الجيش البيزنطي، ولم يكن قد اتخذ بعد الاستعدادات اللازمة للتصدي لهم، كما لم يسعفه الوقت في أن يجمع قواته في الحال نظرا لبعدها وقرب العدو منه، سير الأثقال مع زوجته الخاتون ووزيره نظام الملك إلى تبريز(٨٧)، وسار هو فيمن معه من القوات مجدًا في السير إلى أرمينية لقتال البيزنطيين قائلا لهم «إنني أقاتل محتسبا صابرا فإن سلمت فنعمة من الله وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي» (٨٨)، وعندما وصل السلطان ألب أرسلان إلى أرمينية ورأى تفوق القوات البيزنطية حاول تغيير خطته العسكرية فتظاهر بالانسحاب من المنطقة وعبر الفرات مما أغرى الإمبراطور البيزنطي رومانوس إلى مطاردته ظنا منه أنه فرّ

هاربا من القتال؛ ولكن بعبور الفرات تمكن السلطان ألب أرسلان من تعزيز قواته بمن انضم إليه سواء من الأكراد أو من سائر الناس في المنطقة، وأعاد تنظيم صفوفه، وتأهب لملاقاة الإمبراطور، مما يدل على أنه عمل على بث روح الجهاد والحماس الديني ضد البيزنطيين(٨٩).

أما الإمبراطور البيزنطي فعندما وصل إلى أرزن قسم قواته إلى قسمين: ضم القسم الأول عشرة آلاف مقاتل من الروس ووجهته مدينة خلاط، والقسم الثاني ووجهته ملاذكرد؛ وبدأت القوات البيزنطية في التحرك، كل في الاتجاه المحدد له، فتقدمت قوات القسم الأول إلى خلاط والتقت بمقدمة جيش السلطان ألب أرسلان فتمكنت القوات الإسلامية من إنزال الهزيمة بها عند خلاط، وأسر مقدم الروس (٩٠).

وعلى الجانب الآخر توجه الإمبراطور على رأس القسم الثاني من القوات البيزنطية إلى الجنوب الغربي من خلاط، وعندما وصلها وجد نفسه في مواجهة جيش السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي كان معسكرا في جنوب ملاذكرد، والتقت القوتان في يوم الأربعاء ١٥ من ذي القعدة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م (٩١) في مكان يعرف بالزهرة (٩٢).

والحقيقة أن السلطان ألب أرسلان على الرغم من انتصاره على القسم الأول من الجيش البيزنطي إلا أنه خشي من كثرته، لذلك آثر السلامة والهدنة مع البيزنطيين، فأرسل مبعوثا من قبله إلى الإمبراطور البيزنطي يعرض عليه الهدنة إلا أن الإمبراطور رفض العرض وقال « لا هدنة إلا بالري» (٩٣)، فانزعج السلطان ألب أرسلان لهذا الرد العنيف، وأدرك حقيقة الموقف البيزنطي الذي يهدف إلى القضاء على الدولة السلجوقية أولا ومن ثمَ القضاء على دولة الخلافة الإسلامية؛ ولعل هذا هو الذي ثبت قلبه على الاستماتة في قتال البيزنطيين والدفاع عن دين الله، وقد قال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الله البخاري الحنفي« إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح»(٩٤).

لقد كان لكلام الفقيه أبو نصر البخاري أثره البالغ على السلطان وقواته، كما كان للدعاء الذي دعاه السلطان في صلاة الجمعة التي سبقت التحام القوات مباشرة دوره في بث روح الحماس الديني والجهاد لدى الجميع؛ والتقت القوات الإسلامية مع القوات البيزنطية بعد صلاة الجمعة مباشرة، فحملت القوات الإسلامية على القوات البيزنطية حملة شديدة، ودارت معركة حاسمة بين القوتين، كانت الدائرة فيها على البيزنطيين، فانهزموا هزيمة مروعة قتل وأسر منهم الكثير، ووقع الإمبراطور البيزنطي نفسه في الأسر بعد أن جرح في ساحة القتال(٩٥)، وغنم المسلمون غنائم كثيرة لا تحصى؛ ويشير الفارقي إلى مدى ما حصل عليه أهل خلاط من الغنائم، وما أصبحوا فيه من ثراء بعد تلك الوقعة فيقول« وغنم أهل خلاط ومنازجرد من أموالهم ما استغنوا به إلى الآن فإنهم خرجوا وأقاموا مع الجيش وقاتلوا ونهبوا أكثر النهب ومن تلك السنة استغنى أهل خلاط وحصلوا أرباب مال» (٩٦).

أما الإمبراطور البيزنطي الذي وقع في الأسر فقد أكرمه السلطان ألب أرسلان ووافق على إطلاق سراحه مقابل فديه كبيرة، وعقدت اتفاقية بين الطرفين نصت على أن يدفع الإمبراطور جزية سنوية للسلاجقة، وأن يطلق سراح من وقع في الأسر من الأتراك في أيدي البيزنطيين(٩٧)؛ كما تعهد الإمبراطور بإمداد السلاجقة بالمعونة العسكرية متى طلبوها، واتفقوا على تقسيمات إقليمية جديدة، بحيث تظل آني والفاسبوراكان وملاذ كرد في أيدي السلاجقة، ويبقى إقليم الأطراف خاصة أرزن في أيدي البيزنطيين(٩٨).

وبعد عقد الاتفاق بين السلطان ألب أرسلان والإمبراطور البيزنطي عاد الإمبراطور إلى القسطنطينية، ولكن لم تكن الأمور تسير لصالحه، ففي أثناء فترة أسره تولت زوجته الإمبراطورة«أودي كسيا» العرش مع ابنها «ميخائيل دو كاس»، إلا أنها أجبرت على دخول الدير في ٤٧٠ هـ /٢٤ أكتوبر ١٠٧٧م، وأعلن ميخائيل السابع إمبراطورا؛ ولما عاد رومانوس فوجئ بعزله وعومل كعدو للإمبراطورية، فقبض عليه وسملت عيناه (٩٩)؛ إلا أن ميخائيل السابع دوكاس لم يستطع إلا أن يقر تلك المعاهدة التي وقعها رومانوس مع السلطان ألب أرسلان(١٠٠).

- نتائج معركة ملاذكرد:

لقد كانت معركة ملاذكرد(٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م) نقطة تحول فاصلة في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ منطقة آسيا الصغرى بصفة خاصة؛ فعلى الصعيد الإسلامي واصل السلاجقة بهذه المعركة كفاح العرب المسلمين ضد الروم البيزنطيين، واستطاعوا بهذا النصر أن يمهدوا للقضاء على الإمبراطورية البيزنطية، العدو الذي ظل يصارعهم منذ بدء حركة الفتوحات الإسلامية الكبرى في القرون الأولى للهجرة؛ وقد كان الروم البيزنطيون يحرصون على وضع أيديهم على بلاد الأرمن وما جاورها ويعتبرونها القنطرة بين الشرق والغرب مما جعل تلك البلاد ميدان الصراع بين الفرس والروم قبل الإسلام، وبين المسلمين والروم فيما بعد، لذا حاول المسلمون وضع أيديهم عليها وبسط نفوذهم فيها بكل السبل، لكن ظل النفوذ البيزنطي فيها قويا وطاغيا حتى كانت موقعة ملاذكرد، ودارت الدائرة على البيزنطيين الذين أخذ نفوذهم يتقلص بعدها شيئا فشيئا حتى زال تماما؛ ولاشك أن تقلص الوجود البيزنطي عن أرمينية وآسيا الصغرى أدى إلى انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية بنظمها وجميع مظاهرها (١٠١).

أما عن آسيا الصغرى فإن موقعة ملاذكرد يسرت القضاء على الوجود البيزنطي في أكثر أجزائها مما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها بعد ذلك على يد الأتراك العثمانيين، وأدى إلى انتشار الإسلام في كل منطقة غرب آسيا، بل وقفز منها مع التقدم العثماني إلى شرق أوربا (١٠٢).

وفي الحقيقة تعد معركة ملاذكرد أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية، إذ أن هذه المعركة قررت مصير آسيا الصغرى بعد أن نجح الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها.

ولم تستطع بيزنطة الوقوف في وجه ذلك التوسع السلجوقي العارم الذي استقر في الولايات الشرقية من آسيا الصغرى بالإضافة إلى أرمينيا وقبادوقيا، مما يعد دليلا على قرب موت الإمبراطورية البيزنطية أو بداية نهايتها(١٠٣).

وبعد انتصار السلاجقة على البيزنطيين في معركة ملاذكرد عملوا على محو آثار المعالم البيزنطية من الطرق الرئيسة في المناطق التي فتحوها في أرمينية وقبادوقيا بالإضافة إلى إزالة معالم الإدارة المدنية البيزنطية في المدن خاصة بعد أن تخلى معظم السكان عن البيزنطيين واستسلموا للحكام الجدد من السلاجقة خوفا من المجاعة، ومع ذلك فإن السلاجقة تركوا المدن تحكم نفسها بنفسها ولم يتدخلوا في شؤونها الداخلية إلا أن طبيعة الحياة فيها قد تغيرت عندما أخذت تصبغ بالصبغة الإسلامية، إذ أن انحسار النفوذ البيزنطي عن المنطقة شجع السكان على الدخول في الإسلام، وإن كان دخولهم في الإسلام قد اتسم في بداية الأمر بالطابع الظاهري، حيث ظل أغلبهم يشربون الخمر، كما كان يساق معظمهم إلى الصلاة سوقا، بل أن معظمهم كانوا يتعاونون مع النصارى ضد المسلمين أثناء حصار أو حرب كلما سنحت لهم الفرصة (١٠٤).

ويعد من أكبر نتائج معركة ملاذكرد، بل ومن أهم النتائج العملية الواقعية التي رسخت الوجود الإسلامي في آسيا الصغرى، هو قيام دولة إسلامية قوية في قلب الإمبراطورية البيزنطية والتي عرفت بسلطنة سلاجقة الروم، حيث كان لها الدور الفعّال في انتشار واستقرار الإسلام في آسيا الصغرى؛ يضاف إلى تلك النتائج ظهور بعض الإمارات الإسلامية التركية الصغيرة في منطقة آسيا الصغرى مما زاد من توطيد الوجود الإسلامي فيها؛ فبعد معركة ملاذكرد استقر بعض أمراء الأتراك مثل دانشمند(١٠٥) وزاخاس(١٠٦) ومنكوكجك(١٠٧) في المنطقة، ونجحوا في تأسيس إمارات لهم في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى، خاصة حول قيصرية وسيواس وملطية وأماسية، بالإضافة إلى انتشار القبائل التركمانية في المنطقة حيث عملت على مهاجمة المناطق المجاورة وقامت بتدمير طرق المواصلات المؤدية إليهم، مما أرغم حكام الأقاليم البيزنطيين على أن يبقوا معزولين، كما هيأت تلك القبائل للزعماء الأتراك أن يحققوا رغباتهم في تأسيس إمارات مستقلة، وأضحوا بعد ذلك عنصرا أساسيا ومانعا ديموغرافيا وقف عقبة أمام كل محاولة بيزنطية لاستعادة تلك البلاد(١٠٨).

تأسيس سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى

يعتبر ظهور سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى أحد النتائج الأساسية المباشرة لمعركة ملاذكرد؛ فبعد انتهاء المعركة إنساح السلاجقة في جوف آسيا الصغرى، واستقروا في ربوعها، شجعهم على ذلك تفجر النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين مما مكنّ المسلمين السلاجقة من تأسيس دولة إسلامية قوية في قلب الإمبراطورية البيزنطية، في عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، عرفت بسلطنة سلاجقة الروم(١٠٩).

ويرجع تأسيس سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى إلى سليمان بن قتلمش الذي كان قائدا لإحدى الجماعات السلجوقيه التي كانت تفتح في الأراضي البيزنطية بنشاط كبير خاصة بعد وفاة السلطان السلجوقي ألب أرسلان(١١٠). فقد قام سليمان بن قتلمش بإدارة شئون المنطقة الشمالية الغربية التي فتحت في آسيا الصغرى(١١١). وقد نجح في إدارتها، بل نجح أيضا في التوسع عبر آسيا الصغرى وضم مساحات شاسعة من الأراضي البيزنطية إلى السلاجقة، وساعده على ذلك عدة عوامل منها:

١- التغيير الديمغرافي الناتج عن الفتح السلجوقي لآسيا الصغرى، إذ أصبحت المناطق الشمالية والشرقية شبه خالية بعد هجرة سكانها الأصليين من البيزنطيين والأرمن الذين اضطروا إلى الفرار وترك قراهم ومزارعهم إلى مناطق أكثر أمنا تحت وطأة تزايد وانسياح القبائل التركية التي ساندت سليمان في فتوحه والتي كانت تطوف أرجاء آسيا الصغرى بحثا عن الماء والكلأ، فأقاموا في تلك القرى الخالية واستقروا فيها وغيروا معالمها (١١٢).

٢- اضطراب الأوضاع داخل الإمبراطورية البيزنطية بعد هزيمة ملاذكرد، إذ استفاد السلاجقة من تلك الأوضاع مما يسر لهم التدخل في الشئون الداخلية لأطراف النزاع حتى تمكنوا بالفعل من التوغل داخل أراضي الإمبراطورية حتى وصلوا إلى المقاطعات الغربية في آسيا الصغرى(١١٣).

ففي عام ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م أرسل الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع إلى سليمان بن قتلمش للاستعانة به ضد ثورة نقفور برينيوس مَتَيّ، دوق دراخيوم، الذي ثار ضده واتجه إلى أسوار القسطنطينية، فتمكن القائد الكسيوس كومنين بمساعدة سليمان بن قتلمش من القضاء عليه؛ ولعل دخول السلاجقة هكذا في الجيش البيزنطي قد مهد إلى استقرارهم الدائم في الأ' راضي البيزنطية بآسيا الصغرى وقويت شوكتهم(١١٤). وعندما استعان الإمبراطور ميخائيل السابع بسليمان بن قتلمش للتصدي لثورة نقفور بوتانياتس حاكم ثغر عمورية تحول عنه سليمان ودخل بقواته في خدمة الثائر نقفور بوتانياتس الذي نجح في ثورته، وأعلن نفسه إمبراطوراً في عام ٤٧١هـ/ يناير ١٠٧٨م باسم نقفور الثالث، فدخل سليمان بن قتلمش إلى نيقية(١١٥)، وساعده الإمبراطور نقفور الثالث بوتانياتس في الاستيلاء عليها وعلى نيقوميديا وكزيكوس وخلقدونيا وكريسوبوليس التي تقع جميعها في غرب الأناضول(١١٦).

ولا شك أن هذا يدل على مدى حنكة سليمان بن قتلمش وقدرته السياسية لاستغلال تلك الأوضاع المتأججة داخل الإمبراطورية البيزنطية الأمر الذي مكنه من التوسع في غرب الإمبراطورية البيزنطية وامتداد الفتح السلجوقي إلى غرب الأناضول.

وعندما استقرت الأمور للإمبراطور نقفور الثالث بوتانياتس حاول إجلاء السلاجقة عن الأراضي التي دخلوها في غرب الأناضول، دون جدوى، إذ أعلن السلاجقة الثورة والعصيان ضده، بل أعلن سليمان بن قتلمش نفسه سلطانا على تلك البلاد واتخذ من نيقية عاصمة له، ولم يأت عام ٤٧٣هـ/١٠٨٠م إلا وكان السلطان سليمان بن قتلمش مستقراً ومسيطراً على كل

أراضي آسيا الصغرى(١١٧) من قيليقية إلى الدردنيل(١١٨).

ولاشك أن اتخاذ سليمان بن قتلمش من نيقية- تلك المدينة التي كانت تعد من أجلّ وأعظم المدن في العالم النصراني ولا تبعد أكثر من مائة ميل عن القسطنطينية- أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى(١١٩) يدل على مدى تغلغل المسلمين الأتراك في قلب الإمبراطورية البيزنطية وبالتالي انتشار الإسلام على نطاق واسع.

هكذا استطاع سليمان بن قتلمش السلجوقي أن يؤسس دولة إسلامية في قلب آسيا الصغرى، وهي المنطقة التي لم يستطع الفاتحون الأوائل من العرب المسلمين فتحها مثلما فتحوا بلاد العراق وفارس وبلاد الشام ومصر على الرغم من الجهود العظيمة التي بذلت من أجل ذلك.

- توطيد النفوذ السلجوقي في آسيا الصغرى:

لقد أدى قيام سلطنة سلاجقة الروم في قلب آسيا الصغرى، وعلى حساب ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، إلى تدفق العنصر التركي إلى المنطقة بشكل كبير، مما أدى في نفس الوقت إلى هجرة الكثير من السكان الأصليين من البيزنطيين والأرمن وغيرهم من العناصر المسيحية من تلك البلاد والرحيل عنها إلى مناطق أخرى أكثر أمنا، الأمر الذي واكبه صبغ تلك البلاد بتعاليم العقيدة الإسلامية السمحة وما تحمله الحضارة الإسلامية من نظم وآداب حلت محل الحضارة اليونانية والديانة المسيحية؛ أي أن قيام سلطنة سلاجقة الروم الإسلامية في آسيا الصغرى أدى إلى تفتيت الأسس والقواعد التي كان يسير عليها المجتمع البيزنطي ليحل مكانها الأسس والقواعد التي يقوم عليها الدين الإسلامي بتعاليمه السمحة، ويؤكد ذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم، فيرجع روبنسن فريونز زقيّ دُ. سبب اضمحلال الحضارة البيزنطية في آسيا الصغرى إلى تنامي ظاهرتين جليتين واضحتين هما انتشار الإسلام وتدفق وازدياد القبائل التركية فيها(١٢٠).

ولم يتوقف دور سلطنة سلاجقة عند إرساء الأسس الإسلامية السمحة وتزايد العنصر التركي في آسيا الصغرى فحسب، بل تعدى ذلك بكثير، إذ كان لوجود تلك السلطنة أثره البالغ والمباشر في الحد من الهجمات البيزنطية والصليبية على البلاد الإسلامية؛ فقد قام سلاجقة الروم بدور بارز من أجل الجهاد والدفاع عن الوجود الإسلامي ضد الصليبيين زمن الحملتين الأولى والثانية، وإن كانوا أخفقوا في التصدي لصليبي الحملة الأولى(٤٩٠ هـ/١٠٩٧م) الذين تحالفوا مع البيزنطيين وفاجأوا السلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول(٤٨٥-٥٠٠هـ/١٠٩٢-١١٠٧م) مستغلين خروجه من أجل تثبيت وجوده وفرض سيطرته على التركمان في آسيا الصغرى وانشغاله في محاربة بني الدانشمند الذين كانوا يسعون للاستقلال؛ فقد نجح الصليبيون في حصار نيقية عاصمة السلاجقة، بينما تمكن البيزنطيون أثناء الحصار الاستيلاء عليها دون علم الصليبيون بعد عقد معاهدة مع الحامية الإسلامية المدافعة عنها

مستغليين اشتداد الحصار عليهم وخروج معظم الجيش مع السلطان قلج أرسلان مما اضطر الحامية إلى تسليم المدينة للبيزنطيين في ١٦ رجب عام ٤٩٠ هـ / ١٩ يونيو عام ١٠٩٧ م مقابل تأمينهم(١٢١).

وعلى الرغم من نجاح صليبي الحملة الأولى في الوصول إلى أهدافهم ورغم ضياع نيقية عاصمة السلاجقة إلا أن السلطان السلجوقي قلج أرسلان تمكن من أن يستعيد قوته ويبسط نفوذه في المنطقة مرة أخرى متخذا من قونية عاصمة لسلطنته، لذلك تمكن من التصدي للجموع الصليبية التي بدأت تتدفق إلى الشرق في عام ٤٩٤ هـ /١١٠١م آملة أن تحقق مثلما حقق أسلافهم صليبو الحملة الأولى، لكن أنزل بهم السلطان السلجوقي قلج أرسلان عدة هزائم متلاحقة في معارك مرسيفان، وهرقلة الأولى، وهرقلة الثانية، حتى أبيد معظمهم (١٢٢)؛ وبهذا النصر المؤزر أصبح السلاجقة يسيطرون على الطريق البري الذي يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام سيطرة كاملة مما جعله غير آمن أمام الصليبيين والبيزنطيين على حد سواء، لذا لجأ الصليبيون إلى سلوك الطريق البحري الأكثر كلفة إلى بلاد الشام، وبهذا ظل الطريق البري عبر آسيا الصغرى مغلقا في وجه الصليبيين عدة أعوام بسبب بسط النفوذ السلجوقي عليه(١٢٣).

وفي زمن الحملة الصليبية الثانية(٥٤٢هـ/١١٤٧م) قام سلاجقة الروم بقيادة السلطان ركن الدين مسعود بن قلج أرسلان (٥١٠- ٥٥٠هـ /١١١٦- ١١٥٥م) بدور بارز في الجهاد ضد الصليبيين والتصدي لتلك الحملة التي قادها كل من كونراد هوهنشتاوفن إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا؛ فقد تمكن السلاجقة من إنزال هزيمة ساحقة بالقوات الصليبية وأثبتوا بذلك مقدرتهم على قيادة العالم الإسلامي في مواجهة الخطر الصليبي وحمل راية الإسلام والجهاد ضد الصليبيين(١٢٤)، لذا أرسل الخليفة العباسي المقتفي بأمر الله (٥٣٠ -٥٥٥ هـ/ ١١٣٥-١١٦٠م) الهدايا والتشاريف إلى السلطان ركن الدين مسعود(١٢٥)؛ ولاشك أن ذلك كان تقديرا وإجلالا من الخليفة للدور الذي قام به سلطان سلاجقة الروم في محاربة أعداء الدين، والمحافظة على هيبة العالم الإسلامي والذود عن الدين الحنيف إبان تلك الفترة.

انتشار الإسلام فى آسيا الصغرى

لقد ظل الحماس الديني الذي أبداه السلاجقة عند اعتناقهم للإسلام على قوته واندفاعه خلال القرون الأولى التي أعقبت اعتناقهم للدين الإسلامي مما دعى الأجيال التي أعقبتهم تعتبر أن من واجبها الديني حماية الخليفة الشرعي والدفاع عن العقيدة الإسلامية(١٢٦) ونشرها في البلدان المفتوحة، ولا أدل على مدى انتشار الإسلام في آسيا الصغرى على أيدي السلاجقة من رواية الرحالة ابن بطوطة التي قال فيها «وجميع أهل هذه البلاد على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه مقيمين على السنة لا قدري فيهم ولا رافض ولا معتزلي ولا خارجي ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها»(١٢٧).

ولقد صاحب قيام سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى التزام سلاطين السلاجقة بالجهاد ونشر الإسلام في ربوع المناطق التي تم فتحها، إذ كان لدى هؤلاء السلاطين قناعة تامة أن الدين الإسلامي لن ينتشر في تلك المنطقة إلا بضرورة تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة مع المواطنين أصحاب الديانات الأخرى؛ لذلك اتسمت سياستهم مع المسيحيين منذ بداية تواجدهم بآسيا الصغرى بالتسامح والعدل والحرية الدينية التي كفلت للكثيرين الاحتفاظ بدينهم، فلم يكن هناك تعصب ديني لدى السلاجقة، مما جذب الكثيرين من مسيحي آسيا الصغرى إلى الدخول في الإسلام طواعية (١٢٨)؛ ويدل على ذلك التسامح الديني الموقف الذي اتبعه السلطان السلجوقي ألب أرسلان مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس عندما وقع في الأسر، حيث عامله معاملة حسنة وأكرمه، ثم أطلق سراحه (١٢٩).

ومما تجدر الإشارة إليه أن السماحة الدينية كانت تعد أحد سمات سلاطين سلاجقة الروم، حيث تذكر المصادر أن السلطان سليمان بن قتلمش عندما توجه إلى أنطاكية وفتحها في عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤ م نادى السلطان بالأمان، وحرم على جنوده استخدام القوة أو دخول أي بيت أو مضايقة السكان(١٣٠)، مما طمأن سكان أنطاكية وجعلهم يشعرون بالأمان في ظل السيطرة السلجوقية (١٣١).

كذلك راعى سلاطين سلاجقة الروم الإبقاء على الكنائس التي كان يمارس فيها المسيحيون طقوسهم الدينية، ولم يحدث أن تحول مسجد إلى كنيسة إلا في إطار ضيق، حيث لم تشر المصادر المعاصرة إلا إلى بعض الحالات النادرة التي تم فيها ذلك، وكانت إحداها في بداية تأسيس السلطنة عندما أمر السلطان سليمان بن قتلمش بتحويل كنيسة القديس بطرس بأنطاكية إلى مسجد(١٣٢)، صلى فيه المسلمون يوم الجمعة ١٥ شعبان عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م« وأذن فيه ذلك اليوم مائة وعشر من المؤذنين وخلق كثير من أهل الشام» (١٣٣)؛ وأخرى كانت في سينوب (صنوب) في عام ٦١١ هـ /١٢١٤م عندما فتحها السلطان عز الدين كيكاوس(٦٠٨- ٦١٦هـ/ ١٢١١- ١٢١٩م) حيث حول كنيسة المدينة إلى مسجد وعين عليها قاضيا وخطيبا ومؤذنا(١٣٤)؛ وربما فعل السلطان عز الدين كيكاوس ذلك لأن حاكم مدينة سينوب البيزنطي بدأ بالإغارة على المناطق الحدودية لسلطنة سلاجقة الروم، مما دفع السلطان عز الدين إلى التوجه إلى سينوب ومحاصرتها حتى تم له فتحها وفرض جزية على أهلها بلغت عشرة آلاف دينار وخمسمائة رأس خيل وألفا رأس بقر وعشرة آلاف رأس غنم وخمسون حملا من أنواع التحف(١٣٥).

ولا شك أن السماحة الدينية التي اتبعها السلاجقة في آسيا الصغرى جعلت المسيحيين يرحبون بالحكم الإسلامي، فأشار متى الرهاوي إلى أن المسيحيين في آسيا الصغرى كانوا يكنون الحب والاحترام للسلطان قلج أرسلان الثاني(٥٥٠- ٥٨٨هـ/ ١١٥٥- ١١٩٢م)، لذلك حزنوا حزنا شديدا لوفاته لشعورهم أنهم فقدوا حاميهم (١٣٦).

ومما لاشك فيه أيضا أن حسن سياسة سلاطين السلاجقة تجاه أصحاب الديانات الأخرى كان لها دور كبير في دخول أعداد كبيرة من سكان المنطقة في الإسلام: ففي الوقت الذي زاد فيه

عدد السكان المسلمين كان يقابله نقص كبير في عدد السكان المسيحيين مما يؤكد انتشار الإسلام على نطاق واسع بين نصارى آسيا الصغرى؛ وبرز بعض رجالات الدولة السلجوقية ممن كانوا حديثي عهد بالإسلام، الذين كانوا ينتمون إلى الأرستقراطية البيزنطية العليا، بل وجد عدد كبير من الصناع والعلماء وحتى كبار الصوفية ممن كانوا يدينون بالديانة المسيحية ثم تحولوا أو تحول آباؤهم من قبل إلى الإسلام في ظل دولة سلاجقة الروم الإسلامية؛ يضاف إلى ذلك عوامل أخرى منها حسن معاملة المسلمين للمسيحيين والمخالطة الطويلة بينهما، فضلا عن ترأس المسلمين لمعظم المناصب العليا في الدولة وجهود العلماء ورجال الدين المسلمين ممن كانوا سببا في دخول الكثير من المسيحيين في الإسلام(١٣٧).

ومن الأمثلة على الزيادة المطردة في انتشار الإسلام بين المسيحيين ما حدث في إمارة قيليقية من اعتناق كثير من الأرمن الإسلام، بل وترحيب بعض الأسر بالحكم الإسلامي مثل أسرة بجوساج التي اعتنق كل أفرادها الإسلام منذ عام٤٦٥ هـ /١٠٧٢ م(١٣٨)؛ كما اعتنق بعض أفراد عائلة جابراس الإسلام(١٣٩)، وبرز منهم الحاجب اختيار الدين حسن بن جابراس، وهو يوناني الجنسية، اعتنق الإسلام وأصبح أحد أكابر أمراء السلطان قلج أرسلان الثاني، ومن أقرب المقربين إليه، فولاه السلطان النيابة في مملكته، وهو رجل تقي، وله صدقات كثيرة دارة كان ينفقها في أوجه الخير(١٤٠)، إلا أنه قد قتل على يد أحد التركمان أثناء الفتنة التي حدثت بين السلطان قلج أرسلان وأحد أبنائه(١٤١).

- مظاهر انتشار الإسلام في آسيا الصغرى:

تعددت مظاهر انتشار الإسلام في آسيا الصغرى حيث حرص سلاطين السلاجقة على طبع البلاد بالطابع الإسلامي ونشر الثقافة الإسلامية، لذلك اهتموا اهتماما كبيرا بإنشاء المساجد والجوامع والمدارس والزوايا والربط وغيرها من المؤسسات الدينية التي تدعم انتشار الإسلام في المنطقة خاصة وأنها عاشت قرونا طويلة في ظل الحضارة اليونانية والديانة المسيحية؛ وفيما يلي نماذج لأهم المظاهر التي صاحبت انتشار الإسلام في آسيا الصغرى، شملت:

أ- المساجد والجوامع:

بذل سلاطين السلاجقة جهودا كبيرة في بناء العديد من المساجد والجوامع في شتى ربوع البلاد المفتوحة في آسيا الصغرى، وربما كان ذلك ترجمة عملية لما ورد على لسان السلطان السلجوقي طغرلبك حيث قال: إذا شيدت منزلا ولم أشيد بالقرب منه مسجدا فإنني استحي من الله. لذلك حرص السلاطين بعده على إنشاء المساجد بأحجام كبيرة وعلى مساحات واسعة في مقابل إنشاء قصورهم بأحجام متواضعة(١٤٢)، وربما يعزي ذلك إلى حرصهم على إظهار المساجد بهذا الحجم لتجسيد مظهر صبغ البلاد بالطابع الإسلامي الذي يظهر في عظمة واتساع المساجد.

ولقد أدرك السلاجقة منذ بداية تواجدهم أن منطقة آسيا الصغرى في حاجة كبيرة إلى إنشاء العديد من المساجد خاصة وأنها كانت ذات طابع مسيحي بيزنطي(١٤٣)، ولاشك أن هذا هو ما دعا السلطان السلجوقي ألب أرسلان إلى تشييد المساجد في المناطق التي فتحها في طريقه لآسيا الصغرى في بلاد الكرج والأرمن في عام ٤٠٦ هـ / ١٠٦٤م، أي قبل لقائه مع البيزنطيين في ملاذكرد؛ ويشير الحسيني إلى ذلك في أكثر من موضع فيقول في فتح تفليس- قاعدة بلاد الكرج« ففتح السلطان البلد وبنى فيها الجامع»(١٤٤)، كما يقول أيضا عن بلدة أخرى، يقال أنها بلدة نمرود بن كنعان، خرّبها السلطان أثناء المواجهة مع الكرج «وبنى بجوارها بلدة وجامع»(١٤٥)؛ ولاشك أن هذه الروايات تؤكد أن السلاجقة قد ساروا على نفس النهج الذي سار عليه الفاتحون المسلمون الأوائل من العرب في أن يكون المسجد أول بناء في المناطق التي تطؤها أقدامهم وتفتح على أيديهم.

وعندما قامت سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى اهتم سلاطين السلاجقة بتشييد المساجد في البلدان المفتوحة، فعندما فتح السلطان كيخسرو الأول بن قلج أرسلان- في فترة سلطنته الثانية(٦٠١-٦٠٨ هـ/ ١٢٠٤-١٢١٢م)- مدينة أنطاليا في عام ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦م بنى فيها مسجدا وعين فيه خطيبا وإماما ومؤذنا(١٤٦)، ثم انتشرت بعد ذلك المساجد الجامعة في أنحاء آسيا الصغرى عقب تلك الفتوحات، بحيث أصبح في كل مدينة مسجد جامع أو أكثر، هذا بالإضافة إلى انتشار المساجد الخشبية الصغيرة في كثير من الأحياء داخل المدن والقرى(١٤٧)؛ ويؤكد الرحالة ابن بطوطة الذي زار المنطقة على انتشار المساجد الجامعة بالمدن فيشير إلى وجود مسجد جامع في مدينة أنطاليا، وأن من عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر في كل يوم في المسجد الجامع وفي المدرسة سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم»(١٤٨)، ووجود مسجد جامع في مدينة أكريدور(١٤٩)؛ أما في مدينة لاذق فيذكر ابن بطوطة أن « فيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة»(١٥٠)، كما يشير إلى العديد من المساجد الجامعة في قونية وأقصرا وسيواس وغيرها من المدن(١٥١)؛ وفي سينوب (صنوب) يقول في وصف مسجدها الجامع أن« المسجد بمدينة صنوب من أحسن المساجد، وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام، وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب» (١٥٢).

ب- المدارس:

تعتبر المدارس من المؤسسات التعليمية والتوعية الكبرى التي كان لها دور كبير في الدعوة إلى الإسلام بآسيا الصغرى مما سهل عملية انتشاره وبث الحضارة الإسلامية في أرجائها؛ ولقد زخرت آسيا الصغرى بالعديد من المدارس التي انتشرت في جميع مدنها، وإن كان معظمها يقوم على تدريس علوم الدين من تفسير وحديث وعلوم القرآن خاصة إقراء القرآن الكريم الذي انتشر في المساجد والمدارس بآسيا الصغرى، إلا أنها قد شملت أيضا تدريس العلوم العقلية من فلك وطب وغيرها(١٥٣).

ويشير ابن بطوطة في رحلته إلى آسيا الصغرى إلى انتشار العديد من المدارس في المدن المختلفة، وأن معظم تلك المدارس كان يتلى فيها القرآن يوميا بعد صلاة العصر(١٥٤)، وكأنه تحدد ذلك الموعد يوميا لإقراء القرآن الكريم وتحفيظه، ولاشك أن دراسة علوم الدين في المدارس السلجوقية كانت من أبرز سماتها مما ساعد على سرعة انتشار الإسلام في آسيا الصغرى.

ومن المدارس التي كان لها دور كبير في بث الحضارة الإسلامية في آسيا الصغرى مدرسة الأمير اختيار الدين حسن بن جابراس(١٥٥)؛ كما أنشئت في قيصرية عدة مدارس منها المدرسة الغيثية التي أنشأها السلطان غياث الدين كيخسرو عام ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥م وتعرف لدى العامة بـ جيفته مدرسة(١٥٦)، ومدرسة خوند خاتون التي أنشأتها خوند خاتون في عامي ٦٣٥، ٦٣٦ هـ/١٢٣٧، ١٢٣٨م، والمدارس الصاحبية ومدرسة حاجي قلج ومدرسة سراج الدين(١٥٧)، بالإضافة إلى مدرسة أرطوقوش في أتابي، ومدرسة إينجي منارة التي أنشأها الوزير الصاحب عطا في قونية، ومدرسة في سيواس تعرف بـ كوك مدرسة، أنشأها عبد الله كه لوك عام ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١م، ومدرسة الغازي خليفت في أماسيا، وغيرها الكثير من المدارس التي انتشرت في آسيا الصغرى(١٥٨) التي اشتغلت بتدريس العلوم النقلية والعقلية وكانت تعد من أبرز مظاهر انتشار الإسلام في تلك البلاد.

ويعتبر الوقف أحد الدعامات الأساسية في إنشاء المدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية في الدولة الإسلامية(١٥٩)، ففي سلطنة سلاجقة الروم أوقف السلاطين والأمراء الكثير من الأوقاف للإنفاق منها على المؤسسات التعليمية لضمان استمرارها في القيام بواجباتها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في آسيا الصغرى؛ يؤكد ذلك ما ورد في وثيقة الوقف التي حررها الأمير السلجوقي آلتون آبا في قونية، والتي خصص جزءا من دخلها لتعليم القرآن الكريم لمن هم حديثي عهد بالإسلام سواء من المسيحيين أو اليهود أو المجوس ممن يعيشون في آسيا الصغرى أو ممن يعيشون خارجها(١٦٠).

ج- العلماء:

لقد صاحب العلماء سلاطين السلاجقة منذ بداية الفتح الإسلامي لآسيا الصغرى وكان لوجودهم دور كبير في بث روح الحماس الديني لدى الفاتحين، ولا أدل على ذلك من الدور الذي قام به العالم الجليل والإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الله البخاري الحنفي الذي كان بصحبة السلطان ألب أرسلان في حملته على الروم البيزنطيين في موقعة ملاذكرد عام ٤٦٣هـ /١٠٧١م، في الوقت الذي كانت فيه أعداد جيش الروم أضعاف مضاعفة لعدد جيش المسلمين، فثبت العالم الجليل أبو نصر البخاري المسلمين في خطبته وبث فيهم روح الحماس الديني وخاطب السلطان قائلا له: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح»(١٦١)، وبالفعل كتب الله النصر للمسلمين في تلك الموقعة التي على أثرها فتحت لهم أقاليم آسيا الصغرى.

وعندما تأسست سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى حرص سلاطين السلاجقة على تعيين العلماء من أئمة ومعلمين وقضاة في المساجد والمدارس من أجل إعادة تشكيل المجتمع الجديد في آسيا الصغرى على أسس إسلامية(١٦٢)، لذلك حرص السلاطين منذ أن قامت دولتهم على استجلاب العلماء من شتى البلدان الإسلامية، فأرسل المؤسس الأول للسلطنة سليمان بن قتلمش إلى ابن عمار صاحب طرابلس يطلب منه أن يرسل إليه بعض علماء المسلمين وقاضي شرعي لتصريف الأمور الدينية والمدنية بالأقاليم(١٦٣).

ولقد صاحب انتشار الإسلام في آسيا الصغرى وسياسة السلاطين في دعوة العلماء إلى المنطقة وجود جمهرة كبيرة من العلماء، دأبوا على بث ونشر التعاليم الإسلامية السمحة بين أهل تلك البلاد، مما كان له أثر ملموس في نشر الإسلام وترسيخ الحضارة الإسلامية، كما كان يعد أحد المظاهر البارزة لانتشار الإسلام فيها.

ولقد برز العديد من العلماء في آسيا الصغرى سواء ممن كان من أهلها أو ممن ارتحل إليها وأقام فيها من أجل نشر الثقافة الإسلامية بين أهلها؛ وقد تنوع هؤلاء العلماء مابين علماء دين أو علماء في العلوم العقلية المختلفة أو جمع بين العلوم العقلية والنقلية معا مثل العالم الجليل الإمام القاضي أفضل الدين الخونجي الذي جمع بين علوم الدين فضلا عن أنه «كان إمام وقته في المنطق والمعقولات والطب(١٦٤)، كما تميز في العلوم الحكمية وأتقن الأمور الشرعية»(١٦٥)؛ وقد أرسل السلطان الكامل القاضي أفضل الدين الخونجي رسولا إلى سلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو الثاني (٦٣٤-٦٤٤هـ/١٢٣٧- ١٢٤٦م)، وعندما عاد الخونجي من سفارته وجد السلطان الكامل قد مات فعاد إلى بلاد سلاجقة الروم في عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م وأقام بها بعد أن ولاه السلطان غياث الدين كيخسرو القضاء، وقد كان القاضي الخونجي معظما لدى السلطان غياث الدين، واستمر قائما في آسيا الصغرى حتى الغزو المغولي لها، فاضطر إلى العودة مرة أخرى إلى القاهرة في عهد السلطان الصالح أيوب وتولى القضاء بها(١٦٦).

أما العلامة موفق الدين بن عبد اللطيف البغدادي الشافعي فكان عالما جليلا في كثير من العلوم سواء منها النقلية أو العقلية، كما كان فقيها، ومحدثا، ولغويا ونحويا وطبيبا وفيلسوفا، وبرع في العلوم الدينية وخاصة علم الحديث، فحدث بمصر والقدس ودمشق وحران وبغداد، ثم ارتحل إلى آسيا الصغرى(١٦٧) ز وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام، وكان له منه الجامكية الوافرة والصلاة المتواترة «(١٦٨)؛ وظل العلامة موفق الدين مقيما في مدينة أرزنجان في آسيا الصغرى في خدمة علاء الدين داود بن بهرام، وصنف له عدة تصانيف، ثم توجه في عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م إلى أرزن الروم وأقام بها فترة، ثم عاد منها إلى أرزنجان في صفر عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، وتجول في معظم مدن آسيا الصغرى ومنها دبركي و ملطية، ثم سار إلى حلب وعمل بها، ثم عاد إلى بغداد وتوفي بها في عام ٦٢٩ هـ /١٢٣٢م(١٦٩).

أما في علم الفقه فقد زار الكثير من الفقهاء آسيا الصغرى واستقروا بها لنشر علمهم، ومنهم العالم الفقيه القاضي أحمد بن عبد المجيد بن محمد القبس الذي تولى القضاء في مدينة

ملطية، والقاضي أحمد بن محمد بن أبي سعدان(١٧٠)، والعالم الجليل علاء الدين الكاساني، الذي كان فقيها وعالما بعلمي الأصول والفروع، وقد عقد الكاساني مناظرة حول مسألة المجتهدين مع أحد كبار علماء آسيا الصغرى ويدعى الشعراني(١٧١)؛ ولاشك أن ذلك يدل على مدى تطور ما وصل إليه علم الفقه ونظام الاجتهاد في الإسلام بإقليم آسيا الصغرى في عهد سلاطين سلاجقة الروم(١٧٢)، كما يدل على مدى اهتمام السلاجقة بالعلم والعلماء، حيث سعى السلاطين إلى تشجيع العلم وجمع العلماء من شتى بقاع البلدان الإسلامية، وعقد المناظرات العلمية بينهم.

أما في علم الحديث فقد وفد إلى سلطنة سلاجقة الروم عدد كبير من علماء الحديث الذين كان لهم دور كبير في وضع أسس دراسة علم الحديث في آسيا الصغرى(١٧٣)، منهم الشيخ المحدث أبو القاسم عبد الحميد بن عبد الخالق بن المبارك الواسطي الأصل البغدادي المولد، الذي ارتحل إلى آسيا الصغرى وأقام بها حتى توفي بمدينة سيواس سنة ٦٠٨ هـ /١٢١١م(١٧٤)، والمحدث أبو أحمد محمد بن عبد الرشيد الهمذاني، الذي كان من محدثي بغداد ثم سار إلى بلاد سلاجقة الروم فأقام في أقسرا بآسيا الصغرى وحدث بها حتى توفي بها(١٧٥)، والفقيه المحدث محمد بن الإمام العلامة أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني الذي تلقى تعليمه في بغداد على يد نخبة من العلماء وتكلم في المسائل والوعظ وحدث بها، ثم ارتحل إلى مدينة قيصرية بآسيا الصغرى وحدث بها حتى وافته المنية بها في عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م(١٧٦)، والشيخ المحدث مكرم بن مسعود بن حماد بن أبي داود الإيادي أبو الغنائم الأبهري الذي عاش في آسيا الصغرى وتولى القضاء بها حتى توفي في عام ٦٣١هـ / ١٢٣٣م(١٧٧).

كما نبغ في علم الحديث من أبناء آسيا الصغرى عدد من المحدثين الذين تتلمذوا على أيدي معلميهم من المحدثين الوافدين، منهم المحدث الشيخ سعد الدين بن عربي الذي ولد في مدينة ملطية في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م، وقد سمع سعد الدين بن عربي الحديث ودرسه ثم حدث به حتى أصبح من كبار محدثي آسيا الصغرى، بالإضافة إلى أنه كان شاعرا مجيدا وله ديوان مشهور، وكانت وفاته بدمشق في عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م(١٧٨).

وفي علوم القراءات وإقراء القرآن الكريم ظهر عدد كبير من العلماء في بلاد سلاجقة الروم كان من أبرزهم الصائن أبو عبد الله محمد البصري، مقرئ بلاد الروم، وقد قرأ الصائن القراءات بدمشق على يد شيخ القراء منتجب الدين الهمذاني(١٧٩)، والمقرئ الشيخ أبو أحمد محمد الهمذاني الذي قرأ القرآن وعلمه بمدينة أقسرا(١٨٠)، والمقرئ مهذب الدين علي بن محمد الكاري الذي تولى تعليم القرآن الكريم وتحفيظه لأبناء الأمراء بسلطنة سلاجقة الروم(١٨١).

أما في مجال العلوم العقلية، فقد استقبلت آسيا الصغرى في ظل حكم سلطنة سلاجقة الروم عددا كبيرا من علماء الكلام والمنطق الذين ذاع صيتهم، منهم الشيخ العلامة سراج الدين الأرموي، صاحب المؤلفات العديدة في مجال علم المنطق، أهمها «البيان في المنطق»؛ وقد شغل هذا الشيخ منصب قاضي قونية، واستدعاه السلطان الصالح أيوب إلى مصر وأرسله في سفارة دبلوماسية إلى الامبراطور

فردريك الثاني، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، تأكيدا على استمرار العلاقات الدبلوماسية التي بدأها أبوه السلطان الكامل من قبل فأحسن الإمبراطور استقباله وأحسن إليه، فألف له الشيخ كتابا في المنطق أعجب به الإمبراطور «أحسن إليه الإنبرور إحسانا كبيرا وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرما»(١٨٢). ولاشك أن اعتماد السلطان الصالح أيوب عليه في تأكيد العلاقات الدبلوماسية مع الإمبراطور تدل على أن هذا العالم الجليل كان عالما بالكثير من اللغات غير اللغة العربية مما جعل السلطان الصالح أيوب يستدعيه ليسند إليه تلك المهمة. وقد عاد سراج الدين الأرموي بعد انقضاء تلك المهمة إلى قونية وظل مقيما بها حتى وفاته في عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م(١٨٣).

كما ارتحل إلى بلاد سلاجقة الروم أيضا من علماء الكلام الشيخ صفي الدين الهندي، الذي قابل الشيخ سراج الدين الأرموي وصنف الكثير في علم الكلام وأصول الفقه، ومصنفاته كلها حسنة جامعة(١٨٤).

كذلك استعان سلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى بالكثير من الأطباء المسلمين من مختلف البلدان الإسلامية منهم الطبيب شمس الدين أبو العباس أحمد بن مهذب الدين أبوعلي بن الحسن بن على بن هبل، الذي ولد في الموصل عام ٥٤٨ هـ/١١٥٣م، وعاش بها وبرع في علم الطب، حيث درسه على يد والده، ثم ارتحل إلى آسيا الصغرى في عهد السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو (٦٠٨- ٦١٦ هـ/١٢١١-١٢١٩ م) فأكرمه السلطان إكراما كبيرا، وظل مقيما في آسيا الصغرى حتى وفاته بها، فأمر السلطان بنقله إلى الموصل فدفن بها(١٨٥)؛ والطبيب كمال الدين الحمصي الذي اشتهر في صناعة الطب حتى كان الملوك والأعيان يطلبونه لما ظهر من علمه في ذلك المجال، والذي ارتحل إلى آسيا الصغرى في عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م في عهد السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو(١٨٦)، كما أرتحل إلى آسيا الصغرى أيضا الطبيب أبو بكر يوسف الرسغني الملقب بالتقي، وكان ماهرا في علم الطب، واتصل بخدمة السلطان علاء الدين كيقباذ (٦١٦- ٦٣٤ هـ/ ١٢١٩- ١٢٣٧ م) واستمر في خدمته وفي خدمة ابنه السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني (٦٣٤- ٦٤٤هـ /١٢٣٧- ١٢٤٦م) الذي تولى السلطنة بعده (١٨٧).

هكذا اهتم سلاطين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بالعلم والعلماء حتى تمكنوا من تحويل المنطقة من الحضارة البيزنطية إلى الحضارة الإسلامية بكل ما تحمله من تعاليم الإسلام السمحة مما سهل عليهم عملية انتشار الإسلام وتوطيده في آسيا الصغرى.

د- انتشار الصوفية وازدهار الفكر الصوفي:

صاحب انتشار الإسلام في آسيا الصغرى ازدهار الصوفية وانتشار الفكر الصوفي، فقد رصد ابن بطوطة العديد من الزوايا التي انتشرت في آسيا الصغرى والتي كانت مقرا لعدد من فرق المتصوفة(١٨٨)؛ ولقد وجدت الصوفية موطنا ملائما لها في آسيا الصغرى خاصة في مدينة قونية التي انتشرت فيها الصوفية تحت رعاية الصوفي الكبير جلال الدين الرومي(١٨٩) مؤسس الطريقة المولوية للدروشة، حيث تبلورت تعاليمها حتى وصلت إلى أوج عظمتها في قونية(١٩٠). كما انتشر أتباع الطريقة اليسوية القادمين عن طريق خوارزم، وأتباع قطب الدين حيدر القادمين من خراسان، الذين عملوا على نشر طرقهم في معظم مدن آسيا الصغرى (١٩١).

ومن أبرز الطرق الصوفية التي ظهرت أيضا في آسيا الصغرى الفتوة أو الأخية التي يشير ابن بطوطة إلى تعريفها فيقول:« وأحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه، وهم بجميع البلاد التركمانية والرومية في كل بلد ومدينة وقرية» (١٩٢)، وهؤلاء الأخية لهم زوايا كثيرة مفروشة بكل ما تحتاج إليه، فضلا عن أنهم يُحضرون إليها يوميا ما يلزمها من الطعام والفواكه والشراب، ويستضيفون فيها المسافرين، ويقدمون لهم كل ما طاب؛ ويصف ابن بطوطة ملبس أحد هؤلاء الأخية بأنه يلبس ثيابا ممزقة، وعلى رأسه قلنسوة لبد، ومع ذلك فهم ينفقون ما يتكسبون به في النهار في استضافة الغرباء ليلا(١٩٣)؛ كما يصف ابن بطوطة أحد زواياهم التي زارها واستضيف بها فيقول: « فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها كثير من ثريات الزجاج العراقي، وفي المجالس خمسة من البياسيس، والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس.......... وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفي أرجلهم الأخفاف»(١٩٤).

ولقد شهدت آسيا الصغرى قدوم عدد كبير من العلماء المتصوفة إليها، وكانت تدرس مؤلفاتهم مع غيرها من الدراسات الصوفية في مؤسساتها التعليمية، ومن أبرز هؤلاء العلماء الشيخ شهاب الدين السهروردي الذي قدم إلى آسيا الصغرى في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباذ (١٩٥)؛ وقد كان السهروردي شيخ شيوخ بغداد، وكان يعد من كبار علماء عصره، وله مجلس وعظ عليه إقبال كبير، وكان شيخا صالحا ورعا، كثير الاجتهاد، بارعا في أصول الفقه، تخرج على يديه الكثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة «ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله»(١٩٦)، ومن مؤلفاته عوارف المعارف (١٩٧)؛ وقد سافر السهروردي إلى بلدان كثيرة «وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مرارا وحصلت له أموال كثيرة فرقها بين الفقراء والمحتاجين»(١٩٨).

كما قدم أيضا إلى آسيا الصغرى الصوفي الكبير الأندلسي الأصل محيي الدين بن عربي «صاحب التصنيفات في التصوف وغيره»(١٩٩)، وكان ابن عربي كثير التجوال والترحال بين البلدان الإسلامية المختلفة، وعندما قدم إلى آسيا الصغرى استقبله سلطان سلاجقة الروم استقبالا حافلا، وأمر له بدار تساوي مائة ألف درهم (٢٠٠)؛ ولقد تجول ابن عربي في معظم مدن آسيا الصغرى فزار ملطية وقونية وسيواس، وكان بصحبته تلميذه عفيف الدين سليمان التلمساني الذي عاش واستقر في آسيا الصغرى لينشر تعاليم أستاذه في التصوف(٢٠١).

وهكذا وجد التصوف أرضا خصبة في آسيا الصغرى، فكثر أتباعه، وكثرت معهم خنقاوات وزوايا المتصوفة، مما يؤكد توفر المناخ الديني والروحي الخصب في سلطنة سلاجقة الروم، حتى كان التصوف يعد أحد مظاهر انتشار الإسلام في ربوع تلك البلاد، ويؤكد ذلك ما ذكرته تمارا تالبوت رايس إذ تقول: «لم تجد الطريقة الصوفية في بغداد موطنا روحيا لها كما لم تجده في بلاد فارس حيث ظهر الكثير من زعمائها المشهورين بل وجدت لها الوطن الملائم في مدينة قونية»(٢٠٢)، ولعل هذا يوضح مدى انتشار التصوف في تلك البلاد، مما يدل على قوة انتشار الإسلام والتمسك بأهداب الدين الذي ما زال أثره باقيا في نفوس الكثيرين من الأتراك إلى اليوم.

الهوامش:

١- بحر الخزر: هو بحر قزوين، وهو بحر واسع عظيم لا اتصال له بغيره، وعليه طبرستان وجرجان وآسكون، وباب الأبواب وهو الدربند، ومن جهة الشرق جبال موقان وطبرستان، وجبل جرجان، ويتجه من الشمال إلى بلاد الخزر؛ تصب فيه أنهار كثيرة وفي غربه جبال القبجاق، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٨٨م، ج ١، ص٣٤٢، ٣٤٣.

٢- الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة: إبراهيم أمين وآخرون، القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٤٥؛ أرمينوس فامبري: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٢٧.

٣- نهر جيحون: اسم وادي خراسان على وسط مدينة جيهان يمر به ذلك النهر الذي سمي باسمه، وهو يجري في بلاد عديدة، ويصب في بحيرة خوارزم، ويتجمد في فصل الشتاء، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٩٦، ١٩٧.

٤- أرمينوس فامبري: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور، ص ١٢٧.

٥- بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان القاهرة ١٩٥٨م، ص١٠٣، ١٠٤؛ أرمينوس فامبري: المرجع السابق، ص ١٢٨.

٦- الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، بيروت ١٩٨٤م، ص١.

٧- الحسيني: المصدر السابق: ص ٢.

٨- محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، بيروت ٢٠٠٢، ص ١٩.

٩- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦م، ج ٨، ص ٢٢.

١٠- الراوندي: راحة الصدور، ص١٤٥؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٤٢٥؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ١٩.

١١- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ١٨؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٤٢٥.

-١٢ أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، الكويت ١٩٧٥، ص ٢١- ٤١؛ تامارا تاليوت رايس: السلاجقة- تاريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفي الخولي، إبراهيم الداقوقي، بغداد ١٩٦٨م، ص ١٩- ٢٩؛ عبد النعيم محمد حسنين: دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٢٢- ٤٢؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٣٤ – ٩٥٤؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص١٨- ٣٣.

١٣- بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٣٧ ؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٢٥.

١٤- الراوندي: راحة الصدور، ص١٤٥؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٢٥.

١٥- عن سقوط وانهيار دولة السامانيين انظر: حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٣٦٥ - ٧٦٣؛ عصام الدين عبد الرؤف: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٨٨، ١٨٩.

١٦- حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٢٦.

١٧- أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق، ص ٢٤، ٢٥؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ٤٣٠.

١٨- أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢١- ٤١؛ تامارا تالبوت رايس: السلاجقة- تاريخهم وحضارتهم، ص ١٩- ٢٩؛ عبد النعيم محمد حسنين: دولة السلاجقة، ص ٢٢ ٢٤؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٣٤ - ٤٥٩؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص١٨- ٣٣.

١٩- عن موقع آسيا الصغرى أو الأناضول انظر: شوقي أبو خليل: أطلس دول العالم الإسلامي(جغرافي- تاريخي- اقتصادي)، دمشق١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٤٢، ٤٣؛ محمد عبد الشافي المغربي: آسيا الصغرى في العصور الوسطى، الإسكندرية، ٢٠٠٢ م، ص ٩، ١٠.

٢٠- محمد عبد الشافي المغربي: آسيا الصغرى في العصور الوسطى، ص ٩، ١٠.

٢١- عن الجهاد ضد الروم البيزنطيين زمن الأمويين والعباسيين، انظر: إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون- البحر المتوسط بحيرة إسلامية، القاهرة ١٩٥٣م؛ عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، بيروت ١٩٨٨م، ص ٧٣-٧٥، ٩٤، ٩٥، ١١٣-١١٦، ١٧١، ١٧٢، ١٩٣-١٩٧؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشرف: المرجع السابق، ص ١٢٨- ١٣٩؛ عصام الدين عبد الرؤف: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص ٥٣- ٥٦.

٢٢ - Robinson, F.: Atlas of the Islamic world since 1500, Oxford, 1987, P. 25.

٢٣- Vasiliev, A.V.: The History of the Byzantine Empire (339 -1453), Madison, U.S.A., 1973, Vol. I, P. 429; Setton, K.M.: A history of the Crusades, Vol. I, Pennsylvania, 1969, P. 136;

- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٣٥.

٢٤ - Setton, K. M.: A history of the Crusades, Vol. I, P.144-147;

- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٣٥، ٣٦.

٢٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩م، ج ٨، ص ٤٨.

٢٦ - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٣٥، ٣٦.

٢٧- السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥م، ص ٣٣٨ - ٣٣٩؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٣٦؛

Cambridge Medieval History, Vol. IV, P. 140.

٢٨- الأبخاز: اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب، وهي جبال وعرة لا مجال للخيل فيها، تجاور بلاد اللان ويسكنها أمة من النصارى يقال لهم الكرج، فيها تجمعوا ونزلوا على نواحي تفليس، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٦٤.

٢٩- Cambridge Medieval History, Vol. IV, P. 163.

٣٠ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٣٧.

٣١- ملاذكرد: بلدة صغيرة بناؤها من الحجر الأسود، معظم أهلها من الأرمن والروم، بها أعين ولكن ليس لها أشجار، أرضها خصبة كثيرة الخير، وهي قريبة من أرزن التي تقع جنوبيها، بينهما يومان أو ثلاثة، وفي شرقيها مدينة بدليس، بينهما قريب من يوم ونصف، انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص ٤٩٤، ٣٩٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت د. ت. ص ٢٩٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٢.

٣٢- أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، لها قلعة حصينة، كانت من أعمر نواحي أرمينية، فتحها عياض بن غنم صلحا بعد فتح الجزيرة الفراتية، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٥٠؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٩٥.

٣٣- قاليقلا: مدينة من عمل خلاط، ثم أصبحت فيما بعد من نواحي ملاذ كرد؛ وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى امرأة ملكت أرمينية كانت تسمى قالي، فبنيت هذه المدينة وأطلقت عليها قالي قاله، يعني إحسان قالي، ثم صورت نفسها على أحد أبوابها، فعربتها العرب إلى قاليقلا، وعرفت فيما بعد بأرزن الروم، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٩؛ ابن عبد الحق البغدادي: مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣؟ / ١٩٥٤م، ج٣، ص ١٠٥٩.

٣٤- Finlay, G.: History of the Byzantine Empire , London 1853 , P. 577; Chamician, M.: History of Armenia. Trans. by Johannes Avadalle, Calcutta 1827, Vol. II , P.138;

- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص٣٨.

٣٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، بيروت ١٩٧٩م، ص ٥٤٦.

٣٦- البشناج: أو البجناك موطنهم الأصلي استبس وسط آسيا، ثم اتجهوا إلى جنوب روسيا، ومنها إلى المجر، ويرجع سبب هجرتهم إلى ضغط قبائل الغز التركية على حدودهم الغربية، وقد احتل البجناك مناطق واسعة على البحر الأسود ظلوا لفترة طويلة على وفاق مع بيزنطة، وقاموا بالوساطة التجارية بينها وبين شعوب المنطقة خاصة روسيا ، انظر: زبيدة عطا: الترك في العصور

الوسطى، القاهرة، د.ت، ص ٨.

٣٧- أحمد عبد الكريم سليمان: المسلمون والبيزنطيون في شرقي البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين، التاسع والثاني عشر الميلاديين، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٢٢٣.

٣٨- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٨؛

Grousset, R.: Histoire de L'Arménie des Origines a 1071, Payot, Paris, 1947, P.588- 590.

٣٩- ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٠، ص ٢٨.

٤٠- Gousset, R. : Histoire de L Arménie des Origines a 1071, P. 597.

٤١- بحيرة وان: وأحيانا يطلق علها بحيرة أرجيش، تمتد من الشرق إلى الغرب بانحراف إلى الجنوب بين بركري وخلاط وأرجيش، انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٢٩٧؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٣٩٥.

٤٢- أرجيش: هي مدينة قديمة من أعمال خلاط، تقع على الساحل الشمالي لبحيرة وان، وكثيرا ما عرفت البحيرة باسمها حيث كان يطلق عليها بحيرة أرجيش، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج١، ص ١٤٤؛ فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة ١٩٦٦م، ج ١، ص ١٩٧.

٤٣- باركري: تقع بركري شرقي خلاط وهي قريبة من أرجيش، بينها وبين مدينة خلاط خمسة أيام وبينها وبين أرجيش ثلاثة أيام، أو ثلاثة فراسخ، انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٠٢؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٣٨٩.

٤٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٥٩٨، ٥٩٩.

Chamician, M.: History of Armenia, Vol. II, P.142 - 146 ; Matthieu d'Edesse: Extraits- de la chronique de Matthieu d'Edesse In: R. H .C. D. Arm., Paris 1869, Pp. 98 - 102,

- حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٨٣؛ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٤٧.

٤٥- Grousset, R. : Histoire de L ' Arménie des Origines a 1071, P- 596- 597;

- شارل أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م، ص١٩٥.

٤٦- هو قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق بن دقاق، كان قد انشق على حكم السلطان طغرلبك في أواخر عهده، ونزح مع أتباعه إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين ولم يلبث أن أعلن الثورة على ألب أرسلان، لكن لم يمهله ألب فحاربه وتغلب عليه وقتله في عام ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م، ثم عفا عن أبنائه بعد مقتله، انظر: الحسيني: المصدر السابق، ص ٣٠- ٣٢؛ الراوندي: المصدر السابق، ص ١٨٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١١؛ تامارا تالبوت: المرجع السابق، ص ٢٩.

٤٧- ملطية: هي بلدة مشهورة تتاخم بلاد الشام وكانت هذه المدينة من أجل مدن الثغور الإسلامية في مواجهة الروم البيزنطيين. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٩٢، ١٩٣؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٣٨٥.

٤٨- قونية: مدينة مشهورة من مدن آسيا الصغرى تتمتع بموقع استراتيجي، حيث أنها كانت مفترق الطرق إلى مدن آسيا الصغرى المحيطة بها، وكانت في عصر السلاجقة دار ملكهم. انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، القاهرة، د. ت، مجلد ٢، ص ٨١٢؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٣٨٣؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤١٥.

٤٩- أقسرا: من أعظم المدن الإسلامية في آسيا الصغرى وبها سكنى ملوكها وهم سلاجقة الروم، ولقد ورد تعريف أقسرا في ياقوت مقترنا بتعريف قونية. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤١٥.

٥٠- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١، ج ٥، ص ١٦٢؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٠

٥١- Grousset, R. : Histoire de L ' Arménie des Origines a 1071, P. 608.

٥٢- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٠.

٥٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٦ – ٩٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٧٧، ج ١٢، ص ٩٠، ٩١.

٥٤- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٥٥.

٥٥- الكرج: جيل من النصارى كانوا يسكنون جبل القبق، وبلد السرير، فقويت شوكتهم حتى ملكوا تفليس. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٦.

٥٦- ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢، ص ٩١.

٥٧- نهر الرس: نهر يخرج من قاليقلا ويمر بأران ثم يمر ببورنان ثم بالمجمع فيجتمع مع نهر الكـر وبينهما مدينة البيلقان، ويمر الكر والرس معا فيصبان في بحر جرجان. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤٤؛ محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي لأرمينية، بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ٢٥، ٢٦.

٥٨- سرماري: ولاية واسعة بها قلعة حصينة تقع بين تفليس وخلاط. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٥؛ ابن عبد الحق البغدادي: مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، ج ١، ص ٧٠٩؛ الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣٤، ٣٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٧، ٣٨.

٥٩- الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣٤، ٣٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٧ – ٣٨، Grousset, R.: Histoire de L ' Armenie des Origines a 1071, P. 612.

٦٠- الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص٣٩-٤٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص٤٠.

Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, Pp. 125 -126; — Cahen, C.: Pre-Ottoman Turkey 1071 -1330, translated from the French by, J. Jones, Williams, London 1968, P. 70.

٦١- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, Pp.125 - 126; Cahen, C. : Pre-Ottoman Turkey 1071 -1330 , P. 70,

- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤١.

٦٢- عمورية: من بلاد الروم، فتحها الخليفة العباسي المعتصم في عام ٢٢٣ ؟ / ٨٣٧ م، وهي من أعظم فتوح الإسلام، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٨.

٦٣- قيليقية: تقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر، كانت من أهم الثغور الإسلامية حتى سقطت في أيدي البيزنطيين في القرن العاشر الميلادي، ثم انتقلت إلى أيدي الأرمن إلى أن تمكن سليمان بن قتلمش من السيطرة عليها، ثم سيطر عليها الأرمن مرة أخرى إلى أن أصبحت عاصمة مملكة أرمينية الصغرى، انظر: استارجيان: تاريخ الأمة الأرمينية، الموصل ١٩٥١م، ص ٢٠٣، ٢٠٤؛ بول آميل: تاريخ أرمينيا، ترجمة شكري علاوي، بيروت، د. ت، ص ٥،

Lorga, N.: L'Arménie, Cilicienne, Paris1930, P. 89.-

٦٤- قيصرية: مدينة عظيمة من بلاد الروم وهي عاصمة لملوك بني سلجوق في هذه المنطقة، انظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، د.ت، ص ٥٥٣، ٥٥٤.

٦٥ - Cahen, C.: Pre-Ottoman Turkey 1071 -1330, P. 70 ,

- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٤٩؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص٤٢.

٦٦- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٥.

٦٧- الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي البنداري، القاهرة ١٩٠٠م، ص ٣٥.

٦٨- المرداسيون: عشيرة عربية أقامت إمارة وراثية في حلب بدءاً من عهد صالح بن مرداس وذلك في عام ٤٥١ ؟/ ١٠٥٩م، واستمرت تحكم في حلب حتى عام ٤٧٢؟ /١٠٧٩م، انظر: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق خليل المنصور بيروت ١٩٩٦م، ص ١٢٩ - ١٤١.

٦٩ - أرتاح: اسم لحصن منيع كان من العواصم، وهي من أعمال حلب، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ١٤٠، ١٤١.

٧٠- منبج: مدينة قديمة على الفرات بينها وبين حلب مسيرة يومين، وبينها بين ملطية مسيرة أربعة أيام، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

٧١– ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، القاهرة د.ت، ص ٩٨؛ الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٣٥؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق دائرة المعارف الإسلامية، الدكن، الهند ١٩٥٢، ج ٨، ق١، ص٢٥٤.

٧٢– ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص٢٥٤؛ أحمد عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٢٩–٢٣١.

٧٣– Grousset, R. : Histoire de L'Arménie des Origines a 1071, P. 624; Cahen, C.: Pre - Ottoman Turkey, P. 71

٧٤– Grousset, R. : Histoire de L'Arménie des Origines a 1071, P. 624; Cahen, C.: Pre -ttoman Turkey, P. 71.

٧٥– سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص٢٨٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص ١٧٣.

٧٦– محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص٤٤.

٧٧– ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩؛ الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٣٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ٦٥؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨، ق ١، ص٢٨٢؛ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، السيد الباز العريني، بيروت ١٩٩٣م، ج١ ص ١٠٧،

Oman ,C. A.: History of the Art of war in the Middle Ages , London 1924, Vol: I, P.– 219; Ostrogorsky, G.: A History of the Byzantine States. Trans. By Hussey, J.; Oxford, 1968, P. 304.

٧٨– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٥.

٧٩– زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٤٩؛ أحمد عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٢٣٣؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص٤٥.

٨٠– Cahen, C.: Pre -Ottoman Turkey, P. 29; Franzius, E.: History of Byzantine Empire, New York, 1967, P. 290.

٨١– محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص٤٥.

٨٢– سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨ ، ق١، ص ٢٨٠ ، ٢٨١.

٨٣– ابن العبري: تاريخ الزمان، ترجمة: إسحاق أرملة، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٠٩.

٨٤– ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٠٩، وراجع: محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٦.

٨٥– سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت ١٩٧٢م، ص ١٤٦– ١٤٨؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٧.

٨٦- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٥؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٨،

Franzius, E.: History of Byzantine Empire, P. 290.-

٨٧ - تبريز: بلد مشهور من أعمال أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسنة ذات أسواق محكمة في وسطها عدة أنهار وبساتين، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٣.

٨٨ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٥؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ق ١، ص ٢٨١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص١٧٧.

٨٩- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٧.

٩٠- الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، بيروت ١٩٧٤م، ص ١٨٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ٦٥؛ ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ص ١٠٨،

Grousset, R.: Histoire de L'Arménie des Origines a 1071, P. 629; Franzius, E.: History- of Byzantine Empire, P. 290; Ostrogorsky, G.: A History of the Byzantine States, P. 304.

٩١- الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٤٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ١٧٨.

٩٢- الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٤٩؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٠١؛ ويشير كل من ابن العديم وسبط بن الجوزي إلى أن المكان يعرف بالرهوة، وبعد مراجعة معجم البلدان لياقوت الحموي، وجد أن الرهوة صحراء قرب خلاط، في حين لم يتم الحصول على تعريف للزهرة، راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ١٠٨، ١٠٩؛ سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ق١، ص ٢٨١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ١٧٨.

٩٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ٦٥؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨، ص ١٦١.

٩٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ٦٥، ٦٦، ورد هذا النص أيضا في الحسيني: المصدر السابق، ص ٤٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ١٧٨.

٩٥- الحسيني: المصدر السابق، ص ٤٩- ٥٢؛ ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٩٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ٦٦؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢، ص ١٠١.

٩٦- الفارقي: المصدر السابق، ص ١٩٠.

٩٧- الراوندي: راحة الصدور، ص ٢٨٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٧؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٨٥؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٠١.

٩٨ - Ostrogorsky, G. : A History of the Byzantine States., P. 354 ,

- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٥٠؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٩.

٩٩ - Ostrogorsky, G. : A History of the Byzantine States., P. 354 ,

- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص٤٩-٥٠.

١٠٠- الراوندي : المصدر السابق ، ١٨٩ ؛ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص٤٥٧؛ شارل أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٧-١٩٩.

١٠١- حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٥٧، ٤٥٨.

١٠٢- حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٤٥٨.

١٠٣- حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٩٠، ١٩١؛ محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٥٣.

١٠٤ - Vasiliev, A.V.: The History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 432,

- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥١.

١٠٥- بنو الدانشمند: ينسب بنو الدانشمند إلى إحدى الأسرة التركمانية بأسيا الصغرى، وقد تزعمها كمشتكين أحمد غازي دانشمند أحد قادة السلطان ألب أرسلان، الذي اشترك معه في موقعة ملاذكرد، فمنحه ألب أرسلان مدن توقات، وسيواس والبستان وملطية وغيرها، ثم استقل بها كمشتكين أحمد بعد وفاة ألب أرسلان، وظلت في حكم أسرته حتى تمكن سلاجقة الروم من تقليص وجود الدانشمنديين في آسيا الصغرى، انظر عن ذلك بالتفصيل: عفاف صبره: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٨٥م، ص٢٨٠، ٢٨١؛ علي بن صالح المحميد: الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٤م.

١٠٦- زاخاس: هو أحد الأمراء الأتراك، أسس إمارة له في غرب آسيا الصغرى، وسيطر على أزمير وغيرها من البلدان الواقعة على بحر إيجة، كما أسس أسطولا بحريا ساعده في التوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية، انظر: محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥٨، ٥٩.

١٠٧- منكوكجك: أسرة تركية أسست إمارة لها في المنطقة الواقعة في غرب الفرات في مناطق أرزنجان وكماخ، وديبروركي، وكان منكوجك غازي مؤسس هذه الأسرة أحد قادة السلطان ألب أرسلان، انظر: عفاف سيد صبرة: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٧-- ٢٨٨؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥٩.

١٠٨- عفاف سيد صبرة: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٨٠- ٢٨٨؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥٨، ٥٩.

١٠٩- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٥٤ - ٦٥؛ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥٣.

١١٠- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٥٦.

١١١- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥٣، ٥٤.

-١١٢ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥٤.

١١٣- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٥٤.

١١٤ - أحمد عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٢٤٣؛ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٥٧.

١١٥ - نيقية: تقع في إقليم بيثينيا في الشمال الغربي من آسيا الصغرى على بحيرة اسكانيوس Ascanius، فتحها الأتراك السلاجقة واتخذوها عاصمة لمملكتهم وظلت في أيديهم أكثر من عشرين عاماً، انظر:

Vasiliev, A. V.: The History of the Byzantine Empire, U.S.A., 1971, Vol. II, Pp. 512-513;-

- إسمت غنيم: دراسات في تاريخ إمبراطور نيقية البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٧٢، ١٧٣.

١١٦- أحمد عبد الكريم: المرجع السابق: ص ٢٤٢ - ٤٤٢؛ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٥٦- ٥٨.

١١٧- أحمد عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٢٤٢ - ٤٤٢؛ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٥٦ - ٥٨.

١١٨- الدردنيل: هو أحد المضايق التركية، وهو ممر مائي ضيق ومتعرج يتصل بمضيق البسفور عبر بحر مرمرة، ويفصل المضيقان البحر الأسود عن بحر إيجة، انظر: باوندزوكنجربري: أطلس أوربا، ترجمة: محمد فاتح عقيل، الإسكندرية ١٩٧٦م، ص ١٦٢.

١١٩ - Vasiliev, A.V.: The History of the Byzantine Empire, Vol. I, P. 432; Grousset, R. : Histoire de L'Arménie des Origines a 1071, P. 629.

-١٢٠ Robinson, F.: Atlas of the Islamic world since 1500, Oxford, 1987, P. 25.

١٢١- عن سقوط نيقية انظر: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، بيروت ١٩٩٠م، ص ٤٦- ٥٠؛ مؤرخ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة ١٩٥٣م، ص ٢٢ -٣٧؛ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية- الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار، بيروت، ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٢٢٩ - ٢٤٤.

١٢٢- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٣٣٥ - ١٤٣؛ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٣٨- ٤٨.

١٢٣- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ص٣٤١؛ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٧.

١٢٤- عن الحملة الصليبية الثانية انظر: وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٨ - ٦٧٧؛ إتش . إ . ماير: تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة ١٩٩٩م، ج ١، ص ١٣٥- ١٥٣؛ ميشيل بلار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني- من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١٨٣-١٨٩.

١٢٥- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٩٥.

١٢٦- تامارا تالبوت رايس: السلاجقة- تاريخهم وحضارتهم، ص ١٣٦.

١٢٧- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: درويش الجويدي، بيروت ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م، ج ١، ص ١٥٦.

١٢٨- محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٦٦.

١٢٩- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص ٤٩.

١٣٠- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ٤٢٢.

١٣١- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ٤٢٢؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٨٨؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دمشق١٩٨٤م، ص٢١١، ٢١٢.

١٣٢- محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

١٣٣- ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص ٢١٣.

١٣٤- ابن بيبي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية المسمى بسلجوق نامة، تحقيق: هوتسما، ١٩٠٢م، ص ٥٨.

١٣٥- ابن بيبي: المصدر السابق، ص ٥٤-٥٩.

١٣٦ - Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse, P. 231 Turan, O.: Les Souverains Seldjoukides et leurs sujets non musulmans, Stvdia Islamica, T.I., (Paris 1953), P. 75.

١٣٧- محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٣٣؛ محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٧١.

١٣٨- محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٧١.

١٣٩- عائلة جابراس أو جافراس وهي إحدى الأسر البيزنطية العريقة التي كانت تحكم في ولاية طرابيزون البيزنطية، وقد تصدت للسلاجقة والتركمان عندما توجهوا لفتح تلك الولاية، ثم تمكنت تلك الأسرة من الحفاظ على الولاية حتى أصبحت تحكم فيها حكما شبه مستقل في عهد الكسيوس كومنين، انظر:

Cahen, C.: Pre -Ottoman Turkey, P.97; –

– محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٧٣.

١٤٠- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٨٥ م، ص٩٧.

١٤١- ابن العيري: تاريخ الزمان، ص ٢١٤، وراجع: محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٧٤.

١٤٢ - Turan, O.: Les Souverains Seldjoukides et leurs sujets non musulmans, P.85;

– محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٦٠.

١٤٣ – Turan, O.: Les Souverains Seldjoukides et leurs sujets non musulmans, P.85;

– محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٦٠.

١٤٤– الحسيني: المصدر السابق، ص ٤٥.

–١٤٥ الحسيني: المصدر السابق ، ص ٤٦.

١٤٦– ابن بيبي: المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٥.

١٤٧– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧-٢٨٩؛ أوقطاي أصلان آبا: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة: أحمد محمد عيسى، استانبول ١٩٨٧م، ص٩٠- ٩٥؛ محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٦٠.

١٤٨– ابن بطوطة: المصدر السابق ، ج ١، ص ٢٥٧.

١٤٩– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٩.

١٥٠– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦١.

١٥١– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧– ٢٨٩.

١٥٢– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٧.

١٥٣– أوقطاي أصلان أبا: المرجع السابق، ص ٩٥، ٩٦؛ محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٣٥٠.

١٥٤– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧ – ٢٨٩.

١٥٥– النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٧، ص ٩٧.

١٥٦– تامارا تالبوت رايس: المرجع السابق، ص ١٦٤.

١٥٧– أوقطاي أصلان أبا: المرجع السابق، ص ١٠٥.

١٥٨– أوقطاي أصلان أبا: المرجع السابق، ص ٩٥ – ١٠٧؛ تامارا تالبوت رايس : المرجع السابق ، ص ١٦٤ ،١٦٥؛ محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٣٥٢.

١٥٩– عن دور الوقف في دعم الحركة العلمية، انظر: منى الشاعر: دور الوقف في دعم وإثراء الحركة العلمية في العصر الأيوبي، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد ٢٣، لسنة ٢٠٠٥م، ص ٢٠٥-٢٤٨.

–١٦٠ Turan, O.:: Islamisation dans la Turquie du Moyen age. stvdia Islamica, T.X., (Paris 1959) Pp. 140-141

– محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٣٥٢.

١٦١– ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ٦٥، ٦٦، ورد هذا النص أيضا في: الحسيني: المصدر السابق، ص ٤٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ١٧٨.

١٦٢- ابن بيبي: المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٥، ٥٨؛

Turan, O.: Les Souverains Seldjoukides et leurs sujets non musulmans, Pp.85, 86.-

١٦٣- Turan, O.: Les Souverains Seldjoukides et leurs sujets non musulmans, P. 86;
Cahen, C.: Pre -Ottoman Turkey, P.77.

١٦٤- ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٥، تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٦٠، ج ٦، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت ٢٠٠٤ م، ص ٨٦، ٨٧

١٦٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، بيروت ١٩٦٥م، ص٥٨٦.

١٦٦- ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٥، ص ١٦٢، ج ٦، ص ٨٧.

١٦٧- ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٦٨٣؛ الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٤م، ج ٢، ص ٣٨٧.

١٦٨- الكتبي: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٨٧.

١٦٩- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٦٨٣- ٦٩٦؛ الكتبي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٧، ٣٨٨.

١٧٠- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت ١٩٨٨م، ج٣، ص١٠٦٦- ١١٤٩.

١٧١- ابن العديم: بغية الطلب، ج ١٠، ص ٤٣٤٧- ٤٣٥٤.

١٧٢- محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٣٥٧.

١٧٣- محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٣٥٤.

١٧٤- المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد، بيروت ١٩٨٨م، ج٢، ص٢٢٤.

١٧٥- المنذري: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٧.

١٧٦- الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوا د معروف، شعيب الأرنؤوط مهدي، بيروت ١٩٨٨ م، الطبقة ٦٢، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ المنذري: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

١٧٧- الذهبي: المصدر السابق، الطبقة ٦٤، ص ٧٣.

١٧٨- الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص ٢٦٧.

١٧٩- الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد، السعيد بسيوني زغلول، بيروت ١٩٨٥م، ج٣، ص٣٥٥؛ سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، يحيي هلال سرحان، بيروت ١٩٩٦م، ج ٢٣، ص ٢١٩.

١٨٠- المنذري: المصدر السابق، ج٣، ص ١١٧.

١٨١- اليونيني: ذيل مرآة الزمان، القاهرة ١٩٩٢م، ج٣، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

١٨٢- ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤٧؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة ١٩٩٢م، ج ٨، ص ٣٧١.

١٨٣- ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤٧؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص ٣٧١.

١٨٤- السبكي: المصدر السابق، ج٩، ص ١٦٢، ١٦٣.

١٨٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، الطبقة ٦١ ص ٣٣٣ – ٣٣٥.

١٨٦- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٦٨٢.

١٨٧- ابن العديم: بغية الطلب، ج ١٠، ص ٤٣٥٦، وراجع: محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٣٦٢.

١٨٨- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧ – ٩٨٢.

١٨٩- جلال الدين الرومي: من أصل فارسي، ولد في مدينة بلخ في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م، وكان والده بهاء الدين من عائلة غنية نبيلة يتصل نسبها بالخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن طريق علاء الدين بن طوقوش شاه خوارزم، ولقد رحل جلال الدين مع أبيه إلى قونية، ولما مات أبوه ارتحل إلى دمشق وحلب ليتابع دراسته العلمية، ثم عاد إلى قونية وتولى التدريس بها في أربعة معاهد للعلم، انظر: تمارا تالبوت رايس: المرجع السابق، ص ١٤٧ – ١٥٠.

١٩٠- تمارا تالبوت رايس: المرجع السابق، ص ١٤٧، ١٤٨.

١٩١- محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص٢٧٩.

١٩٢- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧.

١٩٣- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧.

١٩٤- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٨.

١٩٥- محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٧٦.

١٩٦- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٠م، ج٣، ص ٤٤٦.

١٩٧- ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٤٦؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بيروت ١٩٧٤م، ص ١٦٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، بيروت ١٩٩٠م، ص ١٣٨، ١٣٩.

١٩٨- ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٣٨، وراجع: قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة: صادق نشأت، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٧٠١.

١٩٩- الكتبي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٥.

٢٠٠- الصفدي: الوافي بالوفيات، فيسبادن ١٩٧٤م، ج ٤، ص ١٧٣؛ الكتبي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٥، ٤٣٦؛ المنذري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٥٥.

٢٠١ – محمد عبد الشافي المغربي: المرجع السابق، ص ٢٧٩.

٢٠٢ – تامارا تالبوت: المرجع السابق، ص ١٤٧.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية والمترجمة

١- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي، ت: ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠م)

«عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، تحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥م.

٢- ابن الأثير (عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بالجزري، ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)

«الكامل في التاريخ »، ١٢ جزءا، بيروت ١٩٦٥ ، ١٩٦٦، ١٩٧٩ ، ١٩٨٣م.

٣- ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد بن عبد الله، ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

ـ رحلة ابن بطوطة: المسماه تحفة النظّار في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار، تحقيق: درويش الجويدي، بيروت ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م.

٤- ابن بيبي (ناصر الدين يحيى بن محمد):

ـ الأوامر العلائية في الأمور العلائية المسمى بسلجوقنامة، تحقيق: هوتسما، ١٩٠٢م.

٥- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي، ت:٣٦٧هـ / ٩٨٧م)

ـ صورة الأرض، بيروت، د .ت.

٦- ابن خلدون (عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، ت: ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م)

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م.

٧- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر)، ت: ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م:

ـ وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨- ١٩٧١م.

٨- ابن الشحنة (أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي)، ت: ٨٩٠ هـ /١٤٨٥م:

ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دمشق ١٩٨٤م.

٩- ابن عبد الحق البغدادي(صفي الدين عبد المؤمن)، ت: ٧٣٩هـ /١٣٣٨م:

ـ مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

١٠- ابن العبري (العلامة غريغوريوس أبو الفرج جمال الدين الملطى)، ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م:

ـ تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨م؛

ـ تاريخ الزمان، ترجمة: إسحاق أرملة، بيروت ١٩٨٦م.

١١- ابن العديم(الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله بن العديم)، ت:٦٦٠هـ/١٢٦١م:

- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل ذكار، بيروت ١٩٨٨م.

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق خليل المنصور، بيروت ١٩٩٦م.

١٢- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي)، ت: ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م:

ـ ذيل تاريخ دمشق، القاهرة ، د.ت.

١٣- ابن كثير(عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي)، ت:٧٧٤هـ /١٣٧٢م:

- البداية والنهاية، ج ١٢، بيروت ١٩٧٧، ج ١٣، بيروت ١٩٩٠م.

١٤- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل)، ت: ٦٩٧هـ /١٢٩٧م:

ـ مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، الأجزاء ١-٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٦٠م، الجزءان الرابع والخامس، تحقيق حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٢، ١٩٧٧م، ج ٦ تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت ٢٠٠٤ م.

١٥- أبو شامة(شهاب الدين محمد عبد الرحمن بن إسماعيل)، ت: ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م:

ـ الذيل على الروضتين ، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بيروت ١٩٧٤م.

١٦- أبو الفدا(الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م:

ـ تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.

١٧- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد عبد الله)، من علماء القرن السادس الهجري:

ـ نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، القاهرة، د. ت.

١٨- الأصفهاني(عماد الدين أبو عبد الله بن صفي الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين المعروف بالكاتب الأصفهاني)، ت: ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م:

ـ تاريخ دولة آل سلجوق- اختصار الفتح بن علي البنداري، القاهرة ١٩٠٠م.

١٩- الحسيني (صدر الدين بن علي)، ت: ٥٧٥ هـ/١١٨٠م:

ـ كتاب أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح: محمد إقبال، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٢٠- الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)، ت: ٧٤٨ هـ /١٣٤٧م:
ـ العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد والسعيد بسيوني زغلول، بيروت ١٩٨٥م؛
ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوا د معروف وشعيب الأرنؤوط مهدي، بيروت ١٩٨٨ م؛
– سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، تحقيق بشار عواد معروف، يحيي هلال سرحان، بيروت ١٩٩٦م؛
٢١- الراوندى (أبو بكر محمد بن على بن سليمان)، ت ٦٠٣هـ/١٢٠٦م:
ـ راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة: إبراهيم أمين وآخرون، القاهرة ١٩٦٠م.
٢٢- سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركي)، ت: ٦٥٤هـ /١٢٥٦م:
ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن بقسميه تحقيق دائرة المعارف العثمانية، الهند، الدكن ١٩٥٢م.
٢٣- السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافي)، ت: ٧٧١ هـ/ ١٣٦٩م:
– طبقات الشافعية الكبري، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة ١٩٩٢م.
٢٤ – الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، ت: ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م:
ـ الوافي بالوفيات، ج ٤، فيسبادن ١٩٧٤م.
٢٥- الفارقي(أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي)، ت: ٥٩٠ هـ/ ١٠٩٤م:
ـ تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، بيروت ١٩٧٤م.
٢٦- فوشيه الشارتري:
ـ تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، بيروت ١٩٩٠م.
٢٧- القزويني (زكريا بن أحمد بن محمود)، ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م:
ـ آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، د. ت.
٢٨- الكتبي (محمد بن شاكر)، ت: ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م:
ـ فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس بيروت ١٩٧٤م.
٢٩- المنذري (زكي الدين أبو الحسن محمد بن عبد العظيم)، ت: ٦٥٦هـ/١٢٥٨م:
ـ التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق: بشار عواد، ج٢، بيروت ١٩٨٨م.

٣٠- مؤرخ مجهول:

ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة ١٩٥٣م.

٣١- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م:

ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٨٥م.

٣٢- وليم الصوري:

ـ تاريخ الحروب الصليبية- الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار، بيروت٢٠٠٣م.

٣٣- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي)، ت: ٦٢٦؟/ ١٢٢٨م:

ـ معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٨٨م.

٣٤- اليونيني (أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين)، ت: ٧٢٦؟/ ١٣٢٦م:

ـ ذيل مرآة الزمان، القاهرة ١٩٩٢م.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة

١- إبراهيم أحمد العدوي:

ـ الأمويون والبيزنطيون- البحر المتوسط بحيرة إسلامية، القاهرة ١٩٥٣م.

٢- إتش . إ . ماير:

ـ تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة ١٩٩٩م.

٣- أحمد عبد الكريم سليمان:

ـ المسلمون والبيزنطيون في شرقي البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين، التاسع والثاني عشر الميلاديين، القاهرة ١٩٨٢م.

٤- أحمد كمال الدين حلمي:

ـ السلاجقة في التاريخ والحضارة، الكويت ١٩٧٥م.

٥- أرمينوس فامبري:

ـ تاريخ بخاري منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، القاهرة ١٩٧٢م.

٦- استارجيان، د. ل.ل.:

ـ تاريخ الأمة الأرمينية، الموصل ١٩٥١م.

٧- إسمت غنيم:

ـ دراسات في تاريخ إمبراطورية نيقية البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

٨- أوقطاي أصلان آبا:
ـ فنون الترك وعمائرهم، ترجمة: أحمد محمد عيسى، استانبول١٩٨٧م.
٩- بارتولد، ف. ف.:
ـ تاريخ الترك في آسيا الوسطي، ترجمة: أحمد السعيد سليمان القاهرة ١٩٥٨م.
١٠- باوندزوكنجربري:
ـ أطلس أوربا، ترجمة: محمد فاتح عقيل، الإسكندرية ١٩٧٦م.
١١- بول آميل:
ـ تاريخ أرمينيا، ترجمة: شكري علاوي، بيروت، د. ت.
١٢- تامارا تالبوت رايس:
ـ السلاجقة- تاريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفي الخولي وإبراهيم الداقوقي، بغداد ١٩٦٨م.
١٣- حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف:
ـ العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة، ١٩٩٥ م.
١٤- حسنين ربيع:
ـ دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٩٣م.
١٥- زبيدة عطا:
ـ الترك في العصور الوسطي، القاهرة، د.ت.
١٦- ستيفن رنسيمان:
ـ تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، السيد الباز العريني، بيروت ١٩٩٣م.
١٧- سعيد عبد الفتاح عاشور:
- الحركة الصليبية، ج ١، القاهرة ١٩٧٥م.
١٨- سهيل زكار:
ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت ١٩٧٢م.
١٩- السيد الباز العريني:
ـ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥م.
٢٠- شارل أومان:
ـ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م.
٢١- شوقي أبو خليل:
ـ أطلس دول العالم الإسلامي(جغرافي- تاريخي- اقتصادي)، دمشق ١٤١٩هـ /١٩٩٩م.
٢٢- عبد العزيز الدوري:

ـ العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، بيروت ١٩٨٨م.

٢٣- عبد النعيم محمد حسنين:

ـ دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م.

٢٤- عصام الدين عبد الرؤف:

ـ دراسات في تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ١٩٩٩م.

٢٥- عفاف سيد صبره:

ـ دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٨٥م.

٢٦- علي بن صالح المحميد:

ـ الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٤م.

٢٧- فتحي عثمان:

ـ الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة ١٩٦٦م.

٢٨- قاسم غني:

ـ تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة: صادق نشأت، القاهرة ١٩٧٢م.

٢٩- محمد سهيل طقوش:

ـ تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغري، بيروت ٢٠٠٢م.

٣٠- محمد عبد الشافي المغربي:

ـ آسيا الصغرى في العصور الوسطي، الإسكندرية، ٢٠٠٢ م.

٣١- محمد فؤاد كوبرلي:

ـ قيام الدولة العثمانية، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٩٣م.

٣٢- محمود شيت خطاب:

ـ قادة الفتح الإسلامي لأرمينية ، بيروت ١٤١٩ه/ ١٩٩٨م.

٣٣- منى سعد محمد الشاعر:

ـ دور الوقف في دعم وإثراء الحركة العلمية في العصر الأيوبي، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد ٢٣، لسنة ٢٠٠٥م.

٣٤- ميشيل بالار:

ـ الحملات الصليبية والشرق اللاتيني- من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ٢٠٠٣ م.

ثالثا: المصادر والمراجع الأجنبية

١- Cahen, C.: Pre-Ottoman Turkey 1071 -1330, translated from the French by, J. Jones, Williams, London 1968.

٢- Cambridge Medieval History, Vol. IV.

٣- Chamician, M.: History of Armenia, Vol. II, Trans. by Johannes Avadalle, Calcutta 1827.

٤- Finlay, G.: History of the Byzantine Empire, London 1853.

٥- Franzius, E.: History of Byzantine Empire, New York, 1967.

٦- Grousset, R. : Histoire de L ' Arménie des Origines a 1071, Payot, Paris, 1947.

٧- Lorga, N.: L'Arménie, Cilicienne, Paris1930.

٨- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse, In: R. H. C. D. Arm., Paris 1869.

٩- Oman, C. A.: History of the Art of War in the Middle Ages, Vol: I., London 1924.

١٠- Ostrogorsky, G.: A History of the Byzantine States. Trans. By Hussey, J., Oxford 1968.

١١- Robinson, F.: Atlas of the Islamic World since 1500, Oxford 1987.

١٢- Setton, K.M.: A History of the Crusades, Vol. I, Pennsylvania 1969.

١٣- Turan, O.: Les Souverains Seldjoukides et leurs sujets non Musulmans, Stvdia Islamica, T. I., Paris 1953.

١٤- Turan, O.: L' Islamisation dans la Turquie du Moyen Age, Stvdia Islamica, T. X., Paris 1959.

١٥- Vasiliev, A.V.: The History of the Byzantine Empire (339 -1453), Vols. I & II, U.S.A. 1971, 1973.

د. أميرة بنت أحمد الجعفرى (*)

سياسة الدولة الأموية فى إدارة الثغور الأندلسية

(١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٦-١٠٣١)

تمهيد :

الثغر : بالفتح ثم بالسكون، كل موضع قريب من ارض العدو كأنه مأخوذ من الثغرة، وهى الفرحبة فى الحائط، (١) وقيل هى ما يلى دار الحرب، وموضع المخافة من خروج البلدان (٢).

وهناك من يرى بأن نظام الثغور من إنشاء الإمبراطور هرقل(٦١٠-٦٤١م) الذى تولى الإمبراطورية ووجد الخزينة خاوية، والضرائب فادحة، والجنود من المرتزقة الذين يزيدون من أعباء الخزينة مع عدم إخلاصهم فى الحروب، لذلك أوجد هرقل هذا النظام (نظام الثغور والأجناد)، ويعرف بنظام هرقل والذى أخذه الفرس والعرب فيما بعد (٣).

ويقوم هذا النظام على أساس اقتطاع ما تبقى من أراضى الإمبراطورية البيزنطية - بعد أن أغار الفرس عليها - إلى إقطاعات زراعية تعطى إلى قوة عسكرية صغيرة تقيم فيه مع عيالها، لأنه كان يتحتم على الجندى أن يقضى فترات طويلة خارج مدينته ومنزله فى مواقع الجبهات، ومن هذه الإقطاعات الزراعية يعتاش الجندى مع عائلته بزراعتها وأخذ محصولها دون أن يشاركه بها أحد، مقابل أن يلبى نداء الدولة مصطحبا معه حصانه وسيفه وزاده، فبذلك يكون قد كفل معيشته من دون أن يكلف الدولة شيئا (٤).

*- أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بقسم التاريخ ـ كلية الآداب بالدمام

على أن هذا النظام قد تطور بعد ذلك تطورا كبيرا على يد العرب المسلمين واصبحت له أنظمته وإدارته الخاصة المتميزة في الشام ومصر وغيرها من البلدان التى خضعت للسيادة الإسلامية، ولكى نتمكن من معرفة ما كانت عليه هذه الثغور فى الأندلس، لابد من معرفة بدايات تكوينها، وحدودها وهذا ما سنقف عليه فى هذه الدراسة.

عرفت الثغور فى الأندلس بأنها المدن القريبة من خط الحدود مع مسيحي الشمال، والتى اتخذها المسلمون كمعامل الاعتصام بها عند الخطر وتنظيم وسائل الغزو عندما يتقرر القيام به (٥).

الحدود الجغرافية للثغور فى الأندلس:

ليس من السهل تحديد مناطق الثغور في الأندلس تحديدا جغرافيا دقيقا خلال فترة الدراسة، وذلك لاختلاف هذه الحدود من فترة تاريخية لأخرى تبعا لنتائج الصراع الإسلامي - النصرانى ،الذى كان بين مد وجزر فى عصر الولاة (٩١-١٣٨هـ/٧١١-٧٥٦م)، وعصر الدولة الأموية بقسميه عصر الإمارة (١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٦-٩٢٦م) وعصر الخلافة (٣١٦-٤٢٢هـ/٩١٢-١٠٣١م).

والمتأمل لفتح الأندلس، الذى استغرق حوالى أربع سنوات (٩٢-٩٥هـ/٧١٠-٧١٣م) يلاحظ أن المسلمين لم يستكملوا فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وتركوا بعض المناطق الوعرة فى أقصى الشمال، فلم يصل حكمهم إلى جبال قرقشونة فى أقصى الشرق، وجبال بنبلونة ومنطقة اشتريس ASTURIAS وجليقية GALICIA فى الشمال والشمال الغربى حيث نبتت حركة المقاومة النصرانية هناك، وأسست لها دول باتت تهدد الوجوه الإسلامى فى تلك البلاد (٦).

وعلى الرغم من أن عمليات الفتح استمرت فى عصر الولاة (٩١-١٣٨هـ/٧١١-٧٥٦م) إلا أن المصادر التاريخية التى بين أيدينا تضن علينا ولم تحمل إلا النزر اليسير من الحديث عن مجهودات الولاة فى تثبيت الوجود الإسلامى فى ذلك الصقع البعيد عن مركز الخلافة الأموية فى المشرق، حيث ذكر ابن القوطية (٧) أن موسى بن نصير عندما قرر العودة للمشرق شد حصون الأندلس، أي قواها، واستخلف ابنه عبد العزيز الذى وصف فى إدارته للأندلس بأنه «ضبط سلطانها وسد ثغرها، وافتتح مدائن كثيرة»(٨). كما نجد معارضة من الوالى السمح بن مالك الخولانى (١٠٠-١٠٢هـ/٧١٨-٧٢٠م) لأمر الخليفة الأموى عمر بن العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) الذى طالبه بإجلاء المسلمين من الأندلس إشفاقا عليه إذ خشى من غب العدو عليهم، إلا أن السمح أخبره «بقوة المسلمين وكثرة عددهم فى الأندلس وشرف معاقلهم»(٩). ولا ندرى كيف تسنى للسمح خوض فتوحات جديدة مع أن سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت تجميد الفتوح على الأقل حتى يتسنى له خفض النفقات لإصلاح الميزانية الأموية والموازنة بين موارد الدولة ونفقاتها، ولعل السمح نشط فى فتح ما وراء البرت بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز وتغير سياسة الدولة الأموية(١٠).

ويرى أحد المؤرخين المحدثين (١١) أنه من أهم الأسباب في تغير حدود المناطق الثغرية في الاندلس هو انشغال العرب بالصراع القبلي المقيت بين القيسية واليمنية من جهة والصراع بين العرب والبربر من جهة أخرى حتى أن المصادر العربية قد اسهبت في تفاصيل تلك المنازعات التي أدت إلى توقف الجهاد ضد نصارى الشمال في إسبانيا، وأدى كذلك إلى حدوث مجاعة كبيرة لأن الحروب التي وقعت لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان، إنما شملت البلاد كلها مما دفع العرب إلى هجرة المواضع التي كانوا قد استقروا فيها في الوسط والشمال والغرب وخلفوها، لا يكاد يشرف على عمارتها أحد، كما قام البربر بالهجرة إلى إفريقية جماعات، فانتهز النصارى الأسبان هذه الفرصة وأخذوا ينحدرون إلى الجنوب ويستردون الكثير من المناطق التي كانت تحت السيادة الإسلامية فتمكن بلاي (١٢) Pelayo Covadonga ملك جليقية من هزيمة المسلمين في موقعة كوفا دونجا عام ١٣٣هـ/٧٥٠م وأخرجهم من جليقية كلها، وتقهقر المسلمون إلى استورقة وأخلوا المنطقة الشمالية الغربية كلها ونزلوا حتى قورية (١٣) وماردة (١٤) عام ١٣٦ هـ/٧٥٣م(١٥) وبذلك خسر المسلمون ربع ما فتحوه من شبه الجزيرة الإيبيرية بعد حكم دام أربعين سنة تقريبا.

وخلال فترة الدراسة لم يكن الشمال الإسباني النصراني كله يشكل دولة واحدة بل كان هناك في عصر إمارة بني أمية ثلاث تجمعات نصرانية رئيسة هي :-

١-مملكة جليقية(١٦) واشتوريس كانتا مملكة واحدة وقد نشأت على يد بلاي عام ٩٨هـ/٧١٨م في الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة أيبريا، إلا أن أوضاع كل منهما كانت تختلف عن الأخرى وفي أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، صارت مملكة جليقية- أشتوريس تدعى بمملكة ليون Leon وذلك بعد امتداد هذه المملكة شرقا وجنوبا وضمها أراضي جديدة(١٧)

٢- التجمع النصراني الثاني ويعرف بمملكة نبرة (نافار (NAVARRA) وهي في غربي جبال البرنات وإلى الشرق من جبال كنبريه (CANTABRIA) على أبواب فرنسا وهي بذلك مملكة فاصلة بين إمارة برشلونة التي تقع على ساحل البحر المتوسط في الشرق، وبين مملكة جليقية واشتريس (١٨)

٣- أما التجمع النصراني الثالث فهو إمارة قطالونية (CABLONIA)

(برشلونة) وهي إمارة تمتد من جبال البرنات في الشمال إلى بلنسية في الجنوب ومن منطقة الثغر الأعلى (سرقسطة) (١٩) في الغرب إلى البحر المتوسط في الشرق. (٢٠).

أما بالنسبة للثغور في الأندلس، فقد اصطلح المؤرخون على تقسيمها على النحو التالي:

الثغر الأعلى: ويشمل سرقسطة، عاصمة هذا الثغر، ولاردة (٢١)، وتطيلة (٢٢)، ووشقة(٢٣)، وطرطوشة(٢٤) وغيرها. وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار وتمثله اليوم منطقة أراغون.

الثغر الأوسط : وكان يواجه مملكة ليون وقشتالة ، وكانت عاصمته أول الأمر مدينة سالم (٢٥)، ثم استبدلت بها طليطلة (٢٦).

الثغر الأدنى : (الثغر الجوفى) ويشمل المنطقة الواقعة بين نهرى دويرة وتاجة من مدن هذاالثغر، قورية وقلمرية (٢٧) وشنترين(٢٨) وماردة (٢٩).

أما بالنسبة للسواحل فالأندلس شبه جزيرة يحيط بها البحر المتوسط من الجهتين الشرقية الجنوبية الشرقية، والمحيط الأطلسى من الجهات الجنوبية الغربية والغربية والشمالية الغربية، مما جعلها مستهدفة من ناحية التجار (٣٠).

ولا شك أن هذا الامتداد الساحلى الكبير للأندلس قد ضاعف من المسؤولية الملقاة على عاتق الدولة الأموية فى إنشاء عدد من القلاع والحصون فى القسم الشمالى من المسيتا الإسبانية المعروف باسم برودليا BARDULIA وقد مهد ذلك لظهور إمارة قشتالة، وهى بلاد القلاع، وفى الوقت نفسه، وزاد من صعوبة إدارة مناطق الثغور البرية والبحرية (٣١).

ويتضح من هذه الثغور ومواقعها أن المسلمين استغلوا طبيعة إسبانيا الجبلية فى تكوين شبكة دفاعية قوية، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار التى تقطعها فى خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس خطوط دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها من المسيحيين فى الشمال، فقامت على هذه الوديان مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط، فمدينة سرقسطة مثلا كانت مركز للخط الدفاعى الأول فى الشمال وهو نهر الإبرو EBRO ولهذا كانت سرقسطة تسمى الثغر الأعلى أو الثغر الأعظم وأحيانا كانت تسمى (أم الثغر الاعلى)(٣٢)، وتليها جنوبا مدينة طليطلة التى كانت مركزا للخط الدفاعى الثانى وهو نهر التاجو TAJO ولهذا سميت بالثغر الأدنى، وفى أقصى الجنوب نجد نهر الوادى الكبير GAUDA IQUIVIR الذى تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة (٣٣) وإشبيلية (٣٤) وقادس (٣٥).

وهذا الوضع السياسى والحربى لإسبانيا قد جعل تاريخها الوسيط صراعا مستمرا بين المسلمين والمسيحيين ولهذا اعتبرت الأندلس فى نظر المسلمين ثغرا للدولة الإسلامية وأرضا للجهاد والرباط (٣٦)، حتى أطلق اسم الثغر على الأندلس كلها تجاوزا حيث وصفها ابن عذارى (٣٧) فى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) بأن «بلاد الإسلام بالأندلس صارت هى الثغر المخوف».

أولى الأمويون فى الأندلس الثغور جل اهتمامهم، لما تحتله هذه المناطق من أهمية استراتيجية وعسكرية كبرى وتجلى هذا الاهتمام فى مظاهر عدة، من أبرزها :

أولا : التنظيمات الإدارية :

كانت مناطق الثغور تتبع إداريا حكومة قرطبة، من حيث اختيار الولاة ومراقبتهم وتوفير الدعم المادى والمعنوى لهم، وقد حرص الأمويون على اختيار ولاة المناطق الثغرية

وعينوا عليها عمالا عرفوا بعمال الثغور (٣٨) وتطور الأمر فى عصر الخلافة الأموية حيث جُعل للثغور وزيرا فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) يعرف باسم وزير الثغور (٣٩) وبالنسبة للثغور البحرية فقد أتجه الأمويون إلى توطين بعض الأسرات العربية على الساحل الجنوبى الشرقى لحمايته من الغارات التى يشنها النورمان أو القطلانيون أو البنادقة ردا على غارات المسلمين على السواحل الإيطالية. فأنزلوا جماعة من عرب اليمن وهم بنو سراج القضاعيون على ساحل بجاية. «ووكلوا إليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل»(٤٠) كما كان هناك وزيرا خاصة للنظر فى كتب أهل الثغور والسواحل والاطراف وغير ذلك (٤١). وقد حرص الأمويون على اختيار الثغور والسواحل والأطراف وغير ذلك (٤١). وقد حرص الأمويون على اختيار القيادات القوية فى المناطق الحساسة ومن ذلك اختيار عبد الرازق بن عيسى من البحريين الذى ذاعت شهرته فى حماية بجانة (٤٢) حتى أن المسافرين عندهم كانوا يضعون أمتعتهم ورحالهم بالأسواق والشوارع مطروحة بلا حارس فلا يكاد يضيع منها شيئا وذلك بسب براعة أميرهم - السالف الذكر - فى ضبط أمور البلاد وتحصينها وحمايتها (٤٣).

اعتمدت الدولة الأموية على سياسة تولية الأسر المشهورة والمعروفة بولائها لهم فى إدارة الثغور وعقدت لهم السجلات بولاية الحصون والقرى (٤٤). وكانت هذه سياسة لها نتائج إيجابية وأخرى سلبية فمن إيجابياتها ضمان الاستقرار فى مناطق الحدود بضمان استقرار الأسر التى تحكم. كما أن الدولة الأموية كانت تستعين بهم فى إخماد الثورات الداخلية أحيانا وفى رد الأخطار التى تواجهه السواحل والمدن القريبة منها كما فعل الأوسط عندما استعان ببنى قسى لمواجهة المجوس الذين هاجموا غرب الأندلس (٤٥) ومن سلبياتها طمع الأسر فى الاستقرار بهذه المناطق وحفلت المصادر التاريخية بأمثلة كثيرة على هذا النوع من الاستقلال فى مناطق الثغور (٤٦)

واهتم الأمويون بارسال كتبهم إلى ولاة الثغور متضمنة التعليمات والتوجيهات بالاهتمام بالثغور حتى لا يأخذهم العدو عنوة. وقد كانت رسائلهم تصدر تباعا (٤٧).

كانت المناطق الثغرية وعمالها تحت مراقبة إدارية مدروسة تنوعت فيها وسائل الأمراء الأمويين وخلفائهم فى عملية المتابعة والمراقبة بين قيامهم بزيارات ميدانية بأنفسهم للتأكد من الأوضاع واستقرارها. وبين إرسال أبنائهم ومن يثقون بهم من رجالات الدولة لينقلوا لهم الوضع بكل دقة ووضوح وبين سؤال بعض الأفراد القادمين من مناطق الثغور.

وفى مجالات الزيارات الميدانية حفلت المصادر التاريخية بالكثير من الأمثلة على الجولات الميدانية التى قام بها الأمراء والخلفاء الأمويون لدراسة وتتبع أحوال المناطق الثغرية. كما فعل عبد الرحمن الداخل اثناء ثورة عبد الغافر اليمانى بإشبيلية حيث كان آنذاك فى الثغر «يسد خلله ويحسم علله»(٤٨)وكذلك فعل عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م عندما خرج فى غزوة بنبلونة حيث قام بالمرور على الثغور والحصون ورتب

أمورها وأصلح أحوالها (٤٩)، وكانوا أحيانا يبعثون إلى ولاة الثغور أمينا يمتحنهم ويتأكد من ولائهم، ويبدو أن عبد الرحمن الداخل كان أول من أقر نظام استجواب الرجال في تلك النواحي واختبار بصائرهم، فكان يستقدم كل من يطلع له على سوء سريرة وشبهة في الثغر (٥٠) وسار ابنه هشام الرضا على نهج والده حيث اعتاد أن «يبعث إلى الكور قوما عدولا يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم»(٥١).

وسار حفيده عبد الرحمن الأوسط على نهجه، فأخذ أهل الذنوب والريب وعفا عن الباقين في غزاته إلى أوريط (٥٢) وبعث الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط من يمتحن طاعة أزراق بن منتيل قائده على الثغر صاحب وادى الحجارة وثغرها (٥٣).

ومما لا شك فيه أن اتجاه الأمويين وحرصهم على امتحان الولاة في مناطق الثغور، يعود إلى كثرة الثورات والانتفاضات، التي حدثت في المناطق الثغرية في العصر الأموى حيث حفلت المصادر بتفصيلات كثيرة عنها (٥٤).

كانت الرقابة على الثغور وولاتها مستمرة، إذ حرص الأمويون على تتبع أحوالهم بإرسال أبنائهم ليكونوا عيونا لهم ترصد أوضاع الثغور واحتياجاتها، ففى عام ٢٢٤هـ/٨٣٨م أغزى الأمير عبد الرحمن الأوسط ابنه الحكم إلى دار الحرب، وأمره «بالتجول في جنبات الثغر، لفهم مآربه، وابتغاء مصالحه»، وطلب منه الإسراع بالكتابة إليه بما يحتاج إليه دون الانتظار حتى يرجع وبالفعل بعث عبد الرحمن الأوسط بعشرة آلاف دينار في دفعتين إلى مدينة سرقسطة لتنفق في ترميم قنطرتها وشد ما تثلم من سورها (٥٥). وها هو المنذر بن محمد يسمع بوفاة أبيه فلا يرده هذا عن إكمال عمله في متابعة الثغور وأحوالها (٥٦).

كما حرص الأمويون على تتبع خبار الثغور، ممن قدم إليهم منها من ذلك ما قام به عباس الثقفى عندما أخبر الحكم الربضى عن امرأة تستصرخ الحكم في مدينة الفرج، فيبادر لإغاثتها ونصرتها (٥٧) وها هو الحكم المستنصر يقف وهو في طريقه إلى الزهراء، ليستمع إلى جمع من أهل ثغر لاردة ويسألهم رجلا رجلا عن عاملهم رزق بن الحكم الجعفرى فيثنون عليه وعلى سيرته، فيسر بذلك ويحمد الله عليه (٥٨).

حرص الأمويون على التقييم المستمر لأداء قواد الثغور، وإذا ما لاحظوا ضعفا أو تقصيرا من قبلهم بادروا بعزلهم، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع بنى داوود عندما عزلهم وعين على الحصون الثقات من رجاله أومن يحسن السيرة في الرعية (٥٩).

اتبع الأمويون سياسة التحفيز لرجال وقادة الثغور الذين كانوا يثبتون جدارة وأمانة وإخلاصا للدولة الأموية، حيث كانوا يطلقون أيديهم في تلك المناطق، التى كانت تتحول تدريجيا إلى مراكز نفوذ للأسر، فنجد عمرو بن يوسف عامل الحكم الربضى على طليطلة يعين ابنه يوسف على مدينة جبل تطيلة الحصينة التى بناها، كما يعين ابن عمه شبريط على وشقة من مدن الثغر الأعلى(٦٠) إلا أن هذه المكانة والثقة لم تقف حائلا بين متابعة الحكم لأمور

الثغور وعمالها. حتى أنه بعث ابنه عبد الرحمن فى عام ١٩٤ هـ/٨١٩م للتأكد من وضع طليطلة فأشار عليه بعد عودته بضرورة الانتباه لسيطرة عمروس وأسرته على منطقة الثغر الأوسط مما استوجب أن يرسل حملة إلى هناك (٦١). وكانوا شديدي الاستخبار عن الثغور، والتطلع إلى ما يحدث فيها. وفى حالة تأخر وصول أخبار الثغور عنهم، كانوا يرسلون الثقات من رجالهم لاستعلام الأمر.

ويرى أحد المؤرخين (٦٢) المحدثين أن المسلمين أميل إلى التساهل مع السكان فى النواحى الثغرية طمعا فى كسبهم إلى جانب المسلمين وكانوا كذلك أكثر كرما على الجنود المقيمين فى الثغر منهم على المقيمين فى الولايات المدنية. وأميل إلى تقبل هذا الرأى وأجد له أمثلة فى سياسة الدولة الأموية فى إدارة الثغور ممثلا فى استقبالهم لقواد الثغور استقبال الأبطال وتوزيع الأموال والكسوة عقب كل غزاة (٦٣).

كما كانوا يستقبلون فى العاصمة استقبالا رسميا يدل على عظم مكانتهم وأهميتهم كدخول محمد بن رزق الجعفرى الوالى على ثغر لاردة ومنتشون إلى قرطبة، حيث استقبل بكتائب الخيل والعدة (٦٤). كما أن أمراء بنى أمية وخلفائهم حرصوا على توفير الأمن الاقتصادى لجنود الثغور عندما الحقوا أبنائهم فى ديوان الأرزاق بمجرد التحاقهم بالثغور أو الجيوش (٦٥).

كما كانوا يستمعون إلى أهلى الثغور وشكاواهم، ويستجيبون لمطالبهم أحيانا فى تغيير ولاتهم ممن لا يرتضون سياستهم كما فعل الحكم الربضى عندما عزل عامله عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث عن طليطلة، وعين عبد رب بن زريق بعد أن راسله أهل طليطلة بذلك (٦٦). ويلاحظ أيضا كثرة تغيير الولاة وعزلهم بشكل واضح فى عصر الأوسط (٦٧) وكما عزل الناصر بنى سالم عن مدينة الفرج فى عام ٣٠٨هـ/٩٢٠م لأن أهاليهم اشتكوا منهم. وعين سعيد بن المنذر مكانهم (٦٨) كما حرصوا كثيرا على سكان الثغور وافتكاك أسراهم. وقد كان من نتائج هذا الاهتمام البالغ أن رجلا فى زمن هشام بن عبد الرحمن الداخل (الرضا) (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م) أوصى بمال لفك سبية من أرض العدو فطلبت فلم توجد لشدة احتراسه بثغره. واستنقاذا لمن سبى وضعفا من عدوه. حتى أنه وصف بالجود والكرم وتحصين الثغور (٦٩). كما نجد بريل حاكم برشلونة فى سفارته إلى الحكم المستنصر يبعث له بهدية ثلاثين أسيرا من أسارى المسلمين لأنه أعلم «أن ذلك أفضل ما يسر به أمير المؤمنين ويبتهج به ويكافئ عليه»(٧٠).

كما سارت الدولة الأموية فى سياسة الاعتدال والحكمة وسامحت الثائرين فى مناطق الثغور الذين ثابوا إلى رشدهم ورغبوا فى العودة إلى الطاعة كما فعل الأوسط مع محمود الماردى(٧١) ومع موسى بن موسى القسوى (٧٢).

كان لهذا الحرص والمتابعة آثارها فى السيطرة على أوضاع الثغور حتى بلغ الأمر أن عامل الأمير محمد بن الأوسط على بجانة لا تجرى ببحره جارية إلا بمعرفته وتحت إشرافه، حتى لقد ظهرت هناك على عهده خشبة جاسية أنكر عمر شأنها، وكتب إلى الأمير بخبرها بعد

أن أخذ له طولها وعرضها، فشكر له محمد استقصاءه لما وكل به، وصرف إلى نظره يومئذ جميع الأنشيات، وخزلها عن كورة إلبيرة.

بلغت قوة الدولة الأموية شأنا بعيدا عملت له الدول المجاورة ألف حساب فها هو قرلش بن قارلة أعظم ملوك الفرنجة يسالم الأمير محمد ويتحفه بالهدايا (٧٣). وها هو غيتار صاحب برشلونة يبعث رسوله للحكم المستنصر لتجديد السلم بينهما، ورسول هوتو ملك الإفرنج يجدد صلته، وأسقف جرنش ونونه بن غند شلب صاحب قشتيلة يرغب فى تجديد الصلح (٧٤).

ثانيا: التنظيمات المالية:

أهتم الأمويون بالتنظيم المالى للثغور وأولوه جل عنايتهم، وقد كان عبد الرحمن الأوسط فيما يبدو أول من نظم الأمور المالية فى الثغور، حيث حدد المصارف والنفقات والتى حددها بالجزاء والعشور لإنفاقها فى احتياجات الجند ورواتبهم، وما يزيد على ذلك ينفق فى فك الأسرى ومرمة الحصون، ومصالح الثغور بالإضافة إلى أنه سمح لولاته فى الثغور بأن يرتزق فى كل شهر لعمالتهم مائتى دينار (٧٥). وكان عبد الرحمن الناصر قد حدد ثلث الجباية للجند (٧٦).

زاد اهتمام الأمويين بالثغور فى عهد الحكم المستنصر حتى أنه حبس ربع جميع ما ورثه عن أبيه الناصر فى جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثور الأندلس كافة، توزع عليهم غلات هذه الضياع عاماً بعد عام على ضعفائهم. (٧٧) إضافة إلى ضريبة الحشود والبعوث، التى كان الأمويون يأخذونها بتجديدها كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب (٧٨).

كما اعتمدت الثغور على بعضها البعض فى الإمدادات مثلما حدث عام ٣٥٠هـ/٩٦١م عندما دخل أردون بن أذفنش وشانجه بن غرسيه إلى مدينة ناجرة بالثغر الأقصى وعاث فيها فسادا، فجاءات المساعدات من كل الأطراف والثغور (٧٩).

ونظرا لما تمتعت به المدن الثغرية من خصوبة تربتها وجودة محاصيلها، فقد كانت الزراعة أحد مصادر الدخل التى اعتمدت عليه فى تمويل أمور الدفاع والهجوم، حيث اعتمدت الثغور على ما تنتجه المدن الثغرية وما تبيعه فى أسواقها (٨٠).

ومثلت الغنائم التى كانوا يحصلون عليها أحد مصادر الدخل كذلك فى المناطق الثغرية (٨١) ومن ذلك ما تم فى عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م عندما تمكن موسى بن موسى من فتح حصن طراجة وهى من آخر أحواز برشلونة، ومن خمس ذلك الحصن زيدت الزوائد فى المسجد الجامع بسرقسطة (٨٢)، كما بلغت غنائم الناصر فى بعض غزواته درجة لم يتمكنوا فيها من حملها، وبلغ سعر القمح ستة أقفزة (٨٣) بدرهم، فلا يوجد من يشتريه (٨٤).

كانت الإمدادات للمناطق الثغرية تصل تباعا وفق الظروف التى تمر بها تلك الثغور، فإذا كان الثغر عاجزا عن الدفاع عن نفسه بسبب اجتياح القوات النصرانية لأراضيه، كان الأمويون يسارعون بتوجيه الجيوش والمساعدات لهم من كافة الكور والأقاليم (٨٥).

حرص الأمويون على تزويد الثغور وإمدادها بما تحتاجه. حتى عندما حلت المجاعة بالأندلس عام ٣٠٢هـ/٩١٤م ووقع الوباء فى الناس وكثر الموتى فى «أهل الفقر والحاجة، ولم تتمكن الإدارة الأموية من إرسال جيش أو الخروج فى غزاة، إلا أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، عادية عمل فى هذا الوقت على ضبط أطرافه والتحفظ بالمسلمين من عادية أهل الخلاف والخلعان(٨٦).

ثالثا : التنظيمات الحربية :

اهتم الأمويون بالتنظيمات الحربية المتمثلة فى تحصين المدن الثغرية بكل ما يمكنه أن يزيد فى قوتها الدفاعية والهجومية، وتمثلت هذه التنظيمات فى بناء المدن الثغرية وفق أصول وقواعد تهيؤها لتكون مراكز دفاع وهجوم فى مناطق الثغور بحيث اشتمل هذا النوع من العمارة الحربية على الأسوار المحيطة بالمدن الثغرية، بأبراجها وأبوابها، وما أدخل على هذه الأسوار والأبراج من تحسينات استحدثها المسلمون لتدعيم النظم الدفاعية أمام خطر الاسترداد النصرانى، مثل الأبراج البرانية، والأسوار الأمامية، والأبواب ذات المرافق الملبسة بالحديد حتى تقاوم ضربات العدو إذا استطاع الوصول إليها، وهو أسلوب شاع استخدامه فى جل أبواب المدن الثغرية الإسلامية (٨٧) كما اشتمل أيضا على القصاب والقلاع التى كانت عادة فوق الأماكن المشرفة العالية حتى تتمكن حامياتها من السيطرة والإشراف على كل ما يحيطها من مناطق (٨٨) وتأثرت العمارة الحربية الإسلامية لهذه المدن الثغرية بطبيعة الحال بالعمارة الحربية الرومانية أو البيزنطية التى كانت سائدة فى أسبانيا (٨٩).

ويبدو أن عبد الرحمن الناصر كان أكثر الأمويين اهتماما بهذا النوع من الاستراتيجيات العسكرية التى تقوم على سياسة الاستعداد للدفاع والهجوم وتدل المصادر - التى بين أيدينا - على اهتمام الأمويين ببناء الحصون والإكثار منها (٩٠) فمن خلال استقراء النصوص التاريخية نلاحظ الاهتمام ببناء الحصون بكثرة فى مناطق الثغور وتخص منهم بالذكر محمد بن عبد الرحمن الأوسط الذى وصف «بعنايته بمصالح المسلمين، والتهمم بثغورهم، والحفظ لفروجهم، والضبط لأطرافهم...»(٩١)

ومن أهم إنجازاته فى هذا المجال بنيان حصن إستيرش لغلال مدينة سالم فى الثغر الأوسط، وحصن طلمنكة وحصن مجريط وحصن بنه فراطه (٩٢).

وتحفظ المصادر وصفا دقيقا لعملية بناء بعض المدن الثغرية مثل مدينة سالم فى الثغر الاوسط التى اختار مكانها عبد الرحمن الناصر لتواجه قشتيلة، وأمر رجال الثغر بالاجتماع لبنيانها بعد أن أمدهم بما يحتاجونه وتم إرسال البنائين إليها من بلاد الثغر (٩٣).

أهتم الناصر ببناء المدن المحصنة مثل مدينة الفتح فى جبل جرنكش (٩٤) التى رتب بنيانها الوزير محمد بن سعيد بن المنذر، وأمر الناصر بنقل الأسواق إليها، والتمدين لها، لتكثر مرافق أهل العسكر بها. كما بنى مدينة سكتان وشحنها بالرجال، واتخذ فيها الأطعمة

والأسلحة (٩٥) وسار ابنه الحكم المستنصر على نفس سياسته حيث بعث أحمد بن نصير لبنيان مدينة بثغر طليطلة وتشييدها، وتوثيق أمورها وجعل بين يديه أحمال أموال (٦٩). وبلغت شدة الحصون وقوتها أنها كانت تحاصر حوالى أربع وسبعين يوما ولا يستطيعون أقتحامها مثل حصن غرماج (٩٧).

اهتم الأمويون ببناء مراكز الجند في داخل المدن الثغرية لتكون مركزا ومستقرا للقواد الملازمين فيها، وتجهيزها بالعدة والسلاح، والحوانيت والمساجد (٩٨) وكانوا يشجعون الجند على الاستقرار في الحصون عن طريق الإثبات لهم في ديوان العطاء بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن وله المنزل والمحرث (٩٩).

ومما يجدر ذكره أن الإكثار من بناء الحصون كانت له آثار سلبية أحيانا على الدولة الأموية إذ استغلته أيدي الثائرين على الدولة فكانت مأوى لعديد من الثورات مما دفع بالخليفة الناصر إلى التخلص من عدد منها كانت في جيان لأنها «كانت مستركحا لأهل الشر والخلاف، وضررا على أهل الطاعة والاستقامة» على حد قول ابن عذارى (١٠٠).

ومن التحصينات أيضا كان الاهتمام بالأسوار حيث كان السور من أبرز السمات التى ميزت تخطيط المدن الثغرية فى العهد الإسلامي، وقد اهتم الأمويون ببناء الأسوار لحماية المدن(١٠١). وعندما أغار النورمانديون على إشبيلية، تمكنوا من الدخول فى المدينة دون أن تعترضهم أسوار منيعة، فقد دخلوا المدينة وهي عورة سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م، (١٠٢) واستباحوا سبعة أيام ن فاضطر الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى تحصين إشبيلية وبناء سورها بالحجارة(١٠٣)، كما اهتم الخليفة الناصر بتحصين المدن الثغرية أمام الخطر الفاطمي، فأسس مدينة المرية وأحاطها بالأسوار المنيعة، كما أنشأ برجا بقلعة طريف سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م، وفى عهد الخليفة المستنصر بالله أقيمت أبراج وحصون بنواحى الأندلس المختلفة فى الجنوب وفى الشمال على المرتفعات المطلة على الطرق الموصلة بين المدن(١٠٤)، ومن أجل أن يكرس المستنصر بالله الأمن لدي حدوده الشمالية، جعل للثغور جيشا خاصا بها مركزه فى مدينة سالم وبعض أقسامه فى المدن الأخرى الهامة كمجريط ووادى الحجارة GUADALAJARA وغرماج، وحرص على إمداده بالمؤن والأسلحة (١٠٥).

كانت المدن الثغرية مزدوة بالقلاع والأبراج والقصاب، فقد عمد المسلمون إلى إنشاء مراكز حصينة تمكينا لمصالحهم الاقتصادية ورغبة فى دعم نظامهم الدفاعي، وتميزت هذه المدن بصفات حربية بحتة، ويتضح ذلك بجلاء من أسمائها مثل قلعة جابر، وحصن العصر، وحصن الفار وبمالقة وحصن المدور، وقصبة المرية وقصبة بطليوس وقصبة مالقة وغيرها، وكلها تنطق بالدور الكبير الذى قامت به، كما تعبر عن الجهاد المرير الذى قام به المسلمون في تلك الفترة للاحتفاظ بوطنهم الحبيب والذوذ عنه، مما حدا بأحد الباحثين (١٠٦) القول: «أن المسلمين فى الأندلس فى القرن العاشر الميلادي، قد وصلوا فى فن العمارة الحربية فى المدن الثغرية، إلى درجة من التقدم لا يمكن مقارنتها».

وكانت طبيعة الوضع الجغرافى للأندلس كشبه جزيرة – كما ذكرنا سابقا – قد حتمت على الدولة الأموية اتباع سياسة بحرية حربية معينة لحماية سواحلها وثغورها لذلك كان عليهم الاهتمام بالسواحل البحرية وحمايتها، ولعل هذا الاهتمام لم يظهر منذ قيام الدولة الأموية ربما لعاملين: أولهما، انشغال أمراء بنى أمية بالقضاء على الفتن الداخلية ،وفى نفس الوقت اعتماد سياسة دفاعية أو هجومية – حسب مقتضيات الحال إزاء الممالك المسيحية فى شمال إسبانيا، وأما العامل الثانى فهو اطمئنان الدولة الأموية فى الأندلس إلى الدولة البيزنطية لاشتراكهم مع الأمويين فى الاندلس فى معاداة العباسيين (١٠٧) ولم نسمع عن اهتمام الأمويين بالمناطق الساحلية إلا عندما تحدثت المصادر عن الغارة النورماندية على بلاد الأندلس عام ٢٢٩ هـ/٨٤٣م حيث أبلغ وهب بن حزم عامل أشبونة (١٠٨) أن هناك أربع وخمسين مركبا للمجوس، ومعها أربع وخمسين قاربا، هنا كتب الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى عمال السواحل بالتحفظ (١٠٩).

ومن هنا بدأت الادارة الأموية الاهتمام بالثغور البحرية، واصدر عبد الرحمن الأوسط أوامره بإنشاء أسطول بحري مع الاهتمام بتحصين السواحل الجنوبية والجنوبية الغربية، وإنشاء مراقب ومحارس على طول الساحل الغربى المطل على المحيط الأطلسى وشحنها بالمقاتلة (١١٠)

وتركز اهتمام الأمويين فى الثغور البحرية على تزويدها بدور صناعة السفن كما فى دار صناعة السفن فى إشبيلية حتى بلغت فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) سبعمائة غراب (١١١)، واستعدوا بالآلات والنفط، وقد كان لهذه الاستعدادات أثرها فى حماية السواحل الأندلسية حيث فشلت الحملة الثانية للمجوس فى عام ٢٤٤هـ/٨٥٨م بسبب الاستعداد الجيد فى السواحل (١١٢) وفشلت حملة المجوس على سواحل الأندلس الغربية فى عام ٣٥٥ هـ/ ٩٥٦م حيث كانوا فى ثمانية وعشرين مركبا (١١٣) وتؤكد المصادر على أن ذروة ازدهار البحرية الإسلامية فى الأندلس كانت فى عهد الخليفة الناصر الذي تمكنت أساطيله من افتتاح سبتة وطنجة من المغرب حيث استعمل عليها القادة وحصنها بالرجال، وأمدهم بالجيوش الكثيفة فى الأساطيل (١١٤)

وكان تحصين السواحل الثغرية من الأهمية بمكان أيضا عند الأمويين، حتى أنه عندما خرجت المجوس إلى ساحل الغرب سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م فى ستين مركبا وجدوا البحر محروسا والمراكب تجرى فيه ما بين حائط إفرنجة فى الشرق وحائط جليقية فى الغرب ولم يتمكنوا من الدخول بسبب الاستعدادات الحصينة التى اتخذها الأمويون للدفاع عن السواحل. (١١٥).

وكانوا يسارعون فى الاستجابة لسد كل عورة فى ثغورهم البرية والبحرية ومن ذلك استجابة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط فى تجهيز أسطول للسيطرة على أحد المواقع البحرية عندما أخبره أحد رؤساء البحر أن بلد جليقية من ناحية البحر لا معقل

لها ولا حصن، وأن ساحلها نزهة لمن يقصده (١١٦) وأحيانا كانوا يقومون بضربات احترازية لتأديب من يتعرض لسفن المسلمين ومن ذلك ما أمر به عبد الرحمن الأوسط من توجيه العساكر على أهل جزيرة ميورقة، لنكايتهم، وإذلالهم ومجاهرتهم بنقضهم العهد وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين، فغزتهم ثلاثمائة مركب (١١٧) وهذا الاستعداد والتهيؤ الكامل فى الثغور آتى ثماره فى هزيمة المجوس عندما حاولوا دخول الأندلس فى عام ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م فى عصر الحكم المستنصر (١١٨). واستمرت سياسة الحرص واتخاذ الحيطة والحذر بالنسبة للثغور البحرية بإرسال الصوائف إلى السواحل خشية عايدة المجوس الأردمانيين الطارقين له (١١٩) واستمر هذا الاهتمام بالسواحل الأندلسية طيلة العصر الأموى فها هو المنصور بن أبى عامر ينشئ أسطولا كبيرا فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس، ويجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة، استظهارا على نفوذ العزيمة (١٢٠)

وقد زودت المناطق الثغرية بكل انواع الأسلحة حيث كانت هناك اسلحة خفيفة كالقوس والرمح والسيف (١٢١) وأسلحة ثقيلة كالمنجنيقات والعرادات، ويبدو أن الأمويين قد أكثروا من استخدام المنجنيقات حتى بلغ عددها فى أحد غزوات عبد الرحمن الداخل ستة وثلاثين منجنيقا (١٢٢).

وعن فنون القتال فى المدن الثغرية ينقل أبو بكر الطرطوشى (١٢٣) وصفا شائعا بقوله:
«.. فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا، وهو تدبير نفعله فى لقاء عدونا، أن نقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال، والمزاريق المسنونة النافذة، فيصفوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون فى الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة، فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم، ولا يقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو، رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الماح تلقاهم، فأخذوا يمنة ويسرة، فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله». ويبدو أن هذا النظام تطور فيما بعد فاصبح يقوم على نظام خماسى أى المقدمة والمؤخرة، والميسرة والميمنة والقلب (١٢٤).

ومما سبق يتضح أن الدولة الأموية اتبعت سياسةالتخطيط والمتابعة والرقابة، والاستعانة بالأبناء والأقارب فى عملية المراقبة، قامت سياستها على أساس من الحكمة والاتزان فى التعامل مع الثورات الداخلية حرصا منها على المناطق الثغرية فهادنت الثوار وصالحت القوى الأجنبية فى حالات الضعف واتبعت سياسة الحزم فى الوقت المناسب. ومن ذلك إرسال يحيى بن حكم الغزال فى سفارة إلى ملك الروم

(١٢٥) ومساعدة غليالم بن برناط أحد عظماء إفرنجة لمغاورة الملك لذويق بن قارلة بن ببين(١٢٦).

وصفوة القول أن الدولة الأموية اتبعت سياسة إعطاء الصفة شبه المستقلة للمناطق الثغرية والتقليل من سيطرة حكومة قرطبة، وذلك لتحقيق أهداف منها : الالتفاف للمؤامرات والثورات التى ما فتأت مشتعلة طيلة العصر الأموى، وثانيا : ضمان استقرار الثغور ودرء خطر القوى النصرانية المتوثبة دائما للانقضاض على الدولة الأموية، والتى استفادت حقيقة من الثورات ضد الدولة الأموية بتوسيع مناطق نفوذها (١٢٧) وامتازات سياستهم بالمرونة والحكمة إلى حد كبير فى التعامل مع أهل المناطق الثغرية حيث كانت تستجيب لمطالبهم فى تغيير الولاة، وتستجيب لمطالبهم فى إجراء تعديلات وإنشاءات داخل مدنهم، وأن ما قاموا به من إنجازات حضارية مهمة فى هذا الميدان، تركت آثارها على الأندلسيين، بل امتدت آثارها إلى جيرانهم من نصارى أوروبا.

الهوامش

(١) ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) : معجم البلدان، دار صادر، بيروت - لبنان -١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ج٢، ص٧٩.

(٢) الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب بن محمد (٨١٧هـ/١٤١٤م): ترتيب القاموس المحيط، إعداد الطاهر أحمد الزاوي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان -١٣٩٩هـ/١٩٧٨م، ج١، ص٤٠٨.

(٣) انطوانيت أديب باسيلي : ثغور العرب في التاريخ، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت - لبنان - السنة الثالثة، ع٣٦، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٥٤.

(٤) المرجع السابق، ص٥٤

(٥) مصطفى أبو ضيف أحمد، القبائل العربية في الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية، دار النشر المغربية الدار البيضاء - المغرب - د.ت، ص١٨٥.

(٦) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة - مصر- د. ت، ص٢٧-٢٨.

(٧) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة - مصر - ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ص٣٦.

(٨) ابن عذاري، أبو العباس أحمد (ت حوالي ٧١٢هـ/ ١٣١٢م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان - ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ج٢، ص٢٤.

(٩) ابن القوطية، المصدر نفسه، ص٣٨.

(١٠) Conde,J. :A History of the dominion Arabes in Spain,London,1909.P.32

Sandoval,F.P:Historia de Los Reyes de castilla y de Leon, Pamplona,1634,p.p114-116

(١١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر، جدة، - المملكة العربية السعودية - ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص٣٢١-٣٢٢.

(١٢) بلاي: قائد قوطي قاد حركة المقاومة ضد الوجود الإسلامي في الأندلس منذ عام ٩٨هـ/٧١٦م. . عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، بيروت - لبنان - ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ص٢٦٩.

(١٣) قورية قريبة من ماردة، ولها سور منيع، من أحصن المعاقل. الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت٨٦٦هـ/١٤٦١م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت -

لبنان، ط ٢، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨ م، ص ١٦٤.

(١٤) ماردة: مدينة بغرب الأندلس كانت مقر القواد والجنود. الحميري: المصدر نفسه، ص ١٧٦.

(١٥) GLICK,THOMAS: ISLAMIC AND CHRISTAiN IN THE EARLY MIDDLE AGES,PRINCETON UNIVERSITY PRESS,1979,P.54

(١٦) سميت مملكة جليقية بهذا الاسم لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التي كانت تسمى بهذا الاسم، وظل هذا الاسم علما عليها حتى أواخر عصر إمارة بني أمية عندما نقل الملك غرسيه بن الفونس الثالث العاصمة إلى ليون عام ٢٩٤هـ/٩١٠م.

شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان -د. ت ج١، ص ٣١٧.

(١٧) GLICK, Op.CIT,PP.56-57

(١٨) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٦١.

(١٩) سرقسطة: تقع شرق قرطبة، تتوسط مدن الثغر، مشهورة بصناعة النسيج، ولها مدن ومعاقل منها قلعة أيوب. العذري: (أحمد بن عمر بن أنس) ت٤٧٨/١٠٨٥م. ترصيع الأخبار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، صحيفة المعهد المصري، مدريد، مج ٢٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص٢٤؛ ابن غالب: (محمد بن غالب الغرناطي) ت ٥٧١هـ/١١٧٥م، فرحة الأنفس في تاريخ أهل الأندلس، تحقيق لطفي عبد البديع، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م، ص ١٨.

(٢٠) رجب عبد الحليم: العلاقات، ص٩٢.

(٢١) لاردة: مدينة في ثغر الاندلس الشرقي، مشهورة بالكتان، الذي يوزع منها إلى جميع نواحي الثغور. الحميري: الروض المعطار، ص١٦٨.

(٢٢) تطيلة: مدينة في جوفي وشقة مشهورة بجودة تربتها ن وطيب ثمرها. الحميري: المصدر نفسه، ص٦٤.

(٢٣) وشقة: مدينة شرق مدينة تطيلة، مشهورة باسواقها وثمارها. المصدر السابق، ص١٩٥.

(٢٤) طرطوشة: تقع شمال شرق إسبانيا بالقرب من ساحل البحر المتوسط عند مصب نهر الإبرو وعلى بعد ٨٤كم جنوبي مدينة طركونة التي تعتبر طرطوشة من أعمالها، وهي مشهورة في العصر الإسلامي بأنها وجهة التجار، واشتهرت بدار صناعتها التي أنشأها عبد الرحمن الناصر. ابن غالب: فرحة الأنفس، ص١٧؛ ابن الكرديوس: (أبو مروان عبد الملك التوزري) ق٦/١٢م، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري، مدريد - إسبانيا - ع ١٣، ١٢٨٥-١٣٨٦هـ/١٩٦٥-١٩٦٦م، ص١٠٠.

(٢٥) مدينة سالم: تقع شمالي مدريد بنحو ١٥٣كم في الطريق الذي بين مدريد وسرقسطة، وهي مدينة قديمة من العصر الروماني، عمرها زعيم مغربي مصمودي يسمى سالم بن ورعمال المصمودي

الذي يحتمل أن يكون من أوائل الفاتحين، ومنذ ذلك الوقت عرفت هذه المدينة باسم هذا القائد وكانت من أعظم المدن وأحصنها، مشهورة بالزروع والجنات. الإدريسي، محمد بن عبد العزيز (ت٥٤٨هـ/١١٥٤م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت - لبنان ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج٢، ص٥٥٣، ابن الكردبوس : الاكتفاء، ص٦٠.

(٢٦) طليطلة : كانت قاعدة مملكة القوط، وهي مطلة على نهر تاجة، مشهورة بالزعفران. ابن غالب. فرحة الأنفس، ص ١٩

(٢٧) قلمرية : تبعد عن قورية أربعة ايام وهي مدينة حصينة، عامرة بالكروم والتفاح. الحميرى : الروض المعطار، ص ١٦٤.

(٢٨) شنترين : مدينة شرق قرطبة، ولها حصون كثيرة، ابن غالب : فرحة الأنفس، ص١٩.

(٢٩) البكرى، عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) : جغرافية الأندلس وأوروبا، جزء من كتاب المسالك والممالك، تحقيق د. عبد الرحمن، دار الإرشاد، بيروت - لبنان - ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، ص٩٥؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان - ط١، ١٤٠٣هـ ج٧، ص٣٠٧.

(٣٠) أحمد العبادى، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية - مصر - ١٩٧١م، ج٢، ص٥٠.

(٣١) Sandoval,Op.Cit,p.127

(٣٢) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م) المقتبس من أنباء أهل الأندلس، السفر الثاني، تحقيق محمود على مكى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض - المملكة العربية السعودية -ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٤٢٩؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة - مصر -، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص١٣٨.

(٣٣) قرطبة : قاعدة الاندلس وأم المدائن، عاصمة الدولة الأموية في الأندلس، مشهورة بتوسطها بين المدن الأندلسية وكثرة خيراتها، ابن غالب : فرحة الأنفس، ص٣٦؛ السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية - مصر -١٩٨٤م، ص١٥-٢٠.

(٣٤) إشبيلية : مدينة قديمة معناها (المدينة المنبسطة) تبتعد عن قرطبة مسيرة ثلاثة أيام، مشهورة بتجارة الزيت. الحميرى : الروض المعطار، ص١٩.

(٣٥) قادس : جزيرة بالأندلس، مشهورة بالمعز. الحميري: المصدر نفسه، ص١٤٥.

(٣٦) العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والاندلس، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان - د. ت، ص١٩.

(٣٧) ابن عذاري :، ج٢، ص٢٢١.

(٣٨) ابن عذارى : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٩٧ .

(٣٩) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢٠؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص٢٥٢ .

(٤٠) الحميرى : الروض المعطار ، ص٣٧ ، العبادي : تاريخ البحرية ، ج٢ ، ص٥١ .

(٤١) بجانة: كانت مشهورة قبل المرية ، ثم انتقل أهلها إلى المرية ، التى عمرت وخربت بجانة . الادريسى : نزهة المشتاق ، ج٢ ، ص٥٦٦ .

(٤٢) ، العبادى ، أحمد مختار ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت – لبنان – د. ت ، ص١٩

(٤٣) ابن حيان : المقتبس(تاريخ دولة الأمير عبد الله الأموى بقرطبة) تحقيق ملشور . انطونية ، باريس ، ١٩٣٧م ص٨٨ .

(٤٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، ص٢٠٣

(٤٥) المجوس أو الأردمانيون يقصد بهم النورمان ، إذ أن التسمية الاولى محرفة من لفظ النورد مانيين وفقا لعادة الأندلسيين فى قلب النون إلى همزة ، مثل أربونة ونربونة . أما الثانية فقد أطلقها المسلمون عليهم لأنهم كانوا يشعلون النيران فى كل موضع يمرون به ، فحسبهم المسلمون مجوسا لهذا السبب . ابن القوطية: افتتاح الأندلس ، ص٦٩؛ العبادي ، سالم : تاريخ البحرية الإسلامية ، ج٢ ، ص١٥٢ .

(٤٦) بدأت حركات الاستقلال فى مناطق الثغور منذ عصر الولاة حيث تذكر الروايات أنه فى أثناء دخول بدر مولى عبد الرحمن الداخل على الأندلس للدعوة له كان ابوسف الفهرى خارج إلى سرقسطة بسبب ثورة عامر القرشى العامرى ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٤٦ ، أخبار مجموعة ، ص٦٨ .

(٤٧) أخبار مجموعة ، ص١٣٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص٢٣٥ ، ٢٣٨ .

(٤٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص٥٠ .

(٤٩) المصدر السابق ، ج٢ ، ١٨٦ .

(٥٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص٥٤ .

(٥١) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٦ .

(٥٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨٢ .

(٥٣) أخبار مجموعة ، ١١١ .

(٥٤) هناك أمثلة كثيرة على الهزائم التى منى بها الأمويون من وراء أهل الثغور ومداهنتهم للنصارى الأسبان . ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٧٠؛ ابن عذارى: المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥٠–٥٨ ، ١٧٠ . ولمزيد من التفاصيل انظر أميرة الجعفرى: السياسة الداخلية للإمارة الأموية نى الأندلس ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب للبنات بالدمام ، ١٤٠٨/١٩٨٨ ، ص١٣٠–١٥٧ . حمدى حسين: أضواء جديدة حول ثورات طليطلة فى عصر الإمارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ÷ مصر – ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٢٥–٣٦ .

(٥٥) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص٤٢٩.

(٥٦) ابن عذارى : ج٢، ص١٢٠

(٥٧) ابن عذارى : ج٢، ص١٢٠؛ أخبار مجموعة، ص١١٧.

(٥٨) ابن حيان : المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص ١٥٢.

(٥٩) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٦٠) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص ١١٩.

(٦١) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص١٣٣

(٦٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص٢٩٨.

(٦٣) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص١٣٢، ابن حيان: المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص ١١٦؛ ابن عذارى : المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٠، ١٨٩.

(٦٤) ابن حيان : تحقيق الحجي، ص١٦٨.

(٦٥) أخبار مجموعة، ص١٠٩.

(٦٦) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص ١٠٣. وراجع أيضا :

Marlin,Higbee walker: Islamization and Muwallads in early Islamic Spain (P,HD) Columbia University,1998,pp.81=82

(٦٧) وقد عرف الأوسط كذلك بكثرة تغيير القضاة حتى بلغ عددهم عشرة قضاة ابن حيان : المقتبس، تابع السفر الثاني، ص٤٠، انظر جدول رقم (٥).

(٦٨) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص١٧٦.

(٦٩) شبه هشام الرضا في البيان المغرب سيرته بعمر بن عبد العزيز. ابن الأثير : (ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني) ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ج٥، ص١٠١؛ أخبار مجموعة، ص١٠٩.

(٧٠) ابن حيان : المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص٢١.

(٧١) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص ٤٤٣.

(٧٢) ابن حيان : المقتبس، تابع السفر الثاني، ص٧

(٧٣) ابن حيان : المقتبس، تابع السفر الثاني، ص١٣١

(٧٤) ابن حيان : المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص١٦٩، ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٠٩؛ حسين دويدار : السفارات بين الأندلس والدول الاجنبية في العصر الأموي، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٢٥-٢٧

(٧٥) ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص٤٤٣.

(٧٦) ابن عذاري : البيان المغرب، ج٢، ص٢٣١.

(٧٧) المصدر السابق : ج٢، ص٢٣٤.

(٧٨) كان الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أول من أسقط هذه الضريبة. المصدر السابق: ج٢، ص١٠٩.

(٧٩) ابن عذاري :البيان المغرب، ج٢، ص١٧٢.

(٨٠) المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٣.

(٨١) أفاضت المصادر التاريخية فى وصف الغنائم التى اكتسبها المسلمون فى حركة الصراع الدائمة التى كانت بين المسلمين والنصارى الأسبان ومن ذلك ما غنمه المسلمون فى حصن تغالية فى عهد الناصر حيث كانت الأطعمة كثيرة، والنعم فيه فائضة ابن حيان : المقتبس، تابع السفر الثانى، ص٣٤١، ابن عذارى : ج٢، ص١٨٦، ٨٢، ٦٥. وكذلك ما ذكر بأن محمد بن عبد الملك الطويل صاحب وشقة من الثغر أصاب فى إحدى غزواته ما يقرب من ثلاثة عشر ألف دينار وضعها فى بنيان سور وشقة فحصنه وحكمه. ابن حيان : المقتبس، السفر الثالث، ص١٤٧.

(٨٢) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص٩٦.

(٨٣) القفيز من مكاييل الأشياء اليابسة، واختلفت مقاديره فى البلاد الإسلامية فى العصور المختلفة. الشيزرى، عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق الباز العرينى، القاهرة، ١٩٤٦م، ص١٧.

(٨٤) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢ ن ص١٨٠

(٨٥) ابنحيان : المقتبس، تحقيق الحجى، ص٢٢٣.

(٨٦) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص١٦٨.

(٨٧) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص٢٢٧؛ محمد بن عبد الستارعثمان : المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، الكويت، ذو الحجة ١٤٩٨هـ/أغسطس ١٩٨٨م، ص١٤٢، وراجع أيضا :

Trres,Henri: L,ART Hipano Maureszue, Des Origins Au XIIIe, Siecle, Paris 1932, PP.54-55

Torres Balbas, (Los Contornos De Las Ciudades Hispano Musulman AL-Andalus, Volxv, PP437-486,1950

(٨٨) محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية، ص١٤٢-١٤٣.

(٨٩) السيد عبد العزيز سالم: فى تاريخ وحضارة الأندلس، ص٢٢٨.

(٩٠) يبدو أن سياسة بناء الحصون كانت منتشرة حتى على الحدود مع الممالك النصرانية حيث بلغت عدد الحصون التى فتحها عبد الملك بن أبى عامر سنة ٣٩٣هـ ٨٥ حصنا .ابن عذارى : البيان المغرب، ج٣، ص٨ وجرى الإدريسى على التفريق بين الحصن والقصر والغالب عليه أنه يعتبر الأبنية الساحلية المحصنة قصورا، أما الأبنية المحصنة الداخلية فإنه يسميها بالحصون. محمد عبد الهادى

شعيرة : الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية ، ص٢٣٦.

(٩١) ابن حيان : تابع السفر الثاني، ص١٣٢؛ ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص١٠٣

(٩٢) ابن حيان : المقتبس، تابع السفر الثاني، ص١٣٢؛ ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص ١٠٣.

(٩٣) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٤. وراجع :

HARVEY, L.P.: ISLAMIC SPAIN,CHICAGO,1990,PP204-206

(٩٤) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص ٢٠٣.

(٩٥) المصدر السابق، ج٢، ص٢١٠.

(٩٦) المصدر السابق : ج٢، ص ٢٣٦.

(٩٧) ابن حيان : المقتبس، تحقيق الحجى، ص٢٣٤.

(٩٨) ابن عذارى : المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٨.

(٩٩) المصدر السابق ن ج٣، ص٧.

(١٠٠) المصدر السابق، ج٢، ص١٩٠.

(١٠١) ابن عذارى البيان المغرب، ج٢ ص ٩٤ .

(١٠٢) ابن سعيد المغربي علي بن موسى «٦٨٥هـ/١٢٨٦م» المغرب في حلى المغرب، جزءان تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ١٩٥، ١٩٥٣ ط٢ ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ج١ص٤٩.

(١٠٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨١؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٢٠.

(١٠٤) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٣٢٣.

١٠٥- Torres Balbas,op.cit,p462

١٠٦- Glick, Thomas,op.cit, p149

(١٠٧)- محمد أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية- مصر ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ص ٤٦

(١٠٨) أشبونه تقع على ساحل المحيط الأطلسي عند مصب نهر التاجو، الحميري: الروض المعطار، ص١٦.

(١٠٩) ابن عذارى: البيان المغرب ج٢، ص٨٧.

(١١٠) العبادى سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ج٢، ص١٦٠.

(١١١) الغراب نوع من السفن القديمة. ابن الكرديوس: الاكتفاء، ص٩٩؛ ابن أبي دينار القيرواني: (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني) كان حيا ١١١٠هـ/١٦٠١ م. المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة ،تونس، ط٢ ١٩٦٧م، ص٩٩.

(١١٢)- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٣.

(١١٣)- ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٣٩.

(١١٤)- اخبار مجموعة، ص ١٣٦؛ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٠٤.

(١١٥)- ابن حيان: المقتبس، تابع السفر الثاني، ص ٣١٣ وقارن ابن عذارى حيث يذكر أن هذه الغزوة كانت فى عام ٣٢٥هـ وأن عدد المراكب كان اثنتى وستين مركبا. البيان لمغرب، ج٢، ص٩٦.

(١١٦) ابن حيان: المقتبس تابع السفر الثانى ص ٣٩٨.

(١١٧) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢ص٨٩.

(١١٨) ابن حيان: المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص٥٨.

(١١٩) ابن حيان: المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص٧٨.

(١٢٠)ابن عذاري: المصدر نفسه، ج ٢، ص٢٩٥.

(١٢١) المصدر السابق، ج٢ ص٩٥، ١٧٩.

(١٢٢) اكثرت المصادر التاريخية من ذكر المنجنيق واستعماله فى الحروب والمعارك التى خاضها الأمويون فى المناطق الثغرية، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٥، ص ٦٦؛ ابن عذارى المصدر نفسه، ج٢ص٦٤، ٨٨ أخبار مجموعة ص١٠٥.

(١٢٣) الطرطوشى أبو بكر محمد بن الوليد الفهري (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): سراج الملوك، القاهرة د.ت، ص١٧٩.

(١٢٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨ م، ص٤٧٩ ؛ Marlyn Walker,op.cit,p 142

(١٢٥) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي ٣٥٠.

(١٢٦) ابن حيان: المقتبس، تابع السفر الثانى ص٣.

(١٢٧) رينهرت دوزي: المسلمون فى الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج٢، ص١٧.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- ابن الأثير : (على بن أبى الكرم محمد الشيبانى ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

الكامل فى التاريخ، دار الكتاب العربى، بيروت - لبنان - ط٤، ١٤٠٣ ه/١٩٨٢م.

- الإدريسى : (محمد بن عبد العزيز ت ٥٤٨هـ/١١٥٤م).

نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، جزءان عالم الكتب، بيروت - لبنان - ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

- البكرى : (عبد العزيز بن محمد ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)

جغرافية الأندلس وأوروبا، جزء من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد، بيروت - لبنان - ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.

- الحميرى : (محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠ ه/١٤٩٤م).

الروض المعطار فى خبرالأقطار، تحقيق إليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت - لبنان - ط٢، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨م.

- ابن حيان: (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م)

المقتبس من أنباء أهل الأندلس، السفر الثانى، تحقيق محمود على مكى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض - المملكة العربية السعودية - ط١، ١٤٠٤ هـ/٢٠٠٣م.

- المقتبس (تاريخ دولة الأمير عبد الله الأموى بقرطبة) اعتنى بنشره الأب ملتشور أنطونية، باريس، ١٩٣٧م.

- المقتبس (خمس سنوات من أيام الحكم المستنصر) تحقيق عبد الرحمن الحجى، دار الثقافة، بيروت - لبنان -١٩٨٣م.

- ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥ م)

تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ١٤ جزء، دار الكتاب اللبنانى، بيروت - لبنان - ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

ابن أبى دينار القيروانى : (محمد بن أبى القاسم الرعينى كان حيا ١١١٠هـ/١٦٠١م).

المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م.

ابن سعيد (على بن موسى ت٦٨٥هـ /١٢٨٦ م).

المغرب فى حلى المغرب، جزءان، تحقيق شوقى ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤ه/١٩٦٤م

الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر ت٥٨٩هـ/١١٩٣م).

نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق الباز العرينى، القاهرة، ١٩٤٦م

الطرطوشى (أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)

سراج الملوك، القاهرة، د. ت.

– ابن عذارى : (أبو العباس أحمد كان حيا حتى سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م).

البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. سى كولان، إ. ليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان – ط٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م

– العذرى : (أحمد بن عمرب بن أنس ت٤٧٨ هـ/١٠٨٥م).

ترصيع الأخبار، تحقيق عبد العزيز الأهوانى، صحيفة المعهد المصرى، مدريد، مج ١٣٨٥، ٢٢ /١٩٦٥م.

– ابن غالب : (محمد بن غالب الغرناطى ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)

– فرحة الأنفس فى تاريخ أهل الأندلس، تحقيق لطفى عبد البديع، القاهرة ن ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

– الفيروز آبادى : (محمد بن يعقوب بن محمد ت٨١٧هـ/ ١٤٤١م).

ترتيب القاموس المحيط، إعداد الطاهر أحمد الزاوى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.

– ابن القوطية : (أبو بكر محمد بن عمر ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م).

تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دارى الكتاب المصرى، القاهرة – مصر – ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

– ابن الكردبوس : (أبو مروان عبد الملك التوزرى ت ٦ هـ/١٢م).

الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، تحقيق د. احمد مختار العبادى، صحيفة المعهد المصرى، مدريد – إسبانيا – ع١٣، ١٣٨٥–١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٥–١٩٦٦م.

– مؤلف مجهول :............

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دارى الكتاب المصرى، القاهرة – مصر – ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

– ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت – لبنان – ١٤٠٤/١٩٨٣م

ثانيا : المراجع العربية :

- أحمد مختار العبادي: فى تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان – د. ت

- تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية – مصر –١٩٧١م.

- أميرة أحمد الجغفري: «السياسية الداخلية للإمارة الأموية فى الأندلس»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب للبنات بالرياض، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م.

-أنطوانيت أديب باسيلى: ثغور العرب فى التاريخ، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت – لبنان – السنة الثالثة، ع٣٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م

- حمدى عبد المنعم محمد حسين: أضواء جديدة حول ثورات طليطلة فى عصر الإمارة، مؤسسة شباب الجامعة، بالإسكندرية – مصر –١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م.

- حسين يوسف دويدار: السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية فى العصر الأموى، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م

- حسين مؤنس: فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر، جدة – المملكة العربية السعودية – ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

- رجب محمد عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف (دار الكتاب المصرى)، القاهرة – مصر – د.ت

- رينهرت دوزى: المسلمون فى الأندلس، الجزء الثانى، ترجمة حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م

- السيد عبد العزيز سالم:

- قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية – مصر – ١٩٨٤.

- فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس، الإسكندرية، ١٩٩٨ م

- شكيب أرسلان: الحلل الأندلسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان – د. ت

- عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى، دار القلم، بيروت – لبنان – ط٢، ١٤٠٢ هـ/١٩٨١م.

- مصطفى أبو ضيف أحمد: القبائل العربية فى الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء – المغرب– د. ت

- محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر -١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، الكويت، ذو الحجة ١٤٠٨ هـ/أغسطس ١٩٨٨م.

- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨م.

ثالثا : المراجع الأجنبية :

Conde, J.A: History Of The Dominio Arabes In Spain, London,1909

Glick,Thomas: Islamic And Christian Spain In The Early Middle Ages, Princeton University Press, 1979

Harlyn, L.P.: Islamic Spain. Chicago.1990

Marlyn, Higbee Salker: Islamization And Muwallads in In Early Islamic Spain (PHD) Columbia University, 1998

Sadovale, F. P: Historia De Los Reyes De Castilla y De Leon, Pamplona 1634.

Terres, Henri: L' art Hispano Mauresque, Des Origins Au XLLLe, Siecle, Paris 1932

Torres Balbas,)Los Contornos De Las Ciudades Hispano Musulamans Alandlus, Vol XV, 1950

ملاحق البحث

أولا : الجداول

ثانيا : الخرائط

بيان بأهم الحصون والمدن الثغرية فى عصر الدولة الأموية

جدول رقم (١)

اسم الحصن	المصدر
جبل تطيلة/مدينة حصينة في الثغر الأعلى بناها عمروس بن يوسف وعين عليها ابنه يوسف 186هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 118
حصن تروفة بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط	ابن حيان:المقتبس،تحقيق مكي،ط.القوطية،ص 20
حصن غرماج من ثغر مدينة سالم	ابن حيان:المقتبس،تحقيق عبد الرحمن الحجي،ص 218
حصن برغوم	ابن حيان:المقتبس،تحقيق عبد الرحمن الحجي،ص 226
حصن أوريولة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص 97
حصن قشتيل	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص 97
حصن جرانيق تم فتحه في/253هـ	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص99
حصن كركي	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص102
حصن منت شلوط	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص102
حصن روطة تم فتحه في 268هـ	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص105
حصن لوشة أمر ببنائه الأمير عبد الله بن محمد	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص124
حصن الخشن يلي حصن لوشة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص141
حصن بليش	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص141
حصن بلدة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص142
حصن منتشون	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص144
حصن منت بطروش	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص145
حصن أشر	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص147
حصن بشار قشتيلة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص148
حصون شمنتان	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص161
حصن الشارة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص161

حصن قلهرة	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص164
حصن بلتيرة	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص172
حصن دوش ألمنتش	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص174
حصن القليعة	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص176
حصن وخشمة	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص177
حصن قاشتر مورش	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص177
حصن أرنيط	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص178
حصن بلتيرة	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص189
حصن الوقاع	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص201
حصن مورة من حصون طليطلة	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص203
حصن قنيلش/حصن الفهمين	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص203
حصن مولة فتحه المنصور بن أبي عامر366هـ	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص265
حصن المال وحصن زنبق فتحهما المنصور بن أبي عامر	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2ص267
حصن ممقصر من ثغر برشلونة فتحها عبد الملك بن أبي عامر/393هـ	ابن عذاري:البيان المغرب،ج3ص4

أهم عمال الثغور في عصر عبد الرحمن الداخل 138-172هـ/755-788م

(جدول رقم 2)

اسم العامل	المنطقة	المصدر
عبد الرحمن بن عقبة	أربونة/طرطوشة	ابن القوطية:افتتاح الأندلس،ص 52
ولد سعد بن عبادة	طليطلة	ابن القوطية:افتتاح الأندلس،ص 52
حصين بن الدجن	طليطلة	أخبار مجموعة،ص 84
سالم أبي زعبل	ماردة	أخبار مجموعة،ص 98
عاصم بن مسلم	طليطلة	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2،ص 53
عبد الرحمن الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة الأنصاري	سرقسطة/165هـ	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2،ص 56
علي بن حمزة	سرقسطة/167هـ	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2،ص 57

أهم عمال الثغور في عصر هشام الرضا 172-180هـ/788-796م

(جدول رقم 3)

اسم العامل	المنطقة	المصدر
عمروس بن يوسف	طليطلة/أواخر أيام هشام	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 120
الحكم الربضي	طليطلة/176هـ	ابن القوطية: افتتاح الأندلس،ص 65؛ ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 278
حدير المعروف بالمذبوح	ماردة/173هـ	ابن عذاري:البيان المغرب،ج2،ص 62

أهم عمال الثغور في عصر الحكم الربضي180-206هـ/796-821م

(جدول رقم 4)

اسم العامل	المنطقة	المصدر
محمد بن عبد الله بن مزين	طليطلة/180هـ(الثغر الأوسط)	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 103
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث	طليطلة/180هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 103
عبد رب بن زريق	طليطلة/180هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 103
عبد العزيز بن حسان	طليطلة/181هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 105
عمروس بن يوسف	طليطلة/186هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 105
سعدون الرعيني	برشلونة/185هـ(ناصية الثغر الشرقي)	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 117
الوليد بن عبد الملك	طليطلة/190	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 130
عبيدة بن حسان	ماردة/الثغر الأدنى/192	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 131
أبا زكريا المذبوح	ماردة/الثغر الأدنى/192	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 131
أحمد بن عبد الواحد بن مغيث	طليطلة/198	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 137
مهاجر بن عتبة	طليطلة/198	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 137
عيدون بن الغمر	سرقسطة/198	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 137
عبد الرحمن بن الحكم	جميع الثغر/199	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 137
عقبة بن أبي الأشمط	ماردة/201	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 139
إبراهيم بن مزين	طليطلة/198	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 146
بنو قسي:أذعنت الأندلس في عهد الحكم ما عدا بنو قسي في الثغر		ابن القوطية:تاريخ افتتاح الأندلس، ص 70

أهم عمال الثغور في عصر عبد الرحمن الأوسط 206-232هـ/821-852م

(جدول رقم 5)

اسم العامل	المنطقة	المصدر
محمد بن عتبة	طليطلة/208هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 418
مهاجر بن عتبة	سرقسطة/209هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 419
الوليد بن أمية	طليطلة/209هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 418
يحيى بن عبد الله	سرقسطة/214هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 423
حارث بن بزيع	ماردة/الثغر الأدنى/215هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 423
عبد الرؤوف بن عبد السلام	طليطلة/216هـ/بعد عزل إبراهيم بن عتبة	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 424
أيمن بن مهاجر	طليطلة/219هـ/	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 426
الغمر بن عيدون بعد عزل حمدون بن أبي عبدة	طليطلة/220هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 426
عبد الله بن كليب	طليطلة/224هـ	ابن حيان:المقتبس،السفر الثاني،ص 429

عامر بن كليب	طليطلة/226هـ	ابن حيان: المقتبس، السفر الثاني ص 446
محمد بن أبي عبدة/عبد العزيز بن هاشم	طليطلة/227هـ	ابن حيان: المقتبس، السفر الثاني ص 448
عبد الله بن كليب ثم عزله وعين الحارث بن بزيع	طليطلة/228هـ	ابن حيان: المقتبس، السفر الثاني ص 449
المنذر بن الأوسط	سرقسطة وجميع الثغر الأعلى/225هـ	ابن حيان: المقتبس، السفر الثاني ص 450
عزل حارث بن بزيع وعين محمد بن السليم	طليطلة/232هـ	ابن حيان: المقتبس، تابع السفر الثاني ص1
عزل محمد بن السليم وعين أيوب بن السليم	طليطلة/233هـ	ابن حيان: المقتبس، تابع السفر الثاني ص2
عبيد الله بن يحيى	طرطوشة/234هـ	ابن حيان: المقتبس، تابع السفر الثاني ص3
عزل أيوب بن السليم وعين يوسف بن بسيل	طليطلة/234هـ	ابن حيان: المقتبس، تابع السفر الثاني ص3

أهم عمال الثغور في عصر محمد بن عبد الرحمن 238-273هـ/852-886م

(جدول رقم 6)

اسم العامل	المنطقة	التاريخ
عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث	سرقسطة/257هـ	ابن حيان: المقتبس، تابع السفر الثاني ص 326.
حارث بن بزيع	قلعة رباح وطلبيرة/341هـ	ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 95
سعيد بن عباس القرشي	ماردة/254هـ	ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 100
موسى بن غالد	وشقة	ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 100
مطرف بن عبد الرحمن وطريشة بن ماسويه	قسمت طليطلة إلى قسمين بسبب اختلاف أهلها على الولاة	ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 101

أهم عمال الثغور في عصر المنذر بن محمد 273-275هـ/886-888م

(جدول رقم 7)

اسم العامل	المنطقة	المصدر
أحمد بن البراء بن ملك القرشي	سرقسطة	ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص 123، ابن حيان: المقتبس، تحقيق ملشور، انطونية ص 86

أهم عمال الثغور في عصر عبد الله بن محمد 275-300هـ/888-912م

(جدول رقم 8)

اسم العامل	المنطقة	المصدر
لب بن محمد	تطيلة وطرسونة	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 17
أحمد بن البرا	سرقسطة	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 21
محمد بن عبد الرحمن التجيبي(هو من خاطب الأمير عبد الله بن محمد وطلب منه تعيينه فوافقه بسبب انشغاله بالثورات التي اشتعلت في عهده)	سرقسطة	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 21
عبد الحكم بن سعيد بن عبد السلم	طرطوشة	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 106
عبيد الله بن محمد بن العمر بن أبي عبدة	طرطوشة/278هـ	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 106
عبد الله بن عباس	طرطوشة	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 109
موسى بن فطيس	طرطوشة	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 109

أهم عمال الثغور في عصر عبد الرحمن الناصر/300-350هـ

(جدول رقم 9)

اسم العامل	المنطقة	المصدر
مطرف بن موسى بن ذي النون	مدينة الفرج من الثغر الأوسط	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 19
محمد بن عبد الرحمن التجيبي	سرقسطة	ابن حيان:المقتبس،تحقيق ملشور ،انطونية،ص 21
محمد بن عبد الوهاب	حصن المنتلون	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص 161
لب بن الطربيشة	طليطلة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص176
سعيد بن المنذر	مدينة الفرج	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص176
عبد الملك بن العاصي	مالقة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص194
محمد بن إسحاق	ماردة	ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص200

أهم عمال الثغور في عصر الحكم المستنصر 350-366هـ/961-976م

(جدول رقم 10)

المصدر	المنطقة	اسم العامل
ابن حيان:المقتبس،تحقيق عبد الرحمن الحجي،ص 24	قائد البحر/360هـ	عبد الرحمن بن رماحس
ابن حيان:المقتبس،تحقيق عبد الرحمن الحجي،ص 68	سرقسطة/361هـ	أحمد بن يعلي
ابن حيان:المقتبس،تحقيق عبد الرحمن الحجي،ص 69	سرقسطة	أحمد بن محمد بن عباس
ابن حيان:المقتبس،تحقيق عبد الرحمن الحجي،ص 151	لاردة/363هـ	رزق بن الحكم الجعفري

أهم عمال الثغور في عصر الدولة العامرية

(جدول رقم 11)

المصدر	المنطقة	اسم العامل
ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص 282	سرقسطة	عبد الرحمن بن مطرف
ابن عذارى:البيان المغرب،ج2،ص 283	سرقسطة/379هـ	عبد الرحمن بن يحيى(سماجة)

د. يسرى أحمد زيدان (*)

الدور الأندلسى والمصرى فى إقريطش

(٢١٠-٣٥٠هـ/ ٨٢٥-٩٦١م)

مقدمة:

حظيت جزيرة إقريطش «كريت» بعدة دراسات وكتابات تاريخية، اقتصر بعضها على تناول فتحها وتقديم صورة موجزة للوضع السياسية بها حتى زوال الحكم الإسلامى عنها (١)، بينما توسع بعضها الآخر فى تناول الصراع العسكرى بين المسلمين بها وبين الإمبراطورية البيزنطية(٢)، الذى أدى فى نهاية الأمر إلى عودة الجزيرة للتبعية البيزنطية (٣٥٠هـ/٩٦١م). وعرضت هذه الدراسات والكتابات دور الأندلسيين فى فتح الجزيرة، لكنها أغفلت تماما دور الأندلسيين الثقافى فى الجزيرة بعد فتحها، فلم تتناوله فى كلمة واحدة، لأنها ركزت على الجانب السياسى فقط دون غيره. كما أهملت الحديث عن دور مصر فى محاولات الفتح لإقريطش، فضلا عن دورها الثقافى بها والذى لم ينل عبارة واحدة فى هذه الكتابات والدرسات التاريخية عن إقريطش العربية.

والحق إن إقريطش ارتبطت ارتبطا وثيقا بالأندلس ومصر منذ الفتح الإسلامى لها، وحتى زوال السيادة الإسلامية عنها، يؤكد ذلك أن الإقريطشيين اختار بعضهم سكنى الإسكندرية، وبعضهم النزول بالأندلس بعد سقوط بلدهم فى يد البيزنطيين(٣).

*- أستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

وهذا البحث محاولة لاستجلاء نواح غامضة فى تاريخ إقريطش، وتكملة للمجهودات السابقة التى تناولت الأحداث السياسية، وفصلت الحديث عن الوقائع والحروب والانتصارات أو الهزائم. ولن يعرض البحث للأحداث السياسية إلا بقدر ما يخدم هدفه، ويبرز مقصده، أو لتصحيح معلومة والتحقق من خبر، وحسم خلاف بين المؤرخين القدامى، لم يعرض له المؤرخون المحدثون. وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من نقاط البحث ومادته كانت ممن انفرد ببعضها بعض المؤرخين والجغرافيين المسلمين، بينما انفرد بعضهم بأخبار ومواد أخرى، الأمر الذى استدعى العناية بكل المصادر التى ورد ذكر إقريطش بها، والتعمق فى دراسة الأخبار القليلة التى وردت فى مصادرنا عن موضوع البحث.

أولا: المحاولات الأولى لفتح إقريطش:

تعد إقريطش خامس أكبر جزيرة فى جزر البحر المتوسط(٤)، وتتمتع بموقع مهم فى وسط البحر المتوسط، حيث تتحكم فى الممرات المائية إلى بحر إيجه، وسواحل آسيا الصغرى، وتجاور عددا لا يحصى من جزر بحر إيجه، مثل: رودس وغيرها. وهذا الجزر كانت تشكل خطا دفاعيا أماميا لسواحل الإمبراطورية البيزنطية المطلة على بحر إيجه وبحر مرمرة، ولهذا السبب يمكن لفاتحى هذه الجزيرة تهديد الإمبراطورية البيزنطية تهديدا مباشرا (٥).

وقد أثبت المسلمون فى المرحلة المبكرة من تاريخهم البحرى فهما جيدا لطبيعة الجزر التابعة للروم فى شرق البحر المتوسط وفى وسطه، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها، لما تتمتع به من مراكز استراتيجية مهمة، ولشل حركات الروم البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، بل ولتهديد سواحل الروم نفسها(٦).

ومن هنا بدأ المسلمون محاولتهم لفتح إقريطش من السواحل الشامية سنة (٥٤ هـ/٦٧٤م) فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، وعلى يد أمير البحر جنادة بن أمية، وتكررت هذه المحاولات فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) ففتح بعضها، كما فتحت أجزاء أخرى منها فى خلافة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٨٧٨-٨٠٨م) على يد حميد بن معيرف الهمدانى(٧).

وانفراد ابن عساكر (٨) بخبر مهم لم يعرض له الباحثون الذين عرضوا لتاريخ إقريطش، وهو أنه فى سنة (١٢٢هـ/٧٤٢م) خرج أسطول من الإسكندرية إلى إقريطش، وهزم من بها، واستوطن المسلمون فى هذه السنة «ووطنوا إقريطش وأصابوا بها رقيقا».

ومما سبق يتبين أن المحاولة الإسلامية الناجحة التى أعقبها استقرار تام انطلقت من الإسكندرية (فرضته إقريطش) (٩)، والتى تقابلها(١٠)، كما تقابل الشام جزيرة قبرص. ولعل هذا الفتح كان فى ذاكرة الفاتحين للجزيرة فتحا نهائيا سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م)، فاستفادوا منه، فنجحوا فى الفتح والاستيطان هناك لحوالى قرن ونصف قرن، ارتبطوا خلالها بمصر ارتباطا قويا، حتى نجح البيزنطيون فى عزل إقريطش عن مصر، وغيرها من قوى إسلامية، فوقعت

إقريطش فى قبضة الروم.

ثانيا: الفتح النهائى لإقريطش والدور الأندلسى والمصرى:

أ- ثورتا الربض الأولى والثانية بالأندلس:

ارتبط الفتح التام لإقريطش وقيام إمارة إسلامية بها بأحد الأحياء الأندلسية التى تقع جنوب مدينة قرطبة على الضفة الغربية من نهر الوادى الكبير، وهذا الحى هو « حى الربض» الذى ساهم سكانه مساهمة فاعلة فى فتح إقريطش. وكان أهل الربض قد ثاروا ثورتين كبيرتين على الأمير الأموى الحكم بن هشام بن عبد الرحمن (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٧-٨٢١م) بسبب قسوته وشدته فى التعامل مع المخالفين له، المعارضين لسيادته (١١)، ومنها الاعتماد على أحد الذميين النصارى فى إحدى الوظائف المالية، وتحكمه فى المسلمين لقربه الشديد من الحاكم، وحظوته عنده (١٢). وغير ذلك من أعمال رأى قوم من أعلام قرطبة ضرورة عزله بسببها، واختاروا ابن عم له هو (محمد بن القاسم) ليتولى الأمر بديلا للحكم (١٣).

وتحرك هؤلاء الناقمون على الحكم سنة (١٨٩هـ/٨٠٦م) مطالبين بعزله، واشترك فى هذه الثورة الأولى (١٤) عدد من أعلام قرطبة وفقهائها «أزيد من سبعين رجلا سعوا فى الخلاف عليه، فصلبهم وذلك فى سنة تسع وثمانين ومائة، وهذه السطوة أوجبت ثورة الربض»(١٥) ومن هؤلاء السبعين: يحيى بن مضر، وموسى بن سالم الخولانى، ومالك بن يزيد بن يحيى التجيبى، وكان من فضلاء الناس وصلحائهم ووجوهم (١٦).

وهدأت الأحوال بقرطبة اثنتى عشرة سنة، لم ينس فيها الفقهاء وباقى علماء الدين، وكبار الشخصيات والأعلام ما نزل بإخوانهم على يد الحكم من بطش وقتل، فتحينوا الفرص كى يثوروا مرة أخرى ربما يحققون هدفهم فى هذه المرة، فيعزلون الحكم، والدليل على ما أقول هو قول عبد الواحد المراكشى معلقا على الثورة الثانية والأخيرة لأهل الربض «وكان أشد الناس عليه فى أمر الفتنة الفقهاء، هم الذين يحرضون العامة ويشجعونهم» (١٧). والدليل أيضا أن هذه الثورة لأهل الربض سنة (٢٠٢هـ/٨١٧م) ضمت العديد من الفقهاء وأهل الفتيا مثل: طالوت الفقيه، ويحيى بن يحيى الراوية عن مالك، وأخيه، وأمثالهم (١٨).

وأشعل فتيل الثورة حادث عادى مفاده قيام أحد مماليك الأمير الحكم بدفع سيف إلى أحد الحدادين بحى ربض قرطبة ليصقله، فلما أدى الصيقلى مهمته، رفض المملوك دفع الأجرة وتهكم بالصيقلى ثم قتله، فحدثت الثورة فى الربض القبلى، ثم ثار أهل قرطبة فى باقى أرباضها (١٩).

وكانت هذه الوقعة هائلة شنيعة، أشرف فيها الحكم على سير أحداثها من فوق سطح قصره (٢٠) بعدما بلغه الثائرون، ودارت الدائرة فى نهاية الثورة على الثائرين الذين بلغ عددهم أربعين ألفا (١٢)، فقتل منهم زهاء عشرة آلاف (٢٢)، وهدمت ديارهم ومساجدهم،

وأجبر من نجا من القتل على ترك قرطبة ، فخرجوا أفواجا بأهليهم وأولادهم من قرطبة ، بينما أمر الحكم بهدم الربض القبلى حتى صار مزرعة ، ولم يعمر طوال حكم بنى أمية للأندلس (٢٣). ولم يُسمح لمن عفا عنهم الحكم من الفقهاء وأهل العلم ممن خرج من قرطبة ثم ناله عفو منهم بالعودة إليها مرة أخرى، أو إلى ما قرب منها من أماكن (٢٤).

وتفرق أهل الربض فى العديد من الأماكن الأندلسية وغيرها ، فاستقبلت سرقسطة بعضهم ، ومنهم الفقيه نصر الجهنى (٢٥)، بينما لحق جمهور منهم بطليطلة (٢٦)، ومنهم جد للمؤرخ لسان الدين بن الخطيب يعرف بابن وزير (٢٧). وتوجه بعضهم إلى فاس فصيروها مدينة ، غلب على اسمها «مدينة الأندلس» (٢٨).

وسار منهم جماعة بلغوا خمسة عشر ألفا (٢٩)يتقدمهم عمر بن شعيب الغليظ (٣٠) إلى الإسكندرية .

ب- الربضيون ينضمون إلى إخوانهم الأندلسيين بالإسكندرية وفتح إقريطش:

سبق الربضيون إلى الإسكندرية فى هذه الفترة ، أندلسيون بحارة استقروا بها قبل الربضيين سنة (١٩٩هـ/٨١٤م) ، وفى ذلك يقول الطبرى(٣١): «حدثنى غير واحد من أهل مصر أن مراكب أقبلت من بحر الروم قبل الأندلس فيها جماعة كبيرة أيام شغل الناس قبلهم بفتنة الجروى وابن السرى (٣٢) حتى أرسوا مراكبهم الإسكندرية ، ورئيسهم يومئذ رجل يدعى أبا حفص ، فلم يزالوا مقيمين حتى قدم عبد الله بن طاهر مصر ».

ويزيد المقريزى الخبر السابق بيانا وتوضيحا فيقول: «وكانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم» (٣٣)، ويذكر أن هؤلاء الأندلسيين نزلوا بمراكبهم رمل الإسكندرية» ليبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الأمراء لا تبيحهم دخول الإسكندرية ، وإنما كان الناس يخرجون إليهم فيبايعونهم» (٣٤) أى أنه قد جرت عادة الأسطول الأندلسى أن يرسى بالإسكندرية للتزود بالمؤمن والأزواد ، والأقوات ، وباقى التجارات ، وفى هذه المرة سنة (١٩٩هـ/٨١٤م) اعتدى أحد الجزارين بالإسكندرية على رجل منهم ، لما نزلوا منطقة الرمل ، فأنفوا لذلك ، وحملوا السيف على أكثر أهل الإسكندرية ، فلم يجدوا من يردعهم لاختلال الأحوال بها ، واضطراب أمورها ، فتغلبوا عليها وملكوها ، حتى سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م). وفيها أعاد عبد الله بن طاهر الإسكندرية إلى التبعية للخليفة العباسى المأمون (٣٥).

ولما ترك الربضيون قرطبة إلى الإسكندرية وجدوا الأندلسيين قبلهم قد سيطروا عليها ، فنزلوا عليهم ، ولعل عبارة الطبرى الآتية تقوى هذا الرأى ، فضلا عن الروايات السابقة التى تفرض هذا التسلسل المنطقى للأحداث وقتئذ . يقول الطبرى:« فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين وإلى من كان انضوى إليهم يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا فى الطاعة» (٣٦).

وأرى أن الربضيين هم الذين انضووا إلى الأندلسيين بالإسكندرية، أو أنهم جزء ممن انضموا إلى الأندلسيين بالإسكندرية.

وقد تم التصالح بين الأندلسيين والربضيين، وبين عبد الله بن طاهر فى سنة (٢١٠ هـ/ ٨٢٥م)، على الرحيل عن الإسكندرية، إلى بعض جزر الروم التى ليست تابعة للدولة الإسلامية (٣٧)، وتقديم العون والمال لهم (٣٨)، فاختار الأندلسيون جميعا جزيرة إقريطش، ففتحووها، حصنا بعد حصن، ومدينة تلو مدينة، حتى لم يبق فيها من الروم أحد(٣٩).

جـ. تحرير الخلاف حول قائد الفتح أمير إقريطش:

اختلف فى اسم فاتح وقائد الأندلسيين: تجارة وربضا لجزيرة إقريطش، فهو عند البلادري»: أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعروف بالإقريطشى (٤٠).

وكذلك عند(ياقوت) الذى نقل عن البلاذرى، إلا أنه نقل عن غير البلاذرى رواية أخرى، فذكر أن فاتحها هو (عمرو بن شعيب المعروف بابن الغيظ (٤١). وهو عند «النويرى»(٤٢)، والحميدى(٤٣) «الضبى»(٤٤)، و«المقرى»(٤٥): أبو حفص عمر بن شعيب.

وإن كان النويرى قد ذكر بعد ذلك اسم عمر بن عيسى بن على أنه ابن عمر بن شعيب. وهذا خطأ منه بدون شك.

أما ابن يونس (٤٦) فقد ترجم لشعيب بن عمر بن عيسى الإقريطشى، وذكر أنه صاحب جزيرة إقريطش، وأنه تولى فتحها بعد سنة عشرين ومائتين. وقد عرض الحميدى والضبى لهذا الخلاف – الذى لم يعرض له أى باحث تناول فتح إقريطش– فذكرا أن فاتحها فى رواية ابن يونس شعيب بن عمر، وفى رواية أخرى: عمر بن شعيب، وهى رواية لابن حزم، وعلقا على ذلك بقولهما: «ويحتمل أن يكون حضرا الفتح» (٤٧).

وعندى أن فاتح إقريطش هو: عمر بن عيسى الأندلسى، أما ما ذكره ابن يونس من فتوحات لشعيب بن عمر بن عيسى، فهى فتوحات أكمل بها فتوحات والده التى حدثت سنة (٢١٠هـ-/٨٢٥)، أو ربما استعاد مناطق إقريطشية كانت قد وقعت فى أيدى الروم، فاستعادها شعيب بن عمر سنة (٢٢٠هـ/٨٣٥م). أما ما ذكر من أن فاتح إقريطش هو: (عمرو بن شعيب) أو (عمر بن شعيب)، فأرى أن هذه الشخصية شاركت فى الفتح أيضا، وأنها شخصية أخرى غير الشخصية الأولى (عمر بن عيسى)– والذى أوقع الخلط بين المؤرخين هو كنية الفاتحين، وهى (أبو حفص)، وكون (عمر بن عيسى) له ابن اسمه شعيب تولى بعده، فالاثنان شاركا فى الفتح: الأول لأنه كان قائدا للأسطول الأندلسى الذى نزل الإسكندرية (١٩٩هـ/٨١٤م)– كما سبقت الإشارة– والثانى لأنه كان زعيما من زعماء الربض، وقد ذكر الذهبى (٤٨) أن الربضيين الذين خرجوا من الأندلس سنة (٢٠٢هـ/٨١٧م)، كان فيهم عمر بن شعيب الغليظ. بينما ذكر الطبرى(٤٩) أن مراكب الأندلسيين بالإسكندرية عندما قدمت فى أيام فتنة الجروى وابن السرى

- وسبقت الإشارة إليها وإلى أنها كانت فى سنة (١٩٩هـ/٨١٤م)، وأن الأندلسيين شاركوا فيها - كان رئيسهم رجل يُدعى أبا حفص. وأرى أنه عمر بن عيسى الأندلسى الذى فتح إقريطش وحكمها ثم آلت من بعده إلى أبنائه (٥٠)، وهذا هو الأقرب للمنطق أن يتولى فتح وحكم الجزيرة قائد الأسطول الفاتح، وليس شخصية أخرى شاركت فى ثورة الربض، كما أنه لا يمكن أن يكون شخص فى مكانين معا فى الوقت نفسه، ومن ثم فهما: عمر بن عيسى، وعمر بن شعيب، شخصيتان اثنتان: الأول كان موجودا بمصر مشاركا فى أحداثها السياسية سنة (١٩٩هـ/٨١٤م)، والثانى كان موجودا بالأندلس مشاركا فى أحداثها السياسية سنة (٢٠٢هـ/ ٨١٧م) وسار الأثنان معا إلى إقريطش ففتحاها سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م)، ولأن الاثنين كانا قائدين: أحدهما للأسطول الأندلسى، والآخر لثورة الربض، فإن بعض المؤرخين ذكروا أن فاتح إقريطش هو الأول، والبعض الآخر ذكروا أنه الثانى، وأرى أن العبارة التى وردت عند الحميدى والضبى «ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح» عبارة صحيحة تساهم مع ما تقدم من أدلة فى حسم الخلاف حول هذا الأمر.

د- عمارة إقريطش:

أصبحت إقريطش بعد فتحها بالأعداد الغفيرة السابقة ذات طابع إسلامى وهو الأمر الذى أشار إليه الاصطخرى، وهو يقارن بين صقلية وإقريطش فقال عنها: «وسكانها جميعا مسلمون، أهل غزو، وبين أظهرهم نبذ من النصارى كما يكون ببلدان المسلمين »(٥١) ولأن فاتحى إقريطش كانوا من أهل الصنائع والمهن والحرف والزراعات (٥٢) فإن الجزيرة قد عمرت بهم وعلى أيديهم (٥٣)، وعلى أيدى من نزل إقريطش من المسلمين أيضا، وفى ذلك يقول ابن الأبار: «فاعتمروها وجاءهم الناس من كل مكان فأوطنوها معهم»(٥٤). فتحولت إقريطش من جزيرة قليلة العمران(٥٥) إلى جزيرة عامرة كثيرة الخصب بمدنها، وجزرها المتعددة (٥٦).

وأنشأ المسلمون بهذه الجزيرة مدينة جعلوها عاصمة لهم، وهى مدينة (الخندق) التى أسست فى سنة الفتح نفسها، وعرفت بهذا الاسم لأن المسلمين بنوا حول هذه المدينة خندقا كبيرا لحمايتها، وعرفت هذه المدينة فيما بعد، وحتى الآن باسم (كانديا) (Candia)، وباسم (Herakliom)(٧٥).

وقد تحدث المؤرخون المحدثون (٥٨) عن هذه العاصمة التى أنشأها المسلمون، فذكروا أنها كانت فى الجهة الشرقية من الجزيرة، على خليج «لادا» (Lada)

وللإدريسى حديث عن مدينة الخندق، ووصف لمدنها، ولعمارتها، ضمنه كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» (٥٩). وبسبب ازدهار إقريطش اقتصاديا على أيدى المسلمين، فإن تجارتها ومحاصيلها كانت تحمل إلى جميع النواحى (٦٠).

تعقيب

برز الدور الأندلسي واضحا فى فتح إقريطش، فالفاتحون من الأندلس. لكن مصر هي البلد التي انطلق منه الفاتحون إلى إقريطش، فمن الإسكندرية تم الفتح النهائي سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م)، الذي أعقبه استقرار وتوطين للمسلمين بإقريطش، كما كانت الإسكندرية سابقا سنة (١٢٢هـ/٧٤٢م)، المكان الذي انطلق منه الأسطول الإسلامي لفتح إقريطش واستيطانها في السنة الماضية.

وأعتقد أن دور مصر لم يقف عند هذا الحد، بل إن عددا من المصريين ساهموا في الفتح، كما ساهمت مصر في تقديم العون والمال للفاتحين الأندلسيين. وهناك عبارة وردت في مصادرنا التاريخية (٦١)، تؤكد ما ذهبت إليه وهي «وكان أكثر المفتتحين لها معه - مع فاتحها عمر بن عيسى- أهل الأندلس».

ومعنى هذا أن هناك مشاركين كثيرين من غير الأندلسيين في فتح إقريطش، ولأن الفتح انطلق من مصر، فأعتقد أن هؤلاء المشاركين كانوا منها كذلك، ولعل عبارة الطبري (٦٢) الخاصة بانضواء جماعات إلى الأندلسيين البحارة بالإسكندرية تخص المصريين كما تخص الربضيين، وإذا كان عبد الله بن طاهر قد اشترط على الأندلسيين عندما كانوا بمصر ألا يأخذوا معهم أحدا من أهل مصر ولا عبدا ولا آبقا، وبعث من فتش عنهم في مراكب الأندلسيين، فوجدوا فيها جمعا من الذين اشترط عليهم ألا يخرجوهم (٦٣). فإني أرى أن ذلك كان خاصا بأناس معينين من المصريين، ولم يكن متعلقا بجميع المصريين الذين خرج بعضهم مع الأندلسيين إلى إقريطش، كما أني أظن أن عددا آخر من المصريين توجه بعد ذلك إلى إقريطش، وذلك نظرا للعلاقات القوية التي نشأت بين إقريطش وبين مصر، وفي قول ابن الأبار «وجاءهم الناس من كل مكان فأوطنوها معهم» (٦٤). ما يزكي رأيي كذلك فإن الأندلسيين وهم بالإسكندرية انضم إليهم فقهاء - من الأندلس وغيرها - جاءوا للحج عن طريق مصر، فخرج بعضهم مع الأندلسيين إلى إقريطش، مما يبين أن الأمر لم يقتصر على الربضيين وغزاة البحر من الأندلس فقط، ومن هؤلاء الذين حجوا وانضموا إلى الأندلسيين المتوجهين لفتح إقريطش: الفقيه محمد بن عيسى بن دينار الغافقي القرطبي، ووصف بأنه كان زاهدا، عالما، حج وحضر افتتاح إقريطش، فاستوطنها (٦٥)، وقد لقب ياقوت الحموي (٦٦) محمد بن عيسى بن دينار بالإقريطشي، وأشار إلى بعض من روى العلم عنه، ومنهم: عبد الله بن محمد النسائي المؤدب.

وهكذا شاركت مصر الأندلس في الفتح، وإن كان الدور الكبير للأندلسيين فيه، على عكس أمور أخرى كان دور المصريين أوضح، وتساوى المصريون - تقريبا- مع الأندلسيين في أدوار أخرى كالدور الثقافي في إقريطش، وقد ساهم الأندلسيون ومن معهم من مصريين وغيرهم في طبع الجزيرة بالطابع الإسلامي، بينما «أجلي جميع الروم» (٦٧)، وبعض الإقريطشيين من غير المسلمين، وقاد أحدهم جيشا روميا أغار به على ثغر «ملطية» (سنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢م)، فهزم إمام المسلمين (٦٨)، بينما بقي بإقريطش بعض سكانها النصارى بشهادة

الإصطخري، المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (٦٩): «وسكانها جميعا مسلمون، أهل غزو، وبين أظهرهم نبذ من النصارى كما يكون ببلدان المسلمين».

وأجمعت المصادر على أن المسلمين بإقريطش سببوا إزعاجا كبيرا للإمبراطورية البيزنطية (٧٠)، حيث كانت إقريطش (من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم) (٧١)، وحيث إن المسلمين بإقريطش استفادوا من أخشاب إقريطش في صنع سفن غزوا بها جميع ما حولهم من جزائر القسطنطينية «ففتحوا أكثر الجزائر، وغنموا وسبوا» (٧٢).

ثالثا: الدور الثقافي الأندلسي والمصري في إقريطش:

قام الفقهاء والمحدثون الأندلسيون والمصريون بنشر الثقافة الإسلامية بإقريطش بعد فتحها، وقد سبقت الإشارة إلى مشاركة بعض هؤلاء الفقهاء في الفتح نفسه، بما يبين دور هؤلاء الفقهاء الفكري المبكر في الجزيرة المفتوحة.

ومن أبرز من ساهم في تعليم العلوم الدينية، والإفتاء بإقريطش من الأندلسيين: الفقيه مروان بن عبد الملك الذي انتقل من الأندلس إلى إقريطش واستوطنها «وكانت تدور فتيا إقريطش عليه» (٧٣). وهذا الفقيه كان من كبار الفقهاء، يرحل إليه الفقهاء للأخذ عنه، والتلمذة على يديه، الأمر الذي جعل الفقهاء الأندلسيين يرحلون إلى إقريطش من أجل دراسة وتعلم الفقه على يد الفقيه الكبير مروان بن عبد الملك، وهذا بالطبع أثرى الحياة العلمية بالجزيرة. وقد أورد المؤرخ الخشني (ت٣٦١ هـ/٩٧١م) خبرا يتصل برحلة أحد مشايخ الأندلس الكبار، وهو أحمد بن خالد بن يزيد الجباب (ت٣٢٢هـ/٩٣٣م) إلى إقريطش حيث سمع بها مروان بن عبد الملك، وأدخل أحمد بن خالد إلى الأندلس علما كثيرا، وسمع منه من أهلها ناس كثير (٧٤). وكان الفقيه أحمد بن خالد حافظا لفقه الإمام مالك، راوية للحديث، جماعة للكتب، وصف بأنه غمام وقته في الفقه والحديث (٧٥)، ولا شك في أنه لعب دورا هو الآخر في الحركة الثقافية الدينية بإقريطش.

وقد سئل الفقيه المحدث أحمد بن خالد: «على مروان كانت تدور فتيا أهل إقريطش؟» قال: نعم. فقيل له: وهل كان يحسن الفتيا ؟ قال: كذا.

وحكى أحمد بن خالد عن خلاف فقهي وقع بينه وبين شيخه مروان بن عبد الملك بإقريطش، وكان الرأي الراجح فيه لأحمد بن خالد، فمضى مروان بن عبد الملك إلى كتبه، فوجد المسألة كما قال الفقيه أحمد بن خالد «فصار من ذلك خبر في البلد حتى بلغ الأمير الخبر، وكان أميرها يسمى شعيبا، وكان له ولد يكنى أبا حفص ولي بعده» (٧٦).

وهكذا كانت هناك محاورات ومناقشات بإقريطش أثرت تأثيرا إيجابيا في الحياة العلمية الدينية في الجزيرة، حيث أن أمراءها كان لهم اهتمام بالعلم الديني، ومنهم أميرها شعيب بن عمر بن عيسى الذي كان قد أخذ العلم بالعراق، وبمصر عن جدّ للمؤرخ ابن يونس، وعن غيره (٧٧).

ولم يكن مروان بن عبد الملك مفتى إقريطش مهتما بالفقه فحسب، بل كان ذا علم بالتاريخ، وجمع تاريخا على الأمصار، وسمعه منه كذلك الفقيه المحدث أحمد بن خالد. كما ألف فقيه إقريطش عددا كبيرا من الكتب، غير أنها فقدت ضمن ما فقد من تراث المسلمين (٧٨).

ومن الأندلسيين الذين نشروا العلم الدينى باقريطش: العالم يحيى بن عثمان الأندلسى الذى انتقل إلى إقريطش وسكنها (٧٩). وارتحل إليه بعض الأندلسيين لتلقى العلم على يديه، ومنهم: مسلمة بن القاسم بن إبراهيم القرطبى (ت٣٥٣هـ/٩٦٤م) (٨٠). ومسلمة بن القاسم الزيات(٨١).

ويعد الفقيه الأندلسى: أحمد بن خلف بن أبى حجيرة القرطبى (ت٣٥٦ هـ/٩٦٦م)، أحد الفقهاء الأندلسيين الذين تركوا أثرا علميا كبيرا فى إقريطش، وساهم مساهمة واضحة فى التدريس للأندلسيين الذين رحلوا إلى إقريطش، طلبا للتلقى من علمائها (٨٣).

وانفرد المقريزى (٨٤) بخبر عن أحد الفقهاء الأندلسيين الذين كان لهم دور بمصر وإقريطش معا، وهو الفقيه محمد بن عمر بن يوسف الأندلسى (ت٣١٠ هـ/٩٢٢م) الذى قدم مصر واستوطنها، وحدث بها، وكان فقيها بمذهب الإمام مالك، ثم دخل إقريطش للتدريس بها.

أما عن الدور المصرى فقد كان – تبعا لما ذكرته المصادر – قريبا من الدور الأندلسى فى هذا الجانب، ذكر ابن يونس (٨٥) والذهبى (٨٦) أن عالما مصريا من علماء الحديث النبوى، الدارسين له وهو الحسن بن محمد بن أحمد العسال المصرى (٣٠٢ هـ/٩١٤م) دخل إقريطش، فمات بها نصرانى بيعت كتبه، فاشترى الحسن بن محمد منها ما يتصل بتعبير الرؤى، وعدد الأيام، وحفظ ذلك، وجربه، فكان فى تفسير الرؤيا عجبا من العجائب.

وإلى إقريطش توجه شيخ المالكيين بمصر: الفقيه على بن جعفر، بعد أن كتب أهل إقريطش إلى مصر يسألون أن يوجه إليهم من يفقههم، ويتقلد حكمهم، فتم الاتفاق على إرساله «فخرج إليها وأقام بها إلى أن دخلها الروم، واستحوذوا عليها من سنة خمسين وثلاثمائة وملكوها» (٨٧).

وكان الفقيه على بن جعفر المعروف بأبى الحسن فيمن أسر بإقريطش– هو وابنه الذى مات فى الأسر– وحمل إلى القسطنطينية وجرت بينه وبين نقفور (الطاغية) ملكها (٨٨) مناظرة (٨٩)، زعم فيها نقفور أن عيسى (عليه السلام) بشر به جميع الأنبياء، فى حين أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يبشر به أحد من الأنبياء، وادعى أن المسلمين غير مجمعين على النبى صلى الله عليه وسلم، فبعض المسلمين يقولون بأن النبى علىّ صلى الله عليه وسلم، وسأل نقفور الفقيه أبا الحسن عن أمور خاصة بالقدر، ورد الفقيه أبو الحسن على كل دعاوى وزعم نقفور، وفندها، ثم انتقل إلى الهجوم فذكر مقالات واختلافات النصارى حول البارى تعالى، فأدرك نقفور أنه طرق ميدانا لا يحسنه.

وواضح مما تقدم أن المذهب الفقهى الذى كان سائدا بإقريطش هو المذهب المالكى مذهب أهل الأندلس، ولذلا فإن معظم الفقهاء كانوا يدرسون هذا المذهب بها.

تعقيب :

مما سبق يتبين لنا الدور الأندلسي والمصري الثقافي في إقريطش، وما ذكرته بعض المصادر عن هذا الدور هو أمثلة - فقط - تدلل عليه، وقد لمسنا طرفا من الرحلات العلمية الأندلسية إلى إقريطش- في حدود ما ذكرته المصادر - وأظن أن هذه الرحلات كانت أكبر مما تلمسناه في الروايات والأخبار الواردة بهذا الشأن. كما أن العلاقات القوية التي ربطت مصر بإقريطش- وسيأتي الحديث عن بعضها - كانت تسمح بدور ثقافي كبير في الجزيرة، قدمت المصادر نماذج منه، تنهض هذه النماذج دليلا قويا على أثر مصر الثقافي في الجزيرة، ذلك الأثر الذي كان موازيا لأثر الأندلس. ونستأنس هنا بعبارة ابن الآبار - التي سبق ذكرها -: «وجاءهم الناس من كل مكان فأوطنوها - إقريطش- معهم».

وهكذا استقبلت إقريطش علماء الدين الأندلسيين والمصريين الذين لعبوا دروا ثقافيا مهما في أثناء الحكم الإسلامي لها، واستقبلت الجزيرة كذلك بعض المغضوب عليهم من الخلفاء العباسيين ومنهم أحد كبار الدولة في خلافة المستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م)، وهو أحمد بن الخصيب الذي سخط عليه الخليفة المستعين بوقيعة من الأتراك، فنهب ماله، ونفاه إلى إقريطش (٩٠).

رابعا: الدور المصري في تسليح إقريطش:

كانت إقريطش مشهورة بأخشابها التي هيأت للمسلمين إنشاء الأساطيل بها (٩١)، ولكنها كانت تفتقد إلى المعدات الحربية والأسلحة التي تمكنها من مهاجمة القواعد والجزر الرومية في البحر المتوسط، ووقع عبء إمداد إقريطش بالأسلحة والعدد العسكرية على مصر، ولدينا خبر يبين ذلك أورده الطبري في أحداث سنة (٢٣٨هـ /٨٥٢م)، وفيها هاجم الروم ثغر دمياط المصري بثلاثمائة سفينة انتهبت دمياط وأحرقت مساكنها وجوامعها، وقتلت وسبت العديد من النسوة المسلمات والقبطيات اللائي وصل عددهن إلى ستمائة امرأة، وأحرق الروم مخزونا لقلوع السفن «واحتملوا سلاحا كان فيها أرادوا حمله إلى أبي حفص صاحب إقريطش نحو من ألف قناة وآلتها، وقتلوا من أمكنهم قتله من الرجال، وأخذوا من الأمتعة والقندر والكتان ما كان عبي، ليحمل إلى العراق (٩٢).

ويخبرنا الخبر السابق بدور مصر في تزويد إقريطش بالمعدات والإمدادات العسكرية، وبتزويد غيرها - كالعراق - بالثياب الكتانية (٩٣) التي اشتهرت بها دمياط.

ولعل هذا الدور كان دافعا لأهل إقريطش لأن يستمدوا العون والنصرة من مصر إبان هجوم الروم الأخير عليهم في أثناء تبعيتها لحكم الإخشيديين الذين لم يقدموا شيئا ذا بال لإقريطش، فأنكر عامة مصر تخاذهم وتقاعسهم، فأظهر علي بن الإخشيد نصرة الإقريطشيين، فحرك بعض السفن في البحر، ليسكن بهذا الفعل غضب عامة مصر (٩٤).

وقد أشار أحد المصادر الشيعية إلى مدى الصلات القوية التي كانت قائمة بين إقريطش ومصر قبيل زوال الحكم الإسلامي عن إقريطش وذلك في أثناء رسالة الخليفة المعز لدين الله-

الذى استغاث به أهل إقريطش بالمغرب بعد طلب عون مصر - إلى على بن الإخشيد والى مصر للعباسيين وورد فيها ك «وأنت لعمرى بذلك أجدر لقربهم منك، واتصالهم بك، وميرهم بلدك، وكونهم وإياك فى دعوة احدة»(٩٥). وورد فيها أيضا: «. . . . ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تمير إلى مصر، وهداياهم تصل إلى عمالها» (٩٦).

ومن النصوص السابقة يتبين الاتصال الوثيق بين مصر وإقريطش، وتردد السفن بين البلدين المسلمين، وغضب عامة مصر على ما نزل بإقريطش من حصار أدى إلى سقوطها فى أيدى الروم، وعجز السلطة الحاكمة الضعيفة فى مصر عن نجدة الجزيرة، فى ظل ضعف الخلافة العباسية، وإذا كانت مصر لم تنجد إقريطش، فإن الفاطميين بالمغرب لم يقدموا سوى الكلام والوعود الكاذبة لأهالى إقريطش الذين أرسلوا وفدا فى إحدى السفن إلى بلاد المغرب يسألون المعز النصرة فلم يجدوا عنده سوى الجدل العقيم، والوعود الواهية (٩٧)، بالرغم من أن الوفد الإقريطشى عدد للخليفة الفاطمى مزايا إقريطش، ومناه بحكمها «فلما مثل بين يديه قبل الأرض مرارا وأدى إليه عن القوم ما أرسلوه به من تضرعهم واستغاثتهم وسؤالهم ورغبتهم واسترحامهم، وجعل يذكر له قدر البلد وموضعه من بلد الروم ومن مصر، وأنه فرضة لهما، وأن الله تعالى - إن أقدره على دفع المشركين عنه وملكه - كان سبب فتح القسطنطينية والمشرق عليه، وعدد ما فيه من الآلات والمعادن، وما يتهيأ به من إنشاء اساطيل وقربه من القسطنطينية ومن مصر»(٩٨).

ولم تحدثنا المصادر التاريخية عن توجه إقريطشيين نحو الأندلس طلبا للنجدة، مما يبين أن علاقتهم السياسية وغيرها بمصر كانت أقوى وأوثق، وأن الاعتماد على مصر كان كبيرا، وأن دور مصر المختلف كان بارزا فى إقريطش.

خامسا: الدور المصرى التجارى مع إقريطش:

أشارت المصادر التاريخية إلى وجود علاقة تجارية قوية بين مصر وإقريطش إبان تبعيتها للمسلمين، أدى ثغر دمياط - من خلالها - دورا ملموسا فى العلاقة التجارية بين البلدين المسلمين، بالإضافة إلى الإسكندرية «فرضة إقريطش وصقلية والمغرب كله»(٩٩).

وكان الدور التجارى متبادلا بين الجانبين، حيث جلب من إقريطش إلى الإسكندرية الجبن والعسل وغير ذلك (١٠٠)، فى حين أن مصر قدمت لإقريطش الحرير والثياب الدمياطية الشهيرة المعروفة بالإتقان والجودة (١٠١).

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره المؤرخ الشيعى (النعمان بن محمد) المعاصر للأحداث الأخيرة فى تاريخ العلاقة بين مصر وإقريطش، وما تضمنته من روايات أخبار تشهد بهذه العلاقة التجارية بين البلدين، وتكشف فى الوقت نفسه عن عمق الود المتبادل بين الجانبين.

هذا ولم تشر المصادر إلى أى نوع من العلاقات التجارية بين إقريطش وبين الأندلس.

الخاتمة

قامت بجزيرة إقريطش إمارة إسلامية فى الفترة ما بين سنة (٢١٠ هـ/٨٢٥م) إلى سنة (٣٥٠هـ/٩٦١م)، كانت إقريطش فيها ذات طابع إسلامى أصيل، وذات صبغة إسلامية خالصة، بفضل الأعداد الغفيرة الفاتحة، ومن هاجر إلى الجزيرة بعد ذلك من مسلمين مثلوا أغلبية ساحقة بالجزيرة. ووقع عبء فتح الجزيرة على فرقة بحرية أندلسية انضم إليها جماعة أندلسية أخرى هى جماعة الربض بقرطبة، وانطلق الفتح الإسلامى للجزيرة من الإسكندرية ألتى كانت منطلقا لفتح آخر سابق للجزيرة، أتى ثماره المرجوة، وفائدته المبتغاة من الفتح، إذ صاحبه استقرار واستيطان، كما حدث فى الفتح الإسلامى الأخير للجزيرة. وساهمت مصر فى الفتح الأخير بالدعم المالى، كما شارك فيه بعض المصريين. على أن ارتباط الجزيرة بعد ذلك قد أصبح قويا بمصر خاصة، حيث أن مصر ساهمت فى تقديم الأسلحة والمعدات والآلات الحربية التى أمكنت المسلمين بالجزيرة من تحقيق فتوحات لهم على حساب الدولة البيزنطية، ومن إحراز انتصارات عديدة على هذه الدولة، ومن تهديد عاصمتها القسطنطينية. كما ارتبطت الجزيرة بعلاقات تجارية وثيقة بمصر، تبادل فيها الطرفان بتقديم تجارات وصناعات كل فريق. ولعل اتجاه الإقريطشيين لطلب العون من مصر إبان حصار الروم لإقريطش دليل على العلاقة القوية التى ربطت الجانبين، كما أن غضب العامة فى مصر على عدم تقديم أمرائها الإخشيديين العون لإقريطش وقت الحصار مؤشر واضح على عمق العلاقة بين مصر وإقريطش.

وإذا كانت علاقة مصر بإقريطش كانت أقوى من علاقة الأندلس بإقريطش، فإن الأندلسيين والمصريين اشتركوا معا فى نشر الثقافة الإسلامية والعلوم الدينية بالجزيرة، حيث استقبلت إقريطش العديد من الفقهاء الأندلسيين والمصريين، وحيث كانت الرحلة العلمية إلى إقريطش معروفة ومقررة للأخذ عن العلماء والفقهاء بها.

وأخيرا فإن الإقريطشيين ومن كان معهم من سكان الجزيرة لم يجدوا أمامهم سوى الإسكندرية والأندلس وصقلية ليتوجهوا إليها فارين بدينهم من الرومان إثر سقوط الجزيرة فى أيديهم (٣٥٠هـ/٩٦١م).

وقد ظهر بالبحث بعض وجهات النظر، خالفت رؤى وتوجهات أخرى سابقة وأعتمد الباحث فى وجهة نظره على ربط بعض الروايات ببعض، وتأمل بعض الأخبار والتعمق فى دلالاتها.

الهوامش:

(١) ظهر ذلك فى كتاب «المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى» للدكتور إبراهيم على طرخان، راجع ص ٨٤ –٨٧، وكتاب «فى تاريخ المغرب والأندلس» للدكتور أحمد مختار العبادي: ص١٢١–١٢٥

(٢) مثال ذلك ما كتبه إبراهيم العدوى عن إقريطش فى كتابه «قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط» ص١٠٥–١١٧، وما كتبه حسين مؤنس عنها فى كتابه «تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط» ص١١٥–١١٦. وفى «أطلس تاريخ الإسلام» ص٢٨٧–٢٨٨، ودراسة أسمت غنيم: «الإمبراطرية البيزنطية وكريت الإسلامية»، وهى دراسة سياسية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن المراجع التى كتبها المتخصصون اليونان عن تاريخ الجزيرة اقتصرت بطبيعة الحال على تاريخها السياسى، ومن ذلك دراسة أحد الأساتذة بجامعة كريت: Ineocharis Detorakis: History Of Crete

(٣) راجع عبد الوحد المراكشي، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص٢٠ وذكر أيضا أن بعض الإقريطشيين سكن صقلية:

(٤) From Wikipedia. The Free Encyclopedia Ao. I. HTTP: Wikipedia. ORG Crete

وإقريطش (كريت) هى أكبر الجزر اليونانية، بينما أكبر جزر البحر المتوسط هى جزيرة صقلية، وقد قارن بعض الجغرافيين المسلمين بين جزر البحر المتوسط من حيث المساحة

راجع الإصطخري: المسالك والممالك ص٥١؛ وابن حوقل: صورة الأرض: ص١٨٤.

(٥) راجع فى ذلك إبراهيم العدوى قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، ص ١٠٨١٠٧، عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، ٢٨٧/٣؛ إسمت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ص ٣٤–٣٠.

(٦) راجع فى ذلك إبراهيم العدوى: قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، ص ٣٦

(٧) راجع البلاذري: فتوح البلدان ص٢٣٧؛ وقدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة ص٣٥١؛ وابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٧/١١؛ وارجع ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق: ٣٨٧/٤

(٩) ابن زولاق: فضائل مصر: ص ٥٠

(١٠) المقدسى: أحسن التقاسيم ص١٥؛ وراجع ابن العديم: بغية الطلب،جـ١، ص٣٩٨، ويذكر هنا أن إقريطش تقابل برقة مباشرة فى حين أنها تقابل الإسكندرية مع وجود انحراف.

(١١) دافع ابن عذارى عن الأمير الحكم بن هشام، وألقى باللوم على الثائرين الذين لم يكن لديهم سبب مقنع أو ضرورة ملحة تدعوهم للثورة – فى نظره– وإنما ثاروا بطرا وطمعا فى مزيد من الحقوق. راجع: البيان المغرب: ج٢ ص٧١، ٧٥–٧٦؛ وراجع: ابن عبد ربه: العقد الفريد: ج٤ ص٤٩٠ و٤٩١، حيث أشار هو الآخر بالحكم بن هشام والغريب أنه لم يذكر شيئا عن ثورتى أهل الربض وهو يترجم للأمير الحكم.

(١٢) راجع لسان الدين ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام، ص١٥.

(١٣) راجع ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص١٠١؛ وراجع ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٧١.

(١٤) لم تعرض إسمت غنيم فى كتابها: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية لهذه الثورةالأولى، وكذلك بقية الأساتذة الفضلاء الذين كتبوا عن ثورة ربض قرطبة، وتناولوا فقط الثورة الثانية لأهل الربض، ومنهم الدكتور أحمد مختار العبادى فى كتاب: تاريخ المغرب والأندلس، ص١٢٢. وإذا كانت هذه الثورة الأولى لا علاقة لها مباشرة بإقريطش، فإننى أظن أن الثورة الثانية التى لها علاقة بإقريطش ما كانت لتندلع لولا نتائج الثورة الأولى التى ساهمت مساهمة أساسية فى الثورة الثانية سنة ٢٠٢ هـ، بالإضافة إلى بعض العوامل المساعدة التى لا يمكن أن تستقل وحدها بإشعال ثورة ضخمة بمثل ثورة أل الربض، ولعل ما يؤكد كلامى هو ما ذكره ابن الأبار فى كتابه: التكملة والصلة: ج٢ ص٧٠٨.

(١٥) ابن الأبار: التكملة والصلة: ج٢ ص٧٠٨.

(١٦) ابن الأبار: السابق نفسه والصفحة نفسها.

(١٧) عبد الواحد المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص٢٠.

(١٨) لسان الدبن ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام، ص ١٥.

(١٩) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٤٢.

(٢١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٢٥٧.

(٢٢) لسان الدين ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام، ص ١٥.

(٢٣) للوقوف على كافة أحداث هذه الثورة راجع: ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٧٥-٧٧؛ وابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ص ٤٢؛ والذهبى: سير أعلام النبلاء ج٨ ص٢٥٧؛ ولسان الدبن ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام ص١٥، والنويرى: نهاية الأرب: ج٢٤، ص٣٨٤، وج٢٣ ص٣٧٠-٣٧٣؛ وابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٠١.

(٢٤) راجع: ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢ ص٧٧.

(٢٥) راجع: ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٣٥٩.

(٢٦) راجع: ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، ص٤٥؛ وابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٤٢؛ والذهبى: سير أعلام النبلاء: ج٨، ص٣٥٧.

(٢٧) لسان الدبن ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام، ص ١٥.

(٢٨) راجع: ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٧٧؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٢٥٧.

(٢٩) راجع: ابنه القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص١٠١؛ وابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٤٢ وقدر هؤلاء بالألوف، والذهبى: سير أعلام النبلاء ج٨، ص ٢٥٧؛ لسان الدين ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام ص١٦؛ وابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، ص٤٥.

(٣٠) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٦١٣.

(٣١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٦١٣.

(٣٢) نشبت هذه الفتنة سنة ١٩٩هـ/٨١٤م، وابن السرى كان أميرا لمصر بينما كان عبد العزيز بن الوزيرالجروى ثائراً بتنيس، يطلب ولاية الإسكندرية. راجع فى ذلك: المقريزى: الخطط ج١، ص ١٧٢.

(٣٣) المقريزى: الخطط، ج ١، ص١٧١.

(٣٤) المقريزى: الخطط، ج١، ص١٧٢.

(٣٥) راجع: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٠١؛ والمقريزى: الخطط، ج١، ص١٧١-١٧٢؛ والذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٦١٣.

(٣٧) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٦١٣.

(٣٨) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٤/٣٨٤، وقارن بين ما ذكره ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٤٢، من أن ابن طاهر أنزلهم جزيرة إقريطش. وبين ما أورده ابن القوطية من أن عبد الله بن طاهر «ابتاع المدينة منهم بمال كثير». تاريخ افتتاح الأندلس: ص١٠١. وهو ما ذكره الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص ١٥٧.

(٣٩) راجع: البلاذرى: فتوح البلدان: ص٢٣٧؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٢٣٦؛ النويرى: نهاية الأرب، ج٢٥ ص٣٨٤.

(٤٠) راجع: البلاذرى: فتوح البلدان: ص٢٣٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٥١؛ المقريزى: الخطط، ج١، ص ١٧٢.

(٤١) راجع: ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٢٣٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٣٧٥.

(٤٢) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٤، ص ٣٨٤.

(٤٣) راجع الحميدى: جذوة المقتبس، ص٣٠١.

(٤٤) راجع الضبى: بغية المقتبس، ص ٣٠١.

(٤٥) المقرى: نفح الطيب، ج٤، ص١٤٣.

(٤٦) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج٢، ص١٠١؛ وراجع السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٣٤٧، وجعل الفتوحات سنة ٢٣٠ هـ؛ وابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة ج٣ ص٣٧٥، وهناك خبر ذكره ابن عذاري: البيان المغرب ج١ ص١١٣ أنه فى سنة ٢٤٤ هـ غزا العباس صاحب صقلية أرض الروم وخرج أمره إلى إقريطش فقتل وسبى، ولعل هذا الخبر يؤكد أن بعض أجزاء الجزيرة كانت تقع أحيانا فى أيدى الروم فتغزا من جديد من قبل المسلمين.

(٤٧) راجع الحميدى: جذوة المقتبس ص٣٠١؛ والضبى: بغية المقتبس، ص٣٠١.

(٤٨) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٢٥٧.

(٤٩) الطبرى: تاريخ الأمم الملوك، ج٨، ص ٦١٣.

(٥٠) تولى إقريطش شعيب بن عمر بن عيسى بعد وفاة والده، ثم تولاها عبد العزيز بن شعيب بن عمر بن عيسى. راجع فى ذلك المصادر الآتية مجتمعة: ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج٢ ص١٠١؛

وابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس. القسم الأول ص١٢٤؛ وياقوت: معجم البلدان ج١ ض٢٣٦. ويقول المقريزي عن فاتحي إقريطش: «وساروا إلى جزيرة إقريطش، وكان الأمير معهم: ابو حفص عمر بن عيسى ثم تولاها ولده من بعده». الخطط ج١ ص١٧٢

(٥١) الإصطخري: المسالك والممالك ص٥١؛ وابن حوقل: صورة الأرض ص١٨٤؛ وابن الأثير: الكامل ج٥ ص٢١٢؛وارجع قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة، ص٣٥١.

(٥٢) سبقت الإشارة إلى أن أهل الربض الذين نزلوا فاس، ابتنوا على ساحلها مدينة غلب على اسمها مدينة الأندلس الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٢٥٧. وقد اشار الدكتور أحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٤إلى أن هؤلاء الربضيين نقلوا إلى عاصمة الأدارسة مظاهر الحضارة الأندلسية، فأعطوها طابعا أندلسيا جميلا في صناعتها وأبنيتها البيضاء، وعرفت مدينة فاس بمدينة الأندلسيين. أما مدينة العالية التي أسسها إدريس الثاني على الضفة المقابلة فقد أسكنها لجماعة من عرب إفريقية من نواحي القيروان، ولهذا سميت بمدينة القيروانيين. ثم خفف الاسم إلى قرويين، وبمضي الوقت غلب اسم فاس على المدينتين وصار يشمل عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين. راجع: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٨٧.

(٥٣) راجع: النويري: نهاية الأرب: ج٢٤ ص٣٨٤؛ والمقريزي: الخطط، ج١ص٢٨٧؛ وابن خلدون: العبر: ج٤ ص٦٠؛ والطبري: تاريخ الأمم، ج٨ ص٦١٣.

(٥٤) راجع: ابن الأبار: الحلة السيراء ج١ ص٤٥.

(٥٥) راجع: وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٤٢.

(٥٦) الإدريسي: نزهة المشتاق ج٢ ص٦٣٥؛ وابن حوقل: صورة الأرض ص١٨٤.

(٥٧)
- From Wikipedia, The Free Encyclopedia
- p. Z. http: en. Wikipedia dia. Org/ Wiki/ Heraklion.

(٥٨) راجع: إبراهيم العدوي: قوات البحرية العربية ص١١٠؛ وحسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط ص١١٥-١١٦، وعنه نقل إبراهيم طرخان: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ص٨٥. وذكروا أن لفظ (الخندق) العربي حرف إلى (كانديا).

(٥٩) الإدريسي: نزهة المشتاق ج٢ ص٦٤٠، وراجع ص٦٣٥، وص٦٣٩.

(٦٠) الإدريسي: نزهة المشتاق ج٢ ص٦٤٠؛ وأبو الفدا: تقويم البلدان، ص١٩٥.

(٦١) الحميدي: جذورة المقتبس: ص٣٠١؛ والضبي: بغية الملتمس: ص٤٠٧؛ والمقري: نفح الطيب، ج٤، ص١٤٣.

(٦٢) راجع: الطبري: تاريخ الأمم، ج٨، ص٦١٣.

(٦٣) راجع: المقريزي: الخطط ج١ ص١٧١.

(٦٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، ص٤٥.

(٦٥) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج٣، ص١٥٢؛ راجع ترجمته لأسرته: ص١٥٠ -١٥٣، وراجع

ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة: ج١، ص٣٥٦؛ والمقري، نفح الطيب، ج٢، ص٣٦٣-٣٦٤

(٦٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٣٦.

(٦٧) قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة، ص٣٥١.

(٦٨) الذهبي: العبر، ج٢، ص٢٤.

(٦٩) تجدر الإشارة هنا إلى معاصرة الإصطخري لإمارة إقريطش الإسلامية، وكذلك عاصرها ابن القوطية: «تاريخ افتتاح الأندلس» ص١٠١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٦١٣، وعنها نقل البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، ص١٣٨.

(٧٠) - From Wikipedia. The Free Encyclopedia_P.Z.Http: EN. Wikipedia Dia.Org/ Wiki/ Herakion

ومن الطبيعي أن يزعم مورخو اليونان الآن أن المسلمين كانوا قراصنة في حوض البحر المتوسط كما أدعى المرجع السابق.

(٧١) ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٢٣٦.

(٧٢) النويري: نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٨٤.

(٧٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني: ص ١٢٤، وراجع ص ١٢٣.

(٧٤) الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٨؛ راجع من ص١٧، وراجع ص٤٦، ١٣٧.

(٧٥) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الأول، ص ٣١.

(٧٦) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني: ص ١٢٤.

(٧٧) راجع ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج٢، ص١٠١؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣٠١؛ الضبي: بغية الملتمس، ص٤٠٧.

(٧٨) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني: ص١٢٣.

(٧٩) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني: ص١٨٩.

(٨٠) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني: ص١٢٨-١٢٩، وراجع ص١٣٠.

(٨١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني: ص١٨٩.

(٨٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الأول: ص٤٨.

(٨٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني: ص١٢٨.

(٨٤) المقريزي: المقفى: ج٦، ص٤٥٦.

(٨٥)ابن يونس: تاريخ المصريين، القسم الأول، ص ١٢٢.

(٨٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٢٣، ص٨٨.

(٨٧) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٣، ص٢٩٥.

(٨٨) كان نقفور بن الفقاس هو قائد الجيش البيزنطي الذي استولى على إقريطش سنة (٣٥٠هـ / ٩٦١م).

فى أثناء حكم ملك الروم، رومانوس الثانى. وقد أشار ياقوت الحموى إلى ذلك: «معجم البلدان: ج١ص٢٣٦» إلى تولى نقفور السلطة فى الدولة البيزنطية بعد وفاة رومانوس الثانى عقيب سقوط إقريطش فى ايديهم. راجع: الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٨ص٢٥٧؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: ج٣ ص٣٧٥، وقد أشار النويرى فى نهاية الأرب ج٢٤ ص٣٨٧-٣٨٨ إلى محاولة الروم لإجبار المسلمين بالجزيرة على التنصر بعد وقوعها فى أيديهم. كما فصل الحديث عن سقوها، وذكر أنها سقطت بالحصار والجوع. راجع ص٣٨٥-٣٨٦. وللوقوف على صمود الجزيرة وتصديها للروم، حتى السيطرة البيزنطية عليها راجع ابن الأثير: الكامل ج٧، ص٥، وابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص ٢٠٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٤، ص٦٠، المقريزى: الخطط: ج١، ص١٧٢

From Wikipidia, The Free Encyclopedia-P.Z.

وانفرد ياقوت في معجمه بذكر اسر الأمير عبد العزيز بن شعيب، وبنى عمه، وغيرهم، وحملهم إلى القسطنطينية مع أموالهم فى نحو ثلاثمائة مركب. ياقوت: السابق ج١، ص٢٣٦

(٨٩) راجعها عن القاضى عياض: ترتيب المدارك، ج٣، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٩٠) راجع اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى ج٢ ص٤٩٤، والمسعودى: مروج الذهب ج٤، ص١٤٥؛ ابن الجوزى: المنتظم ج١٢ ص٧؛ ابن الأثير: الكامل ج٥ ص٣١٢؛ الذهبى: تاريخ الإسلام، ج١٨ ص ٢٣؛ والنويرى: نهاية الأرب، ج٢٢، ٣٠٣.

(٩١) راجع الإدريسى: نزهة المشتاق ج٢، ص٦٤٠؛ وقارن ذلك بما لدى النعمان بن محمد: المجالس والمسايرات، ص٤٤٦.

(٩٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: ج٩، ص١٩٤؛ وراجع من ص ١٩٣؛ وراجع الخبر عن ابن الأثير، الكامل، ج٧ ص٦٨-٦٩، طبعة دار صادر - بيروت. ولم يذكر اسم إقريطش بل ذكر ياقوت: معجم البلدان، ج٢ ص ٤٧٣. وكان هجوم الروم فى يوم وقفة عرفة. وراجع أيضا: المقريزى: الخطط ج١ ص٢١٣.

(٩٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١٩٤؛ وياقوت: معجم البلدان، ج٢ ص٤٧٢-٤٧٣.

(٩٤) النعمان بن محمد: المجالس والمسايرات، ص٤٤، وراجع ص٤٤٣.

(٩٥) المصدر السابق: ص٤٤٥.

(٩٦) المصدر السابق: ص٤٤٤.

(٩٧) المصدر السابق: ص٤٤٣، وص٤٤٦-٤٤٧.

(٩٨) المصدر السابق: ص ٤٤٦.

(٩٩) ابن زولاق: فضائل مصر، ص٥٠.

(١٠٠) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ١٩٥؛ الإدريسى: نزهة المشتاق، ج٢، ص٦٤٠، حيث ذكر أن جيد الجبن يعمل بإقريطش، ويحمل إلى جميع النواحى «ولا يعدله شيء من نوعه».

(١٠١) راجع: الكندى: فضائل مصر ص٥٢، ياقوت: معجم البلدان، ج٢ ص٤٧٢-٤٧٣

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

ابن الأبار (محمد بن عبد الله ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م):

– الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف.

– التكملة لكتاب الصلة، نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

ابن الأثير: (على بن أبى الكرم محمد ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م:

– الكامل فى التاريخ، بيروت

الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، من علماء القرن السادس الهجرى:

– نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق. عالم الكتب، بيروت، لبنان.

الإصطخرى: (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى):

– المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحسينى، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، الذخائر.

البكرى(أبو عبيد عبد الله البكرى ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):

ه– جغرفية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك للبكرى، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، دار الإرشاد، بيروت.

البلاذرى: (أحمد بن يحيى ت٢٧٩هـ/٨٩٢م):

– فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن تغرى بردي: (جمال الدين يوسف ت٨٧٤هـ/١٤٦٠م):

– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت ولبنان

ابن الجوزى: (أبو الفرج، عبد الرحمن ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م):

– المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الحميدى: (محمد بن أبى نصر ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م):

– جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية ١٩٦٦م.

ابن حوقل: (النصيبى)

– صورة الأرض، بيروت، لبنان.

ابن خردانبة: (عبيد الله بن عبد الله بن خردانبة):

– المسالك والممالك، طبع فى مدينة ليدن، ١٨٨٩م، دار المدينة

الخشنى: (محمد بن حارث ت ٣٦١هـ/٩٧١م):

- أخبار الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق: ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٩٢م.

ابن الخطيب: (لسان الدين بن الخطيب ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م):

- كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ا. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م):

- تاريخ ابن خلدون، تحقيق الأستاذ: خليل شحاذة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١.

ابن خلكان: (أحمد بن محمد ت٦٨١هـ/١٢٨٢م):

- وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

الذهبي: (محمد بن أحمد ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م):

- سير أعلام النبلاء، ج٨ تحقيق نذير حمدان، ج١٢، تحقيق صالح السامر، مؤسسة الرسالة.

- العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، ج ١٨، ج٢٣، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.

ابن زولاق: (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م):

- فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق: على محمد عمر، الهيئة المصرية للكتاب.

ابن سعيد: (على بن موسى ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م):

- المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف.

السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

- تاريخ الخلفاء، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الضبي: (أحمد بن يحيى بن عميرة ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م):

- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكاتب العربي ١٩٦٧، المكتبة الأندلسية (٦).

الطبري: (محمد بن جرير ت٣١٠هـ/٩٢٢م):

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

ابن عبد ربه: (ابو عمر أحمد بن محمد):

- العقد الفريد، شرح وضبط الأساتذة: أحمد أحمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ابن العديم: (كمال الدين عمر ت ٦٦٠ هـ/١٢٦١م):

- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.

ابن عذارى: (أبو عبد الله محمد المراكشى فى القرن الثامن الهجرى):

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وبروفنسال، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م.

ابن عساكر: (على بن الحسن بن هبة الله ت٥٧١هـ/١١٧٥م):

- تاريخ دمشق، تحقيق: على شيرى، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

القاضى عياض: (عياض اليحصبى) ت٥٤٤هـ/١١٤٩م):

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: أحمد بكير، دار مكتبة الحياة، بيروت.

- أبو الفدا: (عماد الدين إسماعيل): تقويم البلدان، باريس.

قدامة بن جعفر: (أبو الفرج، الكاتب البغدادى):

- نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، طبع فى مدينة ليدان، ١٨٨٩م، دار المدينة.

البن القوطية: (أبو بكر محمد):

- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: عمر فاروق، مؤسسة المعارف، بيروت.

ابن كثير: (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م):

- البداية والنهاية، تحقيق: على محمد معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن الكندى: (عمر بن محمد بن يوسف، كان حيا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى):

- فضائل مصر المحروسة، تحقيق: على محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المراكشى: (عبد الواحد المركشى):

- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان مطبعة الاستقامة بالقاهرة، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٤٩م.

المسعودى: (أبو الحسن على بن الحسين ت٣٤٦هـ/٩٥٧م):

- مروج الذهب، دار المعرفة، بيروت.

المقدسى: (شمس الدين محمد):

- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت.

المقريزى: (أحمد بن على ت٨٤٥هـ/١٤٤١م):

- المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق.

المقرى: (أحمد بن محمد ت١٠٤١هـ):

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شرح وضبط: مريم قاسم، يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

ابن منظور: (محمد بن مكرم ت٧١١هـ/١٣١١م):

– مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دار الفكر، دمشق ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

النعمان بن محمد (أبو حنيفة ت٣٦٣هـ/٩٧٤م):

– المجالس والمسايرات، تحقيق: الحبيب الفقى وإبراهيم شبوح، ومحمد اليعلاوى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس ١٩٧٨م.

النويرى: (شهاب الدين أحمد ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م):

– نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٣ تحقيق: أحمد كمال زكى، وج٢٤ تحقيق: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ياقوت: (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م):

– معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

اليعقوبى: (أحمد بن يعقوب بن جعفر ت٢٨٤هـ/٨٩٧م):

– تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت.

ابن يونس: (أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد ت٣٤٧هـ/٩٥٨م):

– تاريخ ابن يونس المصرى، القسم الأول: تاريخ المصريين، والقسم الثانى: تاريخ الغرباء، جمع وتحقيق ودراسة: عبد الفتاح عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيا: المراجع:

– إبراهيم أحمد العدوى: قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، مكتبة نهضة مصر.

– إبراهيم على طرخان: المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، سلسلة الألف كتاب، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٦م.

– أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

– أسمت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، ١٩٨٣م.

– حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربى.

– تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط، الدار المصرية اللبنانية.

- FROM WIKIPEDIA. THE FREE ENCYCLOPEDIA_P.Z.–

-http:en. WIKIPEDIA dia org/wiki/Crete.

- Ineocharis Detorakis: History of Crete . Iraklion.1994

د.أحمد إبراهيم علي (*)

الممارسات المغولية على الهند وأثرها على أوضاع البلاد الداخلية

(٦١٨هـ/١٢٢١م - ٧٠٦هـ/١٣٠٩م)

كان لسقوط العاصمة الصينية بكين في قبضة القوات المغولية بقيادة جنكيز خان عام (٦١٣هـ/١٢١٦م) إيذاناً ببدء تطور سياسي وعسكري خطير في شرق العالم الإسلامي، حيث زادت رهبة وقوة جنكيز خان في نفوس حكام المسلمين[١] في مناطق تركستان - ما وراء النهر - وخراسان، هذا بجانب حكام شبه القارة الهندية حيث جاور المغول إقليم البنغال - الواقع في شرق الهند - وسرعان ما ترجمت تلك المخاوف إلى واقع عملي بعدما استطاع جنكيزخان دحر القوات الخوارزمية بعد ثلاث سنوات من سقوط بكين، وتثنى له الاستيلاء على مدن تركستان و خراسان بعد وفاة السلطان علاء الدين خورزمشاه عام (٦١٧هـ/١٢٢١م)[٢].

برغم تلك الضربة القاصمة إلا أن قوة الخوارزميين لم تضعف بعد، حيث قاد الكفاح ضد المغول السلطان جلال الدين منكبرتي، وفي خلال عام واحد حقق سبع انتصارات متتالية عليهم، حتى كانت المعركة الفاصلة بين الطرفين على نهر السند عام (٦١٨هـ/١٢٢٢م)، حيث دارت الدائرة على جند السلطان جلال الدين منكبرتي، فقتل أغلب جنده، وغرق الآخرون في نهر السند، ولم يبلغ الضفة الأخرى سوى سبعمائة جندي يسبقهم السلطان جلال الدين[٣]، وكانوا جميعاً في حالة مرض وإعياء شديدين .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الهند تشكل بؤرة الصراع في الشرق الأقصى بين المغول والمسلمين، وقد حاول جنكيزخان عبور نهر السند خلف خصمه بهدف القضاء عليه نهائياً، وبلوغ الصين من جهة الغرب، ومن ثم أرسل إلى حاكم دهلى السلطان شمس الدين التمش يعرض عليه رغبة عبور أراضيه باتجاه الصين، ولكنه رفض[٤] خشية طمع جنكيز خان في ملكه، وثم رأى آخر يفسر لنا عدم إقدام جنكيز خان على عبور النهر، حيث حذره المنجمون بسوء طالعه إذا ما حاول دخول الأراضي الهندية، ويذكر بعض المؤرخين أن جنكيز خان أخافه شدة حرّ الهند، وتأثيره السلبي على نشاط وقوة جنده[٥] . وعلى أية حال فقد بقيت الهند في مأمن من خطر المغول في تلك المرحلة.

*-مدرس بكلية دار العلوم/ جامعة المنيا.

هذا وتعد دراسة الممارسات المغولية على الهند من الدراسات الشيقة والجديدة، حيث اعتدنا كثيراً قراءة أبحاث علمية تتعلق بالهجمات المغولية علي مناطق تركستان و خراسان والعراق وأوربا دون أن نجد بحثاً خاصاً بالهند الإسلامية، ناهيك عن تلك الأبحاث التي تناولت باستفاضة إسلام مغول العراق أو القبيلة الذهبية دون إلقاء الضوء على إسلام مغول الهند، والذين بقي أثرهم في البلاد أكثر من غيرهم من خلال وجود دولة أباطرة مغول الهند، والتي بقيت لأكثر من قرن ونصف تحكم الهند وأجزاء من أفغانستان.

بجانب ما سبق فقد أثرت الهجمات المغولية على الهند كثيراً في المجتمع الهندي بصفة خاصة، وفي الشرق الإسلامي بصفة عامة، حيث أصبحت الهند عاصمة إسلامية عالمية يأوي إليها كبار العلماء والمثقفين، وأبناء الخلفاء والسلاطين الذين وجدوا فيها الأمن والأمان، ومزيداً من الاحترام والتقدير من جانب سلاطين دهلي فألفوا وأبدعوا، كما أثرت تلك الهجمات على اقتصاد البلاد، وتسببت في الكثير من الاضطرابات الاقتصادية التي تصدي لها المسلمون بحزم وقوة، ناهيك عن الدور الذي لعبه رجال الدين والتصوف في نشر الإسلام بين المغول، ومحاولة إدماجهم في المجتمع، وتوجيه قوتهم لما فيه صالح الإسلام والمسلمين .

أولا : الممارسات المغولية على الهند فى العهد المملوكي :-

قبيل الغزو المغولي كانت الهند تحت حكم أسرة المماليك وذلك منذ عام (٦٠٦هـ/ ١٢٠٦م)، حيث كان يجلس على عرش البلاد ثاني سلاطين تلك الأسرة وهو السلطان شمس الدين التمش[٦] الذي كان عليه أن يتحمل عبء دخول السلطان جلالَ الدين منكبرتي الهند، والذود عن حوضه ضد القوات الخوارزمية والمغولية، بجانب حربه ضد المتمردين في الشمال والشرق حتى يتثني له توحيد الهند تحت سلطته .

ما كاد السلطان جلال الدين منكبرتي يستقر في الهند حتى وفد عليه أربعة آلاف جندي كون بهم جيشاً جديدا، وراح يوطد نفوذه في الهند، وكان أول من تصدي له زانه شتر الحاكم المحلى لمنطقة جبل جودي في غرب إقليم البنجاب، وبعد معركة قصيرة هزم زانه شتر وفقد حياته وتاجه[٧]، وعقب ذلك حاول السلطان جلال الدين منكبرتي تكوين حلف عسكري لمواجهة سلطان دهلي و القوات المغولية، ومن ثم تزوج من ابنة راجا سنكين صاحب إقليم كهكر[٨]، ليتفرغ بعد ذلك للتوسع في إقليم البنجاب، وسدّ الباب في وجه جنكيز خان إذ ما حاول دخول الهند

كان إقليم البنجاب تحت سيطرة السلطان ناصر الدين قباجه، الذي كان على خلاف دائم مع السلطان شمس الدين التمش، وفى بداية معاركه حقق السلطان جلال الدين منكبرتي انتصارات عظيمة على السلطان ناصر الدين قباجه، فأخذ يتوسع في الاتجاه الجنوبي الغربي، وهنا أدرك السلطان التمش خطورة الوضع، واحتمالية تقدم السلطان الخوارزمي باتجاه دهلي، فأمد قباجه ببضعة آلاف جندي، ولكن ذلك لم يفلح في وقف القوات الخوارزمية

التي استولت على مدينة كلور ثم قلعة برنوزخ [٩]، ثم أخذ يتوغل في اتجاه الجنوب الشرقي حتى استطاع دخول مدينة انهلوره، واحضر من هناك إبلا كثيرة كانت سبباً في تحسين وضعه العسكري[١٠] حتى تمكن أخيراً من الاستيلاء على معقل السلطان قباجه حيث مدينة أجه، وأضاف إليها مدينة سدوستان، بعدما دفع حاكمها فخر الدين السلاري للاستسلام[١١].

أثرت أحداث البنجاب الأخيرة على أوضاع الهند السياسية، حيث كانت عيون جنكيزخان ترصد تحركات السلطان جلال الدين منكبرتي عن كثب، وترغب في إضعاف قوته عن طريق افتعال المزيد من الاضطرابات داخل إقليم البنجاب، وهنا أمر جنكيزخان قائده «تروباي تقشي» بالتحرك تجاه إقليم البنجاب عام (٦٢١هـ/١٢٢٤م)، وكانت وجهته مدينة الملتان فحاصرها مع عشرين ألف جندي[١٢]، وخلال أربعين يوماً كافح السلطان ناصر الدين قباجه مع أهالي المدينة ضد القوات المغولية التي أرهقتها وأضعف من قوتها حرارة الجو المرتفعة، وحصون المدينة، واستبسال أهلها، مما دفع تروباي تقشي إلى فك الحصار والعودة إلى خراسان[١٣] وكانت تلك أولي الحملات المغولية على الهند .

أثبتت حملة «تروباي تقشي» أن الهند أصبحت هدفاً للقوات المغولية، وأن ذلك ربما يكون راجعا في الأساس لوجود السلطان جلال الدين منكبرتي فيها، وعلى جانب أخر حدد المغول هدفهم وهو الاستيلاء على إقليم البنجاب الذي أصبح يعج بالمؤامرات والحروب، أما السلطان جلال الدين منكبرتي فقد رأى نفسه على موعد مع أعدائه المغول الذين أخذوا يدفعونه بعيداً عن ملكه في خراسان، ومن ثم أرسل إلى السلطان شمس الدين التمش يطلب منه تحديد موضع في دهلي للإقامة مع جنده حتى يستعد لقتال المغول مرة أخري[١٤] . إزاء ذلك الوضع رفض السلطان شمس الدين التمش طلب خصمه، معتذراً بأن جو دهلي الحار لا يناسب القوات الخوارزمية، وكان هذا الرد مصحوباً بجملة من الهدايا والتحف مع عرض سخي بتزويج ابنته من السلطان جلال الدين[١٥] . وكان يهدف من وراء ذلك تأجيل المواجهة العسكرية لحين اكتمال الاستعدادات الحربية .

أدرك السلطان شمس الدين التمش مدى الخطر الذي بات يهدد الهند، فراح يستعد لطرد السلطان جلال الدين من البلاد. فجهز لذلك جيشاً قوامه ثلاثين ألف فارس ومائة ألف رجل، مع ثلاثمائة فيل، وبعد مناوشات طويلة بين الطرفين تم عقد الصلح، الذي وافق عليه السلطان شمس الدين التمش بعدما أخذ يرى مدى استعداد القوات الخوارزمية لترك الهند، والعودة إلى خراسان[١٦]، وقد تم ذلك في بداية عام (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) عقب وفاة جنكيزخان، إلا أن السلطان جلال الدين رفض التنازل عن شمال الهند نهائياً فترك قائده بهلول أوزبك نائباً عنه على شمال غرب الهند متخذاً من مدينة لاهور مركزاً له[١٧].

ارتاح خاطر السلطان شمس الدين التمش من السلطان حلال الدين، وازدادت راحته بعد أن طرد بهلول أوزبك من البلاد، كما استطاع توحيد الشمال الهندي مع دهلي بعد قضائه على السلطان ناصر الدين قباجه، إلا أن الأحداث السابقة كشفت النقاب عن مدي ضعف إقليم

البنجاب أمام الغزاة الخوارزميين والمغول، وأفرزت عن عداء دفين بات يحيط بالعلاقات الهندية المغولية، بعدما رأى المغول مدى تحسن علاقة السلطان شمس الدين التمش مع الخليفة العباسي المنتصر بالله الذي بارك حروب السلطان التمش، وأرسل إليه عام (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) مرسوماً بذلك مع الأنعام عليه بلقبه ناصر أمير المؤمنين[١٨].

عقب وفاة جنكيز خان انشغل المغول بولاية العرش حتى استقر الأمر لابنه أوكتاي الذي اهتم بضم باقي أراضي خراسان، وقطع دابر القوات الخوارزمية، والمناوشات العسكرية مع الخلافة العباسية، وتسكين ثورات أهالي تركستان، وتدعيم نفوذه في الصين[١٩]. إلا أن ذلك لم يمنعه من استغلال اضطراب أوضاع الهند عقب وفاة السلطان شمس الدين التمش عام (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، فهاجم قائده «هوقاتور» إقليم كشمير، واكتسح شمال غرب الهند، وعمل السلب والنهب في إقليم البنجاب[٢٠] فنشر بأعماله تلك الفزع والرعب فى نفوس الأهالي، وأيقظ حكام دهلي على واقع الرعب المغولي، وخطرهم القادم .

كانت حملة هوقاتور البداية الحقيقية للغزوات المغولية للهند، والتي كانت دائماً مصدر قلق وإزعاج لحاكم دهلي السلطان بهرامشاه ابن التمش، الذي أعطي بأعماله الغير مسئولة الفرصة كاملة للمغول لمعاودة غزو إقليم البنجاب حيث اتبع نهج الاغتيالات السياسية ضد كبار القادة الذين رغبوا في التخلص منه لانصرافه عن أمور الحكم، والاهتمام بالشراب واللهو[٢١]، وقد واكبت تلك الظروف هوى المغامر المغولي نيقودار، الذي اقتحم إقليم البنجاب في سرعة مذهلة، وطوق مدينة لاهور قاعدة الإقليم[٢٢] وشرع في مدّ نفوذه، وتوطيد قوته في شمال الهند .

حاول والي المدينة ملك قراقش التصدي للقوات المغولية، ولكن فوجئ بتمرد كبير يسود معسكر الجند الذين رأوا أنفسهم يدافعون عن سلطان مستهتر ضعيف، وقد دفع ذلك ملك قراقش للفرار ليلاً تاركاً المدينة لقمة سائغة في فم نيقودار الذي دخلها في يوم الاثنين السادس عشر من جمادى الآخر عام (٦٣٩هـ/١٢٤٢م) [٢٣] وقد دفع الأهالي ضريبة هذا الإهمال حيث وقعوا فريسة في أيدي المغول الذين نهبوا المدينة، واقتادوهم أسري بعدما سطوا على أملاكهم، وقد حاول السلطان بهرامشاه إقناع وزيره نظام الملك بضرورة التحرك ضد المغول، وتخليص لاهور من قبضتهم، ولكن نظام الملك الذي كان يشك في نوايا السلطان بهرامشاه ضرب حصارا حول دهلي، استمر ثلاثة أشهر ونصف، حتى تثني له القبض على السلطان بهرامشاه، وإيداعه السجن[٢٤]. وقد ساعد هذا الوضع القائد المغولي نيقودار للتوغل أكثر باتجاه دهلي، ولم يمنعه عنها سوي وصول الأنباء بوفاة الإمبراطور أوكتاي فعاد مرة أخري إلى خراسان[٢٥] وقد أثبتت تلك الحملة مدي ضعف ووهن دفاعات الهند، وسهولة اختراق مدنها، مما جعل المغول يطمعون أكثر في ثروات الهند وكنوزها .

تميز عهد أوكتاي بأنه العهد الذي اكتمل فيه فتح المناطق الواقعة شمال الصين فضلاً عن ضم كوريا وأجزاء كبيرة من جنوب غرب الصين، وعقب وفاته تولت الحكم زوجته توركينا

بالوصاية على ابنها «كيوك» واستمر هذا الوضع حتى عام (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) [٢٦] وقد أثرت تطورات الوضع العسكري على الجبهة الصينية على أوضاع شرق الهند وبالتحديد إقليم البنغال، حيث اجتاحت قوة مغولية هذا الإقليم قادمة من إقليم التبت، وقد تمكنت تلك القوة من بلوغ قصبة الإقليم حيث مدينة لكهنوتي، وقد دفع هذا الوضع والى المدينة عز الدين طغاخان إلى طلب المدد من السلطان علاء الدين فيروزشاه، الذي أرسل إليه ما يحتاج إليه حتى تمكن من رد الغزاة [٢٧]، وكانت تلك الغزوة تمهيداً لغزوات أخري أكثر قوة وعنفوانا، وأصبح على حكام دهلي القتال في جبهتين متباعدتين في آن واحد .

استمرت الهجمات المغولية على إقليم البنجاب ففي عام (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) هاجمت جموع منهم شمال غرب الهند بقيادة القائد مانكو الذي اخترق الإقليم حتى بلغ مشارف مدينة أوجه، وهناك تصدي له أهالي المدينة مع القائد بلبن الذي أوقع بهم هزيمة قاسية[٢٨]، منعتهم من التفكير في غزو البلاد لحوالي عشر سنوات، حيث كرر القائد مانكو غزو الهند مرة أخري، وحتى يتجنب مواجهة القائد بلبن قرر اقتحام مدينة الملتان، وقد أغراه انتصاره هذا إلى محاولة اقتحام مدينة أوجه من جديد، ولكنه تلقي هزيمة أخري دفعته لترك الهند، والتنازل عن مدينة الملتان [٢٩]، والارتداد مرة أخرى باتجاه الصين .

لازال الوضع العسكري للصين يؤثر سلباً على الوضع العسكري للبنغال، حيث هاجمت جموع من المغول إقليم البنغال عام (٦٥٤هـ/١٢١٦م)، وذلك بقيادة القائد قوبلاي قآن، وكان الهدف من تلك الحملة التخريبية جمع المؤن اللازمة للجيش المتجه لفتح جنوب الصين[٣٠]،وقد اتسع نطاق الحملات المغولية على إقليم البنغال عقب اكتمال فتح الصين، والسيطرة التامة على خراسان والعراق، وتولي قوبلاي قآن عرش الخاقانية، ومن ثم أرسل أحد قواده العظام ويدعي نستردين - نصر الدين - عام (٦٧١هـ/١٢٧٢م) إلى شرق الهند، فاقتحم إقليم البنغال مع اثنا عشر ألف فارس، ورغم تصدي القوات البنغالية بعددها البالغ ستين ألف جندي لهذا القائد إلا أن المغول حققوا عليهم نصراً حاسماً[٣١]، وتكمن أسباب هزيمة البنغاليين فى عدم اهتمامهم بالدروع مما جعلهم أكثر عرضاً للإصابة، واعتماد الجيش على قوة الأهالي غير المؤهلين للقتال المنظم، ناهيك عن عدم استغلالهم للفيلة الاستغلال الأمثل[٣٢]، أما أهم تلك الأسباب فترجع إلى انصراف حاكم البنغال طغرل خان، الذي أعلن نفسه سلطاناً مستقلاً عن دهلي، وأهمل أمر تحصين شرق البنغال، وأهتم فقط بتوسيع نفوذه في منطقة أورسيا، فبينما القوات المغولية تجتاح شرق البنغال كان طغرل خان يحاول اقتحام قلعة جاجنكر، فدخل في معارك طاحنة ضد حكامها الهنادكة، وأخذ يتوغل في تلك المناطق على حساب راجا بهوج حاكم سنكارم[٣٣]، تاركاً أمر الدفاع عن غرب البنغال إلى حامية صغيرة، ومعتمداً على معاونة الأهالي .

حقق المغول انتصاراً عظيماً في تلك المرحلة علي القوات البنغالية، وكان ذلك على حساب سقوط أعداد ليس بقليلة منهم، وذلك مما دفع القائد نستردين إلى عدم التوغل في إقليم

البنغال، واكتفي بما استحوذ عليه من غنائم وأسلحة، ولأول مرة استولي المغول على أعداد جمة من الفيلة، أمر الخاقان قوبلاي قاآن بضمها إلى الجيش [٣٤].

أدرك السلطان غياث الدين بلبن حاكم دهلي مدي اضطراب أوضاع إقليم البنغال ومن ثم عزم على القضاء على الحاكم المتمرد طغرل خان، ومن ثم تحرك ضده عام (٦٧٨هـ/١٢٨٠م) حيث استطاع القضاء عليه في مدة وجيزة وقبل عودته إلى دهلي وليّ على الإقليم ابنه بغرخان، وأمره ببذل المزيد من الجهد في تحصين قلاع الإقليم الشرقية لمواجهة القوات المغولية[٣٥]، والتي عجزت تماماً على اختراق الإقليم مرة أخري.

انتهي السلطان بلبن من متاعب الغزوات المغولية علي شرق الهند، وكان عليه أن يبذل المزيد من الجهد لصدّ هجماتهم على الشمال والشمال الغربي، لذا شرع بزيارة مدينة لاهور، فدرس أوضاعها عن قرب، وأمر بتشييد عدة قلاع عسكرية في جبهتها الغربية، وعمر القري الواقعة بالقرب منها، ومدّ أهلها بالسلاح اللازم للدفاع عنها وقت الحاجة، وقبل الرحيل عنها ولى على المدينة ابنه محمد، وضم إليه باقي المناطق البنجابية حتى مدينة الملتان[٣٦] ثم عين ابنه الثاني بغرخان على مدينة سامانية، وبذلك تثني له رد جحافل المغول إذا ما حاولوا الهجوم على إقليم البنجاب حيث يطبق عليهم بغرخان من الشمال ومحمد من الجنوب، وإذا أرادوا مزيد من القوات يتقدم لمساندتهم القائد برباك بيك من الشرق حيث دهلي[٣٧]، وبتلك الخطة تحبط محاولة المغول نهب وسلب مدن البنجاب، وحماية دهلي من هجماتهم.

برغم تلك التحصينات، فقد عاود المغول الهجوم مرة أخري على إقليم البنجاب وذلك عام (٦٨٣هـ/١٢٨٥م)، وتلك المرة بقيادة الخان تيمور قاآن حاكم الصين، فاستطاع أن يعبر نهر جهليم، ولم يستطع الأهالي البسطاء التصدي له فقام بأكبر عملية سلب ونهب للمنطقة الواقعة بين النهر ومدينة لاهور(٣٨)، وقبل وصوله إلى مشارف مدينة لاهور خرج له القائد محمد الذي لم ينتظر وصول أخيه بغرخان من مدينة سامانية مغتراً بقوته، وأعداد جنده التي كانت تفوق أعداد القوات المغولية، فألتقي الطرفان في معركة سرير على نهر لاهور، وكادت الدائرة تدور على جند الخان تيمور قاآن، لولا أن أصاب سهم رأس الأمير محمد فأرداه قتيلا، وبرغم ذلك لم تستطع القوات المغولية التقدم بعيداً عن لاهور[٣٩]، بسبب استبسال الجيش المغولي في القتال، إلا أن الخان تيمور قاآن استطاع الحصول على غنائم لا حصر لها، وأسر أعداد جمة من الجند والعلماء وكان علي رأسهم الشاعر والأديب أمير خسرو الدهلوى[٤٠] وكانت تلك أخر حملة منظمة يقودها المغول على إقليم البنجاب في العهد المملوكي.

ثانيا : الممارسات المغولية على الهند فى العهد الخلجى :-

لم يتحمل السلطان غياث الدين بلبن الذي بلغ الثمانين من عمره خبر مقتل ابنه محمد حتى وفاه أجله عام (٦٨٣هـ/١٢٨٥م) فجلس على عرش البلاد حفيده معز الدين كيقباد الذي انصرف إلى اللهو والشراب، ولم يستطع سد الفراغ السياسي الذي تركه السلطان بلبن، فطمع

كبار القادة في حكم الهند حتى تمكن أحدهم وهو ملك فيروز الخلجي في الوصول إلى سدنة الحكم عام ٦٨٦هـ/١٢٨٨م) فجلس على عرش الهند، وأطلق على نفسه لقب السلطان جلال الدين[٤١] لينتقل بذلك حكم الهند من سلالة المماليك إلى سلالة الأتراك الخلج، وفي فترة الحكم الخلجي ازدادت الهجمات المغولية على شمال الهند بشكل كبير حتى أن أحد القادة العسكريين وهو ملك تغلق، يذكر أنه قاتل المغول تسعاً وعشرين مرة أثناء ولايته على مدينة الملتان فهزمهم فيها جميعاً[٤٢] حيث استغلت القوات المغولية انشغال سلاطين الخلج بفتح الجنوب الهندي، وتأمين الحدود الشرقية للبلاد في شن المزيد من الغارات على البلاد.

والملاحظ أن المغول في تلك المرحلة غيروا سياستهم العسكرية، حيث أخذت هجماتهم طابعاً جديداً من حيث تعدادها وقوتها، ومحاولتهم اقتحام دهلي، والقضاء نهائياً على الحكم الإسلامي في الهند.وبدأت الهند تتحمل هجمات حكام تركستان من أبناء الخان جغتائي حيث ضعفت قوة أباطرة الصين من المغول وهزم الخان تيمور قاأن أمام الخان قايدو حاكم تركستان عام (٧٠٣هـ/١٣٠٦م) . كانت أولي تلك الحملات تلك التي وقعت عام (٦٩١هـ/١٢٩٢م) وبلغ تعداد جند المغول فيها مائة وخمسون ألفاً يقودهم الغونبيسة - حفيد جنكيز خان - وقد بلغ بقواته حدود مدينة لاهور وما إن علم السلطان جلال الدين بهذا الأمر حتى انبري لخصمه، وتقاتل معه بظاهر لاهور[٤٣] بيد أن أحداً منهما لم يستطع حسم المعركة لصالحه فلجأ الطرفان إلى عقد الصلح لأول مرة، وعقب ذلك أخذت السفرات تتبادل بين السلطان جلال الدين والقائد الغونبيسة الذي اقتنع بالدين الإسلامي، فالتحق مع عدد كبير من جنده بخدمة السلطان جلال الدين، وتم تعيين موضع في دهلي لإقامة جند المغول أطلق عليه في بداية الأمر غياثبور ثم مغول بور[٤٤]، وكان هذا أول استقرار رسمي للمغول في العاصمة دهلي، وبداية تغلغلهم في المجتمع الهندي .

لم يستمر السلطان جلال الدين في الحكم طويلاً حيث جلس على سدنة الحكم خلفاً له ابن أخيه علاء الدين الخلجي وذلك عام (٦٩٥هـ/١٢٩٧م) [٤٥]، وفي عهده الذي دام عشرين عاماً تصدي بحزم وقوة للقوات المغولية، وألحق بهم خسائر فادحة، وكانت أولي تلك الحملات تلك التي وقعت عام (٦٩٦هـ/١٢٩٨م) وكان يقودها قايدو الذي هجم على الهند من أقصي الشمال الغربي فعبر نهري جهليم وستلج في طريقه إلى مدينة دبالبور، تاركاً خلفه دماراً وسلباً عظيما، ومبتعداً بتلك الخطة عن منطقة لاهور، التي اعتاد المغول السابقين الهجوم عليها، وقد تثني له الاستيلاء على طول المناطق الواقعة من مدينة الملتان حتى جبل جودي[٤٦] ليقطع بذلك أي اتصال محتمل بين القوات الخلجية في شمال جنوب إقليم البنجاب.

أدرك السلطان علاء الدين مدي العواقب الوخيمة لتلك الحملة لو تقدم قائدها إلى الشرق حيث دهلي، فأرسل من فوره القائد ظفرخان لوقف زحف المغول، حيث تقاتل الطرفان في معركة «جالدنجار» - قرب لاهور - وفيها كانت الغلبة للقوات الخلجية، التي كبدت المغول خسائر فادحة فقتلوا منهم عشرين ألف جندي، و اقتيدوا جماعة منهم إلى قلعة كواليار حيث

تم سجنهم. أما النساء والأطفال فأرسلوا إلى دهلي للخدمة والعمل. ونجا قايدو من تلك المعركة بشق الأنفس[٤٧]. وكانت تلك أقوي الضربات التي نزلت بالمغول في الهند، وكان عليهم أن يتحملوا المزيد لاحقاً .

اشتد الصراع المغولي الخلجى في تلك المرة على إقليم السند. حيث حاول المغول الانتقام لهزيمتهم السابقة، ومن ثم عاودوا الهجوم على الهند مرة أخري عام (٦٩٧هـ/١٢٩٩م)، وكان يقودهم هذه المرة القائد صلدي نام، وقد فضل الهجوم على أقصي إقليم السند فبلغ في سهولة ويسر مدينة سيوستان[٤٨]، و قبيل استقراره في المدينة أدرك صلدي نام أنه قد وقع في شرك عدوه، حيث طوقت القوات الخلجية بقيادة طغرخان المدينة، وأحكمت الحصار حولها، وبعد فترة وجيزة اقتحم الخلج المدينة، وقاموا بأكبر مذبحة ضد القوات المغولية، وتم أسر القائد المغولي صلدي نام مع سبعمائة من كبار رجاله، اقتيدوا جميعاً إلى دهلي وتم إعدامهم تحت أقدام الفيلة[٤٩]. وكان لهذا النصر صداه في الهند و تركستان، حيث تيقن أهالي البنجاب والسند أن دحر القوات المغولية والقضاء عليها بات بالأمر السهل اليسير إذا ما توفر لديهم رجال عظماء أمثال طغرخان وجنده .

لم يكن خان مغول تركستان «داوو» ليقف مكتوفي الأيدي أمام تلك الهزيمة القاسية التي تعرضت لها قواته، لذا عمل من فوره في نفس العام السابق على تلقين الخلج درساً في فنون الحرب والقتال، فأرسل ابنه قتلغ خواجه مع مائتي ألف فارس وجندي[٥٠]. أفزعت تلك الحملة أهالي إقليمي البنجاب والسند الذين فروا من ديارهم تاركين مدنهم تسقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي المغول، وفضل القادة الخلج التقهقر قليلاً ناحية دهلي للدفاع عنها، ومن ثم تثنى للقائد قتلغ خواجه الاستيلاء على مدن الملتان و دبالبور و لاهور، وشرع بالتقدم ناحية دهلي، وبات على بعد فرسخين منها[٥١] في أول حصار للمدينة من قبل القوات المغولية.

والواضح أن تلك الانتصارات التي حققها قتلغ خواجه، وكسبه المزيد من أراضي خصمه قد أفزعت السلطان علاء الدين الذي قرر ترك مدينة دهلي القديمة لقائده ملك علاء الدين، والدفاع عن العاصمة من الشمال حيث مدينة سيري[٥٢]، وبينما قوات المغول تضيق الخناق على دهلي، كان السلطان علاء الدين وقواده في جدل حول كيفية إدارة تلك الأزمة، حيث رأى القائد ظفر خان ضرورة مواجهة المغول خارج العاصمة، وقتالهم حتى النهاية، رأى نظيره الغ خان ضرورة مهادنتهم، وعرض الصلح عليه، أو علي الأقل إطالة مدة الحصار، وإعاقة اقتحام المدينة حتى تصل الإمدادات من المناطق القريبة[٥٣].

تمخض هذا الجدل عن عداء مستحكم بين ظفرخان والغ خان، وقد قرر السلطان علاء الدين مواجهة المغول خارج دهلي، واستطاع هزيمة قتلغ خواجه، وإبعاده عن دهلي، وأرسل خلفه قائداه ظفرخان والغ خان، إلا أن الأخير سيطرت عليه شهوة الانتقام فترك ظفرخان يواجه المغول بمفرده فقتل مع ألفي جندي[٥٤]، وكانت القوات المغولية قد بعدت عن دهلي بمسافة ثمانية عشر فرسخا، حيث أخذ قتلغ خواجه يستعد لمنازلة السلطان علاء الدين مرة

أخري، ولكنه فوجئ بمقاومة كبيرة من جانب الخلج فتقهقر إلي إقليم البنجاب، وفي موضع «كياى» دارت بين الطرفين معركة أخري هزم فيها المغول، وارتد قائدهم قتلغ خواجه بمن تبقي معه باتجاه تركستان مرة أخري[٥٥] دون أن يحقق نصراً حاسماً على القوات الخلجية .

عاشت الهند عقب تلك الحملة ست سنوات في أمن وسلام، وقد استثمر السلطان علاء الدين تلك المدة في إصلاح أحوال البلاد الاقتصادية، ثم شرع في توسيع حدود دولته على حساب راجات الهنادكة، وكانت القوات المغولية تراقب أوضاع الهند عن كثب، وتنتظر الفرصة للانقضاض على البلاد من جديد. وفي خطأ عسكري واضح، قام السلطان علاء الدين بغزو قلعة رنتهبور، فأستولي عليها بعد عناء شديد[٥٦]، وقام بسحب عدد كبير من جند إقليم البنجاب لفتح مناطق الدكن و الكجرات، وبدلاً من تأمين دهلي نراه ينتقل مباشرة من غزو رنتهبور إلى غزو قلعة جيتور، ضارباً عرض الحائط بتحذيرات كبار القادة بضرورة الحذر والحيطة من غزو مغولي متوقع، وأثناء عودته من جيتور فقد السلطان علاء الدين الكثير من متاعه بسبب سقوط الأمطار بكثافة[٥٧].

ما كاد السلطان علاء الدين يستقر في دهلي شهراً واحداً حتى أخذت الأخبار تتوالى عليه بتقدم القوات المغولية في سرعة خاطفة مجتاحة إقليم البنجاب مستغلة ضعف الحاميات المغولية في لاهور و ديالبور، وكان على رأس تلك الحملة القائد «طغرى» مع مائة وعشرين ألف فارس وجندي، وقد تمكن من بلوغ مشارف دهلي[٥٨]، وأمام هذا الوضع اضطر السلطان علاء الدين إلى التحصن في مدينة سيرى، وشكل من الأهالي وبعض القوات العسكرية فرق خاصة للهجوم على معسكر المغول ليلاً في محاولة لتعطيلهم عن اقتحام العاصمة حتى قدوم المدد من الدكن و الكجرات[٥٩]، وعلى جانب أخر استطاع طغرى إيقاف توافد الجنود الخلج على العاصمة، وعقب مقتل بعضهم فضل البعض الأخر التوقف في مدينتي كول وبرن منتظرين عما تسفر عنه أحداث العاصمة[٦٠].

عاشت دهلي طوال شهرين في حصار شديد، واضطرابات عسكرية خطيرة، وفجأة قرر القائد المغولي طغرى فك الحصار، والانسحاب بجيشه باتجاه تركستان، وهنا ظن الأهالي أن بركة دعاء وتأييد الصوفي الكبير نظام الدين أولياء هي التي دفعت طغرى لاتخاذ هذا القرار[٦١]، بينما رأى البعض الأخر أن الخوف والفزع قد سيطر على القوات المغولية عقب وصول الأنباء بقرب تقدم القوات الخلجية من الكجرات والدكن[٦٢]، إلا أن الواضح أن الذي دفع طغرى لذلك هو اضطراب أوضاع تركستان بعدما دفع الغرور حاكمها داوو للاشتباك مع إمبراطور الصين المغولي تيمور أولجايتو في نفس العام[٦٣]، ولا شك أن داوو كان في حاجة شديدة لتلك القوات لمؤازرته وخصوصاً أن الحرب باتت تدور على أرضه .

اشتد ساعد السلطان علاء الدين عقب تلك الانتصارات التي حققها على المغول، الذين مازالوا يحاولون إيجاد موضع قدم لهم في الهند برغم ذلك الضعف الذي أصابهم في تركستان عقب وفاة حاكمهم القوى داوو، وجلوس ابنه الصغير قونجوق الذي لم يمكث في الحكم سوي

عامين حتى وافته المنية سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٦م) وفى تلك الفترة هاجمت القوات المغولية الهند عدة هجمات قليلة تكبدت فيها خسائر فادحة في الأرواح والمعدات[٦٤]، وتمخض عنها سيطرة تامة للقوات الخلجية على الحدود الشمالية الغربية للهند .

بدأ السلطان علاء الدين يأخذ في الاعتبار صدّ الهجمات المغولية على حدوده الشمالية الغربية في سياسة دفاعية ثابتة، ترتكز على تحصين مدينتي لاهور والملتان، بهدف تأمين إقليمي البنجاب والسند. فعين على الأولى قائده المخضرم ملك تغلق، وعلى الثانية القائد عين الملك[٦٥] في محاولة منه لسد المنفذين الرئيسين للمغول إلى قلب دهلي .

في المقابل لم ييأس المغول من اختراق حدود الهند الغربية بعيداً عن مدينتي لاهور والملتان، وهذه المرة باختراق مضايق جبال الهمالايا ثم التقدم ناحية الشمال الشرقي، وحدث ذلك عام (٧٠٥هـ/١٣٠٥م) وكان يقود تلك الحملة القائدان على بيك و ترتاق خواجه[٦٦]، وقد فوجئ القائدان بسهولة اختراق مدن البنجاب من هذا الطريق، فراحا يتوغلا بقواتهما البالغ تعدادهما خمسين ألف فارس وجندي حتى بلغا مدينة أمروهي، حيث أدركا بعد فوات الأوان بوقوعهما في شرك الخلج الذي كان يقودهم في تلك المعركة أعظم قوادهم مثل ملك تغلق وبهرام أبيه، وفاتح الكجرات ملك كافور[٦٧].

دارت بين الطرفين معركة عنيفة هُزم على آثرها المغول هزيمة ساحقة، ووقع القائدان على بيك و ترتاق خواجه في الأسر مع ثمانمائة من كبار قوادهم في الأسر، فأرسلوا جميعاً إلى دهلي، وتم قتلهم جميعاً تحت أقدام الفيلة في حشد عظيم من أهالي المدينة[٦٨]، هذا بجانب أسر عشرين ألف جندي وغنائم أخرى، وقد سيق الأسرى إلى العاصمة، ونتيجة لكثرة عددهم فقد زهد التجار والأهالي في شرائهم، أما السلطان علاء الدين فقد احتفظ لنفسه بالعدد الكبير منهم، واستغلهم في تعمير وتجديد مباني العاصمة سيرى[٦٩] ليزداد بذلك عدد أفراد المغول المقيمين في دهلي وما حولها من مدن .

برغم تلك الضربات القاصمة حاول المغول الهجوم على الهند مرة أخرى عام (٧٠٦هـ/١٣٠٦م) بقيادة كبيك نامه مع ثلاثين ألف مغولي عبر نهر السند عند مدينة الملتان، ثم تقدم حتى بلغ نهر راوي، ومن ثم تحرك ضده القائد ملك تغلق، وتقاتل الطرفان عند شاطئ النهر، فحقق ملك تغلق نصراً حاسماً على المغول، وتم له أسر القائد كبيك نامه مع بعض القوات الأخرى وقتل ستة آلاف مغولي[٧٠]، وفى أول استعراض للقوة من نوعه تم قطع رؤوس القتلى المغول، حيث جمعت قرب بوابة بدوان بالعاصمة كدليل على النصر والظفر، أما كبار القادة فقد أرسلوا إلى سجون قلعة تبرنة، وبعد بضعة أيام أمر السلطان علاء الدين بقتلهم جميعاً[٧١]. لعل ذلك يكون درساً للمغول يمنعهم من تكرار محاولة الهجوم على الهند مرة أخرى .

حاول المغول في آخر حملة لهم على الهند تعويض جزء ولو ضئيل من خسائرهم الفادحة في الهند، فتقدم إلى البلاد في نفس العام السابق القائد «إقبال مند» إلى إقليم

البنجاب، حيث أصاب بعض التوفيق فبلغ مشارف مدينة ناكور، وهناك فوجئ بالقوات الخلجية يقودها ملك تغلق الذي تثني له هزيمة المغول وقتل قائدهم . واسر خمسين ألف جندي من المغول[٧٢] . وكانت تلك أخر حملة وأخر هزيمة تعرضت لها القوات المغولية على أرض الهند.

ثبت تلك الانتصارات الطموح في نفس السلطان علاء الدين الذي تيقن تماماً بمدى ضعف ووهن عدوه، بعدما أضعفته كثيراً حروب الهند، بجانب تلك النزاعات التي وقعت بين حكام تركستان من المغول وكبار قادتهم[٧٣] . استغل السلطان علاء الدين هذا الوضع، وراح يشن حرباً هجومية على معاقل المغول خارج حدود الهند، وذلك لأول مرة في تاريخ الصراع بين الطرفين منذ تسعين عاما، وكان المكلف بهذا الأمر حاكم لاهور ملك تغلق الذي استولى على مدن قندهار وغزنه و كابل، حيث استحق على جهده العسكري الحصول على لقب «غازي»[٧٤] فأمن بذلك الحدود الشمالية الغربية للهند، وتم القضاء على النفوذ المغولي في تلك المناطق، وتغيرت استراتيجية القتال حيث بدأ المغول يدافعون عن أملاكهم بينما أخذت القوات الخلجية تتوسع في تلك أراضيهم .

ثالثا : أثر الهجمات المغولية على أوضاع الهند الداخلية :

(١)- الأثر الاقتصادي : الزراعة :-

أدت الهجمات المغولية على الهند بجانب انقضاضها على شرق العالم الإسلامي إلى إحداث تغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية كبيرة في الهند الإسلامية، وكانت أكبر تلك التأثيرات هي الخاصة بأحوال الزراعة، حيث اعتمد أهل الهند في الأساس على أراضي منطقة الدوآب - النهرين - وهي تلك الأراضي الممتدة بين نهري السند في الغرب ونهر الكنك في الشرق[٧٥]، وتلك المنطقة كانت من أكثر المناطق تضرراً من هجمات المغول، ويحكي لنا المؤرخ ضياء الدين برني ما حدث للأهالي من الفلاحين البسطاء أثناء غزوة قتلغ خواجه حيث تركوا متاعهم ومواشيهم غنيمة سهلة للمغول، الذين حملوا من محاصيلهم ما استطاعوا لذلك سبيلا، وجعلوا الباقي علفا للنار، ولم يجد هؤلاء البسطاء سبيلاً سوى الهروب باتجاه دهلي التي ضاقت بهم فلم يبق فيها سوق أو محل أو مسجد إلا وهو مكتظ بآلاف منهم، وإن أغلبهم فضل البقاء في تلك المدينة، والعمل في الأعمال المتدنية دون الرجوع إلى أملاكهم وأراضيهم خشية تكرار تلك الحادثة[٧٦] التي توالت مرات أخرى .

تلك كانت حالة أراضي الدوآب، أما أخصب بقاع الهند وهي منطقة إقليم البنجاب ذات الأنهار الخمسة ستلج، بياه، راوي، جيناب، وجهليم فلم تسلم هي الأخرى من تدمير وخراب المغول، وخصوصاً أنها كانت أول المناطق التي يدخلونها، ويذكر أن حوالي خمسين ميلاً من أخصب تلك المناطق تحولت إما إلى أحراش أو ضربها البوار بسبب المغول بعدما تركها أهلها من المزارعين الذين كانوا دوماً يدفعون ثمن تأخر سلاطين دهلي عن نجدتهم[٧٧] ولا شك أن هذا

التخريب والدمار ازدادت وتيرته بفعل الرغبة في الانتقام بعدما تعرضت القوات المغولية للعديد من الضربات القاسية في العهد الخلجي .

ومما زاد الوضع سوءً خروج إقليم البنغال عن سلطة دهلي، واستغلال حكامه المحلين الفرصة لإعلان استقلالهم عن العاصمة، وكان هذا الإقليم يوفر المواد الغذائية الأساسية لسكان دهلي وما جاورها، وأهم السلع كانت الأرز والقمح والشعير، وذلك بفضل احتوائه على أعظم فروع نهر الكنك مثل بدما و بهاغي رتي(٧٨). ناهيك عن كون أراضي دهلي تحتوى على تربة رملية لا تصلح لزراعة محاصيل هامة مثل الغلال والقصب(٧٩).

نتيجة لما سبق بات على أهل دهلي طوال فترة الغزوات المغولية الاعتماد على أراضي مدينتهم لتوفير الغذاء الضروري وقت الحاجة، ومما زاد من مأساتهم تلك المجاعات التي كانت تضرب الهند من وقت لأخر بسبب تأخر سقوط الأمطار، وكان أخطرها تلك التي وقعت في عهد السلطان جلال الدين فيروزشاه، وأودت بحياة عشرات الآلاف من أبناء دهلي بعدما فشل السلطان في استغلال محاصيل منطقتي الدوآب و البنجاب بسبب هجمات المغول(٨٠) مما ترتب عليه تفاقم الوضع داخل العاصمة .

أمام هذا الوضع السيئ أخذ سلاطين دهلي البحث عن حلول جذرية تنقذهم من تلك الاضطرابات الاقتصادية التي تسبب فيها المغول، وكان أولهم السلطان التمش الذي حاول استصلاح أراضي دهلي لتقليل الاعتماد على أراضي الشمال الغربي، فأنشأ حوضاً عظيماً خارج العاصمة لتجميع مياه الأمطار، وإعادة استغلالها، وبلغ طوله ميلين وعرضه ميلاً(٨١)، وقد ظل هذا الحوض يلعب دوراً أساسياً في تنشيط زراعة محاصيل هامة مثل القمح، ناهيك عن زراعة قصب السكر لأول مرة داخل الحوض نفسه في وقت سقوط المطر الخفيف، لذا وجه السلطان علاء الدين عنايته به، وعمل على تنظيفه وصيانته، وتوسيع مساحته(٨٢)، وبجانبه أنشأ حوضاً أخر كان يربط بين مدينتي دهلي وسيري، وكان له أهمية في توفير الماء اللازم لأهالي دهلي وقت حصار المغول لمدينتهم (٨٣)، نهيك عن أهميته في مجال زراعة واستصلاح أراضي العاصمة

بجانب تنشيط زراعة أراضي دهلي عمل سلاطين الهند على مواجهة الغزوات المغولية، واحتمالية حصارهم للعاصمة بإقامة صوامع غذائية لتخزين المحاصيل الأساسية، وأول من قام بذلك كان السلطان غياث الدين بلبن، وكان الأرز يمكث في تلك الصوامع لتسعين عاماً دون أن يفسد(٨٤) كذلك أمر السلطان علاء الدين بتخزين جميع الغلال التي تنتجها أرضى الخالصة الشاهانية لتقديمها للأهالي وقت الهجمات المغولية على العاصمة، وقد كان لها دور أساسي في تخفيف حدة الأزمة الاقتصادية التي تسببت فيها حملة قتلغ خواجه ثم طغرى في العهد الخلجي(٨٥).

- الصناعة :-

تأثرت الصناعة الهندية في العهدين المملوكي والخلجى تأثراً كبيراً بفعل الهجمات

المغولية المستمرة علي مركز تلك الصناعة في لاهور والملتان، حيث هجر صناع هاتين المدينتين ورشهم، ولحقوا بالعاصمة. أما أغلبهم فقد وقعوا أسرى في قبضة المغول فتم اقتيادهم إلى تركستان للعمل هناك، ناهيك عن توقف عمليات استخراج المواد اللازمة للصناعة في تلك المناطق والتي تحتاج إلى أمن واستقرار، وكان هذا الأمر غير موجود في تلك الفترة. ومن الصناعات التي تأثرت كثيراً صناعة الملابس التي كان مركزها الأساسي مدينة لاهور التي اشتهرت بملابسها الصوفية المتميزة[٨٦]. كما تأثرت صناعة الحلي بشكل ملفت للنظر بسبب سيطرة المغول على أهم مناطق إنتاج الفضة في جبال هندكوش، هذا بجانب اضطراب أوضاع إقليم السند الأدنى الذي تميز بإنتاج أكبر كمية من الذهب. ناهيك عن معدن النحاس والرصاص اللذين انتشرا في منطقة الملتان بجانب كابل التي خرجت بعيداً عن سيطرة سلاطين الهند، وأصبحت في ذلك الوقت جزءً من الإمبراطورية المغولية[٨٧] بيد أن ذلك قد دفع السلطان علاء الدين لمحاولة استرجاعها مرة أخري في أواخر عهده بهدف تنشيط مجال الصناعة من جديد.

وتضررت صناعة الجلود التي كان مركزها الأساسي إقليم السند حيث مدينة الملتان والتي كانت بجانب ذلك مركزاً متميزاً لصناعة الأسلحة، ونالت أيضاً صناعة إنتاج وتزيين الخشب نصيباً من هذا الإهمال، وكان مركزها الأساسي مدينة دبالبور[٨٨] التي تعرضت لمزيد من التخريب والتدمير على يد القوات المغولية . هذا بجانب صناعة الحلوى الهندية التي كانت تدر على القائمين عليها في مدن السند الأدنى أرباحاً طائلة وكان منها نوع انتشر في العالم الإسلامي باسم حلوى الفانذ[٨٩].

- التجـارة :-

شملت أضرار الحملات المغولية التجارة الخارجية للهند، حيث سيطر المغول على المنافذ الرئيسة التي تربط الهند بالعالم الخارجي، وكانت أهم تلك المنافذ مدينة قندهار التي كان لها أهمية اقتصادية عظيمة، فكان يمر بها سنوياً أربعة ألف جمل محملة بالبضائع الهندية في اتجاهها إلى خراسان[٩٠]. وعلى جانب آخر سيطر المغول على مدينة كابل، وبالتالي سيطروا على ممر خيبر الذي يربط الهند بمدن خراسان و تركستان[٩١]. ومما زاد الأمر سوءً ازدياد الهجمات المغولية على مدينة الملتان التي تعد المنفذ البحري لتجارة الهند مع شبه الجزيرة العربية[٩٢]، مما أثر سلباً على عمليات التصدير والاستيراد .

أما في الشرق حيث إقليم البنغال فقد تأثرت تجارة الهند كثيراً بوجود المغول في الصين، حيث مارس المغول المزيد من نفوذهم على تجار الإقليم، مما عطل تجارة الحرير عبر هضبة التبت، وذلك باعتماد المغول على الطريق الجنوبي - نان لو - الذي يبدأ من قلب الصين باتجاه الشمال الغربي حتى غرب نهر جيحون[٩٣]، وقد حاول السلطان علاء الدين استغلال اضطراب العلاقات السياسية بين الخان «داوو» حاكم تركستان وحاكم الصين تيمور أولجايتو، وأقنع الأخير بضرورة تنشيط التجارة بين الهند والصين من جديد، وقد أصاب

نجاحاً ملموساً في هذا الصدد[٩٤] ولكن ذلك لم يكن ليصل لحالته قبل الهجمات المغولية حيث لازلت منافذ تجارة الحرير الصيني في قندهار وممر خيبر في قبضة مغول تركستان .

ترتب على ما سبق كساد تجارة الهند الخارجية، وحُرمت البلاد من تصدير أهم منتجاتها إلى خراسان وأوربا مثل التوابل والأواني، والحديد والفولاذ هذا بجانب الأقمشة الحريرية والأصباغ والعقاقير الطبية المتميزة، والصناعات الخشبية والحلي[٩٥] وعلي جانب أخر فشلت الهند في الحصول على العديد من المنتجات منها بل على رأسها الخيول العربية والفارسية والتركية، وأقمشة الكرباس البخارية، وحرير إيران المتميز مثل الحرير الكاشاني والهيراتي، والصيني بأنواعه الثلاثة السادة والملون والمشجر، ناهيك عن العبيد الترك[٩٦].

نتيجة لهذا الوضع الاقتصادي المضطرب فقد ارتفعت الأسعار بشدة في أوقات الهجمات المغولية، ومما زاد الأمر سوءً قيام التجار باحتكار السلع، وبيعها بأسعار مرتفعة في تلك الأوقات لتحقيق أرباح خيالية، وحتى لا يتفاقم الوضع تدخل السلطان علاء الدين، وأمر بقتل جميع التجار المحتكرين، والقضاء على المفسدين من المرتشين والمدلسين من كبار التجار[٩٧]، وجعل من دهلي مركزاً أساسياً لتجميع السلع، وتوزيعها على باقي المدن المتضررة من المغول، وعين مراقبين أشداء على الأسواق لمراقبة عمليات البيع والشراء، كان على رأسهم صديقه الغ خان[٩٨] بهدف توفير أكبر حماية ممكنة للمستهلك .

نتيجة للأضرار التي أصابت الزراعة في منطقتي الدوآب و البنجاب، فقد ارتفعت أسعار المواد الغذائية أثناء الهجمات المغولية على دهلي، فبلغ سعر من القمح سبعة عشر تنكه، وقد قذف هذا السعر حتى بلغ ستين تنكه، مما دفع السلطان علاء الدين إلى فتح المخازن السلطانية، وأمر أن يشتري الأهالي حاجاتهم من المواد الغذائية بأسعارها الأساسية[٩٩]، وحتى لا يتكرر هذا الأمر قام بتحديد أسعار الغلال، وإلزام الجميع بها فبلغ سعر سيرى القمح بسبعة ونصف جيتل، والشعير بأربعة جيتل، والعدس و الماش والشالي بخمسة جيتل، والموت بثلاثة جتيلات[١٠٠]، أما اللحوم فقد ارتفعت أسعارها بشكل كبير، حتى اضطر الأهالي من الفقراء إلى طبخ جلودها، وهذا ما دفع السلطان علاء الدين إلى رفع جميع الضرائب المقررة على الحيوانات، وحدد أسعارها فبلغ سعر الثور الجيد من ثلاثين إلى أربعين تنكه، والخروف الجيد بستة تنكات، والماعز بلغ الرأس الجيدة منه من اثني عشر إلى أربع عشر تنكه، وحتى لا يتلاعب القصابون في الميزان أمر بتكملة الميزان بقطعة لحم من المطفف(١٠١) أما سعر السكر فبلغ الآثار منه بـ جيتل واحد وآثار السمن البلدي بنصف جيتل أما خمسة آثار من الملح فبلغ سعرها جيتل واحد[١٠٢]

كانت أكثر السلع التي ارتفع سعرها نتيجة للهجمات المغولية هي الخيول، حيث أصبحت الهند عاجزة عن شرائها، لذا بلغ سعر الفرس الجيد من مائة وعشرين إلى مائة تنكه، والمتوسط من تسعين إلى ثمانين تنكه، والضعيف من سبعين إلى خمسة وستين تنكه[١٠٣]، والملاحظ أن الشيء الوحيد الذي انخفض سعره نتيجة للهجمات المغولية كان المماليك،

حيث كان ثمن المملوك التركي قبل الغزو قد بلغ ألف تنكه[١٠٤] ولما كثر عدد الأسرى المغول بعد تلك الهزائم التي لحقت بهم على يد السلطان علاء الدين فقد بلغ سعر المملوك المغولي الجيد من مائة وعشرين إلى مائة تنكه، والمتوسط من أربعين إلى عشرين تنكه، أما الضعيف فبلغ سعره من عشر إلى خمسة تنكات[١٠٥]. وعقب هزيمة القائد المغولي على بيك هبط هذا السعر حيث بلغ سعر المملوك الجيد عشر جيتل فقط[١٠٦]. وكان ذلك نتيجة طبيعية لتلك الغنائم العظيمة التي وقعت في أيدي المسلمين وكان منها الآلاف من المماليك المغول .

اعتمدت الهند كثيراً على أقمشة وحرائر خراسان و تركستان والصين، ونتيجة لقطع العلاقات التجارية مع تلك المناطق فقد ارتفعت أسعار الأقمشة في الهند بشكل كبير، واضطر السلطان علاء الدين إلي اتخاذ عدة إجراءات بهذا الخصوص منها انشأ أكبر مركز لبيع الأقمشة في دهلي أطلق عليه - سيري عدل - قصر العدل، ومدّ التجار بما يقرب من مليون تنكه لشراء الأقمشة من مناطق النفوذ الهندوكي في الدكن و أورسيا، وبيعها في سيرى عدل[١٠٧] هذا بجانب نشر قائمة بأسعار الأقمشة الأساسية مثل الحرير الدهلوي الذي بلغ سعر الذراع منه ست عشر تنكه، وبرد الشعر ثلاث تنكات، والبرد المقلم ثماني تنكات، وذراع لعل ناكوري بلغ أربعة وعشرين جيتل، وذراع شيرين يافت خمسة جيتل للذراع، و الكرباس الجيد بلغ الذراع منه بعشرين تنكه[١٠٨]. وكان الهدف من ذلك تعويض أقمشة تركستان وخاصة أقمشة الكرباس، وكذلك تعويض حرير الصين وإيران، ولكن ارتفاع هذين النوعين يدل عليه عجز الحكومة على توفيرها ناهيك عن ضعف جودة المنتج الهندي عن نظيره الصيني والإيراني .

(٢)- انتشار الإسلام بين المغول و الهنادكة :

على الوضع الاجتماعي فقد أثرت الهجمات المغولية على المجتمع الهندي تأثيراً كبيراً نظراً لاستقرار جماعات مغولية كبيرة في مناطق البنجاب و دهلي و البنغال، حيث سرعان ما اندمجت تلك الجماعات مع باقي الأهالي، واحتوتهم الشريعة الإسلامية، فدخلوا في الدين الإسلامي أفواجا، ويذكر أن أول استقرار للمغول في مدينة لاهور كان عام (٦٣٧هـ/١٢٤٠م) أثناء حملة قائدهم نيقودار، حيث تمت بينهم وبين الهنديات عدة زيجات فأنجبوا الجنس الذي أطلق عليه الخلاسون - الهجناء - حيث كان المغول شقر بينما الهنديات كن سمراوات[١٠٩]. وفى عام (٦٦٠هـ/١٢١٦م) استقرت جماعة أخري كانت قد خرجت على الخان هولاكو، وذلك على طول نهر جهليم، وقد حاول هولاكو القضاء عليهم فأرسل قائده أنكوجيه خلفهم، لكنه فشل في القضاء عليهم[١١٠] ولاشك أن الإسلام قد أخذ ينتشر بين تلك الجماعات عقب اندماجهم في المجتمع الإسلامي .

بيد أن الجماعات المغولية أخذت تتوغل في المجتمع الإسلامي شيئاً فشيئا، وعرفوا طريقهم إلى العاصمة دهلي، كما أضحي لهم منزلة رفيعة في المجتمع بل وفى الجيش المملوكي نفسه، والواضح أن ذلك لم يكن ليتأتي لهم دون إسلامهم، ونستطيع أن نستشف ذلك من قرار السلطان معز الدين كيقباد الذي اتخذه عام (٦٨٦هـ/١٢٨٥م) بضرورة التخلص من

جميع القادة المغول في الجيش، بعدما أخافه اتساع نفوذهم، وازدياد حشمهم وثروتهم، وقوة علاقتهم مع أمراء جده السلطان بلبن، ومن ثم قتل بضعة آلاف منهم، وأرسل من تبقى إلى قلعتي كواليار و كلنجر[١١١] حتى يتثنى له الخلاص منهم جميعاً .

انتبه السلطان جلال الدين فيروزشاه بأهمية استيعاب قوة المغول، والاستفادة منهم بدلاً من قتالهم، وذلك عن طريق نشر الإسلام بينهم، وقد حدث ذلك عام (٦١٩هـ/١٢٩٢م) عندما اقنع القائد الغونبيسة بعد عدة مراسلات تمت بينهم بضرورة الاجتماع معه، وبحضور الشيخ الصوفي نظام الدين أولياء[١١٢]، الذي بذل جهداً كبيراً في إقناع هذا القائد بعدالة وسماحة الإسلام الذي يرعى حسب ونسب أبنائه، ومن جانبه عرض السلطان على الغونبيسة تزويجه من ابنته إذا اعتنق الدين الإسلامي، فتم له ما أراد[١١٣]، وسرعان ما لحقت باقي القوات المغولية بالقائد العام، ومن ثم قام السلطان بتخطيط موقع لإقامتهم داخل دهلي، أطلق عليه مغولبور - أرض المغول - وأطلق على هؤلاء المغول «المسلمون الجدد» [١١٤]، وكانت تلك أكبر محاولة ناجحة لنشر الإسلام بين مغول الهند .

أثمرت تلك السياسة الحكيمة التي انتهجها السلطان جلال الدين مع المغول عن الاستفادة بقوتهم في فتوح الجنوب والغرب الهندي، ومن جانبهم فقد بالغ المغول في ولائهم للسلطان جلال الدين، ولم يوافقوا على مبايعة قاتله السلطان علاء الدين، ومن ثم ساد بين الطرفين اضطرابات كبيرة ومصادمات عنيفة[١١٥]، كان المغول هم الخاسر الأكبر فيها، حيث تجمعوا في مدينة الملتان بقيادة الغونبيسة، فأرسل إليهم السلطان علاء الدين قائده الغ خان مع أربعين ألف جندي اقتحم عليهم المدينة، وقتل من وجده من المغول، وقبض على قائدهم الغونبيسة، وسمل عينيه[١١٦].

ثار المغول المقيمين في دهلي، واستطاعت جماعة منهم قتل ملك عز الدين الذي كان يعمل أمير حاجب الغ خان، وقتلوا معه ابن أخت السلطان علاء الدين، الذي أمر بجمع أقرباء وأهالي المسئولين عن هذه الجرائم، وقتلهم أمام أعين الحاضرين، وفي قسوة متناهية أمر بضرب أبناءهم أمام أمهاتهم حتى الموت[١١٧]، وقد أثرت تلك الحادثة على أبناء طائفة المغول، واستنكرها حتى مؤرخو عصر السلطان علاء الدين، حيث ذكر المؤرخ ضياء الدين برني مدي الذعر والخوف الذي أصاب الأهالي من تلك الفعلة، وإن ذلك لم يحدث من قبل في دهلي أن عوقب أولاد اتباع أحد بذنبه [١١٨]، وإن كان قد التمس للسلطان علاء الدين بعض العذر نتيجة تلك المكائد والمؤامرات التي تعرض لها مما جعله يفقد حلمه وصبره .

حاول باقي المسلمون الجدد من المغول العمل في الخفاء ضد السلطان علاء الدين، وفي تلك المرة تجمعوا حول وكيل البلاط «اكتخان» وهو أيضاً ابن أخت السلطان علاء الدين، وكان يطمع في الوثوب على عرش الهند، وحاول قتل السلطان علاء الدين أثناء ممارسته رياضة الصيد في منطقة «بتهلي» - ضاحية في دهلي - ولكنه فشل، مما دفع السلطان علاء الدين إلى

تعقبه ثم قتله داخل منطقة مغولبور ، وقبض على أتباعه من المغول ،فسمل أعين بعضهم وقتل الآخرين[١١٩] ، وقد حاول المغول تكرار تلك المحاولة عام (٧١١هـ/١٣١١م) ، ولكن السلطان اكتشف المؤامرة وأدرك مدي خطورة مسلمي المغول على حياته فأمر بجمعهم ، وقتل في يوم واحد ما بين عشرين إلى ثلاثين ألفاً[١٢٠] ليقضى بذلك على تلك الطائفة ، ويحرم الجيش من الاستفادة منهم مثلما فعل سابقوه من سلاطين المماليك وخاله السلطان جلال الدين فيروز شاه .

مثلما استفاد المغول من استقرارهم في الهند حيث اعتنقوا الدين الإسلامي استفاد أيضاً هنادكة البلاد من الغزوات المغولية ، على الشرق الإسلامي بصفة عامة ، وعلى شمال الهند وشرقها بصفة خاصة ، حيث ترتب على هذا الحدث الجلل هجرة العديد من رجال الدين والعلماء والأدباء إلى الهند ، ومن جانبهم استقبل سلاطين دهلي هؤلاء المهاجرين ، واحتفوا بهم ، وقربوهم إليهم ، وكان السلطان بلبن يتناول عشاءه يومياً معهم ، كما شيد لهم داخل دهلي خمسة عشر بناية ، أطلق على كل واحدة منها اسم المنطقة القادم منها ساكنيها سواء في تركستان أو خراسان[١٢١] .

كان على رأس الدعاة المهاجرين إلى الهند على أثر الهجمات المغولية الشيخ الكبير «معين الدين جشتي» ، الذي كان واحداً من أبناء مدينة سجستان ، وقد رحل إلى الهند ومكث قليلاً في دهلي قبل أن يستقر به المقام في مدينة أجمير[١٢٢] ، ويقال أنه أدخل ما يقرب من سبعين ألف هندوكي في الدين الإسلامي ، وذاعت شهرته زعيماً روحياً وإسلامياً بارزاً[١٢٣] ، وقد وضع في مدينة أجمير أساس الطريقة الصوفية التي أطلق عليها «الجشتية» نسبة إليه ، وذلك قبل وفاته عام (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) بعدما رسخ تعاليم الدين الإسلامي في نفوس أبناء الهند ، وظل مقامه في تلك المدينة أحد أكبر المعالم الدينية التي يشد لها الرحال من أصقاع الهند المختلفة[١٢٤] ، وكانت طريقته من أول الطرق الصوفية التي تكونت في الهند .

ومن بخاري أقبل على الهند الدعاية الإسلامي الشيخ جلال الدين البخاري ، حيث استقر به المقام في دهلي عام (٦٤١هـ/١٢٤٤م) ، ثم رجع إلى إقليم البنجاب ، وسكن قرية أتشي ، حيث حول جمع غفير من أبنائها إلى الدين الإسلامي ، وظل يدعو هنادكة ومغول البلاد للإسلام حتى وافاه اجله عام (٦٨٩هـ/١٢٩١م) ، وظل أعقابه يسيرون على دربه ، وكان أكثرهم من الأولياء الصالحين ممن ينظر إليهم بعين الاحترام والتقدير[١٢٥] .

لعل من أقدم الدعاة الذين استقروا في الهند عقب سقوط خراسان في قبضة المغول هو الداعي الشيخ جلال الدين التبريزي ، الذي حضر بنفسه فاجعة سقوط بغداد في يد المغول ، وعلى أثرها رحل إلى الهند ، وجال البلاد ، وطاف فيها حتى استقر في إقليم البنغال في موضع جبل «كامر» ـ بين الصين والتبت ـ وظل يدعو أهالي تلك المنطقة للإسلام حتى وافاه أجله عام (٧٤٤هـ/١٣٤٤م) [١٢٦] بعدما أدي واجبه في نشر الإسلام في البنغال التي تحول فيما بعد مع إقليم البنجاب إلى اكبر مركز إسلامي في شبه القارة الهندية .

٣- الأثــر الثقافــي :-

بجانب التأثير الاقتصادي والاجتماعي للهجمات المغولية تأثرت أيضاً الحياة الثقافية ولكن تأثيرها كان في هذه الحال إيجابيا ، حيث استفاد أهل البلاد من وجود هذا العدد الهائل من العلماء والأدباء ورجال الفكر في الهند ، حيث ركز الوافدون الجدد على الجانب العملي في التعليم مما ترتب عليه ظهور أعداد كبيرة من القضاة والمفتين الذين استفادوا من تراث علماء خراسان والعراق في مجال العلوم الدينية[١٢٧].

من الفقهاء الذين استقروا في الهند الشيخ أبو غفار الحسيني الخوارزمي الذي انتقل إلى الهند عقب سقوط خوار زم في قبضة المغول، مسكن مدينة لاهور ، وتولي منصب الإفتاء بها حتى وافاه أجله عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م) [١٢٨]، وهناك أيضاً العلامة الشيخ محمود بن أبي الخير البلخي الذي كان له باعٌ طويل في علم الحديث، وكان السلطان بلبن يتردد على منزله في دهلي كل أسبوع عقب صلاة الجمعة ، و يحظي بصحبته ، وتلقي العلم على يده ، وظل شيخنا هذا يستمتع بمنزلة اجتماعية بارزة حتى وافاه أجله عام (٦٨٧هـ/١٢٨٨م) حيث دفن عقب ذلك بجوار حوض السلطان التمش في دهلي[١٢٩].

بجانب ما سبق قدم إلى الهند العالم إبراهيم بن شهريار الهمذاني قادماً من مدينة همذان، الذي كان له باع طويل في علوم القرآن والتصوف، وقد مكث هذا الشيخ في مدينة الملتان قرابة خمسة وعشرين عاماً يعلم أبنائها الفقه والتفسير ، وشيئاً من تاريخ التصوف الإسلامي[١٣٠]. ومن علماء الفقه الآخرين الشيخ برهان الدين النسفي، والشيخ أبو بكر السجزي الذي اشتغل بالتدريس في المدرسة الناصرية بدهلي، وعنه أخذ عدد غفير من العلماء ، وكان يتمتع برعاية السلطان بلبن هو والشيخ سعد الدين الكردي الذي بلغ منصب قاضي قضاة دهلي في عهد السلطان التمش[١٣١] فكان من أبرز الشخصيات التي طورت ثقافة وتعليم الهنود الديني .

تغيرت ثقافة المجتمع الهندي بسبب وجود أعداد جمة من كبار الأدباء الذين فروا من بطش الهجمات المغولية واستقروا في الهند ، ومن ثم ادخلوا في الهند المعاجم الأدبية فحفظوا لنا تراث البلاد الثقافي ، ويأتي على رأس تلك الكوكبة الأديب الشهير نور الدين محمد عوفي ، الذي ولد ونشأ بمدينة بخاري، ودخل الهند عقب هزيمة السلطان جلال الدين منكبرتي ، فتقرب إلى حاكم لاهور السلطان ناصر الدين قباجه الذي عهد إليه بالتدريس في المدرسة الفيروزية ، وأثناء إقامته ألف كتاب لباب الألباب - عقل العقول -، وقدمه هدية للوزير أبي بكر الأشعري[١٣٢]، وهذا الكتاب ينقسم لقسمين الأول لدراسة أحوال الشعراء من السلاطين والوزراء والأمراء ، والثاني يختص بشعراء الفارسية من المسلمين(١٣٣) وللكتاب أهمية كبري في كشف النقاب عن شعراء كادت أخبارهم أن تندثر ، كما يعد المصدر الأول لدراسة الحياة الثقافية في الهند الإسلامية من الفتح الغزنوي حتى دولة مماليك الهند .

انتقل العوفي إلى دهلي عام (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) ، فالتحق بخدمة السلطان التمش الذي عهد إليه بالتدريس فى المدرسة الناصرية ، وفى تلك الفترة ألف عوفي كتابه الثاني جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، وذلك عام (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) ، وقدمه هدية للوزير محمد بن أبي سعيد الجنيدي ، وهو يشتمل على ألفين ومائة وثلاثة عشر حكاية تاريخية تطغي عليها الصفة الأدبية ، وقد ظل الأديب محمد عوفي يثري الحياة الأدبية فى الهند حتى وفاته عام (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) [١٣٤] ، بعد أن أصبح أشهر مهاجر من تركستان .

من الأدباء الآخرين نجد شمس الدين المصري الذي استقر فى دهلي زمن السلطان علاء الدين الخلجي ، بعدما أرهقه الترحال بين مدن خراسان ، فمكث فى المدينة بضع سنين يدرس فنون الأدب والشعر العربي[١٣٥] ، ومن أبناء بخاري قدم الشاعر أمير روحاني حيث لجأ للسلطان التمش ، وحضر معه فتوحاته العسكرية ، ونوماً كان شعره تخليداً لغزوات هذا السلطان لمناطق النفوذ الهندوكي فسطر عام (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) مقطوعة شعرية بمناسبة غزو قلعة رنتهبور قائلاً (حمل جبريل الأمين الخبر إلى أهل السماء ، برسالة فتح السلطان شمس الدين)(١٣٦) .

عمل المهاجرون من المتصوفة على الارتقاء بالعلم ، وذلك من خلال تدريس بعض المقررات الدينية والأخلاقية داخل معسكرا تهم الروحية - الخانقاوات - التي انتشرت فى عدة مدن هندية ، وكان من بينهم الشيخ أبو بكر الطوسي الذي قدم الهند فى عهد السلطان بلبن ، وبني لنفسه خانقاه عظيمة فى قلب دهلي على نهر جمنا ، وقضي جل حياته فى تعليم الصغار القرآن الكريم وحفظ آياته[١٣٧] ، ومن سمرقند قدم الشيخ بدر الدين السمرقندي ، حيث استقر به المقام فى دهلي ، وفيها بني لنفسه خانقاه كبيرة ، وظل يدرس ، ويفيد أهل المدينة حتى وافاه أجله عام (٧١٠هـ/١٣١٠م) [١٣٨] وقد أضحي لمثل هؤلاء العلماء منزلة رفيعة فى المجتمع .

من العلوم التى ظهرت فى الهند وكانت ثمرة قدوم علماء خراسان للهند علم التاريخ الذي لم يكن للهنود علم به من قبل ، حيث اشتملت كتبهم الأدبية على أخبار أسطورية عن حكامهم السابقين لا تصلح لتكون أحداث تاريخية ذات قيمة ، وأول عمل تاريخي منظم ظهر فى الهند الإسلامية هو كتاب تاج المآثر الذي سطره المؤرخ صدر الدين محمد بن حسن النظامي النيشابوري ، الذي هاجر إلى الهند عقب الحرب المغولية الخوارزمية ، فالتحق بمدرسة السلطان التمش فى دهلي ، وفى تلك الفترة آلف كتابه الذي تناول فيه الأحداث التي وقعت فى الشرق الإسلامي فى الفترة من عام (٥٨٧هـ/١٢٠٦م) حتى عام (٦١٤هـ/١٢١٧م) [١٣٩] ، وبجانبه عمله فى مجال التدريس والتدوين التاريخي عمل مؤرخنا فى الأعمال الإدارية الأخرى ، وعهد إليه بمهمة جمع الضرائب[١٤٠] فأفاد أهل الهند كثيراً من علمه ، وأصبح كتابه البداية الحقيقية لنشأة علم التاريخ فى الهند الإسلامية .

هاجر إلى دهلي على أثر الهجوم المغول على خراسان المؤرخ الكبير منهاج الدين بن عثمان الجوزجاني ، المولود بقرية جوزجان عام (٥٩٠هـ/١١٩٣م) ، حيث انتقل إلى لاهور عام (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) ، ومنها انتقل إلى دهلي ، وعمل مدرساً للعلوم الدينية والسير في مدرسة السلطان التمش[141] ، ونتيجة لإتقانه علوم الفقه فقد أسند إليه السلطان ناصر الدين محمود بن التمش منصب صدر دهلي - الإفتاء - وأنعم عليه بلقب شمس الدين ، ومن ثم آلف له الجوزجاني كتابه طبقات ناصري ، وقدمه إليه على سبيل الهدية ، وظل الجوزجاني يحتل مكانة أدبية وثقافية في المجتمع الهندي حتى وافاه أجله عام (٦٩٨هـ/١٣٠٠م)[142] ، وكتابه هو ثاني عمل تاريخي بعد كتاب تاج المآثر ، وترجع أهميته إلى كونه المصدر الأساسي لدراسة تاريخ الغوريين في خراسان والهند ، كما أن صاحبه عاصر أحداثاً هامة وخطيرة من أخبار المغول والخوارزميين ومماليك الهند .

وصفوة القول : فقد مارس المغول المزيد من نفوذهم العسكري على الهند بسبب كسب غنائم عسكرية ومادية و حتى يتثني لهم ملاحقة أعدائهم من الخوارزميين أو القادة المتمردين ، ومن جانبهم فقد تصدي سلاطين الهند من المماليك و الخلج للقوات المغولية ، بحزم وقوة و كبدوهم خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات ، وعلى جانب آخر حاولوا استيعاب واحتواء القوة المغولية ، وتوجيها بما يخدم مصلحة الدين الإسلامي ، وقد تأتي ذلك عن طريق نشر الإسلام بينهم ، ودمجهم في الجيش والمجتمع .

تسببت الهجمات المغولية على الهند في إحداث تأثيرات سلبية في الاقتصاد الهندي حيث خُربت أراضي منطقتي البنجاب و الدوآب ، وفر الفلاحون من أراضيهم خوفاً من بطش القوات المغولية ، كما أدت الهجمات المغولية إلى تأخر عملية التصنيع ، بعدما قبض المغول على أمهر صناع الهند الشمالية ، وساقوهم إلى تركستان لخدمتهم ، و بالتالي فقد تأثرت التجارة الخارجية بعدما سَد المغول منافذ تلك التجارة الرئيسة في مناطق قندهار و الملتان و البنغال وسيطرتهم على ممر خيبر من خلال تواجدهم في مدينة كابل .

ربما كانت الاستفادة الوحيدة والأساسية للهجمات المغولية على الشرق الإسلامي بصفة عامة والهند خاصة ، هي فرار أعداد كبيرة من العلماء والأدباء وكبار شيوخ التصوف إلى الهند ، وإقامتهم الدائمة فيها ، حيث احتفي بهم سلاطين البلاد ، ووفروا لهم سبل العيش الكريمة ، فألفوا وأبدعوا ، حيث ازدهرت الحياة الثقافية في الهند ، ونشأت علوم لم تكن موجودة في البلاد من قبل مثل التاريخ والتأليف الأدبي المعجمي ، والطرق الصوفية وأشهرها الطريقة الجشتية .

الهــوامش :

(١) الجويني : ملك عطا الله، ت (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، تاريخ جهانكشا، ترجمة محمد التوبخي، ط دار الملاح للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م . ص ٧٥ .

(٢) القزويني: حمد الله مستوفي، ت (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، تاريخ كزيده، ترجمة محمود محروس قشطه، رسالة ماجستير، ١٩٦٨م، ص٢٠٦، البنغال : يقع هذا الإقليم في أقصي شرق الهند يحده من الغرب مدينة بهار، ومرتفعات الهمالايا من الشمال، ومن الشرق خليج البنغال، أما الجنوب فتوجد منطقة أورسيا وهو يحتوي على ١٢اسركار - مدينة - و ١١٠٩ بركانه - ضاحية .

Hakim Syied Abdlha , India during Muslim Rule , Luck now , 1977. P.50.

(٣) الجويني: تاريخ جهانكشا، ص١٤١ .ومن المستطاع تحديد مكان المعركة بالمكان المعروف بغراتراب - Ghara Trap قفزة الفرس – التي تقع أسفل معبر نيلاب (بارتولد، فاسيلي فلاديمرووفتش، تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان، ط المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٦٢٥، ٦٢٦).

(٤) الجوزجاني : منهاج السراج أبو عثمان، ت (٦٩٨هـ/١٢٠٠م)، طبقات ناصري، تصحيح وتعليق عبد الحي حبيبي، ط كابل ١٣٣٤هـ، ص ٣١٧، بارتولد : تركستان، ص ٦٢٦، ٦٢٧، دهلي: هي عاصمة الهند في عصور مختلفة، وهي ذات إقليم متسع حيث الطول ١٢٨ درجة و٥٠ دقيقة والعرض ٢٥ درجة و٥٠ دقيقة (المباركبورى : قاضي أبو المعالى أطهر، رجال السند والهند، ط دار الأنصار، القاهرة ١٣٩٨هـ ٣٢/١) وكانت الهند في تلك الفترة مقسمة لمناطق نفوذ كبري حيث سيطر أمراء الخلج على البنغال، بقيادة زعيمهم حسام الدين عوض الخلجي، أما إقليمي البنجاب والسند فكان تحت نفوذ السلطان ناصر الدين قباجه، وكانت دهلي تحت سيطرة السلطان شمس الدين التمش.وكان للقائد تاج الدين يلدز نفوذاً محدوداً في مدينة لاهور .

Cambridge : History of India , vo 3 , Turk and Afghans New Delhi 1958 .pp.51,53.

(٥) خواندمير : غياث الدين بن همام الحسيني، ت (٩٤٢هـ/١٥٣٧م) حبيب السير في أخبار أفراد البشر، ط طهران ١٣٣٣ ش ٦٣١/٤٠.

(٦) الجوزجاني : طبقات ناصري، ص ٤٥٤ وقد أسس تلك الأسرة السلطان قطب الدين أيبك الذي كان والياً على الهند من قبل السلطان شهاب الدين غوري، وعقب وفاة سيده عام (٦٠٦هـ/١٠٦٠م) أعلن نفسه سلطاناً مستقلاً على الهند، وقد تعاقب على حكم البلاد في ظل الدولة المملوكة أحد عشر سلطاناً حكموا الهند أربعة وثمانون سنة، أما السلطان شمس الدين التمش فهو ثاني سلاطين تلك الأسرة وقد استمر في حكم الهند ستة وعشرون عاماً قضاها في حروب متواصلة لتوحيد البلاد، وتصدي للأمراء الهنادكة في رنتهبور و مالوه، واستطاع أن يمدّ نفوذه حتى شمل إقليمي السند و البنجاب غرباً و سيالكوت شمالاً

وكلينجر شرقاً و مالوه غرب ذلك قبل أن يوافيه أجله عام (٦٣٣هـ/١٢٣٣م) (عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: بلاد الهند في العصر الإسلامي، ط دار الفكر العربي ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ص ٥١:٢٧١).

(٧) الجوزجاني : المصدر السابق، ص ٣١٤ . البنجاب، كلمة فارسية معناها الأنهار الخمس وهي التي تكون إقليم البنجاب وهي ستلج ، بياه، راوي، جيناب، وجهليم، وفي جنوب البنجاب يقع إقليم السند الذي يفصل الهند عن إقليم مكران الفارسي (المباركبوري : رجال السند والهند، ٣٥/١) .

(٨) النسوي : محمد بن أحمد، ت (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، ط دار الفكر العربي، ١٩٥٣م، ص١٦١، ١٦٢. كهكر : تمتد منازل أبناء تلك القبيلة الهندوكية من شاطئ السند حتى مدينة الملتان، راجا : كلمة سنسكريتية أصلها مها راجا بمعني الحاكم الكبير (بدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين، ط القاهرة ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م، ص ٦١)

(٩) رشيد الدين : أبو الخير فضل الله الهمذاني، ت (٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة يحي الخشاب، ط دار النهضة الحديثة، بيروت ١٩٨٣م ن ص ٥٤٦، كلور : تقع تلك المدينة في إقليم البنجاب على خط ٢٣,٠٠ شمالاً و ٧٥,١٠ شرقاً وقلعة برنوزج جنوبها Hakim : O P. cit . p. 61

(١٠) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ١٦٤، ١٦٥. انهلوره : تقع تلك المدينة ضمن حدود إقليم الكجرات على خط ٢٣,٥٢ شمالاً و ٧٠,٧٠ شرقاً Hakim : O P. cit . p. 69

(١١) رشيد الدين : جامع التواريخ، ص ٥٤٧. أجه : معناها الأرض المرتفعة وتقع تلك المدينة على نهر السند، من توابع الملتان، وهي اليوم ضمن حدود مدينة أحمد بور الشرقية بباكستان (المباركبوري : رجال السند والهند، ٣١/١). سدوستان : ويطلق على تلك المدينة أيضاً سيستان أو ساهون، وهي تقع في أقصي إقليم السند Hakim : O P. Cit . p.66

(١٢) الجويني : تاريخ جهانكشا، ص ١٤٥، بارتولد : تركستان، ص ٦٢٦، الملتان : تقع تلك المدينة على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من مدينة المنصور في أقصي إقليم السند (ياقوت الحموي : الشيخ شهاب الدين، ت (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ٢٦٣/٥) .

(١٣) خواندمير : حبيب السير، ٦١٢/٤ .

(١٤) البنكاتي : فخر الدين أبو سليمان داود البنكاتي، روضة أولي الألباب في معرفة التواريخ والأنساب، تصحيح وتعليق جعفر شعار، ط طهران ١٣٤٨هـ، ص٣٣٤ .

(١٥) البنكاتي : نفس المصدر، ص ٣٣٤، ٣٣٥ .

(١٦) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص١٧ .

(١٧) القزويني : تاريخ كزيده، ص٢١٠. لاهور: هي قاعدة إقليم البنجاب، يحدها من الشرق

دهلي، ومن الغرب الملتان وكشمير في شمالها أما جنوبها فيحدها راجستان و نبالبور، ويبلغ طولها ٢٨٩ ك .م وعرضها ١٨٣ ك.م، وتحتوي على ٥ سركار و ٣١٦ بركانه Hakim : O P. Cit . p.60

(١٨) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص ٤٤٧ .

(١٩) الجويني: تاريخ جهانكشا، ص ١٣٨ وننوه هنا أن أملاك جنكيز خان قسمت على أبنائه الأربعة مع بقاء الخان الأعظم في الصين وهم جوجي وكان نصيبه أراضي القبجاق، جغتائي وكان نصيبه ما وراء النهر، أوكتاي وكان قد تولي منصب الخان مع حكم الصين، تولوي وكان نصيبه قراقورم وأراضي منغوليا، (عبد السلام عبد العزيز، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ط دار المعارف، ١٩٨١، ص١٠٠, ١٠١)

(٢٠) رشيد الدين : جامع التواريخ، ص٥٣، كشمير : يقع هذا الإقليم في أقصي شمال الهند، يحده من الجنوب مرتفعات الهمالايا ومن الشمال خراسان والصين و تركستان ومن الشرق التبت وأفغانستان من الغرب وطول هذا الإقليم ١٩٣ ك.م وعرضه ٩٦ ك.م Hakim : O P. Cit . p. 62.

ويذكر أن أبناء السلطان التمش قد تسارعوا فيما بينهم عقب وفاته عام (٦٣٣هـ/١٥٣٤م)، وكان يجلس في ذلك الوقت على عرش الهند أبنه ركن الدين فيروز شاه، الذي ما لبث أن قتل بعد عام واحد من الحكم، ثم تولت بعده السلطانة رضية التي انشغلت بالقضاء على الثوار والمخالفين، وفي عهدها هاجمت القوات المغولية كشمير و البنجاب .

E.B.Havell : The history Aryan Rule in India . London N.D. p. 299.

(٢١) الجوزجاني : طبقات ناصري، ص ٤٦٤ .

(٢٢) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م، ٧٦/١، ٢١٥ .

(٢٣) الجوزجاني : طبقات ناصري، ص ٤٦٥ .

(٢٤) خواندمير : حبيب السير، ٦٢٢/٤ .

(٢٥) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو، ٧٧/١ .

(٢٦) رشيد الدين : جامع التواريخ، ص ٢٢٢، عبد السلام عبد العزيز فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ١٠٣، ١٠٤ .

(٢٧) البدواني : عبد القادر بن ملوك شاه ت (١٥١٣هـ/١٦٠٥م)، منتخب التواريخ بتصحيح مولوى أحمد على صاحب، ط كلكتا ١٨٩٨ع، ٨٨/١ .وكان إقليم التبت قد وقع تحت السيطرة الإسلامية بجهود محمد بختيار الخلجي عام (٥٩٦هـ/١١٠٢م) حيث نشر الإسلام في مناطق بردهن وسمندر، وعلي جانب آخر فقد تولي السلطان علاء الدين حكم الهند عقب وفاة السلطان بهرامشاه عام (٦٣٩هـ/١٢٤٢م) واستمر في الحكم حتى عام (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) (الجوزجاني : طبقات ناصري، ص ٤٢٣, ٤٧٠) .

(٢٨) الساداتي : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم، ط دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة ٢٠٠١م، ص٩٧ .

(٢٩) K. A . Nilakanta : Advanced History of India . New Delhi 1986 . p. 346

(٣٠) رشيد الدين : جامع التواريخ، ص ١٤٤، ١٤٣ .

(٣١) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو، ١٢٣/٢ .

(٣٢) ماركوبولو : نفس المصدر، ١٢٣/٢، ١٢٤ .

(٣٣) غلام حسين سليم : تاريخ بنغاله، بسعي واهتمام مولوى عبد الحق عابد، ط كلكتا ١٨٩٠م، ص٧٩، ٨٠ . أورسيا : تقع أورسيا جنوب إقليم البنغال، وأشهر مدنها دكا. أما جاجنكر أو كما يطلق عليها أحياناً آخري جابنكر أو جاج نكر فهي تقع ضمن ولاية كره كتنكه غرب أورسيا، سنكارم جنوبها Hakim : O P. Cit . p.53

(٣٤) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو، ١٢٤/٢ .

(٣٥) Camb : Hist of India . p.p 77,78

بلبن : السلطان غياث الدين بلبن، هو أحد أبناء قبيلة باره التركية، وقع في أسر المغول حيث اشتراه تاجر يدعي جمال الدين البصري، وباعه فى الهند للسلطان التمش، فدخل فى خدمته، وبلغ أعلي المناصب منها أمير صيد، ووالى مدينة هانسي، وأخيراً وزيراً للسلطان نصر الدين محمود، وذلك قبل جلوسه على عرش الهند عام

(٦٤٤هـ/١٢٦٦م) فرشته : محمد قاسم هندوشاه ت في النصف الأول من القرن الحادي عشر البحري، كلزار إبراهيمي، ط بمباي ١٨٣١م، ١٣٤/١-١٣٠)

(٣٦) M.Mujeeb : The India Muslims . London 1967 p.47 .

(٣٧) فرشته : كلزار إبراهيمي، ١٣٦/١ . سامانية : تقع تلك المدينة ضمن حدود إقليم دهلي عل خط ٨، ٣٠ شمالاً و ١٥، ٦٧ شرقاً Hakim : O P. Cit . p.35.

(٣٨) فرشته: نفس المصدر، ١٣٦/١، ١٣٧ جلس الخان تيمور قاآن على عرش الصين عام (٦٧٠هـ/١٢٧٢م) حتى عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م) وعرف فى المصادر الهندية باسم تمر (رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٣١١)

(٣٩) L.P.Sharma : The Sultanate of Delhi, New Delhi 1988 . p.110

(٤٠) الهروى: أحمد بخش نظام الدين، ت (١٠٠٢هـ/١٩٩٣م)، طبقات أكبري، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، ط الهيئة ١٩٩٥م، ٩٥/١، أمير خسرو: أشهر شعراء وأدباء الهند، ولد عام (٦٥١هـ/١٢٥٣م) بمدينة بتيالي البنجابية، ونبغ فى مجالات عدة منها الموسيقي، وأشهر مؤلفاته فيها لحن ترانه وخيال، وفى الأدب ألف إعجاز خسروى، ومحسنات الكلام، وافضل الفوائد، أما فى التاريخ فله قران السعيدين وخزائن الفتوح وتغلق نامه، وأشهر دواوينه الشعرية تحفه الصغر و

وسط الحياة، وقد توفي عام (٧٢٥هـ/١٣٢٥م) (الحسيني: عبد الحي بن فخر الدين، ت ١٣٤١هـ/١٩٢٢م نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ط دار ابن حزم، لبنان ١٩٩٩م، ٢/١٥٧، ١٥٨).

(٤١) فرشته : كلزار إبراهيمي، ١/١٥٠ . الخلج: طائفة من عظماء الترك، جمعهم واحد منهم يدعي بياغو، وأسكنهم منطقة قرب أرض الغور عرفت باسم الخلج، وأول ذكر له كان فى أيام السلطان محمود الغزنوي الذي استعان ببعضهم فى غزو الهند، وهناك رواية أخرى تنسبهم إلى صهر جنكيزخان ويدعي قالج خان، ويذكر أن الخلج قد دخلوا الهند مع القوات الغورية وكان على رأسهم محمد بختيار الخلجى الذي فتح البنغال والتبت، ووجدت منهم مجموعة أخرى قاتلت المغول بجانب القوات الخوارزمية (الجوزجاني : طبقات ناصري، ص ٤٢٩، رشيد الدين : جامع التواريخ، ص ٤٢٠، خواندمير، حبيب السير، ٤/٦١٥، فرشته : كلزار إبراهيمي، ١/١٥٠، ١٥١) وقد برز من زعماء الخلج فى العصر المملوكي السلطان جلال الدين فيروز شاه، وكان أول سلطان خلجي يجلس على عرش الهند، ولم تستمر دولته كثيراً حيث جلس على عرش الهند بعد وفاته ابن أخيه السلطان علاء الدين الذي توفى عام (٧١٥هـ/١٣١٦م) فجلس على عرش الهند بعده كل من السلطان شهاب الدين عمر شاه وقطب الدين مبارك شاه، ونتيجة لضعف هذا الأخير فقد طمع الهنادكة فى عرش البلاد حتى تثني لواحد منهم وهو خسروشاه قتل السلطان مبارك شاه عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) وجلس على عرش البلاد (الساداتي : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية، ص ١٠٦، ١١٤)

(٤٢) ابن بطوطه : محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م). تحفة النظار فى غرائب الأمصار، شرح وتحقيق طلال حرب، ط دار الكتب العلمية ١٩٨٧، ص ٥٠٢ .

(٤٣) برني: ضياء الدين بن مؤيد الدين بن بارسك، تاريخ فيروزشاه، ألفه عام (٧٥٨هـ/١٣٥٧م)، ط الله آباد ١٩٣٢م، ص٢١٨ .

(٤٤) P.K Munshi : The Struggle for Empire . Bomboy 1957. p.95.

(٥٤) البدواني : منتخب التواريخ، ١/١٨٣ .

(٤٦) فرشته : كلزار إبراهيمي، ١/١٧٦، ديالبور : تقع تلك المدينة جنوب دهلي على نهر ستلج

(٤٧) خالقي : محمد حبيب نظامي، جامع تواريخ الهند، ط دهلي ١٩٨٤م، ص ٤٧٢ كواليار تقع جنوب أكرا على خط ١٤، ٢٦ شمالاً و ١٠، ٧٨ شرقاً . Hakim : OP. Cit . p.37

(٤٨) Sharma : OP. Cit . p.161

(٤٩) البدواني : منتخب التواريخ، ١/١٨٤ . وكان يتم إعدام المخالفين بواسطة الفيلة في ساحة القصر الملكي باستخدام فيلة مدربه على دق أعناق المخالفين بيدها أو تمزيقهم بأنيابها التي كانت تسكي بالحديد حسب رغبة السلطان وبتوجيه من سائسها (ابن بطوطه : الرحلة، ص ٤٩٨) .

(٥٠) خالقي: جامع تواريخ الهند، ص٤٨٠. وقد جلس داوو على عرش تركستان عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م) واستمر حتى عام (٧٠٦هـ/١٢٠٩م) وقد دانت له جميع بلاد ما وراء النهر عقب موت قايدو

حيث أخذ يفرض سيطرته على الإقليم تماما ، وبنفسه كان يعين أو يقبل ما يشاء من أبناء قايدو ، وفي تلك الفترة قد بزغ نجمه بشدة عقب هزيمته الخان الأعظم تيمور قآن والمزيد من التفاصيل عند راجع أرمنيوس فامبرى: تاريخ بخاري، ترجمة أحمد محمود الساداتي، ط القاهرة ١٩٨٧م، ص١٩٧ .

(٥١) نهاوندي : ملا عبد الباقي ت (١٠٢٥هـ/١٦١٦م). مآثر رحيمي، بتصحيح محمد هدايت حسين، ط كلكتا ١٩٢٥م، ١٢٤/١ .

(٥٢) Munshi : OP. Cit. P. 102

تقع مدينة سيرى شمال دهلي القديمة، وننوه هنا أن حكام المسلمين أخذوا في توسيع العاصمة دهلي بتشييد مدن أخرى منها جهان بناه وتغلق آباد، و شاهجهان آباد .

(٥٣) نهاوندي : مآثر رحيمي، ١٢٤/١ .

(٥٤) خالقي : جامع تواريخ الهند، ص ٤٨١، ٤٨٢ .

(٥٥) برني : تاريخ فيروزشاه، ص ٢٥٩، وتقع كيلي على بعد ثلاثين فرسخاً غرب دهلي

(٥٦) نهاوندي : مآثر رحيمي، ٣٢٦/١ . و رنتهبور : تقع تلك المدينة شمال غرب دهلي .

(٥٧) خالقي : جامع تواريخ الهند، ص ٥٢٠، الدكن : تقع هضبة الدكن في أقصى الجنوب الهندي، ويفصلها عن الوسط جبال وندهيا. أما الكجرات فهو إقليم متسع يقع جنوب نهر السند، وتبلغ مساحته ٤٥٨ ك.م طولاً و٤٣٥ ك.م عرضا، جيتور : أو شيتور فهي تقع غرب نهر شامبالا

Hakim : OP. Cit . p.p. 67.74.

(٥٨) Munshi: OP. Cit, p. 108.10

(٥٩) Ibid, p109

(٦٠) برني : تاريخ فيروزشاه، ص ٣٠٠ . كول : مدينة من أعمال أكبر آباد تقع على خط ٥٤، ٢٧ شمالاً و٦، ٧٨ شرقا، برن . تقع جنوب شرق لكهنوتي على نهر الكنك Hakim : OP. Cit . p.38

(٦١) الهروى: طبقات أكبري، ص ١٣٧/١ . نظام الدين أولياء : ولد بمدينة بدوان عام (٦٣٦هـ/٦٣٨م)، فأهتم بدراسة علوم الدين والفقه، ثم تفرغ للعبادة، وبني لنفسه خانقاه عظيمة في دهلي، كانت مقصداً لسلاطين الخلج وال تغلق، وقد اعتقد الأهالي في كرامته وولايته الصوفية، فوقروه وعظموا من شأنه، وقد توفي عام (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، ودفن في دهلي، ولا يزال قبره أحد أكبر مزارات المدينة (الحسيني : نزهة الخواطر، ١٩٥/٢، ١٩٦)

(٦٢) **Sharma: OP. Cit . p.162**

(٦٣) فامبرى : تاريخ بخاري، ص ١٩٧ .

(٦٤) فامبرى : نفس المصدر والصفحة .

(٦٥) **Munshi : OP. Cit . p.110**

(٦٦) برني : تاريخ فيروزشاه، ص٣١٩ .

(٦٧) خالقي : جامع تواريخ الهند، ص ٥٥٦ . أمروهي : ربما المقصود بها مدينة أمرتسار Amritsar الواقعة جنوب شرق دهلي على نهر ستلج على خط ٣٧,٣١ شمالاً و٥٥,٧٤ شرقاً Hakim : OP. Cit . p.62

(٦٨) نهاوندي : مآثر رحيمي، ٣٤٧/١ .

(٦٩) برني : تاريخ فيروزشاه، ص ٣٢١ .

(٧٠) فرشته: كلزار إبراهيمي، ٢٠٥/١ ربما يكون هذا القائد هو نفسه الخان كيبك بن داوو الذي تولي عرش تركستان عام (٧٠٦هـ/١٣٠٦م) وتم عزله في نفس العام من قبل كبار القادة لسبب غير معروف وولوا مكانه أخيه الأصغر ويدعى أسن (فامبري: تاريخ بخاري، ص١٩٨)

(٧١) الهروي : طبقات أكبري، ١٤٠/١، بدوان : كان لسور دهلي عدة بوابات تؤدي إلى الطرق الرئيسية لكبري المدن، ومنها مدينة بدوان الواقعة على خط ٢٨,٢ شمالاً و ٧٩,١٠ شرقاً أما قلعة تبرنه أو تيرانه فهي تقع ضمن مدينة دبالبور الواقعة شرق لاهور Hakim : OP. Cit . p.34

(٧٢) نهاوندي : مآثر رحيمي، ٣٤٧/١ . ناكور : وتنطق ناجور لأن الكاف فيها أعجمية، وهي تقع جنوب غرب دهلي من أعمال أجمير .

(٧٣) فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٩٧, ١٩٨، حيث ساد الضعف والفوضى بلاد ما راء النهر عقب موت الخان داوو، وتدخل القادة في تولية وعزل الأمراء المغول وفي بعض الأحيان قتلوا بعضهم مثل الخان موانغان الذي اعتق الإسلام .

(٧٤) Mujeeb : OP. Cit . p.47

قندهار : تشتمل تلك المدينة على الوديان السفلي لأنهار ترنك، ارغنداب و أرغان، أما كابل : فهي تقع غرب مدينة جلال آباد، وتضم أنهار لوغر، وتكاد.ونهر جلال آباد، غزنه : تقع على نهر ارغند جنوب كابل ن ويقال لمجموع بلادها زبلستان (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٠١/٤)

(٧٥) Paul Masson : Ancient India and India Civilization . London 1967. p.40

(٧٦) تاريخ فيروزشاه، ص ٢٦١ .

(٧٧) Mujeeb : OP. Cit . p.47

(٧٨) Paul Masson : OP. Cit . p.40,4

(٧٩) المباركبوري : رجال السند والهند، ٣٣/١ .

(٨٠) الهروي : طبقات أكبري، ١١٦/١ .

(٨١) ابن بطوطه : الرحلة، ص٤٤٠ .

(٨٢) Hakim : OP. Cit . p.142

(٨٣) ابن بطوطه : الرحلة، ص ٤٤٠، ٤٤١ .

(٨٤) ابن بطوطه : نفس المصدر، ص ٤٣٩ .

(٨٥) الحسيني : نزهة الخواطر، ٢٠٦/٢ . الخالصة الشاهانية : يقصد به الأرض التابعة للسلطان علاء الدين وهي من أخصب أنواع الأراضي الهندية وكانت تزرع طول العام عنها راجع Hakim : OP. Cit . p.128

(٨٦) السيد محمد يوسف : البضائع الهندية، ثقافة الهند، عدد ١٩٥٥/٣م، ص ١١ .

(٨٧) M.S.Thacker : The wealth of India . New Delhi 1960. pp. 59.72

(٨٨) الهروي : طبقات أكبري، ٣٤/١، ٧٨/٢ .

(٨٩) السيد محمد يوسف : البضائع الهندية، ص١٣.

(٩٠) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ص٣١٠ .

(٩١) Mujeeb : OP. Cit . pp.46.47

ممر خيبر : يربط بين مدينة كابل في الغرب ونهر الأندلس – السند – في الشرق عبر منطقة بنون، بطول ٣٢٠ ك.م

(٩٢) خواندمير : حبيب السير، ٦١٢/٤ .

(٩٣) بدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين، ص١١١ .

(٩٤) Mujeeb : OP. Cit . pp.48

(٩٥) بدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين، ص١١٨ .

(٩٦) أبو الفضل : العلامة ابن مبارك الناكوري، ت (١٠١٠هـ/١٦٠٢م) آئيين أكبري، ترجمة وتحقيق بقلم كونونيل جريت، ط نيو دلهي ١٩٩٢م، ١٠/١ .

(٩٧) الهروي : طبقات أكبري، ١٣٥/١ .

(٩٨) خالقي : جامع تواريخ الهند، ص ٥٣٧ .

(٩٩) الهروي: طبقات أكبري، ١٧٣/١. المن : يساوي ٤ آثار، والآثار يساوي ٢٤ توله، والتوله تساوي ١٩٢ جرام، وبذلك يكون المن الهندي يساوي ٤٦٢٨ جرام (الحسيني نزهة الخواطر، ٢٠٧/٢، التنكه : العملة الأساسية التي كانت تستعمل في الهند، وهي على وجهين أما ذهبيه، وكان يطلق عليها الصفراء وهي تساوي ١١ جرام، أو فضية وأطلق عليها البيضاء وهي تساوي ١٠,٧٦ جرام .
Hakim : OP. Cit . p.125

(١٠٠) فرشته : كلزار إبراهيمي، ١٩٥/١، سيري أو سيرس مكيال هندي يساوي ١٤٨,٨٦٦ جرام، أما الجيتل فهو عمله نحاسيه يبلغ وزنها ٢٠,٤٢١ جرام Hakim : OP. Cit . p.125

الشالي : أشهر أنواع الأرز الهندي وأجوده، كثرة زراعته في إقليم أوده فبلغ إنتاج البيكه – تساوي ٣٦٠٠ ذراع – حوالي ٥٦,٧ دام – الدام يساوي ٩٣٣ جرام، وكذلك الماش وهو نوع أقل جودة من الشالي،

وبلغ إنتاج البيكه منه ٢٨, ٢٧ دام في قصبة أوده (أبو الفضل : آئيين أكبري، ٢/٩١:٧٧) أما الموت فهو نوع من الحبوب المخصصة لعلف البهائم (ابن بطوطه : الرحلة، ص ٤٠٩)

(١٠١) خالقي : جامع تواريخ الهند، ص ٥٤٦، ٥٤٧ .

(١٠٢) الحسيني، نزهة الخواطر، ٢/٢٠٧ الآثار سبق تعريفه هامش ٩٩.

(١٠٣) Sharma : OP. Cit . p.142

حيث كانت الهند فقير في مجال تربية وإنتاج الخيول الصالحة للاستخدام الحربي، وعرف فيها نوع أطلق عليه برازين، كان يستخدم فقط لجرّ وحمل الآلات العسكرية والأمتعة، لذا ارتفعت فيها أسعار الخيول بشكل كبير، واضطرت الحكومات الإسلامية في كثير من الأحيان منع الأهالي من شراء أو بيع الخيول العربية والفارسية والتركية بدون علمها، (أبو الفضل: آئيين أكبري، ١/١٤٢).

(١٠٤) الهروى : طبقات أكبري، ١/٦٦ .

(١٠٥) الحسيني : نزهة الخواطر، ٢/٢٠٧ .حيث كان يتم خصي الأسرى المغول عقب وقوعهم في الأسر مباشرة ليستفاد منهم في خدمة البيوت (ماركو بولو:رحلات ماركو بولو، ٢/١٣٣).

(١٠٦) برني : تاريخ فيروزشاه، ص ٣٢١ .

(١٠٧) برني : نفس المصدر، ص ٣٠٨ .

(١٠٨) فرشته : كلزار إبراهيمي، ١/١٩٧، بجانب تلك الأنواع من الأقمشة مرتفعة السعر، أنتجت أقمشة أخرى للطبقة الوسطي منها الموسيلين، وهو خليط من الأنسجة الحريرية والقطنية والصوفية، أما فقراء البلاد فكانوا يستخدمون نوع أخر من الأقمشة عرف باسم الشيت كان يستخرج من وبر الجمال (السيد محمد يوسف : البضائع الهندية، ص١١) وبرغم ما كانت تعانيه صناعة الأقمشة والملابس فقد انتشر في البلاد ثمانية وأربعين نوعاً من أفخر الأقمشة، استخدم أغلبها في إنتاج المعاطف الخاصة بعلية القوم مثل تاكويوهي، شواز، أما السلاطين فكان يرتدون معاطف خاصة عرفت باسم شاهاجد (أبو الفضل : آئيين أكبري، ١/٩٥, ٩٨).

(١٠٩) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو، ١/٧٦ .

(١١٠) رشيد الدين : جامع التواريخ، ص ١٢٥ .

(١١١) الهروى : طبقات أكبري، ١/١٠٠, ١٠١، كلنجر : تقع تلك المدينة على نهر جامونا، جنوب مدينة الله آباد .

(١١٢) البدواني :منتخب التواريخ، ص ١٢٥ .

(١١٣) خالقي : جامع تواريخ الهند ٤٥١ .

(١١٤) Nilakanta : OP. Cit . p.356

(١١٥) عصام الدين عبد الرؤوف : بلاد الهند في العصر الإسلامي، ص ٧٨ .

(١١٦) Munshi : OP. Cit . p100

(١١٧) الهروي : طبقات أكبري، ١٢٦/١ .

(١١٨) تاريخ فيروزشاه، ص٢٥٣ .

(١١٩) خالقي : جامع تواريخ الهند، ص ٤٨٨, ٤٨٩ .

(١٢٠) برني : تاريخ فيروزشاه، ص٣٣١ .

(١٢١) فرشته : كلزار إبراهيمي، ١١٣/١، وهذه المقاطعات أو المساكن هي محلة عباسي، سنجري، خوارزمي، ديلمي، علوي، اتابكي، غوري، جنكيزي، رومي، سنقري، يمني، غزني، موصلي، سمرقندي، كاشغري، وعربي .

(١٢٢) أبو الفضل : آئيين أكبري، ٤٠٢/٣ .

(١٢٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النجراوي، ط مكتبة النهضة، ط ١٩٧٣، ص٢٤٠ سجستان تقع جنوب غرب قندهار على نهر هلمند، أجمير: يحدها من الشمال مدينة جيبور، والجنوب انهلواره، وشرقها كواليار، وغربها جودهبور، وهي تحتوي على ٩ سركار و١٢٣ بركانه Hakim : OP. Cit . p.59.

(١٢٤) أبو الفضل : آئيين أكبري، ٤٤٢/٣ .

(١٢٥) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٣١٦ أتشي: قرية في مدينة بهالبور - ديالبور - على نهر ستلج، بخاري : من أعظم مدن ما وراء النهر طولها سبع وثمانون درجة، وعرضها إحدى وأربعون درجة، ويحيط بها سور طوله أثني عشر فرسخاً(ياقوت الحموي : معجم البلدان، ٣٥٣/١)

(١٢٦) ابن بطوطه : الرحلة، ص ٦١٥ .

(١٢٧) Aziz Ahmad: An Intellecutual History of Islam In India Edinpurgh U.S.A1958.52

(١٢٨) الحسيني: نزهة الخواطر، ٨٦/١ . خوارزم : تقع تلك المدينة على نهر جيحون مساحتها ثمانون فرسخاً في مثلها، (البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق ت (٧٣٩هـ/١٣٤١م) مراصد الإطلاع، تحقيق على أحمد البجاوى، ط دار الباز للطباعة والنشر بيروت، ١٣٧٣هـ /١٩٥٤م، ٤٨٧/١).

(١٢٩) الحسيني : نزهة الخواطر، ١٢٧/٢ .

(١٣٠) G.H. philips :Historians of India Pakistan and Ceylon New yourk1962. p.131

همذان : مدينة من الجبال عذبها ماء وأطيبها هواء مساحتها أربع فراسخ في مثلها (البغدادي: مراصد الإطلاع، ١٤٦٤/٣)

(١٣١) فرشته : كلزار إبراهيمي، ١٣٠/١, ١٣١ . واشتهرت في الهند الشمالية عدة مدارس أهمها المدرسة الناصرية التي شيدها السلطان التمش تخليداً لذكري أبنه ناصر الدين محمود الذي توفي أثناء ولايته على البنغال، والمدرسة الفيروزية التي شيدها السلطان ناصر الدين قباجه في مدينة أجه السندية، وفي أحياناً كثيرة يطلق عليها المدرسة الناصرية (عبد الحي الندوي : المدارس بالهند، ثقافة الهند، عدد ١٩٥٥/٢م، ص٨٤, ٨٣, ٨٢)

(١٣٢) محمد عوفي : ت (٦٣٢هـ/١٢٣٤م). لباب الألباب. بسعي واهتمام إدوار بروز انكليس ه ط ليدن ١٩٠٣م. ٢٨٩/١ .

(١٣٣) عوفي : نفس المصدر. ٩،١٠/١ .

(١٣٤) Husan quresh : The Administration of Sultanat of Delhi . 1944. p.179

(١٣٥) Aziz Ahmad : O P. Cit, p.67 .

(١٣٦) الهروى : طبقات اكبري. ٦٨/١ .

(١٣٧) الحسيني: نزهة الخواطر. ٨٦/١ .

(١٣٨) الحسيني: نفس المصدر. ٨٨/١ سمرقند: هي مجمع رقيق ما وراء النهر. ويتصل بها جبل عالي يعرف بكوهك. وبها العديد من البساتين ومنزل السلطان (ياقوت الحموي. معجم البلدان. ٢٤٧/٣) .

(١٣٩) Philips : OP. Cit , p.123.

نيشابور : يطلق عليها أحياناً نيسابور. بينها وبين مرو ثلاثون فرسخاً (البغدادي : مراصد الإطلاع. ١٤١١/٣)

(١٤٠) Sharma : OP. Cit . p.3

(١٤١) Philips : OP , Cit . p.118 .

جوزجان قرية صغيرة من أعمال مدينة بلخ – مزار شريف حالياً .

(١٤٢) Hakim : OP. Cit , p.79.

قائمة المصادر والمراجع :-

(١) المصادر العربية :-

– البغدادي : صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق. ت (٧٣٩هـ/١٣٤١م). مراصد الإطلاع. تحقيق على أحمد البجاوى. ط دار الباز للطباعة. بيروت ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

– ابن بطوطه : محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي. ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م). تحفة النظار فى غرائب الأمصار. شرح وتحقيق طلال حرب. ط دار الكتب العلمية ١٩٨٧م .

– الحسيني : عبد الحي بن فخر الدين. ت (١٣٤١هـ/١٩٢٢م). نزهة الخواطر. وبهجة المسامع والنواظر. ط دار ابن حزم. لبنان ١٩٩٩م .

– النسوى : محمد بن أحمد. ت (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي). سير السلطان جلال الدين منكبرتي. تحقيق حافظ أحمد حمدي. ط دار الفكر العربي. ١٩٥٣م

– ياقوت الحموى : الشيخ شهاب الدين، ت (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، معجم البلدان، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠ .

(٢) المراجع العربية :-

– أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم، ط دار الشرق ٢٠٠١م .

– بدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين، ط القاهرة ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م .

– عبد السلام عبد العزيز فهمي : تاريخ الدولة المغولية في إيران، ط دار المعارف ١٩٨١م

– عصام الدين عبد الرءوف الفقي : بلاد الهند فى العصر الإسلامي، ط دار الفكر العربي ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

– قاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري : رجال السند والهند، ط دار الأنصار، القاهرة ١٣٩٨هـ .

(٣) المصادر الفارسية :-

– البدواني : عبد القادر بن ملوك شاه، ت (١٥١٣هـ/١٦٠٤م)، منتخب التواريخ، بتصحيح مولوي أحمد علي صاحب، ط كلكتا ١٨٩٨ع .

– برني : ضياء الدين بن مؤيد الدين بن بارسك، تاريخ فيروزشاه، ألفه عام (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م)، ط الله آباد ١٩٣٢ .

– البنكاتي : فخر الدين أبو سليمان داود البنكاتي، روضة أولي الألباب فى معرفة التواريخ والأنساب، بتصحيح جعفر شعار، ط طهران ١٣٤٨هـ .

– الجوزجاني : منهاج السراج أبو عثمان . ت (٦٩٨هـ/١٢٠٠م)، طبقات ناصري تصحيح وتعليق عبد الحي حبيبي، ط كابل ١٣٣٤هـ .

– الجويني: ملك عطا الله ن ت (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، تاريخ جهانكشا، ترجمة محمد التوبخي، ط دار الملاح للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

– خواندمير : غياث الدين بن همام الحسيني، ت (٩٤٢هـ/١٥٣٧م) حبيب السير فى أخبار أفراد البشر، ط طهران ١٣٣٣هـ .

– عوفي: محمد عوفي، ت (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، لباب الألباب بسعي واهتمام إدوار بروز انكليسي، ط ليدن ١٩٠٣م .

– غلام حسين سليم : تاريخ بنغاله، بسعي واهتمام مولوى عبد الحق عابد، ط كلكتا

١٨٩٠م .

– رشيد الدين: أبو الخير فضل الله الهمذاني، ت (٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة يحي الخشاب، ط دار النهضة الحديثة، بيروت ١٩٨٣م .

– فرشته : محمد قاسم هندوشاه، ت في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري، كلزار إبراهيمي، ط بمباي ١٨٣١م .

– أبو الفضل : العلامة ابن مبارك الناكورى، ت (١٠١٠هـ١٦٠٢م)، آئين أكبري، ترجمة وتحقيق كونونيل جريت، ط نيودلهي ١٩٩٢م .

– القزويني : حمد الله مستوفي، ت (٧٥٠هت/١٣٤٩م)، تاريخ كزيده، ترجمة، محمود محروس قشطه، رسالة ماجستير، عين شمس ١٩٦٨م .

– نهاوندي : ملا عبد الباقي، ت (١٠٢٥هـ/١٦١٦م)، مآثر رحيمي، بتصحيح محمد هدايت حسين، ط كلكتا ١٩٢٥م .

– الهروي : أحمد بخش نظام الدين، ت (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) طبقات أكبري، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، ط الهيئة ١٩٩٥م .

(٤) المراجع الاردية :-

– خالقي : محمد حبيب نظامي، جامع تواريخ الهند، ط دهلي ١٩٨٤م .

(٥) المراجع المترجمة :-

– أرمنيوس فامبرى : تاريخ بخاري، ترجمة أحمد محمود الساداتي، ط القاهرة ١٩٨٧م

– بارتولد فاسيلي فلاديمروفتش : تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان، ط المجلس الوطني للثقافة الكويت ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

– توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النجراوي، ط مكتبة النهضة ١٩٧٠م .

– ماركو بولو: رحلات ماركوبولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥ .

(٦) الدوريات العلمية :-

– عبد الحي الندوى : المدرس بالهند، ثقافة الهند، عدد ٢/١٩٥٥م .

– السيد محمد يوسف : البضائع الهندية، ثقافة الهند، عدد ٣/١٩٥٥م .

(٧) المراجع الإنجليزية :

Aziz Ahmad:An Intellectual History of Islam in India Edinpurgh.U.S.A 1969.

Cambridge : History of India, Vol 3, Turks and Afghans New Delhi1958.

E.B Havell : The History of Aryan Rule in India London .

Hakim Siyed Abdlhal : India during Muslim Rule. lucknow. 1977.

Husan Qureshi : The Administration of Sultante of Delhi 1944.

K.A.Nilakanta : Advanced History of India, New Delhi 1986 .

L . P . Sharma : The Sultant of Delhi New Delhi, 1988.

M .Mujeeb : The India Muslims, London 1967.

M.S. Thacker : The Wealth of India, New Delhi, 1960.

P . R Munshi : The Struggle for Empir,e Bomboy 1957 .

Paul Msaaon : Ancient India and India Civilzation , London 1967 .

د. أشرف محمد عبدالرحمن مؤنس (*)

موقف الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود من العدوان الثلاثي على مصر

الملك سعود والمؤامرات البريطانية- الأمريكية ضد مصر

كانت العلاقات المصرية السعودية في ظل الملك سُعود بن عبد العزيز آل سعود وقادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر علاقات طيبة منذ قيام الثورة، فقد اعترف الملك سُعودُ بها فور قيامها، كما كان أول حاكم عربي يزور مصر بعد قيام الثورة وذلك في مارس ١٩٥٤م، أي بعد أشهر قليلة من توليه مقاليد الحكم في المملكة في ٩ نوفمبر ١٩٥٣م، وكانت زيارته لتعزيز العلاقات بين مصر والمملكة العربية السعودية، وإظهار تضامنه معها في قضيتها ضد الاستعمار البريطاني، وذلك كما ظهر في قوله للسفير البريطاني في مصر: إن العرب يعتبرون أن قضية مصر هي قضيتهم، ويدافعون عنها، وتحقيق السلام الحقيقي في الشرق الأوسط رهن بتحقيق المطالب المصرية"(١)، وكان ذلك في الوقت الذي كانت تتفاوض فيه مصر مع بريطانيا من أجل جلائهم عنها، بينما كانت بريطانيا تعمل على ضم مصر إلى التحالف الغربي المناهض للإتحاد السوفييتي بذريعة الدفاع عن الشرق الأوسط، وذلك في محاولة منها للحصول على غطاء شرعي يضمن بقاء قواتها في منطقة القناة(٢).

وقد شهد عقد الخمسينيات من القرن العشرين سلسلة من المحاولات التي قامت بها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لحماية مصالحهما الإستراتيجية في المنطقة، كما بدأ تنسيق مصري سعودي للحيلولة دون دخول المنطقة في نطاق الأحلاف الغربية، ولذلك جرت عدة مراسلات بين الحكومتين المصرية والسعودية من أجل هذا الغرض منذ مايو ١٩٥٤م، كما استثمرت الحكومتان المشاعر القومية

*- مدرس التاريخ الحديث و المعاصر - كلية التربية جامعة عين شمس.

والوطنية المعادية للاستعمار السائدة فى المنطقة من أجل هذا الغرض، مما جعل الحكومتين البريطانية والأمريكية لا ترتاحان لهذا التعاون بين الدولتين، وعملا على إنهائه وذلك بإفساد العلاقة بينهما، كما عملا على عزل المملكة العربية السعودية حتى لا يصبح البترول سلاحا فى خدمة القضايا العربية(٣)، ولكن خططهما فشلت فى تحقيق هذه الأهداف، بل أن الأمر زاد سوءا بالنسبة لهما، إذ انضمت سوريا كذلك إلى هذا المحور المصرى السعودى، مما دفع الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة "أيزينهاور" (Eisenhower) إلى محاولة الوقيعة بين هذه الدول، وعزل مصر "عن بقية الدول العربية(٤). فكلف سفيره السابق فى السعودية، والعميل فى وكالة المخابرات المركزية، رايموند هير (Raymond Haer) بوضع خطة تؤدى إلى إبعاد كل من السعودية وسوريا عن مصر حتى ينفرط عقد هذا التحالف الثلاثى الذى أصبح يثير المتاعب أمام الغرب فى المنطقة(٥).

وكانت خطة هير تتمثل فى عزل عبد الناصر عن طريق إبعاد سوريا عنه وإحداث فجوة بينهما، وذلك بتدبير انقلاب يطيح بحليفه«شكرى القوتلى» زعيم سوريا، وذلك بالتعاون مع المخابرات البريطانية والإسرائيلية، ثم محاولة اغتيال «عبد الناصر» بواسطة المخابرات الإسرائيلية التى كلفت يونانيا يدعى "أندرياس" (Andreas)، كان متعهدا لتنظيم الحفلات الرسمية فى مصر، بدس السم لعبد الناصر فى فنجان قهوته، ولكن هذه المحاولة فشلت، وكشف أمر اليونانى(٦).

وبالنسبة للسعودية فقد أورد «محمد حسنين هيكل» مضمون تقرير كتبه السفير المصرى فى الولايات المتحدة الأمريكية «أحمد حسين» بشأن الخطة الأمريكية للإيقاع بين مصر والمملكة العربية السعودية، يذكر فيه أنه توجد محاولات خطيرة للإيقاع بين «عبد الناصر» وبين الملك «سعود» بواسطة عملاء المخابرات المركزية الأمريكية وذلك بتصوير «عبد الناصر» للملك سعود على أنه ثائر متطرف، وأنه أخطر عليه من كل من النفوذ البريطانى والشيوعى، وكذلك بالادعاء بأن البعثة العسكرية المصرية فى الرياض تعمل على بث أفكاره بين القوات المسلحة السعودية، وأن من مصلحة الملك "سعود" ومصلحة عرشه وأسرته أن يبتعد عن «عبد الناصر»، وأن يقيم حاجزا قويا بينه وبين مصر(٧).

وقد دفع هذا التقرير «عبد الناصر» إلى ترتيب لقاء بينه وبين كل من الملك سعود والأمير "«فيصل» فى جدة فى ٢٠ ابريل ١٩٥٦م، حيث أطلعهما على هذا التقرير، وحاول أن يطمئنهما على عمل البعثة العسكرية المصرية فى السعودية، وفوض الملك «سعود» فى التصرف مع أى فرد من البعثة يخرج عن مقتضى عمله بما يضر بالعلاقات بين البلدين. وكانت ثمرة هذا اللقاء هى إفشال الخطة الأمريكية للإيقاع بين الدولتين، وعقد اتفاقية عسكرية ثنائية بينهما(٨). كما كان هذا اللقاء وما نتج عنه أحد أسباب رفض الولايات المتحدة الأمريكية طلب مصر لتمويل بناء السد العالى، والضغط على البنك الدولى من أجل هذا الغرض أيضا، مما دفع "«عبد الناصر»، كما هو معروف، إلى إعلان تأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦م(٩).

الملك سعود وتأميم قناة السويس:

عندما أعلن «عبد الناصر» قراره بتأميم قناة السويس أيد الملك «سعود» فورا هذه الخطوة(١٠)، وأعرب له عن تضامنه مع مصر، كما دعا فى أول سبتمبر ١٩٥٦م الحكومات العربية إلى مؤتمر عسكرى يعقد فى الرياض فى ١٣ من الشهر نفسه بغرض التشاور، واتخاذ الإجراءات الضرورية تجاه الأزمة التى تتعرض لها مصر(١١). وفى ٧ سبتمبر أعلن رسميا وقوفه إلى جانب مصر للحفاظ على استقلالها، والدفاع عن حقها فى تأميم القناة(١٢). كما رصد مبلغ عشرة ملايين دولارا لتكون تحت تصرف مصر، وذلك ردا على قرار بريطانيا تجميد أموال مصر فى بنوكها(١٣). يضاف إلى ذلك قراره فى أكتوبر من العام نفسه بإلغاء احتفالات السفارات والقنصليات السعودية فى الخارج التى كانت تقام سنويا فى ١٢ نوفمبر بمناسبة عيد جلوسه على العرش، وذلك تقديرا منه للظروف القائمة، وتوفيرا لنفقات هذه الاحتفالات التى كرسها للصرف على أسر الشهداء فى كل من مصر والأردن وسوريا(١٤).

وفى هذا الإطار صرح «يوسف ياسين» (١٥) وكيل وزارة الخارجية السعودية أثناء زيارته لمصر أن الملك «سعود» معنى بقضية القناة، وأنه يضع إمكانيات بلاده تحت تصرف مصر، وذلك لإحباط أى محاولة ترمى إلى الإساءة إلى الاقتصاد المصرى، وأن إسهامه – أى الملك– فى فك ضائقة مصر الاقتصادية كان خطوة أفزعت أولئك الذين يعتقدون أن مصر تقف وحدها فى هذه الأزمة(١٦).

وفى ٧ سبتمبر أخطر الملك سعود «عبد الناصر» بأنه قرر تأجيل زيارته لإندونيسيا وأفغانستان ليكون قريبا منه حتى يمكنهما التشاور بخصوص هذه الأزمة، كما أبلغه بأنه بدأ الاتصال بالأمريكيين فى محاولة للتأثير عليهم لحل الأزمة، وطلب منه أن يطلعه على خططه فى هذا الأمر(١٧).

وفى محاولة منها لحل الأزمة اقترحت الحكومة المصرية تشكيل هيئة من الدول التى تستخدم القناة لإجراء مفاوضات لإيجاد حل سلمي لمشكلة الملاحة فيها دون المساس بسيادة مصر واستقلالها. وقد أيدت السعودية هذا الاقتراح(١٨).

وبين ٢٢ و ٢٤ أكتوبر ١٩٥٦م عقد مؤتمر فى الدمام بالمملكة العربية السعودية ضم كلا من الملك «سعود» و «عبد الناصر» و «شكرى القوتلى»، وفيه عقد حلف دفاعى بين الدول الثلاث المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا(١٩). وفى هذا المؤتمر دعا «عبد الناصر» إلى استخدام البترول كسلاح فى مواجهة بريطانيا والغرب(٢٠).

موقف بريطانيا والغرب من قرار التأميم:

وفى الغرب تسارعت الأحداث بعد إعلان مصر تأميم قناة السويس، ففى ١٩ سبتمبر ١٩٥٦ عقد مؤتمر بين كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لاتخاذ إجراء ضد مصر للرد على قرار «عبد

الناصر»، واتخذت فيه القرارات الآتية:

١- *الدعوة إلى عرض الأزمة على هيئة الأمم المتحدة.*

٢- *تأليف هيئة للدول المنتفعة بقناة السويس للاتصال بمصر والتفاوض معها حول قرارها.*

٣- *إعلان رغبة الولايات المتحدة الأمريكية فى الانضمام إلى هذه الهيئة (٢١).*

ورغم أن القرار الثانى من هذه القرارات كان يتفق والقرار المصرى، إلا أن الحكومة البريطانية تجاهلت ذلك، وعرضت القرار على هيئة الأمم المتحدة على أنه اقتراح لها، وكذلك لتظهر أنها مع الحل السلمى للأزمة.

وفى ٤ أكتوبر تقدمت كل من بريطانيا وفرنسا بشكوى إلى مجلس الأمن ضد مصر، مدعيتان فيه أن مصر قد استولت على قناة السويس بشكل تعسفى، وأن هذا الإجراء هو خرق للاتفاقيات الدولية، كما أنه يعرض حرية الملاحة فى هذا الممر الهام لأخطار كبيرة(٢٢).

وفى الوقت الذى اتخذت فيه هاتان الدولتان هذه الإجراءات الدبلوماسية، كانتا تعدان كذلك - بالاشتراك مع إسرائيل- لشن حرب على مصر، بل ووضعت الخطط العسكرية لذلك، يظهر هذا من تقرير أورده «محمد حسنين هيكل»(٢٣) مضمونه كتبه السفير المصرى فى واشنطن «أحمد حسين» ذكر فيه أن أحد أعضاء السفارة المصرية فى واشنطن كان يتحدث مع أحد مسئولى وزارة الخارجية الأمريكية فقال له حول هذه التطورات «فالننتظر ما تجىء به الأحداث فى الأسبوع القادم»، فرد المسئول الأمريكى قائلا: «فى الأسبوع القادم لن يكون هناك مصر»(٢٤).

حاول «عبد الناصر» جاهدا تجنب الصدام مع الغرب، ولهذا وافق على قرار مجلس الأمن الذى صدر فى ١٣ أكتوبر ١٩٥٦م، وتضمن ستة مبادئ، هى:

١- حرية الملاحة فى قناة السويس دون أى تفرقة.

٢- احترام سيادة مصر.

٣- فصل إدارة القناة عن الأمور السياسية.

٤- تحديد رسوم عبور القناة بالاتفاق بين مصر والدول المستخدمة لها.

٥- توجيه جزء من إيرادات القناة لتحسين الملاحة بها وتطويرها.

٦- حل أى خلاف حول القناة عن طريق التحكيم(٢٥).

وقد أعلنت مصر التزامها بهذه المبادئ، رغم تضارب التفسيرات حول بعضها، وأعلنت استعدادها لإجراء مفاوضات مباشرة مع كل من بريطانيا وفرنسا للوصول إلى حل لمشكلة القناة فيما بينهم، كما وافقت على اقتراح السكرتير العام للأمم المتحدة «همرشلد» (Hammarshiold) بعقد اجتماع فى جنيف فى ٢٩ أكتوبر بين وزراء خارجية كل من مصر وبريطانيا وفرنسا للاتفاق على حل للمشكلة.

ورغم أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد وافقتا على الاقتراح(٢٦)، إلا أن ذلك لم يكن سوى تغطيه لما قررتاه بالفعل، وهو شن عدوانهم على مصر (بالتعاون مع إسرائيل)، وفى اليوم نفسه الذى اقترحه 'همرشلد' لعقد هذا الاجتماع، ففى هذا اليوم، أى ٢٩ أكتوبر، بدأت مقدمة هذا العدوان، وهو الهجوم الإسرائيلى على شبه جزيرة سيناء(٢٧).

الملك سعود والعدوان الثلاثى على مصر:

رفض الملك «سعود» العدوان الثلاثى على مصر، ووقف فى صفها موقفا قويا، وساندها سياسيا عربيا، ودوليا، كما ساندها عسكريا، واقتصاديا. وفيما يلى الإجراءات التى اتخذها فى كل مجال من هذه المجالات:

أ - سياسيا:

على المستوى العربى دعا الملك «سعود» حكام الدول العربية إلى مساندة مصر(٢٨)، مما دعا كثير من هؤلاء الحكام إلى إعلان حالة الطوارئ فى بلادهم(٢٩)، بل أن بعضهم، كما فى سوريا والأردن، أعلنوا حالة الاستنفار فى قواتهم المسلحة، تمهيدا لمساندة مصر عسكريا تنفيذا لاتفاقية الدفاع المشترك(٣٠)، ولكن 'عبد الناصر' رفض هذه الإجراءات حتى لا يعرض هذه الدول لأى اعتداء(٣١).

وفى إطار الموقف السعودى العربى المساند لمصر فى مواجهة العدوان الثلاثى حضر الملك «سعود» مؤتمر القمة العربية الذى عقد فى بيروت فى ١٣-١٤ نوفمبر ١٩٥٦م، وذلك للنظر فى الموقف السياسى الناتج عن العدوان، ولمساندة مصر فى هذا الموقف(٣٢). وقد أصدر المؤتمر قرارين هامين، هما:

١- ضرورة تنفيذ قرارات الأمم المتحدة، القاضية بانسحاب جيوش الدول المعتدية فورا من الأراضى المصرية إلى ما وراء خطوط الهدنة، فورا دون قيد أو شرط، وإلا ستحمل هذه الدول تبعة أى اعتداء على مصر. وقد هددت الدول المجتمعة بأنها ،فى حالة وقوع أى اعتداء جديد على مصر، ستتخذ تدابير للدفاع عن نفسها طبقا للمادة (٤١) من ميثاق الأمم المتحدة(٣٣)، وستطبق معاهدة الدفاع العربى المشترك(٣٤).

٢- العمل على حل مشكلة قناة السويس بما يتفق مع سيادة مصر وكرامتها فى نطاق الأمم المتحدة على أساس معاهدة ١٨٨٨م، والمبادئ الستة التى أقرها مجلس الأمن فى ١٣ أكتوبر ١٩٥٦م(٣٥).

ودوليا، حث الملك «سعود» دول حلف بغداد، وهى إيران والعراق وتركيا وباكستان، على مقاطعة حكومات كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل(٣٦)، وكانت هذه الدول فى ذلك الوقت مجتمعة فى مؤتمر لبحث العدوان الثلاثى على مصر، فأصدرت بيانا استنكرت فيه العدوان الثلاثى على مصر، ودعت القوات الإسرائيلية إلى الانسحاب فورا من مصر، كما دعت إلى احترام سيادة مصر واستقلالها عند بحث مشكلة قناة السويس فى الأمم المتحدة(٣٧).

ومن ناحية أخرى، خاطب الملك «سعود»، فور حدوث الاعتداء الثلاثي، الرئيس الأمريكي «أيزينهاور» في برقية إليه يحثه على الوقوف في وجه العدوان، ومساندة مصر، ونظرا لأهمية هذه البرقية نورد نصها فيما يلي:

«فخامة رئيس الولايات المتحدة مستر داويت أيزينهاور، علمت مما نشرته الأنباء مدى الاهتمام البالغ الذي أبديتموه فخامتكم بالعدوان اليهودي على الأراضي المصرية، والجهود التي بذلتموها لتحذير المعتدي، وإعرابكم عن أن أمريكا ستكون بجانب الدولة المعتدى عليها، وموقفكم هذا يعتبر هو انتصار لمبادئ العدل التي تناصرها الولايات المتحدة، ويعمل على تنفيذ هذه السياسة الرجل الشريف المحافظ على عهده ووعوده. وإني إذ أشكر فخامتكم على رد هذا العدوان الغاشم، ونرجو أن تثق فخامتكم في أن هدفنا هو المحافظة على السلم، وإنكم إذا لم تعملوا سريعا على وقف هذا العدوان، فإننا لا يمكن التكهن بنتائجه. ولقد رأيتم فخامتكم أننا كنا على حق حينما رأينا هذه المجموعة الصهيونية تشغل أرضا عربية، كانت وما تزال مثارا للقلق والاضطرابات في الشرق، وإني إذ أشكر صديقي العزيز على هذا الموقف، أرجو أن تستمر أعماله الفعالة في معاونة المعتدى عليه، تنفيذا لوعدك حتى يستتب الأمن، ويعود إلى هذه المنطقة التي أفسدها العدوان الصهيوني»(٣٨).

وعندما وقفت الولايات المتحدة موقفا معارضا للعدوان الثلاثي، وأعلنت ذلك في الأمم المتحدة، وذلك لأن هذا العدوان يضر بمصالحها في المنطقة المتمثلة في المحافظة على أمن قناة السويس كممر مائي حيوي، أعرب الملك «سعود» للرئيس «أيزينهاور» في رسالة إليه(٣٩) عن تقديره لهذا الموقف(٤٠)، كما طالبه باتخاذ موقف ايجابي في هذا الظرف السياسي. وربما كان من نتائج هذه الرسالة أن أعلن «أيزينهاور» ووزير خارجيته «جون فوستر دالاس» (John Foster Dallas) عدم رضائهما عن تصرف كل من بريطانيا وفرنسا ضد مصر، وحذرا الدولتين بأنه يمكن أن يؤدي إلى حرب عالمية، كما أعلنا عدم تأييدهما لهذا الإجراء(٤١).

ولم تكتف الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الإعلان، بل أنها تقدمت إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢ نوفمبر ١٩٥٦م بمشروع قرار طالبت فيه كلا من بريطانيا وفرنسا بوقف فوري لإطلاق النار والانسحاب من مصر(٤٢).

وعلى الرغم من أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد وافقتا على هذا القرار إلا أنهما اشترطتا وضع قوة من البوليس الدولي تمثل فيها الدولتان على الحدود المصرية الإسرائيلية بصورة مؤقتة حتى إقرار الصلح بين مصر وإسرائيل، وكذلك قبول مصر لتسوية مشكلة قناة السويس بما يضمن مصالح الدول المنتفعة بها، أو قبول قوات بريطانية- فرنسية بشكل مؤقت حتى تتم هذه التسوية(٤٣).

وكانت هذه الشروط من الدولتين في حقيقة الأمر محاولة للالتفاف حول قرار الأمم المتحدة، ومحاولة لإجهاضه. وهذا دفع الحكومة السعودية إلى قطع كل أشكال العلاقات

السياسية والاقتصادية بينها وبين الدولتين(٤٤)، وبدأت ذلك بمنع شحن وتموين جميع سفن الدولتين، وجميع السفن المتجهة إليهما بالبترول(٤٥). وقد استمرت هذه المقاطعة للسفن الانجليزية والفرنسية فى الموانئ السعودية قرابة الشهر(٤٦). وهذا الموقف من الحكومة السعودية أصابها بخسائر كبيرة تقدر بمليون دولار يوميا(٤٧). وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها البترول كسلاح ضد الدول الغربية التى كانت تحصل، فى هذا الوقت، على ثلاثة أرباع ما تحتاجه من البترول من الدول العربية(٤٨).

ولم تكتف الحكومة السعودية بهذا الإجراء فقط، بل أنها قامت أيضا بطرد موظفى شركة السلاح الفرنسية التى كانت تعمل فى مدينة 'الخرج' السعودية(٤٩).

ب- عسكريا:

أعلن الملك «سعود» التعبئة العامة لتجهيز القوات المسلحة السعودية لدفع هذا العدوان(٥٠). كما أبلغ 'عبد الناصر' شخصيا بموقفه المساند لمصر(٥١) واستعداده لوضع كل إمكانات السعودية تحت تصرف مصر، وتنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك(٥٢). بل إنه اتخذ إجراءات عملية لهذا الغرض، مثل وضع جميع مطارات المملكة وموانيها تحت تصرف مصر(٥٣)، وقد تحقق هذا عمليا عندما لجأت اثنتى عشر قاذفة مصرية إلى المطارات السعودية حتى لا يتم تدميرها فى مصر بواسطة طائرات التحالف الغربى، كما آوت إحدى الفرقاطات المصرية إلى الموانئ السعودية لهذا الغرض أيضا(٥٤)، وبهذا تحولت السعودية إلى عمق استراتيجى لمصر(٥٥).

ولم يكتف الملك «سعود» بهذه الإجراءات العسكرية فقط، بل أنه أمر أيضا بفتح مكاتب لقبول المتطوعين من السعوديين، واستدعى الجنود المتقاعدين إلى الخدمة، وشجع أمراء الأسرة المالكة على التطوع أيضا، فتقدم عدد كبير منهم، كان من أبرزهم الأمراء: خالد بن عبد العزيز (الملك خالد فيما بعد)، وسلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، وعبد الله الفيصل وزير الداخلية ورئيس لجنة التبرعات لضحايا العدوان على بورسعيد(٥٦)، وكذلك بعض المسؤولين كان منهم الشيخ محمد رضا وزير التجارة، وكثير من أفراد الشعب، ووجهاء ورؤوس القبائل(٥٧).

ج- اقتصاديا:

واقتصاديا تبرع الملك «سعود» بمبلغ مليونى ريال سعودى، أى بما يساوى حينئذ مبلغ مائتى ألف جنية مصرى، للهلال الأحمر المصرى، ليتمكن من أداء مهمته فى معالجة جرحى الحرب من المصريين(٥٨)، كما أمر بتخصيص الأموال التى كانت ستنفق فى احتفالات عيد جلوسه على العرش لأسر ضحايا العدوان من المصريين(٥٩)، كما شجع أفراد الأسرة المالكة، والشعب على التبرع، وفتحت لهذا الغرض كثير من مكاتب التبرع فى كل أنحاء المملكة،

فأقبل الجميع على ذلك، وكان منهم رؤساء ووجهاء قبائل غامد وزهران، وأهالى المنطقة الشرقية، ومدينة الخبر، وغيرها من مناطق ومدن المملكة العربية السعودية(٦٠)، هذا بالإضافة إلى الأمير فهد بن فيصل أمير منطقة الرياض، وحسن الشربتلى وزير الدولة السعودى، وكثير من رجال الأعمال. هذا وقد بلغت جملة التبرعات ما يزيد عن مليون ريال سعودى(٦١).

الدوافع وراء موقف الملك "سعود":

والعرض السابق يبين أن الملك «سعود» قام بمجهودات كبيرة فى النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية من أجل مواجهة العدوان الثلاثى على مصر. وقد أثمرت هذه المجهودات، وبخاصة منع تصدير البترول إلى بريطانيا وفرنسا، ، بالإضافة إلى الموقف المساند لها عربيا ودوليا وبخاصة موقف الولايات المتحدة الأمريكية، فى دفع دول العدوان الثلاثى- بريطانيا وفرنسا وإسرائيل- إلى الانسحاب من مصر فى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦م. والسؤال الذى يجب أن يطرح هنا هو: ما هى الدوافع التى دفعت الملك «سعود» إلى اتخاذ هذا الموقف، والقيام بهذه الإجراءات كلها ؟

فى الحقيقة أن هناك عدة عوامل دفعت الملك «سعو» إلى اتخاذ هذه المواقف الصلبة ضد تصرفات بريطانيا ومعها فرنسا وإسرائيل ضد مصر، يمكن أن نجملها فيما يلى:

١- أن الملك «سعود» كان مؤمنا بما آمن به والده الملك «عبد العزيز» بأن كلا من مصر والسعودية يمثلان خط الدفاع الأول عن العروبة، وأن كلا منهما يمثلان عمقا استراتيجيا لها(٦٢). كما كان يعتقد بأن مصر هى رأس الأمة العربية، وإذا انتكست هذه الرأس فإن كل الأمة العربية ستنكس رأسها، ولن تستطيع أن ترفعها بعد ذلك(٦٣).

٢- أنه كان للمملكة العربية السعودية والأسرة الحاكمة السعودية ثأر بايت مع بريطانيا بصفة خاصة يرجع إلى ماقبل هذه الأحداث، وذلك عندما ساندت الأشراف الهاشميين، أبناء الشريف حسين أمير مكة وملك الحجاز، فيصل وعبد الله، وأنشأت لهما عرشين فى كل من العراق والأردن، ومن المعروف أنه كانت توجد عداوة قديمة بين الأسرة المالكة السعودية وبين أشراف مكة. ومن ناحية أخرى فقد اعترفت بريطانيا بالإمارات الخليجية الجديدة، وكان هذا على حساب المملكة العربية السعودية، وبخاصة فى ترسيم الحدود بينها وبين هذه الإمارات، وهذا يظهر بصفة خاصة من اعتداء بريطانيا على واحة البريمى السعودية(٦٤). وقد التقى عداء السعودية لبريطانيا مع عداء مصر لها لأسباب تاريخية معروفة.

٣- أن السعودية كانت ضد ادخال المنطقة العربية فى نطاق الأحلاف الغربية، وبخاصة حلف بغداد الذى كان يحظى بدعم بريطانيا، وهذا أيضا كان موقف مصر، ولهذا جرى تنسيق بين الدولتين لمحاربة هذه الأحلاف، ومنع دخول أى دولة عربية فيها، لأن هذا يعد خرقا

لميثاق جامعة الدول العربية، واتفاقية الدفاع العربى المشترك.

٤- أن السعودية قد عقدت ثلاث إتفاقيات عسكرية بينها وبين مصر، وقعت الأولى بينهما فى أعقاب الغارة الإسرائيلية على مصر فى مارس ١٩٥٥م، ووقعت الثانية فى أكتوبر من العام نفسه فى أعقاب الاعتداء البريطانى على واحة البريمى السعودية، ووقعت الثالثة نتيجة لمحاولة كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بذر بذور الخلاف بين الملك سُعودُ وُعبد الناصرُ، والتفريق بينهما(٦٥). وهذه الاتفاقيات كانت تلزم الدولتين بمساندة بعضهما البعض فى حالة الاعتداء على أحدهما، وبهذا كان موقف السعودية من العدوان على مصر هو ،من أحد جوانبه، تنفيذ لهذه الاتفاقيات.

ومن هذا يتضح أنه كانت توجد دوافع قوية دفعت الملك سُعودُ إلى مساندة مصر ضد العدوان الثلاثى عليها، فقد كانت هذه فرصة ليرد لبريطانيا بعض ما قامت به ضد المملكة العربية السعودية من مكائد ومؤامرات. وكذلك صد أطماعها فى المنطقة، كما أن هذا الموقف يأتى أيضا فى اطار الرفض العالمى للعدوان الثلاثى على مصر، سواء على المستوى الرسمى أم الشعبى.

الهوامش

(1) F. O. 371/ 108444, From Ralph Stevenson to Foreign Office, No 78, 20 March 1954.

(2) F.O. 371/102761 to F. O. 371/102766, "Negotiations between Egypt and UK: Reaction to Egyptian Demands for Evacuation for the Canal Suez" 1953.

(3) Foreign Relation of the United States (Near East and NSC, Vol. 2), Washington: United States Government Printing Office, 1954, PP. 112- 114.

(4) Eisenhower, D., Miandate for Change- The White House Years 1953- 1956, New York, Doubeleday, 1963, PP. 240-242.

(5) Foreign Realtions, 1956, Vol.5, PP.189-190.

(6) Love, K., Suez- The Twice Fought war, Longman, London 1969, PP. 90-91.

(٧) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس، ط ١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٦، ص ٤٣٨-٤٣٩.

(٨) نفسه، ص ٤٣٩؛ إبراهيم المسلم، العلاقات السعودية المصرية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٤٣.

(٩) وقد انضمت اليمن أيضا إلى هذه الاتفاقية، انظر: محمد حسنين هيكل، نفسه، ص ٤٣٩-٤٤٠؛ محمد جلال كشك، كلمتي للمغفلين، ط ٢، دار ثابت، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٥٧. وعن هذه الاتفاقيات انظر: مركز دراسات الوحدة العربية، مصر العروبة وثورة يوليو، بيروت ١٩٨٢، ص ٣٢١؛ محمد حسنين هيكل، نفسه، ص ٣٤٠؛ محمد جلال كشك، نفسه، ص ١٥٧.

(١٠) رسالة من الملك «سعود» إلى «جمال عبد الناصر» بتاريخ ١٩٥٦/٧/٢٦، وثيقة رقم (١٣٠). انظر أيضا: محمد حسنين هيكل، نفسه، ص ٧٩٩.

(١١) جريدة اليمامة السعودية، عدد ٤٥ بتاريخ ١٣٧٦/٢/٤هـ-١٩٥٦/٩/٩م.

(١٢) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٤٢ بتاريخ ١٣٧٦/٢/٤هـ-١٩٥٦/٩/٩.

(١٣) New York Times, 8 September 1956. وانظر كذلك: جريدة فلسطين، عدد ١١٢ بتاريخ ١٣٧٦/٢/٣هـ-١٩٥٦/٩/٨م.

(١٤) جريدة اليمامة السعودية، عدد ٥١ بتاريخ ١٣٧٦/٣/١٦هـ-١٩٥٦/١٠/١٧م.

(١٥) عن «يوسف ياسين» انظر: أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس، «يوسف ياسين ودوره في السياسة السعودية المعاصرة»، مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس، ١٥ (٢٠٠٤).

(١٦) جريدة الدفاع الأردنية، عدد ١٧٦ بتاريخ ١٣٧٦/٢/٥هـ-١٩٥٦/٩/١٠م.

(١٧) انظر نص رسالة الملك «سعود» إلى «جمال عبد الناصر» في ١٩٥٦/٩/٧، وثيقة رقم (١٣٨)؛ وكذلك نص رسالته إلى «علي صبري» مدير مكتب «جمال عبد الناصر» في ١٩٥٦/٩/٧م، وثيقة رقم (١٣٩). انظر: محمد حسنين هيكل، نفسه، ص ٨١٩-٨٢١.

(١٨) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٤٧ بتاريخ ١٣٧٦/٢/٩هـ-١٩٥٦/٩/١٥م؛ جريدة اليمامة السعودية، عدد ٤٦ بتاريخ ١٣٧٦/٢/١٠هـ-١٩٥٦/٩/١٦م.

(١٩) جريدة اليمامة السعودية، عدد ٤٨ بتاريخ ١٣٧٦/٢/٢٤هـ-١٩٥٦/٩/٣٠م؛ جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٥٤ بتاريخ ١٣٧٦/٢/١٨هـ-١٩٥٦/٩/٢٤م.

(٢٠) مفيد الزيدي، تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن ٢٠٠٤، ص ٢٨٧.

(21) F.O.371/121771, "Political Relation between Israel and Arab States", Military Consequences, Including Action by UK and France at Suez", 1956.

(22) F.O371/118902,Military Action Of Uk And France at Suez International Repercussions, Casualities, Withdrawal of Embassy from Egypt, " 1956

(٢٣) محمد حسنين هيكل، نفسه، ص ٥١١.

(٢٤) نفسه، ص ٥١٢.

(٢٥) محمود رياض، المذكرات، ج ٢، ط ١، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٦ص ١٥٣.

(٢٦) نفسه، ص ١٥٤.

(٢٧) نفسه، ص ١٥٣.

(٢٨) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٨٧ بتاريخ ١٩٥٦/١٠/٣١.

(٢٩) انظر برقيات ملوك ورؤساء الدول العربية إلى الملك سعود في جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٨٩ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٢.

(٣٠) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٩٠ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٤.

(٣١) محمود رياض، نفسه، ص ١٥٤-١٥٥.

(٣٢) مؤتمر القمة العربي ١٣-١٤ نوفمبر ١٩٥٦، صادر عن جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٧.

(٣٣) وتنص هذه المادة على أنه في حالة اعتداء دولة على أخرى فان المجلس يدعو إلى قطع العلاقات السياسية والاقتصادية معها كليا أو جزئيا، وقطع جميع طرق المواصلات البرية والبحرية والبريدية والبرقية والاذاعية معها. انظر: عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٦، ص ٥٠٢-٥٠٨.

(٣٤) تنص المادة الثانية من ميثاق الأمن العربي المشترك على أن أي اعتداء على أي دولة عربية يعتبر اعتداء على كل الدول العربية، ويجب على الموقعين على الميثاق اتخاذ تدابير جماعية أو فردية، بما فيها استخدام القوة، لرد هذا الاعتداء. انظر: ميثاق جامعة الدول العربية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ١٩٤٦.

(٣٥) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٣٠١ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٦؛ وجريدة اليمامة، عدد ٥٥ بتاريخ

١٨/١١/١٩٥٦؛ وجريدة الأخبار، عدد ١٣٦٤ بتاريخ ١٦/١١/١٩٥٦.

(٣٦) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٣٢٩ بتاريخ ٩/١١/١٩٥٦.

(٣٧) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٣٠١ بتاريخ ١٦/١١/١٩٥٦.

(٣٨) New York Times, 2 November 1956؛ جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٨٩ بتاريخ ٢/١١/١٩٥٦؛ جريدة اليمامة، عدد ٥٣ بتاريخ ٤/١١/١٩٥٦.

(٣٩) بتاريخ ٣/١١/١٩٥٦.

(٤٠) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٩٠ بتاريخ ٤/١١/١٩٥٦.

(٤١) New York Times, 6 November 1956؛ جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٩٠ بتاريخ ٤/١١/١٩٥٦.

(٤٢) Foreign Relation, 1956, Vol.5, pp.280-282;

(43) F.O.371/121804, "Political Relations between Israel and Arab States, Military Consequences, Including Action by UK and France at Suez", 1956;

وانظر كذلك: محمود رياض، نفسه، ص ١٥٨.

(٤٤) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٩٣ بتاريخ ٧/١١/١٩٥٦؛

New York Times, 9/11/1956.

(٤٥) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٩٣ بتاريخ ٧/١١/١٩٥٦.

(٤٦) إبراهيم المسلم، نفسه، ص ٤٦.

(٤٧) محمد حسنين هيكل، نفسه، ص ٩٠٩-٩١٠.

(٤٨) محمود رياض، نفسه، ص ١٦٤؛ New York Times, 23/12/1956.

(٤٩) جريدة الأخبار، عدد ١٣٥٩ بتاريخ ٩/١١/١٩٥٦.

(٥٠) صلاح بسيوني، مصر وأزمة السويس، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٢٠؛ جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٨٧ بتاريخ ٣١/١٠/١٩٥٦.

(٥١) جريدة البلاد السعودية، نفس العدد السابق.

(٥٢) جريدة الأخبار، عدد ١٣٥٢ بتاريخ ١/١١/١٩٥٦؛ صلاح بسيوني، نفسه، ص ٢٢٠.

(٥٣) إبراهيم المسلم، نفسه، ص ٤٦.

(٥٤) محمود رياض، نفسه، ص ١٥٥، ١٥٩.

(٥٥) نفسه، ص ١٥٩.

(٥٦) جريدة البلاد السعودية، عددي ٢٢٨٩ بتاريخ ٢/١١/١٩٥٦و ٢٢٩٠ بتاريخ ٤/١١/١٩٥٦. وكان منهم أيضا الأمراء: تركي بن عبد العزيز، بسطام بن عبد العزيز، سلطان بن عبد العزيز، وغيرهم.

انظر: جريدة البلاد السعودية، أعداد: ٢٢٩٥ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٩؛ ٢٣٠١ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٦؛ ٢٢٩١ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٥؛ ٢٣٣٣ بتاريخ ١٩٥٦/١٢/٢٤؛ وجريدة اليمامة، عدد ٥٤ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١١.

(٥٧) جريدة البلاد السعودية، عدد ٢٢٩٥ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٩.

(٥٨) New York Times, 19/11/1956؛ جريدة اليمامة، عدد ٥٤ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١١؛ جريدة الأخبار، عدد ١٣٥٩ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٩.

(٥٩) جريدة الأخبار، عدد ١٣٦١ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٢.

(٦٠) جريدة البلاد السعودية، أعداد: ٢٢٩٠ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٤، ٢٢٩٣ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٧، ٢٣١٦ بتاريخ ١٩٥٦/١٢/٤.

(٦١) جريدة اليمامة، عدد ٥٩ بتاريخ ١٩٥٦/١٢/١٦؛ جريدة الأخبار، عدد ١٣٦٣ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٤.

(٦٢) إبراهيم المسلم، نفسه، ص ٨.

(٦٣) محمد حسنين هيكل، نفسه، ص ٦٠٠.

(٦٤) محمد جلال كشك، نفسه، ص ١٥٦.

(٦٥) انظر هامش (٩).

قائمة المصادر والمراجع

١- المصادر

أ- المصادر العربية:

١- الوثائق: ملفات السويس:

وثيقة رقم (١٣٠): رسالة من الملك «سعود» إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» بتاريخ ١٩٥٦/٧/٢٦م.

وثيقة رقم (١٣٨): رسالة من الملك «سعود» إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» بتاريخ ١٩٥٦/٩/٧م.

وثيقة رقم (١٣٩): رسالة من الملك «سعود» إلى «على صبري» (مدير مكتب جمال عبد الناصر) بتاريخ ١٩٥٦/٩/٧.

٢- الدوريات:

- جريدة «الأخبار»: العدد: ١٣٥٢بتاريخ١/١١/١٩٥٦م؛ العدد:١٣٥٩بتاريخ ١٩٥٦/١١/٩م ؛العدد ١٣٦١: بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٢م؛ العدد: ١٣٦٣بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٤م؛ العدد: ١٣٦٤ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٦م.

- جريدة «أم القرى» السعودية: العدد: ١٢٧١بتاريخ ١٩٤٩/٨/٢٨م؛ العدد: ١٦١٧بتاريخ ١٩٥٦/١٢/٤م.

- جريدة «البلاد» السعودية: العدد: ٢٢٤٢بتاريخ ١٩٥٦/٩/٩م؛ العدد:٢٢٤٧بتاريخ ١٩٥٦/٩/١٥م؛ العدد: ٢٢٥٤ بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٤م؛ العدد: ٢٢٨٧ بتاريخ ١٩٥٦/١٠/٣١م؛ العدد:٢٢٨٩بتاريخ ١٩٥٦/١١/٢م؛ العدد: ٢٢٩٠بتاريخ ١٩٥٦/١١/٤م؛ العدد: ٢٢٩١ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٥م؛ العدد:٢٢٩٣بتاريخ ١٩٥٦/١١/٧م؛ العدد: ٢٢٩٥بتاريخ ١٩٥٦/١١/٩م؛ العدد: ٢٣٠١ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٦م؛ العدد: ٢٣١٦ بتاريخ ١٩٥٦/١٢/٤م؛ العدد: ٢٣١٧ بتاريخ ١٩٥٦/١٢/٥م؛ العدد: ٢٣٢٩ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٩م؛ العدد: ٢٣٣٣ بتاريخ ١٩٥٦/١٢/٢٤م.

- جريدة «اليمامة» السعودية: العدد: ٤٥ بتاريخ١٩٥٦/٩/٩م؛ العدد: ٤٦ بتاريخ ١٩٥٦/٩/١٦م؛ العدد: ٤٨ بتاريخ ١٩٥٦/٩/٣٠م؛ العدد: ٥١ بتاريخ ١٩٥٦/١٠/١٧م؛ العدد: ٥٣ بتاريخ ١٩٥٦/١١/٤م؛ العدد: ٥٤ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١١م؛ العدد: ٥٥ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٨م؛ العدد: ٥٩ بتاريخ ١٩٥٦/١٢/١٦م.

- جريدة «الدفاع» الأردنية: العدد: ١٧٦بتاريخ ١٩٥٦/٩/١٠م.

- جريدة «فلسطين»: العدد :١١٢بتاريخ ١٩٥٦/٩/٨ م.

٣- المذكرات:

محمود رياض، المذكرات، ط ١، ٢ ج، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٦.

٤- المؤتمرات:

جامعة الدول العربية: مؤتمر القمة العربية (١٣-١٤ نوفمبر ١٩٥٦م)، الأمانة العامة للجامعة العربية، القاهرة ١٩٥٧م.

- ميثاق جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، القاهرة ١٩٤٦م.

ب- المصادر الأجنبية:

١- وثائق وزارة الخارجية البريطانية:

- F.O.317/102781 to F.O.371/102766, Negotiations between Egypt and UK: Reaction to Egyptian Demands for Evacuation of the Canal Suez, 1953.
- F.O.371/108444, From Ralph Stevenson to Foreign, No.78, 20 March 1954.
- F.O.371/118902, Military Action of UK and France at Suez International Repercussions, Casualties, Withdrawal of UK Embassy from Egypt, 1956.
- F.O.371/121771, Political Relations between Israel and Arab States: Military Consequences, Including Action by UK and France at Suez, 1956.
- F.O.371/121804, Political Relations between Israel and Arab States: Military Consequences, Including Action by UK and France at Suez, 1956.

٢- وثائق العلاقات الخارجية الأمريكية:

- Foreign Relations of the United States (Near East and NSC, Vol.2), Washington, United States Government Printnig Office, 1954.
- Foreign Relations of the United States (Near East and NSC, Vol.5), Washington, United States Government Printnig Office, 1956.

٣- الدوريات:

New York Times: 8/9/1956; 1/11/1956; 6/11/1956; 9/11/1956; 19/11/1956; 23/11/1956.

المراجع العربية

إبراهيم المسلم، العلاقات السعودية المصرية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ٢٠٠٠م.

صلاح بسيوني، مصر وأزمة السويس، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠.

عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٦.

محمد جلال كشك، كلمتي للمغفلين، ط٢، دار ثابت، القاهرة ١٩٨٥.

محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، ط ١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٦.

مفيد الزايدي، تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث والمعاصر، ط ١، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن ٢٠٠٤.

- المراجع الأجنبية:

- Eisenbower, D., Miandate for Change, The White House Years, 1953-1956, New York, Dubleday, 1963.
- Love, K., Suez-The Twice Fought War, Longman, London 1969.

د. محمد سيد كامل (*)

الألقاب الفخرية والنعوت التشريفية في الدولة السلجوقية

يتناول هذا البحث الألقاب الفخرية الممنوحة لسلاطين الدولة من قبل خلفاء بني العباس في بغداد، بالإضافة للنعوت والمسميات التشريفية الممنوحة لكبار رجالات السلطنة السلجوقية من وزراء ومستوفين ورؤساء دواوين الطغراء والقضاة وغيرهم. وذلك من واقع الأحداث التاريخية فضلاً عن التراجم والسير التي لا تقل أهمية عن مصادر التاريخ، اعتماداً على قصائد الشعراء ومدائحهم في السلاطين ورجالات البلاط السلجوقي.

لقد انتشرت الألقاب الفخرية بصورة كبيرة في داخل نطاق العالم الإسلامي خاصة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فإمتدت من الخلفاء القائمين على السلطة في بغداد إلى الحكام شبه المستقلين في المشرق الإسلامي، الذين حرصوا على الحصول على موافقة الخلافة على ألقابهم، مع تمتع الخليفة بحق تعيينهم حتى في حالات استقلالهم استقلالاً فعلياً.

واللقب هو ما يطلق من الصفات الرسمية على سبيل التشريف، وبهذا يقتصر فيه على الألقاب الفخرية الرسمية التي تصدر عن الخلافة، ويصدق عليها في ديوان الرسائل، بل تصبح الألقاب ذات أهمية إذا درست ما يحيط بها من ظواهر إجتماعية وسياسية ودينية، فتلقى بذلك الضوء على الأحداث السياسية.

*-مدرس بكلية دار العلوم ـ جامعة المنيا

لقد أصبح للتلقيب رسوم خاصة في دار الخلافة نفسها من أهمها ما عرف بإسم كتاب التنوية، حيث جرت العادة أن ينعم على الملقب بكتاب صادر من ديوان الخلافة له رسم خاص، فيفتح الخطاب بحمد الله على نعمه السابقة، والصلاة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. ثم يقال: «وإن أمير المؤمنين بما خوله الله تعالى من نعمة يرى المن على خلصائه وإسباغ نعمه على أوليائه، واختصاص بالنصيب الأوفر من حياته، لذا رأى أن ينعتك (بكذا) لاشتقاقه هذا النعت من سماتك واستنباطه إياه من صفاتك، وشرفك من ملابس (بكذا) وطوقك بطوق، وقلدك بسيف من سيوفه، وعقد لك لواء من ألويته، وحملك على (كذا) من خيله (وكذا) من مراكبه(١)».

وبناء على ذلك فإن الألقاب الممنوحة تسجل في ديوان الرسائل ببغداد، ويحتفظ بها بنسخة من الخطاب في ديوان الولايات المختلفة، لذا قام السلاجقة بإنشاء دواوين مماثلة لدواوين الخلافة لتنظيم المكاتبات الإدارية، فقد جرت رسوم الكتب أن تكون «بأوضح خط وأفصح لفظ، وتكون السطور من أول القرطاس، ومن غير تفصيل في أحد جانبي السطر، ويكون بين كل سطر وسطر سعة»(٢).

وقد جرت العادة أن يقدم الملقب إلى خزانة الخلافة الهدايا الفاخرة، والتحف النادرة لدرجة أنها أصبحت مصدر من مصادر الدخل الهامة للخزانة(٣)، فنرى أن السلطان طغرلبك لقبه الخليفة القائم بأمر الله العباس بلقب «ملك الشرق والغرب»، أرسل إلى الخليفة هدية عبارة عن خمسون ألف دينار وخمسون مملوكاً تركياً، ومعهم خيولهم وسلاحهم. كما أرسل عيد النوروز مع وزيره عميد الملك الكندري عشرة آلاف دينار سوى ما أضيف إليها من الأعلام النفسية(٤).

وفي بعض الأحيان كان الخليفة العباسي يهدي الملقب بعض الهدايا المماثلة أو ينعم عليه بالخلع والملابس الفاخرة، ويقلده السيوف، فقد أهدى الخليفة «المقتدر بالله» «لملكشاه» عندما لقبه بلقب «جلال الدين» خلع قيمة عبارة عن سبع خلع والطوق والسوار، وأمر الخليفة «مختص الخادم» بتقليده بسيفين، كما خلع على الوزير «نظام الملك الطوسي» خلعة مطرزه بعبارة «باسم الوزير العادل الكامل نظام الملك رضي الخليفة»(٥). هذه الخلعة التي تحمل العديد من الألقاب الفخرية الممنوحة من قبل الخليفة للوزير الأول في السلطنة السلجوقية نظام الملك في عهد السلطان ملكشاه.

وعلى ذلك نستخلص أن الألقاب الفخرية لها أهميتها ورونقها الذي يرفع قدر صاحبها خاصة في منطقة المشرق الإسلامي إلى درجات عالية من الرفعة والمنزلة العالية، لذا يشير الوزير نظام الملك(٦) إلى أن اللقب لابد أن يكون مناسباً لقدر الرجل وحقه، فلابد أن تكون ألقاب السلاطين والإمراء ناصر الدنيا والدين، وغياث الدنيا والدين وهذه ألقاب لائقة بهم لأن مصلحة الدين والدنيا معقودة بهم وعليهم ألقاب، أما القضاة والأئمة على نحو مجد الدين، وشرف الدين، وأما الوزراء ورجال البلاط فتكون ألقابهم «شرف الملك» و«عميد الملك» و«نظام الملك» و«كمال الملك» وأمثال ذلك.

١- تاريخ الألقاب وتطورها قبل العصر السلجوقي:

أطلق في صدر الإسلام لقب «خليفة رسول الله» على الخليفة الأول أبي بكر الصديق، كما أطلق لقب أمير المؤمنين على الخليفة الثاني عمر بن الخطاب. فأصبح هذا اللقب عام على جميع الخلفاء من بعده(٧).

ومع اقتباس العديد من مظاهر الحضارة الفارسية فإن العصر العباسي كثر فيه الألقاب العامة والخاصة، فضلاً عن ظهور ألقاب مضافة إلى الدولة وإلى الملة وإلى الدين، مما يعطي أصحابها خليط ممزوج من الحكم والدين فتسود السيطرة على شعوبهم. فلقب وزراء الخلافة بعدة ألقاب مثل أبو الحسن القاسم بن عبد الله أول من لقب «بولى الدولة»، وأبو على ابن مقلة الوزير الذي لقب «بعميد الدولة»(٨).

أما فيما يختص بالأمراء المستقلين في المشرق وخاصة خراسان، فلم يلقب أحد منهم في تلك الفترة المبكرة فقد أتخذ أمرائهم لقباً عاماً يطلق على جميع حكامهم وهو لقب «أمير» (٩)، وقد بدأ التلقيب منذ حكم سبكتكين الذي اتخذ لقب «ناصر الدولة»، واتخذ ابنه محمود لقب «يمين الدولة» و«أمين الملة»(١٠) ولم يتلقب أحد من آل سامان (١١) بسلطان أو شاهنشاه وهو اللقب الذي أنفرد به الوزير نظام الملك الطوسي السلجوقي (١٢) الذي أطلقه على الأمير نوح بن منصور ولكن للحقيقة التاريخية ليس هناك أي إشارات في كتب المؤرخين تؤكد هذه المعلومة، وربما اختلط الأمر على نظام الملك فالمؤكد أن لقب «شاهنشاه» لم يمنح رسمياً من قبل الخلفاء العباسيين إلا في حوالي سنة ٤٢٥هـ/ سنة ١٠٣٨م «لجلال الدولة البويهي» من قبل الخليفة «القائم بأمر الله»، وتلقب «عضد الدولة البويهي» بهذا اللقب دون إذن الخليفة العباسي وضربت على النقود وذلك في حدود ٣٧٠هـ / ٩٨٠م(١٣).

وإلى جانب لقب الأمير كلقب عام على أمراء آل سامان فإن هناك ألقاب خاصة أطلقت عليهم كالأمير «العادل» إسماعيل(١٤)، والأمير «الرضا» نوح بن منصور (١٥)، والأمير «السعيد»وهو الأمير «أبو الحسن نصر»(١٦)، والأمير «الحميد»، وهو النعت الذي أطلق على الأمير نصر بن أحمد (١٧)، والأمير «السعيد» وهو الاسم الذي أطلق على الأمير منصور بن نوح(١٨)، وغيرها من النعوت الخاصة. وقد جرت العادة في أثناء حكم آل سامان أن يلقبوا حكامهم أثناء حياتهم بلقب، فإذا ماتوا لقبوهم بغيره، فعلى سبيل المثال لقب الأمير إسماعيل «بالأمير العادل» فلما توفى لقبه الناس بالأمير «الشهيد»(١٩)، وخلع الخليفة المكتفى على الأمير أحمد بن إسماعيل بولاية خراسان(٢٠)وبعد مقتله أطلق عليه الناس لقب «الأمير الماضي»(٢١).

وفي حقيقة الأمر أن الألقاب في الدولة السامانية لم تقتصر على الأمراء الحاكمين بل تعدى ذلك إلى الشخصيات البارزة في الدولة، فقد منح قادة الجيوش بعدة ألقاب، فقد لقب أبو العباس تاشي الحاجب بلقب «حسام الدولة» (٢٢)، وقد لقب القائد «أبو على سيجور» بنقب أمير الأمراء «المؤيد من السماء»(٢٣)، كما منح الامير نوح الساماني هذا القائد لقب «عماد الدولة»، وذلك سنة ٣٨١هـ/ سنة ٩٩١م. عندما أسند إليه قيادة الجيوش السامانية(٢٤).

وقد منح الأمير «أبو الحارث منصور بن نوح» قائده «بكتوزون» لقب «سنان الدولة»(٢٥)، ومنح الأمير «نوح بن نصر» وزيره «أبو الفضل محمد بن أحمد السلمي» لقب «الحاكم الجليل»(٢٦).

هذا بالإضافة إلى اهتمام السامانيين بنقش أسمائهم وألقابهم على العملات الذهبية والفضية التي ضربت في دار الضرب بعاصمتهم بخارى، والتي عرفت باسم البشرات العدلية نظراً لجودتها(٢٧). كذا سار الغزنويون على نفس منوال ساداتهم في هذا المضمار فنقشوا ألقابهم على عملاتهم.

ويمكن اعتبار ظهور الألقاب بصورة كبيرة في نهاية الدولة السامانية علامة على استفحال نفوذ كبار رجال الدولة من قادة وحجاب ووزراء على حساب الأمراء أنفسهم. وليس أدل على هذا من اتخاذ القائد سبكتكين لقب تشريفي رفيع في آخر حكم السامانيين لقب الوزير «الأجل»(٢٨). وقد نقش هذا اللقب على مقبرته، ففي نص جنائزي من سنة ٣٩٧هـ/ نقش لقب «الوزير الأجل الحاجب أبو منصور سبكتكين أمير غزنة»(٢٩). وقد بدأ من حكم سبكتكين اتخاذ الكنية، حيث اتخذ لقب «ناصر الدولة»، ومن بعده اتخذ ابنه محمود لقب «يمين الدولة وأمين الملة» وهو اللقب الذي حصل عليه من الخليفة القادر بالله(٣٠).

وقد زاد الإهتمام بالألقاب وتنظيمها وظهور ألقاب جديدة في العصر البويهي، فظهر لقب الشاهنشاه في العصر البويهي(٣١). ولقب الأمير علي بن بويه بلقب «عماد الدولة»(٣٢)، ولقب الحسن بن بويه بلقب «ركن الدولة»(٣٣). ومما يؤكد صحة وحقيقة اهتمام البويهيين بالألقاب الفخرية وإغداقها عليهم بصورة كبيرة ظهور ألقاب ذات طابع خاص مضافة إلى (الدولة) مثل «فخر الدولة» و «مؤيد الدولة». و«تاج الدولة» وهو اللقب الذي أطلقه الخليفة «الطائع بالله» على عضد الدولة البويهي(٣٤). وغيرها من الألقاب التي أطلقت على أمرائهم، ليس هذا فحسب بل تعدى ذلك لإغداق الألقاب على وزرائهم، فقد لقب وزيرهم زالصاحب ابن عباد بلقب «كافي الكفاة»(٣٥). ويشير البيروني(٣٦)، إلى ذلك بقوله: أن هذه الألقاب ما هي إلا أكذوبة كبرى من أكاذيبهم الكثيرة، وأن الألقاب تعدت الوزراء فأطلقت على الشعراء، مثل الشاعر منصور بن علي الرازي الذي لقب «بالمنطقي»، والشاعر أبو بكر محمد بن علي السرخسي الذي لقب «بالخسروي» الذي أنشد أشعاراً باللغتين الفارسية والعربية في الوزير البويهي الصاحب بن عباد(٣٧).

وبناء عليه فإن المؤلف البيروني(٣٨)، يشكك في ألقاب البويهيين ويعيب عليهم استخدام ألقاب ذات بريق ورنين ويتهم الخلفاء العباسيين بأنهم منحوا نعوت كاذبة إلى مواليهم ونسبوهم إلى الدولة. بينما يعلي من ألقاب سيده الأمير الزياري زقابوس بن وشمكير، وينتهي من حديثه عن الألقاب إلى تقرير حقيقة استخلصها بنفسه بأن مولاه قابوس لم يختر لنفسه إلا لقباً بسيطاً لا يتجاوز معناه ما اتصف به من صفات عديدة رفيعة وهو «شمس المعالي»(٣٩)، وهو اللقب الذي أطلقه الخليفة الطائع بالله على هذا الأمير

الزياري. وفي حقيقة الأمر هذا تحيز واضح من قبل هذا المؤرخ. فلو قارنا بين نفوذ وسلطان البويهيين وسعة ممتلكاتهم في الدولة العباسية وبين الأمير قابوس وممتلكاته في طبرستان وجرجان لأتضح الفارق الكبير. ولابد أن نشير هنا إلى أن الخليفة القادر بالله قد منح الأمير منوجهر «ابن قابوس» لقب «فلك المعالي». وإن الخليفة المطيع بالله أنعم على الأمير بيستون بن وشمكير لقب «ظهير الدولة»(٤٠).

وقد تعددت ألقاب محمود الغزنوي فإتخذ لقب العادل، و«ظهير المسلمين»، «ملك الإسلام»، «الملك المؤيد»، «نصر الدين»، «جناح الدين»(٤١). لذا يتضح لنا أنه كان مولعاً ولعاً شديداً بالإكثار من الألقاب حريصاً على حمل العديد منها. أما أهم الألقاب التى قيل أن محمود الغزنوي كان أول من تلقب بها من حكام المشرق الإسلامي، فهو لقب «سلطان» وهو اللقب الذي لم يتلقب به أمراء آل سامان أو آل زيار أو آل حسنوية(٤٢). وفي ذلك دلالة على أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ولاة على الولايات أو حكاماً على الأقاليم لا تبلغ مرتبتهم مرتبة السلاطين(٤٣).

وفي حقيقة الأمر أن لقب سلطان لم يصبح لقباً عاماً إلا بعد أن تغلب بنو بويه على الخلفاء العباسيين واستأثروا بالسلطة دونهم، واتخذوا لقب السلطان سمة عامة لهم، وأن الملك أبو كاليجار البويهي- الذي دخل بغداد سنة٤٣٦هـ/١٠٤٦م نعت بلقب سلطان وبالرغم من ذلك لم يرد في نقوشه أو على سكته هذا اللقب(٤٤). على الرغم من أن آثار محمود الغزنوي متمثلة في نص تذكاري على برج مئذنة مسجد غزنه الجامع، نقش لقب السلطان الأعظم محمود بن سبكتكين، وربما كان هذا أقدم الأمثلة المعروفة لهذا اللقب على النقوش الأثرية(٤٥).

ومن اللافت للنظر أن نؤكد حقيقة تاريخية وهي أن لقب سلطان استخدم بصورة رسمية في العصر السلجوقي، فقد كان طغرليك هو أول الحكام الذين تلقبوا بلقب «سلطان»، وذلك عند دخوله بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، حيث منحه الخليفة القائم بأمر الله لقب «السلطان المعظم ركن الدنيا»(٤٦). ثم أصبح هذا اللقب يطلق على جميع حكام السلاجقة(٤٧).

وإذا نظرنا إلى وزراء حكام العصر الغزنوي، فإننا نرى تعدد ألقاب وزرائهم، ورجالات الدولة، فقد لقب الوزير أحمد بن حسن الميمندي بلقب «شمس الكفاءة»، ومنح وزير السلطان «مسعود» المسمى طاهر بن مشكاه لقب «ثقة الملك»(٤٨).

٢- السلاجقة وأشهر ألقابهم:

أهتم حكام السلاجقة بالحصول على الألقاب الفخرية من الخلافة العباسية، مع أسمائهم الأصلية فقد مثلت في حياتهم السياسية مكانة عالية وشهرة كبيرة، فكانت هذه الألقاب أعظم تفاخراً مما سبقهم من حكام، وزادوا في الطلب عليها والسعي في الحصول عليها، فقد كان الخليفة العباسي يمنح الألقاب الدينية للسلطان السلجوقي إذا ما وافق على تفويضه السلطة والحكم على السلاجقة.

ومن الواضح أن الألقاب الممنوحة من الخلافة العباسية للسلاطين، كانت تتكون من مقطعين، المقطع الأول يشمل على لقب مضافاً إلى الدين والدنيا، مثال ركن الدين، جلال الدين، مغيث الدنيا والدين، غياث الدنيا والدين، محى الدنيا والدين، معز الدين، وهكذا. أما المقطع الثانى فكان منتسب إلى لقب الخليفة نفسه وهو أمير المؤمنين. وقد تمثل هذا الجزء من اللقب على ثلاثة نعوت، مثل يمين أمير المؤمنين، وبرهان أمير المؤمنين، وقسيم أمير المؤمنين. تلك الصيغة فى الألقاب الفخرية الدينية منحت لجميع سلاطين السلاجقة دون استثناء، وسوف أوضح ذلك فى الكلام القادم على ألقاب سلاطين السلاجقة فى إيران والعراق وكرمان.

ولابد أن نشير هنا إلى أن أمراء السلاجقة فى بداية حياتهم كانوا يتجذون بعض النعوت والمسميات التشريفية فقد كان اسم دقاق يعنى «القوس الحديد»، «وكان يطلق عليه تمر بالبع»، وسلجوق يعنى قربه ملك الترك، ولقبه «سباشي» أى قائد الجيش(٤٩). أما بعد سنة ٤٢٨هـ/ . وهى الفترة التى توسع فيها أمراء السلاجقة، حيث ملك جغرى بك مرو، وأصبح طغرل ملكاً على نيسابور، فقد اتخذ جغرى بك اسماً إسلامياً وهو داود(٥٠). ولقب نفسه فى الخطبة بلقب ملك الملوك، وكنى طغرل باسم أبى طالب(٥١)، ثم أطلق على نفسه لقب سلطان فكان أول سلاطينهم فى إيران(٥٢). وهذا اللقب أصبح علماً على أسمائهم فيما بعد.

وفى سنة ٤٤٧هـ/ سنة ١٠٥٦م دخل «طغرلبك» بغداد، فوضع الخليفة «القائم بأمر الله العباسي» إسمه فى خطبة الجمعة وعلى السكة فى بغداد، ولقبه بلقب السلطان «ركن الدولة طغرلبك يمين أمير المؤمنين»(٥٣)، وكثيراً ما كان يخاطب الخليفة السلطان فى مراسلاته بلقب «ركن الدين»، فعندما تمكن طغرلبك من القضاء على حركة البساسيرى، ودخل بغداد، مترجلاً أمام هودج الخليفة، فإن أمير المؤمنين قال له: اركب يا ركن الدين، وأثنى عليه ثناء جميلاً، وتبدل لقبه عند ذلك من «ركن الدولة» إلى «ركن الدين»(٥٤). هذا بالإضافة إلى أن الخليفة «القائم» كان يخاطب «طغرلبك» بلقب «ملك المشرق والمغرب»(٥٥).

وعندما جلس السلطان «ألب أرسلان» على عرش السلطنة السلجوقية، منحه الخليفة «القائم بأمر الله» العباسي لقب السلطان المعظم «عضد الدولة» وكناه بأبى شجاع(٥٦)، كما زاد من ألقابه الفخرية بعد انتصاره على الدولة البيزنطية فى موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ/ سنة ١٠٧١م، فقد ورد عليه كتاب الخليفة يحمل عدة ألقاب منها «الوالد السيد الأجل، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين، غياث المسلمين، ظهير الإيمان، كهف الأنام، عضد الدولة القاهرة، تاج الملة الباهرة، سلطان ديار المسلمين برهان أمير المؤمنين»(٥٧). مما يدلل على أهمية «ألب أرسلان» وانتصاراته الحربية عند الخليفة حتى يلقبه بتلك الألقاب المتميزة الرفيعة المستوى.

ولما تولى «ملكشاه» عرش السلطنة مع وجود عدة أخوه أكبر منه بمساعدة الوزير «نظام الملك»، أعلنت الخطبة باسمه فى بغداد، ولقبه الخليفة بلقب «جلال الدين معز الدولة

ملكشاه، يمين أمين المؤمنين»، «الملك العادل»(٥٨)، بينما يشير البنداري(٥٩) إلى لقبه بأنه «جلال الدولة» وليس «جلال الدين معز الدنيا والدين ملكشاه قسيم أمير المؤمنين» ، وقد كنى «ملكشاه» «بأبي الفتح». وقد اتخذت السيدة «تركان خاتون» زوجة ملكشاه تخلصها من لقب زوجها جلال الدين فكان يطلق عليها اسم «تركان خاتون الجلالية»(٦٠).

وعندما لقب «ملكشاه» بلقب «جلال الدولة»، خلع عليه الخليفة الخلع السبعة والطوق والسوار، وأمر الخليفة مختصاً بتقليد بسيفين(٦١)، وبعد وفاة «ملكشاه»، تمكنت زوجته «تركان خاتون» من اقناع الخليفة «المقتدر» بإعلان السلطنة لإبنها محمود الصغير، وأعلنت الخطبة باسمه في بغداد وسائر الولايات التابعة للسلطنة، ولقبه بلقب «مغيث الدين، وناصر الدنيا والدين»(٦٢). ولما توفى السلطان محمود أعلن قادة الجيش أخاه «بركيارق» سلطاناً، فخطب له على المنابر باسمه إلى جانب اسم الخليفة المستظهر بالله العباسي، ولقب «بركن الدنيا والدين بركيارق يمين أمير المؤمنين»(٦٣)، بينما يشير البنداري(٦٣) على أنه برهان أمير المؤمنين، وكنى بأبي المظفر.

وعندما تمكن السلطان «محمد بن ملكشاه» من إنزال الهزيمة «بملكشاه بن بركيارق» وأمراء بركيارق صدقة وأياز، الذين رغبوا في تولى ملكشاه، وقبض عليه وأودعه السجن، توجه السلطان «محمد» إلى بغداد، فأكرمه الخليفة «المستظهر بالله»، ولقبه السلطان «غياث الدين محمد قسيم أمير المؤمنين»، وكنيته «أبو شجاع»(٦٥).

ولما تولى «محمود بن محمد بن ملكشاه»، لقبه الخليفة «المسترشد بالله» بلقب «مغيث الدنيا والدين أبو القاسم يمين أمير المؤمنين»(٦٦)، كما لقب «أرسلان بن طغرل» بلقب السلطان «ركن الدنيا والدين أرسلان بن طغرل قسيم أمير المؤمنين»(٦٧).

ولما أعلن سنجر سلطاناً للسلاجقة وذلك بعد أن حكم خراسان لمدة عشرين عاماً والياً عليها، وكان في تلك الفترة تلقب بلقب «ملك»، ثم أطلق عليه لقب «ناصر الدين» ، ولما مات السلطان محمد أطلق سنجر على نفسه لقب سلطان ، وذلك سنة ٥١١هـ/ سنة ١١١٨م، قام الخليفة المسترشد بالأمر بذكر اسمه في خطبة الجمعة، واتخذ لنفسه لقبي والده «ملكشاه» وهما «معز الدنيا والدين» فصارت ألقابه كالتالي، «السلطان الأعظم معز الدنيا والدين سنجر بن ملكشاه برهان أمير المؤمنين»، وكنى «أبو الحارث معز الدين أحمد»، وقد زاد القزويني (٦٨)، في ألقابه بقوله: «سلطان سلاطين الدنيا، السلطان الأعظم معز الدين سنجر»، هذا إلى جانب اتخاذه لقب يدل على نوعية حكمه وإتصافها بالإنصاف والعدل فقد أطلق عليه لقب السلطان «العادل»، وكان توقيعه «اعتصمت بالله» (٦٩).

أما عن سلاجقة العراق فكان أول من تولى السلطنة منهم السلطان «محمود بن محمد بن ملكشاه»، الذي لقبه الخليفة «المسترشد» بالسلطان «مغيث الدين محمود يمين أمير المؤمنين»(٧٠).

ولما تولى عرش سلطنة العراق «طغرل بن محمد»، الذى تولى بعد وفاة أخيه وبمساندة عمه وذلك فى شوال ٥٢٩هـ/ ١١٣١م. والذى دارت فى عهدة معركة بينه وبين أخيه الأكبر «مسعود بن محمد» لقبه الخليفة المسترشد بالسلطان «ركن الدين طغرل يمين أمير المؤمنين»(٧١). بينما يشير الراوندى(٧٢) أن لقبه كان السلطان «المعظم ركن الدنيا والدين أبو طالب طغرل بن محمد يمين أمير المؤمنين». وقد وقعت بينه وبين أخيه الأكبر مسعود حروب، لم يتم لأى منهما الظفر أو الهزيمة. ولهذا عزل طغرل وتولى بدلاً منه مسعود السلطنة فى العراق، ولقبه الفخرى السلطان «المعظم غياث الدنيا والدين مسعود قسيم أمير المؤمنين»، وكنيته «أبو الفتح»(٧٣). وفى سنة ٥٥٦هـ/ سنة ١١٦١م تولى سلطنة العراق «سليمانشاه بن محمد»، فلقبه الخليفة الراشد عند جلوسه على السلطنة بلقب السلطان «معز الدين سليمانشاه برهان أمير المؤمنين»، هذا إلى جانب تلقيبه بلقب «الملك المستجير». أما عن قصة تلقيبه بالملك المستجير فهى أنه فى سلطنة «محمد بن محمود» سادس سلاطين سلاجقة العراق، كان سليما نشاه حبيس قلعة قزوين، وتمكن بعد فترة من الفرار بمساعدة «فخر الدين زنكي» وألب أرغون البازدار ويوسف خوارزمشاه شقيق سليمانشاه من أمه، ولم يستطع السلطان محمد التصدى لهم فتوجه إلى أصفهان، لذا أتفق الأمراء على تولية سليمانشاه مكانه، ولكن سليمانشاه خشى على نفسه من هؤلاء الأمراء وقوتهم، ففر بالليل إلى مازندران، ومن بعدها التجأ إلى الخليفة العباسى، الذى أمده بالعدة والعتاد، ولقبه بلقب «الملك المستجير»(٧٤).

أما شعبة سلاطين كرمان التى تبدأ بقاورد بن جغرى بك ، والتى تبدأ دولته عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥١م فقد أتصف قاورد بالشجاعة والعدل ولقب «بعماد الدولة»، وكان نقش خاتمه هو قره أرسلان، ولقبه الخليفة العباسي بلقب «ركن الدنيا والدين عماد الإسلام والمسلمين قاورد بن جغرى بيك»(٧٥)، وقد استمر قاورد فى حكم كرمان حتى سنة ٤٦٥هـ/ سنة ١٠٦٣م.

ومن حكام كرمان «سلطانشاه بن قاورد» الذى حكم لمدة عشر سنوات وأطلق عليه لقب «ركن الدين سلطانشاه بن قاورد، وتلقب الملك «تورانشاه» الذى تولى الحكم فى شهر رمضان سنة ٤٧٧هـ/ سنة ١٠٨٤م بلقب «الملك العادل محى الدين عماد الدولة تورانشاه»(٧٦).

وقد سار باقى حكام السلاجقة فى كرمان على نفس النهج فى المطالبة بالألقاب الفخرية من الخلافة العباسية، وكانوا يتمسكون بذكر أسمائهم فى خطبة الجمعة على منابر عاصمتهم ونقش أسمائهم على السكة إلى جانب اسم الخليفة العباسى القائم على الحكم. فقد لقب أرسلانشاه بلقب «محى الإسلام والمسلمين»، وهو الذى حكم اثنين وأربعين عاماً وجلس على العرش فى المحرم سنة ٤٩٥هـ/ سنة ١١٠١م ، وتوفى سنة ٥٣٦هـ/ سنة ١١٤٢م، وتلقب ابنه «إيرانشاه» بلقب بهاء الدين»، وقد خرج عليه أهل كرمان وقتلوه(٧٧).

أما ابنه «محمد» الذى تولى الحكم فى كرمان خلفاً عنه فقد لقب «بمغيث الدنيا والدين محمد»واتصف بالعدل وبعد النظر وحب العلم والعلماء. كما تلقب ولده طغرلشاه بلقب «الملك محى الدنيا والدين»، وهو الذى حكم كرمان وعمان وفارس فى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م(٧٨).

أما عن سلاجقة الروم فقد اتخذوا لأنفسهم لقب عام وهو «سلاطين الروم». أما الألقاب التشريفية والدينية فإن ابن البيبي ذكر العديد منها مصاحبة لأسمائهم. فقد لقب أرسلان بن مسعود الذى تولى العرش لمدة عشرين عاماً «بعز الدين». أما ابنه المسمى «كيخسرو» فقد اتخذ لقب «غياث الدين». وهو الذى حكم ما بين ٥٧٨: ٥٩٨هـ/ ١١٨٣: ١٢٠٢م. كما أطلق على «سليمان بن قليج أرسلان» لقب «السلطان القاهر ركن الدين سليمان»(٧٩).

كما لقب قليج أرسلان بن سليمان بلقب «عز الدين» وهو الذى تولى سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م، وجلس على العرش طفلاً صغيراً. واستمر فى السلطنة عاماً ونصف عام فقط(٨٠). كما لقب «كيخسرو بن كيقباد». الذى تولى السلطنة سنة ٦٦٤هـ إلى ٦٨٢هـ/ ١٢٦٦: ١٢٨٤م. بلقب «غياث الدين»(٨١).

وفى حقيقة الأمر، فإننا نجد أن الألقاب الفخرية الرسمية التى تقلدها سلاطين السلاجقة كانت ألقاب ذات رنين وبريق ومتميزة بصورة واضحة فإلى جانب لقب السلطان والشاهنشاه، والذى دخل فى الإسلام كلقب فخرى فى الدولة العباسية منذ عهد عضد الدولة البويهى(٨٢)، وربما يرجع ذلك إلى أن التلقيب بلقب شاهنشاه كان نتيجة لإعتراض رجال الدين وفقهاء الشرعية من أهل السنة على إطلاق المرادف العربى لمعنى اللقب وهو ملك الملوك. ثم تلقب به سلاطين السلاجقة، الذين حرصوا على أن تكون الألقاب الممنوحة لهم تعبر عن دورهم فى الحفاظ على الإسلام متمشية مع روح المذهب السنى، مع اهتمامهم بالنعوت التشريفية اهتماماً يفوق الوصف، واعتزازهم بها بشدة، وتفاخرهم فى جميع المناسبات بتلك الألقاب دليلاً على ذلك.

٢- الوزراء والألقاب:

لم تقتصر الألقاب الفخرية والنعوت التشريفية والدينية على حكام السلاجقة، بل تعدتها إلى كبار رجال الدولة من وزراء ومستوفين وغيرهم من رجال البلاط.

ولابد أن نشير فى بداية حديثنا عن الوزراء والألقاب إلى أن الوزراء فى تلك الفترة التاريخية كانوا نوعين، فكان هناك وزير للخليفة القائم على الحكم، بالإضافة إلى وزير السلطان الذى توكل إليه المهام الإدارية فى السلطنة، وقد حرص الخلفاء والسلاطين على منح وزرائهم ألقاباً تشريفية، نظراً للخدمات الجليلة التى يقدموها للدولة. وقد كانت تلك الألقاب مضافة إلى الدين «كجلال الدين» و«معين الدين» بالنسبة لوزراء الخلافة، أما وزراء السلطنة فكانت ألقابهم تشمل على الملك، «كعميد الملك» الكندرى و«نظام الملك»، و«فخر الملك» وغيرها. هذا إلى جانب إتخاذ الوزراء لقب عام هو «الصدور»، أى الصدر الأعظم، ولقب فارسى عام أيضا هو خواجة برزك(٨٣).

وهناك منشور للوزارة صادر بشأن الصاحب «مجد الدين نصر»، وهو من إنشاء شرف الدين، الذى تولى الوزارة فى عصر سنجر جاء فيه مجموعة مميزة من الألقاب وهى:

«الصاحب الأجل المؤيد المنصور المظفر مجد الدولة والدين، صدر الإسلام والمسلمين، نظام الملوك والسلاطين، قوام الملك والأمة، تاج الممالك والملة، صفى الإمام ومجد الأنام، سيد الوزراء فى العالمين الخواجة العظيم السباق إلى البركات نصر الدين الصاحب المؤيد أمير المؤمنين أدام الله تمكينه(٨٤)».

لقد ترتب على وجود وزيرين فى الدولة العباسية حدوث احتكاك بينهما، فكان وزير السلطان أكثر نفوذاً وسلطة من وزير الخليفة لأنه كان يستمد نفوذه من قوة السلطان السلجوقى صاحب النفوذ الفعلى، أما بالنسبة لألقاب وزراء الخلافة العباسية فى العهد السلجوقى، فقد لقب الوزير أبو تراب الأثيرى الذى أختاره الخليفة «القائم بأمر الله» لمنصب الوزارة بلقب «حاجب الحجاب عز الأمة»(٨٥).

ولما عين «أبو نصر محمد بن محمد بن جهير» فى خلافة «القائم بأمر الله»، لقبه الخليفة بلقب «فخر الدولة» وقد تلقب بأكثر من لقب مثل «عميد الدولة» ، «شرف الدولة» واستمر فى هذاالمنصب حتى صفر سنة ٤٧٦هـ/ سنة ١٠٨٣م، عندما تدخل الوزير «مؤيد الملك»السلجوقى فى المطالبة بعزله متهماً إياه بالتدخل فى الفتنة فى بغداد بين طائفة الحنابلة، وطائفة الشافعية(٨٦) على الرغم من أن وزير الخليفة كان قد أمر بقرع الطبول أمام منزل الوزير السلجوقى فى كل وقت صلاة.

وفى خلافة «المقتدى بأمر الله» عين فى الوزارة ببغداد «محمد بن الحسين الرونراوري» ولقب بلقب «أبى شجاع عضد الدولة»، وكان نائباً عن أبيه الوزير «الحسين بن محمد بن الحسين» المقيم فى أصفهان(٨٧).

وقد منح الوزير «أبو على الحسن بن على بن صدقة» فى خلافة «المسترشد»، عدة ألقاب منها «جلال الدين سيد الوزراء، صدر الشرق والغرب، صفى أمير المؤمنين»، وقيل «جلال الدين صدر الوزراء، صفى أمير المؤمنين» ، هذا فضلاً عن لقبه الدينى «عميد الدولة»(٨٨).

كذلك توزر الخليفة «المسترشد» «أنو شروان بن خالد» الملقب «بشرف الدين» فترة من الوقت، ثم عند حضور السلطان مسعود إلى بغداد، خرج معه الوزير، فصار شرف الدين وزيراً للسلطان السلجوقى، وحل محله فى وزارة الخلافة نقيب النقباء «أبو القاسم على بن طراد الزيني» وذلك سنة ٥٢٧هـ/ سنة ١١٣٢م (٨٩)، وقد استمر ابن طراد الزينى فى الوزارة فى خلافة «المقتفى لأمر الله»، فلقبه الخليفة بعدة ألقاب هى «عون الدين»، «وسلطان العراق» ثم «ملك الجيوش» وذلك تقديراً لجهوده التى بذلها الوزير فى قيادة جيش الخلافة ضد أمراء السلاجقة الذين هاجموا بغداد عقب وفاة السلطان «مسعود» السلجوقى. هذا فضلاً عن عدة ألقاب أخرى كانت بمثابة تميز وتقدير لهذا الوزير منها: «شرف الأنام»، «معز الدولة»، «مجير الملة»، «سيد الوزراء»، «ظهير أمير المؤمنين»(٩٠).

وفى سنة ٥٦٣هـ/ سنة ١١٦٧م فى خلافة «المستنجد بالله» تولى الوزارة «أبو جعفر محمد بن أبى الفتحس فلقبه الخليفة عدة ألقاب منها «شرف الدين»، جلال الإسلام، معز الدولة، «سيد الوزراء»، «صدر الشرق والغرب» (٩١).

أما بالنسبة لوزراء السلطنة السلجوقية فيأتي في مقدمتهم «أبو نصر الكندي» المعروف بالفراسة والذكاء، والملقب «بعميد الملك»، وقد بدأ حياته كاتباً فى الديوان، وبرع فى الاستيفاء حتى وزر لكل من طغرلبك وألب أرسلان(٩٢). وقد اشترك هذا الوزير فى حصار أصفهان فى بداية عهد «طغرلبك»، وجمع من أهلها مبلغاً كبيراً من المال يقدر بمائة ألف دنيار، حملها إلى خزانة السلطان، لذا نعته السلطان بلقب «الأمين». وقد تدخل «نظام الملك الطوسي» فى إقصائه عن منصبه وقتله وذلك سنة ٤٥٦هـ/ سنة ١٠٦٣م(٩٣).

ويعتبر «أبو على حسن بن على بن اسحاق الطوسى» أشهر وزراء السلاجقة قاطبة، ولقبه الفخرى هو «السيد الكبير سيد الوزراء صدر الإسلام قوام الدين، نظام الملك غياث الدولة»، وقد عرف فى التاريخ بنظام الملك. وهو أول وزير ترد كلمة «الملك» فى ألقابه فقد لقب بـ «قوام الملك»، ويبدو من أشعار المعزى أنه أطلق عليه لقب «قوام الدين نظام الملك» أو «قوام الملك نظام الدين» ، ولما كان اللقب الأول قد غلب على اسمه فقد اشتهر به أكثر من سواه، يمدحه الشاعر المعزى بقوله:

غياث دولة السلطان	قوام دين الرسول
نظام ملك الدنيا	سيد أولى الألباب
قوام الدين رضى	المقتدى أنابك الشاه
كما يملأ عدل رضى	الخليفة الآفاق

ومن مدائح المعزى نستنتج أن من ضمن ألقابه «رضى أمير المؤمنين»، وبذلك تكون ألقابه: الوزير العاقل العالم العادل نظام الملك رضى أميرالمؤمنين(٩٤)، وقد أشار خواندمير(٩٥) إلى أن نظام الملك لقب «بتاج الحضرتين»، نظراً لكونه جمع بين وزارة السلطان «ألب أرسلان» ووزارة السلطان «ملكشاه»، وكان فى يده وزارة التنفيذ والتفويض لمدة ثلاثين عاماً وكانت علامته «الحمد لله على نعمه».

وقد تولى الوزارة فى عهد السلطان بركيارق بن ملكشاه عدد من الوزراء الأكفاء معظمهم من بيت نظام الملك، منهم «أبو عبد الله حسين بن نظام الملك» الملقب «بعز الملك» الذى رحل مع السلطان إلى بغداد سنة ٤٨٦هـ/ سنة ١٠٩٣م فى عهد «المقتدى العباسى»، وفى قصيدة للشاعر المعزى يمدح فيها الوزير يطلق عليه لقب الأمير «معز الدين» بدلاً من «عز الملك» (٩٦).

وقد اشتهر فى عهد السلطان بركيارق بن ملكشاه الوزير «أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك»، الملقب «بمؤيد الملك» الذى خلع عليه السلطان خلعة تامة للوزارة، ولم يكن من أولاد نظام الملك أكفى منه فى النظم والنثر، وعلامته «الحمد لله على النعم»(٩٧). ولما عزل «مؤيد الملك» من الوزارة، منحها بركيارق إلى أخيه «فخر الملك».

ومن الوزراء المشهورين فى عهد السلاجقة الوزير «أحمد بن نظام الملك»، الذى كان يلقب قبل اعتلاء الوزارة بلقب «ضياء الملك»، فلما استوزره السلطان «محمد بن ملكشاه» فى سنة ٥٠٠هـ/ سنة ١١٠٦م منحه عدة ألقاب منها «قوام الدين، نظام الملك، صدر الإسلام(٩٨)» ، وقد اشتهر بلقب «نظام الملك الثاني».

وقد اختار السلطان «محمد سعد بن محمد» الأبى الملقب بسعد الملك والمكنى بأبى المحاسن، وكانت علامته «الحمد لله على نعمه»، وهو الذى أتهم بالتعاون مع الإسماعيلية وزعيمهم «أحمد بن عطاش»، لذا أمر السلطان بقتله هو أو تباعه(٩٩)، وتولى الوزارة من بعده «أبى منصور محمد بن حسين المبيدي» الملقب «بخطير الملك»، ولقد استمر فى الوزارة لمدة سبع سنوات، ثم تنازل عن الوزارة وتولى رئاسة ديوان الطغراء فى وزارة «ربيب الدولة»، ثم أعيد للوزارة مرة أخرى ولكن فى بلاط سلجوقشاه فى فارس (١٠٠).

وهناك عدداً من الوزراء كانوا يلقبون بعده ألقاب منها ما هو قبل جلوسهم على دست الوزارة ومنها ما كانوا يمنحوته بعد التنصيب، فهناك الوزير «أبو المحاسن سعد بن محمد آبي» الذى كان يلقب «بنصير الدين»، فلما تولى الوزارة لقبه السلطان «محمد» بلقب «سعد الملك»، واستمر وزيرا من سنة ٤٩٨ وحتى سنة ٥٠٠هـ/ سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٠٦م، وقد شارك هذا الوزير فى عدة معارك إلى جانب السلطان ضد الإسماعيلية فى قلعة آلموت، وتمكن من فتح قلعة خان لنجان، وقتل أحمد بن عطاش(١٠١).

كذلك كان يلقب «أحمد بن نظام الملك» قبل توليه الوزارة بلقب «ضياء الدين»، ثم لقب «بنظام الملك الثاني»، فأصبح لقبه «قوام الدين صدر الإسلام الخواجة الكبير ضياء الملك نظام الملك أحمد بن نظام الملك»(١٠٢).

ومن أشهر وزراء السلطان «مسعود بن محمد بن ملكشاه» الوزير «ابن دارست الفارسي» الذى لقب قبل دخوله الوزارة «بتاج الدين»، ثم أطلق عليه لقب «شمس الدين»(١٠٣).

أما وزراء السلطان «سنجر» فيأتى فى مقدمتهم الوزير «أبو طاهر بن سعد الدين بن على القمر»، الملقب «بشرف الدين» الذى كان حاكماً على مدينة مرو، ثم لقب «بوجيه الملك» بعد توليه دست الوزارة(١٠٤). والوزير «تغاربيك محمد بن سليمان الكاشغري»، الذى شمله السلطان «سنجر» بعطفة ورعايته بسبب معرفته باللغة التركية، ولقد أمر السلطان بقرع الطبول أمام منزله تكريماً له ولقبه بلقب «نظام الدين»، واستمرت وزارته أكثر من عامين(١٠٥).

ولقد وزر«أبو المحاسن نظام الملك بن عبد الرازق بن عبد الله» للسلطان سنجر، وأطلق عليه لقب «شمس الدين قوام الدين»، ثم زاد عليه لقب «شهاب الإسلام»، وقد نظم المعزى قصيدة فى مدحه جاء فيها:

ما دام صدر الزمان قد نال من الملك الوزارة

فتهاني للوزارة بصدر الزمان

صاحب الدنيا قوام الدين نظام المملكة

سيد الوزراء وملكهم، ووزير ملك الزمان(١٠٧).

وهناك وزير آخر «لسنجر» هو «أبو نصر بن أحمد الكاشي»، الذى لقبه «بمعين الدين»، ذلك الوزير كان مقرباً من الخواتين والأمراء كثير الهدايا لهم، وقد أنعم عليه السلطان بدواه ذهبية وطبل وعلم، وقد أمر «معين الدين» ببناء المدارس والخوانق والأربطة والمؤسسات الخيرية فى جميع الأقطار(١٠٧).

أما الوزير «أبو القاسم بن حسن الدركزيني»، المعروف بالكرم فقد أسند إليه السلطان «سنجر» الوزارة ولقبه بالوزير قوام الدين (١٠٨)، ولقبه من الخلافة «عماد الدولة»، وقد أتخذ له نائباً فى الوزارة هو «عبد العزيز بن حامد» الملقب «بظهير الدين». ومجمل ألقاب الدركزينى هى «قوام الدين» و«زين الدين» و «زين الملك» و«عماد الدولة» و «ظهير الدين»، ومن أجل هذه الألقاب كان هناك العديد من الصراعات على السلطة ومع العديد من الأمراء من أجل الحصول عليها(١٠٩).

ومما تجدر الإشارة إليه أن سلاجقة كرمان منحوا وزرائهم ألقاب ومسميات تشريفية فقد أطلق على وزير الملك قاورد بن ألب أرسلان لقب «ناصر الدين» وهو مكرم أبى العلا(١١٠)، كما أطلق على ابنه عند توليه الوزارة وهو الوزير ناصر الدين أبو عبد الله مكرم بن العلاء لقب «مجير الدولة»، وذلك فى فترة حكم «إيرانشاه» (٤٩٠هـ/ سنة ١٠٩٦م) ولقبه الشاعر المعزى فى أشعاره بذلك اللقب:

صاحب الجاه مجير الدولة وصدر الكفاة، صاحب الجاه «مجير الدولة»، وصدر الكفاة «ناصر الدين» تابع كسرى، فاتح الدنيا وبطل الزمان (١١١).

وكان وزير «طغرلشاه بن محمد» فى سنة ٥٥١هـ/ سنة ١١٥٦م هو الوزير «ضياء الدين أبو المفاخر»، كمااشتهر الوزير «ناصر بن على الدركزيني» من وزراء سلاجقة العراق وذلك فى عهد سلطنة «داود بن محمود»، وخاصة أنه مهد قواعد السلطنة لإبن السلطان داود(١١٣)، ولقد تلقب الوزير «معين الدين بروانه كاش» وزير السلطان «ركن الدين سليمانشاه بن كيخسرو» من سلاجقة الروم بلقب بروانه وهو لقب كرئيس وزراء(١١٤).

٤- ألقاب المستوفى فى العصر السلجوقى:

اهتم كبار رجال الدولة السلجوقية بالحصول على الألقاب التشريفية، وحرصوا كل الحرص على اتباع حكامهم فى الحرص على النعوت والمسميات. خاصة تلك التى تصدر من السلاطين السلاجقة أنفسهم، فلم تتعد تلك الألقاب أن يطلق عليها نعوت شرفية. ومن هؤلاء موظفى الوظائف الإدارية والمالية فى الدولة، وعلى رأسهم وظيفة الاستيفاء وصاحبها يسمى المستوفى(١١٥)، وهو يلى فى المرتبة الوزير فى الدواوين الحكومية.

وأول ما يطالعنا من ألقاب المستوفين لقب «الأجل الأوحد»، وهو اللقب الذى أصبح من الألقاب الخاصة بعمال الديوان، وقد ذكر ذلك فى منشور استيفاء الممالك المحروسة الصادر باسم نظام كيخسرو بتاريخ شوال سنة ٥٦٣هـ/ سنة ١١٦٧م، حيث أشار إلى «الأجل الأوحد نظام الدين كيخسرو بن مجد الدين ورضى أمير المؤمنين أدام الله تأييده هو أوحد زمانه(١١٦)»، وهذا يدل على مدى تمسك المستوفين فى ألقابهم بالانتماء إلى أمير المؤمنين.

ومن أشهر المستوفين الذى لقبوا بألقاب شرفية أبى سعد محمد ابن منصور الخوارزمي، الذى تولى منصب رئاسة الاستيفاء لكل من السلطان طغرلبك وألب أرسلان، فقد لقب «بشرف الملك»، وكان أبو سعد فاحش الثّراء، وشيد مدرسة فى بغداد لأصحاب المذهب الحنفى(١١٧)، وقد أرسل من قبل السلطان أرسلان إلى بغداد لمقابلة الخليفة المقتدر بالله وتقديم الهدايا النفيسة له، وذلك فى صفر ٤٥٩هـ/ سنة ١٠٦٦م، وكانت الهدية عبارة عن مصحف نفيس وياقوته حمراء، ورسالة خاصة من السلطان(١١٨). وقد عرف شرف الملك قبل تولية رئاسة ديوان الاستيفاء بلقب «عماد الدين»(١١٩).

ولقد كان شرف الملك من ممدوح أمير الشعراء المعزى، وذلك فى قصيدة تبين بعض ألقابه فيها «عماد الدين» «شرف الملك» الذى يفضل شمائله(١٢٠).

ممن تولى ديوان الاستيفاء فى عهد السلطان ملكشاه شمس الدين أبو الفضل أسعد بن محمد بن موسي الملقب «بمجد الملك القمي»، الذى كان يعمل فى بداية حياته نائباً فى ديوان الاستيفاء تحت أمره شرف الملك، ثم أرتفعت مكانته بعد أن ترك شرف الملك رئاسة الديوان فحل محله مجد الملك. كما كان أبو الغنائم المرزبان بن خسرو مستوفياً فى عهد ملكشاه ولقب «بتاج الملك»، وهو الذى بنى مدرسة بباب أبرز ببغداد سنة ٤٨٥هـ/ سنة ١٠٩٢م، أطلق عليها اسم المدرسة التاجية نسبة إلى لقبه(١٢١). ومن المهم أن أشير هنا إلى أن هذا المستوفى كان مقرباً من السيدة تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه وعمل لديها فى الإشراف على ممتلكاتها، وقد عين فى بداية حياته فى خزائن السلطان والإشراف على دور الحريم السلطانى ثم مشرفاً على إدارة أراضى وضياع الخاتونية(١٢٢).

وفى عهد السلطان محمد بن ملكشاه تولى رئاسة الاستيفاء شمس الدين أبو سعد هندو بن محمد بن هندو القمي الملقب «زين الملك»، وقد انتهت رئاسته لديوان الاستيفاء بالقبض عليه

وعزلة وسجنه(١٢٣). كذلك عين أحمد بن حامد مستوفياً في عهد السلطان محمد وقد لقب «بعزيز الدين» وكنى «بأبي نصر»، ومن أهم أعماله تشيد بيمارستان منتقل يشمل على الآلات الطبية والأدوات والخيم والأطباء المرافقين، وخصص هذا البيمارستان لجند السلطان وقواده(١٢٤).

كما شيد أبو نصر بن أحمد الكاشي الملقب «بمعين الدين نصير الدولة» مستوفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عدة مدارس وأربطة ومؤسسات خيرية في عدة أقطار، أوقف عليها القرى التي اشتراها من ماله الخاص(١٢٥).

واشتهر أبو نصر بن حامد بن محمد بن عبد الله الملقب «بعزيز الدين» المستوفي في سلطنة محمود بن محمد، بعلو الهمة والميل إلى العلم، وتوفي سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م(١٢٦)، ومن أهم أعماله الخيرية بناء مكتباً للأيتام وأوقف أوقافاً عليه من ماله الخاص، وذلك في محلة العتابين ببغداد، وكفل الأيتام بها على نفقة، وعلامته «أحمد الله على نعمه»(١٢٧). كذلك ارتفع شأن مستوفي آخر في عهد محمود بن محمد وهو أبو منصور اليزدي الملقب «بخطير الملك»، الذي قيل أنه مكث في الدواوين وأعمالها ما يقرب من خمسة وأربعون عاماً ما بين ديوان الرسائل والإشراف والإستيفاء(١٢٨)، كذلك كان المستوفي محمد بن علي الخازن الأزدي الملقب «بكمال الدين» في عهد السلطان مسعود يتصف بالكفاءة والشجاعة والعدل(١٢٩). كما ذاعت شهره محمد بن عبد الكريم الأنباري المستوفي الملقب «بسديد الدولة» في أعمال المال وشئون الاستيفاء(١٣٠).

٥- صاحب الطغراء والألقاب:

الطغرائي(١٣١) هو رئيس ديوان الإنشاء والطغراء، ويعتبر أبو الرضا فضل الله بن محمد الملقب «بكمال الدولة»، وإبنه أبو المحاسن معين الملك محمد الملقب «بسيد الرؤساء» من أهم الشخصيات التي تولت رئاسة ديوان الطغراء فقد كانوا من رجال الشعر والأدب والبلاغة، وكان سيد الرؤساء أبو المحاسن ينوب عن أبيه في ديوان الرسائل، وهو من الكتبة المهرة ومن ندماء السلطان ملكشاه المقربين، الذي كان يأنس إليه السلطان كثيراً، وقد بلغت مرتبته لدى السلطان إلى درجة عالية، في إحدى المرات كتب إليه يستبطئه بخط يده بيتاً باللغة الفارسية معناه: إنك لا تتأثر بالغيبة عنى فإنك تجد من تأنس به غيري وأنا أتأثر بغيبتك فإني لا أجد الأنسى بغيرك(١٣٢) ، ولقد انتهت حياتهما بطريقة مفجعة حيث أمر السلطان بسمل عيني سيد الرؤساء وعزل كمال الدولة والده، ومن ثم أسند السلطان ملكشاه إلى شهاب الدين أبي بكر عبيد الله بن نظام الملك منصب رئاسة ديوان الرسائل ولقبه «بمؤيد الملك»، وعلى ذلك أختار مؤيد الملك أبا إسماعيل الطغرائي نائباً عنه في الديوان، وهو الملقب «بصفي الدولة والملك».

ويبدو من أشعار المعزى أن سيد الرؤساء كان يتخذ لقباً حكومياً آخر وهو «مجد الدولة». فقد كان المعزى مرتبطاً بسيد الرؤساء ارتباطاً وثيقاً، فهو الذي قدمه

للسلطان، فمنحه لقب إماره الشعر «أمير الشعراء» ، وأنعم عليه بالخلع والانعامات السلطانية(١٣٣).

كما كان أسعد بن محمد - معلم السلطان سنجر- رئيساً لديوان الطغراء، صاحب الخط المميز (١٣٤)، وقد أختير أبو جعفر محمد بن أحمد مختار الزوزني رئيساً لديوان الطغراء والإنشاء بعد مؤيد الملك، ولقبه السلطان «بكمال الملك» الأديب مختار ، وقد اتخذ لنفسه نائباً عنه هو على بن حسين الأرستاني الملقب «بكيا مجير الدولة» والمكنى بأبى الفتح(١٣٥).

وفى حقيقة الأمر فإن السلطان ملكشاه قد أسند رياسة ديوان الرسائل والطغراء قبل مصرعه إلى جمال الدين مرزبان بن خسرو فيروز الشيرازي، ولقبه هو «تاج الملك» وكنيته «أبو الغنائم»، الذى تعلم آداب الكتابه عن والده، والتحق تاج الملك فى بداية حياته بخدمة القائد «قطب الدين ساوتكين» الملقب «بعماد الدولة» فى كرمان وفارس. وكان تاج الملك من ممدوحى كبار الشعراء فى عصرة، فقد مدحه الشاعر المعزي فى أربع قصائد يمكننا أن نقف منها على ألقابه، إذ جاء فيها.

فيفعل ما يفعله قلم تاج الملك .. الملك العادل

صدر الدنيا أبى الغنائم الذى بفضل سعادات الفلك

تتجه إلى أعتابه غنائم الفتوح والظفر المتكامل

ويبدو أن لقب «تاج الملك» مأخوذ من لقب أحد أبناء السلطان ملكشاه، وهو أبو شجاع أحمد الملقب «بملك الملوك، عضد الدولة، تاج الله، عدة أمير المؤمنين»، وهو الذى اختاره السلطان ليكون ولياً للعهد، ولقبه الخليفة المقتدى بالله العباسي بهذا اللقب، ولكنه توفى فى حياة والده سنة ٤٨١هـ/ سنة ١٠٨٨م. ويغلب على الأمر أن يكون تاج الملك كان موكلاً بأمره(١٣٦).

أما عن أشهر الكتاب فى ديوان الرسائل والطغراء الذين حصلوا من السلاطين السلاجقة على نعوت تشريفية فمنهم أبو سعد محمد الملقب «بأمين الدين الكاتب»، الذى صار كاتباً لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه(١٣٧)، وكان للسلطان «سنجر» عبد اسمه قايماز لقبه بكبج كلاه أي «صاحب القلم المعوجة»، وكان السلطان يجله ويقدره، هذا إلى جانب منتجب الدين على بن أحمد الكاتب المعروف «ببديع الجويني» الملقب «بمؤيد الملك» و«منتخب الدين»، وهو صاحب مجموعة منشآت باسم عتبه الكتبة(١٣٨). ولابد أن أشير هنا إلى أن تلك الألقاب السابقة التى تمتع بها أصحاب الدواوين والكتاب المشهورين لم تكن كلها ألقاب فخرية ودينية، صدرت عن دار الخلافة العباسية فى بغداد وأقرها الخليفة، وأنما كانت معظمها نعوت ومسميات تشريفية يصدرها السلاطين للرفع من قيمة أصحاب دواوينهم وكتابهم المهرة، ولتعلى تلك الألقاب من قيمة الملقب وتزيد من مكانته بين موظفى الدولة والبلاط

السلطاني وكثيراً ما كان هؤلاء الكتاب شعراء ينشدون الأشعار في المناسبات كما فعل فريد الدين الكاتب في عهد سنجر(١٣٩) عندما خرجت من يده بلاد ما وراء النهر ووقعت في يد جيوش الخطائين(١٤٠). وقد عمل مؤيد الدين مزربان كاتباً في عهد السلطان سنجر وارتفعت مكانته حتى وصل إلى منصب الوزارة وذلك بعد عزل الوزير عز الملك(١٤١).

٦- قادة الجيوش والألقاب:

يطلق على رئيس ديوان الجند اسم العارض، وقد اتخذ أغلب قادة الجيوش نعوت تشريفية من قبل السلاطين السلاجقة، فعل سبيل المثال كان رئيس ديوان العرض في عهد السلطان طغرلبك يلقب «بخمارتكين الطغرائي» الذي تقدم إلى الكوفة في نحو ألفي فارس لمنع البساسيري من الإتجاه إلى الشام(١٤٢).

وفي عهد ملكشاه كان القائد العام على الجيوش السلطانية هو قطب الدين سادتكين، وهو الذي أطلق عليه السلطان لقب «عماد الدولة»، واختاره لحكم البلاد التي تحت إمرة عمه قاورد مثل فارس وكرمان، كذلك تولى أبو المعالي عضد الدين مفضل بن عبد الرازق بن عمر ديوان العرض في عهد ملكشاه، الذي لقبه «بسديد الملك»، وقد ساند هذا القائد تاج الملك أبو الغنائم الشيرازي في صراعه ضد الوزير نظام الملك الطوسي.

وعندما عزل الوزير سعد الملك الآبي أبا المفاخر القمي من منصب عارض الجيش عين أبو نصر أنو شروان المعروف «بشرف الدين» مكانه. ثم عين عثمان بن نظام الملك الملقب بشمس الملوك(١٤٣). وفي عهد محمد بن ملكشاه كان عارض جيشه هو أبو المفاخر القمي، الذي غلب عليه في اصطلاح الخاصة والعامة نعت «طرطبيل»، ولما عزله السلطان عين في الديوان عز الملك بن الكافي الأصفهاني، وفي وكيلدار تولى أميرى القزويني المعروف بالذكي ذو كيسه(١٤٤). وفي بداية إمارة سنجر على خراسان تولى صاحب الملك محمود مسمى على مار الملقب بزيه الدين والمعروف بأبي القاسم الدركزيني على ديوان العرض وقد أرسل نائبه المسمى الأنساباذي للأعتذار للملك محمود(١٤٥). وفي أثناء الحرب مع الخطائيين في موقعة قطوان سنة ٥٣٦هـ/ سنة ١١٤١م، كان قائد جيوش السلطان سنجر هو حاكم مدينة نيمروز الملقب «بتاج الدين» ومكنى بأبي الفضل، وهو الذي نصح السلطان بالفرار بعد أن ضيق عليه الخطا(١٤٦).

أما عن أشهر قادة جيوش الملك محمد بن أرسلا نشاه من حكام كرمان فهو القائد الأمير عز الدين الملقب «بالغازي» وهو مشهور بالإنتصارات الباهرة(١٤٧).

وفي دولة سلاجقة الروم هناك العديد من القادة العسكريين الذين حققوا انتصارات باهرة للسلاجقة منهم القائد عبد المسيح الملقب «بفخر الدين»، الذي حقق انتصارات على الدانشمند في سيواس وقيصرية وذل كفي عهد السلطان قليج أرسلان بن مسعود(١٤٨).

٧- القضـاة والألقاب:

أما عن أشهر ألقاب القضاة فى الدولة السلجوقية، فلابد أن يشير إلى أنها تقع تحت مسمى النعوت التشريفية، وأنه كان لكل مدينة قاضى قضاه يحكم بين الناس يعين من قبل السلطان السلجوقى، فكان على هراة فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه قاضى القضاة محمد بن نصر بن منصور الملقب «بزين الإسلام» والمكنى بأبى سعد(١٤٩). ويشير نظام الملك(١٥٠)، إلى أنه يجب أن يكون اللقب مناسباً لحق الرجل فلقب القاضى والإمام وعلماء الدين يكون نحو «مجد الدين» و«شرف الدين» و«شرف الإسلام» و«زين الشريعة» وغيرها.

أما قاضى القضاه على مدينة أصفهان فى عهد السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل القاضى صاعد بن مسعود الملقب «بركن الدين» والمعروف «بسلطان العلماء وملك قضاة الشرق والغرب»(١٥١).

وفى عهد السلطان سنجر كان قاضى القضاه فى السلطنة هو القاضى أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي المعروف باسم «إسداء المعروف» والمشهور عنه العدل والعدالة، وقد قتل فى سنة ٥١٨هـ/ سنة ١١٢٤م بخراسان (١٥٢).

٨- الولاة وحكام الأقاليم والألقاب:

أتسع نطاق الدولة السلجوقية وترامت أطرافها وشملت العديد من البلدان، لذا كان من الواجب على السلاطين المقيمين فى عاصمتهم سواء أصفهان أو همدان أن يعينوا من يقوم بضبط الأمور فى الأقاليم الممتدة، وأن يمنحوا بعضهم بعض الألقاب والنعوت التشريفية، فقد كان أبو القاسم على الجوينى الملقب «بسالار بوزكان» – بمعنى رئيس الديوان باللغة الفارسية– يشغل منصب رئاسة مدينة نيسابور قبل مجئ السلاجقة إلى خراسان، ثم دخل فى خدمة طغرلبك، واستمر فى منصبه ثم رفع إلى منصب الوزارة سنة ٤٣٦هـ/سنة ١٠٤٤م(١٥٣)، وفى عهد ملكشاه عين على ولاية حلب الأتابك آق سنقر ولقب بلقب «قسيم الدوله»(١٥٤)، كما عين على ولاية الشام عمه تتش الملقب بلقب «تاج الدولة»(١٥٥)، وقد أمر السلطان ملكشاه بمنح أعمال عمه قاورد لسرهنك ساوتكين الملقب «بعماد الدولة»، وولاه ولاياته(١٥٦).

وفى عهد السلطان محمد بن ملكشاه تولى على ولاية همذان السيد أبو هاشم الحسنى الملقب «بعلاء الدولة»(١٥٧). وقد استمر علاء الدولة فى رئاسة همذان فى عهد طغرل بن محمد بن ملكشاه، وبعد أن دفع إلى الوزير أبى القاسم ناصر بن على الدركزينى الأنسباذى الملقب «بقوام الدين» مبلغاً كبيراً من المال يقدر بعشرين ألف دينار(١٥٨).

وفى عهد السلطان سنجر ولى على مدينة نيمروز بأرض زابلستان الأمير أبو الفضل على وأطلق عليه لقب «تاج الدين»، وهو الذى كان قائداً لجيش السلطان فى أغلب حروبه المتصلة التى تقدر تسع عشرة موقعه، وكان له مواقف مجيدة فيها(١٥٩). كذلك عين على ولاية طوس

سعيد بن العميد أبو على الحسين بن سعيد الذى لقبه سنجر بلقب «عز الملك»، وشغل إلى جانب ولاية طوس الإشراف على بعض ممتلكات الدولة من الأراضى. كما كان على رئاسة نيسابور والياً يسمى شمس الدين عبد الرازق بن عبد الله ابن أخى الوزير نظام الملك، وقد لقب السلطان سنجر هذا الوالى بلقب «شهاب الإسلام»(١٦٠). وفى ولاية الرى أقام الوزير نصير الدين محمود بن أبى توبة فى سلطنه سنجر جوهر المعروف «بالأمير الأجل»، وكان حاكم ولاية المراغة يدعى «الملك العادل» علاء الدين(١٦١).

٩- رجال العلم والفقهاء والندماء وألقابهم:

لم تقتصر الألقاب والنعوت على السلاطين والوزراء ورجال البلاط الحاكم، بل تعدته إلى رجال العلم والفقهاء، حتى صارت تلك المسميات علماً ونسباً عليهم، ولكن لابد أن نشير إلى أن تلك المسميات لم تصبح ذات القيمة الجوهرية كألقاب السلاطين، بل صارت نعوت ليس لها مولود أو معنى.

ففى عهد السلطان ملكشاه عين الشيخ الإمام أبو نصر الصباغ فى التدريس بالمدرسة النظامية بأصفهان، وقد لقب بلقب «شرف الأمة»، واستمر فى التدريس حتى وفاته فى شوال سنة ٤٧٨هـ/ سنة ١٠٨٥م(١٦٢).

كما كان من أرباب العمائم الشيخ الخليل أبو القاسم المعروف «بأوحد بهروز» والملقب «بالصفى الأوحد»، الذى كان عالماً جليلاً فى عهد طغرل بن محمد وأستمر حتى عهد السلطان مسعود الذى أمر بمصادرة أمواله وأموال أهله فبلغت مائتى ألف دينار، ثم أمر السلطان بقتله(١٦٣). ومن الملاحظ أنه عندما بنى السلطان طغرل المدرسة الشهيرة فى عهده فى عاصمة همذان، أوكل مهمة التدريس فيها إلى الإمام الشيخ علاء الدين مجد الإسلام، ولقبه «بملك العلماء أستاذ الملوك والسلاطين»، الأمير العمادى.

ولقد كان الراوندى صاحب كتاب راحة الصدور من ضمن علماء تلك الفترة، واسمه محمد بن على بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسين ولقبه «نجم الدين» وكنيته «أبو بكر»، وقد درس الأدب وحصل لغة العرب، وكان طلب العلم وتحصيل المعرفة معيناً له على تحصيل الرزق، وذلك فى أيام القحط الذى أصاب أصفهان سنة ٥٧٠هـ/ سنة ١١٧٤م(١٦٤).

وفى عهد السلطان سنجر كان الشاعر المعزي، وهو محمد بن عبد الله النيسابوري الذى لقبه السلطان «بأمير الشعراء»، وأخذ تخلصه من لقب السلطان نفسه وهو «معز الدين»، فأطلق على هذا الشاعر أسم المعزى، ولقد كان أمير الشعراء الخواجة عبد الملك الملقب «ببرهانى النيسابوري» الأصل وهو والد الأمير المعزى، قد أتخذ تخلصه من لقب السلطان، ألب أرسلان ونعنى به «برهان أمير المؤمنين».

وقد برز عدد من العلماء في عهد سنجر منهم الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله بن على بن إسحاق الملقب «بالفقيه الأجل»، التابع فى الفقة لإمام الحرمين عبد الملك الجويني، من أهم الشخصيات العلمية البارزة في عهده، وهو الذى كان يصدر فتاواه طبقاً لأحكام الشرع(١٦٥). كذلك أعتنى السلطان بإمام أصفهان المسمى عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندي الملقب «بصدر الدين»، حتى انتقل إلى بغداد في آخر أيامه(١٦٦).

وقد أهتم السلطان سنجر بالندماء ومعظمهم كان من أهل العلم والخبرة مثل الأمير العميد كمال الدين المعروف بكمال البخارى وهو من أشهر ندمائه، وكان ماهراً فى الغناء والعزف(١٦٧). ومن ندماء السلطان سنجر أيضاً رجلاً يقال له الفلك(١٦٨).

وفي عهد السلطان «طغانشاه» بزر شاعر جليل هو «أبو بكر زين الدين بن إسماعيل الوراق الأزرقى الهروي»، الذي كان مولعاً بالتشبيهات الغريبة والتخيلات العجيبة وتصوير أشياء لا وجود لها(١٦٩)، وقد أشار الكرمانى فى كتابه(١٧٠) أنه من زمرة الشعراء المفوهين فى عهد السلطان «طغرلشاه» حاكم كرمان، وهو «أفضل الدين أحمد بن حامد الكوهنباتي» الملقب «بتاج الزمان»، الذى التحق بخدمة الإبن الأكبر من أبناء السلطان وهو أرسلانشاه وقد صار الأفضل الكرمانى نديماً خاصاً للسلطان فى سنة ٥٧٠هـ/ سنة ١١٧٤م، وقد أهتم الملك محمد بن أرسلانشاه بطبيبه الخاص فرفع من شأنه بين أطباء القصر ومن ثم أطلق عليه لقب «مختص الدين»، وهو رجلٌ عالم لطيف المحاوره والمزاح، وكان محمد بن أرسلانشاه كثيراً ما يمنحه ويهاديه فمن ضمن هداياه أحد الخيول العربية الأصلية بجهازها وعدتها المغربية مع جبه وعمامة(١٧١).

١٠- نساء القصر السلجوقى والألقاب:

حظيت المرأة السلجوقية بنصيب كبير من الألقاب والنعوت الشرفية. فقد كان هناك لقب عام على سيدات القصر، وهو لقب «الخاتون أى السيدة» (١٧٢)، ومن أشهر السيدات التى تلقبت بالخاتون السيدة «تركان خاتون» زوجة السلطان ملكشاه، والتى أطلق عليها لقب «تركان خاتون الجلالية» نسبة إلى لقب زوجها «جلال الدولة»(١٧٣)، والتى اتخذت المستشارين والوزراء وأصحاب الرأى لإدارة أمورها السياسيةوالإقطاعية.

كما تلقبت الزوجة الثانية في عهد ملكشاه بنفس لقب خاتون وهى السيدة زبيدة أم السلطان بركيارق، وقد تدخلت فى الحياة السياسية بأن عملت على عزل الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك وأحلت بدلاً منه فى الوزارة أخيه عز الملك(١٧٤).

وفى عهد السلطان محمد بن ملكشاه تظهر شخصية سيدة هى «كوهر خاتون» زوجته التى تدخلت لصالح وزيرها أبو الحسن على بن أحمد السميرمى الملقب «بكمال الدولة» ضد وزير السلطنة وعميدها الوزير محمد الجوزقاني الذى يطلق عليه لقب «الأمير العميد»، وقد

لقيت هذه السيدة معارضة كبيرة فى نهاية عهد زوجها متمثلة من حاجب الحجاب الكبير أبي القاسم الدركزيني الملقب «بزين الدين»(١٧٥). وكان لهذه السيدة دور بارز فى تشجيع الشعراء، فقد كان موفق الدولة أبو طاهر من رجالاتها، وهو الذى أتخذ تخلصه من اسمها، فنسب إليها، فعرف باسم الخاتونى(١٧٦).

كذلك تلقبت السيدة «كوهرخاتون» بلقب «مهد العراق»، وهى عمة السلطان ملكشاه وأخت :لسلطان ألب أرسلان، وهى من السيدات الحرائر المتدينات اللاتى امتلكن الضياع والأراضى الزراعية الواسعة(١٧٧). كما أطلق نفس اللقب «مهد العراق» على ابنة ملكشاه السيدة كوهرملك، وهى التى خطبها السلطان إبراهيم الغزنوي، وقد سميت بمهد العراق لأن السلطان بعثه من الري إلى غزنه، وقد لعبت السيدة خاتون السفرية الملقبة «بتاج الدين» والدة السلطان محمد والسلطان سنجر دوراً بارزاً فى الحياة السياسية للسلاجقة فقد ارتفع شأنها من طبقة الجوارى إلى حريم القصر فى عهد ملكشاه(١٧٨).

ولابد أن أنوه هنا إلى سيدة أخرى، وهى السيدة والدة السلطان مسعود بن محمد، التى كانت حظية لدى السلطان، وهى تدعى «نيست أندرجهان»، بمعنى «معدومة فى الدنيا»، والتى امتازت بالجمال الفائق، وكان لها شأن فى بلاط زوجها السلطان محمد بن ملكشاهبعد أن صارت أم ولد(١٧٩).

وفى دولة سلاجقة كرمان كانت السيدة «زيتون خاتون» الملقبة «بعصمة الدين»، والتى يطلق على أوقافها الأوقاف العصمية، من أشهر نساء القصور الملقبات وهى زوجة أرسلانشاه، التى أمرت ببناء مدرسة بدرب ماهان، ورباط وكانت تمتلك ما يقرب من نصف المبانى والمنشآت فى حى البرديين بفارس(١٨٠).

صفوة القول أن سلاطين السلاجقة حرصوا كل الحرص على الحصول على الألقاب الفخرية، كما حرص وزرائهم ورؤساء دواوينهم على التلقب بالنعوت التشريفية والمسميات، ولابد من أن نقرر أن هذه الظاهرة أخذت من أصول غير عربية، فالألقاب فارسية الأصل والنشأة، وأن إستخدامها فى العصر الإسلامي كان دليل على إتساع نطاق ونفوذ الملقب، كما تظهر ميوله فى المشاركة الفعالة فى التأثير الديني والروحى على رعيته، بإعتبار أن هذه الألقاب لكسب احترام وتقدير الرعية لأنها ممنوحة من قبل السلطة الدينية المعترف بها وهى الخلافة العباسية.

الهوامـش

١-حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، طبعة الدار الفنية ، القاهرة ، ١٩٨٩م.

٢-هلال بن الصابى : رسوم دار الخلافة ، ص ١٠٤ ، عني بتحقيقه ميخائيل عواد، مطبعة العاني ببغداد سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م.

٣- Boswarth: The Litulature of the early Ghazavicts, p. 210, (Leiden ,1962).

٤- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، جـ ٩، أحداث سنة ٤٥٠ هـ، ص ٦٣٤، ٦٥٤، طبعة دار

٥-البندارى: مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩؛ خواندمير: دستور الوزراء، ص٣، ٢٤ ترجمة وتعليق حربى أمين سليمان، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

٦-سياست نامه: ص، ١٩٥، ١٩٧، ترجمة السيد محمد العزاوى، طبعة الرائد العرب سنة ١٩٧٥ م.

٧-هلال بن الصابى: رسوم دار الخلافة، ص١٢٨، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٥٩.

٨- Boswarth : The Litulature , p. 215.

٩-هلال بن الصابى : رسوم ، ص ١٣٠.

١٠- الكرديزى: زين الأخبار، ص ١٤٥، ترجمة عفاف السيد زيدان، طبعة القاهرة ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢م؛ عباس برويز: تاريخ ديالمة غزنويان، ص ١٩١، تهران سنة ١٣٣٦ هـ.ش.

سبكتكين هو مؤسس الدولة الغزنوية، وكان فى بداية حياته عبدا لالبتكين، الذى كان بدوره عبدا لدى نصر بن أحمد السامانى، الذى أسند إليه قيادة الجيش فى عهد نوح بن منصور، ثم تولى الحجابة فى القصر (Nazim: The Life and the Time of Mahmoud of Chazn, p.24. Cambridge, 1931.

القزوينى: تاريخ كزيده ، صـ ١٤٢ ، ترجمة محمود محروس قشطة رسالة ماجستير، جامعة عين شمس سنة ١٩٦٨ م؛ ميرخوندا : روضة الصفا ، صـ ٨٣ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢١٤ ، ٢١٥؛ براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص١٠٥؛ كرمانى : نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء، ص ٣٦ بتصميم ومقدمة مير جلال الدين حسين ، وانشكاة تهران.

١١- لقد تلقى الامير نصر السامانى منشورا من الخليفة المعتمد العباسى بتولية حكم جميع اعمال ما وراء النهر ، فأصبح نصر أول حكام السامانيين الذين تم تعيينهم من قبل الخلافة، وكانوا من قبل يتم تعيينهم من قبل ولاة خراسان فقرأه الخطبة فى بخارى اسم الامير اسماعيل نائبا عن أخيه نصر إلى جانب اسم الخليفة المعتمد . Frye: Bukhara the Medieval Achievement , p.38 (London, 1965)

١٢- سياست نامة، ص ١٩٥.

١٣-حسن الباشا الألقاب الإسلامية، ص ٣٥٣.

Boswarth : The Litulature , p.p. 221, 217.

١٤– الكرديزى :زين الاخبار ، ص ٢٣٩؛ نظام الملك ، سياست نامه ، ص ١٩٥ .

١٥–ابن الأثير: الكامل ، ص ٧ ، أحداث سنة ٣٨٧ هـ ، ص ١٨٤ ، خواندمير: دستور الوزراء ، ص ٢١٤؛ كرماني ، نسائم الأسحار ، ص ٣٦ .

١٦–الكرديزى : زين الأخبار ، ص ٢٣٩ .

١٧– Cambridge : History of Iran , V.4, p.141 (Cambridge , 1975)

١٨– الكرديزى : زين الأخبار ، ص ٢٥٨؛ القزوينى ، تاريخ كزيدة ، ص ١٨ .

١٩–نظام الملك : سياست نامه ، ص ٤٠ .

Cambridge : History of Iran , v.4, p.141 .

٢٠–الكرديزى : زين الاخبار ، ص ٢٣٦؛ ميرخواند ، روضة الصفا ، ص ٨٥ .

٢١–الكرديزى : نفس المصدر السابق والصفحة .

٢٢–ميرخواند: روضة الصفا ، ص ٨٣ ، Cambridge : History , p.217

٢٣– الكرديزى : زين الاخبار ، ص ٢٧٠ .

٢٤– Boswarth : The Litulature , p.217

٢٥– البيرونى: الآثار الباقية ، ص ١٣٤؛ القزوينى : تاريخ كزيدة ، ص ١٩ .

٢٦–يعتبر الوزير العتبى آخر الوزراء الأقوياء فى الدولة السامانية اذ ينتهى بوفاته عهد الوزراء العظام ، حيث صارت الامور فى يد كبار القادة والحجاب .

Frye : Bukhara the Medieval , p.40

٢٧– الأب انستاس مارى الكرملى: النقود الإسلامية وعلم النميات ، ص ١٣٢ ، Frye : Ibid, 72

٢٨– Boswarth : The Litulature, p.217

٢٩– لقب الأجل بمعنى العظيم ، ويتضح أن هذا اللقب لم يكن يطلق فى القرون الأولى للهجرة إلا على أصحاب النفوذ من رجال الدولة ، وفى القرن الرابع الهجرى أطلق على أمراء الولايات الذين استطاعوا أن يستقلوا بحكم ولاياتهم عن الحكومة المركزية (حسن الباشا : الألقاب ، ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

٣٠– الكرديزى: زين الأخبار ، ص ١٤٥؛ عباس برويز : تاريخ ديالمة وغزنويان ، ص١٩١ .

٣١– Boswarth : Ibid, p.211

٣٢– البيرونى: الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، نشر أدوار نسخاليبرخ ، س ١٨٧٦ م؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأرب ، ص ٢٦ ، ص ٤٨ تحقيق محمد فوزى العنتيل ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥م .

٣٣–النويرى : نفس المصدر السابق والصفحة .

٣٤–هلال بن الصابى : رسوم دار الخلافة ، ص ١٠٠ .

٣٥-نظام الملك الطوسي : سياست نامه ، ص ١٩٧.

٣٦-الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ١٣٢.

٣٧-براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص ١٠٩.

٣٨-الآثار الباقية ، ص ١٣٢.

٣٩-قابوس: قابو سنامة المعروف بكتاب النصيحة، ص ١١٧، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ومحمد صادق نشأت، الطبعة الأولى، طبعة الأجلو، ١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٨م. تأسست الدولة الزيارية فى طبرستان وجرجان واتخذ حكامها من مدينة آمل عاصمة لملكهم (نظامى عروض السمرقندى: جهار مقاله، ص ٩٩، قابوسنامة، ص١١٨).

٤٠-قابوس: نفس المصدر السابق، ص١١٧ نظامى عروض السمرقندى: جهار مقالة، ص١٠٩.

٤١- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٣٨٧ ، ٥٠٢ ، ٤٩٨.

٤٢-نظام الملك الطوسي : سياست نامه ، ص ٧٩؛ عباس برويز : تاريخ ديالمة وغزنويان، ص ١٩١؛ براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدى ، ص ١٢٠.

٤٣-براون : نفس المرجع السابق ، ص ١٠٦.

لقد قيل ان السبب فى اتخاذ محمود للقب سلطان وإطلاقه عليه أن الأمير خلف بن أحمد حاكم سجستان وهو من فضلاء وعلماء العصر، وبلاطه كان مجلسا لاهل الشعر والعلم ن قد اسر على يد محمود وحمل إلى غزونه انظر:

نظامي عروض السمرقندي ، جهار مقاله ، ص ١٣١ ، فلما مثل أمام محمود صاح قائلا: أن محمود سلطان، انظر: نظام الملك الطوسي ، سياست نامة ، ص ١٩٤.

٤٤-حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٤.

٤٥-حسن الباشا : نفس المرجع السابق والصفحة Boswarth : The Litulature, p. 217

٤٦- الراوندى : راحة الصدر وآيه السرور ، ص ١٥٩ ، ١٨٥ ، ١٩٧.

٤٧- Boswarth : The Litulature, p. 223

لقب سلطان من أعظم الرتب وينقش وحده أو ينقش السلطان ابن السلطان أو سلطان الإسلام انظر: الأب انستاس مارى الكرملى: النقود الإسلامية، ص١٣٤ .

٤٨- نظامي عروض السمرقندي: جهار مقاله، ص١٣٩. تدرج الوزير أحمد بن الحسن الميمندى فى عدة مناصب إدارية قبل أن يصير وزيراً منها جباية الخراج، ورئاسة ديوان الرسائل. نظام عقيلي: آثار الوزراء، ص ١٥٣،

Nazim : The life and the time of Mohammed of Ghazm , P. 138)

٤٩- ابن الأثير : الكامل، ص ٩ ، أحداث ، سنة ٤٣٢ هـ ، ص ٤٧٣.

٥٠-ابن الأثير: الكامل، أحداث سنة ٤٣٢، ص ٤٨٠؛ عباس إقبال: الوزارة فى عهد السلاجقة، ص ٥٩.

٥١- الراوندي: راحة الصدور، ص ١٥٤؛ الأب انستاس ماري الكرملي: النقود الإسلامية ص ١٣٨.

٥٢-القزويني : تاريخ كزيدة ، ص ٩٣.

٥٣-الراوندي: راحة الصدور، ص ١٥٩؛ البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٢؛ القزويني: تاريخ كزيدة، ص٩٤.

٥٤-الراوندي: راحة الصدور، ص ٦٧٥.

٥٥-ابن الأثير: الكامل ص ٩، أحداث سنة ٤٤٩ هـ، ص ٦٣٤، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٦.

٥٦-البنداري: تاريخ دولة آل سلجوم، ص ٣٠؛ عباس إقبال: تاريخ ايران بعد الاسلام، ص ٢٤٠.

٥٧-ابن الجوزي : المنتظم، ص ٨، ص ٢٦٠؛ ٢٦٥، الحسيني: زبدة التواريخ، ص ١١٥؛ الحسيني: اخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٣.

ففي سنة ٤٦٣ هـ سار ألب أرسلان بجيشه لمحاربة الروم، وملكهم أرمانوس ، وهزمهم في ملاذكرد وفرض عليهم الجزية انظر: الحسيني: نفس المصدر السابق ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

٥٨ – نظام الملك الطوسي:سياست نامه، ص ٣٣؛ القزويني : تاريخ كزيدة : ص ١٠١.

٥٩-تاريخ دولة ال سلجوق ، ص ٥٠؛ أحمد كمال الدين حلمي : السلاجقة، ص ٣٥ .

٦٠-الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ص ٦٠ ؛ النويري : نهاية الأرب، ص ٢٦، ص ٢٣٥، ٣٣٦؛ والخاتون لفظ تركي معناه السيدة، وصيغة الجمع منه خاتونات أو خواتين، استعمل هذا اللقب في نص تأسيس بتاريخ ٥٠٤ هـ في المدرسة الظاهرية بدمشق ، وهو نعت والده الملك دقاق. انظر: حسن الباشا : الألقاب، ص ٢٦٤، ٢٦٥ .

٦١-البنداري : مختصر تاريخ ، ص ٧٩، Howorth : the Northern Frontagers, p. 477

٦٢- الحسيني: زبدة التواريخ، ص١٥٦؛ القزويني : تاريخ كزيدة : ص ١٠٩؛ عباس اقبال، الوزارة، ص١٤٧.

٦٣-الراوندي : راحة الصدور، ص ٢١٤ .

٦٤-تاريخ دولة ال سلجوق : ص ٨١.

٦٥- القزويني : تاريخ كزيدة، ص ١١٧ .

٦٦- البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٤ .

٦٧- الراوندي: راحة الصدور، ص ٤٠٣؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢٨٧

٦٨- الراوندي : نفس المصدر السابق ، الحسيني ، زبدة التواريخ ، ص ١٣٥؛ القزويني: تاريخ كزيدة ، ص ١٢٢ .

٦٩-البنداري: مختصر تاريخ ، ص ١٢٠.

٧٠-القزويني : تاريخ كزيدة ، ص ١٣٠ ؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص ١٩١

٧١-القزوينى : نفسه ، ص ١٣٢.

٧٢-راحة الصدور : ص ٣٠٦

٧٣- القزوينى : تاريخ كزيدة : ص ١٣٣ .

٧٤-القزوينى : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٠ .

٧٥- الكرمانى : بدائع الأزمان في وقائع كرمان، ص ٥٣ الطبعة الأولى ، ترجمة بديع محمد جمعه وثريا محمد علي، طبعة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة سنة ٢٠٠٠ م؛ عباس أقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢٤٥. كذلك أسس تتش ابن السلطان ألب أرسلان دولة فى الشام أطلق عليها سلاجقة دمشق والشام وهى التى تبدأ بأبو سعيد تاج الدولة تتش، الذى ولد سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥م انظر الحسيني: زبدة التواريخ، ص١٤٨.

٧٦- الكرمانى : بدائع الأزمان، ص ٦٧.

٧٧- القزوينى: تاريخ كزيدة، ص ١٦١؛ عباس أقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٨٣

٧٨-الكرمانى: بدائع الأزمان ، ص ٧٤ ، ٧٨

٧٩-ابن البيبى: تاريخ سلاجقة الروم، ص ٨٤، ٨٨، ١٠٠، ترجمة محمد علاء الدين منصور، طبعة دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٩٤م.

٨٠-القزوينى : تاريخ كزيدة، ص ١٦٧ .

٨١-ابن البيبى : تاريخ سلاجقة الروم ، ص ٣٤٢

٨٢- Boswarth : The Litulature, p. 221

٨٣- عباس إقبال : الوزارة، ص ٤٦.

٨٤-عباس أقبال : نفس المصدر السابق، ص ٤٧ .

- هو الوزير أبو طاهر بن سعد الدين بن على القمى الذى لقب فى بداية حياته «بشرف الدين» وذلك عندما كان عارضا في عهد السلطان ملكشاه، وفى سنة ٤٨١ هـ اسند اليه حكم مدينة مرو، ولقبه الوزير نظام الملك بلقب «وجيه الملك»، ثم انتقل للعمل كرئيس لديوان والده السلطان سنجر ، ثم وزيرا للسلطان. انظر خواندمير: دستور الوزراء ، ص ٢٧٦.

٨٥-البندارى : تاريخ دولة ، ص ٢٤

٨٦-البندارى : نفس المصدر السابق ، ص ٧١ .

٨٧- ابن الجوزى : المنتظم، جـ ٩ ، ص ١٢٨ .

٨٨-محمد مسفر الزهرانى : نظام الوزارة فى العهدين البويهى والسلجوقى ، ص ١٣٤ .

٨٩-البندارى : تاريخ دولة ، ص ١٦٣

٩٠- محمد مسفر الزهرانى : نظام الوزارة ، ص ١٣٤ .

٩١-محمد مسفر الزهراني : نفس المصدر ، ص ١٣٥.

٩٢-ابن الاثير : الكامل ، جـ ٩ ، أحداث سنة ٤٥٠ هـ ، ص ٥٦١؛ خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٤٤؛ نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٠٤

٩٤- نظامي عرض السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٠؛ القزويني، تاريخ كزيدة، ص ٩٧.

٩٤-عباس أقبال : الوزارة ، ص ٦٩ ، ٧٢؛ كرماني ، نسائم الاسحار ، ص ٤٩ .

٩٥-دستور الوزراء، ص ١٥٠؛ البنداري ، تاريخ دولة ، ص ٥٨ ، ٥٩

٩٦-عباس أقبال : الوزارة، ص ١٦٣ .

٩٧- البنداري : تاريخ دولة، ص ٨٣؛ نظام عقيلي، آثار الوزراء، ص ٢١٧

٩٨-كرماني:نسائم الاسحار ، ص ٥٣ ؛ نظام عقيلي، نفس المصدر السابق، ص ٢٢٦ .

٩٩-القزويني : تاريخ كزيدة، ص ١٢٠ .

١٠٠- الراوندي: راحة الصدور ص ٢٣٤؛ عباس اقبال: الوزارة ، ص ٢١٩؛ نظام عقيلي: آثار الوزراء، ص ٢٣٢ .

١٠١-نظام عقيلي : آثار الوزراء ، ص ٢٢٧؛ كرماني : نسائم الاسحار ، ص ٥٣.

١٠٢-خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٧٢؛ عباس اقبال ، الوزارة ، ص ٢٣٥ .

١٠٣-الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٢٥ .

١٠٤- ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ١٠ ، س ٧٨.

١٠٥- نظام عقيلي: آثار الوزراء ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

١٠٦- عباس اقبال : الوزارة ، ص ٣٥٣ .

١٠٧- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٧٦ ، ٢٨٢ .

١٠٨-خواندمير : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

١٠٩- عباس أقبال : الوزارة ، ص ٣٩٨ : ٤٠٠.

١١٠- الكرماني : بدائع الأزمان ، ص ٥٣ .

١١١-عباس أقبال : الوزارة ، ص ١٣٥.

١١٢- الكرماني : بدائع الأزمان ، ص ٨٨ .

١١٣-القزويني : تاريخ كزيدة ، ص ١٣١ .

١١٤-القزويني : نفس المصدر السابق ،ص ١٧٠ .

١١٥- كلمة المستوفي من وفى بمعنى الوفاء ضد الغدر، فيقال وفى بعهده، وأوفى بمعنى الموافاة التي يكتبها كتاب دواوين الخراج في حساباتهم، ومهمة المستوفي أشبه بوظيفة وزير المالية في وقتنا الحاضر، تشمل إدارته ديوان الاستيفاء والإشراف على تنظيم إيرادات الدولة

ومصروفاتها . انظر الجوينى، عتبة الكتبة، صـ ٤٦، بتصحيح واهتمام محمد قزوينى وعباس إقبال، ١٣٢٩ هـ. ش .

١١٦- عباس إقبال : الوزارة في العهد السلجوقي ، ص ٤٨ .

١١٧- ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ١٢٨؛ ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، أحداث سنة ٤٥٩هـ، صـ٥٤.

١١٨- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٨٤ .

١١٩- البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٣ ؛ الحسيني : زبدة التواريخ ، صـ ١٢١.

١٢٠- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٨٦ .

١٢١- ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، أحداث سنة ٤٨٢ ، ص ١٨٠ .

١٢٢- الراوندي : راحة الصدور، صـ ٢٢٣؛ نظام عقيلي، آثار الوزراء ، ص ٢١٦ .

١٢٣- البنداري:مختصر ، تاريخ صـ ٩٠١ ؛ نظام عروض السمرقندي : جهار ، ص ١٣٠

١٢٤- عباس إقبال : الوزارة ، ص ٢٧ .

١٢٥- خواند مير : دستور الوزراء، صـ ١٨٢، نظام عقيل : آثار الوزراء ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣.

١٢٦- البنداري : تاريخ دولة ، ص ١٢٩؛ الروائي ، نسائم الأسحار ، ص ٧٥ .

١٢٧- البنداري : مختصر تاريخ ، صـ ١٢٩ .

١٢٨- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، صـ ٧٨؛ خواندمير: دستور الوزراء ، صـ ٢٩٠؛ كرماني: نسائم الأسحار، صـ ٥٥ ، ٥٦ .

١٢٩ – الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٣٣؛ الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢١٤ ، نظام عقيلي: آثار الوزراء، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

١٣٠ – ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٦ .

١٣١- الطغرائي كلمة، تركية الأصل بمعنى الختم وهي منسوبة إلى الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومعناها نعوت الملك الذي صدر الكتاب بأمره وصاحبها بمثابة وزير للسلطان، وديوان الرسائل والإنشاء، شعبة من شعب ديوان الطغراء، يعمل فيه فريق من الموظفين، يطلق على الفرد فيه اسم المنشئ أو كاتب الرسائل انظر: عباس إقبال : الوزارة، ص ٤٤ .

١٣٢- نظامي عروض السمرقندي : جهار مقاله، صـ ١٠١ .

١٣٣- عباس إقبال :الوزارة ، صـ ٥٢ ، ٨٩ ، ٩٧ .

١٣٤ – البنداري : مختصر تاريخ ، صـ ١٢٩ .

١٣٥- عباس إقبال : الوزارة ، صـ ٨٩ ، ٩٠ .

١٣٦- عباس إقبال : نفس المرجع السابق ، صـ ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ .

١٣٧- البنداري : مختصر تاريخ ، صـ ٣٥ .

١٣٨- عباس أقبال : الوزارة، صـ ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

١٣٩- القزويني : تاريخ كزيدة : صـ ١٢٣ ، ١٢٤؛ الحسيني : زبدة التواريخ ، صـ ٢٤٤.

١٤٠- الخطائيون: تنتسب هذه الدولة إلى مجموعة القبائل التركية الوثنية التي تدين بالبوذية، قامت على حدود تركستان في عهد السلاجقة، وقد تأسست دولتهم في حدود سنة ٥١٨ هـ /١١٢٤م، واتسعت دولتهم فشملت ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق، وأطلق على ملوكهم لقب كورخان. انظر: نظامي عروض السمرقندي : جهاز مقاله، صـ ١٠٨.

١٤١- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٩٥ .

١٤٢- ابن الأثير : الكامل ،جـ ٩ ،أحداث سنة ٤٥٠ هـ ، صـ ٦٤٨ .

١٤٣- عباس أقبال : الوزراء ، صـ ١٤٥ ، ١٤٢ ، ٢٥٨ .

١٤٤- البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق :صـ ٩١ .

١٤٥- البنداري : نفس المصدر ، صـ ١١٣ ، الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٥٩ .

١٤٦- الراوندي : راحة الصدور ، صـ ٢٦٢ .

١٤٧- الكرماني : بدائع الأزمان ، صـ ٧٦ .

١٤٨- القزويني : تاريخ كزيدة ، صـ ١٦٥ .

١٤٩- عباس أقبال : الوزارة ، صـ ٢٣٥ .

١٥٠- سياست نامه ، صـ ١٩٥ .

١٥١- الراوندي : راحة الصدور ، صـ ٨٧ .

١٥٢- البنداري : مختصر تاريخ ، صـ ١٣٥ .

١٥٣- عباس أقبال : الوزارة ، صـ ٦٤ .

١٥٤- البنداري : مختصر تاريخ ، صـ ٧٩ .

١٥٥- البنداري : نفس المصدر ، صـ ٧١ .

١٥٦- البنداري : نفس المصدر ، صـ ٥١ .

١٥٧ - القزويني : تاريخ كزيدة ، صـ ١٢٠ .

١٥٨- البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، صـ ١٥٠ .

١٥٩- الراوندي : راحة الصدور ، صـ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

١٦٠ عباس أقبال : الوزارة ، صـ ٣١٨ ، ٣٤٩ .

١٦١- الراوندي : راحة ، صـ ٩٠ .

١٦٢- البنداري : تاريخ دولة ، صـ ٧٥ .

١٦٣- البنداري : نفس المصدر ، صـ ١٤٩ .

١٦٤- الرواندي : راحة ، صـ ٣٠٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

١٦٥ – عباس أقبال : الوزارة ، صـ ٤١٦ ، ٣٥٤ ، ١٢٤ .

١٦٦ – البنداري : تاريخ دولة ، صـ ١٣٤ .

١٦٧- نظامي عروض السمرقندي : جهار مقاله ، صـ ١٢٧ .

١٦٨- البنداري : تاريخ دولة ، صـ ١٤٣ .

١٦٩- نظامي عروض السمرقندي : جهار مقاله ،صـ ١٣٦ .

١٧٠- بدائع الأزمان في وقائع كرمان ،صـ ٤ ، ٥ .

١٧١- الكرماني : بدائع الأزمان ، صـ ٧٥ .

١٧٢- حسن الباشا : الألقاب ، صـ ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

١٧٣- البنداري : تاريخ دولة ، صـ ٦٢ .

السيدة تركان خاتون: أبنة طمغاج خان بن بغراخان من بنات ملوك الخانية في تركستان وبلاد ما وراء النهر (القزويني: تاريخ كزيدة، صـ ١٠٢ ولقد اعتنق القرة خانيون الإسلام على المذهب السنى مذهب الخلافة العباسية، دار وارتبطوا بصلات وثيقة بالخلافة

Horworth : The Northern Frontages of China Afrasyable Turks , P. 477 .

من أشهر حكام هذه الدولة في بلاد تركستان وما وراء النهر الملك أيلك خان والملك قدرخان يوسف الذى تولى سنة ٤٠٤ هـ، والذى وقف إلى جانب السلطان محمود الغزنوى ضد أطماع أخيه «أيلك خان» في خراسان. Howarth: The Northern, p. 479.

١٧٤- الرواندي: راحة الصدور ،صـ ١٤٢؛ كرماني : نسائم الأسحار ، صـ ٥١ .

١٧٥- البنداري: تاريخ دولة، صـ ٩٧، ١٠٧؛ نظام عقيلي: آثار الوزراء، صـ٢٦٢؛ كرماني: نسائم الأسحار، ص ٨٥ .

١٧٦ – الرواندي : راحة الصدور ، صـ ٢٠٥ ؛ كرماني : نفس المرجع السابق ، ص ٧٦ .

١٧٧- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، صـ ١٦؛ الحسيني: زبدة التواريخ ، ص١٢٥ .

١٧٨- ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ٩، صـ ٢٢٨؛ عباس أقبال : الوزارة ، صـ ٣٦٣ .

١٧٩- البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، صـ ١٦١ .

١٨٠- الكرماني : بدائع الأزمان في وقائع كرمان ، صـ ٧٣ .

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر والمراجع العربية :

- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٥ م): أبو الحسن على بن أبو الكرم محمد ابن محمد: الكامل فى التاريخ، حـ ٩، حـ ١٠، طبعة دار صادر بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

- أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، طبعة دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

- أنستاس مارى الكرملى البغدادى: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية القاهرة ١٩٦٨ م.

- البيرونى (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد:

الآثار الباقية عن القرون الخالية، نشر إدوارد سخا ليبرخ ، سنة ١٨٧٦ م .

- حسن الباشا: الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

- ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) :أبو الفرج عبد الرحمن بن على

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، جـ٨، جـ٩، جـ١٠، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن ١٣٥٨ هـ .

- محمد مسفر الزهرانى: نظام الوزارة فى العهدين البويهى والسلجوقى، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م

- النويرى (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣م): شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:

نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٢٦ ، تحقيق محمد فوزى العنتيل، مراجعة محمد طه الحاجرى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م .

- هلال بن الصابى (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) : أبو الحسين هلال بن المحسن:

رسوم دار الخلافة، عنى بتحقيقه والتعليق عليه ونشره ميخائيل عواد، مطبعة العانى ببغداد سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

ثانياً - المصادر والمراجع الفارسية :

- الأفضل الكرمانى (عاش فى النصف الثانى من القرن ٦ هـ):أحمد بن حامد .

- بدائع الأزمان فى وقائع كرمان، الطبعة الأولى، ترجمة بديع محمد جمعه وثريا محمد على ، مطبعة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠٠م.

- البنداري (٥٩٧هـ/ ١٠١٧م) الفتح به على بن محمد:

مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، الطبعة الثالثة، طبعة دار الآفاق الجديدة ببروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- ابن البيبى (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٧٦م) : ناصر الدين يحى بن محمد: تاريخ سلاجقة الروم، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٩٤م .

- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ / ١٥٣٦ م): غياث الدين بن همام الدين: دستور الوزراء، ترجمة حربى أمين سليمان، تقديم فؤاد عبد المعطى الصياد، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

- الحسينى (ت٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥م): صدر الدين الحسن على بن ناصر: أخبار الدولة السلجوقية، أعتنى بتصحيح محمد إقبال، طبعة لاهور، سنة ١٩٣٢ م .

- ـــــــ : زبدة التواريخ المعروف بأخبار الأمراء والملوك السلجوقية، الطبعة الأولى، تحقيق محمد نور الدين، طبعة دار إقرأ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

- الراوندى (ت ٥٩٩ هـ / ١١١٩ م): محمد بن على بن سليمان: راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية ترجمة ابراهيم الشواربى وآخرون ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

- عباس إقبال: الوزارة فى عهد السلاجقة ترجمة أحمد كمال الدين حلمى، طبعة الكويت ١٩٨٤م.

- ـــــــ : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية: ترجمة محمد علاء الدين منصور، مراجعة السباعى محمد السباعى ، طبعة دار الثقافة والنشر .

- عباس برويز: تاريخ ديالمة وغزنويان، تهران ١٣٣٦ هـ ، ش .

- قابوس (ت ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر: قابوسنامة المعروف بكتاب النصيحة، ترجمة محمد صادق نشأت، وأمين عبد المجيد بدوى، الطبعة الأولى، مكتبةالأنجلو المصرية ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

- القزوينى (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م): حمد الله أبو بكر أحمد بن نصر المستوفى: تاريخ كزيدة المعروف بالتاريخ المختار، ترجمة محمود محروس قشطة، رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٦٨ م .

- الكرديزى (ت ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م): أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك محمد: زين الأخبار ترجمة عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

- الكرمانى : نسائم الأسحار فى لطائف الأخبار در تاريخ وزراء، بتصحيح ومقدمة مير جلال حسين خنجاه دانشكاه انتشارات انشكاه تهران .

- ميرخواند (ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٤ م) : محمد بن خاوند شاه: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى، راجعه السباعى محمد السباعى، الطبعة الأولى، طبعة الدار المصرية للكتاب سنة ١٩٨٨م .

– نظام عقيلي (توفى في النصف الثاني من القرن التاسع الهجرى) : سيف الدين حاجي: آثار الوزراء، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسين، تهران ١٣٣٧هـ . ش .

– نظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٧ م): أبو علي الحسن بن علي بن اسحق: سياست نامه، ترجمة السيد محمد الغراوي، الناشر مطبعة الرائد العربي، القاهرة سنة ١٩٧٥م .

– نظامي عروض السمرقندي (ت ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م) أحمد بن عمر: جهار مقاله، عليه خلاصة حواش العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩م.

ثالثاً - المراجع الأوروبية :

أدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدى، ترجمة ابراهيم أمين الشوابى ، طبعة السعادة بمصر ١٩٥٤ م .

-Bowarth : The Litulature of the early Ghaznavicls (Leiden 1962) .

-Cambridge :History of Iran V.4 , (Cambridge , 1975) .

-Frye : Bukhara the Medieval Achievement (London , 1965) .

-Nazim : The Life and the Time of Mohamed of Ghazn , (Cambridge , 1931)

-Howorth : The Northern Frontagers of China , Afrasyabli Turks , Journal of the Royal Asiatic Society , (London , 1898) .-

د. فهد مطلق العتيبي (*)

Nelson Glueck and Nabataean Ethnicity: An Appraisal

Glueck (1970: 209) claims:

During our archaeological survey of the territories in southern Transjordan, once occupied by Edom and Moab, we discovered more than five hundred Nabataean watchtowers, fortresses, villages, and hamlets most of them situated in their day in the midst of cultivated fields, or alongside of travel and trade-routes. **These sites can be recognized as Nabataean, even in places where there are no standing ruins, by the evidence of Nabataean pottery** [my italics].

In another passage, he says: 'A kilometer before arriving at et-Telah, it was possible to identify the site as Nabataean by the countless fragments of Nabataean pottery strewn over the surface of the ground [...] '(Glueck, 1970: 61).

This led another writer to say:

Without a doubt, the archaeological approach to their [the Nabataeans] study has made possible the greater share of the cultural information that is available today; and it has assisted in clarifying and confirming much of the historical information. Probably the greatest contributor to the reservoir of archaeological information was Dr. Nelson Glueck, former president of Hebrew Union College and Jewish

* أستاذ مساعد بجامعة القصيم – المملكة العربية السعودية.

طبع بمطابع





مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الخامس عشر
مارس ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتـــاح

احتلت مجلة المؤرخ العربى التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة مكانة متميزة فى المكتبة التاريخية العربية، وأصبحت من أهم الدوريات العلمية المتخصصة فى الوطن العربى. يدل على ذلك عشرات الرسائل الواردة للاتحاد من شوامخ المشتغلين بالدراسات التاريخية فى الجامعات العربية، التى تشيد بالمستوى الرفيع للبحوث والدراسات المنشورة، وتميزها بالأصالة والجدية والمنهجية العلمية.

ويرجع الفضل فى هذا الإنجاز - بعد الله سبحانه وتعالى - إلى جهود الباحثين من مختلف الجامعات العربية، وحرص أعضاء هيئة تحرير مجلة الاتحاد على أن تكون المجلة على قمة الدوريات التاريخية المتخصصة فى الوطن العربى.

ويصدر العدد الخامس عشر من مجلة المؤرخ العربى (مارس ٢٠٠٧) متضمنا مجموعة من البحوث والدراسات التاريخية الجديدة، تحمل عناوين لموضوعات متنوعة منها: دراسات وبحوث عن مراكز الصناعة فى بلاد اليمن فى عصر صدر الإسلام، ومملكة الفرنجة بين اللومبارديين والبابوية، وأضواء على عهد الخليفة المتوكل على الله العباسى، والسياسة الخارجية لدولة الشاه البيضاء فى آسيا الصغرى أو فرسان مالطة وسياستهم فى طرابلس الغرب، كما يحتوى هذا العدد من المجلة على تحقيقات لنصوص تنشر لأول مرة منها: مملكة القسطنطينية فى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، ودور النصارى فى النشاط الاقتصادى فى مصر الفاطمية فى ضوء أوراق البردى العربية، وغير ذلك من البحوث والدراسات المتعمقة.

وترحب هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى بالبحوث والدراسات التاريخية للباحثين من سائر الجامعات لنشرها بعد تحكيمها ضماناً للجودة. ويشترط ألا يكون العمل المقدم للنشر قد سبق نشره، أو قُدم للنشر لأية جهة أخرى. ويُراعى أن تتراوح صفحات البحث بين ١٥-٣٠ صفحة. ويقدم البحث مكتوباً على الكمبيوتر على ورق كوارتور (A4)، ومسجلاً على أسطوانة مدمجة وفق برنامج Word، ومساحة الكتابة فى الصفحة ١٢×١٩سم، والهوامش والتعقيبات فى نهاية البحث، وبنط النص ١٤، وبنط الهوامش ١٢، وبنط العناوين الرئيسية ١٦ أسود، وبنط العناوين الفرعية ١٤ أسود، والمساحة بين السطور AUTP، وترفق الرسومات والصور والأشكال على ورق كلك، قابلة للاستنساخ مباشرة.

وفقنا الله جميعاً لما فيه رفع شأن الدراسات التاريخية فى الوطن العربى، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير.

أ.د. حسنين محمد ربيع

رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

يسر أسرة تحرير مجلة المؤرخ العربى أن تقدم العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربى والمجلة حريصة على أن تكون نافذة وضاءة لكل بحث جاد فى الوطن العربي فهناك أبحاث من مصر والسعودية واليمن.. وهناك بحث يتناول صراع السلطة فى اليمن منذ فجر الإسلام حتى قيام الدولة الطاهرية، وبحث عن أهم مراكز الصناعة فى اليمن فى العهد النبوى، ومن البحوث ما تناول تاريخ الدولة العباسية والفاطمية وما تناول تاريخ فلسطين والعلاقات بممالك قشتالة وأراعون ومالطة ورعاية الأيتام فى العصر المملوكى.

وقد جعلت المجلة قسماً سيكون ثابتاً فى إصدارها يضم تلخيص لأنشطة الاتحاد الثقافية. فلقد عقد الاتحاد عددا من الندوات لاقت حضوراً طيباً وإن كنا نأمل المزيد من المشاركة، فهناك ندوة عن الأهمية الاستراتيجية لشبه جزيرة سيناء شارك فيها أ.د. عبدالحليم نور الدين فى التاريخ القديم وأ.د. زبيدة عطا تحدثت عن بدو سيناء والاحتلال الإسرائيلى واللواء منير أحمد شاش محافظ جنوب سيناء السابق، وقد تحدث عن التنمية فى سيناء، وجرت مداخلات عدة أثرت الندوة. وحلقة نقاش عن تاريخ العصور الوسطى الإسلامية والأوربية شارك فيها كل من أ.د. حامد زيان، وأ.د. حسنين ربيع، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف صبرة، وأ.د. فايزة إسكندر، وأ.د. محمود سعيد عمران. وحلقة النقاش عن التشرذم فى العالم العربى بين التاريخ والسياسة شارك فيها أ.د. جمال زكريا، وأ.د. السيد فليفل، وأ.د. أحمد زكريا الشلق. وندوة مسئولية البابوية حول الحروب الصليبية شارك فيها كل من أ.د. إسحق عبيد وأ.د. حامل زيان، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف صبرة. وحلقة نقاش حول الدراسات التاريخية اليونانية الرومانية فى مصر (الواقع والمأمول) شارك فيها أ.د. محمود السعدنى، ود. أبو اليسر عبد العظيم فرح.

ولقد تم إعداد ملخصات كما سيكون هناك باب ثابت لأهم الإصدارات التاريخية فى كل عام. كما نرجو كل من لديه فكرة أو مقترح من السادة أعضاء الاتحاد بالنسبة للمجلة أن يوافينا به.

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا

هيئة التحرير

أ.د. عفاف صبرة - أ.د. عفيفى إبراهيم

برنامج نـدوات اليوم الواحد

(الموسم الثقافى ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧)

وضع اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة قائمة بعدد من الندوات والسمنارات تمت الموافقة عليها فى مجلس إدارة الاتحاد للموسم الثقافى (٢٠٠٦-٢٠٠٧م)، وقد تم تنفيذ البرنامج بمقر أنشطة الاتحاد على النحو التالى:

١- تم عقد ندوة بعنوان «الأهمية الاستراتيجية لشبه جزيرة سيناء» مساء يوم الخميس الموافق ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٦م اشترك فيها كل من أ.د. عبد الحليم نور الدين، وأ.د. زبيدة عطا، واللواء منير شاش محافظ جنوب سيناء الأسبق. وقام أ.د. حسنين محمد ربيع رئيس الاتحاد بإدارة الندوة. وحظيت الندوة بحضور مكثف، كما كانت هناك الكثير من المداخلات التى أثرت الندوة.

٢- عقدت حلقة نقاش بعنوان «تاريخ العصور الوسطى الإسلامية والأوربية» مساء الخميس الموافق ٨ فبراير ٢٠٠٧م شارك فيها كل من أ.د. حامد زيان غانم، وأ.د. حسنين محمد ربيع، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف سيد صبرة، وأ.د. فايز نجيب إسكندر، وأ.د. محمود سعيد عمران، أ.د. عفيفى محمود إبراهيم، وأ.د. محمود إبراهيم السعدنى، وأ.د. أيمن فؤاد سيد، وأ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل. وقام أ.د. حسنين محمد ربيع بإدارة الندوة.

٣- عقدت حلقة نقاش حول موضوع «التشرذم فى العالم العربى بين التاريخ والسياسة» مساء يوم الخميس الموافق ١٥ مارس ٢٠٠٧ تحدث فيها كل من: أ.د. جمال زكريا قاسم، وأ.د. السيد على فليفل، وأ.د. أحمد زكريا الشلق. وقام بالتعقيب مجموعة من أساتذة التخصص والسادة الحضور.

٤- عقدت ندوة موضوعها «مسئولية البابوية حول الحروب الصليبية» مساء الخميس الموافق ٢٤ مايو ٢٠٠٧ شارك فيها كل من أ.د. اسحق عبيد، وأ.د. حامد زيان، وأ.د. عفاف صبرة. وقام بإدارة الندوة أ.د. زبيدة عطا، وقام بالتعقيب مجموعة من أساتذة التخصص منهم أ.د. محمد محمود النشار.

٥- ثم عقدت حلقة نقاش موضوعها «الدراسات التاريخية اليونانية الرومانية فى مصر (الواقع والمأمول)» مساء الخميس الموافق ١٤ يونيو ٢٠٠٧م وتولى إدارتها والمشاركة فيها أ.د. محمود السعدنى مع د. أبو اليسر عبد العظيم فرج، وحضرها مجموعة من أساتذة التاريخ القديم فى الجامعات المصرية.

وسيقوم الاتحاد قريباً بنشر ملخصات حصاد هذه الندوات وحلقات النقاش والمداخلات والتعقيبات.

المحتـــويـــات

صفحة

د.طارق أبوالوفا محمد

أهم مراكز الصناعة فى اليمن من العهد النبوى وحتى قيام دولة بنى يعفر

تمهيد:

(الموقع الجغرافى لليمن)

تقع اليمن فى القسم الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية[١]، ويحدها من الشمال بلاد الحجاز[٢]، ويحدها من الشرق عمان[٣]. تطل اليمن على المحيط الهندى من الشرق[٤] والجنوب[٥] وتطل على مضيق باب المندب[٦] والبحر الأحمر من الغرب[٧].

عوامل قيام الصناعة وازدهارها: اهتم المسلمون بالصناعة فى العصر الإسلامى فنجد النبى صلى الله عليه وسلم يحث على العمل ويرغب فى أن يعتمد المسلم على صنعته وكد يده[٨]. فأقبل أهل اليمن على الصناعة، وكان هناك عدة عوامل كان لها أكبر الأثر فى وجود الصناعة باليمن وكان أهمها:

توافر المواد الخام الطبيعية التى كونت الدعامة للصناعات المختلفة فكان بها الحديد الذى وجد فى صنعاء وعدن والذى استخدام فى صناعة السيوف، كما كان للثروة الحيوانية في اليمن أثرها فى نمو صناعة الجلود والملابس، كما كان لكثرة أنواع الصخور وتوافر خامات البناء والمعادن بصنعاء أثره فى تطور عملية البناء، كما كان للأحجار الكريمة فى اليمن ولوجود الذهب والفضة أكبر أثر فى ازدهار صناعة الحلى[٩].

وكذلك كان لوفرة الأيدى العاملة المدربة أثرها فى وجود الصناعة حيث وجد عدد من الرقيق[١٠] كما حظيت بعض مدن اليمن مثل صنعاء وعدن بوجود عناصر غير عربية من الفرس الذين استوطنوا اليمن قبل الإسلام[١١] كان له أثره فى ازدهار الصناعة، حيث نقلوا خبرتهم إلى أهلها، كما كان للعصبية القبلية والوراثة أكبر الأثر فى احتفاظ بعض بيوتات ومدن اليمن بأسرار بعض الصناعات فنسبت إليها مثل صناعة النعال الترخمية[١٢]

والبرود الشرعبية(١٣)، كما كان لحكام اليمن دورهم فى تشجيع الصناع، حيث شجع هؤلاء الحكام الصناع المهرة منذ العهد النبوى، حيث كان للفرس دور مهم فى الصناعة، استمر حتى عصر بنى يعفر(١٤) ولذلك كثرت وتنوعت الصناعات فى اليمن خلال تلك الفترة.

أهم مراكز الصناعة فى اليمن:

أ - صناعات النسيج:

تطورت هذه الصناعة فى اليمن تطورا كبيرا واعتمدت على توافر المواد الخام من حرير وقطن وكتان(١٥) وعلى صناعة أخرى تمهد لصناعة النسيج وهى صناعة الغزل التى ازدهرت لتوافر شعر الماعز والصوف من الضأن وغيرهما(١٦)

وقد شارك نساء اليمن فى الغزل وينقسم غزل نساء اليمن على وجهين:
أ- الفارسى: الذى يدخل الإبهام على الأصبع الوسطى من فوق الغزل.

ب- الحميرى: الذى يخرج الأصبع الوسطى على الإبهام فى الغزل(١٧)، أما عن صناعة نسيج الأقشمة والثياب، فقد اشتهرت هذه الصناعة فى اليمن منذ القدم فقد ورد أن ملوك اليمن فى عصور ما قبل الإسلام أنشأوا دورا للنسيج كانت تدر عليهم دخلا كبيرا من المال(١٨)، كما كانت منسوجات اليمن هى السائدة فى أسواق الجزيرة العربية وغيرها(١٩)، فقد كسيت بها الكعبة قبل الإسلام(٢٠) كما ازدهرت صناعة المنسوجات اليمنية وتطورت وبلغت شهرة فائقة فى العصر الإسلامى فكانت هذه الثياب والمنسوجات لباس رسول الله (ص) وخاصة يوم الجمعة ومواسم الأعياد وعند مقابلة الوفود، يقول اليعقوبى عند ذكره لباس رسول الله (ص) أنه كان يلبس برد الحمر ازرا أو أردية بيضاء والقلنسوة الحبر والجبة والسندس الخضراء(٢١) كما كفن الرسول (ص) فى ثلاثة أثواب سحولية(٢٢) نسبة إلى سحول، من كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة أدرجوه فيها إدراجا(٢٣) واستمرت صناعة نسيج الثياب فى اليمن فى ازدهار إبان العصرين الأموى والعباسى، حيث دفعت دقة صناع اليمن فى هذه الصنعة الخلفاء والولاة إلى إقامة دور لمناسج االطراز الخاصة بمدينة صنعاء(٢٤) فكان منها دار لطرز الخلافة والملوك(٢٥).

كما كانت هناك دور للطراز أيضا فى عدن(٢٦)، وكانت بعض مصانع النسيج تنقش شعاراتها على المنسوجات باللون الذهبى وهذا التوقيع يشبه إلى حد كبير العلامأت التى تضعها المصانع فى العصر الحديث على إنتاجها حرصا على عدم التزييف(٢٧)، أدى اهتمام حكام اليمن بصناعة النسيج خلال تلك الفترة إلى تنوع تلك المنسوجات وازدهار الملابس فى اليمن ومن أهم هذه الأنواع:

١- البرود:[٢٨] وكانت تنسج من الكتان، وكانت ذات شهرة كبيرة، حيث كانت تباع إلى البلدان الإسلامية، وظلت اليمن محتفظة بمكانتها كأكبر مصدر للبرود الغالية حتى القرن الرابع الهجري[٢٩] ويقال أن البرد الواحد منها كان طويلا ويصل طول الواحد منها إلى ثمانية أذرع، وغالبا ما تصنع من الكتان[٣٠]. وقد نسجت البرود في صنعاء وحضر موت ونجران وشرعب[٣١] وكانت ذات شهرة كبيرة حتى أن الجمل كان يحمل منها ١٢٢ بردا[٣٢] وقد برع أهل صنعاء في نسج البرد مما كان له أثره في ارتفاع ثمن البرود الصنعانية فكان سعر البرد الواحد يصل إلى ٥٠٠ دينار[٣٣] حيث أقبل عليه تجار البلاد الأخرى، كما استخدمت هذه البرود في البلاط الأموي[٣٤]. وكانت ملابس أهل الريف تختلف عن ملابس أهل صنعاء فكانوا يرتدون البرود[٣٥] لاسيما البرود المفوفة[٣٦] التي عرفت منذ صدر الإسلام على الأقل[٣٧].

٢- الحبرات: وتعمل بصنعاء الحبرات من القطن التي لايقدر في غيرها على اتخاذ مثلها ومنها تحمل إلى البلاد [٣٨] وقد تصنع من الحبرة السرودقات، فيذكر خالد بن صفوان أنه قدم على الخليفة هشام بن عبدالملك، وقد ضرب له سرادق من حبرة، كان يوسف بن عمر صنعه له باليمن فيه نطاع فيه أربعة فرش من خز أحمر[٣٩].

وقد تميزت ثياب أهل البادية من الأثرياء عن غيرها حيث ارتدوا الحبرة[٤٠] وهي من الألبسة الخارجية للرجال[٤١] وكانوا يأتون بها من صنعاء. أما ملابس المرأة اليمنية الخارجية فكانت تتمثل في الحبرة التي عرفت في صنعاء. قبل الإسلام وهي عبارة عن ملاءة كبيرة تغطي جسمها وتقي ملابسها من التراب والطين[٤٢] ولعل اللاتي ارتدين هذا النوع من الثياب هن نساء البدو والأثرياء أو نساء الطبقة المتوسطة بصنعاء[٤٣].

٣- البيرم: وهو نوع من المنسوجات وطول الواحد ستة أذرع[٤٤]

٤ - السباعيات: وهي نوع من الأردية وطولها سبعة أذرع في عرض أربعة أذرع، وهي على صنفين من الحرير الخالص ونوع آخر ممزوج بالكتان[٤٥].

٥- السعيدية: نوع من برود اليمن تشتهر به مدينة صنعاء لذا يقال سعدية صنعاء، دلالة على نسجها بها[٤٦].

٦- شقق الحرير: وطول الشقة عشرون ذراعا[٤٧]

٧- العصب: وهو ثياب نسج بصنعاء ارتدينه النساء وكانت صنعاء ومدن اليمن هي الممول الرئيسي لشبه الجزيرة العربية من العصب حتى نهاية القرن الرابع الهجري[٤٨].

٨ - الفوط: عرف أهل اليمن الفوط[٤٩] التي كانت تنسج بصنعاء[٥٠]. وكان عامة الحجاج اليمنيين يتشحون بها أثناء حجهم[٥١].

٩- الملايا: نوع من الفرش تصنع من المنسوجات القطنية والكتانية[٥٢]

١٠- الخمر: اشتهرت اليمن بصناعة الخمر وخاصة الخمر السود الجيشانية وعرفت بها جيشان[٥٣].

١١- النقب والبراقع: وهو النقاب الذى تستر به المرأة وجهها، ويكون من القماش الأسود الخفيف[٥٤] أما البراقع فكان أول من أمر النساء بارتدائها الإمام الهادى إلى الحق «يحيى بن الحسين ت. ٢٩٨هـ/ ٩١٣م[٥٥]

١٢- الوشي: اشتهرت اليمن بالوشى حتى نسب إليها فيقول الثعالبى: «وشى اليمن وعصب اليمن» ويضرب بهما الممثل فى الحسن[٥٦].

١٣- الوصايل: هى نوع من الأقمشة التى كانت تنسج منذ عصور ما قبل الإسلام واستمر نسجها فى العصر الإسلامى، ويتميز هذا النوع من النسيج بعدم وجود تصميم زخرفى مسبق، وإنما تتم زخرفته عن طريق استخدام خيوط ملونة تستخدم فى السداة واللحمة بطريقة متصلة أو منفصلة[٥٧]. ومن الجدير بالذكر أن الوصايل استخدمت فى كساء الكعبة قبل الإسلام وكان أول من كساها بالوصايل هو (تبع أبوكرب أسعد) عندما قدم فى طريقه من المدينة إلى مكة متجها إلى اليمن[٥٨] وهكذا تعددت أنواع المنسوجات اليمنية حتى أضحت اليمن أهم معقل من معاقل صناعة النسيج فى الجزيرة العربية إبان تلك الفترة. استلزمت صناعة النسيج قيام صناعة أخرى وهى صباغة الملابس، وكان يتم صبغاتها بعد نسجها أو بعد خياطتها، وأحيانا يصبغ الغزل قبل نسجه[٥٩].

فأقبل الصناع فى اليمن على استخدام طريقة الصباغة فى عمل المنسوجات ومن المعروف أن الأصباغ فى ذلك العصر كان معظمها أصباغ نباتية تستخرج من بعض النباتات وقد اعتمد النساجون فى صنعاء فى هذا المجال على الأصباغ المحلية مثل الزعفران[٦٠] وكان الزعفران فى اليمن يسمى الورس[٦١] وهو نبات يشبه السمسم، وكانت جمال اليمن التى تحمل الزعفران إلى الشمال تتأثر ألوانها بتأثير لون أحمالها من الزعفران حيث كان هذا النبات ذا لون أصفر[٦٢]. إلى جانب مدينة صنعاء فقد اشتهرت مدينة زبيد باستخدام النيلة فى الصباغة وهى مادة زرقاء يستعملها الصباغون[٦٣] وكذا مدينة عدن التى اشتهرت بتلك الصنعة باستخدام الورس والزعفران أيضا[٦٤] استخدم أهل اليمن فى تنظيف ثيابهم عدة صناعات مثل صناعة الصابون بنوعيه السائل والجامد التى اشتهرت به مدينة صنعاء[٦٥] أما فى عدن فقد اشتهرت قرية الممباه[٦٦] بصناعة الحطم، وكان يستعمل فى تنظيف الثياب كالصابون[٦٧] فكان أهالى الممباه يصنعون الصابون من عصارة أوراق شجر حمضى ينبت على ساحل عدن يسمى «العصل» وذلك من خلال حرقها بطريقة خاصة بحيث تسيل من الأوراق عصارة لزجه إلى حفر فى الرمل تتماسك بعد أن تبرد، وتترك حتى تصير قطعا صلبة بشكل الحفر[٦٨].

ب - الصناعات المعدنية

تعد المعادن من أهم الأشياء التى يستخدمها الإنسان نظرا لنفاستها لذا فقد استخدمها فى الزينة والمعاملات اليومية وفى غيرها ومن أهم الصناعات المعدنية:

١- صناعة السكة[٦٩] وهى الصناعة التى تهتم بها الدولة لضرب العملات المتنوعة من الذهب والفضة والنحاس ويتم سك العملة من خلال ثلاث مراحل:

توفير الخامات التى تسك منها العملة، ثم إعداد السبائك[٧٠] وذلك بوضعها فى داخل تنور (فرن) مبنى من الأحجار حتى يتم صهرها ثم تصب فى القوالب الخاصة بالعملة وكانت هذه القوالب منقوشا عليها ما يراد كتابته على العملة[٧١]. القوالب لضرب العملة تنتج عن عملية السك، والقالب هو الذى يكون عليه المعلومات المراد وضعها على العملة[٧٢]. تنفرد اليمن عن غيرها من بلاد شبه الجزيرة العربية بأنها أقدم البلاد من حيث تبادل العملة، وترجح بعض المراجع أن أقدم النقود يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد وبعضها يعيدها إلى القرن الثالث قبل الميلاد[٧٣]، ثم قامت الدولة الحميرية بضرب النقود حيث عثر على نقود تحمل اسم الملك الحميرى (شمر يرعش)[٧٤]، وكانت النقود اليمنية معروفة فى عموم الجزيرة العربية وما حولها من الأقطار[٧٥] هذه العملات التى عرفت بالعملات اليمنية ويقصد بها الدرهم الحميرى[٧٦] تدل على أنها ضربت بمدينة صنعاء لكونها حاضرة البلاد، ولما قدم الفرس إلى اليمن حوالى (٥٧٥م) تعاملوا بالدرهم الفارسى وبالتالى انخفضت قيمة الدرهم الحميرى أمام الدرهم الفارسى حتى إنه أصبح يعادل سدس الدرهم الفارسى وأطلق عليه دانق[٧٧]. أما فى العصر الإسلامى فقد أبقى النبى (ص) على العملة السائدة باليمن بدليل فرضه النبى (ص) الزكاة بهذه العملة[٧٨]. أما عن دور الضرب فى اليمن فقد تعددت أماكنها فكانت أقدم دار ضرب فى اليمن تم إنشاؤها فى العصر العباسى فى عام (١٨٣هـ/ ٧٩٨م - ٨٠٠م) كما أشارت المصادر التاريخية على يد والى صنعاء محمد بن خالد البرمكى[٧٩]

إلا أن الأثريين يؤكدون أنه ظهرت عملات منذ عهد المنصور، حيث أكد أحد الباحثين أن أقدم العملات الإسلامية فى اليمن عرفت حتى الآن هى الفلس[٨٠] ويشير أحد الباحثين إلى أنه يوجد فى متحف الآثار التركية فى اسطنبول، وقد ضرب سنة (١٥٦ هـ/ ٧٧٢م - ٧٧٣م) فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور، أمر بضربه ابنه المهدى فى حياته وكان خاله يزيد بن منصور واليا على اليمن، وعلى هذه العملة نص واضح هو (مما أمر به المهدى محمد ابن أمير المؤمنين)[٨١]، ويشير إلى أنه توجد فى المتحف الوطنى بصنعاء فلوس من نفس الدار ضربت عام (١٥٦هـ/٧٧٢م - ٧٧٣م) مكتوب عليها (ضرب هذا الفلس فى اليمن)

وذكرت سنة الضرب، ولم يذكر المكان[٨٢] فإذا كانت سنة (١٥٦هـ/ ٧٧٢ م – ٧٧٣م) هي أقدم السنوات من حيث ظهور العملة آنذاك والفلس الأول يدل على أنه كان من الجائز أن يضرب ولي العهد عملة باسمه في حياة أبيه وعدم ذكر مدينة صنعاء يجعل هناك استنتاجين أولهما: وجود أكثر من دار لسك العملة في مدن مختلفة من اليمن، وربما تكون هذه المدن قريبة من صنعاء لكونها مركز لمقر الوالي، أما الاستنتاج الآخر وهو الذي أرجحه أن وجود عبارة ضرب باليمن يقصد بها مدينة صنعاء لكونها حاضرة اليمن وأكثر مدنه رقيا فإنه كما يقال ضرب بمصر ويكون محل السك العاصمة فإنه قياسا على ذلك ربما انطبق ذلك على صنعاء أيضا التي ظلت تسك بها العملة من قبل العباسيين[٨٣]، وتعددت دور الضرب في اليمن وتنوعت العملات فكان منها: ذهب – جرام». ذهب دينار مطوق ٢,٩٧ جم. ، فضة درهم قفلة ٢,٢٧ جم، ف ثلث درهم ٠,٩٩ جم، ربع درهم ٠,٧٤جم. ، سدس درهم ٠,٤٩ جم. ، درهم يمني من عشرة قراريط ٠,٩٥ جم. ، ثلث الدرهم اليمني ٠,٦٥ جم، سدس الدرهم اليمني ٠,٣٢ جم[٨٤].

٢– صناعة الحلي: كانت اليمن تمثل مركزا من أهم مراكز تصنيع الحلي في الجزيرة العربية وقد تعددت أنواع الحلي فكان منها الحلي الذهبية والفضية وكان منها ما هو مصنوع من الأحجار الكريمة.

صناعة وصياغة الذهب واستخراجه: وجد الذهب في جبل نقم[٨٥] ويكثر من منطقة همدان ذهب «المخلفة» من أرض حجور (في أعالي وادي مور غرب البون) وفي منطقة خولان معدن ذهب «الفقاعة» ويقع غربي صعدة ونجران، ووصف ذهب هذه المعادن بأنه من أحسن أنواع الذهب[٨٦].

وكانت ذمار مركزا قديما لإنتاج الذهب، وسميت بعض قراها باسمه مثل سامة العليا وسامة السفلى، وكذلك استخرج الذهب والفضة من أرض همدان وخولان والجوف[٨٧]

ويستخرج الذهب بحفر آبار ضيقة كالكظائم[٨٨] وبعد أن تتم عملية استخراج الذهب تبدأ عملية تصنيعه، ويشير الهمداني إلى صناعة الحلي الذهبية فيذكر أن الذهب كان يخلط بالفضة والنحاس حتى يصبح سميكا قويا ويندمج ويطرق بالنار بعد خلطه بالنحاس والفضة[٨٩]، وكان يصنع من الذهب الأساور والخواتم والخلاخيل التي كانت ترتديها النساء[٩٠]. كذلك اشتهرت عدن بصناعة صياغة الذهب التي قام بها اليهود، حيث كان يوجد في عدن حي خاص باليهود يمارسون فيه تلك الصناعة[٩١] وقد برع اليهود في صناعة الحلي الذهبية التي كانت تتميز بالدقة وحسن الذوق. وقد ساعد على ازدهار هذه الصناعة حياة الترف التي كان يحياها الولاة والتجار في عدن[٩٢].

استخراج الفضة وصهرها:

وجدت الفضة باليمن منذ أقدم العصور، وقد قام أهل صنعاء باستخراجها من «نهم»[٩٣] كما كانت تستخرج من جبل معدل فى حضر موت[٩٤] وهى القرية التى تستخرج منها[٩٥] وكانت عملية صهر الفضة تتم فى تنانير وكان بكل تنور منفاخان يقف على كل منفاخ رجل يقوم بعملية النفخ، وإذا كان يتبعه آخر، وكانت توضع الأخشاب مع الفضة حتى تتم عملية الصهر وعندما تبرد الفضة يتم تقطيعها[٩٦]. وكان عدد تنانير صهر الفضة فى قرية الرضراض أربعمائة تنور فى أيام الهمدانى[٩٧] فقد استخدم أهل صنعاء الفضة جنبا إلى جنب مع الذهب فى الزخارف وفى الصفائح التى غلفت بها أبواب مساكن الملوك وخشب سقوفهم.[٩٨] كما استخدموها فى مقابض خناجرهم[٩٩] وسيوفهم المحنية الصغيرة[١٠٠] كما استخدمتها النساء كحلى فارتدينها كأساور وخواتم وخلاخيل[١٠١].

العقيق: وجد العقيق منذ أقدم العصور وأشار ابن الفقيه[١٠٢] إلى وجود العقيق فى صنعاء فيقول: «ويحمل العقيق من مخاليف صنعاء» وأجود ما آتى به من قرية تسمى مقرى وقرية أخرى تسمى الهان وجبل يقال له قاسر، فيعمل بعضه باليمن ويحمل بعضه إلى البصرة. أما عن طريقة استخراج العقيق فعندما كان يعثر عليه يكسر ويلقى فى الشمس عند شدة الحر ثم يسجر له التنور لإبعاد البلل ويجعلونه فى شىء ملامس للنار فيسير منه ماء يجرى فى مجرى وضعوه له، ثم يستخرجونه لم يبق منه إلا الجوهر وما عاداه صار رمادا[١٠٣] وأحيانا يكون العقيق فى الجبال كالحصاة فيلتقط من بين الحجارة[١٠٤]، ومن أنواع العقيق أيضا الجذع ويستخرج بنفس طريقة استخراج العقيق.

تعددت أنواع العقيق فمنه نوع يسمى المثلث وهو غالى الثمن يمتاز بأن له وجه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود، ومنه أيضا صنف اسمه السعوانية نسبة إلى الجهة التى يستخرج منها وهى وادى سعوان المجاور لمدينة صنعاء. وهو فص أسود فيه عرق أبيض[١٠٥] واشتهر اللونان الأحمر والأصفر[١٠٦] من بين ألوان العقيق لارتفاع ثمنيهما كما وجدت ألوان أخرى متميزة ونادرة[١٠٧] ومن أنواع العقيق أيضا الجذع وهو أنواع نسب كل نوع إلى مكان استخراجه كالنقمى[١٠٨] نسبة إلى جبل نقم شرق صنعاء، والجذع العشارى نسبة إلى وادى عشار[١٠٩]، كما نسبت بعض أنواع الجذع إلى أسماء أماكن خارج اليمن وشبه الجزيرة العربية كالنوع المسمى الفارسى والآخر الذى أطلق عليه الحبشى[١١٠] وحملت بعض أنواع الجذع أسماء صفات كالمعرق

والعسل(١١١) وأيضا تفاوتت أحجامه بين الصغير والدقيق الذى يصنع منه الخرز(١١٢) والكبير الذى صنعت منه الأوانى العظيمة(١١٣).

وكان العقيق يستخدم فى صناعة مقابض السيوف(١١٤) كما استخدمت نساء اليمن الذهب والفضة والحلى استخدمن أيضا العقيق فصنع لهن من العقيق الفصوص والخرز(١١٥) والعقود أيضا(١١٦) وقد ساعد الصناع على ذلك كثيرة ألوان العقيق(١١٧).

الياقوت: استخدم أهل اليمن الياقوت للزينة، خاصة بمختلف ألوانه من الأحمر والأصفر والأزرق(١١٨). كما وجد اللؤلؤ فى اليمن وخاصة فى عدن(١١٩) ويعد اللؤلؤ من أعظم المنتجات البحرية وأغلاها ثمنا(١٢٠) وقد استخدم اللؤلؤ فى الزينة(١٢١) كما وجد النحاس فى اليمن فى أماكن كثيرة مثل ذمار(١٢٢) وغير ذلك من مدن اليمن. ولقد استخدم الإنسان فى اليمن النحاس فى صنع بعض الأوانى والصناديق والعلب(١٢٣). وامتاز أسلوب الصانع اليمنى فى تلك الفترة باستخدام أساليب متنوعة فى صناعة النحاس مثل الصب أو التكفيت(١٢٤).

٣- صناعة الأسلحة:

تعددت أنواع صناعة الأسلحة فى اليمن فكان منها:

صناعة السيوف: تفنن صناع اليمن فى صناعة السيوف، حيث كان للسيف أجزاؤه المتعددة فحديدته هي النصل، ومتن السيف هو ظهر النصل، وصدر السيف هو مقدمة، وعرضاه هما صفحتاه، فأما حداه فهما الزلقان والذبابان، والمسمار الذى فى القائم والكلب، والحرباء فى كل قائم كلبان والمحمل هو الحمالة، والنجاد هو السير الذى يركب بالعاتق ويحمل به السيف، فإذا سهل خروجه من غمده قيل عنه سلس وزلق، وإن تعثر قليلا قيل عنه نصب، وإن انكسر السيف قيل انقصف(١٢٥).

وكانت السيوف تزين فتنقش عليها تماثيل أو يكتب عليها أو يصور عليها صور، ويذكر ابن المجاور(١٢٦) أن هناك نوعا من السيوف يعرف بالصنعانى يضرب فى صنعاء، متقدم قصير، لأنه سيف الرجالة، وكان هناك أيضا نوع من السيوف المستقيمة بعضها ذو حد واحد وبعضها ذو حدين، وهى الأكثر استعمالا وشيوعا(١٢٧)، وكانت سيوف اليمن تصدر إلى البلاد المجاورة(١٢٨).

الخناجر: وإلى جانب السيوف كانت هناك صناعة الخناجر(١٢٩)، التى اشتهرت فى اليمن قبل الإسلام واشتهرت صنعاء بنوع خاص من هذه الخناجر المقوسة، وكانت تلك الخناجر ذات مقابض من العظم المطعم بالفضة وأحيانا من الذهب بغرض التجميل(١٣٠).

الرماح: اشتهرت اليمن بصناعة الرماح فتعددت أنواعها ومراكز صناعاتها[١٣١] مثل الرماح الشرعبية[١٣٢] والردينية[١٣٣] والخطية وهى رماح عرفت بجودتها وصلابتها وحسن صناعتها[١٣٤]. فقد اشتهرت بعض مناطق اليمن كصعدة بصناعة الرماح ذات المقابض الحديدية وذلك لوجود خام الحديد بالقرب منها[١٣٥].

الدروع: اشتهرت اليمن منذ القدم بنوع من الدروع يسمى الدروع السلوقية[١٣٦].

التروس: اشتهرت اليمن بصناعة التروس التى كانت تصنع عادة من جلود الإبل القوية[١٣٧].

صناعة الدبابة: وكان هذا السلاح معروفا فى جرش من مخاليف اليمن، وبها صناع حاذقون فى مختلف أنواع الأسلحة منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث أرسل اثنين من الصحابة إلى جرش[١٣٨] لكى يتعلموا صناعة الدبابة[١٣٩] وذلك بعد أن علم بهذه الآلة وبقدرتها على اقتحام الحصون.

المنجنيق:[١٤٠] من الأسلحة الثقيلة وأشد الآلات الحربية تأثيرا فى الحصار والهجوم ويتركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب تعمل منها القاعدة، وفوقها قائمتان على الجانبين، وتتصل هاتان القائمتان بعرضة، ثم يركب على هذه العرضة سهم يراعى أن يكون أحد طرفيه قصيرا والآخر طويلا، وكان يركب فى الجهة الطويلة كفة يوضع فيها حجر معد للقذف، وكان للمنجنيق رجال مرتبون، وكان له ألواح تقيهم من سهام الأعداء وتقربهم من أسوارهم[١٤١]، وقد استخدم المنجنيق فى اليمن حيث أشارت المصادر إلى ذلك[١٤٢].

ج: الصناعات الخشبية

ازدهرت الصناعات الخشبية باليمن وقد ساعد على ذلك كثرة أنواع الخشب المتوفرة فى صنعاء والتى جلبت أحيانا إليها من أنحاء اليمن وأحيانا أخرى من البلاد الخارجية. ومن أنواع الخشب التى توفرت لديهم فى ذلك الوقت: شجر السدر وشجر الجوز وشجر التألب وشجر القرظ والعرعر والطلح والقتاد وغيرها[١٤٣]. وقد برع النجار اليمنى فى صناعة أغلفة ومقابض الجنبية اليمنية وهى عبارة عن خنجر صغير، حيث كانت توضع الجنبية فى غلاف أو غمد، وتصنع هذه الأغلفة الخشبية من خشب يطلق عليه خشب الطنب الذى ينمو فى اليمن ويتميز بامتصاص الرطوبة ويكسى هذا الغلاف الخشبى من الخارج بطبقة من الجلد المدبوغ، ومن الداخل بطبقة من القطن الناعم، وللأغلفة الخشبية أنواع مختلفة تبعا لصناعاتها فى المدن اليمنية المختلفة، وكان منها ما يعرف بالغلاف الصنعانى[١٤٤] أما مقابض الجنبية فتصنع أيضا من

الخشب والعاج والفضة والنحاس والحديد وعادة ما يناسب المقبض قبضة اليد ويثبت مع النصل بواسطة مسمارين[١٤٥] ولم يكتف النجار الصنعاني بصناعة أغلفة ومقابض الجنابى فقط، بل قام بزخرفتها، ومن الجدير بالذكر أن الجنبية عرفت فى صنعاء منذ القدم وأن أول من صنعها أهل بيت أطلق عليها بيت الصنعانى[١٤٦]. وقام أهل صنعاء بعمل السقوف من الخشب وابتكر صناعها طريقة تعرف بالمصندقات واستخدموها فى صناعة سقف الجامع الكبير بصنعاء[١٤٧]، فى القرن الثالث الهجرى فى عصر بنى يعفر الذين استخدموا هذه الطريقة أيضا فى أسقف المسجد الكبير بمدينة شبام[١٤٨] وعادة ما يتكون سقف المصندقات من عوارض ضخمة رأسية تتقاطع معها عوارض أخرى أفقية مشكلة على هيئة أشكال مربعة أو مستطيلة تقسم من الداخل إلى مناطق مربعة، ويتم بعد ذلك عمل المصندقات وزخرفتها ثم رفعها وتثبيتها فى أماكنها عن طريق إطارات مربعة تركب على العوارض[١٤٩]. ولما كانت زخارف هذه الأسقف يستخدم فيها التلوين فقد استوجب ذلك الحفاظ عليها وحمايتها عن طريق تغطيتها بطبقة سميكة من الشمع تجنبا لتأثير الرطوبة وغيرها من العوامل الجوية، كما أن الأوان المستخدمة فى التلوين عادة ما كانت تذاب فى صفار البيض أو الصمغ من رق الغزال[١٥٠] ومن الجدير بالذكر أن أسقف الجامع الكبير بصنعاء اشتملت على زخارف هندسية بالغة الدقة [١٥١] وبعد الانتهاء من عمل السقف الأصلى (سقف المصندقات) تترك مسافة من أعلاه تتراوح ما بين ٥٠ سم إلى ٦٠ سم حيث يعمل سقف آخر (عادى) وذلك لحماية السقف الأصلى المنقوش وعادة ما كانت تستخدم هذه الفراغات كخزانات لحفظ المصاحف القديمة التى تتلف لكثرة القراءة فيها، كما كان يوضع بها فى بعض المساجد الحصر والفرش وغيرها من المتعلقات الخاصة بالمسجد[١٥٢].

كما اعتبرت الصناعات الخشبية من الصناعات المهمة التى ازدهرت فى عدن كصناعة المراكب حيث دعت مهنة صيد السمك التى يمارسها معظم أهالى عدن[١٥٣] إلى الاهتمام بتلك الصناعات فاشتغل بعض أهالى عدن بعملية صنع المراكب[١٥٤] وذلك بجانب صناعة السفن وترميمها والتى كان يمارسها أهالى عدن أيضا أسفل باب الصناعة المجاور لميناء عدن[١٥٥] وساعدهم على ذلك وفرة الأخشاب مثل شجر النخيل بحضرموت[١٥٦] وشجر الكامى بسواحل عدن إلى جانب أشجار البيذان والعنباء والبابى، والعواسج[١٥٧]. واشتهرت صناعة السفن فى عدن. كما برع الصناع اليمنيين فى العديد من المصنوعات الخشبية مثل الأبواب والنوافذ والسقوف والمنابر والمقاسير والدكك وكراسى المصاحف والأسياج والأحجبة والمحاريب الخشبية وكراسى العشاء والصناديق والدواليب والمحاريث[١٥٨] والأثاث المنزلى كما كانت تصنع الرحال (الهوادج)

التي توضع على ظهر البعير المعد للركوب وكانت تغطى بالأقمشة المنقوشة، فضلا عن أدوات التدريب على القتال كالرماح والسهام والنبال والأقواس[١٥٩] وغير ذلك من المصنوعات الخشبية الأخرى. وكانت معظم المصنوعات الخشبية في القرنين الأول والثاني الهجريين عليها زخارف هندسية متأثرة بالفرس مثل الأوراق الخماسية وأشكال الصنوبر وثمار الرمان والعناصر الكأسية والدوائر وأنصافها والمثلثات والمربعات والمستطيلات فضلا عن وضع الكتابات الكوفية وبعض العناصر الزخرفية من أشكال الحيوانات والطير[١٦٠]. أما عن أدوات النجارين في اليمن المستخدمة في ذلك العصر فكان منها:

الكرزين: بالكسر وهي فأس عظيمة يقطع بها الشجر، والقدوم: وهو الفأس الصغيرة، والمنشار وهو ما يقطع به الخشب، والمحفرة: وهو آلة يحفر بها الخشب ومثلها المنقار، والمسحل: وهو مبرد الحديد، وهو الذي يسحل به الخشب أي ينحت والصغير من ذلك مبرد، والمثقب وهو آلة يثقب بها الخشب والكلبتان: وهي آلة يجذب بها النجار المسمار من الخشب ويأخذ بها الحداد الحديد المحمى، والعتلة: وهي آلة من حديد لها رأس فأس وتطلق أيضا على العصا الضخمة من الحديد ولها رأس مفلطح[١٦١] وغيرها من الأدوات الأخرى.

د. صناعة الفخار والخزف

صناعة الفخار: عرفت اليمن صناعة الفخار وكانوا يصنعون منه القلل لشربهم، وكانت تعرف أحيانا باسم الكعدة[١٦٢] ويحدثنا الرازي[١٦٣] عن القلل الصنعانية الموجودة في أيامه والسابقة على عصره وعن صنعها وعذوبة مائها فيذكر أنها كانت مزدهرة وعندما لجأ صناعها إلى غش الخامات وتدليسها التي تصنع منها صنعتهم لم تعد تلقى نفس القبول لدى المستهلكين ولم يعد للماء المحفوظ بداخلها نفس عذوبته ورائحته. وربما ذلك مرده إلى ندرة المواد الأصيلة التي تدخل في صناعة الفخار. وكذلك صنع من الفخار إلى جانب الأحجار[١٦٤] الأكواب والأطباق والقدور والدلاء لجلب الماء[١٦٥].

أما عن الخزف فقد كشفت التنقيبات الأثرية لمنطقة تهامة وحضر موت والمنطقة الساحلية والتي قامت بها بعض البعثات الأجنبية في اليمن[١٦٦] عن وجود قطع من الأواني الخزفية الإسلامية المستوردة وهي:

الخزف العراقي: أمكن العثور على بعض قطع من الخزف العراقي الذي يعود إلى العصر العباسي وخاصة الخزف ذو الزخارف المحزوزة أو البارزة المنفذة بطريقة القالب، فضلا عن بعض قطع من الخزف العباسي ذي البريق المعدني.

أما عن الخزف اليمنى المحلي: فقد كان فى مدينة زبيد ومدينة حيس التى اشتهرت بإنتاج نوع من الفناجين الصغيرة الفريدة فى شكلها بين أنواع الخزف الإسلامى[١٦٧].

هـ: صناعة البناء

ازدهرت فى اليمن صناعة البناء حيث اهتم أهلها ببناء المبانى الجميلة وكانت هذه المبانى تتخذ من الطوب اللبن أو الحجارة أو الأجر، أو الأخشاب والقضاض فكانت المبانى المقامة من الطوب اللبن أو الطين منتشرة لسهولة الحصول عليه[١٦٨] وتشكيله فكان يصنع منه وحدات البناء ويجفف بالشمس، ويسمى فى هذه الحالة بيتا أو طوبا طينيا ويستخدم بعد ذلك فى بناء الحوائط على شكل حزام يشكل تعرجا عند الأركان، ويسمى عندهم فى صنعاء بالزابور أو يستخدم فى تغطية الأسقف الخشبية فى الغرف والعناصر الخشبية فى الجدران.

وكان هناك أيضا المبانى التى تتخذ من الحجارة كالقصور ومنها قصر غمدان والحصون والمنازل وكانت الحجارة متوفرة بصنعاء وكان من أشهرها حجر الطف وتمتاز صخور الطف بتعدد ألوانها الجميلة وصلابتها المتوسطة وهذا ما جعلها أفضل الصخور المستخدمة فى البناء[١٦٩]، كما وجدت الصخور الجرانيتية وأحجار البلق فى نواحى صنعاء[١٧٠]، وليس أدل على كثرة الصخور فى منطقة صنعاء أكثر مما أكده أحد الباحثين أنه قام بأخذ سبع عشرة عينة صخرية جميعها من حوض صنعاء[١٧١] وأورد أسماءها المحلية والعلمية[١٧٢] ويبدو أن المقصود بكلمة حوض صنعاء منطقة أرحب، حيث ذكر الباحثون أن أرحب الواقعة شمال صنعاء بها حرة لها لابة استخرج الناس منها حجارة سود لبناء البيوت[١٧٣] وهذا يدل على وجود منطقة بركانية قرب صنعاء قد خمد بركانها منذ زمن بعيد فأقبل الناس على جلب تلك الصخور من هذه المنطقة. وكان يتخذ من الأجر المبانى أيضا وكان الآجر يتم استخدامه إلى جانب اللبن فى البناء[١٧٤] كما استخدمت الأخشاب والقضاض وكان يشبه الأسمنت ويستعمل لعدم تسرب المياه من الأسقف[١٧٥]، كما انتشرت صناعة البناء فى زبيد، حيث اهتم أهلها ببناء المبانى العالية الذوق والتى استخدم فى بنائها الآجر إلى جانب اللبن[١٧٦] كما انتشرت صناعة الآجر بلخبة ومنها كان ينقل لعدن[١٧٧].

كما اعتمد الفنان اليمنى على مادة الجص اعتمادا كبيرا فى زخرفة مبانيه، ويتجلى إبداعه فى استخدام هذه المادة من خلال تلك الثروة الضخمة من الزخارف الجصية الكتابية والنباتية والهندسية التى تزخر بها المساجد اليمنية المختلفة والتى تدل على فهمه لأسرار هذه المادة وتطويعها للاستخدام الزخرفى بشكل قوي.

ويستخدم الجص عادة فى كسوة جدران العمائر من الداخل أو الخارج لتغطية قوالب الطوب أو أحجار البناء وإكسابها شكلا منسجما. فضلا عن استخدامه فى كسوة مساحات معينة من الجدران أو بطون القباب والمحاريب ونقشها بأدق أنواع الزخارف، ويذكر الهمدانى عند حديثه عن «شبام سخيم»: «ومن شبام هذه تحمل القصة إلى صنعاء»(١٧٨).

وللجص اليمنى مزية التماسك والالتصاق النادرة، فهو لايطبع الألبسة ببياضه إذا اتكأ المرء عليه، وإذا ثبت فيه مسمار فلا يحدث شقوقا أو تفتتا، فإذا جصصت به الجدران أصبحت كأنها الفضة البيضاء الناصعة(١٧٩) وتعود شدة تماسك هذا الجص إلى الخيرة التى تخلط معه وما تحويه من مادة الغرة(١٨٠) وتطلق لفظة الجصاص على الذى يتخذ الجص، وكذلك الذى يختص بقلع الحجارة وعمل الجص منها، فقد جرت العادة أن تكون اتاتين الجصاصين خارج المدن(١٨١). وفى بعض الأحيان كان الصانع يجمع بين حرفة البناء والجصاصة(١٨٢) ومن خلال توقيعات الصناع الذين اشتغلوا بهذه الحرفة فى اليمن نلاحظ استخدام عبارة «وكان التجصيص» وعبارة «عمل المقصص»، ويرجع ذلك إلى اختلاف لهجة بعض أهل اليمن، مثل لهجة أهل صنعاء الذين لايعرفون الجيم فيستبدلونها بالقاف(١٨٣). أما الأدوات والآلات التى يستخدمها المجصصون فبدائية وبسيطة لاتتعدى السكين للحفر والفرجار (بيكار) والمسطرة للرسم إضافة إلى (برورة) و(مالح) للتسطيح.

وقد اعتمد الفنان اليمنى فى عمل زخارف هذه النوافذ والعقود على الزخارف النباتية والهندسية والكتابية، وإن لعبت الزخارف والتكوينات النباتية الدور الأكبر فى الزخرفة، ولدى فنانى العقود اليمنية الحاليين اصطلاحات عديدة تدل على أنواع الزخارف والتكوينات النباتية الدور الأكبر فى الزخرفة، ولدى فنانى العقود اليمنية الحاليين اصطلاحات عديدة تدل على أنواع الزخارف المنجزة فوق عقودهم، منها الزنجيرى - نصف زنجيرى - عقيق - نصف عيقى - جرايد - خواتم - زهرات - شجرى - حاشية رأس ونصف وغيرها من الأسماء، وتدل هذه الأسماء على نوعية التكوين الزخرفى وألوانه فى معظم الأحيان(١٨٤). كما أقبل الفنان اليمنى على استخدام بعض المواد الأخرى فى الزخرفة مثل الحجر والرخام وإن تم ذلك بشكل محدود وفى فترات ومناطق قليلة. استخدمت ألواح رقيقة من المرمر يبلغ سمكها (اسم) فى تغطية النوافذ الصغيرة ويرجع هذا الاستخدام إلى أصول يمنية قديمة كما تشير بعض المصادر إلى أن هناك بيوت عالية يرجع تاريخها إلى قرون عديدة وهى ذات نوافذ صغيرة يغطيها لوح واحد أو لوحان رقيقان من الرخام

الشفاف المعروف فى اليمن باسم «القمرية» يسمح بدخول النور من خلاله دون السماح بالرؤية الواضحة، ويؤدى الخامة لمعان الشمس إلى القصة فتقلبها بجوهرها وبريقها»[١٨٥].

لعل سبب تسمية هذه الألواح بالقمرية بياضها الناصع الذى تتميز به[١٨٦] ولأن النور الذى ينفذ منها يكون أبيضا هادئا أشبه بضوء القمر، كما أن ألواح بعض النوافذ دائرية أشبه ما يكون شكلها بالقمر فى ليلة التمام[١٨٧].

وتجلب القمرية كأحجار كبيرة إلى صنعاء من مكان يقال له شبام الغراس حيث يستخرج من مقالع عظيمة من باطن الأرض على بعد ثمانية أمتار[١٨٨] ثم يقطع إلى ألواح رقيقة حسب الحاجة[١٨٩].

ولعل أقدم استخدام للإضاءة ربما وجدناها فى «قصر غمدان» إذ كان فى أعلاه غرفة لها لهج، وهى الكوة، كل كوة منها بناء رخام.. وسقف الغرفة رخامة واحدة صفيحة[١٩٠]

و - الزجاج

وجد الأثريون بعض القوارير الزجاجية محفوظة بمتحف صنعاء وأكدوا أنها تشبه من حيث شكلها العام القوارير المصرية التى صنعت خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وكانت خالية من أى كتابات وزخارف مما يعنى وجود صناعة للزجاج فى القرون الثلاثة الأولى[١٩١].

وقد عثر الأثريون فى بعض المواقع الأثرية اليمنية[١٩٢] على قطع من الزجاج معظمها مكسور تشكل بعض أجزاء من أوانى وقنينات وكئوس، ويتميز بعضها برقة جدرانه الشديد والبعض الآخر بسمك جدرانه كما عثر فى سهل عدن على كميات من الزجاج على السطح تشتمل على قطع من الزجاج الأخضر اللون، وبعض المواد المتكلسة أو شبه المصهورة يصنع منها الزجاج (الفريتة) إلى جانب بعض الأفران مما يبرهن على وجود صناعة محلية للزجاج فى تلك المنطقة، ويمتاز الزجاج الذى عثر عليه فى هذه المنطقة بخطوطه الضيقة، أما من حيث الشكل فإن أكثر القطع التى عثروا عليها تلك الأساور التى يبدو أن مصانع الزجاج فى عدن قد تخصصت فى إنتاجها[١٩٣] .

ز - الصناعات الغذائية:

قامت فى اليمن عدة صناعات تعتمد على ما تنتجه الأرض الزراعية فكان هناك صناعة طحن الحبوب المختلفة كالبر والحنطة والشعير والعلس[١٩٤] وعادة ما تتم هذه الصناعة عبر الطواحين التى تقوم بطحن هذه الحبوب لاستخراج

الدقيق من أجل استخدامه في الخبز والأطعمة المختلفة. وتأرجحت هذه الصناعة بين الازدهار والاضمحلال وذلك تبعا للاستقرار السياسي في اليمن(١٩٥).

كما انتشرت فى اليمن صناعة معقدات الفاكهة (المربى) فكان لأهل اليمن افتنان من صناعة معقدات الفاكهة من اترج وجزر، وخوخ ونحوها مما إذا شرع الجاهل فى أكله قضم بعض أنامله، كما كان لهم الشهد الحضورى الذى كان من شهرته أنه يهدى إلى ولاة مكة والخلفاء في العراق وسائر البلدان(١٩٦) وكان يعمل بأن يوضع فى الشمس ويصير فى عقود قصب اليراع وأقيمت تلك القصبة أياما فى بيت بارد حتى يعود إلى جموده، ثم ختمت أفواه القصب بالقصة، وحمل فإذا أراد تقديمه على الموائد ضرب بالقصبة على الأرض فانفلقت عن قصبة عسل قائمة ثم يقطع بالسكين ثم يأكل(١٩٧). ويصدر هذا النوع إلى العراق ومكة وسائر البلدان لأنه حلو المذاق(١٩٨). وقد انتشرت تلك الصناعة فى أماكن عديدة فى اليمن جنبا إلى جنب مع تعبئة العسل - نتيجة لكثرة زراعتهم للزهور - الذى انتشرت مناحله فى أرجاء اليمن حتى أطلق على اليمن بلاد العسل(١٩٩).

ح - صناعة عصر الزيوت

كانت هناك أيضا صناعة عصر الزيوت: وقامت هذه الصناعة في اليمن على استخراج الزيوت من المحاصيل الزراعية وأهمها السمسم(٢٠٠) لذا انتشرت فى معظم أرجاء اليمن، وهذه الصناعة تحتاج إلى خبرة حيث إن طريقة عصر زيت السمسم كانت تتم عبر صهاريج على الأرض يبنى حولها، وكان يستخدم لعملية العصر حجر كبير له يد خشبية طويلة يربط بها حبل ثم يتم ربط الطرف بسرج مشدود على دابة والتى غالبا ما تكون جملا معصوب العينين بعصابة سوداء(٢٠١)، وبطبيعة الحال تتأثر الصناعة بطبيعة الأحداث السياسية فى اليمن(٢٠٢).

ط - صناعة العطور

ازدهرت فى اليمن صناعة العطور من النباتات التى تنمو فى اليمن وقد اشتهرت بها صنعاء، التى عرفت صناعة تركيب العطور شأنها فلى ذلك شأن بعض المدن اليمنية الأخرى، وساعدها على ذلك ازدهار زراعة الورود والياسمين(٢٠٣) والرياحين(٢٠٤) فيها بالإضافة إلى بعض النباتات الأخرى التى حصل أهل صنعاء منها على زيوتها واستخدموها فى دهان الشعر والجسم(٢٠٥) كما عرفت زبيد صناعة تركيب العطور التى توفرت لها المواد الخام حيث وجود زراعات واسعة من الورد والياسمين والرياحين أيضا، وخاصة ورد الكاذى، فلم يكن يوجد أطيب منه رائحة(٢٠٦). ومن المرجح أن هذه الصناعة كانت رائجة بسبب كثرة العنبر فى سواحل عدن(٢٠٧) التى

اشتهرت بصناعة أجود أنواع العطور منذ عهد ما قبل الإسلام، وظلت محتفظة بعد الإسلام بهذه الشهرة[٢٠٨].

وساعد على ازدهار صناعة العطور تشجيع ولاة عدن لها، لما تدره على الخزانة العدنية من أرباح كبيرة[٢٠٩] وتوفر المادة الخام اللازمة لتلك الصناعة مثل العنبر[٢١٠] الذي يعتبر المادة الأساسية لصناعة العطور[٢١١] علاوة على مهارة أبناء عدن فى تلك الصناعة، وأصدق مثال على ذلك ما ذكره التوحيدى أنه لم يكن فى الأرض طيبا ولاحذق صناعة للطيب من عدن[٢١٢] ولما كانت العطور العدنية تتميز بالجودة العالية فقد خصص ولاة عدن أسواق خاصة لبيع العطور.

ى - الصناعات الجلدية

دبغ الجلود:

قامت الصناعات الجلدية فى اليمن قبل الإسلام وتحديدا منذ مجىء الفرس الذين قاموا ببناء مدابغ الجلود والأدم، وهو الجلد الأحمر المدبوغ[٢١٣] واستمر حكام صنعاء يولون صناعة دبغ الجلود اهتمامهم، واستمر ذلك الاهتمام فى العصر الإسلامى حتى عم أرجاء اليمن كلها مما دفع ابن الفقيه إلى القول عن أهل اليمن إنهم قوم ليس فيهم إلا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد[٢١٤]، وقد ذكرت المصادر أن دباغة الجلود فى صنعاء احتلت المكانة الثانية بعد صناعة النسيج وقد أحصيت معاملها فى سنة (٣٩١هـ/ ١٠٠٠ م - ١٠٠١م) فبلغ عدد مطاحن القرض الذى يدبغ به الجلود ثلاثة وثلاثون مصنعا[٢١٥] تعنى بتطهير الجلود وتنقيتها واستخدامها فى الأغراض المختلفة. وقد ساعد على ازدهار صناعة دبغ الجلود ملائمة مناخ صنعاء لهذه الصناعة، وتوفر الحيوانات التى تؤخذ منها الجلود كالإبل والبقر والغنم[٢١٦]، ويبدو أن تصدير اليمن للجلود المدبوغة استمر حتى القرن الخامس الهجرى حيث يذكر ناصر خسرو[٢١٧] أن الجلود كانت تجلب من اليمن إلى اليمامة والإحساء، وقد عرفت عدن صناعة دباغة الجلود منذ القدم ولكنها لم تلق اهتماما يذكر إلا منذ بداية القرن الثالث فى عهد بنى زياد الذين اهتموا بصناعة الأنواع الجيدة من الجلود، واقتنوا فى قصورهم قطعا نادرة منه[٢١٨].

وعلى الرغم من عدم توفر بعض مقومات هذه الصناعة مثل الجو الملائم[٢١٩] إلا أن تلك الصناعة قامت بعدن بسبب ازدهار النشاط التجارى بين عدن وغيرها إلى جانب وجود الأيدى العاملة المدربة مثل الفرس والزنوج الذين برعوا فى صناعة الجلود[٢٢٠]. ولما كانت الدولة تتقاضى رسما ثابتا على معامل دباغة الجلود[٢٢١] فقد استمر اهتمام ولاة عدن بتلك الصناعة وانتشرت معامل الجلود فى عدن[٢٢٢] التى اعتمدت على الأدم[٢٢٣] المستورد من

مكة ونجران وجرش[٢٢٤] وفارس أيضا[٢٢٥] ثم تقوم بدباغتها وتنظيفها ثم تعيد تصديرها مرة أخرى[٢٢٦].

وقد استخدم الدباغون في اليمن أدوات عديدة منها المحط ، الذي يستخدم لصقل الأدم ، وكان مصنوعا من الخشب وأحيانا من الحديد ، والمجلاة تستخدم لإزالة ما علق بالجلد من قاذورات أو شوائب والميحنة ، وتستخدم في دق الأدم وهي من الحجر أو غيره[٢٢٧] وكانت عملية الدباغة تتم في بداية الأمر بماء الجير[٢٢٨]. ونتج عن دبغ الجلود قيام صناعات جلدية متعددة ومتنوعة كانت من أهمها الانطاع، وهي عبارة عن قطعة كبيرة من الجلد المدبوغ تستخدم كمفرش وقد اشتهرت مدينة صنعاء بإنتاجها[٢٢٩]. ومنها أيضا نوع عرف باسم الصمت الذي لاينفذ منه الماء لمتانة صنعه[٢٣٠].

ويروي الرازي[٢٣١] أن طاووس كان يستخدم الأنطاع للجلوس عليها ، كما اتخذ الفرش الثمين من جلود النمور[٢٣٢]. وازدهرت بصنعاء أيضا صناعة السياط التي كان يؤخذ الجلد المطلوب لها من جلود قفا الجمال[٢٣٣]، وكان هناك أيضا صناعة القرب التي اعتمد أهل صنعاء عليها في سقايتهم ، وهي عبارة عن وعاء كبير من الجلد لحفظ الماء وتصنع من جلود الماعز لكونها أسمك وأقوى من جلود الغنم[٢٣٤]. وكانت هناك أيضا صناعة النعال فكان منها النعال المشعرة[٢٣٥]. وقد تنوعت الصناعات الجلدية على الآدم المدبوغ في معامل عدن ما بين الأحذية والسروج والدروع والأحزمة والدلاء[٢٣٦] كما استخدمت الجلود كقفازات وجوارب للمسافرين في الصحاري كوقاء من لدغات الأفاعي والحشرات الجارحة[٢٣٧] علاوة على تجليد الكتب حيث كان الجلد هو المادة الأساسية لتجليد الكتب[٢٣٨] لقد سبقت صناعة تجليد الكتب صناعة ممهدة لها وهي صناعة الخرازة وهي خياطة الجلود وتفصيلها[٢٣٩]، ولقد تطورت صناعة التجليد في اليمن على أيدي الفرس والزنوج وغيرهم من الذين وجهوا العناية بالتجليد وزخرفة جلود الحيوانات[٢٤٠] واعتبر عملهم متمما لعمل الخطاط ، فوقع على كاهلهم حفظ أوراق الكتاب من التلف[٢٤١] وكانوا يستخدمون النشا في صناعة تجليد الكتب[٢٤٢] كما شارك بعض سكان عدن في صناعة التجليد[٢٤٣] بجانب بعض العناصر الأجنبية والعربية.

ومن ذلك الرحالة المقدسي ، الذي أقام بعدن مدة لتحصيل العلوم واشتغل بتجليد الكتب على طريقة أهل الشام ، وأعجب أهل اليمن هذا التجليد الحسن وكانوا يبذلون فيه أجرا كبيرا فكانوا يعطون المقدسي الكتب ليجلدها مقابل دينارين عن تجليد المصحف الواحد[٢٤٤]. وقد عرف صناع اليمن طريقة الضغط على الجلد بآلة خاصة وتعرف هذه الطريقة عند أهل الصنعة بطريقة

الدق، ويترتب على استعمالها أن يبقى سطح الجلد العلوى حافظا للزنة الأصلى على حين يكتسب السطح المضغوط لونا غامقا من أثر الضغط عليه. كما عرفوا أيضا اللسان(٢٤٥)، الذى يحمى الأطراف اليسرى لصفحات المصحف.

ك - صناعات صغيرة أخرى

قامت إلى جانب تلك الصناعات فى اليمن صناعات صغيرة منها:

- الشموع:

ومن الصناعات المهمة فى عدن كانت صناعة الشموع التى اشتهرت بها منذ القدم(٢٤٦) وزاد الاهتمام بتلك الصناعة فى العهد الإسلامى لتوفير كميات كبيرة منها لسد حاجة البلاد خاصة فى الأعياد والمناسبات الدينية كشهر رمضان(٢٤٧). وقد ساعد على تقدم تلك الصناعة بعدن وضواحيها وفرة الأسماك، حيث كان دهن السمك وخاصة الحيتان من المواد الخام الأساسية التى يعتمد عليها الشماعيون فى صناعة الشموع فى عدن(٢٤٨) ويشير المقدسى إلى ذلك فيقول: «إن أكثر ما يقودون مصابيحهم بالصبغة وهو دهن السمك ونورتهم سوداء»(٢٤٩)، وتعتبر مدينة عدن وضواحيها مثل الممباه(٢٥٠) من أهم مراكز إنتاج الشموع باليمن بسبب جوها الرطب الذى يساعد على سرعة تماسك المواد المصنع منها الشمع(٢٥٢).

وقد اختلفت أحجام الشموع المصنعة فى عدن من الصغيرة التى يحملها الصبية فى شهر رمضان إلى الكبيرة التى تستعمل فى المنازل والقصور كقصر الإمارة(٢٥٢).

■ الحبال:

ومن المرجح أن صناعة الحبال فى منطقة تهامة عامة كانت ذات اهتمام خاص وذلك لوفرة النخيل بها حيث كانت تصنع من ليف النخيل(٢٥٣).

ومن الصناعات الأخرى التى وجدت باليمن فى زبيد صناعة السموم وكان لها صناع مهرة ومتخصصون، ويبدو أنهم كانوا بعيدين عن الأنظار، وكان يصنع السم فى مخلاف بكيل(٢٥٤).

كما كان لصناعة الخمور مجالها الواسع واشتهرت اليمن بصناعة الخمور لكثرة أعنابها. وخاصة فى اثافت وتوجد بها معاصر لها(٢٥٥)، ويبدو أن هذه الخمور لم تكن مسكرة بل ربما كانت من الجعة نظرا لتحريم الإسلام الخمر. وهكذا اضحت اليمن معقل من أهم معاقل الصناعة فى شبه الجزيرة العربية وكان للصناعة فيها مراكز متعددة إبان تلك الفترة.

الهوامش

(١) نزار عبداللطيف الحديثي: أهل اليمن في صدر الإسلام، دورهم في الأمصار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت د.ت ص ١٧؛ محمد بن أحمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسماعيل بن علي الأكوع: دار الحكمة العربية، صنعاء، ط٢ سنة (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م) ج٤، ص٧٨٦.

(٢) الحجاز: بالكسر وآخره زاي، وسمي بذلك لأنه حجز بين نجد وتهامة الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١ سنة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م) ص ٢٩؛ ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت دت، ج٢، ص٢١٨ - ٢١٩.

(٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، (١٩٨٩م)، ص ٩١؛ ياقوت: المصدر نفسه، ج٥ ص ٤٤٨.

(٤) الهمداني، المصدر نفسه، ص٩٠؛ محمد بن أحمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها ج٤، ص٧٨٦.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة سنة (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) ج١، ص٩.

(٦) الإدريسي: المصدر نفسه، نفس الجزء نفس الصفحة.

(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٩٠؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤٧.

(٨) لقوله (ص): (ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) المتقي الهندي: كنز العمال، تحقيق بكر حياني: مؤسسة الرسالة بيروت (١٤١٣ هـ /١٩٩٣م) ج٤ ص ٨، حديث ٩٢٢٣.

(٩) الواسعي: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ط ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص١٠٥؛ حسين علي الويسي: اليمن الكبرى، مطبعة النهضة العربية، القاهرة (١٩٦٢م)، ص ١٣٩، ١٤٠، زياد الديري: دراسة وتصنيف أحجار البناء في الجمهورية اليمنية، مجلة دراسات يمنية، عدد ٤٣ رجب - ذو الحجة (١٤١١هـ/ يناير - يونيو - ١٩٩١م) ص ٣٠٨.

(١٠) عبدالله محمد السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، مجلة الدارة العدد الثالث السنة التاسعة عشرة ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة (١٤١٤هـ)، ص١٣٤ - ١٣٥.

(١١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٢٧.

(١٢) نسبة إلى التراخم من حمير والتي نسبت إليهم لكونهم هم الذين ابتدعوها، الهمداني: الإكليل، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع بن الحسين الحوالي، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م)، بيروت لبنان ج٢ ص١٩١؛ محمد أمين صالح، تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٢٠٧.

(١٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٣٣٥؛ إسماعيل الأكوع، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، بيروت، ط٢، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م)، ص١٥٦.

(١٤) الهمداني: الجوهرتين العقيقتين من الصفراء والبيضاء (الذهب، الفضة) إعداد وتحقيق محمد محمد الشعيبي، الطبعة الأولى مطبعة دار الكتاب بدمشق، ١٩٨٢م، ص٤٦؛ عبدالله السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٣٥.

(١٥) عبدالله محمد السيف، المرجع نفسه ص١٣٦؛ ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية في اليمن

فى العصر الإسلامى، الدار المصرية اللبنانية ط١ ١٩٩٤م، ص١٦٨.

(١٦) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية، ط١، القاهرة، (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م). ص١١٣، طارق أبوالوفا، «صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢م،» رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب الزقازيق، فرع بنها عام ٢٠٠٤ م، ص ١٧٨، محمد إسماعيل، «مدينة زبيد ٢٠٠ – ٥٥٤هـ/ ٨١٥ – ١١٥٩م»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب جامعة جنوب الوادى – قنا – ٢٠٠٥م، ص٨٨.

(١٧) ابن المجاور: تاريخ المستبصر القسم الثانى، القاهرة د.ت.ص ٢٨٤ – ٢٨٥.

(١٨) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية العربية اليمنية، ص ١١٢.

(١٩) الثعالبي: لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفى، دار إحياء الكتب العربية (١٣٧٩ هـ / ١٩٣٢م) ص٨.

(٢٠) ابن إسحاق: المبتدأ والمبعث والمغازى، ص ٢٩ – ٣١؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ضبطه وصححه أحمد عبدالشاقى، بيروت، دت، ج ١، ص١٠ – ١١.

(٢١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، المجلد الثانى، دار صادر بيروت ص ٨٨ – ٨٩، زنوبة نادى مرسى: «التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى»، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٩٢ م ص ٨٠.

(٢٢) وسحول أحد مخاليف اليمن وهو حقل يبدأ من سفوح مدينة إب الشمالية ويمتد شمالا إلى رحاب، وهو من أخصب حقول اليمن وأكثرها خيرا وعطاءا. إسماعيل بن على الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى ص١٤٥.

(٢٣) البخارى: الصحيح ج١، ص ١٦٩؛ مسلم : الصحيح ج١، ص ٣٠٦ صفى الرحمن المبارك فورى: الرحيق المختوم، ص ٥٥٧.

(٢٤) الطراز: هو لفظ مشتق من الكلمة الفارسية (ترازيدن) بمعنى التطريز والنسج وأصبحت تطلق على المنسوجات التى تشتمل على أشرطة من الكتابة تتضمن اسم الخليفة الذى نسجت فى عهده والمكان والتاريخ، ثم أصبحت تطلق على مناسج الطراز وعلى المشرف عليها، ربيع حامد: مناسج الطراز الخاص بمدينة صنعاء، مجلة الإكليل، عدد ٢، السنة السادسة، ١٩٨٨م، ص٥٢.

(٢٥) وفية عزى، نماذج من الفنون الإسلامية فى اليمن، مجلة المجلة، العدد ٧١ ديسمبر ١٩٦٢م، ص٢٩؛ ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنية ص١٦١.

(٢٦) الجندى: السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الأكوع وزارة الإعلام والثقافة اليمنية ، ج١، ص ٢٤٥.

(٢٧) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص ١٦٣.

(٢٨) الثعالبى: لطائف المعارف، ص ١٩٩، وقد تعددت أنواع البرود اليمنية وأسمائها فهى أكثر من عشرة أنواع أنظر: ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٥٥، ١٥٦.

(٢٩) ابن رستة: الإعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧، ج ٧ ص١١٢، نزار الحديثى: أهل اليمن فى صدر الإسلام، ص ٤٢ – ٤٣.

(٥) نزار الحديثى: المرجع نفسه: ص ٥٠ – ٥٥، زنوبة نادى مرسى: التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى، ص٦٧.

(٣١) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن ص.١١٣.

(٣٢) ربيع خليفة: مناسج الطراز الخاص. مدينة صنعاء، ص٥١ الفنون الزخرفية فى اليمن،

ص١٧٢.

(٣٣) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج٧، ص١١٢.

(٣٤) عبدالله السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٣٥) البرود: (جمع بردة وهو كساء مربع أسود فيه صغر تلبسه الأعراب) ابن منظور: لسان العرب المحيط، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١ م.ج.١، ص٢٥٠.

(٣٦) (مفوفة مؤنث مفوف وهو نوع من برود اليمن من القطن والفوفة، وهي قشرة النواة دون لحم البلح والبرود المفوفة عبارة عن ثياب اليمن) ابن منظور: لسان العرب، ج٥ ص ٣٤٨٦؛ صالح أحمد العلي، ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السادس والعشرون ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م، ص١٠٤.

(٣٧) صالح أحمد العلي: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٣٨) محمد عبدالمنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ط١ سنة ١٩٨٤م ص.٣٦٠، عبدالله محمد السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٤٠.

(٣٩) عبدالله محمد السيف: المرجع نفسه، ص١٤٠.

(٤٠) الحبرة: (ضرب من برود اليمن الجديد منمق ناعم، ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٧٤٩

(٤١) عبدالله محمد السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٣٩.

(٤٢) حسن إبراهيم حسن: اليمن البلاد السعيدة، دار المعارف القاهرة، د.ت، ص٤٥

(٤٣) طارق أبوالوفا: صنعاء منذ فجر الإسلام ص٢٧٤، ٢٧٥.

(٤٤) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص٨٩.

(٤٥) ربيع خليفة: مناسج الطراز الخاص، مدينة صنعاء، ص٥١؛ الفنون الزخرفية في اليمن، ص١٧١.

(٤٦) صالح أحمد العلي: الأنسجة في القرنين الأول والثاني، مجلة الأبحاث، دار الكتاب، بيروت، السنة الرابعة عشر ١٩٦١م، ج٤، ص٥٦٤ – ٥٦٧؛ مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في اليمن، ص١١٢.

(٤٧) ربيع حامد خليفة: مناسج الطراز الخاص، مدينة صنعاء، ص٥١، الفنون الزخرفية في اليمن ص ١٧١.

(٤٨) عبدالله محمد السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص٩٥ – ٩٦.

(٤٩) الفوط: جمع فوطة وهي ثوب غليظ من صوف فاخر وهو غليظ وهو مخطط ابن منظور: لسان العرب، جـ٥، ص ٣٤٨٦.

(٥٠) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، ص١٧٢.

(٥١) ناصر خسرو: سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة العامة للكتاب، ص١٩٩٣، ص١٥١

(٥٢) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، ص١٧٢.

(٥٣) مادة خمر وقال فيها: الخمر جمع خمار للمرأة وهو النصيف وقيل: الخمار ما تغطى به المرأة رأسها وجمعه أخمرة وخمر – ابن منظور: لسان العرب، م٤، ص١٢٦١.

(٥٤) ربيع حامد خليفة: مناسج الطراز: ص٥١؛ الفنون الزخرفية، ص١٧٢.

(٥٥) محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٢٦، نقلا عن العباسي، سيرة الهادي إلى الحق، ص١٢٦، وص ٣٨٦.

(٥٦) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، القاهرة (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م) ص٥٣٤؛ زنوبة

نادى مرسي: التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى، ص٨٥.

(٥٧) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٥٥.

(٥٨) رأى فى المنام أنه يكسو البيت الحرام، فكساها الخصف، وهو نسيج من خوص النخيل، ثم رأى مرة أخرى أنه يكسوها أحسن من ذلك فكساها المعافر، ثم رأى أنه يكسوها أحسن من ذلك فكساها الملاء والوصائل، ابن هشام: سيرة النبى (ص)، القاهرة، د.ت. ج١، ص٢٢؛ ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٥٤ وعن المعافر انظر نشوان الحميرى: منتخبات فى تاريخ اليمن، من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، باعتناء عظيم الدين أحمد، دار الفكر، دمشق ط٢ (١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م) ص٧٣.

(٥٩) صالح أحمد العلي: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، ص٩٣؛ عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٤٠.

(٦٠) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٦٨.

(٦١) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٨، ص٢٣١؛ الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ج١، ص٥٣

(٦٢) عصام عبدالرؤوف: اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة ١٩٨٢، ص٢٤٧؛ ربيع حامد خليفة، مناسج الطراز الخاص مدينة صنعاء ص٤٩، الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٦٩.

(٦٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر ص١٤٠.

(٦٤) عصام الدين عبدالرءوف: اليمن فى ظل الإسلام ص٢٤٥.

(٦٥) الهمدانى: الجوهرتين، ص٥٦؛ طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، ص١٩٣.

(٦٦) «الممباه» هى قرية تبعد عن عدن بمقدار ربع فرسخ، بامخرمة: ثغر عدن، ج١، ص٨١.

(٦٧) بامخرمة: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٦٨) عصام عبدالمنعم: «التطور السياسى ومظاهر الحضارة فى عدن منذ بداية القرن الثالث حتى نهاية حكم بنى طاهر (٢٠٤ – ٩٢٣هـ/٨١٩ – ١٥١٧م» رسالة دكتوراة غير منشورة آداب بنها، ١٩٩٩ م، ص١١٤.

(٦٩) Croken, Barbara Eileen: Zabid Under The Rasulids Of Yemen, Ph. D Harvard University, 1990 pp 41 - 43

(٧٠) ضيف الله يحيى الزهرانى: دار السكة نشأتها وأعمالها وإدارتها، مجلة الدارة، العدد ٢ السنة الثانية (١٣٩٧هـ) ص١٤

(٧١) الهمدانى: كتاب الجوهرتين العتيقتين، ص٢٥. Bates,M, Yemen And Its Conquest by The Ayyubids, Chicago 1975p.280.

(٧٢) عبدالرحمن فهمى: موسوعة النقود العربية وعلم النميات وفجر السكة العربية، القاهرة ١٩٦٥م، ص٢٠٨؛ ضيف الله يحيى الزهرانى: دار السكة، نشأتها وأعمالها وإدارتها، ص٢٢.

(٧٣) أحمد قائد بركات: الموسوعة اليمنية، ج٢، ص١٦٤، مادة النقد.

(٧٤) شمر يرعش: هو ابن الملك ياسر يهنعم وقد حكم شمر اليمن منذ العقد السادس من القرن الثالث الميلادى إلى أوائل القرن الرابع الميلادى وكان له نفوذ بداخل اليمن والجزيرة العربية بأسرها وكانت له صلات تجارية مع الدول الأجنبية آنذاك، مظهر على الإريانى: الموسوعة اليمنية، ج١، ص٥٥٤، مادة شمريرعش.

(٧٥) أحمد قائد بركات: الموسوعة اليمنية، ج٢، ص٩٦٦، مادة النقد.
(٧٦) الدرهم: عملة فضية وهي عملة أعجمية مأخوذة عن الكلمة اليونانية الدراخمة ويقابلها بالفارسية، وراخم ودبدام، حسان على حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، القاهرة ١٩٧٨م، ص١٥
(٧٧) طاهر راغب حسين: النقود الإسلامية الأولى، القاهرة ١٩٨٤م، ص١٦
(٧٨) فجعل في كل خمس أوراق من الفضة الخالصة التي لم تغش خمسا وهي (النواة) وفرض في كل عشرين دينارا ونصف دينار، المقريزي: النقود الإسلامية القديمة، القاهرة ١٩٨٧م ص ٣٥، ربيع حامد خليفة: طراز المسكوكات اليمنية في العصرين الأموي والعباسي، مجلة التاريخ والمستقبل كلية آداب جامعة المنيا، المجلد الثاني العدد الثاني يوليو (١٩٩٢) ص ٣٧.
(٧٩) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبدالله العمري، بيروت، الطبعة الثالثة - ١٩٨٩م، ص١٥٥.
(٨٠) ولفظ الفلس اشتقه العرب من اليونانية (fallis) وكان يرمز لقيمة القطعة بالحرف الأبجدي اليوناني (M) على أحد وجهي الفلس، أما الوجه الآخر فكان يحمل صورة الإمبراطور البيزنطي المعاصر. انظر، حسان على حلاق، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، ص١٦.
(٨١) أحمد قائد بركات: النقد الموسوعة اليمنية: ج٢ ص٩٦٦.
(٨٢) أحمد قائد بركات: المرجع نفسه، نفس الجزء، نفس الصفحة.
(٨٣) طارق أبوالوفا: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى نهاية دولة بني يعفر، ص٢٣١ - ٢٣٨.
(٨٤) طارق أبوالوفا: نفس المرجع ص٢٣٨.
(٨٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٢١؛ عصام عبدالرؤوف: اليمن في ظل الإسلام، ص٢٥٣.
(٨٦) الهمداني: الجوهرتين العتيقتين، ص ٤٢ - ٤٣.
(٨٧) الهمداني: المصدر نفسه، ص٩٨.
(٨٨) الهمداني: المصدر نفسه، ص ٤٩ - ٥٠.
(٨٩) الهمداني: المصدر نفسه، ص١٢٦.
(٩٠) الهمداني: المصدر نفسه، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠.
(٩١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر جـ١ ص١٣٢.
(٩٢) عمارة اليمن: تاريخ اليمني، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، بيروت، ١٩٩٢م.
(٩٣) نهم في الشمال الشرقي من صنعاء، محمد بن أحمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤ ص ٧٤٦.
(٩٤) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، ص١٧.
(٩٥) الهمداني: الجوهرتين: ص٤٥.
(٩٦) الهمداني: المصدر نفسه، ص٩٧، ١٢٣.
(٩٧) الهمداني: المصدر نفسه، ص٤٦، ٤٧.
(٩٨) الهمداني: المصدر نفسه، ص ١٠٨.
(٩٩) حسن محمد جوهر، محمد السيد أيوب، اليمن، القاهرة د.ت ص ٤٨.
(١٠٠) Encyclopedia de L' Islam, Vol.3, p.149
(١٠١) الهمداني: الجوهرتين ص١٠٨، ١٠٩، ١١٢.
(١٠٢) مختصر كتاب البلدان: ص٣٨.

(١٠٣) ناصر خسرو علوي: ص١٢٤؛ زنوبة نادي مرسي: التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية في اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص٧٤.

(١٠٤) الاصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسيني، القاهرة ١٩٦١م، ص٣٦.

(١٠٥) الهمداني: الإكليل، حققه نبيه أمين فارس، القاهرة ١٩٩٩ -٢٠٠٠م ج٨، ص ٣٠، صفة جزيرة العرب ص٣٢١، عبدالله عبدالكريم: المقتطف من تاريخ اليمن، ص٢٦، ٢٧.

(١٠٦) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٣٢٢.

(١٠٧) صالح أحمد العلي: ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، ص٩٠.

(١٠٨) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٨.

(١٠٩) ابن الفقيه: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(١١٠) عبدالله السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٤٦ . كتاب البلدان، ص٣٨، عبدالله سيف: المرجع نفسه، نفس الصفحة

(١١١) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٣٨، عبد الله السيف، نفس المرجع والصفحة السابقة.

(١١٢) عبدالله السيف: المرجع نفسه، ص١٤٦.

(١١٣) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٨، عبدالله السيف: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(١١٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص١٤٢ - ١٤٣.

(١١٥) عصام عبدالرءوف: اليمن في ظل الإسلام، ص٢٥٣، عبدالله سيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٤٦.

(١١٦) عبدالله سيف: المرجع نفسه نفس الصفحة.

(١١٧) صالح أحمد العلي: ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، ص٩٠.

(١١٨) حسين فيض الله الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨هـ/٦٢٦هـ)، القاهرة د.ت. ص ٣٢٤ - ٣٢٩.

(١١٩) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٤، القزويني: آثار البلاد، ص١٠١.

(١٢٠) القزويني: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(١٢١) حسين فيض الله الهمداني، الصليحيون، ص٣٢٤ - ٣٢٩

(١٢٢) الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص ٣٤١.

(١٢٣) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية ص١٧.

(١٢٤) يعني كلمة التكفيت من الناحية الزخرفية، زخرفة معدن بمعدن آخر يختلف عنه في اللون والقيمة وتتلخص هذه الطريقة بالخطوات الآتية: ١- رسم الزخارف على سطح التحفة المعدنية ٢ - حفر هذه الرسوم حفرا غائرا، ٣ - تملأ الأجزاء المحفورة بمادة التكفيت، ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية، ص٤٢.

(١٢٥) الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، بيروت. ز.د.ت، ج ٣، ص٤٠١-٤٠٣.

(١٢٦) صفة بلاد اليمن: القسم الأول، ص٤١.

(١٢٧) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في اليمن، ص١٢٢

(١٢٨) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ص٢٢١.

(١٢٩) الخنجر: هو العظيم من السكين، الأسيوطي، الخصائص الكبرى ج١/٣٠١؛ عبدالعزيز العمري:

الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول، ص٢٢٣.

(١٣٠) طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر، ص١٨٦، ١٨٧.

(١٣١) انظر الثعالبى: لطائف المعارف، ص٧.

(١٣٢) قيل شرعب مخلاف باليمن وقيل هى قرية باليمن. ياقوت الحموى: معجم البلدان ج ٥ ص٦٧، إسماعيل الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى ص١٦٥.

(١٣٣) ردينه موضع تنسب إليه الرماح وهى قرية على شط البحر فى المشرق. الهمدانى: صفة جزيرة العرب، ص ١٧٩؛ نزار الحديثى أهل اليمنى فى صدر الإسلام ص٤٢.

(١٣٤) انظر الهمدانى: المصدر نفسه والصفحة. القزوينى، آثار البلاد وأخبار العبا.د ص٩١.

(١٣٥) دائرة المعارف ج١٤، العدد الأول ص٢٠٤.

(١٣٦) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص٧٩.

(١٣٧) السهيلى: الروض الأنف ج٢/٢٩٨؛ وجواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثالثة بغداد، عام ١٩٨٠، ج٧ص٥٨٩.

(١٣٨) وهما عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة وعنهما انظر «ابن حجر: الإصابة، بيروت د.ت ٢/٤٧٦، وج ٣/١٨٩، ابن عبدالبر، الاستيعاب حاشية على الإصابة ج ٣/١٨٩.

(١٣٩) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٩م ج٣/١٣٢

(١٤٠) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر «تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، صيدا ١٩٨٧م، ج٣، ص٤١١.

(١٤١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ص١٩٨٥، ج١ ص٣٩١؛ صفاء حافظ عبدالفتاح، نظم الحكم فى الدولة العباسى، من أوائل القرن الثالث الهجرى إلى دخول بنى بويه بغداد، القاهرة ١٩٨٥م، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(١٤٢) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٥٨، يحيى بن الحسين: أبناء الزمن، ص٦٢

(١٤٣) الهمدانى: الجوهرتين، ص٥٥، ٥٦، ١٠٤؛ الرازى: تاريخ مدينة صنعاء، ص١٩٠؛ مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١٤٢.

(١٤٤) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١٣٥.

(١٤٥) مصطفى شيحة: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(١٤٦) مصطفى شيحة: المرجع نفسه، ص١٣٥، ١٣٦.

(١٤٧) مصطفى شيحة: المرجع نفسه، ص١٤٣

(١٤٨) عارف أحمد المخلاف: دراسة أثرية لتيجان أعمدة فى جامع صنعاء، مجلة الأكليل، صنعاء، العدد الأول، السنة السابعة، ربيع أول، ص ٦٣، ٦٥

(١٤٩) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٣١.

(١٥٠) ربيع حامد خليفة المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(١٥١) عفيف البهنسى: الجامع الكبير بصنعاء، الطبعة الأولى، باريس، ص١٠٦.

(١٥٢) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٣١.

(١٥٣) بامخرمة: ثغر عدن، ج١ ص١٤.

(١٥٤) مايلز: الخليج بلدانه وقبائله، القاهرة، ١٩٨٣، ص٣٣٠.

(١٥٥) بامخرمة: ثغر عدن، ج١ ص١٤.

(١٥٦) بامخرمة: المصدر نفسه، ج١، ص٢٠.

(١٥٧) بامخرمة: المصدر نفسه، ج، ص٢٢.

(١٥٨) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة اليمنية، ص١٣٩؛ يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، بحوث ومقالات ج١، ط١ صنعاء ١٩٨٥م، ص١٦.

(١٥٩) عبدالله محمد السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٤٨.

(١٦٠) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في اليمن، ص١٠٩.

(١٦١) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٣، ص٣٩٨-٤٠٠.

(١٦٢) الواسعي: فرجة الهموم، ص٣٢.

(١٦٣) تاريخ مدينة صنعاء، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٣٠؛ عبدالله السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٤٩.

(١٦٤) عبدالله السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموي، ص١٤٩.

(١٦٥) عبدالرحمن الشجاع: النظم الإسلامية في اليمن، ص١١١ عبدالله السيف: المرجع نفسه ص١٤٨، ١٤٩.

(١٦٦) Lealan Anderson: Hsitorical Considerations in Yemeni Vernacur, Phd,the Ohio State University 1997, Pp.205 - 207

(١٦٧) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص ٢٠٥ - ٢١٠.

(١٦٨) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٣، ص٣٨٩.

(١٦٩) يحيى عبدالله المفلحي: الصخور الإنشائية والصناعية في اليمن، الموسوعة اليمنية، ج٢ص٥٦٥

(١٧٠) حسين علي الوسي: اليمن الكبرى، ص١٣٩ - ١٤٠

(١٧١) زياد الديري: دراسة وتصنيف أحجار البناء في الجمهورية اليمنية، ص٣٠٨

(١٧٢) زياد الديري: المرجع نفسه، ص٣٠٨ - ٣٠٩.

(١٧٣) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العراقي، (١٩٢٥م/١٩٥٦) ج١ ص١٠٨

(١٧٤) أمين أحمد محمود: مواد البناء التقليدية المستخدمة في العمارة، الموسوعة اليمنية ج٢، ص٦٨٦.

(١٧٥) أمين أحمد محمود: مواد البناء التقليدية، الموسوعة اليمنية ج٢، ص٦٨٧.

(١٧٦) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ص٧٨.

(١٧٧) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ج١ ص ٢١ -٢٢

(١٧٨) الهمداني: الجزء الثامن من كتاب الإكليل، ج٨، ص ١٥٠.

(١٧٩) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء ص١٩٦.

(١٨٠) غازي رجب محمد: الستائر الجصية في الفن العربي اليمني (العقود اليمنية) دراسات يمنية العدد ٢٨ (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) حاشية رقم٥.

(١٨١) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٧٨، طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بني يعفر ص ١٩٥

(١٨٢) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص ١٧٨؛ طارق أبو الوفا: صنعاء منذ فجر الإسلام، ص١٩٥.

(١٨٣) ربيع حامد خليفة: المرجع نفسه، نفس الصفحة

(١٨٤) غازي رجب: الستائر الجصية في الفن العربي اليمني ص٦٨.

(١٨٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب ص ٣٥٣، غازي رجب المرجع نفسه، ص٦١.

(١٨٦) غازي رجب: الستائر الجصية، ص٦٣.
(١٨٧) الواسعي: تاريخ اليمن ص٣١٦.
(١٨٨) الوسي: تاريخ اليمن الكبرى: ص٧٢.
(١٨٩) غازي رجب: الستائر الجصية ص٦٤.
(١٩٠) الهمداني. الإكليل: ج٨ ص ١٩؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤ ص٢١٠، ٢١١.
(١٩١) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١١٧.
(١٩٢) ربيع حامد خليفة: المرجع نفسه، نفس الصفحة
(١٩٣) Porter (V),Op Cit,P236.
(١٩٤) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج٧، ص١٠٩، ١١١
(١٩٥) انتشرت مطاحن الغلال فى اليمن ولكن نتيجة لكثرة الاضطرابات التى تعرضت لها اليمن فى منتصف القرن الرابع الهجرى وخاصة مدينة صنعاء فقد انخفضت بها مطاحن الغلال وقد قدرت بـ ٢٢ مطحنا، مصطفى عبدالعال تمام: مدينة صنعاء ومسيرة التطور الاستيطانى الحضرى، ص١٨٣؛ عبدالله عبدالسلام الحداد: صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية، ص٣١
(١٩٦)الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٣١٦، محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامى، ص٢٢٥؛ طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام ص٢٧١.
(١٩٧) الهمدانى: المصدر نفسه، ص٣١٧؛ محمد بن أحمد الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها ج٣ ص ٤٩٤، محمد أمين صالح: المرجع نفسه نفس الصفحة.
(١٩٨) آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبوريدة، القاهرة ١٩٤٠م، ج٢ ص٣٠٦.
(١٩٩) ابن خلدون: المقدمة تحقيق على عبدالواحد وافى، دار الشعب، القاهرة، د.ت، ص٣٦٠.
(٢٠٠) عبدالرحمن الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن ميلادا ونشأة، ص ١١٠.
(٢٠١) أحمد قائد بركات: المعصرة، الموسوعة اليمنية ج ٢، ص ٨٨٥، ٨٨٦.
(٢٠٢) فعلى سبيل المثال فى مدينة صنعاء فى شهر صفر فى عام (٣٨١هـ/ أبريل - مايو ٩٩١م) قدر عدد معاصر السمسم فى صنعاء ٥٤ معصرة، بينما تناقص عددها إلى ١٤ معصرة فى عام (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م-١٠٠١م)، إسحاق بن جرير: تاريخ صنعاء، ص ١٦١؛ الرازى: تاريخ مدينة صنعاء، ص ١٦٣، ١٦٤.
(٢٠٣) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج ٧، ص ١١١، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، قسم ٢، ص ٢١٤؛ عصام عبدالرءوف: اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٤٥، ٢٤٦.
(٢٠٤) ابن رستة: المصدر نفسه، نفس الجزء، نفس الصفحة.
(٢٠٥) عبدالرحمن الشجاع : النظم الإسلامية فى اليمن ميلادا ونشأة، ص ١١٠؛ عبدالله السيف : الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٤٩.
(٢٠٦) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ص ٨٢
(٢٠٧) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ٩٧.
(٢٠٨) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة ص ٨٤
(٢٠٩) التوحيدى: المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(٢١٠) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٠١؛ ابن مجاور: تاريخ المستبصر، ج ١، ص ١٢٠
(٢١١) عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن، ص ١٤٩.
(٢١٢) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ص ٨٤.

(٢١٣) محمود عباس محمود: تاريخ الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص ٦٥.
(٢١٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٤٢، عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٣٥، ١٤٣.
(٢١٥) إسحاق بن جرير: تاريخ صنعاء، ص ١٦١؛ الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص ١٦٤.
(٢١٦) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص ٢٤١.
(٢١٧) ناصر خسرو: جزيرة العرب كما رآها الرحالة ناصر خسرو، ترجمة أحمد البدلي، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض ١٩٧٩م مجلد ٦، ص ٤٠.
(٢١٨) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٠٠
(٢١٩) القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، القاهرة، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ج ٥ ص ١٠؛ ابن بطوطة: تحفة، النظار فى غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، بيروت، د. ت، ص ١٦٨.
(٢٢٠) عصام الفقي: اليمن فى ظل الإسلام ص ٢٥٠؛ آدم ميتز: المرجع السابق، ج، ٥ ص ٣٣٣
(٢٢١) بامخرمة: ثغر عدن ج١، ص ٦٩، سحر عبدالعزيز سالم: عرب الخليج وطريق تجارة التوابل فى المحيط الهندى فى العصر الإسلامي: مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد الرابع عام ١٩٩٠ ص ٣٦٨
(٢٢٢) ابن مجاور: تاريخ المستبصر ج ١، ص ٩٧- ٩٨.
(٢٢٣) جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، ص ٥٨٧
(٢٢٤) الهمداني: الإكليل، الجزء الأول» حققه وعلق حواشيه محمد بن على الأكوع الحوالى، القاهرة، (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م). ج ١ ص ١٢٤؛ ياقوت: معجم البلدان ،ج ٢، ص ١٢٦.
(٢٢٥) سحر عبدالعزيز سالم: عرب الخليج وطريق تجارة التوابل فى المحيط الهندى، ص ٣٦٧، ٣٦٨
(٢٢٦) المرجع نفسه ص ٣٦٨.
(٢٢٧) عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٤٥.
(٢٢٨) محمود عباس: تاريخ الكتاب الإسلامي، ص ٦٥.
(٢٢٩) السيد عبدالعزيز: دراسات في تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، د.ت. ص١٢.
(٢٣٠) عبدالله محمد السيف: الصناعات فى اليمن فى العصر الأموى. ص ١٤٥.
(٢٣١) تاريخ مدينة صنعاء، ص ٣٤٨.
(٢٣٢) عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٤٥.
(٢٣٣) عبدالرحمن الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن، ص ١١١.
(٢٣٤) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق عبدالله الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي، ط ٢، ١٩٩٦، ج ٢٠، ص ٣٩، وفى نهاية القرن الرابع كانت تباع أربع قرب ماء بدانق، الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص ١٤٥، محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٢٤.
(٢٣٥) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج ٧، ص ١١٢.
(٢٣٦) ابن مجاور: تاريخ المستبصر ج ١ ص ٩٧.
(٢٣٧) المطاع، تاريخ اليمن الإسلامي: ص ٢٩٦.
(٢٣٨) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٠٠.
(٢٣٩) الزبيدي، تاج العروس، ج ٤، ٣١٣
(٢٤٠) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٠٠، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٢، ص ٢١٨.
(٢٤١) محمود عباس محمود: تاريخ الكتاب الإسلامي.

(٢٤٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٠٠.
(٢٤٣) المقدسى: المصدر نفسه؛ آدم ميتز: الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص ٣٣٣؛ عصام الفقى: اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٥٠- ٢٥١.
(٢٤٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٠١.
(٢٤٥) اللسان: تضاربت الآراء حول أصل هذه الظاهرة، ففى حين يعتبرها البعض ابتكارا إسلاميا يرى البعض الآخر أن المجلدين المسلمين نقلوها عن الأقباط. عصام الدين عبدالرءوف الفقى.. اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٥٠، ٢٥١.
(٢٤٦) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٠٠، بامخرمة: ثغر عدن، جـ ١، ص ١٨.
(٢٤٧) عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع: اليمن فى عيون الرحالة فى القرن الرابع الهجرى، ص١٢٦.
(٢٤٨) المقدسى: المصدر نفسه، ص ١٠٠؛ عبدالرحمن الشجاع: المرجع نفسه، ص ١٢٦.
(٢٤٩) المقدسى: المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(٢٥٠) بامخرمة: ثغر عدن، جـ ١، ص ١٨.
(٢٥١) ابن مجاور: تاريخ المستبصر، جـ ١، ص ١٤٨.
(٢٥٢) بامخرمة: ثغر عدن، جـ ١، ص ٤٧.
(٢٥٣) عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن ص ١١٢.
(٢٥٤) الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج١، ص ١٢٦.
(٢٥٥) ياقوت: معجم البلدان، ج١ ص ٨٩.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

- الإدريسي «أبوعبدالله محمد بن إدريس، عاش بالقرن السادس الهجري.
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جزءان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (١٩٩٤م)

اسحاق بن جرير: «أسحاق بن يحيى بن جرير الطبرى ت٤٥٠/١٠٥٨م»
- تاريخ صنعاء، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة السنحاني، صنعاء، دت.

- الاصطخري: ابن أسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى (فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى).
المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسينى، القاهرة ١٩٦١م.

- ابن بطوطة: شمس الدين أبوعبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى (٧٧٩هـ/ ١٣٣٧م).
- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، بيروت د. ت.

الثعالبى «أبو منصور عبدالملك بن محمد ت ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م»:
- لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الإبيارى وحسن كامل الصيرفى، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠م.

الحميرى: «محمد عبدالمنعم الحميرى ت (٨٦٦ هـ/ ١٤٩٤م)».
- الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق. إحسان عباس، بيروت ط١، سنة ١٩٨٤م.

ابن خلدون: «عبدالرحمن بن خلدون، ت(٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م»
- المقدمة، تحقيق على عبدالواحد وافى، دار الشعب، د.ت.

الرازى: «أحمد بن عبدالله بن محمد، ت: (٤٦٠هـ/١٠٦٨م)
تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين بن عبدالله العمرى، دار الفكر المعاصر، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٩م.

ابن رستة: «ابن على أحمد بن عمر بن رستة، ت ٣٠١هـ/٨٤٤م».
- الإعلاق النفيسة، ج٧، مطبعة بريل، ليدن ١٩٦٧م.

الطبرى: «أبوجعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م».
- تاريخ الرسل والملوك، ١٠ أجزاء تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٩م».

عمارة اليمني: «نجم الدين عمارة بن ابى الحسن على الحكمى، ت

٥٦٩هـ/١١٧٤م).
- تاريخ اليمن، تحقيق محمد زينهم محمد عذب، بيروت ط١، ١٩٩٢م
• أبو الفدا: «الملك المؤيد عمادالدين إسماعيل بن الملك الأفضل نورالدين على بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة. ت «٧٣٢ هـ/١٣٣١م».
- تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه ريفود والبارون ماك كوكبين ديسلان، باريس ١٨٥٠م.
ابن فضل الله العمرى: «شهاب الدين بن العباس أحمد يحيى، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م».
- مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، القسم الخاص بمملكة اليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط٢، القاهرة، ١٩٧٢ م، الجزء ٢٠ تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، مدبولى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦.
• ابن الفقيه: «أبوبكر أحمد بن محمد الهمذانى ت ٣٦٥هـ/ ١٩٧٥م»
مختصر كتاب البلدان، بيروت، ١٩٨٨م.
القلقشندى: «أبوالعباس أحمد بن على، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م:
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، ١٤ جزءا، المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م).
ابن كثير: «أبوالفداء إسماعيل بن كثير، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م».
السيرة النبوية، جزءان، تحقيق أحمد عبدالشافى، تحقيق أحمد عبدالشافى، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
ابن المجاور: «يوسف بن يعقوب بن محمد على بن المجاور، ت ٦٩٠هـ - ١٢٩١م».
صفة بلاد اليمن مكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، راجعه ووضع هوامشه ممدوح حسن محمد، القاهرة، ١٩٩٦م.
ابى مخرمة: «أبو محمد بن عبدالله الطيب بن أحمد ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م».
- تاريخ ثغر عدن، تحقيق أوسكار لومجرين، جزءان، ليدن ١٩٣٦م.
المسعودى: «أبوالحسن على، ت (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م»
مروج الذهب ومعادن الجوهر، (٤ أجزاء)، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، صيدا، ١٩٨٧م.
المقدسى: «شمس الدين أبوعبدالله محمد الشافعى المعروف بالبشارى ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م»
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، بريل، ليدن ١٩٠٩م.
المقريزى: «تقى الدين أحمد بن على ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م»
النقود الإسلامية الأولى «ملحق بكتاب «النقود العربية والإسلامية وعلم النميات» للأب أنستاس الكرملى، القاهرة ١٩٨٧م.
• ابن منظور: «محمد بن مكرالله المعروف بابن منظور، ت ٧١١هـ/ ١٣١١م».

– لسان العرب المحيط» ٦ أجزاء، القاهرة ١٩٨١م.

• ناصر خسرو:

– سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٣.

• الهمداني: «أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، ت ما بين ٣٥٠ هـ – ٣٦٠هـ/ ٩٦٠ – ٩٧٠م»

– الإكليل، الجزء الأول، حققه وعلق حواشيه محمد بن على الأكوع، القاهرة ١٩٦٣م.

– الإكليل الجزء الثاني، حققه وعلق عليه محمد بن على الأكوع بن الحسين الوالى، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م

– الإكليل جـ ٨، حققه نبيه أمين فارس، القاهرة ١٩٩٩/٢٠٠٠م.

الجوهرتين العتيقتين من الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) إعداد وتحقيق محمد محمد الشعيبي، ط١ دمشق ١٩٨٢م.

– صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن على الأكوع، الشئون الثقافية، بغداد ١٩٨٩م.

• ياقوت: شهاب الدين أبوعبدالله ، ت ٦٢٦ هـ /١٢٢٩م».

– «معجم البلدان» ٥ أجزاء، بيروت، د.ت.

اليعقوبي: «أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م»

– تاريخ اليعقوبي، جزءان، ، بيروت د.ت.

ثانيا: المراجع والدوريات والبحوث العربية:

– إسماعيل على الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى، بيروت ط٢ ١٩٨٨م.

– جواد على: العرب قبل الإسلام، ٨ مجلدات، المجمع العراقى، ١٩٢٥م– ١٩٥٦م.

– المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، مكتبة النهضة عام ١٩٨٠م.

– حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٨٥م.

اليمن البلاد السعيدة، القاهرة د.ت.

– حسن سليمان محمود، وحسين بن فضل الله الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، (٢٦٨هـ/ ٢٦٢هـ) القاهرة، د.ت.

حسين بن على الويسى: اليمن الكبرى، القاهرة، ١٩٦٢م.

ربيع حامد خليفة: طراز المسكوكات اليمنية فى العصرين الأموى والعباسى، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب جامعة المنيا، المجلد الثانى، العدد

الثانى، يوليو (١٩٩٢م).
– الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٩٤م.
– مناسج الطراز الخاص بمدينة صنعاء، مجلة الإكليل، عدد ٢ السنة السادسة، ١٩٨٨م.
– زنوبة نادي مرسي: «التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى»، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٩٢م.
– زياد الديرى: دراسة وتصنيف أحجار البناء فى الجمهورية اليمنية، مجلة دراسات يمنية، عدد ٤٣، رجب – ذو الحجة ١٤١١ هـ/ يناير – يونيو ١٩٩١م.
– السيد عبدالعزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب – تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية د.ت. صالح أحمد العلى: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمى العراقى، المجلد السادس والعشرون، (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)
الأنسجة فى القرنين الأول والثانى، مجلة الأبحاث، دار الكتاب، بيروت، السنة الرابعة عشرة،م، ج٤ ١٩٦١م
– صفاء حافظ أحمد عبدالفتاح: نظم الحكم فى الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجرى إلى دخول بنى بويه بغداد، القاهرة ١٩٨٥م.
– ضيف الله يحيى الزهرانى: دار السكة نشأتها وأعمالها وإدارتها، مجلة الدارة، العدد٢، السنة الثانية (١٣٩٧هـ).
– طارق أبوالوفا محمد: «صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣ م»، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب بنها ٢٠٠٤م.
– عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن ميلادا ونشأة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ، دمشق، طبعة أولى ١٩٨٩م.
اليمن فى عيون الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة السابعة ١٩٨٩م.
– عبدالله محمد السيف : الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، مجلة الإدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، ربيع الآخر – جمادى الأول – جمادى الآخرة، (١٤١٤هـ).
– عصام الدين عبدالرؤف الفقى : اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٢م
– عصام عبدالمنعم إبراهيم : التطور السياسى ومظاهر الحضارة فى عدن منذ بداية القرن الثالث حتى نهاية حكم بنى طاهر (٢٠٤ – ٩٢٣هـ/ ٨١٩ – ١٥١٧م)، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب بنها ١٩٩٩م.

- عفيف البهنسي : الجامع الكبير بصنعاء، الطبعة الأولى، باريس، ١٩٩١م.
- غازى رجب محمد: الستائر الجصية فى الفن العربى اليمنى (العقود اليمنية) مجلة دراسات يمنية العدد ٢٨ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)
متز آدم: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جزءان، نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبوريدة، القاهرة١٩٤٠م.
- محمد بن أحمد الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ٤ أجزاء، تحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن على الأكوع، دار الترجمة اليمانية، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.
- محمد أمين صالح (الدكتور): تاريخ اليمن الإسلامى فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٥م.
- محمود شكرى الألوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، ٣ أجزاء، بيروت، د.ت.
- محمود عباس محمود: تاريخ الكتاب الإسلامى، القاهرة، د.ت.
- مصطفى عبدالعال تمام: مدينة صنعاء ومسيرة التطور الاستيطانى الحضرى، مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء، العدد (٨/١٩٨٨م).
- مصطفى عبدالله شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية، ط١ القاهرة، ١٩٨٧م.
- نزار عبداللطيف الحديثى: أهل اليمن فى صدر الإسلام دورهم واستقرارهم فى الأمصار، بيروت، د.ت.
- الواسعى: عبدالواسع يحيى الواسعى اليمانى
تاريخ اليمن المسمى فرجه الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط ٤, ١٩٨٤م.
وفيه عزي: نماذج من الفنون الإسلامية في اليمن، مجلة المجلة، العدد ٧١، ديسمبر ١٩٦٢م.
- يوسف محمد عبدالله : صنعاء المدينة العربية الإسلامية، نبذة عن تاريخها ودعوة إلى صيانتها، مجلة الإكليل، عدد ٣، ٢ سنة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)

ثالثا: المراجع والدوريات الأجنبية

- Bates, M:
Yemen And Its Conquest By The Ayyubids. Chicago, 1975 .
Brhsunlich, E:
The Gold In Ancient Arabia In Islamic, Leiden 1965.
-Croken, Barbara Eileen:
Zabid Under The Rasulids Of Yemen, Ph.d. Harvard Uniersity, 1990.
- Encyclopedia Of Islam Vo.1, Iv.
- Lealan Anderson:
Historical Consideration In Yemeni Vernacular, P.H.D, The Ohio State University, 1997.
Play Fair: History Of Arabia Felix, Leiden 1960.

د. عبد الرحمن بشير (*)

صراع السلطة فى اليمن منذ فجر الإسلام حتى قيام الدولة الظاهرية

مقدمة :-

اكتسى تاريخ اليمن السياسى فى ظل الإسلام بكثير من الغموض، والمصادر المتوفرة لا تجلى الحقيقة خاصة فى المراحل التاريخية المبكرة من تاريخ الإسلام فى اليمن. فى المقابل نجد أن التاريخ القديم لليمن قد حظى بعناية كبيرة من خلال الدراسات التى كشفت عن الكثير من الأحداث فى فترات تاريخية موغلة فى القدم، حيث قدمت الكشوف الأثرية خدمة جليلة للدراسات التاريخية ووضعت كثيرا من الأحدث فى سياقها التاريخى، والسبب فى ذلك هو اهتمام المستشرقين بدراسة التاريخ القديم لليمن فى إطار اهتمامهم المتزايد بتاريخ اليهود والنصارى فى المنطقة، وبتاريخ دولتى الفرس والروم اللتين تنازعتا السلطة فى جنوب شبه الجزيرة قبيل الإسلام، وجاءت كتابتهم ثرية لاعتمادهم على نتائج الحفريات الأثرية بجانب ما كتبه المؤرخون البيزنطيون.

ظلت العادات والتقاليد هى القاسم المشترك بين عصر ما قبل الإسلام والعصر الإسلامى بسبب تضاريس اليمن، إذ أن المناطق المقفلة تظل الموروثات تتردد فى أرجائها فترة أطول مما لو كانت مفتوحة على جيرانها، وبالتالى احتفظ اليمنيون على مر التاريخ بتقاليد السلطة الذاتية أو الحكم الذاتى، وهى خصوصية من خصوصيات الحكم القبلى الذى لازم القبيلة اليمنية منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحاضر، ولم يستمر إذعان القبائل اليمنية لسلطة الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من عشر سنوات حتى عادت حركات التمرد على السلطة من جديد، كما تأثر سكان اليمن من غير العرب بتلك التقاليد وتحكمت فيهم هذه الموروثات، وهى الصراع على السلطة، حيث كان هدف أجدادهم من دخولهم إلى اليمن هو السيطرة على البلاد والانفراد بالحكم قبل الإسلام، إذ ترصد المصادر

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة كلية الآداب - جامعة الزقازيق

التاريخية قيام دولتين فى اليمن واحدة للأحباش وأخرى للفرس، كما أن أهل الذمة هم الآخرين اتسمت علاقتهم بالسلطة بالتملق والولوج إلى مفاصل الحكم عن طريق التقرب من السلطان بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية، فقد لعب النصارى واليهود دورا مهما فى مسيرة اليمن التاريخية والسياسية قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فانحازوا إلى صاحب السلطان، ودخلوا فى معيته فى محاولة منهم لتأمين حياتهم داخل المجتمع اليمنى كأقلية دينية، كما كان للمرأة دورا فى سد فراغ السلطة على مر تاريخ اليمن، حيث تحملت المسئولية السياسية فى فترات مختلفة خلال العصور الوسطى.

وفى هذه الورقة نحاول أن نحلل الأحداث، ونرصد ذلك الصراع بقدر من الموضوعية فى ظل كتابات متنوعة فيها ما هو متحيز وما هو مبتور، وفى بعض الأحيان متضاربة خاصة فى رصد تاريخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة، أما بعد ذلك فهى كتابات محلية إقليمية متعصبة وأخرى عامة متحيزة، وهى محاولة متواضعة لرصد العلاقة بين أهل اليمن وسلطة الدولة وفق معطيات المراحل التاريخية المختلفة التى مرت بها البلاد خلال العصر الإسلامى بداية من سلطة الولاة الذين حكموا اليمن بتفويض من حكومات المدينة المنورة ودمشق وبغداد، ومرورا بسلطة الدول المحلية القبلية والمذهبية التى استقلت بالبلاد وأخيرا سلطة العجم. هذه هى القوى السياسية التى اعتلت هرم السلطة فى اليمن خلال العصور الوسطى، فبتغير الحكام تتغير السياسات وتتبدل الاتجاهات نحو سكان البلاد، وسنرصد بحول الله تعالى تلك العلاقة مع المكونات الرئيسية لسكان اليمن بدءا بالقبيلة التى تعبر عن جل سكان اليمن مرورا بالعبيد والأبناء وأهل الذمة، ثم وقفة مع علاقة الدولة بالمرأة. والله اسأل أن يجنبنا الذلل أنه نعم المولى ونعم النصير.

الدولة والقبيلة

لم تتغير الحياة القبلية فى اليمن بعد الإسلام، فالقبيلة هى الوحدة الأساسية فى المجتمع اليمنى، وهى التنظيم البدائى الذى يقوم على رابطة الدم والقربى والسلطة الأبوية، حيث تتكون القبيلة من بطون وعشائر وعائلات وأسر، وهى دائما ما تتمرد على السلطة وترفض الهضيمة وتعشق الحرية فهى لا تخضع لأى سلطة ما إلا لضعف أو لمصلحة (فالعصبية تتكون من الالتحام بالنسب أو فى معناه وذلك أن صلة الرحم طبيعى فى البشر ومن صلتها النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة)[١] وبهذا المعنى يتأصل النظام القبلى فى اليمن منذ دولة سبأ القبلية حينما عرض النبى سليمان عليه السلام على ملكتها بلقيس الإسلام فقالت: (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[٢] أى أنها لم تسلم لسليمان ولم تخضع

لسلطانه باعتبارها ندا له، وظلت القبائل اليمنية على هذا الحال يخضعون للدولة في إطار من الحرية الذاتية، ولدينا مثال على ذلك من نجران، حيث ظل بنو عبد المدان وهم من سلالة شداد بن عاد يتمتعون بحكم ذاتي (لا يطيعون لملك الغز (دولة بنى رسول) ولا سلاطين العرب)[٣] ، فالإنسان العربي مجبول على الحرية، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على أن لا يؤثر ذلك في حريته الشخصية[٤].

وظل الأمر كذلك بعد دخول الإسلام اليمن ففى أيام الخليفة عثمان بن عفان عندما قدم عليه خيفان بن عرابه، حيث سأله: (كيف تركت أفاريق العرب في ذي اليمن ؟ فقال : هذا الحي من بلحارث بن كعب فحسك امراس ومسك أحماس، تتلظى المنية في رماحهم، وأما هذا الحي من أغار بجيلة وخثعم فجوب أب، وأولاد عله، ليست بهم ذلة، ولا قلة، صعابيب وهم أهل الأنابيب، وأما هذا الحي من همدان، فانجاد بسل، مساعير غير عزل، وأما هذا الحي من مذحج فمطاعيم في الجدب، مساريع في الحرب)[٥] وهذا الحديث وإن كان يعدد الخصال الكريمة التي تمتعت بها القبائل اليمنية فإنه يدلل على استمرار نظام القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية وعسكرية في اليمن. اختلفت القبيلة اليمنية عن غيرها من القبائل العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية في كثير من الخصائص والصفات فأهل الحضر منهم لا يأنفون من العمل ولا يستصغرون شأن الحرف مما يدحض نظرية ابن خلدون [٦] في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع، ويرجع هذا الاختلاف والتباين إلى الطبيعة التي أثرت على أجسامهم وعقولهم، فجعلتهم من أنشط شعوب شبه الجزيرة العربية في ميدان العمل والحيلة في كسب الرزق وفي إقامة المجتمعات، ومع أن فريق من القبائل اليمنية عاشوا حياة الاستقرار والحضر لكنهم بقوا مخلصين لمثل البوادي ولطبيعتها في الحياة، فهم في قراهم ومدنهم بيوت وبطون ويتمسكون بالعصبية[٧] ولا يختلف نمط الحياة في اليمن كثيرا بين المدينة والقرية أو البادية فوجود القبائل في المدن يعتبر استيطانا قبليا ولا يتحول إلى مواطنة في المدينة، إذ أن فكرة الوطن ارتبطت دائما بالقبيلة ولم ترتبط بالحدود الجغرافية[٨] إلا في حالات فرضتها الظروف سوف يأتي تفصيلها.

استظلت القبيلة بظل الدولة الإسلامية من خلال الحكم المركزي للخلافة الإسلامية عن طريق الولاة طالما كان هذا الحكم يمسك بتلابيب هذه القبائل عن طريق زعمائها أما وقد بدأت هذه الحكومة المركزية في الضعف، فإن الأمر أصبح متروكا لزعيم القبيلة حسب قوة القبيلة وعدد بطونها، فإما أن يستقل بمنطقة نفوذه ومعه بطون القبيلة مكونا دولة، وإما أن يدخل في حلف من القبائل الاخرى يستجيب لمتطلباته، وظل هذا النظام القبلي يشارك في قيادة

اليمن قبل الإسلام وبعده، وهذا يوافق قول أحد الدارسين بأن أكثر مؤسسى الأسر الحاكمة فى اليمن كانوا سادات قبائل فى الأصل، استغلوا مواهبهم وإمكانيات قبيلتهم وسخروها فى سبيل الحصول على الملك وعلى التلقب بلقب ملك أو سلطان، حيث يجمع الزعيم شمل عدة قبائل ويترأسها، وقد ينصب نفسه ملكا عليها[٩].

تأتى العلاقة بين القبيلة والدولة ضمن إطارين الأول: علاقة القبيلة بالدولة القبلية التى تستمد سلطتها من عصبيتها بمعنى (إنه لابد لها من العصبية التى بها يتم أمرها)[١٠]، والثانى: علاقة القبيلة بالدولة الدينية التى تعتمد على المذهب الدينى فى بسط سلطانها، وباستعراض النوع الأول نجد أن تاريخ اليمن من قبل الإسلام وبعده وحتى قيام الإمامة الزيدية كانت إلى حد ما عبارة عن حكم قبيلة استطاعت أن تخضع لسلطتها ونفوذها بشكل مباشر أو غير مباشر مجموعة من القبائل المغلوبة على أمرها أو المتحالفة معها من أجل مصالح معينة يأتى ذلك انسجاما مع قول ابن خلدون «العصبية متألفة من عصبيات كثيرة، وتكون واحدة منها اقوى من الأخرى فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا فى ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب»[١١]، وكانت سلطة الدولة القبلية لا تعدو كونها نوعا من الإشراف على القبائل كمجموعات، إذ أن النظام القبلى ذو نزعة قوية للحكم الذاتى، وبالتالى فإن السلطة داخل القبيلة سواء كانت حاكمة أو محكومة كانت دائما من اختصاص زعمائها، ومن ثم كان ولاء زعماء القبائل أو عدائهم يعنى ولاء القبيلة كلها أو عدائها[١٢]. فالدولة القبلية نقابلها فى اليمن منذ سنة ١٣٠٠ ق.م تقريبا، حيث قامت الدولة المعينية فى منطقة الجوف فيما بين حضرموت ونجران، ثم عاصرتها دولة قبيلية أخرى وهى مملكة حضرموت التى ظهرت فى منطقة حضرموت وسقطت فيما بين سنة ٣٧٠-٣٣٥ق.م، كما عاصرت الدولة المعينية حكومة قبلية أخرى هى حكومة قتبان فى وادى بيجان شمال غربى عدن، وانتهى استقلالها فى القرن الثالث ق.م وقامت فى صرواح ومأرب دولة سبأ فى القرن الثامن ق.م تزعمتها بطون حمير، ومرت بثلاثة أدوار حيث ضمت إليها فى أواخر القرن الثانى ق. م ذو ريدان ثم حضرموت وزادت سيطرتهم على بلاد اليمن خلال القرن الثالث م حيث أصبح ملكها يكنى بملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت[١٣]، ولقد مهد التطاحن القبلى لدخول الأحباش اليمن، حيث يؤكد نقش بالخط المسند على اشتعال الحرب بين سبأ وحمير ورحبة وكندة ومضر وثعلبة[١٤]، وبالتالى أنهى الأحباش الحكم القبلى اليمنى، ثم يأتى الفرس بدعوة من حمير ليقوضوا حكم الأحباش[١٥]، ويكاد حكم الغرباء من الأحباش والفرس يكون مقصورا على العاصمة صنعاء وما جاورها وتظل

قبائل اليمن تتمتع أبدا بحريتها وأن الحكم فيها كان للأسر المالكة القديمة، وهم فى صراع دائم فيما بينهم [١٦].

دخل الإسلام اليمن واهتدت القبائل بجهود صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر العقد لباذان أو باذام الفارسي بعد إسلامه على اليمن ومخاليفها « لم يزل عامل رسول الله أيام حياته فلم يعزله عنه.. حتى مات »[١٧] وبعد وفاته قسم الرسول صلى الله عليه وسلم اليمن إلى خمسة أقسام وولى على كل قسم أميرا من الصحابة يعلمهم أصول الدين الجديد، وهم خالد بن سعيد على صنعاء، والمهاجر بن أبى أمية على كندة، وزياد بن لبيد على حضرموت، ومعاذ بن جبل على الجند، وأبا موسى الأشعرى على منطقة زبيد، وزمعة على عدن والساحل [١٨]. وحاول الرسول صلى الله عليه وسلم التخفيف من غلواء العصبية بين القبائل اليمنية فجعل الصدقة فيما بينهم [١٩]. ويأتى اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم باليمن ضمن تأمين جنوب دولته حتى يتفرغ لنشر الإسلام خارج شبه الجزيرة، فكان إيفاده لعلى بن أبى طالب وخالد بين الوليد، وهما من خيرة الصحابة إلى اليمن وبصحبتهما عدد من أصحاب البلاد مثل أبو موسى الأشعرى وعامر بن شهر بن باذان دليلا على هذا الاهتمام « قال البخارى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وصحبته خالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع » [٢٠] وكان عمال الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاته على اليمن ثلاثة هم أبان بن سعيد بن العاص على صنعاء وأعمالها، ومعاذ بن جبل على الجند ومخاليفها وزياد بن لبيد على حضرموت وأعمالها[٢١] فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بخمسة ولاة على خمس ولايات، وعند موته أصبحت ثلاث. فالرسول يعرف طبيعة البلاد وطبيعة أهلها ففى البداية حاول أن يعالج التمزق الحاصل بين السكان ونزعتهم الاستقلالية والميل إلى الزعامة، وبروح الإسلام وبعمل الدعاة قلص الرسول صلى الله عليه وسلم الولاة إلى ثلاث فى طريق الوحدة وزاد من عدد الدعاة، وبالتالى وحد البلاد وطوع القوة الكامنة عند أهلها لخدمة الإسلام فخرجت بطون من القبائل اليمنية تشارك فى الفتح شرقا وغربا، ومدح الرسول فيهم خصالهم الحربية عندما قال الإبدال بالشام والنجباء بمصر والعصب باليمن والأخيار بالعراق [٢٢] والعصب هنا تعنى التجمع للحرب[٢٣].

تمردت القبائل اليمنية على سلطة الدولة حيث لم تطل مدة خضوعهم لدولة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة، وانقادت برغبة منها وراء المتنبى الأسود العنسى، ويدعى عبهلة بن كعب الذى ينسب إلى قبيلة مذحج التى أيدته وبمساعدتها سيطر على نجران وصنعاء [٢٤]. وتوالى تأييد القبائل له مثل كندة وحضرموت مما زاد من قوته[٢٥]. فوحد اليمن تحت سلطانه،

وطرد عمال الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الدارسين [٢٦] وضع هذا التمرد في مضمونه الحقيقي باعتباره ثورة وطنية طبقية تحمل في محتواها معارضة للسلطة وممثليها في اليمن، وليس ردة عن الإسلام، وإنما ردة عن المشروع الاجتماعي الإسلامي متمثلا في الزكاة التي هي عصب هذا الاجتماع. أما من حيث أنها ثورة طبقية فهي موجهة إلى ممثلي السلطة الأعاجم، حيث كان باذان وإلى اليمن يمثل للأسود مواطن من الدرجة الثانية، وبالتالي فإن القضية تحمل إشكاليتين الأولى: تتعلق بالدور الذي لعبه الابناء الفرس في حكم اليمن لاسيما وأن جمع الرسول صلى الله عليه وسلم لباذان اليمن كله لم يكن أمر مقبولا من جانب القبائل القوية [٢٧]. والثانية: تتعلق بالزكاة كنوع من المغارم أذعنت له القبائل بغير رضى نفس، وهو مما سهل مهمة الأسود. مما سبق يتضح أنه لا صلة بين هذه الثورة والردة عن الدين الإسلامي، بل هو صراع على السلطة من جانب، وتحلل من الواجبات الاجتماعية التي تهدف إلى الترابط والتكافل بين المسلمين من جانب آخر، والأمر الذي يفسر صراع السلطة، هو أن الذي قتل الأسود هم من قام ضدهم بالثورة، وقضى على مكاسبهم السياسية، أي الفرس حيث اشتركت زوجة شهر بن باذان التي اصطفاها الأسود لنفسه مع فيروز الديلمي وداذويه وقيس بمن مكشوح المرادي في تنفيذ المهمة[٢٨].

واصل الخلفاء الراشدون المهمة التي بدأها الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث أرسلوا البعوث والسرايا إلى اليمن، وفي عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كان للفتنة بينه وبين معاوية صداها في اليمن مثلما كان لها صدى على العالم الإسلامي، حيث أرسل معاوية إلى اليمن بسر بن أرطأة العامري فعاث فيه قتلا وتذبيحا [٢٩] وعسف بأهله واستحل الحرام وعاث في البلاد على حد قول الخزرجي [٣٠] فأرسل عليا قائده حارثة بن قدامة السعدي الذي أعاد الأمور إلى نصابها مؤقتا، ثم عاد إلى مكة فلما دخلها بلغه موت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه [٣١]. وهنا نرصد معارضة قوية لمعاوية من القبائل التي تشيعت لعلي ابن أبي طالب في اليمن خاصة كندة التي هاجرت بطون منها إلى الكوفة وناصرت علي بن أبي طالب ونشأ فيها منوعات من الغلو الشيعي[٣٢]، وكذلك بطون من خولان التي استدعت وساندت بعد ذلك الإمام الزيدي الهادي إلى الحق [٣٣]. والملاحظ على هذه الفترة أن والي صنعاء كان يتفوق على أقرانه ولاة الجند وحضرموت، ومن الصعب تحديد الدور الدقيق لهؤلاء الولاة، ومدى سلطتهم وسيطرتهم على القبائل اليمنية لكن يظل الدور المهم لهم هو نشر الإسلام في هذا البلد الذي يعاني من صعوبة التضاريس والاتصالات، وتعليم الناس كيفية ممارسة شعائرهم، وخلق جو من الحياة الإسلامية الجديدة على مجتمع اليمن[٣٤].

خضعت اليمن للخلافة الأموية، وتوالى وصول الولاة لليمن الذى ازداد عددهم فى تلك الفترة حيث بلغ ما يزيد عن خمسة وعشرين واليا فى تسعين سنة هى عمر الخلافة الأموية، ويأتى ذلك متوافقا مع سياسة الدولة الأموية فى التخوف من النزعات الانفصالية للولاة، واستثناءا من هذه القاعدة كانت ولاية يوسف بن عمر الثقفى من قبل هشام بن عبد الملك حيث استمرت ولايته ثلاث عشرة سنة (٣٥)، كما أنه من الصعوبة بمكان تحديد الدور الدقيق للولاة ومدى سلطتهم التى كانت فيما يبدو محدودة أو ربما منعدمة خارج منطقتهم(٣٦)، لذلك نجد مناطق قبلية شبه مستقلة فى العصر الأموى عن الولاة، وكانت القبائل دائمة الثورة والتمرد على السلطة، فعلى سبيل المثال ثار أهل اليمن سنة ١٤٢هـ/٧٥٩ م على عامل أبى جعفر المنصور عبد الله بن الربيع، حيث وجه لهم معن بن زائدة الشيبانى فقتل الكثير واقام فى اليمن تسع سنين(٣٧)، وفى ولاية حماد البربرى أيام الرشيد عسف الوالى بالرعية وقتل جماعة من زعمائهم، فشكا أهل اليمن عاملهم للرشيد فى مكة أثناء موسم الحج، فلم يجبهم إلى شىء مما سألوه، فانتفض الهيضم بن عبد الحميد، وامتنع فى جبال العضد (٣٨) واستولى عليها فأجابه الكثير من بطون القبائل اليمنية. وتحضن معه زعماء هذه القبائل (٣٩)، لم يستطع حماد القضاء على التمرد، فطلب المساعدة من هارون الرشيد وما أن وصلته حتى استأمن الهيضم، فحاربه على الطاعة وظفر حماد بالجبل الذى تحصن فيه الهيضم وقبض عليه وعلى أهل بيته وكذلك على رؤساء القبائل التى تحالفت معه وأرسلهم إلى هارون الرشيد فى مدينة الرقة، فقتل الهيضم وصرف سائر من كان معه (٤٠)، فالعصبية القبلية ورغبة التحرر من السلطة كانت دائما حاضرة عند القبائل اليمنية، وما أن يعبر ثائر أو متمرد عن شق عصا الطاعة على السلطة حتى يجد الكثير من المناصرين والمساندين من هذه القبائل، لكن هذا الأمر ظل خلال فترة الرسول صلى الله عليه وسلم والدولة الأموية تحت السيطرة فى إطار المنظومة القديمة للعلاقة بين القبيلة والسلطة.

ظفرت القبيلة بالحكم الذاتى فى اليمن من خلال دول قبلية محلية، فبعد سيل الفتوحات الإسلامية حدث نوع من الاختناق لم يجد سوى قنوات الحروب الأهلية والثورات للتعبير ومحاولة الدخول فى سياق السلطة (٤١)، وبدا ذلك واضحا منذ بداية القرن الثالث الهجرى، حيث تصدرت القبائل اليمنية هرم السلطة فى اليمن منسلخين من الخلافة العباسية الضعيفة ومتدثرين بغطاء شرعى منها، وليس من قبيل المصادفة أن ترتقى بطون قبيلة حمير (٤٢) سلم السلطة وتقيم دولتين متزامنتين، فأجدادهم كانوا أصحاب آخر دولة قبلية فى

اليمن قبل الإسلام كما بينا سابقا. أما الدولتان فهما دولة بنو زياد (٢٠٣هـ-٤٠٩/٨١٨-١٠١٨م) [٤٣] التى اتخذت من مدينة زبيد عاصمة لها، ودولة بنو يعفر (٢٣٢هـ-٣٨٧هـ/٨٤٧-٩٩٧م) [٤٤] التى سيطرت على صنعاء وجعلتها عاصمة لها، اعتمد نفوذ وسيطرة الدولتين القبليتين على العصبية القبلية، حيث يتوقف نفوذ الدولة واتساع رقعتها على حال عصبيتها من جهة، وحال العصبية فى المناطق التى تحكمها، أو التى تريد بسط نفوذها عليها من جهة أخرى [٤٥]. ويأطر ذلك ابن خلدون [٤٦] عندما يقول «كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها، والسبب فى ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التى تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو» فبعد موت الوصى على عرش الزياديين الحسين بن سلامة سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦ م ضعفت الدولة، وظهرت حالات من التمرد القبلى حيث انفردت بنو معن [٤٧] بعدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت كما ثار بنو الكرندى وسيطروا على سمدان والدملوه والتعكر[٤٨].

لم يمر قرن من الزمان حتى ظهرت دولة قبلية أخرى فى اليمن عندما تطلعت قبيلة همدان [٤٩] للقفز على السلطة فى منطقة صنعاء وما حولها مستغلة بطونها الكثيرة هناك[٥٠]. فالقبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلابد من عصبية تكون اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها[٥١]. فقد أقامت همدان دولة قبلية فى صنعاء (٤٩٢-٥٦٩هـ/١٠٩٩-١١٧٣م) وخلعوا على أنفسهم لقب السلطان، وتداولت السلطة بين ثلاث أسر من همدان هم بنو حاتم المغلسى وبنو القبيب وبنو إليامى، ويأتى تداول السلطة فيما بينهم قسريا بناء على اجتماع كلمة بطون همدان[٥٢]. والأسرة الأخيرة حظيت بنوع من التوثيق التاريخى الذى عرض لأهم الإنجازات التى حققتها الدولة خاصة فى ظل حكم السلطان حاتم ت٥٦٦هـ/١١٦١م[٥٣]، الذى قضى اثنتا عشرة سنة من حكمه فى نشر السلام فى شمال اليمن، فبحلول سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م كان قد سيطر على المنطقة الواقعة شمال صنعاء باستثناء صعدة التى كانت بأيدى الزيديين، وظل الصراع مع الأئمة الزيديين حتى وفاته، حيث قررت همدان أن تنقل السلطة للمرة الرابعة لأسرة القبيب لكنها لم تفلح[٥٤].

وبحلول ٥٧٠هـ/١١٧٤ م استطاع توران شاه قائد الأيوبيين أن يسير شمالا من تعز [٥٥] فاصبح على الهمدانيين مواجهة تحدى جديد أنهك قواهم، ومع ذلك ظلوا يمثلون قوة سياسية يسيطرون على مناطق من شمال اليمن إما بصورة مستقلة أو بالتحالف مع الزيديين، كما كانوا يسيطرون على صنعاء من وقت لآخر [٥٦]. ويقرر أحد الدارسين [٥٧] أن دولة الهمدانيين كانت إسماعيلية [٥٨]

بدليل التعاون بينها وبين دولة بنى زريع الإسماعيلية فى محاربة على بن مهدى، وهو أمر يحتاج إلى تفسير فى ضوء ما هو متوفر لدينا من مادة. فلم يرد فيما وصلنا من مصادر أى اتصالات بين مؤسس الدولة والدولة الفاطمية، واعتناقهم للمذهب الإسماعيلى يعنى خضوعهم للملكة أروى زعيمة الصليحيين، فكيف نفسر احتلال السلطان حاتم صنعاء الصليحية واستقلاله عنها، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن السلطان حاتم كان يميل إلى المذهب الإسماعيلى لسببين الأول : هو من باب المنافسة المذهبية الشمالية من قبل الزيديين، والثانى، هو تطبيق الأساليب الإسماعيلية فى فرض الضرائب على الرعية من جانب التخفيف على القبائل التى سئمت المغارم، وهو ما يجمع إليه ولاء هذه القبائل (٥٩). كما أن فى أخبار سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م يورد يحى بن الحسين ما يثبت أن الباطنية كان يخطب لها على منابر صنعاء فى عهد السلطان الهمدانى حاتم بن أحمد اليامى، واللافت للنظر أن السلطان رضخ لشروط الإمام الزيدى أحمد بن سليمان الذى طلب منه منع الخطبة للباطنية فى صنعاء (٦٠) مما يدلل على عدم التمسك بالمذهب.

أما الإطار الثانى من علاقة الدولة بالقبيلة فى اليمن فيتجسد فى علاقة القبائل اليمنية بالدولة الدينية التى تعتمد على المذهب الدينى فى بسط سلطانها، فتأييد الدول المذهبية من جانب القبائل اليمنية له مدلول سياسى واجتماعى من حيث إنهاء التنافس والتحاسد على الرئاسة بين القبائل، وتفويض الأمر لإناس ذات مكانة دينية تاريخية وهو ما ذهب إليه ابن خلدون عندما قال: «الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية»(٦١)، بمعنى أن القبائل اليمنية احتضنت واجهة دينية لم تكن طرفا فى التناحر والاقتتال القبلى رغبة منها فى وضع حدا لهذه للصراع على السلطة (٦٢)، يتضح ذلك جليا من خلال نموذج الدولة الزيدية التى تعتبر أول دولة مستقلة سياسيا ومذهبيا فى اليمن، واتخذت من مدينة صعدة عاصمة لها سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م بزعامة الهادى للحق يحى بن الحسين(٦٣)، وهو من الفرع الحسنى (٢٤٥-٢٩٨هـ/٨٥٩-٩١٠م) وهى تتخذ من المذهب الشيعى الزيدى معتقدا لها، والزيدية من أكثر فرق الشيعة اعتدالا وهى أقربهم إلى أهل السنة والجماعة. جاء الهادى من المدينة المنورة تلبية لدعوة قادة وزعماء القبائل التى تضرب فى شمال اليمن، خاصة قبيلة خولان التى تسكن فى صعدة، حيث لم تتفق القبائل على اختيار زعيم منهم ليحكم فيهم (٦٤)، فنصبوه كأول إمام زيدى فى اليمن سنة ٢٨٤/٨٩٧م (٦٥)، وظلت دولتهم صامدة تختفى من على مسرح الأحداث حينا وتظهر أحيانا أخرى حتى سنة ١٩٦٢ م تتحالف مع القبائل القوية وتنقلب على القبائل الضعيفة، وتضعف وتدخل فى زوايا النسيان، فعندما تتبدل

الاحوال ويصير لها النفوذ والسلطان يرصدها المؤرخون ويرتفع ذكرها في كتب التاريخ، وعندما يتصارع الأئمة ويصير الأمر إلى أكثر من إمام في وقت واحد تضعف ويهملها التاريخ(٦٦).

لم ينه حكم الدولة الزيدية صراع الزعامة والسلطة بين القبائل كما كان المرجو، إذ أنها انتهجت سياسة (فرق تسد) مع القبائل اليمنية فلم تسمح بتفوق قبيلة على أخرى مما أسهم في استمرار الصراع والتنافس بين الجماعات القبلية متخذة في سبيل ذلك العديد من الأساليب، ومثلت دور الخصم والحكم والحليف في وقت واحد، والذي مكن الأئمة من هذا الدور كونهم يقفون خارج التركيب القبلي(٦٧)، وهذا الوضع المستقل مكنهم من المناورة(٦٨)، واستغلت الدولة الزيدية مفهوم الدين كعامل أيديولوجي بقصد تحقيق غاية سياسية بحتة عن طريق تحويل المعتقد الديني إلى نظرية سياسية دينية(٦٩)، مما ألب عليها بني العباس، حيث أعطت الخلافة العباسية في بغداد تفويض للدولتين المواليتين الزيادية واليعفرية في مقاومة هذه الدولة، وقد نجحوا إلى حد كبير في مهمتهم، فقد كان صراعا بين الدولة القبلية والدولة الدينية، حيث بدأ الإمام الهادي يهدد نفوذهم في البلاد عندما دخل مدينة صنعاء سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م وبقي فيها لمدة سنة(٧٠).

ضعفت الدولة الزيدية بعد موت الهادي نتيجة ضعف خلفائه، ثم صار الأمر لفرع آخر من فروع أبناء زيد بن علي حيث برز منهم الإمام المنصور بالله القسم بن علي العياني سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م، وتحالف مع همدان التي قدمت له الدعم السياسي والعسكري ودخل صعدة، وولى عليها ولده جعفر وجعل له نصف خراجها، ونصفا لبني الهادي،وكذلك نصيبا من مكوس التجارة، وارتفع شأن الدولة الزيدية مرة أخرى مع هذا الفرع الجديد، حيث دخلت صنعاء في طاعتهم لفترات متقطعة،ودخلت بطون القبائل في شمال اليمن معهم في تحالفات طالما كانت تخدم مصالحهم السياسية والاقتصادية (٧١) لذلك تميزت العلاقة بين الطرفين القبيلة والدولة الدينية خلال ما يقرب من الف عام بالتقلب والتحول من حين لآخر، فكما كانت القوة والمساندة القبلية تمثل عامل دعم ومساندة في قيام دولة الإمامة، فقد تحولت بعد ذلك لعامل هدم لها، ومنذ مطلع القرن العاشر الميلادي، وحتى منتصف القرن العشرين ظلت العلاقة تعتمد على حالة التوازن، كما أصبحت كل منهما قوة سياسية عسكرية معارضة ومنافسة للأخرى، بحيث ان أيا منهم لم يكن قادرا على أن يحسم السلطة لنفسه دون أن يواجه بمعارضة ومنافسة شديدة من القوى الأخرى (٧٢).

تعتبر دولة الصليحيين الإسماعيلية الموالية للفاطميين ٤٣٩-٥٣٢هـ/١٠٤٧-١١٣٨م(٧٣) هي الأخرى دولة قبلية ذات مذهب ديني، فمؤسس

الدولة محمد بن علي الصليحي ينسب إلى قبيلة حاشد الهمدانية (٧٤)، تمكن من تأسيس دولة شيعية المذهب باليمن ٤٣٩هـ/١٠٤٧م، ولم تنته سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م إلا وقد فرض علي بن محمد الصليحي نفوذه على دولة مترامية الأطراف تمتد من مكة حتى حضرموت (٧٥)، حيث اتخذ من صنعاء عاصمة له، وأصبح الصليحي يحكم اليمن باعتباره نائبا عن الخليفة الفاطمي المستنصر في مصر(٧٦)، وبفضل الصليحي عادت الوحدة السياسية لليمن بعد غياب طويل، حيث شهدت اليمن حالة من الصراع السياسي بين القبائل وكان الحال عبارة عن أحلاف تارة ونزال وخصام تارة أخرى، ولو أخذنا صنعاء على سبيل المثال في فترة الفراغ السياسي قبيل قيام الدولة الصليحية نجد خولان وهمدان وحمير والأبناء نهاية القرن الخامس الهجري وعلى التحديد سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٦م ينتفضون في صنعاء التي كان لها حاكم كل شهر في تلك الفترة، حيث دخلها الإمام يوسف بن يحيى والشريف محمد بن القسم الزيدي، ولم ينتظم لهم فيها الأمر إلا نصف شهر (٧٧) وتدخل همدان في الصراع السياسي في صنعاء بشكل واضح للعيان، فهي التي أرجعت أحمد بن قيس ابن الضحاك إلى الإمارة في صنعاء سنة ٤٠٩هـ/١٠١٧ م بعد أن كثر الاختلاف بين أمرائها وخروجه منها (٧٨) وكانت تستدعي الزيديين، ثم تجتمع للحرب عليهم مع غيرها من القبائل في سنة ٤١٦هـ/١٠٢٤ م، ثم تستدعي جعفر بن الإمام القسم بن علي العياني سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩ م، ثم تفترق عنهم ثم تستدعيه أخرى (٧٩). نخرج من هذا أن صنعاء في هذه الفترة كانت تتقاذفها الأمواج والحكم فيها لمن غلب، وتداول السلطة فيها يتم بالقوة، وتحاول القبائل وخاصة همدان إيجاد غطاء شرعي لها من الزيديين، وعندما تجد أنهم لا يلبون طموحاتهم ينقلبون عليهم، لذلك كانت صنعاء في تلك الفترة وأعمالها كالخرقة الحمراء بين الأيدي على حد قول يحيى بن الحسين حتى دخلها علي بن محمد الصليحي (٨٠).

دخلت القبائل في الدعوة الفاطمية مع كونها تخالف إلى حد ما معتقداتهم المذهبية، فقد فرض علي بن محمد الصليحي سيطرته بالقوة على كل الكيانات القبلية التي حولت بلاد اليمن إلى جزر منعزلة (٨١)، بيد أن هذه الوحدة لم تعمر طويلا، إذ بموت علي بن محمد الصليحي سنة ٤٧٣هـ/١٠٨١م(٨٢) عادت اليمن إلى ما كانت عليه من تفتت سياسي ولم يأت توحيد اليمن إلا بفكر سياسي عالي من الصليحي الذي خبر نفسية القبائل العربية ونزوعهم إلى الحرية والمساواة، وكراهيتهم للظلم وثورتهم على كل سلطة، فتسلح بالمذهب الديني وحاول أن يوازن ما بين اصله القبلي ومذهب الديني لأنه يعلم أن القبائل لن تمكنه من استقرار سلطانه لذلك جمع الصليحي زعماء القبائل (الملوك والأكبار) في معيته أينما حل حتى يضمن ولائهم ويأمن غدرهم (٨٣).

كما أنه أظهر الحرية المذهبية خاصة مع أهل السنة في زبيد [٨٤]. بعد موته وعودة زعماء القبائل إلى بلادهم رفعوا راية العصيان مرة ثانية ضد حلفاء علي بن محمد الصليحي وانفرط عقد بلاد اليمن مرة أخرى [٨٥]. ففي عهد السيدة أروى تزعمت خولان الثورة والمعارضة لدولة الصليحيين مما أثار مخاوف الفاطميين في مصر فأرسلوا أحد قوادهم الذي يدعى علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة الذي وصل إلى اليمن سنة ٥١٣هـ/١١٣٠م وعمل على إنهاء التمرد [٨٦] بعد موت سبأ بن أحمد الصليحي سنة ٤٩١ أو ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ أو ١٠٩٩م خرجت صنعاء وأعمالها عن مملكة الصليحيين، حيث استولى عليها يومئذ السلطان حاتم المغلسي الهمداني [٨٧].

أما النموذج الثالث في إطار علاقة القبيلة بالدولة الدينية في اليمن فيظهر في الدولة المهدية ٥٤٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٣ م ويبدو هذا النموذج مختلفا بعض الشيء عن نموذج الدولة الزيدية، ويتوافق مع الدولة الصليحية بحسب أن الدولة المهدية هي دولة قبلية ذات مذهب ديني، حيث ينسب علي بن مهدي إلى حمير [٨٨]، والفرق الوحيد بين المهديين والصليحيين أن استراتيجية علي بن محمد الصليحي تجاه القبائل كانت أكثر فاعلية، فضلا عن كثرة بطون همدان وانتشارها في المناطق الهامة في البلاد، وغالبا ما كان يقال أن المهديين خوارج [٨٩] بالرغم أنه لا يوجد ما يساند هذه الدعوى [٩٠] باستثناء افتراض أنهم كانوا يؤمنون بأن كل معصية من المعاصي هي كفر توجب إقامة الحد وهو القتل، ويؤكد على ذلك عمارة اليمني[٩١] بقوله «أن المذهب الذي كان عليه علي بن مهدي وما يعتقده كان حنفي الفروع» وهو أمر مقبول بدليل مساندة علم النجاحية [٩٢] لعلي بن مهدي في بداية ظهوره سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، ومعلوم أن زبيد عاصمة النجاحيين كانت حنفية المذهب [٩٣] وكون ابن مهدي قبلي ويعرف طبائع القبائل أراد من خلال دعوته الدينية أيا كانت صبغتها من السيطرة على القبائل ليقود بتحالف منهم دولته حيث خرجت معه بعض بطون خولان وأهل الجبال[٩٤]، كما أنه يعرف نزعتهم الانفصالية فشدد على طاعتهم له طاعة عمياء باسم الدين، ووصلت طاعتهم له أنه في حالة غضبه على أحد من أكابر أتباعه يحبس نفسه في الشمس ويمتنع عن الطعام والشراب ويقاطع أسرته، ولا شفاعة له حتى يرضى عنه المهدي من تلقاء نفسه، كما أنه يعرف أن قوة القبائل تحفزهم على الخروج على السلطان فمنع عنهم الخيل وجعلها في اسطبلاته يدفعها إليهم عند الحاجة[٩٥].

يضاف إلى الدول القبلية ذات الصبغة المذهبية دولة بني زريع في عدن التي ينتسب حكامها إلى قبيلة يام الهمدانية، حيث كانت عدن تابعة في أول أمرها إلى الصليحيين وحكامها نوابا لهم، وبعد ضعف الدولة الصليحية

استقلوا بالمدينة وأقاموا دولة شيعية [٩٦]، ومن أشهر حكامهم الداعي سبأ بن أبي السعود (٤٨٩-٥٣٣هـ/١٠٩٥-١١٣٩م). حيث ارتفع شأنه نتيجة انقسام الخلافة الفاطمية بعد اغتيال الخليفة الآمر في ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ/١١٨٠م بتمسك الحرة أروى بالدعوة للإمام الطيب بن الآمر، بينما انحاز سبأ إلى الخليفة الحافظ [٩٧]. فلم يتوان الفاطميون في إسباغ أنواع التبجيل والتكريم على حاكم عدن الجديد واعتباره ممثلهم في اليمن بعد ضعف دولة الصليحيين ثم زوالها بموت الحرة أروى (٥٣٢هـ/١١٣٨م)، وقلده الخليفة الفاطمي بمصر الدعوة، وسمي بالداعي سبأ المعظم [٩٨]. أما بالنسبة لسكان عدن فإن موقعها كان سببا في تعدد الأجناس فيها، فالهمداني المهتم بدراسة القبائل يعدد سكانها من القبائل مثل الأصابح الحمريين سكان ريف عدن ثم بطون من مذحج وكندة وبني عامر [٩٩]، والمقدسي المتوفى في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي [١٠٠] يقول «أن أكثرأهل عدن فرس»، وابن المجاور يرصد سكانها خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين بأنهم عرب مجمعة من الإسكندرية ومصر والريف والعجم والفرس وحضارم ومقاشة وجبالية وأهل ذبحان وزيالع وحبوش.. وغالب أهلها حبوش وبرابر[١٠١]، وتعدد عناصر السكان وأجناسهم بهذا الشكل يؤدي إلى تلاشي العصبية كما أن ارتفاع مستوى معيشة أهل عدن بسبب رواج التجارة في المدينة حيث يعتبرها الهمداني أقدم أسواق العرب [١٠٢] ربما ساهم أيضا في هدوء العلاقة بين السكان والدولة، واقتصر الصراع على السلطة في عدن في بداية الأمر على محاولات نواب الصليحيين من بني معن في الاستقلال بعدن فرماهم الصليحيون ببني زريع الذين ما لبثوا هم الآخرون أن استقلوا بعدن، وما لبث أن شب صراع آخر على السلطة من داخل أسرة بني زريع الحاكمة [١٠٣].

ضعفت الكيانات السياسية أمام تنازع السلطة من جانب القبائل اليمنية، وإذا كنا قد علمنا أن علي بن مهدي التي تعرضنا لدولته سابقا دان له خمس وعشرون دولة من دول أهل اليمن [١٠٤] وما قام به الصليحي من اعتقال لزعماء القبائل، فإن ذلك يبين مدى الخطر الذي كانت تمثله القبيلة على الدولة أيا كانت قبلية أم مذهبية، ومن تلك الأمثلة يتضح حتى وإن كان هناك دولا كبيرة مذهبية أو قبلية كانت فإن هناك دولا قبلية صغيرة تمثل بطونا صغيرة لها حكومتها المحلية وقوانينها الخاصة، بل واقتصادها الذي تعتمد عليه في استقلالها السياسي، أي: دولة داخل الدولة، ويعتبرهذا النظام امتدادا لنظام الأقيال والأذواء الذي كان متبعا في اليمن قبل الإسلام ونظرة سريعة على حالة الفوضى السياسية عشية غزو الأيوبيين لليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م نرى كيانات سياسية منها ما هو قبلي ومنها ما هو مذهبي، حيث كانت دولة بني مهدي

تسيطر على تهامة من مدينة زبيد العاصمة، ودولة بنى زريع نواب الصليحيين الشيعة كانوا يحكمون عدن وما حولها، والأئمة الزيديون من بنى الهادى يسيطرون على الجزء الشمالى من البلاد وعاصمتهم صعده، وبنو عمومتهم أبناء الإمام القسم العيانى شهارة وبلادها [١٠٥]، وبنو حاتم يسيطرون على منطقة صنعاء، والجوف وما إليه لآل الدعام، وهناك دولة صغيرة فى المنطقة المحيطة بحرض حيث يتمتع فيها السليمانيون ببعض السلطة [١٠٦]. لذلك فإن هذه الكيانات السياسية الضعيفة لم تقو أمام الأيوبيين الذين قضوا على كل سلطان لها فعاد اليمن من جديد شبه موحد، حيث احتل الأيوبيون من جنوب صنعاء فى الشمال حتى شواطئ المحيط الهندى بما فى ذلك تهامة والسهل الساحلى الغربى وعدن فى الجنوب وحتى حضرموت من جهة الشرق واسسوا عاصمة جديدة لهم وهى تعز [١٠٧]. هذا الوصف لملك الأيوبيين هو وصف عام، لكن يمكن القول أنهم حققوا نوعا من المركزية والوحدة بدلا من الفوضى السياسية التى انتابت البلاد نتيجة الصراع السياسى بين القبائل اليمنية.

والللافت للنظر فى خلال الفترة السابقة أن آفة التحاسد والتنافس بين القبائل اليمنية أتت بالغرباء ليحكموا البلاد فمنذ القدم يرى ابن خلدون [١٠٨] أن العرب أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة والمنافسة فى الرئاسة فقلما تجتمع أهواءهم، ولا يمكن التعميم فى هذه القضية، فكما شهدت اليمن قيام دول قبلية متماسكة شهدت أيضا انقسام بين القبائل، بل كان هناك انشقاق داخلى لبطون القبيلة الواحدة، فعلى سبيل المثال عرفت قبائل ربيعة اليمنية بتخاصم بطونها بعضها ببعض وبتباغضها وبتحاسد رؤسائها، لذلك لا تقبل بتملك رئيس منها عليها، ولا يرجع الأمن إليهم إلا بذهابهم إلى قبيلة كندة لتنصيب ملوك منها عليهم [١٠٩]، وحتى فى العصور التالية اعتبر غالبية الأصابح [١١٠] فى عدن سلطان لحج زعيمهم الأكبر يخضعون له أكثرما يخضعون لزعيمهم [١١١]، ويبدو أن منطقة سكناهم أثرت على تماسك عصبيتهم من خلال اتصال عدن بالعالم الخارجى، واختلاطهم بعدد من الجنسيات المختلفة، وما تبع ذلك من تأثير حضارى عليهم، ويضاف إلى التحاسد والتنافس والتأثير الحضارى سبب ثالث فى قبول القبائل اليمنية بحكم الغريب هو القوة، فلا سبيل أمامهم إلا الانصياع لحكم الغريب القوى حيث يخضعون له ويهابونه ويأخذون برأيه فيهم مادام قويا ويقبلون بمن ينصبه عليهم [١١٢].

طرأ تغير على علاقة القبيلة بالدولة فى عصرى الأيوبيين (٥٦٩-٦٢٦هـ/١١٧٣-١٢٢٨م) والرسوليين [١١٣] (٦٢٦- ٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م) بسبب سيطرة الدولة على الأرض الزراعية وجعلها إقطاعا خاصة لها [١١٤]، فسلبت

الدولة من القبائل أهم مصدر لتمويل قوتها. فقد كانت القبيلة خلال الفترة السابقة التى اتسمت بضعف الدولة وعدم الاستقرار السياسى تتمتع بقدر كبير من القوة والتنظيم بفضل استقرارها وممارسة الزراعة كمهنة رئيسية حتى صارت المرجح الأساسى فى اعتلاء السلطة.

هبت رياح غير مواتية على القبيلة اليمنية مع النظام الجديد، وبدا واضحا هذا التغير على القبائل التى تعتمد على الزراعة فى حياتها، وأصبح من السهولة ملاحظة مناطق تتميز بالتواجد القوى للنظام القبلى، وأخرى تتميز بضعف واضمحلال هذا النظام لدرجة اختفاء التنظيمات القبلية فيها، أما المناطق التى استمر تواجد النظام القبلى قويا فيها فهى المناطق شبه الصحراوية [١١٥] خاصة المنطقة الشرقية المحاذية للربع الخالي والمرتفعات العليا الممتدة من يريم وذمار شمالا حتى صعدة، وهى تتميز بقلة الامطار وقلة خصوبة الأرض وتضاريس وعرة فضلا عن الصحراء الجرداء، ويعتمد سكانها على اقتصاد الغزو حيث فرضت الطبيعة عليهم هذا النوع من الإنتاج[١١٦]، فلم يستطع السلطان المظفر يوسف بن المنصور عمر ثانى حكام الدولة الرسولية أن يسيطر على المنطقة المرتفعة شمال صنعاء على الرغم من قوة شكيمة الدولة فى عهده فقد استعمل القوة فى ضم تهامة والمرتفعات وصنعاء ثم حضرموت وجنوب الجزيرة حتى ميناء ظفار لكنه لم يستطع استمالة القبائل الشمالية التى تخضع لسلطة الزيديين فأبرم معهم سلام سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م [١١٧].

أما المناطق التى ضعف فيها النظام القبلى فتشمل فى الغالب المرتفعات الوسطى والغربية مع أجزاء كبيرة من تهامة وتتميز بخصوبة أراضيها ووفرة المياه. هذه المناطق أصبحت مركز جذب سكانى أدى إلى تغير فى التركيبة الأثنية، ويعبر ابن خلدون [١١٨] عن ذلك بقوله: «ثم وقع الاختلاط فى الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت العصبية بدثورها» واندثار العصبية أفرز عاملا جديدا فى تماسك الجماعة وهو وحدة الإقليم أى الانتساب إلى المكان، ويضاف إلى هذا أيضا هيمنة الدولة الأيوبية على هذه المناطق الغنية بفرض سلطة وهيبة الدولة مما أضعف من النظام القبلى[١١٩]، ويرى أحد المستشرقين[١٢٠] أن القبائل الجبلية لديها وعى بالتملك، وهذا الوعى غير موجود بين نظرائهم من البدو سكان الصحراء، بمعنى أن وعى التملك كان من ضمن عوامل ضعف النظام القبلى، وأيا ما كان السبب فى ذلك الطبيعة أو سلطة الدولة أو الوعى أو ثلاثتهم، فبمرور الزمن أصبحت المناطق الخصبة خاضعة لسلطان الدولة، ومن ثم غابت سلطة القبيلة، أما المناطق الفقيرة فظلت متمسكة بالنظام القبلى.

واستمر حكم الغرباء للدولة اليمنية وطالت المدة وزاد ضعف القبائل فى المناطق الخاضعة لحكوماتهم، وبدأ نمط جديد من أنماط العلاقة فى تلك المناطق أطلق عليه أحد الدارسين علاقة بين الدولة والقرية، حيث اختفى تقسيم السكان إلى قبائل وحل محله وحدات جغرافية، ويبدو أن القبيلة بشكل عام فى البادية والقرية، فى أيام هاتين الدولتين تعرضت لهزة شديدة خاصة أن الحكام ليسوا عربا ويمقتون العصبية وزاد جهدهم فى إضعافها إذ أن فى ضعفها قوة لهم، وقد نجح الأيوبيون فى ذلك وورث ذلك الرسوليون عنهم، لكن القبائل لم تسلم بالرغم من ضعفها ووهنها، حيث عانى الرسوليون كثيرا على أيدى المتمردين من القبائل، وعندما مات الناصر أحمد سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م آخر الحكام الأقوياء تدهورت الدولة بسرعة، ولم يكن بوسع من أتى بعده أن يوقف المد الذى يجرى ضده بقوة، وساء من الموقف تفشى مرض الطاعون فى البلاد، وزاد الطين بله أن الأمراء الرسوليين بدءوا فى التنازع فيما بينهم، ومع سقوط عدن فى أيدى الطاهريين سنة ٨٥٨هـ/١٤٠٤م واستسلام الأمير الرسولى هناك انتهت هذه الأسرة (١٢١).

ينتهى حكم الغرباء مؤقتا لليمن باستيلاء حكام من أهل البلاد على السلطة، حيث أقاموا دولة عرفت فى التاريخ بالدولة الطاهرية ٨٥٨-٩٢٣هـ/١٤٥٤-١٥١٧م على أنقاض الدولة الرسولية حكامها يعود أصلهم إلى منطقة جبان والمقرانة (١٢٢) حيث استولوا سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣ م على لحج التى تبعد بضعة أميال شمال عدن، ومن هناك استولوا على الميناء الرئيسى لليمن سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م وكانوا أقل طموحا من أسلافهم الأيوبيين والرسوليين فى مناطق المرتفعات الشمالية التى يتحصن بها الزيديون والقبائل المتحالفة معهم، لكن أعادوا زبيد مرة أخرى إلى الواجهة باتخاذها عاصمة شتوية مما جعلها تستعيد دورها السابق كعاصمة ثقافة لليمن. فى أوائل القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى قرر حكام مصر المماليك غزو اليمن واستغلالها كقاعدة ضد التهديد البرتغالى المتزايد لطريق التجارة الشرقية، حيث وصل أسطول مملوكى إلى جزيرة كمران التى تقع قبالة ساحل زبيد سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م، ورفض السلطان الطاهرى الظافر عامر تموين السفن مما أعطى ذريعة للمماليك بشن حرب ضده، ودارت المعركة بين الطرفين قرب زبيد فاضطر الظافر عامر إلى التقهقر إلى تعز. وتدخل فيها الزيديون لصالح المماليك، كما ساندهم السلطان العثمانى سليم الأول باسلحة نارية كانت تستخدم لأول مرة مما أفقد التوازن بين الطرفين، ولاحق المماليك الظافر عامر إلى تعز حيث استولوا عليها وواصلوا إلى المقرانة، وفشلت محاولات الطاهريين فى قطع الطريق إلى صنعاء أمامهم مما أدى إلى سقوطها فى أيديهم،

وقبض المماليك على عامر وهو يحاول الهرب لتصل الأسرة الطاهرية إلى نهايتها [١٢٣]. وعادت اليمن مرة أخرى لحكم الغرباء.

خلاصة القول أن الصراع على السلطة كان سمة الحكم فى اليمن خلال العصر الإسلامى الوسيط حيث تدخلت القبيلة بكل قوتها فى محاولة منها للمحافظة على استقلالها وخصوصيتها، ونهجت فى سبيل ذلك كل الطرق الممكنة وغير الممكنة، فعقدت التحالفات ونقضتها، فتارة توالى الحاكم وأخرى تقلب له ظهر المجن، وساعدها على ذلك تجهيزها العسكرى، وطبيعة اليمن الجغرافية، لذلك ظلت فى الواجهة يخطب ودها كل من تاق إلى السلطة والحكم، ولم تستسلم إلا فى بعض الفترات التى خضعت البلاد فيها لحكم الغرباء الذين استعملوا القوة العسكرية والسياسة والاقتصادية فى إضعاف العصبية القبلية.

العبيد والدولة

قبل الخوض فى تفاصيل علاقة العبيد بالسلطة فى اليمن لابد من إلقاء نظرة على الهجرة الحبشية إلى اليمن وكيف أن الجغرافية لعبت دورا مهما فى هذه الهجرة، ففى عصر البلايستوسين [١٢٤] حوالى مليون سنة قبل الميلاد ظهر اليمن منفصلا عن إفريقيا بسبب تصدع الأخدود الإفريقى وتكوين البحر الأحمر، وبفضل التصدع والبراكين تكونت الهضبة اليمنية والحبشية، واصبحتا تشكلان لوحين قاريين متقابلين[١٢٥]. كما أن الأخدود ترك أرخبيلا من الجزر[١٢٦] عند مدخل البحر الأحمر من الجنوب فى المنطقة الواقعة بين اليمن والحبشة وهذه الجزر فضلا عن ضحالة مياه البحر ساعدت على سهولة الهجرة بين البلدين ويقول ابن المجاور «يقال أنه كان فى قديم العهد لم يكن هذا بحرا(الأحمر) وإنما كان عرصة[١٢٧] إلا أنه لا فرق بين بر العرب وبر السودان. فالأجل ذلك أن السودان كانت تملك إقليم اليمن جميعا فى زمن الجاهلية والإسلام، ولما كثر الماء فى البحر وظهرت صعوبته من قريب صاروا يعدونه فى المراكب» [١٢٨].

فالأصول التاريخية لعدد من قبائل الحبشة يعود لقبائل يمنية هاجرت فى قرون بعيدة عبر البحر الأحمر. وظلت منطقة تهامة تولى وجهها شطر الجانب الإفريقى فى علاقة متصلة أكثر من علاقاتها بالداخل اليمنى. حيث كشفت الحفريات الأثرية التى قامت بها بعثات أمريكية سنة ١٩٨٥ م وأخرى إيطالية سنة ١٩٨٥-١٩٨٧ م فى منطقة مأرب أنه فى هذا الشريط الممتد على ساحل البحر الأحمر حتى منطقة أبين كان هناك حضارة مزدهرة استمرت المئات من السنين قبل الميلاد تسمى حضارة صبر تعود للقرن الثالث عشر حتى منتصف القرن التاسع ق.م قامت على الزراعة والرعى والصيد البحرى

والتجارة، ثم تعطينا الحفريات معلومات عن عبور حيوانات من أصل إفريقي لليمن ترجع للقرن السابع ق.م، مما يعنى هجرات بشرية من الحبشة إلى اليمن في تلك الفترة، ثم قامت مملكة أكسيوم على غرار الممالك اليمنية، حيث لعبت قصة الملك سليمان وبلقيس دورا أساسيا في القاعدة الشرعية التى قام عليها الحكم الملكى في الحبشة لمدة ثلاثة آلاف سنة من خلال ذلك الطفل مينيليك مؤسس المملكة الحبشية، والذى تزعم الأساطير أنه كان ثمره حب الملك سليمان وبلقيس التى تسمى في التراث الأثيوبى ماكيدة أو ملكة الجنوب(١٢٩).

طلب الحميريون النجدة من ملوك أكسيوم في حربهم مع السبائيين، مما يعنى تبادل الهجرات البشرية على الضفتين، ولقد مهدت الحروب الأهلية الداخلية لدخول الأحباش إلى اليمن، إذ يبين نقش بالخط المسند أنهم عبروا إلى اليمن بعدما استعرت الحرب بين سبأ وحمير ورحبة وكندة ومضر وثعلبة، ومن ضمن الأسباب الأخرى التى قدمها المؤرخون لغزو الأحباش لليمن هو تلك العدواة القديمة بين الأحباش وعرب اليمن بسبب خطف الأحباش من سواحل الحبشة وبيعهم أرقاء في بلاد العرب(١٣٠). هذا الأمر يطرح قضية الرقيق الأسمر القادم من ضفة البحر الأحمر المقابلة لليمن في شرق إفريقيا ويضعنا في موضع مناقشة لقضية العلاقة الجغرافية بين الضفتين، إذ أن البحر الأحمر كان مخاضة لقلة مائة (١٣١) فمن السهل عبور الجيوش والمهاجرين إلى اليمن، وعلى أثر ذلك قامت دولة كبيرة قبل الإسلام يتزعمها الأحباش في اليمن بمساعدة الحبشة وبدعم رومانى (١٣٢) وهنا يبدو التأثير الحضارى ففى الجانب اليمنى استقرت العناصر الإفريقية، ونقلوا معهم أنماط حضارتهم وأثروا في التركيب السكانى والجسمانى والثقافى (١٣٣). وكذلك تأثرت عادات وتقاليد أهل اليمن بالعادات والتقاليد الإفريقية، ويبدو طراز المسكن الإفريقى المخروطى الشكل الذى يتكون من قش وفروع الأشجار الذى انتشر بين سكان السفوح الغربية لهضبة اليمن المطلة على البحر الأحمر نموذجا على هذا التأثير (١٣٤).

قيام دولة في اليمن يتزعمها موالى كانوا عبيدا وهى دولة بنى نجاح ٤٠٣-٥٥٥ هـ/١٠١٣-١١٥٠ م يطرح سؤالا هو لماذا ظل مؤرخى اليمين يرددون هذه الصفة صفة العبد أو العبيد التى لازمت حكام هذه الدولة ؟ هل هو نوع من التحقير أم هو تعصب من جانبهم، فالمصادر تقول (وزالت دولة بنى زياد وانقلت إلى عبيد عبيدهم) (١٣٥) وهو يعنى بذلك انتقال السلطة من الحسين بن سلامة (١٣٦)- وسلامة هذه هى أمه ؟ آخر حكام دولة بنى زياد وهو من مواليهم إلى مراجان وهو من عبيد الحسين بن سلامة الذى كان بدوره هو الآخر له عبدان

من عبيد الحبشة (فحلان) رباهما فى الصغر هما نفيس ونجاح ووقع بينهما التنافس كانت الغلبة فيه لنجاح الذى اقام الدولة، فلماذا لم يطلق المؤرخون على دولة الأحباش فى اليمن التى قامت سنة ٥٢٥ م وظلت تحكم البلاد لمدة خمسين سنة (١٣٧) مثل تلك الصفة ؟ والإجابة تبدو فى حكام الدولة، فدولة الأحباش الأولى تزعمها الغزاة القادمين من الحبشة لاحتلال البلاد، أما الثانية فتزعمها من كانوا عبيدا مستضعفين يعملون فى بلاط الدول القبلية تعصب عن تصعب المؤرخين اليمنيين وميلهم إلى التحقير من شأنهم.

وهنا نطرح قضية الرقيق الذين اقاموا دولا فى العالم الإسلامى، فمنذ أن أقام المملوك أو العبد سبكتكين قواعد الدولة الغزنوية فى غزنة بأفغانستان، ثم توسع فى جنوب غرب آسيا وشمال الهند، وذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى / أواخر القرن العاشر الميلادى، حيث انسلخ من الدولة السامانية، وظل اسلافه يتوارثون الحكم حوالى قرنين من الزمان (١٣٨)، وتوالى قيام دول أخرى على هذا المنوال حيث عاصرت دولة بنى نجاح هذه الدولة وسارت على نفس النهج وهو السطو على الحكم فى غيبة الأقوياء من بنى زياد، وفى نفس الوقت أقام عماد الدين زنكى دولة فى الموصل على أنقاض سادته السلاجقة(١٣٩)، وتلى ذلك فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى قيام دولة المماليك فى مصر على أنقاض سادتهم الأيوبيين متزامنة مع دولة أخرى قامت فى الهند باسم سلطنة دهلى أقامها عبيد العبيد(١٤٠)، مثل دولة بنى نجاح على حساب دولة الغور الإسلامية، كمان أن دولة بنى رسول التى قامت فى اليمن على أنقاض الدولة الأيوبية بعد أقل من قرن من نهاية دولة بنى نجاح هى الأخرى دولة لأتابكة الأيوبيين الذين كانوا بدورهم أتابكة لنور الدين محمود (١٤١) كل هذه الدول تشابهت فى ظروف قيامها وهو شراء أطفال لم يبلغوا الحلم وتتم تربيتهم فى البلاط، كان هذا النظام متبعا فى اليمن، فمرجان عبدا لحسين بن سلامة يشترى طفلين من الأحباش لم يبلغا الحلم ويربيهما فى بلاط الوزارة، فيقول ابن المجاور (" فاستقرت الوزارة لمرجان وكان له عبدان فحلان من الحبشة رباهما فى الصغر وولاهما فى الكبر أحدهما يسمى نفيس والثانى يسمى نجاح) (١٤٢) فهل هو نوع من المصادفة أم هو إفراز طبيعى لفساد السلطة وأصحاب السلطان ؟

تبدأ علاقة العبيد بالسلطة بالدخول فى خدمة الحكام ومن مواقعهم داخل كواليس الحكم يستمدون الخبرة فى أصول الحكم، وبالتالى يمكن القول أن دولة بنى نجاح ولدت من رحم الدولة الزيادية، وهو الأمر الذى يختلف مع ما رصدناه سابقا فى علاقة القبيلة بالدولة، حيث رصدنا هذه العلاقة بأنها علاقة الند للند، أما هذه العلاقة فتبدأ بعلاقة سيد تابع وتنتهى باعتلاء التابع

السلطة، ويبدو أن هذا النظام كان سمة من سمات الحكم الإسلامي خلال العصور الوسطى خاصة فى فترات ضعف الدول وهرمها، فالخلافات داخل الأسر الحاكمة وصراع السلطة هى مدخل هؤلاء إلى الحكم، وقد يفضل الحاكم أن يورث الحكم لعبده بدلا من ابنه أو أخيه، وهو ما حدث بالفعل فى نهاية الدولة الأيوبية فى اليمن، حيث أوصى آخر حكام الدولة الأيوبية فى اليمن الملك المسعود ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م بحكم اليمن إلى أتابكه نور الدين عمر بن على بن رسول، وجاء فى وصيته لاتابكه نور الدين «قد عزمت على السفر وقد جعلتك نائبى فى اليمن فإن مت فأنت أولى بملك اليمن من أخوتى لأنك خدمتنى وعرفت منك النصيحة والاجتهاد، وإن عشت فأنت على حالك وإياك أن تترك أحدا يدخل اليمن من أهلى ولو جاءك الملك الكامل ولدى مطويا فى كتاب» (١٤٣).

استمدت دولة بنى نجاح قوتها من الكم الهائل من الأحباش الذين استوطنوا اليمن منذ القدم مهاجرين وغازين، وكذلك من خلال الهجرة المباشرة بعد الإسلام إلى اليمن، فقد اراد نجاح أن يرتكن هو الآخر على عصبية من السود تعضد دولته مثلما كانت الدولة القبلية فى اليمن تعتمد على العصبية، حيث استكثر منهم وأسكنهم فى مدينة خاصة بهم وهى مدينة حيس (١٤٤) التى لم يكن فيها بيت من العرب (١٤٥)، وفى المقابل استعان حكام الدولة الصليحية بالكثير منهم حتى فى حروبهم مع دولة بنى نجاح نفسها بنو جلدتهم (١٤٦)، فعندما هجم سعيد الأحول بن نجاح هو وجنوده على معسكر على بن محمد الصليحى اعتقد الناس أنهم من جملة جنود الصليحى (١٤٧)، وقد التفت الصليحى إلى هذا التشابه فى حربه الأولى معهم عندما قال لجيشه : (اعلموا أن عرب هذه الناحية يستولدون الجوار السود فالجلدة السوداء تعم العبد والحر، ولكن إذا سمعتم من يسمى العظم عزما فهو حبشى (١٤٨) فاقتلوه، ومن سماه عظما فهو عربى فاتركوه) (١٤٩) والنص يدلل على اكتساب المولدين من جوار حبشيات لصفات أمهاتهم الشكلية أما العادات المكتسبة مثل اللغة فهى خاضعة لطبيعة التربية العربية للنشء بعيدا عن أمه، وبالتالى استطاع الصليحى أن يشق الصف النجاحى مستغلا الحالة الاقتصادية المتردية للأحباش.

جعل بنو نجاح من جزيرة دهلك(١٥٠) محطة انتظار بين بلادهم واليمن، فهى حصن لمن ملك تهامة على حد تعبير الهمدانى (١٥١) حيث تحصنوا فيها ريثما تستقر الأمور ويلتقطون أنفاسهم ويترقبون ثغرات فى الحكم الصليحى ينفذون منها مرة أخرى إلى السلطة، حيث قصدها جياش بن نجاح، وانتظر أخيه سعيد الأحول بن نجاح فى زبيد فى جوار وحماية زعيم خولانى يستطلع الأمر حتى وجد الفرصة المناسبة، فاستدعى الأحباش من دهلك ودخلوا فى

معركة مع الصليحيين قتل فيها على بن محمد الصليحى، وانتعش الأمل من جديد فى السلطة حيث تسيدوا زبيد من جديد وبسطوا سلطتهم على تهامة سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م بقيادة جياش بن نجاح ت ٤٩٨هـ/١١٠٦ م الذى ما لبث أن تنازع أبناؤه على السلطة بعد وفاته، وتحالف بعضهم مع أعدائهم الصليحيين ضد بعض إلى أن جاء على بن مهدى وقضى على الجميع (١٥٢)، وبالتالى انتهت دولة العبيد فى اليمن سنة ٥٥٥هـ/١١٥٠م (١٥٣)، لكن ظلت آثارها الاجتماعية فى اليمن باقية حتى الآن متمثلة فى بعض الصفات الجسمية والشكلية وبعض أنماط المعيشة.

الدولة والأبناء

انتفض سيف بن ذى يزن ضد حكم الأحباش واستنجد بالإمبراطور البيزنطى ضدهم، لكن الامبراطور رفض التدخل لكون سيف يهودى من نسل ذى نواس (١٥٤)، فلجأ إلى كسرى فارس أنوشروان الذى نصره، وأرسل إلى عدن حملة فارسية من نزلاء السجون الفارسية بقيادة وهريز سنة ٥٧٥م (١٥٥) على أن يتزوج الفرس من نساء اليمن، وأن لا يتزوج اليمنيون من النساء الفارسيات (لاحظ هذا الشرط المتعسف تبناه أحد الولاة العرب أيام الخليفة المأمون)، ويرى أحد الدارسين أن فى هذا الشرط نظرة استعلائية على أهل اليمن(١٥٦) بعد ذلك استطاعت هذه الحملة هزيمة النصارى الأحباش وغزو صنعاء(١٥٧)، هذا الاختلاط والتزواج أفرز نوعا جديدا من السكان ذات دماء مختلطة أطلق اليمنيون عليهم لقب الأبناء، واستتب الأمر لسيف بن ذى يزن على أن يدفع الجزية والخراج السنوى لكسرى أنوشروان.

قتل سيف بن ذى يزن على أيدى عبيده الأحباش انتقاما منه فعاد وهريز مرة أخرى إلى اليمن، وأمره كسرى ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية أسود إلا قتله (١٥٨)، ومنذ ذلك الوقت تولى الفرس مهمة حكم اليمن حتى دخول الإسلام فاسلم الحاكم الفارسى باذان وأقره الرسول صلى الله عليه وسلم واليا على اليمن (١٥٩) انتقل الصراع على السلطة بين العرب والأبناء، فهذه الطبقة الحاكمة التى ظلت تحكم اليمن منذ سيف بن يزن آن لها أن تضعف أمام التغيرات الجديدة التى حدثت فى اليمن بعد دخول الإسلام، وكان أول اختبار حقيقى لقوة الأبناء هو تمرد الأسود العنسى الذى كان فى مجمله ثورة على الحكم الأعجمى ومحاولة للبحث عن السلطان الضائع للقبائل العربية أصحاب الأرض (١٦٠). خرج الأبناء من هذا المأزق أكثر ضعفا (صحيح أنهم استطاعوا أن يضعوا نهاية لحياة الأسود بالحيلة والخديعة إلا أنهم خرجوا من محنة ليجدوا اختباراً أصعب) فهذه المرة كان عليهم إما أن ينتصروا وإما أن يتم نفيهم إلى

فارس مهد أجدادهم الأولين، فقد قرر قيس بن مكشوح حليفهم فى قتل الأسود العنسى (١٦١) مدفوعا بعصبية جاهلية أن ينفى الأبناء إلى فارس بعدما رأى من خليفة المسلمين أبو بكر الصديق مساندة لهم، حيث أقر فيروز الديلمى واليا على اليمن (١٦٢).

استجار فيروز الديلمى بأخواله من قبيلة خولان من قيس بن مكشوح، وأرسل الخليفة أبو بكر الصديق المهاجر بن أبى أمية لمعونة الأبناء ضد قيس(١٦٣)، وتم القضاء على هذه الحركة لتعود من جديد علاقة الأبناء بالسلطة على فترات متقطعة حيث استعمل معاوية بن أبى سفيان سعد بن داذويه ثم أقر عبد الله بن الزبير عندما ظهر بمكة الضحاك بن فيروز الديلمى (١٦٤) لتنتهى علاقة الأبناء بالسلطة، حيث خضعوا لنظام الأقليات العرقية فى اليمن، ويتعرضون لبعض المشاكل العرقية، حيث تعصب والى اليمن فى زمن الخليفة العباسى المأمون يزيد بن جرير بن خالد القسرى للعرب فأمر بطلاق نساء العرب منهم، وهو أمر عزله بموجبه الخليفة المأمون (١٦٥) الذى كان نتاجا من زواج عربى بفارسية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن جد هذا الوالى أسد بن عبد الله القسرى هو الذى استعمل العنف مع الدعاة العباسيين الفرس من أهل خراسان وأذاقهم سوء العذاب وقطع أعناقهم عندما كان واليا من قبل الأمويين على خراسان (١٦٦) ويبدو أن ترحيلهم إلى عدن فى محاولة نفيهم التى لم تتم زاد من أعدادهم فيها خاصة بعد ازدهارها التجارى، وعلى الرغم من ذلك فإن لهم بقية فى بعض قرى اليمن (١٦٧)، ويلخص الهمدانى علاقتهم بالسلطة فيقول: «كانوا يميلون مع كل سلطان يقدم من العراق عليهم، يزورون الشهادات ويبرون ويرشون المكائد، فإذا انقطع ذلك السلطان ألقوا بأيديهم إلى السلم، ومتوا القديم ونظروا إلى من حولهم نظر المغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوهم بألسنة حداد وقلبوا لهم الأمور» (١٦٨)، وهو قول فيه مبالغة وعصبية مقيتة إلا أنه يعبر عن واقع هذه الفئة التى اعتلت قمة السلطة قبل الإسلام وبعده، ثم هوى بها التدافع والتنازع عليها، فحاولت أن تحافظ على وجودها على الساحة اليمنية باتباع مقولة ميكافيلى الغاية تبرر الوسيلة.

أهل الذمة والدولة

أولا: النصارى

معلوم تركز النصارى فى نجران ولهم فيها تاريخ طويل قبل الإسلام، ومحنتهم مع اليهود مشهورة ذكرت فى القرآن الكريم، وحظوا بعطف الرومان ورعايتهم، إذ أن النظام السياسى الرومانى كان مرتبطا بالكنيسة ويخدم

أهدافها، فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الثانى (٣٣٧-٣٦١م) بعثة مسيحية فى سنة ٣٥٦م برئاسة تيوفيلوس إندوس Theophilus Indus إلى اليمن، أقامت البعثة ثلاث كنائس فى المنطقة، ثم تزايدت أعداد الكنائس مع الزمن خاصة فى المدن الهامة، حيث أشارت الاكتشافات الأثرية الحديثة إلى العثور على مسلة نصبت قرب أكبر فرع من فروع سد مأرب سنة ٥٤٩ م محفور على جهاتها الأربع نقش يبلغ ١٣٦سطراً وضمن ما جاء فيه هو بناء أبرهة لكنيسة فى مأرب (١٦٩)، وبدخول الإسلام كان هناك كنائس أخرى فى ظفار ومأرب وعدن ونجران (١٧٠). وكانت أهم هذه الكنائس جميعا كنيسة القليس فى صنعاء التى بناها أبرهة بمعونة الإمبراطور البيزنطى، حيث أرسل إليه الصناع والفسيفساء والرخام (١٧١). واستهدف أبرهة من بناء الكنيسة تدعيم أركان المسيحية فى اليمن وخلق منافس للكعبة فى مكة التى صارت فى ذلك الوقت مركز الحج والحياة الاقتصادية فى بلاد العرب الشمالية، وأعتقد أبرهة أنه بذلك يستطيع تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء واسترداد الموارد المالية العظيمة التى صارت تتدفق على خزائن مكة (١٧٢)، كما أن جزائر فرسان التى تجاور سواحل اليمن كان بها كنائس خربت، حيث تنصر سكانها قديما وهم قبيلة فرسان من تغلب حيث كانت علاقاتهم التجارية مع الحبشة سببا على ما يبدو فى اعتناقهم النصرانية (١٧٣).

نصب الرومان أنفسهم حماة للدين المسيحى وعليهم يقع عبء نشر الدين وحماية النصارى فى العالم المعروف آنذاك، وبذلك وقع على عاتقهم حماية نصارى اليمن من الاضطهاد اليهودى، فقد افلت أحد النصارى من الأخدود وذهب إلى الإمبراطور البيزنطى جستين (٥١٨-٥٢٥م) يستنصره على ذى نواس فقال له الإمبراطور: « بعدت بلادك عنا ولكن سأكتب إلى النجاشى ملك الحبشة وهو على هذا الدين قريب منكم » (١٧٤) فأرسل النجاشى سنة ٥٢٥ م جيشا على رأسه أرياط وفى جنده أبرهة، ثم نازع الأخير أرياط وقتله، وتولى القيادة واستولى على الجند والبلاد (١٧٥)، وكان من أهم نتائج هذه الحملة الحبشية زيادة أعداد النصارى فى اليمن وفرض الأحباش النصرانية على اليهود(١٧٦).

أصبحت النصرانية هى الدين الرسمى للدولة فى ذلك الوقت. لم توضح المصادر علاقة النصارى بالدولة فى ظل حكم الفرس لليمن الذين نحوهم عن الحكم بالقوة، إلا أن الفرس اعتبروا نصارى اليمن الأحباش حثالة الجنس البشرى (١٧٧)، وعندما ظهر الإسلام صالحوا الرسول صلى الله عليه وسلم على واجبات عليهم وحقوق لهم من الواجبات «حلل الأواقى (الحماية)، فى كل رجب ألف حلة، وفى كل صفر ألف حلة.. وعليهم عارية (إعارة) ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا إذا كان كيد باليمن» أما حقوقهم فهى « جوار الله وذمة محمد

النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم.. لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ ارضهم جيش.. ولهم على ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبى أبدا حتى يأتى أمر الله» (١٧٨).

ظل الأمر على هذا الحال يدفعون الجزية والخراج، وبالطبع سرى الأمر على كل نصارى اليمن، وقد يتساءل المرء لماذا خص الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى نجران بهذا الكتاب دون عامة نصارى اليمن ؟ والجواب يبدو فى سببين الأول : الكثافة العددية لهم فى نجران، إذ يخبرنا البلاذرى(١٧٩) أن عددهم فى نجران بلغ نحو أربعين ألفا، ويبدو أن صاحب الرواية عند البلاذرى كان تقديره بناء على الجزية أو الخراج الذى كان مفروضا عليهم، ولم يضع فى الاعتبار باقى الأفراد المعافين من الضريبة، ومع ذلك فإن هذا الرقم يتناسب مع مدينة ليس لها أي عوامل جذب للنصارى غير قيمتها التاريخية بالنسبة لهم، والدور الذى تلعبه فى التجارة فى شبه الجزيرة. أما السبب الثانى : فهو ثراؤهم حيث امتلكوا الأراضى والعقارات (١٨٠) بجانب عملهم فى التجارة وعلاقتهم المباشرة مع مكة حيث كانت مدينة نجران (عليها المعول فى البيع والشراء) (١٨١). كانت هذه أول علاقة للنصارى بالسلطة فى ظل الإسلام، فقد اعتلوا هرم السلطة فى اليمن قبل الإسلام لمدة قد تزيد عن نصف قرن، ثم أذعنوا لسلطة الفرس لمدة تقل عن نصف قرن بقليل، ويبدو أن ما تمتعوا به من سلطة وسلطان وجبروت فى فترة حكمهم انقلب عليهم فى فترة الحكم الثانية وانزووا فى غياهب النسيان، ولم ينهض بهم إلا ظهور الإسلام.

أجلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نصارى نجران إلى الشام والنجرانية بناحية الكوفة، ويعود ذلك لنقضهم ما صالحهم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بأكلهم الربا، كما أن البلاذرى يضيف سببا آخر بناء على رواية أحد رواته وهو التنافس والتحاسد فيما بينهم، حيث أتوا عمربن الخطاب وقالوا له أجلنا (١٨٢) وأيا ما كان الأمر فى جلائهم نقضهم العهد أو التنافس فإن الأمر لم يتعد غيرهم فى الجلاء وظل باقى نصارى اليمن يزاولون أعمالهم فى حرية كاملة ويدفعون الجزية (١٨٣) وحتى من أجلى من نصارى نجران سرعان ما عاد إليها خاصة بنو الحارث، إذ يبدو أن هناك عصبية لهم فى تلك المنطقة مكنتهم من العودة، حيث امتلكوا الضياع وكونوا ثروات كبيرة من التجارة (١٨٤). شكل النصارى تهديدا للأمن القومى اليمنى خاصة أنهم يعتنقون نفس عقيدة البيزنطيين والأحباش المتربصين بشبه الجزيرة (١٨٥).ويبدو أن قرار الجلاء كان خاصا بنصارى نجران فقط ولم يمتد ليسرى على باقى نصارى اليمن الذين عاشوا فى أمن وحرية ولم ترصد كتب التاريخ أى صدام لهم لا مع

المسلمين ولا مع السلطة، وقد يرجع ذلك لسببين الأول: قلة أعدادهم فى المدن الأخرى مقارنة بإخوانهم فى نجران والسبب الثانى: هو فيما يبدو ضعف قوتهم الاقتصادية فى هذه المدن، وتعزو قلة الإشارات إلى نصارى اليمن خلال العصور الوسطى إلى ضعف انتشار المسيحية بين أهل اليمن خاصة بعد ظهور الدين الجديد، والدليل أن الكتاب المقدس لم يترجم إلى العربية فى عصر ما قبل الإسلام، وترجم إلى لغات البلاد التى انتشرت فيها المسيحية بشكل واسع، وليس ثمة ما ينهض دليلا على أن الكنائس اليمنية استخدمت اللغة العربية، ويغلب على الظن أنها استخدمت السريانية أو العبرية [١٨٦].

وعلى الرغم أن نصارى نجران كانوا أهل عصبية لكنهم لم ينحازوا لعلى أو معاوية والتزموا الحياد فى هذه الفتنة فليس هناك ما يمكن التضحية من أجله، فالنزاع يخص المسلمين بعضهم بعضا يظهر ذلك بوضوح فى مقالة بسر بن أرطأة قائد معاوية لنصارى نجران «والذى لا إله غيره لئن بلغنى عنكم ما أكرهه لأكثرن من قتلاكم» [١٨٧] وهو قول واضح لا لبس فيه من التزام النصارى بالحياد، وهو عمل عاقل أمام فتنة إسلامية داخلية التدخل فيها لصالح أحد الطرفين فيه خسارة وإن كسب من تحالفوا معه، لكن نزاع المصالح الخاصة البعيد عن ما يضر بسلطة الدولة كان حاضرا من خلال نزاعهم مع بطون همدان التى تسكن نجران مما استدعى تدخل الدولة، ويبدو أن كثرة عددهم فى نجران وقوة شوكتهم بانتمائهم إلى بنى الحارث وغناهم جعلهم ندا لسكان نجران المسلمين، حيث قدم الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين أمام الدولة الزيدية من صعدة سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م بعسكر كثيف لإعادة الأمن المفقود إلى المدينة، وأنهى النزاع وصالح الاطراف ورد المظالم وأعاد إلى النصارى ضياعهم التى سلبت منهم، وقرر أن يضع حلا لضريبة الأرض عند أهل الذمة من النصارى واليهود حتى يحقق التوازن بين الشريعة والواقع، ويزيل الحقد الطبقى بين المسلمين وأهل الذمة، فأهل الذمة سارعوا إلى شراء الأراضى الزراعية من المسلمين، وانعدم العشر على هذه الأرض لأنه لا زكاة على ذمى، وبالتالى انقطع مورد مالى كبير كان ينتفع به المحتاجون، فقرر الهادى إلى الحق ضريبة التسع على أراضيهم التى تسقى سيحا أو بماء المطر ونصف التسع على التى تسقى بمشقة، وهو نوع من الاجتهاد الفقهى من جانب الهادى حتى لا يتساووا بالمسلمين الذين يدفعون العشر، كما قرر الجزية التى أقرها عمر بن الخطاب، وكتب عهدا بما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق، واشترط عليهم بأن يعملوا بهذا الصلح حقنا لدمائهم وأشهد على هذا الصلح جمعا من نصارى نجران وجمعا من المسلمين [١٨٨].

يبدو أن أعداد النصارى الذين سكنوا اليمن فى العصور الوسطى بدأ فى التناقص بسبب اعتناق الإسلام أو الهجرة. حيث يقرر ابن المجاور[١٨٩] أن سكان جميع اليمن « حنابلة المذهب.. ومن الأديان اليهود خلاف جميع الملل» وفى مكان آخر يقرر وجود نصارى فى نجران عندما يرصد سكانها حيث يقول (وينقسم أهلها على ثلاث ملل : ثلث يهود وثلث نصارى وثلث مسلمين) [١٩٠]. فمن المعقول أن يهجروا البلاد إلى مناطق أخرى بجوار إخوانهم فى الدين خاصة تلك الجماعات النصرانية التى لا ترتبط بعصبية فى البلاد، لذلك نجد أن تواجدهم فى مدن اليمن الداخلية كان قليلا جدا بالمقارنة مع تواجدهم فى المدن التجارية البحرية والبرية، حيث نجدهم يشاركون فى تجارة عدن التى جذبت الكثير من الأجناس ذوى الملل والأديان المختلفة سعيا وراء التجارة التى ازدهرت فيها منذ أواخرالقرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فقد كان المسلمون مع الفرس والنصارى قبل هذا التاريخ يشاركون بنصيب وافر فى التجارة الخارجية بين عدن والهند ثم لعبوا مع اليهود دورا أكبر فى فترةالازدهار بتشجيع من الحكومة الفاطمية[١٩١]، ويذكر بفصاحة أنه كان فى عدن أسقفا حتى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

وكان فى منطقة صنعاء خمسة أساقفة حتى أواخر الدولة الأيوبية [١٩٢]، وهذا العدد الكبير للأساقفة فى صنعاء يدلل على كثرة النصارى فى العاصمة القديمة، وسعيهم دوما إلى العيش فى المدن الكبرى بالقرب من السلطة، والانخراط فى العمل التجارى، وفى المهن المختلفة بعدما انتهت سطوتهم فى نجران، كما أن وجود أسقف للنصارى فى مدينة زبيد سنة ٦٠٨هـ/١٢١٠م [١٩٣] يؤكد أيضا على ارتياد النصارى للمدن الكبرى فى اليمن بحثا عن فرصة العمل التجارى والحماية من جانب السلطة، ونلخص من ذلك أن التواجد النصرانى ظل له صدى فى اليمن حتى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى على أيام الدولة الرسولية وتركز معظمه فى المدن اليمنية الكبرى، وذلك عكس ما اعتقده بعض الدارسين [١٩٤]، بأنهم اعتنقوا الإسلام تدريجيا ولم يصبح لهم وجود وبالتالى لم تذكرهم المصادر بعد القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى. اتسمت علاقة النصارى بالسلطة بالحذر وابتعدوا عن المشاركة فى التنازع عليها لضعف قوتهم وقلة حيلتهم ورأوا أن عملهم بالتجارة وبالحرف هو طريقهم للعيش داخل المجتمع اليمنى.

ثانيا : اليهود

تهود عرب اليمن زمن اسعد أبو كرب الحميرى الذى حكم فيما بين ٣٨٥-٤٢٠ م تقريبا، فهو (أول من أخذ بدين اليهودية)، وذكر فى سبب تهوده أنه لما غزا المشرق مر بيثرب فملكها، وتهود على يد أحبار بنى قريظة [١٩٥] ويرى أحد

الدارسين (١٩٦) أن اعتناق الملك الحميرى للدين اليهودى لم يكن لمجرد إعجابه بفصاحة وبلاغة الحبرين، خاصة أن العرب هم أهل الفصاحة والطلاقة، بحيث تتضاءل أمامهم فصاحة هؤلاء اليهود، بل أن السبب يكمن فى أن هذين الحبرين قد نجحا فى إقناع الملك بأن اعتناقه اليهودية سيدعم نفوذه السياسى فى بلاده، ويخلص بلاد اليمن من الفوضى والانقسامات الدينية التى كانت تهدد وحدتها، وبالتالى كان التهود من أجل السلطة والحكم، وظلت اليهودية هى الدين الرسمى للدولة اليمنية ما يزيد عن قرن من الزمان ولم يترك اليهود السلطة إلا قسرا عندما غزا الأحباش النصارى اليمن سنة ٥٢٥ م (١٩٧)، وعانوا معاناة الأقلية الدينية وشربوا من نفس الكأس الذى أذاقوه للنصارى، لكن لم تطل المدة عن قرن من الزمان حتى دخل الإسلام اليمن فقنن وضع أهل الذمة فى الأمة الإسلامية.

انحصر سكن اليهود عند ظهور الإسلام فى المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب، وانحصر عملهم فى التجارة والربا وفى الزراعة وفى بعض الصناعات التى تخصصوا بها وهى أمور جعلت لهم نفوذا عند سادات القبائل والأمراء والملوك (١٩٨)، وبالتالى لم يكن خروجهم سهلا من اليمن مثل النصارى الذين خرجوا أيام عمر بن الخطاب، ولم ينقل عن أى من الخلفاء الراشدين أنه أجلى يهودا من اليمن، وإنما أجلى عمر بن الخطاب يهود خيبر إلى تيماء وأريحا من ارض الشام (١٩٩)، وهناك من الأسباب التى تؤيد بقاءهم فى اليمن باعتبارهم جماعات متفرقة مبعثرة داخل البلاد ويعملون فى الأعمال التى يأنف منها العرب ولا غنى عنها للمجتمع، كما أن اليهود لم يكن يمثلون أى تهديد للأمن عكس النصارى الذين كانوا يعتنقون نفس عقيدة البيزنطيين والأحباش المتربصين بشبه الجزيرة (٢٠٠). وظل اليهود فى اليمن يدفعون الجزية لحكام البلاد، وينتحل صالح بن داود الأنسى والأعذار للخلفاء الراشدين ولحكام الشمال اليمنى الزيديين لعدم إجلائهم لليهود من البلاد بانشغالهم بالعديد من المهام التى تعتبر أخطر من هذا العمل(٢٠١).

أتاح النظام القبلى فى اليمن فرصة لليهود فى التمتع بالحماية، حيث عاش اليهود فى جوار وذمة القبائل اليمنية وهذا النظام وفر لهم الحرية فى شراء الأراضى الزراعية وجعلهم أعضاء نشطاء خاصة فى مجتمع نجران (٢٠٢)، حيث كانوا يمثلون ثلث المجتمع فى المدينة خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (٢٠٣)، أما فى مدينة صنعاء عاصمة اليمن القديمة فبلغت نسبتهم فيها سنة ٣٨١هـ/٩٩١م (٢٠٤) أكثر من ٥,٣٪ بقليل من مجموع السكان(٢٠٥)، ويبدو أن قلة عددهم فى صنعاء عنه فى نجران راجع إلى اعتناق الكثير منهم الإسلام على أيدى معاذ بن جبل فى القرن الأول الهجرى (٢٠٦)، كما سكنوا

مدينة صعده فى شمال اليمن ولهم بها معبد تعرض للحرق سنة ٥٤٧هـ/١١٤٢م من جانب الإمام الزيدى أحمد بن سليمان عندما أكثروا الفساد فى مجتمع المدينة [٢٠٧].

ضيقت الدولة فى عهد على بن مهدى على اليهود[٢٠٨] كما ضيقت على غيرهم من أهل البلاد المسلمين[٢٠٩]، ويبدو أن هذا التضييق كان نتيجة روح التسامح والحرية السياسة والاقتصادية والمذهبية التى تمتع بها اليهود فى عصر الصليحيين الشيعة الموالين للفاطميين، خاصة أن موقف الدولة الفاطمية معروف تجاههم، حيث زادات مكاسبهم الاقتصادية، وتقربوا من أصحاب السلطان مما أوغر صدر المتمرد الجديد عليهم، نجا من هذا الموقف يهود عدن الذين يتبعون دولة بنى زريع الشيعة وكذلك يهود الشمال الذين تمتعوا بحماية الزيديين، تبوأ يهود عدن قيادة اليهود فى أنحاء اليمن نتيجة قربهم من اصحاب السلطان، وكذلك سيطرتهم على النواحى التجارية فى المدينة وتغير وضعهم الاجتماعى من ضعفاء يندرجون تحت حماية القبائل اليمنية إلى أقوياء يتمتعون بحماية حكام المدينة، واختلطوا بأهلها[٢١٠]، وتمعتوا بحق المواطنة والمساواة مع أهل المدينة[٢١١]، وبدءوا يخططون للسيطرة على التجارة فى عدن من خلال حماية حكامها لهم حيث أسند سبأ بن أبى السعود (٤٨٩-٥٣٣هـ/١٠٩٥-١١٣٩م) الذى دام حكمه لعدن ما يقرب من ثلاثة وأربعين عاما، عددا من الإصلاحات الاقتصادية كان أهمها هو تنظيم العمل فى الميناء، وعهد بهذه الإصلاحات لرئيس اليهود مضمون بن حسان[٢١٢] الذى كان شريكا لصاحب السلطة الفعلية فى عدن نائب الزريعين بلال بن جرير[٢١٣]، واجتمعت الثروة والسلطة لليهود، وظل ذلك خلال عصر الأيوبيين، حيث ظهرت طبقة جديدة من اليهود فى عدن وهم تجار الكارمية الذين سيطروا على التجارة الهندية وظلت تعمل لمدة ٣٠٠ سنة من سنة ١١٨١ م حتى سنة ١٤٨٤م[٢١٤].

زادت سطوتهم فى ظل الدولة الرسولية حيث كانوا أصحاب السلطة الفعلية فى أهم مرفق من مرافق التجارة الداخلية والخارجية، حيث أسند إلى خلف بن مضمون قيادة فريق عمل لوضع التشريعات وسن القوانين الخاصة بالضرائب والجمارك فى عدن، وظلت هيمنة اليهود على عصب الحياة الاقتصادية فى عدن ومينائها. هذه المكانة التى أحرزوها لدى الحكام، والثروة التى جمعوها جعلتهم يأتون بأفعال من شأنها أن تجلب عليهم غضب العامة من المسلمين وسخطهم، حيث استحدثوا ضرائب على التجار، وشغلوا الناس عن صلاة الجمعة مما دفع أحد الفقهاء إلى قتل اليهودى المسئول عن هذه الأعمال وعرض نفسه للحبس من جانب السلطان[٢١٥]، كما أن منزلة اليهود لدى السلطان جعلتهم يتغاضون عن الالتزامات التى اشترطها الشرع على أهل

الذمة، ففى عهد السلطان الرسولى نور الدين تقابل القاضى الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إسماعيل المازنى ت٦٣٨هـ مع طبيب يهودى يعمل لدى السلطان راكبا بغلة، فألقاه على الأرض وضربه بنعله، فاشتكى اليهودى إلى السلطان فأرسل معه رسول إلى الفقيه وقال لليهودى : تقدم مع الرسول إلى الفقيه ليعرفك ما يجب عليك من الشرع أن تفعله[٢١٦]، ولم ينكر السلطان على الفقيه ما فعله باليهودى لمكانة الفقهاء وخوفا من غضب العامة بحساب التوازنات. هذه الأعمال تنم عن اطمئنان اليهود للسلطة فهم فى بلاط السلطان يمرحون وبه وبحمايته يتفاخرون، وربما اساءوا إلى المسلمين وهم يعلمون أنهم فى مأمن من العقاب.

خالف اليهود الشرع الإسلامى وبنوا معابد جديدة لهم حيث تصدى لهم الفقهاء، ففى دولة بنى رسول ألزم الفقيه شرف الدين إسماعيل بن عبد الله ت٨٣٨هـ/١٤٣٤م اليهود بالزنار وخرب ما أحدثوه من معابد[٢١٧]، وهذه المخالفات على ما يبدو كانت لإحساس اليهود بمساندة السلطة لهم، ووصل الأمر بهم أن تهجموا على الرسول صلى الله عليه وسلم، ففى عدن احتكم المسلمون إلى القاضى جمال الدين بن محمد بن سعيد (ت٧٤٢هـ) الذى تولى قضاء عدن سنة ٧٠٨هـ من قبل الحكام الرسوليين فأمر القاضى بحبس اليهودى الذى تهجم على الرسول الكريم[٢١٨] إلا أن الجمع الغفير لم يسمع حكم القاضى لكثرة الهرج والمرج بل توهم الأكثرية منهم أنه قال لهم اقتلوه فرماه مصرى يقيم فى عدن بحجر فى رأسه أرداه قتيلا[٢١٩].

علاقة اليهود بالدولة في اليمن كغيرها من علاقات اليهود بالسلطة فى كل مكان فهى علاقة مصلحة وأينما حل السلطان حلوا معه، ففى البداية كانت حمايتهم من جانب القبائل التى مثلت الحكومة المركزية فى اليمن فمنهم من رأى أن مصلحته فى عدم مفارقة هذه البطون باقية فى اليمن أم خرجت لتشترك فى الفتوحات الإسلامية، فمن الناحيتين كسب لليهود، وكان لهم شأن فى البلاد المفتوحة، وفى اليمن كان الفراغ السكانى سببا فى زيادة امتلاكهم الأرض واستقرارهم لكن الاستقرار فى ظل هذا البحر المتلاطم من العصبيات والنزعات المذهبية يتطلب قدرة ومهارة على المواءمة بين مصالحهم، ورضاء السلطة أيا كانت للقبيلة أو للدولة، ويبدو أن الحفاظ على علاقات قوية مع القبيلة كان أهم من علاقة الدولة خاصة فى الفترة الأولى من دخول الإسلام حتى دولة الصليحيين وأل زريع، عندما توحدت اليمن تحت زعامة على بن محمد الصليحى وأمسك بتلابيب السلطة، حيث وصلت العلاقة فيها بين اليهود والدولة إلى أعلى منحى لها فى اليمن، صاحب ذلك تدنى مستوى العلاقة مع القبيلة خاصة فى المدن التى انعدمت فيها العصبية، وفترات التوتر مع

الدولة فى اليمن كانت قليلة وقصيرة سرعان ما تعود مرة أخرى للانتعاش، لذلك استمر الوجود اليهودى فى اليمن حتى ثورة ١٩٦٢ وهذا دليل على العلاقة الوطيدة بين اليهود والسلطة حيث لم يفرقهم عنها إلا الدعوة العنصرية الصهيونية بإقامة وطن قومي لهم فى فلسطين بيد أن القليل منهم فضل عدم ترك اليمن ومازالوا هناك حتى الآن.

الدولة والمرأة

منذ القدم والمرأة فى اليمن لها علاقة بالسلطة داخل الأسرة وفى القبيلة وفى المعبد، ثم فى الدولة، حيث ساد فى عصر ما قبل الميلاد ما يسمى بالنظام الأموى - بمعنى سيادة الأم فى الأسرة - داخل بعض القبائل اليمنية خاصة التى تضرب فى البادية وهو عكس النظام الأبوى المعروف، ويبدو أن هذا النظام ظل متبعا مع بعض التغيرات التى تلاءم كل منطقة طبقته(٢٢٠)، وهذا النظام يضع المرأة أمام مسئولياتها، ومن بقايا هذا النظام فى اليمن ما هو موجود فى منطقة ظفار على سبيل المثال، حيث لا يباح للمرأة حلب الماشية كما لا يباح لها أن تطهو الطعام، فهذه الأعمال تعتبر من الأعمال المخصصة للرجال، ويقتصر عملها على الرعى ورعاية الماشية وجمع الحطب وجلب الماء وهى وظائف خارجية أما الوظيفة الأساسية لديها هى الإنجاب(٢٢١)، كما تقلدت منصب الكاهن لمعبد الإله (عم) فى دولة قتبان(٢٢٢) وامتد هذا النظام ليشمل القبيلة حيث ينسب الكثير من القبائل العربية اليمنية إلى امرأة، فقبيلة تجيب تنسب إلى تجيب امرأة شأرس بن السكون بن أشرس بن كنده، وكذلك قبيلة عاملة تنسب هى الأخرى إلى امرأة من قضاعة وولدت للحارث بن عدى بن مرة بن أدد الكهلانى، فنسب إليها ولدها(٢٢٣) وكما أن هناك بطن من خولان يدعى بنى فطيمة(٢٢٤)، ومعلوم طبيعة اليمن من حيث المناخ والجغرافيا التى تؤثر فى حياة الفرد حيث تصبح القوة العضلية أهم شروط الحياة فى هذه المنطقة لكن يبدو أن المرأة تغلبت على ذلك باستعمال عقلها وذكاءها، وتبدو الصورة أوضح من خلال استمرار هذا الوضع حتى فى ظل الإسلام، ففى أيام بنى رسول تقلدت امرأة زعامة قبيلة المعازبة، وكانت تدعى بنت عاطف(٢٢٥).

تتضح علاقة المرأة أكثر بالسلطة فى اليمن فى تقلدها قمة الهرم السياسى فى الدولة فبعد أن كان لها دورها القيادى فى الأسرة ثم فى القبيلة جاء دورها لتولى سلطة الدولة، حيث اعتلت بلقيس عرش مملكة سبأ، وكان لها مع النبى سليمان علاقات وبعض المصادر تؤكد على زواجه منها(٢٢٦) وتحدد مدينة بعلبك بالشام مهرا لها(٢٢٧) لكن الذى يهمنا هنا هو قدرة المرأة على تصريف الامور فى الدولة، وامتثال الذكور فى هذا المجتمع الذكورى لقراراتها، ويبدو أنها أظهرت من الحكمة ما جعلها تتمكن من أعناق الرجال،

حيث ينسب إليها بناء سد مأرب بعد سنوات اقتتال بين القبائل على الماء(٢٢٨)، ويبدو أنها أصبحت بعد ذلك قدوة ومثالا لنساء اليمن فى ظل الإسلام الذى جاء ليأطر الأدوار الاجتماعية، ويضع الأمور فى نصابها فيما يتعلق بدور المرأة والرجل.

والصورة الأبرز لنساء يمنيات اثروا فى الحياة اليمنية وكانوا اصحاب سلطة تبدأ مع الدولة الصليحية بحسن تصرف السيدة أسماء زوجة على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة ووالدة المكرم الذى خلف والده، حيث أسرها بنى نجاح بعد قتل زوجها، فألهبت مشاعر ولدها ومشاعر قبيلتها والقبائل المتحالفة معها بخطاب فيه من الجرأة أكثر من الخدعة التى أرسلته بها، فقد أرسلت إلى ولدها المكرم رسالة تحريض على فك أسرها ادعت فيها أنها حملت من العبد الأحول (سعيد الأحول) زعيم النجاحيين، وأرسلت رسالتها فى رغيف خبز عن طريق سائل ضعيف(٢٢٩) وإرسال الرسالة فى داخل رغيف الخبز ينم عن ذكاء فطرى لدى السيدة أسماء وتقابلنا هذه الحيلة فى تاريخ فتح بلاد المغرب مع حسان بن النعمان والكاهنة عندما أرسل خالد بن يزيد الأسير لدى الكاهنة رسالة إلى قائده حسان فى رغيف خبز يدله فيها على عورات جيش الكاهنة(٢٣٠)، وظلت السيدة أسماء تمارس الحكم بتفويض من ولدها حتى وفاتها(٢٣١).

السيدة الثانية والأكثر شهرة فى تاريخ اليمن الوسيط كانت أروى زوجة المكرم وهى التى تربت وتأدبت على أيدى السيدة أسماء أم المكرم السابقة الذكر فى بيت الصليحى(٢٣٢) ففاقت التلميذة معلمتها. تزوجت أروى من المكرم سنة ٤٥٨هـ/١٠٤٥م فى حياة ابيه على بن محمد الصليحى ودفع الأخير خراج مدينة عدن مهرا لها(٢٣٣)، واختيار عدن له دلالة تقدير من الصليحى لهذه المرأة، إذ أن خراج عدن فى ذلك الوقت يعد أعظم خراج فى الدولة من حيث امتلاكها ناصية تجارة الترانزيت بين الشرق والغرب(٢٣٤) ويبدو أن على بن محمد الصليحى أراد أن يكون مهر الحرة أروى مثل مهر بلقيس مما جعل المؤرخين يلقبونها ببلقيس الصغرى(٢٣٥) والسيدة الحرة الملكة. بعد وفاة السيدة أسماء أم زوجها المكرم وحاضنتها ومعلمتها فوض المكرم الأمر إليها بسبب مرضه بالفالج(٢٣٦)، وهذا التفويض جعل منها سيدة دولة من الطراز الأول، فالبعد الاستراتيجى بنقلها عاصمة الدولة من صنعاء المتطرفة فى الشمال، والتى كانت مطمعا لكل القبائل إلى ذى جبلة تلك المدينة التى تقع على سفح جبل ما بين نهريين جاريين صيفا وشتاء يطل عليها من هذا الجبل حصن التعكر(٢٣٧) يجعلها فى حماية طبيعة كما أن صنعاء ارتبط اسمها باسم الخلافة العباسية وتريد أروى أن تخلد ذكر دولتها بعاصمة مستقلة، وقدرتها على الإقناع جعلت زوجها المكرم يوافق على الانتقال معها إلى ذى جبلة بعد أن

عرضت له مزايا العاصمة الجديدة وعيوب صنعاء[٢٣٨]، حيث صدق حدسها عندما خرجت صنعاء من الحظيرة الصليحية لصالح السلاطين الهمدانيين بعد موت القائد سبأ بن أحمد الصليحي[٢٣٩].

اهتمت الملكة أروى بالزراعة وبتربيةالحيوانات لتوفير الدعم المادي لحكمها، حيث أوقفت نواحي ذي جبلة وبعض الحقول تصرف غلاتها في شراء الفحول من البقر، كما أوقفت أراضي ثمينة خصبة لرعي المواشي[٢٤٠]، وبعد أن استقر بها الحال في ذي جبلة قررت أن تأخذ ثأر الصليحيين من سعيد الأحول النجاحي الذي قتل مؤسس دولتهم علي بن محمد الصليحي، ووضعت خطة للإيقاع به وتم لها ذلك[٢٤١]، وخلع الخليفة الفاطمي المستنصر عليها الألقاب فلقبها «بالحرة الملكة، السيدة الرضية الزكية وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام ذخيرة الدين. عصمة المسترشدين، كهف المستجيبين، وكافلة أوليائه الميامين»[٢٤٢] ولية أمير المؤمنين، واعتبر الخليفة المستنصر السيدة أروى مثالا أعلى للمرأة،لتقلدها قلائد التقوى ولكفاءتها في إدارة شئون البلاد، وليقظتها في أمور الدعوى الفاطمية، ولذلك لا يعدها من ضمن أرباب الحجاب[٢٤٣] استعانت الملكة أروى بمستشارين من مصر[٢٤٤]، ومن الطبيعي بل ومن المنطقي أن تستعين الحرة ببني جنسها بجانب الرجال تستأنس برأيهن وتبتغي منهن المشورة،ويبدو أنهن كانوا على شاكلتها من رجاحة العقل وسمو الفكر فالبعض منهن نسخ العديد من المخطوطات والكتب بتشجيع من الملكة أروى التي استهواها حب المطالعة والمعرفة فكانت «تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ» ومما يدلل على ذلك تلك التعليقات والتحليلات التي كانت تدونها على ما تقرأه من كتب[٢٤٥]، ومن أنشطتها أيضا إنشاء مدرسة لتدريس الصحيحين بذي جبلة وكذلك بناء المساجد وتوسيع مسجد صنعاء [٢٤٦]، فقادت الدولة أكثر من نصف قرن في حياة زوجها مفوضة منه وبعد وفاته كملكة شرعية للبلاد وشاخت الدولة مع شيخوختها وانتهت بموتها سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م عن عمر يناهز اثنين وتسعين سنة.

عاصرت الملكة أروى سيدة أخرى، وهي جارية حبشية تسمى علم، يبدو أنها كانت تحاكي السيدة اروى في أعمالها فقد وصلت إلى عرش الدولة النجاحية سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م بعد مقتل سيدها الوزير أنيس الفاتكي على يد منصور بن فاتك بن جياش حيث اصطفاها منصور لنفسه، فولدت له فاتك بن منصور الذي تولى الأمر بعد أبيه. فوض منصور بن فاتك الأمر إليها، حيث كان لا يقطع أمرا دونها يصفها يحيى بن الحسين بقوله: «كانت عاقلة لبيبة كاملة أديبة.. أحسنت إلى فقهاء وقتها وأرباب العلم والعبادة.. وكانت تحج بالناس برا وبحرا»[٢٤٧] وأطلق عليها نفس لقب أروى فتسمت بالحرة الملكة[٢٤٨] سمعت عن ورع وتقوى علي بن مهدي في بداية ظهوره، فأسقطت عنه وعن أقاربه ومن

يلوذ بهم خراج أراضيهم[٢٤٩]، ويبدو أن مجلسها يشابه مجلس الملكة أروى من حيث حضور النساء العالمات اللائى يتصفن بالعلم ويمشين فى الخير وتستأنس برأيهن فى إدارة شئون الدولة، ويأتى إليها قائدها سرور الفاتكى يراجع معها أمور الدولة «يفضى إليها بما حسن عنده أن يفعله من التدبير فى تلك السنة من ولاية وعزل وإنعام وقتل، ثم لا يزال جالسا بين يديها.. حتى يقوم إلى صلاة الظهر»[٢٥٠].

ومن نساء العصر الأيوبى والتى شاركن فى حكم البلاد أيضا هى الخاتون أم الناصر بن طغتكين التى تحملت عبء حكم اليمن بعد اغتيال ولدها الناصر سنة ٦١١هـ، حيث سمه وزيره غازى بن جبريل وباشرت شئون الحكم لمدة ستة شهور بسبب عدم وجود أمير من البيت الأيوبى يتولى حكم البلاد[٢٥١]. هؤلاء النساء اللائى شاركن فى العمل السياسى داخل بلاد اليمن هن نساء صنعتهن الظروف والمواقف فأظهرن حنكة فى إدارة الدولة، وهذا أمر غير مألوف فى مجتمع إسلامى تقليدى ويعلل أحد الباحثين ذلك بأمرين الأول : الدور التى كانت تلعبه المرأة الريفية فى السفوح الغربية من اليمن، إذ أنها باشرت نشاطها بكثير من الحرية التى فقدتها المرأة فى المناطق المنعزلة، والثانى : تسامح الدولة الفاطمية مع نساء الصليحيين أعطى مثالا وقدوة لباقى النساء اللاتى تولين السلطة فى اليمن بعد ذلك[٢٥٢].

خلاصة القول أن الحرية السياسية للقبائل اليمنية افرزت الصراع على السلطة بين بطونها، وظهرت لعبة التحالفات بشكل جلى فى سبيل ذلك مما أفضى إلى عدم الاستقرار السياسى فى البلاد، فتاريخ اليمن السياسى يمتلئ بالكثير من الأحداث التى تجسد الفوضى السياسية، وانقلاب القبائل وانحيازها يحدد شكل السلطة فى ظل بلاد ذات جغرافية خاصة تمثل الجبال فيها حصون وحواجز ساعدت على المناورات العسكرية، كما أن هذه الخاصية كانت سببا فى تزامن كيانات سياسية يمنية تصارعت من أجل السلطة ولم تخضع القبائل إلا لسلطان القوة. أما علاقة العبيد بالسلطة فهى علاقة تمكين وانتقال سلمى للسلطة من سلطة قبلية متهالكة إلى عبيد تملكوا وتمكنوا بفعل الزمن، وانشغال أسيادهم بهموم أخرى غير السياسة، فتضلعوا فيها ووجدوا من عصبيتهم من يناصرهم. أما الأبناء فهم من كانوا على قمة السلطة يوم ظهر الإسلام فأسلموا، وظلوا ولاة للرسول صلى الله عليه وسلم، وكلما تنحوا عن السلطة بفعل فاعل عادوا إليها، لكن ضعفهم وقلتهم أخرجتهم من سباق الصراع على السلطة، كما أن علاقة أهل الذمة بالسلطة كانت علاقة خفية من خلال تسللهم إلى أصحاب السلطان والعمل فى خدمتهم واكتساب ثقتهم مما يحصنهم ضد غدر الرعية، أما المرأة فغالبا ما لعبت الصدفة فى اعتلائها هرم السلطة فى اليمن لكنهن أظهرن حنكة سياسية فى إدارة الدولة وفى الصراع السياسى.

الهوامش:

١- ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت ١٩٨٤م ، ص ١٢٨.

٢- سورة النمل، الآية ٤٤

٣- ابن المجاور، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض والحجاز المسماة تاريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحه وضبطه أوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٥١م، ص ٢١٠.

٤- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٩٣م، ٤، ص ٤٠٨.

٥- الزمخشري، محمود بن عمر، الفائق في غريب الحديث، تحقيق محمد البجاوي، محمد أبوالفضل إبراهيم، ط ٢ دار المعرفة لبنان، ٣ ص ١٠٨، وأمراس جمع مرس بكسر الراء، وهو الشديد الذي مارس الأمور وجربها، ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٠ ص ٤٨٨، ويستشهد ابن منظور بنفس الحديث للتعريف بكلمة أمراس، وأحماس مفردها الحمس من الحماسة والمنع والمحاربة، ابن منظور، نفسه، ٦ ص ٥٧، الأنبوب ما بين العقدتين في القصب والقناة، وأنبوب القصبة والرمح كعبهما، ابن منظور نفسه، ١ ص ٧٤٧.

٦- المقدمة، ص ٤٠٤.

٧- راجع جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٩٣م، ١ ص ٢٨٨، ٤ ص ٢٨٣.

٨- قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ، دار المعارف، ط ٢ ١٩٨٥م، ص ٦٥.

٩- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤، ص ٣٤٣.

١٠- ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت ١٩٨٤م، ص ٢٩٠.

١١- المقدمة، ص ١٦٦.

١٢- فضل علي أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ١٤٥.

١٣- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢، ص ٧٣، ١٢٩، ١٧١، ٢٥٨.

١٤- محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٦٩.

١٥- وهب بن منبه، التيجان في ملوك حمير، ص ٣١٧.

١٦- محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٨٩.

١٧- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ، ٢، ص ٢٤٧. ومخاليف مفردها مخلاف وهو الكورة أو الإقليم أو البلد.

والمخاليف لأهل اليمن كالأجناد لأهل الشام والكور لأهل العراق، والرساتيق لأهل الجبال «ابن منظور، لسان العرب، ٩ ص ٨٤»، ويعدد اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤هـ عدد المخاليف في اليمن أربعة وثمانون مخلافا «تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١، ص ٢٠١».

١٨- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢، ص ١٢٢؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ، ٢ ص ٦٧٤.

١٩- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص٢، ص٣٠٠.

٢٠- الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، الفصول الخمسة الأولى من الباب الرابع من كتاب الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الإسلام، تحقيق راضي دغفوس، الكراسات التونسية الجزء ٢٧ رقم ١٠٧- ١٠٨ لسنة ١٩٧٩م، ص ٣٧.

٢١- الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ٥٢، هناك تضارب في الروايات حول عدد عمال الرسول صلى الله عليه وسلم على اليمن حال وفاته، حيث ينقل الخزرجي عن الأفضل الرسولي صاحب كتاب نزهة الأبصار أن ولاة اليمن عندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم هم الطاهر بن أبي هالة على بلاد عك من تهامة، وعمرو بن حزم الأنصاري وأبوسفيان بن الحارث على نجران، وخالد ابن سعيد

بن العاص على ما بين زبيد ونجران، وفيروز الديلمي على صنعاء، ويعلى بن أمية على الجند، وعلى مأرب أبوموسى الأشعري، ويبدو أن معظم المؤرخين نقلوا عن الطبري إذ إن كل الروايات شبه متطابقة مع روايته، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٢٩٣. انظر، اليمن في عهد الولاة، ص ٥٤، ويبدو لأن المناطق الثلاث هي أهم مناطق اليمن فهي المراكز القيادية وتشرف على باقي المناطق، ومن هذه المراكز يتنقل الصحابة بين أعمالها مثلما فعل معاذ بن جبل الذي كان ينتقل بين الأعمال ليعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، راجع الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٢٩٣؛ الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ٤٥- ٥٥.

٢٢- الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ٢٧.

٢٣- ابن منظور، لسان العرب، ١، ص ٦٠٧.

٢٤- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٢٥١.

٢٥- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٣٠٠.

٢٦- زهير هواري، السلطة والمعارضة في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٣م، ص ١٢٠- ١٢١؛ فاطمة علوي الصافي، المرويات اليمنية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الثقافة، الشارقة ٢٠٠٢م، ص ٣٩٩.

٢٧- زهير هواري، السلطة والمعارضة في الإسلام، ص ١٢١.

٢٨- راجع الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٥١.

٢٩- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢، ص ٢٠٠.

٣٠- اليمن في عهد الولاة، ص ٦٣.

٣١- الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ٦٣.

٣٢- زهير هواري، السلطة والمعارضة في الإسلام، ص ٣٧٩.

٣٣- يحيى بن الحسين، أنباء الزمن في أخبار اليمن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون، ص ٤١.

٣٤- Smith, G.. Rex, The political history of the Islamic Yemen down to the first Turkish invasion, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, 1p 129.

٣٥- الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ٧٠.

٣٦- Smith, The political history of the Islamic Yemen.p 129.

٣٧- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ ص ٣٧٢.

٣٨- جبال العضد من أعمال شبام أقيان، راجع، الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة ١٩٧٧م، ص ١٢٣.

٣٩- الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ٩١ - ٩٢.

٤٠- الرازي، أحمد بن عبدالله الصنعاني، تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبدالله العمري، عبدالجبار زكار، صنعاء ١٩٧٤م، ص ١٠٨.

٤١- زهير هواري، السلطة والمعارضة في الإسلام، ص ٥٣٣.

٤٢- عمارة اليمني، نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي اليمني «ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م»، تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، القاهرة، ص ٣٨.

٤٣- عمارة، تاريخ اليمن، ص ٤٥؛ ابن المجاور، المستبصر ص ٦٧؛ أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ليدن ١٩٣٦م، ١ ص ٩؛ الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ١٠٠، ويرى عبدالرحمن الشجاع أن هناك خطأ في تاريخ بداية الدولة إذ يرى أن التاريخ الحقيقي للدولة هو «٢٧٩ - ٤١٢ هـ/ ٨٩٢ - ١٠٢٢م»، بناء على اختبار النصوص انظر، تاريخ اليمن في الإسلام، دار الفكر المعاصر صنعاء ١٩٩٧م، ص ١٧٨- ١٨٦. فقد أورد ابن المجاور أن «دولة بني زياد في اليمن «دامت» مائتين وثلاث سنين لأنهم

اختطوا مدينة زبيد سنة أربع ومائتين وزالت عنهم سنة سبع وأربعمائة». انظر المستبصر، ص ٧١.

٤٤- من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ معين لقيام هذه الدولة فى ظل ضبابية المعلومات، ولكنا أخذنا برأى Smith باعتبار أن انتصار يعفر بن عبدالرحمن الحوالى على قوات العباسيين ودخوله صنعاء كان هو البداية الحقيقية، وهذا خلاف ما أخذت به فضيلة الشامى إذ حددت التواريخ الآتية لبداية ونهاية الدولة «الدولة اليعفرية بصنعاء والجند، ونشاطها السياسى والعسكرى ٢٢٥هـ/ ٣٩٣م، المؤرخ العربى ١١، ١٩٧٤، ص ٣٣٤». أما عبدالرحمن شجاع «تاريخ اليمن فى الإسلام، ص ١٧٢، ١٧٨»، فلم يعين تاريخا محددا لبداية الدولة.

٤٥- ملك ابن زياد إقليم الجبال والتهائم وحضرموت وديار كنده والشحر ومرباط وأبين ولحج وعدن والتهائم إلى حلى. وملك من الجبال الجند وأعمالها ومخلاف المعافر ومخلاف جعفر وصنعاء وصعدة ونجران وبيجان، «انظر عمارة، تاريخ اليمن، ص ٣٧- ٣٨؛ ابن المجاور، المستبصر، ص ٦٧». وبسط يعفر بن عبدالرحمن الحوالى سيطرة بنى يعفر على مناطق واسعة من اليمن من صعدة فى الشمال إلى الجند فى الجنوب، وفى سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م تنازل يعفر عن السلطة لولده محمد بن يعفر بعد أن طعن فى السن، وحصل محمد على تقليد من الموفق طلحة شقيق الخليفة المعتمد العباسى - صاحب الأمر والنهى فى الدولة العباسية - فى نفس العام بولاية اليمن فغلب على صنعاء والجند وحضرموت، وكان مع ذلك يوالى ابن زياد صاحب زبيد ويحمل إليه الخراج، راجع، الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ١١١.

٤٦- المقدمة، ص ١٦١.

٤٧- حكم بنو معن فى تلك المناطق باعتبارهم نوابا عن دولة بنى زياد ثم استقلوا عنهم بعد موت الحسن بن سلامة وظلوا كذلك لمدة ربع قرن إلى أن استولى على بن محمد الصليحى على عدن وما حولها عام ٤٥٥ هـ فدخلوا فى دولته وتحت طاعته فأبقاهم نوابا له فى حكم تلك المناطق، وهذا مما يفسر تمرد القبائل عندما تضعف سلطة الدولة ثم خضوعها لها فى حالة قوتها، راجع، ابن المجاور، المستبصر، ص ١٢١؛ محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع فى عدن، مجلة المؤرخ العربى اتحاد المؤرخين العرب، بغداد العدد ١٥ لسنة ١٩٨٠م، ص ٣٢١

٤٨- نعمان محمود جبران، روضة سحيم حمد آل ثانى، تاريخ الجزيرة العربية فى العصور الإسلامية الوسطى، الأردن ١٩٩٩م، ص ٤٦، ١٠٨ هامش ٨٤.

٤٩- عن نسب همدان راجع الهمدانى، لسان اليمن أبى محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب، الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تحقيق، محمد بن على بن الحسين الأكوع، مكتبة الجيل الجديد صنعاء، ١٩٩٠م، ١٠: ص ٣٥.

٥٠- تسكن بطون كثيرة من همدان فى المنطقة الممتدة من شمال صنعاء إلى جنوب صعدة، عن سكن بطون همدان، راجع إيمان أحمد شمسان، اليمن فى العصر العباسى الأول، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة، جامعة عدن ٢٠٠١م، ص ٥٤.

٥١- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣٩.

٥٢- راجع، يحيى بن الحسين، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨ م ص ٢٩٧، ظل الحكم فى أسرة بنى حاتم هذه حتى سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦م عندما تدخلت القبائل الهمدانية ونقلت السلطة من السلطان معن آخر سلطان ضعيف من بنى حاتم إلى حماس وأخيه هشام بن القبيب من بنى القبيب وهى الأسرة الثانية والتى كان أقوى حكامها هو السلطان حاتم بن حماس القبيب وبعد وفاته سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ ضعفت الأسرة نتيجة الصراع على السلطة بين أولاده مما اضطر القبائل الهمدانية التدخل للمرة الثانية ونقلت السلطة إلى السلطان حاتم بن أحمد بن عمران بن مفضل اليامى لتتولى أسرة ثالثة الحكم حتى دخول الأيوبيين إلى اليمن.

راجع، يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣١٤؛

smith, The political history of the Islamic Yemen, p 134.

٥٣- يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٣١٤،
smith, The political history of the Islamic Yemen, p 134.

٥٤- في شهر رمضان مات السلطان حاتم بن أحمد الهمداني في درب صنعاء، وقام بعده ولده علي بن حاتم، فبايعه أهل همدان، ثم خرج إلى حصنه في ظهر، فأقام فيه أياما، فخالف عليه أهل همدان، ومالوا إلى رجل من آل القبيب، وهو محمد ابن حماس، راجع، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٣١٤.

٥٥- يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٣٢٣، وعن دخول الأيوبيين إلى اليمن، انظر بعده.

٥٦- Smith, The political history of the Islamic Yemen, p 134.

٥٧- محمد بن عسيري، اليمن في ظل الأيوبيين، رسالة ماجستير كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن مسعود ١٣٩٩ هـ، ص ٢٩.

٥٨- R.B. Serjeant and Ronald, Sana an Arabian Islamic City, world of Islam festival trust, 1983, p 50

٥٩- حيث النص، أمر عماله أن يقتضوا من الرعية الخمس مجردا عن غيره من سائر المطالب، على طريقة العبديين، راجع يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٣١٥.

٦٠- يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٣٠٨.

٦١- المقدمة، ص ١٥٨.

٦٢- فضل علي أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة في اليمن، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٣١، تشبه حيثيات قيام الدولة اليزيدية في اليمن وعلاقة القبائل بها دولة الأدارسة في المغرب الأقصى التي قامت في سنة ١٧٢هـ عندما فروا من بطش الدولة العباسية في المشرق، حيث ارتضت القبائل البربرية المتصارعة حكم الأدارسة أصحاب المذهب الزيدي عبدالرحمن بشير، المعتزلة في المغرب الأوسط عصر الدول المستقلة، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى، تحرير حاتم الطحاوي، دار عين للدراسات والبحوث ٢٠٠١م، ص ٤٠.

٦٣- راجع، يحيى بن الحسين، أنباء الزمن في أخبار اليمن، ص ٧ - ٥٣؛ الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ١١٨؛ Smith, the Political History of the Islamic Yemen, p 130.

٦٤- محمد عبدالله ماضي، دولة اليمن الزيدية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول ١٩٥٠م، ص ٢٣.

٦٥- محمد عبدالله ماضي، دولة اليمن الزيدية، ص ٣١.

٦٦- ترى الزيدية جواز وجود إمامين في وقت واحد طالما توافرت فيه شروطهم، انظر ابن المجاور، المستبصر، ص ٢٠٦.

٦٧- راجع على سبيل المثال سيرة الإمام يحيى من لحظة دخوله بلاد اليمن وحتى وفاته، حيث حفلت بالعديد من هذه الأساليب، يحيى بن الحسين، أنباء الزمن في أخبار اليمن، ص ١٠ - ٥٣.

٦٨- عبدالله علي عبدالله الغسيل، دور التقاليد العرفية في نشأة القانون اليمني وتطوره، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٧م، ص ١٣٢.

٦٩- فضل علي أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ١٣٨، ١٤٠.

٧٠- الخزرجي، اليمن في عهد الولاة، ص ١١٨؛ smith, The Political History of the Islamic Yemen, p 130.

٧١- يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٢٢٧- ٢٢٨.

٧٢- فضل علي أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ١٣١، ١٣٢.

٧٣- دخلت دعوة الشيعة إلى اليمن بعد سنة ٢٦٨ هـ/ ٨٨١م على أيدي اثنين من دعاتها هم ابن حوشب الكوفي، وعلي بن الفضل اليماني في عدن لاعة، انظر عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص ٣٩.

٧٤- أحمد حسين شرف، اليمن عبر التاريخ، ١٩٨٠م، ص ١٩٥، عن نسب حاشد الهمدانية انظر الهمداني، الإكليل، ١٠ ص ٤٧.

٧٥- عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص٥١؛ أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص١٦١؛ يحي بن الحسين، غاية الأماني، ص٢٤٧.

٧٦- عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص٥١؛ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢ ١٩٥٧، ص٧٢-٧٤.

٧٧- يحي بن الحسين، غاية الأماني، ص٢٣٤.

٧٨-يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص٢٤٠.

٧٩- نفسه ص٢٤٥-٢٤٦.

٨٠-نفسه ص٢٤٠.

٨١- كانت السلطة في بلاد اليمن موزعة كالآتي: الحواليون ملوكا لشبام وكوكبان، وبنو الضحاك ملوك حاشد، وبنو الكرندي سلاطين المعافر، والمناخيون أصحاب المذيخرة، والشهابيون حكاما لصنعاء «راجع عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص ٤٩؛ نعمان محمود جبران، روضة سحيم حمد آل ثاني، تاريخ الجزيرة العربية في العصور الوسطى، ص ٨٤». أما اليمن الأعلى فانقسم بين آل الضحاك وبني أبي الفتوح أولاد الإمام الداعي يوسف بن يحيي وأولاد الإمام القسم بن على العياني «يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٢٤٢».

٨٢- ترصد المصادر موت مؤسس الدولة الصليحية سنة ٤٥٨ أو ٤٥٩ هـ إلا أن أحد الدارسين حقق تاريخ وفاته وقرر أن الصحيح هو سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨١م انظر أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات الشرقية، القاهرة ١٩٧٤ م، ص ٣٨٥.

٨٣- حيث النص «ومن سنة خمس وخمسين استقر الصليحي بصنعاء، فأخذ معه ملوك اليمن، التي أزال ملكها، فأسكنهم معه، وولى في الحصون غيرهم» عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص ٥١، ٥٢، وفي رحلته للحج التي قتل أثناءها»، ولى أعمال الحصون والجبال لقوم يثق بهم، وأخذ الملوك الأكابر في صحبته، راجع، نفسه، ص ٥٥.

٨٤- عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص ٥٢.

٨٥- محمد حسين فرح، اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص ٥٧٤.

٨٦-كان هناك سجال بين الحرة وخولان، فقد استقلوا بحصن النعكر ثم استعادته «ولم تزل هذه حالة خولان مع الحرة» انظر، عمارة، تاريخ اليمن، ص ٨٧- ٧٦؛ نعمان محمود جبران، روضة سحيم حمد آل ثاني، تاريخ الجزيرة العربية في العصور الوسطى، ص ٩٧.

٨٧- أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص ٣٨٧.

٨٨- عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص ١٢٠.

٨٩- كتب الدكتور محمد أمين صالح مقالا بعنوان دولة الخوارج في اليمن، بنو مهدي في زبيد في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية م ٢٥ لسنة ١٩٧٨م، لكنه لم يقدم النصوص التي تبرهن على اعتناق بنو مهدي لمذهب الخوارج واكتفى بقوله «إن ابن مهدي أقام حكمه على أساس ديني، فهو من أهل السنة على المذهب الحنفي تضلع في معارف علماء العراق ثم اتخذ مسحة من مبادئ الخوارج» ص ١٣٢، وحتى مؤرخ الدولتين في تاريخه لفتح اليمن على يد توران شاه أخو صلاح الدين يقول: «قبض على الخارجي» ويقصد به على بن مهدي، راجع أبوشامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧م، ٢ ص ٢٧١، ٢٧٢.

٩٠- Smith, The political history of the Islamic Yemen.p 135

٩١- تاريخ اليمن، ص ١٢٩.

٩٢- عن علم النجاحية، انظر بعده

٩٣- ابن المجاور، المستبصر، ص ٨٨.

٩٤- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ١٢١، ١٢٢.
٩٥- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ١٢٧.
٩٦- لمزيد من التفاصيل عن قيام دولة بنى زريع فى عدن راجع، محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع فى عدن، ص ٣٢١- ٣٢٤.
٩٧- محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع فى عدن، ص ٣٢٧؛ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص ٩١- ٩٣.
٩٨- من الألقاب التي أطلقت عليه: الداعي الأوحد المظفر، مجد الملك، شرف الخلافة، عضد الدولة وسيف الإمام، تاج العرب، ومقدمها داعي أمير المؤمنين، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٨٣.
٩٩- الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٧٢؛ محمد أحمد محمد، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية، دار الثقافة العربية، الشارقة ٢٠٠١م، ص ١١١.
١٠٠- محمد أبن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٠م، ١، ص ١٠٧.
١٠١- ابن المجاور، المستبصر، ص ١٣٤.
١٠٢- الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٧٠.
١٠٣- عن صراع السلطة بين الإخوة وأبناء العم فى دولة بنى زريع راجع، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٨٣؛ ابن أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ٢ ص ٨٩، محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع فى عدن، ص ٣٢٨.
١٠٤- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ١٢٤.
١٠٥- شهارة من معاقل اليمن المشهورة وهى من أحد جبال هنوم بلاد همدان، راجع، الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٦.
١٠٦- يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٣١٦؛ احتل الأشراف الحسنيون منطقة شمال تهامة وأقاموا الدولة السليمانية، واتخذوا من مدينة حرض عاصمة لهم، لكن متى خرجوا من مكة ومتى وصلوا إلى حرض؟ قد تعدو الإجابة مجرد افتراض تقريبي من أحد الباحثين وهو سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م، انظر Smith, The Political History of the Islamic Yemen, p 132.
وبحلول سنة ٥٦٠هـ /١١٦٤م سار عبدالنبي بن علي مهدي شمالا الى حرض وهزم جيش السليمانيين بقيادة وهاس بن غانم واستولى على أموالهم وسبى نساءهم، (يحى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٣١٦) وقتل وهاس في المعركة، وخلفه أخاه قاسم بن غانم الذي طلب مساعدة من الأيوبيين في مصر، وعندما وصلوا بقيادة توران شاه سنة ٥٦٩هـ /١١٧٣م نشأ تحلف بينهما، واستطاع قاسم هزيمة المهديين، واستمرت الأسرة السليمانية في اليمن وإن كانوا نادرا ما يشاركون بصورة واضحة في شئون البلاد، ويمكن القول أن ظهور الأيوبيين فى اليمن وضع حدا لمشاركتهم الفعلية فى شئون البلاد، Smith, The Political History , p 132.
١٠٧- انظر، محمد حسين فرح، اليمن فى تاريخ ابن خلدون، ص ٦٠٣- ٦٠٤.
١٠٨- المقدمة ص ١٥١.
١٠٩- جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤ ص ٣٤٦، ٣٤٧.
١١٠- الأصابح هم ولد أصبح بن عمرو بن الحارث ذي أصبح بن مالك وينسبون إلى حمير الأصغر ومساكنهم لحج، راجع الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٧١.
١١١- جاد طه، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن، دار الفكر العربي، ص ٧.
١١٢- جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ١، ص ٢٦٤.
١١٣- انتقل الحكم من الأيوبيين إلى خلفائهم الرسوليين، الذين انتقلت إليهم السلطة سلميا فى الفترة ٦٢٦- ٦٢٨ هـ/ ١٢٢٩- ١٢٣١م، حيث اعتمدوا على الأساس المتين الذى أرساه الأيوبيون مما

مكنهم من تأسيس حكم وإدارة ليس لها نظير فى اليمن
(G.R. Smith, The Ayyubids and Rasulids The Transfer of power in 7th/ 13 th centuryYemen, Islamic culture, vol. XL.III. no. 2 1969, p 175
وكان اليمن مقسما فى بداية عهدهم إلى قسمين، الأول: صنعاء وما يواليها أو ما يسمى باليمن الأعلى تحت سيادة الزيديين، والقسم الثانى: ويشمل باقى البلاد تحت سيطرة الرسوليين «الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، مقدمة المحقق، ص ٩».

١١٤- طبق الأيوبيون نظام الإقطاع فى اليمن، وأصبحت أراضى اليمن إقطاعا خاصا لهم يهبونه لمن شاءوا من الأمراء والقواد «أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ٢ ص ٣٨؛ محمد بن على عسيرى، اليمن فى ظل الأيوبيين، ص ١٩٦- ٢٠٥»، وقد أرغم طغتكين ملاك الأرض الزراعية فى الهضبة الوسطى على بيعها له وتحويلهم إلى أجراء لدى الدولة مما أفقدهم روح المحافظة على النظام القبلى «محمد أنعم غالب، اليمن، دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٦٦ م ص ٣٤»، واستمر الوضع كذلك فى عصر الرسوليين الذى شهد نشاطا ملحوظا من جانب الحكام بالنشاط الزراعى، فقد ألف الملك الأشرف عمر بن يوسف الرسولى تقويما زراعيا بعنوان: «التبصرة فى علم النجوم، وألف الملك الأفضل العباس بن على كتاب: «سلوة المهموم فى علم النجوم» راجع
Daniel Martin Varisco, Al - tawqi, at fi taqwim al - zira a al- majhul min asr muluk Bani Rasul, in Medieval Folk Astronomy and Agriculture in Arabia and the Yemen, Varioum, 1997, n. xvl, pp, 192- 222.

١١٥- محمد متولى، محمود أبوالعلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، الأنجلو المصرية، ١٩٨٨م، ص ٣٥.
١١٦- فضل على أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ٦٢.
Smith, The Political History of the Islamic Yemen down to the first Turkish invasion, p 137.
١١٨- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣٠.
١١٩- قائد الشرجى، القرية والدولة فى المجتمع اليمنى، دار التضامن، بيروت ١٩٩٠م، ص ٢٠٩ - ٢١٠.
١٢٠-برترام توماس، البلاد السعيدة، ترجمة محمد عبدالله، وزارة التراث القومى والثقافة، عمان ١٩٨١م، ص ١٣٧.
١٢١- Smith, The Political History of the Islamic Yemen,p 137.
١٢٢- اتخذ الملك عامر بن عبدالوهاب بن طاهر مدينة المقرانة عاصمة له راجع، الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص ١٤١ الهامش.
١٢٣- Smith, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Sutdies in the Medieval History of the Yemen and south Arabia, Variorum, 1997,p 141.
١٢٤- أحد العصور الجيولوجية
١٢٥- عثر على حجر صوان فى منطقة حضرموت تشبه كثيرا تلك التى عثر عليها الباحثون فى شرقى أفريقية، محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريةم، ص ١٩٦.
١٢٦- أضيق جزء فيما بين اليمن والشاطئ الأفريقى فى العصر الحديث يتمثل فى المنطقة التى تقع عند باب المندب وفيها جزيرة بريم كما يسميها المؤرخون الغربيون وميون كما يسميها المؤرخون العرب، تبعد هذه الجزيرة عن عدن بنحو ٩٦ ميلا، وتبعد نحو ميل ونصف الميل عن الساحل اليمنى وأحد عشر ميلا عن الساحل الأفريقى، راجع جاد طه، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن، دار الفكر العربى، ص ١٧.
١٢٧- العرصة هى كل موضع واسع لا بناء فيه، انظر، ابن منظور، لسان العرب، ٧ ص ٥٣.
١٢٨- ابن المجاور، المستبصر، ص ٥١.
١٢٩- عزالدين باش شاويش، اليمن السعيد أناشيد المياه أناشيد الحجر، ترجمة خالد النجار www. nizwa. com/ volume 32/ p 12_ 24 html- 435 k على الرغم من أن هذه الأساطير قد تجافى كثيرا من الحقيقة لكنها تدلل على العلاقة الوثيقة بين الحبشة واليمن منذ القدم.

١٣٠- محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٦٩.
١٣١- ابن المجاور، المستبصر، ص ١٠٦.
١٣٢- الهمدانى، الإكليل، تحقيق نبيه أمين فارس، برنستن ١٩٤٠ م ج ٨ ص ٢٢٦.
١٣٣- محمد أحمد محمد، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية، ص ١١٠.
١٣٤- محمد متولى، محمود أبوالعلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، الأنجلو المصرية ١٩٨٨م، ص ١١٨.
١٣٥- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٤٤؛ ابن المجاور، المستبصر، ص ٧١.
١٣٦- كان أميرا كبيرا أسود نوبيا وكان مولى لرشيد بن زياد، وكان يدعى باسم أمه سلامة وبها كان يعرف، ولما مات سيده رشيد وزر لإسحق بن إبراهيم، ثم تولى أمر البلاد بعد إسحق حيث لم يبق من بنى زياد من يصلح لذلك غير طفل صغير اسمه أبوالجيش وهو ابن سيده إسحق، وبعد موته سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م اضطرب ملك بنى زياد وانقرضوا، حيث تولى أمر الدولة طفل من آل زياد اسمه عبدالله وكفلته عمته وعبده أستاذ الدار واسمه مرجان وهو من عبيد الحسين بن سلامة، وذلك ما جعل ابن المجاور يقول أن الدولة انتقلت إلى عبيد عبيدهم، انظر عمارة اليمنى، تاريخ اليمنى، ص ٤٠؛ ابن المجاور، المستبصر، ص ٧١؛ ابن أبى مخرمة تاريخ ثغر عدن، ٦١.
١٣٧- الهمدانى، الإكليل، ج ٨ ص ٢٢٦.
١٣٨- عن قيام الدولة الغزنوية راجع عصام الدين عبدالرءوف، الدول الإسلامية المستقلة فى المشرق، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٧م، ٦٧- ١٤٥.
١٣٩- راجع حسن محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، ط ٥، ص ٥٧٥.
١٤٠- عصام الدين عبدالرءوف، الدول الإسلامية المستقلة، ص ٣٥٢.
١٤١- الخزرجى، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، ١، ص ٣٢- ٤١.
١٤٢- المستبصر، ص ٧١.
١٤٣- الخزرجى، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، ١، ص ٤٠ - ٤١، ينتقد أحد الدارسين هذه الرواية ويرى أنها تفوح منها رائحة المبالغة، راجع محمد بن على عسيرى، اليمن فى ظل الأيوبيين، ص ١٥٩.
١٤٤- كورة من نواحى زبيد، بينهما مسيرة يوم، راجع ياقوت، أبوعبدالله الحموى، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ٢ ص ٣٣٢.
١٤٥- ابن المجاور، المستبصر، ص ٢٣٥.
١٤٦- إذا كان هناك من الأحباش من باع نفسه للصليحى فإن هناك منهم من اعتنق عبدالله شقيق على الصليحى وسقط به على الأرض، ونادى: اقتلونى أنا والرجل فإن عز قومى رخيص بقتلى، وفى المقابل كان بعض العرب لا تصبر على حر الطعان، بمعنى أن الحروب وما فيها من دماء وإزهاق للأرواح تظهر معدن الإنسان عربيا كان أم حبشيا، راجع عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٩٤.
١٤٧- عمارة اليمنى ، تاريخ اليمن، ص ٩٣، ٩٤.
١٤٨- اللغة الحبشية من اللغات السامية مثلها مثل اللغة العربية وتنطق الظاء عندهم صاد وليست زين «عبدالفتاح البركاوى، مدخل إلى علم اللغة الحديثة، القاهرة ١٩٨٤، ص ٨٥»، ولكن يبدو أن العامة ينطقونها زين.
١٤٩- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٥٩ المولدون من الجوار السود يتربون تربية عربية وبالتالى عربيتهم سليمة.
١٥٠- دهلك اسم أعجمى معرف وهى جزيرة فى بحر اليمن، ياقوت، معجم البلدان، ٢ ص ٤٩٢.
١٥١- صفة جزيرة العرب، ص ٦٨.
١٥٢- عن قتل على بن محمد الصليحى والتاريخ العسكرى والسياسى لخلفاء راجع، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٩٢- ١٠٢.

١٥٣- ابن المجاور، المستبصر، ١٠٧.

١٥٤- Yosef Tobi, The Jews of Yemen, p 34.

١٥٥- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ١ ص ٤٤٥؛ على حسنى الخربوطلى، العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩م. ص ٥٢.

١٥٦- محمد أحمد محمد، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية، ص ١١٤.

١٥٧- وهب بن منبه، التيجان فى ملوك حمير. رواية أبى محمد عبدالملك بن هشام، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء ١٩٦٨م، ص ٣١٧؛ جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦م، ص ١٧٧.

١٥٨- محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٨٩.

١٥٩- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٤٧.

١٦٠- انظر قبله

١٦١- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٥١.

١٦٢- Serjeant, Sana,p 53

١٦٣- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٩٦.

١٦٤- لمزيد من التفاصيل عن ولاة اليمن راجع قائمة الولاة Serjeant, Sana,p 53

١٦٥- الخزرجى، اليمن فى عصر الولاة، ص ٩٤.

١٦٦- راجع السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسى الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٥م، ص ٢٣، ٢٤.

١٦٧- الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص ٧٩.

١٦٨- نقلا عن إيمان أحمد شمسان، اليمن فى العصر العباسى الأول، ص ٨١.

١٦٩-عز الدين باش شاويس، اليمن السعيد.

١٧٠- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٦١٩؛ عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٨٦.

١٧١- الطبرى، تاريخ والملوك، ١ص٤٤٠.

١٧٢- أحمد فخرى، اليمن، ماضيها وحاضرها، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٧، ص ٥٦.

١٧٣- الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص٧٢-٧٣.

١٧٤- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ١ص٤٣٩؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، تحقيق أبى الفداء عبد إله، دارالكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥، ١ص٣٣٤.

١٧٥- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ١ص ٣٣٥.

١٧٦- Yosef Tobi,The Jews of Yemen ,Leiden,1999,p34.

١٧٧- أحمد فضل بن على محسن العبدلى، هدية الزمن فى ملوك لحج وعدن، القاهرة١٥٣١هـ، ص٥٠.

١٧٨- للاطلاع على كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نجران، انظر، البلارى، أحمد بن يحى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت١٤٠٣هـ، ص٧٦.

١٧٩-فتوح البلدان، ص٧٧.

١٨٠- نفسه، ٧٨.

١٨١- ابن المجاور، المستبصر، ص٢٠٩.

١٨٢- البلاذى. فتوح البلدان، ٧٧, ٨٧, ١٦٠.

١٨٣- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٦٢٠.

١٨٤- هم بنى الحارث بن كعب بن علة بن جلد بن مالك وهو من مذحج ضربوا فى نجران. أسلمت

كثير من بطونهم على أيدى خالد بن الوليد سنة ١٦هـ/ وفد زعمائهم وأعيانهم على الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبة خالد بن الوليد فقال من هؤلاء الذين كأنهم من رجال الهند، الخزرجي، اليمن فى عهد الولاة، ص٤٥؛ عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٨٢ص٢٨٩.

١٨٥- Yosef Tobi, The Jews of Yemen p.37.

١٨٦- عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٨٦.

١٨٧- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ٢ص١٩٩.

١٨٨- يحيى بن الحسين، أنباء الزمن فى أخبار اليمن، ص١١؛ عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٩٠-٢٩١.

١٨٩- المستبصر، ٢٨٠.

١٩٠- المستبصر، ص٢٠٩.

١٩١- Werner Daum,From Aden to India and Cairo,: Jewish World trade in years of art and civilization the 11the and 12the centuries,in Yemen 3000 in Arabia Felix,ed.Werner Daum, Frankfurt,1987,p169.

١٩٢- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٦١٩.

١٩٣-جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ ص٦١٩.

١٩٤-إيمان أحمد شمسان، اليمن فى العصر العباسى الأول، ص٨٤.

١٩٥- عن أصل اليهودية فى اليمن راجع وهب بن منبه، كتاب التيجان فى ملوك حمير، رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء ١٩٧٩م، ص٣٠٦و٣٠٧؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٢ص٦١؛ عبد الرحمن بشير، عدن واليهود، وقائع تاريخية، مركز الدراسات التاريخية، جامعة القاهرة العدد الأول ٢٠٠٤م.

١٩٦- على حسنى الخربوطلى، العلاقات السياسية بين العرب واليهود فى العصور القديمة والإسلامية، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩م، ص٤٦.

١٩٧- الهمدانى، الأكليل، ٨ص٢٢٦.

١٩٨- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٥٤٩.

١٩٩- صالح بن داود الأنسى، فتح الملك المعبود فى ذكر إجلاء اليهود، تحقيق محمد عيسى الحريرى، ندوة التاريخ الإسلامى، المجلد الخامس (١٩٨٥م)ص٢٢٠.

٢٠٠- Yosef Tobi, The Jews of Yemaen, P37

٢٠١-الملك المعبود، ص ٢٢٠-٢٢٣

٢٠٢- يحيى بن الحسين، أنباء الزمن فى أخبار اليمن، ص١١.

٢٠٣- ابن المجاور، المستبصر، ص٢٠٩.

٢٠٤-الرازى، تاريخ مدينة صنعاء، ص١١٤؛الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص٣١.

٢٠٥- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص٣١.

٢٠٦- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص٤٤.

٢٠٧- يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

٢٠٨- Joseph Tobi,The Jews of Yemen,p41.

٢٠٩- راجع، عمارة اليمنى؛ تاريخ اليمن، أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ٢ص١٢٨.

٢١٠- Goitein, Jews and Arabs,: Their Contacts Through the Ages,NewYork,1974,p74.

٢١١- Eliyahu Ashtor,The Jews and Mediterranean Economy 10the-15the centuries,London 1983,p165.

٢١٢- المستبصر، ص١٤٠؛ جوايتاين، خطابات ووثائق عن تجارة الهند فى العصور الوسطى، ص٤٧٢، وعن أسرة زعيم اليهود مضمون بن حسان وعلاقاتهم التجارية فى عدن ومع السلطة فى

عدن، راجع، عبد الرحمن بشير، عدن واليهود، مجلة وقائع تاريخية، مركز الدراسات التاريخية جامعة القاهرة، العدد الأول، ٢٠٠٤م.

Goitein,From Aden to India, Journal of the Economic and Social History of Orient,vol.xx111,pats1 and2,1980,p54'

Werner Daum,From Aden to India and Cairo Jewish World trade in the11the and 12the centuries,p169.

٢١٥- عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهي السكسكي اليمني، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبد الله محمد موسى، مكتبة الرشاد، صنعاء ١٩٩٤م، ص١٧٨.

٢١٦- الخزرجي، على بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح، محمد بسيوني عسل، القاهرة ١٩١٤م، ١٦٦-١٦٧.

٢١٧- السكسكي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢١٩.

٢١٨- استعان به أحد المقعدين المسلمين فقال له اليهودي (اترك محمد ينفعك ويقيمك) راجع، السكسكي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٢٣.

٢١٩- السكسكي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٢٣.

٢٢٠- المتعارف عليه فى الإسلام هو إرجاع النسب إلى الأب أما الانتساب إلى الأم فإنه قليل الوقوع، راجع جواد على المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١١٩٩٣ص٥٢٧.

٢٢١- برترام توماس، بلاد اليمن السعيد، ص١٣٧.

٢٢٢- محمد بيمى مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص٢٥٦.

٢٢٣- المقرى، أحمد بن محمد المقرى التلمساني، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨م، ١ص٧٨، ٢٩٦؛ مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية فى الأندلس، الدار البيضاء، ص٤٦١.

٢٢٤- يحى بن الحسين، غاية الأماني فى أخبار القطر اليماني، ص١٦٧.

٢٢٥- أسامة أحمد حماد، مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن فى العصر الإسلامي، عصر بنى أيوب وبنى رسول، مركز الإسكندرية للكتاب ٢٠٠٤م، ص٤٧٧.

٢٢٦- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ١ص٢٩٢، ويروى ابن الأثير أن النبى سليمان أحبها حبا شديدا فبعد زواجه منها ردها إلى ملكها باليمن وكان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام، الكامل، ١ص١٨١.

٢٢٧- ياقوت، معجم البلدان، ١ص٤٥٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٦.

٢٢٨- ابن الجوزي، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م، ٢ص١٦١.

٢٢٩- عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص٥٦.

٢٣٠- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ٤ص١٣٦.

٢٣١- عمار اليمني، تاريخ اليمن، ص٦٢.

٢٣٢- كان على بن محمد الصليحى يخص أروى فى صغرها بالعطف والكرم، وكان يقول لأسماء: «أكرميها فهي والله كافلة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر (الحكم) على من بقى منا انظر، عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص٦٢.

٢٣٣- عمارة اليمني، تاريخ اليمن، ص٦١.

٢٣٤- راجع عبد الرحمن بشير، عدن واليهود.

٢٣٥- يبدو أن شخصية بلقيس استهوت الحرة وأرادت أن تحاكيها، فبعد موت زوجها المكرم أراد القائد سبأ بن أحمد الزواج منها فرفضت فأرسل للمستنصر الفاطمى طالبا منه أن يأمرها بذلك فهو صاحب الشرعية والزعيم الروحي لشيعة اليمن فكتب المستنصر رسالة من ثلاثة سطور يأمرها فيها

بنكاح سبأ فردت على رسول المستنصر«أما كتاب مولانا فأقول فيه: أنى ألقى إلى كتاب كريم أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، ولا أقول فى أمر مولانا : يا أيها الملأ افتونى فى أمرى، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون» انظر، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٨.

٢٣٦- يروى عمارة وينقل عنه من جاء بعده أن سبب تفويض الأمر للحرة تفرغ المكرم للهو والسماع والشراب وعكوفه على الملذات ثم يعود ويقول أنه أصابه الفالج وعكف على الملذات فهل يتسق مرضه بالفالج مع معاقرة الخمر والاستمتاع بما لذ وطاب انظر، تاريخ اليمن، ص٦٢-٦٣.

٢٣٧- ياقوت، معجم البلدان، ٢ص١٠٦.

٢٣٨- راجع عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٢؛ يحى بن الحسين، غاية الأمانى، ص٢٦١؛ أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى، ص٣٧٨.

٢٣٩- انظر قبله

٢٤٠- حسن سليمان محمود، الملكة أروى سيدة ملوك اليمن، مكتبة مصر، القاهرة، ص٢٩.

٢٤١- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٦٣-٦٤.

٢٤٢- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٨.

٢٤٣- عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربى، القاهرة،ص ٢٩.

٢٤٤- حسن سليمان محمود، الملكة أروى، ص٩٢.

٢٤٥- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦١.

٢٤٦- حسن سليمان محمود، الملكة أروى، ص٩٣.

٢٤٧- غاية الأمانى، ص٢٨٩-٢٩٠.

٢٤٨- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص,١٠٣.

٢٤٩- يحيى بن الحسين، غاية الامانى، ص ٢٩٩.

٢٥٠- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص١١٨.

٢٥١- عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام،ص٣٠١؛ أسامة أحمد حماد، مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن، ص٤٧٧.

٢٥٢- على محمد زيد، تيارات معتزلة اليمن فى القرن السادس الهجرى، صنعاء ط ١٩٩٧م، ص٣١.

قائمة المصادر والمراجع

– ابن الأثير، «محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيبانى ت٦٣٠هـ»، الكامل فى التاريخ، تحقيق أبى الفداء عبد إله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥.

– البكرى، «أبو عبيد البكرى الأندلسى ت٥٨٧»، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق : مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت ١٤٠٣هـ

– البلاذرى «أحمد بن يحى بن جابر ت٢٧٩هـ»، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ.

– ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م

الخزرجى«أبو الحسن الخزرجى ت٨١٢/١٤١٠م»، – اليمن فى عهد الولاة، الفصول الخمسة الأولى من الباب الرابع من كتاب الكفاية والإعلام فيمن ولى اليمن وسكنها من ملوك الإسلام، تحقيق راضى دغفوس، الكراسات التونسية الجزء ٢٧ رقم ١٠٧–١٠٨ لسنة ١٩٧٩م.

– العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح محمد بسيونى عسل، القاهرة ١٩١٤م.

– الرازى، «أحمد بن عبد إله الصنعانى ت٤٦٠/١٠٦٨» م، تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبد الله العمرى، عبد الجبار زكار، صنعاء ١٩٧٤م.

– الزمخشرى، «محمود بن عمر ت٥٣٨» هـ، الفائق فى غريب الحديث، تحقيق محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ دار المعرفة لبنان .

– السكسكى، «عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهى السكسكى اليمنى»، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبد الله محمد موسى، مكتبة الرشاد، صنعاء ١٩٩٤م

– أبو شامة، «شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى ت٦٦٥هـ»، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧م.

– صالح بن داود الأنسى، فتح الملك المعبود فى ذكر إجلاء اليهود، تحقيق محمد عيسى الحريرى، ندوة التاريخ الإسلامى، المجلد الخامس (١٩٨٥م)

– الطبرى، «محمد بن جرير الطبرى أبو جعفر ت٣١٠هـ»، تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ.

– العبدلى، «أحمد فضل بن على محسن»، هدية الزمن فى ملوك لحج وعدن، القاهرة ١٣٥١هـ

عمارة اليمنى، نجم الدين عمارة بن ابى الحسن على الحكمى اليمنى ت٥٦٩ هـ»، تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، القاهرة.

– ابن المجاور، «جمال الدين أبى الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيبانى الدمشقى ت٦٩٠هـ/١٢٩١م»، صفة بلاد اليمن ومكة

وبعض والحجاز المسماه تأريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحه وضبطه أوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٥١م

– أبى مخرمة، «أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله ت٩٤٧ هـ»، تاريخ ثغر عدن، ليدن ١٩٣٦م.

– المقدسى، «محمد بن أحمد ت٣٩٠هـ»، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق غازى طليمات وزارةالثقافة والإرشاد القومى، دمشق ١٩٨٠م.

– المقرى، «أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ت١٠٤١هـ/١٦٣١م»، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨ م.

– ابن منظور، «محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى ت٧١١هـ»، لسان العرب، دار صادر بيروت.

الهمدانى، «لسان اليمن أبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت٣٦٠هـ»الأكليل من أخبار اليمن وانساب حمير، الجزء العاشر، تحقيق، محمد بن على بن الحسين الأكوع، مكتبة الجيل الجديد صنعاء ١٩٩٠ م، والجزء الثامن، تحقيق نبيه أمين فارس، برنستن ١٩٤٠م.

صفة جزيرةالعرب، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار اليمامة ١٩٧٧ م.

– اليعقوبى، «أحمد بن أبى يعقوب ت٢٨٤ هـ»، تاريخ اليعقوبى، دار صادر بيروت

– وهب بن منبه ت١١٤ هـ، كتاب التيجان فى ملوك حمير، رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء ١٩٧٩.

– ياقوت «أبو عبد الله الحموى ت٦٢٦ هـ»، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت

– يحيى بن الحسين (١١٠٠هـ/١٦٨٩م)، أنباء الزمن فى أخبار اليمن من سنة ٢٨٠-٣٢٢هـ مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ.

– غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م.

ب-المراجع

–أحمد حسين شرف، اليمن عبر التاريخ ١٩٨٠م.

–أحمد فخرى، اليمن، ماضيها وحاضرها، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٧م.

–أسامة أحمد حماد، مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن فى العصر الإسلامى، عصر بنى أيوب وبنى رسول، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م.

–السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسى الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٥م.

–إيمان أحمد شمسان، اليمن فى العصر العباسى الأول، دار الثقافة العربية

للنشر، الشارقة، جامعة عدن ٢٠٠١م

- أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات الشرقية القاهرة ١٩٧٤م.
- برترام توماس، البلاد السعيدة، ترجمة محمد عبد الله، وزارة التراث القومى والثقافة. عمان ١٩٨١م.
- جاد طه، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن، دار الفكر العربى، القاهرة
- جواد على، مفصل تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٩٣م
- جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦م
- حسن محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، القاهرة.
- زهير هوارى، السلطة والمعارضة فى الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٣م.

عبد الرحمن بشير، المعتزلة فى المغرب الأوسط عصر الدول المستقلة ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، تحرير حاتم الطحاوى، دار عين للدراسات والبحوث ٢٠٠١م.

- عبد الفتاح البركاوى، مدخل إلى علم اللغة الحديث، القاهرة ١٩٨٤.
- عبد الله على عبد الله الغسيل، دور التقاليد العرفية فى نشأة القانون اليمنى وتطوره، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٧م.
- عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربى، القاهرة.
- عز الدين باش شاويش، اليمن السعيد أناشيد المياه أناشيد الحجر، ترجمة خالد النجار.
- عصام الدين عبد الرءوف، الدول الإسلاميةالمستقلة فى المشرق، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٧م .

اليمن فى ظل الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٨٢م .

- فاطمة علوى الصافى، المرويات اليمنية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى، دار الثقافة، الشارقة ٢٠٠٢م.
- على حسنى الخربوطلى، العلاقات السياسية بين العرب واليهود فى العصور القديمة والإسلامية، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩م.
- فضل على أحمد أبو غانم، القبيلة والدولة فى اليمن، دار المنار، القاهرة ١٩٩٠م.

فضيلة الشامى، الدولة اليعفرية بصنعاء والجند، ونشاطها السياسى والعسكرى ٢٢٥هـ/٣٩٣م، المؤرخ العربى ١١, ١٩٧٤م

- قائد الشرجى، القرية والدولة فى المجتمع اليمنى، دار التضامن، بيروت ١٩٩٠م .
- قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م.

– محمد أحمد محمد ، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية ، دار الثقافة العربية ، الشارقة ٢٠٠١م .
– محمد أمين صالح ، بنو معن ثم آل زريع فى عدن ، مجلة المؤرخ العربى اتحاد المؤرخين العرب ، بغداد العدد ١٥ لسنة , ١٩٨٠.
– دولة الخوارج فى اليمن ، بنو مهدى فى زبيدً ، بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية م ٢٥ لسنة ١٩٧٨م.
– محمد أنعم غالب ، اليمن ، دار الكاتب العربى ، بيروت ١٩٦٦.م.
– محمد بيومى مهران ، تاريخ العرب القديم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٨م .
– محمد جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، دار الفكر العربى ، القاهرة ط٢ ١٩٥٧م.
– محمد عبد الله ماضي ، دولة اليمن الزيدية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، ١٩٥٠م.
– محمد بن على عسيرى ، اليمن فى ظل الأيوبيين ، رسالة ماجستير كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود ١٣٩٩هـ.
– محمد متولى ، محمود أبو العلا ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٨م.
– نعمان محمود جبران ، روضة سحيم حمد آل ثانى ، تاريخ الجزيرة العربية فى العصور الإسلامية الوسطى ، الأردن ١٩٩٩م .
– مصطفى أبو ضيف ، القبائل العربية فى الأندلس ، الدار البيضاء .

المراجع الأجنبية

-Daniel Martin Varisco, Al-tawqi, at fi taqwim al-zira'a al-majhul min asr muluk Bani Rasul, in Medieval Folk Astronomy and Agriculture in Arabia and the Yemen, Variorum 1997 , 1983 .
- Eliyahu Ashor, The Jews and Mediterranean Economy 10th cen turise, London 1983.
- Goitein, From Aden to India, Journal of the Economic and Social History of Orient, Vol.xx, Parts 1 and 2, 1980.
- Jews and Arabs,: Their Contacts through the Ages, New York, 1974.
- Serjeant and Ronald Sana an Arabian Islamic City, World of Islam festival trust.
- Smith, G. Rex The Ayyubids and Rasulids- The Transfer of Power in 7th/ 13th century Yemen, Islamic culture, Vol.XLIII, no. 2, 1969 The Political History of the Islamic Yemen Down to the first Turkish invasion, in Studies in the Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum,1997.
- The Tahird Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum 1997.
- Werner Daum, From Aden to India and Cairo,: Jewish World Trade in the 11 Felix,ed Werner Daum, Frankfurt, 1987.
- Yosef Tobi, The Jews of Yemen, Leiden, 1999.

د. آمنة بنت حسين جلال (*)

دور مكة المكرمة والمدينة المنورة في الثقافة الإسلامية

عصر الوليد بن عبدالملك ٨٦- ٩٦هـ

مقدمة :

بلغ نفوذُ المسلمين السياسي وازدهارهم الحضاري شأواً كبيراً في عصر الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م . فكان عصره تتويجاً لما بلغه المسلمون في هذين المجالين في العصر الأموي.

فقد اتسعتْ الدولة الإسلامية في عصر بني أمية بالتوسع في الفتوحات الإسلامية ، مما أدى إلى دخولِ أعدادٍ كبيرةٍ من العجمِ في الإسلام، وبذلك انتشرتْ العلومُ الشرعيةُ بين أهلِ البلادِ المفتوحة.

وكانتْ مكةُ المكرمةِ والمدينةِ المنورةِ أولَ من حملَ مشعلَ تلك العلوم، ونالتْ العلومُ الشرعيةُ أو النقليةُ اهتمام الخلفاء لارتباطها بالإسلام خاصةً أنها مستمدة من الدين ومنقولةٌ عنه .

فالإسلام يحثُ على العلمِ والحض على طلبه. وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكرُ القراءة والكتابة والقلم والصحف والسجل، وفضلُ العلم وأهله وطلابه ومن ذلك قولهُ تعالى: «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[١] فهي دعوةٌ صريحةٌ إلى العلمِ والترغيبِ فيه لقوله عز وجل: « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »[٢].

ويحثُ الإسلامُ على المعرفة والتدبر وإعمال الفكر لقوله تعالى: «الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »[٣] وقال تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»[٤].

(*) أستاذ مساعد - قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة أم القرى - مكة المكرمة

فالإسلامُ يخاطبُ العقلَ، ويحثُ على التفكير ، ويعلي مكانة العلماء في قوله تعالى: « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ[٥] .

كما أن الله يزن يومَ القيامةِ مداد العلماء بدماء الشهداء، كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن منزلة العلماء تلي منزلة الأنبياء لقوله: « العلماء ورثة الأنبياء »[٦].

كما حث الرسولُ صلى الله عليه وسلم على تعلم القراءةِ والكتابةِ ، خاصةً عندما فرض على كل أسير من أسرى بدرٍ لا يملك مالاً ويجيدُ القراءة والكتابة أن يعلمَ عشرةً من أبناءِ المسلمين[٧].

كما حث الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه على تعلم اللغات المختلفة فنصح زيد بن ثابت[٨] أن يتعلم لغة اليهود العبرية قراءةً وكتابة لأنه كان لا يأمن جانبهم، كما أنه كان يكتب للرسول صلى الله عليه وسلم الرسائل إلى سائرِ الملوك والأمراء[٩] .

كما حث على تعليم المرأة حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : « طلبُ العلم فريضة على كل مسلمٍ ومسلمة »[١٠] .

وقد أثمرت توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم ثمرةً طيبة، فتعلم كثيرٌ من الصحابة رضوان الله عليهم القراءة والكتابة ، وكان لبعضهم ملكاتٌ علمية بارزة[١١]. ولذلك من الطبيعي أن يشهد المسجد النبوي حركةً علمية أخذتْ في النمو والازدهار تدريجيا[١٢]، خاصةً أن العامل الديني سيطرَ على الحركة العلمية خلال الفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى نهاية العهد الأموي، فهذا أمر طبيعي، فإن علماء هذه الحقبة إما من الصحابة أو من التابعين، وكان أقصى إهتمامهم العمل على نشرِ الإسلامِ وتعاليمه[١٣].

وقد اضطلع علماء الحجاز بدور الريادة في الحياة العلمية، فقد أخذوا علمهم عن معلم البشرية خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم واستمر هذا الدور في عصر الخلفاء الراشدين، ثم في عصر الدولة الأموية، حيث اهتم خلفاء بني أمية بتدوين العلوم الإسلامية، خاصة الحديث الشريف منذ سنوات حكمهم الأولى، فقد حرص مروان بن الحكم[١٤] أثناء ولايته على المدينة المنورة في خلافة معاوية بن أبي سفيان[١٥] على تدوين العلم خشية الضياع، فأراد أن يحفظ معارف كبار الصحابة، فاستقدم زيد بن ثابت الأنصاري وطرح عليه عدداً من الأسئلة بينما كان الكُتاب الجالسون يدونون الإجابات، فلما لحظ ذلك زيدٌ خرج وقال: «يا مروان عذراً إنما أقولُ برأيي»[١٦].

- وإذا كان هذا شأن خلفاء بني أمية جملة فإن عصر الوليد بن عبد الملك[١٧] شهد نهضة علمية كبرى، وكان الحرمان الشريفان منارة لنشر العلوم الدينية.

ونتناول في البحث: العلوم الشرعية بمجالاتها الأربعة، وهي: علم القراءة، وعلم التفسير، وعلم الحديث وعلم الفقه، كما نتناول: مظاهر النشاط العلمي، التي تمثلت في: حلقات العلم في الحرمين الشريفين، ومجالس العلماء، ودور الكتاتيب والمؤدبين، وطرق التعليم ومناهجه، والرحلات العلمية.

الاستقرار السياسي فى الحجاز بعد القضاء على حركة ابن الزبير فى عهد الدولة الأموية:

كان قرار الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي اتخذه سنة ٨٧هـ بإسناد ولاية الحجاز إلى عمر بن عبد العزيز(١٨) خطوةً هامة في سبيل تحقيق تلك النهضة العلمية المتميزة التي شملتْ : الحرمين الشريفين، وأسهمت بدورها في ازدهار الثقافة الإسلامية في أنحاء الخلافة الأموية كلها.

فكان الاستقرار السياسي الذي شهدته بلاد الحجاز في ولاية عمر بن عبد العزيز، ثم من بعده خالد بن عبد الله القسري(١٩) أثره في تعزيز دور مكة المكرمة والمدينة المنورة العلمي. ولم يَحل تحول حاضرة الخلافة الإسلامية في بلاد الحجاز من خلال الدور البارز لعلماء الحرمين الشريفين في إرساء قواعد العلوم الإسلامية والنهوض بها.

وشهد عصر الوليد بن عبد الملك ازدهار الثقافة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث كان الاستقرار السياسي بعد القضاء على حركة عبد الله بن الزبير(٢٠) التي شغلت أحداثها فترة من تاريخ الأمويين.

ولاشك أن عبد الملك بن مروان نهج سياسة أبيه (مروان بن الحكم) الذي استفاد من مدرسة المدينة المنورة التي نشأ فيها ، وتلقى بها أول دروس العلم والثقافة الإسلامية. واشتهر عبد الملك بن مروان كأبيه بالعلم والفصاحة، حتى أن الذهبي(٢١) يصفه بقوله: « فقهاء المدينة سعيد بن المسيب، وعبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن زؤيب « ويذكر عنه ابن العماد الحنبلي(٢٢) : «ما رأيت في المدينة أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك ».وهكذا نشأ الوليد بن عبد الملك في تلك البيئة التي أعطت اهتماماً كبيراً: للعلوم، والثقافة الإسلامية، والفنون، والعمارة.

وقد اهتم عبد الملك بتعليم أبنائه، ومنهم الوليد وتربيتهم على القيم الأخلاقية، وحرص على اهتمامهم باللغة العربية، وعلوم القرآن الكريم، ومن أقوال الخليفة عبد الملك بن مروان لأولاده قوله : « يَا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادةً فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم ، وإن كنتم سوقةً عشتم»(٢٣).

كما حذا الوليد حذو أبيه في الاهتمام بالعمارةِ ، والعلوم، والفنون. وكان مغرماً ببناء الجوامع وعمارتها، فعنى بتجديد الكعبة المشرفة، والمسجد النبوي.

حلقات العلم فى الحرمين الشريفين :

ارتبط العلم ارتباطاً وثيقاً بالمساجد، حيث يعتبر نظام الحلقات العلمية هو نظام الدراسة المتميزة بالمساجد. وكان هذا النظام تقليداً ظلت الأجيال تتوارثه، حيث اتسعت وظيفته حين جلس الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسجد معلماً، وعدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم مجالس العلم بمثابة رياض الجنة إذ قال: « إذا مررتم برياض الجنة فأرتعو، وقالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس العلم».(٢٤) فالمسجد هو مكان لإقامة الصلاة وللتفقه بالعلوم الدينية والدنيوية، وهو مكان للقضاء بين الناس، ومجالاً لعقد ألوية الجيوش، ومكاناً لاستقبال وفود القبائل وسفراء الدول(٢٥).

فالمسجد وحلقاته العلمية يُعد مدرسة الإسلام الأولى، وسمةٌ من سمات الحياة الثقافية الإسلامية. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة، ويلتف حوله الصحابة حلقاً حلقاً يستمعون إليه، ويتلقون منه مبادئ الإسلام وتعاليمه(٢٦)، وقد سُميتْ الحلقة بهذا الاسم لأن الطلاب يلتفون جلوساً حول شيخهم ، مما يوضح أن عددهم كان محدداً(٢٧). أما المدارس بالمعنى المعروف فلم تعرف إلا في القرن السادس الهجري حول الحرمين الشريفين. وكذلك الأربطة(٢٨) التي توقف على الفقراء الذين يأتون لأداء الحج والعمرة ثم يتخلفون للإقامة بالأربطة حول الحرمين الشريفين.

وقد ضمت هذه الحلقات عدداً من أبناء مكة وعشائرها أو ممن هاجروا إلى مكة وجاوروا إلى مهبط دينهم ينشدون الاطمئنان، ويطلبون العلم ويعلمون غيرهم مثل ابن عباس الذي اتخذ مجلسه أمام بئر زمزم يعلم الناس الأحكام وأمور دينهم(٢٩): وكانت حلقة سعيد بن المسيب(٣٠) أشهر حلقات المسجد النبوي، وكان يبدأ مجلسه بأن يركع ركعتين ثم يجلس فيجتمع إليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم الفقه(٣١). وأيضاً عبيد الله بن عتبة بن مسعود، وكان معاصراً لسعيد بن المسيب وهو أحد الفقهاء السبعة(٣٢) في العصر الأموي، خاصة في عصر الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان إماماً في الفقه والحديث، وقد وصف عمر بن عبد العزيز حلقته بقوله: «لأن يكون لي في مجلس من عبيد الله أحب إليَّ من الدنيا وما فيها»(٣٣).

ويذكرُ المقريزي(٣٤) : أن الخليفة الوليد بن عبد الملك حين دخل المسجد النبوي لينظر إلى بنائه بعد أن خرج الناس منه، ولم يبق غير سعيد بن

المسيب فقيل له: لو سلمت على أمير المؤمنين قال : والله لا أقومُ إليه قال عمر بن عبد العزيز: فجعلتُ أعدل بالوليد في ناحية المسجد لئلا يراه، فالتفت الوليد إلى القبلة فقال : من ذلك الشيخ ؟ أهو سعيد بن المسيب؟ قال عمر : نعم ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر. فقال الوليد : قد علمت حاله ونحن نأتيه، فدار في المسجد ثم أتاهُ فقال: كيف حالك أيها الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فأنصرف الوليد وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس.

وكان لمدرسة المدينة المنورة الفقهية أثرها العلمي على الحجاز كله وعلى سائر المدارس في الأمصار الأخرى، حيث تتلمذ أصحابها على زيد بن ثابت، وأخذوا عنه ونهجوا نهجه في الفقه[٣٥].

وقد ذكر ابن القيم[٣٦] أن العلم والدين والفقه انتشر في الأمة الإسلامية عن أصحاب ابن مسعود، وزيد بن ثابت وأصحاب عبد الله بن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. فكان ابن عباس[٣٧] يدْرسُ الفقه لطلاب العلم يوماً، ويجعل للتأويل والتفسير يوماً، وللشعر يوماً، ولأيام العرب، وللمغازي يوماً، وما رُئي عالمٌ قط جلس إليه إلا أقر له بالعلم الغزير والفهم العميق، وما سأله سائلٌ إلا وجدَ عنده علماً[٣٨].

وقد حظي المسجد الحرام باهتمام الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي شهد عصره حركة علمية عمرانية كبيرة بمكة المكرمة أشاد بها معاصروه فقد أرسل إلى عامله على مكة (خالد بن عبد الله القسري) سنة ٨٩هـ ثلاثين ألف دينار ضربتْ صفائح ذهبية فجعلت على باب الكعبة والأساطين والميزاب، فكان الوليد أول من ذهب البيت في الإسلام[٣٩] . واهتم برعاية طلاب العلم، وصارت حلقات المسجد الحرام موضع اهتمام الفقهاء، فمنعوا الناس من استطراق حلَق الفقهاء والقراء صيانةً لحرمتها[٤٠].

وكان طالبُ العلم يحضر حلقة أستاذه وشيخه، وعندما يستكمل دروسه وينجح في فهمها يجيزه أستاذه، ويسمحُ له بتعلم الفرع الذي درسه وأتقنه في حلقة مستقلة، وقد أدى تعدد الحلقات إلى تنوع التخصصات، فبعضها تخصص في دراسة القرآن الكريم وتفسيره، وبعضها في الفقه والحديث[٤١]، والبعض في دراسة اللغة العربية وآدابها[٤٢].

ولم تكن هناك إجازة يُشترط أن يحصل عليها المعلم ليكون صالحاً للتعليم، وإنما كان الحال كما أشار السيوطي[٤٣] : « إن من علم نفسه الأهلية جازَ له ذلك وإن لم يجزه أحد».

ونرى أن التقليد الذي استجد بعد ذلك بمنح الإجازات للقائمين بأمر التدريس في حلقات العلم كان لإرشاد طلاب العلم إلى هؤلاء العلماء. وقد أوضح ذلك السيوطي بقوله: «إنما اصطلح الناس على الإجازة، لأن أهلية الشخص لا يعلمها غالباً من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم»(٤٤).

وقد ذكر ابن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم: «أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً على تعليم القرآن الكريم والحديث»(٤٥) لأن إقامة سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإرشاد عباد الله إلى الحق قد استوجبت على القائمين بأمر التدريس أن يكون تعليمهم الأمور الدينية ابتغاء وجه الله، والقيام بتعليم تلك العلوم شرعاً(٤٦).

ولكن بعد أن صارت علوم الدين علوماً تُدرس في حلقات بالمسجد، أجاز بعض العلماء والأئمة مثل الإمام مالك أخذ الأجر على تعليم القرآن، ولا ريب أن ذلك ينطبق على بقية علوم الدين(٤٧).

وهذا لا يتعارض مع ما ذكره ابن عبد البر(٤٨) من أن يكون تعليم أمور الدين ابتغاء وجه الله. فالأجر الذي كان يتقاضاه المعلم كان أجراً زهيداً يكفيه مؤونة إعالة نفسه ومن يعولهم ليتفرغ للعلم والتعليم، يشترك فيه طلاب حلقة العلم ولا يشكل عبئاً كبيراً عليهم.

كما حرص الوليد بن عبد الملك على تخصيص جزءٍ من العطاء للعلماء فكانت أسماء العلماء تدون في الديوان، فقد ذكر الإمام الزهري: «أن الوليد بن عبد الملك فرضَ لي في الديوان وأمر لي بخادم»(٤٩). كما يذكرُ المقريزي(٥٠) أن الوليد بن عبد الملك كان يأمر بالإنفاق من بيت المال على القراء المتفرغين لطلب العلم في الحرمين.

وقد كانت سياسة الخليفة الوليد أن يَبُر حملة القرآن والعلم، ويقضي عنهم ديونهم، وهذا يشيرُ إلى قلة دخل العلماء وزهدهم في الدنيا، لذلك حرص الوليد على تخصيص جزءٍ من العطاء لهم، فكانت أسماء العلماء تدون في ديوان العطاء، ومع ذلك كان بعض العلماء يرفض أخذ العطاء كسعيد بن المسيب عالم المدينة المنورة الذي كان يشتغل بتجارة الزيت(٥١).

الكُتاب (٥٢):

تعد الكتاتيب من أسبق أماكن تعليم الأطفال شيوعاً. وكانت معروفة في الجاهلية لأن أهل الحيرة وغيرهم كانوا يفردون أماكن يطلقون عليها اسم الكُتاب ليتعلم فيها الصبيان القراءة والكتابة(٥٣).

وقد ظهر الكُتاب كمؤسسة تعليمية منذ أوائل العهد الإسلامي لتقوم بتربية صغار المتعلمين، وسمي بهذا الاسم لأن الطفل يتعلم فيه القراءة والكتابة، وحفظ القرآن، والتعرف على مخارج الحروف وضبطها بالشكل، ثم يتدرج المعلم في تعليم الصبي أصول الحساب وغيره. وعندما يتم تعليم الصبي حفظ القرآن تلاوة وكتابة وتجويداً يجازُ من شيخه ويصبح حافظاً[٥٤].

وهناك من يرى أن الكُتاب كان معروفاً عند العرب خاصة في مكة بدليل وجود سبعة عشر رجلاً من قريش كانوا يعرفون القراءة والكتابة قبل مجيء الإسلام وهذا دليل على وجود أماكن لتعليم القراءة والكتابة، ولكن هذا الاستنتاج غير قطعي، فالقرشيون كانوا على اتصال بالأمم الأخرى عن طريق التجارة فربما أخذوا عنهم القراءة والكتابة[٥٥]. وقد أشار ابن قتيبة إلى أسماء بعض معلمي الكتاتيب، فذكر منهم: الحجاج بن يوسف الثقفي، وأبوه اللذان كانا يعلمان الأولاد في الطائف، ولاشك أن الصبيان الذين كانوا يكتبون للرسول صلى الله عليه وسلم تعلموا القراءة والكتابة في بعض كتاتيب مكة قبل الإسلام[٥٦].

ولا يمكننا أن نحدد بالضبط بداية نشأة الكُتاب في الدولة الإسلامية، إلا أنه من الراجح أنه نشأ مع بداية تكوين الدولة الإسلامية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الإسلام يحضُ على العلم والتعلم، فكان الأطفال ينتظمون فيها لتعلم القراءة والكتابة، وقراءة القرآن[٥٧].

– وقد ذكر الكتاني[٥٨] أن أم سلمة رضي الله عنها (زوج النبي صلى الله عليه وسلم) بعثت إلى معلم الكتاب أن أبعث إليَّ غلماناً، وفي مكان آخر أن عمر بن الخطاب هو أول من أمر ببناء بيوت المكاتب، ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم.

ونشأة الكتاتيب منفصلة عن المسجد، فيتم تعليمهم في مكان يستأجره المعلم للتعليم، ويؤيد ذلك قول الإمام مالك حين سئل عن تعليم الصبيان في المسجد فقال: «لا أرى ذلك يجوز لأنهم يتحفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد لتعليم الصغار»[٥٩] وقد أكد الشيرازي[٦٠] على ذلك أن الفقهاء منعوا معلمي الصبيان من تعليمهم في المساجد، بسبب ما يحدث من الصغار من العبث بمرافق المسجد. وذكر أنه على المعلمين أن يتخذوا للتعليم حوانيت في الدروب وأطراف الأسواق، أو يتخذ المعلم حجرة لتعليم الصبيان في داره[٦١].

وأشار ابن سعد أن عطاء بن رباح[٦٢] كان معلم كُتاب بمكة المكرمة قبل أن يصبح إمام المسجد الحرام وأنه أدرك مائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[٦٣].

وكان المعلمون على ضروب شتى، منهم: من يتولى تعليم أبناء العامة وهؤلاء يطلق عليهم «المعلم»، ومنهم الذين يتولون تعليم أبناء كبار رجال الدولة والولاة والأثرياء، وهؤلاء يسمون «مؤدبين» والمؤدب عادة ما يتولى تعليم الصغار وتأديبهم في بيوتهم الخاصة. وكانت أدوات الدراسة لا تتجاوز عدد من الألواح والمحابر والأقلام. ويحضر الصبيان إلى الكُتاب صباحاً ثم ينصرفون بعد صلاة الظهر للغداء، ثم يعودون بعد صلاة العصر(٦٤).

وكان معلم الكتاب يعلم تلاميذه القراءة والكتابة، لأن حفظ القرآن لا يحصل إلا بتعليمها، كما يقوم بتعليم الصبيان الشكل والهجاء والخط والترتيل(٦٥).

وكان منهج التعليم عند الخاصة يقوم على الوصايا، ويتضح ذلك من خلال وصايا الخليفة عبد الملك بن مروان لمؤدب ابنه الوليد بن عبد الملك أن بني أمية حرصوا على أن يتضمن برنامج الدراسة لأبنائهم دراسة القرآن الكريم وتفسيره، والحديث النبوي، والسيرة النبوية، وعلم الأنساب، واللغة العربية، خاصة الشعر، كما تضمن توجيهات عامة للمؤدبين في أن يكونوا قدوة لطلابهم في كل أمور الحياة، ذلك أن خلفاء بني أمية خاصة منذ عصر الخليفة عبد الملك بن مروان، خصصوا جزءاً كبيراً من الثروات للجانب التعليمي في أنحاء الخلافة عامة، وفي بلاد الحجاز خاصة، كما اهتم الأمويون بتعليم أبنائهم. ولذلك ظهر في هذا العصر المؤدب الخاص في بيوت الخلفاء والأمراء، وكبار رجال الدولة، والأثرياء الذين كانوا لا يرغبون في أن يختلط أبناؤهم بأبناء العامة في الكتاتيب وهؤلاء هم الأئمة من العلماء والرواد، وعليهم مسئولية تعليم أولاد الخاصة: الشعر، والعلوم الدينية، واللغة العربية، وهؤلاء يعيشون في جناح خاص في قصر الخليفة ليكون إشرافهم على الأمير أقرب وأحكم(٦٦).

وكان للوليد بن عبد الملك مؤدباً خاص اهتم بتعليمه أصول الدين واللغة العربية، وقد ذكر البلازري وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده بقوله: «علمهم كتاب الله حتى يحفظون، وفقههم على ما بين الله فيه من الحلال والحرام حتى يعقلوه ، وخذهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، ومن الشعر أعفه، ومن الحديث أصدقه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهمون، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة»(٦٧).

وكان من أشهر المؤدبين لأولاد الخليفة عبد الملك بن مروان: أبو معبد الجهني (ت٨٠هـ)، وعامر الشعبي (ت١٠٥هـ)، وإسماعيل بن عبدا لله بن المهاجر، وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وصالح بن كيسان معلم أولاد الوليد ابن عبد الملك(٦٨).

وهكذا كان الكُتاب جنباً إلى جنب مع المسجد يسهم في نشر نور العلم والمعرفة، وكان الكُتاب يتخذ من المسجد مقراً له في بعض الأحيان، لأن بعض معلمي مكة المكرمة كانوا يقومون بتأدية رسالتهم في المسجد الحرام.

الرحلات العلمية:

تعلم الصحابة في المدينة المنورة علوم الدين على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ارتحل بعض هؤلاء العلماء إلى الأمصار الإسلامية لتفقيه الناس أمور دينهم، وكونوا أساس الحركة العلمية بها. وكان لهم فضل في وضع أسس الثقافة الإسلامية في الأمصار المفتوحة، فالمدينة المنورة كانت مركز تجمع الصحابة فرحل إليهم العلماء من أنحاء الدولة الإسلامية لمعرفتهم بأصول الدين والأحكام والحديث والسُنن والتفسير، وتفاصيل الهجرة، والمغازي، وتصدي الصحابة وأبنائهم لمهمة التعليم، ورواية السير والمغازي.

وكان لرحلة العلماء لطلب العلم بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومنهما إلى الأمصار الإسلامية أثرها في ازدهار الحياة الثقافية في تلك الأمصار، وتلقي العلوم من مصادرها الأصلية. وقد أشار سعيد بن المسيب بقوله: «كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث»[٦٩].

كما يشير حاجي خليفة بقوله: «ثم كَثُر الترحال إلى الآفاق وتداخل الناس والتقوا وانتدب أقوام لجمع الحديث النبوي»[٧٠].

أما في العصر الأموي فرغم أن مقر الخلافة قد انتقل إلى دمشق، إلا أن بلاد الحجاز ظلت حاضرة الثقافة الإسلامية، ففي رحاب المسجد الحرام ازدهر النشاط الفكري، كما ارتحل طلبة العلم من حواضر العالم الإسلامي شرقاً وغرباً لكي يؤدوا مناسك الحج والعمرة، حيث يتلقون العلوم على أيدي علماء المسجد الحرام[٧١].

وكان طلبة العلم من اليمن من أنشط الوفود إلى المسجد الحرام، وتشير المصادر التاريخية إلى أسماء كثير من العلماء الذين أتوا اليمن مثل: طاووس بن كيسان اليماني[٧٢] الذي تتلمذ على يد عبد الله بن عباس، وقد شهد له ابن عباس: بالعلم، والورع، والتقوى، وعده من أفقه شيوخ اليمن.

ومن بلاد الشام وفد إلى المسجد الحرام الإمام مكحول الدمشقي، مولى هذيل وفقيه دمشق المتوفى سنة ١١٣هـ الذي يؤثر عنه قوله: «طفت الأرضَ في طلب العلم»[٧٣]. وأيضاً مسروق بن الأجدع[٧٤] الذي تلقى العلم عن ابن مسعود، وقال عنه الشعبي: «ما رأيتُ أطلب للعلم منه»[٧٥].

ووفد من الشام العالم سلمان بن موسى، والإمام الأوزاعي الذي درس العلم على يد شيخ الحرم المكي (عطاء بن رباح) حتى أنه صار من أهل الفتوى في المسجد الحرام[٧٦].

كما طاف معظم علماء مكة المكرمة معظم بلدان العالم الإسلامي، ففي عصر الوليد بن عبد الملك اشتهر منهم سعيد ابن جبير[٧٧] الذي أخذ على عاتقه نشر العلم، فغادر مكة المكرمة، وتنقل بين مدن العراق وفارس وأصبهان وأزربيجان، ثم استقر به المقام في الكوفة، وكان محل تقدير واحترام الناس في البلاد التي تنقل فيها. وأخذ عنه طلاب العلم علمه في: التفسير، والفقه، وعلم الحديث[٧٨].

وكان للحج دور كبير في إثراء كثير من العلوم الإسلامية لتجمع وفود العلماء من الأمصار، ولقائهم بعلماء الحرمين الشريفين في أكبر تجمع سنوي للمسلمين[٧٩].

وكان كثير من طلاب العلم يؤثِرُ البقاء بجوار الحرمين الشريفين بعد انتهاء موسم الحج، وشكل المجاورون طبقة اجتماعية كبيرة في المجتمع المكي والمدني حتى صار أثرياءُ المجتمع في مكة المكرمة والمدينة المنورة يقومون بالإنفاق عليهم. وكانت تحبس الأحباس عليهم ليستفيد المجاورون من ريعها، ثم ما لبثوا أن اختلطوا بالمجتمع في مكة والمدينة عن طريق المصاهرة[٨٠]. وقد أمر الوليد بن عبد الملك بالإنفاق على هؤلاء المجاورين من بيت مال المسلمين[٨١].

والباحث في مصادر تاريخ مكة المكرمة، وكتب الأدب يجد أسماء عديدة لرواة وفقهاء وعلماء من غير أهل الحجاز وفدوا واستقروا بجوار الحرمين الشريفين. وقد أشار المقريزي[٨٢] أنه وفد إلى مكة المكرمة عدد كبير من العلماء أثناء موسم الحج سنة ٩١هـ أثناء حجة الوليد بن عبد الملك.

مظاهر النشاط العلمي

غدت كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة في العصر الأموي مركز الحركة العلمية الرئيسية في العالم الإسلامي، والمعروف أن الصحابة شارك الكثير منهم في الفتوحات، فتأسست المدارس العلمية في الأمصار الإسلامية، وكان أساسها: علوم القرآن ، والحديث، والفقه، وهي بداية التأليف العلمي عند العرب، ووثيقة الصلة بتلك الأمصار.

كما ازدهرت الحركة الفكرية في العصر الأموي، وشملت: العلوم الدينية، واللغوية، والتاريخ والجغرافيا، وعلم الفلك، والرياضيات، وعلوم الطب، والكيمياء.

واهتم الوليد بن عبد الملك اهتماماً كبيراً بعلماء الحرمين، فازدهرت تبعاً لذلك العلوم الشرعية، وسوف نوضح كيف كان لعلماء مكة المكرمة والمدينة المنورة أثرهم في وضع أسس تلك العلوم، وتشمل العلوم الدينية مجالات أربع وهي: علم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه.

١- علم القراءات:

يعد علم القراءات من أجل العلوم التي اشتغل بها علماء المسلمين في عهد الوليد بن عبد الملك. والسبب في ذلك طبيعة الخط العربي، فإن الرسم الواحد يُقرأ بأشكال متعددة، ومختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف، أو تحتها، كما أن للكلمة حالات مختلفة من حيث الإعراب مما كان سبباً في ظهور هذا العلم[٨٣]، إلى جانب اختلاف نطق الحروف عند العرب باختلاف قبائلهم. ويعرف علم القراءات بأنه العلم الذي يبحث في صور نُطق كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة.

ويرتبط بهذا العلم علم التجويد، وهو يُعنى بإعطاء كل حرف حقه من الصفات كالمد، والترقيق، والتفخيم، وأحكام القراءة، وغايته بلوغ النهاية في إتقان لفظ القرآن الكريم على ما تلقى عن رسول الله، وصون اللسان عن الخطأ[٨٤].

ويُعرف القفطي[٨٥] علم القراءة بأنه: «العلم الذي يختص بالطرق المتبعة بالإسناد لا المبتدعة في قراءة القرآن ورسمه».

أما (القُراء) فلفظٌ أطلق في البداية على حفظة القرآن تميزاً لهم عن سائر الصحابة، لأنهم كانوا يعرفون القراءة فقيل لحملة القرآن قراء[٨٦]. ومنذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه خُص به من اشتهر بحسن قراءته[٨٧].

كما كان للقراءات رجالها من الصحابة رضوان الله عليهم، الذين كان لهم عظيم الأثر في علم القراءات، وتتلمذ على يديهم عدد من التابعين الذين نشطوا في تعلم القراءة أخذاً ورواية، ونشروا علم القراءة في الأمصار المختلفة.

ومن التابعين الذين اضطلعوا بهذه المهمة، وأسهموا في هذا العلم في عصر الوليد بن عبد الملك: عكرمة[٨٨] (مولى عبد الله بن العباس) المتوفى سنة ١٠٥هـ، وكان ابن عباس يجعل في رجله الكبل يعلمه القرآن والسُنة، وكان يسمى «البحر» لسعة علمه. وأيضاً يزيد بن القعقاع الذي توفي في المدينة المنورة سنة ١٢٧هـ، وعبد الله بن كثير (ت١٢٠هـ)، واشتهر من القراء وحملوا لواء هذا العلم سبعة أئمة هم الذين تنسب إليهم القراءات السبع[٨٩].

ويذكر الذهبي أن طريقة حفظ القرآن الكريم في عهد الوليد بن عبد الملك – كان أول من أحدثها هشام بن إسماعيل بن المغيرة المخزومي – هي طريقة التكرار وراء قارئ ما وقد يكون المكرر فرداً أو جماعة(٩٠).

ويذكر الذهبي شارحاً طريقة مسلم بن جندب الهذلي(٩١) الذي عاصر الوليد ابن عبد الملك، وكان من أشهر قراء المدينة المنورة. فقد ذكر قول تلميذه جعفر ابن الزبير: «كان مسلم يعلمنا غدوة ثلاثين آية، وعشية ثلاثين آية، وفي رواية يقرأ علينا»(٩٢) وقد تلقى مسلم بن جندب أصول قراءة القرآن بالمدينة المنورة عن الصحابة رضوان الله عليهم، وكان معلم عمر بن عبد العزيز، وكان يثني عليه بقوله: « من سره أن يقرأ القرآن غضاً ليقرأه على قراءة مسلم بن جندب» وكانت له مكانة خاصة بين علماء المدينة حتى أن ابن حجر قال عنه: «كان أهل المدينة لا يهمزون حتى همز ابن جندب فهمزوا» أي أظهروا حرف الهمزة(٩٣).

وأيضاً كان من سادة القراء المشهورين بالمدينة المنورة: عبيد بن حنين، وسليمان بن يسار الهلالي(٩٤)، وسالم بن عبد الله بن عمر(٩٥) الذي قال عنه مالك: «لم يكن أحد في زمان سالم بن عبد الله أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل منه، وكان أشبه ولد ابن عمر به سالم» توفي سنة ١٠٦هـ(٩٦).

أما سليمان بن يسار ففقيه المدينة المنورة وعالمها، وقد فضله بعضهم على سعيد بن المسيب. يقول الحسن بن محمد بن الحنيفية: «سليمان بن يسار عندنا أفهم من سعيد بن المسيب»، وقد ولي سوق المدينة للأمير عمر بن عبد العزيز، توفي سنة ١٠٧هـ(٩٧).

ومن قُراء المسجد الحرام عبد الله بن كثير(٩٨) الذي توفي بمكة سنة ١٢٠هـ وهو مولى عمر بن علقمة الكناني الذي توفي سنة ٩٨هـ وهو أحد القُراء السبعة، وكان قاضي مكة، وأيضاً: حفص بن عامر، وكان حجة في هذا العلم. وسعيد بن جبير وكان يؤم الناس بالمسجد الحرام في رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره(٩٩).

وكان المختصون بهذا العلم على إلمام كبير بالعلوم الأخرى خاصة النحو(١٠٠).

٢- علم التفسير:

يتناول علم التفسير: فهم كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه(١٠١).

والمقصود بالتفسير هو: كشف المراد من اللفظ(١٠٢)، وهو يعني بمدلول ألفاظ القرآن الكريم، ومعانيه، وأسباب نزوله. وهو فرع من علم الحديث، لأنه في أصله مجموعة من الأحاديث المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم(١٠٣).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى التنزيل ثم يتولى توضيحه لأصحابه، فقد كان ينزل جملاً جملاً، وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية. فأخذ الصحابة هذا العلم لاحتكاكهم المباشر به، ومعرفتهم الظروف التي نزل فيها القرآن، وأشتهر نخبة من الصحابة بهذا العلم، فكان لهم السبق في التفسير منهم: علي بن أبي طالب(١٠٤)، وأبي بن كعب، وأبي هريرة، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود، ويرجع ذلك إلى قوتهم باللغة العربية، وهي لغة القرآن، ثم أخذ التابعون بعدهم بهذا العلم، حتى أصبح علماً من العلوم فيما بعد، ودوت الكتب، ونقلت الآثار عن الصحابة والتابعين(١٠٥).

ومن أشهر المفسرين التابعين أصحاب عبد الله بن العباس، مجاهد بن جبر(١٠٦) وكان من أئمة المفسرين إلا أنهم كانوا يتقون تفسيره لأنه كان يسأل أهل الكتاب، ولكنه كان عالماً فقيهاً(١٠٧).

ومع اتساع الدولة الإسلامية في عصر الأمويين، ودخول الموالي في الإسلام أصبحت الحاجة ملحة لتوضيح معاني القرآن، وتفسير ما خفي على هؤلاء فهمه من معاني الآيات، ومقاصدها، واشتهر مجلس سعيد بن جبير (ت٩٤هـ) في المسجد الحرام في تفسير القرآن الكريم، وألف كتاب في التفسير بناء على طلب الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٤هـ. قال عنه سفيان الثوري: «لقد مات ابن جبير وما على وجه الأرض أحدً إلا هو محتاج إلى علمه»(١٠٨) ومع ذلك كان يتورع عن القول في التفسير برأيه(١٠٩).

وبرز من المفسرين في عهد الوليد بن عبد الملك: سالم بن عبد الله بن عمر (ت١٠٥هـ)، وعبيد بن حنين (ت١٠٥هـ)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما (ت١٠٧هـ)، وطاووس بن كيسان اليماني تلميذ ابن عباس في التفسير، وكان من خاصة تلاميذه، وكان عالماً مفسراً لكتاب الله(١١٠).

كما برع أبو عبد الله (عكرمة المكي) (ت١٠٥هـ) مولى ابن عباس، وهو من أشهر المفسرين في المسجد الحرام تلقى العلم عن ابن عباس قال عنه الشعبي: «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة»(١١١) حتى أذن له ابن عباس بالفتيا(١١٢)، ويبدو أن طلب العلم والحاجة والفقر دفعت عكرمة إلى كثرة التنقل من بلد إلى آخر وكان له كتاب تفسير عن ابن عباس(١١٣).

وأيضاً عروة بن الزبير (ت٩٤هـ)، وهو صاحب الوليد بن عبد الملك، كان دائماً يسأل عن القرآن. كما أسهم محمد بن مسلم الزهري(١١٤) في علم التفسير في عصر الوليد بن عبد الملك، ثم من بعده في عصر الخليفة عمر بن عبدالعزيز.

تلك المنابع التي استقصى منها علماء التفسير علمهم ، وما اشتملت عليه آياته من أحكام، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والنقل عن الصحابة، والتابعين. وكان علماء الحرمين الشريفين هم دعامته الأولى حتى أصبح مع مرور الزمن علماً من العلوم[١١٥].

٢- الفقه :

يُعد الفقه[١١٦] أحد أبرز فروع العلوم الشرعية التي اهتم بها المسلمون، وهو مُستنبط بالرأي والاجتهاد، وقد أحتيج إليه لتيسير شئون الجماعة الإسلامية ووضع الضوابط الحكمية بين الرعايا في: أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم، وهو المسمى: بعلم الحلال، والحرام، والشرائع، والأحكام، وكان أساسه القرآن الكريم والسُنة النبوية.

وتستدعي معرفة الفقه بالضرورة فهم القرآن الكريم، والحديث الشريف، لأن السُنة النبوية شارحة للقرآن الكريم تُبين مُجمله. وقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «أنا أقضي بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه وحي»[١١٧].

وقد استدل بذلك على جواز الاجتهاد أو الرأي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بأدلة كثيرة أوردها واضعو أصول الأحكام.

وبذكر الآمدي قوله تعالى: « وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ»[١١٨] والمشورة إنما تكون فيما يحكم فيه بطريق الاجتهاد لا فيماَ يحكم فيه بطريق الوحي، لأن الحكم بغير القرآن لا يكون إلا اجتهاداً[١١٩].

ثم ظهر بعد ذلك القياس، أو الاجتهاد، وهو ما عبر عنه فيما بعد بالرأي[١٢٠].

وقد سُئل الإمام الشافعي: «في القياس أهو الاجتهاد، أم هما مفترقان؟ قال: هما اسمان لمعنى واحد»[١٢١].

وكان الصحابة يقولون بآرائهم في عصره عليه الصلاة والسلام، فيبلغه ذلك فيصوب المصيب ، ويُخطئ المخطئ[١٢٢].

كما كان هناك مصدر من مصادر الفقه وهو الإجماع، وكان ظهوره نتيجة الاجتهاد بالرأي، وقد دعت إليه الحاجة الضرورية في الحياة العامة، حيث بدأ تطور الفقه مباشرة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو رابع مصدر بعد القرآن، والسُنة النبوية، والقياس، وهي أصول الفقه التي يعتمد عليها في الفتيا والقضاء، فربما جدت أمور استعصى حلها على أولي الأمر من الصحابة، فأحتيج إلى إجماعهم. وقد ذكر ابن القيم أن أبا بكر إذا استعصي عليه أمر ولم

يجده في الكتاب والسُنة جمع رؤوساء الناس وأستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به[١٢٣]. وكانت الفتيا مختصة بحاملي القرآن، العارفين بناسخه ومنسوخه ومحكمه، ويطلق عليهم القراء، وعندما عظمت أمصار الإسلام أطلقوا عليهم: الفقهاء والعلماء[١٢٤].

وقد ظهر في عهد الوليد بن عبد الملك عدداً من الفقهاء الذين كانت آرائهم الفقهية مرجعاً لمن أتى بعدهم من طلبة العلم، وبرز منهم الفقيه (مجاهد بن جبر) وقد قال: «كنت اصطحب ابن عمر في السفر فإذا أردت أن يأتيني فيمسك، وإذا ركبت سوى ثيابي، وكان يسأله، ويستفسر عن الأمور الفقهية أو الأحاديث النبوية»[١٢٥].

كما برز (عكرمة مولى ابن عباس)، وعمرو بن دينار الذي قال عنه ابن سعد: « إذا قدمت مكة فعليك بعمرو بن دينار فإن أذنيه كانت قمعاً للعلماء»[١٢٦]. وأيضاً (عطاء بن رباح) شيخ الإسلام، ومفتي الحرم المكي، لازم الحرم وصار من فقهائه بلا منازع، وذلك بشهادة علماء الصحابة والتابعين. قد أشاد المؤرخون بعلمه، حتى قالوا عنه: «كانت الفتيا في المسجد الحرام لابن عباس، وبعده لعطاء بن رباح، وكان أعلم الناس بالمناسك حتى أن بني أمية كانوا يأمرون في الحج منادياً يصيح «لا يفتي الناس إلا عطاء بن رباح»[١٢٧].

وقال عنه الإمام الأوزاعي شيخ المسجد الأموي بدمشق : « مات عطاء بن رباح وهو أرضى أهل الأرض عند الناس ، وكان أزهد أهل الأرض وكان الإمام الأوزاعي يسأله في المسائل الصعبة في الفقه والتفسير[١٢٨] .

وقد تتلمذ على يد عطاء بن رباح: الإمام الأوزاعي، والزهري، وابن جريح، وحمل عنه الكثير من العلماء العلم إلى شتى أقطار الأرض، وكان مجلسه لا يخلو من طلبة العلم على اختلاف أجناسهم، وقد خصص له الخليفة الوليد بن عبد الملك عطاءً كان يأتيه من بيت مال المسلمين لأنه لم يتقاض أجراً على علمه[١٢٩].

وأيضاً من فقهاء المدينة المنورة: سعيد بن المسيب (ت٩٤هـ) وعروة بن الزبير (ت٩٤هـ)، وأبو بكر بن عبد الرحمن (ت٩٤هـ)، وخارجة بن زيد (ت١٠٠هـ)، هؤلاء العلماء عاصروا الدولة الأموية خاصة عصر الوليد بن عبد الملك التي شهدت الحجاز في زمانه حركة علمية حية[١٣٠].

٤- الحديث :

احتل علم الحديث مكانة مميزة بين العلوم الإسلامية، ويُراد بالحديث أو السنة النبوية (ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال، أو التقارير الشارحة للقرآن الكريم، المبينة مراده) وقد قال تعالى:

« وَأنزَلنَا إِلَيكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»(١٣١). ولذلك يعتبر الحديث بمثابة التفسير والبيان لكتاب الله الذي تستمد منه أحكام الشريعة، ولذلك وجب على كل عالم أن يُتقن علم الحديث ليتمكن من معرفة ما ورد في القرآن الكريم من أحكام الشرع(١٣٢). وبذلك أصبحت الحركة العلمية في الأمصار الإسلامية تكاد تدور على رواية الحديث، والحرص على الإحاطة به وفهمه.

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمد رواة الحديث على الصحابة، لأنهم كانوا يسمعون قوله، ويشاهدون عمله، ويتحدثون بما رأوا وسمعوا، ثم جاء التابعون وعاشوا مع الصحابة وسمعوا منهم.

وذكر أن السيوطي «أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث في تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، وذلك في كتاب بعنوان ترجمان القرآن» استخرج منه مختصراً في ستة أجزاء، أطلق عليه اسم « الدر المنثور في التفسير»(١٣٣) وهذا يدعم الرأي الذي يقول بأن التفسير كان فرعاً من الحديث، وهناك قول مأثور عن الشافعي إنه قال «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث»(١٣٤).

وكان سعيد بن جبير يكتب الحديث، فقد ذكر ابن سعد أن سعيد يسأل ابن عباس قبل أن يعمى فلم يستطع أن يكتب معه فلما عمى ابن عباس كتب فبلغه ذلك فغضب(١٣٥). وكان سعيد بن جبير يكتب الحديث بالمدينة المنورة، ويرجع الفضل في ذلك إلى عمر بن عبد العزيز الذي أراد أن يسجل الحديث الصحيح، فكتب إلى عامله بالمدينة المنورة «أبي بكر بن حزم الأنصاري» يأمره أن يدون حديث رسول الله فقال له «انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكتبه إني خفت درس العلم، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً(١٣٦).

وهناك كانت مدونات متفرقة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم: كصحيفة عبد الله بن عمر، إلا أنها كانت أعمالاً فردية(١٣٧). لأن أبي سعيد الخدري أستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في كتابة العلم فلم يؤذن له(١٣٨)، وذلك حتى لا يتخذ مع القرآن الكريم كتابٌ يُضاهى به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ(١٣٩).

ولم يتخذ تدوين الحديث طابعاً رسمياً إلا في أواخر القرن الأول الهجري، لأن الأحزاب السياسية مثل الخوارج، والشيعة، وغيرهم وضعت أحاديث عديدة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في محاولة لتقوية ادعاءاتها(١٤٠).

وكان من أشهر الموالي الذين كان لهم دور في الحركة العلمية بالمدينة المنورة: سليمان بن يسار الديلمي[١٤١]، وأيضاً سعيد بن المسيب الذي قال: «كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد»[١٤٢].

على أن تدوين الحديث بالمعنى الحقيقي تم على يد محمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ) بأمر من عمر بن عبد العزيز، وذلك منذ بداية القرن الثاني الهجري، فصار تدوين الحديث أمراً لازماً.

وقد ذكر ابن سعد: أن صالح بن كيسان قال: اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا: نكتب السُنن، فكتبنا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقلنا: نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سُنة، قال: «قلت: إنه ليس بسُنة، ولم أكتب، فكتبه فأرجح وضيعت»[١٤٣] فكان عمر بن عبد العزيز يقول: «عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسُنة الماضية منه»[١٤٤].

واعتنى نقاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رواة الحديث، وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء، ثم نظروا في الأساس الذي يُبنى عليه الحكم، أي الصفات التي يجب توفرها في المحدث الثقة، وهو ما يعرف بقواعد الجرح والتعديل[١٤٥].

الخاتمة

ومن العرض السابق يتضح الدور الكبير الذي قامت به مكة المكرمة، والمدينة المنورة في الحياة الثقافية الإسلامية، في عصر الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث اضطلع علماء الحجاز بدور الريادة في الحياة الثقافية، وشهد عصر الوليد بن عبد الملك نهضة علمية كبرى.

وكان للاستقرار السياسي الذي شهده الحجاز في ذلك العصر، أثره في أن أصبحت مكة المكرمة ، والمدينة المنورة منارة للعلوم الإسلامية، يفد إليها العلماء من أنحاء العالم الإسلامي شرقاً، وغرباً. ولم يحل تحول حاضرة الخلافة من المدينة المنورة إلى بلاد الشام، عن بقاء الريادة العلمية الثقافية الإسلامية في بلاد الحجاز ، من خلال الدور البارز لعلماء الحرمين الشريفين في إرساء قواعد العلوم الإسلامية ، والنهوض بها.

وأسهمت حلقات العلم في الحرمين الشريفين في ازدهار الثقافة الإسلامية. وكان موسم الحج أكثر فترات العام ازدهاراً ثقافياً، لتجمع وفود العلماء من الأمصار، ولقائهم بعلماء الحرمين الشريفين، في أكبر، وأهم تجمع سنوي للمسلمين، وبذلك غدت كل من مكة المكرمة، والمدينة المنورة مركز للحركة العلمية في العالم الإسلامي، وازدهرت في علوم الدين التي أفادت منها مراكز الثقافة في الأمصار الإسلامية.

الهوامش والحواشي

(١) سورة العلق، آية : ٣-٥ .
(٢) سورة المجادلة، آية : ١١ .
(٣) سورة الرحمن، آية : ١-٤ .
(٤) سورة فاطر، آية : ٢٨ .
(٥) سورة الزمر، آية : ٩ .
(٦) البخاري : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبي المغيرة بن بررزية (ت٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، القاهرة، ج١، ص٢٥.
(٧) الطبري: محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، ج٢، ص٨٧؛ ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهدي (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٢، ص٣٥٨؛ خضر: فخري رشيد، تطور الفكر التربوي، الرياض، ط٤، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١١٥-١١٦؛ البسام : لطيفة محمد، الحركة العلمية في الحجاز منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية، دراسة تاريخية من ١هـ إلى ١٣٢هـ، كلية الآداب، جامعة الرياض، رسالة دكتوراه، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٥٩ ؛ بن دهيش : منيرة عبد الملك: دور المسجد في القرن الأول الهجري في الحجاز والشام، دراسة تاريخية حضارية، مكة، ط١، ١٤٢٥هـ.
(٨) زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي، استصغر يوم بدر وقيل شهد أحداً وكانت معه راية بني النجار يوم تبوك، كتب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان من علماء الصحابة، روى عنه أبي هريرة وأنس وابن عمر، جمع القرآن. ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الدمشقي (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، القاهرة، ١٣٢٨هـ، ج١، ص٥٦١.
(٩) صحيح البخاري، ج١، ص٢٧ ؛ بن دهيش: دور المسجد في القرن الأول الهجري، ص١٤٩ ؛ البسام: الحركة العلمية في الحجاز، ص٦٣-٦٤.
(١٠) صحيح البخاري، ج١، ص٣٠ .
(١١) توماس : أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة : حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، القاهرة، ١٩٤٧م، ص٦٠-٦١ .
(١٢) بن دهيش : دور المسجد في القرن الأول الهجري، ص١٤٩.
(١٣) البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص٧٠ .
(١٤) مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، ولد بعد الهجرة بسنتين، توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان سنين، روى عن عمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم وزيد بن ثابت رضى الله عنه، شهد الجمل مع عائشة رضي الله عنها، وصفين مع معاوية، ولاه إمرة المدينة المنورة حتى أخرجهم ابن الزبير في خلافة يزيد بن معاوية. تولى الخلافة سنة ٦٤هـ، توفي سنة ٦٥هـ . ابن حجر: الإصابة، ج٣، ص٤٧٧-٤٧٨؛ العلائي: إبراهيم محمد ايدمر، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور وأحمد السيد دراج، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص٦٢-٦٣.
(١٥) معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي الصحابي، صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتزوج بأخته أم حبيبة أم المؤمنين، وكان كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، تولى الخلافة بعد تنازل الحسن عنها سنة ٤١هـ، توفي بدمشق سنة ٦٠هـ. العلائي: الجوهر الثمين، ص٥٧.

(١٦) ابن سعد : الطبقات ، ج٢ ، ص٣٥٨ .

(١٧) الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد سنة ٥٠هـ. تولى الخلافة بعد أبيه عبد الملك بن مروان الذي قضى على الفتن والأزمات ، فأثمر جهود والده في الفتح والإصلاح والعمارة ، توفي سنة ٩٦هـ. الطبري: تاريخ الأمم والملوك ، ج٦ ، ص٤٦٩ .

(١٨) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ولد سنة ٦٣هـ ، ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك المدينة المنورة سنة ٨٦هـ. وظل والياً عليها حتى وفاة الوليد بن عبد الملك وذلك بعد أن عزله الوليد متأثراً برأي الحجاج بن يوسف الثقفي بأنه فتح بلاد الحجاز لأهل العراق الساخطين على سياسة الحجاج فيهم. الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٦ ، ص٤٧-٤٨ ؛ ابن ظهيرة : جمال الدين محمد (ت٩٨٦هـ) ، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص١٩٨ .

(١٩) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر البجلي ، يكنى أبا القاسم ويعرف بالقسري ، أمير مكة والعراق ، ولي مكة للوليد بن عبد الملك ولأخيه سليمان بن عبد الملك ، وولي العراق لهشام بن عبد الملك حوالي خمسة عشر سنة ثم عزل وعذب عذاباً شديداً حتى مات ، هو أول من أدار الصفوف حول الكعبة ، وبنى الكثير من البرك والسقايات حول الحرم . ابن فهد : عز الدين بن عبد العزيز بن عمر بن محمد الهاشمي القرشي (ت٩٢٢هـ) ، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، مركز البحث العلمي ، جامعة أم القرى ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ج١ ، ص١٩٤-١٩٥ .

(٢٠) عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، ولد عام الهجرة ، وحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير جملة من الأحاديث ، وروى عن جده أبي بكر الصديق ، وعمر ، وعائشة ، وهو أحد العبادلة الشجعان ، شهد اليرموك مع أبيه ، وجاهد في فتح أفريقيا ، وشهد الدار ، وقاتل عن عثمان رضى الله عنه ، ثم شهد الجمل مع عائشة ، بايع لمعاوية ، وامتنع عن بيعة يزيد بن معاوية رضى الله عنه ، وتحول إلى مكة مطالباً بالخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية حتى تغلب عليه عبد الملك وقتله سنة ٧٣هـ. ابن حجر: الإصابة ، ج٢ ، ص٣٠٩-٣١٠؛ ابن فهد: غاية المرام ، ج١ ، ص١٤٠ حتى ص١٥٣ .

(٢١) الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الأصل (ت٧٤٨هـ) ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ، ج١ ، ص٧٥ .

(٢٢) ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، ج١ ، ص٩٧ .

(٢٣) خضر: تطور الفكر التربوي ، ص١١٦ .

(٢٤) المنذري: عبد العظيم عبد القوي: الترغيب والترهيب ، القاهرة ، ١٩٠٠م ، ج١ ، ص٦٥ . ويذكر البخاري حديث أبي واقد الليثي رضى الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بالمسجد والناس معه إذا أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهب واحد ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة . أما أحدهما فأوى إلى الله عز وجل فآواه الله ، وأما الآخر فأستحا من الله فأستحيا الله منه ، وأما الآخر يعني الثالث فأعرض فأعرض الله عنه . صحيح البخاري ، ج١ ، ص٢٠ .

(٢٥) خضر : تطور الفكر التربوي ، ص١٣١ ؛ العقل : ناصر عبد الكريم ، أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، مكة ، ١٤١٩هـ ، ص١٣-١٤-١٥ .

(٢٦) ابن الأثير : عز الدين بن أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، بيروت ، ج٢ ، ص٤٧٦ .

(٢٧) الهيثمي : علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ) ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، دار الكتب ، بيروت ،

١٤٠٧هـ، ج١، ص١٣٢ .

(٢٨) الأربطة : مفردها رباط ، كانت ثكنة عسكرية للمرابطين الذين يحرسون الثغور جهاداً في سبيل الله ، ثم تطورت وظيفة الرباط فأصبح مكاناً لإعاشة الفقراء والمساكين ينفق عليهم من ريع ما يوقف عليه الرباط ، وذلك منذ القرن الخامس الهجري ، وكانت به مجالس للعلم والذكر وقراءة القرآن . مصطفى : صالح لمعي ، التراث المعماري الحضاري في مصر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ ، ص١١٩ .

(٢٩) بن دهيش ، دور المسجد في القرن الأول الهجري ، ص١٥٧ ؛ السنيدي : عبد العزيز ، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ط١ ، الرياض ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ص٥٤-٥٥ .

(٣٠) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن كعب بن لؤي القرشي المخزومي المدني ، توفي سنة ٩٤هـ ، ويكنى أبا محمد ، وهو أحد الفقهاء السبعة ، وسيد التابعين ، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل لأربع منها ، أخذ العلم وتعلمه من الصحابة مثل عثمان وعلي ، وزيد بن ثابت ، وابن عمر ، وابن عباس وسعد وعائشة ، وأبي هريرة وكان زوج ابنته . ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٢ ، ص٣٨ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب وتقريب التقريب ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٤١٥هـ ، ج٣ ، ص٣٧٢ ؛ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، دار الكتب ، بيروت ، ج١ ، ص٥٦٠ ؛ سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوطي ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ج٤ ، ص٢١٧ .

(٣١) المحاسبي : أبي عبد الله الحارث بن أسد ، رسالة المسترشدين ، ط١ ، ترجمة وتحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص٦١ ؛ ابن القيم : شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ) : أعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق : طه عبد الرءوف مسعد ، بيروت ، ١٩٧٣م ، ج١ ، ص٣٣ .

(٣٢) الفقهاء السبعة : هم سعيد بن المسيب ، عروة بن الزبير ، القاسم بن محمد ، خارجة بن زيد ، وأبي بكر بن عبد الرحمن ، سليمان بن يسار ، عبيد الله بن عتبة بن مسعود . ابن القيم : أعلام الموقعين ، ج١ ، ص٣٣ .

(٣٣) ابن القيم : نفس الجزء والصفحة .

(٣٤) المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت٨٤٥هـ) ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، وطه عبد الرءوف مسعد ، الإسكندرية ، ١٩٥٥م ، ص٣١ ؛ الخلف : عبد الله بن سالم : مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية ، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ص١٢٧ .

(٣٥) ابن القيم : أعلام الموقعين ، ج١ ، ص٢٣ .

(٣٦) المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٣ .

(٣٧) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من المكثرين في رواية الحديث ، وأحد فقهاء المدينة ، ويسمى البحر لسعة علمه ، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والفهم فهو مكي المولد ، مدني المقام ، حصل علوماً نافعة تميز بها على أقرانه . ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٢ ، ص٢٨١ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج٢ ، ص٣٣٣ ؛ تهذيب التهذيب ، ج١ ، ص٤٢١ ؛ ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلدون (ت٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، ١٣٩٨هـ ، ج٣ ، ص٦٢ .

(٣٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٢ ، ص٢٨١ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة ، ج٣ ، ص٢٩٢ ؛ سعد بن موسى الموسى ، مكة المكرمة ، المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي ، ربيع الثاني ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص٩٥ ؛ السنيدي : الحياة العلمية في مكة ، ص٥٤-٥٥ .

(٣٩) ابن الأثير : أسد الغابة ، ج٣ ، ص٢٩٢ .

(٤٠) ويذكر ابن كثير : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ،

البداية والنهاية، ١٩٩١م، ج٩، ص٧٦ . ويذكر اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي (ت٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٩ . أن أول من ذهب البيت عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤١) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٤٦٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٦١ .

(٤٢) ابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد (ت٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٠ .

(٤٣) السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص١٧٨ .

(٤٤) السيوطي : نفس الجزء والصفحة .

(٤٥) السمرقندي : نصر بن محمد بن أحمد (ت٣٧٢هـ)، بستان العارفين، طبع ضمن كتاب تنبيه الغافلين للمؤلف نفسه، ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ، ص٤ .

(٤٦) ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي الأندلسي (ت٤٦٣هـ)، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب، بيروت، ج١، ص٥٢ .

(٤٧) يذكر البلازري : أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمود رضوان، بيروت، ١٣٩٨هـ، ص٥٥٨ : أن حين فرض سعد بن أبي وقاص أيام ولايته على العراق لمن يقرأ القرآن كتب إليه عمر بن الخطاب أن لا يعطى على تعليم القرآن أجراً .

(٤٨) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٢ .

(٤٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٢١٥ .

(٥٠) المقريزي : الذهب المسبوك، ص٣١ .

(٥١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٢-٥٣ .

(٥٢) الكتاب والمكتب معروفان، فالمكتب هو موضع الكُتاب والجمع كتاتيب . ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ)، لسان العرب، القاهرة، ١٩٨٨م، ١٣٠٠هـ، ج١، ص١٩٢ ؛ القرشي : محمد بن محمد بن أحمد (ت٧٢٩هـ)، معالم القربة في أعمال الحسبة، تحقيق : محمد محمود شعبان، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٧٣ .

(٥٣) الظهار : نجاح أحمد عبد الكريم، بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة في المملكة العربية السعودية، ط١، جدة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٣٤ ؛ خضر : الفكر التربوي، ص١٣٣ .

(٥٤) ابن دهيش : عبد اللطيف عبد الله، الكتاتيب، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٢ ؛ عبد الرحمن بن صالح بن عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م، ص٥٢ .

(٥٥) عبد الرحمن بن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص٥٢-٥٣ .

(٥٦) ابن قتيبة الدنيوري : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، دار المعارف، ١٩٩٠م، ص٥٤٧؛ خضر: الفكر التربوي، ص١٣٣؛ الظهار: بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة، ص٣٤-٣٥ .

(٥٧) ابن سحنون : محمد بن سحنون بن عبد السلام بن سعيد التنوخي (ت٢٥٦هـ)، آداب المعلمين، ملحق بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص٣٥٣ .

(٥٨) الكتاني : عبد الكبير بن القطب محمد الحسن الإدريسي، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، الرباط، ١٣٤٦هـ، ج٢، ص٢٩٣ .

(٥٩) القابسي : علي بن محمد بن خلف (ت٤٠٣هـ)، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، رسالة ملحقة بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، القاهرة، ج٣، ص٣٢٣ .

(٦٠) الشيرازي : عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق : السيد

الباز العريني، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٠٤ .

(٦١) عارف عبد الغني : نظم التعليم عند المسلمين، ص٥٢ .

(٦٢) هو محمد بن عطاء بن رباح، وهو إمام المسجد الحرام، قالوا كان المسجد الحرام فراش عطاء بن رباح عشرين سنة، روى عن كثير من الصحابة خاصة عبد الله بن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة، وابن الزبير، وروى عنه الكثير من التابعين . الأصبهاني : أبي نعيم أحمد بن عبد الله (ت٤٣٠هـ)، حلية الأولياء في طبقات الأصفياء، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، ج٣، ص٣١٠.

(٦٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٤٦٨، ص٤٧٥ . ويذكر ابن حزم أنه لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة، وفتحت بلاد فارس طولاً وعرضاً وأيضاً الشام ومصر والجزيرة ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد، ونسخت فيه المصاحف، وقرأ الأئمة القرآن، وعلمه الصبيان في المكاتب شرقاً وغرباً . الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص١٠ .

(٦٤) Honard R. Turever Science in Medival Islam University of Texas press 1997, P.29.

(٦٥) ابن خلدون: عبد الرحمن بن عمر (ت٨٠٨هـ)، مقدمة ابن خلدون، القاهرة، ص٦٣٠-٦٣١ .

(٦٦) ابن قتيبة : عيون الأخبار، ج٤، ص١٦٧ .

(٦٧) البلازري : أنساب الأشراف، بيروت، ١٩٧٤م، ج١١، ١٧٠ .

(٦٨) البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص١٥٦-١٥٧ .

(٦٩) ابن قتيبة : عيون الأخبار، ج٤، ص١٦٧ ؛ ابن عبد البر : جامع بيان العلم، ج١، ص٩٤ .

(٧٠) حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله القسطنطي الرومي الحنفي (ت١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠م، ج١، ص٨٠ .

(٧١) ابن عبد البر : الاستيعاب عن معرفة الأصحاب، ج٢، ص٣٧٠ .

(٧٢) طاووس بن كيسان الخولاني الهمذاني : أبو عبد الرحمن من أكابر التابعين فقيهاً في الدين ورواية الحديث، وقيل كان طاووس القرآن، حدث عن عائشة وأبي هريرة ومجاهد ابن دينار، ج٥، ص٣٠٦ ؛ الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٤، ص٤ .

(٧٣) الذهبي : العبر في أخبار من غبر، ج١، ص٥٠ .

(٧٤) مسروق بن عبد الرحيم الهمذاني كان عالم من علماء الشام، اشتهر بالعلم والتقوى والصلاح والزهد والتبحر في العلم . الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٢، ص٩٥ .

(٧٥) الذهبي : العبر في خبر من غبر، ج١، ص٥٠ .

(٧٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٢١٥ .

(٧٧) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني أسد، يكنى بأبي محمد أو بأبي عبد الله، وهو حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال، ويعتبر من كبار التابعين، وإمام أئمة الإسلام في التفسير، كان كاتباً لعبد الله بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري ثم تفرغ للعلم، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، سنة ٩٥هـ . ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٦، ص٢٥٦ ؛ الفاسي : تقي الدين محمد أحمد الحسني المكي، ت٨٣٢هـ، العقد الثمين بأخبار البلد الأمين، تحقيق : فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٦٤م، ج٤، ص٥٥٠-٥٥١ .

(٧٨) عبد العزيز الهلالي : الحركة العلمية في مكة في عهد بني أمية، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، جماد الآخرة، ص٤٤ .

(٧٩) سعد الموسى، مكة المكرمة، ص٩٥ ؛ بن دهيش : دور المسجد في القرن الأول الهجري، ص١٥٨ .

(٨٠) ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)، صفوة الصفوة، القاهرة، ١٤١١هـ، ج٢، ص١٢٥ .

(٨١) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق : عبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٨٥م، ج١،

ص٩٨ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف، ص١٨ ؛ ابن الجوزي : صفوة الصفوة، ج٢، ص١٢٥ .

(٨٢) المقريزي : الذهب المسبوك، ص٣١ .

(٨٣) كان قاضي مرو يحيى بن معمر هو أول من نقط المصاحف، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي . ابن كثير : البداية والنهاية، ج٥، ص١٠ . وكان أول من دون هذا العلم أبو عمر، وحنفي بن عمر الدروي . محمد بن سالم الحسين، الإشارات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٥ .

(٨٤) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، ج١٠، ص٢١٠ .

(٨٥) القفطي : جمال الدين أبي الحسن علي يوسف بن إبراهيم، أنباء الرواة، بيروت، ١٩٧٤م، ج٣، ص١٨٦-١٨٨ .

(٨٦) ابن خلدون : المقدمة، ص٥٤٣ . ويذكر أن الصحابة قرأوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة إلى أن استقرت على سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر برواياتها من الجمع الغفير، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراء، وربما يزيد بعد ذلك قراءات أخرى ألحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراء لا تقوى إلى قوتها في النقل . المقدمة، ص٤٣٧ .

(٨٧) ابن الجزري: شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد (ت٨٨٣هـ)، النثر في القراءات العشرة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٠ .

(٨٨) عكرمة مولى ابن عباس، وهو بربري المغرب، اجتهد ابن عباس رضى الله عنه في تعليمه، روى عن عائشة رضي الله عنها، وأبي هريرة، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر رضوان الله عليهم، وروى عن الشعبي، وجابر بن زيد وكان أعلم الناس في زمانه بالقرآن، وعند موته قيل مات أفقه الناس (ت١٠٥هـ) . ابن سعد :الطبقات الكبرى، ج٥، ص١٢١ ؛ الذهبي : اللباب في علوم الكتاب، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٤٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٤٥، ص٢٦٥ .

(٨٩) القراء السبع هم : نافع بن عبد الرحمن أبي نعيم (ت١٩٦هـ) عبد الله بن كثير المكي (ت١٢٠هـ)، وابن عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ)، وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت١١٨هـ)، وعاصم بن عمرو بن أبي النجود (ت١٢٧هـ)، وحمزة بن خبيب (ت١٥٦هـ)، وعلي بن حمزة (ت١٨٩هـ) .

(٩٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٢٦ .

(٩١) مسلم بن جندب الهذلي : أبو عبد الله المدني من الطبقة الثانية من أهل المدينة، تولى قضاء المدينة، توفي بعد عام ١١٠هـ . ابن حجر : تهذيب التهذيب،ج١٠، ص١١٢ .

(٩٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٢٦ .

(٩٣) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج١٠، ص١١٢ .

(٩٤) هن أيوب بن سليمان بن يسار، وكان من أحسن الناس وجها، وكان فقيه أهل المدينة وعالمها، اشتهر بالتقوى والزهد، توفي سنة ١٠٧هـ . الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٢، ص١٩٠، ص١٩٢ .

(٩٥) هو أبو عمر سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، كان خاشعاً متواضعاً قانعا، توفي سنة ١٠٦هـ. الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٢، ص١٩٣ .

(٩٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ، ج٥، ص٥٣، ص٦٠ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج٨، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٩٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٤٨ .

(٩٨) عبد الله بن كثير : هو من قراء المسجد الحرام من الطبقة الثانية، وهو أحد القراء السبعة، يقال له الداراني لأنه كان عطارا، والعطار بالحجاز يقال عنه داراني . الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣١٨، ص٣٢٢ .

(٩٩) الذهبي : اللباب في علوم الكتاب، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، ص٤٣ .

(١٠٠) يذكر كتاب مفتاح السعادة في التعريف بعلم القراءات أنه العلم الذي يبحث في صور كلام الله

عز وجل من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وهو يعتمد على العلوم العربية التي تعين على تحصيل هذه الملكة، وفائدة ذلك صون كلام الله من التغير والتحريف، ويبحث أيضاً في الاختلافات غير المتواترة مما وصل إلى حد الشهرة زاده : أبو الخير محمد مصطفى طاش كبرى (ت٩٦٢هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم، تحقيق : كامل بكري، القاهرة، ج١، ص١٤٧ .

(١٠١) الزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص١٣٠.

(١٠٢) الأندلسي : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (ت٧٤٥هـ)، تفسير البحر المحيط، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص١٣ . والتفسير في اللغة : الإيضاح، ومنه قوله تعالى : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » [سورة الفرقان، آية : ٣٣] .

(١٠٣) السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن تمام أبو نصر (ت٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود بن محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، ١٩٦٤م، ج٥، ص٣٥٠ .

(١٠٤) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الحسن، أول الناس إسلاماً ولد قبل البعثة بعشر سنين، وتربى في حجر المصطفى عليه الصلاة والسلام، شهد كل الغزوات ما عدا تبوك، وهو زوج فاطمة الزهراء، وأول فدائي في الإسلام، ورابع الخلفاء الراشدين . ابن حجر : الإصابة، ج٢، ص٥٠٧.

(١٠٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٢٨ – ٤٣٩ ؛ البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص٨٢ .

(١٠٦) أبو الحجاج مجاهد بن جبر العالم الحبر ذو الأحلام والصبر، صاحب التأويل والتفسير والأقاويل والتذكير، وهو مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، سمع من أم هانئ وسعد بن بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وابن عباس، وقد لزمه في المسجد فترة طويلة وكان يقول « كنت أقف عند كل آية وأسأل فيما نزلت»، توفي ١٠٣هـ . ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣١٣ ؛ الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٣، ص٢٧٩ .

(١٠٧) البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص١٢٤ .

(١٠٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٢٨٧ ؛ الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٤، ص٢٧٣ ؛ البسام: الحركة العلمية في الحجاز، ص١٢٤

(١٠٩) الترمذي : محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ)، الجامع الصحيح، سنن الترمذي، تحقيق : إبراهيم عطوه عوض، ط١، القاهرة، ج١، ص٦٧ .

(١١٠) الذهبي : سير النبلاء، ج٤، ص٥٩٨، ج٥، ص٦٩ ؛ تذكرة الحفاظ، ج١، ص٩٢ ؛ الداودي : طبقات المفسرين، ج٢، ص٣٠٧ .

(١١١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج٩، ص٢٥٤، ص٢٦٠ .

(١١٢) ابن كثير : المصدر السابق ؛ البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص١٢٤-١٢٥ .

(١١٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٢٨٧ .

(١١٤) هو الإمام محمد بن مسلم الزهري المدني، أحد الأئمة العلماء الحفاظ، أشتهر بسعة علمه واطلاعه، نزل ببلاد الشام، وروى عن الصحابة والتابعين، واستفاد من علمه عدد كبير من طلاب العلم . الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٢٦، ص٣٥٠ .

(١١٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٣٨ .

(١١٦) الفقه لغة: هو العلم بالشيء والفهم له : ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٤٥ .

(١١٧) الآمدي: أبي الحسن علي بن أبي علي محمد (ت٦٣١هـ)، الأحكام في أصول الأحكام، ج٤، ص٣٢٤ .

(١١٨) سورة آل عمران، آية : ١٥٩ .

(١١٩) الآمدي : الأحكام في أصول الأحكام، ج٤، ص٣٢٤ .

(١٢٠) الشيرازي : طبقات الفقهاء، ص٣، وقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن

مسعود أقضي بالكتاب والسنة فإذا لم تجد الحكم فيهما فاجتهد برأيك .

(١٢١) الشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن السائب (ت٢٠٤هـ) ، الرسالة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص٦٦ .

(١٢٢) الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص٣ .

(١٢٣) ابن القيم : أعلام الموقعين ، ج٢ ، ص٧٠-٧١ .

(١٢٤) البسام : الحركة العلمية ، ص٩٣ .

(١٢٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٥ ، ص٤٥ ؛ طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص٣٠٧ .

(١٢٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٥ ، ص٤٧٩-٤٨٠ .

(١٢٧) الأصبهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج٣ ، ص٣١١ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج٥ ، ص٥٦٧ ؛ ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ) ، الجرح والتعديل ، تحقيق : عبد الرحمن المعلمي ، حيدر أباد ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، ج٣ ، ص٣٣٠ .

(١٢٨) الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج٣ ، ص٣١١ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج٥ ، ص٥٦٩ .

(١٢٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٥ ، ص٨٩ ؛ ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ج٢ ، ص١٢٧-١٢٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٤٠١ .

(١٣٠) البسام : الحركة العلمية بالحجاز ، ص٩٦ .

(١٣١) سورة النحل ، آية : ٤٤ .

(١٣٢) ابن عبد البر : جامع بيان القرآن ، ج١ ، ص٨٦ .

(١٣٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٦ ، ص٢٥٧ .

(١٣٤) ابن عبد البر: جامع بيان العلم ، ج١ ، ص٨٢-٨٣؛ البسام: الحركة العلمية في الحجاز ، ص١٢٤ .

(١٣٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٨ ، ص٣٥٣ .

(١٣٦) صحيح البخاري ، ج١ ، ص٣٦ ؛ ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم ، ج١ ، ص٦٣ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج١ ، ص٣٨٧ ؛ الخرعان : عبد الله بن عبد الرحمن : أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ط١ ، الرياض ، ١٤٢٤هـ ، ص٩١ .

(١٣٧) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج١ ، ص٦٣ .

(١٣٨) نفس المصدر والصفحة .

(١٣٩) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج١ ، ص٣٤-٣٥ .

(١٤٠) البسام : الحركة العلمية بالحجاز ، ص٩٠ .

(١٤١) سليمان بن يسار الديلمي : هو مولى ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ولى سوق المدينة لعمر بن عبد العزيز عندما كان أميراً عليها في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، روى الكثير من الأحاديث ، عن زيد بن ثابت ، وأبي هريرة وعائشة وابن عباس وأم سلمة ، وكان ثقة عاليا ، رفيقاً فقيها ، وكان أعلم أهل المدينة بالطلاق ، أثنى عليه العالم الجليل سعيد بن المسيب . البسام : الحركة العلمية ، ص١٢١ .

(١٤٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج١ ، ص٩٤ . الخرعان : أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ص٨٧ .

(١٤٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٢ ، ص٢٨٢ .

(١٤٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٧٧ .

(١٤٥) السيوطي : تدريب الراوي في شرح تغريب النواوي ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ج١ ، ص١٧٧ .

المصادر والمراجع

. ابن الأثير : (عز الدين بن أبي الحسن علي بن أبي مكرم ت٦٣٠هـ) .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، (د.ت) .
. الأصبهاني : (أبو نعيم أحمد بن عبد الله ت٤٣٠هـ) .
- حلية الأولياء في طبقات الأصفياء، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .
. الآمدي : (أبو الحسن علي بن أبي علي محمد ت٦٣١هـ) .
الأحكام غي أصول الأحكام .
. الأندلسي : (أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ت٧٤٥هـ) .
- تفسير البحر المحيط، بيروت، ١٩٩٥م .
. البخاري : (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ت٢٥٦هـ) .
- صحيح البخاري، القاهرة .
. البلازري : (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي ت.٢٩هـ) .
- فتوح البلدان، تحقيق : رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٣٩٨هـ .
أنساب الأشراف، بيروت، ١٩٧٤م .
. الترمذي : (محمد بن عيسى بن سوده ت٢٧٩هـ) .
-الجامع الصحيح .
- سنن الترمذي، تحقيق : إبراهيم عطوه عوض، ط١، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
. ابن الجوزي : (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ت٥٩٧هـ) .
- صفوة الصفوة، القاهرة، ١٤١١هـ .
. ابن الجزري :(شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ت٨٨٣هـ) .
- النشر في القراءات العشرة، القاهرة، ١٩٣٣م .
. ابن أبي حاتم : (عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت٣٢٧هـ) .
- الجرح والتعديل، تحقيق : عبد الرحمن المعلمي، حيدر أباد، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .
. ابن حزم : (علي بن أحمد الظاهري الأندلسي ت٤٥٦هـ) .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت، ١٤٠٣هـ .
. ابن حجر :(شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الدمشقي ت٨٥٢هـ) .
-الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، القاهرة، ١٣٢٨هـ . تهذيب التهذيب وتقريب التقريب، القاهرة، ١٤١٥هـ .
. حاجي خليفة :(مصطفى بن عبد الله القسطنطي ت١٠٦٧هـ).
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، ١٩٩٠م .

. ابن خلكان : (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلدون ت٦٨١هـ) .
– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، ١٣٩٨هـ .
. ابن خلدون :(عبد الرحمن بن عمر ت٨٠٨هـ) .
–مقدمة ابن خلدون .
. الدروي : محمد بن سالم الحسن .
– الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طرق الشاطبية، القاهرة، ١٩١٤هـ .
. الداوودي : شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت٩٤٥هـ) .
طبقات المفسرين، ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ .
. الذهبي : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت٧٤٨هـ).
– اللباب في علوم الكتاب، بيروت، ١٩٨٨م.
– العبر في خبر من غبر، تحقيق : أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، ١٤٠٥هـ .
تذكرة الحفاظ، دار الكتب، بيروت (د . ت).
– سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرنؤوطي، بيروت، ١٩٨٦م .
. زاده : (أبو الخير أحمد مصطفى ت٩٦٢هـ) .
– مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم، تحقيق : كامل بكري، القاهرة د. ت.
. الزركشي :(بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله ت٧٩٤هـ) .
البرهان في علوم القرآن .
. ابن سعد : (محمد بن سعد بن منيع الزهدي ت٢٣٠هـ) .
–الطبقات الكبرى، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
. ابن سحنون : (محمد بن سحنون عبد السلام ت٢٥٦هـ) .
– آداب المعلمين ملحق بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، القاهرة (د.ت).
. السمرقندي : (نصر بن محمد بن أحمد ت٣٧٢هـ) .
– بستان العارفين، طبع ضمن كتاب تنبيه الغافلين، ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ .
. السبكي : (تاج الدين عبد الوهاب بن علي ت٧٧١هـ) .
– طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود بن محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، ١٩٦٤م .
. السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن محمدت٩١١هـ) .
– الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٨٣م .
– تقريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، ١٩٧٩م .

. الشافعي : (أبو عبد الله محمد بن إدريس ت٢٠٤هـ) . الرسالة، تحقيق : أحمد بن محمد شاكر، القاهرة، ١٩٧٩م .
. الشيرازي : (عبد الرحمن بن نصر ت٥٨٩هـ) .
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق : السيد الباز العريني، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
. الطبري : (محمد بن جريرت٣١٠هـ). تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٩٧١م.
. ابن ظهيرة :(جمال الدين محمد ت٩٨٦هـ).
الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، بيروت، ١٩٨٢م
. ابن عبد البر : (أبو عمر يوسف بن عبد الله ت٤٦٣هـ) .
– جامع بيان العلم وفضله، بيروت . الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة، ١٣٢٨هـ .
. العلائي : إبراهيم محمد ايدمر .
–الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور وأحمد السيد دراج، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م .
. ابن العماد : (أبو الفلاح عبد الحي ت١٠٨٩هـ) .
– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت .
. ابن فرحون : (إبراهيم بن علي بن محمد ت٧٩٩هـ) .
الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، ١٩٧٢م .
. الفاسي: (تقي الدين محمد بن أحمد ت٨٣٢هـ).
– العقد الثمين بأخبار البلد الأمين، تحقيق : فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٦٤م .
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق : عبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٨٥م .
. ابن فهد : (عز الدين عبد العزيز بن عمر ت٩٢٢هـ) .
– غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق : فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
. ابن قتيبة الدنيوري :(أبو محمد عبد الله بن مسلم ت٢٧٦هـ) .
–عيون الأخبار، دار المعارف، ١٩٩٠م .
. القابسي : (علي بن محمد بن خلف ت٤٠٣هـ)
– الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، رسالة ملحقة بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، القاهرة، (د.ت) .
. القرشي : (محمد بن محمد بن أحمد ت٧٢٩هـ).
–معالم القربة في أعمال الحسبة، تحقيق: محمد بن محمود شعبان، القاهرة،

١٩٧٦م .
. القفطي : (جمال الدين أبي الحسن ت٦٢٤هـ).
- أنباء الرواة، بيروت، ١٩٧٤م .
. ابن القيم : (شمس الدين أبي عبد الله المعروف بابن القيم الجوزية ت٧٥١هـ) .
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق : طه عبد الرءوف مسعد، الإسكندرية، ١٩٥٥م .
. الكتاني : عبد الكبير بن القطب محمد بن الحسن .
- التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية، الرباط، ١٣٤٦هـ .
. ابن كثير : (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ت٧٧٤هـ) .
- البداية والنهاية، دار الغد العمري، ١٩٩١م .
. ابن منظور : (محمد بن مكرم بن علي ت٧١١هـ).
-لسان العرب، القاهرة، ١٣٠٠هـ/١٩٨٨م .
. المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ) .
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق : جمال الدين الشيال، طه عبد الرءوف مسعد، الإسكندرية، ١٩٥٥م .
. المحاسبي : أبو عبد الله الحارث بن أسد .
- رسالة المسترشدين، ترجمة وتحقيق : عبد الفتاح أبو غدة، ط١، نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٥م .
. الهيثمي : (علي بن أبي بكرت٨٠٧هـ) .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت، ١٤٠٧هـ .
. اليعقوبي :(أحمد بن أبي يعقوب ت٢٨٤هـ)
- تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٨٠م .

المراجع والرسائل والمجلات

. البسام : لطيفة محمد : الحركة العلمية في الحجاز منذ ظهور الإسلام حتى قيام الدولة العباسية ، دراسة تاريخية من ١هـ إلى ١٣٢هـ ، كلية الآداب ، جامعة الرياض ، رسالة دكتوراه ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
. بن دهيش : عبد اللطيف: الكتاتيب ، ط١ ، مكة المكرمة ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م.
. بن دهيش : منيرة عبد الملك : دور المسجد في القرن الأول الهجري في الحجاز والشام ، دراسة تاريخية حضارية ، ط١ ، مكة ، ١٤٢٥هـ .
. توماس : أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٤٧م .
. الخرعان : عبد الله عبدا لرحمن : أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ط١ ، الرياض ، ١٤٢٤هـ .
. خضر : فخري رشيد : تطور الفكر التربوي ، ط٤ ، الرياض ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
. السنيدي : عبد العزيز: الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ط١ ، الرياض ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
. الظهار : نجاح عبد الكريم : بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة في الملكة العربية السعودية ، ط١ ، جدة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
. عبد الله : عبد الرحمن صالح: تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ط١ ، ص١٣٩٢هـ/١٩٧٣م .
. العقل : ناصر عبد الكريم : أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد ، وزارة الشئون الإسلامية للأوقاف والدعوة والإرشاد ، مكة ، ١٤١٩هـ .
. لمعي : مصطفى صالح: التراث المعماري الحضاري في مصر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ .
. المنذري : عبد العظيم عبد القوي : الترغيب والترهيب ، القاهرة ، ١٩٠٠م.
. الموسى : سعد موسى : مكة المكرمة ، المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي ، جامعة أم القرى ، ربيع الثاني ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .
. الهلالي : عبد العزيز : الحركة العلمية في مكة في عهد بني أمية ، مجلة الدارة ، العدد الثالث ، السنة التاسعة عشرة ، جماد الآخرة .

Honard R. Turever Science in Medival Islam University of Texas press 1997 .

د/ عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين (*)

عهد المتوكل على الله العباسى بين الحقيقة التاريخية وظلم المؤرخين

إذا ما نظرنا إلى التاريخ العالمى نجد أنه لا يعبر فى تحقيبه عن شعوب العالم، وأممه، إذ أن الفواصل التاريخية التى تقسم التاريخ إلى مراحل، وضعت نسبة إلى أحداث القارة الأوروبية.

فالتاريخ وفق هذا التقسيم ينقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية، هى: التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ الحديث والمعاصر.

ولو بحثنا فى حيثيات هذا التقسيم، نجد أن التاريخ القديم يبدأ بمعرفة الإنسان الكتابة، وينتهى بسقوط روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة الجرمان، كما وضع تاريخ بناء القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية بداية للتاريخ الوسيط، وسقوطها نهاية لهذه الحقبة، ويبدأ التاريخ الحديث بعهد النهضة الأوروبية، وينتهى بنشوب الحرب العالمية الأولى، وكل هذه الأحداث دارت فى القارة الأوروبية، فأين مساحة الأحداث لبقية العالم، الذين شاءوا أم أبوا وضعوا ضمن هذا التقسم.

وما يزيد الأمر سوءً أن التاريخ الإسلامى وفق هذا التقسيم وضع ضمن حقبة العصور الوسطى، التى لها سمات معينة فى تصورات الناس، فهى عصور الظلام والتأخر والجهل وسيطرة الكنيسة بتعاليمها البالية على الحياة الدينية والزمنية فى أوروبا.

وإذا ما خضنا فى التاريخ الإسلامى، وأمعنا النظر فى تقسيماته، نجد أن ثمة حاجة لإعادة النظر فى هذا التقسيم، إذ هو بداية يعتمد التقسيم الأوروبى، فهو ضمن حقبة العصور الوسطى، كما أنه يوضع ضمن

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة تعز

مرحلة زمنية انقضت، وكأنه أصبح من تركة الماضى، وهذا مخالف للواقع، فنحن ما زلنا فى دول تدين بالإسلام، وتعتمده فى إدارة شئونها، ونعيش فى مجتمعات تدين بالإسلام وتحيا به وله.

وإذا ما أوغلنا أكثر فى التقسيمات لحقب التاريخ الإسلامى نجد أن الأخطاء تتكرر، - ولا عجب من هذا لأن صياغة التاريخ الإسلامى فى العصر الحديث قد بدأت على أيدى المستشرقين الذين كانت لهم أغراضهم من هذه الصياغة. فالعصر العباسى يقسم إلى حقبتين رئيسيتين، عصر عباسى أول تميز بالقوة والازدهار، وآخر وسم بالضعف والتراجع والإضمحلال.

وهو تقسيم يعتمد على نظرة جزئية أحادية للتاريخ، إذ اعتمد المؤرخون أصحاب هذه النظرة، جانباً واحداً من جوانب التاريخ المتعددة للحكم علي عصور التاريخ العباسى، هو الجانب السياسى، فاعتمدوا ما حدث من ضعف سياسى وتفكك بعض أوصال الدولة العباسية وضعف بعض خلفاء المرحلة المتأخرة، وفقدانهم السيطرة على مقاليد الأمور، وما صاحب ذلك من مظاهر، اعتمدوها أساساً لتقسيم الحكم العباسى إلى عصرين متميزين، عصر عباسى أول يتسم بالقوة، وعصر عباسى ثانى يتصف بالضعف والضمور.

فأغفلت هذه النظرة جوانب أخرى من التاريخ لا تقل أهمية عن الجوانب السياسية إن لم تفقها، أعنى بذلك الجوانب الحضارية والعلمية، خصوصاً وأنا نعلم أنَّ من غايات التاريخ السامية، رصد تطور الحضارة الإنسانية، ومدى إسهام الشعوب والأمم فيها، فالمرحلة المتأخرة من عمر الدولة العباسية، وإن عانت من الضعف السياسى، وانفرط عقدها، إلاَّ أنه لا يستطيع أحدٌ أن ينكر أن جل العلوم الدينية والطبيعية، وإن كان بعضها قد نشأ فى العصر العباسى الأول، لم تنم وتترعرع، ولم تزدهر وتتألق، إلا فى العصر العباسى الثانى، فكان بمثابة الرحم الذى تخلقت فيه الحضارة الإسلامية، وأن ذلك الضعف السياسى أتاح تنوع المنتج الحضارى فى شكله، وإن كان متوحداً فى جوهره، فظهرت ثلاثة مراكز حضارية فى بغداد القاهرة، وقرطبة، أثرت الحضارة الإسلامية.

ومع ذلك، وإن وافقنا هؤلاء المؤرخين فى اعتماد المعيار السياسى أساساً للتمييز بين مرحلتين مختلفتين من عمر الدولة العباسية، فإننا نأخذ عليه أن الحدود الفاصلة بين هاتين المرحلتين (العصرين) فيها بعض التجاوز.

إذ اتخذت جل الدراسات التى عرضت للتاريخ العباسى[١]، من سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، نهاية للعصر العباسى الأول وبداية للعصر العباسى الثانى، وهى المرحلة الفاصلة بين عهدى الواثق بالله، والمتوكل على الله، وتبعاً

لهذه النظرة، وذلك التقسيم، صُنف عهد الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) على أنه بداية عصر الضعف والانحطاط.

وقد كان لهذا التصنيف أثره الواضح فى رسم صورة باهتة - خلافاً للواقع - لهذا الخليفة، ولعهده، لدرجة أن بعض هذه الدراسات تكاد لا تشير إلى عهد هذا الخليفة، فالانطباع الأول الذى يخرج به المطالع لمعظم الدراسات المحدثة عن التاريخ العباسى، هو أن المتوكل خليفة ضعيف، لا له حول ولا قوة، وأنه كان ألعوبة بأيدى قوّاد جيشه من الأتراك، خلافاً لما يخرج به الباحث المدقق المنصف من خلال المصادر المعاصرة والقريبة من عهد المتوكل، إذ يجد الباحث نفسه إزاء واحد من خلفاء بنى العباس الأقوياء، وعهده من أكثر العهود إصلاحاً.

الإصلاحات العامة:

وإذا ما انفككنا من أسر هذه الدراسات التى اعتمدت قوالب جاهزة لحقب التاريخ الإسلامى، وبالارتداد صوب المرحلة التى تخلقت فيها أحداث التاريخ العباسى، وحاولنا الإطلاع عليها من خلال المصادر الأصلية، والمنابع الصافية للتاريخ الإسلامى، نجد أنفسنا أمام خليفة لا يقل عن أسلافه من الخلفاء العباسيين إن لم يفق بعضهم، وهو ما أكده أحد معاصريه من العلماء[٢]، حيث قال: «الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بنى أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السنن»[٣]، وهذا لا يعنى بالتأكيد انتقاصاً من بقية الخلفاء قبل وبعد المتوكل، وإنما إشارة إلى الإنجازات الكبيرة لهؤلاء الخلفاء، وقال آخر: «لما استخلف المتوكل على الله، نظر فى إصلاح العامة، والتفت إلى المظالم والمسجونين، والجبر لقلوبهم»[٤]، بل ويشير بعض المؤرخين إلى إنه كان أفضل ممن سبقه من الخلفاء حيث يقول: «وانتهج سياسة تأليف الناس بعد أن قلاهم وأعنتهم الخلفاء من قبله، فقال المتوكل معبراً عن ذلك: «إن الخلفاء كانت تتعصب على الناس ليطيعوهم، وأنا ألين لهم ليحبونى ويطيعونى»[٥]، فقرب التجار والفلاحين والصناع وأغدق عليهم الأموال، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنية، وأجّل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر[٦].

وهو ليس خليفة ضعيفاً كما يصوره بعض المؤرخين، إذ تمكن طوال عهده من تصويب الأخطاء السياسية والانحرافات الفكرية والمخالفات الإدارية، التى غرقت فيها الدولة، أو كادت، وأصابت بالخلل أجهزتها فى عهد أسلافه، وهو شىء لا يتصدى له إلاّ خليفة قوى.

مواجهة النفوذ التركى:

جاء المتوكل إلى الخلافة، وقد استبدت بها القيادات التركية التى نمت وترعرعت فى عهد المعتصم، ثم سيطرت وتحكمت فى عهد الواثق، فاستبدت بالسلطة واستأثرت بالمال، وزاد نفوذها فى البلاط العباسى، وكان هؤلاء يستجلبون أبناء جلدتهم، لتدعيم مراكزهم السياسية والعسكرية، فحاول المتوكل الحد من هذه السيطرة، والكبح من ذلك النفوذ والاستبداد لهذه القيادات التركية المتسلطة، فجرد بعضهم من مراكزهم السياسية والعسكرية، وحاسبهم فيما حازوه من أموال بطرائق غير شرعية فصادر بعضها[٧]، بل إنه عزم على اتخاذ عاصمة جديدة للدولة تكون بعيدة عن سامراء[٨]، والعراق، حيث تركز العناصر التركية، فوقع اختياره على دمشق وسار إليها سنة (٢٤٤هـ / ٨٥٨م)، إلا أنه كما تقول الروايات، استثقل ماءها، فعاد إلى سامراء بعد شهرين من المقام بدمشق[٩] وقد أوغرت هذه الإجراءات صدور القادة الترك ضد المتوكل وظلوا يتربصون به حتى قتلوه[١٠]، ثم استبدوا بعد ذلك بالخلافة وسيطروا على الخلفاء، فأصبح الخلفاء بعد ذلك يسيرون حسب إرادتهم، ولذلك فبموت المتوكل ابتدأ نفوذ الأتراك واستمر، ومعه ابتداء عصر الضعف السياسى للدولة العباسية، المعروف بالعصر العباسى الثانى[١١].

وربما أغرى تدخل القيادات التركية فى تولية الخليفة المتوكل على الله، بعد أن ترك أخوه الواثق الأمر دون أن يعهد إلى خليفة بعينه، ثم قَتْلُ المتوكل بعد ذلك بأيديهم، ربما أغرى ذلك بعض المؤرخين[١٢]، بتصور أن المتوكل كان خليفة ضعيفاً، جاء بأيدي الأتراك ثم ذهب على أيديهم، إلا أن ثمة سؤال يستوقف الباحث المدقق المنصف، ما الذى حدث على مدى خمسة عشر عاماً، بين تولية المتوكل (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، وقتله سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م)؟ ألم يجرِّد هذا الخليفة هؤلاء الأتراك وغيرهم من المتسلطين المسيئين استخدام السلطة، من سلطاتهم ونفوذهم؟ ألم يحاسبهم فيما انتهبوا من أموال الدولة، وفيما اغتصبوه من أموال الناس؟ ثم ألم يكن ذلك سبباً فى حقدهم عليه وتخلصهم منه

إعادة التوازن فى العلاقة بأهل الذمة:

كما أعاد المتوكل على الله التوزان المختل فى علاقة أهل الذمة بالمسلمين، بعد أن أفرط الخلفاء قبله فى التسامح مع أهل الذمة على نحو من الغفلة، ألحق الضرر بالمسلمين، وتجاوز الحدود التى وضعها الله للتعامل معهم، حتى استحوذوا على الوظائف المالية والإدارية فى الدولة، وتحكموا فى المسلمين وساموهم ألوان العسف.

فتدخل العلماء لدى المنصور لمنع ظلم موظفيه من أهل الذمة للناس[١٣]، وقويت شوكتهم أيام المهدى، فأنكر عليه العلماء تسليمه الأمانة التى خصه الله بها لأهل الذمة دون المسلمين[١٤]، وتظلم أهل مصر لدى المأمون لما قدم مصر، ممن استخدم عليهم من النصارى[١٥]، وعندما ولى المتوكل الخلافة كان قد استفحل خطر موظفى الدولة من أهل الذمة، وأخذوا يغصبون الناس ضياعهم ودورهم، فلامه العلماء فى تركهم يعبثون بالمسلمين، وأفتوه بعدم جواز استعمال أهل الذمة فى أعمال الدولة وتقديمهم على المسلمين[١٦]، فضلاً عن أنه اكتشف، غشهم للمسلمين، ونصحهم لأعدائهم[١٧]، ومحاولة الإيقاع بين الخليفة وكبار معاونيه، فقد دخل سلمة بن سعيد النصرانى[١٨]، على المتوكل، وكان يأنس به، فقال: «يا أمير المؤمنين أنت فى الصحارى والصيد، وخلفك معادن الذهب والفضة ومن يشرب فى آنية الذهب والفضة ويملؤها ذهباً عوضاً عن الفاكهة»[١٩]، ثم لما عرف المتوكل، حقيقة الأمر، أمر بعزل أهل الذمة من وظائف الدولة[٢٠]، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ملبسهم ومركبهم[٢١]، مسترشداً فى ذلك بتوجيهات العلماء[٢٢].

غير أن هذه الإجراءات التى اتخذها المتوكل ضد أهل الذمة لم تصل إلى حد الاضطهاد، كما رأى بعض المستشرقين[٢٣]، إذ أن ما فعله هو تجريدهم من المكاسب غير الشرعية التى حازوها، فى ظل تفريط بعض الخلفاء، وعدم التزامهم بحكم الله تعالى فيهم، إذ أراد لهم الصغار حيث تكبروا على دينه ورسوله، وحيث نهى عن الاستعانة بهم فى كثير من الآيات، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صدورهم أكبر»[٢٤]، كما أنها لم تمنع الخليفة من الوفاء بالتزام الدولة إزاءهم، بل وإعفائهم من بعض الالتزامات المفروضة عليهم لدى عجزهم عن الوفاء بها، فانقص عن يهود نابلس[٢٥]، دينارين من الخراج عندما شكوا إليه ضعفهم وعجزهم عن أدائه[٢٦].

إنها فتنة القول بخلق القرآن:

لعل أهم عمل قام به المتوكل أنه وضع حداً للانحرافات الفكرية التى أغرقت المسلمين فى بحر من الجدل والحيرة، وكادت تعصف بالمجتمع، وتأتى على بنيانه من القواعد، فأوقف فتنة القول بخلق القرآن، وتتبع مروجيها من المعتزلة بعد أن جرَّدهم من السلطات الواسعة التى تمتعوا بها فى عهود أسلافه من لدن المأمون وحتى الواثق[٢٧]، وواجه سائر البدع التى ظهرت فى عصره[٢٨].

وفى المقابل مال إلى العلماء وقربهم إليه، وألحَّ على من أبى منهم لإتيانه، فالتمس أحمد بن حنبل[٢٩]، واستجلب ذا النون المصرى[٣٠].

وقد كانت هذه الإجراءات الإصلاحية التى قام بها المتوكل موضع إعجاب وتقدير العلماء والشعراء والمؤرخين، فقال أحمد بن حنبل: «كان الناس فى خوض من الباطل واختلاف شديد يغتمسون فيه، حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين - يعنى المتوكل - فنفى الله به كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، ووقع ذلك من المسلمين موقعاً عظيماً»[٣١].

وعبرً عن ذلك أيضاً على بن إسماعيل[٣٢]، حيث قال: «أطفأ المتوكل نيران البدعة، وأوقد مصابيح السنة»[٣٣]، وهو تعبير عن ارتياح العلماء ورضاهم عن عهد المتوكل، إذ كان رأيهم هو المعيار الذى تقاس عليه المراحل التاريخية استقامة وسقوطاً قوة وضعفاً، فهم لا يحابون ولا يداهنون، ولا يخافون فى الله لومة لائم، وأثنى عليه الشعراء لإنهائه فتنة القول بخلق القرآن فقال البحترى[٣٤]:

ردوت الدين فذا بعد أن قد ... أراه فرقتين تخاصمان
قصمت الظالمين بكل أرض ... فأضحىَ الظلم مجهول المكان[٣٥]

وأكد ذلك المؤرخون سواء المعاصرون أم المتأخرون، فعدوا عهده امتداد لعصر القوة والازدهار، فقال اليعقوبى[٣٦]: «نهى المتوكل الناس عن الكلام فى القرآن، وأطلق من كان فى السجون من أهل البلدان، ومن أخذ فى خلافة الواثق»، وقال خليفة بن خياط[٣٧]: استخلف المتوكل فأظهر السنة وتكلم بها فى مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة، وبسط السنة، ونصر أهلها»[٣٨]، وأكد ذلك المؤرخون المتأخرون فقال ابن الجوزى[٣٩]: «ولى المتوكل فأظهر الله به السنة وكشف تلك الغمة فشكره الناس على ما فعل» وزاد على ذلك الذهبى[٤٠]، فقال: «فى سنة (٢٣٤هـ / ٨٤٩م)، أظهر المتوكل السنة، وزجر عن القول بخلق القرآن، واستقدم المحدثين».

وعلى مستوى العلاقات الخارجية، استعادت الدولة العباسية فى عهد المتوكل هيبتها، وقوى مركزها فى مقابل القوى المحيطة بها، فأعاد المتوكل تنشيط الجهاد بعد أن توقف تماماً فى عهد الواثق[٤١] فافتتح مدينة بارة[٤٢]، فى المغرب فى مستهل خلافته[٤٣]، وأخضع إقليم البُجة[٤٤]، سنة (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)[٤٥]، وانتصر على الروم سنة (٢٤٦هـ / ٨٦٠م)[٤٦]، وبلغ من اهتمام المتوكل بالجهاد أن حدَّث الأسطول البحرى الإسلامى، فزاد فى عدد سفنه وشحنها بالجنود[٤٧]، وحصَّن العواصم[٤٨]، والثغور[٤٩].

معيار التفكك السياسى:

وإذا كان البعض قد اتخذ من بداية التفكك السياسى مبرراً للتقسيم إلى

عصرين متميزين، عصر قوة، اتسمت فيه الدولة بالتماسك، وعصر ضعف بدأت أوصال الدولة تتفكك، حتى أفضى إلى انفراط عقدها، وتناثر الدويلات المستقلة هنا وهناك، فإن هذا لم يحدث ابتداءً من عهد المتوكل بل بدأ مع ظهور الدولة العباسية، وفى عصر الخلفاء الأوائل الذين وصفوا بالقوة، ووصف عصرهم بالعصر الذهبى للدولة العباسية، فالأمويون استقلوا بالأندلس سنة (١٣٨هـ/ ٧٥٥م)، فى عهد المنصور، وبنو مدرار استقلوا فى سجلماسة بالمغرب الأقصى سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)، أيضاً فى عهد المنصور، وفى خلافة المهدى استقل الخوارج الأباضية بالمغرب الأوسط (١٦٠هـ/ ٧٧٧م)، وأسسوا الدولة الرستمية[٥٠]، وأسس الشيعة الأدارسة لهم دولة فى المغرب الأقصى ابتداءً من سنة (١٧٢ – ٣٦٤هـ / ٧٨٩ – ٩٧٥م)، فى خلافة الرشيد[٥١]، ومثلهم الأغالبة، (١٨٤ – ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ – ٩٠٩م)[٥٢]، وهكذا فإن حركات الاستقلال عن الدولة العباسية قد بدأت مع ظهور الدولة، ولم تبدأ فى عهد المتوكل حتى نجعل من عهده بداية لمرحلة الضعف وتفكك أوصال الدولة.

وإذا كان اغتيال الخليفة المتوكل من قبل بعض أعوانه بمساندة بعض أفراد أسرته يعد مؤشراً على ضعف الخليفة والخلافة، فإن مثل هذا الأمر قد حدث قبل عهد المتوكل على الله، وإلاّ فماذا نسمى ما حدث للخليفة عمر بن الخطاب، الخليفة الثانى، عندما قُتل فى المدينة، وبعد ذلك ما حدث لعثمان ابن عفان، وما استتبع ذلك من قتل للخليفة على بن أبى طالب، وفى العصر الأموى قتل الوليد بن يزيد على يد ابن عمه يزيد بن الوليد، بل إن العصر العباسى الأول شهد هو الآخر قتل للخليفة الأمين على يد أخيه المأمون، وهكذا لو كان قتل الخليفة معيار لقوة أو ضعف الدولة أين سنضع عهود هؤلاء الخلفاء الذين ينتمون إلى عصور الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعصر العباسى الأول، عصور القوة والازدهار؟.

ثم إن امتداد خلافة المتوكل على مدى خمسة عشرة عاماً، ما كان له أن يحدث لو أن فى الخليفة شيئاً من الضعف.

ثم لنا أن نتساءل، إذا كانت هذه صفات المتوكل، وذلك نهجه وسياسته، وتلك مجريات الأحداث فى عهده، وذلك رأى معاصريه، والمؤرخين بعد ذلك فيه، فلماذا يوضع عهده ضمن العصر العباسى الثانى الذى وسم بالضعف؟ ثم من الذى وضع هذا التقيم وتلك الحدود الفاصلة بين عصور التاريخ، ومعايير تقسيم الحكم العباسى إلى عصرين؟ أليس بشراً يصيب ويخطئ؟ وهل هذه التقسيمات مقدمة بحيث يُحظر على الباحث الاقتراب منها والتعاطى معها، واستقراء مبرراتها؟ ثم لماذا نلزم أنفسنا بهذه التقسيمات ما دامت مبرراتها غير مقنعة؟ وغير ذلك من الأسئلة التى تجول فى ذهن الباحث لهذه

المرحلة من التاريخ الإسلامى، وعليه فقد يسمح لنا العرض السابق لتحديد نهاية العصر العباسى الأول بتجاوز الفترة الزمنية التى اصطُلح على أنها نهاية للعصر العباسي الأول وهى سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، إلى الدخول فى عهد المتوكل، وعده امتداداً للعصر العباسى الأول، عصر قوة الخلفاء والدولة، وعليه فسنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م) هى الحد والتاريخ الفاصل بين العصرين العباسيين الأول والثانى.

النتائج والتوصيات:

- إعادة النظر فى التحقيب الحالى للتاريخ العالمى.
- إعادة تحقيب التاريخ الإسلامى نسبة إلى الأحداث المؤثرة فى المجتمعات الإسلامية.
- إعادة النظر فى تقيم العصر العباسى إلى أول وثانى بناءً على معايير حضارية وسياسية، إضافة عهد المتوكل على الله إلى العصر العباسى الأول، واعتماد سنة ٢٤٧هـ بداية للعصر العباسى الثانى بدلاً من سنة ٢٣٢هـ.

الهوامش

(١) أحمد الحفناوي: الحضارة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، المنصورة، ط١، ١٩٧٩م، ص٣٩؛ حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٨٢؛ حسين محمد سليمان: الدولة الإسلامية في العصر العباسي، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢١؛ شاكر مصطفى: دولة بني العباس جـ١، ص٤؛ نادية صقر: السلم في العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص٢٥.

(٢) إبراهيم بن محمد التيمي: قاضي البصرة، أحد علماء الحديث، وإن ضعّفه بعضهم، لم أقف له على تاريخ وفاة. الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، جـ٤، ص١٣٠؛ ابن الجوزي: العلل المتناهية، تحقيق: خليل أنيس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، جـ١، ص٢٩٧.

(٣) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٢، ٣١٣؛ مرعي بن يوسف: تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين، ص١٢٣.

(٤) ابن واران: تاريخ العباسيين، تحقيق: المنجي الكعبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٥٧١.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٢؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٨.

(٦) يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص١٠٥.

(٧) يقول الذهبي: انحرفت الأتراك عن المتوكل لمصادرته وصيفاً وبُغا حتى اغتالوه، سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٨.

(٨) هي في الأصل: سُرَّ من رأى بناها المعتصم لتكون مقراً لجنده الأتراك بعد أن عثوا في بغداد فساداً، وشكا منهم أهلها للمعتصم، وتقع بين بغداد وتكريت شرقي نهر دجلة. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٩٥.

(٩) عز على أهل العراق أن تنتقل عاصمة الخلافة عنهم، إلى الشام، فتلطف شاعرهم يزيد بن محمد المهلبي لدي المتوكل لثنيه عن الانتقال إلى دمشق قائلاً:

أظن الشام يشمت بالعراق إذ عزم الإمام على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيه فقد تبكى المليحة بالطلاق

(١٠) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، (د.ت)، جـ٢، ص٤٩٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٨.

(١١) ومن نتائج دراسة أجراها أحمد سعود أحمد الحسن، خلص إلى أن تحول منصب الخلافة من الهيبة والقوة إلى الضعف والإضمحلال، تم بصورة سريعة، وليس تدريجياً حيث كان منصب الخليفة العباسي منذ نشأة الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٨٤٨م)، وحتى مقتل المتوكل سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، يتميز بالقوة، وأن الخليفة هو الشخص المباشر التصرف في إدارة شئون الخلافة، دور العامة في الأحداث السياسية في العصر العباسي من (٢٤٧هـ / ٨٦١م، إلى ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٢٢، يناير سنة ١٩٩٨م.

(١٢) يقول صابر محمد دياب: والحق أن تاريخ وفاة الخليفة الواثق بن المعتصم (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، هو البداية الحقيقية لتدخل النفوذ التركي، وتغلغله في شئون الدولة، فالواثق لم يعهد بعده بولاية

الأمر، ما دفع الترك لتجاوز ابنه وتولية أخيه المتوكل على الله الذى مات مقتولاً بأيدى الأتراك أنفسهم، (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، الخلافة ونظم الحكم فى الدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٦٨.

(١٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، جـ١، ص ١٦٧، ١٦٨.

(١٤) المصدر نفسه: ص ١٦٨، ١٦٩.

(١٥) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٧٩، ١٧١.

(١٦) الخلال: أحكام أهل الملل، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤/١٩٩٤م، ص٥١، ٥٤.

(١٧) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ١ ص١٧١، ١٨٧.

(١٨) سلمة بن سعيد النصراني: أحد كُتّاب المتوكل، كان يختان الأموال العامة، ويعبث بها، ولم يكتف بذلك، بل حاول الإيقاع بين الخليفة وبين المخلصين من أعوانه ليخلو له المجال، فيستحوذ على الخليفة، إلا أن الخليفة تنبه لما يريد فعزله وصادر أمواله. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص٣٥٨.

(١٩) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ ١، ص ١٧١، ١٧٢.

(٢٠) المصدر نفسه: ص ١٧٢، ١٧٤.

(٢١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ ٢، ص١٨٣، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٤١، ٧٤٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٤؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٢.

(٢٢) المصدر السابق: ص ص٧٦٠، ٧٦١.

(٢٣) يقول «أرنولد» فى كتابه الدعوة إلى الإسلام: لكن حال المسيحيين لم تكن قائمة على هذا التسامح الذى كان فى خلفاء صدر الإسلام، فقد كانت تفرض أحياناً فى سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التى تضايق الأهالى من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين، وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة، فأصدر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) والمتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م) مراسيم بهذا الصدد. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص٧٠؛ انظر كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، جـ ٢، ص٤٨.

(٢٤) آل عمران: الآية ١١٧.

(٢٥) نَابُلُسُ: مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بين جبلين، وفيرة المياه بينهما وبين القدس عشرة فراسخ، وبظاهر نابليس جبل ذُكِرَ أن آدم عليه السلام سجد فيه، وذهب البعض فى تفسير اسمها إلى أنها كانت فى الأساس واد فيه حية عظيمة تسمى لُس، متغلبة على الوادي، فاحتالوا عليها حتى قتلوها، ونزعوا نابها، فسمى المكان بنابلس أى ناب لس، ياقوت: معجم البلدن، جـ ٥، ص٢٨٨.

(٢٦) البلاذرى: فتوح البلدان، تقحيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢١٦.

(٢٧) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص ٣٥، ٣٦.

(٢٨) واجه المتوكل البدع التى ظهرت فى عهده، مثل التبرك بالقبور والأشجار، وسب الصحابة، وغيرها، من ذلك تبرك بعض أهل قزوين بشجرة بجوار مسجد الربيع بن خثيم، واجتماع بعض

الرافضة على سب الصحابة. البلاذرى: فتوح البلدان، ص٤٥١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص٣٥١.

(٢٩) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٩، ٣٢٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء: جـ ١٢، ص٣٦.

(٣٠) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٥.

(٣١) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣٣٠.

(٣٢) على بن إسماعيل بن أبى بشر – إسحاق – بن سالم بن إسماعيل، ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعرى، له مصنفات كثيرة فى الرد على الملحدة والمعتزلة والرافضة والجهمية، وهو بصرى سكن بغداد وتوفى بها سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٤م). الخطيب: تاريخ بغداد، جـ ١١، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٣٣) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٣، ٣١٤.

(٣٤) البحترى: اسمه الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد الطائى البحترى المنبجى، يكنى بأبى عُبادة شاعر عصره، مدح الخلفاء والوزراء، وقد أثنى على شعره معاصروه من الشعراء أمثال أبى تمام بمنبج توفى سنة (٢٨٣هـ / ٨٦٩م). الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٣، ص٤٨٦، ٤٨٧.

(٣٥) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٩.

(٣٦) تاريخ اليعقوبى: جـ ٢، ص ص ٤٨٤، ٤٨٥.

(٣٧) خليفة بن خياط العصفرى: يكنى بأبى عمرو، من تابعى التابعين فى البصرة، أحد علماء الطبقات والتاريخ، ومع ذلك فقد اهتم بالحديث فرواه عن عدد من العلماء، أهم كتبه تاريخ خليفة بن خياط والطبقات، توفى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٧م. الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١١، ص ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٣٨) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣١.

(٣٩) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٣١٢.

(٤٠) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣٤.

(٤١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ص ٣٢٤، ٣٣١؛ ٣٣٢. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص ص ٢٦٥، ٢٦٦.

(٤٢) بارة: مدينة بالمغرب على شاطئ البحر، فى أرض تعرف بالأرض الكبيرة بينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً، كان أهلها نصارى من غير الروم، غزاها جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها، ثم غزاها خلفون البربرى، ففتحها أول خلافة المتوكل على الله. البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٢٨.

(٤٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٢٨.

(٤٤) البُجة: نسبة إلى البجاوة، وهم أمم عظيمة تقطن النوبة، وهى تفصل بين العرب والحبش، ومدينتهم يقال لها هجر، يأتيها المسلمون للتجارة، وأهل البجة ليس لهم بيوت، إنما ينزلون خياماً من الجلود، ذكر اليعقوبى أنهم – لا دين لهم، يأكلون الذرة، وينتفون لحاهم، ويحاربون على الجمال. اليعقوبى: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط. ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ص٩٥؛ ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص٤٠٣.

(٤٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ص ٣٣٤، ٣٣٥.

(٤٦) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣٤.

(٤٧) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٢٣.

(٤٨) العواصم: من عَصَمَ يعصم عصماً، فهى مفرد عاصمة بمعنى مانعة، والعواصم التى نحن بصدد

الحديث عنها، بلاد بين المسلمين والروم قصبتها أنطاكية، وهي مدن حصينة، سميت بذلك لأنها تعصم المسلمين من عدوهم. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٢٩٧٩.

(٤٩) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ص ٢٣٣، ٤٦٢، الثغور: جمع ثغر وهو فى اللغة كل فرجة فى جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك، ويوصف به الفم، وبالذات ما تقدم من الأسنان، ويقصد به هنا أطراف البلدان التى يخشى عليها خطر الغزو، براً وبحراً، فهو على ذلك ما يلى دار الحرب، ويفصلها عن بلاد المسلمين، ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص ٤٨٦؛ أحمد عطية: القاموس الإسلامى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م، جـ ١، ص٥٣٨.

(٥٠) الحريرى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى «الدولة الرستمية»، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ص ١٩١، ٢٠٠.

(٥١) انظر حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، د. ت، ص١٧٧.

(٥٢) انظر حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، ص ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المخطوطات

مرعي بن يوسف: (بن أبى بكر بن أحمد الكرمى الحنبلى ت ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م).

– تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم (٢٣٩٨)، ميكروفيلم (٣٥٧٨٢)، تاريخ طلعت.

ثالثاً: المصادر المطبوعة:

البلاذري: (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م).

– فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، ، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن الجوزى: (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن البغدادى ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م).

– مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق سعد كريم الفقى، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.

– مناقب الإمام أحمد بن حنبل، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، د.ت.

الخطيب: (أبو بكر أحمد بن على البغدادى ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م).

– تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الخلال: (أبو بكر أحمد بن محمد ت ٣١١ هـ /٩٢٣م).

– أحكام أهل الملل (من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

– الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م).

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د. ت.

الذهبى: (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م).

ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢/ ١٩٨٢م.

السيوطى: (جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين ٩١١ هـ / ١٥٠٥م).

- تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماخي الرفاعي، محمد عثمان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

ابن شداد: (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م).

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الطبري: (محمد بن جرير ت ٣١٠/ ٩٢٢م).

- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء الأجلاء، مكتبة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.

- تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن قيم الجوزية: (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠م).

- أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

- أحكام أهل الذمة، تحقيق عبد الرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

ابن وادران: (حسين بن محمد كان حياً سنة ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م).

- تاريخ العباسيين، تحقيق المنجي الكعبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م.

ياقوت. (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ /١٢٢٩م).

- معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ /١٩٩٠.

- اليعقوبي: (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).

- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.

- كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨.

رابعاً: المراجع الحديثة:

- أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

الحريري. محمد عيسى: مقدمات البناء السياسي للمغرب العربي (الدولة الرستمية)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١٣٩٩، ١هـ/ ١٩٧٩م.

- حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، مطبعة الإستقلال الكبرى، القاهرة، د.ت.

- حسن علي حسن: تاريخ المغرب العربي (عصر الولاة)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، د.ت.

- حسين محمد سليمان: الدولة الإسلامية في العصر العباسي، دار عالم

الكتب، الرياض، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، وكالة المطبوعات، الكويت ، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- صابر محمد دياب: الخلافة ونظم الحكم فى الدولة الإسلامية، دار الأنصار، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.
- ولاية المظالم ومجالسها، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.
العش. يوسف: تاريخ عصر الدولة العباسية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٦/١٩٩٨م.
- نادية حسين صقر: السلم فى العلاقات العباسية البيزنطية فى العصر العباسى الأول، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

خامساً: المراجع المعرّبة: الأجنبية:

- أرنولد، سير. توماس.
- الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوى، مكتبة النهضة، المصرية، القاهر، د.ت.

سادساً: بحوث منشورة فى دوريات:

- أحمد سعد أحمد الحسن
- دور العامة فى الأحداث السياسية فى العصر العباسى من بعد سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد: ٢٢، رمضان ١٤١٨/ يناير ١٩٩٨م.

د. محمد سيد كامل (*)

النصارى والنشاط الاقتصادى فى مصر الفاطمية فى ضوء أوراق البردى العربية

التمهيد:

تمتع النصارى بوجه عام فى مصر الفاطمية بالتسامح والمساواة، فقد أطلق لهم حرية العقيدة، والمشاركة فى الوظائف الإدارية والمالية، هذا بالإضافة إلى دورهم الاقتصادى فى مصر عامة.

فمن خلال دراستي لأوراق البردي العربية حاولت إلقاء الضوء على أنشطة النصارى الاقتصادية في مصر في العصر الفاطمي فقمت بتقسيم الموضوع إلى تمهيد يتناول مدى الحرية والتسامح التي تمتع بها نصارى مصر الفاطمية ثم دراسة لأنشطتهم الاقتصادية كما وردت في أوراق البردي العربية من خلال عدة نقاط:

أولاً: حرية امتلاك الأراضي الزراعية للأقباط والضرائب المفروضة عليها.

ثانياً: اهتمام الأقباط ببعض المحاصيل الزراعية.

ثالثا: النصارى والتقدم الصناعي والحرفي.

رابعا: النصارى والتجارة الداخلية في المدن والقرى المصرية.

خامساً: النصارى وحقهم في بيع وشراء العقارات.

ولقد بدأ التسامح الدينى من قبل الفاطميين للنصارى بمجرد وصول القائد جوهر الصقلى إلى الديار المصرية فى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م، واستعان ببعض النصارى فى الإشراف على بعض كور مصر من أمثال أبو اليمن قزمان بن مينا الذى ظل فى منصبه الإشرافى حتى زمن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى(١). ومما لاشك فيه أن الخليفة المعز اشتهر منذ بداية حكمه بمصانعتهم والاعتماد عليهم فى الكثير من المناصب الإدارية، بعد

(*) مدرس بكلية دار العلوم - جامعة المنيا.

تيقنه من تعذر الاعتماد على أهل السنة فى هذه الأمور ، لمخالفتهم له وللفاطميين عموماً فى المذهب ، فى حين أن أهل الذمة وخاصة النصارى عرفوا ببعدهم عن التعصب لهذا المذهب أو ذاك ، فضلاً عن كفاءتهم الإدارية فى النواحى الاقتصادية.

كذلك اهتم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بدور العبادة القبطية كالكنائس والأديرة التى انتشرت فى أرجاء البلاد، ومن ذلك أنه أمر بإعادة ترميم بعض الكنائس ، وأصدر مرسوماً بترميم كنيسة المعلقة بقصر الشمع ، وقام بدفع نفقات البناء من خزانته الخاصة ، وأوكل إلى بعض جنوده بحراسة هذا العمل حتى لا يتعرض إليهم المسلمون[٢].

ولم يقتصر تسامح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى على ذلك ، بل شمل شيئاً آخر أكثر أهمية يتصل باهتمامات المعز برجال الكنيسة فى الديار المصرية، فشملهم بالرعاية والتكريم ، ونضرب لذلك مثلاً بما كان يصنعه بساويرس بن المقفع - أسقف مدينة الأشمونين بمصر الوسطى- الذى كان يستدعيه إلى مجلسه الخاص وتجرى بينه وبين كبار فقهاء المذهب الشيعى مناقشات ومحاورات دينية، فكثيراً ما تناظر ساويرس بن المقفع والقاضى النعمان فى هذه الأمور ، وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على محاولة الخليفة الربط بين رجال الدين المسيحى ورجال الفقه الشيعى فى دولته.

كذلك لم يتدخل الخليفة فى شئون الكنيسة الداخلية، ولم يعترض على تعيين البطاركة، وذلك بعد وفاة الأنبا مينا البطريرك الحادى والستين للكنيسة القبطية، حيث اجتمع الأساقفة لانتخاب من يخلفه من البطاركة ، فوقع اختيارهم على أحد التجار ويدعى إبراهيم بن زرعه ، فرسموه بطريركاً عليهم باسم الأنبا إبراهام السوريانى ، ليكون البطريرك الثانى والستين للكنيسة القبطية[٣] وقد كان معروفاً أن البطريرك يعتبر موظفاً حكومياً ولابد من تعيينه مع موافقة الخليفة[٤]. فيشير ترتون[٥] فى كتابه إلى أن تعيين البطاركة كان باستئذان الولاة والخلفاء ، كما حدث فى عهد الوالى قره بن شريك حيث قدم الملكانيون ألف دينار لخزانة الدولة فعين نسطاسيوس بطريركاً ملكانياً للإسكندرية، وكما حدث فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى عندما استأذن الإمبراطور «لاون» الخليفة فى تمكين أحد الخلقدونيين من الوصول إلى البطريركية فى قزما Kasmos أن أقاموا بلا بطرك سبعاً وسبعين سنة.

وعلى نسق المنهج الخلافى السابق سار الخليفة العزيز بالله على سياسة أبيه الخليفة المعز لدين الله فى التسامح والعطف مع نصارى مصر، وأظهر اهتماماً واضحاً بكنائسهم إلى درجة ترميم بعضها على نفقته ككنيسة

القديس مرقص أبو مرقودة (٦) ، وكنيسة أبو سيفين بظاهر مدينة الفسطاط (٧). فضلاً عن ارتباطه برباط المصاهرة مع النصارى فتؤكد الروايات أنه تزوج من سيدة مسيحية أنجبت له ابنه الحاكم بأمر الله وابنته ست الملك، والتى كان لها تأثير كبير فى سياسة الدولة الداخلية آنذاك (٨).

وقد بلغ من عطف الخليفة العزيز بالله على نصارى مصر أن سمح بمشاركة المسلمين للأقباط فى احتفالهم بأعيادهم الدينية مثل عيد الغطاس مخالفاً بذلك والده المعز لدين الله الذى منع القبط من أعمال اللهو والمجون فى هذا اليوم (٩)، كما شارك المسلمون فى كورة أخميم فى صعيد مصر الأقباط الاحتفال بعيد دير الطير (١٠).

وحتى عصر الحاكم بأمر الله الذى ينسب إليه تعصبه للشيعة واضطهاده لأهل الذمة وخاصة القبط (١١) ، نجد أنهم تمتعوا ببعض المميزات السياسية والاقتصادية، فكان من بينهم وزراء للحاكم بأمر الله وعمالاً للخراج الذين كانوا من القبط دون اليهود (١٢)، حيث عين عيسى بن نسطورس فى منصب الوساطة فى الدولة(١٣) .

وقد أوجز ابن الراهب (١٤) سياسة الحاكم تجاه الأقباط بقوله : «أنه تشدد على النصارى ... ونكل بهم، وأخرب كنائسهم ، وقتل أكابرهم ، وعاقبهم وأسلم منهم خلق كثير».

وفى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠، منح الأقباط الأمان على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم وترك لهم الحرية الدينية، حيث عاشوا فى هدوء وسلام، فزادت حرية الرهبان فى امتلاك الأراضى الزراعية بالسجل الذى أصدره الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م، فقد أبقى الأراضى فى أيديهم، ومكنهم من استغلالها، كما سمح لهم بالمحافظة على زراعتهم وغلاتهم فى سائر الأقاليم والمدن، وصان الأراضى الموقوفة على الأديرة (١٥).

وفى خلافة الخليفة الآمر بالله سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢٠ م تساهل مع ملاك الأراضى - مسلمين وأقباط- فلم يحصل منهم ما كان معروفاً باسم البواقى(١٦) أو يطالبهم بسداده ، حين كتب وزيره الأفضل بن أمير الجيوش مرسوماً قرأ فى جميع البلدان والأقاليم بترك بواقى الخراج من المتقبلين وضامنى الأراضى الزراعية (١٧)، فأفاد الأقباط من ذلك كثيراً .

وتشير أوراق البردى إلى العديد من الوظائف الدينية فى مصر خاصة فى القرى منها وظيفة الأسقف أو الأسقفى كما ورد فى البردية: «شهد إبراهيم بن كيل بن سويرس الأسقفى، وهو من أصحاب المراتب الدينية، ويكون موجوداً فى كل

بلد من تحت يد المطران». وقد ورد لقب الأسقفي ضمن مجموعة البردى المحفوظة في المعهد الشرقى فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية (١٨) وهناك لقب الشماس وهو من الألقاب الشائعة التى وردت فى نصوص ايصالات الجزية والخراج ودافعى الضرائب، والتى حفظها جروهمان فى قوله: «أدى أبميرة الشماس ...» (١٩).

أولا : حرية امتلاك الأراضى الزراعية للأقباط والضرائب المفروضة عليها :

أهتم الفاطميون بالأراضى الزراعية، فقد امتلكت الدولة الفاطمية الأراضى التى كانت من أملاك الأسرة الإخشيدية، أما الأراضى التى كانت لأفراد الشعب فتركت فى أيديهم تبعاً لما نصت عليه وثيقة الأمان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م(٢٠)، كذلك أتاح الفاطميون لأقباط مصر حرية امتلاك الأراضى الزراعية ، والتصرف فيها بالبيع والشراء كيفما شاءوا دون تدخل من الخلافة، وتشير إلى ذلك وثائق البردى العربية بصورة واضحة، فهناك وثيقة كشفت فى الفيوم تشير إلى ذلك بقولها: «هذا ما اشترى يحنس بن شنوده بن بطاقس من مقطلنى بنت شنوده بن أيوب، وهما جميعا من سكان ططون من كورة الفيوم حصتها من الأراضى المشاع بينهما ..»(٢١)، إن النص السابق يضع أيدينا على جملة من الحقائق الخاصة بعقود البيع فى ذلك الوقت منها : توثيق عقد الشراء والنص عليه بأسماء الأشخاص ، إلى جانب تحديد الرقعة المكانية للقطعة المشتراة، وما يهمنا فى هذه البردية تعيين اسمى «يحنس بن شنوده – مقطلنى بنت شنودة» وهما قبطيان.

كذلك تشير الوثيقة نفسها إلى شئ من العلاقات الطيبة بين الأقباط والمسلمين فى كورة الفيوم آنذاك حيث شهد أحد المسلمين على وثيقة البيع المذكورة، بقولها : «يشهد عبد الصمد بن يوسف بن هارون على إقرار مقطلنى بجميع ما فى هذا الكتاب ويكتب شهادته بخطه» (٢٢).

كذلك منح الفاطميون الحرية لأغنياء القبط فى التبرع بأملاكهم إلى الأديرة ووقف الأراضى عليها ، فقد سمح الخليفة العزيز بالله لأحد تجار مدينة قفط بصعيد مصر بالتبرع بأربعين زوجاً من البقر لأحد الأديرة، من أجل إدارة السواقى الملحقة بأراضى الدير لتسهيل عمليات الرى بها (٢٣).

كذلك اتيحت للأقباط فى عهد العزيز حرية امتلاك الأراضى الزراعية وخاصة للأديرة ، فكان هناك كثير من الأراضى الزراعية والبساتين الموقوفة على الأديرة ليصرف منها على متطلبات الرهبان فى حياتهم اليومية (٢٤)، دون أن يفرض عليهم الضرائب واشتغل كثير منهم بحرفة الزراعة داخل أديرتهم مثل دير رهبان ريفة بأسيوط، ويشير العمرى (٢٥) عن رهبانه بقوله :«ولساكنيه

رزق من الاشتغال بالزراعة ، كذلك الدير الأبيض بأخميم الذى يعمل رهبانه فى زراعة النخيل [٢٦] أما عن دير أبى مقار فقد عمل رهبانه على الإشراف على أراضى زراعية كبيرة بها كروم وبساتين ورعى المواشى ويدار فيها طواحين ومعاصر للزيت [٢٧] ، وقد أكد ساويرس بن المقفع ذلك بقوله [٢٨] : «وبالدير خيرات كثيرة لا تحصى».

وقد تعددت الأديرة فى مصر التى بها حق امتلاك أراضى زراعية فى العصر الفاطمى لدرجة أنه قيل إن الرهبان كانوا يقومون بأعمال الزراعة والفلاحة فى عدد كبير منها، وأنهم استخدموا السواقى لرى تلك الأراضى، ففى دير القديس ميخائيل بقنا كان الرهبان يزرعون أراضى الدير ويغرسون الأشجار عن طريق السواقى والأبقار هذا إلى جانب زراعة الخضر والقمح والكتان [٢٩].

ويشير أبو صالح الأرمنى [٣٠] إلى أن هناك العديد من الأراضى الزراعية التى أوقفها الفاطميون على الكنائس والأديرة، لم تؤخذ منها ضريبة الخراج، وتقدر بحوإلى تسعمائة وخمسة عشر فداناً منها أربعمائة وسبعة وستين بالوجه القبلى، وأربعمائة وثمانية وأربعين بالوجه البحرى، وذلك حتى نهاية عام ٥٦٩ هـ /١١٧٩م.

وقد ساد نظام فى العصر الفاطمى وهو تقبل الخراج وجابيته على الأراضى الزراعية، أى أن يقوم شخص فى المزاد العلنى بدفع الضرائب المقررة نقداً أو أقساطاً على الأراضى المنزرعة فى قرية معينة أو عدة قرى، ثم يقوم بتحصيلها من أفراد الجهة التى التزم بقبالتها[٣١]، وكانت الأراضى الزراعية يتقبلها متقبلوها بالأربع سنوات، لاتاحة الفرصة للمتقبل لكى يعوض النقص فى حالة المحصول السئ.

وكان على المتقبل أن يقوم بشق الترع، وإصلاح الجسور، وإقامة المشاريع فى النواحى المتقبلها ، إلى جانب حمل ما على أهل البلاد من الخراج فى أوقاته، ففى وثيقة من أوراق البردى مؤرخه بالقرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى جا فيها: «مزاحم بن اسحق تقبل الأرض على ما جرى به العادة أربع سنوات»[٣٢] ، ويؤكد نظام القبالة فى مصر عدد كبير من وثائق البردى العربية.

وقد عمل العديد من أقباط مصر فى الوظائف الخاصة بالزراعة والشئون الزراعية فى مصر الفاطمية، فكان ديوان الخراج فى القاهرة له فروع فى الأقاليم كان يتولى إدارته والإشراف عليه موظف يسمى الجسطال، وأن هؤلاء الموظفين كانوا فى الغالب من الأقباط، والجسطال كما وردت فى أوراق البردى

العربية لفظ يوناني معناه : «مساعد صاحب الكورة ، وقد وردت هذه الوظيفة بصيغة الجمع مبتدئة بحرف القاف «قساطيل» مرتبطة بعدة أسماء قبطية منها «بتانة وأندونه – وأصطفن – القساطيل بمعزة خليفتي عامل ... [٣٣]». كذلك كان متولى جمع الضرائب وتحرير الوثائق يسمى موظفوه بالجهابذه ، وأن أغلبهم من الأقباط أيضاً والجهابذة من الوظائف الشهيرة عموماً فى نصوص البرديات العربية ، وهى تعنى الصراف الذى يعنى عمله جمع الخراج وتحرير سجلات وكشوف الخراج والجزية والضرائب الأخرى ، وغيرها من الأمور الهامة المتعلقة بمصالح الدولة المالية والإدارية [٣٤].

وهناك العديد من وثائق البردى العربية تشير إلى ذلك ففى وثيقة يشار إلى اسم الجسطال بقوله «أدى فلان بن الموفق عن يديه على أناس شتى ... ثلثة دنانير ونصف وثلث وثلث ربع مثقال – الدينار الذهبى– إلى مينا القسطال بحضرة خليق بن فلان ...» ، ويضيف فى البردية نفسها «شهد سعيد بن القسم على إقرار مينا بن إبراهيم الجسطال ...[٣٥] ويدل اسم الجسطال على أنه قبطى الديانة ، وأنه يتسلم مال الخراج فى مقابل إعطاء إقرار على نفسه بدفع هذه الضريبة ، وأن هناك شاهد على هذا الدفع مع ذكر اسمه.

وقد وضحت هذه الأشياء كذلك فى بردية أخرى عبارة عن إيصال خراج يدفعه إلى الجسطال يفهم منها أن اسمه قبطى ، مع وجود شاهد على الإقرار ، فتشير بردية بقولها «أدى عيسى بن أحمد عما يلزمه من الخراج عن قرية تدعى سير من ضياع الأمير أيده الله نصف وثلث وثمن مثقال إلى .... بن ايهبوه القسطال بحضره خليفة محمد بن عيسى ...» [٣٦].

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن مستأجرى الأراضى من النصارى كانوا يقومون بدفع ما عليهم من خراج إلى الجهابذه وهم أيضاً من الأقباط ، وذلك ما أشارت إليه وثيقة من البردى العربى بقولها : «أدى يحنس بن اتناس وسلهوه بن يحنس عما يلزمهما من الخراج عما زرعا على مروان بن أحمد بسبوا دينارين وثلثى وثمن دينر مثاقيل بلا صرف ولا أجرة إلى ايهيوه بن ماعه ومينا بن شنودة الجهبذين ....» [٣٧].

ويحدد جروهمان اسم الجهبذ فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٥ م باسم بقام بن شنودة الجهبذ [٣٨].

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن قيام العديد من الأقباط للعمل على جمع الضرائب كصرافين وجهابذة أدى إلى ازدياد ثرواتهم بصورة واضحة لدرجة أن الرحالة ناصر خسرو [٣٩] الذى زار مصر فى عهد الخليفة

المستنصر الفاطمي يقول أنه رأى نصرانياً لديه من الطعام ما يمكنه من إطعام أهل مصر لمدة ستة سنوات كاملة ، وذلك حينما نقص ماء النيل فى إحدى السنوات السبع ، مما يدل على ما تمتع به الأقباط من حرية الأمتلاك وكسب الأرزاق.

كذلك نلحظ أن بعض رجال الدين من الأقباط كانت تفرض عليهم ضريبة الخراج عن الأراضى الزراعية المملوكة إليهم، وقد وجدت وظيفة الشماس وهى من الوظائف الدينية المعروفة لدى الأقباط وألصقت باسم ابميرا وفرضت عليه الضريبة فتشير البردية بقولها «أدى ابميرا الشماس وسمية عما يلزمهما من الخراج» (٤٠).

وهناك العديد من البرديات العربية التى تحمل كشوف بأسماء دافعى الضرائب من الأقباط، والتى تؤكد أنهم كان لهم الحق فى امتلاك الأراضى الزراعية أو استئجارها من أصحابها والقيام بالزراعة والوثيقة عبارة عن سجل ضريبة قبطى مكتوبة على شكل زوايا قائمة ، وبجانب الاسم مقدار الضريبة التي عليه (٤١).

ويشير أبو صالح الأرمنى (٤٢) إلى أن ملاك الأراضى الزراعية كثيراً ما كانوا يقومون بتأجيرها فى حالة تعذر زراعتها إلى غيرهم ممن يستطيع القيام بتلك الأعباء مع مراعاة قيام المستأجر بالالتزام بالعناية بالأرض وإقامة الجسور وأداء ضريبة الخراج ، فقد قام أحد رجال الدين الأقباط بتأجير قطع من أراضي الدير لعدد من المسلمين فى مقابل مبالغ معينة من المال .

كذلك تشير وثيقة من أوراق البردى العربية وهى عبارة عن إقرار بصحة اتفاق خاص بكراء أراضي زراعية بقولها «شهد الشهود . . . على إقرار انتناس بن سستة بن انتناس الساكن القرية المعروفة بنواية من قرى أسفل أشمون. . . وجواز أمره أن سلائخ أراضى الأملاك المعروفة بهور قلته والمنسوبة إلى بقام بن هلستوس . . وأقر انتناس بن سسته بن انتناس أنه تسلم من مزاحم أراضى الأملاك المذكورة» (٤٣).

كذلك كان من القبط بعض الذين عملوا كأجراء فى الأراضى الزراعية ، مهمته القيام بأعمال الحرث والغرس وغيرها فى مقابل أجر معلوم سواء كان نقداً أم عيناً ، ففى وثيقة من البردى ترجع إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عبارة عن حساب أجور عمال الزراعة فيه عدد كبير من الأسماء ما بين أسماء مسلمة وأسماء قبطية ورد اسم «. . . ابن اسحاق يوناس (٤٤)» ومن الاسم يعرف أنه قبطى الأصل.

ثانيا : اهتمام الأقباط ببعض المحاصيل الزراعية :

يأتي في مقدمة المحاصيل الزراعية التى اهتم بها أقباط مصر محصول القمح، فهو من المحاصيل الشتوية التى تزرع فى الأراضى الخصبة فى جميع أنحاء مصر ويكثر زراعته في الصعيد [٤٥] لأنه الغذاء الأساسى للسكان، وكان منه معظم متحصل الديوان من الغلال ومبلغه نحو مليون أردب فى السنة[٤٦].

وتشير أوراق البردى إلى أهمية محصول القمح فى مصر، فكان أصحاب الضياع يطالبون وكلائهم بالمحافظة عليه، فى وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عبارة عن خطاب مرسل من وكيل أحد المزارعين إلى صاحب ضيعة يقول فيه : «وذكرت يا سيدى أيدك الله أمر القمح وشدة حاجتك إليه. . .»[٤٧].

وهناك وثيقة من البردى كشفت فى الفيوم ترجع إلى عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م عبارة عن إقرار بدين يدفع قمحاً بين عدد المزارعين الأقباط وآخرين من المسلمين تقول : «أقر ابيمه بن بجوش المزارع ببلجسوق ... ديناً ثابتاً وحقاً لازماً له من الإقرار به لزمزم بن نصر من القمح، ... أقر عبدالمسيح بن بول الشمس المزارع ببلجسوق ... ديناً ثابتاً وحقاً لازماً له من الإقرار به لزمزم بن نصر من القمح. . .»[٤٨].

كذلك تشير بردية أخرى ترجع إلى المحرم سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م وكشفت فى الفيوم أيضاً عبارة عن إقرار بدين عينى يدفع قمحاً بين قبطى ومسلم على تحديد نوع القمح المسلم بدل الدين بقولها: «أقر شبيب بن مقاره المزارع .. وفى ذمته خالص ماله ديناً ثابتاً أقر لزمزم بن نصر من القمح الطيب الصالح السالم من العلث أربعة أرادب وثلث النصف من أردبين وسدس. .»، وكذلك أمر بلتوس بن الخليج المزارع .. لزمزم بن نصر من القمح الطيب الصالح السالم من العلث ثلثة أرادب وربع أردب. . .[٤٩].

كذلك اهتم الرهبان بزراعة القمح فى أديرتهم ، فكان يزرع فى دير القديس ميخائيل بقنا مساحات واسعة من القمح[٥٠]. كما كان يزرع فى بعض أديرة أسيوط وأخميم نوع ممتاز من القمح يطلق عليه اسم القمح اليوسفى[٥١].

كذلك اهتم الأقباط بغرس النخيل فى طول البلاد وعرضها، فقد زرع فى أسوان على جانبى الطريق وكانت النخلة تنتج منه ما يقرب من عشرة أرادب تمراً[٥٢]، وزرع النخيل فى قوص والبلينا ودندره وأسنا التى اشتهرت بزراعته ويحصل منها فى السنة الواحدة أربعون ألف أردب تمراً[٥٣].

وقد اهتم الرهبان بغرس النخيل فى بعض أديرتهم مثل دير المراغة التابعة لأخميم فقد كان فيه أكثر من أربعمائة رأس نخلة مثمرة[٥٤]، كذلك اهتم رهبان طمويه بازاء حلوان بالنخيل والكروم[٥٥]. وهناك عدة أديرة فى صعيد مصر خاصة فى قرية دندرة زرع بها النخيل بكميات كبيرة، وغرس النخيل بكميات كبيرة فى الدير الأبيض بأخميم ، والذى اشتهر رهبانه بزراعته[٥٦].

ثالثا: النصارى والتقدم الصناعى والحرفى :

برع الأقباط فى العديد من الصناعات والحرف فى مصر الفاطمية ويأتى فى مقدمتها صناعة النسيج، حيث ورثوا كثيراً من أسرار الصناعات عن أجدادهم ، كما انتشرت مراكزها فى العديد من الأماكن التى أقام فيها الأقباط كمناطق الصعيد فى أخميم وأسيوط والبهنسا والأشمونين، ومناطق الشمال كالدلتا ودمياط وتنيس[٥٧]، وقد مال الأقباط فى حرف النسيج إلى الإكثار من رسم الحمام فى زخارفهم ، ورمز الحمام عندهم إلى روح القدس وليس ببعيد أن يكون ثمة علاقة بين الفنانين الأقباط فى استعماله فى تلك الزخرفة وبين التسامح الدينى الذى تمتع به القبط بوجه عام فى عهد الفاطميين، وانتشرت صناعة المنسوجات الحريرية فى أخميم بصعيد مصر، وترجع معظم المنسوجات المستخرجة من مقابر هذه المنطقة إلى اسم زخريا النساج القبطى[٥٨] وهذا يدل دلالة واضحة على براعة الصناع الأقباط فى تلك الصنعة، وتنوع صناعتهم، ليس فى صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية فقط، بل فى صناعة المنسوجات الحريرية.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى تفوق أقباط إخميم فى تصدير منتجاتهم من النسيج المعروف بالصوف الرفيع أو المعلم أو المطرف من الكتان ، فكان الثوب منها يقدر بعشرين ديناراً ، كما وجد فى أخميم مصانع أهلية إلى جانب المصانع الحكومية التى اشتهرت بصناعة النسيج المعروف بالطراز[٥٩].

وقد انتشرت صناعة النسيج فى مدينة الأشمونين، التى تدلل وثائق البردى العربية على وجود الأقباط بها وتمركزهم فى قراها ، ففى وثيقة ترجع إلى سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٢م فى العصر الفاطمى عبارة عن عقد بيع منزل ما نصه :«اشترى اسطوروس التنيسى من بيسه الساكن مدينة الاشمونين من المكنا القزاز بن مينا السقا الساكن بهذه المدينة المذكورة[٦٠] » ووثيقة أخرى ترجع إلى الفترة نفسها تشير إلى ذلك بقولها : «هذا ما اشترى . . . من قلته بن كيل بن جريج النصرانى الساكن مدينة الأشمونين» ، ويضيف هذا المنزل المطل على الكنيسة المعروفة «بالبرتاتس»[٦١] وفى وثيقة أخرى ترجع إلى نفس

الفترة بتاريخ ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٩م كشفت فى الأشمونين تشير إلى عقد بيع منزل بين «بييسه التنيسى النصراني»، وريحان بن نشوان المعروف بالعجلاتى[٦٢]، والاسم الاول واضح أنه قبطى يقيم فى الأشمونين. وقد ازدهرت صناعة النسيج بصورة واضحة فى الأشمونين، وأنتجت مصانعها الأهلية الأبسطة والستور والمضارب والمقاطع السلطانية والثياب[٦٣]، بالاضافة إلى غزل الصوف لشهرتها بتربية الأغنام، وقد أشار ابن ظهيرة[٦٤] إلى شهرة الأشمونين فى صناعة المنسوجات الكتانية وجودتها لدرجة أنها كانت تصدر إلى عاصمة الديار المصرية.

ولقد لعب أقباط مدينة تنيس دوراً بارزاً فى صناعة نوع من أستار هوادج الجمال ولبود الخاصة بالخلفاء الفاطميين من نسيج البوقلمون[٦٥].

وبقيت أسرار صناعة النسيج وصناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة فى أيدى الأقباط طوال العصور الإسلامية - حتى العصر الفاطمى[٦٦] - سواء من أعتنق الإسلام منهم أم من ظل على ديانته، وقد شارك بعض الرهبان فى أديرتهم فى هذه الصنعة، وأتقنوا فنها، وفى حالة تصدير هذه المنسوجات جرت العادة أن يكتب عليها نوع كل قماش ليطمئن المستهلك على ما يشترى[٦٧] فمنها الصوف الشفاف والمطارف، والمطرز والمعلم الأبيض، والملون، وأقمشة المساند والمخاد، والبسط والستور، والعصائب والطرح[٦٨].

ويشير العديد من وثائق البردى العربية إلى إزدهار صناعة النسيج بين الأقباط فى مصر بعامة والصعيد بخاصة، منها وثيقة عبارة عن إيصال خاص بنسيج الكتان ورد فيها ما نصه: «ستين حزمة من كتان تدفتها - أى نسجتها»[٦٩] كما وردت صيغة البزاز، أى تاجر الثياب وبائعها وهى فى الواقع غير حرفة الخياط وذلك لأن البزاز إنما يقوم بعمل التاجر الذى يبيع ويشترى الثياب ومتاع البيت بينما الخياط يقوم على حياكة وصنع هذه الثياب ولقد اتضح ذلك من خلال نص إحدى البرديات الموجودة بمتحف اللوفر فى باريس، حيث ورد ذكر كلتا الحرفتين فى سطر واحد «.. البزازين يحبسوا المتاع والخياطين للسوق يسرعوا ولا كنهم يفسدوا المتاع وكنت أوصيت ..[٧٠]»، أما فى أوراق البردى العربية فقد وردت عدة وثائق منها وثيقة عبارة عن أثمان أقمشة مصنوعة عن طريق بزاز، ومباعة فى السوق[٧١].

ومن الجدير بالذكر أن الأقباط اتخذوا لأنفسهم خطاً واحداً فى صناعتهم فكانوا إذا نسجوا شيئاً من المنسوجات كتبوا اسمهم عليه، وهذه كانت عادتهم جيلاً بعد جيل[٧٢].

ومما يدلل على أهمية عنصر الأقباط فى صناعة النسيج ما ذكر فى وثائق البردى العربية والتى كشفت فى منطقة البهنسا بصعيد مصر، وهى وثيقة ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى / العاشر أو الحادى عشر الميلادى عبارة عن قائمة بعدة أشخاص يملكون أنوالاً يدوية للنسيج، خاصة نسيج الكتان والقطن فى داخل منازلهم ، وعددهم ثلاثة عشر شخصاً يمتلكون ما بين نولاً واحداً وخمسة أنوال(٧٣).

ولأهمية صناعة النسيج في العصر الفاطمي، فقد فرضت الحكومة سيطرتها على تجارته، فأجبرت الأهالى على تحديد قيمة الأثواب، خاصة ما تنتجه المصانع من الأثواب الأهلية ، فهناك وثيقة من البردى ترجع إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عبارة عن كشف حساب وتسليم أثواب مختلفة ، يحدد فيه عدد الربطات التى تحوى المنسوجات، وتظهر الوثيقة كيفية البيع وتسليم هذه الملابس، وكتبت أثمان الأقمشة على كل ربطة من النسيج بقولها: «أن سلم .. رزقه عددها خمسة عشر ثوب مرتفعة الثمن ستة عشر ثوب مرتفعة الثمن منها ثلث عشر» (٧٤) وهذا يوضح ارتفاع ثمن أسعار الأقمشة فى تلك الفترة، ورغبة التجار فى جمع أكبر قدر ممكن من المال.

وظهرت عدة حرف يدوية متنوعة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بصناعة النسيج منها: حرفة الخياطة، وحياكة الثياب ، فقد وردت هذه الصيغة على عدة شواهد قبور كشفت فى جبانة أسوان، وهى محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة عليها صيغة الخياط (٧٥). كذلك ورد لقب الخياط فى العديد من الوثائق البردى التى ترجع إلى العصر الفاطمي مثل وثيقة سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٩م وكشفت فى الأشمونين عبارة عن عقد بيع ورد فيها هذا اللقب بقوله : ينتهى إلى اصطبل المكنا بأبوالسرى الخياط(٧٦).

كما انتشرت صناعة اللبود وصباغة الثياب وتلوينها فى مصر، وذلك نتيجة طبيعية لقيام الأقباط بزراعة مادة النيلة ، التى سهلت عملية الصباغة وتلوين المنسوجات، لاستخراجها من هذا النبات (٧٧) ،وهناك العديد من شواهد القبور تشير إلى حرفة الصباغة بين الأقباط والمسلمين على حد السواء(٧٨).

لم تكن صناعة النسيج هى الحرفة الوحيدة التى برز فيها أقباط مصر ، واتقنوا صناعتها ، بل تعدى ذلك إلى فن العمارة والبناء ، حيث اشتهروا بكثرة إقامة الأبنية والكنائس ، التى تشهد بقاياها على مهارتهم وعظمة صنعتهم ، ليس ذلك فى العصر الإسلامى فحسب ، بل عملوا فى تلك الحرفة فى العصر الرومانى، فقد شيدوا العديد من الأبنية والكنائس ، وهى تشهد على مهارتهم

في إسنا وطيبة وسقارة وأسوان والدير الابيض والدير الأحمر (٧٩) ، ولابد أن نشير هنا إلى أن المسلمين استعانوا بمهرة القبط في تشييد مبانيهم ومساجدهم في العصور الإسلامية ، وقد ذكر كثير من الأثريين أن العرب تأثروا في مساجدهم بالأقباط ، كالمحراب في المسجد فإنه مأخوذ من الحنيه التي توجد في صدر الكنيسة من جهة الشرق ، والمئذنة المأخوذة في أبراج الكنيسة ، وهذا يدل على تسامح العرب مع القبط بأن تركوا لهم هذه الصناعة مدة طويلة في أيديهم (٨٠) ، ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما ذكره المقريزي (٨١) إلى أن الخليفة المستنصر الفاطمي ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش قد استعانا بقبطي في الإشراف على بناء سور القاهرة وأبوابه وهو يوحنا الراهب ، الذي قام بعمله على خير وجه.

كذلك برع الأقباط في الصناعات الخشبية التي ورثوها عن أجدادهم ، فكانوا على دراية كبيرة بفن زخرفة الأخشاب (٨٢).

وإلى جانب سبق الأقباط في صناعة النسيج ، فقد برعوا في صناعة السكر والحلوى في مصر الفاطمية ، وهي الصناعة التي قامت في أماكن زراعة قصب السكر ، حيث إحتاج هذا المحصول إلى درجة حرارة عالية ، فتمركزت زراعته في صعيد مصر ، وفي وثيقة من البردي العربية ، كشفت في الأشمونين ، تعود إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تشير إلى حساب أسبوعي لسكر موزع على عدة أفراد بعضهم من القبط جاء فيها : «سمويل بن حلياس ستة عشر ابلوجة .. وورثه قتوس ثلثة عشر ابلوجة (٨٣)».

كما برع الرهبان في الأديرة والكنائس في صناعة السكر ، خاصة في أخميم(٨٤) وقوص وريعة بأسيوط (٨٥) وإسنا ، واستمر الرهبان في دير السيدة العذراء بأسيوط لا يدفعون خراجاً عن الأراضي التابعة لكنيستهم حتى قيام الدولة الأيوبية على الرغم من أن رهبان هذا الدير كانوا يديرون بساتين من النخيل والزيتون والرمان والخضراوات وقصب السكر بالإضافة إلى طاحونة للغلال ، وعدة أفران ومعصرة للزيت الحار (٨٦) ، وهذا يدل على تسامح الدولة الفاطمية مع الأقباط.

أما عن أشهر مصانع الحلوى والسكر فقد تمركزت في عدة مدن منها مدينة سمهود بقوص ، أقيم بها سبعة عشر حجراً لعصر القصب (٨٧) ، حيث انفردت مدينة قوص وقفط بمكانة عظيمة بزراعة قصب السكر وصناعته ، فكان ما يقرب من أربعين مسبكاً للسكر معظمها تحت سيطرة الأقباط ، وفي دير أبي مكار كان هناك طواحين ومعاصر للعسل والزيت ، وبها خيرات كثيرة لا تحصى (٨٨). ومن وثائق البردي العربية نستنتج حق امتلاك الأقباط لمعاصر القصب في

صعيد مصر بالذات ففى وثيقة ترجع إلى سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦م كشفت فى قرية ببلجسوق فى قرى إقليم الفيوم ، عبارة عن عقد بيع منزل بين عدد من الأقباط تشير حدود المنزل امتلاك بعض الأقباط إلى معصرة قصب سكر فى تلك القرية بقولها: «الحد الثانى هو الحد البحرى للمنزل ينتهى إلى معصرة ورثته أولاد أرون» مما يؤكد الدور الفعال للأقباط فى القرى وامتلاكهم معاصر للقصب واستخراج العسل فيها»(٨٩).

هذا إلى جانب انتشار الإتجار فى عسل السكر إلى العاصمة ، فتشير وثيقة من البردى عبارة عن خطاب خاص بشحن سفينة من الصعيد بمدينة إدفو إلى تاجر عسل بالعاصمة ، بقوله : «فأنظر إيدك الله أن تأمر بمن يحمل إلى مركبة مائة جره وسبع عشرة جره عسل» (٩٠) ويشير المقريزى(٩١) إلى أهمية صناعة الحلوى فى صعيد مصر بقوله :«وأغذية أهل مصر مختلفة فأهل الصعيد يتغذون كثيراً بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ، ويحملونها إلى العاصمة وغيرها ، فتباع هناك وتؤكل».

رابعا : النصارى والتجارة الداخلية فى المدن والقرى المصرية :

شارك الأقباط فى تسيير حركة التبادل التجارى داخل مصر فى العصر الفاطمى جنباً إلى جنب مع المسلمين، فقد كانت التجارة هى عصب الاقتصاد القومى، لما تطلبه المحاصيل الزراعية والحرف والصناعات لتصريف فائض انتاجها فى الأسواق ، وهناك عدة وثائق من البردى العربى تشير إلى أسماء أقباط فى متنها، فتشير إحدى الوثائق إلى تجارة الخشب بقولها : «وصل بقية الخشب الذى بالأقصر، وهو ستة وعشرين قطعة ، وقد حملتها على معدية عيسى بن تنوس (٩٢)»، والاسم المذكور يدل دلالة قاطعة على أنه من الأقباط، ولابد هنا أن نشير إلى أن الدولة الفاطمية قد فرضت على نوع معين من الأخشاب نظام الاحتكار فلا يستطيع التجار العاديين البيع أو الشراء فى هذا النوع وهو السنط فقد فرضت الدولة عليه رعايتها ، نظراً لأهميته فى صناعة السفن، ولكن على الرغم من ذلك فإن بعض أنواع الاخشاب يسمح بالاتجار بها، ويحق للتجار نقلها عن طريق المراكب والمعديات التى يمتلك أكثرها الأقباط ففى وثيقة من البردى العربى ، ترجع إلى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى تشير بقولها :«كتابى يا سيدى . . . وكتبت إلى أن أمضى مع أبى بقوله النجار أن أمضى معه حتى أصلح الخشب (٩٣)».

ولم تقتصر تجارة الأخشاب على النقل بالسفن، بل تعداه إلى تجارة الحطب نفسه ، وعملية نقله من مكان إلى آخر وتحديد سعره ، ففى وثيقة ترجع

إلى سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م وهى عبارة عن خطاب خاص لدفع أموال يقول فيه : «.....لشيخى العزيز اسحق النوبى من محبة مينا بن شنوده ... ما بينى وبينك عن الحطب .. بالعشرة دنانير على أنك تقوم بها – وتسلمها- أخى بقام بن رهه... » تسلم له العشرة دنانير ويكون دنانير حاكمية كلها» ومن ذلك يتضح التبادل التجارى فى الحطب بين بعض الأسماء القبطية والمسلمين ، كما نلاحظ تحديد نوع الدينار بالدنانير الحاكمية التى ضربت فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وهى من الدنانير الذهبية (٩٤).

ومن الطبيعي أن تقام الأسواق فى المدن والقرى ، ومن المشهود له أن مدن مصر غنية بأسواقها ، حيث امتدت دكاكينها على طول الشوارع على الجانبين ، وقد اتسعت شهرة بعض تلك الأسواق كأسواق القاهرة والفسطاط، فقد قدر عدد أسواقها بحوالى مائتى سوق (٩٥) كذلك اشتهرت أسواق أخميم التى اختصت ببيع منتجات معينة كالأقمشة الصوفية والكتانية والفواكه المختلفة والحبوب (٩٦) ، ولاتساع شهرة أسواق أخميم كان التجار يأتون إليها من خارج المدينة، فانتشرت بها العديد من القياسر والفنادق والخانات لإقامة التجار الأجانب فيها (٩٧).

ولتأكيد تمركز النصارى فى مدينة أخميم ، فقد جرت العادة فى أعيادهم أن يخرج أقباطها من كنيستى سوتير- أى المخلص من العذاب- وكنيسة مارى ميخائيل مع الأناجيل والشموع العظيمة فى شوارع أخميم ويقفون على باب قاضى المدينة – احتراما وتبجيلاً – وعلى أبواب كبار رجالات الحكم من المسلمين وأعيان المدينة يقرءون بعض فصول من أناجيلهم فى فرح وابتهاج(٩٨).

هذا إلى جانب تمركز النشاط التجارى فى المدن بالأسواق ، كان لكل طائفة من التجار بالفسطاط قسم معين يجلسون فيه ، ويستمر البيع فى هذه الأسواق إلى ما بعد الظهر ، ثم يتناول التجار غذائهم ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا فى المساء (٩٩).

وقد وردت صيغة تجار الفسطاط فى وثيقة من البردى المحفوظة فى متحف اللوفر فى باريس بفرنسا، وهى تحدد جهة عمل هؤلاء التجار، ولم تحدد البردية نوع التجارة التى يمارسونها، وهى بردية غير مؤرخة عثر عليها فى مدينة الفيوم بمصر، تشير إلى تعبير تجار الفسطاط بقولها :«فأما التجار الذى كتب عليهم تجار الفسطاط بالجزية فانظر فى الكتب ... »(١٠٠).

وقد أشار الرحالة ناصر خسرو (١٠١) إلى عظمة واتساع أسواق الفسطاط،

وتعدد أنواع الفواكه والخضراوات بها ، كما استخدم تجارها نهر النيل فى نقل بضائعهم وربط أسواقها بمختلف أسواق المدن الكبرى فى شمال مصر وجنوبها ، وتشير وثيقة من البردي كشفت بمدينة أدفو بأسوان - إلى شحن سفينة بكميات من العسل إلى الفسطاط ، لتوزع فى أسواقها وتباع ، بقولها: «انظر أعزك الله أن تأمر من يحمل إلى - الفسطاط- مائة جره وسبع عشر ة جره »[١٠٢].

ويشير الأدريسى [١٠٣] إلى استخدام تجار بلاد النوبة لنهر النيل ، فى نقل سلعهم حتى منطقة الجنادل ، ومن ثم تنقل البضائع على ظهور الجمال حتى مدينة أسوان ، وتقدر هذه المسافة بالطريق البرى بحوإلى اثنى عشر مرحلة ، ثم تنقل هذه البضائع مرة ثانية على ظهر السفن بالنيل حتى تصل إلى الفسطاط .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى كثرة أسواق القاهرة ، والتى عددها المقريزى[١٠٤] فى مؤلفه وأشهرها سوق أمير الجيوش بدر الجمالى ، وسوق العطارين وسوق البزازين وسوق الحريرين وغيرها من الأسواق ، التى كان يتم التبادل التجارى بها عن طريق إقامة الكثير من الدكاكين والمحال التجارية حتى قدر عددها بأكثر من عشرين ألف دكان ، والتى فرضت الخلافة الفاطمية عليها أحكام الحسبة ، وتعتبر الدكاكين ملكاً خاصاً للدولة تقوم بتأجيرها للتجار فى نظير مبلغ معلوم يدفع كل شهر ، ويقدر ما بين دينارين وعشرة دنانير [١٠٥].

ولم تقتصر الأسواق على المدن البارزة فى مصر الفاطمية والعواصم فقط ، بل نجد أن هناك العديد من الأسواق في صعيد مصر ، فهناك أسواق منيه بن خصيب التى امتازت بوقوعها على نهر النيل مما ساعد على ازياد نشاطها التجارى خاصة أن السفن النيلية المقلة للحجاج والمسافرين من القاهرة إلى قوص يمرون بها فإخميم بها العديد من الفنادق والخانات لإقامة التجار بها . وبالتالى ازدهرت التجارة الداخلية وعمرت الأسواق بها[١٠٦].

كما زخر إقليم البهنسا بصعيد مصر بالعديد من الأسواق ، وارتفعت مكانه أسواقه لوقوعه على طريق الواحات ، فعمرت التجارة وكثرت المنتجات ، وتخصصت بعض الأسواق بسلع معينة مثل التمر والزبيب والفواكه [١٠٧].

أما عن أشهر التجار الأقباط بمصر الفاطمية ، فإننا نجد فى عهد المعز لدين الله التاجر إبراهيم بن زرعة ، الذى اشتهر بسعة ثروته وكثرت تجارته ، وعظيم إحسانه وصدقاته [١٠٨] كذلك التاجر إبراهيم بن بشر من تجار

الإسكندرية ، الذى ذاع صيته فى عهد الحاكم بأمر الله ووصلت مكانته إلى درجة عالية فى البلاط الحكومى ، نتيجة لكثرة هداياه ولعظم بضاعته من الجواهر وغيرها والتى كان يبيعها لرجالات الدولة (١٠٩).

ولا يفوتنا أن نشير فى حديثنا هذا عن تمتع الأسواق والتجار الأقباط بالأمان والأمن، نتيجة ما نشرته الحكومة الفاطمية من تسامح مع الأقباط والطمأنينة فى نفوس التجار ، لدرجة أنهم فى بعض الأسواق كسوق البزازين بالفسطاط كان تجار الحلى والصاغة لا يغلقون أبواب دكاكينهم فى أثناء غيابهم ومغادرتهم السوق ، بل كانوا يسدلون عليها الستائر ولا تمتد يد اللصوص إلى تلك الاشياء الثمينة (١١٠).

خامسا : النصارى وحقهم فى بيع وشراء العقارات :

وإذا نظرنا إلى وثائق البردى العربية بعين متفحصة، فإننا نجد أن التجارة الداخلية لم تكن قاصرة على التبادل التجارى فى الأسواق فقط، بل نجد أن هناك بيعاً وشراء للعديد من العقارات والأراضى الزراعية بين الأقباط أنفسهم أو بينهم وبين المسلمين فعلى سبيل المثال هناك وثيقة ترجع إلى شهر رجب سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٦م عبارة عن عقد بيع منزل، كشف فى مدينة الفيوم ، جاء فيه « . . . . هذا ما اشتراه متوس بن ثيدر الأجير وزوجته سرنه ابنت سلة بن هرمينه من بلهيو ابنت فوريل ومن والدتها قرهبوه ابنت قرى وهما جميعاً من أهل الضيعة المعروفة ببلجسوق قرية من قرا كورة الفيوم اشتروا ... جميع المنزل الذى هو ملكها إرثا عن والدها قوريل وعمها ببنوده الشماسى(١١١)». ومن هذه البردية يتضح أن الاسماء قبطية سواء الشارين أم البائعين بالاضافة إلى أن المنزل كان ورثاً من أحد الشمامسة.

كما تمدنا الوثيقة نفسها عن قيمة العملة المتداولة فى هذا العقد بقولها « . . . بثمن مبلغه من العين الوازن خمس دنانير عينا ذهباً وازنه جيادا. . »(١١٢) مما يوضح أن قيمة العملة كانت من الدنانير الذهبية الخالصة ليس بها غش أو تدليس.

وفى وثيقة أخرى من أوراق البردى العربية عبارة عن عقد بيع منزل آخر ترجع إلى سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٣م كشف فى مدينة الفيوم بقرية منهرى- وهى من القرى التى تمركز فيها النصارى حتى يومنا الحالى - تشير هذه الوثيقة إلى أن التبادل التجارى والبيع والشراء لهذا المنزل كان بين أشخاص من القبط ، وأنه تم فى العصر الفاطمى ويثبت ذلك تحديد الوثيقة بعام ٤٢٣ هـ/١٠٣٣م كما

تشير إلى أن الشهود على هذا العقد كانوا من المسلمين الذين كتبوا العقد بايديهم ، بقولها : « هذا ما أشترى اسحق بن انبيله من ابنت اخته دليمه ابنت يعوق المنهراوى ... اشترى بنصف دينار وثمن دينار ... شهد فضل بن فرج بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب بيده ، شهد مسلم بن إسماعيل على إقرار صح المقر بما فيه وكتب بيده فى تاريخه (١١٣)».

ولم يقتصر بيع المنازل بين الأقباط فى قرى أقليم الفيوم ، بل كان شاملاً العديد من المدن والقرى فى الديار المصرية فى العصر الفاطمى، ودليلنا على ذلك الوثيقة التى كشفت فى مدينة الأشمونين بمصر الوسطى والتى ترجع إلى سنة ٤٤١ هـ /١٠٥١م والتى تدل أسماء المشترين والبائعين على أنهم من الأقباط فى الأشمونين ومقيمين بها بقولها : « هذا ما أشترى المكنا بأبو العلا القزازا بن مينا السقا الساكن مدينة الأشمونين من قلته بن كيل بن جريج النصرانى القزاز الساكن بهذه المدينة المذكورة .. وفى الجانب البحرى منها على الكوم المطل على الكنيسة المعروف بالبرتانس... مبلغه أربعة دنانير وازنه مستنصرية وخمسة رباعيات وازنه معزية ..(١١٤)».

وهذه الوثيقة توضح لنا إلى جانب كون الشارى والبائع من القبط ، فإن تعاملهما بالدنانير الذهبية التى ضربت فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وأن التداول بالدينار المعزى الذى ضرب في عهد الخليفة الفاطمى الأول المعز لدين الله الفاطمى كان مازال التعامل به حتى ذلك التاريخ ، وربما اشتد الطلب على بقايا هذه الدنانير بعد الشدة العظمى فى عهد المستنصر بالله الفاطمى.

ولم تتوقف عملية بيع وشراء هذا المنزل عند هذا الحد ففى وثيقة أخرى ذكرت بعام ٤٤٢ هـ /١٠٥٢م أى بعد عام واحد من اتمام عقد الشراء السابق قام المالك الجديد وهو أبو العلا القزاز بن مينا السقا ببيع هذا المنزل إلى أحد الأقباط وهو اسطوروس التنيسى بين بيسه الساكن مدينة الاشمونين بمبلغ أقل مما اشترى « ... دفع المشترى اسطوروس ... إلى البايع المكنا بأبو العلا القزاز بن مينا السقا جميع الثمن ومبلغه أربعة دنانير وازنة مستنصرية (١١٥)».

وهذا يؤكد أن عمليات البيع والشراء تأثرت بصورة كبيرة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، وأن القيمة الشرائية قلت فى تلك الفترة ، مع اختفاء الدينار المعزى من الوثيقة.

وإذا دققنا النظر فى أوراق البردى العربية فإننا نرى أن بيع وشراء العقارات لم يكن قاصراً على النصارى فقط ، بل هناك حركة تبادل فى البيع بين المسلمين أو بين المسلمين والأقباط فى العصر الفاطمى، ففى بردية تعود إلى شوال سنة ٤٤٦ هـ /١٠٥٦م عبارة عن عقد بيع بين أبو اليسر بن شبيب عاله لنفسه من خليفة بن يمن المقدامى اشترى منه جميع ما ذكر أنه له من والدته فطيمة ابنه بلقاش (١١٦)».

وإذا دققنا النظر فى وثائق البردى العربية فإننا نرى إلى جانب عملية تيسير البيع والشراء هناك نظام السمسرة، الذى يحدد أى الطرفين يتحمل قيمة السمسرة ففى وثيقة من العصر الفاطمى ترجع إلى سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٩ م عبارة عن عقد بيع منزل بين سارة ابنت قلته القزاز الساكنة مدينة الأشمونين ورد فى الوثيقة بقولها: « ... بذلك وقعت الشهادة وعلى هذا المشترية سمسرة هذا النصف من جميع المنزل فهو حق السوق دون البايعين لها (١١٧)».

الهـوامش

١- ساويرس بن المقفع: سيرة الآباء والبطاركة، حـ٢، صـ ٨٨، مخطوط رقم ٦٤٣٤ بدار الكتب المصرية ٤ أجزاء.

٢- أبو صالح الأرمني: تاريخ أبو صالح الأرمني، المعروف بتاريخ كنائس وأديرة مصر، صـ ٤٥، طبعة أوكسفورد سنة ١٨٩٣م؛ وقد وردت صيغة «حراس القبط» ضمن البرديات العربية المحفوظة في مكتبة المعهد الشرقي في براغ بجمهورية التشيك، وهي بردية تنسب للقرنين ٢- ٣هـ/ ٨-٩م، ولفظة حراس القبط تعني الحراس الأقباط وبالبردية ثبت يشير إلى أجور الحراس الأقباط، «بقية أجرى بلقورة ...» هذا بالإضافة لوجود العديد من أسماء القبط مثل مونه، وبهيوه، وبقام وغيرهم (سعيد مغاوري: الألقاب وأسماء الحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية، ج١، ص ٣٣٧، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٣- ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب، صـ ١٣٣، نشر لويس شيخو، طبعة بيروت عام ١٩٠٣م.

٤- ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ص، ٩٣، ترجمة حسن حبشي، طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٧م.

٥- ترتون: نفس المرجع السابق صـ ٨٣.

٦- أبو صالح الأرمني: تاريخ أبو صالح، صـ ٣٥.

٧- الروزاوري: ذيل تجارب الأمم، حـ٣، صـ ١٨٦؛ يحتوي على حوادث خمسة وعشرون سنة من ٣٦٩هـ إلى ٣٩٣هـ، طبعة القاهرة سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م؛ كذلك لم يتدخل العزيز بالله في اختيار رؤسائهم، فعندما توفى البطريرك أوفانيوس اجتمع البطاركة لاختيار خليفة له وهو البطريرك إبراهام دون تدخل من العزيز وذلك سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، ثم أقام اليعاقبة خلفاً له البطريرك فيلايلوس سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٦م لمدة أربعة وعشرون سنة دون تدخل من العزيز (المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، جـ ٤، صـ ٣٩٨، طبعة النيل سنة ١٣٢٤هـ).

٨- يحيى بن سعيد الأنطاكي: صلة تاريخ أوتيخا المعروف بالتاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ ٢، صـ ١٦٤: ١٦٥، ترجمة كراتشكوفيسكي وفاسيليف، باريس سنة ١٩٣٤.

٩- ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ١، صـ ٤٦: ٤٧، الطبعة الأولى، بولاق سنة ١٣١١هـ.

١٠- عيد دير الطير: سمي بذلك لما قيل أن الطير المعروف ببوقير يأتي إلى الدير من كل مكان، ويدخلون رؤوسهم في شق من الجبل الواحد تلو الآخر، وهم يصيحون إلى أن يعلق رأس أحد هذه الطيور فيضطرب حتى يموت، ومن ثم يرجع باقي الطير عن هذا الموضع. (الشابستي: الديرات، صـ ٢٠١- ٢٠٢، تحقيق كوركيس عواد، الطبعة الثانية، طبعة المعارف ببغداد، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

١١- يشير المقريزي إلى أن الحاكم بأمر الله تشدد مع أقباط مصر وأمرهم بهدم بعض الكنائس وأباح ما فيها من أثاث وبنى في مواضيعها المساجد، وقد أكد كلامه بأن أصدر كتبه إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والأديرة فعم الهدم سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣ م، (الخطط، جـ١، صـ ١٨٤)، كذلك أمر الحاكم بأمر الله بمنع الاحتفال بعيد الزيتون، لما كان يحدث فيه من اللهو حيث أمر بألا يحمل ورقة من ورق الزيتون، ولا من سعف النخيل في كنيسة من الكنائس ولا يرى شيئاً من ذلك في يد مسلم أو قبطي (آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ ٢، صـ ٢٨٥، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، طبعة دار الكتب العربية ببيروت، لبنان).

١٢- فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، جـ ١، صـ ١٨٤، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

١٣- وللحقيقة التاريخية فإن عيسى بن نسطورس كان وزيراً فى الدولة منذ عهد العزيز بالله حيث استبد بشئون الحكم دون المسلمين لدرجة أن ارتفعت الشكوى منه للخليفة العزيز فأمر بالقبض عليه لولا تدخل ست الملك وشفاعتها عنه وتقديمه مبلغ ثلثمائة ألف دينار لخزينة الدولة (الروزاوزي: ذيل تجارب الأمم، جـ ٣، أحداث سنة ٣٨٠هـ، صـ ١٨٧، المقريزي: الخطط، جـ٤، صـ ٣٩٩).

١٤- تاريخ ابن الراهب، صـ٨٢: ٨٣، لقد وصل اضطهاد القبط مداه فى الدولة العباسية فى عهد الخليفة المتوكل على الله، سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م عندما أمرهم بلبس الطيالسة عسيلة اللون، ووضع إشارة الصليب على صدورهم وغيرها من الشروط (ابن زين القاضى : شروط النصارى ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ تاريخ ورقة رقم ١٢؛ ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، صـ ١٣١.

١٥- Sterm: Fatimid decrees, P. 160, driginal, Documents from the Fatimid chamcey, P. 160. (London, 1937).

١٦- قد جرت العادة فى نظام القبالة فى العصر الفاطمى أن يحسب لكل متقبل المبالغ التى ينفقها على عمارة الجسور وشق الترع وحفر الخلجان وأن يتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة من جهات المتقبلين، ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقى، (المقريزي: الخطط، جـ ١، صـ ١٣١).

١٧- المقريزي: نفس المصدر السابق والجزء، صـ ١٣٤.

١٨- سعيد مغاوري: الألقاب ، جـ ١، صـ ١١٨.

١٩- سعيد مغاوري، نفس المرجع السابق، والجزء، صـ ٤٩٧.

٢٠- المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ص ٧٠ ، نشره وحققه جمال الدين الشيال ، طبعة دار الفكر العربى سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

٢١- جروهمان: أوراق البردي العربية ، جـ ١، صـ ١٥٣، ستة أجزاء، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وراجع الترجمة عبد الحميد حسن، طبعة دار الكتب المصرية.

٢٢- جروهمان: نفس المرجع السابق، والجزء والصفحة.

٢٣- أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح، صـ ١١٠.

٢٤- Sterm: Fatimid Decrees Driginal, Documents from the Fatimid chemcey, P. 17.

٢٥ - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، جـ ١، صـ ٣٨٤، تحقيق أحمد زكى، طبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٢٤م.

٢٦- العمرى: نفس المصدر السابق، والجزء ، صـ ٣٧٤.

٢٧- ساويرس بن المقفع : سيرة الآباء البطاركة، جـ ٢، صـ ١٠٤.

٢٨- نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

٢٩- اعتمد المصريون فى رى أراضيهم على مياه النيل أما بالنسبة للأديرة فقد اعتمدوا فى رى أراضيهم على السواقى والدواليب ومياه الآبار والعيون التى ترفع مياهه بواسطة الأبقار (أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح، صـ ٩٨) .

٣٠- أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، صـ ١٣١، وقد استعان العزيز بالله بكثير من الأطباء من الأقباط ورفع من مكانتهم من أمثال الطبيب القبطى منصور بن مقشر المعروف بأبى الفتح المصرى (ابن القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، صـ ٢١٩، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٢٦هـ).

٣١- المقريزى الخطط، جـ ١، صـ ١٣١.

٣٢- جروهمان: أوراق البردى العربية ، جـ٢، صـ ٥٤.

٣٣- سعيد مغاورى : الألقاب ، جـ١ ، ص ٣٠٥ .

٣٤- سعيد مغاوري : نفس المرجع والجزء ، ص ٣١٤.
٣٥- جروهمان: أوراق البردي العربية ، جـ٣، صـ ١٣٩: ١٤٠.
٣٦- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ١٤٦.
٣٧- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء ، صـ ١٥٤.
٣٨- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ١٦٣.
٣٩- سفرنامه ، صـ ٦٢: تحقيق يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.
٤٠- جروهمان: أوراق البردي العربية، جـ ٣، صـ ١٥٩.
٤١- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء ، صـ ٢٢٩، ٢٣٠.
٤٢- تاريخ أبو صالح ، ص ٥٥.
٤٣- جروهمان: أوراق البردي العربية ، جـ٢، صـ ٥٦: ٥٧.
٤٤- جروهمان: نفس المرجع السابق ، جـ٦، صـ ٦١: ٦٢.
٤٥- ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ٣٥٨.
٤٦- المقريزي: الخطط، جـ١، صـ ٩٨.
٤٧- جروهمان: أوراق البردي، جـ ٥، صـ ١٥.
٤٨- جروهمان: نفس المرجع السابق ، جـ٢، صـ ١٢٨.
٤٩- جروهمان: نفس المرجع، والجزء، صـ ١٣٢، ١٣٨، ١٣٩.
٥٠- أبو صالح الأرمني: تاريخ أبو صالح، صـ ٣١.
٥١- أبو صالح الأرمني: نفس المصدر السابق، صـ ١١١.
٥٢- المقريزي: الخطط، جـ١، صـ ٣٠٦. أسوان بالضم ثم السكون وواو، والف ونون، وهي مدينة كبيرة، وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقه (ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ ١٩٤).
٥٣- المقريزي: نفس المصدر السابق والجزء، صـ ٣٨٢. قوص: في صعيد مصر وهي من الولايات الهامة في العصر الفاطمي.
٥٤- أبو صالح الأرمني: تاريخ أبو صالح، صـ ١١٧. أخميم بالكسر، والسكون، بلدة بالصعيد على شاطيء النيل (ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ ١٢٣).
٥٥- الشابستي: الديارات، صـ ٢٩٨. طموية قرية على بعد خمسة أميال نازله من النيل عند حلوان، وتعتبر من المتنزهات المشهورة (الشابستي: نفس المصدر والصفحة).
٥٦- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جـ ١، صـ ٣٨٤.
٥٧- تنيس : بكسرتين وتشديد النون جزيرة في مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، فيها تعمل الثياب الملونة والفرش البوقلمون (ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، صـ ٥١) ؛
Becker: Encyclopedia of Islam, vol. II, P.5 (Leyden, 1927).
٥٨ – محمد عبد العزيز مرزوق: الزخرفة المنسوخة في الأقمشة الفاطمية، صـ ٨٣، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٢م.
٥٩- سعاد ماهر: محافظات الـ ج.م.ع، صـ ٣٨، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، الكتاب الرابع ١٩٦٦م. الطراز كلمة فارسية بمعنى ترازيدن، وطراز بمعنى التطريز، وعمل المدبخ Brodeiere وكان يطلق في العصر الفاطمي على ملابس الخليفة والأمراء، ولاسيما إذا كان بها شيء من أشرطة الكتان (زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، جـ ١، صـ٨٤، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥م) وكان بأخميم ديوان للطراز التي يشرف علي منسوجات العامة إلى

جانب منسوجات الخليفة، ويحفظ السجلات الخاصة بتلك الملابس (القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جـ ٣، صـ ٤٩٤، طبعة القاهرة، ١٣٢٣هـ/ ١٩١٤م).

٦٠- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، صـ ٢٠٣.

٦١- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ١٩٥، ٢٠٣.

٦٢- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ٢١٥.

٦٣- المقريزي: الخطط، جـ ١، صـ ٢٣٧.

٦٤- الفضائل الباهرة فى محاسن مصر القاهرة، صـ ٦١، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة، ١٩٦٩م.

٦٥- ناصر خسرو: سفر نامه، صـ ٤٠: وانتشر البوقلمون فى العصر الفاطمى، وهو عبارة عن قماش متعدد الألوان متقلب حسب ساعات النهار، ولا يصنع إلا فى مدينة تنيس فقط. (ناصر خسرو: نفس المصدر السابق، صـ ٣٨).

٦٦- وفى العصر الفاطمى شارك المسلمون الأقباط فى صناعة النسيج وفرضت الدولة على المصانع الأهلية الضرائب كما أعتنى بزخرفة النسيج على شكل الموضوعات الهندسية والنباتات.

٦٧- محمد عبد العزيز مرزوق: الزخرفة المنسوجة، صـ ٣٧.

٦٨- ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، صـ ٦٣.

٦٩- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ٢، صـ ١٤٧.

٧٠- سعيد مغاورى: الألقاب، جـ ١، صـ ٢٢٨.

٧١- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٦، صـ ٨٥.

٧٢- المقريزي: الخطط، جـ١، صـ ٢٣٧.

٧٣- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ٦، صـ ٧١.

٧٤- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ٧٨.

٧٥- حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـ٢، صـ ٥٥٦ وغيرها من الصفحات، طبعة دار النهضة العربية، ١٩٦٦م.

٧٦- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، صـ ٢٢١؛

Weit: Steles Fumeraire Catalogas du Musses Arabe, Tom, 7, P. 101(Paris1937).

٧٧ - ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ٢٥٤، الطبعة الأولى تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م؛ ونبات النيلة يحصد مرة كل مائة يوم من زراعته، ويمكث فى الأرض ثلاث أعوام (ابن مماتي: نفس المصدر السابق والصفحة)، وتقدر الدولة ضريبة الخراج على الفدان المزروع نيله ثلاثة دنانير فى السنة (القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، صـ ٤٥٣).

٧٨- حسن الباشا: الفنون الاسلامية والوظائف، جـ٢، صـ ٧٠٣، ٧٠٤؛

Weit: Steles, T7, P.87.

٧٩ - زكى محمد حسن: بعض التأثيرات القبطية، صـ ٧، ٨.

٨٠- زكى محمد حسن، نفس المرجع السابق، صـ ٨.

٨١- الخطط، جـ١، صـ ١٦٢.

٨٢- زكى محمد حسن: الفن الإسلامي فى مصر، جـ١، صـ ٩٢.

٨٣- جروهمان: أوراق البردى، جـ ٦، صـ ٣٨٤.

٨٤- المقريزي: الخطط، جـ٤، صـ ٤١٧، ١٢٧.

٨٥- ابن فضل الله العمرى: مسالك الامصار، صـ ٣٨٤.

٨٦- أبو صالح الأرمني: تاريخ أبو صالح، صـ ١٥٩.
٨٧- ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ١٥٩.
٨٨- ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطارقة، جـ٢، ورقة ١٠٤.
٨٩- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، صـ ١٦٧.
٩٠- جروهمان: نفس المرجع السابق، جـ٥، صـ ١٣٦.
٩١- الخطط ، جـ ١، صـ ٧١.
٩٢- جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ٥ ، ص ٥٩
٩٣- جروهمان : نفس المرجع المرجع السابق والجزء ، ص ٤٥ .
٩٤- جروهمان : نفس المرجع المرجع السابق والجزء ، ص ١٢٩ : ١٣٥.
٩٥- ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٦٣ .
٩٦- الأدريسي : نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان ، ص ٤٨ ، نسخة خطية غير مرقمة ، بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوى ، بمجلس مدينة سوهاج ، رقم ١٦ جغرافيا.
٩٧- ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ٥ ، ص ٢٥ ، الطبعة الأولى ، طبعة بولاق سنة ١٣١٠ هـ ؛ القياسر : عبارة عن منشآت اعدت للتجار ، وبها حوانيت ومخازن .
٩٨- المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٣٤ ؛ فقد جرت عادة الأقباط أن يحملوا أغصان الزيتون وقلوب سعف النخيل والصلبان وتزيين كنائسهم بالشموع ومنازلهم بسعف النخيل (القلقشندى: صبح الاعشى ، جـ٢ ، ص ٤١٥) .
٩٩- آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٨٥ .
١٠٠- سعيد مغاورى: الألقاب ، جـ١ ، ص ٢٧٣.
١٠١- سفر نامه : ص ٦٠ .
١٠٢- جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٣٦ .
١٠٣- نزهة المشتاق ، جـ ٢١ .
١٠٤- الخطط ، جـ١ ، ص ٣٧٥ وغيرها من الصفحات .
١٠٥- ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٤٨ .
١٠٦- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٥ ، ص ٢١ ، ٢٢ .
١٠٧- سعاد ماهر : محافظات : الج . ع . م . ، ص ٥٩ .
١٠٨- ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، جـ٢ ، ص ٩١ .
١٠٩- ساويريس بن المقفع: نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٦؛ الإسكندرية : بناها الأسكندر بن فيلغوس الرومى المعروف بالأسكندر الأكبر وهى على البحر الأبيض المتوسط ، وبها منارة الاسكندرية (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٨٣ : ١٨٥) .
١١٠- ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٦٤ .
١١١- جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ١ ، ص ١٦٦، ١٦٧.
١١٢- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٦٧ .
١١٣- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
١١٤- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
١١٥- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٠٤ .
١١٦- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٣٣ .
١١٧- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

د/ إبراهيم علي السيد القلا (*)

بنو الجراح في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين

مقدمة

شهدت الفترة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين فوضى سياسية غلبت على المسلمين وفرقت جهودهم، وأضاعت وحدتهم وسط خضم من الأهواء الذاتية والمطامع الفردية، الأمر الذي دفعني إلى الاهتمام بطيئ إحدى بطون القبائل العربية في هذا الموكب الانفصالي، لذا عكفت على دراستها وإلقاء الضوء عليها لإبراز معالم الجبهة الإسلامية، فيتضح من خلال الأحداث ما شهدته المنطقة من فوضى واضمحلال.

واختيار دراسة بني الجراح في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين يوضح مدى تفضيل الأهداف والمكاسب الشخصية دون مراعاة لمصالح الأمة عامة، حيث استغل عرب طيئ في فلسطين فترات الفوضى التي ألمت بالدولتين العباسية والفاطمية ـ ورفعوا راية العصيان، فكانت فلسطين مسرحًا لفتنة كبرى في فترات عديدة بسبب أعمالهم.

وتهدف الدراسة إلى توضيح الفرصة التي أتيحت أمام بعض القبائل العربية لإقامة مناطق نفوذ وإمارات لهم، والمشاركة مع أمراء العرب المحليين في الصراع السياسي في بلاد الشام، مما ساعد على خلق موقف سياسي معقد ومتشابك في بلاد الشام.

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية – قسم التاريخ والآثار – كلية الآداب – بقنا

ومما يحبذ دراسة بني الجراح هو موقفهم من القوى المتصارعة في المنطقة ومدى تأثيرهم في حسم النزاع بين الطرفين ودورهم المؤثر في ذلك، فقد مالوا إلى السلب والنهب وجمع الأموال، ولذا كان من الصعب عليهم الانضواء تحت راية السلطة الحاكمة، وفى حالة نشوب أي نزاع بين قوتين كانوا يسيرون مع من يدفع لهم أوفر، ويشبع مطالبهم.

وستوضح الدراسة أنهم كثيرًا ما تسببوا في هزيمة الجيش الذي يتخلون عنه، وفشل الحركات التي يتركونها بعد مناصرتها.

ويتضمن البحث نسب بنى الجراح، ومناطق نفوذهم، والبدايات الأولى لظهورهم على المسرح السياسي في الدولة الإسلامية، ثم ظهورهم في شكل كيان سياسي معترف به من قبل القوى الإسلامية الحاكمة في مصر والشام، وكذلك الدولة البيزنطية ثم يتناول البحث علاقات بنى الجراح بجيرانهم، من خلال مشاركتهم بنصيب وافر في الأحداث التي ألمت ببلاد الشام خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فكانت العلاقات على درجات متفاوتة، ففي حين كانت هذه العلاقات جيدة مع حلفائهم وجيرانهم من بنى مرداس في حلب وغيرهم من القبائل العربية ، وأيضا مع أمير مكة في الحجاز، والبيزنطيين، كانت علاقتهم الودية أيضا مع القرامطة، حيث انضموا إلى جانبهم في حركتهم، ثم تخلوا عنهم.

وكانت العلاقات مع الفاطميين غير مستقرة تبعا لموقف الخلفاء الفاطميين من بنى الجراح، وتبين الدراسة الدور المؤثر لبنى الجراح في مجريات الأحداث، فقد تحالفوا مع القرامطة ليس حبا في مذهبهم ولكن نكاية في الفاطميين وكانوا سببا في نجاح حركتهم، ولما خذلوهم وتخلوا عنهم كان ذلك سببا في هزيمتهم والقضاء على خطرهم أيضًا ساندوا أمير مكة وأعانوه على الخروج على الخلافة الفاطمية وإعلان نفسه خليفة. وبفضلهم تمكن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله من القضاء على حركة أبى ركوة التي سببت له الكثير من الاضطرابات في مصر وغيرها.

وقد تحالف بنو الجراح مع بنى مرداس الكلابيين، والقبائل العربية الأخرى من بنى كلب في بلاد الشام بهدف تكوين حلف عربي لاقتسام بلاد الشام فيما بينهم وتحقيق المكاسب الشخصية للاستيلاء على الرملة والاستقلال بها.

ويوضح البحث الهدف الذي سعى لتحقيقه زعيم بني الجراح حسان بن مفرج من محالفة الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م/ ٣٦٦-٤١٦هـ) في بعض الفترات، وكان هدفه من ذلك ليس الكسب المادي بقدر ما هدف إلى تحقيق كسب معنوي وهو اعتراف البيزنطيين به كيانًا سياسيًا، مما يعضد مكانته ضد الدولة الفاطمية المناوئة له في الكثير من الفترات.

ويعرض البحث تدهور بني الجراح واضمحلالهم واختفاءهم من مسرح الأحداث السياسية في فلسطين والدولة الإسلامية، وذلك في أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادي عشر الميلادي.

ومجمل القول أن بني الجراح كانوا كيانًا سياسيًا سعى إلى تحقيق المكاسب المادية والمعنوية بانضمامهم إلى إحدى القوى المتصارعة التي تحقق هدفهم، ولكنهم لم يتمكنوا من تأسيس إمارة مستقلة لهم في فلسطين، بل اكتفوا باعتراف الفاطميين بقوتهم، ولعل ذلك راجع إلى عدم انضباطهم واتباعهم سياسة السلب والنهب، الأمر الذي أدى إلى انتشار الفوضى والفتن، ومن ثم ضعف كيانهم وانهيارهم.

نسب بنى الجراح:

ينسب بنو الجراح لقبائل طيئ(١) اليمنية، حيث كانت إحدى بطون هذه القبيلة، وهم ينسبون إلى جدهم حوط بن عمر بن خالد بن عدى بن أفلت الطائي(٢)، وبنو طيئ نسبة إلي طيئ بن أودين بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ(٣)، ولبطون طيئ أفخاذ عديدة مثل بنى جديلة، وبني جدعان والثعالب، وبني قرواش وبني سنبس وبني بولان وبني صيفي وبني حارثة(٤)، ومنها انحدر آل ربيعة، وهم بنو ربيعة بن حازم بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح(٥).

وانقسم آل ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ، لكل منها أمير يتزعمها:

- الفخذ الأول: فضل، وديارهم ممتدة من حمص إلى قلعة جعبر والرحبة في جانب نهر الفرات.

الفخذ الثاني: آل مرا، ومنازلهم حوران .

الفخذ الثالث: آل على، وديارهم غوطة دمشق(٦).

بالنسبة للفخذ الأول يتضح أن فضلا هذا من آل جراح، وهو جدهم لأنه فضل بن ربيعة بن الجراح وربيعة ينسب إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح(٧).

موطنهم:

كانت منازلهم في بلاد اليمن، يذكر ابن حزم أن بني طيئ لما خرجوا من اليمن بعد سيل العرم وانهيار سد مأرب خرجوا إلى الحجاز، واستقروا هناك وجاوروا بني أسد في جبلي أجأ وسلمى، فسكنوهما وما بينهما(٨) والتي تعرف حاليًا بمنطقة حائل وشمال نجد، ونزل بنو أسد ما بينهما وبين العراق، ثم انقرض بنو أسد وورثت طيئ بلادهم فيما وراء الكرخ في أرض نجد، وكذلك ورثوا منازل بأرض نجد فيما بين البصرة والكوفة واليمامة(٩).

ومن مواطن بنى الجراح في فلسطين من جبلي أجأ وسلمى المعروفين أيضًا باسم جبلي طيئ، يؤلفان جزءًا من أرضهم بجانب إقليم البلقاء بجبال الشراة[١٠].

ومعظم بني طيئ الذين سكنوا الشام كانوا في فلسطين دون غيرها ومنهم بنو الجراح، وفي القرن الرابع الهجري حدث تغير في أماكن استقرار القبائل العربية، منها انتقال بنى طيئ المقيمين في حمص إلى فلسطين جنوب الشام في الإقليم الواقع شرق نهر الأردن، والأطراف الغربية لصحراء الشام[١١]، وكان كبيرهم مفرج بن دعفل بن الجراح، وكان من إقطاعه الرملة ، ومن ولده حسان، وعلى، ومحمود، وحرار، وولى حسان بعده، فعظم أمره وعلا صيته[١٢]. وهو الذي مدحه الشعراء.

وفي أول الإسلام تفرقوا زمن الفتوحات الإسلامية، وانتشروا في الشام والحجاز والعراق، ويذكر ابن خلدون ذلك بقوله «وبلادهم كثيرة يملؤها أمم كثيرة تملأ السهل والجبل ، حجازا وشاما وعراقا»[١٣]. ثم اضطرت إلى الجلاء عن جنوبي فلسطين، فهبطت مصر ونزلت إقليم البحيرة مع بنى قرة الجذاميين[١٤].

ويذكر أن الرياسة في طيئ كانت لإياس بن قبيصة من بنى سبأ بن عمرو بن الغوث من أشراف طيئ وفصحائها المشهورين، وإياس هذا هو الذي ملكه كسرى على الحيرة (٦١٣-٦١٨م)، حينما تركها النعمان والتجأ إلى قبائل طيئ ولكنها رفضت حمايته، فكانت مكافأة كسرى لإياس تعيينه ملكا على الحيرة بعد موت النعمان[١٥]، وإياس هذا هو الذي صالح خالد بن الوليد عن الحيرة على الجزية، ولم تزل الرياسة على طيئ إلى بنى قبيصة هؤلاء في صدر الإسلام، ولعل بني الجراح وآل فضل من أعقابهم، وإن كان انقرضت أعقابهم ويذكر ابن خلدون أن الرياسة على الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العصبية والنسب، أما عن عبادتهم، فكانت طيئ تعبد في الجاهلية سهيلاً والفلس[١٦].

إسلامهم:

في سنة ٩هـ/ ٦٣٠م قدم على النبي صلى الله عليه وسلم(وفد طيئ فيهم زيد الخيل[١٧]، وهو رئيسهم فأسلم وأسلموا، وحسن إسلامهم، وكان زيد أحد شعراء الجاهلية فطنا شجاعا كريما[١٨]. قال النبى صلى الله عليه وسلم: «ما ذكر لي رجلا من العرب بفضل ثم جاء لي إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ الذي فيه»، وسماه (زيد الخير، وقطع له فيئا وأرضا

معه، وكتب له بذلك[١٩]. ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم بعد زيد الخيل عدى بن حاتم الطائي المعروف في قومه بالكرم والشجاعة وأسلم[٢٠]، وكان لوفادة عدى بن حاتم الطائي على النبي صلى الله عليه وسلم (وإسلامه وهو كبير في قومه شريف فيهم أثر طيب في نفوس طيئ، فأسلم منهم خلق كثير إسلامًا حقا[٢١]، فلم يرتد، ولم يرجف، ولم يشرك من أسلم منهم حين ارتد المرتدون وأرجف المرجفون[٢٢].

وشاركوا في معارك الفتح، فحاربوا مع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق سنة ١٤ هـ/ ٦٣٥م وكان منهم رافع بن عميرة الطائي دليل المسلمين في اجتيازهم البادية بقيادة خالد بن الوليد حين انتقل من العمل في جبهة العراق إلى جبهة الشام بأمر الخليفة أبى بكر الصديق (في وقت ضيق وحرج، كانوا في أشد الحاجة إليه في ذلك الوقت[٢٣].

كما ناصرت طيئ الخليفة على بن أبى طالب (في حوادث سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، وحاربوا معه سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧ م في صفين[٢٤]، حيث تقدمت طيئ للعراق وعبأت جنودها، وجاءهم حمزة بن مالك الهمذاني فقال: «من انتم لله أبوكم؟»، فقال عبد الله بن خليفة الطائي يعرفه بقومه ويفخر بهم وبشجاعتهم: «نحن طيئ السهل طيئ الجبل، نحن حماة الجبلين ما بين العذيب إلى العين، طيئ الرماح، طيئ الصفاح، طيئ البطاح والنطاح وفرسان الصباح»، وسرعان ما اندفع القوم إلى بعضهم في قتال شديد وأخو طيئ يصيح فيهم: «يا طيئ فدى لكم طارفي وتلادى، قاتلوا على الدين والأحساب»[٢٥]، وأخذ يشجعهم ويقول:

يا طيئ الجبال والسهل معـا ... إنا إذا داع دعا نسمعا
نطير إلى السيف حفاظا نسرعا ... فنقتل المستلئم والمقنعا[٢٦]

وظل عبد الله بن خليفة الطائي يقاتل على هذا النحو حتى فقئت إحدى عينيه[٢٧]، فقال يعزى نفسه:

ألا يا ليت عيني هذه مثل هـذه ... ولم أمش بين الناس إلا بقائد
ويا ليت رجلي طنت بنصفها ... ويا ليت كفى طاحت بساعدى[٢٨]

وبعد القضاء على الدولة الطولونية قامت القبائل العربية في الشام ببعض الحركات المناوئة إذ أخذت تثور وتغير على المدن والقرى للسلب والنهب، ومن هذه القبائل بنو طيئ وكلب[٢٩].

كما اشترك بنو طيئ في ثورة المترفع القرمطي[٣٠]، وكان يلقب بالهادي سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م حينما دعا لنفسه وتبعته قبائل طيئ وكلب وغيرهما، واتجه إلى حمص، وخرج أبو وائل تغلب بن داود بن حمدان لقتال بعض الأعراب،

فاصطدم بالقرمطي، وتمكن القرمطي من الانتصار عليه سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م[٣١] وورد خبر ذلك إلى حلب فسار سيف الدولة متوجها إلى معرة النعمان، ثم حماة، ثم حمص والتقى بالقرمطي بوادي العرب على ماء يقال له أمهين طيئ على نحو خمسين ميلا من حمص، فانهزم القرمطي وقتل مع عدد كبير من أصحابه[٣٢]. وبعد ذلك بدأ ظهور بني الجراح على مسرح الأحداث بصورة واضحة من خلال الأحداث السياسية مع القوى المعاصرة لهم ودورهم المؤثر في كثير من تلك الأحداث.

ظهور بني الجراح فى فلسطين:

بدأ ظهور بني الجراح على مسرح الأحداث منذ سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، وكان للظروف التي مرت بها كلا من الدولة الفاطمية ، والدولة العباسية والأوضاع المضطربة في بلاد الشام دور كبير في ظهورهم في فلسطين، فقد اعتمدت الدولة العباسية على العناصر الأجنبية من فارسية وتركية ، ثم ما لبثت أن استبعدت العرب بعد أن أسقط العرب من الديوان ومنع عنهم العطاء في عهد الخليفة المعتصم ٢١٨هـ، وكان لقوة الخلافة العباسية خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٣هـ)أثر في تماسك الدولة وقوتها، أما خلال العصر العباسي الثاني (٢٣٣-٦٥٦هـ)، فقد عجزت الدولة العباسية عن مواجهة الصعوبات التي قامت في وجههم، وبدأت الاضطرابات في تاريخ الخلافة العباسية منذ أوائل القرن الثالث الهجري، حيث كثرت الفوضى والاضطرابات مما أدى إلى ضعفها، وقيام الدول المستقلة من فارسية وتركية.

ورأى بنو الجراح أنهم لا يقلون عن غيرهم من القوى التي نجحت في تكوين كيان لها داخل الدولة العباسية، ومن ثم أخذوا يتهيئون للقيام بدور مماثل، غير أن طبيعتهم القبلية وشدة قبضة القوات الفاطمية على المناطق الجنوبية من بلاد الشام لم تسمح لهم بتشكيل إمارة منفصلة، بل اكتفوا بالاعتراف بهم زعماء للقبائل، واتخذوا من الرملة قصبة لهم، وشاركوا مشاركة فعالة في الأحداث السياسية مع القوى السياسية المجاورة لهم كما سيتضح ذلك من خلال الدراسة.

وبدخول الفاطميين مصر حدث تطور في هجرة طيئ إلى مصر، حيث إن بعض بطون القبيلة في الشام انضمت إلى جيوش القرامطة التي قدمت لمهاجمة الفاطميين في مصر[٣٣].

وعمل الخليفة المعز لدين الله فيما بعد على تشجيعهم على الإقامة في مصر لصرفهم كلية عن الانضمام للقرامطة، وانتشرت طيئ في المنطقة الممتدة

من حدود مصر مع الشام شرقا[٣٤]، واستفاد منهم الفاطميون فيما بعد بنقلهم إلى إقليم البحيرة لطرد بنى قرة الجذاميين منها[٣٥].

علاقة بنى الجراح بالخلافة الفاطمية

تباينت العلاقة بين بنى الجراح والخلافة الفاطمية، حيث كانت مضطربة لا تثبت على وتيرة واحدة، فتارة كان بنو الجراح يقفون إلى جانب الفاطميين ويساعدونهم للقضاء على الحركات المناوئة لخلافتهم، وتارة أخرى كانوا ينضمون لأعدائهم، وهذا الموقف المتباين كان سببه الرئيسي الحصول على المال بأية وسيله كانت، واتضح ذلك من خلال موقفهم من القرامطة، ويتضح أيضا خلال قيام أمراء آل الجراح بقطع طريق الحجاج دون مبرر إلا الحصول على المال.

ومن الأسباب أيضًا الفوضى التي سادت في بلاد الشام، وعدم استقرار الحكم الفاطمي فيها، واندلاع الثورات من قبل سكان البلاد، ولم تكن الدولة العباسية في حالة تسمح لها بمساعدة السكان والوقوف بجانبهم، فضلاً عن أن الفاطميين في أيامهم الأولى اعتمدوا في فتحهم للشام على عسكر من المغاربة الذين اعتبروا أعداء تقليديين لعرب الشام منذ الفتوحات الأموية[٣٦].

كما أن سياسة الفاطميين في ضرب القبائل العربية بعضها ببعض جعلت هذه القبائل تفيق من سباتها لتؤدى الدور الذي أسند إليها، وتكون إلي جانب الخلافة الفاطمية حيناً، أو في الجانب المناهض لها حيناً آخر[٣٧]، ويضاف إلى ذلك أن بني الجراح ضمن عرب الشام الذين لم يرحبوا بالفاطميين بسبب أن معظمهم كان على المذهب السني المعادي للمذهب الفاطمي.

فضلا عن الطبيعة العربية القبلية وعدم رضائها عن الخضوع للسلطة، حيث كانوا ينفرون من الإلزام والخضوع للقانون وللسلطة المركزية، أو لأي إنسان مهما علا شأنه.

وكان التنافس بين الخلافة العباسية والفاطمية للسيطرة على بلاد الشام، وقد نشطت كل خلافة في كسب ود القبائل لمساعدتها واستغل بنو الجراح هذا الوضع وبدأ اسمهم يظهر في العديد من الأحداث.

لهذه الأسباب تباينت العلاقة بين بني الجراح والفاطميين فقاموا بثورات في الرملة وطبرية وأفامية، وسيطروا على هذه المنطقة إلى أن اضطروا في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي إلى الجلاء عن جنوبي فلسطين، فهبطوا مصر ونزلوا مديرية البحيرة مع بني قرة الجذاميين[٣٨].

ولم تكن العلاقة بين الطرفين على وتيرة واحدة، حيث اتبع بنو الجراح في ذلك ما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية وخاصة المادية.

وكانت الدولة الحمدانية من أقوى الدويلات العربية في بلاد الشام، وما لبثت أن ضعفت بعد وفاة أميرها سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م، وكانت القبائل العربية في بلاد الشام تحت سيطرتها يقاتلون إلى جانبها وينفرون معها في الحروب(٣٩).

وتحالف بنو الجراح مع سعد الدولة الحمداني الذي كان في عداء مع الفاطميين، وأوعز سعد الدولة إلى المفرج بن دغفل أن يثور ضد الفاطميين في فلسطين، كما أن سعد الدولة التقى في سنة ٣٦١هـ/٩٧١م بحسان بن الجراح الطائي، واتفقا على أن ينزعا الشام من حكم مصر(٤٠).

وقد ساعد بنو الجراج القرامطة ضد الفاطميين في سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م لقتال القائد الفاطمي جعفر بن فلاح، وانضم حسان بن الجراح إلى القرامطة ضمن الجيش الذي زحف على مصر ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م(٤١) أدرك المعز لدين الله أن نجاحه في القضاء على القرامطة لن يتحقق إلا باستخدام الأساليب الدبلوماسية للقضاء على التحالف بين القرامطة وبني الجراح، فراسل حسان بن الجراح أمير طيئ واستماله، ووعده بمائة ألف دينار إن عمل على ترك القرامطة، وتأكيدا لاتفاقه معه استحلفه، فحلف له بأنه سينهزم إذا حصل على المال المقرر(٤٢).

وتأكد للمعز نجاحه على الحسن القرمطى نتيجة لهذا الاتفاق، لذلك وجه سياسته نحو الاعتماد على بني الجراح للقضاء على ما بقى للقرامطة من نفوذ في بلاد الشام واستردادها(٤٣)، وقد نجح المعز لدين الله في ذلك حيث استطاع بمساعدة بنى الجراح وبعض القبائل العربية الأخرى أن يستعيد سلطانه على بلاد الشام(٤٤).

أصبح بنو الجراح خلال هذه الفترة على علاقة حسنة مع الفاطميين، وساعدوا جوهر الصقلي عندما جاء لقتال أفتكين سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م(٤٥)، واستعان أفتكين بالقرامطة واستولى على دمشق، وعاد جوهر إلى الرملة، ورحل إلي عسقلان، وحوصر بها سبعة عشر شهرا، وأرغم على طلب الصلح، ونجا المعز بنفسه وعاد إلى القاهرة، وفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م دب القتال بين الفريقين مرة أخرى في الرملة، وأوقع العزيز الهزيمة بأفتكين ومضى هاربا(٤٦)، ووجده مفرج بن دغفل يموت عطشا وكانت تربطه به صلات ود وكان الخليفة قد وعد من يسلمه إياه بمائة ألف دينار، وخان ابن الجراح

الأفتكين وأخذه إلي الخليفة مقابل المكافأة المالية(٤٧)، وعفا عنه الخليفة فيما بعد وعامله معاملة حسنة وخصص له دارا لإقامته(٤٨).

ومن صور العلاقات الودية بين الفاطميين وبنى الجراح مساعدة بنى الجراح لهم في القضاء على مغامرة أبى تغلب الحمدانى الذي كان مسيطرا على الرملة، فقد قام مفرج بن دغفل بن الجراح بمساعدة القائد الفاطمي الفضل بن صالح في قتاله، وقد قوى مركز مفرج بن الجراح بمجيء القائد الفاطمي الفضل الذي كان غلاما للوزير المصري يعقوب بن كلس، والذي كان يحمل لأمير آل الجراح مفرج سجلا بولاية الرملة(٤٩).

دارت المعركة بين أبي تغلب الذي انضم إلى جانب بني عقيل، وبين بنى الجراح على باب الرملة، وما إن رأت عقيل كثرة الأعداء حتى انسحبت، وبقى أبو تغلب في عدد قليل من غلمانه وغلمان أبيه، فضعف أمره، وولى منهزما(٥٠) وانتهى أمره بأن قبض عليه مفرج بن دغفل بن الجراح وأخذه أسيرا(٥١)، وطلب الفضل قائد الجيش الفاطمي من ابن الجراح أن يسلمه أبا تغلب حتى يمكن أن يأخذه معه إلى مصر، إلا أن مفرجا رأي أن يتخلى عن أبى تغلب ويقتله خوفا من أن يتخذ العزيز أبا تغلب صنيعة عليه إذا بقى حيا كما فعل بافتكين، فقتل أسيره بيده سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م(٥٢)، ولذلك غضب الفضل من مفرج لقتله أبا تغلب ولامه على ذلك(٥٣).

لم يدم الاتفاق بين مفرج والقائد الفاطمي الفضل طويلا، حيث انقلب الفضل عليه، ولكن مفرجا كان من الحذر بحيث أقنع العزيز بالله بأن يصدر أوامره إلى قائده بان يتركه في سلام، ومن ثم سمح لمفرج بأن يصبح سيدَ فلسطينَ مرة أخرى(٥٤).

وعلى الرغم من ذلك لم يكن ابن الجراح مخلصا للدولة الفاطمية وللرعايا من سكان المنطقة، وقد خربت البلاد في أيامه حتى إن الإنسان كان يدخل الرملة في أيامه يطلب شيئا يأكله فلا يجده، ولحق الخراب والمجاعة بأكثر بلاد الشام(٥٥).

وقد حملت أعمال الابتزاز التي ارتكبها ابن الجراح الخليفة الفاطمي العزيز أن يقاتله ليتخلص منه ويعمل على استرجاع البلاد منه وإبعاده عنها، ولذلك أرسل إليه جيوشا متوالية، ففي سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م سير إليه الوزير يعقوب بن كلس جيشا بقيادة صهره رشيق العزيزى فهزمه وطرده من بلاد الشام(٥٦).

وفي سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م خرج بلتكين التركي بعسكر من مصر إلى بلاد الشام ليكون واليا على دمشق بدلا من رشيق ونزل العسكر الرملة، وكان فيهم

أعاجم ومغاربة وعرب من المنطقة الذين كانوا كارهين وساخطين على أعمال مفرج بن الجراح في السلب والنهب[٥٧]، وكان مفرج قد جمع جموعه من العرب ولكن ذلك لم يغن عنه شيئا، فقد تمكن بلتكين أن يهاجمه من الخلف، وأن يشتت شمله، فانهزم وقتل كثير من أصحابه وصار إلى أنطاكية مستجيرا بصاحبها البيزنطي «ميخائيل البرجي»[٥٨].

وفي سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م كان على دمشق بكجور من قبل الفاطميين، وقد أساء السيرة في دمشق بعد أن انضم إليه مفرج بن الجراح الذي أصبح وكأنه من أتباعه، فرأى يعقوب بن كلس أن يعمل على التخلص منه ومن حليفه ابن الجراح، فأرسل إليه جيشا بقيادة منير الخادم الذي أعلن أنه إنما جاء لطرد مفرج بن الجراح، وذلك سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، فذهب ابن الجراح إلى سواد طبرية وجاهر بالعصيان[٥٩].

وجمع منير الخادم العرب من قيس وعقيل وفزارة، وجمع بكجور بني كلاب، وبعث منير الخادم سرية إلى ابن الجراح وهو في طرف عمل دمشق فأوقعوا بفرقة من عرب بني الجراح، وأتوا عليها كلها فازداد ضعف ابن الجراح وارتد إلى دمشق[٦٠].

ولما وجد مفرج نفسه وقد أصبح ملاحقا وطريدا في البادية قرر أن يكاتب الخليفة الفاطمي العزيز بالله، ويلتمس العفو منه كعادته في كل مرة مستغلا حلم العزيز وعفوه، فأجابه إلى ذلك[٦١].

إلا أن أفعال مفرج بن الجراح والتجاؤه إلي الروم أعداء الدولة الفاطمية كانت من الأمور التي أزعجت الخليفة العزيز بالله ووزيره يعقوب بن كلس، مما جعلهما يفكران في التخلص منه بأي وسيلة، وكانا ينتظران الفرصة لتحقيق ذلك، يتضح ذلك من الوصية التي أوصى بها يعقوب بن كلس عندما مرض، وهو على فراش الموت وزاره الخليفة وسأله عما يوصيه به فقال يعقوب له: «سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة، ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح إذا عرضت لك منه فرصة»، وتوفي يعقوب في ذي الحجة سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م[٦٢].

وكان مفرج بن الجراح قد تمادى في عدائه للدولة الفاطمية ولم يترك فرصة لمعاداتها إلا واستغلها، فما أن عاد إلى فلسطين واستولى على الرملة، عاث في البلاد فسادا، وانضم إلى منجوتكين[٦٣] الذي ثار على الدولة الفاطمية في محاولة منه للاستيلاء على السلطة من الحسن ابن عمار[٦٤]، ورحلا سويا إلى الرملة وأخذا أموالها ثم رحلا منها إلى عسقلان[٦٥].

ولذا أرسل برجوان الوصي على الخليفة الحاكم بأمر الله قائدة سليمان بن جعفر بن فلاح لقتال منجوتكين وابن الجراح ، وذلك سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م ، وكان الحاكم مهتما بهذه الحملة اهتماما كبيرا ، حيث كانت أولى حملاته على الشام في عهده ، وأطلق كل ما التمست إليه الحملة من المال والعدد والرجال والسلاح والكراع وأسرف في ذلك إلى حد لم يقف عنده[٦٦].

وكان ابن الجراح على علم بما حوته هذه الحملة من مال ويذكر ابن ميسر أن الحاكم بأمر الله اهتم بهذه الحملة، وحمل إليها خزانة المال على ٦٨ بغلا فيها ٤٠٠ ألف دينار و٧٠٠ ألف درهم و٤٦ جملا عليها السلاح وعشر جمازات تحمل الدروع و٦ قباب بفرشها وأهلتها ومناطقيتها وجميع آلياتها[٦٧]، فرأى أن ينضم إلى سليمان بن جعفر بن فلاح وهجر منجوتكين، فرجحت بذلك كفة سليمان وقوى مركزه، وسار ابن الجراح وسليمان إلى الرملة بعد فرار منجوتكين وقتل كثير من أصحابه، وقد خصص سليمان لمن يقبض على منجوتكين عشرة آلاف دينار ومائة ثوب، وكان أحد أبناء مفرج، وهو عليا هو الذي طارد منجوتكين وقبض عليه، وحمله إلى سليمان بن فلاح[٦٨] وحمله بدوره إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله[٦٩].

غير أن المفرج عاد إلى العصيان في نهاية سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م ونزل إلى الرملة وحاول الاستيلاء عليها وخرب الناحية، محاولا تكوين دولة والاستقلال عن الخلافة الفاطمية، مستغلا عدم استقرار الأحوال في الدولة الفاطمية أوائل عهد الحاكم، ولكن برجوان بادر إلى إرسال حملة بقيادة جيش بن محمد بن الصمصامة، وأعطاه صلاحيات مالية واسعة، ليتمكن من القضاء على مفرج بن الجراح، ونزل جيش ابن الصمصامة إلى الرملة ومعه ألف رجل وقصد مفرجا، غير أن مفرجا هرب ولجأ إلى جبال بني طيئ ولم يجد له ملجأ وعاد إلى طريقه في طلب الصلح، وأرسل إلى جيش طالبا منه العفو والأمان كما أرسل إليه عجائز نساء قبيلته ليطلبن الأمان والصفح، فصفح وكف عنه وأمنه[٧٠] وهذه ثاني مرة يخالف فيها نصيحة ابن كلس بضرورة القضاء على مفرج بن الجراح برغم ما بدا من انحراف عن الطاعة كلما سنحت له الفرصة

وفي سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م حج بالناس محمد بن محمد بن عمر بن العراق وكان في الحج الشريفان الراضي والمرتضى، فاعترض ركب الحجاج ابن الجراح الطائي فأعطاه تسعة آلاف دينار من أموالهما حتى أطلق الحجاج[٧١]، وفي سنة ٣٩٦هـ /١٠٠٥م استحضر الحاكم بأمر الله من بني تميم بالشام واستدعى مفرج بن دغفل الذي أرسل أولاده الثلاثة عليا وحسانا ومحمودا مع عدد كبير من البدو لمساعدة جيش الحاكم في القضاء على حركة أبي ركوة،

وسارت الجيوش بقيادة الفضل بن صالح(٧٢) إلى الفيوم، فالتقيا مع أبي ركوة في الفيوم في يوم الجمعة ٣ذي الحجة سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥م(٧٣).

من صور خروج ابن الجراح عن طاعة الخلافة الفاطمية وقوفه بجوار أبي القاسم المغربي الذي فر من الحاكم بعد قتل أبيه وأخويه سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، ونزوله عند ابن الجراح واستجار به. فأجاره في الرملة وزين له الخروج على طاعة الخليفة، وكان الحاكم قد عين مملوك أبيه يارختكين على الرملة، وأرسله إليها في جيش، فحسن الوزير أبو القاسم لحسان بن مفرج قتال يارختكين وحرضه على قتله، وانتهى الأمر بالثورة على يارختكين خشية من سطوته. وطمعا في القافلة التجارية التي رافقته، والتقى آل الجراح به في الجفار(٧٤) وجرت بين الفريقين حرب شديدة، كانت الغلبة فيها لبنى الجراح وأسر يارختكين وأفراد أسرته، واستولى المفرج على جميع ما معه، وانتهى الأمر بقتل يارختكين(٧٥).

وفي سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م غير الحاكم أساليبه فقرر أن يعامل بنى الجراح بشدة، وذلك نتيجة لأعمال السلب والنهب والمصادرة التي قاموا بها خلال فترة سيطرتهم على فلسطين، ولذلك جهز حملة إليهم بقيادة على بن جعفر بن فلاح، واستسلم على ومحمود ابنا مفرج(٧٦). ومات مفرج مسموما(٧٧). وبهذا يكون الحاكم قد نفذ وصية الوزير يعقوب ابن كلس التي أوصاها للعزيز وهو على فراش الموت بضرورة التخلص من مفرج إذا سنحت له الفرصة لذلك.

وضعف بنو الجراح واضمحل أمر حسان بن مفرج بعد الهزيمة التي لحقت به على يد جعفر ابن فلاح وبعد موت مفرج مسموما. ولذلك رأى حسان أن يستعطف الخليفة الحاكم، فأرسل والدته إليه، تطلب منه الأمان، فعفا عنه وأعاده إلى الشام(٧٨).

بنو الجراح والفاطميون فى عهد الظاهر والمستنصر

تولى الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠-١٠٣٥)، ولم تلبث بلاد الشام أن خرجت عن سلطة الخليفة الظاهر، فبعد اختفاء الحاكم بأمر الله بسنتين تقريبا رأى حسان بن الجراح استغلال فترة الضعف التي مرت بها الدولة في بداية خلافة الظاهر بجانب سوء الحالة الاقتصادية في مصر بسبب حدوث مجاعة بها في سنتي ٤١٤-٤١٥هـ/ ١٠٢٣-١٠٢٤م(٧٩) لاستعادة نفوذه في فلسطين، ولتحقيق ذلك تحالف مع بقية القبائل العربية في الشام لإخراج الفاطميين من بلاد الشام وتقسيمها فيما بينهم(٨٠).

وتنفيذا لهذا الاتفاق استولى حسان بن الجراح على الرملة في رجب سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، وأحرق أكثرها، ونهب وأفسد في البلاد، وسبى جماعة كبيرة

من النساء والصبيان[٨١]، ثم رأى حسان بن الجراح أن يوسع نطاق هذا التحالف ويضم إليه قبائل عربية من مصر نفسها، فأرسل كتبا إلى بنى قرة على يد على بن محمد الشاعر من الرملة في سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م، ووصل رسوله إلى القاهرة متخفيا وهو يحمل هذه الكتب يدعوهم فيها لنصرته، ويعدهم ويمنيهم ويذكرهم بالعهود التي كانت بينهم والإمان، فقبلوا كتبه وكتبوا بأجوبتها بما يجب من الإجابة، وأعادوا الرسول بأجوبة الكتب من البحيرة، فلما وصل إلى الجيزة كشف أمره، ووشى به لدى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فقبض عليه وحبسه في خزانة البنود، ثم أمر بقتله بها[٨٢]، وهكذا فشلت هذه المبادرة التي أراد حسان بن مفرج تنفيذها للتآمر على الفاطميين في عقر دارهم.

والسبب في تفكير حسان للتحالف مع بنى قرة هو كرههم للحاكم بأمر الله لأنه كان قد حاربهم سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م وحبس جماعة من أعيانهم[٨٣]، وقد أكثر الحاكم بأمر الله من الإيقاع ببني قرة وأكثر من قتلهم وتحريقهم بالنار، فخلعوا طاعته، وسبب ذلك أن بني قرة كان شيخهم مختار بن القاسم، فلما بعث الحاكم بأمر الله يحيى بن علي الأندلسي يخرج فلول بن سعيد بن خزرون بطرابلس على صنهاجة ساروا معه إلى طرابلس، وجرت الهزيمة عليه، ورجعوا إلى برقة فتنكر لهم الحاكم، فامتنعوا عليه، فبعث لهم بالأمان فقدم وفدهم إلى الإسكندرية، فقتلهم عن آخرهم سنة ٣٩٤هـ، وكان عندهم أبو ركوة فدعاهم إلى نفسه فبايعوه[٨٤] وليس هذا فحسب بل إن ابن الجراح أخذ يعتدي على حدود مصر، وكثيرا ما تعدى الحدود إلي داخل البلاد المصرية كما حدث سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م

وفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م قام إدريس الجعفري ومعه أحد بنى الجراح بالهجوم على أيلة[٨٥] ونهبها وأخذ منها نحو الثلاثة آلاف دينار، وغلالا، وسبى النساء والأطفال، وخرجت سرية من القاهرة لحربه[٨٦].

وفي نفس السنة أيضا أذيع بمصر أن حسان بن الجراح بعث خمسمائة فارس إلى العريش، ثم لم تعلم وجهتها، فخاف الناس أن يفاجئهم في القرافة بالقاهرة، فانتقل أهل القرافة إلى مصر، وتنقل جماعة من بلبيس إلى مصر، واضطربت العامة وتحرك السعر بمصر، وندب مائة فارس لحفظ الناس بالقرافة بعد أن اشتد بالناس الخوف حتى لم يطلع أحد إلى القرافة[٨٧].

ومنذ تكوين الحلف العربي، وحسان بن الجراح يحاول جاهدا إبعاد النفوذ الفاطمي عن فلسطين ليسترد سلطانه عليها، ولذا ساءه إرسال الفاطميين واليا على فلسطين في محرم سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م، وهو انوشتكين الدزبرى[٨٨]، وامتد نفوذ الدزبرى حتى شمل دمشق والرملة وعسقلان[٨٩]

وغيرها[٩٠]، وكانت انتصارات الدزبرى واتساع نفوذه من الأمور التي أقلقت ابن الجراح، وتمكن ابن الجراح من الانتصار على الدزبرى، وفر من الرملة في عشرة من الغلمان الأتراك، وسار إلى قيصرية، ودخل حسان الرملة ونهبها ودخل من باب المدينة، وجلس في دار الإمارة، ودحر حسان الدزبرى مرة أخرى بمعاونة صالح بن مرداس وواصل سلبه ونهبه في الشام، وظل صالح على مؤازرته لحسان[٩١]، وعلى الرغم من ذلك فإن الدزبرى سبب قلقا لحسان بن الجراح وخاف على نفسه ومركزه، ورأى أن يتخلص منه، فأخذ يدس له لدى الوزير أبي محمد الحسن بن صالح الروذبارى الذي أخذ ينسب إليه كل قبيح حتى استطاع أن يؤثر عليه، وأن يحصل منه على أذن بالقبض عليه بعسقلان في مؤامرة دبرت له في سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، ولكنهم ما لبثوا أن أفرجوا عنه وعاد إلى القاهرة[٩٢].

وما أن ترك الدزبري فلسطين حتى انتهز العرب الفرصة فاستولوا على أعمال الشام وأفسدوا الأمر فيها، وسيطر حسان بن مفرج على أجزاء من فلسطين[٩٣] واتفق العرب فيما بينهم على تقسيم الشام؛ على أن تكون فلسطين لحسان وقومه من بنى طيئ من الرملة إلى حدود مصر ولأخيه محمود طبرية، ولصالح بن مرداس وقومه من بنى كلاب من حلب إلي عانة على الفرات، ولسنان بن عليان أمير الكلبيين دمشق وما حولها[٩٤].

ولما علم الخليفة الفاطمي الظاهر بهذا الاتفاق اقتضى الحال أن يرسل إلى الشام جيشا ليقضى على هذا الاتفاق، فلم يجد الجرجرائى[٩٥] الذي تولى الوزارة للظاهر بدا من الاستعانة مرة أخرى بالقائد الدزبرى نظرا لمعرفته ودرايته بأحوال فلسطين، وليثأر مما حل به من هزيمة على يد بنى الجراح وحلفائهم[٩٦].

تمكن الجرجرائى من إعداد الحملة وتزويدها بما يلزمها، وخرج الظاهر لتوديعها، وسار الدزبرى حتى وصل الرملة، ومنها سار إلى بيت المقدس، وذلك في ذي القعدة سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، واستعد لخوض المعركة ضد الحلفاء العرب[٩٧].

وإزاء ذلك لم يجد حسان بن المفرج بن الجراح بدا من أن يستعين بحليفه صالح بن مرداس، فجمع صالح جيشه ولحق به على شاطيئ نهر الأردن قرب بحيرة طبرية، وتجمعت طيئ ومن معها من الأعراب[٩٨] وتكاثر العرب واصطفوا عند الأقحوانة جنوبي بحيرة طبرية في انتظار الدزبرى، والتقى الجمعان في معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة العرب هزيمة ساحقة، حيث طعن صالح فسقط عن فرسه، طعنه طريف الفزاري، فرآه رافع بن أبي الليل،

فعرفه، فأجهز عليه وقطع رأسه، فقتل صالح بن مرداس وولده الأصغر علي، بينما فر ولده نصر إلى حلب، وأنفذت جثة صالح إلى صيدا لتصلب على بابها[٩٩]. أما حسان ابن الجراح فقد استطاع أن يفر إلى البوادي متخفيا، ثم نجح في الالتجاء إلى الإمبراطور البيزنطي[١٠٠] وبذلك استرد الفاطميون بعلبك وحمص وصيدا ورفينة، وحصن ابن عكار، وزادوا في التضييق على إمارة حلب[١٠١] وانفرط عقد التحالف العربي في بلاد الشام.

علاقة بني الجراح بالقرامطة

القرامطة فرقة من فرق الشيعة الغلاة مثلها مثل الدروز والنصيرية[١٠٢] والحشاشية، وكلهم من أصل واحد نشأت متتابعة تاريخيا وحضاريا عن فرقة الإسماعيلية إحدى فرق الشيعة[١٠٣].

ظهرت حركة القرامطة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كفرقة دينية باطنية تستند في مبدئها الأساسي إلى أن لكل ظاهر باطنا، وكانوا يؤولون آيات القرآن الكريم حتى تتناسب مع منهجهم الباطني[١٠٤]

ونشأت هذه الحركة في العراق، وبصفة خاصة في سواد العراق، أي في قراه، واتجهت الدعوة إلى الفلاحين وانتشرت بين أصحاب الحرف، وذلك على يد حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط[١٠٥]، وذلك سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وعرف اتباعه بالقرامطة نسبة إليه.

ولما خلفه في الدعوة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي[١٠٦] تمكن من إنشاء دولة لأتباعه في البحرين وعاصمتهم الأحساء بالشمال الشرقي من بلاد العرب مما يلي البصرة، وذلك سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م وفي سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م[١٠٧] أقبل أبو سعيد الجنابي بجموعه يريد البصرة، فقتلوا وسبوا وأفسدوا في بلاد هجر[١٠٨] بالقرب من البصرة فيما بينها وبين عمان، فجهز الخليفة العباسي المعتمد إليهم جيشا كثيفا وعليه العباس بن عمرو الغنوي، فاقتتلوا وتمكن أبو سعيد الجنابي من هزيمتهم[١٠٩]، وأسر العباس الغنوي، ثم سار الجنابي إلي هجر، فدخلها وأمن أهلها وبقي العباس عند الجنابي أياما.

وعادت ثورة القرامطة في سواد العراق ثانية سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م، فوجه إليهم الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م) شبلا غلام أحمد بن محمد الطائي وظفر بهم، وأخذ رئيسا لهم يعرف بأبي الفوارس وأمر به المعتضد فقتل[١١٠]، وفي سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م سير طغج بن جف نائب هارون بن خمارويه على الشام جيشا من دمشق إلي القرمطي، فهزمه القرمطي وقتل قائده وحاصر دمشق، وضيق على أهلها، وأمد المصريون أهل دمشق فقاتلوا القرمطي حتى

ظفروا به وقتلوه ومعه خلق كثير(١١١)، وجرت واقعة عظيمة بين القرامطة وجند الخليفة، وكان على رئاسة القرامطة الحسن بن زكرويه بن مهرويه، وتمكن جند الخليفة من أسر الحسن وأمر الخليفة بقتله، وقتل أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى كبير القرامطة سنة ٣٠١هـ/٩١٣م، وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه الأكبر من بعده وهو سعيد فعجز عن الأمر، فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان، ولما قتل أبو سعيد كان قد استولى على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين(١١٢).

وفي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م سار أبو طاهر بن سعيد بعدة غزوات إلى البصرة وخربها ، ومنها توجه إلى طريق الحج فأوقع بقافلة معظم أهلها من بغداد، وأخذ جمالهم وأمتعتهم ثم عاد إلى هجر، وسار منها إلى الكوفة وضربها، ثم قصد مدينة الأنبار(١١٣) واستولى عليها، وعاث في أرض الجزيرة فسادا نهبا وقتلا(١١٤).

أما أشد هذه الغزوات فهي التي قام بها أبو طاهر سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، حيث هاجم الحجاج في مكة وخرج عليهم يوم التروية، فنهب الأموال واستباح قتالهم، فقتل منهم خلقا في رحاب مكة وفي المسجد الحرام، وفي جوف الكعبة فلما قضى القرمطى وفعل ما فعل بالحجيج أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم ودفن كثيرا في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام، وهدم قبة زمزم، ونزع كسوة الكعبة، وأمر بقلع الحجر الأسود، وأخذوه معهم إلي بلادهم، فمكث عندهم في هجر اثنتين وثلاثين سنة حتى ردوه سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م بفضل مساعي الخلفاء الفاطميين المهدى ثم القائم ثم المنصور، ورد في خلافة المطيع العباسي(١١٥).

ويذكر أن المهدى الفاطمي كتب إلى أبي طاهر القرمطى يلومه ، حيث أراد القرامطة بهجومهم على مكة التقرب من الخليفة، وكتبوا إليه ليبارك عملهم غير أنه استنكر ذلك ورد عليهم بقوله: «العجب ممن كتب إلينا ممتنا علينا مما ارتكبه واجترمه باسمنا في حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم يزل الجاهليون يحترمون إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، وقلعت الحجر الأسود وحملته إلى أرضك ورجوت أن تشرك فلعنك الله ثم لعنك، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وفعل في يومه ما فعله في حساب غيره»، وقال أيضا :«قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد لما فعلت»(١١٦).

وفي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م توفي أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابى الهجرى القرمطى رئيس القرامطة، فقام بالأمر من بعده إخوته الثلاثة، وهم أبو العباس الفضل، وأبو القاسم سعيد، وأبو يعقوب يوسف بنو

أبي سعيد الجنابي، وخلال عهدهم نجد أن الدعوة في البحرين لا تسير بنفس التضامن السابق مع الدعوة الفاطمية، وظهرت عوامل تدل على استقلالها عنها.

رأى جوهر بحكم ولايته على مصر ضرورة التدخل في أمور الشام السياسية وكان بعض جهاتها جزء من أملاك الدولة الإخشيدية، وكانت تدين لها بالتبعية الاسمية على الأقل، فبعث جوهر جيشا تحت قيادة أحد قواده هو جعفر بن فلاح، فشن الغارة على بلاد الشام وأوقع الهزيمة بالحسن الإخشيدي سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وانتهى الأمر بأسر الحسن وسجنه، ثم سار جعفر إلى طبرية ومنها إلى دمشق فملكها وخطب بها للمعز سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م[١١٧].

كان لاستيلاء الفاطميين على دمشق أثره في أن دب النزاع بينهم وبين القرامطة ، وذلك لأن دمشق كانت تدفع الجزية للقرامطة فترة من الزمن، ولم تدفع الجزية إليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه المدينة وقد سار جعفر ونزل بظاهر دمشق في المنطقة الواقعة على نهر يزيد لملاقاة الحسن القرمطي الملقب بالأعصم وكان قد زحف ومعه عرب الشام ومن بينهم بنو الجراح، حيث قام مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي بمساعدته لقتال القائد الفاطمي جعفر بن فلاح ، وشن الغارة عليها، ولما دارت رحى الحرب أسر جعفر وقتل ووقع الكثيرون من أتباعه صرعى[١١٨] في حومة القتال يوم الخميس ٦ ذو القعدة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م[١١٩]، وملك القرامطة دمشق وأمنوا أهلها، ثم ساروا إلى الرملة فملكوها وترك عليها مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي، وترك الحسن القرمطي دمشق ثم صار إلى مصر ، وهاجم القلزم «السويس»، والفرما، وتحكم في برزخ السويس فاعترفت بسلطانه مدينة تنيس، ومن ثم تقدم داخل البلاد وعسكر رجاله في عين شمس وهدد القاهرة[١٢٠].

تأهب القائد الفاطمي جوهر الصقلي لصد زحف القرامطة، فأعد جيشا من المغاربة والمصريين وحصن القاهرة بخندق عظيم حولها[١٢١]، وصمد المصريون وغيرهم من جيش جوهر الصقلي في وجه القرامطة حتى تقهقر الحسن بن أحمد بجنده ورحل إلى الأحساء[١٢٢]، ثم أنفذ جوهر الصقلي جيشا إلى يافا تمكن من إعادتها إلى حوزة الفاطميين

وقام الحسن بن أحمد «الأعصم» القرمطي سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م بمهاجمة مصر للمرة الثانية ، وذلك بعد قدوم المعز لدين الله إليها واستقراره بها، وفي هذه المرة سار الحسن بن أحمد القرمطي في جمع كثيف من أصحابه، والتف معه أمير العرب ببلاد الشام وهو حسان بن الجراح الطائي في عرب الشام بكمالهم[١٢٣] وكان بنو الجراح في بداية الحكم الفاطمي لبلاد الشام يعملون على الانضمام للحركات المناوئة للفاطميين، ولما وردت الأخبار

للمعز عن وصول جيش القرامطة وبرفقتهم جموع كثيرة من بني هلال وبني سليم، ومن طيئ، وغيرهم من العرب بقيادة حسان بن الجراح[١٢٤]، تخوف من قوتهم وشدة بأسهم وخاصة بعد أن تمكنت هذه القوات من احتلال مناطق في صعيد مصر وعاثت سرايا القرامطة فسادا في البلاد[١٢٥]، كما يشير ابن الأثير إلى كثرة هذه القوات التي ضمها جيش العرب وتوغلها في الأراضي المصرية في ذلك الوقت، بعد أن طلب زعيم القرامطة الإمدادات إليه من قبائل العرب، حيث يقول: «وآتاه من العرب خلق كثير»[١٢٦].

ومما يؤكد وصول القرامطة حتى أخميم من بلاد الصعيد وسيطرتهم على تلك النواحي، وجود إحدى القرى التي تحمل أسمهم، وهي قرية القرامطة، وتقع إلى الشمال قليلا من مدينة سوهاج[١٢٧]، كما يدل على ذلك ما أشار إليه بشأن غزو القرامطة لمصر، وما أسفر عنه من تخلف جماعات من بني هلال في صعيد مصر.

هذا وقد تخوف المعز لدين الله من مواجهة القرامطة والدخول معهم في حرب لم يكن مستعدا لها، فرأى أن يبعث إلى الحسن الأعصم القرمطي بكتاب قبل أن يشتبك معه في الحرب لعله ينجح في إثارة الساخطين عليه من القرامطة وحمله على العدول عن موقفه العدائي من الفاطميين[١٢٨].

وقد أشار المعز في هذا الكتاب إلى ما عرف عن القرامطة من حرص على التودد إلى الفاطميين، وبين للأعصم فيه أن أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بالطاعة للأئمة، ودعاه إلى طاعته[١٢٩]، وفي نهاية الكتاب عرض عليه ثلاث خصال ليختار منها واحدة يعمل على تحقيقها، وهدده بسوء العقاب فقال: «ونحن معرضون ثلاث خصال والرابعة أردى لك وأشقى لبالك، وما أحسبك تحصل إلا عليها»[١٣٠].

لم يعدل الحسن الأعصم بعد أن وصله كتاب المعز عن سياسته التي تنطوي على مناهضة الفاطميين بل أظهر عدم اكتراثه بتهديد المعز له، وأساء في رده فكتب إليه: «وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام وحسبنا الله ونعم الوكيل»[١٣١]، ثم زحف الحسن بن أحمد الأعصم إلى مصر، وتوغلت جنوده في الأرض المصرية، كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة، ولما علم المعز بنبأ وصوله هاله كثرة قواته، وحار المعز فيما يصنع وضعف جيشه عن مقاومته، فأخذ يستشير أهل الرأي فأشاروا عليه بأن خير وسيلة لموجهتهم استخدام الأسلوب السياسي، والسعي في تفريق كلمتهم، فقوة القرمطي وشدته مستمدة ممن انضم إليه من العرب وخاصة بنو الجراح، فمال إلى المكيدة والخديعة، واستخدم أساليب

الحرب التي تنطوي على المكر والدهاء للقضاء على التحالف بين القرامطة برئاسة الحسن الأعصم والقبائل العربية، فراسل حسان بن الجراح أمير عرب طيئ[١٣٢] واستماله، ووعده بمائة ألف دينار إن هو خذل القرمطي وتركه، فبعث إليه حسان يقول: «أن ابعث إلي بما التزمت، وتعال بمن معك، فإذا لقيتنا انهزمت بمن معي، فلا يبقى للقرمطي قوة، فتأخذه كيف شئت»[١٣٣]، وتأكيدا للاتفاقية مع حسان استحلفه المعز، فحلف له بأنه سينهزم إذا حصل على المال المقرر[١٣٤].

وتجمع المصادر العربية على أن المعز عندما فكر في المال استعظمه، فرأى أن يرسل إليه دنانير زغل «مغشوش»، أي يعمل دنانير من نحاس ويطليها بالذهب الكثير، ثم عمل على وضعها في أكياس، وجعل هذه الدنانير في أسفل الأكياس، وجعل على رأس كل كيس دنانير يسيرة من الذهب الخالص تغطى ما تحتها وحملوها إلى ابن الجراح الذي ما إن وصل إليه المال، حتى عمل على الانهزام أمام عسكر المعز فنفذ عهده مع الخليفة، وولى أصحابه منهزمين[١٣٥]، فلما رآه القرمطي وقد انهزم تحير، فكان جهده أن قاتل بمن معه حتى تخلص، وكانوا قد أحاطوا به من كل جانب، فظفروا منهم بنحو ألف وخمسمائة رجل[١٣٦].

وسار الحسن بن أحمد القرمطي فنزل أذرعات[١٣٧] في أذل حال وأرذله، وبعث المعز في آثارهم القائد أبا محمود إبراهيم بن جعفر في عسكر بلغ عشرة آلاف فارس، فظفر في طريقه بجماعة من أصحاب القرمطي، فبعث بهم إلى مصر وطيف بهم على الإبل بالبرانس والقيود، والناس يسبونهم ويشتمونهم أما الحسن بن أحمد بعد أن وصل إلى دمشق فترك بها أبا المنجا القرمطي واليا عليها[١٣٨] من قبله ورحل مع بعض رجاله إلى الأحساء، أما بالنسبة لبني الجراح فنجد أن المعز لدين الله اعتمد عليهم لفترة في طرد القرامطة من بلاد الشام، حيث استعان بهم في استرداد البلاد، كما قرب إليه ظالم بن موهوب العقيلي بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد القرمطي، وأسند إليه ولاية دمشق في رمضان سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، وقبض على واليها أبي المنجا القرمطي، وعلى كثير من اتباعه القرامطة، وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام، ولكن آل الجراح ما لبثوا أن وقفوا موقفا عدائيا من الفاطميين استمر طوال فترة الحكم الفاطمي لبلاد الشام تقريبا، ماعدا بعض الفترات البسيطة التي سالموهم فيها[١٣٩].

والسبب الرئيسي في تغير العلاقة ما فعله المعز لدين الله معهم حين سلمهم النقود المزيفة، وذلك لأنهم لم يكتشفوا بسرعة زيف هذه النقود، ولما

اكتشفوها غيروا موقفهم هذا، وأصبحوا من أشد أعداء الدولة، وهذا ما دعا يعقوب بن كلس وزير الخليفة الفاطمي العزيز بالله أن ينصحه قبل وفاته بمسالمة الروم وقتل مفرج بن دغفل بن الجراح إذا سنحت له الفرصة لتحقيق ذلك[١٤٠]، ويتضح ذلك عندما مرض يعقوب بن كلس وأثناء زيارة الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م له، وسأله عما يوصيه به، فقال يعقوب له: «سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانيين بالدعوة والسكه، ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة[١٤١].

بنو الجراح وأمير مكة:

كان من صور تقلب العلاقة بين بني الجراح والفاطميين أنه في سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م اتفق بنو الجراح على استدعاء أمير مكة أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني[١٤٢] ليبايعوه بالخلافة، وكان هذا الأمير قد تولى إمارة مكة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، الذي بدا عهده مخلصا في ولايته بإقامة الخطبة للفاطميين على منابر المسجد الحرام بمكة[١٤٣].

ما لبث أبو الفتوح أن خرج عن طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وتم هذا بإغراء من الوزير أبي القاسم حسين بن علي المغربي[١٤٤] الذي خرج عن طاعة الخلفاء الفاطميين بسبب أن عبدون الكاتب النصراني سعى بابن المغربي عند الخليفة الحاكم بأمر الله، فقتل والد الوزير وإخوته، وثلاثا من أهل بيته، ولجأ هذا الوزير إلى حسان بن المفرج بن الجراح، وحسن له أن يخرج عن طاعة الحاكم ففعل هو وقومه، وأرسل الحاكم بأمر الله حملة بقيادة يارختكين[١٤٥]، وعينه واليا على الرملة، ولعدة أسباب حارب حسان يارختكين: السبب الأول أنه لما بلغ الوزير أبو القاسم المغربي قدوم يارختكين زين لحسان بن المفرج قتاله، والسبب الثاني أنه كان من عادة الفاطميين إظهار هيبة القائد ليطيعه الجميع فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله رجاله بتبجيل يارختكين والترجل له في موكبه، وكان من جملة من أمر بخدمته والترجل له علي ومحمود ابنا المفرج، وإخوة حسان مما ساءهم وأهانهم، فحرضوا والدهم على التخلص من يارختكين ومن الأسباب أيضا طمع آل الجراح فيما حوته القافلة التجارية التي كانت مرافقة لحملة يارختكين[١٤٦].

ولهذه الأسباب سارع آل الجراح بلقاء يارختكين قبل وصوله الرملة وانضمام عساكرها إليه، وجرت بين الفريقين حرب شديدة كانت الغلبة فيها لبني الجراح وأسر فيها يارختكين وأفراد أسرته، وانتهى الأمر بقتله، وكان الحاكم قد بعث في إطلاق سراحه[١٤٧]، وانزعج والد حسان من ذلك خوفا من انتقام الحاكم بأمر الله منهم[١٤٨].

أيقن آل الجراح بعد قتلهم يارختكين بأن الخليفة الحاكم سوف يعمل جاهدا على الانتقام منهم، فأخذوا يفكرون في وسيلة للتخلص من هذا المأزق، وقد أشار عليهم أبو القاسم بن المغربي بمراسلة أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي صاحب مكة(١٤٩) وأن يبايعوه بالخلافة ، موضحا لهم أنه لا مطعن في نسبه، فوافق حسان بن الجراح على دعوته إلى الرملة لمبايعته والوقوف بجانبه(١٥٠)، ولتحقيق ذلك أمر حسان بن الجراح أبا القاسم بن المغربي بالتوجه إلى أبي الفتوح بمكة، فلما وصل إليه أطمعه في الخلافة، وحثه على الخروج إلى الرملة استجابة لرجاء حسان بن الجراح، وأوضح له أنه سيكون خير عون له على تثبيت سلطته وضمن له الوفاء(١٥١). فجمع أبو الفتوح أعيان بني حسن وشاورهم في الأمر، فطمعوا في الخلافة واتفقوا على ذلك(١٥٢).

لكن أبا الفتوح اشتكى إلى أبي القاسم قلة ما بيده من المال فأشار عليه بأخذ ما في خزانة الكعبة من المال، وما عليها من أطواق الذهب والفضة وضربه دراهم ودنانير سماها الكعبية(١٥٣). واستولى على أموال كثيرة كانت لديه من ودائع الناس، ثم توجه بعد ذلك إلى الرملة لمقابلة آل الجراح بعد أن استخلف على مكة نائبا عنه، فخرج من مكة راكبا فرسه ومعه سيف وقضيب، وحوله جماعة من العلويين، وفي خدمته ألف فارس من بني حسن(١٥٤). فلما اقترب من الرملة تلقاه مفرج بن دغفل بن الجراح وأبناؤه حسان ومحمود وعلي(١٥٥) وسائر وجوه العرب بالترحاب، وترجلوا له وقبلوا الأرض بين يديه وسلموا عليه بإمرة المؤمنين(١٥٦).

وبعد ذلك أخذت البيعة لأبي الفتوح من آل الجراح، وقبائل بني سليم، وبني هلال، وبني عامر، واتحد معه آل الجراح، وأقيمت له الخطبة في منازلهم وفي مدن كثيرة من بلاد الشام، بعد أن صعد المنبر معلنا خلافته وتلقب بالراشد بالله، ونادى في الناس بالأمان والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأصدر كتابا قرئ على الناس بألا يقبل أحد الأرض بين يديه، وأن وهذا شيء ينفرد به الله عز وجل(١٥٧).

وبخروج أبي الفتوح أمير مكة وانتحاله لقب الخلافة، ومساندة بني الجراح والوزير أبي القاسم بن المغربي له، جعلت الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله يستاء من ذلك، وعول على إعادة نفوذه في بلاد الحجاز وإضعاف شأن أبي الفتوح، فعمل على تقليم أظافره، فأصدر الحاكم أوامره بعزل أبي الفتوح عن ولاية مكة، وعين بدلا منه ابن عمه أبي الطيب داود، وشجعه على التخلي عن نصرة أبي الفتوح، وبالتالي انصرف عامة الأشراف في مكة عن نصرة أبي الفتوح(١٥٨).

وأرسل الحاكم حملة عسكرية إلى فلسطين بقيادة ياروخ التركي للقضاء على حركة أبي الفتوح، غير أن هذه الحملة فشلت وانهزم جيش الفاطميين قرب داروم[١٥٩]، وتمكن بنو الجراح من القبض على ياروخ قائد الحملة ونقله إلى الرملة، وخشي حسان أن يذعن والده لطلب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بإطلاق سراح ياروخ، فعمل على قطع رأسه[١٦٠]، وبذلك ازداد نفوذ بني الجراح في فلسطين وبسطوا نفوذهم على جنوب الشام من الفرما إلى طبرية وحاصروا الحصون[١٦١].

أدرك الحاكم بأمر الله بعد فشل الحملة العسكرية أنه لن يستطيع القضاء على هذه الحركة بقوة السلاح فرأى أن يلجأ إلى سياسة أبيه الخليفة العزيز بالله في استخدام الدبلوماسية، فعمد إلى الحيلة في استمالة بنى الجراح بالمال، فأرسل إلى حسان بن المفرج وإلى والده المفرج واعدا إياهما وعود كثيرة باذلا لهما الأموال إذا تخلوا عن مناصرة أبى الفتوح وعملوا على إضعاف مركزه[١٦٢]، كما أنه كتب إلى حسان يسهل عليه أمر يارختكين، لأنه أدرك أن قيام آل الجراح بمساعدة أبى الفتوح خوفا من انتقامه منهم بعد قتل يارختكين[١٦٣].

وقد أراد الحاكم بأمر الله إرضاء جميع رؤساء آل الجراح ليجعلهم ينفضون عن أبى الفتوح فحمل إلى على ومحمود ابني المفرج أموالا، وضمن لهما الإقطاعات الكثيرة وتمكن من كسب ودهم[١٦٤].

وكان لحسان بن مفرج بن الجراح مطالب خاصة مقابل التخلي عن الدعوة لأبى الفتوح، لذلك أرسل والدته إلى الحاكم بأمر الله تحمل رسالة تتضمن هذه المطالب، فأجابه الخليفة إلى جميع ما سأل من إقطاع وتقرير، وكتب له أمانا بخط يده، وأهدى له جارية، وجهزها بمبالغ قيمة، وعادت والدته إليه بكل ما تمنى[١٦٥].

ولما أحس أبو الفتوح بخذلان بني الجراح إياه وعدولهم عن رأيهم في العمل على تقوية نفوذه، أدرك أنهم نسوا عهدهم له، وأنهم تركوا دعوته، وقد عبر عن ذلك في قوله لأبي القاسم المغربي: «أغويتني وأخرجتني إلى هؤلاء القوم الغدارين وأخرجتني من بلدي ونعمتي وإمارتي، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون سوقهم بي عند الحاكم ويبيعونني بالدراهم، فيجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني وتسهل سبيلي بالعودة إلى الحجاز، فإني راض من الغنيمة بالإياب، ومتى اضطررت إلى أن أركب فرسي، وأركب التغرير في طلب النجاة»، فشجعه أبو القاسم المغربي وثبته وأخذ يفكر في خلاصه[١٦٦].

ولما تلكأ أبو القاسم، ركب أبو الفتوح دابته وذهب إلى مفرج بن الجراح، وأوضح له أنه فارق نعمته وكاشف الحاكم بالعداء ركونا إلى ذمامهم، وسكونا إلى مقامهم، وقال له: «أريد أن تبعث معي من يوصلني إلى مكة ولا تحرجني»، فبعث معه جماعة من طيء حتى بلغ مكة، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[١٦٧] فتلقاه اتباعه واجتمع بالناس، وأشهد بخلع نفسه، وأن الإمامة للحاكم متنصلا مما اقترفه طالبا العفو، فصفح عنه الحاكم وأعاده إلى إمارته بمكة[١٦٨]، ونقش اسم الحاكم على السكة بمكة[١٦٩]، وما لبث أن حضر إلى مصر راكبا حمارا، فأمر له الحاكم بالكساء وانعم عليه، أما الوزير المغربي فإنه هرب إلى العراق، وأرسل هو الآخر قصيدة يطلب فيها الصفح والعفو، فقبل الحاكم عذره وعفا عنه، ودعاه إلى مصر فإذا به قد مات قبل أن يحضر[١٧٠].

ظل بنو الجراح متغلبين على بعض نواحي جنوب بلاد الشام لمدة سنتين وخمسة أشهر حتى سنة ٤٠٤هـ/١٠١٢م، ولم يتوان الفاطميون خلال تلك الفترة عن قتالهم، واستطاع الحاكم أن يدس للمفرج من قتله بالسم، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م[١٧١]، ولم يكن الحاكم راضيا عن أعمال بني الجراح في بلاد الشام خلال تلك الفترة، حيث كانوا يصادرون أموال الناس وينهبونهم، ولذلك فإنه جهز إليهم حملة بقيادة قطب الدولة أبي الحسن على بن جعفر بن فلاح[١٧٢]، وأمر الجنود التي كانت بدمشق والسواحل بمساعدته أيضا، وسارت الجيوش نحو بني الجراح قاصدة الرملة من الجهتين، والتقت هذه الجيوش بحسان بن المفرج بن الجراح، وانتصرت عليه وعلى عشيرته في أراضي فلسطين، واستولى ابن فلاح على أموالهم، وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل السراة[١٧٣]، وتوالت الهزائم على حسان وأصبح طريدا شريدا نحو سنتين[١٧٤].

وقد ضعف آل الجراح واضمحل أمر حسان بن المفرج بعد الهزيمة التي لحقت بهم على يد على بن جعفر بن فلاح، وبعد موت مفرج مسموما فرأى أن يستعطف الحاكم بأمر الله فأرسل أمه والجارية التي كان الحاكم قد أرسلها إليه لترجو ست الملك أخت الخليفة أن تشفع له، فكان أن صفح عنه الخليفة وأعطى والدته خاتمه وثياب صوف كانت على بدنه، وعمامة كانت على رأسه، والحمار الذي يركبه، فارتدى حسان هذه الثياب المرسلة إليه، وركب ذلك الحمار وسار إلى القاهرة، وأعاده الحاكم إلى الشام حيث استرد أراضي أبيه وكف بعدئذ عن إثارة المتاعب إلى أن اختفي الحاكم بأمر الله.

علاقة بنى الجراح بالحمدانيين

ينسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون لقبيلة تغلب وموطنها ديار ربيعة من الجزيرة بالغرب من سنجار ونصيبين، وكان لحمدان سبعة أولاد،

وقد ظهر نفوذ الحمدانيين في الموصل منذ أن تقلد ولايتها عبد الله بن حمدان من قبل الخليفة المكتفي بالله سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م[١٧٥]، ولما ولي المقتدر الخلافة أقره عليها، فظل يلي أمورها حتى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، حيث اشترك في المؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر، فكان مصيره القتل[١٧٦].

على أن الخليفة المقتدر رغم ذلك حرص على الاستعانة بالحمدانيين، وعلى الأخص في إقليم الجزيرة لاعتقاده أنهم يستطيعون إخماد حركات القبائل المتناحرة بهذا الإقليم، فأسند إلى الحسن بن عبد الله بن حمدان ولاية الموصل، وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه في الموصل، وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه في الموصل منذ سنة ٣١٧هـ /٩٢٩م، كما تمكن من بسط نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة[١٧٧].

وتعصبت هذه الدولة للعروبة وساءها استبداد الأتراك بالخلافة العباسية، فجاء زعيمها الحسن بن عبد الله الحمداني إلى بغداد ومعه أخوه لمناصرة الخليفة العباسي المتقي بالله ٣٣٠هـ/٩٤١م، وكافأ الخليفة هذا الزعيم الحمداني وعينه في وظيفة أمير الأمراء، ومنحه لقب ناصر الدولة، ثم منح الخليفة المتقي أخا ناصر الدولة الحمداني كذلك لقب سيف الدولة، على إن الأتراك استطاعوا أن يطردوا الحمدانيين من بغداد وان يحملوهم على العودة إلى الموصل سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م[١٧٨].

تطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد إلى إعلاء شأن دولته بالموصل، فسار سنة ٣٣٣هـ /٩٤٤م إلى شمال الشام واستولى على حلب، وأخرج منها حاكمها أبا الفتح عثمان بن سعيد العباس بن وليد الكلابي التابع للدولة الإخشيدية صاحبة السيادة آنذاك على مصر والشام، وأصبح سيف الدولة بذلك صاحب حلب[١٧٩]، وظلت الدولة الحمدانية وعاصمتها حلب قائمة في شمال الشام حتى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م.

هذه نبذة مختصرة عن قيام الدولة الحمدانية، أما عن علاقة الحمدانيين وبني الجراح، ففي عهد سعد الدولة الحمداني، أوعز سعد الدولة لزعيم بنو الجراح مفرج بن دغفل أن يثور ضد الفاطميين في منطقة فلسطين[١٨٠].

ومن مظاهر العلاقة بين بني حمدان وبني الجراح، أن سعد الدولة ألتقي سنة ٣٦١هـ/٩٧١م بزعيم آخر لبني الجراح هو حسان بن الجراح الطائي واتفقا على أن ينزعا الشام من حكم مصر[١٨١].

والسبب في تحالف الحمدانيين مع بني الجراح هو أن الحمدانيين كانوا يخشون من ازدياد نفوذ الفاطميين السياسي، فلما دعاهم جعفر بن فلاح القائد

الفاطمي بعد استيلائه على دمشق إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله على منابر بلادهم، وهددهم بالاستيلاء على حلب، أثار هذا التهديد سخطهم وعملوا على القضاء على نفوذ الفاطميين ببلاد الشام[١٨٢].

والسبب أيضا أن الحمدانيين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف في وجه الفاطميين، ففي عهد سعد الدولة (٣٥٦-٣٨١هـ/٩٦٦-٩٩١م) ابن سيف الدولة الحمداني بدأ الضعف يظهر في الدولة الحمدانية في حلب، فثار عليه قرعوية غلام أبيه، واستولى على حلب، وحال دون دخوله إليها، فقصد سعد الدولة إلى حمص، وآثر البقاء بها، وانحاز إلى جانبه الفاطميون، وأقام الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي[١٨٣]، ثم وجه اهتمامه إلى استرداد حلب، واستعان بالعرب من بني كلاب، وبني الجراح وغيرهم[١٨٤].

ولم تكن علاقة سعد الدولة بالخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) على شيء من الصفاء، فقد أساء سعد الدولة معاملة رسول هذا الخليفة حين قدم إليه حاملا رسالة منه يحذره بها من إلحاق الأذى بأبناء بكجور، ولم يمض على ذلك غير قليل حتى توفي سعد الدولة سنة ٣٨١هـ/٩٩١م.

بنو الجراح وبنو مرداس

ينسب بنو مرداس إلى بني كلاب، وبنو كلاب بطن من ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن خصفة بن قيس، وهم من العرب المضريين[١٨٥]، وكانت منازلهم في المنطقة المحيطة بمدينة الرياض في وسط الجزيرة العربية، ثم انتقلوا إلى الشام، ويذكر ذلك ابن خلدون بقوله «... ثم انتقل بنو كلاب إلى الشام، فكان لهم في الجزيرة الفراتية حديث أو ملكوا حلب وكثير من مدن الشام، وتولى ذلك منهم بنو صالح ابن مرداس، ثم ضعفوا، وكان ذلك خلال القرن الرابع الهجري»[١٨٦].

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) تولى الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م)، ولم تلبث بلاد الشام أن خرجت عن سلطة الخليفة، ولم يكن قد انقضى على وفاة الحاكم بأمر الله سنتين[١٨٧].

ورأى حسان بن الجراح أن الفرصة سانحة لكي يستعيد نفوذه في فلسطين مستغلا فترة الضعف وسوء الحالة الاقتصادية بسبب المجاعات التي حدثت في مصر سنتي ٤١٤-٤١٥هـ/١٠٢٣-١٠٢٤م[١٨٨]، ووجد حسان أنه لن يتمكن من استعادة نفوذه إلا إذا تحالف مع بقية القبائل العربية في الشام، فعقد اتفاقا سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م مع صالح بن مرداس أمير بني كلاب، وسنان بن عليان

الكلبي، يتضمن هذا التحالف فيما بينهم على إخراج الفاطميين من بلاد الشام، وتقسيمها فيما بينهم على أن يكون من حلب إلى عانة - على نهر الفرات لصالح بن مرداس، ومن الرملة إلى حدود مصر مع حسان بن الجراح أمير طيئ؛ ودمشق وما يحيط بها لسنان بن عليان الكلبي[١٨٩].

وتنفيذا لهذا الاتفاق استولى حسان بن الجراح على الرملة في رجب سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وأحرق معظمها ونهبها، وسبى جماعة كبيرة من النساء والصبيان[١٩٠].

ولما رأى الخليفة الفاطمي الظاهر الخطر الذي يهدد سلطان الفاطميين ببلاد الشام من جراء ذلك الاتفاق الذي عقده بعض زعماء العرب جهز جيشا لمحاربة هذه القوى المتحالفة، وأسند قيادته لمنتخب الدولة أنوشتكتين الدربزي، وعينه واليا على فلسطين، وامتد نفوذ الدربزي حتى شمال دمشق إلى جانب الرملة وعسقلان وغيرهما[١٩١]، ولذا علا ذكره واشتهر أسمه وقويت شوكته بانتصاره على العرب، فقلق ابن الجراح من ذلك وخاف على مركزه، ورأى أن يتخلص منه فأخذ ينسب إليه كل قبيح، حتى استطاع أن يؤثر على الدولة الفاطمية، وأن يحصل منها على أذن بالقبض عليه[١٩٢].

وتنفيذا للاتفاق بين حسان وصالح وسنان، اجتمعوا وقاتلوا الدربزي حتى أجبروه على التراجع إلى عسقلان، ثم تحايلوا في القبض عليه سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م (١٩٣)، ولكنهم ما لبثوا أن أفرجوا عنه وعاد للقاهرة.

وبعد أن تحقق لابن الجراح التخلص من سيطرة أنوشتكتين الدربزي على فلسطين حشد جموعه، وهاجم الرملة واسترد سلطانه بها، ولكنه لم يلبث أن نهبها وصادر أملاك أهلها[١٩٤]. ولما علم الظاهر بذلك أرسل جيشا ليقضي على نفوذ العرب المتحالفين بقيادة الدربزي، نظرا لمعرفته ودرايته بأحوال فلسطين، وليثأر مما حل به من هزيمة على يد بني الجراح وحلفائهم من بني مرداس وغيرهم[١٩٥].

وجهز الوزير الفاطمي علي بن أحمد الجرجرائي الحملة بما يلزمها، وقد خرج الخليفة الظاهر لوداعها، وسار الدربزي على رأس أعوانه حتى وصل الرملة، واحتفل فيها بعيد الأضحى، ومنها سار إلى بيت المقدس[١٩٦]، ولما علم حسان بوصول الدربزي إلى فلسطين استصرخ صالح بن مرداس لمساعدته فسار إليه من حلب، واجتمعا على الأردن، ووقع القتال بين قواتهما وقوات الدربزي عند طبرية بالأقحوانة وفي هذه المعركة تمكن القائد الفاطمي من إلحاق الهزيمة بقوات حلف عرب الشام، وقتل صالح بن مرداس وابنه الأصغر

علي، وفر ابنه نصر إلى حلب[١٩٧]، أما حسان بن الجراح فقد استطاع أن يفر إلى البوادي متخفيا، ثم نجح في الالتجاء إلى الإمبراطور البيزنطي ليحتمي في بلاطه[١٩٨]، وهكذا انفرط عقد التحالف العربي بعد هزيمة الأقحوانة وقتل صالح بن مرداس.

بنو الجراح والبيزنطيون

أظهر مفرج بن دغفل بن الجراح الطاعة للخليفة الفاطمي العزيز بالله، إلا أنه سرعان ما جاهر بخلع طاعته، وذلك أنه عندما أصبح مفرج سيدا لفلسطين قام بنهب الأراضي التي حول مدينة الرملة سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م، مما جعل الخليفة العزيز يسير عليه حملة، وأرسل إليه الوزير يعقوب بن كلس جيشا بقيادة صهره رشيق العزيزي سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م، فهزمه ثم سلك مفرج طريق الصحراء ولجأ إلى بكجور في حمص ومن هناك ذهب إلى أنطاكية ولجأ مدة إلى الإمبراطور البيزنطي - باسيل الثاني Basil II ‏٣٦٦-٤١٦هـ/ ٩٧٦-١٠٢٥م) طالبا حمايته ومعاونته[١٩٩]، بيد أنه لم يتلق سوى الهدايا والكلمات الحلوة، وظل بجواره حتى سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م حيث نجده في هذه السنة بصحبة الدمستق[٢٠٠] عندما ذهب لنجدة حلب حينما هاجمها بكجور وحذره من أن الجيش البيزنطي وشيك الوصول فلاذ بكجور بالفرار[٢٠١].

ثم عاد المفرج بن دغفل إلى الشام والتمس العفو والأمان من العزيز فعفا عنه، وفي سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م تلقى المفرج هدية من العزيز عبارة عن كسوة وجياد، ودعاه الخليفة للاشتراك في حملة على حلب[٢٠٢].

وفي الفترة من سنة (٤٠١-٤٠٣هـ/ ١٠١٠-١٠١٢م) وهى الفترة التي سيطر فيها بنو الجراح على فلسطين أحسن بنو الجراح معاملة المسيحيين في بيت المقدس[٢٠٣]، وتجلت هذه المعاملة في تعيين بطريرك لهم على بيت المقدس وموافقتهم على القيام بإعادة بناء كنيسة القيامة، التي كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قد خربها واستولى على أوقافها[٢٠٤]، حيث كان الحاكم قد أمر بهدم الكنائس سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م[٢٠٥]، وكان ذلك نتيجة للمفاوضات التي جرت بين بني الجراح والبيزنطيين، وقد وجد ابن الجراح في اتصال البيزنطيين به ومفاوضتهم له مظهرا من مظاهر الاعتراف بسيادته على بيت المقدس.

لم ينس البيزنطيون لابن الجراح الاستجابة لمطالبهم التي رفعت مكانتهم في العالم المسيحي، ولهذا أيدوا آل الجراح في نجاح المفاوضات العسيرة التي جرت فيما بعد بين بني الجراح والخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، التي انتهت بعقد الصلح معهم[٢٠٦].

وقد قام النصارى فى بيت المقدس بدور كبير في تحقيق هذا التقارب بين البيزنطيين وآل الجراح، وذلك لأن كثيرا من المسيحيين ببيت المقدس كانوا قد اضطروا بسبب سياسة الحاكم إزائهم للفرار إلى أنطاكية التي كانت تحت سيادة البيزنطيين، ولما عادوا إلى مدينتهم بعد أن سيطر عليها ابن الجراح ولمسوا حسن معاملته لهم عرفوا له هذا الفضل، وعملوا على التقارب بينه وبين الأباطرة[٢٠٧].

وفي سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م خرج أمير مكة أبو الفتوح عن طاعة الحاكم ولجأ إلى حسان بن الجراح وقومه، فبايعوه بالخلافة، ووقفوا بجانبه، وهزموا جيشا أرسله الحاكم بقيادة ياروخ، واستفحل نفوذ بنى الجراح في فلسطين وجنوب بلاد الشام[٢٠٨].

وأدرك الحاكم بعد فشله عسكريا أنه لن يستطيع القضاء على هذه الحركة عسكريا فلجأ إلى الدبلوماسية وعقد صلحا واتفاقا مع بني الجراح لكي ينفضوا عن أبى الفتوح، وتدخلت الدولة البيزنطية في اتمام هذا الصلح وانجاح المفاوضات لصالح بني الجراح، حيث كانوا يعملون على رد الجميل لما قام به بنو الجراح تجاه المسيحيين بالقدس من قبل[٢٠٩].

وفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م سعت القبائل العربية في بلاد الشام إلى الاستقلال عن النفوذ الفاطمي وكونت حلفا ضم القيسيين والكلبيين، الذي أسفر عن تغيير أوضاع المنطقة، فقد اجتمع حسان بن الجراح زعيم طيئ، وسنان بن عليان زعيم بني قيس، وصالح بن مرداس زعيم بني كلاب، واتفق الثلاثة على إقتسام بلاد الشام فيما بينهم[٢١٠] وأعلم هؤلاء الزعماء الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني بقيام هذا الحلف، والتمسوا عونه ضد الخلافة الفاطمية، ولكنه لم يجب طلبهم[٢١١] ويذكر أن محسن بن بدوس كاتب حسان بن الجراح كان يحرضه على الفتنة، وكاتب ملك الروم باسيل الثاني يطمعه في الدولة[٢١٢].

ويرجع ذلك أنه كان لدى الإمبراطورية البيزنطية ما يشغلها عن أحداث الشام إذ أخذ الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني ابتداء من القرن الخامس الهجرى/ الحادي عشر الميلادي يتجه وجهة غربية في حروبه وفتوحاته حتى كرس جهوده لمحاربة البلغار والصقالبة وتعقبهم بالقتل والإفناء حتى سمي بسفاح البلغار[٢١٣]، وقام لذلك بعقد معاهدة صلح ومهادنة مع الخلافة الفاطمية مداها عشر سنوات ابتداء من (٣٩٢هـ/ ١٠٠١م)[٢١٤].

وقد خلف الإمبراطور باسيل الثاني الإمبراطور قسطنطين الثامن ContantineVIII ٤١٦-٤٣٠هـ/ ١٠٢٥-١٠٢٨م) ولم يكن له نشاط خارجي ملموس، بل

إنه عجل بعقد معاهدة صلح ومهادنة مع الخليفة الفاطمي الظاهر لدين الله سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م[٢١٥].

وفي سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م أنفذ الخليفة الفاطمي سفارة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن لعقد الصلح، فتم الإتفاق بين الفريقين على إبرام معاهدة تضمنت شروطا التزم بتنفيذها كل منهما، وفيما يلي هذه الشروط[٢١٦]:

١- أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم بأمر الله عدا التي حولت إلى جوامع.
٢- ألا يقوم الفاطميون بأي عمل عدائي نحو حلب حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ عام ٩٧٠م.
٣- أن يسمح للإمبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس.
٤- أن يعين الإمبراطور البيزنطي بطريركا في بيت المقدس.
٥- ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأي عدو من أعداء الدولة البيزنطية.

وفي مقابل هذه الشروط يتعهد الإمبراطور البيزنطي بما يلي:

١- ألا يقدم الإمبراطور أية مساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح صاحب الرملة الذي خرج على الخليفة الظاهر الفاطمي.
٢- أن يسحب الإمبراطور طلبه الخاص بالاستعاضة عن شيزار بأفامية.
٣- أن يعيد بناء جامع القسطنطينية وأن يعمل له الحصر والقناديل وأن يقيم به مؤذن.
٤- أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين هم في قبضة الروم
٥ - أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة في جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية، وخاصة صقلية[٢١٧].

وما يهمنا من هذه البنود هو مطلب الخليفة الظاهر من الإمبراطور البيزنطي بعدم تقديم أي مساعدة لحسان بن الجراح صاحب الرملة، حيث يتضح لنا أنه كانت هناك علاقات بين الروم وحسان بن الجراح من خلالها يتلقى المساعدة منهم، وخطورة ذلك على الدولة الفاطمية، واعترافهم بسيطرته على الرملة.

وبعد معركة الأقحوانة[٢١٨] التي كانت بداية الانحسار للنفوذ السياسي للقبائل العربية في بلاد الشام بسبب هزيمتهم وانفراط عقد التحالف العربي في بلاد الشام، طرد آل الجراح من فلسطين، ولجأ زعيمهم حسان بن الجراح إلى أراضي الدولة البيزنطية، ونزل إلى جوار الإمبراطور البيزنطي[٢١٩].

وفي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٢٩م كان الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث Romanus III ٤١٩-٤٢٦هـ/١٠٢٨-١٠٣٤م) يعد العدة لحملة يسيرها على أبناء صالح بن مرداس، فعرض عليه حسان أن تؤازر قبيلته الإمبراطور، واستقبل الإمبراطور مبعوثيه في إنطاكية بود عظيم، وأعطاهم علما لسيدهم، وكان مزينًا بصليب، ووعد بأن يعيد تنصيب حسان بن الجراح في بلاده مرة أخرى، وانتهت حملة الإمبراطور رومانوس الثالث إلى كارثة، حيث انتصر نصر بن مرداس، وشعر بالأمان مما أدى إلى زيادة هيبته ونفوذه[٢٢٠].

وشرع حسان بمعاونة ثانية من كلبية رافع بن أبي الليل، فقدم طائفة الكلبية في حملة على جيش الفاطميين في منطقة حوران، ولكنه رد على أعقابه صوب الصحراء[٢٢١]، وهنالك لقي في تدمر مبعوثا من قبل الإمبراطور، أقنعه بالمجيء والاستقرار قرب الأراضي البيزنطية، ونتيجة لهذا تحركت جماعة تزيد على ٢٠,٠٠٠ نسمة بخيامهم صوب منطقة إنطاكيه، وتم ذلك سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، وقد حمل حسان من الإمبراطور بالهدايا واستقبل ابنه علان في البلاط الإمبراطوري، ونصب بنو طيئ خيامهم في جوار الروج[٢٢٢] جنوبي شرق إنطاكيه، وقد هاجمهم القائد الفاطمي الدزبري مرتين[٢٢٣].

وفي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج الطائي، وكان قد هرب إليهم بعد انهزامه أمام الدزبري، واستطاع هذا الجيش الوصول إلى قلعة أفاميه[٢٢٤]، فحبسوها وغنموا ما فيها، وملكوا قلعتها، وأسروا وسبوا، وكانت من أملاك الفاطميين[٢٢٥].

وقد أيد حسان البيزنطيين تأييدا فعالا لا بغزوته الناجحة على أفاميه فحسب، بل ساعد أيضا في الاستيلاء على حصن منيقة في جبل الرواديف، وكان وقتئذ في يد نصر بن مشرف، وفي هذه المناسبة كان ابنه علافا قد استقبل في البلاط البيزنطي وجعل شريفا، وقد استقبل حسان بن الجراح مرتين في القسطنطينية[٢٢٦].

وفي سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م جرت المفاوضات بين الخليفة الفاطمي الظاهر والإمبراطور رومانوس الثالث Romanus III بعد استيلاء البيزنطيين على حصن بيكسرائيل[٢٢٧]) في صيف ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م وكان حسان بن الجراح حاضرا بشخصه في المناقشات التي جرت في القسطنطينية، وكان أحد الشروط التي وضعها الإمبراطور رومانوس الثالث لإقرار السلام هو أن الخليفة يجب أن يسمح لحسان بن الجراح بالعودة إلى بلاده، وأن يستأنف حيازته للأراضي التي كان يملكها في عهد الحاكم بأمر الله فيما عدا تلك التي امتلكها منذ مجيء الظاهر في مقابل وعد بالولاء للخليفة ولكن الخليفة رفض[٢٢٨].

وفي سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م هاجم منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران[٢٢٩] ونصر الدولة المرواني[٢٣٠] مدينة الرها، وكانت من أملاك البيزنطيين منذ سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٣م، فهب حسان بن الجراح لنجدتها في خمسمائة فارس من اليونانيين والعرب[٢٣١].

وهكذا يتبين من خلال الدراسة أنه كانت هناك علاقات ودية بين بني الجراح والبيزنطيين، وتجلى ذلك من خلال التجاء بني الجراح إلى البيزنطيين وقت الشدة، وحينما تضيق عليهم سياسة الدولة الفاطمية، وكانوا في هذه العلاقة يفضلون مصلحتهم الخاصة عن المصلحة العامة، حيث كانوا يميلون إلى هذا الجانب أو ذاك حسب ما تقتضيه مصلحتهم، وبمقدار ما يؤثر تأييدها لأي منهما على كيانها ووجودها، وبقدر ما كانت تحصل عليه من أموال ومساعدات من الجانبين.

على أن الهدف الأساسي من تلك العلاقة كان من أجل الاعتراف السياسي ببني الجراح من قبل دولة قوية مثل الدولة البيزنطية، مما يعضد مكانتهم بين القوى الموجودة في بلاد الشام، وخاصة الدولة الفاطمية.

ضعف بنـى الجراح

أصبح الدزبرى بعد انتصاره على العرب في الأقحوانة هو الحاكم القوى في الشام كله الذي خضع لسلطانه وخشيه الروم وملوك الأطراف، وحاز حب الرعية وكانت مدة حكمه في بلاد الشام تمثل قمة السيطرة الفاطمية عليها، وخضع الجميع لطاعة الخليفة الفاطمي في مصر[٢٣٢].

وما لبثت الاضطرابات والفوضى أن عادت إلى بلاد الشام عندما ضعف مركز الدزبرى في سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، حيث ساءت العلاقة بينه وبين الوزير أبي القاسم الجرجرائي، التي انتهت بوصول سجل من مصر إلى دمشق قرئ على المنابر يتهم الدزبرى بالخيانة ويسقط نعوته، فأرسل إلى الخليفة يستعطفه ولكن دون فائدة، حتى يئس من رضاء الخليفة، وظل بحلب حتى أكبّ على الشراب ومرض من الحزن، ومات في جمادى الأولى سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، وبموته ابتدأت الأمور تختل من جديد في بلاد الشام، وأخذ العرب يعيثون في أرجائها فسادا، واشتدت وطأة حسان بن المفرج الطائي بفلسطين[٢٣٣]، ولهذا عينت الدولة الفاطمية ناصر الدولة الحسين بن حمدان أميرا على دمشق (٤٣٣-٤٤٠هـ) ليعمل على استتباب الأمن في بلاد الشام[٢٣٤]، ولما رأى أن ابن الجراح قد سيطر على فلسطين وأفسد الأمور فيها توجه بعساكره إليها، وظل يشن الحرب على حسان بن الجراح[٢٣٥]، ولا تذكر المصادر شيئا عن نتيجة هذه

الحروب وماذا حدث لحسان بن الجراح، لأن المصادر لم تذكر اسمه، كما أننا لا نعلم شيئا عن نهاية حسان بن الجراح[٢٣٦].

ومما يذكر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) قبض على اثنين من أبناء أخوة حسان بن الجراح، وسجنهم في خزانة البنود وهما حازم بن على بن الجراح وحميد بن محمود بن الجراح.

ازداد نفوذ الترك بزعامة ناصر الدولة بن حمدان بعد انتصاره على العبيد سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، على أن ناصر الدولة بن حمدان سرعان ما كشف عن هدفه الذي كان يسعى إليه، وهو الاستئثار بالسلطة، فاجتمع الأتراك لدى الوزير خطير الملك ليبحثوا عن وسيلة تخلصهم من ناصر الدولة، فنصحهم الوزير بالابتعاد عنه لأنه لن يحقق شيئا إلا بهم، واتجه الترك إلى المستنصر وأبلغوه بما حدث من ناصر الدولة في الوقت الذي كان المستنصر قد وصل إليه خبر تدبير مؤامرة للإطاحة به، فقد تآمر ناصر الدولة مع الشريف طاهر حيدرة بن مختص الدولة أبي الحسين الذي قدم إلى مصر بعد أن أبعده بدر الجمالي من دمشق، كما تآمر مع أثنين من أمراء عرب الشام، وهما حميد بن محمود بن الجراح، وحازم بن علي بن الجراح الطائيين، وكان المستنصر قد أمر بحبسهما منذ نيف وعشرين عاما، فأطلق ناصر الدولة سراحهما في يوم عيد الفطر من خزانة البنود[٢٣٧]، واتفق معهم على أنهم إذا تمكنوا من التخلص من بدر الجمالي الذي كان يخشى قدومه إلى مصر فإنه سيعمل على خلع المستنصر من الخلافة وتولية الشريف أبي طاهر حيدرة [٢٣٨].

ونجح بدر الجمالي مرة أخرى في أن يستخدم بني الجراح في التخلص من أحد أعدائه وذلك سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م عندما دخل دمشق وهرب منها الشريف حيدر بن إبراهيم أبو طاهر بن أبي الشريف العلوي إلى عمان البلقاء، فغدر به بدر بن حازم بن الجراح وقبض عليه وبعث به إلى بدر الجمالي بعد أن أعطاه بدر الجمالي اثنى عشرة ألف دينار وخلعا كثيرة، فقتله بدر الجمالي أقبح قتلة ثم سلخ جلده، وقيل سلخه حيا[٢٣٩].

وبعد ذلك لم يعد هناك ذكرا ذو أهمية عن بني الجراح مثال ذلك ما أشارت إليه المصادر عن أحد بني الجراح، وهو على بن مفرج بن دغفل بن الجراح في سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م[٢٤٠].

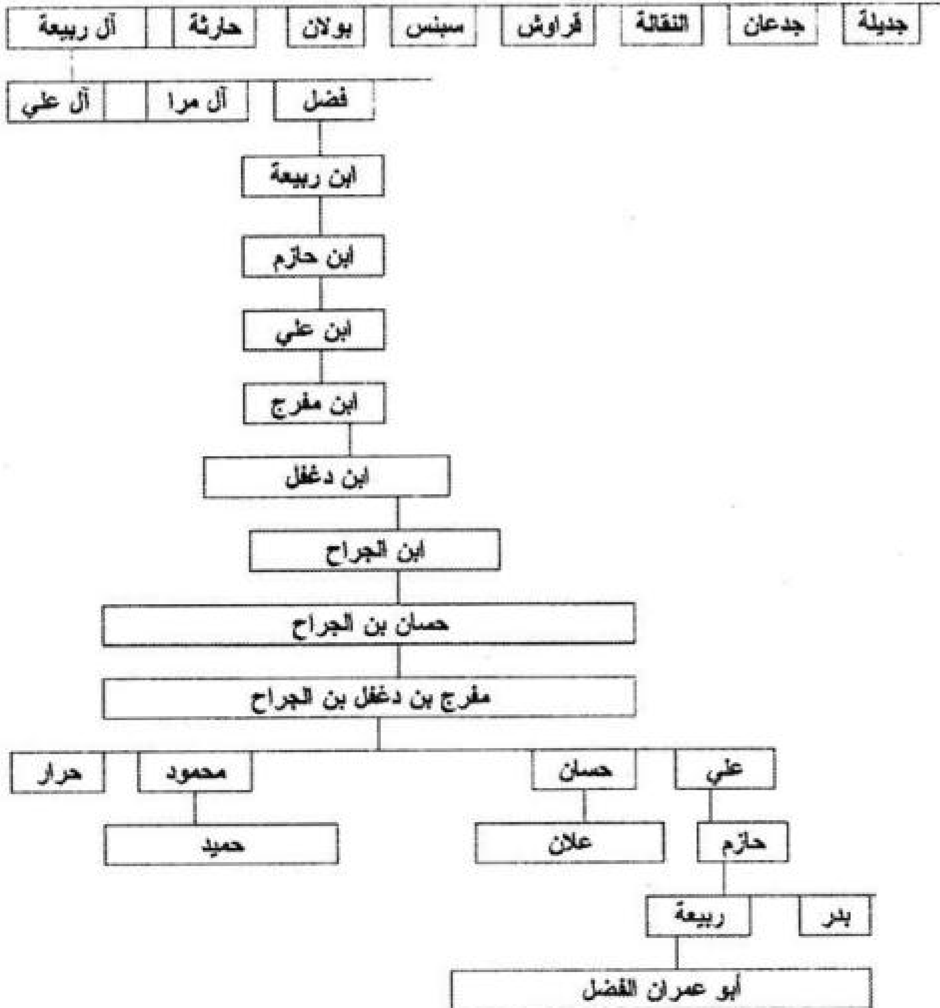
قدم بدر الجمالي إلى مصر سنة ٤٦٦هـ [٢٤١]، وتولى الوزارة سنة ٤٦٨هـ[٢٤٢]، وفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م أثناء ولايته على دمشق حيث كان المستنصر بالله قد أسند إليه إمارة دمشق في ربيع الآخر سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٢م

وظل يلي أمورها حتى غادرها في رجب سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م، بعد أن دارت بينه وبين أهلها حروب، ثم عاد إلى ولايتها بعد سنتين في شعبان سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، ولم يكد يمر عامان على ولايته الثانية حتى نشبت الحرب مرة أخرى بينه وبين الأهالي الذين ثاروا عليه لشدته وحزمه، مما اضطره إلى الرحيل عن دمشق سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م إلى مصر، ثم قلده المستنصر نيابة عكا سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م[٢٤٣].

ويذكر ابن خلدون أن أحد بنى الجراح زمن الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وهو أبو عمران الفضل بن ربيعه بن حازم بن الجراح كان له موقف غير واضح، فكان مترددا بين الصليبيين والفاطميين، حتى اضطر والى دمشق الأتابك طغتكين إلى طرده من الشام[٢٤٤].

وذهب أبو عمران إلى العراق، والتجأ إلى آل مزيد وإلى أميرهم صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد، والأمير أبو الحسن سيف الدولة صاحب الحلة، وذلك في سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م[٢٤٥]، وعرض أن يقاتل صدقة، وأن يسد عليه طريق الصحراء، ثم ذهب إلى الأنبار ولم نسمع عنه شيئا، وقتل صدقة بن مزيد سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م[٢٤٦].

وبذلك انتهى أمر أسرة بنى الجراح المشاغبة، الذين لم تخل سيرتهم من الغدر والشغب وأعمال السلب والنهب، وتفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، ولا يمكن لنا وصفهم بأفضل من أنهم كانوا أداة استخدمها المتنافسون على بلاد الشام مقابل تحقيق بعض المكاسب المادية والسياسية لهم، وذلك خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادى عشر الميلاديين.


شجرة نسب بنـــي الجراح
بنو طيئ(١)
جديلة
جدعان
النقالة
قراوش
سبنس
بولان
حارثة
آل ربيعة
فضل
آل مرا
آل علي
ابن ربيعة
ابن حازم
ابن علي
ابن مفرج
ابن دغفل
ابن الجراح
حسان بن الجراح
مفرج بن دغفل بن الجراح
علي
حسان
محمود
حرار
حازم
علان
حميد
بدر
ربيعة
أبو عمران الفضل

جدول يبين فترات حكم الخلفاء الفاطميين ،وما يقابلهم من الأباطرة البيزنطيين(١)

الخليفة الفاطمي	فترة حكمه	الإمبراطور البيزنطي	فترة حكمه
المعز لدين الله الفاطمي	٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م	١- رومانوس الثاني ٢- نقفور فوقاس ٣- حنا الأول تزمسكيس	٩٥٩-٩٦٣م/٣٤٨-٣٥٢هـ ٩٦٣-٩٦٩م/٣٥٢-٣٥٩هـ ٩٦٩-٩٧٦م/٣٥٩-٣٦٥هـ
العزيز بالله	٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م	الإمبراطور باسيل الثاني	٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٥-٤١٦هـ
الحاكم بأمر الله	٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م	الإمبراطور باسيل الثاني	٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٥-٤١٦هـ
الظاهر بالله	٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م	١- باسيل الثاني ٢- قسطنطين الثامن ٣- رومانوس الثالث ٤- ميخائيل الرابع	٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٥-٤١٦هـ ١٠٢٥-١٠٢٨م/٤١٦-٤١٩هـ ١٠٢٨-١٠٣٤م/٤١٩-٤٢٦هـ ١٠٣٤-١٠٤١م/٤٢٦-٤٣٣هـ
المستنصر بالله	٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م	١- ميخائيل الرابع ٢- قسطنطين التاسع ٣- تيودورا بورفيرجينيوس ٤- ميخائيل السادس ٥- إسحاق الأول كومنين ٦- قسطنطين العاشر دوقاس ٧- ميخائيل السابع ٨- نقفور الثالث ٩- الكسيوس الأول كومنين	١٠٣٤-١٠٤١م/٤٢٦-٤٣٣هـ ١٠٤٢-١٠٥٤م/٤٣٣-٤٤٦هـ ١٠٥٤-١٠٥٦م/٤٤٦-٤٤٨هـ ١٠٥٦-١٠٥٧م/٤٤٨-٤٤٩هـ ١٠٥٧-١٠٥٩م/٤٤٩-٤٥١هـ ١٠٥٩-١٠٦٧م/٤٥١-٤٦٠هـ ١٠٦٧-١٠٧٨م/٤٦٠-٤٧١هـ ١٠٧٨-١٠٨١م/٤٧١-٤٧٤هـ ١٠٨١-١١١٨م/٤٧٤-٥١٢هـ

(1) Diehl, Morcais (G): Le Mond Oriental de 395 a 1081 Chist , Du Mogen Age , tome 3 , p467-468

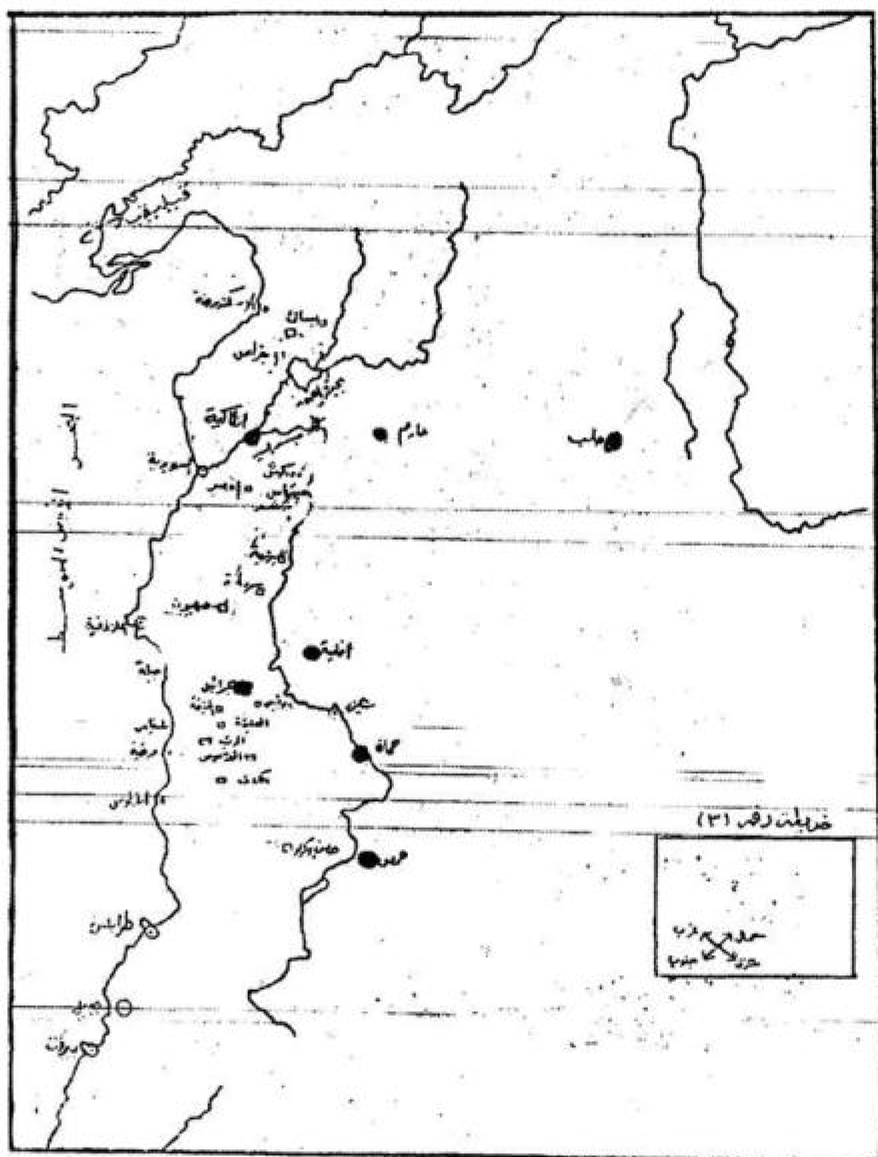
Roman Empire www.yuestia.com , Reasrch the Roman Empire at the world's largest on line Library.

السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢م، ص ٨٩٤-٨٩٩.

بدر عبدالرحمن محمد: تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية منذ قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، مكتبة الأنجلو القاهرة، ١٩٩٦م ، ص ٢١، ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٨ .

عبدالرحمن محمد عبدالغنى: موقف البيزنطيين والفاطميين منذ ظهور الأتراك السلاجقة، ص ٤٠ ، ٤٣ .

Vasiliev (A.A): Histoire de L'Empire Byzantine , Tom I , (Paris 1932) , P351, 407 , 408 , 423.



خريطة تبين عليها بعض الاماكن التي وردت في البحث

الهوامش

(١) طيئ بفتح الطاء وتشديد الياء ، وهمزة في الأخر ، ما سمي طيئ طيئا ، واسمه جلهمة لأنه اول من طوي المناهل، وطوى بئرا عند شجرة، محمد عبد الجواد الأصمعي : العرب وأطوارهم، مطبعة الجمالية، مصر، جـ١، ص ١٤٧ .

(٢) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١٠، عمرو رضا كحالة : معجم القبائل، جـ١، ص١٧٨.

(٣) ابن حزم : جمهرة انساب العرب، جـ١، ص٣٩٨، دار الكتب العلمية، بيروت، القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص٣٢٦.

(٤) ابن قتيبة : كتاب المعارف، حققه د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ص٣٥، السمعاني: الأنساب، جـ٢، ص٣٦٤.

(٥) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١١، القلقشندي : صبح، جـ٤، ص٢٠٣.

(٦) الخالدي : المقصد الرفيع المنشأ، ص١٥٥، ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٩٣٦.

(٧) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١١، سلطان طريخم المذهن : جامع أنساب قبائل العرب، ص٩١

(٨) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١٠.

(٩) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١٠.

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية، وضع مجموعة من العلماء، تعريب أحمد زكي خورشيد، دار الشعب، القاهرة، جـ٩، ص٢٦٩٨.

(١١) محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ص ١٨.

(١٢) القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٠٣.

(١٣) ابن خلدون : تاريخ، جـ٦، ص١٢، سلطان طريخم : جامع أنساب قبائل العرب، ص٩١.

(١٤) أحمد عبد الباسط حسن : تاريخ العرب القديم، ص ١٢١، ١٢٢.

(١٥) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، مراجعة حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٣٩، جمال الدين سرور : تاريخ الدولة العربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٣٤

(١٦) الكلبي: كتاب الأصنام، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ط ٢٠٠٤م، دار الكتب العربية، القاهرة ، ص٥٩، ابن خلدون: تاريخه، جـ٦، ص١١، سلطان طريخم: جامع أنساب العرب، ص٩١.

(١٧) زيد الخيل: هو زيد الخيل بن مهلهل بن زيد بن مهيب بن عبد رضي بن المختلس بن توب بن كنانة ابن غوث، له صحبة ونية في الإسلام.

(١٨) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم وآخرون، القاهرة ١٢٨٥هـ، جـ١، ص٥٧٢.

(١٩) ابن هشام: السيرة، جـ٤، ص١٢٤، ابن كثير : البداية، جـ٥، ص٨٠، الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص١٩٣.

(٢٠) ابن هشام : السيرة، جـ٤، ص١٢٥.

(٢١) محمد عزب دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام، ص١٢١.

(٢٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٨، سلطان طريخم : جامع انساب القبائل العربية، ص٩١.

(٢٣) الواقدي : فتوح الشام، جـ١، ص ٤٠-٤٢.

(٢٤) محمد عزب دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام، ص٢٥١.

(٢٥) الطبري : تاريخه، جـ٥، ص٣٠، ابن الأثير : الكامل، جـ٣، ص١٥٥.

(٢٦) الطبري : تاريخه، جـ٥، ص٣١.

(٢٧) محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في الشام، ص٢٥، هامش ٤.
(٢٨) خورشيد: القبائل العربية، ص٢٢٤.
(٢٩) الباز العريني: الشرق الأوسط، طبعة ١٩٦٣، جـ١، ص١٤.
(٣٠) المترفع القرمطي: أحد القرامطة لقب بالهادي، ودعا لنفسه في حمص فتبعته قبائل من العرب من بينها طيئ، أمينة بيطار : مظاهر الحضارة، ص٢١٦، ٢١٧.
(٣١) أمينة بيطار : مظاهر الحضارة، ص٢٨٧.
(٣٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص١٣٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٤٢.
(٣٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص١٣٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٤٢.
(٣٤) القلقشندي : نهاية الأرب، ص١٤١، ١٥٦، القلقشندي : قلائد الجمان، ص٨٦، بدر عبد الرحمن: شرق الدلتا، ص٢٠.
(٣٥) المقريزي : البيان والأعراب، ص٩٠٨.
(٣٦) سهام أبو زيد : المغاربة، ص٧٤، ٧٥.
(٣٧) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٧-٢٩.
(٣٨) أحمد لطفي السيد : قبائل العرب في مصر، جـ١، ص٤٥.
(٣٩) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤٢.
(٤٠) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، جـ٣، ص٣٥٨، محمد كرد علي: خطط الشام، ص٢٢٥.
(٤١) أنظر علاقة بنو الجراح بالقرامطة.
(٤٢) الحويري: الأوضاع الحضارية، ص١٨.
(٤٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٢١١.
(٤٤) ابن خلدون: تاريخه، جـ٤، ص٩٠، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٣٣.
(٤٥) هو أبو منصور التركي الشرابي : بدأ عهده في خدمة معز الدولة أحمد بن بويه، ومازال يترقى في المناصب حتى ولي قيادة جند الترك في بغداد خلال عهد عز الدولة بختيار أمير بني بويه في العراق (٣٥٦-٣٦٧هـ/٩٦٦-٩٧٧م)، المقريزي : الخطط، جـ١، ص٢٨٣، بدر عبد الرحمن : مظاهر الحضارة، إبراهيم رزق أيوب : التاريخ السياسي الفاطمي، ص٣٩.
(٤٦) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٣٨، المناوي : الوزارة، ص١٩٣.
(٤٧) الدواداري : الدرة المضيئة، ص١٨٧.
(٤٨) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٦٤، المقريزي:الخطط، جـ٣، ص٢٨٤، إبراهيم رزق: التاريخ السياسي، ص٣٠.
(٤٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢، الدواداري : الدرة المضيئة، ص١٩٣.
(٥٠) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٢٤٩، المقريزي، اتعاظ، جـ١، ص٢٤٦.
(٥١) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٢٧.
(٥٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٩٨، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٠.
(٥٣) أمينة بيطار : موقف الأمراء العرب، ص٧٩، ٨٠.
(٥٤) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٥٤، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٠.
(٥٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٥٤.
(٥٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، جـ٢، ص٤١١، ٤١٢، المناوي : الوزارة، ص١٩٤.

(٥٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، جـ٢، ص٤١١، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٥٦، سهام أبو زيد: المغاربة، ص٧٤.

(٥٨) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٥٦، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٨١.

(٥٩) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٢٥٩، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص١٥٣، ١٦٠، ١٦١.

(٦٠) الدواداري : كنز الدرر، الدرة المضيئة، ص٢٢، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠١.

(٦١) الدواداري : الدرة المضيئة، ص٢٢٢.

(٦٢) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٦٨، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص١٥٨.

(٦٣) هو قائد تركي تولى دمشق للفاطميين سنة ٣٨٠هـ، ثم أصبح أميرا للجيوش الفاطمية في حروبهم مع الحمدانيين التي امتدت من سنة ٣٨٢ هـ، وحتى سنة ٣٨٦هـ، وقد ورد ذكره باسم بنجوتكين في كتاب زبدة حلب لابن النديم، ص١٠٥.

(٦٤) ابن عمار: هو أبو محمد الحسن بن عمار زعيم المغاربة الكتاميون، تولى ازمة الأمور خلال عهد الحاكم بامر الله، وتلقب بأمين الدولة (٣٨٦-٣٨٧هـ)، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص ٢٠١، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٠، المناوي: الوزارة، ص١٩٧.

(٦٥) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٠، أمينة بيطار : موقف، ص٨٤.

(٦٦) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٤٦، إبراهيم رزق أيوب : التاريخ السياسي الفاطمي، ص٤٠.

(٦٧) ابن ميسر: أخبار مصر، طبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩م، جـ٢، ص٥٤، ٥٥.

(٦٨) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص١٠، ١١، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٤٦، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠١.

(٦٩) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١١، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٨٥.

(٧٠) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٢، ص٢٧٠١، المناوي : الوزارة، ص١٩٨.

(٧١) أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢٠٠، ٤٠١.

(٧٢) هو الفضل بن عبد الله بن صالح من الأمراء الذين كانوا يسيرون في ركاب العزيز بالله، ثم سار من كبار القواد في عهد الحاكم بأمر الله، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٦١.

(٧٣) أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢١٧.

(٧٤) الجفار : بالكسر، وهو جمع جفر، والجفر البئر القريبة القعر الواسعة، والجفرة سعة في الأرض، وهي اسم لخمس مدن : الفرما، البقارة، الوادة، العريش، أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشي متصلة برمال تية بني إسرائيل وهي كلها رمال سائلة في غربها منعطف نحو الشمال بحر الشام، وفي شرقها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم، وسميت الجفار لكسرة الجفار بأرضها، ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، باب الجيم والفاء، المقريزي : الخطط، جـ٣، ص٣٥.

(٧٥) الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ٤، ص٧٠، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ابن النديم: بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٤٠.

(٧٦) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٣.

(٧٧) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص١٨٠، ابن خلدون: تاريخه، جـ٦، ص١٠، المناوي: الوزارة، ص١٩٨.

(٧٨) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٨.

(٧٩) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٦٤، ابن إياس : بدائع الزهور، جـ١، ص٥٨.

(٨٠) المسبحي: أخبار مصر، ص٢٤٢، ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٢٦١.

(٨١) ابن النديم : بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٤١.

(٨٢) المسبحي : أخبار مصر، ص١٨٨، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص ١٦٢، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢٦٣.

(٨٣) ابن خلكان: وفيات، جـ٣، ص٦٢، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٠٢، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص١٥٣، رضوان الجناني : القبائل العربية، ص٢٧، ص٧٥.

(٨٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٦٠، ٦١.

(٨٥) أيلة : مدينة معروفة على قمة القلزم، أول حدود الحجاز، وهي إيلات حاليا، ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٣٩١.

(٨٦) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٤.

(٨٧) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٤.

(٨٨) الدزبري : هو أنوشتكين بن عبد الله أبو منصور الملقب بعضد الدولة، ولد في بلاد ما وراء النهر في بلد الترك المعروف بختل، سبي وبيع وتنقل من كاشغر إلى بخارى في الخدمة، حتى وصل دمشق سنة ٤٠٠هـ /١٠٠٩م، فاشتراه القائد دزبر بن أونيم الديلمي، ثم انتقل إلى ملكية الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣هـ، وصار يترقى حتى سيره مع سديد الدولة إلى الشام سنة ٤٠٦هـ، ثم تولى بعلبك وقيصرية، ثم تنقل في الوظائف حتى انتهى إلى ولاية دمشق، وظل عليها حتى فسد ما بينه وبين كبار الجيش، فهرب منها سنة ٤٣٣ هـ/١٠٤١م، وذهب إلى حلب فقضى بها ثلاثة أشهر ثم مات، أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص٢٦٨، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٧١، ص٧٢، المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٨٩) عسقلان: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم قاف وآخره نون، وعسقلان أسم أعجمي، وهو أعلى الرأس، فإن كانت عربية فمعناه أنها في أعلى الشام، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام، ياقوت : معجم البلدان، باب العين والميم.

(٩٠) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٧٣، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٣٤.

(٩١) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٣، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٣٢.

(٩٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٩٣) المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٩٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٥، الحويري : الأوضاع الحضارية، ص١٨.

(٩٥) هو الوزير نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي، كان من بيت حشمة ورئاسة .وكان الخليفة الحاكم بأمر الله قد قطع يديه من المرفقين سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م واستوزره الخليفة الظاهر بالله في سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢٤٨، المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٩٦) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٦، ابن النديم : بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٤٠.

(٩٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٣.

(٩٨) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٢٦١، ابن العديم : زبدة حلب، جـ١، ص٢٣١، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٤١.

(٩٩) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٤٠، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٧٨، المقريزي : الخطط، جـ١، ص٣٥٥ ١٤٢، إبراهيم رزق أيوب: التاريخ السياسي، ص٤٩، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٧٣، ابن خلكان : وفيات، جـ٢، ص١٨٠.

(١٠٠) سرور : سياسة الفاطميين، ص١٤٢، Wiet : L'Egypte .. P216

(١٠١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، ص٢٥٣، المناوي : الوزارة، ص٢٠٠.
(١٠٢) النصيرية : كان مؤسس العقيدة النصيرية من بلاد فارس، فقد كان محمد بن نصر العبدي من فارس، وانتشروا في سوريا، ولواء الإسكندرية، وفي منطقة قيليقيا في تركيا بجوار منطقة وجودهم في سوريا، تقي شرف الدين : النصيرية «دراسة تحليلية»، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.
(١٠٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٢٠٤، ابن الجوزي : من تاريخ الحركات الفكرية، نشر الأستاذ خليل سكاكيني، مطبعة بيت المقدس، القدس ١٩٢٨، جـ١، ص١٣٢
(١٠٤) عبد الرحمن بدوي : مذاهب الإسلامية، جـ٢، ص١٣٨، الدواداري : كنز الدرر، جـ٦، ص٩٣.
(١٠٥) يقال أن اسمه قرمط لقصر قامته ورجليه، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٣، ص٥٦
(١٠٦) جنابة : بالفتح ثم التشديد وألف وباء موحدة، بلدة صغيرة من بلاد فارس على خليج فارس قبالة جزيرة خارك Karak في شمال بوشير، ينسب إليها طائفة من أهل العلم، منهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، أكبر زعماء فئة القرامطة بالقرن الثالث الهجري، قتل سنة ٣٠١هـ، أمين وصفي بك : معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تحقيق أحمد زكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، ص٤٦، خارك: جزيرة في وسط الخليج العربي أو البحر الفارسي، ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص١٩٢.
(١٠٧) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٨٨، محمد الخضري : الدولة العباسية، ص٣٠٠، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٢٢.
(١٠٨) هجر: مدينة واقعة على جبال العارضي ببلاد العرب، وكانت قاعدة البحرين، والنسبة إليها هاجري، أمين وصفي : معجم الخريطة التاريخية، ص١١٨.
(١٠٩) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤٠٠.
(١١٠) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤٠٩، ٤١٠.
(١١١) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤١٧.
(١١٢) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤٨٢.
(١١٣) الأنبار: بفتح أوله، مدينة قرب بلخ، وهي قصبة ناحية جوزجان، وهي على جبل، وبينها وبين سبورقان مرحلة في ناحية الجنوب، ياقوت الحموي : معجم البلدان، جـ١، ص٢٥٧.
(١١٤) عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٢٢.
(١١٥) ابن كثير: البداية، جـ١١، ص١٧٢، ، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص١٨٢، ابن خلدون : العبر، جـ٤، ص٦٨، أبو المحاسن: النجوم، جـ٣، ص٢٢٤، ص٣٠١، ، السباعي : تاريخ مكة، جـ١، ص١٢١، عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص١٠ .
(١١٦) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص١٨٢.
(١١٧) الدواداري : كنز الدرر، جـ٦، ص١٢٢، ١٢٣، ص ١٣٥ .
(١١٨) المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٢٧.
(١١٩) ابن خلدون: تاريخه، جـ٤، ص٩٠، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٦١، سهام ابو زيد: المغاربة، ص٧٣.
(١٢٠) ابن كثير: البداية، جـ١١، ص٢٨٧، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، ص١١٣، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٢٦.
(١٢١) المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٣٠.
(١٢٢) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١١٧، ص١١١٨.
. Stanley Lane Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p107

(١٢٣) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٥٤.
(١٢٤) القلقشندي : نهاية الأرب، ص٢٣٦، القلقشندي، قلائد الجمان، ص٤٤.
(١٢٥) الدواداري : كنز الدرر، جـ٦، ص١٦٠، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٠٢.
(١٢٦) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، حوادث سنة ٣٦٣هـ.
(١٢٧) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، دار الأمانة، بيروت ١٩٧١، ص١٠٦.
(١٢٨) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، حوادث سنة ٣٦٣هـ، جمال سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٢١.
Wiet, G: L' Egypte Musulamane, Precis, de L' Histoire D'Egypte, Tome 2, Le Caire 1932 , 184
(١٢٩) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص١٩٤، بدر عبد الرحمن : مظاهر الحضارة، ص٧٩.
(١٣٠) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٤، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٣٣.
(١٣١) الدواداري : كنز الدرر، جـ٦، ص١٥٦، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٠٢ .
(١٣٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٣، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص١٣٨، ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٤٢، ٥٤.
(١٣٣) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٤، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٦٩٩.
(١٣٤) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب ، ص ٧٥، ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٢٣٠.
(١٣٥) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٤، ٢٩٥، ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٤٣.
(١٣٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٣، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٠٦.
(١٣٧) أذرعات: بالفتح ثم السكون، الذال المعجمة وكسر الراء وعين مهملة وألف وتاء، كأنه جمع أذرعة، وجمع ذراع، وهو بلد في أطراف الشام يجاور أرض بينها وبين عمان أربعة وخمسون ميلا، وهي قاعدة ولاية البلقاء وعمان: ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص١٣، أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٢٥٢.
(١٣٨) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٢٠٦، ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٥.
(١٣٩) أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص٧٥.
(١٤٠) أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص٧٦.
(١٤١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢، ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص١٥٥، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٥٠، ابن محب الصيرفي: الإشارة، ص٥٢.
(١٤٢) هو ابو الفتوح حسين بن جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، من بني هاشم وتولى إمارة مكة سنة ٣٨٤هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، السيوطي : تاريخ الخلفا، ص٣٥٦، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٨٧.
(١٤٣) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٥٧، السيوطي : تاريخ الخلفا، ص٣٥٦، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٦٢.
(١٤٤) أبو القاسم الكامل المغربي الوزير، هو الحسن بن علي بن الحسين، ولد بمصر سنة ٣٠٧هـ، وكان شاعرا كاتبا عالما، هرب من مصر لما قتل الحاكم بأمر الله أباه وعمه محمدا سنة ٤٠٠هـ، وشارك في الأحداث السياسية في عدة بلاد، توفي سنة ٤١٨هـ بميافارقين، ودفن بالكوفة، ابن سعيد: النجوم، ص٥٧، ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص١٥٥، ابن كثير: البداية، جـ١٢، ص٢٥.
(١٤٥) يارختكين : كان مملوكا للخليفة العزيز بالله الفاطمي، وخلال عهد الحاكم بامر الله عينه واليا على الرملة بعد هروب الوزير أبي القاسم الحسن بن جعفر الحسين المغربي إليها، وكان يارختكين قد ذهب إلى الشام على رأس جيش، وكان برفقته زوجته، وهي ابنة الوزير يعقوب بن كلس، الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص ٧٠، ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص١٥٥، ابن خلدون:

تاريخه، جـ٣، ص١٢٨، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٨٧، ابن سعيد : النجوم، ص١٧، عبد الغني مالكي: بلاد الحجاز، ص٣٢.

(١٤٦) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، جـ٢، ص٥٣.

(١٤٧) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤١، أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص٩٠.

(١٤٨) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٢٥٦.

(١٤٩) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٥٤، ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص١٠٨.

(١٥٠) سليمان مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٢ , ٣٣، أمينة بيطار : امراء العرب، ص٩١.

(١٥١) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

(١٥٢) سرور : النفوذ الفاطمي في الشام، ص١٧.

(١٥٣) ابن الجوزي : المنتظم، جـ٧، ص١٦٤.

(١٥٤) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

(١٥٥) ابن ظافر : الدول المقطعة، ص٥٨، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٢.

(١٥٦) ابن النديم : بغية الطلب في تاريخ حلب، جـ٥، ص٢٢٤.

(١٥٧) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص١٠٨، سليمان مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٣، محمد كرد علي : خطط الشام، جـ١، ص٢٤٦.

(١٥٨) عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٤، أحمد ابن عمر الزيلعي: بنو سليمان حكام المخلاف السليماني، ص٢٥، ماجد : الحاكم بأمر الله، ص١٥٢، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٦.

(١٥٩) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر، والواقف منها يرى البحر، وبينها وبين البحر مقدار فرسخ، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، باب الألف والدال.

(١٦٠) عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٤، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤٠، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٢، السيد طه أبو سديرة : الهلالية في مصر، ص٤٨.

(١٦١) الذهبي: تاريخ الإسلام، المجلد ١١، ص٢٠، المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٨٧، الحويري: الأوضاع الحضارية، ص١٨.

(١٦٢) ابن النديم : بغية الطلب في تاريخ حلب، ص٢٢٤٠، ابن الجوزي : المنتظم، جـ٧، ص١٦٤.

(١٦٣) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

(١٦٤) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٤.

(١٦٥) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٤، عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٤.

(١٦٦) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١ , ٧٢، ابن النديم : بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٤٠.

(١٦٧) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٩٥، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤٠.

(١٦٨) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٤٧٣، ماجد : الحاكم بأمر الله، ص١٥٢.

(١٦٩) المقريزي : الخطط، جـ٤، ص٢٢٨.

(١٧٠) ابن النديم : بغية الطلب، جـ٦، ص٥٤٢، ماجد : الحاكم، ص١٥٣.

(١٧١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، جـ٢، ص٥٢٠، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٩٨، حمدي المناوي : الوزارة، ص١٩٩، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٣.

(١٧٢) يحي بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ٢، ص٥٢٠، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٩٢، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤١.

(١٧٣) ابن خلدون : تاريخه ، جـ٢ ، ص٥٧ .
(١٧٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، ص١٨٠ .
(١٧٥) ابن خلكان : وفيات ، جـ١ ، ص١٧٥ .
(١٧٦) أبو المحاسن : النجوم ، جـ٢ ، ص١٢٣ .
(١٧٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ، ص٦٧ ، ص٦٨ .
(١٧٨) مسكوية : تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص٢٨ .
(١٧٩) ابن العديم : زبدة الطلب في تاريخ حلب ، ص٦٧ ، سيدة كاشف : عصر الإخشيديين ، ص٣٤٩ .
(١٨٠) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب ، ص٧٦ .
(١٨١) محمد كرد علي : خطط الشام ، جـ١ ، ص٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(١٨٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، جـ٣ ، ص٣٥٨ .
(١٨٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، ص٩١ ، ٩٢ ، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص١٤٢ .
(١٨٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، جـ١ ، ص١٨ .
(١٨٥) ابن خلدون : العبر ، جـ٢ ، ص٣١١ .
(١٨٦) ابن خلدون : العبر ، جـ٢ ، ص٣١٢ .
(١٨٧) ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص٢٥٢ .
(١٨٨) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ، ص٨٤ .
(١٨٩) ابن العديم : زبدة الحلب ، ص١٢٦ ، ص١٢٧ .
(١٩٠) ابن العديم : زبدة الحلب ، ص١٢٧ ، جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص١٤١ .
(١٩١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ٢٦٠ .
(١٩٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٧٢ ، ص٧٣ .
(١٩٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٧٣ .
(١٩٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ص١٣٠ ، المقريزي : اتعاظ ، جـ٢ ، ص١٥٢ .
(١٩٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص١٢٨ ، المقريزي : اتعاظ ، جـ٢ ، ص١٤٢ .
(١٩٦) ابن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص٢٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص١٣٠ .
(١٩٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٧٣ ، ابن خلكان : وفيات ، جـ٢ ، ص١٨٠ .
(١٩٨) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب بالشام ، ص٨٩ ، ٩٠ .
(١٩٩) المناوي : الوزارة ، ص١٩٤ .
(٢٠٠) الدمستق : لفظ لاتيني لقب به قائد جيش الروم ، وهو أكبر البطارقة ورئيسهم ، وهو خليفة الملك ، ابن العبري : مختصر الدول ، ص١٦٩ ، الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص١٢٩ .
(٢٠١) المقريزي : اتعاظ ، جـ١ ، ص٢٥٩ ، ٢٦٢ .

G.Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, L,Egypte Arabe, P193.

(٢٠٢) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٢ ، ص٢٧٠١ .
(٢٠٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٢ ، ص١٥٨ .
(٢٠٤) يحي بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، جـ٢ ، ص٥٠٥ .
(٢٠٥) يحي بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص١٩٤ ، سرور : سياسة الفاطميين ، ص٨٨ .
(٢٠٦) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب ، ص١٠٣ .
(٢٠٧) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب ، ص٩٧ .

(٢٠٨) المقريزي : اتعاظ ، جـ٢ ، ص٨٧ ، الحويري : الأوضاع الحضارية ، ص١٨ .

(٢٠٩) عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز ، ص٣٤ ، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب ، ص٩٤ .

(٢١٠) ابن الأثير: الكامل ، جـ٧ ، ص٢٦١ ، المقريزي : اتعاظ ، جـ٢ ، ص١٥٥ ، ابن النديم : زبدة ، جـ١٠ ، ص٢٢٣ .

(٢١١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص١٤١ .

(٢١٢) المسيحي : أخبار مصر ، ص٢٤٧ .

(٢١٣) صابر دياب : المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية ، مكتبة السلام العالمية ، القاهرة سنة ١٩٨٤ ، ص٢٢٤ .

(٢١٤) محمد الشيخ : الإمارات العربية في بلاد الشام ، ص١٠٤ .

Ostrogrosky: History of the Byzantine, State Oxford, 1956, P283.

(٢١٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦ ، ط٤ ، جـ١ ، ص٤٢٥ ، عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص١١٨ .

(٢١٦) يحي بن سعيد الأنطاكي: تاريخه ، ص٢٧٠ ، ٢٧١ ، المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٥٥ ، المناوي: الوزارة ، ص٢٢٢ .

(٢١٧) يحي بن سعيد النطاكي : تاريخه ، ص٢٧٠ ، ٢٧١ ، بدر عبد الرحمن : تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية منذ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص٢٩ ، ٣٠ . Ostrogrosky, Op.Cit, P.283.

(٢١٨) الأقحوانة : بالضم ثم السكون ، وضم الحاء المهملة وواو وألف ونون وهاء ، والأقحوانة موضع قرب مكة ، وقال الأزهري موضع معروف في بلاد تميم وهي من أعمال دمشق وبلاد نهر الأردن ، وتقع على شاطيء بحيرة طبرية ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٠٨ .

(٢١٩) الكامل : تاريخه ، جـ٧ ، ص٣٣٣ ، أبو الفدا : المختصر ، جـ٢ ، ص١٤١ ، ابن الجوزي : المنتظم ، جـ١ ، ص٤٥ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٣ .

(٢٢٠) محمد الشيخ : الإمارات العربية ، ص١١٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٩ ، ص٢٧٠٥ .

(٢٢١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص١٧٦ .

(٢٢٢) الروج : كورة من كور حلب المشهورة ، تقع في غربها ، بينها وبين المعرة ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ ، باب الراء والواو .

(٢٢٣) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٩ ، ص٢٧٠٥ .

(٢٢٤) أفاميه: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص بناها سلوقس في السنة السادسة من موت الأسكندر ، وهي ملاصقة لقلعة المضيق ، التي تقع على الطرف الشرقي لسهل الغاب في سورية ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٢٧ ، ابن النديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، ص٩٥

(٢٢٥) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٢ ، ص١٥٨ ، المناوي : الوزارة ، ص٢٢١ ، ٢٢٢ ، بدر عبد الرحمن : تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية ، مكتبة الأنجلو العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص٣١

(٢٢٦) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٩ ، ص٢٧٠٥

(٢٢٧) بكسرائيل : بكسر أوله وثانيه وسكون السين وراء وألف وهمزة وياء ولام ، حصن من سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٤٧٥

(٢٢٨) المقريزي : اتعاظ ، جـ٢ ، ص١٨٨ ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٩ ، ص٢٧٠٥ .

(٢٢٩) شبيب بن وثاب النميري : هو أخو زوجة نصر بن صالح بن مرداس ، كان شجاعا ذا نجدة وكرم

ورآي، وهو أمير الرقة وسروج وحران، توفي في حران سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م. ابن الأثير : الكامل، الزركلي : الأعلام، جـ٣، ص٢٢٩، زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، بيروت ١٩٨٠، جـ٢، ص٢٠٦، ٢٠٤، ٢١٠.

(٢٣٠) المروانيون :من الأكراد ويرجع قيام دولتهم إلى باد ابن دوستك الحاربختي. أما نصر الدولة، فهو نصر أحمد بن مروان الكردي، وكانت قاعدة حكمه ميافارقين. زامباور : معجم الأنساب، جـ٢، ص٢٠٦.

(٢٣١) النميريون : مزيج من قبيلة كلاب استوطنوا منطقة حران والرها واتخذوا من حران مركز لهم، وحران على الطريق الموصل بين الموصل والشام والروم. بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان. وتقع قرب الحدود السورية التركية شمالا مقابل مدينة «تل أبيض» السورية ضمن الأراضي التركية. ياقوت : معجم البلدان، جـ٢ ص٢٣٥. ابن حوقل : صورة الأرض، ص١٢٥.

(٢٣٢) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٤٨.

(٢٣٣) ابن الأثير : الكامل، جـ٨، ص٣٢. المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٨٨.

(٢٣٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٢٠١، ٢٠٧. يمنى رضوان : الأسرة الجمالية، ص٣٠ .

(٢٣٥) المقريزي : أتعاظ، جـ٢، ص٢٠٢. أبو المحاسن : النجوم، جـ٥، ص٣٤، ٤٥. دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٥ .

(٢٣٦) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، جـ١، ص١٦٠.

(٢٣٧) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٢٧٤.

(٢٣٨) أبو المحاسن : النجوم، جـ ٥، ص١٣.

(٢٣٩) أبو المحاسن : النجوم، جـ٥، ص٥٨.

(٢٤٠) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، جـ١، ص١٦٠.

(٢٤١) ابن خلكان : وفيات، جـ٢، ص٤٤٠.

(٢٤٢) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٦٤.

(٢٤٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق، ص ٩١، ٩٣. المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٣٢٩.

(٢٤٤) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٢٨٤.

(٢٤٥) زامباور : معجم الأسرات، جـ١، ص١٦٠.

(٢٤٦) أبو المحاسن: النجوم، جـ٥، ص١٩٦. دائرة المعارف الإسلامية، جـ١، ص٢٧٠٦. أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص١١١.

المصادر والمراجع

ابن الأثير: على بن احمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م)
– الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، القاهرة ١٣٥٢هـ.
– أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد إبراهيم وآخرون، القاهرة ١٢٨٥هـ
ابن إياس: أبو البركات محمد بن احمد (ت ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م)
– بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٣١١هـ
ابن أيبك الدوادارى : أبو بكر عبد الله (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)
– كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس وعنوانه : الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١م
ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)
– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الأجزاء من ٥–١٠ ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أياد، الدكن، ١٩٣٩م.
– من تاريخ الحركات الفكرية، نشر الأستاذ خليل سكاكيني، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٨م.
ابن حزم : أبو محمد على بن احمد بن سعيد (ت ٣٨٤– ٤٥٦هـ/ ٩٤٤–١٠٦٤م)
– جمهرة أنساب العرب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)
– العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ٧ أجزاء، مؤسسة الإعليمي للمطبوعات، بيروت، بدون تاريخ.
ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس احمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨١م).
– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
ابن سعيد: على بن موسى المغربي (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م).
– المغرب في حلى المغرب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق زكى محمد حسن وسيده كاشف، وشوقي ضيف، القاهرة ١٩٣٥م
ابن الصيرفي : أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان (ت٥٤٢هـ)
– القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزراة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠م.
ابن طباطبا:محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى(ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)
– الفخري في الآداب السلطانية، مكتبة المعارف، القاهرة ١٩٦٢م.

ابن الظافر: جمال الدين على بن ظافر
– الدول المنقطعة القسم الخاص بالفاطميين.
ابن العبري غريغوريوس الملطي
– تاريخ مختصر الدول، تحقيق الأب صالحاني اليسوعي، بيروت ١٨٩٠م
ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)
– زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٦.
– بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل ذكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٥١ م.
ابن قتيبه : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٩هـ/ ٨٨٩م)
– كتاب المعارف، حققه ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.
ابن القلانسي: أبي يعلي حمزة بن سعد الدين على بن محمد (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)
– ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م.
ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)
– البداية والنهاية، ٤ أجزاء، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦م.
ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)
– السيرة النبوية، ٤ أجزاء، المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٣٥٦هـ
ابن ميسر: محمد بن على بن يوسف بن حلب (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)
– أخبار مصر، جزءان نشر هنري ماسية، مطبعة المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩١٩م
ابن الوردي: أبو حفص زين الدين عمربن المظفر محمد الوردي(ت ٧٤٩هـ)
– تاريخ ابن الوردي تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٠م
أبو الفدا : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن علي، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
– المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبى الفدا، جزءان، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
– تقويم البلدان، ط باريس ١٨١٥م.
أبو المحاسن: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى(ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)
– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م
البلاذرى: أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)
– فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م

ثابت بن سنان :
- تـاريـخ أخـبـار الـقـرامـطـة، تحقيـق سـهيـل ذكـار، دار الأمـانـة، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
الخالدي: بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٣١م)
- المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٤٠٤٥م.
الخوارزمي: أبو بكر محمد بن العباس (ت ٣٧٣هـ/ ٩٩٣م)
- مفاتيح العلوم، الطبعة الثانية، ١٣١٢ القاهرة ١٩٦٨م.
الذهبي: شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)
- تاريخ الإسلام، دار الغد، القاهرة ١٩٩٨م.
الرازي: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)
- مختار الصحاح، رتبه محمود فاخر، ط ٣، القاهرة ١٩١١.
الزركلي : خير الدين.
- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان
السمعاني: أبى سعد عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)
- كتاب الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودى، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، دار الجنان، ١٩٨٨.
السيوطي: عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٦م)
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان القاهرة ١٢٩٩هـ.
- تاريخ الخلفا، القاهرة ١٣٥١هـ.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جربر الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م)
- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت
الفاسي: تقى الدين محمد بن احمد المكي
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة ١٩٥٩م.
القلقشندي: أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤م.
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابيارى، القاهرة ١٩٨٠م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٤ أجزاء، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٠م.
- الكلبي : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي
- كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

المصرية سنة ١٩٢٤م الطبعة الرابعة ٢٠٠٠م.
الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)
– الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨م.
مجير الدين الحنبلي.
– الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، طباعة مصر ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.
المسبحي:الأمير مختار عز الملك محمد بن أبى القاسم.
– تاريخ مصر، الجزء الأربعون، القسم الأول، تحقيق أيمن السيد والمستشرق تيارى بيانكى، طبع المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩٨٨م.
مسكوية : أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م).
– كتاب تجارب الأمم، جزءان، مطبعة شركة التمدن الصناعية، القاهرة ١٩١٤م
المقريزى: تقي الدين احمد بن على (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
– اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمى وجمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة أخبار التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٦٧.
– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٢٧٠هـ.
– البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق ودراسة عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١م
النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ)
– نهاية الأرب في فنون الأدب، الأجزاء من ٢٣-٢٩، دار الكتب، القاهرة.
هبة الله الشيرازي: المؤيد في الدين هبة الله
– سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، نشر الدكتور محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩م
ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)
– معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار حياة التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م

ثانياً: المراجــع:

– إبراهيم جلال: المعز لدين الله الفاطمي وتشييد مدينة القاهرة، سلسلة الألف كتاب، ٤٨٣، الآداب العامة للثقافة، دار الفكر العربي ١٩٦٣م.
– إبراهيم رزق أيوب: التاريخ الفاطمي السياسي، الطبعة الأولى، الشركة الصناعية للكتاب، لبنان ١٩٩٧م.
– أمينة محمد على بيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، ط ١، دار دمشق، دمشق ١٩٨٠م.
– أحمد السباع: تاريخ مكة، ط٢، مكة المكرمة، دار قريش للطباعه ١٣٨٧هـ.

أحمد لطفى السيد : القبائل العربية في مصر ، القاهرة ١٩٣٥م .
– السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية (٣٢٣– ١٠٨١م)، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥م.
بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والشرق الإسلامي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٩م.
– تقى شرف الدين: النصيرية «دراسة تحليلية» ، بيروت ، لبنان ١٩٨٣ .
– حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ، القاهرة، ١٩٣٢م.
تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه وبلاد العرب ، ط٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨١م.
تاريخ الإسلام السياسي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٦م
دائرة المعارف الإسلامية : وضع مجموعة من العلماء ،تعريب أحمد زكي خورشيد وآخرون ، دار الكتب ، القاهرة.
– زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، أخرجه زكي محمد حسن وآخرون ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٩٨٠م.
– سهام أبو زيد: المغاربة ودورهم في إدارة مصر في العصر الفاطمي ، ط١ ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ١٩٩٠م
– سليمان عبد الغنى مالكي : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الإشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، ط٢، ١٩٩٤م
سلطان طريخم المذهن السرحاني: جامع أنساب قبائل العرب ، دار الثقافة ، قطر ، الدوحة
– صابر دياب : المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية ، مكتبة السلام العالمية ، القاهرة ١٩٨٤م
– عبد الله خورشيد البرى: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عبد الله ماجد ، القاهرة ١٩٩٢م.
– عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة
– عطية القوصي : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٦م.
– عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٧٧م.
– عمر رضا كحاله: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٥ أجزاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . ١٩٨٥
– محمد عبد الجواد الأصمعي: العرب وأطوارهم ، الجزء الأول ، مطبعة الجمالية ،

مصر ١٣٣١هـ.
- محمد محمد الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين ١١، ١٢، الإسكندرية، الطبعة الأولي، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨٠م.
- محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطمين الخارجية، دار الفكر العربي ١٩٧٦م.
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، دار الفكر العربي.
- محمد أحمد عبد المولى: بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام وسياستهم الخارجة مع دولة الفواطمة والروم، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٥م.
- محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، بيروت، دار القلم١٩٨٦م.
- محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة د.ت
- محمد عزب دسوقى : القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨م.
محمد كرد على: خطط الشام، ٦ جزء، دمشق، مكتبة النورى، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- محمد حمدي المناوى: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة.
- محمود محمد الحويرى:لأوضاع الحضارية في بلاد الشام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
يوسف أبو الفرج العش : تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م.

الرسائل الجامعية:
أمينة محمد على بيطار: الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية وحتى الفتح الفاطمي، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة ١٩٧٥م.
- رضوان الجنانى: القبائل العربية في مصر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة ماجستير، مكتبة الآداب جامعة القاهرة.

الأبحاث العلمية والدوريات:
- أحمد بن عمر الزيلعي: بنو سليمان حكام المخلاف السليماني وعلاقاتهم بجيرانهم، مجلس النشر العلمي، الحولية الثانية عشر كلية الآداب، الكويت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

بدر عبد الرحمن محمد
– شرق الدلتا منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، العدد الرابع من مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، القاهرة ١٩٨٩م.
– تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية منذ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجري، مكتبة الأنجلو العربية، القاهرة ١٩٩٦م
– سهام مصطفى أبو زيد: المغاربة ودورهم في إدارة مصر في العصر الفاطمي، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٩٠م.
– السيد طه أبو سديره: الهلالية في صعيد مصر خلال العصر الفاطمي الأول، القاهرة ١٩٩٤م.
– عبد الرحمن محمد العبد الغني: موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي، حوليات كلية الآداب، الحولية الخامسة عشر، الكويت ١٩٩٥م.

المراجع الأجنبية:

- Canard: Sayf Al Dawla, Recueil de textes relatifa al,emir Sayf Al dawla la Hamdonido, Al ager 1943.

- Gibb (H.A.R) : The Caliphate and the Arab States.

Ostrogrosky, G, : A History of the Byzantine State, Oxford1956.

Lane poole Stanly : A History of Egypt in the Middle Ages , London , 1925.

Wiet Gaston : L' Egypt Musulamane, Precis de L' Histoire D, Egypt, Tome 2, Le Caire 1932.

Vasiliev (A.A) : Histoire de L' Empire Byzantine , Tom 1 , Paris 1932.

أ.د. فايز نجيب إسكندر (*)

مملكة الفرنجة بين المبارديين والبابوية

زمن بيين القصير (٧٥١ - ٧٦٨م)

نجح كلوفيس Clovis (٤٨١ – ٥١١م) فى توحيد بلاد الغال La Gaule فى مملكة واحدة بعد أن كانت أربع، ووحد القبائل الفرنجية فى شعب واحد، وفى سنة ٤٩٦م - وبدوافع سياسة - إعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكى، ويعزى ذلك لتأثيرات زوجته كلوتيلد Clotilde الأميرة البرجندية، فتعمد وثلاثة آلاف من أتباعه فى كاتدرائية ريمز Reims، فأكتسب الشرعية، وحظى بمناصرة وتأييد البابوية ورجال الدين الكاثوليك، كما أصبح المدافع الأول عنهم وعن أملاكهم وثرواتهم.

وهكذا سطر كلوفيس الصفحة الأولى من العلاقات الودية بين الفرنجة والبابوية، تلك السياسة الناجحة التى ستظهر نتائجها الإيجابية على الطرفين فيما بعد[١].

ومما يذكر أن الأسرة الميروفنجية إنتقلت من دور القوة والتوسع الذى امتد بين سنتى ٥١١م وانتهى سنة ٦٣٩م بوفاة داجوبير الأول Dagobert I (٦٢٩– ٦٣٩م)، إلى دور الضعف والانحلال (٦٤٠ – ٧٥١م)؛ حتى أن تلك الفترة عرفت بعهد الملوك الكسالى، وسيطرة حجاب القصر - أى رؤساء البلاط- ؛ وكان من أبرزهم ببين القصير Pépin Le Bref (٧٥١ – ٧٦٨م) الذى صار الحاكم الفعلى لمملكة الفرنجة، فتجاوزت أطماعه حجابة القصر، والقناعة بلقب «دوق وأمير الفرنجة»، إلى السعى للإطاحة بشيلد ريك الثالث Chideric III (٧٤٢– ٧٥١م) والإحلال مكانه على عرش مملكة الفرنجة. وقد أعد لذلك خلال عامين حسب قول المؤرخ المكمل لحولية فريديجير[٢] Frédegaire.

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة بنها.

وبثاقب بصره وبصيرته، خطط ببين لاغتصاب السلطة الملكية من آخر الملوك الميروفنجيين الذى لا حول له ولا قوة، وحرص أيضاً على صبغ ذلك الاغتصاب بصبغة شرعية، مدركاً أن تحقيق تلك الغاية لا تتم إلا بموافقة ومباركة البابوية فى روما. فمهد لذلك بأن أرسل سنة ٧٤٦م إلى البابا زكريا Zacharie (٧٤١ – ٧٥٢م) يستفتيه فيما يتعلق بمهام واختصاصات رؤساء الأساقفة. كما أوفد إليه فى عام ٧٥٠م مبعوثَيْن: الأول بورشار Burchard أسقف ورزبرج Wurszburg، والثانى فلراد Fulrad رئيس ديرسان دينيه Saint Dennis.(٣) أوفدهما للمثول أمام البابا زكريا Zacharie (١٠ديسمبر٧٤١ – ٢٢مارس ٧٥٢م) فى روما(٤). ليستفسرا منه بخصوص ملوك الفرنجة الذين لا يقوون على ممارسة مهامهم وسلطاتهم الملكية، هل يحق لهم حمل لقب ملك. فقد جاء فى رسالة ببين الذى تسلمها البابا من مبعوثَيْه: «من يجب أن يكون ملكاً على الفرنجة. الملك الذى لا يملك من السلطة إلا إسمها، أم الذى يمارس ويملك السلطة الفعلية؟».

على أية حال، توافق رد البابا زكريا مع أطماع ببين، إذ جاء فيه: «أنه من الأفضل أن يلقب بلقب ملك، الشخص الذى بيده السلطة الفعلية، المتحكم فى تسيير شئون المملكة، بدلاً من الشخص الذى لا حول له ولا قوة ولا يقوى على ممارسة مهام السلطة الملكية»(٥).

ولقد تأكد ببين من مناصرة البابا زكريا له، وأن رده سيكون إيجابياً، فالمصلحة هى المسَيِّرَة للأحداث السياسية. ولما كانت البابوية معرضة آنذاك لاغتصاب أملاكها من قبل اللمبارديين الذين يسعون آنذاك لبسط سيادتهم على إيطاليا بكاملها، لذا كان البابا زكريا وخلفاؤه فى حاجة ماسة إلى مساعدة عسكرية من قبل ببين ومن بعده إبنه شارلمان، وذلك لكبح جماح أعدائهم اللمبارديين، كما رغب فى التخلص من السيادة البيزنطية.

ولقد أتاح رد البابا زكريا الإيجابى الفرصة لببين أن يُقْدِمْ فى نوفمبر سنة ٧٥١م على عزل آخر ملوك الأسرة الميروفنجية - شلدر يك الثالث - وإدخاله أحد الأديرة ليقضى فيه البقية الباقية من حياته، فى حين تبوأ ببين القصير عرش مملكة الفرنجة بعد أن توجه ملكاً المبشر الإنجليزى الأسقف بونيفاس Boniface، ثم مسحه بالزيت المقدس، وجرى رفعه على التروس تعبيراً عن تعيينه ملكاً جديداً على مملكة الفرنجة طبقاً للعادة الجرمانية القديمة(٦). وبذلك تم تكريس العاهل الفرنجى الجديد وتنصيبه رسمياً فى احتفال كبير أقيم فى سواسون Soissons سنة ٧٥١م(٧). وهكذا، أسدل ببين الستار على الأسرة الميروفيجية، ليقيم على أنقاضها الأسرة الكارولنجية والتى نسبت إلى إبنه

شارل العظيم .Charlemagne وقد أشار المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين Henri Pirenne إلى هذا الحادث بالإنقلاب الكارولنجي[٨] Coup D'état

هكذا شهد منتصف القرن الثامن الميلادى ميلاد الأسرة الكارولنجية ، بعد تتويج رئيس بلاط أوسترازيا Austrasie ببين القصير ، ملكاً على مملكة الفرنجة . وفى عهده أصبحت تلك المملكة القوة السياسية العظمى فى الغرب الأوربى آنذاك ، وازدادت قوة بفضل السياسة الخارجية الناجحة والحكيمة التى استنها الملك الكارولنجى والقائمة على التحالف مع البابوية سيراً على خطى سياسة كلوفيس مؤسس الأسرة الميروفينجية الزائلة؛ كما أن بابوات روما آنذاك حرصوا حرصاً شديداً على توثيق هذا التحالف ، حماية لهم من اجتياح اللمبارديين لأراضيهم ، ولوضع حد لأطماعهم الهادفة إلى بسط سيادتهم على إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها .

والجدير بالذكر أن البابوية كانت قد ورثت أملاك الإدارة البيزنطية فى وسط إيطاليا ، واستغلت خير استغلال الظروف والأحداث التى ألمت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، وبخاصة غزوات الجرمان التى مزقت الغرب الأوربى إلى ممالك فقضت على الإمبراطورية الرومانية الغربية ، إضافة إلى المسيحية التى قضت على الوثنية وعبادة الأمبراطور؛ استغلت البابوية هذه الظروف لإقامة ملك دنيوى لها فى إيطاليا يشمل بصفة عامة المنطقة الواقعة بين البحرين المتوسط والأدرياتي . وكانت قد ازدادت قوة وأخذت مكانتها منذ عهد جريجورى العظيم (Grégoire Le Grand ٥٩٠ – ٦٠٤م) بعد أن منحها الشعب الأوربى تأييده عقب انهيار سلطة الإمبراطور فى الغرب الأوربى ، وبالتالى أصبحت القاسم المشترك الأعظم للقوى السياسية فى إيطاليا .

إلا أن ازدياد نفوذ البابوية واتساع أملاكها فى إيطاليا ، وكون عاصمة اللمبارديين بافيا Pavia على مقربة من روما عاصمة البابوية؛ إضافة إلى سعى ملوك اللمبارديين للإنفراد بالسيادة المطلقة على كل إيطاليا ، كل هذا أشعر البابوية أن اللمبارديين – رغم كونهم كاثوليك بعد أن كانوا وثنيين - لا يمكن الثقة فيهم أو الاعتماد عليهم ، خوفاً من أن تصبح البابوية مجرد أسقفية لمباردية ، بدلاً من جعلها عاصمة الغرب الأوربى بأكمله والمهيمنه على مقدراته دينياً ودنيوياً .

ولقد رأت البابوية ، بذكائها ومهارتها فى معالجة الشئون السياسية ، أن من الحكمة عدم قطع صلتها تماما بالدولة البيزنطية ، رغم إدراكها أنه ليس بوسعها الاعتماد عليها ، مع تجاهل أن أباطرتها لأيقونيون هراطقة . فرغم الاختلافات الدينية والمذهبية بين البابوية والدولة البيزنطية ، فقد حرصت على الارتباط بها ، لعدم وجود قوة أخرى - آنذاك - ويمكن الاعتماد عليها فى

مواجهة الغزاة اللمبارديين. لذا، اضطر اتيين الثانى - فى أول الأمر - إلى طلب العون من قسطنطين الخامس[٩] Constantin V (٧٤١ – ٧٧٥م)

هذا عن البابوية، وإذا انتقلنا إلى الدولة البيزنطية، فقد شهد عهد قسطنطين الخامس سقوط أرخونية رافنا Ravenne ونشأة دولة البابوية. لكن الملاحظ أن العلاقات المتشابكة بين القوى الأربع: الدولة البيزنطية، مملكة اللمبارديين، بابوات روما ومملكة الفرنجة لم يرد ذكر تفصيلى لأحداثها فى المصادر البيزنطية إلا فى نصف صفحة فى مصنف ثيوفانس[١٠] .Theophanes هذا بينما المصادر الغربية عامرة بالتفصيل وبالتالى غطت - إلى حد ما - قصور المصادر البيزنطية، لكنها تعالج الموضوع من وجهة نظر أوربية غربية، وبالتالى ينبغى أن نستخلص منها سياسة قسطنطين الخامس الغربية وموقفه من تلك الأحداث الهامة.

لقد تقاتل البيزنطيون واللمبارديون خلال قرنين من الزمان من أجل السيطرة على إيطاليا، وانتهى المطاف بينهم بأن تمكنت البابوية من تقرير مصير شبه الجزيرة الإيطالية. فالبابا لم يكن فى أول الأمر إلا أسقف عادى لروما وتابع للإمبراطور البيزنطى، ولكنه تحول إلى زعيم أوربى حقيقى بسبب تطور الأحداث لصالحه وتدخله فى تسييرها؛ إذ نتج عن ذلك أن تلاشت تبعيته تدريجياً للإمبراطور البيزنطى، وازداد التلاشى عمقا بعد القطيعة الدينية بين روما وبيزنطة؛ كما ساهمت الحركة اللا أيقونية فى ازدياد القطيعة بين الشرق والغرب. فمن جراء العنف الذى سار عليه ليو الثالث الأيسورى Leo III (٧١٧ – ٧٤١م) وابنه قسطنطين الخامس (Constantin V) نفرت الكنيسة الكاثوليكية الغربية من الدولة البيزنطية وأباطرتها، وازدادت تقرباً من ملوك الغرب الأوربى وخاصة ملوك الفرنجة أكبر قوة أوربية آنذاك، لتستعين بهم لدفع شر الاضطهاد البيزنطى. لذا حين طالب قسطنطين الخامس بإعادة الأراضى البيزنطية المغتصبة فى إيطاليا، ردّ عليه ببين القصير أنه وهبها للسدة الرسولية حباً فى القديس بطرس كيما تغفر خطاياه. هكذا من هذا التباعد بين الإمبراطور البيزنطى والبابا، ومن هذا التقارب بين البابا وببين القصير، زرعت البذور الأولى التى أدت فيما بعد إلى انقسام الكنيسة شطرين شرقية وغربية[١١].

ومما جعل أباطرة بيزنطة لا يعيرون الشئون الإيطالية الاهتمام الواجب أن تحظى به، بل لم يهتموا بما آل إليه مصيرها، يرجع ذلك فى الأساس إلى مشاكلهم ومشاغلهم. فأمور الداخل آنذاك كانت أهم من أمور الخارج، خاصة إذا تعلق الأمر بكرسى العرش.

ولقد أرجع المؤرخ البيزنطى ثيوفانس Theophanes القطيعة الكاملة بين الدولة البيزنطية والغرب الأوربى إلى سنة ٧٢٦م، حين نشرت المراسيم الأولى للحركة اللاأيقونية فى عهد ليو الثالث الأيسورى[١٢] .

إزاء تلك الحركة الدينية، عارض بابوات روما بكافة السبل هرطقة الأباطرة البيزنطيين؛ إذ أصدروا قرار الحرمان ضد الأرخونية، كما حرضوا الشعوب الإيطالية على الثورة[١٣]، وشجعوهم للامتناع عن دفع الضرائب[١٤]، وأقاموا مجمعاً دينياً فى روما سنة ٧٣٠م أدانوا فيه الهراطقة اللاأيقونيين[١٥]، كما أدانوا بطريرك القسطنطينية لأنه من مؤيدى هذه الهرطقة[١٦]. كل هذه الأمور العدائية أغضبت الإمبراطور البيزنطى حتى أنه أرسل إلى إيطاليا جيشاً وأسطولا لتهدئة الأمور فيها. إلا أن العواصف العاتية حالت دون وصولها إلى بحر الأدرياتيك[١٧].

ومع ذلك، فإن الأحداث أثبتت أن بابوات روما لم يتعجلوا على الإطلاق فى الانفصال عن الدولة البيزنطية، إذ اعتبروا أنفسهم على الدوام تابعين لها، ونواب عن الإمبراطور فى إيطاليا. وعندما شعروا أنهم سادة إيطاليا وأن سيادة الإمبراطور البيزنطى ليست إلا سيادة إسمية واهية، سعوا بأنفسهم إلى قمع الثورات، وحرصوا على الحفاظ على طاعة الشعب الإيطالى للأباطرة البيزنطيين[١٨] خوفاً من أن تؤول تلك السيادة لأعدائهم اللمبارديين.

أما اللمبارديون، فقد شكلوا خطراً على ممتلكات الأطراف الثلاثة بسبب سياستهم الرامية إلى وقوع إيطاليا كلها تحت سيادتهم وحوزتهم. فلقد أستولى اللمبارديون سنة ٥٦٨م بقيادة زعيمهم البوئين Alboin (٥٦١ - ٥٧٣م) على وسط إيطاليا وشمالها، بعد أن خاضوا عدة معارك مع الحاميات البيزنطية. أما مدينة روما Rome مع المناطق المجاورة لها، فقد بقيت خاضعة لسلطة البابا؛ بينما خضعت رافنا Ravenne تحت السيادة البيزنطية، وطوال ما يقرب من قرنين من الزمان، شهدت إيطاليا صراعاً بين اللمبارديين من جهة، والبيزنطيين من جهة ثانية، والبابوية من جهة ثالثة، كما تدخلت مملكة الفرنجة أيضاً فى هذا الصراع[١٩].

ولقد سار إيستولف Aistulf (٧٤٩ - ٧٥٦م) على سياسة لويتبراند Luitprand (٧١٢ - ٧٤٤م) الذى يعد أعظم الملوك اللمبارديين على الإطلاق، تلك السياسة القاضية إلى وقوع إيطاليا كلها تحت السيادة اللمباردية.

ونجح لويتبراند فى استغلال النزاع القائم بين الإمبراطور البيزنطى ليون الثالث الأيسورى والبابا جريجوار الثانى GrégoireII (٧١٥-٧٣١م) ليستولى على رافنا Ravenne وبولونيا Bologne وبنتابول Penta pole وكل الأراضى البيزنطية الواقعة شمال روما. إلا أنه بفضل تدخل البابوية ومساندة الجيش البندقى استعيدت رافنا من اللمبارديين[٢٠]. لكن لويتبراند لم يركن إلى السكينة، ففى

سنة ٧٤١م تمكن من قطع كل اتصال قائم بين روما ورافنا بعد اجتياحه أربع قلاع - ألا وهي أمريا Ameria وبوليمرتيوم Polimartium وهورتا Horta وبليرا Blera - تتحكم في الطريق المؤدى بينهما(٢١). وبوفاته سنة ٧٤٤م، إعتلى عرش اللمبارديين ثلاثة ملوك أهمهم إيستولف Aistulf الذي سار على خطاه فبدأ ينفذ مشاريعه التوسعية بغرض السيطرة على إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها فانتهز فرصة إنشغال الإمبراطور قسطنطين الخامس بالمشاكل الداخلية والحركة اللاأيقونية والأخطار الخارجية المتمثلة فى حربه ضد البلغار والمسلمين، واستولى على كوماشيو Commacchio وفيرارا Ferara وفي يوليو سنة ٧٥١م، سقطت رافنا بفعل هجوم ضار شنه عليها، واتخذها عاصمة لمملكة اللمبارديين. وبذلك، فقدت الدولة البيزنطية نهائياً أملاكها فى شمال إيطاليا ووسطها(٢٢).

نتيجة لما تقدم، أصبح البابا في موقف لا يحسد عليه ولا يقوى على مواجهة إيستولف، فهو على وشك إبتلاع كافة أراضيه حتى أن البابا أصبح على وشك الاختفاء من الساحة الإيطالية. فما كان منه أن هدد ملك اللمبارديين بتوقيع عقوبة الحرمان Excommunication، إلا أن إيستولف لم يحفل بتهديده. كما حول البابا استجداء تدخل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس، وطلب منه إرسال جيش بيزنطى لإستعادة روما والأراضى الإيطالية الأخرى من الغزاة اللمبارديين. لكن هذا التهديد لم يفلح هو أيضاً فى جعل إيستولف يتنازل عن ما حققه من توسع إقليمي؛ وبالتالى لم يكن أمامه سوى الاستعانة ببيبين القصير ملك مملكة الفرنجة(٢٣).

وحدث آنذاك أن توفي البابا زكريا فى ١٥ مارس سنة ٧٥٢م. وفي نفس الشهر خلفه على السدة الرسولية إتيين الثانى Etienne II (٢٦ مارس ٧٥٢ - ٢٦إبريل ٧٥٧م)، فكان عليه مواجهة أطماع اللمبارديين المتزايدة. ألا أن الأمور إزدادت تفاقماً حين أقدم ملك اللمبارديين في أوائل يونيو سنة ٧٥٢ على تهديد عاصمة البابوية روما(٢٤)، فما كان منه أن أنهى تهديده بإبرام اتفاقية سلام مع أتيين الثانى لمدة أربعين عاما. ورغم ذلك، وبعد مضى شهر على إبرامه تلك الاتفاقية، حاول ايستولف فرض جزية مقدارها صو Sou واحد من الذهب على جميع سكان دوقية روما. مما يؤكد نواياه فى أحكام سلطته على كافة اراضى البابوية(٢٥) Partes romanae

فى مواجهة تلك الأخطار، حاول إتيين الثانى التفاوض مع ملك اللمبارديين، عارضاً عليه الانسحاب من الأرضى التى احتلها. إلا أن مساعيه ذهبت سدى؛ فما كان من البابا أن لجأ إلى بيبين القصير زعيم أوروبا القوى طالباً مساعدته ضد اللمبارديين. ففى رسالة حملها إليه أحد الحجاج؛ أخبره فيها عن رغبته فى

التشاور معه، وأبدى قلقه البالغ[٢٦]. كما أوصاه أن يوفد إليه رجال ثقة لاصطحابه من روما إلى مملكة الفرنجة، لأن الطريق موبوءة باللمبارديين وغير آمنة. كما أنه يريد قبل الذهاب إلى ببين، أن يحصل على شئ يدل على مسئولية ببين تجاهه[٢٧].

فضلاً عن ذلك، فإن الإمبراطورية البيزنطية تأثرت تأثراً بالغاً بمجرى الأحداث المتعلقة بدوقية روما البيزنطية. فسقوط رافنا في قبضة اللمبارديين كان له صداه البالغ في بيزنطة، حتى أن قسطنطين الخامس كان يكتب خطاباً تلو الآخر إلى أتيين الثانى. فرافنا منذ عام ٥٦٨م عاصمة لأرخونية Exarchat بل وكل الأراضى الإيطالية التى آنذاك تحت السيادة البيزنطية، إضافة إلى أنها كانت حتى ذلك الوقت على اتصال وعلاقات وثيقة ودائمة مع العاصمة البيزنطية القسطنطينية. لذا، حاول الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس جاهداً، إستعادتها بطرقه الدبلوماسية. ففى سنة ٧٥٢م، أوفد حنا Jean، أحد كبار موظفى القصر الإمبراطورى، وبصحبته بولس Paul شقيق البابا، ليتفاوضا مع إيستولف في بافيا Pavie العاصمة اللمباردية. فقاما بتسليمه رسالة الإمبراطور. إلا أن مفاوضاتهما باءت بالفشل[٢٨]. وفى غصون عام ٧٥٣م، عاد حنا من القسطنطينية، حاملاً إلى البابا أتيين أمرا موجهاً إلى إيستولف، يقضى برد الممتلكات التى أغتصبها من أملاك البابوية. وبالفعل، وهو فى الطريق إلى ببين، مر على ملك اللمبارديين، لينقل إليه ما كلفه به الإمبراطور ولانعدام القوة البيزنطية الرادعة، إستخف إيستولف بالاعتراضات الدبلوماسية التى أبدتها بيزنطة، بل ورد عليها بزيادة تهديداته لروما وسكانها، كما عامل مبعوثى الإمبراطور معاملة سيئة[٢٩].

وقد أورد كتاب البابوات Liber Pontificalis أن البابا أتيين الثانى كان يدرك تماماً أن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس لا يقوى على مساندته وإجبار اللمبارديين على الانسحاب من الأراضى البيزنطية المغتصبة فى الغرب الأوربى. إلا أنه رأى من الناحية الشكلية، ضرورة إرسال سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى طالباً نجدته[٣٠]، ويقال إنه كان يفضل التدخل البيزنطى على التدخل الفرنجي وفق ما جاء في سيرته الواردة فى كتاب البابوات[٣١]، ويبدو أن سبب ذلك أنه كان خاضعاً للسيادة البيزنطية الضعيفة، ويخشى من الفرنجة الأقوياء إذا حلّو مكانها.

وفى غصون عام ٧٥٣م أيضاً، وصل من مملكة الفرنجة السفيران المرتقبان، وكانا من كبار الشخصيات وثقة وفق طلب البابا الذى كان يخشى مكائد اللمبارديين: الأول، شرود جرج Chrodegarg أسقف متز Metz، والثانى الدوق أوجييه .Augier ومما لا شك فيه أنهما كلفا بطمأنة البابا، وإخباره أن العاهل

الفرنجي يكن له النوايا الحسنة. كما كان على المبعوثين اصطحاب البابا إتيين الثاني – حسب رغبته سالفة الذكر - إلى مملكة الفرنجة، حيث كان في انتظاره لقاء تم ترتيبه مسبقاً للقاء الملك ببين[٣٢]. وبالفعل، اتخذ البابا طريقه من روما إلى مملكة الفرنجة في ١٤ أكتوبر سنة ٧٥٣م بصحبة مبعوثي ببين القصير وبعض كبار رجال الإمبراطور البيزنطي، واتجه الجميع نحو شمال إيطاليا ومملكة الفرنجة[٣٣].

ولقد أدرك إتيين الثاني مدى أهمية المباحثات، لذا اصطحب معه بعض كبار شخصيات الإدارة البابوية، فعبروا جبال الألب في شهر ديسمبر سنة ٧٥٣ في طريقهم إلى مملكة الفرنجة، وكان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس على علم بذلك[٣٤].

وفي الطريق، عانى الجميع من طول المسافة وشدة البرد. وأخيرا، في ٦ يناير سنة ٧٥٤م، تم استقبال البابا في القصر الملكي في بونثيون Ponthion من قبل الملك الفرنجي ببين، والذي سبق له أن كلف ابنه شارلمان -Charlemagne وكان عمره آنذاك عشر سنوات تقريباً - بترأس بعثة الشرف التي ضمت أيضاً بعض كبار ورجال المملكة والتي ستصاحب البابا إلى القصر الملكي في بونثيون[٣٥]. أما ببين وزوجته برتراد Bertrade وابنه الثاني كارلومان Carloman وكبار رجال البلاط الفرنجي، فقد انتظروا البابا على بعد ثلاثة أميال من المدينة. وعندما علم ببين باقتراب البابا أتيين الثاني، أسرع للقائه بصحبة زوجته وإبنهما الثاني كارلومان. وحين مثل البابا أمامهم، ركع ببين ليعبر عن احترامه وتبجيله للجالس على الكرسي البابوي، ثم ترجل الملك الفرنجي من على صهوة جواده، وسار على قدميه بجوار جواد البابا ممسكاً بلجامه، وكان الجو شديد البرودة، والثلج يغطي الأرض. وأخيراً دخل الموكب في احتفال مهيب القصر الملكي الفرنجي في بنثيون[٣٦].

ولقد بدأت المفاوضات بين البابا وببين في اليوم التالي مباشرة – أي في السابع من يناير سنة ٧٥٤م - وحضر الاجتماع كبار رجال مملكة الفرنجة والأساقفة، وفيها شرح أتيين الثاني حالة البؤس التي تمر بها الكنيسة اللاتينية والدموع تنهمر من عينيه، وتوسل إلى زعيم أوروبا القوي أن يضع حداً لأعمال الابتزاز والتهديد التي يرتكبها إيستولف، وأن يضمن حماية كنيسة القديس بطرس ودولة الرومان - Res publica أي دولة البابوية في روما – هذا بينما أقسم الملك الفرنجي أن يحقق كل مطالبه وأن يعيده إلى سالف مكانته من تبجيل واحترام، كما تعهد بإعادة المدن التي استولى عليها اللمبارديون؛ ألا وهي أرخونية رافنا Exarchat de Ravenne وبقية الممتلكات البابوية في إيطاليا[٣٧]. وتم إبرام أول اتفاقية بين إتيين الثاني وبين ببين القصير[٣٨].

وهكذا، سوف لا تعود الأراضي سالفة الذكر إلى صاحبتها الدولة البيزنطية وإمبراطورها اللاأيقوني هادم ومحطم الصور المقدسة قسطنطين الخامس، بل إلى بابا روما أتيين الثاني وكنيسة القديس بطرس.

هذا وقد أنعم البابا على ببين وأولاده بمرتبة «بطارقة الرومان»[٣٩] «Patricius Romanorum»، في احتفال أقيم في كنيسة سان دنيه يوم ٢٨ يوليو سنة ٧٥٤، أي أنهم أصبحوا من أشراف روما، والمدافعين عنها وعن إيطاليا الرومانية، كما مسحه هو والملكة برتراد وشارلمان وكارلومان بالزيت المقدس، وهدد الفرنجة بإنزال عقوبة الحرمان من جماعة المؤمنين Excommunication لكل من تسول له نفسه انتخاب ملك عليهم من غير أسرة ببين، أي الأسرة الكارولنجية[٤٠].

والجدير بالتسجيل هنا، أنه ليس من حق البابا ولا من صلاحياته منح لقب «بطريق الرومان»، بل يعد هذا من صلاحيات الإمبراطور البيزنطي، كما يعد أيضاً اغتصاباً لحق من حقوقه، لذا خشي ببين من حمل لقب بطريق[٤١].

وبذلك جعل أتيين الثاني من تلك الأسرة، أسرة أقيمت باختيار إلهي لتحكم الشعب الفرنجي وأصبح ببين القصير - مغتصب عرش الأسرة الميروفنجية - ملكاً شرعياً على أسرة جديدة، كما أصبح من حقه التدخل في شئون إيطاليا والدفاع عن البابوية وحمايتها هذا بينما جامل البابا، ببين القصير بإكسابه الشرعية بعد تتويجه ملكاً على الفرنجة. فكان خير سند للأسرة الكارولنجية الوليدة، كما عزز هذا التتويج المقدس أواصر التحالف بين ببين القصير والبابا أتيين الثاني، إذ أحدث بينهما نوعاً من القرابة الروحية، ودل - كما هو يعتقد آنذاك - أن الله والقديس بطرس يؤيدان ببين في مملكته، ويحميانه من كل محاولة يمكن أن تحدث عن طريق الملوك الشرعيين أو من أحد أبناء كارلومان شقيق ببين القصير.

ومن جهة أخرى، فإن التحالف الفرنجي البابوي سيكون له نتائج بعيدة المدى، إذ بعد أقل من نصف قرن سيقوم البابا ليون الثالث Leon III بتتويج شارلمان بن ببين إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، وذلك ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ م[٤٢].

ومن الطريف أن رافنا لم تكن تابعة لبابا روما، بل كانت أراض خاضعة للسيادة البيزنطية، أي أن اللمبارديين حين استولوا عليها، فقد استولوا على أراض بيزنطية، كذلك كان حال دوقية روما، التي كانت في الواقع تحكم من قبل البابا الخاضع للسيادة البيزنطية.

حينئذ، ليتخلص البابا أتيين الثاني من هذا المأزق قبل عودته إلى مملكة الفرنجة، كتب وثيقة مزيفة في روما لتبرير مطالبه التوسعية عرفت باسم

«هبة قسطنطين» Constitutum Constantini Imperatoris وهى الهبة التى قيل إن الأمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦- ٣٣٧ م) Constantin Le Grand منحها فى القرن الرابع للبابا سلفستر الأول Sylvestre I (٣١٤- ٣٣٥م) وخلفائه، لكى يحكموا بموجبها إيطاليا والغرب الأوربى بأكمله. لقد شاعت فى إيطاليا منذ أواخر القرن الخامس قصة تروى أن البابا سلفستر كان قد عالج الإمبراطور قسطنطين من مرض الجذام. وأن قسطنطين تخلى للبابا عن حكم إيطاليا والغرب اعترافاً منه بهذا الجميل، ومنحه التاج الإمبراطورى تعبيراً عن هذه السلطة، وأن قسطنطين اكتفى بحكم القطاع الشرقى من الإمبراطورية الرومانية، وأن البابا أعاد التاج للإمبراطور. وقد اعتمدت وثيقة هبة قسطنطين على هذه القصة، وصدرت على أنها المرسوم الذى أصدره قسطنطين بهذه المناسبة؛ ولذلك، فإن الوثيقة تثبت بطريقة شرعية - حسب أدعاء الكنيسة الكاثوليكية- حق البابا فى تتويج الأباطرة والملوك، لأن إعادة سلفستر للتاج على رأس الإمبراطور قسطنطين يعتبر تتويجاً له، وحقاً يستطيع البابا أن يمارسه فى أى وقت؛ وتثبت بالتالى خضوع السلطة الزمنية للسلطة الدينية، وبعبارة أخرى تثبت حق البابا فى تتويج الساسة كيفما شاء.

كما جاء فى تلك الوثيقة أيضاً أن قسطنطين وهب البابا سلفستر الأول قصر اللاتيران Latran وكنيسة القديس بطرس، وحق حمل التاج وشارات الإمبراطورية: الرداء الأرجوانى، والبزة الحمراء، والصولجان، وعصى القيادة. والحق فى أن يكون له فرسان يرافقونه، وحق تعيين قناصل. وأن احترام قسطنطين للقديس بطرس يجعله يقوم بوظيفة السائس حيال البابا سلفستر الأول، وذلك بأن يترجل ويقود مطية البابا. وهذا ما فعله ببين القصير حين استقبل البابا فى بونثيون.

ويقال إن وثيقة «هبة قسطنطين» تم تزويرها فى روما، لأن أسلوبها يطابق الأسلوب الذى كانت تكتب به الوثائق البابوية فى القرن الثامن الميلادى؛ وأنها حررت فى عهد البابا أتيين الثانى (٧٥٢- ٧٥٧م) للتأثير على ببين القصير لكى يحارب اللمبارديين فى إيطاليا ويسترد منهم الأملاك البابوية التى استولوا عليها، والتى تعتبر بموجب هذه الوثيقة حقاً شرعياً للبابا. ويقال أيضاً إن الوثيقة زورت - تحديداً - فى سنة ٧٥٣م، وأن الموثق كريستوفر Christophors هو الذى قام بتحريرها، وأن البابا إتيين الثانى قدم الوثيقة بنفسه إلى ببين القصر عندما سافر إلى بونثيون سنة ٧٥٤م. ويؤيد هذا الرأى أن الوثيقة ظهرت لأول مرة فى دير سان دينيه الذى قضى فيه البابا أتيين شتاء هذا العام[٤٣].

على أية حال، طلب الملك الفرنجى من إيستولف أن يضع حداً لعدائه مع البابا، ويعيد إليه أملاكه التى اغتصبها. لكن محاولته هذه باءت بالفشل. فما

كان من ببين أن جمع كبار رجال مملكته وذلك فى الأول من مارس سنة ٧٥٤م فى برنى - ريفيير Berny - Riviere إحدى دوائر سواسون Soissons وأعرب فى هذا الاجتماع عن عزمه لشن حرب فى إيطاليا ضد إيستولف لصالح البابا. فقوبل طلبه بمعارضة شديدة من قبل الحضور، وحجتهم فى ذلك أن التحالف الفرنجي اللمبارديين يعتبر تقليداً سياسياً؛ فضلاً عن ذلك، فقد دب الفزع من تلك الحملة بسبب كونها بعيدة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، حاول ملك اللمبارديين مساندة المعارضين للحملة الموجهة ضده، إذ أقنع كارلومان Carloman شقيق ببين القصير على مغادرة دير مون - كاسان Mont-Cassin ليذهب خلال شهر مارس إلى مملكة الفرنجة، ويتوسل إلى شقيقه ألا يذهب فى حملة على إيطاليا، حى لا يكبدها أهوال الحرب والقتال. وكان طلبه هذا مثار دهشة وغضب جميع رجال الدين، كما أن ببين رفض الإنصياع لنصيحة شقيقه الذى أمره بمغادرة القصر، ثم ألقى القبض عليه وأجبره على دخول دير فيينا Vienne حيث ما لبث أن مات بعد قليل فى ١٧ أغسطس سنة ٧٥٤م، كما اضطر أولاده أن يعيشوا رهباناً هم أيضاً(٤٤).

رغم هذا الفشل، لم يركن ببين إلى السكينة، بل عقد مجلس الفرنجة الأعظم فى كيرسى - سيرواز Quiersy - sur - Oise وذلك فى ١٤ إبريل سنة ٧٥٤م يوم عيد القيامة. وفى هذه المرة نجح ببين فى إقناع الأدواق والكونتات بعزمه القاطع على قتال اللمبارديين حفاظاً على حقوق البابوية. فوافقه الجميع على مطلبه وأخذوا بفكرته. وأوضح تعهداته فى بونثيون حيث تعهد باتفاق باسمه وباسم ولديه إلى البابا أن يمنحه رافنا، ويؤمن له أملاك هذه الأرض مع دوقية روما(٤٥).

والملاحظ أن ببين حركته دوافع كثيرة ومختلفة لاتخاذ مثل هذا المسلك العدائى تجاه إيستولف. فملك اللمبارديين كان على استعداد لاستقبال ألد أعداء ببين ألا وهو شقيقه الثالث غير الشرعي جريفون Griffon وذلك سنة ٧٥٣م. وكان والده شارل مارتل قد ظلمه بأن أعطاه ميراثاً شريطاً ضيقاً من الأرض على حدود نستريا وأوسترازيا. وفى سنة ٧٤١م، أدخل أحد الأديرة ثم أطلق ببين سراحه. وبالفعل توجه جريفون فى طريقه إلى لمبارديا، إلا أنه لقى حتفه فى إحدى ممرات جبال الألب(٤٦).

عقب ذلك، ولإجلاء إيستولف عن الأراضي البابوية التى احتلها، أرسل ببين سفارتين للمثول أمامه؛ إضافة إلى رسالة من البابا إتيين الثانى. وقد استمرت تلك المفاوضات السلمية النشطة خلال صيف وخريف سنة ٧٥٤م، إلا أن تلك الجهود السلمية ذهبت سدى. فلم يبق أمام الملك الفرنجي إلا استخدام القوة المسلحة. وهكذا انطلقت الجيوش الفرنجية من أنحاء سواسون وذلك فى ربيع

سنة ٧٥٥م، في اتجاه ليون وموريان Maurienne، حيث انضم إليهم ببين وبصحبته إتيين الثاني[٤٧]. فازداد المقاتلون حماسة في حربهم ضد اللمبارديين. وبعد إنذار أخير لا طائل منه، إجتاز الجيش الفرنجي جبال الألب عن طريق ممر جبل سيني Mont- Cenis، ثم أسرع في التقدم إلى أن وصل إلى سوز[٤٨] Suse. فأحدث هرجاً ومرجاً في مقدمة الجيش اللمباردي، فما كان من الجيش الفرنجي أن زحف في أعقابه إلى أن وصل بافيا عاصمة مملكة اللمبارديين حيث حاصر إيستولف الذى أبدى صموداً ضعيفاً للغاية وبدا للجميع أنه قرر الصلح بسرعة حتى يتخلص من الغزاة الفرنجة.

هذا بينما يبدو أن ببين من جانبه كان سعيداً أكثر من اللازم بهذا الانتصار. ويرجع ذلك ربما إلى قصر النظر، أو ربما أيضاً بدافع من الحماسة الزائدة؛ إذا كان يعتقد أن الحرب إذا طالت ستؤثر على موقفه ومكانته في مملكة الفرنجة، لذا، اكتفى بما تعهد به إيستولف بأن يعيد للبابا أرخونية رافنا، مع بقية أراضى المقاطعة التى كان قد غزاها، إضافة إلى نارنى Narni وسيكانو Ceccano الواقعتين على أطراف الدوقية، مع الاعتراف بالسيادة الفرنجية. بعد ذلك، إصطحب الملك الفرنجي البابا إتيين الثانى إلى روما، فدخلها مزهواً بالانتصار الذى أحرزه على عدوه إيستولف؛ ثم وواصل ببين القصير طريقه إلى مملكة الفرنجة وذلك في أوائل صيف سنة ٧٥٥، فخوراً بإخضاع لمبارديا للسيادة الفرنجية[٤٩] لكن فرحته لم تكتمل حين علم وهو فى طريق عودته إلى مملكته بنبأ استشهاد صديق عمره ورفيق حياته القديس بونيفاس Boniface على أيدى بعض الفريزيين الوثنيين، فعزم على أن ينتقم له. ومما يذكر أن استشهاد بونيفاس يعد نصراً للمسيحية لوصولها آنذك إلى تلك الأصقاع النائية في أقصى شمال أوروبا، إذا نتج عن ذلك تنصير الفريزيين، واتخاذهم قبره مكاناً مقدساً.

أما الإمبراطورية البيزنطية، فلم تتنازل على الإطلاق عن الأراضى التى أصبح ببين يتصرف فيها على هواه بموجب حق الغزو. فالحكومة البيزنطية علمت بذلك مؤخراً، فما كان منها أن أرسلت فى ربيع سنة ٧٥٦م سفارة إلى ببين ضمت جورج والمبعوث القديم حنا، تطلب منه أن يتخلى عن رافنا والأرخونية. فرفض الملك الفرنجي المطلب البيزنطى رفضاً قاطعاً[٥٠]. وهكذا فقدت بيزنطة تلك الأراضى إلى الأبد، بينما بدأت الحياة تدب فى دولة البابوية.

على أن ملك اللمبارديين المهزوم لم يكن ليحافظ على عهده إلا فى حالة وجود قوة ببين على مقربة منه. فقد استغل انسحاب الجيش الفرنجى من إيطاليا، وعودة ببين إلى عاصمته سواسون، ليتراجع عن الوفاء بما تعهد به، ويمتنع عن إرجاع أى مدينة إلى الكرسى البابوى ما عدا نارنى Narni الذى تجرأ واستردها ثانية من البابا. ولم يكتف بذلك، بل عهد إلى تشديد الحصار على

مدينة روما Rome ذاتها وذلك فى الأول من يناير سنة ٧٥٦م، واستمر الحصار لمدة ثلاثة أشهر، عانى منه أهلها الأمرين حتى أنهم اضطروا للاستسلام فى آخر الأمر وأدرك ببين آنذاك أن الأمر لا يحتمل الانتظار ولابد له من العودة ثانية إلى إيطاليا لإنقاذ روما. قرر ذلك فى مايو سنة ٧٥٦م. فاجتاز الجيش الفرنجي - كحال الحملة الأولى - ممر جبل سينى Mont- Cenis ثم ألحق الهزيمة بجيش اللمبارديين المتواجد فى مضيق سوز Pas De Suse وبذلك تمكن ببين من إحكام حصار إيستولف فى بافيا العاصمة اللمباردية. وقد شاركت الجيش الفرنجي فى عملياته العسكرية سالفة الذكر كتائب بافارية أتت من الشمال بقيادة ابن خالته المدعو تاسيلون Tassilon دوق بافاريا Baviere وأخيراً، اضطر ملك اللمبارديين للاستسلام وطلب الصلح(٥١).

وكان من الطبيعى أن يملى ببين شروطه على إيستولف، إذ أكرهه على تجديد خضوعه له، وأن يستولى على ثلث خزائن لمبارديا الملكية، وأن يدفع لمملكة الفرنجة جزية سنوية، ويسلمه عدداً جديداً من الرهائن، ويعيد فى الحال الأراضى التى استولى عليها من أرخونية رافنا ونارنى. وقد ورد فى كتاب البابوات Liber pontificalis أن ببين نظم كل ذلك، ومنحه إلى القديس بطرس ببراءة مكتوبة، وكلف فولراد Fulrad رئيس دير القديس دينيه بالذهاب بشخصه لتسلم كل المدن والمقاطعات التى تعهد ملك اللمبارديين بالتنازل عنها فى العام الماضى وتسليم مفاتحيها – حسب الأصول التقليدية – إلى روما وخليفة القديس بطرس أى إتيين الثانى(٥٢). وهكذا كان على فولراد الذهاب بشخصه لتسلم المواضع وهى فى رافنا وفى كوماشيو Comacchio فى الأرخونية، وفى فورلمبوبولى Forlimpopoli سيسنا Cesena، ريمينى Rimini، بيزارو Pesaro، فانو Fano، سنيجاليا Senigallia، سان مارينو San Marino، منتيفلتر Montefeltro (فى أيامنا هذه سان ليو San Leo)، أوربينو Urbino، ييسى Iesis، وفى ثلاث أو أربع مواضع أخرى أو ضيع فى بنتابول Pentapole، وبذلك تسلم جوبيو Gubbio شمال أومبرى Ombrie، وعلى حدود دوقية روما وسابين Sabine، تسلم مدينة نارنى Narni الصغيرة التى سبق لإيستولف أن انتزعها فجأة من البابا(٥٣) كما سبق القول.

هكذا رضخ إيستولف للشروط المهينة المفروضة عليه، وسلم المدن والأراضى البابوبة إلى فولراد Fulrad الذى بدوره ردها إلى البابا، ووضعت مفاتحيها والوثيقة الرسمية للهبة التى عرفت فيما بعد بهبة ببين Donation de Pepin على مذبح القديس بطرس، دلالة على انتصار الكنيسة الكاثوليكية على أعدائها. وكونت الأراضى سالفة الذكر مع دوقية روما الدولة البابوية. وكانت تحت حماية ببين القصر وبذلك أصبح البابا إتيين الثانى صاحب الأراضى

البيزنطية الواقعة فى وسط إيطاليا بعد أن أصبح سيداً لدوقية وأرخونية رافنا. ولا شك فى أنه كان يعترف نظرياً بسيادة الإمبراطورية البيزنطية. وفى واقع الأمر بقيت أراضى البابا مستقلة، ولكنها لم تجد شكلاً قانونياً محدداً. ولذا يمكن اعتبار «الجمهورية الرومانية» «Republica Romanorum» أي «دولة البابوية» دولة فى حالة التكوين، والسلطة الوحيدة التى تسيطر عليها هى سلطة ببين القصير، الذى يراقب إلى حد ما سياستها الداخلية(٥٤).

ومن الطبيعى أن يكون وقع هذه الهزيمة الساحقة محزناً فى نفس إيستولف، إذ لقى مصرعه خلال رحلة صيد وذلك فى ديسمبر سنة ٧٥٦م بعد أن سقط قتيلاً من على ظهر جواده(٥٥).

على أية حال، بمصرع إيستولف فى ديسمبر سنة ٧٥٦م، حدث نزاع على عرش اللمبارديين بين رتشيس Ratchis شقيق إيستولف الذى خرج من دير مون كاسان Mont- Cassin، وديزيدريوس Desiderius دوق توسكانيا Toscanie والمرشح من قبل فولراد Fulrad رئيس دير سان دينيه(٥٦) فما كان من البابا إتيين وببين القصير أن ساندا ديزيدريوس سياسياً وعسكرياً مقابل الالتزام بالاتفاقية التى أبرمها سلفه سنة ٧٥٤م وجددت سنة ٧٥٦م(٥٧)، كما تعهد للبابا فى حضور ممثل ببين فى إيطاليا أن يعيد إليه ما اغتصبه لويتبراند Lataran (٧١٢ – ٧٤٤م) من أراض وعلى وجه الخصوص فى أرخونية فاينزا: Faenza الواقعة غرب الأرخونية، إضافة إلى أنكونا Ancône وأومانا Umana و أوسيمو Osimo الواقعة جنوب شرق بنتابول .Pentapole وكان مصير رتشيس Ratchis العودة ثانية إلى الدير بناء على أوامر البابا إتيين الثانى(٥٨).

لكن لم يكد ديزيدريوس يتربع على عرش المملكة اللمباردية فى مارس سنة ٧٥٧م حتى نكث بالعهد، وامتنع عن تسيلم المواضع التى تعهد بتسليمها للبابا، واكتفى فقط بتسليمه فاينزا Faenza وفيرارى Ferrare (٥٩).

وحدث آنذاك أن توفى البابا أتيين الثانى فى ٢٦ إبريل سنة ٧٥٧م فى قصر اللاتيران Latran، وخلفه على الكرسى البابوى بولس الأول Paul I (٧٥٧– ٧٦٧م)، الذى حاول - دون جدوى - استرداد بقية الأراضى التى وعد ديزيدريوس بتسليمها للبابوية ولم يكتف ديزيدريوس بالامتناع عن تسليم الأراضى للبابا بل سخر منه وهدده ثم فاوضه سنة ٧٥٨م وبرفقته مندوب الإمبراطور البيزنطى لاستعادة رافنا(٦٠). أما ببين فكان آنذاك يتمنى إقامة سلام فى إيطاليا، بسبب انشغاله فى إتمام قيام الحكم الفرنجى فى جنوب بلاد الغال، واسترداد جميع المدن التى كانت فى يد المسلمين فى سبتمانيا Septimanie، والتى زحف عليها ببين نفسه سنة ٧٥٩م(٦١). كما واجه مهمة بالغة الصعوبة حين قام بغزو

أقطانيا Aquitanie، وبعدها تتابعت غزواته، باستسلام تولوز Toulouse عاصمتها سنة ٧٦٧م[٦٢]. كما حارب آنذاك السكسون[٦٣]. إضافة إلى ما تقدم، قوبل التدخل الفرنجي فى الشئون الإيطالية بمعارضة شديدة من قبل كبار رجال المملكة من النبلاء.

كل تلك المتغيرات، جعلته يغير من سياسته الإيطالية ويجنح إلى السلم فى حرب لن يجنى ثمارها فى حالة النصر سوى بابا روما. لذا، سعى سنة ٧٦٣ م، على تهيئة جو لإبرام إتفاقية سلام بين الفرقاء، ونتج عن إقناع البابا بولس الأول بتوقيعها، إن تنازل عن مطالبه الإقليميه كما تنازل عن بسط سيادته على سبوليتو Spoléte وبنفنتو Bénévent

وهكذا أبرمت اتفاقية سنة ٧٦٣ م بين ملك اللمبارديين ديزيدريوس والبابا بولس الأول، تقضى بالاحترام المتبادل بين الطرفين، وإعادة الأمور إلى نصابها دون إحداث تعديلات مستجدة، مع احتفاظ كل طرف بقوانينه الخاصة دون تدخل الطرف الأخر[٦٤].

ثم كان أن توفى ببين القصير فى ٢٤ سبتمبر سنة ٧٦٨م وهو فى الرابعة والخمسين من عمره، بعد آخر حملة قام بها على اقطانيا، إذ شعر وهو فى مدينة سانت Saintes بمرض الم به واقتراب أجله، فقام بتوزيع مملكته كما فعل والده شارل مارتل، إذ قسمها بين ولديه كارلومان Carloman وكان نصيبه المناطق الشرقية ألا وهى: بروفانس وسبتمانيا وبرجنديا والالزاس وأليمانى Alémanie. أما شارل العظيم أى شارلمان فكان نصيبه استرازيا Austrasie ونستريا Neustrie. فى حين قسمت اقطانيا بينهما[٦٥].

ختام القول، كان ببين حكيماً فى سياسته إزاء إيطاليا المتصارع عليها من قبل القوى الثلاث: الدولة البيزنطية صاحبة السيادة، واللمبارديون الطامعون فى الاستحواذ عليها من أقصاها إلى أقصاها والبابوية الساعية للحفاظ على نفوذها فى وسطها، بعيداً عن أطماع اللمبارديين من ناحية، والسيادة البيزنطية الواهية من ناحية أخرى. ولا مانع لدى بابوات روما من الهيمنة على إيطاليا بكاملها بل والغرب الأوربى والعالم أجمع كذلك لكثلكته.

وفى تتبعنا للكاسب والخاسر، نلاحظ أن الكاسب الأكبر فى أول الأمر كان البابا إتيين الثانى، الذى سخر جيش ببين القصير لصالحه فى معركتين سنتى ٧٥٤ و ٧٥٦م خرج منهما ظافراً. وكانت اتفاقية السلام الثانية، أنجح من الأولى، بالنسبة للبابوية على وجه الخصوص، بسبب اتساع الأراضى التى ستؤول إليها، إذ أصبح البابا صاحب الأملاك البيزنطية فى وسط إيطاليا، بعد تسلمه المدن البابوية وابتداع هبة قسطنطين المزيفة، التى جعلت منه زعيماً دينياً ودنيوياً لدولة البابوية. وهكذا أصبح مهيمناً على مقدرات الغرب

الأوربى، ومسيراً لكثير من أحداثه طوال العصور الوسطى.

لكن بوفاة ملك اللمبارديين إيستولف فى ديسمبر ٧٥٦م، تبدلت الأمور لصالح اللمبارديين، بعد امتناع خلفه ديزيدريوس، عن تنفيذ ما سبق أن تعهد به سلفه، إذ رفض تسليم البابا الأراضى المتفق عليها، بل اكتفى بتسليمه فاينزا وفيرارى. وبوفاة أتيين الثانى فى ٢٦ إبريل ٧٥٧م، أكره شقيقه وخلفه بولس الأول على التنازل عن مطالبه، بعد تدخل ببين ونجاحه فى إبرام اتفاقية بين المتخاصمين سنة ٧٦٣م، أضاعت الكثير من المكاسب هادفاً من ذلك أن يسود السلام ربوع إيطاليا غير المتفرغ لمشاكلها ولا تعنيه كثيراً آنذاك بسبب توسعاته الخارجية التى ستفضى إلى توسيع رقعة مملكة الفرنجة.

أما الكاسب الثانى، فكان ببين القصير، إذ حولته البابوية من «حاجب القصر» الملكى فى أوسترازيا إلى «ملك مملكة الفرنجة»، وبالتالى ساعدته على إسدال الستار على الأسرة الميروفنجية، وإقامة الأسرة الكارولنجية. وهكذا اغتصب العرش بمباركة البابوية، أى بطريقة شرعية خالصة، خاصة وأنها هددت معارضى ملوك تلك الأسرة الجديدة بالحرمان.

كما أن ببين كبح جماح مملكة اللمبارديين، فأصبحت لا تشكل لمملكته أى إزعاج، بل بعد إلحاق الهزيمة بها فى معركتين، فرض عليها مطالبه بموجب اتفاقية ٧٥٤م، إذ أضافها إلى مجموعة الأراضى الخاضعة للتاج الملكى، وفى الاتفاقية الثانية التى أبرمت سنة ٧٥٦م، نصت على أن يكون لببين ثلث خزائن مملكة لمبارديا، وأن يدفع ملك اللمبارديين إيستولف لببين جزية سنوية.

إضافة إلى ما تقدم، فإن البابوية تخلت عن السيادة البيزنطية التى لا تقوى على حمايتها، لتبدلها بسيادة مملكة الفرنجة، مما رفع من شأنها لتحتل المكانة الأولى فى الغرب الأوربى آنذاك؛ ونتج عن ذلك فيما بعد، قيام وحدة أوربية على مسرح التاريخ تحت مسمى «الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة».

وإذا انتقلنا إلى اللمبارديين، فكانوا من كبار الخاسرين زمن إيستولف عقب هزيمتيه المتلاحقتين، وإن كان ديزيدريوس أوقف وخفف من حجم الخسائر، إلا أن عملاق أوربا شارلمان الذى ورث مملكة أبيه القوية، مسح من صفحة التاريخ ديزيدريوس ومملكة اللمبارديين بعد ضمها إلى رقعة إمبراطوريته الواسعة سنة ٧٧٤م.

وأخيراً، خسر البيزنطيون الجزء الأكبر من إيطاليا البيزنطية، إذ اقتصرت السيادة البيزنطية على كالابريا Calabre وأوترنت Otrante ونابولى Naples وجايتى Gaëte وضاعت هيبة الإمبراطور البيزنطى، بينما بزغ نجم ملك الفرنجة ببين، ومن بعده ابنه شارلمان الذى سيصبح إمبراطوراً على القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية بعد أقل من نصف قرن.

الهوامش

(١) للتفاصيل أنظر:

Monod, G., Etudes Critiques sur les sources de L' Histoire Mérovingiennes, Paris, 1872, PP. 1-63.

حيث أعد العالم جابرييل مونو Gabriel Monod دراسة نقدية تحليلية مقارنة لأهم مصدرين عن الأسرة الميروفنجية في القرن السادس: الأول جريجوار التورى Grégoire de Tours والثاني: ماريوس دافنش Marius d' Avenches أنظر أيضاً:

علية عبد السميع الجنزوري: جريجوار التوري وقيام دولة الفرنجة، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٧٧– ١٢١.

(٢) Continaution de Frédégaire, P. 182.

(٣) Ibid, P. 182; Annales Regni Francorum, éd. Kurze, 1895, PP. 8-10; Eginhard, Vita Karoli Magni, p.9; Liber Pontificalis, t.I, P. 433.

وللتفاصيل أنظر سيرة البابا زكريا في كتاب البابوات .Liber Pontificialis t.I, PP. 426- 439

(٤) Liber Pontificialis, t.I, P. 444

(٥) Annales Regni Francorum, PP. 8-9; Continuation de Frédégaire, P. 182; Clausula De Unction Pippini, in M.G.H., SS. RER. Merov., I, P. 465-466.

(٦) Clausula De Unctione Pippini,in SS. Rer, Merov., I, P. 465; Annales Fuldenses, éd. Kurze, Hanover, 1891, P.6.

(٧) Annales Regni Francorum, PP. 8,10; Annales qui Dicunter Eginhard, PP. 9, 11; Cont. Fred; 33, P. 182

(٨) Pirenne, H; Mahomet Et Charlemagne, Paris, 1970, P.137; Mahomet And Charlemagne, London, 1958, P. 188.

(٩) La Monte, J.L., The World of The Middle Ages, NewYork, 1949, PP. 391-394; Baldwin, M.W., TheMediaeval Church, NewYork, 1935, PP, 46-58, 76-81.

(١٠) Theophanes, The Chronicle Of Theophanes Confessor, Ed. Cyril Mango and Robert Scott, Oxford, 1997, PP. 556-557; éd, Harry Turtledove, Pensylvania, 1982, PP. 94-95.

(١١) Vasiliev, A.A; Constantin I, Empereur Des Romains, Paris, 1902, PP. 60-61.

(١٢) Theophanes, éd Mango, P. 558; éd. Harry, P. 96.

(١٣) LE Liber Pontificalis, ed. L. Duchesne, Paris, 1955, t.I, 184- 185.

(١٤) Liber Pontificalis, t.I, 183.

(١٥) Liber Pontificalis, t.I, 192; Mansi, Amplissima Collection Conciliorum, 299.

(١٦) Theophanes, éd Mango, P. 563-564; éd. Harry, P.P 98-95.

(١٧) Longhis, T.G., Les Ambassades Byzantines en Occident, Athenes, 1980, P. 132.

(١٨) Liber Pontificalis, 184- 185, 187.

(١٩) Lot, F., The End of The Ancient World and The Beginning of The Middle Ages, London, 1931, P. 290; LA Fin du Monde Antique et le Commencement du Moyen Age, Paris, 1927, PP. 355-356; Halphen, L., Etude Sur L'Administration De Rome au Moyen Age 757-1282, Paris, 1907, pp. 11-15, 20,40.

(٢٠) Monumenta Germaniae Historica, Epistolae, t.III, P. 702

(٢١) Codex Carolinus, in M.G. EP. t. III, P. 447.

(٢٢) Liber Pontificalis, t.I, PP. CCXXIV-CCXXV,M.1P. 442. CF. Diehl, CH., Etudes sur L'Administration Byzantine dans L'exarchat de Ravenne, Paris, 1888, P. 220; Ostrogorsky, G. Histoire de L'état Byzantine, trad. J. Gouillard, Paris, 1977, P. 199; History of the Byzantin State, trad, j. Hussey, Oxford, 1968, P. 170; Deanesly, M,A History of Early Medieval Europ London, 1956; P. 292; Brehier, L' Vie et Mort de Byzance, Paris, 1969, P. 82; Halphen, L; Charlemagne et L'empire Carolingien, Paris, 1968, P. 31.

(٢٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 442.

(٢٤) Liber Pontificalis, t.I, P. 230.

(٢٥) Codex Carolinus t. III, P. 479- 480.

(٢٦) Clausula de Unctione Pippini, in M.G.Hss. Rer, Merov., 465-466.

(٢٧) Codex Carolinus t. III, P481- 482;. Liber Pontificalis, t.I, P. 444.

(٢٨) Liber Pontificalis, t.I, P. 443. CF. Ganshof, Histoire du Moyen Age, Paris, 1940, t.I, P. 408.

(٢٩) Liber Pontificalis, t.I, P. 442.

(٣٠) Liber Pontificalis, t.I, P. 442. cf, Lombard, Constantin V, P,65.

(٣١) Liber Pontificalis, t.I, P. 443.

(٣٢) Liber Pontificalis, t.I, P. 445.

(٣٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 445. cf. Halphen, p. 32. Lounghis, Les Ambassades, P. 134.

(٣٤) Hubert, J., Etude sur La Formation des Etats de L'eglise, Paris, 1952, P. 251; Kleinclausz, A., Charlemagne, Paris, 1934, P.2., Diehl, Op. Cit, P. 218, Lombard, p. 70.

(٣٥) Liber Pontificalis, t.I, P. 447-448; Continuateurs de Frédégaire, 36, P. 183; Clausula de Unctione Pippini, PP. 465-466.

(٣٦) Liber Pontificalis, t.I, P. 448.

(٣٧) Annales Mettenses Priores, éd. B. Von Simson, Hanover, 1905, in M.G.H. SS. Rer Germ., Année 753, V, P. XI; Liber Pontificalis t.I, P. 448; cf. ganshof, t.I, P. 409.

(٣٨) Liber Pontificalis, t.I, P. 448. cf. Lombard, P. 72.

(٣٩) لقب بطريق (Patrice) من ألقاب الشرف الرفيعة، لم يكن لحاملة وظيفة معينة، أنعم به أباطرة الإمبراطورية على زعماء البرابرة مثل أدواكر Odoacre وثيودوريك .Théodoric وفي القرن الخامس الميلادي حاول ثيودوسيوس الثاني وزينون قصر استخدام هذا اللقب، لكن جستنيان الكبير أرجعه إلى سابق عهده أنظر:

Bréhier, Les Institutions De L'empire Byzantin, Paris, 1949, PP. 102- 103; Bury, The Imperial Administrative System. London, 1911, PP. 20- 36, 121- 124.

(٤٠) Liber Pontificalis, t.I, P. 448; Annales Regni Francorum, Année 754, P. 12; Chronique de Moissac, P. 293; Codex Carolinus, Lettre 7, in Epistolae, t.III, P.493; Clausula de Unctione Pippine, PP. 456-466; Fredegarii Chronicorum Liber Quartus Cum Continuationibus, C.33, p. 102.

(٤١) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, e d. Kurze, P.12.

(٤٢) حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ـ القاهرة ١٩٩٣م - ص ١٢١.

(٤٣) Ganshof, T.I, P. 409, Halphen, Pp. 35- Loughis, Pp. 136 - 138.

وقد أنكر رهبان دير سابين Sabine في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي صحة وصدق هبة قسطنطين. أنظر: جيبون: اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ جـ٢، ص ٥٧٧ وعن

معارضيها انظر: ص ٥٧٧– ٥٧٨.

(٤٤) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, Année 755 éd. Kurze, P.12. Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٥) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, P. 11.

(٤٦) Frédegaire, C. 35, P. 103.

(٤٧) Liber Pontificalis, t.I, P. 452- 453; Annales Regni Francorum, P.12; Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٨) Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٩) Fredegaire, C. 37, P. 105-106.

(٥٠) Fredegaire, C. 38, P.P 107; Liber Pontificalis, t.I, PP 452-453.

وقد أدرجت في حولية بتافياني تحت أحداث سنة ٧٥٤م. أنظر:

Annales Petaviani, éd. Pertz, Année 754, P. 11

أنظر أيضاً:

Annales Fuldensis, ED. Kurze, 1891, p. 6.

(٥١) Fredegaire, C. 38, P.P 107-108; Codex Carolinus t. III, P. 493.

(٥٢) Codex Carolinus t. III, P. 492-493.

(٥٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 452-454; Annales Regni Francorum, éd. Kurze, P.12; Annales Marbacenses qui Dicuntur, éd. Hermanus Bloch, Hanover, 1907, P.6.

(٥٤) Vasiliev, t.I, P. 461; Kleinclausz, P.II; Amann, t.V1, P. 18; Ganshof, t.I, P. 412-413.

(٥٥) Fredegaire, C. 39, P.P 108-109; Liber Pontificalis, éd. Kurze. Hanover, 1895, Année 756, P. 14. Annales qui Dicuntur Einhardi, Année 756, P. 15; Reginonis Abbatis Prumiensis Chronicon Cum Continuatione Treverrensi, éd. Kurze, Hanover, 1890, PP. 45-46.

والملاحظ أن الحولية الأخيرة أدرجت وفاة إيستولف تحت أحداث سنة ٧٥٥م بدلاً من ٧٥٦م كما وردت في الحوليات الأخرى.

(٥٦) Liber Pontificalis, t.I, P. 453-454.

(٥٧) Liber Pontificalis, t.I, P. 455.

(٥٨) Codex Carolinus t. III, Epistolae, P. 506.

وكانت «البنتابول» تمتد على طول ساحل الادرياتيك من الابنين. أنظر: جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية، جـ٢، ص ٥٧٤. أما «رتشيس» Ratchis، فكان دوقاً على فريول Frioul سنة ٧٣٧م، ثم ملكاً على اللمبارديين سنة ٧٤٤م. وفي سنة ٧٤٩، تنازل عن العرش لصالح شقيقه إيستولف ليدخل دير مون كاسان Mont Cassin. وبوفاة شقيقه سنة ٧٥٦، خرج من الدير ليعتلي عرش اللمبارديين ثانية، وليقاتل ببين ويستعيد أملاكه التي تقلصت. انظر:

Bouillet, M M., Dictionnaire Universel D'Histoire et de Géographie, Paris, 1871, P. 1585

(٥٩) Liber Pontificalis, t.I, P. 455.

(٦٠) Liber Pontificalis, t.I, Pp. 455-457.

(٦١) للتفاصيل عن حملاته على سبتمانيا أنظر:

Annales Moissiac, in R.H.G., F; T. V, P. 68-69.

(٦٢) للتفاصيل عن غزوتيه لاقطانيا أنظر:

Fredegaire, PP. 112-120. Annales Marbacenses, P. 7; Annales Fuldenses, P. 7; Eginhardi Annales: de Gestis Caroli Magni, in R.H.G.F., t V, PP. 199-200; Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 27.

(٦٣) للتفاصيل عن حرب السكسون أنظر:

Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 17; Reginonis, P. 44.

(٦٤) Liber Pontificalis, t.I, Pp. 455-457; Codex Carolinus t. III, Pp. 506, 512, 520.

(٦٥) للتفاصيل أنظر:

Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 29; Eginhard, P.15; Annales Fuldenses. P.8.

د. نورة بنت محمد بن عبدالعزيز التويجرى (*)

أسباب التردى والتحسن فى علاقات دولة بنى نصر بمملكتى قشتالة وأراغون

تعتبر العلاقات بين الدول مصدرا مهما يعين فى الكشف عن تاريخها، وسنحاول فى هذا البحث تتبع العوامل المؤثرة فى تذبذب العلاقات بين التردى أحيانا والتحسن أحيانا أخرى بين دولة بنى نصر فى الأندلس وجاراتها الدولتين النصرانيتين فى الشمال والغرب مملكة قشتالة (Castilla) ومملكة أراغون (Aragon). فلئن كانت الصفة الغالبة على تلك العلاقات هى العداء الممتد لفترات قد تطول وقد تقصر، إلا أن هناك فترات فى تاريخ هذه العلاقات سادها الهدوء والتفاهم وحسن الجوار، وسيتبين أن الظروف الداخلية والخارجية التى كان يمر بها كل طرف، والأهداف القريبة والبعيدة لكليهما كان لها دور فى حدوث حالات المد والجزر تلك فى العلاقات فيما بينهم.

ولعل من المفيد أن نمهد لحديثنا بسطور قليلة عن نشوء أطراف تلك العلاقات، فدولة بنى نصر وقاعدتها مدينة غرناطة (Granada) قامت على بقايا الدولة الإسلامية الكبرى فى إسبانيا، وكانت آخر معقل للمسلمين فى الأندلس وبقية مدة سلطانهم بها، وكان قيامها فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)[1]. فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايبيرية (Iberia)[2]. وامتدت فيما وراء نهر الوادى الكبير إلى الجنوب حتى

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك كلية التربية بالرياض

شاطئ البحر المتوسط وجبل طارق، وتحدها من الشمال ولاية جيان (Jaen) وقرطبة (Cordova) واشبيلية (Sevilla)، ومن الشرق ولاية مرسيه (Murcia) والبحر المتوسط، ومن الغرب ولاية قادش (Cadiz) وأرض الفرنتيره، وكانت تشمل ثلاث ولايات هي ولاية غرناطة وولاية المرية وولاية مالقة (Malaga)[٣]. وقد قامت دولة بني نصر على يد مؤسسها السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي الذي يرجع نسبه إلى أمير الأنصار الصحابي الجليل سعد بن عبادة رئيس قبيلة الخزرج[٤]. ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة (Arijona) من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م وكان جنديا وافر العزم والجرأة يتزعم قومه ويقودهم إلى مواطن النضال فلما تفاقمت الفتنة في الأندلس على أثر سقوط دولة الموحدين، واضطربت الشؤون في الثغور والنواحي، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس[٥]، وظهر ابن هود[٦] عن طاعة الموحدين في الثغور الشرقية[٧]، ظهر محمد بن يوسف بن نصر، واتجهت آماله وطموحاته إلى إنقاذ ما بقي من بلاد الأندلس، فالتف حوله أنصاره في أرجونة موطن أسرته وعصبته[٨]، ثم في الجهات المجاورة لها، ثم أخذ يوطد سلطانه في الأنحاء الوسطى فدخلت في طاعته مدينة جيان وبسطه (Baza) ووادي آش (Guadix) فبسط حكمه عليها ثم اتجه إلى القواعد والثغور الجانبية، ورأى أن يصبغ حكمه بالصبغة الشرعية وأن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين فدعا للأمير أبو زكريا الحفصي[٩] صاحب أفريقية (تونس) كما دعا للخليفة المستنصر بالله العباسي[١٠]. وبعد أن قوي ابن هود واستولى على غرناطة رأى محمد بن يوسف مصانعته والدخول في طاعته، وبعد أن توفي ابن هود سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) كان قد ولي على مدينة غرناطة عتبة بن يحيى المغيلي وأصبح من أشد خصوم محمد بن يوسف وكان عتبة جائراً على أهل غرناطة، فلما اشتد ظلمه لهم قاموا بقتله، وأعلنوا طاعتهم لمحمد بن يوسف وبعثوا إليه يستدعونه[١١]، وتزامن ذلك مع تذمر أعداد كبيرة من مسلمي الأندلس من الاحتلال النصراني ومساندتهم للسلطان محمد بن يوسف بن نصر، فدخل غرناطة عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)، واتخذها عاصمة لمملكته. وهكذا نشأت مملكة غرناطة في هذه الظروف المضطربة.

حكمت أسرة بني نصر مملكة غرناطة حكما وراثيا مدة قرنين ونصف من الزمن (٦٣٥-٨٩٧هـ/ ١٢٣٨-١٤٩١م) رغم الصعوبات التي واجهتها من الداخل والخارج وتولى حكمها خلال هذه المدة اثنان وعشرون حاكما (سلطانا) تلقب كل منهم بلقب أمير المسلمين وعرف مؤسسها السلطان محمد بن يوسف بلقب (الغالب بالله) ولقب الشيخ، واتخذ عبارة (لاغالب إلا الله) شعارا لدولته[١٢].

سقطت دولة بنى نصر على يد القشتاليين بعد حصار لعاصمتهم غرناطة دام سبعة أشهر[١٣] صمد خلالها الغرناطيون رغم كل المحاولات المتكررة للنصارى لاقتحامها، وساعد على سقوطها انقطاع الإمدادات العسكرية والغذائية من بلاد المغرب بسبب احتلال النصارى لمضيق جبل طارق والجزيرة الخضراء مما حال دون وصول الإمدادات من عدوة المغرب للأندلس، وكذلك انقطاع المواد الغذائية الآتية إليها من منطقة البشرات أو البشرة (Alpuijarras)[١٤] بسبب تساقط الثلوج مع دخول فصل الشتاء مما أدى إلى انقطاع الطرق التى تربط بينها وبين مملكة غرناطة، فانتشر الجوع والمرض بين سكان غرناطة، فاجتمع أعيان مملكة غرناطة للتشاور مع السلطان أبو عبدالله الصغير واتفقوا على تسليمها لملك قشتالة فرناندو (Ferdinand) وتم التوقيع على معاهدة التسليم عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م فدخلتها الجيوش القشتالية. ولم يكن سقوط غرناطة فى يد النصارى بمحض الصدفة بل كان نتيجة طبيعية لما تقدمه من حوادث للمدن الأندلسية الأخرى وكانت خاتمة لسنوات من الصراع[١٥].

أما الممالك النصرانية فى القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) فكانت خمس ممالك هى قشتالة وليون (Leon) وأراغون ونافار (Navarre) والبرتغال (IPortuga)[١٦]. وكانت الأراضى التى تحت سيطرة تلك الممالك حينئذ تبلغ مساحتها حوالى ثلثى شبة جزيرة ايبيريا بينما كانت دولة المسلمين فى الأندلس تسيطر على الثلث الباقى فى الجنوب، فى حين كانت دولة المسلمين فى منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) تسيطر على حوالى تسعين فى المائة من مساحة شبة الجزيرة[١٧].

وأدت التحولات السياسية والحروب والمصاهرات بين تلك الممالك الخمس إلى تغييرات عديدة فى مساحات سيطرة كل منها وفى ولاءاتها مما أدى فى نهاية المطاف إلى أن يصبح عدد تلك الدول خلال عهد مملكة بنى نصر فى غرناطة ثلاث دول فقط هى قشتالة وأراغون والبرتغال[١٨]، وقد تساقطت أمامها المدن الإسلامية فى الأندلس حتى لم يبق منها إلا مملكة بنى نصر فى أقصى جنوب جزيرة ايبيريا.

ولم تكن لمملكة البرتغال مطامع متنامية فى أراضى دولة بنى نصر مكتفية بما استولت عليه من أراضى تقع جنوب مملكتها إذ كان اهتمامها منصبا على المحافظة على أراضيها فى وجه الأطماع الخارجية. ولذلك فقد اقتصر حديثنا فى هذا البحث على العلاقات بين مملكتى قشتالة وأراغون من جانب ودولة بنى نصر من جانب آخر.

مملكة قشتالة:

تعد مملكة قشتالة أوسع الدولة النصرانية مساحة ومن أقواها، وكانت تمر من حين إلى آخر في مد وجزر في مساحتها نتيجة الحروب والتجزئة بين حكامها إلا أنها انتهت بتماسكها وازدياد قوتها[١٩].

وقد تعاقب على حكمها واحد وعشرون حاكما بين رجال ونساء، وكان أول الحكام من آل كاستيل (The House of Castile) هو فرناندو الأول (Ferdinand I) الذى تولى الحكم بين ٤٢٤-٤٥٧هـ (١٠٣٣-١٠٦٥م)، وكان آخر حكامها هى ايزابيلا (Isabella) التى حكمت بين ٨٧٨-٩٠٩هـ (١٤٧٤-١٥٠٤م) والتى تزوجت فرناندو الذى كان يحكم منفردا مملكة أراغون بين ٨٨٣-٩٩٢هـ (١٤٧٩-١٥١٦م)، ويحكم قشتالة مع ايزابيلا بين ٩١٠-٩٢٢هـ (١٥٠٥-١٥١٦م) وبذلك تم توحيد المملكتين[٢٠].

مملكة أراغون:

كانت مملكة أراغون تقع فى الركن الشمالى الشرقى من شبه جزيرة ايبيريا ويحدها من الجنوب دولة الإسلام فى الأندلس ومن الغرب مملكتى قشتالة ونافار، وكانت ثانى الدول النصرانية من حيث مساحتها وقوتها، وقد تعاقب على حكمها تسعة عشر حاكما، وكان أول حكامها هو راميرو الأول (Ramiro I) الذى حكم بين ٤٢٦-٤٥٥هـ (١٠٣٥-١٠٦٣م) وآخرهم فرناندو الذى تولى الحكم بين ٨٨٣هـ - ٩٢٢هـ (١٤٧٩-١٥٦م)[٢١].

علاقات الممالك الثلاث:

مرت العلاقات بين مملكة بنى نصر ومملكتى قشتالة وأراغون بفترات من التأزم كان الدافع لها أهداف قريبة المدى وأخرى بعيدة المدى لكل من الطرفين، فالدول النصرانية كانت تهدف على المدى القريب إلى إضعاف مملكة غرناطة وإرهاقها بالهجمات المكثفة عليها بغرض تقويض أركانها للوصول إلى هدفها على المدى البعيد وهو استعادة ما بقى فى أيدى المسلمين من أراضى الأندلس حيث أن حكامها كانوا يعتبرون ذلك واجبا مقدسا[٢٢] يجب الوفاء به، فوضعت نصب عينيها القضاء على مملكة غرناطة. أما مملكة غرناطة. فكان هدفها على المدى القريب هو استرجاع هيبة دولة المسلمين فى الأندلس ممثلة فى مملكة غرناطة والتى بدأت تضعف على إثر هزائمها المتكررة أمام الجيوش النصرانية على أمل أن يؤدى ذلك إلى هدفها على المدى البعيد وهو استعادة جميع ما سلب من أملاكها على يد الدول النصرانية وإعادة الحكم إلى دولة الإسلام ثانية على كافة بلاد الأندلس.

سنحاول في بحثنا هذا تتبع تلك العلاقات من حيث أطوار ترديها وتحسنها والعوامل التي كانت وراء ذلك التردي وتلك التي كانت وراء نقيضه.

لقد كان من أسباب فترات التردي التي مرت بها العلاقات بين دولة بني نصر ومملكتي قشتالة واراغون كما ظهرت لنا من خلال تتبع الأحداث التاريخية حينئذ واستقرائها ما يلي:

أولا: التقارب بين بني نصر وسلاطين المغرب:

كانت تقوم بين بني نصر وسلاطين بني مرين[٢٣] في المغرب الأقصى صلات تعاون وتبادل خبرات في المجال العسكري وكان ذلك التقارب كثيرا ما يقلق الدولة النصرانية ويثير مخاوفها خشية أن تتكون قوة إسلامية موحدة نتيجة لذلك التحالف تعيد للدولة الإسلامية في الأندلس قوتها وهيبتها، وتقف حائلا دون تحقيق أطماع تلك الدول، في الممتلكات الإسلامية في الأندلس.

وقد أدرك السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) (٦٢٩هـ-٦٧٢هـ/ ١٢٣٢-١٢٧٣م) أهمية ذلك التحالف، فنراه عندما غزت القوات القشتالية أراضي مملكته واحتلت شريش (Jerez)[٢٤]، يستند إلى ذلك التحالف فيسارع إلى طلب المساعدة من السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق فوصلت إليه إمدادات عسكرية كبيرة تمكن بها من مهاجمة القوات القشتالية في مدينة شريش بمساعدة من أبنائها، كما حاصروا القلعة التي لجأ إليها قائد القوات القشتالية وقاموا بأسره وقتل عدد من جنوده[٢٥]، وكرد فعل على ذلك التحالف قام الفونسو العاشر (Alfonso X) ملك قشتالة بعقد تحالف عسكري مع ملك أراغون خايمي الأول (Jaime I)، اتفقا بموجبه على شن هجوم على مملكة غرناطة، فدخلتها جيوش أراغون من الشمال واستولت على مدينة مرسيه سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بينما دخلت جيوش قشتالة مرج غرناطة وقامت بمحاصرة غرناطة، ولكنهم فشلوا في اقتحامها فارتدوا إلى مدنية شريش واستولوا عليها[٢٦]، تواصلت أطماع مملكة قشتالة على مملكة بني نصر في غرناطة حيث سار ملك قشتالة الفونسو العاشر بجيشه إلى الجزيرة الخضراء فاقتحمها وعاث بها فسادا، فاستند السلطان محمد بن يوسف مرة أخرى على ذلك التحالف فطلب من السلطان أبو يوسف المريني ملك المغرب الغوث والانجاد وأخبره بما بدأ من عدوان النصارى ونيتهم في القضاء على دولة الإسلام في الأندلس ولكن السلطان محمد بن يوسف توفي قبل أن تصله المساعدات[٢٧].

وتجدد ذلك التقارب بين بني نصر وبين بني مرين في عهد السلطان أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف والملقب بالمخلوع (٧٠١-٧٠٨هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩م) بعد أن تسلم زمام الحكم في مملكة غرناطة بعد وفاة والده السلطان محمد الفقيه حيث أرسل وفدا إلى سلطان المغرب أبو يعقوب يوسف المريني

يطلب فيه تجديد عهد التحالف والصداقة التى كانت تربطه بأبيه، فاستجاب السلطان أبو يعقوب لطلبه وتجدد ذلك العهد. وحين احتاج السلطان المرينى إلى الاستفادة من ذلك التحالف قام السلطان أبو عبدالله محمد بن محمد (المخلوع) حينئذ بإرسال قوة من جند الأندلس خبراء فى منازلة الحصون إعانة للسلطان أبو يعقوب يوسف المرينى الذى كان حينئذ يحاصر مدينة تلمسان[٢٨].

واستمر تقارب سلاطين بنى نصر مع سلاطين بنى مرين تاركا أثرا سلبيا على العلاقات بين بنى نصر والممالك النصرانية وتكرر حدوث أثره فى عهد السلطان نصر بن محمد (أبو الجيوش) (٧٠٨-٧١٣هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤م) عندما سقط ثغر جبل طارق فى يد القوات النصرانية المتحالفة (قشتالة وأراغون) سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، إذ سارع السلطان أبو الجيوش يطلب المساعدة من سلطان فاس أبو الربيع المرينى فهب هذا لنجدته، وأرسل له قوة عسكرية كبيرة تمكن بها من فك الحصار عن جبل طارق والجزيرة الخضراء، كما تمكن بها من استعادة مدينة المرية (Almeria) من ملك أراغون خايمى الثانى (Jaime II)[٢٩].

ثانيا: أطماع كل منهم بما لدى الآخر من الأراضى:

كان يحرك هذه الأطماع من جانب النصارى استرجاع ما بقى من أيدى المسلمين من أراضى، بينما يحركها من جانب سلاطين بنى نصر استعادة ما استولى عليه النصارى من دولتهم، وكانت مملكة قشتالة أكثر الدول النصرانية تطلعا إلى الاستيلاء على أراضى المسلمين فى الأندلس[٣٠]، فعملت على شن المعارك وتحريك الجيوش كلما رأت أن الفرصة تسمح لها بذلك، وكانت المعارك الحربية على مدى قرنين ونصف من الزمان سجالا بين الطرفين، فمنذ فجر دولة بنى نصر قويت أطماع النصارى فيما بقى بأيدى مسلمى الأندلس، حيث سارت الجيوش القشتالية إلى منطقة جيان[٣١] وعاثت بها فساداً وتخريباً، فاستولت على حصن أرجونه (Arijona) سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٥٤م ثم واصلت زحفها إلى غرناطة ولكنها خذلت أمام بسالة أهلها وقوتها الدفاعية وهزمت، ولكن هذه الهزيمة لم تثن عزيمة ملك قشتالة فرانده الثالث، بل واصل زحفه على أملاك بنى نصر، فضرب الحصار حول مدينة جيان مدة سبعة أشهر دون أن يتمكن من اقتحامها[٣٢].

تواصلت أطماع النصارى فى ممتلكات المسلمين فى الأندلس بعد وفاة السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) مؤسس الدولة النصرية حيث شنت الجيوش القشتالية فى عهد الملك الفونسو العاشر هجمات متتالية على مملكة غرناطة فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) (٦٧٢-٧٠١هـ/

١٢٧٣-١٣٠٢م) باءت كلها بالفشل، وفي مقابل ذلك قام السلطان محمد (الفقيه) بإرسال عدة حملات حربية لاستعادة جزيرة طريف (Tarifa) من قشتالة، ولكن لم يتحقق له ذلك إلا بعد وفاة الملك الفونسو العاشر، وتولى الحكم من بعده ابنه سانشو الرابع (Sancho IV (El Valienle فقام السلطان محمد (الفقيه) بشن هجوم على مملكة قشتالة عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م فغزا مدينة جيان واستولى على عدد من الحصون، ثم تكررت هجماته على أملاك مملكة قشتالة منتهزا حالة الضعف التي كانت تمر بها نتيجة انشغالها بصد غزو مملكة أراغون لها فقام بغزوها سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م كما واصل زحفه في أملاكها حتى وصل حدود عاصمتها مدينة اشبيلية[٣٣] وتمكن من الاستيلاء على حصن القبذاق (Alcaudete)[٣٤].

وفي عهد السلطان محمد بن محمد الملقب (بالمخلوع) (٧٠١-٧٠٨هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩م) تواصل الزحف على معاقل قشتالة وقام هذا بغزو عدد من الحصون الدفاعية في مدينة جيان وأعادها إلى أملاكه[٣٥].

استمرت هذه الحملات الحربية بين الطرفين ففي عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م) في ظل تواصل الأطماع النصرانية حيث قام دون خوان (Don Johan) - الذي كان أحد الأوصياء على عرش قشتالة وعلى الملك القاصر الفونسو الحادي عشر (Alfonso XI) - بشن حملة على وادي آش للاستيلاء عليه سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م فتقابلت جيوشه مع جيوش السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج في معركة دامية كان النصر فيها للقشتاليين[٣٦]، ثم واصلت القوات القشتالية زحفها في العام الذي تلاه فدخلت الجزيرة الخضراء وعاثت بها فساداً وتخريباً ثم تقدمت إلى مرج غرناطة بقيادة القائد القشتالي بطره ولكنها هزمت وقتل فيها بطره ودون خوان وتشتت جيوشهم[٣٧]. وتكرر ذلك الحدث في عهد السلطان محمد بن يوسف الملقب (بالأيسر) (٨٢٠-٨٥٨ ١٤١٧-١٤٥٤م) حين شنت الجيوش القشتالية حملة على سهول وادي آش وكان ذلك عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٨م فعملت على تدميره وإحراق مزروعاته[٣٨]. واستمرت الجيوش القشتالية في عدوانها ففي عهد السلطان سعد بن إسماعيل بن نصر (٨٥٨-٨٦٨هـ/ ١٤٥٤-١٤٦٤م) قام هنري الرابع (Henry IV) بإرسال حملات حربية تمكن بها من الاستيلاء على عدد من الحصون الحربية وإحراق المزروعات في سهول مدينة مالقة سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٦٥م ثم تكرر غزوها لمدينة مالقة في العام الذي تلاه، ثم توالت الحملات الحربية من قبل جيوش قشتالة على ممتلكات بني نصر حتى تمكنت من إسقاط ثغر جبل طارق (Generalife) عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م في أيديهم، فألحق ذلك ضررا كبيرا بمملكة غرناطة حيث انقطعت طرق الإمدادات بينها وبين بلاد المغرب، مما جعلها تواجه الخطر النصراني بمفردها[٣٩].

واصلت الجيوش القشتالية زحفها على ماتبقى من أملاك مملكة غرناطة حيث زحفت فى عهد السلطان أبو الحسن على بن سعد بن إسماعيل (٨٦٨-٨٨٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢م) على قلعة بلدة الحمة (الحامه) Alhama[٤٠] واقتحموها ثم دخلوا المدينة وأحرقوها[٤١]. وفى مقابل ذلك قام السلطان أبو الحسن على بن سعد بشن عدة غزوات على أملاك قشتالة فى الأندلس، فزحفت جيوشه على قلعة الصخرة واستولت عليها وقتل من كان فيها من جنود القشتاليين كما دخل مدينة مرسيه، وأحرق زرعها وهدم قلاعها[٤٢].

وكان لتوجس النصارى من أن يسترد المسلمون قوتهم، ورغبة منهم فى استئصال شأفتهم دور فى تلك الحملات المتواصلة من قبل الجيوش القشتالية على ماتبقى من أملاك المسلمين فى الأندلس، حيث واصلت القوات القشتالية حملاتها فى عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م) متجهة إلى طليطلة بقيادة دون بطره فتقابلت مع الجيوش الغرناطية، التى تمكنت من صدها وإلحاق هزيمة نكراء بها، وهو مايشير إليه المقرى بقوله: (حشدوا جموعهم فذهب سلطانهم دون بطره إلى طليطله ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا وسجد له وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين فى الأندلس)[٤٣]. ثم تواصلت هذه الحملات من قبل القوات القشتالية فقامت بمهاجمة مدينتى بلش ولوشه (Loga-Velez Malag) وكان ذلك سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م فسقطت فى أيديهم، ثم حاصروا مدينة مالقة فاستسلم لهم سكانها، ودخلتها القوات القشتالية[٤٤]، ثم توالى سقوط عدد من الحصون فى أيديهم ولم يبق أمامهم سوى مدينة غرناطة، فضرب عليها الملك فرناندو حصاراً شديداً حتى تم استسلامها عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م[٤٥].

ثالثا: الإخلال بالمعاهدات:

كان عدم ألتزام بعض من سلاطين بنى نصر أو ملوك قشتالة وأراغون بشروط المعاهدات والأحلاف التى كانت تعقد بينهم أحد أهم الأسباب فى تردى العلاقات فيما بينهم، ظهر ذلك فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) حيث عقد حلف بينه وبين ملك قشتالة الفونسو العاشر لمحاصرة الجزيرة الخضراء التابعة لبنى مرين فى بلاد الأندلس وفتح مدينة مالقة، التى استقل بها عدد كبير من سكان المغرب من بنى مرين، وبقيت خارجة عن طاعة بنى نصر مدة ثلاث عشرة سنة[٤٦]. فحاصرت الجيوش القشتالية مع جيوش السلطان محمد (الفقيه) الجزيرة برا وبحرا واستطاعوا عزل مرينيى الأندلس عن مرينيى المغرب[٤٧]، واستطاع السلطان محمد (الفقيه) إقناع حاكم

مالقة عمر بن يحيى بن محلى بتسليم مدينة مالقة له لعدم جدوى المقاومة، فاستجاب حاكم مالقة لطلبه فدخلت جنوده المدينة وضمها إلى أملاكه سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م[٤٨] عندئذ رأى السلطان محمد (الفقيه) أن محاصرته للجزيرة الخضراء مع جيوش قشتالة لم يعد لها ضرورة حيث عرض عليه بنو مرين إرجاع الجزيرة الخضراء له إذا ما انسحبت جيوشه عن محاصرتها فوجد ذلك العرض هوى في نفسه فأمر جيوشه بالانسحاب عنها، مما اضطر ملك قشتالة إلى سحب جيوشه من الجزيرة الخضراء لعدم استطاعته محاصرتها منفردا[٤٩] واعتبر تصرف السلطان محمد (الفقيه) إخلالا باتفاقهما على التحالف لحصار الجزيرة الخضراء فصمم على الانتقام من السلطان محمد (الفقيه) وسعى بدوره إلى عقد حلف مع بنى مرين ومع بنى اشقيلوله أعداء بنى نصر وقام هذا التحالف بشن هجوم كاسح على مملكة غرناطة[٥٠].

كما ظهر دور الإخلال بشروط الأحلاف والمعاهدات أيضا فى سوء العلاقات بين بنى نصر ومملكة قشتالة عندما عملت مملكة قشتالة على استغلال فرصة سوء العلاقات بين بنى نصر وبنى مرين لتوسيع نفوذها فى أملاك الدولة النصرية فى الأندلس فى عهد السلطان محمد (الفقيه) الذى قرر السيطرة على جزيرة طريف التى كانت تابعة لأملاك بنى مرين فى الأندلس، فلجأ السلطان محمد (الفقيه) إلى حليفه حينئذ الملك سانشو الرابع ملك قشتالة وجرى بينهما اتفاق سرى على أن يمد سانشو الرابع السلطان محمد (الفقيه) بالمساعدات العسكرية للاستيلاء على مدينة طريف، فزحفت القوات القشتالية تساندها قوات غرناطة وضربوا الحصار عليها وبعد أن تمكنوا من الاستيلاء عليها رفض الملك سانشو الرابع تسليمها للسلطان محمد (الفقيه) لأهميتها فى تنفيذ أطماعه باعتبارها البوابة التى عبر منها إلى أراضى مملكة غرناطة فأغار على عدد من الحصون القريبة منها معللا ذلك باعتراض الجند فى تسليمها[٥١]، ولكن أغلب الظن أن السبب لنقضه الاتفاق فيما بينهما وعدم تسليمه مدينة طريف كان ردا على إخلال السلطان محمد (الفقيه) بالاتفاق الذى أبرم بينه وبين الفونسو العاشر ملك قشتالة وذلك حينما كانت جيوشه المتحالفة مع جيوش قشتالة تحاصر الجزيرة الخضراء بغرض الاستيلاء عليها من بنى مرين كما بينا آنفا.

تكرر ذلك الحدث من نقض المعاهدات فى عهد السلطان أبو الحجاج يوسف بن محمد بن يوسف (٧٩٣-٧٩٥هـ/ ١٣٩٢-١٣٩٣م) وذلك عندما عمل على تحسين علاقته مع مملكة قشتالة وتوثيقها، فطلب من ملك قشتالة عقد هدنة سلم وصداقة بينهما، وقام بإطلاق عدد من الفرسان النصارى المأسورين فى المعارك السابقة فى عهد والده محمد بن يوسف (الغنى بالله) مكرمين،

وأرسلهم إلى مدنية اشبيلية عاصمة قشتالة[٥٢]، فاستحسن ملكها هذه المبادرة من سلطان غرناطة، ووافق على طلبه وتم عقد معاهدة صلح بينهما، لكن ما لبث السلطان أبو الحجاج يوسف بن محمد بن يوسف أن نقض هذه المعاهدة، وقام بالإغارة على بعض أملاك قشتالة وهى مدينة مرسيه ولورقه[٥٣] منتهزا فرصة انشغال ملوك قشتالة فى الحروب الأهلية فيما بينهم، فأدى ذلك إلى تأزم العلاقات بين الدولتين من جديد، فقامت الجيوش القشتالية بالمقابل بالرد على هذه الغارات، فهاجمت حصن مدينة غرناطة، المعروف باسم المرج[٥٤] فصدتها الجيوش الإسلامية ثم عقدت على أثر ذلك هدنة سلم بين الطرفين لمدة عامين[٥٥].

وعندما تولى السلطة فى غرناطة السلطان محمد بن يوسف بن محمد (٧٩٥-٨١٠هـ/ ١٣٩٣-١٤٠٨م) عمل على تجديد اتفاقية الهدنة التى عقدت بين والده أبو الحجاج يوسف بن محمد وبين ملك قشتالة، ولكن سرعان ما نقضت هذه الاتفاقية بسبب الأطماع النصرانية فى مملكة غرناطة وذلك بعد أن توفى الملك هنرى الثالث، وتولى من بعده الحكم ابنه القاصر خوان الثانى وكان تحت وصاية عمه فرناندو، فلم يحترم عمه معاهدة الهدنة وقام بنقضها والإغارة على الأراضى التابعة لغرناطة فاقتحم عددا من الحصون، واسترد الحصن الكبير (ايامونتى)[٥٦] وبالمقابل وجه السلطان محمد بن يوسف بن محمد جيوشه لغزو الأراضى الشرقية لمملكة قشتالة، فدخل أحواز مدينة جيان، وخرب حصونها وقلاعها[٥٧].

رابعا: تحالف النصارى مع الثوار على سلاطين بنى نصر:

تعرضت دولة بنى نصر فى فترات متفرقة من تاريخها لانقلابات وفتن داخلية أضعفت من قوتها، وكان حكام قشتالة يشجعون هذه الانقلابات ويؤازرون القائمين بها لأنهم كانوا يرون أنها إحدى الطرق التى تساعدهم فى الوصول لأهدافهم، لذا كان زعماء الثورات دائمى التطلع إلى مساندة مملكة قشتالة لإنجاح فتنهم ومؤازرة ثوراتهم، فمن ذلك ما حدث فى عهد السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) (٦٢٩-٦٧٢هـ/١٢٣٢-١٢٧٣م) مؤسس ملكة بنى نصر فى غرناطة عندما ثار عليه أصهاره من بنى اشقيلوله[٥٨] فى مدينة مالقه ووادى آش، وكان وراء هذه الثورة عدة أسباب لعل من أهمها إخلال السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) بوعده لعميد بنى اشقيلوله على أبو الحسن بأن يقاسمه الملك، ولكنه أخل بوعده عندما عقد ولاية العهد لولديه محمد ويوسف[٥٩] وكذلك إسناد منصب مشيخة الغزاة[٦٠] لأحد أقرباء بنى مرين سلاطين المغرب بعد أن كانت لبنى اشقيلوله، غامضا جهودهم فى الدفاع عن مملكته(٦١)، فقاموا

لذلك بالخروج عليه فى مدينة مالقه ووادى آش، ولجأوا إلى ملك قشتالة الفونسو العاشر وأظهروا له استعدادهم للدخول فى طاعته، فأمدهم بالأموال والجيوش فقاموا بتحصين مدينة مالقة، ولم يستطع السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) اقتحامها فانسحب منها بعد حصار لها دام ثلاثة أشهر[٦٢].

كما ظهرت تلك الجهود من قبل حكام قشتالة فى مؤازرتهم للثوار المسلمين الخارجين عن طاعة حكامهم من بنى نصر فى تشجيعهم لأهل الربض من البيازين[٦٣] من أراضى قرطبة عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م عندما أعلنوا ثورتهم ضد السلطان محمد بن سعد وقاموا بالدعوة للأمير محمد بن على بتشجيع ومساندة من ملك قشتالة[٦٤].

خامسا: التحالف بين الممالك النصرانية ضد دولة بنى نصر:

عملت مملكتا قشتالة وأراغون على التقارب والتحالف فيما بينها من حين لآخر لتعمل سويا على إضعاف مملكة غرناطة وتقويض أركانها، فنرى فى عهد السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) مؤسس الدولة النصرية قيام تحالف بين الفونسو العاشر ملك قشتالة وبين خايمى الأول (Jaime I) ملك أراغون للاستيلاء على مايمكن الاستيلاء عليه من الأراضى والمدن التابعة لمملكة غرناطة، فدخل خايمى الأول بجيوشه أراضى مرسيه وسيطر على القرى والحصون المجاورة، ثم حاصر مدينة مرسية نفسها فسقطت بيده بعد شهر من الحصار سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م، أما الفونسو العاشر فقد غزت جيوشه مرج غرناطة، ثم واصلت مسيرتها إلى العاصمة غرناطة عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ولكن تعذر عليه اقتحامها لحصانتها، فارتدت جيوشه إلى مدينة شريش (Jerez) وقامت باحتلالها[٦٥].

كما تكرر ذلك الحدث فى عهد السلطان نصر بن محمد (أبو الجيوش) (٧٠٨-٧١٣هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤م) حيث تم التحالف بين مملكتى قشتالة وأراغون ضد مملكة غرناطة فاجتاحت الجيوش القشتالية بقيادة الملك فرناندو الرابع (FerdinandVI) منطقة الجزيرة الخضراء، فى حين عبثت جيوش أراغون بقيادة خايمى الثانى بمدينة المرية[٦٦]، وفى عهد السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م) استمر ذلك التحالف العسكرى بين قشتالة وأراغون ضد مملكة غرناطة، فتم عقد حلف عسكرى بين المملكتين النصرانيتين انضمت إليه الدولة النصرانية الثالثة البرتغال بعد أن دخلت العلاقات بين دولة بنى نصر ومملكة قشتالة مرحلة جديدة من الصراع، فقام ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر (Alfonso XI) بمساعدة حلفائه بغزو مروع لأراضى مملكة غرناطة[٦٧]، وحاول السلطان أبو الحجاج التصدى لذلك الغزو

ولكن أمكاناته العسكرية لم تساعده على ذلك مما دفعه للاستعانة بملك المغرب السلطان أبو الحسن على بن عثمان، فأسرع سلطان المغرب إلى مد يد المساعدة له وأرسل إليه إمدادات عسكرية اشتركت مع جيوش السلطان أبو الحجاج فى معركة عنيفة ضد القوات النصرانية المتحالفة، هزمت فيها القوات الإسلامية واستولى القشتاليون على جزيرة طريف والجزيرة الخضراء(٦٨).

وتكرر ذلك التحالف فى عهد السلطان أبو الحسن على بن سعد النصرى (٨٦٨-٨٨٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢م) حيث دعى ملك قشتالة الممالك النصرانية لعقد حلف بينهما وحشد جيوشهما لتخليص النصارى المحاصرين فى بلدة الحمة (الحامة) فتقدمت الجيوش المتحالفة النصرانية إليها وقامت باحتلالها، وحاول المسلمون تخليصها منهم، فقاموا بمحاصرتها ولكنهم لم يستطيعوا فتحها، فانصرفوا عنها(٦٩)، فخطت قشتالة بهذه الهزيمة للمسلمين أكبر خطوة فى سبيل تحقيق أهدافها وهو ما أشار إليه صاحب كتاب نبذة العصر بقوله: «فلما رأى العدو دمره الله أن المسلمين قد عجزوا عن أخذ الحمة ونصرة من فيها من الأسارى وقع له الطمع فى بلاد الأندلس فأخذ بالاستعداد بالخروج إليها»(٧٠).

سادسا: تحالف بعض سلاطين بنى نصر مع مملكة أراغون ضد مملكة قشتالة:

كانت حاجة بنى نصر للحفاظ على دولتهم تفرض عليهم التحالف مع أحد أعدائها ضد الطرف الآخر، فكانوا يلجأون إلى التحالف مع مملكة أراغون ضد مملكة قشتالة استجابة لضغوط المرحلة التى تمر بها دولتهم من حين لآخر، ولعل الذى كان يدفعهم إلى التحالف مع مملكة أراغون سببان: أحدهما هو تأزم العلاقات بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة تأزما يزيد فى عدد فتراته ومدة كل منها عن تلك التى عاشتها العلاقات المتردية بين دولة بنى نصر ومملكة أراغون. وثانيهما أن مملكة أراغون كانت أقل عداء من قرينتها مملكة قشتالة فى مناهضة المسلمين(٧١)، عقد بنو نصر مع أراغون معاهدات حلف وصداقة، فمن ذلك ما حدث فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف الملقب (بالمخلوع) (٧٠١-٧٠٨هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩م) حيث عقد هذا معاهدة صلح وصداقة مع ملك أراغون خايمى الثانى ضد مملكة قشتالة وذلك سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م كان أهم ما جاء فيها: «وتلتزموا لنا صحبة صادقة وصلحاً ثابتاً، وتصاحبوا كل صاحب لنا، وتعادوا كل عدو لنا من المسلمين أو من أهل قشتالة»(٧٢). وبذلك التحالف استطاع السلطان محمد بن محمد (المخلوع) أن يجد قوة مساندة له ضد أطماع

قشتالة، وبخاصة بعد أن قلت مؤازرة بنى مرين فى المغرب الأقصى لسلاطين بنى نصر بسبب الظروف الداخلية السيئة التى كانت تمر بها دولة بنى مرين من المنازعات والثورات آن ذلك، وكانت هذه المعاهدة ومما جاء فيها أيضا أن يلتزم كل من الطرفين بعدم الإضرار بالطرف الآخر على يد أحد من رعاياه، وأن تكون مملكة أراغون معادية لأعداء غرناطة سواءاً من المسلمين أو القشتاليين، وأن تقوم مبادلات تجارية بينهما مع الالتزام التام بتوفير الأمن للتجار ولأموالهم، وكذلك بتعهد ملك غرناطة بتقديم العون والمساعدة لملك أراغون ضد مملكة قشتالة، وألا يعقد معها صلحا إلا بموافقة حليفه، وبتعهد ملك أراغون لسلطان غرناطة بمثل ما تقدم، كما يتعهد السلطان بمعاونة حليفه بفرسان من عنده فى أرض مرسية[٧٣] إذا احتاج إلى هذه المعونة، ولا يعترض سلطان غرناطة على ما يأخذه ملك أراغون من أراضى قشتالة إلا المواضع التى كانت لغرناطة، (وأن يكون بيننا وبينكم صلح ثابت وصحبة صادقة يكون فيها أصحابكم أصحابنا وأعداؤكم أهل قشتالة أعداؤنا، ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وأرضكم من بلادنا وأرضنا، ولا نجعل سبيلا لأحد من ناسنا لا فى البر ولا فى البحر عليكم»[٧٤].

وفى عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م) عمل هذا على تحسين علاقته مع مملكة أراغون فى عهد ملكها خايمى الثانى فى حين تأزمت العلاقات بينه وبين مملكة قشتالة، حيث قام الوصى على الملك الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة الذى حكم بين ٧٤٣-٧٥٠هـ/ ١٣١٢-١٣٤٩م ويدعى دون بيدرو (Don Pedro) بغزو مدينة وادى آش، فدارت بينه وبين جيوش غرناطة معركة عنيفة فى ضواحى وادى آش انتصرت فيها القوات القشتالية، وفى العام التالى عزم الوصى بيدرو على غزو مملكة غرناطة، فلجأ السلطان أبو الوليد إلى سلطان فاس أبوسعيد عثمان بن أبى العلاء يطلب مؤازرته له، ولكن لم يجد ذلك الطلب استجابة من السلطان المرينى، فدخلت جيوش السلطان أبو الوليد فى مواجهة عنيفة مع الجيوش القشتالية، انتصرت فيها القوات القشتالية[٧٥]، وفى العام التالى عاد بيدرو لغزو مملكة غرناطة للمرة الثانية فمنيت جيوشه بهزيمة فادحة أمام الجيوش الغرناطية، وقتل كل من دون بيدرو ودون خوان قائد القوات القشتالية فى ذلك الغزو[٧٦].

لقد زادت تلك الأحداث قناعة السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج بجدوى تحسين وتوثيق علاقته بمملكة أراغون فعقدت بين المملكتين معاهدة سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، تقضى بأن يعقد بين الطرفين صلح ثابت مدته خمسة أعوام، تؤمن خلالها أرض المسلمين فى الأندلس وأرض مملكة أراغون تأميناً تاماً براً وبحراً، وتباح التجارة لكلا الطرفين فى أرض الآخر، ويتعهد كل منهما

بموجبها بمعاداة من يعادى الأخر، وأن لا يؤوى له عدواً أو يحميه، وأن تكون سفن كل فريق وشواطؤه ومراسيه آمنه، وأن يسرح كل فريق من يؤسر فى البحر من رعايا الفريق الآخر، كما تضمنت المعاهدة نصا خاصا بتعهد ملك أراغون بألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم(٧٧).

وعمل السلطان أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (٧٢٥-٧٣٣ ١٣٢٥-١٣٣٣م) والذى استلم الحكم فى غرناطة بعد وفاة والده أبو الوليد إسماعيل على استمرار العلاقات الحسنة مع مملكة أراغون حيث عمل على تجديد المعاهدة التى كانت بين والده وبين ملك أراغون خايمى الثانى وذلك بعد انتهاء الفترة الزمنية المحددة فى الاتفاقية السابقة وهى خمس سنوات، وكان ذلك سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م بعد أن ازدادت العلاقات سوءا بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة نتيجة لانتهاء الوصاية على الملك الفونسو الحادى عشر واعتلائه عرش قشتالة بصفة رسمية، وبعد أن طلب ملك أراغون تجديدها وتزامن هذا التحالف مع نشوء خلاف بين السلطان أبى عبدالله محمد بن إسماعيل وبين شيوخ الغزاة فى بلاد المغرب وقيامهم باحتلال بعض الثغور الجنوبية ومن أهمها مدينة المرية (Almeria)، وقد جاء فى مكاتبات التجديد (لما وصلنا من قبلكم أيها السلطان المعظم الملك المبرور دون جقمى ملك أراغون وبلنسية وسردانية رسولكم المكرم (جوان أنريق) الذى وجهتموه إلينا بكتابكم، وبالعقد الذى عقدتموه على أنفسكم وجعلتوا عليه طابعكم المعهود عنكم بأنكم قد حددتم معنا الصحبة التى كانت بين والدنا رحمه الله وبينكم وعقدتم معنا صلحاً مبنياً على الصفاء والوفاء لمدة خمسة أعوام، أولها نصف شهر مايو الموافق للتاريخ أدناه، إن جددنا معكم الصلح والصحبة على الفصول التى انعقدت بين والدنا وبينكم)(٧٨). استمرت حالة التحسن على العلاقات بين مملكة بنى نصر ومملكة أراغون بعد وفاة السلطان أبو عبدالله محمد بن إسماعيل. وفى ولاية السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م) عمل على استمرار التحالف والصداقة مع مملكة أراغون وذلك عندما عرض على سلطان مملكة أراغون الفونسو الرابع (Alfonso IV) استمرار الولاء والصحبة بين بلديهما فى عدة رسائل تهدف إلى الاستمرار فى تحسين العلاقات وإزالة ما يلحق بها من أحداث تعكر صفوها منها الرسالة التى جاء فى بعض ما ورد فيها (وقد وصلنا الذى وجهتم إلينا، والذى يتضمن تثبيت العهد، وتوكيد الود، وتصحيح العقد، وإخلاص الصفاء، وتجديد الوفاء، فقابلنا ذلك بشكر نجده لمملكتكم، وإخلاص صادق فى صحبتكم، ومما جاء فيها التزامه بعدم إلحاق الضرر ببلاده وذلك بقوله (كتبا إلى بلادنا الشرقية

كلها أن لا سبيل لأن يتطرق لجهة أرضكم أحد بضرر)[٧٩].

ومن المراسلات أيضا رسالة اعتذار بعث بها السلطان إلى الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل جاء فيها (وفى شأن الأشخاص الذين باعهم الجنوبيون بالمرية، وعرفتهم أنهم من أرضكم، واعلموا أننا لو عرفنا أنهم من أهل أرضكم ما سمح فى بيعهم، ولوجهناهم إليكم، على مايوجبه الوفاء بالعهد، فإننا ما عندنا إلا الوفاء بما عاهدناكم عليه، ولكن عند وصول كتابكم وجهنا التفسير باسمائهم إلى المرية، وأمرنا فى البحث عنهم واسترجعوا من أيدى من هم عنده، ونحن نعمل ذلك على ما يوجبه الوفاء)[٨٠].

وسعى السلطان محمد بن يوسف بن محمد بعد توليه زمام الأمر فى مملكة غرناطة (٧٩٥-٨١٠هـ/ ١٣٩٢-١٤٠٨م) إلى تقوية علاقة مملكته مع مملكة أراغون وهى المنافسة لمملكة قشتالة وذلك بعد أن عاودت مملكة قشتالة أطماعها على الأراضى التابعة لمملكة غرناطة، فبعد أن توفى الملك هنري الثالث وتولى من بعده ابنه القاصر خوان الثانى (Johan II) والذى كان تحت وصاية عمه فرناندو قام هذا بالإغارة على الأراضى التابعة لمملكة غرناطة واستولى على حصن (ايامونتى) الكبير، ونشبت معارك حربية بينهم، فعقد السلطان محمد ابن يوسف بن محمد مع مملكة أراغون معاهدة حلف وصداقة سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م نصت على أن يعقد بين الطرفين صلح ثابت لمدة خمس سنوات من تاريخ عقدها وأنه يحق لرعايا كل من الفريقين أن يتردد على أراضى الفريق الآخر، آمنين على أنفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء، وأنه متى احتاج ملك أراغون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما فإن سلطان غرناطة ينجدهما بأربعمائة أو خمسمائة فارس على أن يتكفلا هما بنفقتهم، وذلك بشرط أن لا يكون ذلك العدو صديقا لمملكة غرناطة، وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوم بإعانته بأربعة أو خمسة سفن مشحونة بالرجال والسلاح على أن يتكفل هو بنفقتهم، وعلى أن لا يكون هذا العدو صديقا لمملكة أراغون، وألا يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأى نوع من أنواع المساعدة، وأن يسمح لسفن كل من الفريقين أن ترسو فى موانئ الفريق الآخر وأن تزاول البيع والشراء آمنة، وأن تتلقى سائر الإعانة المشروعة، وألا تتعرض سفينة تابعة لأحد الفريقين للسفن الراسية فى موانئ الآخر، وأن يسمح للسفن التى تصاب بعطب من جراء العواصف أو غيرها وتكون تابعة لأحد الفريقين أن تصلح فى موانئ الآخر وتعان على ذلك.

ونصت فيما يتعلق بتسريح الرعايا، على أنه إذا انتزع أحد الطرفين من عدوه مدينة أو موضعاً ما، وكان فيه أحد من رعايا الطرف الآخر فإنه يسرح بالحال مؤمناً فى نفسه وماله ويكون الحكم كذلك بالنسبة للسفن التى يستولى عليها

أحد الطرفين من عدوه، وأنه إذا كان لدى أحد الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع مائة دينار، ذهباً عن الشخص الواحد، فإذا كان الأسير ملكا لأحد من رعايا أي الطرفين فإنه يسمح بافتكاك أسره نظير دفع الثمن الذي اشتري به، ويلتزم كل من الفريقين بألا يخفي أو يغيب أحد من الأسرى إلى غير ذلك من الشروط التي وردت في تلك المعاهدة[٨١].

سابعا: ابتزاز ملوك قشتالة لسلاطين بن نصر:

لجأ ملوك النصارى إلى أسلوب الابتزاز وسيلة لإخضاع سلاطين بني نصر لطاعتهم تحقيقاً لأطماعهم وإشباعاً لرغباتهم. وكان بعض سلاطين بني نصر ينفر من ذلك النهج ويرفضه نظرا للشروط التعسفية التي كانت تصاحبه، فنراهم يسعون للتحلل منها عندما تتحسن الظروف التي أجبرتهم على القبول بتلك الشروط وعندما يجدون في أنفسهم القدرة على مواجهة ما سيترتب عليه رفضهم من نتائج، فعندما اعتلى السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) عرش غرناطة أراد أن يوسع مساحة مملكته فوقع نظره على مدينة سبتة (Ceuta) التابعة لبني مرين في شمال المغرب ليجعل منها قاعدة عسكرية لجيوشه في بلاد المغرب، فطلب المساعدة من ملك قشتالة الفونسو العاشر الملقب بالعالم (Elsabio)[٨٢]، فاشترط عليه الفونسو العاشر مقابل هذه المساعدة أن يتنازل له عن مدينة طريف والجزيرة الخضراء فرفض السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) طلبه لما فيه من إجحاف في حقه مما كان سببا في توتر العلاقات بينهما[٨٣]، وفي عهد السلطان يوسف بن محمد بن أبي الحجاج يوسف بن محمد (٨١٠-٨٢٠هـ/ ١٤٠٨-١٤١٧م) سعى على تجديد الهدنة التي كانت بين أخيه السلطان محمد بن يوسف وبين مملكة قشتالة لمدة سنتين بعد انتهائها فطلب منه الملك فرناندو والوصي الخضوع لطاعتهم إذا ما أراد تجديدها واستمرار السلم بينهم، فرفض السلطان يوسف ذلك الطلب، فزحفت الجيوش القشتالية بقيادة الملك فرناندو الوصي، ونشبت بين الفريقين معركة بجوار انتقيره (AnteQuera) انتهت بهزيمة جيوش السلطان يوسف سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م[٨٤]. وفي عهد السلطان محمد بن إسماعيل الذي تمكن من التغلب على منافسه السلطان محمد بن نصر (الأحنف) بمؤازرة ومساندة من ملك قشتالة خوان الثالث، وبعد وفاة خوان الثالث وتولى ابنه هنرى الرابع مقاليد الحكم في مملكة قشتالة، رفض السلطان ابن إسماعيل حماية قشتالة له، وخرج عن طاعته وقام بالإغارة على أملاك قشتالة فأثار خروجه غضب الملك هنري الرابع وأصر على إخضاعه وإعادته لطاعته، فسير حملات حربية للإغارة على أملاك مملكة غرناطة وعاث بها فساداً، ومقابل ذلك قامت مملكة غرناطة بشن هجوم على منطقة جيان التابعة لمملكة قشتالة وأحدثت بها خسائر فادحة[٨٥].

وعندما تسلم السلطان محمد بن إسماعيل زمام الحكم فى مملكة غرناطة قام بقطع الأتاوة التى كان يؤديها السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) إلى حليفه ملك قشتالة بطرس الأول (Peter I)، مما أدى إلى غضب بطرس الأول، فجهز جيشا لمحاربة السلطان محمد بن إسماعيل ولكنه هزم أمام الجيوش الغرناطية[٨٦]. واستمرت الشروط التعسفية من قبل ملوك قشتالة على سلاطين بنى نصر ما وقع فى عهد السلطان أبو عبدالله بن محمد بن يوسف (الأيسر) الذى قام بمراسلة ملك قشتالة خوان الثانى يعرض عليه تجديد عقد السلم فوافق ملك قشتالة وأرسل إليه سفيره كونتالت دى لونا لتجديدها على أن يتحمل السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف جميع النفقات التى أنفقتها مملكة قشتالة لاسترداد عرشه من الثائرين عليه، وأن يؤدى فوق ذلك أتاوة سنوية اعترافا منه بطاعة قشتالة وأن يفرج عن سائر الأسرى النصارى الموجودين ببلاده، فرفض الأيسر ذلك، فهدده ملك قشتالة بالحرب، وأرسل إليه جيشاً أغار على مدينة قرطبة وجيان فتمكن السلطان محمد (الأيسر) من ردها، فعاود ملك قشتالة الغزو مرة أخرى بنفسه فى قوات كبيرة استطاع بها هزيمة جيوش السلطان محمد (الأيسر)[٨٧].

كما تكرر ذلك الرفض بسبب الشروط التعسفية وعمليات الابتزاز فى عهد السلطان أبو الحسن على ابن سعد (٨٦٣-٨٨٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢م) وذلك عندما حاول السلطان أبو الحسن على بن سعد تجديد الهدنة التى كان قد عقدها أبوه مع مملكة قشتالة، ففرض ملك قشتالة على السلطان أبو الحسن شروطا قاسية منها الخضوع له والتنازل له عن بعض الحصون المهمة ودفع أتاوة له إذا أراد تجديدها، رفضها السلطان أبو الحسن وكان رفضه لها سببا فى تأزم العلاقات وشن الغارات العنيفة من قبل كل منهما على أملاك الآخر[٨٨].

أسباب تحسن العلاقات:

سادت بين مملكة بنى نصر فى غرناطة ومملكتى قشتالة وأراغون فى فترات متقطعة علاقات بنيت فى الظاهر على التفاهم والصداقة، وعقدت بينهم معاهدات سلم وتعاون.

ظهر ذلك التحسن فى العلاقات فيما بين تلك الدول على شكل أنماط متعددة، فهى إما على شكل معاهدات صلح وسلم أو فى شكل أحلاف عسكرية أو سفارات متبادلة، أما المعاهدات فيلاحظ أن تنفيذها لم يكن يحكمه التزام بوقت أو وفاء تام بشروط، إذ أنها كانت تتعرض من جانب كلا الطرفين إلى مراوغة عند الشعور بالضعف أمام الخصم ورفض عند الشعور بالتفوق عليه، مما كان

سببا يقود إلى صدمات عسكرية دموية متكررة امتدت على فترات متقطعة حتى سقوط مدنية غرناطة والذي يعتبر من أعنف ما عاشته البشرية من صراعات دموية.

كانت دولة بنى نصر بغرناطة بحكم ظروفها الداخلية وطاقاتها العسكرية على استعداد دائم لعقد مثل هذه الاتفاقيات مع الدول النصرانية وأحيانا تكون هى الملحة فى ذلك بالرغم مما سيترتب عليه أحيانا من ثمن باهظ فى شكل إتاوات أو تنازل عن بعض الحصون والمدن. وإلى جانب ذلك النمط ودوره فى تحسين وهدوء العلاقات كان هناك نمطان آخران هما الأحلاف العسكرية والسفارات المتبادلة، وكانت أهداف هذه السفارات تقوم على التفاوض بين الأطراف المعنية، وتتم عن طريق الرسائل المتبادلة بينهما والتى يحملها السفراء أو أعيان القوم أو وجهاؤهم أو زعماء الجند، ويحمل مضمونها الشروط المطلوبة لإبرام معاهدة ما أو عقد صلح وشكايات واحتجاجات على خرق بنود ونصوص اتفاقيات سابقة أو إغارة أحد الطرفين على الآخر زمن السلم، أو طلب فك أسرى أو لتبرير نقض معاهدة، ومن تلك الرسائل الرسالة التى بعث بها السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥ ١٣٣٣-١٣٥٤م) ردا على رسالة بعث بها إليه ملك أراغون دون بيدرو يعتذر فيها عن الغارة التى قامت بها فلول جيشه على أراضى مملكة بنى نصر زمن السلم بينهما، وقد جاء فى رسالة يوسف (تذكرون أن ذلك الضرر لا علم عندكم به، وحاشا الله أن يعتقد فيكم إلا الوفاء الذى يليق بمملكتكم)[٨٩]. كما احتوت بعض تلك الرسائل على طلب تعويض عن خسارة أو فك أسرى كالرسالة التى بعث بها السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج (٧٢٥-٧٣٣ ١٣٢٥- ١٣٣٣م) إلى ملك أراغون دون بيدرو يطلب منه أن يبذل جهدا لفك عدد من الأسرى المسلمين أسرهم جيشه جاء فيها: (فقصدنا لكم أيها السلطان أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم[٩٠] فى سلوه ثم بيعوا فى ميورقة)[٩١]. وكذلك الرسالة التى بعث بها السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج إلى ملك أراغون دون بيدرو يطلب فيها تعويضا عما لحق بالتجار المسلمين على يد بعض رعاياه الخارجين عن طاعته جاء فيها: (ففى هذه الأيام أضر بالسواحل شينى[٩٢] وحمل من المسلمين حملة ببلنسية، فالقصد منكم أن تنظروا فى هذا الحال بما هو معلوم من وفائكم وغيرتكم على عهدكم حتى تجدوا ما أخذ من المسلمين وأموالهم)[٩٣]. وكذلك رسالة أخرى بعث بها السلطان يوسف نفسه إلى ملك أراغون دون بيدرو بعد عقد الصلح معه يشكره فيها على حسن معاملته المسلمين الذين تحت حكمه جاء فيها: (ولهذا فقد وصلنا كتابكم جواباً على كتابنا الذى وجهناه إليكم من أنكم أمرتم خدامكم وولاة بلادكم بالإنصاف من كل ما أخذ للمسلمين بعد عقد الصلح)[٩٤].

وتحمل بعض الرسائل تبريراً لنقض معاهدة كالرسالة التى بعث بها السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج إلى نائب ملك أراغون فى أريولة (Orihuela) يبرر له فيها سبب نقض عهده مع مملكة قشتالة جاء فيها: (فإننا لا نبدأ بنقض ما عاهدنا ولا بحل ما عقدنا، وكونوا من ذلك على يقين أننا لم نطلق الغارة على أرض ولد منول إلا عن نكايات كثيرة صدرت لنا منها، وبقينا نطلب منه الإنصاف من أزيد من عام ووجهنا له رسلاً من قشتالة فما أنصفنا أحد)[٩٥]. وعادة ما تكون هذه الرسالة موقعة بيد السلطان وتختم بختمه السلطانى ويقوم بحملها وتسليمها نيابة عن السلطان السفراء أو زعماء الجند أو أعيان القوم ووجهاؤهم - كما سبق ذكره[٩٦].

أما الدوافع التى كانت وراء تلك الفترات من الهدوء وحسن الجوار فقد كانت متعددة ومختلفة وهى:

أولا: تحالف بعض ملوك بنى نصر مع ملوك قشتالة للحد من أطماع غيرهم من النصارى فى مملكة غرناطة:

على أثر المواجهات الحربية التى حدثت بين جيوش بنى نصر وبين الجيوش القشتالية فى عهد ملكها فرناندو الثالث والتى على أثرها تم استيلاء القوات القشتالية على عدد من المدن والحصون المهمة التابعة لأملاك بنى نصر ومحاصرة عاصمتها غرناطة، رأى السلطان محمد يوسف بن نصر (الغالب بالله) عقد حلف ومعاهدة صلح مع فرناندو الثالث للحد من أطماعه على مملكته، حيث عقدت بينهما معاهدة صلح وتحالف عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٦م كان من نتيجتها أن قام السلطان محمد بمد يد المساعدة للملك فرناندو فى هجومه على مدينة اشبيلية وإخراج المسلمين منها عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٦م بعد حصار لها دام ثمانية أشهر[٩٧]، كما حرص السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل (الغنى بالله) على تحسين علاقته مع مملكة قشتالة حيث أعلن ولاءه للملك بطرس الأول، ووقف إلى جانبه فى حربه مع مملكة أراغون التى وقف ملكها إلى جانب هنرى ترانستمار أحد المطالبين بعرش قشتالة، فأرسل السلطان الغنى بالله ثلاث فرق عسكرية لمساعدته، كما وضع جميع القواعد البحرية الأندلسية تحت خدمة الأسطول القشتالى[٩٨]، ويعود تحسن علاقته مع مملكة قشتالة درءاً لأطماع مملكة أراغون فى مملكة غرناطة بعد أن قام ملك أراغون بيدرو الرابع (Pedro IV) بشن هجوم كاسح على جزيرة سردانيه وعاثت بها جيوشه فساداً، فخشى أن تمتد أطماعه إلى مملكته فى غرناطة[٩٩].

ثانياً: أطماع سلاطين بنى نصر فى ممتلكات بنى مرين فى المغرب والأندلس:

كانت غرناطة فى نظر الممالك النصرانية عدواً داخلياً له خطره، وكان أشد ما تخشاه منها أن تصبح قاعدة وجسراً لموجة جديدة مما تعتبره غزواً إسلامياً قادماً من بلاد المغرب وراء البحر، وذلك لما لمسته فى الغالب من مبادرة سريعة من دولة بنى مرين فى تقديم كل مساندة وعون لبنى نصر فى الأندلس، واستمرارها فى القيام بواجب المرابطة والجهاد، لذا عملت على بذر الفرقة والتباعد بين سلاطين بنى نصر ودولة بنى مرين، وذلك بتشجيع أى عمل تقوم به دولة بنى نصر ضد دولة بنى مرين ومساندته بل والتحريض عليه فنجدها تعمل على بث الشك فى نفوس بنى نصر من أطماع بنى مرين فى دولتهم[١٠٠]. فنراها فى عهد الفونسو العاشر ملك قشتالة تبادر إلى مساعدة السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) فى الاستيلاء على مدينة سبتة فى شمال المغرب[١٠١] التى كانت من أملاك بنى مرين، كما نراها تلبى طلب السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) (٦٧٢ - ١٢٧٣/٧٠١ - ١٣٠٢م) المساعدة من ملك قشتالة سانشو الرابع عام ٧٦٦هـ/ ١٢٧٩م ليتمكن من ضم مدينة طريف والجزيرة الخضراء، التى كانت حينئذٍ تحت حكم بنى مرين، وذلك نظراً لأهمية موقعها الاستراتيجى، وكان من نتيجة ذلك أن جرى بينهما اتفاق سرى على أن يمد سانشو الرابع السلطان محمد الفقيه بالمساعدات العسكرية للاستيلاء على مدينة طريف مقابل أن يتنازل له عن بعض الحصون الدفاعية الهامة فى الأندلس[١٠٢].

ثالثاً: رغبة سلاطين بنى نصر فى القضاء على خصومهم فى الداخل:

كانت رغبة سلاطين بن نصر فى القضاء على منافسيهم والثائرين عليهم داخل مملكتهم عاملاً له أثره فى دفع العلاقات بينهم وبين الممالك النصرانية إلى التحسن، فقد عملت الثورات والفتن التى قامت بها بعض الأسر النبيلة ذات النفوذ فى الأندلس على لجوء بنى نصر إلى ملوك قشتالة والتقرب منهم وطلب العون والمساعدة للقضاء على أولئك الثوار وإفساد مخططاتهم، ففى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) وقف الملك سانشو الرابع ملك مملكة قشتالة إلى جانبه ضد منافسيه بنى أشقيلوله[١٠٣] الثائرين عليه فى وادى آش[١٠٤] ومدينة قمارش (Camares)[١٠٥] لإخماد ثورتهم والقضاء عليهم، فقام هجوم مشترك من الدولتين بمحاصرة مدينة قمارش، وتمكن السلطان محمد الفقيه من دخولها وضمها إلى مملكته[١٠٦].

وفي عهد السلطان يوسف بن أحمد بن إسماعيل اجتازت مملكة غرناطة مرحلة من الاضطرابات الداخلية كانت تحركها الأسر القوية مثل بنو سراج[١٠٧] وبنو أضحى[١٠٨] وبنو الثغرى[١٠٩]، إلا أن السلطان يوسف ابن إسماعيل تمكن من اجتياز هذه الأزمة بتحالفه مع ملك قشتالة الفونسو العاشر بعد أن أضناه النضال فقبل ما فرضه عليه ملك قشتالة بالاعتراف بسلطانه وتأدية الأتاوة له مقابل مساعدته على اجتياز محنته تلك[١١٠].

رابعاً: التنافس بين أفراد البيت النصرى على الحكم فى الدولة:

كان لذلك التنافس أثره في دفع العلاقات فيما بين مملكة غرناطة وبين الممالك النصرانية إلى التحسن، حيث يضطر ذلك الحكام من بنى نصر إلى التقارب مع مملكة قشتالة، والتى تجد فى ذلك الصراع فرصة للتدخل فى شئون دولتهم الداخلية، فتقف إلى جانب أحد المتنازعين مما ترى أن فيه ما يحقق رغباتها ويضمن مصالحها فى الدولة.

من ذلك الدور الذى قام به ملك قشتالة خوان الثانى (يوحنا الثانى) فى عهد السلطان محمد بن يوسف (الملقب بالأيسر) وذلك عندما قامت ثورة عليه تنادى بولاية السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف والملقب بالزغير[١١١] وهو ابن عم السلطان محمد الأيسر وهو فى رواية ابن أخيه[١١٢]، فتمكن السلطان الزغير من الاستيلاء على الحكم فى غرناطة، وفر السلطان الأيسر إلى تونس ودخل تحت حماية سلطانها أبى فارس الحفصى[١١٣] واستلم أبو عبد الله الزغير الحكم فى غرناطة، ولكن السلطان محمد الأيسر تمكن بمساعدة زعيم بنى سراج (Abencerrajes) وهو يوسف بن سراج من استعادة ملكه، وذلك عندما فر يوسف بن سراج مع عدد من السادة والفرسان وقصد مدينة أشبيلية ودخل فى حماية ملك قشتالة خوان الثانى الذى رحب بهم، واتفق مع يوسف بن سراج على العمل سوياً على إعادة السلطان محمد الأيسر إلى الحكم فتم ذلك وعاد السلطان محمد الأيسر من تونس ونزل فى مدينة المرية حاملاً الهدايا القيمة لملك قشتالة خوان الثانى مكافأة له على مساعدته فى استرجاع ملكه مجدداً عهد الولاء والطاعة له[١١٤] ودخل السلطان محمد الأيسر مدينة غرناطة وقضى على الزغير بقتله وفى رواية بسجنه[١١٥] ثم ما لبثت الفتن أن عادت تعصف بمملكة غرناطة من جديد بسبب التنافس على الحكم فى الدولة، حيث قام أبو الحجاج يوسف بن مول[١١٦] والذى ينتمى إلى الأسرة النصرية عن طريق الأم حيث كانت أمه ابنة السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) وأبوه ابن المول من وزراء الدولة النصرية[١١٧].

والتف حول الحجاج يوسف بن مول الثوار من بنى مول[١١٨] خصوم السلطان

محمد بن يوسف (الأيسر) الآخرين، فلجأ يوسف بن مول لتحقيق أطماعه فى الحكم إلى ملك قشتالة خوان الثانى، الذى كان يعسكر بالقرب من غرناطة يترقب الفرص للإغارة عليها، وطلب منه العون على إنجاز مهمة خلع السلطان محمد بن يوسف (الأيسر) وعقد معه معاهدة سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م) رضى فيها أن يكون من أتباع خوان الثانى إذا حصل على الملك وتعهد له بأن يحكم باسمه وتحت طاعته، فلبى الملك خوان الثانى دعوة ابن مول بعد أن وقع معه وثيقة الخضوع له وورد النص فيها على عدة شروط تعهد يوسف بن مول بموجبها لملك قشتالة خوان الثانى بأن يكون من أتباعه وخدمه، وأنه إذا حصل على الملك فإنه يتعهد بتحرير جميع الأسرى النصارى، وأن يدفع لملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائهم سواء كانوا من النصارى أو المسلمين وأن يحضر جلسات مجلس الكورتيس بنفسه إذا كان منعقداً فى جنوب طليطلة وبإنابة أحد من أبنائه أو ذوى قرابته إذا كان منعقداً داخل قشتالة[١١٩]، وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف بن مول طوال حكمه وحكم أبنائه، وأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين أو النصارى وأن لا يحمى من يلجأ إليه من أعدائه[١٢٠] وكانت هذه المساعدة والمؤازرة من جانب الملك خوان الثانى لأبى الحجاج يوسف بن مول سبباً فى تحسن العلاقات وهدوئها طيلة فترة حكم أبى الحجاج بن مول وانتهت هذه الأحداث باعتلاء يوسف بن مول عرش غرناطة بعد أن أرسل ملك قشتالة جيوشه فغزت مرج غرناطة، وتمكن من هزيمة الأيسر وفراره إلى مالقه[١٢١] التى بقيت تحت طاعته ولكن يوسف بن مول لم يدم حكمه طويلاً حيث أنه كان شيخاً كبيراً ومريضاً فتوفى بعد ستة أشهر من تعيينه حاكماً على غرناطة، وعلى إثر وفاته اتفق ذو النفوذ فيها على رد السلطان الأيسر حاكماً على مملكة غرناطة وسارع السلطان الأيسر بعقد هدنة مع مملكة قشتالة لمدة عامين[١٢٢].

واستمر ظهور تطورات جديدة فى الأحوال الداخلية لمملكة غرناطة بعد عودة السلطان محمد الأيسر للحكم مرة ثانية حيث ظهر له منافسون آخرون على السلطة من خصومه من السادة والفرسان ومنافس آخر على السلطة هو ابن عمه يوسف بن أحمد[١٢٣] والمعروف فى الروايات القشتالية باسم يوسف الخامس (ابن إسماعيل)[١٢٤] ويتزعم عدد من السادة والفرسان، كما ظهر له منافس آخر على السلطة فى مدينة المرية وهو محمد بن نصر بن محمد المعروف بالأحنف والذى ثار على السلطان محمد بن يوسف الأيسر ودخل غرناطة وقضى على السلطان محمد (الأيسر) وزج به فى السجن وتسلم زمام الحكم فى مملكة غرناطة سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م)، إلا أن السلطان يوسف بن أحمد

والمؤيدين له من الشعب وزعماء غرناطة بزعامة الوزير عبد البر زعيم بنى سراج الذى كان يقيم فى حصن مونى مرتش (Castillo de Martes)(١٢٥) بقرب غرناطة كان معارضاً للسلطان محمد بن الأحنف فاستطاع يوسف بن أحمد من التغلب على الأحنف بمساعدة ملك قشتالة خوان الثانى الذى أمده بسرية من الفرسان النصارى استطاع بها التغلب على السلطان الأحنف وهزيمته ودخل غرناطة وتولى الحكم فيها سنة ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م(١٢٦) وبتولية السلطان يوسف بن أحمد السلطة فى الدولة دخلت العلاقات بينه وبين ملك قشتالةعهداً جديداً من الاستقرار والصداقة الطيبة فى عهد الملك خوان الثانى(١٢٧) كما كان لمؤازرة ملك قشتالة ومساندته للسلطان نصر بن محمد الملقب (بأبى الجيوش) لاستعادة حكمه من السلطان الثائر عليه أبو سعيد بن إسماعيل ضو السلطان الغالب بالله دور إيجابى فى تحسن العلاقات فيما بينهم وذلك عندما دخل السلطان محمد بن نصر فى طاعة ملك قشتالة وأعلن الوفاء له(١٢٨).

وقد يكون ذلك التنافس على السلطة سبباً فى استمرار العلاقات الحسنة بين ملوك قشتالة وسلاطين بنى نصر، فنرى السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل (الغنى بالله) فى إمارته الأولى (٧٥٥ - ٧٦٠هـ / ١٣٥٤ - ١٣٥٩م) اتجهت سياسته إلى محالفة مملكة قشتالة حيث وقف موقفاً قوياً إلى جانب ملكها بطرس الأول فى حربه مع مملكة أراغون فأمده بأسطول حربى من غرناطة مكون من عشرة شوانى حربية بجميع بحارتها وأسلحتها، كما سمح له باستخدام القواعد البحرية الغرناطية ليستعين بها فى تمويل أساطيله(١٢٩)، ولكن ذلك التحالف لم يستمر طويلاً بينهما بسبب الانقلاب الذى أطاح بالسلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) والذى قام به أخوه إسماعيل بن يوسف وصهره محمد بن إسماعيل ابن فرج، فانتهى بخلعه وتوليه أخيه أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بدلاً منه، فلجأ السلطان الغنى بالله إلى سلطان المغرب أبو سالم المرينى يطلب مساعدته وحمايته(١٣٠).

ولم يكد يمر عام على تولية السلطان إسماعيل بن يوسف مقاليد الحكم فى غرناطة حتى ثار عليه الرئيس محمد أبو سعيد المعروف فى المصادر الأسبانية بلقب (البرميخو)(١٣١) وأطاح بحكمه وتسلم زمام الأمر فى مملكة غرناطة وعمل على تحسين علاقته وتوثيقها مع مملكة أراغون، فانضم إليها فى حربها مع مملكة قشتالة، عند ذلك رأى ملك قشتالة أن يعقد صلحاً مع مملكة أراغون ليتيح لنفسه الفرصة للتدخل فى شئون مملكة غرناطة مستغلاً الصراع القائم بين سلاطينها حول العرش، فأعلن نفسه مدافعاً عن حقوق السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) ضد الثائر أبى سعيد البرميخو، وطلب من السلطان أبى سالم المرينى أن يسلمه السلطان المخلوع محمد بن يوسف (الغنى بالله)

ليساعده على استعادة عرشه(١٣٢). فاستجاب له سلطان المغرب وتم له ذلك، فوقف ملك قشتالة بطرس الأول إلى جانب السلطان الغنى بالله حتى تمكن من العودة للحكم مرة ثانية عام (٧٦٢ - ٧٩٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٩٢م) وبقى حليفاً مخلصاً لملك قشتالة وعمل على إطلاق جميع الأسرى القشتاليين الذين كانوا فى مملكته(١٣٣) وقدم له الهدايا الثمينة رمزاً للاعتراف بجميله.

خامساً: توتر العلاقات بين مملكة غرناطة وبلاد المغرب:

كان الدافع لهذا التوتر هو تدخل سلاطين المغرب فى الشئون الداخلية للأندلس، ومحاولة الاحتفاظ بما تحت سيادتها من المدن والثغور الأندلسية التابعة لأملاك بنى نصر حكام غرناطة، إذ لم تكن تخلو سياسة بنى مرين إزاء مملكة غرناطة من بعض التوجس وبث الشكوك فى نفوس سلاطين بنى نصر، وذلك للوقوف إلى جانب الخارجين عليهم بنى أشقيلولة(١٣٤). فنرى السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) - الذى لم يكن متحمساً لتلك العلاقة التى كانت تربط والده السلطان محمد بن يوسف بملك قشتالة الفونس العاشر - يقوم لذلك فى بداية حكمه بتجديد نداء والده لملك المغرب السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى لنجدة الأندلس وينتج عن ذلك عبور الجيوش المرينية مضيق جبل طارق، واستقبال محمد بن محمد (الفقيه) سلطان غرناطة للسلطان المرينى كما استقبله محمد بن أشقيلولة صاحب مدينة مالقة(١٣٥). ونظراً لحالة العداء التى قامت بين سلطان غرناطة محمد بن محمد (الفقيه) وبين أصهاره بنى أشقيلوله، دخل الشك فى أن يكون هناك إتفاق سرى مسبق بين سلطان المغرب وأصهاره بنى أشقيلوله، ومما زاد فى مخاوفه دخول بنى أشقيلولة فى حماية السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى ومعهم بعض الخارجين على السلطان الفقيه، ثم تأكدت مخاوفه بعد وفاة محمد بن أشقيلولة وتولى ابنه محمد مدينة مالقة من بعده وقيام بنى أشقيلولة بضم مدينة مالقة إلى ملك بنى مرين(١٣٦). وقيام سلطان المغرب أبو يوسف قبل عودته إلى المغرب بتعيين وال عليها من قبله هو عمر بن يحيى بن محلى(١٣٧)، واستعاض عنها بنو أشقيلولة بمدينتى المنكب (Almunecar)(١٣٨) وشلوبانيه (Salobrena)(١٣٩). فدفع ذلك الأمر السلطان محمد الفقيه إلى تحسين علاقته مع ملك قشتالة الفونسو العاشر، حيث أرسل السلطان محمد الفقيه برأس الدون نونيو دى لارا (Nownio de lara)(١٤٠) الذى قتل فى معركة جرت بين جيوش بنى مرين وحلفائهم بنى أشقيلولة وبين جيوش قشتالة سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م هدية منه بغرض التقرب والتودد إليه، وكان سلطان المغرب قد بعثها قبل ذلك إلى السلطان محمد الفقيه ترغيباً وترهيباً له(١٤١)، ثم اتفق السلطان محمد بن محمد

(الفقيه) مع الفونسو العاشر على محاصرة الجزيرة الخضراء التابعة لبنى مرين فى الأندلس وتمكنوا بذلك الحصار من عزل بنى مرين فى الأندلس عن المغرب، مما دفع السلطان محمد الفقيه لاغتنام فرصة العزل هذه وإقناع حاكم مالقة عمر بنى يحيى بن المحلى بعدم مقاومة جنوده وفتح أبواب المدينة، وفعلاً تم ذلك وعادت مدينة مالقة إلى أملاك بنى نصر بعد أن بقيت ما يقارب من ثلاثة عشر عاماً خارجة عن حكمهم[١٤٢].

سادساً: الظروف السيئة التى كانت تمر بها مملكة بنى نصر:

كان للأحداث الداخلية التى عصفت بمملكة بنى نصر فى غرناطة أثر كبير فى تحسن العلاقات بينها وبين الممالك النصرانية، فمن هذه الأحداث الثورات والفتن الداخلية إضافة إلى انشغال سلاطين دولة بنى مرين عن مؤازرة ومساعدة بعض سلاطين بنى نصر فى حروبهم مع مملكة قشتالة بسبب الظروف المضطربة، التى كانت تمر بها دولة بنى مرين[١٤٣] وذلك إلى جانب الحدث الأهم وهو انقطاع وصول الإمدادات إلى مملكة بنى نصر من بلاد المغرب، المؤازر الأول لهم فى حروبهم مع النصارى، وذلك بعد احتلال قشتالة مضيق جبل طارق والجزيرة الخضراء وهما المنفذان الرئيسان لعبور القوات المرينية إلى مملكة غرناطة[١٤٤] وقد حرص سلاطين بنى نصر على التمسك بجبل طارق فلعله من الناحية النفسية كان يبعث فى أعماقهم شعور الاعتزاز بعظمة الإسلام وتفوقه ومن الناحية العملية يبعث فى نفوسهم الطمأنينة لأنه بإشرافه على المضيق بين العدوة الأندلسية والعدوة المغربية يمكن من وصول المساعدات العسكرية من أفريقيا فى أوقات الشدة، أما من الجانب النصرانى فقد كان مصدر قلق لهم حيث تتدفق منه الإعانات العسكرية من أفريقيا إلى الأندلس، والتى ساعدت على أن توقع بهم الخسائر الفادحة. لذلك حرص النصارى على تخليصه من يد المسلمين، فتم ذلك فى عهد الملك هنرى الرابع ملك قشتالة عام ١٤٦٢/٨٦٦م[١٤٥] مما شجع الممالك النصرانية على الإغارة على أراضيها، ولما رأى سلطان غرناطة السلطان نصر بن محمد (الفقيه) ما وصلت إليه الأحوال فى مملكته من سوء واشتداد بأس النصارى عليها، لم يجد وسيلة لدرء الخطر المهدد لها سوى التقرب لملك قشتالة فرناندو الرابع وعقد صلح معه والتعهد له بدفع الجزية[١٤٦].

سابعاً: مواجهة الخطر الخارجى على مملكة غرناطة:

تعرضت مملكة غرناطة منذ نشأتها إلى حالات من الغزو والاعتداء سواء من الممالك النصرانية أو من دولة بنى مرين، حيث كان الطامعون فيها

يستغلون ضعف قوتها العسكرية - نسبياً - في بداية تأسيسها أو حالات الاضطرابات التي مرت بها، وكان ذلك دافعاً لسلاطين بني نصر إلى تحسين علاقاتهم مع إحدى الممالك النصرانية لمواجهة ذلك الخطر المحدق بها، ففي عهد السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) المؤسس لمملكة بني نصر في غرناطة قامت جيوش أراغون في عهد ملكها خايمي الأول بدخول أراضي مملكة بني نصر من الشمال، فدخلت مدينة مرسيه سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وكان ذلك الاعتداد سبباً لدفع السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) إلى تحسين علاقته مع مملكة قشتالة العدو التقليدي لمملكته أراغون وتجددت الهدنة التي كان عقدها معها مقابل تنازل السلطان محمد بن يوسف لملك قشتالة عن عدد من الحصون والقلاع والقرى٧ كما واجهت خطراً قادماً عليها من دولة بني مرين في عهد سلطانها أبي يوسف يعقوب المريني حيث قام بضم مدينة مالقة إلى أملاكه(١٤٨). فدفع ذلك الحدث السلطان محمد بن محمد (الفقيه) إلى التقرب لمملكة قشتالة وتحسين علاقته معها، فعقد بينه وبين الفونسو العاشر تحالف ضد سلطان المغرب السلطان أبو يوسف يعقوب المريني(١٤٩).

كما تعرضت مملكة غرناطة في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج ٧١٣- ٧٢٥هـ/ ١٣١٤ - ١٣٢٥م إلى هجوم كاسح من قبل مملكة قشتالة(١٥٠). فلجأ السلطان أبو الوليد إسماعيل إلى طلب المؤازرة والعون من ملك مملكة أراغون وعقد معها معاهدة حلف وصداقة عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م جاء فيها (أن تعادوا من يعادينا من أهل بلاد المسلمين ولا يعينوا علينا عدواً كائناً من كان، وعلينا أن نعادي من يعاديكم من أهل أرضكم ولا نضمه ولا نقبله، ولا نعين عليكم عدواً لكم كائناً من كان)(١٥١).

ثامناً: عدم تكافؤ القوة بين الأطراف المتحاربة:

كان سلاطين بني نصر يسعون من وقت إلى آخر إلى تحسين علاقاتهم مع الممالك النصرانية عندما ينتابهم شعور بالضعف أمامهم في مواجهاتهم الحربية وذلك لعدم تكافؤ القوى بينهم.

ففي عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر (الغالب بالله) دخلت مملكته في مواجهات حربية مع مملكة قشتالة تأرجحت نتائجها بين النصر والهزيمة حيث قامت الجيوش القشتالية بهجوم على المدن التابعة لغرناطة واحتلت مدينة مرتش (Martas)(١٥٢). فحاول السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) أن يستردها منهم وقام بمحاصرتها سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م ولكنه لم يوفق في ذلك فانسحب عنها بعد أن قدمت جحافل الجيوش النصرانية لنجدتها. ثم سار إليها

مرة ثانية فدارت بين المتحاربين معركة دامية تمكن فيها السلطان محمد بن يوسف من الانتصار على فرناندو الثالث[١٥٣]. وكرد فعل على هذه الهزيمة أرسل الملك فرناندو الثالث ابنه الفونسو العاشر على رأس جيش كبير دخل مدينة جيان وعاث بها فساداً وتمكن من الاستيلاء على عدد من الحصون والقلاع الدفاعية[١٥٤] ثم واصل زحفه نحو مدينة غرناطة وضرب الحصار حولها عام ٦٤٢هـ/١٣٤٤م فتصدت له جيوش السلطان محمد بن يوسف واستطاعت فك الحصار عنها، وتكبدت الجيوش القشتالية خسائر فادحة، ولكن تلك الهزيمة للجيوش القشتالية لم تفت في عزم ملوك قشتالة أو تحدَ من أطماعهم حيث لم يمض عام واحد بعد ذلك حتى عادت الجيوش القشتالية تواصل زحفها نحو مملكة غرناطة وضربت الحصار مرة أخرى حول عاصمتها غرناطة[١٥٥]. فرأى السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) أن سياسة الأمر الواقع تفرض عليه عدم الدخول في مواجهات عسكرية مع القوات القشتالية نظراً لعدم تكافؤ القوى بينه وبينها، فقد نتج عن عدم ذلك التكافؤ سقوط عدد من المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى في يد النصارى، فآثر السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) سياسة السلم والمهادنة على سياسة الحرب والمواجهة فقام بعقد صلح مع ملك قشتالة فرديناند الثالث (Fernando III)[١٥٦]. وتكرر ذلك السبب في الأحداث التي جرت في عهد السلطان أبي الحجاج يوسف بن محمد بن يوسف (٧٩٣- ٧٩٥هـ/ ١٣٩١ - ١٣٩٣م) بعد أن تولى الحكم في غرناطة حيث حرص على عدم الدخول في مواجهات حربية مع مملكة قشتالة لقناعته بعدم قدرته على مواجهتها، فبدأ حكمه بالعمل على استمرار العلاقات الحسنة بينه وبين مملكة قشتالة بل عمل على تقويتها، فطلب من ملك قشتالة عقد هدنة سلم وصداقة معه، كما قام بإطلاق سراح عدد من الفرسان النصارى المأسورين في المعارك السابقة في عهد والده محمد بن يوسف بن إسماعيل (الغني بالله)[١٥٧].

وفي عهد السلطان يوسف بن يوسف بن محمد (٨١٠ - ٨٢٠هـ/ ١٤٠٨ - ١٤١٧م) كان أول عمل قام به بعد توليه الحكم في مملكة غرناطة هو تجديد الهدنة بينه وبين مملكة قشتالة لمدة سنتين، وبعد انقضاء المدة حاول تجديد الهدنة واستمرارها[١٥٨]، ولكن ملوك قشتالة أدركوا ضعفه وحاولوا لذلك ابتزازه بشروط تعسفية فرضها عليه ملك قشتالة فرفضها ودخل مع الجيوش القشتالية في معركة بجوار مدينة انتقيره هزمت فيها القوات الغرناطية سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م، وأدرك السلطان يوسف حينئذٍ أنه ليس في استطاعته الدخول في مواجهات أخرى مع مملكة قشتالة فرضخ لشروطها ونفذها[١٥٩]. وفي عهد السلطان أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل[١٦٠] (٨٩٠ - ٨٩٢هـ/ ١٤٨٥

– ١٤٨٧م) حاول هذا التصدى للأطماع النصرانية على مملكته ، فقاد جيشه إلى مدينة مالقة للدفاع عنها ضد الجيوش القشتالية الغازية والمتجهة نحوها ، كما قام بتسيير جيشه إلى مدينة بلش مالقة (Velez Malaga) التى كانت تحت حصار القوات القشتالية[١٦١] ، فدخل معها فى معركة حربية طاحنة ، لكنه هزم أمام القوات القشتالية[١٦٢] ثم حاول فك الحصار مرة ثانية عن مدينة مالقة ولكنه هزم للمرة الثانية أمام القوات القشتالية[١٦٣] التى واصلت زحفها نحو القرى التابعة لمدينة مالقة واستولت عليها ومن أهمها ميناء الأندلس الخالد المنكب[١٦٤] عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م ثم سقطت مدينة بسطة (Baza)[١٦٥] ومدينة وادى آش[١٦٦] آخر معاقل السلطان محمد الزغل نتيجة لعدم تكافؤ القوى بينهم مما اضطره إلى التسليم لملك قشتالة ومبايعته والدخول فى طاعته مقابل حصوله على بعض الامتيازات الشخصية[١٦٧]. وفى الإمارة الثانية لآخر سلاطين بنى نصر فى مملكة غرناطة السلطان أبو عبد الله محمد بن على الصغير[١٦٨] الذى يعرف فى المصادر الأسبانية باسم (Boabdil) (٧٨٢ – ٨٩٧هـ / ١٤٨٧ – ١٤٩١م) تكرر ذلك الحدث عندما حاول السلطان المذكور استرجاع مدينة قرطبة من أيدى النصارى فى سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م ولكنه أسر فى ظاهرة قلعة اللسانة Lucena[١٦٩] يحاول حصارها وبقى أسيراً عند ملك قشتالة فرناندو الخامس إلى أن عقدت بينهما معاهدة سرية تنص بنودها على أن يعترف السلطان أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو ملك قشتالة وزوجته إيزابيلا ، وأن يؤدى جزية سنوية مقدارها أثنتا عشرة ألف قطعة ذهبية ، وأن يفرج فى الحال عن أربعمائة أسير من الأسرى القشتاليين الموجودين فى غرناطة يختارهم ملك قشتالة ، ثم يطلق بعد ذلك كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم السلطان أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة لدى ملك قشتالة مع عدد آخر من أبناء الأمراء الكبار ضماناً لحسن وفائه[١٧٠]. فقبل السلطان أبو عبد الله بشروط هذه المعاهدة رغم تعسفها لإدراكه عدم استطاعته الدخول فى مواجهات حربية مع ملك قشتالة ، ولكن ملك قشتالة فرناندو الخامس ما لبثت أطماعه أن دفعته إلى نقض هذه المعاهدة رغبة منه فى الاستيلاء على البقية الباقية من أملاك المسلمين فى الأندلس ، حيث زحفت القوات القشتالية نحو أحواز مملكة غرناطة وضربت عليها حصاراً طويل الأمد ، فرأى السلطان أبو عبد الله محمد أن الاستسلام لملك قشتالة أفضل من الدخول معه فى معركة معروفة نتائجها مسبقاً وذلك لعدم تكافؤ القوى بينه وبين مملكة قشتالة فآثر الاستسلام[١٧١] ، ولكن رأيه قابله أهالى غرناطة بالرفض ، وحاولوا التصدى للقوات الغازية ، فشدد القشتاليون الحصار التام على مدينة غرناطة ، وبدأوا بالهجوم عليها من كل ناحية ، فقابل أهالى غرناطة ذلك الهجوم بالاستبسال المميت بالدفاع

عنها[١٧٢]، وانضم إليهم السلطان أبو عبد الله محمد بن على (الصغير)، بعد أن أخذته الغيرة على دينه وبلاده، وتيقن أن القشتاليين يقومون بإزالة الإسلام من كل مدينة يستولون عليها[١٧٣]، ولكن ونظراً لطول الحصار ونفاد ما لدى أهالى غرناطة من المؤن[١٧٤]، اجتمع أهل غرناطة من الخاصة والعامة والفقهاء وكبار الدولة وشرحوا للسلطان أبو عبد الله الظروف السيئة التى يمرون بها وطلبوا منه التسليم لملك قشتالة[١٧٥]، فأرسل السلطان أبو عبد الله محمد (الصغير) سفارة إلى الملكين الكاثوليكيين فرناندو الخامس (Fernando V) وإيزابيلا (Isabella) يعرض عليهما رغبته فى التسليم[١٧٦]، فبدأت بين الطرفين مفاوضات انتهت بعقد معاهدة التسليم، وقد شملت هذه المعاهدة سبعة وستون بنداً تضمن حقوق أهالى غرناطة فى الأرواح والممتلكات، والشعائر الدينية[١٧٧]، كما عقدت معاهدة سرية بين السلطان أبى عبد الله محمد (الصغير) وأسرته مع ملك قشتالة فرناندو والملكة إيزابيلا نصت على ضمانات وامتيازات خاصة بهم[١٧٨]، وبذلك تم تسليم غرناطة للقشتاليين سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م فغادر السلطان أبو عبد الله محمد بن على وبعض أنصاره إلى قرية أندرش (Andarax)[١٧٩] ومكث فيها أشهر قليلة، ثم تنازل عن جميع حقوقه مقابل ألف قطعة من الذهب، وغادر الأندلس إلى بلاد المغرب، واستقر فى مدينة فاس إلى أن توفى فيها[١٨٠].

وبهذه المعاهدة طويت آخر صفحة من تاريخ مملكة بنى نصر فى غرناطة وعلاقتها بالمملكتين النصرانيتين قشتالة وأراغون بعد أن وقف بلاط مملكة غرناطة حقبة زمنية من تاريخه موقفاً متناقضاً فى علاقته مع المملكتين قشتالة وأراغون يتردد بين سياسة التحالف والقطيعة تارة وبين الثقة والتوجس تارة أخرى.

الحواشي

١ – عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) مكتبة الخانجي الطبعة الرابعة، القاهرة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) ص٥٥.

٢ – الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، بيروت، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) ص٥١٨.

٣ – الحجي، المرجع نفسه ص٥١٩.

٤ – ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) ج١ ص١٤٢؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت (١٤٠٠هـ)، ص٤٣؛ الحجي، المرجع السابق، ص٥١٧.

٥ – المقري، أحمد محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج١ ص٤٢٨. ومدينة أرجونة (Arjona) بلدة صغيرة تقع شمال غرب مدينة جيان وإليها ينسب السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر (الغالب بالله) الحميري الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان (١٩٧٥) ص٢٦.

٦ – ابن هود: هو محمد بن يوسف بن هود الجذامي، تولى إمارة الأندلس بعد سقوط دولة الموحدين، وملك مرسية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية، كان شجاعاً كريماً، تنبأ له شخص ممن ينتحل علوم الحدثان بأنه سيصبح سلطان الأندلس، وينسب بني هود إلى سليمان بن محمد بن هود الجذامي الملقب بالمستعين والذي كان من كبار الجند في الثغر الأعلى في الأندلس، ثم تغلب على مدينة لاردة Lerida بعد أن قتل قائدها أبو مطرف التجيبي، ثم انضم إليه أهالي سرقسطة Saragossa فعظم أمره، ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الكشوف، لبنان (١٩٥٦م) ج٢، ص١٧٠، ٢٧٦؛ السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصر: (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر وخالد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).

٧ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج٢، ص٢٧٧، ٢٧٨.

٨ – المقري: نفح الطيب ج١، ص٤٢٩؛ ابن خلدون. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) م٧، ص٢٢٤ – ٢٢٥.

٩ – أحد أمراء الدولة الحفصية، التي قامت في أفريقيا (تونس) وينسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاني من هنتانة، أعظم قبائل مصمودة البربرية، ويعتبر المؤسس الأول للدولة الحفصية والتي استمرت ثلاثة قرون ونصف القرن، استقل بولاية أفريقية بعد ثورته على الموحدين ثم بايعه أهل شرق الأندلس وأشبيلية والمرية، ابن خلدون، كتاب العبر، ج٧، ص١٠٦؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (١٩٨٢م) ص٧٧٩.

١٠ – مؤلف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة (١٤١٢هـ/١٩٩١م) ص٣٤؛ المقري: المصدر السابق ج٦، ص١٦٦.

١١– ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٣؛ عنان: المرجع السابق ص٣٩.

١٢ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٣؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٤٢.

١٣ – مؤلف مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق الفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ص٣٩.

١٤ – البشرة أو البشرات (Alpujarra Alpuxarra) تقع جنوب جبل الثلج (Sierra Nevada)والطريق

المؤدى لها يقع على جبل شلير Solarius Mons احتلها النصارى ودخلت تحت حكمهم فترة من الزمن، ثم استدعى أهلها الأمير محمد بن على بن نصر للدخول فى ذمته وتحت طاعته، فخرج إليهم الأمير مع الفرسان من أهل غرناطة واسترجع جميع الجهات المحيطة بمنطقة البشرات من غير حرب أو قتال. مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٣٠، ٣١.

١٥ – عن كيف تم تسليم قصر الحمراء مقر السلطان في غرناطة انظر ما كتبته، Carmdle del Hoyo في Revista Al- Andalus, XX 1955, P. 283.

١٦ – عنان: المرجع السابق ص٨٥.

١٧ – انظر الخريطة رقم ٥ في The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. I, UNIVERSITY Press, Cambridge, 1952، والخريطة رقم ١٦ في الجزء الثاني Vol. II.

١٨ – عنان، المرجع السابق، ص٨٨.

١٩ – ينظر ص ٨٢١ وما بعدها في The Shorter Cambridge Med. History.

٢٠ – انظر تسلسل حكام قشتالة رقم (a) ٢٢ ص ٨٢٤ ورقم (a) ٢٤ ص ٩٠٢ The Shorter Cambridge Med. History، والملك فرناندو هو الثاني من الملوك الذين حكموا أراغون بهذا الاسم (فرناندو) والخامس من ملوك مملكة قشتالة الذين حكموها بهذا الاسم وذلك بعد تزوجه من ملكة قشتالة إيزابيلا فانضمت مملكة أراغون إلى مملكة قشتالة، عنان: المرجع السابق، ص١٨٣ – ١٨٤.

٢١ – انظر تسلسل حكام أراغون رقم (٦) ٢٢ ص ٨٢٥ ورقم (٦) ٢٤ ص ٩٠٣ في المرجع السابق.

٢٢ – المرجع السابق ص ٨٢١.

٢٣ – بنى مرين: بطن من بطون قبيلة زناته البربرية الشهيرة، وهم يرجعون نسبتهم إلى العرب المضربة وذلك بالانتساب إلى بر بن قيس بن عيلان بن مضر، وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجي بن ماخوخ، وكانت القبائل المرينية في بداية أمرها من القبائل البدوية المتنقلة تجوب صحارى المغرب الأوسط وهضابه وفى أيام الصيف تتجه إلى المغرب الأقصى وفى بداية القرن السابع الهجرى نشبت الحرب بينهم وبين عبد الواد فتوغلوا فى هضاب المغرب ونزلوا بوادى ملوية وأقاموا هناك حيناً، وعندما ضعفت دولة الموحدين نفذ بنو مرين إلى المغرب وتوغلوا فيه واشتبكوا مع الموحدين وهزموهم فوصلوا إلى أحواز فاس انظر تفاصيل دولتهم المرينية. الفاسي: الذخيرة السنية فى الدولة المرينية، الرباط (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) ص٣٥.

٢٤ – مدينة شريش Teres من كور شذونه بالأندلس، تقع على مقربة من البحر، تشتهر بكثرة إنتاجها الزراعي. الحميرى: الروض المعطار، ص٣٤٠.

٢٥ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٥، ٥٧.

٢٦ – ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٢٨؛ الحجي: المرجع السابق ٥٣٥.

٢٧ – ابن خلدون: كتاب العبر ج٧ ص٢٢٨، مؤلف مجهول: أخبار العصر ص٣٤.

٢٨ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٦٤، ومدينة تلمسان (Ceute) إحدى المدن الساحلية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتتبع الآن لأسبانيا، وهى مدينة قديمة سكنها الأول تجرى فيها قناة مع ضفة البحر القبلى، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا جهة الغرب، الحميرى: المصدر السابق، ص٢٠٣؛ابن الخطيب: معيار الاختيار ص١٤٤.

٢٩ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٧٥.

٣٠ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٣٣١، عنان: المرجع السابق، ص ٨٦، ٨٨.

٣١ – مدينة جيان (Jaen) مدينة في الأندلس، خصبة الأرض تقع على سفح جبل عال وبها عيون متدفقة، وتتبع لها أقاليم عدة. الحميرى. الروض المعطار، ص ١٨٣.

٣٢ – المقرى: المرجع السابق، ج٤ ص٤٥٦؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٨؛ فرحات. يوسف: غرناطة فى ظل بنى الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص٢٦.

٣٣ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٤.

٣٤ – حصن القبذاق. تقع مدينة القبذاق (Alcaudate)، جنوب غرب مدينة جيان من نواحي قرطبة، ذكرها ابن الخطيب بقوله: وهي من جلالة الوضع وشهرة المنعة وخصب الساحة وطيب الماء والوصول إلى أفلاذ فؤاد الكفر والاطلاع على عوراته. ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٤؛ الإدريسي. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) ص٥٧١.

٣٥ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٤، ٥٥.

٣٦ – الإحاطة، ج١، ص٣٨٩.

٣٧ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص ٨٤ – ٩٦، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٨، التويجري. نورة: نص مهمل عن بني نصر من مخطوط شرح المقامة النخلية لأبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد النباهي. مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد الحادي عشر، السنة السادسة ذو القعدة (١٤٢٥هـ/ يناير ٢٠٠٥م) ص١٤٣، وبطره يقصد به دون بيدرو Juan Pedro عم الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة وأحد الأوصياء عليه. ابن الخطيب: الإحاطة ج٢ ص٤٣٧، أما جوان فيقصد به دون خوان Don Juan أحد الأوصياء على عرش مملكة قشتالة عندما كان الفونسو الحادي عشر لا يزال قاصراً، وقد قاد دون خوان مع دون بيدرو الجيوش القشتالية لقتال المسلمين في غرناطة فقاموا بمهاجمتها ووقعت بينهم وبين الجيوش الغرناطية معركة حاسمة عرفت في التاريخ الأندلسي باسم معركة مرج غرناطة قتل فيها كل من دون خوان ودون بيدرو وكان ذلك عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م في الهضبة الكبيرة الواقعة ظهر غرناطة المعروفة بالمرج في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج وبقيادة شيخ الغزاة أبو عثمان سعيد بن أبي العلاء.

نفح الطيب ج١ ص٤١٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٤ ص١٧٢؛ مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص ٥١.

٣٨ – ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص٣٠٦، عنان: المرجع السابق ص١٥٥، فرحات. المرجع السابق، ص٥٤.

٣٩ – مؤلف مجهول/ أخبار العصر، ص٥٢، عنان: المرجع السابق، ص١٧٦.

٤٠ – مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص ٦. وبلدة الحمة أو الحامه (Alhama) بلدة صغيرة تقع قرب مدينة بجاية من أعمال المرية، وقد أطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة إلى العين الحارة التي بها، تشتهر ببساتين الفواكه، ابن الخطيب: معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانه، اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي، دولة الإمارات العربية (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ص١٢٤، أرسلان: شكيب: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٧هـ/ ١٩٧٠) م١، ص٦٦، ب ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: تحقيق أحمد مختار العبادي، الإسكندرية (١٩٨٣م). ص٨٤، ٩٢.

٤١ – مؤلف مجهول: نبذة العصر ص٨، مؤلف مجهول: أخبار العصر ص٧٨، ٧٩.

٤٢ – عنان: المرجع السابق ص١٩٥، ومدينة مرسيه (Maurcia) قاعدة مدينة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم المرواني. تقع على نهر كبير يسقي جميعها، الحميري: المصدر السابق ص٥٣٩.

٤٣ – المقري: نفح الطيب، ج١ ص٤٣١.

٤٤ – مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص١٧، ١٨، ومدينة بلش (Welez) تحريف للكلمة اللاتينية Vallis بمعنى الوادي وتسمى الآن(Welez) وتقع غرب مالقة وقد وصفها ابن الخطيب بقوله (جادها المطر الصبيب فنعم البلد هي). ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص٧٨، ٧٩. ومدينة لوشة (Loja) ، فهي تقع غرب غرناطة، وهي إحدى المدن الإسلامية أيام حكم المسلمين للأندلس، استردها الأسبان من المسلمين سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٠م) ذكرها ابن الخطيب بقوله: (مرأى بهيج ومنظر يروق وبهيج ونهر سيال وجنات وعيون). ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص ١٢٥. ومدينة مالقة (Malaga) تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق الأندلس

ويرجع تأسيسها إلى الفينيقيين عام ١٢٠٠ق.م. ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٥٧؛ معيار الاختيار، ص٨٧.

٤٥ – مؤلف مجهول: أخبار العصر ،ص١١٠ – ١١٣؛ مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص ٤٠، ٤١.

٤٦ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٨، ابن خلدون: العبر ج٧، ص٢٤٢.

٤٧ – ابن الخطيب:اللمحة البدرية، ص٥٨. عنان: المرجع السابق ص١٢٥.

٤٨ – ابن الخطيب: المصدر نفسه والصحفة نفسها. ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٣٤. أما بنو المحلى فهم من كبار القوم بطوية، وكانوا حلفاء بني حمامة بن محمد بن مرين منذ دخولهم بلاد المغرب وكانت تربطهم ببني مرين علاقة مصاهرة. ابن خلدون: العبر ج٧ ص ٢٣٧ – ٢٣٨؛ ج٤ ص٣٥٨.

٤٩ – ابن خلدون: العبر ج٧ ص٣١١.

٥٠ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٤٣.

٥١ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٣. عنان: المرجع السابق ص١٠٩. وجزيرة طريف (Tarif) تقع على البحر الشامي في أول المجاز المسمى بالزقاق، ويتصل غربها ببحر الظلمة، وتبعد عن الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً. الحميري: المصدر السابق ص٣٩٢.

٥٢ – عنان: المرجع السابق ص١٤٩.

٥٣ – مدينة لورقة (Lorca من بلاد تدمير، تقع على ظهر جبل، وبها أسواق وربض في أسفل المدينة، وتفسير لورقة باللاتيني الدرع الحصين. الحميري: المصدر السابق، ص٥١٢.

٥٤ – Revista. Al Andalus XIII (1948) P. 96.

٥٥ – Revista Al Andalus XIII (1948) P. 70- 96.

٥٦ – حصن أيا مونتي، لم أعثر له على ترجمة.

٥٧ – عنان: المرجع السابق ص١٥١ص

Revista AlAndalus XIII (1948) P. 46

٥٨ – بنو أشقيلولة: أسرة قوية من المولدين، عميد أسرتهم هو أبو الحسن بن أشقيلولة، إنحاز إلى السلطان محمد بن يوسف بن نصر في صراعه مع ابن هود تربطهم مع بني نصر رابطة النسب. وعندما استتب الأمر للسلطان محمد بن يوسف عن صهره أبو الحسن على وادي آش (Guadix) عين ابنه عبد الله على مدينة مالقة، ثم بدأت العلاقات تسوء بينهم عندما بدأ السلطان يستريب منهم ومن أطماعهم، فثاروا عليه في وادي آش. انظر تفاصيل ذلك ابن خلدون: العبر، ج٧ ص ٢٢٧ – ٢٣٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج٢ ص٢٨٧ – ٢٩١؛ مؤلف مجهول: أخبار العصر ص٢٥. ووادي آش (Guadix). مدينة بالأندلس تقع قرب مدينة غرناطة. كثيرة المياه والأنهار، تقع على ضفة نهر يتدفق من جبل شلير وهو في شرقها. الحميري: المصدر السابق، ص٦٠٤.

٥٩ – المقري: نفح الطيب ج١ ص٤٢٩؛ ابن خلدون: العبر ج٧ ص٤٤٧.

٦٠ – مشيخة الغزاة، منصب عسكري معناه قيادة الجيش، وقد وجد ذلك المنصب في الأندلس بعد أن انتصر المسلمون على النصارى في موقعة الصخرة، حيث تم الاتفاق بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين على أن تقام في أراضي غرناطة قوة عسكرية دائمة من المقاتلين المرينيين للجهاد في سبيل الله. فتنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين عن الجزيرة الخضراء ومدينة مالقة لتكون معبرا ومركزا لهم، وكان أول شيخ للغزاة هو أبو العلاء المريني، وبعد وفاته خلفه على ذلك المنصب أبو سعيد عثمان بن أبي العلا. فقويت مشيخة الغزاة في عهده وتدخل شيخ الغزاة في الأمور الداخلية في الأندلس، بقيت مشيخة الغزاة في يد عبد الحق المريني وتوارثه بنو مرين حتى تولى السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) الحكم في مملكة غرناطة، فتسلم ذلك المنصب ثم أسنده لابنه حيث لم يرغب في ترك ذلك المنصب في يد بني

مرين بعد أن أحس أنهم خطراً يهدد مملكته . ابن الأحمر . إسماعيل بن الأحمر . النفحة النسرية واللمحة المرينية . تحقيق عنان محمد آل طعمة . مطبعة الشام دمشق (١٩٩٢م)؛ ابن خلدون: العبر ج٧ . ص٤٣٧ , ٧٤٤؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص١١٦؛ المقرى: أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبي . القاهرة (١٣٣٩هـ/ ١٩٤٩م) ج١ ص٤٧ . المقرى: نفح الطيب . ج١ ص٤٣٤ .

٦١ – ابن خلدون: العبر ج٧ ص٤٤٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام . ج٢ ص٤٥١ .

٦٢ – مؤلف مجهول: أخبار العصر . ص٣٥ .

٦٣ – ربض البيازين (Albaicin) من ربض مدينة غرناطة قام سكانه بثورتهم سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م ضد السلطان أبو عبد الله محمد الزغل وذلك عندما مالوا إلى الصلح مع النصارى . فقاموا باستدعاء السلطان محمد بن على (الصغير) وطالبوا بخلع السلطان عليهم محمد بن سعيد الزغل فوقع بينهم وبين أهالي غرناطة قتال عنيف استخدم فيه أهالى غرناطة الأنفاط والحجارة حيث أن أهالى غرناطة والموالين للسلطان أبى عبد الله محمد الزغل يعارضون فكرة الصلح مع النصارى . بينما أهالى ربض البيازين والموالين للسلطان أبى عبد الله محمد الصغير يؤيدون فكرة الصلح مع النصارى . ينظر تفاصيل هذه الثورة فى المقرى: نفح الطيب ج٦ ص٣١٣ – ٣١٥ . مؤلف مجهول: نبذة العصر . ص١٦ . ١٧ .

٦٤ – مؤلف مجهول: نبذة العصر . ص١٦ .

٦٥ –ابن الخطيب: لإحاطة ج٢ ص٩٨ . أعمال الأعلام . ج٢ ص٣٩٣ .

٦٦ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية . ص٧٤ . ومدينة المرية (Almeria) من مدن الأندلس . أمر ببنائها الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة . وكانت أيام الملثمين مدينة الإسلام . تشتهر بصناعاتها المتعددة وكثرة خيراتها . الحميرى: المصدر السابق . ص٥٣٨ .

٦٧ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام . ج٢ ص٣٠٥؛ اللمحة البدرية ص١٠٨ . ١٠٩ .

٦٨ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية . ص٩ .

٦٩ – مؤلف مجهول: نبذة العصر . ص٨ .

٧٠ – مؤلف مجهول: المصدر نفسه ص٩ .

٧١ – عنان: المرجع السابق ص٩١ .

٧٢ – أرسلان: الحلل السندسية ج٢ ص٢٠٠ . محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية . مؤسسة الرسالة . الطبعة الثانية . بيروت (١٤١٦هـ / ١٩٨٦م) ص٤٥٠ . يذكر عنان فى كتابه دولة الإسلام فى الأندلس (نهاية الأندلس) ص١١٠ أن هذه المعاهدة عقدت بين السلطان محمد بن يوسف (الفقيه) وبين ملك أراغون خايمي الثاني . بينما يذكر صاحب الحلل السندسية أنها كانت بين السلطان محمد بن محمد بن يوسف (المخلوع) وبين ملك أراغون خايمي الثاني . ويوافقه في ذلك محمد ماهر حمادة فى كتابه الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية ص٤٥٠ . ولعل من المرجح أن ما أورده عنان هو الصحيح وذلك بسبب غمرة الأحداث التى مرت بها مملكة بنى نصر فى عهد السلطان محمد بن محمد (الفقيه) حيث عقد تحالف بين مملكة قشتالة وبنى أشقيلولة وبنى مرين وقاموا بشن هجمات على غرناطة . فلعل السلطان محمد (الفقيه) لجأ إلى مملكة أراغون لصد ذلك العدوان الثلاثى عليه . انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية . ص٥٨ .

٧٣– مرسيه «Maurcia» قاعدة تدمير . بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم . واتخذت مقرا للقواد والعمالة وتقع علي نهر كبير . الحميري: الروض المعطار . ص ٥٣٨ .

٧٤ – أرسلان: الحلل السندسية ص٢٠٠ .

٧٥ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام .ج٢ ص٢٩٤؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٨١ .

٧٦ – المقرى: نفح الطيب، ج١، ص٤٣٢.
٧٧ – أرسلان: المصدر السابق ص٢٠٧، والمدجنون هو اسم أطلق على المسلمين الأندلسيين الذين رضوا بالبقاء تحت حكم السلطة النصرانية بعد سقوط مدنهم فى يد النصارى وتدجنوا فى أحياء خصصت لهم فى أكثر من مائة مدينة، وعاشوا مواطنين من الدرجة الثالثة فى ظل الحكم النصرانى ولم يهاجروا إلى غرناطة أو الشمال الأفريقى. بشتاوي: الأندلسيون المواركة، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة. ب. ط (ب.ت) ص ١٣، الحجي: التاريخ الأندلسي، ص٥٣١.
٧٨ – أرسلان: المصدر السابق، ج٢ ص٢١٧.
٧٩ – أرسلان: المصدر السابق ج٢ ص١٧٣.
٨٠ – أرسلان، المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٤ انظر الرسائل التى بعث بها السلطان أبو الحجاج يوسف ابن أبى الوليد إسماعيل بن فرج فى أرسلان: الحلل السندسية، ج ٢ ص ١٦٤ – ١٦٧.
٨١ – عنان: المرجع السابق، ص ١٥٢.
٨٢ – لقب بالعالم لكثرة انشغاله بالعلوم، مؤلف مجهول: أخبار العصر ص ٣٢.
دينة سبتة، مدينة قديمة سكنها الأول، يجرى فيها قناة مع ضفة البحر القبلى، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا جهة الغرب، الحميرى المصدر السابق ص ٣٠٣.
٨٣ – ابن الخطيب: الإحاطة ج٢ ص ٩٩؛ نورة التويجرى، نص مهمل عن بنى نصر فى الأندلس ص ١٤٣.
٨٤ – عنان: المرجع السابق، ص ١٥١، وانتقيرة هى حاليا «Antequera» إحدى مدن الأندلس القديمة، تبعد عن مالقة بنحو ٦٠كم، وهى عبارة عن حصون بين مالقة وغرناطة، ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص١٢٧.
٨٥ – عنان المرجع السابق ص ١١٠.
٨٦ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٣٠٩، الإحاطة، ج٢ ص٥٢٣.
٨٧ – عنان: المرجع السابق، ص١٥٨.
٨٨ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٧.
٨٩ – أرسلان: المصدر السابق، ص ١٦٥, ١٦٦.
٩٠ – أجفانكم: سفنكم c.Schiaparelli Vocabulistsa in Arabico Tipografia Dei saecessori le Monnier,Firenze,1874,p.80,488. دوزى، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمى، ج٣، ص٢٣١.
٩١ – أرسلان: المرجع السابق، ج٢ ص٢١٦.
٩٢ – الشوانى مفردها شينى وهى: المركب المعد للجهاد فى البحر، الفيروزابادي: القاموس المحيط، دار الجيل.بيروت «ب.ط» «ب.ت» ج٤ ص ٢٤٣.
٩٣ – أرسلان. المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٥
٩٤ – أرسلان: المصدر السابق، ص١٦٦، حمادة، محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية، ص٤٦٨.
٩٥ – حمادة: المرجع السابق، ص٤٦٢.
٩٦ – المقرى: نفح الطيب ج٦ ص١١٨، أرسلان: المصدر السابق ج٢ ص١٦٤، ١٦٥.
٩٧ – عنان: المرجع السابق، ص ٤٣, ٤٤.
٩٨ – ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٤٤، ابن الخطيب: الملحة البدرية ص ١١٩.
٩٩ – عنان: المرجع السابق، ص ١٤٨.
١٠٠ – ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٤٤.
١٠١ – ابن الخطيب: الملحة البدرية، ص٤٨.

١٠٢ – ابن الخطيب: الإحاطة ج٢ ص٩٩.

١٠٣ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٧، عنان: المرجع السابق، ص١٠٩.

١٠٤ – وادي أش «Guadix» ينظر هـ ٥٨.

١٠٥ – مدينة قمارش «Comares» إحدى الحصون المهمة أيام مملكة غرناطة، تقع قريبة منها، وصفها ابن الخطيب بقوله «هي مودع الوفر، ومحط السفر، حيث الماء المعين، والقوت المعين» ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص٩٢.

١٠٦ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٩، ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٧ لمزيد من التفاصيل حول الصراع بين بنى أشقيلولة وبنى نصر انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٨٧.

١٠٧ – بنو سراج، أسرة عربية دخلت الأندلس منذ الفتح الإسلامي له، وبنو سراج من أعيان قرطبة، ينسبون إلى مذحج وقضاعة اليمنية، عهد إليهم الأمويون حراسة أقليم بجانة «Pechina» التى تقع شرق الأندلس، ظهر دورهم فى التاريخ الأندلسى فى القرن الخامس عشر، وقد لعبت المنافسة بينهم وبين الثغريين دورا في سياسة غرناطة. المقرى: نفح الطيب، ج ١ ص ٢٨١، العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٨٢م، ص٢٣٢، ٤٦٥.

١٠٨ – بنو أضحى من سادة غرناطة، من قبيلة قحطان من بنى همذان، سكنوا البيرة وجيان. ابن القوطية القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس، دار الكتاب المصرى، القاهرة «١٤١٢هـ/١٩٨٢م» ص ٤٥. ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤ ص٨٢.

١٠٩– بنو الثغرى من بيت عربي أندلسي قديم يعرفون في الروايات النصرانية باسم Zegrin وهو تحريف لكلمة الثغريين والثغرى صفة تطلق على الأسر التى نزحت من الثغر الأعلى أراجون إلى مختلف أنحاء الأندلس خاصة في القرن السادس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، وذلك بعد سقوط مدينة سرقسطة في يد النصارى، المقرى، نفح الطيب، جـ١ ص٢٧٦، العبادى: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٦٥.

١١٠– عنان: المرجع السابق، ١٦٦.

١١١– الزغير معناها الصغير بالنطق العلمى الأندلسي R.Dozey:Supplement aux Dictionaries Arabes, Vol.I,P 535

دوزى: تكملة المعاجم العربية، بغداد «١٣٩٧هـ/١٩٧٦م» ج٥، ص٣٣٣. ويذكر عنان نقلا عن المستشرق لوندى أن معناها «السكير». عنان: المرجع السابق، ص١٥٦.

١١٢– عنان: المرجع السابق، ١٥٦.

١١٣– ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٠، عنان: المرجع السابق، ص١٥٨، والسلطان أبو فارس الحفصي من أمراء الدولة الحفصية التى قامت فى أفريقية وهى من الموحدين واسم جدهم هنتان وكان كبيرهم الإمام – الشيخ أبو حفص عمر. انظر عن قيام دولة الحفصيين وسقوطها ابن خلدون: العبر، ج٦ ص٣٢٦–٣٢٩، ابن خلدون: العبر، ج٧ ص١١٦.

١١٤– Revista Al- Andalus XXIV (1959),p.284.

١١٥– عنان: المرجع السابق ص ١٥٦

١١٦– عنان/ المرجع السابق ص ١٥٨.

١١٧– عنان المرجع السابق ص ١٥٨.

١١٨– ينسب بنو مول إلى القائد محمد بن أبى بكر بن يحيى بن مول، من وجوه الدولة، من أهل قرطبة تولى الوزارة منهم القائد أبو بكر عتيق بن محمد بن مول فى عهد السلطان نصر بن محمد «أبو الجيوش» ثم عزل عن الوزارة ونفى إلى المغرب. ابن الخطيب:اللمحة البدرية، ص٧٠، ٧١.

١١٩– عنان: المرجع السابق، ص١٥٨. لم ترد هذه الوثيقة فى كل من كتاب الحلل السندسية أو كتاب

الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية، وهذه المعاهدة تتشابه فى بنودها مع المعاهدة التى عقدت بين السلطان محمد بن يوسف «الثالث» مع ملك قشتالة فرناندو الثالث. وتم الاتفاق بينهم بأن يدخل السلطان محمد بن يوسف «الغالب بالله» فى ولاء وطاعة الملك فردناندو الثالث ملك قشتالة، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩، ومجلس الكورتيس Loscorts وفى بعض المراجع الكورتيز هو المجلس النيابى لمملكة قشتالة، رائف أحمد: وتذكروا من الأندلس الإبادة، الزهراء للأعلام العربى، «١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م» ص٧٥.

١٢٠- عنان: المرجع السابق، نفس الصفحة.

١٢١- مدينة مالقة Malaga ينظر هـ٤٤.

١٢٢- عنان: المرجع السابق، ص١٥٨.

١٢٣- عنان: المرجع السابق، ص١٥٩.

١٢٤ عنان: المرجع السابق، ص١٦٣.

١٢٥ - حصن مونى مرتش «Castillo de Maries» يقع غرب مدينة غرناطة، ويقع بالقرب من جبل القسط المشهور بنبات البربايس المر المذاق، الحجي: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص١٢٦.

١٢٦- عنان: المرجع السابق، ص١٦٥.

١٢٧- عنان: المرجع السابق، ص١٦٣.

١٢٨- ابن الخطيب: الملحة البدرية، ص٧٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٤.

١٢٩- ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٢٦-٣٠، أعمال الأعلام، ج٢ ص٣١٠؛ نورة التويجرى: الصراع بين أبناء يوسف الأول وأثره فى إضعاف مملكة غرناطة، مجلة جامعة أم القرى للبحوث المحكمة، السنة العاشرة العدد الخامس عشر «١٤١٧هـ/١٩٩٧م» ص٢٥٣.

١٣٠- ابن الخطيب: نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ص٢٩٩-٣٠٠؛ نورة التويجرى: الصراع بين أبناء يوسف الأول وأثره فى إضعاف مملكة غرناطة.

١٣١- البرميخو «Bermelo» معناها بالأسبانية اللون البرتقالى الضارب للحمرة وهو لون لحيته وشعره، المقرى: نفخ الطيب، ج١ ص٤٤١، ابن سماك المالقى الغرناطى: الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة، تحقيق محمود مكى، القاهرة «١٩٧٦م»، ص١٤٩.

١٣٢- ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٢٩٩-٣٠٢.

١٣٣- ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص١٢٩، ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٤٢.

١٣٤- ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٢٨.

١٣٥- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢ ص٣١٠.

١٣٦- ابن خلدون: العبر، ج ٧ ص٤٣٦، ٤٣٧.

١٣٧- عمر بن يحيى المحلي، ينظر هـ ٤٨.

١٣٨- المنكب «Almunecar» يقع شرق الأندلس، يجرى به نهر يصب فى البحر وبه حصن كبير وأرباض وأسواق وجامع، الحميرى: المصدر السابق، ص٥٤٨.

١٣٩- شلوبانية Salobrena قرية تقع على ضفاف البحر، بينها وبين المنكب عشرة أميال، تشتهر بزراعة الموز وقصب السكر، الحميرى: المصدر السابق، ص٣٤٣.

١٤٠- الدون نونيو دى لارا Nuna De Lara صهر ملك قشتالة الفونسو العاشر كان قائد جيوش قشتالة فى معركة قرب مدينة استجه والتى التقت فيها جيوش النصارى بالجيوش المغربية والأندلسية المتحدة بقيادة أبي يوسف يعقوب المريني، وأحرز فيها المسلمون نصرا باهرا، وكان ذلك سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٣ شيخة جمعة: الفتن والحروب فى الشعر الأندلسى من سقوط الخلافة فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر

الميلادى إلى سقوط غرناطة فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس ١٩٩٤، ج ٢ ص ٢٦٤، المقرى: أزهار الرياض، ص١٥٨.

١٤١- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٩، ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٤٣٦.

١٤٢- ابن الخطيب: الإحاطة، ج١ ص٥٦٥، ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٤٣٦.

١٤٣- ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٤٣٦و٤٣٧.

١٤٤- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٣.

١٤٥- المصدر نفسه الصفحة نفسها.

١٤٦- المصدر نفسه ص ٤٨.

١٤٧- المصدر نفسه ص ٣٣.

١٤٨- ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٣٧، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٤.

١٤٩- ابن خلدون: المصدر نفسه، ص٢٣٧، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٠.

١٥٠- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٥.

١٥١- أرسلان: المصدر نفسه، ج٢ ص ٢٠٦؛

Diplomaticos del Archivo dela corna de Aragon, Madrid (1940) Escuela de Esfudion Arabes

١٥٢- مدينة مرتش Martes تقع غرب مدينة غرناطة وبها حصن مرتش ذكرها ابن الخطيب بقوله مرتش العظيمة الساحة الطيبة البقعة. ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص٨٦.

١٥٣- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩.

١٥٤- مؤلف مجهول: أخبار العصر، والصفحة نفسها، المقرى: نفح الطيب، ج١ ص٤٢٩.

١٥٥- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩.

١٥٦- المقرى: نفح الطيب، ص٤٢٩، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩, ٣٠.

١٥٧- عنان: المرجع السابق، ص١٤٩.

١٥٨- عنان: المرجع نفسه، ص١٥٠.

١٥٩- عنان: المرجع نفسه، ص٥١.

١٦٠- الزغل يعنى الشجاع أو الباسل R.Dozey . Supp . Aux Dict. Arabes V.II, p 594، دوزى: تكملة المعاجم العربية، ج٥، ص٣٣٣.

١٦١- المقرى: نفح الطيب، ج ٦ ص٣١٦.

١٦٢- مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٢٢, ٢٣

١٦٣- مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص٢٤.

١٦٤- مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص٢٥.

١٦٥- مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص٢٥، ومدينة بسطة تعرف الآن فى الأسبانية باسم «Baza» وتقع شمال شرق غرناطة، وصفها ابن الخطيب بخصوبة أرضها وطيب هوائها وكثرة مياهها. ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص ١٠٩.

١٦٦- وادى آش «Guadix» ينظر هامش ٥٨.

١٦٧- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١٠٠، ويذكر صاحب كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر رواية تخالف هذه الرواية التى وردت فى كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر حيث ذكر صاحب كتاب نبذة العصر أن السلطان محمد بن سعد «الزغل» صاحب مدينة مالقة خرج من مدينة وادى آش ولحق بملك قشتالة فرناندو الخامس بعد استيلائه على مدينة بسطة وبايعه ودخل فى ذمته على أن يعطى ملك قشتالة فرناندو الخامس وادى آش وكل مدينة أو حصن وقرية كانت تحت طاعته وحكمه فأجابه ملك قشتالة إلى ذلك، ودخل فى عهد ملك قشتالة

جميع فرسان السلطان محمد بن سعد الزغل وجميع قواده وأصبحوا معه عونا على المسلمين، كما ذكر أن الأمير محمد بن سعد «الزغل» وقواده باعوا لملك قشتالة القرى والبلاد التى تحت طاعتهم وقبضوا ثمنها. مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٢٧.

١٦٨- الصغير: لقب بالصغير تمييزا له عن عمه أبو عبد الله محمد الزغل، كما لقب بالزغيبى أى المسكين الصغير أو الرجل البائس من لا حظ له، دوزى: تكملة المراجع العربية، ج٥، ص٣٣٢.

١٦٩- اللسانة Lucena بلدة صغيرة تقع جنوب شرق قرطبة وكان يسكنها اليهود، ولها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود ويحيط بها سور من جميع جهاتها. الأدريسى: نزهة المشتاق، ص٧٥١.

١٧٠- المقرى: نفح الطيب، ج٦ص٣١٢.

١٧١- مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص٤١.

١٧٢- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١٠٢، المقرى: نفح الطيب، ج٦ ص٣٢٢.

١٧٣- المقرى: نفح الطيب، ج٦ ص٣٢٣، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٢.

١٧٤- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص ١١٢، مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٤٠.

١٧٥- مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٤٠، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٣.

١٧٦- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٤.

١٧٧- المقرى: نفح الطيب، ج٦ص٣٢٤، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٤.

١٧٨- مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٤١، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص ١٤٤، المقرى: نفح الطيب، ج٦ ص٣٢٠. وقد ذكر المقرى هذه الامتيازات الخاصة وهى أن يمكنه من الحمراء ويكون تحت حمايته ويعطيه مالا جزيلا وأى بلاد شاء من الأندلس يسكن فيها تحت حكمه. المقرى ج ٦ص٣٢٠.

١٧٩- مدينة أندرش Andarax تقع فى جنوب الأندلس من أعمال مدينة المرية Almeria ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، ص٨٨.

١٨٠- مؤلف مجهول أخبار العصر، ص١١٥، حسين مؤنس: نهاية الأندلس، ص٢٠٤ ويذكر الأخير أن تسليم مدينة غرناطة قد تم عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م ولعل الصحيح هو فى عام «٨٩٧هـ/١٤٩١م» وهو ما ورد فى معظم المصادر العربية والأجنبية، وحول كيفية تسليم غرناطة وكذلك نهاية السلطان أبو عبدالله محمد الصغير انظر مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٣٤،

Revista Al-Andalus, XXIV, 1959'pp283-295.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر:

■ ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل:

– النفحة النسرية واللمحة المرينية، تحقيق عنان محمد آل طعمه، مطبعة الشام بدمشق، الطبعة الأولى دمشق «١٩٩٢م».

■ الأدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد عبدالله:

– نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، عالم الكتب، المطبعة الأولى، بيروت «١٤٠٩هـ/١٩٨٩م».

أرسلان شكيب.

– الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت «١٤١٧هـ/١٩٧٠م».

■ الحميرى، عبد المنعم:

– الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت «١٩٧٥م».

■ ابن الخطيب، لسان الدين:

– الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان مكتبة الخانجى الجزء الأول الطبعةالثانية، القاهرة «١٣٩٣هـ/١٩٧٣م»، والجزء الثانى الطبعة الأولى القاهرة «١٣٩٤هـ/١٩٧٤م».

– أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفى بروفنسال، دار الكشوف، الطبعة الثانية، لبنان «١٩٥٦م».

– ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عنان، مكتبة الخانجى، الطبعة الأولى القاهرة «١٤٠٠هـ/١٩٨٠م».

– اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تحقيق لجنة التراث الإسلامى، الطبعة الثالثة، بيروت «١٤٠٠هـ/١٩٨٠م».

– نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة د.ت.

– معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة للتراث الإسلامى، الطبعة الأولى، دولة الإمارات العربية «١٣٩٦هـ/١٩٧٦م».

– مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية «١٩٨٣م».

■ ابن خلدون عبد الرحمن:

– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، والمسمى بتاريخ ابن خلدون، دار الكتب

العلمية، الطبعة الأولى، بيروت «١٤١٣هـ/١٩٩٢م».
■ السلاوى، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى:
– الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق ولدى المؤلف جعفر ومحمد الناصرى، دار الكتاب، الدار البيضاء «١٩٥٤م».
■ ابن سماك، أبو القاسم محمد بن أبى العلاء المالقى الغرناطى:
– الزهرات المنثورة فى كتب الأخبار المأثورة، تحقيق محمود مكى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٩م.
■ الفاسى على بن أبى زرع:
١٤ الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، تحقيق إحسان عباس الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس «١٣٩٨هـ/١٩٧٨م».
■ الفيروزبادى:
– القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، د.ت.
ابن القوطية القرطبى:
– تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس طباع، دار النشر للجامعيين، الطبعة الأولى بيروت«١٩٥٧م».
■ المقرى أحمد محمد التلمسانى:
– نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ البقاعى، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت «١٤١٦هـ/١٩٨٦م».
– أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى، القاهرة «١٣٣٩هـ/١٩٤٩م».
■ مؤلف مجهول:
– نبذة العصر فى أخبار ملوك بن نصر، تحقيق الفريد البستانى، مكتبة الثقافة الدينية،، الطبعة الأولى «١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م».
■ مؤلف مجهول:
– أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزهراء للأعلام العربى، الطبعة الأولى القاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩١م».

ثانيا: المراجع:

■ الحجي، عبدالرحمن:
– التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى إلى سقوط غرناطة دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت «١٣٩٦هـ/١٩٧٦م».
– جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى، دار الإرشاد، الطبعة الأولى، بيروت «١٣٨٧هـ/١٩٦٨م».
■ حمادة محمد ماهر:
– الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية، مؤسسة

الرسالة، الطبعة الأولى بيروت «١٤١٦هـ/١٩٨٦م»
■ دوزي، رينهارت:
– تكملة المراجع العربية الجزء الثالث والخامس، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمى، وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة بغداد «١٣٩٧هـ/١٩٧٦م».
■ سالم، السيد عبد العزيز:
– تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية «١٩٨٢م» شيخة، جمعة:
■ شيخة جمعة :
– الفتن والحروب فى الشعر الأندلسى من سقوط الخلافة فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى إلى سقوط غرناطة فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، الطبعة المغربية، تونس «١٩٩٤م».
■ العبادى، أحمد مختار:
دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٤م
■ عنان، محمد عبد الله.
– دولة الإسلام فى الأندلس «نهاية الأندلس» مكتبة الخانجى، الطبعة الرابعة، القاهرة، «١٤٠٨هـ/١٩٨٧م».
■ فرحات، يوسف شكرى:
غرناطة فى ظل بنى الأحمر، دراسة حضارية، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت «١٤٠٢هـ/١٩٨٢م».

ثالثا: الدوريات العربية:

■ التويجرى، نوره محمد:
– الصراع بين أبناء يوسف الأول وأثره فى إضعاف مملكة غرناطة، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، السنة العاشرة العدد الخامس عشر «١٤١٧هـ/١٩٩٧م».
– نص مهمل عن بن نصر فى الأندلس، من مخطوط شرح المقامة النخلية لأبى الحسن على بن محمد النباهى، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد الحادى عشر، السنة السادسة، ذو القعدة «١٤٢٥هـ/يناير ٢٠٠٥م».

رابعا المصادر والمراجع الأجنبية:

- Dozy,R:Histoire de Musolmans d'Espagne, 4volumes,Leyden (1861).
- Dozy.R:Supplement aux Dictionares Arabes,Vol.I
- Previt - Orton,c.w: The Shorter Cambridge Medieval History (2 Vols) Cambridge University press,1952.
- Revista Al-Andalus. vols,XIII (1948),XX(1955) XXIV (1959).
- R.O de Linares:Los Documentos Arabes Diplomaticos Del Archive de la Corona de Aragon (No.3).
- Schiaparelli,C: Vocabulista in Arabico, Tipografia Dei Saecessori le Mannier,Firenzi,1874.

أ.د/ليلى عبدالجواد إسماعيل (*)

مملكة القسطنطينية فى مسالك الأبصار وممالك الأمصار للعمرى

دراسة وتحقيق

المقدمة :

تعد موسوعة مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) من الموسوعات الهامة، وذلك لتنوعها فهى لا تقتصر على دراسة الممالك والأمصار جغرافيا فحسب، بل تشمل الكثير من الأدب والمعارف وتواريخ الأمم والشعوب، فضلا عن اهتمامها بالنواحى الحضارية بشكل خاص أكثر من استعراض الحوادث التاريخية سواء فى الممالك الإسلامية أو غير الإسلامية، فتتناول أحوال الحكام والملوك والسلاطين والأباطرة، وأرباب الوظائف فى دولتهم وما يتقاضونه من رواتب وأرزاق، وملابسهم فضلا عن ملابس شعوبهم، وطعامهم وشرابهم، والعملة التى يتم التعامل بها، والأوزان والمكاييل مع الاهتمام بجيش كل مملكة وعدده وعدته وتسليحه، علاوة على طبيعة أرضها، وما تنتجه من محاصيل، وما تخرجه من معادن، وعلوم أهلها ومعارفهم، ومثل هذه المعلومات قل أو ندر أن تذكرها المصادر التاريخية المعاصرة التى تركز فى المقام الأول على التاريخ السياسى دون التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والثقافى. ومن هنا تأتى أهمية هذه الموسوعة لتاريخ الممالك بصفة عامة ومملكة القسطنطينية بصفة خاصة.

سطرت أقلام ثلة من المؤرخين معاصرين[١]، ومحدثين [٢]، ترجمة مفصلة ومستفيضة لحياة العمرى وموسوعته مسالك الأبصار، لذلك يصعب سرد سيرة مفصلة لحياة العمرى، لما يحمله ذلك من تكرر قد يبدو معيبا أو مملا، خاصة وأننا لسنا بصدد الترجمة للمؤرخ أو الإفاضة فى

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى .. كلية الآداب - جامعة القاهرة.

الحديث عن حياته العامة والخاصة، فقد ترجم له الكثيرون، ومع ذلك فلابد من التعريف بالرجل ومؤلفاته ولو فى عجالة سريعة موجزة، مع تسليط الضوء على ماكتبه عن «مملكة القسطنطينية» فى مسالك الأبصار، وما أورده من أخبار بشأنها.

العمرى هو شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمرى، ينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب لذلك لقب بالعمرى، ولد فى دمشق فى الثالث من شوال سنة (٧٠٠هـ/ ١٢ يونيو ١٣٠١م)(٣)، ووفد إلى مصر حدثا، واتخذ القاهرة موطنا، ومن ثم فقد شب وتعلم بمصر، حيث تتلمذ على يد أساتذة مبرزين فى مختلف فروع العلوم العربية كالجغرافيا، والفقه، والأحكام، والعروض، والنظم، والبيان والمعانى، والفلك والتاريخ، وغيرها من العلوم(٤).

برع العمرى فى ميدان الكتابة الديوانية، وليس أدل على ذلك من شهادة بعض المعاصرين فيقول الصفدى عنه «لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره، ولا يطلق على سواه.. ولا أعتقد أن بينه وبين القاضى الفاضل(٥).. من جاء مثله.. رزقه الله أربعة أشياء لم أراها اجتمعت فى غيره هى: الحافظة.. والذاكرة.. والذكاء.. وحسن القريحة فى النظم والنثر» (٦) أهلته هذه الصفات للعمل فى ديوان الإنشاء بمصر.

شغل العمرى عدة وظائف منها وظيفة قاضى بمصر، ثم خلف أباه فى رئاسة ديوان الإنشاء، وولاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون وظيفة المشرف على البريد (الدوادارية)، ثم اختلف مع السلطان الناصر محمد فعزله، وألزمه داره، وأمضى أعوامه الأخيرة بدمشق أشبه بالمغضوب عليه، ثم ما لبث أن توفى فى يوم عرفه سنة (٧٤٩هـ/ أول مارس ١٣٤٩م)(٧).

أما عن مصنفات العمرى، فقد ترك الرجل تراثا حافلا، ينم عن غزارة مادته، ورفيع مواهبه، فقد وضع العمرى فى حياته القصيرة (٧٠٠-٧٤٩هـ) عددا من الكتب تفاوتت فى الحجم والموضوع، يأتى فى مقدمتها موسوعته الضخمة كتاب «مسالك الأمصار فى ممالك الأمصار» فى أكثر من عشرين مجلدا، وصفه الصفدى «بأنه كتاب حافل»(٨)، وقال عنه ابن تغرى بردى «لو لم يكن له إلا هذه التسمية لكفاه»(٩)، ومن كتبه أيضا التعريف بالمصطلح الشريف، والنزهة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية، دمعة الباكى ويقظة الشاكى، ذهبية العصر، صبابة المشتاق وهو ديوان كامل فى المدائح النبوية، الشتويات وهو عبارة عن رسائل كتبها فى فصل الشتاء، الدعوة المستجابة، فواضل السمر فى فضائل آل عمر فى أربع مجلدات، سفرة السفرة، الدرر الفرائد وهو مختصر «قلائد العقيان فى محاسن الأعيان» للفتح بن خاقان (ت ٥٣٥هـ)، وممالك عباد الصليب وهو من الكتب النادرة التى تهتم بغير المسلمين،

وغيرها من المصنفات، هذا فضلا عن عدد من القصائد والأراجيز، كما أنشأ العمرى كثير من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك وغير ذلك(١٠).

يقع النص - الذى أود أن أعيد نشره - فى الباب الخامس من موسوعة العمرى «مسالك الأبصار» وهذا الباب يحمل عنوان «فى مملكة الأتراك بالروم» ويقع فى ستة عشر فصلا، ويحمل هذا النص عنوان «مملكة القسطنطينية» وهو جزء من الفصل السادس عشر، الذى عنونه العمرى بـ«فى مملكة أرمناك»، وقد نشر هذا الباب بفصوله الستة عشر(١١) بما فيها الجزء الذى أعيد نشره مرة أخرى والذى يحمل عنوان «مملكة القسطنطينية»، وهناك من الأسباب ما دعانى لإعادة نشر الجزء الخاص بمملكة القسطنطينية ومن هذه الأسباب:

١- اهتمامى الشديد بتاريخ تلك المدينة، مدينة القسطنطينية، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، وشغفى بمعرفة ما أوردته المصادر العربية بشأنها، خاصة وأن تاريخ تلك المدينة هو ما تخصصت فيه، وأنجزت فيه عدة بحوث ودراسات.

٢- أن مانشر عن مملكة القسطنطينية خرج مبتورا، عامرا بالأخطاء، التى قد تكون مطبعية، وقد تكون خطأ فى قراءة النص، فضلا عن سقوط سطور منه فى بعض الأحيان، وسوف أقدم فيما يلى جدولا بتلك الأخطاء وصوابها:

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٣٩٦	٤	ببرطانية	بيزنطانية (بيزنطة)
	٦	العمودية	المعمودية
	١٠	علبة	غلبة
	١٢	وتغيرهم	وتعيرهم
٣٩٧	٦	سلطنته	سلطنة
	١٢	الكبائس	الكنابيش
	١٨	الإسكندرية	الإسكندر
		نائبة	نائية
٣٩٨	٤	ميتشامون	يتشائمون
		بمردة.. (كلمة ساقطة)	بمردة الجن
	٥	أصلة	أخيلة
		نطاق	تطاق
	١٣	ذووى	ذوى

الصواب	الخطأ	رقم السطر	رقم الصفحة
عدد	عدل	١٤	
الخمر	المخمر		
حنينهم	حبهم	١٥	
ملبقات	طبقات	١٧	
اقتباس	اقتباسه	١	٣٩٩
السمع	الشمع	٢	
يتحير	يتخير	٣	
في	من		
ملاقي	مآقي		
العين	الغيد		
معرفة	معروفة	٨	
القسطنطيني	القسطنطين	١٢	
جهته	جهة	١٥	٤٠٠
أحد	لأحد	١	٤٠١
وأما	وما	٥	
هو	هي	١٢	
تعتقد كرامتها	تعتقد في كرامتها	١٥	
ينقل في	ينقل من		
قسطنطين	قسطنيطين	١٦	
زعموا إنه كان صار	زعموا إنه قد صار	٢٠	
ظفر في	ظفر به في	١	٤٠٢
حضوره	حضون	٣	
حكايات وأسمار ما هذا موضوعها ولا مكان الإشتغال بها ، وإشغال الكاتب بجنسها	حكايات بجنسها (سطر ساقط)	١٧	
هذا مما	هذا ما	١٨	
تكنز	تكتنز	٢١	
بطاركتهم	بطارقتهم	٣	٤٠٣
قسوسهم	وسوء بهم		
والقوه	والقوة	٤	

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
	٦	القاس	القاسي
		ويندم	وينوم
	٩	الإسكندرية وذي القرنين	الإسكندر ذي القرنين
	١٢	الداء الدقيق	الداء الدفين
	١٣	ايلسوا	ابلسوا
		وسكنوا	وسكتوا
	١٤	تم	ثم
٤٠٤	٢	وقالوا	أو قالوا
	٨	أو طوابعه	وطوابعه
	١٧	والذين جربت	والذي جربت
	٢٠	بلبان الجلبي	بلبان الحلبي
٤٠٥	١	مسورها	سورها
	١٢	بتحريمه	لتحريمه
	١٥	يتنغيم	يتنعم
٤٠٦	١	بقطيا قوس	نقيطا قومس
	٢	بقطيا	نقيطا
	٣	مائة ألف ألف دينار (سطر ساقط)	مائة ألف من المرتزقة، وتبعهم مثلهم من المطوعة، وحملوا لهم من العين مائة ألف ألف دينار
	٦	عسطه امرأة النون	أغسطه امرأة اليون
	١٠	تخوفا	مخوفا
	١٤	الأولاد	الأدلاء
	١٦	قيل	قبل
	١٧	يتبسر	تيسر
	١٩	ثلاثة وأربعون رأس، وقتل (سطر ساقط)	ثلاثة وأربعون رأسا، وعشرون ألف دابة من الدواب الذلل، وذبح من البقر والغنم والمعز مائة ألف رأس، وقتل

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
	٢٠	وقتل في الأسارى	وقتل من الأسارى
٤٠٧	١	البرذون	البزدون
	٣	أبي حفص	أبي حفصة
	٤	لطفت	أطفت
	٦	لم تنل	لم تبل
	٨	منيرها	مسيرها
	١٠	سرا ينوه	سر النبوة
	١١	لمسعاهما	لمسعاها
	١٢	أيمتد	أئمة
٤٠٨	٧	سيادة	سيارة
	٩	وعلاقاتهم	وعلافاتهم
		يتعلقون	يتعلفون
	١٤	وتفرقوا	وافترقوا
	١٩	ومسربل	ومنديل
٤٠٩	١	يتصل البستاني	ببقل البستان
	٤	عتق فرسي	عنق فرسي
		وذهب لي	وذهب بي
		أين يذهب لي	أين يذهب لي
		بطعام تهيء	بطعام فهيء
		نفرسي	بفرسي
٤١٠	٦	واتخذتها أم ابني	واتخذتها فهي أم بني
	١٠	(المخطوط ص١٩٦)	(المخطوط ص١٩٧)
	١١	ران	راث
	١٥	ارجع لهم	ارجع
	١٦	عدوا	عدو
	٢٠	بيت يدي	بين يدي
٤١١	١٨	يلتزمن به التزاما	يلتدمن به التداما
٤١٢	٢	اهتزاما	انهزاما

٣- ما أورده العمرى من معلومات عن مدينة القسطنطينية قل بل ندر أن تعتنى المصادر البيزنطية بذكرها ، فنص العمرى عن مملكة القسطنطينية يتناول الحديث عن الامبراطور البيزنطى ، قصره ، ملابسه ، موكبه إلى الكنيسة العظمى ، مجلسه ، وموظفيه وأرزاقهم ، كما يتحدث عن البطريرك ، رأس كنيسة القسطنطينية ، مكانته وراتبه ، ودخول الكنيسة ، كنيسة القسطنطينية المعروفة بآيا صوفيا ، وما تحتويه من كنوز الأقدمين. وذكر العمرى الجيش الامبراطورى أعداده وعدده ، وصفات جنده وأرزاقهم ، كما عرض للعملة البيزنطية ، والأوزان والمكاييل المستخدمة فى القسطنطينية مع مقارنتها بالأوزان والمكاييل المستخدمة فى مصر ، واهتم بذكر خصوبة أرض القسطنطينية وصلاحيتها للزراعة ، وحرص العمرى كذلك على عرض صفات أهل القسطنطينية ، وطبيعة حياتهم وعلومهم ومعارفهم وبراعتهم فى فن الموسيقى وغيرها من المعلومات التى لا تهتم المصادر البيزنطية بها وتضن بذكرها [١٢]. لذا كان من الضرورى أن ترى هذه المعلومات النور ، ليستفيد منها أهل التخصص.

والحق يقال أن العمرى لم ينهج ذلك المنهج مع مملكة القسطنطينية وحدها بل مع كل الممالك التى تكلم عنها ، فقد كان هدفه من وراء ذلك «إثبات نبذة دالة.. على خال كل مملكة ، وما هى عليه وأهلها.. لأقرب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هى عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات ، وما يوجد فيها غالبا ، ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر... وكأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان». كما جاء على لسانه[١٣].

اعتمد العمرى فيما ذكره عن مملكة القسطنطينية على النقل ممن يعرف أحوالها وأخبارها ، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه ، فهو لم يزر مدينة القسطنطينية ، ولم يكتف بالنقل عن الثقات والسماع منهم ، بل كان يسأل الرجل على البلاد التى زارها أو شاهدها ، ثم يسأل آخر وآخر ليقف على الحق ، فما اتفقت عليه أقوالهم وتقاربت فيه أثبته ، وما اختلفت فيه أقوالهم واضطربت تركه ، ثم كان يترك الرجل الذى سبق وسأله فترة من الوقت ، ثم يعيد عليه السؤال ثانية ، فإن ثبت على قوله الأول أثبته ، وإن تزلزل لم يأخذ بأقواله ، وذلك كله حتى يتوثق من صدق ما يسجله[١٤].

ومن أهم المصادر التى اعتمد عليها العمرى فيما أورده من معلومات وأخبار عن مملكة القسطنطينية:

أولا: بلبان الجنوى: هو سليل أسرة جنوية عريقة ، تعرف باسم دوريا ، حكم أفرادها جمهورية جنوة لسنوات طويلة ، وكان يدعى دومينيك دوريا Dominic Doria ، وحدث أن وقع فى الأسر وسيق إلى الشرق ، حيث صار يعرف

باسم (بلبان الجنوى)، وكان من جملة مماليك الأمير بهادر المعزى (١٥) (ت ٧٣٩هـ-/١٣٣٩م)، ومن المعروف عن هذا الأمير أنه كان يشترى الملاح من المماليك، وينعم عليهم كثيرا[١٦]، ويبدو أن بلبان هذا كان واسع المعرفة بأمور الغرب، لأن العمرى أخذ منه فكرة جيدة ليس عن مملكة القسطنطينية وحدها بل وعن عدد من الشعوب الأوروبية[١٧].

ثانيا: آقسنقر الرومى: تحدث عنه العمرى فقال: «هو أحد أمراء العشرات بالأبواب السلطانية، وهو من بعض بيوت العشرة الأمرة القديمة بالقسطنطينية، وكان قد حضر من جملة الرسل إلى الأبواب العالية، وأسلم، وشمله التشريف والإنعام الشريف، والإقامة فى الخدمة السعيدة السلطانية بمثل هذه الأحوال»[١٨]. وترجم ابن حجر[١٩] لآقسنقر الرومى فذكر أنه كان من جملة الأمراء الآخورية[٢٠] عند الناصر محمد بن قلاوون، ثم جعله الناصر شاد العمائر[٢١] فى سنة ٧١٥هـ. . . ثم تغير عليه السلطان فى سنة ٧٢٨هـ، وأخرجه إلى الشام، ثم قبض عليه فى سنة ٧٣٥هـ، سجن بحلب ثم أمر طبلخاناه[٢٢] بدمشق سنة ٧٣٨هـ إلى أن مات سنة ٧٤٠هـ».

وبذلك فصل ابن حجر للوظائف التى تولاها آقسنقر فى بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مما يدل على أنه كان يحتل مكانة مرموقة فى هذا البلاط، وقد أتاح تواجده فى بلاط الناصر الفرصة للعمرى للاتصال به والاستماع منه إلى أخبار امبراطور القسطنطينية وشعبها، فهم بنى جنسه، وقدم للعمرى معلومات غاية فى الأهمية عن امبراطور الروم ورعاياه وعاداتهم وأرزاقهم، وموظفى البلاط الامبراطورى، ونظام الإقطاع الحربى، فضلا عن البطريرك وكنيسة آياصوفيا.

ثالثا: اعتمد العمرى على آخرين غير بلبان الجنوى وآقسنقر الرومى دون أن يذكر أسماءهم، فيذكر «وقال لى غيره» أى غير بلبان الجنوى[٢٣]، ويذكر أحيانا اسم شخص نقل عنه إلى جانب اسم بلبان وآقسنقر فيقول: «قال آقسنقر الرومى وبلبان الجنوى وعلى بن بلبان الحلبى، قالوا كلهم، وقال غيرهم»[٢٤]. يتضح من هذه العبارة أن هناك شخص يدعى على بن بلبان الحلبى قد نقل عنه العمرى كذلك، ولكن دون أن يذكر أى شىء يميط اللثام عن هذه الشخصية، على عكس مافعل عند ذكر بلبان الجنوى وآقسنقر. كذلك يتضح من العبارة السابقة أن العمرى لم يقتصر فى أخباره عن مملكة القسطنطينية على هؤلاء الثلاثة بل وعلى غيرهم كذلك، فقد كان هدفه الأول هو تحرى الحقيقة وذلك بكثرة السؤال.

رابعا: نقل العمرى بعض الأخبار المتواترة والشائعة والذائعة على ألسنة الناس بل وعلى ألسنة المتجولين فى الأرض (ولعله يقصد الرحالة) خاصة عند حديثه عن كنوز كنيسة القسطنطينية، وما احتوت عليه من ذخائر وخبايا وكتب جليلة [٢٥].

خامسا: نقل العمرى أيضا عن الطبرى فى كتابه تاريخ الرسل والملوك[٢٦]، فيما يتعلق بعلاقة الامبراطورة البيزنطية ايرين (٧٨٠-٨٠٢م) بالخلافة العباسية فى عهد الخليفة المهدي وابنه هارون الرشيد، ويلاحظ أن العمرى لا ينقل رواية الطبرى حرفيا بل أحيانا يسقط منها عبارات وأحيانا أخرى يضيف إليها عبارات من عنده، وسوف نشير إلى ذلك فى موضعه بجعله بين قوسين ( ). كذلك نقل العمرى ترجمة أبى محمد البطال من ابن عساكر فى كتابه تاريخ دمشق [٢٧]، ولكن بتصريف أيضا مثلما فعل عند النقل من الطبرى.

ولعل العمرى كان يقصد بما نقله عن كل من الطبرى وابن عساكر أن يسطر صفحة مشرقة فى تاريخ العلاقات البيزنطية الإسلامية، يبرز من خلالها ماحققه المسلمون من انتصارات على الروم (البيزنطيين) فى ختام حديثه عن مملكة القسطنطينية.

سادسا: لم يتردد العمرى فى سؤال المتخصصين، فعندما تحدث عن الطين المختوم، وأهميته الطبية، قام بسؤال الأطباء المتخصصين ومن هؤلاء الرئيس أمين الدين سليمان بن داود[٢٨]، بل واستعمل هذا الطين وجرب أنواعه المختلفة وأكد أن أهمها هو ما يشبه المغرا (أى الأحمر منه)، كذلك فعل عند حديثه عن الأرغل، فسأل الضارب به أن يصفه له[٢٩].

وهكذا تعددت المصادر التى اعتمد عليها العمرى فيما أورده من أخبار عن القسطنطينية، فنقل عن العارفين بأمورها من أهلها، وممن قاموا بزيارتها وغيرهم من الثقات، هذا فيما يتعلق بتاريخها الحضارى، أما تاريخها السياسى فقد رجع فيه إلى المؤرخين السابقين أمثال الطبرى وابن عساكر.

أما عن النسخ التى اعتمد عليها التحقيق فهى على النحو التالى:

١- نسخة مكتبة أحمد الثالث، طوبقابو سراى موجودة باستانبول، وتحمل رقم ٢/٢٧٩٧، وهى مصورة، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، السفر الثالث، أصدره فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا، ايكهارد نويبارد فى إطار جامعة فرانكفورت - ألمانيا الاتحادية - سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، وتجدر الإشارة إلى أن دار الكتاب المصرية تمتلك نسخا من المخطوط المصور من مكتبة أحمد الثالث هذه، وهى محفوظة بالدار تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة، وهذه النسخة خزائنية، كتبت برسم خزانة السلطان

الملك المؤيد شيخ المحمودى فى أوائل القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، وخطها نسخى حسن، ويقع الجزء الخاص بمملكة القسطنطينية فيها فى ١٤ ورقة من ورقة ١٨٤-١٩٨ من السفر الثالث، ومسطرتها ٢٣ سطرا، وقد اتخذتها أصلا وأشرت إليها بحرف (أ)، وأثبت أرقام صفحاتها بين معقوفتين أو حاصرتين [].

٢- نسخة موجودة بدار الكتب المصرية، تحمل رقم ٨ معارف عامة، ميكروفيلم رقم ٢٠٧٤٣، وهى من القطع الكبير، ويقع الجزء الخاص بمملكة القسطنطينية فيها فى أربع ورقات، من ورقة ٦٣-٦٨، وترقيمها زوجى، ومسطرتها ٢٩ سطرا، وقد أشرت إليها بحرف (ب) وقابلتها بالنسخة الأصل، وأظهرت فى الهوامش الفروق بينهما إن وجدت، ورقمت كل صفحة أ، ب نظرا لأن ترقيمها زوجى.

٣- نسخة مطبوعة تتمثل فيما نقله العمرى عن كل من الطبرى وابن عساكر، واتخذت منها أصلا ثالثا، وقابلتها على النص الذى أورده العمرى، وأبرزت فى الهوامش الفروق بينهما.

٤- النسخة المطبوعة للسفر لثالث تحت عنوان «ممالك الشرق الإسلامى والترك ومصر والشام والحجاز» التى قام بتحقيقها ونشرها الدكتور أحمد عبدالقادر الشاذلى أستاذ الدراسات الشرقية، آداب المنوفية، ونشرها فى أبى ظبى عام ٢٠٠٣م، وأشرت إليها بالحرف (م).

ويعتمد التحقيق على التعريف بالشخصيات والأعلام، التى وردت فى النص والترجمة لها، مع شرح المصطلحات التاريخية، والألفاظ اللغوية، والتعريف بالأماكن والمدن، إلى جانب عقد مقارنة بين ماذكره العمرى عن القسطنطينية وغيره من الجغرافيين والمؤرخين المسلمين وغير المسلمين.

وبعد أرجو أن أكون قد وفقت فى إخراج نص سليم خال من التصحيف فيما يتلق بمملكة القسطنطينية، العاصمة البيزنطية، التى كانت تعيش فى عصر العمرى بداية النهاية، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم المصير.

النص
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار
الباب الخامس - الفصل السادس عشر
فى مملكة أرمناك

[١٨٤] قال بلبان الجنوى: أما مملكة القسطنطينية وهى الآن[١] تسمى اصطنبول [٢] وقديما بيزنطانية[٣]، فإنها كرسى مملكة الروم [٤]، ولملوكها التقدم على جميع ملوك عباد الصليب، وفى أهلها الملك القائم القديم، وكانت لهم اليد العليا على بنى المعمودية، وجميع الطوائف العيسوية[٥]، وهى مملكة قيصر[٦]، وبها تخت الإسكندر [٧]، وتداولتها دول الروم من أولاد قسطنطين[٨]. وخرجت عليهم خوارج، ثم هبت للفرنج [٩]، بها ريح ملك، واشتغلت لهم بها ذؤابة دولة [١٠]، واشتعلت لهم بها نار غلبة، ثم عادت إلى الروم، واستمرت إلى اليوم [١١].

قال: والفرنج تزرى بالروم لخروج ملك الشام عنهم، وتعيرهم بغلبة العرب عليهم، يعنى فى مبدأ الإسلام[١٢]، وتعيبهم بهذا وتوسعهم الملام.

قال: ومع هذا فلا يسع ملوك الفرنج إلا إجلال هذا الملك الرومى[١٣]، وتوفيه حقه من التعظيم.

وعساكره مائتا ألف فارس مديونه[١٤]، ما فيهم إلا صاحب إقطاع[١٥] أو نقد، وأرزاقهم لكل واحد منهم فى السنة مائتا دينار إلى ألف وخمسمائة دينار، وفيهم من يبلغ ألفى دينار، والدينار اثنا عشر درهما[١٦]، وهو درهم ينقص عن البندقى[١٧] بقليل، والدينار ما هو دينار مسمى بل حقيقة دينار مسكوك من ذهب مغشوش، فلهذا نقص ثمنه[١٨]، قال: واسم هذا الدينار بربر[١٩].

وقال: وأما الأمرة[٢٠] عند الروم، فإنها محفوظة فى بيوت قديمة، يتقدم فى أمرة كل (بيت)[٢١] واحد منهم، يتوارثها كابر عن كابر [١٨٥] ويورثها أول لآخر.

قال: ولملك القسطنطينية قدرة ليست لأحد من الملوك النصرانية سواه. قال: لأنه يركب فى كل يوم إلى الكنيسة العظمى بها[٢٢]، ومعه البطريرك[٢٣]، ويقف على كل باب من أبواب الكنيسة على كثرة أبوابها[٢٤] فرس للملك، وبغلة للبطريرك، وشعار سلطنه كامل بجميع ما يحتاج إليه الملك بما لابد للموكب الملوكى منه، فمن أى باب خرج من أبواب الكنيسة هو والبطريرك ركبا، وسار الملك فى أبهة الملك التمام، وشعار السلطنة[٢٥] الكامل بما كان معدا له على الباب الذى خرج منه دون ما كان معدا على بقية الأبواب، وعلى كل باب منها نظير ما كان على الباب الذى خرج منه الملك، وسار بشعار الملك الكامل.

قال: وللملك ميزة يتميز بها، وهو إنه لا يلبس أحد فى مملكته جميعا خفا أحمر غيره[٢٦].

وزى الروم فى لباسهم من نوع زى الأتراك والمغل من الأقبية التترية[٢٧] والمحضرة، خلا أن الكنابيش[٢٨] على رؤسهم متسع ومرحرح كأنه الطبق، ويشدون فى أوساطهم المناطق(٢٩) والسيوف، ومناطقهم ثقال، وسيوفهم كالسيوف المغربية، أخف من العربيات[٣٠] وعلى أشكالها[٣١]. ولباسهم الجوخ، والصوف، والحرير الأطلس والديباج وسائر أنواع الحرير[٣٢].

قال: وللملك داران معروفتان بدار المملكة[٣٣]، الواحدة قديمة من بناء الإسكندر[٣٤]، خارجة فى كبد البحر ذات حارات طوال ودهاليز بعيدة نائية، وفى جانبيها تماثيل نحاس على صورة الإنسان وسائر أنواع الحيوان، وفيها صورة فرس على خيل، وحيوانات، وأشكال أخرى، وكلها أكبر من الحيوانات المعروفة بما يزيد زيادة ظاهرة على الأشكال الطبيعية، وهى فى غاية الصنعة والإحكام بالنقوش العجيبة والتخاطيط الغريبة ولا يعرف هل عملت لظاهر الزينة أو لباطن من الحكمة[٣٥].

وهى دار عظيمة هائلة البناء، بعقود منظمة، وأبنية رفيعة واسعة، رحبة، مفروشة بالرخام الأبيض والمجزع والملون، وضروب من المسن الأخضر [١٨٦]

قال: والملوك لم يسكنوها، منذ عصر، يتشائمون بها، ويقولون إنها مسكونة بمردة الجن، وفساق الشياطين، وأن فيهم من يتراءى على مثال أخيلة لا تطاق.

والدار الأخرى[٣٦] هى التى يسكنها الآن الملوك، وتسكن إليها، وهى على جلالة مكانها، وفخامة قدرها، لا تقارب دار الإسكندر، ولا تدانيها فى الإمكان والتشييد، ورونق التأنيق والتنميق.

قال: ولقد كانت ملوك القسطنطينية تراقب ملوك القبجاق[٣٧]، وتؤدى إليهم القطيعة حتى تزوج هذا السلطان أزبك[٣٨] خان منهم، فأمنهم، ووضع عنهم أثقال تلك القطيعة، وأصر تلك الإتاوة[٣٩]، وناموا الآن فى مهاد الأمن، ورفعت عنهم غمم التكليف.

وقال لى غيره[٤٠]، وقد سألته عن عدد جيوش الروم، فقال: هم عدد بلا نفع، وقلت: وهذا هو المشهور عندهم، فى كل زمان ومكان، والمأثور عنهم أنهم وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشيء شيء، وإن كانوا ما نهان[٤١]، أقوى اعتدادهم للخمر والخمير، وأوفى حنينهم الديباج والحرير، ما فيهم ضارب إلا بجنك[٤٢] أو عود[٤٣]، ولا طاعن إلا بين أعكان ونهود، ولا يشربون دما إلا من فم ابريق جريح، ولا يرون قتيلا إلا [من][٤٤] شخص زق طريح، ولا لهم وقائع

إلا فى ملبقات(٤٥) الصحاف، ولا مواقع إلا بين فراش ولحاف، ولا يعرفون البيض إلا [كل](٤٦) بيض الدمى(٤٧)، ولا السمر إلا كل سمراء الدمى، ولا العجاج(٤٨) إلا من دخان عنبر، ولا أثر السيوف إلا فى ثغر شنيب(٤٩)، كأنه عقد جوهر، ولا مقام إلا فى مجلس راج، ولا اهتمام إلا بمجلس أفراح، ولا التماس إلا لغبوق أو اصطباح (٥٠)، ولا اقتباس إلا مما تتوقد ناره فى كأس أو يقتدح من أقداح، مامنهم راكب جواد إلا للذة، ولا صاحب جهاد إلا فى فرصة مستلذة، ولا عوال تلعلع اسنتها غير السمع ولا عويل إلا مما يتحير فى ملاقى العين من الدمع.

قال بلبان: وطوائف الروم لا معرفة لهم بامتطاء البحر، ولا عادة بركوب السفن(٥١)، وأبعد سيارتهم فيه إلى مواضع النزهة، وإنما هم أصحاب خيل، ولاتعد خيالهم من جياد الخيل، وإنما يجلب إليهم كرائمها [١٨٧] من بلاد الأتراك من قاطع الخليج، وإنما [هم](٥٢) بغال تباع بغال، ولهم تجمل دبر فى الملابس والمراكب (٥٣) والفروش. وفى أهلها الجمال البديع، والكمال التام، وفى المثل وجوه الترك، وأجسام الروم، وظرف العرب.

قال: أما منابت القسطنطينية فكلها أرض جيدة صالحة للزروع والثمار، ولها نهر متوسط المقدار(٥٤)، عليه مساقى زرع وأشجار، والأرزاق بها كثيرة الوجود(٥٥).

والرطل القسطنطينى(٥٦) نظير الرطل المصرى(٥٧)، وكيل الطعام بها المسمى مدنى(٥٨) هو: حمل جمل يكون اردبين ونصف بالمصرى، وبه تباع الغلال الكثيرة، فأما القليل منها فيباع بالرطل.

قال: وهذا الملك لا يفارق مجلسه الطرب، ويضرب له بالآلة المعروفة الأرغل(٥٩)، وهى ذات وضع عجيب، وألحان غريبة، مطربة، تأخذ بمجامع القلب.

قلت: وقد رأيت هذا الأرغل بدمشق ثم بالقاهرة، فقلت هذا للضارب به، فقال لى: هذا أرغل صغير يفكك ويحمل، وما معه أصوات تسير له الضرب، والذى يضرب به لملوك الروم، والبحر كبير مستقر فى مكان لا يزايله، وله عدة من أصحاب الأنغام المطربة تسير له، وله بذلك رونق لا يكون فى مثل هذا، وصورة الأرغل خشب مركب وله بكر نحاس، وأوتار شريط نحاس، ونحر بمثل كور الصائغ، ونغمة شبيه بالآلة التى تسمى القانون(٦٠)، ثم نعود إلى تتمة الحديث.

قال بلبان: والملك لا يمد الطعام إلا بين سماطين من المغانى وأصحاب الملاهى.

وحدثني آقسنقر الرومي(٦١) أحد أمراء العشرات بالأبواب السلطانية وهو من بعض بيوت العشرة الإمرة القديمة بالقسطنطينية ، وكان قد حضر من جملة الرسل إلى الأبواب العالية ، وأسلم وشمله التشريف والإنعام الشريف والإقامة فى الخدمة السعيدة السلطانية ، بمثل هذه الأحوال ، وسمعته يبالغ فى تعظيم شأن ملوكهم ، ويصفهم بحسن الموافاة ، والمراعاة لمصالح [١٨٨] أولياء دولتهم ورعاياهم .

قال: إن عادتهم جارية بأنه إذا من مات من أمراء الروم ، جرى على أكبر أولاده ما كان يجرى على أبيه ، فإذا لم يكن له ولد كان على أكبر أهله ، فإن انقرض تصرف الملك فيه برأيه ، فإن ترك الميت أولادا لا يقوم بهم ما كان لأبيهم ، ولا يكفيهم إذا توزع عليهم ،جرى على الأماثل ما كان لأبيهم ، ونظر فى حال البقية .

قال: وعادة هؤلاء الملوك أن لا يعطى ولد أمير رزقا من جهتهم ، ما دام أبوه حيا يرزق ، بل ارتزاقه مما لأبيه ، وأن أراد الملك أن يعطيه شيئا أعطى لأبيه مقدار ما يريد أن يجعله لابنه ، ثم أمره أن يجريه هو على ولده ، من جهته لا من جهة الملك .

قال: وهم أهل عدل ، فلا يظلم أحد منهم ، ولا يستحسن الظلم ، ولا يفسح فيه ، ولا يتطلع إلى شىء مما فى أيدى الناس من أرباب دولته ورعايا مملكته ، ولا يعرف هذا عندهم .

قال: وجميع من هو فى خدمة ملوك الروم لا حجر عليهم ، ولا تضييق فى الإكرام بحضور خدمة مرتبة ، ولا أخذ دستور فى أمر من الأمور ، فخلى بين نفسه وما يريد فى الركوب والنزول ، والسفر إلى الصيد والتنزه ، وإلى جهات أملاكهم وإقطاعاتهم ، بل هو فى ذلك كله مع رأيه ، يسافر متى أراد ، إلى [أى](٦٢) جهة أراد ، ويغيب ما يقدر له أن يغيب بغير إذن الملك ، ولا أحد ممن ينوب عنه ، وفيهم من يغيب السنة فما فوقها ، ولا يقال له لم سافرت ، ولا كيف أبطأت ، ولا لأى شىء انقطعت عن الخدمة ، ولا يعتب ، ولا ينكر عليه ، ولا للملك تشديد عليهم فى أمر ، إلا فى الالزام بالتوجيه إلى حرب أو المؤاخذة بحق .

قال: وأما أهل مملكة الملك فهم منه فى أرغد عيش ، ولا يقوض له بناء ولا يكف له إناء .

قالوا كلهم: والبطريرك هو الحاكم على الملك ، لأنه لا معول إلا على رأيه ، ولا يفصل حكم إلا بقضائه ، وله رزق عظيم يعدل معدله دخل إقليم ، وإليه أمر الكنيسة العظمى ، وسائر الكنائس والديارات [١٨٩] ويحصل لها فى كل سنة أموالا جمة طائلة ، من الوقوف والنذور والقربانات والتحف ، ومهاداة الملوك والكنود(٦٣) والتجار .

وفيما يزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعها وقف على الكنيسة العظمى، التى لهم، المسماة بالأوصفية(٦٤) وبلاد مقدونية هى الإسكندرية، وما هو مضاف إليها(٦٥)، وكان ذلك فى قديم الزمان، مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، وعلى هذا جاء الفتوح فى صدر الإسلام.

قلت: والروم تبالغ فى تعظيم هذه الكنيسة، وتعتقد كرامتها، وينقل فى التواريخ أن بها كان اجتماع قسطنطين على التدين بدين النصرانية، وأن عقد الاتفاق كان على المذبح بها(٦٦)، وفيها [على](٦٧) مايقول صليب الصلبوت(٦٨) وعصا موسى، وزنار مريم، ومسح المسيح، ومما يقال إنه صار إليهم من طليطلة(٦٩).

وفى زمن الملك الناصر صلاح الدين، قدس الله روحه، جاءت إليه رسل الفرنج(٧٠) تسأله فى إرسال صليب الصلبوت إليها، وزعموا إنه كان صار إلى خزائن العبيديين(٧١)، واتصل إليه، ثم إن صلاح الدين ظفر فى بعض حروبه بالرجل الذى كان حضر فى طلب الصليب، فأمر به فصلب.

وكتب القاضى الفاضل رحمه الله كتابا ذكر هذا فيه. فقال: وحصل الظفر بمن كان تقدم حضوره فى طلب صليب الصلبوت، وأطلقه فى ذلك الوقت، وعلم أنه لا يفوت، فلما ظفر به الآن، أمر به أن يصلب، وجعله مثلة، وسمره على الصليب الخشب، وجعله مثله مثله، هذا ما ذكره فى هذا المعنى.

وأما الشائع الذائع على ألسنة الناس، وكلام المتجولين فى الأرض، وطلبة الكنوز والخبايا، فهو أن علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية [قالوا: إن هذه الأعلام كانت بطليطلة](٧٢) ثم صارت إلى القسطنطينية، ومنهم من يقول: أن الروم لما خلت عن الشام وبلاد القبط(٧٣)، اكتنزت كثيرا من أموالها فى مواضع كانت تعدها لذلك، وكتبت بها كتبا بإعلام مواضعها، وطرق الوصول إليها، وأودعت تلك الكتب مكانا فى كنيسة القسطنطينية، وإن منها تستفاد معرفتها، ومنهم من زعم [١٩٠] أن سكان الشام من الروم لم يكنزوا وإنما ظفروا بكتب بمعالم كنوز من (٧٤) كان قبلهم من اليونان والصابئة والكلدانيين(٧٥)، ومن تقدمهم من الأمم الأول، فلما غلبوا على الشام استصحبوا تلك المعالم، فأودعوها الكنيسة.

[ويقال](٧٦) إنه لا يصل إليها إلا من خدم الكنيسة مدة معلومة عندهم، فإذا انقضت، أعطى ورقة واحدة بخطه ونصيبه فيما يدل عليه.

ولهم فى هذا ومثله حكايات وأسمار، ماهذا موضعها، ولا مكان الاشتغال بها، وإشغال الكتاب بجنسها، وأنا لا أصدقها، ولا أكذبها، وإنما ذكرت منها هذا هنا على سبيل الحكاية والتندير، إذ كان هذا مما يدور ذكره فى حديث الناس، إذا ذكروا هذه الكنيسة، وهو مما لا يستبعد إما كله، وإما شىء منه لدخوله فى حيز الإمكان، ولأنه ما يخلو من فواضل أهل كل زمان.

وهؤلاء العرب تكنز أموالها في قدور بسلاسل طوال تدفنها في مواضع متغلغلة في البر، وتعلمها بأعلام لا تتغير من الجبال والربى، وما أشبه ذلك.

فأما ما لا شك فيه، فهو أن في القسطنطينية كتبا جليلة من كتب حذاق الحكماء والفلاسفة القدماء ما لا خرج عن دار قومه، ولا وصل إلى فلاسفة الإسلام منه شيء لضنانة بطاركتهم وقسوسهم[٧٧] به، ومحافظة خزانه على خزنه وحفظه.

ويقال أن فيها دقائق الموسيقى، مما لو عمل به أهل هذا الشأن والقوه على أصحاب الأصوات المطاوعة لاستغنوا به في معالجتهم به عن العقاقير، حتى يقال أن فيها ما يلين القاسي، ويقاد الصعب، ويضحك، ويبكي، وينوم، ويدعي أصحاب علم الكيمياء أن فيها كتبا جليلة فيها العلم الصحيح بأسهل الطرق، وأقربها إلى الوصول، وتدعى أنه مما تلقى عن موسى صلوات الله عليه.

(قال)[٧٨] ويقال أن فيها أثرا من علوم الخضر[٧٩]، والإسكندر ذي القرنين[٨٠]، تفتح به المغالق، وتسلم المعاقل، وتملك النواصي، وتهزم الأعداء، فإذا حوجج أحد ممن يقول هذا القول، وحوقق، وقيل له [١٩١] أنتم تلوون ضلوعكم على الداء [الدافين][٨١] غيظا على أخذ الشام منكم، فهلا أخذتم بتلك الآثار، وبلغتم المراد، وكفيتم آلمهم، ابلسوا وسكتوا، ولم تكن لهم حجة إلا أن يقولوا مابقى من يعرفها، أو ذهب زمانها أو نريد طوالع، أو باد من كان يعلمها، أو ما ثمة من هو مشتغل بها.

وأما الذى هو الآن عندهم ظاهر من بقايا ذخائر العلماء والحكماء، فهو الطين المختوم[٨٢]، ورأيت أطباء الزمان، ومنهم بالديار المصرية رؤساء أفاضل، وعلماء لا تقصر عن درجات الأوائل، مافيهم من يثبته على التحقيق، لكنها تستحسنه وتقول: هو طين مليح، يحصل به القصد، ويتوقف، ولا يجزم بأنه هو الطين المختوم، ويقول: الطين المختوم طين عمل، وطبع وختم على عهد جالينوس[٨٣].

ويقال[٨٤]: كانت امرأة في جزيرة في البحر، تجلس على هيكل على قرارة أو بركة يأتيها السيل، فتذبح هناك التيوس على سبيل القربان، في وقت معلوم من السنة، ويؤخذ من التراب مما جف عنه السيل، وجمد عليه الدم، أو قالوا: إنه [يجبل][٨٥] بالدم في طالع مخصوص، ويقرص أقراصا، ويطبع بطابع متخذ لها، ومنهم من يقول: أن فعله إنما هو لخاصية تلك البقعة، ومنهم من يقول: للطالع المخصوص، ومنهم من يقول: بل لشيء أفيض عليه في الهيئة الاجتماعية.

وهذا الطين المختوم المجلوب الآن هو على نوعين: [نوع](٨٦) أبيض، ونوع أحمر، فأما الأبيض فمنه أغبر، ومنهم شديد البياض، وأما الأحمر فمنه وردي، ومنه يشوبه سواد كأنه لون المغرا(٨٧) وطوابعه مختلفة، وهذا الاختلاف مما أوقف الأطباء عن الجزم به، إنه هو هو، ولأنهم (٨٨) لم يجدوا فيه كل ما ذكرت القدماء في أوصافه.

وقال لي الرئيس أمين الدين سليمان بن داود(٨٩) المتطبب رحمه الله وقد رأيته منه: هذا ما هو الطين المختوم، والطين المختوم عمل على عهد جالينوس، وكان مقدارا ليس بالكثير، ثم لم يعمل بعده، وغطى البحر على تلك الجزيرة، والناس منذ عمل تستعمل منه، ولهذا زمان طويل، ولو كان [١٩٢] بقدر ما عمل أضعافاً مضاعفة، لكان قد فرغ، وإنما هو شيء يشبهه(٩٠)، وليس به، وأكثر ما يحمل الأطباء من هذا الطين المشتبه بلون المغرا، ثم الوردي، فأما الأبيض فما رأيت أحداً منهم يقدمه إذا رآه في وصف، ولا يعبأ به.

فأما جلابته من القسطنطينيه فتذكره، وتصف صفاته الروم، والذي جربت منه، فحمدت من أنواعه(٩١) هو المشبه بالمغرا، وقد ذكرت بهذا المحل الفائدة(٩٢)، ثم نعود إلى الكلام عن القسطنطينية.

قال آقسنقر الرومي وبلبان الجنوي وعلي بن بلبان الحلبي، قالوا كلهم، وقال غيرهم: إن القسطنطينية علي جزء من البحر، يدخل منه ماء إلي الميناء في جانب القسطنطينية ويدخل سورها (٩٣) والتجار والسفارة من سائر الأقطار من المسلمين والنصارى وغيرهم يأتي إليها وينزل بها، ويبيع ويشترى، فيها، ولا حرج عليهم، ولا تضييق(٩٤).

والمسلمون فيها على جانب إعزاز وإكرام، فيها سكان من المسلمين، يسكنونها إلى اليوم، لا يمسهم، ولله الحمد، ذل ولا هوان، ولهم مساجد(٩٥)، وأئمة تصلى بهم الجماعة، فتظاهر فيها بشعائر الإسلام. وللملك اهتمام بكف الأذية عنهم؛ وإذا شكى المسلم إليه على أحد من النصارى، ولو إنه من عظماء البطارقة(٩٦) اشكاه، وانصفه منه، ولا اضطهاد، ولا ضيم في جميع مملكة هذا الملك عليهم، ولو تغيرت الملوك، واختلفت الاحوال، لا يقدر الملك على تغير حاله في هذا، ولا مخالفة لمن تقدمه فيه، لأنها عادة تدين بها ملوكهم، وسارت بها في ملوك النصرانية سيرهم، فلو عدل ملك عنها، لمنعه البطريرك، ووآخذه به، وآخذه بالرجوع إلى عادة أسلافه، واشتد في منعه، فإن رجع، وإلا كان السبب لتحريمه، فإن رجع [وإلا](٩٧) كان السبب لخلعه.

والروم أسخى من جميع الطوائف النصرانية، واسمك في الكرماء نفوساً، وأمسك ناموساً، ومع هذا فما فيهم من يداني العرب في كرم، ولا يقاربهم في جود، والشح غريزة في طباع النصارى، لا ينفق إلا فيما [١٩٣] يتنعم به،

فينفقه فى اللهو والطرب، والنخوة فيهم قليلة. وهذه جملة ما ذكروه من أخبارهم، وفهم من كلامهم.

ومما أقوله أن أول دليل على عظم القسطنطينية، وما لها من الحدود غزوة هارون الرشيد إياها سنة خمس وستين ومائة، كان أبوه المهدى قد وجهه إليها، وهو إذ ذاك ولى عهد أبيه المهدى، فخرج يوم السبت لأحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم، وضم إليه المهدى الربيع مولاه، فتوغل هارون الرشيد فى بلاد الروم، فأفتتح ماجدة(٩٨) ولقيته خيول [نقيطاً](٩٩) قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد، فأرجل يزيد، ثم سقط نقيطاً، فضربه يزيد حتى اثخنه، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على [عسكرهم](١٠٠).

وسار هارون بمن معه فى مائة ألف من المرتزقة، وتبعهم مثلهم من المطوعة، وحملوا لهم من العين مائة ألف ألف دينار، وثلاثة وسبعين ألف ألف، وأربعمائة وخمسين دينارا، ومن الورق(١٠١) مائة ألف ألف واحدى وعشرين ألف ألف، وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم.

وسار هارون الرشيد حتى قطع خليج القسطنطينية(١٠٢) وصاحب الروم يومئذ [أغسطه امرأة اليون](١٠٣) وذلك أن ابنها كان صغيرا، وقد هلك أبوه(١٠٤) وهو فى حجرها، فجرت بينها وبين الرشيد السفراء فى طلب الصلح والموادعة، وإعطاء الفدية، فقبل ذلك منها هارون الرشيد، وشرط عليها الوفاء بما أعطت، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه(١٠٥) وذلك أنه دخل مدخلا ضيقا مخوفا على المسلمين.

قال أبو جعفر الطبرى: سار هارون فى خمسة وتسعين ألفا وسبعمائة وثلاثة وسبعين رجلا من المرتزقة سوى المطموعة، ثم ذكر مثل هذا، وقال: إنه جرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء فى طلب الصلح، فشرط عليها الوفاء، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه، فأجابته [إلى ماسأل](١٠٦)، والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها [تسعون أو](١٠٧) سبعون ألف دينار، تؤديها فى نيسان الأول(١٠٨) [١٩٤] فى كل سنة، [ومثله](١٠٩) فى حزيزان(١١٠)، وقبل ذلك منها، وأقامت [له](١١١) الأسواق فى منصرفه، ووجهت معه [رسلا](١١٢) إلى المهدى بما [بعثت له وبما](١١٣) بذلت، على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين [وسلمت الأسارى](١١٤).

وكان الذى أفاء الله على هارون إلى أن اذعنت له الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعون رأسا، وعشرون ألف دابة من الدواب الذلل، وذبح من [البقر](١١٥) والغنم و[المعز](١١٦) مائة ألف رأس، وقتل من

الروم فى الوقائع أربعة وخمسون ألفا ، وقتل من الأسارى جبرا ألفان وتسعون أسيرا، وبيع البزدون بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، وعشرون سيفا بدرهم.

فقال مروان بن أبى حفصة(١١٧) يمدح الرشيد:

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا
إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى اتتك ملوكها
بجزيتها والحرب تغلى قدورها(١١٨)
وجزت إليهم مالح البحر لم تبل به
ووفود الموج دان سيرها
وأخرجت منها خزائن قيصر ألوف
قناطير عظيم يسيرها
فبورك هارون الندى ابن محمد
ودام على الأعداء منه مسيرها
لقد جرد المهدى منه مهندا
يعض به يوم اللقاء صدروها
على سمته سر النبوة لائح ومن
وجهه الوضاح أشرق نورها
لقد أصلح الرحمن أمة أحمد
لمسعاها حتى استقامت أمورها
أئمة عدل حيث حلت بلادها
وكل سرير للملوك سريرها

وقد ذكر الطبرى هذه الواقعة[١١٩] فى أحداث هذه السنة(١٢٠) بهذه المقاصد.

وقد الحقت هذا الفصل بشىء مما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه[١٢١] فى ترجمة أبى محمد البطال[١٢٢].

قال عبدالله بن يحيى الانطاكى كان ينزل انطاكية.

قال: وكان ممن خرج مع مسلمة بن عبدالملك بن مروان إلى بلاد الروم، قال: لما أراد عبدالملك [بن مروان بن الحكم][١٢٣] أن يوجه مسلمة [ابنه][١٢٤] إلى بلاد الروم قال: قد أمرت [١٩٥] عليكم مسلمة بن عبدالملك، قال: وولى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال، [وأقبل على مسلمة فقال: سير على طلائعك البطال][١٢٥]، وأمره فليعس بالليل العسكر، فإنه ثقة، أمين، شجاع، مقدام، فخرج مسلمة، وخرج عبدالملك [يشيعه][١٢٦] [حتى بلغ][١٢٧] إلى باب دمشق.

وذكر الحافظ بسنده عن الوليد بن مسلمة قال: حدثني بعض شيوخنا أن مسلمة بن عبدالملك عقد للبطال على عشرة آلاف من المسلمين، فجعلهم سيارة ما بين عسكر المسلمين وما يليهم من حصون الروم، ومن يتخوفون اعتراضه في سير المسلمين وعلافاتهم، ويخرج المسلمون يتعلفون فيما بينهم وبين العسكر، فيصبون ويخطئون، فيأمن بهم العساكر، [تلك العلافات](١٢٨).

وقال الوليد بن مسلم: حدثني أبو مروان الأنطاكي عن البطال أنه قال: سألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري فيهم، فقلت: خرجت في سرية ليلا [وخرجنا](١٢٩) إلى قرية، وقلت لأصحابي: أرخوا لجم خيولكم، ولا تحركوا أحد بقتل، ولا سبي حتى [تشحنوا القرية](١٣٠). فإنهم في نومة. قال: ففعلوا، وافترقوا في أزقتها، ودفعت في ناس من أصحابي إلى بيت يزهر سراجه، وامرأة تسكت ابنها من بكائه وهي تقول: لتسكتن، أو لادفعنك إلى البطال [يذهب بك](١٣١)، ثم انتشلته من سريره وقالت: أمسك يابطال، فأخذته.

وقال الوليد حدثني أبو مروان(١٣٢) إنه سمعه يحدث، قال: خرجت ذات يوم متوحدا على فرسي، لاصيب غفلة متسمطا(١٣٣) مخلاة، فيها عليق فرسي، ومنديل فيه خبز، وشواء، فبينما أنا أسير، إذ مررت ببستان فيه بقل طيب، فنزلت، فعلقت على فرسي، وأصبت من ذلك الشواء ببقل البستان، إذ اسهلني بطني، فاختلفت [مرارا](١٣٤) متواريا، فاشفقت من دوامه، [وضعفي عن الركوب](١٣٥)، فبادرت وركبت، ولزمت طريقا، واستفرغني على سرجي كراهية أن أنزل، فأضعف عن الركوب حتى لزمت عنق فرسي، خوفا أن أسقط عنه(١٣٦)، وذهب بي ولا أدرى أين يذهب بي، إذ سمعت وقع حوافره على بلاط، ففتحت [١٩٦] عيني فإذا دير، فوقف بي في وسط الدير، وإذا نسوة يتطلعن من أبواب الدير، فلما رأين حالي، وضعفي عن النزول فأتتني جارية صاحية منهن، حتى وقفت على ونظرت في جهي، ورطنت لهن، فنزعن ثيابي، وغسلن ما بي، ودعت بثياب فالبستنيها، وترياق أو دواء، فشربته، ثم أمرت بي، فجعلت على سرير لها ودثار، وأمرت بطعام فهيء لي، فأتت به.

وأقمت يومي وتلك الليلة [مسبوتا](١٣٧) لا أدرى ما أنا فيه، ومكثت يومين وليلتين حتى ذهب عني السبات، وأنا ضعيف عن الركوب فلما كان اليوم الثالث جاءها من يخبرها أن فلانا البطريق قد أقبل في موكبه، فأمرت بفرسي، فغيب، وأغلق عليَّ باب بيتي الذى أنا فيه، ثم أنزلت البطريق [منزلا، واحتفت به وبأصحابه] (١٣٨)، وكان قد جاء خطابا لها، فبينما هو على ذلك [الحالة](١٣٩) إذ جاءه من يخبره عن موضع فرسي، وإغلاقهم علي، فهم أن يهجم علي، فأقسمت إن هو تعرضني لا نال حاجته، فأمسك وأقام قائلة ذلك

اليوم، ثم تروح، وخرجت فدعوت بفرسي، فخرجت إلى فقالت: إني لا آمن أن يكمن لك، دعه يذهب، فأبيت عليها، وركبت فقفوت آثره حتى لحقته وشددت عليه فانفرج عنه أصحابه فقتلته، وطلبت أصحابه، فهربوا عني، وأخذت فرسه، وسمطت رأسه، ورجعت إلي الدير، فالقيت الرأس، ودعوتها ومن معها من نسائها، وخدمها، فوقفت بين يدى، وأمرتها بالرحلة ومن معها على دواب الدير، وسرت بهن إلى العسكر، حتى دفعت بهن إلى الوالى، فجعل نفلى منهن، فتنفلت المرأة بعينها، وسلمت سائر الغنيمة فى المقسم، واتخذتها فهى [أم بنى](١٤٠).

قال أبو مروان، وكان أبوها بطريقا من بطارقة الروم، له شرف، يهاديه ويكارمه ويكاتبه.

وقال الوليد: سمعت عبدالله بن راشد الخزاعى يخبر عمن سمعه من البطال، يخبر أن هشاما أو غيره من خلفاء بنى أمية كان قد [١٩٧] استعمله على ثغر المصيصة (١٤١) وما يليها، وإنه راث(١٤٢) عليه خبر الروم، فوجه سرية لتأتيه بالخبر [عن غير أذن من الوالى، قال البطال:](١٤٣) فتوجهوا، وأجلتهم أجلا، فاستوعبوا الأجل(١٤٤).

قال: فاشفقت من مصيبتهم، ولائمة الخليفة [وضعف أميرهم](١٤٥) فخرجت متوحدا حتى أوغلت فى الناحية، التى أمرتهم بها، فلم أجد لهم خبرا، فعرفت أنهم أخبروا بغفلة أهل الناحية الأخرى، فتوجهوا إليها، وكرهت أن أرجع، ولم استنقذهم مما هم فيه، وإن كان عدو يكاثرهم، وأعرف من خبرهم ما أسكن إليه، لم أجد أحدا يخبرنى بشىء، فمضيت حتى أقف على باب عمورية(١٤٦) فضربت بابها وقلت للبواب: أفتح لفلان - سياف الملك(١٤٧) ورسوله - وكنت أشبه به، فاعلم ذلك، صاحب عمورية، فأمره بفتح الباب، ففعل، وأدخلنى، فلما صرت إلى بلاطها وقفت وأمرت من يشتد بين يدى إلى باب بطريقها ففعل، ووافيت باب البطريق قد فتح وجلس لى، ونزلت عن فرسى، وأنا متلثم بعمامتى، فأذن لى، ومضيت حتى [جلست إلى جانبه](١٤٨)، فرحب بى، فقلت له: أخرج من هنا لكلام حملت إليك، فأخرجهم، وغلق الباب(١٤٩)، وعاد إلى مجلسه فاخترطت سيفي، وضربت [به](١٥٠) على رأسه، ثم قلت له: قد وقعت بهذا الموضع، فاعطنى عهدا حتى أكلمك بما أريد، ثم ارجع من حيث جئت، ولا يتبعنى منك خلاف، ففعل.

فقلت: أنا البطال، فأصدقنى عما أسألك عنه، وانصحنى وإلا [اتيت](١٥١) عليك، فقال: سل عما بدا لك، فقلت: السرية! فقال: نعم وافت البلاد غارة لا تدفع أهلها يد لامس، فوغلوا فى البلاد، وملأوا أيديهم غنائم، وهذا آخر خبر جاءنى، إنهم بوادى كذا [كذا وقد صدقتك، وليس عندى من خبرهم غير

هذا](١٥٢)، فغمدت سيفى، وقلت: ادع لى بطعام، فدعا، فأصبت منه، ثم قمت، فقال لمن حوله: كونوا معه حتى يخرج، ففعلوا، ثم قصدت السرية حتى أتيتها(١٥٣)، وخرجت بها وبما غنمت، فهذا من أعجب ما كان منى.

ثم قتل رحمه الله شهيدا فى غزاة غزاها، وقتل معه خلق كثير من المسلمين(١٥٤)، وفيها يقول الشاعر[١٩٨]:

ألم يبلغك من أنباء جيش
بأقرن غودروا جثثا رماما
تقودهم حتوف لم يطيقوا
لها دفعا هناك ولا خصاما
معارك لم تقم فيها بشجو
نوائح يلتدمن به التداما(١٥٥)
ولم تهمل على البطال عين
هناك بعبرة تشفى الهياما(١٥٦)
عشية باشر الأهوال صبرا
بخيل تخرق الجيش اللهاما(١٥٧)
إذا ما خيله حملت عليهم
تداعـوا مـن مخـــافته انهـــزاما
فلا تبعد هنالك من شهيد
فإنك [كنت](١٥٨) للهيجا حساما(١٥٩)

الهوامش

أولا هوامش المقدمة

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، باعتناء محمد يوسف نجم، فيسبادن ١٩٨٢م، ص٢٥٢– ٢٧٨؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م، ص١٥٧–١٦٠؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م، ج١، ص٣٥٢–٣٥٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٦١–٢٦٦؛ الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، بدون تاريخ، ج٦، ص١٦٠.

(٢) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، ق١، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤١٠–٤١٥؛ محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، القاهرة ١٩٦٩م، ص٦٨–٧٥؛ ابن فضل الله العمري، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» القسم الخاص بمملكة اليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٥–٢٩، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٥م، ص٣٠–٣٦؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين بيروت، ١٩٨٨م، ص٣–٩؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث (ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز)، تحقيق محمد عبدالقادر الشاذلي، أبو ظبي، ٢٠٠٣م، مقدمة التحقيق، ص٥–١٣؛ حسن محمد عبدالله النابوده، «شهاب الدين ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ – ١٣٤٩م) دراسة تحليلية للجزء الرابع والعشرين في مسالك الأبصار «بحث منشور في مجلة وقائع تاريخية، يصدرها مركز البحوث والدراسات التاريخية، آداب القاهرة، عدد يوليو ٢٠٠٤م، ص٥–١٥؛ عبدالرحمن أمين صادق، القاضي شهاب الدين العمري، طنطا ١٩٩٤م.

(٣) ذكر الحافظ الذهبي أن مولده سنة سبع وتسعين وستمائة، وقد أورد ذلك ابن تغري بردي في ترجمته له في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، ص٢٦٢، إلا أنه يميل إلى التاريخ المثبت في المتن. انظر أيضا: عبدالرحمن أمين صادق، القاضي شهاب الدين العمري، ص١٥–١٦.

(٤) الصفدي، الوافي، ج٨، ص٢٥٤–٢٥٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٥٢؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ص٢٦٢–٢٦٤؛ كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ق١، ص٤١٠؛ عبدالرحمن أمين، القاضي شهاب الدين العمري، ص٤٣–٤٧.

(٥) هو عبدالرحيم البيساني رئيس ديوان الإنشاء للناصر صلاح الدين الأيوبي ووزيره كذلك. ولمزيد من التفاصيل انظر: سوسن محمد نصر، القاضي الفاضل وصلاح الدين والوحدة الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠م.

(٦) الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٥٣.

(٧) الصفدي، الوافي، ج٨، ص٢٥٤؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٣٥٣–٣٥٤؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ص٢٦٤–٢٦٥؛ كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ق١، ص٤١٠؛ عبدالرحمن أمين، القاضي شهاب الدين العمري، ص٧١–٧٦.

(٨) الوافي، ج٨، ص٢٥٥؛ وانظر أيضا الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص١٦٠.

(٩) المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٥.
(١٠) عن مصنفات العمري، انظر: الصفدي، الوافي، ج٨، ص٢٥٥؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص١٦٠؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج١، ص٣٥٤؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ص٢٦٥؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٣٤-٢٣٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ممالك مصر والشام والحجاز، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص٣٣-٣٦؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ص٧-٨؛ العمري، مسالك الأبصار، ممالك الشرق، تحقيق أحمد عبدالقادر الشاذلي، ص٧-٨؛ عبدالرحمن أمين صادق، القاضي شهاب الدين العمري، ص٦٢.
(١١) نشره أحمد عبدالقادر الشاذلي تحت عنوان «ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز»، جامعة الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.
(١٢) انظر النص فيما يلي:
(١٣) العمري، مسالك الأبصار، ممالك مصر والشام والحجاز، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص١٢.
(١٤) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ق١، ص٤١٣؛ العمري، مسالك، تحقيق أمين فؤاد، ص١٢؛ العمري، مسالك الأبصار، ممالك الشرق الإسلامي، تحقيق أحمد عبدالقادر الشاذلي، المقدمة، ص١٠-١١.
(١٥) انظر ترجمته في ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، تحقيق نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٤٣٠-٤٣١، ترجمة ٧٠٥.
(١٦) ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ص٤٣١.
(١٧) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ق١، ص٤١٤؛ محمد عبدالله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨م، ص١٦٥.
(١٨) أنظر مايلي في التحقيق ص
(١٩) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٤٢١، ترجمة رقم ١٠١٣.
(٢٠) وظيفة أمير آخور من الوظائف العسكرية، ومهمته خطيرة في السلم والحرب، فعليه أن يكون متأهبا دائما لسفر السلطان أو انتقاله في ليل أو نهار، وأن يعد موكبه حسب ما جرت العادة، وعليه توفير الخيول والجمال للبلاط السلطاني مع تجهيزها وأعلافها، ويقوم بتسمينها، كما أن عليه أن يعني بقماش الاصطبلات السلطانية كذلك، لمزيد من التفاصيل، انظر: خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٣٧-١٣٩؛ محمد محمد أمين، «آخور» مقال منشور بموسوعة تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ج٣، لندن، بدون تاريخ، ص٦٦٤.
(٢١) شاد العمائر، يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على العمائر السلطانية مما يختار السلطان إنشاءه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار، وصاحبها أمير عشرة، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢؛ محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤م، ص١٩٥؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار، ج٢، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٦١٦-٦١٨.
(٢٢) هي مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف، ويطلق على صاحبها أيضا أمير أربعين، وسمي أمير طبلخاناه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين، لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد قنديل البقلي، التعريف، ص٤٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٤١٤.

(٢٣) انظر التحقيق فيما يلي ص
(٢٤) انظر التحقيق فيما يلي ص
(٢٥) انظر مايلي ص
(٢٦) ج٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، بدون تاريخ، صفحات ١٥٢-١٥٣.
(٢٧) ج٣٣، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٠١-٤٠٨.
(٢٨) هو رئيس الأطباء بدمشق، وكان حاذقا، ماهرا، عارفا، مشهورا، عاش نحو سبعين سنة، ومات في سنة ٧٣٢هـ. انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٤٦؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، ص٢٢٨؛ وانظر أيضا: أحمد عيسى، معجم الأطباء، مصر، ١٩٤٢م، ص٢٠٧-٢١١.
(٢٩) انظر مايلي في التحقيق ص ،ص

ثانيا: هوامش التحقيق

(١) يقصد عصر المؤلف أي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.
(٢) جاءت اصطنبول من تسمية البيزنطيين للمدينة «استن بول» أي مدينة الملك أو دار الملك، وقد أكد هذه التسمية عدد من الجغرافيين والرحالة المسلمين أمثال ياقوت الحموي وأبو الفدا، وأبو طالب الدمشقي وغيرهم، فقد أطلق هؤلاء على مدينة القسطنطينية اسم استنبول أو اصطنبول. فذكر ياقوت «أن القسطنطينية واسمها اصطنبول هي دار ملك الروم»، وذكر أبو الفدا «أن القسطنطينية هي اصطنبول». أما الدمشقي فذكر «أن الروم تسميها اصطنبول». انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٤، ص٣٤٧؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٣٢؛ أبو طالب الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص٢٥٩؛ وانظر أيضا: ليلى عبدالجواد، «القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين»، بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد ٣، يناير ١٩٨٩م، ص١٦٠-١٦١.
(٣) ببرطانية هكذا جاءت في الأصل (أ)، المثبت في المتن هو الأقرب إلى الصواب، وهو ما جاء في نسخة (ب) ورقة ٦٣ أ. ويقصد بها هنا بيزنطة، تلك المستوطنة اليونانية القديمة، التي تنسب إلى القائد بيزاس Byzas، واختارها قسطنطين العظيم ليشيد عليها عاصمته الجديدة التي سميت باسمه فعرفت بالقسطنطينية وقد شرع في بنائها عام ٣٢٤م، وافتتحها في عام ٣٣٠م، لمزيد من التفاصيل انظر: حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٣١-٣٢؛ بريس، «القسطنطينية في عصر جستنيان» مقال منشور في موسوعة تاريخ العالم، م٤، ص٣١٣؛
Janin, "Constantinople", dans Dict. d'Histoire et Geographie Ecclesiastiques, T. 13, pp. 626-627.
(٤) يقصد عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.
(٥) إشارة إلى سيطرة الامبراطورية البيزنطية على العالم المسيحي كله شرقه وغربه وذلك قبل عصر المؤلف، وقبل قيام الامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب.
(٦) لقب قيصر يعني نائب الامبراطور وولي عهده، ومن المعروف أن الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥)م هو الذي أوجد هذا اللقب، حينما قسم الامبراطورية إلى قسمين أحدهما شرقي والآخر غربي وجعل على كل قسم امبراطور وقيصر، والقيصر يحل محل الامبراطور في حالة غيابه أو استعفائه أو عزله أو وفاته، وكان القيصر يتوج، ولكن لم يكن على تاجه صليب. لمزيد من التفاصيل عن لقب القيصر الذي صار علامة على أباطرة الدولة البيزنطية انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١م، ص٩٠-٩١.
(٧) من المعروف أن الإسكندر الأكبر تقلد عرش مقدونيا خليفة لأبيه الملك فيليب، ونجح الإسكندر في إقامة امبراطورية عظيمة، وتوفي في يونيو عام ٣٢٣ق.م. ونظرا لأن قاعدة الإسكندر كانت

مقدونيا بآسيا الصغرى، وكانت الأخيرة ضمن أراضي الدولة البيزنطية. فقد دفع ذلك بلبان الجنوي إلى أن يذكر أن بها تخت الإسكندر أي عاصمته مقدونيا.

(٨) الإشارة هنا إلى طبيعة الحكم في الدولة البيزنطية فقد كان في شكل أسرات تداولت العرش بداية من أسرة الامبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧م) أول أسرة حكمت الامبراطورية البيزنطية وخطت ميلادها.

(٩) يقصد بالفرنج هنا الصليبيين الذين هاجموا القسطنطينية في عام ١٢٠٤م واسقطوها من خلال أحداث الحملة الصليبية الرابعة. لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، انظر: روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٤م، ص٣٣ – ١٥٤؛ من مذكرات فلها دوران، فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشي، جدة، ١٩٨٢م، ص٤٣، وما يليها.

(١٠) بعد أن نجح الصليبيون في إسقاط العاصمة البيزنطية والاستيلاء عليها في عام ١٢٠٤م، أقاموا بها امبراطورية لاتينية ظلت تحكمها حتى عام ١٢٦١م. لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبدالجواد «السياسة الخارجية للمملكة اللاتينية في القسطنطينية ١٢٠٤-١٢٦١م» رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ١٩٨٠م.

(١١) نجح البيزنطيون وعلى رأسهم ميخائيل الثامن باليولوجوس في استرداد عاصمتهم القسطنطينية والقضاء على الوجود الصليبي بها في عام ١٢٦١م، وظلت في أيديهم حتى عصر المؤلف وإلى أن نجح العثمانيون في دخولها عام ١٤٥٣م.

(١٢) نجح المسلمون في عصر هرقل (٦١٠-٦٤١م) في فتح بلاد الشام مدينة بعد أخرى، وخرج منها هرقل مودعا إياها بقولته الشهيرة «سلام عليك ياسوريا، سلام مودع لن يعود إليك أبدا». لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبدالجواد، الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٣٤٥-٣٨٩.

(١٣) لعله يقصد الامبراطور الجالس على عرش القسطنطينية في عهده وهو اندرونيق الثاني باليولوجوس (١٢٨٢-١٣٢٨م) ثم حفيده اندرونيق الثالث (١٣٢٨-١٣٤١م).

(١٤) هكذا في الأصل؛ ولعلها مدونة.

(١٥) عرفت بيزنطة نظام الإقطاع الحربي، وقد أطلق عليه في القرن الحادي عشر اسم (البرونويا Pronoia) ومعناه الهبة الملكية، وكان صاحبها يحصل على مساحة من الأراض أو إقليم، في مقابل أن يتعهد للدولة بتقديم عدد معين من الجند للجيش، مقابل الحصول على حق جباية الموارد المالية في إقليمه، ولم تكن البرونويا وراثية، ولا يستطيع من يحصل عليها أن يتصرف فيها بالبيع وغيره، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى منح وراثية بعد أن حصل أصحابها على إعفاء من الخدمة العسكرية ومن الالتزامات المفروضة عليهم. لمزيد من التفاصيل انظر: عائشة أبو الجدايل، الانصهار والاندماج في الاقطاع الحربي، دراسة مقارنة للاقطاع الحربي في كل من الامبراطورية الرومانية، والدولة البيزنطية، والغرب الأوروبي، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، آداب القاهرة، يوليو ٢٠٠٤م، ص٣٠-٣٢؛ حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٩٦؛

Vasiliev, "On The Question of Byzantine Feudalism", In Byzantion, t.8 Bruxelles (1933) pp. 584-604.

(١٦) الدرهم يرجع أصله إلى الدراخمة اليونانية. انظر: فالتر هينس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠م، ص٩؛ عبدالرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٠.

(١٧) يقصد بالبندقي هنا الدوكة والجمع دوكات وهي العملة المتداولة في البندقية بأمر من الدوج هنري داندولو بداية من عام ١٢٨٣م، وقد اختلفت قيمتها من عصر إلى عصر، وكانت تزن أصلا ٣,٥

جرام من الذهب الخالص، وكانت تتمتع فى كثير من الأحيان بالثبات والاستقرار لمزيد من التفاصيل، انظر: انستاس الكرملى، النقود العربية، ص١١١؛ عزيز سوريا ل عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٩٠، ص١٧٦-١٧٧؛ قدرية توكل السيد، «الدوكات الذهبية البندقية وعلاقتها بالنقود المعاصرة لها في مصر والشام في العصر المملوكي الجركسي»، رسالة دكتوراة غير منشورة، آثار القاهرة ٢٠٠٢، الفصل الأول: ص ٣٦-٥٤ .

(١٨) ترسم عبارات بلبان الجنوى صورة صادقة للحالة الاقتصادية السيئة التى أمست عليها الامبراطورية البيزنطية في ذلك الحين فقد واجه الامبراطور اندرونيق الثانى اقتصادا منهارا، أدى إلى انخفاض قيمة العملة البيزنطية انخفاضا واضحا، إذ وصلت إلى نصف قيمتها، مما ترتب عليه ارتفاع الأسعار، ونقص فى الطعام وقد حاول الامبراطور اتخاذ كافة الوسائل من أجل حل هذه الأزمة المالية، لمزيد من التفاصيل انظر:

Charanis, "Economic Factors in the Decline of the Byzantine Empire" In Journal of Economic History, Vol. 13, 1953, pp.419-422.

ناهد عمر صالح، «السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الامبراطور اندرونيق الثانى باليولوجوس (١٢٨٢-١٣٢٨م)»، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٢-٤٣.

(١٩) بربر يقصد بها العملة البيزنطية المعروفة باسم الهيبربرة Hyperpere، وكانت فى عصر العمرى أى فى القرن الرابع عشر الميلادى تساوى ٢٤قيراطا، منها ١١ قيراط من الذهب الخالص، و٦من الفضة، و٧ من النحاس، ومن ثم فقد صارت مغشوشة، لمزيد من التفاصيل انظر:

Bratianu,"l'Hyperpere Byzantin et La Monnaie d'or des Republiques Italiennes au XIII Siécle", Dans Mélanges Charles Diehl, Vol. I, Paris, 1930, pp. 37-48.

(٢٠) يقصد بالأمرة الأمراء قادة الجيش، ويمثلون فى الدولة البيزنطية الطبقة العسكرية الاستقراطية، وتتمثل فى العائلات النبيلة الارستقراطية الكبيرة، وقد استطاع أبناء هذه الطبقة تكوين ثروات ضخمة فى منطقة الثغور التى تولوا حمايتها وقيادتها، ومنهم من تولى مناصب فى الحكومة المركزية بالعاصمة، وقد اعطى هذا الوضع مكانة اجتماعية متميزة لعائلات هذه الطبقة، التى أخذت تنمو بدورها يوما بعد يوم، ومن أمثلة هذه العائلات: عائلة فوقاس، ودوقاس، وتزميسكيس وغيرهم، لمزيد من التفاصيل، انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص١٨٤-١٩٣؛ وسام عبدالعزيز فرج، «أضواء على مجتمع القسطنطينية - دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي»، بحث منشور في كتاب دراسات فى التاريخ الاجتماعي والاقتصادى فى العصور الوسطى، إسكندرية، ١٩٨٥م، ص١٤-١٦.

(٢١) لا توجد فى الأصل (أ)، وتوجد فى النسخة (ب) انظر ورقة ٦٤ب.

(٢٢) يقصد بها كنيسة آيا صوفيا، ويقصد بها فى اللغة اليونانية الثالوث المقدس، وهى مستديرة البناء، وبها قباب دائرة حولها محمولة على أعمدة ضخمة رائعة جدا، والقبة الرئيسية بها محمولة على أربعة أكتاف ضخمة ترتفع عن مستوى سطح الأرض بحوالى ستين مترا، لمزيد من التفاصيل حول وصف هذه الكنيسة، انظر:روبرت كلارى فتح القسطنطينية، ص١٢٧-١٢٨؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٢٨-١٢٩، ابن بطوطة، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبنانى، بدون تاريخ، ص٢٣٤، ٣٥١-٣٥٣؛

Van Millingen, A Byzantine Churches in Constantinople, London, 1912,pp. 24-26.

(٢٣) تعنى كلمة بطريرك رئيس الأباء، وهو صاحب كرسى بطريركية القسطنطينية، لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبدالجواد، القسطنطينية، ص١١٤-١١٥، ١٣٣-١٣٤.

(٢٤) عدّ ابن بطوطة أبواب كنيسة آيا صوفيا بثلاثة عشر بابا. انظر تحفة النظار، ص٢٣٤.

(٢٥) لم يكن حاكم القسطنطينية ملكا ولا سلطانا كما جاء على لسان بلبان بل كان امبراطورا كما هو معروف.

(٢٦) يتمثل الزي الرسمي للامبراطور البيزنطي في العباءة الأرجوانية الموشاة بالذهب، التي تغطي ملبسه في معظم المناسبات، ويضع عليها الوشاح الذي يحمل شعار الامبراطورية، وعلى رأسه التاج الامبراطوري، ويرتدي خفا أحمر. أما ولي عهده فمن حقه أن يرتدي فردتي حذاء أحدهما حمراء والأخرى سوداء. انظر ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٢٠، ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١٠٩.

(٢٧) الأقبية التترية لباس خارجي للرجال، مفتوح حول الرقبة فتحة مستديرة، يطوى تحت الإبط بصورة منحرفة. وكان للقباء التتري كمران يلفان الصدر من اليسار إلى اليمين. انظر دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد ١٩٧١م، ص٢٨٤-٢٩١؛ ماير الملابس المملوكية ترجمة صالح الشيتي القاهرة ١٩٧٢م، ص٤٠-٤٢.

(٢٨) الكنابيش مفردها كنبوش، وهى غطاء للرأس كما هو واضح فى المتن، والكنبوش بفتح الكاف هو أيضا اللثام الذي يغطي الوجه والذقن حتى الخيشوم اتقاء للبرودة، انظر: محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٢٨٩؛ دوزي، المعجم، ص٣١٤-٣١٥.

(٢٩) المناطق مفردها منطقة وهى حزام يشد على الوسط، ويعبر عنها «بالحياصة» ويستخدمه العسكريون، وصفها العمرى بأنها ثقال لأنها كانت تصنع من الذهب أو من الفضة أو من الحديد أو أي معدن وليس من القماش. أنظر: ماير، الملابس، ص٤٧-٤٩؛ دوزي، المعجم، ص٣٤٠؛ محمد قنديل، التعريف، ص٣٣٣.

(٣٠) المغربيات فى نسخة (ب)، ورقة ٦٤ب.

(٣١) تعددت أشكال السيوف مابين السيف المستقيم المصنوع من الحديد وله حد من الصلب وبين السيف المقوس الطرف أو الحد وغيرها. أنظر: ماير، الملابس، ص٧٨-٧٩.

(٣٢) حدد العمرى بذلك خامات الملابس الشتوية التي استخدمها البيزنطيون فى صناعة ملابسهم ممثلة في الجوخ والصوف، وخامات الملابس الصيفية ممثلة فى الحرير بكل أنواعه ومن المعروف أن الروم ولعوا بلبس الحرير، ولعبت تجارته دورا مؤثر فى حياتهم.

(٣٣) لعله يقصد بأن للملك دارين هما القصر الامبراطوري البلاشيران والهيدروم «الملعب» أو ميدان السباق وقد اتضح ذلك من العبارات التي أوردها العمري فالوصف ينطبق بما لا يدع مجالا للشك على ميدان السباق أو الملعب ولا عجب فى ذلك فقد كان القصر الامبراطورى متصل بميدان السباق وكثيرا ما كان الامبراطور يخرج إليه، ولم يكن الملعب مجرد مكان للاستعراضات بل كان محور الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة القسطنطينية، عقدت به الاجتماعات لمناقشة كافة الأمور الاجتماعية والدينية والسياسية. عن ميدان السباق انظر:

Vogt, "l'Hippodrome de Constantinople", dans Byzantion (1935). p472; Elersolt, Constantinople, pp. 19-20; Van Millingen, Byzantine Constantinople, p. 13.

ليلى عبدالجواد، القسطنطينية، العدد الرابع من المؤرخ المصري، ص١٢٠-١٢٤.

وتجدر الإشارة إلي أن القسطنطينية كان بها قصران هما قصر البوكليون (فم الأسد) ويقع علي شاطئ البحر مواجها الشرق وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية شيدت بأيدي أباطرة مختلفين، وظل مقرا للأمبراطور حتي عصر آل كومنين الذين هجروه، وفضلوا الإقامة في القصر الثاني وهو قصر البلاشيران، وعن الأخير أنظر هامش ٣٦.

(٣٤) لم تكن هذه الدار . إذا ما سلمنا أن المقصود بها ميدان السباق من بناء الإسكندر بل وضع أساسه الامبراطور سبتميوس سفيروس (١٩٣-٢١١م) وعندما شيد قسطنطين عاصمته القسطنطينية ، أمر ببناء ميدان السباق في وسطها . انظر ليلى عبدالجواد ، القسطنطينية ، ص١٢٠ .

(٣٥) مما يؤكد أن هذا الوصف ينطبق على ميدان السباق ما ذكره كل من الإدريسي وروبرت كلارى ، فذكر الإدريسي «ويمشي منه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعات منها على صورة الآدميين وصور الخيل والسباع التى سوى ذلك مما يقر له الصانعون بالعجز . وهى أشكال أكبر من الأشكال المخلوقة . أما روبرت كلارى فيذكر «وعلى طول الساحة المكشوفة حائط . . عليه تهاويل رجال ونساء وجياد وثيران وجمال ودببة وأسود وشتى أنواع الحيوانات الأخرى ، وكلها مصنوعة من النحاس الأحمر ، وقد أبدعتها يد مبدع صانع فلا يفرقها الناظر عن نظائرها الحية . . » . لمزيد من التفاصيل انظر : الإدريسي ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، روما ، ١٩٧٧م ، ص٨٠٢ ؛ روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص١٣٠ ، ليلى عبدالجواد ، القسطنطينية ، ص ١٢١-١٢٢ .

(٣٦) يقصد بها القصر الكبير المعروف باسم (البلاشيران) الواقع على بحر مرمرة عند الركن الجنوبى الشرقى للمدينة ، ويضم قاعات ضخمة وغرف فسيحة وأفنية ، وكنيسة كبيرة وأجنحة للرجال والنساء ، وخزائن وثكنات للجند وغيرها من الملحقات ، بالإضافة إلى المقصورة الضخمة التى تمكن الامبراطور من مشاهدة كل مايجرى فى ميدان السباق من مسابقات وعروض وغيرها . لمزيد من التفاصيل عن القصر الامبراطورى انظر :

Ebersolt. J, Le Garnd Palais d Contantinople et des Ceremoies, Paris, 110, pp. 1-13, 19-20, Janin, Contantinople, p,120-121, 124.

روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص١٢٤-١٢٦ ؛ وليم الصورى ، الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشى ، ج٤ ، ص١٤١-١٤٤ ؛ رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص٢٢٦-٢٢٧ ؛ ليلى عبدالجواد ، القسطنطينية ص١٣١-١٣٣ ، وعن الوصف الداخلى للقصر ، انظر : ليلى عبدالجواد ، القسطنطينية ، العدد الرابع من المؤرخ المصرى ، ص١١٥-١١٩ .

(٣٧) القبجاق بفتح القاف وسكون الباء الموحد وفتح الجيم والألف بعدها قاف ، هم جنس من الترك وهم أهل حل وترحال على عادة البدو ، يتصفون بالوفاء والشجاعة مع تمام القامة ، وحسن الصورة ، وطرافة الشمائل ، استقروا فى حوض نهر الفولجا الأدنى ، وفى الصحراء المعروفة باسم (الدشت) التى تمتد غربا حتى نهر الفولجا والبحر الأسود وشمالا إلى جنوب روسيا ولذلك سميت باسم (صحراء القفجاق أو دشت القبجاق) . لمزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٥٦-٤٥٨ ؛ بهيرة محمد غلاب ، «مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القبجاق . من ٦٣٥-٧٣٦هـ/ ١٢٤٦-١٣٣٥م» ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، طنطا ٢٠٠٠م ، ص٣٢ ومايليها ؛ ليلى عبدالجواد ، الإسلام والمسلمون فى حوض الفولجا ، القاهرة ، ٢٠٠٦م ، ص٩١ ومايليها .

(٣٨) تولى ازبك عرش دولة مغول القبجاق أو مغول القبيلة الذهبية خلال الفترة (٧١٢-٧٤٢هـ/ ١٣١٣-١٣٤٢م) انظر ترجمته فى ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٣٧٦-٣٧٧ ؛ وانظر أيضا ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ص٣٣١-٣٣٣ .

(٣٩) بعد أن نجح ازبك فى التغلب على أباطرة الدولة البيزنطية وفرض عليهم أتاوة إذ به يسعى لمصالحتهم خاصة بعد أن ظهر على السطح خطر هدد بيزنطة ومغول القبجاق ألا وهو خطر الأتراك العثمانيين ، الذين نجحوا فى إقامة دولة لهم فى بداية القرن ٨هـ/ ١٤م فى آسيا الصغرى ، وتزوج أزبك منهم وأمنهم ، وقد صور العمرى هذا فى كتابه التعريف فذكر تحت عنوان «ملك الروم صاحب

القسطنطينية» «كان الملك ازبك قد كاد يبتز تاجه ويعقم نتاجه. فاحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال، وصحب أيامه على مضض الاحتمال وكانت له عليه قطيعة مقررة وجملة مال مقدرة»، ص٧٦. وكذلك ذكر القلقشندى أن القان ازبك.. تحرر عليه إتاوة تحمل إليه فى كل سنة ليكف عنه» صبح الأعشى، ج٥ ص٤٠٢؛ أما ابن بطوطة فذكر «أن ازبك قاهر أعداء الله أهل القسطنطينية العظمى، مجتهد فى جهادهم». تحفة النظار، ص٢٢٠.

(٤٠) أي غير بلبان الجنوى.

(٤١) هكذا فى الأصل (أ)، وفى النسخة (ب) وأن هان.

(٤٢) الجنك: آله موسيقية وهى من ذوات الأوتار أقرب إلى الرباب وعنه انظر: أبو طالب النحوى اللغوى، كتاب الملاهى وأسمائها من قبل الموسيقى، تحقيق غطاس عبدالملك خشبة، القاهرة ١٩٨٥م، ص٣٨، هامش١؛ نبيل عبدالعزيز، الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٢٦–١٢٨.

(٤٣) عن العود، انظر: أبو طالب النحوى، كتاب الملاهى، ص٤٩؛ نبيل عبدالعزيز، الطرب وآلاته، ص١١، ١٤، ١٢١–١٢٦.

(٤٤) إضافة من نسخة (ب) ورقة ٦٤أ.

(٤٥) ملبقات مادتها لبق ومنها تلبيق الثريد بالسمن إذ كثر ادمه، والثريد الملبق هو الشديد التثريد الملتن بالدسم. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة لبق، ص٣٩٨٨.

(٤٦) إضافة من نسخة (ب) ورقة ٦٤أ.

(٤٧) الدمى هى السهام التى تكرر الرمى بها، والمدمى السهم الذى تعاوره الرماة بينهم، والأبيض هو السيف والجمع بيض. انظر ابن منظور، لسان العرب مادة دمى، ص١٤٣٠، ومادة بيض، ٤٠٠.

(٤٨) العجاج: الدخان، وعجج البيت دخانا أى ملاءه، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة عجج، ص٢٨١٣.

(٤٩) شنيب: من شنب وهى ماء ورقة تجرى على الثغر. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة شنب، ص٢٣٣٦.

(٥٠) الغبوق: خمر المساء والاصطباح خمر الصباح ويسمى الصبوح.

(٥١) إشارة إلى فقدان الروم سيادتهم البحرية وذلك فى عصر المؤلف وإهمال الأسطول بعد أن كانوا سادة البحر المتوسط الذى عرف باسم (بحر الروم) نسبة إليهم.

(٥٢) لهم فى نسخة (ب) ورقة ٦٤أ.

(٥٣) لعله يقصد بها الأحذية، وليس السفن.

(٥٤) عن وصف هذا النهر، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٧٧؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٣٣.

(٥٥) تحدث الشيخ حيدر العريان الرومى عن الأسعار فى القسطنطينية وأكد ما ذكره بلبان الجنوى فيقول: «وأما أسعارها فهى رخيصة للغاية لقلة المكوس، وكثرة المراعى، واتساع التجارة واكتناف البحر لها من كل جانب، بحيث يحمل إليها على ظهره كل شىء مما لا يوجد فيها». انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٥٧.

(٥٦) كان مايسمى بالرطل الرومى فى العصور الوسطى يساوى ٧٢ مثقالا = ستة أسباع و١٠٢درهما أى يزن مايقرب من ٤٢٨، ٣٢١ جراما. أما الرطل القسطنطينى فكان يساوى فى القرن ١٨م، ٨٧٦ درهما أى كان يزن ٢,٨ك.جرام باعتبار الدرهم = ٣,٢٠٧ جرام. انظر: فالتر هينس المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلى، ص٣٥.

(٥٧) الرطل المصرى كان يزن ١٤٠ درهما=٥,٤٣٧ جراما خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، ثم ظهر الرطل زنة ١٤٤ درهما = ٤٥٠ جراما في مصر. لمزيد من التفاصيل، انظر: فالتر هينس، المكاييل، ص٣١-٣٢، وذكر بلبان الجنوى أن الرطل القسطنطيني كان نظير الرطل المصرى أي أنه كان في عصره متساويا للمصري أي أنه كان يزن مايقرب من ٤٥٠جراما.

(٥٨) لمدني هو كيل الطعام، وكان في الأناضول في العصور الوسطى عدد وفير من مكاييل المد، وذكر بلبان مقداره وهو مايساوي اردبين ونصف بالمصري، والأردب المصرى كان يبلغ ٥,٦٩ك. جرام قمح. لمزيد من التفاصيل انظر: فالتر هينس، المكاييل، ص ٧٦.

(٥٩) الأرغل أو الأرغن من صنع اليونانيين، وعليه ستة عشر وتراً، وله صوت بعيد المذهب. انظر أبو طالب النحوي، كتاب الملاهي، ص ٣٩؛ نبيل عبد العزيز، الطرب وآلاته، ص ١٠؛ وقد أورد العمري وصفاً تفصيلاً له على لسان أحد المتخصصين في الضرب به كما جاء في المتن.

(٦٠) تجدر الإشارة إلى أن القانون آلة من آلات الطرب، ذات أوتار تحرك بالكستبان، وهي من اختراع الفارابى «القرن ٦ هـ/ ١٢م»، وكان بارعاً في العزف عليها.

(٦١) ذكر المقريزي في حوادث عام ٧٤٧هـ. أنه قدم في الأيام الناصرية محمد ابن قلاوون، تاجر فرنجي بهدية إلى ملكتمر الحجازي، فأعجبته مصر، وأسلم، وعرف بأقسنقر الرومى، وأنعم عليه السلطان الناصر محمد بأمرة عشرة، ومازال بمصر إلى أيام شعبان الكامل، فتقرب إليه آقسنقر الرومى بعمل الفلك والشعبذة، واختص به. انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك،ج٢،ق٣، طبعة القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٧١٦، وما ذكره المقريزي يتفق مع ما أورده العمرى في المتن. وعن ملكتمر الحجازي، انظر ابن تغرى بردي، المنهل الصافي، ج١١، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٦٩-٢٧١.

(٦٢) إضافة ليستقيم السياق.

(٦٣) الكنود مفردها كند أو قومص «comes» وهو الكونت وهو الأمير، معناه الأصلي في اللاتينية «الرفيق» لأنه كان في بادىء الأمر، يرافق الملك في حروبه وتنقلاته، ثم سمى بالأمير. انظر ابن شداد، النوادر السلطانية، تحقيق جمال الدين الشيال، ص٧٧، حاشية ١.

(٦٤) يقصد بها كنيسة آيا صوفيا.

(٦٥) كان يطلق على مصر قديماً فيما عدا الصعيد الأعلى اسم مقدونية، وقد أكد ذلك ابن خردانبة إذ يذكر «كانت مصر دار الفراعنة واسمها مقدونية». انظر: المسالك والممالك، ص١٥.

(٦٦) قضية اعتناق قسطنطين المسيحية لا تزال مسار جدل، فالبعض يرى أن قسطنطين مات على وثنيته، والبعض يذكر أنه عمد على فراش الموت، وليس هناك رأى قاطع حول هذه القضية، أما مذبح كنيسة آيا صوفيا فهو مذبح ثمين لا يقدر بمال، لأن مائدته كانت من الذهب والأحجار الكريمة، وبلغ طول هذه المائدة أربعة عشر قدماً. انظر: روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ص ١٢٧.

(٦٧) إضافة من نسخة (ب)، ورقة٦٤ب.

(٦٨) هو الصليب الذي يزعمون أن السيد المسيح صلب عليه، وكانوا قد غلفوه بالذهب، وكللوه بالدر والجوهر، ويقال أن القديسة هيلانة والدة الأمبراطور قسطنطين العظيم اكتشفته أثناء زيارتها لمدينة بيت المقدس، ولكن لم يذكر أحد من المؤرخين المعاصرين شيئاً عن هذا، ويرجح البعض أنها توفيت قبل اكتشافه. لمزيد من التفاصيل انظر: اسحاق عبيد، «قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع»، بحث منشور في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٧ لسنة ١٩٧٠م، ص٥-٢١.

(٦٩) طليطلة إحدى مدن إسبانيا. وعنها انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، بيروت، ١٩٨٤م، ص٣٩-٤٠.

(٧٠) يقصد بهم الصليبيين، وهم صليبو الحملة الصليبية الثالثة.

(٧١) قصد بالعبيديين الفاطميين، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المسلمين نجحوا أثناء معركة حطين «٥٨٣هـ/ ١١٨٧م» في أخذ صليب الصلبوت من الصليبيين، وكان ذلك من أعظم المصائب عندهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٣٥- ٥٣٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٩٠-١٩١؛ وانظر ايضاً فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ص١٢٧.

(٧٢) هذه العبارة إضافة من نسخة «ب»، ورقة ٦٥أ.

(٧٣) يقصد بها مصر.

(٧٤) ممن في نسخة «ب»، ورقة ٦٥أ.

(٧٥) الصابئة هم عبدة النجوم، أما الكلدانيون فهم ينسبون إلى قبيلة كلداني، وعنهم انظر: سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج١١، ص٤٦٩.

(٧٦) إضافة من نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥أ.

(٧٧) بطاركتهم مفردها بطريرك وهو رأس الكنيسة، وقسوسهم مفردها قس وهو يلي الأسقف في السلم الكنسي.

(٧٨) لا توجد في نسخة «ب» ورقة ٦٥أ.

(٧٩) الخضر هو العبد الصالح الذي التقى به سيدنا موسى وصاحبه، ليتعلم منه كما ورد في سورة الكهف، الآيات من ٦٠-٦٥ وسمي بالخضر لأنه جلس على حشيش يابس، فإذا به يخضر من تحته.

(٨٠) الإسكندر ذو القرنين عربي اسمه الصعب بن ذي مراثه بن الحارث.. بن وائل بن حمير بن سبأ.. ابن قحطان وهو من ملوك حمير: ولفظة ذو عربية، وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن، لذلك يخطأ من يظن أن المقصود به هو الأسكندر الأكبر بن فيليب المقدوني.

(٨١) الدوين في الأصل «أ» والتصحيح من نسخة «ب» ورقة ٦٥أ.

(٨٢) هو الطين المجلوب أيام جالينوس من جزيرة لميون، ويسميه البعض خواتيم لمنية بسبب الطابع الذي تطبعه في ذلك الموضع المرأة الموكلة بالهيكل المنسوب إلى أرطاميس، والموجود هناك، وكانت هذه المرأة تأخذ تراباً من أرض هذه الجزيرة، بعد أن تنحر عليه القرابين، ثم تأتي به إلى المدينة، وتبله بالماء وتجعله طيناً، ولا تزال تضربه ضرباً شديداً، ثم تتركه حتى يسكن ويرسب، ثم تأخذ ما هو سمين لزج، ثم تجففه حتى يسير كالشمع اللين، ثم تأخذ منه قطعاً صغيرة فتختمها بالخاتم المنقوش عليه صورة أرطاميس، وتجفف تلك الخواتيم في الظل حتي يذهب عنها الندي، ثم تصبح هذه الخواتيم دواء يعرفه جميع الأطباء ويسمونه بالخواتيم اللمنية، وهي خواتيم بحيرة لميون. انظر ابن البيطار، الجامع لمفردات الأودية والأغذية، ج٣، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٠٦.

(٨٣) عن جالينوس قال ابن أبي أصيبعه: «هو خاتم الأطباء الكبار المعلمين، لا يدانيه أحد في صناعة الطب.. صنف فيه كتباً، كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة، وأفصح عن حقائقها، ونصر القول الحق فيها..». لمزيد من التفاصيل انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٠٨، ١٠٩، ١٣٢.

(٨٤) يقول في نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥ب.

(٨٥) يجلب في نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥ب.

(٨٦) إضافة من نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥ب.

(٨٧) المغرا طين أحمر يصبغ به. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة مغر، ص ٤٢٤٠.

(٨٨) لأنه فى الأصل «أ»، والمثبت بالمتن عن نسخة «ب»، ورقة ٦٥ب.

(٨٩) هو رئيس الأطباء بدمشق، وكان حاذقاً، ماهراً، عارفاً، مشهوراً، عاش نحو سبعين سنة، ومات فى عام ٧٣٢هـ. انظر ترجمته فى ابن حجر، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص٢٤٦؛ ابن حبيب، تذكره النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، ص٢٢٨، وانظر أيضاً: أحمد عيسى، معجم الأطباء، مصر، ١٩٤٢م، ص٢٠٧-٢١١.

(٩٠) شبيهه فى نسخة «ب»، ورقة ٦٦ ب.

(٩١) قسم ابن البيطار الطين المختوم فى جزيرة لميون إلى ثلاثة أنواع، أحداها الصنف الذى لمتولى أمر هيكل أرطاميس لا يقربه أحد سوى تلك المرأة، والصنف الثانى مغرة وهى التى يستعملها النجارون خاصة فى ضرب الخيوط على الخشب، والصنف الثالث تراب أرض ذلك التل الذى فى لميون، وهو تل أحمر اللون كله، وليس فيه شجر ولا نبات ولا حجارة، وهو تراب يجلو، ويستعمله كثير ممن يغسل الكتان والثياب. انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص١٠٦ .

(٩٢) عن فوائد الطين المختوم ومنافعه واستعمالاته، انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأودية، ج٣، ص١٠٧-١٠٨.

(٩٣) تحتل القسطنطينية موقعاً جغرافياً ممتازاً فهى تطل على البحر من ثلاث جهات هى الشمال والشرق والجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة وهى جهة الغرب، فتطل من الشرق والشمال على مضيق البوسفور، الذى يحيط بها فيكون فى الشمال أشبه بالمنجل أو قرن غزال لذلك يعرف بأسم القرن الذهبى، وبه ميناء محصن بسلسلة موضوعة فى مدخله لحماية المدينة من هجوم أى أسطول معاد. لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١٦٢-١٦٦.

(٩٤) عن حركة التجارة فى أسواق القسطنطينية انظر: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، العدد الرابع من المؤرخ المصرى، ص١٠٩-١١٣.

(٩٥) لجأت الدولتان البيزنطية والإسلامية إلى اتباع سياسة دينية، تستهدف تحقيق أهدافهما السياسية، وأوضح دليل على ذلك سماح الإمبراطورية البيزنطية بإنشاء مسجد للمسلمين فى عاصمتها القسطنطينية وذلك منذ أن قام مسلمة بن عبد الملك بحصارها فى عام ٧١٧- ٧١٨م، وظلت شعائر الإسلام تؤدى فى هذا المسجد حتى عصر المؤلف وبعده، وظل المسلمون يعيشون معززين مكرمين فى القسطنطينية، يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية تامة، وهذا ما أكده النص. لمزيد من التفاصيل عن جامع القسطنطينية انظر: محمد نجيب الوسيمى «جامع القسطنطينية الأول ودوره السياسى»، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، م٦٠، إبريل ٢٠٠٠م، ص٣٩-٧٣.

(٩٦) البطارقة مفردها بطريق وهى رتبة شرفية تمنح لذوى المكانة الاجتماعية المتميزة، أنشأها قسطنطين العظيم، وجعلها ذات نطاق محدود، ولم يلبث عدد البطارقة أن تزايد، وأعطى عدد منهم الأسبقية انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز، توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١م، ص٩٢، وانظر أيضاً:

Oxford Dectionary Byzantium, Vol.3.P.1600

(٩٧) وأن فى الأصل «أ» والمثبت فى المتن من نسخة «ب» ورقة٦٥ب.

(٩٨) عن ماجدة يذكر المسعودى إنه مما يلى الثغور الشامية مطمورة تعرف بماجدة، تقع على نحو عشرين ميلاً من قلعة لؤلؤة. انظر: التنبيه والإشراف، ليدن، ١٩٦٧م، ص١٧٨.

(٩٩) بقطيا في نسخة الأصل «أ» و «ب» والتصحيح من الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ج٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٥٢، والقومس هو الأمير.
(١٠٠) عسكره في الأصل «أ»، ونسخة «ب»، انظر ورقة ٦٦ أ، والمثبت في المتن من رواية الطبرى، ج٨، ص ١٥٢.
(١٠١) يقصد بالورق هنا الصكوك التي يكتبها المدين للدائن. انظر: المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ص٦٤٠، حاشية ٦. وقارن هذه الرواية مع ما جاء فى ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، ص ٦٥٠.
(١٠٢) يقصد به «مضيق البوسفور» الذى تطل عليه القسطنطينية من ناحيتى الشرق والشمال، وقد أفاض الجغرافيون المسلمون فى الحديث عنه وعن حدوده وطوله وعرضه. لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، العدد الثالث من مجلة المؤرخ المصرى، ص ١٦٣-١٦٥.
(١٠٣) عسطة امرأت النون هكذا فى الأصل «أ»، ونسخة «ب»، والتصحيح من الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢، ويقصد بها الأمبراطورة إيرين «إيرينى» زوجة ليو الرابع، وكانت قد تولت الوصاية على ابنها قسطنطين السادس «٧٨٠- ٧٩٧م» الذى تولى العرش خليفة لأبيه وهو فى العاشرة من عمره. لمزيد من التفاصيل عنها، انظر: عليه عبد السميع الجنزورى، الإمبراطورة إيرين، القاهرة ١٩٨١م؛ وانظر أيضاً: حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٢٢.
(١٠٤) يقصد به ليو الرابع الخزرى «٧٧٥- ٧٨٠م».
(١٠٥) كان من شروط الصلح فتح الأسواق أمام التجار المسلمين فى بيزنطة، وأن تمد إيرين جيش هارون الرشيد بالأدلاء أثناء عودته.
(١٠٦) إضافة من الطبرى، انظر تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢.
(١٠٧) إضافة من رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص ١٥٢.
(١٠٨) نيسان الأول هو الشهر السابع من شهور السنة السريانية، ويقابله شهر إبريل وهو الشهر الرابع من الشهور الميلادية، انظر المعجم الوجيز، ص ٦٤١.
(١٠٩) لا توجد فى راوية الطبرى.
(١١٠) حزيران هو الشهر التاسع من الشهور السريانية، ويقابله شهر يونيه من الشهور الميلادية، المعجم الوجيز، ص ١٤٨.
(١١١) إضافة من الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢.
(١١٢) رسولا فى رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢.
(١١٣) لا توجد هذه العبارة فى رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٣.
(١١٤) هذه العبارة إضافة من رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص ١٥٣.
(١١٥) إضافة من الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص ١٥٣.
(١١٦) لا توجد فى رواية الطبرى.
(١١٧) ولد مروان ابن أبى حفصة عام ١٠٥ هـ، ونشأ فى اليمامة حيث استقرت أسرته، وكان جواداً مقداماً، وبطلاً مغواراً، ولاه المنصور اليمن ثم سجستان، ولما ولى المهدى بعد أبيه المنصور مدحه هو وولده الرشيد، وتوفى فى عام ١٨٢ هـ. لمزيد من التفاصيل، انظر: شوقى ضيف، تاريخ الأدب العربى، العصر العباسى الأول، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٢٩٨ - ٣٠١.
(١١٨) لم تحتو رواية الطبرى سوى على البيتين الأول والثانى فقط دون باقى الأبيات.
(١١٩) انظر الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٥٢ - ١٥٣.

(١٢٠) وهي سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م.
(١٢١) هو أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بأبن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ)، وتاريخه يعرف بتاريخ مدينة دمشق، وتم الاعتماد على الطبعة التى قام بدراستها وتحقيقها محب الدين أبى سعيد غرامة العمروي، بيروت، ١٩٩٦م، ج٣٣، ص٤٠١-٤٠٨.
(١٢٢) نال البطال شهرة واسعة في قتال الروم، وكان مضرباً للشجاعة والإقدام، ونموذجاً شعبياً يحتذى به في قتال الروم، ولقب بالبطال لأنه كان لفرط شجاعته يبطل حركة خصمه. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: أحمد عبد اللطيف حنفي، «عبد الله البطال، صفحة مشرقة للجهاد الإسلامي الأموي ضد البيزنطيين (٨٦-١٢٢هـ/ ٧٠٥ - ٧٤٠م)» بحث منشور في مجلة كلية الآداب، حلوان، العدد ٩، ١٠ لسنة ٢٠٠١م، ص ٣٣٢ - ٣٣٨؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ج١، البيزنطيون والمسلمون، ص ١١٧.
(١٢٣) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص ٤٠١.
(١٢٤) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص ٤٠١.
(١٢٥) العبارة بين القوسين ساقطة من نسخة الأصل (أ) وموجودة في نسخة (ب)، انظر ورقة ٦٦ب؛ وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص ٤٣٤.
(١٢٦) يشيعنا في ابن عساكر، ج٣٣، ص ٤٠١، ويشيعهم في ابن كثير، البداية، م٥، ص٤٣٤.
(١٢٧) العبارة بين المعقوفتين إضافة من نسخة (ب) ورقة ٦٧ب، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠١.
(١٢٨) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٢، ولا توجد في نسخة (أ) ولا (ب).
(١٢٩) ودفعنا في ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص ٤٠٢.
(١٣٠) [تستمكنوا من القرية] عند ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص٤٣٤.
(١٣١) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٢؛ وانظر أيضاً ابن كثير، البداية، م٥، ص ٤٣٤.
(١٣٢) انظر تفاصيل هذه الرواية في ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٢ - ٤٠٣؛ ابن كثير، البداية، م٥، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.
(١٣٣) متسمطاً من سمط أى علق.
(١٣٤) إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٣٥) جاءت هذه العبارة في ابن عساكر على النحو التالي: «وضعفي عن ما يجيء على من الركوب»، انظر تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٣٦) راجع ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣. إذ نقل العمرى عنه هنا بتصريف.
(١٣٧) إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣ وتعني مغشياً عليه.
(١٣٨) العبارة بين الحاصرين إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٣٩) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٤٠) فهي إمرأتي، انظر ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣، ويلاحظ أن هذه الزيجة، وطدت أواصر الصداقة بين البطال وبين حميه، فصار يكاتبه ويهاديه كما اتضح من المتن، ويبدو أن البطال لم يتزوج بغير هذه الفتاة، حيث أنجب منها كل أولاده وهم: محمد ويحيى والحسين وغيرهم، لمزيد من التفاصيل انظر أحمد عبد اللطيف حنفي، عبد الله البطال، ص٣٥٩.

(١٤١) المصيصة من أهم الثغور الشامية، التى تقع فى الجنوب الغربى قريباً من ساحل الاسكندرونة، وكانت هذه الثغور خط دفاعي أقامه هارون الرشيد على الحدود مع البيزنطيين.

(١٤٢) راث أى أبطأ.

(١٤٣) العبارة بين الحاصرتين إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٤٤) انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

(١٤٥) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٤٦) مدينة عمورية أشهر مدن ثغر الأناتوليك «الأناضول» أو ثغر الشرق فى وسط آسيا الصغرى، كما أنها أهم مدينة فى إقليم فريجيا، أنظر حسنين ربيع، دراسات، ص١٤٣ - ١٤٤، وعن محاولة البطال اقتحامها عام ٨٩ هـ/ ٧٠٨م انظر أحمد عبد اللطيف، عبد الله البطال، ص ٣٤٠ - ٣٤٢.

(١٤٧) يقصد بالملك هنا الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى «٧٠٥ - ٧١١م»، وقد اقنع البطال حراس البوابة الرئيسية، بأنه مبعوث من قبله، جاء للقاء حاكم المدينة فى أمر شخصى. انظر أحمد عبد اللطيف، عبد الله البطال، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(١٤٨) العبارة بين الحاصرتين جاءت على النحو التالي فى ابن عساكر: جلست على مثال «أى فراش» إلى جانب مثاله، انظر: ج٣٣، ص ٤٠٤.

(١٤٩) راجع ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥٠) إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥١) أجزت عند ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥٢) العبارة بين الحاصرتين إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥٣) راجع ابن عساكر، تاريخ دمشق ج٣٣، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(١٥٤) استشهد البطال فى معركة ربض أقرن «١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م» وتعرف كذلك باسم «أكروينون» وقرة حصار، بالقرب من عمورية، وفى هذه المعركة استطاع الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى «٧١٧ - ٧٤٠م» وابنه قسطنطين الخامس أن ينزلا بالمسلمين هزيمة شنعاء، أجبرتهم على إخلاء الجزء الغربى من آسيا الصغرى تماماً، والتقهقر شرقاً. لمزيد من التفاصيل، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص ٤٣٦ - ٤٣٧؛ وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، اسكندرية ١٩٨١م، ص٢٢٦ - ٢٢٧. وديع فتحي عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى، اسكندرية ١٩٩٠م، ص١١٤ - ١١٨، حسنين ربيع، دراسات، ص١٠٦ - ١٠٧؛ أحمد عبد اللطيف، عبدالله البطال، ص ٣٦٤-٣٦٩.

(١٥٥) التدام النساء، ضربهن صدورهن ووجوهن فى النياحة.

(١٥٦) الهيام: أشد العطش.

(١٥٧) اللهام: الجيش الكثير كأنه يلتهم كل شيء.

(١٥٨) سقطت من الأصل (أ)، وردت فى نسخة (ب) ورقة ٧٦ ب، وفى ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٧.

(١٥٩) يلاحظ أن العمرى انتقى بعض الأبيات دون البعض الأخر، وقد أورد ابن عساكر الأبيات كلها، انظر: ج٣٣، ص٤٠٦ - ٤٠٧.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية والمعربة:

■ ابن أبى أصيبعة:
- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، بيروت، ١٩٨٧م.
■ ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):
- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، بدون تاريخ.
■ ابن البيطار (ضياء الدين أبى محمد بن عبدالله الأندلسى المالقى العشاب):
- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، القاهرة، بدون تاريخ.
■ ابن تغرى بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م):
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء من ٦-١٠ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة بدون تاريخ.
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٣، تحقيق نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٨٦م.
■ ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):
- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج١-٣، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٧٦-١٩٨٦م.
■ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ت ٨٢٥هـ/ ١٤٤٨م):
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٦م.
■ ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله ت حوالى ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):
- المسالك والممالك ويليه نبذ من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، ليدن، بريل، ١٨٨٩م.
■ ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر ت٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)
- الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٩٦٧م.
■ ابن شاكر الكتبى (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م.
■ ابن شداد (بهاء الدين بن شداد ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م):
- سيرة صلاح الدين أو النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م.
■ ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م):
- تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق محب الدين أبى سعيد غرامة، ج٣٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

■ ابن العماد الحنبلي (أبو الفرج عبدالحى ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج٥، بيروت، بدون تاريخ.
■ ابن كثير (الحافظ الدمشقى ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):
- البداية والنهاية، م٥، تحقيق عبدالعزيز النجار، القاهرة، ١٩٩٢م.
■ أبو طالب الدمشقى (شمس الدين بن أبى عبدالله ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م):
- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ليبزج ١٩٢٣م.
■ أبو الفدا (عماد الدين بن إسماعيل بن محمد ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):
- تقويم البلدان، صححه رينود وماك كوكين ديسلاف، باريس، ١٨٤٠م.
■ خليل بن شاهين (غرس الدين خليل ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨م):
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م.
■ الصفدئ (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م):
- الوافي بالوفيات، ج٨، اعتناء محمد يوسف نجم، فيسبادن ١٩٢٨م.
■ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ / ٩٩٢م):
- تاريخ الطبرى أو تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، بيروت، بدون تاريخ.
■ العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م):
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٨ معارف عامة، رقم الميكروفيلم ٢٠٧٤٣ .
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار إصدار فؤاد سزكين، السفر الثالث، معهد العلوم العربية الإسلامية، ألمانيا الاتحادية، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، الجزء الخاص بمملكة اليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥م.
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، السفر الثالث، ممالك الشرق الإسلامى والترك ومصر والشام والحجاز، تحقيق محمد عبدالقادر الشاذلى، أبو ظبى، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣م.
- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٨٨م.
■ القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م):
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج ٤، ٥، القاهرة، ١٩١٥م.
■ كلارى «روبرت»:
- فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٤م.

■ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م):
– السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦ - ١٩٥٨م.
■ النحوى (أبو طالب المفضل بن سلمة ت ٣٩٠ هـ / ٩٩٩م):
– كتاب الملاهى وأسمائها من قبل الموسيقى، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة، ١٩٨٥م.
■ وليم فلهاردوان:
– فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشى، جدة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م.
■ ياقوت الحموى (ابن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م):
– معجم البلدان، م ٤، ٥، بيروت، ١٩٨٤م.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

– أحمد عبد اللطيف حنفى، «عبد الله البطال، صفحة مشرقة للجهاد الإسلامى الأموى ضد البيزنطيين (٨٦ - ١٢٢ هـ / ٧٠٥ - ٧٤٠م)» بحث منشور فى مجلة كلية الآداب - جامعة حلوان، العدد ٩، ١٠ سنة ٢٠٠١م.
– أحمد عيسى، معجم الأطباء، مصر، ١٩٤٢م.
– حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار، ج٢، القاهرة، ١٩٦٦م.
– حسن محمد عبد الله النابودة، «شهاب الدين ابن فضل الله العمرى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م) دراسة تحليلية للجزء الرابع والعشرين من مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»، بحث منشور فى مجلة وقائع تاريخية، عدد يوليو ٢٠٠٤م، ص٥ -٢١.
– حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٩٥م.
– دوزى، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١م.
– رنسيمان «استفن»، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١م.
– سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.
– شوقى ضيف، تاريخ الأدب العربى، العصر العباسى الأول، القاهرة، ١٩٦٦م.
– طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجى، ج١، البيزنطيون والمسلمون، القاهرة، ٢٠٠٣م.
– عائشة أبو الجدائل، الأنصهار والاندماج فى الإقطاع الحربى، دراسة مقارنة،

حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الحولية، الثالثة، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م.
– عبد الرحمن أمين صادق أبو راس، القاضي شهاب الدين العمرى، رائد كتاب المصطلح الشريف، طنطا، ١٩٩٤م.
– عبد الرحمن فهمي، النقود العربية، ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٤م.
– فالتر هينس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة كامل العسلى، عمان، ١٩٧٠م.
– كراتشوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جزءان، القاهرة، ١٩٥٧م.
– ليلى عبد الجواد إسماعيل،
الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م.
«القسطنطينية فى ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين»، بحث منشور فى مجلة المؤرخ المصرى، العددان ٣، ٤ سنة ١٩٨٩م.
« السياسة الخارجية للإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية» رسالة ماجستير غير منشورة»، آداب القاهرة، ١٩٨٠م.
تاريخ الإسلام والمسلمون في حوض الفولجا، القاهرة ٢٠٠٦م.
- ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، القاهرة، ١٩٧٢م.
- محمد عبد الله عنان،
مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى، القاهرة، ١٩٦٩م.
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤م.
- محمد محمد أمين على، «آخور - آخورية»، مقال منشور بموسوعة تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ج٣، لندن، بدون تاريخ.
- ناهد عمر صالح، «السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد أندرونيقوس الثانى باليولوجوس»، رسالة دكتوراه غير منشورة آداب القاهرة، ١٩٩٩م.
- نبيل محمد عبد العزيز، الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك، القاهرة، ١٩٨٠م.
- وديع فتحى عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- وسام عبد العزيز فرج،
العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن

الثامن الميلادي، اسكندرية، ١٩٨١م.
« أضواء على مجتمع القسطنطينية، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين»، بحث منشور فى كتاب دراسات في التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى، إسكندرية، ١٩٨٥م.

ثالثا: المراجع الأجنبية

- Bratianu, L'Hyperpere Byzantin et la Monnaie d'or des Républiques Italiennes au XIII Siècle , Dans Melanges Charles Diehl, Vol. I, Paris 1930, PP. 37 _ 48.
- Charanis, "Economic Factors in the Decline of The Byzantine Empire" in Journal of Economic History, Vol. 13, 1953.
- Ebersolt. J., Le Grand Palais de Contantinople et Des Céremoies, Paris, 1910.
- Janin, "Constantinople" Dans Dict. d'Histoire et Geographie Ecclesiastiques, T.13, pp. 626 _ 627.
- Vasiliev, "On The Question of Byzantion Fendalism", in By Zantion,, t.8, Bruxells (1933).
- Van Millingen, A Byzantine Churches in Constantinople, London, 1912.
- Voget, "L'Hippodrme de Constantinople" Dans Byzantion (1935).

د. منى سعد محمد الشاعر(*)

إمارة بنو سكمان في خلاط

تأسيس الإمارة:

أسس سكمان القطبي إمارة بني سكمان في خلاط(١) متخذا من مدينة خلاط قاعدة لحكمه؛ وقد كان سكمان أحد المماليك الأتراك لدى قطب الدين إسماعيل الوالي السلجوقي على أذربيجان، لذا نسب إليه وعرف بسكمان القطبي. وتشير بعض المراجع إلى أن سكمان القطبي تولى إمارة خلاط في عام ٤٩٣/ ١٠٩٩م بعد أن استولى عليها من المروانيين الأكراد(٢) أصحاب ديار بكر(٣)؛ ويبدو أن تلك المراجع استندت على ما ورد في ابن الوردي الذي أشار إلى أن أهل خلاط استدعوا سكمان القطبي في عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩م، وسلموا إليه البلد بدلا من المروانيين؛ ويتفق ابن خلدون مع ابن الوردي في استدعاء أهل خلاط لسكمان القطبي للتخلص من حكم المروانيين، لكنه اختلف معه في تحديد الوقت الذي سار فيه سكمان إلى خلاط حيث أشار ابن خلدون إلى أن سكمان سار إلى خلاط في عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨م(٤).

ويتضح من الروايتين وجود تضارب كبير في تاريخ دخول سكمان القطبي خلاط، وقد يرجع هذا التضارب إلى أن كلا من ابن الوردي وابن خلدون لم يعاصرا تلك الأحداث، فضلا عن أنهما أوردا أحداث إمارة بني سكمان في خلاط مجتمعة وملخصة بشكل موجز في أقل من صفحة، إلا أنهما يؤكدان دخول سكمان إلى خلاط وانتهاء حكم المروانيين فيها.

وبعد استقراء المصادر المعاصرة لم يتوفر من خلالها أية إشارات عن كيفية تولي سكمان القطبي الإمارة بخلاط، ومتى تولاها؟ كما لم توضح تلك المصادر أيضا أنه هو الذي استولى عليها من المروانيين، ولكن ما تؤكده المصادر المعاصرة لتلك الأحداث أن السلطان السلجوقي ألب أرسلان قد انتزع خلاط من المروانيين بعد موقعة ملاذ كرد(٥) في عام ٤٦٣هـ

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد، قسم التاريخ، كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر، فرع البنات بالقاهرة

/١٠٧١م وولى عليها واليا من قبله لم يذكر اسمه؛ يضاف إلى ذلك أن حكم المروانيين في ديار بكر- والتي كانت فيها قاعدة ملكهم- تقلص على يد السلاجقة حتى انتهى في عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، على يد القائد السلجوقي جهير[٦]؛ ويؤكد ذلك ابن الأثير في حوادث عام ٤٧٨ هـ /١٠٨٥م فيقول:«وانقرضت دولة بني مروان»[٧]؛ لذا يعتبر ما ذكرته المراجع حول قضاء سكمان القطبي على المروانيين غير دقيق ولم يكن فيه حسن تتبع للأحداث؛ فمن الواضح أن سكمان القطبي تولى حكم خلاط من قبل السلاجقة وليس استيلاءا عليها من بني مروان، كما يتضح من خلال تتبع أخبار خلاط من المصادر المعاصرة أن تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان استولى على حلب والجزيرة وديار بكر وخلاط وأذربيجان في عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، وذلك بعد مقتل قسيم الدولة آقسنقر[٨]، مما يدل على أن خلاط كانت تحت حكمه في تلك الآونة، حيث سار إليها تُتُش وملكها وأعمالها[٩].

ولم يستمر تُتُش طويلا على حكم تلك البلاد، ذلك أن السلطان بركياروق بن السلطان ملكشاه[١٠] لم يرض عما فعله عمه تُتُش وأدرك أنه يطمع في السلطنة، لذلك توجه بركياروق لمحاربته بالري، وتمكن من إنزال الهزيمة به في عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م؛ وبذلك أصبحت خلاط في طاعة السلطان بركياروق السلجوقي يقطعها لمن يشاء[١١]؛ وعلى الرغم من عدم توفر معلومات وافية عن خلاط خلال فترة حكم السلطان بركياروق إلا أن سكمان القطبي يبدو أنه قد تولاها في عهده من قبل مودود بن إسماعيل بن ياقوتي والي أذربيجان وابن خال السلطان بركياروق[١٢].

ويؤكد ذلك أنه عندما حدث صراع بين السلطان بركياروق وأخيه السلطان محمد انضم مودود بن إسماعيل الياقوتي إلى السلطان محمد وبذلك دخلت أذربيجان وخلاط في طاعة السلطان محمد؛ ويشير ابن الأثير في حوادث عام ٤٩٦هـ /١١٠٢م إلى البلدان التي كانت في طاعة السلطان محمد فيقول: «كنجة وبلاد أران[١٣]، وكانت آخر ما تقام فيه الخطبة لمحمد زنجان[١٤] مما يلي أذربيجان» [١٥]

ولما احتدم الصراع مرة أخرى بين بركياروق وأخيه محمد تحالف محمد مع مودود بن إسماعيل صاحب أذربيجان- وكان السلطان محمد زوجا لأخته- واتفقا معا على التصدي للسلطان بركياروق؛ وسار مودود وقواته إلى خدمة السلطان محمد، وكان ضمن قواته سكمان القطبي، مما يؤكد أنه تولى خلاط من قبل والي أذربيجان مودود بن إسماعيل على عهدي السلطان بركياروق وأخيه السلطان محمد السلجوقيين. ويؤكد ابن الأثير وجود قوات سكمان القطبي ضمن

قوات والي أذربيجان مودود بن إسماعيل فيقول:«ولما بلغ بركياروق اجتماع السلطان محمد والملك مودود سار غير متوقف فوصل بعد مودود وكان عسكر مودود قد اجتمعوا على طاعة السلطان محمد وحلفوا له ومنهم سكمان القطبي»[١٦].

وعندما وصل السلطان بركياروق إلى باب خُوَي[١٧] من أذربيجان اشتعلت الحرب بينه وبين أخيه السلطان محمد وحلفائه فدارت الدائرة على قوات السلطان بركياروق وانتهت بهزيمتها، فرّ على أثرها السلطان بركياروق إلى جبل كثير العشب والماء بين مراغة[١٨] وتبريز[١٩] فأقام فيه أياما ثم سار منه إلى زنجان. أما السلطان محمد فقد سار في عام ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣م وبصحبته سكمان القطبي إلى أرجيش من أعمال خلاط «وهي من جملة إقطاع الأمير سكمان القطبي» [٢٠]، ثم سار منها إلى خلاط، وهناك راسله الأمير علي صاحب أرزن الروم[٢١] ليعلن له الولاء والطاعة، فتوجه إليه السلطان وانضم إليه الأمير علي وسار الجميع إلى آني ومنها إلى تبريز ثم إلى أذربيجان، وبذلك أصبحت جميع تلك البلدان في طاعة السلطان محمد(٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م) يخطب فيها باسمه[٢٢]؛ مما يوضح أن خلاط وأعمالها أصبحت في إقطاع الأمير سكمان القطبي، ويخطب فيها للسلطان محمد السلجوقي.

توسع إمارة خلاط على عهد سكمان القطبي:

بعد أن استقرت إمارة سكمان القطبي في خلاط أخذ يتطلع إلى توسيع إمارته ومدها على حساب الجزيرة الفراتية، وذلك لتشمل مملكته الجزيرة وأرمينية، لذا بدأ ينفذ مشروعه؛ ففي عام ٥٠٢ هـ /١١٠٨م خرج سكمان القطبي على رأس حملة من خلاط قاصدا ميافارقين، وعندما وصلها شدد الحصار عليها، وضيق على أهلها، واستمر محاصرا لها سبعة أشهر حتى تمكن من دخولها بعد طول الحصار، وأقام بها فترة ينظم أحوالها بعد ما لاقته المدينة من الشدة، فأسقط الكثير من الضرائب عن كاهل أهلها، كما أنه خفف الخراج عن أراضيها، وسار في الناس سيرة حسنة، وأقام العدل بينهم[٢٣]. وبعد أن تمت سيطرته على ميافارقين بدأ أمراء ديار بكر يراسلونه مقدمين إليه فروض الولاء والطاعة[٢٤]، ولما استقرت أحواله في ميافارقين ولى عليها واليا من قبله وعاد إلى قاعدته في خلاط[٢٥].

ولاشك أن ذلك يوضح السياسة الخارجية التي انتهجها سكمان القطبي، حيث حرص على أن يوسع رقعة إمارته لتشمل ديار بكر وأرمينية، فضلا عن أنها توضح أيضا أنه سار في سياسته الداخلية تجاه الرعية سيرة حسنة، حيث

حرص على إقامة العدل، وتحسين الأحوال الاقتصادية في البلاد التي خضعت لسيطرته فأسقط الضرائب، وخفف الخراج ونظم البلاد.

جهاد سكمان القطبي ضد الصليبيين:

أسهم سكمان القطبي بدور بارز في الجهاد ضد الصليبيين، ففي عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م أسند إليه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي قيادة الحملة ضد الصليبيين؛ ويشير إلى ذلك ابن القلانسي في حوادث ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م فيقول: «كاتب السلطان الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنج»[٢٦]؛ واستجاب سكمان القطبي وصاحب الموصل لنداء السلطان، وأعدا قواتهما وسارا إلى جزيرة نمير حيث انضم إليهما الأمير إلغازي الأرتقي بجمع كبير من التركمان، فضلا عن انضمام عدد كبير من المتطوعة إليهم، واجتمعت تلك القوات تحت قيادة سكمان القطبي وشرف الدين مودود صاحب الموصل. واتفقت أراؤهم على بدء العمليات العسكرية بمهاجمة الرها واستردادها من الصليبيين، فتوجهت تلك القوات إلى الرها في شوال من عام ٥٠٣ هـ/١١٠٩م وشددت الحصار عليها[٢٧].

ويشير متي الرهاوي إلى ضخامة ذلك الجيش فيقول: «وصل مودود بجيش انتشر حول المدينة وغطى بجنوده الجبل والتلال كل الشرق كان مصطفا تحت أعلامه»[٢٨]؛ وعندما رأى بلدوين دي بور أمير الرها الصليبي[٢٩] احتشاد المسلمين وتشديد الحصار على المدينة أرسل يستنجد ببلدوين دي بوايون ملك مملكة بيت المقدس الصليبية[٣٠]، الذي لم يتوجه لنجدته في الحال لانشغاله باحتلال بيروت آنذاك[٣١]. لكنه بعد أن فرغ من احتلالها استطاع الملك بلدوين أن يوحد الصليبيين في جبهة واحدة تحت قيادته حيث انضم إليه كثير من العناصر المسيحية[٣٢]، كما أرسل إلى تانكرد حاكم أنطاكية الصليبي يستدعيه للمشاركة في المعركة ضد المسلمين لرفع الحصار الإسلامي عن الرها، فاستجاب تانكرد إليه، وتوجه على رأس قوة قوامها ألف وخمسمائة فارس للاجتماع برفاقه، ومن ثم توجه الجميع إلى الرها[٣٣].

وعندما وصلت أخبار تجمع حشود القوات الصليبية وعزمها التوجه إلى الرها إلى طغتكين حاكم دمشق أسرع هو الآخر على رأس قوة كبيرة، عبر بها الفرات لنجدة المسلمين على الرها، في حين لم يتمكن الصليبيون من عبور الفرات بسبب انتشار طلائع القوات الإسلامية في كافة المنافذ المؤدية إليه؛ ولإتمام ملاقاة القوتين قرر المسلمون فتح الطريق أمام الصليبيين ليتمكنوا من لقائهم في السهول الممتدة شرقي الفرات، لذلك غادر المسلمون الرها في ذي

الحجة ٥٠٣هـ/١١١٠م، وتقدموا إلى حران[٣٤] التابعة آنذاك للأمير الإرتقي إيلغازي فعسكروا فيها خدعة للصليبيين[٣٥].

أدرك الصليبيون الهدف من وراء تحرك المسلمين إلى حران، كما وصلهم أثناء ذلك أنباء تشير إلى تحرك رضوان بن تُتش صاحب حلب[٣٦] لمهاجمة المواقع التابعة لإنطاكية، وتحرك الفاطميون في مصر لمهاجمة فلسطين، مما وضعهم في مأزق حرج، فرأوا عدم جدوى مواجهة المسلمين، وقرروا الانسحاب من الجهات الواقعة شرقي الفرات وإخلائها من المسيحيين الشرقيين (الأرمن واليعاقبة) ونقلهم إلى الجهات الغربية التابعة للصليبيين، وتحصين مدينة الرها وتقوية الإمكانيات الدفاعية عنها؛ وبدأ الصليبيون بالفعل ينفذون خطة الانسحاب وتم نقل المسيحيين المدنيين إلى الجهات المذكورة[٣٧]، وفي أثناء ذلك أدركتهم طلائع القوات الإسلامية فانقضت عليهم وأنزلت بهم الهزيمة فغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة وقتلوا وأسروا وأغرقوا منهم الكثير، ثم اتجهت القوات الإسلامية مرة ثانية لحصار الرها إلا أن حصانة المدينة واهتمام الصليبيين بتموينها وزيادة تحصينها أعجزت المسلمين عن فتحها لذلك تركوا عليها قوة إسلامية لمراقبتها وعاد كل إلى بلده[٣٨].

مما تجدر الإشارة إليه أن ثمة خلاف وتشاحن قد حدث بين سكمان القطبي وإيلغازي الأرتقي أثناء الحملة التي أسهم فيها كل منهما في جهاد الصليبيين؛ وأخذ هذا التشاحن في الازدياد مما اضطر إيلغازي أن يفر هاربا إلى ماردين خشية من سكمان القطبي، لذلك قبض سكمان القطبي على بلك ابن أخي إيلغازي وحمله معه مقيدا إلى خلاط[٣٩]. ويبدو أن هذا الخلاف هو الذي عجل بإنهاء العمليات العسكرية ضد الصليبيين على الرها وترك الحصار عليها لبعض القوات، وعودة القادة إلى بلادهم.

وعندما رحل المسلمون عن الرها انتهز الصليبيون الفرصة فعبروا الفرات إليها وأمدوها بكل ما يلزم من المؤن والميرة والذخائر وكل ما يحتاجون إليه أثناء الحصار، ثم تركها الصليبيون بعد التحصين والأمداد وتوجهوا إلى حلب للرد على ما قام به الملك رضوان صاحب حلب أثناء انشغالهم في تحصين الرها من استرداد بعض البلدان التي استولى عليها الصليبيون من قبل، لذلك هاجموا أعمال حلب وأعملوا فيها النهب والسلب، وقتلوا الكثير من المسلمين، كما وقع في أسرهم الكثير[٤٠].

واستصرخ الملك رضوان العساكر الإسلامية بسب غزو الصليبيين لأراضيه، فاستجاب السلطان محمد السلجوقي لندائه[٤١]، وأسند إلى الأمير سكمان القطبي صاحب خلاط قيادة الحملة على الصليبيين في عام ٥٠٥هـ/

١١١١م، كما انضم إليه الأمير مودود صاحب الموصل والأميران إيلبكي وزنكي ابنا برسق صاحب همذان والأمير أحمديل الكردي صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب إربل وغيرهم؛ واجتمعت القوات الإسلامية تحت قيادة سكمان القطبي لجهاد الصليبيين[٤٢]. ثم توجهت إلى سنجار شرقي الفرات ففتحت عدة حصون للصليبيين بها بعد أن قتلوا عددا كبيرا منهم، ثم واصلت القوات الإسلامية سيرها إلى الرها، فحاصرتها فترة دون جدوى بسبب إحكام الصليبيين تحصيناتها العسكرية وشحنها بالقوات والمؤن[٤٣].

ولما لم يستطع المسلمون فتح الرها رفعوا الحصار عنها وعبروا الفرات إلى تل باشر في١٩من المحرم ٥٠٥هـ / ١١١١م فحاصروها خمسة وأربعين يوما دون جدوى[٤٤]؛ وفي أثناء الحصار لحق المرض بقائد القوات الإسلامية الأمير سكمان القطبي فأسند القيادة إلى الأمير أحمديل الكردي، فانتهز جوسلين صاحب تل باشر الصليبي الفرصة وتمكن من رشوة القائد أحمديل الذي أمر بانسحاب القوات وفك الحصار عن الحصن رغم معارضة بقية الأمراء ذلك[٤٥]، كما ساعده على ذلك أيضا اشتداد المرض على الأمير سكمان القطبي الأمر الذي جعله لا يستطيع أن يتخذ موقفا ضد القائد أحمديل؛ وتوجهت القوات الإسلامية بعد الانسحاب من تل باشر إلى حلب، فرفض الملك رضوان أن يجتمع بهم؛ وفي أثناء ذلك ازداد المرض على الأمير سكمان القطبي فاضطروا إلى العودة به إلى بالس[٤٦]، فمات بها، ثم حُمل إلى خلاط ودفن بها [٤٧].

ويتشفى متى الرهاوي من سكمان القطبي بعد وفاته على طريقته الخاصة فيعتبر ذلك «عقابا أنزله به السيد المسيح بسبب تخريبه لإقليم الرها والمذابح التي قام بها فيه»[٤٨]، وإن دلت هذه الرواية على شئ فإنما تدل على مدى حنق متى الرهاوي وغيظه بسبب الدور الذي قام به الأمير سكمان القطبي في قيادة الحملة على الصليبيين وجهادهم الأمر الذي أطاح بالكثير من قواتهم.

خلاط على عهد الأمير إبراهيم بن سكمان القطبي(٥٠٥-٥٢١هـ/١١١١-١١٢٧م)

تولى الأمير إبراهيم بن سكمان القطبي إمارة خلاط بعد وفاة أبيه في عام ٥٠٥هـ /١١١١م؛ ولما استقرت أحوال الولاية، سار الأمير إبراهيم إلى ديار بكر بالجزيرة الفراتية لاستطلاع أحوال إقطاعياته فيها، فتوجه أولاً إلى ميافارقين فوصلها في عام ٥٠٦هـ /١١١٢م؛ وعندما دخلها عزل الوالي غُزْعلي الذي ولاه والده الأمير سكمان من قبل عليها، وولى مكانه أبا منصور المعين واليا على ميافارقين، كما ولى في وزارتها السديد أبو سعد الحويلي- أخا أبا منصور المعين؛ أما بقية إقطاعياته في بلاد الجزيرة فولى عليها القاضي فخر الدين بن

عمر: ثم عاد الأمير إبراهيم إلى قاعدته في خلاط بعد أن أطمأن على إقطاعاته في دياربكر بالجزيرة الفراتية، ونظم أحوالها وأقر الأمور فيها لحكمه [٤٩].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخاتون زوجة الأمير سكمان صاحبت أبنها الأمير إبراهيم خلال مسيرته إلى دياربكر لمباشرة إقطاعاته هناك، بل كان لها دور فعّال في إقرار أمور إقطاعاته بتلك المناطق؛ ويؤكد ذلك الفارقي فيقول: «وفي سنة ست وخمسمائة وصلت الخاتون زوجة الأمير سكمان وولده الأمير إبراهيم إلى ميافارقين» [٥٠]؛ ومما يؤكد قيامها أيضا بأعباء الحكم مع ابنها أن القاضي علم الدين أبو الحسن علي بن نباته سار إلى خلاط في عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م «واجتمع بالأمير إبراهيم والخاتون»، وتقرر في هذا الاجتماع تولية القاضي علم الدين قضاء ميافارقين، فعاد بعده إلى ميافارقين وباشر القضاء فيها[٥١].

خروج ميافارقين عن حكم إبراهيم بن سكمان:

على الرغم من محاولات الأمير إبراهيم وأمه الخاتون إقرار الأمور في ميافارقين ومحاولة الاحتفاظ بها تابعة لإمارته إلا أن نائبه بها أبا منصور المعين أظهر الثورة والتمرد والعصيان عليه في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣م؛ ولما علم الأمير إبراهيم بذلك استدعى الوزير السديد أبو سعد الحويلي وقتله في ملاذكرد مما أدى إلى زيادة اشتعال الثورة والتمرد عليه في ميافارقين. وقد حمّل الأمير إبراهيم القاضي ابن نباته مغبة تلك الأحداث، لذلك أمر بعزله عن قضاء ميافارقين وولى مكانه أبا المرجا يحيى بن الضرير[٥٢] في أواخر عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، ولكن لم يوافق الوالي أبو منصور المعين على تولي أبي المرجا قضاء ميافارقين فقبض عليه في رجب عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٤م، ثم قتله في ليلة النصف من شعبان من نفس العام، كما قتل حاجبا عنده يدعى نثار كان تابعا للأمير إبراهيم بن سكمان؛ وولى أبو منصور المعين في القضاء أبا الحسن أحمد بن عمار بن مظفر من أهل بدليس[٥٣]، وأصبح أبو منصور بذلك خارجا عن طاعة الأمير إبراهيم ومتحكما في ميافارقين[٥٤] ، مما يدل على أن تلك الثورة كانت محاولة استقلالية لميافارقين عن حكم بني سكمان أمراء خلاط.

غير أن الثورة في ميافارقين لم تستمر طويلا إذ ما لبث أن أرسل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مملوكه قراجا الساقي إلى ميافارقين في نهاية عام ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، ولما وصل إليها قراجا أعرض عن دخولها متظاهرا أنه عابر فقط، وأنه ينتظر من يلحق به من أصحابه، ولذلك لم يراسل الوالي أبا منصور المعين ولم يكلمه في شيء؛ ولما رأى المعين ذلك كفل له الإقامة والضيافة إلى أن أصبحت الأمور ميسرة أمام قراجا والفرصة مواتية لشن هجوم على ميافارقين،

فانقض عليها بقواته التي كمن بها، وتمكن من البلد وسيطر عليها؛ وبعد ثلاثة أيام من دخول قراجا ميافارقين ضبَط أحوالها وقضى على ثورتها وعزل القاضي أبا الحسن بن عمار بن مظفر عن القضاء وولى مكانه القاضي ابن نباته، غير أن مما يسترعي الانتباه تعيينه الوالي أبا منصور المعين-الذي قاد الثورة ضد حكم بني سكمان- على الوزارة في ميافارقين، بل الأكثر من ذلك سلم إليه كل الأمور في البلد مرة أخرى(٥٥). ولاشك أن ذلك يؤكد أنه كان هناك اتفاق مسبق بين قراجا وأبي منصور المعين من أجل تقليص إمارة بني سكمان في ديار بكر.

بقي قراجا في ميافارقين حتى استدعاه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وعينه على ولاية فارس وشيزر، فسارإليها وبصحبته وزيره أبو منصور المعين الذي وزره أيضا في ولاية فارس وشيزر؛ أما ميافارقين فقد ولى عليها السلطان محمد ملكشاه أحد المماليك ويدعى الرزبيكي الذي سار إليها وتولى مقاليد الحكم فيها عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م(٥٦)؛ مما يوضح أن ميافارقين قد خرجت عن حكم إبراهيم بن سكمان القطبي وأصبحت تابعة مباشرة لحكم السلطان السلجوقي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصادر يندر بها المعلومات الوافية عن فترة حكم إبراهيم بن سكمان لخلاط، ولكن من خلال استقرائها اتضح أن أحوال خلاط وأعمالها كانت مستقرة على عهده خاصة وأنه سار في الرعية سيرة حسنة من إقامة العدل وضبط الأقاليم، وهي نفس السياسة التي أتبعها أبوه من قبل؛ واستمر الأمير إبراهيم على نهج تلك السياسة حتى وفاته في عام ٥٢١هـ/١١٢٧م، أي بعد حوالي ستة عشر عاما من قيامه على حكم خلاط؛ وبعد وفاته تولى أخوه أحمد بن سكمان القطبي إمارة خلاط، ولكن لم تطل فترة حكمه لخلاط، حيث وافته المنية في نفس العام(٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، أي بعد عشرة أشهر من توليه الحكم، ثم تولى بعده ابن أخيه سكمان بن إبراهيم بن سكمان(٥٧).

سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي (شاه أرمن) (٥٢٢-٥٨١هـ/١١٢٨-١١٨٥م)

تولى سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي إمارة خلاط في عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م بعد وفاة عمه أحمد بن سكمان؛ وكان سكمان صبيا دارجا لذا استبدت عليه جدته الخاتون أم الأمير إبراهيم والتي شاركت ابنها من قبل في حكم خلاط؛ ويقال أنها دبرت مؤامرة لقتله والإنفراد بحكم خلاط، لكنها وقعت في شرك تلك المؤامرة وقتلت في عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م، مما أفسح الطريق لانفرد سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي في حكم خلاط، بل تمكن أن يمد نفوذه على معظم أرمينية طيلة فترة حكمه حتى وفاته في عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م(٥٨).

وقد ذكرت بعض المراجع أن لقب شاه أرمن(٥٩) اقترن باسم سكمان القطبي أول أمراء خلاط من بني سكمان، لذلك أطلقت تلك المراجع على إمارة بني سكمان في خلاط إمارة شاهات أرمن(٦٠)؛ ولكن بعد استقراء المصادر المختلفة وُجد أن سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي-الذي يعد آخر أمراء بني سكمان في خلاط- هو أول من أطلق عليه لقب شاه أرمن من بني سكمان، حيث ذكرت المصادر اسمه مقترنا بلقب شاه أرمن دون من سبقوه من بني سكمان في حكم خلاط(٦١)؛ ومماتجدرالإشارة إليه أن لقب شاه أرمن لم يختص به سكمان بن إبراهيم القطبي فقط بل لقب به أيضا الملك الأشرف موسى الأيوبي الذي عرف أيضا بشاه أرمن بعد أن نجح في أن يمد نفوذه على خلاط ومعظم أرمينية، بالإضافة إلى ما بيده من بلاد الجزيرة الفراتية(٦٢) وهي نفس منطقة نفوذ إمارة الأمير سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي، لذلك يبدو أنه من الأفضل أن يطلق على خلاط إمارة بني سكمان بدلا من إمارة شاهات أرمن.

جهاد شاه أرمن سكمان بن إبراهيم ضد الكرج:

ظهر الكرج في تلك الآونة كإحدى القوى المسيحية التي أخذت تناوئ الدولة الإسلامية وتوسعاتها، مستغلين في ذلك انشغال الجبهة الإسلامية في الجهاد ضد الصليبيين(٦٣)؛ ويبدو أن الكرج أرادوا الضغط على الجبهة الإسلامية للتقليل من حدة الجهاد ضد الصليبيين، فضلا عن أنهم أرادوا توسيع رقعة بلادهم خاصة وأن ملكهم جورج الثالث (٥٥١- ٥٨٠ هـ / ١١٥٦- ١١٨٤م) أخذ على عاتقه النهوض ببلاده وتوسيع رقعتها على حساب القوى الإسلامية المجاورة، حيث وصلت بلاد الكرج على عهده إلى الاستقلال الحقيقي(٦٤).

وتتابعت هجمات الكرج على البلدان الإسلامية المجاورة، ففي عام ٥٥٦هـ /١١٦٠م هاجم الكرج في عهد جورج الثالث مدينة آني التابعة للأمير فضلون بن منجوهرمن آل شداد وفضلون(٦٥)، واستولوا عليها كما استولوا على ما حولها من بلدان؛ ويذكر المؤرخ فلادمير مينورسكي أن الدافع وراء الهجمات التي شنها الملك الكرجي جورج الثالث على البلدان الإسلامية المجاورة كان بإيعاز من أحد فراد الأسرة الأوربيلية ويدعى إيفان Evan حيث أغرى الملك جورج الثالث على استعادة آني وغيرها من البلاد(٦٦).

يبدو أن ملك الكرج قد استمال إليه المسيحيين في مدينة آني مما جعلهم يثورون في وجه صاحبها الأمير فضلون ويقودهم في ذلك القساوسة؛ ويشير الفارقي في حوادث عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م «وفي سنة ٥٥٦ هـ وثب القسوس بمدينة آنة على صاحبها الأمير فضلون بن منوجهر وانهزم ومضى إلى قلعة تسمى بكران

مجاور سرماري[٦٧] وسلموا القسوس أنه إلى ملك الأبخاز كركور[٦٨] وحضر عساكره وملكها ونهب منها مالا عظيما وسبى جميع أهل شداد وفضلون» [٦٩].

وكان شاه أرمن صاحب خلاط يتولى في تلك الآونة معظم أرمينية لذلك كانت أسرة منجوهر تحكم في آني من قبله؛ يؤكد ذلك أنه لما علم شاه أرمن بتلك الهجمات خرج على رأس قواته لمواجهة الكرج في عام ٥٥٦هـ/١١٦١م، وانضم إليه أمراء الأقاليم الأخرى التي كانت تابعة لخلاط بقواتهم ومنهم عز الدين صلتق صاحب أرزن الروم[٧٠]، وفخرالدين دولت شاه صاحب أرزن[٧١]، وصاحبي قرس وسرماري بقوتيهما وغيرهم من أمراء أعمال خلاط؛ كما انضمت إلى قوات شاه أرمن أعداد كثيرة من المتطوعة، وساروا جميعا إلى نهر الرس[٧٢] وعبروا إلى آني، وحاصروها، فتقدمت إليهم القوات الكرجية بقيادة الملك جورج الثالث؛ والتقت القوات الإسلامية بقوات ملك الكرج وانتهت المعركة بهزيمة شاه أرمن وقواته هزيمة بالغة مما اضطره للعودة إلى خلاط[٧٣].

ويوضح الفارقي مدى الهزيمة التي لحقت بشاه أرمن وقواته فيقول: «فانهزم شاه أرمن من باب آنة وصاحب أرزن بفرسه وأسر من المسلمين ما لا يحصى ونهب برك شاه أرمن وقتل أكثر أصحابه والمسعود من سلم من الواقعة وأسر من المسلمين مقدار تسعة ألف فارس وراجل من أكابر بيت سكمان وغيرها فأسر بدر الدين أخو الخاتون صاحبة خلاط لأمها وخلق لا يحصى»[٧٤].

ويعلل الفارقي سبب تلك الهزيمة بانسحاب الأمير صلتق وقواته عندما رأى ملك الكرج، فيقول في هذا الصدد: «لما وصلت العساكر والملك (يعني ملك الكرج بقواته) انهزم الأمير سلتق فانفصل عن المسلمين لأن كان ملك الأبخاز ديميطري لما أسره كما ذكرنا وأطلقه استحلفه أنه لا يضرب في وجهه سيفا ولا في وجه أولاده ولا يلقي له عسكرا ولا لأولاده ما عاش وطلب سلتق الفرس فانفصل عن المسلمين فلما انفصل الأمير سلتق انهزم العساكر من المسلمين»[٧٥]؛ وبعد هزيمة قوات شاه أرمن على آني وانسحابهم واستيلاء الكرج عليها ولى ملك الكرج على المدينة واليا من قبله، وعاد إلى تفليس[٧٦] عاصمة ملكه [٧٧].

لما علم الصاحب نجم الدين ألبي بن تمرتاش[٧٨] وهو في طريقه إلى ملاذكرد بخبر تلك الهزيمة، وكان قد التقى بالقوات قبل المعركة ولكنه لم يشترك فيها، عاد مسرعا إلى ميافارقين وأرسل وزيرالموصل إلى الملك جورج الثالث ليشفع في إطلاق سراح الأسرى المسلمين لديه ومنهم الأمير هلدري القرقطفي صاحب أسباكرد، وهو من رجال شاه أرمن وغيره الكثير، فاستجاب ملك الكرج لطلب الصاحب نجم الدين ألبي وتم إطلاق سراح أسرى المسلمين

مقابل مبلغ كبير من المال بلغ ما يقرب من ألف دينار دفعها نجم الدين ألبي إلى ملك الكرج من أجل افتداء الأسرى[٧٩].

وفى العام التالي كرر الكرج هجماتهم الهدامة على البلاد الإسلامية، ففي شعبان من عام ٥٥٧ هـ/١١٦٢م هاجم الكرج مدينة دوين[٨٠] من أذربيجان التابعة لشمس الدين ايلدكز صاحب أذربيجان والجبل وأصفهان[٨١] وكانت قواتهم تزيد عن ثلاثين ألف مقاتل، ودخلوا المدينة وانتهبوها وقتلوا أهلها حتى بلغ جملة القتلى ما يزيد عن عشرة ألا ف قتيل «وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة، وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا إلى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوه بنساء المسلمين»[٨٢]؛ ولقد أشار ابن الأثير إلى أن نساء الكرج اعترضن على انتهاك حرمة نساء المسلمين على ذلك الوجه السئ، وأن هذا مدعاة لأن يحدث لهن ذلك على يد المسلمين فيما بعد [٨٣]؛ وبعد تلك الهجمة الشرسة التي قام بها الكرج على دوين عادوا إلي «تفليس والأسارى على العجل وغنموا غنائم لاتحصى» [٨٤].

وعندما علم شمس الدين ايلدكز بما حدث على دوين من الكرج قرر العودة إلى أذربيجان- حيث كان بصحبة السلطان السلجوقي أرسلان شاه بن طغرل[٨٥]- فلما وصلها أرسل إليه ملك الكرج يقول: «إنه لنا على كنجة وبيلقان خراج يصل إلى خزانة الملك في كل سنة وقد انقطع عنا منذ سنين ما وصل إلى الخزانة ونريد منك أن تدفع ذلك لنا» [٨٦]. وأمام تلك الرسالة التهديدية الاستفزازية التي أرسلها ملك الكرج، أرسل إليه ايلدكز ردا على نفس المستوى من التهديد يقول: «إنني ما تركت العراق وجئت إلى هذه البلاد إلا حتى أجمع العساكر وأقصد تفليس وأحاصرها ولا أزال دون أن آخذها فما كان عندكم من قوة فأظهروها فأنا قاصد بلادكم قد أتيتكم بعساكرلا ينجيكم منها إلا الضرب بالسيوف والطعن بالأسنة» [٨٧].

وعلى الفور أرسل ايلدكز إلى السلطان السلجوقي أرسلان شاه طغرل، وكان آنذاك بهمذان يخبره بما حدث من الكرج والمراسلات التي تمت بينهما، وأوضح للسلطان مدى خطر الكرج على البلاد وأدرك السلطان خطر ما أخبره به ايلدكز، لذلك أعد جيشا كبيرا منظما من خيرة جند العراق المدربيين المحنكيين، وسار به حتى وصل إلى نخجوان[٨٨]. فقابله فيها ايلدكز، ثم واصلوا سيرهم حتى كنجة، فوصل إليه وهو على كنجة شاه أرمن صاحب خلاط بقواته «ليفوز بخدمته ويحظى بتقبيل بساطه بعساكر كثيرة وعدد وافرة وحظي عند وصوله إلى خدمة السلطان بالإعزاز والإكرام والتبجيل والإعظام وكان يخاطبه السلطان إيجي» [٨٩].

عندما علم جورج الثالث ملك الكرج بوصول السلطان بذلك الجمع الكبير من القوات أرسل إلى ايلدكز متضرعا يطلب العفو وأنه لن يعود إلى ذلك مرة أخرى؛ ويشير الحسيني إلى ذلك على لسان ملك الكرج فيقول:«ولست أعود إلى ما يسوءك وأنا نازل عندما تريده ومسعفك بما تطلبه»[٩٠]. وعرض ايلدكز الرسالة على السلطان، فجمع الأمراء لمشاورتهم في أمر محاربة الكرج أو العفو عنهم، فرأى جند العراق ضرورة محاربتهم، ووافقهم في ذلك الرأي شاه أرمن صاحب خلاط وقال للسلطان في ذلك الاجتماع «إن عدو الإسلام شديد قلبه ثقيلة على المسلمين وطأته وبالأمس ما قد فعله من الغارة على دوين ونهبها وأسر جماعة من أهلها وقد رآنا أننا اجتمعنا للقائه وتهيأنا لدفع مضرته وبلائه ويرى أننا تفرقنا من غير مكافحته ومصاولته وعدنا دون مصادمته ومساورته وقد أنفقنا من الأموال ما أنفقنا وأذهبنا من العساكر لجمع العساكر ما أذهبنا فحينئذ يزداد طمعه ونخشى أنه إذا عاد السلطان خلد الله ملكه إلى العراق أن يخرج إلى بلاد الإسلام بجموعه ويطرقها بعساكره وهي خالية ممن يقاومه صفر ممن يقابله ويصادمه فتظهر معرته بأهل الإسلام وتفشو مضرته بالخاص منهم والعام»[٩١].

وعندما سمع ايلدكز تلك المقولة التي قالها شاه أرمن في ذلك الاجتماع في حضرة السلطان والجمع الكبير من الأمراء والقوات استبشر بها وعلم بإصرار الجميع على الجهاد ورد اعتداءات أعداء الإسلام، وبدأ يعد للأمر عدته؛ وبالفعل تقدمت القوات التي اجتمعت حول السلطان لخوض غمار المعركة مع الكرج «حتى اجتمع على السلطان من التراكمة ما ليس لهم عدد ولا يحصرهم لكثرتهم أحد»[٩٢]؛ ويقدر ابن الأثير عدد القوات الإسلامية بما يزيد عن خمسين ألف مقاتل كان من بينها قوات شاه أرمن صاحب خلاط، وقوات آقسنقر صاحب مراغة، فضلا عن القوات العراقية، وغيرها الكثيرمن القوات[٩٣] التي سارت لقصد بلاد الكرج؛ ولما علم ملك الكرج بتوجه تلك القوات الإسلامية لقصد بلاده تأهب للقائها، وقاد جيشا كان قد أعده تحسبا لذلك أحسن إعداد سواء من ناحية الرجال أو الخيل، وآلات الحرب؛ والتقت القوتان في صفر من عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م، وتمكنت القوات الإسلامية من إنزال هزيمة ساحقة بالقوات الكرجية، وفر ملك الكرج جورج الثالث هاربا من ساحة القتال، وغنم المسلمون غنائم لا تحصى، كما واصل المسلمون زحفهم على معظم بلاد الكرج وهاجموها، وأعملوا فيها السلب والنهب والأسر جزاء ما اقترفوه من قبلُ في حق الإسلام والمسلمين من هدم المساجد، وانتهاك أعراض النساء[٩٤].

وبعد تحقيق ذلك النصر الكبير على الكرج عاد السلطان وبصحبته أتابك ايلدكز إلى كنجة، وعاد شاه أرمن إلى خلاط محملا بالكثير من الغنائم[٩٥]؛

ويدلل الفارقي على ذلك - وهو معاصر لتلك الأحداث وشاهد عيان عليها- فيقول:«وأخذ شاه أرمن ثلثة حمال كان أحدها فيه آنية ذهب وفضة والثاني كان عليه بيعة الملك فيه صلبان ذهب وفضة مرصعة بأنواع الجواهر وفيه أناجيل مصورة بالذهب مرصعة بالجواهر لا يعرف قيمتها ولا يوجد مثلها، والثالث عليه خزانة الملك من ذهب وفضة وجوهر ما لا يقوّم بعضه كثرة بحيث أنه قيل أن كتـاب أخلاط بديوانها قوّموا ما وصل إلى شاه أرمن فكان مثل ما أخذ منه على باب آنه عندما كُسر ثلثين ضعفا، ولقد سمعت هذا من جماعة كثيرة من أهل خلاط ممن كان بالوقعة وكنت إذ ذاك ببدليس، ويوم وصل المبشر إلى أخلاط كنت بأخلاط وجماعة من الفارقية وكان يوما عظيما بحيث أنه ذ بح من البقر بعد يومين مقدار ثلاثمائة رأس وفُرّق لحمها على المساكين والضعفاء، وبعد أيام وصل شاه أرمن إلى أخلاط وأظهروا فيها كل شيء لا يُرى مثله من الأموال والتجمل، ووصل صاحب بدليس إليها، وزين البلد لقدومه في أول شهر رمضان وكنت ببدليس»(٩٦).

ويُرجع ابن الأثير سبب انتصار المسلمين على الكرج وإلحاق الهزيمة بهم إلى أن أحد رجال ملك الكرج حضر إلى الأمير ايلدكز وأسلم على يديه، وقد قدم معونته للمسلمين ودلهم على طريق الكرج، فلما احتدمت المعركة وصل ذلك الكرجي الذي أسلم من قبل ومعه بعض القوات، فباغتوا الكرج وكبروا وحملوا عليهم من خلفهم « فانهزموا وكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الإحصاء لكثرته» (٩٧).

وعلى الرغم من تلك الهزيمة الساحقة التي مُنى بها الكرج إلا أن إغارتهم لم تنقطع عن البلاد الإسلامية، ففي جمادى الأولى من عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٣م استغل الكرج غياب ايلدكز عن إقليم أذربيجان فهاجموا مدينة آني ودخلوها وخربوا ما فيها؛ ولما علم إيلدكز بذلك عاد إلى آني على وجه السرعة وتمكن من استردادها، فأعاد إليها أهلها الذين فروا منها، كما أعاد عمارتها وتحصيناتها ثم أخذ يعد العدة لملاقاة الكرج، فسار إلى باب مدينة جنزي(٩٨) وعزم على لقائهم(٩٩).

ولم تذكر المصادر مهاجمة إيلدكز لبلاد الكرج في ذلك العام (٥٩٩هـ/١١٦٣م) ولكن ما تذكره هو مهاجمة الأمير إبراهيم صاحب سرماري لبلاد الكرج في نفس العام بعد الهجمة التي قاموا بها على آني ونجاحه في تحقيق الانتصار عليهم، حيث أوقع بهم «وقعة عظيمة وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر جماعة من كبرائهم» (١٠٠). ولعل تلك الحملة التي قام بها الأمير إبراهيم صاحب سرماري على بلاد الكرج كانت بدعم من الأتابك ايلدكز للرد على الكرج؛ ويبدو أن الأمير ايلدكز لم يستطع أن يترك آني في تلك الآونة حيث لم يكن عليها

واليا أو قوة سياسية تدفع عنها. لذلك أسند إلى الأمير إبراهيم مهمة محاربة الكرج، وعاد هو إلى آني مرة أخرى لزيادة استحكاماتها؛ يؤكد ذلك ما ذكره الفارقي «في آخر السنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م سلم شمس الدين ايلدكز آنة إلى الأمير شاهنشاه أخي الأمير شداد وفضلون اللذين كانا أصحابها من أولاد منجوهر»(١٠١). ولعل هذه الرواية توضح أن ايلدكز لم يقابل الكرج في تلك السنة، وأنه عاد إلى آني بعد أن كان خرج إلى جنزي للقائهم وأقام بها إلى آخر عا م ٥٥٩ هـ / ١١٦٣م، إلى أن استدعى أحد أبناء أسرة منوجهر الذين كانوا على ولايتها من قبل لتولي الأمر فيها.

ورغم التحصينات التي أقامها إيلدكز في آني إلا أن الكرج كرروا هجماتهم الشرسة عليها مرة أخرى؛ ففي ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ /١١٧٤ م قصد الكرج مدينة آني وحاصروها عدة أيام إلى أن تمكنوا من الاستيلاء عليها من الأمير شاهنشاه أخي شداد، ونهبوا ما كان فيها، ثم ولوا عليها واليا من قبلهم، وأصبحت آني ولاية من ولايات الكرج(١٠٢)؛ وعندما علم ايلدكز بذلك أسرع إلى مهاجمة بلاد الكرج فوصل إليهم وقاتلهم ولكنه هزم أمام الكرج، وقتل وأسر من رجاله الكثير؛ وجدد ايلدكز محاولته مرة أخرى في نفس العام(٥٧٠ هـ/١١٧٤م)(١٠٣) واستعد لملاقاة الكرج وخرج حتى وصل إلى صحراء أوين، ووصلت قوات الكرج إلى نفس المكان، ولكن لم يحدث قتال بين الطرفين، وعاد كل منهما إلى بلاده دون قتال(١٠٤).

ويبدو أن ايلدكز خرج في المرتين دون الإعداد الكافي لملاقاة الكرج، لذلك عندما عاد من صحراء أوين إلى نخجوان أخذ يستنفر الملوك والأمراء لجهاد الكرج، فأرسل إلى صاحب خلاط ومعظم الأمراء ليحضروا إليه ويكونوا على أهبة الاستعداد للقاء الكرج؛ كما أرسل إلى السلطان السلجوقي أرسلان شاه يستنجده على الكرج؛ فاستجاب السلطان لندائه وسار بنفسه على رأس جيشه، كما وصل إليه شاه أرمن على رأس قوات خلاط وديار بكر، ووصل إليه أيضا ابنه البهلوان بقوات أذربيجان وهمذان؛ وفي المحرم من عام ٥٧١ هـ / ١١٧٥م سارت تلك القوات جميعها إلى بلاد الكرج وعبروا صحراء لوري ودومانيس، ومنها إلى آقشهر- وهي ما بين آخل كاعاك وصحراء ثرياليت-«فأغار المسلمون على تلك الولايات الكرجية وأخربوا الضياع وسبوا من كان فيها»؛ ويبدو أن الملك جورج الثالث خشي من تلك القوات لذلك «لم يقدر أن يخرج إليهم فبقوا أياما وعادوا أجمع»(١٠٥).

هكذا اكتفى المسلمون بتلك الغارات على بلاد الكرج التي غنموا منها مغانم كثيرة وعادوا دون الصدام مع ملك الكرج الذي خشي أن يخرج للقائهم؛

وعاد المسلمون إلى بلادهم يحتفلون بذلك النصر «وعاد شاه أرمن وعساكره إلى ديار بكر وإلى خلاط فوصلوا في العشر الأول من ربيع الأول ودخلوا إلى أخلاط وزينوا البلد وكان يوما مشهودًا، وأظهر أهل أخلاط من الأموال والزينة ما لم ير مثله ببلد آخر وبقيت الزينة ثلثة أيام بأخلاط»(١٠٦). ولا شك أن هذه الرواية تؤكد أن إمارة شاه أرمن قد اتسعت لتشمل أرمينية وديار بكر كما كانت على عهد جده سكمان القطبي.

مما تجدر الإشارة إليه ظهور حالة من الهدوء النسبي بين المسلمين والكرج بعد عودة القوات الإسلامية بقيادة شاه أرمن إلى قواعدهم، ويرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال الداخلية في بلاد الكرج بسبب تمرد إيفان الأوربيلي على الملك جورج الثالث(١٠٧) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انشغال شاه أرمن خلال تلك الفترة بالتصدي لطموح السلطان صلاح الدين الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية وضم بلاد الجزيرة وحلب.

تحالف شاه أرمن سكمان بن إبراهيم مع ملوك الجزيرة ضد صلاح الدين:

واجه المشروع الطموح الذي تزعمه السلطان صلاح الدين الأيوبي والذي تمثل في توحيد الجبهة الإسلامية وتقويتها في مصر والشام والجزيرة ضد الخطر الصليبي معارضة كبيرة من بعض ملوك الأراتقة والأتابكة في بلاد الجزيرة والموصل وحلب، الأمر الذي أدى إلى تكوين حلف مضاد تزعمه قطب الدين إيلغازي بن ألبي تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين وابن أخته الملك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي الأتابكي صاحب الموصل وحلب، وانضم إليهما فيما بعد شاه أرمن سكمان بن إبراهيم صاحب خلاط وخال قطب الدين إيلغازي صاحب ماردين(١٠٨)؛ وقد وقفوا ثلاثتهم معا في تحدٍ سافر ضد تلك الخطوة التي بدأ ينفذها صلاح الدين، بل بدأوا يغيرون على بعض البلدان التي دخلت في طاعةالسلطان صلاح الدين الأيوبي(١٠٩).

وعندما دخل شهاب الدين الأرتقي صاحب البيرة(١١٠) في طاعة السلطان صلاح الدين إدراكا منه بضرورة إتمام الوحدة الإسلامية للتفرغ لجهاد الصليبيين توجه ابن عمه قطب الدين إيلغازي إلى البيرة لحصارها، وكان السلطان صلاح الدين آنذاك مشغولا بحرب الصليبيين في عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢م، حيث كان محاصرا لبيروت، فأدرك السلطان صلاح الدين أن يوحد الجبهة الإسلامية أولا، وأكد ذلك لديه وصول رسل مظفر الدين كوكبوري(١١١) صاحب حران إليه وهو على حصار بيروت يعلن له الولاء والطاعة، ويحثه على ضرورة توحيد الجبهة الإسلامية وضم بلاد الجزيرة إليه، لذلك سار السلطان

صلاح الدين من بيروت متظاهرا بالتوجه إلى حلب في حين كانت وجهته بلاد الجزيرة، الأمر الذي جعل عز الدين مسعود يتوجه إلى حلب للدفاع عنها، ولكنه فوجئ بصلاح الدين في بلاد الجزيرة وقد فتح الرها والرقة والخابور وقرقسيا وسنجار وقالين ونصيبين، ثم توجه إلى الموصل وشدد عليها الحصار، إلا أنه لم يستطع فتحها لشدة حصانتها، فرفع السلطان الحصار عنها وتبادلت الرسل بينه وبين عز الدين مسعود، فعرض عليه السلطان صلاح الدين أنه على استعداد أن يتنازل عن البلاد التي فتحها مقابل أن يتنازل عز الدين عن حلب، فرفض عز الدين العرض، لذلك واصل صلاح الدين جهوده في بلاد الجزيرة (١١٢).

عندما علم شاه أرمن صاحب خلاط باجتياح السلطان صلاح الدين لبلاد الجزيرة أرسل إليه رسله في عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م للتوسط في الصلح وإعادة البلاد التي استولى عليها إلى عز الدين مسعود، فرفض صلاح الدين وساطته؛ وتكررت رسل شاه أرمن إلى السلطان صلاح الدين للشفاعة والكف عن الموصل وغيرها من بلاد الجزيرة، لكنها كانت تقابل بالرفض من قبل السلطان صلاح الدين، لذلك أرسل إليه شاه أرمن مملوكه سيف الدين بكتمر وهو على حصار سنجار يتهدده وطلب الرحيل عنها وإلا قصده وحاربه(١١٣)، فلم يعبأ السلطان بذلك التهديد؛ وبعد أن أبلغ سيف الدين بكتمر رسالة التهديد إلى السلطان صلاح الدين عاد إلى خلاط يملأه الغيظ وقد أبلغ شاه أرمن بضرورة التصدي للسلطان صلاح الدين، فاضطر شاه أرمن إلى التحالف مع عز الدين مسعود صاحب الموصل وقطب الدين إيلغازي صاحب ماردين ضد صلاح الدين، واتفق الجميع على محاربته(١١٤).

هكذا أدى رفض السلطان صلاح الدين لوساطة وشفاعة شاه أرمن وعدم اكتراثه برسالة التهديد التي أرسلها إليه أن قرر الأخير الاستعداد لمحاربة السلطان صلاح الدين؛ فخرج شاه أرمن من خلاط في ذي الحجة من عام ٥٧٨ هـ /١١٨٣م على رأس حملة وبصحبته دولت شاه صاحب أرزن الذي كان تابعا له، وتوجها معا إلى ماردين التي توجه إليها أيضا وفي نفس الوقت عز الدين مسعود بقواته؛ واجتمع الحلفاء ونزلوا على ضيعة حرزم(١١٥) من أعمال ماردين. أما السلطان صلاح الدين فقد تفرقت عنه قواته في تلك الآونة بعد أن استولى على سنجار، ثم سار عنها إلى حران، ولما سمع باجتماع شاه أرمن وحلفائه على ماردين أرسل يستدعي ابن أخيه تقي الدين عمر- الذي كان قد عاد إلى حماة- للقدوم إليه على وجه السرعة، فاستجاب تقي الدين وخرج من حماة حتى وصل إلى حران في خمسة ليال؛ وعندما اجتمع تقي الدين بالسلطان سارا بالقوات إلى رأس عين، فلما علم شاه أرمن وحلفاؤه بعسكرة السلطان

صلاح الدين في رأس عين تفرقوا، فعاد شاه أرمن إلى خلاط[١١٦] «واعتذر بأنني أجمع العساكر وأعود»[١١٧]، كما عاد عز الدين مسعود إلى بلاده، في حين تحصن صاحب ماردين ببلده بعد أن تخلى عنه حلفاؤه؛ أما السلطان صلاح الدين فقد واصل سيره حتى وصل إلى حرزم وحاصرها عدة أيام، ثم توجه منها إلى آمد في ١٧ ذي الحجة ٥٧٨ هـ/ إبريل ١١٨٣ م وحاصرها حتى طلب صاحبها الأمان، وسلمها إلى السلطان في المحرم عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م [١١٨].

وعلى الرغم من تلك الصعوبات التي واجهت السلطان صلاح الدين إلا أنه قد واصل تنفيذ مخططه في توحيد الجبهة الإسلامية، فحاصر الموصل، وبينما هو على حصارها وصله خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الأول ٥٨١ هـ/ يوليو ١١٨٥م [١١٩].

أحوال إمارة خلاط بعد وفاة شاه أرمن

عندما مات شاه أرمن سكمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط لم يكن له ولد يخلفه في الحكم، كما لم يكن بخلاط أحد من أقاربه ليقوم بأعباء الحكم بعد وفاته، لذلك استولى مملوكه سيف الدين بكتمر على إمارة خلاط[١٢٠] بعده؛ وقد تمكن سيف الدين بكتمر من إحكام السيطرة على خلاط، كما نجح في إدارة شئون الحكم فيها، واتصف بحسن سياسته ومعاملته الطيبة للرعية، فتقرب إلى الناس وأجزل لهم الأموال فأخلصوا له وأطاعوه؛ ويشير إلى ذلك أبو شامة فيقول: «كان متصوفا في طريقته فأطاعه الناس ومالوا إليه»[١٢١]؛ كما يؤكد ذلك أيضا ابن الأثير فيقول: «كان جوادا شجاعا عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم»[١٢٢].

موقف سيف الدين بكتمر من أطماع الأيوبيين في إمارة خلاط:

بينما كان السلطان صلاح الدين الأيوبي على حصار الموصل وصلت إليه كتب من أهل خلاط وبدليس يطلبون منه ضرورة القدوم إليهم وتولي أمرهم بعد وفاة شاه أرمن متذرعين بأنهم «... خائفون من العجم أن يتولوها» [١٢٣]؛ فاستشار السلطان صلاح الدين من حوله في أمر ترك حصار الموصل والتوجه إلى خلاط، فأشار البعض بالاستمرار على الحصار بينما رأى البعض الآخر رفع الحصار والسير إلى خلاط [١٢٤]، في حين رأى فريق ثالث أن يجمع السلطان بين الاثنين فيترك بعض القوات على الموصل ويتوجه البعض الآخر إلى خلاط[١٢٥]، فأخذ السلطان صلاح الدين بالرأي الثالث، لذا استجاب لدعوة أهل خلاط فأرسل إليهم ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ببعض القوات لاستلامها، وبقي السلطان ببعض قواته على الموصل؛ وعندما وصل ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى خلاط وجد أن سيف الدين بكتمر قد سيطر عليها

وحصنها، فحاول ناصر الدين دخولها دون جدوى، لذلك نزل ناصر الدين محمد بن شيركوه بطوانة بالقرب من خلاط[١٢٦].

وكاتب وزير خلاط مجد الدين موفق بن رشيق ناصر الدين محمد بن شيركوه يطلب منه الاستمرار بقواته بطوانة، كما كان يكاتب صلاح الدين من قبل للقدوم إلى خلاط، وفي نفس الوقت كان ابن رشيق يكاتب شمس الدين بن البهلوان صاحب أذربيجان بأن يأتي هو الآخر ليسلمه خلاط؛ وكانت تلك خديعة من الوزير ابن رشيق[١٢٧] حيث أراد أن تصطدم قوات صلاح الدين بقوات ابن البهلوان الذي كان له هو الآخر مطامع في خلاط، خاصة أنه قد زوج ابنته من شاه أرمن صاحب خلاط - بالرغم من كبر سنه- من أجل أن يصل إلى حكمها؛ ويؤكد ذلك ابن الأثير فيقول:«كاتبوا صلاح الدين يستدعونه إليهم ليسلموا البلد إليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان ويبقى البلد بأيدهم» [١٢٨]. وبالفعل استمر ناصر الدين محمد بن شيركوه معسكرا بقواته بطوانة إلى أن وصل ابن البهلوان بقواته إلى أبواب خلاط فأخذ سيف الدين بكتمر يراسله ويحذره من أطماع السلطان صلاح الدين في مد نفوذه إلى خلاط وجميع بلاد العجم قائلا: «أنه متى أخذ خلاط واستولى على ممالكها قصد جميع بلاد العجم» [١٢٩]، كما أرسل إليه مع ابنته زوج شاه أرمن التي كانت ما تزال مقيمة في خلاط مالا جزيلا، ثم خطب للبهلوان في خلاط[١٣٠]، لذلك استأذن ناصر الدين محمد بن شيركوه السلطان صلاح الدين بالعودة عنها ومساندته في حصار ميافارقين فأذن له السلطان ورفع الحصار عن خلاط[١٣١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى مجد الدين بن رشيق وتحدث معه في أمر خلاط «فأحال الحال على البهلوان قائلا له لو أنكم استعجلتم قبل وصوله إلى البلاد لنلتم المراد»[١٣٢]؛ وبذلك استمرت خلاط تحت حكم سيف الدين بكتمر، وكان يخطب فيها لشمس الدين بن البهلوان صاحب أذربيجان.

وقد ظلت إمارة خلاط تمثل مطمعا يتطلع إليه ملوك الأيوبيين بعد انقضاء حكم بني سكمان لذلك حاول الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة الأيوبي الاستيلاء عليها، خاصة وأنه كان له بعض الإقطاعات في الجزيرة (حران والرها وميافارقين) فاتخذها ذريعة من أجل أن يسيطر على خلاط، لذا استولى على حاني من ديار بكر، ولم تتوقف مطامعه عندها بل امتدت إلى إمارة خلاط أيضا[١٣٣]. وأدرك سيف الدين بكتمر مطامع الملك المظفر تقي الدين فخرج ليتصدى له قبل أن يتقدم إلى خلاط، على رأس أربعة آلاف فارس في الوقت الذي تقدم فيه الملك المظفر على رأس سبعة آلاف فارس إلى خلاط في صفر من

عام ٥٨٧ هـ/١١٩١ م؛ والتقت القوتان واشتبك الطرفان وكانت الغلبة لقوات الملك المظفر التي تمكنت من إنزال الهزيمة بقوات سيف الدين بكتمر، الذي أرسل على أثر هزيمته إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل الوزير مجد الدين بن رشيق الذي كان محبوسا بها؛ غير أن الملك المظفر قد سار من فوره بعد الانتصار إلى قلعة خلاط وتمكن من الاستيلاء عليها وأطلق سراح ابن رشيق، ثم تقدم إلى مدينة خلاط نفسها فحاصرها، ولم تكن قواته كافية لحصارها لذلك توجه إلى ملاذكرد فحاصرها، فاضطر أهلها بسبب طول الحصار إلى طلب مهلة ليسلموا البلد إليه فأجابهم إلى ذلك ولكن وافته المنية قبل انقضاء المهلة بيومين فرفعت القوات الحموية الحصار عنها وعادت إلى حماة؛ أما بكتمر فقد عاد مرة أخرى إلى خلاط وسيطر عليها وثبت ملكه بها مرة ثانية(١٣٤).

ومع كل ذلك ظلت خلاط تتعرض لمطامع الأيوبيين، فقد وعد السلطان صلاح الدين أخاه العادل بملك خلاط وتسليمها إليه؛ فعندما فرغ صلاح الدين من أمر الصليبيين وعقد معهم صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م(١٣٥) اجتمع مع ابنه الأفضل وأخيه الملك العادل واستشارهما في الخطة التي سوف يسيرون عليها وقت الهدنة مع الصليبيين، فأشار عليه العادل بقصد خلاط «لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه»(١٣٦)؛ أما ابنه الأفضل فأشار عليه بقصد بلاد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، فرأى صلاح الدين أن يتوجه هو إلى آسيا الصغرى في حين يتوجه الملك العادل إلى خلاط قائلا لأخيه «تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم ونُدخل فيها أذربيجان وتتصل بلاد العجم فما فيها من يمنع عنها»(١٣٧).

وتوضح هذه الرواية التصور الجغرافي الذي أراده السلطان صلاح الدين في قيادته للدولة الإسلامية بحيث تشمل مصر والشام والجزيرة الفراتية وبلاد فارس وأرمينية الكبرى وآسيا الصغرى.

وبدأ الملك العادل في تنفيذ المشروع الذي اتفق عليه مع أخيه السلطان صلاح الدين، فتوجه إلى ولايته في الكرك ليعد لهذا الأمر عدته حيث أخبره السلطان وقال له: «تجهز واحضر لتسير» (١٣٨)، أي ليسير العادل إلى خلاط، ولكن قبل أن يخرج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ لحق المرض بالسلطان صلاح الدين، ومات في صفر من عام ٥٨٩ هـ /١١٩٣ م ودفن في دمشق (١٣٩).

عندما توفي السلطان صلاح الدين أظهر سيف الدين بكتمر الفرح بموته بل «أسرف في إظهار الشماتة بموت صلاح الدين» (١٤٠)، فعندما بلغه خبر وفاته أقام احتفالا وعمل تختا وجلس عليه ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين(١٤١)؛ وبعد ذلك أخذ سيف الدين بكتمر يراسل ملوك الجزيرة ليتفق معهم

على محاربة الملك العادل الأيوبي والاستيلاء على ما بيده من بلاد الجزيرة [١٤٢]، هذا فضلا عن أنه خطب في بلاده لسلطان سلاجقة الروم كيخسرو الأول (٥٨٨- ٥٩٧ هـ / ١١٩٢- ١٢٠٠م) ليعاضده في اجتياح بلاد الجزيرة[١٤٣]؛ وحشد بكتمر قواته للزحف على ميافارقين، فوثب عليه صهره بدر الدين أقسنقر هزار ديناري- أحد مماليك شاه أرمن[١٤٤]- وقتله وقام مكانه في حكم خلاط [١٤٥]؛ وقيل قتل بيد أحد الإسماعيلية في سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م [١٤٦].

تولى بدر الدين أقسنقر هزار ديناري حكم خلاط في عام ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م، واستمر على حكمها خمس سنوات حيث توفي في عام ٥٩٤ هـ /١١٩٧م، ولما مات استولى على خلاط بعده خشداشه قتلغ- وهو مملوك أرمني الأصل- ولم يرض عن حكمه أهل خلاط، لذلك وثبوا عليه بعد سبعة أيام من ولايته خلاط فقتلوه[١٤٧].

قيام محمد بن سيف الدين بكتمرعلى حكم خلاط:

بعد مقتل قتلغ اجتمع كبراء الدولة واتفقوا على تولية محمد بن سيف الدين بكتمر الذي كان معتقلا مع أمه بقلعة ارزاس بمدينة موش فأطلقوا سراحه وولوّه المملكة ولقبوه الملك المنصور، وقام بتدبير المملكة شجاع الدين قتلغ الدوادار(القفجاقي الأصل)، والذي كان يعمل دوادارا لشاه أرمن[١٤٨].

اضطراب الأوضاع في خلاط ومهاجمة الكرج لها:

استقر محمد بن بكتمر في حكم خلاط، ولكن اضطربت الأحوال بها على عهده اضطرابا شديدا بسبب صغر سنه وسوء تصرفه[١٤٩] مما أتاح الفرصة أمام الكرج إلى معاودة الهجوم على إقليم أذربيجان وأرمينية خاصة في عهد الملكة ثمارا الكرجية(٥٨١- ٦٠٩هـ / ١١٨٥- ١٢١٢م)[١٥٠] التي خلفت والدها الملك جورج الثالث في حكم المملكة؛ و بدأ الكرج يوجهون حملاتهم على إقليم أذربيجان التابع لأزبك بن البهلوان[١٥١] وخلاط التابعة في تلك الآونة لمحمد بن بكتمر، مستغلين في ذلك اضطراب الأحوال الداخلية في البلدين؛ ففي عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م هاجم الكرج دوين من أعمال أذربيجان ولم يتحرك أزبك بن البهلوان لنجدتها لانشغاله في الشراب والملاذ ليلا ونهارا[١٥٢]، كما أغاروا على خلاط في عام ٦٠١ هـ /١٢٠٤م، وامتدت غاراتهم إلى ملاذكرد[١٥٣] ولم يستطع محمد بن بكتمر الرد على اعتداءات الكرج بسبب صغر سنه مما أطمع الكرج في تكرار هجماتهم على إمارة خلاط في نفس العام (٦٠١ هـ /١٢٠٤م) فاستولوا على أرجيش، وأعملوا فيها السلب والنهب، كما واصلوا سيرهم إلى حصن التين من عمل خلاط أيضا، وهاجموه، فاستنجد محمد بن بكتمر بصاحب أرزن الروم، الذي استجاب لندائه، وأرسل إليه بعض القوات التي تمكنت مع قوات خلاط من إنزال الهزيمة

بالكرج وقتل مقدمهم، فاضطروا للعودة إلى بلادهم [١٥٤].

وعلى الرغم من الهزيمة التي مُني بها الكرج على أيدي المسلمين إلا أنهم لم يستسلموا لأن سياسة الملكة ثمارا الكرجية وزوجها داود سوسلان كانت تتجه إلى ضم جميع ممالك السلاجقة والأيوبيين المجاورين لها إلى ممتلكاتهم[١٥٥]، لذلك كرروا مهاجمة خلاط، فوجهوا إليها حملة في العام التالي(٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م)، دخلتها القوات الكرجية دون أية مقاومة تذكر «لأن صاحبها صبي والمدبر لدولته ليست له الطاعة على الجند»[١٥٦]، فأعملوا فيها السلب والنهب، مما دفع أهل المدينة للدفاع عن أنفسهم فخرجوا للجهاد ضد الكرج، وانضم إليهم الكثير من المتطوعة من أهل البلدان المجاورة التابعة لخلاط؛ وكان الكرج قد تحصنوا في أعلى الوادي، وهو طريق ضيق، فحاصرهم المسلمون من أعلاهم وأسفلهم» فلما رأى ذلك الكرج أيقنوا بالهلاك»[١٥٧]، وتمكن أهل المدينة والمتطوعة من إنزال الهزيمة بالكرج، وقتلوا منهم الكثير «ولم يفلت من الكرج إلا القليل» [١٥٨].

وزاد من اضطراب الأوضاع في إمارة خلاط سوءا ما أقدم عليه محمد بن بكتمر من القبض على أتابكه قتلغ وقتله في عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، وكان قتلغ «حسن السيرة مع الجند والرعية»[١٥٩]، فخرج مملوك لشاه أرمن يدعى بلبان على محمد بن بكتمر فقبض عليه وقتله في نفس العام وتولى مكانه إمارة خلاط[١٦٠].

وأمام تلك الأوضاع المتأججة أصبحت خلاط مطمعا لكثير من القوى المجاورة، فاستغل الكرج تلك الفرصة وكرروا الغارة عليها[١٦١]؛ ففي العام التالي من تولي بلبان حكم خلاط (٦٠٣هـ /١٢٠٦م) هاجم الكرج حصن قرص التابع لخلاط وشددوا الحصار عليه، ولم تتمكن قوات المدينة من التصدي لهم، لذلك استنجد أهل قرص بالقوات الإسلامية خارج المدينة دون جدوى، فاضطروا إلى مصالحة الكرج على تسليم القلعة إليهم مقابل مال وإقطاع يأخذونه، وسلمت قرص إلى الكرج[١٦٢] «وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد» [١٦٣].

ولا شك أن تكرار هجمات الكرج على إمارة خلاط كان باعثا على تدخل القوى الإسلامية المجاورة، فطمع فيها مغيث الدين طغرل السلجوقي حاكم أرزن الروم[١٦٤]، فضلا عن طموح ملوك الأيوبيين في ضم إقليم أرمينية وقاعدته خلاط تحت راياتهم استكمالا لوحدة العالم الإسلامي، مما هيأ الفرصة أمامهم في عهد السلطان العادل الأيوبي حيث تمكن ابنه الملك الأوحد نجم الدين من الاستيلاء على خلاط وتأسيس ولاية خلاط الأيوبية في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م[١٦٥].

الهوامش

١- خلاط: تعد خلاط من أكبر مدن أرمينية في العصور الوسطى، فقد عدها ياقوت الحموي قصبة أرمينية الوسطى، في حين ذكر كل من القزويني وابن الوردي أنها قاعدة إقليم أرمينية، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٨٨ م، ج ٢ ص ٣٨١؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت د. ت. ص ٥٢٤؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ، د . ت. ص ٤٣، وراجع عن ذلك بالتفصيل: منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها وتوطيد النفوذ الإسلامي في أرمينية ، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإنسانية العدد ٢٤، لعام ٢٠٠٦ م، ص ٧٦٥ – ٨٦٧.

٢- المروانيون الأكراد: أسس بنو مروان ولاياتهم في ديار بكر في عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠م وذلك بعد وفاة خالهم باد بن دوستك الحار بختي الذي كان مسيطرا على ديار بكر واستعان بأولاد أخته في حكم البلاد؛ وبعد وفاته تولى ابن أخته الأمير أبو علي الحسن بن مروان بن لكك الكردي الذي تنسب إليه الدولة المروانية؛ انظر: الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، بيروت ١٩٧٤م، ص ٦٠.

٣- دائرة المعارف الإسلامية: أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كبار المستشرقين في العالم تحت إشراف الإتحاد الدولي للمجامع العلمية، ترجمها إلى العربية: زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، القاهرة ١٩٣٣م، مادة خلاط، المجلد الثاني، ص٤٣٤، ومادة أرمينية، المجلد الثالث، ص٤٧؛ زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: سيدة إسماعيل كاشف، حافظ أحمد حمدي، أحمد محمود حمدي، القاهرة١٩٥١، ص ٣٤٨؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، القاهرة ١٩٦٩م، ج٢ ص٣٥٦؛ستانلي لين بول: الدول الإسلامية، تصحيح: بارتولد وخليل أدهم، ترجمه من التركية: محمد صبحي فرزات، دمشق١٩٧٣م، القسم الأول ص ٣٥٨.

٤- ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، النجف ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ج ٢ ص ١٧؛
ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ج ٥ ص ١٧٨.

٥- ملاذكرد: بلدة صغيرة من من أعمال خلاط بناؤها من الحجر الأسود معظم أهلها من الأرمن والروم بها أعين وليس بها أشجار، وأرضها خصبة كثيرة الخير، انظر :ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، د.ت، ص ٢٩٥؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص ٤٩٤، ٤٩٥، وراجع:منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها ، ص ٧٧١ .

٦- الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ١٧٨، ١٩٠، ١٩١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦م، ج ١٠ ص ١٢٩، ١٤٣– ١٣٦، ١٤٣– ١٤٤.

٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ١٢٩، ١٣٣– ١٣٦، ١٤٣– ١٤٤.

٨- قسيم الدولة آقسنقر: آق سنقر بن عبد الله المعروف بقسيم الدولة مملوك السلطان أبو الفتح ملكشاه، وقد حظى عند السلطان ملكشاه حتى أقره على ولاية حلب في عام٤٨٠ هـ /١٠٨٧م فأحسن فيها السياسة والسيرة، انظر: سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت ١٩٧٢م، ص ٢٦٨.

٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٢٣٢، ٢٣٣؛ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٩٤م، ج١ ص ٢٩٥.

١٠- السلطان بركياروق: الملقب ركن الدين بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن سلجوق، ولد سنة ٤٧٤هـ /١٠٨١م وتوفي سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م بعد أن أقام في السلطنة اثني عشر سنة وأشهرا،

انظر:ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص ٢٦٨.
١١- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٢٤٤، ٢٤٥.
١٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٦٠.
١٣- بلاد آران: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة ويسميها العامة كنجة، وبرزغة وشمكور، وبيلقان، وبين أذربيجان وأران نهر الرس وكل ما جاور النهر من ناحية الغرب والشمال يعد من آران أما ما يجاوره من ناحية الشرق فهو من أذربيجان، انظر : ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١ ص ١٣٦.
١٤- زنجان: بلد مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان والجبال، قريبة من أبهر وقزوين، انظر:ياقوت: المصدر السابق، ج ٣ ص ١٥٢.
١٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٥٩.
١٦- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٦٠.
١٧- خُوّي: بلد مشهور من أعمال اذربيجان كثيرة الخيرات، انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٠٨.
١٨- مراغة: بلدة كبيرة مشهورة من إقليم أذربيجان ، انظر:ياقوت الحموي: المصدر السابق، بيروت ١٩٩٧م، مجلد٤، ج ٧ ص ٢٣٨.
١٩- تبريز: من أشهر مدن أذربيجان ، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة في وسطها عدة أنهار، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ١، ج ٢ ص ٤٣٠.
٢٠- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٦١.
٢١- أرزن الروم: ولاية واسعة واسعة في أرمينية كثيرة الخيرات أهلها أرمن ولها سلطان مستقل، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١ ص ١٥٠.
٢٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٧٠.
٢٣- الفارقي: المصدر السابق ، ص ٢٧٤- ٢٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٧١.
٢٤- الفارقي: المصدر السابق ، ص ٢٧٤- ٢٧٥ ؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٧١.
٢٥- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ص ٣٧١.
٢٦- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، القاهرة، د.ت، ص ١٦٩، وراجع: ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٩٩٦م، ص ٢٥١.
٢٧- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٢٥٢، ٢٥٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٦م، ج ٥ ص ١٩٩.
٢٨- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, In: R. H. C. D. Arm., Paris 1869. P 91.
٢٩- تولى بلدوين دي بور إمارة الرها الصليبية في عام٤٩٤ هـ/١١٠٠م بعد بلدوين دي بوايون الذي انتقل إلى تولى بيت المقدس؛ وقد تقرب بلدوين دي بور إلى رعاياه في تلك الإمارة ومعظمهم من الأرمن، بل تزوج من الأميرة الأرمينية مورفيا ابنة جبريل حاكم ملطية، وظل يحكم بلدوين في تلك الإمارة حتى وفاته في عام٥١٢ هـ/١١١٨م، انظر:
Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, P 199;- علية عبد السميع الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٨٧، ٨٨.
٣٠- يعتبر بلدوين دي بوايون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، ذلك أن جودفري دي بوابن لم يتوج ملكا ولم يحمل لقب ملك إنما كان حاكما أعلى لإمارة بيت المقدس، ولما مات توج بلدوين دي بوايون في ٢٥ ديسمبر١١٠٠ م في كنيسة العذراء ببيت لحم ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس،

انظر:

– وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية. (تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٠م، ج ١ ص ٤٤٤– ٤٥٦؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٧م، ص ٣٩ –٤٠؛

- Brehier, L.: L' Eglise et L' Orient au Moyen Age, 1928, p.86. Croisades, Paris 1928.

٣١– فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، بيروت ١٩٩٠م، ص ١٤٥.

٣٢– Albert, d'Aix: Historia Hierosolymitana. In: R.H.C.-H.Occ., Vol. IV, P. 675.

-Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, p. 89 -90;

Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Royaume France, de Jerusalem., Paris 1934 -1936, Vol. I, P. 453;

Stevenson, W.B.: The Crusaders in the East, Cambridge 1907,P.88.

٣٣– فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٤٦؛

- Albert, d'Aix: Historia Hierosolymitana. Vol. IV, P. 675;

- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse,Pp.89-90; , Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East. P.88.

٣٤– حران: قصبة ديار مضر، وهي مدينة عظيمة مشهورة بينها وبين الرها مسيرة يوم، انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ص٢٣٥.

٣٥– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٦٩–١٧٠؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٢٥١، ٢٥٢.

٣٦– رضوان بن تتش: رضوان بن تتش بن ألب أرسلان ولد سنة ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢م ونشأ في دمشق وبعد وفاة أبيه تولى أخوه دقاق دمشق في حين تولى هو حلب في عام ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م، انظر: سهيل زكار: المرجع السابق، ص ٣٤٧.

٣٧– Grousset, R.: Histoire des Croisades,Vol. I, P. 453;

Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East.P. 88;

– عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، بيروت ١٩٨٠ م، ص ٢٢٢.

٣٨– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١.

٣٩– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٠.

٤٠– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦؛ ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٠.

٤١– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٢٥٣.

٤٢– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٥؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد، بيروت، د.ت.، ج ٢ ص ٣٨٦؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ج٣ ص ١٧٧.

٤٣– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٥.

٤٤– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦.

٤٥– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٥؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٢٥٤؛

-Grousset, R.: Histoire des Croisades. Vol. I, P. 465.

٤٦ – بالس: مدينة قديمة على شاطيء الفرات، وهي من أعمال حلب، انظر: ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق: عبد الله الدرويش، دمشق١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١٥٨.

٤٧– الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٧؛ ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ص ٣٨٦؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج

٣ ص ١٧٧ .

٤٨- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, P.96.

٤٩- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩ .

٥٠- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩ .

٥١- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩ .

٥٢- الفقيه أبو المرجا: هو يحيى بن الضرير ، كان فقيها جيدا من أصحاب القاضي أبي بكر بن صدقة . انظر: الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

٥٣- بدليس: مدينة من أعمال خلاط على مسيرة ثلاثة أيام منها تقع في واد عميق ، وهي شديدة البرودة ثلوجها كثيرة ، ولكنها عامرة وكثيرة الخصوبة . انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٠٢؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق: محمد مخزوم، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م، ص ٢٨٩ ، وراجع: منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها ، ص ٧٦٩ .

٥٤- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

٥٥- الفارقي: المصدر السابق، ص٢٨١ ، ٢٨٢ .

٥٦- الفارقي: المصدر السابق، ص٢٨٢ .

٥٧- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ص ١٧٨؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص ٣٠؛ زامباور: المرجع السابق، ص ٣٤٨ .

٥٨- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ص ١٧٨؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص ٣٠؛ زامباور: المرجع السابق، ص ٣٤٨ .

٥٩- شاه: لفظ فارسي بمعنى ملك أو سيد ، وكان يطلق على ملوك الفرس أو من تشبه بهم ، وقد يضاف إليه ألفاظ أخرى فيقال شاه أرمن أي ملك الأرمن أو شاه جيهان أي ملك العالم ، والمقصود بأرمن هنا خلاط وأعمالها فكان كل من يتولاها يسمى شاه أرمن. انظر: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار . القاهرة ١٩٨٩م، ص ٣٥٢ .

٦٠- دائرة المعارف الإسلامية ، مادة خلاط، المجلد الثاني ص٤٣٤ ، ومادة أرمينية، المجلد الثالث، ص ٤٧؛ زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٣٤٨؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ج ٢ ص٣٥٦؛ ستانلي لين بول: الدول الإسلامية ، القسم الأول، ص ٣٥٨ .

٦١- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١-٣٦٥؛ الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية . تصحيح: محمد إقبال، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص٢٨٦ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٢. تحقيق: جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٥٣م، ص ١٧ ، ١٨؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٨٠ .

٦٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ، ج١٢، صفحات متفرقة؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٣، تحقيق: جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٥٣م، ص ٢٠٨؛ ابن دقماق: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق: سمير طبارة، بيروت ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م ، ص ٩١؛ الخزنداري: تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر ، تحقيق: عمر تدمري، بيروت١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م، ص٥١ .

٦٣- كان يتزعم الجبهة الإسلامية في الجهاد ضد الصليبيين في تلك الآونة نور الدين محمود بن زنكي الذي بدأ يوجه جهوده إلى توحيد العالم الإسلامي لضرب القوى الصليبية في بلاد الشام. انظر: ابن

القلانسي: المصدر السابق، صفحات متفرقة؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م، صفحات متفرقة؛ عفاف سيد صبره: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص ٤٥٦.

٦٤- يوسف عزت: تاريخ القوقاز، ترجمة: عبد الحميد غالب، القاهرة ١٩٣٣، ١٩٤٠م، ص ٣٧، ٣٨.

٦٥- فضلون بن منجهر: هو من آل شداد وفضلون الذين تولوا بعض المناطق في آران وأرمينية، وقد اشتري آل شداد مدينة آني من السلطان ألب أرسلان في عام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢م ومنذ ذلك الوقت انشطرت الشدادية إلى فرعين فرع يحكم في كنجة، وفرع يحكم في مدينة آني، وظلوا يحكمون في آني حتى أجبروا على تركها في عام ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م للسلطان السلجوقي أرسلان شاه، ثم استولى عليها الكرج في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م، انظر: ستانلي لين بول: الدول الإسلامية، ق ١ ص ٣٦٠.

٦٦- Minorsky, V.: The Turks, Iran and Caucacus in the Middle Ages, London 1978, P.875;

-Brosset, A.: Histoire de la Georgie, Paris 1910, P. 256;

عفاف سيد صبرة: المرجع السابق، ص ٤٥٧.

٦٧- سرماري: ولاية واسعة من أعمال خلاط، تقع بين تفليس وخلاط، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣ ص ٢١٥؛ ابن عبد الحق البغدادي: مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ج ١ ص ٧٠٩، وراجع: منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط، ص ٧٧٢.

٦٨- كركور: يقصد به ملك الكرج جورج الثالث الذي كان يحكم في تلك الفترة، انظر: الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث ٥٥٦ هـ موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٦٩- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٧٠- تولى عز الدين صلتق أرزن الروم عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م، واستمر في حكمها حتى عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م، وقد حكمت أسرة بنو صلتق في أرزن الروم منذ عهد أن عاد إليها السلطان السلجوقي ألب أرسلان بعد معركة ملاذكر في عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م، إلى أن انقرض حكمهم في تلك المناطق في عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م، انظر: ستانلي لين بول: المرجع السابق، ق ١ ص٣٣٦.

٧١- أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، لها قلعة حصينة، كانت من أعمر نواحي أرمينية، فتحها عياض بن غنم صلحا بعد فتح الجزيرة الفراتية، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١ ص١٥٠؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٩٥.

٧٢- نهر الرس: نهر يخرج من قاليقلا ويمر بأران ثم يمر ببورنان ثم بالمجمع فيجتمع مع نهر الكُر وبينهما مدينة البيلقان، ويمر الكر والرس معا فيصبان في بحر جرجان، انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٣ ص ٤٤؛ محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي لأرمينية، بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ص ٢٥، ٢٦.

٧٣- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١؛ الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص٢٨٦؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٨٠.

٧٤- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١.

٧٥- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١.

٧٦- تفليس: بلد بأرمينية الأولى وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة فتحها المسلمون في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وظلت في أيديهم حتى استولى عليها الكرج في عام

٥١٥ هـ/ ١١٢١م، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥، ٣٦.

٧٧- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١؛ الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص٢٨٦.

٧٨- نجم الدين ألبي بن إيلغازي بن حسام الدين تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين وميافارقي، تولى نجم الدين ولاية ماردين وميافارقين بعد وفاة والده حسام الدين في عام٥٤٧ هـ/١١٥٢م، انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، بيروت، د.ت، ج ٣ ص ٢٦.

٧٩- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث ٥٥٦ هـ موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٨٠- دوين: بلدة في نواحي آران في آخر حدود أذربيجان وقرب تفليس، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٩١.

٨١- شمس الدين ايلدكز: مؤسس دولة أتابكة أذربيجان، وكان ايلدكز مملوكا للسميري وزير السلطان مسعود السلجوقي، ثم أصبح ضابطا فعهد إليه السلطان بتربية الطفل أرسلان بن طغرل الثاني فأصبح ايلدكز أتابكا له، ثم تزوج ايلدكز أرملة السلطان طغرل الثاني، فعينه السلطان مسعود واليا على أذربيجان في عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦م فاسس أتابكية أذربيجان، وأصبح الحكم متوارثا بين أبنائه، انظر: عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٢١.

٨٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص٢٨٦، وراجع ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ٨٠.

٨٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص٢٨٦.

٨٤- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث٥٥٧ هـ بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٨٥- تولى السلطنة في الدولة السلجوقية السلطان أرسلان شاه بن طغرل الثاني في عام ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م بعد مقتل السلطان سليمان شاه الذي أساء السيرة حتى دبر الأمراء مقتله، ثم أرسلوا إلى ايلدكز ليرسل إليهم ابن زوجته أرسلان شاه بن طغرل الثاني فأرسله إليهم في همذان واعتلى عرش السلطنة السلجوقية، انظر: عبد النعيم حسنين: المرجع السابق، ص ١٢١.

٨٦- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧.

٨٧- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧.

٨٨- نخجوان: مدينة بأذربيجان، ويقال من آران تلاصق أرمينية، وهي المعروفة عند العامة بنقجوان، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

٨٩- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧، ١٥٨، وتعني كلمة إيجي باللغة التركية الأخ الكبير، انظر: الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٨، حاشية ٧.

٩٠- الحسيني: المصدر السابق، ص، ١٥٨.

٩١- الحسيني: المصدر السابق، ص، ١٥٨، ١٥٩.

٩٢- الحسيني: المصدر السابق، ص، ١٥٩.

٩٣ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ص ٢٨٧.

٩٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١١ ص ٢٨٧، ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٨٠.

٩٥- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٦٠، ١٦٢، الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٢٨٧.

٩٦- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٢.

٩٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٢٨٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ٨٠.

٩٨- جنزي: مدينة بأران بين شروان وأذربيجان ويسميها العامة كنجة، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢ ص ١٧١.

٩٩- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠٠- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠١- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠٢- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠٣- ذكر الفارقي- وهو شاهد عيان على أحداث تلك الفترة- أن ايلدكز هو الذي قاد تلك الحملات في عامي ٥٧٠، ٥٧١ هـ، في حين ذكر ابن الأثير وفاة ايلدكز في عام ٥٦٨ هـ، انظر: الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٣٨٨، ٣٨٩.

١٠٤ - الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥.

١٠٥- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥.

١٠٦- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥.

١٠٧- راجع عن ذلك بالتفصيل: عفاف صبرة: المرجع السابق، ص ٤٦٤، ٤٦٥.

١٠٨- أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، د. ت.، ج ٢ ص ٣٨.

١٠٩- أبو شامة: الروضتين، ج ٢ ص ٣٨.

١١٠- البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الأول ج ٢ ص ٤١٣.

١١١- مظفر الدين كوكبوري: هو مظفر الدين بن زين الدين علي صاحب إربل، كان ملكاً شجاعاً جواداً غازياً وله دور كبير في جهاد الصليبيين، وكوكبوري اسم تركي معناه الذئب الأزرق، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ١٢١.

١١٢- ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٠٢-١٠٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٢ - ٤٨٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب، ج ٢ ص ١١٧، ١١٨.

١١٣- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٩.

١١٤- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٨، ٤٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢ ص ٣٨.

١١٥- حرزم بليدة في واد ذات نهر جار وبساتين تقع بين ماردين ودنيسر من أعمال ماردين، انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٤٠.

١١٦- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢ ص، ٣٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٣٤.

١١٧- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٩، وراجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٣٤.

١١٨- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٣٦ - ١٣٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٤٩٣؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

١١٩- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٨، تحقيق: محمد أمين ومحمد حلمي أحمد، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٣٨٦.

١٢٠- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٣، ٥١٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨.

١٢١- أبو شامة: الروضتين، ج٢ ص ٦٣.

١٢٢– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ، بيروت ١٩٨٢م، ص ٣ ، ٦ .

١٢٣– أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٣ ، وراجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨ .

١٢٤– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢ ص ٦٣؛ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨؛ النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

١٢٥– ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٧ .

١٢٦– ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٧ ، ٢١٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

١٢٧– ابن شاهنشاه: المصدرالسابق، ص ٢١٨؛ أبو شامة: المصدرالسابق، ج٢ ص ٦٣؛ ابن واصل: المصدرالسابق، ج ٢ ص ١٦٩ .

١٢٨– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤ .

١٢٩– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤ .

١٣٠– ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٨ ، ٢٢١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢ ص ٦٣ .

١٣١– ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٨ ، ٢١٩؛ – ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٥– ٥١٦؛ – ابن واصل: المصدر السابق، ج٢ ص ١٦٩ .

١٣٢– ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢٢١ ، وراجع: – أبو شامة: الروضتين، ج٢ ص ٦٣ .

١٣٣– ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٦٢ ، ٦٣ .

١٣٤– ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٦٢ ، ٦٣ .

١٣٥– عن أحداث الحملة الصليبية الثالثة وصلح الرملة ، انظر: – سعيد عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٧١ ، ١٩٨٦م، ج ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦؛

-Painter, S.: The Third Crusade Richard Lion Hearted and Philip Augustus. In: Setton, K. M., A History of the Crusades.Vol.11, Pennsylvania, 1962, Pp. 45 -85.

١٣٦ – ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٩٥ .

١٣٧– ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٩٥ ، ٩٦ .

١٣٨– ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٩٦ .

١٣٩– ابن شداد: سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧؛ – ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ٤١٦ – ٤٢٠ .

١٤٠– ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ١٠٢– ١٠٣ .

١٤١– ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ١٠٣ .

١٤٢– ابن واصل: المصدر السابق، ج٣ ص ٢١؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ترجمة: إسحاق أرملة، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٢٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٢٥ .

١٤٣– ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ٣ ق١، تحقيق يحيى عبارة، دمشق ١٩٧٨م، ص ٨٠ .

١٤٤– هزار ديناري: اسمه اقسنقر ولقبه بدر الدين، جلبه تاجر جرجاني إلى خلاط فاشتراه منه شاه أرمن إبراهيم بن سكمان، وأعجب به وجعله ساقيا له ولقبه هزار ديناري وأصبح خشداشا لسيف الدين بكتمر أي زميلا له، وزوجه سيف الدين بكتمر من ابنته، ولما تولى سيف الدين بكتمر بعد وفاة شاه أرمن إبراهيم بن سكمان أصبح هزار ديناري من أكابر الأمراء، ثم طمع في ملك خلاط مكانه، فدبر قتل سيف الدين بكتمر وقام باعتقال ابنه محمد الذي كان في السابعة من عمره مع أمه، وتولى بدر الدين أقسنقر

هزار ديناري مملكة خلاط في عام ٥٨٩ هـ. انظر: - أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٨٨، ٨٩.
١٤٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ١٠٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٢٦.
١٤٦- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٣٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ١٩٧٩م، ج ٤، ص ٢٧٧.
١٤٧- أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٨، ٨٩، ٩٤.
١٤٨- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ١٠٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٢٦؛ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٣٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب في خبر من ذهب، ج٤ ص ٢٧٧.
١٤٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٣.
١٥٠- الملكة ثمارا الكرجية: هي الابنة الوحيدة للملك جورج الثالث. عرف عصرها بالعصر الذهبي للمملكة لأنها اهتمت بالجيش وحققت انتصارات كبيرة، ويعتبر عهدها إيذانا بالاستقلال التام عن الدولة البيزنطية، كما يعتبر زوجها داود سوسلان محركا لها ولجيوشها ضد البلدان الإسلامية المجاورة، انظر: عفاف سيد صبرة: المرجع السابق، ص ٤٦٦، ٤٦٧.
١٥١- أزبك بن البهلوان: هو أحد اتابكة أذربيجان التي أسسها ايلدكز، وهوالابن الرابع لمحمد بن البهلوان بن ايلدكز، انظر: الحسيني: المصدر السابق، صفحات متفرقة؛ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، صفحات متفرقة.
١٥٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٨٣، ١٨٤؛ ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج ٩، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م، ص ١٠١، ١٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٧٧م، ج ١٣، ص ٣٤.
١٥٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٠٤؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٠م، ص ١٩٨؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥١.
١٥٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٠٤، ٢٠٥؛ - ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ١٥٢.
١٥٥- عفاف صبره: المرجع السابق : ٤٧٢.
١٥٦- ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٠.
١٥٧- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٤٠، ٢٤١؛ - ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ١٧٧.
١٥٨- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ص٢٤١.
١٥٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٣.
١٦٠- أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٣ ص ٩٤؛ - ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٠.
١٦١- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٠٤، ٢٠٥. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٨؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ١٥١.
١٦٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٥؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ٢٠٦؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٤٦.
١٦٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٥، ٢٥٦.
١٦٤- أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٤؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٠.
١٦٥- عن تأسيس ولاية خلاط الأيوبية انظر: منى الشاعر: التوسع الأيوبي في أرمينية الكبرى وتأسيس ولاية خلاط الأيوبية، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد ٢٤ لسنة ٢٠٠٦، ص: ٦١٣- ٦٥٤.

المصادر والمراجع

أ- المصادر العربية والمعربة:

- ابن الأثير (عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بالجزري)، ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م: «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م؛ «الكامل في التاريخ»، ١٢ جزءا، بيروت ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٧٩، ١٩٨٣م.
- ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك)، ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م: «الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب»، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.
- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)، ت:٣٦٧هـ / ٩٨٧م: «صورة الأرض»، بيروت د .ت.
- ابن خلدون (عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي)، ت: ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م: « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» المعروف بـ«تاريخ ابن خلدون»، بيروت ١٩٧١م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م: «وفيات الأعيان»، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨-١٩٧١، ١٩٩٤م.
- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي)، ت: ٨٠٩ هـ /١٤٠٧م: «نزهة الأنام في تاريخ الإسلام»، تحقيق: سمير طبارة، بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م
- ابن الساعي (أبو طالب على بن أنجب تاج الدين)، ت: ٦٧٤هـ/١٢٧٥م: «الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير»، ج ٩، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد ١٣٥٣هـ/١٩٣٤ م.
- ابن شاهنشاه (محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة الأيوبي)، ت: ٦١٧هـ / ١٢٢٠م: «مضمار الحقائق وسر الخلائق»، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م.
- ابن الشحنة (أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي)، ت: ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م: «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.
- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم)، ت: ٦٣٢هـ/١٢٣٨م: «سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٢م.
- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم)، ت: ٦٨٤هـ/١٢٨٥م: «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، الجزء الأول بقسميه، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق ١٩٩١م، الجزء الثاني بقسميه، تحقيق: سامي الدهان، دمشق١٩٦٢م، الجزء الثالث، وهو ثلاثة أقسام، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق ١٩٧٨م.

- ابن عبد الحق البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن)، ت: ٧٣٩هـ /١٣٣٨م: مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاعس، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.
- ابن العبري (العلامة غريغوريوس أبو الفرج جمال الدين الملطى)، ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م: «تاريخ مختصر الدول»، بيروت ١٩٨٠ م؛ تاريخ الزمان، ترجمة: إسحاق أرملة، بيروت ١٩٨٦م.
- ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله بن العديم)، ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦١م: «زبدة الحلب في تاريخ حلب» تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٩٩٦م.
- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي)، ت: ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م. «شذرات الذهب في خبر من ذهب»، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي)، ت: ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م: «ذيل تاريخ دمشق»، القاهرة ، د.ت.
- ابن كثير(عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر)، ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م: البداية والنهاية ، بيروت ١٩٧٧م.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل)، ت: ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الأجزاء ١-٣ تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٧، ١٩٦٠م، والأجزاء ٤, ٥ تحقيق: حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢، ١٩٧٧م.
- ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي)، ت: ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م: تاريخ ابن الوردي، النجف ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م؛ خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة د . ت.
- أبو شامة (شهاب الدين محمد عبد الرحمن بن إسماعيل)، ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٦م: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، د. ت.
- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، ت: ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م: ز المختصر في أخبار البشر، بيروت، د.ت.؛
تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.
- أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى)، ت: ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م: «النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر» والقاهرة، القاهرة ١٩٣٦م.
- الحسيني (صدر الدين بن علي)، ت: ٥٧٥هـ/١١٨٠م: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح: محمد إقبال، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الخزنداري(قرطاي العزي)، ت: بعد ٧٠٨هـ /١٣٠٨م: تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)، ت: ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد والسعيد بسيوني زغلول، بيروت د. ت.
- الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي)، ت: ٥٩٠ هـ/ ١٠٩٤م: تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، بيروت ١٩٧٤م؛ تاريخ ميافارقين حوادث عام ٥٦٥ هـ، موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق.
- فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، بيروت ١٩٩٠م.
- القزويني (زكريا بن أحمد بن محمود)، ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت د. ت.
- المقدسي(أبو عبد الله محمد بن أحمد بن البناء البشاري المقدسي)، ت: ٣٨٨ هـ/ ٩٩٧م: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م.
- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، ت: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م: نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٨، تحقيق: محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٩٩٢م.
- وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية- تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت١٩٩٠م.
- اليافعي (أبو محمد عبد الله بن اسعد بن سليمان)، ت: ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦م: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي)، ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م: معجم البلدان، بيروت ١٩٨٨، ١٩٩٧م.

ب- المراجع العربية والمعربة:

- أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، القاهرة ١٩٦٩م.
- أرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٧م.
- حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٨٩م.
- دائرة المعارف الإسلامية: أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كبار المستشرقين في العالم تحت إشراف الإتحاد الدولي للمجامع العلمية، ترجمها إلى العربية: زكي خورشيد ،أحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، القاهرة ١٩٣٣م.
- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه:

زكي محمد حسن، وحسن محمود، ترجمه: سيدة إسماعيل كاشف، حافظ حمدي، أحمد ممدوح حمدي، القاهرة ١٩٥١م.
– ستانلي لين بول: الدول الإسلامية، تصحيح: بارتولد وخليل أدهم، ترجمه من التركية: محمد صبحي فرزات، دمشق١٩٧٣م.
– سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٧١، ١٩٨٦م.
– سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت ١٩٧٢م.
– عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م.
– عفاف سيد صبره: «دراسات في تاريخ الحروب الصليبية»، القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
– علية عبد السميع الجنزوري: «إمارة الرها الصليبية»، القاهرة ١٩٧٥م.
– عماد الدين خليل: «الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ٤٦٥-٨١٢ هـ/١٠٧٢-١٤٠٩م»، بيروت ١٩٨٠م.
– محمود شيت خطاب: «قادة الفتح الإسلامي لأرمينية»، بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م.
– منى سعد محمد الشاعر: «الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها وتوطيد النفوذ الإسلامي في أرمينية»، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإنسانية العدد ٢٤، لعام ٢٠٠٦ م؛
–«التوسع الأيوبي في أرمينية الكبرى وتأسيس ولاية خلاط الأيوبية»، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد ٢٤ لسنة ٢٠٠٦.
– يوسف عزت: تاريخ القوقاز، ترجمة عبد الحميد غالب، القاهرة ١٩٣٣، ١٩٤٠م.

ج- المصادر والمراجع الأجنبية:

- Albert, d'Aix: Historia Hierosolymitana. In: R.H.C.-H.Occ., Vol. IV.

- Bréhier, L.: L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Croisades, Paris 1928.

- Brosset, A.: Histoire de la Georgie, Paris 1910.- Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Royaume France, de Jérusalem, Paris 1934 -1936, Vol. I.

- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, In: R. H. C. D. Arm., Paris 1869.

- Minorsky, V.: The Turks, Iran and Caucasus in the Middle Ages. London 1978.

- Augustus. In: Setton, K. M., A History of the Crusades.Vol.11,Pennsylvania 1962.

-Setton, K.M.: A History of the Crusades, Pennsylvania, Vol. I, 1969 & Vol. 11, 1962.

- Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East; Cambridge 1907

د. أشرف سمير توفيق محمد (*)

السياسة الخارجية
لدولة الشاة البيضاء فى آسيا الصغرى

فى الأطراف الشمالية للسلطنة المملوكية، ترتب على زوال دولة الإيلخانيين (مغول إيران) إعلان جماعة من الرؤساء البارزين وولاة الأقاليم استقلالهم فقامت عدة دول من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان، واستطاع أمراء هذه الدول أن يندفعوا غرب الأناضول إلى الحدود البيزنطية، وتمكنوا من إقامة دولهم(١)، وامتدت هذه الدول على طول الحدود الشمالية الشرقية لدولة المماليك، التى كانت تشمل فى ذلك الوقت البلاد الواقعة من الشلال الأول جنوبا، وأعلى الفرات شمالا بما فى ذلك بلاد الشام، وأجزاء من آسيا الصغرى حتى طرسوس وملطية(٢).

وأغلب تلك الدول قد ربطهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حينا، والثورة والعدوان أحيانا أخرى وفق ما تمليه الظروف الخاصة والعامة التى أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها(٣)، وقد أقام التركمان لأنفسهم فى تلك المناطق دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين، وكان من المفروض أن تكون تابعة للسلطنة المملوكية فى مصر والشام، ولكن لم تظل هذه الدول على ولائها للمماليك، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج عليها ومهاجمة أراضيها مما جعل الأطراف الشمالية للسلطنة المملوكية فى شمال حلب وأعالى الفرات وشرق آسيا الصغرى مثار نزاع دائم بسبب تمرد هؤلاء التركمان، فنجد أن كثيرا ما قنعت الحكومة المملوكية بالسيادة الاسمية على رؤساء دول التركمان(٤)، وأعطتها مساحة من التصرف فى شئونها الداخلية مع المحافظة على الولاء والطاعة للسلطنة المملوكية .

ومن هذه الدول التركمانية ذات الأهمية بمكان فى التاريخ السياسى لتلك المنطقة دولة الشاة البيضاء أو أصحاب الخراف البيضاء أو الآق

(*) مدرس كلية دار العلوم - جامعة المنيا

قيونلية أو البايندرية(٥) .

الجذور التاريخية لنشأة دولة الشاة البيضاء :

تعتبر دولة الشاة البيضاء عشيرة تركمانية هاجرت من تركستان إلى آذربيجان ثم إلى نواحي ديار بكر (آمد) (٦) ثم أسكنت في النهاية الأرض الواقعة بين آمد والموصل، ويرجع نسبها إلى (بايندر) وهو الابن الأكبر (لكوك خان بن أغوز خان) واستطاعوا أن يكونوا دولتهم في تلك المنطقة في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويذكر أن أول من ظهر من زعماء هذه الدولة (طور على) أو (در على) التركى الأصلى الملقب بعلاء الدين التركماني، ثم ولي بعده ولده (قتلغ - قتلى بك) الملقب بفخر الدين، إلا أن المؤسس الحقيقي لهذه الدولة هو (بهاء الدين قراعثمان بن قتلغ) (٧) الملقب بـ(قرايولك) (٨) وقد نشأ عثمان قرايلوك في كنف الأراتقة بماردين(٩) حيث كان أبوه من جملة أمراء تلك الدولة، وعند قدوم تيمورلنك إلى منطقة آسيا الصغرى، انحاز إليه عثمان قرايلوك، وصار من أعوانه هو وصحبته وعشيرته، وساعده في معاركه ببلاد الشام، حيث كان عثمان جاليش أي (مقدم الجيش) لتيمورلنك، فكافأه تيمورلنك على حسن خدمته، بأن منحه أرضا في أرمينية، ومنطقة الفرات العليا عام ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م مقابل خدماته له، وكانت هذه المكافأة هي النواة الأولى لنشأة دولة الشاه البيضاء (آق قيونلية) في ديار بكر (آمد) (١٠)

واستطاع عثمان قرايلك بشجاعته وقوته، ونفاذ بصيرته أن يثبت قواعد دولته، ويعمل على توسيع رقعتها إما بالمصايرة أو الغدر أو الحيلة «حيث كان مغامراً عالي الهمة»، فصارت دولته فيما بعد صاحبة السلطة الشاملة في بلاد فارس، وبالتالي كانت لدولته علاقات متعددة ومتشابكة مع القوى المجاورة له مع السلطنة المملوكية في مصر والشام، أو العثمانيين في بلاد الأناضول، أو مع الدول التركمانية الأخرى في آسيا الصغرى، وسوف نتناول هذه العلاقات فيما يلي .

دولة الشاه البيضاء والسلطنة المملوكية :

كان لموقع دولة الشاه البيضاء أثر في علاقاتها مع القوى الإسلامية المتاخمة لحدودها، وقد تمثلت هذه العلاقات في التعاون العسكري لصد الأخطار المشتركة حينا، أو الحرب حينا أخرى، وربما العصيان والانشقاق أحيانا.

وقد ارتبطت هذه الدولة بسلطنة المماليك بعلاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية، والثورة والعدوان وفق ما تمليه المصالح الخاصة للسياسة

التوسعية لأمراء تلك الدولة، حيث كانت الحدود بين الاقطاع الأصلى لدولة الشاه البيضاء (ديار بكر) وبين دولة سلاطين المماليك على طول ثنية نهر الفرات مما أدى إلى وجود احتكاك مباشر بين السلطنة المملوكية التى من المفروض أن تتبعها دولة الشاه البيضاء سياسياً.

وقد ظهر هذا الاحتكاك فى عام ٨٠٩هـ /١٤٠٦م حيث كان لعثمان قرايلك دور واضح فى القضاء على الأمير (جكم) الخارج عن السلطنة، والذى بويع له بحلب سلطانا، ولقب بالملك العادل، حيث قام هذا الأمير بحمله على دولة التركمان ليضمن ولائهم له، فخرج من حلب فى نفس العام ثم عبر الفرات من البيرة، وعندما علم قرايلك بذلك أراد أن يدفع خطر هذا الأمير عنه وعن دولته، فعرض عليه الصلح وان يحمل إليه هدايا من الجمال والأغنام وغيرها، ولكنه رفض فسار حتى ماردين والتقى هناك عسكر جكم وقرايلك، وانهزم التركمان فى بادئ الأمر وقتل إبراهيم بن عثمان قرابيلك، فتراجع التركمان إلى آمد واعتصموا بها فاقتحم جكم المدينة حتى توسط بساتين آمد، وكان قرايلك قد امر بارسال المياه فى أرض المدينة حتى وحلت الأرض، وأخذ جند قرايلك يلقون جكم وجنوده بالحجارة، والسهام، فلم يتمكن جكم من الفرار لضيق المكان ووحولة الأرض، حتى اصيب بحجر فى رأسه فسقط عن فرسه، فقطعوا راسه، وانكسرت عساكره، وتفرقوا وغنمت التركمان منهم مغانم كثيرة، ما بين أموالاً جزيلة وخيولا كثيرة وبغالا وجمالا(١١) وبعث قرايلك برأس جكم إلى السلطان فرج فى مصر ولاقى ذلك استرضاء السلطان (١٢) فولاه الناصر فرج نيابة الرها (١٣) جزاء قضائه على جكم «فقوى عثمان قرايلك بذلك وضخم ولا زال فى نمو»(١٤) واستولى بعد ذلك على ماردين وقتل صاحبها وكان ذلك فى عام ٨١١هـ /١٤٠٨م (١٥)

وفى عهد السلطان المؤيد شيخ كانت العلاقة بين عثمان قرابيلك والسلطنة المملوكية هادئة وتتسم بالود وتبادل الهدايا، فأرسل عثمان قرايلك فى عام ٨١٦هـ /١٤١٣ م قاصدا من عنده إلى السلطان ومعه رسالة تتضمن طاعة عثمان قرابيلك للسلطان المؤيد شيخ (١٦) ولكن سرعان ما تبدل ذلك الهدوء ففى عام ٨٢٠هـ / ١٤١٧م أغار عثمان قرايلك على حديثه بن سيف بن فضل أمير العرب الموالى للسلطنة المملوكية فأرسل السلطان إلى قرا يوسف زعيم دولة الشاة السوداء بتبريز(١٧) بالإغارة على قرايلك لتأديبه، فبادر قرايلك بارسال ابنه حمزة وصحبته نائبه شمس الدين أميرزه بهدية من خيل وشعير للسلطان المؤيد وطلب حمايته من قرا يوسف(١٨) فأرسل السلطان إلى قرا يوسف يأمره بالرجوع عن عثمان وشفع فيه فرجع عنه(١٩).

واستمر الحال هادئا بعد تلك الواقعة بين الدولة وبين سلطنة المماليك حتى سلطنة (الأشرف برسباى) تغير ما بينهما، حيث انتهز عثمان قرايلك فرصة النزاع القائم بين السلطان المملوكى برسباى وبين شاه رخ بن تيمورلنك حول مسألة النقود وكسوة الكعبة[٢٠] فقام عثمان قرايلك بمهاجمة خرتبرت (خربوط) [٢١] بعد وفاة متوليها واستولى عليها وسلمها لولده كما أوغل داخل حدود دولة المماليك، ويبدو أن ذلك كان بتحريض من شاه رخ، الأمر الذى جعل برسباى يبادر بارسال حملة من مصر انضم إليها عساكر دمشق وعلى رأسهم الأمير سودون نائب الشام واتجهوا نحو مدينة الرها، فقام أميرها (هابيل بن عثمان قرايلك) بتحصينها بعد أن جمع فيها خلائق من أهل الضياع بمواشيهم وعيالهم وأموالهم كدروع بشرية، وقام هابيل برمى العساكر الكشافة المحاصرين للمدينة بالنشاب من فوق أسوارها، واستطاع أن يقتل عددا كبيرا منهم وعلق رؤوسهم على أسوار المدينة، فأرسل العسكر السلطانى إلى أهل الرها بالأمان على أنهم يسلموا المدينة، ولكنهم رفضوا وأصروا على المقاومة، فجد العسكر الشامى والمصرى فى حصارها ونصبوا على القلعة المدافع، وأخذوا فى ضربها، فضعف أمر القلعة وطلب أهلها الأمان فكفوا عن قتالهم وطلبوا تسليم القلعة فنزل أميرها هابيل ومعه تسعة من أعيان الأمراء فى يوم الأحد ٢٢ شوال ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م، فقبض عليه، ورحل هو ومن معه إلى القاهرة حيث سجن فى قلعتها، ثم ركب الأمراء والنواب إلى قلعة الرها ونهبوها، وأسروا من بها من النساء والأطفال، وقتلوا من بالمدينة من الرجال[٢٢] .

وحاول عثمان قرايلك حمل برسباى على إطلاق سراح ولده هابيل، ولكن محاولاته باءت بالفشل، مما دفع عثمان أن يقوم بالإغارة على حلب ونهبها فى عام ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م[٢٣] ثم توجه إلى ماردين وملاطية وعينتاب ونهبها أيضا، فتهيأ برسباى بإعداد جيش لتأديب عثمان قرايلك ولكن ما لبث أن عاد الجيش بعد وصوله إلى الريدانية بعدما علم أن قرايلك عاد إلى بلاده فى نفس العام[٢٤].

ولم يكتف عثمان بذلك بل بالغ فى الاستهانة بسلطان دولة المماليك ومما يدل على ذلك إرساله له فى عام ٨٣٦هـ/١٤٣٣م هدية إلى السلطان برسباى، وكانت الهدية مكونة من مرآة مكفته بالذهب، وخروف ذى إليتين، خلعة من مخمل أحمر مرموقة بالذهب، وعدة اثواب مخمل وصقور صيد، ففطن برسباى لمغزى هذه الهدية والإهانة المقصودة بها، فالمرآة ترمز إلى أن السلطان وأمراءه مثل النساء، والخروف يرمز إلى أنهم مثل النعاج، والخلعة على

اعتبار أن برسباى نائبا لقرايلك، فقام برسباى فى الحال بالباس الخلعة لأحد الأشخاص المضحكين، فرقص بها فى حضرته، ثم أحرقها على مشهد من قصاد قرايلك وذبح الخروف، «ثم سأل القصاد استاذكم أن أراد أن يبهدل أحدا أيش يعمل فيه فيه ؟ فقالوا : يرميه فى الماء»، فأمر برسباى بإلقاء القصاد فى الماء وأخرجهم وقص أذناب خيولهم وأعادهم ومعهم إنذار نهائى من السلطان، فقال لهم : «قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات»[٢٥].

فخرج برسباى بجيشه فى مارس بعد عيد الفطر عام ٨٣٦هـ/١٤٣٣م وصبحته الخليفة المعتضد، والمؤرخ ابن تغرى بردى، والقضاة، وعدا الفرات وقصد آمد، وقد هال أهل آمد ما رأوه من كثرة العساكر وتلك الهيئة التى قل أن تجتمع فى عساكر الإسلام مثلها حتى ضاق عليهم اتساع البرارى، وقبل وصول برسباى إلى آمد ترك قرايلك آمد لأبنه بعد أن حصنها وخرج إلى قلعة أرقنين[٢٦] على يسار المتوجه إلى آمد، وقبل أن يخرج من آمد أمر أن يطلق الماء على أراضى آمد من خارج البلد من نهر دجلة، حتى يعوق ذلك تقدم العسكر، ولكن استطاع العسكر السلطانى أن يصل إلى خندق آمد بعد قتال شديد، ووصلوا إلى أبراجها ونصبوا عليها المجانيق، فكانت مكاحل النفط ترمى كل يوم بالمدافع الكثير، ولكن حامية آمد استماتت فى الدفاع عنها، رغم أن العسكر السلطانى كانت تنهب قرى آمد المحيطة بها وتحصد زرعها، فطالت إقامة السلطان وحصاره لآمد أكثر من خمسة وثلاثين يوما، وفى أثناء ذلك قتل أعوان قوايلك الملك الأشرف صاحب حصن كيفا أثناء توجهه إلى السلطان، فأمر السلطان بتتبع قتلة الملك الأشرف، فوافوا جماعة كبيرة من أمراء قرايلك قاتلوهم وأسروا منهم زيادة عن عشرين نفسا، ثم وافوا جماعة أخرى، وأسروا منهم ثلاثين من جملتهم (قرا محمد) أحد أعيان أمراء قرايلك فوسط السلطان منهم عشرين رجلا، ثم ندب جماعة من الأمراء النواب للتوجه إلى قلعة أرقنين لإجبار قرايلك على النزول منها، فكسر العسكر السلطانى وقتل منهم جماعة كبيرة من أمرائه، ثم جاء مدد إلى العسكر السلطانى استطاعوا بعدها أن يهزموا القرايلكية، فتعلق قرايلك بقلعة أرقنين وتحصن بها، «ونُهبت عساكره ومزقوا كل ممزق» [٢٧]

ومع طول بقاء الجيش المملوكى ساءت أحواله بسبب الغلاء فخشى برسباى من وقوع فتنة بين عساكره فترددت الرسل بين السلطان وعثمان قرايلك فى الصلح، فوافق السلطان على الصلح وتعهد زعيم الشاة البيضاء أن يكون تابعا مخلصا للسلطان، فأرسل السلطان إلى عثمان قرايلك خلعة وفرس بسرج ذهب وكنبوش مزركش وقماش مذهب ونحو ثلاثين قطعة من القماش

السكندري[٢٨] وفي المقابل أرسل عثمان أربعة أكاديش[٢٩] يساوي ثمنها أربعة آلاف درهم، واستقر الصلح بينهما وعاد برسباي إلى مصر في أواخر عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٣[٣٠].

ولكن قرايلك استمر في تمرده والنكوث بوعده، الأمر الذي سبب لبرسباي متاعب كثيرة، ففي عام ٨٣٧هـ/١٤٣٤م أراد قرايلك إعادة الرها التي استولى عليها السلطان من قبل، فحدث قتال هائل بين أعوان قرايلك والأمير إينال العلائي نائب الرها من قبل السلطان المملوكي[٣١].

كما كان يساعد الخارجين عن طاعة السلطان، فيذكر ان جانبك الصوفي الخارج على السلطان قصد الأمير محمد بن عثمان قرايلك صاحب قلعة (جمر كشك) فأكرمه محمد هذا وقواه، فشن من عنده الغارات على مدينة دوركي ونهبوا نواحيها [٣٢] فضلا عن الإمعان في السخرية بالسلطان المملوكي، فعندما أرسل رموز ولائه وخضوعه له أرسلها بطريقة وقحة، ففي المحرم عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م قدم قاصد قرايلك ومعه كتاب منه وتسعة أكاديش هدية للسلطان وبعض النقود النحاسية وعليها اسم السلطان، وهذه النقود سببت إثارة السلطان عليه وعزمه على الانتقام منه، ولكن أجل ذلك إلى حين [٣٣] ومما زاد من حنق برسباي على عثمان قرايلك أنه علم أن شاه رخ بن تيمورلنك أرسل إلى قرايلك وأولاده خلع على أن يكون نائبه في ممالكه وقبل قرايلك ولبس تلك الخلع[٣٤]

ولم يلبث برسباي ان انتهز فرصة استحكام الخلاف بين دولتي الشاه البيضاء والشاة السوداء وأعلن تأييده للأخيرة، حيث سار اسكندر بن قرا يوسف زعيم الشاة السوداء من عاصمته تبريز إلى قتال قرايلك حتى نزل بالقرب من (أرزن الروم) فبلغ قرايلك ذلك فجهز على بك بن عثمان في فرقة من العسكر والتقى الفريقان فاستظهر عسكر قرايلك وكسر عسكر اسكندر ولكن ما لبث أن ثبت وحمل حملة رجل واحد على عسكر قرايلك فكسروه خارج أرزن الروم فأسرع قرايلك وعسكره قاصدين أرزن الروم ليتحصنوا بها فحيل بينهم فرمى قرايلك بنفسه إلى خندق القلعة حتى لا يقع في أيدي زعيم الشاه السوداء فوقع على حجر فشدخ دماغه، ثم حمل إلى القلعة بحبال، ودام بها أياماً ثم مات في العشر الأول من صفر عام ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م [٣٥] ودفن فاجتهد اسكندر بعد دخوله المدينة وعرف قبره، وأخرجه وقطع راسه ورأس ولديه وثلاثة رؤوس من أمرائه وأرسلها إلى مصر حيث علقت على باب زويله [٣٦]

وتولى أمر دولة الشاة، البيضاء بعد قرا عثمان ابنه على بك [٣٧] الذي أمضى سني حكمه (٨٣٩-٨٤٢هـ /١٤٣٤-١٣٤٨م) في محاربة أخية حمزه مستعينا

عليه بمراد الثاني سلطان آل عثمان وجقمق سلطان مصر، حتى استطاع حمزة متملك ماردين أن يخرج أخيه عليً من آمد ويتملكها منه[٣٨]

وكانت الأمور هادئة بين حمزة والسلطة المملوكية، ففي عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧ أرسل حمزة هدية للسلطان المملوكي وكتاب يتضمن دخوله في طاعة السلطان وأنه اقام الخطبة وضرب السكة بأسم السلطان المملوكي، وكان من جملة الهدايا دراهم ودنانير بسكة السلطان [٣٩] فأكرم السلطان قصاد الأمير حمزة، وأرسل معهم رسالة يشكره فيها وتشريف له بنيانه السلطانة بممالكه، وفرس وقماش مذهب وهدية هائلة ما بين قماش سكندري وسلاح وغيره ونسخة يمين [٤٠]واستمرت العلاقات ودية بين سلطان المماليك وبين حمزة أمير دولة الشاة البيضاء حتى وفاة حمزة عام ٨٤٨هـ /١٤٤٤م[٤١]

وتولى بعده الأمير جهان كير بن على بك بن قرا عثمان على آمد[٤٢] وانشغل جهان كير بنزاعات داخلية مع اخوته وبنزاعات خارجية مع جهان شاه بن قرا يوسف زعيم الشاه السوداء، وقد تدخل السلطان جقمق في فض النزاع الذي نشب بين جهان كيروبين قاسم بن قرا عثمان عام ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م وقام جقمق بنصرة الأمير قاسم بن قرا عثمان الذي لجأ إليه، وآمده بالمال والسلاح وذلك ليحد من نفوذ جهان كير، وأمر قاسم على إمارة الرها[٤٣] فاتخذ جهان كير موقفا معاديا من السلطان جقمق فأراد الهجوم على حلب فأرسل السلطان المملوكي إلى القوات الحلبية وتركمان دلغادر للتأهب لصد جهان كير[٤٤] فلما ضاق الأمر على جهان كير أرسل أمه إلى البلاد الحلبية لتستأذن نواب الشام للقدوم إلى مصر لاسترضاء السلطان على ولدها والدخول تحت طاعة السلطان فمنعوها فرجعت إلى آمد[٤٥]. وفي غضون ذلك استطاع أخوة الأمير أوزون حسن (حسن الطويل) ان ينتزع آمد من أخيه ويتملكها عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٢ م وأرسل إلى السلطان جقمق مفاتيح آمد وبعض الهدايا فشكره السلطان وأعاد إليه المفاتيح أقره عليها [٤٦] ثم دخل أوزون حسن (حسن الطويل) في صراع طويل مع أخيه حتى استطاع أن ينتزع منه جميع المدن التي تحت يده ن وبعدها بدأ نجم حسن الطويل يعلو ونفوذه يقوى حتى شمل حكم الأقاليم التابعة لدولة الشاه البيضاء[٤٧] في عام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م ثم أصبح حسن الطويل هذا أميرا لدولة الشاه البيضاء[٤٨]

وفي عهد حسن الطويل اتخذت العلاقات بينه وبين سلاطين المماليك منحنى آخر يغلب عليها النفاق والحيلة، فالصراع الذي كان بين حسن الطويل والعثمانيين حدا به أن يكون لبقاً مع سلطان مصر والشام، ولكنه كان مضطراً من جهة أخرى إلى البحث عن منفذ بحري يمكنه الاتصال بالبنادقة كما سيأتي،

ولذلك فإن البلاد التى على الضفة اليمنى لنهر الفرات والتى فى حوزة سلطان المماليك كانت عقبة في طريق حسن الطويل، فحاول اكثر من مرة الاستيلاء عليها، فيذكر أنه حاول أن يلعب دور الوسيط بين السلطان (خشقدم) للعفو عن الأمير (جانم المملوكى) نائب الشام والخارج عن طاعة السلطان، ولكن رفض السلطان وساطته، فلم يتردد حسن فى الانضمام إلى هذا الثائر والإغارة على (تل باشر) وبعض الأطراف السورية لتحقيق هدفه السابق، فأمر السلطان بخروج تجريدة لتأديبهم عام ٨٦٧هـ /١٤٦٢ م -٣٦٤١ ولكن جاء النبأ بمقتل جانم فى الرها فأبطل السلطان تلك التجريدة (٤٩)

وفى العام التالى استولى الكرد على قلعة كركر على الضفة اليمنى لنهر الفرات جنوب شرق ملطية، وأرسلوا مفاتيحها إلى حسن الطويل فأعادها عام ٨٦٩هـ /١٤٦٤م إلى والى حلب، ولكنه استعاض عنها بالاستيلاء على حصن زيادة، واقتحام مدينة ابلستين التابعة لأملاك دولة دلغادر (٥٠)

اتخذ حسن الطويل بعد ذلك سياسة المداهنة والخداع مع السلطنة المملوكية فنجده يتملق السلطان قايتباى فأرسل له فى عام ٨٧٣هـ /١٤٦٨م بهدية ورسالة ومعها مفاتيح الحصون والقلاع التى ملكها، «وأوضح فى الرسالة أن جميع ما يملكه إنما هو زيادة فى ممالك السلطان وأنه لا يعدو وأن يكون نائبه فيها» فأكرم قايتباى قاصده وأرسل إليه بهدية سينة (٥١)- ثم أرسل حسن الطويل بعد ذلك برسالة تزف إلى السلطان ما يفعله من قتل السلطان ابو سعيد أحمد بن سعدان شاه بن تيمور لنك ملك سمرقند وبخارى، وأرسل رأسه مع القاصد، فاخلع السلطان على قاصده، وجهز معه هدية(٥٢).

وكانت كل هذه الأمور نوع من التحذير للسلطنة المملوكية ليأمنوا جانبه ويغفلوا عما يخطط له فعندما شعر حسن الطويل بأن الجيش المملوكى والسلطنة عانت بنكبات عديدة أمام (شاه سوار) أمير دلغادر الخارج عن طاعة السلطنة، قام عام ٨٧٧ هـ /١٤٧١م بالإغارة على البلاد الحلبية وظل خطره يزداد حتى وصلت جيوشه إلى الرها، فأرتعد الناس فى القاهرة، وأخذوا يقولون على حسن الطويل «هذا ما هو مثل شاه سوار وإن هذا لا يطاق» (٥٣) فأعد قايتباى جيشا كمقدمة لحملة كبرى تخرج بعدها، فى تلك الأثناء استولى حسن الطويل على بعض القلاع التابعة للمماليك مثل كختا و كركر، بل حاول إثارة (بوداق) أمير دلغادر الموالى لمصر فأرسل له كتابا مكتوبا بماء الذهب وطلب منه تسليم القلاع التى تحت يده وأن يكون له تابعا، وحذره بأن إن خالفه يحصل له كيت وكيت فبعث بوداق بهذه الرسالة إلى السلطان المملوكى، عندئذ خرجت حملة كبرى من مصر عام ٨٧٧هـ/١٤٧١م بقيادة الأمير يشبك الدوادار،

وخرج معه من الجند فوق الألفين مملوك[٥٤]، وكاتب حسن الطويل نائب الشام يهدده فيها ويطلب منه الخضوع إليه، وكان نائبها قد أمر بشنق مجموعة من الجواسيس من أهل نيابته كاتبوا حسن الطويل بأخبار السلطنة، وعندما شعر حسن بخطورة الموقف أرسل رسولا إلى حلب يعرض الصلح وتبادل الأسرى، ولكن يشبك لم يلتفت إلى طلبه[٥٥] .

فى نفس الوقت أرسل (محمد الثانى) العثمانى يعرض على الأمير يشبك المساعدة الحربية ضد الشاة البيضاء لأنها أصبحت تمثل خطراً مشتركاً عليهما، وبهذا أصبح حسن الطويل يحارب فى جبهتين إحداهما فى آسيا الصغرى ضد العثمانيين، والأخرى فى أعالى الشام ضد المماليك[٥٦] والتقى الجيشان المملوكى وجيش الشاة البيضاء، واستطاع الأمير يشبك أن يحرز نصرا على عسكر حسن الطويل عند البيرة[٥٧] وأجلاهم عنها وجُرح فى هذه المعركة ولد حسن الطويل جراحات بالغة، وأصيب ولد له أخر فى عينه[٥٨] وهرب حسن الطويل راجعا إلى ديار بكر[٥٩] .

وعلى الرغم من هذه الانتصارات الجزئية التى حققها المماليك على حسن الطويل إلا أنه لم يخضع بسهولة وبلغ من عناده أنه أرسل محمل الحاج العراقى إلى الحجاز عام ٨٧٨هـ/١٤٧٣م، وأمر عليه أحد رجاله يقال له (رستم)، والقاضى (أحمد بن وجيه)، وأعطاه كسوة للكعبة، فلما وصل المحمل إلى المدينة، وأرغم قضاتها على أن يخطبوا باسم حسن الطويل الملك العادل خادم الحرمين الشريفين وبينما كان المحمل فى طريقه إلى مكة كانت رسالة المدينة وصلت إلى محمد بن بركات شريف مكة، فأسرع الشريف والتقى بالمحمل خارجها، وقبض على رستم ومن معه وقيدهم بالسلاسل، وبعث بهم إلى قايتباى ومعهم الكسوة فسجنهم[٦٠] .

وارتاح السلطان لهذه النتيجة، وزاد من ارتياحه وصول أنباء عن انتصار العثمانيين على جيوش حسن الطويل[٦١] وعلى الرغم من ذلك يبدو أن السلطان المملوكى كان يخشى من سطوة حسن الطويل فقام باطلاق سراح (رستم) أمير الحاج العراقى والقاضى، وأخلع عليهما وبعثهما إلى بلاد حسن الطويل ترضيا لخاطره[٦٢].

وفى عام ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م أرسل حسن الطويل رسولا للسلطان المملوكى يعتذر له عما كان منه، وإن ذلك لم يكن باختياره ويلتمس العفو منه، فأكرم قايتباى رسوله[٦٣] ولم يكره أن يظهر العفو عنه رغم أنه لم يطمئن إلى ولائه بدليل أنه لم يمانع من إنجاد ولده (محمد أغرلو) الخارج عن طاعة أبيه، واستنجد محمد أغرلوا بنائب حلب على أبيه، فجهز نائب حلب جماعة من

عساكره وتقاتل مع عسكر حسن الطويل، فأنكسر عسكر حلب، وجرح محمد أغرلو جرحا بالغا، فغضب السلطان قايتباى وجهز حملة كبرى للرد على حسن الطويل حشد فيها كبار قواده، ولكنه علم بعودة حسن الطويل وانتشار الطاعون فى جيشه، فلم ير ضرورة لإرسال الحملة ولاسيما قد بدا ضعف زعيم الشاة البيضاء[٦٤] .

كما وصلت فى تلك الأثناء إلى مصر والده محمد أغرلو، وطلبت تدخل السلطان ليعفو زوجها عن ابنها فأكرمها السلطان وأنزلها بدور الحريم[٦٥] ولكن فر محمد أغرلو ولجأ إلى محمد الفاتح العثمانى وتزوج من ابنته كوهرخان، وأعدم فى بداية عام ٨٨٢هـ/١٤٧٨م[٦٦]، وفى نفس العام توفى الملك حسن الطويل ملك العراقين، وكان ملكا جليلا عاقلا سيوسا كثير الحيل والخداع[٦٧]، وتولى بعده ابنه خليل.

وكان خليل بن حسن الطويل شديد البأس عنيدا كأبيه، فتحدى المماليك والعثمانيين[٦٨] ومكث فى الملك عام واحد، قضى أغلبه فى محاربة أخيه يعقوب، وتوفى عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م حيث ثار عليه بعض أمرائه وقتلوه بإيعاز من أخيه، وخلفه أخوه يعقوب وكان من خيار بنى حسن الطويل[٦٩] .

وانشغل يعقوب فى منافسات عائلية دموية، فانتهز الأمير يشبك الداودار هذه الاضطرابات والفتن القائمة فى دولة الشاة البيضاء، واقترح على السلطان قايتباى أن يغتنم هذه الفرصة للقضاء على تلك الدولة المناوئة لهم، فوافق السلطان على اقتراح يشبك، فخرج من مصر عام ٨٨٥هـ/١٤٨١م وعبر الفرات وحاصر الرها، وكان يحكمها من قبل يعقوب أمير يسمى (بايندر) ولما اشتد الحصار على المدينة لجأ بايندر إلى الحيلة، فوعد يشبك بدفع مبلغا من المال على أن يرحل عنها، ولكن يشبك كان واثقا من النصر بسبب كثافة عسكره واستعداده، فرفض العرض، وحمل حملة عنيفة على جيش بايندر الذى استمات فى الدفاع عن الرها، فهزم يشبك واسر هو ونائب الشام وحماه، وقتل عدد كبير من أفراد الجيش المملوكى وغنم منهم خيولا ومالا وسلاحا وقماشا وأشياء كثيرة لا تحصى، وظل يشبك فى الأسر ثلاثة أيام، ثم أرسل بايندر عبدا أسودا فقطع رأس يشبك وأرسلها إلى الأمير يعقوب، وأمر يعقوب بتشهير الرأس وكبار الأسرى فى ماردين[٧٠] .

وعندما علم السلطان قايتباى بذلك ثار ثورة عنيفة، وأرسل الأمير (أزبك) على رأس جيش، وفوض إليه أمور الشام، فوصل أزبك إلى حلب عام ٨٨٦هـ / ١٤٨٢م، وعلم أزبك أن يعقوب لام نائبه على تسرعه فى قتل يشبك، فانتهز أزبك هذه الفرصة ولجأ إلى السياسة، وأرسل السياسى المملوكى الماهر (جانى بك

حبيب) إلى يعقوب للتفاوض معه وانتهت المفاوضات بالعفو عن كبار الأسرى من الأمراء والنواب والعودة بهم إلى حلب[٧١] وذلك بعد أن أخلع عليهم يعقوب الخلع، وتلا ذلك وصول قاصد من قبل يعقوب إلى مصر للاعتذار للسلطان عما وقع من نائب الرها، وأن ذلك حدث بدون علمه. فأكرم السلطان القاصد وعاتبه عما فعل بايندر، وخلع عليه وأذن له بالعودة وبذلك تم الوفاق بينهما[٧٢].

وتوطدت عرى الصداقة والود والمجاملة بين السلطنة المملوكية ودولة الشاة البيضاء بدليل أن السلطان المملوكي أظهر حزنه وأسفة عند هزيمة يعقوب أمام صاحب هراه عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م[٧٣] وظلت العلاقات هادئة بينهما، ربما سبب ذلك بداية الوهن فى دولة الشاة البيضاء، وانشغال أمرائها فى نزاعاتهم الداخلية .

ويذكر أنه فى عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م قدمت إلى مصر (زليخا خاتون) ابنه خليل بن حسن الطويل تريد الحج فأكرمها السلطان الغورى، وجهزها بكل ما تريد للحج[٧٤] .

وفى عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م قدم رسول من مراد خان بن يعقوب يطلب المعونة من سلطان مصر بسبب زحف الشاه إسماعيل الصفوى على بلاده، وسلب بغداد منه، فأكرمه السلطان غير أنه لم يجب طلبه[٧٥] .

ثم انقطعت العلاقات بين السلطنة المملوكية ودولة الشاة البيضاء بسبب استيلاء الصفويين عليها عام ٩١٤هـ /١٥٠٨م بعد أن مثلت هذه الدولة جزء من التاريخ السياسى لدولة المماليك كان له الأثر فى الحياة السياسية للدولة المملوكية فى مصر والشام، حيث كان سلطان مصر يعمل لهذه الدولة وأميرها حساب وذلك لعظم هذه الدولة وقوة بأس أمرائها بسبب تمركزهم ومد سلطانهم على عدة مدن فى آسيا الصغرى .

العلاقات بين دولة الشاة البيضاء والدولة العثمانية :

لم تختلف سياسة دولة الشاة البيضاء مع دولة العثمانيين عن سياستها مع المماليك وهى السياسة التوسعية، وانتهاز الفرص لتوسيع رقعة دولتهم، وتحقيق مصالحهم الخاصة وفق ما ترتضيه الظروف .

وتظهر العلاقات واضحة فى عهد حسن الطويل، حيث أدى انتصار حسن الطويل فى بلاد الفرات، وتغلبه على عدة دول تركمانية، وعلى أبناء تيمورلنك إلى جعله الرجل الوحيد فى آسيا الصغرى الذى يستطيع أن يقف حجر عثرة فى سبيل تقدم آل عثمان، ولذلك أخذ أعداء العثمانيين أمثال أمراء قرمان،

والنصارى، والبنادقة بنوع خاص يحاولون استغلال هذه القوة الجديدة للحد من نفوذ العثمانيين .

وتعتبر مدينة أطرا بزندة[٧٦] التى كانت مطمع كلا من حسن الطويل، ومحمد الثانى العثمانى هى أول صدام مسلح بين الدولتين، حيث استطاع حسن الطويل أن يكون مع الإمبراطور (كالو يوحنا) أمير طرابزندة حلفاً مع أوزون حسن، وزوجة ابنة أخيه المسماة (كاترين) وهى المعروفة فى أوربا بلقبها (دسبينا) عام ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م ليحول دون تقدم العثمانيين والاستيلاء عليها[٧٧] ثم قام حسن الطويل فباغت قلعة (قيونلو حصار أقو) سمالى نيكسار (قيسارية الجديدة) على نهر كلكيت صو، ونهب أطراف توقات وأماسية[٧٨]، وعندئذ وجه محمد الثانى وجهه شطر مدينة طرابزنده مبتدئا (بقيونلو حصار) الذى استولى عليها حسن، فجمع حسن كل قواته قرب(كماخ) ولكن الفرقة التى أرسلت إلى جبال منزور هزمها (أحمد باشا) من قبل العثمانيين، فأوفد حسن الطويل أمه لمفاوضة السلطان، فنزل عن رغبتها وتراجع عن قتال حسن الطويل[٧٩] .

وبالرغم من توسلات (سارة خاتون) أم حسن الطويل والتى زعمت أن أطرابزندة تخص كنتها، ولكن استولى العثمانيون عليها عام ٨٦٥هـ/١٤٦١م، وجرد عاملها من أملاكه وطرده من البلاد، وأعطى سارة خاتون جزءا من النفائس التى سلبت من المدينة[٨٠] ولكن هذا الهدوء الذى تم بين الدولتين لم يدم طويلا إذ تقدم حسن الطويل واستعاد قيونلو حصار، ثم سار إلى أطراف سيواس إلا أن العثمانيين هزموهم فأوفد بعد ذلك حسن الطويل (خورشيد بك) إلى القسطنطينية ليفتدى الأسرى من تركمانة، وليفاوض السلطان فى التنازل عن مطالبة فى أطرابزندة، ويقال أن الظروف أدت إلى إجابة طلبة، ثم عاد حسن الطويل إلى ديار بكر[٨١] .

ومع زيادة قوة نفوذ حسن الطويل كان السلطان محمد الثانى مهتما بمتابعة أخباره[٨٢] وكان حسن الطويل يقوم باستفزاز السلطان العثمانى، وذلك من خلال رسائله التى كان يشتد فى لهجته معه وكان يلقب فيها السلطان العثمانى بلقب لا يتناسب مع مكانته وهو (إمارت مآب)، وبالتالى رد محمد الثانى على حسن الطويل بلقب (سردار عجم)، وفى تلك الأثناء عقد حسن الطويل مفاوضات مع البندقية، حيث تحالف البنادقه مع حسن الطويل خاصة بعد احتلال العثمانيين لأيوبيا وهى البلد الذى ظل فى حوزة البنادقه مائتان وأربعة وستين عاما، فأرسل مجلس الشيوخ فى البندقية النبيل (كاترينوزينو) إلى بلاد حسن الطويل للتحالف معه لمواجهة العثمانيين، وفى مقابل ذلك وعدته البندقية بارسال جيوش وذخيرة، وخبراء لتعليم رجاله طرق

استخدامها، فأرسلوا إليه ستة مدافع كبيرة وستمائة بندقية[٨٣] وكثيرا من الأسلحة والذخائر وكتيبة من حملة البنادق وعددها مائتا جندى معها ضباطها[٨٤] فوعدهم حسن الطويل بمهاجمة أملاك العثمانيين فى الأناضول والزحف عليهم، وفى الوقت نفسه يتحرك البنادقة ضد محمد الفاتح فى أوربا ويزحفون إلى الشرق، وبذلك يقع العثمانيون بين فكى الكماشة[٨٥].

وأخذ حسن الطويل بعد هذه المعاهدات مع البندقية استعداده لقتال العثمانيين، فجمع حوله كل الأمراء التركمان الذين أغار العثمانيون على بلادهم وخلعوهم من على عروش دولهم، ووعدهم حسن الطويل بأن يرد إمارتهم فى مقابل مساعدتهم له فى القضاء على العثمانيين[٨٦].

ثم أرسل حسن الطويل رسالة إلى حلفائه دوق البندقية، وإمبراطور ألمانيا، وملك المجر (ماتياس) يقول فيها «إن إبادة الجيش العثمانى أمر مؤكد خلال عدة أيام وأنه لا يستطيع التكهن ما إذا كان سيتمكن من أسر السلطان أم، لا كما تضمنت رسالته ان الدولة العثمانية ذات تسعة أرواح، وأهاب بالإسراع فى احتلال أراضى العثمانيين فور قيامه بإبادة الجيش العثمانى، وإذا لم يمكنه من القضاء عليها بشكل تام فإن الدولة العثمانية ستصبح على الأقل بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية وتسقط فى درك إمارة عادية عديمة الشان[٨٧] وتضمنت الرسالة أن يمشى حلفاءه على العثمانيين من جهة البحر، ويمشى هو عليهم من جهة البر[٨٨] فأرسلت البندقية توضح أنها سوف ترابط أساطيلها عند سواحل قرمانيا كيلكيا[٨٩]

وفى خريف عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢م عبر السلطان محمد من القسطنطينية إلى شاطئ آسيا الصغرى غير أنه اضطر للتوقف بسبب فصل الشتاء، وفى ١٤ ربيع الأول من نفس العام تمكن الأمير (مصطفى جلبى) ابن السلطان، و(داود باشا يكلربك انطالية) من تشتيت شمل التركمان فى أقليم (قيرايلى) غرب قونية وكان تحت أمرته ستون ألف مقاتل ووقع فى الأسر ابن عم حسن الطويل الأمير (يوسفجة ميرزا)[٩٠] وبعد هزيمة حسن الطويل توجه إلى إقليم ارزنجان فى نهاية يوليو ٨٧٨هـ /١٤٧٣ م وعسكر فى التلال القائمة على الضفة اليسرى لنهر الفرات وهناك استطاع حسن الطويل أن يشتت الجيش العثمانى ويأسر قائده (خاص مراد بك) وأعدمه[٩١] وبلغت خسائر العثمانيين اثنا عشر ألف مقاتل[٩٢].

وعندما علم السلطان محمد الثانى بذلك خرج بنفسه على رأس جيش ضخم بلغ مائة ألف مقاتل ونهب كماخ وأسر الأرمن القاطنين فى هذا الإقليم، وبينما كان الجيش العثمانى فى إقليم (أوج أغرلى) شمالى الجبال التى تفصل آرزنجان

عن نهر كليكت صو ، ظهرت جنود حسن الطويل على مرتفعات (أوتلوق بيلى) التى تفصل وادى الفرات عن منابع جوروخ ،أى على ميمنة الجيش العثمانى ، فلجأ العثمانيون إلى القتال، وفى ١٦ ربيع الأول ٨٧٨هـ /١١ أغسطس ١٤٧٣م اكتسح جيش القطيع الأبيض وهزموا وقتل كافر اسحاق سردار حسن الطويل وزيتل بن حسن الطويل، ففر حسن الطويل من ميدان المعركة إلى بلاده وانتصر العثمانيون وأخذوا الأسرى من الصناع والحرفيين إلى القسطنطينية ، أما بقية التركمان الأسرى فقد أمر السلطان العثمانى بقتلهم وعدل السلطان عن تعقب حسن الطويل لكى يحافظ على الأراضى التى تحت يده[٩٣]

فى تلك الأثناء انشغل حسن الطويل بالتوجه إلى شيراز لاخماد الفتنة التى اشعلها ابنه (محمد أغرلو) فاضطر لتوقيع معاهدة سلام مع العثمانيين فى ٢٤ أغسطس من نفس العام [٩٤] وقد نصت هذه المعاهدة على أن يتخلى حسن الطويل عن قلعة (قره حصار) وأن يتعهد بعدم التعرض للأراضى العثمانية [٩٥] وبذلك توطد الحكم العثمانى فى الأناضول وقضى على التحالف الذى بين حسن الطويل والقوى الأوروبية، التى سرعان ما تبين لهم خطأ اعتمادهم على حسن الطويل، وما إن علموا بوفاة أمير الشاة البيضاء حتى أمضوا صلحا مع العثمانيين[٩٦]

ويذكر أنه بعد ذلك سارت العلاقات ودية بين الدولتين فى عهد يعقوب بن حسن الطويل[٩٧] وكانت بينهما علاقة نسب ومصاهرة، حيث تزوج محمد أغرلو بن حسن الطويل الذى فر إلى العثمانيين من ابنه محمد الفاتح (كوهرخان) ويذكر ان محمد الفاتح الحق محمد أغرلو هذا بصف الوزراء، وعينه واليا على الأناضول، وانجب منها أحمد كوده [٩٨]

علاقة دولة الشاه البيضاء بالدول التركمانية الأخرى

١- علاقة الشاه البيضاء بدولة الشاه السوداء[٩٩]

كانت العلاقات بين تلك الدولتين علاقات عدائية ، ربما لأن دولة الشاه السوداء كانت ترى أن غريمتها الشاه البيضاء هى المنافسة القوية لها فى المنطقة ، وان لها اطماع توسعية على حساب الدول المجاورة وهذا ما أكدته الأحداث الواقعة بين الدولتين، ففى أوائل شعبان ٨٢١ هـ /١٤١٩م هاجم قراعثمان قرايلك قلعة ماردين (قلعة بالجزيرة الفراتية) من أملاك دولة الشاه السوداء فأوقع بأهلها وأسرف فى قتلهم، وسبى أولادهم ونسائهم وأحرق المدينة ، فأراد قرايوسف زعيم الشاه السوداء الانتقام من عثمان قرايلك فتتبعه حتى البلاد الحلبية ولكنه لم يتمكن منه للجوئه للمماليك[١٠٠]

وفي يوم ٢٧ رجب عام ٨٢٣هـ /١٤٢١م هاجم قر عثمان قرايلك (بير عمر) حاكم أذربيجان من قبل الشاه السوداء وقبض على بير عمر وعلى أربعة وعشرين نفسا من أهله وأولاده وقتل من عسكره ستين رجلا وغنم منهم شيئا كثيرا [١٠١]

وفي عام ٨٢٦هـ /١٤٢٤م سار اسكندر قرايوسف إلى ماردين لاستعادتها من قرايلك فحاصرها حتى تسلمها، وانهزم قرايلك ثم نازل آمد، ففر قرايلك إلى شاه رخ بين تيمورلنك، وكان قد سار من بلاده إلى تبريز فحاصرها حتى ملكها، فتوجه اسكندر واخوته إلى تبريز للدفاع عنها فانهزم قرا يوسف وأولاده وأخرب شاه رخ تبريز ونقل أموالها ثم رجع لبلاده، وانهزم اسكندر ثم رجع قرايلك إلى آمد، واسكندر إلى تبريز بعد خروج شاه رخ منها[١٠٢] .

وفي عام ٨٣٢هـ /١٤٣٠م حدث صدام مسلح بين الفريقين مرة أخرى عندما هاجم اسكندر بن قرا يوسف المدينة السلطانية [١٠٣] وقتل متملكها من جهة شاه رخ ونهبها وأفسدها، فانتدب شاه رخ لمحاربته الأمير عثمان قرايلك وآمده بعسكر كثيف وحدث القتال خارج تبريز في يوم الجمعة ١٦ذي الحجة من نفس العام قتل فيه الكثير من الفريقين إلى أن كانت الكسرة على اسكندر وجماعته فانهزم فتتبعه جند عثمان قرايلك لمدة ثلاثة أيام فقاتلهم اسكندر فنهبت بلاد أذربيجان وقتلوا واسروا وفعلوا أفاعيل أصحابهم من أعوان تيمور حتى لم يدعو بها ما تراه العين[١٠٤] .

وفي رمضان عام ٨٣٨هـ /١٤٣٦م قام أصبهان بن قرا يوسف حاكم بغداد بالتوجه لأخذ الموصل فبعث زينال حاكمها إلى عثمان قرايلك بمفاتيح الموصل وحثه على المسير إليها لنجدته فبعث نائبه محمود بن عثمان قرايلك ومعه بشلمن احد أمرائه في مائتي فارس ثم اتبعه بأخيه محمد بك على راس ألف فارس فنزل على الموصل ثم سار قرايلك بنفسه ونزل على نصيبين، ثم بلغه توجه اسكندر بن مراد قرا يوسف إليه ففر عثمان فتبعه اسكندر حتى ارزن الروم وكسر عسكر قرايلك فأراد أن يتحصن قرايلك بأرزن الروم.فألقى بنفسه في خندق المدينة حتى لا يقع في الأسر ولكنه لقي حتفه[١٠٥] .

وفي عام ٨٤٠هـ /١٤٣٨م وقع بين حمزة بن عثمان قرايلك صاحب ماردين وبين أصبهان ابن قرا يوسف حرب انهزم فيها اصبهان ومن معه [١٠٦] وفي عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٢توجه جهان شاه بن قرا يوسف للإغارة على معز الدين جهان كير بن علي بن عثمان، فلجأ جهان كير إلى أمير حلب مستنجدا بالسلطان المملوكي[١٠٧] ولكن سرعان ما استطاعت دولة الشاة البيضاء أن تقوى على منافستهما مرة أخرى في عهد الأمير حسن الطويل، ففي عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م

حدثت وقعة هائلة بين الفريقين انكسر فيها جهان شاة بن قرا يوسف ، وانتصر حسن الطويل وقتل من عسكر أعدائه عددا كبيرا من أعيان دولة الشاة السوداء ، وقتل جهان شاة وشتت أولاده وأرسل برأسه إلى السلطان المملوكي عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م(١٠٨) وفي العام نفسه استطاع محمد أغرلو بن حسن الطويل هزيمة حسن بن علي بن جهان شاة واستولى على أملاك دولته في تبريز والعراقين ، وقتله في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م(١٠٩) وبذلك انقرضت دولة الشاة السوداء وضمت أملاكهم إلى حوزة دولة الشاة البيضاء ، وتحقق لها ما كانت تهدف إليه من خلال حروبها المستمرة مع الشاة السوداء ، لتحقيق أطماعها التوسعية في تلك المنطقة .

٢- علاقة دولة الشاة البيضاء باولاد تيمورلنك :

أكدت جميع الأحداث أن العلاقات بين دولة الشاة البيضاء وبين أولاد تيمورلنك كانت علاقات تعاونية مشتركة ، حيث استعان شاة رخ بن تيمورلنك بأمراء دولة الشاة البيضاء في صد ومواجهة خطر بعض الدول التركمانية المعادية لهم ، وكذلك الإغارة على أملاك سلطنة المماليك ، وهذا ما وضحناه آنفا .

وفي عهد أبي سعيد التيموري تغير الوضع ، فيذكر أنه عندما استعان حسن بن علي بن جهان شاه أمير الشاه السوداء بأبي سعيد التيموري ضد حسن الطويل ، فخرج من خراسان في شعبان ٨٧٢هـ/ مارس ١٤٦٨م ، ولكن تفرق شمل جيشه ، فانتهز حسن الطويل الفرصة ، وتقدم حتى وصل إلى (قرة باغ) وفي الوقت نفسه وصل أبو سعيد إلى ميانه غير مبال باحتجاج حسن الطويل بحقوق الصداقة أو بتذكره بولاء القطيع الأبيض لبني تيمور ، وبعد الشتاء اكتسح حسن الطويل جيش أبي سعيد وهو في طريقة إلى السرس ، وحاولت أم أبي سعيد المفاوضات بين ابنها وبين حسن الطويل ، ولكن لم تجد بشئ وأسره في ١٦رجب ٨٧٣هـ / ١١فبراير ١٤٦٩م ، ثم سلمه إلى منافسه الأمير بادكار محمد بن بايسنقر فقتله وأمر بادكار على أمراء بني سعيد(١١٠) .

وبعد مقتل أبي سعيد ظلت أسرة بني تيمور الخراسانية في موطنها ، بينما احتلت بعوث حسن الطويل بقية بلاد فارس بما فيها كرمان وفارس ولورستان وخوزستان وكردستان(١١١) .

٣- علاقة دولة الشاة البيضاء بالأكراد الأيوبيين(١١٢) :

أما بالنسبة لسلالة الأكراد من بني أيوب في حصن كيفا المطل على نهر دجلة ، يذكر أنه حدث تصادم بين عثمان قرايلك ، والملك الأشرف أحمد بن الملك العادل صاحب حصن كيفا في عام ٨٣٦هـ/١٤٣٤م وذلك عند خروج صاحب

الحصن إلى السلطان برسباى وهو محاصر لآمد فاعترضه جماعة من أعوان قرايلك وقتلوه، وعظم ذلك على السلطان[١١٣] .

وفى عام ٨٦٦هـ/١٤٦٢م قام حسن الطويل بحصار كيفا سبعة أشهر ثم استطاع النيل من القلعة منتهزا فرصة حدوث خلافات داخلية بين الأكراد، وبذلك انقطع من الحصن ملوك الأكراد الأيوبيين بعدما ملكوها أكثر من مائتى عام، وذلك بعد قتل الملك العادل خلف، وسلمها لابنه خليل، فقوى أمر حسن الطويل بأخذها واستولى بعد ذلك على عدة قلاع ومدن من تعلقات الحصن [١١٤] مثل سعرت وبختان[١١٥] .

٤- علاقة دولة الشاة البيضاء بسلطان سيواس :

استطاعت دولة الشاة البيضاء القضاء على دولة القاضى برهان الدين أحمد سلطان سيواس ففى عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م خاض القاضى برهان الدين معركة فى قرابل بمنطقة (ديوريكى) ضد عثمان قرايلك، فسقط القاضى برهان الدين قتيلا فى تلك المعركة، وانقرضت بوفاته دولته التى دامت ثمانية عشر عاما، ففكر الأمراء بعد وفاته جعل ولده علاء الدين على الذى يسمى عند العثمانيين (زين العابدين) على العرش ولكنهم أدركوا أنهم لا يستطيعون الثبات أمام قرايلك الذى كان فى طريقه للاستيلاء على سيواس، فأثروا الدخول فى طاعة بايزيد الصاعقة العثمانى[١١٦] وبالتالى انقرضت تلك الدولة على يد عثمان زعيم الشاة البيضاء .

٥ - علاقة دولة الشاة البيضاء بدولة قره مان[١١٧]:

قام العثمانيون بزعامة محمد الثانى بإخضاع بعض إقطاعيات فى آسيا الصغرى، وهددوا أمراء قرمان، مما دفع هؤلاء إلى التحالف مع جارهم من ناحية الشرق الأمير حسن الطويل أمير الشاة البيضاء[١١٨] وكان أهل قرمان إلى جانب البنادقة يدفعون حسن الطويل إلى العمل للقضاء على العثمانيين، فجهز حسن الطويل جيشا بلغ عدته مائة ألف أمر عليه الوزير (عمر بك بن بكتاش) وابن عمه (يوسفجة ميرزا) وتقدم الجند من ديار بكر إلى توقات ونهبوها ثم قصدوا قيسارية .

وربما كانت محاولتهم أخذ البيرة من مصر، وبعد مدة من الزمن رجع عمر بك إلى ديار بكر بينما اكتسح يوسفجة ميرزا قرمان وحميد[١١٩] .

ويذكر أنه فى عام ٨٣٥هـ / ١٤٣٣م قام ناصر الدين أمير ماردين بأسر حمزة بن عثمان قرايلك لأنه أباه كثير الإغارة على بلاده، فسار إليه قرايلك وحاصرها حتى ملكها وهرب ناصر الدين أميرها وخلص ابنه من الأسر، واستمرت ماردين فى يد الشاه البيضاء[١٢٠] .

وبهذا يتضح أن أغلب الدول التركمانية المجاورة للشاة البيضاء قد زالت دولهم على يد زعماء الشاة البيضاء وضمت أملاكهم إلى دولة الشاة البيضاء فقوى بذلك نفوذها وأصبح لها الزعامة على كثير من الدول التركمانية المجاورة، مما شكل لها وضعا سياسيا من نوع خاص فى تلك المنطقة، وجعل علاقتها متشابكة مع كثير من جاراتها .

نهاية دولة الشاة البيضاء :

ساهم فى نهاية دولة الشاة البيضاء أمور عدة، كان على رأسها الصراع الداخلى، والنزاع الأسرى بين أمراء تلك الدولة، وقد حدث هذا بعد وفاة عثمان قرايلك، حيث تشتت شمل أبنائه ودارت بينهم فتن وحروب[١٢١] .

ففى عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٩م حدث نزاع بين الأمير على بك وأخيه حمزة، واستطاع حمزة أن يخرج أخيه (على) من آمد ويمتلكها [١٢٢] .

وفى إمرة جهان كير بن على حدث نزاع بينه وبين أخيه حسن الطويل واستطاع حسن الطويل أن يستولى على حصن ديار بكر فى عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، واحتل بعدها الرها ثم حاصر ماردين التى تحصن بها جهان كير بن حسن الطويل[١٢٣]، وقد تدخلت أم حسن الطويل فى الأمر مما اضطر حسن أن يرجع إلى ديار بكر، وفى أثناء عودته سقط عن جواده وأصيب بجرح بالغ، فانتهز جهان كير الفرصة ونهب أطراف آمد، فلما عاد عليه حسن الطويل احتمى جهان كير بأعداء دولته جهان شاة أمير الشاة السوداء، ثم تدخلت أم حسن الطويل مرة أخرى فأقامت ابنها على ديار بكر، وأخيه جهان كير على ماردين ولكن اتسعت رقعة الخلاف بين الأخوين فاكتسح حسن الطويل أعمال أخيه وبلاده، وعندما حاول أمير الشاة السوداء مساعدة حليفه لاسترداد بلاده، انتصر حسن الطويل عليهم فى عام ٨٦١هـ/١٤٥٧م[١٢٤] وبعدها بدأ نجم حسن الطويل يعلو ونفوذه يقوى بعد صراع طويل مع أخيه ليكون هو الرجل الأول فى دولته[١٢٥] .

ويذكر أيضا أنه بعد وفاة يعقوب بن حسن الطويل تولى ولده (ميرزا على) وعمره أربعة وعشرين عاما، وعند توليته فر الشيخ أخو يعقوب لأبيه، وابن أخيه ميرزا محمود بن محمد بن حسن الطويل ناحية أصبهان إلى أخواله، ولكن لم يلبث أن، قتل ميرزا على، ثم تولى العرش بعده بايسنقر ابن يعقوب وحكم لمدة عام واحد (٨٩٦هـ - ٨٩٧هـ / ١٤٩٠م - ١٩٤١م) واعتلى بعده العرش ابن عمه رستم[١٢٦] واستمر فى الحكم حتى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م ولكن بسبب فساده التمس الأمراء من بايزيد الثانى أن يرسل إليهم حفيد محمد الفاتح (أحمد كودة بن أحمد أغرلوا) على رأس جيش ليستولى على عرش آبائه، ولما وصل أحمد

كوده خرج على رستم، ووقعت بينهما معركتان انتهت بهزيمة رستم وقتله بسبب خيانة بعض أمرائه، وخاصة زوج أخت كودة أحمد لأبيه (حسن بك عليخانى) وجلس كودة على عرش دولة أبيه عام ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م، ولكن حكمه لم يطل فما لبث أن خرج عليه الأمراء، وقتلوه فى معركة بالقرب من أصفهان(١٢٧) .

وبوفاة كوده بدأ العد التنازلي لتلك الدولة حيث عظم بها الهرج والمرج، فأنقسم الأمراء إلى فرق، كل فرقة كانت تنتخب عليها حاكما من الأسرة، وترتب على ذلك أن جلس من أحفاد حسن الطويل السلطان (مراد بن يعقوب بك) فى شيروان، وجلس (الوند بن يوسف) فى أذربيجان، وأخوه (محمد ميرزا) فى يزد(١٢٨) وحدث بين هؤلاء الأمراء الثلاثة صراع شديد ليكون لأحدهم الزعامة على دولته .

فيذكر أن محمد ميرزا قد خسر المعارك التى خاضتها ضد ألوند وسقط قتيلا بالقرب من أصفهان عام ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م، وأما مراد بن يعقوب فقد استولى على العراق وفارس بعد مقتل محمد ميرزا، وعقدفى عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م معاهدة مع ألوند، بحيث يأخذ ألوند بمقتضاها أذربيجان وديار بكر، ويأخذ مراد فارس وبلاد العراق(١٢٩) .

انتهز الصفويون(١٣٠) ما حدث من تصدع فى بناء دولة الشاة البيضاء، حيث كانوا يترقبون عن قرب الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة، وقام الصفويون بمهاجمة ألوند عام ٩٠٧ هـ /١٥٠٢م فى منطقة (شرور) على نهر آرمش بالقرب من بخحوان، خسر فيها الوند وفر بعدها إلى بغداد ثم إلى قزوين، فهاجمه إسماعيل الصفوى مرة أخرى، وقعت بينهما معركة بالقرب من همدان عام ٩٠٨هـ/١٥٠٣م انتصر فيها الصفويون بسبب شق جنود مراد عصا الطاعة عليه، وانضمامهم إلى الشاة إسماعيل(١٣١) ففر مراد لاجئا للسلطنة المملوكية، وأرسل إلى السلطان الغورى يستنجد به على عدوه ولكن الغورى أثر الانتظار والتريث على أن يدخل فى نزاع سافر مع الصفويين(١٣٢) ففر مراد بعدها إلى بغداد، وبعد أن قضي فيها خمسة أعوام زحف إسماعيل الصفوى عليها، فاضطر مراد إلى الفرار إلى بلاد دلغادر التركمانى عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٩م وأقام فى كنف علاء الدولة بن دلغادر وتزوج إحدى بناته، وأنجب منها ولدين، إلى أن خرج سليم الأول العثمانى عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م فى حملته على إيران، واستولى على أملاك دلغادر، وأرسله سليم الأول على رأس فرقة عسكرية عثمانية للاستيلاء على ديار بكر واستعادتها من الصفويين ولكنه قتل فى نهاية رمضان عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م، وبوفاة مراد هذا تلاشت دولة الشاة البيضاء وزال أمرها(١٣٣).

الملاحـــق

ملحق رقم ١

أمـــراء الآق قيونليـــة

١- بهاء الدين قرا عثمان قرايولك (٨٠٦-٨٣٨هـ /١٤٠٣-١٣٣٤م)
٢- جلال الدين علي (٨٣٨-٨٤٢هـ/١٤٣٤-١٤٣٨م)
٣- نور الدين حمزة (٨٣٨-٨٤٨هـ/١٤٣٤-١٤٤٤م)
٤- معز الدين جها نكير (٨٤٨-٨٥٧هـ / ١٤٤٤-١٤٥٣م)
٥- أوزون حسن (٨٧١-٨٨٢هـ/ ١٤٥٣-١٤٧٨م)
٦- خليل (٨٨٢-٨٨٣هـ / ١٤٧٨-١٤٧٨م)
٧- يعقوب (٨٨٣-٨٩٦هـ / ١٤٧٨-١٤٩٠م)
٨- بايسنقر ميرزا (٨٩٦-٨٩٧هـ/ ١٤٩٠-١٤٩١م)
٩- رستم (٨٩٧-٩٠٢هـ / ١٤٩١-١٤٩٦م)
١٠- أحمد (فى كو) (٩٠٢-٩٠٣هـ/ ١٤٩٦-١٤٩٧م)
١١- ألوند (فى أذربيجان) (٩٠٣-٩١٠هـ/١٤٩٧-١٥٠٤م)
١٢- محمد ميرزا (فى يزد) (٩٠٣-٩٠٥هـ / ١٤٩٧-١٤٩٩م)
١٣- مراد (فى شيروان) (٩٠٣-٩١٤هـ /١٤٩٧-١٥٠٨م)
(ثم ولى الصفويون)

ملحق رقم ٢

الآق قيونلية

قتلغ بك بن طور على

- ١- قرا عثمان
  - جهان شاه
  - إسكندر
  - قاسم
  - يعقوب
  - ٣- حمزة
  - ٢- على
    - أويس
    - ٥- أوزون حسن
      - على
      - زينل
      - مقصود
        - ٩- رستم
      - يوسف
        - ١٢- محمد ميرزا
        - ١١- ألوند
      - مسيح
      - ٧- يعقوب
        - إبراهيم
        - حسن
        - ١٣- مراد
          - حسن
          - يعقوب
        - ٨- بايسنقر
      - أوغورلى محمد
      - ٦- خليل (صهر الفاتح)
        - ١٠- كوده أحمد (حفيد الفاتح)
          - زينل
        - محمود
        - ابنته زوجة حسن بيك على
    - ٤- جهان كير
      - إبراهيم
      - قاسم
      - مراد
      - على
- أحمد
- بج على
  - قليج أرسلان

الهوامش

(١) عصام شبارو: السلاطين فى المشرق العربي، دار النهضة ١٩٩٤م، ص ١٠٦.

(٢) أنور زقلمة : المماليك فى مصر ، القاهرة، ط ١ ١٩٩٥م، ص ٨٧ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢، ١٩٩٤م، ٢٦٣.

(٤) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠، ص ١١٦، عبد العزيز محمود : مصر فى عصر المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق ١٩٩٦م، ص ١٥١

- Wiet, G., L, Egypte Arabe (Hist. De la Nation Egyptienne) T. IV, P560

(٥) سميت هذه الدولة بالشاة البيضاء لأنها كانت توضع صورة الشاة على أعلامها . انظر زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ترجمة زكى محمد، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١، جـ٢ ص ٢٣٥؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف، مصر، جـ ٢ ص ٥٣٨ .

(٦) ديار بكر: مدينة حصينة يحيط بها نهر دجلة من جوانبها إلا من جهة واحدة وعاصمتها (أمد) (انظر الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مطبعة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م م٢، ص ٢٦) .

(٧) ابن حجر العسقلانى : أنباء القمر بأبناء العمر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥، ج١ ص ١٠٤؛ السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع دار مكتبة الحياة، م٣ ج٥ ص ١٣٥ ؛ أحمد الشنتاوى: دائرة المعارف الإسلامية، دار الفكر، م٢ ص ٤٨١ ؛ شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد عيسى وسهيل زكار، دمشق ١٩٨٢، ص ١٣٦ ؛ زامباور :معجم الأنساب ; جـ ٢ ص ٢٨٤.

(٨) لقب عثمان ذكر فى المصادر التاريخية بعده صور منها قرايلوك، أيلوك، أيلك، انظر أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢ ص ٣٨، ويذكر ابن إياس أن لقبه (قراملك)، انظر: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢-١٩٨٤ ، جـ ٢ ص ٢١٩ .

(٩) الأراتقة: يرجع سلفهم إلى قطب الدين نعمان بن أرتق بك بن اكسب التركمانى الذى أقطعه تاج الدولة تتش أخو ملكشاه فلسطين، ونعمان يعتبر أول ملوكهم، وبعد استيلاء الفاطميين على القدس هرب نعمان وأخوه أيلغازى إلى السلاجقة، فأقطعوه ماردين وأخلاط، وميا فارقين. انظر:ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣١-١٣٢.

(١٠) ابن حجر: إبناء الغمر، ج٨، ص ٤٠١؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، فى ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب، ج١٥ ص ٢٠١؛ السخاوى : الضوء اللامع، م٣ ج٥ ص ١٣٥؛ ابن عرب شاه: عجائب المقدور فى اخبار تيمور، مصر ١٣٠٥هـ /١٨٨٨ م، ص ٨٢-٨٤؛ أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٢، ص ٤٨١-٤٨٢.

(١١) السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام، تحقيق حسن مروه، تقديم محمود الأرناؤوط، مكتبة دار العروبة للنشر، الكويت ط٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ج١ ص ٤٤٨؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك إعداد محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، ط ١ ١٤١٨هـ ١٩٩٧، ج٦ ص ١٨٤؛ ابن حجر إنباء الغمر، ج٨ ص ٤٠١؛ العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ، تحقيق فهيم محمد علوى شلتوت، مطبعة دار الكتاب ١٩٩٨، ص ٢٤٥ هامش (٢)؛ ابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى مطبعة دار الكتاب، ج٢ ص ٢٢٩-٢٣٠، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس، مطبعة الرابطة، بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤ م، ص١٤٠-١٤١.

(١٢) بيشوف الجرمانى : تحف الابناء فى تاريخ حلب الشهباء، المطبعة الأميرية ببيروت ١٨٨٠م، ص ١٥٦.

(١٣) الرها: مدينة من ديار مضر فى البر الشرقى الشمالى من الفرات وهى مدينة رومية عظيمة ومن أحسن متنزهات الجزيرة. أنظر القلقشندي: أصبح الأعشى فى صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، ج ٤ ص ١٣٩

(١٤) السخاوي: الضوء اللامع، م ٣ ج٥ ص ١٣٥

(١٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٨ ص ٤٠١ ؛ استانلى بول : طبقات سلاطين المماليك، الدار العالمية للطباعة والنشر، ط١ ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م ص ١٥٥-١٥٦

(١٦) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٤، صـ ٧

(١٧) دولة الشاة السوداء سوف يأتي الحديث عنها في موضعها .

(١٨) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٤، ص ٥٤، ابن الصيرفي : نزهة النفوس، جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(١٩) ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٨ ص ٤٠٢ .

(٢٠) إبراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٢١.

(٢١) خربوط: مدينة من ولاية ديار بكر بينها وبين ملطية يومين وبينهما الفرات وهو اسم أرمني أطلق على حصن زياد ببلاد الروم و(انظر ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٢ ص ٤٤٢؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، م٣ ص ٨١٤).

(٢٢) السخاوي: الذيل التام على دول الإسلام، جـ ١ ص ٥٥٩، وقال المقريزي عن هذه الواقعة أنها من مصائب الدهر. انظر السلوك، جـ ٧ ص ١٩٧، ابن حجر : أنباء الغمر، جـ ٨ ص ١٧٣، ص ١٧٤، ويذكر ابن تغري بردي عن هذه الواقعة «أن العسكر المصرى والشامى قد فعلوا فى مدينة الرها فعل التمرلنكيين وزيادة من القتل والأسر والإحراق والفجور بالنساء». النجوم، جـ ١٤، ص ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣، عاشور: العصر المملوكي، ص ٢٦٤.

(٢٣) إبراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٢١.

(٢٤) ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٨ ص ١٩٥ -٣٣٢ ؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ ١٤، ٣٤٩ .

(٢٥) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٢ ص ١٩ -٢٠؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، ط٢ ١٤٨١هـ/١٩٦٢م م١ جـ ٢ ص ٢٢٠ ؛ عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٦٤ .

(٢٦) قلعة ارقنين بلدة بأطراف آسيا الصغرى، ويذكر البعض أن هذه البلدة بالفاء . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، بيروت ١٩٨٤، جـ ١ ص ١٩٤.

(٢٧) السخاوي: الذيل التام، م١ ص ٥٧٩؛ ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٨ ص ٢٨٠ -٢٨١؛ ابن تغرى بردي: النجوم، جـ ١٥ ص ١٤ - ١٦ ؛ بيشوف الجرماني: تحف الأنباء ص ١٥٩ .

(٢٨) ابن تغرى بردي: النجوم، جـ ١٥ ص ٢٦؛ السخاوي: الضوء اللامع، م٣ جـ ٥ ص ١٣٦؛ عاشور : العصر المماليكي، ص ٢٦٤ .

(٢٩) الأكديش : الحيوان المهجن الذي ليس أبواه من جنس واحد، وهو الحصان غير الأصيل ويستخدم للركوب والحمل، والجمع كدش . انظر: ابن الصيرفي : نزهة النفوس، جـ ٤ ص ٣٦ هامش ٢، محيط المحيط، مكتبة لبنان بيروت، ١٩٩٣، ص ٧٧٣ .

(٣٠) wiet, l' Egypt Arabe, P. 562.

(٣١) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٥ ص ٤٣، الجرماني، تحف الأنباء، ص ١٥٩-، ١٦٠.

(٣٢) المقريزي : السلوك، ج ٧، ص ٢٨٣؛ ابن تغرى بردي : النجوم، ص ١٥، ص ٦٧.

(٣٣) المقريزي: السلوك، ج٧ ص ٢٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٥ ص ٤٧؛ إبراهيم طرخان: مصر

في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٢٣.
(٣٤) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٥ ص ٥٥
(٣٥) يذكر صاحبا السلوك والنجوم أنه قرا عثمان أقام في الحكم نيفا وخمسين سنة ومات وقد قارب المائة من عمره. أنظر: المقريزي، السلوك، ج ٧ ص ٣١٦، ابن تغري بردي النجوم ج ١٥ ص ٧٠، ويذكر ابن حجر والسخاوي أنه مات وقد بلغ التسعين (انظر : ابن حجر : أنباء الغمر، ج ٨ ص ٤٠١؛ السخاوي الضوء اللامع، م٣ ج ٥ ص ١٣٦. وورد في الجزء الحادي عشر من احسن التواريخ أن قرا عثمان حكم اثنين وثلاثين سنة وأنه توفي في الثمانين من عمره .أنظر: أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ج٢ ص ٥٣٨ هامش١.
(٣٦) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٥ ص ٧٠-٧١ ؛السخاوي التبر المسبوك، ص ٣٠٩؛ الجرماني، تحف الانباء، ص ١٦٠؛ عاشور: العصر المملوكي، ص ٢٦٤.
(٣٧) لا يشك منجم باشي في جامع الدول أن جلال الدين علي ولي الحكم ولكنه لا يدرج حمزة بين اسماء حكام الآق قيوتلية، على حين يشك بعض المؤرخين في أن يكون علي ولي الحكم ويؤيدون ذلك بأنه ليست له سكة على العكس من حمزة الذي توجد له مسكوكات مضروبة في آمد وارزنجان. انظر: أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ج ٢ ص ٥٤٢ هامش ١.
(٣٨) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٥ ص ٨٩
(٣٩) ابن تغري بردي : النجوم، ج١٥ ص ٢٢٧
(٤٠)ابن تغري بردي: السابق، ج١٥ ص ٢٣١، عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٦٥.
(٤١) يذكر أن الأمير حمزه كان قبيح السيرة. أنظر ابن حجر : أنباء الغمر، ج ٩ص ٢٢٩ ؛ السخاوي: الضوء اللامع، م٢ ج ٣ ص ١٦٥.
(٤٢) السخاوي: المصدر السابق م ٢ج ٣ ص ١٦٥
(٤٣) ويذكر السخاوي أن جهان كير قدم مع والده إلى مصر، وأنعم عليه السلطان بإمرة حلب، فتوجه إليها واقام مدة إلى أن ولاه الظاهر جقمق الرها، فعظم وكثرت جنوده ثم ملك آمد بعد موت عمه حمزه ثم ارزنجان ثم ماردين وغيرها إلى أن صار حاكم ديار بكر وأميرها. أنظر: الضوء اللامع م٢ ج٣ ص ٨٠-٨١.
(٤٤) ابن تغري بردي : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠، ج١ ص ٧٩-٨٠؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٠٩؛ عاشور العصر المماليكي ص ٢٦٥. Wiet , Op.Cit,p.565
(٤٥) ابن تغري بردي : حوادث الدهور، ج١ ص ٩٦.
(٤٦) السخاوي: الضوء اللامع م٢ ج٣ ص ٨١ ؛ التبر المسبوك ص ٣٨٤
(٤٧) أحمد الشنتناوي: دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٠
(٤٨) اختلف المؤرخون في تاريخ جلوس حسن الطويل على العرش، فهو يتراوح ما بين ٨٥٧هـ /٨٧١م. ويرجع هذا الخلاف إلى أن بعض المؤرخين يعتبرون تاريخ جلوسه هو تاريخ توليه رياسة العشيرة الآق قيوتلية في ديار بكر بعد خلع أخيه جهان كير في آمد سنة ٨٥٧هـ. على حين يرى بعض المؤرخين أن بداية سلطنته كانت ٨٧١هـ حين استولى على أذربيجان، واتخذ تبريز عاصمة لدولته أنظر: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدولة الإسلامية، ج٢ ص ٥٣٩.
(٤٩) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٦ ص ٢٦٨-٢٧٠؛ ابن إياس:بدائع الزهور ج٢ ص ٧٢-٧٥ ؛ موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن مصر ١٣٤٢هـ/ص ١٥٢.

(٥٠) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٦ ص ٢٨٨؛أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف، م٣ ص ١٤٦

(٥١) ابن الصيرفي : أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي ص ٥١-٥٢، ويذكر ابن إياس عن ذلك : أن كان هذا من حسن الطويل عين الخداع. انظر: بدائع الزهور ج٣ ص٢٧: محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ ج٢ص ٢٢١-٢٢٢.

(٥٢) ابن الصيرفي : انباء ص ٧٤ ابن إياسر بدائع الزهور ج٣ ص ٣٢-٥٢-٥٣ محمود رزق سليم : عصر سلاطين لمماليك م١ ج٢ ص٢٢٢.

(٥٣) ابن الصرفي : أنباء الهصر، ص ٢٤٨، ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٠، عاشور : العصر المماليكي، ص ٢٦٧.

(٥٤) السيوطي : تاريخ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهري، ورقة ٦، ٧، ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٠- ٨١ طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٣٥، عاشور : العصر المماليكي، ص٢٦٧.

(٥٥) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٢- ٨٤.

(٥٦) السخاوي: الذيل التام، جـ ٢ ص ٢٧٠، طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص١٣٦.

(٥٧) البيرة: ثغر مملوكي أعلى الفرات. انظر إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك ص ١٣٧.

(٥٨) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٦ .

(٥٩) ومما قيل عن هذه الواقعة ما قاله الشيخ شمس الدين القادري شعرا :

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً ... كأغنام وهن لنا غنايم
فنار الحرب قد سبكت سوار ... وأنت لسبكها لاشك خاتم

وقال الشهاب المنصوري فيه :

أيها العسكر الذي سار ... قاصدا لقتال الطويل لا تنظروه
لا تطيلوا مع العدو كلاما ... في وغى الحرب والطويل قصروه

انظر السخاوي : الذيل التام، جـ ٢ ص ٢٦٢ .

(٦٠) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٨ : أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف، م٣ ص ١٤٧ .

(٦١) طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٣٧ .

(٦٢) يذكر ابن إياس أن الأشرف قايتباى كان يخشى مد سطوته. انظر : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٤٨.

(٦٣) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٦٤) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ٣ ص ١٠٨ .

(٦٥) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ١١٠ .

(٦٦) يذكر أن محمد أغرلوا ذهب إلى أرزنجان، وأن أميرا من الشاة البيضاء يدعى بايندر رماه بسهم فقتله، وجز رأسه وأرسله إلى أبيه حسن الطويل، وكان ذلك بإيعاز من زوجة أبيه (سلجوق شاة خاتون) التي كانت تحقد عليه، وأن هذا العمل عجل بموت حسن الطويل الذي كان مريضا . انظر السخاوي: الضوء اللامع، م٣ جـ ٣ ص ١١٣، أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدولة الإسلامية، جـ٢ ص ٥٤٠ هامش(١).

(٦٧) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٤٨، وكانت مدة حكم حسن الطويل أربعة وعشرون عاما ومدة سلطنته عشرة أعوام. انظر أحمد السعيد سليمان : السابق، جـ ٢ ص ٥٣٩) ويذكر أنه كان عادلا تقيا كثير الأنفاق في وجوه الخير. انظر : أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف م٣ ص ١٤٧.

(٦٨) طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك، ص ١٣٨ .

(٦٩) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٦١ ، السخاوى : الضوء اللامع، م٥ جـ ١٠ ص ٢٨٣ .

(٧٠) السخاوى : الذيل التام، جـ ٢ ص ٣٢٧ – ٣٢٨ . ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٧٠ –١٧١، بيشوف الجرمانى : تحف الأنباء، ص ١٦٥، عاشور : العصر المماليكى ص ٢٦٧ .

(٧١) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٨٠ – ١٨١

(٧٢) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك م١ جـ ٢ ص ٢٢٣– ٢٢٤ .

(٧٣) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٢٥١ .

(٧٤) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٤٧٥ .

(٧٥) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٧٦) اطرابزندة : مدينة اسمها بالتركية طرابزون وهى فى الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأسود على ساحل تكثر فيه التلال ويفصله عن باقى آسيا الصغرى وأرمينية سلسلة من الجبال المرتفعة وهى مدينة ذات مركز تجارى هام. انظر : أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٢ ص ٣٠٣

(٧٧) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف، م٣، ص ١٤٠ .

(٧٨) منجم باشى : صحائف الأخبار، موجز للأصل العربى، جـ ٣ ص ٣٧٦ .

(٧٩) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣، ص ١٤٢ .

(٨٠) عاشق باشا زادة : تاريخ استنبول، ١٣٣٢هـ، ص ١٥٩ – ١٦٠ ؛ منجم باش : صحائف الأخبار : دائرة المعارف، جـ٣ ص ٣٧٦ .

(٨١) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣، ص ١٤١ .

(٨٢) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٢، ص ١٥ .

(٨٣) محمود محمد الحويرى : تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، ط١ ٢٠٠٢م، ص ١٧٧ .

(٨٤) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣، ص ١٤٣ .

(٨٥) Shaw,: Hist of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. 1 (Cambridge 1977) P.65

(٨٦) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، القاهرة ١٩٦٥م، جـ ٢ ص ١٨٤ .

(٨٧) يلماز أزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان مراجعة محمود الانصارى استانبول ١٩٨٨، ج١ ص ١٦٢ ؛ محمود رزق: عصر سلاطين المماليك م ١ ج٢ ص ٢٢٢–٢٢٣ . ويذكر ابن اياس أن العثمانيين التقوا بالسفير الحامل لرسالة حسن الطويل فى عرض البحر فقبض عليه وأرسل هذه الرسالة إلى السلطان المملوكى قايتباى. أنظر بدائع الزهور، ج٣ ص ٨٧.

(٨٨) ابن إياس : نفس المصدر ج ٣ ص ٨٧

(٨٩) Sykes, History of Perisa, London 1915, p. 191

(٩٠) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدولة الإسلامية، ج ٢ ص ٥٣٩؛ الحويرى تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٧٧–١٧٨

(٩١)أحمد السعيد سليمان نفس المصدر، ج٢ ص ٥٣٩

(٩٢)أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٤–١٤٥

(٩٣)أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م ٣ ص ١٤٥

Halil Inalcik , the Ottoman Empire , the Classical Age (1300-1600) London 1973 , P.P 28-29

(٩٥) خليل إينالجك: العثمانيون النشأة والازدهار، كتاب تاريخ الدولة العثمانية، إشراف

روبيرمانتران، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ١٩٩٣، ج١ ص ٦٦

(٩٦) أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٦ .

(٩٧) Shaw , Op. Cit, P.66.

(٩٨) احمد السعيد سليمان : من تاريخ الدول الإسلامية ج٢ ص ٥٤٠

(٩٩) دولة الشاه السوداء (القراقيونلية) ظهرت في الربع الأخير من القرن الثامن الهجري وكانت تعيش عشائرهم فى أذربيجان، وكان جدهم (بيرام خواجه) يعمل في خدمة السلطان أويس الجلائري وبعد وفاة أويس استولى جدهم عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م على الأماكن الواقعة جنوبي بحرة وان: الموصل وسنجار وأوجيش وخلفه ابنه قرا محمد الذي يعتبر مؤسس دولة القراقيونلية فالتحق بخدمة السلطان أحمد بن أويس وتزوج ابنته، ثم جاء ابنه قرا يوسف وأعلن استقلاله في أرمينيه وأذربيجان، وفي عام ٨١٠ هـ / ١٤٠٨م استطاع قرا يوسف أن يهزم ابا بكر ميراناشاه حفيد تيمور واستولى على كل أذربيجان. انظر: أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدولة الإسلامية ج٢ ص ٥٣٥ .

(١٠٠) ابن تغري بردي : النجوم، ج ١٤، ص٦٩، ابن الصيرفي نزهة النفوس، ج٢ ص ٣٢٩

(١٠١) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤ ص ٩٩: ابن الصيرفي : نزهة النفوس، ج٢ ص ٤٧٦ السخاوي: الضوء اللامع، م٣ ج٥ ص ١٣٦.

(١٠٢) ابن حجر : انباء الغمر ج٨ ص ١٦.

(١٠٣) مدينة قديمة من بلاد فارس في عراق العجم بالقرب من البصرة. أنظر:ياقوت الحموي:معجم البلدان، ج٢ ص ٢٣٤.

(١٠٤) ابن تغري بردي : النجوم، ج١٤ ص ٣٣٥-٣٤٨.

(١٠٥) المقريزي: السلوك ج٧ ص ٢٨٨؛ ابن تغري بردي: النجوم ج١٥ ص ٧٠.

(١٠٦) ابن حجر : أنباء الغمر، ج٨ ص ٤٢٩.

(١٠٧) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٥ ص ٤٢٠ .

(١٠٨) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٥ ص ١٠٨ - ١٤٨، محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ جـ ٢ ص ٢٢١ .

(١٠٩) ابن الصيرفي : أنباء الهصر، ص ٢٨ -٢٩؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢ ص ٥٣٦، دونالدولر: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد المنعم محمد حسين، دار الكتاب المصري واللبناني، ط٢ ١٩٨٥، ص ٧٩،ويذكر أن جيش دولة الشاة البيضاء حاصر بغداد أربعين يوما وأن حسن بن على بن جهان شاه قد حشد جيشا جرارا في أذربيجان بلغ عدته ثمانية عشر ألف مقاتل: واستعان فيها بأبي سعيد التيموري انظر: خواندمير: حبيب السير، طهران ١٢٧١هـ، جـ ٣ ص ٢٣٤، تاريخ أسرة قطب شاة، المخطوطات الفارسية بالمكتبة الأهلية رقم ١٧٤، ورقة ١٦ ب.

(١١٠) أحمد الشنتناوي: دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٢ .

(١١١) خواندمير: حبيب السير، جـ ٣، ص ٣٣٠ .

(١١٢) أيوبيه حصن كيفا في الجزيرة على نهر الشط تقع بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر، حيث استطاع الملك الكامل وهو من أيوبيه مصر القضاء على دولة بنى أرتق بحصن كيفا ووضع فى حكمها ولده الصالح نجم الدين أيوب، ومن هنا بدأت سلالة بنى أيوب الأكراد بها. انظر : أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ١، ص ١٥٠ .

(١١٣) ابن تغري بردي : النجوم، جـ ١٥ ص ٢٢ .

(١١٤) ويذكر أن استيلاء الشاة البيضاء لهذا الحصن دام عشرين سنة، ولكن الأيوبيين استفادوا من

القلاقل التى أعقبت وفاة حسن الطويل وعادوا إلى ملكهم، ولكن فى عهد دولة الشاة البيضاء وعمر حصن كيفا من جديد وأقيم فيه مبان ضخمة انظر : أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ١ ص ١٥٠ – ١٥١، السخاوى : الضوء اللامع، م٢ جـ ٣ ص ١١٢ –١١٣ .

(١١٥) أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٠ .

(١١٦) زامباور : معجم الأسرات الحاكمة، جـ ٢ ص ٢٣٢ – ٢٣٣، أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢ ص ٥١٧ .

(١١٧) عاش بنو قرمان فى أواسط القرن السابع الهجرى فى أرميناك ولارنداو قونية بسيواس، ويرجع نسبهم إلى نورصوف (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٠ م) وكانت من أكبر الدول التى ورثت السلاجقة وأقواها . انظر : زبيدة عطا : الترك فى العصور الوسطى، ص ١٤٨ .

(١١٨) أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٠ .

(١١٩) أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٤ .

(١٢٠) ابن حجر : أنباء الغمر، جـ ٨ ص ٢٥٣ .

(١٢١) ابن تغرى بردي : النجوم، جـ ١٥ ص ٢٠١ .

(١٢٢) ابن تغرى بردي: السابق، جـ ١٥ ص ٨٩، أحمد الشنتناوي: دائرة المعارف الإسلامية، م٢ ص ٤٨١.

(١٢٣) منجم باشي: صحائف الأخبار، جـ ٣ ص ١٥٧، عاشق باشا زاده : تاريخ استنبول، ص ٢٤٧ ص٢٤٩.

(١٢٤) ابن تغرى بردي : النجوم، جـ ٧ ص ٤٨٥ .

(١٢٥) منجم باش : صحائف الأخبار، جـ ٣ ص ٣٧٦ .

(١٢٦) أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ٣٣٢ .

(١٢٧) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢، ص ٥٤٠ .

(١٢٨) يذكر أن حكم مراد فى أذربيجان، ومحمد فى أصبهان، والوند فى العراق العجمى. انظر : أحمد الشنتناوي : دائرة المعارف الإسلامية، م٢ ص ٤٨١ .

(١٢٩) أحمد السعيد سليمان، السابق، جـ ٢ ص ٥٤١ .

(١٣٠) الصفويون : ترجع هذه الأسرة إلى جدها الأكبر موسى الكاظم، وقد أسسها فى أردبيل من أعمال أذربيجان الشيخ صفى الدين أسحق (١٢٥٢ - ١٣٣٤م) ولما طرد جهان شاه الجنيد وهو أبو حيدر حفيد صفى الدين من بلاده لجأ الجنيد إلى حسن الطويل وارتبط به بأواصر المصاهرة، حيث زوجة أخته خديجة، ثم قتل جنيد فى معركة ضد حاكم شيروان، وظل ابنه حيدر الذى كان واليا ومحاربا محتفظا بصداقته لحسن الطويل واستطاع بمساعدته أن يحافظ على مركزه فى أردبيل، ولم يبدأ العداء بين حيدر والشاة البيضاء إلا فى أيام يعقوب، فقد استطاع حاكم شيروان بمساعدة يعقوب أن يهزم حيدر فى أحد المعارك وأن يقتله، ولما استولت جيوش يعقوب على أردبيل نقل أولاد حيدر إلى فارس وساعدهم بعد ذلك رستم الآق قيونلى على العودة إلى أردبيل، ولكن الشاة إسماعيل الصفوى هو الابن الثالث لحيدر وأول حاكم صفوى مستقل استطاع أن يعيد أمجاد أسرته، انظر : محمد أنيس : الدولة العثمانية، ص ١٠٥ محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، ط١ ١٤١٥هـ/١٩٩٥، ص ٥٧ .

(١٣١) Show, OP. Cit, P. 77

(١٣٢) محمود رزق سليم : الأشراف قانصوه الغورى، سلسلة أعلام العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص١٢٤؛ دونالدولير: إيران ماضيها وحاضرها ص ٨٦ .

(١٣٣) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٤ ص ٤٠٣ .

المصادر والمراجع

أ- المخطوطات

مجهول : تاريخ اسرة قطب شاه ، المخطوطات الفارسية بالمكتبة الأهلية تحت رقم (١٧٤)

ب. المصادر:

ابن إياس: (محمد بن أحمد بن إياس ت. ٩٣٠هـ /١٥٢٤م).

– بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢م – ١٩٨٤م.

ابن تغري بردى : (جمال الدين أبو المحاسن ت. ٨٧٤هـ /١٤٧٠م)

–حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩٠م

–النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق / جمال محمد محرز - فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م

ابن حجر العسقلاني: (أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمدت٨٥٢هـ/١٤٤٩م):

– أنباء الغمر بأبناء العمر ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م

– الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٤م

السخاوى : (محمد بن عبد الرحمن بن ابى بكر بن عثمان ت:٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

– التبر المسبوك على ذيل السلوك، بولاق ١٩٨٦

– الذيل التام على دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروه ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت ط٢ ١٤١٣هـ /١٩٩٢م

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ط)

ابن الصيرفى : (على بن داود الجوهرى ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤–١٤٧٥م)

– أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٠م

– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م،–١٩٧٣م .

العينى: (بدر الدين أبو محمد بن موسى بن أحمد بن الحسين بن يوسف ت:٨٥٥هـ /١٤٥١م)

السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى تحقيق فهيم محمد علوى شلتوت، دار الكتب القاهرة، ١٩٩٨م.

القلقشندى: (الشيخ أبو العباس احمد ت ٨٢١ هـ /١٤١٨م)

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية(د. ت)
– المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ /١٤٤٢م)
السلوك لمعرفة دول الملوك، إعداد محمد عبد القادر عطا، دار الكتاب العلمية بيروت ط١ ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م
– ياقوت الحموى : (شهاب الدين ابو عبد الله ت ٦٢٦هـ /١٢٢٩م)
معجم البلدان، بيروت ١٩٨٤م

ج- المراجع العربية والمعربة :

– أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف مصر (د.ط)
– أحمد الشنتناوى وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية، دار الفكر (د.ت)
– إبراهيم على طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م
– ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور، مصر ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م
– استانلى بول : طبقات سلاطين المماليك، الدار العالمية للطباعة والنشر ط١ ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م
– أنور زقلمة : المماليك فى مصر، القاهرة، ط١ ١٩٩٥م .
– بيشوف الجرمانى : تحف الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء، المطبعة الأميرية، بيروت ١٨٨٠م .
– خواندمير : حبيب السير، طهران ١٢٧١هـ .
– دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، دار الكتاب المصرى واللبنانى، ط٢ ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م .
– زامباور : معجم الإنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى
ترجمة زكى محمد حسن، حسن حمد محمود، المطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١م
– سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، مكتبة الإنجلو المصرية، ط٢ ١٩٩٤ .
– شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد عيسى، سهيل زكار، دمشق ١٩٨٢م .
– عاشق باشا زاده، تاريخ استنبول، ١٣٣٢هـ .
– عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، القاهرة ١٩٦٥م
– عبد العزيز محمود : مصر فى عصرى المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٩٦م
– عصام شبارو : السلاطين فى المشرق العربى، دار النهضة ١٩٩٤ م
– فريدون بك : منشآت سلاطين، استانبول، ١٢٧٤هـ

– كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٣٧٣هـ /١٩٥٤م

– محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، ط١ ١٤١٥هـ /١٩٩٥م .

– محمود رزق سليم :

– الأشرف قانصورة الغورى، سلسلة أعلام العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

– عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، مكتبة الآداب، ط٢ ١٣٨١هـ /١٩٦٢ م .

– محمود محمد الحويرى : تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، ط١ ٢٠٠٢م .

– محيط المحيط : مكتبة لبنان بيروت ١٩٩٣م.

– موير : (سير وليام) : تاريخ دولة المماليك فى مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مصر ١٣٤٢هـ /١٩٢٤م.

– منجم باشى : صحائف الأخبار، وهو موجز للأصل العربى (د. ط)

– يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة محمود الأنصارى استانبول، ١٩٨٨م.

د: المراجع الأوروبية

- Halil Inalcik, The Ottoman Empire , the Classical Age (130-1600) London , New York, 1973).

- Shaw , Hist of the Ottoman Empire and Modern Tarkey, Vol.1, Cambridge 1977.

- Sykes , History of Persia (London, 1915).

- Wiet,G., L' Egypt Arabe (Hist de la Nation Egyptinenne , Paris, 1920 - 1937).

د/ يسرى أحمد زيدان (*)

رعاية الأيتام في العصر المملوكي
(٦٤٨ - ٩٢٣م / ١٢٥٠-١٥١٧م)

تقررت رعاية الأيتام بآي القرآن الكريم ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية وعلى هذا الأساس سارت معاملة المسلمين في شتى عصورهم التاريخية لليتامى تكريما واهتماماً رعاية وعناية ، إنفاقاً وإحساناً.

وتبدو رعاية النبي صلى الله عليه وسلم لليتامى في عصره جلية من خلال العديد من المواقف الكريمة، والتصرفات النبيلة، منها شراؤه صلى الله عليه وسلم لمحمد بن عبد الله بن جحش رضي الله عنهما أرضاً بخيبر من تركه والده الشهيد عبد الله بن جحش الذي استشهد في غزوة احد في السنة الثالثة من الهجرة فاشترى له النبي صلى الله عليه وسلم أرضاً وأقطعه داراً بالمدينة المباركة[١].

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسى مبدأ مهماً هو ضرورة تنمية أموال اليتامى وتشغيلها للحفاظ عليها، وهو الأمر الذي انتهجه صحابته الكرام من بعده، فلقد كان الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري يتجر في أموال بعض اليتامى[٢] كما شاهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم امرأة صحابية بأسواق المدينة الشريفة وهي تتاجر في أموال يتيمتين للإنفاق عليهما[٣].

وسار المسلمون في العصر الأول من تاريخهم المبارك على هذه السياسة[٤]، حتى أسندت هذه المهمة في أواخر القرن الهجري الأول إلى القضاة، وكان القاضي عبد الرحمن بن معاوية بن حديج أول من تولى مهمة النظر في أموال اليتامى ورعايتها والقيام بشأنها[٥] واستمر إشراف

---

* أستاذ التاريخ المساعد - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

القضاة على أموال اليتامى في العصر العباسي الأول حيث أدخل القاضي خير بن نعيم قاضي الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) أموال اليتامى بيت المال، وسجل كل ما يتصل بها في سجلات خاصة بهذه الأموال[٦].

واستمر الأمر على ذلك[٧] حتى العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ /١٢٥٠-١٥١٧م) الذي شهد اهتماماً باليتامى من جانب السلاطين والأمراء ومن القضاة والفقهاء، وغيرهم، ومن عامة المسلمين وإن كانت الدولة المملوكية ممثلة في بعض سلاطينها وبعض موظفيها قد أخلت بهذا الاهتمام في بعض الأحيان.

وقد أولت الدولة المملوكية عناية فائقة بالأيتام، اشتملت حفظ أموالهم وتنميتها، والمحافظة عليها من الضياع، وتضمنت الحرص على إنشاء المكاتب اللازمة لتعليم الأيتام القرآن الكريم والقراءة والكتابة والحساب، وتابعت هذه المكاتب، واختارت لها العلماء الأكفاء الثقات، ووفرت أدوات الكتابة والقراءة للأيتام، وحمت هؤلاء الأيتام من أي اعتداء عليهم أو ضرب لهم من معليهم، إلى غير ذلك من أمور حافظت على اليتامى وأموالهم لئلا يضيعوا في المجتمع.

حفظ أموال الأيتام وتنميتها:

عرفت إحدى المناصب الجليلة في الدولة المملوكية باسم: (نظر الأيتام) أو باسم (نظر ديوان الأيتام). وهي وظيفة من الوظائف المهمة في الدولة المملوكية، ومن ثم وصفت بأنها من (المناصب الجليلة في الدولة)[٨] وهي: الحسبة ونظر الزكاة، ونظر الأيتام. وتولى هذه الوظيفة قضاة عدول، توافرت لهم صفات معينة من الكفاءة والأمانة والزهد، وكان أغلبهم من مشاهير الفقهاء، وأماثل القضاة، كما كان أغلبهم أثرياء لئلا يتطلعوا إلى ما تحت أيديهم من مال. ومن أبرز من تولى هذه الوظيفة في دمشق: الفقيه تاج الدين أبو الفضل يحي بن محمد المعروف بابن الجنوبي، والمنعوت بالتاج، وتوفي سنة (٦٧١هـ / ١٢٧٢م). وكان من أعيان دمشق، وكان محدثاً، ليس هذا فحسب، وإنما كان (من بيت حديث)[٩] ومنهم: العدل الرئيسي نفيس الدين أبو الفدا، إسماعيل بن محمد الدمشقي، وتوفي سنة (٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) وكان محدثاً ذا ثروة (وله دار مليحة وقفها دار حديث)[١٠].

ومنهم: أبو المحاسن يوسف القونوي ، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ، بقية السلف (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م) وتولى منصب نظر الأيتام بدمشق، وكان عفيفاً عن أموال اليتامى، معطاء لم يسبقه أحد من القضاة في مثل عطائه (وأقام في الأيتام أتم قيام، وأما الصدقات فلم يفرق أحد قبله مثله ولا يلحقه أحد بعده)[١١].

ومنهم: عالم الحجاز ورئيسه إبراهيم بن علي بن محمد، ابن ظهيرة (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م) الذي وصف بأبي الفقراء والضعفاء والأيتام[١٢]. والذي تولى قضاء مكة والخطابة بها والنظر في مصالح المسجد الحرام فاجتهد اجتهاداً تاما في مصالح المسجد الحرام، وأظهر مبالغة عظيمة (في حفظ أموال اليتامى)[١٣].

وبعد فما تقدم نماذج – فقط – ممن تولى رئاسة ديوان الأيتام[١٤]، وممن وثقت بهم الدولة المملوكية فأسندت إليهم هذه المهمة الخطيرة، ثقة في كفاءتهم ودينهم وورعهم فكانوا على مستوى المسئولية وأدوا واجبهم بإخلاص وأمانة. وقد عاون متولي النظر في ديوان الأيتام قضاة آخرون لا يقلون كفاءة ولا أمانة عن رؤساء هذه الوظيفة من القضاة أو من قضاة القضاة، ومن الوظائف المعاونة: وظيفة المشرف بديوان الأيتام، وواضح أن من مهام هذه الوظيفة الإشراف على أداء هذا الديوان لمسئوليته واختصاصاته ويتبين من المصادر أن وظيفة المشرف تلت وظيفة ناظر ديوان الأيتام، وممن باشر المشرف بديوان الأيتام: نجم الدين بن أبي الطيب وتولى هذا المنصب سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م بدمشق[١٥]. ومن الوظائف المساعدة لمتولي ديوان الأيتام أيضاً: الكاتب أي المحرر[١٦] الذي يكتب أسماء اليتامى، ونصيب كل منهم في الديوان، وقيمة الأموال الصادرة من الديوان لأي سبب من الأسباب – التي سيأتي ذكرها – وعدد الأموال الواردة إلى هذا الديوان، وغير ذلك من كتابات هدفها ضبط مالية الديوان وحساباته.

ومن هذه الوظائف المعاونة أيضاً لرئيس. ديوان اليتامى: وظيفة الشهود بالديوان، الذين يشهدون على كافة أعمال الديوان المالية.

وأبرز الشهود في ديوان الأيتام عصر المماليك: الشيخ الأمين العدل مخلص الدين أبو المكارم الدمشقي (خدم في ديوان الأيتام شاهداً)[١٧] وتوفى سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م والشيخ الصدر الكبير نجيب الدين أبو محمد بن عبد الله بن نجيب المتوفى بالقاهرة سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م والذي كان شاهداً بديوان الأيتام[١٨].

هذا وقد عرف ديوان الأيتام في بعض الأحيان بـ (مخزن الأيتام)[١٩] أو بـ (مودع الأيتام)[٢٠] وأحياناً بـ (مودع الحكم)[٢١]. وقد تحدث المقريزي عن (خان مسرور)[٢٢] بالقاهرة الذي أقيم به فندق مسرور الكبير، وأدركه المقريزي وهو في غاية العمارة، تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم ثم قال: (وكان فيه أيضاً مودع الحكم الذي فيه أموال اليتامى والغياب، وكان من أجل الخانات وأعظمها)[٢٣].

كما أطلق على المشرف بديوان الأيتام أحيانا (أمين الحكم)[٢٤] أو (الأمين على أموال اليتامى)[٢٥].

ومن خلال استقراء المصادر المملوكية يبدو أن مصطلح (مودع الأيتام) و(أمين الحكم) كانا خاصين بمصر[٢٦] في عصر سلاطين المماليك، وهو ما ورد النص عليه في المصادر المملوكية عند الحديث عن (ديوان الأيتام) بمصر.

وعلى أية حال فلا يوجد خلاف حول أداء هذا الديوان لوظيفته فمهامه واحدة في مصر والشام وبلاد الحجاز وغيرها، كما كانت وظيفة المشرف به هي وظيفة أمين الحكم نفسها كما ظهر من المصادر المملوكية.

وقد وقع عبء حماية أموال اليتامى في (مودع الأيتام) أي (في ديوان الأيتام) على قضاة القضاة المتولين له، ثم على الموظفين التابعين لهم. فقد قام قضاة القضاة أو القضاة المسئولون عن هذا المنصب بالكشف على هذه الأموال الصادرة من الديوان أو الواردة إليها، واستيعاب كل معاملات هذا الديوان المالية وفهمها، فقام قاضي القضاة علاء الدين بالكشف عن أموال اليتامى بالديوان بدمشق وذلك فى سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م وأحيط علماً بكل معاملات ديوان الأيتام في هذه السنة من خلال سجلات هذا الديوان[٢٧]. وكذلك تابع بمكة المكرمة سنة ٩٠٣ / ١٤٩٧م القاضي الزكوى لأموال اليتامى[٢٨]. وإضافة إلى هذه المتابعة الدقيقة لأموال اليتامى هناك مظاهر أخرى لحماية أموال اليتامى، قام بها القضاة، وتحملوا في سبيلها الأذى والعنت منها:

التصدي لمحاولات الاقتراض من أموال اليتامى أو التعدي عليها:

كان جل السلاطين والأمراء حريصين على أموال الأيتام، وكانت لهم صدقاتهم وأوقاتهم المرصودة للأيتام، ولعل موقف الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠/١٢٧٧م) من أحد الأوصياء على أحد اليتامى ينهض دليلاً على ذلك فلقد منع بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م الأوصياء من التصرف وحدهم في مال اليتامى أو ضم أموال اليتامى إلى أموالهم، فلربما مات يتيم وأخذ الوصي ماله أو ربما مات الوصي فضاع مال اليتيم وأوجب الظاهر بيبرس - كما كان متبعاً - على (أمناء الحكم)- متابعة أموال اليتامى المصروفة، لأن من واجبات هؤلاء الأمناء حفظ مال اليتامى والتحقق من الأوجه المشروعة في إنفاقها. وجاء هذا المنع عندما أراد أحد الجنود التصرف في مال أحد اليتامى بحجة أنه وصيه[٢٩].

ومما يؤكد حرص الدولة المملوكية على أموال اليتامى أيضاً أنه في سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧م فى عهد قانصوه الغورى وقع والد قاضي مكة الشافعي ومتولي أموال اليتامى بها في ضائقة مالية فأخذ بعض المال من أموال اليتامى، فأمر ببيع بيوت القاضي، وبيع كتبه وقدمت أثمانها لليتامى[٣٠].

وهكذا مضت هذه السياسة الرشيدة التي انتهجها بيبرس والغوري وغيرهما من سلاطين المماليك وكذلك من أمرائهم، وكانت كفيلة بحفظ مال اليتامى.

لكن بعض السلاطين وبعض الأمراء تطلعوا لأموال اليتامى للاقتراض منها في بعض الأوقات وبسبب بعض الظروف السياسية الداخلية أو الخارجية، فوقف القضاة لهذه المحاولات، ولتلك التصرفات وموقفاً مشرفاً.

على أنه تجب الإشارة هنا إلى أن بعض القضاة سمحوا لأنفسهم أحياناً بإقراض بعض الموثوق بهم من الموسرين بعض المال من ديوان اليتامى في بعض الأوقات التي احتاج فيها هؤلاء المال من ديوان اليتامى في بعض الأوقات التي احتاج فيها هؤلاء هذا المال، ومثال ذلك أن قاضي دمنهور بمصر وغيرها من الوجه البحري، القاضي محمد بن أحمد من هبة الله (ت ٧٨١هـ / ١٣٧٩م) لما توجه من القاهرة لقصد الحج والمجاورة استدان من مال الأيتام بالقاهرة عشرة آلاف درهم إلى سنة (برهن وثيق وقصد بذلك خفاء أمره في الغناء وإظهار احتياجه وذلك مما يقصده العقلاء)[٣١].

ولكن هؤلاء القضاة رفضوا إقراض بعض السلاطين والأمراء من مال الأيتام حتى لا يضيع هذا المال، لعدم وجود أسباب قوية تجيز تقديم القرض وتضمن رده. إلا أن هؤلاء السلاطين أو الأمراء استمروا على موقفهم متذرعين بحجج واهية، وعلل ساقطة لتبرير سلوكهم المرفوض إسلامياً وإنسانياً. ومن بين السلاطين الذين كانوا يتطلعون للاقتراض من أموال اليتامى: الظاهر برقوق[٣٢] وابنه الناصر فرج[٣٣]. وما وقع فيه هؤلاء من مخالفة شرعية يحملون تبعيتها هم وحدهم – دون سواهم – ولا ينسحب خطرهم على باقي سلاطين الدولة المملوكية الذين بلغ عددهم اثنين وخمسين سلطاناً، كما لا يشوه تاريخ الأمراء من المماليك وأمرائهم اللذين كانوا بالألوف ومعظمهم وقف عند حدود الله ولم يتجاوزوها. إن وزر تعدى بعض سلاطين المماليك وأمرائهم على أموال اليتامى – في بعض المرات القليلة قياساً إلى تاريخ الدولة ومواقفها من الأيتام – يحمله أصحابه فقط، ولا يمكن أن ينال من الدولة أو يقدح في العصر المملوكي كله وإنما ينال فقط من أصحابه.

وكان المماليك بمصر قد طلبوا في سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م من الأمراء ما وعدوهم به من النفقة، وهي مبلغ خمسمائة دينار لكل واحد، فأعطوهم مائة دينار لكل مملوك، فأبوا فقام الأمراء بالتوجه إلى (أمين الحكم) للاقتراض من مال الأيتام، فلم يسمح لهم بذلك، فنهبوا (المودع) (وكان فيه حينئذ أموال عظيمة جداً) وأخذوا ما شاءوا من مال، ذهب على الأيتام[٣٤]. وحدث مثل هذا

أيضا في سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م حيث قام الوزير موفق الدين أبو الفرج والأمين ناصر الدين محمد بن الحسام بالتوجه إلى مودع الأيتام بخان مسرور بالقاهرة وأخذوا منه ثلاثمائة ألف درهم، والزم أمين الحكم بالقاهرة أن يحمل تتمة خمسمائة ألف درهم، وألزم أمين الحكم بالحسينية أن يحمل مائة ألف درهم قرضا[٣٥]. وكان هذا بالقاهرة في أيام سلطنة الظاهر برقوق (٧٨٤ -٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م)، وفي الفترة نفسها امتحن بدمشق القاضي أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني[٣٦] لكونه امتنع من إقراض السلطان برقوق سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م من مال الأيتام، فامتحن بالعزل والسجن (ثم أطلق ولزم داره)[٣٧].

وكان قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي هو الآخر قد امتنع ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م من إقراض الأمير منطاش نائب ملطية من مال الأيتام ليستعين به على التآمر ضد السلطان الظاهر برقوق وقام الواعظ بوعظ الأمير منطاش، فلم يؤثر فيه الوعظ، فحدث ما تم ذكره من نهب هذا الأمير والوزير لمودع مال الأيتام[٣٨]. وامتنع هذا القاضي مرة أخرى عن إقراض السلطان برقوق من مال الأيتام سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م ورضي بالعزل عن إقراض السلطان الذي اقترض من التجار[٣٩]. ويبدو أن هذا الاقتراض في هذه السنة كان للاستعداد لملاقاة تيمور لنك الذي استولى على العراق سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م وأراد أن يتوجه نحو الشام فيها[٤٠].

وبسبب خطر تيمورلنك على الشام ومصر بعد الاستيلاء على العراق ظلم الأمير تنم[٤١] والأمير علاء الدين بن الطبلاوى[٤٢] التجار وذوي الأموال من الفقهاء وغيرهم سنة ٨٠٢هـ /١٣٩٩م وأخذ من أموال الأيتام بالشام[٤٣] وهو ما حدث سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م بمصر حيث قام الأمير يلبغا السالمي[٤٤] في سلطنة الناصر فرج (٨٠١-٨٠٨هـ /١٣٩٨م-١٤٠٥م) بتحصيل الأموال من التجار، وغيرهم برضي وبغير رضي، وامتدت يده إلى أموال الأيتام والأوقاف.وكان الغزو التيموري للشام قد ألحق أضرارا جسيمة بأحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أنه لم يكن تأثير ذلك الغزو مقصورا على السلطة الحاكمة في مصر، بل امتد إلى السكان وحياتهم العامة. وكان طبيعيا أن تفرض ضرائب استثنائية على الفئات المميزة في مصر خصوصا التجار[٤٥].

وفي سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م احتاج السلطان الناصر فرج فاقترض من مال أيتام بعض الأمراء، ولكن في مقابل رهن جوهره وبعض أراضيه[٤٦].

وهناك محاولات أخرى سعي من خلالها بعض الأمراء لأخذ بعض المال من مال الأيتام عن طريق بعض الحيل والألاعيب منها: ما حدث من أحد الأمراء المعروفين - في تلك الفترة - بالظلم والجبروت وهو مستوفي الدولة[٤٧]: شرف

الدين عبد الوهاب النشو الذي أراد في سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م في سلطنة السلطان محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م)(٤٨) الاستيلاء على بعض مال اليتامى فتصدى له قاضي القضاة تقي الدين محمد الإخناني المالكي وقال له:

(السلطان ما يحل له أخذ مال الأيتام) فرد عليه بأن السلطان يطلب المال الذي سرقه أخوك من خزانة الخاص حيث كان ناظرها. وعن طريق هذه الحيلة تمكن النشو من أخذ بعض مال اليتامى(٤٩).

وفي سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م سعى هذا الظالم النشو بقاضي الإسكندرية عماد الدين محمد بن إسحاق البليسي من أجل أنه عارضه في أخذ أموال الأيتام، واتهم النشو القاضي بأنه أخذ مالا للأيتام، فحقق في القاهرة مع القاضي المظلوم فثبتت براءته، وأفرج عنه(٥٠).

وفي سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م قام القاضي أمين الحكم بالقاهرة: بدر الدين بشراء ملك لبعض الأيتام، فحضر إليه شاد القراريط(٥١) بطلب حق الدولة من مال هذا اليتيم، فرفض القاضي، وحدث نزاع بينهما أخطأ فيه (شاد القراريط) ويدعي: (العلم) فعزره(٥٢) قاضي القضاة ابن جماعة، فسعى النشو بأمين الحكم القاضي بدر الدين إلى السلطان محمد بن قلاوون الذي أصدر أمراً بالإتيان بأمين الحكم، فأظهر سخطه على أمر السلطان متعجباً من محاولة الاعتداء على أموال اليتامى ظلماً، لكن السلطان أحضر متولي الحكم وأمر بضربه بقلعة الجبل مقر السلطة المملوكية بحجة منع الحقوق السلطانية، وألزم بتقديم عشرين ألف درهم للدولة، أدى منها خمسة عشر ألف درهم(٥٣).

هذه هي - فقط - المرات التي اعتدت فيها الدولة المملوكية أو حاولت فيها الاعتداء على أموال اليتامى، وهي مرات قليلة بالنسبة لفترة حكم المماليك، ولكنها غير مبررة، وغير مقبولة، وقد حاول القضاة منع الاعتداء على أموال اليتامى في هذه المرات فنجحوا أحياناً، ولم يوفقوا أحياناً، ولكن حسبهم ما فعلوه من أفعال، ومواقف مشرفة، تحملوا - في النهاية - تبعتها.

إن القضاة المتولين للنظر في أموال اليتامى قد أدوا ما عليهم تجاهها، وكانوا أكفأ أمناء ورعين عن الحرام. فقد توفى أحد أمناء الحكم وهو شهاب الدين أحمد بن على الزركشي فجأة، سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م لأنه وجد نقصاً في مال الأيتام بلغ خمسمائة ألف درهم، فتوفى هما وغما بسبب هذا النقص(٥٤) كما أن القاضي إبراهيم بن علي بن إسماعيل (ت٨٣٤هـ/١٤٣٠م) بالقاهرة سرق من بيته مبلغ كبير، فارتجت القاهرة، وقيل إن أموال الأيتام والودائع ذهبت،

فطلب بعض القضاة والشهود، وأشهد عليهم أنه لم يذهب من ذلك شيء ثم ذهب واستقرض مبلغاً كبيراً (ورهن أملاكه على ذلك كله حتى أداه رحمه الله)(٥٥).

وتبدو الإشارة إلى أن بعض متولي أمر اليتامى ممن تصرفوا تصرفاً غير مسئول، ففرطوا – أحياناً في مال الأيتام ومن هؤلاء القاضي محمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) الذي حزن الناس لموته حزناً عظيماً لكرمه وبره ولعدم رده سائلا، لكن هذا القاضي كان في بعض الأحيان لا يجد مالاً يقدمه للسائلين، فيعطيهم من أموال الأيتام والأوقاف(٥٦). كما أن إهمال بعض القضاة أدى إلى ضياع بعض أوقاف الأيتام وحدث هذا في مصر سنة ٨٣٧هـ / ١٣٣٧م، وعوقب القاضي على تقصيره الذي استفاد منه ابنه في بيع بعض أوقاف الأيتام(٥٧). والغريب هنا أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان له موقف حاسم من القاضي الحنبلي وابنه في قضية بيع بعض أوقاف الأيتام وانتهابها، مع أن السلطان الناصر نفسه أطلق يد النشو – كما مر – في الاستيلاء على أموال الأيتام.

إنماء أموال الأيتام:

أشارت المصادر المملوكية إشارات صريحة إلى دور متولي أموال اليتامى في إنمائها عن طريق شراء أملاك لهؤلاء اليتامى ينتفعون بها أو يبيعونها فيربحون من وراء هذا البيع، وما من شك في أن وظيفة النظر في أموال اليتامى كان معناها: حفظ هذه الأموال وإنماؤها. فلم ينفق شيخ الإسلام وقاضي القضاة، خطيب الخطباء، ناظر المسجد الحرام القاضي إبراهيم بن علي بن محمد بن ظهيرة (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م) درهماً واحداً على كسوة يتيم أو نفقته من أصل ما له وإنما كانت النفقة علي اليتامى مما كان يربحه مالهم من ربح ينفق منه على مأكل ومشرب وملبس هؤلاء اليتامى، ومن ثم لم ينقص درهم واحد من أصل أموال اليتامى الذين تولى مالهم بمكة المكرمة في أيام حكم الإشراف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٥م) ولقد أخبر هذا القاضي المؤرخ عمر بن فهد أنه نسي مرة أن يستثمر مال أحد اليتامى، وكان قد أنفق عليه نفقة، فلما وقف على ذلك قال: كيف أترك هذا اليتيم وحده من غير تسبب له في ماله؟؟ فعزم من ماله الخاص مالاً كبيراً تعويضاً لهذا اليتيم(٥٨). وكان هذا القاضي قد تصدى لمحاولة شمس الدين بن الزمن الشامي(٥٩) أحد خواص الملك الأشرف قايتباي الذي بني رباطاً بالمسعى وأراد أن يبني سبيلاً بالمشعر وحفر أساسه، فتصدى لهذا العمل الأخير القاضي ابن ظهيرة ومنع الفعلة من ذلك، فغضب ابن الزمن وكاتب الأشرف قايتباي وسأله أن يعزله، فأحضر القاضي ما عنده من أموال اليتامى والغياب كما هي دون أن ينقص منها درهم واحد لأنه لم يكن ينفق

على اليتامى إلا من ربح مالهم(٦٠). وذكر عن قاضي القضاة إبراهيم بن علي بن محمد بن ظهيرة (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) أنه كان ينمي أموال اليتامى بالتجارة بها دون أن ينفق درهما واحدا من المال الأصلي لليتامى، بل يكون جميع ما ينفقه على اليتامى من ربح مالهم(٦١).

ووردت إشارة أخرى خاصة بأمين الحكم بالقاهرة الذي اشترى ملكاً لبعض أيتامه(٦٢). وفي ذلك مصلحة هؤلاء اليتامى. ومما سبق يتبين بعض أدوار من عهد إليهم بالنظر في أموال اليتامى في عهد سلاطين المماليك بإنمائها واستثمارها.

الحرص على تعليم اليتامى وتأديبهم:

حرصت الدولة المملوكية على تعليم اليتامى وتأديبهم حرصاً كبيرا، فأقامت لهم المكاتب للوفاء بهذا الغرض، وتخيرت أساتذة أكفاء من العلماء - وأحياناً من أعلام وأعاظم العلماء - لأداء هذا الدور المهم وأنفقت على اليتامى بهذه المكاتب، وتابعت حركة التعليم والتأديب بها. وكانت هذه المكاتب ملحقة بالجوامع والمساجد والمدارس، وأحياناً كانت منفردة عنها. وقد حاكى سلاطين المماليك الأيوبيين فى بناء المدارس لتدريس العلوم الدينية واللغوية وغيرها، وقصد السلاطين بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب. وكانت المدارس فى ذلك العصر أشبه بجامعات، فهي معاهد للتعليم العالي. وبالإضافة إلى المدارس التي كانت تمثل نوعا من التعليم العالي الجامعي، وجدت كتاتيب ومكاتب ملحقة بالمدارس والمساجد أو منفصلة عنها لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن(٦٣). وقد ذكر المقريزي(٦٤) أن الظاهر بيبرس عندما بنى المدرسة الظاهرية بين القصرين بالقاهرة جعل بها خزانة كتب (مكتبة) تشمل أمهات الكتب في سائر العلوم، وأنشأ إلى جانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وأجرى لهم الجرايات والكسوة، وأوقف على المدرسة والمكتب أوقافاً.

وبالمثل فعل المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٣م) عندما أنشا المدرسة المنصورية (بين القصرين) أيضاً سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م حيث جعل بها مكتباً لتعليم الأيتام، وأوقف على مدرسته التي ضمت أيضا المكتب والبيمارستان الذي أنشأه في السنة السابقة نفسها ضياعا وحوانيت وفنادق، وغير ذلك، (ورتب من هذا الوقف للبيمارستان ولمكتب السبيل ما يكفيه)(٦٥).

كذلك أنشأ السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٦م) مكتباً للأيتام عند مدرسته التي أنشأها بالقاهرة، وقد نزل هذه المدرسة سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م، وزار المكتب وعرض الأيتام به، وأمر لهم بكسوة(٦٦).

هذه هي أبرز المكاتب التي أنشأها سلاطين المماليك. أما أمراؤهم فلم يقلوا اهتماما عنهم بإنشاء مكاتب لليتامى بل نافسوا السلاطين في هذا المجال.

ومن أبرز المكاتب التي أنشأها بمصر هؤلاء الأمراء من أجل تعليم اليتامى، ما أنشأه الأمير أرغون العلائي سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م من سبيل ماء (ومكتب سبيل لقراءة أيتام المسلمين القرآن الكريم) ووقف عليه وقفاً بناحية من الضواحي[٦٧] وكذلك ما أقامه زين الدين فيروز (ت٨١٤هـ/١٤١١م) من مدرسة ومكتب أيتام بحي المغربلين بجانب باب زويلة بالقاهرة، ووقف على مدرسته ومكتبه عدة أوقاف، وتوفي قبل إتمام المدرسة (فأقر السلطان - الناصر فرج بن برقوق - ما قرره - من المصارف على الفقهاء والأيتام وغيرهم)[٦٨].

كما أنشأ الأمير الزيني عبد الرحمن بن الجيعان[٦٩] مدرسة بالقاهرة بجوار منزله بحي السبع قاعات، وأقام إلى جانبها سبيلا ومكتبا للأيتام، وأذن السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) بإقامة الجمعة[٧٠] بالمدرسة.

ومنها: المكتب الذي أقامه ناصر الدين الطواشي للأيتام بدمشق[٧١] والمكتب الذي أنشأه الأمير صرغتمش[٧٢] لليتامى بمصر(٧٣) ومكتب الأيتام الذي أنشأه الأمير جنبك الظاهري[٧٤] المتوفى سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م. ومكتب الأيتام الذي بناه الأمير جانم السيفي (ت ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م) إلى جانب منزله بالقاهرة(٧٥). ومكتب بشير الجمدار بالمسجد الحرام[٧٦]، إلى غير ذلك من مكاتب أنشأها أمراء الدولة المملوكية خاصة لليتامى لتلقي بها القرآن الكريم، وعلوم الدين، وقواعد اللغة، ومبادئ الحساب.

حياة اليتيم داخل المكتب:

كان اليتيم يلتحق بالمكتب وله من العمر خمس سنين، ويؤكد ذلك ماورد في (معجم الشيوخ) لابن فهد، وفيه أن العلامة ابن حجر - الذي كان يتيما - التحق بمكتب الأيتام بعد أن أكمل خمس سنوات[٧٧]. وكذلك التحق محمد بن أحمد بن علي المالكي بالمكتب وهو في الخامسة من عمره بالمرية بالأندلس[٧٨]. ويبدو أن هذه السن كانت مناسبة للالتحاق بالمكتب، كما يبدو أن جميع الأطفال اليتامى كانوا يلتحقون بالمكتب في مثل هذا السن أو قريب منه كما يبدو أن الأطفال اليتامى - وغيرهم - كانوا يحفظون شيئا من القرآن الكريم في بيوتهم قبل هذه السن، وقبل الالتحاق بالمكتب. ولدينا إشارة عن أحد اليتامى وهو إبراهيم بن محمد الطرابلسي (ت ٨٤١هـ / ١٤٣٧م) الذي توفي

أبوه وهو صغير جدا، فكفلته أمه وقامت على أمره، وحفظ بعض القرآن الكريم، ثم أدخلته أمه مكتب الأيتام بحلب لناصر الدين الطوشي فأكمل حفظ القرآن الكريم كله[٧٩].

وتبدأ حياة اليتامى في المكتب مع صحوة النهار[٨٠] حيث يقوم الشيخ المؤدب بتأديبهم وإقرائهم وفي ذلك يقول ابن طولون: (يؤدبهم ويقرئهم ويكتبهم على العادة، ثم يقرأ بهم قبيل العصر مجتمعين ما تيسر من القرآن[٨١].

واختير مؤدب الأيتام بكل عناية ودقة، فهو من الفقهاء الأثبات، وأحياناً من مشاهير الفقهاء والقراء المحدثين، ونهضت المكاتب بالتعليم الابتدائي فى عصر سلاطين المماليك، ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم مهمة شاقة عسيرة، لذلك اشترطت فى المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة، منها الدين والعقل وحسن الخلق والبعد عن القسوة والعنف[٨٢]. وأبرز الفقهاء المعلمين المقرئين لليتامى: الفقيه المقرىء أحمد بن أبي بكر بن يوسف القلقيلي[٨٣] السكندري الذي وصف بأنه: (كان حامل لواء الإقراء) وكان عارفاً بطرق القراءات، وقرا عليه العلامة السخاوي. لقد كان هذا العلم المتوفى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م يؤدب الأيتام ويقرؤهم القرآن بمكتب الجانبكية بالقاهرة[٨٤] المنسوب إلى أحد الأمراء.

وكان اليتيم يحصل على بعض المال من المكتب، ولدينا خبر عن قاضي القضاة شمس الدين أبي عبد الله الصالحي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) وكان يتيماً في صغره (فنزل في المكتب، وكان يحصل له في السنة ستون درهماً)[٨٥]. كما كان يصرف للأيتام كسوة في السنة، وذكرت المصادر خبرا عن كسوة بعض اليتامى، وبلغت خمسمائة درهم[٨٦]. كما كانت الأكسية تصرف لليتامى في الأعياد[٨٧]. وكان المكتب يتحمل ثمن الأحبار والأقلام والدوى. فقد خصص مبلغ خمسين درهماً[٨٨] فى ثمن حبر وأقلام ودوى في احد مكاتب اليتامى.

وكان يساعد فقهاء المكاتب الذين كانوا أتقياء دينيين - غير متهمين[٨٩] بتهم تخل ودينهم وخلقهم - عرفاء[٩٠] لهم صفات المؤدبين. وقد يحدث أن يصبح اليتيم عريفا بالمكتب بعد ظهور كفاءة تؤهله لهذا المنصب، وكان القاضي عبد الرحمن بن علي التفهني يتيماً في صغره فرباه أخوه شمس الدين محمد، فلما ترعرع نزل القاهرة وترك قريته (تفهنه) التابعة للغربية، والتحق بكتاب اليتامى في المدرسة الصرغتمشية ثم أصبح عريفاً بها[٩١]، واشترط في العريف الشروط الواجب توافرها في المؤدب، لأنه يقوم بعمله أثناء غيابه، وأحيانا في حضوره من إقراء الأيتام وتعليمهم[٩٢] يبدو أن وظيفة العريف لم تكن ضرورية في المكاتب الصغيرة حيث يقل عدد الأطفال النازلين بالمكتب

فيكتفي بالمؤدب، مثال ذلك ما نصت عليه وثيقة وقف السلطان المؤيد شيخ الذي رتب خمسة وستين يتيما، منهم خمسون يتيما بجامعة، ورتب لهم مؤدبا وعريفا، الباقي وهم خمسة عشر يتيما في القلعة، فلم يرتب لهم إلا مؤدبا فقط(٩٣).

وقد أظهر عدد ضخم من اليتامى نبوغاً كبيرا، وسيأتي ذكر ذلك بدليل المكانة العلمية السامقة التي وصل إليها عدد كبير منهم، والمناصب الدينية الرفيعة التي تبوأها أكثرهم. وتشير المصادر إلى أن العلامة ابن حجر حفظ سورة (مريم) بالمكتب في يوم واحد(٩٤). وكان هؤلاء اليتامى يكتبون القرآن الكريم في الألواح، فإذا أرادوا مسحها غسلوا ألواحهم(٩٥).

ويبدو من خلال المصادر أن هناك مراقبة دقيقة لفقهاء المكاتب تبعد غير الأكفاء منهم عن التعليم في المكتب، وكان المحتسب(٩٦) يقوم بهذه المراقبة وأحياناً يعهد إلى أحد الفقهاء المؤدبين بها القيام بذلك، وورد أن الفقيه المؤدب أحمد بن حسن الشهاب القاهري (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م) نظر في فقهاء المكاتب لإقراء الكفء الدين، ومنع غير الكفء منهم(٩٧).

ولم يحدث لليتامى بالمكاتب أي ضرر بالغ أو أية مشكلة كبيرة بسبب السياسة الرشيدة بهذه المكاتب، باستثناء واقعتين اثنتين(٩٨) وقعتا لبعض هؤلاء اليتامى:

الأولى: ووقعت سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م بالقاهرة وفيها سقطت إحدى منارتي مدرسة السلطان حسن (٧٥٥-٧٦٢هـ / ١٣٥٤-١٣٦٠م)، فمات بسببها ثلاثمائة يتيم كانوا بمكتب اليتامى الملحق بالمدرسة، إضافة إلى بعض من كان يمر بالمدرسة من المارة(٩٩). وواضح من هذا الخبر المفجع عدد اليتامى الكبير في هذا المكتب وحده من مكاتب القاهرة الكثيرة، فضلاً عن مكاتب مصر كلها، وغيرها من أنحاء العالم الإسلامي. ويذكر هنا أن الذي كان يتحكم في عدد الطلاب في المدارس والمكاتب، أو قلتهم شهرة المعلم نفسه في الوسط التعليمي(١٠٠).

والواقعة الثانية والأخيرة حدثت سنة ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م وفيها قام مؤدب الأيتام بمدرسة السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٥م) الفقيه ابن موسى الظاهرة بضرب أحد أيتام المكتب ضرباً مؤلما، فاشتكي اليتيم للمحتسب ما وقع له من ضرب -لم تبين المصادر سببه- فقام المحتسب باستدعاء الفقيه، وضربه تحت رجليه، ثم أمر بحبسه، فهرب من محبسه واشتكى المحتسب إلى القاضي كاتب السر(١٠١)، وكان مع الفقيه المؤدب أيتام المكتب، فقدم القاضي بعض المبالغ للأيتام وللفقيه المؤدب واسترضاه، فعاد إلى مباشرة عمله بالمكتب(١٠٢).

ويستفاد من الواقعة السابقة بعض الأمور: منها دور المحتسب في مراقبة مكاتب اليتامى، ومنها سماع المحتسب لشكوى اليتامى، ومنها وقوف اليتامى إلى جانب مؤدبهم الفقيه ابن موسى، مما يبين منزلته عندهم ومحبتهم له، ومنها دور القاضي كاتب السر في معالجة الأمور بلطف واسترضاء الفقيه واليتامى معاً. ويلاحظ أنه عندما كان يتولي منصب الحسبة شخصية تتصف بالنزاهة والعدل تفرح العامة فرحا كبيرا، ويبالغون في إشعال الحوانيت بالقناديل والشموع احتفالا بمرور المحتسب الذي يحظي بشعبية بالغة بينهم[١٠٣].

وفيما عدا هاتين الواقعتين لم أعثر في المصادر المملوكية[١٠٤] - وما أكثرها - التي اطلعت عليها على أية متاعب أو صعوبات وقعت لليتامى في دار العلم التي يتعلمون فيها من صحوة النهار حتى العصر[١٠٥]، ويقضون فيها معظم أوقاتها، في التأدب والتعلم.

وهكذا تبين لنا مما سبق الوجه المشرف لسلاطين المماليك وأمرائهم في إقامة المكاتب والوقف عليها، والإنفاق علي اليتامى بها. والحقيقة أن معظم السلاطين والأمراء كانوا حريصين على إنشاء المكاتب في أنحاء العالم الإسلامي كله، وعلى تجديد ما تهدم منها أوكاد ينهدم، وكان السلطان منصور لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ / ١٢٩٦-١٢٩٨م) قد أمر في سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م بتجديد عمائر جامع أحمد بن طولون، ووقف عليه أماكن من الجيزة، ورتب فيه الدروس في الفقه على المذاهب الأربعة وكذا الدروس الطبية، وجدد مكتب الأيتام بمسجد أحمد ابن طولون[١٠٦]. كما أنشأ السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٨م) بقلعة الجبل عدة منشآت خيرية، منها سبيل، وصهريج، ومكاتب لليتامى، وأرصد عدة أوقاف عليه[١٠٧]. كذلك كان للسلطان قايتباي مدرسته التي أنشأها والتي أقام بها مكتبا للأيتام[١٠٨]. ويذكر هنا أن الأمير جانبك الجداوي[١٠٩] أنشأ بالقاهرة مدرسة سنة ٨٦٤/١٤٥٩م خارج باب القرافة، بها مكتب للأيتام وسبيل وحوض للبهائم، وغير ذلك (مما يزيد مصروفه الشهري على ثلاثين ألف درهم)[١١٠]. ومن المبلغ السابق يظهر لنا مقدار ما كان ينفقه هذا الأمير على هذه المشروعات الخيرية وبخاصة على مكاتب الأيتام.

لقد كان تأديب الأطفال يتم على قدم وساق في المسجد الحرام[١١١] وبمكاتب الأطفال به[١١٢] وبالمسجد النبوي[١١٣] وفي بلاد الشام[١١٤] واليمن[١١٥] فضلا عن مصر التي سبق الحديث عن مكاتب الأيتام بها[١١٦].

توزيع الأموال على اليتامى :

يأتي توزيع الأموال وتفريقها على اليتامى في الدرجة الأخيرة من دور الدولة التي عليها أن تهتم أولاً بحفظ ما لدى اليتامى من مال، وبإنمائه واستثماره، وبتعليم اليتامى والإنفاق على تعليمهم ثم الإنفاق العام على هؤلاء اليتامى. واشتهر سلاطين المماليك وأمراؤهم بهذا الجانب الإنساني المتمثل في بذل الأموال وإغداقها على هؤلاء اليتامى. وعلى سبيل المثال كان الظاهر بيبرس ينفق على يتامى الأجناد ما يكفيهم ويسد حاجاتهم بالرغم من كثرة عددهم(١١٧). وكانت له صدقاته السنوية التي يفرقها على الفقراء والمساكين وغيرهم(١١٨).

وقد لاحظ ابن بطوطة الرحالة الشهير (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٥م) سخاء سلاطين المماليك وأمرائهم على الأيتام وذكر أن الأمير (طشط)(١١٩) كان من خيار أمراء الناصر محمد بن قلاوون - الذي زار ابن بطوطة مصر في أيام حكمه وأثنى عليه - وأن له الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن)(١٢٠).

كما وردت إشارة عن صدقات السلطان الظاهر برقوق على العجزة والأرامل واليتامى(١٢١).

أقول: إن اليتامى في عصر المماليك لم يضيعوا في المجتمع ولم يشعروا بالدونية عن غيرهم، بل كان لديهم ما يكفيهم وكانوا يشعرون بدورهم في المجتمع ويشاركون في أحداثه وشئونه واستشهد - دليلا على ما أقول - بواقعه بدمشق حدثت سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م إبان ترميم الحائط القبلي بجامع دمشق، حيث وجد أحد الصبية الأيتام العمال وهم يبنون حائط المسجد الأمور وكان لديه سبعة دراهم، فذهب إلي جده وأخذ منه من ماله ثلاثة دراهم أخرى واشترى بالعشرة دراهم طعاماً قدمه إلى الصناع والبنائين وأطعمهم إياه، فلما سمع الناس بما فعله الصبي اليتيم تنافسوا وقام كل واحد منهم بإحضار الأطعمة للصناع، تقليد لهذا اليتيم(١٢٢).

إن هذه الحادثة البسيطة لها دلالاتها المهمة، وأبعادها الكبيرة، ومغزاها القوي، وتثبت أن اليتيم كان مكرماً في عصر سلاطين المماليك، الأمر الذي جعل هذا اليتيم يجود بما في يديه، ثقة في الله أولا، وفي دولته ومجتمعه ثانياً.

وقد ساهم أفراد المجتمع المسلم في رعاية الأيتام عصر سلاطين المماليك بكفالة اليتامى، وبإنشاء المكاتب، وبالوقف عليها، أو بالوقف العام على

شؤون اليتامى، واستوى في هذا الأمر الرجال والنساء على السواء ومن هذه الأخبار المتصلة بدور الأفراد ما ذكره الصفدي من قيام الفقيه العدل تاج الدين أبي العباس (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) من كفالة الأيتام بمصر(١٢٣). وما ذكره ابن حجر(١٢٤) من قيام التاجر المصري المشهور أبي بكر بن علي بن أحمد (ت ٧٨٧ هـ/١٣٨٥ م) رئيس التجار في عصره من كفالة العلامة ابن حجر اليتيم في صباه الذي يقول: (فنشأت عنده مدة إلى أن مات وأنا مراهق). ومنها أيضاً قيام بعض أفراد المجتمع بإنشاء المكاتب والتعليم بها. ولدينا خبر عن قيام الفقيه المؤدب شهاب الدين أبي العباس الصالحي (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م) بإنشاء مكتب له بدمشق والتعليم به(١٢٥). كذلك قامت السيدة العالمة الفقيهة أم الحسين (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) بنت قاضي مكة شهاب الدين أحمد بإنشاء مكتب للأيتام بمكة ووقفت على ذلك وقفاً كافياً بمكة أيضا، فضلاً عن مآثرها الأخرى بالبلد الحرام(١٢٦). وقام بعض الأفراد بتقديم الدوى والمحابر والاقلام والصدقات والإحسان إلى اليتامى بمكاتبهم طلبا للآجر والمثوبة. وقد اشتهر محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٨٤هـ/١٤٧٩م) بهذا الأمر(١٢٧). كما أوقف أفراد المجتمع الإسلامي في عصر المماليك أوقافاً على اليتامى للإنفاق منها عليهم، من ذلك وقف بلقيس (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) بنت نائب الشام حاتم بن عبد الله التي أوقفت وقفاً على سبعة أيتام بمكة(١٢٨) ضمن ما أوقفته من أوقاف خيرية. ومن هذا الوقف أيضاً وقف بيت الشريفة بمكة المكرمة الذي أصبح مدرسة ورباطاً وسبيلاً ومكتباً للأيتام(١٢٩).

وشارك الأمراء أفراد المجتمع الإسلامي في الوقف على الأيتام بصفة خاصة، فلقد أوقف الأمير شيخ سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م جميع أملاكه على ذريته، وعلى جهات البر التي منها وقفه على عشرة أيتام في كل من الحرمين الشريفين وعلى مؤدب يؤدبهم ويقرؤهم القرآن الكريم(١٣٠). وكان لأوقاف الأيتام خاصة قاض يشرف عليها ويحفظها ويدير شئونها(١٣١).

وهكذا كان لأفراد المجتمع الإسلامي دور في كفالة الأيتام(١٣٢)، وفي إقامة مؤسسة التعليم لهم ممثلة في المكاتب، وفي الإنفاق على اليتامى وفي وقف الأوقاف ورصدها عليهم، وما تقدم أمثله - فقط - تبين هذا الدور. وبذلك يكون اليتامى الأثرياء قد وجدوا العناية اللازمة من الدولة لحفظ مالهم ويكون اليتامى الفقراء قد وجدوا أوقافاً ينفق منها عليهم، ويكون الفريقان معا قد وجدوا المكاتب التي تقوم بتأديبهم وتعليمهم وتثقيفهم.

أبرز اليتامى الأعلام من العلماء:

نبغ عدد كبير من اليتامى في عصر سلاطين المماليك، فأصبحوا قمما في علومهم أئمة في معارفهم، طبقت شهرتهم الآفاق بما ألفوا وصنفوا من كتب

وبما نشروا من علم، وبما تبوأوا من مناصب مرموقة، وبما أسدوا للمسلمين من خدمات مختلفة، ويأتي على رأس هؤلاء الأعلام النابغين.

أ- شيخ الحفاظ ابن حجر:

شيخ الإسلام وإمام الحفاظ في زمانه، وحافظ الديار المصرية، بل حافظ الدنيا مطلقاً[١٣٣]، قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني الشهير بابن حجر (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) نشأ يتيماً حيث توفي والده سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م وكان ابن حجر في الرابعة من عمره، فرعاه التاجر المشهور أبو بكر علي الخروبي بوصية من والد ابن حجر، فنشأ عنده إلى أن مات التاجر الذي كان حافظاً لكتاب الله، ولبعض علوم الدين[١٣٤]. وقد دخل ابن حجر مكتب اليتامى وهو في الخامسة من عمره، ورزقه الله سرعة الحفظ، بحيث حفظ سورة مريم في يوم واحد[١٣٥]. وقد برع ابن حجر في الحديث النبوي، والتاريخ، والأدب والشعر، وله مؤلفات قيمة، وآثار حسنة منها: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» و«الإصابة في تمييز الصحابة» و«إنباء الغمر بأبناء العمر» و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» و«رفع الإصر عن قضاة مصر».

ومن وظائفه التي شغلها إضافة إلى التدريس والإفتاء والخطبة وظيفة القضاء التي تولاها بمصر في سلطنة الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ /١٤٢٢-١٤٣٧م) سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م.

وابن حجر – رحمه الله نموذج مشرف لليتامى الأعلام.

ب- حافظ بلاد الشام إبراهيم الطرابلسي:

الإمام العلامة الحافظ حافظ بلاد الشام إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الأصلي الحلبي المولد، أشهر من أن يوصف، توفي والده وهو صغير، فكفلته أمه، وانتقلت به إلى دمشق، ثم رجعت به لحلب وأدخلته أحد مكاتبها بالنشابين وكان لناصر الدين الطوشي، فحفظ به القرآن الكريم، ثم انكب على الحديث النبوي، وخصه باهتمامه حتى أصبح حجة بلاد الشام في الحديث[١٣٦].

وهو نموذج آخر فريد لليتامى الأعلام، وقد توفي حافظ بلاد الشام سنة٨٤١هـ/ ١٤٣٧م.

جـ- الفقيه عبد الرحمن التفهني:

الفقيه القاضي عبد الرحمن بن علي التفهني (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) توفي أبوه وهو صغير فانتقل من (تفهنة) إحدى قرى إقليم الغربية بمصر إلى القاهرة

وهو شاب فالتحق بمكتب الأيتام بمدرسة صرغتمش، ثم ترقي إلى أن أصبح عريفاً في الطلبة، ولازم الاشتغال بالعلم حتى ولي تدريس المدرسة الصرغتمشية بالقاهرة، وأصبح مفتياً مجيدا، وانتهت إليه – في وقته – رئاسة أهل مذهبه الحنفي، وقد فوض إليه قضاء الحنفية بمصر سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م فباشرها مباشرة حسنة[١٣٧]. وهو نموذج آخر جميل لليتامى الأعلام.

د- القاضي شمس الدين الصالحي :

قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم الصالحي (ت ٧٢٧هـ) كان أبوه رجلاً صالحاً من أهل القرآن، وتوفي سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م تاركاً ثلاثة أولاد وأمهم دون أن يترك لهم شيئا فنزل اليتيم محمد في أحد مكاتب دمشق لتلقي القرآن الكريم ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب، وكان يحصل في السنة من المكتب على ستين درهما، كانت قوت الأربعة ولما كبر نشأ نشأة مباركة فاشتغل بالعلم وسماع الحديث بمكة والمدينة والشام، حتى برع في الفقه والحديث، فطار ذكره، وانتشرت شهرته، ثم تولى القضاء بالصالحية سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م فباشره أتم مباشرة، وعمر الأوقاف (وحصل بولايته خير كثير)[١٣٨]. وهذا نموذج آخر طيب لليتامى الأعلام.

هـ - الشيخ بن على الأندلسى :

من النماذج التي برزت في عهد سلاطين المماليك وكانوا يتامى في صباهم الشيخ عمر بن علي بن علي بن أحمد الأندلسي (ولد سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) وكان أبوه مقرئاً للقرآن الكريم بالأندلس ثم قدم القاهرة وتوفى والشيخ عمر يبلغ سنة واحدة من العمر، فكفله الشيخ عيسى المغربي أحد الصالحين الحافظين لكتاب الله فلقنه القرآن والعلم، حتى بز في الفقه[١٣٩].

و- الشيخ محمد الدلجى :

من هذه النماذج المشرفة أيضاً : الشيخ الفقيه محمد بن محمد الدلجي (ولد ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م) بإحدى قرى مصر وتدعى (دلجة) فنشأ بها يتيماً وحفظ بها القرآن الكريم، ثم تحول مع عمه إلى القاهرة فقطن الأزهر، وأقبل على العلم إلى أن أصبح عالماً في الفقه وباقي علوم الدين[١٤٠].

ز- الفقيه احمد الحريرى :

ومنها كذلك الفقيه أحمد بن أحمد الحريري الدمشقي (ت ٨١٣هـ/١٤١٠م) كان أبوه يعمل بالتجارة في الحرير، وتوفي وابنه أحمد صغير فتربي يتيماً فاشتغل بالعلم وتفقه وسمع الحديث وقرأه على العديد من المشايخ حتى أصبح

حجة في الفقه والحديث، وولي قضاء بعلبك سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م ثم ولي قضاء المدينة بعد سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م ثم ولي قضاء صفد وغزة والقدس، ويقول عنه ابن حجر : (اجتمعت به وكان بيننا مودة)[١٤١].

ح - الفقيه احمد بن إبراهيم بن نصر :

يعد هذا الفقيه اللغوي من فضلاء الأعلام اليتامى، فقد ولد سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م بالقاهرة ونشأ بها في كفالة أمه لموت والده في مدة رضاعة الفقيه احمد، فحفظ القرآن وجوده وتعلم الفقه والتفسير والعربية والتاريخ والميقات، وأصبح علما في الفقه واللغة بصفة خاصة، وقد أقبلت عليه الدنيا فاستغل ذلك في عمل الخير وأنشأ مسجدا ومدرسة وسبيلا وغير ذلك من قربات. وتوفي سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م. ويذكر الحلبي[١٤٢] أن ترجمته تحتمل مجلدا كاملا.

ط- الفقيه على بن عمر المدني:

نشأ هذا الفقيه يتيما، فقد ولد بالمدينة المنورة سنة٨٦٥هـ/١٤٦٠م وتوفي والده ولم يكمل نصف سنة، فنشأ يتيما وأخذ العلم في صباه وشبابه، وممن أخذ عنهم المحدث والمؤرخ السخاوي، وتوفي الفقيه على شابا في الرابعة والعشرين عن خاتمة حميدة[١٤٣].

وبعد ... فما تقدم ترجمة لبعض اليتامى الأعلام الذين كان لهم ذكر في دولة سلاطين المماليك، والذين أحسن تنشئتهم وتعليمهم، وآتت هذه التنشئة السليمة، والتعليم الصحيح الثمار المرجوة والآمال المنعقدة من وراء التنشئة الواعية، والتعليم القويم.

وجملة القول أن الدولة المملوكية اهتمت باليتيم اهتماماً كبيرا، فأنشأت ديواناً خاصاً باليتامى الأغنياء لحفظ ما لهم وتنميته، وأسند هذا الديوان لثقات الفقهاء وأمنائهم ومشاهيرهم، وبعض هؤلاء الفقهاء جمع بين هذا المنصب المهم في الدولة وبين الحسبة ووكالة المال[١٤٤]. وبعضهم جمع بينه وبين ديوان الصدقات والمساجد[١٤٥]. وبعضهم جمع بينه وبين النظر في أوقاف أموال اليتامى والغائبين[١٤٦]. وبعضهم جمع بينه وبين الإشراف على الربط، وبعضهم جمع بينه وبين النظر في الجوامع والمساجد ومنها المسجد الحرام[١٤٧]. ثقة في هؤلاء الفقهاء القضاء المتولين لشئون الأيتام، وقد اجتهد هؤلاء الفقهاء القضاة في حفظ أموال اليتامى واستثمارها، وكانوا جميعاً- إلا نفراً قليلاً جداً - قد قاموا بالأيتام أتم قيام وبالغوا في حفظ أموالهم[١٤٨].

وتحمل بعضهم التنكيل والعزل من الوظيفة بسبب عدم إقراض بعض أصحاب السلطة المملوكية في بعض الأحيان من مال اليتامى أو بسبب معارضتهم لأخذ بعض المال منه[١٤٩] بسبب بعض الظروف السياسية التي مرت بها الدولة المملوكية.

وأنشأت الدولة المملوكية بسلاطينها وأمرائها، كما أنشأ أفراد المجتمع الإسلامي برجاله ونسائه المكاتب الخاصة بتعليم اليتامى في جميع أنحاء الدولة، ووفرت لها ما يلزمها من محابر وأقلام، وأنفقت على اليتامى الأغنياء والفقراء بها، وقدمت لهم الملابس، واختارت لهم كبار العلماء لتأديبهم وتعليمهم، وكان اليتامى يقضون وقتاً طويلاً في هذه المكاتب، وأوقفت الدولة والأفراد على هذه المكاتب الأوقاف التي تضمن حسن أداء المكاتب لوظيفتها التعليمية والتربوية. وقد نبغ العديد من اليتامى في كافة علوم الدين واللغة العربية.

وبالجملة فإن اليتامى لم يضيعوا في المجتمع المملوكي، ودور الدولة في الأعم الأغلب كان ممتازا[١٥٠] موفقاً فيما عدا مرات قليلة جداً لم يكن موقف الدولة فيها مقبولاً أو مستساغا مع اليتامى.

الهوامش

١- انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم١ ص ٦٤ ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٥ وص ٤٣٠ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٣ ص ١٩٥؛ ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٣ ص ٣٧٨ ؛ الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ ٢ ص ٥١ ، وراجع حتى ص ٥٢ .

٢- أبو عبيدة : الأموال ص ١٣٥ .

٣- أبو داود : سنن أبي داود جـ ٣ ص ١٢١ ، وابن كثير : مسند الفاروق جـ ١ ص ٣٤١ و ص ٣٤٢ .

٤- راجع أبا عبيد : الأموال ص ٥٤٦ - ٩٤٥ ، ص ٥٥٥ ، راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٥٤ ، ص ٤٥٧

٥- راجع الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٢٥ وراجع من ص ٣٢٤ : والقاضي عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج تولى قضاء مصر للخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥هـ - ٨٦هـ).

٦- راجع الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٥٥ .

٧- مما يدل أيضاً على الاهتمام باليتامى قبل العصر المملوكي ما ذكره المالكي في (رياض النفوس جـ ٢ ص ١٤٥) بالمغرب من حسن معاملة الفقيه أبي عمرو هاشم بن مسرور (ت٣٠٧هـ) لليتامي حيث كان أول ما تدخل الفاكهة يقف بالمكتب الخاص بالأيتام ويقول للمعلم : أخرج إلى من عندك من الأيتام فيشتري لهم الفاكهة ويطعمهم ويدهن رؤوسهم ويقبل بين أعينهم .

٨- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ١ ص ١٣٦ .

٩- راجع ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٤؛ والعيني : عقد الجمان جـ ٢ ص١٠٧ .

١٠- راجع الصفدي : الوافي بالوفيات جـ ٩ ص ٢١٢ - ٢١٣؛ أعيان العصر جـ ١ ص ٥١٥ ؛ العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٣٧٣ .

١١- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٣٦٩ وراجع من ص ٣٦٧ - ٣٧٠ .

١٢ عبد العزيز بن النجم بن فهد : بلوغ القرى جـ ١ ص ٤٥٠ ؛ راجع أيضا مثالا آخر لدى الصفدي: أعيان العصر جـ ١ ص٢٩٨ .

١٣- زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ١ ص ٧٣ وراجع حتى ص ٧٤ .

١٤- راجع للوقوف على رؤساء ديوان الأيتام من القضاة أيضاً : ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ١ ص ١٣٦ ، جـ ٢ ص ٣٤٩ و ص ٤٨٩ ؛ الصفدي أعيان العصر جـ ٣ ص ٢٤٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٤٥ ؛ عمر بن فهد : الدرر المكين جـ ١ ص ٣٢٩ ؛ ص ٣٣٨ ؛ السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ . ص ٦٤ .

١٥- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٢٦٠ .

١٦- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ١٩٦ .

١٧- راجع ابن الجزري : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٢ .

١٨- ابن الجزري : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٤٣ .

١٩- راجع الصفدي : أعيان العصر جـ ٣ ص ٢٤٥ .

٢٠- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ١ ص ٣٥٩ ؛ جـ ٣ قسم ٢ ص ٧٦٩ ، جـ ٣ قسم ٣ ص ١١٥٦؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٠٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٢ وجـ ٣ ص ١٩٥ .

٢١- راجع المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٩٢ طبعة بيروت .

٢٢- ينسب هذا الخان إلى مسرور أحد خدام القصر الأيوبي زمن صلاح الدين الأيوبي ، وكان مسرور صاحب بر وإحسان ، واختص بصلاح الدين وبنى فندقاً في الخان المنسوب إليه . ويوجد بالقاهرة مكانان بهذا الاسم «خان مسرور»: الأول وهو كبير يوجد على يسار من سلك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين والثاني والأخير وهو صغير فيوجد على يمين من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر : راجع المقريزي :

الخطط جـ ٢ ص٩٢.

٢٣- المقريزي : السابق والصفحة نفسها.

٢٤- راجع المقريزي : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٥١٢ ؛ جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٥٨ ؛ ص ٤٥٩ ؛ جـ ٣ قسم ٢ ص ٥٥٦.

٢٥- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٧٠ ؛ السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ص٤٩٧.

٢٦- استخدمت المصادر المملوكية مصطلح (مودع الأيتام) للتعبير عن المكان الذي تحفظ فيه أموال اليتامى بمصر، وعرف هذا المكان ببلاد الشام بـ (مودع الأيتام) أيضا، وبمخزن الأيتام كذلك .ولا خلاف فى عمل هذا (المودع) أو (المخزن) وإنما هما مصطلحان -فقط- للتعبير عن المكان الذي تحفظ فيه أموال اليتامى بكل من مصر والشام فى عصر المماليك.

٢٧- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ١٩٦.

٢٨- راجع عبد العزيز بن النجم : بلوغ القرى جـ ٢ ص ١٠٥٧.

٢٩- راجع المقريزي : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٥١٢.

٣٠- راجع عبد العزيز بن النجم : بلوغ القرى جـ ٣ ص ١٥٦٦.

٣١- الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٩٠ وراجع من ص ٣٨٨.

٣٢- المقريزي: المقفى جـ٥ ص ٨٠ ؛ راجع السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢١٢ .

٣٣- راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم ٣ ص ١١٥٦.

٣٤- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ١ ص ٢٩١ ؛ راجع من ص ٢٩٠ .وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاقتراض كان لأجل المجاورة بالحرم المكي الشريف، والا فالحج ليس فرضا على غير القادرين.

٣٥- راجع المقريزي : السابق جـ ٣ قسم ٢ ص ٦٧٩-٦٨٠ وراجع ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٩٦ و ص ٣٠٣، وابن حجر :إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٤٤.

٣٦- باعون: لم يذكرها ياقوت فى معجمه، وهى قرية قريبة من صفد بالشام. راجع الحلبى : القبس الحاوي جـ١ ص٢٢٤.

٣٧- راجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ١ ص ٢٢٤.

٣٨- راجع في ذلك ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٩٦ ومن ص ٢٧٧ إلى ص ٣١٧، وراجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٤٤ وراجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ٢ ص ٦٧٨.

٣٩- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٣ ص ١٩٥ .

٤٠- للوقوف على عدوان تيمورلنك في هذه الفترة راجع ابن الشحنة : روضة المناظر ص ٢٩٦ و ٢٩٧ – ٣٠٣ وص ٣٠٣ و ٣٠٤ وهذا المؤرخ ابن الشحنة معاصر لهذه الأحداث، وقد قابل ابن الشحنة بحلب تيمورلنك الذي سأله عدة أسئلة عن سيدنا على ومعاوية وعن يزيد بن معاوية راجع ابن الشحنة : السابق ص ٢٩٩-٣٠٢ .وعن قتال المماليك لتيمورلنك راجع:

The Free Encylopedia. Edit period of Burji Mamelukes.

٤١ الأمير تنم: هو سيف الدين الظاهري برقوق، تنقل فى خدمة أستاذه إلى أن ولاه نيابة دمشق. راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص٤٤ -٤٥.

٤٢- الأمير علاء الدين بن الطبلاوي، هو أحد مماليك الظاهر برقوق، وينسب إلى قرية طبلاوة بالوجه البحري. السخاوي: السابق جـ١١ ص٢١٢.

٤٣- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٤ ص ٢١٠ ؛ الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان جـ٢ ص ٩٨.

٤٤- الأمير يلبغا السلمي هو أبو المعالي الظاهرى برقوق أحد مماليكه، ووصل إلى منصب الوزارة فى أثناء حكم برقوق. السخاوى : السابق جـ١٠ ص٢٨٩-٢٩٠.

٤٥- راجع محمد أحمد: فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢٥٨ .

٤٦- راجع المقريزي : السلوك جـ٣ قسم ٣ ص ١١٥٦ .
٤٧- مستوفي الدولة هو الذي يضبط مالية الدولة ، وينظر في مصالح الدولة المالية راجع القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٦
٤٨- هذه الفترة هي فترة سلطنة السلطان محمد بن قلاوون الثالثة والأخيرة ، وقد تسلطن مرتين قبلها الأولى في سنة ٦٩٣ هـ وحتى سنة ٦٩٤ هـ، والثانية في سنة ٦٩٨هـ وحتى سنة ٧٠٨هـ.
٤٩- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٣٩٣ .
٥٠- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٣٢ .
٥١- شاد القراريط: أي صاحب وظيفة جباية بعض المال ممن اشترى أو باع ملكا ،وكان هذا المكس قد ألغي سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م في عهد الأشرف شعبان بن الناصر قلاوون، راجع السخاوي : وجيز الكلام جـ ١ ص ٢٢٤ .

٥٢- التعزير شرعا تأديب لا يبلغ الحد الشرعي. المعجم الوسيط ص٥٩٨.
٥٣- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٥٨.
٥٤- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ٢ ص ٥٥٦ .
٥٥- السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ٨٢-٨٣ .
٥٦ راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٥ ص ١٩١ .
٥٧- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٤٢ .
٥٨- راجع عمر بن فهد : الدرر الكمين جـ١ ص ٦١٤ وراجع من ص ٦٠٦-٦١٦.
٥٩- ابن الزمن، محمد بن عمر ،ولد بدمشق سنة ٨٢٤هـ ونشأ بها وعمل بالتجارة ثم نزل مصر ، واختص بالأشرف قايتباى، فعينه مشرفا للعمائر بمكة والمدينة. راجع السخاوى السابق: ج٨ ص٢٦٠-٢٦٢.
٦٠- عمر بن فهد : المصدر السابق نفسه.
٦١- السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٩٤ وراجع من ص ص٩٣ -٩٨ للوقوف على ترجمة هذا القاضي ورأفته باليتامى والأرامل.
٦٢- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٥٨ .
٦٣- راجع أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص١١٣-١٢١ ؛ سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك ص١٥٢-١٥٨؛ احمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٣٠-٩٢.
٦٤- المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٧٧ -٣٧٩ طبعة بولاق وراجع : ابن عبد الظاهر : تاريخ الملك الظاهر ص ٣٤٤ .

٦٥- راجع بن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩-١٠ .
٦٦- راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
٦٧ المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٧٠٠ .
٦٨- المقريزي : السلوك جـ ٤ قسم ١ ص ٢٠٢ .
٦٩- عبد الرحمن بن الجيعان: كان ناظر الخزانة وكاتبها زمن الظاهر جقمق وتوفى ابن الجيعان سنة ٨٥٥ هـ /١٤٥١م. السخاوي: الضوء جـ٤ ص٨٥.
٧٠- السخاوي : وجيز الكلام جـ ٢ ص ٦١٤ .
٧١- السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ١٣٨ وراجع حتى ص ١٤٥ وعمر بن فهد : معجم الشيوخ ص ٤٧ وراجع حتى ص ٥٠ .
٧٢- صرغتمش: هو سيف الدين صرغتمش من ماليك الظاهر برقوق ورقاه حتى جعله نائبا على الإسكندرية. السخاوي: الضوء حـ٣ ص٣٢٢.

٧٣- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٦٧ .
٧٤- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٦٤ ؛ راجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ٦٧ .
٧٥- السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٦٤ .وراجع ترجمة الأمير جانم السيفي من ص٦٤-٦٥.
٧٦- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣١٤ .
٧٧- راجع ابن فهد : معجم الشيوخ ص ٧١ وراجع من ص ٧٠ - ٧٨ وهذا ما ذكره السخاوى (التحفة جـ٣ صـ٤٨٣ ط طرابزرنى) فى إشارة أخرى ليتيم آخر الحق بالمكتب فى سن الخامسة من عمره.
٧٨- السخاوى : السابق نفسه جـ٣ ص٤٨٣. ويذكر هنا أن بعض الصبية دخلوا المكتب فى سن السابعة. أحمد شلبي: تاريخ التربية ص٣٠٣.
٧٩- راجع السخاوي : الضوء جـ ١ ص ١٣٨، وراجع ابن فهد : السابق ص ٤٧ وراجع حتى ص ٥٠ .
٨٠- ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٢٣ .وهذا هو ما أكدته إحدي الوثائق الموجودة بوزارة الأوقاف، وهى وثيقة رقم (١١٤٣ق) وفيها تحديد وقت تلقى العلم من قبل الواقف من صحوة النهار إلى زوال الشمس يوميا.
٨١- ابن طولون : السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢٧١؛ عصام جمال: دور الوقف في التعليم بمصر، ص ٧٦، ١٢٢ .
٨٢- سعيد عاشور: مصدر سابق ص ٣٦٧.
٨٣- القلقيلى نسبة الى قليقليا بين نابلس والرملة وذكرها السخاوى: الضوء جـ١ ص٢٦٣، ولم يذكرها ياقوت فى معجمه.
٨٤- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٦٤ .
٨٥- ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ١٦٢-١٦٣ .
٨٦- ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٢٣ . وقد أكدت وثيقة وقف السلطان حسن علي ما كان يتقاضاه اليتامي من نفقة بالمكتب وكسوة بلغت الآلاف راجع ص ٤٠٩ بكتاب «تذكرة النبيه» جـ٣ لابن حبيب. وراجع محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٢٦٨؛ عصام جمال: دور الوقف في التعليم بمصر ص٧٥.
٨٧- راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٨٥-٢٨٦ .
٨٨- ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٢٣ . وذكرت وثيقة وقف السلطان حسن ما كان ينفق علي المكاتب في ثمن الألواح والمداد والأقلام والدوي والحصر.راجع الوثيقة السابقة في الكتاب السابق جـ ٣ ص٤٠٩ -٤١٠.
٨٩- راجع ابن طولون : المصدر السابق والصفحة نفسها.
٩٠- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٩٨ .
٩١- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٥٢ و ٢٦٧ .
٩٢- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٦٦؛ وعصام جمال: دور الوقف في التعليم بمصر ص ٧٥، ١٢١.
٩٣- محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ٢٦٦-٢٦٧.
٩٤- ابن فهد : معجم الشيوخ، ص ٧١.
٩٥- العيني : عقد الجمان جـ ٤ ص ٤٧٦.
٩٦- خصص ابن الأخوة الباب السادس والأربعين للحسبة على مؤدبي الصبيان .وذكر أن المحتسب عليه أن يلزم المؤدب بعدم استخدام أحد من الصبية فى حوائجه والا يضرب الصبية بعصا غليظة ولا فى المواضع التى يخشى منها حدوث مرض أو كسر، بل يضرب الأفخاذ وأسافل الرجلين. معالم القربة ص٢٦١-٢٦٢.
٩٧- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٨٠ .
٩٨- لم تنص المصادر التي اطلعت عليها- وما أكثرها- على حدوث مشكلة كبرى لليتامى بخلاف ما ذكرته. وبطبيعة الحال فإنه يمكن حدوث ضرب لبعض اليتامى فى المكتب ولكن بغير ظروف حادثة الضرب

سنة٩٠٣هـ/١٤٩٧م.

٩٩- راجع المقريزي: السلوك (حوادث سنة ٧٦٢ص٦٠) وابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ قسم١ ص٥٧٥؛ راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ١١٣؛ راجع حادثة أخرى يسيرة مشابهة لهذه الحادثة، وقعت سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م لدى المقريزي: السلوك جـ ٤ قسم ٢ ص ٨٠٣. ولم تذكر الموسوعة الحرة المفتوحة مقتل الأطفال الأيتام بسبب وقوع هذه المئذنة H Sultan Hassan Mosque htt/ en. Wiki pedia, org, wiki/ Sultan Hassan Mosque Page 1 of 2.

كذلك لم يشر عبد الرحمن زكى فى كتابه (القاهرة ص١٢٧) إلى وفاة هؤلاء الأيتام عند سقوط ئذنة مسجد ومدرسة السلطان حسن.

١٠٠- راجع عبد الغنى محمود عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك. رسالة ماجستير بآداب القاهرة ص ١٦٩.

١٠١- كاتب السر وظيفة ديوانية يقوم صاحبها بقراءة الكتب الواردة على السلطان أو نائبه وأجوبتها. محمد دهمان: ولاة دمشق ص٢٩.

١٠٢- عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ ٢ ص ١٠٥٠.

١٠٣- راجع حياة حجي: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ص ٦٠.

١٠٤- راجع هامش (٩٦).

١٠٥- راجع ابن طولون: مفاكهة الخلان ص ١٢٣.

١٠٦- العيني: عقد الجمان جـ ٣ ص ٣٦٠.

١٠٧- راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ قسم ١ ص ٥٣٤.

١٠٨- راجع عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ ٢ ص ١٠٥٠؛ راجع السخاوي: التحفة جـ٣ ص٤١٠.

١٠٩- الأمير جانبك الجداوي: أحد مماليك الظاهر جقمق وولاه نائب جدة، وأثرى فأنشأ مدرسة وكتابا للايتام. السخاوي: الضوء جـ٣ ص ٥٧-٥٩.

١١٠- السخاوي: وجيز الكلام جـ ٢ ص ٧٢٩. وراجع فقهاء مؤدبين آخرين الفاسي:العقد الثمين جـ١ ص٤١٣و ٤٣٥ وجـ٢ ص٢٧٩، ٣١٤؛ جـ٤ ص٨٥ وجـ٨ ص١٧؛ السخاوي: الضوء جـ١ ص١٠ و٢٢ و١٧٠و ١٨١و٢٢٦و ٢٦٣و ٢٧٩؛ جـ٢ ص٢و٨و٣٦و١٠٩؛ جـ٣ ص ١٩و ٩٨و١١١؛ جـ٤ ص ٩٨-١٠٠.

١١١- عن ذلك راجع الفاسي: العقد الثمين جـ ١ ص ٢٨٦ وص ٤١٣ وص ٤٣٥ وجـ ٢ ص ٣١٤ وجـ ٤ ص ٨٥ و جـ ٨ ص ١٧ وراجع السخاوي: الضوء اللامع جـ ١ ص١٧٠ وجـ ٢ ص ١٠٩ وجـ ٣ ص ١٠٢ وجـ ٥ ص ٨٩ وجـ ٩ ص ١٣٤ و ١٦٦و١٨٣وراجع ابن فهد: معجم الشيوخ ص ٢٢٣.

١١٢- راجع الفاسي: العقد الثمين جـ ١ ص ٣١٤.

١١٣- راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٣-٢٤ والتحفة اللطيفة جـ ١ ص ٩٤ و ص ٤٥٣، وجـ ٢ ص ١٣٥و ص ٣٥٩ و ص ٥٠٥.

١١٤- راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ ١ ص ١٠؛ وابن فهد: معجم الشيوخ ص ٢٣٠ و ٣٧١ ؛ابن الحمصي: حوادث الزمان جـ ١ ص ٣١٧؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان ص ١٥٩.

١١٥- راجع الفاسي: العقد الثمين جـ ١ ص ٤٣٣.

١١٦- راجع أيضاً السخاوي: الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٢٩ و ٢٧٩؛ جـ ٣ ص ١١١

١١٧- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٣٠١.

١١٨- ابن شداد: السابق والصفحة نفسها.

١١٩- الأمير طشط: هو احد أمراء الناصر محمد بن قلاوون، واسندت اليه نيابة دمشق سنة ٧٧٨ هـ، وت سنة ٧٨٤هـ. محمد دهمان: ولاة دمشق ص٢٣٥.

١٢٠- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص ٦٢.

١٢١- راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ قسم ١ ص ٥٢٥ .
١٢٢- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٢٦٠ وراجع من ص ٢٥٨
١٢٣- الصفدي : أعيان العصر جـ ١ ص ٢٩٨ .
١٢٤ - ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ١٩٧ .
١٢٥- ابن الجزري : حوادث الزمان جـ ٣ ص ٩٧٩ .
١٢٦- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ٨ ص ٣٣١ .
١٢٧- راجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ١١٠ .
١٢٨- راجع عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى جـ ٢ ص ٩٨٤ .
١٢٩- ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ص ٦١٩ -٦٢٠ .وعن اهتمام النساء المسلمات باليتامى فى عصر المماليك راجع السخاوى: الضوء جـ١٢ ص٤٥و٤٦و٤٩و٧٠و٨٦و٩٨و١٤٧ .
١٣٠- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ٣ ص ١١٥٩ .
١٣١- راجع المقريزي : السلوك جـ٢ قسم ٢ ص ٤٤٢ .
١٣٢- راجع أخبارا أخرى عند ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٥٢ ؛ وزين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ١٢-١٣ .
١٣٣- السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٥٥٢-٥٥٣ .
١٣٤- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ١٩٧ .وراجع السخاوى : الضوء جـ٢ ص٣٦-٤٠ .
١٣٥- ابن فهد : معجم الشيوخ ص ٧١ وراجع من ص ٧٠-٧٨ .
١٣٦- راجع ابن فهد : السابق ص ٤٧-٥٠ .والسخاوى: الضوء جـ١ ص١٣٨ .
١٣٧- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٥٢ و ص ٢٦٧ .
١٣٨- ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ١٦٢-١٦٣ وراجع ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٢٦ .
١٣٩- راجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ١٢-١٣ .
١٤٠- راجع زين الدين الحلبي : السابق جـ ٢ ص ٣٤٤-٣٤٥ .
١٤١- ابن حجر : إنباء الغمر جـ٦ ص ٢٤٤ .
١٤٢- الحلبى: القبس الحاوى جـ١ ص١٢٢وراجع من ص١٢٠ .
١٤٣- السخاوى: التحفة اللطيفة جـ٣ ص٢٤٢-٢٤٣ .
١٤٤- راجع العيني : عقد الجمان جـ ٢ ص ١٠٧ .
١٤٥- راجع المقريزي : السلوك جـ ١ قسم ٣ ص ٧٤١ .
١٤٦- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ٢ ص ١٩١ .
١٤٧- راجع عبد العزيز بن النجم : بلوغ القري جـ ١ ص ٤٥٠ ؛ الصفدي : أعيان العصر جـ ٣ ص ١٤٧ ، وراجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٧٠ ، عمر بن فهد : الدر الكمين جـ ١ ص ٣٣٨ ، ؛ السخاوي: الضوء اللامع جـ ١ ص ٦٤ ، وراجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٤٨٩ .
١٤٨- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٣٦٩ ، عمر بن فهد : الدر المكين جـ ١ ص ٣٢٩ ، وراجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ١ ص ٧٣ .
١٤٩- مر تناول هذا الموضوع باستفاضة وراجع عنه أيضاً المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٦٧٢؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ١٦ ص ٥٩ ؛ حوادث الدهور جـ ٢ ص ٤٢٨و٤٢٩و٤٩٦-٤٩٧ .
١٥٠- مر نقد مخالفات الدولة المملوكية لوظيفتها مع اليتامى في بعض المرات وراجع أيضاً المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٦٩٦ .

المصادر والمراجع

اولا: الوثائق:

- وثيقة وقف الأمير السيفي الظاهرى على طلبة العلم بالحرم المكي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، أرشيف وزارة الأوقاف بمصر رقم (١١٤٣ق) أوقاف قديمة.
- وثيقة وقف شاهين بن عبدالله على اليتامى. دار الوثائق القومية بالقلعة رقم(٦٢).
- وثيقة وقف السلطان حسن علي مصالح القبة والمسجد الجامع والمدارس ومكتب السبيل بالقاهرة. نشرها محمد محمد أمين ضمن بحث «مصارف أوقاف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون» ملحقا بالجزء الثالث من كتاب «تذكرة النبيه في أيام وبنيه» لابن حبيب. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦.

ثانيا: المصادر:

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٠م).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة. طبعة دار الشعب - مصر
ابن الأخوة (محمد بن محمد ت٧٢٩هـ/١٣٢٩):
- معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان وصديق المطيعى، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦.
ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) :
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
ابن بطوطة (محمد بن محمد ت ٧٧٠هـ /١٣٦٨م):
- رحلة ابن بطوطة . دار الكتب العلمية - بيروت .
ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية بيروت.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين . عالم الكتب، د.ت.
ابن الجزري (محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧م) :
- تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت .
ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) :
- الإصابة في تمييز الصحابة. مكتبة المثنى ببغداد - مطبعة السعادة بمصر جـ٣.
- إنباء الغمر بأبناء العمر، دار الكتب العلمية - بيروت جـ٢-٨.
ابن الحمصى (أحمد بن محمد ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م):

- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية-صيدا-بيروت.
زين الدين الحلبي (عمر بن أحمد ت ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م):
- القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي، تحقيق حسن إسماعيل وخلدون حسن . دار صادر .بيروت.
السخاوي (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٣٩٦م):
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٤ه ؛ طبعة طرابزرني جـ٣.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . دار مكتبة الحياة - بيروت.
- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد وعصام الحرستاني وأحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م:
ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م):
- الطبقات الكبرى، دار التحرير - القاهرة.
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م):
- طبقات الحفاظ . دار الكتب العلمية - بيروت.
ابن الشحنة (محمد بن محمد ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م):
- روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد مهني، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
ابن شداد (عز الدين محمد بن علي ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م):
- تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط نشر فرانز شتاير ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
الصفدي (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) :
- الوافي بالوفيات، فيسبادان. جـ ٩، اعتناء فان إس.
- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق د علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر - دمشق ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م:
ابن الصيرفي (علي بن داود ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م :
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية ١٩٧٠م.
ابن طولون (محمد بن علي ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م).
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان : وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) :
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب : دار الكتب العلمية بيروت.
ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) :

– الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر – الرياض.
أبو عبيدة (أبو عبيدة بن سلام ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) :
– الأموال. دار الفكر – بيروت.
العيني (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م):
عقد الجمان في تاريخ الزمان، تحقيق محمد محمد أمين – الهيئة المصرية العامة للكتاب. جـ٢و٣و٤.
الفاسي (محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م):
– العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية ، تحقيق فؤاد سيد ومحمد حامد الفقي ود محمود الطناحي.
– ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م):
تاريخ ابن الفرات . ج٨، نشر قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين.
ابن فهد (عمر بن فهد، النجم ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) :
– اتحاف الورى بأخبار أم القرى. جـ ٤ تحقيق عبد الكريم باز، جامعة أم القرى مركز إحياء التراث الإسلامي مكة المكرمة ، وجـ ٣ تحقيق فهيم محمد شلتوت.
– معجم الشيوخ ، تحقيق محمد الزاهي ، دار اليمامة السعودية.
– الدر الكمين بذيل العقد الثمين، تحقيق عبد الملك دهيش، مكتبة الأسدي بمكة ١٤٢٥هـ/١٤١٨م.
القلقشندي: (أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):
– صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥م.
ابن كثير (إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) :
– البداية والنهاية. مكتبة المعارف – بيروت.
– مسند الفاروق. دار الوفاء – المنصورة – مصر.
الكندي (محمد بن يوسف ت في ق ٤ هـ):
– الولاة والقضاة .هذبه كست مؤسسة قرطبة.
المالكي (عبد الله بن محمد ت بعد ٤٧٤هـ / ١٠٨١م):
– رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي بيروت.
المقريزي : (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م):
– السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد زيادة ود سعيد عاشور دار الكتب المصرية.
– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نسخة طبعة بولاق وأخرى طبقة دار صادر – بيروت.
– المقفى الكبير ، تحقيق مجمد اليعلاوى، حـ٥، دار الغرب الإسلامى، بيروت.

ابن النجم : (عبد العزيز بن النجم بن فهد ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م):
- بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق صلاح الدين خليل إبراهيم وعبد الرحمن حسين وعليان المحليدي، دارالقاهرة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م مصر.
النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م):
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية للكتاب.
ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م):
- معجم البلدان . دار إحياء التراث - بيروت.

ثالثا: المراجع العربية :

- أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر.
- أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، النهضة المصرية ١٩٧٦م.
- حياة ناصر الحجي : أنماط من الحياة السياسية الاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الكويت ١٩٩٥ م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام. دار النهضة العربية- بيروت ١٩٧٠م.
- عبد الرحمن زكي : القاهرة : تاريخها وآثارها. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.
مجموعة من الباحثين: المعجم الوسيط ط دار الدعوة- استانبول .
- محمد أحمد دهمان: ولاة دمشق في عهد المماليك. دار الفكر. دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- محمد أحمد محمد : في تاريخ الأيوبيين والمماليك. مكتبة الرشد . الرياض ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣/١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة تاريخية وثائقية. دار النهضة العربية.

رابعا: الرسائل الجامعية:

- عبد العاطي محمود عبد الغني : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك. رسالة ماجستير بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٥.
- عصام جمال سليم غانم: دور الوقف في التعليم بمصر «١٢٥٠-١٧٩٨م» رسالة ماجستير بمعهد الدراسات التربوية - جامعة القاهرة ٢٠٠٤م.

خامسا: المراجع الأجنبية:

Wikipedia,The Free encyclopedia.

http://en.Wikipedia.org/wiki/sultan Hassan Mosque.

د. حصة عبدالرحمن الجبر (*)

النقود والموازين والمكاييل ومقاييس الطول والمساحة في بعض بلاد المشرق الإسلامي إقليم الجبال وخراسان وسجستان أنموذجاً

المقدمة :

موضوع البحث هو النقود والمكاييل والموازين والمقاييس في بعض بلاد المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي الثاني اقليم الجبال، اقليم خراسان وإقليم سجستان أنموذجاً وهذا الموضوع لم يُطرق من قبل سوى ما ورد من معلومات متناثرة في كتب وكتالوجات النقود الإسلامية، وكتب المكاييل والموازين.

وأريد التنبيه إلى أن تسمية بلاد المشرق في بعض المراجع هي بلاد فارس أو النسبة إلى فارس (فارسي)، منطقة الحضارة الفارسية نظراً للاشتراك في اللغة الفارسية، أما إيران فهي التسمية الحالية لبلاد المشرق. ويؤيد ذلك ما ذكره [فالترهنتس] عند الحديث عن الذرع والذراع أن أهم ذرعين هما الذرع الشرعي والذرع الأصفهاني[1] أما ما يختص بإقليم فارس يكون واضحاً بذكر كلمة إقليم قبله أو تحديد المدن الواقعة في إقليم فارس. أما فترة البحث وهي العصر العباسي الثاني فالمعني بها الفترة من سنة ٢٣٢ - ٤٠٠ هـ .

وسوف أبدأ بالتعريف بأقاليم البحث جغرافيًا من حيث الموقع وأهم المدن، ثم الحديث بالتفصيل عن النقود ، والموازين والمكاييل ومقاييس الطول والمساحة.

* أستاذ التاريخ المساعد - جامعة الملك سعود - الرياض

١ - إقليم الجبال، أو قوهستان التي تعني إقليم الجبل بالفارسية:

اسم علم للبلاد المعروفة باصطلاح العجم بالعراق (أو عراق العجم) تمييزاً له عن العراق[٢] ويشمل البلاد الجبلية الممتدة من سهول العراق والجزيرة في الغرب إلى مفازة فارس الكبرى في الشرق، وأشهر المدن همذان وكانت قاعدة الإقليم في عهد السلاجقة، والريّ وكانت في عهد بني بويه في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مقراً لدواوين الدولة ،وقد عرفت الريَ بـ (المحمدية) لأن محمداً المهدي، الخليفة العباسي أقام بها (١٥٨هـ – ١٦٩هـ) زمن والده الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦هـ – ١٥٨هـ) وبنى أكثر مدينة الري خلال وجوده بها ومدينة أصفهان، وكانت أوسع بلاد الجبل وكانت قصبتها جي، ثم صارت اليهودية، مدينة الدينور (ماه الكوفه) وسميت بذلك لأن مالها كان يُحمل في أعطيات أهل الكوفة، شهرزور، زنجان، قم، قاشان، وقزوين، وقرميسين (كرمان شاه)، نهاوند، كرج[٣].

٢ - خراسان:

بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلي الهند و طخارستان وغزنه وسجستان وكرمان، وأشهر المدن فيها نيسابور (إبرانشهر)، طوس، وهراة، بلخ وهي القاعدة، ومرو وكانت قاعدة أيضاً، وبوشنج، والطالقان، ونسا وأبيورد وسرخس، وباذغيس وغرجستان[٤].

وخير ما قيل عن أشهر المدن في خراسان: «مرو التي قامت بها الدنيا، وبلخ وإليها المنتهى ونيسابور فلا تنسى»[٥] .

٣ - سجستان أو سيستان:

واسمها الفارسي سكَستان[٦] وهي البلاد الشمالية حول بحيرة زره الكبيرة وفي شرقها[٧] .

وأشهر مدنها: زرنج، وهي القاعدة، كش، نه، الطاق، القرنين، خواش، غزنين، فره، زالق (الزالقان)، كركويه، بست وهي قصبة كبيرة، وروذان، هيسوم، وبغنين، وبنجهير[٨] وانفرد المقدسي بجعل سجستان من خراسان[٩] وهو غير صحيح.

أولاً: النقود:

كانت النقود المستخدمة في بلاد المشرق هي الدرهم والدينار وفي أقاليم هذا البحث وهي خراسان، الجبال، سجستان. ورد كثيراً في ثنايا المصادر الجغرافية والتاريخية ذكر النقود المستعملة وهي الدرهم الفضي والدينار الذهبي[١٠] إلا أن الدينار في بلاد الجبل يأتي في المرتبة الأولى ويتضح هذا من قول بن حوقل: «ونقود أهل هذه النواحي الذهب والفضة ويغلب الذهب على الفضة»[١١].

١ - الدرهم:

درهم :فارسي، معرب دِرَم [١٢] ودِرَم: معرب الكلمة اليونانية: دراخما، وهي عملة فضية متفاوتة الوزن حسب العصور. وزنة تعادل ستة دوانق وكل دانق قيراطان[١٣]. وورد في المصادر عن أوزان بلاد المشرق أن العشرة من الدراهم تعادل سبعة مثاقيل [١٤] وهي مساوية لدراهم الإسلام المعدلة كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل [١٥] والمثقال في الأصل مقدار من وزن أي شيء كان قليل أو كثير، والناس يطلقونه في العرف على الدينار خاصة [١٦]. ووزن الدرهم الذي هو وزن سبعة - وهو الدرهم الشرعي يساوي ٢,٩٧٥ جرام، ووزن المثقال الشرعي يساوي ٤,٢٥ جراماً[١٧]. والدرهم ستين حبة من حب الخردل [١٨] وزنة الدرهم الواحد خمسون حبة وخمسا حبة من الشعير، ويسمى المثقال من الفضة درهماً ومن الذهب ديناراً[١٩].

قال هنتس: «إن تحديد وزني المثقال والدرهم بالنسبة لإيران (ويقصد بلاد المشرق) ينطوي على صعوبات بالغة . ويبدو أن وزن المثقال بقي حتى أوج العصور الوسطى يستند إلى وزن درهم الكيل الساساني القديم زنة ٤,٣ غم[٢٠] وقد ناقش «هنتس» وزن الدرهم الفارسي (ويقصد به درهم بلاد المشرق خلال فترة البحث) الذي يتناسب مع هذا الوزن في العصور الوسطى وخلص، إلى أن وزن الدرهم على النسبة ١٠ : ٧ = ٣,٢٢ غرام واقترح «هنتس» معدلاً لوزن الدرهم الفارسي (المشرقي) قدره ٣,٢ غم[٢١].

كانت الدراهم التي ضُربت في الأقاليم المشرقية المعنية بالبحث في العصر العباسي عبارة عن قطع مستديرة من الفضة [٢٢] رُتبت الكتابة عليها في دوائر متوازية يُكتب في أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً مع الصلاة على النبي وعلى آله (صلى الله عليه وسلم) وعلى الوجه الثاني يُذكر التاريخ واسم الخليفة[٢٣]، وذلك على غرار الدرهم المضروب في العصر الأموي وفقاً للطراز الذي اتخذه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان واستقر الوزن على وزن الدرهم الشرعي[٢٤] وكانت الدراهم الفضية التي ضُربت زمن الدويلات المستقلة في الشرق المرتبطة بالخلافة العباسية لا تخلو من ذكر اسم الخليفة المعاصر إلى جانب أسماء الحكام بصرف النظر عن الظروف والأحوال والمكان ومهما كانت العلاقات الشخصية بين الطرفين[٢٥] أما الكتابة على العملة فتكاد تتطابق مع الكتابة على العملة المضروبة بعاصمة الخلافة. وأغلب المسكوكات الإسلامية حينذاك كُتبت بالخط الكوفي[٢٦].

أما بالنسبة لدور الضرب فقد أشارت مصادرنا إلى وجود عدد منها في بعض مدن أقاليم المشرق المعنية بالبحث خلال فترة الدراسة (العصر العباسي) مثل: أصبهان (أصفهان) وبالفارسي (أسباهان)، والري والمحمدية، الدينور

(ماه الكوفه) والتيمره، وشق التيمره، وجيّ، وقم في إقليم الجبال، وبلخ، ومرو، هراة، نيسابور، سرخس في إقليم خراسان،زرنج، سجستان في إقليم سجستان(٢٧) وغيرها مما هو متوفر في نماذج العملات الموجودة في المصادر نقلاً عن المتاحف .

٢-الدينار :

قال صاحب المعجم الاقتصادي: «أصله دِنّار بتشديد النون، بدليل قولهم في الجمع: دنانير، وفي التصغير: دنينير، فقلبت إحدى النونين ياءً لئلا يلتبس بالمصادر التي تجيءُ على فِعال(٢٨) وقيل أصله بالفارسية: دينْ آرْ، أي الشريعة جاءت به والدينار معرب الكلمة اليونانيه(ديناريوس) وهي عملة ذهبيه قديمة الأستعمال والدينارستون حبة وقيل ستًا وستين حبة والحبة تساوي حبة الشعير، أو حبة الخردل البري، وهو يساوي ٤,٢٥ جرام.

ويسمى المثقال من الذهب ديناراً ويختلف سعر الدينار باختلاف جوهره، وقيل الدينار هو وزن إحدى وسبعين شعيرة ونصف شعيرة تقريبا، على أساس أن الدانق ثماني حبات، فيكون الدينار ثمان وستون وأربعة أسباع حبة(٢٩).

وقد حافظ العباسيون على الشكل العام للدينار الأموي من حيث الشكل العام والوزن والقطر إلا أنهم وضعوا (محمد - رسول - الله) كل كلمة في سطر في ثلاثة أسطر متتالية في المأثورة الوسطى من الظهر عوضاً عن سورة الإخلاص(٣٠). وكلمة (لله) في أعلى المأثورة الوسطى وهي تعني أن هذه النقود من أموال الزكاة، وقد بدأ ظهور أسماء الخلفاء وألقابهم على الدنانير منذ عهد الخليفة هارون الرشيد(١٧٠-١٩٣ هـ/٧٨٦-٨٠٩ م)، ثم ظهرت أسماء أولياء العهد، والولاة، والوزراء، ثم ظهرت أسماء المدن على الدنانير منذ سنة ١٩٨ هـ بشكل متقطع، وبدأ ذكر اسم المدينة على الدنانير العباسية باستمرار منذ عهد الخليفة المعتصم(٢١٨-٢٢٧ هـ/٨٣٣-٨٤٥ م)(٣١).

ومن حيث الشكل العام للدنانير توجد دائرة بكل من الوجه والظهر تحصر بداخلها نصوص كتابات الدينار(٣٢).

أما الفلوس النحاسية فلم تشر مصادرنا إلى فلوس سكت في أقاليم المشرق المعنية في البحث خلال فترة البحث. سوى ما أشار إليه المناوي(٣٣) بضرب عملة النحاس في العراقين و هي بلاد العراق و العراق العجمي وهو إقليم الجبل كما ذكرنا في التوطئة الجغرافية .

وفيما يلي عرض لنماذج من النقود (الدنانير والدراهم) التي ضُربت في هذه الدور وصورها مرتبة حسب الأقدمية دون التقيد بالنوع:

١-الدينار المضروب في مدينة مرو سنة ٢٣٤ هـ .

القياس ١, ٢١ مم ، ١٨, ٤ غ

الوجه	الظهر
	
	لله
المعتز بالله	المتوكل على الله
المدار الداخلي :	محمد رسول الله أرسله بالهدى
بسم الله ضرب هذا الدينر بمرو سـنة ٢٣٤ هـ	ودين الحق ليظهره على الدين كله
المدار الخارجي :	
لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ	
يفرح المؤمنون بنصر الله (الروم آية ٤، ٥)	المعتز بالله ولي العهد

(٣٤) .

٢-الدرهم النادر المضروب في مدينة أصبهان من إقليم الجبل سنة ٢٤٣ هـــ في عهد الخليفـة أبي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ).

القياس : ٢٧ مم ، ٣،١٣ غ .

الوجه	الظهر
	
لا إله إلا الله وحده لا شريك له	لله
المعتز بالله	محمد رسول الله
لله الأمر ... إلخ	المتوكـــــل علـــــى الله

(٣٥)

٣-الدرهم النادر المضروب بمدينة الدينور (ماه الكوفه) في إقليم الجبال سنة ٢٤٣ هـ في عهد الخليفة أبي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

القياس : ١, ٢٧ مم ، ٣,٠٣ غ .

الوجه	الظهر
	
	لله
المعتز بالله	المتوكل على الله
لله الأمر ... إلخ	
(٣٦) .	

٤- الدينار الذي ضُرب في مدينة المحمدية من إقليم الجبال سنة ٢٤٥ هـ في عهد الخليفة أبي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

القياس ٢٠,٥ مم ، ٤,١٠ غ

الوجه	الظهر
	
	لله
المعتز بالله	المتوكل على الله
المدار الداخلي :	محمد رسول الله أرسله بالهدى
بسم الله ضرب هذا الدينر بالمحمدية سنة ٢٤٥ هـ	ودين الحق ليظهره على الدين كله
المدار الخارجي :	
لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ	
يفرح المؤمنون بنصر الله	المعتز بالله ولي العهد
(٣٧).	

٥- الدرهم المضروب في مدينة قم مـــن إقلـيم الجبال سنة ٢٤٧ هـــ في عهـد الخليفـة أبـــي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧ هـ).

القياس : ٨، ٢٠ مم ، ٢٨، ٣ غ .

الوجه	الظهر
	
	لله
بسم الله ضرب هذا الدرهم في قُم	المتوكل على الله
سنة ٢٤٧ هـــ	محمد رسول الله أرسله بالهدى
لله الأمر ... إلخ	ودين الحق ليظهره على الدين كله.

والدرهم خالياً من لقب ولي العهد ، ومثقوب (٣٨) .

٦- ورد اسم ولي العهد على الدنانير والدراهم العباسية في فترة البحث ومثال ذلـك الـدرهم المضروب في أصبهان سنة ٢٤٩ هــ في عهد الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥١ هـــ / ٨٦٢ - ٨٦٥ م) ونصوص هذا الدرهم كالتالي:

الوجه	الظهر
	
	مركز لله
مركز لا إله إلا	محمد
الله وحده	رسول
لا شريك له	الله
العباس بن	المستعين بالله
أمير المؤمنين	هامش : محمد رسول الله ... ولو كره المشركون

هامش داخلي : بسم الله ضرب هذا الدرهم بأصبهان سنة ٢٤٩ هـــ

هامش خارجي : لله الأمر ... إلخ

(٣٩) .

٧- الدرهم المضروب في مدينة مرو في إقليم خراسان سنة ٢٥٠ هـ في عهد الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ).

القياس : ٢١,٥ مم ، ٤,١٣ غ .

الوجه



العباس بن

أمير المؤمنين

هامش داخلي : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمرو سنة ٢٥٠ هـ

هامش خارجي : لله الأمر ... إلخ

الظهر



لله

المستعين بالله

هامش : محمد رسول الله ... ولو كره المشركون

والدينار نادر حسب قول العش (٤٠) .

٨- الدرهم المضروب في مدينة أصبهان من إقليم الجبال سنة ٢٧٢ في عهد الخليفة أبو العباس أحمد المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م) .

الوزن : ٣,١٢٠ غم ، القطر : ٢٤ مم .

الوجه



لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
الناصر لدين الله
الموفق بالله
أحمد بن عبد العزيز
هامش خارجي :
لله الأمر من قبل ومن
بعد ويومئذ يفرح
المؤمنون بنصر الله
هامش داخلي :
بسم الله ضرب هذا
الدرهم بأصبهان سنة
اثنتين وسبعين ومايتين

الظهر



لله
محمد
رسول
الله
المعتمد على الله
ذو الوزارتين
هامش :
محمد رسول الله أرسله
بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون

٩-الدرهم المضروب في مدينة الدينور (ماه الكوفه) من إقليم الجبال سنة ٢٨٨ هـــ فــي عهــد الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) .

الوزن : ٢,٧٧٠ غم ، القطر : ٢١ مم . مثقوب في الحافة .

الوجه

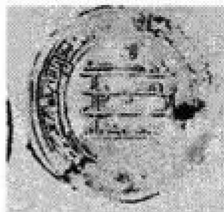


لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الظهر



لله

محمد

رسول

الله

المعتضد بالله

النطاق :

بماه الكوفة سنة ثمان وثمانين ومائتين (هكذا)

الطوق :

لله الأمر ... إلخ

الطوق :

محمد رسول الله ... إلخ

(٤٢) .

١٠-الدينار المضروب في مدينة قم من إقليم الجبال سنة ٢٩٢ في عهد الخليفة أبو محمد علي المكتفي بالله (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ – ٩٠٨ م) ونصوصه كالتالي :

الوجه	الظهر
مركز :	مركز :
لا إله إلا	لله
الله وحده	محمد
لا شريك له	رسول
	الله
	المكتفي بالله
هامش داخلي : بسم الله ضرب هذا	هامش : محمد رسول الله أرسله
الدينر بقم سنة اثنتين	بالهدى ودين الحق ليظهره
وتسعين ومائتين	على الدين كله
هامش خارجي : لله الأمر ... إلخ	ولو كره المشركون (سورة الفتح آية ٢٩ وسورة الصف آية ٩).

ولم تتوفر لنا صورة لهذا الدينار (٤٣) .

كما يوجد درهم بنفس البيانات أعلاه ولكن مدينة الضرب أصبهان وبزيادة عبارة (ولي الدولة) في مركز الوجه بعد (لا شريك له). (٤٤)

١١–الدرهم النادر المضروب في سجستان سنة ٣٠٦ هـ في عهد الخليفة جعفر المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) .

القياس : ٢٧,٥ مم ، ٢,٢٠ غ .

الوجه



والوفا

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

كثير بن أحمد

والعـ[ـد]ل

١ – هامش داخلي : بسم الله ضــرب هــذا الدرهم بسجستان سنة ست وثلاثمائة

٢ – لله الأمر ... إلخ

الظهر



بالشكر لله

محمد رسول الله

المقتدر بالله

والرضا

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحـق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

وهذا الدرهم يختلف بمأثوراته عن الدراهم العادية إذ ورد فيه اسم كثير بن أحمد بن شهفور الــذي تغلب على إقليم سجستان في عهد الخليفة المقتدر بالله وقوطع على خمسمائة ألف درهم وأُقرّ على الإقليم (٤٥) .

١٢-الدينار المضروب في عام ٣٧٢ هـ في عهد الأمير الساماني نوح الثاني ابن منصور (٣٦٥هـ -٣٨٦ هـ) وهو دينار تقليدي من الفترة الأخيرة للعصر الساماني فيه اسم الأمير نوح بن منصور، و مدينة السك نيسابور عاصمة إقليم خراسان بالإضافة إلى اسم حاكم خراسان في ذلك الوقت و هو حسام الدولة.



(٤٦).

ثانياً:الموازين:

تتفق أوزان أقاليم بلاد المشرق المعنية في هذا البحث - وهي إقليم الجبال، وإقليم سجستان - وأقليم خراسان في الغالب مع بقية الأوزان المستخدمة في كثير من البلدان الإسلامية، إلا أن هناك اختلافاً في الأوزان أحياناً بين إقليم وآخر بل وبين مدينة وأخرى في الإقليم نفسه(٤٧). والمعروف عن أهل المشرق الإسلامي أنهم كانوا يؤثرون الوزن على الكيل(٤٨) وكان عندهم من وحدات الوزن الآتي:

الأوقية ، المنُّ ، تشارك ، الرَّطل ، الدانق ، طسُوج ، الخرْوَار .

وفيما يلي تفصيل الحديث عن هذه الوحدات واختلاف معاييرها بين إقليم وآخر ومدينة وأخرى:

١- الأوقية:

زنة سبعة مثاقيل، وقيل زنة أربعين درهماً. ويختلف مقدارها في البلدان كاختلاف الأرطال(٤٩) وفي بلاد المشرق الأوقية تساوي عشرة دراهم وثلثان(٥٠). أما] هنتس [فقد ذكر أن الأوقية تساوي ١/ ١٢ من الرطل مع بعض الاستثناءات القليلة(٥١).

٢- المنّ :

لغة في المنا الذي يوزن به وجمع المنا أمناء، والمَنُّ كيل أو ميزان والجمع أمنان وهو يساوي شرعاً رطلين[٥٢] كل رطل ١٣٠ درهما[٥٣] ويساوي مائتان وستون درهماً، كما يساوي ست وعشرون أوقية، فتكون أوقيته عشرة دراهم[٥٤].

قال «ابن منظور»: وأما الأرطال والأمناء فللناس فيها عادات مختلفة في البلدان وهم معاملون بها ومُجرَون عليها»[٥٥] ويؤكد ذلك ما ذكره المقدسي عن اختلاف المنّ في مدن إقليم الجبال أن منّ سائر الاقليم أربعمائة درهم، ومنّ الريّ ستمائة درهم ويساوي ١٩٢٠ غم ورطلهم ثلاثمائة درهم[٥٦]. ومنّ الري اعتبره [هنتس] المنّ الفارسي الثالث الذي ظهر في أوائل العصور الوسطى كان اللحم يوزن بالريّ بالرطل، وآلات الصيادلة توزن بمنّ خراسان ، وهذا دليل على تبادل استعمال الموازين في بعض الأقاليم[٥٧]، ومَنّ أصفهان ثلاثمائة درهم، ومَنّ اليهودية همذاني[٥٨] مما يؤكد ما ذكرناه أعلاه من تبادل استعمال الموازين في أقاليم المشرق، كما يؤكد ما ذكرناه في بداية الموازين عن اختلاف الأوزان في الأقاليم والمدن. وفي سنة ٤٤٤ هـ كان المنّ والنصف من خبز القمح في أصفهان يساوي درهماً عدلاً، وكذلك كانت الثلاثة أمنان من الشعير تساوي درهماً بشهادة [ناصرِ خسرو] الذي كان شاهد عيان في أصفهان حينها[٥٩]. وليس المعاين كالمُخبر.

وكان المنُّ في بلاد المشرق أهم وزن من أوزان البضاعة[٦٠]. ويحل محل الرطل في جميع الأحوال فحين يتحدث الجغرافيون عن الرطل فإن ما يقصدونه غالباً هو المَنّ[٦١].

٣-تشارك : Carak

وزن فارسي يساوي ربع المن[٦٢].

٤- الرَطل:

بكسر الراء وفتحها، والكسر أفصح والجمع أرطال [٦٣] الذي يوزن به ويكال: وهو اثنتا عشرة أوقية بأواقي العرب والأوقية أربعون درهما. وقيل الرطل مقدار منّ [٦٤]. وذكر "الخوارزمي" أن الرطل يساوي نصف منّ والمنّ مائتان وسبعة و خمسون درهماً و سبع درهم، وبالمثاقيل مائة وثمانون مثقالاً، وبالأواقي أربعةً و عشرون أوقية، و تابعه في ذلك صاحب المعجم الاقتصادي[٦٥] و يبدو أنه هو الأصح.

وسبق أن ذكرنا عند الحديث عن المنّ في الفقرة السابقة أنه يحل محل الرطل في بلاد المشرق إلا أن "المقدسي" ذكر منّ الري وأنه يساوي ستمائة درهم وأن رطلهم يساوي ثلاثمائة درهم[٦٦].

٥-الدّانق :

الدانق من الأوزان المعروفة و هو معرب الكلمة الفارسية (دانك، دانَك) ومعناها حبّة أي نوع من الحبوب و الجمع دوانق و دوانيق [٦٧] وهو زنة تعادل ثمان حبات قمح أو حبتين من بذر الخرنوب أو ثمان حبات و خُمساحبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر و يساوي سدس الدرهم كما يساوي قيراطين[٦٨].

٦- تاسو Tasu

وحدة وزن فارسية، معربة طَسُوج وتساوي ربع دانق (١/٤) أو ١/٢٤ مثقال[٦٩].

وذكر] ابن سيدة [أنه حبتان من الدانق، وتابعه في ذلك صاحب (الميزان في الأقيسة والأوزان)[٧٠].

٧-الخروار : خَرْوار :

حمولة الحمار؛ وزن يعادل ٣٠٠ كغم تقريباً [٧١]. و كان الخروار يستخدم في وزن البضائع ولا أدل على ذلك من قول ناصر خسرو: [س والقافلة التي صحبناها في الطريق كانت تحمل ثلاثمائة و ألف خروار من البضائع»[٧٢].

ثالثاً : المكاييل :

المكاييل الشائعة في أقاليم المشرق المعنية بالبحث هي القفيز والجريب والمكوك[٧٣] والكيلجه[٧٤] .

(أ) القفيز:

مكيال تكال به الأشياء والجمع أقفزة وقُفزان[٧٥]، وهو معرب (كَفيز) Kafiz على وزن مويز[٧٦] وقد أصبح القفيز مكيالاً في بلاد المشرق بتأثير العرب، وذلك لأن الفرس يؤثرون الوزن على الكيل[٧٧] والقفيز الأصلي يساوي ٣٣ لتراً حسب تقدير «الريس»، وهو الفارسي أي الخاص ببلاد المشرق الذي يساوي ٦٤ رطلاً أو ١٢ صاعاً أو ٤٨ مداً[٧٨] أو ٨ مكاكيك[٧٩] ويتعاملون بأجزاء القفيز كيلاً نصف قفيز وثلث وربع: كل واحد منها كيل قائم بذاته ولهم - أيضاً - كيل صغير وهو جزء من أربعة وعشرين جزءاً من القفيز[٨٠] وهو يعادل لتراً ونصف اللتر تقريباً.

(ب) الجريب:

وله معنيان فهو مقياس للمساحة، وهو أيضاً من المكاييل وهو في الحالتين عشرة أقفزة، والجمع أجربه وجربان، وهو ليس عربياً [٨١] أصله كَرى Gari وهو في الأصل مكيال مطلق أو مقياس[٨٢] وفي بلاد المشرق كان الجريب دائماً يساوي عشرة أقفزة[٨٣] ولكن الجريب في إقليم الجبال يساوي عشرة أقفزة وستة أكف[٨٤] ومع هذا كانت مكاييل الجريب تختلف من مدينة لأخرى من مدن أقاليم المشرق ويتضح ذلك في مكاييل بعض مدن إقليم الجبال فمدينة أرستان مثلاً الجريب فيها يساوي سبعة عشر مناً، وجريب مدينة اليهودية يساوي ثلاثة عشر بالأرستاني[٨٥].

(جـ) المكوك:

المكوك طاس يشرب به ويكال كالصُواع وفسر (ابن عباس) رضي الله عنه قوله تعالى: «صواع الملك» بقوله : كهيئة المَكُوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب به[٨٦]، وهو مكيال معروف والجمع مكاكيك ومكاكيُّ، ويختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد [٨٧] أما في بلاد المشرق فالمكوك يساوي نصف القفيز [٨٨]، وبما أن القفيز الأصلي يساوي ٣٣ لتراً - كما مر معنا [٨٩] إذن فالمكوك = ١٦,٥ لتراً.

(د) الكَيْلجَة:

الكيلجة مكيال و الجمع كيالج و كيالجة[٩٠] وهو مكيال فارسي الأصل (مشرقي)[٩١] والكيلجة: مناً وسبعة أثمان مناً[٩٢]. وذكر أحد الدارسين أن الكيلجة تساوي ١/٣ (ثلث) مكوك تساوي ١١/٨ (واحد و ثمن) منً وتساوي٤/١٠ ١٥٢٣ (ألف وخمسمائة وثلاث وعشرين وأربعة أعشار) غرام من القمح أي لترين. . . . ، ثم يضيف: و كانت تدعى آن ذاك كيلا، و أغلب الظن أن هذا المكيال هي الكيلة بعينها التي تساوي ثمانية أقداح و تساوي ١/٢ ٧ (سبعة و نصف) لتر، وحينما لحقت بالكيلة لاحقة (جي) اعتمدها الأتراك على السعة الفارسية وأصبحت تساوي ثمانية أقداح و تساوي ١/٢ ١٦ لترا[٩٣].

وفي رأيي الشخصي أن إلحاق (جي) بالكيلة لتصبح كيلجي أو كيلجة بعد التحريف يؤكد أنها مكيال مشرقي؛ إذ أنه دليل على نسبتها إلى مدينة (جي) إحدى مدن إقليم الجبل الذي هو أحد أقاليم المشرق المعنية بالدراسة في هذا البحث -كما مر معنا.

وقد كانت كيلجة القمح في إيران (بلاد المشرق) في أوج العصور الوسطى وأواخرها تبلغ على الدوام ١/٦ (سُدس) قفيز، وكيلجة الشعير ١/٥ (خُمس) قفيز وكان القفيز يساوي ١/١٠ (عُشر) جريب[٩٤].

ونفهم من هذه الأوزان والمكاييل أن هناك اختلافاً بين الوحدات المستعملة في الوزن والكيل بين مدينة وأخرى، وكذلك بين إقليم وغيره من الأقاليم، وربما أدى ذلك إلى بعض البلبلة بالنسبة للمعاملات التجارية.

رابعاً: مقاييس الطول والمساحة

كانت مقاييس الطول والمساحة المستعملة في أقاليم المشرق المعنية في البحث و هي إقليم الجبال وإقليم خراسان وإقليم سجستان هي الجريب و القفيز والذراع والفرسخ والميل و البريد و السكة و المرحلة[٩٥].

١ - الجريب: [٩٦]

بنوعيه الصغير والكبير الذي يساوي ثلاثة أجربة وثلثين من الأجربة الصغيرة[٩٧] وكان الجريب هو وحدة المساحة الرسمية المعتمدة لقياس الأراضي الزراعية وتحديد الأملاك والقطائع ووظائف الخراج[٩٨]، والجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة و هو قدر ما يزرع فيه ذلك[٩٩]. وهو معرب كري (Gari) وهو مطلق مكيال أو مقياس[١٠٠].

أما الجريب الصغير في بلاد المشرق فهو يساوي ستين ذراعاً بذراع الملِك أي ثلاثة آلاف وستمائة ذراع شرعية، وذراع الملِك هي ذراع المساحة[١٠١] وطوله ٦٦,٥ سم. ولكن «الريّس» قدّره ٦١,٦ سم[١٠٢] وقياس ذراع الملِك عند الجغرافيين تسع قبضات[١٠٣]. والقبضة تساوي أربعة أصابع وتتأرجح تبعاً لطول الذراع[١٠٤].

وكان الجريب كمقياس شرعي للمساحة يساوي شرعاً في أوائل العصور الوسطى وفي أوجها ١٠٠ قصبة مربعة، التي تعادل ١٥٩٢ متراً مربعاً، والقصبة تساوي ٣٩٩ سم = ٣,٩٩ متر حسب تقدير هنتس[١٠٥] [وقد قدّرها] الريّس ٣٦٩.٦ سم[١٠٦]. وعليه فمساحة الجريب الصغير في بلاد المشرق تساوي ١٣٦٦,٠٤١٦ متراً مربعاً[١٠٧]. وبما أن الجريب الكبير يساوي ٣ وثلثين بالجريب الصغير- كما أسلفنا - فهو يبلغ ٥٨٣٧ وثلث متر مربع وفي أواخر العصور الوسطى صار الجريب مساحة مربعة طول ضلعها ٣٢ وثلثين جيز(أي ذراع فارسي كما سنذكر لاحقاً) والجيز يبلغ طوله ٩٤,٧٤٥ سم ويساوي ١٠٦٦ جيز مربع [١٠٨].

٢-القفيز:

كمقياس للأرض = ١/١٠ (عُشر) جريب أو ٣٦٠ ذراعاً مربعاً. ومساحته = ١٥٩,٢ متراً مربعاً [١٠٩] وقدّره] الرَيس ١٣٦.٦ متراً مربعاً [١١٠].

٢-الذرع والجيز والآرش:

وهي مسميات للذراع في بلاد المشرق و فيما يلي التعريف بها:

(أ) ذرع:

هو الاسم المفضل للذراع في بلاد المشرق (ويدعى أيضاً جيز وذراع) وأهم ذرعين هما الذرع الشرعي والذرع الأصفهاني[١١١]، والذرع الشرعي يتطابق مع الذراع الشرعية العربية التي تساوي ٤٩,٨٧٥ سم . وكان الفرسخ الواحد = اثنا عشر ألف ذراع شرعي[١١٢] وذكر (الماوردي) أن طول الفرسخ = اثنا عشر ألف ذراع مرسلة وتسعة آلاف ذراع هاشمية[١١٣].

(ب) جيز (كَز) Gaz:

اسم فارسي للذراع التي كثيراً ما يطلق عليها ذرع وذراع في بلاد المشرق وكان يساوي في المعدل حوالي ٩٥ سم في القرن ٥ هـ / ١١ م ؛ وطول كل ذراع (كَز) أربعة وعشرون إصبعاً من أصابع اليد توضع بالعرض جنباً إلى جنب وهي ست قبضات[١١٤].

(جـ) آرش :

آرش مقياس طوله ذراع[١١٥]. وهو اسم الذراع باللغة الفارسية وكان نادراً نسبيًا (١١٦) وقد أشار] ناصر خسرو [إلى أن جيز الملَك أو ذراع الملَك أقل بقليل من واحد ونصف(١/٢ ١) آرش [١١٧] ويقدر] هنتس [الآرش الواحد بحوالي ٦٤ سم[١١٨].

٤ - الفرسخ :

هو فارسي معرب «فرْسَنْگ»[١١٩]، وهو المسافة المعلومة من الأرض ويساوي ثلاثة أميال وكل ميل أربعة آلاف ذراع هاشمية أو اثنا عشر ألف ذراع أو عشرة آلاف ذراع [١٢٠]. والميل الواحد يساوي حوالي ٢ كم [١٢١] وعليه فإن الفرسخ يساوي ٦ كم.

٥- الميل:

بكسر الميم، والميل من الأرض قدر منتهى مدّ البصر، والجمع أميال وميول وأميُل وكل ثلاثة أميال تساوي فرسخ أي الميل ١/٣ (ثلث) فرسخ[١٢٢]. وسبب تسميته بالميل لأنهم كانوا ينصبون على الطرق أميالاً لمعرفة الخطى التي مشوها، فيجعلون على رأس كل ثلاثة آلاف ذراع بناء كهيئة الميل يكتبون فيه العدد الذي مشوه. والميل يساوي ستة وتسعون ألف إصبع ويساوي ثلاثة آلاف ذراع باعتبار الذراع اثنان وثلاثون إصبعاً عند أهل الهيئة القدماء،

ويساوي أربعة آلاف ذراع باعتبار الذراع أربعة وعشرون أصبعا عند المحدثين[١٢٣]. وهي الذراع المرسلة كما ذكر ابن منظور[١٢٤] وكل ميل يساوي ألف باع وكل باع يساوي أربعة أذرع شرعية، كما أن الميل الواحد يساوي حوالي ٢ كم[١٢٥]. وفي الوقت الحاضر الميل يساوي ١,٦ كم.

٦- البريد و السكة و المرحلة :

- البريد و السكة :

البريد: كلمة فارسية يُراد بها في الأصل البَرْد وأصلها (بريده د م) أي محذوف الذنب، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها فعربت وخففت . ثم سمي الرسول الذي يركب دابة البريد بريداً . أما السكة فتطلق على الموضع الذي كان يسكنه العمال والرسل، أو سعاة البريد، وكان يرتب في كل سكة بغال . وكانت المسافة بين كل منزلين من منازل السفر تساوي بريداً كما أن المسافة بين السكتين تسمى بريداً أيضا، وكل سكة من سكك البريد تبلغ اثنا عشر ميلاً و كان ما بين السكتين يساوي فرسخين وقيل أربعة فراسخ ؛ كما أن البريد يساوي فرسخين[١٢٦] وعلى هذا الأساس يتطابق البريد مع السكة لاسيما وأن هنتس يرى أن البريد قد يصل إلى أربعة فراسخ أيضاً [١٢٧].

- المرحلة :

مفردة المراحل، والمرحلة المنزلة يُرتحل منها ، وما بين المنزلين مرحلة[١٢٨] وهي على هذا الأساس تساوي البريد لأن المسافة بين كل منزلين من منازل السفر تساوي بريداً – كما ذكرنا أعلاه –، أما قياسها بالفراسخ فهي لا تزيد عن ستة فراسخ كما وردت عند المقدسي(١٢٩) قياساً بالمصادر الأخرى ذلك لأن المرحلة تساوي ستة فراسخ والفرسخ يساوي ستة كيلو مترات أي المرحلة تساوي ٣٦ كيلو متراً .

الخاتمة :

من خلال البحث توصلنا للنتائج التالية:

١- أن تسمية بلاد المشرق في بعض المراجع هي: بلاد فارس أو النسبة إلى فارس (فارسي)، أو منطقة الحضارة الفارسية نظراً للاشتراك في اللغة الفارسية، أما إيران فهي التسمية الحالية لبلاد المشرق.

٢- كانت النقود المستخدمة في أقاليم هذا البحث وهي: إقليم الجبال و إقليم خراسان و إقليم سجستان هي الدرهم الفضي و الدينار الذهبي، إلا أن الدينار في بلاد الجبل يأتي في المرتبة الأولى .

٣- أن الفلوس النحاسية لم تسك في أقاليم المشرق المعنية في البحث فيماعدا إقليم الجبال.

٤- أن أوزان أقاليم بلاد المشرق المعنية في هذا البحث تتفق في الغالب مع بقية الأوزان المستخدمة في كثير من البلدان الإسلامية ، إلا أن هناك اختلافاً في الأوزان أحياناً بين إقليم و آخر بل و بين مدينة و أخرى في الإقليم نفسه .

٥- أن أهل المشرق كانوا يؤثرون الوزن على الكيل و كان عندهم من وحدات الوزن الآتي: الأوقية، المن، تشارك، الرطل، الدانق، طسّوج، الخروار.

٦- المكاييل الشائعة في أقاليم المشرق المعنية في البحث هي: القفيز و الجريب و المكّوك و الكيلجة.

٧- مقاييس الطول و المساحة المستعملة في المشرق المعنية في البحث هي: الجريب بنوعية الصغير و الكبير، والقفيز، والذرع - و هو الاسم المفضل للذراع في بلاد المشرق و يدعى أيضاً جيز (كَز-GAZ) كما يسمى آرَش باللغة الفارسية - ثم الفرسخ، والميل، وأخيراً البريد والسكة والمرحلة.

الهوامش :

١ - هنتس: فالتر : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ترجمة كامل العسلي ، الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٧٠ م ، صـ ٩٣ .

٢ - ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م، صـ٣٠٤-٣١٦، المقدسي: محمد بن أحمد : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، بدون تاريخ، صـ٣٨٤-٣٩٤. ياقوت: ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، جـ٢ صـ ٩٩، ١٠٣. لسترنج: كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٥ هـ، صـ ٢٢١ - ٢٢٢.

٣ - المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ ٢٩٤ ، ياقوت:معجم البلدان ، جـ٣ ، صـ١٣٨؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، صـ٢٢٠-٢٢٢ ، ٢٢٤-٢٢٥ .

٤ - ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ٣٧١-٣٧٣ ، ٣٧٨؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٢٩٤-٢٩٥ ، ٢٩٩، ٣٠٦ ، ٣١٤ .

٥ - المقدسي: أحسن التقاسيم، صـ٢٩٤.

٦ - التونجي: محمد: المعجم الذهبي ، فارسي-عربي ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ م، صـ٣٤٩.

٧ - لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، صـ٣٧٢-٣٧٣.

٨ - ابن حوقل: صورة الأرض صـ٣٧٥ ، المقدسي:أحسن التقاسيم، صـ٢٩٧ ، ٣٠٤-٣٠٦، ياقوت: معجم البلدان، جـ٣ ، صـ١٣٨ ، ١٩٠-١٩١ .

٩ - أحسن التقاسيم صـ٢٩٧؛ ابن منظور: محمد بن مكرم: لسان العرب ، دار لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ، جـ١، صـ ١٣٠ . المناوي: محمد عبد الرؤوف : النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجاء السامرائي ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ، ١٩٨١ م، صـ ٣٦ - ٣٧.

١٠ - ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ ٣١٠، ٣١٣، ٣١٧، ٣٥٠-٣٥١، ٣٥٧، ٣٨٩. المقدسي: أحسن التقاسيم صـ٣١٧، ٣٤٠، ٣٩٠، ٤٠٠. خواندمير: محمد بن خاوند شاه: روضة الصفا، ترجمة أحمد الشاذلي ، الدار المصرية للكتاب، بدون مكان و بدون تاريخ ، صـ٩٦ ، ١٠٥-١٠٦، ١١٣. مجهول المؤلف: كتاب سجستان النص الفارسي، ترجم جزء منه أحمد الخولي ، دار حراء، القاهرة، بدون تاريخ، صـ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٧. باريزي: ابراهيم باستاني: يعقوب بن الليث الصفار، ترجمة محمد فتحي يوسف الريس، دار الرائد العربي، بدون تاريخ، صـ ٤٢، ٥٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩٢، ١١٢، ١٤٥.

١١ - صورة الأرض ، صـ٣١٧ .

١٢ - ابن سيده: علي بن اسماعيل: المخصص، دار الفكر، بدون مكان و بدون تاريخ، المجلد الثالث صـ٢٧، ابن كمال باشا: أحمد بن سليمان: رسالة في تحقيق الكلمة الأعجمية، تحقيق أحمد الحسيسي، عبد الكريم الزبيدي، ١٩٨٥ م، بدون مكان، صـ ٢٧، نور الدين آل علي: التعريب، صـ ١٩٣.

١٣ - التونجي: المعجم الذهبي ، فارسي-عربي ، صـ٢٦٣-٢٦٤ .

١٤ - الاصطخري: إبراهيم بن محمد: مسالك الممالك، دي غويه، مطبعة بريل، ليدن ١٩٢٧م، صـ١٥٦. ابن حوقل: صورة الأرض، صـ ٢٦٢ .

١٥ - البلاذري: أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، صـ ٤٥١ ، ٤٥٣؛ ابن منظور : المصدر السابق، جـ ٣ ، صـ ٣٢٣. المقريزي: تقي الدين أحمد بن عبد القادر: النقود الإسلامية ، مطبعة الجوائب، قسطنينة ، ١٢٩٨ هـ، صـ ٣ - ٥ - ٧ - ٨. الكرملي: الأب انستانس ماري: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٣٩ م، صـ ٣٧ - ٨٣، صـ ١٠٥ - ١٠٧. نقلاً عن ابن خلدون، جـ ١ ، صـ ٤٦٥ .

١٦ – ابن سيده: المخصص، المجلد الثالث، صـ٢٦٣، المناوي: محمد عبد الرؤوف: النقود والمكاييل والموازين تحقيق رجاء السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١ م، صـ ٣٩، الشرباصي: المعجم الاقتصادي صـ ٤٠٣؛ المقدسي: صـ ٣٨٩ – ٣٩٠ – ٣٩٣ – ٣٩٨.

١٧ – النقشبندي: ناصر السيد محمود: الدرهم الإسلامي المضروب على الطراز الساساني، المجمع العلمي، بغداد، ١٣٨٩هـ، جـ ١، صـ ٤– ٥، - ١٠، الحسيني: محمد باقر: تطور النقود العربية الإسلامية، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٦٩ م، صـ ٥٢ – ٦٢؛ الريس: المرجع السابق، صـ ٣٥٢ – ٣٥٤ .

١٨ - المناوي: النقود و المكاييل و الموازين، صـ ٨٠.

١٩ - المعجم الاقتصادي: صـ ١٥٢.

٢٠ - المكاييل والأوزان الإسلامية : صـ ١٥ .

٢١ - المرجع نفسه: صـ ١٥ – ١٧ .

٢٢ - ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد: العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩ م، جـ١، صـ ٤٦٤؛ الكرملي : أنستاس ماري: النقود العربية و علم النميات، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٥٨ هـ، صـ ١٠٦، فهمي: عبد الرحمن: فجر السكة العربية، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٣٨٥هـ، صـ ٣٠ .

٢٣ - ابن خلدون: العبر، جـ ١، صـ ٤٦٤؛ الكرملي: المرجع السابق ، صـ ١٠٦.

٢٤ - النقشبندي: الدرهم الإسلامي ، جـ ١ ، صـ ٥ – ١٠؛ محمد باقر الحسيني: المرجع السابق، صـ ٤٨ – ٥٠.

٢٥ - العش: النقود العربية الإسلامية ، صـ٣٦ ، محمد باقر الحسيني: المرجع السابق صـ٥٨

٢٦ - العش: المرجع السابق، صـ ٤٩٠؛ رمضان: عاطف منصور: موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، دار القاهرة ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م ، صـ ٨٩.

Norman D. Nicd and others, catalog of the Islamic coins, glass weights, dies and medals in the Egyptian National library, Cairo American research center in Egypt catalogs 1982, p. 36.

٢٧ – فهمي: فجر السكة ، صـ ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٧،

Broom Michael : Islamic Coins , London , p.62-65 , Walker: M. A. John : A catalogue of the Arab Sassanian Coins, London, 1967, p. cxxxvi, cxxxi, lxxvii

٢٨ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي صـ ١٦٣ – ١٦٤ .

٢٩ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي صـ١٦٤–١٦٥، التونجي: محمد: المعجم الذهبي، فارسي–عربي، صـ٢٨٧، الطراونة: خلف و دفتر: ناهض عبدالرزاق، المسكوكات و قراءة التاريخ، وزارة الثقافة، الأردن، ١٩٩٤م، صـ٤٨.

٣٠ – العش: محمد أبو الفرج ، النقود العربية الإسلامية [1] ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و التراث ، إدارة المتاحف و الآثار، الدوحة ، ٢٠٠٣ م ، صـ ٣٦، الطراونه و ناهض دفتر: المرجع السابق صـ ٤٨، عاطف رمضان: موسوعة النقود في العالم الإسلامي، صـ ١٧٥ – ٢٣٢.

٣١ -العش: النقود العربية الإسلامية [1]، صـ٣٦، الطراونه و ناهض دفتر: المرجع السابق صـ٤٩–٥١.

٣٢ - عاطف رمضان: موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، صـ ١٧٥

٣٣ - المناوي: النقود و المكاييل و الموازين ، صـ ١٢٦ .

٣٤ - العش: النقود العربية الإسلامية [1]، صـ ٢٦٧ .

٣٥ - المرجع نفسه : صـ٤٨٤.

٣٦ - المرجع نفسه: صـ ٤٩٤ .

٣٧ - المرجع نفسه : صـ ٢٦٥ .
٣٨ - المرجع نفسه : صـ ٤٩٠ .
٣٩ - عاطف رمضان: موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، صـ٢٥٠
٤٠ - العش: النقود العربية الإسلامية [1] ، صـ٢٧٢ .
٤١ - عبدالرحمن فهمي: فجر السكة، صـ٦٥٠: لطفي: مهاب درويش: نفائس الدراهم العباسية في المتحف العراقي، مجلة المسكوكات، العدد ٧ ، ١٩٧٦ م، صـ ٦٥٠.
٤٢ – لطفي : مهاب درويش : نفائس الدراهم العباسية في المتحف العراقي ، مجلة المسكوكات ، العدد ٧ ، ١٩٧٦ م ، صـ ١٤٨ – ١٤٩.
٤٣ - عاطف رمضان : موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، صـ ٢٦٤ .
٤٤ - عبدالرحمن فهمي: فجر السكة العربية ، صـ٦٦٧
٤٥ - العش : النقود العربية الإسلامية ، صـ ٥٣٦ .
٤٦ – Broom Michael , Islamic Coins , London , p.65
٤٧ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٢٣ .
٤٨ - المرجع نفسه : صـ٢٤ .
٤٩ – ابن منظور: المصدر السابق، جـ١، صـ١٣٠، المناوي: النقود و المكاييل و الموازين، صـ٣٦-٣٧، ابن سيده: المخصص، جـ٣ ، صـ٢٦٦ .
٥٠ - ابن حوقل: المصدر السابق ، صـ٢٦٣ .
٥١ - المكاييل و الأوزان الإسلامية ، صـ ١٩ .
٥٢ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ٣ ، صـ٥٣٦ ، ابن سيده: المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤.
٥٣ - الإصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦ ، هنتس: المرجع السابق ، صـ٤٥ .
٥٤ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٤٤٤ .
٥٥ - لسان العرب: جـ٣ ، صـ٣٢٣ .
٥٦ - المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٨ .
٥٧ - المكاييل و الأوزان ، صـ٥٠ .
٥٨ - المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٩٣ ، ٣٩٨ .
٥٩ - ناصر خسرو: أبو معين الدين القبادياني: سفرنامه، ترجمة أحمد البدلي، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، بدون تاريخ، صـ١٥٤.
٦٠ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦ ، ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ٢٦٢ .
٦١ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٣٦ .
٦٢ - المرجع نفسه ، صـ٢٤ .
٦٣ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ١٩٥ .
٦٤ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٠ ، ابن سيده: المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ .
٦٥ - الخوارزمي: محمد بن أحمد: مفاتيح العلوم ،مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ، ١٤٠١ هـ ، صـ١١، الشرباصي: المعجم الاقتصادي، صـ١٩٥.
٦٦ - أحسن التقاسيم ، صـ ٣٩٧.
٦٧ - ابن سيده: المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ .
٦٨ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي، صـ١٤٩ ؛ التونجي: المعجم الذهبي ، فارسي-عربي ، صـ٢٥٦
٦٩ - هنتس: المرجع السابق ، صـ ٢٣ .

٧٠ - المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ ، مبارك: علي باشا: الميزان في الأقيسة والأوزان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ، صـ٥٤.
٧١ - التونجي: المعجم الذهبي ، فارسي-عربي ، صـ٢٣٧ .
٧٢ - سفرنامه: صـ١٥٤ .
٧٣ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٣٠ .
٧٤ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٧١ ، عامر: محمود علي: المكاييل و الأوزان و النقود منذ فجر الإسلام و حتى العهد العثماني ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، ١٤١٨ هـ ، صـ٣٥ .
٧٥ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ٣ ، صـ١٣٦ ؛ التونجي: المعجم الذهبي ، صـ٤٧١ .
٧٦ - نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٦٢ ، التونجي: المعجم الذهبي ، صـ٤٧١.
٧٧ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٦٦ .
٧٨ - الخراج: صـ٣٢٥-٣٢٨ ، و ذكر أن القفيز الذي هو ٣٣ لتراً يساوي تماماً مكعب قدم الذراع الفارسي الذي قدره (٠,٦٤) .
٧٩ - الريّس: الخراج ، صـ٣٢٨ ، الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٦٧-٣٦٨ .
٨٠ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦ ، ابن حوقل: المصدر السابق ، صـ٢٦٣ .
٨١ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ٤٢٩ ، وقد أضاف أن الجريب يساوي أربعة أقفزة ويساوي ٢٥٦ رطلاً و يساوي ١٠٤,٤٨ كغم ، كما أن الريس يرى أن هناك جريباً يعادل ٨ أقفزة ويساوي ٥١٢ رطلاً و يساوي ٢٦٤ لتراً . (الخراج صـ٣٢٨)
٨٢ - المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ ، نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٢٠ .
٨٣ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٦١ .
٨٤ المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٩٨ .
٨٥ - المصدر نفسه : صـ٣٩٨
٨٦ -الشرباصي : المعجم الاقتصادي ، صـ ٤٣٨ .
٨٧ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ٣ ، صـ٥١٦ .
٨٨ - المقدسي: أحسن التقاسيم: صـ٤٥٢ .
٨٩ - انظر صـ من هذا البحث.
٩٠ - ابن منظور: لسان العرب ، جـ٣ ، صـ٢٨٥ .
٩١ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٧١ ، محمود عامر: المرجع السابق ، صـ٣٤ .
٩٢ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٨٩ .
٩٣ - محمود عامر: المرجع السابق ، صـ٣٤-٣٥ .
٩٤ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٧١ .
٩٥ - ابن حوقل : صورة الأرض ، صـ٣٠٣ ، ٣٠٦-٣١٦ ، المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٤٥٣-٤٥٩ .
٩٦ - الجريب و القفيز كما هما اسمان لوحدات من المساحة فهما اسمان أيضاً لمكيالين انظر تعريفهما في المكاييل في هذا البحث ، و لكن ينبغي عدم الخلط بين مقياس المساحة و المكيال في أي من الحالين (الريّس صـ٢٩٢) .
٩٧ -الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٧ .
٩٨ - الريّس: المرجع السابق ، صـ٢٧٤-٢٧٦ .
٩٩ - ابن منظور: لسان العرب ، جـ١ ، صـ٤٢٩ ؛ ابن سيده: المخصص، جـ٣ ، صـ ٢٦٤
١٠٠- نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٢٠ .

١٠١ - الريّس: الخراج ، صـ٢٨٩-٢٩٠ ، الشرباصي:المعجم الاقتصادي ، صـ٩٤
١٠٢ - الخراج: صـ٢٨٩-٢٩٠ .
١٠٣ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٧؛ ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ٢٦٣ ، هنتس: المرجع السابق ، صـ٨٩-٩٠ ، ٩٦
١٠٤ - القلقشندي: أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة والطباعة و النشر، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٣ ،صـ٤٤٦ ؛ هنتس:المرجع السابق ، صـ٩٤ ؛ الريّس: المرجع السابق ، صـ٢٨٣ .
١٠٥ - المكاييل و الأوزان ، صـ٩٤-٩٦ .
١٠٦ - الخراج ، صـ٢٩٠، ٢٩٨ .
١٠٧ - المرجع نفسه ، صـ٢٩٠-٢٩١ ، و مساحة الجريب تساوي ٣٦٠٠ أذرع هاشمية ، صـ٢٨٦ .
١٠٨ - هنتس: المرجع السابق ، صـ ٩٤-٩٦.
١٠٩ - المرجع نفسه ، صـ٩٨ .
١١٠ - الخراج ، صـ٢٩٢ .
١١١ -المقدسي: صـ٣٩٧ ، هنتس: المرجع السابق ، صـ٨٣، ٩٣ ، و الريّس لم يتعرض للذرع.
١١٢ - الريّس: المرجع السابق، صـ٢٨٧، ٢٨٩-٢٩٠؛ هنتس: المرجع السابق، صـ٩٣، والذراع الشرعية عند الريّس = ٦٤,٢ سم و قال وهو الذراع الأصلي و المرسلة ، و الهاشمية = ٦١,٦ سم وهو ذراع المساحة .
١١٣ - الأحكام السلطانية: صـ١٤٦ .
١١٤ - نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٤٦ .
١١٥ - التونجي: المعجم الذهبي ، صـ٣٣ .
١١٦ -هنتس: المرجع السابق ، صـ٨١-٨٣ .
١١٧ - سفرنامه: ترجمة يحيى الخشاب ، صـ١٧٨ .
١١٨ - المكاييل و الأوزان، صـ٨١، و يبدو أن هناك خللاً في الحساب لدى هنتس إذ يبلغ قياس ذراع الملك وهو الذراع الهاشمي أو ذراع المساحة ٦١,٦ سم، ٦٦,٥ سم حسب تقدير كل من الريس و هنتس نفسه، و بالتالي فإن الأرش ينبغي أن لا يزيد قليلاً على ٤٠ سم (الريّس: صـ٢٨٩، هنتس: صـ٩٠).
١١٩ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ ، جـ٢ ، صـ١٠٧٣، جـ٣، صـ٥٥٧ ؛ التونجي: المعجم الذهبي، صـ٤٣٠ .
١٢٠ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ ، جـ٢ ، صـ١٠٧٣ ، جـ٣ ، صـ٥٥٧ ؛ الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٣٨ ، ٤٥٢ .
١٢١ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٩٥ .
١٢٢ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ ، جـ٣ ، صـ٥٥٧ .
١٢٣ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٣٨ ، ٤٥٢ .
١٢٤ - لسان العرب: جـ١ ، صـ١٨٩ .
١٢٥ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٩٤-٩٥ .
١٢٦ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ .
١٢٧ - المكاييل و الموازين: صـ٨٢ .
١٢٨ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١١٤٣ .
١٢٩ - أحسن التقاسيم: صـ٤٥٣، ٤٥٩ .

دكتور / مصطفى حبشى محمد زهران (*)

فرسان مالطه وسياستهم فى طرابلس الغرب دراسة وثائقية (٩٣٦ - ٩٥٨ هـ / ١٥٣٠ - ١٥٥١ م)

مقدمة

من دواعي سرورى أن أتطلع إلى الكتابة التاريخية الموثقة عن موضوع عزفت أقلام المؤرخين عن معالجته أكاديمياً وذلك لندرة المادة العلمية التى تحتويها بطون المراجع وهذا يعكس حرص الفرسان على طمس وإخفاء الكتابات التاريخية عن سياستهم الاستعمارية التى تكشف مخاذيهم فى كيان حيوى يجسد القلب النابض لشمال إفريقيا وبوابتها الشمالية المواجهة لأوربا التى تغمر سواحلهم مياه البحر المتوسط معاً.

وبالغرم من حيوية وتعاظم هذا الموضوع فى تلك الحقبة الزمنية التى تربو إلى ربع قرن والتى وقعت عقب أحداث جسام تمثلت فى أفول نجم القوى الإسلامية فى شبه جزيرة أيبريا قبل انصرام القرن الخامس عشر لذا فإن هذا الموضوع يكشف النقاب عن حرص أوربا على إنعاش الحروب الأيدولوجية من أجل تعقب وقطع دابر القوى الإسلامية فى عقر دارهم أن أمكن.

لذا فقد ظلت الحرب سيجال بين الغرب والعرب من أجل التنكيل بالقوى الإسلامية وسحب البساط من تحت أقدامهم حتى فى الديار الإسلامية بعد احتضان البابوية لتلك الحروب وغمرها بالدفء والدماء الجديدة وتفعيل آلياتها من أجل صب جام غضبها على المسلمين أينما وجدوا.

ومن هذا المنطلق وبحكم تخصصى فى الكتابات التاريخية الإفريقية وأيضاً حصولى على الكثير من المراجع والمصادر المتخصصة عن هذا

(*) محاضر التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد العالى للدراسات الأدبية - كينج مريوط - الإسكندرية

الموضوع أثناء عملي بجامعة التحدى بمدينة سيرت لمدة ثلاث سنوات – لذا فقد استعذبت كشف النقاب عن حكم هؤلاء الفرسان الذين زجت بهم أوربا في الديار الإسلامية بعد حصولي على الوثائق الخاصة بهم من الأمانة العامة للتعليم بمدينة سيرت وهي مبوبة في مجلد تحت عنوان Gavalieri Gerosolimitomia Trpoli أو سيادة الفرسان على طرابلس.

وقد صدرت تلك الوثائق باللغة الأسبانية حيث ضمت بين طياتها معلومات شمولية عن حكمهم لمدينة طرابلس الغرب والذى تميز بالاضطراب والفزع الذى سرى في وجدان هؤلاء الفرسان وأيضاً إلقاء الأضواء عن الأوضاع السائدة داخل المدينة الساحلية والقلاع التي تحميها والتي تميزت بعدم الانسجام من جانب فرسان مالطه بالعمل المخول لهم لأنه يتعدى معنوياتهم الهابطة بعد أن فلت الزمام من أيديهم بفضل توثب الهجوم عليهم من القوى الإسلامية ولذلك فقد الفرسان توازنهم وأصبحوا حاضرين بشخصياتهم غائبين بسلطانهم الأمر الذى أدى إلى إنزال الضربات الموجعة عليهم وتفكيك أوصالهم قلباً وقالباً. وظلوا يستصرخون البابوية إلى أن تم ا نسحابهم بداية من صدر النصف الثاني من القرن السادس عشر وهم يجرون ورائهم أذيال الخزى والعار. وبذلك تبددت أحلام البابوية واجترت مرارة الهزيمة والذى أعقبه ابتلاع أوربا لغيظها؛ وقد ألحقت عدد من الوثائق التي تهم موضوع البحث في نهايته.

تدويل طرابلس قبل مجئ الفرسان:

كانت المقاومة وحركة الاسترداد قد انطلقت من أقصى بلدان أوربا الغربية من أسبانيا لإيقاع المسلمين بين فكى كماشة وحتى استطاعت في عام ١٤٩٢ أن تطوى صفحة آخر الحواضر الإسلامية في غرناطة وهى بنى الأحمر. وبذلك تلاشت السيادة الإسلامية في شبه جزيرة ايبريا، وأعقب ذلك أن أصدر الملك الكاثوليكى فرديناند دارجونا والملكة ايزابيلا دى كاستيليا أمراً يقضى بقطع دابر جميع المسلمين ومواصلة تعقبهم في عقر دارهم. (١)

وبالتالى أصبحت الحرب سيجال بين قوتين غير متكافئتين في مياه البحر المتوسط حتى نجح الأسبان في الاستيلاء على مدين طرابلس في ٢٥ يوليو ١٥١٠ وغيرها من المدن الإسلامية في الشمال الإفريقى وتثبيت أقدامهم وبالتالى احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي تأتى إليهم عن طريق القوافل من داخل قارة إفريقيا. (٢).

وقد استقبلت أوربا خبر سقوط طرابلس تحت أمرة الأسبان بابتهاج كبير، وبعد انتفاخ أوداجها شجع هذا الانتصار ملوك أسبانيا وأذكى أمانيهم وحرك

شهواتهم الاستعمارية فى ابتلاع ثروات البلاد سواء الطبيعية أو البشرية كما سرى هذا الخبر فى إيطاليا التى غمرتها السعادة والابتهاج المتدفق، أما المسلمون فقد شعروا بالمرارة وإصابهم الحزن على سقوط طرابلس منارة العلم والعلماء المسلمين، ولما استقرت الأمور نسبياً فى طرابلس رغب الكونت بدرو دي نافارا Comte Pedro DI Noverron (٣) فى جعل طرابلس قاعدة لغزو الشمال فأنطلق منها إلى جزيرة جربة فى تونس(٤).

وفى صدر عام ١٥١٣ م صارت مدينة طرابلس تابعة لصقلية إدارياً بعد أن تنازل ملك أسبانيا عنها لنائبه جوان فرانشيسكو Gohan Franchasco، الذى أصبح والياً على طرابلس وقد شمر هذا الوالى عن ساعد الجد من أجل تعمير المدينة بجلب عائلات صقلية لتثبيت أقدامه على حساب أبناء البلاد (٥) وفى أوائل عام ١٥١٦ م مات ملك أسبانيا فردنياند وبذلك توقف اهتمام الأسبان بمسألة إفريقيا خاصة وأن خلفه الملك فورشال الخامس Fourchal V.

انغمس فى الحروب الأهلية داخل أسبانيا وبالرغم من هذا فقد ظلت الحرب سيجال بين الأسبان والطرابلسيين حتى عام ١٥٢٠ والتى كانت تعتمد على الكر والفر من كلا الطرفين(٦).

توالى تسرب الخوف إلى قلوب الأسبان من هجمات المسلمين المتدفقة والمتجددة لذا قاموا بتحصين المدينة بالأسوار والأبراج والقلاع التى تتخللها المدافع وبالتالى تقوقع الأسبان داخل الأسوار اتقاء هجمات القوى الإسلامية المستقرة فأصبح الأسبان حاضرين بشخصهم غائبين بسلطانهم فقاموا بتسليم المدينة إلى فرسان مالطه فى أوائل عام ١٥٣٠م الذين كانوا فى سابق عهدهم يشكلون منظمة خيرية مقرها القدس، مهمتها مساعدة حجاج بيت المقدس من المسيحيين وتحولت بعد ذلك إلى منظمة عسكرية فى أثناء الحروب الصليبية تعنى بمعالجة الجرحى فى المعارك الحربية(٧).

ولما تم النصر لصلاح الدين الأيوبى على الصليبيين طرد معهم هؤلاء الفرسان من القدس فلجأوا إلى عكا لكن طردوا منها أيضاً ١٢٩١م حيث تقوقعوا فى جزيرة رودس، وكونوا مملكة مسيحية تحت رعاية البابا واستولوا على جزيرة الروديكاينز(٨).

وفى رودس أخذوا يعرقلون الملاحة العثمانية فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط فتأهب السلطان سليم الأول لمحاربتهم فى البحر بعد نجاحه فى إحكام الحصار على جزيرة رودس حتى استسلم الفرسان وذلك فى ديسمبر ١٥٢٢م فى عهد السلطان سليمان الأول – ولم ينتقم منهم السلطان بل سمح لهم

بمغادرة الجزيرة، فرحلوا منها إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع - بعد ذلك سال لعابهم على جزيرة مالطه بعد التوسل إلى الإمبراطور شارل الخامس لتكون مركزاً لهم يشنون منها الغارات على الحواجز الإسلامية فى شمال إفريقيا.

وفى صدر عام ١٥٣٠م وافق الأمبراطور على منحهم جزيرة مالطة بشرط درء الأخطار الإسلامية عن مدينة طرابلس والتعهد بحمايتها من الهجوم الإسلامى(٩).

وأخيراً وقع الإمبراطور الأسبانى فى ٢٤ مارس ١٥٣٠م المرسوم فى كاستل فرانكو فينيتو بأسبانيا مع القسيس سنقويسا (Sankousia) والوفد المرفق معه وقد ورد فيه رغبة منا فى تدعيم واستقرار الدير والمنطقة والهيئة الدينية لمستشفيات القديس يوحنا واستناداً إلى رغبتنا فى أن ينال المرشد الأكبر الجليل المبجل ورؤساء الهيئة وقادتها وفرسانها مقراً ثابتاً ومركزاً محدداً وانطلاقاً من محبتنا والعطف الذى نحمله لهذه الهيئة فقد قررنا عن طيب خاطر التنازل إلى المرشد الأكبر والمنطقة عن مقر دائم ثابت وأن مرسومنا هذا يعتبر سارى المفعول على جميع العهود القادمة بالنسبة إلينا وإلى جميع خلفائنا فى مملكتنا، نتنازل ونمنح بكامل الإرادة الحرة إلى المرشد الأكبر - إلى الدين - إلى المنطقة المعروفة باسم القديس يوحنا الجروسو لوميتانو إقطاعاً نبيلاً دائماً حراً ومشمولاً بالإعفاء - المدينة والقلعة - الموقع والجزر التابعة إلينا فى طرابلس ومالطه وجوزو مع جميع البقاع التابعة لها، وهذا يجسد مدى تدويل طرابلس الغرب بين أتباع البابوية لأحكام قبضتهم على الديار الإسلامية.

وكان على الفرسان أن يقدموا صقراً كل عام عن الاحتفال بعيد جميع القديسين بيد نائب الملك(١٠) وفى يونيو ١٥٣٠م كان مندوبو المرشد الأكبر الذى انتقل فى هذا الوقت إلى نيس ثم إلى سيراكوزه قد استلموا السيطرة على مالطة واتجهوا إلى طرابلس حيث استلموا من فرانشيسكو Francesco Velasquez نائب الحاكم كشفاً بالمدفعية التى كانوا ملزمين بارجاعها إلى الإمبراطور وسرعان ما وصلت إلى طرابلس سفينتان تحملان العتاد والمؤونة وقافلة من الفرسان وفرقة من الجنود تحت قيادة جاسبارى دى سانجوسا Gaspare di Sanguessa، أول حاكم يوفد من المنطقة إلى طرابلس.(١١).

إن مسئولية النهوض بأعباء قلعة مهمة والتهديد المستمر من البر والبحر والأوضاع القلقة للمنطقة التى لم تنتظم شئونها فى مقرها الجديد فى مالطه وبعض الانقسامات الداخلية بين الفرسان أنفسهم كل هذا انعكس بالسلب على مركز الحاكم فى طرابلس الذى أصبح دقيقاً وحرجاً وبالتالى اسند

هذا المنصب إلى شخصيات من ذوى الشأن والشجاعة مثل أورليو بوتيجلا Aurelio Bottigella وهو قائد محنك فى البحرية وأيضاً القائد جيوفانى لافاليتى Giovanni la Vallettu من عام (١٥٣٠ - ١٥٤٩م) الذى تميز بالدهاء والمكر والتبحر فى الإدارة[١٢]

وكان إلى جانب الحاكم فى الغالب نائب له وفارس يشغل منصب أمين الخزانة ويهتم بإدارة البنود المالية التى لم تكن تغطى أعمال التحصين والدفاع وكان يقيم فى ا لقلعة خمسون من الفرسان ومائتان تقريباً من الجنود بينهم أثنا عشر مدفعياً. [١٣]

أما المدينة فقد كانت تتولاها حامية من الأهالى لا يزيد عددها على مائة بين فرسان ومشاة - أما التبادل التجارى مع الأهالى فقد كان يجرى فى الأسواق وهو ما يطلق عليه فى الوثائق (Coco).

وقد كان فى المدينة برجان يقعان عند طرفى الجانب المواجه للشرق أطلق عليها اسم القديس جورج (نحو المدينة) وسان جاكومو (نحو لمدينة) بينما أطلق على الساحة الواقعة بينها اسم القديسة بربرا Santa Barbra أما داخل القصر فقد كان يضم بيت الحاكم والفرسان والجنود والمخازن كما أن هناك بلا شك كنيسة يعتقد بأنها مسماة سان ليوناردو كان فى خدمتها أربعة من القساوسة التابعين للمنظمة - وكان هناك باب رئيسى إلى جانب برج القديس جورج يصل القلعة بالمدينة أما الميناء فقد توفرت له حماية طيبة بوجود البرج المسمى (سان بيترو) والذى يقوم قرب الجمرك فى نقطة التقاء السور الشمالى الشرقى بالسور الشمالى الغربى، كما كان هناك حصن آخر يسمى كاستيلاجو (Castellajo) يحمى مدخل الميناء فى أقصى أطراف الجزر. [١٤]

وقد فرضت ضريبة رؤوس على مدينة طرابلس وتخومها مثل جنزور والماية وزواغه تدفع بطريقة منتظمة سنوياً بواقع عشرة دنانير للفرد وفى تاجوراء التى تقع على مسافة اثنى كيلو متراً شرقى طرابلس تركزت مقاومة العرب والمغامرين الأتراك الذين كانوا يتطلعون إلى استرجاع طرابلس إلى أحضان الإمبراطورية العثمانية[١٥].

وفى المقابل كان سلطان تونس مولاى الحسن الذى تولى العرش عام ١٥٢٦م يدعى حقوقاً شرعية للسيادة على طرابلس الغرب وكان على علاقة حسنة مع فرسان مالطه ضد العرب، فكان عوناً لهم وعيناً ضد العرب، وأظهر منافسة قوية ضد خير الدين (بربروسا) سيد الجزائر الذى تزايدت قوته وأصبح قائدا عاماً للأساطيل العثمانية فى عرض المتوسط[١٦].

وفى خضم تلك الأحداث قاد أوريليو بوتيجيلا Aurelio Bottigella – الذى عهد إليه بحكم طرابلس عام ١٥٣٥م – حملة ناجحة لحماية طرابلس، أما خلفه جارسيا كورتس Garcia Cortes (١٧) فقد اصطحب معه من مالطة ١٥٣٣م مهندس المنظمة مايسترو بثينو Piconio وهو من فلورنسا وكان مكلفا بدراسة حاجات القلعة من التحصينات العاجلة، وقد تم فعلا تدعيم الأوضاع الدفاعية فى القلعة خلال الأعوام التالية فى عهد الحاكم سخلنج Schiling. وفى هذه الأثناء مات فى مالطة المرشد الأكبر ليزدى أدامو Lisde Adamo عام ١٥٣٣م وأصبحت أوضاع طرابلس مهددة بالخطر بعدما احتل خير الدين «بربروسا» تونس فى شهر يونية من عام ١٥٣٤م.

إدارة الفرسان لطرابلس:

أرسلت جماعة من الفرسان إلى طرابلس لتدعيم حاميتها فى ديسمبر ١٥٣٤(١٨).

وكان الخطر من وجود «بربروسا» فى تونس واضحا جدا حتى وجد شارل الخامس نفسه مضطرا إلى أن يقود بنفسه حملة قوية ضد تلك القلعة المنيعة وقد شاركت فيها منظمة فرسان مالطة بإرسال الرجال والسلاح، وهزم «بربروسا» وطرد من تونس وأعيد إلى العرش السلطان الحفصى مولاى الحسن فى يوليه ١٥٣٥(١٩).

أما «خير الدين تاجوراء» الذى يسنده ويعاضده المغامرون من الأتراك الذين يتدفقون عليه من كل مكان وكان بعضهم مرسلا إليه من «بربروسا» فكان يعمل على تشديد الضغط على طرابلس، واستطاع أن يشيد برجا سمى برج القيادة أو القائد Alquaide على بعد ميل فقط من القلعة– حيث كان الحاكم وقتئذ فراجورج نحلنج وكان أحد قادة البحرية الشجعان وقد حصل على نجدة أرسلت إليه من مالطة فى صيف عام ١٥٣٦ تحت قيادة بوتيجلا Bottigella الذى شن هجوما استولى فيه على البرج، وهزم خير الدين وقتل، وخلفه قائد، آخر هو مراد آغا(٢٠).

وفى عام ١٥٣٩ جاء إلى طرابلس فرناندو دى براكامونتنى وكان يشغل منصب المرشد الأكبر جيوفانى دى هوميدس Fra Giovanni di Homedes الذى أخذ يوضح لشارل الخامس أهمية طرابلس وأوضاعها الدفاعية الضعيفة، وطلب منه أما أن يساعده فى تسوير طرابلس من جميع النواحى بأسوار حصينة محاطة بالأبراج الملكية والخنادق أو أن يأمر جلالته بأن تنسف القلعة بالألغام وتخريب الميناء بردمه وإغراق المراكب المشحونة بالصخور والرمال عند مدخله(٢١).

أما المكاتبات المتبادلة بن سلطان تونس الخاضع لحماية الأسبان ودون فرانتى جونزاجا Don Ferrante Gonzaga(٢٢) نائب الملك فى صقلية فتلقى أضواء

على طرابلس، وبقاعها فى تلك الأعوام، فهو يرد على جوانزاجا الذى يوصيه بإرسال قوة لتحرير جربة وتاجوراء فى ٢١ نوفمبر ١٥٣٩ بقوله: «أن الشوكة فى العين تؤلم أكثر من الشوكة فى القدم».

وفى العام التالى أخبر سلطان تونس جوزانكا بأنه قد وصلت مراكب تركية إلى سواحل الشمال الأفريقى وأنها تركت قسما من ركابها فى تاجوراء أما الباقى فيبدو أنه يتجه إلى المهدية(٢٣).

وأثناء ولاية فرناندو دى براكامونتى Fernando de Bracmonte نجد للمرة الأولى الإشارة إلى وجود أحد المسيحيين المعتنقين للإسلام يدعى مراد آغا Morataga الذى يقوم بمساعدة وتأييد «بربروسا» قائد الأسطول العثمانى بتضييق الحصار على المدينة، ويزحف بخطوط جبهتين إلى ثلاثة أميال عن القلعة(٢٤).

ولذا فقد تنامت الجهود من أجل حفر الخنادق وتعلية الحصن Castelleio لتأمين الدفاع عن المياه(٢٥).

من أجل هذه الغاية أرسل إلى طرابلس أكثر من مرة قائد عام البحرية فراجورج سنلخج فى ديسمبر ١٥٤٢ وفى أبريل ١٥٣٤ وقد رفض سكان السواحل الغربية الذين كانوا خاضعين فى البداية لطرابلس دفع الضريبة وأثناء حكم كريستوفا نو دى سوليس فرفان Cristofano de Solis Farfan (٢٦).

وفى عام ١٥٤٥م تقررت الحملة ضد حاضرة المابة المتاخمة لحاضرة جنذور(٢٧).

وتوجه حينذاك فراسينورينوجايتنارا Signarino Gattinara رئيس دير مسينا إلى طرابلس على رأس أربعة مراكب للمنظمة.

وفى ليلة أوائل أغسطس ١٥٣٤ خرج حوالى ألف من المسلمين قسم منهم عن طريق البر والآخر عن طريق البحر، وتجمعوا قرب القرية ولكن سوء تصرف ضارب الطبل الذى أدى إشارة الهجوم قبل موعدها، كان سببا فى إخفاق المباغتة ومع ذلك فقد كانت الغنائم وفيرة وتم أسر ٤٥٢ أسيرا(٢٨).

وقد قاد لافاليتى الذى حكم طرابلس من عام ١٥٤٦م إلى عام ١٥٤٩م عدة حملات متكررة ضد مراد آغا (٢٩) ووسع المجال أمام المدينة المحاصرة بأبعاد نطاق الحصار، بدأها بحملة مفاجئة فى أوائل عام ١٥٤٦م خرجت أثناء الليل للهجوم على تاجوراء عن طريق البر قوامها جنود مسلمون بالقربينات وتدعمها سفينتان قامتا بإنزال بعض المدافعين، الذى توغلوا حتى البرج الذى يحمى الميناء الصغير بتاجوراء، فأشعلوا النار فى أحدى المراكب

الخاصة بمراد آغا وعندما بدأ النهار تابعهم مراد آغا ولاحق جيش المنظمة فى طريق عودته إلى طرابلس، وقد أسر فى المعركة التى نشبت بين الفريقين الفارس مارزيليا Marziglia(٣٠).

وقد تزايد القلق حول الدفاع عن طرابلس وتوجه المرشد الأكبر بطلب المعونة من البابا أيضا وأرسل إلى روما فى ٨ يناير ١٥٤٧ رئيس ديرلومبارديا فراكارلو سفورزا لكى يتولى نقل الطلب والتركيز على الأوضاع الحرجة التى تواجهها المدينة(٣١).

وقد يكون من الملائم أن نورد هنا النص الكامل للتعليمات التى صدرت إلى المبعوث: «تعليماتنا إليكم أيها المتدين الجليل اللامع فراكارو لوسفورزا رئيس لومبارديا عن الأشياء التى ستتناولونها مع صاحب القداسة حول موضوع طرابلس أولا: قبلوا قدمى صاحب القداسة فور وصولكم إلى روما وبلغوه نيابة عنا رغبتنا فى خدمته كأبناء حقيقيين وخدام مطيعين وقدموا إليه الرسالة التى بعثناها باعتمادكم، وذكروه كيف أنه منذ أن منح قداسته جزر مالطة وجوزوا وقلعة طرابلس إلى المنظمة أبدينا اهتماماً دائماً بتدعيم هذه القلعة وتذويدها بالجنود وكافة الأشياء الضرورية متكبدين فى ذلك نفقات طائلة وإرهاقا كبيرا للمنظمة» (٣٢).

وقد استطاع مراد آغا أن يجمع بالإضافة إلى الأتراك الذين معه عددا آخر من العرب الذين ربطتهم به صلات ودية وتحالف ومن ذلك الوقت تعرضت القلعة إلى حرب متتابعة واشتباكات متواصلة عادت بالأضرار على الطرفين، ورغم أن ملك تونس بتأييد من منظمة الفرسان قد اهتم بطرد مراد آغا لكنه لم يتمكن من ذلك مما زاد من قوته كل يوم سواء بتأييد من «بربروسا» وأيضا من «طرغود» وهو قرصان كبير من الموالين إليه حيث نجحوا فى كبح جماح الفرسان وحلفاؤهم.

وبدأت الخطة من الجانب الإسلامى بالهجوم على الفرسان والاستيلاء على القلعة ومدينة طرابلس التى تحيط بها، حيث كانت إمكانيات المنظمة ليست كافية ولا صالحة لمواجهة المد الإسلامى وأشرأبت أعناق فرسان مالطة إلى تحقيق نصر سريع وحاسم وطرد الأتراك من أرض تاجوراء فإذا تم ذلك فسوف يحقق خيرا وراحة عظمى للمسيحية لذا فقد بدأ استصراخ المرشد الأكبر(٣٣) للبابا بالإغداق على الفرسان بالعون خاصة تجميع حملة تتكون من أربعة أو خمسة آلاف لطرد الأتراك من طرابلس(٣٤).

لقد أوضحت رسالة المرشد إيضاحا كاملا للإطار العام للأوضاع ولكن المساعدات لم تأت لا من البابا ولا من الامبراطور وبالتالى خاب أمل استصراخ

المرشد الأكبر وتوالت التداعيات عندما تلاشى نفوذ أسبانيا وسيطرتها على أفريقيا منذ أن منى جنود شارل الخامس فى عام ١٥٤١م وأسطول اندريادوريا بهزيمة منكرة فى الجزائر وأصبح الأسطول التركى المتحالف مع الأسطول الفرنسى سيدا للبحر المتوسط مرفوع الهامة(٣٥).

وفى عام ١٥٤٧م مات خير الدين «بربروسا» المؤسس الرئيسى للقوة البحرية التركية ولكن بقى للأتراك قادة لهم وزنهم وقيمتهم وكان فى طليعتهم من حيث الشهرة والمكانة «طرغود» الذى ورد ذكره آنفا(٣٦).

ولد هذا المغامر المحنك فى عام ١٤٨٥م فى مقاطعة منتشية Menteshe على السواحل الغربية للأناضول، وانصرف منذ نعومة أظافره إلى القرصنة حتى صار شاباً يافعاً بارعاً فى ركوب البحار. وفى عام ١٥٣٣ أصبح له باع كبير بين القراصنة العثمانيين الذين كانوا يهاجمون سفن البندقية فى عرض بحر إبجة ثم انتقل إلى العمل تحت قيادة بربروسا واشتهر بسلب السفن المسيحية فى مياه البحر المتوسط مما أرق مضاجع الأوروبيين(٣٧). وفى يونية ١٥٤٠م فاجأة جيانتينو دورياً Giannettino Daria عند سواحل كورسيكا فأسره وباعه إلى أسرة لوملليني Lomellini من جنوة الذين استخدموه فى التجديف فوق مراكبهم وأطلق سراحه عام ١٥٤٤م بناء على اهتمام شخصى من بربروسا فاستأنف نشاطه القرصانى بمزيد من الحيوية والقوة تحت علم سلطان القسطنطينية(٣٨).

ومن جانب الفرسان أصبح وضع طرابلس ضعيفا لا يقوى على الصمود بل مرت فترة وبالتحديد عام ١٥٤٨م وجدت المنظمة نفسها مدفوعة إلى التفكير فى تركيز قوتها فى طرابلس بعد أن تأكد لديها استحالة الاحتفاظ بطريقة مشرفة ومضمونة بطرابلس ومالطة. وقد خططت لذلك بناء على اقتراحات قدمها بعض الفرسان من ذوي المكانة والنفوذ منهم لافاليتي ولكن تغلب الاتجاه إلى ترك المشكلة دون حل نهائي وانتظار ما يسفر عنه الزمن والأحداث من توجيهه ونصائح(٣٩).

حركة الجهاد الإسلامية ضد الفرسان:

وفى عام ١٥٤٩م عند نهاية حكم جيوفانى لافاليتى كاد مراد آغا أن يقع أسيرا أثناء هجوم مفاجئ قام به فراجيوفانى دى شردان De Cerdan(٤٠) كان مصحوبا بعدد من الفرسان الطرابلسيين وبعض سكان المنشية بينما كان متجهاً بصحبة كوكبة صغيرة من الفرسان لحضور أحد الحفلات لصديقه عبد القادر بن الشوشانة شيخ أحد القبائل. وقد أسر بن الشوشانة وعربى آخر واقتيدا تحت الحراسة إلى طرابلس، أما مراد آغا الذى طوق فى البداية وحوصر

فقد تمكن من الفرار محتمياً بالمقاومة اليائسة التى أبداها حراسة المرافق ومعتمدا على سرعة جواده العربى، وبدلا من الاحتفاظ بابن الشوشانة أو الحصول على مبلغ كبير كشرط يستميلوا إليهم بعض سكان المنشية والساحل فبادروا إلى إطلاق سراح الأسير بشرط أن يعمل على إزاحة مراد أغا عن المكانة التى تمتع بها بين عرب الضواحى والدواخل[٤١].

وكان طرغود قد أقام فى سواحل الشمال الأفريقى «بربربا» أهم قواعد نشاطه القرصانى. وفى عام ١٥٤٩ تمكن بمساعدة مراد آغا الذى أرسل إليه مائة من الرماة من احتلال المهدية، ومن هناك كان يقذف بسفن لسلب المراكب والسواحل المسيحية[٤٢].

وفى المقابل قام دوريا بحملة تحت قيادة نائب الملك بصقلية جيوفانى دى فيجا ومساندة منظمة الفرسان التى بعثت أربعة مراكب ومجموعة من الفرسان، واحتل المهدية فى ١٠ سبتمبر ١٥٥٠[٤٣].

أما طرغود الذى ترك أحد نوابه فى المهدية فقد أخذ يجوب دواخل تونس عدة أشهر ثم جمع فرقته القرصانية فى مضيق القنطرة بجزيرة جربة، وحاصره دوريا هناك فى أبريل عام ١٥٥١ ولكنه استطاع أن يسحب سفنه عبر قناة أرضية حفرها وخرج بها إلى عرض البحار واستولى على المركب الرئيسى القادم من صقلية لدعم دوريا وفى نهاية أبريل باغت مالطة ونزل بجنوده فى سواحلها وقد سلبوا قرية سيجيوى Siggeai ثم تابع رحلته إلى الشرق حيث لحق بالأسطول العثمانى الذى جاء بعد ثلاثة أشهر لحصار طرابلس[٤٤].

وفعلا بدأ ينساب الأسطول العثمانى فى البحر وبالتالى أرسلت المنظمة منذ نهاية أبريل ١٥٥١ إلى طرابلس جاسبارى دى فلليس أوفاليرس Gaspare de Vallies ode Valliers وكان مارشالا فى المنظمة لكى يخلف بيترونونيز دى هريرا Fra Pietro Nunez de Herrera[٤٥]

فى منصب الحاكم مجددين له نفس التوصيات والتوجيهات المعتاد تقديمها إلى كل الحكام ملحين عليه بالتزام النظام والعادات الحسنة وحماية القلعة وحراستها هى والمدينة والحصن[٤٦].

وفى بداية يوليه عام ١٥٥١ دقت طبول الحرب عندما تواترت الأنباء بخروج الأسطول التركى من الدردنيل قاصده مالطة وطرابلس فأرسلت المنظمة بصفة عاجلة إلى طرابلس كوليلمو كوبيير Coupier بصحبة ٢٥ فارساً وفرقة من الجنود الذين جندوا فى مسينا بقيادة جيوفانى كالابرنبزى «Calabriesi»[٤٧] كان كوبير مكلفا بأن يتولى مهام نائب الحاكم، أما السفن التى حملت الجنود إلى

طرابلس فد نقلت عند عودتها النساء والأطفال الذين رأى الحاكم أنه من المناسب تسفيرهم من طرابلس، وأخذت المدينة تتهيأ لمواجهة الصدام بين القوتين[٤٨].

وتعطش الأتراك العثمانيين إلى استراداد طرابلس لذا فقد تهيأت البحرية العثمانية المكونة من ١٥٠ سفينة تحمل ما يقرب من خمسة عشر ألفا من الرجال تحت أمرة المغامرة سنان باشا ومساندة طرغود وصالح بك حاكم رودس وأبحرت في المتوسط قاصدة مالطة.

وهاجم الأسطول ودخل مدينة نوتابلي Notabile وابتلع جزيرة جوزو وأسر منها خمسة آلاف أسير[٤٩].

ثم اتجه إلى طرابلس حيث وصلها في الخامس من أغسطس ١٥٥١ وكان في القلعة من وسائل الدفاع وأيضا النجدة حوالي مائة من الفرسان وخمسمائة من الجنود وبعض المئات من العرب المواليين الذين سرى بينهم الخوف والرعب من تحفز وتوثب قوة الأتراك[٥٠].

وفي أثناء إعطاء سنان باشا شارة البدأ في الانقضاض على طرابلس وصل السينور دارمونت Daramont سفير ملك فرنسا لدى سلطان القسطنطينية، وكان ذو شخصية مرغوبة لدى الأتراك ووقف في مالطة أثناء رحلته من فرنسا إلى تركيا وتوسط لدى المرشد الأكبر للفرسان تارة ثم عرج إلى طرابلس لإقناع القائد التركي بالعدول عن خطة هجومه على طرابلس ولكن سنان باشا رفض الاستجابة والإصغاء إلى دعوة العدول عن هذه المهمة[٥١].

وعلى الفور بدأ سنان باشا في ضرب الحضار حول طرابلس وبعدها وجه إنذارا إلى حاكمها المسيحي بتسليم المدينة الأمر الذي رد عليه جاسباري فالييس بالرفض قائلاً: «أنه يفضل الموت على الاستسلام».

وفي ٨ أغسطس بدأ تضييق الخناق من جانب المهاجمين الأتراك بمدفعيتهم من القلعة تحت حماية الحواجز وتجمعوا في جبهة من الجانب الشرقي من القلعة في السهل الممتد بينها وبين «الظهرة» وعلى الفور انسابت طلقات المدفعية العثمانية كالسيل حيث ردت عليها مدفعية الفرسان رداً فتاكا عرض الأتراك لخسارة أربعة من مدفعيتهم واثنين من الشواس وبعض الرياس وعدد كبير من الانكشارية وبترت أحد طلقات المدفعية ساعد رئيس كتبة الانكشارية[٥٢].

لكن هذ لم يثن من عزيمة الأتراك، وفي ٩ أغسطس ١٥٥١ استؤنف القصف بطريقة أكثر عنفا ونجحت المدفعية التركية في الاقتراب من طرابلس على مسافة ١٥٠ مترا، وعند المساء تسبب انفجار البارود في قتل ٣٠ تركيا آخرين[٥٣].

وبصمود الأتراك وتفانيهم في الانقضاض على الفرسان، تسرب الوهن إلى نفوس فرسان مالطة وتفككت أوصالهم، ودب اليأس في نفوسهم من شجاعة المعسكر التركي لذا قرر الحاكم العام استسلامه للأتراك بمقتضى بعض الشروط وأرسل وفدا مكوناً من رسولين إلى سنان باشا لعرض هذه الشروط، التي أظهر سنان باشا قبولها والموافقة عليها(٥٤).

وكان من بين هذه الشروط أن تتاح الحرية للمقاومين للعودة إلى المسيحية، ولكن الحاكم الذي دعي إلى خيمة القائد التركي وتوجه إلى صحبة أحد الفرسان وضع في القيود ونقل إلى إحدى المراكب، وعاد الفارس إلى القلعة لكي ينقل شروط الاستسلام وهي إطلاق حرية الفرسان للعودة إلى ديارهم في أوروبا(٥٥).

وفي يوم ١٤ أغسطس ١٥٥١م فتحت القلعة والمدينة أبوابها للأتراك الذين اندفعوا إلى السلب والنهب وقد جرد الجميع باستثناء المدافعين عن حصن كاستليو Castellaio الذين كان في وسعهم أن يخرجوا بكل ما يقتضيه الشرف العسكري. أما جنود المرتزقة فقد كان مصيرهم الأسر والرق، أما العرب الذين كانوا في خدمة الفرسان ووقعوا في قبضة الأتراك فقد قطعوا تقطيعاً وقد استطاع بعضهم أن يلوذ بالفرار قبل الاستسلام بقليل وأن ينجو بنفسه إلى تونس وقد ذهب زعيمهم فيما بعد إلى مالطة وحصل على إقرار بالصداقة الدائمة مع المنظمة لنفسه ولخلفائه(٥٦).

واحتفل الأتراك بانتصارهم يوم ١٦ أغسطس ١٥٥١ في الخندق المقابل للقلعة في الجانب الشرقي وشارك في حضور هذا الحفل بدعوة من القادة الأتراك السفير الفرنسي السينور دارمونت Senior Dramounte.

وفي المساء أشعل الأسطول التركي الأضواء احتفالا بهذه المناسبة وأصبح مراد آغا حاكما على طرابلس وعاد الأسطول التركي إلى القسطنطينية يحمل عدداً من المسيحيين الأسرى وغنائم وفيرة وعاد بعض الفرسان بصحبة السينور دارمونت إلى مالطة، حيث سجنوا وحوكموا.

إن حكم الفرسان لم يترك أثراً واضحاً في طرابلس، ولكن من المؤكد أن بعض التحصينات في القلعة كانت من أعمالهم وخاصة برج القديس جاكومو الذي دمرته فيما بعد القنابل، وأعيد ترميمه مع بعض التعديلات(٥٧).

وثائق من مخطوطات مالطة عن حكم الفرسان لطرابلس الغرب

تكشف مجموعة الوثائق التي ضمها هذا البحث مجموعة تقارير كان يقدمها حكام طرابلس وأيضا تعليمات شمولية صادرة من المرشد الأكبر

للفرسان ومجلس المنظمة عن إدارة طرابلس. ونظرا لأهمية هذه الوثائق من الناحية التاريخية، فقد رأيت إلحاقها بنصها مع تقديم خلاصة وافية عنها حتى يمكن استجلاء الحقائق التاريخية عن هذه الفترة الحيوية من تاريخ حكم الفرسان لمدينة طرابلس، وتخومها التى داعبت أمانى وأحلام أوروبا التى كشرت على أنيابها ومخالبها من أجل ابتلاعها.

وتتضمن الوثيقة الأولى الموجهة إلى برناردو سالفياتى المكلف بحملة جربة، أول إشارة إلى وجود خيرالدين فى تاجوراء، وفيها يصدر المرشد توجيهاته بوجوب العمل على أسر هذا القائد، قبل أن يتمكن من تدعيم وضعه فى تاجوراء.

أما الوثيقة الثانية الموجهة إلى نفس الشخص، فتتضمن جملة من التعليمات الصادرة من المرشد وتقضى بضرورة التركيز على أهمية العمل على إحراق وإتلاف مراكب ذلك الرئيس الذى يدعى «ملك تاجوراء»، كما يوصى المرشد بالعمل على تخريب برج تاجوراء، وتدعيم القلعة فى طرابلس بما يفوت على المسلمين أهدافهم.

أما الوثيقة الثالثة فهى موجهة إلى جارسيا كورتيس حول ما ينبغى الالتزام به من تعليمات فى حكم قلعة طرابلس، وتطلب منه العمل على استلام حكم القلعة وفقا للمراسم المعتادة فى تنصيب الحاكم، والحصول على قسم الولاء من جميع الضباط والجنود والعاملين فى خدمة المنظمة وتفقد سلاحهم الذى يستعملونه، وسد النقص فيه، وإقصاء العناصر غير الصالحة للخدمة، والتأكد من تأدية مراسم العبادة فى كنيسة القلعة وكفاية العدد المخصص لها من القساوسة، وتعهد مدفعية القلعة، ومطابقتها للقيود الرسمية، وتعميم التعليمات الواردة فى هذا المنشور، وتنفيذه دون تمييز بين أحد وإعداد السجلات اللازمة لقيد وتسجيل إمدادات القلعة وتجهيزاتها، وتركات الموتى، والمواد التى تباع للأهالى والرسوم البحرية، كما توضى باتباع الإجراء السابق فى دفع مخصصات الجند مرة كل أربعة أشهر، يؤخذ عقب تسديدها القسم بالولاء والإخلاص فى العمل، ويبدو من هذه الوثيقة أنه كانت تعطى حصة غذائية للعرب واليهود المقيمين فى القلعة، ويوصى المرشد بالنظر فى الغاية التى قررت من أجلها هذه الحصة، والعمل على إلغائها إذا تبين للحاكم أنها قد استخدمت استخداماً سيئاً، كما يوصى بالدقة فى إجراءات الدفع، وينبه المرشد إلى وجوب العناية بحرس القلعة، ويدعو إلى التشديد فى الحراسة الليلية على الأسوار، والنهارية عند الأبواب، وعدم التسامح إزاء المخلين بالواجب كما يأمر بعدم فتح بابى المدينة «الباب البحرى والباب البرى» فى وقت واحد.

ويتبين من هذه الوثيقة أن المرشد قد تلقى معلومات تفيد بأن بعض المسلمين يترددون على القلعة وخوفا من النتائج التى تجرها هذه الزيارات، يأمر بعدم السماح بدخول الأتراك أو العرب أو اليهود إلى القلعة، باستثناء الذين يراجعون من أجل أمور مهمة، فيسمح لهم بالدخول نهارا، على أن يتركوا أسلحتهم وخيولهم عند المدخل.

ويأمر المرشد بتعميم منشور يحظر بموجبه المالكين للرقيق، بقيد رقيقهم فى الأغلال وعدم الإبقاء - فى القلعة - على أكثر من أربعين أسيرا اللازمين للطحن أو القيام بالخدمات الأخرى للقلعة على أن ينقل بقية الأسرى خارجها حتى يمكن الاطمئنان إلى سلامتها وعدم تعرضها للأخطار.

ويبدى المرشد رغبة فى إبعاد اثنى عشر أو خمسة عشر أسيرا تركيا لأنهم يشكلون خطرا على القلعة، بما عرفوا به من جرأة ومكر، كما يوصى بإصلاح وترميم السوق رغبة فى استمرار الحركة التجارية، على ألا يقام هذا السوق عند الخندق القريب من القلعة.

ويوصى المرشد بضم تركة الموتى الذين ليس لهم وريث، أو لم يخلفوا وصية إلى أملاك المنظمة، كما يوصى بالاحتياط والوقاية ضد الوباء الذى انتشر فى قبرص والمشرق وتكليف المختصين بمراقبة الحالة الصحية خوفا من تسرب العدوى إلى جزيرة مالطة وصقلية، وينظم المرشد الطريقة التى تتم بها العمليات التجارية بالنسبة للمنظمة، والحرص على أن تكون الصفقات التى تعقدها مع القراصنة رابحة، وتحويل التاجر إلى مالطة إذا تعذر تسديد مستحقاته فى طرابلس.

ويطلب المرشد أن يقوم أمين الجمرك، بتقديم حساب للدخل والمدفوعات كل أربعة أشهر وتختم الوثيقة بالإشارة إلى تكليف المرشد لأحد المهندسين بإجراء فحص كامل للقلعة وتقديم تقرير شامل عن أوضاعها، والوسائل اللازمة لإصلاحها.

والوثيقة الرابعة، تعليمات موجهة إلى جورج سخنلج، وهى تدعو الحاكم إلى تفقد الفرسان، والتأكد من أحوالهم، وإمكانياتهم العسكرية، ويشير إلى أن القلعة أصبحت مهددة بخطر الهجوم عليها، من قبل بربروسا الذى استولى باسم السلطان على تونس، وأجزاء من ساحل بربريا ويدعو المرشد هذه النجدة إلى العودة حال تأكدها من زوال خطر بربروسا وخير الدين ملك تاجوراء تاركا لقائد النجدة حرية التصرف فى تقرير المواقف التى تقتضيها الظروف، والإبقاء على قسم من هذه النجدة للدفاع عن القلعة، ويطلب المرشد موافاته بصورة تفصيلية عن الأوضاع التى وجد عليها القلعة،

وإخطاره بحاجاته كما يوجه إليه التعليمات التقليدية حول الإجراءات الإدارية والمالية، طبقا لما وردت الإشارة إليه في الوثيقة السابقة.

وتؤكد الوثيقة الخامسة الموجهة إلى أنطونيو دي بنييرو المكلف بقيادة إحدى النجدات الأهمية الكبرى التي تحظى بها قلعة طرابلس في نظر المرشد لا بالنسبة للمنظمة، ولكن بالنسبة للمسيحية بصفة خاصة، والملك الكاثوليكي الذي يبدي اهتماماً بكل ما يتصل بسواحل شمال أفريقيا. وتشير الوثيقة إلى ما توافر للمرشد من معلومات حول خروج بربروسا من مضيق القسطنطينية، بأمر السلطان الأكبر، بعدد كبير من السفن ويبدي تخوفه مما تنطوي عليه هذه الحملة من دلائل، وتشير إلى نية بربروسا في الهجوم على القلعة ومحاصرتها طبقا لما يتردد من شائعات في الشرق.

ويطلب منه تعريف الحاكم بأسباب إيفادهم والتشاور معه في التطورات الجارية مع توخي الحذر واليقظة، والقيام بجميع الأعمال التي تبدو أنها ضرورية.

ويدعو المرشد إلى تنسيق العمل والاستعداد لمواجهة احتمالات الحصار الطويل بالتوفير والاعتدال في الإنفاق والتصرف بحكمة في مواد التموين.

أما الوثيقة السادسة فهي تنقل معلومات إلى المرشد عن أحوال المدينة والقلعة وقيام فرقة من الفرسان بالاستيلاء على برج تابع لملك جنزور.

وتتضمن الوثيقة السابعة الموجهة باللغة الإسبانية إلى جورج سخلنج عقب تعيينه حاكما على طرابلس، الإشارة إلى وجود مراد أغا الذي يعمل بمساندة بربروسا بكل الطرق، على تهديد القلعة والمدينة الأمر الذي سيلحق أضرارا فادحة بالمنظمة والمسيحية، ويدعوه للتشاور مع رجال المنظمة وفرسانها للحيلولة دون تمكين مراد أغا من تحقيق أهدافه، ويوصي بإصلاح القلعة وترميمها، وإعدادها لمواجهة احتمالات الهجوم والحصار.

والوثيقة الثامنة لم نستطع الإحاطة بمحتوياتها لجهلنا باللغة التي كتبت فيها.

وفي الوثيقة التاسعة يطلب من فرانسيسكو بيكوتس السفر فورا إلى طرابلس، واستلام النقود الذهبية والفضية والأشياء الأخرى الثمينة ونقلها إلى مالطة وعدم السماح بشحن أية تجارة أو أي شيء آخر، من شأنه أن يعوق السفينة عن الوصول إلى مالطة، أو يعرضها للخطر، وألا يزيد عدد الأسرى المنقولين فوق ظهرها على أكثر من خمسة عشر أسيرا، وفي سنة ١٥٤٨ ظهرت فكرة انتقال هيئة الفرسان إلى طرابلس وتوقعا لهذا الإجراء أصدر المرشد العام في فصل عام النظام والقواعد التالية التي تنطوي على معلومات مهمة ومفيدة من شأنها أن تلقي أضواء على أوضاع قلعة طرابلس، والحكم الذي كانت تمارسه المنظمة.

وتشير هذه الوثيقة، إلى أن الانتقال سيتم على مراحل تدريجية، بحيث يتم في السنة الأولى إرسال خمسين فارساً، وحاكماً بدرجة «Balio» تخول له الصلاحيات التي يتمتع بها المرشد الأكبر في مالطة، وتتم إقامة هؤلاء الفرسان طبقا للطرق المتبعة في مالطة على أن تدرس نتائج هذه الإقامة والإمكانيات اللازمة لمواجهتها، بحيث يسهل الحكم عند نهاية العام بإمكانية رفع هذا العدد إلى مائة فارس، وهكذا كل عام حتى يتم نقل المنظمة، وتحظر الوثيقة صرف أية مرتبات إلى خدم الفرسان، كما تنص على حرمان موظفي الجمارك من رواتب يتقاضونها من القلعة، نظرا لحصولهم عليها من الجمارك، كما يمنع المرشد الإقامة في القلعة وصرف المكافأة بالنسبة لمن يقيمون فيها من أجل أعمالهم الخاصة، أو افتداء أقاربهم أو قضاء عقوبة.

وتقضي الوثيقة باحتكار المنظمة للبيع أو الشراء في القلعة وكذلك المتاجرة مع القراصنة التي يجب أن يقوم بها الحاكم أو أمين الخزينة مع مراعاة تحقيق الأرباح من وراء ذلك.

وينبه إلى وجوب المحافظة على فرن القلعة وتخصيص فران ممتاز وعدد من الرقاء اللازمين، وتهيئة المطاحن التي تدار بالبغال أو الجمال أو الخيل، وألا يسمح لأحد بالخبز لغير حاجات بيته، ويستثنى الهيئة الحاكمة التي يحق لها إعداد الخبز لمن يحتاجون إليه.

وتركز الوثيقة على ضرورة إبعاد العناصر العاطلة المقيمة في القلعة، كما يوصي بتوزيع تركات المتوفين من القساوسة على زملائهم، بحيث لا يحق لهم المطالبة بمخلفات من مات من زملائهم في مالطة.

نظرا لقيام عدد كبير من العرب وعائلاتهم وأبنائهم بشراء كافة حاجياتهم من القلعة، فينصح المرشد بالعمل على فتح متجر خارج القلعة أو حانة يباع فيها النبيذ والخبز والزيت والجبن والبقول والعسل وغيرها، لحساب الخزانة العامة، ولا يحق لغيرها بيع مواد التموين، بحيث يضمن الربح للمنظمة، والحيلولة دون دخول عدد كبير من العرب إلى القلعة، وتنص الوثيقة على أن يكون أمين الخزينة على علم بجميع المبيعات التي تجري في القلعة صغيرها وكبيرها.

إذا ذهب أحد الضباط أو الجنود في إجازة، يقضيها في بيته، أو أي مكان آخر بموافقة الحاكم فلا يصرف له مرتبه أو قسطه من التموين خلال هذه الفترة، ألا يمنح للعرب عددا من حصص الفرسان يتجاوز العشرين، ومن المشاة ما لا يتجاوز الأربعين. إن جميع الغنائم والأرباح التي تحصل عليها

القوارب والمراكب والسفن فى طرابلس ينبغى أن تخضع لرسوم الأميرالية التى تدفع إلى خزانة المنظمة، ويسرى ذلك على القراصنة الأجانب الذين يحققون غنائم فى طرابلس ويستثنى من ذلك السفن التى جهزت فى مالطة، تحت علم المنظمة فيحتفظ برسومها للمنظمة هناك.

والوثيقة الثانية عشرة موجهة من المرشد إلى عضو المنظمة كلاوديودى سنجلا، وتفيد بالقرار الذى تلقاه المرشد من الملك القاضى بقيام الأمير دوريا قائد البحرية الملكية على رأس السفن الإسبانية والإيطالية فى غرفتين لمباغتة درغوث رايس مع انضمام سفن المنظمة إليهم فى هذه الحملة، «ونظرا لما نراه من أن هذه المهمة فى خدمة الله والملك والمسيحية جمعاء فلم نشأ أن نتخلف عن النهوض لهذه المهمة وقررنا إيفادكم لذلك»، ويأمره المرشد بالتوجه إلى مسينا والانضمام إلى سفن دوريا حيثما وجدت ويركز على أهمية تاجوراء، كما يلح على أن أمر مراد أغا إذا لم يعالج بالسرعة الممكنة، فسيصعب طرده، حيث يزداد كل يوم قوة ويدعو المرشد إلى إيضاح هذه الفكرة وشرحها لنائب الملك والأمير، وبيان الخطر الذى يجره إهمال هذا العنصر الخطير، وإطلاعه على الرغبة القوية التى اندفعت بها المنظمة للمشاركة فى هذه الحملة خدمة للملك واستجابة لأوامره، ويطلب منه فى الختام أن يتصرف بما يقتضيه الموقف بالتشاور مع قدماء الفرسان والضباط والبارزين من الرجال.

والوثيقة الثالثة عشرة موجهة من المرشد إلى «جاسبارى دى فلليبس» عقب تعيينه حاكما على قلعة ومدينة طرابلس.

وهى تشير فى البداية إلى المراسم المتبعة فى استلام السلطة والاحتفالات المعتادة واستعراض القوات، وتفقد سلاحهم والحصول على قسم الولاء، كما تشير إلى التنظيمات السابقة حول الطريقة التى تحكم بها القلعة، وينصح المرشد بالاعتماد على الصالح منها، فإذا تبينت له الحاجة إلى تنظيم جديد، أخطر به المرشد ومجلسه لإصدار الأوامر اللازمة لتطبيقه.

ويوصى المرشد بمراعاة الفرائض الدينية واحترام الآحاد وأيام الأعياد ومعاقبة المتحللين والشتامين وعدم السماح بمزاولة ألعاب القمار بأنواعه، والعبث بالأسلحة واللعب بها، والانتباه إلى الحراسة النهارية على الأبواب والليلية عند الأسوار وعدم فتح الأبواب البرية والبحرية فى وقت واحد.

وتؤكد التعليمات السابقة الصادرة بخصوص الحذر من العنصر العربى، والتقليل قدر المستطاع من تردده على القلعة، مع مراعاة مصالح الجمرك وعدم حرمان القلعة من التموين، كما يأمر بعدم الإساءة إلى العرب القاصدين السوق أو العائدين منه، وألا يسمح بانتزاع أى شىء بالقوة، كما يحظر خروج

الجند من القلعة إلى السوق من غير سلاح، ويدعو إلى تجنب الاشتباكات التى لا طائل من ورائها، ولا تجر سوى خسارة بعض العناصر الصالحة، والذخيرة الحربية، وتنص الوثيقة على إيداع تركات المتوفين عن غير وريث أو وصية فى ذمة الخازن إلى أن يفصل فى أمر الجهة التى تؤول إليها التركة ويطلب إخطاره والمجلس بكل الأشياء المهمة التى تقع لهم.

والوثيقة الأخيرة صادرة إلى جاسبرى دى فلليبس ويشير المرشد فى هذه الرسالة إلى ما بلغه من معلومات عن طرق مختلفة، وخاصة ما تلقاه عن طريق زميلهم جورج دى سانتو جوان تؤكد خروج الأسطول التركى واتجاهه نحو مالطة وقلعة طرابلس، الأمر الذى أثار رغبة المرشد فى تدعيم حامية طرابلس، وتحصينها، وأصدر أمره بسفر عضو المنظمة غسو لييم كوبير مع بعض الفرسان وجيوفانى كالابريزى مع جنوده للتوجه إلى طرابلس ويقرر المرشد تنصيب كوبير نائبا للحاكم العام، ويوصى بصرف ما يحتاج إليه الجند من أقمشة من الخزانة العامة، على أن يسدد على حسابهم، وأن يحتكموا إليه فى المنازعات التى تقع بينهم، وأن تكون فرقة النجدة تابعة لقيادة ضباطها الذين يرافقونها، وأن تخول لقائدها كافة الصلاحيات والسلطات والتصرف وفقا لدرجته كقبطان للمدفعية.

إن المرتبات التى تدفع ينبغى أن تكون مماثلة لمرتبات جنود الملك، أى مرتبات حرب وليست مرتبات حامية، وهى تصرف طبقا للتقاليد السائدة أثناء الحرب، فى التاسع والعشرين من كل شهر اعتبارا من اليوم الذى ينتهى فيه أجل المرتب الذى دفع فى صقلية.

يجرى نقل الجنود على نفقة المنظمة إلى قلعة طرابلس والعودة بهم إلى مسينا دون خصم أى شىء عن الأكل والشرب أو النقل.

إذا انقضى شهر سبتمبر المقبل دون أن تقوم الحملة التركية بمحاصرة طرابلس فينبغى أن يعود هؤلاء الجنود إلى مسينا على نفقة المنظمة دون الإبقاء على أحد منهم فى قلعة طرابلس، ولو أبدى الرغبة فى البقاء.

أن يزود الجنود بحاجاتهم الغذائية من خبز ونبيذ وأشياء أخرى بنفس السعر المقرر للجنود فى طرابلس.

أن يكون ما يغنمه هؤلاء الجنود من أسرى وسبايا وأشياء أخرى ملكا خاصا بهم ولا يحق لأحد تجريدهم منه.

إذا جرح أحد الجنود فى خدمة القلعة يقدم له الإسعاف والعناية والعلاج على نفقة المنظمة دون خصم من مرتبه.

أن يزودوا خلال الوقت الذى يقيمون فيه بالبارود والرصاص وفتيل الألغام على نفقة المنظمة.

الخاتمة

كشفت هذه الدراسة النقاب عن مدى تعنت وغطرسة القوى الأوروبية ومن ورائها البابوية فى تحقيق أحلامهم التى داعبت أمانيهم فى وأد القوى الإسلامية داخل ديارهم، لكن خاب أملهم وتضعضعت جحافلهم وتهاوت تحت ضربات القوى الإسلامية المتدفقة والمتوثبة التى أفقدتهم توازنهم فكان الغرم عليهم والغنم للإسلام فى النهاية.

[١] برهنت الدراسة عن مدى الأحقاد الدفينة التى تكتوى بها أوروبا تجاه القوى الإسلامية وعقد العزم على التنكيل بهم بعد سحب البساط من تحت أقدامهم من شبه جزيرة إيبيريا والتنكيل بهم.

[٢] أبرزت الدراسة تكتل القوى الأوروبية وتعاظم قوتها حتى أصبح لها اليد الطولى فى توجيه الضربات إلى القوى الإسلامية التى فقدت توازنها، وبالتالى تسيد القوى الأوروبية للمياه الإسلامية فى البحر المتوسط ومد نفوذهم إلى الحواضر التى تحتضن البحر المتوسط مثل طرابلس فى ليبيا وجربة فى تونس وغيرها من الأصقاع العربية.

[٣] كشفت الدراسة عن انتفاخ أوداج ساسة أوروبا بعد سقوط حواضر المسلمين وإحكام قبضتهم عليها وممارستهم شتى ألوان التنكيل والتشريد والتعذيب المألوفة لديهم بعد القضاء على الأخضر واليابس فى الديار الإسلامية.

[٤] أوضحت الدراسة تناوب وتداول السلطات بين ساسة أوروبا إلى أن وقعت طرابلس بين براثن فرسان مالطة تمهيدا لطمس وإخفاء معالمها الإسلامية بعد ممارسة شتى ألوان التعسف والاستبداد بعد وضع البذور المسمومة فى أرض طرابلس وتخومها.

[٥] أشارت الدراسة إلى الصحوة الإسلامية التى فجرتها الدولة العثمانية بعد تعاظم قوتها، وبالتالى تشمير سواعد الجد من أجل تضييق الخناق على الفرسان وتعقبهم أينما وجدوا تمهيدا لقطع دابرهم.

[٦] حققت الدراسة مدى تهاوى جحافل الفرسان بعد أن تفككت أوصالهم وأصابهم الذعر بعد أن تجرعوا مرارة الهزيمة وتمرغوا فى أوحالها بفضل توثب القوى العثمانية البارعة، وتوج ذلك بأفول نجم الفرسان عن طرابلس وسطوع نجم آل عثمان على المدينة الفاضلة التى تجسد مركز إشعاع حضارى عبر التاريخ بفضل موقعها الفريد بين أحضان البحر المتوسط، علاوة على كونها بوابة لأفريقيا من ناحية الشمال إذ تطل برأسها على مياه البحر المتوسط الجارية.

الملاحق

الملحق الأول

قائمة بأسماء ولاة منظمة فرسان مالطة فى طرابلس

قائمة بأسماء ولاة منظمة فرسان مالطة فى طرابلس

١- جاسبارى دى سانجوسا Gaspare De Sanguessa
١٥٣٠- ١٥٣١

٢- برناردينو ماشادو Bernardino Machado
١٥٣١- ١٥٣٢

٣- أوريليو بوتيجلا Auerlio Bottigella
١٥٣٢- ١٥٣٣

٤- غارسيا كورتس Gorcia Cortes
١٥٣٣- ١٥٣٥

٥- جورج سكيلنج Giorgio Schiling
١٥٣٥- ١٥٣٧

٦- فرناردو دى براكامونتى Fernardo De Bracamonte
١٥٣٩- ١٥٤٤

٧- كريستوفر دى سوليس فرفان Crisotoforo De Solis Farfan
١٥٤٤- ١٥٤٦

٨- جيوفانى لافليتى Giovanni La Valette
١٥٤٦- ١٥٤٩

٩- بيترو نونيز دى هريرا Pietro Nunes di Herrera
١٥٤٩- ١٥٥١

١٠- جاسبارى دى فالليس Gaspare De Vallies
أبريل ١٥٥١- أغسطس ١٥٥١

الملحق الثانى

نصوص الوثائق

Documenti dell'Archivio di Malta Relativi al Dominio dei Cavalieri a Tripoli

I

II primo accenno alia presenza di Cairadino a Tagiura si trova nella seguente istruzione del Gran Maestro al priore di Roma, fra Bernardo Salviati, Capitano Generale delle Galere, incaricato di una campagna navale :

« ... quando non succedesse el caso iuxta l'intento nostro, che Dio no' lo voglia, ritornarete cum tuta la gente qui o pure alia volta de Tripoli secundo giudicarete meglio per li tempi et vittoaglie vi trova-rete, sforzandovi fare quelli effetti cognoscerete essere al proposito in

servicio della Christianita et honore de nostra Religione, maxime ob-vare ch'el Rays fatto Re de Tagiora non fermi '1 pede in quelle parte cercando tuti li expedienti de pigliarlo ». L'istruzione e in data 17 agosto 1531.

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 415 (1531 - 1534), fol. 215 v.).

II

« Instructione a voi venerando prior de Roma, Capitano Generale de nostre Galere et armata de quanto haverete a fare in questo viagio che Dio vi conduca et riduca a salvamento.

« Et primo sapendo quanto importa brusiar la fusta di quel Rays che se dice Re de Tazora ct havendo cum voi li piloti et gente per far Feffetto sopra cio non vi dicemo altro excetto che partiate al nome de Dio et procediate in tuto cautamente si in mare come per terra cum I'antivedere si conviene, de manera che detta fusta sia brusiata et se possibile sera ruynata la torre.

« Item fatto questo como speramo farete con el governator de' Tripoli et havuta informatione di successi di quelle parte possendo fare alcuna bona opera in favor del Castello et danno delli inimici, pigliarete Foccasione como parera conveniente et bene.

« Item direte da parte nostra al detto govematore si como gli scrivemo che habiamo deliberato mandarlo da sua M.ta per alcune cose importante a nostra Religione et che se imbarchi sopra Ie gallere per venir con voi lassando '1 cargo et loco suo in sua absentia al comandator fra Bernardin Machado al quale farete obedire tutti quelli del Castello si Religiosi come altri incargandoli da parte nostra che sia vigilante in quel governo como in lui confidamo.

« Item parendovi andarete et farete un torno in sino alii Secagni si potresti riscontrare alcune fuste o presa procedendo cum consiglio delli patroni et de altri pratici de quelle bande et fatto questo ritor-narete qui al piu presto sera nossibile... Datum Melite — die 6 octobris 19531 ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 415 (1531 - 34), f. 221).

III

« Instructione a voi Religioso in Christo a not charissimo fra Garcia Cortes Comandator d'Ascon de quanto haverete a fare nel governo vostro del Castello et fortaleza nostra de Tripoli che Dio vi conduchi et incamini in tutte Ie action vostre :

« Et primo

« Havendove noi insieme cum nostro Consilio per la sufficientia vostra et fede tenemo in voi ellecto et deputato Govematore di detta fortaleza, mandamo nostro Galione aposta fatta per portarvi cum tre Cavalieri in compagnia vostra. Partirete donque al nome de Dio et gionto darete nostra lettera al Comandator fra Aurelio, al qual scrivemo si como lui a rechiesto che venga per deffendere Ie ragion sue del priorato de Pisa, et che vi facia dare a nome nostro et de nostra Religione, obedentia, sacramento et homagio da tutti li officiali et soldati cum tutta la sollemnita et cerimonie accostumate remettendo-*ve*. el governo et facendovi consignare el tutto.

«Item intrato in possessione del governo farete far la mostra o sia resigna de tutta la gente sta al soldo nostro pigliando da loro juramento de servir bene a noi et a nostra Religione ogni uno in suo officio secundo gli sera ordenato

et comandato et saperete si Ie arme porterano facendo la mostra sonno (sic) loro, et quando no' lo fusseno vederete che ne comprano et stiano ben in ordine come si conviene. Et per che intendemo ci sonno alcuni soldati manco di membri o altra-mente insufficienti et inutili, gli appontarete et notarete dextramente dandone aviso de quali et quanti sono a cio vi possiamo provedere d'altri al loco loro, et parendovi expedirne alcuno, lo farete provedendo in questo meso ch'el Thesoriere non anticipi denari ne robba a simili homini inutili a cio piu facilmente si possino expedire.

«Item essendo la chiesa del Castello accostumata tenere quatro Capellani, avertirete che sieno sufficienti provedendo ch'el culto divino sia ben fatto et revederete Ie joye et ornamenti d'essa chiesa, com-probandoli cum l'inventario antico et provedendo che stieno in man de persona secura che li doni bon recapito.

« Item revederete l'artelleria del Castello si tutta sera in essere conforme al inventario, qual sta in poter del Notario insieme cum quella habiam mandato dapoi che secundo intendemo alcuni versi et altre bombardete di ferro si sonno presi in un galione che fu mandate dal governatore a Capo di Mesurata et vedendo la difficulta tenemo de recuperar monitione non consentirete che della fortaleza se accom-modi ne soccorra Corsari ne d'artelleria ne di qualsivoglia monitione.

« Item mantenendo noi a soldo per sustenimento detta fortaleza ducento persone tra official! et soldati in li quali si comprende li quatro Capellani della Chiesa recognoscerete si ci sono tutti et si li officiali sono tutti sufficient! per loro officio dandone aviso a cio bisognando possiamo provedere.

« Item nel numero di detta gente sonno compresi dodici bombar-dieri, farete parimente rivederii si tutti sonno habili et sufficienti, or-denando che facino Ie pedre et altri artfici de monitioni como si acos-tuma in ogni altra fortaleza. Et farete recognosere lo legname tanto per I'artelleria come per la stantia et provisione dando aviso a cio si possa provedere.

« Item portate cum voi il quinterno de'bandi et gride altre volte fatte sopra il regimento de la fortaleza et bona guardia delle muraglie et porta, lo vederete bene et la prima festa poi che sarete gionto et intrato al governo detta la prima messa farete pregonare et gridare in pubblica piaca con intervento del Notaro et argusino, cum lo tamborlo como s'acostuma Ie cose contenute in detto quintemo, o parte d'esse como vi parera meglio provedendo che detto bando sia executato senza haver respetto a nessuno a cio che ministrando bona justitia in la fortaleza ogni un possa vivere quietamente et in pace.

« Item havendose de consignar in man del thesoriere tutte Ie cose che di qua se mandano per provision del Castello, farete ch'el Notaro registri tutti li responsali et cossi medesmo tutti li denari et robbe che mtrano in potere

di detto thesauriere como denari di cavalcata, arren-damento di furno, beni de morti robe et provision che si vendino a mori, dretti de' Armiragliato et di qual si voglia altra cosa che intri in poter de detto thesauriere, qual registro farete tenere da esso Notaro in bona forma.

« Item la paga de la gente si costuma fare de quatro in quatro mesi per man del thesauriere in presentia delli officiali et con intervento del Notaro, et facendosi detta paga si sol pigliare juramento di soldati di ben servire. Pero cossi lo farete exequire notando la summa che havera montato la paga, della quale farete cautela al thesauriere per suo discarico, similmente si da alia gente soldata ogni mese sua ration di pane et vino qual ancora vedrete quanto monta facendone cautella al thesauriere et per che siamo informati che si da ratione ad alcuni mori et judei avertirete per qual effetto si da detta ratione et parendovi esser mal empleata, la levarete.

« Item tutto quello che si dona alii soldati, in denari robbe et provisioni per conto di lor salario a d'essere con polica sottascrita de vostra mano, fatta et registrata per il notaro. Et si accostuma ad alcuni soldati per subvenire a loro necessita anticipar lor salario di quatro mesi cossi lo farete continuare pur che non sieno homini di mala fama et da poco.

« Item essendo la bona guardia dil Castello como sapete piu im-portante de tutto il resto, sarete molto vigilante

sopra la guardia si fa di notte in la muraglia et di giorno in la porta, non perdonando a nessuno che mancasse, ordenando al capitano et tenente della porta non la debbiano aprire che prima non sia sonata la campana, a cio quelli a chi toca la guardia possano venire alia porta et che in nessu-na manera Ie doe porte cioe della marina et della terra non si aprino ae stieno aperte in un tempo.

« Item perche siamo informati che in la fortaleza intrano moiti mori con lor armi si a cavallo como a pede per evitar ogni scandalo et mconveniente che potesse uccedere, volemo che non lassiate intrare nel Castello nulla sorte de turchi, mori, ne judei excetto si alcun ve-nesse per negociar cose importante, qual lassarete intrare como acca-de alia giornata facendoli pero lassare Ie armi et cavalli alia porta.

« Item farete gitar bando che ogni uno habia de tenir soi schiavi ferrati in doi piedi et non comportarete che piu di quaranta simili schiavi che sono necessarij per macinare et altri bisogni stieno in la fortaleza et questi quaranta potrano essere di quelli che anno meso de rescattarsi; tutti gli altri farette che lor patroni li mandano o por-tano via per star piu securi et fora d'ogni suspicione et per che semo mformati che in la fortaleza sonno XII o XV schiavi turchi quali, come sapete, sono per loro astucia et valore molto periculosi, volemo che li faciate levar et portar tutti fora della fortaleza excetto quelli che forse haverano dato principio a lor rescato.

« Item a cio che li mori possino star con lor commoditate et ne-gociar con li Christiani facendo lor mercato o sia goco volemo che faciate rifare et restaurare dettc coco o mercato come lo fece fare et tenia el Comandator fra Gaspar Sangoessa, non permettendo che al fosso si facia piu detto coco.

« Item accadendo che in detta fortaleza morisse alcuno senza testamento o senza herede ordinate che tutti li beni soi pervenghino in potere del thesoriere con intervento del Notaro al beneficio de nostra Religione.

« Item per che intendemo Cypro et alcune altre parte de levante sonno suspette di peste provederete pr adesso et per lo avenire sopra cio deputando persone idonee che vedano et sieno vigilanti sopra la sanita cum la diligentia si conviene che importa la salute non sola-mente della fortaleza ma di questa insula et Sicilia.

« Item como sapete e stato provisto in nostro Capitolo Generale che li Governatori non facino mercantia excetto a nome de nostra Re-ligione ; per questo vi dicemo che quando capitasse in la fortaleza alcun corsaro o altra persona cum mercantia et robbe che Ie debbiate comprar a nome della Religione, avertendo in li precii che si guadagni al manco fine a cinquanta per cento, piu o manco como meglio parera a voi, et si in mano del thesoriere non fusseno denari nostri ne lli man-darete pagar qui a not, essendo contente tale persone da cui compra-rete dette mercantie.

« Item ordenarete al secreto et credenciere della doana che de quatro in quatro mesi vi debiano dare li conti della doana cioe delli introiti et exiti et preso juramento da loro che detti conti sono justi et senza fraude et che hanno cercato Futile della doana como si con-viene mandarete qua alii signori del thesoro detti conti ogni quatro mesi.

« Item mandamo cum voi maestro Pichino nostro ingenieri et il maestro di far calsina cum il carbone. Farete che detto ingenieri reve-da bene il Castello per saper darne qua relatione dicendo in quali termini sta et como si devera reparare et che Faltro faci calcina et farete far il forno per detta calcina nel fosso del Castello in chel loco vi par-ra piu al proposito et tanto in Ie cose sopra scritte como nel resto succedera alia jornata, provederete como in voi confidamo dando sempre aviso del seguito. ... Melite, die X mensis junii 1533 ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 415 (1531 - 34), fol. 246 *v.* et seg.).

IV

« Instructione a voi venerando gran Balio fra Georgio Scling de quanto haverete a fare in questo viagio per visitar, et soccorrere nostra fortaleza et Castello de Tripoli che Dio vi conduca a salvamento.

«... Partirete cum nostro Galione accompagnato da questi cava-lieri, quali mandamo per soccorso, et gionti al

Castello farete la visita si delli soldati se sono ben in ordine et sufficienti come delle muni-tione conforme a vostra preminentia secundo se accostumava al Castello de Sancto Petro, scrivendo particularmente ogni cosa per farcene poi bona et sufficiente relatione.

«Item, per stare el Castello in periculo, respetto a Barba Rossa, qual al nome et cum Farmata del Gran Turco se e fatto signor de' Tunes et di quelle parte de Barbaria, parendovi conveniente et bisogno secundo Ie nove trovarete cum el parere del Govrnatore, restarete per eoccorso nel Castello cum l'auttorita jurisditione et superiorita tanto sopra detti Cavalieri come sopra li soldati, et in tutte Ie cose concer-nenfce la guerra de manera che siate obedito et reverito como se fusse la persona nostra dicemo del Maestro che cossi lo commandamo et volemo confidandone in la defensione del Castello et in tutto il resto farete come di voi si spera.

«Item, restando a Tripoli cum l'aviso del Governatore, provede-rete de uno maestro d'ostal per tenire l'albergio et fare la spesa orde-nando al thesoriere che lo proveda de vittuaglie et de quanto sera bisogno, ma che si vadi moderatamente et tenghi bon conto accomo-dandosi al loco et tempo et secundo la necessita.

«Item, trovando Ie cose in tal dispositione che non fusse bisogno restare, cioe quando non se dubitasse de Barba rossa ne di Caradino Re di Tajora, potrete ritornare cum detti

cavalieri o parte d'epsi las-sandone alcuni secundo cum l'aviso del governatore vi parera meglio et piu expediente.

«Item, restando scrivirete particularmente in qual dispositione havete trovato el Castello ben o mal provisto cum Ie nove se havera-no in quelle parte, avisandone di quello haverete bisogno et in questo mezo sopra tutto attenderete che si facino bone guardie provedendo al resto come la importantia del caso ricerca et sopra voi ne riposamo. ... Melite, die XXII decembris 1534 ». (Ạrchivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 416, fol. 190).

V

« Instructione a Voi Commendator fra Antonio de Binero de quanto haverẹte a fare in questo soccorso de Tripoli che Dio vi con-duca a salvamento.

« Et primo

« Per essere la fortaleza et Castello nostro de Tripoli di tanta importantia come sapete non solamente a nostra Religione ma a tut-ta la Christianita et in particulare adesso di suoa Cesarea Maesta per Ie cose di Barbaria, havendo nova come Barbarossa era uscito del streto de Constantinopoli per Comandamento del gran Turco cum XL galere ben in ordine ultra XVIII o XX fuste cum scale piconi et sappe, confidandone in la prudentia et valor vostro et dubitando che detto Barbarossa secondo gia se parlava in levante non andasse per dar un salto al detto Castello o

assediarlo, vi havemo electo et depu-tato per Capitano de soccorso con XXV Cavalieri et alcuni soldati, et a questo effetto per non tardare mandamo Ie gallere et in compa-gnia el Navilio per voi noleggiato con alcune vittuaglie et legna vo-lendo et intendendo che ditti Cavalieri et soldati vi habiano de reve-rire et obedire come Ie persone nostre et facendo el contrario, che li possiate castigare o pur mandarii qua conforme alii usi et stabilimen-ti de nostra Religione.

« Pero partirete al nome di Dio et gionto al Castelio farete inten-dere al Reverendo gran baylio Governatore la cagione de vostra an-data et consultate insieme Ie cose occurrente, serete vigilante et vi sforzarete dal canto vostro col vostro soccorso de far tutte quelle cose vi parerano et trovarete essere necessarie et al proposito per la bona guardia et defensione de detta fortaleza, offensione de gli inimici et favore de nostri amici la propinqui, accomodandovi cum detto gran bailio et altri di manera che siate sempre in bona unione.

« Item, pigliarete dal thesauriere tutte quelle vituaglie et altre cose che serano bisogno per Ie tavole de Cavalieri et li provederete de mangiare et bevere, spendendo piu moderatamente vi sera possibile et cum quella restrintione et cautella si conviene et si suol fare in Ie fortaleze quando si dubita de assedio, provedendo al tutto como di voi confidamo cum dar al continue aviso di quello occurrera alia

giornata a tal che bisognando vi possiamo provedere et che sapiamo li progres-si et ben star vostro et della fortaleza.

... Datum Melite etc. die VI mensis Augusti MDXXXVI ». (Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 416, fol. 205).

« Instructione et ricordo a voi Religiosi in Christo a noi charissi-mi fra... de Belengniere et Petro Felizes di quello haverite a fare'in questo viagio per darle et lassarle poi a monsignor Reverendissimo nostro Maestro.

« Et **primo**

« Partirete cum el bergantino et de Palamos o Barcalona secundo 11 tempi et che meglio vi parera andarete in diligentia alia volta de Caspe dove gionti darete nostre lettere et la bulla de sua electione a sua Reverendissima signoria besandoli la mano cum la debita obe-dientia da parte nostra.

« Item la informarete di successi di queste parte como laudato Dio stamo bene, suo convento unito, et in pace non tropo mal provisto de vituaglie et d'altre cose, et cossi medemo sua fortaleza et Castello de Tripoli dove fano pochi giorni che li nostri, essendo ite Ie galere per tal effecto, presero la Torre del Re de Zanzor (sic) et quelle altre terre ultra Ie tre galeote cum la presa del navilio de mori come sapete et che lion si manca de ogni banda maxime cum Ie galere fare al convento bonissime opere contra infideli.

. . . .

. . . .

... Datum Melite etc., die III mensis novembris MDXXXVI ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 416, fol. 205 seg,).

VII

« Instruciones a vos vendo religioso et fray Jorge Schiling gran baylio de Alemanja y capitan de nuestras galeras de lo que aveys de hazer eneste viaje que partis para Tripol que nuestro senor Dios os lleve y trayga a salvamento.

« Et primo

« Con el primer buen tiempo partireys en el nombre de Dios deste nuestro puerto de Malta con nuestras quatro galeras para la vuelta de Tripol con toda la diligencia que fuere possibile porque ay mucha ne-cessidad de vueatra llegada porque como sabeys es llegado en Tajora un renegade llamado Morataga el qual con el favor de Barbaroxa pro-cura por todas las vias y modos que puede damnificer el castillo y cib-dad que seria no poco danno nuestro y de la Christianidad; por tanto por que las cosas maduramente pensadas suelen tener buenos fines, con consulta del religioso nuestro fray Hernando de Bracamonte

y de los patrones de nuestras galeras y de otros cavallcros de la Religion que a vos paresciere procurareys de cxpelcr al dicho Morataga que no pueda effettuar su dannado proposito buscando todas a quellas vias y modos que con el parescer dc todos los sobredichos vieredes ser mas convinientes.

« Item, por quanto el dicho Morataga haziendo algun danno en la cibdad o apoderandose della, redundaria no enpoco danno al castillo por la vezindad quo con el tiene, vos dczimos que si os pares-ciere ser necessario fortaleceria y repararia, sacareys de las galeras gente para ello, poniendo en ello toda buena ordcn y guardia por quo a causa dela gran cantidad desclavos que llevays y de los cnemigos, nuestras galeras y vos otros no seays damnificados.

« Item por que mandamos municiones de polvora y salmitre y sacres dexareys lo todo ally por que nos a parescido ser necessario para mayor fortificacion del dicho castillo.

« Item, por quanto ultra de los soldados de las galeras llevays otros dexar los eys ala placa del dicho castillo si vieredes que son todos necessaries, y si todos no fueren necessarios restaran a quellos que a vos y al governador parescieran traycndo los demas en las dichas galeras. Mas si las cosas estuvieren en tal estado que pares-ciera no ser bastandes los dichos soldados, sacareys de las galeras los que os parescieran con tal que las galeras no queden desarma-das.

« Item, dexareys dos lombarderos que llevays para el dicho castillo. y, si fuerc menester mas tomareys los de las galeras, mi-rando siempre que lo uno y lo otro quede proveydo.

« Item, por no ser tan ciertos como al presente estan las cosas del castillo, y de loque podria succeder despues de vuestra llegada no determinamos el tiempo que ally estareys salvo lo dexamos a vuestra buena discrecion y prudencia para que lo mesureys justa la necessidad y tiempo y lugar que vieredes necessario confiando de vuestra continua diligencia y vigilancia que en todas las cosas siem-pre aveys tenido y teneys.

« Item, todas las cosas suso dichas complidas como sea dicho quando vieredes ser tienpo conviniente de venir os podreys venir por Secanos por si toparedes algun navio o fusta de infideles para venir con alguna ganancia en lo qual todo os governareys como os aveys governado y como per experiencia lo avemos siempre conoscido, y eomo de vos sespera.

« Item, con gran studio y diligencia procurareys con todos quan-tos son en las dichas galeras que ayan siempre de honrrar el nombre de Dios y de su bendita madre y de todos los santos trabajando y apartando fcoda blasfemia y todo mal.

« Item, comendamos a todos los cavalleros que ayan de tener y observar la obidiencia y hazer onrra a vos y a todos los patrones.

« Item, sobre toda cosa estareys atento haziendo hazer buena guardia en las dichas galeras como de vos sespera por que por negli-gencia no os acontesca algun escandalo, en las galeras especial que como vos sabeys llevays buena cantidad de esclavos turcos.

« Item por quanto jsxta la forma de los establimentos a la digni-dad y preheminentia de gran baylio de Alemana conviene visitar el castillo de san Pedro, estando la religion en Rhodas, por tanto vos dezimos por la razon suso dicha que conforme a vuestra preheminen-cia visiteys y reformeys el dicho Castillo y fortaleza de Tripol juxta la forma y tenor de los establimentos y costumbres de nuestra Religion... Melite, die nona mensis decembris 1542 ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 418, fol. 283 v.).

VIII

« Instructiones a vos venerando Religioso etc. fra georgio Schi-ling gran baylio de Alemanja y capitan de nuestras galeras de lo que aveys **de** hazer en este viaje que partis para Tripol que nuestro seftor Dios os lleve y trayga a salvamento.

« Et primo

« Como ya sereys informado a complimjento por otras instruc-tiones nuestras que llevays de nueve de diziembre del afto passado de lo que se avia de hazer en este dicho viaje ansi cerca del fortalescer el dicho castillo y cibdad como de otras cosas que vos parescieron en-tonces necessarias. Por tanto por agora no nos paresce tornar las areplicar salvo rcferirnos a ellas, queriendo que hagays segun el tenor y forma dellas, con annedir los capitulos infrascriptos.

« A nos parescido sera bien que antres que vays a Tripol os pas-seys por los Secaftos y ally podreys sperar algun navio de ynfideles que segun somos informandos se speran cadadia de alexandria. .... con talquc no ayayis de retardar mas de hasta quinze o veynte dias por que no se pierda vuestro viaye tarn necessario annydiendo que si os paresciere que sera bien no esperar tanto lo remitimos a vuestra buena discrecion para que segun la necessidad occurriere lo hagays y como mas al servicio y utilidad dela Religion y del castillo conviniere.

« Item, por que aegun emos sabido por letras del governador que de un castillo que esta cerca del castillo podria padescer no poco dan-no y detrimcnto el castillo si los enemigos lo tomassen, y estando for-talcscido mucho provecho, por esto vos dezimos que seyendo tan necessario

voa con el governador dareys orden que se repare el dicho Castillejo lo mejor que scr pudiere.

« Item dexareys a la placa del dicho castillo los soldalos que llevays parescicndo ser todos necessaries y si todos no fueren necessaries restaran a quellos quo a vos y al governador paresciere, trayendo los otros en la dichas galeras. y en lo demas como emos dicho nos referimos a las instructiones arriba dichas, para que os governeys por ellas y a lo que con voa emos platicado y en todo a vuestra buena diligcntia saber y prudontia lo remitimos que lo hagays como de vos scspcra por que en vos nos descargamos. In cujus rei etc... Mclite, die VII mcnais aprilis MDXLIII ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 418 (1541 - 43), fol. 285).

IX

« Instructione a voi religioso in Christo a noi charissimo fratri Francesco Becutis patrono de nostra galera Santo Joanni di quello ch'haverete a fare in questo viagio de Tripoli che Dio vi conduca et reduca a salvamento.

« Et **primo**

« Partirete con la maggior diligenza che vi sia possibille et anda-rete alia volta de Tripoli a golfo lanciato senza tocari li Sechagni ne altro luoeo, se il tempo non vi sforzase et gionto sarete in Tripoli da-rete nostre lettere al

thesorero de ditto castello et a fra Bernardino Morosio ali quali scrivemo che tutti li denari, oro argento et altre joye che del formento sarano riscotuti si donino et consigneno contati et numerati et sigillati al ditto nostro fra Bernardino Morosio che per questo effecto sta in Tripoli che li porta in qua et se per caso detto fra Bernardino non potra venire ve li donino contati et numerati come di sopra e ditto a voi li quali portarete securi et a bon recapito.

« Item, per che nostra intencione e che detta galera cossi a la andata come a la tornata vada expedita per alcuno pericolo che po-trebbe succedere, non consentirete che si carrica alcune robbe ne mer-cantie ne altre cose che donino impedimento, ne mano ala retornata se porte niuno negro ni sclavo de particulari per che altramente sera-no perduti et confiscati ala signoria. Benche se si trovano alcuni schiavi de la signoria in Tripoli, ne levarete in fino a quindeci et non piu, et in tuto vi governarete comme di voi si spera procurando di essere presto et con diligentia qua in Malta per la necessita che si ha delle galere et como da voi spettamo... Datum Melite, etc., die quarta mensis junii MDXXXXV ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 419, fol. 49).

« Instructiones a vos religioso etc. fray Hernando de Bracamon-te commendator de Ruviales y capitan de nuestras galeras de lo que aveys de hazer en este viaje que

partis para Berveria que nuestro seftor Dios os lleve y .trayga a salvamento.

« Por que la causa principal por que os embiamos es por si po-dreys tomar la galeota de Morataga la qual segun somos informados la quiere embiar alevante por ciertos designos que tiene contra el nuestro castillo de Tripol, por tanto en el nombre de Dios os partireys con diligentia con nuestras quatro galeras. y para effectuar lo suso dicho guardareys el orden infrascripto.

« Que partidos de a qui procurareys tomar tierra en la costa de Berberia de noche de lante de Tajora dexando dos galeras a XXV o **XXX** millas en mar en jolito, y las otras dos yran a tomar la posta ala xar dexando el vergantin de Brandano a doze o quinze millas segun paresciera alos officiales en cima de Ta ora el qual vergantin podra estar en jolito tada la noche hasta la manana, y siendo de dia tomara su camino hazia Tripol y si la galeota saliere tomara la buelta de mar acercandose a las galeras, y las dos galeras que daran en la xar procuraran de tomarle la tierra que no pueda tornar a Tajora y entonces todas quatro seguirla. Mas si la galeota no saliese el vergantin seguira su camino a Tripol lo mas secreto que sea possible y echa-ra un hombre en tierra qual os paresciere infonnandose si la galeota esta en Tajora. o no. y sabiendo que no es partida dicho vergantin de dia tomara la buelta de las galeras por que podria ser que en esta segunda buelta la galeota saliesse, mas si caso fuesse la

galeota partida de Tajora dicho hombre se informe quantos dias a que sea parti-do, y dicho vergantin vaya a las galeras por dalles la nueva, y en tal caso las dos de dichas galeras yrsean costa a costa hasta el cabo de Mesurata, y las otras dos por mar lexos ocho millas hasta el dicho cabo, y si en el camino hallase des algunos navies de infieles putiendo los tomar los tomareys, o veramente a quellos que dexastes la otra buelfca.

« Item, por que nuestra intencion es que en el dicho camino no tardeys mas de quinze dias, si llegados al cabo de Mesurata y perdida la esperanza de tomar dicha galeota sobrassen algunos dias de los quinze, podreys yr la buelta de los Secanos, y de ally alos Gelbes por si hallasedes algun navio de ynfieles, hasta complir el dicho tiempo, y lo mesmo hareys si la galeota estando en Tajora, y ala yta ny ala tornada saliese que nos sera necessario yr al cabo de Mesurata, mas yreys derechos alos Secanos, y de ally alos Gelbes hasta aver gastado el tiempo de los quinze dias, los quales complidos tomareys la buelta de Malta con toda diligencia... Datum Melite etc., die X1III mensis Ju-lii MDXXXXVI) ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 420, fol. 210 v.).

XI

Nel 1548 in previsione del progettato trasferimento dell'Ordine a Tripoli veniva stabilito in un « Capitolo Generale » il seguente ordi-namento, che da notizie interessanti sul governo della citta :

« Ordinationi sopra Tripoli.

« Et prime.

« Attento che in tutti li rolli si e supplicate che la Religione si transferisca in Tripoli hano ordinato che in questo primo anno si man-dino in detto luogo cinquanta cavallieri, e tun governatore, qual sia baglio, accio sia obedito in detto Castello, come monsignor Reveren-dissimo qui in Malta, tenando alii detti cavallieri albergia, secondo fanno li piglieri qui in Malta, et facendosi questo bastaria di tenere Bolum ducento sessanta soldati in circa al soldo del Castello, come appare particularmente per una lista, et che li Reverendi Signori pro-curatori del comun thesoro tengano il detto luogo sempre ben pro-visto de vittoaglie, accio che complito che sia 1'anno si comprenda t'acilmente se in la seguente annata si potrano mandare et accrescer fino al numero de cento cavallieri, e tconsequtivamente de anno in anno, mandarne di piu cinquanta fino che tutta la Religione fusse in detto luoco, et vedendosi che non si potrano trattenere in detto luoco nel primo anno li cinquanta cavallieri, o nel secondo anno li cento, et in lo terzo, li cento cinquanta, si vederia chiaramente che tutta la Religione nel prefatto luco non si potria sustentare.

« Item che il portaro del detto Castello sia religioso dando ricom-pensa a Joanico Alfers al presente portaro in qualche altra parte, il quale per esser gia vecchio, et non veder quasi piu, non puo suppor-tare il travaglio necessario al detto officio.

« Item che mandandosi nel. detto loco de Tripoli Cavallieri de ar-mamento, li loro servitori non habbiano da tirare soldo alcuno, ne manco li servitori de alcuni altri cavallieri che vano col governatore et thesoriero reservando solum quatro servitori il soldo, per doi del Govematore, Faltro del capitanio delli cavalli, ct l'altro del thesoriero, con questo che siano sufficient!.

« Item. che quelli che hanno officii in la doana tanto per essi come per altri non habbiano soldo nessuno dal castello poi che 1'hanno dalla detta duana.

« Item che, andando alciini ad habitare in detto castello per fare suoi negocii particulari, o per riscatare alcuni lor parenti, over in detto luoco mandati dalla giusticia, non debbiano aver soldo nessuno, at-tento che con il soldo o senza hanno da stare in detto loco.

« Item per quanto in detto castello vi sono quatro capellani che tirano soldo de soldato, comandamo che li tre di essi siano del'habito, cioe li doi de caravana, et uno sia vicario, sensa soldo che habbia con-tinuamenti residere la, li

quali pigliarano li trentanarii delli frati che ibi morirano, et l'alfcro potra esser seeulare.

« Item che nessuno in detto castello, tanto dentro come di fuora, non possi vendere formento o biscotto, eccepto la signoria, et venendo alcun corsaro, over mercante, che ne portasse per venderne il gover-natore et il thesorero lo comprino a nome del thesoro, a precio hones-to con questo che la signoria habbi poi alcun utile.

« Item che venendo alcun corsaro con alcuna presa et portando alcune robbe, nelle quali la signoria potesse haver alcun guadagno comprandole, il detto governatore et thesoriero Ie comprino a conto del thesoro, et havendo alcun altra persona fatto partito con alcuno de detti corsarii per avanti la Religione sia preferita precio per precio.

« Item si havisa che si la signoria tenesse il forno de detto castello, mettendo un buon fornaro, et schiavi necessarii, con doi molini da mulla o da cavallo over da camello per far farina, et si ordinasse che nessuno facesse pane eccepto per uso di sua casa, solum la signoria, che forniria chi ne avesse di bisogno si awansaria per anno tre-cento saime di formento piu presto de piu che di manco, et seria causa che molta gente inutile che sta in detto castello che non serve ec-ceto di fare pane et venderlo se ne partiria et cosi restara il loco piu alleggerito de persone inutili.

« Item che Ie dispuglie delli frati che ibi morirano siano distri-butte fra li frati della lingua dovi sarano li morti, li quali frati noc possano pretendere alcuna despoglia de quelli che morirano in Malta.

« Item attento che in la citta di Tripoli vi habitano moiti mori con loro moglie et figlioli, li quali comprano quasi tutto quello che gli e necessario per il loro vivere dal castello, se potra ordinare fuor del detto castello uno magazeno, o ver taverna, nel quali si vendi pane vino oglio formaggio legume, mele, et moltre (sic) altre cose minute che *si* vendono in detto loco, tutto al conto del thesoro, et che nessuno fuora di esse castello possi vendere alcuna vittoaglia, eccetto in ditto loco deputato, che saria oltra il guadagno siguiria alia Religione, evi-tare che tanti mori non entrino nel prefatto castello.

« Item che la thesoreria sia tenuta provista de tutte Ie cose che si pono vendere in esso castello grosse e menute, et che il govematore, capitanio et thesoriero ne altra persona non possi vendere robba alcuna sopra soldo a soldati eccepto Ie robbe del thesoro et se alcuno contra fara non gli sia fatto buono, immo il thesoriero, 1'habbia a satis-fare de altra tanta robba del thesoro cargando al tale soldato ie precio sopra suo soldo, se pure havra de havere.

« Item accadendo che alcun soldato tenente o altro officiale ha-vesse de andare in casa sua o in altra parte con

licencia del governa-tore per alcun tempo che al tale non li corra il soldo ne ratione del tempo che stara fuora.

« Item che non siano alia ratione de cavalli piu de vinti mori et **alia** ratione de pedoni, non vi siano piu di quaranta mori.

« Item che non s tenga al soldo et ratione piu de vinticinque negri franchi et cada passaggio si faccia la visita, et quelli che sarano de piu delli vinticinque il govematore li faceia imbarcare ritenendo li mi-gliori per servicio della fabrica.

« Item che de tutte Ie prese et guadagni che farano Ie barche, fragati, bergantini o altri vasselli de Tripoli si habbia a pagar l'armi-ragliato **al** thesoro, et il simile tutti li altri corsari forastieri che fa-cesseno bottino in Tripoli, eccetto quelli che havessero armato in Malta sotto **la** bandiera della Religione con licentia de Monsignor reve-rendissimo tal armiragliato sia reservato ala signoria reverendissima».

(Archivio di Malta. Capitula Generalia, vol. 287 (1543 - 1548), fol. 65 v. e seg.).

XII

« Instructione a voi venerando religioso fra Claudio de la Sengia hospitalier di nostra Religione et capitaneo de nostri galere di quello havete da fare in questo viaggio che Dio vi conduca e torni a salva-mento.

« Et primo.

« Havendoci scrito la maesta Cattolica esser sua deliberatione ch'el illustrissimo principe Doria capitan generale di sua magiesta per mare con Ie galere di Spagna et de Italia andasse per due bande per buscar Dargut rayz et che nostre galere si giontasero con quelle, noi vedendo la cosa esser in servicio de Dio et di sua magiesta et de tutta la christianita con bona volonta havemo deliberate di mandarii non volendo mancar a simile impressa come e debito et costume nostro.

« Partirete adunque nel nome de Dio et andarete alia volta de Messina et gionto che sarete pigliarete Faltre due galere che sono li, li qualli credemo che alia gionta vostra sarano acconciate.

« Item, sapendo voi la volunta nostra, vi ordmamo che debbiate andare con detto illustrissimo principe con detta armata et far quello che per sua excellencia sara ordinato fin al suo ritorno in Messina o in altro luoco et ch'habbiate havuto licentia **da** lui.

« Item come sapete il negocio di Taiora e di tanta importanza che si non vi si remedia col tempo sara imposibile cacciar quel rinegato Morataga de li per tarsi ogni giorno piu potente, per tanto non lascia-rete di praticar il negocio con la excellencia del detto Signor vicere comme anchora col illustrissimo principe con farle conoscere la

utilita che di questo ne seguira et ancho il danno che se aspetano si non si provede per tempo come voi del tutto sette benissimo informato.

« Item benche non sappiamo del certo se l'armata ha da venire in Palermo o pur a Messina non di men oper che e necessario che Ie dette galere pigliano panatica andarete alia volta di Palermo dove vi fomirete de panatica et altre vituaglie necessarie.

« Item gionto in Palermo vi pofcrete informare dove l'armata se aspetera, o in Palermo, o in Messina et secondo intenderete, potrete andare aspectare et se non havesse da venire in detti lochi la potrete andar a cercare dove si trovara se detto Signor principe havesse las-ciato tal ordine, et non havendo lasciato farete quello che meglio vi ne parera circa di andarlo a trovar, o aspectar.

« Item gionto, con delta armata andarete a visitar l'illustrissimo principe capitaneo general di sua magiesta et farete nostre recomen-datione a sua excelentia dicendole con quanta volunta vi habbiamo expedito, per andar in questo viaggio, per servicio di sua magiesta Cattolica offrendovi promtissimo in tutto quello che sua excellencia vi comandara.

« Item per che nostra volunta e che dette galere nostre vadino bene armate non lasciarete de pigliar per ogni galera

dieci soldati che siano ben disposti et persone che possano ben servire.

« Item fornite Ie dette cose vi potrete tornare qui in Malta con ogni diligenza rimettendo tutto quello che de piu succedera in vostra prudenza e discrecione che provedete et vi governate in tutte Ie occor-renze secondo il tempo et loco pigliando sempre consiglio dalli patro-ni et cavaglieri anciani et de altri officiali a voi benvisti, per che in voi confidamo... Datum Melite etc., die XXII mensis martij MDXLIX ab Incarnatione (1550)».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 422, fol. 208 v. e segO. XIII

« Instructione a voi venerando religioso etc., fra Caspar de Val-lies commendatore de Prillar (?) et de Salins del priorato de Alvernia et manescallo di nostra eligione, di quanto havrete a far circa il go-vemo del castello et cita de Tripoli che Dio vi conduca et incammini in tutte Ie occorrenze et actioni vostre.

« Et primo.

« Essendo voi per la sufficientia et capacita vostra stato eletto et deputato governatore di Tripoli mandiamo nostre galere per con-durvi al detto loco ove gionto che sarete darete Ie lettere et provisioni nostre al venerando religioso nostro fra Pietro Nunez de Herrera ba-glio de la Boneda al quale comandiamo che vi faccia dar a nome nostro et di

nostra Religione obedienza sacramento et homagio di tutti gli officiali et gente soldati et mori del detto castello con tutte Ie so-lennita et ceremonie acostumate rimettendovi il governo e consignan-dovi Ie chiave della fortaleza.

« Item intrato che sarette nella possessione del governo farete far al solito la mostra et resigna generale di tutta la gente che sta al soldo ricognoscendo Ie arme et piglando lo giuramento di ben et fidel-mente servire advertendo che Ie arme che portano nella mostra siano sue et se alcuno non ne havesse li constringerete a comprarle.

« Item per che circa il governo del castello sono molte ordinationi antiche et moderne et boni costumi quelle ben vederete et considera-rete et conforme ad esse vi regerete, et se alcuna cosa de importanza vi parera inovare darete prima aviso a noi et a nostro venerando con-siglio a cio che in quelle vi sia dato ordine.

« Item per che supra tutte Ie cose si ha da guardar il servitio di-vino, procurarete che nel detto luoco si guardino li giorni delle dome-niche et feste comandate per la santa matre Chesia cosi nel contratar delle mercantie come nelle opere servili, ponendo la pena a voi bene-vista contra quelli che farano il contrario.

« Item vi ordinamo che con tutto il rigor facciate punir et casti-gar li dissoluti et vitiosi et bestemiatori et non permetterete che gio-chino alii dati se non alle tavole, o alle

carte al luoco deputato, et non in parte secrete, prohibendo che in modo alcuno non si giochino l'arme et cavagli et se alcuno temerariamente Ie giocasse li farete castigar ad arbitrio vostro et tali arme et cavagli seranno restituire a quello che rhavera perse.

« Item, essendo la buona guardia del castello cita et castellego piu importante che il resto, sarete molto vigilante sopra la guardia che si fa di note nella muraglia et di giorno nella porta, non perdo-nando a nessuna che manchase, advertendo che Ie due porte del castello cioe quella della terra et quella della marina non siano insieme aperte.

« Item vi ordinamo che siate attento che li mori entrino nel cas- tello il mancho che si potra, et per che siamo informati che gli mori habitant! nella cita sono costreti de intrar al detto castello per com-prar cose necessarie al loro vivere cotidiano, ordinarete che de tal cose se ne venda fuora del castello accio che li mori non habbiano causa di intrar dentro advertendo che in questo la doana non sia in alcun modo defraudata et che il castello non resta per questo dispro-visto.

« Item ordinarete che alii mori che vengono al coco non gli sia fatto maltratamento venendo ne tornando, non consentedo che gli sia tolto per forza cosa alcuna commandando che nessuno soldato vada fuora del castello al coco o ad altra parte senza archibuso o lanza o balestra et quello che sara ginete non habbia andar piu lontano del

fosso senza il suo cayaglio inselato et infrenato con sue arme accio che non habbia occasione de intrar dentro per eavalcar se per caso si toccasse in quello instante air anna.

« Item vi ordinamo et incarghiamo che procurate di levar 1'oca-sione de tante scaramuccie nelle quali non si guadagna altro che per-dita de gineti buoni soldati et munitioni.

« Item accadendo che moresse alcun soldato senza herede ordinarete che li suoi beni per inventario siano posti in poter del nostro thesoriero fin che sia provisto de giustitia a cui pertineranno.

« Item de tutte Ie altre cose ardue et de importanza che potranno succedere ci darete aviso a noi et a nostro venerando consiglio.

... Datum Melite etc., die XXVIII mensis aprilis MDLI (1551)». (Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 422, fol. 220 (v.).

XIV

« Instructione per il Venerando religioso fra Caspar de Vallies manescallo di nostra Religione et governator di Tripoli como si ha da govemar sopra gli infrascripti negocii.

« Et primo.

« Havendo havuto notitia per diverse sie specialmente dal religio-sc nostro fra Georgio di Santo Joanne il quale e arrivato qui hoggi, come l'armata turchesca e uscita fnori et che si tiene per certissimo quella esser per Malta, o per il castello di Tripoli, per questo volendo provedere di presidio et aiuto per la fortificatione di detto castello, habbiamo ordinato che il. religioso nostro fra Guilleimo Coupier, commendatore de Tortobesa con alcun numer di cavaglieri et il magnifico Giovan Calabresi con sua compagnia de soldati venghino costi in Tripoli per tal effecto, con li quali volemo che siano observate Ie cose infrascripte.

« II. Item che il detto fra Guileimo Coupier in presentia vostra si chiame vostro locotenente cioe locotenente di governatore ma in ab-seneia vostra cioe se piacesse a Dio ordinare altro di vostra persona che allora resti in loco di governator et se il medessimo havenesse della persona di esso Coupler resti il religioso nostro fra Bartolomeo Vasco, et cosi per ordine se intende degli altri anciani.

« III. Item volemo che il detto fra Guilleimo Coupler et gli altri cavaglieri siano alia obedienzza vostra alii quali farete sue tavole a conto di nostra Religione.

« III. Item si dette cavagliere haverano bisogno di qualche panno o tela per vestire li farete accomodar dal thesoriero, sopra loro soldo a quello vi parera necessario.

« V. Item quanto al detto magnifico capitaneo et soldati vogliamo che siano alia obedienza vostra et havendo alcuna discordia fra loro in cosa de giusticia habbiano ricorso a voi.

« VI. Item. A petitione di detto capitaneo et soldati gli havemo concesso gli infrascripti capituli. et primo :

« VII. che detta compagnia de soldati sia in piede con li proprii medesimi officiali che in essa compagnia si trovino et ch'el detto magnifico Giovan capitaneo habbia ogni vigore et auctorita et potesta che ad un capitaneo de fanteria si richiede, et che detta sua auctori-tate non gli sia punto diminuita.

« VIII. Item che la paga che si fara alii detti soldati sia cosi et tanta come e quella di sua magesta Cattolica cioe paga di guerra, et non paga di guarnitione et secundo Fuso di guerra cioe in ciascun **XXIX** giorni mentre serano in detta fortalezza de Tripoli, incomin-ciando dal giorno che sara finita 1'altra paga che glie donata in Sicilia.

« Vni. Item che a proprie speee della Religione debbiano far condure detti soldati alia detta fortaleza de Tripoli et di poi tomarii in la cita di Messina senza scontar cosa alcuna tanto del mangiar et del bevere quanto del passaggio.

« X. Item che passato il mese de Setembre proximo future non havendo Parmata turchesca assediato detto castello debbiano far ritor-nar detti soldati fin a Messina a

spese di nostra Religione senza rite-ner alcuno per guarnicione di detto castello sino quelli che di loro spontanea volonta volessero restar.

« VI. Itme che detti soldati sian provisti delle cose necessarie per il viver loro come di pane vino et altre cose comestibile per il medemo precio che si dona agli altri soldati in Tripoli.

« XII. Item che guadagnando detti soldati schiavi o schiave et altre cose de infideli siano di essi soldati et non de altri, et che huomo alcuno di nostra Religione non se li possi levare.

« XIII. Item, accadendo che alcuni de detti soldati fossero feriti in servicio di detto castello volemo che siano curati et medicati et datoli Ie medicine a spese di nostra Religione senza scontar cosa alcuna sopra il soldo loro.

« XIII. Item che siano provisti per il tempo che starano nel detto castello di polvere piombo et micci a spesa di nostra Religione di quello che parera necessario.

« XV. Item per quanto mandiamo due galere aposta per levar detti soldati esse galere sbarcati che sarano detti soldati subito si retornarano portando seco quella quantita de done et garzoni che vi parerano.

In cuius etc... Datum Melite etc. die sexta mensis Julij MDLI ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 422, fol. 223 v.).

الهوامش

(١) راسم رشدي: طرابلس الغرب (طرابلس ١٩٥٣) ص ١٤.
(٢) عمر الباروني: الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس (طرابلس ١٩٦٠) ص ٩.
(٣) أنظر الوثيقة رقم (١) التي توضح التحرش الأوربي بالمسلمين - ملحق البحث.
(٤) E.Rossi, I, Daminio du Cavailieri di Malta A Tripoli in (Archidum Melitense) VI Malta 1924, p. 16. Ibid. . 180
(٥) Ibid. p. 180
(٦) مصطفى بعيو: المجمل في تاريخ ليبيا (القاهرة ١٩٤٧)، ص ٢٢.
(٧) محمد فريد سيالة: نحو غد مشرق (طرابلس ١٩٥٨).
(٨) أنظر الوثيقة رقم (٢) التي تدلل على شدة وطأة القوى الأوربية تجاه الحواضر الإسلامية الساحلية
(٩) Rossi, I: Op. Cit; P.P.22 - 23.
(١٠) C. Manfroni, L' Italia melle viende marinare della tripolitaria Intra Airoldi Maita (1935) P. 21 - 22.
(١١) Rossi, I: Op. Cit: P. 28.
(١٢) C. Manfroni: Op. Cit. p.25.
(١٣) عمر الباروني: المرجع السابق، ص١٤.
(١٤) S. Aurigenna, I Castello di Tripoli die Darberia In Rinascita Della Tripolitaria (Roma, 1926). P.P. 17 -18
(١٥) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٢٧.
(١٦) محمد فؤاد شكري: ميلاد دولة ليبيا الحديثة (القاهرة ١٩٥٧)، ص٨.
(١٧) انظر ا لوثيقة رقم (٣) التي توضح نظام العمل داخل طرابلس - ملحق البحث.
(١٨) على مصطفى المصراتي: صحافة ليبيا في نصف قرن «بيروت١٩٦٠» ص ٢٥.
(١٩) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق ذكره ص ٤١.
(٢٠) G.Pantanelli, Tripoli in un Documento Bolognese del secolo X Bologna 1942,p.21.
(٢١) Ibid:p.24.
(٢٢) انظر الوثيقة رقم (٤) التي تدلل على صراحة العمل بين الفرسان من أجل أحكام قبضتهم على طرابلس - ملحق البحث.
(٢٣) أحمد النائب الأنصاري: المنهل العذب في طرابلس الغرب «بيروت ١٩٥٠، ص ١٩.
(٢٤) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص١٣.
(٢٥) أحمد النائب الأنصاري:المرجع السابق ص ٢١.
(٢٦) انظر الوثيقة رقم ٥ التي تبرهن على ضرورة رصد تحركات القوى الإسلامية على الساحل «ملحق البحث».
(٢٧) G. Pontanelli: Op. Cit.p29
(٢٨) C. Manfroni,: Op.Cit. p32.
(٢٩) انظر الوثيقة رقم ٦ التي تشير إلى أحوال الفرسان داخل طرابلس - ملحق البحث
(٣٠) انظر الوثيقة رقم ٧ التي تعكس للفرسان مدى الخطر المتنامي على طرابلس من القوى الإسلامية - ملحق البحث.
(٣١) على مصطفى المصراتي: المرجع السابق ، ص ٣٣- ٣٤.
(٣٢) عمر الباروني: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٣٣) انظر الوثيقة رقم «٩،٨» التى تبرهن على ضرورة شحذ همم الفرسان للدفاع عن طرابلس – ملحق البحث.

(٣٤) S.Aurigenna,: OP. Cit, .p 40 - 41

(٣٥) E. Rossi: Op. Cit p. 72.

(٣٦) عمر البارونى: المرجع السابق، ص ٨٩

(٣٧) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٣٠١.

(٣٨) S.Aurigenna: Op. Cit.p.91.

(٣٩) راسم رشدى: المرجع السابق، ص ٩٨.

(٤٠) انظر الوثيقة رقم ١٠، ١٢ التى تدلل على تهاوى قوة الفرسان أمام تأسد قوة العثمانيين – ملحق البحث.

(٤١) E. Rossi: Op.Cit, p. 92.

(٤٢) Ibid.p.94.

(٤٣) محمد فريد سيالة: المرجع السابق، ص١٩.

(٤٤) محمد فريد سيالة، المرجع السابق، ص٢١.

(٤٥) انظر الوثيقة رقم ١٢ التى تشير إلى استصراخ الفرسان لأوروبا من أجل إرسال حملات الإنقاذ إليهم، ملحق البحث.

(٤٦) على مصطفى المصراتى المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤٧) انظر الوثيقة رقم ١٣، ١٤ التى توضح تهاوى قوة الفرسان أمام آل عثمان، ملحق البحث.

(٤٨) G. Pontanelli:Op. Cit, p.53

(٤٩) عمر البارونى: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٥٠) عمر البارونى، المرجع السابق، ص ٨٧.

(٥١) E.Rossi: Op. Cit, . p. 102.

(٥٢) محمد فريد سيالة، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٥٣) C. Monfroni, Op Cit, p. 49.

(٥٤) Ibid, p 51.

(٥٥) على مصطفى المصراتى: المرجع السابق ص ٧٨

(٥٦) أحمد النائب الأنصارى: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٥٧) G.Pontanelli, Op. Cit. .p. 88-89.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر الأسبانية:

- C-Monfroni,L'Italia melle viende marinare della Tripolitaria Intra Airoldi, Malta (1935).
- E-Rossi, I, Doninio die Cavailieri di Malta a Tripoli in (Archidun Melitense) VI Malta, 924.
- G-Pantanelli, Tripoli in un Documento bolognese del secolo X (Bologna, 1942).
- S.Aurigenna I Castello di Tripoli die Barberia in Rinascita della Tripolitania (Roma, 1926).

ثانيا: المراجع العربية:

- أحمد النائب الأنصاري: المنهل العذب فى طرابلس الغرب (بيروت ١٩٥٠).
- راسم رشدي: طرابلس الغرب (طرابلس ١٩٥٣).
- عمر الباروني: الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس (طرابلس ١٩٦٠).
- على مصطفى المصراتي: صحافة ليبيا فى نصف قرن (بيروت ١٩٦٠).
- محمد فريد سيالة: نحو غد مشرق (طرابلس ١٩٥٨).
- محمد فؤاد شكري: ميلاد دولة ليبيا الحديثة (القاهرة ١٩٥٧).
- مصطفى بعيو: المجمل فى تاريخ ليبيا (القاهرة ١٩٤٧).

د.. عبدالله محمد على بن حيدر (*)

القاضى عياض وكتابه ترتيب المدارك

لا شك أن دراسة تراجم الشخصيات ومؤلفاتهم يساعد على توضيح كثير من الحقائق العلمية، ولذا أردت فى هذا البحث أن أعرف بكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك لعلامة المغرب المحدث الفقيه أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى، والقصد من ذلك دراسة الكتاب دراسة علمية تحليلية لأنه من خلال إطلاعى لم أجد أحد من الباحثين من درس الكتاب دراسة موسعة وبصفة كافية غير ما كتبه د. أحمد بكير فى مقدمة تحقيقه لكامل ما وجد من نصوص الكتاب[١] وما كتبه الشيخ محمد بن تاويت الطنجى فى مقدمته التى وضعها لتحقيقه الجزء الأول من كتاب ترتيب المدارك[٢] وقد تلته أجزاء سبعة حققها مجموعة من كبار محققى المغرب وهى تعريفات مناسبة لمقدمات يضعها المحققون بين يدى نصوص الكتاب الذى يصدرونه محققا، ثم دراسة ثالثة كتبها محمد الطالبى فى مقدمة تحقيقه للتراجم الأغلبية التى استخرجها من كتاب ترتيب المدارك[٣] فوقع اختيارى لهذا البحث للتعريف بالكتاب والمؤلف ودراسة مناهجه وخصائصه ومحتوياته ومصادره وأهميته بصفة أوسع.

ترجمة القاضى عياض

على الرغم من توافر ترجمات القاضى عياض فى المصادر والدراسات فقد رأيت أن أصدر هذا البحث بترجمة تعريفية بالمؤلف أحاول فيها أن تكون صادرة عن قراءة شخصية لترجمة الرجل، ويظل الباحث والكاتب لترجمة القاضى عياض فى اطمئنان وثقة كبيرة فى ما يكتبه فى بحثه عن شخصية الرجل مراحل حياته، وذلك لأسباب:

أ- أن المصدر الأساسى الأول هو كتاب «التعريف بالقاضى عياض» الذى وضعه ابنه محمد ونشرته وزارة الأوقاف المغربية «دون تاريخ»

(*) كلية الشريعة والدراسات الإسلامية قسم التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة أم القرى مكة المكرمة

بتحقيق محمد بن شريفة [٤] فإن ابنه محمدا هذا عاش فى ظل والده قرابة الأربع والعشرين سنة، حيث تشير المصادر إلى أنه توفى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م عن عمر يقارب ٤٨ سنة ووالده توفى سنة ٥٤٤هـ /١١٤٩م وقد اعتنى محمد بن عياض بترجمة والده عناية كبيرة وقال فى مقدمة كتابه: «فبادرت.. إلى جمع فضائل اقتضيتها، وفصول انتخبتها وأحاديث انتقيتها وأسندتها وملح أجتلبتها وأوردتها جهدى». [٥] وفعلا فقد نقل معطيات وأخبارا كثيرة عن حياة والده وشيوخه وتلاميده ومروياته وعلومه وغير ذلك.

ب – ترجمة أساسية ثانية وضعها لعياض شهاب الدين المقرى فى كتاب خصصه لذلك هو كتاب «أزهار الرياض، فى أخبار عياض» [٦] فى خمسة أجزاء جمع فيها كل ما فى كتاب «التعريف» مع إضافات واسعة نتجت عن مطالعاته وكثرة ما قرأ وجمع من أخبار مترجمة وشيوخه ومعاصريه ومواقفه فى مجتمعه وغير ذلك.

ج – وفرة ما كتب عن القاضى عياض من تراجم فى المصادر القديمة ووفرة ما كتبه عنه المعاصرون من بحوث ودراسات وقد وضع الشيخ الدكتور حسن الوراكلى كتابه: ألو الفضل عياض السبتى «ثبت ببليوجرافى» جمع فيه ٤٨١ عنوانا لتأليف وبحوث ورسائل جامعية وموضوعات نشرت فى المجلات والجرائد [٧] اكتفى بإحالة ألدراسين إلى هذا الثبت الوافى والدقيق للتعريف بمصادر ترجمة القاضى أبى الفضل عياض والدراسات التى كتبت حوله.

اسمه، أصله، شبابه:

أبو الفضل: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى [٨].

ولد فى النصف من شعبان عام ٤٧٦هـ/ أواخر ديسمبر ١٠٨٣م وتوفى فى التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ/ ١٥ أكتوبر ١١٤٩م.

فى اسم القاضى عياض ما يدل على أنه عربى المحتد يعود نسبه إلى الجد العربى يحصب بن مالك بن زيد من «حمير القحطانية» انتقل أجداده إلى المغرب فى تاريخ لا يعرف بالتحديد وإنما ظهر أمرهم فى القيروان وهو ما سجله أحد الشعراء بقوله فى مدحهم: وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان، كما ظهر أمرهم بمدينة بسطة Baza القريبة من وادى آش شمالى غرناطة [٩].

ويذكر محمد بن عياض أنه لا يدرى هل نزلوا القيروان قبل الأندلس أو أنهم نزلوها بعد ذلك لمدة محدودة المهم أنهم انتقلوا إلى فاس حيث بلغوا فيها

إلى البيوتات النابهة، ولكن الجد الثانى للقاضى عياض واسمه عمرون انتقل إلى سبتة قريبا من سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م فكان فيها معروفا بخيره وصلاحه وحفظه للقرآن وكثرة حجه وقد حبس على المسلمين أرضا لتكون مقبرة بنى فيها مسجدا وديارا حبسها على المسجد الذى لازمه للعبادة، وتوفى سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م أقامت العائلة بسبتة فنالت الاحترام لسلوك أبنائها الاجتماعى وخاصة عند ظهور قاضى سبتة عياض بن موسى(١٠).

شيوخه:

اشتمل كتاب الغنية الذى وضعه القاضى عياض لترجمة شيوخه تراجم لثمانية وتسعين من شيوخ القاضى عياض(١١) يمكن أن نوزعهم إلى خمسة أنواع بحسب بلادهم وجهاتهم:

١- الشيوخ الذين أخذ عنهم بسبتة يبلغ عددهم ثلاثة وثلاثين شيخا أغلبهم من أهل سبتة، إلا أن من بين الذين أخذ عنهم بسبته من كانوا غير سبتيين وإنما هم من شيوخ العلم مغاربة أو أندلسيين ممن مروا بهذا الثغر عند سفرهم فى قصدهم المشرق للحج وطلب العلم ذهابا أو رجوعا أو ممن كانو ينتقلون بين العدوتين المغربية أو الأندلسية.

٢- الشيوخ الذين أخذ عنهم ببعض مدن المغرب الأقصى كمدينة فاس أو مراكش وعددهم خمسة.

٣- الشيوخ الذين أخذ عنهم فى بلاد الأندلس وعددهم ثمانية وأربعون شيخا وفى أغلب تراجم هؤلاء كان يعين المدينة التى أخذ فيها عن الشيخ ويهمل ذلك أحيانا فقد عين مكان لقائه بتسعة عشر شيخا من قرطبة وعين لقاءه لبعضهم فى أشبيلية أو غرناطة أو شاطبة أو بلنسية أو شرق الأندلس، وأهمل تحديد المدينة الأندلسية التى لقى فيها الباقين من الشيوخ.

٤- وقد أخذ عن شيخين من أفريقية وبالتحديد من المهدية كتبا له بالإجازة ولم يقابلهما.

٥- أما شيوخه المشارقة الذين كتبوا له بالإجازة فعددهم عشرة، خمسة منهم كتبوا له من مصر وأربعة من مكة وواحد من بغداد.

نختار من بين هؤلاء الشيوخ ثمانية من كبار علماء العصر وممن اشتهروا بالعلم وبرزوا فى مختلف الاختصاصات.

١- الحافظ أبو على الصدفى هو الحسين بن محمد فيره بن حيون السرقسطى المعروف بابن سكرة، المتوفى سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م.

أخذ بالأندلس عن الكبار مثل أبى الوليد الباجي رحل للحج والسماع فأخذ بمصر وبغداد والشام علوم الحديث والفقه والأصول والتاريخ وعلم الرجال، ثم عاد إلى مرسية للتدريس بها فرحل إليه الناس قال عنه ابن بشكوال: هو أجل من كتب إلى بالاجازة لزمه القاضى عياض فى مجالسه العلمية فسمع منه كثيرا ثم جمع له فهرس شيوخه وهم نحو مائتى شيخ، كما ألف له ابن الأبار معجما آخراً(١٢).

مات الحافظ الصدفي مجاهدا في معركة قتندة «كتندة» سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م التى تعتبر من حروب النصارى بالأندلس ضد المسلمين قاد المسلمين فيها إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وشارك فيها من العلماء الصدفي هذا وابن الفراء والقاضى أبو بكر بن العربى الفقيه فاستشهد الأولان وسلم الثالث وقتندة من عمل سرقسطة(١٣).

٢- الحافظ الحسين بن محمد الغسانى الجيانى أبو على المتوفى سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥م وصفه القاضى عياض فى الغنية بقوله: شيخ الأندلس فى وقته وصاحب رحلتهم وأضبط الناس لكتاب، وأتقنهم لرواية، مع الحظ الوافر من الأدب والنسب والمعرفة بأسماء الرجال وسعة السماع أخذ عن علماء كثيرين العديد من كتب الحديث واللغة والفقه كابن عبد البر النمرى وأبى عبد الله بن عتاب، وأبى الوليد الباجي وهو مثل القاضى عياض لم يرحل إلى الشرق(١٤).

٣- الحافظ أبو طاهر السلفى أحمد بن محمد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م نشأ وتعلم بأصبهان ثم رحل إلى مختلف بلاد المشرق من الحجاز إلى العراق إلى الشام ثم مصر حيث أقام بالإسكندرية أخذ علما كثيرا من شيوخ كثيرين فوضع لهم ثلاثة معاجم معجم أصبهان والمشيخة البغدادية ومعجم السفر من أجل شيوخه ألكيا الهراسى والشاشى والمدينى وغيرهم له مؤلفات عديدة فى الحديث منها إملاءات كما كتب فى تراجم الشيوخ والتعريف برجال الحديث (١٥).

٤- الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى المتوفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م من أكابر علماء وفقهاء ومحدثى أشبيلية رحل إلى المشرق فجمع علما من مختلف البلاد واتسعت روايته عاد إلى الإندلس فكثر طلابه ومنهم القاضى عياض الذى أخذ عنه بسبتة عندما كان ابن العربى مجتازا من الأندلس إلى المشرق ثم قصده ثانية هو بأشبيلية ألف فى التفسير قانون التأويل وفى الحديث عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى مع شرح الموطأ، وفى أحكام القرآن كتابا مشهورا مع عناوين عديدة فى الفقه المالكى.

٥- الحافظ أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى المتوفى

سنة ٥٣٦هـ/ ١١٦٨م صفه القاضي عياض بقوله «إمام بلاد أفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين بتحقيق الفقه ورتبه الاجتهاد ودقة النظر.. ولم يكن فى عصره للمالكية فى أقطار الأرض أفقه منه». (١٧) له مؤلفات كبيرة منها المعلم في شرح مسلم، وشرح البرهان للجويني فى الأصول وشرح التلقين فى الفقه المالكى أخذ عن كثير وأخذ عنه كثير أضاف إلى علومه الشرعية علم الطب حيث كان يفتي في الطب كما يفتي فى الفقه كتب المازرى من بلده المهدية إلى عياض يجيزه فى العلم(١٨).

٦- الحافظ أبو بكر الطرطوشي وهو محمد بن الوليد الفهرى المالكي، يعرف بابن رندقة المتوفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م نشأ بالأندلس فأخذ عن أبى الوليد الباجي ثم انتقل إلى المشرق فتجول فى أنحائه طالبا العلم، أقام بدمشق ثم استوطن الإسكندرية وبها دفن، اشتهر بمحاربة البدع وألف في ذلك، مع سعة عمله بالعقيدة وتفسير القرآن. كتب للقاضي عياض بإجازته(١٩).

٧- الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١١م أول شيوخ القاضي عياض المذكورين فى الغنية وأوسعهم ترجمة فيه «كتبت فى ١٦ صفحة» فى هذه الترجمة عرض المؤلف عددا مهما من الكتب التى أخذها عنه بأسانيدها، ووصفه بقوله: «أجل شيوخ أهل بلدنا سبتة رحمه الله ومقدم فقهائهم... كان كثير الكتب حافظا عارفا بالفقه.. أعقل أهل زمانه.. لازمته كثيرا للمناظرة.. وسماع المصنفات»(٢٠).

٨- الشيخ الأستاذ أبو الحسن على بن أحمد بن خلف الأنصارى المعروف بابن البيذش المتوفى ٥٢٨هـ/١١٣٤م ذكره عياض فى الغنية وقال: «من أهل غرناطة شيخ مقرئيها ورواتها فى علم القرآن والحديث والآداب والأصول والضبط للحديث والقراءات واللغات والإتقان فى ذلك». أخذ عن المشهورين من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة واللغويين. رحل إليه الناس لعلمه بالقراءات والنحو ورواية الحديث لقيه عياض بقرطبة وأخذ عنه كتبا كثيرة منها أدب الكتاب لابن قتيبة وفصيح الكلام لثعلب وغريب الحديث للخطابى وغيرها(٢١) .

تلاميذه

للقاضي عياض تلاميذ كثر أحصينا منهم عشرين ذكروا فى كتاب شجرة النور الزكية (٢٢) نعرض لبعض أسماء المشتهرين من تلاميذه مع الإشارة العابرة لقيمهم واختصاصاتهم وتآليفهم:

١- أبو بكر محمد بن خير الأموى الأشبيلى، المحدث الراوية صاحب البرنامج المشهور والمطبوع قديما توفى سنة ٥٧٥هـ/١١٨١م.

٢- الفقيه القاضى محمد بن سعيد الأنصارى المعروف بابن زرقون الأشبيلي، اختص بالقاضي عياض ولازمه كثيرا وكان كاتبه فى قضاء غرناطة. له كتاب كبير فى الحديث عنوانه الأنوار، توفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م.

٣- عبد الله بن سعيد العبدرى البلنسى المعروف بابن أبى الرجال، مقرئ محدث فقيه شرح صحيح مسلم وشرح رسالة ابن أبى زيد القيروانى توفى سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م.

٤- إبراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول من أهل المرية محدث مقرئ فقيه ألف كتاب مطالع الأنوار على منوال كتاب شيخه عياض مشارق الأنوار توفى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

٥- أبو الحسن على بن محمد الغرناطى المعروف بابن المقرئ، محدث متكلم، ألف فى الحديث والسيرة والأصول، توفى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م.

٦- أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بابن حبيش، من أهل المرية. اشتهر شهرة واسعة برواياته وآدابه وقراءاته، ألف فى المغازى كتابا توفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

مؤلفات القاضى عياض:

تعددت اختصاصات القاضى عياض وتنوعت العلوم التى درسها وأتقنها وعلمها لطلبته لذلك كانت مؤلفاته عديدة الاختصاصات فقد ألف فى العقيدة وفى الحديث وفى الفقه المالكى وفى التاريخ وفى التراجم وفى الأدب نثرا وشعرا.

فى العقيدة:

الإعلام بقواعد الإسلام: وقد يسمى بالإعلام بحدود قواعد الإسلام كما سمى أحيانا بالقواعد: ذكره ابنه فى التعريف [٢٣].

والقلصادى [٢٤] وحاجى خليفة [٢٥] طبع الكتاب بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى بعناية وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب فى طبعات ثلاث دون تاريخ.

شرحه أحمد بن قاسم الجزامى فى كتاب [٢٦] منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بتونس رقم ٩٢.

السيف المسلول، على من سب أصحاب الرسول: اختص بذكره حاجى خليفة [٢٧] وتبعه البغدادى. [٢٨]

كتاب الصلاة على النبى معانيها، أحكامها، فضائلها:

هو كتاب لم نجد له ذكرا فى المصادر التى ترجمت للقاضى عياض ولا فى الدراسات الحديثة الكثيرة التى أطلعت عليها إلا أنى وجدت نسخة كتاب مطبوع يحمل هذا العنوان[٢٩] على الغلاف ما نصه قدم له وراجع أصوله محمد عثمان الخشت وهو يقع فى ٦٩ صفحة فيه مقدمة وضعها المحقق لم يذكر فيها الأصول المخطوطة التى اعتمدها ولا المكتبة التى حفظ بها ولا وصف المخطوط ولا وثق شيئا من كل ذلك ولم يذكر المحقق هل حقق وقابل على نسخة واحدة أو أكثر، مع الملاحظة أننا لا نجد فى هوامش المحقق أى إشارة إلى أى اختلاف بين نسختين أو أكثر.

يلاحظ أن صياغة الكتاب متينة وصناعته دالة على أنه يمكن أن يكون من تأليف القاضى عياض وقد اشتمل على ثمانية فصول متعلقة بالصلاة على النبى معانيها حكمها، المواطن التى تستحب فيها، كيفيتها فضيلتها، ذم من لم يصل على النبى، تخصيصه، بها، الاختلاف فى جواز الصلاة على غيره.

- المقاصد الحسان، فى ما يلزم الإنسان:

ذكر فى المصادر القديمة لترجمة عياض دون أن يوضح موضوعه وأرجح أن يكون متناولا ما يلزم الإنسان فى الاعتقاد.

فى الحديث والسيرة:

- اختصار شرف المصطفى:

هو اختصار لكتاب شرف المصطفى أو شرف النبوة لأبى سعد عبد الملك بن محمد النيسابورى الخركوشى المتوفى سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م. أخذه عنه ابن خير مشافهة وذكره فى فهرسة شيوخه، [٣٠] كما ذكره حاجى خليفة [٣١]

- إكمال المعلم، فى شرح مسلم - إكمال المعلم، بفوائد مسلم:

وهو شرح لكتاب المعلم بفوائد مسلم لأبى عبدالله محمد بن على المازرى ذكره مؤلفه فى بداية كتابه مشارق الأنوار وكذلك أغلب المترجمين للقاضى عياض منه نسخة فى الخزانة الحسنية بالرباط ونسخ أخرى غيرها بالمغرب الأقصى.

- الإلماع فى ضبط الرواية وتقييد السماع= الإلماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع: حققه أحمد صقر [٣٢]

- بغية الرائد، لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد:

شرح فيه الحديث المذكور، ذكره ابنه فى التعريف به وغيره من المترجمين له [٣٣] منه نسختان فى المكتبة الوطنية ببرلين رقم ٣٠٩، ٣٧٧، وأخرى بمكتبة آل ابن عاشور بتونس، نشر بتحقيق صلاح الدين الألبى ومحمد الحسن أجناف ومحمد الشرقاوى[٣٤].

– الشفاء، بتعريف حقوق المصطفى:

هو أشهر كتب القاضي عياض وضعه في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار في المغرب والمشرق من بين أكثر كتب السيرة رواجا قال عنه بعض الشعراء:

– عوضت جنات عدن يا عياض عن الشفاء الذى ألفته، عوض جمعت فيه أحاديثا مصححة فهو الشفاء لمن فى قلبه مرض.

اهتم به المؤلفون فوضوعوا له شروحا وحواشي واختصارات وتعاليق كثيرة ذكر منها حاجي خليفة تسعة عشر تأليفا [٣٥] وجمع منها بركلمان أربعة وثمانين كتابا طبع طبعات عديدة قديمة وحديثة.

– غريب الشهاب:

اختص بذكره حاجي خليفة [٣٦] والبغدادى [٣٧] وهو عنوان غير واضح حيث لم يتبين أى كتاب عنوانه الشهاب يوضح عياض غريبه اللغوى، ويترجح عندى أنه كتاب شهاب الأخبار فى الحكم والأمثال والآداب الشرعية، مؤلفه محمد بن سلامة القضاعي المصرى المتوفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م[٣٨]

– مشارق الأنوار علي مبهم الآثار:

شرح فيه كثيرا من غوامض الأحاديث الواردة فى موطأ مالك وصحيحى البخاري ومسلم، مدحه ابن الصلاح فى بيت من الشعر فقال: مشارق أنوار تسنت بسبتة وذاعجب كون المشارق بالغرب. [٣٩] قال الشيخ محمد مخلوف [٤٠] وقيل عنه: «هو كتاب لو كتب بالذهب ووزن بالجوهر لكان قليلا فى حقه». طبع بفاس على نفقة السلطان عبد الحفيظ [٤١] وصدرت بالمغرب طبعة ثانية بتحقيق أحمد يكن فى ٣ أجزاء [٤٢].

– منهاج العوارف إلى روح المعارف فى شرح مشكل الحديث:

لم يذكره غير بروكلمان ولعله عنوان آخر للكتاب السابق مشارق الأنوار.

فى الفقه:

– أجوبة القرطبيين:

ذكره ابنه فى التعريف [٤٣] وقال: أنه تركها غير مبيضة، وذكره ابن فرحون[٤٤]

– الأجوبة المحبرة، عن المسائل المتخيرة = الأجوبة المحبرة، على كشف المسائل المحيرة: وهو من الكتب التى تركها المؤلف ولم يبيضها [٤٥].

التنبيهات المستنبطة، على الكتب المدونة والمختلطة:

شرح فيه وأصلح إشكالات مع تحرير الروايات وتسمية الرواة الوارد ذكرهم في المدونة والمختلطة ذكر عنوانه في أغلب المصادر، منه نسخة في الخزانة العامة بالرباط [٤٦] منه نسخ أخرى بالرباط وفاس.

- سر السراة، في أدب القضاة:

وهو من الكتب التي تركها لم تبيض ذكر في كثير من مصادر ترجمته.

- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام= نوازل القاضي عياض = أجوبة القاضي عياض في ما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام.

ترك عياض أسئلة فقهية وأجوبتها نقلها ابنه من خطه ورتبها وذيل عليها وأضاف إليها بعض ما عن له ثم وضع لها العنوان الأول المذكور أعلاه واشتملت هذه الفتاوى على نوازل منسوبة لفقهاء كثيرين منهم ابن عياض وابن الحاج وابن رشد ومحمد بن خير ومحمد بن إسماعيل وغيرهم، بقيت من الكتاب نسخة وحيدة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم ٤٠٤٢ حققها محمد بن شريفة ووضع في مقدمتها دراسة مفيدة[٤٧].

- مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور: ذكره ابنه في التعريف[٤٨]

- مطامح الأفهام في شرح الأحكام: اختص بذكره حاجي خليفة[٤٩] والبغدادي[٥٠].

- المقاصد الحسان، في ما يلزم الإنسان من الإحسان:

قال عنه ابن المؤلف في التعريف: أنه في جزء واحد، ولم يبيضه عياض[٥١] وذكره حاجي خليفة دون أن ينسبه لأحد[٥٢]

- نظم البرهان على صحة جزم الآذان:

ذكر في أغلب المصادر الأساسية في ترجمة القاضي عياض وحاجي خليفة[٥٣] والبغدادي[٥٤].

في التراجم والطبقات:

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك = المدارك:

هو من أهم كتب طبقات المالكية الأولى، وهو الذي نهتم به ونعرف به في القسم الثاني من هذه الدراسة.

- جمهرة رواة مالك:

ذكره عياض في مقدمة ترتيب المدارك فقال: «قد أودعنا ذلك كتابا آخر

فى جمهرة رواة مالك انطوى على أزيد من ألف وثلاثمائة راو تقصيتها من الكتب المؤلفة فى ذلك». من الكتاب نسخة فى تونس وأخرى بفاس[٥٥].

- الغنية فى شيوخ القاضى عياض:

هو فهرسة شيوخه اشتملت على ٨٩ ترجمة لأهم شيوخه، ومما يدل على اهتمام القاضى عياض بالفهارس أنه فى نهاية الكتاب[٥٦] وضع قائمة للفهارس التى رواها عن شيوخه عددها تسعة وعشرون فهرسا منها ما هو من تأليف شيوخه أخذها عنهم مباشرة، ومنها ما هو فهارس شيوخ سابقين أورد سنده إليها ممن رواها عنه ابن خير[٥٧]. قام بدراستها عبد العزيز الأهوانى فى بحث عنوانه كتب برامج العلماء بالأندلس [٥٨]. حقق كتاب الغنية محمد بن عبد الكريم[٥٩] ثم طبعت بعد ذلك بتحقيق ماهر زهير جرار[٦٠].

- المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى= ابن سكرة:

أبو على الصدفى هو الحسين بن محمد السرقسطى الصدفى والمعروف أيضا بابن سكرة، ترجمه القاضى عياض فى الغنية فذكر بمناسبة ذلك كتابه هذا: «وقال:«وقد جمعت شيوخه فى كتاب المعجم الذى ضمنته ذكره وأخباره وشيوخه وأخبارهم، وهم نحو مائتى شيخ..». وقال أيضا متحدثا عن شيخه هذا وقد بسطت أخباره وأخبار شيوخه فى كتابنا المعجم المذكور». اطلع عليه وذكره ابن رشيد [٦١] والنمنتورى فى فهرسته [٦٢].

فى التاريخ

-أخبار القرطبيين لم يذكره إلا حاجى خليفة [٦٣] والبغدادى [٦٤].

تاريخ المرابطين: انتهى فيه إلى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م قال الشيخ محمد بن تاويت الطنجى فى مقدمة ترتيب المدارك ذكره ابن خاتمه فى مزية المرية ونقل عنه المقرى فى أزهار الرياض [٦٥].

-الجامع فى التاريخ: ذكره القاضى عياض فى ترتيب المدارك[٦٦] فقال: وقد بسطنا أخباره فى التاريخ» [٦٧].

- الفنون الستة، فى أخبار سبتة:

مات عياض ولم يكمله، ذكره ابن عياض ولسان الذين بن الخطيب والمقرى بهذا العنوان، وذكره بعض مؤلفى المصادر بعنوان «العيون الستة» مثل ابن فرحون وحاجى خليفة.

فى الأدب واللغة:

كان الفقيه المحدث القاضى عياض مع سعة علومه الشرعية أديبا يتقن النثر ويحسن الشعر والمطالع لكتابه الشفاء يجد نثرا بديعا متينا مؤثرا دالا على براعة تعبير وحسن انتقاء وموهبة كما كان القاضى شاعرا ولم يكن شعره من نوع شعر الفقهاء المتكلف وإنما كان لا يخلو من موهبة وإحسان وإنتاجه فى فنون الأدب يشهد له بذلك.

خطبه: ذكره ابن عياض فى التعريف [٦٨] وقال ابن فرحون فى الديباج المذهب: كتاب خطبه، وكان لا يخطب إلا بإنشائه [٦٩].

ديوان شعر: نسبه له بروكلمان فى تاريخ الآداب العربية وابن الشنب فى تعاليقه الموسعة على إجازة عبد القادر الفاسى [٧٠].

وإن كنا لا نعرف نسخة من ديوانه فإن بعض المترجمين له ذكروا مكانته فى الشعر، فقال ابن فرحون [٧١] «له شعر كثير حسن رائق». كما نقل المترجمون له بعضا من أشعاره، منهم الفتح بن خاقان [٧٢] وابن فرحون [٧٣].

جمع له الباحث المغربى عبد الخالق أرواشى ديوانا ضمن رسالة علمية أعدها وقدمها لجامعة القرويين بمراكش حيث توجد نسخة مرقونة [٧٤].

رسائل كتبها عند القبر المقدس:

هذا العنوان أورده محمد الطالبى [٧٥] ونحن نشك كثيرا فى صحة نسبة هذا العنوان إليه لأسباب: أولها: أن الباحث لم يذكر مصدره.

ثانيها: أن القاضى عياض ليس من أولئك المبتدعة الذين يصفون قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه مقدس.

ثالثها: أن عنوان الكتاب يدل على أن عياضا ألفه فى المدينة المنورة، والمعروف عند المؤرخين والمترجمين للقاضى عياض أنه لم يرحل إلى المشرق ولم يزر المدينة ولا غيرها.

سؤالات وترسيل: ذكره المقرى: نقلا عن ابن خاتمة [٧٦].

غنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسل:

فى العنوان ما يدل على أن القاضى عياض أراد أن يضع كتابا يرجع إليه فى فن كتابة الرسائل الديوانية، وهو فن كان له الرواج الكبير فى عصره، ذكره كثير من مترجميه.

- قصيدة نظمها فى سورة الطلاق: ذكرها محمد الطالبى [٧٧] دون أن يحيل على مصدر.

كتاب ترتيب المدارك:

عنوانه: هوكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك، وقد يكتفي الكثير من المؤلفين بتسميته بالمدارك.

وموضوعه: يذكر القاضي عياض في مقدمته أنه قصد في كتابه أن يتجه إلى مقصد أساسي وهو أن يضع كتابا حاويا لأسماء وتراجم «أعيان المالكية وأعلامهم ويبين طبقاتهم وأزمانهم، ويجمع عيون فضائلهم وآثارهم، ويضم نشر فنون سيرهم وأخبارهم»(٧٨).

ولكن اقتضى نظره كما يقول: «بين يدى العرض تقديم مقدمات تمس الحاجة إليها، وتتم الفائدة بالوقوف عليها، تشتمل على أبواب فى ذكر المدينة وفضلها وتقديم علمائها وعلمها، ووجوب الحجة بإجماع أهلها وترجح مذهب مالك بن أنس أمامها، وتقصيت هذه الأبواب تقصيا يشفى الغليل»(٧٩).

وبذلك كانت غايته وضع كتاب جامع لتراجم علماء المالكية مقدما لذلك بوضع دراسة للتعريف بالمدينة وأهميتها مع ترجمة موسعة لإمامها مالك بن أنس.

فخصص بذلك الجزءان الأولان «من الطبعة المغربية» لهذه المقدمة الطويلة وجعل الأجزاء الباقية لتراجم فقهاء المالكية بداية من تلاميذ مالك وانتهاء بأبناء عهده ومعاصريه.

مخطوطات كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض:

تعدد النسخ المخطوطة للكتاب وهو ما يدل على كثرة عناية الباحثين والقراء وأهل العلم بهذا الكتاب ووفرة استفادتهم منه إلا أن هذه النسخ فى أغلبها يعود تاريخ نسخها إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر من التاريخ الهجرى وأقدم نسخة منها هى تلك التى حفظت بجامع الزيتونة بتونس ونسخت فى القرن التاسع الهجرى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م عدد هذه النسخ تقارب ٢٥ نسخة توزعت فى البلاد بين المكتبات العامة والخاصة نذكر بعض ما عرفناه منها أو تلك التى وصفها الباحثون والمحققون.

ففى المغرب توجد النسخ التالية:

- نسخة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٣٣٥ اعتمدها محققو الأجزاء الأربعة الأولى من طبعة المغرب نسخة ثانية بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٣٢٤٣ اعتمدت فى طبعة المغرب فى الأجزاء الثانى والسادس والسابع والثامن.

– نسخة بالخزانة العامة بالرباط برقم ٣٤٠٢د، واعتمدت فى طبعة المغرب فى الأجزاء الثانى والثالث والرابع والسادس.

– نسخة ثانية بالخزانة العامة بالرباط برقم ٦٢٣٤د، اعتمدت فى تحقيق الجزء الأول من طبعة المغرب.

– نسخة ثالثة بالخزانة العامة بالرباط برقم ٢٦٣٥د، اعتمدت فى تحقيق كامل أجزاء الطبعة المغربية.

– نسخة رابعة بالخزانة العامة بالرباط برقم ٢٦٣٣د، اعتمدت فى تحقيق كامل أجزاء طبعة المغرب إلا الجزء السادس.

– نسخة في جزءين من المكتبة الكتانية بالرباط نسخا سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م.

و١٢٤٦هـ/١٨٣١م.

– نسخة فى قسم المنصورية من مكتبة القرويين بفاس ذكرت فى مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، المجلد الخامس، الفصل ٤٤ ص ١٢ من العدد ٣٩.

– نسختان بمكتبة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى الخاصة ذكرهما فى مقدمة تحقيقه للجزء الأول من طبعة المغرب.

وفى تونس توجد النسخ التالية:

– نسخة بالمكتبة العبدلية بجامع الزيتونة بتونس تحت رقم ٥١٣٢ وهى تمثل قرابة ثلثى الكتاب مؤرخة بسنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م وهى أقدم النسخ المعروفة عندنا اعتمدت فى طبعة لبنان.

– نسخة ثانية بجامع الزيتونة بالمكتبة العبدلية فى ثلاث مجلدات بالأرقام التالية:٦٥٠٩، ٦٥١٠, ٦٥١١. نسخت فى ما بين سنتى ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م و١٢٦٠هـ /١٨٤٥م. اعتمدها محمد الطالبى فى تحقيقه لتراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضى عياض.

– نسخة ثالثة بجامع الزيتونة بالمكتبة الأحمدية رقم ٣٢٤١ وهى منقوصة أيضا اعتمدت فى تحقيق تراجم أغلبية، وهى حديثة الكتابة.

– نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس برقم ٧٠ وهى تمثل النصف الثانى من الكتاب.

– نسخة بمكتبة حسن حسنى عبد الوهاب برقم.. تقع فى مجلدين، نسخت سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م.

– نسخة بمكتبة آل ابن عاشور بتونس وهى نسخة كاملة فى أربع مجلدات

كتبت فى ما بين سنتى١٢٣٠هـ/١٨١٥م و١٢٣١هـ/١٨١٥م. اعتمدها أحمد بكير فى طبعة لبنان.

نسخة بمكتبة الجامعة التونسية وأصلها من مكتبة الشيخ أبى الحسن النجار وهى تمثل جزءا واحدا كتبت فى القرن الثانى عشر هجرية تقريبا اعتمدها ووصفها أحمد باكير.(٨٠)

- نسخة بمكتبة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين التابعة للجامعة التونسية - سابقا - وهى نسخة كاملة حديثة الخط اعتمدت فى طبعة لبنان.

وتوجد فى مختلف الأقطار بعض النسخ الأخرى:

ففى الجزائر ذكر محمد بن الشنب الجزائرى أنه كان يملك نسخة اعتمدها فى بحثه الذى نشر فى الكتاب المخصص للمستشرق الإيطالى أمارى Amari طبعة بالرم Palerme سنة ١٩١٠ص٢٥١وما بعدها.

- نسخة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٢٢٩٣ وهى كاملة أنجزت سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٥مفى مجلدين.

- نسخة بالإسكندرية محفوظة فى مكتبة مسجد الشيخ إبراهيم باشا برقم ٤٢ وهى تمثل القسم الأخير من الكتاب.

- نسخة بمكتبة الأكاديمية التاريخية بمدريد برقم ٣٥ نسخت سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م.

- نسخة بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١١٥٧٠ وهى نسخة منقوصة.

- نسخة بمكتبة برلين الوطنية برقم ٣١٣٣ نسخت سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م وهى نسخة تامة.

طبعات الكتاب وتحقيقاته:

طبع كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض طبعتان كاملتان فى لبنان والمغرب الأقصى وثالثة جزئية فى تونس.

أما الطبعة الجزئية فهى التى صدرت بتحقيق محمد الطالبى تحت عنوان «تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض» وهى طبعة علمية دقيقة مضبوطة اهتمت بترجمات الأفريقيين الذى عاشوا الفترة الأغلبية التى امتدت طوال القرن الثالث الهجرى وقبله بقليل والمحقق اختصاصى فى تاريخ الدولة الأغلبية بأخبارها وشخصياتها وضع لتحقيقه مقدمة باللغة الفرنسية.

الطبعة الكاملة الأولى طبعة لبنان:

المجلد الأول: صدر فى ٦٤٥ صفحة والثانى فى ٨٩٥ صفحة والفهارس فى

٣٦٠ صفحة الواقع أني لم أعتمد هذه الطبعة في تعريفي بكتاب ترتيب المدارك وذلك لأنها اشتملت على أخطاء كثيرة وتصحيفات كما وقعت فيها اضطرابات وأنقاص مع هنات في التحقيق. وليس من عملنا أن نقوم بنقد التحقيق ولكن نشير إلى بعض العينات منها ما وقع في الجزء الثالث بداية من ص٢٧٦ حيث سقطت عشرات التراجم كما حدث أحيانا خلط في ترتيب التراجم فقد وضعت ٨ من الترجمات الأفريقية تحت عنوان (من أهل الأندلس) وغير ذلك كثير أما ضبط النص ففيه ما فيه من التصحيفات ما لا يدخل تحت حصر ونترك ذلك للقارئ المختص.

أما الأخطاء في الفهرسة فهي كثيرة، ففي فهرس الأماكن وردت بعض الأسماء في خلط كما وقد وقع في الفهرسة أكثر من هذا حيث لم يخصص الباحث فهرسا خاصا بالكتب وإنما كانت فهرسة جزئية للكتب وقع أقحامها ضمن فهرس الأعلام فجاءت عناوين بعض الكتب التي وردت بعنوان «كتاب كذا» أي في مادة الكاف من فهرس أعلام الأشخاص. وذلك وقع في المجلد الثاني من الفهارس ولم يقع في المجلد الأول من الفهارس. وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر إلا بعد دراسة واسعة وطويلة لا طائل ورائها في هذا البحث.

وعلى الرغم من كثرة هذه الأخطاء في التحقيق فإننا لانرد ذلك إلى محدودة ثقافة المحقق - رحمه الله - فإن له مؤلفات وتحقيقات أخرى ليس فيها من هذا شيء، بل ربما يعود ما وقع في هذا الكتاب كان بسبب السرعة في الطبع مع أخطاء المصححين واعتماد بعض المخطوطات المنقوصة والمشتملة على اضطراب النساخ.

الطبعة الثانية (طبعة المغرب):

نشرتها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية في ثمانية أجزاء، طبع الأول منها ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٥م والثامن سنة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

وقد توالى على تحقيق هذه الطبعة أربعة محققين.

الجزء الأول: طبع سنة ١٣٨٣/ ١٩٦٥ تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي الذي وضع مقدمة عامة ومفيدة ترجم فيها للمؤلف وأحصى تأليفه وعرّف بالمخطوطات المعتمدة في التحقيق وأورد قائمة بأسماء المترجمين في كتاب ترتيب المدارك، وقد بلغوا ١٥٦٩ فقيها مالكيا.

الجزء الثاني طبع سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م يقع في ٢٦٤ صفحة حققه عبدالقادر الصحراوي وألحق به فهارس.

الجزء الثالث طبع ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ م يقع في ٤٥٠ صفحة وحققه الصحراوي أيضا وله فهارس.

الجزء الرابع طبع سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م يقع في ٤٩٣ صفحة وحققه الصحراوي كذلك وصدر خاليا من الفهارس غير فهرس المحتوى.

الجزء الخامس طبع بعد سنة ١٩٧٠م ولم يذكر تاريخ الطبع، حققه محمد ابن شريفة، وصدر في ٣٥٢ صفحة مع خلوه من الفهارس غير فهرس المحتوي.

الجزء السادس طبع سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠ م حققه الأستاذ سعيد أحمد أعراب وصدر في ٣٧٢ صفحة مع فهارس.

الجزء السابع طبع سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٣ م بتحقيق سعيد أعراب أيضا وفي نهايته فهارس.

الجزء الثامن طبع سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م بتحقيق سعيد أعراب أيضا. وفي نهايته أربعة ملحقات مفيدة وفهارس.

يعتبر تحقيق الطبعة المغربية رغم تعدد محققيها عملا علميا ناجحا ومفيدا سواء في جانب ضبط النص وضبط أسماء الإعلام والأماكن وغيرها، وعملا جيدا لأنه لم يهمل من النص شيئا، ولم يقع فيها خلط للتراجم في التقديم والتأخير، ولم تقع فيه أخطاء كثيرة ومؤثرة على المادة التاريخية وذلك لأنه نص اعتمد مخطوطات أمهات قديمة أو حديثة مضبوطة ودقيقة.

ولذلك يمكن أن نعتبر تحقيق النص لهذه الطبعة المغربية يستجيب لما يتطلع إليه الباحث في تاريخ المذهب المالكي ورجاله ويستفيد منه أغلب الباحثين في التاريخ عموما وتاريخ أفريقيا والمغرب والأندلس بصفة خاصة، لأن أغلب المترجمين في الكتاب من هذه البلاد التي شاع بين أهلها مذهب أمام المدينة وانتشر.

وطبعا لم يسلم تحقيق الطبعة المغربية من بعض الهنات نذكر منها بعض النماذج فقد وقع في كامل الكتاب بعض الخلط في ضبط عناوين الموضوعات داخل النص المحقق. نعرض أمثلة قليلة:

فقد سقط عنوان «الطبقة السادسة» في ص ٤٦٣ من الجزء الثالث.

وسقط عنوان «من أهل العراق» من ص ٤٤ في الجزء السابع.

وسقط عنوان «من أهل الأندلس» من ص ٢٨٤ في الجزء السابع.

وسقط عنوان «من أهل أفريقية» من ص٩٢ في الجزء السابع. وغير ذلك.

وقد وقفت على بعض الملاحظات حول فهارس هذه الطبعة من كتاب ترتيب المدارك ولاشك أن للفهارس أهمية كبرى خاصة للباحثين المستفيدين من النصوص المحققة فى أعمالهم العلمية لذلك تظهر أهمية التحقيق واستفادة القارئ منه. وعادة ما يقع المحققون فى أخطاء فى وضع الفهارس وضبط الأرقام وضبط إحالتها إلى الجزء والصفحة مع عدم دقة مكان ذكر الإعلام والشعوب والكتب وغير ذلك حيث يعود الباحث إلى الجزء والصفحة من المطبوع فلا مسافة يجد فيها طلبه فى محله.

وتختلف أهمية الدقة فى الفهارس باختلاف أهمية الباحث ودقة التحقيق وحسن عمل الطباعة على أن الأخطاء يعفى عنها إذا كانت قليلة فإنه يكاد لايسلم منها كتاب محقق ومفهرس.

وبما أن كتاب ترتيب المدارك حققه أربعة من المحققين فإن الفهارس تختلف باختلاف شخصياتهم وظروفهم. فقد وضعت فهارس خاصة بكل جزء من الأجزاء الستة من الكتاب، إلا أن الجزء الرابع خلا من الفهارس، ولعل ذلك يعود إلى وفاة محققه وهو عبدالقادر الصحراوى قبل إنجازه، وكذلك خلا الجزء الخامس الذى حققه محمد بن شريفة من فهارس، وقد لاحظت بعض الأخطاء التى وقعت فى عمل الفهارس، أنبه إلى نماذج منها:

لاحظت كثرة وجود الأخطاء فى فهرسة الجزء السادس وذلك فى دقة إحالة الأرقام إلى الأسماء والأعلام وغير ذلك. ومن أمثلة ذلك:

فى فهرسة الإعلام: ابن الفرج غير مذكور فى مكانه.

فى فهرسة الجماعات: بنو حدير لم يذكروا فى صفحة ١٠٧.

فى فهرس الأماكن: حمام الجزارين ذكر أنه فى صفحة ٦٢ وهو يقع فى ص٦٣.

فى فهرس الأماكن: قلسانة لايوجد فى ص١٠٧، وكذلك دار بنى حدير.

فى فهرس الكتب: تاريخ ابن فرج غير موجود فى مكانه.

فى فهرسة الكتب أيضا: كتاب طبقات فقهاء المالكية لايوجد فى ص٢٦٣ وغير ذلك كثير. لذلك يمكننى أن أقول بأنه نظرا لتعدد المحققين للكتاب - وهم أربعة - فإن الفهارس اختلفت قيمتها وأهميتها. وقد فهرست أغلب الأجزاء وهى الأول والثانى والثالث والسادس والسابع والثامن، وأهملت فهرسة الجزءين الرابع والخامس، وتفصيل ذلك كما يلى:

ففى الجزء الأول وجدت فهارس الأحاديث والإعلام والطوائف والأماكن والكتب والمحتوى.

وفى الجزء الثانى: فهارس الأحاديث والكتب والإعلام والطوائف والأماكن والمحتوى.

وفى الجزء الثالث: فهارس الأحاديث والكتب والإعلام والطوائف والأماكن والمحتوى.

وفى الجزء الرابع: لم ترد فهارس إلا فهرس المحتوى.

وفى الجزء الخامس: لم ترد فهارس إلا فهرس المحتوى.

وفى الجزء السادس: فهارس الآيات والأحاديث والإعلام والطوائف والبلدان والكتب والأشعار والمحتوى.

وفى الجزء السابع: فهارس الآيات والأحاديث والإعلام والطوائف والبلدان والكتب والأشعار والمحتوى.

وفى الجزء الثامن: لم يشتمل هذا الجزء على فهرسة للإعلام الخاصة به وإنما اشتمل على فهرس عام لجميع المترجم لهم فى كامل كتاب ترتيب المدارك فى أجزائه الثمانية تحدد أماكن ترجماتهم كما اشتمل هذا الجزء على فهرس الشعوب والجماعات والبلدان والأشعار والكتب والمحتوى.

محتوى كتاب ترتيب المدارك فى أجزائه الثمانية:

الجزء الأول من نص الكتاب احتوى على ما يلى:

خطبة الكتاب ومقدمة المؤلف التى بين فيها دواعى التأليف وغاياته مع عرض ما كان عاما من مصادره التى اعتمدها، كما ذكر منهجه الذى يريد أن يسلكه فى إيراد محتوياتها. ثم انتقل إلى عرض أبواب متعلقة خاصة بمسائل أهمها:

- فضل المدينة المنورة والآثار حولها وفضل علم أهلها وأهمية علمهم وترجيح مذهب مالك مع ترجمة مستفيضة للإمام مالك امتدت إلى نهاية هذا الجزء المطبوع ثم تتواصل إلى كامل الجزء الثانى.

اشتمل الجزء الثانى على تحقيق ما بقى من ترجمة الإمام مالك التى احتوت على ٢١ بابا من أبواب التعريف بالإمام مالك، أنهاها بعرض قوائم نظم فيها أسماء شيوخه وأقرانه وطبقاتهم وبلدانهم سواء من المشاهير أو من غير المشاهير وقد رتبهم على حروف المعجم فى قرابة الخمسين صفحة خصص الجزء الثالث بتراجم أصحاب مالك الذين قسمهم المؤلف إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى من أصحاب مالك: وهم الذين ظهر لهم علم فى حياة الإمام مالك وقاربت وفاتهم مدة وفاته.

ص٢: من أهل المدينة (١٢ ترجمة)/ ص٣٥: من أهل اليمن (ترجمة واحدة)/ ص٣٦: من أهل المشرق (ترجمة واحدة)/ ص٥٢ من أهل مصر (١٠ تراجم)/ ص٦٥: من أهل أفريقية (٥ تراجم)/ ص١١٣: من أهل الأندلس (٧ تراجم).

الطبقة الثانية (الوسطى) من أصحابه: وهم الذين صحبوه وطالت ملازمتهم له واشتهروا بعده بالفقه المالكي.

ص ١٢٨: من أهل المدينة (٢٨ ترجمة) ص١٧٤: من أهل مكة والحجاز (ترجمة واحدة)/ ص١٩٦: من أهل اليمن (ترجمتان)/ ص١٩٨: من أهل البصرة والعراق وما وراء النهر (٥ ترجمات) / ص٢٢٨: من أهل مصر (١٠ تراجم)/ ص٢٩١ : من أهل أفريقية (٧ تراجم) / ص٣٢٥: من أهل الأندلس (٩ تراجم).

الطبقة الثالثة (الصغرى) من أصحابه: وهم الذين صحبوه في صغرهم وكان لهم حضور له وسماع منه.

ص ٣٤٧: من أهل المدينة (٥ ترجمات)/ ص٣٥٣ : من أهل مكة (ترجمة واحدة)/ ص٣٦٠: من أهل المشرق (ترجمة واحدة) / ص٣٦٣: من أهل مصر (١٠ ترجمات)/ ص٣٧٩: من أهل الأندلس (ترجمة واحدة).

يبدأ الجزء الرابع بتصدير قصير يذكر فيه المؤلف أنه سيبدأ بعرض طبقات عموم المالكية ممن ظهروا بعد أصحاب مالك، وأنه سيعرض تراجمهم ضمن طبقاتهم متتابعين إلى زمن المؤلف فقال:

«وجئنا بهؤلاء ثم بمن جاء بعدهم إلى زمننا، مرتّبا لهم على طبقاتهم من تقدّم الزمان وتأخره، ذاكرا لكل واحد ما بلغني عنه من مفيد شمائله وخبره».

الطبقة الأولى: الذين انتهى إليهم فقه مالك.

ص٢: من أهل المدينة (٤ تراجم)/ص٥: من أهل العراق (٣ تراجم)/ ص١٧: من أهل مصر (١١ ترجمة مع ٢ ثانوية)/ ص٤٥: من أهل أفريقية وأقصى المغرب (٩تراجم مع ٤ تراجم ثانوية)/ ص١٠٤: من أهل الأندلس (١٩ ترجمة مع ٢ ثانوية).

الطبقة الثانية:

ص ١٥٠: من أهل المدينة (ترجمة واحدة) / ص١٥٠: من أهل العراق (ترجمتان)/ص ١٥٤: من أهل مصر (١٧ ترجمة مع ٨ تراجم ثانوية)/ ١٩٠: من أهل أفريقية (٢٥ ترجمة مع ترجمة واحدة ثانوية)/ ص٢٣٨: من أهل الأندلس (٦١ ترجمة مع ٧ تراجم ثانوية).

الطبقة الثالثة:

ص٢٧٦: من أهل المدينة (ترجمتان)/ ص٢٧٦: من أهل العراق والمشرق (٦ تراجم) /ص٣٠٢ من أهل مصر (٢١ ترجمة مع ٢١ ترجمة فى ٧ صفحات)/ ص٣٠٨: من أهل أفريقية (٣٧ترجمة مع ترجمة واحدة ثانوية)/ ص٤٠٩: من نفس هذه الطبقة الأفريقية وهم من تلاميذ سحنون (٣٢ ترجمة مع ٣ تراجم ثانوية)/ ص٤٢١: من أهل الأندلس (١٠٦ ترجمة مع ٥ تراجم ثانوية).

فى الجزء الخامس أورد تراجم كامل الطبقة الرابعة وأغلب المترجمين فى الطبقة الخامسة.

الطبقة الرابعة:

ص١: من أهل المدينة المنورة (٢١ترجمة)/ ص٥١: من أهل مصر (٢٥ترجمة)/ ص٦٦: من أهل أفريقية (٤٨ترجمة)/ ص١٤٨: من أهل المغرب الأقصى (ترجمتان)/ص١٤٩: من أهل الأندلس (١٥٩ترجمة).

طبقة أخرى وهى الطبقة الخامسة:

ص ٢٥٥: من أهل المدينة (ترجمة واحدة)/ ص٢٥٦: من أهل مكة (ترجمة واحدة)/ ص٢٥٦: من أهل العراق (١١ترجمة)/ ص٢٧٤: من أهل مصر (١٤ترجمة) / ص٢٨٤: من الشاميين: (ترجمة واحدة)/ ص٢٨٦: من أهل أفريقية (٢١ ترجمة فى هذا الجزء والبقية فى الجزء السادس، وعدد الترجمات فيها ٣١ ترجمة).

فى الجزء السادس:

ص٩: بقية أهل أفريقيا فى الطبقة الخامسة (٣١ ترجمة)/ ص٨١: من أهل أقصى المغرب (ترجمتان)/ ص٨٥: من أهل الأندلس (١٠٠ ترجمة).

الطبقة السادسة:

ص ١٨٠: من أهل الحجاز (٣ تراجم)/ ص١٨١: من أهل العراق (١٨ ترجمة)/ص ٢٠٣: من أهل مصر (١١ترجمة) / ص٢١٠: من أهل أفريقية (١٩ترجمة)/ ص٢٧٦: من أهل المغرب الأقصى (٤ تراجم، ترجمتان لسبتيين وترجمتان لفاسيين) ص٢٨٠: من أهل الأندلس (٢٤ ترجمة. وهو القسم الأول من ترجماتهم والباقى بالجزء السابع وعددهم ٤٩/ مجموعهم ٤٩ + ٢٤= ٧٣).

فى الجزء السابع

ص٥: بقية أهل الأندلس من الطبقة السادسة (٤٩ ترجمة).

الطبقة السابعة:

ص ٤٣: من أهل الحجاز (ترجمتان)/ ص٤٤: من أهل العراق والمشرق، وأكثرهم أصحاب أبى بكر الأبهرى الباقلانى (٢٤ترجمة)/ ص٨٦: من أهل الشام (ترجمتان)/ ص٨٧: من أهل مصر (١٨ ترجمة)/ ص١١٠: من أهل المغرب الأقصى (٦ ترجمات)/ ص١١٤: من أهل الأندلس (٤٩ ترجمة).

يلاحظ أنه لم يورد ترجمات لأهل أفريقية فى هذه الطبقة.

الطبقة الثامنة:

ص ٢٢٠: من أهل العراق (٧ تراجم)/ ص٢٣٧: من أهل مصر (ترجمتان)/ ص ٢٣٩:من أهل أفريقية (٢٧ترجمة)/ ص٢٧٨: من أهل سبتة (٣ تراجم)/ ص٢٨٤: من أهل الأندلس (١١ ترجمة).

فى الجزء الثامن:

ص٥: بقية أهل الأندلس من الطبقة الثامنة (٤٦ ترجمة)

الطبقة التاسعة:

ص ٥٣: من أهل العراق (٥ترجمات) / ص٥٦، من أهل مصر (٣ترجمات)/ ص٥٧: من أهل الشام (٣ترجمات)/ ص٥٨: من أهل إفريقية (٣١ترجمة) / ص٨٣: من أهل سبتة (٥ ترجمات)/ص٨٧: من أهل الأندلس (١٩ ترجمة).

الطبقة العاشرة:

ص ٩٩: من أهل المشرق (ومنهم أهل إفريقية والأندلسيين المنتقلين إلى المشرق ومعهم بعض المصريين)/ ١٠٥: من أهل إفريقية (٢٠ترجمة)/ ص١١٧ - ١٦٦: من أهل الأندلس (٣٨ ترجمة).

من ص ١٦٧ تبدأ الملاحق - وهى أربعة فيها إضافات - أضافها المحقق من كتاب مختصر المدارك لابن حمادة تلميذ القاضى عياض اعتمادا على مخطوطة المكتبة الملكية فى الرباط بالمغرب تحت رقم ٦٧٢.

الملحق الأول: يشتمل على الطبقة الحادية عشر:

ص ٢٦٧: من أهل المغرب (ترجمة واحدة)/ ص١٦٨ : من أهل سبتة (٢٠ترجمة)/ ص١٨٠: من أهل الأندلس (١٠تراجم).

الملحق الثانى: ص١٨٨: فيه إضافات واستدراكات على الطبقة التاسعة (٦ ترجمات).

الملحق الثالث: ص١٩١: فيه استدراكات على الطبقة الحادية عشر (٧ ترجمات)/ ص١٩٦: الطبقة الثانية عشر (١٩ترجمة).

وجملة الملحقات تقدم ٥٣ ترجمة وجميعها لم ترد فى طبعة لبنان.

مصادر الكتاب:

اهتم القاضي عياض في مقدمة كتابه بذكر الكثير من مصادره التي اعتمدها في التأليف ونوعها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هي المصادر التي اعتمدها فيها ترجمة الإمام مالك فعرض في هذه المقدمة ٣٥ مؤلفا كتبها أصحابها وألفوها في الموضوع. وتأليف هؤلاء في أغلبها تحتمل عنوان «فضائل الإمام مالك» وبعضها يستعمل عنوان «مناقب مالك أو أخباره» واكتفى عياض بعرض قائمة أسماء المؤلفين فأوردها في المقدمة متوالية دون ذكر عناوين كتبهم. وليس من المفيد أن نعيد عرض هذه القائمة بل يكون من الأجدر أن نعرف بمن كان له منهم مؤلفات مهمة ومكانة مشهورة في ذلك سواء من المشارقة والأندلسيين وأهل أفريقية:

فمن المشارقة:

الحسن بن إسماعيل بن الغمر الغساني المعروف بالضراب المصري - أبومحمد المتوفى سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م.

يبدو أنه ألفَ كتابا مهمة في ترجمة مالك بن أنس اعتمده القاضي عياض وجعله من الكتب التي عول عليها[٨٢].

محمد بن أحمد بن عمر الشتري المالكي (أبوأحمد). توفي سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م. له كتاب في مناقب مالك يقع في ثلاثة مجلدات.

وهو أيضا من أهم معتمدات المؤلف في ترجمة الإمام مالك. بالإضافة إلى كتاب آخر له في فضائل المدينة[٨٣].

محمد بن القاسم بن شعبان المصري المالكي أبو إسحاق. توفي سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦م. له مؤلفات في الفقه وفي ترجمة الإمام مالك وهي مناقب مالك وشيوخ مالك والرواة عن مالك [٨٤] أحمد بن مروان الخياش المالكي المصري - أبوبكر - توفي سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م. له كتاب فضائل مالك [٨٥].

ومن الأفريقيين:

أبوالعرب التميمي: محمد بن أحمد بن تمام الإفريقي. توفي سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥م. هو صاحب كتاب طبقات علماء أفريقية وتونس، له أيضا كتاب في فضائل مالك[٨٦].

أبوبكر بن اللباد: محمد بن محمد بن وشاح القيرواني. توفي سنة ٣٣٣ هـ/ ٩٤٤م. له كتاب فضائل مالك[٨٧].

ابن أبى زيد القيروانى: عبدالله بن عبدالرحمن النفزى صاحب كتاب الرسالة الشهيرة فى الفقه المالكى. توفى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م. له كتاب الاقتداء بأهل المدينة وكتاب ألفه عن مذهب مالك [٨٨].

ومن الأندلسيين:

عبدالملك بن حبيب السلمى القرطى: توفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣ م. له كتب كثيرة فى التاريخ والتراجم وفضائل الرجال منها فضائل مالك[٨٩].

أبوعمر الطلمنكى: أحمد بن محمد بن عبدالله المعافرى. توفى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م. له كتاب فى فضائل مالك وآخر فى رجال الموطأ[٩٠]

أبوالوليد الباجى: سليمان بن خلف. توفى سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م. عدّه القاضى عياض من جملة المؤلفين فى فضائل مالك وترجمته[٩١].

أمّا النوع الثانى: من المصادر التى اعتمدها القاضى عياض فى مداركه فهى تلك المؤلفات التى استفاد منها فيما ترجمه عن رواة الإمام مالك وأصحابه وتلاميذه وترجماتهم، فكان منها مؤلفات خصصها أصحابها لترجمة تلاميذ مالك والرواة عنه من مشارقة مثل كتاب «الرواة عن مالك» للخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد المشهور، وكتاب ابن شعبان المصرى الذى ألف فى نفس الموضوع وكذلك كتاب ابن ال ضراب المذكور أعلاه.

كما اعتمد عياض كتبا أخرى من التراجم العامة أو تراجم المحدثين وكتب الرجال فى القائمة التى أوردها فى ج ١ ص ١٣ - ١٤.

والنوع الثالث من المصادر هى تلك التى اعتمدها ونقل عنها فى تأليفه لعموم طبقات المالكية أى فى غير ترجمة الإمام مالك وتراجم تلاميذه والرواة عنه بداية من الطبقة الأولى من الفقهاء.

لقد كانت مصادر القاضى عياض فى هذا المجال كثيرة ومتعددة. منها بعض كتب التاريخ مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وكتاب التعريف بصحيح التاريخ لابن الجزار القيروانى.

وبما أن الكتاب كتاب تراجم فإنه من الطبيعى أن تكون أغلب مصادره كتب تراجم وطبقات منها كتب طبقات محدثين مثل كتاب الضعفاء للعقيلى، أو كتب طبقات القضاة والفقهاء وغيرهم من رجال العلوم الدينية مثل كتاب طبقات القضاة لوكيع وطبقات القضاة لابن الجزار وطبقات قضاة قرطبة للخشنى وكتاب قضاة مصر للكندى وكتاب طبقات القراء لأبى عمرو الدانى وكتاب طبقات الفقهاء للشيرازى وكتاب الزهاد لابن يونس القرطبى. مع نقل نصوص

كثيرة من مؤلفات تعددت منه الإحالة عليها، منها كتاب رياض النفوس للمالكى وكتاب تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضى ومختلف مؤلفات ابن حارث الخشنى القروى وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد.

ولعل الرجوع إلى فهارس الطبعة المغربية بأجزائها يدلنا دلالة واضحة على وفرة مصادر القاضى عياض فى كتابه هذا وأهميتها.

الكتب التى نقلت عن المدارك:

اشتهر كتاب المدارك بين المؤلفين اشتهارا كبيرا وذلك لأسباب كثيرة أهمها:

- شهرة مؤلفه القاضى عياض بين علماء المسلمين عامة وفى المجتمعات المغاربية والأندلسية خاصة لشهرة مؤلفاته فى الفقه والحديث والتاريخ وغير ذلك.

- اشتهار الكتاب بأنه يعدّ من أوائل الكتب الكبيرة التى تناولت موضوع تراجم الفقهاء المالكية.

- اهتمام المؤرخين للفقهاء المالكية بوضع تكملات وذيول له تواصل إيراد تراجم المالكية الذين ظهروا فى العصور التالية لعصر القاضى عياض.

- اشتمال الكتاب على العديد من الأخبار التاريخية التى يستفيد منها المؤلفون فى التاريخ والتراجم، واشتماله على عرض لأخبار الفقهاء وآرائهم الفقهية ومواقفهم ومؤلفاتهم التى يستفيد منها أحيانا الفقهاء فى بعض كتبهم فى الفقه والفتاوى.

وللدلالة على تنوع الكتب التى استفادت من كتاب ترتيب المدارك أذكر بعضا من عناوين المؤلفات التى نقلت عنه علي اختلاف اختصاصاتها وموضوعاتها:

- من كتب التراجم «كتاب الديباج المذهب، فى معرفة أعيان علماء المذهب» للقاضى برهان الدين إبراهيم بن فرحون. وهو كتاب يعتبر تكملة لما ورد فى المدارك، حيث إنه اتبع الكثير من مناهجه وطرائقه وغاياته. لذلك نلاحظ أن المؤلف ابن فرحون فى مقدمة كتابه لم يذكر مصدرا واحدا اعتمده فى كتابه غير كتاب المدارك للقاضى عياض(٩٢) ومن كتب التراجم أيضا كتاب نيل الابتهاج، بتطريز الديباج»، لأحمد بابا التنبكتى الذى اعتمد أيضا كتاب المدارك واعتبره أهم كتاب ألف فى الموضوع وأعلاها قيمة(٩٣). ونقل عنه مرات النباهى المالقى الأندلسى فى «كتابه تاريخ قضاة الأندلس» (٩٤)- كما نقل عنه محمد مخلوف فى «كتابه شجرة النور الزكية، فى طبقات المالكية».

ومن المؤلفين لكتب التاريخ الذين نقلوا عن المدارك محمد بن مرزوق التلمسانى فى «كتابه المسند الصحيح الحسن، فى مآثر ومحاسن مولانا أبى

الحسن»[٩٥] طبع بالجزائر سنة ١٤٠١/١٩٨١م وشهاب الدين لمقرى فى «كتابيه نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب» و«أزهار الرياض، فى أخبار عياض» وكذلك المؤرخ محمد الوزير السراج فى كتاب الحلل السندسية، فى الأخبار التونسية.

ومن كتب الفقه التى نقلت عن المدارك فتاوى البرزلى وفتاوى الونشريسى[٩٦]. وغير ذلك كثير من الكتب التى استفادت من المدارك على مختلف أنواعها.

نتائج البحث:

من خلال هذا البحث ظهر لى بعض النتائج أجمل بعضها:

١- التعريف بكتاب من أمهات كتب التراث والتراجم فى مذهب الإمام مالك.

٢- تحديد ووصف لمخطوطات كتاب المدارك المتناثرة فى المكتبات العربية ووصفها وذكر أرقامها ليسهل للباحثين الرجوع إليها.

٣- وصف طبعات الكتاب والتحقيقات المختلفة التى وقعت عليه.

٤- إظهار محتوى كتاب المدارك فى أجزائه الثمانية.

٥- وضع إحصاء دقيق للمترجمين لهم بالعدد والبلدان فى الكتاب.

٦- تحديد الملاحق التى ألحقت بالكتاب.

٧- وصف لمصادر القاضى عياض فى كتابه المدارك.

٨- تحديد لبعض الكتب التى نقلت عن كتاب المدارك للقاضى عياض.

الهـوامش

(١) الطبعة الأولى دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
(٢) طبعته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية بالرباط سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥م.
(٣) طبع بتونس سنة ١٩٦٨م.
(٤) ابن عياض، التعريف بالقاضى عياض، ص١٢.
(٥) ابن عياض، التعريف بالقاضى عياض، ص١٢.
(٦) ازهار الرياض فى أخبار عياض ٢٣/١.
(٧) طبعته دار الغرب الإسلامى بيروت سنة ١٩٩٤م.
(٨) ازهار الرياض ٢٣/١، المعجم ابن الابار، ص ٣٠٦، وفيات الأعيان ٤٨٥/٣
(٩) الزركلى: الأعلام ٥/ ٩٩.
(١٠) ابن عياض: التعريف بالقاضى عياض، ٢ -٣ .
(١١) القاضى عياض: الغنية ص ٩٩ - ٢٩٠.
(١٢) ابن بشكوال: الصلة . انظر عياض: الغنية ١٩٣ ت ٢٠١؛ الذهبى: تذكرة الحفاظ ٤: ١٢٥٣؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ١: ١٢٨ ت ١٢٩.
(١٣) المقرى: نفح الطيب ٤٦١:٤.
(١٤) انظر عياض: الغنية ٢٠١ - ٢٠٤؛ الغنية ١٤٠، الذهبى: تذكرة الحفاظ ٤: ١٢٣٣ - ١٢٣٥.
(١٥) انظر ترجمته الموسعة والضافية فى كتاب عنوانه: الحافظ أبوطاهر السلفى تأليف حسن عبدالحميد صالح، نشر المكتب الإسلامى، دمشق ١٣٩٧/ ١٩٧٧م. ولم يعتمد الباحث على كتاب الغنية لعياض لأنه ظهر مطبوعا بعد إنجاز بحثه. انظر أيضا عياض: الغنية ١٦٨ - ١٦٩.
(١٦) انظر عياض: الغنية ١٣٣؛ الذهبى: تذكرة الحفاظ ٤: ١٢٩٤ - ١٢٩٨.
(١٧) عياض: الغنية ١٣٢ - ١٣٣.
(١٨) انظر عياض: الغنية ١٣٣ - ١٣٤؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ١: ١٢٧ - ١٢٨.
(١٩) انظر عياض: الغنية ١٣٠ - ١٣١؛ ومصادر ترجمته كثيرة فى كتاب معجم المؤلفين لكحالة ١٢: ٩٦.
(٢٠) انظر عياض: الغنية ٩٩ - ١١٥؛ المقرى: أزهار الرياض ٣: ١٥٩.
(٢١) انظر عياض: الغنية ٢٣٨ - ٢٤٠.
(٢٢) ص ١٤٠.
(٢٣) التعريف ص ١١٦.
(٢٤) رحلته القلصادى تحقيق د. محمد أبوالاجفان ص١٢٢.
(٢٥) كشف الظنون ١: ١٢٧.
(٢٦) ص١٤٠.
(٢٧) فى كشف الظنون ص ١٠١٨.
(٢٨) فى هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٢٩) طبع الكتاب بالقاهرة نشر المختار الإسلامى سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٤م
(٣٠) ابن خير، الفهرسة ص ٢٨٩ و٤٩٧.
(٣١) كشف الظنون ١٠٤٥.
(٣٢) نشرته دار التراث بمصر والمكتبة العتيقة بتونس سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

(٣٣) ابن خير، الفهرسة ص١٩٧.
(٣٤) نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط سنة ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م.
(٣٥) كشف الظنون ١٠٥٢ – ١٠٥٥.
(٣٦) كشف الظنون ص ١٢٠٧.
(٣٧) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٣٨) ابن العماد: شذرات الذهب ٣: ٢٩٣.
(٣٩) ابن رشيد: الرحلة ٣: ٢١٨.
(٤٠) شجرة النور الزكية ص١: ١٤١.
(٤١) سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م.
(٤٢) نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب ١٤٠٢ – ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٢ – ١٩٨٨م.
(٤٣) ص ١١٨.
(٤٤) الديباج المذهب، ص ١٧١/ط١.
(٤٥) ذكره ابن المؤلف في التعريف ص ١١٨.
(٤٦) ابن تاويت: مقدمة ترتيب المدارك ص كج.
(٤٧) نشر دار الغرب الإسلامي بلبنان .ط١/١٩٩٠ م.ط٢/ ١٩٩٧م.
(٤٨) الغنية: ص١١٧.
(٤٩) كشف الظنون ١٧١٨.
(٥٠) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٥١) الغنية: ص١١٧.
(٥٢) كشف الظنون ١٧٧٩.
(٥٣) كشف الظنون ١٩٦١.
(٥٤) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٥٥) انظر مقدمة المدارك ١: ١٣، – طبعة المغرب.
(٥٦) عياض: الغنية ص ٢٨٤ – ٢٩٠.
(٥٧) فهرسة ابن خير: ٤٣٧، ٥١٢.
(٥٨) نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، العدد الأول ص١٠٤ – ١٠٦.
(٥٩) نشرتها الدار العربية للكتاب بتونس سنة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.
(٦٠) نشر دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م.
(٦١) رحلة ابن رشيد: ٣: ٤٤٩.
(٦٢) المنتوري، فهرسته، ص ١٠٧.
(٦٣) كشف الظنون، ص ٢٨.
(٦٤) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٦٥) ترتيب المدارك: ١: كج.
(٦٦) طبعة لبنان ٤: ٧٨٢.
(٦٧) انظر أيضا قول الشيخ محمد بن تاويت الطنجي في مقدمة الجزء الأول من ترتيب المدارك ١:كج.
(٦٨) ص ١١٧.
(٦٩) انظر الوراكلي: أبو الفضل القاضي عياض السبتي – ثبت ببليوجرافي – ص٢١.

(٧٠) انظر الطالبي: مقدمة تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، ص ٢٠/ باللغة الفرنسية.
(٧١) الديباج المذهب، ٢: ٥٠.
(٧٢) قلائد العقيان: ص ٢٣٢ – ٢٣٥.
(٧٣) الديباج المذهب: ١/٥٠ – ٥١.
(٧٤) .حسن الوراكلي: أبوالفضل القاضي عياض السبتي، ثبت ببلوجرافي، ص ٨٨.
(٧٥) تراجم أغلبية: المقدمة، ص٢٠.
(٧٦) أزهار الرياض: ج٥/٥.
(٧٧) تراجم أغلبية: المقدمة، ص٢٠.
(٧٨) عياض: المدارك ١:٦/ طبع المغرب.
(٧٩) المصدر السابق: ١:٨/ طبع المغرب.
(٨٠) ترتيب المدارك: طبعة لبنان ١/٣٤.
(٨١) نشرته الجامعة التونسية سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.
(٨٢) شذرات الذهب ٣: ١٤٠، ومقدمة ١/١٢.
(٨٣) ابن فرحون: الديباج، ط١ ص ٢٤٧ – ٢٤٨.
(٨٤) ابن فرحون: الديباج، ط١/ ص ٢٤٨ – ٢٤٩.
(٨٥) جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة ١/٤٥٢.
(٨٦) ابن فرحون: الديباج ط١، ص ٢٥٠ – ٢٥١.
(٨٧) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.
(٨٨) ابن فرحون: الديباج ط١، ص ١٣٦ – ١٣٨.
(٨٩) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص١٥٤ – ١٥٥.
(٩٠) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص ٣٩ – ٤٠.
(٩١) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص ١٢٠ – ١٢٢.
(٩٢) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص٢.
(٩٣) التنبكتي: نيل الابتهاج، ص ٨، ٩.
(٢) نشره المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت
(٣) طبع بالجزائر سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
(٤) طبع الكتابان بعناية دار الغرب الإسلامي، بيروت، الأول فى ٧ مجلدات والثانى فى ١٣جزء.

قائمة المصادر والمراجع

الأهواني: عبدالعزيز
- كتب برامج العلماء بالأندلس: بحث نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الأول، العدد الأول.
بروكلمان: كارل.
- تاريخ الأدب العربى. مجلدان، ملحقات، ليدن ١٩٣٧م.
ابن بشكوال: خلف بن عبدالملك.
- الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وآدابهم. مجلدان. تحقيق عزة العطار الحسنى. القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
البغدادى: إسماعيل باشا
- هدية العارفين، فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مجلدان. طبع اسطنبول سنة ١٩٤٥م.
التنبكتي: أحمد بن أحمد بابا
- نيل الابتهاج، بتطريز الديباج. ط١، مصر ١٣٥١هـ.
حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله.
- كشف الظنون، عن أسامى الكتب والفنون مجلدان. نشر محمد شرف الدين. طبع اسطنبول ١٩٤١ - ١٩٤٣.
ابن خاقان، الفتح، محمد بن عبيدالله، مكتبة السيد محمد عبدالواحد بك القاهرة، مطبعة التقدم القاهرة ١٣٢٠هـ.
ابن خير: أبوبكر محمد بن خير
- فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق Codera سرقسطة ١٨٩٣م.
الذهبى: محمد بن أحمد بن عثمان
- تذكرة الحفاظ. تحقيق عبدالرحمن المعلمى، حيدراباد ١٩٥٨م.
ابن رشيد: محمد بن عمر الفهرى السبتى
- الرحلة = ملء العيبة، بما جمع بطول الغيبة، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الجزء الثالث تونس ١٩٨١م.
الزركلى: خير الدين.
- الأعلام ٨ أجزاء. طبع دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٠ م.
السيوطى: جلال الدين عبدالرحمن
- حسن الحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبع القاهرة جزءان.
الحافظ أبوطاهر السلفى. نشر المكتب الإسلامى دمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب، فى أخبار الأندلس والمغرب، صدر فى خمسة أجزاء، باهتمام محققين خمسة. طبع فى ما بين ١٩٤٨ و١٩٨٥م.
ابن العماد: عبدالحى بن على

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨أجزاء طبع دار الفكر بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩م.
عنان: محمد عبدالله
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
عياض : أبوالفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي.
أ) الإعلام بقواعد الإسلام، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وطبع بعناية وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب.
ب) تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تحقيق الأستاذ محمد الطالبي، نشر الجامعة التونسية ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.
ج) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
الطبعة الأولى، لبنانية، بتحقيق أحمد بكير. نشر دار مكتبة الحياة، بيروت ودار الفكر بطرابلس ليبيا بين سنتي ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧ م و١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م طبع في أربعة أجزاء وفي مجلدين ثم مجلد ثالث للفهارس. الطبعة الثانية، مغربية. في ثمانية أجزاء. اشترك في تحقيقها أربعة من المحققين.
فالجزء الأول حققه محمد بن تاويت الطنجي، طبع سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٥م.
والأجزاء الأول والثاني والثالث والرابع حققها عبدالقادر الصحراوي من سنة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦ م وسنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
الجزء الخامس حققه محمد بن شريفة وطبع سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
والأجزاء السادس والسابع والثامن حققها الأستاذ سعيد أحمد أعراب فيما بين سنة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨٠ م وسنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
وطبعت الأجزاء الثمانية بالمغرب الأقصى بعناية وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية في مطابع المتعددة.
د) الغنية (وهو معجم شيوخ القاضي عياض).
الطبعة الأولى: تحقيق محمد بن عبدالكريم نشر الدار العربية للكتاب، تونس، ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨م.
الطبعة الثانية: تحقيق الأستاذ ماهر زهير جرار. نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
هـ) كتاب الصلاة على النبي: معانيها أحكامها فضائلها. (كتاب منسوب للقاضي عياض ولم يذكر في المصادر) مراجعة محمد عثمان الخشت. طبع بالقاهرة، نشر المختار الإسلامي. سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
و) مذاهب الحكام في نوازل الأحكام = نوازل القاضي عياض = أجوبة القاضي عياض.
تحقيق محمد بن شريفة نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ١ سنة ١٩٩٠م ط ٢ سنة ١٩٩٧م.
ابن عياض: محمد ابن القاضي عياض اليحصبي.

- التعريف بالقاضى عياض تقديم وتحقيق محمد بن شريفة نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب (دون تاريخ).
ابن فرحون: إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى
- الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحمدى أبوالنور، دار التراث مصر، القاهرة ١٣٩٤هـ.
القلصادى: أبوالحسن على الأندلسى الباجى.
الرحلة = رحلة القلصادى، تحقيق محمد أبوالأجفان، طبع الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨م.
كحالة: عمر رضا
- معجم المؤلفين - تراجم مصنفى الكتب العربية. نشر مكتبة المثنى بيروت ودار إحياء التراث العربى بيروت. ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧م.
مخلوف: محمد المستيرى:
- شجرة النور الزكية، فى طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م
ابن مرزوق التلمسانى: محمد بن أحمد الخطيب.
- المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن أبى الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا الجزائر سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
المقرى: أحمد بن محمد التلمسانى.
- أزهار الرياض، فى أخبار عياض، ٤ أجزاء. نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامى بين حكومتى المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة. طبع المغرب ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، طبع دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.
النباهى المالقى: أبوالحسن بن عبدالله.
- تاريخ قضاة الأندلس = المرقبة العليا، فى من يستحق القضاء والفتيا. نشر المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (دون تاريخ).
الوراكلى: حسن
- أبوالفضل عياض السبتى (ثبت ببليوجرافى) طبع دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٩٤م.
- مجموعة أبحاث ألقيت بندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة (دورة القاضى عياض) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المملكة المغربية مراكش، المجلد الأول ١٤٠١ هـ/١٩٨١م
- مكانة عياض العلمية، السعيد بوركبة.
- القاضى عياض، حياته، وشخصيته العلمية، الأستاذ إدريس أعزوزى.